الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

١-٢٠

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب‌الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی‌بن ابی‌طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص " تفسیر نمونه "است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی‌بن ابی‌طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ت۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م۷۹-۱۰۳۹۱

الجزء الأول

الأمثل من جدید

لکلّ عصر خصائصه و ضروراته و متطلباته، و هی تنطلق من الأوضاع الاجتماعیّه و الفکریّهٔ السائدهٔ فی ذلک العصر، و لکلّ عصر مشاکله و ملابساته النّاتجهٔ من تغییر المجتمعات و الثّقافات، و هو تغییر لا ینفک عن مسیرهٔ المجتمع التّاریخیّهٔ الفکریهٔ الفاعلهٔ، هو ذلک الّذی فهم الضّرورات و المتطلبات، و أدرک المشاکل و الملابسات.

هذا ما قاله البحاثهٔ الفرید الفقیه و المفسر المعاصر الأمثل، العلّامهٔ آیهٔ اللّه العظمی مکارم الشّیرازی فی دوافع تألیف تفسیره الأمثل.

و یقول: واجهنا دوما أسئلهٔ وردت إلینا من مختلف الفئات- و خاصهٔ الشباب المتعطّش الی نبع القرآن- عن التّفسیر الأفضل.

هذه الأسئلهٔ تنطوی ضمنیا علی بحث عن تفسیر یبیّن عظمهٔ القرآن عن تحقیق و لا عن تقلید و یجیب علی ما فی الساحهٔ من احتیاجات و تطلّعات و آلام و آمال ... تفسیر یجدی کل الفئات، و یخلو من المصطلحات العلمیّهٔ المعقّدهٔ.

و هذا التّفسیر دوّن علی أساس هذین الهدفین.

و لتنفيذ هذا الهدف العظيم، صـمّم القسم الثّقافی لمدرسة الامام أمير المؤمنين عليه السّـلام بعرض جديد لكامل التّفسـير الأمثل، فأعاد النظر و إمعان فيه بدقّة، مع تصـحيح الأخطاء المطبعيّة و الإنشائيّه و الإملائيّة، و اضافة كثير من الأحاديث الّتى كانت محذوفة فی الطبعة الاولى.

نأمل أن يكون مقبولا لدى البارى عزّ اسمه و جميع الباحثين فی حقائق القرآن الكريم.

القسم الثّقافی لمدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

ما هو التّفسير؟

التّفسير فی اللغة الإبانة و إماطة اللّثام.

و لكن هل يحتاج القرآن إلى إبانة و إماطة لثام ... و هو «النّور» و «الكلام المبين»؟! كلّا، ليس على وجه القرآن لثام أو نقاب ... بل إنّنا بالتّفسير ينبغى أن نكشف اللثام عن روحنا، و نزيح الستار المسدول على بصيرتنا، فنستجلى بذلك مفاهيم القرآن و نعيش أجواءه.

من جهة اخرى، ليس للقرآن بعد واحد ... نعم، له بعد عام ميسّر للجميع، ينير الطريق، و يهدى البشريّة إلى سواء السبيل.

و له أيضـا أبعاد اخرى للعلماء و المتفكّرين، لأولئك الطامحين إلى مزيـد من الارتواء ... و هؤلاء يجـدون فی القرآن ما يروى ظمأهم إلى الحقيقة، و يغرفون من بحره قدر آنيتهم ... و تتسع الآنية باتّساع دائرة السعى و الجهد و الإخلاص.

هـذه الأبعـاد أطلقت عليها الأحاديث اسم «البطون» ... بطون القرآن ... و هى لا تتجلّى للجميع، أو بعبارة أدقّ لا تقوى كلّ العيون على رؤيتها.

و التّفسير يمنح العيون قوة، و يقشع عن البصائر الحجب و الأستار، و يمنحنا اللياقة لرؤية تلك الأبعاد بدرجة و اخرى.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶

و للقرآن أبعـاد اخرى تنجلى بمرور الزمـان و تعاقب التجارب البشـرية و نموّ الكفاءات الفكريّـة، و هـذا ما أشار إليه ابن عباس إذ قال: «القرآن يفسّره الزمان».

أضف إلى ذلك أنّ «القرآن يفسّر بعضه بعضا»، و هذا لا يتنافى مع كونه نورا و كلاما مبينا، لأنّه كلّ لا يتجزأ، و جميع لا تفرّد، يشكّل بمجموعه النور و الكلام المبين.

متى بدأ تفسير القرآن؟

تفسـير القرآن بالمعنى الحقيقى بدأ منذ عصـر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم، بل من بدء نزول الوحى إلّا أنّه ك «علم مدوّن» بـدأ من زمن أمير المؤمنين على بن أبى طـالب عليه السّـلام كمـا تجمع على ذلـك أقوال المورّخين و المفسّـرين، و رجـال هـذا العلم يصلون بسلسلة أسانيدهم إليه، و لا عجب فی ذلك، فهو باب مدينة علم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

إنّ مئات التفاسـير كتبت لحـدّ الآن، و بلغات مختلفـة، و بأساليب و مناهـج متنوعـة، منها الأدبى، و الفلسـفى، و الأخلاقى، و الروائى، و التأريخى، و العلمى، و كلّ واحد من المفسّرين تناول القرآن من زاوية تخصّصه.

و فی هذا «بستان» مثمر و مزدهر ...، شغف أحدهم بمناظره الشاعريّة الخلّابة.

و آخر عکف علی ما فیه من أشکالیات طبیعیّة ترتبط بتکوین النبات و هندسة الأزهار و عمل الجذور.

و ثالث ألفت نظره الی المواد الغذائیة المستفادة منه.

و رابع اتّجه إلی دارسة الخواصّ العلاجیّة فی نباتاته.

و خامس اهتمّ بکشف أسرار الخلقة فی عجائب ثماره الیانعة و أوراده الملوّنة.

و سادس راح یفکّر من أیّ أزهاره یستطیع استخراج أفضل العطور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷

و سابع کالنحلة لا تفکّر إلّا بامتصاص رحیق الورد لتهیئة العسل.

و هکذا روّاد طریق التّفسیر القرآنی، عکس کلّ منهم بما یملکه من مرآة خاصّة، مظهرا من مظاهر جمال القرآن و أسراره.

واضح أنّ کلّ هذه التفاسیر فی الوقت الذی تعتبر فیه تفسیرا للقرآن، إلّا أنها لیست تفسیرا للقرآن، لأنّ کلّ واحد منها یمیط اللثام عن بعد من أبعاد القرآن لا عن کلّ الأبعاد، و حتی لو جمعناها لتجلّی من خلالها بعض أبعاد القرآن لا جمیع أبعاده.

ذلک لأنّ القرآن کلام اللّه و فیض من علمه اللامتناهی، و کلامه مظهر لعلمه، و علمه مظهر لذاته، و کلّها لا متناهیة.

من هنا، لا ینبغی أن نتوقع استطاعة البشر إدراک جمیع أبعاد القرآن، فالکوز لا یسع البحر.

طبعا، ممّا لا شکّ فیه أنّنا نستطیع أن نغرف من هذا البحر الکبیر ... الکبیر جدا ... بقدر سعة آنیة فکرنا، و من هنا کان علی العلماء فرض أن لا یتوانوا فی کلّ عصر و زمان عن کشف مزید من حقائق القرآن الکریم، و أن یبذلوا جهودهم المخلصة فی هذا المجال ما استطاعوا، علیهم أن یستفیدوا ممّا خلّفه الأسلاف رضوان اللّه علیهم فی هذا المجال، و لکن لا یجوز لهم أن یکتفوا به، فرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال عن کتاب اللّه العزیز: «لا تحصی عجائبه، و لا تبلی غرائبه».

خطر التّفسیر بالرأی:

أخطر طریقة فی تفسیر القرآن هی أن یأتی المفسّر إلی کتاب اللّه العزیز معلّما لا تلمیذا.

أی یأتی إلیه لیفرض أفکاره علی القرآن، و لیعرض رؤاه و تصوراته المتولّدة من إفرازات البیئة و التخصّص العلمی، و الاتّجاه المذهبیّ الخاص،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸

و الذّوق الشّخصی، باسم القرآن، و بشکل تفسیر للقرآن، مثل هذا الشخص لا یتّخذ القرآن هادیا و إماما، بل یتّخذه وسیلة لإثبات نظریاته و تبریر ذوقه و أفکاره.

هذا اللون من تفسیر القرآن- أو قل تفسیر الأفکار الشخصیة بالقرآن- راج بین جماعة، و لیس وراءه إلّا الانحراف ... الانحراف عن طریق اللّه ... و الانزلاق فی متاهات الضّلال.

إنّه لیس بتفسیر، و إنّما هو قسر و فرض و تحمیل ... لیس باستفتاء، و إنّما إفتاء ... لیس بهدایة، و إنّما هو الضلال ... إنّه مسخ و تفسیر بالرأی، و نحن فی منهجنا التّفسیری سوف لا ننحو- بإذن اللّه- هذا النحو، بل نتّجه بکلّ قلوبنا و أفکارنا نحو القرآن لنتتلمذ علیه، لا غیر.

متطلّبات العصر:

لکلّ عصر خصائصه و ضروراته و متطلّباته، و هی تنطلق من الأوضاع الاجتماعیة و المتغیّرات الفکریة و المستجدّات الثقافیة الطارئة علی مفاصل الحیاة فی ذلک العصر.

و لکلّ عصر مشاکله و ملابساته الناتجة عن تغییر المجتمعات و الثقافات، و هو تغییر لا ینفک عن مسیرة المجتمع التأریخیة.

المفکّر الفاعل فی الحیاة الاجتماعیة هو ذلک الذی فهم الضرورات و المتطلّبات، و أدرک المشاکل و الملابسات ... و بعبارة اخری هو الذی استوعب مسائل عصره.

أمّا أولئک الّذین لا یدرکون هذه المسائل إطلاقا، أو لا یتفاعلون معها بسبب عدم انتمائهم إلی عصرهم، أی بسبب فقدانهم عنصر «المعاصرة»، فهم الهامشیّون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹

الذین لا یقدرون علی التأثیر و لا علی المعالجة، بل یقفون دوما متأسّفین و متحسّرین و شاکین و منتقدین، و یزداد تشاؤمهم و یأسهم باستمرار حتی یقعوا فی طامّة «الانزواء الاجتماعی».

ذلک لأنّهم ما استطاعوا أو ما أرادوا أن یستوعبوا احتیاجات عصرهم و مشاکله.

هؤلاء یعیشون فی ظلام مطبق، و بسبب عدم تفهّمهم لأسباب الحوادث و عللها و نتائجها، یفقدون أنفسهم أمام هجوم هذه الحوادث و یرتبکون و یخافون و یظلّون دون خطّة للمواجهة و الدفاع، و بما أنّ مسیرتهم فی الظلام فسوف تزلّ قدمهم فی کلّ خطوة، و ما أجمل ما

قاله الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام: «العالم بزمانه لا تهجم علیه اللّوابس».

رسالة العلماء فی کلّ عصر أن یدرکوا بوعی کامل هذه المسائل ... هذه الاحتیاجات، و هذا الفراغ الروحی و الفکری و الاجتماعی، و أن یسعوا لمعالجتها بشکل صحیح کی لا یفسحوا المجال للأطروحات المنحرفة أن تخترق الساحة و تملأ الفراغ و تقدّم الحلول الکاذبة.

من المسائل التی تلمّسناها بوضوح عطش الجیل الراهن لدرک المفاهیم الإسلامیّة و المسائل الدینیّة- و خلافا لما یردّده الیائسون و المتشائمون- إنّ هذا الجیل لا یتوق إلی الفهم فحسب، بل یتلهف إلی التطبیق العملی لهذه المفاهیم و المسائل، و لمس المعطیات الدّینیّة من خلال العمل بها.

من الواضح أنّ أمام هذا الجیل التوّاق مسائل غامضة و نقاط إبهام و مواضع استفهام کثیرة، و الخطوة الاولی لتلبیة هذه الحاجات إعادة کتابة التراث العلمی و الفکری الإسلامی بلغة العصر، و تقدیم کلّ هذه المفاهیم السامیة عن طریق هذه اللغة إلی روح الجیل و عقله.

و الخطوة الاخری استنباط الاحتیاجات و المتطلّبات الخاصة بهذا الزمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰

من مبادئ الإسلام العامّة.

و هذا التّفسیر دوّن علی أساس هذین الهدفین.

الأمثل بین التفاسیر:

واجهنا دوما أسئلة وردت إلینا من مختلف الفئات و خاصّة الشباب المتعطّش إلی نبع القرآن عن التّفسیر الأفضل.

هذه الأسئلة تنطوی ضمنیا علی بحث عن تفسیر یبیّن عظمة القرآن عن تحقیق لا تقلید، و یجیب علی ما فی الساحة من احتیاجات و تطلّعات و آلام و آمال ... تفسیر نافع لکلّ الفئات، و یخلو من المصطلحات العلمیّة المعقّدة.

فی الواقع نحن نفتقر إلی مثل هذا التّفسیر، فالأسلاف و المعاصرون رضوان اللّه علیهم کتبوا فی حقل التّفسیر کثیرا، لکنّ بعضها کتب قبل عدّة قرون و بأسلوب خاصّ لا یستفید منه إلّا العلماء و الأدباء، و بعضها مدوّن بمستوی علمی لا یدرکه سوی الخواصّ، و بعضها تناول جانبا معیّنا من القرآن، و کأنّها باقة ورد اقتطفت من بستان مزدان، فهی قبس من هذا البستان، و لیست البستان ... و هکذا.

من هنا لم نجد أمام هذه الأسئلة المتدفّقة علينا جوابا مقنعا يرضى هذه الأرواح المتعطّشة التّواقة. فآلينا على أنفسنا أن نجيب على هذا السؤال عمليّا، فالكلام لا يرضى السائلين.

لكنّنا وجدنا أنفسنا فی خضمّ الأشغال المتزايدة من جهة، و أمام القرآن ...

البحر الذی لا ساحل له ... من جهة اخرى، فأنّى لنا أن نخوض عبابه دون عدّة و وقت و استعداد فكرى، لذلک وقفنا على ضفاف هذا البحر الموّاج ننظر إليه بحسرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱

و فجأة هدانا اللّه إلى الطريق الحلّ، و انقدحت فی الذهن فكرة العمل الجماعی، فكان أن اجتمع معنا على الطريق عشرة من الفضلاء المخلصين الواعين كانوا حقّا مصداق «عشرة كاملة» فبذلت المساعی الدائبة ليلا و نهارا لتثمر خلال مدّة أقصر ممّا توقّعناها هذا الذی يراه القارئ الكريم.

و لكی لا تبقى نقطة غموض أمام القارئ الكريم نشرح باختصار منهج عملنا فی هذا التّفسير.

قسّمت الآيات الكريمة أوّلا فی الفروع المختلفة بين الاخوة و بتوجيه موحّد، و درسوا المصادر المختلفة فی التّفسير لكبار المفسّرين من علماء الشيعة و أهل السنّة، مثل:

۱- مجمع البيان للشيخ الطبرسی. ۲- أنوار التنزيل للقاضی البيضاوی.

۳- الدرّ المنثور لجلال الدين السيوطی. ۴- البرهان للمحدّث البحرانی.

۵- الميزان للعلّامة الطباطبائی. ۶- المنار، تقرير دروس للشيخ محمّد عبده.

۷- فی ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب. ۸- المراغی لأحمد مصطفى المراغی.

۹- مفاتيح الغيب للفخر الرازی. ۱۰- روح الجنان لأبی الفتوح الرازی.

۱۱- أسباب النّزول للواحدی. ۱۲- تفسير القرطبی لمحمّد بن أحمد الأنصاری القرطبی. ۱۳- روح المعانی للعلّامة شهاب الدين الآلوسی.

۱۴- نور الثقلين لعبد علی بن جمعة الحويزی. ۱۵- الصافی للملّا محسن الفيض الكاشانی. ۱۶- التبيان للشيخ الطوسی. و تفاسير اخرى ...

ثمّ جمعنا من المفاهيم ما يتناسب مع متطلّبات عصرنا و احتياجاته، و فی الجلسات العامّة التی عقدناها يوميّا أضفنا إلى كلّ ذلک المستجدات الضرورية من المعارف القرآنية، و بعد دراسات و مشاورات حول المباحث المختلفة، و مراجعة المصادر المتنوعة، أمليت تلک البحوث و دوّنها الاخوان بسرعة، ثمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۲

راجعنا الكتابات و دقّقنا فيها بصبر وسعة صدر، و أعددناها للطبع، و بعد الطبع أيضا- و قبل مرحلة النشر- أعيد النظر فيها مرة اخرى.

و كانت نتيجة هذه الجهود ما يراه القارئ العزيز، و نرجو أن يكون بإذن اللّه نافعا مفيدا للجميع.

خصائص هذا التّفسير:

لكی يرد القرّاء الأعزّاء إلى هذا التّفسير برؤية أوضح، و ليجدوا فيه ما يريدونه بشكل أيسر، نذكر باختصار خصائص هذا التّفسير و مزاياه:

۱- لمّا كان القرآن «كتاب حياة» فإنّنا لم نركّز- فی التّفسير- على المسائل الأدبية و العرفانيّة، بل بدلا من ذلک عالجنا المسائل الحيوية- الماديّة و المعنويّة- و خاصّة المسائل الاجتماعيّة، و سعينا إلى إشباعها بحثا و تحليلا، و خاصّة ما يرتبط من قريب بحياة الفرد

و المجتمع.

۲- فی ذیل کلّ آیة تناولنا تحت عنوان «بحوث» المسائل المطروحة فی الآیة بشکل مستقل، کالربا، و الرّق، و حقوق المرأة، و فلسفة الحج، و أسرار تحریم القمار، و الخمر، و لحم الخنزیر، و مسائل الجهاد الإسلامی، و أمثالها من الموضوعات، کی یستغنی القارئ عن مراجعة الکتب الاخری فی هذه المجالات.

۳- عزفنا عن تناول البحوث ذات الفائدة القلیلة، و أعطینا الأهمیّة لمعانی الکلمات و أسباب النّزول ممّا له تأثیر فی الفهم الدقیق لمعنی الآیة.

۴- عرضنا التساؤلات و الشبهات و الاعتراضات المطروحة حول أصول الإسلام و فروعه بمناسبة کلّ آیة، و ذکرنا الجواب علیها باختصار، مثل شبهة الآکل و المأکول، و المعراج، و تعدّد الزوجات، و سبب الاختلاف بین إرث المرأة و الرجل، و دیة المرأة و الرجل، و الحروف المقطّعة فی القرآن، و نسخ الأحکام، و الغزوات الإسلامیّة، و الاختبارات الإلهیّة، و عشرات المسائل الاخری، کی لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳

تبقی أیّة علامة استفهام عند مطالعة تفسیر الآیات.

۵- أعرضنا عن استعمال المصطلحات العلمیة المعقّدة التی تجعل الکتاب خاصّا بفئة خاصّة من القرّاء، ولدی الضرورة تناولنا ذلک فی هامش الکتاب من أجل استفادة المتخصّصین.

نسأل اللّه سبحانه أن یأخذ بأیدینا لما فیه رضاه، و یوفّق کلّ العالمین لخدمة کتابه العظیم.

الصّحوة الإسلامیة المعاصرة و زیادة الحاجة إلی تفسیر القرآن:

تشهد أمتنا الإسلامیّة خلال هذه الأعوام صحوة إسلامیّة عامّة، تتمثل فی رفض کلّ المستوردات الفکریّة، و العودة إلی الإسلام، لإقامة حیاتها علی أساس أحکام الرسالة الخاتمة.

هذه الصّحوة تعود إلی فشل کلّ الأطروحات الوضعیة الکافرة فی تحقیق ما لوّحت به من تقدّمیّة و تحرّر و سعادة کما تعود أیضا إلی العواطف الإسلامیّة المتوغّلة فی أعماق أبناء الامّة.

و یتحمّل العلماء الواعون فی هذه المرحلة الحسّاسة مسئولیّات کبری تفرض علیهم أن یعمّقوا هذا التحرک الواعی بین صفوف الامّة و یجذّروه و یؤصّلوه، کی تکون المسیرة علی بصیرة فی حرکتها و علی یقظة فی اتّخاذ قراراتها، و علی ثقة من أنّها تسلک الطریق نحو أهدافها الإسلامیّة الکبری دون زیغ أو انحراف أو التقاط.

و کتاب اللّه هدی و نور، و فیه الإطار العامّ للمسیرة، و فیه الزاد اللازم لمواصلة الطریق المستقیم نحو ربّ العالمین.

و أخیرا نشکر جهود العلماء و الفضلاء الذین شارکونا فی تألیف هذا التفسیر الجلیل:

۱- الشیخ محمّد رضا الآشتیانی.

۲- الشیخ محمّد جعفر الإمامی.

۳- الشیخ داود الإلهامی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۴

۴- الشیخ أسد اللّه الإیمانی ۵- الشیخ عبد الرسول الحسنی.

۶- السید حسن الشجاعی.

۷- السید نور اللّه الطباطبائی.

۸- الشيخ محمود عبد اللهى.

۹- الشيخ محسن القرائتى.

۱۰- الشيخ محمّد محمّدى الإشتهاردى و كذلك نشكر الإخوة الأفاضل الأستاذ محمد على آذرشب، الشّيخ محمد رضا آل صادق، الأستاذ خالد توفيق عيسى، السيّد محمّد الهاشمى، الأستاذ قصى هاشم فاخر، الأستاذ أسد مولوى، الشيخ مهدى الأنصارى و السيّد أحمد القبانچى و الشّيخ هاشم الصالحى بمساهمتهم فى تنقيح و إخراج هذا السفر الجليل و داموا مشكورين.

نسأل اللّه سبحانه أن نكون بهذا التّفسير قد ساهمنا فى إعلان كلمة القرآن بشأن واقعنا، و بشأن مستقبلنا، و بشأن ما يجب أن نفعله للخروج من الواقع المؤلم الذى تعيش فيه أمتنا.

و نسأله سبحانه أنّ يوفّق كلّ العالمين على إعلاء راية القرآن فى العالم و يسدّد خطاهم و ينصرهم على أعدائهم.

نسأله جلّ و علا- أن يوفّق العلماء و المفكّرين الواعين الملتزمين إلى قيادة هذا التحرك الإسلامى المتصاعد فى كلّ أرجاء العالم الإسلامى، قيادة أصيلة قائمة على هدى القرآن و السنة.

و نتضرّع إليه أن يوفّقنا لإكمال بقيّة أجزاء هذا التّفسير و أن يتقبّل من كلّ العاملين عليه فى أى سبيل إنّه تعالى سميع مجيب.

و آخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين.

ناصر مكارم الشيرازى قم- الحوزة العلمية ۱۴۰۴ ه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۵

سورة الحمد

اشارة

مكّيّة و عدد آياتها سبع آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷

بسم الله الرحمن الرحيم سورة الحمد

خصائصها:

لهذه السّورة مكانة متميّزة بين سائر سور القرآن الكريم، و تتميز بالخصائص التالية:

۱- سياق السّورة- تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن فى لحنها و سياقها، فسياق السور الاخرى يعبّر عن كلام اللّه، و سياق هذه السّورة يعبّر عن كلام عباد اللّه. و بعبارة اخرى: شاء اللّه فى هذه السّورة أن يعلّم عباده طريقة خطابهم له و مناجاتهم إيّاه.

تبدأ هذه السّورة بحمد اللّه و الثناء عليه، و تستمر فى إقرار الإيمان بالمبدأ و المعاد «باللّه و يوم القيامة» و تنتهى بالتضرع و الطلب.

الإنسان الواعى المتيقّظ يحسّ و هو يقرأ هذه السّورة بأنّه يعرج على أجنحة الملائكة، و يسمو فى عالم الروح و المعنوية، و يدنو باستمرار من ربّ العالمين.

هذه السّورة تعبّر عن اتجاه الإسلام فى رفض الوسطاء بين اللّه و الإنسان ...

هؤلاء الوسطاء الذين افتعلتهم المذاهب الزائفة المنحرفة، و تعلّم البشر أن يرتبطوا باللّه مباشرة دونما واسطة، فهذه السّورة عبارة عن تبلور هذا الارتباط المباشر و الوثيق بين اللّه و الإنسان ... بين الخالق و المخلوق. فالإنسان لا يرى فى مضامين آيات السّورة سوى اللّه ... يخاطبه ... يناجيه ... يتضرّع إليه ... دونما واسطة حتى و إن كانت الواسطة نبيّا مرسلا أو ملكا مقرّبا. و من العجيب أن يحتلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸

هذا الارتباط المستقیم بین الخالق و المخلوق مکان الصدارة فی کتاب اللّه العزیز!.

۲- سورة الحمد أساس القرآن-

فقد روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال لجابر بن عبد اللّه الأنصاری: «ألا- أعلّمک أفضل سورة أنزلها اللّه فی کتابه؟» قال جابر: بلی بأبی أنت و أمّی یا رسول اللّه، علّمنیها. فعلّمه الحمد أمّ الکتاب، و قال: هی شفاء من کلّ داء، إلّا السّام، و السّام الموت»

[۱].

و روی عنه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أیضا أنّه قال: «و الّذی نفسی بیده ما أنزل اللّه فی التّوراة، و لا فی الإنجیل و لا فی الزّبور و لا فی القرآن مثلها، و هی أمّ الکتاب»

[۲].

سبب أهمیة هذه السّورة یتضح من محتواها، فهی فی الحقیقة عرض لکل محتویات القرآن، جانب منها یختصّ بالتوحید و صفات اللّه، و جانب آخر بالمعاد و یوم القیامة، و قسم منها یتحدّث عن الهدایة و الضلال باعتبارهما علامة التمییز بین المؤمن و الکافر و فیها أیضا إشارات إلی حاکمیة اللّه المطلقة، و إلی مقام ربوبیّته، و نعمه اللامتناهیة العامة و الخاصة «الرحمانیة و الرحیمیة»، و إلی مسألة العبادة و العبودیة و اختصاصهما بذات اللّه دون سواه.

إنّها تتضمّن فی الواقع توحید الذات، و توحید الصفات، و توحید الأفعال، و توحید العبادة.

و بعبارة اخری: تتضمّن هذه السّورة مراحل الإیمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، و الإقرار باللسان، و العمل بالأرکان. و من المعلوم أنّ لفظ «الأمّ» یعنی هنا الأساس و الجذر.

و لعل ابن عباس ینطلق من هذا الفهم إذ یقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۹

«إن لکل شیء أساسا ... و أساس القرآن الفاتحة».

و من هذا المنطلق أیضا

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فیما روی عنه: «أیّما مسلم قرأ فاتحة الکتاب أعطی من الأجر کأنّما قرأ ثلثی القرآن، و أعطی من الأجر کأنّما تصدّق علی کلّ مؤمن و مؤمنة»

[۳].

تعبیر «ثلثی القرآن»، ربّما کان إشارة إلی أنّ القرآن ینطوی علی ثلاثة أقسام: الدّعوة إلی اللّه، و الإخبار بیوم الحساب، و الفرائض و الأحکام. و سورة الحمد تتضمن القسمین الأوّلین. و تعبیر «أمّ القرآن» إشارة إلی القرآن یتلخّص من وجهة نظر اخری فی (الإیمان و العمل) و قد جمعا فی سورة الحمد.

۳- سورة الحمد شرف النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم- القرآن الکریم یتحدّث عن سورة الحمد باعتبارها هبة إلهیة لرسوله الکریم، و یقرنها بکل القرآن إذ یقول:

وَ لَقَدْ آتَیْناکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِی وَ الْقُرْآنَ الْعَظِیمَ ۴].

فالقرآن بعظمته یقف هنا إلی جنب سورة الحمد، و لأهمیة هذه السّورة أیضا أنّها نزلت مرّتین.

نفس هذا المضمون

رواه أمیر المؤمنین علی علیه السّلام عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «إنّ اللّه تعالی قال لی یا محمّد و لقد آتیناک سبعا من

المثانی و القرآن العظیم، فأفرد الامتنان علیّ بفاتحة الکتاب و جعلها بإزاء القرآن العظیم، و إنّ فاتحة الکتاب أشرف ما فی کنوز العرش ...»

[۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۰

۴- التّأکید علی تلاوة هذه السّورة- ممّا تقدم نفهم سبب تأکید السّنة بمصادرها الشیعیة و السنّیة علی تلاوة هذه السّورة- فتلاوتها تبعث الروح و الإیمان و الصفاء فی النفوس، و تقرّب العبد من اللّه، و تقوّی إرادته، و تزید اندفاعه نحو تقدیم المزید من العطاء فی سبیل اللّه، و تبعده عن ارتکاب الذنوب و الانحرافات. و لذلک کانت أمّ الکتاب صاعقة علی رأس إبلیس کما

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام: «رنّ إبلیس أربع رنّات، أوّلهنّ یوم لعن، و حین أهبط إلی الأرض، و حین بعث محمّد صلّی اللّه علیه و اله علی حین فترة من الرّسل، و حین نزلت أمّ الکتاب»

[۶].

محتوی السّورة:

کلّ واحدة من الآیات السبع فی هذه السّورة تشیر إلی حقیقة هامّة:

بِسْمِ اللَّهِ ... بدایة لکلّ عمل، و تعلّمنا الاستمداد من الباری تعالی لدی البدء بأی عمل.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ درس فی عودة کلّ نعمة و رعایة إلی اللّه تعالی، و إلفات إلی حقیقة انطلاق کلّ هذه المواهب من ذات اللّه تعالی.

الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ تبیّن هذه الحقیقة، و هی: إنّ خلق اللّه و رعایته و حاکمیته تقوم علی أساس الرّحمة و الرّحمانیة، و هذا المبدأ یشکّل المحور الأساس لنظام رعایة العالم.

مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ استحضار للمعاد و یوم الجزاء، و لحاکمیة اللّه علی تلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱

المحکمة الکبری.

إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ تبیّن التوحید فی العبادة، و التوحید فی الاستعانة بالأسباب.

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ توضّح حاجة العباد و رغبتهم الشدیدة للهدایة، و تؤکّد حقیقة أن کل ألوان الهدایة إنما تصدر منه تعالی.

و آخر آیة من هذه السّورة ترسم معالم الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ و تمیّز بین صراط الذین أنعم اللّه علیهم، و صراط الذین ضلّوا و الذین استحقّوا غضب اللّه علیهم.

و یمکن تقسیم هذه السّورة، من منظار آخر إلی قسمین: قسم یختصّ بحمد اللّه و الثناء علیه، و قسم یتضمّن حاجات العبد.

و إلی هذا التقسیم یشیر

الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «قال اللّه عزّ و جلّ: قسّمت فاتحة الکتاب بینی و بین عبدی، فنصفها لی و نصفها لعبدی و لعبدی ما سأل.

إذا قال العبد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ قال اللّه جلّ جلاله: بدأ عبدی باسمی و حقّ علیّ أن أتمّم له أموره و أبارک له فی أحواله.

فإذا قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ قال اللّه جلّ جلاله: حمدنی عبدی و علم أنّ النعم الّتی له من عندی، و أنّ البلایا الّتی دفعت عنه فبتطوّلی، أشهدکم أنّی أضیف له إلی نعم الدّنیا نعم الآخرة، و أدفع عنه بلایا الآخرة کما دفعت عنه بلایا الدّنیا.

و إذا قال: الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ قال اللّه جلّ جلاله: شهد لی عبدی أنّی الرّحمن الرّحیم، أشهدکم لأوفّرنّ من رحمتی حظّه و لأجزلنّ من

عطائی نصیبه.

فإذا قال: مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ قال اللّه تعالی: أشهدکم کما اعترف بأنیّ أنا مالک یوم الدّین لأسهّلنّ یوم الحساب حسابه، و لأتقبّلنّ حسناته، و لأتجاوزنّ عن سیّئاته.

فإذا قال: إِیَّاکَ نَعْبُدُ قال اللّه عزّ و جلّ: صدق عبدی، إیّای یعبد أشهدکم لأثیبنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲

علی عبادته ثوابا یغبطه کلّ من خالفه فی عبادته لی.

فإذا قال: وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ قال اللّه تعالی: بی استعان عبدی، و إلیّ التجأ، أشهدکم لأعیننّه علی أمره، و لأغیثنّه فی شدائده و لآخذنّ بیده یوم نوائبه.

فإذا قال: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ إلی آخر السّورة قال اللّه عزّ و جلّ: هذا لعبدی و لعبدی ما سأل و قد استجبت لعبدی و أعطیته ما أمّل و آمنته ممّا منه و جل»[۷].

لماذا سمّیت فاتحة الکتاب؟

«فاتحة الکتاب» اسم اتخذته هذه السّورة فی عصر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، کما یبدو من الأخبار و الأحادیث المنقولة عن النّبی الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

و هذه المسألة تفتح نافذة علی مسألة مهمّة من المسائل الإسلامیة، و تلقی الضوء علی قضیة جمع القرآن، و توضّح أنّ القرآن جمع بالشکل الذی علیه الآن فی زمن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، خلافا لما قیل بشأن جمع القرآن فی عصر الخلفاء، فسورة الحمد لیست أول سورة فی ترتیب النّزول حتی تسمّی بهذا الاسم و لا یوجد دلیل آخر لذلک، و تسمیتها بفاتحة الکتاب یرشدنا إلی أنّ القرآن قد جمع فی زمن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بهذا الترتیب الذی هو علیه الآن.

و ثمّة أدلّة اخری تؤیّد حقیقة جمع القرآن بالترتیب الذی بأیدینا الیوم فی عصر الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و بأمره.

روی علیّ بن إبراهیم، عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال لعلّی علیه السّلام: «یا علیّ، إنّ القرآن خلف فراشی فی الصّحف و الحریر و القراطیس، فخذوه و اجمعوه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۳

و لا تضیّعوه کما ضیّعت الیهود التّوراة، و انطلق علیّ علیه السّلام فجمعه فی ثوب أصفر، ثمّ ختم علیه»

[۸].

و

یروی (الخوارزمی) فی المناقب عن (علی بن رباح) أنّ علی بن أبی طالب و أبیّ بن کعب جمعا القرآن فی عصر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

و روی (الحاکم) فی (المستدرک) عن (زید بن ثابت) قال: «کنّا نؤلّف القرآن من الرّقاع».

و یقول العالم الجلیل السید المرتضی رحمهٔ اللّه: «إنّ القرآن کان علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مجموعا مؤلّفا علی ما هو علیه الآن»[۹].

و یروی الطبرانی و ابن عساکر عن الشعبی أنّ القرآن جمعه ستهٔ من الأنصار فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ۱۰].

و یروی قتادهٔ أنّه سأل أنس عن جمع القرآن فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فقال:

أربعة من الأنصار هم: أبىّ بن كعب، و معاذ، و زيد بن ثابت، و أبو زيد[۱۱] و هناك روايات اخرى يطول ذكرها.

على أىّ حال، اتّخاذ سورة الحمد اسم (فاتحة الكتاب) دليل واضح على إثبات هذه المسألة، إضافة إلى الأدلة الاخرى المستفيضة فى مصادر الشيعة و السنّة.

سؤال:

و هنا يثار سؤال حول المشهور بين بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و فى الجواب نقول: ما روى بشأن جمع القرآن على يد الامام علىّ عليه السّلام بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۴

عصر الرّسول، لم يكن القرآن وحده، بل مجموعة تتضمّن القرآن و تفسيره و أسباب نزول الآيات، و ما شابه ذلك ممّا يحتاجه الفرد لفهم كلام اللّه العزيز.

و أمّا ما فعله عثمان فى هذا الصدد، فتدلّ القرائن أنّه أقدم على كتابة قرآن واحد عليه علامات التلاوة و الإعجام، منعا للاختلاف فى القراءات، إذ لم يكن التنقيط معمولا به حتى ذلك الوقت.

و ما نراه من إصرار لدى جماعة على عدم جمع القرآن فى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و على نسبة هذا الأمر للخليفة عثمان أو للخليفة الأول أو الثانى، فإنّما يعود إلى ظروف و ملابسات و عصبيات تأريخية لسنا بصددها الآن.

و إذا رجعنا إلى استقصاء طبيعة الأشياء فى مجال جمع القرآن، ألفينا أنّه من غير المعقول أن يترك النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هذه المهمّة الكبيرة، بينما نجده يهتمّ بدقائق الأمور المرتبطة بالرسالة.

أليس القرآن دستور الإسلام، و كتاب هداية البشرية، و أساس عقائد الإسلام و أحكامه؟

أليس من الممكن أن يتعرّض القرآن- إن لم يجمع- فى عصر الرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إلى الضياع، و إلى الاختلاف فيه بين المسلمين؟! (حديث الثقلين) المروى فى المصادر الشيعة و السّنية، حيث أوصى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بوديعته: كتاب اللّه و عترته، يؤكّد أيضا أن القرآن كان قد جمع فى مجموعة واحدة فى عصر الرّسول الأعظم.

أمّا اختلاف الرّوايات فى عدد الصحابة الذين جمعوا القرآن خلال عصر النّبى فلا يشكّل عقبة فى البحث، و من الممكن أنّ تتّجه كلّ رواية إلى ذكر عدد منهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۵

سورة الحمد

الآيات [سورة الفاتحة (۱): الآيات ۱ الى ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم (۱)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) الرَّحْمنِ الرَّحِيم (۳) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (۴) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵)

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۶) صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لا الضَّالِّينَ (۷)

التّفسير

۱- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

دأبت الأمم و الشّعوب على أن تبدأ كل عمل هام ذى قيمة باسم كبير من رجالها. و الحجر الأساس لكل مؤسسة هامّة يوضع باسم شخصية مرموقة فى نظر أصحابها، أى أن أصحاب المؤسسة يبدأون العمل باسم تلك الشّخصية.

و لكن، أليس من الأفضل أن يبدأ العمل فى اطروحة أريد لها البقاء و الخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟ فكلّ ما فى الكون يتجه إلى الزّوال و الفناء، إلا ما كان مرتبطا بالذات الأبدية الخالدة ... ذات اللّه سبحانه.

إنّ خلود ذكر الأنبياء سببه ارتباطهم باللّه و بالقيم الإنسانية الإلهية الخالدة كالعدالة و طلب الحقيقة، و خلود اسم رجل فى التّاريخ مثل (حاتم الطّائى)، يعود إلى ارتباطه بواحدة من تلك القيم هى (السّخاء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶

صفة الخلود و الأبدية يختص بها اللّه تعالى من بين سائر الموجودات، و من هنا ينبغى أن يبدأ كلّ شىء باسمه و تحت ظلّه و بالاستمداد منه. و لذلك كانت البسملة أوّل آية فى القرآن الكريم.

و البسملة لا ينبغى أن تنحصر فى اللفظ و الصورة، بل لا بدّ أن تتعدّى ذلك إلى الارتباط الواقعى بمعناها، و هذا الارتباط يخلق الاتجاه الصحيح و يصون من الانحراف، و يؤدى حتما إلى نتيجة مطلوبة مباركة. لذلك

جاء فى الحديث النّبوى الشريف: «كلّ أمر ذى بال لم يذكر فيه اسم اللّه فهو أبتر»[۱۲].

و أمير المؤمنين عليه السّلام بعد نقله لهذا الحديث الشريف قال: «إنّ العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملا فيقول بسم اللّه الرّحمن الرّحيم فإنّه يبارك فيه»[۱۳].

و يقول الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام: «... و ينبغى الإتيان به عند افتتاح كلّ أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه»[۱۴].

بعبارة موجزة: بقاء العمل و خلوده يتوقف على ارتباطه باللّه.

من هنا كانت الآية الاولى التى أنزلها اللّه على نبيّه الكريم تحمل أمرا لصاحب الرسالة أن يبدأ مهمته الكبرى باسم اللّه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ...[۱۵].

و لذلك أيضا فإنّ نوحا عليه السّلام- حين يركب السفينة فى ذلك الطوفان العجيب، و يمخر عباب الأمواج الهادرة، و يواجه ألوان الأخطار على طريق تحقيق هدفه- يطلب من أتباعه أن يردّدوا البسملة فى حركات السفينة و سكناتها. وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها[۱۶]. و انتهت هذه السفرة المليئة بالأخطار بسلام و بركة كما يذكر القرآن الكريم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ۱۷].

و سليمان عليه السّلام يبدأ رسالته إلى ملكة سبأ بالبسملة: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ...[۱۸].

و انطلاقا من هذا المبدأ تبدأ كلّ سور القرآن بالبسملة، كى يتحقّق هدفها الأصل المتمثل بهداية البشرية نحو السعادة، و يحالفها التوفيق من البداية إلى ختام المسيرة.

و تنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة، لأنّها تبدأ بإعلان الحرب على مشركى مكة و ناكثى الأيمان، و إعلان الحرب لا ينسجم مع وصف اللّه بالرحمن الرحيم.

تجدر الإشارة إلى أنّ البسملة تقتصر على صيغة «بسم اللّه» و لا تقول فيها:

باسم الخالق أو باسم الرزاق و ما شابهها من الصيغ. و السبب يعود إلى أنّ كلمة (اللّه)- كما سيأتى- جامعة لكلّ أسماء اللّه و صفاته. أمّا الأسماء الاخرى للّه فتشير إلى قسم من كمالاته كالرحمة و الخالقية.

اتضح ممّا سبق أيضا أنّ قولنا: «باسم اللّه» فى بدايـة كلّ عمل يعنى «الاسـتعانة» باللّه، و يعنى أيضا «البـدء» باسم اللّه. و هذان المعنيان يعودان إلى أصل واحد، و إن عمد بعض المفسّرين إلى التفكيك بينهما و تقدير كل واحد منهما فى الكلام.

فالمعنيان متلازمان، أى: أبدأ باسم اللّه و أستعين بذاته المقدّسة.

و طبيعى أنّ البدء باسم اللّه الذى تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة، و العزم، و الثقة، و الاندفاع، و الصـمود و الأمل أمام الصعاب و المشاكل، و الإخلاص و النزاهة فى الحركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص: ٢٨

و هذا رمز آخر للنجاح، حين تبدأ الأعمال باسم اللّه.

مهما أطلنا الحديث فى تفسير هذه الآية فهو قليل، فالمعروف عن علىّ عليه السّلام أنّه بدأ يفسّر لابن عباس آية البسملة فى أول الليل، فأسـفر الصبح و هو لم يتجاوز تفسير البـاء منها، غير أنّنا ننهى البحث بحـديث عنه عليه السّـلام، و سـتكون لنا بحوث أخرى فى هـذا الصدد خلال بحوثنا القادمة.

دخل عبـد اللّه بن يحيى على أمير المؤمنين عليه السّـلام و بين يـديه كرسـىّ فأمره بالجلوس عليه فجلس عليه فمال به حتّى سـقط على رأسه فأوضح عن عظم رأسه و سال الدّم، فأمر أمير المؤمنين عليه السّـلام بماء فغسل عنه ذلك الدّم ثمّ قال: أدن منّى، فوضع يده على موضـحته «... أما علمت أنّ رسول اللّه حدّثنى عن اللّه جلّ و عزّ: كلّ أمر ذى بال لم يذكر فيه بسم اللّه فهو أبتر؟» فقلت: بلى بأبى أنت و أمّى لا أتركها بعدها، قال: «إذا تحظى بذلك و تسعد»[١٩].

و

قال الصّادق عليه السّـلام: «و لربّما ترك فى افتتاح أمر بعض شـيعتنا بسم اللّه الرّحمن الرّحيم فيمتحنه اللّه بمكروه لينبّهه على شـكر اللّه تعالى و الثّناء عليه و يمحو فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه قول بسم اللّه»[٢٠].

بحوث

١- هل البسملة جزء من السّورة؟

أجمع علماء الشيعة على أنّ البسـملة جزء من سورة الحمد و كلّ سور القرآن، و كتابتها فى مطالع السور أفضل شاهد على ذلك، لأنّنا نعلم أن النصّ القرآنى مصون عن أيّة اضافة، و ذكر البسملة معمول به منذ زمن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص: ٢٩

أمّا علماء السنّة فاختلفوا فى ذلك، و صاحب المنار يجمع أقوالهم فيما يلى:

«أجمع المسـلمون على أن البسـملة من القرآن و أنها جزء آيـة من سورة النمل. و اختلفوا فى مكانها من سائر السور، فـذهب إلى أنّها جزء آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة- فقهاؤهم و قراؤهـم- و منهم: ابن كثير. و أهل الكوفة و منهم عاصم و الكسائى من القراء، و بعض الصـحابة و التابعين من أهل المدينة، و الشافعى فى الجديد و أتباعه، و الثورى و أحمد فى أحد قوليه، و الإمامية، و من المروى عنهم ذلك من علماء الصـحابة علىّ و ابن عباس و ابن عمر و أبو هريرة، و من علماء التابعين سـعيد بن جبير و عطاء و الزهرى و ابن المبارك. و أقوى حججهم فى ذلك إجماع الصـحابة و من بعدهم على إثباتها فى المصـحف أول كل سورة سوى سورة البراءة (التوبة) مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه.

و لذلك لم يكتبوا (آمين) فى آخر الفاتحة ...».

ثم ینقل عن مالک و الحنفیة و آخرین، أنّهم ذهبوا إلی أنّ البسملة آیة مستقلّة نزلت لبیان رؤوس السور و الفصل بینها.

و عن حمزة من قرّاء الکوفة و أحمد «الفقیه السنّی المعروف» أنّها من الفاتحة دون غیرها من سور القرآن ۲۱].

و من مجموع ما ذکر یستفاد أنّ الأکثریة الساحقة من أهل السنة یرون أنّ البسملة جزء من السّورة کذلک.

ننقل هنا طائفة من الروایات المنقولة فی هذا الصدد بطرق الشیعة و السنة، و بالقدر الذی یتناسب مع هذا البحث التّفسیری:

-۱

عن معاویة بن عمّار قال: قلت لأبی عبد اللّه علیه السّلام: إذا قمت للصّلاة أقرأ بسم اللّه الرّحمن الرّحیم فی فاتحة القرآن؟ قال: «نعم» قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن أقرأ بسم اللّه

الرّحمن الرّحیم مع السّورة؟ قال: «نعم»[۲۲].

۲- ما

أخرجه الدار قطنی بسند صحیح عن علی علیه السّلام: «أنّه سئل عن السّبع المثانی، فقال: الحمد للّه ربّ العالمین، فقیل له: إنّما هی ستّ آیات فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ آیة»[۲۳].

-۳

روی البیهقی بسنده عن ابن جبیر، عن ابن عباس، قال: «استرق الشّیطان من النّاس أعظم آیة من القرآن: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ (إشارة إلی شیوع عدم قراءتها فی مطالع السور)[۲۴].

أضف إلی ذلک، أنّ سیرة المسلمین جرت دوما علی قراءة البسملة فی مطالع السور لدی تلاوة القرآن، و ثبت بالتواتر قراءة النّبی لها. و کیف یمکن أن تکون أجنبیة عن القرآن و النّبی و المسلمون یواظبون علی قراءتها لدی تلاوتهم القرآن؟! و أمّا ما ذهب إلیه بعضهم من احتمال أنّ البسملة آیة مستقلّة و لیست جزء من سور القرآن، فهو احتمال واه ضعیف، لأن مفهوم البسملة یشعر ببدایة العمل، و لا یفصح عن معنی منفصل مستقل.

و فی اعتقادنا أنّ الإصرار علی فصل البسملة عن السور تعصّب لا مبرر له، و لا ینهض علیه دلیل، فی حین أنّ مضمونها مسفر عن أنّها بدایة لما بعدها من الأبحاث.

یبقی إیراد واحد، هو أنّ البسملة لا تحتسب فی عدّ آیات سور القرآن (عدا بسملة سورة الحمد)، بل یبدأ العدّ من الآیة التالیة للبسملة.

و الجواب علی ذلک ما ذکره (الفخر الرازی) فی تفسیره الکبیر، إذ قال: لا

یمنع أن تکون البسملة لوحدها آیة فی سورة الحمد، و أن تکون جزء من الآیة الاولی فی سائر سور القرآن (أی أنّ مطلع سورة الکوثر مثلا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ یعتبر کلّه آیة واحدة.

و المسألة- علی أیّ حال- واضحة إلی درجة کبیرة حتی روی: أنّ معاویة صلّی بالنّاس فی فترة حکومته فلم یقرأ البسملة، فصاح جمع من المهاجرین و الأنصار بعد الصّلاة: أسرقت أم نسیت؟[۲۵].

۲- لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالی:

کلمة (اسم) أول ما تطالعنا فی البسملة من کلمات، و هو فی رأی علماء اللغة من (السموّ) علی وزن (العلوّ)، و معناه الارتفاع، و یفهم

أن الشیء بعد التسمیة یخرج من مرحلة الخفاء إلی مرحلة البروز و الظهور و الرقی، أو إنّه یرتفع بالتسمیة عن مرحلة الإهمال و یکتسب المعنی و العلو[۲۶].

بعد کلمة الاسم نلتقی بکلمة (اللّه) و هی أشمل أسماء ربّ العالمین فکل اسم ورد للّه فی القرآن الکریم و سائر المصادر الإسلامیة یشیر إلی جانب معین من صفات اللّه. و الاسم الوحید الجامع لکل الصفات و الکمالات الإلهیة أو الجامع لکل صفات الجلال و الجمال هو (اللّه).

و لذلک اعتبرت بقیة الأسماء صفات لکلمة (اللّه) مثل: (الغفور) و (الرحیم) و (السمیع) و (العلیم) و (البصیر) و (الرزاق) و (ذو القوة) و (المتین) و (الخالق)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲

و (الباری) و (المصوّر).

کلمة (اللّه) هی وحدها الجامعة، و من هنا اتّخذت هذه الکلمة صفات عدیدة فی آیة کریمة واحدة، حیث یقول تعالی: هُوَ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِکُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَیْمِنُ الْعَزِیزُ الْجَبَّارُ الْمُتَکَبِّرُ[۲۷] أحد شواهد جامعیة هذا الاسم أنّ الإیمان و التوحید لا یمکن إعلانه إلّا بعبارة (لا إله إلّا اللّه)، و عبارة (لا إله إلّا القادر ... أو إلّا الخالق ... أو إلّا الرّزّاق) لا تفی بالغرض. و لهذا السبب یشار فی الأدیان الاخری إلی معبود المسلمین باسم (اللّه) فهذه التسمیة الشاملة خاصة بالمسلمین.

۳- الرّحمة الإلهیة الخاصة و العامّة:

المشهور بین جماعة من المفسّرین أنّ صفة (الرحمن) تشیر إلی الرحمة الإلهیة العامة، و هی تشمل الأولیاء و الأعداء، و المؤمنین و الکافرین، و المحسنین و المسیئین، فرحمته تعمّ المخلوقات، و خوان فضله ممدود أمام جمیع الموجودات، و کلّ العباد یتمتعون بموهبة الحیاة، و ینالون حظهم من مائدة نعمه اللامتناهیة. و هذه هی رحمته العامة الشاملة لعالم الوجود کافة و ما تسبّح فیه من کائنات.

و صفة (الرحیم) إشارة إلی رحمته الخاصة بعباده الصالحین المطیعین، قد استحقوها بإیمانهم و عملهم الصالح، و حرم منها المنحرفون و المجرمون.

الأمر الذی یشیر إلی هذا المعنی أنّ صفة (الرحمن) ذکرت بصورة مطلقة فی القرآن الکریم ممّا یدل علی عمومیتها، لکنّ صفة (الرحیم) ذکرت أحیانا مقیّدة، لدلالتها الخاصة، کقوله تعالی: وَ کانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً[۲۸] و أحیانا اخری مطلقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳

کما فی هذه السّورة.

و فی روایة عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «و اللّه إله کلّ شیء الرّحمن بجمیع خلقه، الرّحیم بالمؤمنین خاصّة»[۲۹].

من جهة اخری، کلمة (الرحمن) اعتبروها صیغة مبالغة، و لذلک کانت دلیلا آخر علی عمومیة رحمته. و اعتبروا (الرحیم) صفة مشبّهة تدلّ علی الدوام و الثبات، و هی خاصة بالمؤمنین.

و ثمّة دلیل آخر، هو إنّ (الرحمن) من الأسماء الخاصة باللّه، و لا تستعمل لغیره، بینما (الرحیم) صفة تنسب للّه و لعباده. فالقرآن وصف بها الرّسول الکریم، حیث قال: عَزِیزٌ عَلَیْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِیصٌ (عَلَیْکُمْ) بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ ۳۰].

و إلی هذا المعنی

أشار الإمام الصادق عليه السّلام، فيما روى عنه: «الرّحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، و الرّحيم عامّ بصفة خاصّة»[۳۱].

و مع كل هـذا، نجد كلمة (الرحيم) تسـتعمل أحيانا كوصف عام. و هذا يعنى أن التمييز المذكور بين الكلمتين إنما هو فى جذور كل منهما، و لا يخلو من استثناء.

فى دعاء عرفة- المنقول عن الحسين بن على عليه السّلام- وردت عبارة: «يا رحمن الدّنيا و الآخرة و رحيمهما».

نختتم هذا الموضوع بحديث عميق المعنى،

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «إنّ للّه عزّ و جلّ مائة رحمة، و إنّه أنزل منها واحدة إلى الأرض، فقسّمها بين خلقه، بها يتعاطفون و يتراحمون، و أخّر تسعا و تسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة»[۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴

لم لم ترد بقية صفات اللّه فى البسملة؟

فى البسملة ذكرت صفتان للّه فقط هما: الرحمانية و الرحيمية، فما هو السبب؟

الجواب يتضـح لو عرفنا أنّ كل عمل ينبغى أن يبـدأ بالاسـتمداد من صـفة تعم آثارها جميع الكون و تشـمل كلّ الموجودات، و تنقذ المستغيثين فى اللحظات الحساسة.

هـذه حقيقـة يوضّـحها القرآن إذ يقول: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ[۳۳]، و يقول على لسـان حملـة العرش: رَبَّنـا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً[۳۴].

و من جانب آخر نرى الأنبياء و أتباعهم يتوسّـلون برحمة اللّه فى المواقف الشديدة الحاسـمة. فقوم موسى تضرّعوا إلى اللّه أن ينقذهم من تجبّر فرعون و ظلمه، و توسّلوا إليه برحمته فقالوا: وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ ۳۵].

و بشأن هود و قومه، يقول القرآن: فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا[۳۶].

من الطبيعى أنّنـا- حين نتضـرّع إلى اللّه- ننـاديه بصـفات تتناسب مع تلك الحاجـة، فعيسـى عليه السّـلام حين يطلب من اللّه مائـدة من السماء، يقول: اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ ... وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۳۷].

و نوح عليه السّلام يدعو اللّه فى حطّ رحاله: رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ۳۸].

و زكريا نادى ربّه لدى طلب الولد الوارث قال: رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ ۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۵

للبدء بأىّ عمل ينبغى- إذن- أن نتوسّل برحمة اللّه الواسـعة، رحمته العامة و رحمته الخاصة. و هل هناك أنسب من هذه الصفة لتحقّق النجـاح فى الأعمـال، و للتغلب على المشاكـل و الصـعاب؟! و القـوة الـتى تسـتطيع أن تجـذب القلوب نحو اللّه و تربطهـا به هى صـفة الرحمة، إذ لها طابعها العام مثل قانون الجاذبية، ينبغى الاستفادة من صفة الرحمة هذه لتوثيق العرى بين المخلوقين و الخالق.

المؤمنون الحقيقيون يطهّرون قلوبهم بـذكر البسـملة فى بداية كلّ عمل من كل علقة و ارتباط، و يرتبطون باللّه وحده و يسـتمدّون منه العون، و يتوسلون إليه برحمته التى وسعت كلّ شىء.

و البسملة أيضا تعلّمنا أنّ أفعال اللّه تقوم أساسا على الرحمة، و العقاب له طابع استثنائى لا ينزل إلّا فى ظروف خاصة،

كما نقرأ فى الأدعية المروية عن آل بيت رسول اللّه: «يا من سبقت رحمته غضبه»[۴۰].

المجموعـة البشـرية السائرة على طريق اللّه ينبغى أن تقيم نظام حياتها على هـذا الأساس أيضا، و أن تقرن مواقفها بالرحمة و المحبة، و أن تترك العنف إلى المواضع الضـرورية، «۱۱۳» سـورة من مجموع «۱۱۴» سورة قرآنيـة تبـدأ بالتأكيـد على رحمة اللّه، و سورة التوبة وحدها تبدأ بإعلان الحرب و العنف بدل البسملة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۶

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۲]

اشارة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲)

التّفسير

العالم مغمور فی رحمته

بعد البسملة، أول واجبات العباد أن يستحضروا دوما مبدأ عالم الوجود، و نعمه اللامتناهية، هذه النعم التی تحيطنا و تغمر وجودنا، و تهدينا إلی معرفة اللّه من جهة، و تدفعنا علی طريق العبودية من جهة اخری.

و عند ما نقول أن النعم تشكّل دافعا و محرّكا علی طريق العبودية، لأنّ الإنسان مفطور علی البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، و مفطور علی أن يشكر المنعم علی أنعامه.

من هنا فان علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون فی بحوثهم الأولية لهذا العلم إلی «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمرا فطريا و عقليا دافعا إلی معرفة اللّه سبحانه.

و إنما قلنا إن النعم تهدينا إلی معرفة اللّه، لأن أفضل طريق و أشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليقة، و خاصة ما يرتبط بوجود النعم فی حياة الإنسان.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷

ممّا تقدم ابتدأت سورة الحمد بعبارة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و لفهم عمق هذه العبارة و عظمتها يلزمنا توضيح الفرق بين «الحمد» و «المدح» و «الشكر» و النتائج المترتبة علی ذلك:

۱- «الحمد» فی اللغة: الثناء علی عمل أو صفة طيبة مكتسبة عن اختيار، أی حينما يؤدی شخص عملا طيّبا عن وعی، أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لأعمال الخير فإنّنا نحمده و نثنی عليه.

و «المدح» هو الثناء بشكل عام، سواء كان لأمر اختياری أو غير اختياری، كمد حنا جوهرة ثمينة جميلة. و مفهوم المدح عام، بينما مفهوم الحمد خاص.

أمّا مفهوم «الشكر» فأخصّ من الاثنين، و يقتصر علی ما نبديه تجاه نعمة تغدق علينا من منعم عن إختيار[۴۱].

و لو علمنا أنّ الألف و اللام فی (الحمد) هی لاستغراق الجنس، لعلمنا أنّ كل حمد و ثناء يختص باللّه سبحانه دون سواه.

ثناؤنا علی الآخرين ينطلق من ثنائنا عليه تعالی، لأنّ مواهب الواهبين كالأنبياء فی هدايتهم للبشر، و المعلمين فی تعليمهم، و الكرماء فی بذلهم و عطائهم، و الأطباء فی علاجهم للمرضی و تطبيبهم للمصابين، إنّما هی فی الأصل من ذاته المقدسة. و بعبارة اخری: حمد هؤلاء هو حمد للّه، و الثناء عليهم ثناء علی اللّه تعالی.

و هكذا الشمس حين تغدق علينا بأشعتها، و السحب بأمطارها، و الأرض ببركاتها، كلّ ذلك منه سبحانه، و لذلك فكلّ الحمد له.

و بكلمة أخری: جملة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ إشارة إلی توحيد الذات، و الصفات، و الأفعال (تأمّل بدقة).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸

۲- وصف (اللّه) بأنّه (ربّ العالمين) هو من قبيل ذكر الدليل بعد ذكر الادعاء، و كأنّ سائلا يقول: لم كان حمد للّه؟ فيأتی الجواب:

لأنّه (رب العالمين).

و فی موقع آخر يقول القرآن عن البارى سبحانه: الَّذِی أَحْسَنَ كُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ ...[۴۲].

و يقول أيضا: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها[۴۳].

۳- يستفاد من (الحمد) أن اللّه سبحانه واهب النعم عن إرادة و إختيار، خلافا لأولئك القائلين إنّ اللّه تعالى مجبر على أن يفيض بالعطاء كالشمس!! ۴- جدير بالذكر أن الحمد ليس بداية كل عمل فحسب، بل هو نهاية كل عمل أيضا كما يعلمنا القرآن.

يقول سبحانه عن أهل الجنة: دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ، وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ۴۴].

۵- أما كلمة «ربّ» ففى الأصل بمعنى مالك و صاحب الشىء الذى يهتم بتربيته و إصلاحه. و كلمة «ربيبة» و هى بنت الزوجة، و مأخوذة من هذا المفهوم للكلمة. لأن الربيبة تعيش تحت رعاية زوج أمّها.

و الكلمة بلفظها المطلق تعنى ربّ العالمين، و إذا أطلقت على غير اللّه لزم أن تضاف، كأن نقول: ربّ الدار، و ربّ السفينة[۴۵].

و ذكر صاحب تفسير (مجمع البيان) معنى آخر للرب، و هو السيد المطاع، و لكن لا يبعد أن يعود المعنيان إلى أصل واحد[۴۶].

۶- كلمة «عالمين» جمع «عالم»، و العالم: مجموعة من الموجودات المختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۹

ذات صفات مشتركة، أو ذات زمان و مكان مشتركين، كأن نقول: عالم الإنسان، و عالم الحيوان، و عالم النبات. أو نقول عالم الشرق و عالم الغرب، و عالم اليوم، و عالم الأمس. فكلمة العالم وحدها تتضمن معنى الجمع، و حين تجمع بصيغة «عالمين»، فيقصد منها كل مجموعات هذا العالم.

و يلفت النظر هنا أن كلمة عالم جمعت هنا جمعا مذكرا سالما، و نعرف أن جمع المذكر السالم يستعمل فى العاقل عادة، و من هنا ذهب بعض المفسرين إلى أن كلمة «عالمين» إشارة إلى المجموعات العاقلة فى الكون كالبشر، و الملائكة، و الجن، و لكن قد يكون هذا الاستعمال للتغليب، أى لتغليب المجموعات العاقلة على غير العاقلة.

۷- يقول صاحب المنار: (و

يؤثر عن جدنا الإمام جعفر الصادق عليه السّلام أن المراد ب (العالمين) النّاس فقط)[۴۷].

ثم يضيف: و قد وردت كلمة (العالمين) فى القرآن الكريم أيضا بهذا المعنى كقوله: لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً[۴۸].

و لكن، لو استعرضنا مواضع استعمال (عالمين) فى القرآن، لرأينا أن هذه الكلمة وردت فى كثير من الآيات بمعنى بنى الإنسان، بينما وردت فى مواضع اخرى بمعنى أوسع يشمل البشر و سائر موجودات الكون الاخرى، كقوله تعالى:

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ ۴۹] و كقوله سبحانه: قالَ فِرْعَوْنُ: وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ؟ قالَ: رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا[۵۰].

و

عن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام فى تفسير (ربّ العالمين) قال: «ربّ العالمين هم الجماعات من كلّ مخلوق من الجمادات و الحيوانات»[۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰

كلمة عالمين يمكن فهمها فى إطارها الكونى الأوسع، و يمكن فهمها فى إطار عالم (الإنسان)- كما

ورد فى رواية الإمام زين العابدين عليه السّلام، لأن الكائن البشرى أشرف المخلوقات، و لأنّ الإنسان هو الهدف الأساس من هذه المجموعة الكبرى و ليس بين الفهمين أى تناقض.

۸- جدير بالذكر أن هناك من قسّم العالم إلى: عالم صغير و عالم كبير، و المقصود من العالم الصغير هو الإنسان، لأنه لوحده ينطوى

علی مجموعة من نفس القوی المتحکمة فی هذا الکون الفسیح. و الإنسان- فی الواقع- عینیّة مصغرة لکل هذا العالم.
الذی دعانا إلی التوسّع فی مفهوم کلمة (العالم) هو أن عبارة «ربّ العالمین» جاءت و کأنّها دلیل علی عبارة (الحمد للّه)، أی أننا نقول فی سورة الفاتحة: إن الحمد مختص باللّه تعالی لأنه صاحب کل کمال و نعمة و موهبة فی العالم.

بحثان

١- رفض الآلهة:

شهد التاریخ البشری ألوان الانحرافات عن خط التوحید، و الصفة البارزة فی هذه الانحرافات هو الاعتقاد بوجود آلهة متعددة لهذا العالم، و فکرة التعدد انطلقت من ضیق نظرة أصحابها الذین راحوا یعیّنون لکل جانب من جوانب الکون و الحیاة إلها، و کأنّ ربوبیّة العالمین لا یمکن إناطتها لمصدر واحد!! و راحت بعض الأمم تصنع الآلهة لأمور جزئیة کالحب و العقل و التجارة و الحرب و الصید.
الیونانیّون مثلا کانوا یعبدون اثنتی عشرة الهة وضعوها علی قمة (أولمب)
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١، ص: ۴۱
و کل واحدة منها تمثل جانبا من صفات البشر!![۵۲].
و الکلدانیّون اعتقدوا بإله الماء و إله القمر و إله الشمس و إله الزهرة، و أطلقوا علی کل واحد منها اسما معینا، و اتخذوا فوق ذلک «مردوخ» إلها أکبر لهم.
و الروم تعددت آلهتهم أیضا، و راج سوق الشرک عندهم أکثر من أیة أمّة اخری. فقد قسموا الآلهة إلی مجموعتین: آلهة الأسرة و آلهة الحکومة. و لم یکونوا یکنون ولاء لآلهة الحکومة، (لعدم ارتیاحهم من حکومتهم!).
و قد ورد فی التاریخ أن الروم اتخذوا لهم ثلاثین ألف إلها حتی قال أحد رجالهم مازحا: إن عدد الهتنا من الکثرة إلی درجة أنها اکثر من المارّة فی الأزقة و الطرقات، و کلّ واحد منها مظهر من مظاهر الکون المشهودة، إله مثل إله الزراعة، و إله المطبخ، و إله مستودع الطعام، و إله البیت، و إله النار، و إله الفاکهة، و إله الحصاد، و إله شجرة العنب، و إله الغابة، و إله الحریق، و إله بوابة روما، و إله بیت النار[۵۳].
و للخلاصة، أن البشریة کانت غارقة فی و حل الخرافات کما أنها تعانی الآن أیضا من ذلک الموروث السقیم.
و فی عصر نزول القرآن کان فی الجزیرة العربیة و فی کثیر من مناطق العالم، آلهة تعبد من دون اللّه، کما کانت عبادة الأفراد رائجة، و إلی ذلک یشیر القرآن فی خطابه للیهود و النصاری إذ یقول: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ۵۴].
بعبارة موجزة: حین تنحرف البشریة عن خط التوحید، و تتورط فی شراک الخرافات و فخاخ الأوهام. فمضافا الی أنها تساهم فی تغریب العقل و انحطاط الفکر، تؤدی الی تشتت المجتمع و تعمل علی تمزیقه.
خط التوحید الذی دعا إلیه الأنبیاء یتمیز بنبذ الآلهة المتعددة، و هدایة
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١، ص: ۴۲
البشریة نحو الإله الواحد الأحد، و انطلاقا من هذه الأهمیة القصوی للقضاء علی الآلهة المتعددة جاء التأکید القرآنی بعد آیة البسملة بقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ
و بهذا یرسم القرآن الکریم خط البطلان علی جمیع الآلهة المزیفة و ارباب النوع و یلقی بها فی وادی العدم مکانها الاوّلی، و یغرس محلّها أزهار التوحید و الاتحاد.

هذا التأکید یتلوه الإنسان المسلم عشر مرات فی صلواته الیومیة- علی الأقل- لتترسخ فکرة التوحید، و فکرة رفض ربوبیة کل الأرباب و الآلهة، غیر ربوبیّة اللّه ربّ العالمین.

۲- ربوبیة اللّه طریق لمعرفة اللّه

کلمة (الربّ)، و إن کانت تعنی فی الأصل المالک و الصاحب، تتضمّن معنی الصاحب المتعهّد بالتربیة.
إمعان النظر فی المسیرة التکاملیة للموجودات الحیّة، و فی التغییرات و التحولات التی تجری فی عالم الجماد، و فی الظروف التی تتوفّر لتربیة الموجودات، و فی تفاصیل هذه الحرکات و العملیات، هو أفضل طریق لمعرفة اللّه.
و التنسیق اللاإرادی بین أعضاء جسدنا هو نموذج حیّ لذلک.
لو واجهنا فی حیاتنا- مثلا- حادثة هامّة تتطلب منّا أن ننهض أمامها بقوة و حزم، فإنّ أوامر منسّقة تصدر خلال لحظة قصیرة إلی جمیع أجزاء جسدنا بشکل لا إرادی. و بسرعة خاطفة یشتد ضربان قلبنا و تنفسنا، و تتجهز کل قوانا، و تتدفق المواد الغذائیة و الأوکسجین- المحمولة عن طریق الدم- إلی جمیع الخلایا، و تتأهب الأعصاب و العضلات للعمل و الحرکة السریعة، و ترتفع قدرة تحمّل الإنسان للمتاعب و الآلام، و یغادر النوم العیون، و یزول التعب من الأعضاء،
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳
و یزول الإحساس بالجوع.
من الذی أوجد هذا التنسیق العجیب فی هذه اللحظة الحساسة، و بهذه السرعة، بین جمیع أجزاء وجود الإنسان؟ هل هذه العنایة و التربیة ممکنة من غیر اللّه العالم القادر؟! آیات القرآن الکریم تکثر من عرض نماذج لهذه التربیة الإلهیة، سنتعرض لها فی مکانها إن شاء اللّه تعالی، و کل واحدة منها دلیل واضح علی معرفة اللّه.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴

الآیة [سورة الفاتحة (۱): آیة ۳]

اشارة

الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ (۳)

التّفسیر

معنی (الرّحمن) و (الرّحیم) و اتساع مفهومهما و الفرق بینهما، شرحناه فی تفسیر البسملة، و لا حاجة إلی التکرار. و ما نضیفه هنا هو أن هاتین الصفتین تتکرران فی البسملة و الحمد، «و الملتزمون» بذکر البسملة فی السّورة بعد الحمد یکررون هاتین الصفتین فی صلواتهم الیومیة الواجبة ثلاثین مرّة. و بذلک یصفون اللّه برحمته ستین مرّة یومیا.
و هذا فی الواقع درس لکل جماعة بشریة سائرة علی طریق اللّه، و تواقة للتخلق بأخلاق اللّه. إنه درس یبعد البشریة عن تلک الحالات التی شهدها تاریخ الرق فی ظل القیاصرة و الأکاسرة و الفراعنة.
القرآن یرکز علی علاقة الرحمة و الرأفة بین ربّ العباد و العباد، حیث یقول:
قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً[۵۵].

هذه العلاقة نستحضرها مرات یومیا إذ نقول: الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ لنربّی أنفسنا تربیة صحیحة فی علاقتنا باللّه، و فی علاقتنا بأبناء جنسنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۵

الآیة [سورة الفاتحة (۱): آیة ۴]

اشارة

مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ (۴)

التّفسیر

الرّکیزة الثّانیة: الإیمان بیوم القیامة

هـذه الآیـة تلفت الأنظار إلی أصـل هامّ آخر من أصول الإسـلام، هو یوم القیامـة: مالِکِ یَوْمِ الـدِّینِ و بـذلک یکتمل محور المبـدأ و المعاد، الذی یعتبر أساس کل إصلاح أخلاقی و اجتماعی فی وجود الإنسان.

تعبیر (مالک) یوحی بسیطرة اللّه التامة و هیمنته المسـتحکمة علی کل شـیء و علی کل فرد فی ذلک الیوم، حیث تحضـر البشریة فی تلک المحکمـة الکبری للحساب، و تقف أمام مالکها الحقیقی للحساب، و تری کل ما فعلته و قالته، بل و حتی ما فکرت به، حاضـرا، فلا یضـیع أی شـیء- مهما صـغر- و لا ینسـی، و الإنسان- وحـده- یحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج کل سـنّة اسـتنّها فی الأرض أو مشروع أقامه.

مالکیة اللّه فی ذلک الیوم دون شک لیست ملکیة اعتباریة، نظیر ملکیتنا للأشیاء فی هذا العالم، ملکیتنا هذه عقد یبرم بموجب تعامل و وثائق، و ینفسخ بموجب تعامل آخر و وثائق اخری، لکن ملکیة اللّه لعالم الکون ملکیة حقیقیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۶

تتمثل فی ارتباط الموجودات ارتباطا خاصا باللّه. و لو انقطع هذا الارتباط لحظة لزالت الموجودات تماما مثل زوال النور من المصابیح الکهربائیة، حین ینقطع اتصالها بالمولّد الکهربائی.

بعبـارة اخری: مالکیـة اللّه نتیجـة خالقیته و ربوبیته. فالـذی خلق الموجودات و رعاها و ربّاها، و أفاض علیها الوجود لحظـة بلحظـة، هو المالک الحقیقی للموجودات.

نسـتطیع أن نری نموذجـا مصـغرا للمالکیـة الحقیقیـة، فی مالکیتنـا لأعضـاء بـدننا، نحن نملـک مـا فی جسـدنا من عین و أذن و قلب و أعصاب، لا بالمعنی الاعتباری للملکیة، بل بنوع من المعنی الحقیقی القائم علی أساس الارتباط و الإحاطة.

و قد یسأل سائل فیقول: لماذا وصفنا اللّه بأنه مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ بینما هو مالک الکون کله؟

و الجواب هو أنّ اللّه مالک لعالم الـدنیا و الآخرة، لکن مالکیته لیوم القیامة أبرز و أظهر، لأن الارتباطات المادیة و الملکیات الاعتباریة تتلاشی کلها فی ذلک الیوم، و حتی الشفاعة لا تتم یومئذ إلا بأمر اللّه: یَوْمَ لا تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَیْئاً وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۵۶].

بتعبیر آخر: قد یسارع الإنسان فی هذه الدنیا لمساعدة إنسان آخر، و یدافع عنه بلسانه، و یحمیه بأمواله، و ینصره بقدرته و أفراده، و قد یشـمله بحمـایته من خلاـل مشـاریع و مخططات مختلفـة، لکن هـذه الألوان من المساعـدات غیر موجودة فی ذلک الیوم. من هنا حین یوجه هذا السؤال إلی البشر: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ یجیبون: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ[۵۷].

الإیمان بیوم القیامة، و بتلک المحکمة الإلهیة الکبری التی یخضع فیها کل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷

شىء للاحصاء الدقيق، له الأثر الكبير فى ضبط الإنسان أمام الزلات، و وقايته من السقوط فى المنحدرات، و أحد أسباب قدرة الصلاة على النهى عن الفحشاء و المنكر هو أنها تـذكر الإنسان بالمبـدأ المطّلع على حركاته و سكناته و تـذكّره أيضا بمحكمة العدل الإلهى الكبرى.

التركيز على مالكيـة اللّه ليوم القيامـة يقارع من جهـة اخرى معتقدات المشـركين و منكرى المعاد، لأن الإيمان باللّه عقيدة فطرية عامة، حتى لدى مشـركى العصر الجاهلى، و هذا ما يوضحه القرآن إذ يقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۵۸] بينما الإيمان بالمعاد ليس كـذلك، فهؤلاء المشـركون كانوا يواجهون مسألة المعاد بعناد و اسـتهزاء و لجاج: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ[۵۹].

و روى عن على بن الحسين السجاد عليه السّلام: «أنّه كان إذا قرأ مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ يكرّرها حتّى يكاد أن يموت»[۶۰].

أمـا تعـبير يَوْمِ الـدِّينِ فحيثمـا ورد فى القرآن يعنى يوم القيامـة، و تكرر ذلـك فى أكـثر من عشـرة مواضع من كتـاب اللّه العزيز، و فى الآيات ۱۷ و ۱۸ و ۱۹ من سورة الإنفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

و أما سـبب تسـمية هـذا اليوم بيوم الـدين، فلأن يوم القيامـة يوم الجزاء، و (الدين) فى اللغة (الجزاء)، و الجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففى ذلك اليوم تكشف السرائر و يحاسب النّاس عما فعلوه بدقة، و يرى كل فرد جزاء ما عمله صالحا أم طالحا.

و

فى حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام يقول: «يوم الدّين هو يوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸

الحساب»[۶۱]

(و الـدين) اسـتنادا إلى هـذه الروايـة يعنى (الحسـاب)، و قـد يكون هـذا التعبير من قبيل ذكر العلّة و إرادة المعلول. لأن الحساب دوما مقدمة للجزاء.

من المفسّـرين من يعتقد أن سـبب تسـمية يَوْمِ الدِّينِ يعود إلى أن كل إنسان يوم القيامة يجازى إزاء دينه و معتقده. لكن المعنى الأول (الحساب و الجزاء) يبدو أقرب إلى الصحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۵]

اشارة

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵)

التّفسير

الإنسان بين يدى اللّه

فى هذه الآية يتغيّر لحن السّورة، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربّه و التضرّع إليه.

الآیات السابقـة دارت حول حمـد اللّه و الثناء علیه، و الإقرار بالإیمان و الاعتراف بیوم القیامـة، و فی هـذه الآیـة یستشـعر الإنسان- بعد رسوخ أساس العقیدة و معرفة اللّه فی نفسه حضوره بین یدی اللّه ... یخاطبه و یناجیه، یتحدث إلیه أولا عن تعبّده، ثم یستمد العون منه وحده دون سواه: إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ

بعبارة اخری: عنـد ما تتعمق مفاهیم الآیات السابقـة فی وجود الإنسان، و تتنّور روحه بنور ربّ العالمین، و یـدرک رحمـة اللّه العامة و الخاصـة، و مالکیته لیوم الجزاء، یکتمل الإنسان فی جانبه العقائـدی. و هـذه العقیدة التوحیدیة العمیقة، ذات عطاء یتمثّل أوّلا: فی تربیة الإنسان العبد الخالص للّه، المتحرر من العبودیة للآلهة الخشبیة و البشـریة و الشـهویة، و یتجلّی ثانیا: فی الاستمداد من ذات اللّه تبارک و تعالی.

الآیات السابقة تحدثت فی الحقیقة عن توحید الذات و الصفات، و هذه الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰

تتحدّث عن توحید العبادة و توحید الأفعال.

توحیـد العبادة: یعنی الاعتراف بأن اللّه سـبحانه هو وحـده اللائق بالعبادة و الطاعـة و الخضوع، و بالتشـریع دون سواه، کما یعنی تجنب أیّ نوع من العبودیة و التسلیم، لغیر ذاته المقدسة.

و توحیـد الأفعال: هو الإیمان بأن اللّه هو المؤثّر الحقیقی فی العالم (لا مؤثّر فی الوجود إلّا اللّه). و هذا لا یعنی إنکار عالم الأسـباب، و تجاهل المسببات، بل یعنی الإیمان بأن تأثیر الأسباب، إنّما کان بأمر اللّه، فاللّه سبحانه هو الذی یمنح النار خاصیة الإحراق، و الشمس خاصیة الإنارة، و الماء خاصیة الإحیاء.

ثمرة هـذا الاعتقاد أن الإنسان یصـبح معتمدا علی (اللّه) دون سواه، و یری أن اللّه هو القادر العظیم فقط، و یری ما سواه شـبحا لا حول له و لا قوّة، و هو وحده سبحانه اللائق بالاتکال و الاعتماد علیه فی کل الأمور.

هـذا التفکیر یحرر الإنسـان من الانشـداد بـأی موجود من الموجودات، و یربطه بـاللّه وحـده. و حتی لو تحرک هـذا الإنسـان فی دائرة استنطاق عالم الأسباب، فإنما یتحرّک بأمر اللّه تعالی، لیری فیها تجلّی قدرة اللّه، و هو «مسبّب الأسباب».

هذا المعتقد یسمو بروح الإنسان و یوسّع آفاق فکره، لیرتبط بالأبدیة و اللانهایة، و یحرر الکائن البشری من الأطر الضیقة الهابطة.

بحوث

۱- هو المستعان وحده

تقدم المفعول علی الفاعل یفید الحصر- کما یذکر أصحاب اللغة- و تقدم «إیّاک» علی «نعبد» یدلّ علی الحصر، أی أننا نعبدک دون سواک، و نتیجة هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۱

الحصر، هو توحید العبادة و توحید الأفعال.

نعم، نحن محتـاجون إلی عونه حتی فی العبودیـة و الطاعـة، و لـذلک ینبغی أن نسـتعین به فی ذلک أیضا، کی لا تتسـرب إلی أنفسـنا أوهام العجب و الریاء و أمثالها من الانحرافات التی تجهض عبودیتنا.

بعبارة اخری: حین نقول إِیَّاکَ نَعْبُدُ فان هذه الجملة یشم منها رائحة الاسـتقلالیة، لذلک نتبعها مباشرة بعبارة إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ کی نجسّم حالة الأمر بین الأمرین (لا جبر و لا تفویض)، فی عباداتنا، و من ثمّ فی کل أعمالنا.

۲- استعمال صيغ الجمع فى تعبير الآيات

كلمة «نعبد» و «نستعين» بصيغة الجمع تشير إلى أن العبادة- خاصة الصلاة- تقوم على أساس الجمع و الجماعة. و على العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع و الجماعة، حتى حين يقف متضرّعا بين يدى اللّه، فما بالك فى المجالات الاخرى! و هذا الاتجاه فى العبادة يعنى رفض الإسلام لكل ألوان الفردية و الانعزال.
الصلاة خاصة- ابتداء من اذانها و إقامتها حتى تسليمها- تدل على أن هذه العبادة هى فى الأصل ذات جانب اجتماعى، أى أنها ينبغى أن تؤدّى بشكل جماعة، صحيح أن الصلاة فرادى صحيحة فى الإسلام، لكن العبادة الفردية ذات طابع فرعى ثانوى.

۳- الاستعانة به فى كل الأمور

يواجه الإنسان فى مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (فى نفسه)، و خارجية (فى مجتمعه)، و يحتاج فى مقاومة هذه القوى المضادة إلى العون و المساعدة، و من هنا يلزم على الإنسان عند ما ينهض صباحا أن يكرر عبارة
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ليعترف بعبوديته للّه سبحانه، و ليستمد العون منه فى مسيرته الطويلة الشاقة. و عند ما يجنّ عليه الليل لا يستسلم للرقاد إلّا بعد تكرار هذه العبارة أيضا. و الإنسان المستعين حقّا، هو الذى تتضاءل أمام عينيه كلّ القوى المتجبّرة المتغطرسة. و كل الجواذب المادية الخادعة، و ذلك ما لا يكون إلّا حينما يرتفع الإنسان إلى مستوى القول: إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ۶۲].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۶]

اشارة

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۶)

التّفسير

السير على الصراط المستقيم

بعد أن يقرّ الإنسان بالتسليم لربّ العالمين، و يرتفع إلى مستوى العبودية للّه و الاستعانة به تعالى، يتقدّم هذا العبد بأول طلب من بارئه، و هو الهداية إلى الطريق المستقيم، طريق الطّهر و الخير، طريق العدل و الإحسان، طريق الإيمان و العمل الصالح، ليهبه اللّه نعمة الهداية كما وهبه جميع النعم الاخرى.
الإنسان فى هذه المرحلة مؤمن طبعا و عارف بربّه، لكنه معرّض دوما بسبب العوامل المضادة إلى سلب هذه النعمة و الانحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاما أن يكرر عشر مرات فى اليوم على الأقل طلبه من اللّه أن يقيه العثرات و الانحرافات.

أضف إلى ما تقدم أن الصراط المستقيم هو دين اللّه، و له مراتب و درجات لا يستوى فى طيّها جميع النّاس، و مهما سما الإنسان فى مراتبه، فثمّـة مراتب اخرى أبعـد و أرقى، و الإنسان المؤمن توّاق دوما إلى السير الحثيث على هـذا السلّم الارتقائى، و عليه أن يستمد العون من اللّه فى ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۴

ثمة سؤال يتبادر إلى الأذهان عن سبب طلبنا من اللّه الهداية إلى الصراط المستقيم، ترى هل نحن ضالون كى نحتاج إلى هذه الهداية؟ و كيف يصدر مثل هذا الأمر عن المعصومين و هم نموذج الإنسان الكامل؟! و فى الجواب نقول:

أوّلا- الإنسان معرض فى كل لحظة إلى خطر التعثر و الانحراف عن مسير الهداية- كما أشرنا إلى ذلك- و لهذا كان على الإنسان تفويض أمره إلى اللّه، و الاستمداد منه فى تثبيت قدمه على الصراط المستقيم.

ينبغى أن نتذكر دائما أن نعمة الوجود و جميع المواهب الإلهية، تصلنا من المبدأ العظيم تعالى لحظة بلحظة. و ذكرنا من قبل أننا و جميع الموجودات (بلحاظ معين) مثل مصابيح كهربائية، النور المستمر فى هذه المصابيح يعود إلى وصول الطاقة إليها من المولد الكهربائى باستمرار. فهذا المولّد ينتج كل لحظة طاقة جديدة و يرسلها عن طريق الأسلاك إلى المصابيح لتتحول إلى نور.

وجودنا يشبه نور هذه المصابيح. هذا الوجود، و إن بدا ممتدا مستمرا، هو فى الحقيقة وجود متجدّد يصلنا باستمرار من مصدر الوجود الخالق الفيّاض.

هذا التجدّد المستمر فى الوجود، يتطلب باستمرار هداية جديدة، فلو حدث خلل فى الأسلاك المعنوية التى تربطنا باللّه، كالظلم و الإثم و ... فإن ارتباطنا بمنبع الهداية سوف ينقطع، و تزيغ أقدامنا فورا عن الصراط المستقيم.

نحن نتضرّع إلى اللّه فى صلواتنا أن لا يعترى ارتباطنا به مثل هذا الخلل، و أن نبقى ثابتين على الصراط المستقيم.

ثانيا: الهداية هى السير على طريق التكامل، حيث يقطع فيه الإنسان تدريجيا مراحل النقصان ليصل إلى المراحل العليا. و طريق التكامل- كما هو معلوم- غير محدود، و هو مستمر الى اللانهاية.

ممّا تقدّم نفهم سبب تضرّع حتى الأنبياء و الأئمة عليهم السّلام للّه تعالى أن يهديهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۵

الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ فالكمال المطلق للّه تعالى، و جميع ما سواه يسيرون على طريق التكامل، فما الغرابة فى أن يطلب المعصومون من ربّهم درجات أعلى؟! نحن نصلّى على محمّد و آل محمّد، و الصلاة تعنى طلب رحمة إلهية جديدة لمحمّد و آل محمّد، و مقام أعلى لهم.

و الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: رَبِّ زِدْنِي عِلْماً[۶۳].

و القرآن الكريم يقول: وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ۶۴].

و يقول: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ ۶۵].

و لمزيد من التوضيح نذكر الحديثين التاليين:

۱-

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام، قال فى تفسير اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

أى: «أدم لنا توفيقك الّذى أطعناك به فى ما مضى من أيّامنا، حتّى نطيعك فى مستقبل أعمارنا»[۶۶].

۲-

و قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «يعنى أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّى إلى محبّتك، و المبلّغ إلى جنّتك، و المانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك»[۶۷].

ما هو الصّراط المستقيم؟

هذا الصّراط كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم هو دين التوحيد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۶

و الالتزام بأوامر اللّه. و لكنه ورد فى القرآن بتعابير مختلفة.

فهو الدين القيم و نهج إبراهيم عليه السّلام و نفى كل أشكال الشّرك كما جاء فى قوله تعالى: قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۶۸]، فهذه الآية الشريفة عرّفت الصراط المستقيم من جنبة ايديولوجية.

و هو أيضا رفض عبادة الشيطان و الاتجاه إلى عبادة اللّه وحده، كما فى قوله:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ۶۹]، و فيها إشارة إلى الجنبة العملية للدين.

أمّا الطريق إلى الصراط المستقيم فتمّ من خلال الاعتصام باللّه: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ۷۰].

يلزمنا أن نذكر أنّ الطريق المستقيم هو طريق واحد لا أكثر، لأنه لا يوجد بين نقطتين أكثر من خطّ مستقيم واحد، يشكل أقصر طريق بينهما. من هنا كان الصراط المستقيم فى المفهوم القرانى، هو الدين الإلهى فى الجوانب العقائدية و العملية، ذلك لأن هذا الدين أقرب طريق للارتباط باللّه تعالى. و من هنا أيضا فإن الدين الحقيقى واحد لا أكثر إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ ۷۱].

و سنرى فيما بعد- إن شاء اللّه- أن للإسلام معنى واسعا يشمل كل دين توحيدى فى عصره، أى قبل أن ينسخ بدين جديد.

من هذا يتضح أن التفاسير المختلفة للصراط المستقيم، تعود كلها إلى معنى واحد.

فقد قالوا: إنه الإسلام.

و قالوا: إنه القرآن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص۵۶

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۷

و قالوا: إنه الأنبياء و الأئمة.

و قالوا: إنه دين اللّه، الذى لا يقبل سواه.

و كل هذا المعانى تعود إلى نفس الدين الإلهى فى جوانبه الاعتقادية و العملية.

و الروايات الموجودة فى المصادر الإسلامية فى هذا الحقل، تشير إلى جوانب متعددة من هذه الحقيقة الواحدة، و تعود جميعا إلى أصل واحد منها:

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «اهدنا الصّراط المستقيم صراط الأنبياء، و هم الّذين أنعم اللّه عليهم ۷۲].

و عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير الاية: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ قال: «الطّريق هو معرفة الإمام»[۷۳].

و عنه أيضا: «و اللّه نحن الصّراط المستقيم»[۷۴].

و عنه أيضا: «الصّراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السّلام»[۷۵].

و من الواضح أن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، دعوا جميعا إلى دين التوحيد الإلهى، و الالتزام به عقائديا و عمليا.

و اللافت للنظر، أنّ «الراغب» يقول فى مفرداته فى معنى الصراط: إنّه الطريق المستقيم، فكلمة الصراط تتضمّن معنى الاستقامة. و وصفه بالمستقيم كذلك تأكيد على هذه الصفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۸

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۷]

اشارة

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لا الضَّالِّينَ (۷)

التّفسير

خطّان منحرفان!

هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور فى الآية السابقة، إنّه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، و نعمة التوفيق، و نعمة القيادة الصالحة، و نعمة العلم و العمل و الجهاد و الشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهى بسبب سوء فعالهم و زيغ قلوبهم، و لا الضائعين التائهين عن جادة الحق و الهدى:

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ

و لأننا لسنا على معرفة تامّة بمعالم طريق الهداية، فإن اللّه تعالى يأمرنا فى هذه الكريمة أن نطلب منه هدايتنا إلى طريق الأنبياء و الصالحين من عباده:

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و يحذّرنا كذلك بأن أمامنا طريقين منحرفين، و هما طريق الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ و طريق الضَّالِّينَ و بذلك يتبين للإنسان طريق الهداية بوضوح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۹

بحثان

۱- من هم الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

الذين أنعم اللّه عليهم، تبيّنهم الآية الكريمة من سورة النساء إذ يقول: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً[۷۶].

و الآية- كما هو واضح- تقسم الذين أنعم اللّه عليهم على أربع مجاميع:

الأنبياء، و الصديقين، و الشهداء، و الصالحين.

لعل ذكر هذه المجاميع الأربع، إشارة إلى المراحل الأربع لبناء المجتمع الإنسانى السالم المتطوّر المؤمن.

المرحلة الاولى: مرحلة نهوض الأنبياء بدعوتهم الإلهية.

المرحلة الثانية: مرحلة نشاط الصديقين، الذين تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، لنشر الدعوة.

المرحلۀ الثالثۀ: مرحلۀ الکفاح بوجه العناصر المضادۀ الخبیثۀ فی المجتمع.

و فی هذه المرحلۀ یقدم الشهداء دمهم لإرواء شجرۀ التوحید.

المرحلۀ الرابعۀ: هی مرحلۀ ظهور «الصالحین» فی مجتمع طاهر ینعم بالقیم و المثل الانسانیۀ باعتباره نتیجۀ للمساعی و الجهود المبذولۀ.

نحن- إذن- فی سورۀ الحمد نطلب من اللّه- صباحا و مساء- أن یجعلنا فی خط هذه المجامیع الأربع: خط الأنبیاء، و خط الصدیقین، و خط الشهداء، و خط الصالحین. و من الواضح أنّ علینا أن ننهض فی کل مرحلۀ زمنیّۀ بمسؤولیتنا و نؤدّی رسالتنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۰

۲- من هم الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ و من هم الضَّالِّینَ

یتضح من الآیۀ الکریمۀ أن الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ و الضَّالِّینَ مجموعتان لا مجموعۀ واحدۀ، و أما الفرق بینهما ففیه ثلاثۀ أقوال:

۱- یستفاد من استعمال التعبیرین فی القرآن أنّ «المغضوب علیهم» أسوأ و أحطّ من «الضّالّین»، أی إنّ الضّالین هم التائهون العادیّون، و المغضوب علیهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، و لذلک استحقوا لعن اللّه و غضبه.

قال تعالی: وَ لکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْکُفْرِ صَدْراً فَعَلَیْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ۷۷].

و قال سبحانه: وَ یُعَذِّبَ الْمُنافِقِینَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِکِینَ وَ الْمُشْرِکاتِ الظَّانِّینَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَیْهِمْ دائِرَۀُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۷۸].

الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ إذن یسلکون- إضافۀ إلی کفرهم- طریق اللجاج و العناد و معاداۀ الحق، و لا یألون جهدا فی توجیه ألوان التنکیل و التعذیب لقادۀ الدعوۀ الإلهیۀ.

یقول سبحانه: وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ... ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کانُوا یَکْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ یَقْتُلُونَ الْأَنْبِیاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ ذلِکَ بِما عَصَوْا وَ کانُوا یَعْتَدُونَ ۷۹].

۲- ذهب جمع من المفسرین إلی أن المقصود من الضَّالِّینَ المنحرفون من النصاری، و الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ المنحرفون من الیهود.

هذا الفهم ینطلق من مواقف هذین الفریقین تجاه الدعوۀ الإسلامیۀ. فالقرآن یصرّح مرارا أنّ المنحرفین من الیهود کانوا یکنون عداءا شدیدا و حقدا دفینا للإسلام.

مع أن علماء الیهود کانوا من مبشّری ظهور الإسلام، لکنهم تحوّلوا إلی أعداء ألدّاء للإسلام لدی انتشار الدعوۀ لأسباب عدیدۀ لا مجال لذکرها، منها تعرّض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۱

مصالحهم المادیۀ للخطر. (تماما مثل موقف الصهاینۀ الیوم من الإسلام و المسلمین).

تعبیر الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ ینطبق تماما علی هؤلاء الیهود، لکن هذا لا یعنی حصر مفهوم المغضوب علیهم بهذه المجموعۀ من الیهود، بل هو من قبیل تطبیق الکلی علی الفرد.

أما منحرفو النصاری فلم یکن موقفهم تجاه الإسلام یبلغ هذا التعنت، بل کانوا ضالین فی معرفۀ الحق. و التعبیر عنهم بالضالین هو أیضا من قبیل تطبیق الکلی علی الفرد.

الأحادیث الشریفۀ أیضا فسّرت الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ بالیهود، و الضَّالِّینَ بمنحرفی النصاری، و السبب فی ذلک یعود إلی ما ذکرناه ۸۰].

۳- من المحتمل أن الضَّالِّینَ إشارۀ إلی التائهین الذین لا یصرّون علی تضلیل الآخرین، بینما الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ هم الضالّون و المضلّون الذین یسعون إلی جرّ الآخرین نحو هاویۀ الانحراف.

الشاهد على ذلك حديث القرآن عن المغضوب عليهم بوصفهم: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۸۱] إذ يقول: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ[۸۲].

و يبدوا أن التّفسير الأول أجمع من التّفسيرين التاليين، بل إن التّفسيرين التاليين يتحركان على مستوى التطبيق للتفسير الأول. و لا دليل لتحديد نطاق المفهوم الواسع للآية.

و الحمد للّه رب العالمين (نهاية سورة الحمد)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۲

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۳

سورة البقرة

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها مائتان و ست و ثمانون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۴

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۵

سورة البقرة

محتوى سورة البقرة:

هذه السّورة أطول سور القرآن، و من المؤكد أنّها لم تنزل مرّة واحدة. بل في مناسبات عديدة، حسب متطلبات المجتمع الإسلامي في المدينة. و تتميز بشمولها لمبادئ العقيدة و لكثير من الأحكام العملية (العبادية، و الاجتماعية، و السياسية، و الاقتصادية). ففي هذه السّورة.

۱- موضوعات حول التوحيد و معرفة الخالق، عن طريق استنطاق أسرار الكون.

۲- جولات في عالم المعاد و البعث و النشور مقرونة بأمثلة حسيّة، مثل قصّة إبراهيم عليه السّلام و إحياء الطير، و قصّة عزير عليه السّلام.

۳- آيات ترتبط بإعجاز القرآن و أهمية كتاب اللّه العزيز.

۴- سرد مطوّل حول وضع اليهود و المنافقين و مواقفهم المعادية للقرآن و الإسلام و شدّة ضررهم في هذا المجال.

۵- استعراض لتاريخ الأنبياء، و خاصة إبراهيم و موسى عليهما السّلام.

۶- بيان لأحكام إسلامية مختلفة مثل: الصلاة، و الصوم، و الجهاد، و الحج، و القبلة، و الزواج و الطلاق، و التجارة و الدّين، و الربا، و الإنفاق، و القصاص، و تحريم بعض الأطعمة و الأشربة، و القمار، و ذكر نبذة من أحكام الوصية و أمثالها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۶

و أما تسميتها بالبقرة، فمأخوذة من قصّة بقرة بني إسرائيل، التي سيأتي شرحها في الآيات ۶۷- ۷۳ إن شاء اللّه.

فضيلة هذه السّورة:

وردت فی فضیلة هذه السّورة نصوص عدیدة فی المصادر الاسلامیة، منها:

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه سئل أیّ سور القرآن أفضل؟ قال: «البقرة» قیل: أیّ آیة البقرة أفضل؟ قال: «آیة الکرسیّ»[۸۳].

أفضلیة هذه السور تعود علی ما یبدو إلی جامعیتها. و أفضلیة آیة الکرسی تعود إلی محتواها التوحیدی، و سیأتی ذکر ذلک فی تفسیرها بإذن اللّه. و هذا لا یتنافی مع أفضلیة سور اخری من جهات اخری. و

روی علی بن الحسین علیهما السّلام عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال:

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «من قرأ أربع آیات من أوّل البقرة، و آیة الکرسیّ، و آیتین بعدها، و ثلاث آیات من آخرها، لم یر فی نفسه و ماله شیئا یکرهه و لا یقربه الشّیطان، و لا ینسی القرآن»[۸۴].

من اللازم هنا أن نعید التأکید علی هذه الحقیقة، و هی إنّ ما ذکر من ثواب و فضیلة و جزاء لتلاوة بعض السور و الآیات الخاصة، لا یعنی- إطلاقا- قراءتها بشکل أوراد، و لا الاکتفاء بتردید ألفاظها، بل التلاوة للفهم، و الفهم من أجل التفکیر، و التفکیر لغرض العمل.

و من الملاحظ أنّ کل فضیلة ذکرت لآیة أو سورة إنما تتناسب کثیرا مع محتوی السّورة و الآیة.

ففی فضیلة سورة النور ذکر أنّ من یواظب علی قراءتها یصونه اللّه و أولاده

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶۷

من (الزنا) و ذلک لأن محتوی هذه السّورة یتضمن تعالیم فی حقل مکافحة الانحرافات الجنسیة، مثل حث العزاب علی الزواج، و الأمر بالحجاب و غضّ الأبصار عما یثیر الشهوة، و التحذیر من إشاعة الفاحشة و القذف، و کذلک الأمر بإجراء الحد الشرعی علی الزانی و الزانیة.

و من الطبیعی أن محتوی هذه السّورة- إن دخل حیّز التنفیذ- یصون المجتمع و الأسرة من الزنا. و هکذا الآیات المذکورة من سورة البقرة، ستکون لها تلک الفضائل حتما إن قرأها الإنسان بامعان و تشبّعت نفسه بمحتواها، خاصة و أنّها جمیعا تدور حول محور التوحید و الإیمان بالغیب و معرفة اللّه، و الحذر من وساوس الشیطان.

صحیح أنّ قراءة القرآن عمل مثاب علیه فی أی حال من الأحوال، لکن الثواب الأساس یترتب علی التلاوة المقرونة بالتفکیر و العمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶۸

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱ الی ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
الم (۱) ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ (۲)

التّفسیر

تحقیق فی الحروف المقطعة فی القرآن

تسع و عشرون سورة من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة، و هذه الحروف- کما هو واضح من اسمها- لا تشکل کلمة مفهومة.

هـذه الحروف من أسـرار القرآن، و ذكر المفسـرون لهـا تفاسير عديـدة، و أضـاف لهـا العلماء المعاصـرون تفاسـير جديـدة من خلال تحقيقاتهم.

جـدير بالـذّكر أن التاريـخ لم يحـدثنا أنّ عرب الجاهلية و المشـركين عابوا على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم وجود هذه الحروف المقطعة فى القرآن. و لم يتخذوا منها وسـيلة للطعن و الاسـتهزاء. و هذا يشـير إلى أنهم لم يكونوا جاهلين تماما بأسرار وجود الحروف المقطعة.

اخترنا من التفاسـير الكثيرة لهذه الحروف، عددا من التفاسير باعتبار مسنديتها و انسجامها مع آخر الدراسات فى هذا المجال. و سنذكر هذه التفاسير بالتدريج فى بداية هذه السّورة، و سورة آل عمران، و سورة الأعراف، إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۹

و نبدأ الآن بأهمها:

هذه الحروف إشارة إلى أن هذا الكتاب السـماوى، بعظمته و أهميّته التى حيّرت فصـحاء العرب و غير العرب، و تحدت الجن و الإنس فى عصر الرسالة و كل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة فى متناول الجميع.

و مع أنّ القرآن يتكون من هـذه الحروف الهجائيـة و الكلمـات المتداولـة، فإن ما فيه من جمال العبارة و عمق المعنى يجعله ينفـذ إلى القلب و الروح، و يملأ النفس بالرضا و الإعجاب، و يفرض احترامه على الأفكار و العقول.

فى القرآن من الفصاحـة و البلاغـة ما لا يخفى على أحـد، و ليس هـذا مجرّد ادّعاء، فخالق الكون تحـدّى بهذا الكتاب جميع (الجن و الإنس)، ليأتوا بمثله وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً[۸۵]، و لكنهم عجزوا جميعا عن ذلك، و تلك دلالة على أن هذا الكتاب لم يصدر عن فكر بشر.

و كما إن اللّه تعالى خلق من التراب موجودات، كالإنسان بما فيه من أجهزة معقّـدة محيّرة، و كأنواع الطيور الجميلـة الرائقـة، و الأحياء المتنوعـة، و النباتات و الزهور المختلفـة، و كما إننا ننتـج من هـذا التراب نفسه ألوان المصـنوعات، كـذلك اللّه سـبحانه خلق من هذه الحروف الهجائيـة المتداولـة، موضوعات و معان سامية، فى قوالب لفظية جميلة، و عبارات موزونة، و أسـلوب خاص مدهش معجز، و هذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الإنسان، لكنه عاجز عن صنع جمل و عبارات شبيهة بالقرآن.

الأدب فى العصر الجاهلى:

من المهم أن نذكر هنا أن العصر الجاهلى كان عصرا ذهبيا للأدب العربى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷۰

فالوثائق المتوفرة بأيـدينا تشـير إلى أن العرب الحفاة الجفاة الجاهليين، كانوا يتمتعون بـذوق أدبى رفيع. و ما وصـلنا من شـعر و نثر من تلك الفترة، يشير إلى قدرة أولئك على التعبير الجميل الدقيق، و يحتل ذروة الفصاحة فى الأدب العربى.

و كـان للأدب سـوق رائجـة تـدلّ على اهتمـام العرب بلغتهم و آدابهم، و (سوق عكـاظ) و أمثالهـا من الأسـواق الأدبيـة تعكس هـذا الاهتمام بوضوح.

و السوق المـذكور كان يشـهد- إضافة إلى المعاملات الاقتصادية و القضايا الاجتماعيـة- حركة أدبية تعرض خلالها أفضل مقطوعات الشـعر و النثر، و يتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، و (المعلقات السبع) أو (العشـر) نموذج لذلك، و كانت القصيدة الفائزة تعدّ فخرا كبيرا للشاعر و لقبيلته.

فى مثـل هـذا العصـر من الانتعاش الأدبى، يتحـدى القرآن النّاس أن يأتوا بمثله، و لكنهـم عجزوا (سـنذكر مزيـدا من إعجاز القرآن فى

مجال التحدی لدی تفسیر الآیة ۲۳ من هذه السّورة).

شاهد ناطق:

الشاهد الناطق علی هذا المنحی من تفسیر الحروف المقطعة،
حدیث عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام حیث یقول: «کذّب قریش و الیهود بالقرآن و قالوا هذا سحر مبین، تقوّله، فقال اللّه: الم، ذلِکَ الْکِتابُ ...: أیّ یا محمّد، هذا الکتاب الّذی أنزلته إلیک هو الحروف المقطّعة الّتی منها الف و لام و میم، و هو بلغتکم و حروف هجائکم فأتوا بمثله إن کنتم صادقین ...»[۸۶].
و ثم شاهد آخر
عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی قوله: «ثمّ قال إنّ اللّه تبارک و تعالی انزل هذا القرآن بهذه الحروف الّتی یتداولها جمیع العرب، ثمّ قال:

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ ...[۸۷].
و هناک ملاحظة تؤید ما ذهبنا إلیه فی تفسیر معنی الحروف المقطعة، و هی أن هذه الحروف فی السور الأربع و العشرین التی ذکرناها، یتلوها مباشرة ذکر لعظمة القرآن، و هذا یدل علی الارتباط بین الحروف المقطعة و عظمة القرآن. و علی سبیل المثال نذکر الآیات التالیة:
۱- الر، کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ[۸۸].
۲- طس، تِلْکَ آیاتُ الْقُرْآنِ وَ کِتابٍ مُبِینٍ ۸۹].
۳- الم، تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْحَکِیمِ ۹۰].
۴- المص، کِتابٌ أُنْزِلَ إِلَیْکَ ۹۱].
بعد البسملة و ذکر الآیة الاولی من سورة البقرة یقول تعالی: ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ قد یشیر هذا التعبیر إلی أن اللّه تعالی وعد نبیّه أن ینزّل علیه کتابا یهتدی به من طلب الحق، و لا یشک فیه من کان له قلب أو ألقی السمع و هو بصیر، و ها هو سبحانه قد وفی بوعده الآن.
و قوله: لا رَیْبَ فِیهِ لیس ادعاء، بل تقریر لحقیقة قرآنیة مشهودة، هی إنّ القرآن یشهد بذاته علی حقّانیته. و بعبارة اخری فإن مظاهر الصدق و العظمة و الانسجام و الاستحکام و عمق المعانی و حلاوة الألفاظ و العبارات و فصاحتها من الوضوح بدرجة تبعد عنه کلّ شک.
من المشهود أن مرّ العصور و کرّ الدهور لم یقلل من طراوة القرآن، بل إن

حقائق القرآن، ازدادت وضوحا بتطور العلوم و بانکشاف أسرار الکائنات. و کلما ازداد العلم تکاملا ازدادت آیات القرآن جلاء و سطوعا.
و سنوضح هذه الحقیقة أکثر بإذن اللّه فی مواضع اخری من هذا التّفسیر.

بحوث

۱- لماذا الإشارة إلى البعيد؟

نعلم أن كلمة (ذلك) إشارة إلى البعيد فی لغة العرب، و قرب القرآن من أيدی النّاس يقتضی أن تكون الإشارة للقريب.
السبب فی استعمال اسم الإشارة للبعيد يعود إلى بيان سموّ القرآن و رفعته، حتى كأنه- فی عظمته- يحتل نقطة الذروة فی هذا الوجود.
و مثل هذا الاستعمال شائع فی سائر اللغات أيضا حين يراد الإشارة إلى شخص ذی منزلة كبيرة مثلا.
فی بعض مواضع القرآن وردت أيضا كلمة (تلك)، و هی اسم إشارة للبعيد أيضا، مثل: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ ۹۲]. و السبب فيه ما ذكرنا.

۲- معنى الكتاب:

«الكتاب» يعنی المكتوب و المخطوط، و لا شك أن المراد منه فی الآية كتاب اللّه الكريم.
و هنا يثار سؤال حول سبب استعمال كلمة الكتاب للقرآن و هو آنئذ لم يكتب كلّه.
و فی الجواب نقول: استعمال هذه الكلمة لا يستلزم أن يكون القرآن كله
الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷۳
مكتوبا. لإن اسم القرآن يطلق على كل هذا الكتاب، و على أجزائه أيضا.
أضف إلى ذلك أن «الكتاب» يطلق أحيانا بمعنى أوسع، ليشمل كل ما يليق أن يكتب فيما بعد، و إن لم يكن كذلك حين إطلاق اسم الكتاب عليه. ففی آية اخرى نقرأ: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ۹۳]. و من المؤكد أن القرآن لم يكن بشكل كتاب مدوّن بين النّاس قبل نزوله.
و ثمة احتمال آخر و هو إن التعبير بالكتاب يشير إلى كتابة القرآن فی «اللوح المحفوظ»[۹۴].

۳- ما هی الهداية؟

كلمة (الهداية) لها عدة معانی فی القرآن الكريم، و كلها تعود أساسا إلى معنيين:
۱- الهداية التكوينية: و هی قيادة رب العالمين لموجودات الكون، و تتجلى هذه الهداية فی نظام الخليقة و القوانين الطبيعية المتحكمة فی الوجود. و واضح أن هذه الهداية تشمل كل موجودات الكون.
يقول القرآن على لسان موسى عليه السّلام: رَبُّنَا الَّذِی أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى ۹۵].
۲- الهداية التشريعية: و هی التی تتم عن طريق الأنبياء و الكتب السماوية، و عن طريقها يرتفع الإنسان فی مدارج الكمال، و شواهدها فی القرآن كثيرة منها قوله تعالى: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا[۹۶].
الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷۴

۴- لماذا اختصت هداية القرآن بالمتقين؟

واضح أن القرآن هدایة للبشریة جمعاء، فلما ذا خصت الآیة الکریمة المتقین بهذه الهدایة؟

السبب هو أن الإنسان لا یتقبل هدایـة الکتب السـماویة و دعوة الأنبیاء، ما لم یصل إلی مرحلـة معینـة من التقوی (مرحلـة التسـلیم أمام الحق و قبول ما ینطبق مع العقل و الفطرة).

و بعبارة اخری: الأفراد الفاقدون للإیمان علی قسمین:

قسم یبحث عن الحق، و یحمل مقدارا من التقوی یدفعه لأن یقبل الحق أنّی وجده.

و قسم لجوج متعصب قد استفحلت فیه الأهواء، لا یبحث عن الحق، بل یسعی فی إطفاء نوره حیثما وجده.

و من المسلّم به أن أفراد القسم الأول هم الـذین یسـتفیدون من القرآن أو أیّ کتـاب سـماوی آخر، أما القسم الثانی فلا حظّ لهم فی ذلک.

و بعبارة ثالثة: کما إنّ «فاعلیّة الفاعل» شرط فی الهدایة التکوینیة و فی الهدایة التشریعیة، کذلک «قابلیة القابل» شرط فیهما أیضا.

الأرض السبخة لا تثمر و إن هطل علیها المطر آلاف المرات، فقابلیة الأرض شرط فی استثمار ماء المطر.

و ساحـة الوجود الإنسانی لا تتقبّل بـذر الهدایة ما لم یتمّ تطهیرها من اللجاج و التعصب و العناد. و لذلک قال سبحانه فی کتابه العزیز أنه: هُدیً لِلْمُتَّقِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷۵

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۳ الی ۵]

اشارة

الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْغَیْبِ وَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ (۳) وَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ یُوقِنُونَ (۴) أُولئِکَ عَلی هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵)

التّفسیر

آثار التقوی فی روح الإنسان و بدنه:

فی بدایة هذه السّورة قسم القرآن النّاس حسب ارتباطهم بخط الإسلام علی ثلاثة أقسام:

۱- المتقون: و هم الذین تقبّلوا الإسلام فی جمیع أبعاده.

۲- الکافرون: و یقعون فی النقطة المقابلة للمتقین، و یعترفون بکفرهم، و لا یأبون أن یظهروا عداءهم للإسلام فی القول و العمل.

۳- المنافقون: و لهم وجهان، فهم مسـلمون ظاهرا أمام المسـلمین، و کفّار أمام أعداء الدین. و شخصیتهم الأصلیة هی الکفر طبعا و إن تظاهروا بالإسلام.

المجموعة الثالثة تضر بالإسلام- دون شک- أکثر من المجموعة الثانیة، و لذلک فإن القرآن یقابلهم بشدّة أکثر کما سنری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷۶

هـذه المسألـة لا تختص بالإسـلام طبعا، کل المـذاهب فی العالم لها مؤمنون معتقدون، أو معارضون صـریحون، أو منافقون محافظون. کما أنها لا تختص بزمان معین، بل هی ساریة فی کل العصور.

الآیات المذکورة تدور حول المجموعة الاولی، و تطرح خصائصهم فی خمسة عناوین هی:

۱- الإیمان بالغیب:

«الغیب و الشهود» نقطتان متقابلتان، عالم الشهود هو عالم المحسوسات، و عالم الغیب هو ما وراء الحس. لأنّ «الغیب» فی الأصل یعنی ما بطن و خفی.

و قیل عن عالم ما وراء المحسوسات «غیب» لخفائه عن حواسّنا. التقابل بین العالمین مذکور فی آیات عدیدة کقوله تعالی: عالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِیمُ ۹۷].

الإیمان بالغیب هو بالضبط النقطة الفاصلة الاولی بین المؤمنین بالأدیان السماویة، و بین منکری الخالق و الوحی و القیامة. و من هنا کان الإیمان بالغیب أول سمة ذکرت للمتّقین.

المؤمنون خرقوا طوق العالم المادی، و اجتازوا جدرانه، إنّهم بهذه الرؤیة الواسعة مرتبطون بعالم کبیر لا متناه. بینما یصرّ معارضوهم علی جعل الإنسان مثل سائر الحیوانات، محصورا فی موقعه من العالم المادی. و هذه الرؤیة المادیة تقمّصت فی عصرنا صفات العلمیة و التقدمیة و التطوریة! لو قارنّا بین فهم الفریقین و رؤیتهما، لعرفنا أن: «المؤمنین بالغیب» یعتقدون أن عالم الوجود أکبر و أوسع بکثیر من هذا العالم المحسوس، و خالق عالم الوجود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷۷

غیر متناه فی العلم و القدرة و الإدراک، و أنّه أزلیّ و أبدیّ. و أنّه صمّم هذا العالم وفق نظام دقیق مدروس. و یعتقدون أنّ الإنسان- بما یحمله من روح إنسانیة- یسمو بکثیر علی سائر الحیوانات. و أنّ الموت لیس بمعنی العدم و الفناء، بل هو مرحلة تکاملیة فی الإنسان، و نافذة تطل علی عالم أوسع و أکبر.

بینما الإنسان المادی یعتقد أن عالم الوجود محدود بما نلمسه و نراه. و أن العالم ولید مجموعة من القوانین الطبیعیة العمیاء الخالیة من أی هدف أو تخطیط أو عقل أو شعور. و الإنسان جزء من الطبیعة ینتهی وجوده بموته، یتلاشی بدنه، و تندمج أجزاؤه مرّة اخری بالمواد الطبیعیة. فلا بقاء للإنسان، و لیس ثمّة فاصلة کبیرة بینه و بین سائر الحیوانات ۹۸]! ما أکبر الهوة التی تفصل بین هاتین الرؤیتین للکون و الحیاة! و ما أعظم الفرق بین ما تفرزه کل رؤیة، من حیاة اجتماعیة و سلوک و نظام! الرؤیة الاولی تربّی صاحبها علی أن ینشد الحق و العدل و الخیر و مساعدة الآخرین. و الثانیة، لا تقدّم لصاحبها أی مبرّر علی ممارسة الأمور اللهم إلّا ما عاد علیه بالفائدة فی حیاته المادیة. من هنا یسود فی حیاة المؤمنین الحقیقیین التفاهم و الإخاء و الطّهر و التعاون، بینما تهیمن علی حیاة المادیین روح الاستعمار و الاستغلال و سفک الدماء و النهب و السلب. و لهذا السبب نری القرآن یتخذ من «الإیمان بالغیب» نقطة البدایة فی التقوی.

یدور البحث فی کتب التّفسیر عن المقصود بالغیب، أهو إشارة إلی ذات الباری تعالی، أم أنه یشمل- أیضا- الوحی و القیامة و عالم الملائکة و کل ما هو وراء الحس؟ و نحن نعتقد أن الآیة أرادت المعنی الشامل لکلمة الغیب، لأن الإیمان بعالم ما وراء الحس- کما ذکرنا- أول نقطة افتراق المؤمنین عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷۸

الکافرین، إضافة إلی ذلک، تعبیر الآیة مطلق لیس فیه قید یحدده بمعنی خاص.

بعض الروایات المنقولة عن أهل البیت علیهم السّلام تفسّر الغیب فی الآیة، بالمهدی الموعود المنتظر (سلام اللّه علیه) و الذی نعتقد بحیاته و خفائه عن الأنظار، و هذا لا ینافی ما ذکرناه بشأن معنی الغیب، لأن الروایات الواردة فی تفسیر الآیات تبین غالبا مصادیق خاصة للآیات، دون أن تحدد الآیات بهذه المصادیق الخاصة، و سنری فی صفحات هذا التّفسیر أمثلة کثیرة لذلک. و الروایات

المذكورة بشأن تفسير معنى الغيب، تستهدف فى الواقع توسيع نطاق معنى الإيمان بالغيب، ليشمل حتى الإيمان بالمهدى المنتظر عليه السّلام و يمكننا القول أنّ الغيب له معنى واسع قد نجد له بمرور الزمن مصاديق جديدة.

۲- الارتباط باللّه:

الصفة الاخرى للمتقين هى أنهم يُقِيمُونَ الصَّلاةَ.

«الصّلاة» باعتبارها رمز الارتباط باللّه، تجعل المؤمنين المنفتحين على عالم ما وراء الطبيعة على ارتباط دائم بالخالق العظيم. فهم لا يحنون رؤوسهم إلّا أمام اللّه، و لا يستسلمون إلّا لرب السماوات و الأرض، و لذلك لا معنى فى قاموس حياتهم لعبادة الأوثان، أو التسليم أمام الجبابرة و الطواغيت.

مثل هذا الإنسان يشعر أنّه أسمى من جميع المخلوقات الاخرى، إذ أنّه منح لياقة الحديث مع ربّ العالمين، و هذا الإحساس الوجدانى أكبر عامل فى تربية الموجود البشرى.

الإنسان الذى يقف خمس مرات يوميّا أمام اللّه، يتضرع إليه و يناجيه، ينطبع فكره و عمله و قوله بطابع إلهى، و مثل هذا الإنسان لا ينهج طريقا فيه سخط اللّه (على أن يكون تضرعه للّه صادرا عن أعماق قلبه و منطلقا من تمام وجوده)[۹۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷۹

۳- الارتباط بالنّاس:

المتقون- إضافة إلى ارتباطهم الدائم بالخالق- لهم ارتباط وثيق و مستمر بالمخلوقين، و من هنا كانت الصفة الثالثة التى يبيّنها لهم القرآن أنّهم وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

يلاحظ أن القرآن لا يقول: و من أموالهم ينفقون، بل يقول: وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

يلاحظ أن القرآن لا يقول: و من أموالهم ينفقون، بل يقول: وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ و بذلك وسّع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية و المعنوية.

فالمتقون لا ينفقون أموالهم فسحب، بل ينفقون من علمهم و مواهبهم العقلية و طاقاتهم الجسميّة و مكانتهم الاجتماعية، و بعبارة اخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك دون توقّع الجزاء منه.

الملاحظة الاخرى: إن الإنفاق قانون عام فى عالم الخليقة، و خاصة فى التركيب العضوى لكل موجود حى. قلب الإنسان لا يعمل لنفسه فقط، بل ينفق ما عنده لجميع خلايا البدن. الدماغ و الرئة و سائر أجهزة البدن تنفق دائما من ثمار عملها، و الحياة الجماعية- أساسا- لا مفهوم لها دو نما إنفاق ۱۰۰].

الارتباط بالنّاس- فى الحقيقة حصيلة الارتباط باللّه. فالإنسان المرتبط باللّه يؤمن أن كل ما لديه من نعم إنّما هى مواهب إلهيّة مودعة لديه لفترة زمنيّة معينة.

و من هنا فلا يزعجه الإنفاق بل يسره و يفرحه، لأنه بالإنفاق قسّم مال اللّه بين عباد اللّه، و بقيت له نتائج هذا العمل و بركاته المادية و المعنوية. و هذا التفكير يطهّر روح الإنسان من البخل و الحسد، و يحوّل الحياة من ساحة لتنازع البقاء إلى مسرح للتعاون حيث يشعر كل فرد بأنه مسئول أن يضع ما لديه من مواهب تحت تصرف كل المحتاجين، مثل الشمس تفيض بأشعتها على الموجودات دون أن تتوقع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۸۰

أحد جزاء.

فى حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام بشأن تفسير الآية وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ يقول: «إنّ معناه و ممّا علّمناهم يبثّون»[۱۰۱].

بديهى أنّ الرّواية لا تريد أن تجعل الإنفاق مختصا بالعلم، بل إن الإمام الصادق يريد- بذكر هذا اللون من الإنفاق- أن يوسّع مفهوم الإنفاق كى لا يكون مقتصرا على الجانب المالى كما يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة.

و من هنا يتضح ضمنيا أن الإنفاق المذكور فى الآيه، لا يقتصر على الزكوات الواجبة و المستحبة، بل يتسع معناه ليشمل كل مساعدة بلا مقابل.

۴- الإيمان بالأنبياء عليهم السّلام:

الخاصية الرابعة للمتّقين الإيمان بجميع الأنبياء و برسالاتهم الإلهية؛ وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ و فى هذا التعبير القرآنى إشارة إلى أن المتقين يؤمنون بتوافق دعوة الأنبياء فى المبادى و الاسس، بأنهم جميعا هداة البشرية نحو صراط مستقيم واحد، أحدهم يكمل الشوط الذى قطعه سلفه فى قيادة البشرية نحو كمالها المرسوم. و يؤمنون بأن الأديان الإلهية ليست وسيلة للتفرقة و النفاق، بل على العكس وسيلة للارتباط و عامل للشّد بين أبناء البشر.

الأشخاص الذين يحملون مثل هذه الرّؤية و مثل هذا الإدراك، يسعون تطهير أرواحهم من التعصّب، و يؤمنون بما جاء به جميع الأنبياء لهداية البشر و تكاملهم، و يحترمون كل دعاة و هداة طريق التوحيد.

الإيمان برسالات الأنبياء السابقين، لا يمنع طبعا من انتهاج رسالة خاتم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۸۱

الأنبياء فى الفكر و العمل، لأن هذه الرّسالة هى آخر حلقة من السلسلة التكاملية للأديان، و عدم انتهاجها يعنى التخلف عن المسيرة التكاملية للبشرية.

۵- الإيمان بيوم القيامة:

آخر صفة فى هذه السلسلة من الصفات التى قررها القرآن للمتقين وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

إنهم يوقنون بأن الإنسان لم يخلق هملا و عبثا، فالخليقة عينت للكائن البشرى مسيرة تكاملية لا تنتهى إطلاقا بموته، إذ لو كان الموت نهاية المسير لكانت حياة الإنسان عبثا لا طائل تحته.

المتّقون يقرّون بأن عدالة اللّه المطلقة تنتظر الجميع، و لا شىء من أعمال البشر فى هذه الدنيا يبقى بدون جزاء.

هذا اللون من التفكير يبعث فى نفس حامله الهدوء و السكينة، و يجعله يتحمل أعباء المسؤولية و مشاقها بصدر رحب، و يقف أمام الحوادث كالطود الأشمّ، و يرفض الخضوع للظلم. و هذا التفكير يملأ الإنسان ثقة بأن الأعمال- صالحها و طالحها- لها جزاء و عقاب، و بأنه ينتقل بعد الموت إلى عالم أرحب خال من كل ألوان الظلم، يتمتع فيه برحمة اللّه الواسعة و ألطافه الغزيرة.

الإيمان بالآخرة يعنى شقّ حاجز عالم المادة و الدخول إلى عالم أسمى.

و يعنى أن عالمنا هذا مزرعة لذلك العالم الأسمى و مدرسة إعدادية له، و أنّ الحياة فى هذا العالم ليست هدفا نهائيّا، بل تمهيد و

إعداد للعالم الآخر.

الحیاة فی هـذا العالم شبیهـة بحیاة المرحـلة الجنینیـة، فهی لیست هـدفا لخلقـة الإنسان، بل مرحلة تکاملیة من أجل حیاة اخری. و ما لم یولد هذا الجنین سالما خالیا من العیوب، لا یستطیع أن یعیش سعیدا فی الحیاة التالیة.

الإیمان بیوم القیامة له أثر عمیق فی تربیة الإنسان. یهبه الشجاعة و الشهامة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۸۲

لأن أسـمی و سام یتقلـده الإنسان فی هـذا العالم، هو و سام «الشـهادة» علی طریق هدف مقدس إلهی، و الشـهادة أحبّ شـیء للإنسان المؤمن، و بدایة لسعادته الأبدیّة.

الإیمـان بیوم القیامـة یصون الإنسـان من ارتکاب الـذّنوب. بعبارة اخری، یتناسب ارتکابنا للـذنوب مع إیماننا باللّه و الیوم الآخر تناسبا عکسیا، فکلمـا قوی الإیمان قلت الـذنوب. یقول اللّه سـبحانه لنبیّه داود: وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوی فَیُضِـلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِینَ یَضِـلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ الْحِسابِ [۱۰۲].

نسیان یوم الحساب أساس کل طغیان و ظلم و ذنب، و بالتالی أساس استحقاق العذاب الشدید.

آخر آیة فی هذا البحث تشـیر إلی النتیجة التی یتلقاها المؤمنون المتصـفون بالصفات الخمس المذکورة، تقول: أُولئِکَ عَلی هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ ... وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

و قد ضمن ربّ العالمین لهؤلاء هدایتهم و فلاحهم، و عبارة مِنْ رَبِّهِمْ إشارة إلی هذه الحقیقة.

و اسـتعمال حرف (علی) فی عبـارة عَلی هُـدیً مِنْ رَبِّهِمْ یوحی بـأن الهدایـة الإلهیـة مثـل سـفینة یرکبهـا هؤلاء المتقون لتوصـلهم إلی السعادة و الفلاح. (لأن حرف- علی- یوحی غلبا معنی الاستعلاء).

و استعمال کلمة «هدی» فی حالة نکرة یشیر إلی عظمة الهدایة التی شملهم اللّه بها.

و تعبیر هُمُ الْمُفْلِحُونَ یفید الانحصار کما یذکر علماء البلاغة، أی إن الطریق الوحید للفلاح هو طریق هؤلاء المفلحین [۱۰۳]!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۸۳

بحثان

۱- مواصلة طریق الإیمان و العمل:

الآیات المـذکورة اسـتعملت الفعل المضارع الذی یشـیر عادة إلی الاسـتمرار یؤمنون بالغیب- یقیمون الصـلاة- ینفقون- و بالآخرة هم یوقنون. و هـذا یعنی أن المتقین و المؤمنین الحقیقیین هم الـذین یواصـلون مسـیرتهم الحیاتیـة بثبـات و اسـتمرار، دون تعثر أو تلکّؤ أو توقف.

هؤلاء ینطلقون منـذ البـدء بروح البحث عن الحق، و هذا یؤدی بهم إلی تلبیة دعوة القرآن، و القرآن بعد ذلک یوجد فیهم الخصائص الخمس المذکورة.

۲- ما هی حقیقة التقوی؟

التقوی من الوقایة، أی الحفظ و الصیانة [۱۰۴]، و هی بعبارة اخری جهاز الکبح الداخلی الذی یصون الإنسان أمام طغیان الشهوات.

لهذا السبب

وصف أمیر المؤمنین علی علیه السّلام التقوی بأنها الحصن الـذی یقی الإنسان أخطار الانزلاق إذ قال: «اعلموا عباد اللّه أنّ التّقوی دار حصن عزیز»[۱۰۵].

و فی النصوص الدینیة و الأدبیة تشبیهات کثیرة تجسّم حالة التقوی، فعن الامام علی علیه السّلام قال: «ألا و إنّ التّقوی مطایا ذلل، حمل علیها أهلها، و أعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنّة»[۱۰۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۸۴

و عبد اللّه بن المعتز شبّه التقوی بحالة رجل یسیر علی طریق شائکة، و یسعی إلی أن یضع قدمه علی الأرض بتأنّ و حذر، کی لا تخزه الأشواک، أو تتعلق بثیابه، یقول:

خل الذّنوب صغیرهاو کبیرها فهو التّقی

و اصنع کماش فوق أرض الشّوک یحذر ما یری

لا تحقرنّ صغیرةإنّ الجبال من الحصی![۱۰۷]

هـذا التشبیه یفیـد أیضـا أن التقوی لاـ تعنی العزلـة و الاـنزواء عن المجتمع، بـل تعنی دخول المجتمع، و خوض غماره، مع الحـذر من التلوّث بأدرانه إن کان المجتمع ملوثا.

بشـکل عام، فانّ حالة التقوی و الضـبط المعنوی من أوضح آثار الإیمان باللّه و الیوم الآخر. و معیار فضیلة الإنسان و افتخاره، و مقیاس شخصیته فی الإسلام، حتی أضحت الآیة الکریمة: إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ ۱۰۸] شعارا إسلامیا خالدا.

یقول الامام علیّ علیه السّلام «انّ تقوی اللّه مفتاح سداد، و ذخیرة معاد، و عتق من کلّ ملکة، و نجاة من کلّ هلکة»[۱۰۹].

جدیر بالذکر أن التقوی ذات شعب و فروع، منها التقوی المالیة و الاقتصادیة، و التقوی الجنسیة و الاجتماعیة و التقوی السیاسیة ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۸۵

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۶ الی ۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ وَ عَلی سَمْعِهِمْ وَ عَلی أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ (۷)

التّفسیر

المجموعة الثّانیة: الکفّار المعاندون

هذه المجموعة تقف فی النقطة المقابلة تماما للمتقین، و الآیتان المذکورتان بیّنتا باختصار صفات هؤلاء.

الآیة الاولی تقول إن الإنذار لا یجدی نفعا مع هؤلاء، فهم متعنتون فی کفرهم إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ بعکس الطائفة الاولی المستعدّة لقبول الحق لدی أول ومضة.

هذه المجموعة غارقة فی ضـلالها و ترفض الانصیاع للحق حتی لو اتضح لدیها. من هنا کان القرآن غیر مؤثر فی هؤلاء. و هکذا الوعد و الوعید، لأنهم یفتقدون الأرضیة اللازمة لقبول الحق و الاستسلام له.

الآیـهٔ الثّانیـهٔ تشیر إلی سبب هـذا اللجـاج و التعصب و تقول: خَتَمَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ وَ عَلی سَمْعِهِمْ وَ عَلی أَبْصارِهِمْ غِشاوَهٌ، و لـذلک استحقوا أن یکون لَهُمْ

عَذابٌ عَظِیمٌ

أجهزهٔ اسـتقبال الحقـائق معطوبـهٔ عنـد هؤلاء ... العین التی یری المتقون فیها آیات اللّه، و الاذن التی یسـمعون بها نـداء الحق، و القلب الذی یدرکون به الحقائق، کلها قد تعطّلت و توقفت عن العمل لدی الکافرین. هؤلاء لهم عیون و آذان و عقول، لکنهم یفتقدون قدرهٔ «الرؤیهٔ» و «الإدراک» و «السمع». لأن انغماسهم فی الانحراف و عنادهم و لجاجهم، کلها عناصر تشکل حجابا أمام أجهزهٔ المعرفهٔ.

الإنسان قابل للهدایـهٔ طبعا- إن لم یصل إلی هـذه المرحلـهٔ- مهما بلغ به الضـلال أمّا حینما یبلغ فی درجـهٔ یفقد معها حسّ التشـخیص «فلات حین نجاهٔ» لأنه افتقد أدوات الوعی و الفهم، و من الطبیعی أن یکون فی انتظاره عذاب عظیم.

بحوث

۱- سلب قدرهٔ التشخیص و مسألهٔ الجبر

أول سؤال یطرح فی هـذا المجـال یـدور حول مسألـهٔ الجبر، التی قـد تتبـادر إلی الأذهـان من قوله تعـالی: خَتَمَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ وَ عَلی سَمْعِهِمْ وَ عَلی أَبْصـارِهِمْ غِشـاوَهٌ ... فهـذا الختم یفیـد بقـاء هؤلاـء فی الکفر إجبـارا، دون أن یکون لهم اختیار فی الخروج من حالتهم هذه. ألیس هذا بجبر؟ و إذا کان جبرا فلما ذا العقاب؟

القرآن الکریم یجیب علی هـذه التساؤلاـت و یقول: إن هـذا الختم و هـذا الحجـاب هما نتیجـهٔ إصـرار هؤلاء و لجاجهم و تعنتهم أمام الحق، و استمرارهم فی الظلم و الطغیان و الکفر. یقول تعالی: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَیْها بِکُفْرِهِمْ [۱۱۰] و یقول:

کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلی کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبَّارٍ[۱۱۱] و یقول أیضا: أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلی عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلی سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلی بَصَرِهِ غِشاوَهً[۱۱۲].

کـل هـذه الآیات تقرر أنّ السـبب فی سـلب قـدرهٔ التشـخیص، و توقف أجهزهٔ الإدراک عن العمل یعود إلی الکفر و التکبر و التجبر و اتباع الهوی و اللجاج و العناد أمام الحق، هذه الحالهٔ التی تصیب الإنسان، هی فی الحقیقهٔ ردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه.

من المظاهر الطبیعیهٔ فی الموجود البشـری، أن الإنسان لو تعوّد علی انحراف و استأنس به، یتخذ فی المرحلهٔ الاولی ماهیهٔ ال «حالهٔ» ثمّ یتحول إلی «عادهٔ» و بعدها یصبح «ملکهٔ» و جزء من تکوین الإنسان حتی یبلغ أحیانا درجهٔ لا یستطیع الإنسان أن یتخلّی عنها أبدا. لکن الإنسـان اختـار طریق الاـنحراف هـذا عن علم و وعی، و من هنا کان هو المسؤول عن عواقب أعماله، دون أن یکون فی المسألـهٔ جبر. تماما مثل شخص فقأ عینیه و سدّ أذنیه عمدا، کی لا یسمع و لا یری.

و لو رأینا أن الآیات تنسب الختم و إسدال الغشاوهٔ إلی اللّه، فذلک لأن اللّه هو الذی منح الانحراف مثل هذه الخاصیهٔ. (تأمّل بدقّهٔ).

عکس هـذه الظاهرهٔ مشـهود أیضا فی قوانین الطبیعهٔ، أی إن الفرد السائر علی طریق الطهر و التقوی و الاسـتقامهٔ تمتد ید اللّه عز و جل إلیه لتقـوّی حاسّـهٔ تشـخیصه و إدراکه و رؤیته، هـذه الحقیقـهٔ توضـحها الآیـهٔ الکریمـهٔ. یـا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَـلْ لَکُمْ فُرْقاناً[۱۱۳].

فی حیاتنـا الیومیـهٔ صور عدیـدهٔ لأـفراد ارتکبوا عملاـ محرّما، فتألموا فی البدایـهٔ لما فعلوه و اعترفوا بـذنبهم، لکنهم اسـتأنسوا تـدریجیا

بفعلهم، و زالت من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۸

نفوسهم حساسیتهم السابقة تجاه الذنب، و وصل أمرهم إلی حدّ یجدون اللذة و الإنشراح فی الانحراف، و قد یضفون علیه صفة الواجب الإنسانی! أو الواجب الدینی!! و فی تاریخنا الإسلامی ظهر مجرمون سفّاکون مولعون بإزهاق الأرواح و التنکیل بالمسلمین کما ذکر فی حالات «الحجاج بن یوسف الثقفی» أنه کان یضع لأعماله الإجرامیة تبریرات دینیة، و یقول مثلا: إن اللّه سلّطنا علی هؤلاء النّاس المذنبین لنظلمهم، فهم مستحقون لذلک!! و کذلک قیل إن أحد جنود المغول خطب فی أحد مدن ایران الحدودیة و قال:

- ألستم یعتقدون أن عذاب اللّه یصیب المذنبین؟ فنحن عذاب اللّه علیکم، فلا ینبغی لکم المقاومة.

۲- لماذا یصرّ الأنبیاء علی هدایة هؤلاء، إذا کانوا لا یهتدون؟

و هذا سؤال آخر یطرح فی إطار الآیات المذکورة. و الجواب علیه یتضح لو عرفنا أن العقاب الإلهی یرتبط بمواقف الإنسان العملیة و سلوکه الفعلی، لا بما یکنّه فی قلبه من زیغ و ضلال فقط. من هنا کان لا بدّ من توجیه الدعوة حتی إلی هؤلاء الذین لا یهتدون. بعد ذلک یستحق الفرد العقاب تبعا لموقفه من الدعوة.

بعبارة اخری لا بدّ من «إتمام الحجّة» قبل العقاب.

بعبارة موجزة: الثّواب و العقاب یتوقفان حتما علی العمل بعد إنجازه، لا علی المحتوی الفکری و الروحی للفرد.

أضف إلی ما سبق: أن الأنبیاء بعثوا للناس جمیعا، و هؤلاء الذین طَبَعَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ قلیلون فی المجتمع، أما الأکثریة فهم التائهون الذین یتقبّلون الهدایة ضمن برنامج تعلیمی تربوی صحیح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۹

۳- الختم علی القلوب:

فی الآیات المذکورة و آیات اخری عبّر القرآن عن عملیة سلب حسّ التشخیص و الإدراک الواقعی للأفراد بالفعل «ختم»، و أحیانا بالفعل «طبع» و «ران».

فی اللغة «ختم» الإناء بمعنی سدّه بالطین أو غیره، و أصلها من وضع الختم علی الکتب و الأبواب کی لا تفتح، و الختم الیوم مستعمل فی الاستیثاق من الشّیء و المنع منه کختم سندات الأملاک و الرسائل السرّیة الهامة.

و هناک شواهد من التأریخ تدلّ علی أن الملوک و أرباب السلطة کانوا سابقا یختمون صرر الذهب بخاتمهم الخاص و یبعثون بها إلی المنظورین للاطمئنان علی سلامة الصرر و عدم التلاعب فی محتویاتها.

و الشائع فی هذا الزمان الختم علی الطرود البریدیة أیضا، و قد استعمل القرآن کلمة «الختم» هنا للتعبیر عن حال الأشخاص المعاندین الذین تراکمت الذنوب و الآثام علی قلوبهم حتی منعت کلمة الحق من النفوذ إلیها و أمست کالختم لا سبیل إلی فتحه.

و «طبع» بمعنی ختم أیضا.

أما «ران» فمن «الرین» و هو صدأ یعلو الشیء الجلیّ، و استعمل القرآن هذه الکلمة فی حدیثه عن قلوب الغارقین فی أوحال الفساد و الرّذیلة: کَلَّا بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ ۱۱۴].

المهم أن الإنسان ینبغی أن یکون حذرا لدی صدور الذنب منه، فیسارع إلی غسله بماء التوبة و العمل الصالح، کی لا یتحول إلی صفة

ثابتة مختوم علیها فی القلب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۰

فی حدیث عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام: «ما من عبد مؤمن إلّا و فی قلبه نکتة بیضاء، فإذا أذنب ذنبا خرج فی تلک النّکتة نکتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلک السّواد، فإن تمادی فی الذّنوب زاد ذلک السّواد حتّی یغطّی البیاض، فإذا غطّی البیاض لم یرجع صاحبه إلی خیر أبدا، و هو قول اللّه عزّ و جلّ: کَلَّا بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ ۱۱۵].

۴- المقصود من «القلب» فی القرآن

لماذا نسب إدراک الحقائق فی القرآن إلی القلب، بینما القلب لیس بمرکز للإدراک بل مضخة لدفع الدم إلی البدن؟! الجواب علی ذلک، أن القلب فی القرآن له معان متعددة منها:

۱- بمعنی العقل و الإدراک کقوله تعالی: إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِمَنْ کانَ لَهُ قَلْبٌ ۱۱۶].

۲- بمعنی الروح و النفس کقوله سبحانه: وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ[۱۱۷].

۳- بمعنی مرکز العواطف، کقوله: سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِینَ کَفَرُوا الرُّعْبَ ۱۱۸] و قوله: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ کُنْتَ فَظًّا غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ ۱۱۹].

لمزید من التوضیح نقول:

فی وجود الإنسان مرکزان قویّان هما:

۱- مرکز الإدراک، و یتکون من الدماغ و جهاز الأعصاب. لذلک نشعر أننا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۱

نستقبل المسائل الفکریة بدماغنا حیث یتمّ تحلیلها و تفسیرها. (و إن کان الدماغ و الأعصاب فی الواقع وسیلة و آلة للروح).

۲- مرکز العواطف، و هو عبارة عن هذا القلب الصنوبری الواقع فی الجانب الأیسر من الصدر. و المسائل العاطفیة تؤثر أول ما تؤثر علی هذا المرکز حیث تنقدح الشرارة الاولی.

حینما نواجه مصیبة فإننا نحسّ بثقلها علی هذا القلب الصنوبری، و حینما یغمرنا الفرح فإننا نحسّ بالسرور و الإنشراح فی هذا المرکز (لا حظ بدقّة).

صحیح أن المرکز الأصلی للإدراک و العواطف هو الروح و النفس الإنسانیة، لکن المظاهر و ردود الفعل الجسمیة لها مختلفة. ردود فعل الفهم و الإدراک تظهر أولا فی جهاز الدماغ، بینما ردود فعل القضایا العاطفیة کالحب و البغض و الخوف و السکینة و الفرح و الهمّ تظهر فی القلب بشکل واضح، و یحسّها الإنسان فی هذا الموضوع من الجسم.

ممّا تقدم نفهم سبب ارتباط المسائل العاطفیة فی القرآن بالقلب (العضو الصنوبری المخصوص)، و ارتباط المسائل العقلیة بالقلب (أی العقل أو الدماغ).

أضف إلی ما تقدم أنّ عضو القلب له دور مهم فی حیاة الإنسان و بقائه، و توقفه لحظه یؤدی إلی الموت، فما ذا یمنع أن تنسب النشاطات الفکریة و العاطفیة إلیه؟!

۵- لماذا جاءت «قلوبهم» و «أبصارهم» بصیغة الجمع، و «سمعهم» بصیغة المفرد؟

یتکرر فی القرآن استعمال القلب و البصر بصیغة الجمع: قلوب و أبصار، بینما یستعمل السمع دائما بصیغة المفرد، فما السرّ فی ذلک؟ قبل الإجابة لا بد من الإشارة إلی أن القرآن استعمل السمع و البصر بصیغة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۲

المفرد أیضا کقوله تعالی: وَ خَتَمَ عَلی سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلی بَصَرِهِ غِشاوَةً[۱۲۰].

الشّیخ الطّوسی رحمه اللّه فی تفسیر «التبیان» ذکر نقلا عن لغوی معروف، أن سبب ذلک قد یعود إلی أحد أمرین:

أوّلا: إن کلمة «السمع» قد تستعمل باعتبارها اسم جمع، و لا حاجة عندئذ إلی جمعها.

ثانیا: إن کلمة «السمع» لها معنی المصدر، و المصدر یدل علی الکثیر و القلیل، فلا حاجة إلی جمعه.

و یمکننا أن نضیف إلی ما سبق تعلیلا ذوقیا و علمیا هو أن الإدراکات القلبیة و المشاهدات العینیة تزید بکثیر علی «المسموعات»، و لذا جاءت القلوب و الأبصار بصیغة الجمع، و الفیزیاء الحدیثة تقول لنا إن الأمواج الصوتیة المسموعة معدودة لا تتجاوز عشرات الآلاف، بینما أمواج النور و الألوان المرئیة تزید علی الملایین. (تأمل بدقة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۳

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۸ الی ۱۶]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِینَ (۸) یُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ ما یَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ (۹) فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ بِما کانُوا یَکْذِبُونَ (۱۰) وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لکِنْ لا یَشْعُرُونَ (۱۲)

وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ آمِنُوا کَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ کَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لکِنْ لا یَعْلَمُونَ (۱۳) وَ إِذا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلی شَیاطِینِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَکُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (۱۴) اللَّهُ یَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ یَمُدُّهُمْ فِی طُغْیانِهِمْ یَعْمَهُونَ (۱۵) أُولئِکَ الَّذِینَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدی فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما کانُوا مُهْتَدِینَ (۱۶)

التّفسیر

المجموعة الثّالثة: المنافقون

هذه الآیات تبین- باختصار و عمق- الخصائص الروحیة للمنافقین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۴

و أعمالهم.

الإسلام واجه فی عصر انبثاق الرسالة مجموعة لم تکن تملک الإخلاص اللازم للإیمان، و لا القدرة اللازمة للمعارضة.

هذه المجموعة المذبذبة المصابة بازدواج الشخصیة توغلت فی أعماق المسلمین، و شکّلت خطرا کبیرا علی الإسلام و المسلمین. کان تشخیصهم صعبا لأنهم متظاهرون بالإسلام، غیر أن القرآن بیّن بدقة مواصفاتهم و أعطی للمسلمین فی کل القرون و الأعصار معاییر حیّة لمعرفتهم.

الآیات المذکورة قبلها بیّنت فی مطلعها الخط العام للنفاق و المنافقین: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِینَ

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبـذب هذا نوعا من الشطارة و الدهاء يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بينما لا يشعر هؤلاء أنهم يسيئون بعملهم هذا إلى أنفسهم، و يبدّدون بانحرافهم هذا طاقاتهم، و لا يجنون من ذلك إلّا الخسران و العذاب الإلهی. وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ

فی الآيهٔ التاليهٔ يبيّن القرآن أن النفاق فی حقيقته نوع من المرض. الإنسان السالم له وجه واحد فقط، و فی ذاته انسجام تام بين الروح و الجسد، لأن الظاهر و الباطن، و الروح و الجسم، يكمل أحد هما الآخر. إذا كان الفرد مؤمنا فالإيمان يتجلى فی كل وجوده، و إذا كان منحرفا فظاهره و باطنه يدلان على انحرافه.

و ازدواجيهٔ الجسم و الروح مرض آخر و علّهٔ إضافيهٔ. إنه نوع من التضاد و الانفصال فی الشخصيهٔ الإنسانيهٔ: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

و بما أنّ سنّهٔ اللّه فی الكون اقتضت أن يتيسّر الطريق لكل سالك، و أن تتوفر سبل التقدّم لكل من يجهد فی وضع قدمه على طريق. و بعبارهٔ اخرى: إن تكريس أعمال الإنسان و أفكاره فی خط معين، تـدفعه نحو الانغماس و الثبات فی ذلك الخط فقد أضاف القرآن قوله: فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۵

و بما أن الكذب رأس مال المنافقين، يبرّرون به ما فی حياته من متناقضات، و لهذا أشار القرآن فی ختام الآيهٔ إلى هذه الحقيقهٔ: وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، و تذكر أوّلا أنهم يتشدّقون بالإصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب و الفساد: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ، قالُوا: إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ

ذكرنا سابقا أنّ الإنسان، لو تمادى فی الغيّ و الضلال، يفقـد قدرهٔ التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، و يصبح الذنب و الإثم جزء من طبيعته. و المنافقون أيضا بإصرارهم على انحرافهم يتطبّعون بخط النفاق، و تتراءى لهم أعمالهم بالتدريج و كأنهم أعمال إصلاحيهٔ، و تغدو بصورهٔ طبيعهٔ ثانيهٔ لهم.

علامتهم الاخرى: اعتدادهم بأنفسهم و اعتقادهم أنهم ذووا عقل و تدبير، و أن المؤمنين سفهاء و بسطاء: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ، قالُوا: أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ؟!!.

و هكذا تنقلب المعايير لـدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الانصياع للحق و إتباع الـدعوهٔ الإلهيـهٔ سفاههٔ، بينما يرون شيطنتهم و تذبذبهم تعقّلا و درايهٔ!! غير أن الحقيقهٔ عكس ما يرون: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ

أليس من السفاههٔ أن لا يضع الإنسان لحياته خطا معينا، و يبقى يتلوّن بألوان مختلفهٔ؟ أليس من السفاههٔ أن يضيّع الإنسان وحـدهٔ شخصيته، و يتجه نحو ازدواجيهٔ الشخصيهٔ و تعدّد الشخصيات فی ذاته، و يهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب و التآمر و التخريب، و هو مع ذلك يعتقـد برجاحهٔ عقله؟! العلامهٔ الثالثهٔ لهؤلاء، هی تلوّنهم بألوان معينهٔ تبعا لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين و لأعدائهم من الشياطين:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۶

وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا: آمَنَّا، وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ .

يؤكدون لشياطينهم أنهم معهم، و أن ولاءهم للمؤمنين ظاهری، هدفه الاستهزاء.

و بلهجهٔ قويّهٔ حاسمهٔ يردّ القرآن الكريم على هؤلاء و يقول: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِی طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۱۲۱].

الآيهٔ الأخيرهٔ توضّح المصير الأسود المظلم لهؤلاء المنافقين، و خسارتهم فی سيرتهم الحياتيهٔ الضّالهٔ: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ

بحوث

۱- ظهور النّفاق و أسبابه:

حينما تندلع الثورة فى منطقة معينة، فإن مصالح الفئة الظالمة الناهبة المستبدة تتعرض للخطر حتما، خاصة إذا كانت الثورة مثل ثورة الإسلام تقوم على أساس الحقّ و العدالة. هذه الفئة تسعى للإطاحة بالثورة عن طريق السخريّة و الاستهزاء أوّلا، ثمّ بالاستفادة من القوة المسلحة و الضغوط الاقتصادية، و التضليل الاجتماعى.

و حين تبدو فى الأفق علامات انتصار الثورة، تعمد فئة من المعارضين إلى تغيير موقفها، فتستسلم ظاهريا، و تتحول فى الواقع إلى مجموعة معارضة سريّة.

هؤلاء يسمّون «منافقين» لانطوائهم على شخصيتين مختلفتين (المنافق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۷

مشتقة من النفق: و هو الطريق النافذ فى الأرض المحفور فيها للاستتار أو الفرار)، و هم أخطر أعداء الثورة، لأن مواقفهم غير واضحة، و الامّة الثائرة لا تستطيع أن تعرفهم و تطردهم من صفوفها، لذلك يتغلغلون فى صفوف النّاس المخلصين الطيبين، و يتسلمون أحيانا المناصب الحساسة فى المجتمع.

ثورة الإسلام فى عصرها الأوّل واجهت مثل هذه المجموعة. فبعد الهجرة المباركة وضعت أول لبنة للدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، و ازداد الكيان الإسلامى الوليد قوة بعد انتصار المسلمين فى غزوة «بدر». و هذه الانتصارات عرضت للخطر مصالح زعماء المدينة، و خاصة اليهود منهم، لأن اليهود كانوا يتمتعون فى المدينة بمكانة ثقافية و اقتصادية مرموقة. و هؤلاء أنفسهم كانوا يبشّرون قبل البعثة النّبوية المباركة بظهور النّبى.

كما كان فى المدينة أفراد مرشحون للزعامة و الملكية، لكن الهجرة النّبوية بدّدت آمال هؤلاء المتضررون من الدعوة رأوا أن الجماهير تندفع نحو الإسلام، و تنقاد إلى النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم حتى عمّت الدعوة ذويهم و أقاربهم.

و بعد مدّة من الدين الجديد، لم يروا بدّا من الاستسلام و التظاهر بالإسلام، تجنبا لمزيد من الأخطار الاقتصادية و الاجتماعية و حذرا من الإبادة، خاصة و أن قوّة العربى تتمثل فى قبيلته، و القبائل أسلمت للدين الجديد لكن هؤلاء راحوا يخططون خفية للإطاحة بالإسلام.

بعبارة موجزة، إن ظاهرة «النفاق» فى المجتمع، تعود إلى عاملين: أحد هما، انتصار الثورة و سيطرة الرسالة الثورية على المجتمع، و الآخر: انهزام المعارضين نفسيا، و فقدانهم للشجاعة الكافية لمواجهة المد الجديد، و اضطرارهم إلى الاستسلام الظاهرى أمام الدعوة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۸

۲- ضرورة معرفة المنافقين فى كل مجتمع

ظاهرة النفاق و المنافقين لا تختص- دون شك- بعصر الرسالة الأول، بل هى ظاهرة عامة تظهر بشكل و آخر فى كل المجتمعات. من هنا لا بدّ للجماعة المسلمة أن تعرف أوصافهم كما جاء فى القرآن، كى تحبط مؤامراتهم و تقف بوجههم. فى الآيات السابقة و فى سورة المنافقين و هكذا فى النصوص الإسلامية وردت للمنافقين أوصاف مختلفة منها:

۱- كثرة الضجيج و الادعاءات الفارغة، أو بعبارة اخرى كثرة القول و قلّة العمل المفيد المتزن.

۲- التلوّن و التذبذب، فمن المؤمنين يقولون «آمنا» و مع المعارضين يقولون «إنّا معكم».

۳- الانفصال عن الامّة، و تشكيل الجمعيات السرية وفق خطط مبيّتة.

۴- المكر و الخداع و الكذب و التملق و النكول و الخيانة.

۵- التعالى على النّاس، و تحقيرهم، و اعتبارهم بلهاء سفهاء، إلى جانب الاعتداد بالنفس.

على أى حال، ازدواجية الشخصية، و التضاد بين المحتوى الداخلى و السلوك الخارجى فى وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديدة بارزة مشهودة فى أعمالهم و أقوالهم و سلوكهم الفردى و الاجتماعى.

و ما أجمل تعبير القرآن فى حقّ هؤلاء إذ يقول: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و أىّ مرض أسوأ من ازدواجية الظاهر و الباطن، و من التعالى على النّاس؟!! هذا المرض مثل سائر الأمراض الخفية التى تصيب القلب لا يمكن إخفاؤه تماما، بل تظهر علائمه بوضوح على جميع أعضاء الإنسان.

فى مجلدات هذا التّفسير شرح أو فى لحالة النفاق و المنافقين لدى البحث فى الآيات ۱۴۱- ۱۴۳ من سورة النساء (المجلد الثالث).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۹

و فى الآيات ۴۹- ۵۷ من سورة التّوبة (المجلد السادس).

و فى الآيات ۶۲- ۸۵ من سورة التوبة أيضا (المجلد السادس).

۳- سعة معنى النفاق:

النفاق فى مفهومه الخاص- كما ذكرنا- صفة أولئك الذين يظهرون الإسلام، و يبطنون الكفر. لكن النفاق له معنى عام واسع يشمل كل ازدواجية بين الظاهر و الباطن، و كل افتراق بين القول و العمل. من هنا قد يوجد فى قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

ففى الحديث النّبوى: «ثلاث من كنّ فيه كان منافقا و إن صام و صلّى و زعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، و إذا حدّث كذب، و إذا وعد أخلف»[۱۲۲].

الحديث لا يدور هنا طبعا عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذى فى قلبه خيوط من النفاق، تظهر على سلوكه بأشكال مختلفة، و خاصة بشكل رياء، كما

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «الرّياء شجرة لا تثمر إلّا الشّرك الخفىّ، و أصلها النّفاق»[۱۲۳].

و فى نهج البلاغة نصّ رائع فى وصف المنافقين عن أمير المؤمنين على عليه السّلام يقول فيه:[۱۲۴] «أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه، و أحذّركم أهل النّفاق، فإنّهم الضّالّون المضلّون، و الزّالّون المزلّون ۱۲۵]، يتلوّنون ألوانا، و يفتّنون افتنانا[۱۲۶]، و يعمدونكم بكلّ عماد، و يرصدونكم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰۰

بكلّ مرصاد، قلوبهم دويّة[۱۲۷] و صفاحهم نقيّة. يمشون الخفاء[۱۲۸]، و يدبّون الضراء وصفهم دواء، و قولهم شفاء، و فعلهم الدّاء العياء[۱۲۹]، حسدة الرّخاء[۱۳۰]، و مؤكّدو البلاء، و مقنطو الرّجاء، لهم بكلّ طريق صريع ۱۳۱] و إلى كلّ قلب شفيع، و إلى كلّ شجو دموع ۱۳۲] يتقارضون الثّناء[۱۳۳] و يتراقبون الجزاء: إن سألوا الحفوا[۱۳۴]، و إن عذلوا كشفوا ...».

۴- مؤامرة المنافقين:

المنافقون يشكّلون أخطر تجمع معارض، لا ـ على الإسلام فحسب، بل على كلّ رسالة ثورية تقدمية، حيث ينفذون بين صفوف المسلمين، و يستغلّون كل فرصة للتآمر.

يتحدّث القرآن عن تآمر هؤلاء فی صدر الإسلام و يذكر نماذج من أعمالهم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۱

يذكر مثلا استهانة هؤلاء بشخصية المؤمنين، و بما يقدمه المؤمنون على قدر طاقتهم من صدقات فيقول: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِی الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ۱۳۵].

و يتخذون أحيانا فی اجتماعاتهم السريّة قرارات بشأن قطع مساعدتهم المالية لأصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، كی يتفرقوا عن الرسالة و الرّسول: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا ـ تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا، وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ۱۳۶].

كما يتخذون القرارات بإخراج المؤمنين من المدينة بعد انتهاء الحرب و العودة إلى المدينة: لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ ۱۳۷].

و كانوا يتخلفون عن الجهاد بمبررات مختلفة من قبيل الانشغال بالحصاد مثلا، و يتركون الرّسول فی ساعات الشدّة. و هم مع ذلك خائفين من انفضاح أمرهم و انكشاف سرّهم.

بسبب هذه المواقف العدائية التآمرية ركز القرآن على التنديد بالمنافقين فی مواضع عديدة، و احتوت سورة المنافقين عرضا مفصّلا لوضعهم. كما تضمنت سورة التوبة و الحشر و سور اخرى حملات شديدة على المنافقين، و تحدثت ثلاث عشرة آية من سورة البقرة عن صفاتهم و عواقب مكرهم.

۵- خداع الضمير:

المنافقون يشكلون مشكلة كبرى للمسلمين، ذلك لأن المسلمين مكلفون-

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۲

من جهة- باحتضان كلّ من يظهر الإسلام و بالامتناع عن تفتيش عقائد الأفراد، و مسئولون- من جهة اخرى- عن الحذر من مؤامرات المنافقين و تحركاتهم المشبوهة التی يستهدفون منها الوقوف بوجه الرسالة، و إن اتخذت هذه التحركات صفة إسلامية ظاهرية.

المنافقون يظنون أنهم بعملهم هذا يستطيعون أن يخدعوا المسلمين و يمرروا عليهم مؤامراتهم، بينما هؤلاء يخدعون أنفسهم.

التعبير القرآنی يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا يوضّح مفهوما دقيقا، فكلمة يخادعون تعنی الخداع المشترك من الطرفين، و تبين أن هؤلاء المنافقين كانوا يعتقدون- لعمی بصيرتهم- أنّ النّبی خدّاع توسّل بالدين و النبوّة و جمع حوله السذّج من النّاس ليكون له حكم و سلطان، و من هنا راح المنافقين يتوسلون بخدعة لمقابلة خدعة النّبی! فالتعبير القرآنی المذكور يوضّح إذن لجوء المنافقين إلى الخدعة، و يبين كذلك نظرة هؤلاء الخاطئة إلى النّبی الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

ثم تردّ الآية الكريمة على هؤلاء و تقول: وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ فالفعل «يخدعون» يوضّح أنّ الخداع من جانب المنافقين فقط، و تؤكد الآية أيضا أنهم يخدعون أنفسهم دون أن يشعروا، لأنهم يبددون. بأفعالهم هذه طاقاتهم العظيمة على طريق الانحراف، و يحرمون أنفسهم من السعادة التی رسم اللّه طريقها لهم، و يغادرون الدنيا و هم صفر اليدين من كل خير، مثقلون بأنواع الذنوب و الآثام.

لاـ يمكن لأحـد أن يخـدع اللّه طبعـا لأنـه سـبحانه عالـم بالجهر و ما يخفى، و تعبير «يخادعون اللّه» إمّا أن يكون المقصود به يخادعون الرّسول و المؤمنين، لأـن من يخـدع الرّسول و المؤمنين فكـأنه خـدع اللّه (فى القرآن مواضع كثيرة عظم فيها اللّه رسوله و المؤمنين إذ قرن اسـمهم باسـمه). و إمّا أن يكون نقص العقل و سوء الفهم قد بلغ بالمنافقين حدا تصوروا معه أنهم قادرون على أن يخفوا على اللّه شيئا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۳

أعمالهم (شبيه ذلك ما ورد فى آيات اخرى من كتاب اللّه العزيز).

على أىّ حال، الآيـة المذكورة تشير بوضوح إلى حقيقة خداع الضـمير و الوجدان، و أن الإنسان النمحرف الملوث كثيرا ما يعمد إلى خـداع نفسه و وجـدانه للتخلص من تأنيب الضـمير، و يصبح بالتدريج مقتنعا بأن قبائحه ليست عملا انحرافيا، بل هى أعمال إصـلاحية إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ و بذلك يخدعون أنفسهم، و يستمرون فى غيّهم.

ذكر أنّ أحد القادة الأمريكيين وجّه إليه سؤال حول سـبب إلقاء القنبلة الذرية على مدينتى (هيروشيما و ناكازاكى) اليابانيتين ممّا أدّى إلى مقتـل مـائتى ألف إنسـان برىء أو أصـابتهم بالعاهات، فقال: نحن فعلنا ذلك من أجل السـلام! و لو لم نفعل ذلك لطالت الحرب أكثر، و لـذهب ضـحيتها عدد أكبر من القتلى!! المنافقون فى كل عصـر و فى عصـرنا هذا يتشـبثون بمثل هذه الأقاويل لخداع النّاس و خداع أنفسهم، فهذا الزعيم الأمريكى يضع أمامه طريقين فقط هما:

استـمرار الحرب أو القصف الـذرى للمـدن الآمنـة، متناسيا طريقـا ثالثا واضـحا و هو الكف عن الاعتـداء على الشـعوب و ترك النّاس أحرارا مع ثرواتهم! و ممّا تقـدم يتضـح أن النفاق وسـيلة لخـداع الضـمير و شلّ مفعوله، و ما أخطر عمليـة شلّ الضـمير الإنسانى، الذى يعتبر الواعظ الداخلى و الرقيب اليقظ الأمين و المندوب الإلهى فى نفس الإنسان!!.

۶- التجارة الخاسرة:

شبّه القرآن الكريم فى مواضع عديـدة عمل الإنسان فى الحياة الـدنيا بالتجارة. و نحن فى الحياة الدنيا تجار نأتى إلى هذا المتجر الكبير برأس مال وهبه لنا اللّه سبحانه، و عناصره العقل و الفطرة و العواطف و الطاقات الجسميّة المختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۴

و مواهب عالم الطبيعة، ثم قيادة الأنبياء، جمع يربحون و يفوزون و يسعدون، و جمع لا يجنون ربحا، بل أكثر من ذلك يفقدون رأس مـالهم، و يفلسون بكـل مـا لهـذه الكلمـة من معنى. المجاهـدون فى سبيـل اللّه من أفراد الجمع الأـول، و يقول عنهم اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ [۱۳۸].

و المنـافقون من أبرز نمـاذج الجمع الثـانى، فبعـد أن يـذكر القرآن أعمـالهم التخريبيـة المتلبسـة بظاهر الإصـلاح و التعقّل يقول عنهم: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ

كان بمقـدور هؤلاء أن ينتخبوا أفضل طريق لحياتهم، لأنهم كانوا يعيشون إلى جانب ينبوع الوحى الصافى، و فى جوّ مفعم بالصـدق و الإخلاص و الإيمان. لكنهم فوّتوا على أنفسـهم هـذه الفرصـة الفريـدة العظيمة، و أضاعوا ما وهبهم اللّه من هداية فطرية فى ذواتهم، و من هداية تشـريعية فى إطار نور الوحى، و اشتروا الضـلالة و سلكوا طريقا خالوا أنهم يستطيعون به أن يقضوا على الدعوة و يصلوا إلى مآربهم الخبيثة.

و كان فى هذه المقايضة الخاطئة خسارتان:

الاولی: ضیاع ثرواتهم المادیة و المعنویة. و الثانیة: فشلهم فی تحقیق أهدافهم المشؤومة. فالإسلام سرعان ما ضرب بجرانه فی أرجاء الأرض فاضحا خطط المنافقین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۵

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۷ الی ۲۰]

اشارة

مَثَلُهُمْ کَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَکَهُمْ فِی ظُلُماتٍ لا یُبْصِرُونَ (۱۷) صُمٌّ بُکْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لا یَرْجِعُونَ (۱۸) أَوْ کَصَیِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِیهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ یَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِیطٌ بِالْکافِرِینَ (۱۹) یَکادُ الْبَرْقُ یَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ کُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِیهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَیْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۰)

التّفسیر

مثالان رائعان لوصف حالة المنافقین:

بعد أن بین القرآن صفات المنافقین و خصائصهم، یقدّم مثالین متحرکین لتجسیم وضعهم:

۱- مَثَلُهُمْ المنافقین کَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً فی لیلة مظلمة، کی یهتدی بها إلی طریق و یبلغ مقصده. فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۶

وَ تَرَکَهُمْ فِی ظُلُماتٍ لا یُبْصِرُونَ

لقد ظنّ هؤلاء أنهم قادرون علی أن یحققوا أهدافهم بما لدیهم من إمکانات إنارة محدودة.

و لکن نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جوّیّة، أو بسبب نفاد الوقود، و ظلّوا حائرین لا یهتدون سبیلا.

ثم تضیف الآیة الکریمة أن هؤلاء فقدوا کل وسیلة لدرک الحقائق: صُمٌّ بُکْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لا یَرْجِعُونَ

و المثال المذکور یصوّر بدقّة عمل المنافقین علی ساحة الحیاة الإنسانیة.

فهذه الحیاة مملوءة بطرق الانحراف و الضلال، و لیس فیها سوی طریق مستقیم واحد للهدایة، و هذا الطریق ملیء بالمزالق و الأعاصیر.

و لا یستطیع الفرد أن یهتدی من بین الطرق الملتویة إلی الصراط المستقیم، کما لا یستطیع أن یتجنب المزالق و یقاوم أمام الأعاصیر، إلّا بنور العقل و الإیمان، و بمصباح الوحی الوهّاج.

و هل تستطیع الشعلة المحدودة المؤقتة التی یضیئها الإنسان، أن تهدی الکائن البشری فی هذا الطریق الشائک الطویل؟! هؤلاء الذین سلکوا طریق النفاق، ظنوا أنّهم قادرون بذلک أن یحافظوا علی مکانتهم و مصالحهم لدی المؤمنین و الکافرین. و أن ینضمّوا إلی الفئة الغالبة بعد نهایة المعرکة. کانوا یخالون أن عملهم هذا ذکاء و حنکة. و أرادوا أن یستفیدوا من هذا الذکاء و هذه الحنکة، کضوء یشقّ لهم طریق الحیاة و یوصلهم إلی مآربهم. لکن اللّه سبحانه ذهب بنورهم و فضحهم، إذ قال لرسوله: إِذا جاءَکَ الْمُنافِقُونَ قالُوا: نَشْهَدُ إِنَّکَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَ اللَّهُ یَعْلَمُ إِنَّکَ لَرَسُولُهُ، وَ اللَّهُ یَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِینَ لَکاذِبُونَ ۱۳۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۷

و القرآن الكريم يفضح المنافقين لدى الكافرين أيضا، و يبيّن كذبهم و نكولهم إذ يقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً، وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ، وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ [۱۴۰].

جدير بالذكر أن القرآن استعمل عبارة اسْتَوْقَدَ ناراً أى إنهم استفادوا للإنارة من «النار» ذات الدخان و الرّماد و الحريق، بينما يستنير المؤمنون بنور الإيمان الخالص و بضوئه الساطع.

باطن المنافقين ينطوى على النار، و إن تظاهروا بنور الإيمان، و إذا كان ثمة نور فهو ضعيف فى قوته و قصير فى مدته.

هذا النور الضعيف المؤقّت، إمّا أن يكون إشارة إلى الضمير و الفطرة التوحيدية، أو إشارة إلى الإيمان الأوّلى لهؤلاء المنافقين حيث أسدلت عليه ستائر مظلمة على أثر التقليد الأعمى و التعصب المقيت و اللجاج و العداء، فتحولت ساحة حياتهم لا إلى ظلمة، بل إلى «ظلمات» فى التعبير القرآنى.

و هؤلاء سيفقدون فى النهاية قدرة الرؤية الصحيحة، و الاستماع الصحيح، و النطق الصحيح، و هذه نتيجة طبيعية- كما ذكرنا سابقا- للاستمرار على الانحراف و الإصرار على الغيّ، حيث يؤدى إلى إضعاف آليات الإدراك لدى الإنسان فيرى الحقائق مقلوبة، فالخير فى نظره شرّ، و الملك شيطان، و هكذا.

على أي حال هذا التشبيه يوضّح واحدة من حقائق النفاق، و هى إن عمر النفاق و التذبذب لا يدوم طويلا، قد يستطيع المنافقون لمدة قصيرة أن يتمتعوا بمصونية الإسلام و الإيمان، و بصداقة الكفار سرا. لكن هذه الحالة مثل شعلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۸

ضعيفة معرضة لألوان العواصف، سرعان ما تنطفئ، و يظهر الوجه الحقيقى للمنافقين، و يظلون منفورين مطرودين حائرين، مثل إنسان يتخبّط فى ظلام دامس.

لا بدّ من الإشارة إلى ما ورد فى تفسير الآية الكريمة: هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً[۱۴۱].

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «أضاءت الأرض بنور محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كما تضيء الشّمس، فضرب اللّه مثل محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم الشّمس و مثل الوصيّ القمر»[۱۴۲].

و هذا يعنى أن نور الإيمان و الوحى يغمر العالم كلّه. و لا يمتلك منه المنافقون شيئا، حتّى لو كان فى النفاق نور، فإنّ مدياته قصيرة و دائرته صغيرة لا يضيء إلّا (ما حوله).

فى المثال الثانى صوّر القرآن حياة المنافقين بشكل ليلة ظلماء مخوفة خطرة، يهطل فيها مطر غزير، و ينطلق من كل ناحية منها نور يكاد يخطف الأبصار، و يملأ الجوّ صوت مهيب مرعب يكاد يمزّق الآذان. و فى هذا المناخ القلق ضلّ مسافر طريقه، و بقى فى بلقع فسيح لا ملجأ فيه و لا ملاذ، لا يستطيع أن يحتمى من المطر الغزير، و لا من الرعد و البرق، و لا يهتدى إلى طريق لشدّة الظلام.

هذه الصورة يرسمها القرآن على النحو التالى: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا.

هؤلاء يحسّون كلّ لحظة بخطر، لأنهم يطوون صحراء لا جبال فيها و لا أشجار تحميهم من خطر الرعد و البرق و الصواعق، و نحن نعلم أن خطر الصاعقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۹

يتجه إلى كل ارتفاع على الأرض. لكن الأرض التى يسير عليها هؤلاء خالية من أى ارتفاع سوى مرتفع أجسامهم، و من هنا فخطر الصاعقة يهددهم كل آن بتحويلهم إلى رماد! (أهمية هذا المثال تتضح لدى أهل الحجاز- حيث الصحارى المنبسطة- أكثر من وضوحها لدى أهالى المناطق الجبلية).

نعم، هؤلاء حیاری مضطربون، لا یجدون طریقا یسلکونه، و لا دلیلا یهتدون به، خطر صوت الرعد یهدّد أسماعهم، و نور البرق یکاد یذهب بأبصارهم وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

المنافقون مثل هؤلاء المسافرین، یعیشون بین المؤمنین المتزایدین المتدفقین کالسیل الهادر و کالمطر الغزیر، لکنهم لم یتخذوا لهم ملجأ آمنا یقیهم من شر صاعقة العقاب الإلهی.

نهوض المسلمین بواجبهم الجهادی المسلح بوجه أعداء الإسلام، یشکل صواعق و حمما تنزل علی رؤوس المنافقین. و تسنح أحیانا لهؤلاء المنافقین فرصة للهدایة و الیقظة، لکن هذه الفرصة لا تلبث طویلا، إذ تمرّ کما یمرّ نور البرق، و یعود الظلام یطبق علیهم، و یعودون إلی ضلالهم و حیرتهم.

انتشار الإسلام بسرعة کالبرق الخاطف قد أذهلهم. و آیات القرآن التی تفضح أسرارهم صعقتهم، و فی کل لحظة یحتملون أن تنزل آیة تکشف عن مکائدهم و نوایاهم. و هذا ما تعبّر عنه الآیة الکریمة: یَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَیْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِی قُلُوبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ ۱۴۳].

و المنافقون خائفون أیضا أن یأذن اللّه بمحاربتهم، و أن یحثّ القوة الإسلامیة المتصاعدة علی مجابهتهم، لأنهم کانوا یواجهون مثل هذه التهدیدات القرآنیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۰

کقوله تعالی: لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِی الْمَدِینَةِ لَنُغْرِیَنَّکَ بِهِمْ ثُمَّ لا یُجاوِرُونَکَ فِیها إِلَّا قَلِیلًا. مَلْعُونِینَ أَیْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِیلًا[۱۴۴].

مثل هذه الآیات کانت تنزل کالرعد و البرق علی المنافقین، و تترکهم فی خوف و ذعر و حیرة فی المدینة، و تضعهم أمام خطر الإبادة أو الإخراج من المدینة کلّ حین.

هذه الآیات- و إن کانت تتحدث عن المنافقین فی عصر نزول الوحی- تمتد لتشمل کلّ المنافقین فی التاریخ، لإن خطّ النفاق یقف دوما بوجه الخط الثوری الصادق الصحیح. و نحن نری بأعیننا الیوم مدی انطباق ما یقوله القرآن علی منافقی عصرنا بدقّة. نری حیرتهم و خوفه و اضطرابهم، و نری تعاستهم و بؤسهم و انفضاحهم تماما مثل تلک المجموعة المسافرة الهائمة فی صحراء مقفرة و فی لیلة ظلماء موحشة.

أما بشأن الفرق بین المثالین فثمة تفسیران:

الأوّل: إنّ قوله تعالی: مَثَلُهُمْ کَمَثَلِ الَّذِی ... یصور حالة المنافقین الذین انخرطوا فی صفوف المؤمنین عن اعتقاد حقیقی، ثم تزعزعوا و اتّجهوا نحو النفاق. أما قوله: کَصَیِّبٍ مِنَ السَّماءِ ... فیمثل حالة المنافقین الذین کانوا منذ البدایة فی صف النفاق، و لم یؤمنوا باللّه قط.

الثّانی: أن المثال الأول یتحدث عن حالة الأفراد، و لذلک یقول: مَثَلُهُمْ کَمَثَلِ و الثانی یجسّد وضع الأجواء المخیفة المرعبة الخطرة التی تحدق بهؤلاء المنافقین، و من هنا جاء التشبیه بالجوّ المظلم الممطر الملیء بالخوف و الذعر و الاضطراب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۱

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۱ الی ۲۲]

اشارة

یا أَیُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (۲۱) الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً وَ أَنْزَلَ مِنَ

السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

التّفسير

اشارة

فيما سبق من آيات كتاب اللّه سبحانه تبيّن ثلاث مجموعات هى: مجموعة المتقين، و مجموعة الكافرين، و مجموعة المنافقين، فالمتقون هم المشمولون بالهداية الإلهية، و المنافقون هم الذين طبع اللّه على قلوبهم، و المنافقون هم المرضى الذين زادهم اللّه مرضا، و فقدوا قدرة التشخيص نتيجة أعمالهم.

أمّا الآيات المذكورة فدعت النّاس إلى انتخاب طريق المجموعة الاولى، و إلى عبادة اللّه الواحد الأحد.

و فى الآية الكريمة: يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ عدة ملاحظات نشير إليها فيما يلى:

١- قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ تكرر فى القرآن عشرين مرّة تقريبا، و هو نداء عام شامل يشير إلى أن القرآن لا يختص بعنصر أو قبيلة أو طائفة أو فئة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص: ١١٢

خاصة، بل يوجّه دعوته إلى البشرية عامة لعبادة اللّه، و للثورة على كل ألوان الشرك و الانحراف عن طريق التوحيد.

٢- يركّز القرآن، فى دعوته إلى عبادة اللّه و إلى شكر اللّه، على نعمة خلق البشر. و هى نعمة تتجلى فيها قدرة اللّه كما يتجلى فيها علم اللّه و حكمته و كذلك رحمته العامة و الخاصّة. لأن الموجود البشرى سيّد الموجودات، و مظهر علم اللّه و قدرته اللامتناهية و نعمه الكثيرة الواسعة.

أولئك الذين يستنكفون عن عبادة اللّه و الخضوع له، غافلون غالبا عن العظمة المنطوية فى خلقهم و خلق الذين من قبلهم، و عن اليد المدبّرة المقدّرة التى أو جدت هذا الخلق، و أودعت فيه النعم الدقيقة المدروسة المتجلية فى جسم الإنسان و روحه.

فالتذكير بهذه النعم دليل لمعرفة اللّه، و محرك للشكر على هذه النعم.

٣- نتيجة هذه العبادة هى التقوى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ فعباداتنا لا تزيد اللّه عظمة و جلالا، كما أن إعراضنا عن العبادة لا ينقص من عظمة اللّه شيئا. هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوى، و التقوى هى الإحساس بالمسؤولية و المحرّك الذاتى للفرد، و هى معيار قيمة الإنسان و ميزان تقييم شخصيته.

۴- عبارة: الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لعلها ردّ على استدلال المشركين الذين برروا عبادتهم للأصنام بتمسكهم بسنة آبائهم. و الآية الكريمة تشير بهذه العبارة إلى أن اللّه الواحد الأحد، خالق البشر و خالق آبائهم، و كل شرك يعترى المسيرة البشرية فى حاضرها و سالفها هو انحراف عن الخط الصحيح.

نعم الأرض و السماء:

الآية التالية استعرضت قسما آخر من النعم الإلهية التى تستحق الشكر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص: ١١٣

ذكرت أوّلا خلق الأرض: الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً.

فهذه الکرة السائرة بسرعة مذهلة فی الفضاء، قد سخرت للإنسان کی یمتطیها و یستقر علیها دون أن تؤثر علیه حرکتها.

و تتجلی عظمة نعمة الأرض أکثر حین نلاحظ خاصّیة الجاذبیة التی تؤمّن لنا إمکانیة الاستقرار و إنشاء الأبنیة و المزارع، و سائر مستلزمات الحیاة علی هذه الأرض. فلو انعدمت هذه الخاصیة لحظة واحدة لتناثر کل ما علی هذه الأرض من إنسان و حیوان و نبات فی الفضاء! تعبیر «فراش» یصوّر بشکل رائع مفهوم الاستقرار و الاستراحة، کما یصوّر إضافة إلی ذلک مفهوم الاعتدال و التناسب فی الحرارة. هذه الحقیقة یعبّر عنها الإمام علی بن الحسین علیه السّلام مفسرا هذه الآیة إذ

یقول: «جعلها ملائمة لطباعکم، موافقة لأجسادکم و لم یجعلها شدیدة الحماء و الحرارة فتحرقکم، و لا شدیدة البرودة فتجمدکم، و لا شدیدة طیب الرّیح فتصدع هاماتکم، و لا شدیدة النّتن فتعطبکم، و لا شدیدة اللّین کالماء فتغرقکم، و لا شدیدة الصّلابة فتمتنع علیکم فی دورکم و أبنیتکم و قبور موتاکم ... فلذلک جعل الأرض فراشا لکم»![۱۴۵].

ثم تتعرض الآیة إلی نعمة السماء فتقول: وَ السَّماءَ بِناءً.

کلمة «سماء» وردت فی القرآن بمعان مختلفة، و کلها تشیر إلی العلو، و اقتران کلمة «سماء» مع «بناء» یوحی بوجود سقف یعلو البشر علی ظهر هذه الأرض. بل إنّ القرآن صرّح بکلمة «سقف» فی بیان حال السماء إذ قال: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً[۱۴۶].

لعل هذا التعبیر القرآنی یثیر استغراب أولئک الذین یفهمون موقع الأرض فی الفضاء، فیتساءلون عن هذا السقف ... عن مکانه و کیفیته. و لعل هذا التعبیر یعید-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۴

بادئ الرأی- إلی الأذهان فرضیة بطلیموس التی تصور الکون علی أنه طبقات من الأفلاک متراکمة بعضها فوق بعض مثل طبقات قشور البطل!! من هنا لا بدّ من توضیح لمفهوم السماء و البناء و السقف فی التعبیرات القرآنیة.

ذکرنا أن سماء کل شیء أعلاه، و أحد معانی السماء «جوّ الأرض»، و هو المقصود فی الآیة الکریمة. و جوّ الأرض هو الطبقة الهوائیة الکثیفة المحیطة بالکرة الأرضیة، و یبلغ سمکها عدّة مئات من الکیلومترات.

لو أمعنّا النظر فی الدور الحیاتی الأساس الذی تؤدیه هذه الطبقة الهوائیة لفهمنا مدی استحکام هذا السقف و أهمیته لصیانة البشر.

هذه الطبقة الهوائیة مثل سقف شفّاف یحیط بکرتنا الأرضیة من کل جانب، و قدرة استحکامه تفوق قدرة أضخم السدود الفولاذیة، علی الرغم من أنه لا یمنع وصول أشعة الشمس الحیویة الحیاتیة إلی الأرض.

لو لم یکن هذا السقف لتعرضت الأرض دوما إلی رشق الشهب و النیازک السماویة المتناثرة، و لما کان للبشر أمان و لا استقرار علی ظهر هذا الکوکب، و هذه الطبقة الهوائیة التی یبلغ سمکها عدّة مئات من الکیومترات ۱۴۷] تعمل علی إبادة کل الصخور المتجهة إلی الکرة الأرضیة، و قلیل جدا من هذه الصخور تستطیع أن تخترق هذا الحاجز و تصل الأرض لتنذر أهل الأرض دون أن تعکّر صفو حیاتهم.

من الشواهد الدالة علی أن أحد معانی السماء هو «جو الأرض»

حدیث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام یتحدث فیه إلی «المفضّل» عن السماء فیقول: «فکّر فی لون السّماء و ما فیه من صواب التّدبیر، فإنّ هذا اللّون أشدّ الألوان موافقة للبصر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۵

و تقویة ...»[۱۴۸].

و من الواضح أن زرقة السماء لیست إلّا لون الهواء الکثیف المحیط بالأرض.

و لهذا فإن المقصود بالسماء فی هذا الحدیث هو جوّ الأرض نفسه.

و أضيفت كلمة الجوّ إلى السماء فى قوله تعالى: أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ[۱۴۹].

و حول معانى السماء الاخرى سنتحدّث بشكل أوفى فى ذيل الآية ۲۹ من هذه السّورة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱ ؛ ص۱۱۵

حول معانى السماء الاخرى سنتحدّث بشكل أوفى فى ذيل الآية ۲۹ من هذه السّورة.

بعد ذلك تطرقت الآية الى نعمة المطر: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً ... ماء يحيى الأرض و يخرج منها الثمرات.

عبارة وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً تؤكد مرّة اخرى أن المقصود من «السماء» هنا هو جوّ الأرض، لأننا نعلم أن المطر ينزل من الغيوم، و الغيوم بخار متناثر فى جوّ الأرض.

الإمام على بن الحسين عليه السّلام يتحدث عن نزول المطر فى تفسير هذه الآية فيقول: «ينزله من أعلى ليبلغ قلل جبالكم و تلالكم و هضابكم و أوهادكم، ثمّ فرّقه رذاذا و وابلا- و هطلا- لتنشفه أرضوكم، و لم يجعل ذلك المطر نازلا- عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضيكم و أشجاركم و زرعكم و ثماركم»[۱۵۰].

ثم تشير الآية إلى نعمة الثمرات التى تخرج من بركة الأمطار لتكون رزقا لبنى البشر فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ

و إخراج الثمرات مدعاة للشكر على رحمة رب العالمين لعباده، و مدعاة للإذعان بقدرة ربّ العالمين فى إخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون، ليكون قوتا للإنسان و الحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى:

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۶

فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

فهذه الأنداد المفتعلة و ما تعبدون من دون اللّه، لم يخلقوكم و لا خلقوا آباءكم، و لا خلقوا ما ترونه حولكم من مظاهر كونية و نعم موفورة.

و «الأنداد» جمع «ند» على وزن ضدّ، و هو الشبيه و الشريك، و واضح أن هذا الشبه قائم فى أذهان المشركين و ليس أمرا واقعيا.

و بعبارة أدق: ندّ الشيء و نديده- كما يقول الراغب فى المفردات- مشاركة فى جوهره، و ذلك ضرب من المماثلة، أى المماثلة فى جوهر الذات.

بحث

الشّرك فى أشكال مختلفة:

لا بدّ من التأكيد على أن الشّرك باللّه لا ينحصر باتّخاذ الأوثان الحجرية و الخشبية آلهة من دون اللّه كما يفعل الوثنيون، أو القول بأن اللّه ثالث ثلاثة كما تقول النصارى. بل إن للشرك معنى أوسع و صورا متنوعة أكثر ضمورا و خفاء.

و بشكل عام كل اعتقاد بوجود أشياء لها نفس تأثير اللّه فى الحياة هو نوع من الشرك. و هذا ما يعبّر عنه ابن عباس إذ يقول:

(الأنداد) هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ليلة ظلماء، و هو أن يقول: و اللّه، و حياتك يا فلان، و حياتى! ... و يقول: لو لا كلبه هذا لأتانا اللصوص البارحة! ... و قول الرجل لصاحبه: ما شاء اللّه و شئت ... هذا كله به شرك ۱۵۱].

و نقرأ

فى حديث شريف أن رجلا قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: ما شاء اللّه و شئت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۷

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «أ جعلتنی للّه ندّا»؟!

مثل هذه التعابیر التی یشمّ منها رائحة الشرک رائجة- مع الأسف- بین سواد المسلمین و غیر لائقة بالشخص الموحّد، کقولهم: اعتمادی علی اللّه و علیک!!

فی الروایة عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فی تفسیر قوله تعالی:

وَ ما یُؤْمِنُ أَکْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِکُونَ ۱۵۲] قال: «قول الرّجل لو لا فلان لهلکت، و لو لا فلان لأصبت کذا و کذا، و لو لا فلان لضاع عیالی»[۱۵۳].

و سیأتی توضیح أکثر فی هذا المجال فی ذیل الآیة ۱۰۶ من سورة یوسف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۸

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۳ الی ۲۴]

اشارة

وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلی عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۲۳) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْکافِرِینَ (۲۴)

التّفسیر

القرآن معجزة خالدة:

ظاهرة الکفر و النفاق، التی دارت حولها موضوعات الآیات السابقة، تنشأ أحیانا عن عدم فهم محتوی النّبوة و معجزة الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم. و الآیات التی نحن بصددها تعالج هذه المسألة، و ترکز علی المعجزة القرآنیة الخالدة کی تزیل کل شک و تردید فی رسالة نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم. تقول الآیة:

وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلی عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ۱۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۹

و بهذا الشکل تحدی القرآن کل المنکرین أن یأتوا بسورة من مثله، کی یکون عجزهم دلیلا واضحا علی أصالة هذا الوحی السماوی و علی الجانب الإلهی للرسالة و الدعوة.

و لأجل أن یؤکد هذا التحدی دعاهم أن لا یقوموا بهذا العمل منفردین، بل وَ ادْعُوا شُهَداءَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ

کلمة «شهداء» تشیر إلی الفئة التی کانت تساعدهم فی رفض رسالة النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و عبارة مِنْ دُونِ اللَّهِ إشارة إلی عجز جمیع البشر عن الإتیان بسورة قرآنیة و لو کان بعضهم لبعض ظهیرا، و إلی قدرة اللّه وحده علی ذلک.

و عبارة إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ تستهدف حثّهم علی قبول هذا التحدی، و مفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلک دلیل کذبکم، فانهضوا إذن لإثبات ادعائکم.

طبیعة التحدی تقتضی أن یکون صارخا إلی أبعد حدّ ممکن، و أن یکون محفّزا للعدو مهما أمکن، و بعبارة اخری أن یثیر الحمیّة فیه،

کی یجنّد کل طاقاته لعملیة المجابهة، حتی إذا فشل و أیقن بعجزه علم أنه أمام ظاهرة إلهیة لا بشریة.

من هنا فسیاق الآیات التالیة، یرکز علی عنصر الإثارة و یقول: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ و هذه النار لیست حدیث مستقبل، بل هی واقع قائم: أُعِدَّتْ لِلْکافِرِینَ

جمع من المفسرین قالوا: إن المقصود بالحجارة: الأصنام الحجریة، و استشهدوا لذلک بالآیة الکریمة: إِنَّکُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۱۵۵].

جمع آخر قالوا: (الحجارة) إشارة إلی صخور معدنیة کبریتیة تفوق حرارتها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۲۰

حرارة الصخور الأخری.

و هناک من المفسرین من یعتقد أن المقصود من هذا التعبیر، إلفات النظر إلی شدة حرارة جهنم، أی إن حرارة جهنّم و حریقها یبلغ درجة تشتعل فیها الصخور و الأجساد کما یشتعل الوقود.

و یبدو من ظاهر الآیات المذکورة، أن نار جهنم تستعر من داخل النّاس و الحجارة. و لا یصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أن العلم الحدیث أثبت أن کل أجسام العالم تنطوی فی أعماقها علی نار عظیمة (أو بعبارة اخری علی طاقة قابلة للتبدیل إلی نار)، و لا یلزم أن نتصور نار جهنم شبیهة بالنار المشهودة فی هذا العالم.

فی موضع آخر یقول تعالی: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ[۱۵۶].

خلافا لنیران هذا العالم التی تنفذ من الخارج إلی الداخل.

بحوث

۱- لماذا یحتاج الأنبیاء إلی المعجزة؟

نعلم أن منصب النّبوة أعظم منصب منحه اللّه لخاصة أولیائه. فکل المناصب عادة تمنح صاحبها القدرة للحکم علی أبدان الأفراد، إلّا منصب النّبوة، فالنّبی یحکم علی الأجسام و القلوب فی مجتمعه. من هنا کان مقام النّبوة لا یبلغه مقام فی سموّه، و من هنا أیضا کان أدعیاء النبوّات الکاذبة أحطّ النّاس و أشدّهم انحرافا.

و النّاس هنا أمام أمرین: إمّا أن یؤمنوا بدعوات النّبوة جمیعا، أو یرفضوها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۲۱

جمیعا، لو قبلوها جملة لتحولت ساحة الأدیان إلی فوضی و هرج و مرج. و لو رفضوها جملة لکان عاقبة ذلک الضلال و الضیاع.

فالدلیل علی مبدأ البعثة ذاته یفرض إذن أن یکون الأنبیاء الصادقین مجهزین بالدلیل علی نبوتهم کی یتمیز الصادقون من الکاذبین.

أی أن یکونوا مجهزین بالمعجزة الدالة علی صدق ادعائهم.

و «المعجزة»- کما هو واضح من لفظها- عمل خارق یأتی به النّبی و یعجز عن الإتیان به الآخرون.

علی النّبی صاحب المعجزة أن یتحدی النّاس بمعجزته، و أن یعلن لهم أن معجزته دلیل علی صدق دعواه.

۲- القرآن معجزة نبی الإسلام الخالدة:

القرآن كتاب يسمو على أفكار البشر، و لم يستطع أحد حتى اليوم أن يأتی بمثله، و هو معجزة سماوية كبرى.

هذا الكتاب الكريم يعتبر- بين معاجز النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم- أقوى سند حیّ على نبوة الرّسول الخاتم، لأنه معجزة «ناطقة» و «خالدة» و «عالمية» و «معنوية».

أمّا أنّه معجزة «ناطقة» فإنّ معاجز الأنبياء السابقين لم تكن كذلك، أی أنها كانت بحاجة إلى وجود النّبی لكی يتحدث للناس عن معجزته و يتحداهم بها، و معاجز النّبی الخاتم- عدا القرآن- هی من هذا اللون. أما القرآن فمعجزة ناطقة.

لا يحتاج إلى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين و يدينهم و يخرج منتصرا من ساحة التحدى. و هو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم فی عصر الرسالة. إنه دين و معجزة، إنه قانون، و وثيقة تثبت الهية القانون.

أما الخلود و العالمية: فإنّ القرآن حطم سدود «الزمان و المكان» و تعالى عليهما، لأن معاجز الأنبياء السابقين- و حتى معاجز النّبی الخاتم غير القرآن-

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۲

مسجلة على شريط معين من الزمان، و واقعة فی مساحة معينة من المكان، و أمام جمع معدود من النّاس، مثل معاجز عيسى عليه السّلام كحديثه فی المهد و إحيائه الموتى.

و واضح أن الأحداث المقيّدة بزمان و مكان معينين تمسی صورتها باهتة كلما ابتعدنا عن ظروفها الزمانية و المكانية. و هذا من خصائص الأمور الزمنية.

لكن القرآن لا- يرتبط بالزمان و المكان، فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، بل إن مرور الزمن زاد البشرية قدرة فی العلم و الإمكانات لتستفيد منه أكثر من ذی قبل، و ما لا يرتبط بزمان أو مكان فانه يحوی عناصر الدوام و الخلود وسعة دائرته العالمية، و بديهی أن الدين العالمی الخالد بحاجة إلى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أمّا الصّفة «المعنوية» للقرآن فنفهمها حين ننظر إلى معاجز الأنبياء السابقين، و نرى أنها كانت غالبا «جسمية» مثل: شفاء الأمراض الجسمية المستعصية، و تحدث الطفل فی المهد ... و كانت تتجه نحو تسخير الأعضاء البدنية. أما القرآن، فيسخر القلوب و النفوس، و يبعث فيها الإعجاب و الإكبار. إنه يتعامل مع الأرواح و الأفكار و العقول البشرية، و واضح امتياز مثل هذه المعجزة على المعاجز الجسمية.

۳- هل تحدّى القرآن؟

القرآن تحدى البشرية فی مواضع عديدة من سوره، منها:

۱- قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً[۱۵۷].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۳

۲- أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ۱۵۸].

۳- أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ۱۵۹].

۴- الآية الثالثة و العشرون من سورة البقرة التی يدور حولها بحثنا.

القرآن تحدى بصراحة و قوة فی هذه الآيات جميع البشرية، و فی هذه الصراحة و القوّة دلالة حيّة على حقّانيته. و لم يكتف فی تحدّيه بدعوة النّاس إلى أن يأتوا بمثله، بل حفّزهم و شجعهم على ذلك، و عبارات التحفيز نجدها فی قوله تعالى:

إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ... فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ ... قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ...

وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ ... لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ... فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ ... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا ....

هذا التحفيز و الحثّ و الإثارة لم يصدر ضمن إطار معركة أدبية أو عقائدية، بل فى إطار معركة «سياسية» «اقتصادية» «اجتماعية»، ضمن إطار معركة حياة أو موت، يرتبط بمصيرها وجود هذا الكيان الجديد. و عجز المعارضين أمام هذا التحدّى الحياتى الصارخ، يبيّن بشكل أوضح أبعاد المعجزة القرآنية.

جدير بالذّكر أن تحدى القرآن لا ينحصر بزمان أو مكان، بل إن هذا التحدّى قائم حتى يومنا هذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۴

۴- هل جيء بمثله؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظرة على الظروف و الملابسات التى عاصرت نزول القرآن، و على تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابة ما يشبه القرآن.

غير خفيّ أن الرسالة فى عصر النّزول و ما بعده، واجهت خصوما ألدّاء من المشركين و اليهود و النصارى و المنافقين. و هؤلاء توسّلوا بكل ما لديهم من قوة و حيلة للوقوف بوجه الدعوة. (حتى إن بعض المنافقين مثل (ابو عامر) الراهب و من وافقه من المنافقين اتّصلوا بأمبراطور الرّوم للتآمر على الإسلام، و بلغ الأمر بهؤلاء المتآمرين أن شيّدوا «مسجد ضرار» فى المدينة، و حدثت على أثر ذلك وقائع عجيبة أشار إليها القرآن فى سورة التوبة).

من الطبيعى أن هؤلاء الأعداء الألدّاء من المنافقين و غيرهم كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، و يتحينون كل فرصة للإضرار بالمسلمين. و لو كان هؤلاء قد حصلوا على كتاب يجيب على تحدى القرآن، لتهافتوا عليه و نشروه و طبّلوا له و زمّروا، أو لسعوا فى حفظه على الأقل.

و لذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحتمل احتمالا ضعيفا أنهم عارضوا القرآن، مثل:

«عبد اللّه بن المقفع»، فقد قيل أنه عارض القرآن بكتابه «الدرّة اليتيمة» بينما لا نعثر فى هذا الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم على إشارة إلى هذه المعارضة، و لا نعرف لماذا وجهت التهمة إلى ابن المقفع بهذا الكتاب؟

و المتنبى، أحمد بن الحسين الكوفى الشاعر، ذكر فى زمرة المعارضين و أصحاب النبوءات، بينما تؤكد دراسات حياة المتنبى و أدبه، أنه كان ينطلق فى شعره غالبا من روح الخيبة فى بلوغ المناصب الرفيعة، و من الحرمان العائلى.

و أبو العلاء المعرّى، اتهم بهذا أيضا، و نقلت عنه أشعار تنم عن رفضه لبعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۵

مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوما بمعارضة القرآن، بل نقلت عنه عبارات فى عظمة كتاب اللّه العزيز سنشير إليها فيما بعد.

أما مسيلمة الكذاب من أهل اليمامة فقد عارض القرآن، و أتى بآيات!! أقرب إلى الهزل منها إلى الجد، و من ذلك.

۱- ما قاله معارضا سورة «الذاريات»: «و المبذرات بذرا. و الحاصدات حصدا. و الذاريات قمحا. و الطاحنات طحنا. و العاجنات عجنا. و الخابزات خبزا.

و الثاردات ثردا. و اللاقمات لقما. اهالة و سمنا»[۱۶۰].

۲- من النماذج الاخرى لآياته: «يا ضفدع نقّى فإنّك نعم ما تنقين، لا واردا تنفرين، و لا ماء تكدرين»[۱۶۱].

۵- شهادات حول القرآن:

يجدر بنا أن ننقل جملا من أقوال المشاهير بشأن القرآن بمن فيهم أولئك الذين اتهموا بمعارضة القرآن.

۱- أبو العلاء المعرى (المتهم بمعارضة القرآن) يقول:

«و أجمع ملحد و مهتد أن هذا الكتاب الذى جاء به محمّد كتاب بهر بالإعجاز، و لقى عدوه بالإرجاز، ما حذى على مثال، و لا أشبه غريب الأمثال، ... ما هو من القصيد الموزون، و لا الرجز، و لا شاكل خطابة العرب و لا سجع الكهنة، و جاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، و أن الآية منه أو بعض الآية لتعرض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ فى جنح غسق،

و الظهرة البادية فى جدوب»[۱۶۲].

۲- الوليد بن المغيرة المخزومى، و هو رجل عرف بين عرب الجاهلية بكياسته و حسن تدبيره، و لذلك سمى «ريحانة قريش»، سمع آيات من سورة «غافر» فرجع إلى قوم من بنى مخزوم فقال لهم:

«و اللّه لقد سمعت من محمّد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس و لا من كلام الجن، و إن له لحلاوة، و إن عليه لطلاوة، و ان أعلاه لمثمر، و إن أسفله لمغدق، و إنه ليعلو و ما يعلى عليه»[۱۶۳].

۳- العالم المؤرخ البريطانى «كارليل» يقول حول القرآن:

«لو ألقينا نظرة على هذا الكتاب المقدس لرأينا الحقائق الكبيرة، و خصائص أسرار الوجود، مطروحة بشكل ناضج فى مضامينه، ممّا يبين بوضوح عظمة القرآن. و هذه الميزة الكبرى خاصة بالقرآن، و لا توجد فى أى كتاب علميّ و سياسى و اقتصادى آخر. نعم، قراءة بعض الكتب تترك تأثيرا عميقا فى ذهن الإنسان، و لكن هذا التأثير لا يمكن مقارنته بتأثير القرآن. من هنا ينبغى أن نقول:

المزايا الأساسية للقرآن، ترتبط بما فيه من حقائق و عواطف طاهرة، و مسائل كبيرة، و مضامين هامة لا يعتريها شك و ترديد. و ينطوى هذا الكتاب على كل الفضائل اللازمة لتحقيق تكامل البشرية و سعادتها»[۱۶۴].

۴- جان ديفن بورت مؤلف كتاب: «الاعتذار إلى محمّد و القرآن». يقول:

«القرآن بعيد للغاية عن كل نقص، بحيث لا يحتاج إلى أدنى إصلاح أو تصحيح، و قد يقرؤه شخص من أوّله إلى آخره دون أن يحسّ بأى ملل»[۱۶۵].

و يقول: «لا خلاف فى أن القرآن نزل بأبلغ لسان و أفصحه، و بلهجة قريش

أكثر العرب أصالة و أدبا ... و مليء بأبلغ التشبيهات و أروعها»[۱۶۶].

۵- غورة الشاعر الألمانى يقول:

«قد يحسّ قرّاء القرآن للوهلة الاولى بثقل فى العبارات القرآنية، لكنه ما أن يتدرج حتى يشعر بانجذاب نحو القرآن، ثم إذا توغّل فيه ينجذب- دون إختيار- إلى جماله الساحر»[۱۶۷].

و فى موضع آخر يقول: «لسنين طويلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس و عن عظمة النّبى محمّد، و لكن كلما خطونا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حجب الجهل و التعصب المقيت، و قريبا سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، و يصبح محور أفكار البشرية»! و يقول كذلك: «كنا معرضين عن القرآن، و لكن هذا الكتاب ألفت أنظارنا، و حيّرنا، حتى جعلنا نخضع لما

قدمه من مبادئ و قوانین علمیة کبری»! ۶- «ویل دیورانت» المؤرخ المعروف یقول: «القرآن أوجد فی المسلمین عزّة نفس و عدالة و تقوی لا نری لها نظیرا فی أیة بقعة من بقاع العالم».

۷- المفکر الفرنسی «جول لا- بوم» فی کتاب «تفصیل الآیات» یقول: «العلم انتشر فی العالم علی ید المسلمین، و المسلمون أخذوا العلوم من (القرآن) و هو بحر العلم، و فرّعوا منه أنهارا جرت میاهها فی العالم ...».

۸- المستشرق البریطانی دینورت یقول:

«یجب أن نعترف أنّ العلوم الطبیعیة و الفلکیة و الفلسفة و الریاضیّات التی شاعت فی أوربا، هی بشکل عام من برکات التعالیم القرآنیة، و نحن فیها مدینون للمسلمین، بل إن أوربا من هذه الناحیة من بلاد الإسلام»[۱۶۸].

۹- الدکتورة لورا واکسیا واغلیری أستاذة جامعة نابولی فی کتاب «تقدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۲۸

الإسلام السریع» تقول:

«کتاب الإسلام السماوی نموذج الإعجاز ... (القرآن) کتاب لا یمکن تقلیده، و أسلوبه لا نظیر له فی الآداب، و التأثیر الذی یترکه هذا الأسلوب فی روح الإنسان ناشئ عن امتیازاته و سموّه ... کیف یمکن لهذا الکتاب الإعجازی أن یکون من صنع محمّد، و هو رجل أمیّ؟! ....

نحن نری فی هذا الکتاب کنوزا من العلوم تفوق کفاءة أکثر النّاس ذکاء و أکبر الفلاسفة و أقوی رجال السیاسة و القانون.

من هنا لا یمکن اعتبار القرآن عمل إنسان متعلّم عالم»[۱۶۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۲۹

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۵]

اشارة

وَ بَشِّرِ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ کُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِی رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَ لَهُمْ فِیها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۲۵)

التّفسیر

خصائص نعم الجنّة:

آخر آیة فی بحثنا السابق تحدثت عن مصیر الکافرین، و هذه الآیة تتحدث عن مصیر المؤمنین، کی تتضح الحقیقة أکثر بالمقارنة بین الصورتین، علی الطریقة القرآنیة فی التوضیح.

المقطع الأوّل فی الآیة یبشر الذین آمنوا و عملوا الصالحات، بأن لهم جنات تجری من تحتها الأنهار.

نعلم أن البساتین التی تفتقد الماء الدائم، و تسقی بین حین و حین لیس لها حظ کبیر من النظارة، فالنظارة تطفح علی البساتین التی تمتلک ماء سقی دائم مستمر لا ینقطع أبدا. و مثل هذه البساتین لا یعتریها جفاف و لا تهددها شحة ماء.

و هذه هی بساتین الجنّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳۰

و بعد الإشارة إلى ثمار الجنّة المتنوعة تقول الآية: كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِی رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ

ذكر المفسرون لهذا المقطع من الآية تفاسير متعددة:

قال بعضهم: المقصود من قولهم: هذَا الَّذِی رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ هو أن هذه النعم أغدقت علينا بسبب ما أنجزناه من عمل فی الحياة الدنيا، و غرسنا بذوره من قبل.

و قال بعض آخر: عند ما يؤتى بالثمار إلى أهل الجنّة ثانية يقولون: هذا الذی تناولناه من قبل، و لكنهم حين يأكلون هذه الثمار يجدون فيها طعما جديدا و لذّة اخرى، فالعنب أو التفاح الذی نتناوله فی هذه الحياة الدنيا مثلا له فی كل مرّة نأكله نفس طعم المرّة السابقة، أمّا ثمار الجنّة فلها فی كلّ مرّة طعم و إن تشابهت أشكالها، و هذه من امتيازات ذلك العالم الذی يبدو أنه خال من كل تكرار! و قال آخرون: المقصود من ذلك أنهم حين يرون ثمار الجنّة يلقونها شبيهة بثمار هذه الدنيا، فيأنسون بها و لا تكون غريبة عليهم، و لكنهم حين يتناولونها يجدون فيها طعما جديدا لذيذا.

و يجوز أن تكون عبارة الآية متضمنة لكل هذه المفاهيم و التفاسير، لأن ألفاظ القرآن تنطوی أحيانا على معان ١٧٠].

ثم تقول الآية: وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً، أی متشابها فی الجودة و الجمال. فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الأخرى، خلافا لثمار هذا العالم المختلفة فی درجة النضج و الرائحة و اللون و الطعم.

و آخر نعمة تذكرها الآية هی نعمة الأزواج المطهرة من كل أدران الروح و القلب و الجسد.

أحد منغّصات نعم الدنيا زوالها، فصاحب النعمة يقلقه زوال هذه النعمة، و من

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳۱

هنا فلا تكون هذه النعم عادة باعثة على السعادة و الاطمئنان. أمّا نعم الجنّة ففيها السعادة و الطمأنينة لأنها خالدة لا يعتريها الزوال و الفناء. و إلى هذه الحقيقة تشير الآية فی خاتمتها و تقول: وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ

بحوث

۱- «الإيمان» و «العمل»:

فی كثير من الآيات القرآنية يقترن ذكر الإيمان بذكر العمل الصالح، حتى كان الاثنين متلازمان دونما افتراق. و الحق كذلك، لأن الإيمان و العمل يكمل بعضها الآخر.

لو نفذ الإيمان إلى أعماق النفس لتجلت آثاره فی الأعمال حتما، مثله كمثل مصباح لو أضاء فی غرفة لشع نوره من كل نوافذ الغرفة. و مصباح الإيمان كذلك لو شعّ فی قلب إنسان، لسطع شعاعه من عين ذلك الإنسان و أذنه و لسانه و يده و رجله.

يقول تعالى فی الآية الحادية عشرة من سورة الطلاق: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً.

و يقول فی الآية الخامسة و الخمسين من سورة النور:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ

فالإيمان بمثابة جذر شجرة و العمل الصالح ثمرتها. و وجود الثمر السليم دليل على سلامة الجذر. و وجود الجذر السليم يؤدی إلى نموّ الثمر الطيب.

من الممكن أن يصدر عمل صالح أحيانا عن أفراد ليس لهم إيمان، و لكن ذلك لا يحدث باستمرار حتما. فالذی يضمن بقاء العمل

الصالح هو الإيمان المتغلغل فى أعماق وجود الإنسان، الإيمان الذى يضع الإنسان دوما أمام مسئولياته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳۲

۲- الأزواج المطهّرة:

ممّا يلفت النظر فى هـذه الآيـة أن الوصف الوحيد الذى استعمله القرآن لمدح الأزواج فى جنّات النعيم هو أنّها «مطهرة». و هى إشارة إلى أول شرط فى الزوجة هو «الطهر». و كل ما سواه من الشروط و الأوصاف ثانوى.

روى عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم أنه قال: «إيّاكم و خضـراء الـدّمن. قيل: يا رسول اللّه! و ما خضـراء الدّمن؟ قال: المرأة الحسناء فى منبت السّوء»[۱۷۱].

۳- النعم المادية و المعنوية فى الجنّة:

ذكر القرآن الكريم أنواع النعم الماديـة فى الجنة مثل: جنات تجرى من تحتها الأنهار، و مساكن طيبة، و أزواج مطهرة، و ثمار متنوعة، و خلّان متحابين. و لكنه ذكر إلى جانب هذه النعم المادية نعما أهم منها هى النعم المعنوية التى لا نسـتطيع أن نفهم عظمتها بمقاييسنا، كقوله: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنـاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۱۷۲].

و فى آية اخرى يقول سبحانه بعد ذكر النعم المادية: رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ۱۷۳].

لو بلغ الإنسان هـذه المرتبـة حيث يرضـى اللّه عنه و يرضـى عن اللّه لأحسّ بلـذّة لا ترقى إليها لـذّة، و لهانت فى نظر هذا الإنسان سائر اللذات، عندها يرتبط هذا الإنسان باللّه و لا يفكر بما سواه، و هى مرتبة يعجز القلم و اللسان عن وصف سموّها و أبعادها.

بعبارة موجزة: كما أن للمعاد جانبا روحيا جسميا، كذلك نعم الجنة ذات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳۳

جانبين أيضا، كى تكون جامعة و قابلة لاستفادة أهل الجنة جميعا، كلّ على قدر كفاءته و لياقته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ (۲۶)

سبب النّزول

ذكر جمع من المفسـرين عن ابن عباس أن سـبب نزول هـذه الآية هو اعتراض المنافقين على ما ورد من أمثلة فى الآيات السابقة مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً ... أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ ...، و قالوا إن اللّه أسـمى من أن يضرب مثل هذه الأمثال، و بذلك راحوا يشككون

فی الرسالة و فی القرآن. و فی هذه الظروف نزلت الآیة الکریمة المذکورة.

قال آخرون: عند نزول الآیات التی تضرب الأمثال بالذباب و العنکبوت، بدأ المشرکون ینتقدون و یسخرون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳۵

التّفسیر

هل اللّه یضرب المثل؟!

الفقرة الاولی من الآیة تقول: إِنَّ اللَّهَ لا یَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها.

ذلک لأن المثال یجب أن ینسجم مع المقصود، بعبارة اخری، المثال وسیلة لتجسید الحقیقة حین یقصد المتحدث بیان ضعف المدّعی و تحقیره فإنّ بلاغة الحدیث تستوجب انتخاب موجود ضعیف للتمثیل به، کیما یتضح ضعف أولئک.

فی الآیة (۷۳) من سورة الحج مثلا یقول سبحانه: إِنَّ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ یَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَ إِنْ یَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَیْئاً لا یَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ

یلاحظ فی هذا المثال أن الذباب و أمثاله أحسن وسیلة لتجسید ضعف هؤلاء.

و هکذا فی الآیة (۴۱) من سورة العنکبوت، حین یرید القرآن أن یجسد ضعف المشرکین فی انتخابهم أولیاء من دون اللّه، یشبههم بالعنکبوت التی تتخذ لنفسها بیتا، و هو أضعف البیوت و أوهنها: مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً، وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ

من المؤکد أن القرآن لو ساق الأمثلة فی هذه المجالات علی الکواکب و السماوات لما أدّی الغرض فی التصغیر و التحقیر، و لما کانت أمثلته متناسبة مع أصول الفصاحة و البلاغة، فکأن اللّه تعالی یرید بهذه الامثلة القول: بأنه لا مانع من التمثیل بالبعوضة أو غیرها لتجسید الحقائق العقلیة فی ثیاب حسّیّة و تقدیمها للناس.

الهدف هو إیصال الفکرة، و الأمثلة یجب أن تتناسب مع موضوع الفکرة، و لذلک فهو سبحانه یضرب الأمثلة بالبعوضة فما فوقها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳۶

و ما المقصود من فَما فَوْقَها للمفسرین فی هذه رأیان:

الأوّل: «فوقها» فی الصغر، لأن المقام مقام بیان صغر المثال. و هذا مستعمل فی الحوار الیومی، نسمع مثلا رجل یقول لآخر: ألا تستحی أن تبذل کل هذا الجهد من أجل دینار واحد؟! فیجیب الآخر: لا، بل أکثر من ذلک أنا مستعد لأبذل هذا الجهد من أجل نصف دینار! فالزیادة هنا فی الصغر.

الثّانی: «فوقها» فی الکبر. أی إن اللّه یضرب الأمثال بالصغیر و بالکبیر، حسب مقتضی الحال.

لکن الرأی الأوّل یبدو أنسب.

ثم تقول الآیة: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا فَیَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ فهؤلاء، بإیمانهم و تقواهم، بعیدون عن اللجاجة و العناد و الحقد للحقیقة. و یستطیعون أن یروا الحق بجلاء و یدرکوا أمثلة اللّه بوضوح.

وَ أَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا فَیَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً.

هؤلاء یعترضون علی هذه الأمثلة لأنّها لا تهدی الجمیع، و یزعمون أنها لو کانت من عند اللّه لاهتدی بها النّاس جمیعا، و لما أدّت الی ضلال أحد! فیجیبهم اللّه بعبارة قصیرة تحسم الموقف و تقول: وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِینَ

فكل هـذه الأمثلـة من اللّه، و كلها نور و هداية، لكنها تحتاج إلى عين البصـيرة التى تسـتفيد منها، و مخالفة المخالفين تنطلق من نقص فيهم، لا من نقص فى الآيات الإلهية[۱۷۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۷

بحوث

۱- أهمية المثال فى بيان الحقائق:

الأمثلة المناسبة لها دور حساس: و عظيم فى التوضيح و الإقناع و الإفهام.

المثال المناسب قد يقرّب طريق الفهم إلى الأذهان بحيث نستعيض به عن الاقتحام فى الاستدلالات الفلسفية المعقدة.

و أهم من ذلك، نحن لا نستطيع أن نستغنى عن الأمثلة المناسبة فى تعميم و نشر الموضوعات العلمية الصعبة بين عامة النّاس.

و لا يمكننا أن ننكر دور المثال فى إسكات الأفراد المعاندين اللجوجين المتعنّتين.

على كـل حـال، تشـبيه «المعقول» ب «المحسوس» أحـد الطرق المؤثرة فى تفهيم المسائـل العقليـة، على أن يكون المثـال- كمـا قلنـا- مناسبا، و إلّا فهو مضلّ و خطر.

من هنا نجد فى القرآن أمثلة كثيرة رائعة شـيقة مؤثّرة، ذلك لأنه كتاب لجميع البشـر على اختلاف عصورهم و مستوياتهم الفكرية، إنه كتاب فى غاية الفصاحة و البلاغة[۱۷۵].

۲- لماذا التمثيل بالبعوضة؟

المعاندون اتخذوا من صغر البعوضة و الذبابة ذريعة للاستهزاء بالأمثلة القرآنية.

لكنّهم لو أنصفوا و أمعنوا النظر فى هذا الجسم الصغير، لرأوا فيه من عجائب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۸

الخلقة و عظيم الصنع و الدّقة ما يحيّر العقول و الألباب.

يقول الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام بشأن خلقة هذا الحيوان الصغير:

«إنّما ضـرب اللّه المثل بالبعوضة لأنّ البعوضة على صغر حجمها خلق اللّه فيها جميع ما خلق فى الفيل مع كبره و زيادة عضوين آخرين فأراد اللّه سبحانه أن ينبّه بذلك المؤمنين على لطف (لطيف) خلقه و عجيب صنعته»[۱۷۶].

يريد اللّه سبحانه بهذا المثال أن يبين للمؤمنين دقّة الصنع فى الخلق، التفكير فى هذا الموجود الضعيف على الظاهر، و الشبيه بالفيل فى الواقع، يبيّن للإنسان عظمة الخالق.

خرطوم هذا الحيوان الصغير يشبه خرطوم الفيل، أجوف، ذو فتحة دقيقة جدا، و له قوّة ماصة تسحب الدم.

منـح اللّه هـذا الحيوان قوة هضم و تمثيل و دفع، كما منحه أطرافا و أذنا و أجنحـة تتناسب تماما مع وضع معيشـته. هـذه الحشـرة تتمتع بحساسـية تشـعر فيها بالخطر بسـرعة فائقـة و تفرّ عنـد ما يداهمها عدوّ بمهارة عجيبة، و هى مع صـغرها و ضـعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات.

أمير المؤمنين على عليه السّـلام يقول فى هـذا الصـدد: «كيف و لو اجتمع جميع حيوانهـا من طيرهـا و بهائمهـا و مـا كـان من مرحها و

سائمها، و أصناف أسناخها و أجناسها، و متبلدة أممها و أکیاسها، علی إحداث بعوضة ما قدرت علی إحداثها، و لا عرفت کیف السّبیل إلی إیجادها، و لتحیّرت عقولها فی علم ذلک و تاهت، و عجزت قواها و تناهت، و رجعت خاسئة حسیرة، عارفة بأنّها مقهورة، مقرّة بالعجز عن إنشائها، مذعنة بالضّعف عن إفنائها»[۱۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۳۹

۳- هدایة اللّه و إضلاله:

ظاهر عبارة الآیة المذکورة یوحی بأن الهدایة و الضلال جبریان و مرتبطان بإرادة اللّه تعالی. بینما العبارة الأخیرة من الآیة توضح أن الهدایة و الضلال مترتبان علی أعمال الإنسان نفسه.

و لمزید من التوضیح نقول: إن أعمال الإنسان و تصرفاته لها نتائج و ثمار معیّنة. لو کان العمل صالحا فنتیجته مزید من التوفیق و الهدایة فی السیر نحو اللّه و مزید من أداء الأعمال الصالحة. یقول تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً[۱۷۸].

و إن جنح الإنسان نحو المنکرات، فان الظلمات تتراکم علی قلبه، و یزداد نهما لارتکاب المحرمات، و قد یبلغ به الأمر إلی أن ینکر خالقه، قال تعالی: ثُمَّ کانَ عاقِبَةَ الَّذِینَ أَساؤُا السُّوای أَنْ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ وَ کانُوا بِها یَسْتَهْزِؤُنَ ۱۷۹]. و قال أیضا: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۱۸۰].

و الآیة التی یدور حولها بحثنا شاهد آخر علی ذلک حیث یقول تعالی: وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِینَ

ممّا تقدم یتضح أن الإنسان حرّ فی انتخاب الطریق فی بدایة الأمر، و هذه حقیقة یقبلها ضمیر کل إنسان، ثم علی الإنسان بعد ذلک أن ینتظر النتائج الحتمیة لأعماله.

بعبارة موجزة: الهدایة و الضلالة- فی المفهوم القرآنی- لا- یعنیان الإجبار علی انتخاب الطریق الصحیح أو الخاطئ، بل إن الهدایة- المفهومة من الآیات المتعدّدة- تعنی توفّر سبل السعادة، و الإضلال: یعنی زوال الأرضیة المساعدة للهدایة، دون أن یکون هناک إجبار فی المسألة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۴۰

توفّر السبل (الذی نسمیه التوفیق)، و زوال هذه السبل (الذی نسمیه سلب التوفیق)، هما نتیجة أعمال الإنسان نفسه. فلو منح اللّه فردا توفیق الهدایة، أو سلب من أحد هذا التوفیق، فإنما ذلک نتیجة الأعمال المباشرة لهذا الفرد أو ذاک.

و یمکن التمثیل لهذه الحقیقة بمثال بسیط: حین یمرّ الإنسان قرب هاویة خطرة، فإنه یتعرّض لخطر الانزلاق و السقوط فیها کلّما اقترب منها أکثر.

کما أن احتمال سقوطه فی الهاویة یقلّ کلما ابتعد عنها أکثر، و الحالة الاولی هدایة و الثانیة ضلال.

من مجموع ما ذکرنا یتضح الجواب علی ما یثار من أسئلة فی حقل الهدایة و الضلال.

۴- «الفاسقون»: هم المنحرفون عن طریق العبودیة، لأن الفسق فی اللغة إخراج النوی من التمر، ثم انتقل إلی الخروج عن طریق اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۴۱

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۷]

اشارة

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ أُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۲۷)

التّفسير

الخاسرون الحقيقيون:

هذه الآية الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآية السابقة عن ضلال هذه الفئة، و تذكر لهم ثلاث صفات:

۱- إنهم يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ

هؤلاء لهم مع اللّه عهود و مواثيق، مثل عهد التوحيد، و عهد الرّبوبية، و عهد عدم اتّباع الشيطان و هوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، و تمرّدوا على أوامر اللّه، و اتبعوا أهواءهم و ما أراده الشيطان لهم.

طبيعة هذا العهد: يثار سؤال حول العهد المبرم بين اللّه و الإنسان، فالعهد عقد ذو جانبين، و قد يقول قائل: متى أبرمت مع اللّه عهدا من العهود المذكورة؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو عرفنا أن اللّه سبحانه أودع فى أعماق النفس الإنسانية شعورا خاصا و قوى خاصة يستطيع بها أن يهتدى إلى الطريق

الصحيح، و يتجنب مزالق الشيطان و أهواء النفس، و يستجيب لداعى اللّه.

هذه القوى الفطرية يعبّر عنها القرآن بالعهد الإلهى، و هو فى الحقيقة «عهد تكوينى» لا تشريعى أو قانونى. يقول تعالى: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ![۱۸۱].

و واضح أنّ الآية تشير إلى فطرة التوحيد العبودية و الميل إلى الاتجاه نحو التكامل فى النفس الإنسانية.

الدليل الآخر على هذا الاتجاه فى فهم العهد الإلهى،

ما جاء فى أول خطب نهج البلاغة عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: حيث قال: «فبعث فيهم رسله و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته».

بتعبير آخر: كل موهبة يمنحها اللّه للإنسان يصحبها عهد طبيعى بين اللّه و الإنسان، موهبة العين يصحبها عهد يفرض على الإنسان أى يرى الحقائق، و موهبة الاذن تنطوى على عهد مدوّن فى ذات الخلقة يفرض الاستماع إلى نداء الحق ... و بهذا يكون الإنسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استثمار القوى الفطرية المودعة فى نفسه، أو استخدم الطاقات الموهبة له فى مسير منحرف.

الفاسقون، ينقضون بعض هذه العهود الفطرية الإلهية، أو جميعها.

۲- الصفة الاخرى لهؤلاء الفاسقين هى أنهم ... يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ....

أكثر المفسرين ذهبوا إلى أن القطع المذكور فى الآية يعنى قطع الرحم، لكن مفهوم الآية- فى نظرة أعمق- أعم من ذلك، و ما قطع الرحم إلّا أحد مصاديقها، لأن الآية تتحدث عن قطع الفاسقين لكل ارتباط أمر اللّه به أن يوصل، بما فى ذلك رابطة الرحم، رابطة الصداقة، و الروابط الاجتماعية، و الرابطة بهداة البشرية إلى

اللّه، و الارتباط باللّه. و لا دليل على حصر الآية برابطة الرحم.

بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الآية تشير إلى قطع الارتباط بالأنبياء و المؤمنين، و بعضهم فسّرها بالارتباط بأئمة أهل البيت عليهم

السّلام ۱۸۲]. و واضح أن هذه التفاسیر تبیّن جزء من المفهوم الکلی للآیهٔ.

۳- علامهٔ الفاسقین الثالثهٔ هی الفساد: ... وَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ

و من الواضح أن یکون هؤلاء مفسدین، لأنهم نسوا اللّه و عصوه، و خلت نفوسهم من کل عاطفهٔ إنسانیهٔ حتی تجاه أرحامهم، هؤلاء لا یتحرکون إلّا علی خط مصالحهم و أهدافهم الذاتیهٔ الدنیّهٔ، و لا یهمّهم علی هذا الطریق أن یعیثوا فی الأرض فسادا، و یرتکبوا کل لون من الانحراف.

و تؤکد الآیهٔ فی الخاتمهٔ أن أُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ

و أی خسران أکبر من تبدید کل القوی المادیهٔ و المعنویهٔ المودعهٔ فی الإنسان الرّامیهٔ لإسعاده، و إهدارها علی طریق الشقاوهٔ و التعاسهٔ و الانحراف؟! نعم، هؤلاء الفاسقون الذین خرجوا عن خط إطاعهٔ اللّه لیس لهم مصیر سوی الخسران.

بحثان

۱- أهمیهٔ صلهٔ الرحم فی الإسلام:

الآیهٔ المذکورهٔ أعلاه، و إن تحدثت عن کل ارتباط أمر اللّه به أن یوصل، إلّا أن الارتباط الرحمی دون شک أحد مصادیقها البارزهٔ.

لقد أعار الإسلام اهتماما بالغا بصلهٔ الرحم و بالتودّد إلی الأهل و الأقارب.

و نهی بشدّهٔ عن قطع الارتباط بالرحم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۴

رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یصوّر أهمیهٔ صلهٔ الرحم

بقوله: «صلهٔ الرّحم تعمر الدّیار و تزید فی الأعمار، و إن کان أهلها غیر أخیار»[۱۸۳].

و عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «صل رحمک و لو بشربهٔ ماء، و أفضل ما یوصل به الرّحم کفّ الأذی عنها»[۱۸۴].

الإمام علی بن الحسین السّجاد علیه السّلام یحذّر ولده من صحبهٔ خمس مجموعات، إحداها قطاع الرحم، و

یقول: «... و إیّاک و مصاحبهٔ القاطع لرحمه فإنّی وجدته ملعونا فی کتاب اللّه».

و یقول سبحانه: فَهَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَکُمْ أُولئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۱۸۵].

السبب فی کل هذا التأکید الإسلامی علی الرحم هو أن عملیهٔ إصلاح المجتمع و تقویهٔ بنیته و صیانهٔ مسیرهٔ تکامله و عظمته فی الحقول المادیهٔ و المعنویهٔ، تفرض البدء بتقویهٔ اللّبنات الأساسیهٔ التی یتکون منها البناء الاجتماعی، و عند استحکام اللّبنات و تقویتها یتم إصلاح المجتمع تلقائیّا.

الإسلام مارس هذه العملیهٔ علی النحو الأکمل فی بناء المجتمع الإسلامی القوی الشامخ، و أمر بإصلاح الوحدات الاجتماعیهٔ. و الکائن الإنسانی لا یأبی عادهٔ أن ینصاع إلی مثل هذه الأوامر اللازمهٔ لتقویهٔ ارتباط أفراد الأسرهٔ، لاشتراک هؤلاء الأفراد فی الرحم و الدم.

و واضح أن المجتمع یزداد قوهٔ و عظمهٔ کلّما ازداد التماسک و التعاون و التعاضد فی الوحدات الاجتماعیهٔ الصغیرهٔ المتمثلهٔ بالأسرهٔ. و إلی هذه الحقیقهٔ قد یشیر

الحدیث الشریف: «صلهٔ الرحم تعمر الدیار».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۵

۲- القطع بدل الوصل:

ذكرت الآية الكريمة: أنّ الفاسقين. يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ و فى هذا الصدد يثار سؤال يقول: هل القطع ممكن قبل الوصل؟
و الجواب: إن المقصود بالوصل استمرار الروابط التى أقرّها اللّه سبحانه بينه و بين عباده، أو بين عباده مع بعضهم بشكل طبيعى و فطرى.
بعبارة اخرى، إن اللّه سبحانه أمر بالحفاظ على هذه الروابط الفطرية و الطبيعية و بصيانتها، لكنّ المذنبين يقطعونها (تأمّل بدقة).
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۴۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۸ الى ۲۹]

اشارة

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۸) هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۹)

التّفسير

نعمة الحياة:

القرآن فى الآيتين يلفت أنظار البشر إلى عظمة الخالق عن طريق ذكر بعض النعمّ الإلهية و بعض المظاهر المدهشة للخلقة. و بذلك يكمل الأدلة التى أوردها فى الآيتين (۲۱ و ۲۲) من هذه السّورة حول معرفة اللّه.
القرآن يبدأ فى أدلته من نقطة لا تقبل الإنكار، و يركز على مسألة (الحياة) بكل ما فيها من تعقيد و غموض، و يقول: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ
و فى هذه العبارة تذكير للإنسان بما كان عليه قبل الحياة ... لقد كان ميتا تماما مثل الأحجار و الأخشاب و لم يكن فيه أى أثر للحياة، لكنه الآن يتمتع بنعمة الحياة، و بنعمة الشعور و الإدراك.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۴۷
من الذى منح الإنسان نعمة الحياة؟ هل أن الكائن البشرى هو الذى منح نفسه الحياة؟! كل إنسان منصف لا يتردد أن يجيب: أن هذه الحياة موهوبة للإنسان من لدن عالم قادر ... عالم برموز الحياة و قوانينها المعقدة ... و قادر على تنظيمها. إذن كيف يكفر هذا الإنسان بمن أحياه بعد موته؟! أجمعت العلماء اليوم أن مسألة الحياة أعقد مسألة فى عالمنا هذا، لأن لغز الحياة لم ينحل حتى اليوم على الرغم من كل ما حققه البشر من تقدّم هائل فى حقل العلم و المعرفة. قد يستطيع العلم فى المستقبل أن يكتشف بعض أسرار الحياة ... لكن السؤال يبقى قائما بحاله: كيف يكفر الإنسان باللّه و ينسب هذه الحياة بتعقيداتها و غموضها و أسرارها إلى صنع الطبيعة العمياء الصّماء الفاقدة لكل شعور و إدراك؟! من هنا نقول إن ظاهرة الحياة فى عالم الطبيعة أعظم سند لإثبات وجود اللّه تعالى. و القرآن يركز فى الآية المذكورة على هذه المسألة بالذات، و هى مسألة تحتاج إلى مزيد من الدراسة و التعمق، لكننا نكتفى هنا بهذه الإشارة.
بعد التذكير بهذه النعمة، تؤكد الآية على دليل واضح آخر و هو «الموت» ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

ظاهرة «الموت» یراها الإنسان فی حیاته الیومیة، من خلال وفاة من یعرفهم و من لا یعرفهم، و هذه الظاهرة تبعث أیضا علی التفکیر، من الذی قبض أرواحهم؟

ألا یدلّ سلب الحیاة منهم علی أن هناک من منحهم هذه الحیاة؟

نعم ... إن خالق الحیاة هو خالق الموت أیضا، و إلی ذلک تشیر الآیة الکریمة:

الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[۱۸۶].

بعد أن ذکرت الآیة هذین الدلیلین الواضحین علی وجود اللّه، تناولت المعاد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۸

و الحیاة بعد الموت: ثُمَّ یُحْیِیکُمْ

و یأتی ذکر المعاد فی سیاق هذه الآیة لیبین أن مسألة الحیاة بعد الموت (المعاد) مسألة طبیعیة جدا لا تختلف عن مسألة إحیاء الإنسان فی هذه الدنیا بل إنها أیسر من الخلق الاول (مع أن السهل و الصعب لیس لها مفهوم بالنسبة للقادر المطلق). و هل بمقدور إنسان أن ینکر إمکان المعاد و هو یری أنه خلق من عناصر میتة؟! و هکذا، و بعبارة موجزة رائعة یفتح القرآن أمام الإنسان سجل حیاته منذ ولادته و حتی بعثه.

و فی نهایة الآیة یقول تعالی: ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ و المقصود بالرجوع هو الرجوع إلی نعم اللّه تعالی یوم القیامة. و الرجوع غیر البعث. و القرآن یفصل بین الاثنین کما فی قوله تعالی: وَ الْمَوْتی یَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَیْهِ یُرْجَعُونَ ۱۸۷].

قد یکون الرجوع فی الآیة الکریمة إشارة إلی معنی أدقّ، هو إن جمیع الموجودات تبدأ مسیرة تکاملها من نقطة العدم التی هی نقطة «الصفر» و تواصل السیر نحو «اللانهایة» التی هی ذات اللّه سبحانه و تعالی. من هنا فإن هذه المسیرة لا تتوقف لدی الموت، بل تستمر فی الحیاة الاخری علی مستوی أسمی.

بعد ذکر نعمة الحیاة و الإشارة إلی مسألة المبدأ و المعاد، تشیر الآیة إلی واحدة اخری من النعمّ الإلهیة السابقة و تقول: هُوَ الَّذِی خَلَقَ لَکُمْ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً.

و بهذا تعیّن الآیة قیمة الإنسان فی هذه الأرض، و سیادته علی ما فیها من موجودات. و منها نستطیع أن نفهم المهمّة العظیمة الثقلیة الموکولة إلی هذا المخلوق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۹

فی ساحة الوجود.

و فی القرآن آیات اخری تؤکد علی مکانة الإنسان السامیة، و توضّح أن هذا الکائن هو الهدف النهائی من خلق کل موجودات الکون.

وَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ ۱۸۸] و ثمة آیات اخری تحدثت عن هذا المفهوم بالتفصیل کقوله تعالی ۱۸۹].

وَ سَخَّرَ لَکُمُ الْفُلْکَ ...[۱۹۰].

وَ سَخَّرَ لَکُمُ الْأَنْهارَ ...[۱۹۱].

وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ ...[۱۹۲].

و سخر لکم البحر ...[۱۹۳].

وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ ...[۱۹۴].

و تعود الآیة إلی ذکر أدلة التوحید و تقول: ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ

الفعل «استوی» من «الاستواء» و هو التسلط و الإحاطة الکاملة و القدرة علی الخلق و التدبیر، و کلمة «ثم» فی الآیة لا تعنی لزاما التأخیر

الزمانی، بل تعنی أیضا التأخیر فی البیان و توالی فی ذکر الحقائق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۵۰

بحوث

۱- التناسخ أو عودة الأرواح

الآیـة المـذکورة أعلاه من الآیات التی ترفض بوضوح فکرة التناسـخ، فالمعتقـدون بالتناسـخ یؤمنون بأن الإنسان یعود بعد الموت ثانیة إلی هذه الحیاة، بعد أن تحلّ روحه فی جسم آخر (و نطفة اخری)، و یحیا فی هذه الدنیا حیاة اخری، و قد تتکرر هذه العودة مرات، و تکرر هذه الحیاة یسمی بالتناسخ أو عودة الأرواح.

الآیـة تصـرح بعدم وجود أکثر من حیاة واحدة بعد الموت، هی حیاة البعث و النشور. و بعبارة اخری توضح الآیة أن للإنسان حیاتین و مماتین لا أکثر، و کان الإنسان میتا یوم کان جزءا من الطبیعـة غیر الحیّـة، ثم أحیاه اللّه یوم ولد، ثم یمیته، ثم یعیده. و لو کان التناسـخ صحیحا لکان للإنسان أکثر من مماتین و حیاتین.

هذا المفهوم مذکور فی آیات اخری أیضا، سنشیر إلیه فی موضعه ۱۹۵].

فکرة التناسخ إذن مرفوضة قرآنیا، کما أنّه مرفوضة عقلیا، و هی نوع من الرجعیة و الانتکاس فی قانون التکامل ۱۹۶].

جـدیر بالـذکر أنّ هذه الآیة لا تشـیر إلی الحیاة البرزخیة (الحیاة بین الموت و النشور) کما توهم البعض، بل إلی الحیاة بعد الموت فی هـذه الـدنیا (إحیاء الإنسان بعد تکونه من مواد طبیعیّة میتة)، ثم الموت بعد هذه الحیاة الدنیویة، ثم الحیاة الاخری، و اسـتمرار المسـیرة التکاملیة نحو اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۵۱

۲- السّماوات السّبع

کلمة «سماء» تشیر إلی جهة علیا، و لها مفهوم واسع ذو مصادیق مختلفة.

و لذلک کان لها استعمالات عدیدة فی القرآن الکریم:

۱- أطلقت أحیانا علی «الجهة العلیا» المجاورة للأرض کقوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا کَلِمَةً طَیِّبَةً کَشَجَرَةٍ طَیِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ[۱۹۷].

۲- و عنی بها القرآن تارة المنطقة البعیدة عن سطح الأرض: وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَکاً[۱۹۸].

۳- عبّر القرآن بها فی موضع آخر عن (الغلاف الجوی) المحیط بالأرض:

وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً[۱۹۹]. لأن هذا الغلاف یقی الکرة الأرضیة من الصخور السماویة (النیازک) التی تتجه إلی الأرض لیلا و نهارا بفعل جاذبیة الأرض، لکن اصطدام هذه الصخور بجوّ الأرض یؤدی إلی اشتعالها و من ثم تحوّلها إلی رماد.

۴- و أراد القرآن بالسماء فی موضع آخر (الکرات العلیا): ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ وَ هِیَ دُخانٌ ۲۰۰].

نعود الآن إلی «السماوات السبع» لنری ما المقصود من هذا العدد. تعددت آراء المفسرین و العلماء المسلمین فی ذلک.

۱- منهم من قال إنها السّیارات السّبع ۲۰۱] فی اصطلاح الفلکیین القدماء: أی

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۵۲

عطارد و الزهرة و المريخ و المشترى و زحل و القمر و الشمس.

۲- و منهم من قال إن المقصود بها هو الطبقات المتراكمة للغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية.

۳- و منهم من قال إن العدد (سبعة) لا يراد به هذا العدد المعروف، بل يراد به الكثرة، أى أن معنى «السماوات السبع» هو السماوات و الكرات الكثيرة فى الكون.

و لهذا نظير فى كلام العرب و فى القرآن، كقوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ ۲۰۲].

و واضح أن المقصود بالسبعة فى هذه الآية ليس العدد المعروف، لأن علم اللّه لا ينتهى حتى و لو أن البحر يمده من بعده الآلاف المؤلفة من الأبحر.

۴- الأصح فى رأينا أن المقصود بالسماوات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. و تكرر هذه العبارة فى آيات الذكر الحكيم يدل على أن العدد المذكور فى هذا الآيات لا يعنى الكثرة، بل يعنى العدد الخاص بالذات.

و يستفاد من آيات اخرى أن كل الكرات و السيّارات المشهودة هى جزء من السماء الاولى، و ثمة ستة عوالم اخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا و وسائلنا العلمية اليوم. و هذه العوالم السبعة هى التى عبّر عنها القرآن بالسماوات السبع.

يقول تعالى: وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ ۲۰۳].

و يقول أيضا: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ ۲۰۴].

و يتضح من هاتين الآيتين أن ما نراه و ما يتكون منه عالم الأفلاك هو جزء من السماء الاولى، و ما وراء هذه السماء ست سماوات اخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۵۳

نحن نرى اليوم أنه كلما تقدمت العلوم الناقصة للبشر اكتشفت عجائب و مجاهيل عظيمة. علم الفلك تقدّم إلى مرحلة بعيدة جدا فى الرصد عن طريق التلسكوبات، ثم توقفت قدرة الرؤية إلى أكثر من ذلك.

أبعد ما اكتشفته دوائر الأرصاد الفلكى العالمية حتى الآن مسافة فى الكون تعادل ألف مليون (مليار) سنة ضوئية. و الراصدون يعترفون أن أقصى ما اكتشفوه هو بداية الكون لا نهايته. و ما يدريك أن العلم سيكتشف فى المستقبل سماوات و عوامل اخرى! من الأفضل أن نسمع هذا الحديث عن لسان مرصد عالمى كبير.

۳- عظمة الكائنات

المرصد ل «بالومر» يصف عظمة الكون كالآتى:

«... قبل نصب مرصد بالومر، كان العالم فى نظرنا لا يزيد على خمسمائة سنة ضوئية. لكن هذا الناظور وسّع عالمنا إلى ألف مليون سنة ضوئية. و اكتشف على أثر ذلك ملايين المجرات الجديدة التى يبعد بعضها عنا ألف مليون سنة ضوئية. أما بعد هذه المسافة فيتراءى لنا فضاء عظيم مهيب مظلم لا نبصر فيه شيئا، أى أن النور لا ينفذ إليه كى يؤثر على صفحة التصوير فى المرصد.

و من دون شك أن هذا الفضاء المهيب المظلم يحتوى على مئات الملايين من المجرات التى تحافظ بجاذبيّتها على هذا العالم المرئى. كل هذا العالم العظيم المرئى الحاوى على مئات آلاف الملايين من المجرات ليس إلا جزءا صغيرا جدا من عالم أعظم. و لسنا واثقين من عدم وجود عالم آخر غير هذا العالم الأعظم»[۲۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۴

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۳۰ الی ۳۳]

اشارة

وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِیها مَنْ یُفْسِدُ فِیها وَ یَسْفِکُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ قالَ إِنِّی أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (۳۰) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ کُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَی الْمَلائِکَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِی بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۳۱) قالُوا سُبْحانَکَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ (۳۲) قالَ یا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ إِنِّی أَعْلَمُ غَیْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ (۳۳)

التّفسیر

الإنسان خلیفة اللّه فی الأرض

الآیات السابقة ذکرت أن اللّه سبحانه خلق ما فی الأرض جمیعا للإنسان، و فی هذه الآیات تقریر صریح لخلافة الإنسان و قیادته، و توضیح لمکانته المعنویة التی استحق بها کل هذه المواهب.

فی هذه الآیات عرض لخلقة آدم (أبو البشر)، و فی الآیات ۳۰ إلی ۳۹ ترکیز علی ثلاث مسائل أساسیة هی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۵

۱- إخبار اللّه ملائکته بشأن خلافة الإنسان فی الأرض، و ما دار فی المشهد من حوار.

۲- أمر اللّه تعالی ملائکته بإکرام و تعظیم الإنسان الأول، و هذا ما نجده فی مواضع عدیدة من القرآن الکریم بمناسبات مختلفة.

۳- شرح وضع آدم و حیاته فی الجنّة، و الحوادث التی أدت إلی خروجه من الفردوس، ثم توبة آدم، و حیاته هو و ذریته فی الأرض.

الآیات المذکورة تتحدث عن المرحلة الاولی، حین شاء اللّه أن یخلق علی ظهر الأرض موجودا، یکون فیها خلیفته، و یحمل أشعة من صفاته، و تسمو مکانته علی مکانة الملائکة، و شاء سبحانه أن تکون الأرض و نعمها و ما فیها من کنوز و معادن و إمکانات تحت تصرف هذا الإنسان.

مثل هذا الموجود بحاجة إلی قسط وافر من العقل و الشعور و الإدراک و الکفاءة الخاصة، کی یستطیع أن یتولی قیادة الموجودات الأرضیة.

و بهذه المناسبة تقول الآیة الاولی: وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً، و الخلیفة هو النائب عن الغیر. أما هذا الغیر الذی ینوب الإنسان عنه فاختلفت فیه أقوال المفسرین ....

منهم من قال إنه خلیفة الملائکة الذین کانوا یسکنون من قبل علی ظهر الأرض. و منهم من قال إنه خلیفة بشر آخرین أو موجودات اخری کانت تعیش قبل ذلک علی الأرض.

و ذهب بعضهم إلی أن الخلیفة إشارة إلی أن کل جیل من البشر یخلف الجیل السابق.

و الحق أن المقصود بالخلیفة هو خلیفة اللّه و نائبه علی ظهر الأرض، کما ذهب إلی ذلک کثیر من المحققین، لأن سؤال الملائکة بشأن هذا الموجود الذی قد یفسد فی الأرض و یسفک الدماء یتناسب مع هذا المعنی، لأن نیابة اللّه فی الأرض لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۶

تتناسب مع الفساد و سفک الدماء.

مسألة «تعلیم الأسماء» لآدم التی سیأتی شرحها، و هکذا سجود الملائکة لآدم من أدلة ما ذهبنا إلیه فی تفسیر معنی الخلیفة.

الإمام جعفر بن محمّد الصّادق علیه السّلام یشیر أیضا إلی هذا المعنی فی تفسیر هذه الآیات إذ یقول: «إنّ اللّه عزّ و جلّ علّم آدم أسماء حججه کلّها ثمّ عرضهم و هم أرواح علی الملائکة فقال أنبؤنی بأسماء هؤلاء إن کنتم صادقین بأنّکم أحقّ بالخلافة فی الأرض لتسبیحکم و تقدیسکم من آدم فقالوا سبحانک لا علم لنا إلّا ما علّمتنا إنّک أنت العلیم الحکیم قال اللّه تبارک و تعالی یا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبئهم بأسمائهم وقفوا علی عظیم منزلتهم عند اللّه عزّ ذکره فعلموا أنّهم أحقّ بأن یکونوا خلفاء اللّه فی أرضه و حججه علی بریّته ثمّ غیّبهم عن أبصارهم و استعبدهم بولایتهم و محبّتهم و قال لهم ألم أقل لکم إنّی أعلم غیب السّموات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما کنتم تکتمون»[۲۰۶].

ثم تذکر الآیة سؤال الملائکة الذی وجّهوه لربّ العالمین مستفسرین لا معترضین: قالُوا أَ تَجْعَلُ فِیها. مَنْ یُفْسِدُ فِیها وَ یَسْفِکُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ

اللّه سبحانه أجاب الملائکة جوابا مغلقا اتضح فی المراحل التالیة: قالَ إِنِّی أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ

الملائکة کانوا عالمین- کما یبدو من تساؤلهم- أن هذا الإنسان موجود یفسد فی الأرض و یسفک الدماء، فکیف عرفوا ذلک؟! قیل إن اللّه سبحانه أوضح للملائکة من قبل علی وجه الإجمال مستقبل الإنسان، و قیل إن الملائکة فهموا ذلک من خلال عبارة «فی الأرض»، لأنهم علموا أن هذا الإنسان یخلق من التراب، و المادة لمحدودیتها هی حتما مرکز

للتنافس و النزاع. و هذا العالم المحدود المادی لا یستطیع أن یشبع طبیعة الحرص فی الإنسان. و هذه الدنیا لو وضعت بأجمعها فی فم الإنسان فقد لا تشبعه. و هذا الوضع- إن لم یقترن بالالتزام و الشعور بالمسؤولیة- یؤدی إلی الفساد و سفک الدماء.

بعض المفسرین ذهب إلی أنّ تنبؤ الملائکة یعود إلی تجربتهم السابقة مع مخلوقات سبقت آدم، و هذه المخلوقات تنازعت و سفکت الدماء و خلفت فی الملائکة انطباعا مرّا عن موجودات الأرض.

هذه التفاسیر الثلاثة لا تتعارض مع بعضها. و قد یکون موقف الملائکة من استخلاف آدم ناشئا عن هذه الأسباب الثلاثة معا.

الملائکة بیّنوا حقیقة من الحقائق. و لذلک لم ینکر اللّه علیهم قولهم، بل أشار إلی أن ثمة حقائق اخری إلی جانب هذه الحقیقة، حقائق ترتبط بمکانة الإنسان فی الوجود؛ و هذا ما لم تعرفه الملائکة.

الملائکة یعلمون أن الهدف من الخلقة هو العبودیة و الطاعة، و کانوا یرون فی أنفسهم مصداقا کاملا لذلک، فهم فی العبادة غارقون. و لذلک فهم- أکثر من غیرهم- للخلافة لائقون، غیر عالمین أن بین عبادة الإنسان الملیء بألوان الشهوات، و المحاط بأشکال الوساوس الشیطانیة و المغریات الدنیویة و بین عبادتهم- و هم خالون من کل هذه المؤثرات- بون شاسع. فأین عبادة هذا الموجود الغارق وسط الأمواج العاتیة، من عبادة تلک الموجودات التی تعیش علی ساحل آمن؟! ماذا تعرف الملائکة من أبناء آدم أمثال محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و ابراهیم و نوح و موسی و عیسی و الأئمّة من أهل البیت علیهم السّلام و عباد اللّه الصالحین و الشهداء و المضحّون من الرجال و النساء الذین قدّموا وجودهم علی مذبح العشق الإلهی، و الذین تساوی ساعة من تفکّرهم سنوات متمادیة من عبادة الملائکة.

الجدیر بالذکر، إن الملائکة رکنوا فی بیان فضلهم إلی ثلاثة امور: التسبیح

و الحمد، و التقدیس، أمّا التسبیح و الحمد فمعنا هما واضح، و هو تنزیه اللّه عزّ و جلّ من کل نقص و الاعتراف له بکل کمال و جمال. أمّا ما هو معنی التقدیس؟ البعض یری أنه عبارة عن تنزیه اللّه عزّ و جلّ عن کل نقص، و هو معنی التسبیح المتقدم.

و لكن آخرين ذهبوا إلى ان التقديس من مادة «قدس» أى تطهير الأرض من الفاسدين و المفسدين، أو تطهير النفس من كل رذيلة، أو تطهير الجسم و الروح للّه.

و الشاهد على ذلك كلمة «لک»، فى جملة «نقدس لك» لأن الملائكة لم يقولوا «نقدسک» بل «نقدس لک»، أى تطهر المجتمع و الأرض لك.

و فى الحقيقة أن مرادهم هو القول بأن الهدف إذا كان هو الطاعة و العبودية فنحن على أتمّ الاستعداد. و لو كان هو العبادة فنحن فى هذه الحالة دائما، و إذا كان المقصود هو تطهير النفس أو تطهير الأرض فسوف ننفذ هذا الأمر. فى حين أن الإنسان المادى مضافا إلى فساده. فإنّه يفسد الأرض.

و من أجل أن تتضح الحقيقة للملائكة أقدم اللّه سبحانه على هذه التجربة ليعلموا الفرق الشاسع بينهم و بين آدم عليه السّلام.

الملائكة فى بودقة الاختبار

كان آدم يملك- بفضل اللّه- قابلية خارقة لفهم الحقائق، و شاء اللّه أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعل، و هذا ما عبر عنه القرآن بقوله:

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها.

اختلف المفسرون فى تفسير «تعليم الأسماء»، و من المؤكد أن المقصود من ذلك ليس هو تعليم الأسماء دون المعانى. فذلك لا يكسب آدم فخرا بل المقصود هو معانى الأسماء و المفاهيم و المسميات.

هذا العلم بالكون و بأسرار الموجودات و خواصها، كان مفخرة كبيرة لآدم طبعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۵۹

عن أبى العباس قال: سألت الإمام الصادق عليه السّلام عن قول اللّه: و علّم آدم الأسماء كلها، ماذا علّمه؟ قال: «الأرضين و الجبال و الشعاب و الأودية ثم نظر إلى بساط تحته فقال: و هذا البساط ممّا علّمه»[۲۰۷].

علم الأسماء إذن لم يكن يشبه «علم المفردات»، بل كان يرتبط بفلسفة الأسماء و أسرارها و كيفياتها و خواصها. و اللّه سبحانه منح آدم هذا العلم ليستطيع أن يستثمر المواهب المادية و المعنوية فى الكون على طريق تكامله.

كما منح اللّه آدم قابلية التسمية، ليستطيع أن يضع للأشياء أسماء، و بذلك يتحدث عن هذه الأشياء بذكر اسمها لا بإحضار عينها. و هذه نعمة كبرى، نفهمها لو عرفنا أن علوم البشرية تنقل عن طريق الكتب و المدوّنات. و ما كان هذا التدوين مقدورا لو لا وضع الأسماء للأشياء و خواصها.

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ: أَنْبِئُونِی بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ...

و أمام هذا الاختبار تراجع الملائكة لأنهم لم يملكوا هذه القدرة العلمية التى منحها اللّه لآدم، قالُوا: سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

و هكذا أدركت الملائكة تلك القدرة التى يحملها آدم، التى تجعله لائقا لخلافة اللّه على الأرض. و فهمت مكانة هذا الكائن فى الوجود.

و حان الدور لآدم كى يشرح أسماء الموجودات و أسرارها أمام الملائكة:

قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّی أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

و هنا اتضح للملائكة أن هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الأرض.

عبارة ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ إشارة إلى أن الملائكة كانوا يخفون شيئا لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۰

يظهروه فى أقوالهم. قال بعض المفسرين: إنها إشارة إلى حالة استكبار إبليس الذى كان يومئذ بين الملائكة. و كان يكتم إصراره على عدم الخضوع لآدم.

و من المحتمل أيضا أن تكون العبارة إشارة إلى ما كان يبطنه الملائكة من اعتقاد بأنهم أليق من غيرهم للخلافة الإلهية على الأرض. فهم أشاروا إلى مثل هذا الاعتقاد و لم يصرّحوا به.

جواب على سؤالين

و يبقى سؤالان فى هذا المجال، الأوّل يدور حول تعليم اللّه لآدم، كيف تمّ ذلك؟ و لو قدّر أن يكون هذا التعليم من نصيب الملائكة لنالوا نفس فضيلة آدم، فهل هناك مفخرة يمتلكها آدم و لا تمتلكها الملائكة؟

أما بشأن كيفية التعليم فالجواب هو أن هذا التعليم تكوينى، أى إن اللّه أودع هذا العلم فى وجود آدم بالقوة، و دفعه خلال مدّة قصيرة إلى المرحلة الفعلية.

إطلاق كلمة «تعليم» فى القرآن على «التعليم التكوينى» ورد فى موضع آخر من القرآن، كقوله تعالى: عَلَّمَهُ الْبَيانَ ۲۰۸] و واضح أن اللّه سبحانه علّم الإنسان البيان فى مدرسة الخلقة، أى منحه الكفاءة و الخصائص الفطرية اللازمة للبيان و الكلام.

أما الشطر الآخر من هذا السؤال فيتبين جوابه لو علمنا أن الملائكة كانت لهم خلقة خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقى كل هذه العلوم. إنهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، و هذه الحقيقة فهمها الملائكة و تقبلوها بعد أن مرّوا بتلك التجربة المذكورة فى الآية. و لعلهم اعتقدوا فى البداية أنهم يحملون الكفاءة اللازمة لهذا الهدف، لكن اللّه بيّن لهم الفرق بين كفاءتهم و كفاءة آدم بتجربة تعليم الأسماء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۱

أمّا السّؤال الثّانى فيرتبط بالضمير «هم» فى قوله تعالى: ثُمَّ عَرَضَهُمْ و أسمائهم و باسم الإشارة هؤلاء فى الآية. فالمعروف أنّ «هم» و «هؤلاء» يستعملان فى العاقل، و هذا لا ينسجم مع تفسير «الأسماء» بأنهم أسرار الخلقة و فهم خواص جميع الموجودات.

و الجواب هو أن استعمال الضمير «هم» و اسم الإشارة «هؤلاء» لا يختص بالعاقل، بل قد يستعملان فى جمع مكوّن من عاقل و غير عاقل، و قد يستعملان فى جمع غير عاقل. كقوله تعالى: رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ ۲۰۹] و الضمير «هم» فى الآية يعود على الكواكب و الشمس و القمر التى رآها يوسف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۲

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳۴ الى ۳۶]

اشارة

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (۳۴) وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (۳۵) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا

بَعْضُكَمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكَمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (۳۶)

التّفسیر

آدم علیه السّلام فی الجنّۀ

ینتقل القرآن إلی فصل آخر من موضوع عظمۀ الإنسان، و یقول: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ، وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ

یبدو للوهلۀ الاولی أن مسألۀ السجود لآدم جاءت بعد تجربۀ الملائکۀ المذکورۀ فی الآیات السابقۀ و بعد تعلیم الأسماء. و لکن لو أمعنّا النظر فی آیات القرآن الکریم لألفینا أن موضوع السجود جاء بعد اکتمال خلقۀ الإنسان مباشرۀ، و قبل امتحان الملائکۀ.

یقول تعالی: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۳

السجود إذن جاء مباشرۀ بعد نفخ الروح فی الإنسان، و هذا المعنی جاء فی الآیۀ ۷۲ من سورۀ (ص)[۲۱۰].

ثمۀ دلیل آخر علی هذه المسألۀ هو أن استجابۀ الملائکۀ لأمر اللّه بالسجود، لو کانت بعد اتضاح مکانۀ آدم، لما اعتبرت مفخرۀ للملائکۀ.

علی أی حال، الآیۀ المذکورۀ تقریر قرآنی واضح صریح لشرف الإنسان و عظمۀ مکانته. فکل الملائکۀ یؤمرون بالسجود له بعد اکتمال خلقته.

حقا، إن هذا الموجود، اللائق لخلافۀ اللّه علی الأرض، و المؤهل لهذا الشوط الکبیر من التکامل و تربیۀ أبناء عظام کالأنبیاء و خاصۀ النّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، یستحق کل احترام.

نحن نشعر بالتعظیم و التکریم لمن حوی بعض العلوم و علم شیئا من القوانین و المعادلات العلمیۀ، فکیف حال الإنسان الأوّل مع کل تلک العلوم و المعارف الزاخرۀ عن عالم الوجود؟!

بحثان

۱- لماذا أبی إبلیس؟

«الشّیطان» اسم جنس شامل للشیطان الأوّل و لجمیع الشّیاطین. أمّا «إبلیس» فاسم علم للشیطان الذی وسوس لآدم. و إبلیس- کما صرح القرآن- ما کان من جنس الملائکۀ و إن کان فی صفوفهم، بل کان من طائفۀ الجن، و هی مخلوقات مادیۀ. قال تعالی: فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِ ۲۱۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۴

باعثه علی الامتناع عن السجود کبر و غرور و تعصب خاص استولی علیه حیث اعتقد أنه أفضل من آدم، و لا ینبغی أن یصدر له أمر بالسجود لآدم، بل ینبغی أن یؤمر آدم بالسجود له، و سیأتی شرح ذلک فی تفسیر الآیۀ ۱۲ من سورۀ الأعراف ۲۱۲].

کفر إبلیس کان یعود إلی نفس السبب أیضا، فقد اعتقد بعدم صواب الأمر الإلهی، و بذلک لم یعص فحسب، بل انحرف عقائدیا. و هکذا ذهبت أدراج الریاح کل عباداته و طاعاته نتیجۀ کبره و غروره. و هکذا تکون دوما نتیجۀ الکبر و الغرور.

و عبارة کانَ مِنَ الْکافِرِینَ تشیر إلی أن إبلیس کان قبل صدور الأمر الإلهی إلیه بالسجود، قد انفصل عن مسیر الملائکة و طاعة اللّه، و أسرّ فی نفسه الاستکبار و الجحود. لعله عزم فی قرارة نفسه أن لا یخضع لو صدرت إلیه أوامر بالخضوع و السجود. و من المحتمل أن تکون عبارة ما کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ إشارة إلی ذلک.

و ورد هذا المعنی فی حدیث عن الإمام الحسن العسکری علیه السّلام. قال إبلیس «لئن أمرنی اللّه بالسّجود لهذا لعصیته إلی أن قال: ثمّ قال اللّه تعالی للملائکة: اسجدوا لآدم فسجدوا فأخرج إبلیس ما کان فی قلبه من الحسد فأبی أن یسجد»[۲۱۳].

۲- هل کان السّجود للّه أم لآدم علیه السّلام؟

لا شک أن السجود یعنی «العبادة» للّه، إذ لا معبود غیر اللّه، و توحید العبادة یعنی أن لا نعبد إلّا اللّه.

من هنا فإن الملائکة لم یؤدوا لآدم یعنی «سجدة عبادة» قطعا. بل کان السجود للّه من أجل خلق هذا الموجود العجیب. أو کان سجود الملائکة لآدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۵

سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء فی «عیون الأخبار» عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام: «کان سجودهم للّه تعالی عبودیّة، و لآدم إکراما و طاعة، لکوننا فی صلبه»[۲۱۴].

بعد هذا المشهد و مشهد اختبار الملائکة، أمر آدم و زوجه أن یسکنا الجنّة، کما جاء فی قوله تعالی: وَ قُلْنا یا آدَمُ اسْکُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُکَ الْجَنَّةَ، وَ کُلا مِنْها رَغَداً حَیْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ[۲۱۵].

یستفاد من آیات القرآن أن آدم خلق للعیش علی هذه الأرض. لکنّ اللّه شاء أن یسکنه قبل ذلک الجنّة، و هی روضة خضراء موفورة النعمة فی هذا العالم، و خالیة من کل ما یزعج آدم.

لعل مرحلة مکوث آدم فی الجنّة کانت مرحلة تحضیریة لعدم ممارسة آدم للحیاة علی الأرض و صعوبة تحمّل المشاکل الدنیویة بدون مقدمة، و من أجل تأهیل آدم لتحمل مسئولیات المستقبل، و لتفهیمه أهمیة حمل هذه المسؤولیات و التکالیف الإلهیة فی تحقیق سعادته، و لإعطائه صورة عن الشقاء الذی یستتبع إهمال هذه التکالیف، و لتنبیهه بالمحظورات التی سیواجهها علی ظهر الأرض.

و کان من الضروری أیضا أن یعلم آدم بإمکان العودة إلی اللّه بعد المعصیة.

فمعصیة اللّه- لا تسدّ إلی الأبد- أبواب السعادة أمامه، بل یستطیع أن یرجع و یعاهد اللّه أن لا یعود لمثلها، و عند ذاک یعود إلی النعم الإلهیة.

ینبغی أن ینضج آدم علیه السّلام فی هذا الجوّ إلی حد معیّن، و أن یعرف أصدقاءه و أعداءه، و یتعلم کیف یعیش علی ظهر الأرض.

نعم، کانت هذه مجموعة من التعالیم الضروریة التی تؤهله للحیاة علی ظهر الأرض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۶

کانت هذه مقدمات تأهیلیة یحتاجها آدم و أبناء آدم فی حیاتهم الجدیدة.

و لعل الفترة التی قضاها آدم فی الجنّة أن ینهض بمسؤولیة الخلافة علی الأرض کانت تدریبیة أو تمرینیة.

و هنا رأی «آدم» نفسه أمام أمر إلهی یقضی بعدم الاقتراب من الشجرة، لکن الشیطان أبی إلّا أن ینفذ بقسمه فی إغواء آدم و ذریته، فطفق یوسوس لآدم و یعده و زوجه- کما یبدو من سائر آیات القرآن الکریم- بالخلود و باتخاذ شکل الملائکة و أقسم أنه لهما من الناصحین.[۲۱۶] تقول الآیة بعد ذلک: فَأَزَلَّهُمَا الشَّیْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا کانا فِیهِ ۲۱۷].

نعم. أخرجا من الجنة حيث الراحة و الهدوء و عدم الألم و التعب و العناء، على أثر وسوسة الشيطان.

و صدر لهما الأمر الإلهى بالهبوط وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ

و هنا، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أخرج من الجوّ الهادى المليء بنعم الجنّة بسبب استسلامه لوسوسة الشيطان. و هبط فى جوّ مفعم بالتعب و المشقة و العناء. مع أن آدم كان نبيّا و معصوما، فإن اللّه يؤاخذ الأنبياء بترك الأولى- كما سنرى- كما يؤاخذ باقى الأفراد على ذنوبهم. و هو عقاب شديد تلقاه آدم جرّاء عصيانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۷

بحوث

۱- ما هى جنّة آدم عليه السّلام؟

يبدو أن الجنّة التى مكث فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن الجنّة التى وعد بها المتقون. بل كانت من جنان الدنيا، و صقعا منعّما خلّابا من أصقاع الأرض. و دليلنا على ذلك:

أوّلا: الجنّة الموعودة فى القيامة نعمة خالدة، و القرآن ذكر مرارا خلودها، فلا يمكن إذن الخروج منها.

ثانيا: إبليس الملعون ليس له طريق للجنّة، و ليس لوسوسته مكان هناك.

ثالثا: وردت عن أهل البيت عليهم السّلام روايات تصرّح بذلك.

منها ما

روى عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام أنه سئل عن جنّة آدم، فقال: «جنّة من جنّات الدّنيا، يطلع فيها. الشّمس و القمر، و لو كان من جنان الاخرة ما خرج منها أبدا»[۲۱۸].

من هذا يتضح أن هبوط آدم و نزوله إلى الأرض لم يكن مكانيا بل مقاميا.

أى أنه هبط من مكانته السامية و من تلك الجنّة المزدانة.

من المحتمل أيضا أن تكون هذه الجنّة غير الخالدة فى إحدى الكواكب السماوية، و فى بعض الرّوايات الإسلامية إشارة إلى أن هذه الجنّة فى السماء.

غير أنّ من الممكن أن يكون المقصود بالسماء فى هذه الرّوايات «المقام الرفيع» لا «المكان المرتفع».

على كل حال، توجد شواهد كثيرة على أن هذه الجنّة هى غير جنّة الخلد الموعودة. لأن جنّة آدم بداية مسير الإنسان و جنّة الخلد نهايتها. و هذه مقدمة لأعمال الإنسان و مراحل حياته، و تلك نتيجة أعمال الإنسان و مسيرته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۸

۲- ما هو ذنب آدم؟

المكانة التى ذكرها القرآن لآدم سامية و رفيعة، فهو خليفة اللّه فى الأرض و معلم الملائكة، و على درجة كبيرة من التقوى و المعرفة، و هو الذى سجدت له ملائكة اللّه المقربين. و من المؤكد أن آدم هذا لا يصدر عنه ذنب، إضافة إلى أنه كان نبيّا، و النّبى معصوم.

من هنا يطرح سؤال عن نوع العمل الذى صدر عن آدم. و توجد لذلك ثلاثة تفسيرات يكمل بعضها الآخر.

۱- ما ارتکبه آدم کان «ترکا للأولی» أو بعبارة اخری کان «ذنبا نسبیا»، و لم یکن «ذنبا مطلقا».

الذنب المطلق، و هو الذنب الذی یستحق مرتکبه العقاب أیا کان، مثل الشرک و الکفر و الظلم و العدوان. و الذنب النسبی هو الذی لا یلیق بمرتکبه أن یفعله لعلوّ منزلة ذلک الشخص، و إن کان ارتکابه مباحا، بل مستحبا أحیانا من قبل الأفراد العادیین. علی سبیل المثال، نحن نؤدی الصلاة بحضور القلب تارة، و بعدم حضور القلب تارة اخری. و هذه الصلاة تتناسب و شأننا، لکن مثل هذه الصلاة لا تلیق بأفراد عظام مثل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم. صلاة الرّسول ینبغی أن تکون بأجمعها اتصالا عمیقا باللّه تعالی، و إن فعل الرّسول غیر ذلک فلا یعنی أنه ارتکب محرّما، بل یعنی أنه ترک الاولی.

و آدم کان یلیق به أن لا یأکل من تلک الشجرة، و إن کان الأکل منها غیر محرّم بل «مکروها».

۲- نهی اللّه لآدم إرشادی، مثل قول الطبیب: لا تأکل الطعام الفلانی فتمرض.

و اللّه سبحانه قال لآدم: لا تقرب هذه الشجرة فتخرج من الجنّة. و آدم فی أکله من الشجرة خالف نهیا إرشادیا.

۳- الجنّة التی مکث فیها آدم لم تکن محلا للتکلیف، بل کانت دورة اختباریة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۹

و تمهیدیة لآدم کی یهبط بعدها إلی الأرض. و کان النهی ذا طابع اختیاری ۲۱۹].

۳- المقارنة بین معارف القرآن و التوراة:

أکبر مفاخر آدم و أعظم نقاط قوته التی جعلته زبدة الکون و مسجود الملائکة هی- کما یظهر من الآیات- تعلیمه الأسماء و اطلاعه علی حقائق الکون و أسراره.

واضح أن آدم خلق لهذه العلوم، و أبناء آدم- إن أرادوا التکامل- علیهم أن یستزیدوا من هذه العلوم، و تکاملهم یتناسب مرادفا مع معلوماتهم عن أسرار الخلیقة.

نعم، القرآن یصرّح بأن عظمة آدم تکمن فی هذه النقطة. و لکن التوراة تذهب إلی أن سبب خروج آدم من الجنّة و خطیئته الکبری هو اتجاهه نحو العلم و معرفة الصالح و الطالح! جاء فی الفصل الثانی من «سفر التکوین» من التوراة:

«و أخذ الرّبّ الإله آدم و وضعه فی جنّة عدن لیعلمها و یحفظها. و أوصی الرّب الإله آدم قائلا من جمیع شجر الجنّة تأکل آکلا. و أمّا شجرة معرفة الخیر و الشّرّ فلا تأکل منها.

لأنّک یوم تأکل منها موتا تموت».

و جاء فی الفصل الثالث من التوراة:

«و سمعا صوت الرّبّ الإله ماشیا فی الجنّة عند هبوب ریح النّهار. فاختبأ آدم و امرأته من وجه الرّبّ الإله فی وسط شجر الجنّة. فنادی الرّبّ الإله آدم و قال له أین أنت. فقال سمعت صوتک فی الجنّة فخشیت لأنّی عریان فاختبأت. فقال من أعلمک أنّک عریان. هل أکلت من الشّجرة الّتی أوصیتک أن لا تأکل منها. فقال آدم: المرأة الّتی جعلتها معی هی أعطتنی من الشّجرة فأکلت ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص۱۶۹

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷۰

و قال الرّبّ الإله هو ذا الإنسان قد صار کواحد منّا عارفا الخیر و الشّر، و الآن لعلّه یمدّ یده و یأخذ من شجرة الحیوة أیضا و یأکل و یحیا إلی الأبد. فأخرجه الرّبّ الإله من جنّة عدن لیعمل الأرض الّتی أخذ منها. فطرد الإنسان و أقام شرقیّ جنّة عدن الکروبیم و لهیب

سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحيوة»!! من هذه «الأسطورة التافهة»، التی تعرضها التوراة الحالية باعتبارها واقعا تاريخيا يتبين لنا رأی التوراة الحالية فی سبب خروج آدم من الجنّة، فهو علی رأی هذه الأسطورة معرفة آدم بالخير و الشر، و ذنبه الأكبر هو الاتجاه نحو العلم و المعرفة!! و إن لم يمدّ آدم يده إلی «شجرة الخير و الشّر» لبقی جاهلا حتی بقبح التعرّی، و لما أخرج من الجنّة، بل كان فيها خالدا.

فيا عجبا، لم إذا حزن آدم علی خروجه من الجنّة إذا كان خروجه قد اقترن باكتسابه العلم و المعرفة و بتمييزه بين الخير و الشر، إنها صفقة رابحة تلك التی حصل عليها آدم، فلما ذا ندم عليها؟! و يتضح من ذلك أنّ أسطورة التوراة تقع فی النقطة المقابلة للاتجاه القرآنی الذی يری أن مكانة الإنسان و مقامه و سرّ خلقته تكمن فی «تعليمه الأسماء».

أضف إلی ما سبق أن هذه الأسطورة تتضمّن مفاهيم مشينة مخجلة بشأن اللّه سبحانه و بشأن المخلوقات، كل واحدة منها تثير الدهشة أكثر من غيرها، و هی عبارة عن:

١- نسبة الكذب إلی اللّه، تعالی اللّه عن ذلك علوّا كبيرا (كما جاء فی الجملة ١٧ من الاصحاح الثانی: أما شجرة معرفة الخير و الشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت)! ٢- نسبة البخل إلی اللّه سبحانه (كما جاء فی الجملة ٢٢ من الاصحاح الثالث:

و قال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير و الشر. و الآن لعله

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص: ١٧١

يمدّ يده و يأخذ من شجرة الحياة أيضا و يأكل و يحيا إلی الأبد)! ٣- إمكان وجود الشريك للّه تعالی (كما فی العبارة السابقة: قد صار كواحد منا).

٤- نسبة الحسد إلی اللّه (و يستفاد ذلك من العبارة السابقة أيضا).

٥- تجسيم اللّه سبحانه (... و سمعا صوت الرب الإله ماشيا فی الجنّة عند هبوب ريح النهار)! ٦- نسبة الجهل إلی اللّه بالحوادث التی تقع قريبا منه (كما تقول هذه التوراة:

فاختبأ آدم و امرأته من وجه الربّ الإله فی وسط شجر الجنّة. فنادی الرب الإله آدم و قال له: أين أنت؟!) (و لا بدّ من التأكيد هنا أن هذه الخرافة لم تكن فی التوراة المنزلة، بل أضيفت فيما أضيف إلی التوراة).

٤- المقصود من الشّيطان فی القرآن

كلمة الشيطان من مادة «شطن» و «الشاطن» هو الخبيث و الوضيع. و الشيطان تطلق علی الموجود المتمرد العاصی، إنسانا كان أو غير إنسان، و تعنی أيضا الروح الشريرة البعيدة عن الحق. و بين كل هذه المعانی قدر مشترك.

و الشّيطان اسم جنس عام، و إبليس اسم علم خاص، و بعبارة اخری، الشيطان كل موجود مؤذ مغو طاغ متمرّد، إنسانا كان أم غير إنسان، و إبليس اسم الشيطان الذی أغوی آدم و يتربّص هو و جنده الدوائر بأبناء آدم دوما.

من مواضع استعمال هذه الكلمة فی القرآن يفهم أن كلمة الشيطان تطلق علی الموجود المؤذی المضر المنحرف الذی يسعی إلی بث الفرقة و الفساد و الاختلاف. مثل قوله تعالی:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص: ١٧٢

إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ ...[٢٢٠].

و فی استعمال فعل المضارع «يريد» دلالة علی استمرار إرادة الشيطان علی هذا النحو.

و الاستعمال القرآنی لكلمة شيطان يشمل حتی أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوة الإلهية، كقوله تعالی:

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ ۲۲۱].

كلمة الشيطان أطلقت على إبليس أيضا بسبب فساده و انحرافه.

و الميكروبات المضرّة تشملها كلمة الشيطان أيضا، كما

ورد عن على أمير المؤمنين عليه السّلام: «لا تشربوا الماء من ثلمة الإناء و لا من عروته، فإنّ الشّيطان يقعد على العروة و الثّلمة»[۲۲۲].

و روى عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «و لا يشرب من أذن الكوز، و لا من كسره إن كان فيه، فإنّه مشرب الشّياطين»[۲۲۳].

و عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «لا يطوّلنّ أحدكم شاربه فإنّ الشّيطان يتّخذه مخبئا يستتر به»[۲۲۴].

و من الواضح أننا لا نقصد أن معنى كلمة الشيطان هو الميكروب أينما وردت هذه الكلمة، بل نقصد أن الكلمة لها معان متعددة، أحد مصاديقها الواضحة «إبليس» و جنده و أعوانه. و مصداقها الآخر أفراد البشر المفسدون المنحرفون.

و وردت فى مواضع اخرى بمعنى الميكروبات المؤذية (تأمل بدقّة)!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷۳

۵– لماذا خلق الشيطان؟!

يثار أحيانا سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوى. و فى الجواب نقول:

أوّلا: لم يخلق اللّه الشيطان، شيطانا. و الدليل على ذلك وجوده بين ملائكة اللّه و على الفطرة الطاهرة. لكنه بعد تحرره أساء التصرف، و عزم على الطغيان و التمرّد.

إنه إذن خلق طاهرا، و سلك طريق الانحراف مختارا.

ثانيا: وجود الشيطان لا يسبب ضررا للأفراد المؤمنين، و لطلاب طريق الحق، فى منظار نظام الخليقة. بل إنه وسيلة لتقدمهم و تكاملهم، إذ إن التطوّر و التقدّم يتم من خلال صراع الأضداد.

بعبارة أوضح: قوى الإنسان و طاقاته الكامنة لا تتأهب و لا تتفجر إلّا حينما يواجه الإنسان عدوا قويا. هذا العدو يؤدّى إلى تحريك طاقات الإنسان و بالتالى إلى تقدّمه و تكامله.

الفيلسوف المعاصر «توينبى» يقول: «لم تظهر فى العالم حضارة راقية إلّا بعد تعرّض شعب من الشعوب إلى هجوم خارجى قوى. و هذا الهجوم يؤدى إلى تفجير النبوغ و الكفاءات، لصنع مثل هذه الحضارة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷۴

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳۷ الى ۳۹]

اشارة

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۳۷) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۳۸) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۳۹)

التّفسير

عودة آدم علیه السّلام إلی اللّه

بعـد حادثة وسوسة إبلیس، و صدور الأمر الإلهی لآدم بالخروج من الجنّة، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أنه أخرج من ذلک الجوّ الهادیء المنعّم علی أثر إغواء الشیطان، لیعیش فی جوّ جدید ملیء بالتعب و النصب. و هنا أخذ آدم یفکر فی تلافی خطئه، فاتجه بکل وجوده إلی بارئه و هو نادم أشدّ الندم.

و أدرکته رحمة اللّه فی هذه اللحظات کما تقول الآیة فَتَلَقَّی آدَمُ مِنْ رَبِّهِ کَلِماتٍ فَتابَ عَلَیْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ

«التوبـة» فی اللغـة بمعنی «العودة»، و هی فی التعبیر القرآنی، بمعنی العودة عن الذنب، إن نسـبت إلی المذنب. و إن نسـبت کلمة التوبة إلی اللّه فتعنی عودته سبحانه إلی الرحمة التی کانت مسلوبة عن العبد المذنب. و لذلک فهو تعالی «توّاب» فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷۵

التعبیر القرآنی.

بعبارة اخری «توبة» العبد عودته إلی اللّه، لأن الذنب فرار من اللّه و التوبة رجوع إلیه. و توبة اللّه، إغداق رحمته علی عبده الآئب [۲۲۵].

صحیح أن آدم لم یرتکب محرّما، و لکن ترک الأولی یعتبر معصیة منه. و لذلک سرعان ما تدارک الموقف، و عاد إلی خالقه.

و سنتحدث فیما بعد عن المقصود ب «الکلمات» فی الآیة.

علی أیّ حال، لقد حدث ما لا ینبغی أن یحدث- أو ما ینبغی أن یحدث- و قبلت توبة آدم، لکن الأثر الوضـعی للهبوط فی الأرض لم یتغیر، کمـا یـذکر القرآن: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِیعاً، فَإِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُـدیً، فَمَنْ تَبِعَ هُـدایَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ. وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ

بحوث

۱- الکلمات التی تلقاها آدم

تعددت الآراء فی تفسیر «الکلمات»، التی تلقاها آدم علیه السّلام من ربّه.

المعروف أنهـا الکلمات المـذکورة فی الآیـة ۲۳ من سـورة الأـعراف: قالاـ رَبَّنـا ظَلَمْنـا أَنْفُسَـنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنـا وَ تَرْحَمْنـا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ

و قال آخرون أن المقصود من الکلمات هذا الدعاء:

«اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانک و بحمدک، ربّ إنّی ظلمت نفسی، فاغفر لی إنّک خیر الغافرین».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷۶

«اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانک و بحمدک، ربّ إنّی ظلمت نفسی، فارحمنی إنّک خیر الرّاحمین».

«اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانک و بحمدک، ربّ إنّی ظلمت نفسی، فتب علیّ إنّک أنت التّوّاب الرّحیم».

و هذا ما نقل فی روایة عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام [۲۲۶].

مثل هـذه التعـابیر ذکرهـا القرآن علی لسان یونس و موسی علیهما السّـلام. یونس ناجی ربّه فقال: سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظَّالِمِینَ [۲۲۷]. و موسی أیضا: قالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ [۲۲۸].

و فی روایات وردت عن طرق أهل البیت علیهم السّلام أن المقصود من «الکلمات» أسماء أفضل مخلوقات اللّه و هم: محمّد و علیّ و فاطمهٔ و الحسن و الحسین- علیهم أفضل الصلاهٔ و السلام- و آدم توسل بهذه الکلمات لیطلب العفو من ربّ العالمین فعفا عنه.

هذه التفاسیر الثلاثهٔ لا تتعارض مع بعضها، و لعلّ آدم تلقی من ربّه کل هذه الکلمات، کی یحدث فیه تغییر روحی تام بعد أن یعی حقیقهٔ هذه الکلمات، و لیشمله بعد ذلک لطف اللّه و رحمته.

۲- سبب تکرار جملهٔ «اهبطوا»

الأمر بالهبوط تکرر فی الآیتین: ۳۶ و ۳۸ من هذه السّورهٔ، أی قبل توبهٔ آدم و حواء و بعدها. للمفسرین رأیان فی سبب التکرار، بعضهم قالوا للتأکید، و آخرون قالوا إن موضوع الجملهٔ الاولی یختلف عن موضوع الجملهٔ الثانیهٔ.

و الظاهر أن الجملهٔ الثانیهٔ توضح لآدم مسألهٔ عدم انتفاء الأمر بالهبوط فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۷

الأرض بعد قبول التوبهٔ، و عدم الانتفاء هذا یعود إمّا إلی أن آدم قد خلق منذ البدایهٔ لهذا الهدف، أو لأن هذا الهبوط أثر وضعی لعمله. و هذا الأثر الوضعی لا یتغیر بالتوبهٔ.

۳- من هم المخاطبون فی جملهٔ «اهبطوا»؟

الضمیر فی «اهبطوا» للجمع، بینما عدد المخاطبین اثنان فقط، هما آدم و زوجه. و الجمع هنا ناظر إلی النتیجهٔ التی تستتبع هبوط آدم و حواء فی الأرض.

فأبناؤهما و أجیال البشر بعد هما سیستقرون علی هذه المعمورهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۸

الآیهٔ [سورهٔ البقرهٔ (۲): آیهٔ ۴۰]

اشارهٔ

یا بَنِی إِسْرائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِی أُوفِ بِعَهْدِکُمْ وَ إِیَّایَ فَارْهَبُونِ (۴۰)

التّفسیر

ذکر النّعم الإلهیهٔ

مرّت بنا فی الآیات السابقهٔ قصّهٔ خلافهٔ آدم فی الأرض، و موقف الملائکهٔ منه، ثم نسیانه العهد الإلهی و هبوطه إلی الأرض، و بعد ذلک توبته.

و من أحداث قصّهٔ آدم علیه السّلام، اتضح أن الساحهٔ الکونیهٔ تنطوی دوما علی قوتین: قوّهٔ الحق و قوّهٔ الباطل. و هاتان القوتان متقابلتان و متصارعتان، و من اتبع الشیطان فی هذا الصراع فقد اختار طریق الباطل، و مصیره الابتعاد عن الجنّهٔ و السّعادهٔ، و معاناهٔ

المصائب و الآلام، و من ثمّ النـدم. و من التزم بأوامر اللّه و نواهيه و تغلب على وساوس الشـيطان و أتباعه، فقد سار على طريق الحق، و ابتعد عن نكد العيش و ضنكه و آلامه.

لمّا كانت قصّة بنى إسـرائيل ابتداء من تحررهم من السـيطرة الفرعونية و اسـتخلافهم فى الأرض، و مرورا بنسيان العهد الإلهى، و انتهاء بسقوطهم فى حضيض الانحراف و العذاب و المشقة، تشبه إلى حد كبير قصة آدم، بل هى فرع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷۹

من ذلك الأصل العام، فإن اللّه سبحانه فى آيـة بحثنا و عشـرات الآيات الاخرى التاليـة، بيّن مقاطع من حياة بنى إسـرائيل و مصـيرهم، لإكمال الدرس التربوى الذى بدأ بقصة آدم.

يوجه القرآن خطابه إلى بنى إسـرائيل و يقول: يا بَنِی إِسْـرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْـدِی أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّایَ فَارْهَبُونِ

الأوامر الثلاثـة التى تـذكرها الآيـة الكريمة و هى: تذكّر النعم الإلهية، و الوفاء بالعهد، و الخوف من اللّه، تشـكل المنهج الإلهى الكامل للبشرية.

تذكّر النعم الإلهية يحفّز الإنسان للاتجاه نحو معرفة اللّه سبحانه و شكره.

و استشـعار العهد الإلهى الذى يسـتتبع النعم الإلهية يدفع الكائن البشرى إلى النهوض بمسؤولياته و واجباته. ثم الخوف من اللّه وحده- دون سواه- يمنح الإنسان العزم على تحدّى كل العقبات التى تقف بوجه تحقيق أهدافه و الالتزام بعهده. لأن التخوف الموهوم من هذا و ذاك أهم موانع الالتزام بالعهد الإلهى.

و ظاهرة الخوف كانت متغلغلة فى أعماق نفوس بنى إسرائيل نتيجة السيطرة الفرعونية الطّويلة عليهم.

بحوث

۱- اليهود فى المدينة

يحتل الحديث عن اليهود قسما هاما من سورة البقرة، التى هى أوّل سورة نزلت فى المدينة كما صرح بذلك بعض العلماء، لأنّ اليهود كانوا أشـهر مجموعة من أهل الكتاب فى المدينة، و كانوا قبل ظهور النّبى صـلّى اللّه عليه و اله و سلّم ينتظرون رسولا بشّرت به كتبهم الدينيّة، كما أنهم كانوا يتمتعون بمكانة اقتصادية مرموقة، و لذلك كله كان لليهود نفوذ عميق فى المدينة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۰

و لمّـا ظهر الإسـلام، باعتبـاره الرسالـة التى تقف بوجه مصالحهم اللامشـروعة و انحرافاتهم و غطرسـتهم، فمضافا إلى عـدم إيمانهم به وقفوا بوجه الدعوة، و بدأوا يحوكون ضدها المؤامرات التى لا زالت مستمرة بعد أربعة عشر قرنا من البعثة النبوية المباركة.

الآيـة المـذكورة و آيات تالية أنحت باللائمة الشديدة على اليهود، و هزت عواطفهم بذكر مقاطع حساسة من تاريخهم، بحيث لو كان لأحدهم قليل من الموضوعية لاستيقظ و اتجه نحو الإسلام. كما إن هذا السرد لتاريخ اليهود درس ملىء بالعبر للمسلمين.

و سـنقف فى آيـات تاليـة بـإذن اللّه عنـد دروس من تاريـخ اليهود، مثل نجاتهم من فرعون، و انفلاق البحر لهم، و غرق الفرعونيين، و ميعاد موسى فى جبل الطور، و عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غياب موسى، و الأمر بالتوبة و قتل النفس، و نزول النعم الخاصة الإلهية، و أمثالها من الدروس.

۲- ميثاق بنى إسرائيل:

ميثاق بنى إسرائيل الإلهى يتكون من اثنى عشر بندا، عشر منها ذكرت فى آيتين متواليتين من هذه السّورة.

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِى إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً، وَ ذِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ، وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً، وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ، وَ آتُوا الزَّكاةَ ...

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ، وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ [۲۲۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۱

و بندان ذكرا فى الآية الكريمة:

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِى إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِى، وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ ...[۲۳۰].

و هما: الإيمان بالأنبياء و مؤازرتهم.

كان بنو إسرائيل قد وعدوا بالنعيم إن وفوا بعهودهم، وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لكنهم نقضوا الميثاق، و لا يزالون حتى اليوم ينقضونه.

و كان نتيجة ذلك التشتيت و التشريد، و سيبقون كذلك ما داموا ناكثين. و إذا رأينا لهم يوما جولة و ضجيجا بفضل الدعم الاستكبارى لهم، فإن هذه الجولة سرعان ما ستخبو إن شاء اللّه أمام صولة أبناء الإسلام ... و ها نحن نرى فى الأفق بوادر الصحوة الإسلامية التى تدفع بالشباب أن يتخلوا عن المدارس الفكرية المنحرفة و الاتجاهات القومية و العنصرية الكافرة و يقضوا على هذا الضجيج.

۳- وفاء اللّه بعهده

نعم اللّه تستتبعها دوما قيود و شروط، و إلى جانب كل نعمة، مسئولية و شرط.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى قوله اللّه عزّ و جلّ: أَوْفُوا بِعَهْدِى قال: قال بولاية أمير المؤمنين عليه السّلام «أوف بعهدكم أوف لكم بالجنّة»[۲۳۱].

و لا عجب إن ورد الإيمان بولاية على عليه السّلام فى هذا الحديث، باعتباره جزءا من العهد. لأن الإيمان بالأنبياء و مؤازرتهم، من بنود العهد مع بنى إسرائيل، و يستتبع ذلك الإيمان بخلفاء الأنبياء باعتبارهم امتدادا لمسألة القيادة و الولاية و هذه المسألة ينبغى تحققها بشكل يتناسب مع زمانها. موسى عليه السّلام فى زمانه كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۲

يتولى مسئولية القيادة و الولاية، و الرّسول الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هو الذى كان يتولى هذه المسؤولية فى عصره، ثم تولّاها فى زمن تال على بن أبى طالب عليه السّلام.

جملة إِيَّاىَ فَارْهَبُونِ تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمة فى طريق الوفاء بالعهد الإلهى، و على الخوف من اللّه وحده دون سواه، و هذا الحصر يتضح من تقديم ضمير النصب المنفصل «إيّاى» على جملة «فارهبون».

۴- لماذا سمى اليهود «بنى إسرائيل»؟

«إسرائيل» أحد أسماء يعقوب والد يوسف، و في سبب تسمية يعقوب بهذا الاسم، ذكر المؤرّخون غير المسلمين عللا- ممزوجة بالخرافة.

ورد في «قاموس الكتاب المقدس»: «أن إسرائيل تعنى الشخص المنتصر على اللّه»!! و يقول: «و هذه الكلمة لقّب بها يعقوب بن إسحاق بعد أن صرع الملك الإلهى».

و يقول تحت عنوان «يعقوب»: إنه أثبت مقاومته و استقامته و إيمانه، و في هذه الحالة غيّر اللّه اسمه إلى «إسرائيل»، و وعده أن يكون أبا لكل الطوائف ... ثم مات بعد أن هرم، و دفن كما يدفن السلاطين الدنيويون و أطلق اسم يعقوب و إسرائيل على جميع قومه».

و يقول تحت كلمة «إسرائيل»: «لهذا الاسم معان كثيرة، يقصد به أحيانا نسل إسرائيل و نسل يعقوب»[۲۳۲].

أمّا علماؤنا كالمفسر المعروف «الطبرسى رحمه اللّه» فيقول في «مجمع البيان»: إن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السّلام و إن «أسر» تعنى «العبد» و «ئيل»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۳

بمعنى اللّه، فيكون معنى إسرائيل عبد اللّه.

واضح أن ما تتحدث عنه التوراة من مصارعة بين يعقوب و الملك الإلهى، أو بين يعقوب و اللّه، خرافة و سخافة لا تتناسب إطلاقا مع الكتاب الإلهى، و هى أوضح دليل على تحريف التوراة الموجودة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۴

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۴۱ الى ۴۳]

اشاره

وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (۴۱) وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۲) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (۴۳)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسرين العظام رواية عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام: في سبب نزول هذه الآية قال: «كان حيّ بن أخطب و كعب بن أشرف و آخرون من اليهود، لهم مأكلة على اليهود في كلّ سنة، فكرهوا بطلانها بأمر النّبيّ صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فحرّفوا لذلك آيات من التّوراة فيها صفته و ذكره فذلك الثّمن الّذى أريد في الآية»[۲۳۳].

التّفسير

جشع اليهود

الآيات المذكورة أعلاه تتطرق إلى تسعة من بنود العهد الذى أخذه اللّه على

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۵

بنى إسرائيل.

یقول تعالی: وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَکُمْ فالقرآن مصدق لما مع الیهود من کتاب، أی أن البشائر التی زفتها التوراة و الکتب السماویة الاخری بشأن النّبی الخاتم، و الأوصاف التی ذکرتها لهذا النّبی و الکتاب السماوی تنطبق علی محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و علی القرآن المنزل علیه، فلما ذا لا تؤمنون به؟! ثمّ یقول سبحانه: وَ لا تَکُونُوا أَوَّلَ کافِرٍ بِهِ أی- لا عجب أن یکون المشرکون و الوثنیون فی مکة- کفّارا بالرسالة، بل العجب فی کفرکم، بل فی کونکم روّادا للکفر، و سباقین للمعارضة. لأنکم أهل الکتاب، و کتابکم یحمل بشائر ظهور هذا النّبی، و کنتم لذلک ترقبون ظهوره. فما عدی ممّا بدا؟ و لماذا کنتم أول کافر به؟!.

إنه تعنتهم الذی لولاه لکانوا أول المؤمنین برسالة النّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

المقطع الثالث من الآیة یقول: وَ لا تَشْتَرُوا بِآیاتِی ثَمَناً قَلِیلًا.

آیات اللّه، لا ینبغی- دون شک- معاوضتها، بأی ثمن، قلیلا کان أم کثیرا.

و فی تعبیر هذه الآیة إشارة إلی دناءة هذه المجموعة من الیهود، التی تنسی کل التزاماتها من أجل مصالحها التافهة. هذه الفئة، التی کانت قبل البعثة من المبشرین بظهور نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و بکتابه السماوی، أنکرت بشارات التوراة و حرفتها، حین رأت مصالحها معرضة للخطر، و علمت أن مکانتها الاجتماعیة معرضة للإنهیار عند انکشاف الحقیقة للناس.

فی الواقع، لو أعطیت الدنیا بأجمعها لشخص ثمنا لإنکار آیة واحدة من آیات اللّه، لکان ثمنا قلیلا، لأنّ هذه الحیاة فانیة، و الحیاة الاخری هی دار البقاء و الخلود. فما بالک بإنسان یفرّط بهذه الآیات الإلهیة فی سبیل مصالحه التافهة؟! فی المقطع الرابع تقول الآیة: وَ إِیَّایَ فَاتَّقُونِ و الخطاب موجّه إلی زعماء الیهود الذین یخشون أن ینقطع رزقهم، و أن یثور المتعصبون الیهود ضدّهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۶

و تطلب منهم أن یخشوا اللّه وحده، أی أن یخشوا عصیان أوامره سبحانه.

فی البند الخامس من هذه الأوامر ینهی اللّه سبحانه عن خلط الحق بالباطل وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ

و فی البند السادس ینهی عن کتمان الحق: ... وَ تَکْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

کتمان الحق، مثل خلط الحق بالباطل ذنب و جریمة، و الآیة تقول لهم: قولوا الحق و لو علی أنفسکم، و لا- تشوهوا وجه الحقیقة بخلطها بالباطل و إن تعرضت مصالحکم الآنیة للخطـ.

البند السابع و الثامن و التاسع من هذه الأوامر یبینه قوله تعالی: وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ وَ ارْکَعُوا مَعَ الرَّاکِعِینَ

البند الأخیر یأمر بالصلاة جماعة، غیر أن «الرکوع» هو الذی ذکر دون غیره من أجزاء الصلاة، و لعل ذلک یعود إلی أنّ صلاة الیهود کانت خالیة من الرکوع، تماما، بینما احتل الرکوع مکان الرّکن الأساسی فی صلاة المسلمین.

و من الملفت للنظر أنّ الآیة لم تقل «أدّوا الصلاة»، بل قالت: أَقِیمُوا الصَّلاةَ، و هذا الحث یحمّل الفرد مسئولیة خلق المجتمع المصلی، و مسئولیة جذب الآخرین نحو الصلاة.

بعض المفسرین قال إن تعبیر «أقیموا» إشارة إلی إقامة الصلاة کاملة، و عدم الاکتفاء بالاذکار و الأوراد، و أهم أرکان کمال الصلاة حضور القلب و الفکر لدی اللّه سبحانه، و تأثیر الصلاة علی المحتوی الداخلی للإنسان ۲۳۴].

هذه الأوامر الأخیرة تتضمن فی الحقیقة: أولا بیان ارتباط الفرد بخالقه (الصلاة)، ثمّ ارتباطه بالمخلوق (الزکاة)، و بعد ذلک ارتباط المجموعة البشریة مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۷

بعضها علی طریق اللّه!

بحث

هل یؤیّد القرآن ما جاء فی التّوراة و الإنجیل؟!

فی مواضع عدیدة یصرّح القرآن بتصدیقه لما جاء فی الکتب الإلهیة السابقة، کما جاء فی الآیة المذکورة: مُصَدِّقاً لِما مَعَکُمْ و کما جاء فی الآیتین ۸۹ و ۱۰۱ من سورة البقرة: مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ و فی الآیة ۴۸ من سورة المائدة: وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتابِ

بعض دعاة الیهودیة و النصرانیة. استدلوا بهذه الآیات لإثبات عدم تحریف التوراة و الإنجیل. و قالوا: إن التوراة و الإنجیل فی عصر نبی الإسلام لا یختلفان حتما عمّا علیه الآن. و إن أصابهما تحریف فهذا التحریف یعود إلی فترة سابقة علی ذلک العصر. و لما کان القرآن قد أیّد صحة التوراة و الإنجیل الموجودین فی عصر نبی الإسلام، فعلی المسلمین أن یعترفوا بصحة هذین الکتابین الموجودین بین ظهرانینا الیوم.

الجواب

یؤکد القرآن فی مواضع عدیدة وجود علائم نبی الإسلام و دینه فی تلک الکتب المحرفة التی کانت موجودة فی أیدی الیهود و النصاری آنذاک. و هذا یعنی وجود حقائق فی تلک الکتب لم تمتد إلیها ید التحریف، ذلک لأنّ التحریف لا- یعنی تغییر کل نصوص تلک الکتب السماویّة، بل إن تلک الکتب کانت تحمل بین طیاتها حقائق، و من تلک الحقائق علامات النّبی الخاتم (و لا زالت بعض هذه البشائر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۸

مشهودة فی الکتب الموجودة الآن).

بعثة النّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و کتابه السماوی تصدیق لما جاء فی تلک الکتب من علامات، أی تحقیق عملی لتلک العلامات. و کلمة التصدیق بمعنی (التحقیق العملی) وردت فی مواضع اخری من القرآن الکریم کقوله تعالی لنبیّه إبراهیم علیه السّلام:

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْیا[۲۳۵].

أی أنک قد حققت عملیا رؤیاک.

و تصرح الآیة ۱۵۷ من سورة الأعراف بأن الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم تحقیق عملی لما یجدونه مکتوبا فی التوراة و الإنجیل: الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ ...[۲۳۶].

علی أی حال، لیس فی الآیات المذکورة دلالة علی تصدیق جمیع محتویات التوراة و الإنجیل، بل دلالتها تقتصر علی «التصدیق العملی» لما جاء فی الکتب الموجودة بید الیهود و النصاری بشأن النّبی الخاتم و کتابه. هذا، إلی جانب وجود آیات عدیدة فی القرآن تتحدث عن تحریف الیهود و النصاری لآیات التوراة و الإنجیل، و هو شاهد حیّ صریح علی مسألة التحریف.

شاهد حیّ آخر:

«فخر الإسلام»- الذی کان من کبار قساوسة المسیحیین، و تتلمذ عند علمائهم حتی حاز مراتب کبیرة فی الدراسات الکنیسیة- یتحدث فی مقدمة کتابه «أنیس الاعلام» عن انتقاله من المسیحیة إلی الإسلام فیقول:

«... بعد بحث طویل و عناء کبیر و تجوال فی المدن، عثرت علی قسیس کبیر متمیز فی زهده و تقواه، کان یرجع إلیه الکاتولیک بما فیهم سلاطینهم، تعلمت علیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۹

زمنا مذاهب النصاری، و کان له طلاب کثیرون، و لکنه کان ینظر إلیّ من بینهم نظرة خاصة، و کانت کل مفاتیح البیت بیدی، إلّا مفتاحا واحدا لغرفة صغیرة، احتفظ به عنده ....

و فی یوم اعتلّت صحة القسیس، فقال لی: قل للطلاب إنی لا أستطیع التدریس الیوم. حینما جئت الطلاب وجدتهم منهمکین فی نقاش حول معنی «فارقلیطا» فی السریانیة، و «پریکلتوس» فی الیونانیة ... و استمر بینهم النقاش، و کل کان یدلی برأیه ....

بعد أن عدت إلی الأستاذ سألنی عما کان یدور بین الطلاب، فأخبرته، فقال لی: و ما رأیک؟

قلت: اخترت الرأی الفلانی.

قال القسیس: ما قصّرت فی عملک، و لکن الحقّ غیر ذلک. لأن حقیقة هذا الأمر لا یعلمها إلّا الراسخون فی العلم، و قلیل ما هم، أکثرت فی الإلحاح علیه أن یوضح لی معنی الکلمة، فبکی بکاء مرّا و قال: لم أخف علیک شیئا ... إن لفهم معنی هذه الکلمة أثرا کبیرا، و لکنه إن انتشر فسنتعرض للقتل! فإن عاهدتنی أن لا تفشیه فسأخبرک ... فأقسمت بکل المقدسات أن لا أذکر ذلک لأحد، فقال: إنه اسم من أسماء نبی المسلمین، و یعنی «أحمد» و «محمّد».

ثم أعطانی مفتاح الغرفة و قال: افتح الصندوق الفلانی، و هات الکتابین اللذین فیه، جئت إلیه بالکتابین و کانا مکتوبین بالیونانیة و السریانیة علی جلد، و یعودان إلی عصر ما قبل الإسلام.

الکتابان ترجما «فارقلیطا» بمعنی أحمد و محمّد، ثم أضاف الأستاذ: علماء النصاری کانوا مجمعین قبل ظهوره أن «فارقلیطا» بمعنی «أحمد و محمّد»، و لکن بعد ظهور محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، غیّروا هذا المعنی حفظا لمکانتهم و رئاستهم و أوّلوه، و اخترعوا له معنی آخر لم یکن علی الإطلاق هدف صاحب الإنجیل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۹۰

سألته عما یقوله بشأن دین النصاری؟ قال: لقد نسخ بمجیء الإسلام، و کرر ذلک ثلاثا، ثم قلت:

ما هی طریقة النجاة و الصراط المستقیم فی زماننا هذا؟ قال: إنما هی باتباع محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

قلت: و هل التابعون له ناجون؟

قال: إی و اللّه، و کرر ذلک ثلاثا.

ثم بکی الأستاذ و بکیت کثیرا ثم قال: إذا أردت الآخرة و النجاة فعلیک بدین الحق ... و أنا أدعو لک دائما، شرط أن تکون شاهدا لی یوم القیامة أنّی کنت فی الباطن مسلما، و من أتباع محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ... و ما من شک أن الإسلام هو دین اللّه الیوم علی ظهر الأرض»[۲۳۷].

و کما یلاحظ فإن هذه الوثیقة الهامة تصرّح بما فعله علماء أهل الکتاب بعد ظهور نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم من تحریف لتفسیر اسم النّبی و علاماته، تحقیقا لمصالحهم الشخصیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۹۱

الآیة [سورة البقرة (۲): الآیات ۴۴ الی ۴۶]

اشارة

أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أ فَلا تَعْقِلُونَ (۴۴) وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ (۴۵) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (۴۶)

التّفسیر

أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ! هـذا السّؤال الاستنكارى- و إن كـان موجهـا إلى بنى إسـرائيل كما يتبين من سياق الآيات السابقة و التالية- له حتما مفهوم واسع يشمل الآخرين أيضا.

قال «الطّبرسى رحمه اللّه» فى «مجمع البيان»: هذه الآية خطاب لعلماء اليهود.

وبّخهم اللّه تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر النّاس بالإيمان بمحمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و ترك أنفسهم فى ذلك.

و قال أيضا: كان علماء اليهود يقولون لأقربائهم من المسلمين اثبتوا على ما أنتم عليه و لا يؤمنون هم.

لـذلك كانت الآيـة الأولى من الآيات التى يدور حولها بحثنا تحمل توبيخا لهذا العمل: أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ، وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ، أ فَلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۹۲

تَعْقِلُونَ ! منهج الدعاة إلى اللّه يقول على أساس العمل أوّلا ثم القول. فالدّاعية إلى اللّه يبلّغ بعمله قبل قوله، كما

جاء فى الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: كونوا دعاة الناس بأعمالكم و لا تكونوا دعاة بألسنتكم ۲۳۸].

التأثير العميق للـدعوة العمليـة يأتى من قـدرة مثل هذه الدعوة على فتح منافذ قلب السامع، فالسامع يثق بما يقوله الداعية العامل، و يرى أن هذا الداعية مؤمن بما يقول و أن ما يقوله صادر عن القلب. و الكلام الصادر عن القلب ينفذ إلى القلب.

و أفضل دليل على إيمان القائل بما يقوله، هو العمل بقوله قبل غيره، كما

يقول على عليه السّـلام: «أيّهـا النّاس إنّى و اللّه مـا أحثّكم على طاعـة إلّا و أسـبقكم إليها، و لا أنهاكم عن معصيـة إلّا و أتناهى قبلكم عنها»[۲۳۹].

و فى حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «من أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة من وصف عدلا و عمل بغيره»[۲۴۰].

علمـاء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قـدرتهم و تفرّق عامـة النّاس عنهم، إن اعترفوا برسالـة خاتم الأنبياء صـلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و لذلك حرّفوا ما ورد بشأن صفات نبى الإسلام فى التوراة.

و القرآن يحث على الاستعانة بالصبر و الصّلاة للتغلب على الأهواء الشخصية و الميول النفسية، فيقول فى الآية التالية: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ ثم يؤكد أن هذه الاستعانة ثقيلة لا ينهض بعبئها إلا الخاشعون: وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ

و فى الآية الأخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۹۳

كلمـة «يظنّون» من مادة «ظنّ» و قد تأتى بمعنى اليقين ۲۴۱]. و فى هـذا الموضع تعنى الإيمان و اليقين القطعى. لأن الإيمان بلقاء اللّه و الرجوع إليه، يحيى فى قلب الإنسـان حالـة الخشوع و الخشيـة و الإحسـاس بالمسؤوليـة، و هـذا أحـد آثـار تربيـة الإنسـان على الإيمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد مائلا دوما أمام مشهد المحكمة الكبرى، و تدفعه إلى النهوض بالمسؤولية و إلى الحق و العدل.

و يحتمل أن يكون اسـتعمال «الظن» فى الآية للتأكيد، أى أن الإنسان لو ظنّ بالآخرة فقط، فظنه كاف لأن يصده عن ارتكاب أى ذنب. و هـو تقريـع لعلمـاء اليهـود و تأكيـد على أنهم لا يمتلكـون إيمانـا بـاليوم الآخر حتى على مستوى الظن، فلـو ظنوا بالآخرة لأحسّوا بالمسؤولية، و كفّوا عن هذه التحريفات![۲۴۲]

بحثان

۱- ما هو لقاء اللّه؟

عبارة «لقاء اللّه» وردت مرارا فی القرآن الکریم، و تعنی بأجمعها الحضور علی مسرح القیامة. من البدیهی أن المقصود بلقاء اللّه لیس هو اللقـاء الحسّـی، کلقاء أفراد البشـر مع بعضـهم، لأن اللّه لیس بجسم، و لا یحـده مکان، و لا یری بالعین. بل المقصود مشاهـدة آثار قدرة اللّه و جزاءه و عقابه و نعمه و عذابه علی ساحة القیامة، کما ذهب إلی ذلک جمع من المفسرین.

أو إن المقصود الشهود الباطنی و القلبی، لأن الإنسان یصل درجة کأنه یری

اللّه ببصیرته أمامه، بحیث لا یبقی فی نفسه أی شک و تردید.

هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتیجة الطّهر و التقوی و العبادة و تهذیب النفس فی هذه الدنیا. و

فی «نهج البلاغة» نقرأ: أن «ذعلب الیمانی» و هو من فضلاء أصحاب الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام، سأل علیا هل رأیت ربّک؟ أجابه علی: أ فأعبد ما لا أری؟! و حین طلب ذعلب مزیدا من التوضیح قال الإمام:

«لا تدرکه العیون بمشاهدة العیان، و لکن تدرکه القلوب بحقائق الإیمان»[۲۴۳].

هـذا الشـهود الباطنی ینجلی للجمیع یوم القیامـة، و لا یبقی أحـد إلّا و قـد آمن إیمانا قاطعا، لوضوح آثار عظمة اللّه و قدرته فی ذلک الیوم.

۲- سبیل التغلب علی الصعاب

ثمة منطلقان أساسیان للتغلب علی الصعاب و المشاکل، أحد هما داخلی، و الآخر خارجی.

أشارت الآیـة إلی هـذین المنطلقین بعبارة «الصبر» و «الصـلاة». فالصبر هو حالة الصـمود و الاسـتقامة و الثبات فی مواجهة المشاکل، و الصلاة هی وسیلة الارتباط باللّه حیث السند القویّ المکین.

کلمة «الصبر» فسـرت فی روایات کثیرة بالصوم، لکنها لا تنحصـر حتما. بل الصوم أحد المصادیق الواضـحة البارزة للصبر. لأن الإنسان یحصل فی ظل هذه العبادة الکبری علی الإرادة القویة و الإیمان الراسخ و القدرة علی التحکم فی المیول و الرغبات.

روی بعض المفسرین فی تفسیر هذه الآیة: أن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان إذا أحزنه أمر

استعان بالصلاة و الصوم ۲۴۴].

و عن الإمـام جعفر بن محمّـد الصـادق علیه السّـلام أنه قـال: «ما یمنع أحـدکم إذا دخل علیه غمّ من غموم الـدّنیا أن یتوضّا ثمّ یـدخل المسجد فیرکع رکعتین یدعو اللّه فیهما، أما سمعت اللّه تعالی یقول: و استعینوا بالصّبر و الصّلاة»[۲۴۵].

التوجه إلی الصلاة و التضرّع إلی اللّه سبحانه یمنح الإنسان طاقة جدیدة تجعله قادرا علی مواجهة المشاکل.

و فی کتاب «الکافی» عن الصادق علیه السّـلام: «کان علیّ علیه السّـلام إذا هاله أمر فزع إلی الصّلاة ثمّ تلا هذه الآیة: و استعینوا بالصّبر و الصّلاة».

نعم، الصلاة تربط الإنسان بالقدرة اللامتناهية التی لا- یقهرها شیء. و هذا الإحساس یبعث فی الإنسان قوّة و شهامة علی تحدّی المشاکل و الصعاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۹۶

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۴۷ الی ۴۸]

اشارة

یا بَنِی إِسْرائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَ أَنِّی فَضَّلْتُکُمْ عَلَی الْعالَمِینَ (۴۷) وَ اتَّقُوا یَوْماً لا تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً وَ لا یُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا یُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ (۴۸)

التّفسیر

أوهام الیهود

فی هذه الآیات خطاب آخر إلی بنی إسرائیل فیه تذکیر بنعم اللّه: یا بَنِی إِسْرائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ

هذه النعم سابغة واسعة النطاق، ابتداء من الهدایة و الإیمان، و انتهاء بالنجاة من فرعون و نیل العظمة و الاستقلال.

ثم تشیر الآیة من بین کل هذه النعم إلی نعمة التفضیل علی بقیة البشر، و هی نعمة مرکبة من نعم مختلفة، و تقول: وَ أَنِّی فَضَّلْتُکُمْ عَلَی الْعالَمِینَ

لعل البعض تصور أن هذا التفضیل صفة أبدیة مستمرة علی مرّ العصور. لکن دراسة سائر آیات القرآن تبین أن هذا التفضیل هو تفضیل بنی إسرائیل علی غیرهم من أفراد عصرهم و منطقتهم، لا تفضیلا مطلقا. فالقرآن الکریم یخاطب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۹۷

المسلمین فی آیة اخری و یقول: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...[۲۴۶].

کما یتحدث القرآن عن وراثة بنی إسرائیل للأرض فیقول: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا[۲۴۷].

و واضح أن هذه الوراثة لم تکن تشمل آنذاک جمیع العالم، و المقصود من الآیة مشارق المنطقة التی کانوا یعیشون فیها و مغاربها، من هنا فالتفضیل علی العالمین هو تفضیلهم علی أفراد منطقتهم.

الآیة التالیة ترفض أوهام الیهود، التی کانوا یتصورون بموجبها أن الأنبیاء من أسلافها سوف یشفعون لهم، أو أنّهم قادرون علی دفع فدیة و بدل عن ذنوبهم، کدفعهم الرشوة فی هذه الحیاة الدنیا.

القرآن یخاطبهم و یقول: وَ اتَّقُوا یَوْماً لا تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً. وَ لا یُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ. وَ لا یُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ

الحاکم أو القاضی فی تلک المحکمة الإلهیة، لا یقبل سوی العمل الصالح، کما تقول الآیة الکریمة: یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ ۲۴۸].

إنّ الآیة المذکورة من سورة البقرة، تشیر فی الواقع إلی ما یجری من محاولات فی هذه الحیاة الدنیا لانقاذ المذنب من العقاب.

ففی الحیاة الدنیا قد یتقدم إنسان لدفع غرامة عن إنسان مذنب لانقاذه من العقاب، أما فی الآخرة فإنّه: لا تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ

و ربّما یلجأ المذنب فی هذه الحیاة إلی الشفعاء لینقذوه ممّا ینتظره من الجزاء، و یوم القیامة ... لا یُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ.

و إذا لم توجد الشفاعة، یتقدم الإنسان فی الحیاة الدنیا بدفع (العدل) و هو بدل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١، ص: ١٩٨

الشیء من جنسه، أما فی الآخرة ف لا یُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ

و إذا لم تنفع الوسائل المذکورة کلها، یستصرخ أصحابه لینصروه و یخلصوه من الجزاء، و فی الآخرة لا یقوم بنجاتهم أحد وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ

القرآن الکریم یؤکد أن الأصول الحاکمة علی قوانین الجزاء یوم القیامة تختلف کلیّا عمّا هو السائد فی هذه الحیاة، فالسبیل الوحید للنجاة یوم القیامة، هو الإیمان و التقوی و الاستعانة بلطف الباری تعالی.

تاریخ الشرک و تاریخ المنحرفین من أهل الکتاب، ملیء بأفکار خرافیة تدور حول محور التوسل و بمثل الأمور التی ذکرتها الآیة الکریمة للفرار من العقاب الاخروی. صاحب المنار یذکر مثلا، أن النّاس فی بعض مناطق مصر- کانوا یدفعون مبلغا من المال إلی الذی یتعهد غسل المیت، و یسمون هذا المبلغ أجرة الانتقال إلی الجنّة[۲۴۹].

و فی تاریخ الیهود نقرأ أنهم کانوا یقدمون القرابین للتکفیر عن ذنوبهم، و إن لم یجدوا قربانا کبیرا یکتفون بتقدیم زوج من الحمام.[۲۵۰] و فی التاریخ القدیم کانت بعض الأقوام تدفن مع المیت حلیّة و أسلحته، لیستفید منها فی الحیاة الاخری ۲۵۱].

القرآن و مسألة الشّفاعة

اشارة

العقاب الإلهی فی هذه الحیاة الدنیا و فی الآخرة، لا ینزل بساحة الإنسان دون شک من أجل الانتقام. بل إن العقوبات الإلهیة تشکل عنصر الضمان فی تنفیذ القوانین، و تؤدی فی النتیجة إلی تقدم الإنسان و تکامله. من هنا یجب الاحتراز عن أی شیء یضعف من قوّة عنصر الضمان هذا، کی لا تنتشر بین النّاس الجرأة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١، ص: ١٩٩

علی ارتکاب المعاصی و الذنوب.

من جهة اخری، لا یجوز غلق باب العودة و الإصلاح بشکل کامل فی وجه المذنبین، بل یجب فسح المجال لإصلاح أنفسهم و للعودة إلی اللّه و إلی الطهر و التقوی.

«الشفاعة» بمعناها الصحیح تستهدف حفظ هذا التعادل، إنها وسیلة لعودة المذنبین و الملوثین بالخطایا، و بمعناها الخاطئ تشجع علی ارتکاب الذنوب.

أولئک الذین لم یفرقوا بین المعنی الصحیح و الخاطئ لمسألة الشفاعة، أنکروا هذه المسألة بشکل کامل، و اعتبروها شبیهة بالوساطات التی تقدم إلی السلاطین و الحکام الظالمین.

و ثمة مجموعة کالوهابیین استندوا إلی الآیة الکریمة: لا یُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ فأنکروا الشفاعة تماما، دون الالتفات إلی سائر الآیات فی هذا المجال.

اعتراضات المنکرین لمسألة الشفاعة یمکن تلخیصها بما یلی:

١- الاعتقاد بالشفاعة، یضعف روح السعی و المثابرة فی نفس الإنسان.

٢- الاعتقاد بالشفاعة، انعکاس عن ظروف المجتمعات المتأخرة و الإقطاعیة.

٣- الاعتقاد بالشفاعة، یؤدی إلی التشجیع علی ارتکاب الذنوب و ترک المسؤولیات.

۴- الاعتقاد بالشفاعة، نوع من الشرک باللّه، و هو معارض للقرآن! ۵- الاعتقاد بالشفاعة، یعنی تغییر أحکام اللّه و تغییر إرادته و

أوامره! و لکن کل هذه الاعتراضات ناتجة- کما سنری- عن الخلط بین الشفاعة بمفهومها القرآنی، و الشفاعة بمعناها المنحرف الرائج بین الجهلة من النّاس.

و لمّا کانت هـذه المسألة فی جانبها الإیجابی و السلبی ذات أهمیة بالغة، فعلینا أن ندرسـها بالتفصـیل من حیث مفهومها و فلسـفتها، و ارتباطها بعالم التکوین،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۰۰

و موقعهـا فی القرآن و الحـدیث، وصـلته بالتوحیـد و الشـرک، کی یزول کـل إبهـام یرتبـط بالآیـهٔ المـذکورهٔ و سائر الآیات فی حقل الشفاعهٔ.

۱- المفهوم الحقیقی للشّفاعهٔ:

کلمهٔ «الشفاعهٔ» من «الشفع» بمعنی «الزوج» و «ضم الشیء إلی مثله»، یقابلها «الوتر» بمعنی «الفرد». ثم أطلقت علی انضمام الفرد الأقوی و الأشرف إلی الفرد الأضعف لمساعدهٔ هذا الضعیف، و لها فی العرف و الشرع معنیان متباینان کل التباین:

أ: إن الشـفاعهٔ لدی السواد تعنی أن الشـفیع یسـتفید من مکانته و شخصیته و نفوذه، لتغییر رأی صاحب قدرهٔ بشأن معاقبهٔ من هم تحت سیطرته.

و الشـفیع قـد یرعب صاحب القـدرهٔ هـذا، أو قـد یسـتعطفه، أو قـد یغیر أفکاره بشأن ذنب المجرم و اسـتحقاقه للعقاب ... و أمثال هذه الأسالیب.

الشـفاعهٔ بهـذا المعنی هی- بعبـارهٔ مـوجزهٔ- لاـ تعنی حـدوث أی تغییر فی المحتوی النفسـی و الفکری للمجرم أو المتهم. بـل إن کل التغییرات و التحولات تتوجه نحو الشخص الذی تقدم إلیه الشفاعهٔ (تأمل بدقهٔ).

هذا اللون من الشـفاعهٔ لیست له مکانهٔ فی المفهوم الدینی علی الإطلاق. لأن اللّه سبحانه و تعالی لا یخطأ حتی یتوسط الشفیع فی تغییر رأیه، و لاـ یحمل تلک العواطف الموجودهٔ فی نفس الإنسان کی یمکن إثارهٔ عواطفه، و لا یهاب نفوذ شـخص کی ینصاع لأوامره، و لا یدور ثوابه و عقابه حول محور غیر محور العدالهٔ.

ب: المفهوم الآخر للشفاعهٔ یقوم علی أساس تغییر موقف «المشفوع له».

أی أن الشـخص المشـفوع له یوفّر فی نفسه الظروف و الشـروط التی تؤهّله للخروج من وضـعه السیء الموجب للعقاب، و ینتقل- عن طریق الشفیع إلی وضع مطلوب حسن یستحق معه العفو و السماح. و الإیمان بهذا النوع من الشفاعهٔ- کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۰۱

سنری- یربّی الإنسان، و یصلح الأفراد المذنبین، و یبعث فیهم الصحوهٔ و الیقظهٔ.

و الشفاعهٔ فی الإسلام لها هذا المفهوم السامی.

و سـنری أن کـل الاعتراضـات و الانتقـادات و الحملاـت التی توجه إلی مسألـهٔ الشـفاعهٔ، إنمـا تنطلق من فهم الشـفاعهٔ بالمعنی الأوّلی المنحرف، و لا تلتفت إلی المعنی الثانی المنطقی المعقول البنّاء.

هذا تفسیر مقتضب للونین من ألوان الشفاعهٔ: أحد هما «تخدیری»، و الآخر «بنّاء».

۲- الشّفاعهٔ فی عالم التکوین

التّفسـیر الصـحیح و المنطقی للشفاعهٔ- بالمفهوم الذی مرّ بنا- له مصادیق کثیرهٔ فی عالم التکوین و الخلقهٔ، (إضافهٔ إلی عالم التشریع).

الطاقات الأقوی فی هذا العالم تنضم إلی الأضعف منها لتسیّرها نحو أهداف بنّاءهٔ.

الشـمس تشـرق و الأمطار تتساقط، لتفجّر القوّة الکامنـة فی البـذرة لتحرکها نحو الإنبات، و نحو شقّ جسم التربة و الخروج إلی الفضاء الذی استمدت البذرة منه طاقات النموّ و التکامل.

هذه الظواهر هی فی الحقیقة شفاعة تکوینیة علی صعید قیامة الحیاة الدنیا.

و لو انطلقنا من هذه النماذج الکونیة فی الشفاعة لفهم الشفاعة علی صعید التشریع، لابتعدنا عن الانحراف، و سنوضح ذلک قریبا.

۳- مستندات الشفاعة:

القرآن الکریم تحدث فی ثلاثین موضعا عن مسألة «الشفاعة» (بهذا اللفظ)،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۰۲

و هناک إشارات اخری إلی هذه المسألة دون ذکر لفظها.

یمکن تقسیم آیات الشفاعة فی القرآن إلی المجموعات التالیة.

المجموعـة الاـولی: ایـات ترفض الشـفاعة بشـکل مطلق کقوله تعـالی: أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا بَیْعٌ فِیهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ[۲۵۲]، و کقوله تعالی:

وَ لا یُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ[۲۵۳].

هذه الآیات رفضت کل الطرق المتصورة لانقاذ المجرمین غیر الإیمان و العمل الصالح، سواء کان طریق دفع العوض المادی، أو طریق الصداقة و الخلة، أو طریق الشفاعة.

و یقول تعالی بشأن بعض المجرمین: فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِینَ ۲۵۴].

المجموعـة الثانیـة: آیـات تحصـر الشـفاعة بـاللّه تعـالی، کقوله سـبحانه: مـا لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا شَـفِیعٍ ۲۵۵] و قُـلْ لِلَّهِ الشَّفـاعَةُ جَمِیعاً[۲۵۶].

المجموعـة الثالثـة: آیات تجعل الشـفاعة متوقفـة علی إذن اللّه تعالی کقوله: مَنْ ذَا الَّذِی یَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۲۵۷]، و قوله وَ لاـ تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۲۵۸].

المجموعة الرابعة: آیات تبین شـروطا خاصة للمشـفوع له. هذه الشـروط تتمثل أحیانا فی رضا للّه سبحانه: وَ لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی ۲۵۹].

و استنادا إلی هذه الآیة، شفاعة الشفعاء تشمل فقط أولئک الذین بلغوا مرتبة «الارتضاء» أی القبول لدی اللّه سبحانه و تعالی.

و یتمثل الشرط أحیانا بالعهد عند اللّه:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۰۳

لا یَمْلِکُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً[۲۶۰]، و المقصود من هذا العهد الإیمان باللّه و رسوله.

و یتحدث القرآن عن سـلب صـلاحیة الاستشـفاع عن بعض الأفراد مثل المجرمین، کقوله تعالی: ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ وَ لا شَفِیعٍ یُطاعُ ۲۶۱].

ممّا تقدم یتضح أن اتخاذ العهد الإلهی، و الوصول إلی منزلة نیل رضا اللّه، و اجتناب بعض الذنوب مثل الظلم، شروط حتمیة للشفاعة.

۴- الشّروط المختلفة للشفاعة:

آیات الشفاعة تصرح أن مسألة الشفاعة فی مفهوم الإسلام مقیدة بشروط، هذه الشروط تحدد تارة الخطیئة التی یستشفع المذنب لها، و تحـدّد تارة اخری الشـخص المشـفوع له، کما تقیـد من جهـة اخری الشـفیع، و هذه الشـروط بمجموعها تکشف عن المفهوم الحقیقی

للشفاعة و عن فلسفتها.

ثمة ذنوب كالظلم مثلا خارجة عن دائرة الشفاعة حيث يقول القرآن ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ كما مرّ، و لو فهمنا «الظلم» بمعناه الواسع- كما سنرى من خلال الأحاديث- فان الشفاعة تقتصر حينئذ على المجرمين النادمين السائرين على طريق إصلاح أنفهسم، و الشفاعة فى هذه الحالة ستكون دعامة للتوبة و للندم (سنجيب أولئك الذين يتصورون أن التائب النادم لا يحتاج إلى الشفاعة).

كما أن الشفاعة- و طبقا للآية ٢٨ من سورة الأنبياء- لا تشمل إلّا أولئك المرتقين إلى درجة «الارتضاء» و إلى درجة الالتزام بالعهد الإلهى كما مرّ أيضا فى الآية ٨٧ من سورة مريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص: ٢٠۴

الارتضاء، و اتخاذ العهد، يعنيان على المستوى اللغوى و كذلك ما ورد من الروايات فى تفسير هذه الآيات الإيمان باللّه و الحساب و الميزان و الثواب و العقاب، و الاعتراف بالحسنات و السيئات، و بما أنزل اللّه، إيمانا عميقا فى الفكر، ظاهرا فى العمل ... إيمانا يبعد صاحبه عن صفات الظالمين الذين لا يؤمنون بأية قيمة إنسانية، و يدفعه إلى إعادة النظر فى منهج حياته.

يقول تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً[٢۶٢]، هذه الآية تجعل الاستغفار مقدمة لشفاعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و يقول: قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ، قالَ: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٢۶٣]، آثار الندم واضحة على إخوة يوسف فى طلبهم من أبيهم.

و يقول سبحانه: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ ٢۶۴] فاستغفار الملائكة و شفاعتهم تقتصر على الأفراد المؤمنين السالكين سبيل اللّه.

و هنا يطرح أيضا سؤال بشأن جدوى الشفاعة للأفراد المؤمنين السالكين سبيل اللّه، و سنجيب على ذلك فى دراسة حقيقة الشفاعة.

و بشأن الشفعاء ذكر القرآن لهم شرطا فى قوله تعالى: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ ٢۶۵]. من هنا فالمشفوع له أيضا ينبغى أن يسلك طريق الحق فى القول و العمل، كى يكون له ارتباط بالشفيع، و هذا الارتباط الضرورى بين الشفيع و المشفوع له يعتبر بدوره عاملا بنّاء فى تعبئة الطاقات على طريق الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص: ٢٠۵

۵- الشّفاعة فى الحديث:

فى الروايات الإسلامية تعابير كثيرة تكمل محتوى الآيات المذكورة و توضّح ما خفى منها، من ذلك:

-١

فى تفسير «البرهان» عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السّلام عن على بن أبى طالب عليه السّلام قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يقول: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمّتى ...» راوى الحديث ابن أبى عمير يقول: فقلت له: يا بن رسول اللّه كيف تكون الشّفاعة لأهل الكبائر و اللّه يقول وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى و من يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى به؟ فقال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنبا إلّا ساءه ذلك و ندم عليه و قد قال النّبىّ صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كفى بالندم توبة ... و من لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن و لم تجب له الشّفاعة و كان ظالما و اللّه تعالى ذكره يقول ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ ٢۶۶]

صدر الحديث يتضمن أن الشفاعة تشمل مرتكبى الكبائر. لكن ذيل الحديث يوضح أن الشرط الأساسى فى قبول الشفاعة هو الإيمان الذى يدفع المجرم إلى مرحلة الندم و جبران ما فات، و يبعده عن الظلم و الطغيان و العصيان. (تأمل بدقة).

-۲

فی کتاب «الکافی» عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق علیه السّلام فی رسالة کتبها إلی أصحابه قال: «من سرّه أن ینفعه شفاعة الشّافعین عند اللّه فلیطلب إلی اللّه أن یرضی عنه»

[۲۶۷] یتبین من سیاق الروایة، أن کلام الإمام یستهدف إصلاح الخطأ الذی وقع فیه بعض أصحاب الإمام فی فهم مسألة الشفاعة: و یرفض بصراحة مفهوم الشفاعة الخاطئ المشجع علی ارتکاب الذنوب.

-۳

و عن الصادق علیه السّلام أیضا: «إذا کان یوم القیامة بعث اللّه العالم و العابد، فإذا وقفا بین یدی اللّه عزّ و جلّ قیل للعابد: انطلق إلی الجنّة، و قیل للعالم: قف تشفع للنّاس بحسن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۶

تأدیبک لهم»[۲۶۸].

فی هذا الحدیث نجد ارتباطا بین «تأدیب العالم» و «شفاعته لمن أدّبهم» و هذا الارتباط یوضّح کثیرا من المسائل المبهمة فی بحثنا هذا.

أضف إلی ما سبق أن فی اختصاص الشفاعة بالعالم و سلبها من العابد، دلالة اخری علی أن الشفاعة فی المفهوم الإسلامی لیست معاملة و عقدا و تلاعبا بالموازین، بل مدرسة للتربیة، و تجسید لما مرّ به الفرد من مراحل تربویة فی هذا العالم.

۶- التّأثیر المعنوی للشّفاعة:

ما ذکرناه من روایات بشأن الشفاعة هو غیض من فیض، فالروایات فی هذا المجال کثیرة تبلغ حدّ التواتر، و إنما اخترنا منها ما یتناسب مع بحثنا.

النووی الشافعی ۲۶۹] فی شرحه لصحیح مسلم، نقل عن القاضی عیاض- و هو من کبار علماء أهل السنة،- أنّ أحادیث الشفاعة متواترة[۲۷۰].

ابن تیمیة (المتوفی ۷۲۸ ه) و محمّد بن عبد الوهّاب (المتوفی ۱۲۰۶ ه)، مع ما لهما من تعصّب و لجاج فی مثل هذه الأمور، یقرّان بتواتر هذه الروایات.

ثمة کتاب دراسی معروف و متداول بین «الوهّابیة» هو «فتح المجید» للشیخ عبد الرحمن بن حسن، ینقل عن «ابن القیم» ما یلی:

«الرابع: شفاعته فی العصاة من أهل التوحید الذین یدخلون النار بذنوبهم.

و الأحادیث بها متواترة عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و قد أجمع علیها الصحابة و أهل السنة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۷

قاطبة و بدعوا من أنکرها و صاحوا به من کل جانب و نادوا علیه بالضلال»[۲۷۱].

و قبل أن ندرس الآثار الاجتماعیة و النفسیة لمسألة الشفاعة و الاشکالیات الأربع حول فلسفة الشفاعة، نلقی نظرة علی الآثار المعنویة لهذه المسألة فی إطار آراء الموحّدین المؤمنین بالشفاعة، فمثل هذه النظرة تمهّد السبیل لدراستنا القادمة فی حقل الشفاعة و معطیاتها الاجتماعیة و النفسیة.[۲۷۲] اختلف علماء العقائد المسلمون فی کیفیة التأثیر المعنوی للشفاعة. فقال جمع یسمون «الوعیدیة»، و هم المؤمنون بخلود مرتکبی الکبائر فی جهنم: إن الشفاعة لیس لها أثر علی إزالة آثار الذنوب، بل تأثیرها یقتصر علی زیادة الثواب و علی التکامل المعنوی.

و «التفضيلية» و هم من يعتقد بعدم خلود مرتكبى الكبائر فى جهنم، فيذهبون إلى أن الشفاعة تشمل المذنبين، و تؤثر فى إسقاط العقاب عنهم.

أما «الخواجة نصير الدين الطوسى رحمه اللّه» فيؤيد كلا الأمرين فى كتابه «تجريد الاعتقاد» و يرى وجود كلا الأثرين للشفاعة.

«العلّامة الحلى رحمه اللّه» شرح عبارة الطوسى فى كتابه «كشف المراد» و لم يردّ عليها بل أورد شواهد عليها.

لو أخذنا بنظر الاعتبار ما مرّ بنا بشأن معنى الشفاعة لغويا و مقارنتها بالشفاعة التكوينيّة، لما ترددنا فى صحة ما ذهب إليه المحقق الطوسى.

فمن جهة، ثمة

رواية معروفة عن الإمام الصادق عليه السّلام هى: «ما من أحد من الأوّلين و الآخرين إلّا و هو محتاج إلى شفاعة محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يوم القيامة»[۲۷۳].

و استنادا إلى هذه الرواية، يحتاج إلى الشفاعة كل النّاس، حتى التائبون

المغفور لهم، و فى مثل هذه الحالة لا بدّ أن تكون الشفاعة ذات تأثيرين، فى الحطّ من الذنوب، و فى علوّ المنزلة.

أما الروايات التى تذهب إلى عدم حاجة الصالحين للشفاعة فهى تنفى ذلك النوع من الشفاعة الخاص بالمجرمين و المذنبين.

و من جهة اخرى ذكرنا أن الشفاعة تعنى انضمام الفرد الأشرف و الأقوى إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف، و هذه المساعدة قد تكون لزيادة نقاط القوّة، و قد تكون لإزالة نقاط الضعف.

فى الشفاعة التكوينية نشهد هذين اللونين من الشاعة فى مسيرة حركة التكامل و النمو، فإنّ الكائنات الأضعف تحتاج إلى عوامل أقوى لإزالة عوامل التخريب تارة (كحاجة النباتات إلى نور الشمس لإبادة الآفات)، و تارة اخرى لزيادة نقاط القوّة و سرعة التطور (كحاجة النباتات إلى نور الشمس من أجل النموّ)، و هكذا الطالب يحتاج إلى الأستاذ لإصلاح أخطائه من جهة، و لزيادة معلوماته من جهة اخرى.

كل ذلك يدلّ على أن للشفاعة أثرين، و لا تقتصر على دائرة إزالة آثار الذنب و الإثم (تأمل بدقّة).

ممّا تقدم نفهم أن التائبين بحاجة أيضا إلى الشفاعة مع علمنا بأن التوبة وحدها كافية لغفران الذنوب، و ذلك لسببين:

۱- التائبون بحاجة إلى الشفاعة لزيادة مكانتهم المعنوية، و لتقدمهم فى مضمار التكامل و الارتقاء، و ان كان الغفران يتحقق بالتوبة.

۲- ثمة خطأ وقع فيه كثيرون فى فهم التوبة، إذ تصوروا أنّ التوبة من الذنب قادرة على إرجاع الإنسان إلى حالة ما قبل ارتكاب الذنب، بينما التوبة ليست- كما ذكرنا فى موضعه- سوى مرحلة أولى، إنها كالدواء الذى يقطع عوارض المرض، و انقطاع العوارض لا يعنى عودة الإنسان إلى حالته الطبيعية، بل يعنى انتقاله إلى

حالة نقاهة يحتاج خلالها إلى تقوية بنيته الجسمية، ليعود بعد مدة إلى مرحلة ما قبل المرض.

بعبارة اخرى، للتوبة مراحل، و الندم على الذنب و العزم على التطهر فى المستقبل هو المرحلة الاولى للتوبة. و المرحلة النهائية تتحق حين يعود التائب إلى حالة ما قبل الذنب من كل النواحى. و فى هذه المرحلة تكون شفاعة الشافعين ذات أثر و عطاء.

أفضل شاهد على هذا ما ورد فى القرآن و ذكرناه من قبل بشأن استغفار الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم للتائبين، و توبة إخوة يوسف و استغفار يعقوب لهم، و أوضح من كل ذلك استغفار الملائكة للصالحين و المصلحين الوارد فى الآيات المذكورة آنفا.

(تأمل بدقّة)!.

۷- فلسفة الشّفاعة

مرّ بنا فیما سبق «مفهوم» الشّفاعهٔ و «أسانیدها»، و نستطیع من ذلک أن نفهم بسهولهٔ فلسفهٔ الشفاعهٔ علی الصعید الاجتماعی و النفسی.
و بشکل عام و انطلاقا من مفهوم الشفاعهٔ نستطیع أن نتلمس الآثار التالیهٔ فی المؤمنین بالشفاعهٔ.
«مکافحهٔ روح الیأس» من أهم آثار الشفاعهٔ فی نفس المعتقدین بها. مرتکبو الجرائم الکبیرهٔ یعانون من و خز الضمیر، کما یشعرون بیأس من عفو اللّه، و لذلک لا یفکّرون بالعودهٔ و لا بإعادهٔ النظر فی طریقهٔ حیاتهم الآثمهٔ. و قد یدفعهم المستقبل المظلم إلی التعنت و الطغیان، و إلی التحلل من کل قید تماما، کالمریض الیائس من الشفاء الذی یتحلل من أی نظام غذائی، لاعتقاده بعدم جدوی التقید بنظام.
قلق الضمیر الناتج عن هذه الجرائم قد یؤدی إلی اختلالات نفسیهٔ، و إلی تحفیز الشعور بالانتقام من المجتمع الباعث علی تلوّثه. و بذلک یتبدل المذنب إلی
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱۰
عنصر خطر، و إلی مصدر قلق اجتماعی.
الإیمان بالشفاعهٔ یفتح أمام الإنسان نافذهٔ نحو النور، و یبعث فیه الأمل بالعفو و الصفح، و هذا الأمل یجعله یسیطر علی نفسه، یعید النظر فی مسیرهٔ حیاته، بل و یشجعه علی تلافی سیئات الماضی.
و الإیمان بالشفاعهٔ یحافظ علی التعادل النفسی و الروحی للمذنب، و یفسح الطریق أمامه إلی أن یتبدل إلی عنصر سالم صالح.
من هنا یمکن القول أن الاهتمام بالشفاعهٔ بمعناها الصحیح عامل رادع بنّاء، قادر أن یجعل من الفرد المجرم المذنب فردا صالحا. و انطلاقا من هذا الفهم نجد أن مختلف قوانین العالم وضعت فسحهٔ أمل أمام المحکومین بالسجن المؤبّد باحتمال العفو بعد مدهٔ إن أصلحوا أنفسهم، کی لا یتسرب الیأس إلی نفوسهم بذلک و یتبدّلوا إلی عناصر خطرهٔ داخل السجن أو یصابون باختلالات نفسیهٔ.

۸- شروط «توفّر الشّفاعهٔ»

الشفاعهٔ بمعناها الصّحیح لها قیود و شروط متعددهٔ الجوانب، کما ذکرنا. من هنا فالمؤمنون بهذا المبدأ لا بدّ أن یسعوا لتوفیر شروط الشّفاعهٔ کی یشملهم عطاؤها، و أن یجتنبوا الذنوب التی تقضی علی کل أمل فی الشفاعهٔ کالظلم، و أن یستأنفوا حیاهٔ جدیدهٔ قائمهٔ علی أساس تغییر عمیق فی أنفسهم و أن یتوبوا من الذنب أو یهمّوا بالتوبهٔ علی الأقل من أجل بلوغ درجهٔ «الارتضاء» و اتخاذ «العهد الإلهی» (بالتّفسیر المذکور).
علیهم أن یکفوا عن مخالفهٔ الأحکام و القوانین الإلهیهٔ، أو یقللوا من هذه المخالفهٔ ما أمکنهم، و یعمقوا فی أنفسهم الإیمان باللّه و الیوم الآخر.
من جههٔ اخری لا بدّ لنیل شفاعهٔ «الشفیع»، أن یسعی الفرد لإیجاد نوع من
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱۱
التشابه و السنخیهٔ و إن کان ضعیفا بینه و بین الشفیع.
و کما أن «الشّفاعهٔ التّکوینیهٔ» لا تتمّ إلّا بوجود نوع من السّنخیهٔ و التسلیم و الاستعداد فی الموجود الأضعف، کذلک الشفاعهٔ التشریعیهٔ لا تتحقق إلّا بتوفر مثل هذه القابلیّات، (تأمل بدقّهٔ).
و بهذا یتضح بجلاء أن الشفاعهٔ بمعناها الصحیح لها دور فعّال فی تغییر وضع المجرمین و إصلاحهم.

۹- شبهات حول مسألهٔ الشفاعهٔ

ذكرنا أن بين «الشفاعة» فى مفهومها المنحرف و «الشفاعة» فى مفهومها الإسلامى الصحيح بونا شاسعا. المفهوم الأوّل يقوم على أساس تغيير وجهة نظر «المستشفع»، و الآخر يدور حول محور التغييرات المختلفة فى وضع المستشفع له.

واضح أن الشفاعة بمفهومها الأول مرفوضة لأنها تقتل روح السعى و المثابرة فى النفوس ... و تشجع على ارتكاب الذنوب ... و تعتبر انعكاسا عن المجتمعات المتخلفة و الإقطاعية ... و تتضمن أكثر من ذلك نوعا من الشرك و الانحراف عن خط التوحيد.

لا شک أن الإنسان المسلم يبتعد عن خط التوحيد لو اعتقد بإمكان تقديم «وساطة» إلى اللّه كما تقدم «الوساطات»، إلى أصحاب النفوذ فى هذه الدنيا. لأن مثل هذا الفرد قد اعتقد بشكل غير مباشر بإمكان تغيير علم اللّه! و بإمكان خفاء أمر من أمور «المستشفع» على اللّه! أو بوجود مصدر يمكن أن يطفئ الإنسان به غضب اللّه أو يكسب به ودّه و رضاه!، أو بحاجة اللّه إلى مكانة بعض عباده و بسبب احتياجه إليهم يقبل شفاعتهم. أو أنه تعالى يقبل شفاعتهم بسبب خوفه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱۲

نفوذهم!! تعالى اللّه عن ذلک علوا كبيرا.

كل هذه المعانى تبعدنا من أصل التوحيد و تؤدى بنا إلى السقوط فى وادى الشرک ... إنها المفهوم السلبى للشفاعة و السائد لدى العرف العام.

أما الشفاعة بمعناها الصحيح الذى ذكرناه، فلا تنطوى على هذه العيوب، بل إنها أكثر من ذلک تصلح العيوب، و تعمّق النقاط الإيجابية فى الكائن البشرى.

هذا النوع من الشفاعة لا يشجع على ارتكاب الذنب، بل يدفع إلى ترک الذنوب.

لا يدعو إلى التقاعس و التماهل، بل يبعث فى الإنسان روح الأمل التى يستتبعها عادة تصعيد الإرادة لتلافى أخطاء الماضى.

هذه الشفاعة لا ترتبط بالمجتمعات المتخلّفة، بل هى وسيلة تربوية فعّالة لإصلاح المجرمين و المذنبين و المعتدين.

ليست هذه الشفاعة بشرک، بل هى عين التوحيد و التأكيد على التوجه إلى اللّه و الاستمداد من صفاته و إذنه و أمره.

و لمزيد من التوضيح نتحدث أكثر عن مسألة الشفاعة و التوحيد.

۱۰- الشّفاعة و التّوحيد

الفهم الخاطئ لمسألة الشّفاعة آثار اعتراض فئتين على ما بينهما من تضاد.

الفئة الاولى: اعترضت على الشفاعة من منطلق مادى و اعتبرتها عاملا للتخدير و لإماتة روح السّعى و المثابرة، و قد أجبنا على اعتراضات هذه الفئة فيما سبق.

الفئة الاخرى: اعترضت على الشفاعة من منطلق السلفية، و اعتبرتها شركا و انحرافا عن خط التوحيد، و يمثل هذه الفئة «الوهّابيون» و من لفّ لفّهم. و الإجابة على اعتراضات الوهّابيين و إن كانت تحتاج إلى إطالة و خروج عن طريقة التّفسير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱۳

إلّا أنها ضرورية لأسباب عديدة.

لا بد من الالتفات أولا إلى أن الحركة الوهّابيّة، التى ظهرت خلال القرنين الأخيرين فى الجزيرة العربية على يد «محمّد بن عبد الوهّاب» لم تتجه فى أفكارها المتطرفة الجافة إلى معارضة مدرسة أهل البيت عليهم السّلام فقط، بل اصطدمت بمعظم المسلمين من أهل السنة أيضا.

محمّد بن عبد الوهاب (المتوفّى ۱۲۰۶ ه) استقى أفكاره من «ابن تيمية» (أحمد بن عبد الحليم الدمشقى المتوفى سنة ۷۲۸ ه)، أى قبل أربعة قرون تقريبا من ظهور الوهّابية، و يعتبر المنظّر لهذه الحركة.

استطاع عبد الوهّاب خلال الأعوام (۱۱۶۰- ۱۲۰۶ ه) بالتعاون مع الحكام المحليين أن ينشر دعوته بين القبائل البدوية المتنقّلة فی الجزيرة العربية و يبثّ فيهم تعصبا أعمى باسم الدفاع عن التوحيد و مكافحة الشرك، و عبّد البدو و المتعصبين من أتباعه على طريق قمع معارضيه، و استطاع بذلك أن يكتسب قدرة سياسية و يسيطر بشكل مباشر و غير مباشر على الحكم، و أراق من أجل ذلك دماء كثيرة من المسلمين فی أرض الجزيرة العربية و خارجها.

فی سنة ۱۲۱۶ ه (عشر سنوات بعد وفاة مؤسس الحركة الوهّابية) هاجمت جماعة من الوهّابيين مدينة كربلاء قادمة من صحراء الجزيرة العربية، و استغلوا فرصة سفر أهالی المدينة إلى النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير، فدخلوا المدينة و قاموا بتخريب و هدم مرقد سيد الشهداء الحسين بن علی عليه السّلام و سائر المراقد الشريفة فی هذه المدينة، و نهبوا ما فيها من أبواب ذهبية و نفائس، و قتلوا ما يقرب من خمسين شخصا عند ضريح الحسين، و خمسمائة شخص فی صحن الروضة المشرفة، كما قتلوا أعدادا كبيرة فی سائر أنحاء المدينة، حتى بلغ عدد المقتولين فی ذلك الهجوم الوهابی خمسة آلاف إنسان، و لم يسلم منهم حتى الشيوخ و العجائز و الأطفال، كما نهبوا كثيرا من البيوت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۴

فی عام ۱۳۴۴ أفتى فقهاء المدينة الخاضعون لجهاز الحكم الوهابی بهدم قبور أئمّة الإسلام و أولياء اللّه الصالحين، و نفذت هذه الفتوى فی اليوم الثامن من شوّال من السنة المذكورة، و همّ المنفذون أن يهدموا قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أيضا، لو لا تراجعهم أمام صيحات اعتراض المسلمين.

أتباع محمّد بن عبد الوهاب يتميزون على العموم بالخشونة و التصلّب و السطحية و اللجاج و البعد عن المنطق و التعقّل و قد حصروا الإسلام- عمدا أو غفلة- فی إطار مكافحة عدد من الظواهر كالشفاعة و زيارة القبور و التوسل، و بذلك أبعدوا أتباعهم و من خضع لسيطرتهم عن المسائل الإسلامية الحياتية، و خاصة فيما يرتبط بالعدالة الاجتماعية، و مكافحة السيطرة الاستعمارية، و التصدى للثقافة الماديّة و للمدارس الإلحادية.

لذلك لا تجد فی أوساط الوهابيين حديثا عن هذه المسائل، بل تسود أجواءهم حالة فظيعة من الغفلة و الركود.

نعود إلى رأی هذه الفئة بشأن الشفاعة، هؤلاء يقولون: لا يحق لأحد أن يستشفع برسول اللّه، و أن يقول: «يا محمّد اشفع لی عند اللّه» لأن اللّه سبحانه يقول:

وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً[۲۷۴].

و فی رسالة «كشف الشبهات» لمحمّد بن عبد الوهاب نقرأ ما يلی:

«فإن قال أن النّبی صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أعطی الشفاعة و أطلبه ممّا أعطاه اللّه. فالجواب أن اللّه أعطاه الشفاعة و نهاك عن هذا و قال: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً و أيضا فإن الشفاعة أعطاها غير النّبی، فصح أن الملائكة يشفعون و الأولياء يشفعون ...

أتقول أن اللّه أعطاهم الشفاعة فاطلبها منهم؟ فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين»[۲۷۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۵

و يقول محمّد بن عبد الوهاب فی رسالة أربع قواعد ما حاصله: إن الخلاص من الشرك يكون بمعرفة أربع قواعد.

الأولى: انّ الكفار الذين قاتلهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مقرّون بأن اللّه تعالى هو الخالق الرازق المدبر ... لقوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ ...[۲۷۶].

الثّانية: إنّهم يقولون ما دعونا الأصنام و توجهنا إليهم إلّا لطلب القرب و الشفاعة ... وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ۲۷۷].

الثّالثة: إنّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ظهر على قوم متفرقين فی عبادتهم، فبعضهم يعبد الملائكة، و بعضهم الأنبياء الصالحين، و بعضهم الأشجار و الأحجار، و بعضهم الشمس و القمر، فقاتلهم و لم يفرق بينهم.

الرّابعة: إن مشركى زماننا أغلظ شركا من الأولين، لأن أولئك يشركون فى الرخاء و يخلصون فى الشدة، هؤلاء شركهم فى الحالتين لقوله تعالى: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ...[۲۷۸][۲۷۹].

و من العجيب أن الوهابيين تبلغ بهم الجرأة فى تكفير المسلمين بحيث يبيحون نهب أموال المسلم و سفك دمه بسهولة، و قد فعلوا ذلك فى تاريخهم مرارا.

يقول الشيخ «سليمان بن لحمان» فى كتابه «الهدية السنية»:

«إن الكتاب و السنّة دلّا على أن من جعل الملائكة و الأنبياء أو ابن عباس أو أبا طالب أو ... وسائط بينهم و بين اللّه ليشفعوا لهم عند اللّه لأجل قربهم إلى اللّه- كما يفعل عند الملوك- إنه كافر مشرك حلال الدم و المال! و ان قال أشهد أن لا إله إلّا اللّه و أشهد أن محمّدا رسول اللّه و صلّى و صام»!![۲۸۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱۶

و مع هذا الإفتاء يتضح حال المسلمين فى جميع أقطار العالم الإسلامى الذين يستشفعون بهم، اقتداء بكتاب اللّه و سنّة نبيّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

روح البطش و السفك و اللجاجة فى هؤلاء لا تخفى على أحد، و هكذا جهلهم بالمسائل الإسلامية و القرآنية.

نظرة على منطق الوهّابيين فى حقل الشفاعة

و هكذا يظهر ممّا نقلنا عن مؤسس الحركة الوهّابية «محمّد بن عبد الوهّاب» أنّ اتّهام الوهّابيين بالشرك للمؤمنين بالشفاعة يستند إلى مسألتين:

۱- التشابه بين المؤمنين بشفاعة الأنبياء و الصالحين، و بين المشركين فى عصر الجاهلية.

۲- نهى القرآن عن عبادة غير اللّه و عن دعوة فرد مع اللّه: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً[۲۸۱]، و الاستشفاع نوع من العبادة.

بالنسبة للمسألة الاولى، ارتكب الوهّابية خطأ فظيعا، و ذلك للأسباب التالية:

أوّلا: القرآن أقرّ منزلة الشفاعة بصراحة لجمع من الأنبياء و الصالحين و الملائكة كما مرّ، لكنه قيّدها بإذن اللّه. و ليس من المعقول إطلاقا أن يكون اللّه قد نهى عن الاستشفاع المشروط بإذن اللّه بمن قد منحهم هو سبحانه هذه المنزلة.

و صرّح القرآن بطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم، و هكذا صرّح بطلب الصحابة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أن يستغفر لهم أيضا.

أ ليست هذه من المصاديق الواضحة لطلب الشفاعة؟! إن الاستشفاع برسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بعبارة: «اشفع لنا عند اللّه» هى نفسها عبارة إخوة يوسف إذ قالوا لأبيهم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱۷

يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا[۲۸۲] كيف يجرأ هؤلاء على إلقاء تهمة الشرك على من يؤمن بما يصرّح به القرآن، بل و يستبيحون دمه و ماله؟! لو كان هذا العمل شركا، فلم لم ينه يعقوب بنيه عن ذلك.

ثانيا: لا يوجد أدنى شبه بين «عبدة الأصنام» و «الموحّدين المؤمنين بالشفاعة بإذن اللّه»، لأن الوثنيين كانوا يعبدون الأصنام و يتخذونها شفعاء، بينما المسلمون المؤمنون بالشفاعة لا تخطر فى ذهنهم عبادة الشفعاء، بل يستشفعون بهم إلى اللّه، و طلب الشفاعة لا ارتباط له بمسألة العبادة كما سنبيّن.

عبدة الأصنام كانوا يتعجبون من عبادة الإله الواحد الأحد: أ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ ۲۸۳].

الوثنیون کانوا یجعلون الوثن فی منزلة اللّه: تَاللَّهِ إِنْ کُنَّا لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ الْعالَمِینَ ۲۸۴].

الوثنیون کانوا یعتقدون بتأثیر الأوثان علی حیاتهم و مصیرهم و وجودهم، کما تذکر کتب التاریخ، و المسلمون المؤمنون بالشفاعة یعتقدون بانفراد اللّه فی التأثیر، و لا یرون لموجود آخر غیر اللّه استقلالا فی التأثیر.

و المقارنة بین الرؤیتین مقارنة جاهلة مجافیة للمنطق.

أما بشأن المسألة الثانیة، علینا أوّلا أن نفهم معنی «العبادة» لو فسّرنا العبادة بأنها کل لون من ألوان الخضوع و الاحترام، لکان ذلک یعنی حرمة الاحترام و الخضوع لأحد غیر اللّه، و هذا ما لا یقرّه مسلم. و لو فسّرنا العبادة أنها کل ألوان الطلب، فهذا یعنی أن التقدم بالطلب من أیة جهة هو شرک، و هذا یخالف ضروریات العقل و الدین. کما أن العبادة لا یمکن فهمها علی أنها کل لون من ألوان اتباع فرد لفرد آخر، فاتباع الأفراد لمسؤولیهم و رؤسائهم فی المؤسسات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱۸

و التنظیمات الاجتماعیة من أولی ضروریات الحیاة البشریة، کما أن اتّباع الأنبیاء و أئمّة الدین من الواجبات الحتمیة للمتدینین.

من هنا فالعبادة لا تعنی کل ذلک، بل هی الحدّ الأعلی للخضوع و التواضع المعبّرین عن الارتباط المطلق و التسلیم بلا منازع للمعبود، و إیکال کل عواقب الأمور إلیه.

و هل فی طلب الشفاعة من الشفعاء أثر من الآثار المذکورة للعبادة.

أمّا بشأن النهی عن دعوة أحد سوی اللّه، فلا یعنی النهی عن نداء الأفراد، کأن نقول یا علیّ و یا حسن و یا أحمد، و لا یعنی النهی عن الاستعانة بالأفراد، لأن التعاون أحد الأرکان الأساسیة للحیاة الاجتماعیة و قد عمل به الأنبیاء و الأولیاء کافة، و لم یرفضه الوهابیون أنفسهم.

أمّا الأمر الذی یمکن الاعتراض علیه فهو ما أوضحه «ابن تیمیة» فی رسالة «زیارة القبور» إذ قال ما حاصله: «مطلوب العبد إن کان ممّا لا یقدر علیه إلّا اللّه فسائله من المخلوق مشرک من جنس عباد الملائکة و التماثیل و من اتّخذ المسیح و أمه إلهین، مثل أن یقول لمخلوق حی أو میت: اغفر ذنبی أو انصرنی علی عدوی أو اشف مریضی أو عافنی أو عاف أهلی أو دابتی، أو یطلب منه وفاء دینه من غیر جهة معینة أو غیر ذلک.

و إن کان ممّا یقدر علیه العبد فیجوز طلبه منه فی حال دون حال، فان مسألة المخلوق قد تکون جائزة و قد تکون منهیا عنها قال اللّه تعالی: فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَ إِلی رَبِّکَ فَارْغَبْ و

أوصی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ابن عباس: إذا سألت فاسئل اللّه، و إذا استعنت فاستعن باللّه. و أوصی طائفة من أصحابه أن لا یسألوا النّاس شیئا، فکان سوط أحدهم یسقط من کفه فلا یقول لأحد ناولنی إیاه. و قال: فهذه المنهی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۱۹

عنها و الجائزة طلب دعاء المؤمن لأخیه»[۲۸۵].

نحن أیضا نقول: من الشرک أن یطلب الإنسان من أحد شیئا یختص به الخالق، و من الشرک أن یتجه الإنسان فی ذلک الطلب إلی فرد یعتبره قادرا بشکل مستقل عن تلبیة ذلک الطلب. أما إذا طلب الإنسان من أحد شفاعة منحها له اللّه، فما ذلک بشرک، بل هو عین الإیمان و التوحید، و یشهد علی ذلک کلمة «مع» فی قوله تعال: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً التی تفید أن المنهی عنه هو دعوة شخص نعتبره فی منزلة اللّه، و نعتبره مصدرا مستقلا فی التأثیر. (تأمل بدقّة).

هدفنا من التأکید علی هذا الموضوع، هو أن ما اعتراه من مسخ و تحریف و فّر الفرصة لأعداء الدین کی یطعنوا فی المقدسات الدینیة، کما أدّی إلی ظهور تفسیرات و استنتاجات خاطئة لدی بعض المجموعات الإسلامیة، ممّا جرّ بدوره إلی تفرقة صفوف المسلمین.

و الفهم الصحیح للشفاعة یؤدی کما رأینا إلی سموّ أخلاق المجتمع و تکاملها.

و إلى إصلاح الأفراد الفاسدين، كما يؤدى إليه قطع دابر الطاعنين، و إلى إحلال الوحدة بين المسلمين.

نأمل من العلماء و المفكرين الإسلاميين أن يتعمّقوا فى تحليل هذه المسألة قرآنيا و منطقيا، كى يسدّوا الطريق أمام طعن أعداء الإسلام و يساهموا فى رصّ الصفوف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۴۹]

اشارة

وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۴۹)

التّفسير

نعمة الحرية

فى هذه الآية إشارة إلى نعمة كبيرة اخرى، منّ بها اللّه سبحانه على بنى إسرائيل، و هى نعمة تحريرهم من براثن الظالمين: وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

القرآن يعبّر عن العذاب الذى أنزله فرعون ببنى إسرائيل بفعل يَسُومُونَكُمْ من «سام» التى تعنى فى الأصل الذهاب فى ابتغاء الشىء، و استعمال هذا الفعل بصيغة المضارع يشير إلى استمرار العذاب، و إلى أن بنى إسرائيل كانوا دوما تحت التعذيب من قبل الفراعنة.

و القرآن عبّر بكلمة «البلاء» عمّا كان ينزل ببنى إسرائيل من عذاب يتمثل فى قتل الذكور و استخدام الإناث لخدمة آل فرعون، و استثمار طاقات بنى إسرائيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۱

لخدمة الاقباط و إشباع رغبات و نزوات المستكبرين.

و البلاء يعنى الامتحان، فالحوادث و المصائب التى نزلت ببنى إسرائيل كانت بمثابة الامتحان لهم. كما قد يأتى البلاء بمعنى العقاب، لأن بنى إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربّهم، فكان ما أصابهم من آل عمران عقابا على كفرانهم.

و ذكر بعض المفسرين معنى ثالثا للبلاء، و هو النعمة، و بذلك يكون البلاء العظيم يعنى النعمة العظيمة، و المقصود منها نعمة النجاة من آل فرعون ۲۸۶].

على كل حال، يوم نجاة بنى إسرائيل من آل فرعون يوم تاريخى مهم، ركّز عليه القرآن فى مواضع عديدة و لنا وقفات اخرى عند هذا الحدث الكبير.

من الملفت للنظر أن القرآن يسمّى ذبح الأبناء و استحياء النساء عذابا. و لو عرفنا أن استحياء النساء يعنى استبقاءهنّ، و تركهن أحياء، لاتّضح لنا أن القرآن يشير إلى أن مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضا مثل عذاب القتل. و هذا المعنى يشير إليه

الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام إذ يقول: «فالموت فى حياتكم مقهورين و الحياة فى موتكم قاهرين»[۲۸۷].

عملية الإماتة كانت شاملة للذكور و الإناث مع اختلاف فى ممارسة هذه العملية، و فى عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الأرض عملية الإماتة أيضا بأساليب اخرى، و ذلك عن طريق قتل روح الرجولة فى الذكور، و دفع الإناث إلى مستنقع إشباع الشهوات.

من المفسرين من ذهب إلى أن سبب قتل أبناء بنى إسرائيل و استحياء نسائهم، يعود إلى رؤيا عرضت لفرعون فى منامه. و لكن السبب

لیس الرؤیا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲۲

وحدها- کما سنبیّن ذلک فی تفسیر الآیة الرابعة من سورة القصص- بل أیضا خوف الفرعونیین من اشتداد قوة بنی إسرائیل و تشکیلهم خطرا علی سلطة آل فرعون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲۳

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۵۰]

اشارة

وَ إِذْ فَرَقْنا بِکُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَیْناکُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۰)

التّفسیر

النّجاة من آل فرعون:

الآیة السابقة أشارت إلی نجاة بنی إسرائیل من براثن الفرعونیین، و هذه الآیة توضح طریقة النجاة، وَ إِذْ فَرَقْنا بِکُمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَیْناکُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

قضیة غرق آل فرعون فی البحر و نجاة بنی إسرائیل وردت فی سور عدیدة مثل سورة الأعراف الآیة (۱۲۶). و سورة الأنفال، الآیة (۵۴). و سورة الإسراء الآیة (۱۰۳). و الشعراء الآیة (۶۳ و ۶۶). و الزخرف، (۵۵). و الدخان، الآیة (۱۷) و ما بعدها.

فی هذه السور ذکرت کل تفاصیل الحادث، أمّا هذه الآیة فاکتفت بالإشارة إلی هذه النعمة الإلهیة فی معرض دعوة بنی إسرائیل إلی قبور الرسالة الخاتمة[۲۸۸].

حادثة الانقاذ باختصار حدثت بعد عدم استجابة فرعون و قومه لدعوة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲۴

موسی علیه السّلام مع کل ما شاهدوه منه من معجزات. إذ ذاک امر أن یخرج مع بنی إسرائیل فی منتصف اللیل من مصر، و عند وصولهم النیل، علموا أن فرعون و جیشه یلاحقونهم، فاعتری، بنی إسرائیل خوف و اضطراب شدید. فالبحر أمامهم و العدوّ وراءهم. و فی هذه اللحظات الحساسة، امر موسی أن یضرب البحر بعصاه، فانشقت فیه طرق متعدّدة عبر منها بنو إسرائیل، بینما التحم الماء حینما کان آل فرعون فی وسطه، فغرقوا جمیعا و نجا بنو إسرائیل، و هم ینظرون إلی هلاک أعدائهم.

الهدف من تذکیر بنی إسرائیل بهذا الحدث الذی بدأ بخوف شدید و انتهی بانتصار ساحق، هو دفعهم للشکر و للسیر علی طریق الرسالة الإلهیة المتمثلة فی دین النّبی الخاتم.

کما أنه تذکیر للبشریة بالامداد الإلهی الذی یشمل کل أمّة سائرة بجد و إخلاص علی طریق اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲۵

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۵۱ الی ۵۴]

اشارة

وَ إِذْ واعَدْنا مُوسی أَرْبَعِینَ لَیْلَهً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (۵۱) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْکُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۵۲) وَ إِذْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۵۳) وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ إِنَّکُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَکُمْ بِاتِّخاذِکُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلی بارِئِکُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ عِنْدَ بارِئِکُمْ فَتابَ عَلَیْکُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ (۵۴)

التّفسیر

اشارهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص ۲۲۵

أکبر انحرافات بنی إسرائیل

فی هذه الآیات الأربع، تأکید علی مقطع آخر من تاریخ بنی إسرائیل، و علی أکبر انحراف أصیبوا به فی تاریخهم الطویل، و هو الانحراف عن مبدأ التوحید، و الاتجاه إلی عبادهٔ العجل. و هذا التأکید تذکیر لهم بما لحقهم من زیغ نتیجهٔ إغواء الغاوین، و تحذیر لهم من تکرر هذه التجربهٔ فی مواجههٔ الدین الخاتم: وَ إِذْ واعَدْنا مُوسی أَرْبَعِینَ لَیْلَهً و هی لیالی افتراق موسی عن قومه، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ

شرح هذا المقطع من تاریخ بنی إسرائیل سیأتی فی سورهٔ الأعراف الآیهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۶

(۱۴۲) و ما بعدها، و فی سورهٔ طه الآیهٔ (۳۶) و ما بعدها.

و خلاصته، إن موسی علیه السّلام بعد نجاهٔ بنی إسرائیل من قبضهٔ الفراعنهٔ امر بالذهاب إلی جبل الطور مدهٔ ثلاثین لیلهٔ لتسلم ألواح التوراهٔ، ثم مدّت هذه اللیالی إلی أربعین لیلهٔ من أجل اختبار قومه. و استغل السامریّ الدّجال هذه الفرصهٔ، فجمع ما کان لدی بنی إسرائیل من ذهب الفراعنهٔ و مجوهراتهم، و صنع منها عجلا له صوت خاص، و دعا بنی إسرائیل لعبادته. فأتبعه أکثر بنی إسرائیل، و بقی هارون- أخو موسی و خلیفته- مع أقلیهٔ من القوم علی دین التوحید، و حاول هؤلاء الموحّدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم یفلحوا، و أوشک المنحرفون أن یقضوا علی حیاهٔ هارون أیضا.

بعد أن عاد موسی من جبل الطور تألم کثیرا لما رآه من قومه، و وبّخهم بشدّهٔ فثاب بنو إسرائیل إلی رشدهم، و أدرکوا خطأهم و طلبوا التوبهٔ، فجاءهم أمر السماء بتوبهٔ لیس لها نظیر، سنذکرها فیما یلی.

فی الآیهٔ التالیهٔ یقول سبحانه: ثُمَّ عَفَوْنا عَنْکُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ و بعد إشارهٔ إلی ما جاء بنی إسرائیل من هدایهٔ تشریعیهٔ: وَ إِذْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ

کلمتا «الکتاب» و «الفرقان» قد تشیران کلاهما إلی التوراهٔ، و قد یکون المقصود من «الکتاب» التوراهٔ و «الفرقان» ما قدمه موسی من معاجز بإذن اللّه، لأنّ الفرقان یعنی فی الأصل ما یفرّق بین الحق و الباطل.

ثم یشیر القرآن إلی طریقهٔ التوبهٔ المطروحهٔ علی بنی إسرائیل: وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ إِنَّکُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَکُمْ بِاتِّخاذِکُمُ الْعِجْلَ، فَتُوبُوا إِلی بارِئِکُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ عِنْدَ بارِئِکُمْ، فَتابَ عَلَیْکُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲۷

و «البارى» هو الخالق، و فى الكلمة إشارة إلى أن هذا الأمر الإلهى بالتوبة الشديدة صادر عمّن خلقكم، و عمّن هو أعرف بما يضرّكم و ينفعكم.

ذنب عظيم و توبة فريدة

لا شك أن عبادة عجل السامرى لم تكن مسألة هينة، لأن بنى إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات اللّه و معجزات نبيّهم موسى عليه السّلام، ثم نسوا ذلك دفعة، و خلال فترة قصيرة من غياب النّبى انحرفوا تماما عن مبدأ التوحيد و عن الدين الإلهى.

كان لا بدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطرة، كى لا تعود إلى الظهور ثانية خاصة بعد وفاة صاحب الرسالة.

و من هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبة شديدة لم يسبق لها نظير فى تاريخ الأنبياء، و تقضى هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعى لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضا، و فى ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء و المعارف على يديه، و ما ينزل به- هو نفسه- من عذاب القتل.

و جاء فى الأخبار أن موسى أمر فى ليلة ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا و يرتدوا الأكفان و يعملوا السيف بعضهم فى البعض الاخر.

و لعلك تسأل عن السبب فى قساوة هذه التوبة و لماذا لم يقبل اللّه تعالى منهم التوبة دون إراقة للدماء؟

الجواب: إن السبب فى شدّة هذا الحكم- كما ذكرنا- يعود إلى عظمة الذنب الذى ارتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات و معاجز، و إلى أن هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة و مستقبلها لإن اصول و مبادئ جميع الأديان السماوية يمكن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲۸

اختزالها فى التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعنى انهيار جميع اللبنات الفوقية و المبانى الحضارية للدين، فلو تساهل موسى عليه السّلام مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سنّة فى الأجيال القادمة، خاصة و أن بنى إسرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوما متعنتين لجوجين.

و لا بدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعا للأجيال التالية عن السقوط فى هاوية الشرك.

و لعل فى عبارة قوله تعالى: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إشارة إلى هذا المعنى.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۵۵ الى ۵۶]

اشارة

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۵) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۶)

التّفسير

طلب عجیب!

هاتان الآیتان تـذکّران بنی إسـرائیل بنعمـهٔ إلهیهٔ اخری، کما توضـحان فی الوقت نفسه روح اللجاج و العناد فی هؤلاء القوم، و تبیان ما نزل بهم من عقاب إلهی، و ما شملهم اللّه به من رحمهٔ بعد ذلک العقاب.

تقول الآیهٔ الاولی: وَ إِذْ قُلْتُمْ یا مُوسی لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی نَرَی اللَّهَ جَهْرَهً.

هذا الطلب قد ینم عن جهل بنی إسرائیل، لأن إدراک الإنسان الجاهل لا یتعدّی حواسه. و لذلک یرمی إلی أن یری اللّه بعینه.

أو قد یحکی هذا الطلب عن ظاهرهٔ لجاج القوم و عنادهم التی یتمیزون بها دوما.

علی أی حال، طلب بنو إسرائیل من نبیهم بصراحهٔ أن یروا اللّه جهرهٔ، و جعلوا ذلک شرطا لإیمانهم.

عندئـذ شـاء اللّه سـبحانه أن یری هؤلاـء ظـاهرهٔ من خلقه لاـ یطیقون رؤیتهـا، لیفهموا أن عینهم الظـاهرهٔ هـذه لاـ تطیق رؤیـهٔ کـثیر من مخلوقات اللّه، فما بالک برؤیهٔ اللّه سبحانه نزلت الصاعقهٔ علی الجبل و صحبها برق شدید و رعد مهیب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۳۰

و زلزال مروع، فترکهم، علی الأرض صرعی من شدهٔ الخوف فَأَخَذَتْکُمُ الصَّاعِقَهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

اغتم موسـی لما حدث بشدّهٔ، لأن هلاک سـبعین نفرا من کبار بنی إسـرائیل، قد یوفّر الفرصهٔ للمغامرین من أبناء القوم أن یثیروا ضجّهٔ بوجه نبیهم. لـذلک تضـرّع موسـی إلی اللّه أن یعیـدهم إلی الحیـاهٔ، فقبـل طلبه و عـادوا إلی الحیاهٔ: ثُمَّ بَعَثْناکُمْ مِنْ بَعْـدِ مَوْتِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ

هذا باختصار شرح الواقعهٔ، و سیأتی تفصیلها فی سورهٔ الأعراف، الآیهٔ ۱۵۵، و سورهٔ النساء الآیهٔ ۱۵۳[۲۸۹].

هـذه القصـهٔ تبین من جانب آخر ما عاناه الأنبیاء من مشاکل کبری علی طریق دعوتهم. کان قومهم یطلبون منهم معاجز خاصهٔ، و کان العنـاد یبلـغ ببعض الأـقوام حـدا یطلبون فیه أن یروا اللّه جهرهٔ، شـرطا لإیمـانهم. و حینمـا یواجه هـذا الطلب غیر المنطقی بجواب إلهی مناسب حاسم تحدث للنبی مشکلهٔ اخری. و لو لا لطف اللّه و تثبیته لما کان بالإمکان المقاومهٔ تجاه کل هذا العناد.

هذه الآیهٔ تشیر ضمنا إلی إمکان «الرجعهٔ»، أی الرجوع إلی هذه الحیاهٔ الدنیا بعد الموت. لأن وقوعها فی مورد یدل علی إمکان الوقوع فی موارد اخری.

و لکن عدد من مفسری أهل السنهٔ أوّلوا «الموت» فی هذه الآیهٔ إلی غیر المعنی الظاهر لعدم رغبتهم فی قبول «الرجعهٔ»[۲۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۳۱

الآیتان [سورهٔ البقرهٔ (۲): آیهٔ ۵۷]

اشارهٔ

وَ ظَلَّلْنا عَلَیْکُمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَیْکُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوی کُلُوا مِنْ طَیِّباتِ ما رَزَقْناکُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۵۷)

التّفسیر

النّعم المتنوعهٔ

بعد أن نجا بنو إسـرائیل من الفرعونیین، تذکر الآیات ۲۳- ۲۹ من سورهٔ المائدهٔ، أن بنی إسـرائیل أمروا لأن یتجهوا إلی أرض فلسطین

المقدسـهٔ، لکن هؤلاـء عصوا هـذا الأمر، و أصـروا علی عـدم الـذهاب ما دام فیها قوم جبارون (العمالقـهٔ)، و أکثر من ذلک ترکوا أمر مواجههٔ هؤلاء الظالمین لموسی وحده قائلین له:

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّکَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ۲۹۱].

تألم موسـی لهذا الموقف و دعا ربه قالَ رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِکُ إِلَّا نَفْسِـی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ الْقَوْمِ الْفاسِـقِینَ ۲۹۲] فکتب علیهم التیه أربعین عاما فی صحراء سیناء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۲

مجموعهٔ من التائهین ندمت علی ما فعلته أشد الندم، و تضـرعت إلی اللّه، فشـمل اللّه سـبحانه بنی إسـرائیل ثانیهٔ برحمته، و أنزل علیهم نعمه التی تشیر الآیهٔ إلی بعضها: وَ ظَلَّلْنا عَلَیْکُمُ الْغَمامَ

و الظّل له أهمیهٔ الکبری لمن یطوی الصحراء طیلهٔ النهار و تحت حرارهٔ الشمس اللّافحهٔ، خاصهٔ أن مثل هذا الظّل لا یضیّق الفضاء علی الإنسان و لا یمنع عنه هبوب النسیم.

یبدو أن الغمام الذی تشیر إلیه الآیهٔ الکریمهٔ، لیس من النوع العابر الذی یظهر عادهٔ فی سماء الصحراء، و لا یلبث أن یتفرق و یزول، بل هو من نوع خاص تفضل به اللّه علی بنی إسرائیل لیستظلوا به بالقدر الکافی.

و إضافهٔ إلی الظل فانّ اللّه سـبحانه و فّر لبنی إسـرائیل بعد تیههم الطعام الذی کانوا فی أمسّ الحاجهٔ إلیه خلال أربعین عاما خلت من ضیاعهم: وَ أَنْزَلْنا عَلَیْکُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوی کُلُوا مِنْ طَیِّباتِ ما رَزَقْناکُمْ

لکن هؤلاء عادوا إلی الکفران: وَ ما ظَلَمُونا وَ لکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ و سنشرح «المن» و «السلوی» فی البحوث الآتیهٔ.

بحوث

۱- الحیاهٔ الجدیدهٔ بعد التحرر:

الامّهٔ التی تتحرر بعد عصـر من الذّل و الاستضـعاف و الاسـتعباد، لا تسـتطیع أن تتخلی تماما عن حالتها النفسیهٔ و الثقافیهٔ الموروثهٔ عن عصـر الطاغوت، و لا بـدّ من فترهٔ برزخیهٔ تمر بها کی تکون قادرهٔ علی إقامهٔ حکم اللّه فی الأرض، وفق معاییر إلهیهٔ بعیدهٔ عن مؤثرات عصر الطاغوت.

و سواء امتدت هذه الفترهٔ البرزخیهٔ أربعین عاما کما حدث لبنی إسرائیل، أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۳

أقل أو أکثر، فهی فترهٔ عقاب إلهی هدفها التزکیهٔ و الإصلاح و البناء لأنّ مجازاهٔ اللّه لیست لها جنبهٔ انتقامیهٔ.

و لا بدّ أن یبقی بنو إسـرائیل فترهٔ أربعین عاما من «التیه» فی الصـحراء لیتربّی جیل جدید حامل لصفات توحیدیهٔ ثوریهٔ، و مؤهل لإقامهٔ الحکم الإلهی فی الأرض المقدسهٔ.

۲- المنّ و السّلوی:

تعـددت أقوال المفسـرین فی معنی هـاتین الکلمتین، و لاـ حاجـهٔ إلی استعراضـها جمیعـا، بل نکتفی بـذکر معنا هما اللغوی، ثم نـذکر تفسیرا واحدا لهما هو فی اعتقادنا أوضح التفاسیر و أقربها إلی الفهم القرآنی.

«المنّ» شـیء کالطلّ فیه حلاوة یسـقط علی الشـجر[۲۹۳] أو بعبـارة اخری هـو عصـارة شـجر ذات طعم حلـو، و قیـل طعم حلو ممزوج بالحموضة.

و «السّلوی» یعنی التسلّی، و قال بعض اللغویین و جمع من المفسرین إنه «طائر».

و روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «إن الکماة من المنّ».

و ذهب البعض إلی أن «المنّ» هو جمیع مـا أنعم اللّه تعالی علی بنی إسـرائیل و منّ علیهم. و «السّـلوی» هی جمیع المواهب و الملکات النفسانیة التی توجب لهم التسلیة و الهدوء النفسی.

و هو مع مخالفته لرأی معظم المفسرین، یخالف ظاهر الآیة حیث تقول:

کُلُوا مِنْ طَیِّباتِ ما رَزَقْناکُمْ و فی هذا التعبیر دلالة واضحة علی أن المنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۳۴

و السلوی نوعان من الطعام. و هذه العبارة وردت کذلک فی الآیة ۱۶۰ من سورة الأعراف.

و تـذکر التوراة أن «المنّ» حبّ یشـبه بـذر الکزبرة یتساقـط علی الأرض لیلا، و کان بنو إسـرائیل یجمعونه و یصـنعون منه خبزا ذا طعم خاص.

و ثمـة احتمال آخر هو أن الأمطار الغزیرة النافعـة التی هطلت بفضل اللّه علی تلک الصـحراء أثرت علی أشـجار تلک المنطقة فأفرزت عصارة حلوة استفاد منها بنو إسرائیل.

و احتمـل بعضـهم أن یکون «المنّ» نوعا من العسل الطبیعی حصل علیه بنو إسـرائیل فی الجبال و المرتفعات المحیطـة بصـحراء التیه. و هـذا التّفسـیر یؤیـد ما ورد من شـروح علی العهـدین (التوراة و الإنجیل) حیث جاء: «الأراضـی المقدسـة معروفـة بکثرة أنواع الأوراد و الأزهار، و من هنا فإن مجامیع النحل تبنی خلایاها فی أخادید الصخور و علی أغصان الأشجار و ثنایا بیوت النّاس، بحیث یستطیع أفقر النّاس أن یتناول العسل»[۲۹۴].

بشأن «السـلوی» قال بعض المفسـرین إنه العسل، و أجمع الباقون علی أنه نوع من الطیر، کان یأتی علی شـکل أسـراب کبیرة إلی تلک الأرض، و کان بنو إسرائیل یتغذون من لحومها.

فی النصوص المسـیحیة تأییـد لهـذا الرأی حیث ورد فی تفسـیر علی العهدین ما یلی: «اعلم أن السـلوی تتحرک بمجموعات کبیرة من افریقیا، فتتجه إلی الشـمال، و فی جزیرة کابری وحدها یصطاد من هذا الطائر ۱۶ ألفا فی الفصل الواحد ... هذا الطائر یجتاز طریق بحر القلزم، و خلیج العقبة و السویس، و یدخل شبه جزیرة سیناء و بعد دخوله لا یستطیع أن یطیر فی ارتفاعات شاهقة لشدّة ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۳۵

لاقاه من تعب و عناء فی الطریق، فیطیر علی ارتفاع منخفض و لذلک یمکن اصـطیاده بسـهولة ... و ورد ذکر ذلک فی سفر الخروج و سفر الأعداء من التوراة»[۲۹۵].

یستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوی طیر خاص سمین یشبه الحمام معروف فی تلک الأرض.

شاء اللّه بفضـله و منّه أن یکثر هـذا الطیر فی صـحراء سـیناء آنئـذ لسـدّ حاجة بنی إسـرائیل من اللحوم، و لم تکن هذه الکثرة من الطیر طبیعیة فی تلک المنطقة.

۳- لماذا قالت الآیة «أنزلنا»؟

عبرت الآیـة الکریمة عن نعمة تقدیم المن و السـلوی بالإنزال، و لیس الإنزال دائما إرسال الشـیء من مکان عال، کقوله تعالی: وَ أَنْزَلَ

لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ۲۹۶].

واضح أن الأنعام لم تهبط من السماء، من هنا فالإنزال في مثل هذه المواضع:

إمّا أن يكون «نزولا مقاميا» أي نزولا من مقام أسمى إلى مقام أدنى.

أو أن يكون من «الإنزال» بمعنى الضيافة، يقال أنزلت فلانا: أي أضفته، و النزل (على وزن رسل) ما يعدّ للنازل من الزاد، و منه قوله تعالى: فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ۲۹۷] و قوله سبحانه: خالِدِينَ فِيها نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۲۹۸].

و تعبير «الإنزال» للمنّ و السلوى، قد يشير إلى أن بني إسرائيل كانوا ضيوف اللّه في الأرض، فاستضافهم بالمن و السلوى.

و يحتمل أن يكون الإنزال بمعنى الهبوط من الأعلى لأن النعم المذكورة و خاصة (السلوى) تهبط إلى الأرض من الأعلى.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۶

۴- ما هو الغمام؟

قيل: الغمام و السحاب بمعنى واحد، و قيل الغمام هو السحاب الأبيض، و ذكروا في وصفه أنه ابرد و أرق من السحاب، و الغمام في الأصل من الغمّ و هو تغطية الشيء، و سمّي الغمام بهذا الاسم لأنه يغطي صفحة السماء، و سمّي الهمّ غما بهذا الاسم لأنه يحجب القلب ۲۹۹].

على أي حال، قد يشير تعبير «الغمام» إلى أن بني إسرائيل، كانوا يستفيدون من ظل الغمام إضافة إلى تمتعهم بالنور الكافي لبياض هذه السّحبة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۵۸ الى ۵۹]

اشارة

وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (۵۸) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۵۹)

التّفسير

عناد بني إسرائيل

و هنا نصل إلى مقطع جديد من حياة بني إسرائيل، يرتبط بورودهم الأرض المقدسة. تقول الآية الاولى: وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ و القرية كل مكان يعيش فيه جمع من النّاس، و يشمل ذلك المدن الكبيرة و الصغيرة، خلافا لمعناها الرائج المعاصر، و المقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ أي حطّ عنا خطايانا، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ

كلمة «حطّة» في اللغة، تأتي بمعنى التناثر و المراد منها في هذه الآية الشريفة، آلهنا نطلب منك أن تحطّ ذنوبنا و أوزارنا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۳۸

أمرهم اللّه سبحانه أن يردّدوا من أعماق قلوبهم عبارة الاستغفار المذكورة، و يدخلوا الباب، و يبدو أنه من أبواب بيت المقدس ۳۰۰]، و قد يكون هذا سبب تسمية أحد أبواب بيت المقدس «باب الحطة».

و الآية تنتهی بعبارة وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ أی أن المحسنين سينالون المزيد من الأجر إضافة إلی غفران الخطايا.

و القرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بنی إسرائيل حتی فی ترتيل عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة اخری فيها معنی السخرية و الاستهزاء، و القرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِی قِيلَ لَهُمْ و كانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب اللّه حيث يقول:

فَأَنْزَلْنا عَلَی الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

و «الرجز» أصله الاضطراب- كما يقول الراغب فی مفرداته- و منه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

و يقول «الطبرسی» فی «مجمع البيان»: إنّ الرجز يعنی العذاب عند أهل الحجاز،

و يروی عن الرّسول صلّی اللّه عليه و اله و سلّم قوله بشأن مرض الطاعون: «إنّه رجز عذّب به بعض الأمم قبلكم»[۳۰۱].

و من هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» فی بعض الروايات أنه نوع من الطاعون فشا بسرعة بين بنی إسرائيل و أهلك جمعا منهم.

قد يقال إن الطاعون لا ينزل من السماء، لكن هذا التعبير قد يشير إلی حقيقة انتشار هذا المرض عن طريق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون الذی هبّ بأمر اللّه آنذاك فی بيئة بنی إسرائيل.

يلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطرابا فی المشی و الكلام، و هذا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۳۹

يتناسب مع أصل معنی «الرجز» تماما.

و من الملفت للنظر أيضا أن القرآن يؤكد أن هذا العذاب نزل عَلَی الَّذِينَ ظَلَمُوا فقط، و لم يشمل جميع بنی إسرائيل.

ثم تذكر الآية تأكيدا آخر علی سبب نزول العذاب علی هذه المجموعة من بنی إسرائيل بعبارة: بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

و الآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن اللّه تعالی، هی أن الذنب حينما يتعمق فی المجتمع و يصبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الإلهی.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۴۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۶۰]

اشارة

وَ إِذِ اسْتَسْقی مُوسی لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۶۰)

التّفسير

انفجار العيون فی الصّحراء تذكير آخر بنعمة اخری من نعم اللّه علی بنی إسرائيل: و هذا التذكير تشير إليه كلمة «إذ» المقصود منها (و اذكروا إذ)، و هذه النعمة أغدقها اللّه عليهم، حين كان بنو إسرائيل فی أمسّ الحاجة إلی الماء و هم فی وسط صحراء قاحلة، فطلب موسی عليه السّلام من اللّه عزّ و جلّ الماء: وَ إِذِ اسْتَسْقی مُوسی لِقَوْمِهِ فتقبل اللّه طلبه، و أمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: فَقُلْنَا اضْرِبْ

بِعَصاکَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَیْناً بعدد قبائل بنی إسرائیل.

و کل عین جرت نحو قبیلة بحیث أن کل قبیلة کانت تعرف العین التی تخصّها قَدْ عَلِمَ کُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ

کثرت الأقوال فی طبیعة الحجر الذی انفجرت منه العیون، و کیفیة ضربه بالعصا، و القرآن لا یزید علی ذکر ما سبق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۱

قال بعض المفسرین: إن هذا الحجر کان فی ثنایا الجبال المطلة علی الصحراء و تدل جملة «انبجست» الواردة فی الآیة ۱۶۰ من سورة الأعراف علی أن المیاه جرت قلیلة أولا، ثم کثرت حتی ارتوی منها کل قبائل بنی إسرائیل مع مواشیهم و دوابهم.

ظاهرة انفجار المیاه من الصخور طبیعیة، لکن الحادثة هنا مقرونة بالإعجاز کما هو واضح.

ثمة أقوال تذکر أن ذلک الحجر کان من نوع خاص حمله بنو إسرائیل معهم، و متی احتاجوا إلی الماء ضربه موسی بعصاه فیجری من الماء. و لیس فی القرآن ما یثبت ذلک، و إن أشارت إلیه بعض الروایات.

فی الفصل السابع عشر من «سفر الخروج» تذکر التوراة:

فقال الرب لموسی سر قدام الشعب و خذ معک من شیوخ إسرائیل و عصاک التی ضربت بها النهر خذها فی یدک و اذهب- ها أنا أقف أمامک هناک علی الصخرة فی حوریب فتضرب الصخر فیخرج منها ماء لیشرب الشعب ففعل موسی هکذا أمام عیون شیوخ إسرائیل»[۳۰۲].

لقد منّ اللّه علی بنی إسرائیل بإنزال المنّ و السلوی، و فی هذه المرّة یمنّ علیهم بالماء الذی یعزّ فی تلک الصحراء القاحلة، ثم یقول سبحانه لهم: کُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ

و فی هذه العبارة حث لهم علی ترک العناد و إیذاء الأنبیاء، و أن یکون هذا أقل شکرهم للّه علی هذه النعم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۲

بحوث

۱- الفرق بین العثّی و الإفساد

نهی اللّه سبحانه بنی إسرائیل عن الفساد بفعل لا تَعْثَوْا، من العثّی و هو شدة الفساد، و تشبه فی معناها «العیث»، إلّا أنّ العیث أکثر ما یقال فی الفساد الذی یدرک حسا، و العثیّ فیما یدرک حکما[۳۰۳]. و بهذا یکون معنی لاـ تَعْثَوْا هو معنی «المفسدین» و لکنه مع تأکید أشد.

و قد تشیر عبارة النهی بأجمعها إلی حقیقة بدء الفساد من نقطة صغیرة، و اتساعها و اشتدادها بعد ذلک. أی تبدأ بالفساد و تنتهی بالعثیّ الأرض، و هو شدة الفساد و اتساعه.

۲- المعاجز فی حیاة بنی إسرائیل

قد تثیر مسألة انفجار الماء من الحجر و ما شابهها من المعاجز فی حیاة الأنبیاء تساؤلات فی ذهن أولئک الذین لم یستوعبوا منطق الإعجاز. و لا نرید هنا أن نتعرض إلی مسألة الإعجاز، لأنها تحتاج إلی بحث مستقل. و نکتفی بالقول: إن المعجزة لیست أمرا محالا، و لیست استثناء فی قانون العلیّة. بل إنها خرق لما ألفناه و اعتدنا علیه، أو بعبارة اخری، خرق لما ألفناه فی حیاتنا الیومیّة من ارتباط بین

العلة و المعلول.

و طبیعی أن تغییر مسیر العلل و المعلولات لیس بعسیر علی اللّه سبحانه، و لو خلق اللّه هـذه العلل و المعلولات منذ البدء بشکل آخر غیر ما هی علیه الیوم، لکان هذا الذی نألفه الیوم خارقا للعادة.

باختصار، خالق عالم الوجود و نظام العلیّة حاکم علی ما خلق لا محکوم له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۴۳

و فی حیاتنا الیومیة صور کثیرة للاستثناءات فی النظام القائم للعلل و المعلولات.

و مسألة الإعجاز لا تشکل أیة مشکلة عقلیة أو علمیة.

۳- الفرق بین الإنفجار و الانبجاس

فی الآیـة المـذکورة ورد الفعـل «انفجر» لیعبّر عن تـدفق المـاء من الحجر، بینما ورد الفعل «انبجس» فی الآیـة ۱۶۰ من سورة الأعراف لیشیر إلی نفس الحقیقة مع فارق هو أن الأول یفصح عن شدة تدفّق الماء، و الثانی عن سیلانه بشکل هادئ.

لعل آیة سورة الأعراف تتحدث عن المرحلة الأولی من ظهور الماء، و جریانه بشکل هادئ لا یثیر فزع القوم، و لا یمنعهم من السیطرة علیه، بینما تشیر الآیة التی نحن فی صددها إلی المرحلة النهائیة حیث اشتد جریان الماء.

و الراغب فی مفرداته یفسر الانبجاس و الإنفجار بشکل یتناسب مع ما أشرنا إلیه إذ یقول: بجس الماء و انبجس: انفجر، لکن الانبجاس أکثر ما یقال فیما یخرج من شیء ضیق. و الإنفجار یستعمل فیه و فیما یخرج من شیء واسع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۴۴

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۶۱]

اشارة

وَ إِذْ قُلْتُمْ یا مُوسی لَنْ نَصْبِرَ عَلی طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّکَ یُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِی هُوَ أَدْنی بِالَّذِی هُوَ خَیْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَکُمْ ما سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْکَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کانُوا یَکْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ یَقْتُلُونَ النَّبِیِّینَ بِغَیْرِ الْحَقِّ ذلِکَ بِما عَصَوْا وَ کانُوا یَعْتَدُونَ (۶۱)

التّفسیر

المطالبة بالأطعمة المتنوعة

بعد أن شرحت الآیات السابقة نعم اللّه علی بنی إسرائیل، ذکرت هذه الآیة صورة من عنادهم و کفرانهم بهذه النعم الکبری.

تتحدث الآیة أولا عن مطالبة بنی إسرائیل نبیّهم بأطعمة متنوعة بدل اطعام الواحد (المنّ و السّلوی): وَ إِذْ قُلْتُمْ یا مُوسی لَنْ نَصْبِرَ عَلی طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّکَ یُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها.

فخاطبهم موسی قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِی هُوَ أَدْنی بِالَّذِی هُوَ خَیْرٌ اهْبِطُوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۴۵

مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ

و يضيف القرآن: وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ

بحوث

١- آراء المفسرين فى كلمة «مصر»

من المفسرين من قال إن المقصود من كلمة «مصر» فى الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة. و قوله سبحانه: اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ أى إنكم الآن تعيشون فى هذه الصحراء ضمن إطار منهج للاختبار و بناء الذات، و ليس هذا مكان الأطعمة المتنوعة، اذهبوا إلى المدن حيث التنوع فى المأكولات، و لكن لا يوجد فيها المنهج المذكور.

و يستدل أصحاب هذا الرأى بأن بنى إسرائيل لم يطلبوا العودة إلى «مصر» موطنهم السابق و لم يعودوا إليه إطلاقا[٣٠۴].

و منهم من اختار هذا التّفسير لمصر، و أضاف إليه أن المقصود من قوله تعالى:

اهْبِطُوا ... هو أن بقاءكم فى الصحراء و اقتصاركم على الطعام الواحد يعودان إلى ضعفكم، فكونوا أقوياء، و حاربوا الأعداء، و حرروا من سيطرتهم مدن الشام و الأرض المقدسة، ليتوفر لكم ما شئتم [٣٠۵].

و هناك رأى ثالث للمفسرين هو أن المقصود من «مصر» البلد المعروف.

و يكون المعنى عندئذ: إنكم فى هذه الصحراء الخالية من الأطعمة المتنوعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص: ٢۴۶

تملكون الإيمان و الحرية و الاستقلال، و إن أبيتم إلّا أن تكون لكم أطعمة متنوعة، فارجعوا إلى مصر حيث الذل و الاستعباد، لتأكلوا من فتات موائد الفراعنة. إن مشتهيات بطونكم أنستكم ما كنتم تعانون منه من ذل و استعباد، و ما حصلتم اليوم عليه من حرية و رفعة و افتخار، و ما تتحملونه من حرمان يسير إنما هو ثمن لحريتكم [٣٠۶].

و يبدو أن التّفسير الأول أنسب من التاليين.

٢- التنوع و طبيعة الإنسان

التنوع هو- دون شك- من متطلبات البشر، و حبّ التنويع خصلة طبيعية فى البشر. و الإنسان- إن استمرّ على تناول طعام معين لمدّة طويلة- يمل ذلك الطعام.

فلم إذن توجّه اللوم و التقريع إلى بنى إسرائيل حين طلبوا الخضروات و الخيار و الثوم و العدس و البصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟!

الجواب يتضح لو علمنا أنّ الحياة الإنسانية تقوم على أساس حقائق هامّة لا يمكن التخلّى عنها، هى الإيمان و الطهر و التقوى و التحرّر.

و قد تمرّ الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذا الأساس الهام مع متطلبات الإنسان من الطعام و الشراب و اللذائذ الاخرى. و هنا تصبح الجماعة أمام خيارين، إمّا أن تنغمس فى اللذات و تترك قيمها و شرفها، أو تضحى بلذّاتها من أجل إنسانيتها و كرامتها.

بنو إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

و لا بدّ من الإشارة إلى أن حقيقة حبّ التنويع استغلها الطامعون و المستعمرون دوما، ليدفعوا الشعوب إلى هاوية حياة استهلاكية

شهوانیهٔ هابطهٔ، یعیش الأفراد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۴۷

فیها بین المعلف و المضجع، ناسین شخصیتهم الإنسانیهٔ، و غافلین عن النیر الذی یطوق أعناقهم.

۳- هل «المنّ» و «السلوی» خیر الأطعمهٔ؟

حین طلب بنو إسرائیل أطعمهٔ متنوعهٔ جاءهم التقریع بالقول: أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِی هُوَ أَدْنی بِالَّذِی هُوَ خَیْرٌ؟! أی أ تختارون الأدنی و تترکون الأفضل؟! و یبدو أن المقصود بالأفضل هنا هو ما لدیهم من طعام متمثل بالمن و السلوی. غیر أن التفضیل الذی یطرحه القرآن هنا یعود إلی الحیاهٔ بکل أبعادها، و التقریع یتجه إلی بنی إسرائیل لرغبتهم فی التنویع مع ما قد یکشف هذا التنویع من ذلّ و هوان.

و علی صعید القیمهٔ الغذائیهٔ، فإن الأطعمهٔ النباتیهٔ التی طلبها بنو إسرائیل لها قیمتها الغذائیهٔ طبعا، غیر أن مقدار الموارد الغذائیهٔ النافعهٔ الموجودهٔ فی «المن»- و هو العسل أو مادهٔ سکریهٔ مقوّیهٔ- و کذلک فی لحوم السلوی یفوق ما فی الأطعمهٔ النباتیهٔ المذکورهٔ، کما أن المن و السلوی أسهل هضما من الحبوب المذکورهٔ[۳۰۷].

و لا بأس من الإشارهٔ إلی أن «الفوم» الذی طلبه بنو إسرائیل فسّر بالحنطهٔ مرهٔ و بالثوم مرهٔ اخری، و لکلّ من المادتین قیمتها الغذائیهٔ، و یری بعض أن تفسیر الفوم بالقمح أصحّ لاستبعاد أن یطلب القوم طعاما خالیا من القمح ۳۰۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۴۸

۴- ذلهٔ بنی إسرائیل و مسکنتهم

تفید الآیهٔ الکریمهٔ أن بنی إسرائیل ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الذِّلَّهُٔ وَ الْمَسْکَنَهُٔ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ لعاملین:

الأوّل- لکفرهم بآیات اللّه، و انحرافهم عن خط التوحید.

الثانی- لقتلهم الأنبیاء بغیر حق.

ظاهرهٔ الانحراف عن خط التوحید و ظاهرهٔ القسوهٔ و الفظاظهٔ، لا زالتا مشهودتین حتی الیوم عند جمع من هؤلاء القوم، و لا زالتا سببا لشقاوتهم و طیشهم و تعاستهم ۳۰۹].

فی تفسیر الآیهٔ ۱۱۲ من سورهٔ آل عمران تحدثنا بالتفصیل عن مصیر الیهود و حیاتهم التعیسهٔ، (المجلد الثانی من هذا التّفسیر).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۴۹

الآیهٔ [سورهٔ البقرهٔ (۲): آیهٔ ۶۲]

اشارهٔ

إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ النَّصاری وَ الصَّابِئِینَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۶۲)

التّفسیر

القانون العام للنّجاة

بعـد عرض لمقاطع من تاريخ بنى إسـرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاما فى التقييم وفق المعايير الإلهية. و هذا المبدأ ينص على أن الإيمـان و العمـل الصالـح همـا أسـاس تقييم الأفراد، و ليس للتظاهر و التصـنّع قيمـة فى ميزان اللّه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ
هذه الآية تكررت مع اختلاف يسير فى سورة المائدة، الآية ۷۲ و فى سورة الحج الآية ۱۷.
سيـاق الآيـة فى سورة المائـدة يشـير إلى أن اليهود و النصارى فخروا بـدينهم، و اعتبروا أنفسـهم أفضل من الآخرين، و ادّعوا بأن الجنّة خاصة بهم دون غيرهم.
و لعل مثل هذا التفاخر صدر عن بعض المسلمين أيضا، و لذلك نزلت هذه
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۵۰
الآيـة الكريمـة لتؤكد أن الإيمان الظاهرى لا قيمة له فى الميزان الإلهى، سواء فى ذلك المسـلمون و اليهود و النصارى و أتباع الأديان الاخرى. و لتقول الآيـة أيضا: إن الأجر عنـد اللّه يقوم على أساس الإيمان الحقيقى باللّه و اليوم الآخر إضافـة إلى العمل الصالح. و هذا الأساس هو الباعث الوحيد للسعادة الحقيقة و الابتعاد عن كل خوف و حزن.

تساؤل هام

بعض المضـللين اتخذوا من الآية الكريمة التى نحن بصددها وسيلة لبثّ شبهة مفادها أن العمل بأى دين من الأديان الإلهية له أجر عند اللّه، و ليس من اللازم أن يعتنق اليهودى أو النصرانى الإسلام، بل يكفى أن يؤمن باللّه و اليوم الآخر و يعمل صالحا.
الجواب: نعلم أن القرآن يفسّر بعضه بعضا، و الكتاب العزيز يقول: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ۳۱۰].
كما أن القرآن مليء بالآيات التى تدعو أهل الكتاب إلى اعتناق الدين الجديد، و تلك الشـبهة تتعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيقى للآية الكريمة.
و نذكر تفسيرين لها من أوضح و أنسب ما ذكره المفسرون:
۱- لو عمـل اليهود و النصـارى و غيرهم من أتباع الأديان السـماوية بما جاء فى كتبهم، لآمنوا حتما بالنّبى صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم، لأن بشارات الظهور و علائم النّبى و صـفاته مـذكورة فى هذه الكتب السـماوية، و سـيأتى شـرح ذلك فى تفسير الآية ۱۴۶ من سورة البقرة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۵۱
۲- هـذه الآيـة تجيب على سؤال عرض لكثير من المسـلمين فى بدايـة ظهور الإسـلام، يـدور حول مصـير آبائهم و أجدادهم الذين لم يدركوا عصر الإسلام، ترى، هل سيؤاخذون على عدم إسلامهم و إيمانهم؟! الآية المذكورة نزلت لتقول إن كل أمّة عملت فى عصرها بما جاء به نبيّها من تعاليم السماء و عملت صالحا؛ فإنها ناجية، و لا خوف على أفراد تلك الامّة و لا هم يحزنون.
فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، و المسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبى الإسلام.
و هذا المعنى مستفاد من سبب نزول هذه الآية كما سيأتى.

بحوث

۱- قصّة سلمان الفارسی رحمه اللّه

إكمالا للبحث، لا بأس أن نذكر هنا سبب نزول هذه الآية كما جاء فی جامع البيان للطبری:

«كان سلمان من جنديسابور، و كان من أشرافهم، و كان ابن الملك صديقا له مؤاخيا، لا يقضی واحد منهم أمرا دون صاحبه. و كانا يركبان إلی الصيد معا. فبينما هما فی الصيد، إذ بدا لهما بيت من خباء، فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف، يقرأ فيه، و هو يبكی.

سألاه: ما هذا؟

قال: إن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه فانزلا، حتی أعلّمكما. فنزلا إليه.

فقال لهما: هذا كتاب من عند اللّه، أمر فيه بطاعته، و نهی عن معصيته، فيه ان لا تزنی و لا تسرق و لا تأخذ أموال النّاس بالباطل، فقص عليهما ما فيه، و هو

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۵۲

الإنجيل الذی أنزله اللّه علی عيسی.

فوقع فی قلوبهما، و تابعاه، فأسلما.

و قال لهما: إن ذبيحة قومكما عليكما حرام. فلم يزالا معه كذلك يتعلّمان منه.

ثم اتفق أن كان للملك عيد، فجعل طعاما، و دعی إليه الأشراف، فأبی ابن الملك أن يحضر الوليمة، فدعاه أبوه فقال له: ما أمرك هذا؟

قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم، إنكم كفار لا تحل ذبائحكم.

قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم، إنكم كفار لا تحل ذبائحكم.

قال له الملك: من أمرك بهذا؟ فأخبره أن الراهب أمر بذلك.

فدعا الراهب فقال: ماذا يقول ابنی؟

قال: صدق ابنك.

قال له: لو لا أن الدم فينا عظيم لقتلتك، و لكن اخرج من أرضنا. فأجّله أجلا.

قال سلمان: فقمنا نبكی عليه، فقال لهما: إن كنتما صادقين فأنا فی بيعة فی الموصل، مع ستين رجلا نعبد اللّه فيها، فأتونا فيها، فخرج الراهب، و بقی سلمان و ابن الملك، فجعل يقول لابن الملك: انطلق بنا، و ابن الملك يقول: نعم.

و جعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز. فلما أبطأ علی سلمان، خرج سلمان حتی أتاهم، فنزل علی صاحبه، و هو ربّ البيعة، و كان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان. فكان سلمان معهم يجتهد فی العبادة و يتعب نفسه.

قال له الشيخ يوما: إنك غلام حدث، تتكلف من العبادة ما لا تطيق، و أنا خائف أن تفتر و تعجز، فارفق بنفسك، و خفف عليها.

قال له سلمان: أ رأيت الذی تأمرنی به أهو أفضل أو الذی أصنع؟

قال: بل الذی تصنع.

قال: فخلّ عنی، ثم إن صاحب البيعة دعاه، فقال: إنی رجل أضعف عن عبادة هؤلاء، و أنا أريد أن أتحول من هذه البيعة إلی بيعة اخری هم أهون عبادة من هؤلاء، فإن شئت أن تقيمها هنا فأقم، و إن شئت أن تنطلق معی فانطلق.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۵۳

قال له سلمان: أی البيعتين أفضل حالا؟

قال: هذه.

قال سلمان: فأنا أکون فی هذه، و أوصی صاحب البیعهٔ عالم البیعهٔ بسلمان، فکان سلمان یتعبد معهم.

ثم إن الشیخ العالم عزم أن یأتی بیت المقدس، فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معی فانطلق، و إن شئت أن تقیم فأقم.

فقال له سلمان: أیّهما أفضل أنطلق معک أم أقیم؟

قال: بل تنطلق معی، و انطلقا حتی أتیا بیت المقدس.

فقال الشیخ لسلمان: أخرج فاطلب العلم، فإنه یحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض. فخرج سلمان یسمع منهم، فرجع یوما حزینا.

فقال له الشیخ: ما لک یا سلمان؟ قال: أری الخیر کله قد ذهب به من کان قبلنا من الأنبیاء و أتباعهم.

فقال له الشیخ: یا سلمان لا تحزن فإنه بقی نبی لیس من نبی بأفضل منه، و هذا زمانه الذی یخرج فیه، و لا أرانی أدرکه، و أما أنت فشاب لعلک تدرکه، و هو یخرج فی أرض العرب، فإن أدرکته فآمن به و اتبعه، فقال له سلمان: فأخبرنی عن علامته بشیء، قال: نعم، هو مختوم فی ظهره بخاتم النّبوهٔ. و هو یأکل الهدیهٔ و لا یأکل الصدقهٔ.

ثم اتفق أن افترق سلمان عن الراهب لدی عودتهما من بیت المقدس، ففقده فی الطریق، و بینما هو یبحث عنه إذ رآه رجلان عربیان من بنی کلب، فأسراه، و أخذاه معهما إلی المدینهٔ، قال سلمان: فأصابنی من الحزن شیء لم یصبنی مثله قط، فاشترته امرأهٔ من جهینهٔ، فکان یرعی علیها هو و غلام لها یتراوحان الغنم هذا یوما و هذا یوما. فکان سلمان یجمع الدراهم ینتظر خروج محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فبینا هو یرعی یوما إذ أتاه صاحبه الذی یعقبه فقال: أعلمت أنه قد قدم الیوم المدینهٔ رجل یزعم أنه نبی؟! فقال له سلمان: أقم فی الغنم حتی آتیک.

فذهب سلمان إلی

المدینهٔ، فنظر إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و دار حوله، فلما رآه النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم عرف ما یرید.

فأرسل ثوبه حتی خرج خاتمه. فلما رآه أتاه و کلمه. ثم انطلق فاشتری طعاما و جاء به، فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: ما هذا؟ قال سلمان: هذه صدقهٔ. قال: لا حاجهٔ لی بها فأخرجها فلیأکل المسلمون. ثمّ انطلق فاشتری طعاما، فأتی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فقال: ما هذا؟ قال: هدیهٔ. قال: فاقعد، فقعد فأکلا جمیعا منها. فبینا هو یحدثه، إذ ذکر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: کانوا یصومون و یصلون و یؤمنون بک، و یشهدون أنک ستبعث نبیّا. فلما فرغ سلمان من ثنائه علیهم، قال له النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: یا سلمان هم من أهل النار. فاشتدّ ذلک علی سلمان، فأنزل اللّه سبحانه هذه الآیهٔ.

۲- من هم الصّابئون؟

یقول الرّاغب الأصفهانی: الصّابئون قوم کانوا علی دین نوح ۳۱۱] و ذکرهم إلی جانب المؤمنین و الیهود و النصاری یدل علی أنهم کانوا یدینون بدین سماوی و یؤمنون باللّه و الیوم الآخر.

و اعتبر البعض أنهم مشرکون، و قیل عنهم أنهم مجوس، و لیسوا کذلک، لأن القرآن ذکرهم إلی جانب المشرکین و المجوس إذا قال: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ الصَّابِئِینَ وَ النَّصاری وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا ...[۳۱۲].

و اختلف المفسّرون و أصحاب الملل و النحل فی تشخیص هویهٔ الصابئین، و وجه تسمیتهم.

«الشّهرستانی» فی «الملل و النحل» یقول: الصابئهٔ من صبأ أی انحرف عن طریق الأنبیاء، و هؤلاء قوم انحرفوا عن طریق الحق و دین الأنبیاء فهم «صابئهٔ».

و يقول «الفيومى» فى «المصباح المنير» إن «صبأ» تعنى الخروج من الدين

إلى دين آخر.

و فى معجم (دهخدا) الفارسى: الصابئون جمع صابئ و هى كلمة مشتقة من (ص- ب- ع) العبرية التى تعنى الغوص فى الماء (أو التعميد)، و سقطت العين فى التعريب، و تسمى هذه الطائفة التى تسكن خوزستان باسم (المغتسلة) لذلك.

دائرة المعارف الفرنسية، فى المجلد الرابع، ص ۲۲، ذكرت أن هذه الكلمة عربية و تعنى الانغماس فى الماء أو التعميد.

(جسينوس) الألمانى يذهب إلى أن هذه الكلمة عبرية، و لا يستبعد أن تكون مشتقة من كلمة تعنى «النّجم».

صاحب كتاب «كشاف اصطلاح الفنون» يقول: «الصابئون فرقة تعبد الملائكة و يقرءون (الزبور) و يتجهون نحو القبلة».

و جاء فى كتاب «التنبيه و الإشراف» نقلا عن «الأمثال و الحكم» ص ۱۶۶۶:

«قبل أن يطرح (زراتشت) دعوة المجوسية على (جشتاسب)، و كان أهل هذه الديار على مذهب (الحنفاء)، و هم الصابئون، و هو دين جاء به (بوذاسب) على عهد (طهمورس)».

سبب اختلاف الآراء حول هذه الطائفة يعود إلى قلة أفرادها و إصرارهم على إخفاء تعاليمهم، و امتناعهم عن الدعوة إلى دينهم، و اعتقادهم أن دينهم خاص بهم لا عام لكل النّاس، و أن نبيهم مبعوث إليهم لا لغيرهم. و لذلك أحيطوا بكثير من الغموض و اكتنفتهم الأسرار، و هم يتجهون نحو الانقراض.

الالتزام بتعاليمهم على غاية الصعوبة، ففيها أنواع الأغسال و التعميدات فى الشتاء و الصيف، و يميلون إلى الانزواء و الابتعاد عن غير أبناء دينهم و يحرمون تزوّج النساء من غير الصابئين، و كثير منهم اعتنق الإسلام نتيجة اختلاطهم بالمسلمين.

۳- معتقدات الصّابئين

يعتقد الصائبة أن أول كتاب مقدّس سماوى نزل على آدم، و بعده على نوح، ثم على سام، ثم على «رام»، ثم على إبراهيم الخليل، ثم على موسى، و أخيرا على يحيى بن زكريا.

كتبهم المقدسة:

۱- «كيزاربا» و يسمى أيضا «سدره» أو «صحف» آدم، و فيه آراء حول كيفية بدء الخلق.

۲- كتاب «أدر أفشادهى» أو «سدرادهى» و يتحدث عن يحيى و تعاليمه و يعتقد الصائبة أنه موحى إلى يحيى عن طريق جبرائيل.

۳- كتاب «قلستا» و فيه تعاليم الزّواج و الزّوجية، و هذا إلى جانب كتب كثيرة اخرى يطول ذكرها.

يبدو ممّا سبق أنّ هؤلاء أتباع يحيى بن زكريا، الذى يسميه المسيحيون يحيى المعمّد، أو يوحنا المعمّد[۳۱۳].

صاحب كتاب «بلوغ الإرب» له رأى آخر بشأن الصّائبة، يقول:

«هم من يعتقد فى الأنواء اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك و لا يسكن و لا يسافر و لا يقيم إلّا بنوء من الأنواء و يقول مطرنا بنوء كذا ...[۳۱۴].

و هؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل عليه السّلام و هو أهل دعوته و كانوا بحرّان، فهى دار الصائبة، و كانوا قسمين: صائبة حنفاء، و صابئة

مشـرکین، و المشـرکون منهم یعظمون الکواکب السـبعة و البروج الاـثنی عشـر، و یصورونهـا فی هیـاکلهم ... و یتخـذون لهـا أصـناما تخصها و یقربون لها القرابین.

و طوائف منهم یصومون شهر رمضان و یستقبلون فی صلواتهم الکعبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۷

و یعظمون مکـة و یرون الحـج إلیها و یحرمون المیتـة و الـدم و لحم الخنزیر و یحرمون من القرابات فی النکاح ما یحرم المسـلمون، و علی هـذا المـذهب کان جماعـة من أعیان الدولـة ببغـداد منهم هلال بن المحسن الصّابی صاحب الدیوان الإنشائی و صاحب الرسائل المشـهورة، و کـان مع المسـلمین و یعبـد معهم و یزکی و یحرم المحرمـات، و کـان النّاس یعجبون من موافقته للمسـلمین و لیس علی دینهم، و أصل دین هؤلاء فیما زعموا أنهم یأخـذون محاسن دیانات العالم و مـذاهبهم و یخرجون من قبیح ما هم علیه قولا و عملا، و لهذا سموا صابئة، أی خارجین، فقد خرجوا عن تقییدهم بجملة کل دین و تفصیله إلّا ما رأوه فیه من الحق [۳۱۵]».

من مجموع ما سـبق یتبین أن الصابئین کانوا فی الأصل أتباع أحد الأنبیاء و إن اختلف المحققون فی تعیین نبیّهم. و تبین أیضا أن عدد هؤلاء قلیل و هم فی حالة انقراض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۸

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۶۳ الی ۶۴]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْکُرُوا ما فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (۶۳) ثُمَّ تَوَلَّیْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَکُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِینَ (۶۴)

التّفسیر

الالتزام بالمیثاق

هاتان الآیتان تطرحان مسألة أخذ میثاق بنی إسرائیل بشأن العمل بالتوراة، ثمّ نقضهم للمیثاق: وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ الطُّورَ و الطور جبل و سیأتی ذکره. و قلنا لکم: خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّةٍ، و اجعلوا التوراة دوما نصب أعینکم: وَ اذْکُرُوا ما فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ لکنکم نقضتم المیثاق و جعلتموه وراء ظهورکم: ثُمَّ تَوَلَّیْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَکُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۹

بحوث

۱- المیثاق

المقصود من المیثاق فی الآیـة الکریمـة هو نفس ما جاء فی الآیة ۴۰ من هذه السّورة و ما سـیأتی فی الآیتین ۸۳ و ۸۴ أیضا. مواد هذا المیثاق عبارة عن:

توحید اللّه، و الإحسان إلی الوالدین و الأقربین و الیتامی و المساکین، و القول الصالح، و إقامة الصلاة، و أداء الزکاة، و اجتناب سفک الدماء. هذه المواد وردت فی التّوراة کذلک.

من الآیة ۱۲ لسورة المائدة یتضح أیضا أن اللّه أخذ میثاق بنی إسرائیل أن یؤمنوا بجمیع الأنبیاء و یساندوهم، و أن ینفقوا فی سبیل اللّه.

و فی هذه الآیة ضمان للقوم بدخول الجنّة إن عملوا بهذا المیثاق.

۲- رفع جبل الطّور

أمّا بشأن کیفیة رفع جبل الطور فی قوله تعالی: وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ الطُّورَ یقول الطبرسی عن أبی زید: حدث هذا حین رجع موسی من الطور، فأتی بالألواح، فقال لقومه: جئتکم بالألواح و فیها التوراة و الحلال و الحرام فاعملوا بها، قالوا: و من یقبل قولک؟! فأرسل اللّه عزّ و جلّ الملائکة حتی نتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسی علیه السّلام: إن قبلتم ما آتیتکم به و إلّا أرسلوا الجبل علیکم، فأخذوا التوراة و سجد و اللّه تعالی ملاحظین الجبل (أی و هم ینظرون إلی الجبل من طرف خفی)، فمن ثمّ یسجد الیهود علی أحد شقی وجوههم».

مضمون هذه الآیة ورد مع تفاوت بسیط فی الآیة ۹۳ من سورة البقرة و ۱۵۴ النساء، و ۱۱۷ الأعراف.

الطبرسی- کما ذکرنا- و جمع من المفسرین- یذهبون إلی أن جبل الطور رفع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۰

فوق رؤوس بنی إسرائیل بأمر اللّه لا یجاد الظل علیهم ۳۱۶]، و هناک من یقول إن زلزالا شدیدا ضرب الجبل، بحیث کان یری بنو إسرائیل ظل قمة الجبل علی رؤوسهم من شدة الاهتزاز، و ترقبوا أن یسقط الجبل علیهم، لکن الزلزال هدأ بفضل اللّه و استقرّ الجبل ۳۱۷].

و یحتمل أیضا أن تکون قد انفصلت من الجبل صخرة عظیمة بأمر اللّه علی أثر زلزال شدید أو صاعقة، و مرّت فوق رؤوسهم فی لحظات، فرأوها و تصوروا أنها ستسقط علیهم.

۳- الالتزام و الإرهاب

مسألة رفع الجبل فوق بنی إسرائیل لتهدیدهم عند أخذ المیثاق تثیر سؤالا بشأن إمکان تحقیق الالتزام عن طریق التخویف و الإرهاب.

هناک من قال: إن رفع الجبل فوقهم لا ینطوی علی إرهاب و تخویف أو إکراه، لأن أخذ المیثاق بالإکراه لا قیمة له.

و الأصح أن نقول: لا مانع من إرغام الأفراد المعاندین المتمردین علی الرضوخ للحق بالقوّة. و هذا الإرغام مؤقت هدفه کسر أنفتهم و عنادهم و غرورهم، و من ثم دفعهم للفکر الصحیح، کی یؤدوا واجباتهم بعد ذلک عن إرادة و إختیار.

علی أی حال، هذا المیثاق یرتبط بالمسائل العملیة، لا بالجانب الاعتقادی، فالمعتقدات لا یمکن تغییرها بالإکراه.

۴- جبل الطّور

اختلف المفسرون فی المقصود من جبل «الطّور»، منهم من قال: إنه نفس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۱

الجبل الذی أوحی فیه إلی موسی. و قال آخرون: إنه اسم جنس بمعنی مطلق «الجبل» لا جبل بعینه. و جاء تعبیر (الجبل) بدل کلمۀ الطور فی قوله تعالی: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ۳۱۸].

۵- خذوا تعالیم السّماء بقوّة

خاطب اللّه سبحانه بنی إسرائیل فقال: خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّةٍ و عن هذه الآیۀ

سئل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق علیه السّلام عن المقصود من القوّة فی هذه الآیۀ:

«أ بقوّة بالأبدان أم بقوّة فی القلوب»؟

قال: «بهما جمیعا»[۳۱۹].

و هذا الأمر الإلهی یتجه إلی کل أتباع الأدیان الإلهیۀ فی کل زمان و مکان، و یطلب منهم أن یتجهزوا بالقوی المادیۀ و القوی المعنویۀ معا، لصیانۀ خط التوحید و إقامۀ حاکمیۀ اللّه فی الأرض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۲

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۶۵ الی ۶۶]

اشارة

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِینَ اعْتَدَوْا مِنْکُمْ فِی السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خاسِئِینَ (۶۵) فَجَعَلْناها نَکالاً لِما بَیْنَ یَدَیْها وَ ما خَلْفَها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِینَ (۶۶)

التّفسیر

عصاة یوم السبت

هاتان الآیتان الکریمتان تتحدثان- کالآیات السابقۀ- عن روح العصیان و التمرد المتغلغلۀ فی الیهود، و التصاقهم الشدید بالمسائل المادیۀ: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِینَ اعْتَدَوْا مِنْکُمْ فِی السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خاسِئِینَ ۳۲۰].

فَجَعَلْناها نَکالًا لِما بَیْنَ یَدَیْها وَ ما خَلْفَها أی جعلناها عبرة لتلک الامّۀ و لأمم تلیها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِینَ

ملخص الحادثۀ التی تشیر إلیها الآیۀ: «أن اللّه سبحانه أمر الیهود أن یسبتوا- أی أن یقطعوا أعمالهم- یوم السبت، و هذا الأمر شمل طبعا أولئک القاطنین قرب البحر الذین یعیشون علی صید الأسماک، و شاء اللّه أن یختبر هؤلاء، فکثرت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۳

الأسماک یوم السبت قرب الساحل بینما ندرت فی بقیۀ الأیام. طفق هؤلاء یتحایلون لصید الأسماک یوم السبت. فعاقبهم اللّه علی عصیانهم و مسخهم علی هیئۀ حیوان».

و هل کان هذا المسخ جسمی أم نفسی و أخلاقی؟ و أین کان یسکن هؤلاء القوم؟ و بأیۀ حیلۀ توسلوا للصید؟ هذا ما سنجیب علیه و علی غیره من المسائل المرتبطۀ بهذا الموضوع فی المجلد الخامس من هذا التّفسیر، لدی توضیح الآیات ۱۶۳- ۱۶۶ من سورة الأعراف.

و قوله تعالى: فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ إشارة إلى فورية المسخ الذى تمّ بأمر إلهى واحد.

و من المفيد أن ننقل فى هذا المجال رواية عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام فى تفسير قوله تعالى فَجَعَلْناها نَكالًا ... قالا: لِما بَيْنَ يَدَيْها إى لما معها ينظر إليها من القرى (فى زمان تلك الامّة)، وَ ما خَلْفَها نحن (المسلمون) و لنا فيها موعظة[۳۲۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۴

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۶۷ الى ۷۴]

اشارة

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (۶۷) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (۶۸) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (۶۹) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (۷۰) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ (۷۱)

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (۷۲) فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۷۳) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۷۴)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۵

التّفسير

قصّة بقرة بنى إسرائيل

هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة اخرى من حوادث تاريخ بنى إسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه فى الآيات السابقة، و لعله يعود إلى أن هذه الحادثة ذكرت فى هذا الموضع- لا غير- من القرآن الكريم، و إلى أنها تتضمن عبرا كثيرة تستوجب هذا التفصيل. من هذه الدروس: لجاج بنى إسرائيل و عنادهم، و مستوى إيمانهم بكلام موسى عليه السّلام، و أهمّ من كل هذا البرهنة على إمكان المعاد.

الحادثة (كما يبينها القرآن و كتب التّفسير) على النحو التالى: قتل شخص من بنى إسرائيل بشكل غامض، و لم يعرف القاتل.

حدث بين قبائل بنى إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تتهم الاخرى بالقتل. توجّهوا إلى موسى ليقضى بينهم. فما كانت الأساليب الاعتيادية ممكنة فى هذا القضاء. و ما كان بالإمكان إهمال هذه المسألة لما سيترتب عليها من فتنة بين بنى إسرائيل. لجأ موسى- بإذن اللّه- إلى طريقة إعجازية لحل هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة[۳۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۶

يقوله سبحانه فى هذه الآيات: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً؟! قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ

أى إن الاستهزاء من عمل الجاهلين، و أنبياء اللّه مبرّأون من ذلك.

بعـد أن أيقنوا جديّة المسألة، قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّکَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ و عبارة «ربک» تتکرر فی خطاب بنی إسـرائيل لموسـی، و تنطوی علی نوع من إساءة الأدب و السـخرية، و كأن ربّ موسـی غير ربهم!! موسـی عليه السّلام أجابهم: قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِکَ أی إنها لا کبيرة هرمة و لا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين: فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ

لکن بنی إسرائيل لم يکفوا عن لجاجتهم: قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّکَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها؟

أجابهم موسی: قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ أی إنها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.

و لم يکتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصرّوا علی لجاجهم، و ضيّقوا دائرة انتخاب البقرة علی أنفسهم.

عـادوا و قـالُوا ادْعُ لَنـا رَبَّکَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ طالبين بـذلک مزيـدا من التوضـيح، متـذرعين بالقول: إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ

أجابهم موسی قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِی الْحَرْثَ أی ليست من النوع المذلل لحرث الأرض و سقيها.

مُسَلَّمَةٌ من العيوب کلها.

لا شِيَةَ فِيها أی لا لون فيها من غيرها.

حينئذ: قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ

الامثل فی تفسير کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۷

فَذَبَحُوها وَ ما کادُوا يَفْعَلُونَ أی أنهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلک.

بعـد أن ذکر القرآن تفاصـيل القصـة، عاد فلخص الحادث بآيتين: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها أی فاختلفتم فی القتل و تـدافعتم فيه. وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ

فَقُلْنـا اضْـرِبُوهُ بِبَعْضِـها أی اضـربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، کی يحيی و يخبرکم بقـاتله. کَـذلِکَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتی وَ يُرِيکُمْ آيـاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ

و بعـد هـذه الآيات البينات، لم تلن قلوب بنی إسـرائيل، بل بقيت علی قسوتها و غلظتها و جفافها. ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُکُمْ مِنْ بَعْـدِ ذلِکَ فَهِيَ کَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً.

إنهـا أشـد قسوة من الحجارة، لأن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار، أو تنبع منها المياه أو تسـقط من خوف اللّه: وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

لکن قلوب بنی إسرائيل أشدّ قسوة من الحجارة، فلا تنفجر منها عاطفة و لا علم، و لا تنبع منها قطرة حبّ، و لا تخفق من خوف اللّه.

و اللّه عالم بما تنطوی عليه القلوب و ما تفعله الأيدی: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

بحوث

۱- أسئلة کثيرة تافهة

«السّؤال» دون شک مفتاح لحل المشاکل، و وسيلة لإزالة الجهل و الإبهام، لکنه مثل بقية الأمور، إن تجاوز حدّه و جاء فی غير موضعه فإنّه يدلّ علی

الامثل فی تفسير کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۸

الانحراف و يؤدی إلی أضرار، و من ذلک ما نراه فی هذه القصة.

بنو إسرائيل أمروا أن يذبحوا بقرة. و كان بإمكانهم أن يذبحوا أيّة بقرة شاؤوا، لأن الأمر الإلهی لم يحدّد شكل البقرة و نوعها، و لو أراد اللّه بقرة بعينها لحدّد مواصفاتها حين الأمر. لكن اللّه أمرهم أن يذبحوا «بقرة» و صيغة التنكير تدل على عدم إرادة التحديد.

هؤلاء المعاندون أبوا إلّا أن يطرحوا أسئلة متكررة، أملا فی تضييع الحقيقة و إخفاء القاتل، و بقوا يصرون على ترددهم فی الذبح حتى النهاية، و هذا ما تشير إليه عبارة: فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ

و فی الآيات ما يشير إلی أن مجموعة من بنی إسرائيل- على الأقل- كانت تعرف القاتل، و قد يكون القتل قد تمّ بمؤامرة بين هؤلاء الأفراد، لكنهم كانوا يكتمون الأمر، و لهذا يقول سبحانه: وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

أضف إلی ما سبق أنّ أهل العناد و اللجاج يكثرون دائما من الجدل و الإحتجاج على كل شیء.

و ثمة قرائن فی الآيات توضح أن هؤلاء القوم لم تكن لهم معرفة كاملة باللّه و لا بالنبی المرسل إليهم، لذلک قالوا له بعد كل أسئلتهم: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ و كأنّ ما جاء به حتى ذلک الوقت كان باطلا!! و الملاحظ أن اللّه سبحانه ضيّق عليهم دائرة الانتخاب، و اشتد بذلک عليهم التكليف كلّما زادوا فی أسئلتهم، لأنهم مستحقون لمثل هذا العقاب. و لذلک نرى فی الأثر حثّ على السكوت عمّا سكتت عنه تعاليم السماء ففی ذلک حكمة.

عن النّبی صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «أنّهم أمروا بأدنى بقرة و لكنّهم لمّا شدّدوا على أنفسهم شدّد اللّه عليهم»[۳۲۳].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۹

۲- مدلول هذه الأوصاف:

كان تكليف بنی إسرائيل- كما ذكرنا- مطلقا غير مقيّد بمواصفات معيّنة. لكن لجاج هؤلاء ضيّق عليهم الدائرة و غيّر عليهم حكم التكليف ۳۲۴].

إلی جانب هذه الحقيقة، ثمة حقيقة اجتماعية قد يمكن استنتاجها من الأوصاف التی ذكرت للبقرة.

يبدو أن القرآن يريد أن يبين أنّ البقرة التی كتب لها أن تحيی فردا ميّتا ينبغی أن لا تكون «ذلولا» أی تأبى التسليم و الخضوع الأعمى.

كما أنها ذات لون واحد خالص لا تشوبه ألوان اخرى.

و هذا يعنی أن القائد الذی يستهدف إحياء المجتمع ينبغی أوّلا- أن يكون متحررا من تأثيرات الضغوط الاجتماعية التی يمارسها أصحاب الثروة و الجاه و القوّة، و أن يستسلم للّه وحده دون أن تأخذه فی ذلک لومة لائم، كما أن القائد يجب أن يكون مبرّءا من أی لون غير اللون التوحيدی، و مثل هؤلاء الأفراد فقط يستطيعون أن يعالجوا أمور النّاس باتزان و اعتدال و يبعثوا فی قلوب و أفكار أمّتهم الخصب و الحياة.

أما المنشدّ بنير الدنيا و الخاضع لها و المشوب بالألوان و الأهواء فلا يستطيع أن يحيی القلوب الميتة، و لا يقدر أن ينهض بدور الإحياء.

۳- ما هو دافع القتل؟

تذكر كتب التأريخ و التّفسير أن دافع القتل فی هذه الحادثة إمّا المال، أو الزّواج.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۰

من المفسرين من قال: إنّ ثريا من بنی إسرائيل لم يكن له وارث سوى ابن عمه، فطال عمر هذا الثری و لم يطق الوارث مزيدا من

الانتظار، فقتله خفیة لیحصل علی أمواله، و ألقی جسده فی الطریق، ثم بدأ بالصراخ و العویل، و شکا الأمر إلی موسی.

و قال آخرون: إن القاتل أراد أن یتزوج من ابنة القتیل، فرفض ذلک، و زوّج ابنته إلی أحد أخیار بنی إسرائیل. فقعد له و قتله، ثم شکا القاتل الأمر إلی موسی.

و من الممکن أن تشیر القصة إلی حقیقة هی: إن کل المفاسد و الجرائم مصدرها فی الغالب أمران: الطمع فی المال، و الطمع فی الجنس.

۴– العبر فی هذه القصّة

هذه القصة لها دلالات علی قدرة اللّه اللامتناهیة، و کذلک علی مسألة المعاد، و لذلک وردت فی الآیة ۷۳ عبارة کَذلِکَ یُحْیِ اللَّهُ الْمَوْتی إشارة إلی مسألة المعاد، و عبارة وَ یُرِیکُمْ آیاتِهِ تأکید علی قدرة اللّه و عظمته.

إضافة إلی ما سبق، هذه القصة تتحدث عن سنّة من سنن اللّه تعالی، و هی أن الامّة تستوجب غضب اللّه حین تصرّ علی عنادها و لجاجها و استهتارها بکل شیء.

العبارات التی وردت علی لسان بنی إسرائیل فی هذه القصة توضّح أن هؤلاء القوم بلغوا الذروة فی إهانة النّبی، بل و بلغت بهم الجرأة إلی إساءة الأدب تجاه ربّ العالمین.

فی البدایة قالوا لنبیّهم: أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً؟ و بذلک اتهموا نبیّهم بارتکاب ذنب الاستهزاء بالآخرین.

و فی مواضع عدیدة خاطبوه بعبارة ادْعُ لَنا رَبَّکَ و کأن ربّ موسی غیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۱

ربّهم، مع أن موسی قد قال لهم: إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ

و قالوا له أیضا: ادْعُ لَنا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَنا ما هِیَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَیْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ و یعنون بذلک أنّ کلام موسی أدّی إلی ضلالهم فی تشخیص البقرة، ثمّ یخاطبوه فی النهایة: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ

هذه التعبیرات تدل علی جهل هؤلاء القوم و تعنّتهم و غرورهم و لجاجهم.

و هذه القصة من جهة اخری تعلّمنا أننا ینبغی أن لا نتزمّت و لا نتشدّد فی الأمور کی لا یتشدّد اللّه معنا.

و لعل انتخاب البقرة للذبح یستهدف غسل أدمغة هؤلاء القوم من فکرة عبادة العجل.

۵– الإحسان إلی الأب

یذکر المفسرون أنّ البقرة التی ذکرت الآیات مواصفاتها، کانت وحیدة لا تشارکها بقرة اخری فی ذلک، و لذلک اضطر القوم إلی شرائها بثمن باهظ.

و یقولون: إن هذه البقرة کانت ملکا لشاب صالح علی غایة البّر بوالده. هذا الرجل واتته سابقا فرصة صفقة مربحة، کان علیه أن یدفع فیها الثمن نقدا. و کانت النقود فی صندوق مغلق مفتاحه تحت و سادة والده. حین جاء الرجل لیأخذ المفتاح وجد والده نائما، فأبی إیقاظه و إزعاجه، ففضّل أن یترک الصفقة علی أن یوقظ والده.

و قال بعض المفسرین: «کان البائع علی استعداد لأن یبیع بضاعته بسبعین ألفا نقدا، و لکن الرجل أبی أن یوقظ والده و اقترح شراء تلک البضاعة بثمانین ألفا علی أن یدفع المبلغ بعد استیقاظ والده. و أخیرا لم تتم صفقة المعاملة، و لذا أراد اللّه تعالی تعویضه علی

إیثاره هذا بمعاملة اخری و فیرة الربح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۲

و قالوا أیضا: بعد أن استیقظ الوالد و علمه بالأمر، أهدی لولده البقرة المذکورة، فدّرت علیه ربحا عظیما»[۳۲۵].

و إلی هذه القصّة یشیر

رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إذ یقول: «أنظروا إلی البّر ما بلغ بأهله»[۳۲۶]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۳

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۷۵ الی ۷۷]

اشارة

أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ یُؤْمِنُوا لَکُمْ وَ قَدْ کانَ فَرِیقٌ مِنْهُمْ یَسْمَعُونَ کَلامَ اللَّهِ ثُمَّ یُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۷۵) وَ إِذا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَیْکُمْ لِیُحَاجُّوکُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّکُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۷۶) أَ وَ لا یَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ ما یُسِرُّونَ وَ ما یُعْلِنُونَ (۷۷)

سبب النّزول

روی عن الإمام أبی جعفر محمّد بن علی الباقر علیه السّلام أنّه قال: «کان قوم من الیهود لیسوا من المعاندین المتوطئین، إذا لقوا المسلمین حدّثوهم بما فی التّوراة من صفة محمّد، فنهاهم کبراؤهم عن ذلک، و قالوا: لا تخبروهم بما فی التّوراة من صفة محمّد فیحاجّوکم به عند ربّکم فنزلت هذه الآیة»[۳۲۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۴

التّفسیر

لا أمل فی هؤلاء

کان سیاق الآیات السابقة یتجه نحو سرد تاریخ بنی إسرائیل، و فی هاتین الآیتین یتجه الخطاب نحو المسلمین و یقول لهم: لا تعقدوا الآمال علی هدایة هؤلاء الیهود، فهم مصرون علی تحریف الحقائق و نکران ما عقلوه أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ یُؤْمِنُوا لَکُمْ وَ قَدْ کانَ فَرِیقٌ مِنْهُمْ یَسْمَعُونَ کَلامَ اللَّهِ ثُمَّ یُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ و هذه عظة للمسلمین، و دفع لما قد یعتریهم من یأس نتیجة عدم استطاعتهم إقناع الیهود و جذبهم إلی الدین الجدید.

الآیتان الکریمتان توضحان أن السبب فی عدم استسلام هؤلاء القوم أمام المعجزة القرآنیة و سائر المعاجز النبویة الاخری، إنما یعود لعناد متأصل فی هؤلاء ورثوه عن آبائهم الذین سمعوا کلام اللّه عند جبل الطور، ثم ما لبثوا أن حرّفوه بعد عودتهم.

من عبارة وَ قَدْ کانَ فَرِیقٌ مِنْهُمْ ... نفهم أن بنی إسرائیل لم یکونوا بأجمعهم محرفین، بل إن فریقا منهم- و من المحتمل أن یشکل عددهم أکثریة بنی إسرائیل- کانوا هم المحرفین.

ورد فی أسباب النّزول أن مجموعة من بنی إسرائیل حین عادوا من جبل الطور قالوا: «سمعنا أن اللّه قال لموسی: اعملوا بأوامری قدر

استطاعتكم، و اتركوها متى تعذر عليكم العمل بها»! و كان ذلك أول تحريف فى بنى إسرائيل.

على أى حال، كان من المتوقع أن يكون اليهود أول من يؤمن بالرسالة الإسلامية بعد إعلانها لأنهم أهل كتاب (خلافا للمشركين)، و لأنهم قرءوا صفات النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى كتبهم. لكن القرآن يوجه أنظار المسلمين إلى سوء السابقة لدى هؤلاء القوم، و يوضح لهم أن الانحراف النفسى يدفع إلى الإعراض عن الحقيقة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۵

مهما كانت هذه الحقيقة واضحة بيّنة.

الآية التّالية تلقى الضوء على حقيقة مرّة اخرى بشأن هذه الزمرة المنافقة و تقول: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ! من المحتمل أيضا أن تتحدث هذه الآية فى صدرها عن المنافقين من اليهود الذين يتظاهرون بالايمان لدى لقائهم بالمسلمين، و يبرزون إنكارهم عند لقائهم بأصحابهم، بل يلومون أولئك اليهود الذين يكشفون للمسلمين عمّا فى التوراة من أسرار.

هذه الآية- على أى حال- تأييد للآية السابقة، التى نهت المسلمين عن عقد الأمل على إيمان مثل هؤلاء القوم.

عبارة بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ قد تعنى الميثاق الإلهى الذى كان محفوظا لدى بنى إسرائيل. و قد تشير إلى الأسرار الإلهية المرتبطة بالشريعة الجديدة.

و يتضح من الآية أن إيمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفا إلى درجة أنهم تصوروا اللّه مثل إنسان عادىّ، و ظنوا أنهم إذا أخفوا شيئا عن المسلمين فسيخفى عن اللّه أيضا.

لذلك تقول الآية التالية بصراحة: أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ !

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۷۸ الى ۷۹]

اشارة

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (۷۸) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (۷۹)

سبب النّزول

عمد جمع من علماء اليهود إلى تغيير صفات نبى الإسلام فى التوراة من أجل صيانة مصالحهم، و استمرار الأموال التى كانت تتدفق عليهم سنويا من جهلة اليهود. فعند ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم غيّروا ما ذكر من صفاته فى التوراة و أبدلوها بصفات اخرى على العكس منها، كى يموّهوا الأمر على الأميين الذين كانوا قد سمعوا من قبل بصفات النّبى فى التوراة، فمتى ما سألوا علماءهم عن هذا النّبى الجديد قرءوا لهم الآيات المحرّفة من التوراة لإقناعهم بهذه الطريقة.

التّفسير

خطّة اليهود فى استغلال الجهلة!

بعد الحدیث عن انحرافات الیهود فی الآیات السابقة، قسّمت هاتان الآیتان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۷

الیهود علی مجموعتین: أمیین و علماء ماکرین، (هناک طبعا أقلیة من علمائهم آمنت و التحقت بصفوف المسلمین).

عن المجموعة الاولی یقول تعالی: وَ مِنْهُمْ أُمِّیُّونَ لا یَعْلَمُونَ الْکِتابَ إِلَّا أَمانِیَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا یَظُنُّونَ

و الأمّیون جمع أمّیّ، و الأمّیّ غیر الدارس. و سمّوا بذلک لأنهم فی معلوماتهم کما ولدتهم أمهاتهم، أو لشدّة تعلق امّهاتهم بهم، صعب علیهنّ فراقهم جهلا، و منعنهم من الذهاب إلی المدرسة[۳۲۸].

و الأمانی جمع امنیة، و لعل الآیة تشیر هنا إلی الامتیازات الموهومة التی کان ینسبها الیهود لأنفسهم، کقولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ ۳۲۹]، و کقولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَیَّاماً مَعْدُوداتٍ ۳۳۰].

و من المحتمل أیضا أن یکون المقصود من الأمانی الآیات المحرفة التی کان علماء الیهود یشیعونها بین الأمیین من الناس، و هذا المعنی ینسجم أکثر مع قوله تعالی: لا یَعْلَمُونَ الْکِتابَ إِلَّا أَمانِیَ

و علی أی حال عبارة: إِنْ هُمْ إِلَّا یَظُنُّونَ دلالة واضحة علی بطلان اتّباع الظن فی فهم أصول الدین و معرفة مدرسة الوحی، و لا بدّ من التتبع و التحقیق فی هذا الأمر.

ثمّة مجموعة اخری من العلماء کانت تحرف الحقائق لتحقیق مصالحها، و إلی هؤلاء یشیر القرآن: فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ یَکْتُبُونَ الْکِتابَ بِأَیْدِیهِمْ ثُمَّ یَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ....

فَوَیْلٌ لَهُمْ مِمَّا کَتَبَتْ أَیْدِیهِمْ ....

وَ وَیْلٌ لَهُمْ مِمَّا یَکْسِبُونَ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۸

و من العبارة الأخیرة نفهم الهدف الدنیء لهؤلاء، و کذلک عاقبتهم الوخیمة.

و قد أورد بعض المفسرین حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة حدیث فیه ملاحظات هامة:

قال رجل للصادق علیه السّلام: إذا کان هؤلاء العوام من الیهود لا یعرفون الکتاب إلّا بما یسمعونه من علمائهم، فکیف ذمّهم بتقلیدهم و القبول من علمائهم؟ و هل عوام الیهود إلّا کعوامنا، یقلّدون علماءهم- إلی أن قال- فقال علیه السّلام: «بین عوامنا و عوام الیهود فرق من جهة، و تسویة من جهة، أمّا من حیث الاستواء فإنّ اللّه ذمّ عوامنا بتقلیدهم علماءهم، کما ذمّ عوامهم، و أمّا من حیث افترقوا فإنّ عوام الیهود کانوا قد عرفوا علماءهم بالکذب الصراح، و أکل الحرام، و الرشاء و تغییر الأحکام، و اضطرّوا بقلوبهم إلی أنّ من فعل ذلک فهو فاسق، لا یجوز أن یصدّق علی اللّه، و لا علی الوسائط بین الخلق و بین اللّه، فلذلک ذمّهم، و کذلک عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، و العصبیّة الشدیدة، و التکالب علی الدنیا و حرامها، فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل الیهود الذین ذمّهم اللّه بالتقلید لفسقة علمائهم، فأمّا من کان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدینه، مخالفا علی هواه، مطیعا لأمر مولاه، فللعوام أن یقلّدوه ، و ذلک لا یکون إلّا بعض فقهاء الشیعة لا کلّهم، فإنّ من رکب من القبائح و الفواحش مراکب علماء العامة، فلا تقبلوا منهم عنّا شیئا، و لا کرامة، و إنّما کثر التخلیط فیما یتحمّل عنّا أهل البیت لذلک، لأنّ الفسقة یتحمّلون عنّا فیحرّفونه بأسره لجهلهم، و یضعون الأشیاء علی غیر وجهها لقلّة معرفتهم و آخرون یتعمّدون الکذب علینا»[۳۳۱] واضح أن هذا الحدیث لا یدور حول التقلید التعبدی فی الأحکام، بل یشیر إلی اتباع العلماء من أجل تعلم أصول الدین، لأن الحدیث یتناول معرفة النّبی، و هذه المعرفة من أصول الدین، و لا یجوز فیها التقلید التعبدی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۷۹

الآيات [سورة البقرة (٢): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

اشارة

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨٢)

التّفسير

غرور و ادعاء فارغ يشير القرآن الكريم هنا إلى واحدة من ادعاءات اليهود الدالة على غرورهم، هذا الغرور الذى يشكل الأساس لكثير من انحرافات هؤلاء القوم:

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً، ثم تجيبهم الآية بأسلوب مفحم:

قل أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

اعتقاد اليهود بأنّهم شعب اللّه المختار، و أن عنصرهم متفوق على سائر الأجناس البشرية، و أن مذنبيهم لن يدخلوا جهنم سوى أيّام قليلة ليتنعموا بعدها بالجنّة، من مظاهر أنانية هؤلاء و استفحال ذاتياتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۰

ادعاء اليهود المذكور فى الآية الكريمة لا ينسجم مع أى منطق، إذ لا يمكن أن يكون بين أفراد البشر أى تفاوت فى نيل الثواب و العقاب أمام اللّه سبحانه و تعالى.

بم استحق اليهود أن يكونوا مستثنين من القانون العام للعقاب الإلهى؟! الآية الكريمة تدحض مزاعمهم بدليل منطقى، و تفهمهم أن مزاعمهم هذه إمّا أن تكون قائمة على أساس عهد لهم اتخذوه عند اللّه، و لا يوجد مثل هذا العهد، أو أن تكون من افترائهم الكذب على اللّه.

ثمّ تبيّن الآية الكريمة التّالية قانونا عاما يقوم على أساس المنطق و تقول:

بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و هذا القانون عام يشمل المذنبين من كل فئة و قوم.

و بشأن المؤمنين الأتقياء، فهناك قانون عام شامل تبيّنه الآية التالية:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

بحوث

١- كسب السيئة

الكسب و الاكتساب: الحصول على الشيء عن إرادة و اختيار، من هنا عبارة بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً إشارة إلى أولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم و انتخاب. و تعبير الآية بكلمة «كسب» قد يكون إشارة إلى المحاسبة الخاطئة العاجلة التى يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظانا أنه يكسب بارتكاب الذنب نفعا، و يتحمل بتركه خسارة! و إلى مثل هؤلاء المذنبين تشير آية كريمة ستأتى بعد عدد

من الآیات إذ یقول سبحانه: أُولئِکَ الَّذِینَ اشْتَرَوُا الْحَیاةَ الدُّنْیا بِالْآخِرَةِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۸۱

فَلا یُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ

۲- إحاطهٔ الخطیئهٔ

الخطیئهٔ تستعمل غالبا فی الذنوب التی لا یرتکبها صاحبها عن عمد، لکنها وردت فی هذه الآیهٔ بمعنی الذنوب الکبیرهٔ[۳۳۲]، أو بمعنی آثار الذنب فی قلب الإنسان و روحه ۳۳۳].

مفهوم إحاطهٔ الخطیئهٔ یعنی انغماس الفرد فی الذنب إلی درجهٔ یصبح ذلک الفرد سجین ذنبه.

بعبارهٔ أوضح، الذنوب الکبیرهٔ و الصغیرهٔ تبدأ علی شکل «فعل» ثم تتحول إلی «حالهٔ» و مع الاستمرار و الإصرار تتحول إلی «ملکهٔ». و عند اشتدادها تغمر وجود الإنسان و تصبح عین وجوده. عندئذ لا تجدی مع هذا الفرد موعظهٔ و لا یؤثر فیه توجیه و لا نصح، إذ أنه عمل عن اختیار علی قلب ماهیته فمثلهم مثل دودهٔ القز التی تلف حولها من نسیج الحریر حتی تمسی سجینهٔ عملها.

الآیهٔ الکریمهٔ تتحدث عن خلود مثل هؤلاء الأفراد فی النار، و هذا یعنی أن هؤلاء یغادرون الدنیا و هم مشرکون. لأن الشرک هو الذنب الوحید الذی لا یغفره اللّه سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ[۳۳۴].

۳- عنصریهٔ الیهود

نفهم من الآیات الکریمهٔ أن روح التمییز العنصری لدی الیهود، التی هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۸۲

مبعث کثیر من مشاکل الساحهٔ العالمیهٔ الیوم، کانت راسخهٔ لدی الیهود منذ تلک الأیّام. و کانوا یعتقدون بوجود تفوّق و امتیاز لعنصر بنی إسرائیل علی سائر الأجناس البشریهٔ الاخری. و لا زالت هذه الذهنیهٔ سائدهٔ لدی هؤلاء القوم بعد مرور آلاف السنین علی أسلافهم الذین یتحدث عنهم القرآن الکریم. و هذا التعصب العنصری هو الأساس الذی تقوم علیه الدولهٔ الصهیونیهٔ الغاصبهٔ الیوم.

هؤلاء یعتقدون بأن عنصرهم متمیز عن سائر البشر لا فی هذه الدنیا فحسب، بل فی الاخرهٔ أیضا، حیث لا ینال المجرم منهم- علی رأیهم- سوی عقوبهٔ خفیفهٔ قصیرهٔ. و هذه التصورات المغلوطهٔ هی التی دفعتهم إلی أن یرتکبوا ألوان الجرائم و الموبقات ۳۳۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۸۳

الآیات [سورهٔ البقرهٔ (۲): الآیات ۸۳ الی ۸۶]

اشارهٔ

وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً وَ ذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ ثُمَّ تَوَلَّیْتُمْ إِلَّا قَلِیلاً مِنْکُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (۸۳) وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ لا تَسْفِکُونَ دِماءَکُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَکُمْ مِنْ دِیارِکُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۸۴) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَکُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِیقاً مِنْکُمْ مِنْ دِیارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَیْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ إِنْ یَأْتُوکُمْ أُساری تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَیْکُمْ إِخْراجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْکِتابِ وَ تَکْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ یَفْعَلُ

ذلِکَ مِنْکُمْ إِلاّ خِزْیٌ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ یُرَدُّونَ إِلی أَشَدِّ الْعَذابِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۸۵) أُولئِکَ الَّذِینَ اشْتَرَوُا الْحَیاةَ الدُّنْیا بِالْآخِرَةِ فَلا یُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ (۸۶)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۸۴

التّفسیر

النّاکثون

تقدم ذکر میثاق بنی إسرائیل، و لکن الآیات السابقة لم تتعرض إلی تفاصیل هذا المیثاق علی النحو المذکور فی هذه الآیات. یشیر سبحانه فی هذه الآیات إلی مواد هذا المیثاق، و هی بأجمعها- أو معظمها- من المبادئ الثابتة فی الأدیان الإلهیة. و موجودة بشکل من الأشکال فی کل الأدیان السماویة.

القرآن یندّد فی هذه الآیات بشدّة بالیهود لنقضهم هذه العهود، و یتوعدهم نتیجة لهذا النقض بالخزی فی الحیاة الدنیا و العذاب فی الآخرة.

بنود هذا العهد الذی أقرّ به بنو إسرائیل:

۱- التوحید و إخلاص العبودیة للّه وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ

۲- الإحسان إلی الوالدین: وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً.

۳- الإحسان إلی الأقارب و الیتامی و الفقراء: وَ ذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ

۴- التعامل الصحیح مع الآخرین: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً.

۵- إقامة الصلاة: وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ.

۶- إیتاء الزکاة: وَ آتُوا الزَّکاةَ.

ثم تذکر الآیة الکریمة نقض القوم للمیثاق و عدم وفائهم بالعهد: ثُمَّ تَوَلَّیْتُمْ إِلَّا قَلِیلًا مِنْکُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ

۷- عدم سفک الدماء: وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ لا تَسْفِکُونَ دِماءَکُمْ

۸- عدم إخراج بنی جلدتکم من دیارهم: وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَکُمْ مِنْ دِیارِکُمْ

۹- إفداء الأسری، أی بذل المال لتحریرهم من الأسر (و هذا البند نفهمه من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۸۵

عبارة أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْکِتابِ وَ تَکْفُرُونَ بِبَعْضٍ و سیأتی ذکرها).

ثم تذکر الآیة إقرار القوم بالمیثاق: ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

ثم یتعرض القرآن إلی نقض بنی إسرائیل للمیثاق، بقتل بعضهم و تشرید بعضهم الآخر: ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَکُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِیقاً مِنْکُمْ مِنْ دِیارِهِمْ و یشیر القرآن إلی تعاون بعضهم ضد البعض الآخر: تَظاهَرُونَ عَلَیْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ

ثم یشیر إلی تناقض هؤلاء فی مواقفهم، إذ یحاربون بنی جلدتهم و یخرجونهم من دیارهم، ثم یفدونهم إن وقعوا فی الأسر: وَ إِنْ یَأْتُوکُمْ أُساری تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَیْکُمْ إِخْراجُهُمْ

فهم یفادونهم استنادا إلی أوامر التوراة، بینما یشردونهم و یقتلونهم خلافا لما أخذ اللّه علیهم من میثاق: أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْکِتابِ وَ تَکْفُرُونَ بِبَعْضٍ ! و من الطبیعی أن یکون هذا الانحراف سببا لانحطاط الإنسان فی الدنیا و الآخرة:

فَما جَزاءُ مَنْ یَفْعَلُ ذلِکَ مِنْکُمْ إِلَّا خِزْیٌ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ یُرَدُّونَ إِلی أَشَدِّ الْعَذابِ
و انحرافات أیّة أمة من الأمم لا بدّ أن تعود علیها بالنتائج الوخیمة، ذلک لأن اللّه سبحانه و تعالی أحصاها علیهم بدقّة: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
الآیة الأخیرة تشیر إلی تخبط بنی إسرائیل و تناقضهم فی مواقفهم، و المصیر الطبیعی الذی ینتظرهم نتیجة لذلک: أُولئِکَ الَّذِینَ اشْتَرَوُا الْحَیاةَ الدُّنْیا بِالْآخِرَةِ فَلا یُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۸۶

بحوث

۱- إشارة تأریخیة:

فی الآیات إشارة لتناقض بنی إسرائیل فی مواقف بعضهم من البعض الآخر.
قیل فی ذلک: «کان بنو إسرائیل إذا استضعف قوم قوما أخرجوهم من دیارهم، و قد أخذ علیهم المیثاق إن لا یسفکوا دماءهم و لا یخرجوا أنفسهم من دیارهم، و أخذ علیهم المیثاق إن أسر بعضهم بعضا أن یفادوهم. فأخرجوهم من دیارهم ثم فادوهم، فآمنوا بالفداء ففدوا و کفروا بالإخراج من الدیار فأخرجوهم».
و
روی فی المعنیّ بهذه الآیة: «أن قریظة و النضیر کانا أخوین کالأوس و الخزرج فافترقوا فکانت النضیر مع الخزرج و کانت قریظة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت کل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أسراها تصدیقا لما فی التوراة، و الأوس و الخزرج أهل شرک یعبدون الأوثان لا یعرفون جنّة و لا نارا و لا قیامة و لا کتابا، فأنبأ اللّه تعالی الیهود بما فعلوه»[۳۳۶].
و هکذا سقط الیهود و غیرهم من أهل العناد فی مثل هذه التناقضات فی حیاتهم لانحرافهم عن خط العبودیة التّامة للّه تعالی.

۲- الازدواجیة فی الالتزام:

مرّ بنا أن القرآن الکریم یوبّخ الیهود بشدّة علی التزامهم ببعض الأحکام الإلهیة و ترکهم لبعضها الآخر، و ینذرهم بخزی الدنیا و بعذاب الآخرة و خاصة فی عملهم بالاحکام الجزئیة، و مخالفتهم لأهم الأحکام الشرعیة. أی قانون حرمة إراقة الدماء، و تهجیر من یشارکهم فی العقیدة من دیارهم و أوطانهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱ ؛ ص۲۸۶
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۸۷
هؤلاء فی الواقع التزموا بالاحکام التی تنسجم مع مصالحهم الدنیویة من الأحکام، أما حین تقتضی مصلحتهم أن یریقوا دم الآخرین و یستضعفوهم، فلا یألون جهدا فی ارتکاب کل ذلک مخالفین بذلک أهم أحکام ربّ العالمین.
التزامهم بفداء الأسری لا ینطلق من روح تعبّدیة، بل من روح مصلحیة تری أنّ من مصلحتها أن تفدی الأسری الیوم، کی تفدی هی حین تقع بالأسر فی المستقبل.

العمل بالأحكام المنسجمة مع مصالح الإنسان الدنيوية، ليس دلالة على طاعة اللّه و عبادته، لأن الدافع لم يكن الاستجابة إلى دعوة اللّه بقدر ما كان استجابة لنداء الذات و المصالح الذاتية. روح الطاعة تبرز لدى التزام الإنسان بما لا ينسجم مع مصالحه الآنية الذاتية. و هذا هو المعيار الذى يميّز به المؤمن عن العاصى، فالازدواجية فى الالتزام بأحكام اللّه تعالى، تدلّ على روح العصيان، بل أحيانا على عدم الإيمان و بعبارة اخرى، إن الايمان يظهر أثره فيما لو كان القانون على خلاف مصالح الفرد و مع ذلك يلتزم به الفرد، و إلّا فان العمل بالاحكام الشرعية، إذا اتفقت مع المصالح الشخصيّة لا يعتبر افتخارا و لا علامة على الايمان و لهذا يمكن تمييز المؤمنين عن المنافقين من هذا الطريق فالمؤمنون يلتزمون بجميع الأحكام، و المنافقون يذهبون إلى التبعيض.

و مصير هذه الامّة- بالتعبير القرآنى- الخزى فى الدنيا و أشدّ العذاب فى الآخرة ... و لا خزى أكبر من سقوط هذه الأمّة السائرة على خط الازدواجية بيد الغزاة الأجانب، و هبوطها فى مستنقع الذلة على الساحة العالمية.

هذه السنّة الكونية لا تقتصر على بنى إسرائيل، بل هى سارية فى كل زمان و مكان، و تشملنا نحن المسلمين أيضا. و ما أكثر الذين يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض فى مجتمعاتنا اليوم! و ما أشقى هؤلاء فى الدنيا و الآخرة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۸

۳- منهج البقاء و عوامل السقوط

الآيات الكريمة فى معرض حديثها عن بنى إسرائيل تطرح سننا كونية فى بقاء الشعوب و انحطاطها.

أهم عامل لبقاء الامّة و رفعتها و عزتها فى المنظار القرآنى، اعتماد الامّة على قوّة اللّه و قدرته الأبدية و خضوعها له وحده دون سواه و خشيته وحده دون غيره:

لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ

و من عوامل البقاء أيضا التلاحم الاجتماعى بين أفراد الامّة، و هذا ما يعبّر عنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين باعتبار هما أقرب أفراد المجتمع إلى الإنسان، ثم الإحسان إلى ذى القربى، ثم بعد ذلك إلى عامة أفراد المجتمع من الفقراء و المساكين و غيرهم من النّاس.

إزالة التمييز الطبقى و رفع الهوة السحيقة الفاصلة بين الأغنياء و الفقراء فى المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، و من عوامل بقاء المجتمع أيضا و رفعته.

أما عوامل السقوط فهى عبارة عن تفكّك البنية الاجتماعية، و نشوب النزاعات و الحروب الداخلية بين أفراد المجتمع، و استضعاف بعضهم بعضا. لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ....

ثم الازدواجية فى الالتزام بأحكام اللّه تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآنيّة الذاتية الضيقة، فيلتزموا بالقوانين التى تحفظ لهم منافعهم الشخصية، و يتركوا القوانين النافعة للمجتمع أ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ

هذه هى الأسباب و العلل فى تكامل و انحطاط الأمم و الحضارات فى منظور القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۷ الى ۸۸]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ وَ قَفَّیْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَیْنا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ الْبَیِّناتِ وَ أَیَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَکُلَّما جاءَکُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوی أَنْفُسُکُمُ اسْتَکْبَرْتُمْ فَفَرِیقاً کَذَّبْتُمْ وَ فَرِیقاً تَقْتُلُونَ (۸۷) وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِکُفْرِهِمْ فَقَلِیلًا ما یُؤْمِنُونَ (۸۸)

التّفسیر

القلوب المغلّفة

الحدیث فی هاتین الآیتین عن بنی إسرائیل، و إن کانت المفاهیم و المعاییر التی تطرحها الآیتان عامّة و شاملة.

تقول الآیة الاولی: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ ثم تذکر بعثة الأنبیاء بعد موسی مثل داود و سلیمان و یوشع و زکریا و یحیی ... وَ قَفَّیْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ و تشیر إلی بعثة عیسی وَ آتَیْنا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ الْبَیِّناتِ وَ أَیَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ لکن تعامل بنی إسرائیل کان مع کل هؤلاء الأنبیاء قائما علی أساس نزعات هوی النفس أَ فَکُلَّما جاءَکُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوی أَنْفُسُکُمُ اسْتَکْبَرْتُمْ ! و کان موقفهم إمّا اغتیال شخصیة النّبی أو شخص النّبی: فَفَرِیقاً کَذَّبْتُمْ وَ فَرِیقاً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۰

تَقْتُلُونَ لو کان اغتیال الشخصیة کافیا لتحقیق أهدافهم الدنیئة اکتفوا بذلک، و إن لم یکن کافیا سفکوا دمه!! ذکرنا فی تفسیر الآیات السابقة عند حدیثنا عن الازدواجیة فی الالتزام بالاحکام الإلهیة أن معیار الإیمان و التسلیم هو الالتزام بما لا تهوی النفس، لأن کل أصحاب الأهواء مستسلمون لما ینسجم مع میولهم و أهوائهم.

و من جانب آخر یستفاد من الآیة أن القادة الإلهیین لم یکونوا یأبهون بمعارضة أصحاب الأهواء، و هذا هو شأن القائد لمنهج الحق. و لو انساقوا وراء أهواء الآخرین لما کانوا قادة لطلّاب صراط الحق. بل أتباع لطلاب الدنیا.

الآیة التالیة تذکر ما کانوا یقولونه باستهزاء مقابل دعوة الأنبیاء لهم أو دعوة النّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: وَ قالُوا: قُلُوبُنا غُلْفٌ و الغلف جمع أغلف أی مغلّف.

نعم، إنها کذلک مغلّفة و بعیدة عن نفوذ النور الإلهی إلیها، لأن أصحابها لعنوا بعد التمادی فی الکفر بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِکُفْرِهِمْ فَقَلِیلًا ما یُؤْمِنُونَ

قد تشیر الآیة إلی الیهود الذین کذبوا الأنبیاء و قتلوهم، و قد تشیر إلی الیهود المعاصرین للنبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ممّن وقف بوجه الرسالة. لکنها علی أی حال تبین حقیقة هامّة هی: إن الانغماس فی الأهواء یبعد الفرد عن اللّه، و یسدل الحجب علی قلبه، فلا تکاد الحقیقة تجد لها طریقا إلی نفسه.

بحوث

۱- رسالة الأنبیاء فی مسیرة التاریخ

ذکرنا أن أصحاب الأهواء المنحرفین کانوا یقفون دوما بوجه دعوة الأنبیاء، لأنها کانت تهدد مصالحهم الآنیّة التافهة، و تحریف الرسالات الإلهیة أحد السبل التی انتهجها هؤلاء المنحرفون لمحاربة الدعوة، لذلک کان لا بدّ من توالی الرسل-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۱

علی مرّ التاریخ- لمواصلة بقاء خط النّبوة علی الأرض، و لإتمام الحجة علی البشریة، قال سبحانه: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا کُلَّ ما جاءَ أُمَّةً

رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً[۳۳۷] هذا المفهوم عبّر عنه

أمير المؤمنين على عليه السّلام بقوله: «فبعث فيهم رسله و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكّروهم منسىّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتّبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول»[۳۳۸].

هدف بعثة الأنبياء على مرّ العصور التاريخية إذن هو تذكير البشر بنعم اللّه سبحانه، و دعوتهم إلى الالتزام بميثاق الفطرة، و إحياء دعوات الأنبياء السابقين.

هنا يثار سؤال حول سبب ختم النّبوة بنبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و سنجيب عليه إن شاء اللّه فى تفسير الآية ۴۰ من سورة الأحزاب.

۲- ما هو روح القدس؟

للمفسرين آراء مختلفة فى معنى روح القدس:

۱- قالوا إنه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إن اللّه أيّد عيسى بجبرائيل. و شاهدهم على ذلك قوله تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِ ۳۳۹] و وجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك، و الجانب الروحى فى الملائكة أمر واضح، و إطلاق كلمة «الروح» عليهم متناسب مع طبيعتهم، و إضافة الروح إلى «القدس» إشارة إلى طهر هذا الملك و قداسته الفائقة.

۲- و قيل إن «روح القدس» هو القوّة الغيبية التى أيّدت عيسى عليه السّلام، و بهذه القوة الخفية الإلهية كان عيسى يحيى الموتى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۹۲

هذه القوّة الغيبية موجودة طبعا بشكل أضعف فى جميع المؤمنين على اختلاف درجة إيمانهم. و هذا الإمداد الإلهى هو الذى يعين الإنسان فى أداء الطاعات و تحمل الصعاب، و يقيه من السقوط فى الذنوب و الزلات. من هنا

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله لحسان: «لن يزال معك روح القدس ما ذبت عنّا»

و قول بعض أئمة أهل البيت لشاعر قرأ أبياتا ملتزمة: «إنّما نفث روح القدس على لسانک».

۳- و من المفسرين من قال إن روح القدس هو «الإنجيل»[۳۴۰] و يبدو أن التّفسيرين السابقين أقرب إلى المعنى.

۳- مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين

ورد فى قاموس الكتاب المقدس: «إن روح القدس هو الأقنوم الثالث من الأقانيم الثلاثة الإلهية. و يقال له (الروح)، لأنه مبدع الحياة، و يسمى مقدسا لأن من أعماله تقديس قلوب المؤمنين، و لما له من علاقة باللّه و المسيح يسمى أيضا (روح اللّه) و (روح المسيح)».

و ورد أيضا فى هذه القاموس تفسير آخر هو: «أما روح القدس الذى يؤنسنا فهو الذى يحثنا دوما إلى قبول و فهم الاستقامة و الإيمان و الطاعة، و يحيى الأشخاص الذين ماتوا فى الذنوب و الخطايا، و يطهرهم و ينزههم و يجعلهم لائقين لتمجيد حضرة واجب الوجود».

و كما يلاحظ، إن عبارات قاموس الكتاب المقدس أشارات إلى معنيين لروح القدس: الأول، إن روح القدس أحد الأرباب الثلاثة، و هذه هى عقيدة التثليث، و هى عقيدة شرك باللّه و مرفوضة، و الثانى يشبه التّفسير الثانى المذكور أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۹۳

۴- قلوب غافلة محجوبة

كان اليهود فى المدينـة يقفون بوجه الـدعوة، و يمتنعون عن قبولها، و يتـذرعون لـذلك بمختلف الحجـج، و الآيـة التى نحن بصددها تشير إلى واحدة من ذرائعهم.

وَ قالُوا: قُلُوبُنا غُلْفٌ و لا ينفـذ إليها قول!! كانوا يقولون ذلك عن استهزاء، غير أن القرآن أيّـد مقالتهم، فبكفرهم و نفاقهم أسدل على قلوبهم حجب من الظلمات و الذنوب، و ابتعدوا عن رحمة اللّه، فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ

و هذه مسألة تطرحها آية اخرى من قوله تعالى: وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا[۳۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۹۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۹ الى ۹۰]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ (۸۹) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (۹۰)

سبب النّزول

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «كانت اليهود تجد فى كتبها أنّ مهاجر (مكان هجرة) محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما بين (جبلى) غير واحـد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبل يقال له حـداد، فقالوا: حـداد و أحد سواء، فتفرّقوا عنده، فنزل بعضـهم بتيماء و بعضـهم بفدك و بعضـهم بخيبر، فاشـتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابى من قيس فتكاروا منه (أى استأجروا إبله) و قال لهم: أمرّ بكم ما بين عير و أحـد، (فعلموا أنهم أصابوا ضالّتهم) فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنّا (أخبرنا) بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال:

ذلك عير، و هذا أحد، فنزلوا عن ظهر إبله، و قالوا: قد أصـبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شـئت، و كتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك و خيبر أنا قد أصبنا الموضع فهلمّوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۹۵

إلينا، فكتبوا إليهم أنّا قـد اسـتقرت بنا الـدار و اتخذنا بها الأموال، و ما أقربنا منكم، فإن كان ذلك فما أسـرعنا إليكم، و اتخذوا بأرض المدينـة أموالا فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تبّعا فغزاهم، فتحصـنوا منه، فحاصـرهم ثمّ أمّنهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: إنّى قـد اسـتطبت بلادكم، و لا أرانى إلّا مقيما فيكم. فقالوا له: ليس لك ذلك، إنها مهاجر نبى، و ليس ذلك لأحـد حتى يكون ذلك، فقال لهم: فإنى مخلف فيكم من أسـرتى من إذا كان ذلك ساعـده و نصـره، فخلف حين تراهم الأوس و الخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمّـد لنخرجنكم من ديارنا و أموالنا، فلما بعث اللّه محمّدا عليه السّـلام آمنت به الأنصار و كفرت به اليهود،

و هو قوله تعـالى: وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ... إلى آخر الآيـة.» نعم، هـذه الفئـة التى كانت تبحث بولع شديـد عن منطلق البعثـة المحمّديـة، لتكون أول من تؤمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كـانت تفتخر أمـام الأوس و الخزرج بـأنها ستكون من خاصـة صـحابة النّبى المبعوث، إذا هى تقف- بسـبب لجاجهـا و عنادها- إلى جانب أعـداء النّبى، بينما التف حول الرّسول

من کان بعیدا عن هذه الأجواء.

التّفسیر

کفروا بما دعوا الناس الیه

هـذه الآیات تتحدث أیضا عن الیهود و مواقفهم، هؤلاء- کما ورد فی أسباب النّزول- هاجروا لیتخذوا من یثرب سکنا بعد أن وجدوا فیها ما یشیر إلی أنها أرض الرّسول المرتقب، و بقوا فیها ینتظرون بفارغ الصبر النّبی الذی بشرت به التوراهٔ، کما کانوا ینتظرون الفتح و النصر علی الـذین کفروا تحت لواء هذا النّبی، لکنهم مع کل ذلک أعرضوا عن الرّسول و عن الرسالهٔ وَ لَمَّا جاءَهُمْ کِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ کانُوا مِنْ قَبْلُ یَسْتَفْتِحُونَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا کَفَرُوا بِهِ ... فَلَعْنَهُٔ اللَّهِ عَلَی الْکافِرِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۶

و هکذا تستطیع الأهواء و المصالح الشخصیهٔ أن تقف بوجه طالب الحقیقهٔ، مهما کان الفرد عاشقا لهذه الحقیقهٔ و توّاقا للوصول إلیها فیترکها و یعرض عنها، بل تستطیع الأهواء أیضا أن تحوّل هذا الفرد إلی عدوّ لدود لهذه الحقیقهٔ.

ما أشدّ خسارهٔ هؤلاء الیهود، ترکوا أوطانهم و هاموا فی الأرض بحثا عن علامات أرض الرسالهٔ، ثم ها هم خسروا کل شیء، و باعوا أنفسهم بأسوأ ثمن:

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ

لقـد ضیعوا کل شیء و کأنهم أرادوا أن یکون النّبی الموعود من بنی إسرائیل، و لهـذا تألموا من نزول القرآن علی غیرهم، بل ممن شاء اللّه: أَنْ یَکْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْیاً أَنْ یُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ

و لذلک شملهم غضب اللّه المتوالی: فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلی غَضَبٍ وَ لِلْکافِرِینَ عَذابٌ مُهِینٌ

بحثان

۱- صفقهٔ خاسرهٔ

إنه لخسران عظیم أن تتهیّا للإنسان کل سبل الهدایهٔ ثم یعرض عنها لأمور تافههٔ، و الیهود المعاصرون للنبی الخاتم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هم من أولئک، توفّرت لهم کل هـذه السبل، بل تحرکوا زمنا یبتغون مصدر هـذه الهدایهٔ، و عثروا بعد جهد علی مبتغاهم حین حطوا رحالهم بین «العیر» و «أحد» انتظارا للنبی الموعود، ثم إذا هم یخسرون کل شیء، حین علموا أن هذا النّبی المبعوث لیس من بنی إسرائیل، أو أنه لا یحقق مصالحهم الشخصیهٔ.

ما أکبر الخسارهٔ حین یبیع الإنسان نفسه بهذا الشکل و یشتری بها غضب اللّه عزّ و جلّ! بینما لیس لوجود الإنسان ثمن إلّا الجنّهٔ کما یقول أمیر المؤمنین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۷

علی علیه السّلام: «إنّه لیس لأنفسکم ثمن إلّا الجنّهٔ فلا تبیعوها إلّا بها»[۳۴۲].

عبارهٔ «اشتراء النفس» أی بیعها توحی أن الاتجاه نحو طریق الضلال بیع للنفس، و کأن الکافر یبیع شخصیته الإنسانیهٔ، لأن الکفر یهدم قیمهٔ الإنسان من الأساس، و بعبارهٔ اخری إنه یکون کالعبید الذین باعوا أنفسهم فأمسوا اسری بید الآخرین ... أجل إنّهم أسری الأهواء

و عبيد الشيطان.

۲- غضب على غضب

القرآن الكريم قال عن بنى إسرائيل حين تاهوا فى صحراء سيناء بأنّهم وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ بسبب كفرهم بآيات اللّه و قتلهم الأنبياء و فى سورة آل عمران الآية ۱۲، ورد هذا المعنى أيضا و أن اليهود بسبب كفرهم بآيات اللّه و قتلهم الأنبياء باءوا بغضب من اللّه تعالى. و هذا هو الغضب الاول.

و هؤلاء أحفادهم من اليهود المعاصرين للبعثة المحمّدية ساروا على طريق أسلافهم فى الكفر بالرسالة، و زادوا على ذلك بوقوفهم بوجه الرّسول و تآمرهم على الدعوة و لذلك قال عنهم «فباء و بغضب على غضب».

و «باءو» بمعنى رجعوا- و أقاموا فى المكان- و هنا تعنى استحقاقهم لعذاب اللّه. فكأنهم عادوا و هم محملون بهذا الغضب الإلهى، أو كأنهم اتخذوا موقفا يغضب اللّه.

هؤلاء القوم كانوا يعيشون أمل ظهور النّبى المنقذ، قبل دعوة موسى و قبل دعوة النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان موقفهم من الرّسولين الكريمين واحدا، هو النكول و الإعراض، و استحقوا غضب اللّه و سخطه مرّة بعد اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۹۸

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۱ الى ۹۳]

اشارة

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹۱) وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (۹۲) وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹۳)

التّفسير

العصبية القومية لدى اليهود

يشير القرآن مرّة اخرى إلى عصبية اليهود القومية و يقول:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ

فهم لم يؤمنوا بالإنجيل و لا بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محور العنصرية و المصلحية، فيجرأون على رفض الدعوة التى جاءت تصديقا لما معهم فى التوراة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۹۹

وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ

و يكشف القرآن زيف ادعائهم مرة اخرى حين يقول لهم: قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هؤلاء يدّعون أنهم

یؤمنون بما أنزل علیهم، فهل التوراة تبیح لهم قتل الأنبیاء؟! و هذا الذی یقوله بنو إسرائیل: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَیْنا ینطلق من روح ذاتیة فردیة أو فئویة، و هی تخالف روح التوحید. فالتوحید یستهدف القضاء علی کل المحاور الذاتیة فی حرکة الإنسان و مواقفه، و تکریس نشاطات الفرد حول محور العبودیة للّه لا غیر.

بعبارة اخری، لو کان الانصیاع للأوامر الإلهیة متوقفا علی نزولها علیهم، فهو الشرک لا الإیمان، و هو الکفر لا الإسلام، و مثل هذا الانصیاع لیس بدلیل علی الإیمان قط.

و عبارة بِما أَنْزَلَ اللَّهُ تحمل مفهوم نفی کل ذاتیة بشریة فی الرسالة، بما فی ذلک ذات النّبی المرسل، فلم تتضمن العبارة اسم محمّد و عیسی و موسی علیهم أفضل الصلاة و السلام، بل التأکید علی الإیمان بما أنزل اللّه تعالی.

و یعرض القرآن وثیقة اخری لإدانة الیهود و لکشف زیف ادعائهم فیقول:

وَ لَقَدْ جاءَکُمْ مُوسی بِالْبَیِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ

ما هذا الانحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءتکم البینات إن کنتم فی إیمانکم صادقین؟! لو کنتم آمنتم به حقّا، فلم تبدّل إیمانکم إلی کفر عند غیاب موسی و ذهابه إلی جبل الطور، و بذلک ظلمتم أنفسکم و مجتمعکم و الأجیال المتعاقبة بعدکم؟! فی الآیة الثالثة یطرح القرآن وثیقة إدانة اخری، فیشیر إلی مسألة میثاق جبل الطور و یقول: وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّةٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۰۰

وَ اسْمَعُوا، قالُوا: سَمِعْنا وَ عَصَیْنا.

و ما کان عصیانهم إلّا عن انغماس فی حبّ الدنیا الذی تمثّل فی حبّ عجل السّامری الذّهبی: وَ أُشْرِبُوا فِی قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِکُفْرِهِمْ و لذا نسوا اللّه عزّ و جلّ؟! کیف یجتمع الایمان باللّه مع قتل أنبیائه و عبادة العجل و نقض العهود و المواثیق الالهیة المؤکدة؟! أجل قُلْ بِئْسَما یَأْمُرُکُمْ بِهِ إِیمانُکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ ۳۴۳].

بحثان

۱- عبارة قالُوا: سَمِعْنا وَ عَصَیْنا لیست حکایة عمّا قالوه بألسنتهم، بل حسب الظاهر هی تعبیر عن واقع عملی لهؤلاء القوم، و کنایة رائعة عن انحرافهم.

۲- عبارة وَ أُشْرِبُوا فِی قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ هی أیضا کنایة رائعة تعبّر عن وضع هذه الجماعة.

و الاشراب له معنیان کما ورد فی المفردات: الإحکام کقولک «أشربت البعیر» إذا شددت رقبته بالحبل. و کذلک الإرواء، و یکون المعنی علی الوجهین أن حبّ العجل قد غمر قلوب بنی إسرائیل و استحکم فی أنفسهم.

و العبارة توحی أیضا ما یصدر عن هؤلاء القوم من انحراف، إنما هو ظاهرة طبیعیة ناتجة عن تغلغل روح الشرک فی قلوبهم. و القلوب التی أشربت الشرک لا یصدر عنها إلا القتل و الإنکار و الخیانة.

و تتبین أهمیة الموضوع أکثر لو طالعنا مقدار ما أکدت علیه الدیانة الیهودیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۰۱

من تقبیح لعملیة القتل و نهی عنها فقد جاء فی قاموس الکتاب المقدس، ص ۶۷۸: «القتل العمدی و تقبیحه کان علی درجة من الأهمیة لدی بنی إسرائیل، بحیث لا تبرأ ذمّة القاتل له لولجا إلی الأماکن المقدسة، بل لا بدّ إنزال عقوبة القصاص به بأیّ حال من الأحوال».

هذا هو معنی قتل الإنسان فی نظر التوراة، فما بالک بقتل الأنبیاء؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۰۲

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۴ الى ۹۶]

اشارة

قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۹۴) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۹۵) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (۹۶)

التّفسير

فئة مغرورة:

يبدو من تاريخ اليهود- مضافا لما أخبر القرآن عنه- أن هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فئة متميزة فی العنصر، و متفوقة على سائر الأجناس البشرية، و كانوا يعتقدون أن الجنّة خلقت لهم لا لسواهم، و أن نار جهنم لن تمسّهم، و أنّهم أبناء اللّه و خاصته، و أنّهم يحملون جميع الفضائل و المحاسن.

هذا الغرور الأرعن تعكسه كثير من آيات الذكر الحكيم الآية (۱۸) من سورة المائدة تقول عن لسانهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ و فی الآية ۱۱۱ من سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۰۳

البقرة نرى ادعاء آخر لهم: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى و هكذا فی الآية ۸۰ من سورة البقرة: وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً.

هذه التصورات الموهومة كانت تدفعهم من جهة إلى الظلم و الجريمة و الطغيان، و تبعث فيهم- من جهة اخرى- الغرور و التكبر و الاستعلاء.

و القرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جوابا دامغا إذ يقول: قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

ألا تحبّون رحمة اللّه و جواره و نيل النعيم الخالد فی الجنان؟ ألا يحب الحبيب لقاء حبيبه؟! لقد كان اليهود يهدفون من كلامهم هذا و أن الجنّة خالصة لنا دون سائر النّاس:

أو أن النار لا تمسّنا إلّا أيّاما معدودات- إلى توهين إيمان المسلمين و تخدير عقائدهم.

لماذا تفرون من الموت، و كل ما فی الآخرة من نعيم هو لكم كما تدّعون؟! لماذا هذا الالتصاق بالأرض و بالمصالح الذاتية الفردية، إن كنتم مؤمنين بالآخرة و بنعيمها حقّا؟! بهذا الشكل فضح القرآن أكذوبة هؤلاء و بيّن زيف ادعائهم.

فی الآية التّالية تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

هؤلاء يعلمون ما فی ملفّ أعمالهم من وثاق سوداء و من صحائف إدانة، و اللّه عليم بكل ذلك، و لذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

الآية الأخيرة تذكر انشداد هؤلاء بالأرض و حرصهم الشديد على المال و المتاع: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ و تذكر الآية أن

حرصهم هذا یفوق حرص الذین أشرکوا: وَ مِنَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۴

المشرکون ینبغی أن یکونوا أحرص من غیرهم علی جمع المال و المتاع، لکن هؤلاء من أصحاب الادعاءات الفارغة، بلغوا من الحرص ما لم یبلغه المشرکون.

و بلغ شغفهم بالدنیا أنّه یَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ یُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ لجمع مزید من متاع الدنیا، أو خوفا من عقاب الآخرة! لکن هذا العمر الذی یتمناه کل واحد منهم لا یبعده عن العذاب، و لا یغیّر من مصیره شیئا وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ یُعَمَّرَ إذ کل شیء محصی لدی اللّه، و لا یعزب عن عمله شیء وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِما یَعْمَلُونَ

بحوث

۱- المقصود من الأعوام الألف

فی قوله تعالی: یَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ یُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ لیس هذا العدد المعروف، بل یعنی العمر الطویل المدید، فهو لیس للتعدد، بل للتکثیر.

و ذهب بعض المفسرین إلی أن العرب لم تکن تعرف آنذاک عددا أکبر من الألف، و لم یکن لما یزید علی الألف اسم عند العرب، و لذلک کان أبلغ تعبیر عن الکثرة![۳۴۴].

۲- تنکیر الحیاة فی تعبیر الآیة وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلی حَیاةٍ تفید- کما ذهب إلی ذلک جمع من المفسرین- الاستهانة و التحقیر، أی إن هؤلاء حریصون حتی علی أتفه حیاة و أرخصها و أشقاها، و یفضلونها علی الآخرة[۳۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۵

۳- إفرازات العنصریة:

کان التعصّب العنصری وراء کثیر من الحروب و المآسی التی حدثت علی الساحة البشریة خلال جمیع عصور التأریخ، و فی عصرنا الحدیث کان التعصب العرقی الألمانی عاملا فعالا فی إشعال لظی الحربین العالمیتین الاولی و الثانیة.

و الیهود یحتلون دون شک مکان الصدارة بین العنصریین المتعصبین علی مرّ التأریخ، و ها هی دویلتهم المسماة بإسرائیل أقیمت علی أساس هذه العنصریة المقیتة، و ما یرتکبه هذا الکیان العنصری الصهیونی من جرائم فظیعة إنما هو استمرار لجرائمه التأریخیة الناشئة عن عنصریته البغیضة.

لقد دفعتهم عنصریتهم لأن یحتکروا حتّی تعالیم موسی، و یزیلوا عنصر الدعوة من دینهم، کی لا یعتنق تعالیمهم أحد غیرهم.

و هذه النزعة الأنانیة هی التی جعلت هؤلاء القوم منبوذین ممقوتین من قبل کل شعوب العالم.

التعصب العنصری شعبة من الشرک، و لذلک حاربه الإسلام بشدّة، مؤکدا أن کل أبناء البشر من أب واحد و أمّ واحدة، و لا تمایز إلّا بالتقوی و العمل الصالح.

۴- عوامل الخوف من الموت:

أكثر النّاس يخافون من الموت، و خوفهم هذا يعود إلى عاملين:

۱- الخوف من الفناء و العدم، فالذين لا يؤمنون بالآخرة لا يرون بعد هذه الحياة استمرار لحياتهم، و من الطبيعى أن يخاف الإنسان من الفناء، و هذا الخوف يلاحق هؤلاء حتى فى أسعد لحظات حياتهم فيحوّلها إلى علقم فى أفواههم.

۲- الخوف من العقاب، و مثل هذا الخوف يلاحق المذنبين المؤمنين بالآخرة، فيخافون أن يحين حينهم و هم مثقلون بالآثام و الأوزار، فينالوا جزاءهم، و لذلك يؤدّون أن تتأخّر ساعة انتقالهم إلى العالم الآخر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۶

الأنبياء العظام أحيوا فى القلوب الإيمان باليوم الآخر، و بـذلك أبعـدوا شـبح الفناء و الانعدام من الأذهان، و بينوا أن الموت انتقال إلى حياة أبدية خالدة منعّمة.

من جهـة اخرى دعـا الأنبيـاء إلى العمـل الصالـح، كى يبتعـد الإنسـان عن الخوف من العقاب، و لكى يزول عن القلوب و الأذهان كل خوف من الموت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۷ الى ۹۸]

اشارة

قُـلْ مَنْ كـانَ عَـدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَـدَيْهِ وَ هُـدىً وَ بُشْـرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۹۷) مَنْ كانَ عَـدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (۹۸)

اسباب النّزول

روى عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية، ما

روى أن ابن صوريا و جماعـة من يهود أهل فدك، لما قدم النّبى صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم المدينة، سألوه أسـئلة، و كان رسول اللّه يجيبهم و هم يصـدّقون جوابه، من ذلك أنهم قالوا له: يا محمّـد كيف نومك؟ فقـد أخبرنا عن نوم النّبى الذى يأتى فى أواخر الزمان، فقال: تنام عيناى و قلبى يقظان.

قالوا: صـدقت يا محمّـد ... ثم قال له ابن صوريا: خصـلة واحـدة إن قلتها آمنت بك و اتبعتك: أىّ ملك يأتيك بما ينزل اللّه عليك؟ قال: جبريل. قال ابن صوريا: ذاك عـدونا ينزل بالقتال و الشـدة و الحرب، و ميكائيل ينزل باليسـر و الرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذى يأتيك لآمنّا بك!![۳۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۸

التّفسير

قوم جادلون:

سبب نزول الآية الكريمة يبيّن طبيعة العناد و اللجاج و الجدل فى اليهود، ابتداء من زمان موسى عليه السّلام و مرورا بعصر خاتم الأنبياء

و حتی یومنا هذا یعرضون عن الحقّ بألوان الحجج الواهیة.

حجّتهم فی هذا الموضع المذکور فی الآیة ثقل التکالیف التی یأتی بها جبرائیل، و عداؤهم لهذا الملک، و رغبتهم فی أن یکون میکائیل أمینا للوحی!! و کأن الملائکة هم مصدر الأحکام الإلهیة! و القرآن الکریم یصرّح بأن الملائکة ینفّذون أوامر اللّه و لا ینحرفون عن طاعته: لا یَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ ۳۴۷].

القرآن یجیب عن ذریعة هؤلاء: قُلْ مَنْ کانَ عَدُوًّا لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلی قَلْبِکَ بِإِذْنِ اللَّهِ و ما جاء به جبرائیل یصدّق ما نزل فی الکتب السماویة السابقة:

مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ و هو إضافة إلی کل هذا: وَ هُدیً وَ بُشْری لِلْمُؤْمِنِینَ

فالجواب فی هذه الآیة ینطوی علی ثلاث شعب:

أوّلا: إن جبریل لا یأتی بشیء من عنده، بل ما یأتی به هو بِإِذْنِ اللَّهِ

ثانیا: ما جاء به جبریل تصدّقه الکتب السماویة السابقة، لانطباقه علی العلامات و الدلالات المذکورة فی تلک الکتب.

ثالثا: محتوی ما جاء به جبرائیل یدلّ علی أصالته و حقّانیته.

الآیة التالیة تؤکد نفس هذا الموضوع تأکیدا مقرونا بالتهدید و تقول: مَنْ کانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِیلَ وَ مِیکالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْکافِرِینَ ۳۴۸] مشیرة بذلک إلی أن موقف الإنسان من اللّه و ملائکته و رسله و من جبرئیل و میکائیل، لا یقبل التفکیک، و أن الموقف المعادی من أحدهم هو معاداة للآخرین ۳۴۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۰۹

و بعبارة اخری: الأوامر الإلهیة الباعثة علی تکامل الإنسان، تنزل عن طریق الملائکة علی الرسل، و إن کان بین مهمات الملائکة اختلاف، فذلک یعود إلی تقسیم المسؤولیات لا إلی التناقض بین المهمات، و اتخاذ موقف معاد من أحدهم هو عداء اللّه سبحانه.

جبریل و میکال

ورد اسم جبریل ثلاث مرات، و اسم میکال مرة واحدة فی القرآن الکریم ۳۵۰].

و یستفاد من الآیات أنّهما ملکان مقرّبان من ملائکة اللّه تعالی. قیل إن اسم جبرئیل عبری یعنی «رجل اللّه» أو «قوة اللّه» (جبر: تعنی الرجل أو القوّة، و ئیل:

بمعنی اللّه).

هذه الآیات الکریمة تعرّف جبریل أنه رسول الوحی الإلهی إلی النّبی، و منزّل القرآن علی قلبه، و لواسطة الوحی اسم آخر فی الآیة ۱۰۲ من سورة النحل هو:

رُوحُ الْقُدُسِ أمّا الآیة ۱۹۱ من سورة الشعراء فتسمیه الرُّوحُ الْأَمِینُ و یصرّح المفسرون أن المقصود من روح المقدس و الروح الأمین، هو جبرئیل.

و هناک أحادیث تدور حول تشکل جبرائیل بصور متعددة لدی نزوله علی النّبی، و کان فی المدینة ینزل علی صورة (دحیة الکلبی) و هو رجل جمیل الطلعة.

یستفاد من سورة النجم أن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم شاهد جبرائیل مرّتین علی هیئته الأصلیة[۳۵۱].

ذکرت المصادر الإسلامیة أسماء أربعة من الملائکة المقربین هم: جبرائیل و میکائیل و إسرافیل و عزرائیل، و أعظمهم مرتبة جبرائیل.

و فی کتب الیهود ورد ذکر جبریل و میکال، و من ذلک ما ورد فی کتاب دانیال

حیث وصف جبرائیل بأنه الغالب لرئیس الشیاطین، و وصف میکائیل بأنه حامی قوم بنی إسرائیل [۳۵۲].

ذکر بعض المحققین أن المصادر الیهودیـة خالیـة من الدلالـة علی خصومة جبرائیل لهؤلاء القوم، و هذا یؤید أن ادعاءات الیهود بشأن موقفهم من جبرائیل، لم یکن إلّا ذریعة للتنصل من الإسلام إذ لا یوجد فی مصادرهم الدینیة ما یشیر إلی وجود مثل هذه العداوة بینهم و بین جبرئیل.

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۹۹ الی ۱۰۱]

اشارة

وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ آیاتٍ بَیِّناتٍ وَ ما یَکْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ (۹۹) أَ وَ کُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِیقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۱۰۰) وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِیقٌ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ کِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ کَأَنَّهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۱۰۱)

سبب النّزول

قال ابن عباس: إن ابن صوریا- و هو من أحبار الیهود- قال لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:

یا محمّد ما جئتنا بشیء نعرفه، و ما أنزل اللّه علیک من آیة بینة فنتبعک لها، فأنزل اللّه هذه الآیة [۳۵۳]

التّفسیر

الناکثون من الیهود

الآیة الاولی تشیر إلی الآیات و العلامات و الدلائل الکافیة الواضحة التی

توفرت لـدی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم، و تؤکـد أن المعرضـین عن هذه الآیات البینات أدرکوا فی الواقع حقّانیة الدعوة، لکنهم هبّوا للمعارضة مدفوعین بأغراضهم الشخصیة: وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ آیاتٍ بَیِّناتٍ وَ ما یَکْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ

التفکیر فی آیـات القرآن ینیر الطریق لکل طالب حق منصف، و بمطالعـة هـذه الآیات یمکن فهم صـدق دعوة نبی الإسـلام صـلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و عظمة القرآن.

لکن هـذه الحقیقـة الواضـحة لا یفهمها الـذین انطفأ نور قلوبهم بسـبب الذنوب، من هنا نری الفاسـقین الملوثین بالخطایا یعرضون عن الإیمان بالرسالة.

ثم یتطرق القرآن إلی صـفة مجموعة من الیهود، و هی صفة النکول و نقض العهود و المواثیق، و کأنها صفة تأریخیة تلازمهم علی مرّ العصور أَ وَ کُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِیقٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یُؤْمِنُونَ

لقـد أخـذ اللّه میثاقهم فی جانب الطور أن یعملوا بالتوراة لکنهم نقضوا المیثاق، و أخـذ منهم المیثاق أن یؤمنوا بالنّبی الخاتم المذکور عندهم فی التوراة فلم یؤمنوا به.

یهود «بنی النضیر» و «بنی قریضة» عقدوا المیثاق مع النّبی لدی هجرته المبارکة إلی المدینة أن لا یتواطؤوا مع أعدائه، لکنهم نقضوا العهد، و تعاونوا مع مشرکی مکة فی حرب الأحزاب ضد المسلمین.

و هذه الخصلة فی هذا الفریق من الیهود نجدها الیوم متجسدة فی الصهیونیة العالمیة التی تضع کل المواثیق و القرارات و المعاهدات الدولیة تحت قدمیها، متی ما تعرّضت مصالحها للخطر.

الآیة الأخیرة تؤکد بصراحة أکثر علی هذا الموضوع: وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِیقٌ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ کِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ کَأَنَّهُمْ لا یَعْلَمُونَ

کان أحبار الیهود یبشرون النّاس قبل البعثة النبویة بالرّسول الموعود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۱۳

و یذکرون لهم علاماته و صفاته، فلمّا بعث نبی الإسلام، أعرضوا عمّا جاء فی کتابهم، و کأنهم لم یروا و لم یقرءوا ما ذکرته التوراة فی هذا المجال.

هذه هی النتیجة الطبیعیة للأفراد الغارقین فی ذاتیاتهم، هؤلاء- حتی فی دعوتهم إلی حقیقة من الحقائق- لا یتجردون عن ذاتیاتهم، فإن وصلوا إلی تلک الحقیقة و وجدوها تنسجم مع أهوائهم، أعرضوا عنها و نبذوها وراء ظهروهم.

بحوث

۱- واضح أن تعبیر «النّزول» أو «الإنزال» بشأن القرآن الکریم لا یعنی الانتقال المکانی من الأعلی إلی الأسفل و أن اللّه مثلا فی السماء و أنزل القرآن إلی الأرض، بل التعبیر یشیر إلی علو مکانة ربّ العالمین.

۲- کلمة «فاسق» من مادة «فسق» و تعنی خروج النّواة من الرطب، فقد تسقط الرطبة من النخلة، و تنفصل عنها النّواة. و یقال عن هذا الانفصال فی العربیة «فسقت النواة»، ثم أطلقت الکلمة علی کل انفصال عن خط طاعة اللّه، و عن طریق العبودیة.

فکما أن النّواة تفسق إذا نزعت لباسها الحلو المفید المغذی، کذلک الفاسق ینزع عنه بفسقه کل قیمه و شخصیّته الإنسانیة.

۳- القرآن فی حدیثه عن الیهود لا یوبّخ الجمیع بسبب ذنوب الأکثریة، بل یستعمل کلمات مثل «فریق» «أکثر» لیصون حق الأقلیة المؤمنة المتقیة، و طریقة القرآن هذه فی حدیثه عن الأمم درس لنا کی لا نحید فی أحادیثنا و مواقفنا عن الحقّ و الحقیقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۱۴

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۰۲ الی ۱۰۳]

اشارة

وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّیاطِینُ عَلی مُلْکِ سُلَیْمانَ وَ ما کَفَرَ سُلَیْمانُ وَ لکِنَّ الشَّیاطِینَ کَفَرُوا یُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنْزِلَ عَلَی الْمَلَکَیْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ وَ ما یُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّی یَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَکْفُرْ فَیَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما یُفَرِّقُونَ بِهِ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّینَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ یَتَعَلَّمُونَ ما یَضُرُّهُمْ وَ لا یَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (۱۰۲) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَیْرٌ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (۱۰۳)

التّفسیر

سلیمان و سحرة بابل

یفهم من الأحادیث أن مجموعة من النّاس مارست السحر فی عصر النّبی سلیمان علیه السّلام، فأمر سلیمان بجمع کل أوراقهم و کتاباتهم، و احتفظ بها فی مکان خاص. (لعل الاحتفاظ بها یعود إلی إمکان الاستفادة منها فی إبطال سحر

السحرة).

بعد وفاة سلیمان عمدت جماعة إلی إخراج هذه الکتابات، و بدأوا بنشر السحر و تعلیمه. و استغلت فئة هذه الفرصة فأشاعت أن سلیمان لم یکن نبیّا أصلا، بل کان یسیطر علی ملکه و یأتی بالأمور الخارقة للعادة عن طریق السحر! مجموعة من بنی إسرائیل سارت مع هذه الموجة و لجأت إلی السحر، و ترکت التوراة.

عند ما ظهر النّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و جاءت آیات القرآن مؤیدة لنبوة سلیمان، قال بعض أحبار الیهود: ألا تعجبون من محمّد یقول: سلیمان نبی و هو ساحر! و جاءت الآیة ترد علی مزاعم هؤلاء و تنفی هذه التّهمة الکبری عن سلیمان علیه السّلام [۳۵۴].

الآیة الاولی إذن تکشف فضیحة اخری من فضائح الیهود و هی اتهامهم لنبی اللّه بالسحر و الشعوذة، تقول الآیة عن هؤلاء القوم: وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّیاطِینُ عَلی مُلْکِ سُلَیْمانَ

و الضمیر فی «و اتّبعوا» قد یعود إلی المعاصرین للنبی، أو إلی أولئک الیهود المعاصرین لسلیمان، أو لکلا الفریقین.

و المقصود بکلمة «الشّیاطین» قد یکون الطغاة من البشر أو من الجن أو من کلیهما.

ثم تؤکد الآیة علی نفی الکفر عن سلیمان: وَ ما کَفَرَ سُلَیْمانُ

فسلیمان علیه السّلام لم یلجأ إلی السحر، و لم یحقق أهدافه عن طریق الشعوذة:

وَ لکِنَّ الشَّیاطِینَ کَفَرُوا یُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.

هؤلاء الیهود لم یستغلوا ما تعلموه من سحر الشیاطین فحسب، بل أساؤوا

الاستفادة أیضا من تعلیمات هاروت و ماروت: وَ ما أُنْزِلَ عَلَی الْمَلَکَیْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ [۳۵۵].

هاروت و ماروت ملکان إلهیّان جاءا إلی النّاس فی وقت راج السحر بینهم و ابتلوا بالسحرة و المشعوذین، و کان هدفهما تعلیم النّاس سبل إبطال السحر، و کما إن إحباط مفعول القنبلة یحتاج إلی فهم لطریقة فعل القنبلة، کذلک کانت عملیة إحباط السحر تتطلب تعلیم النّاس اصول السحر، و لکنهما کانا یقرنان هذا التعلیم بالتحذیر من السقوط فی الفتنة بعد تعلم السحر وَ ما یُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّی یَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَکْفُرْ.

و سقط أولئک الیهود فی الفتنة، و توغلوا فی انحرافهم، فزعموا أن قدرة سلیمان لم تکن من النّبوة، بل من السحر و السحرة. و هذا هو دأب المنحرفین دائما، یحاولون تبریر انحرافاتهم باتهام العظماء بالانحراف.

هؤلاء القوم لم ینجحوا فی هذا الاختبار الإلهی، فأخذوا العلم من الملکین و استغلّوه علی طریق الإفساد لا الإصلاح، لکن قدرة اللّه فوق قدرتهم و فوق قدرة ما تعلموه: فَیَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما یُفَرِّقُونَ بِهِ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ، وَ ما هُمْ بِضارِّینَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ یَتَعَلَّمُونَ ما یَضُرُّهُمْ وَ لا یَنْفَعُهُمْ

لقد تهافتوا علی اقتناء هذا المتاع الدّنیوی و هم عالمون بأنه یصادر آخرتهم وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ [۳۵۶].

لقد باعوا شخصیتهم الإنسانیة بهذا المتاع الرخیص وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ

لقد أضاعوا سعادتهم و سعادة مجتمعهم عن علم و وعى، و غرقوا فى مستنقع الكفر و الانحراف وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۱۷

بحوث

۱- قصّهٔ هاروت و ماروت

كثر الحديث بين أصحاب القصص و الأساطير عن هذين الملكين، و اختلطت الخرافهٔ بالحقيقهٔ بشأنهما، حتى ما عاد بالإمكان استخلاص الحقائق مما كتب بشأن هذه الحادثهٔ التاريخيهٔ، و يظهر أن أصح ما قيل بهذا الشأن و أقربه إلى الموازين العقليهٔ و التاريخيهٔ و الأحاديث الشريفهٔ هو ما يلى:

شاع السحر فى أرض بابل و أدّى إلى إحراج النّاس و ازعاجهم، فبعث اللّه ملكين بصورهٔ البشر، و أمرهما أن يعلما النّاس طريقهٔ إحباط مفعول السحر، ليتخلصوا من شرّ السحرهٔ.

كان الملكان مضطرين لتعليم النّاس اصول السحر، باعتبارها مقدمهٔ لتعليم طريقهٔ إحباط السحر. و استغلت مجموعهٔ هذه الأصول، فانخرطت فى زمرهٔ الساحرين، و أصبحت مصدر أذى للناس.

الملكان حذرا النّاس- حين التعليم- من الوقوع فى الفتنهٔ، و من السقوط فى حضيض الكفر بعد التعلم، لكن هذا التحذير لم يؤثّر فى مجموعهٔ منهم ۳۵۷].

و هذا الذى ذكرناه ينسجم مع العقل و المنطق، و تؤيده أحاديث أئمّهٔ آل البيت عليهم السّلام منها ما ورد فى كتاب عيون أخبار الرضا (و قد أورده فى أحد طرقه عن الإمام الرضا عليه السّلام فى طريق آخر عن الامام الحسن العسكرى عليه السّلام)[۳۵۸].

أمّا ما تتحدث عنه بعض كتب التاريخ و دوائر المعارف بهذا الشأن فمشوب بالخرافات و الأساطير، و بعيد كل البعد عمّا ذكره القرآن، من ذاک مثلا أن الملكين أرسلا إلى الأرض ليثبت لهما سهولهٔ سقوطهما فى الذنب إن كانا مكان البشر، فنزلا و ارتكبا أنواع الآثام و الذنوب و الكبائر!! و النص القرآنى بعيد عن هذه الأساطير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۱۸

و منزّه منها.

۲- لفظ هاروت و ماروت

زعم بعض المحققين أن «هاروت» و «ماروت» لفظان فارسيان قديمان.

و قال: إن كلمهٔ «هوروت» تعنى «الخصب»، و «موروت» تعنى «عديم الموت» و اسما هاروت و ماروت مأخوذان، من هذين اللفظين ۳۵۹]. و هذا الاتجاه فى فهم معنى الاسمين لا يقوم على دليل.

و فى كتاب «أوستا» وردت ألفاظ مثل: «هرودات» و يعنى «شهر خرداد»، و كذلك «أمردات» بمعنى عديم الموت، و هو نفسه اسم «شهر مرداد»[۳۶۰].

و فى معجم (دهخدا) تفسير للفظين شبيه بما سبق.

و العجیب أن البعض ذهب إلى أن هاروت و ماروت من البشـر و من سکنة بابل!، و قیل أیضا أنّهما من الشیاطین!! و الآیات المذکورة ترفض ذلک طبعا.

۳- کیف یکون الملک معلما للإنسان؟

یبقى السّؤال عن الرابطـة بین الملک و الإنسان، و هل یمکن أن تکون بینهما رابطـة تعلیمیـة؟ الآیات المـذکورة تصـرح بأن هاروت و مـاروت علّمـا النّاس السـحر، و هـذا تمّ طبعـا من أجـل إحبـاط سـحر السـحرة فی ذلک المجتمع. فهل یمکن للملک أن یکون معلما للإنسان؟

الأحـادیث الواردة بشأن الملکین تجیب على هـذا السّؤال، و تقول: إن اللّه بعثهما على شـکل البشـر، و هـذه الحقیقـة یمکن فهمها من الآیة التاسعة لسورة الأنعام أیضا، حیث یقول تعالى: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَکاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۱۹

۴- لا قدرة لأحد على عمل دون إذن اللّه

نفهم من قول اللّه فی هذه الآیات أن السـحرة ما کانوا قادرین على إنزال الضّـر بأحد دون إذن اللّه سبحانه، و لیس فی الأمر «جبر» و لا إرغام، بل إن هـذا المعنى یشـیر إلى مبـدأ أساس فی التوحیـد، و هو إن کلّ القوى فی هـذا الکون تنطلق من قـدرة اللّه تعالى، النار إذ تحرق إنما تحرق بإذن اللّه، و السکین إذ تقطع إنما تقطع بأمر اللّه. لا یمکن للساحر أن یتدخل فی عالم الخلیفة خلافا لإرادة اللّه.

کـلّ مـا نراه من آثـار و خواص إنما هی آثار و خواص جعلها اللّه سـبحانه للموجودات المختلفـة، و من هـذه الموجودات من یحسـن الاستفادة من هذه الهبة الإلهیة و منهم من یسیء الاستفادة منها. و «الإختیار» الذی منحه اللّه للإنسان إنما هو وسیلة لاختباره و تکامله.

۵- السحر و تأریخه:

اشارة

الحـدیث عن السـحر و تـاریخه طویل، و نکتفی هنا بالقول إن جـذوره ضاربـة فی أعماق التاریـخ، و لکن بـدایاته و تطوراته التاریخیة یلفّها الغموض و لا یمکن تشخیص أول من استعمل السحر.

و بشأن معناه یمکن القول: إنه نوع من الأعمال الخارقة للعادة، تؤثر فی وجود الإنسان، و هو أحیانا نوع من المهارة و الخفة فی الحرکة و إیهام للأنظار، کما إنه أحیانا ذو طابع نفسی خیالی.

و السحر فی اللغة له معنیان:

۱- الخداع و الشّعوذة و الحرکة الماهرة.

۲- کل ما لطف و دقّ.

و الراغب ذکر للفظ السحر ثلاثة معان قرآنیة:

الأوّل: الخداع و تخییلات لا حقیقة لها، نحو ما یفعله المشعبذ بصرف الأبصار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۲۰

عما يفعله لخفة يده، و ما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع.

الثّاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه.

الثّالث: هو اسم لفعل يزعمون أنه من قوّته يغيّر الصور و الطبائع فيجعل الإنسان حمارا، و لا حقيقة لذلك ۳۶۱].

نستنتج من دراسة ۵۱ موضعا من مواضع ذكر كلمة «سحر» فى القرآن الكريم أن السحر ينقسم فى رأى القرآن الكريم على قسمين:

۱- الخداع و الشعبذة و خفة اليد و ليس له حقيقة كما جاء فى قوله تعالى:

فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى ۳۶۲] و قوله: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ ۳۶۳] و يستفاد من هذه الآيات أن السحر ليس له حقيقة موضوعية حتى يمكنه التأثير فى الأشياء، بل هو خفة حركة اليد و نوع من خداع البصر فيظهر ما هو خلاف الواقع.

۲- يستفاد من آيات اخرى أن للسحر أثرا واقعيا، كقوله سبحانه:

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ و قوله: وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ كما مرّ فى الآيات التى نحن بصددها.

و هل إن للسحر تأثيرا نفسيا فقط، أم يتعدى ذلك إلى الجسم أيضا؟ لم تشر الآيات أعلاه إلى ذلك، و يعتقد بعض النّاس أن هذا التأثير نفسى لا غير.

جدير بالذكر أن بعض ألوان السحر كانت تمارس عن طريق الاستفادة من خواص المواد الكيمياوية و الفيزياوية لخداع النّاس. فيحدثنا التاريخ أن سحرة فرعون وضعوا داخل حبالهم و عصيّهم مادة كيمياوية خاصّة (و لعلها الزئبق)، كانت تتحرك بتأثير حرارة الشمس أو أية حرارة اخرى، و توحى للمشاهد أنها حيّة. و هذا اللون من السحر ليس بقليل فى عصرنا الرّاهن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۱

السّحر فى رأى الإسلام

أجمعت الفقهاء على حرمة تعلم السحر و ممارسته، و

جاء عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «من تعلّم من السّحر قليلا أو كثيرا فقد كفر و كان آخر عهده بربّه»[۳۶۴].

و لكن- كما ذكرناه يجوز تعلم السحر لإبطال سحر السحرة، بل يرتفع الجواز أحيانا إلى حد الوجوب الكفائى، لإحباط كيد الكائدين و الحيلولة دون نزول الأذى بالنّاس من قبل المحتالين. دليلنا على ذلك حديث

روى عن الإمام أبى عبد اللّه جعفر محمّد الصادق عليه السّلام: «كان عيسى بن شقفى ساحرا يأتيه النّاس و يأخذ على ذلك الأجر فقال له جعلت فداك أنا رجل كانت صناعتى السّحر و كنت آخذ عليه الأجر و كان معاشى و قد حججت منه و منّ اللّه علىّ بلقائك و قد تبت إلى اللّه عزّ و جلّ فهل لى فى شىء من ذلك مخرج فقال له أبو عبد اللّه حلّ و لا تعقد»[۳۶۵].

و يستفاد من هذا الحديث أن تعلّم السحر و العمل به من أجل فتح و حلّ عقد السحر لا إشكال فيه.

السحر فى رأى التوراة

أعمال السحر و الشّعبذة فى كتب العهد القديم (التوراة و ملحقاتها) هى أيضا ذميمة غير جائزة. فالتوراة تقول: «لا تلتفتوا إلى الجان و لا تطلبوا التوابع فتنجسوا بهم و أنا الربّ إلهكم»[۳۶۶].

و جاء فى موضع آخر من التوراة: «و النفس التى تلتفت إلى الجان و إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۲

التوابع لتزنى ورائهم اجعل وجهى ضد تلك النفس و اقطعها من شعبها»[۳۶۷].

و یقول قاموس الکتاب المقدس: «واضح أن السحر لم یکن له وجود فی شریعة موسی، بل إن الشریعة شددت کثیرا علی أولئک الذین کانوا یستمدون من السحر».

و من الطریف أن قاموس الکتاب المقدس الذی یؤکد علی أن السحر مذموم فی شریعة موسی، یصرح بأن الیهود تعلّموا السحر و عملوا به خلافا لتعالیم التوراة فیقول: «... و لکن مع ذلک تسرّبت هذه المادة الفاسدة بین الیهود، فآمن بها قوم، و لجأوا إلیه فی وقت الحاجة»[۳۶۸].

و لذلک ذمهم القرآن، و أدانهم لجشعهم و طمعهم و تهافتهم علی متاع الحیاة الدنیا.

السحر فی عصرنا

توجد فی عصرنا مجموعة من العلوم کان السحرة فی العصور السالفة یستغلونها للوصول إلی مآربهم.

۱- الاستفادة من الخواص الفیزیاویة و الکیمیاویة للأجسام، کما ورد فی قصّة سحرة فرعون و استفادتهم من خواص الزئبق أو أمثاله لتحریک الحبال و العصیّ.

واضح أن الاستفادة من الخصائص الکیمیاویة و الفیزیاویة للأجسام لیس بالعمل الحرام، بل لا بدّ من الاطلاع علی هذه الخصائص لاستثمار مواهب الطبیعة، لکن المحرم هو استغلام هذه الخواص المجهولة عند عامة النّاس لإیهام الآخرین و خداعهم و تضلیلهم، مثل هذا العمل من مصادیق السحر، (تأمل بدقة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۲۳

۲- الاستفادة من التنویم المغناطیسی، و الهیبنوتیزم، و المانیةتیزم، و التلەباتی (انتقال الأفکار من المسافات البعیدة).

هذه العلوم هی أیضا إیجابیة یمکن الاستفادة منها بشکل صحیح فی کثیر من شؤون الحیاة. لکن السحرة کانوا یستغلونها للخداع و التضلیل.

و لو استخدمت هذه العلوم الیوم أیضا علی هذا الطریق المنحرف فهی من «السحر» المحرّم.

بعبارة موجزة: إن السحر له معنی واسع یشمل کل ما ذکرناه هنا و ما أشرنا إلیه سابقا.

و من الثابت کذلک أن قوة الإرادة فی الإنسان تنطوی علی طاقات عظیمة.

و تزداد هذه الطاقات بالریاضات النفسیة، و یصل بها الأمر أنها نستطیع أن تؤثر علی الموجودات المحیطة بها، و هذا مشهود فی قدرة المرتاضین علی القیام بأعمال خارقة للعادة نتیجة ریاضاتهم النفسیة.

جدیر بالذکر أن هذه الریاضات تکون مشروعة تارة، و غیر مشروعة تارة اخری. الریاضات المشروعة تخلق فی النفوس الطاهرة قوة إیجابیة بناءة، و الریاضات غیر المشروعة تخلق قوة شیطانیة، و قد تکون کلا القوتین قادرتین علی القیام بأعمال خارقة للعادة، لکن الاولی إیجابیة بناءة، و الاخری مخربة هدامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۲۴

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۰۴ الی ۱۰۵]

اشارة

یـا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاـ تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا وَ اسْـمَعُوا وَ لِلْکافِرِینَ عَـذابٌ أَلِیمٌ (۱۰۴) مـا یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْـلِ الْکِتابِ وَ لا الْمُشْرِکِینَ أَنْ یُنَزَّلَ عَلَیْکُمْ مِنْ خَیْرٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ اللَّهُ یَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ (۱۰۵)

سبب النّزول

روی عن ابن عباس أنه قال: إن الصحابة كانوا يطلبون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لدى تلاوته الآيات و بيانه الأحكام الإلهية أن يتمهّل فى حديثه حتى يستوعبوا ما يقوله، و حتى يعرضوا عليه أسئلتهم، و كانوا يستعملون لذلك عبارة: «راعنا» أى أمهلنا. و اليهود حوّروا معنى هذه الكلمة لتكون من «الرعونة» فتكون راعنا بمعنى اجعلنا رعناء، و اتخذوا ذلك وسيلة للسخرية من النّبى و المسلمين.

الآية تطلب من المسلمين أن يقولوا «انظرنا» بدلا من «راعنا» لسد الطريق أمام طعن الأعداء.

و قال بعض المفسرين: إنّ عبارة «راعنا» فى كلام اليهود سبّة تعنى «اسمع و لمّا تسمع»، و كانوا يرددون هذه العبارة مستهزئين!.

و قيل إن اليهود كانوا يقولون بدلا من راعنا «راعينا» (راعى+ نا)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۵

و يخاطبون بذلك النّبى ساخرين ۳۶۹]. و ليس بين هذه العلل المذكورة لنزول الآية الكريمة تناقض، فقد تكون بأجمعها صحيحة.

التّفسير

لا توفّروا للأعداء فرصة الطعن:

الآية الكريمة تخاطب المسلمين قائلة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ

ممّا سبق من سبب نزول هذه الآية الكريمة نستنتج أنّ على المسلمين أن لا يوفروا للأعداء فرصة الطعن بهم، و أن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعة يسيئون بها إلى الجماعة المسلمة. عليهم أن يتجنبوا حتى ترديد عبارة يستغلها العدوّ لصالحه.

الآية تصرّح بالنهى عن قول عبارة تمكن الأعداء أن يستثمروا أحد معانيها لتضعيف معنويات المسلمين، و تأمرهم باستعمال كلمة اخرى غير تلك الكلمة القابلة للتحريف و لطعن الأعداء.

حين يشدّد الإسلام إلى هذا الحد فى هذه المسألة البسيطة، فإن تكليف المسلمين فى المسائل الكبرى واضح، عليهم فى مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الأعداء، و أن لا يفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون الداخليون و الأجانب للإساءة إلى سمعة الإسلام و المسلمين.

جدير بالذكر أن عبارة راعنا- إضافة إلى ما فيها من معنى آخر استغله اليهود- فيها نوع من سوء الأدب، لأنّها من باب المفاعلة، و باب المفاعلة يفيد المبادلة و الاشتراك، و هى لذلك تعنى: راعنا لنراعيك، و قد نهى القرآن عن ترديدها[۳۷۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۶

الآية التالية تكشف عن حقيقة ما يكنّه مجموعة من أهل الكتاب و المشركين من حقد و عداء للجماعة المؤمنة: ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ و سواء ودّ هؤلاء أم لم يودّوا فرحمة اللّه لها سنّة إلهية و لا تخضع للميول و الأهواء: وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم

الحاقدون لم يطيقوا أن يروا ما شمل اللّه المسلمين من فضل و نعمة، و ما منّ عليهم من رسالة عظيمة، و لكن فضل اللّه عظيم.

بحث

مغزی قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أکثر من ثمانین موضعا خاطب اللّه المسلمین فی کتابه الکریم بهذه العبارة، و کل هذه المواضع من القرآن الکریم نزلت فی المدینة، و لا وجود لهذه العبارة فی الآیات المکیة، و لعل ذلک یعود إلی تشکل الجماعة المسلمة فی المدینة، و إلی ظهور المجتمع الإسلامی بعد الهجرة. و لذلک خاطب اللّه الجماعة المؤمنة بعبارة یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا.

و هذا الخطاب یتضمن إشارة إلی میثاق التسلیم الذی عقدته الجماعة المسلمة مع ربّها بعد الإیمان به، و هذا المیثاق یفرض علی الجماعة الطاعة و الانصیاع لأوامر ربّ العالمین، و الاستجابة لما یأتی بعد هذه العبارة من أحکام.

جدیر بالذکر أن کثیرا من المصادر الإسلامیة بما فی ذلک مصادر أهل السنة،

روت عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قوله: «ما أنزل اللّه آیة فیها یا أیّها الّذین آمنوا إلّا و علیّ رأسها و أمیرها»[۳۷۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۷

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۰۶ الی ۱۰۷]

اشارة

ما نَنْسَخْ مِنْ آیَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَیْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۰۶) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما لَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ (۱۰۷)

التّفسیر

الغرض من النّسخ

الآیة الاولی تشیر أیضا إلی بعد آخر من أبعاد حملة التشکیک الیهودیة ضد المسلمین.

کان هؤلاء القوم یخاطبون المسلمین أحیانا قائلین لهم إن الدین دین الیهود و أن القبلة قبلة الیهود، و لذلک فإن نبیّکم یصلی تجاه قبلتنا (بیت المقدس)، و حینما نزلت الآیة ۱۴۴ من هذه السّورة و تغیّرت بذلک جهة القبلة، من بیت المقدس إلی مکة، غیّر الیهود طریقة تشکیکهم، و قالوا: لو کانت القبلة الاولی هی الصحیحة، فلم هذا التغییر؟ و إذا کانت القبلة الثانیة هی الصحیحة، فکل أعمالکم السابقة- إذن- باطلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۸

القرآن الکریم فی هذه الآیة یردّ علی هذه المزاعم و ینیر قلوب المؤمنین ۳۷۲].

و یقول: ما نَنْسَخْ مِنْ آیَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَیْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ... و لیس مثل هذا التغییر علی اللّه بعسیر أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ؟! الآیة التالیة تؤکد مفهوم قدرة اللّه سبحانه و تعالی و حاکمیته فی السماوات و الأرض و فی الأحکام، فهو البصیر بمصالح عباده: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و فی هذه العبارة من الآیة أیضا تثبیت لقلوب المؤمنین، کی لا تتزلزل أمام حملات التشکیک هذه، و تستمر الآیة فی تعمیق هذا التثبیت، مؤکدة أن المجموعة المؤمنة ینبغی أن تعتمد علی اللّه وحده، و تستند إلی قوته و قدرته دون سواه، فلیس فی هذا الکون سند حقیقی سوی اللّه سبحانه: وَ ما لَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ.

بحوث

۱- هل يجوز النّسخ فى الأحكام؟

النسخ فى اللغة الإزالة، و فى الاصطلاح تغيير حكم شرعى و إحلال حكم آخر محله، من ذلك:

۱- المسلمون كانوا يصلون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، و استمروا على ذلك ستة عشر شهرا، ثم نزل الأمر بتغيير القبلة، فوجب على المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة.

۲- الآية ۱۵ من سورة النساء قررت معاقبة الزانية بعد شهادة أربعة شهود بإمساكها فى البيت حتى الوفاة، أو يجعل اللّه لها سبيلا، و الآية الثانية من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۲۹

النور نسخت الآية المذكورة و بدّلت الحكم بمائة جلدة.

و هنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان فى الحكم مصلحة فلما ذا نسخ؟ و إن لم يكن كذلك فلما ذا شرع؟ لماذا لم تطرح الشريعة منذ البداية حكما غير قابل للنسخ؟

علماء الإسلام أجابوا منذ القديم على هذا السؤال، و تقرير هذا الجواب باختصار كما يلى:

نعلم أن بعض احتياجات الإنسان ثابتة لا تقبل التغيير، لأنها ترتبط بفطرة الإنسان و طبيعته، و بعضها الآخر تتغير بتغير الزمان و ظروف البيئة، و هذه المتغيرات قد تضمن سعادة الإنسان فى زمن معين، لكنها تصبح عقبة أمام تقدم الفرد فى زمان آخر.

قد يكون نوع من الدواء نافعا للمريض فى ظرف زمنى معين، و قد لا يكون نافعا- بل ضارا- فى مرحلة نقاهة المريض، لذلك يأمر الطبيب بدواء فى وقت، ثم يأمر بقطعه و الامتناع عن تناوله فى وقت آخر.

قد يكون درس معين مفيدا للطالب فى مرحلة دراسية معينة، لكن هذا الدرس يصبح عديم الفائدة فى المراحل الدراسة التالية. المنهج التعليمى الصحيح ينبغى أن ينظم الدروس بشكل يتناسب مع حاجة الطالب فى كل مرحلة من مراحله الدراسية.

هذه المسألة تتضح أكثر فى إطار القانون اللازم لتكامل الإنسان و المجتمع الإنسانى، هذا القانون لا بدّ أن يتضمن متغيرات كى يكون المنهج التكاملى مفيدا لكل مراحل مسيرة المجتمع. و تزداد أهمية هذه التغييرات عند اندلاع الثورات الاجتماعية و العقائدية، و تزداد ضرورة مواكبة متطلبات التغيير فى كل مرحلة من مراحل الثورة.

لا بدّ من التأكيد أنّ اصول الأحكام الإلهية ثابتة لا يعتريها التغيير، فالتوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۰

و العدالة الاجتماعية و سائر الأصول و المبادئ المشابهة ثابتة لا تتغير، و إنما يطرأ التغيير على المسائل الفرعية و الثانوية.

و من الضرورى أن نؤكد أيضا أن تكامل الدين قد يبلغ مرحلة يصبح فيها (الدين الخاتم)، و تصبح جميع أحكامه ثابتة لا تقبل التغيير (سنشرح مسألة خاتمية الرسالة فى تفسير الآية ۴۰ من سورة الأحزاب).

اليهود، مع اعتراضهم على المسلمين بشأن نسخ حكم القبلة الاولى، أقرّوا النسخ فى الأحكام الإلهيّة، و استنادا إلى ما جاء فى مصادرهم الدينية.

تذكر التوراة أن كل الحيوانات كانت حلا لنوح عليه السّلام حين نزل من سفينته، لكن هذا الحكم نسخ فى شريعة موسى، و حرّم قسم من الحيوانات ۳۷۳].

۲- المقصود من الآية

الآیة فی اللغة العلامة، و فی القرآن لها معان متعددة:

۱- مقاطع من القرآن، مفصولة عن بعضها بعلائم خاصة، و هذا المعنی للآیة نجده فی قوله تعالی: تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِ [۳۷۴].

۲- المعجزة سمیت فی القرآن آیة کقوله سبحانه: وَ اضْمُمْ یَدَکَ إِلی جَناحِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ آیَةً أُخْری [۳۷۵].

۳- الـدلیل علی وجود اللّه أو المعـاد کقوله: وَ جَعَلْنَا اللَّیْلَ وَ النَّهارَ آیَتَیْنِ [۳۷۶] و قوله: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنَّکَ تَرَی الْأَرْضَ خاشِـعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِی أَحْیاها لَمُحْیِ الْمَوْتی إِنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ[۳۷۷].

۴- الأشیاء البارزة الملفتة للأنظار کالأبنیة الشاهقة، کما فی قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۱

أَ تَبْنُونَ بِکُلِّ رِیعٍ آیَةً تَعْبَثُونَ [۳۷۸].

و المعنی المشترک بین کل هذه المعانی هو «العلامة».

و قوله سـبحانه: ما نَنْسَـخْ مِنْ آیَـةٍ ... یشـیر إلی نسـخ الأحکام، فالحکم النّاسـخ خیر من المنسوخ أو مثله، أو إنه یشـیر إلی نسخ معجزة الأنبیاء، فیکون المعنی أن معجزة النّبی التالی أفصح و أوضح من معجزة النّبی السابق.

ثمّة روایات فی تفسیر هذه الآیة ذکرت أن المقصود من نسخ الآیة هو وفاة الإمام و مجیء الإمام التالی بعده، و هذا طبعا بیان مصداق من مصادیق الآیة، لا تحدیدا لمفهومها.

۳- تفسیر عبارة «ننسها»

جملة «ننسها» فی الآیة معطوفة علی جملة «ننسخ» و هی من مادة «أنساء» بمعنی التأخیر أو الحذف من الأذهان [۳۷۹].

فما هو معنی هذه العبارة فی الآیة الکریمة؟

المقصود من العبارة هو: ما ننسخ من آیة أو نؤخر نسخها استنادا إلی مصالح معینة ... نأت بخیر منها أو مثلها ....

فعبارة «ننسخ» تشیر إلی النسخ علی المدی القصیر، و عبارة «ننسها» النسخ علی المدی البعید، (لا حظ بدقّة).

ثمّة احتمالات اخری ذکرت فی هذا المجال لا تبلغ أهمیتها ما ذکرناه.

۴- تفسیر أَوْ مِثْلِها.

سؤال آخر یطرح فی هذا المجال بشأن عبارة «أو مثلها» فلو کان الحکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۲

النّاسخ مثل الحکم المنسوخ فلا فائدة من هذا التغییر، النسخ تظهر فائدته حین یکون النّاسخ خیرا من المنسوخ.

و الجواب علی ذلک هو أن الآیة النّاسخة لها آثار فی زمانها کتلک الآثار التی کانت الآیة المنسوخة فی زمانها.

بعبارة أوضـح: قـد یکون لحکم الیوم فوائد معینة، لکن هذه الفوائد لا تظهر لهذا الحکم غدا، و لا بدّ أن ینسخ هذا الحکم بحکم آخر تکون له فی زمن لا حق- علی الأقل- نفس الفوائد التی کانت للمنسوخ فی زمن سابق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۳

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۰۸]

اشارهٔ

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱۰۸)

سبب النّزول

تعددت الآراء فی کتب التّفسیر حول سبب نزول هذه الآیهٔ الشریفهٔ، إلّا أنها متقاربهٔ فی المضمون و النتیجهٔ.

فقد نقل عن ابن عباس أنه: جاء وهب بن زید، و رافع بن حرملهٔ إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و قالا: إئت لنا بکتاب من اللّه مرسل إلینا نقرأه لکی نؤمن بک، أو أجر الأنهار لنا حتی نتبعک! و قال بعض آخر إن جماعهٔ من الاعراب جاءوا إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و طلبوا منه ما طلب بنو إسرائیل من موسی، فقالوا: أرنا اللّه جهرهٔ.

و قال آخرون: إنهم طلبوا من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أن یجعل لهم صنما من شجرهٔ خاصهٔ (ذات أنواط) لیعبدوه کما قال بنو إسرائیل لموسی: اجْعَلْ لَنا إِلهاً کَما لَهُمْ آلِهَةٌ. و الآیهٔ أعلاه نزلت جوابا لهؤلاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۴

التّفسیر

حجج واهیهٔ

هذا الآیهٔ الکریمهٔ، و إن کانت تخاطب مجموعهٔ من المسلمین ضعاف الإیمان أو المشرکین إلّا أنّها ترتبط أیضا بمواقف الیهود.

لعل هذا السؤال وجه إلی الرّسول بعد تغییر القبلهٔ، و بعد حملات التشکیک التی شنها الیهود بین المسلمین و غیر المسلمین، و اللّه سبحانه فی هذه الآیهٔ الکریمهٔ نهی عن توجیه مثل هذه الأسئلهٔ السخیفهٔ أَمْ تُرِیدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَکُمْ کَما سُئِلَ مُوسی مِنْ قَبْلُ ! مثل هذا العمل إعراض عن الإیمان و اتجاه نحو الکفر، و لذلک قالت الآیهٔ:

وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ

الإسلام طبعا لا یمنع طرح الأسئلهٔ العلمیهٔ و المنطقیهٔ، و لا یحول دون طلب المعجزهٔ من أجل اثبات صحهٔ الدعوهٔ، لأن مثل هذه الأسئلهٔ و الطلبات هی طریق الإدراک و الفهم و الإیمان. و هذه الآیهٔ الکریمهٔ تشیر إلی أولئک الذین یتذرعون بمختلف الحجج الواهیهٔ کی یتخلصوا من حمل أعباء الرسالهٔ.

هؤلاء کانوا قد شاهدوا من الرّسول معاجز کافیهٔ لإیمانهم بالدعوهٔ و صاحبها، لکنهم یتقدمون إلی النّبی بطلب معاجز اقتراحیهٔ اخری! المعجزهٔ لیست العوبهٔ بید هذا و ذاک کی تحدث وفق المیول و الاقتراحات و المشتهیات، بل إنها ضرورهٔ لازمهٔ للاطمئنان من صدق أقوال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و لیست مهمّهٔ النّبی صنع المعاجز لکل من تهوی نفسه معجزهٔ.

ثم هناک من الأسئلهٔ ما هو بعید عن العقل و المنطق، کرؤیهٔ اللّه جهرهٔ، و کطلب اتخاذ الصنم.

القرآن الکریم ینبه فی هذه الآیهٔ بأن المجموعهٔ البشریهٔ التی لا تسلک طریق العقل و المنطق فی اسئلتها و مطالبتها، سینزل بها ما نزل بقوم موسی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۵

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۰۹ الی ۱۱۰]

اشارة

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۰۹) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۰)

التّفسير

حسد و عناد

كثير من أهل الكتاب و خاصة اليهود لم يكتفوا بإعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودّون أن يرتد المسلمون عن دينهم، و لم يكن ذلك إلّا عن حسد يستعر فى أنفسهم، تقول الآية: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُ

و أمام هذه المواقف الدنيئة و النظرات الضيقة و الآمال التافهة و النوايا الخبيثة التى تحملها الفئة الكافرة، يحدد الإسلام موقف الجماعة المسلمة، على أساس من رحابة الصدر وسعة الأفق و بعد النظرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۶

فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذا الإمر الإلهى نزل حيث كان المسلمون بحاجة إلى بناء المجتمع الإسلامى. و فى تلك الظروف يوجب على المسلمين أن يلجأوا إلى سلاح العفو و الصفح حتى يأتى اللّه بأمره.

كثير من المفسرين قالوا إن «أمر اللّه» فى هذه الآية يعنى «أمر الجهاد»، و لعل الجماعة المسلمة لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة دامية حين نزلت هذه الآية، و لذلك قيل إن آيات الجهاد نسخت هذه الآية.

و لعل التعبير بالنسخ فى هذا الموضع ليس بصحيح، لأن الآية تحمل فى عبارتها الإطار الذى يحدّها بفترة زمنية محدودة.

الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامّين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز ارتباط الإنسان باللّه، و إيتاء الزكاة و هى أيضا رمز التكافل بين أبناء الامّة المسلمة، و كلاهما ضروريان لتحقيق الإنتصار على العدو: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ.

ثم تؤكّد الآية على خلود العمل الصالح و بقائه: وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ و اللّه سبحانه عالم بالسرائر، و يعلم دوافع الأعمال، و لا يضيع عنده أجر العاملين إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

بحوث

۱- «اصفحوا» من «صفح»، و صفح الشيء عرضه و جانبه كصفحة الوجه و صفحة السيف و صفحة الحجر، و الأمر بالصفح هو الأمر بالإعراض، لكنّ عطفها على «فاعفوا» يفهم أنه أمر بالإعراض لا عن جفاء، بل عن عفو و سماح.

و هذا التعبير يوحى أيضا أن المسلمين كانت لهم قدرة المقابلة و عدم الصفح،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۷

لکن الأمر بالعفو و الصفح یستهدف إتمام الحجّة علی العدوّ، کی یهتدی من هو قابل للإصلاح. بعبارة اخری: ممارسة القوّة لیست المرحلة الاولی فی مواجهة العدوّ، بل العفو و الصفح، فإن لم یجد نفعا فالسیف.

۲- عبارة إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ قد تشیر إلی أن اللّه قادر علی أن ینصر المسلمین علی أعدائهم بطرق غیبیة، و لکن طبیعة حیاة البشر و الکون قائمة علی أن الأعمال لا تتم إلا بالتدریج و بعد توفّر المقدمات.

۳- عبارة حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ قد تکون إشارة إلی توغل هؤلاء الحسدة فی ذاتیاتهم، فالحسد قد یتخذ أحیانا طابع الدین و الرسالة، لکن حسد هؤلاء لم یکن له حتی هذا الظاهر، بل کان ضیقا شخصیا[۳۸۰].

و یحتمل أیضا أن تکون إشارة إلی أن الحسد متجذّر فی نفوسهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۸

الایتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۱۱ الی ۱۱۲]

اشارة

وَ قالُوا لَنْ یَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ کانَ هُوداً أَوْ نَصاری تِلْکَ أَمانِیُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۱۱۱) بَلی مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۱۱۲)

التّفسیر

احتکار الجنّة! القرآن فی هاتین الآیتین یشیر إلی ادعاء آخر من الادعاءات الفارغة لمجموعة من الیهود و النصاری، وَ قالُوا لَنْ یَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ کانَ هُوداً أَوْ نَصاری ۳۸۱]، ثم یجیبهم جوابا رادعا قائلا- تِلْکَ أَمانِیُّهُمْ ثم تخاطب الآیة رسول اللّه و تقول: قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ

بعد التأکید علی أن ادعاء هؤلاء فارغ لا قیمة له، و أنه مجرد أمنیة تخامر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۹

أذهانهم، یطرح القرآن المعیار الأساس لدخول الجنّة علی شکل قانون عام بَلی مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ و من هنا فالمشمولون بهذا القانون هم فی ظلال رحمة اللّه وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ

بعبارة موجزة: الجنّة و مرضاة اللّه و السعادة الخالدة لیست حکرا علی طائفة معینة، بل هی نصیب کل من یتوفر فیه شرطان:

الأوّل: التسلیم التام للّه تعالی، أو الانصیاع لأوامره سبحانه، و عدم التفریق بین هذه الأوامر، أی عدم ترک ذلک القسم من الأوامر الذی لا ینسجم مع المصالح الفردیة الذاتیة.

الثّانی: و هو ما یترتب علی التسلیم فی المرحلة الاولی، من القیام بالأعمال الصالحة و الإحسان فی جمیع المجالات.

و القرآن، بطرحه هذه الحقیقة، یرفض بشکل تام مسألة التعصب العنصری و یکسر طوق احتکار فئة معینة للسعادة، و یضع ضمنیا معیار الفوز متمثلا بالإیمان، و العمل الصالح.

بحوث

۱- «الأمانی» جمع «أمنیة» و هی الرجاء الذی لا یتحقق للإنسان.

و الآیـة تطرح أمنیـة واحـدة من أمنیات أهل الکتاب، و لکن هـذه الأمنیـة- أی أمنیـة احتکار الجنّة- هی مصـدر أمان اخری، و بعبارة اخری: أمنیتهم لها فروع و امتدادات، و لذلک عبر عنها القرآن بلفظ (أمانی).

۲- نسبت الآیة الکریمة التسلیم إلی (الوجه): بَلی مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ...، و ذلک یعود إلی أن الإنسان حین یستسلم لشیء، فأوضح مظهر لهذا الاستسلام هو أن یولی وجهه تجاه ذلک الشیء. و من المتحمل أیضا أن «الوجه» یعنی فی الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴۰

الذات، و یکون المعنی أن هؤلاء أسلموا بکل وجودهم لأوامر اللّه.

۳- الآیتان المـذکورتان تعلّمان المسـلمین عـدم الانجراف وراء الادعاءات الباطلـة غیر القائمة علی دلیل، و تعلّمهم أن یطلبوا الدلیل و البرهـان من صـاحب الادعـاء، و بـذلک یسـدّ القرآن الطریق أمام الانجراف الأعمی وراء التقلیـد، و یجعل التفکیر المنطقی سائـدا فی المجتمع.

۴- ذکر عبـارة وَ هُوَ مُحْسِنٌ بعـد طرح مسألـة التسـلیم، إشـارة إلی أن الإحسان بالمعنی الواسع للکلمـة لا یتحقق إلّا برسوخ الإیمان فی النفوس. کما تفهم العبارة أن صفة الإحسان لیست طارئة فی نفوس المؤمنین، بل هی خصلة نافذة فی أعماق هؤلاء.

و نفی الخوف و الحزن عن أتبـاع خـط التوحیـد سـببه واضـح، لأـن هؤلاء یخافون اللّه دون سواه، بینما المشـرکون یخشون من کل ما یهدد مصالحهم الدنیویة التافهة، بل یخشون أمورا خرافیة موهومة تقلقهم و تقضّ مضاجعهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴۱

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۱۳]

اشارة

وَ قـالَتِ الْیَهُودُ لَیْسَتِ النَّصاری عَلی شَیْءٍ وَ قالَتِ النَّصاری لَیْسَتِ الْیَهُودُ عَلی شَیْءٍ وَ هُمْ یَتْلُونَ الْکِتابَ کَـذلِکَ قالَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۱۱۳)

سبب النّزول

قال ابن عباس أنه لما قدم و فد نجران من النصاری علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم آتتهم أحبار الیهود فتنازعوا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، فقـال رافع بن حرملـة: مـا أنتم علی شـیء، و جحـد بنبوّة عیسـی و کفر بالإنجیل. فقال رجل من أهل نجران: لیست الیهود علی شیء، و جحد بنبوّة موسی و کفر بالتوراة، فأنزل اللّه هذه الآیة.[۳۸۲]

التّفسیر

تعصّب و تناقض

فیما مرّ بنا من آیات رأینا جانبا من الادعاءات الفارغة التی أطلقها جمع من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴۲

الیهود و النصاری، و رأینا أن هذه الادعاءات الفارغة تستتبعها روح احتکاریة ضیقة، ثم وقوع فی التناقضات.

تقول الآیة: وَ قالَتِ الْیَهُودُ لَیْسَتِ النَّصاری عَلی شَیْءٍ وَ قالَتِ النَّصاری لَیْسَتِ الْیَهُودُ عَلی شَیْءٍ.

عبارة «لیست علی شیء» تعنی أن أفراد هذا الدین لا مكانة لهم و لا منزلة لدی اللّه سبحانه، أو تعنی أن هذا الدین لا وزن له و لا قیمة.

ثم تضیف الآیة: وَ هُمْ یَتْلُونَ الْکِتابَ

أی إنّ هؤلاء لدیهم الكتاب الذی یستطیع أن ینیر لهم الطریق فی هذه المسائل، و مع ذلك ینطلقون فی أحكامهم من التعصب و اللجاج و العناد!! ثم تقول الآیة: کَذلِکَ قالَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

و هذه الآیة الكریمة تجعل أقوال هذه المجموعة من أهل الكتاب المتعصبین شبیهة بأقوال الجهلة من الوثنیین. بعبارة اخری: هذه الآیة تقرر أن المصدر الأساس للتعصب هو الجهل و البعد عن العلم، لأن الجاهل مطوّق بمحیطه المحدود، لا یقبل غیره، بل هو ملتصق بما ملأ ذهنه منذ صغره و إن كان خرافیا، و یرفض ما سواه.

ثم اختتمت الآیة بالتأكید علی أن الحقائق إن خفیت فی هذه الدنیا، فهی لا تخفی فی الآخرة حیث تنكشف كل الأوراق: فَاللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ

و هذه الآیة فیها أیضا تثبیت للقلوب و طمأنة للنفوس، فهی تؤكد للمسلمین أن الطوائف التی تجهزت لمحاربتهم لا تتمیز بالانسجام و الوحدة، بل إن مجامیعها یكفّر بعضهم بعضا، و الذی یجمع بینهم علی الظاهر هو الجهل، و بالتالی التعصب الناشئ عن هذا الجهل.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۱۴]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ وَ سَعی فِی خَرابِها أُولئِکَ ما کانَ لَهُمْ أَنْ یَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِینَ لَهُمْ فِی الدُّنْیا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِیمٌ (۱۱۴)

سبب النّزول

روی عن ابن عباس أن الآیة نزلت فی «فطلوس» الرومی و جنده النصاری الذین حاربوا بنی إسرائیل، و أحرقوا التوراة، و أسروا الأبناء و هدموا بیت المقدس.

و عن ابن عباس أیضا أنها نزلت فی الروم، غزوا بیت المقدس وسعوا فی خرابه حتی أظهر اللّه المسلمین علیهم.

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنها نزلت فی قریش حین حالوا دون دخول الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مدینة مكة و المسجد الحرام.

و قیل إنها نزلت فی مشركی مكة ممن هدموا الأماكن التی اتخذها المسلمون

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴۴

للصلاة فی مكّة، بعد هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم منها[۳۸۳].

و لا یمنع أن یكون نزول الآیة بسبب كل هذه الأحداث، و بذلك یكون كل واحد من أسباب النّزول المذكورة قد تناول بعدا واحدا من أبعاد المسألة.

التّفسير

أظلم النّاس

أسباب النّزول توضّح أن الآية تتحدث عن اليهود و النصارى و المشركين، مع أن الآيات السابقة تتحدث أكثر ما تتحدث عن اليهود و أحيانا عن النصارى.

على أى حال «اليهود» بوسوستهم بشأن مسألة تغيير القبلة، سعوا إلى أن يتجه المسلمون فى صلاتهم نحو بيت المقدس، ليتفوقوا بذلك على المسلمين، و ليحطوا من مكانة الكعبة[۳۸۴].

و «مشركو مكة» بمنعهم النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و المسلمين زيارة الكعبة سعوا عمليا فى هدم هذا البناء الإلهى.

و «النصارى» باستيلائهم على بيت المقدس و العبث فيه على ما ذكر ابن عباس سعوا فى تخريبه.

القرآن يقول لهؤلاء جميعا و لكل من يسلك طريقا مشابها لهؤلاء: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى فِي خَرابِها.

القرآن الكريم أطلق على مثل هذا العمل اسم «الظلم الكبير»، و على العاملين اسم «أظلم النّاس» و أى ظلم أكبر من تخريب قاعدة التوحيد، و صدّ النّاس عن ذكر اللّه؟! ثم تقول الآية: أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۵

أى إن المسلمين و الموحدين ينبغى أن يكونوا على درجة من القوّة و المقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوا أيديهم إلى هذه الأماكن المقدسة، و لا يستطيعون أن يدخلوها جهرة بدون خوف أو خشية.

و من المحتمل أيضا أن الآية تقول: إن الظلمة لن يستطيعوا أبدا أن ينجحوا فى الاستيلاء على هذه المراكز العبادية، بل إنهم سوف لا يستطيعون فى المستقبل أن يدخلوا هذه المساجد إلّا و هم خائفون مذعورون، تماما كالمصير الذى لاقاه مشركو مكة بشأن المسجد الحرام.

و الآية تبين بعد ذلك العقاب الذى ينتظر هؤلاء الظلمة ممن يريد أن يفصل بين اللّه و عباده: لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ

بحثان

۱- تخريب المساجد

مفهوم الآية المذكورة واسع- دون شك- غير محدود بزمان أو مكان معينين.

إنها مثل سائر الآيات التى نزلت فى ظروف خاصة لكن حكمها ثابت على مرّ العصور و الدهور. فكل الذين يسعون بنوع من الأنواع فى تخريب المساجد مشمولون بهذا الخزى و العذاب العظيم.

من الضرورى أن نؤكد أن منع الذكر فى مساجد اللّه و السعى فى خرابها، لا يقتصر على هدم بنائها، بل إن كل عمل يؤدى إلى القضاء على دور المسجد فى المجتمع مشمول بهذه الآية.

و سوف نرى فى الآية إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ ...[۳۸۵] أن المقصود من العمران- استنادا إلى الأحاديث و الروايات الصريحة- ليس هو تشييد البناء فحسب، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴۶

الحضور فیها و احیاؤها بالذکر، هو نوع من العمران، بل أهم أنواع العمران.

و فی النقطة المقابلة- إذن- یکون کل عمل یبعد النّاس عن المساجد، و یبعد المساجد عن دورها ظلما کبیرا.

و من المؤسف أن عصرنا یشهد ظهور مجموعة جاهلة متعصبة متعنتة بعیدة عن المنطق، تطلق علی نفسها اسم الوهابیّة تسعی فی تخریب المساجد بحجة إحیاء التوحید!! هؤلاء عمدوا إلی تخریب المساجد المبنیّة علی قبور الأئمة و الصالحین، و التی کانت مرکزا للذکر و الدعاء و الارتباط باللّه و بخط الصالحین من آل اللّه.

و من الغریب أنهم یمارسون هذه الأعمال تحت عنوان مکافحة الشرک مرتکبین بذلک أفظع الکبائر.

و لو افترضنا حدوث ما یخالف الشرع فی بعض هذه الأماکن الدینیة من قبل الجهلة، فیجب الوقوف بوجه مثل هذه الأعمال، لا أن تتجه الجهود إلی تخریب هذه القواعد التوحیدیة، فهذا عمل یشبه عمل المشرکین الجاهلیین.

۲- أکبر الظّلم

و مسألة اخری تلفت النظر فی هذه الآیة، هی وصفها مثل هؤلاء الأفراد بأنهم أظلم النّاس. و هم کذلک، لأن تعطیل المساجد و تخریبها و منع ذکر اللّه فیها، یؤدی إلی ابتعاد النّاس عن الدین، و بالتالی إلی عواقب سیئة و مأساة اجتماعیة عظیمة.

و صفة «الأظلم» ذکرها القرآن الکریم فی مواضع اخری للحکایة عن کبائر اخری، لکن کل هذه الذنوب تعود إلی أصل واحد هو صدّ النّاس عن طریق التوحید.

و سیأتی شرح ذلک أکثر فی المجلد الرابع من هذا التّفسیر عند الحدیث عن الآیة ۲۱ من سورة الأنعام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴۷

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۱۵]

اشارة

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَیْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِیمٌ (۱۱۵)

سبب النّزول

اختلفت الروایات فی سبب نزول هذه الآیة:

روی عن ابن عباس أن الآیة ترتبط بتغییر القبلة، فعند ما تغیرت قبلة المسلمین من بیت المقدس إلی الکعبة بدأ الیهود یشککون قائلین: و هل من الممکن أن تتغیر الکعبة؟ فنزلت الآیة ترد علیهم و تقول إن المشرق و المغرب للّه.

و

روی أیضا: أنّ الایة نزلت فی الصّلاة المستحبّة یستطیع الإنسان أن یؤدّیها علی راحلته أینما اتّجهت الرّاحلة، دون اشتراط الاتّجاه نحو القبلة.

و

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص ۳۴۷

روی عن جابر أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بعث جماعة فی غزوة، فجنّ علیهم اللّیل و لم یستطیعوا أن یعرفوا اتّجاه القبلة، فصلّت کلّ مجموعة صوب جهة، و بعد طلوع الشّمس تبیّن أنّهم لم یستقبلوا القبلة سألوا النّبیّ عن ذلک فنزلت الآیة الکریمة (هذا الحکم له شروط طبعا تذکره الکتب الفقهیة).

و من الممکن أن تکون أسباب النّزول المذکورة کلها ثابتة للآیة، أضف الی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۸

ذلک أن کل آیة فی القرآن لا تنحصر بأسباب نزولها، بل ینبغی أن یؤخذ مفهومها بشکل حکم عام، و ربما استخرج منها أحکام متعددة.

التّفسیر

أینما تولّوا فثمّ وجه اللّه:

الآیة السابقة تحدثت عن الظالمین الذین یمنعون مساجد اللّه أن یذکر فیها اسمه و یسعون فی خرابها، و هذه الآیة تواصل موضوع الآیة السابقة فتقول: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَیْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ

تؤکد هذه الآیة أن منع النّاس عن إحیاء المساجد لا یقطع الطریق أمام عبودیة اللّه، فشرق هذا العالم و غربه للّه سبحانه، و أینما تولوا وجوهکم فاللّه موجود. و تغییر القبلة تمّ لظروف خاصة، و لیس له علاقة بمکان وجود اللّه، فاللّه سبحانه و تعالی لا یحده مکان، و لذلک تقول الآیة بعد ذلک: إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِیمٌ

واضح أن المقصود بالمشرق و المغرب فی الآیة لیس هو الجهتین الخاصتین، بل هو کنایة عن کل الجهات. کأن یقول أحد مثلا: أعداء علی علیه السّلام سعوا للتغطیة علی فضائله، لکن فضائله انتشرت فی شرق العالم و غربه، (أی فی کل العالم).

و لعل سبب شیوع استعمال الشرق و الغرب فی الکلام أن الإنسان یتعرف أولا علی هاتین الجهتین، ثم یعرف بقیة الجهات عن طریق هاتین الجهتین.

و فی آیة اخری یقول القرآن الکریم: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا[۳۸۶]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۹

بحوث

۱- فلسفة القبلة

اللّه موجود فی کل جهة و مکان، فلما ذا وجب الاتجاه نحو القبلة فی الصلاة؟

واضح أن الاتجاه نحو القبلة لا یعنی تحدید ذات الباری تعالی فی مکان و فی جهة، بل إن الإنسان موجود مادی، و لا بدّ أن یصلی باتجاه معین، ثم إن ضرورة الوحدة و التنسیق فی صفوف المسلمین تفرض اتجاههم فی الصلاة نحو قبلة واحدة، و إلّا ساد الهرج و الفوضی، و تفرّقت الصفوف و تشتتت.

أضف إلی ذلک أن الکعبة التی جعلت قبلة للمسلمین بقعة مقدسة و من أقدم قواعد التوحید، و الاتجاه نحوها یوقظ فی النفوس

ذکریات المسیرة التوحیدة.

۲- عبارة وَجْهُ اللَّهِ لا تعنی هذا الوجه المتعارف، بل تعنی ذات اللّه تعالی.

۳- استدلت الروایات بهذه الآیة علی صحة الصلاة إلی غیر القبلة لسهو أو اضطرار، و علی صحة الصلاة علی ظهر الراحلة.

(لمزید من التوضیح راجع وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، باب القبلة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۵۰

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۱۶ الی ۱۱۷]

اشارة

وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (۱۱۶) بَدِیعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۱۱۷)

التّفسیر

خرافات الیهود و النصاری و المشرکین

المسیحیون و جمع من الیهود و المشرکون تبنّوا عقیدة تافهة بشأن اتخاذ اللّه ابنا.

قال سبحانه: وَ قالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصاری الْمَسِیحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِکَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ یُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّی یُؤْفَکُونَ ۳۸۷].

و قال عزّ شأنه: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِیُّ ۳۸۸].

و هناک آیات اخری ذکرت هذا المعتقد المنحرف.

و هذه الآیة الکریمة التی نحن بصددها تقول: وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ثم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۵۱

تجیب علیهم أوّلا بتنزیه اللّه عن هذه النسبة: سُبْحانَهُ فما حاجة اللّه إلی الولد؟

هل هو محتاج إلی المساعدة أو إلی بقاء النسل؟! نعم، لا- یمکن نسبة أی احتیاج إلی اللّه بَلْ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و جمیع الکون خاضع له کُلٌّ لَهُ قانِتُونَ

و لیس هو مالک جمیع موجودات الکون فحسب، بل هو خالقها ... بل مبدعها أی موجدها دون احتیاج إلی مادة أولیة فی هذا الإیجاد بَدِیعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

ما حاجة اللّه إلی الولد و هو النافذ الإرادة فی جمیع الموجودات؟! وَ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ ۳۸۹]

بحوث

۱- دلائل نفی الولد

نسبة الولد إلى اللّه سبحانه، هى دون شک وليدة سذاجة فكرية، قائمة على أساس مقارنة كل شىء بالوجود البشرى المحدود.

الإنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله.

و من جهة اخرى هو ذو قوّة محدودة تضعف بالتدريج، و يحتاج لذلک- و خاصة فى فترة الشيخوخة- إلى من يساعده فى أعماله.

و هو أيضا ينطوى على عواطف و حبّ للأنيس، و ذلک يتطلب وجود فرد أنيس فى حياة الإنسان، و الولد يلبى هذه الحاجة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۵۲

واضح أن كل هذه الأمور لا يمكن أن تجد لها مفهوما بشأن اللّه سبحانه، و هو خالق عالم الوجود و القادر على كلّ شىء، و هو الأزلى الأبدى.

أضف إلى ذلک، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسما و اللّه منزّه عن ذلک [۳۹۰].

۲- تفسير كُنْ فَيَكُونُ

هذا التعبير ورد فى آيات عديدة منها الآية ۴۷ و ۵۹ من سورة آل عمران، و الآية ۷۳ من سورة الأنعام، و الآية ۴۰ من سورة النحل و الآية ۳۵ من سورة مريم، و الآية ۸۲ من سورة يس، و غيرها، و المراد منها الإرادة التكوينية للّه تعالى و حاكميته فى الخليقة.

بعبارة أوضح: المقصود من جملة كُنْ فَيَكُونُ ليس هو صدور الأمر اللفظى «كن» من قبل اللّه تعالى، بل المقصود تحقق إرادة اللّه سبحانه حينما تقتضى إيجاد شىء من الأشياء، صغيرا بحجم الذّرة كان، أم كبيرا بحجم السماوات و الأرض، بسيطا كان أم معقدا، دون أن يحتاج فى ذلک الإيجاد إلى أية علّة اخرى، و دون أن تكون هناک أية فترة زمنية بين الإرادة و الإيجاد.

لا يمكن للزمان أن يفصل بين الأمر و الكينونة، و لذلک فإن الفاء فى جملة «فيكون»، لا تدل على تأخير زمنى كما هو الحال فى الجمل الاخرى، بل إنها تدل فقط على التأخير فى الرتبة (الفلسفة أثبتت تأخر المعلول عن العلة، و هذا التأخر ليس زمنيا، بل فى الرتبة- تأمل بدقة-).

ليس المقصود أن الشىء يصبح موجودا متى ما أراد اللّه ذلک، بل المقصود أن الشىء يصبح موجودا بالشكل الذى أراده اللّه.

على سبيل المثال، لو أراد اللّه أن يخلق السماوات و الأرض فى ستة أيّام،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۵۳

لكان ذلک، دون زيادة أو نقص، و لو أراد أن توجد فى لحظة واحدة لوجدت بأجمعها فى لحظة واحدة، فذلک تابع لكيفية إرادته و لما يراه من مصلحة.

و لو شاء اللّه- مثلا- أن يبقى الجنين فى رحم أمه تسعة أشهر و تسعة أيّام ليطوى مراحل تكامله، لما زادت هذه المدة و ما نقصت. أمّا لو شاء أن يطوى هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظة واحدة لحدث ذلک قطعا، لأن إرادته علّة تامّة للخليقة، و لا يمكن أن توجد فاصلة بين العلة التامة و وجود المعلول.

۳- كيف يوجد الشىء من العدم؟

اشارة

كلمة «بديع» من «بدع»، و الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء و اقتداء منه، و فى الآية بمعنى إيجاد الشىء من غير مادة سابقة [۳۹۱].

و السّؤال الذى يطرح فى هذا المجال يدور حول إمكان إيجاد الشىء من العدم، فكيف يمكن للعدم- و هو نقيض الوجود- أن يكون

منشأ للوجود؟ و هـذه هی الشـبهة التی یوردها المادیون فی مسألـة «الإبـداع» لیسـتنتجوا منها أن المادة الأصـلیة للعالم أزلیة أبدیة، و لا یطرأ علیها وجود و عدم إطلاقا.

الجواب

فی المرحلـة الاولی، یوجّه نفس هـذا الاعتراض إلی المادیین فهؤلاء یعتقـدون أن مادة هذا العالم قدیمة أزلیة، و لم ینقص منها شـیء حتی الآن، و الـذی نراه یتغیر هو «الصورة» وحدها، لا أصل المادة. و نحن بدورنا نسأل: کیف وجدت الصورة الحالیة للمادة و لم تکن موجودة من قبل؟ هل وجدت من العدم؟ إذا کان کذلک، فکیف یمکن للعدم أن یکون منشأ للوجود؟ (تأمل بدقّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۴

علی سبیل المثال، یقول المادیون فی لوحة زیتیة مرسومة علی ورقة أنّ زیوت التلوین کانت موجودة، و نحن نسأل: کیف وجدت هذه «الصورة» التی لم تکن موجودة من قبل؟

کل جواب یقدمونه بشأن إیجاد «الصورة» من «العدم» نقدمه نحن أیضا بشأن إیجاده «المادة».

و فی المرحلـة الثانیـة، ینبغی التأکیـد علی أن خطأ المادیین ناتـج عن کلمة «من». هؤلاء تصوروا قولنا: (أن العالم وجد من العدم) شبیه بقولنا (أن المنضـدة وجـدت من الخشب) حیث لا بدّ من وجود الخشب أوّلا لکی توجد المنضدة. بینما جملة «وجود العالم من العدم» لا تعنی ذلک. بل تعنی «أن العالم لم یکن موجودا ثم وجـد». و هل فی هذه العبارة تضاد أو تناقض؟! و بالتعبیر الفلسـفی: کل موجود ممکن (الـذی لاـ یملـک الوجود ذاتیا) له جانبان: ماهیـة و وجود، «الماهیـة» هی «المعنی الاعتباری» الـذی یتساوی فی نسبته للعـدم و الوجود. بعبارة اخری، الماهیـة هی المقـدار المشترک الـذی نفهمه من ملاحظـة وجود شـیء و عـدمه. فهذه الشـجرة لم تکن موجودة سابقا و هی موجودة الآن، و الشخص الفلانی لم یکن موجودا سابقا و هو الآن موجود، و ما أسندنا إلیه الحالتین (الوجود و العدم) هی «الماهیة».

من هنا یکون معنی قولنا (إن اللّه أوجـد العالم من العـدم) هو أنه سـبحان نقل الماهیة من حالة العدم إلی حالة الوجود، و بعبارة اخری وضع لباس «الوجود» علی جسد «الماهیة»[۳۹۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۵

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۱۸ الی ۱۱۹]

اشارة

وَ قالَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ لَوْ لا یُکَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِینا آیَةٌ کَذلِکَ قالَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَیَّنَّا الْآیاتِ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۱۱۸) إِنَّا أَرْسَلْناکَ بِالْحَقِّ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِیمِ (۱۱۹)

التّفسیر

حجج اخری

بمناسبة ذکر حجـج الیهود فی الآیات السابقـة، تتحـدث الآیة عن حجج مجموعة اخری من المعاندین و یبدو أنهم المشـرکون العرب فتقول: وَ قالَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ لَوْ لا یُکَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِینا آیَةٌ.

هؤلاء الجاهلون- أو الذين لا يعملون- بتعبير الآية، طرحوا طلبين بعيدين عن المنطق، طلبوا:

۱- أن يكلّمهم اللّه: لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ

۲- أن تنزل عليهم آية: أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ.

و القرآن يجيب على هذه الطلبات التافهة قائلا: كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۵۶

لو أن هؤلاء يستهدفون حقا إدراك الحقيقة، ففى هذه الآيات النازلة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعى إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد؟! و ما معنى الإصرار على أن يكلمهم اللّه مباشرة؟! مثل هذا الطلب تذكره الآية ۵۲ من سورة المدثر: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً.

مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق، لأن تحققه- إضافة إلى عدم ضرورته- مخالف لحكمة البارى سبحانه، لما يلى:

أوّلا: إثبات صدق الأنبياء للناس كافة أمر ممكن عن طريق الآيات التى تنزل عليهم.

ثانيا: لا يمكن للآيات و المعاجز أن تنزل على أى فرد من الأفراد، فذلك يتطلب نوعا من اللياقة و الاستعداد و الطّهارة الرّوحية. فالأسلاك الكهربائية تتحمل من التيّار ما يتناسب مع ضخامتها. الأسلاك الرقيقة لا تتحمل التّيار العالى، و لا يمكن أن تتساوى بالأسلاك الضخمة القادرة على توصيل التّيارات العالية.

و المهندس يفرّق بين الأسلاك التى تستقبل التّيارات العالية من المولدات مباشرة، و الأسلاك التى تنقل التيّار الواطئ داخل البيوت.

الآية التالية تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و تبين موقفه من الطلبات المذكورة و تقول:

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً.

فمسؤولية الرّسول بيان الأحكام الإلهية، و تقديم المعاجز، و توضيح الحقائق، و هذه الدعوة ينبغى أن تقترن بتبشير المهتدين و إنذار العاصين و هذه مسئوليتك أيّها الرّسول، و أما الفئة التى لا تذعن للحق بعد كل هذه الآيات فأنت غير مسئول عنها: وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۵۷

بحثان

۱- تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ

مرّ علينا فى الآية أن القرآن يصف الحجج الواهية التى يطرحها المعاصرون لصاحب الرسالة الخاتمة، بأنها شبيهة بتلك التى كان يتذرع بها المنحرفون من الأمم السابقة، فقلوبهم متشابهة.

القرآن يشير بهذا التقريع و اللوم إلى أنّ مرور الزمن ينبغى أن يكون عاملا على زيادة وعى الأجيال البشرية، و على تفهّم هذه الأجيال اللاحقة أكثر من السابقة لتعاليم الأنبياء، لكن مرور الزمن لا يرفع مستوى المنحرفين، بل يبقى خط الانحراف واحدا متشابها على مرّ الأجيال و كأنها متعلقة بآلاف الأعوام السالفة.

۲- أصلان تربويان

«البشارة» و «الإنذار» أو «التشجیع» و «التهدید» من أهم الأصول اللازمة للتربیة و للحرکة الاجتماعیة. ینبغی أن یلقی الفرد تشجیعا علی أعماله الصالحة، و توبیخا علی أعماله الطالحة، کی یواصل مسیره الأول، و یرتدع عن ارتیاد المسیر الثانی.

«التشجیع» وحده لا یکفی لدفع الفرد و المجتمع علی طریق التکامل، لأن الإنسان سوف یکون مطمئنا من عدم الخطر فی حالة ارتکاب المعاصی.

علی سبیل المثال، نری ارتکاب المعاصی بین النصاری الحالیین أمرا عادیا، لأنهم یعتقدون بالفداء، أی بأن السید المسیح علیه السّلام قد ضحی بنفسه لغفران ذنوب أتباعه، أو لاعتقادهم بأن أحبارهم قادرون أن یغفروا لهم ذنوبهم بسبل شتی، منها منحم صکوک الغفران. أو یبیعون لهم الجنّة مثل هؤلاء القوم یسمحون لأنفسهم ارتکاب الذنوب بسهولة.

جاء فی قاموس الکتاب المقدس: «... الفداء أیضا إشارة إلی کفارة دم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۸

المسیح، الذی أخذ علی عاتقه کل ذنوبنا و تحمل ذنوبنا فی جسده علی الصلیب».

هذا المنطق یجعل الأفراد دون شک جریئین علی ارتکاب المعاصی.

بعبارة اخری، من یری أن التشجیع وحده کاف لتربیة الإنسان (طفلا کان أم کبیرا)، و ضرورة ترک التهدید و التقریع، فهو مجانب للصواب و مخطئ تماما.

و هکذا أولئک الذین یعتقدون أن التربیة ینبغی أن تقوم علی أساس التخویف و التأنیب لا غیر.

الفریقان المذکوران خاطئان فی فهم الإنسان، حیث إن الإنسان یتجاذبه کلّ الخوف و الرجاء، حبّ الذات و کره الفناء، تحصیل المنفعة و دفع الضرر. و هل یمکن لموجود یحمل فی ذاته هذین البعدین أن یربّی وفق بعد واحد؟! و التعادل ضروری بین هذین الجانبین، فلو تجاوز التشجیع حدّه لأدّی إلی التجرؤ و الغفلة، و لو تعدّی التخویف حدّه لبعث علی الیأس و القنوط و انطفاء شعلة الشوق و التحرک فی النفوس.

ممّا سبق نفهم سبب اقتران البشارة بالإنذار أو «البشیر» ب «النذیر» فی القرآن الکریم، فتارة تقدم کلمة البشیر علی النذیر کالآیة التی نحن بصددها: بَشِیراً وَ نَذِیراً و تارة تقدم کلمة النذیر کقوله تعالی فی الآیة ۱۸۸ من سورة الأعراف:

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ

و أکثر الآیات القرآنیة فی هذا المورد تتقدم فیها صفة البشیر، و لعل ذلک یعود إلی أن رحمة اللّه من حیث المجموع سابقة علی غضبه: یا من سبقت رحمته غضبه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۹

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۲۰ الی ۱۲۱]

اشارة

وَ لَنْ تَرْضی عَنْکَ الْیَهُودُ وَ لا النَّصاری حَتَّی تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَی اللَّهِ هُوَ الْهُدی وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِی جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَکَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ (۱۲۰) الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۲۱)

أسباب النّزول

روی عن ابن عباس بشأن نزول الآیة الاولی أن یهود المدینة و نصاری نجران، کانوا یأملون أن تکون قبلة المسلمین موافقة دائما لقبلتهم، فلمّا تغیّرت قبلة المسلمین من بیت المقدس إلی الکعبة یئسوا من نبی الإسلام.

و لعل بعض المسلمین لم یرق له هذا التغییر، لرغبته أن لا یحدث عملا یؤدی إلی إزعاج الیهود و النصاری [۳۹۳].

الآیة الاولی نزلت لتعلن للنبی أن هذه الفئة من الیهود و النصاری لا ترضی

عنک بالاشتراک فی قبلتهم و لا بأی شیء آخر، إلّا أن تقبل کلّ ما یتبعونه.

و قیل: إن الآیة نزلت إثر إصرار النّبی علی إرضاء أهل الکتاب طمعا فی قبولهم الإسلام، فنزلت الآیة لتؤکد أن رضی هؤلاء غایة لا تدرک إلا باعتناق دینهم [۳۹۴].

و بشأن نزول الآیة الثانیة وردت روایات مختلفة، قیل إنها نزلت فیمن التحق بجعفر بن أبی طالب لدی عودته من الحبشة و هم أربعون نفرا، اثنان و ثلاثون من أهل الحبشة و ثمانیة رهبان فیهم «بحیرا» الراهب المعروف. و قیل إنّها نزلت فی یهود أسلموا و حسن إسلامهم من أمثال: عبد اللّه بن سلام و سعید بن عمرو، و تمام بن یهودا[۳۹۵].

التّفسیر

إرضاء هذه المجموعة محال

الآیة السابقة رفعت المسؤولیة عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إزاء الضالین المعاندین. و الآیة أعلاه تواصل الموضوع السابق و تخاطب الرّسول بأن لا یحاول عبثا فی کسب رضا الیهود و النصاری لأنه: وَ لَنْ تَرْضی عَنْکَ الْیَهُودُ وَ لَا النَّصاری حَتَّی تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ

واجبک أن تقول لهم: إِنَّ هُدَی اللَّهِ هُوَ الْهُدی هدی اللّه هو الهدی البعید عن الخرافات و عن الأفکار التافهة التی تفرزها عقول الجهّال، و یجب إتباع مثل هذا الهدی الخالص.

ثم تقول الآیة: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِی جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَکَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ.

و بعد أن ذمّ القرآن الفئة المذکورة من الیهود و النصاری، أشاد بأولئک الذین آمنوا من أهل الکتاب و انضموا تحت رایة الرسالة الخاتمة الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ای بالتفکر و التدبر ثم العمل به- أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ أی یؤمنون بالرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ

هؤلاء کانوا قد تلوا کتابهم السماوی حقّا، و کان ذلک سبب هدایتهم، فهم قرءوا فیه بشارات ظهور النّبیّ الموعود، و قرءوا صفاته المنطبقة مع صفات نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فآمنوا به، و اللّه مدحهم و أشاد بهم.

بحوث

۱- سؤال عن عصمة الأنبیاء

العبارة القرآنیة: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ قد تثیر سؤالا بشأن عصمة الأنبیاء، فهل یمکن للنبیّ صلّی اللّه علیه و اله و سلّم- و هو معصوم- أن یتبع أهواء المنحرفین من الیهود و النصاری؟

فی الجواب نقول: مثل هذه التعبیرات تکررت فی القرآن الکریم، و لا تتعارض مع مقام عصمهٔ الأنبیاء، لأنها- من جهۀ- جملهٔ شرطیهٔ، و الجملهٔ الشرطیّهٔ لا تدل علی تحقق الشرط.

و من جهۀ اخری، عصمهٔ الأنبیاء لا- تجعل الذنب علی الأنبیاء محالا- بل المعصوم له قدرهٔ علی ارتکاب الذنب، و لم یسلب منه الإختیار، و مع ذلک لم یتلوث بالذنوب. بعبارهٔ اخری: إن المعصوم قادر علی الذنب، و لکن إیمانه و علمه و تقواه بدرجهٔ لا تجعله یتجه معها إلی ذنب. من هنا فالتحذیرات المذکورهٔ بشأنهم مناسبهٔ تماما.

من جهۀ ثالثۀ، هذا الخطاب و إن اتجه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و لکن قد یکون موجها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۶۲

إلی النّاس جمیعا.

۲- للاسترضاء حدود

صحیح أن الإنسان الرّسالی یجب أن یسعی بأخلاقه إلی جذب الأعداء إلی صفوف الدعوهٔ، لکن مثل هذا الموقف یجب أن یکون تجاه المخالفین المرنین اللیّنین، أما الموقف تجاه المعاندین المتصلبین فینبغی أن یکون غیر ذلک. لا یجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لا بدّ من الإعراض عنهم و ترکهم.

۳- إنّ هدی اللّه هو الهدی

نفهم من الآیهٔ المذکورهٔ أن القانون الوحید القادر علی إنقاذ البشریهٔ هو قانون الهدایهٔ الإلهیهٔ، لأن علم البشر- مهما قدر له من التکامل- یبقی مخلوطا بالجهل و الشک و القصور فی جهات مختلفهٔ. و الهدایهٔ فی ضوء مثل هذا العلم الناقص لا یمکن أن تکون هدایهٔ مطلقهٔ، و لا یستطیع أن یضع للإنسان برنامج «الهدایهٔ المطلقهٔ» إلّا من له «علم مطلق»، و من هو خال من الجهل و النقص، و هو اللّه وحده.

۴- حق التلاوهٔ

عبر القرآن عن الفئهٔ المهتدیهٔ من أهل الکتاب بأنهم یَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ و هو تعبیر عمیق یرسم لنا سبیلا واضحا تجاه القرآن الکریم و الکتب السماویهٔ، فالنّاس أمام الآیات الإلهیهٔ علی أقسام:

قسم یکرسون اهتمامهم علی أداء الألفاظ بشکل صحیح و علی قواعد التجوید، و یشغل ذهنهم دوما الوقف و الوصل و الإدغام و الغنّهٔ فی التلاوهٔ، و لا یهتمون إطلاقا بمحتوی القرآن فما بالک بالعمل به! و هؤلاء بالتعبیر القرآنی کَمَثَلِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۶۳

الْحِمارِ یَحْمِلُ أَسْفاراً[۳۹۶].

و قسم یتجاوز إطار الألفاظ، و یتعمق فی المعانی، و یدقّق فی الموضوعات القرآنیهٔ، و لکن لا یعمل بما یفهم! و قسم ثالث، و هو المؤمنون حقّا یقرءون القرآن باعتباره کتاب عمل، و منهجا کاملا- للحیاهٔ، و یعتبرون قراءهٔ الألفاظ و التفکیر فی المعانی و إدراک مفاهیم الآیات الکریمهٔ مقدمهٔ للعمل، و لذلک تصحو فی نفوسهم روح جدیدهٔ کلما قرءوا القرآن، و تتصاعد فی داخلهم عزیمهٔ و

إرادة و استعداد جديد للأعمال الصالحة، و هذه هى التلاوة الحقة.

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية: «يرتّلون آياته، و يتفقّهون به، و يعملون بأحكامه، و يرجون وعده، و يخافون وعيده، و يعتبرون بقصصه، و يأتمرون بأوامره، و ينتهون بنواهيه، ما هو و اللّه حفظ آياته و درس حروفه، و تلاوة سوره و درس أعشاره و أخماسه ۳۹۷]، حفظوا حروفه و أضاعوا حدوده، و إنّما هو تدبّر آياته و العمل بأركانه، قال اللّه تعالى: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ۳۹۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۲۲ الى ۱۲۳]

اشارة

يا بَنِى إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۲۲) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۱۲۳)

التّفسير

مرّة اخرى يتجه الخطاب الإلهى إلى بنى إسرائيل ليذكرهم بالنعم التى أحيطوا بها، و خاصة نعمة تفضيلهم على أمم زمانهم، فتقول الآية: يا بَنِى إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ أى على كل من كان يعيش فى ذلك الزمان.

كل نعمة تقترن بمسؤولية، و تقترن بالتزام و تكليف إلهى جديد، و لذلك قال سبحانه فى الآية التالية: وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ... وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ أى غرامة أو فدية، وَ لا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ إلّا بإذن اللّه، و لا يستطيع أحد غير اللّه أن يساعد أحدا وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

فكل سبل النجاة التى تتوسلون بها فى هذه الدنيا موصدة يوم القيامة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۵

و الطريق الوحيد المفتوح أمامكم هو طريق الإيمان و العمل الصالح، و طريق التوبة من الذنوب.

هذه المفاهيم مطروحة فى الآيتين ۴۷ و ۴۸ من هذه السورة حيث تعرضنا لها بالتفصيل، و نكتفى هنا بهذا القدر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۲۴]

اشارة

وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّى جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قالَ لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ (۱۲۴)

التّفسير

الإمامة قمة مفاخر إبراهيم عليه السّلام

هذه الآية و ما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبى اللّه الكبير إبراهيم على نبيّنا و عليه الصلاة و السلام، و عن بناء الكعبة و أهمية هذه القاعدة التوحيدية العبادية.

و الهدف من هذه الآيات- و عددها ثمانى عشرة آية- ثلاثة أمور:

أوّلا: أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التى ستطرح بعد ذلك، كى يعلم المسلمون أن هذه الكعبة من ذكريات إبراهيم محطم الأصنام، و لكى يفهموا أن التلويث الذى طرأ على الكعبة إذ حولها المشركون إلى بيت للأصنام، إنما هو تلويث سطحى لا يحط من قيمة الكعبة و مكانتها.

ثانيا: لفضح ادعاءات اليهود و النصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم، و أنهم ورثة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۶۷

دينه و طريقته، و لتوضيح مدى ابتعاد هؤلاء عن ملة إبراهيم.

ثالثا: لتفهيم مشركى العرب أيضا ببعدهم عن منهج النّبى الكبير محطم الأصنام، و الرّد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم و بين إبراهيم.

الآية الكريمة تقول أوّلا: وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَ

هذه الفقرة من الآية تشير إلى الاختبارات المتتالية التى اجتازها إبراهيم عليه السّلام بنجاح، و تبين من خلالها مكانة إبراهيم و عظمته و شخصيته.

و بعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه اللّه الوسام الكبير قالَ إِنِّی جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً.

و هنا تمنى إبراهيم عليه السّلام أن يستمر خط الإمامة من بعده، و أن لا يبقى محصورا بشخصه قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِی

لكن اللّه أجابه: قالَ لا يَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِينَ

و قد استجيب طلب إبراهيم عليه السّلام فى استمرار خط الإمامة فى ذريّته، لكن هذا المقام لا يناله إلّا الطاهرون المعصومون من ذريّته لا غيرهم.

بحوث

۱- المقصود من «الكلمات»

من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السّلام، و ما أدّاه هذا النّبى العظيم من أعمال جسيمة استحق ثناء اللّه، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات و المهام الثقيلة الصعبة التى وضعها اللّه على عاتق إبراهيم عليه السّلام، فحملها و أحسن حملها، و أدّى ما عليه خير أداء، و هى عبارة عن:

أخذ ولده إلى المذبح و الاستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر اللّه سبحانه.

إسكان الزوج و الولد فى واد غير ذى زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۶۸

النهوض بوجه عبدة الأصنام و تحطيم الأصنام، و الوقوف ببطولة فى تلك المحاكمة التاريخية، ثم إلقاؤه فى وسط النيران. و ثباته و رباطة جأشه فى كل هذه المراحل.

الهجرة من أرض عبدة الأصنام و الابتعاد عن الوطن، و الاتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته ... و أمثالها[۳۹۹].

کان کل واحد من هذه الاختبارات ثقیلا و صعبا حقّا، لکنه بقوة إیمانه نجح فیها جمیعا، و أثبت لیاقته لمقام «الإمامة».

۲– من هو الإمام؟

یتبین من الآیة الکریمة التی نحن بصددها، أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهیم علیه السّلام بعد کل هذه الاختبارات، تفوق منزلة النّبوة و الرسالة.

و لتوضیح ذلک نقول: إن للإمامة معانی مختلفة:

۱– الإمامة بمعنی الرئاسة و الزعامة فی أمور الدنیا، (قال بذلک فریق من علماء أهل السنة).

۲– الإمامة بمعنی الرئاسة فی أمور الدین و الدنیا، (قال بذلک فریق آخر من علماء أهل السنة).

۳– الإمامة بمعنی تحقیق المناهج الدینیة بما فی ذلک منهج الحکم بالمعنی الواسع للحکومة، و إجراء الحدود و أحکام اللّه، و تطبیق العدالة الاجتماعیة، و تربیة الأفراد فی محتواهم الداخلی و فی سلوکهم الخارجی. و هذه المنزلة أسمی من منزلة النّبوة و الرسالة، لأن منزلة النّبوة و الرسالة تقتصر علی إبلاغ أوامر اللّه، و البشارة و الإنذار، أمّا الإمامة فتشمل مسئولیات النّبوة و الرسالة إضافة إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۶۹

«إجراء الأحکام» و «تربیة النفوس ظاهریا و باطنیا» (من الواضح أن کثیرا من الأنبیاء کانوا یتمتعون بمنزلة الإمامة).

منزلة الإمامة هی فی الحقیقة منزلة تحقیق أهداف الدین و الهدایة، أی «الإیصال إلی المطلوب»، و لیست هی «إراءة الطریق» فحسب.

و مضافا لما سبق فانّ الإمامة تتضمن أیضا علی «الهدایة التکوینیة»، أی النفوذ الروحی للإمام، و تأثیره علی القلوب المستعدة للهدایة المعنویة (تأمل بدقّة).

الإمام فی ذلک یشبه الشمس التی تبعث الحیاة فی النباتات، فکذلک دور الامام فی بعث الحیاة الروحیة و المعنویة فی الکائنات الحیّة؟.

یقول سبحانه: هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَ مَلائِکَتُهُ لِیُخْرِجَکُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ کانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً[۴۰۰].

و من هذه الآیة نفهم بوضوح أن رحمة اللّه الخاصة و المعونة الغیبیة للملائکة بإمکانها أن تخرج المؤمنین من الظلمات إلی النور.

هذا الموضوع یصدق علی الإمام أیضا، فالقوّة الروحیة للإمام و للأنبیاء الحائزین علی منزلة الإمامة و خلفائهم، لها التأثیر العمیق علی تربیة الأفراد المؤهلین، و إخراجهم من ظلمات الجهل و الضلالة إلی نور الهدایة.

لا شک أن المراد من الإمامة فی الآیة التی نحن بصدد تفسیرها هو المعنی الثالث للإمامة، لأنّه یستفاد من آیات متعددة أن مفهوم «الإمامة» ینطوی علی مفهوم «الهدایة»، کقوله تعالی: وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ کانُوا بِآیاتِنا یُوقِنُونَ ۴۰۱].

هذه الهدایة لا تعنی إراءة الطریق، لأن إبراهیم علیه السّلام کانت له قبل ذلک مکانة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۷۰

النّبوة و الرسالة، أی مکانة إراءة الطریق.

القرائن الواضحة تشیر إلی أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهیم علیه السّلام بعد الامتحانات العسیرة، و اجتیاز مراحل الیقین و الشجاعة و الاستقامة، هی غیر منزلة البشارة و الإبلاغ و الإنذار.

إذن، الهدایة التی یتضمنها مفهوم الإمامة ما هی إلّا «الإیصال إلی المطلوب» و «تحقیق روح الدین»، و تطبیق المناهج التربویة فی النفوس المستعدة.

هذا الحقیقة یوضحها بإجمال حدیث عمیق المعنی

روى عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام يقول: «إنّ اللّه تبارك و تعالى اتّخذ إبراهيم عبدا قبل أن يتخذه نبيّا، و إنّ اللّه اتّخذه نبيّا قبل أن يتّخذه رسولا، و إنّ اللّه اتّخذه رسولا قبل أن يتّخذه خليلا، و إنّ اللّه اتّخذه خليلا قبل أن يجعله إماما، فلمّا جمع له الأشياء، قال: إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً قال: فمن عظمها فى عين إبراهيم قال: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِی قالَ لا یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ قال: لا يكون السّفيه إمام التّقىّ»[۴۰۲].

۳- الفرق بين النّبوة و الإمامة و الرسالة

يفهم من الآيات الكريمة و المأثور عن المعصومين، أن حملة المهمات من قبل اللّه تعالى لهم منازل مختلفة:

۱- منزلة النّبوة: أى استلام الوحى من اللّه، فالنبى هو الذى ينزل عليه الوحى، و ما يستلمه من الوحى يعطيه للنّاس إن طلبوا منه ذلك.

۲- منزلة الرسالة: و هى منزلة إبلاغ الوحى، و نشر أحكام اللّه، و تربية الأفراد عن طريق التعليم و التوعية. فالرّسول إذن هو المكلف بالسعى فى دائرة مهمته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۱

لدعوة النّاس إلى اللّه و تبليغ رسالته، و بذل الجهد لتغيير فكرى عقائدى فى مجتمعه.

۳- منزلة الإمامة: و هى منزلة قيادة البشرية، فالإمام يسعى إلى تطبيق أحكام اللّه عمليا عن طريق إقامة حكومة إلهية و استلام مقاليد الأمور اللازمة. و إن لم يستطع إقامة الدولة يسعى قدر طاقته فى تنفيذ الأحكام.

بعبارة اخرى، مهمة الإمام تنفيذ الأوامر الإلهية، بينما تقتصر مهمة الرّسول على تبليغ هذه الأوامر. و بتعبير آخر أيضا، مهمة الرّسول، إراءة الطريق، و مهمة الإمام «الإيصال إلى المطلوب» (إضافة إلى المهام الثقيلة الاخرى المذكورة).

من نافلة القول أن كثيرا من الأنبياء كنبىّ الإسلام عليه أفضل الصلاة و السلام حازوا على المنازل الثلاث، كانوا يستلمون الوحى، و يبلغون أوامر اللّه، و يسعون إلى إقامة الحكومة و تنفيذ الأحكام، و ينهضون- بما لهم من تأثير روحى- بمهمة تربية النفوس.

الإمامة- بعبارة موجزة- هى منزلة القيادة الشاملة لجميع المجالات المادية و المعنوية و الجسمية و الروحية و الظاهرية و الباطنية. الإمام رئيس الدولة و زعيم المجتمع و معلم الأخلاق و قائد المحتوى الداخلى للأفراد المؤهلين.

فهو بقوّته المعنوية يقود النفوس المؤهلة على طريق التكامل.

و بقدرته العلمية يعلم الجهلة.

و بقوّة حكومته أو أية قوّة تنفيذية اخرى يطبق مبادى العدالة.

۴- الإمامة آخر مراحل مسيرة إبراهيم التكاملية

بما تقدم فى بيان حقيقة الإمامة يتضح أنه من الممكن أن تكون لشخص منزلة النّبوة و تبليغ الرسالة، بينما لا تكون له منزلة الإمامة. و هذه المنزلة تحتاج إلى مؤهلات كثيرة فى جميع المجالات. و هى المنزلة التى نالها إبراهيم عليه السّلام بعد كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۲

هذه الامتحانات و المواقف العظيمة، و كانت آخر مرحلة من مراحل مسيرته التكاملية.

من ذهب إلى أن الإمامة هى «أن يكون الفرد لائقا و نموذجيا» فقط، ما فهم أن هذه الصفة كانت موجودة فى إبراهيم عليه السّلام منذ بداية النّبوة.

و من قال إنّ المقصود من الإمامة «أن يكون الفرد قدوة»، فاته أن هذه صفة جميع الأنبياء منذ ابتدائهم بدعوة النّبوة، و لذلک وجب أن يكون النّبى معصوما لأن أعماله قدوة للآخرين.

من هنا، فمنزلة الإمامة أسمى ممّا ذكر، بل أسمى من النّبوة و الرسالة، و هى المنزلة التى نالها إبراهيم من قبل اللّه بعد أن اجتاز الامتحان تلو الامتحان.

۵- من الظّالم؟

المقصود من «الظلم» فى التعبير القرآنى: لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، و قد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، و يقع فى النقطة المقابلة للعدل: و هو وضع الشىء فى محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشىء فى غير مكانه المناسب.

و لما كانت منزلة الإمامة و القيادة الظاهرية و الباطنية للبشرية منزلة ذات مسئوليات جسيمة هائلة عظيمة، فإن لحظة من الذنب و المعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص.

لذلک نرى أئمة آل البيت عليهم السّلام يثبتون بهذه الآية تعيّن الخلافة بعد النّبى مباشرة لعلى عليه السّلام و انحصارها به، مشيرين إلى أن الآخرين عبدوا الأصنام فى الجاهلية، و علىّ عليه السّلام وحده لم يسجد لصنم. و أىّ ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟! ألم يقل لقمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۷۳

لابنه: يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۴۰۳]؟! من هذه الاستدلالات ما

رواه هشام بن سالم عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «قد كان إبراهيم نبيّا و ليس بإمام، حتّى قال اللّه: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً، قالَ: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي فقال الله لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ من عبد صنما أو وثنا لا يكون إماما»[۴۰۴].

و فى حديث آخر عن عبد اللّه بن مسعود عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «إنّ اللّه قال لإبراهيم «لا أعطيک عهدا للظّالم من ذرّيّتک، قال: يا ربّ و من الظّالم من ولدى الّذى لا ينال عهدک؟ قال: من سجد لصنم من دونى لا أجعله إماما أبدا، و لا يصلح أن يكون إماما»[۴۰۵].

۶- تعيين الامام من قبل اللّه

من الآية مورد البحث نفهم ضمنيا أن الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معينا من قبل اللّه سبحانه، لما يلى:

أوّلا: الإمامة ميثاق إلهى، و طبيعى أن يكون التعيين من قبل اللّه، لأنه طرف هذا الميثاق.

ثانيا: الأفراد الذين تلبّسوا بعنوان الظلم، و ما رسوا فى حياتهم لحظة ظلم بحقّ أنفسهم أو بحقّ الآخرين، كأن تكون لحظة شرک مثلا، لا يليقون للإمامة، فالإمام يجب أن يكون طيلة عمره معصوما.

و هل يعلم ذلک فى نفوس الأفراد إلّا اللّه؟! و لو أردنا بهذا المعيار أن نعيّن خليفة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فلا يمكن أن يكون غير على عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۷۴

جدير بالذكر أن صاحب «المنار» نقل عن أبى حنيفة قوله: أن الخلافة لا تليق إلّا بالعلويين، و من هنا أجاز الخروج على حكومة العباسيين، و من هنا أيضا رفض منصب القضاء فى حكومة خلفاء بنى العباس.

و یقول صاحب المنار أیضا: إن أئمة المذاهب الأربعة کانوا معارضین لحکام زمانهم، و کانوا یعتبرون أولئک الحکام غیر لائقین لزعامة المسلمین، لأنهم ظالمون ۴۰۶].

و من العجیب أن کثیرا من علماء أهل السنة فی عصرنا هذا، یؤیدون و یدعمون الحکومات الظالمة المتجبّرة المرتبطة ارتباطا واضحا جلیّا بجبهة الکفر العالمیة، و المفسدة فی الأرض إفسادا لا یخفی علی أحد، بل أکثر من ذلک یعتبرون هؤلاء الحکام «أولی الأمر» و یرکزون علی وجوب طاعتهم!!

۷- جواب عن سؤالین

۱- قلنا فی تفسیر معنی الإمامة أن عمل الإمامة هو «الإیصال إلی المطلوب» و «تنفیذ المناهج الإلهیة»، و هنا قد یقول قائل: إن هذا المعنی لم یتحقق فی کثیر من الأنبیاء، بل لم یتحقق حتی بالنسبة للنبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و الأئمة الأطهار فی المقیاس العام، فقد کان یقف فی مقابلهم دوما أفراد ضالون مضلون.

جوابا علی ذلک نقول: تعریفنا لعمل الإمام لا یعنی أن الإمام یجرّ الامّة قسرا نحو الحق، بل إن الأفراد یستطیعون- و هم مختارون- أن یهتدوا بما یمتلکه الإمام من قوّة ظاهریة و باطنیة، علی شرط امتلاک هؤلاء الأفراد للّیاقة و الاستعداد.

و هذا کقولنا الشمس خلقت لاستمرار حیاة الموجودات الحیّة، أو أن المطر یعمل علی إحیاء الأرض المیتة، تأثیر الشمس و المطر له طابع عام، لکنه لا یصدق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۵

إلّا فی الموجودات المستعدة لقبول هذا التأثیر.

۲- التّفسیر المذکور للإمام یستدعی أن یکون کل إمام نبیّا و رسولا- أوّلا، و بعد ذلک یبلغ درجة الإمامة. بینما لم یکن الخلفاء المعصومون لنبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کذلک.

نقول فی الجواب: لا یلزم أن یکون الإمام قد بلغ حتما منزلة النّبوة و الرسالة، فالذی اجتمعت فیه منزلة النّبوة و الرسالة و الإمامة (مثل النّبی الخاتم) یمکن لخلیفته أن یواصل طریق الإمامة، و ذلک حین تنتفی الحاجة إلی رسالة جدیدة کما هو الحال بعد خاتم الأنبیاء.

بعبارة اخری، حین تکون مرحلة استلام الوحی الإلهی و تبلیغ جمیع الأحکام قد انتهت و بقیت المرحلة التنفیذیة، فإن خلیفة النّبی یستطیع أن یواصل الخط التنفیذی، و لا حاجة لأن یکون هذا الخلیفة نبیا أو رسولا.

۸- شخصیة إبراهیم المثالیة

ورد اسم إبراهیم علیه السّلام فی ۶۹ موضعا من القرآن الکریم، تحدثت عنه آیات تتوزع بین خمس و عشرین سورة. و القرآن یثنی کثیرا علی هذا النّبی الکریم و یذکره بصفات جلیلة عظیمة.

إنه قدوة و أسوة فی کل المجالات، و نموذج للإنسان الکامل.

مکانته فی سلّم معرفة اللّه ... و منطقه الصریح أمام عبدة الأوثان ... و نضاله المریر ضد الجبابرة ... و تضحیاته علی طریق اللّه، و صموده الغریب أمام عواصف الحوادث و الاختبارات الصعبة ... کل واحدة من هذه الصفات تشکل النموذج الأعلی للسائرین علی طریق التوحید.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۶

إبراهيم كما يصفه القرآن من الْمُحْسِنِينَ ۴۰۷]، و من الصالحين ۴۰۸]، و من القانتين ۴۰۹]، و من الصديقين ۴۱۰]، و إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۴۱۱]، و وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۴۱۲]، ذو سخاء عظيم و شجاعة منقطعة النظير.

فى تفسير سورة إبراهيم (خاصة فى القسم الأخير من السّورة) سنفصل الحديث فى هذا المجال. (راجع المجلد السابع من هذا التّفسير).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۷۷

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۲۵]

اشارة

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۱۲۵)

التّفسير

عظمة بيت اللّه

بعد الإشارة إلى مكانة إبراهيم عليه السّلام فى الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التى وضع قواعدها إبراهيم عليه السّلام، فهى تبدأ بالتذكير بعبارة «و إذ» أى اذكروا: وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً.

المثابة من الثوب، أى عودة الشيء إلى حالته الاولى. و لما كانت الكعبة مركزا يتجه إليه الموحدون كلّ عام، فهى محل لعودة جسمية و روحية إلى التوحيد و الفطرة الاولى، و من هنا كانت مثابة. و كلمة «مثابة» تتضمن معنى الراحة و الاستقرار، لأن بيت الإنسان- و هو محل عودته الدائم- مكان للراحة و الاستقرار، و هذا المعنى تؤكده كلمة «أمنا» التى تلى كلمة «مثابة» فى الآية.

و كلمة «للنّاس» توضح أنه ملجأ عام لكل العالمين، و لكل الشعوب المحرومة.

و هذه الصفة للبيت هى فى الحقيقة استجابة لأحد مطاليب إبراهيم عليه السّلام من ربّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۷۸

ما سيأتى.

ثمّ تضيف الآية: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى

اختلف المفسرون فى معنى «مقام إبراهيم»، قيل: إنّ كل الحج هو مقام إبراهيم. و قيل: إنه «عرفة» و «المشعر الحرام» و «الجمار الثلاث»، و قيل: كل حرم مكة مقام.

و لكن يبدو من ظاهر الآية أن المقام هو مقام إبراهيم المعروف الكائن قرب الكعبة، و ذهبت إلى ذلك الرّوايات و كثير من المفسّرين. و على الحجاج أن يصلّوا خلفه بعد الطواف، و من هنا كان هذا المقام «مصلّى».

ثم تشير الآية إلى المسؤولية المعهودة إلى إبراهيم و ابنه إسماعيل عليهما السّلام بشأن تطهير البيت للطائفين و المجاورين و المصلين: وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ.

و فى التطهير قيل: إنه التطهير من لوثة وجود الأصنام. و قيل: إنه التطهير من الدنس الظاهر، كالدم و أحشاء الذبائح التى كان يلقى بها الجهلة فى البيت.

و قيل: إنه يعنى إخلاص النية عند بناء البيت.

و لا دلیل علی تحدید مفهوم الطهارة، فهی تعنی تطهیر هذا البیت ظاهریا و معنویا من کل تلویث.

لذلک نجد بعض الروایات فسرت التطهیر فی الآیة بأنه تطهیر الکعبة من المشرکین، و بعضها بأنه تطهیر البدن و إزالة الأدران.

بحثان

۱- الآثار الاجتماعیة و التّربویة للبیت الآمن:

الکعبة- طبعا للآیة أعلاه- ملاذ و بیت آمن، و الإسلام وضع الأحکام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسة عن کل نزاع و اشتباک و حرب و إراقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۷۹

دماء. و لیس أفراد البشر آمنین هناک فحسب، بل الحیوانات و الطیور آمنة أیضا فی هذه البقعة، و لا یحق لأحد أن یمسها بسوء.

و فی عالم یعجّ دوما بالنزاع و الصراع، یستطیع مثل هذا المرکز الآمن أن یکون له الأثر العمیق فی حل المشاکل و فضّ النزاعات، إذ یستطیع الفرقاء المتنازعون أن یجلسوا حول طاولة واحدة عند هذا البیت الآمن، و یفتحوا بینهم حورا قد یکون مقدمة لإزالة الخصومات و النزاعات.

و قد یتفق أن ترغب الأطراف المتنازعة فی إجراء مباحثات، لکنهم لا یتفقون علی مکان مقبول و محترم و آمن لدی جمیع الأطراف، و الإسلام أقرّ مکة لتکون مرکزا کهذا.

و الیوم، إذ المسلمون- مع الأسف الشدید- یعانون من ألوان النزاعات و الاختلافات حریّ بهم أن یستفیدوا من قداسة هذا البیت و أمنه لفتح باب المحادثات بینهم، و لرفع ما بینهم من اختلافات بفضل معنویة هذا المکان المقدس.[۴۱۳]

۲- بیت اللّه

و صفت الکعبة بأنها بیت اللّه، و عبرت الآیة عن الکعبة ب «بیتی». و واضح أن اللّه لیس بجسم، و لا یحده بیت، و لا یحتاج إلی ذلک، و هذه الإضافة هی «إضافة تشریفیة» تبیّن قدسیة الشیء الذی ینسب إلی اللّه، و لذلک کان شهر رمضان «شهر اللّه» و کانت الکعبة «بیت اللّه».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۸۰

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۲۶]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ کَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِیلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلی عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ (۱۲۶)

التّفسیر

إبراهیم یدعو ربّه

فی هذه الآیة توجّه إبراهیم إلی ربّه بطلبین هامین لسکنة هذه الأرض المقدسة، أشرنا إلی أحد هما فی الآیة السّابقة. القرآن یذکّر بما قاله إبراهیم: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً.

و کما ذکرنا فی الآیة السابقة، استجاب اللّه لدعاء إبراهیم، و جعل هذه الأرض المقدسة مرکزا آمنا بالمعنی الواسع لکلمة لأمن.

و الطلب الآخر هو: وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ.

و هکذا یطلب إبراهیم «الأمن» أوّلا، ثم «المواهب الاقتصادیة»، إشارة إلی أنّ الإقتصاد السالم لا یتحقق إلّا بعد الأمن الکامل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۸۱

و للمفسرین آراء عدیدة فی معنی «الثّمرات»، و یبدو أن معناها واسع یشمل النعم المادیة و النعم المعنویة. و

عن الإمام الصادق علیه السّلام: «هی ثمرات القلوب»

إشارة إلی جعل قلوب النّاس تهوی إلی هذه الأرض.

إبراهیم فی دعائه اقتصر علی المؤمنین باللّه و الیوم الآخر، و لعل ذلک کان بعد أن قال له اللّه سبحانه: لا یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ ففهم أن مجموعة من ذریّته سیسلکون طریق الشرک و الظلم، فاستثناهم فی دعائه.

و اللّه سبحانه استجاب لإبراهیم طلبه الثانی أیضا، و لکنه قالَ وَ مَنْ کَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِیلًا فی الدّنیا، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلی عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ فی الحیاة الآخرة.

هذه فی الواقع صفة «الرحمانیة» و هی الرحمة العامة للباری تعالی التی تشمل کل المخلوقات، صالحهم و طالحهم فی الدنیا. أما الآخرة فهی عالم رحمته الخاصة التی لا ینالها إلّا من آمن و عمل صالحا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۸۲

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۲۷ الی ۱۲۹]

اشارة

وَ إِذْ یَرْفَعُ إِبْراهِیمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَ إِسْماعِیلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۱۲۷) رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَیْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَ أَرِنا مَناسِکَنا وَ تُبْ عَلَیْنا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ (۱۲۸) رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ یُزَکِّیهِمْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱۲۹)

التّفسیر

إبراهیم یبنی الکعبة

نفهم بوضوح من خلال آیات الذکر الحکیم أن بیت الکعبة کان موجودا قبل إبراهیم، و کان قائما منذ زمن آدم. تتحدث الآیة ۳۷ من سورة إبراهیم عن لسان إبراهیم تقول: رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ

و هذه الآیة تدل علی أن بیت الکعبة کان له نوع من الوجود حین جاء إبراهیم مع زوجه و ابنه الرضیع إلی مکة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۸۳

و تقول الآیة ۹۶ من سورة آل عمران: إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً. و من المؤکد أن عبادة اللّه و إقامة أماکن العبادة لم تبدأ فی زمن إبراهیم، بل کانتا منذ أن خلق الإنسان علی ظهر هذه الأرض.

عبارة الآیة الاولی من الآیات محل البحث یؤکد هذا المعنی، إذ تقول: وَ إِذْ یَرْفَعُ إِبْراهِیمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَ إِسْماعِیلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ

فإبراهیم و إسماعیل قد رفعا قواعد البیت التی کانت موجودة.

و فی خطبة للإمام أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی نهج البلاغة، و هی المسماة بالقاصعة، یقول: «ألا ترون أنّ اللّه سبحانه اختبر الأوّلین من لدن آدم صلوات اللّه علیه إلی الآخرین من هذا العالم بأحجار ... فجعلها بیته الحرام ... ثمّ أمر آدم علیه السّلام و ولده أن یثنوا أعطافهم نحوه [۴۱۴] ...»[۴۱۵].

القرائن القرآنیة و الروائیة تؤید أن الکعبة بنیت أوّلا بید آدم، ثم انهدمت فی طوفان نوح، ثم أعید بناؤها علی ید إبراهیم و إسماعیل [۴۱۶].

فی الآیتین التالیتین یتضرع إبراهیم و إسماعیل إلی ربّ العالمین بخمسة طلبات هامّة. و هذه الطلبات المقدّسة حین الإشتغال بإعادة بناء الکعبة جامعة و دقیقة بحیث تشمل کل احتیاجات الإنسان المادیة و المعنویة، و تفصح عن عظمة هذین النبیین الکبیرین.

قالا أوّلا: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَیْنِ

ثم أضافا: وَ مِنْ ذُرِّیَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۸۴

و طلبا تفهم طریق العبادة: وَ أَرِنا مَناسِکَنا، لیعبد اللّه حقّ عبادته.

ثم طلبا التوبة: وَ تُبْ عَلَیْنا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ

الآیة الأخیرة تضمنت الطلب الخامس، و هو هدایة الذریة رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ یُزَکِّیهِمْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

بحثان

۱- هدف بعثة الأنبیاء

فی الآیات أعلاه، بعد أن یطلب إبراهیم و إسماعیل من اللّه ظهور نبی الإسلام، یذکران ثلاثة أهداف لبعثته:

الأوّل: تلاوة آیات اللّه علی النّاس، أی إیقاظ الأفکار و الأرواح فی ظل الآیات الإلهیة المبشرة و المنذرة.

«یتلو» من تلا، أی اتبع الشیء بالشیء، و سمیت «التلاوة» کذلک لأنها قراءة وفق تتبع و نظم. هی مقدمة للیقظة و الإعداد و التعلیم و التربیة.

الثّانی: «تعلیم الکتاب و الحکمة» و لا تتحقق التربیة إلّا بالتعلیم.

و لعل التفاوت بین «الکتاب» و «الحکمة» فی أن الکتاب یعنی الکتب السماویة، و الحکمة تعنی العلوم و الأسرار و العلل و النتائج الموجودة فی الأحکام، و هی التی یعلمها النّبی أیضا.

الثّالث: «التزکیة» و هو الهدف الأخیر.

و «التزکیة» فی اللغة هی الإنماء، و هی التطهیر أیضا.

و بذلك يتلخص الهدف النهائى من بعثة الأنبياء فى دفع الإنسان على مسيرة التكامل «العلمى» و «العملى».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۵

ينبغى التأكيد هنا على أنّ علوم البشر محدودة، مقرونة بآلاف الفجوات المبهمة و الأخطاء الكبيرة، و الإنسان أيضا لا يطمئن بدقة إلى معلوماته، لأنه شاهد أخطائه و أخطاء الآخرين.

من هنا كان من الضرورى مجىء الأنبياء بعلومهم الحقّة الخالية من الأخطاء المستمدة من مبدأ الوحى إلى النّاس، ليزيلوا أخطاءهم، و يملأوا فراغات جهلهم، و يبعثوا فيهم اطمئنانا بعلمهم.

و يلزم التأكيد أيضا على أن الشخصية البشرية تتكون من «عقل» و «غرائز»، و لذلك كان الإنسان بحاجة إلى «التربية» بقدر حاجته إلى «العلم»، و ينبغى أن يتكامل عقله، و أن تتجه غرائزه نحو هدف صحيح.

لذلك فإن الأنبياء معلمون، و مربون، يزودون النّاس بالعلم، و بالتربية.

۲- «التعليم» مقدم أو «التربية»؟

- فى أربعة مواضع ذكر القرآن مسألة التربية و التعليم باعتبار هما هدف الأنبياء، و فى ثلاثة مواضع منها قدمت «التربية» على «التعليم» (البقرة، ۱۵۱- آل عمران، ۱۶۴- الجمعة، ۲).

و فى موضع واحد تقدم التعليم على التربية (آية بحثنا). و نعلم أن التربية لا تتم إلّا بالتعليم.

لذلك حين يتقدم التعليم على التربية فى الآية فإنما ذلك بيان للتسلسل المنطقى الطبيعى لهما. و فى المواضع التى تقدمت فيها التربية، فقد يكون ذلك إشارة إلى أنها الهدف، لأن الهدف الاصلى هو التربية، و ما عداها مقدمة لها.

۳- النّبى من النّاس- تعبير «منهم» فى الآية وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يشير إلى أن قادة البشرية ينبغى أن يكونوا بشرا بنفس صفات البشر الغريزية، كى يكونوا القدوة اللائقة فى الجوانب العملية. و من الطبيعى أنهم- لو كانوا من غير البشر- ما استطاعوا إدراك حاجات النّاس و المشكلات العويصة الكامنة لهم فى حياتهم، و لا أمكنهم أن يكونوا قدوة و أسوة لهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۲]

اشارة

وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۱۳۰) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۱۳۱) وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۳۲)

التّفسير

إبراهيم الإنسان النّموذج

الآيات السابقة ألقت الضوء على جوانب من شخصية إبراهيم عليه السّلام، فتحدثت عن بعض خدماته و طلباته الشاملة للجوانب المادية و المعنوية.

من مجموع ما مرّ نفهم أن اللّه سبحانه شاء أن یکون هذا النّبی، شیخ الموحدین و قدوهٔ الرسالیین، علی مرّ العصور.

لذلک تقول الآیهٔ الاولی من آیات بحثنا هذا: وَ مَنْ یَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِیمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ! ألیس من السفاههٔ أن یعرض الإنسان عن مدرسهٔ الطهر و النقاء و الفطرهٔ و العقل و سعادهٔ الدنیا و الآخرهٔ، و یتجه إلی طریق الشرک و الکفر و الفساد و ضیاع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۸۷

العقل و الانحراف عن الفطرهٔ و فقدان الدین و الدنیا؟! ثم تضیف الآیهٔ: وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

نعم، إبراهیم علیه السّلام اصطفاه اللّه فی الدنیا لیکون «الأسوهٔ» و «القدوهٔ» للصالحین.

الآیـهٔ التالیـهٔ تؤکـد علی صـفهٔ اخری من صـفات إبراهیم التی هی الواقع أساس بقیـهٔ صـفاته العظیمـهٔ و تقول: إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ

هذا الإنسان المتحرر من الانشدادات الوضـیعهٔ یسارع إلی التسـلیم التام حال سـماعه نداء ربّه: «أسلم»، و لا یتوانی فی رفض کل أوهام زمـانه القائمـهٔ علی عبادهٔ النجوم و الشـمس و القمر، فیترکها بعـد أن رآها محکومـهٔ بالقوانین التی تسود الخلیفـهٔ و یقول: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [۴۱۷].

مرّ بنا فی الآیات السابقـهٔ أن إبراهیم و إسـماعیل علیهما السّـلام بعـد بناء الکعبهٔ طلبا من اللّه سبحانه أن یتقبل أعمالهما، ثم بعد ذلک طلبا أن یمنّ علیهما اللّه بنعمهٔ التسلیم لوجهه الکریم: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ و مثل هذا طلباه لذریّتهما: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ذلک لأن الخطوهٔ الاولی فی سـموّ الشخصـیهٔ الإنسانیهٔ الطهر و الإخلاص، و من هنا أسـلم إبراهیم علیه السّلام وجهه لربّه دون سواه، و لذلک عرف هو و دینه بهذا العنوان.

حیاهٔ إبراهیم علیه السّلام بأجمعها کانت مفعمهٔ بأعمال جسیمهٔ نادرهٔ، نضاله المریر ضد المشرکین، صموده الکبیر فی قلب النیران، هذا الصمود الذی أثار إعجاب نمرود الطاغیهٔ نفسه حیث راح یردد دون وعی: من اتخذ إلها فلیتخذ إلها مثل إله إبراهیم [۴۱۸].

و کذلک إسکان الزوج و الطفل الرضیع فی تلک الأرض الجافهٔ القاحلهٔ ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۸۸

و المقدسـهٔ، و بناء الکعبهٔ، و تقدیم الولد علی مذبح التضـحیهٔ و الفداء اسـتجابهٔ لأمر اللّه تعالی ... کل واحدهٔ من هذه الأعمال قمهٔ من سلسلهٔ قمم حیاهٔ إبراهیم علیه السّلام.

و وصیهٔ إبراهیم بنیهٔ فی أواخر أیّام حیاته تجسید آخر لهذه الحیاهٔ الشامخهٔ:

وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ ... فکل من إبراهیم و یعقوب وصّیا أبناء هما بالقول: يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

لعلّ القرآن الکریم، بنقله وصیهٔ إبراهیم، یرید أن یقول للإنسان إنه مسئول عن مستقبل أبنائه، علیه أن یهتم بمستقبلهم المعنوی قبل أن یهتم بمستقبلهم المادی.

یعقوب کإبراهیم وصّـی أیضا أبناءه، بنفس هـذه الوصایا، و أکـد لأبنائه أن رمز نجاحهم یتلخص فی جملـهٔ واحـدهٔ، هی التسـلیم لربّ العالمین.

ربّمـا یعـود ذکر اسم یعقـوب هنـا من بین سـائر الأنبیـاء، إلی أن الیهود و النصـاری کـانوا یعتقـدون بانتسـابهم إلی یعقوب بشـکل من الأشـکال، فأرادت الآیهٔ أن توضح لهم أن خط الشـرک الذی یسـلکونه لا یتناسب مع منهج یعقوب، و هو منهج التسلیم المحض لربّ العالمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۸۹

الآیتان [سورهٔ البقرهٔ (۲): الآیات ۱۳۳ الی ۱۳۴]

اشارة

أَمْ کُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ یَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِیهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِی قالُوا نَعْبُدُ إِلهَکَ وَ إِلهَ آبائِکَ إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۳) تِلْکَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما کَسَبَتْ وَ لَکُمْ ما کَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۳۴)

سبب النّزول

کان جمع من الیهود یعتقدون أن یعقوب عند ما حضرته الوفاة أوصی بنیه أن یعتنقوا الیهودیة (بتحریفاتها السائدة خلال عصر البعثة المبارکة)، و اللّه سبحانه أنزل هذه الآیة[۴۱۹].

التّفسیر

کما رأینا فی سبب النّزول، و ظاهر الآیة یدل علی ذلک أیضا، کان جمع من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۹۰

منکری الإسلام ینسبون ما لا ینبغی نسبته إلی النّبی یعقوب، و القرآن یرد علیهم بالقول: أَمْ کُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ یَعْقُوبَ الْمَوْتُ ! هذا الذی نسبوه إلیه لیس بصحیح، بل الذی حدث آنذاک إِذْ قالَ لِبَنِیهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِی

فی الجواب قالُوا نَعْبُدُ إِلهَکَ وَ إِلهَ آبائِکَ إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

أجل فإنّ یعقوب لم یوص أبناءه بشیء غیر التوحید و التسلیم لربّ العالمین و الذی هو الأساس لبرنامج الأنبیاء.

من الآیة یبدو أن قلقا ساور یعقوب لدن أن حضرته الوفاة بشأن مستقبل أبنائه، و عبّر عن قلقه هذه متسائلا: ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِی و إنما قال: ما تَعْبُدُونَ ... و لم یقل «من تعبدون ...» لتلوث البیئة الاجتماعیة آنذاک بالشرک و الوثنیة، أی بعبادة الأشیاء من دون اللّه. فأراد یعقوب أن یفهم ما فی قرارة نفوس أبنائه من میول و اتجاهات، و بعد أن استمع الجواب اطمأنت نفسه.

و یلفت النظر هنا أن إسماعیل لم یکن أبا لیعقوب و لا جدّه، بل عمّه، بینما الآیة استعملت کلمة «آباء»، و یتضح من ذلک أن کلمة «الأب» تطلق أیضا علی «العم» توسعا، و من هنا نقول بالنسبة لآزر، الذی ذکره القرآن باعتباره والد إبراهیم، أنه لا یمنع أن یکون عمّ إبراهیم لا والده. (تأمل بدقّة).

آخر آیة فی بحثنا، تجیب علی توهّم آخر من توهمات الیهود، فکثیر من هؤلاء کانوا یستندون إلی مفاخر الآباء و الأجداد و قرب منزلة أسلافهم من اللّه تعالی، فلا یرون بأسا فی انحرافهم هم ظانین أنهم ناجون بوسیلة أولئک الأسلاف.

یقول القرآن: تِلْکَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما کَسَبَتْ وَ لَکُمْ ما کَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۹۱

و بذلک أرادت الآیة أن توجّه أنظار هؤلاء إلی أعمالهم و سلوکهم و أفکارهم، و تصرفهم عن الانغماس فی الافتخار بالماضین.

هذه الآیة- و إن اتجهت فی الخطاب إلی فئة الیهود، أهل الکتاب فی عصر البعثة- تخاطبنا نحن المسلمین أیضا، و تطرح أمامنا مبدأ:

إن الفتی من یقول ها أنا ذالیس الفتی من یقول کان أبی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۹۲

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۳۵ الی ۱۳۷]

اشارة

وَ قالُوا کُونُوا هُوداً أَوْ نَصاری تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِیمَ حَنِیفاً وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۱۳۵) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِیَ مُوسی وَ عِیسی وَ ما أُوتِیَ النَّبِیُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۶) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِی شِقاقٍ فَسَیَکْفِیکَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۱۳۷)

سبب النّزول

عن ابن عباس أن جماعة من علماء الیهود و نصاری أهل نجران خاصموا أهل الإسلام، کل فرقة تقول إنها أحق بدین اللّه من غیرها، فقالت الیهود: نبینا موسی أفضل الأنبیاء، و کتابنا التوراة أفضل الکتب، و قالت النصاری: عیسی أفضل الأنبیاء، و کتابنا الإنجیل أفضل الکتب، و کل فریق منهما قال للمؤمنین:

کونوا علی دیننا، فأنزل اللّه تعالی هذه الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۳

التّفسیر

نحن علی حقّ لا غیرنا!

التمحور و الانغماس فی الذاتیة یؤدی إلی أن یحتکر الإنسان الحقّ لنفسه، و یعتبر الآخرین علی باطل، و یسعی إلی أن یجرهم الی معتقداته الآیة الاولی تتحدث عن مجموعة من أهل الکتاب یحملون مثل هذه النظرة الضیقة، و نقلت عنهم القول: وَ قالُوا کُونُوا هُوداً أَوْ نَصاری تَهْتَدُوا.

فیردّ علیهم القرآن مؤکدا أن الأدیان المحرّفة لا تستطیع إطلاقا أن تهدی الإنسان قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِیمَ حَنِیفاً وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ

التدین الخالص هو اتباع الخط التوحیدی الخالص غیر المشوب بالشرک.

و رعایة هذا الأساس أهم معیار للتمییز بین الأدیان الصحیحة و الأدیان المنحرفة.

یعلمنا الإسلام أن لا نفرق بین الرسل، و أن نحترم رسالاتهم، لأن المبادئ الأساسیة للأدیان الحقّة واحدة، موسی و عیسی کانا أیضا من أتباع ملة إبراهیم ...

أی من أتباع الدین التوحیدی الخالص من الشرک، و إن حرّف المغرضون من أتباعهما ما جاءا به، و جعلوه مشوبا بالشرک. و (کلامنا هذا لا یتنافی طبعا مع إیماننا بأن البشریة یجب أن تتبع آخر الأدیان السماویة أی الإسلام).

الآیة التالیة تأمر المسلمین أن قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِیَ مُوسی وَ عِیسی وَ ما أُوتِیَ النَّبِیُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

لا یجوز أن ننطلق من محور الذاتیة فی الحکم علی هذا النّبی أو ذاک، بل یجب أن ننظر إلی الأنبیاء بمنظار رسالی، و نعتبرهم جمیعا رسل ربّ العالمین و معلّمی البشریة، قد أدّی کل منهم دوره فی مرحلة تاریخیة معینة، و کان هدفهم واحدا، و هو هدایة النّاس فی ظل التوحید الخالص و الحق و العدالة.

ثم يضيف القرآن قائلا: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۴

هُمْ فِی شِقاقٍ

و لو تخلى هؤلاء عن عنصريتهم و ذاتياتهم، و آمنوا بجميع أنبياء اللّه فقد اهتدوا أيضا، و إلّا فقد ضلوا سواء السبيل.

و «الشّقاق» النزاع و الحرب، و فسرت فى الآية بالكفر و بالضلال، و بالابتعاد عن الحق و الاتجاه نحو الباطل، و كل هذه المعانى تعود إلى حقيقة واحدة.

ذكر بعض المفسرين أن الآية السابقة التى ساوت بين عيسى و سائر الأنبياء.

أثارت اعتراض جمع من النصارى و قالوا: إن عيسى ليس كسائر الأنبياء، بل هو ابن اللّه، فنزلت هذه الآية لتؤكد على انحراف هؤلاء و أنهم فى شقاق.

ثم تثبت الآية على قلوب المؤمنين و تبعث فيهم الثقة و الطمأنينة بالقول:

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم الْعَلِيمُ بمؤامراتهم.

بحوث

۱- وحدة دعوة الأنبياء

فى مواضع عديدة أكد القرآن على أن هدف الأنبياء واحد، و لا انفصال فى خط النبوات، فكل الأنبياء عليهم السّلام يصدرون عن منبع الوحى الإلهى، و لذلك يوصى القرآن باحترام جميع الأنبياء، لكن هذا لا يمنع- كما قلنا- أن تنسخ كلّ رسالة جديدة تنزل من اللّه سبحانه الرسالات السابقة، و الإسلام خاتم الرسالات السماوية.

أنبياء اللّه كالمعلمين، ربّى كل منهم البشرية فى فصل دراسى، و بعد انتهاء المرحلة الدراسية الخاصة به يسلم المجتمع البشرى إلى معلم آخر ليجتاز الأفراد مرحلة دراسية أعلى. و من هنا فالمجتمع البشرى مكلّف بتحمل مسئوليات ما يأتى به آخر نبى، و هذا لا يتعارض مع كون سائر الأنبياء على حق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۵

۲- من هم الأسباط؟

الأسباط جمع سبط، و الأسباط أحفاد يعقوب، و هم اثنا عشر سبطا من اثنى عشر ابنا، أو أنهم قبائل من بنى إسرائيل، و السّبط فى اللغة: الجماعة يرجعون إلى أب واحد، و السبط (على وزن درج) قد يأتى بمعنى: الشجر، و الأسباط الذين هم من شجرة واحدة، و يقال: سبط عليه العطاء، إذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض.

المقصود من الأسباط- إذن- ليس أبناء يعقوب، فهؤلاء ارتكبوا جميعا ذنبا بحق أخيهم و لا يصلحون للنبوّة، بل المقصود قبائل بنى إسرائيل، أو أحفاد يعقوب ممن كان لهم أنبياء. و لما كان بين هؤلاء الأسباط أنبياء، فالآية عدتهم بين أولئك الذين نزلت عليهم آيات اللّه.

۳- الحنیف

الحنیف، من مادة حنف: أی مال عن الأدیان الباطلة إلی الدین الحق، و به سمیت الحنیفیة، لأنها مالت عن الیهودیة و النصرانیة. و عکس ذلک «جنف» أی مال عن الطریق المستقیم إلی الانحراف. و لهذا السبب کان أحد معانی الحنیف هو المستقیم و الذی لا عوج فیه.

و للمفسرین آراء فی الحنیفیة، منها حج بیت اللّه، و أتباع الحق، و أتباع إبراهیم، و الإخلاص فی العمل، و کلها ترجع إلی معنی عام و شامل، ما ذکره المفسرون مصادیق لذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۶

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۳۸ الی ۱۴۱]

اشارة

صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (۱۳۸) قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِی اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّکُمْ وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَکُمْ أَعْمالُکُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (۱۳۹) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ کانُوا هُوداً أَوْ نَصاری قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۴۰) تِلْکَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما کَسَبَتْ وَ لَکُمْ ما کَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۴۱)

التّفسیر

التّخلّی عن غیر صبغة اللّه:

بعد الدّعوة التی وجهتها الآیات السابقة لإتّباع الأدیان بشأن انتهاج طریق جمیع الأنبیاء، أول آیة فی بحثنا تأمرهم جمیعا بترک کل صبغة، أی دین، غیر «صبغة اللّه»[۴۲۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۷

ثم تضیف الآیة: وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً؟! أی لا أحسن من اللّه صبغة، وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ فی اتباع ملّة إبراهیم التی هی صبغة اللّه، و قیل المعنی: من نحن له عابدون یجب أن تتبع صبغته، لا ما صبغنا علیه الآباء و الأجداد[۴۲۱].

و بهذا أمر القرآن بالتخلی عن الصبغات العنصریة و الطائفیة و الذاتیة و عن کل الصّبغات المفرّقة، و الاتّجاه نحو صبغة اللّه.

ذکر المفسرون أن النصاری دأبوا علی غسل أبنائهم بعد ولادتهم فی ماء أصفر اللون، و یسمونه غسل التعمید، و یجعلون ذلک تطهیرا للمولود من الذنب الذاتی الموروث من آدم! القرآن یرفض هذا المنطق الخاوی، و یقول: من الأفضل أن تترکوا هذه الصبغات الظاهریة الخرافیة المفرقة، و تصطبغوا بصبغة اللّه، لتطهر روحکم.

ما أجمل تعبیر «الصبغة» فی هذه الآیة! و ما أروع هذه الدعوة إلی الاصطباغ بصبغة اللّه! لو حدث ذلک ... لو اختارت البشریة صبغة اللّه ... أی صبغة الطهر و التقوی و العدالة و المساواة و الأخوّة ... صبغة التوحید و الإخلاص ... لاستطاعت أن تستأصل جذور الشرک و النفاق و التفرقة ... إنّها فی الحقیقة الصبغة التی لا لون بها و تطهر الإنسان من جمیع الألوان.

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام: أن «صبغۀ اللّه» هی الإسلام ۴۲۲]،

و هذا إشارۀ إلی ما ذکرناه.

کـان الیهود و غیرهم یحـاجّون المسـلمین بصور شتّی، کـانوا یقولون: إنّ جمیع الأنبیـاء مبعوثون منا، و إن دیننا أقـدم الأدیان، و کتابنا أعرق الکتب السماویۀ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۹۸

و کانوا یقولون: إن عنصرنا أسمی من عنصر العرب، و نحن المؤهلون لحمل الرسالۀ لا غیرنا، لأن العرب أهل أوثان.

و کانوا یدّعون أحیانا أنهم أبناء اللّه و أن الجنّۀ لهم لا لغیرهم.

القرآن یردّ علی کلّ هذه الأقاویل و یقول: أَ تُحَاجُّونَنا فِی اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّکُمْ

فاللّه سبحانه لیس ربّ شعب أو قبیلۀ معینۀ، إنه ربّ العالمین.

و اعلموا أیضا أن لا امتیاز لأحد علی غیره إلّا بالأعمال، و کل شخص رهن أعماله وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَکُمْ أَعْمالُکُمْ

مع فارق، هو إن کثیرا منکم یشرکون فی توحیدهم: وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ

الآیۀ التالیۀ تجیب علی واحد آخر من هذه الادعاءات الفارغۀ و تقول: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ کانُوا هُوداً أَوْ نَصاری ! ثم تجیب الآیـۀ عن هـذا الادعاء بشـکل رائع فتقول: قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ! فاللّه أعلم أنهم ما کانوا یهودا و لا نصاری.

و قد تعلمون أنتم أیضا أن هؤلاء الأنبیاء أدّوا رسالتهم قبل موسی و عیسی.

و إن کنتم لا تعلمون فإطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم و تثبیت تهمۀ و ذنب، و کتمان للحقیقۀ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَتَمَ شَهادَۀً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ

اعلموا أنه وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

حین ینتهج الإنسان خط العناد و اللجاج فإن إعراضه عن الحقیقۀ لا حدّ له، ینکر أبسط المسلّمات، و یرفض أوضح الواضحات. و الآیۀ تذکر نموذجا لذلک فی هذه المجموعۀ التی بلغ بها العناد و اللجاج أن تعتبر أنبیاء اللّه- الذین سبقوا موسی و عیسی من أمثال إبراهیم و إسماعیل و إسحاق و یعقوب- من الیهود أو النصاری.

و بذلک یکتمون حقیقۀ واضحۀ لها ارتباط بإیمان النّاس و معتقداتهم، و لذلک یصف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۹۹

القرآن هؤلاء الذین یکتمون الحقائق بأنهم أظلم النّاس، لأنه لا ظلم أکبر من کتمان الحقائق عن النّاس عمدا، و جرّ الآخرین إلی طریق الضلال.

فی آخر آیۀ من الآیات التی نحن بصددها یقول سبحانه لهؤلاء القوم العنودین الجدلیین: افترضوا أن ادعاءاتکم صحیحۀ، فهذا لا یعود علیکم بالنفع لأنه تِلْکَ أُمَّۀٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما کَسَبَتْ وَ لَکُمْ ما کَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ

الامّـۀ الحیـۀ ینبغی أن تعتمـد علی أعمالهـا لا علی ذکریات تاریخها، و الإنسان یجب أن یسـتند إلی فضائله، لا أن یجترّ مفاخر الآباء و الأجداد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰۰

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰۱

الجزء الثانی من القرآن الکریم من الآیۀ مائۀ و اثنتین و أربعین إلی الآیۀ مائۀ و سبع و ثمانین من سورۀ البقرۀ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۲]

اشارة

سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِی كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۴۲)

التّفسير

تغيير القبلة

هذه الآية و آيات تالية تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الإسلامی، كان له آثاره الكبيرة فی المجتمع آنذاك.

رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم صلّى صوب (بيت المقدس) بأمر ربّه مدّة ثلاثة عشر عاما بعد البعثة فی مكة، و بضعة أشهر فی المدينة بعد الهجرة. ثم تغيّرت القبلة، و أمر اللّه المسلمين أن يصلّوا تجاه (الكعبة).

و اختلف المفسرون فی المدّة التی صلّى خلالها المسلمون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، فذكروا مددا مختلفة تتراوح بين سبعة أشهر و سبعة عشر شهرا.

كانت الجماعة المسلمة تتعرض خلال كل هذه المدّة (مدة صلاة المسلمين تجاه بيت المقدس) إلى لوم اليهود و تقريعهم، و كان اليهود يقولون عن المسلمين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰۴

إن هؤلاء غير مستقلين لأنّهم يصلون تجاه قبلتنا، و هذا دليل أننا على حقّ.

كانت هذه الأقوال تؤلم الرّسول و صحبه، فالأمر الإلهی يوجب أن يصلوا تجاه بيت المقدس، و اليهود لا ينفكّون يرشقون المسلمين بوابل تهمهم و تقريعهم.

و بلغ الأمر أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بدأ يقلب وجهه فی السماء انتظارا للوحی.

و استمر الانتظار مدّة، حتى نزل الوحی يأمر بتغيير القبلة، كان الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فی مسجد «بنی سالم» يصلی الظهر، فما إن أتمّ ركعتين حتى أمر جبرائيل أن يأخذ بعضد الرّسول و يدير وجهه تجاه الكعبة[۴۲۳].

لم يكفّ اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامية بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، و القرآن الكريم يتحدث عن هذه الاعتراضات: سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِی كانُوا عَلَيْها.

بدأوا يرددون: لو كانت القبلة الاولى هی الصحيحة فلم هذا التغيير؟ و إن كانت الثانية صحيحة فلما ذا صلى المسلمون أكثر من ثلاثة عشر عاما تجاه بيت المقدس؟! و اللّه سبحانه يجيب على هذا الاعتراض، فأمر رسوله أن قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

فليس لمكان قداسة ذاتية، إنما يكتسب قداسته بإذن اللّه، و كل مكان ملك للّه، و المهم هو الطاعة و الاستسلام لربّ العالمين.

تغيير القبلة فی الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الإلهی، و كل مرحلة خطوة على الصراط المستقيم نحو الهداية الإلهية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰۵

بحوث

۱- «السفهاء» جمع «سفیه» أطلقت فی الأصل علی من خفّت حرکة جسمه، و قیل: زمام سفیه، أی کثیر الاضطراب خفیف الوزن. ثم استعملت الکلمة فی خفة النفس لنقصان العقل فی الأمور الدینیة و الدنیویة.

۲- ذکرنا أن مسألة «النسخ» فی الأحکام و تغییر المنهج التربوی بتغیر المراحل الزمانیة لیست مسألة غریبة جدیدة فی تاریخ الرسالات. لکن هؤلاء القوم العنودین الجدلیین من الیهود اتخذوا من هذا التغییر ذریعة لإعلامهم المضاد، و القرآن یجیبهم بشکل یفحمهم.

۳- جملة یَهْدِی مَنْ یَشاءُ لا تعنی کما ذکرنا أن هدایة اللّه لیس لها حساب، لأن المشیئة الإلهیة تنطلق من «حکمة» اللّه، و من محاسبات المصالح و المفاسد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰۶

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۴۳]

اشارة

وَ کَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النَّاسِ وَ یَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِی کُنْتَ عَلَیْها إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ یَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ یَنْقَلِبُ عَلی عَقِبَیْهِ وَ إِنْ کانَتْ لَکَبِیرَةً إِلاَّ عَلَی الَّذِینَ هَدَی اللَّهُ وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُضِیعَ إِیمانَکُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (۱۴۳)

التّفسیر

الأمّة الوسط

هذه الآیة تشیر إلی جانب من أسباب تغییر القبلة، تقول أوّلا: وَ کَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً أی کما جعلنا القبلة وسطا، کذلک جعلناکم أمّة فی حالة اعتدال، لا یشوبها إفراط و لا تفریط فی کل جوانب حیاتها.

أما سبب کون قبلة المسلمین قبلة وسطا، فلأن النصاری- الذین یعیش معظمهم فی غرب الکرة الأرضیة- یولون وجوههم صوب الشرق تقریبا حین یتجهون إلی قبلتهم فی بیت المقدس حیث مسقط رأس السید المسیح. و الیهود- الذین یتواجدون غالبا فی الشامات و بابل- یتجهون نحو الغرب تقریبا حین یقفون تجاه بیت المقدس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۰۷

أما «الکعبة» فکانت بالنسبة للمسلمین فی المدینة تجاه الجنوب، و بین المشرق و المغرب، و فی خط وسط.

و هذا ما یفهم من عبارة «و کذلک»، و إن کان للمفسرین آراء اخری فی هذه العبارة لا تخلو من مناقشة.

القرآن یؤکد أن المنهج الإسلامی فی کل أبعاده- لا فی بعد القبلة فقط- یقوم علی أساس التوازن و الاعتدال.

و الهدف من ذلک لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النَّاسِ وَ یَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً.

و «شهادة» الأمّة المسلمة علی النّاس، و «شهادة» النّبی علی المسلمین، قد تکون إشارة إلی الأسوة و القدوة، لأن الشاهد ینتخب من بین

أزكى النّاس و أمثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآني أن الأمّة المسلمة نموذجيّة بما عندها من عقيدة و منهج، كما أن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فرد نموذجيّ بين أبناء الامّة.

الامّة المسلمة بعملها و بتطبيقها المنهج الإسلامى تشهد أن الإنسان بمقدوره أن يكون رجل دين و رجل دنيا ... أن يكون إنسانا يعيش فى خضم الأحداث الاجتماعية وفق معايير روحية و معنوية. الامّة المسلمة بمعتقداتها و مناهجها تشهد بعدم وجود أى تناقض بين الدين و العلم، بل إن كلا منهما يخدم الآخر.

ثم تشير الآية إلى واحد آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِی کُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ

الآية لم تقل: يتبعك، بل قالت: يَتَّبِعُ الرَّسُولَ إشارة إلى أن هذا الإتباع إنما هو تسليم لأمر اللّه، و كل اعتراض إنما هو عصيان و تمرد على اللّه، و لا يصدر ذلک إلّا عن مشرک جاهلى.

و عبارة مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ تعنى فى الأصل الرجوع على مؤخر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۸

الرجل، و تعنى هنا الانتكاس و التراجع.

ثم تضيف الآية: وَ إِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

لو لا الهداية الإلهية، لما وجدت فى نفس الإنسان روح التسليم المطلق أمام أوامر اللّه. المهم أن يكون الإنسان المسلم مستسلما إلى درجة لا يحسّ معها بثقل مثل هذه الأوامر، بل يشعر بلذتها و حلاوتها.

و أمام وسوسة الأعداء المضللين و الأصدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشككون فى صحة ما سبق من العبادات قبل تغيير القبلة، تقول الآية: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

فأوامر اللّه مثل و صفات الطبيب لكل مرحلة من مراحل العلاج نسخة خاصة، و كلها شافية وافية تضمن سعادة الإنسان و سلامته، و العمل بأجمعها صحيح لا غبار عليه.

بحوث

۱- أسرار تغيير القبلة

تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أثار لدى الجميع تساؤلات عديدة، أولئک الذين قالوا إن الأحكام ينبغى أن تبقى ثابتة راحوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير، فلو كانت القبلة الصحيحة هى الكعبة، فلما ذا لم يؤمر المسلمون بالصلاة نحوها منذ البدء، و إن كانت بيت المقدس فلم هذا التغيير؟! و أعداء الإسلام وجدوا الفرصة سانحة لبث سمومهم و لإعلامهم المضّاد.

قالوا إن تغيير القبلة تمّ بدافع عنصرى، و زعموا أن النّبى اتجه أوّلا- إلى قبلة الأنبياء السابقين، ثم عاد إلى قبلة قومه بعد تحقيق انتصاراته! و قالوا: إن محمّدا صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أراد استعطاف أهل الكتاب بانتخابه بيت المقدس قبلة له، و لمّا يئس منهم استبدل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۹

الكعبة بها.

واضح مدى القلق و الاضطراب الذى تتركه هذه الوساوس على مجتمع لم يتغلغل نور العلم و الإيمان فى كل زواياه، و لم يتخلص بعد تماما من رواسب الشرك و العصبية.

لذلك تصرّح الآية أعلاه أن تغيير القبلة اختبار كبير لتمييز المؤمنين من المشركين.

لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة ما يلى:

لما كانت الكعبة فى بداية البعثة المباركة بيتا لأصنام المشركين، فقد أمر المسلمون مؤقتا بالصلاة تجاه بيت المقدس، ليتحقّق الانفصال التام بين الجبهة الإسلامية و جبهة المشركين.

و بعد الهجرة و إقامة الدولة الإسلامية و المجتمع الإسلامى، حدث الانفصال الكامل بين الجبهتين، و لم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، و أعرق مركز للأنبياء.

و من الطبيعى أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوى لقوميتهم، و أن يستثقلوا أيضا العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا على قبلتهم الاولى (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحوّل وضعوا فى بوتقة الاختبار، لتخليصهم ممّا علّق فى نفوسهم من آثار الشرك، و لتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك، و لتنمو فى وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر اللّه سبحانه.

إن اللّه سبحان ليس له مكان و محل- كما ذكرنا- و القبلة رمز لوحدة صفوف المسلمين و لإحياء ذكريات خط التوحيد، و تغييرها لا يغيّر شيئا، المهم هو الاستسلام الكامل أمام اللّه، و كسر أوثان التعصب و اللجاج و الأنانية فى النفوس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۰

۲- الأمّة الوسط

«الوسط» ما توسط بين شيئين، و بمعنى الجميل و الشريف، و المعنيان يعودان ظاهرا إلى حقيقة واحدة لأن الجمال و الشرف فيما اعتدل و ابتعد عن الإفراط و التفريط.

ما أجمل التعبير القرآنى عن الامّة المسلمة ... الامّة الوسط.

الوسط: المعتدلة فى «العقيدة» لا تسلك طريق «الغلو» و لا طريق «التقصير و الشرك»، لا تنحو منحى «الجبر» و لا «التفويض»، و لا تؤمن «بالتشبيه» فى صفات اللّه و لا «بالتعطيل».

معتدلة فى «القيم المادية و المعنوية» لا تغطّ فى عالم المادة و تنسى المعنويات، و لا تغرق فى المعنويات و تتناسى الماديات. ليست كمعظم اليهود لا يفهمون سوى المادة، و ليست كرهبان النصارى يتركون الدنيا تماما.

معتدلة فى «الجانب العلمى» ... لا ترفض الحقائق العلمية، و لا تقبل كل نعرة ترتفع باسم العلم.

معتدلة فى «الرّوابط الاجتماعية» لا تضرب حولها حصارا يعزلها عن العالم، و لا تفقد استقلالها و تذوب فى هذه الكتلة أو تلك، كما نرى الذائبين فى الشرق و الغرب اليوم! معتدلة فى «الجانب الأخلاقى» ... فى عباداتها ... فى تفكيرها ... و فى جميع أبعاد حياتها.

المسلم الحقيقى لا يمكن إطلاقا أن يكون إنسانا ذا بعد واحد، بل هو إنسان ذو أبعاد مختلفة ... مفكر، مؤمن، عادل، مجاهد، مكافح، شجاع، عطوف، واع، فعّال، ذو سماح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱ ؛ ص۴۱۰

ارة الامّة الوسط توضّح من جانب مسألة شهادة الامّة الإسلامية، لأن من يقف على خطّ الوسط يستطيع أن يشهد كل الخطوط

الانحرافیة المتجهة نحو

الیمین و الیسار.

و من جانب آخر تحمل العبارة دلیلها و تقول: «إنّما کنتم شهداء علی النّاس لأنّکم معتدلون و أنکم أمة وسط»[۴۲۴].

۳- الامّة الشاهدة

لو اجتمعت الصفات التی ذکرناها للأمّة الوسط فی أمّة، فهذه الامّة دون شک رائدة للحق، و شاهدة علی الحقیقة، لأن مناهجها تشکل المیزان و المعیار لتمییز الحق عن الباطل.

ورد عن أئمة أهل البیت علیهم السّلام قولهم: «نحن الامّة الوسطی، و نحن شهداء اللّه علی خلقه و حججه فی أرضه ... نحن الشّهداء علی النّاس ... إلینا یرجع الغالی و بنا یرجع المقصّر»

[۴۲۵] مثل هذه الروایات- کما ذکرنا- لا تحدد المفهوم الواسع للآیة، بل تبین المصداق الأمثل للأمّة الوسط، و تعطی نموذجا متکاملا لها.

۴- علم اللّه

عبارة لِنَعْلَمَ مَنْ یَتَّبِعُ الرَّسُولَ ... و أمثالها من التعبیرات القرآنیة، لا تعنی أن اللّه لم یکن یعلم شیئا، ثم علم به بعد ذلک، بل تعنی تحقّق هذه الواقعیات.

بعبارة أوضح، اللّه سبحانه یعلم منذ الأزل بکل الحوادث و الموجودات، و إن ظهرت بالتدریج علی مسرح الوجود. فحدوث الموجودات و الأحداث لا یزید اللّه علما، بل إن هذا الحدوث تحقّق لما کان فی علم اللّه. و هذا یشبه علم المهندس بکل تفاصیل البناء عند وضعه التصمیم. ثم یتحول التصمیم إلی بناء عملی.

و المهندس یقول حین ینفّذ تصمیمه علی الأرض: أرید أن أری عملیا ما کان فی

علمی نظریا. (علم اللّه یختلف دون شک عن علم البشر اختلافا کبیرا کما ذکرنا ذلک فی بحث صفات اللّه، و إنما ذکرنا هذا المثال للتوضیح).

عبارة وَ إِنْ کانَتْ لَکَبِیرَةً إِلَّا عَلَی الَّذِینَ هَدَی اللَّهُ توضّح حقیقة الصعوبة فی مخالفة العادة الجاریة، و فی التخلص من سیطرة العواطف غیر الصحیحة، إلّا علی الذین آمنوا باللّه حقّا، و استسلموا لأوامره.

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۴۴]

اشارة

قَدْ نَری تَقَلُّبَ وَجْهِکَ فِی السَّماءِ فَلَنُوَلِّیَنَّکَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَیْثُ ما کُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَکُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ

الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ لَیَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا یَعْمَلُونَ (۱۴۴)

التّفسیر

کل الوجوه شطر الکعبة

ذکرنا أن بیت المقدس کان القبلة الاولى المؤقتة للمسلمین. و الرّسول صلّى اللّه علیه و اله و سلّم کان ینتظر الأمر الإلهی بتغییر القبلة، خاصة و أن الیهود استغلّوا مسألة اشتراک المسلمین معهم فی القبلة، لیوجهوا سهام إعلامهم المضاد للمجموعة المسلمة، مرددین أن المسلمین لا استقلال لهم، و أنهم لا یعرفون معنى القبلة و إنما اقتبسوه منّا، و أن قبولهم قبلتنا یعنی اعترافهم بدیننا! و أمثال هذه الأقاویل.

الآیة تشیر إلى هذه المسألة و تقول:

قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِکَ فِی السَّماءِ، فَلَنُوَلِّیَنَّکَ قِبْلَةً تَرْضاها، فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَ حَیْثُ ما کُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَکُمْ شَطْرَهُ

ذکرت الروایة- کما أشرنا من قبل- أن هذا الأمر الإلهی نزل فی لحظة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۴

حساسة ملفتة للأنظار، حین کان الرّسول و المسلمون یؤدون صلاة الظهر. فأخذ جبرائیل بذراع الرّسول صلّى اللّه علیه و اله و سلّم و أدار وجهه نحو الکعبة. و تذکر الروایة أن صفوف المسلمین تغیّرت على أثر ذلک، و ترک النساء مکانهنّ للرجال و بالعکس. (کان اتجاه بیت المقدس نحو الشمال تقریبا، بینما کان اتجاه الکعبة نحو الجنوب).

من المفید أن نذکر أنّ تغییر القبلة من علامات نبی الإسلام المذکورة فی الکتب السابقة. فقد کان أهل الکتاب على علم بأن النّبی المبعوث «یصلّی إلى القبلتین».

لذلک تضیف الآیة: وَ إِنَّ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ لَیَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ

أضف إلى ذلک أن دلائل نبوّة رسول الإسلام، تحرره من التأثر بعادات بیئته الاجتماعیة، و ترکه الکعبة التی کانت موضع تقدیس العرب، و اتجاهه نحو قبلة أقلیة محدودة.

ثم تقول الآیة: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا یَعْمَلُونَ

فهؤلاء الذین یکتمون ما جاء فی کتبهم بشأن تغییر قبلة نبی الإسلام، و یستغلون هذه الحادثة لإثارة ضجة بوجه المسلمین، بدل أن یتخذوها دلیلا على صدق دعوى النّبی، سیلاقون جزاء أعمالهم، و اللّه لیس بغافل عن أعمالهم و نیاتهم.

بحوث

۱- نظم الآیات

محتوى هذه الآیة یبیّن بوضوح أنها نزلت قبل الآیة التی سبقتها فی الترتیب القرآنی. ذلک لأن القرآن لم تجمع آیاته حسب نزوله، بل کان ترتیب الآیات یتم استنادا إلى مناسبات معینة بتعیین من رسول اللّه صلّى اللّه علیه و اله و سلّم و بأمر من الباری سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۵

(و من تلک المناسبات مثلا رعایة الأولویة و أهمیة الموضوعات).

۲- انتظار صعب!

یستفاد من هذه الآیة أن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان مرتبطا بالکعبة ارتباطا خاصا، و منتظرا لأمر تغییر القبلة، و لعلنا نستطیع أن نتلمس سبب ذلک فی ارتباط النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بإبراهیم علیه السّلام، أضف إلی ذلک أن الکعبة أقدم قاعدة توحیدیة، و أنه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان یعلم بوقوع هذا التغییر، و کان یترقب حدوثه.

و هنا تبرز ظاهرة الاستسلام المطلق للرسول، حیث لم یتردد علی لسانه طلب بهذا الشأن، بل کان یقلب طرفه فی السماء منتظرا بتلهّف نزول الوحی.

و تعبیر «السماء» فی الآیة قد یشیر إلی انتظاره هبوط «جبرائیل» من الأعلی، و إلّا فاللّه لا مکان له، و هکذا وحیه المرسل.

۳- معنی الشطر

یثیر الالتفات أن الآیة لم تأمر المسلمین أن یصلوا تجاه الکعبة، بل «شطر المسجد الحرام».

لعل ذلک یعود إلی صعوبة بل تعذّر محاذاة الکعبة علی المصلین البعیدین عن الکعبة. لذلک ذکر المسجد الحرام بدل الکعبة لأنه أوسع، ثم کلمة «شطر» تعنی السمت و الجانب، و بذلک کان الاتجاه شطر المسجد الحرام عملا میسورا للجمیع، و خاصة لصفوف الجماعة الطویلة التی یزید طولها غالبا علی طول الکعبة.

بدیهی أن المحاذاة الدقیقة للکعبة- و حتی للمسجد الحرام- عمل صعب علی المصلین البعیدین، لکن الوقوف شطره یخلو من کل صعوبة[۴۲۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۶

۴- خطاب عام

کل خطابات القرآن هی دون شک- شاملة لکل المسلمین- و إن اتجهت إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم (اللهم إلّا فی مواضع دل الدلیل علی أنّها خاصّة بالنّبی)، من هنا یطرح سؤال بشأن سبب اتّجاه الآیة الّتی نحن بصددها فی الخطاب إلی النّبی تارة تأمره أن یصلی شطر المسجد الحرام، و تارة اخری إلی عامة المسلمین.

هذا التکرار قد یعود إلی أنّ تغییر القبلة مسألة مثیرة حساسة، و من الممکن أن تؤدی الضجة التی تثیرها هذه المسألة إلی اضطراب بین المسلمین، و قد یتذرع بعض فی وسط هذه الضجة بأن الخطاب «فولّ وجهک» موجّه إلی النّبی خاصة، فلا یصلی تجاه الکعبة. لذلک خاطبت الآیة الرّسول مرة و عامة المسلمین مرّة اخری لتؤکد أن هذا التغییر غیر خاص بالرّسول، بل یشمل عامّة المسلمین أیضا.

۵- هل الهدف من هذا التغییر تحقیق رضی النّبی؟

عبارة «قبلة ترضاها» قد توهم أن هذا التغییر تم إرضاء للنبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و یزول هذا التوهم لو علمنا أن بیت المقدس کان قبلة مؤقتة، و أن النّبی کان ینتظر القبلة النهائیة، و بصدور أمر التغییر وضع حد لطعن الیهود من جهة، و توفرت أرضیة استمالة

أهل الحجاز المرتبطين ارتباطا خاصا بالكعبة نحو الإسلام من جهة اخرى، كما أن إعلان بيت المقدس كقبلة اولى أزال عن الإسلام الطابع القومى، و أسقط اعتبار الأصنام المتواجدة فى الكعبة.

۶- الكعبة مركز دائرة كبرى

لو نظر شخص من خارج الكرة الأرضية إلى المصلين المسلمين لرأى دوائر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۷

متعددة بعضها داخل بعض و تضيق بالتدريج لتصل إلى المركز الأصلى المتمثل بالكعبة. و هذه الصورة توضح محورية و مركزية بيت اللّه الحرام. و هذه ظاهرة متميزة فى الإسلام دون سواه من الأديان.

جدير بالذكر أن ضرورة اتجاه المسلمين شطر المسجد الحرام كان باعثا على تطور علم الهيئة و علم الجغرافيا و الفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الإسلامية الاولى، لأن معرفة جهة القبلة فى مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسّرة من دون معرفة بهذه العلوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۵]

اشارة

وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۴۵)

التّفسير

لا يرضون بأىّ ثمن

مرّ بنا فى تفسير الآية السابقة أن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لا يمكن أن يثير شبهة حول النّبى، بل إنه من دلائل صحة دعواه، فأهل الكتاب قد قرءوا عن صلاة النّبى الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق.

و الإنسان، حين لا- يواجه المسائل بقناعات مسبقة، يكون مستعدا للتفاهم و لتصحيح تصوراته بالدليل و المنطق، أو عن طريق إراءة المعجزة.

أمّا حينما يكون قد كوّن له رأيا مسبقا قاطعا، و خاصّة حين يكون مثل هذا الفرد جاهلا متعصبا، فلا يمكن تغيير رأيه بأى ثمن.

لذلك تقول الآية: وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ

فلا تتعب نفسك إذن، لأن هؤلاء يأبون الاستسلام للحق، و لا توجد فيهم روح طلب الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۹

كل الأنبياء واجهوا مثل هؤلاء الأفراد، و هم إمّا أثرياء متنفذون، أو علماء منحرفون، أو جاهلون متعصبون.

ثم تضيف الآية: وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ

أى إن هؤلاء لا يستطيعون مهما افتعلوا من ضجيج، أن يغيروا مرّة اخرى قبلة المسلمين، فهذه هى القبلة الثابتة النهائية.

و هذا التعبير القاطع الحاسم أحد سبل الوقوف بوجه الضجيج المفتعل، و من الضرورى فى مثل هذه الظروف أن يعلن الإنسان المسلم أمام الأعداء كلمته صريحة قوية، مؤكدا أنه لا ينثنى أمام هذه الانفعالات.

ثم تقول الآية: وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ

لا النصارى بتابعين قبلة اليهود، و لا اليهود بتابعين قبلة النصارى.

و لمزيد من التأكيد و الحسم ينذر القرآن النّبى و يقول: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ

و فى القرآن يكثر مثل هذا اللون من الخطاب التهديدى للنبى بأسلوب القضية الشرطية، و الهدف من ذلك ثلاثة أشياء:

الأوّل: أن يعلم الجميع عدم وجود أى تمييز بين النّاس فى إطار القوانين الإلهية، و حتى الأنبياء مشمولون بهذه القوانين. و من هنا فلو صدر عن النّبى- على الفرض المحال- انحراف، فسيشمله العقاب الإلهى، مع استحالة صدور ذلك عن النّبى (بعبارة اخرى القضية الشرطية لا تدل على تحقق الشرط).

الثّانى: أن يتنبّه النّاس إلى واقعهم، فإذا كان ذلك شأن النّبى، فمن الأولى أن يكونوا هم أيضا واعين لمسؤولياتهم، و أن لا يستسلموا إطلاقا لميول الأعداء و ضجاتهم المفتعلة.

الثّالث: أن يتّضح عدم قدرة النّبى على تغيير أحكام اللّه، و عدم إمكان الطلب إليه أن يغير حكما من الأحكام، فهو عبد أيضا خاضع لأمر اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۲۰

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷]

اشارة

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۴۶) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۴۷)

التّفسير

يعرفون حقّ المعرفة و لكن ...

استمرارا لحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب و لجاجهم، تقول الآية: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ

إنهم يعرفون النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و اسمه و علاماته من خلال كتبهم الدينية، وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

و هناك طبعا فريق سارع لاعتناق الإسلام بعد أن رأى هذه الصفات و العلامات فى نبى الإسلام، مثل عبد اللّه بن سلام و هو من علماء اليهود، و نقل عنه بعد إسلامه قوله «أنا أعلم به منى بابنى»[۴۲۷].

هذه الآية تميط اللثام فى الواقع عن حقيقة هامّة، هى إن صفات نبى الإسلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۲۱

الجسمية و الروحية و خصائصه كانت بقدر من الوضوح فى الكتب السماوية السابقة، بحيث ترسم الصورة الكاملة فى أذهان المطلعين

علی هذه الکتب.

و هل من الممکن أن تصرح الآیة بوجود اسم النّبی و علاماته فی کتب أهل الکتاب إذا لم تکن بالفعل موجودة عندهم؟! ألا یدل عدم معارضة علماء الیهود لهذا التصریح، بل اعتراف بعضهم به و استسلامهم للحق، أن اسم النّبی الخاتم و صفاته کانت معروفة لدیهم!؟

هذه الآیات- إذن- دلیل علی صدق دعوة الرّسول و صحّة نبوته.

ثم تؤکد الآیة ما سبق أن طرحته بشأن تغییر القبلة، أو بشأن أحکام الإسلام بشکل عام: الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِینَ أی المترددین.

و بهذه العبارة تثبت الآیة فؤاد النّبی، و تنهاه عن أی تردید أمام افتراءات الأعداء بشأن تغییر القبلة و غیرها، و إن جنّد هؤلاء الأعداء کل طاقاتهم للمحاربة.

المخاطب فی الآیة و إن کان شخص النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و لکن الهدف هو تربیة البشریة کما ذکرنا من قبل، فمن المؤکد أن النّبی المتصل بالوحی الإلهی لا یعتریه تردد، لأن الوحی بالنسبة له ذو جانب حسّی و عین الیقین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۲۲

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۴۸]

اشارة

وَ لِکُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّیها فَاسْتَبِقُوا الْخَیْراتِ أَیْنَ ما تَکُونُوا یَأْتِ بِکُمُ اللَّهُ جَمِیعاً إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۴۸)

التّفسیر

لکلّ أمّة قبلة

هذه الآیة الکریمة ترد علی الضجة التی أثارها الیهود حول تغییر القبلة و تقول: وَ لِکُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّیها کان للأنبیاء علی مرّ التاریخ و جهات عدیدة یولونها، و لیست القبلة کأصول الدین لا تقبل التغییر، و لا أمرا تکوینیا لا یمکن مخالفته، فلا تطیلوا الحدیث فی أمر القبلة، و بدل ذلک فَاسْتَبِقُوا الْخَیْراتِ لأن معیار القیمة الوجودیة للإنسان هی أعمال البرّ و الخیر.

مثل هذا المعنی تضمنته الآیة ۱۷۷ من هذه السّورة: لَیْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَکُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِکَةِ وَ الْکِتابِ وَ النَّبِیِّینَ

إن کنتم تریدون اختبار الإسلام أو المسلمین، فاختبروهم بهذه الأمور لا بمسألة تغییر القبلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۲۳

ثم تتغیر لهجة الآیة إلی نوع من التحذیر و التهدید لأولئک المفترین، و التشجیع للمحسنین فتقول: أَیْنَ ما تَکُونُوا یَأْتِ بِکُمُ اللَّهُ جَمِیعاً فی تلک المحکمة الکبری حیث یتلقی کل جزاء عمله.

لا یتساوی المفترون و المشاغبون المخربون مع المحسنین المؤمنین، و لا بدّ من یوم ینال کل فریق جزاءه.

و قد یخال بعض أن جمع النّاس لمثل هذا الیوم عجیب، فکیف تجتمع ذرات التراب المتناثرة لترتدی ثانیة حلّة الحیاة؟! لذلک تجیب الآیة بالقول: إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

هذه العبارة الأخیرة فی الآیة بمثابة الدلیل علی العبارة السابقة: أَیْنَ ما تَکُونُوا یَأْتِ بِکُمُ اللَّهُ جَمِیعاً.

بحثان

١- یوم یجتمع أصحاب المهدی علیه السّلام

ورد عن أئمة أهل البیت علیهم السّلام فی تفسیر أَیْنَ ما تَکُونُوا یَأْتِ بِکُمُ اللَّهُ جَمِیعاً أن المقصود بهم أصحاب المهدی علیه السّلام. من ذلک

ما ورد فی «روضة الکافی» عن «الإمام الباقر» علیه السّلام أنه تلا الفقرة المذکورة من الآیة ثم قال: «یعنی أصحاب القائم الثلاثمائة و البضعة عشر رجلا، و هم و اللّه الأمّة المعدودة، قال: یجتمعون و اللّه فی ساعة واحدة قزع [۴۲۸] کقزع الخریف» [۴۲۹].

و روی عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أیضا: «و ذلک و اللّه أن لو قام قائمنا یجمع اللّه إلیه جمیع شیعتنا من جمیع البلدان» [۴۳۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۴

هذا التّفسیر للآیة دون شک یتحدث عن «بطن» الآیة، و الأحادیث ذکرت أن لکلام اللّه ظاهرا لعامة النّاس، و باطنا لخاصّتهم.

بعبارة اخری: هذه الروایات تشیر إلی حقیقة، هی إن اللّه القادر علی أن یجمع النّاس من ذرات التراب المتناثرة فی یوم القیامة، لقادر علی أن یجمع أصحاب المهدی فی ساعة بسهولة، من أجل انقداح الشرارة الاولی للثورة العالمیة الرّامیة إلی إقامة حکم اللّه علی ظهر الأرض، و إزالة الظلم و العدوان عن وجهها.

٢- عبارة وَ لِکُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّیها فسرناها سابقا بأنها إشارة للقبلات المتعددة للأمم. و من المفسرین من توسع فی المعنی و قال إنها تعبّر عن القضاء و القدر التکوینیین أیضا (تأمل بدقة)[۴۳۱].

و لو خلت الآیة ممّا یحیطها من قرائن قبلها و بعدها لأمکن مثل هذا التّفسیر، لکن القرائن تدل علی أن المراد هو المعنی الأوّل. و لو افترضنا أن الآیة تشیر إلی المعنی الثّانی، فلا تعنی إطلاقا القضاء و القدر الجبریین، بل القضاء و القدر المنسجمین مع الإرادة و الإختیار[۴۳۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۵

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۴۹ الی ۱۵۰]

اشارة

وَ مِنْ حَیْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۴۹) وَ مِنْ حَیْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَیْثُ ما کُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَکُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ یَکُونَ لِلنَّاسِ عَلَیْکُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِی وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِی عَلَیْکُمْ وَ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۰)

التّفسیر

الخوف من اللّه فقط هذه الآيات تتابع الحديث عن مسألة تغيير القبلة و نتائجها.

الآية الاولى تأمر النّبى عليه السّلام و تقول: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ... من أية مدينة، و أية ديار فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ

و لمزيد من التأكيد تقول الآية: وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

و تنتهى الآية بتهديد المتآمرين: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

هـذه التأكيدات المتوالية فى الآية و فى الآية التالية تبيّن أن مسألة تغيير القبلة كانت صعبة و ثقيلة على مجموعة من المسلمين حديثى العهد بالإسلام، كما كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۲۶

ذريعة بيد أعداء الإسلام اللجوجين لبثّ سمومهم.

مثل هذه الحالة تتطلب دائما موقفا قاطعا حاسما ينهى كل شك و ريبة، من هنا توالت التأكيدات القرآنية القارعة لتبعث العزم و اليقين فى نفوس الأتباع، و تعمق اليأس و الخيبة بين الأعداء. و هذا أسلوب اتبعه القرآن فى مواقف عديدة.

إضافة إلى ما سبق، فالتكرار فى هذه الآيات يتضمن أيضا أحكاما جديدة.

على سبيل المثال، الآيات السابقة و ضحت حكم القبلة فى المدينة التى يسكنها المسلمون. و هذه الآية و الآية التالية أوضحت الحكم لدى السفر و الخروج من المدن و الديار.

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه إلى المسجد الحرام فى أى مكان: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ صحيح أن هذه العبارة القرآنية تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، لكنها تقصد دون شك مخاطبة عامّة المسلمين، و لمزيد من التأكيد تخاطب الجملة التالية المسلمين و تقول: وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

ثم تشير الآية إلى ثلاث مسائل هامّة:

۱- إلجام المعارضين- تقول الآية: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ.

قبل تغيير القبلة كانت ألسنة المعارضين من اليهود و المشركين تقذف المسلمين بالتهم و الحجج، اليهود يعترضون قائلين: إن النّبى الموعود يصلى إلى قبلتين، و هذه العلامة غير متوفرة فى محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و المشركون يعترضون على النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قائلين: كيف ترك محمّد الكعبة و هو يدعى أنّه بعث لإحياء ملّة إبراهيم.

هذا التغيير أنهى كل هذه الاعتراضات.

لكن هذا لا يمنع الأفراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم، و أن يرفضوا كل منطق، لذلك تقول الآية: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

فهؤلاء لا يستقيمون على طريق، حتّى اتجهتم صوب بيت المقدس للصلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۲۷

اتهموكم بالذيلية و عدم الأصالة، و حين عدلتم إلى الكعبة و صفوكم بعدم الثبات! هؤلاء المفترون ظالمون حقا ... ظالمون لأنفسهم، و ظالمون لمن يقطعون عليه طريق الهداية.

۲- حين وصف الآية هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفا فى نفوس البعض لذلك قالت الآية: فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِی

و هذه الفقرة من الآية تطرح أصلا عاما أساسيا من أصول التربية التوحيدية الإسلامية، هو عدم الخوف من أى شىء سوى اللّه (أو بعبارة أصح الخوف فقط من معصية اللّه)، و إذا ترسخ هذا المبدأ التربوى فى نفوس الجماعة المسلمة، فلن تفشل و لن تنهزم قط.

أما المتظاهرون بالإسلام فهم يخافون من «الشرق» تارة، و من «الغرب» تارة اخرى، و من «المنافقين الداخليين» و من «الأعداء

الخارجيين» و من كل شیء سوى اللّه. و هؤلاء دائما أذلاء ضعفاء مهزومون.

٣- و آخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو إتمام النعمة: وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

تغيير القبلة كان فی الواقع نوعا من التربية و التكامل و النعمة للمسلمين كی يتعرفوا على الانضباط الإسلامی و يتخلصوا من التقليد و التعصب، فاللّه سبحانه أمر المسلمين فی البداية أن يصلوا تجاه بيت المقدس كی تنعزل صفوف المسلمين- كما قلنا- عن صفوف المشركين الذين كانوا يقدسون الكعبة. و بعد الهجرة و إقامة الدولة الإسلامية صدر الأمر بالصلاة نحو الكعبة ... نحو أقدم بيت توحيدی، و بذلك تحقق اجتياز مرحلة من مراحل تكامل المجتمع الإسلامی.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۲۸

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۱ الى ۱۵۲]

اشارة

كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (۱۵۱) فَاذْكُرُونِی أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِی وَ لا تَكْفُرُونِ (۱۵۲)

التّفسير

مهمّة رسول اللّه:

ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أن أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام النعمة على النّاس و هدايتهم، و الآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة إلى أن تغيير القبلة ليس هو النعمة الوحيدة التی أنعمها اللّه عليكم، بل منّ عليكم بنعم كثيرة كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ

و كلمة «منكم» قد تعنی أن الرّسول بشر مثلكم، و الإنسان وحده هو القادر على أن يكون مربّی البشر و قدوتهم و أن يتحسس آمالهم و آلامهم، و تلك نعمة كبرى أن يكون الرّسول بشرا «منكم».

و قد يكون المعنى أنه من بنی قومكم و وطنكم، فالعرب الجاهليون قوم متعصبون عنصريون، و ما كان بالإمكان أن يخضعوا لنبی من غير قومهم، كما قال سبحانه فی الآيتين: (۱۹۸ و ۱۹۹) من سورة الشعراء: وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۲۹

الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ

كان هذا طبعا المرحلة الاولى من الدعوة، و فی المراحل التالية ألغيت مسائل القومية و الوطن (الجغرافی)، و ربّى الإسلام أبناءه على أساس مبادئ «العالميّة» كوطن، و «الإنسانية» كقومية.

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن إلى أربع نعم عادت على المسلمين ببركة هذه النّبی صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:

١- يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا، و يتلو من التلاوة، أی من إتيان الشیء متواليا، و الإتيان بالعبارات المتوالية (و بنظام صحيح) هی التلاوة.

النّبی صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إذن يقرأ عليكم آيات اللّه متتالية، لتنفذ إلى قلوبكم، و لإعداد أنفسكم إلى التعليم و التربية.

٢- وَ يُزَكِّيكُمْ

و «التّزكية» هو الزيادة و الإنماء، أی إنّ النّبی بفضل آيات اللّه يزيدكم كمالا ماديا و معنويا، و ينمّی أرواحكم، و يربّی فی أنفسكم

الطهر و الفضیلة، و یزیل ألوان الرذائل التی کانت تغمر مجتمعکم فی الجاهلیة.

۳- وَ یُعَلِّمُکُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ.

التعلیم طبعا مقدم بشکل طبیعی علی التربیة، و لکن القرآن- کما ذکرنا- یقدم التربیة فی مواضع تأکیدا علی أنها هی الهدف النهائی. الفرق بین «الکتاب» و «الحکمة» قد یکون بلحاظ أن الکتاب إشارة إلی آیات القرآن و الوحی الإلهی النازل علی النّبی بشکل إعجازی، و الحکمة حدیث النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و تعالیمه المسمّاة بالسنة.

و قد یکون الکتاب إشارة إلی أصل التعالیم الإسلامیة، و الحکمة إشارة إلی أسرارها و عللها و نتائجها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۳۰

و من المفسرین من احتمل أن «الحکمة» إشارة إلی الحالة و الملکة الحاصلة من تعالیم الکتاب. و بامتلاکها یستطیع الفرد أن یضع الأمور فی نصابها[۴۳۳].

صاحب «المنار» یرفض أن یکون معنی الحکمة «السنة»، و یستدل علی رفضه بالآیة الکریمة ذلِکَ مِمَّا أَوْحی إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَةِ[۴۳۴].

لکننا نعتقد أن الحکمة لها معنی واسع یشمل الکتاب و السنة معا، أمّا استعمالها القرآنی مقابل «الکتاب» (کما فی هذه الآیة) فیشیر إلی أنها «السنة» لا غیر.

۴- وَ یُعَلِّمُکُمْ ما لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ و هذا الموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآیة، حیث دار الحدیث عن تعلیم الکتاب و الحکمة. لکن القرآن عاد فأکد ذلک فی فقرة مستقلة تنبیها علی أن الأنبیاء هم الذین بیّنوا لکم المعارف و العلوم، و لولا هم لخفی کثیر من ذلک علیکم. فهم لم یکونوا قادة أخلاقیین و اجتماعیین فحسب، بل کانوا هداة طریق العلم و المعرفة، و بدون هدایتهم لم یکتب النضج للعلوم الإنسانیة.

بعد استعراض جانب من النعم الإلهیة فی الآیة، تذکر الآیة التالیة أن هذه النعم تستدعی الشکر، و بالاستفادة الصحیحة من هذه النعم یؤدی الإنسان حقّ شکر الباری تعالی: فَاذْکُرُونِی أَذْکُرْکُمْ وَ اشْکُرُوا لِی وَ لا تَکْفُرُونِ

واضح أن عبارة فَاذْکُرُونِی أَذْکُرْکُمْ لا تشیر إلی معنی عاطفی بین اللّه و عباده کما یقول النّاس لبعضهم ذلک. بل تشیر إلی أصل تربوی و تکوینی، أی اذکرونی ... اذکروا الذات المقدسة التی هی معدن الخیرات و الحسنات و المبرات و لتطهر أرواحکم و أنفسکم، و تکون قابلة لشمول الرحمة الإلهیة. ذکرکم لهذه الذات المقدسة یجعل تحرککم أکثر إخلاصا و مضاء و قوّة و اتحادا. کذلک المقصود من «الشکر و عدم الکفران» لیس تحریک اللسان بعبارات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۳۱

الشکر، بل المقصود استثمار کل نعمة فی محلها و علی طریق نفس الهدف الذی خلقت له، کی یؤدی ذلک الی زیادة الرحمة الإلهیة.

بحثان

۱- أقوال المفسرین فی تفسیر فَاذْکُرُونِی أَذْکُرْکُمْ

للمفسرین آراء متنوعة فی تفسیر هذه الآیة، و فی بیان کیفیة ذکر العبد و ذکر اللّه.

الفخر الرازی فی تفسیره لخصها فی عشرة:

۱- اذکرونی «بالإطاعة» کی أذکرکم «برحمتی». و الشاهد علی ذلک قوله تعالی: وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ ۴۳۵].

۲- اذکرونی «بالدعاء» کی أذکرکم «بالإجابة»، دلیل ذلک قوله تعالی:

ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ

۳- اذکرونی «بالثناء و الطاعة» لأذکرکم «بالثناء و النعمة».

۴- اذکرونی فی «الدنیا» لأذکرکم فی «الآخرة».

۵- اذکرونی فی «الخلوات» کی أذکرکم فی «الجمع».

۶- اذکرونی «لدی وفور النعمة» لأذکرکم فی «الصعاب».

۷- اذکرونی «بالعبادة» لأذکرکم «بالعون»، و الشاهد علی ذلک قوله: إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ

۸- اذکرونی «بالمجاهدة» لأذکرکم «بالهدایة»، الشاهد علی ذلک قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۳۲

سبحانه فی الآیة ۶۹ من سورة العنکبوت: وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا.

۹- اذکرونی «بالصدق و الإخلاص» لأذکرکم «بالخلاص و مزیدا للاختصاص».

۱۰- اذکرونی «بالربوبیة» لأذکرکم بالرحمة. دلیل ذلک مجموع آیات سورة الحمد.[۴۳۶] کل واحدة من التفاسیر المذکورة هی طبعا مظهر من مظاهر المعنی الواسع للآیة. و لا تقتصر هذه المظاهر علی ما سبق فیشمل المعنی أیضا: اذکرونی «بالشکر» لأذکرکم «بزیادة النعمة» کما ورد فی قوله سبحانه: لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ ۴۳۷] کل ذکر للّه- کما قلنا- له أثر تربوی فی وجود الإنسان إذ یجعل روحه مستعدة لنزول برکات جدیدة متناسبة مع طریقة الذکر.

۲- المقصود من ذکر اللّه

من المؤکد أن ذکر اللّه لیس بتحریک اللسان فقط، بل اللسان ترجمان القلب، الهدف هو التوجه بکل الوجود إلی ذات الباری سبحانه، ذلک التوجّه الذی یصون الإنسان من الذنب و یدعوه إلی الطاعة.

و من هنا ورد فی أحادیث عدیدة عن المعصومین: أن ذکر اللّه لیس باللسان فحسب، و من ذلک

حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یوصی به علیا قائلا: «ثلاث لا تطیقها هذه الأمّة: المواساة للأخ فی ماله، و إنصاف النّاس من نفسه، و ذکر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۳۳

اللّه علی حال، و لیس هو سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أکبر، و لکن إذا ورد علی ما یحرم علیه خاف اللّه تعالی عنده و ترکه»

[۴۳۸].

علی أیة حال، لا ینبغی أن نغفل عن الروعة فی هذا الاقتران ... اللّه سبحانه علی عظمته و جلاله و جبروته یقرن ذکره بذکر عبده الضعیف المحدود الصغیر، إنه تکریم ما بعده تکریم للإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۳۴

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۵۳ الی ۱۵۴]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِینَ (۱۵۳) وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ یُقْتَلُ فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْیاءٌ وَ لکِنْ لا تَشْعُرُونَ (۱۵۴)

سبب النّزول

روی عن ابن عباس بشأن نزول الآیة الثانیة إنها نزلت فی قتلی بدر، و عددهم أربعة عشر، ستة من المهاجرین و ثمانیة من الأنصار. و بعد انتهاء الغزوة قال بعض المسلمین عن هؤلاء الشهداء إنّهم «أموات» فنهت الآیة عن ذلک.

التّفسیر

الشّهداء أحیاء

الآیات السابقة عرضت مفاهیم التعلیم و التربیة و الذکر و الشکر، و هی مفاهیم ذات معنی واسع جدا، و تتضمن أغلب التعالیم الدینیة، و فی الآیة الاولی من آیتی بحثنا دار الحدیث حول الصبر الذی لا تتحقق المفاهیم السابقة بدونه.

تقول الآیة أوّلا: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ.

واجهوا المشاکل و الصعاب بهاتین القوتین، فالنصر حلیفکم: إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۵

الصَّابِرِینَ

خلافا لما یتصور بعض النّاس «الصّبر» لا یعنی تحمل الشقاء و قبول الذلة و الاستسلام للعوامل الخارجیة، بل الصبر یعنی المقاومة و الثبات أمام جمیع المشاکل و الحوادث.

لذلک قال علماء الأخلاق إن الصبر علی ثلاث شعب:

الصبر علی الطّاعة: أی المقاومة أمام المشاکل التی تعتری طریق الطاعة.

الصبر علی المعصیة: أی الثبات أمام دوافع الشهوات العادیة و ارتکاب المعصیة.

الصبر علی المصیبة: أی الصمود أمام الحوادث المرّة و عدم الانهیار و ترک الجزع و الفزع.

قلّما کرر القرآن موضوعا و أکد علیه کموضوع «الصبر»، ففی سبعین موضعا قرآنیا تقریبا دار الحدیث عن الصبر. بینها عشرة تختص بالنّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

تاریخ العظماء یؤکد أن أحد عوامل انتصارهم- بل أهمها- صبرهم و استقامتهم. و الأفراد الفاقدون لهذه الصفة سرعان ما ینهزمون و ینهارون. و یمکن القول أن دور هذا العامل فی تقدم الأفراد و المجتمعات یفوق دور الإمکانات و الکفاءات و الذکاء و نظائرها.

من هنا طرح القرآن هذا الموضوع بعبارات مؤکدة کقوله تعالی: إِنَّما یُوَفَّی الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسابٍ [۴۳۹] و فی موضع آخر یقول سبحانه بعد أن ذکر الصبر أمام الحوادث: فَإِنَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [۴۴۰] من خصائص الصبر أن بقیة الفضائل لا یکون لها قیمة بدونه، لأن السند

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۶

و الرصید فی جمیعها هو الصبر، لذلک

یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «و علیکم بالصّبر فإنّ الصّبر من الإیمان کالرّأس من الجسد، و لا خیر فی جسد لا رأس معه و لا فی إیمان لا صبر معه»

[۴۴۱].

الروایات الإسلامیة ذکرت أن أسمی مراحل الصبر ضبط النفس تتجلّی فی مقاومة الإنسان عند توفّر وسائل المعاصی و الذنوب.

الآیة التی یدور حولها بحثنا تؤکد للجماعة المسلمة الثائرة فی صدر الإسلام خاصة أن الأعداء یحیطونهم من کل حدب و صوب، و تأمرهم أن یستعینوا بالصبر أمام الحوادث، فنتیجة ذلک استقلال الشخصیة و الاعتماد علی النفس و الثّقة بالذات فی کنف الإیمان باللّه. و تاریخ الإسلام یشهد بوضوح أن هذا الأصل کان أساس کل الانتصارات.

الموضوع الآخر الذی أکدت علیه الآیة أعلاه باعتباره السند الهام إلی جانب الصبر هو «الصلاة».

و روی أن علیّا علیه السّلام: «کان إذا أهاله أمر فزع قام إلی الصّلاة ثمّ تلا هذه الآیة: اسْتَعِینُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ ...

[۴۴۲].

و لا عجب فی ذلک، فالإنسان حین یری نفسه أمام عواصف المشاکل المضنیة، و یحسّ بضعفه فی مواجهتها، یحتاج إلی سند قوی لا متناه یعتمد علیه.

و الصلاة تحقق الارتباط بهذا السند، و تخلق الطمأنینة الروحیة اللازمة لمواجهة التحدیات.

فالآیة أعلاه تطرح مبدأین هامّین: الأوّل- الاعتماد علی اللّه، و مظهره الصلاة، و الآخر- الاعتماد علی النفس، و هو الذی عبرت عنه الآیة بالصبر.

و بعد ذکر الصبر و الاستقامة تتحدث الآیة التالیة عن خلود الشهداء، الذین یجسّدون أروع نماذج الصابرین علی طریق اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۷

تقول الآیة: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ یُقْتَلُ فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتٌ ثم تؤکد هذا المفهوم ثانیة بالاستدراک بَلْ أَحْیاءٌ وَ لکِنْ لا تَشْعُرُونَ

فی کل حرکة- أساسا- تنزوی مجموعة محبّة للعافیة، و تبتعد عن الامّة الثائرة، و لا تکتفی هی بالتقاعس و التکاسل، بل تسعی إلی تثبیط عزائم الآخرین و بثّ الرخوة و التماهل فی المجتمع. و ما أن تظهر حادثة مؤلمة حتی یعربون عن أسفهم و ینقمون علی الحرکة التی أدت إلی هذه الحادثة، غافلین أن کل هدف مقدس یحتاج إلی تضحیات، و تلک سنة کونیة.

القرآن الکریم یتحدث عن مثل هذه الفئة کرارا و یؤنّبهم بشدّة.

ثمة أفراد من هؤلاء کانوا یتظاهرون بالتأسف و التألم علی (موت) شهید من شهداء الإسلام فی المعرکة، و یبعثون بذلک القلق و الاضطراب فی النفوس.

و اللّه سبحانه یرد علی هذه الأقاویل السامة بالکشف عن حقیقة کبری هی إن الذین یضحون بأنفسهم فی سبیل اللّه لیسوا بأموات ... هؤلاء أحیاء ... و یتمتعون بنعم اللّه و رضوانه، لکن البشر المحدودین فی عالم الحسّ لا یدرکون هذه الحقائق.

بحوث

۱- خلود الشّهداء

للمفسرین آراء مختلفة فی معنی حیاة الشّهداء و خلودهم. ظاهر الآیة یشیر دون شک إلی أنّهم یتمتعون بنوع من الحیاة البرزخیة

الروحیة، لأن أجسامهم قد تلاشت، فهم یعیشون تلک الحیاة بجسم مثالی ۴۴۳] کما یقول الإمام الصادق علیه السّلام ۴۴۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۸

من المفسرین من قال إنها «حیاة غیبیة» خاصة بالشّهداء لا تتوفر لدینا تفاصیلها و خصائصها.

و قیل إن الحیاة المذکورة فی الآیة تعنی الهدایة، و الموت یعنی الضلال، فتکون الآیة قد نهت عن وصف الشهداء بالضلالة، بل هم مهتدون. و قیل إن الشهداء أحیاء لأن هدفهم حی و رسالتهم حیة.

و لکن مع الأخذ بنظر الاعتبار التّفسیر الأول للحیاة یتضح أن المعانی فی الاخری غیر مقبولة. فلا حاجة لأن نتکلف التّفسیرین التالیین، و لا أن الحیاة البرزخیة مختصة بالشهداء فهم یحیون حیاة برزخیة روحانیة، و یتنعمون کذلک بالقرب من رحمة اللّه و بأنواع نعمه.

۲- الشّهادة سعادة فی الإسلام

قرر الإسلام مسألة الشهادة و بیّن منزلتها العظیمة فی الآیة أعلاه و آیات اخری لتکون عاملا فعّالا هامّا علی ساحة المواجهة بین الحق و الباطل. و هذا العامل أمضی من أی سلاح و أقوی من کل المؤثرات، و هو قادر علی أن یجابه أخطر الأسلحة و أفتکها فی عصرنا الراهن، و تجربة الثورة الإسلامیة فی إیران أثبتت ذلک بوضوح. و قد شاهدنا بأم أعیننا انتصار المندفعین نحو الشهادة- بالرغم من ضعف إمکاناتهم المادیة- علی أعتی القوی المتجبّرة.

و لو ألقینا نظرة علی تاریخ الإسلام، و الملاحم التی سطرها المسلمون فی جهادهم الدّامی، و التضحیات التی قدمها المجاهدون علی طریق الرسالة، لألفینا أن الدافع الأساس لکل هذه التضیحات هو درس الشهادة الذی لقنه الإسلام لأبنائه، و بموجبه آمنوا أن الشهادة علی طریق اللّه و طریق الحق و العدالة لا تعنی الفناء، بل السعادة و الحیاة الخالدة.

المقاتلون الذین تلقوا مثل هذا الدرس فی مثل هذه المدرسة الکبری، لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۹

یقاسون بالمقاتلین العادیین الذین یفکّرون فی صیانة أرواحهم. أولئک یحاربون من أجل الرسالة و یندفعون بشوق عظیم نحو کسب و سام الشهادة.

۳- الحیاة البرزخیة و بقاء الروح

هذه الآیة تثبت بوضوح بقاء الروح و الحیاة البرزخیة للبشر (الحیاة بعد الموت و قبل البعث)، و تردّ بصراحة علی أولئک الذین ینکرون تعرض القرآن للحیاة البرزخیة و بقاء الروح.

سنفصّل الحدیث فی هذا الموضوع، و فی موضوع خلود الشّهداء و منزلتهم العظیمة، فی المجلد الثانی من هذا التّفسیر عند تناولنا الآیة ۱۶۹ من سورة آل عمران.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۰

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۵۵ الی ۱۵۷]

اشارة

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (۱۵۵) الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (۱۵۶) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (۱۵۷)

التّفسير

الدّنيا دار اختبار إلهی

بعد ذكر مسألة الشهادة فی سبيل اللّه، و الحياة الخالدة للشّهداء، و مسألة الصبر و الشكر ... و كلّها من مظاهر الاختبار الإلهی، تعرضت هذه الآية للاختبار الإلهی العام، و لمظاهره المختلفة، باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ

و لمّا كان الإنتصار فی هذه الاختبارات، لا يتحقق إلّا فی ظل الثبات و المقاومة، قالت الآية بعد ذلك وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ

فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات، لا غيرهم.

الآية التالية تعرّف الصابرين و تقول: الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا: إِنَّا لِلَّهِ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۴۱

وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ

الإقرار التام بالعبودية المطلقة للّه، يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا، لأنه سبحانه مالكنا و مالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إيّاها، و إن استوجبت المصلحة أخذها منا، و فی المنحة و المحنة مصلحة لنا.

و الالتفات المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى اللّه سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياة، و بأن نقص المواهب المادية و وفورها غرض زائل، و وسيلة لارتقاء الإنسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية و العودة فی عبارة إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ له الأثر الكبير فی تعميق روح المقاومة و الاستقامة و الصبر فی النفس.

واضح أن المقصود من قول هذه العبارة ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقة، و الالتفات إلى ما تنطوی عليه من توحيد و إيمان.

و آخر آية فی بحثنا هذا، تتحدث عن الألطاف الإلهية الكبرى، التّی تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الإلهية: أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ[۴۴۵].

هذه الصلوات و الرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، فی مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق و الأخطار، لذلك تقول الآية: وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

و بهذه العبارات المختصرة المقتضبة، يطرح القرآن مسألة الامتحان الكبير بأبعاده المختلفة، و عوامل النجاح فيه و نتائجه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۴۲

بحوث

۱- لماذا الاختبار الإلهی؟

فی مجال الاختبار الإلهی تطرح بحوث كثيرة، و أوّل ما يتبادر للذهن فی هذا المجال هو سبب هذا الاختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم

مـا نجهله عنهم. فهـل أن اللّه سـبحانه و تعالی بحاجـهٔ إلی مثل هـذا الاختبار لعباده، و هو العالم بکل الخفایا و الأسـرار؟! و هل هناک شیء خفی عنه حتی یظهر له بهذا الامتحان؟! و الجواب أن مفهوم الاختبار الإلهی یختلف عن الاختبار البشری.

اختباراتنا البشریهٔ- هی کما ذکرت آنفا- تستهدف رفع الإبهام و الجهل، و الاختبار الإلهی قصده «التربیهٔ».

فی أکثر من عشـرین موضـعا تحدث القرآن عن الاختبار الإلهی، باعتباره سنّهٔ کونیهٔ لا تنقض من أجل تفجیر الطاقات الکامنهٔ، و نقلها من القوّهٔ إلی الفعل، و بالتالی فالاختبار الإلهی من أجل تربیهٔ العباد، فکما أن الفولاذ یتخلص من شوائبه عند صهره فی الفرن، کذلک الإنسان یخلص و ینقی فی خضمّ الحوادث، و یصبح أکثر قدرهٔ علی مواجههٔ الصعاب و التحدیات.

الاختبار الإلهی یشـبه عمل زارع خبیر، ینثر البـذور الصالحـهٔ فی الأرض الصالحـهٔ، کی تسـتفید هـذه البـذور من مواهب الطبیعهٔ و تبدأ بالنمو، ثمّ تصارع هـذه البـذرهٔ کل المشاکل و الصـعاب بالتدریـج، و تقاوم الحوادث المختلفـهٔ کالرّیاح العاتیـهٔ و البرد الشدید و الحر اللافح، لتخرج بعد ذلک نبتهٔ مزهره أو شجرهٔ مثمرهٔ، تستطیع أن تواصل حیاتها أمام الصعاب.

و من أجل تصـعید معنویات القوات المسـلحهٔ، یؤخذ الجنود إلی مناورات و حرب اصطناعیهٔ، یعانون فیها من مشاکل العطش و الجوع و الحر و البرد و الظروف الصعبهٔ و الحواجز المنیعهٔ.

و هذا هو سرّ الاختبارات الإلهیهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۳

یقول سبحانه فی موضع آخر من کتابه العزیز: وَ لِیَبْتَلِیَ اللَّهُ ما فِی صُدُورِکُمْ وَ لِیُمَحِّصَ ما فِی قُلُوبِکُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ[۴۴۶].

و یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام فی بیان سـبب الاختبارات الإلهیـهٔ: «... و إن کان سـبحانه أعلم بهم من أنفسـهم، و لکن لتظهر الأفعال الّتی بها یستحقّ الثّواب و العقاب»

[۴۴۷].

أی أن الصـفات الکامنـهٔ لاـ یمکن أن تکون وحـدها معیـارا للثواب و العقـاب، فلا بـدّ أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، و اللّه یختبر عباده لیتجلّی ما یضمرونه فی أعمالهم، و لکی تنتقل قابلیّاتهم من القوّهٔ إلی الفعل، و بذلک یستحقون الثواب أو العقاب.

لو لم یکن الاختبار الإلهی لما تفجرت هذه القابلیات، و لما أثمرت الکفاءات، و هذه هی فلسفهٔ الاختبار الإلهی فی منطق الإسلام.

۲- الاختبار الإلهی عام

نظـام الحیـاهٔ فی الکون نظـام تکامـل و تربیـهٔ، و کل الموجودات الحیّـهٔ تطوی مسـیرهٔ تکاملها، حتی الأشـجار تعبّر عن قابلیاتها الکامنهٔ بالأثمار، من هنا فإن کل البشر، حتی الأنبیاء، مشمولون بقانون الاختبار الإلهی کی تنجلی قدراتهم.

الامتحانات تشمل الجمیع و إن اختلفت شدّتها و بالتالی تختلف نتائجها أیضا، یقول سبحانه: أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا یُفْتَنُونَ ۴۴۸].

القرآن یعرض نماذج لاختبارات الأنبیاء إذ یقول: وَ إِذِ ابْتَلی إِبْراهِیمَ رَبُّهُ ۴۴۹].

و یقول فی موضع آخر بشأن اختبار سلیمان: فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ ...[۴۵۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۴

۳- طرق الاختبار

ذكرت الاية أعلاه نماذج ممّا يختبر به الإنسان، كالخوف و الجوع و الأضرار المالية و الموت ... لكن سبل الاختبار الإلهى لا تنحصر بما تقدم فذكر القرآن منها فى مواضع اخرى: البنين، و الأنبياء، و أحكام اللّه، بل حتى بعض ألوان الرؤيا:

وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ[۴۵۱].

نعلم أن النّاس إزاء الاختبارات الإلهية على نوعين: متفوّق فى الامتحان، و خاسر.

فحيثما تسود حالة «الخوف» مثلا، ترى جماعة يتراجعون كى لا يصيبهم سوء، فينفضون أيديهم من المسؤولية، أو يلجأون إلى المداهنة أو التماس الأعذار، كقولهم الذى يحكيه القرآن: نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ[۴۵۲].

و ثمة جماعة تقف كالطود الأشمّ أمام كل المخاوف، تزداد توكلا و إيمانا، و هؤلاء الذين يقول عنهم القرآن: الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ ۴۵۳].

و هكذا موقف النّاس من ألوان الامتحانات الاخرى، يعرض القرآن نماذج لموقف النّاجحين و الفاشلين فى الاختبار الإلهى، سنتناولها فى مواضعها.

۴- عوامل النجاح فى الامتحان

هنا يتعرض الإنسان لاستفهام آخر، و هو أنه إذا كان القرار أن يتعرض جميع أفراد البشر للامتحان الإلهى، فما هو السبيل لاحراز النجاح و التوفيق فى هذا الامتحان؟ القرآن يعرض هذه السبل فى القسم الأخير من آية بحثنا و فى آيات اخرى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۵

۱- أهمّ عامل للانتصار أشارت إليه الآية بعبارة: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ فالآية تبشّر بالنجاح أولئك الصابرين المقاومين، و مؤكدة أن الصبر رمز الإنتصار.

۲- الالتفات إلى أن نكبات الحياة و مشاكلها مهما كانت شديدة و قاسية فهى مؤقّتة و عابرة و هذا الإدراك يجعل كل المشاكل و الصعاب عرضا عابرا و سحابة صيف، و هذا المعنى تضمنته عبارة: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ

«كلمة الاسترجاع» هذه خلاصة كل دروس التوحيد، و الانقطاع إلى اللّه، و الاعتماد على ذاته المقدسة فى كل شىء و فى كل زمان. و أولياء اللّه ينطلقون من هذا التعليم القرآنى، فيسترجعون لدى المصائب كى لا تهزمهم الشدائد، و كى يجتازوا مرحلة الاختبار بسلام فى ظل الإيمان بمالكية اللّه و الرجوع إليه.

قال أمير المؤمنين على عليه السّلام فى تفسير الاسترجاع: «إنّ قولنا: إنّا للّه إقرار على أنفسنا بالملك، و قولنا: إنا إليه راجعون إقرار على أنفسنا بالهلك».

[۴۵۴] ۳- الاستمداد من قوّة الإيمان و الألطاف الإلهية عامل مهم آخر فى اجتياز الاختبار دون اضطراب و قلق و فقدان للتوازن. فالسائرون على طريق اللّه يتقدّمون بخطوات ثابتة و قلوب مطمئنة لوضوح النهج و الهدف لديهم. و ترافقهم الهداية الإلهية فى اختيار الطريق الصحيح، يقول سبحانه: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا[۴۵۵].

۴- التدقيق فى تأريخ الأسلاف، و إمعان النظر فى مواقفهم من الاختبارات الإلهية، عامل مؤثر فى إعداد الإنسان لاجتياز الامتحان الإلهى بنجاح.

لو عرف الإنسان بأن ما أصيب به ليس حالة شاذّة، و إنما هو قانون عام شامل لكل الأفراد و الجماعات، لهان الخطب عليه، و لتفهم الحالة بوعى، و لاجتاز المرحلة بمقاومة و ثبات. و لذلك يثبّت اللّه سبحانه على قلب نبيّه و المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۶

باستعراض تأريخ الماضين، و ما واجهه الأنبياء، و الفئات المؤمنة من محن و مصائب خلال مراحل دعوتهم، يقول سبحانه: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ [۴۵۶].

و يقول تعالى: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا[۴۵۷].

۵- الالتفات الى حقيقة علم اللّه سبحانه بكل مجريات الأمور، عامل آخر فى التثبيت و زيادة المقاومة.

المتسابقون فى ساحة اللعب يشعرون بالارتياح حينما يعلمون أنهم فى معرض أنظار أصدقائهم من المتفرجين، و يندفعون بقوّة أكثر فى تحمل الصعاب.

إذا كان تأثير وجود الأصدقاء كذلك، فما بالك بتأثير استشعار رؤية اللّه لما يجرى على الإنسان و هو على ساحة الجهاد و المحنة؟! ما أعظم القوّة التى يمنحها هذا الاستشعار لمواصلة طريق الجهاد و تحمل مشاقّ المحنة! حين واجه نوح عليه السّلام أعظم المصائب و الضغوط من قومه و هو يصنع الفلك، جاءه نداء التثبيت الإلهى ليقول له: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا[۴۵۸].

و عبارة «بأعيننا» كان لها- دون شك- وقع عظيم فى نفس هذا النّبى الكريم، فاستقام و واصل عمله حتى المرحلة النهائية دون الالتفات إلى تقريع الأعداء و استهزائهم.

ورد عن سيّد الشهداء الحسين بن على عليه السّلام أنّه قال بعد أن تفاقم الخطب أمامه فى كربلاء، و استشهد أصحابه و أهل بيته:

«هوّن علىّ ما نزل بى أنّه بعين اللّه»

[۴۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۴۷

۵- الاختبار بالخير و الشرّ

الامتحان الإلهى لا يجرى عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن اللّه عبده بالخير و بوفور النعمة، كما يقول سبحانه: وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً[۴۶۰].

و يقول سبحانه على لسان نبيّه سليمان: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ[۴۶۱].

و هنا ينبغى أن نشير إلى عدّة مسائل أحدها: أنه ليس من الضرورى أن يختبر جميع النّاس بجميع وسائل الاختبار، بل من الممكن أن يكون اختبار كل فئة بلون من الامتحان يتناسب مع الوضع الفردى و الاجتماعى لتلك الفئة.

و الاخرى: أنه من الممكن أن يجتاز الإنسان بعض الامتحانات، بينما يفشل فى امتحانات اخرى.

و قد يكون امتحان فرد من الأفراد موضع امتحان فرد آخر، كأن يكون موت ولد لإنسان موضع امتحان أصدقائه و أقاربه، ليرى مدى اتخاذهم موقف المواساة من صاحبهم.

و أخيرا، فالاختبار الإلهى- كما ذكرنا- شامل عام يدخل فى نطاقه حتى الأنبياء عليهم السّلام، بل إن اختبارهم بسبب ثقل مسئوليتهم أشدّ بكثير من اختبار الآخرين.

القرآن الكريم يعرض صورا لاختبارات شديدة مرّ بها الأنبياء عليهم السّلام و بعضهم مرّ بمراحل طويلة شاقة قبل وصوله إلى مقام الرسالة، كى يكون على أتمّ الاستعداد لتحمل أعباء قيادة أمّته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۴۸

و بين أتباع مدرسة الأنبياء نماذج رائعة للصابرين المحتسبين، كل واحد منهم قدوة على ساحة الامتحان الإلهى.

فقد روى «أنّ أمّ عقيل كانت امرأة فى البادية فنزل عليها ضيفان و كان ولدها عقيل مع الإبل فأخبرت بأنّه ازدحمت عليه الإبل فرمت

به فی البئر فهلک فقالت المرأة للنّاعی انزل و اقض ذمام القوم و دفعت إلیه کبشا فذبحه و أصلحه و قرّب إلی القوم الطّعام فجعلوا یأکلون و یتعجّبون من صبرها (قال الرّاوی) فلمّا فرغنا خرجت إلینا و قالت یا قوم هل فیکم من یحسن من کتاب اللّه شیئا؟ فقلت: نعم. قالت: فاقرأ علیّ آیات أتعزّی بها عن ولدی فقرأت: «و بشّر الصّابرین الّذین إذا أصابتهم مصیبة قالوا إنّا للّه و إنّا إلیه راجعون إلی قوله المهتدون».

«فقالت السّلام علیکم، ثمّ صفّت قدمیها وصلّت رکعات ثمّ قالت: اللّهمّ إنّی فعلت ما أمرتنی فانجز لی ما وعدتنی. و لو بقی أحد لأحد- قال فقلت فی نفسی لبقی ابنی لحاجتی إلیه- فقالت لبقی محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لأمّته، فخرجت»[۴۶۲]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۴۹

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۵۸]

اشارة

إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ (۱۵۸)

النّزول

کان المشرکون فی الجاهلیة یأتون مکة لأداء مناسک الحج، و کانت هذه المناسک ذات أصل إبراهیمی مع کثیر من التحریف و الخرافات و الشرک. فکانت المناسک عبارة عن الوقوف بعرفات و الاضحیة و الطّواف و السّعی بین الصفا و المروة. و لکن بشکل خاص بالجاهلیین.

و جاء الإسلام و أصلح هذه المناسک، و طهّرها مما علق بها من تحریف، و أقرّ ما کان صحیحا منها و من جملتها السعی بین الصفا و المروة.

و استنادا إلی روایات المؤرخین من الشّیعة و أهل السّنة أن المشرکین کانوا یسعون بین الصفا و المروة، و قد وضعوا علی الصفا صنما اسمه «أساف»، و علی المروة صنما آخر سموه «نائلة» و کانوا یتمسحون بهما لدی السعی، من هنا خال المسلمون أن السعی بین الصفا و المروة عمل غیر صحیح، و کرهوا أن یفعلوا ذلک.

الآیة المذکورة نزلت لتعلن أن الصفا و المروة من شعائر اللّه، و تلویثها بالشرک علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۵۰

ید الجاهلیین لا یبرر إعراض المسلمین عن السعی بینهما.

و اختلف المفسرون فی وقت نزول الآیة، منهم من قال إنها نزلت فی (عمرة القضاء) فی السنة السابعة للهجرة، و کان من شروط النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مع المشرکین فی هذه السفرة رفع الصنمین من الصفا و المروة، و قد عملوا بهذا الشرط، لکنهم أعادوهما إلی محلهما. و هذا أدّی إلی کراهة المسلمین و السعی بین الصفا و المروة، فنزلت الآیة لتنهاهم عن هذه الکراهة.

و قیل إنّها نزلت فی حجة الوداع فی السنة العاشرة للهجرة. و من المؤکد أن مکة کانت فی هذه السنة خالیة من الأصنام. و من هنا یلزمنا أن نعتبر کراهة المسلمین السعی بین الصفا و المروة بسبب السوابق التاریخیة لهذین المکانین حیث انتصب فیهما «أساف و نائلة».

التّفسیر

أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر

هذه الآية الكريمة تستهدف إزالة ما علق في ذهن المسلمين و نفوسهم من رواسب بشأن الصفا و المروة كما مرّ في سبب النّزول، و تقول للمسلمين: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ

و من هذه المقدمة تخرج الآية بنتيجة هي: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما.

لا ينبغي أن تكون أعمال المشركين الجاهليين عاملا على إيقاف العمل بهذه الشعيرة، و على تقليل شأن و قدسية هذين المكانين.

ثم تقول الآية أخيرا: وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ

فاللّه يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيرا، و هو سبحانه عالم

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۵۱

بسرائرهم، يعلم من تعلّق قلبه بهذه الأصنام و من تبرّأ منها.

بحوث

۱- الصفا و المروة

الصفا و المروة اسمان لجبلين صغيرين في مكة، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، في الضلع الشرقي للمسجد، في الجهة التي يقع فيها الحجر الأسود و مقام إبراهيم.

يفصل بين الجبلين ۴۲۰ مترا تقريبا، و المسعى اليوم بدل بصالة كبيرة مسقّفة ذات طابقين يسعى الحجاج فيهما، و ارتفاع الصفا خمسة عشر مترا، و المروة ثمانية أمتار.

و اللفظان اليوم علمان لهذين الجبلين، و في الأصل الصفا هي الصخرة الملساء القوية المختلطة بالحصى و الرمل، و المروة الصخرة القوية المتعرّجة.

و الشعائر جمع شعيرة أي العلامة، و شعائر اللّه أي العلامات التي تذكّر الإنسان باللّه، و تعيد إلى الأذهان ذكريات مقدسة.

و «اعتمر» أي أدى العمرة، و العمرة في الأصل الملحقات الإضافية في البناء، و في الشريعة تطلق على الأعمال الخاصة، التي يؤديها المسلم إلى جانب أعمال الحج، أو يؤديها لوحدها في العمرة المفردة. و بينها و بين أعمال الحج أوجه اشتراك و افتراق.

۲- من أسرار السعي بين الصفا و المروة

صحيح أن قراءة تاريخ حياة عظماء التاريخ يدفع الإنسان إلى الاقتداء بهم، لكن هناك طريقا أكثر تأثيرا، و هو مشاهدة المعالم الأثرية التي كافح عليها هؤلاء

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۵۲

الرجال، و سجلوا فيها بطولاتهم.

هذه المعالم هي في الواقع ليست مثل كتب التاريخ الميتة، بل هي تاريخ حيّ ناطق، يستطيع أن يحلّق بالإنسان عبر القرون و الأعصار، ليجعله يعيش مع الحوادث الماضية بكل مشاعره.

الأثر التربوی لهذه المشاهدات أعمق بكثير من تأثير الكتب و المحاضـرات و أمثالها ... فهنا الشعور لا الإدراک، و التصديق لا التصور، و العينية لا الذهنية.

من جهـة اخرى، قـلّ أن يوجـد بين الأنبياء نبیّ كإبراهيم عليه السّـلام، خاض ألوان النضال و تعرض لأنواع الامتحان، حتى قال القرآن عمّا اختبر به: إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ۴۶۳].

و هذه المعاناة الطويلة التی عاشها إبراهيم هی التی أهّلته لأن ينال مقام «الإمامة».

مناسك الحج تجسّد فی الأذهان دورة كاملة من مشاهد كفاح إبراهيم و مراحل تكامله التوحيدی و عبوديته و تضحياته و إخلاصه.

لو فهم المسـلمون- لدى أدائهم مناسک الحج- روح الحج و أسـراره، و تعمّقوا فی جوانبه «الرّمزية» لكان الحج دورة تربوية فی حقل معرفة اللّه و النّبوة و الشخصية الإنسانية.

بعد هذه المقدمة نعود إلى الخلفيّة التاريخية للصّفا و المروة.

إبراهيـم عليـه السّـلام بلغه الكـبر و لم يرزق ولـدا، فـدعى ربّه أن لاـ يـتركه فردا، فاسـتجاب له، و رزقه من جـاريته هـاجر ولـدا سـمّاه «إسماعيل».

لم تسـتطع «سارة» زوجته الاولى أن تطيق الحالـة الجديـدة، و قد رزق إبراهيم ولدا من غيرها، فأمر اللّه إبراهيم أن يهاجر بالطفل و الأم إلى مكة حيث الأرض

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۳

القاحلة المجدبة آنذاک، و يسكنهما هناک.

امتثل إبراهيم أمر ربه، و ذهب بهما إلى صـحراء مكـة و أسـكنهما فی تلک الأرض، و همّ بالرجوع، فضـجّت زوجته بالبكاء، إذ كيف تسـتطيع أن تعيش امرأة وحيـدة مع طفل رضـيع فی مثل هـذه الأرض؟! بكاء هاجر و معه بكاء الطفل الرضـيع هزّ إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجى ربّه قائلا: رَبَّنا إِنِّی أَسْـكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِی بِوادٍ غَيْرِ ذی زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۴۶۴]، ثم ودّع زوجه و طفله بحزن و ألم عميقين.

لم يمض وقت طويـل حتى نفـذ طعـام الأمّ و ماؤهـا، و جفّ لبنهـا. بكـاء الطفـل أضـرم فی نفس الأـم نارا، و دفعها لأن تبحث بقلق و اضـطراب عن الماء. اتجهت أولا إلى جبل «الصـفا» فلم تجـد للماء أثرا، لفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروة» فأسـرعت إليه فوجدته سرابا، ثم رأت عند المروة بريقا لدى الصفا أسرعت إليه فما وجدت شيئا، و هكذا جالت سبع مرات بين الصفا و المروة بحثا عن الماء. و فی النهاية، و بعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجله فجأة عين زمزم، فشرب الطفل و أمه و نجيا من الموت المحقق.

المـاء، رمز الحيـاة، و انفجـار العين جرّ الطيور من الآفـاق نحو هـذه الأرض، و القوافل شاهـدت حركـة الطيور، فاتجهت هی أيضا نحو الماء و ببركة هذه العائلة تحولت أرض مكة إلى مركز حضاری عظيم.

و يقع جـوار الكعبـة حجر إسـماعيل حيث مـدفن تلـک المرأة و ابنهـا، و على الحـاج أن يضـمه إلى الـبيت فی طـوافه، أی يجب على الحجاج أن يطوفوا خارج هذه الحجر و كأنه جزء من الكعبة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۴

فی الصفا و المروة درس فی التضحية بكل غال و نفيس، حتى بالطفل الرضيع، من أجل المبدأ و العقيدة.

السـعی بينهمـا يعلمنا أن نعيش دائما أمل النجاح و الإنتصار، حتى فی أشـدّ لحظات الشـدّة، فهاجر بـذلت سـعيها و جاءها رزق اللّه من حيث لا تحتسب.

السـعی بين الصـفا و المروة يقول لنا: إن هاتين الشعيرتين كانتا يوما و كرا لصنمين من أصنام العرب، و أصبحتا اليوم معلمين من معالم التوحيـد بفضـل جهـاد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم، من حق جبل الصـفا أن يفخر و يقول: أنا أول منطلق لـدعوة رسول اللّه

صلّى اللّه علیه و اله و سلّم، فحینما کانت مکة تغطّ فی ظلمات الشرک و بزغ من عندی فجر الهدایة.

و اعلموا أیّها الساعون بین الصفا و المروة أن رسول اللّه صلّى اللّه علیه و اله و سلّم صعد یوما على هذا الجبل لیدعو النّاس إلى اللّه، فلم یجبه أحد، و الیوم فإن الآلاف المؤلفة تجیب الدعوة و تحج بیت اللّه على النهج المحمّدی الإبراهیمی. و إنه لدرس لکم یعلمکم أن تسیروا على طریق الحقّ دونما یأس، و إن قلّ الناصر و المجیب.

السعی بین الصفا و المروة یقول لنا: اعرفوا قدر نعمة هذا الدین و هذا المرکز التوحیدی، فثمة أفراد حفظوا الشریعة و شعائرها لنا بدمائهم على مرّ التاریخ.

من أجل إحیاء کل تلک الأحاسیس و المشاعر فی النفوس، أمر اللّه الحجیج أن یسعوا سبع مرات بین الصفا و المروة.

أضف إلى ما تقدم أن السعی یقضی على کبر الإنسان و غروره، فلا أثر للتبختر و التصنع فی السعی، بل لا بدّ من قطع هذه المسافة ذهابا و مجیئا مع کافة النّاس، و بنفس لباس النّاس، و بهرولة أحیانا!! و لذلک ورد فی الروایات أن السعی إیقاظ للمتکبرین.

على أیة حال، بعد أن ذکرت الآیة أن الصفا و المروة من شعائر اللّه، أکدت عدم وجود جناح على من یطوّف بهما فی الحج و العمرة، و الطواف بین الصفا و المروة هو السعی بینهما، لأن الحرکة التی یعود فیها الإنسان إلى حیث ابتدأ هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۵

طواف و إن لم تکن الحرکة دائریة.

۳- جواب على سؤال

لفظ فَلا جُناحَ یشیر إلى عدم حرمة السعی بین الصفا و المروة و جواز ذلک، و قد یسأل سائل عن سبب وجوب السعی فی الفقه الإسلامی، بینما الآیة تبیحه فقط؟

الجواب على هذا السؤال نفهمه بوضوح من سبب نزول الآیة. فالمسلمون کرهوا السعی بین الصفا و المروة، بعد أن شاهدوا بأم أعینهم مدى عبث المشرکین بهذا المکان، و مدى تلویثهم إیاه بالأصنام. فخالوا أن من غیر اللائق بالمسلم أن یسعى فی هذا المکان.

جاءت الآیة لتقول لهم: إن الصفا و المروة من شعائر اللّه، و عبارة فَلا جُناحَ [۴۶۵] لإزالة ما تصوروه من کراهة لهذا العمل.

و ثمّة تعبیرات مشابهة ذکرها القرآن لأحکام اخرى کصلاة المسافر فی قوله تعالى: وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ[۴۶۶].

و نعلم أن القصر واجب فی صلاة المسافر، لا جائز. بشکل عام قد تستعمل کلمة (لا جناح) لإزالة التوهم بحرمة الشیء أو بکراهته، و هذا المعنى یؤکده حدیث عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام فی کتاب «من لا یحضره الفقیه».

۴- معنى التطوع

التطوع فی اللغة: قبول الطاعة و الانصیاع للأوامر، و فی الفقه یطلق على

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۶

الأعمال المستحبة، من هنا ذهب أغلب المفسرین إلى تفسیر «و من تطوع ...» بالحج المستحب و العمرة المستحبة، أو الطواف، أو أی عمل مستحب آخر.

فالعبارة تعنی إذن أن اللّه شاکر لمن یعمل الخیرات امتثالا لأوامره سبحانه، و اللّه علیم بکل هذه الأعمال.

و من المحتمل أيضا أن تكون العبارة تأكيدا لما سبقها، و يكون المقصود بالتطوع حينئذ قبول الطاعة فى أداء الأعمال الشاقة.
معنى العبارة، على هذا، على الحجاج السعى بين الصفا و المروة بكل ما فيه من مشاق و رغم كراهتكم لذلك ... هذه الكراهة الناتجة عن سوء تصرف الجاهليين بهذا المكان المقدس.

۵- شكر اللّه

ينبغى الالتفات هنا إلى عبارة الشاكر فى الآية، و هو تعبير فى غاية الروعة، و إنه لتكريم ما بعده تكريم للإنسان، أن يشكره اللّه على أعماله الخيّرة.
و حين يكون اللّه شاكرا لعبده على برّه، فمن الأولى أن يكون العبد شاكرا لربّه على نعمه التى لا تحصى، و شاكرا لمن أحسن إليه من العباد.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۵۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (۱۵۹) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۶۰)

سبب النّزول

روى جلال الدين السيوطى عن ابن عباس، أن عددا من المسلمين أمثال «معاذ بن جبل» و «سعد بن معاذ» و «خارجة بن زيد» سألوا أحبار اليهود عن مسائل فى التوراة قد ترتبط بظهور النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فأبى الأحبار أن يجيبوا و كتموا ما عندهم من علم [۴۶۷].

التّفسير

حرمة كتمان الحق

الآية- و إن خاطبت كما فى أسباب النّزول، علماء اليهود- غير محدودة
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۵۸
بمخاطبيها، بل تبين حكما عاما بشأن كاتمى الحق.
الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشدّة و تقول: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتابِ، أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ
فاللّه سبحانه و عباده الصالحون و ملائكته المقربون يلعنون من يكتم الحق، و بعبارة اخرى، كل أنصار الحق يغضبون على من كتم

الحق. و أیة خیانة للعالم أکبر من محاولة العلماء کتمان آیات اللّه المودعة عندهم من أجل مصالحهم الشخصیة و لتضلیل النّاس.
و عبارة مِنْ بَعْدِ ما بَیَّنّاهُ لِلنّاسِ فِی الْکِتابِ إشارة إلی أن هؤلاء الأفراد یصادرون فی الواقع جهود الأنبیاء و تضحیات أولیاء اللّه الصالحین، و هو ذنب عظیم.

و الفعل (یلعن) تکرر فی الآیة للتأکید، و استعمل بصیغة المضارع لبیان استمرار اللعن، و من هنا فإنّ لعنة اللّه و لعنة اللاعنین تلاحق هؤلاء الکاتمین لآیات اللّه باستمرار، و ذلک أقسی صور العقاب.

«البینات» و «الهدی» لهما معنی واسع یشمل کل وسائل الهدایة و التوعیة و الإیقاظ و إنقاذ النّاس.

و لما کان القرآن کتاب هدایة، فإنه لا یغلق منافذ الأمل و التوبة أمام الأفراد، و لا یقطع أملهم فی العودة مهما ارتکسوا فی الذبوب، لذلک تبین الآیة التالیة طریق النجاة من هذا الذنب الکبیر و تقول: إِلَّا الَّذِینَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَیَّنُوا فَأُولئِکَ أَتُوبُ عَلَیْهِمْ وَ أَنَا التَّوّابُ الرَّحِیمُ

عبارة أَنَا التَّوّابُ الرَّحِیمُ جاءت بعد عبارة فَأُولئِکَ أَتُوبُ عَلَیْهِمْ للدلالة علی کثرة محبة اللّه، و سبق عطفه علی عباده التائبین. فیقول سبحانه لهؤلاء: إن تبتم، أی عدتم إلی نشر الحقائق، فأنا أعود أیضا إلی إغداق الرحمة و المواهب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۵۹

علیکم.

و من الملفت للنظر، أن اللّه لم یقل أنه یقبل التوبة ممن تاب، بل یقول: من تاب فأنا أیضا أتوب علیه، و الفرق فی التعبیرین واضح، فالثانی فیه من التودّد و التحنن و إغداق اللطف ما لا یمکن وصفه.

ثم استعمال الضمیر (أنا) فی هذا الموضع یستهدف نوعا من التودّد و بیان الارتباط المباشر بین المتکلم و السّامع و خاصة إذا قال عظیم من العظماء: «أنا أتکفل لک بالعمل الفلانی» حیث یختلف عما لو قال: «سنقوم نحن بإنجاز العمل» فالمحبّة الکامنة فی الأسلوب الاول غیر خافیة علی أحد.

و کلمة «توّاب» صیغة مبالغة تبعث الأمل فی نفوس المذنبین و تمزق أستار الیأس، عن سماء أرواحهم خاصة و أنها اقترنت بکلمة (رحیم) التی تشیر إلی الرحمة الالهیة الخاصة.

بحوث

۱- مفاسد کتمان الحق

کتمان الحقائق من المسائل التی عانت منها المجتمعات البشریة علی مرّ التاریخ، و کان لها دوما آثار سیئة عمیقة استمرت قرونا و اعصارا. و یتحمل تبعة هذه المساوئ دون شک أولئک العلماء الذین یعلمون تلک الحقائق و یکتمونها.

لعل القرآن لم یهدد و یذمّ فئة کما هدّد و ذم هذه الفئة الکاتمة للحقائق. و لم لا؟

فإن عمل هؤلاء یجرّ أجیالا متعاقبة إلی طریق الضلال و الفساد، کما أن نشر الحقائق یدفع بالأمم إلی طریق الهدایة و الصلاح.

البشریة تمیل للحقائق بفطرتها، و کتمان الحقائق عنها یعنی صدّ البشریة عن طریق تکاملها الفطری المرسوم لها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۶۰

لو أن علماء الیهود و النصاری أعلنوا ما عندهم من حقائق بشأن النّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و نشروا ما جاء فی العهدین من بشائر حول رسول الإسلام، لانضوی أهل الکتاب تحت رایة الإسلام، و لأصبحوا مع المسلمین أمة واحدة.

کتمان الحقائق لا ینحصر دون شک فی کتمان علامات النّبوة و البشائر بالنّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، بل یشمل کتمان کل حقیقة تستطیع أن تدفع النّاس إلی الفهم الصحیح بالمعنی الواسع لهذه الکلمة.

السکوت فی مواضع یجب فیها البیان قد یکون من مصادیق کتمان الحق، و ذلک یکون فی موارد یحتاج النّاس فیها بشدّة إلی فهم الحقائق و یستطیع العلماء فیها أن یلبّوا هذه الحاجة.

بعبارة اخری: نشر الحقائق التی یعانی منها النّاس لا یتوقف علی السّؤال، و ما یذهب إلیه صاحب المنار من أن کتمان الحقائق یکون فی مواضع السؤال لیس بصحیح. خاصة و أن القرآن لا یتحدث عن کتمان الحقائق فحسب، بل یتحدث فی مواضع اخری عن تبیین الحقائق أیضا، و هذا یرد علی أولئک الذین یلتزمون جانب الصمت أمام الانحرافات بحجّة عدم وجود سائل یطرح علیهم سؤالا بشأن تلک الانحرافات. یقول سبحانه:

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ ۴۶۸].

جدیر بالذکر أن إلهاء النّاس بالمسائل الفرعیة، لصرف أنظارهم عن المسائل السیاسیة الحیاتیة نوع من کتمان الحقائق. إذا لم یشمله فرضا تعبیر «کتمان الحقائق» فهو مشمول حتما بملاک و فلسفة کتمان الحق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۱

۲- کتمان الحق فی الأحادیث

حملت الأحادیث بشدّة أیضا علی کاتمی الحق،

فروی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «من سئل عن علم یعلمه فکتم ألجم یوم القیامة بلجام من نار»

[۴۶۹].

و نعید هنا القول أن ابتلاء الناس بمسألة و الحاجة الی بیانها یحل محل السّؤال. و بیان الحقائق فی هذه الحالة واجب.

و

سئل الامام أمیر المؤمنین علیه السّلام:

«من شرّ خلق اللّه بعد إبلیس و فرعون؟ قال: العلماء إذا فسدوا، هم المظهرون للأباطیل، الکاتمون للحقائق، و فیهم قال اللّه عزّ و جلّ: أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۴۷۰]

۳- معنی اللعن

اللعن فی الأصل: الطرد و الإبعاد الممزوج بالغضب و الاستیاء. فاللعن الإلهی إذن إبعاد الإنسان عن رحمة اللّه، و عن جمیع المواهب المغدقة علی عباده.

و ما قیل بشأن تقسیم اللعن إلی: لعن فی الآخرة، و هو العذاب و العقوبة، و لعن فی الدنیا و هو سلب التوفیق، إنما هو من قبیل بیان المصداق، لا حصر اللعن بهذین القسمین.

و کلمة (اللاعنون) لها معنی واسع لا یقتصر علی الملائکة و المؤمنین، بل یشمل کل الموجودات التی تتحدث بلسان القال أو الحال.

و فی بعض الروایات نری أن کل الموجودات تدعو لطالب العلم

کقول المعصوم: «و إنّه یستغفر لطالب العلم من فی السّماء و من فی الأرض حتّی الحوت فی البحر»

[۴۷۱]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۶۲

و إن استغفرت هذه الموجودات لطالب العالم، فمن الطبیعی أن تلعن کاتمه.

۴- کلمة (توّاب) صیغة مبالغة من تاب: عاد، و تبین حقیقة انفتاح باب التوبة أمام الإنسان، حتی و لو انخدع الإنسان بوساوس الشیطان بعد توبته، فیستطیع أن یتوب ثانیة و یعود إلی اللّه و یکشف ما عنده من الحق، فاللّه توّاب، و لا یجوز الیأس من رحمته و عفوه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۶۳

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۶۱ الی ۱۶۳]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ کُفَّارٌ أُولئِکَ عَلَیْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ (۱۶۱) خالِدِینَ فِیها لا یُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ (۱۶۲) وَ إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِیمُ (۱۶۳)

التّفسیر

الّذین ماتوا و هم کفّار

تحدثت الآیات السابقة عن نتیجة کتمان الحقائق، و هذه الآیات تکمل الموضوع السابق، و تتناول جزاء الذین یواصلون طریق الکفر و الکتمان و العناد إلی آخر عمرهم.

تقول الآیة: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ کُفَّارٌ أُولئِکَ عَلَیْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ

هؤلاء أیضا مثل کاتمی الحق، مستحقون للعنة اللّه و الملائکة و جمیع النّاس، مع اختلاف هو أن هؤلاء المصرّین علی الکفر حتی نهایة حیاتهم لا رجعة لهم طبعا و لا توبة.

ثم تقول الآیة التالیة إن هؤلاء الکفار المصرّین علی کفرهم حتی اللحظات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۶۴

الأخیرة من حیاتهم: خالِدِینَ فِیها لا یُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ

و لما کان التوحید ینهی کل هذه المصائب، فالآیة الثالثة تطرح هذا الأصل و تقول: وَ إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ.

ثم تؤکد هذا الأصل و تقول: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

بعد ذلک تصف الآیة اللّه بأنه الرَّحْمنُ الرَّحِیمُ لتقول إن اللّه الذی تشمل رحمته العامة کل الموجودات، و رحمته الخاصة المؤمنین، هو اللائق بالعبودیة لا الموجودات المحتاجة.

بحوث

۱- یوضح القرآن فی مواضع متعدّدة

، أن الـذين ماتوا على كفرهم لا نجاة لهم، و هـذا أمر طبيعى، لأن سـعادة الحياة الآخرة و شـقاءها نتيجة مباشـرة لما ادّخره الإنسان من أعمـال فى هـذه الحيـاة. و من أحرق جنـاحيه فى الحياة الـدنيا بنار الكفر و الانحراف لا يسـتطيع طبعا أن يحلّق فى الآخرة، و لا بـدّ من سقوطه فى دركـ الجحيم. و واضـح أيضا أن هذا الفرد سـيبقى على وضـعه هذا فى عالم الآخرة، لأن ذلك العالم ليس عالم الحصول على وسيلة.

هذا يشبه إنسانا فقد عينيه بسبب جنوحه و اتباعه الشهوات و الأهواء عالما عامدا، فلا بدّ له أن يعيش أعمى طول حياته.

و بديهى أن هذا مصير الكافرين الذين سلكوا طريق الكفر عن علم و عمد.

(و سنوضح مسألة الخلود أكثر فى تفسير الآيتين ۱۰۷ و ۱۰۸ من سورة هود، فى المجلد السابع من هذا التّفسير).

۲- الآية الثالثة فى بحثنا هذا تبين أحدية اللّه بشكل ينفى كل شرك و انحراف.

قد نرى أحيانا موجودات منفردة فى صفة من صفاتها، لكن هذه الموجودات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۵

تتفرد فى صـفة أو عـدّة صـفات. أمّا اللّه فهو أحد فى ذاته، و أحد فى صـفاته، و أحد فى أفعاله، أحديته لا تقبل التعدد عقلا، إنه أحد أزلى و أبدى لا تؤثر الحوادث على أحديته. إنه أحد فى الذهن و خارج الذهن. إنه أحد فى أحديته!

۳- ألا يكفى لعن اللّه؟!

الآيـة أعلاه ذكرت أن الذين ماتوا و هم كفار، مشـمولون بلعنة اللّه و الملائكة و النّاس أجمعين. و هنا قد يسأل سائل: أ ليست لعنة اللّه كافية؟

الجواب واضح، فلعنة الملائكة و النّاس زيدت على لعنة اللّه للتأكيد، و لبيان كراهة النّاس لمثل هؤلاء المذنبين.

و لو قيل لم ذكرت الآية (النّاس) بشكل عام، بينما يوجد بين النّاس من هم شركاء فى الجريمة، و هؤلاء لا يلعنون أولئك المجرمين؟

و الجواب: إن هؤلاـء أيضا كـارهون لأعمـال أولئـك، فهؤلاـء يكرهون مثلاـ كتمان الحقائق عنهم، و يلعنون من يستر عنهم الحقيقـة، لكنهم يفعلون هم أيضا هذه السيئة إن اقتضت مصلحتهم ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۶۴]

اشارة

إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماـواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاـفِ اللَّیْلِ وَ النَّهـارِ وَ الْفُلْکِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِما یَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ مـاءٍ فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِیها مِنْ کُلِّ دابَّهٍ وَ تَصْـرِیفِ الرِّیاحِ وَ السَّحابِ الْمُسَـخَّرِ بَیْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۱۶۴)

التّفسير

مظاهر عظمة اللّه فى الكون

آخر آية فى المبحث الماضى دارت حول توحيد اللّه، و هذه الآية تقدم الدليل على وجود اللّه و وحدانيته.

قبل أن نـدخل فى تفسير الآيـة، لا بدّ من مقدمة موجزة. حيثما كان «النظم و الانسـجام»، فهو دليل على وجود العلم و المعرفة، و أينما كان «التنسـيق» فهو دليل على الوحدة. من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم و الانسـجام فى الكون من جهة، و التنسـيق و وحدة العمل فيه من جهة اخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم و القدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

حينما نمعن النظر فى الأغشية الستة للعين الباصرة و نرى جهازها البديع،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص: ۴۶۷

نفهم أن الطبيعـة العمياء الصـماء لا يمكن إطلاقا أن تكون مبـدأ مثل هـذا الأثر البـديع، ثم حينما نـدقق فى التعاون و التنسـيق بين هذه الأغشية، و التنسيق بين العين بكل أجزائها و بين جسم الإنسان، و التنسيق الفطرى الموجود بين الإنسان و بين سائر البشر، و التنسيق بين بنى البشر و بين كل مجموعة نظام الكون، نعلم أن كل ذلك صادر من مبدأ واحد، و كل ذلك من آثار و قدرة ذات مقدسة واحدة.

ألا تـدل القصـيدة الجميلـة العميقـة المعنى على ذوق الشاعر و قريحته؟! ألا يدلّ التنسـيق الموجود بين قصائد الديوان الواحد على أنها جميعا صادرة من قريحة شاعر مقتدر واحد؟

بعد هذه المقدمة نعود إلى تفسير الآية، هذه الآية الكريمة تشير إلى ستة أقسام من آثار النظم الموجود فى عالم الكون، و كل واحد آية تدل على وحدانية المبدأ الأكبر.

١- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ...

من العلامات الدالـة على ذات اللّه المقدسـة و على قـدرته و علمه و وحـدانيته، السـماء و كرات العالم العلوى، أى هـذه المليارات من الشـموس المشـرقة و النجوم الثابتة و السيارة، التى ترى بالعين المجردة أو بالتلسكوبات، و لا يمكن رؤية بعضها بأقوى أجهزة الإرصاد لبعدها الشاسع ... الشاسع للغاية، و التى تنتظم مع بعضها فى نظام دقيق مترابط.

و هكذا الأرض بما على ظهرها من حياة، تتجلّى بمظاهر مختلفة و تتلبس بلباس آلاف الأنواع من النبات و الحيوان.

و من المـدهش أن عظمة هذا العالم و سعته و امتداده تظهر أكثر كلما تقدّم العلم، و لا ندرى المدى الذى سيبلغه العلم فى فهم سعة هـذا الكون! يقول العلم لنا اليوم: إن فى السـماء آلافا مؤلفـة من المجرات، و منظومتنا الشمسيـة جزء من واحـدة من المجرات، و فى مجرتنا وحدها مئات الملايين من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص: ۴۶۸

الشـموس و النجوم السّاطعـة، و حسب دراسات العلماء يوجـد بين هـذه الكواكب مليون كوكب مسكون بمليارات الموجودات الحيّة! حقا ما أعظم هذا الكون! و ما أعظم قدرة خالقه!! ٢- وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ١ ؛ ص۴۶۸

الـدّلائل الاخرى على ذاته المقدسـة و صـفاته المباركـة تعاقب الليل و النهار، و الظلمة و النور بنظام خاص، فينقص أحد هما بالتدريج ليزيد فى الآخر، و ما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الأربعة، و تكامل النباتات و سائر الأحياء فى ظل هذا التكامل.

لو انعدم هذا التغيير التدريجى، أو انعدم النظام فى هذا التدريج، أو انعدم تعاقب الليل و النهار لانمحت الحياة من وجه الكرة الأرضـية، و لو بقيت و استمرت- فرضا- لأصابتها الفوضى و الخبط[۴۷۲].

٣- وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ الإنسان يمخر عباب البحار و المحيطات بالسفن الكبيرة و الصغيرة، مستخدما هـذه

السفن للسفر و لنقل المتاع. و حرکة هذه السفن خاصة الشراعیة منها تقوم علی عدّة أنظمة:

الأوّل، نظام هبوب الریاح علی سطح میاه الکرة الأرضیة، فهناک الریاح القاریة التی تهبّ من القطبین الشمالی و الجنوبی نحو خطّ الإستواء و بالعکس و تدعی «الیزه» و «کنترالیزه»؟؟. و هناک الریاح الإقلیمیة التی تهب وفق نظام معین، و تعتبر قوة طبیعیة لتحریک السفن نحو مقاصدها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۶۹

و هکذا خاصیة الخشب، أو خاصیة القوّة الدافعة التی یسلطها الماء علی الأجسام الغاطسة فیه، فیجعل هذه السفن تطفو علی سطح الماء.

أضف إلی ذلک خاصیة القطبین المغناطیسیین للکرة الأرضیة، التی تساعد البحارة باستخدام البوصلة أن یعرفوا اتجاههم فی وسط البحار، إضافة إلی استفادتهم من نظام حرکة الکواکب فی معرفة جهة السیر.

کل هذه الأنظمة تساعد علی الاستفادة من الفلک ۴۷۳]، و تعطی دلیلا- محسوسا علی قدرة اللّه و عظمته، و تعتبر آیة من آیات وجوده.

استعمال المحرکات الوقودیة بدل الأشرعة فی السفن الیوم، لم یقلل أهمیة هذه الظاهرة، بل زادها عجبا و دهشة، إذ نری الیوم السفن العملاقة التی تشبه مدینة بجمیع مرافقها، تطفو علی سطح الماء و تتنقل بفنادقها و ساحات لعبها و أسواقها، بل و مدارج للطائرات فیها ... علی ظهر البحار و المحیطات.

۴- وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِیها مِنْ کُلِّ دَابَّةٍ ....

من مظاهر قدرة اللّه و عظمته المطر الذی یحیی الأرض، فتهتز ببرکته و تنمو فیها النباتات و تحیا الدواب بحیاة هذه النباتات، و کل هذه الحیاة تنتشر علی ظهر الأرض من قطرات ماء لا حیاة فیها.

۵- وَ تَصْرِیفِ الرِّیاحِ ...، لا علی سطح البحار و المحیطات لحرکة السفن فحسب، بل علی الجبال و الهضاب و السهول أیضا لتلقیح النباتات فتخرج لنا ثمارها الیانعة.

و تارة تعمل علی تحریک أمواج المحیطات بصورة مستمرة و مخضها مخض السقاء لإیجاد محیط مستعد لنمو و حیاة الکائنات البحریة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۷۰

و اخری تقوم بتعدیل حرارة الجو و تلطیف المناخ بنقلها حرارة المناطق الاستوائیة إلی المناطق الباردة، و بالعکس.

و أحیانا تقوم بنقل الهواء الملوّث الفاقد للاوکسجین من المدن إلی الصحاری و الغابات لمنع تراکم السموم فی الفضاء.

أجل فهبوب الریاح مع کل تلک البرکات و الفوائد علامة اخری علی حکمة الباری و لطفه الدائم.

۶- وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَیْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و السحب المتراکمة فی أعالی الجو، المحمّلة بملیارات الأطنان من المیاه خلافا لقانون الجاذبیة، و المتحرکة من نقطة إلی اخری دون إیجاد خطر، من مظاهر عظمة اللّه سبحانه.

إضافة إلی أن هذا الودق (المطر) الّذی یخرج من خلال السحاب یحیی الأرض، و بحیاة الأرض تحیا النباتات و الحیوانات و الإنسان، و لو لا ذلک لتحولت الکرة الأرضیة إلی أرض مقفرة موحشة. و هذا مظهر آخر لعلم اللّه سبحانه و قدرته.

و کل تلک العلامات و المظاهر لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ لا للغافلین الصم البکم العمی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۷۱

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۶۵ الی ۱۶۷]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ (۱۶۵) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (۱۶۶) وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ (۱۶۷)

التّفسير

أئمّة الكفر يتبرّءون من أتباعهم!

تناولت الآيات السابقة دلائل وجود اللّه سبحانه و إثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر لنظام الكون. و هذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، و ساروا على طريق الشرك و الوثنية و تعدّد الآلهة .. عن أولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيما أمام الآلهة المزيفة، و يتعشقونها و يشغفون بها حبّا لا يليق إلّا باللّه سبحانه مصدر كل الكمالات و واهب جميع النعم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۷۲

تقول الآية: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً[۴۷۴].

و لم يتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعبادة فحسب، بل يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ لأنهم أصحاب عقل و إدراك، يفهمون أن اللّه سبحانه مصدر كل الكمالات، و هو وحده اللائق بالحبّ، و لا يحبون شيئا آخر إلّا من أجله. و قد غمر الحبّ الإلهي قلبهم حتى أصبحوا يرددون مع أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام:

«فهبني صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك»؟!

[۴۷۵].

الحبّ الحقيقي يتجه دائما نحو نوع من الكمال، فالإنسان لا يحبّ العدم و النقص، بل يسعى دوما وراء الوجود و الكمال، و لذلك كان الأكمل في الوجود و الكمال أحق بالحبّ.

الآية أعلاه تؤكد أن حبّ المؤمنين للّه أشدّ من حبّ الكافرين لمعبوداتهم.

و لم لا يكون كذلك؟! فلا يستوى من يحبّ عن عقل و بصيرة، و من يحبّ عن جهل و خرافة و تخيّل.

حبّ المؤمنين ثابت عميق لا يتزلزل، و حبّ المشركين سطحي تافه لا بقاء له و لا استمرار.

لذلك تقول الآية: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ، أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ لرأوا سوء فعلهم و سوء عاقبتهم ۴۷۶].

في هذه اللحظات تزول حجب الجهل و الغرور و الغفلة من أمام أعينهم، و حين يرون أنفسهم دون ملجأ أو ملاذ، يتجهون إلى قادتهم و معبوديهم، ولات حين ملاذ بغير اللّه إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۷۳

. واضح أن المعبودين هنا ليسوا الأصنام الحجرية أو الخشبية، بل الطغاة الجبابرة الذين استعبدوا النّاس، فقدم لهم المشركون فروض الولاء و الطاعة، و استسلموا لهم دون قيد أو شرط.

هؤلاء الغافلون المغفّلون حين يروا ما حلّ بهم يمنّون أنفسهم: وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا لكنها أمنية لا تتحقق، و عبرت آية اخرى عن مثل هذا التمني على لسان كافر يقول لمعبوده المزيف: حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ

الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۴۷۷].

ثم تقول الآية: كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ، وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ.

ليس لهم إلّا أن يتحسّروا، يتحسّرون على أموالهم التى كنزوها و استفاد منها غيرهم ... و على فرصة الهداية و النجاة التى هيئت لهم فلم يستثمروها ... و على عبادتهم لآلهة زائفة بدل عبادة اللّه الواحد الأحد.

لكنّها حسرة غير نافعة ... فاليوم الجزاء على ما جنته يد الإنسان من أخطاء، و ليس يوم تلافى الأخطاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۶۸ الى ۱۶۹]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۶۸) إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۱۶۹)

سبب النّزول

عن ابن عباس أن طوائف من العرب مثل ثقيف و خزاعة، حرموا على أنفسهم بعض النباتات و الحيوانات دونما دليل، (و نسبوا التحريم إلى اللّه أيضا)، فنزلت الآيتان تنهاهم عن ذلك.

التّفسير

خطوات الشيطان!

ذمّت الآيات السابقة الشرك و المشركين، و أحد أنواع الشرك إيكال أمر التقنين و التشريع و تقرير الحلال و الحرام إلى غير اللّه.

الآية أعلاه اعتبرت هذا العمل شيطانيا و قالت: يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً، وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

تكرر فى القرآن طلب الاستفادة من الأطعمة، و ورد الطلب عادة مقيّدا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۵

بالحلال و بالطيّب.

و «الحلال» ما أبيح تناوله، و الطيب ما طاب و وافق الطبع السليم، و يقابله «الخبيث» الذى يشمأز منه الإنسان.

و «الخطوات» جمع «خطوة» و هى المرحلة التى يقطعها الشيطان للوصول إلى هدفه و للتغرير بالنّاس.

عبارة لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ تكررت خمس مرات فى القرآن الكريم، و كانت فى موضعين بشأن الاستفادة من الأطعمة و الرزق الإلهى. و هى تحذير من استهلاك هذه النعم الإلهية فى غير موضعها. و حثّ على الاستفادة منها على طريق العبودية و الطاعة لا الفساد و الطغيان فى الأرض.

النهى عن اتباع خطوات الشيطان فى استثمار مواهب الطبيعة، توضحه آيات اخرى تنهى أيضا عن الإفساد فى استثمار ما وهبه اللّه

للناس، كقوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۴۷۸]، و كقوله سبحانه كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ ۴۷۹].

هذه المواهب و الإمكانات ينبغى أن تكون طاقة دافعة نحو الطاعة لا وسيلة لارتكاب الذنوب.

عبارة إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ تكررت فى القرآن الكريم عشر مرات بعد الحديث عن الشيطان، كى تحفّز الإنسان، و تجعله متأهبا لمجابهة هذا العدوّ اللدود الظاهر.

الآية التالية تؤكد على عداء الشيطان، و على هدفه المتمثل فى شقاء الإنسان، و تقول: إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

منهج الشيطان يتلخص فى ثلاثة أبعاد هى: السوء، و الفحشاء، و التّقول على اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۶

الفحشاء من «الفحش»، و هو كل عمل خارج عن حدّ الاعتدال، و يشمل كل المنكرات و القبائح المبطنة و العلنية. و استعمال هذه المفردة حاليا بمعنى الأعمال المنافية للعفّة هو من قبيل استعمال اللفظ الكلى فى بعض مصاديقه.

عبارة تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ قد تشير إلى تحريم بعض الأطعمة المحللة، كما مرّ بنا فى سبب النّزول. و هو عمل بعض القبائل العربية فى الجاهلية، و قيل: إن رواسبه كانت باقية فى ذهن بعض المسلمين الجدد[۴۸۰].

و قد يتسع معناها ليشمل الشرك و التشبيه باللّه أيضا.

على أية حال، العبارة تشير إلى القول غير القائم على العلم، و هو قول شيطانى مذموم، خاصة إذا كان متضمنا نسبة شىء إلى اللّه.

الإسلام يحثّ دوما على الانطلاق من العقل و المنطق فى اتخاذ المواقف و فى إصدار الأحكام، و لو كان دأب أفراد المجتمع ذلك لزال من المجتمع الشقاء.

كل ما دخل فى الأديان الإلهية من تحريف و مسخ إنما كان على يد أفراد بعيدين عن المنطق، و الجانب الأكبر من الانحرافات العقائدية يعود إلى عدم رعاية هذا الأصل، لذلك كان محورا من محاور النشاط الشيطانى بعنوان مستقل- فى مقابل السوء و الفحشاء- فى الآية المذكورة.

بحوث

۱- أصل الحليّة:

هذه الآية تدل على أنّ الأصل فى كل الأغذية الموجودة على ظهر الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۷

الحليّة، و المستثناة هى الأغذية المحرمة. من هنا فإن الحرمة تحتاج إلى دليل لا الحلية. و هذا ما يقتضيه أيضا طبيعة الخليقة. إذ لا بدّ من وجود تنسيق بين القوانين التشريعية و القوانين التكوينية.

بعبارة أوضح ما خلقه اللّه لا بدّ أن ينطوى على فائدة لعباده. من هنا فلا معنى أن يكون الأصل الأوّلى للأطعمة على ظهر الأرض التحريم. فكل غذاء إذن حسب هذه الآية الكريمة حلال ما لم تثبت حرمته بدليل صحيح، و ما دام لا يشكل ضررا على الفرد و المجتمع.

۲- الانحرافات التدریجیة

عبارة خُطُواتِ الشَّیْطانِ قد تشیر إلی مسألة تربویة دقیقة، هی إنّ الانحرافات تدخل ساحة الإنسان بشکل تدریجی، لا دفعی فوری.

فتلوّث شاب بالقمار، أو شرب الخمر، أو بالمخدرات مثلا یتم علی مراحل:

یشترک أوّلا متفرجا فی جلسة من جلسات الخمارین أو المقامرین، ظانا أنه عمل اعتیادی لا ضیر فیه.

ثم یشترک فی القمار للترویح عن النفس (دون ربح أو خسارة)، أو یتناول شیئا من المخدرات بحجة رفع التعب أو المعالجة أو أمثالها من الحجج.

و فی الخطوة الاخری یمارس العمل المحرم قاصدا أنه یمارسه مؤقتا.

و هکذا تتوالی الخطوات واحدة بعد اخری و یصبح الفرد مقامرا محترفا أو مدمنا خطرا.

وساوس الشیطان تدفع بالفرد علی هذه الصورة التدریجیة نحو هاویة السقوط، و لیست هذه طریقة الشیطان الأصلی فحسب، بل کل الأجهزة الشیطانیة تنفذ خططها المشؤومة علی شکل «خطوات» لذلک یحذّر القرآن کثیرا من اتّخاذ الخطوة الاولی علی طریق الانزلاق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۷۸

جدیر بالذکر أن الأعمال الخرافیة غیر القائمة علی أساس منطقی اعتبرتها النصوص الإسلامیة من «خطوات الشّیطان».

و قد ورد فی رجل أقسم أن یذبح ابنه،

قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام: «ذلک من خطوات الشّیطان»

[۴۸۱].

و عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام: «کلّ یمین بغیر اللّه فهو من خطوات الشّیطان».

[۴۸۲] و

عن الامام الصادق أیضا: «إذا حلف الرّجل علی شیء و الّذی حلف علیه إتیانه خیر من ترکه فلیأت الّذی هو خیر و لا کفّارة له و إنّما ذلک من خطوات الشّیطان»[۴۸۳].

۳- الشّیطان عدوّ قدیم

الآیة الکریمة و صفت الشّیطان أنّه عَدُوٌّ مُبِینٌ و ذلک إمّا لعدائه لآدم بعد أن أبی السجود له، و خسر کل شیء علی أثر ذلک. و إما بسبب إغوائه الواضح لبنی البشر و دفعهم علی طریق الإجرام. و واضح أن هذا الدفع لا یصدر إلّا من عدوّ لدود.

أو لأن الشیطان أعلن عداءه صراحة للإنسان، و عاهد نفسه علی إغوائهم إذ قال: لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ

۴- طریقة الوسوسة الشّیطانیة

الآیة الکریمة تحدثت عن أمر الشیطان: فقالت: إِنَّما یَأْمُرُکُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ ... و هذا الأمر هو الوسوسة الشیطانیة. و قد یطرح سؤال بشأن هذه الأوامر الشیطانیة إذ لا یحسّ الإنسان بأمر خارجی یصدر إلیه حین یرتکب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۷۹

السیئات، و لا یتلمس سعیا شیطانیا لإضلاله.

الجواب هو أن هـذه «الوسوسـة» تأثیر خفی عبّرت عنه بعض الآیات بالإیحاء: وَ إِنَّ الشَّیاطِینَ لَیُوحُونَ إِلی أَوْلِیائِهِمْ ۴۸۴]. و الإیحاء من «الوحی» الذی هو تأثیر غیبی خفی أو التأثیرات اللاواعیة أحیانا.

و ثمّة فرق بین «الإلهام الإلهی» و «الوسوسة الشیطانیة» هو إن الإلهام الإلهی لانسجامه مع الفطرة الإنسانیة و مع ترکیب الجسم و الروح، یترک فی النفس حالة انبساط و انشراح.

بینما الوسوسة الشـیطانیة لتناقضـها مع الفطرة الإنسانیة السلیمة، تجعل القلب یحسّ بظلام و انزعاج و ثقل. و إن لم یحدث فیه مثل هذا الإحساس قبل ارتکاب السیئة فإنه یحسّ بها بعد الارتکاب. هذا هو الفرق بین الإلهامات الشیطانیة و الإلهامات الإلهیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۰

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۷۰ الی ۱۷۱]

اشارة

وَ إِذا قِیـلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مـا أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَیْنا عَلَیْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْقِلُونَ شَـیْئاً وَ لا یَهْتَـدُونَ (۱۷۰) وَ مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا کَمَثَلِ الَّذِی یَنْعِقُ بِما لا یَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُکْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لا یَعْقِلُونَ (۱۷۱)

التّفسیر

التّقلید الأعمی

تشـیر الآیـة إلی منطق المشـرکین الواهی فی تحریم ما أحلّ اللّه، أو عبادة الأوثان و تقول: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَیْنا عَلَیْهِ آباءَنا.

و یـدین القرآن هـذا المنطق الخرافی، القائم علی أساس التقلیـد الأعمی لعادات الآباء و الأجداد، فیقول: أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْقِلُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ

أی إن اتباع الآباء صـحیح لو أنهم کانوا علی طریق العقل و الهدایـة. أمّا إذا کانوا لا یعقلون و لا یهتدون، فما اتباعهم إلّا ترکیز للجهل و الضلال.

الإنسان الجاهلی لا یسـتند إلی قاعـدة ایمانیـة یحسّ معها بوجوده و بشخصـیته و بأصالته، لـذلک یسـتند إلی مفاخر الآباء و عاداتهم و تقالیدهم، لیصطنع له شخصیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۱

کاذبة و أصالة موهومة. و هذه عادة الجاهلیین قدیما و حدیثا فی تعصبهم القومی و خاصة فی ما یتعلق باسلافهم.

الإسلام أدان المنطق الرجعی القائم علی تقدیس ما علیه الآباء و الأجداد، لأنه ینفی العقل الإنسانی. و یرفض تطوّر التجارب البشریة، و یصادر الموضوعیة فی معالجة قضایا السلف.

هذا المنطق الجاهلی یسود الیوم- و مع الأسف- فی بقاع مختلفة من عالمنا، و یظهر هنا و هناک بشکل «صنم» یوحی بعادات و تقالید خرافیة مطروحة باسم «آثار الآباء» و مؤامرة باسم الحفاظ علی المآثر القومیّة و الوطنیة، مشـکّلا بذلک أهم عامل لانتقال الخرافات من جیل إلی جیل آخر.

لا-مانع طبعا من تحليل عادات الآباء و تقاليدهم، فما انسجم منها مع العقل و المنطق حفظ، و ما كان وهما و خرافة لفظ. المقدار المنسجم مع العقل و المنطق من العادات و الثقاليد يستحق الحفظ و الصيانة باعتباره تراثا قوميا. أمّا الاستسلام التام الأعمى لتلك العادات و التقاليد فليس إلّا الرجعية و الحماقة.

جدير بالذكر أن الآية أعلاه تتحدث عن آباء هؤلاء المشركين و تقول عنهم إنهم لا يعلمون، و لا يهتدون. و هذا يعنى إمكان الاقتداء باثنين. بمن كان يملك الفكر و العقل و العلم، و من كان قد اهتدى بالعلماء.

أما أسلاف هؤلاء فلم يكونوا يعلمون، و لم يكونوا قد اهتدوا بمن يعلم و هذا اللون من التقليد الأعمى هو السبب فى تخلف البشرية لأنه تقليد الجاهل للجاهل.

الآية التالية تبين سبب تعصّب هؤلاء و إعراضهم عن الانصياع لقول الحق تقول: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً. تقول الآية:

إن مثلك فى دعوة هؤلاء المشركين إلى الايمان و نبذ الخرافات و التقليد الأعمى كمن يصيح بقطيع الغنم (لإنقاذهم من الخطر) و لكن الأغنام لا تدرك منه سوى أصوات غير مفهومة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۲

أجل فهؤلاء الكفار و المشركين كالحيوانات و الانعام التى لا تسمع من راعيها الذى يريد لها الخير سوى أصوات مبهمة.

ثم تضيف الآية لمزيد من التأكيد و التوضيح أن هؤلاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ۴۸۵].

و لذلك يتمسكون بالتقاليد الخاطئة لآبائهم، و يعرضون عن كل دعوة بنّاءة.

و قيل فى تفسير الآية أيضا إن معناها: مثل الذين يدعون أصنامهم و آلهتهم الكاذبة كالذى يدعو البهائم، لا الحيوانات تفهم النداء و لا تلك الأصنام، لأن هذه الأصنام صمّاء بكماء عمياء لا تعقل.

أكثر المفسرين على التّفسير الأوّل للآية، و الروايات الإسلامية تؤيده و نحن على ذلك أيضا.

بحثان

۱- سبل المعرفة

يحتاج الإنسان فى ارتباطه بالخارج دون شك إلى سبل، تسمّى سبل المعرفة. أهم هذه السبل العين و الأذن للرؤية و السماع، و اللسان للسؤال.

لذلك، بعد أن تصف الآية هؤلاء بأنهم صم بكم عمى، تستنتج باستعمال فاء التفريع و تقول: فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ

من هنا يقرر القرآن أن أساس العلوم العين و الأذن و اللسان، العين و الأذن للفهم المباشر، و اللسان لإقامة الارتباط بالآخرين و كسب علومهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۳

و الفلسفة أثبتت أيضا حقيقة انطلاق العلوم غير الحسية أيضا من العلوم الحسيّة، و هو بحث واسع لا مجال هنا لشرحه. (لمزيد من التوضيح عن نعمة أدوات المعرفة راجع المجلد الثامن من هذا التّفسير، فى شرح الآية ۷۸ من سورة النحل).

۲- نعق الغراب:

إذا صوّت دون أن يمدّ عنقه، فإذا مدّ عنقه و حركها ثم صاح قيل: نغق (بالغين)[۴۸۶].

ثم توسّعوا فی نعق لتشمل كل صوت تنادى به البهائم، و واضح أن هذه البهائم لا تفهم شيئا من هذا النداء و إن أبدت ردّ فعل تجاه هذا النداء، فإنما هو لدویّ هذا الصوت و طريقة أدائه الخاصة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۷۲) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۷۳)

التّفسير

الطّيبات و الخبائث

القرآن ينهج أسلوب التأكيد و التكرار بأشكال مختلفة فی معالجته للانحرافات المزمنة. و فی هذه الآيات عودة إلى مسألة تحريم المشركين فی الجاهلية لبعض الأطعمة دونما دليل. مع فارق هو أن الخطاب يتجه فی هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقة جميع النّاس.

تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

هذه النعم الطيبة المحللة المتناسبة مع الفطرة الإنسانية السليمة قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟! هذه الأطعمة تمنحكم القوة على أداء مهامكم، و تذكركم بشكر خالقكم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۵

و عبادته.

لو قارنا هذه الآية بقوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِی الْأَرْضِ ۴۸۷] لفهمنا نكتتين:

تقول الآية هنا: مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ بينما تقول تلك مِمَّا فِی الْأَرْضِ

و لعل هذا الاختلاف يشير إلى أن النعم الطيبة مخلوقة أصلا للمؤمنين، و غير المؤمنين يتناولون هذه الأطعمة ببركة المؤمنين، كالماء الذی يستعمله البستانی لسقی أشجاره و أغراسه، بينما تستفيد من هذا الماء أيضا الأعشاب و النباتات الطفيلية.

و الاخرى، أن الآية تقول لعامة النّاس: كُلُوا ... وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ و هذه الآية تخاطب المؤمنين و تقول: كُلُوا ... وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ أی لا تكتفی هذه الآية بالطلب من المؤمنين أن لا يسيئوا الاستفادة من هذه النعم، بل تحثهم على حسن الاستفادة منها.

فالمتوقع من النّاس العاديين أن لا يذنبوا فی استهلاك هذه النعم، بينما المتوقع من المؤمنين أن يستثمروها فی أفضل طريق.

و قد يثير تكرار التأكيد فی القرآن الكريم على الاستفادة من الأطعمة الطيبة تساؤلا عن سبب هذا التكرار. أمّا لو عدنا إلى تاريخ العصر الجاهلی لفهمنا السبب. فالجاهليون قد حرّموا على أنفسهم بعض الأطعمة دونما دليل، و تناقلت أجيالهم هذا التحريم و كأنّه وحی منزل، و نسبوه أحيانا بصراحة إلى اللّه، و القرآن استهدف اقتلاع جذور هذه الأفكار الخرافية من أذهانهم.

ثم إن الترکیز علی کلمة «طیب» یتضمن أیضا دعوة إلی اجتناب ما خبث من الأطعمة، کالمیتة و الوحوش و الحشرات، و کالمسکرات السائدة بین النّاس بشدّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۶

آنذاک.

فی تفسیر الآیة ۳۲ من سورة الأعراف تحدثنا بالتفصیل عن استثمار المؤمنین الأطعمة الطیبة و الزینة المعقولة (المجلد الخامس من هذا التّفسیر).

الآیة التالیة تبین بعض ألوان الأطعمة المحرمة، و تقول: إِنَّما حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِیرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَیْرِ اللَّهِ

تذکر الآیة ثلاثة أنواع من اللحوم المحرمة إضافة إلی الدم، و هی من أکثر المحرمات انتشارا فی ذلک العصر، فی بعضها خبث ظاهر لا یخفی علی أحد کالمیتة و الدم و لحم الخنزیر، و فی بعضها خبث معنوی کالتی ذبحت من أجل الأصنام.

الحصر فی الآیة بکلمة «إنما» هو «حصر إضافی» لا یستهدف منه بیان جمیع المحرمات، بل نفی ما ابتدعوه بشأن بعض اللحوم المحللة. بعبارة اخری، هؤلاء الجاهلیون حرّموا بعض الأطعمة الطیبة استنادا إلی ما توارثوه من خرافات و أوهام، لکنهم بدلا من ذلک کانوا یعمدون عند قلة الطعام إلی أکل المیتة أو الخنزیر أو الدم.

القرآن یقول لهؤلاء إن هذه هی الأطعمة المحرمة لا تلک (و هذا هو معنی الحصر الإضافی).

و لمّا کانت بعض الضرورات تدفع الإنسان إلی تناول الأطعمة المحرمة حفظا لحیاته، فقد استثنت الآیة هذه الحالة و قالت: فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَیْهِ

و من أجل أن تقطع الآیة الطریق أمام من یتذرع بالاضطرار، أکدت علی کون المضطر «غیر باغ» و «لا عاد». و الباغی هو الطالب، و المراد هنا طالب اللذة و العادی هو المتجاوز للحد، أی المتجاوز حدّ الضرورة، فالرخصة هنا إذن لمن لا یرید اللذة فی تناول هذه الأطعمة، و لا یتجاوز حد الضرورة اللازمة لنجاته من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۷

الموت.

و لأن معنی البغی الظلم أیضا ذهب بعض المفسرین إلی أن الرخصة ممنوحة لأولئک الذین یضطرون خلال سفر محلل، لا خلال سفر المعصیة.

فالمسافرون لهدف غیر مشروع قد یجب علیهم تناول الأطعمة المحرمة لحفظ النفس من التلف، إلّا أن هذا العمل یکتب فی صحیفة أعماله من الذنوب.

بعبارة اخری: هؤلاء العاصون قد یجب علیهم عقلا فی أسفارهم المحرمة أن یتناولوا شیئا من الأطعمة المحرمة لدی الاضطرار، لکن هذا الوجوب لا یرفع عنهم المسؤولیة، لأنهم أجبروا علی ذلک و هم علی مسیر خاطئ.

و هناک روایات تذکر أن الآیة تشیر إلی السائرین علی طریق الخروج علی إمام المسلمین، فهؤلاء مستثنون من هذه الرخصة. و هذه الروایات تشیر فی الواقع إلی نفس الحقیقة المذکورة، و هکذا الأمر فی أحکام صلاة المسافر، فالمسافر یقصر الصلاة فی السفر إلّا ما کان سفرا حراما، و لذلک یستدلّ بعبارة (غیر باغ و لا عاد) للحکمین معا، حکم صلاة المسافر، و حکم ضرورة تناول اللحوم المحرمة[۴۸۸] و فی الختام تقول الآیة: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ فإن اللّه الذی حرّم تلک الأطعمة أباح تناولها فی موارد الضرورة برحمته الخاصة.

بحوث

۱- فلسفة تحریم اللحوم المحرمة:

الأغذیـة المحرمة التی ذکرتها الآیة الکریمة أعلاه لها- کسائر المحرمات الإلهیـة- فلسـفتها الخاصة. و قد شـرّعت انطلاقا من خصائص الإنسان جسمیا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۸۸

و روحیا. و الروایات الإسلامیة ذکرت علل بعض هذه الأحکام، و العلوم الحدیثة أماطت اللثام أیضا عن بعض هذه العلل.

علی سبیل المثال،

روی عن الإمام الصادق علیه السّـلام قال: «... أمّا المیتة فإنّه لم ینل منها أحد إلّا ضـعف بدنه، و ذهبت قوّته، و انقطع نسله، و لا یموت آکل المیتة إلّا فجأة»

[۴۸۹].

و لعل هـذه المفاسـد تعـود إلی أن جهـاز الهضم لاـ یسـتطیع أن یصـنع من المیتـة دمـا سالمـا حیـا، إضافـة إلی أن المیتـة مرتـع أنواع المیکروبات، و الإسلام اعتبر المیتة نجسة، کی یبتعد عنها المسلم فضلا عن عدم تناولها.

و المحرّم الثانی فی هذه الآیة «الدم»، و شرب الدم له مفاسد أخلاقیة و جسمیة، فهو وسط مستعد تماما لتکاثر أنواع المیکروبات.

المیکروبات التی تـدخل البـدن تتجه أول ما تتجه إلی الـدم، و تتخـذه مرکزا لنشاطهم، و لـذلک اتخذت الکریات البیضاء مواقعها فی الدم للوقوف بوجه توغل هذه الأحیاء المجهریة فی الدم المرتبط بکل أجزاء الجسم.

و حین یتوقف الدم عن الحرکة و تنعدم الحیاة فیه، یتوقف نشاط الکریات البیض أیضا، و یصـبح الدم علی بذلک وسطا صالحا لتکاثر المیکروبـات دون أن تواجه عقبـة فی التکـاثر. و لـذلک نسـتطیع القول إن الـدم- حین یتوقف عن الحرکـة- یکون أکثر أجزاء جسم الإنسان و الحیوان تلوثا.

و من جهـة اخری ثبت الیوم فی علم الأغذیـة، أن الأغذیـة لهـا تـأثیر علی الأخلاـق و المعنویـات عن طریق التـأثیر فی الغـدد و إیجـاد الهورمونات. و منذ القدیم ثبت تأثیر شرب الدم علی تشدید قسوة الإنسان، و أصبح ذلک مضرب الأمثال. لذلک نری الروایة

عن الإمام جعفر بن محمّد علیه السّلام تقول: «أمّا الدم فإنه یورث القسوة فی القلب و قلّة الرأفة و الرحمة حتی لا یؤمن أن یقتل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۸۹

ولده و والدیه و لا یؤمن علی حمیمه و لا یؤمن علی من یصحبه»[۴۹۰].

ثالث: المحرمات المذکورة فی الآیة «لحم الخنزیر».

الخنزیر- حتی عند الأوروبیین المولعین بأکل لحمه- رمز التحلل الجنسی.

و هو حیوان قذر للغایة، و تأثیر تناول لحمه علی التحلل الجنسی لدی الإنسان مشهود.

حرمـة تنـاول لحمه صـرحت بها شـریعة موسـی علیه السّـلام أیضا، و فی الأناجیل شـبّه المـذنبون بالخنزیر، کما أن هـذا الحیوان مظهر الشیطان فی القصص.

و مـن العجیب أن أناسـا یرون بـأعینهم قـذارة هـذا الحیـوان حـتی إنه یأکـل عـذرته، و یعلمـون احتـواء لحمه علی نـوعین خطرین من الدیدان، و مع ذلک یصرّون علی أکله.

دودة «التریشـین» التی تعیش فی لحم هـذا الحیوان تتکاثر بسـرعة مدهشـة، و تبیض فی الشـهر الواحد خمسة عشـر ألف مرة، و تسبب

للإنسان أمراضا متنوعة كفقر الدم، و الغثيان، و حمّى خاصة، و الإسهال، و آلام المفاصل، و توتر الأعصاب، و الحكّة، و تجمع الشحوم داخل البدن، و الإحساس بالتعب، و صعوبة مضغ الطعام و بلعه، و التنفس و ....

و قد يوجد فى كيلو واحد من لحم الخنزير (۴۰۰) مليون دودة من هذه الديدان!! و لذلك أقدمت بعض البلدان الأوروبية فى السنوات الماضية على منع تناول لحم هذا الحيوان.

و هكذا تتجلى عظمة الأحكام الإلهية بمرور الأيّام أكثر فأكثر.

يقول البعض أن العلم تطور بحيث استطاع أن يقضى على ديدان هذا الحيوان، و لكن على فرض اننا استطعنا بواسطة العقاقير، أو بالاستفادة من الحرارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۰

الشديدة فى طبخه، إلّا أن أضراره الاخرى ستبقى. و قد ذكرنا أن للأطعمة تأثيرا على أخلاق الإنسان عن طريق تأثيرها على الغدد و الهورمونات و ذلك الأصل علمى مسلّم، و هو أن لحم كل حيوان يحوى صفات ذلك الحيوان أيضا. من هنا تبقى للحم الخنزير خطورته فى التأثير على التحلل الجنسى للآكلين، و هى صفة بارزة فى هذا الحيوان.

و لعل تناول لحم هذا الحيوان أحد عوامل التحلّل الجنسى فى أوربا.

رابع، المحرمات فى الآية ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ و هى الحيوانات التى تذبح على غير اسم اللّه، كالتى كانت تقدم للأصنام فى الجاهلية.

و تحريم لحوم هذه الحيوانات لا يلزم بالضرورة أن تكون لها إضرار صحية حتى؟ يقال: إن ذكر اسم اللّه أو غير اللّه حين الذبح لا ربط له بالأمور الصّحيحة.

فليس من الحتم أن تكون للحم آثار صحية حتى تكون محرمة. لان المحرمات فى الإسلام لها أبعاد مختلفة، فتارة بسبب الصحة و حفظ البدن و اخرى يكون للتحريم جانب معنوى و أخلاقى و تربوى، فهذه اللحوم تبعد الإنسان عن اللّه، و لها تأثير نفسى و تربوى سلبى على الآكل، لأنها من سنن الشرك و الوثنية و تعيد إلى الذهن تلك التقاليد الخرافية.

۲- التكرار و التأكيد

تحريم المواد الأربع المذكورة تكرر فى أربع سور من القرآن، سورتين مكيتين (الأنعام، ۱۴۵ و النحل، ۱۱۵) و سورتين مدنيتين (البقرة، ۱۷۳ و المائدة، ۳).

يبدو أن تحريم هذه اللحوم أعلن أولا فى أوائل البعثة، ثم أعلن ثانية فى أواخر إقامة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى مكة، و تكرر الإعلان ثالثة فى أوائل الهجرة إلى المدينة، ثم أعيد التأكيد رابعة فى أواخر عمر الرّسول فى سورة المائدة و هى آخر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۱

سور القرآن.

كل هذا التأكيد يعود إلى أهمية الموضوع و إلى ما فى هذه المواد من أخطار جسمية و روحية، و إلى اتساع نطاق تلوث النّاس آنئذ بها.

۳- حقن الدم

واضح أن تحريم تناول الدم فى الآية لا يشمل موارد الاستفادة المعقولة من هذه المادة مثل حقن الدم لإنقاذ الجرحى و المرضى، كما

لا یتوفر لدینا دلیل علی حرمة بیع الدم و شرائه فی هذه الموارد، لأنها موارد استفادة عقلائیة مشروعة عامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۲

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۷۴ الی ۱۷۶]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ یَکْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْکِتابِ وَ یَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِیلًا أُولئِکَ ما یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لا یُکَلِّمُهُمُ اللَّهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ لا یُزَکِّیهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۱۷۴) أُولئِکَ الَّذِینَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدی وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَی النَّارِ (۱۷۵) ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِی الْکِتابِ لَفِی شِقاقٍ بَعِیدٍ (۱۷۶)

سبب النّزول

أجمع المفسرون علی نزول هذه الآیة فی أهل الکتاب، و قیل إنها نزلت خاصة فی علماء الیهود. فقد کانوا قبل ظهور الإسلام یبشرون بصفات النّبی المرتقب و بعلاماته. و بعد البعثة خاف هؤلاء الأحبار علی مصالحهم فکفّوا عن طریقتهم السابقة، و کتموا ما عندهم فی التوراة من صفات النّبی، فنزلت الآیات تؤنّبهم.

التّفسیر

إدانة کتمان الحقّ مرّة اخری

هذه الآیات تأکید علی ما مرّ فی الآیة ۱۵۹ بشأن کتمان الحقّ. و هی- و إن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۳

کانت تخاطب أحبار الیهود- لها مفهوم عام، لا یقتصر- کما ذکرنا مرارا- علی سبب نزولها. فسبب النّزول- فی الواقع- وسیلة لبیان الأحکام الکلیة العامة، و مصداق من مصادیق الحکم الکلی للآیة.

فکل الذین یکتمون أحکام اللّه و ما یحتاجه النّاس من حقائق طلبا للرّئاسة أو الثروة، قد ارتکبوا خیانة کبری، و علیهم أن یعلموا أنهم باعوا حقیقة نفیسة بثمن بخس، و هی تجارة خاسرة.

الآیة الاولی تقول: إِنَّ الَّذِینَ یَکْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْکِتابِ وَ یَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِیلًا أُولئِکَ ما یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ.

هذه الهدایا و العطایا التی ینالونها من هذا الطریق نیران محرقة تدخل بطونهم. هذا التعبیر یوضح ضمنیا مسألة تجسیم الأعمال فی الآخرة و تدل علی أن الأموال المکتسبة عن هذا الطریق المحرّم، هی فی الواقع نیران تدخل فی بطونهم و ستتجسّم بشکل واقعی فی الآخرة.

ثم تتعرض الآیة إلی عقاب معنوی سینال هؤلاء أشدّ من العقاب المادی، و تقول: وَ لا یُکَلِّمُهُمُ اللَّهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ لا یُزَکِّیهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ

و فی موضع آخر ذکر القرآن مثل هذا اللون من العقاب لأولئک الذین ینکثون عهد اللّه من أجل مصالح تافهة، فقال: إِنَّ الَّذِینَ یَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَیْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِیلًا أُولئِکَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ وَ لا یُکَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا یَنْظُرُ إِلَیْهِمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ لا یُزَکِّیهِمْ وَ لَهُمْ

عَذابٌ أَلِيمٌ ۴۹۱].

یستفاد من هـذه الآیـهٔ و الآیهٔ التالیهٔ أن واحدهٔ من أعظم المواهب الإلهیهٔ فی الآخرهٔ أن یکلم اللّه المؤمنین تلطفا بهم. أی إن المؤمنین سینالون فی الآخرهٔ نفس المنزلهٔ التی نالها أنبیاء اللّه فی الدنیا، و سیلتذون بما التذ به الأنبیاء من تکلیم إلهی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۹۴

المنزلـهٔ التی نالها أنبیاء اللّه فی الـدنیا، و سـیلتذون بما التـذ به الأنبیاء من تکلیم إلهی ... و أیـهٔ لـذهٔ أعظم من هـذه اللـذهٔ؟! أضف إلی ذلک إن اللّه ینظر إلیهم بعین لطفه، و یطهرهم بماء عفوه و رحمته، و أیـهٔ نعمـهٔ أعظم من هـذه النعمـهٔ؟! بدیهی أن تکلیم اللّه عباده لا یعنی أن اللّه له جسم و لسان، بل إنه بقـدرته الواسـعهٔ یخلق فی الفضاء أمواجا صوتیـهٔ خاصـهٔ قابلـهٔ للسـمع و الإدراک، (کما کلّم اللّه موسی عند جبل الطور)، أو أنه یتکلم مع خاصهٔ عباده بلسان القلب عن طریق الإلهام.

علی أیـهٔ حال، هذا اللطف الإلهی الکبیر، و هذه اللذهٔ المعنویهٔ المنقطعهٔ النظیر، للعباد المخلصـین الذین ینطقون بالحق و یعرّفون النّاس بالحقائق، و یلتزمون بعهودهم و مواثیقهم، و لا یضحون برسالتهم من أجل مصالحهم المادیهٔ.

و قد یسأل سائل عن تکلیم اللّه المجرمین یوم القیامهٔ، استنادا الی ما ورد فی الآیات کقوله تعالی: قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ ۴۹۲]. و هذا جواب من اللّه لأولئک الذین یطلبون الخروج من النار. و مثل هذا الحوار نجده فی الآیتین ۳۰ و ۳۱ من سورهٔ الجاثیهٔ.

و الجواب: أن المقصود من التکلیم فی آیات بحثنا، هو تکلیم عن لطف و حبّ و احترام، لا عن تحقیر و طرد و عقوبهٔ فذلک من أشدّ الجزاء.

من الواضـح أن عبـارهٔ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا لا تعنی السـماح بأن یشتروا به ثمنا باهظا، فالمقصود أن الثمن المادّی مهما زاد فهو تافه لا قیمهٔ له أمام کتمان الحقّ، حتی و لو کان الثمن الدنیا و ما فیها.

الآیهٔ التالیهٔ تحدد وضع هذه المجموعهٔ و تبین نتیجهٔ صفقتها الخاسرهٔ و تقول:

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۹۵

فهؤلاء خاسـرون من ناحیتین: من ناحیهٔ ترکهم الهدایهٔ و اختیار الضـلالهٔ، و من ناحیهٔ حرمانهم من رحمهٔ اللّه و اسـتحقاقهم بدل ذلک العقاب الإلهی، و هذه مبادلهٔ لا یقدم علیها إنسان عاقل.

لـذلک تتحـدث الآیـهٔ عن هؤلاـء بلغـهٔ التعجب و تقول: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ؟! آخر آیـهٔ فی بحثنا تقول إن ذلک التهدیـد و الوعید بالعذاب لکاتمی الحق، یعود إلی أن اللّه أنزل القرآن بالدلائل الواضحهٔ، حتی لم تبق شبههٔ لأحد: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ مع ذلک فإن زمرهٔ محرفهٔ تعمد إلی کتمان الحقائق صیانهٔ لمصالحها، و تثیر الاختلاف فی الکتاب السماوی لتتصید فی الماء العکر.

مثل هؤلاء الذین یثیرون الاختلاف فی الکتاب السماوی بعیدون عن الحقیقهٔ: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ.

کلمهٔ «شـقاق» تعنی فی الأصل الشق و الانفصال، و لعل المراد به أن الإیمان و التقوی و نشر الحقائق رمز وحدهٔ المجتمع الإنسانی، أما الخیانهٔ و کتمان الحقائق فعامل التفرقهٔ و التبعثر و الإنشقاق لا الإنشقاق السطحی الذی یمکن التغافل عنه بل البعید و العمیق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۹۶

الآیهٔ [سورهٔ البقرهٔ (۲): آیهٔ ۱۷۷]

اشارهٔ

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمالَ

عَلی حُبِّهِ ذَوِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ السَّائِلِینَ وَ فِی الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاهَ وَ آتَی الزَّکاهَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِینَ فِی الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِینَ الْبَأْسِ أُولئِکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۱۷۷)

النّزول

تغییر القبلهٔ أثار بین النّاس ضجهٔ، و خاصهٔ بین الیهود و النصاری الذین کانوا یرون فی اتّباع المسلمین لقبلتهم سند افتخار لهم. القرآن الکریم رد فی الآیهٔ ۱۴۲ من هذه السّورهٔ علی اعتراضاتهم فی قوله تعالی: سَیَقُولُ السُّفَهاءُ ... و فی هذه الآیهٔ یطرح المعیار الصحیح لتقییم المجموعهٔ البشریهٔ.

التّفسیر

أساس البرّ

ذکرنا فی تفسیر آیات تغییر القبلهٔ، أن النصاری کانوا یتجهون فی عباداتهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۹۷

نحو الشرق و الیهود نحو الغرب، و قرر اللّه الکعبهٔ قبلهٔ للمسلمین، و کانت فی اتجاه الجنوب وسطا بین الاتجاهین.

و مرّ بنا الحدیث عن الضّجهٔ التی أثیرت بین اعداء الإسلام و المسلمین الجدد بشأن تغییر القبلهٔ.

الآیهٔ أعلاه تخاطب هؤلاء و تقول: لَیْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَکُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ

«البر» فی الأصل التوسّع، ثم أطلق علی أنواع الإحسان، لأن الإنسان بالإحسان یخرج من إطار ذاته لیتسع و یصل عطاؤه إلی الآخرین.

و «البرّ» بفتح الباء، فاعل البرّ، و هی فی الأصل الصحراء و المکان الفسیح، و أطلقت علی المحسن بنفس اللحاظ السابق.

ثمّ یبین القرآن أهم أصول البرّ و الإحسان و هی ستهٔ، فیقول: وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِکَهِ وَ الْکِتابِ وَ النَّبِیِّینَ

هذا هو الأساس الأوّل: الإیمان بالمبدأ، و المعاد، و الملائکهٔ المأمورین من قبل اللّه، و المنهج الإلهی، و النبیّین الدعاهٔ إلی هذا المنهج.

و الإیمان بهذه الأمور یضیء وجود الإنسان، و یخلق فیه الدافع القوی للحرکهٔ علی طریق البناء و الأعمال الصالحهٔ.

جدیر بالذکر أن الآیهٔ تقول: وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنْ ... و لم تقل و لکن البرّ بفتح الباء، أو البار بصیغهٔ اسم الفاعل. أی أن الآیهٔ استعملت المصدر بدل الوصف، و هذا یفید بیان أعلی درجات التأکید فی اللغهٔ العربیهٔ. فحین یقول أحد: علی علیه السّلام هو العدل فی عالم الإنسانیهٔ. فهو یقصد أنه عادل للغایهٔ و أن العدالهٔ قد ملأت وجوده بحیث أن من یراه فکأنما لا یری سوی العدالهٔ متجسدهٔ. و حین یقول: بنی أمیهٔ ذلّ الإسلام، فیعنی أن کل وجودهم ذلّ للإسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۹۸

ثم تذکر الآیهٔ الإنفاق بعد الإیمان، و تقول: وَ آتَی الْمالَ عَلی حُبِّهِ ذَوِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ السَّائِلِینَ وَ فِی الرِّقابِ

إنفاق المال لیس بالعمل الیسیر علی الجمیع، خاصهٔ إذا بلغ الإنفاق درجهٔ الإیثار، لأن حبّ المال موجود بدرجات متفاوتهٔ فی کل القلوب. و عبارهٔ عَلی حُبِّهِ إشارهٔ إلی هذه الحقیقهٔ. هؤلاء یندفعون للإنفاق رغم هذا الحبّ للمال من أجل رضا اللّه سبحانه.

الآیهٔ عددت ستهٔ أصناف من المحتاجین إلی المال:

ذکرت بالدرجهٔ الاولی ذوی القربی، ثم الیتامی و المساکین، ثم أولئک الذین اعترتهم الحاجهٔ مؤقتا کابن السبیل و هو المسافر

المحتاج، ثم تـذكر الآيـة بعـد ذلـك السـائلين إشـارة إلى أنّ المحتاجين ليسوا جميعا أهل سؤال. فقـد يكونون متعففين لا تبـدو على سيمائهم الحاجة. لكنهم فى الواقع محتاجون، و عن هؤلاء قال القرآن فى موضع آخر: يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ۴۹۳].

ثم تشير الايـة إلى الرقيـق الـذين يتعطشون إلى الحريـة و الاسـتقلال بـالرغم من عـدم احتيـاجهم المـادى و تـأمين نفقتهم على عهـدة مالكيهم.

و الأصـل الثـالث من أصول البرّ: إقامـة الصـلاة: وَ أَقـامَ الصَّلاةَ. و الصـلاة إن أدّاها الفرد بشـروطها و حـدودها، و بإخلاص و خضوع، تصده عن كل ذنب و تدفعه نحو كل سعادة و خير.

و الأصل الرابع: أداء الزكاة و الحقوق المالية الواجبة: وَ آتَى الزَّكاةَ.

فالآيـة سبق أن ذكرت الإنفـاق المسـتحب، و هنـا تـذكر الإنفـاق الواجب. بعض النّاس يكثر من المسـتحبات فى الإنفاق و يتساهل فى الواجب، و بعضهم يلتزم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۹۹

بالواجب فقط و لا ينفق درهما فى إيثار. و المحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون فى المجالين معا.

يلفت النظر أن الآيـة ذكرت عبارة عَلى حُبِّهِ بعد الإنفاق المسـتحب. و لم تذكر ذلك مع الزكاة الواجبة. و لعل ذلك يعود إلى أن أداء الحقوق الواجبة وظيفة إلهية و اجتماعية، و الفقراء- فى منطق الإسـلام- شـركاء فى أموال الأغنياء، و دفع المال للشريك لا يحتاج إلى العبارة المذكورة.

الخامس من الأصول: الوفاء بالعهـد: وَ الْمُوفُونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذا عاهَـدُوا، فالثقة المتبادلة رأس مال الحياة الاجتماعية. و ترك الوفاء بالعهد من الذنوب التى تزلزل الثقة و توهن عرى العلاقات الاجتماعية، من هنا وجب على المسـلم أن يلتزم بثلاثة أمور تجاه المسلم و الكافر، و إزاء البرّ و الفاجر، و هى: الوفاء بالعهد، و أداء الأمانة، و احترام الوالدين ۴۹۴].

الأساس السادس و الأخير من أسس البرّ فى نظر الإسلام: الصبر وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ (حال الفقر و المسكنة) وَ الضَّرَّاءِ (حال المرض) وَ حِينَ الْبَأْسِ (حال القتال مع الأعداء)[۴۹۵].

ثم تؤكد الآية على أهمية الأسس الستة و على عظمة من يتجلّى بها، فتقول:

أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

صـدقهم يتجلّى فى انطباق أعمـالهم و سـلوكهم مـع إيمـانهم و معتقـداتهم، و تتجلى تقـواهم فى الـتزامهم بواجبهم تجـاه اللّه و تجـاه المحتاجين و المحرومين و كل المجتمع الإنسانى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰۰

و الملفت للنظر أن الصـفات الست المـذكورة تشـمل الأـصول الاعتقاديـة و الأخلاقيـة و المناهـج العملية. فتضـمنت الآيـة كل أسـس العقيـدة، و كـذلك أشـارت إلى الإنفـاق و الصـلاة و الزكـاة بين المناهـج العمليـة، و هى أسـس ارتباط المخلوق بالخالق، و المخلوق بـالمخلوق. و فى الحقـل الأخلاـقى ركزت الآيـة على الوفـاء بالعهـد، و على الصبر و الاسـتقامة و الثبـات، و هى أسـاس كل الصـفات الأخلاقية السامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰۱

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۸ الى ۱۷۹]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۷۸) وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۹)

سبب النّزول

شاع بين القبائل العربيـة انتقام قبيلـة من قبيلـة اخرى، و لم يكن لهـذا الانتقام حـدود، فقـد يقتل رجل فتهـدد قبيلته قتل كل رجال قبيلة القاتل، فنزلت الآية و شرعت حكم القصاص.

و هـذا الحكم الإسـلامى جاء ليقرر الموقـف من عرفين قـائمين عن العرب، عرف يرى حتميـة القصـاص، و عرف يرى حتميـة الديـة. فجاءت الآية لتقرر القصاص عند عدم موافقة أولياء المقتول على أخذ الدية، و إن وافقوا فالدية.

التّفسير

فى القصاص حياة

الآيات السابقة طرحت المنهج الإسلامى فى «البرّ»، و هنا يقدّم القرآن

الكريم- و هكذا فى الآيات التالية- مجموعة من الأحكام الإسلامية، إكمالا لبيان المنهج الإسلامى فى الحياة.

تبـدأ هـذه الأحكام من مسألـة حفظ حرمـة الـدماء، و هى مسألـة هامة فى الحياة الاجتماعية، فتنفى العادات و التقاليد الجاهلية، و تقول للمؤمنين: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى

عبـارة كُتِبَ عَلَيْكُمُ تـبيّن أهميـة الموضوع، و توحى بالتأكيـد عليه، و ذكرت فى آيـات اخرى بشـأن الصوم و الوصـيّة، و لاـ يكتب من المسائل عادة إلّا ما كان قاطعا و جادّا.

و «القصـاص» من «قصّ»، يقـال قصّ أثره: أى تلاـه شـيئا بعـد شـىء. و منه القصاص لأنه يتلو أصل الجنايـة و يتبعه، و قيل هو أن يفعل بالثانى مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثلة، و منه أخذ القصص كأنه يتبع آثارهم شيئا بعد شىء[۴۹۶].

الآيـة كما ذكرنا تسـتهدف بيان الموقف الصـحيح من المجرم، و لفظ القصاص يـدلّ على إنزال عقوبـة بالمجرم مماثلة لما ارتكبه هو، لكن الآية لا تكتفى بذلك، بل بينت التفاصيل فقالت: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى

و سنوضح إن شاء اللّه مسألة قصاص الأنثى بالأنثى، و نبيّن أنّ الرجل قاتل المرأة يمكن إنزال عقوبة القتل بحقّه ضمن شروط.

ثم تبين الآيـة أنّ القصـاص، حق لأوليـاء المقتول، و ليس حكما إلزاميا، فإن شاؤوا أن يعفوا و يأخـذوا الديـة، و إن شاؤوا ترك الـدية فلهم ذلك، و تقول: فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فبعد تبدل حكم القصاص عند عفو أولياء المقتول إلى دية فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ أى فعل العافى إتباع بالمعروف، و هو أن لا يشدّد فى طلب الدّية و ينظر من عليه الدية وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ أى على المعفوّ عنه أن يبادر إلى

دفع الدية عند الإمكان، و أن لا يماطل.

التوصيـة إلى من له الديـة أن لا يشددّ فى طلبه، و أن يسـتوفى حقّه بشـكل معقول ... و على من عليه الدية أن يؤديها بإحسان، و أن لا يسوّف و يماطل.

ثم تؤكـد الآيـة على ضـرورة الالتزام بحدود ما أقرّه اللّه، و عدم تجاوز هذه الحدود: ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ

و هـذا الأمر بالقصاص و بالعفو يشـكل تركيبا انسانيا منطقيا. فهو من جهة يدين التقاليد السائدة فی الجاهلية الأولی و الجاهليات التالية إلی يومنا هذا القاضية بالانتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

و من جهة اخری، يفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ علی احترام الدم و ردع القاتلين.

و من جهـة ثالثـة، لا يحقّ للطرفين بعـد العفو و أخـذ الديـة التّعدّی، خلافا للجاهليين الذين كانوا يقتلون القاتل أحيانا حتی بعد العفو و أخذ الدية.

الآيـة التالية قصيـرة العبارة وافرة المعنی، تجيب علی كثير من الأسـئلة المطروحة فی حقل القصاص، و يقول: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا؟ أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

هـذه الآيـة بكلماتها العشـر، تضع الإطار العام- ببلاغة و فصاحة متناهيتين- للقصاص فی الإسـلام، و تبين أن القصاص ليس انتقاما، بل السبيل إلی ضمان حياة النّاس.

إنه يضـمن حيـاة المجتمع، إذ لو انعـدم حكم القصـاص، و تشـجّع القتلـة القسـاة علی تعريض أرواح النّاس للخطر- كما هو الحال فی البلدان التی ألغت حكم القصاص- لارتفعت إحصائيات القتل و الجريمة بسرعة.

و هو من جهة اخری، يصون حياة القاتل، بعد أن يصدّه إلی حدّ كبير عن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰۴

ارتكاب جريمته.

كما أنه يصون المجتمع بجعله قانون المماثلـة من الانتقام و الإسـراف فی القتل علی طريقة التقاليد الجاهلية التی تبيح قتل الكثير مقابل فرد واحد. و هو بذلك يصون حياة المجتمع.

و مع الأخذ بنظر الاعتبار أن القصاص مشروط بعدم العفو عن القاتل فهذا الشرط نافذة أمل للحياة أيضا بالنسبة للقاتل.

و عبارة لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ تحذير من كل عدوان لتكميل هذا الحكم الإسلامی العادل الحكيم.

بحوث

۱- القصاص و العفو تركيب عادل

النظرة الإسـلامية نظرة شمولية فی كل المجالات، قائمة علی احتساب جميع جوانب الأمر الذی تعالجه. مسألة صيانة دم الأبرياء عالجها الإسـلام بشـكل دقيق بعيـد عن كـل إفراط أو تفريط، لا كما عالجتها الديانـة اليهوديـة المحرّفـة التی اعتمـدت القصاص، و لا الـديانة المسيحية المحرّفة التی ركزت علی العفو ... لأن فی الاولی خشونة و انتقاما، و فی الثانية تشجيعا علی الإجرام.

و لو افترضـنا أنّ القاتل و المقتول أخوان أو قريبان أو صـديقان، فإن الإجبار علی القصاص يدخل لوعة اخری فی قلب أولياء المقتول، خاصّة إذا كان هؤلاء من ذوی العواطف الإنسانية المرهفة. و تحديد الحكم بالعفو يؤدی إلی تجرّؤ المجرمين و تشجيعهم.

لذلك ذكرت الآية حكم القصاص باعتباره أساسا للحكم، ثم ذكرت إلی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰۵

جانبه حكم العفو.

بعبارة أوضح، إن لأولياء المقتول أن ينتخبوا أحد ثلاثة أحكام:

۱- القصاص.

۲- العفو دون أخذ الدية.

۳- العفو مع أخذ الدية (و فی هذه الحالة تشترط موافقة القاتل أيضا).

۲- هل يتعارض القصاص مع العقل و العواطف الإنسانية؟

اشارة

ثمّة فئة يحلو لها أن توجه إلى الإسلام- دون تفكير- اعتراضات و كثير شبهات، خاصة بالنسبة لمسألة القصاص. يقول:

۱- الجريمة لا تزيد على قتل إنسان واحد، و القصاص يؤدّى إلى تكرار هذا العمل الشنيع.

۲- القصاص ينمّ عن روح الانتقام و التشفّى و القسوة، و يجب إزالة هذه الروح عن طريق التربية، بينما يعمّق القصاص هذه الروح.

۳- القتل لا يصدر عن إنسان سالم، لا بدّ أن يكون القاتل مصابا بمرض نفسى، و يجب علاجه، و القصاص ليس بعلاج.

۴- قوانين النظام الاجتماعى يجب أن تتطور مع تطور المجتمع. و لا يمكن لقانون سنّ قبل أربعة عشر قرنا أن يطبق اليوم.

۵- من الأفضل الاستفادة من القاتل بتشغيله فی معسكرات العمل الإجبارى، و بذلك نستفيد من طاقاته و نصون المجتمع من شروره.

هذا ملخص ما يوجه للقصاص من اعتراضات.

الجواب

لو أمعنا النظر فی آيات القصاص، لرأينا فيها الجواب على كل هذه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰۶

الاعتراضات: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ

فالحياة الاجتماعية لا يمكن أن تطوى مسيرتها الحياتية التكاملية، دون اقتلاع العوامل المضرّة الهدامة فيها. و لما كان القصاص فی هذه المواضع يضمن استمرار الحياة و البقاء، فإن الشعور بضرورة القصاص أودع على شكل غريزة فی وجود الإنسان.

أنظمة الطب و الزراعة و الرعى قائمة على أساس هذا الأصل العقلى، و هو إزالة الموجودات المضرة الخطرة. فنرى الطب يجيز قطع العضو الفاسد إذا شكل خطورة على بقية أعضاء الجسد، و تقتلع النباتات و الأغصان المضرة من أجل استمرار نمو النباتات المفيدة بشكل صحيح.

أولئك الذين يرون فی الاقتصاص من القاتل قتلا لشخص آخر، ينظرون إلى المسألة من منظار فردى. و لو أخذوا بنظر الإعتبار مصلحة المجتمع، و علموا ما فی القصاص من دور فی حفظ سائر أفراد المجتمع و تربيتهم، لأعادوا النظر فی أقوالهم.

إزالة مثل هؤلاء الأفراد الخطرين المضرين من المجتمع، كقطع العضو الفاسد من جسد الإنسان، و كقطع الغصن المضر من الشجرة. و لا أحد يعترض على قطع ذلك العضو و هذا الغصن. هذا بشأن الاعتراض الأول.

و بالنسبة إلى الاعتراض الثانى، لا بدّ من الالتفات إلى أن تشريع القصاص لا ارتباط له بمسألة الانتقام. لأن الهدف من الانتقام إطفاء نار الغضب المتأججة لمسألة شخصية، بينما القصاص يستهدف الحيلولة دون استمرار الظلم فی المجتمع، و حماية سائر الأبرياء.

و بشأن الاعتراض الثالث القائل إن القاتل مريض نفسيا، و لا تصدر هذه الجريمة من إنسان طبيعى، لا بدّ أن نقول: هذا الكلام صحيح فی بعض المواضع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰۷

و الإسـلام لم يشـرع حكم القصاص للقاتل المجنون و أمثاله، و لكن لا يمكن اعتبار المرض عـذرا لكل قاتل، إذ لا يخفى ما يجرّ إليه ذلك من فساد، و من تشجيع القتلة على ارتكاب جرائمهم.

و لو صـح هذا الاسـتدلال بالنسـبة للقاتل، لصح أيضا بشأن جميع المعتدين على حقوق الآخرين. لأن الإنسان العاقل المعتدل لا يعتدى إطلاقـا على الآـخرين. و بـذلك يجب حـذف كـل القوانين الجزائيـة، و يجب إرسال المعتـدين و المجرمين إلى مستشـفيات الأمراض النّفسية بدل السجون.

أمّـا ادعـاء عـدم إمكان قبول قانون القصاص اليوم بسـبب تطور المجتمع، و بسـبب قـدم هـذا القانون، فمردود أمام إحصائيات الجرائم الفظيعـة الى ترتكـب فى عصـرنا الراهـن، و أمـام التجـاوزات الوحشـية الـتى تنتشـر فى بقـاع مختلفـة من عالمنـا بسـبب الحروب و غير الحروب.

و لو أتيـح للبشـرية أن تقيم مجتمعا إنسانيا متطورا تطورا حقيقيا، فإن مثل هـذا المجتمع يسـتطيع أن يلجأ إلى العفو بدل القصاص، فقد أقرّ الإسلام ذلك، و من المؤكد أن المجتمع المتطور فى آفاقه الإنسانية سيفضّل عفو القاتل. أمّا فى مجتمعاتنا المعاصرة حيث ترتكب فيها أفظع الجرائم تحت عناوين مختلفة، فإن إلغاء قانون القصاص لا يزيد فى جرائم المجتمع إلّا اتساعا و ضراوة.

و حول حفظ القتلة فى السـجون، فإن هذه العملية لا تحقق هدف الإسـلام من القصاص. فالقصاص- كما ذكرنا- يستهدف حفظ حياة المجتمع، و الحيلولة دون تكرار القتل و الجريمة. السـجون و أمثالها لا تسـتطيع أن تحقق هذا الهدف (خاصة السجون الحالية التى هى أفضـل من أكثر بيوت المجرمين). و لاـ أدل على ذلـك من ارتفـاع إحصائيات جرائم القتل خلال فترة قصـيرة، فى البلـدان التى ألغت حكم الإعدام. و لو كانت أحكام السجن عرضة للتقلّص بسبب أحكام العفو- كما هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰۸

سائد اليوم- فإن المجرمين يعمدون إلى ارتكاب جرائمهم دون تخوّف أو تردّد.

۳- هل انتقص قانون القصاص المرأة؟

قـد يظن البعض أن قانون القصاص الإسـلامى قد انتقص المرأة حين قرّر أن «الرجل» لا يقتل «بالمرأة»، أى إن الرجل- قاتل المرأة- لا يقتص منه.

و ليس الأمر كـذلك، مفهوم الآيـة لا يعنى عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل- كما هو مبين فى كتب الفقه- يجوز لأولياء المقتولة أن يطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن يدفعوا نصف ديته.

بعبارة اخرى: المقصود من عدم قصاص الرجل بالمرأة، هو القصاص دون شرط، أمّا إذا دفعت نصف ديته فيجوز قتله.

واضح أن دفع نصف دية الرجل القاتل، لا يعنى انتقاص الإسلام للمرأة، بل يعنى جبران الضرر المالى الذى يصيب عائلة الرجل القاتل بعد قتله، (تأمل بدقّة).

و لمزيـد من التوضيـح نقول: الرجـال يتحملون غالبا مسـئوليات إعالـة الأسـرة، و يؤمنون نفقاتها الاقتصاديـة، و لا يخفى الفرق بين أثر غياب الرجل و غياب المرأة على العائلة اقتصاديا، و لو لم يراع هذا الفرق لأصـيبت عائلة المقتص منه بأضـرار مالية، و لوقعت فى حرج اقتصـادى، و دفع نصف الديـة يحول دون تزلزل تلـك العائلـة اقتصاديا. و لا يسـمح الإسـلام أن يتعرض أفراد أسـرة لخطر اقتصادى و تغمط حقوقهم تحت شعار «المساواة».

قد تكون امرأة فى أسرتها عضوة فعالة اقتصاديا أكثر من الرجل، و لكن الأحكام و القوانين لا تقوم على أساس الحالات الاستثنائية، بل

علی أساس الوضع العام، و فی هذه الحالة یجب أن نقارن کل الرجال بکل النساء. (تأمل بدقّة).

۴- یلفت النظر أیضا فی الآیة عبارة مِنْ أَخِیهِ فالقرآن یرکز علی مفهوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰۹

الأخوة بین المسلمین، حتی یطلق هذا التعبیر علی القاتل. و بهذا التعبیر یضرب القرآن علی وتر العاطفة الأخویة بین المسلمین، کی یشجع أولیاء المقتول علی العفو!! هذا طبعا بالنسبة للقاتل الذی انزلق فی هاویة الجریمة فی ظروف عصبیة خاصة، و ندم بذلک علی فعلته. أمّا المجرمون الذی یفخرون بجرائمهم، و لا یشعرون بندم علی ما ارتکبوه فلا یستحقون اسم الأخ و لا العفو.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۱۰

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۸۰ الی ۱۸۲]

اشارة

کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ لِلْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَی الْمُتَّقِینَ (۱۸۰) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَی الَّذِینَ یُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۱۸۱) فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَیْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَیْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۸۲)

التّفسیر

الوصیة بالمعروف

الآیات السابقة ذکرت تشریع القصاص، و هذه الآیات تذکر تشریع الوصیة، باعتباره جزءا من النظام المالی، و تذکر بأسلوب الحکم الإلزامی فتقول: کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ لِلْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ بِالْمَعْرُوفِ

ثم تضیف الآیة أن هذه الوصیة کتبت حَقًّا عَلَی الْمُتَّقِینَ

ذکرنا أن تعبیر کُتِبَ عَلَیْکُمْ یدل علی الوجوب، من هنا کان هذا التعبیر وقع بحث لدی المفسرین فی هذه الآیة، و لهم فیها أقوال مختلفة:

۱- جاء فی الآیة الکریمة بشأن کتابة الوصیة کونها حَقًّا عَلَی الْمُتَّقِینَ من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۱۱

هنا فإنها مستحبة استحبابا مؤکدا، و لو کانت واجبة لقالت الآیة، «حقّا علی المؤمنین».

۲- قیل أیضا: إن هذه الآیة نزلت قبل نزول أحکام الإرث، و کانت الوصیة آنئذ واجبة، کی لا یقع نزاع بین الورثة. ثم نسخ هذا الوجوب بعد نزول آیات الإرث، و أصبح حکما استحبابیا. و فی تفسیر «العیّاشی» حدیث یؤیّد هذا الاتجاه.

۳- یحتمل أیضا أن یکون حدیث الآیة عن موارد الضرورة و الحاجة، أی حین یکون الإنسان مدینا، أو فی ذمته حق، و الوصیة واجبة فی هذه الحالات.

یبدو أن التّفسیر الأول أقرب من بقیة التفاسیر.

یلفت النظر أن الآیة الکریمة عبرت عن المال بکلمة «خیر» فقالت: إِنْ تَرَکَ خَیْراً. و هذا یعنی أن الإسلام یعتبر الثروة المستحصلة عن طریق مشروع، و المستخدمة علی طریق تحقیق منافع المجتمع و مصالحه خیرا و برکة. و یرفض النظرات الخاطئة التی تری الثروة شرا

ذاتیا، و یردّ علی أولئک المتظاهرین بالزهد، القائلین إن الزهد مساو للفقر، مسببین بذلک رکود المجتمع الإسلامی اقتصادیا، و مؤدین بمواقفهم الانزوائیهٔ إلی فسح المجال لاستثمار الطامعین خیرات أمتهم.

هذا التعبیر یشیر ضمنیا إلی مشروعیهٔ الثروهٔ، لأن الأموال غیر المشروعهٔ لیست خیرا بل شرا وبالا.

و یستفاد من بعض الروایات أن تعبیر «خیرا» یراد به الأموال الموفورهٔ، لأن المال الیسیر لا یحتاج إلی وصیهٔ، و یستطیع الورثهٔ أن یقسّموه بینهم حسب قانون الإرث. بعبارهٔ اخری المال الیسیر لیس بشیء یستدعی أن یفصل الإنسان ثلثه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۲

عن طریق الوصیهٔ[۴۹۷].

و جملهٔ إِذا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تبیّن آخر فرصهٔ للوصیّهٔ، و هذه الفرصهٔ الأخیرهٔ إن فاتت أیضا فلا فرصهٔ بعدها ... أی لا مانع أن یکتب الإنسان وصیته قبل ذلک، بل یستفاد من الروایات أن هذا عمل مستحسن.

و لا قیمهٔ لتلک التصورات المتشائمهٔ من کتابهٔ الوصیهٔ، فالوصیهٔ إن لم تکن باعثا علی طول العمر، لا تبعث إطلاقا علی تقریب أجل الإنسان! بل هی دلیل علی بعد النظر و تحسّب الاحتمالات.

تقیید الوصیهٔ بِالْمَعْرُوفِ إشارهٔ إلی أن الوصیهٔ ینبغی أن تکون موافقهٔ للعقل من کل جههٔ، لأن «المعروف» هو المعروف بالحسن لدی العقل. یجب أن تکون الوصیهٔ متعقلهٔ فی مقدارها و فی نسبهٔ توزیعها، دون أن یکون فیها تمییز، و دون أن تؤدی إلی نزاع و انحراف عن أصول الحق و العدالهٔ.

حین تکون الوصیهٔ جامعهٔ للخصائص المذکورهٔ فهی محترمهٔ و مقدسهٔ، و کل تبدیل و تغییر فیها محظور و حرام. لذلک تقول الآیهٔ التالیهٔ: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَی الَّذِینَ یُبَدِّلُونَهُ

و لا یظنّن المحرفون المتلاعبون أن اللّه غافل عمّا یفعلون، کلّا إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ

و لعل هذه الآیهٔ تشیر إلی أن تلاعب «الوصیّ» (و هو المسؤول عن تنفیذ الوصیهٔ) لا یصادر أجر الموصی. فالموصی ینال أجره، و الإثم علی الوصی المحرّف فی کمیّهٔ الوصیهٔ أو کیفیتها أو فی أصلها.

و یحتمل أیضا أن الآیهٔ تبرئ ساحهٔ غیر المستحقین الذین قسم بینهم الإرث عند عدم التزام الوصیّ بمفاد الوصیهٔ. و تقول إن هؤلاء (الذین لا یعملون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۳

بتلاعب الوصی) لا إثم علیهم، بل الإثم علی الوصیّ المحرّف، و لا تناقض بین التّفسیرین، فالآیهٔ تجمع التّفسیرین معا.

بیّن القرآن فیما سبق الأحکام العامّهٔ للوصیهٔ، و أکد علی حرمهٔ کل تبدیل فیها، و لکن فی کل قانون استثناء، و الآیهٔ الثالثهٔ من آیات بحثنا هذا تبین هذا الاستثناء و تقول: فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَیْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَیْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

الاستثناء یرتبط بالوصیهٔ المدونهٔ بشکل غیر صحیح، و هنا یحق للوصی أن ینبّه الموصی علی خطئه إن کان حیّا، و أن یعدّل الوصیّهٔ إن کان میتا، و حدّد الفقهاء مواضع جواز التعدیل فیما یلی:

۱- إذا کانت الوصیّهٔ تتعلق بأکثر من ثلث مجموع الثروهٔ، فقد أکدت نصوص المعصومین علی جواز الوصیهٔ فی الثلث، و حظرت ما زاد علی ذلک ۴۹۸].

من هنا لو وصّی شخص بتوزیع کل ثروته علی غیر الورثهٔ الشرعیین، فلا تصح وصیته، و علی الوصی أن یقلل إلی حدّ الثلث.

۲- إذا کان فی الوصیهٔ ما یؤدی إلی الظلم و الإثم، کالوصیهٔ بإعانهٔ مراکز الفساد، أو الوصیهٔ بترک واجب من الواجبات.

۳- إذا أدت الوصیهٔ إلی حدوث نزاع و فساد و سفک دماء، و هنا یجب تعدیل الوصیهٔ بإشراف الحاکم الشرعی.

عبرت الآیهٔ «بالجنف» عن الانحرافات التی تصیب الموصی فی وصیته عن سهو، و «بالإثم» عن الانحرافات العمدیهٔ.

عبارة إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تشير إلى ما قد يقع فيه الوصى من خطأ غير عمدى عند ما يعدّل الوصية المنحرفة، و تقول: إن اللّه يعفو عن مثل هذا الخطأ.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۱۴

بحوث

۱- فلسفة الوصية

الإرث يوزع حسب القانون الإسلامى بنسب معينة على عدد محدود من الأقارب، و قد يكون بين الأقارب و الأصدقاء و المعارف من له حاجة ماسة إلى المال، و لكن لا سهم له فى قانون الإرث. و قد يكون بين الورثة من له حاجة أكبر إلى المال من بقية الورثة.

من هنا وضع الإسلام قانون الوصية إلى جانب قانون الإرث، و أجاز للمسلم أن يتصرّف فى ثلث أمواله (بعد الوفاة) بالشكل الذى يرشد لملء هذا الفراغ.

أضف إلى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته الخيرات التى ما أتيح له أن يعملها فى حياته، و منطق العقل يفرض أن لا يحرم هذا الشخص من مثل هذا العمل الخيرى.

الوصية غير محصورة بالموارد المذكورة طبعا، بل على الإنسان أن يشخّص فى وصيته ما لديه من أمانات و ما عليه من ديون و أمثالها، حتى لا يبقى فى أمواله شىء مبهم من حقوق النّاس و حقوق اللّه.

النصوص الإسلامية أكّدت على ضرورة الوصية كثيرا، من ذلك

ما روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلم: «ما ينبغى لامرئ مسلم أن يبيت ليلة إلّا و وصيّته تحت رأسه»

[۴۹۹] و المقصود بوضع الوصية تحت الرأس إعدادها و تهيئتها طبعا.

و فى رواية اخرى: «من مات بغير وصيّة مات ميتة جاهليّة»

[۵۰۰].

۲- العدالة فى الوصية

فى الروايات الإسلامية تأكيد وافر على «عدم الجور» و «عدم الضرار» فى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۱۵

الوصية، يستفاد منها جميعا أنّ تعدى الحدود الشرعية المنطقية فى الوصية عمل مذموم و من كبائر الذنوب.

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من عدل فى وصيّته كان كمن تصدّق بها فى حياته، و من جار فى وصيّته لقى اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة و هو عنه معرض»

[۵۰۱].

و الجور فى الوصية هو الوصية بأكثر من الثلث، و حرمان الورثة من حقهم المشروع، أو التمييز بين الورثة بسبب عواطف شخصية سطحية. و أوصت النصوص الإسلامية أيضا بعدم الوصية بالثلث إن كان الورثة فقراء محتاجين، و تقليل النسبة إلى الربع و إلى الخمس ۵۰۲].

موضوع العدالة فی الوصیة یبلغ درجة من الأهمیة نراها فی هذه
الروایة: «أنّ رجلا من الأنصار توفی و له صبیة صغار و له ستّة من الرّقیق فأعتقهم عند موته و لیس له مال غیرهم فلمّا علم النّبیّ صلّی اللّه علیه و اله و سلّم سأل قومه ما صنعتم بصاحبکم قالوا دفنّاه قال: أما إنّی لو علمته ما ترکتکم تدفنونه مع أهل الإسلام ترک ولده صغارا یتکفّفون النّاس»[۵۰۳].

۳- الوصایا الواجبة و المستحبة

الوصیة و إن کانت مستحبة بطبیعة حالها- کما أشرنا إلیه- و لکن قد تکون واجبة لأمور طارئة، مثل أن یکون علی الإنسان حقوق واجبة للناس أو للّه قصّر فی أدائها، أو کانت عنده أمانات و دیون أو مثل ذلک بحیث لو لم یوص احتمل ضیاع حقوق النّاس بذلک، و أهم من الکل أن یکون للإنسان مکانة خاصة فی المجتمع لو لم یوص لمن بعده وقعت اضطرابات و أمور مؤسفة ففی جمیع هذه الصور تجب الوصیّة.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۱۶

۴- الوصیة قابلة للتغییر خلال الحیاة

القوانین الإسلامیة أجازت للموصی أن یعید النظر فی وصیته ما دام علی قید الحیاة. و جواز هذا التغییر یشمل الوصی و کیفیة الوصیة. ذلک لأن مرور الزمان قد یغیّر نظرات الموصی، و یغیر المصالح المرتبطة بالوصیة.
۵- جدیر بالذکر أن الإنسان ینبغی أن یجعل وصیته وسیلة لتلافی ما مضی من تقصیر، و أن یتودّد بها إلی من جفاه من أقاربه أیضا. و فی الروایات أن قادة الإسلام کانوا یوصون خاصة لمن جفاهم من أقاربهم و یخصصون لهم مبلغا من المال، کی یعیدوا ما انقطع من أواصر الودّ، و یحررون عبیدهم، أو یوصون بتحریرهم.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۱۷

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۸۳ الی ۱۸۵]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُتِبَ عَلَیْکُمُ الصِّیامُ کَما کُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (۱۸۳) أَیَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ کانَ مِنْکُمْ مَرِیضاً أَوْ عَلی سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَیَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَی الَّذِینَ یُطِیقُونَهُ فِدْیَةٌ طَعامُ مِسْکِینٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَیْراً فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۸۴) شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ هُدیً لِلنَّاسِ وَ بَیِّناتٍ مِنَ الْهُدی وَ الْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْکُمُ الشَّهْرَ فَلْیَصُمْهُ وَ مَنْ کانَ مَرِیضاً أَوْ عَلی سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَیَّامٍ أُخَرَ یُرِیدُ اللَّهُ بِکُمُ الْیُسْرَ وَ لا یُرِیدُ بِکُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُکْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُکَبِّرُوا اللَّهَ عَلی ما هَداکُمْ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۸۵)

التّفسیر

الصوم مدرسة التّقوی

فی سیاق طرح مجموعهٔ من الأحکام الإسلامیهٔ، تناولت هذه الآیات أحکام واحدهٔ من أهم العبادات، و هی عبادهٔ الصوم، و بلهجهٔ مفعمهٔ بالتأکید قالت الآیهٔ:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۸

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُتِبَ عَلَیْکُمُ الصِّیامُ کَما کُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ

ثم تذکر الآیهٔ مباشرهٔ فلسفهٔ هذه العبادهٔ التربویهٔ، فی عبارهٔ قلیلهٔ الألفاظ، عمیقهٔ المحتوی، و تقول: لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ

نعم، الصوم- کما سیأتی شرح ذلک- عامل فعّال لتربیهٔ روح التقوی فی جمیع المجالات و الأبعاد.

لما کانت هذه العبادهٔ مقرونهٔ بمعاناهٔ و صبر علی ترک اللذائذ المادیهٔ، و خاصهٔ فی فصل الصیف، فإن الآیهٔ طرحت موضوع الصوم بأسالیب متنوعهٔ لتهیّئ روح الإنسان لقبول هذا الحکم.

تبتدئ الآیهٔ أولا بأسلوب خطابی و تقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا و هو نداء یفتح شغاف القلب، و یرفع معنویات الإنسان، و یشحذ همته، و فیه لذهٔ

قال عنها الإمام الصادق علیه السّلام: «لذّهٔ ما فی النّداء- أی یا ایّها الّذین آمنوا- أزال تعب العبادهٔ و العناء»

[۵۰۴].

ثمّ تبیّن الآیهٔ أن الصوم فریضهٔ کتبت أیضا علی الأمم السابقهٔ.

ثم تبیّن الآیهٔ فلسفهٔ الصوم و ما یعود به علی الإنسان من منافع، لتکون هذه العبادهٔ محبوبهٔ ملتصقهٔ بالنفس.

الآیهٔ التالیهٔ تتجه أیضا إلی التخفیف من تعب الصوم و تقول:

أَیَّاماً مَعْدُوداتٍ فالفریضهٔ لا تحتل إلّا مساحهٔ صغیرهٔ من أیّام السنهٔ.

ثم تقول فَمَنْ کانَ مِنْکُمْ مَرِیضاً أَوْ عَلی سَفَرٍ فَعِدَّهٌ مِنْ أَیَّامٍ أُخَرَ، فالمریض و المسافر معفوان من الصوم، و علیهما أن یقضیا صومهما فی أیّام اخری.

ثم تصدر الآیهٔ عفوا عن الطّاعنین فی السنّ، و عن المرضی الذین لا یرجی شفاؤهم، و ترفع عنهم فریضهٔ الصوم لیدفعوا بدلها کفارهٔ، فتقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۹

وَ عَلَی الَّذِینَ یُطِیقُونَهُ فِدْیَهٌ طَعامُ مِسْکِینٍ [۵۰۵] ثم یقول الآیهٔ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَیْراً فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ ۵۰۶] أی من تطوع للإطعام أکثر من ذلک فهو خیر له.

و أخیرا تبین الآیهٔ حقیقهٔ هی: وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

استدل بعض بهذه الآیهٔ علی أن الصوم کان فی بدایهٔ التشریع واجبا تخییریا، و کان المسلمون مخیرین بین الصوم و الفدیهٔ، ثم نسخ هذا الحکم بعد أن تعوّد المسلمون علی الصوم و أصبح واجبا عینیّا، و لکن ظاهر الآیهٔ یدلّ علی تأکید آخر علی فلسفهٔ الصوم، و علی أن هذه العبادهٔ- کسائر العبادات- لا تزید اللّه عظمهٔ أو جلالا، بل تعود کل فوائدها علی النّاس.

الشاهد علی ذلک ما جاء فی القرآن من تعبیر مشابه لذلک، کقوله سبحانه بعد ذکر وجوب صلاهٔ الجمعهٔ: ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۵۰۷].

و قوله تعالی: وَ إِبْراهِیمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۵۰۸].

بهذا تبین أن عبارهٔ وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ موجهة إلی کل الصائمین لا إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۰

مجموعة خاصة.

آخر آية فى بحثنا تتحدث عن زمان الصوم و بعض أحكامه و معطياته تقول:

شَهْرُ رَمَضانَ هو الشهر الذى فرض فيه الصيام.

و هو الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ أى معيار معرفة الحق و الباطل.

ثم تؤكد ثانية حكم المسافر و المريض و تقول: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ[۵۰۹].

تكرار حكم المسافر و المريض فى هذه الآية و الآية السابقة، قد يكون سبب كراهية بعض المسلمين أن لا يصوموا أيام شهر رمضان حتى و لو كانوا مرضى أو مسافرين. و القرآن بهذا التكرار يفهم المسلمين أن الصوم فى حالة السلام و الحضر حكم إلهى، و الإفطار فى حال السفر و المرض حكم إلهى أيضا لا تجوز مخالفته.

و فى آخر الآية إشارة اخرى إلى فلسفة تشريع الصوم، تقول: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ. فالصوم- و إن كان على الظاهر نوعا من التضييق و التحديد- مؤدّاه راحة الإنسان و نفعه على الصعيدين المادى و المعنوى، (و سيأتى تفصيل ذلك فى بحث فلسفة الصوم).

و لعل هذه العبارة إشارة إلى أن الأوامر الإلهية ليست كأوامر الحاكم الظالم، ففى الصوم رخص حيثما كان فيه مشقة على الصائم، لذلك رفع تكليف الصوم- على أهميته- عن المريض و المسافر و الضعيف.

ثم تقول الآية: وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ أى يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم شهرا، فذلك ضرورى لتربية جسمه و نفسه. لذلك وجب على المريض و المسافر أن يقضى ما فاته من شهر رمضان ليكمل العدّة، و حتى الحائض- التى أعفيت من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۱

قضاء الصلاة- غير معفوّة عن قضاء الصوم.

و العبارة الأخيرة من الآية تقول: وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لتكبروه على ما وفّر لكم من سبل الهداية، و لتشكروه على ما أنعم عليكم.

الشكر فى الآية مسبوق بكلمة «لعلّ»، لكن التكبير مؤكد بشكل قاطع غير مسبوق بترجّ. و قد يعود الاختلاف فى التعبير إلى أن عبادة (الصوم) هى على كل حال تكبير للّه و تعظيم له سبحانه، أما الشكر- و هو إنفاق النعم فى مواضعها و الاستفادة من الآثار العملية للصوم- فله شروط أهمها الإخلاص التام، و فهم حقيقة الصوم، و الاطلاع على أبعاده و أعماقه.

بحوث

۱- الآثار التّربوية و الاجتماعية و الصحّية للصوم

للصوم أبعاد متعددة و آثار غزيرة مادية و معنوية فى وجود الإنسان، و أهمها البعد الأخلاقى، التّربوى.

من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الإنسان، و «تقوية» إرادته، و «تعديل» غرائزه.

على الصائم أن يكف عن الطعام و الشراب على الرغم من جوعه و عطشه، و هكذا عليه أن يكف عن ممارسة العمل الجنسى، ليثبت عمليا أنه ليس بالحيوان الأسير بين المعلف و المضجع، و أنه يستطيع أن يسيطر على نفسه الجامحة و على أهوائه و شهواته.

الأثر الروحى و المعنوى للصوم يشكل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة.

مثل الإنسان الذی یعیش إلی جوار أنواع الأطعمة و الأشربة، لا یکاد یحس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۲

بجوع أو عطش حتی یمـدّ یده إلی ما لذّ و طاب کمثل شـجرة تعیش إلی جوار نهر وفیر المیاه، ما إن ینقطع عنها الماء یوما حتی تذبل و تصفرّ.

أما الأشـجار التی تنبت بین الصـخور و فی الصحاری المقفرة، و تتعرض منذ أوائل إنباتها إلی الریاح العاتیة، و حرارة الشمس المحرقة حینا، و برودة الجوّ القارصة حینا آخر، و تواجه دائما أنواع التحدیات، فإنها أشجار قویة صلبة مقاومة.

و الصوم له مثـل هـذا الأثر فی نفس الإنسان، فبهـذه القیود المؤقتـة یمنحه القـدرة و قوة الإرادة و عزیمـة الکفاح، کما یبعث فی نفسه النور و الصفاء بعد أن یسیطر علی غرائزه الجامحة.

بعبارة موجزة: الصوم یرفع الإنسان من عالم البهیمیة إلی عالم الملائکة و عبارة لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ تشیر إلی هذه الحقائق.

و هکذا

الحدیث المعروف: «الصّوم جنّة من النّار»

[۵۱۰] یشیر إلی هذه الحقائق.

و عن علی علیه السّلام عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنه سئل عن طریق مجابهة الشیطان، قال:

«الصّوم یسوّد وجهه، و الصّدقة تکسر ظهره، و الحبّ فی اللّه و المواظبة علی العمل الصّالح یقطع دابره، و الاستغفار یقطع وتینه»

[۵۱۱].

و فی نهج البلاغة عرض لفلسفة العبادات، و فیه یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «و الصّیام ابتلاء لإخلاص الخلق»

[۵۱۲].

و روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «إنّ للجنّة بابا یدّعی الرّیّان، لا یدخل فیها إلّا الصّائمون».

یقول المرحوم الصـدوق فی «معانی الأخبار» معلقا علی هـذا الحـدیث: إنما سـمی هـذا الباب بالریّان لأن مشـقة الصائم إنما تکون فی الأغلب من العطش،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۳

و عند ما یدخل الصائمون من هذا الباب یرتوون حتی لا یظمأوا بعده أبدا[۵۱۳].

الأثر الاجتماعی للصوم لا یخفی علی أحد. فالصوم درس المساواة بین أفراد المجتمع. الموسـرون یحسّون بما یعانیه الفقراء المعسرون، و عن طریق الاقتصاد فی استهلاک المواد الغذائیة یستطیعون أن یهبوا لمساعدتهم.

قد یمکن تحسـیس الأغنیاء بما یعانیه الفقراء عن طریق الکلام و الخطابة، لکن المسألة حین تتخذ طابعا حسّـیّا عینیّا لها التأثیر الأقوی و الأبلغ. الصوم یمنح هذه المسألة الهامة الاجتماعیة لونا حسیا، لذلک

یقول الإمام الصادق علیه السّـلام فی جواب عن سؤال بشأن علّـة الصوم: «إنّما فرض اللّه الصّـیام لیسـتوی به الغنیّ و الفقیر، و ذلک إنّ الغنیّ لم یکن لیجـد مسّ الجوع فیرحم الفقیر، و إنّ الغنیّ کلّمـا أراد شـیئا قـدر علیه فـأراد اللّه تعالی أن یسوّی بین خلقه، و أن یـذیق الغنیّ مسّ الجوع و الألم، لیرقّ علی الضّعیف و یرحم الجائع»

[۵۱۴].

تری، لو أن الدول الغنیة فی العالم صامت عدّة أیّام فی السنة و ذاقت مرارة الجوع، فهل یبقی فی العالم کل هذه الشعوب الجائعة؟!

الآثار الصحیة للصوم

أهمیة «الإمساک» فی علاج أنواع الأمراض ثابتة فی الطب القدیم و الحدیث.
البحوث الطبیـة لا تخلو عادة من الحـدیث عن هـذه المسألـة، لأن العامل فی کثیر من الأمراض الإسـراف فی تناول الأطعمـة المختلفـة. المواد الغذائیـة الزائـدة تتراکم فی الجسم علی شـکل مواد دهنیة، و تدخل هی و المواد السـکریة فی الدم، و هذه المواد الزائدة وسـط صالـح لتکـاثر أنواع المیکروبات و الأمراض، و فی هـذه الحالـة یکون الإمساک أفضل طریق لمکافحـة هـذه الأمراض، و للقضاء علی هذه المزابل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۴

المتراکمة فی الجسم.
الصوم یحرق الفضـلات و القمامات المتراکمـة فی الجسم، و هو فی الواقع عملیـة تطهیر شاملـة للبـدن، إضافة إلی أنه استراحة مناسـبة لجهاز الهضم و تنظیف له، و هذه الاستراحة ضروریة لهذا الجهاز الحساس للغایة، و المنهمک فی العمل طوال أیام السنة.
بدیهی أن الصائم ینبغی أن لا یکثر من الطعام عند «الإفطار» و «السّـحور» حسب تعالیم الإسلام، کی تتحقق الآثار الصحیة لهذه العبادة، و إلّا فقد تکون النتیجة معکوسة.
العالم الروسی «الکسی سوفورین» یقول فی کتابه:
«الصوم سبیل ناجـح فی علاج أمراض فقر الـدم، و ضـعف الأمعاء، و الالتهابات البسـیطة و المزمنـة، و الدمامل الداخلیة و الخارجیة، و السل، و الاسـکلیروز، و الروماتیزم، و النقرس و الاستسـقاء، و عرق النساء، و الخراز (تناثر الجلـد)، و أمراض العین، و مرض السـکر، و أمراض الکلیة، و الکبد و الأمراض الاخری.
العلاـج عن طریق الإمسـاک لاـ یقتصـر علی الأـمراض المـذکورة، بـل یشـمل الأـمراض المرتبطـة بأصول جسم الإنسان و خلایاه مثل السرطان و السفلیس، و السل و الطاعون أیضا»[۵۱۵].
عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «صوموا تصحّوا»
[۵۱۶].
و عنه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أیضا: «المعدة بیت کلّ داء و الحمیّة رأس کلّ دواء»
[۵۱۷].

۲- الصوم فی الأمم السابقة

یظهر من النصوص الموجودة فی التوراة و الإنجیل، أن الصوم کان موجودا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۵

بین الیهود و النصاری، و کانت الأمم الاخری تصوم فی أحزانها و مآسیها، فقد ورد فی «قاموس الکتاب المقدس»: «الصوم بشکل عام و فی جمیع الأوقات کان متداولا فی أوقات الأحزان و النوائب بین جمیع الطوائف و الملل و المذاهب»[۵۱۸].
و یظهر من التوراة أن موسی علیه السّـلام صام أربعین یوما، فقـد جاء فیها: «أقمت فی الجبل أربعین نهارا و أربعین لیلة لا آکل خبزا و لا أشرب ماء»[۵۱۹].
و کـان الیهود یصومون لـدی التوبـة و التضـرع إلی اللّه: «الیهود کـانوا یصومون غالبـا حینمـا تتاح لهم الفرصـة للإعراب عن عجزهم و تواضعهم أمام اللّه، لیعترفوا بذنوبهم عن طریق الصوم و التوبة، و لیحصلوا علی رضا حضرة القدس الإلهی»[۵۲۰].

«الصوم الأعظم مع الکفارة کان علی ما یبدو خاصا بیوم من أیام السنة بین طائفة الیهود، طبعا کانت هناک أیام اخری مؤقتة للصوم بمناسبة ذکری تخریب أورشلیم و غیرها»[۵۲۱].

السید المسیح علیه السّلام صام أیضا أربعین یوما کما یظهر من «الإنجیل»: «ثم اصعد یسوع إلی البریة من الروح لیجرّب من إبلیس فبعد ما صام أربعین نهارا و أربعین لیلة جاع أخیرا»[۵۲۲].

و یبدو من نصوص إنجیل «لوقا» أن حواریّی السید المسیح صاموا أیضا[۵۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص۵۲۵

جاء فی قاموس الکتاب المقدس أیضا: «... من هنا کانت حیاة الحواریّین و المؤمنین مملوءة بالابتعاد عن اللذات و بالأتعاب و بالصوم»[۵۲۴].

بهذا نستطیع أن نجد فی نصوص الکتب الدینیة القدیمة (حتی بعد تحریفها) شواهد علی ما جاء فی القرآن الکریم کَما کُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۶

۳- امتیاز شهر رمضان

هذا الشهر- إنما اختیر شهرا للصوم- لأنه یمتاز عن بقیة الشهور. و القرآن الکریم بیّن مزیة هذا الشهر فی الآیة الکریمة بأنه الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ أی القرآن الذی یفصل الصالح عن الطالح و یضمن سعادة البشریة. و فی الروایات الإسلامیة أن کل الکتب السماویة: «التوراة» و «الإنجیل» و «الزبور» و «الصحف» و «القرآن» نزلت فی هذا الشهر[۵۲۵]. فهو إذن شهر تربیة و تعلیم، لأن التربیة غیر ممکنة دون تعلیم صحیح، و منهج الصوم التربوی یجب أن یکون مرافقا لوعی عمیق منطلق من تعالیم السماء لتطهیر الإنسان من کل أثم.

فی آخر جمعة من شهر شعبان، ألقی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم خطبة أعدّ فیها المسلمین لاستقبال شهر رمضان المبارک قال فیها:

«أیّها النّاس إنّه قد أقبل إلیکم شهر اللّه بالبرکة و الرّحمة و المغفرة، شهر هو عند اللّه أفضل الشّهور، و أیّامه أفضل الأیّام، و لیالیه أفضل اللّیالی، و ساعاته أفضل السّاعات، هو شهر دعیتم فیه إلی ضیافة اللّه، و جعلتم فیه من أهل کرامة اللّه. أنفاسکم فیه تسبیح، و نومکم فیه عبادة، و عملکم فیه مقبول، و دعاؤکم فیه مستجاب فاسألوا اللّه ربّکم بنیّات صادقة، و قلوب طاهرة أن یوفّقکم لصیامه و تلاوة کتابه، فإنّ الشّقیّ من حرم غفران اللّه فی هذا الشّهر العظیم، و اذکروا بجوعکم و عطشکم فیه جوع یوم القیامة و عطشه، و تصدّقوا علی فقرائکم و مساکینکم، و وقّروا کبارکم، و ارحموا صغارکم، و صلوا أرحامکم، و احفظوا ألسنتکم، و غضّوا عمّا لا یحلّ النّظر إلیه أبصارکم، و عمّا لا یحلّ الاستماع إلیه أسماعکم، و تحنّنوا علی أیتام النّاس یتحنّن علی أیتامکم ...» [۵۲۶].

۴- قاعدة «لا حرج»

آیات بحثنا فیها إشارة إلی أن اللّه یرید بالنّاس الیسر و لا یرید بهم العسر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۷

و هـذه الإشارة تـدور طبعا هنا حول موضوع الصوم و فوائـده و حكم المسافر و المريض، لكن أسـلوبها العام يجعلها قاعدة تشـمل كل الأحكام الإسلامية، و يصيّر منها سندا لقاعدة «لا حرج» المعروفة.

هـذه القاعـدة تقول: لا تقوم قوانين الإسـلام على المشـقة، و إن أدّى حكم إسـلامى إلى حرج و مشـقة، فإنه يرفع عنه مؤقتا، و لـذلك أجاز الفقهاء التيمّم لمن يشق عليه الوضوء، و الصلاة جلوسا لمن يشق عليه الوقوف.

و فى موضع آخر من القرآن الكريم، يقول سبحانه: هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِی الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۵۲۷].

و عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «بعثت على الشّريعة السّمحة السّهلة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۶]

اشارة

وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِی وَ لْيُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (۱۸۶)

سبب النّزول

سأل رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم عن اللّه سبحانه، أهو قريب ليناجيه بصوت خفى أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت الآية[۵۲۸].

التّفسير

سلاح اسـمه الدعاء بعد أن ذكرت الآيات السابقة مجموعة هامّة من الأحكام الإسلامية، تناولت هذه الآية موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الارتباط بين العباد و المعبود سبحانه. و مجىء هـذه الآيـة فى سياق الحديث عن الصوم، يعطيه مفهوما جديدا، إذ أن الدعاء و التقرب إلى اللّه روح كل عبادة.

هذه الآية تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تقول: وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِيبٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۹

إنه أقرب ممّا تتصورون، أقرب منكم إليكم، بل وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[۵۲۹].

ثم تقول الآية: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ

إذن فَلْيَسْتَجِيبُوا لِی، وَ لْيُؤْمِنُوا بِی، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ

و يلفت النظر فى الآيـة، أن اللّه سـبحانه أشار إلى ذاته المقدسة سبع مرات، و أشار إلى عباده سبعا! مجسدا بذلك غاية لطفه و قربه و ارتباطه بعباده.

روى عبد اللّه بن سنان عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «الدّعاء يردّ القضاء بعد ما أبرم إبراما فأكثر من الدّعاء فإنّه مفتاح كلّ رحمة و نجاح كلّ حاجة و لا ينال ما عند اللّه عزّ و جلّ إلّا بالدّعاء و إنّه ليس باب يكثر قرعه إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه»[۵۳۰].

نعم، إنه قريب منّا، و كيف يبتعد و هو سبحانه يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ ۵۳۱].

بحوث

۱- فلسفة الدعاء

أولئك الجاهلون بحقيقة الدعاء و آثاره التربويّة و النفسية، يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

يقولون: الدعاء عامل مخدّر، لأنه يصرف النّاس عن الفعّالية و النشاط و عن تطوير الحياة، و يدفعهم بدلا من ذلك إلى التوسّل بعوامل غيبية.

و يقولون: إن الدعاء تدخّل فى شؤون اللّه، و اللّه يفعل ما يريد، و فعله منسجم مع مصالحنا، فما الداعى إلى الطلب منه و التضرّع إليه؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۰

و يقولون أيضا: إنّ الـدعاء يتعارض مع حالـة الإنسان الراضـى بقضاء اللّه المستسـلم لإرادته سـبحانه! هؤلاء- كما ذكرنا- يطلقون هذا التشـكيك لجهلهم بالآثار التربوية و النفسية و الاجتماعية للدعاء، فالإنسان بحاجة أحيانا إلى الملجأ الذى يلوذ به فى الشدائد، و الدعاء يضىء نور الأمل فى نفس الإنسان.

من يبتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفة نفسية و اجتماعية. و على حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين:

«ابتعاد الامّـة عن الـدعاء يعنى سـقوط تلك الامّة! المجتمع الذى قمع فى نفسه روح الحاجة إلى الدعاء سوف لا يبقى مصونا عادة من الفساد و الزوال.

و من نافلـة القول أنه من العبث الاكتفاء بالـدعاء لـدى الصـباح و قضاء بقيـة اليوم كالوحش الكاسـر، لا بـدّ من مواصـلة الدعاء، و من اليقظـة المسـتمرة، كى لاـ يزول أثره العميق من نفس الإنسـان».[۵۳۲] و أولئك الـذين يصـفون الـدعاء بأنه تخـديرى لم يفهموا معنى الدعاء، لأن الدعاء لا يعنى ترك العلل و الوسائل الطبيعية و اللجوء بدلها إلى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهاية جهدنا للاسـتفادة من كل الوسائل الموجودة، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، و أعيتنا الوسـيلة، نلجأ إلى الدعاء، و بهذا اللجوء إلى اللّه يحيى فى أنفسـنا روح الأمل و الحركة، و نستمد من عون المبدأ الكبير سبحانه.

الدعاء إذن لا يحل محل العوامل الطبيعية.

«الـدعاء- إضافـة إلى قـدرته فى بث الطمأنينـة فى النفس- يؤدى إلى نوع من النشاط الـدماغى فى الإنسان، و إلى نوع من الإنشـراح و الانبساط الباطنى و أحيانا إلى تصعيد روح البطولة و الشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۱

... صـفاء النظرة، و قوة الشخصـية، و الإنشـراح و السـرور، و الثقة بالنفس، و الاسـتعداد للهداية، و استقبال الحوادث بصدر رحب، كل هـذه مظـاهر لكنز عظيم دفين فى نفوسـنا. و انطلاقـا من هـذه القـوّة يسـتطيع حـتى الأـفراد المتخلفـون أن يسـتثمروا طاقـاتهم العقليـة و الأخلاقية بشكل أفضل، و أكثر. لكن الأفراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جدا- مع الأسف- فى عالمنا اليوم»[۵۳۳].

ممّـا تقـدم نفهم الرد على من يقول أن الـدعاء يخـالف روح الرضـا و التسـليم، لأـن الـدعاء- كما ذكرنا- نوع من كسب القابليـة على تحصيل سهم أكبر من فيض اللّه اللامتناهى.

بعبارة اخرى: الإنسان ينال بالـدعاء لياقـة أكبر للحصول على فيض البارى تعالى. و واضح أن السـعى للتكامل و لكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة، لا عكس ذلك.

أضف إلى ذلـك، الـدعاء نوع من العبادة و الخضوع و الطاعـة، و الإنسان- عن طريق الـدعاء- يزداد ارتباطا باللّه تعالى، و كما أن كلّ العبادات ذات أثر تربوى كذلك الدّعاء له مثل هذا الأثر.

و القائلون أن الـدعاء تـدخّل فى أمر اللّه و أن اللّه يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الإلهية تغدق على الإنسان حسب اسـتعداده و

كفاءته و لياقته، و كلّما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

لذلك

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ عند اللّه عزّ و جلّ منزلة لا تنال إلّا بمسألة»

[۵۳۴].

و يقول أحد العلماء: «حينما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها»[۵۳۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۲

و يقول: «إنّ أحدث العلوم الإنسانية- أعنى علم النفس- يعلّمنا نفس تعاليم الأنبياء، لماذا؟ لأن أطباء النفسانيين أدركوا أن الدعاء و الصلاة و الإيمان القوى بالدين يزيل عوامل القلق و الاضطراب و الخوف و الهيجان الباعثة على أكثر أمراضنا»[۵۳۶].

۲- المفهوم الحقيقى للدعاء

علمنا أنّ الدعاء إنّما يكون فيما خرج عن دائرة قدرتنا، بعبارة اخرى الدعاء المستجاب هو ما صدر لدى الاضطرار و بعد بذل كل الجهود و الطاقات أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ[۵۳۷]. يتضح من ذلك أن مفهوم الدعاء طلب تهيئة الأسباب و العوامل الخارجة عن دائرة قدرة الإنسان، و هذا الطلب يتجه به الإنسان إلى من قدرته لا متناهية و من يهون عليه كل أمر.

هذا الطلب طبعا يجب أن لا- يصدر من لسان الإنسان فقط، بل من جميع وجوده، و اللسان ترجمان جميع ذرات وجود الإنسان و أعضائه و جوارحه.

يرتبط القلب و الروح باللّه عن طريق الدعاء ارتباطا وثيقا، و يكتسبان القدرة عن طريق اتصالهما المعنوى بالمبدأ الكبير، كما تتصل القطرة من الماء بالبحر الواسع العظيم.

جدير بالذكر أن هناك نوعا آخر من الدعاء يردّده المؤمن حتى فيما اقتدر عليه من الأمور، ليعبّر به عن عدم استقلال قدرته عن قدرة البارى تعالى، و ليؤكد أن العلل و العوامل الطبيعية إنما هى منه سبحانه، و تحت إمرته. فإن بحثنا عن الدواء لشفاء دائنا، فإنّما نبحث عنه لأنّه سبحانه أودع فى الدواء خاصية الشفاء (هذا نوع آخر من الدعاء أشارت إليه الروايات الإسلامية أيضا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۳

بعبارة موجزة: الدعاء نوع من التوعية و إيقاظ القلب و العقل، و ارتباط داخلى بمبدإ كل لطف و إحسان، لذلك نرى

أمير المؤمنين عليا عليه السّلام يقول: «لا يقبل اللّه عزّ و جلّ دعاء قلب لاه»

[۵۳۸].

و عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه»

[۵۳۹].

۳- شروط استجابة الدعاء

دراسة شروط استجابة الدعاء توضّح لنا كثيرا من الحقائق الغامضة فى مسألة الدعاء، و تبين لنا آثاره البناءة، و الروايات الإسلامية تذكر شروطا لاستجابة الدعاء منها:

۱- ينبغى لمن يدعو أن يسعى أولا لتطهير قلبه و روحه، و أن يتوب من الذنب، و أن يقتدى بحياة قادة البشرية الإلهيين.

عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إیّاکم أن یسأل أحدکم ربّه شیئا من حوائج الدّنیا و الاخرة حتّی یبدأ بالثّناء علی اللّه، و المدحة له و الصّلاة علی النّبی و آله، و الاعتراف بالذّنب، ثمّ المسألة»

[۵۴۰].

۲- أن یسعی الداعی إلی تطهیر أمواله من کل غصب و ظلم، و أن لا یکون طعامه من حرام.

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «من أحبّ أن یستجاب دعاؤه فلیطب مطعمه و مکسبه»

[۵۴۱].

۳- أن لا یفترق الدعاء عن الجهاد المستمرّ ضدّ کل ألوان الفساد، لأنّ اللّه لا یستجیب ممن ترک الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «لتأمرنّ بالمعروف و لتنهنّ عن المنکر، أو لیسلّطنّ اللّه شرارکم علی خیارکم فیدعو خیارکم فلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۴

یستجاب لهم»

[۵۴۲].

ترک هذه الفریضة الإلهیة (فریضة المراقبة الاجتماعیة) یؤدی إلی خلوّ الساحة الاجتماعیة من الصالحین، و ترکها للمفسدین، و عند ذاک لا أثر للدعاء، لأن هذا الوضع الفاسد نتیجة حتمیة لأعمال الإنسان نفسه.

۴- العمل بالمواثیق الإلهیة، الإیمان و العمل الصالح و الأمانة و الصلاح من شروط استجابة الدعاء، فمن لم یف بعهده أمام بارئه لا ینبغی أن یتوقع من اللّه استجابة دعائه.

جاء رجل إلی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، و شکا له عدم استجابة دعائه، فقال الإمام:

«إنّ قلوبکم خانت بثمان خصال:

أوّلها: إنّکم عرفتم اللّه فلم تؤدّوا حقّه کما أوجب علیکم، فما أغنت عنکم معرفتکم شیئا.

و الثانیة: إنّکم آمنتم برسوله ثمّ خالفتم سنّته، و أمتّم شریعته فأین ثمرة إیمانکم؟! و الثّالثة: إنّکم قرأتم کتابه المنزل علیکم فلم تعملوا به، و قلتم سمعنا و أطعنا ثمّ خالفتم! و الرّابعة: إنّکم قلتم تخافون من النّار، و أنتم فی کلّ وقت تقدمون إلیها بمعاصیکم فأین خوفکم؟! و الخامسة: إنّکم قلتم ترغبون فی الجنّة، و أنتم فی کلّ وقت تفعلون ما یباعدکم منها فأین رغبتکم فیها؟

و السّادسة: إنّکم أکلتم نعمة المولی فلم تشکروا علیها! و السّابعة: إنّ اللّه أمرکم بعداوة الشّیطان، و قال: إِنَّ الشَّیْطانَ لَکُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، فعادیتموه بلا قول، و والیتموه بلا مخالفة.

و الثّامنة: إنّکم جعلتم عیوب النّاس نصب أعینکم و عیوبکم وراء ظهورکم تلومون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۵

من أنتم أحقّ باللوم منه فأیّ دعاء یستجاب لکم مع هذا، و قد سددتم أبوابه و طرقه؟ فاتّقوا اللّه و أصلحوا أعمالکم و أخلصوا سرائرکم و أمروا بالمعروف و انهوا عن المنکر فیستجیب اللّه لکم دعاءکم»

[۵۴۳].

هذا الحدیث یقول بصراحة: إن وعد اللّه باستجابة الدعاء وعد مشروط لا مطلق. مشروط بتنفیذ المواثیق الإلهیة، و إن عمل الإنسان بهذه المواثیق الثمانیة المذکورة فله أن یتوقع استجابة الدعاء، و إلّا فلا.

العمل بالأمور الثمانیة المذکورة باعتبارها شروطا لاستجابة الدعاء کاف لتربیة الإنسان و لاستثمار طاقاته علی طریق مثمر بنّاء.

۵- من الشروط الاخرى لاستجابة الدعاء العمل و السعى،

عن على عليه السّلام: «الدّاعى بلا عمل كالرّامى بلا وتر»[۵۴۴].

الوتر بحركته يدفع السهم نحو الهدف، و هكذا دور العمل فى الدعاء.

من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أن الدعاء لا يغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعية، بل أكثر من ذلك يدفعنا إلى توفير شروط استجابة الدعاء فى أنفسنا، و يحدث بذلك تغييرا كبيرا فى حياة الإنسان و تجديدا لمسيرته، و إصلاحا لنواقصه.

أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامى أنه مخدّر؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۷]

اشارة

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ وَ لا تُباشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۱۸۷)

سبب النّزول

روى أن الأكل كان محرّما فى شهر رمضان بالليل بعد النوم، و كان النكاح حراما بالليل و النهار فى شهر رمضان. و كان رجل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يقال له مطعم بن جبير شيخا ضعيفا، و كان صائما، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حرّم علىّ الأكل فى هذه الليلة.

فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمى عليه، فرآه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فرقّ له.

و كان قوم من الشباب ينكحون بالليل سرّا فى شهر رمضان، فأنزل اللّه هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۷

الآية فأحلّ النّكاح بالليل فى شهر رمضان، و الأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر[۵۴۵].

التّفسير

رخصة فى أحكام الصّوم

مرّ بنا فى سبب نزول الآية أن النكاح كان محرّما فى ليالى شهر رمضان إضافة إلى نهاره، و أن الأكل و الشرب كانا محرمين فى الليل أيضا بعد النوم، و لعل ذلك كان اختبارا للجيل الإسلامى الأوّل و إعدادا له كى يتقبل أحكام الصوم الثابتة.

الآية الكريمة تتضمن أربعة أحكام إسلامية فى حقل الصوم و الاعتكاف.

تقول أولا: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ ۵۴۶] إِلى نِسائِكُمْ

ثم تذکر الآیة سبب الحکم فتقول: هُنَّ لِباسٌ لَکُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ، لَهُنَ

و اللباس یحفظ الجسم من الحر و البرد و أنواع الأخطار من جهة، و یستر عیوب الجسم من جهة اخری، أضف إلی أنه زینة للإنسان، و تشبیه الزوج باللباس یشمل کل هذه الجوانب.

الزوجان یحفظ کل منهما الآخر من الانحراف و العیوب، و یوفّر کل منهما سبل الراحة و الطمأنینة للآخر، و کل منهما زینة للآخر.

هـذا التعبیر یوضّـح غایـة الارتباط المعنوی بین الرجل و المرأة و مساواتهما فی هـذا المجال، فالتعبیر جاء للرجل کما جاء للمرأة بدون تغییر.

ثم یبین القرآن سبب تغییر هذا القانون الإلهی و یقول: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّکُمْ کُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَکُمْ فَتابَ عَلَیْکُمْ وَ عَفا عَنْکُمْ

فاللّه سبحانه وسّع علیکم الأمر و خفّفه، و جعل فیه رخصة بلطفه و رحمته، کی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۸

لا تتلوثوا بالذنوب.

فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا ما کَتَبَ اللَّهُ لَکُمْ

و هذا الأمر لا یعنی طبعا الوجوب، بل هو رخصة بعد المنع، أو هو بتعبیر الأصولیین «الأمر عقیب الخطر»، و یدل علی الجواز.

عبارة وَ ابْتَغُوا ما کَتَبَ اللَّهُ لَکُمْ إشارة إلی أن الاسـتفادة من هذه الرخصة الکائنة فی مسیر قوانین الخلقة و حفظ النظام و بقاء النسل لا مانع فیها.

ثمّ تبیّن الآیة الحکم الثانی و تقول: وَ کُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکُمُ الْخَیْطُ الْأَبْیَضُ مِنَ الْخَیْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ.

للمسلم- إذن- أن یأکل و یشرب فی اللیل، حتی إذا طلع الفجر یمسک.

و تبین الآیة الحکم الثالث: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّیامَ إِلَی اللَّیْلِ

هـذه الجملة تأکید علی حظر الأکل و الشـرب و النکاح فی أیّام شـهر رمضان للصائمین، و تشـیر إلی أن الحظر یبدأ من طلوع الفجر و ینتهی عند اللیل.

تطرح الآیة بعد ذلک الحکم الرّابع و تقول: وَ لا تُباشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاکِفُونَ فِی الْمَساجِدِ.

هـذا الحکم یرتبـط بالاعتکـاف، و هو شبیه بالاسـتثناء من الحکم السـابق، ففی الاعتکـاف الـذی لا تقلّ مـدّته عن ثلاثـة أیّام، لا یحق للمعتکف الصائم أن یباشر زوجته لا فی اللیل و لا فی النهار.

فی ختـام الآیـة عبـارة تشـیر إلی کـل مـا ورد فیها من أحکام تقول: تِلْکَ حُـدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها لأن الاقتراب من الحـدود یبعث علی الوسوسة، و قد یدفع الإنسان إلی تجاوز الحدود و الوقوع فی الذنب.

نعم، کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ آیاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۹

بحوث

۱- الحدود الإلهیة:

بعـد أن ذکرت الآیـة الکریمة بعض أحکام الصوم و الاعتکاف، عبّرت عن هذه الأحکام بالحدود الإلهیة، و هی الحدود بین الحلال و الحرام ... بین الممنوع و المباح. و من الملفت للنظر أن الآیة لم تقل لا تتجاوزوا هذه الحدود، بل قالت:

فَلا تَقْرَبُوها، لأن الاقتراب منها يؤدى إلى إثارة الوساوس، و قد يؤدى أحيانا إلى تجاوز هذه الحدود.

لذلك نهى الإسلام عن الولوج فى مناطق تؤدى إلى انزلاق الإنسان فى المحرمات، كالنهى مثلا عن الاشتراك فى مجالس شرب الخمر حتى مع عدم التلوث بالخمرة، أو النهى عن الاختلاء بالمرأة الأجنبية.

هذا النهى ورد فى النصوص الإسلامية تحت عنوان «حماية الحمى».

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «إنّ حمى اللّه محارمه، فمن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» [۵۴۷].

من هنا فالمتقون لا يجنّبون أنفسهم الوقوع فى المحرمات فحسب، بل يسعون إلى عدم الاقتراب من حافّة الحرام.

۲- الاعتكاف:

العكوف و الاعتكاف أصله اللزوم، يقال: عكفت بالمكان، أى أقمت به ملازما له، و هو فى الشرع اللبث فى المساجد للعبادة، و أقلّه ثلاثة أيّام يصوم خلالها المعتكف و يكفّ عن بعض المباحات.

هذه العبادة لها الأثر العميق على تصفية الروح و القرب من اللّه، و ذكرت كتب الفقه آدابها و شروطها، هذه العبادة مستحبة، و قد تتخذ أحيانا فى ظروف استثنائية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۴۰

طابع الوجوب. فى الآية التى نبحث فيها ورد ذكر أحد شروط الاعتكاف و هو حظر النكاح ليلا- و نهارا، و هذه الإشارة جاءت لارتباطها بمسألة الصوم.

۳- طلوع الفجر:

الفجر فى الأصل شقّ الشىء شقا واسعا، و سمّى الصبح فجرا لأنه فجر الليل.

و عبّرت الآية عن الفجر أيضا بأسلوب حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ. و من الظريف أن «عدى بن حاتم» قال للنبى: إنى وضعت خيطين من شعر أبيض و أسود فكنت أنظر فيهما فلا يتبين لى، فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم حتى رؤيت نواجذه ثم قال: «يا ابن حاتم إنّما ذلك بياض النّهار و سواد اللّيل فابتداء الصّيوم من هذا الوقت»[۵۴۸].

و هذا التعبير يوضّح أيضا الفرق بين الصبح الصادق و الصبح الكاذب: لأنّ الفجر فجران: الفجر الكاذب و هو على شكل عمود من الضوء يظهر فى السماء كذنب السرحان (الثعلب)، و بعده يظهر الفجر الصادق و هو بياض شفّاف أفقى يظهر فى أفق السماء كخيط أبيض يظهر إلى جوار الخيط الأسود. و هذا هو الصبح الصادق و به يتعلق حكم الصوم و الصلاة. و لا يشبه الفجر الكاذب.

۴- التقوى، هى الأوّل و الآخر: فى أوّل آية ترتبط بأحكام الصوم ورد ذكر التقوى على أنها الهدف النهائى للصوم، و فى آخر آية أيضا وردت عبارة لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ و هذا يؤكد أن كل مناهج الإسلام وسيلة لتربية الروح و التقوى و الفضيلة و الإرادة و الإحساس بالمسؤولية.

و آخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين

[۱] (۱، ۲)- مجمع البيان، و نور الثقلين، مقدمة سورة الحمد.

[۲] (۱، ۲)- مجمع البيان، و نور الثقلين، مقدمة سورة الحمد.

[۳] (۱)- مجمع البيان، بداية سورة الحمد.

[۴] (۲)- سيأتى تفسير« سبعا من المثانى» فى ذيل الآية المذكورة. انظر: المجلد الثامن من هذا التّفسير، ذيل الآية ۸۷ من سورة« الحجر».

[۵] (۳)- تفسير البرهان، ج ۱، ص ۲۶، نقلا عن تفسير البيان.

[۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۱، ص ۴.

[۷] (۱)- عيون أخبار الرضا، نقلا عن الميزان، ج ۱، ص ۳۷.

[۸] (۱)- تاريخ القرآن، أبو عبد اللّه الزنجانى، ص ۴۴.

[۹] (۲)- مجمع البيان، ج ۱، ص ۱۵.

[۱۰] (۳)- منتخب كنز العمال، ج ۲، ص ۵۲.

[۱۱] (۴)- صحيح البخارى، ج ۶، ص ۱۰۲.

[۱۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۶، باب ۵۸. نقلا عن تفسير البيان، ج ۱، ص ۴۶۱.

[۱۳] (۲)- بحار الأنوار، مجلد ۹۲، باب ۲۹، ص ۲۴۲.

[۱۴] (۳)- الميزان، ج ۱، ص ۲۱.

[۱۵] (۴)- العلق، ۱.

[۱۶] (۵)- هود، ۴۱.

[۱۷] (۱)- هود، ۴۸.

[۱۸] (۲)- النمل، ۳۰.

[۱۹] (۱)- بحار الأنوار، ج ۹۲، الباب ۲۹، ص ۲۴۱ و ۲۴۲.

[۲۰] (۲)- نفس المصدر، ص ۲۴۰.

[۲۱] (۱)- تفسير المنار، ج ۱، ص ۳۹- ۴۰.

[۲۲] (۱)- الكافى، ج ۳، ص ۳۱۲.

[۲۳] (۲)- الإتقان، مجلد ۱، ص ۱۳۶. نقلا عن البيان، ص ۴۴۱.

[۲۴] (۳)- البيهقى، ج ۲، ص ۵۰.

[۲۵] (۱)- البيهقى، ج ۲، ص ۴۹. و الحاكم فى المستدرك، ج ۱، ص ۲۳۳.

[۲۶] (۲)- ذهب بعضهم إلى أنّ(الاسم) من(السمة) على وزن(الهبة) من مادة(وسم) أى وضع علامة. لان الاسم علامة المعنى. و لكن أكثر علماء اللغة رفضوا هذا الاشتقاق، لأنه من الواضح أن الجذور الاصلية للكلمة تظهر عند الجمع و التصغير فالواو لا تظهر فى الجمع و التصغير(كما تظهر فى المثال الواوى عادة) فنقول فى الجمع أسماء، فى التصغير، سمّى، و سميّة فهو إذن ناقص واوى لا مثال واوى.

[۲۷] (۱)- الحشر، ۲۳.

[۲۸] (۲)- الأحزاب، ۴۳.

[۲۹] (۱)- الكافى، و توحيد الصدوق، و معانى الأخبار(نقلا عن الميزان).

[۳۰] (۲)- التوبة، ۱۲۸.

[۳۱] (۳)- مجمع البيان، ج ۱، ص ۲۱.

[۳۲] (۴)- نفس المصدر.

[۳۳] (۱)- الأعراف، ۱۵۶.

[۳۴] (۲)- المؤمن، ۷.

[۳۵] (۳)- يونس، ۸۶.

[۳۶] (۴)- الأعراف، ۷۲.

[۳۷] (۵)- المائدة، ۱۱۴.

[۳۸] (۶)- المؤمنون، ۲۹.

[۳۹] (۷)- الأنبياء، ۸۹.

[۴۰] (۱)- دعاء الجوشن الكبير، الفقرة، ۲۰.

[۴۱] (۱)-« الشكر»، من وجهة نظر اخرى أوسع إطارا، لأنّ الشكر يؤدى بالقول أحيانا و بالعمل اخرى. أمّا الحمد و المدح فبالقول غالبا.

[۴۲] (۱)- السجدة، ۷.

[۴۳] (۲)- هود، ۶.

[۴۴] (۳)- يونس، ۱۰.

[۴۵] (۴)- قاموس اللغة، و مفردات الراغب، و تفسير مجمع البيان، و تفسير البيان.

[۴۶] (۵)- لا بدّ من الالتفات إلى أن(رب) من مادة(ربب)، لا من(ربو)، أى إنه مضاعف لا ناقص.

[۴۷] (۱)- المنار، ج ۱، ص ۵۱.

[۴۸] (۲)- الفرقان، ۱.

[۴۹] (۳)- الجاثية، ۳۶.

[۵۰] (۴)- الشعراء، ۲۳ و ۲۴.

[۵۱] (۵)- تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۱۷.

[۵۲] (۱)- أعلام قرآن، ص ۲۰۲.

[۵۳] (۲)- تاريخ« آلبرماله»، ج ۱، الفصل الرابع.

[۵۴] (۳)- التوبة، ۳۱.

[۵۵] (۱)- الزمر، ۵۳.

[۵۶] (۱)- الانفطار، ۱۹.

[۵۷] (۲)- المؤمن، ۱۶.

[۵۸] (۱)- لقمان، ۲۵.

[۵۹] (۲)- سبأ، ۷ و ۸.

[۶۰] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۱۹.

[۶۱] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية: مالك يوم الدين.

[۶۲] (۱)- الأنعام، ۱۶۲.

[۶۳] (۱)- طه، ۱۱۴.

[۶۴] (۲)- مریم، ۷۶.

[۶۵] (۳)- محمّد، ۱۷.

[۶۶] (۴)- معانی الاخبار، و تفسیر الإمام الحسن العسکری، نقلا عن تفسیر الصافی ذیل الآیة المذکورة.

[۶۷] (۵)- معانی الاخبار، و تفسیر الإمام الحسن العسکری، نقلا عن تفسیر الصافی.

[۶۸] (۱)- الأنعام، ۱۶۱.

[۶۹] (۲)- یس، ۶۱ و ۶۲.

[۷۰] (۳)- آل عمران، ۱۰۱.

[۷۱] (۴)- آل عمران، ۱۹.

[۷۲] (۱، ۲، ۳، ۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۰ و ۲۱.

[۷۳] (۱، ۲، ۳، ۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۰ و ۲۱.

[۷۴] (۱، ۲، ۳، ۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۰ و ۲۱.

[۷۵] (۱، ۲، ۳، ۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۰ و ۲۱.

[۷۶] (۱)- النساء، ۶۹.

[۷۷] (۱)- النحل، ۱۰۶.

[۷۸] (۲)- الفتح، ۶.

[۷۹] (۳)- آل عمران، ۱۱۲.

[۸۰] (۱)- راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۳ و ۲۴.

[۸۱] (۲)- هود، ۱۹.

[۸۲] (۳)- الشوری، ۱۶.

[۸۳] (۱، ۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۶. و مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۲.

[۸۴] (۱، ۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۶. و مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۲.

[۸۵] (۱)- الإسراء، ۸۸.

[۸۶] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۵۴.

[۸۷] (۱)- توحید الصدوق، ص ۱۶۲، ط سنة ۱۳۷۵ ه. ق ..

[۸۸] (۲)- هود، ۱- ۲.

[۸۹] (۳)- النمل، ۱- ۲.

[۹۰] (۴)- لقمان، ۱- ۲.

[۹۱] (۵)- الأعراف، ۱- ۲.

[۹۲] (۱)- لقمان، ۲.

[۹۳] (۱)- ص ۲۹.

[۹۴] (۲)- راجع المجلد السابع من هذا التّفسیر، ذیل الآیة ۳۹ من سورة الرعد.

[۹۵] (۳)- طه، ۵۰.

[۹۶] (۴)- الأنبیاء، ۷۳.

[۹۷] (۱)- الحشر، ۲۲.

[۹۸] (۱)- نقلا عن:« محمّد و القرآن».

[۹۹] (۱)- بشأن أهمیة الصلاة و آثارها التربویة الکبری، راجع تفسیر الآیة ۱۱۴ من سورة هود(فی المجلد السابع من هذا التّفسیر).

[۱۰۰] (۱)- راجع بشأن الإنفاق و أهمیته و آثاره، المجلد الثانی من هذا التّفسیر، ذیل الآیات ۲۶۱- ۲۷۴ من سورة البقرة.

[۱۰۱] (۱)- مجمع البیان، و نور الثقلین، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۱۰۲] (۱)- ص، ۲۶.

[۱۰۳] (۲)- صاحب« المنار» یصر علی أن تکرار کلمة« أولئک» فی الآیة یفید الإشارة إلی مجموعتین: الاولی- أولئک الذین یتصفون بالإیمان بالغیب، و بإقامة الصلاة، و بالإنفاق. و الثانیة- هم المؤمنون بالوحی السماوی و بالاخرة. نحن نستبعد کثیرا هذا التّفسیر، لأن الصفات الخمس المذکورة مترابطة لا یمکن التفکیک بینها، و کلها تصف مجموعة واحدة.

[۱۰۴] (۱)- یقول الراغب فی مفرداته: الوقایة حفظ الشیء ممّا یؤذیه و یضرّه، و التقوی جعل النفس فی وقایة ممّا یخاف، لذلک یسمی الخوف تارة تقوی بینما الخوف سبب للتقوی. و فی عرف الشرع، التقوی حفظ النفس عمّا یؤثم. و« کمال التقوی» اجتناب المشتبهات.

[۱۰۵] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۷.

[۱۰۶] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۶.

[۱۰۷] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱، ص ۶۲.

[۱۰۸] (۲)- الحجرات، ۱۴.

[۱۰۹] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۳۰.

[۱۱۰] (۱)- النساء، ۱۵۵.

[۱۱۱] (۱)- المؤمن، ۳۵.

[۱۱۲] (۲)- الجاثیة، ۲۳.

[۱۱۳] (۳)- الأنفال، ۲۹.

[۱۱۴] (۱)- المطففین، ۱۴.

[۱۱۵] (۱)- اصول الکافی، ج ۲، باب الذنوب، ح ۲۰، ص ۲۰۹.

[۱۱۶] (۲)- ق، ۳۷.

[۱۱۷] (۳)- الأحزاب، ۱۰.

[۱۱۸] (۴)- الأنفال، ۱۲.

[۱۱۹] (۵)- آل عمران، ۱۵۹.

[۱۲۰] (۱)- الجاثیة، ۲۳.

[۱۲۱] (۱)- یعمهون، من« العمه» أی التردّد فی الأمر، و أیضا بمعنی عمی القلب و البصیرة بسبب التحیّر(راجع: مفردات الراغب، و تفسیر المنار، و قاموس اللغة).

[۱۲۲] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۶۰۵.

[۱۲۳] (۲)- سفینهٔ البحار، ج ۱، مادهٔ(رئی).

[۱۲۴] (۳)- ننقل نص الخطبهٔ مع هوامشها کما جاءت فی نهج البلاغهٔ، شرح محمّد عبده، ص ۳۸۱(م).

[۱۲۵] (۴)- الزالون من زلّ أخطأ. و المزلون من أزله إذا أوقعه فی الخطأ.

[۱۲۶] (۵)- یفتنون أی یأخذون فی فنون من القول لا یذهبون مذهبا واحدا. و یعمدونکم أی یقیمونکم بکل عماد. و العماد: ما یقام علیه البناء. أی إذا ملتم عن أهوائهم أقاموکم علیها بأعمدهٔ من الخدیعهٔ حتی توافقوهم.

و المرصاد محل الارتقاب. و یرصدونکم: یقعدون لکم بکل طریق لیحوّلوکم عن الاستقامهٔ.

[۱۲۷] (۱)- دویّهٔ أی مریضهٔ من الدّوی بالقصر و هو المرض. و الصفاح- جمع صفحهٔ: و المراد منها صفاح وجوههم، و نقاوتها: صفاؤها من علامات العداوهٔ و قلوبهم ملتهبهٔ بنارها.

[۱۲۸] (۲)- یمشون مشی التستّر. و یدبون: أی یمشون علی هیئهٔ دبیب الضراء، أی یسرون سریان المرض فی الجسم أو سریان النقص فی الأموال و الأنفس و الثمرات.

[۱۲۹] (۳)- الداء العیاء- بالفتح: الّذی أعیی الأطباء و لا یمکن منه الشفاء.

[۱۳۰] (۴)- حسدهٔ: جمع حاسد، أی یحسدون علی السعهٔ، و إذا نزل بلاء بأحد أکدوه و زادوه. و إذا رجی أحد شیئا أوقعوه فی القنوط و الیأس.

[۱۳۱] (۵)- الصریع: المطروح علی الأرض، أی إنّهم کثیرا ما خدعوا أشخاصا حتی أوقعوهم فی الهلکهٔ.

[۱۳۲] (۶)- الشجو: الحزن، أی یبکون تصنّعا متی أرادوا.

[۱۳۳] (۷)- یتقارضون: کل واحد منهم یثنی علی الآخر لیثنی الآخر علیه، کأنّ کلا منهم یسلف الآخر دینا لیؤدیه إلیه، و کل یعمل للآخر عملا یرتقب جزاءه علیه.

[۱۳۴] (۸)- ألحفوا: بالغوا فی السؤال و ألحوا. و إن عذلوا أی لاموا، کشفوا أی فضحوا من یلومونه.

[۱۳۵] (۱)- التوبهٔ، ۷۹.

[۱۳۶] (۲)- المنافقون، ۷.

[۱۳۷] (۳)- المنافقون، ۸.

[۱۳۸] (۱)- الصف، ۱۰ و ۱۱.

[۱۳۹] (۱)- المنافقون، ۱ و ۲.

[۱۴۰] (۱)- الحشر، ۱۱ و ۱۲.

[۱۴۱] (۱)- یونس، ۵.

[۱۴۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۳۶.

[۱۴۳] (۱)- التوبهٔ، ۶۴.

[۱۴۴] (۱)- الأحزاب، ۶۰- ۶۱.

[۱۴۵] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۱.

[۱۴۶] (۲)- الأنبیاء، ۳۲.

[۱۴۷] (۱)- تذکر کثیر من الکتب أن سمک الجوّ المحیط بالأرض یبلغ مائهٔ کیلومتر، و یبدو أن المقصود بهذا السمک هو الطبقهٔ الجویهٔ الکثیفهٔ، لأن العلم الحدیث أثبت أن الهواء موجود بشکل رقیق متباعد الجزئیات علی بعد مئات الکیلومترات.

[۱۴۸] (۱)- بحار الأنوار، ط الجدید، ج ۳، ص ۱۱۱.

[۱۴۹] (۲)- النحل، ۷۹.

[۱۵۰] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۱.

[۱۵۱] (۱)- فی ظلال القرآن، سید قطب، ج ۱، ص ۵۳.

[۱۵۲] (۱)- یوسف، ۱۰۶.

[۱۵۳] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۶۹۷.

[۱۵۴] (۱)- ذهب بعض المفسرین إلی أن الضمیر فی(مثله) یعود علی النّبی کما یعود الضمیر فی(عبدنا) علیه أیضا.

و یصبح المعنی حینئذ: لو کنتم فی شک من الوحی فأتوا بشخص أمّی مثل محمّد یستطیع أن یأتی بمثل هذا القرآن. لکن هذا الاحتمال بعید، إذ ورد فی موضوع آخر\:i فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ E الطور، ۳۴، و فی موضع آخر أیضا\i فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ E یونس، ۳۸، و هذه دلالة علی أن الضمیر فی(مثله) یعود علی القرآن.

[۱۵۵] (۱)- الأنبیاء، ۹۸.

[۱۵۶] (۱)- الهمزة، ۶ و ۷.

[۱۵۷] (۱)- الاسراء، ۸۸.

[۱۵۸] (۱)- هود، ۱۳ و ۱۴.

[۱۵۹] (۲)- یونس، ۳۸.

[۱۶۰] (۱)- إعجاز القرآن، الرافعی.

[۱۶۱] (۲)- نقلا عن کتاب« إعجاز القرآن» للخطیب، ج ۱، ص ۴۸۳.

[۱۶۲] (۱)- رسالة الغفران، ص ۲۶۳.

[۱۶۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، سورة المدثر.

[۱۶۴] (۳)- من مقدمة کتاب« التنظیمات الحضاریة فی الإمبراطوریة الإسلامیة».

[۱۶۵] (۴)- نفس المصدر، ص ۱۱۱.

[۱۶۶] (۱)- نفس المصدر، ص ۹۱.

[۱۶۷] (۲)- عن کتاب« الاعتذار إلی محمّد و القرآن».

[۱۶۸] (۳)- المعجزة الخالدة.

[۱۶۹] (۱)- تقدم الإسلام السریع« نقلا عن محمّد و القرآن ...».

[۱۷۰] (۱)- فی بحث« استعمال اللفظ فی أکثر من معنی» أثبتنا إمکان هذه الأمر.

[۱۷۱] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۴، ص ۱۹.

[۱۷۲] (۲)- التوبة، ۷۲.

[۱۷۳] (۳)- البیّنة، ۸.

[۱۷۴] (۱)- جمع من المفسرین قالوا: إن عبارة\i یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً\ ...E لیس حکایة عن لسان المشرکین، بل هو حدیث اللّه.

و یکون المعنی بذلک« أن اللّه یجیب علی هؤلاء المعترضین الذین قالوا\:i ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا\E؟ و یقول سبحانه: إن اللّه یضل به کثیرا و یهدی به کثیرا، و لکن لا یضل إلا الفاسقین».(أما التّفسیر الأول فیبدو أنه أصح).

[۱۷۵] (۱)- حول دور الأمثال فی حیاة البشر، راجع الآیة ۱۷ من سورة الرعد فی المجلد السابع من هذا التّفسیر.

[۱۷۶] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۷۲.

[۱۷۷] (۲)- نهج البلاغة، شرح محمّد عبده، الخطبة ۱۸۶، ص ۲۷۵.

[۱۷۸] (۱)- الأنفال، ۲۹.

[۱۷۹] (۲)- الروم، ۱۰.

[۱۸۰] (۳)- الصف، ۵.

[۱۸۱] (۱)- یس، ۶۰ و ۶۱.

[۱۸۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۵، لمزید من التوضیح فی هذا المجال راجع المجلد السابع من هذا التّفسیر ذیل الآیة ۲۱ من سورة الرعد.

[۱۸۳] (۱)- سفینة البحار(مادة رحم).

[۱۸۴] (۲)- سفینة البحار(مادة رحم).

[۱۸۵] (۳)- محمّد، ۲۲.

[۱۸۶] (۱)- الملک، ۲.

[۱۸۷] (۱)- الأنعام، ۳۶.

[۱۸۸] (۱)- الجاثیة، ۱۳.

[۱۸۹] (۲)- هناک دراسة أو فی لهذا المفهوم فی الجزء السابع من هذا التّفسیر، ذیل الآیة ۲ من سورة الرعد، و ذیل الآیتین ۳۲ و ۳۳ من سورة إبراهیم.

[۱۹۰] (۳)- إبراهیم، ۳۲.

[۱۹۱] (۴)- إبراهیم، ۳۲.

[۱۹۲] (۵)- إبراهیم، ۳۳.

[۱۹۳] (۶)- الجاثیة، ۱۲.

[۱۹۴] (۷)- إبراهیم، ۳۳.

[۱۹۵] (۱)- موضوع« الرجعة» لا یعارض هذا المفهوم، لأنه محدود بعدد خاص من الأشخاص، و لیس بقانون عام.

و الآیة المذکورة تتحدث عن قضیة عامة.

[۱۹۶] (۲)- درسنا هذه المسألة فی« عود الأرواح و الارتباط بالأرواح».

[۱۹۷] (۱)- إبراهیم، ۲۴.

[۱۹۸] (۲)- ق، ۹.

[۱۹۹] (۳)- الأنبیاء، ۳۲.

[۲۰۰] (۴)- فصلت، ۱۱.

[۲۰۱] (۵)- منهم من قسّم کرات المنظومة الشمسیة العشر(تسع سیارات معروفة إضافة سیارة کانت موجودة بین المریخ و المشتری، ثم تهشمت و ظلت بقایاها تدور فی نفس المدار) إلی مجموعتین: مجموعة تحت مدار الأرض(عطارد و الزهرة) و مجموعة خارج مدار الأرض و فوقه، و هی سبع سیارات. و لعلهم بهذا أرادوا تفسیر السماوات السبع بالکرات السبع الخارجیة.(تأمل بدقة).

[۲۰۲] (۱)- لقمان، ۲۷.

[۲۰۳] (۲)- فصلت، ۱۲.

[۲۰۴] (۳)- الصافات، ۶.

[۲۰۵] (۱)- نقلا عن مجلة« فضاء» العدد ۵۶، فروردین ۱۳۵۱.

[۲۰۶] (۱)-« المیزان» ج ۱، ص ۱۲۱. نقلا عن معانی الأخبار، و هذا الحدیث و إن کان یوضح أکثر مکانة الأنبیاء و الأئمة- لا ینحصر بهذه الصفوة المقدسة بل إنهم المصداق الأتم و الأکمل لهذا الموضوع.

[۲۰۷] (۱)- المیزان، ج ۱، ص ۱۱۹.

[۲۰۸] (۱)- الرحمن، ۴.

[۲۰۹] (۱)- یوسف، ۴.

[۲۱۰] (۱)- إلی هذا أشار أیضا الآلوسی فی روح المعانی، و الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر.

[۲۱۱] (۲)- الکهف، ۵۰.

[۲۱۲] (۱)- راجع المجلد الرابع من هذا التّفسیر.

[۲۱۳] (۲)- تفسیر المیزان، ج ۱، ص ۱۲۵.

[۲۱۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۵۸.

[۲۱۵] (۲)- الرغد علی وزن الصمد یعنی الکثیر و الواسع و الهنیء، و عبارة« حیث شئتما» تعنی: من أی مکان شئتما فی الجنّة، أو من أی نوع شئتم من فاکهة الجنّة.

[۲۱۶] (۱)- الأعراف، ۲۰ و ۲۱.

[۲۱۷] (۲)- مرجع الضمیر فی« عنها» إمّا أن یعود علی« الجنّة» و یکون معنی« ممّا کانا فیه» فی هذه الحالة: من مقامهما الذی کانا فیه. و إمّا أن یعود علی« الشّجرة» فیکون معنی الآیة: إن الشیطان أزلهما بوسیلة الشّجرة، و أخرجهما من الجنّة التی کانا فیها.

[۲۱۸] (۱)- کتاب الکافی، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۲.

[۲۱۹] (۱)- لمزید من التوضیح فی هذا المجال، راجع المجلد الرابع من هذا التّفسیر، ذیل الآیات(۱۹- ۲۲) من سورة الأعراف، و المجلد العاشر ذیل الآیة(۱۲۱) من سورة طه.

[۲۲۰] (۱)- المائدة، ۹۱.

[۲۲۱] (۲)- الأنعام، ۱۱۲.

[۲۲۲] (۳)- کتاب الکافی، ج ۶، کتاب الأطعمة و الأشربة، باب الأوانی.

[۲۲۳] (۴)- کتاب الکافی، ج ۶، کتاب الأطعمة و الأشربة، باب الأوانی.

[۲۲۴] (۵)- کتاب الکافی، ج ۶، ص ۴۸۷، ح ۱۱.

[۲۲۵] (۱)- و لذلک، توبة العبد تتعدی بحرف الجر(إلی)، و توبة اللّه تتعدی ب(علی)، فیقال فی الاولی« تاب إلیه» و فی الثانیة« تاب علیه»، راجع التّفسیر الکبیر للفخر الرازی و تفسیر الصافی، ذیل آیات بحثنا.

[۲۲۶] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیات التی نحن بصددها.

[۲۲۷] (۲)- الأنبیاء، ۸۷.

[۲۲۸] (۳)- القصص، ۱۶.

[۲۲۹] (۱)- البقرة، ۸۳ و ۸۴.

[۲۳۰] (۱)- المائدة، ۱۲.

[۲۳۱] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الأول الصفحة ۷۲.

[۲۳۲] (۱)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۵۳ و ۹۵۷.

[۲۳۳] (۱)- تفسیر مجمع البیان، المجلد الأول ذیل الآیة.

[۲۳۴] (۱)- المنار، ج ۲، ص ۲۹۳، و مفردات الراغب، مادة« قوم».

[۲۳۵] (۱)- الصافات، ۱۰۵.

[۲۳۶] (۲)- الأعراف، ۱۵۷.

[۲۳۷] (۱)- نقلا باختصار عن« الهدایة الثانیة» مقدمة کتاب« أنیس الأعلام».

[۲۳۸] (۱)- سفینة البحار، مادة« عمل».

[۲۳۹] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۵.

[۲۴۰] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۴.

[۲۴۱] (۱)- یقول الراغب فی المفردات: الظن اسم لما یحصل عن أمارة متی قویت أدّت إلی العلم، و متی ضعفت جدا لم یتجاوز حدّ التوهم.

[۲۴۲] (۲)- المنار، ج ۱، ص ۳۰۲، و المیزان، ج ۱، ص ۱۵۴. و تفسیر روح المعانی، ج ۱، ص ۲۲۸. و فی آیات اخری إشارة إلی هذا المعنی کقوله تعالی\:i فَمَنْ کانَ یَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً\E(الکهف، ۱۰).

[۲۴۳] (۱)- نهج البلاغة، الکلام ۱۷۹.

[۲۴۴] (۱)- الطبرسی، مجمع البیان، ذیل الآیة المذکورة.

[۲۴۵] (۲)- نفس المصدر.

[۲۴۶] (۱)- آل عمران، ۱۱۰.

[۲۴۷] (۲)- الأعراف، ۱۳۷.

[۲۴۸] (۳)- الشعراء، ۸۸ و ۸۹.

[۲۴۹] (۱)- المنار، ج ۱، ص ۳۰۶.

[۲۵۰] (۲)- المنار، ج ۱، ص ۳۰۶.

[۲۵۱] (۳)- المیزان، ج ۱، ص ۱۵۶.

[۲۵۲] (۱)- البقرة، ۲۵۴.

[۲۵۳] (۲)- البقرة، ۴۸.

[۲۵۴] (۳)- المدثر، ۴۸.

[۲۵۵] (۴)- السجدة، ۴.

[۲۵۶] (۵)- الزمر، ۴۴.

[۲۵۷] (۶)- البقرة، ۲۵۵.

[۲۵۸] (۷)- سبأ، ۲۳.

[۲۵۹] (۸)- الأنبیاء، ۲۸.

[۲۶۰] (۱)- مریم، ۸۷.

[۲۶۱] (۲)- غافر، ۱۸.

[۲۶۲] (۱)- النساء، ۶۴.

[۲۶۳] (۲)- یوسف، ۹۷ و ۹۸.

[۲۶۴] (۳)- المؤمن، ۷.

[۲۶۵] (۴)- الزخرف، ۸۶.

[۲۶۶] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۳، ص ۵۷.

[۲۶۷] (۲)- عن بحار الأنوار، ج ۳، ص ۳۰۴ الطبعة القدیمة.

[۲۶۸] (۱)- الإختصاص، للمفید، نقلا عن البحار، ج ۳، ص ۳۰۵.

[۲۶۹] (۲)- هو یحیی بن شرف، من علماء القرن السابع الهجری، و النووی نسبة إلی مدینة« النوی» قرب دمشق.

[۲۷۰] (۳)- البحار، ج ۳، ص ۳۰۷.

[۲۷۱] (۱)- فتح المجید، ص ۲۱۱.

[۲۷۲] (۲)- ینبغی الالتفات إلی أننا نعالج هذه المسألة من خلال المنطق الخاص لعلماء العقائد.

[۲۷۳] (۳)- نقلا عن البحار و کتب اخری.

[۲۷۴] (۱)- الجن، ۱۸.

[۲۷۵] (۲)- کشف الشبهات لمحمّد بن عبد الوهاب، نقلا عن رسالة البراهین الجلیة، ص ۱۷.

[۲۷۶] (۱)- یونس، ۳۱.

[۲۷۷] (۲)- یونس، ۱۸.

[۲۷۸] (۳)- العنکبوت، ۶۵.

[۲۷۹] (۴)- رسالة أربع قواعد، ص ۲۴- ۲۷ طبع المنار بمصر(نقلا عن کتاب کشف الارتیاب، ص ۱۶۳).

[۲۸۰] (۵)- الهدیة السنیة، ص ۶۶(نقلا عن البراهین الجلیّة، ص ۸۳).

[۲۸۱] (۱)- الجن، ۱۸.

[۲۸۲] (۱)- یوسف، ۹۷.

[۲۸۳] (۲)- ص، ۵.

[۲۸۴] (۳)- الشعراء، ۹۷ و ۹۸.

[۲۸۵] (۱)- زیارة أهل القبور، ص ۱۵۲، نقلا عن کشف الارتیاب، ص ۲۶۸.

[۲۸۶] (۱)- یقال بلی الثوب أی خلق، و بلوته: اختبرته کأنی أخلقته من کثرة اختیاری له، و سمّی الغمّ بلاء من حیث إنه یبلی الجسم، و سمّی التکلیف بلاء لأن التکالیف مشاقّ علی الأبدان و لأنها اختبارات، و لأن اختبار اللّه تعالی للعباد تارة بالمسارّ لیشکروا و تارة بالمضار لیصبروا، فصارت المنحة و المحنة جمیعا بلاء.(المفردات، مادة:

بلی).

[۲۸۷] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۵۱.

[۲۸۸] (۱)- راجع التفاصیل فی المجلد العاشر تفسیر، الآیة(۷۷) و ما بعدها من سورة طه.

[۲۸۹] (۱)- راجع المجلدین الثالث و الخامس من هذا التّفسیر.

[۲۹۰] (۲)- ذهب صاحب المنار، إلی أن المقصود بالبعث بعد الموت، منح الذریة الکثیرة لبنی إسرائیل کی لا ینقطع نسلهم، و قال الآلوسی فی« روح المعانی» إن الموت هنا یعنی الغیبوبة، و البعث یعنی صحوة بنی إسرائیل من غیبوبتهم، و راح بعض یفسّر الموت بالجهل، و البعث بالتعلیم.

و لکن هذه المعانی کلها بعیدة عن هذه الآیة و الآیات المشابهة لها فی سورة الأعراف، و لا تلیق بمفسر ینشد فهم الحقیقة.

[۲۹۱] (۱)- المائدة، ۲۴.

[۲۹۲] (۲)- المائدة، ۲۵.

[۲۹۳] (۱)- المفردات، للراغب الأصفهانی.

[۲۹۴] (۱)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۶۱۲.

[۲۹۵] (۱)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۴۸۳.

[۲۹۶] (۲)- الزمر، ۶.

[۲۹۷] (۳)- الواقعة، ۹۳.

[۲۹۸] (۴)- آل عمران، ۱۹۸.

[۲۹۹] (۱)- تفسیر« روح المعانی» فی تفسیر الآیة المذکورة، و المفردات مادة« غمّ».

[۳۰۰] (۱)- علی روایة أبی حیان الأندلسی، نقلا عن تفسیر« الکاشف».

[۳۰۱] (۲)- راجع حول معنی« الجز» الجزء الخامس من هذا التّفسیر.

[۳۰۲] (۱)- الفصل السابع عشر، العدد ۶ و ۵.

[۳۰۳] (۱)- المفردات، مادة عثی.

[۳۰۴] (۱)- التنوین فی کلمة(مصر) دلیل علی تنکیرها، و علی عدم اختصاصها بالأرض المعروفة.

[۳۰۵] (۲)- تفسیر المنار، ذیل الآیة المذکورة.

[۳۰۶] (۱)- فی ظلال القرآن.

[۳۰۷] (۱)- راجع:« قرآن بر فراز قرون و اعصار»،(فارسی)، ص ۱۱۲.

[۳۰۸] (۲)- تفسیر القرطبی.

[۳۰۹] (۱)- نحن إذ نکتب هذه السطور، تصلنا أنباء عما ارتکبه هؤلاء القوم فی لبنان، من أعمال قاسیة وحشیة ذهب ضحیتها الآلاف من المدنیّین العزل، خلال مجازر وحشیة. قلّ أن شهد لها التاریخ نظیرا. و سیدفع هؤلاء المجرمون الثمن غالیا لفعلتهم الشنعاء هذه\،i وَ سَیَعْلَمُ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنْقَلَبٍ یَنْقَلِبُونَ E.

[۳۱۰] (۱)- آل عمران، ۸۵.

[۳۱۱] (۱)- المفردات، مادة صبا.

[۳۱۲] (۲)- الحج، ۱۷.

[۳۱۳] (۱)- راجع لمزید من التوضیح کتاب« آراء و عقائد بشری»(فارسی).

[۳۱۴] (۲)- الأنواء جمع نوء و هو النّجم مال للغروب، بلوغ الإرب جزء، ۲۶، ص ۲۲۲- ۲۲۸.

[۳۱۵] (۱)- بلوغ الإرب، ج ۲، ص ۲۲۳- ۲۲۵.

[۳۱۶] (۱)- مجمع البیان و تفاسیر اخری، ذیل الآیة ۱۷۱ من سورة الأعراف.

[۳۱۷] (۲)- المنار، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۳۱۸] (۱)- تفسیر أبی الرّازی و التّفسیر الکبیر للرّازی، ذیل الآیة التی نحن بصددها، و الآیة فی سورة الأعراف، ۱۷۱.

[۳۱۹] (۲)- رواه العیاشی، نقلا عن مجمع البیان.

[۳۲۰] (۱)- خسأ: طرد و زجر، و یستعمل لطرد الکلب، و للطرد المقرون بالاستهانة یقال: اخسأه.

[۳۲۱] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۳۲۲] (۱)- فى الفصل الحادى و العشرين من سفر التثنية فى العهد القديم وردت إشارة عابرة لهذه القصة. و ما ورد فى التوراة الحالية ليس بسرد للحادثة و إنما إعطاء حكم من الأحكام، و هذا نص السفر المذكور من الجملة ۱ إلى ۹:

« إذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا فى الحقل لا يعلم من قتله- يخرج شيوخك و قضاتك و يقيسون إلى المدن التى حول القتيل- فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير- و ينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه و لم يزرع، و يكسرون عنق العجلة فى الوادى- ثم يتقدم الكهنة بنو لاوى لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه و يباركوا باسم الرب و حسب قولهم تكون كل خصومة و كل ضربة- و يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق فى الوادى- و يصرحون و يقولون أيدينا لم تسفك هذا الدّم و أعيننا لم تبصر- اغفر لشعبك إسرائيل الذى فديت يا رب و لا تجعل دم برىء فى وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم الدم- فتنزع الدم البرىء من وسطك إذا عملت الصالح فى عينى الرب».

[۳۲۳] (۱)- مجمع البيان، فى تفسير الآية المذكورة.

[۳۲۴] (۱)- هذه القصة تشير إلى جواز نسخ الحكم قبل العمل وفق ما تقتضيه المصلحة، و تشير أيضا إلى وجود النسخ فى دين موسى، كما تدل على أن التكليف قد يكون له طابع العقاب. و هذه مباحث سنطرحها فى محلها.

[۳۲۵] (۱)- تفسير ابن كثير، ج ۱.

[۳۲۶] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۸۸.

[۳۲۷] (۱)- مجمع البيان، ج ۱، ص ۱۴۲.

[۳۲۸] (۱)- معنى« الأمّى» بحث بشكل أوفى فى تفسير الآية ۱۵۷ من سورة الأعراف، راجع المجلد الخامس.

[۳۲۹] (۲)- المائدة، ۱۸.

[۳۳۰] (۳)- آل عمران، ۲۴.

[۳۳۱] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۹۴، كتاب القضاء، باب ۱۰.

[۳۳۲] (۱)- التّفسير الكبير، الفخر الرازى، الآية المذكورة.

[۳۳۳] (۲)- الميزان، الآية المذكورة.

[۳۳۴] (۳)- النساء، ۴۸.

[۳۳۵] (۱)- فى تفسير الآية ۱۲۳ من سورة النساء بحثنا أيضا فى هذه الامتيازات الكاذبة(المجلد الثالث من هذا التّفسير).

[۳۳۶] (۱)- مجمع البيان، فى تفسير الآية المذكورة.

[۳۳۷] (۱)- المؤمنون، ۴۴.

[۳۳۸] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة الاولى.

[۳۳۹] (۳)- النحل، ۱۰۲.

[۳۴۰] (۱)- تفسير المنار، ذيل الآية المذكورة.

[۳۴۱] (۱)- النساء، ۱۵۵.

[۳۴۲] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ۴۵۶.

[۳۴۳] (۱)- مرّ بنا فى الآيتين(۵۱ و ۶۳) من هذه السّورة المباركة موضوع ميثاق بنى إسرائيل و خصائصه.

[۳۴۴] (۱)- المنار، ج ۱، ص ۳۳۱.

[۳۴۵] (۲)- الميزان، ج ۱، ص ۲۳۰- المنار، ج ۱، ص ۳۹۰.

[۳۴۶] (۱)- مجمع البيان، فى تفسير الآية، مع شيء من الاختصار.

[۳۴۷] (۱)- التحريم، ۶.

[۳۴۸] (۲)- البقرة، ۹۸.

[۳۴۹] (۳)- الميزان، فى تفسير الآية المذكورة.

[۳۵۰] (۱)- اسم« جبريل» ورد مرّتين فى هذه الآيات و مرّة فى سورة التحريم الآية(۴) و اسم ميكال لم يرد إلّا فى هذا الموضوع من القرآن.

[۳۵۱] (۲)- أعلام القرآن، ص ۲۷۷ و ۶۲۹.

[۳۵۲] (۱)- أعلام القرآن، ص ۲۷۷ و ۶۲۹.

[۳۵۳] (۱)- مجمع البيان، و تفسير القرطبى.

[۳۵۴] (۱)- سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۹۲. و مجمع البيان فى تفسير الآية، مع قليل من الاختلاف.

[۳۵۵] (۱)- بعض المفسرين عطفوا جملة« ما أنزل» على« ما تتلوا» و على هذا الأساس فسرنا الآية أعلاه، و بعضهم عطفوها على(السحر).

[۳۵۶] (۲)- الخلاق يعنى الخلق، و قد يعنى الحظّ و النصيب و هذا هو معنى الكلمة فى الآية.

[۳۵۷] (۱)- مجمع البيان، فى تفسير الآية المذكورة. الوسائل، ج ۱۲، ص ۱۰۶- ۱۰۷.

[۳۵۸] (۲)- نفس المصدر.

[۳۵۹] (۱)- أعلام القرآن، ص ۶۵۵.

[۳۶۰] (۲)- نفس المصدر.

[۳۶۱] (۱)- مفردات الراغب، مادة سحر.

[۳۶۲] (۲)- طه، ۶۶.

[۳۶۳] (۳)- الأعراف، ۱۱۶.

[۳۶۴] (۱)- وسائل الشيعة، الباب ۲۵، من أبواب ما يكتسب به، حديث ۷.

[۳۶۵] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۱۰۵، ح ۵.

[۳۶۶] (۳)- الكتاب المقدس سفر لاويين الإصحاح، ۱۹ الرقم ۳۱.

[۳۶۷] (۱)- الكتاب المقدس سفر لاويين الإصحاح ۲۰ الرقم ۶.

[۳۶۸] (۲)- قاموس الكتاب المقدس، تأليف المستر هاكس الإمريكى، ص ۴۷۱.

[۳۶۹] (۱)- تفسير القرطبى، و تفسير المنار و تفسير الفخر الرازى، ذيل الآية المذكورة.

[۳۷۰] (۲)- تفسير الفخر الرازى، و المنار، ذيل الآية المذكورة.

[۳۷۱] (۱)- الدر المنثور، نقلا عن أبى نعيم فى« حلية الأولياء» عن ابن عباس.

[۳۷۲] (۱)- يحتمل أيضا أن تشير الآية إلى نسخ أحكام إسلامية اخرى، كما ذكر الفخر الرازى فى تفسيره، و سيد قطب فى ظلاله.

[۳۷۳] (۱)- سفر التكوين، الفصل ۹، الفقرة ۳.

[۳۷۴] (۲)- البقرة، ۲۵۲.

[۳۷۵] (۳)- طه، ۲۲.

[۳۷۶] (۴)- الإسراء، ۱۲.

[۳۷۷] (۵)- فصلت، ۳۹.

[۳۷۸] (۱)- الشعراء، ۱۲۸.

[۳۷۹] (۲)- إن كانت بمعنى التأخير فهى من مادة(نسأ) و إن كانت بمعنى الحذف من الأذهان فهى من مادة(نسى).

[۳۸۰] (۱)- تفسير المنار، الآية المذكورة.

[۳۸۱] (۱)- واضح أن المقصود من« قالوا» ادعاء اليهود من جهة بأن الجنّة خاصة بهم، و ادعاء النصارى من جهة اخرى بأن الجنة حكر عليهم.

[۳۸۲] (۱)- تفسير مجمع البيان، و تفسير القرطبى، و تفسير المنار فى تفسير الآية المذكورة.

[۳۸۳] (۱)- مجمع البيان، و الميزان فى تفسير الآية المذكورة.

[۳۸۴] (۲)- تفسير الفخر الرازى، الآية المذكورة.

[۳۸۵] (۱)- التوبة، ۱۸.

[۳۸۶] (۱)- الأعراف، ۱۳۷.

[۳۸۷] (۱)- التوبة، ۳۰.

[۳۸۸] (۲)- يونس، ۶۸.

[۳۸۹] (۱)- غافر، ۶۸.

[۳۹۰] (۱)- هذه المسألة بحثناها فى سورة الأنبياء، الآية ۲۶، المجلد العاشر من هذا التّفسير.

[۳۹۱] (۱)- المفردات، مادة بدع.

[۳۹۲] (۱)- راجع لمزيد من التوضيح كتاب: خالق العالم.

[۳۹۳] (۱)- تفسير أبى الفتوح الرازى، و تفسير الفخر الرازى(مع اختلاف بسيط).

[۳۹۴] (۱)- مجمع البيان، الآية المذكورة.

[۳۹۵] (۲)- تفسير أبى الفتوح الرازى، و مجمع البيان.

[۳۹۶] (۱)- الجمعة، ۵.

[۳۹۷] (۲)- المقصود من الأعشار و الأخماس تقسيمات القرآن.

[۳۹۸] (۳)- الميزان، نقلا عن إرشاد الديلمى.

[۳۹۹] (۱)- روى عن ابن عباس أنه استخرج اختبارات إبراهيم من أربع سور قرآنية فكانت ثلاثين موضعا(تفسير المنار، تفسير الآية المذكورة)، و خلاصتها ما ذكرناه.

[۴۰۰] (۱)- الأحزاب، ۴۳.

[۴۰۱] (۲)- السجدة، ۲۴.

[۴۰۲] (۱)- أصول الكافى، ج ۱، باب طبقات الأنبياء و الرسل و الأئمة، ص ۱۳۳.

[۴۰۳] (۱)- لقمان، ۱۳.

[۴۰۴] (۲)- أصول الكافى، ج ۱، باب« طبقات الأنبياء و الرسل» حديث ۱.

[۴۰۵] (۳)- أمالى الشيخ المفيد، و مناقب ابن المغازلى، نقلا عن الميزان، تفسير الآية المذكورة.

[۴۰۶] (۱)- المنار، ج ۱، ص ۴۵۷- ۴۵۸.

[۴۰۷] (۱)- الصافات، ۱۰۵.

[۴۰۸] (۲)– النحل، ۱۲۲.

[۴۰۹] (۳)– النحل، ۱۲۰.

[۴۱۰] (۴)– مریم، ۴۱.

[۴۱۱] (۵)– التوبهٔ، ۱۱۴.

[۴۱۲] (۶)– النجم، ۳۷.

[۴۱۳] (۱)– بشأن أمن أرض مکهٔ لنا بحث آخر فی تفسیر الآیهٔ ۳۵ من سورهٔ إبراهیم.(راجع المجلد السابع من هذا التّفسیر).

[۴۱۴] (۱)– أی أن یطوفوا حوله.

[۴۱۵] (۲)– نهج البلاغهٔ، صبحی صالح، ص ۲۹۲–(الخطبهٔ القاصعهٔ).

[۴۱۶] (۳)– صاحب المنار، ینکر هذا الموضوع بالمرهٔ، و یری أن إبراهیم و إسماعیل أول من بنی الکعبهٔ، و هذا ما لا تؤیّده الروایات و لا عبارات القرآن الکریم.

[۴۱۷] (۱)– الأنعام، ۷۹.

[۴۱۸] (۲)– نور الثقلین، ج ۳، ص ۴۳۹.

[۴۱۹] (۱)– تفسیر أبی الفتوح الرازی، آیهٔ البحث.

[۴۲۰] (۱)–« صبغهٔ» منصوبهٔ علی أنّها مفعول مطلق لفعل محذوف أی(اصطبغوا) صبغهٔ اللّه، أو أنّها بدل من« ملهٔ إبراهیم» فی الآیات المتقدمهٔ، أو مفعول به لفعل محذوف و التقدیر(اتبعوا صبغهٔ اللّه) و اللّه أعلم!

[۴۲۱] (۱)– مجمع البیان، الآیهٔ.

[۴۲۲] (۲)– نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۳۲.

[۴۲۳] (۱)– مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۲۳.

[۴۲۴] (۱)– المنار، تفسیر الآیهٔ المذکورهٔ.

[۴۲۵] (۲)– نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۳۴.

[۴۲۶] (۱)– من المفسرین من قال إن أحد معانی« شطر»: النصف، و من هنا فإن مفهوم« شطر المسجد الحرام» یساوی مفهوم« وسط المسجد الحرام» و نعلم أن الکعبهٔ تقع وسط المسجد الحرام.(التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی، الآیهٔ المذکورهٔ).

[۴۲۷] (۱)– المنار، ج ۲، و التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، فی تفسیر الآیهٔ.

[۴۲۸] (۱)– أی یجتمعون کاجتماع قطع السحب الخریفیهٔ لدی هبوب الریح.

[۴۲۹] (۲)– نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۳۹.

[۴۳۰] (۳)– مجمع البیان، الآیهٔ.

[۴۳۱] (۱)– تفسیر المیزان، ج ۱، ص ۳۳۱.

[۴۳۲] (۲)– لمزید من التوضیح راجع(انگیزه پیدایش مذهب) دافع وجود الدین، فصل القضاء و القدر.

[۴۳۳] (۱)– فی ظلال القرآن، ج ۱، ص ۱.

[۴۳۴] (۲)– الإسراء، ۳۹.

[۴۳۵] (۱)– آل عمران، ۱۳۲.

[۴۳۶] (۱)– التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی، ج ۴، ص ۱۴۴، مع شیء من التصرف.

[۴۳۷] (۲)– إبراهیم، ۷.

[۴۳۸] (۱)- كتاب الخصال، نقلا عن تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۱۴۰.

[۴۳۹] (۱)- الزمر، ۱۰.

[۴۴۰] (۲)- لقمان، ۱۷.

[۴۴۱] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۸۲.

[۴۴۲] (۲)- الكافى، نقلا عن الميزان، ج ۱، ص ۱۵۴.

[۴۴۳] (۱)- سنشرح ذلك فى تفسير الآية ۱۰۰ من سورة(المؤمنون).« و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون».

[۴۴۴] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۵۹.

[۴۴۵] (۱)- قيل إن الصّلوات هنا ألوان التكريم و التأييد و رفعة المقام، و عن ابن عباس أنّها غفران الذنوب(المنار، ج ۲، ص ۴۰)، و واضح أن الصّلوات لها مفهوم واسع يشمل هذه الأمور و سائر النعم الإلهية.

[۴۴۶] (۱)- آل عمران، ۱۵۴.

[۴۴۷] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۹۳.

[۴۴۸] (۳)- العنكبوت، ۲.

[۴۴۹] (۴)- البقرة ۱۲۴.

[۴۵۰] (۵)- النمل، ۴۰.

[۴۵۱] (۱)- الأنبياء، ۳۵.

[۴۵۲] (۲)- المائدة، ۵۲.

[۴۵۳] (۳)- آل عمران، ۱۷۳.

[۴۵۴] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۹۹.

[۴۵۵] (۲)- العنكبوت، ۶۹.

[۴۵۶] (۱)- الأنعام، ۱۰.

[۴۵۷] (۲)- الانعام، ۳۴.

[۴۵۸] (۳)- هود، ۳۷.

[۴۵۹] (۴)- بحار الأنوار، ج ۴۵، ص ۴۶.

[۴۶۰] (۱)- الأنبياء، ۳۵.

[۴۶۱] (۲)- النمل، ۴۰.

[۴۶۲] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۷،(مادة صبر).

[۴۶۳] (۱)- الصافات، ۱۰۶.

[۴۶۴] (۱)- إبراهيم، ۳۷.

[۴۶۵] (۱)-(الجناح) فى الأصل الميل نحو اتجاه معيّن، و قيل للذنب جناح لأنه يميل بالإنسان عن طريق الحق.(قاله الراغب فى المفردات).

[۴۶۶] (۲)- النساء، ۱۰۱.

[۴۶۷] (۱)- لباب النقول فى أسباب النّزول، ص ۲۲.

[۴۶۸] (۱)- آل عمران، ۱۸۷.

[۴۶۹] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة.

[۴۷۰] (۲)- الاحتجاج للطبرسی، نقلا عن نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۳۹.

[۴۷۱] (۳)- أصول الکافی، ج ۱، باب ثواب العالم و المتعلم.

[۴۷۲] (۱)-« الاختلاف» قد یعنی التعاقب أی مجیء شیء و ذهاب آخر، و قد یعنی الزیادة و النقصان فی اللیل و النهار، و علی المعنیین تتحدث الآیة عن نظام خاص للّیل و النهار لا یمکن أن یکون قائما علی الصدفة. و من دون تدخل وجود عالم و قادر فی ذلک. و لهذا ورد فی القرآن الکریم، هذا المعنی فی موارد متعددة کدلیل علی الذات المقدسة.

[۴۷۳] (۱)- الفلک، هی السفینة أو السفن، فاللفظ مفرد و جمع.

[۴۷۴] (۱)- الأنداد جمع(ند) و هو(المثل)، و قال جمع من علماء اللغة، هو المثل المشابه فی الجوهر، أی إن المشرکین کانوا یعتقدون بأن هذه الأنداد تحمل الصفات الإلهیة!

[۴۷۵] (۲)- من دعاء علی علیه السلام المروی علی لسان کمیل بن زیاد. المعروف بدعاء(کمیل).

[۴۷۶] (۳)- هذا علی تفسیر« لو» شرطیة و جوابها محذوف، و من المفسرین من قال إن(لو) هنا للتمنی.

[۴۷۷] (۱)- الزخرف، ۳۸.

[۴۷۸] (۱)- البقرة، ۶۰.

[۴۷۹] (۲)- طه، ۸۱.

[۴۸۰] (۱)- المیزان، ج ۱، ص ۴۲۵.

[۴۸۱] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱، ص ۴۲۸.

[۴۸۲] (۲)- نفس المصدر.

[۴۸۳] (۳)- نفس المصدر.

[۴۸۴] (۱)- الأنعام، ۱۲۱.

[۴۸۵] (۱)- وفقا لهذا التّفسیر فان المعنی بحاجة إلی تقدیر، ففی الأصل: مثل الداعی للذین کفروا إلی الایمان ... و علی هذا تکون جملة« صم بکم عمی فهم لا یعقلون» و صفیة لهؤلاء الأشخاص الذین فقدوا جمیع آلیات الإدراک عملیا. لا أنهم فقدوا العین و الاذن و اللسان و لکن بما أنهم لم ینتفعوا بها بالوجه الصحیح، فکأنما قد فقدوها.

[۴۸۶] (۱)- مجمع البیان، تفسیر الآیة مورد البحث.

[۴۸۷] (۱)- الآیة ۱۶۸ من هذه السّورة.

[۴۸۸] (۱)-

\i\'i روی عن الإمام الصادق علیه السّلام:\E« أنّ(الباغی) هو الذّاهب للصّید علی سبیل التّنزّه، و(العادی) هو السّارق، و هذان مستثنیان من رخصة أکل المیتة و قصر الصّلاة\»،\i(وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۵۰۹\)E\E

[۴۸۹] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۶، ص ۳۱۰.

[۴۹۰] (۱)- الوسائل، ج ۱۶، ص ۳۱۰.

[۴۹۱] (۱)- آل عمران، ۷۷.

[۴۹۲] (۱)- المؤمنون، ۱۰۸.

[۴۹۳] (۱)- البقرة، ۲۷۳.

[۴۹۴] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب البر بالوالدین، ص ۱۲۹، حدیث ۱۵.

[۴۹۵] (۲)- البأساء من البؤس و هو الفقر، و الضراء تعنی الألم و المرض، و حین البأس أی حین الحرب(مجمع البیان، الآیة).

[۴۹۶] (۱)- مجمع البیان، الآیة.

[۴۹۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۵۹.

[۴۹۸] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۳۶۱(کتاب أحکام الوصایا، الباب العاشر).

[۴۹۹] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۳۵۲.

[۵۰۰] (۲)- نفس المصدر.

[۵۰۱] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۳۵۹.

[۵۰۲] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۳۶۰.

[۵۰۳] (۳)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۶۵۹، مادّة وصی.

[۵۰۴] (۱)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۵۰۵] (۱)-« یطیقونه» من« الطوق» و هو الحلقة التی تلقی علی العنق، أو توجد علیه بشکل طبیعی(کطوق الحمام) ثم أطلقت الکلمة علی نهایة الجهد و الطاقة، و الضمیر فی« یطیقونه» یعود علی الصوم، أی الذین یبذلون غایة طاقتهم لدی الصوم، أو بعبارة اخری: الذین یجهدهم الصوم و یثقل علیهم، و هم الطاعنون فی السّن و المرضی الذین لا یرجی علاجهم، فهؤلاء معفوون من الصوم و علیهم أن یدفعوا الفدیة بدل ذلک(و علی المرضی الذین یشفون أن یقضوا صومهم).

و قیل« الّذین یطیقونه» یعنی الذین کانوا یطیقونه، و لم یعودوا الیوم قادرین علی الصوم(و هذا المعنی جاء فی بعض الروایات).

[۵۰۶] (۲)- قیل فی عبارة« تطوّع خیرا» إنها إشارة إلی الصوم المستحب، و قیل أیضا: إنها تأکید علی أن الصوم ینبغی أن یکون عن رغبة و طواعیة، لا عن إجبار و إکراه.

[۵۰۷] (۳)- الجمعة، ۹.

[۵۰۸] (۴)- العنکبوت، ۱۶.

[۵۰۹] (۱)- أی من کان فی حضر فلیصم شهر رمضان، و قیل إن جملة« من شهد منکم الشّهر» تعنی رؤیة الهلال، و هو بعید، و الحق ما ذکرناه و روایات أئمة أهل البیت تؤید ذلک.

[۵۱۰] (۱)- بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۲۵۶.

[۵۱۱] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۲۵۵.

[۵۱۲] (۳)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۲۵۲.

[۵۱۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۲۵۲.

[۵۱۴] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۷، أول کتاب الصوم، ص ۳.

[۵۱۵] (۱)- کتاب« الصوم طریقة حدیثة لعلاج الأمراض»، ص ۶۵، الطبعة الاولی.

[۵۱۶] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۲۵۵.

[۵۱۷] (۳)- بحار الأنوار، ج ۱۴، من الطبعة القدیمة.

[۵۱۸] (۱)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۴۲۷.

[۵۱۹] (۲)- التوراة، سفر التثنیة، الفصل ۹، الرقم ۹.

[۵۲۰] (۳)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۴۲۸.

[۵۲۱] (۴)- نفس المصدر.

[۵۲۲] (۵)- إنجیل متی، الإصلاح الرابع، الرقم ۱ و ۲.

[۵۲۳] (۶)- إنجیل لوقا، الإصحاح الخامس، الرقم ۳۵- ۳۳.

[۵۲۴] (۷)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۴۲۸.

[۵۲۵] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۷، أبواب أحکام شهر رمضان، الباب ۱۸، الحدیث ۱۶.

[۵۲۶] (۲)- وسائل الشّیعة، ج ۷، الباب ۱۸ من أبواب أحکام شهر رمضان، ح ۲۰.

[۵۲۷] (۱)- الحجر، ۷۸.

[۵۲۸] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة.

[۵۲۹] (۱)- ق، ۱۶.

[۵۳۰] (۲)- أصول الکافی، ج ۲، کتاب الدعاء(باب إن الدعاء یرد البلاء)، الحدیث ۷.

[۵۳۱] (۳)- الأنفال، ۲۴.

[۵۳۲] (۱)- الدعاء، الطبیب و عالم النفس الشهیر« الکسیس کاریل».

[۵۳۳] (۱)- الدعاء للکسیس کاریل.

[۵۳۴] (۲)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۳۳۸، باب فضل الدعاء و الحثّ علیه، حدیث ۳.

[۵۳۵] (۳)- آئین زندگی(فارسی)، ص ۱۵۶.

[۵۳۶] (۱)- ن. م. ص ۱۵۲.

[۵۳۷] (۲)- النمل، ۶۲.

[۵۳۸] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۳۴۲، باب الإقبال علی الدعاء، الحدیث ۱.

[۵۳۹] (۲)- نفس المصدر.

[۵۴۰] (۳)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۴۴۸ و ۴۴۹.

[۵۴۱] (۴)- نفس المصدر.

[۵۴۲] (۱)- نفس المصدر السابق.

[۵۴۳] (۱)- نفس المصدر.

[۵۴۴] (۲)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۳۳۷.

[۵۴۵] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة.

[۵۴۶] (۲)- الرفث: هو الحدیث المکشوف عن المسائل الجنسیة، و استعیر لمعنی الجماع کما فی الآیة.

[۵۴۷] (۱)- تفسیر الصافی، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۵۴۸] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة.

الجزء الثانی

[تتمة سورة البقرة]

الآیات [سورة البقرة (۲): آیة ۱۸۸]

اشارة

وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

التّفسير

المبادئ الأوليّة للاقتصاد الإسلامى:

هـذه الآيـة الكريمـة تشـير إلى أحـد الأصول المهمّـة و الكليّة للاقتصاد الإسـلامى الحاكمة على مجمل المسائل الاقتصاديّة، بل يمكن القول إنّ جميع أبواب الفقه الإسـلامى فى دائرة الإقتصاد تدخل تحت هذه القاعدة و لذا نلاحظ أنّ الفقهاء العظام تمسّـكوا بهذه الآية فى مواضع كثيرة فى الفقه الإسلامى و هو قوله تعالى وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ

أمّا المراد من «الباطل» فى هذه الآية الشريفة فقد ذكر له عدّة تفاسير، ذهب أحدها إلى أنّ معناه الأموال الّتى يستولى عليها الإنسان من طريق الغصب و العدوان، و ذهب آخرون أنّ المراد هو الأموال الّتى يحصل عليها الشّخص من القمار و أمثاله.

و يرى ثالث أنّها إشارة إلى الأموال الّتى يكتسبها الشخص بواسطة القسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ۶

الكاذب (و أشكال الحيل فى المعاملات و العقود التّجاريّة).

و لكنّ الظاهر أنّ مفهوم الآية عام يستوعب جميع ما ذكرنا من المعانى للباطل لأنّ الباطل يعنى الزّائل و هو شامل لما ذكر من المعانى، فلو ورد فى بعض الرّوايـات- كمـا عن الإمـام البـاقر عليه السّـلام أنّ معنـاه (القسم الكاذب) أو ورد عن الإمام الصادق عليه السّـلام فى تفسيره ب (القمار) فهو فى الواقع من قبيل المصاديق الواضحة له.

فعلى هـذا يكـون كـلّ تصرّف فى أموال الآخرين من غير الطريق المشـروع مشـمولا لهـذا النهى الإلـهى. و كـذلك فهكـذا أنّ جميع المعاملات الّتى لا تتضمّن هدفا سليما و لا ترتكز على أساس عقلائى فهى مشمولة لهذه الآية.

و نفس هـذا المضـمون ورد فى سورة النساء الآية ٢٩ مع توضـيح أكثر حيث تخـاطب المؤمنين يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ

إنّ استـثناء التّجارة المقترنـة مع التراضـى هو فى الواقع بيان لمصداق بارز للمعاملات المشـروعة و المبّاحة، فلا تنفى الهبة و الميراث و الهديّة و الوصيّة و أمثالها، لأنّها تحقّقت عن طريق مشروع و عقلائى.

و الملفت للنظر أنّ بعض المفسّـِرين قالوا: أنّ جعل هذه الآية مورد البحث بعد آيات الصوم (آيات ١٨٢- ١٨٧) علامة على وجود نوع من الارتبـاط بينهما، فهناك نهى عن الأكل و الشـرب من أجل أداء عبادة إلهيّـة، و هنا نهى عن أكل أموال الناس بالباطل الّـذى يعتبر أيضـا نوع من الصوم و رياضـة النفوس، فهما فى الواقع فرعان لأصل التقوى. ذلك التقوى الّـذى ورد فى الآيـة بعنوان الهـدف النّهائى للصوم ١].

و لا بدّ من ذكر هذه الحقيقة و هى أنّ التعبير ب (الأكل) يعطى معنا واسعا حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٧

يشمل كلّ أنواع التصرّفات، أى أنه تعبير كنائى عن أنواع التصرّفات، و (الأكل) هو أحد المصاديق البارزة له.

ثمّ يشـير فى ذيل الآيةُ إلى نموذج بارز لأكل المال بالباطل و الّذى يتصوّر بعض الناس أنّه حقّ و صـحيح لأنّهم أخذوه بحكم الحاكم فيقول: وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٢].

(تـدلوا) من مـادّة (إدلاء)، و هى فى الأصل بمعنى إنزال الـدلو فى البئر لإخراج الماء، و هو تعبير جميل للموارد الّتى يقوم الإنسان فيها

بتسبيب الأسباب لنيل بعض الأهداف الخاصّة.

و هناك احتمالان فى تفسير هذه الجملة:

الأول: هو أن يكون المراد أن يقوم الإنسان بإعطاء قسما من ماله إلى القضاة على شكل هديّة أو رشوة (و كليهما هنا بمعنى واحد) ليتملّك البقيّة، فالقرآن يقول:

إنّكم بالرّغم من حصولكم على المال بحكم الحاكم أو القاضى ظاهرا، و لكنّ هذا العمل يعنى أكل للمال بالباطل، و هو حرام.

الثّانى: أن يكون المراد أنّكم لا ينبغى أن تتحاكموا إلى القضاة فى المسائل الماليّة بهدف و غرض غير سليم، كأن يقوم أحد الأشخاص بإيداع أمانة أو مال ليتيم لدى شخص آخر من دون شاهد، و عند ما يطالبه بالمال يقوم ذلك الشخص بشكايته لدى القاضى، و بما أنّ المودع يفتقد إلى الشاهد فسوف يحكم القاضى لصالح الطرف الآخر، فهذا العمل حرام أيضا و أكل للمال بالباطل.

و لا مانع من أن يكون لمفهوم الآية هذه معنا واسعا يشمل كلا المعنيين فى جملة (لا تدلوا)، بالرغم من أنّ كلّ واحد من المفسرين ارتضى أحد هذين الاحتمالين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸

و الملفت للنظر أنّه

ورد حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «إنّما أنا بشر و إنّما يأتينى الخصم فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضى له فإن قضيت له بحق مسلّم فإنّما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها»

[۳] أى لا تتصوروا أنه من أمواله و يحل له أكله لأن رسول اللّه حكم له بهذا المال، بل هى قطعة من نار.

بحث

وباء الرشوة:

من الأوبئة الاجتماعية التى ابتلى بها البشر منذ أقدم العصور وباء الارتشاء، و كانت هذه الظاهرة المرضيّة دوما من موانع إقامة العدالة الاجتماعية و من عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المقتدرة، بينما سنّت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليهم. الأقوياء قادرون بما يمتلكونه من قوّة أن يدافعوا عن مصالحهم، بينما لا يملك الضعفاء إلّا أن يلوذوا بالقانون ليحميهم، و لا تتحقّق هذه الحماية فى جوّ الارتشاء، لأنّ القوانين ستصبح ألعوبة بيد القادرين على دفع الرشوة، و سيستمر الضعفاء يعانون من الظلم و الاعتداء على حقوقهم.

و لهذا شدّد الإسلام على مسألة الرشوة و أدانها و قبّحها و اعتبرها من الكبائر، فهى تفتّت الكيان الاجتماعى، و تؤدى إلى تفشّى الظلم و الفساد و التمييز بين الأفراد فى المجتمع الإنسانى، و تصادر العدالة من جميع مؤسّساته.

جدير بالذكر أنّ قبح الرشوة قد يدفع بالراشين إلى أن يغطّوا رشوتهم بقناع من الأسماء الأخرى كالهدية و نظائرها، و لكن هذه التغطية لا تغيّر من ماهيّة العمل شيئا، و الأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرّمة غير مشروعة.

و هذا «الأشعث بن قيس» يتوسّل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة إلى بيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹

أمير المؤمنين على عليه السّلام أملا فى أن يستعطف الإمام تجاه قضية رفعها إليه، و يسمّى ما قدّمه هديّة، فيأتيه جواب الإمام صارما قاطعا، قال:

«هبلتک الهبول، أعن دین اللّه أتیتنی لتخدعنی؟ ... و اللّه لو أعطیت الأقالیم السبعة بما تحت أفلاکها علی أن أعصی اللّه فی نملة أسلبها جلب شعیرة ما فعلته، و أنّ دنیاکم عندی لأهون من ورقة فی فم جرادة تقضمها. ما لعلیّ و نعیم یفنی و لذّة لا تبقی؟! ...»
الإسلام أدان الرشوة بکلّ أشکالها، و فی السیرة
أنّ واحدا ممّن ولّاه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قبل رشوة قدّمت إلیه بشکل هدیة، فقال له الرسول: «کیف تأخذ ما لیس لک بحق؟!» قال: کانت هدیة یا رسول اللّه. قال: «أ رأیت لو قعد أحدکم فی داره و لم نولّه عملا أ کان الناس یهدونه شیئا؟!»[۴].
و من أجل أن یصون الإسلام القضاة من الرشوة بکلّ أشکالها الخفیّة و غیر المباشرة، أمر أن لا یذهب القاضی بنفسه إلی السوق للشراء، کی لا یؤثّر فیه بائع من الباعة فیبیعه بضاعة بثمن أقل، و یکسب علی أثرها تأیید القاضی فی المرافعة.
أین المسلمون الیوم من هذه التعالیم الدقیقة الصارمة الهادفة إلی تحقیق العدالة الاجتماعیة بشکل حقیقیّ عملیّ فی الحیاة؟! إن مسألة الرشوة مهمّة فی الإسلام إلی درجة
أن الإمام الصادق علیه السّلام یقول عنها: «و أمّا الرشا فی الحکم فهو الکفر باللّه العظیم»[۵]
و ورد فی الحدیث النبوی المعروف: «لعن اللّه الراشی و المرتشی و الماشی بینهما»
[۶].
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۸۹]

اشارة

یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِیَ مَواقِیتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ وَ لَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقی وَ أْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۱۸۹)

سبب النّزول

روی أنّ معاذ بن جبل قال: یا رسول اللّه إنّ الیهود یکثرون مسألتنا عن الأهلّة فأنزل اللّه هذه الآیة. و قیل: إنّ الیهود سألوا رسول اللّه: لم خلقت هذه الأهلّة؟ فنزلت هذه الآیة، لتقول إنّ للأهلّة فوائد مادیّة و معنویة فی نظام الحیاة الإنسانیة.

التّفسیر

التقویم الطبیعی:

کما اتّضح من سبب نزول هذه الآیة الشریفة من أنّ جماعة سألوا رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم عن الهلال و ما یحصل علیه من تغییرات متدرّجة و عن أسبابها و نتائجها،
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱
فیجیب القرآن الکریم علی سؤالهم بقوله یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَهِلَّةِ.
(أهلّة) جمع «هلال» و یعنی القمر فی اللّیلة الاولی و الثانیة من الشهر، و قال بعضهم أنّ التسمیة تطلق علیه لثلاث لیالی من أوّل الشّهر و

بعد ذلک یسمّی (قمر)، و ذهب بعضهم إلی أکثر من هذا المقدار.

و یری المرحوم (الطبرسی) فی مجمع البیان و آخرون من المفسّرین أنّ مفردة «الهلال» هی فی الأصل من (استهلال الصبی) و یعنی بکاء الطفل من بدایة تولّده، ثمّ استعمل للقمر فی بدایة الشهر، و کذلک استعمل أیضا فی قول الحجّاج فی بدایة مناسکهم: «لبیّک لبیّک». بصوت عال، فیقال (أهلّ القوم بالحج) و لکن یستفاد من کلمات الرّاغب فی المفردات عکس هذا المطلب و أنّ أصل هذه المفردة هو الهلال فی بدایة الشهر و قد استفید منه (استهلال الصبی) أی بکائه عند ولادته.

و علی کلّ حال یستفاد من جملة (یسألونک) الّتی هی فعل مضارع یدل علی التکرار أنّ هذا السؤال قد تکرّر مرّات عدیدة علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

ثمّ تقول الآیة قُلْ هِیَ مَواقِیتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَج

فما یحصل علیها من تغییرات منتظمة تدریجیّة، یجعل منها تقویما طبیعیا یساعد الناس علی تنظیم أمورهم الحیاتیة القائمة علی التوقیت و تحدید الزمن، و کذلک علی تنظیم امور عباداتهم المحدّدة بزمان معیّن کالحجّ و الصوم، و الهلال هو المرجع فی تعیین هذا الزمان، و بالاستهلال ینظّم الناس امور عبادتهم و شؤون دنیاهم.

هذا التقویم الطبیعی میسور لجمیع البشر متعلّمهم و أمّیهم، فی جمیع بقاع الأرض، و بموجبه یمکن تعیین أوّل الشهر و وسطه و آخره، بل کلّ یوم من أیّامه بدقّة.

و واضح أنّ نظام الحیاة الاجتماعیة یحتاج إلی تقویم، أی إلی وسیلة تعیّن التاریخ الدقیق، و من هنا وضع اللّه سبحانه هذا التقویم الطبیعی للناس فی کلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲

زمان و مکان.

من امتیازات قوانین الإسلام أنّ أحکامه قائمة عادة علی المقاییس الطبیعیة لأنّ هذه المقاییس متوفّرة لدی جمیع الناس، و لا یؤثّر علیها مرور الزمان شیئا.

أمّا المقاییس غیر الطبیعیة فلیست فی متناول ید الجمیع و لم یستطع جمیع البشر حتّی فی زماننا هذا أن یستفیدوا من مقاییس عالمیة موحّدة.

لذلک نری أنّ المقیاس فی الأحکام الإسلامیة یقوم فی الأطوال علی أساس الشبر و الخطوة و الذراع و القامة، و فی الزمان علی غروب الشمس و طلوع الفجر و زوال الشمس و رؤیة الهلال.

و هنا یتّضح امتیاز الأشهر القمریّة عن الشمسیّة، فالبرغم من أنّ کلا منهما یترتّب علی حرکات الکواکب السماویّة، و لکنّ الأشهر القمریّة قابلة للمشاهدة من الجمیع، فی حین أنّ الأشهر الشمسیّة لا یمکن تشخیصها إلّا بواسطة المنجمیّن و بالوسائل الخاصّة لدیهم، فیعرفون مثلا أنّ الشمس فی هذا الشهر سوف تقع فی مقابل أیّ صورة فلکیّة و أیّ برج سماوی.

و هنا یطرح هذا السؤال: هل أنّ الأشخاص الّذین سألوا عن الاهلّة کان هدفهم هو الاستفسار عن فائدة هذه التغیّرات او السؤال عن کیفیّة ظهور الهلال و تکامله إلی مرحلة البدر الکامل؟

ذهب بعض المفسّرین إلی الاحتمال الأوّل، و البعض الآخر ذهب إلی الثانی و أضاف: بما أنّ السؤال عن الأسباب و علل التغییرات لیست ذات فائدة لهم و لعلّ فهم الجواب أیضا سیکون عسیرا علی أذهانهم، فلهذا بیّن القرآن النتائج المترتّبة علی تغییرات الهلال لکی یتعلّم الناس أن یتوجّهوا دوما صوب النتائج.

ثمّ إنّ القرآن أشار فی ذیل هذه الآیة و بمناسبة الحدیث عن الحجّ و تعیین موسمه بواسطة الهلال الّذی ورد فی أوّل الآیة إلی إحدی عادات الجاهلیّین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳

الخرافیّة فی مورد الحجّ و نهت الآیة الناس عن ذلک، حیث تقول: وَ لَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقی وَ أْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ

ذهب کثیر من المفسّرین إلی أن الناس فی زمن الجاهلیّة کانوا یمتنعون لدی لبسهم ثیاب الإحرام من الدخول فی بیوتهم من أبوابها و یعتقدون بحرمة هذا العمل، و لهذا السبب فإنّهم کانوا یفتحون کوّه و ثقب خلف البیوت لکی یدخلوا بیوتهم منها عند إحرامهم، و کانوا یعتقدون أنّ هذا العمل صحیح و جیّد، لأنّه بمعنی ترک العادة[۷] و الإحرام یعنی مجموعة من تروک العادات فیکتمل کذلک بترک هذه العادة.

و یری بعضهم أنّ هذا العمل کان بسبب أنّهم لا یستظلّون بسقف فی حال الإحرام، و لذلک فإنّ المرور من خلال ثقب الحائط بالقیاس مع دخول الدار من الباب یکون أفضل، و لکنّ القرآن یصرّح لهم أنّ الخیر و البر فی التقوی لا فی العادات و الرّسوم الخرافیّة، و یأمر بعد ذلک فورا بأن یدخلوا بیوتهم من أبوابها.

و هذه الآیة لها معنی أوسع و أشمل، و ذلک أنّ الإنسان لا بدّ له عند ما یقدم علی أیّ عمل من الأعمال سواء کان دینیا أو دنیویا لا بدّ له من أن یرده من طریق الصحیح لا من الطرق المنحرفة، کما ورد هذا المعنی فی روایة جابر عند ما سأل الإمام الباقر علیه السّلام عن ذلک ۸].

و هکذا یکون بامکاننا العثور علی ارتباط جدید بین بدایة الآیة و نهایتها، و ذلک أنّ کلّ عمل لا بدّ أن یرده الإنسان من الطریق الصحیح، فالعبادة فی الحجّ أیضا لا بدّ أن یبتدأ الإنسان بها فی الوقت المقرّر و تعیینه بواسطة الهلال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴

التفسیر الثالث المذکور لهذه الآیة هو أنّ الإنسان عند ما یبحث عن الخیرات و البر لا بدّ أن یتوجّه صوب أهله و لا یطلبه من غیر أهله، و لکنّ هذا التفسیر یمکن إدراجه فی التفسیر الثانی حیث

ورد فی روایات أهل البیت علیهم السّلام عن الإمام الباقر علیه السّلام (آل محمّد أبواب اللّه و سبله و الدّعاة إلی الجنّة و القادة إلیها و الأدلّاء علیها إلی یوم القیامة)

[۹].

هذا الحدیث قد یشیر إلی أحد مصادیق المفهوم الکلّی للآیة لأنّه یقول أنّ علیکم أن تردوا فی جمیع أمورکم الدینیّة عن الطریق الصحیح لها، یعنی أهل بیت النبوّة الّذین هم طبقا لحدیث الثقلین قرین القرآن، و لذلک یمکنکم أن تأخذوا معارفکم الدینیّة منهم، لأنّ الوحی الإلهی نزل فی بیوتهم، فهم أهل بیت الوحی و صنائع القرآن و ثمار تربیته.

جملة (لیس البرّ) یمکنها أن تکون إشارة إلی نکتة لطیفة اخری أیضا، و هی أنّ سؤالکم عن الأهلّة بدل سؤالکم عن المعارف الدینیّة بمثابة من یترک الدخول إلی داره من الباب الأصلی ثمّ یرده من ظهر البیت فهو عمل مستقبح و مستهجن.

ضمنا یجب الالتفات إلی هذه النکتة فی قوله تعالی لکِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقی أنّ وجود المتّقین بمثابة الینابیع المستفیضة بالخیرات، بحیث أنّهم قد یطلق علیهم کلمة (البر) نفسه ۱۰].

بحوث

۱- أسئلة مختلفة من رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم

وردت فی ۱۵ مورد من الآیات القرآنیة جملة (یسألونک) و هذه علامة علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵

أنّ الناس یسألون من رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم مسائل مختلفة کرارا و مرارا، و الملفت للنظر أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم مضافا إلی أنّه لا ینزعج من هذه الأسئلة، فانه یستقبلهم بصدر رحب، و یجیب علی أسئلتهم من خلال الآیات القرآنیة.

و أساسا فإنّ السؤال هو أحد حقوق الناس فی مقابل القادة، و هذا الحقّ مشروع حتّی للأعداء أیضا، فبإمکانهم طرح اسئلتهم بشکل معقول. فالسؤال مفتاح حل المشکلات. و السؤال بوّابة العلوم. و السؤال وسیلة انتقال المعارف المختلفة.

و أساسا فإنّ طرح الأسئلة المختلفة فی کلّ مجتمع علامة علی التحرک الفکری و الحضاری و الثقافی للنّاس، و وجود کلّ هذه الأسئلة فی عصر النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم هو علامة علی تحرّک أفکار الناس فی ذلک المحیط ضمن تعلیمات القرآن الکریم و الدین الإسلامی.

فمن هنا یتّضح أنّ الأشخاص الّذین یعارضون طرح الأسئلة المنطقیّة فی المجتمع یخالفون بذلک روح تعالیم الإسلام، و عملهم هذا مخالف لروح تعالیم الإسلام.

۲- التقویم و نظام الحیاة

أنّ الحیاة الفردیّة و الاجتماعیة لا یمکن لها أن تقوم من دون نظم صحیح، نظم فی التخطیط، و نظم فی المدیریّة و الإجراء، فمن خلال نظرة سریعة إلی عالم الخلق من المنظومات الشمسیّة فی السماء إلی بدن الإنسان و بناء هیکله و أعضائه المختلفة ندرک جیدا هذا الأصل الشامل و الحاکم علی جمیع المخلوقات.

و علی هذا الأساس جعل اللّه سبحانه و تعالی هذا النظم تحت اختیار الإنسان و قرّر أن تکون الحرکات المنظّمة للکرة الأرضیّة حول نفسها و حول الشمس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶

و کذلک دوران القمر حول الأرض بانتظام وسیلة لتنظیم حیاة الإنسان المادیّة و المعنویّة و ترتیبها وفق برنامج معیّن.

و لنفترض أنّ هذا النظم فی الکون لم یکن موجودا و لم یکن لدینا مقیاس معیّن لقیاس الزّمان، فما ذا سیحصل من اضطراب فی حیاتنا الیومیّة؟! و لهذا فإنّ اللّه تعالی ذکر هذا النظم الزمانی فی الأجرام السماویّة بعنوان أحد المواهب المهمّة الإلهیّة للإنسان، ففی سورة یونس فی الآیة الخامسة یقول هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِکَ إِلَّا بِالْحَقِّ یُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ

و مثل ذلک ما ورد فی سورة الإسراء الآیة (۱۲) حول النظام الحاکم علی اللّیل و النهار[۱۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷

الآیة [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۹۰ الی ۱۹۳]

اشارة

وَ قاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ الَّذِینَ یُقاتِلُونَکُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ (۱۹۰) وَ اقْتُلُوهُمْ حَیْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَیْثُ أَخْرَجُوکُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّی یُقاتِلُوکُمْ فِیهِ فَإِنْ قاتَلُوکُمْ فَاقْتُلُوهُمْ کَذلِکَ جَزاءُ الْکافِرِینَ

(۱۹۱) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۲) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الـدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُـدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (۱۹۳)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسرين سببين لنزول الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث:
الأوّل: إنّ هذه الآية هى أوّل آية نزلت فى جهاد أعداء الإسـلام و بعد نزول هذه الآية شـرع رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سلّم فى قتالهم إلّا الكفّار الّذين لم يكونوا فى حرب مع المسلمين، و استمرّ هذا الحال حتّى نزل الأمر (اقتلوا المشركين) الّذى أجاز جهاد

و قتال جميع المشركين ۱۲].
الثانى: من أسـباب النزول ما ورد عن ابن عباس أنّ هـذه الآيـة نزلت فى صـلح الحديبيّة، و ذلك أنّ رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا خرج هو و أصـحابه فى العام الـذى أرادوا فيه العمرة، و كانوا ألفا و أربعمائـة، فساروا حتّى نزلوا الحديبيّة فصدّهم المشـركون عن البيت الحرام، فنحروا الهـدى بالحديبيّة، ثمّ صالحهم المشـركون على أن يرجع النبى من عامه و يعود العام المقبل، و يخلوا له مكّة ثلاثة أيّام، فيطوف بالبيت و يفعل ما يشاء، فرجع إلى المدينة من فوره. فلمّا كان العام المقبل تجهّز النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أصـحابه لعمرة القضاء، و خافوا أن لا تفى لهم قريش بـذلك و أن يصدّوهم عن البيت الحرام و يقاتلوهم، و كره رسول اللّه قتالهم فى الشهر الحرام فى الحرم، فأنزل اللّه هذه الآية لتبيح للمسلمين القتال إن بدأهم المشركون به ۱۳].
و الظـاهر أن شـأن النزول الأوّل يناسب الآيـة الاولى، و الثانى يناسب الآيات التاليـة، و على أيـة حال فإن مفهوم الآيات يـدلّ على أنها نزلت جميعا بفاصلة قصيرة.

التّفسير

القرآن أمر فى هـذه الآيـة الكريمـة بمقاتلة الذين يشـهرون السـلاح بوجه المسـلمين، و أجازهم أن يواجهوا السـلاح بالسـلاح، بعد أن انتهت مرحلة صبر المسلمين على الأذى، و حلّت مرحلة الدفاع الدامى عن الحقوق المشروعة.
تقول الآية: وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ
عبارة فِي سَبِيلِ اللَّهِ توضّح الهدف الأساسـى من الحرب فى المفهوم الإسلامى، فالحرب ليست للانتقام و لا للعلوّ فى الأرض و التزعم، و لا للاستيلاء

على الأراضى، و لا للحصول على الغنائم ... فهذا كلّه مرفوض فى نظر الإسلام.
حمل السـلاح إنّما يصحّ حينما يكون فى سبيل اللّه و فى سبيل نشر أحكام اللّه، أى نشر الحقّ و العدالة و التوحيد و اقتلاع جذور الظلم و الفساد و الانحراف.
و هـذه هى الميزة التى تميّز الحروب الإسـلامية عن سـاير الحروب فى العالم، و هـذا الهـدف المقـدّس يضع بصـماته على جميع أبعاد الحرب فى الإسلام و يصبغ كيفيّة الحرب و كميّتها و نوع السلاح و التعامل مع الأسرى و أمثال ذلك بصبغة «فى سبيل اللّه».
«سبيل» كما يقول الراغب فى مفرداته أنها فى الأصل تعنى الطريق السهل، و يرى بعض أنه ينحصر فى طريق الحقّ. و لكن مع الالتفات إلى أن هذه المفردة جاءت فى القرآن الكريم تارة بمعنى طريق الحقّ، و اخرى طريق الباطل، فإن مرادهم قد يكون إطلاقها على طريق

الحقّ مع القرائن.

و لا شكّ أن سلوك طريق الحقّ «سبيل اللّه» أى طريق الدين الإلهى مع احتوائه على مشاكل و مصاعب كثيرة إلّا أنه سهل يسير لتوافقه مع الفطرة و الروح الإنسانية للاشخاص المؤمنين، و لهذا السبب نجد المؤمنين يستقبلون تلك الصعوبات برحابة صدر حتّى لو ادّى بهم إلى القتل و الشهادة.

و عبارة الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ تدلّ بصراحة أن هذا الحكم الشرعى يختّص بمن شهروا السلاح ضد المسلمين، فلا تجوز مقاتلة العدو ما لم يشهر سيفا و لم يبدأ بقتال باستثناء موارد خاصّة سيأتى ذكرها فى آيات الجهاد.

و ذهب جمع من المفسرين إلى أن مفهوم الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ محدود بدائرة خاصّة، فى حين أن مفهوم الآية عام و واسع. و يشمل جميع الذين يقاتلون المسلمين بنحو من الأنحاء.

و يستفاد من الآية أيضا أن المدنيين- خاصّة النساء و الأطفال- لا يجوز أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰

يتعرّضوا لهجوم، فهم مصونون لأنّهم لا يقاتلون و لا يحملون السلاح.

ثمّ توصى الآية الشريفة بضرورة رعاية العدالة حتّى فى ميدان القتال و فى مقابل الأعداء، و تقول: وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أجل، فالحرب فى الإسلام للّه و فى سبيل اللّه، و لا يجوز أن يكون فى سبيل اللّه اعتداء و لا عدوان. لذلك يوصى الإسلام برعاية كثير من الأصول الخلقية فى الحرب، و هو ما تفتقر إليه حروب عصرنا أشدّ الافتقار. يوصى مثلا بعدم الاعتداء على المستسلمين و على من فقدوا القدرة على الحرب، أو ليست لديهم أصلا قدرة على الحرب كالشيوخ و النساء و الأطفال، و هكذا يجب عدم التعرّض للمزارع و البساتين، و عدم اللجوء إلى المواد السامة لتسميم مياه شرب العدوّ كالسائد اليوم فى الحروب الكيمياوية و الجرثوميّة.

الإمام علىّ عليه السّلام يقول لافراد جيشه- كما ورد فى نهج البلاغة- و ذلك قبل شروع القتال فى صفين:

«لا تقاتلوهم حتّى يبدؤوكم فإنكم بجهد اللّه على حجّة، و ترككم إيّاهم حتّى يبدؤوكم حجّة اخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن اللّه فلا تقتلوا مدبرا و لا تصيبوا معورا و لا تجهزوا على جريح، و لا تهيجوا النساء بأذى و إن شتمن أعراضكم و سببن أمراءكم» [۱۴].

و الجدير بالذكر أن بعض المفسّرين ذهب طبقا لبعض الروايات أن هذه الآية ناسخة للآية التى تنهى عن القتال من قبيل كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ۱۵]. و ذهب آخرون إلى أنها منسوخة بالآية وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً[۱۶]. و لكن الصحيح أن هذه الآية لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱

ناسخة و لا منسوخة، لأن منع المسلمين من قتال الكفّار كان فى زمن لم يكن للمسلمين القوّة الكافية، و مع تغيّر الظروف صدر الأمر لهم بالدفاع عن أنفسهم، و كذلك قتال المشركين فهو فى الواقع استثناء من الآية، فعلى هذا يكون تغيير الحكم بسبب تغيير الظروف لا من قبيل النسخ و لا الاستثناء، و لكن القرائن تدلّ على أن النسخ فى الروايات و فى كلمات القدماء له مفهوم غير مفهومه فى العصر الحاضر، أى له معنى واسع يشمل هذه الموارد أيضا.

فى الآية التالية الّتى تعتبر مكملّة للأمر الصادر فى الآية السابقة تتحدّث هذه الآية بصراحة أكثر و تقول: إنّ هؤلاء المشركين هم الّذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم و صبّوا عليهم ألوان الأذى و العذاب، فيجب على المسلمين أن يقتلوهم أينما وجدوهم، و أنّ هذا الحكم هو بمثابة دفاع عادل و مقابلة بالمثل، لأنّهم قاتلوكم و أخرجوكم من مكّة وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ثمّ يضيف اللّه تعالى وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ

أمّا المراد من (الفتنة) ما هو؟ فهناك أبحاث عديدة بين المفسرين و أرباب اللّغة، فهذه المفردة فى الأصل من (فتن) على وزن متن، و يقول الراغب فى مفرداته أنّها تعنى وضع الذهب فى النار للكشف عن درجة جودته و أصالته، و قال البعض أنّ المعنى هو وضع

الذهب فی النار لتطهیره من الشوائب ۱۷]، و قد وردت مفردة الفتنة و مشتقاتها فی القرآن الکریم عشرات المرّات و بمعان مختلفة.

فتارة جاءت بمعنی الامتحان مثل أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا یُفْتَنُونَ ۱۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲

و تارة وردت بمعنی المکر و الخدیعة فی قوله تعالی یا بَنِی آدَمَ لا یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیْطانُ ۱۹].

و تارة بمعنی البلاء و العذاب مثل قوله یَوْمَ هُمْ عَلَی النَّارِ یُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَکُمْ ۲۰].

و تارة وردت بمعنی الضّلال مثل قوله وَ مَنْ یُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً[۲۱].

و تارة بمعنی الشرک و عبادة الأوثان أو سد طریق الإیمان أمام الناس کما فی الآیة مورد البحث و بعض الآیات الواردة بعدها فیقول تعالی: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّی لا تَکُونَ فِتْنَةٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ لِلَّهِ

و لکنّ الظاهر أنّ جمیع هذه المعانی المذکورة للفتنة تعود إلی أصل واحد (کما فی أغلب الألفاظ المشترکة)، لأنه مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ معنی الأصل هو وضع الذهب فی النار لتخلیصه من الشوائب فلهذا استعملت فی کلّ مورد یکون فیه نوع من الشّدة، مثل الامتحان الّذی یقترن عادة بالشّدة و یتزامن مع المشکلات، و العذاب أیضا نوع آخر من الشّدة، و کذلک المکر و الخدیعة التی تتّخذ عادة بسبب أنواع الضغوط و الشدائد، و کذلک الشرک و إیجاد المانع فی طریق ایمان الناس حیث یتضمّن کلّ ذلک نوع من الشّدة و الضغط.

و الخلاصة أنّ عبادة الأوثان و ما یتولّد منها من أنواع الفساد الفردی و الاجتماعی کانت سائدة فی أرض مکّة المکرّمة حیث لوّثت بذلک الحرم الإلهی الآمن، فکان فسادها أشد من القتل فلذلک تقول هذه الآیة مورد البحث مخاطب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳

المسلمین: أنّه لا ینبغی لکم ترک قتال المشرکین خوفا من سفک الدماء فإنّ عبادة الأوثان أشد من القتل.

و قد أورد بعض المفسّرین احتمالا آخر، و هو أن یکون المراد من الفتنة هنا الفساد الاجتماعی من قبیل تبعید المؤمنین من أوطانهم حیث تکون هذه الأمور أحیانا أشد من القتل أو سببا فی قتل الأنفس و الأفراد فی المجتمع، فنقرأ فی الآیة (۷۳) من سورة الأنفال قوله تعالی إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَکُنْ فِتْنَةٌ فِی الْأَرْضِ وَ فَسادٌ کَبِیرٌ أی إذا لم تقطعوا الرابطة مع الکفّار فسوف تقع فتنة کبیرة فی الأرض و فساد عظیم.

ثمّ تشیر الآیة إلی مسألة اخری فی هذا الصدد فتقول: إنّ علی المسلمین أن یحترموا المسجد الحرام دائما و أبدا، و لذلک لا ینبغی قتال الکفّار عند المسجد الحرام، إلّا أن یبدؤکم بالقتال وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّی یُقاتِلُوکُمْ فِیهِ

فَإِنْ قاتَلُوکُمْ فَاقْتُلُوهُمْ کَذلِکَ جَزاءُ الْکافِرِینَ لأنّهم عند ما کسروا حرمة هذا الحرم الإلهی الآمن فلا معنی للسکوت حینئذ و یجب مقابلتهم بشدّة لکی لا یسیئوا الاستفادة من قداسة الحرم و احترامه.

و لکن بما أنّ الإسلام فی منهجه التربوی للناس یقرن دائما الإنذار و البشارة معا، و الثواب و العقاب کذلک، لکی یؤثّر فی المسلمین تأثیرا سلیما، فلذلک فسح المجال فی الآیة التالیة للعودة و التوبة فقال فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

أجل فلو أنّهم ترکوا الشرک و أطفؤوا نیران الفتنة و الفساد فسوف یکونون من إخوانکم، و حتّی بالنّسبة إلی الغرامة و التعویضیات الّتی تجب علی سائر المجرمین بعد قیامهم للجریمة فإنّ هؤلاء المشرکون معفون من ذلک و لا یشملهم هذا الحکم.

و ذهب البعض إلی أنّ جملة فَإِنِ انْتَهَوْا بمعنی ترک الشرک و الکفر (کما ذکرنا أعلاه).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴

و ذهب البعض إلی أنّ المعنی هو ترک الحرب و القتال فی المسجد الحرام أو أطرافه.

و لکنّ الجمع بین هذین المعنیین ممکن أیضا.

الآیة التالیة تشیر إلی هدف الجهاد فی الإسلام و تقول: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّی لا تَکُونَ فِتْنَةٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ لِلَّهِ

ثمّ تضيف: فإن ترك هؤلاء المشركون عقائدهم الباطلة و أعمالهم الفاسدة فلا تتعرّضوا لهم فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ
و حسب الظاهر ذكر فى هذه الآية ثلاثة أهداف للجهاد و هى:

١- إزالة الفتنة.

٢- محو الشرك و عبادة الأوثان.

٣- التصدّى للظلم و العدوان.

و يحتمل أن يكون المراد من الفتنة هو الشرك أيضا و على هذا يكون الهدف الأوّل و الثاني واحدا، و هناك أيضا احتمال آخر و هو أنّ المراد من الظلم هنا هو الشرك أيضا كما ورد فى الآية (١۶) من سورة لقمان إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

و على هذا الأساس فإنّ هذه الأهداف الثلاثة تعود إلى هدف واحد و هو التصدى للشرك و عبادة الأوثان و الّذى يمثّل المصدر الأساس لكلّ أنواع الفتن و المظالم و العدوان.

و ذهب البعض إلى أنّ الظلم فى هذه الآية بمعنى الابتداء بالحرب أو القتال فى الحرم الإلهى الآمن، و لكنّ الاحتمال الأوّل و هو أنّ المراد من الآية هو الأهداف الثلاثة المتقدّمة أقوى، فصحيح أنّ الشرك هو أحد مصاديق الفتنة، و لكنّ الفتنة لها مفهوم أوسع من الشرك، و صحيح أيضا أنّ الشرك أحد مصاديق الظلم، و لكنّ الظلم له مفهوم أوسع أيضا، فعند ما نرى تفسيره بالشرك أحيانا فهو لبيان المصداق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٢۵

و على هذا الأساس لا يكون الجهاد فى الإسلام لغرض التسلّط على البلدان و الفتوحات، و ليس لغرض تحصيل الغنائم، و لا بهدف تملّك الأسواق للتّجارة أو السيطرة على ثروات و معادن البلدان الاخرى، أو من أجل غلبة العنصر القومى على آخر.

فالهدف هو أحد الثلاثة المتقدّمة: إزالة الفتن و الفوضى الّتى تؤدّى إلى سلب حريّة الناس و أمنهم، و كذلك محو آثار الشرك و عبادة الأوثان، و أيضا التصدّى للظّالمين و المعتدين و الدفاع عن المظلومين.

بحوث

١- مسألة الجهاد فى الإسلام

نلاحظ فى الكثير من المذاهب الوضعيّة المنحرفة أنّه لا وجود للجهاد لديهم إطلاقا، فكلّ ما فيه يدور حول محور النصائح و المواعظ الأخلاقية، حتّى أنّ البعض عند ما يسمع بوجود مقالة الجهاد و استعمال القوّة كأحد الأركان المهمّة فى التعاليم الإسلاميّة يتعجّب كثيرا على اقتران الدين بالحرب.

و لكن مع ملاحظة أنّ الحكّام الطواغيت و الفراعنة و أمثالهم من النمروديّين و القارونيّين الّذين يعترضون دائما على دعوة الأنبياء الإصلاحيّة و يقفون بوجهها و لا يرضون إلّا بإزالة الدين الإلهى من الوجود يتّضح أنّ على المؤمنين و المتديّنين فى الوقت الّذى يعتمدون على العقل و المنطق و الأخلاق فى تفاعلهم الاجتماعى مع الآخرين عليهم أن يتصدّوا لهؤلاء الظالمين و الطّواغيت و يشقّوا طريقهم بالجهاد و تحطيم هذه الموانع و العوائق الّتى يقيمها حكّام الجور فى طريقهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٢۶

و أساسا فإنّ الجهاد هو من علامات الحياة لكلّ موجود و يمثّل قانونا عامّا فى عالم الأحياء، فجميع الكائنات الحيّة أعم من الإنسان و الحيوان و النبات تجاهد عوامل الفناء من أجل بقائها، و سيأتى مزيد من التوضيح فى هذا المجال فى سورة النساء ذيل الآية ٩۵ و ٩۶.

و علی کلّ حال فإنّ من افتخاراتنا نحن المسلمین أنّ دیننا یقرن المسائل الدینیّة بالحکومة و یعتمد علی الجهاد کأحد أرکان المنظومة العقائدیّة لهذا الدین، غایة الأمر یجب ملاحظة أهداف هذا الجهاد الإسلامی، و هذا هو الّذی یفصل بیننا و بین الآخرین.

۲- أهداف الجهاد فی الإسلام

یصرّ البعض من المتغرّبین أنّ الجهاد الإسلامی منحصر فی الجهاد الدفاعی و یحاولون توجیه جمیع غزوات النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم أو الحروب الّتی حدثت بعده فی هذه الدائرة، فی حین أنّه لا یوجد دلیل علی هذه المسألة، و لم تکن جمیع غزوات رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم دفاعیّة، فمن الأفضل العودة إلی القرآن الکریم بدل هذه الاستنباطات الخاطئة لاستجلاء أهداف الجهاد من القرآن الکریم، تلک الأهداف المنطقیّة القابلة للعرض علی الصّدیق و العدو.

و کما تقدّم فی الآیات أعلاه أنّ الجهاد فی الإسلام یتعقّب عدّة أهداف مباحة:

الف: الجهاد من أجل إطفاء الفتن و بعبارة اخری الجهاد الابتدائی من أجل التحریر، فنحن نعلم أنّ اللّه عزّ و جلّ قد أنزل علی البشریّة شرائع و برامج لسعادة البشر و تحریرهم و تکاملهم و إیصالهم إلی السعادة و الرفاه، و أوجب علی الأنبیاء علیهم السّلام أن یبلّغوا هذه الشرائع و الإرشادات إلی الناس، فلو تصوّر أحد الأفراد أو طائفة من الناس أنّ إبلاغ هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷

الشرائع للناس سوف یعیقه عن نیل منافعه الشخصیّة و سعی لإیجاد الموانع و وضع العصی فی عجلات الدعوة الإلهیّة، فللأنبیاء الحقّ فی إزالة هذه الموانع بطریقة المسالمة أوّلا و إلّا فعلیهم استخدام القوّة فی إزالة هذه الموانع عن طریق الدّعوة لنیل الحریّة فی التبلیغ.

و بعبارة اخری: أنّ الناس فی جمیع المجتمعات البشریّة لهم الحقّ فی أن یسمعوا مقالة منادی الحقّ و هم أحرار فی قبول دعوة الأنبیاء، فلو تصدّی فرد أو جماعة لسلب هذا الحقّ المشروع للناس و حرمانهم منه و منعوا صوت الحقّ من الوصول إلی الناس لیحرّرهم من قیود الأسر و العبودیّة الفکریّة و الاجتماعیّة، فلاتباع الدین الحقّ فی الاستفادة من جمیع الوسائل لتهیئة هذه الحریّة، و من هنا کان (الجهاد الابتدائی) فی الإسلام و سائر الأدیان السماویّة ضروریّا.

و کذلک إذا استخدم البعض القوّة و الإرهاب فی حمل جماعة من المؤمنین علی ترک دینهم و العودة إلی الدین السابق لهم، فللمؤمنین الحقّ فی الاستفادة من جمیع الوسائل لرفع هذا الإکراه و الإرهاب.

ب- الجهاد الدفاعی.

هل من الصحیح أن یواجه الإنسان هجوما و عدوانا علیه و لا یدافع عن نفسه؟ أو أن یقوم جیش معتدی بالهجوم علی بعض الشعوب الاخری و لا تقوم تلک الشعوب بالدفاع عن نفسها و عن بلدها بل تقف موقف المتفرّج؟

هنا نجد أنّ جمیع القوانین السماویّة و البشریّة تبیح للفرد أو الجماعة الدّفاع عن النفس و الاستفادة ممّا وسعهم من قوّة فی هذا السبیل، و یسمّی مثل هذا الجهاد ب (الجهاد الدفاعی) و من ذلک غزوة الأحزاب و احد و مؤتة و تبوک و حنین و نظائرها من الحروب الإسلامیّة الّتی لها جنبة دفاعیّة.

و فی هذا الزمان نجد أنّ الکثیر من أعداء الإسلام یعتدون علی المسلمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸

و یشعلون نیران الحروب للسّیطرة علی البلاد الإسلامیّة و نهب ثرواتها، فکیف یبیح الإسلام السکوت أمام هذا العدوان؟

ج- الجهاد لحمایة المظلومین و نلاحظ فرعا آخر من فروع الجهاد فی الآیات القرآنیة الکریمة، و هو الجهاد لحمایة المظلومین، فتقرأ فی الآیة (۷۵) من سورة النساء وَ ما لَکُمْ لا تُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنا

أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْیَةِ الظّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ نَصِیراً.

و علی هذا الأساس فالقرآن یطلب من المسلمین الجهاد فی سبیل اللّه و کذلک فی سبیل المستضعفین المظلومین، و أساسا إنّ هاتین الغایتین متحدتان، و مع الأخذ بنظر الاعتبار عدم وجود قید أو شرط فی الآیة أعلاه نفهم من ذلک وجوب الدفاع عن جمیع المظلومین و المستضعفین فی کلّ نقطة من العالم القریبة منها أو البعیدة، و فی الداخل أو الخارج.

و بعبارة أخری: أنّ حمایة المظلومین فی مقابل عدوان الظّالمین هو أصل فی الإسلام یجب مراعاته، حتّی لو أدّی الأمر إلی الجهاد و استخدام القوّة، فالإسلام لا یرضی للمسلمین الوقوف متفرّجین علی ما یرد علی المظلومین فی العالم، و هذا الأمر من الأوامر المهمّة فی الشریعة الإسلامیّة المقدّسة الّتی تحکی عن حقانیّة هذا الدّین.

د- الجهاد من أجل دحر الشرک و عبادة الأوثان الإسلام یدعو البشریّة إلی اعتناق الدّین الخاتم الأکمل و هو یحترم مع ذلک حریّة العقیدة، و بذلک یعطی أهل الکتاب الفرصة الکافیة للتّفکیر فی أمر اعتناق الرّسالة الخاتمة، فإن لم یقبلوا بذلک فإنّه یعاملهم معاملة الأقلیّة المعاهدة (أهل الذّمة) و یتعایش معهم تعایشا سلمیّا ضمن شروط خاصّة بسیطة و میسورة، لکنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹

الشرک و الوثنیّة لیسا بدین و لا عقیدة و لا یستحقّان الاحترام، بل هما نوع من الخرافة و الحمق و الانحراف و نوع من المرض الفکری و الأخلاقی الّذی ینبغی أن یستأصل مهما کلّف الثمن.

کلمة حریّة العقیدة و احترام أفکار الآخرین تصدق فی مواقع یکون لهذه العقیدة و الأفکار علی أقلّ تقدیر أساس من الصحّة، أما الانحراف و الخرافة و الضلال فلیست بأشیاء تستحق الاحترام، و لذلک یأمر الإسلام بضرورة اقتلاع جذور الوثنیّة من المجتمع و لو کلّف ذلک خوض الحرب، و ضرورة هدم آثار الشرک و الوثنیّة بالطرق السلمیّة أوّلا، فإن تعذّرت الطرق السلمیّة فبالقوّة.

أجل فالإسلام یری ضرورة تطهیر الأرض من أدران الشرک و الوثنیّة و یعد المسلمین بمستقبل مشرق للبشریّة فی العالم تحت ظل حکومة التوحید و زوال کلّ أنواع الشرک و الوثنیّة.

و ممّا تقدّم من ذکر أهداف الجهاد یتّضح أنّ الإسلام أقام الجهاد علی أسس منطقیّة و عقلیة، فلم یجعله وسیلة للتّسلّط و السیطرة علی البلدان الاخری و غصب حقوق الآخرین و تحمیل العقیدة و استعمار و استثمار الشعوب الاخری، و لکنّنا نعلم أنّ أعداء الإسلام و خاصّة القائمون علی الکنیسة و المستشرقین المغرضین سعوا کثیرا لتحریف الحقائق ضد مسألة الجهاد الإسلامی، و اتّهموا الإسلام باستعمال الشدّة و القوّة و السیف من أجل تحمیل الإیمان به و تهجموا کثیرا علی هذا القانون الإسلامی.

و الظّاهر أنّ خوفهم و هلعهم إنّما هو من تقدّم الإسلام المطرد فی العالم بسبب معارفه السّامیّة و برنامجه السّلیم، و لهذا سعوا لإعطاء الإسلام صبغة موحشة کیما یتمکّنوا من الوقوف أمام انتشار الإسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰

۳- لماذا شرّع الجهاد فی المدینة

نعلم أنّ الجهاد وجب علی المسلمین فی السنّة الثانیة بعد الهجرة، و لم یکن قد شرّع قبلها، و السبب واضح فهو یعود من جهة إلی قلّة عدد المسلمین فی مکّة بحیث یکون الأمر بالکفاح المسلّح فی مثل هذه الحالة هو الانتحار بعینه، و من جهة اخری کان العدو فی مکّة قویّا جدّا، فمکّة فی الواقع کانت مرکز القوی المعادیة للإسلام، و لم یکن بالإمکان حمل السّلاح فیها.

أمّا حین قدم النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المدینة إزداد عدد المؤمنین و اتسع نطاق الدّعوة داخل المدینة و خارجها، و تأسّست الحکومة الإسلامیّة الصالحة، و تهیّأت وسائل الجهاد ضدّ العدو علی صعید العدّة و العدد، و بما أنّ المدینة المنوّرة کانت

بعیدة عن مکّة استطاع المسلمون فی حالة من الأمن و الطمأنینة أن یبنوا وجودهم و یعدّوا أنفسهم لمواجهة العدو و الدفاع عن رسالتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۹۴]

اشارة

الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدی عَلَیْکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ (۱۹۴)

التّفسیر

احترام الأشهر الحرم و المقابلة بالمثل:

هذه الآیة الشریفة تکمّل البحث الوارد فی الآیات السّابقة عن الجهاد بشکل عام، فهی فی الواقع إجابة علی من یتصوّر أنّه لا یمکن القتال فی الأشهر الحرم، فکیف أمر الإسلام بالقتال فیها.

و لتوضیح الأمر: کان المشرکون علی علم بأنّ الإسلام یحضر الحرب فی الأشهر الحرم (ذی القعدة و ذی الحجة و محرم و رجب) خاصّة فی حرم مکّة و المسجد الحرام، و بعبارة اخری أنّ الإسلام أمضی هذه السنّة التی کانت موجودة من قبل، فکان نبی الإسلام ملتزم بهذا الحضر، لذلک أرادوا أن یشنّوا هجوما مباغتا علی المسلمین فی هذه الأشهر الحرم متجاهلین حرمتها ضانّین أنّ المسلمین ممنوعون من المواجهة، و فی هذه الحالة یستطیعون أن یحقّقوا هدفهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲

الآیة الکریمة تکشف مؤامرة المشرکین و تحمّل المسلمین مسئولیّة مواجهة العدوان حتّی فی الأشهر الحرم فتقول الآیة: الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ أی أنّ الأعداء لو کسروا حرمة و احترام هذه الأشهر الحرم و قاتلوکم فیها فلکم الحقّ أیضا فی المقابلة بالمثل، لأن وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ

(حرمات) جمع «حرمة» و تعنی الشیء الّذی یجب حفظه و احترامه، و قیل للحرم: حرم لأنّه مکان محترم و لا یجوز هتکه. و یقال الأعمال الممنوعة و القبیحة حرام لهذا السبب، و لهذا أیضا کانت بعض الأعمال محرّمة فی الشهر الحرام و الأرض الحرم.

و هذه العبارة وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ تتضمنّ جوابا رابعا لأولئک الّذین اعترضوا علی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلم لإباحته الحرب فی الأشهر الحرم، أو أرض مکّة المکرّمة الحرم الإلهی الآمن، و تعنی أنّ احترام الأشهر الحرم ضروری أمام العدو الّذی یراعی حرمة هذه الأشهر، أمّا العدو الّذی یهتک هذه الحرمة فلا تجب معه رعایة الاحترام و تجوز محاربته حتّی فی هذه الأشهر، و امر المسلمون أن یهبّوا للجهاد عند اشتعال نار الحرب کی لا تخامر أذهان المشرکین فکرة انتهاک حرمة هذه الشّهور.

ثمّ تشرّع الآیة حکما عامّا یشمل ما نحن فیه و تقول: فَمَنِ اعْتَدی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدی عَلَیْکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ

فالإسلام- و خلافا للمسیحیّة الحالیّة الّتی تقول (إذا لطمک شخص علی خدّک الأیمن فأدر له الأیسر)[۲۲]- لا یقول بمثل هذا الحکم المنحرف الّذی یبعث علی جرأة المعتدی و تطاول الظّالم، و حتّی المسیحیّون فی هذا الزّمان لا یلتزمون مطلقا بهذا الحکم أیضا، و

يردّون على كلّ عدوان مهما كان قليلا بعد و ان أشد، و هذا أيضا مخالف لدستور الإسلام فی الرّد، فالإسلام يقول: يجب التصدّی للظّالم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳

و المعتدی، و يعطی الحقّ للمظلوم و المعتدی عليه المقابلة بالمثل، فالاستسلام فی منطق الإسلام يعنی الموت، و المقاومة و التصدّی هی الحياة.

و الجدير بالذكر أنّ مفهوم الآية يشمل دائرة وسيعة و لا ينحصر بمسألة القصاص فی مقابل القتل أو الجنايات الاخرى، بل يشمل حتّى الأمور الماليّة القصاص فی مقابل القتل أو الجنايات الأخرى، بل يشمل حتّى الأمور الماليّة و سائر الحقوق الاخرى.

و هذا طبعا لا يتعارض مع مسألة العفو و الصفح عن الإخوان و الأصدقاء النادمين.

أحيانا يتصوّر بعض العوام أنّ معنى الآية هو أنّه لو قتل شخص شخصا آخر فإنّ معنى المقابلة بالمثل تبيح لأب المقتول أن يقتل ابن القاتل، و إذا ضرب أخاه فيجوز له أن يضرب أخا الضّارب، و لكن هذا اشتباه كبير، لأنّ القرآن يقول فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ لا الأفراد الأبرياء.

و أيضا لا ينبغی أن يتصوّر أنّ مفهوم الآية هو أنّه أن أقام شخص بإحراق بيت آخر فيجوز للمعتدی عليه أن يقوم بحرق بيت المعتدی، بل مفهومه أن يؤدّی المعتدی ما يعادل قيمة البيت المحترق إلى المعتدی عليه.

و عبارة وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ تأكيد آخر على ضرورة عدم تجاوز الحدّ فی الدّفاع و المقابلة، لأنّ الإفراط فی المقابلة يبعد المواجهة عن إطار التقوى.

و قوله تعالى وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ إشارة إلى أنّ اللّه لا يهمل المتقی فی خضمّ المشكلات، بل يعينه و يرعاه، لأنّ من كان مع شخص آخر فمفهومه أنّه يعينه فی مشكلاته و يحميه مقابل الأعداء.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۹۵]

اشارة

وَ أَنْفِقُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۹۵)

التّفسير

الإنفاق و الخلاص من المازق:

هذه الآية تكمّل ما مرّ من آيات الجهاد فكما أنّ الجهاد بحاجة إلى الرجال المخلصين و المجرّبين كذلك بحاجة إلى المال و الثروة أی بحاجة إلى الاستعداد البدنی و المعنوی و المعدّات الحربيّة، صحيح أن العامل الحاسم فی تقرير مصير الحرب هو الرجال بالدّرجة الاولى، و لكنّ الجندی بحاجة إلى أدوات الحرب (أعمّ من السلاح و الأدوات و وسائل النقل و الغذاء و الوسائل الصحيّة) فإنّه بدونها لا يمكنه أن يفعل شيئا.

من هنا أوجب الإسلام تأمين وسائل الجهاد مع الأعداء، و من ذلك ما ورد فی الآية أعلاه حيث تأمر بصراحة وَ أَنْفِقُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵

و هذا المعنی یتأکّد خاصّهٔ فی عصر نزول هذه الآیات حیث کان المسلمون فی شوق شدید إلی الجهاد کما یحدّثنا القرآن عن أولئک الّذین أتوا النبی یطلبون منه السلاح لیشارکوا فی ساحهٔ الجهاد و إذ لم یجدوا ذلک عادوا مهمومین محزونین تَوَلَّوْا وَ أَعْیُنُهُمْ تَفِیضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا یَجِدُوا ما یُنْفِقُونَ ۲۳].

فعبارهٔ وَ لا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَهِٔ بالرّغم من أنّها واردهٔ فی ترک الإنفاق فی الجهاد الإسلامی، و لکنّ مفهومها واسع یشمل موارد اخری کثیرهٔ، منها أنّ الإنسان لیس له الحقّ فی اتّخاذ الطرق الخطرهٔ للسّفر (سواء من الناحیهٔ الأمنیّهٔ أو بسبب العوامل الجویّهٔ أو غیر ذلک) دون أن یتّخذ لنفسه الاحتیاطات اللّازمهٔ لذلک، کما لا یجوز له تناول الغذاء الّذی یحتمل قویّا أن یکون مسموما و حتّی أن یرد میدان القتال و الجهاد دون تخطیط مدروس، ففی جمیع هذه الموارد الإنسان مسئول عن نفسه فی ما لو ألقی بها فی الخطر بدون عذر مقبول.

و تصوّر بعض الجهلاء من أنّ کلّ ألوان الجهاد الابتدائی هو إلقاء النفس فی التّهلکهٔ و حتّی أنهم أحیانا یعتبرون قیام سید الشهداء الإمام الحسین علیه السّلام فی کربلاء مصداق لهذه الآیهٔ، و هذا ناشئ من الجهل المطبق و عدم درک مفهوم الآیهٔ الشریفهٔ، لأنّ إلقاء النفس بالتّهلکهٔ یتعلّق بالموارد الّتی لا یکون فیها الهدف أثمن من النفس و إلّا فلا بدّ من التضحیهٔ بالنفس حفاظا علی ذلک الهدف المقدّس کما صنع الإمام الحسین و جمیع الشهداء فی سبیل اللّه کذلک.

فهل یتصوّر أحد أنّ الشّخص الّذی یری النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی خطر فیحمیه بنفسه و یذبّ عنه معرّضا نفسه للخطر فداء لرسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم (کما صنع علی علیه السّلام فی حرب احد أو فی لیلهٔ المبیت) فهل یعنی هذا إلقاء للنفس بالتّهلکهٔ و إنّه صنع حراما؟ و هل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶

یعنی ذلک أن یقف موقف المتفرّج حتّی یقتل رسول اللّه و یقول أنّ إلقاء النفس فی التّهلکهٔ حرام؟

و الحقّ أنّ مفهوم الآیهٔ واضح و التمسّک بها فی مثل هذه الموارد نوع من الجهل و الحمق.

أجل، إذا لم یکن الهدف مهمّا و لا یستحق أن یضحّی الإنسان بنفسه فی سبیله، أو أنّه یکون مهمّا و لکن بإمکانه تحقیقه بوسائل و طرق اخری أفضل، ففی هذه الموارد لا ینبغی إلقاء النفس فی الخطر (کموارد التقیّهٔ مثلا من هذا القبیل).

و فی آخر الآیهٔ أمر بالإحسان و یقول أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ

أمّا ما هو المراد بالإحسان هنا؟ فهناک عدّهٔ احتمالات فی کلمات المفسّرین، منها: أنّ المراد هو حسن الظن باللّه (فلا تظنّوا أنّ إنفاقکم هذا یؤدی إلی الاختلال فی معاشکم)، و الآخر هو الاقتصاد و الاعتدال فی مسألهٔ الإنفاق، و احتمال ثالث هو دمج الإنفاق مع حسن الخلق للمحتاجین بحیث یتزامن مع البشاشهٔ و إظهار المحبّهٔ و تجنّب أی لون من ألوان المنّهٔ و الأذی للشخص المحتاج، و لا مانع من أن یکون المراد فی مفهوم الآیهٔ جمیع هذه المعانی الثلاث.

بحوث

۱- الإنفاق مانع عن انهیار المجتمع

هناک ارتباط معنوی بین جملهٔ وَ أَنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ و لا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَهِٔ بملاحظهٔ أنّ عبارات الآیات القرآنیهٔ مترابطهٔ و متلازمهٔ، و الظّاهر أنّ الرّابطهٔ بین هاتین العبارتین هو أنّکم لو لم تنفقوا فی سبیل اللّه و فی مسار الجهاد فقد ألقیتم أنفسکم فی التّهلکهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷

و یمکن أن یکون الارتباط أکثر من ذلک و هو أن نقول: إنّ هذه الآیة بالرّغم من أنّها وردت فی ذیل آیات الجهاد، و لکنّها تبیّن حقیقة کلیّة و اجتماعیّة، و هی أنّ الإنفاق بشکل عام سبب لنزاهة المجتمع من المفاسد المدمّرة، لأنه حینما یترک أفراد المجتمع الإنفاق و تتراکم الثروة فی أحد أقطاب المجتمع تنشأ طبقة محرومة بائسة، و لا یلبث أن یحدث انفجار عظیم فیه یحرق الأثریاء و ثروتهم و یتّضح من ذلک ارتباط الإنفاق بابعاد التهلکة.

و من هنا فالإنفاق یعود بالخیر علی الأثریاء قبل أن یصیب خیره المحرومین، لأنّ تعدیل الثروة یصون الثروة کما

قال الإمام علی علیه السّلام (حصّنوا أموالکم بالزّکاة)[۲۴].

و بتعبیر بعض المفسّرین أنّ الامتناع من الإنفاق فی سبیل اللّه یؤدّی إلی موت الرّوح الإنسانیّة فی الفرد بسبب البخل، و کذلک یؤدّی إلی موت المجتمع بسبب الضعف الاقتصادی و خاصّة فی النظام الإسلامی المبتنی علی أساس الإحسان و الخیر[۲۵].

۲- سوء الاستفادة من مضمون الآیة

تقدّم أنّ بعض أهل الدنیا من طلّاب العافیة تمسّکوا فی هذه الجملة من هذه الآیة وَ لا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ للفرار من الجهاد فی سبیل اللّه حتّی أنّهم و سموا ثورة الإمام الحسین علیه السّلام فی عاشوراء الّتی کانت سبب نجاة الإسلام و بقائه إمام الأعداء کبنی أمیّة أنّها مصداق لهذه الآیة، و غفلوا عن أنه لو کان الأمر کما یقولون لانسدّ باب الجهاد تماما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸

و أساسا هناک تباین بین مفهومی التهلکة و الشّهادة، فالتّهلکة تعنی الموت بدون دلیل موجّه، فی حین أنّ الشهادة تعنی تضحیة الفرد فی سبیل هدف مقدّس و نیل الحیاة الأبدیّة الخالدة.

و یجب الالتفات إلی هذه الحقیقة، و هی أنّ نفس الإنسان لیست أثمن شیء فی وجوده، فهناک حقائق أثمن للنفس مثل الإیمان باللّه و الاعتقاد بالإسلام و حفظ القرآن و أهدافه المقدّسة، بل حفظ حیثیّة و عزّة المجتمع الإسلامی، فهذه أهداف أسمی من التّهلکة، و لم ینه عنها الشرع المقدّس إطلاقا. و قد ورد فی الحدیث أنّ مجموعة من المسلمین توجّهوا إلی القسطنطنیّة للجهاد، فهجم أحد المسلمین الشجعان علی جیش الرّوم و فی صفوفهم فقال الحاضرین (القی بیده إلی التّهلکة) فقال أبو أیّوب الأنصاری:

۳- ما هو المنظور من الإحسان

المراد من الإحسان عادة هو الإنفاق و بذل الخیر إلی الآخرین و لکن تارة یأتی بمعنی أوسع و یشمل بذلک کلّ عمل صالح بل حتّی الدوافع فی العلم الصالح أیضا

کما ورد فی الحدیث النبوی الشریف فی تفسیر الإحسان (أن تعبد اللّه کأنّک تراه فإن لم تکن تراه فإنّه یراک).

و من البدیهی أنّه لو کان إیمان الفرد بحیث کأنّه یری اللّه سبحانه تعالی و یعتقد بأنّه حاضر و ناظر فی کلّ الأحوال فسوف یهتم بالإتیان بالأعمال الصالحة و یتجنّب کلّ ذنب و معصیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۹۶]

اشارة

وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۹۶)

التّفسير

بعض أحكام الحجّ المهمّة:

لا يعلم بدقّة تاريخ نزول الآيات المتعلّقة بالحجّ فى القرآن الكريم، و لكن يرى بعض المفسّرين العظام أنّها نزلت فى حجّة الوداع ۲۶]، فى حين يرى بعضهم أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰

جملة فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ناظرة إلى حادثة (الحديبيّة) الواقعة فى السنّة السادسة للهجرة حيث منع المسلمون من زيارة بيت اللّه الحرام ۲۷].

ففى هذه الآية ذكرت أحكام كثيرة:

۱- فى مطلع الآية تأكيدا على أنّ أعمال العمرة و الحجّ ينبغى أن تكون للّه و طلب مرضاته فقط وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ من هنا لا ينبغى أن يشوب أعمال الحجّ نيّة اخرى غير الدافع الإلهى و كذلك الإتيان بالعمل العبادى هذا كاملا و تامّا بمقتضى جملة وَ أَتِمُّوا.

۲- ثمّ أنّ الآية تشير إلى الأشخاص الّذين لا يحالفهم التوفيق لأداء مناسك الحجّ و العمرة بعد لبس ثياب الإحرام بسبب المرض الشديد أو خوف العدو و أمثال ذلك، فتقول فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فمثل هذا الشخص عليه أن يذبح ما تيّسر له من الهدى و يخرج بذلك من إحرامه ۲۸].

و على كلّ حال فإنّ الأشخاص الّذين منعهم مانع و لم يتمكّنوا من أداء مراسم الحجّ و العمرة فيمكنهم بالاستفادة من هذه المسألة أن يحلّوا من إحرامهم.

و نعلم أيضا أنّ الهدى يمكن أن يكون بعيرا أو بقرة أو خروفا، و هذا الأخير أقلّ الهدى مؤنة، و لهذا كانت جملة فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ تشير غالبا إلى الغنم.

۳- ثمّ أنّ الآية الشريفة تشير إلى أمر آخر من مناسك الحجّ فتقول: وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ

فهل أنّ هذا الأمر يتعلّق بالأشخاص المحصورين الممنوعين من أداء مراسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱

الحجّ، فهو بمثابة تكميل للأوامر السابقة، أو أنّه يشمل جميع الحجّاج؟ اختار بعض المفسّرين الرأى الأوّل و قالوا أنّ المراد من محل الهدى أى محل الأضحية هو الحرم.

و قال آخرون أنّ المراد هو المكان الّذى حصل فيه المانع و المزاحم و يستدلّ بفعل النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى واقعة الحديبيّة الّتى هى مكان خارج الحرم المكّى، حيث أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد منع المشركين له ذبح هديه فى ذلك المكان و أمر أصحابه أن يفعلوا ذلك أيضا.

یقول المفسّر الکبیر المرحوم الطبرسی: (ذهب علمائنا إلی أنّ المحصور إذا کان بسبب المرض فیجب علیه ذبح الأضحیة فی الحرم، و إذا کان بسبب منع الأعداء فیجب الذبح فی نفس ذلک المکان الّذی منع به).

و لکنّ ذهب مفسرون آخرون إلی أنّ هذه الجملة ناظرة إلی جمیع الحجّاج و تقول: لا یحقّ لأحد التقصیر (حلق الرأس و الخروج من الإحرام) إلّا أن یذبح هدیه فی محلّه (ذبح الهدی فی الحجّ یکون فی منی و فی العمرة یکون فی مکّة) و علی کلّ حال، فالمراد من بلوغ الهدی محلّه هو أن یصل الهدی إلی محل الذبح فیذبح، و هذا التعبیر کنایة عن الذبح.

و مع الأخذ بنظر الاعتبار عمومیّة التعبیر الوارد فی الآیة الشریفة فالتفسیر الثانی یکون أنسب ظاهرا بحیث یشمل المحصور و غیر المحصور.

۴- ثمّ تقول الآیة فَمَنْ کانَ مِنْکُمْ مَرِیضاً أَوْ بِهِ أَذیً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْیَةٌ مِنْ صِیامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُکٍ

(نسک) فی الأصل جمع (نسیکة) بمعنی حیوان مذبوح، و هذه المفردة جاءت بمعنی العبادة أیضا[۲۹] و لهذا یقول الراغب فی المفردات بعد أن فسّر النسک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲

بالعبادة: هذا الاصطلاح یأتی فی أعمال الحجّ و (نسیکة) بمعنی (ذبیحة).

و یری بعض المفسّرین أیضا أنّ الأصل فی هذه الکلمة هو سبائک الفضّة، و قیل للعبادة (نسک) بسبب أنّها تطهّر الإنسان و تخلّصه من الشوائب ۳۰].

و علی أیّ حال فإنّ ظاهر الآیة أنّ مثل هذا الشخص مخیّرا بین ثلاث امور (الصوم و الصدقة أو ذبح شاة). و الوارد فی روایات أهل البیت علیهم السّلام أنّ الصوم فی هذا المورد یجب أن یکون ثلاثة أیّام و الصّدقة علی ستّة مساکین، و فی روایة اخری علی عشرة مساکین، و کلمة (نسک) تعنی شاة[۳۱].

۵- ثمّ تضیف الآیة فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَی الْحَجِّ فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ و هذه إشارة إلی أنّه یجب الذبح فی حجّ التمتّع و یکون المکلّف فی هذا الحجّ قد أتی بالعمرة قبله، و لا فرق فی هذا الهدی بین أن یکون من الإبل أو من البقر أو من الضّأن دون أن یخرج من الإحرام.

و حول الأصل فی کلمة (الهدی) فهناک قولان حسب ما أورده المرحوم الطبرسی: الأوّل أنّه مأخوذ من (الهدیة) و بما أنّ الأضحیة هی فی الواقع هدیّة إلی بیت اللّه الحرام فقد اطلق علیها هذه الکلمة، و الآخر أنها من مادّة (الهدایة) لأن الحیوان المقرّر للذّبح یؤتی به مع الحاج إلی بیت اللّه الحرام، أو یکون هدایته إلی بیت اللّه.

و لکنّ ظاهر کلام الراغب فی المفردات أنّه مأخوذ من الهدیّة فقط فیقول:

(هدی) جمع و مفرده (هدیّة).

و قد أورد فی معجم مقاییس اللغة أنّ لهذه الکلمة أصلان: الهدایة و الهدیّة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳

و لکنّ لا یبعد أن تعود کلیهما إلی الهدایة، لأنّ الهدیّة تعنی الشیء الّذی یهدی إلی الشخص الآخر، أی یساق إلیه هدیّة (فتأمّل بدّقة).

۶- ثمّ أنّ الآیة تبیّن حکم الأشخاص الغیر قادرین علی ذبح الهدی فی حجّ التمتع فتقول: فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیامُ ثَلاثَةِ أَیَّامٍ فِی الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْکَ عَشَرَةٌ کامِلَةٌ.

فعلی هذا فلو لم یجد الإنسان أضحیة أو أنّ وضعه المالی لا یطیق ذلک فیجب علیه جبران ذلک بصیام عشرة أیّام، یصوم ثلاثة أیّام منها (یوم السابع و الثامن و التاسع من ذی الحجّة) فی أیّام الحجّ- و هذه هی من الأیّام الّتی یجوز فیها الصوم فی السفر- و یأتی بصیام

سبعة أيّام بعد ذلك حين العودة إلى الوطن.

واضح أن مجموع ثلاثة أيّام فى الحج و سبعة بعد الرجوع يساوى عشرة، لكنّ القرآن عاد فأكّد بأنّها عشرة كاملة.

بعض المفسّرين قال فى تفسير هذه الجملة أن الواو تأتى للجمع و تأتى أحيانا للتخيير بمعنى (أو)، و من أجل رفع توهّم التخيير أكّدت الآية على رقم عشرة، و يحتمل أيضا أن التعبير بكلمة (كاملة) إشارة إلى أنّ صوم الأيّام العشرة يحلّ محل الهدى بشكل كامل، و لهذا ينبغى للحجاج أن يطمأنّوا لذلك و أنّ جميع ما يترتّب على الأضحية من ثواب و بركة سوف يكون من نصيبهم أيضا.

و قال بعضهم: إنّ هذا التعبير إشارة إلى نكتة لطيفة فى العدد (عشرة) لأنّه من جانب أكمل الأعداد، لأنّ الأعداد تتصاعد من واحد يتصل إلى عشرة بشكل تكاملى، ثمّ بعد ذلك تترتّب من عشرة و أحد الأعداد الاخرى لتكون أحد عشر و اثنى [۳۲] عشر ... حتّى تصل إلى عشرين أى ضعف العدد عشرة ثمّ ثلاثين و هكذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴

۷- ثمّ أنّ الآية الشريفة تتعرّض إلى بيان حكم آخر و تقول ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فعلى هذا لا يكون لأهل مكّة أو الساكنين فى أطرافها حجّ التمتّع، لأنّه يختصّ بالمسلمين خارج هذه المنطقة، فالمشهور بين الفقهاء أنّ كلّ شخص يبعد عن مكّة ۴۸ ميلا فإنّ وظيفته حجّ التمتّع، و أمّا إذا كان دون هذه المسافة فوظيفته حجّ القران أو الإفراد و الّذى تكون عمرته بعد الإتيان بمراسم الحجّ (و تفصيل هذا الموضوع و بيان مراتبه مذكور فى الكتب الفقهيّة).

و بعد بيان هذه الأحكام السبعة تأمر الآية فى ختامها بالتقوى و تقول وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ و لعلّ هذا التأكيد يعود إلى أنّ الحجّ عبادة إسلاميّة هامّة و لا ينبغى للمسلمين التّساهل فى أداء مناسكه و أنّ ذلك سيؤدّى إلى إضرار كثيرة، و أحيانا يسبّب فساد الحجّ و زوال بركاته المهمّة.

بحوث

۱- أهميّة الحجّ بين الواجبات الإسلاميّة

يعتبر الحجّ من أهم العبادات التى شرّعت فى الإسلام و لها آثار و بركات كثيرة جدّا، فهو مصدر عظمة الإسلام و قوّة الدّين و اتّحاد المسلمين، و الحجّ هو الشعيرة العباديّة التى ترعب الأعداء و تضخ فى كلّ عام دما جديدا فى شرايين المسلمين.

و الحجّ هو تلك العبادة الّتى أسماها أمير المؤمنين عليه السّلام ب (علم الإسلام و شعاره) و قال عنها فى وصيته فى الساعات الأخيرة من حياته

(اللّه اللّه فى بيت ربّكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا)

[۳۳] أى أنّ البلاء الإلهى سيشملكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵

دون إمهال. و قد فهم أعداء الإسلام أهميّة الحجّ أيضا إذ صرّح أحدهم:

(نحن لا نستطيع أن نحقّق نصرا على المسلمين ما دام الحجّ قائما بينهم)[۳۴].

و قال أحد العلماء (الويل للمسلمين إن لم يفهموا معنى الحجّ، و الويل لأعدائهم إذا عرفوا معناه).

و

فى الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى بيان توصفة الأحكام كما ورد فى نهج البلاغة الحكمة ۲۵۲ أنّه أشار عليه

السّلام إلى أهميّة الحجّ الكبيرة و قال (فرض اللّه الإيمان تطهيرا من الشرك ... و الحجّ تقوية للدّين)
[۳۵].
و نختتم هذه الفقرة بحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام و سيأتى شرحه بالتفصيل فى ذيل الآية ۲۶ إلى ۲۸ من سورة الحجّ و بيان أهميّة و فلسفة و أسرار الحجّ هناك)
فقال عليه السّلام: (لا يزال الدّين قائما ما قامت الكعبة)
[۳۶].

۲- أقسام الحجّ و بيان أعمال حجّ التمتّع

لقد قسّم الفقهاء العظام و بإلهام من الآيات و الأحاديث الشريفة عن النبى و آله عليهم السّلام الحجّ إلى ثلاثة أقسام: حجّ التمتّع، حجّ القران، و حجّ الإفراد.
أمّا حجّ التمتّع فيختص بمن كان على مسافة ۴۸ ميلا فصاعدا من مكّة (۱۶ فرسخ و ما يعادل ۹۶ كيلومتر تقريبا، و أمّا حجّ القران و الإفراد فيتعلّقان بمن كان أدنى من هذه الفاصلة. ففى حجّ التمتّع يأتى الحاج بالعمرة أوّلا ثمّ يحلّ من إحرامه و بعد ذلك يأتى بمراسم الحجّ فى أيّامه المخصوصة، و لكن فى حجّ القران
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶
و الإفراد يبدأ أوّلا بأداء مراسم الحجّ ثمّ بعد الانتهاء منها يشرع بمناسك العمرة مع تفاوت أنّ الحاج فى حجّ القران يأتى و معه هديه، أمّا فى حجّ الإفراد فلا هدى فيه و لكن بعقيدة أهل السّنة أنّ حجّ القران هو أن يقصد بالحجّ و العمرة بإحرام واحد.
أمّا أعمال حجّ التمتّع فكما يلى:
فى البداية يحرم الحاج للحجّ من الأماكن الخاصّة به و تسمّى الميقات، أى أنّ الحاج يتعهد بالإحرام أن يترك و يتجنّب سلسلة من المحرّمات على المحرم، و يرتدى ثوبى الإحرام غير المخيطة، و يبدأ بالتلبية و هو متّجه إلى بيت اللّه الحرام، ثمّ يشرع بالطّواف حول الكعبة سبعة مرّات، و بعد ذلك يصلّى ركعتين صلاة الطواف فى المحل المعروف بمقام إبراهيم، ثمّ يسعى بين الصفا و المروة سبعة مرّات، ثمّ بعد الانتهاء من السعى يقصّر، أى يقص مقدارا من شعره أو أظافره، و بذلك يخرج من الإحرام و يحلّ منه.
ثمّ يحرم مرّة اخرى من مكّة لأداء مناسك الحجّ و يذهب مع الحجاج فى اليوم السابع من ذى الحجّة إلى «عرفات» و هى صحراء على بعد ۴ فراسخ من مكّة، و يبقى فى ذلك اليوم من الظهر إلى غروب الشمس فى ذلك المكان حيث يشتغل بالعبادة و المناجاة و الدّعاء، ثمّ بعد غروب الشمس يتّجه إلى (مشعر الحرام) و يقع على بعد فرسخين و نصف من مكّة تقريبا و يبقى هناك إلى الصباح، و حين طلوع الشمس يتوجّه إلى «منى» الواقعة على مقربة من ذلك المكان، و فى ذلك اليوم الّذى هو يوم «عيد الأضحى» يرمى الحاج (جمرة العقبة) بسبعة أحجار صغيرة (و جمرة العقبة على شكل اسطوانة حجريّة خاصّة) ثمّ يذبح الهدى و يحلق رأسه، و بذلك يخرج من إحرامه.
ثمّ أنّه يعود إلى مكّة فى نفس ذلك اليوم أو فى اليوم القادم، و يطوف حول الكعبة و يؤدّى صلاة الطواف و السعى بين الصفا و المروة ثمّ طواف النساء و صلاة
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷
الطواف أيضا، و فى اليوم الحادى عشر و الثانى عشر يرمى فى منى الجمرات الثلاثة واحدة بعد الاخرى بسبعة أحجار صغيرة، و يبقى فى ليلة الحادى عشر و الثانى عشر فى أرض منى، و بهذا الترتيب تكون مناسك الحجّ إحياء لذكرى تاريخيّة و عبارة عن كنايات و

إشارات لمسائل تتعلّق بتهذيب النفس و لها أغراض اجتماعيّة كثيرة، و سوف نستعرض كلّ واحدة منها فى الآيات المناسبة له.

۳- لماذا نسخ البعض حجّ التمتّع؟

إنّ ظاهر الآيـة محل البحث هو أنّ وظيفـة الأشـخاص البعيـدين عن مكّـة هى حـجّ التمتّع (الحجّ الّذى يبتدأ بالعمرة و بعد الانتهاء منها يخرج من الإحرام ثمّ يجدّد الإحرام للحجّ و يأتى بمناسك الحجّ) و ليس لـدينا دليل إطلاقا على نسخ هـذه الآيـة، بل إنّ الروايات الكثيرة فى كتب الشيعة و أهل السنّة وردت فى هذا الصدد، و من جملة المحدّثين المعروفين من أهل السنّة (السنائى فى كتاب السنن) و (أحمد فى كتاب المسند) و (ابن ماجة فى كتابه السنن) و (البيهقى فى السنن الكبرى) و (الترمذى فى صحيحه) و (مسلم أيضا فى كتابه المعروف بصحيح مسلم) فهناك وردت روايات كثيرة فى حجّ التمتّع و أن هـذا الحكم لم ينسخ و هو باق إلى يوم القيامـة. و الكثير من فقهاء أهل السنّة أيضا ذهبوا إلى أنّ أفضل أنواع الحجّ هو حجّ التمتع بالرّغم من أنّهم أجازوا إلى جانبه حجّ القران و الإفراد (بذلك المعنى الّذى تقدّم آنفا من الفقهاء).

و لكنّ هناك حـديث معروف نقل عن عمر بن الخطاب حيث قال (متعتان كانتا على عهد رسول اللّه و أنا أنهى عنهما و يعاقب عليهما متعة النساء و متعة الحجّ).

يقول «الفخر الرازى» فى ذيل الآيـة مورد البحث بعـد نقل هـذا الحديث عن عمر: إنّ المراد من متعة الحجّ هو أن يجمع بين الإحرامين (إحرام الحجّ و إحرام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸

العمرة) ثمّ يفسخ نيّة الحجّ و يأتى بالعمرة المفردة و بعد ذلك يأتى بالحجّ ۳۷].

فمن البديهى أنّه لا يحق لأحد نسخ الحكم الشرعى إلّا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أساسا أنّ هذا التعبير و هو أنّ رسول اللّه قـال كـذا و أنا أقول كـذا هو تعبير غير مقبول من أى شخص، فهل يصحّ إهمال أمر النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طرحه و الالتزام بأوامر الآخرين؟

و على كلّ حال، فإنّ الكثير من علماء أهل السنّة فى هذا الزمان تركوا الخبر المذكور، و ذهبوا إلى أنّ حجّ التمتع أفضل أنواع الحجّ و عملوا على وفقه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۹۷ الى ۱۹۹]

اشارة

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ (۱۹۷) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (۱۹۸) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۹)

التّفسير

خير الزّاد و المتاع:

تواصل هذه الآيات الشريفة بيان أحكام الحجّ و زيارة بيت اللّه الحرام و تقرّر طائفة من التشريعات الجديدة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰

۱- تقول الآية الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ ۳۸].

و المراد بهذه الأشهر: هى شوال، ذى القعدة، ذى الحجّة (شهر ذى الحجّة بكامله أو العشرة الأوائل منه) و هذه الأشهر تسمّى (أشهر الحجّ) لأنّ قسما من أعمال الحجّ و العمرة لا يمكن الإتيان بها فى غير هذه الأشهر، و قسما آخر يجب الإتيان بها فى اليوم التاسع إلى الثانى عشر من شهر ذى الحجّة، و السبب فى أنّ القرآن الكريم لم يصرّح بأسماء هذه الأشهر لأنّها معلومة للجميع و قد أكّد عليها القرآن الكريم بهذه الآية.

ثمّ إنّ هذه الآية تستبطن نفيا لأحد التقاليد الخرافيّة فى الجاهليّة حيث كانوا يستبدلون هذه الأشهر بغيرها فى حالة حدوث حرب بينهم فيقدّموا و يؤخّروا منها كيف ما شاؤوا، فالقرآن يقول: «إنّ هذه الأشهر معلومة و معيّنة فلا يصحّ تقديمها و تأخيرها»[۳۹].

۲- ثمّ تأمر الآية الكريمة فيمن أحرم إلى الحجّ و شرع بأداء مناسك الحجّ و تقول: فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِ

(رفث) بالأصل بمعنى الكلام و الحديث المتضمنّ ذكر بعض الأمور القبيحة أعمّ من الأمور الجنسيّة أو مقدّماتها، ثمّ بات كناية عن الجماع، و لكنّ البعض ذهبوا إلى أنّ مفردة (رفث) لا تطلق على هذا النوع من الكلام إلّا فى حضور النساء، فلو كان الحديث فى غياب النساء فلا يسمّى بالرّفث ۴۰].

و ذهب البعض إلى أنّ الأصل فى هذه الكلمة هو الميل العملى للنّساء من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱

المزاح و اللّمس و التماس البدنى الّذى ينتهى بالمقاربة الجنسيّة[۴۱].

(فسوق) بمعنى الذّنب و الخروج من طاعة اللّه، و (جدال) تأتى بمعنى المكالمة المقرونة بالنّزاع، و هى فى الأصل بمعنى شدّ الحبل و لفّه، و من هذا استعملت فى الجدال بين اثنين، لأنّ كلّ منهما يشدّ الكلام و يحاول إثبات صحّة رأيه و نظره.

و على كلّ حال، ورد هذا الأمر للحجّاج فى حرمة المقاربة مع الأزواج، و كذلك وجوب اجتناب الكذب و الفحش (مع أنّ هذا العمل حرام أيضا فى غير مواضع الإحرام و لكنّه ورد النهى عنه فى أعمال الحجّ بالخصوص ضمن المحرّمات الخمسة و العشرين على المحرم).

و كذلك من المحرّمات على المحرم فى الحجّ هو الجدال و القسم باللّه تعالى سواء كان على حقّ أم باطل، و هو قول (لا و اللّه، بلى و اللّه).

و هكذا ينبغى أن تكون أجواء الحجّ طاهرة من التمتّعات الجنسيّة و كذلك من الذنوب و الجدال العقيم و أمثال ذلك، لأنّها أجواء عباديّة تتطلّب الإخلاص و ترك اللّذائذ المادية و تقتبس روح الإنسان من ذلك المحيط الطّاهر قوّة جديدة تسوقها إلى عالم آخر بعيدا عن عالم المادّة، و فى نفس الوقت تقوّى الالفة و الاتحاد و الاتّفاق و الاخوّة بين المسلمين باجتناب كلّ ما ينافى هذه الأمور.

و طبعا لكلّ واحد من هذه الأحكام الشرعيّة شروح و شرائط مذكورة فى كتب مناسك الحجّ الفقهيّة.

۳- بعد ذلك تعقّب الآية و تبيّن المسائل المعنويّة للحجّ و ما يتعلّق بالإخلاص و تقول وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲

و هذا أوّل لطف إلهى يناله الصالحون، فالمرحلة الأولى من لذّة الإنسان المؤمن هى إحساسه بأنّ ما يعمله فى سبيل اللّه إنّما هو بعين اللّه، و يا لها لذّة.

و تضيف الآية: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى

هذه الآیة أمرت بحمل الزاد. قیل: إن جماعة من أهل الیمن کانوا یحجّون دون أن یصحبوا معهم زادا للطریق، قائلین: نحن ضیوف اللّه و طعامنا علیه. و هذه الفقرة من الآیة أمرت بحمل الزاد، لأن اللّه سبحانه هیّأ للجمیع طعامهم بالطریق الطبیعیة.

و الآیة تشیر فی الوقت نفسه إلی مسألة معنویة هی زاد التقوی، فهناک حاجة إلی زاد من نوع آخر هو «التقوی».

و العبارة تنطوی علی توعیة المسلمین بالنسبة لعطاء الحجّ المعنوی و تفتّح أبصارهم علی ما فی ساحة الحجّ من معان عمیقة تشدّ الإنسان بتاریخ الرسل و الأنبیاء و بمشاهد تضحیة إبراهیم بطل التوحید، و بمظاهر عظمة اللّه سبحانه ممّا لا یوجد فی مکان آخر، و لا بدّ للحاج أن یستلهم من هذه الساحة زادا یعینه علی مواصلة مسیرته نحو اللّه فیما بقی من عمره.

وَ اتَّقُونِ یا أُولِی الْأَلْبابِ ۴۲].

الحدیث موجّه إلی أولی الألباب و العقول، و الترکیز علیهم بانتهاج التقوی لأنهم هم القادرون علی التزوّد کما ینبغی من العطاء التربوی لمناسک الحجّ، و الآخرون لا ینالون منها سوی المظاهر و القشور.

الآیة التالیة ترفع بعض الاشتباهات فی مسألة الحجّ و تقول لَیسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳

لقد کان التعامل الاقتصادی بکافّة ألوانه محضورا فی موسم الحجّ عند الجاهلیّین، و کانوا یعتقدون ببطلان الحجّ إذا اقترن بالنّشاط الاقتصادی، فالآیة مورد البحث تعلن بطلان هذا الحکم الجاهلی و تؤکّد أنّه لا مانع من التعامل الاقتصادی و التّجاری فی موسم الحجّ، و تسمح بابتغاء فضل اللّه فی هذا الموسم عن طریق العمل و الکد.

و هذا النمط من التفکیر کان سائدا فی العصر الجاهلی و نجده کذلک فی زماننا هذا و أنّ هذه العبادة العظیمة- یعنی الحجّ- یجب أن تکون خالصة من أیّة شوائب مادیّة، و لکن بما أنّ سائر العاملین فی هذا السبیل مضافا إلی الناس الّذین یقصدون بیت اللّه من بعید الدّیار یمکنهم أن یحلّوا الکثیر من مشاکلهم الاقتصادیّة فی سفر الحجّ هذا، و لهذا السبب أبطل القرآن الکریم هذا اللون من التفکیر، و یحقّ لهؤلاء الأشخاص أن یأتوا بعبادة الحجّ و یؤدّوا مناسکه ضمن أداء خدماتهم الاخری و لا یکونوا فی مضیقة من هذه الجهة، بل أنّ النصوص الإسلامیّة التی تتحدّث عن حکمة الحجّ تشیر أیضا إلی الجوانب الاقتصادیة إضافة إلی الجوانب الأخلاقیة و السیاسیة و الثقافیة، و توضّح أنّ سفر المسلمین من کلّ فجّ عمیق إلی بیت اللّه الحرام اعقد مؤتمر الحجّ العظیم یستطیع أن یکون منطلقا لتحرّک اقتصادی عامّ فی المجتمعات الإسلامیة. و ذلک یتحقّق باجتماع الأدمغة الاقتصادیة الاسلامیة المفکّرة قبل أداء المناسک أو بعده لوضع أسس اقتصاد سلیم فی المجتمعات الإسلامیة یقوم علی أساس التعاون و التبادل الاقتصادی بین أبناء الأمّة الإسلامیة، و الاستغناء عن الأجانب و الأعداء، و بلوغ المستوی الممکن اللائق من الاکتفاء الذاتی.

من هنا، فهذه المعاملات و المبادلات التجاریة سبل لتقویة بنیة المجتمع الإسلامی أمام أعداء الإسلام، ذلک لأنّ أیّ شعب من الشعوب لا یمکن أن ینال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴

استقلاله الکامل دون أن یقوم علی أساس اقتصادی قوی، و لکن النشاط الاقتصادی فی موسم الحجّ ینبغی طبعا أن ینضوی تحت الأبعاد العبادیة و الأخلاقیة للحجّ، لا أن یقدّم و یهیمن علیها. و واضح أنّ الحجّاج لهم الوقت الکافی قبل أعمال الحجّ و بعده لمثل هذا النشاط.

یروی هشام بن الحکم أنّه سأل الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام عن العلّة الّتی لأجلها کلّف اللّه العباد الحجّ و الطواف بالبیت، فقال «... فجعل فیه الاجتماع من الشرق و الغرب لیتعارفوا و لینزع کلّ قوم من التجارات من بلد إلی بلد و لینتفع بذلک المکاری و الجمّال ... و لو کان کلّ قوم إنّما یتکلّمون علی بلادهم و ما فیها هلکوا و خربت البلاد و سقطت الجلب و الأرباح ...»

[۴۳] ثمّ تعطف الآیة الشریفة علی ما تقدّم من مناسک الحجّ و تقول فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْکُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْکُرُوهُ

کَما هَداکُمْ وَ إِنْ کُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّینَ

ثمّ تقول الآیة فی حدیثها هذا: ثُمَّ أَفِیضُوا مِنْ حَیْثُ أَفاضَ النَّاسُ فهذا المقطع یتضمّن أمرا بالإفاضة أی بالاندفاع و الحرکة من المشعر الحرام إلی أرض منی.

ففی نهایة الآیة تعطی أمرا بالاستغفار و التوبة و تقول: وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

ففی هذا المقطع من الآیات إشارة إلی ثلاث مواقف من مواقف الحجّ (عرفات) و هی صحراء و تقع علی بعد ۲۰ کیلومترا تقریبا من مکّة و یجب علی الحجّاج أن یقفوا فی هذا المحل من ظهر یوم التاسع من ذی الحجّة إلی غروب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵

الشمس فیشتغلوا بالعبادة و الذکر، ثمّ الوقوف ب (المشعر الحرام أو المزدلفة) حیث یبیتون هناک لیلة عید الأضحی و یبقون هناک إلی قبل طلوع الشمس مشغولین بالدعاء و المناجاة مع اللّه تعالی، و الثالث أرض (منی) و هی محل ذبح الأضاحی و رمی الجمرات و حلّ الإحرام و أداء مناسک العید.

بحوث

۱- أول موقف للحجیج

تقدّم أنّ حجّاج بیت اللّه الحرام یتّجهون بعد أداء مناسک العمرة نحو أداء مناسک الحجّ، و أوّل موقف یقفون فیه هو فی «عرفات»، و هی صحراء واسعة تقع علی بعد أربعة فراسخ من مکّة یقف فیها الحاج من ظهر یوم التاسع من ذی الحجّة حتّی غروب ذلک الیوم. و فی سبب تسمیة هذه الأرض بهذا الاسم قیل: إنّ إبراهیم علیه السّلام قال حین أراه جبرائیل مناسک الحجّ: «عرفت، عرفت».

و قیل إن هذه القصة وقعت لآدم و حواء، و قیل أیضا أن آدم و حواء تعارفا فی هذا المکان، و قیل أن حجاج بیت اللّه یتعارفون فیما بینهم فی هذا المکان، و تفسیرات أخری [۴۴][۴۵].

و لا یبعد أن تکون التسمیة إشارة إلی حقیقة أخری أیضا، و هی أن هذه الأرض المشرّفة التی تبدأ منها أولی مراحل الحجّ محیط مناسب جدّا لمعرفة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶

تعالی. و الحاجّ فی هذا الموقف یشعر حقّا بانشداد روحی و معنوی لا یمکن التعبیر عنه بالکلمات.

الحجیج فی هذه الأرض القاحلة متجمّعو بشکل واحد و بزیّ واحد، قد هربوا من بریق الحیاة و زخرفها و صخبها و ضجیجها و لا ذوا بهذه الأرض المشرّفة المفعمة بذکریات الرسالات السماویة، حیث یحمل نسیمها نداء جبرائیل و صوت الخلیل و دعوة النبیّ الخاتم، و صحبه المجاهدین. و تنطق أرضها بصور الجهاد و التضحیة و الانقطاع إلی اللّه علی مرّ التاریخ. کأنّ هذه الأرض نافذة تشرف علی عالم ما وراء الطبیعة، یرتوی فیها الإنسان من منهل العرفان، و ینساق مع تسبیح الخلیقة العام، بل یعود أیضا إلی ذاته التی انفصل عنها زمنا طویلا- فیعرف نفسه، و یعرف أنّه لیس بذلک الکائن اللاهث لیل نهار وراء جمع الحطام و المتاع دون أن یرویه شیء، بل إنّه جوهر آخر کان یجهله قبل الوقوف فی عرفات ... نعم إنّها «عرفات» و ما أجمل هذا الاسم! و ما أعمق مدلوله!

۲- المشعر الحرام- الموقف الثانی للحجیج

و بشأن تسمية «المشعر الحرام» بهذا الاسم قيل: إنّه مركز لشعائر الحجّ، و معلم من معالم هذه العبادة العظيمة.

و من المهمّ أن نفهم أنّ «المشعر» من مادة «الشعور»، ففى تلك الليلة التاريخية المثيرة «ليلة العاشر من ذى الحجّة» حيث حجّاج بيت اللّه الحرام قد أنهوا المرحلة الاولى من هذه الدورة التربوية فى عرفات و اندفعوا نحو المشعر الحرام ليقضوا ليلة يفترشون فيها الأرض و يلتحفون السماء، ضمن إطار أرض محدودة الأبعاد أشبه ما تكون- و هى تموج بآلاف الحجّاج- بأرض المحشر ...

فى مثل هذه الظروف الزمانية و المكانية ... و فى إطار الالتزام بالإحرام و واجباته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷

و محرّماته، تجيش فى النفس الإنسانية «مشاعر» خاصّة تربط الإنسان بالملإ الأعلى و تحلق به فى أبعاد جديدة سامية ... و من هنا كانت تلك الأرض مشعرا.

۳- درس الوحدة و الاتحاد

جاء فى بعض الروايات الشريفة أن قبائل قريش كانت ترى لنفسها مكانة دينية خاصّة بين العرب، و كان أفرادها يسمّون أنفسهم «الحمس»[۴۶] و يرون أنّهم أبناء إبراهيم عليه السّلام و سدنة الكعبة، و لذلك كانوا يترفّعون على بقية القبائل العربية.

و من هنا فإنهم تركوا الوقوف فى عرفات لأنّها خارج الحرم المكّى، و ما كانوا يودّون أن يحترموا أرضا تقع خارج حرم مكّة، ظنّا منهم أنّ ذلك يقلّل من شأنهم بين قبائل العرب، مع علمهم بأنّ الوقوف فى عرفات من مناسك الحجّ الإبراهيمى [۴۷].

الآية الكريمة تبطل كلّ هذه الأوهام و تأمر بوقوف الحجّاج جميعا فى عرفات، ثمّ التحرك منها نحو المشعر الحرام، و من ثمّ الاتجاه إلى منى دون أن يكون لأحد امتياز على آخر ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ

الإفاضة التى تأمر بها الآية هى الإفاضة من المشعر الحرام إلى منى، لأنّها جاءت بعد ذكر الإفاضة من عرفات إلى المشعر، و مسبوقة ب «ثمّ» التى تفيد الترتّب الزمانى، و يكون مدلول الآيتين معا الأمر بالوقوف الجماعى بعرفات، ثمّ الإفاضة منها إلى المشعر الحرام، و من ثمّ إلى منى.

وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ

و الأمر بالاستغفار فى اختتام الآية حثّ على ترك تلك الأوهام و الأفكار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸

الجاهلية، و الاتجاه نحو تعلّم دروس الحجّ فى المساواة، و إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۴- ارتباط الآيات

قد يتساءل أحد عن الرّابطة بين قوله تعالى ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ و مسألة الوقوف بعرفات و الإفاضة منها إلى المشعر الحرام و ثمّ إلى منى الّتى وردت الآية الشريفة منضمّة بعضها إلى بعض.

يمكن أن تكون الرّابطة هى الإشارة إلى هذه الحقيقة و هى أنّ السعى المادى و الاقتصادى إذا كان للّه و من أجل الحياة الشريفة فيكون هذا نوع من العبادة حال مناسك الحجّ، أو أنّ حركة و انتقال الحجّاج من مكّة إلى عرفات و منها إلى المواقف الاخرى يستلزم عادة نفقات و خدمات كبيرة، فلو كان كلّ نوع من العلم و الكسب فى هذه الأيّام محرّم على الحجّاج فمن الواضح أنّهم سيقعون فى حرج و مشقّة، فلهذا ذكرت الآية الشريفة هذه العبارات منضمّة و متتالية.

أو يقال إن المفهوم منها هو أنّ الآية تحذّر الحجّاج أن لا ينسيكم العمل و الكسب و سائر الفعاليّات الاقتصادية ذكر اللّه و التوجّه إليه و إدراك عظمته فى هذه المواقف الشريفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۰ الى ۲۰۲]

اشارة

فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (۲۰۰) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (۲۰۱) أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (۲۰۲)

سبب النّزول

فى حديث الإمام الباقر عليه السّلام: إنّ الجاهليّين كانوا يعقدون الاجتماعات بعد موسم الحجّ يذكرون فيها مفاخرهم الموهومة الموروثة من آبائهم و يمجّدون أسلافهم.

و القرآن الكريم يؤكّد فى هذه الآيات أعلاه أنّ على المسلمين أن يذكروا اللّه تعالى و نعمه السّابغة بدل الخوض فى تلك الأباطيل و الأوهام و الافتخارات الوهميّة[۴۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰

و مثله ما أورده سائر المفسّرين عن ابن عبّاس و غيره أنّ أهل الجاهلية كانوا يعقدون مجالسا بعد الحجّ للتّفاخر بآبائهم و ذكر مفاخرهم أو أنّهم يجتمعون فى الأسواق كسوق (عكاظ، ذى المجاز، مجنّة) لم تكن هذه الأسواق مراكزا تجاريّة فحسب، بل أماكن لتلك المجالس الباطلة التى يجتمع فيها النّاس و يذكرون مفاخر أسلافهم ۴۹].

التّفسير

الحجّ رمز وحدة المسلمين:

هذه الآيات تواصل الأبحاث المتعلّقة بالحجّ فى الآيات السابقة، فالبرغم من أنّ أعراب الجاهلية ورثوا مناسك الحجّ بوسائط عديدة من إبراهيم الخليل عليه السّلام و لكنّهم خلطوا هذه العبادة العظيمة و البناءة و الّتى تعتبر ولادة ثانية لحجّاج بيت اللّه الحرام بالخرافات الكثيرة بحيث إنها خرجت من شكلها الأصلى و نسخت و تحوّلت إلى وسيلة للتفرقة و النّفاق.

الآية الأولى من الآيات محل البحث تقول فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً.

إنّ العزّة و العظمة يكملان بالارتباط فى اللّه تعالى لا بالارتباط الوهمى بالأسلاف، و ليس المراد من هذه العبارة أنّكم اذكروا أسلافكم و اذكروا اللّه كذلك، بل هو إشارة إلى هذه الحقيقة بأنّكم تذكرون أسلافكم من أجل بعض الخصال و المواهب الحميدة، فلما ذا لا تذكرون اللّه تعالى ربّ السموات و الأرض و الرازق و الواهب لجميع هذه النعم فى العالم و هو منبع و مصدر جميع الكمالات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱

و صفات الجلال و الجمال.

أمّا المراد من (ذکر اللّه) فی هـذه الآیـة فهناک أقوال کثیرة بین المفسّرین، و لکنّ الظاهر أنّها تشـمل جمیع الأذکار الإلهیّة بعـد أداء مناسـک الحجّ، و فی الحقیقـة أنّه یجب شـکر اللّه تعالی علی جمیع نعمه و خاصّـة نعمـة الإیمان و الهدایـة إلی هـذه العبادة العظیمـة، فتکتمل الآثار التربویّة للحجّ بذکر اللّه.

بعد ذلک یوضّح القرآن طبیعة مجموعتین من الناس و طریقة تفکیرهم.

مجموعة لا تفکّر إلّا بمصالحها المادیّة و لا تتجّه فی الدعاء إلی اللّه إلّا من هذه المنطلقات المادیّة فتقول فَمِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا وَ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ۵۰].

و المجموعة الثانیة تتحدّث عنهم الآیة بقولها وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ.

و هـذه الفقرات من الآیات محل البحث تشیر إلی هاتین الطائفتین و أنّ الناس فی هـذه العبادة العظیمة علی نوعین، فبعض لا یفکر إلّا بالمنافع المادیّة الدنیویّة و لا یرید من اللّه سواها، فمن البدیهی أنّه یبقی له شیء فی الآخرة.

و لکنّ الطائفة الثانیة اتسعت آفاقهم الفکریّة فاتجّهوا إلی طلب السّعادة فی الدنیا باعتبارها مقدّمة لتکاملهم المعنوی و طلب السّعادة فی الآخرة، فهـذه الآیـة الکریمة توضّح فی الحقیقة منطق الإسـلام فی المسائل المادیّة و المعنویّة و تدین الغارقین فی المادیّات کما تدین المنعزلین عن الحیاة.

أمّا ما المراد من (الحسنة)؟ فهناک تفاسیر مختلفه لها،

فقد ورد فی الروایة عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الحسنة: (إنّها السّعة فی الرّزق و المعاش و حس الخلق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲

فی الدنیا و رضوان اللّه و الجنّة فی الآخرة)

[۵۱].

و لکنّ بعض المفسّرین ذهبوا إلی أنّها تتضمّن معنی العلم و العبادة فی الدنیا و الجنّة فی الآخرة، أو المال فی الدنیا و الجنّة فی الآخرة، أو الزوجة الصالحة فی الدنیا و الجنّة فی الآخرة، و

قد ورد عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم هذه المعانی (من أوتی قلبا شاکرا و لسانا ذاکرا و زوجة مؤمنة تعینه علی أمر دنیاه و أخراه فقد أوتی فی الدنیا حسنة و فی الآخرة حسنة و وقی عذاب النار)[۵۲].

و واضـح أنّ تفسـیر الحسـنة هـذا له مفهوم واسع بحیث یشـمل جمیع المواهب المادیّـة و المعنویّـة، و مـا ورد فی الروایـة أعلاه أو فی کلمات المفسّرین فهو بیان لأبرز المصادیق لا حصـر الحسـنة بهـذه المصادیق، فما تصوّره بعض المفسّـرین من أنّ الحسـنة الواردة فی الآیة بصورة المفرد النکرة لا تشـمل علی کلّ خیر، و لهذا وقع الاختلاف فی مصداقها بین المفسّـرین ۵۳]، إنّما هو اشتباه محض، لأنّ المفرد النکرة تارة یأتی بمعنی الجنس و مورد الآیة ظاهرا من هذا القبیل، فالمؤمنون- کما ذهب إلیه بعض المفسّرین- یطلبون من اللّه تعالی أصل الحسنة بدون أن ینتخبوا لها مصداقا من المصادیق، بل یوکلون هذا الأمر إلی مشیئته و إرادته و فضله تعالی ۵۴].

و فی آخر آیـة إشارة إلی الطائفـة الثانیـة (الّذین طلبوا من اللّه الحسـنة فی الدنیا و الآخرة) فتقول أُولئِکَ لَهُمْ نَصِیبٌ مِمَّا کَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِیعُ الْحِسابِ

و فی الحقیقة هذه الآیة تقع فی النقطة المقابلة للجملة الأخیرة من الآیة السابقة وَ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳

و احتمل البعض أنّها تتعلّق بكلا الطائفتين، فالطائفة الاولى يتمتّعون بالنعم و المواهب الدنيويّة، و الطائفة الثانية يتمتّعون بخير الدنيا و الآخرة كما ورد ما يشبه هذه الآيات فى سورة الإسراء الآية ۱۸ إلى ۲۰ حيث يقول: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً.

و لكنّ التفسير الأوّل منسجم مع الآيات مورد البحث أكثر.

عبارة (نصيب) مع أنّها جاءت بصورة نكرة، و لكنّ القرائن تدلّ على أنّ النكرة هنا لبيان العظمة، و التعبير بقوله مِمَّا كَسَبُوا ليست إشارة إلى قلّة النصيب و الثواب و الجزاء، لأنّه من الممكن أن تكون (من) ابتدائيّة لا تبعيضيّة.

أمّا التعبير بقوله (كسب) فى جملة (ممّا كسبوا) فتعني- كما ذهب إليه كثير من المفسّرين- الدّعاء لطلب خير الدنيا و الآخرة، فاختيار هذا التعبير قد يكون إشارة إلى نكتة لطيفة و هو أنّ الدعاء بذاته يعتبر من أفضل العبادات و الأعمال، و من خلال التحقيق فى عشرات الآيات الواردة فى القرآن المجيد فى مادّة «كسب» و مشتقاتها يستفاد جيّدا أنّ هذه المفردة تستعمل أيضا لغير الأعمال الجسميّة أيضا، أى الأعمال القلبيّة و الروحيّة كما ورد فى الآية ۲۲۵ من سورة البقرة وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ

فلا عجب أن يكون الدّعاء إذا نوع من الكسب و الاكتساب و خاصّة إذا لم يكن الدعاء باللّسان فقط بل مقترن بجميع وجود الإنسان.

أمّا جملة وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ الواردة فى الفقرة الأخيرة من الآية فإنّها تشير إلى سرعة حساب اللّه تعالى لعباده، فإنّه يجازى بالثواب و العقاب نقدا و بدون تأخير،

فقد ورد فى الحديث الشريف (إنّ اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴

فى مقدار لمح البصر)

[۵۵].

و هذا لأنّ علم اللّه ليس كعلم المخلوقات المحدود حيث يشغلها موضوع عن موضوع آخر.

إضافة إلى ذلك أنّ محاسبة اللّه لا ينبغى أن تستلزم زمانا، لأنّ أعمالنا ذات آثار باقية فى جسم و روح الموجودات المحيطة بنا و فى الأرض و أمواج الهواء، فالإنسان يشبه من هذه الجهة السّيارات المجهّزة بقياس السرعة و المسافة حيث تقرأ فيها كلّ لحظة مقدار عملها و سيرها و لا يحتاج بعدها إلى كتاب لحساب المسافات الّتى طوتها السّيارة طيلة عمرها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۰۳]

اشارة

وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۰۳)

التّفسير

آخر كلام عن الحجّ:

هـذه الآيـة فى الحقيقـة آخر آيـة وردت فى بيان مناسك الحـجّ و إبطال السّـنن الجاهليّـة فى المفاخرات الموهومة بالنسـبة للأسـلاف فتوصى المسلمين (بعد مراسم العيد) أن يذكروا اللّه تعالى وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ

و مع الأخـذ بنظر الاعتبار أن هـذا الأمر بقرينة الآيات السابقة ناضـرة إلى الأيّام الحادى عشـر و الثانى عشـر و الثالث عشـر الّتى تسـمّى بلسان الروايات (أيّام التشريق) و يتّضح من اسم هذه الأيّام أنّها فترة إشراق الرّوح الإنسانية فى ظل تلك المناسك العظيمة.

و فى الآية ۲۸ من سورة الحجّ ورد الأمر بذكر اللّه فى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ و هنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶

وردت عبـارة فى أَيَّامٍ مَعْـدُوداتٍ فالمعروف هو أنّ الأيّام المعلومات تعنى العشـرة الأيّام من بدايـة ذى الحـجّـة، و أما (أيّام معـدودات) فالمراد بها أيّام التشـريق المذكورة آنفا، و لكنّ بعض المفسّرين أورد احتمالات أخرى غير ذلك فى شرح الآية ۲۸ من سورة الحجّ، و سيأتى فى شرح الآية ۲۸ من سورة الحجّ ۵۶].

أمّا المراد من (أذكار)

فقد ورد فى الأحاديث الإسـلاميّة أنّها تعنى تلاوة التكبيرات التالية بعد خمسة عشر صلاة فى هذه الأيّام (ابتداء من صلاة الظهر من يوم العيد حتّى صـلاة الصبح من اليوم الثالث العشر) و هى (اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر و للّه الحمد، اللّه أكبر على ما هدانا اللّه أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام).

ثمّ تشـير الآيـة إلى هـذا الحكم الشـرعى فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى و هـذا التعبير بالحقيقة إشارة إلى نوع من التخيير فى أداء ذكر اللّه بين يومين أو ثلاثة أيّام.

و جملـة (لمن أتقى) ظاهرا قيـد للتعجيل فى اليومين، أى لا إثم على من تعجّل و اختار اليومين أو الثلاثـة، و هذا التعجيل يختص بمثل هؤلاء الأشخاص.

و جـاء فى روايـات أهل البيت عليهم السّـلام أنّ المراد من التقوى هنا هى تجنّب الصـيد، أى أنّ الأشـخاص حين الإحرام يجب عليهم تجنّب الصـيد أو جميع تروك الإحرام، فيمكنهم البقاء بعد عيد الأضحى يومين فى منى و لأداء مناسكهم و ذكر اللّه تعالى، أمّا من لم يتّق فيجب عليه البقاء ثلاثة أيّام هناك لأداء المراسم العباديّة و ذكر اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷

و ذهب البعض إلى أنّ جملـة (لا إثم عليه) إشـارة إلى نفى كلّ إثم و ذنب عن زوّار بيت اللّه الحرام، أى أنّ الحاج بعـد أداء مناسـكه عن ايمـان و إخلاـص و وعى يغفر له ما تقـدّم من ذنبه و تزول رواسب المعاصـى و أدران الـذنوب من قلبه و نفسه، و يخرج من هـذه العبادة التربويّة خالصا طاهرا نقيّا.

فمع أنّ هذا المعنى صحيح بذاته، إلّا أنّ ظاهر الآية ينسجم مع المعنى الأوّل أكثر.

و فى نهايـة الآيـة نلاحـظ أمرا كليّا بـالتّقوى حيث تقـول الآيـة وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فعلى أحـد هـذين التفسـيرين المـذكورين آنفـا يمكن أن تكون هـذه الجملـة إشارة إلى أنّ المناسك الروحانيّـة فى الحـجّ تطهّر الإنسان من الـذنوب السّابقـة كيوم ولدته امّه، و لكن عليكم تقوى اللّه و الحذر من الوقوع فى الذنب مرّة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۴ الى ۲۰۶]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یُشْهِدُ اللَّهَ عَلی ما فِی قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ (۲۰۴) وَ إِذا تَوَلَّی سَعی فِی الْأَرْضِ لِیُفْسِدَ فِیها وَ یُهْلِکَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الْفَسادَ (۲۰۵) وَ إِذا قِیلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ (۲۰۶)

سبب النّزول

ذکر فی سبب نزول هذه الآیات أمران:

۱- أنّ هذه الآیات نزلت فی (الأخنس) بن شریف) و کان رجلا و سیما عذب البیان یتظاهر بالإسلام و حبّ الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و کان کلّما جلس عند النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أقسم باللّه علی إیمانه و حبّه للرّسول، و کان الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم یغدق علیه من لطفه و حبّه کما هو مأمور به، و لکنّ هذا الشخص کان منافقا فی الباطن و فی حادثة نزاع بینه و بین بعض المسلمین هجم علیهم و قتل أحشامهم و أباد زرعهم (و بهذا أظهر ما فی باطنه من النّفاق)[۵۷].

۲- و من المفسّرین من نقل عن ابن عباس أنّ الآیة المذکورة نزلت فی سریّة (الرجیع) حیث بعث رسول اللّه مجموعة من الدعاة إلی القبائل المتوطّنة أطراف المدینة، فدبّرت لهم مؤامرة لئیمة استشهدوا فیها[۵۸].

و لکنّ سبب النّزول الأوّل أکثر انسجاما مع مضمون الآیات، و علی أیّ حال فالدرس الّذی تقدّمه الآیة عام و شامل.

التّفسیر

مصیر المفسدین فی الأرض:

الآیة الاولی تشیر إلی بعض المنافقین حیث تقول وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یُشْهِدُ اللَّهَ عَلی ما فِی قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ

(ألد) تأتی بمعنی ذو العداوة الشدیدة، و أصلها من (لدید) التی یراد بها طرفی الرقبة و کنایة عن الشخص الّذی یغلب الأعداء من کلّ جانب، و (خصام) لها معنی مصدری و هو الخصومة و العداوة.

ثمّ تضیف الآیة التالیة بعض العلامات الباطنیّة لعداوة مثل هذا الإنسان و هی:

وَ إِذا تَوَلَّی سَعی فِی الْأَرْضِ لِیُفْسِدَ فِیها وَ یُهْلِکَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الْفَسادَ.

أجل، فإنّ اللّه سبحانه و تعالی یفضح هؤلاء و یکشف سریرتهم، لأنّ هؤلاء لو کانوا صادقین فی إیمانهم و إظهارهم المحبّة لما أفسدوا فی الأرض مطلقا و لما اعتدوا علی مزارع الناس و أغنامهم بدون رحمة أو شفقة، فبالرّغم من أنّ ظاهرهم المحبّة الخالصة إلّا أنّهم فی الباطن أشدّ الناس قساوة و وحشیّة.

و احتمل کثیر من المفسّرین أنّ المراد بقوله (إذا تولّی) أی إذا حکم، لأنّ

التولّی من الولایة بمعنی الحکومة، فیکون معنی الولایة حینئذ أنّ المنافقین إذا حکموا فی الأرض أهلکوا الحرث و النسل و أشاعوا الظلم بین عباد اللّه، و بسبب ظلمهم و جورهم تهلک الماشیة و تتعرّض أموال و نفوس الناس للخطر[۵۹].

(حرث) بمعنی الزّراعة، (نسل) بمعنی الأولاد، و تطلق أیضا علی أولاد الإنسان و غیر الإنسان، فعلی هذا یکون إهلاک الحرث و النسل بمعنی إتلاف کلّ الموجودات الحیّة أعمّ من الأحیاء النباتیّة و الحیوانیّة و الإنسانیّة.

و ذکر لمعنی الحرث و النسل تفاسیر اخری منها: أنّ المراد بالحرث هو النساء بقرینة الآیة الشریفة نِساؤُکُمْ حَرْثٌ لَکَمْ ۶۰] و المراد بالنسل هم الأولاد، أو یکون المراد من الحرث هنا الدین و العقیدة و النسل الناس (و هذا التفسیر هو الوارد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السّلام المذکور فی مجمع البیان).

و علی کلّ حال فإنّ التعبیر یُهْلِکَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ کلام مختصر و جامع لکلّ المصادیق حیث یشمل الإفساد و التخریب بالنسبة للأموال و النفوس فی المجتمع البشری.

و الآیة الاخری تضیف وَ إِذا قِیلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۶۱] فتشتعل فی قلبه نیران التعصّب و اللّجاج و تجرّه إلی المعصیة و الإثم.

فمثل هذا الشخص لا یستمع إلی نصیحة النّاصحین و لا یهتم للإنذارات الإلهیّة، بل یستمر علی عناده و ارتکابه للآثام و المنکرات مغرورا، فلا یکون جزاءه إلّا النار، و لذلک یقول فی نهایة الآیة فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱

و فی الحقیقة أنّ هذه هی أحد الصّفات القبیحة و الذّمیمة للمنافقین حیث أنّهم لا یستسلمون للحقّ بسبب التعصّب و التحجّر و قساوة القلب، و هذه الصفات الذّمیمة تبلغ بصاحبه إلی أعلی درجات الإثم، فمن البدیهی أنّ مثل هذه الأخشاب الیابسة المنحرفة لا تستقیم إلّا بنار جهنّم.

و ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ اللّه عزّ و جلّ وصف هؤلاء الأشخاص بخمس صفات فی الآیات المذکورة آنفا، الاولی: أنّ کلامهم یخدع الإنسان، الثانیة: أنّ قلوبهم ملوّثة و مظلمة، الثالثة: أنّهم ألدّ الأعداء، الرّابعة: أنّهم إذا سنحت الفرصة فلا یرحمون أحدا من الإنسان و الحیوان و الزرع، الخامسة: أنّهم و بسبب الغرور و التکبر لا یقبلون ایّة نصیحة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۰۷]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (۲۰۷)

سبب النّزول

روی «الثعلبی» مفسّر أهل السنّة المعروف فی تفسیره أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لمّا أراد الهجرة إلی المدینة خلّف علی بن أبی طالب بمکة لقضاء دیونه و أداء الودائع التی کانت عنده و أمره لیلة خروجه من الدّار و قد أحاط المشرکون بالدار أن ینام علی فراشه و

قال له: اتّشح ببردی الحضرمی الأخضر و نم علی فراشی و إنّه لا یصل منهم إلیک مکروه إن شاء اللّه تعالی. ففعل ذلک علی

، فأوحی اللّه تعالی إلی جبرئیل و میکائیل إنّی آخیت بینکما و جعلت عمر أحدکما أطول من الآخر فأیّکما یؤثر صاحبه بالحیاة، فاختار کلاهما الحیاة فأوحی اللّه تعالی إلیهما: أ فلا کنتما مثل علی بن أبی طالب آخیت بینه و بین محمّد فبات علی فراشه یفدیه بنفسه و یؤثره بالحیاة انزلا إلی الأرض فاحفظاه من عدوّه.

فنزلا فکان جبرئیل عند رأسه و میکائیل عند رجلیه و جبرئیل ینادی بخّ بخّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳

من مثلك يا على يباهى اللّه تبارك و تعالى بك الملائكة، فأنزل اللّه على رسوله و هو متوجّه إلى المدينة فى شأن على الآية.

و لهذا سمّيت هذه اللّيلة التاريخية بليلة المبيت، و يقول ابن عباس نزلت الآية فى على حين هرب رسول اللّه من المشركين إلى الغار مع أبى بكر و نام على على فراش النبى.

و يقول (أبو جعفر الإسكافى) كما جاء فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلّد (۳) الصفحة (۲۷۰) «إنّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلّا مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة»[۶۲].

التّفسير

اشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۷۳

التضحيّة الكبرى فى دولة الهجرة التاريخيّة:

بالرّغم من أنّ الآية محل البحث تتعلّق كما ورد فى سبب النزول بحادثة هجرة النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تضحية الإمام على و مبيته على فراش النبى، و لكنّ مفهومها و محتواها الكلّى- كما فى سائر الآيات القرآنية- عامّ و شامل، و فى الحقيقة أنّها تقع فى النقطة المقابلة للآيات السابقة الّتى تتحدّث عن المنافقين.

تقول الآية وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ.

الطائفة السّابقة الّتى تحدّثنا عنها هى مجموعة من الأشخاص المعاندين و المغرورين و الأنانيّين الّذين يحاولون أن يحقّقوا لهم بين المجتمع عزّة و كرامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴

عن طريق النفاق و يتظاهرون بالإيمان بأقوالهم بينما أعمالهم ليس فيها سوى الإفساد فى الأرض و إهلاك الحرث و النسل.

أما هذه الطائفة الثّانية فتعاملهم مع اللّه وحده حيث يقدّمون أرواحهم رخيصة فى سبيله، و لا يبتغون سوى رضاه، و لا يطلبون عزّة و رفعة الّا باللّه، و بتضحيات هؤلاء يصلح أمر الدّين و الدنيا و يستقيم شأن الحقّ و الحقيقة و تصفو حياة الإنسان و تثمر شجرة الإسلام.

و من هنا يتّضح أنّ جملة وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ بمثابة النقطة المقابلة لما ورد فى الآية السابقة عن المنافقين المفسدين فى الأرض فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ و قد تكون إشارة إلى أن اللّه عزّ و جلّ فى الوقت الّذى هو رحيم و رؤوف بالعباد هو الّذى يشرى الأنفس بأغلى الأثمان و هو رضوان اللّه تعالى عن الإنسان.

و ممّا يستلفت النظر أنّ البائع هو الإنسان، و المشترى هو اللّه تعالى، و البضاعة هى النفس، و ثمنها هو رضوان اللّه تعالى، فى حين نرى فى موارد اخرى أنّ ثمن مثل هذه المعاملات هو الجنّة الخالدة و النجاة من النار، من قبيل قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ ۶۳].

و لعلّه لهذا السبب كانت (من) فى الآية مورد البحث تبعيضية (و من الناس)، يعنى أنّ بعض الناس يستطيعون أن يقوموا بمثل هذه الأعمال الخارقة بحيث لا يطلبون عوضا عن أرواحهم و أنفسهم سوى رضوان اللّه تعالى، و أمّا فى الآية (۱۱۱) من سورة التوبة التى

ذكرناها سابقا رأينا أنّ جميع المؤمنين قد دعوا إلى التعامل و التجارة مع اللّه تعالى فى مقابل الجنّة الخالدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵

و يحتمل أيضا فى تفسير جملة وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ و تناسبها مع بداية هذه الآية أنّ المراد هو بيان هذه الحقيقة أنّ وجود مثل هؤلاء الأفراد بين الناس لطف من اللّه سبحانه و رأفة بعباده، إذ لو لم يكن بين الناس مثل هؤلاء الأفراد المضحّين المتفانين مقابل تلك العناصر الخبيثة لانهدمت أركان الدّين و المجتمع، لكنّ اللّه سبحانه بفضله و منّه يدفع بهؤلاء الصّديقين الأولياء خطر أولئك الأعداء.

فعلى أىّ حال، فهذه الآية و مع الالتفات إلى سبب النزول المذكور آنفا تعدّ أعظم الفضائل لإمام على عليه السّلام الواردة فى اكثر المصادر الإسلامية، و كانت فى صدر الإسلام من الوضوح بين المسلمين بحيث دعت معاويه العدو اللّدود للإمام على عليه السّلام أن يرشى (سمرة بن جندب) بأربعمائة ألف درهم كى يروى حديثا مختلطا ينسب فيه فضيلة هذه الآية إلى عبد الرحمن ابن ملجم، و قد اختلق هذا المنافق الجانى هذه الفرية، و لكنّ أحدا لم يقبل منه حديثه المجعول ۶۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۸ الى ۲۰۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۰۸) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۰۹)

التّفسير

السّلام العالمى فى ظلّ الإسلام:

بعد الإشارة إلى الطائفتين (المؤمنين المخلصين و المنافقين المفسدين) فى الآيات السابقة تدعو هذه الآيات الكريمة كلّ المؤمنين إلى السّلم و الصلح و تقول:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً.

(سلم) و (سلام) فى اللّغة بمعنى الصّلح و الهدوء و السكينة، و ذهب البعض إلى تفسيرها بمعنى الطّاعة، فتدعوا هذه الآية الكريمة جميع المؤمنين إلى الصلح و السّلام و التسليم إلى أوامر اللّه تعالى، و يستفاد من مفهوم هذه الآية أنّ السّلام لا يتحقّق إلّا فى ظلّ الإيمان، و أنّ المعايير و المفاهيم الأرضيّة و الماديّة غير قادرة على إطفاء نار الحروب فى الدنيا، لأنّ عالم المادّة و التعلّق به مصدر جميع الاضطرابات و النّزاعات دائما، فلو لا القوّة المعنويّة للايمان لكان الصّلح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷

مستحيلا، بل يمكن القول أنّ دعوة الآية العامّة لجميع المؤمنين بدون استثناء من حيث اللّغة و العنصر و الثروة و الإقليم و الطبقة الاجتماعيّة إلى الصّلح و السّلام يستفاد منها أنّ تشكيل الحكومة العالميّة الواحدة فى ظل الإيمان باللّه تعالى و العيش فى مجتمع يسوده الصّلح ممكن فى إطار الدولة العالميّة.

واضح أنّ الاطر الماديّة الأرضيّة (من اللّغة و العنصر و ...) هى عوامل تفرقة بين أفراد البشر و بحاجة إلى حلقة اتّصال محكمة تربط بين قلوب النّاس، و هذه الحلقة ليست سوى الإيمان باللّه تعالى الّذى يتجاوز كلّ الاختلافات، الإيمان باللّه و اتّباع أمره هو النقطة و

المحور لوحدة المجتمع الإنسانی و رمز ارتباط الأقوام و الشّعوب، و یمکن رؤیة ذلک من خلال مناسک الحجّ الّذی یعتبر نموذجا بارزا إلی اتّحاد الأقوام البشریّة بمختلف ألوانها و قومیّتها و لغاتها و أقالیمها الجغرافیّة و أمثال ذلک حیث یشترکون فی المراسم العبادیة الروحانیّة فی منتهی الصّلح و الصّفاء، و بمقایسة سریعة بین هذه المفاهیم و الأنظمة الحاکمة علی الدول الفاقدة للإیمان باللّه تعالی و کیف أنّ الناس یفتقدون فیها إلی الأمان النفسی و المالی و یخافون علی اعراضهم و نوامیسهم یتّضح لنا التفاوت بین المجتمعات المؤمنة و غیر المؤمنة من حیث الصّلح و الأمان و السّلام و الطمأنینة.

و یحتمل أیضا فی تفسیر الآیة أنّ بعض أهل الکتاب (الیهود و النصاری) عند ما یعتنقون الإسلام یبقون أوفیاء لبعض عقائدهم و تقالیدهم السابقة، و لهذا تأمر الآیة الشریفة أن یعتنقوا الإسلام بکافّة وجودهم و یخضعوا و یسلّموا لجمیع أحکامه و تشریعاته ۶۵]. ثمّ تضیف الآیة وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّیْطانِ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ و قد مرّ بنا فی تفسیر الآیة (۱۶۸) من هذه السورة الإشارة إلی أنّ کثیر من الانحرافات و وساوس الشیطان تحدث بصورة تدریجیّة علی شکل مراحل حیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸

یسمّیها القرآن (خطوات الشیطان).

(خطوات) جمع «خطوة» و هنا تکرّرت هذه الحقیقة من أنّ الانحراف عن الصلح و العدالة، و التسلیم لإرادة الأعداء و دوافع العداوة و الحرب و سفک الدماء یبدأ من مراحل بسیطة و ینتهی بمراتب حادّة و خطرة کما فی المثل العربی المعروف (إنّ بدو القتال اللّطام).

فتارة تصدر من الإنسان حرکة بسیطة عن عداء و حقد و تؤدّی إلی الحرب و الدّمار، و لهذا تخاطب الآیة المؤمنین أن یلتفتوا إلی نقطة البدایة کی لا تؤدّی شرارات الشرّ الاولی الاشتعال لظی المعارک و الحروب.

و جدیر بالذّکر أنّ هذا التعبیر ورد فی القرآن الکریم خمس مرّات و فی غایات مختلفة.

و ذکر بعض المفسّرین أنّ (عبد اللّه بن سلام) و أتباعه الذین کانوا من الیهود و أسلموا طلبوا الإذن من رسول اللّه بقراءة التوراة فی الصلاة و العمل ببعض أحکامها، فنزلت الآیة الآنفة الذکر و نهت هؤلاء عن إتّباع خطوات الشیطان ۶۶].

و من شأن النزول هذا یتبیّن أنّ الشیطان ینفذ فی فکر الإنسان و قلبه خطوة خطوة، فیجب التصدّی للخطوات الاولی لکیلا تصل إلی مراحل خطرة.

و تتضمّن جملة إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ برهانا و دلیلا حیّا حیث تقول إنّ عداء الشیطان للإنسان لیس بأمر خفی مستتر، فهو منذ بدایة خلق آدم أقسم أن یبذل جهده لإغواء جمیع البشر إلّا المخلصین الّذین لا ینالهم مکر الشیطان، فمع هذا الحال کیف یمکن تغافل و سوسة الشیطان.

الآیة التالیة إنذار لجمیع المؤمنین حیث تقول فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْکُمُ الْبَیِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ فلو انحرفتم و سرتم مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۹

وساوس الشیطان علی خلاف مسار الصلح و السلام فإنّکم لا تستطیعون بذلک الفرار من العدالة الإلهیّة.

المنهج بیّن و الطریق بیّن و الهدف بیّن، و معلوم من هنا لا عذر لمن یزل عن الطریق، فلو انحرفتم فأنتم المقصّرون، فاعلموا أنّ اللّه قادر حکیم لا یستطیع أحد أن یفرّ من عدالته.

(بیّنات) بمعنی الدلائل الواضحة، و لها مفهوم واسع یستوعب الدلائل العقلیّة، و کذلک ما یتّضح للإنسان عن طریق الوحی أو المعجزات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۰

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۱۰]

اشارهٔ

هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ یَأْتِیَهُمُ اللَّهُ فِی ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِکَهُ وَ قُضِیَ الْأَمْرُ وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۲۱۰)

التّفسیر

توقّع غیر معقول:

قد یبدو للوهلهٔ الاولی أنّ فی هذه الآیهٔ الکریمهٔ نوعا من الإبهام و التعقید، لکنّ ذلک یزول عند إمعان النظر بتعبیراتها.
الآیـهٔ تخاطب الرسول صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و تقول معقبّهٔ علی الآیات السابقـهٔ: أ لیست کلّ هـذه الـدلائل و الآیات و الأحکام الواضـحهٔ کافیـهٔ لصـدّ الإنسان عن الهلکهٔ و انقاذه من براثین عدوّه المبین (الشـیطان)، هل ینتظرون أن یأتی اللّه إلیهم مع الملائکهٔ فی وسـط الغمامـهٔ و یطرح علیهم من الآیات و الـدلائل أوضـح ممّا سـبق، و إنّ ذلک محال، و علی فرض کونه غیر محال فإنّه لا ضـرورهٔ لذلک: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ یَأْتِیَهُمُ اللَّهُ فِی ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِکَهُ وَ قُضِیَ الْأَمْرُ[۶۷].
أمّا ما هو المراد من «قضی الأمر» الوارد فی الآیهٔ؟
ذهب المرحوم (الطبرسی) فی مجمع البیان أنّ معناها انتهاء حساب البشر فی
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۱
یوم القیامـهٔ و دخول أهـل الجنّهٔ إلی الجنّهٔ و أهل النّار إلی النّار، و علی هـذا الأساس فالآیـهٔ ناظرهٔ إلی الآخرهٔ فی حین أنّ ظاهر الآیهٔ یتعلّق بهـذه الحیاهٔ الـدنیا، و لهذا فلیس من البعید أن تکون هذه الآیهٔ إشارهٔ إلی نزول العذاب الإلهی علی الکفّار المعاندین، و قد ورد فی هذا المعنی فی کلام الطبرسی و غیره من المفسّرین بعنوان أحد الاحتمالات.
و یمکن أن یکون المعنی إشارهٔ إلی انتهاء مأموریّـهٔ التبلیغ و بیان الحقائق الواردهٔ فی الآیـهٔ السابقهٔ بعنوان (بیّنات)، و بهذا یکون انتظار و توقع هؤلاـء بلاـ معنی، فعلی فرض المحـال إمکانیّـهٔ حضور اللّه تعـالی و الملائکـهٔ أمـامهم فلاـ حاجـهٔ إلی ذلـک کمـا ذکرنـا، لأنّ مستلزمات الهدایهٔ قد وضعت أمامهم بالقدر الکافی، و بناء علی هذا التفسیر لا یوجد فی الآیهٔ أی تقدیر، و الألفاظ بعینها قد فسّرت، و بهذا یکون الاستفهام الوارد فی الآیهٔ استفهاما إنکاریّا.
و هنـاک من المفسّـرین من لم یر الاسـتفهام فی الآیـهٔ اسـتنکاریّا، و اعتبره نوعـا من التهدیـد للمـذنبین و لأولئک السائرین علی خطی الشـیطان، سواء کان التهدیـد بعـذاب الآخرهٔ أو الـدنیا، و لهـذا فهم یقـدّرون قبل کلمهٔ «اللّه» کلمهٔ (أمر) فیکون المعنی حینئذ: (أ یرید هؤلاء بأعمالهم هذه أن یؤتیهم أمر اللّه و ملائکته لمعاقبتهم و تعذیبهم و لینالوا عذاب الدنیا أو الآخرهٔ و ینتهی أمرهم و أعمالهم).
و لکنّ التفسیر المذکور أعلاه أنسب المعانی لهذه الآیهٔ ظاهرا و لا حاجهٔ إلی التقدیر.
و الخلاصهٔ أنّ لهذه الآیهٔ ثلاثهٔ تفاسیر:
۱- أنّ المراد هو أنّ اللّه تعـالی قـد أتمّ حجّته بمقـدار کـاف، فلا ینبغی للمعانـدین توقّع أن یأتیهم اللّه و الملائکـهٔ أمامهم و یبیّنوا لهم الحقائق، لأنّ هذا أمر محال و علی فرض أنّه غیر محال لا حاجهٔ لذلک.
۲- المراد هو أنّ هؤلاء مع عنادهم و عدم إیمانهم هل ینتظرون الأمر الإلهی
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۲
بإنزال العذاب و ملائکهٔ العذاب علیهم فیهلکوا عن آخرهم.
۳- المراد أنّ هؤلاء بهـذه الأعمال هل ینتظرون قیام السّاعهٔ لیصدر الأمر إلی الملائکهٔ بتعذیبهم و ینالوا جزاءهم العادل؟[۶۸] التعبیر ب

(ظلل من الغمام) بناء على التفسير الثانى و الثالث الّذى ذهب إليه الكثير من المفسّرين إشارة إلى أنّ العذاب الإلهى يأتى فجأة كالسّحاب الّذى يظلّلهم و خاصّة أنّ الإنسان إذا رأى السّحاب يتوقّع أمطار الرّحمة، فعند ما يأتى العذاب بصورة الصاعقة و أمثال ذلك و ينزل عليهم فسيكون أقسى و أشدّ إيلاما (مع الالتفات إلى أنّ عذاب بعض الأقوام السّالفة نزل عليهم بصورة صاعقة من الغمام)[۶۹].

أمّا على أساس التفسير الأوّل فقد يكون إشارة إلى عقيدة الكفّار الخرافيّة حيث يظنّون أنّ اللّه تعالى ينزل أحيانا من السّماء و السّحاب تظلّله ۷۰].

و فى نهاية الآية تقول وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ الأمور المتعلّقة بإرسال الأنبياء و نزول الكتب السماويّة و تبيين حقائق يوم القيامة و الحساب و الجزاء و الثواب و العقاب و كلّها تعود إليه.

بحث

استحالة رؤية اللّه:

لا شكّ أنّ الرّؤية الحسيّة لا تكون إلّا للأجسام الّتى لها لون و مكان و تأخذ حيّز من الفراغ، فعلى هذا لا معنى لرؤية اللّه تعالى الّذى هو فوق الزمان و المكان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۳

إنّ الذات المقدّسة يستحيل رؤيتها بهذه العين لا فى الدّنيا و لا فى الآخرة، و الأدلّة العقليّة على هذه المسألة واضحة إلى درجة أنّه لا حاجة لشرحها و بيانها، و لكن مع ذلك فإنّ طائفة من علماء أهل السّنة و مع الأسف يستندون على بعض الأحاديث الضعيفة و عدد من الآيات المتشابهة على إمكان رؤية اللّه تعالى يوم القيامة بهذه العين الماديّة، و إنّه سيكون له قالب جسمانى و لون و مكان، و بعضهم يرى أنّ الآية مورد البحث ناظرة إلى هذا المعنى، فلعلّهم لم يلتفتوا إلى مدى المفاسد و المشكلات المترتّبة على هذا القول.

و طبعا لا شكّ فى إمكانيّة رؤية اللّه تعالى بعين القلب، سواء فى هذه الدنيا أو فى عالم آخر، و من المسلّم أنّ ذاته المقدّسة فى يوم القيامة لها ظهور أقوى و أشد من ظهورها فى هذا العالم ممّا يستدعى أن تكون المشاهدة أقوى،

و فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السّلام فى جواب من سأله هل يمكن مشاهدة اللّه يوم القيامة؟ فقال: «... إنّ الأبصار لا تدرك إلّا ما له لون و كيفيّة و اللّه تعالى خالق الألوان و الكيفيّة»

[۷۱].

و قد أوردنا أبحاثا فى عدم إمكانيّة رؤية اللّه تعالى فى الدنيا و الآخرة فى ذيل الآيات المربوطة، منها فى ذيل آية (۱۰۳) من سورة الأنعام لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ و ذكرنا بحثا آخر أكثر تفصيلا فى المجلّد الرابع من (نفحات القرآن) فراجع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۱]

اشارة

سَلْ بَنِى إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲۱۱)

التّفسير

تبديل نعمة اللّه بالعذاب الأليم:

تشير هـذه الآية إلى أحد مصاديق الآيات السابقة، لأنّ الحديث فى الآيات السابقة كان يدور حول المؤمنين و الكافرين و المنافقين، و أنّ الكافرين كانوا يتجاهلون آيات اللّه و براهينه الواضحة و يتذرّعون بمختلف الحجج و المعاذير، و بنى إسرائيل مصداق واضح لهذا المعنى، و تقول الآية: سَلْ بَنِى إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ.

و لكنّهم تجاهلوا و تغافلوا عن هـذه الآيات و العلائم الواضحة و أنفقوا المواهب الإلهيّـة و النعم الربانية فى أساليب مذمومة و منحرفة، ثمّ تقول الآية وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

و المراد من (تبديل النعمة) هو استخدام الإمكانات و الطّاقات و المصادر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۵

الماديّة و المعنويّة الموهوبة على طريق تخريبى انحرافى و ممارسة الظلم و الطغيان، فقد وهب اللّه سبحانه و تعالى مواهب كثيرة لبنى إسرائيل من قبيل الأنبياء و القادة الشجعان و الإمكانات الماديّة الكثيرة، و لكنّهم لم ينتفعوا من أنبياءهم الإلهيّين، و لا استفادوا من المواهب الماديّة استفادة صحيحة، و بهذا ارتكبوا معصية تبديل النّعمة ممّا سبّب لهم أنواع العذاب الدنيوى، كالتيه فى الصحراء و كذلك العذاب الاخروى الأليم.

و عبارة (سل بنى إسرائيل) فى الحقيقة تستهدف كسب الاعتراف منهم بشأن النعم الإلهيّة، ثمّ التفكير بالسّبب الّذى أدّى بهم إلى الهاوية و التمزّق مع كلّ هذه الإمكانات ليكونوا عبرة للمسلمين و لكلّ من لا ينتفع بالمواهب الإلهيّة بصورة سليمة.

و لا تنحصر مسألة تبديل النّعمة و المصير المؤلم لها ببنى إسرائيل، بل أنّ جميع الأقوام و الشّعوب إذا ارتكبت مثل هذه الخطيئة سوف تبتلى بالعذاب الإلهى الشديد فى الدنيا و فى الآخرة.

فالعالم المتطوّر صناعيّا يعانى اليوم من هذه المأساة الكبرى، فمع و فور النعم و الطاقات لدى الإنسان المعاصر وفورا لم يسبق له مثيل فى التاريخ نجد صورا شتّى من تبديل النعم و تسخيرها بشكل فضيع فى طريق الإبادة و الفناء بسبب ابتعادهم عن التعاليم الإلهيّة للأنبياء، حيث حوّروا هذه النعم إلى أسلحة مدمّرة من أجلّ بسط سيطرتهم الظالمة و استعمارهم للبلدان الاخرى، و بذلك جعلوا من الدنيا مكانا غير آمن، و جعلوا الحياة الدنيا غير آمنة من كلّ ناحية.

(نعمة اللّه) فى هـذه الآية قد تكون إشارة إلى الآيات الإلهيّة و تبديلها يعنى تحريفها، أو يكون المعنى أوسع و أشمل من ذلك حيث يستوعب كلّ الإمكانات و المواهب الإلهيّة، و المعنى الثانى أرجح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۲]

اشارة

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۲۱۲)

سبب النّزول

عن ابن عبّاس المفسّر المعروف قال: إنّها نزلت فی رؤساء قریش الّذین بسطت لهم الدنیا و کانوا یسخرون من قوم من المؤمنین الفقراء کعبد اللّه بن مسعود و عمّار و بلال و خباب و یقولون: لو کان محمّد نبیّا لاتّبعته أشرافنا، فنزلت الآیة لتردّ علیهم.

التّفسیر

الکافرون عبید الدّنیا:

نزول الآیة طبقا للرّوایة المذکورة بشأن رؤساء قریش لا یمنع أن تکون مکمّلة لموضوع الآیة السابقة بشأن الیهود و أن نستنتج منها قاعدة کلیّة، تقول الآیة زُیِّنَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا الْحَیاةُ الدُّنْیا و لذلک أفقدهم الغرور و التکبّر شعورهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۷

وَ یَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا فی حین أنّ المؤمنین و المتّقین فی أعلی علیّین فی الجنّة، و هؤلاء فی درکات الجحیم وَ الَّذِینَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ.

لأنّ المقامات المعنویّة تتّخذ صور عینیّة فی ذلک العالم، و یکتسب المؤمنون درجات أسمی من هؤلاء، و کأنّ هؤلاء یسیرون فی أعماق الأرض بینما یحلّق الصالحون فی أعالی السّماء، و لیس ذلک بعجیب وَ اللَّهُ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ بِغَیْرِ حِسابٍ

و هذه فی الحقیقة بشارة للمؤمنین الفقراء و إنذار و تهدید للأغنیاء و الأثریاء المغرورین، و هناک احتمال آخر أیضا و هو أنّ الجملة الأخیرة تشیر إلی أنّ اللّه تعالی یرزق المؤمنین فی المستقبل بدون حساب، و ذلک بتقدّم الإسلام و اتّساعه حیث تحقّق هذا الوعد الإلهی.

و کون ذلک الرّزق الإلهی بدون حساب للمؤمنین إشارة إلی أنّ الثواب و المواهب الإلهیّة لیست بمقدار أعمالنا إطلاقا، بل هی مطابقة لکرمه و لطفه، و نعلم أنّ کرمه و لطفه لیست لهما حدود و نهایة.

ملاحظة

إنّ الحیاة المادیّة فی منظار الکافرین- الّذین لا یتّعدی أفق تفکیرهم إطار العالم المادّی- جمیلة و جذّابة و معیار تقویم کلّ شیء، و من هنا فإنّهم ینظرون بفکرهم الضیّق إلی الفقراء نظرة تحقیر و استهانة و استهزاء، و لا یقیمون و زنا للقیم المعنویّة و الإنسانیّة.

و یبقی هنا سؤال عن معنی فعل المجهول (زیّن) فمن الّذی یزیّن الدنیا فی أنظار الکافرین؟ الجواب علی هذا السؤال سیأتی إن شاء اللّه فی تفسیر الآیة (۱۴) من سورة آل عمران.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۸

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۱۳]

اشارة

کانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِیهِ إِلاَّ الَّذِینَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ فَهَدَی اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲۱۳)

التّفسیر

طریق الوصول إلی الوحدة:

بعد بیان حال المؤمنین و المنافقین و الکفّار فی الآیات السّابقة شرع القرآن الکریم فی هذه الآیة فی بحث اصولیّ کلّی و جامع بالنسبة لظهور الدّین و أهدافه و المراحل المختلفة الّتی مرّ بها.

فی البدایة تقول الآیة کانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً[٧٢].

فتبدأ هذه الآیة ببیان مراحل الحیاة البشریّة و کیفیّة ظهور الدّین لإصلاح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۹

المجتمع بواسطة الأنبیاء و ذلک علی مراحل:

المرحلة الاولی: مرحلة حیاة الإنسان الابتدائیّة حیث لم یکن للإنسان قد ألف الحیاة الاجتماعیة، و لم تبرز فی حیاته التناقضات و الاختلافات، و کان یعبد اللّه تعالی استجابة لنداء الفطرة و یؤدّی له فرائضه البسیطة، و هذه المرحلة یحتمل أن تکون فی الفترة الفاصلة بین آدم و نوح علیهما السّلام.

المرحلة الثانیة: و فیها اتّخذت حیاة الإنسان شکلا اجتماعیّا، و لا بدّ أن یحدث ذلک لأنّه مفطور علی التکامل، و هذا لا یتحقّق إلّا فی الحیاة الاجتماعیّة.

المرحلة الثالثة: هی مرحلة التناقضات و الاصطدامات الحتمیّة بین أفراد المجتمع البشری بعد استحکام و ظهور الحیاة الاجتماعیّة، و هذه الاختلافات سواء کانت من حیث الإیمان و العقیدة، أو من حیث العمل و تعیین حقوق الأفراد و الجماعات تحتّم وجود قوانین لرعایة و حمل هذه الاختلافات، و من هنا نشأت الحاجة الماسّة إلی تعالیم الأنبیاء و هدایتهم.

المرحلة الرابعة: و تتمیّز ببعث اللّه تعالی الأنبیاء لإنقاذ الناس، حیث تقول الآیة فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ

فمع الالتفات إلی تبشیر الأنبیاء و إنذارهم یتوجّه الإنسان إلی المبدأ و المعاد و یشعر أنّ وراءه جزاء علی أعماله فیحس أنّ مصیره مرتبط مباشرة بتعالیم الأنبیاء و ما ورد فی الکتب السّماویّة من الأحکام و القوانین الإلهیّة لحل التناقضات و النّزاعات المختلفة بین أفراد البشر، لذلک تقول الآیة وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ

المرحلة الخامسة: هی التمسّک بتعالیم الأنبیاء و ما ورد فی کتبهم السماویّة لإطفاء نار الخلافات و النزاعات المتنوعة (الاختلافات الفکریّة و العقائدیّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۰

و الاجتماعیّة و الأخلاقیّة).

المرحلة السادسة: و استمر الوضع علی هذا الحال حتّی نفذت فیهم الوساوس الشیطانیّة و تحرّکت فی أنفسهم الأهواء النفسانیّة، فأخذت طائفة منهم بتفسیر تعلیمات الأنبیاء و الکتب السماویّة بشکل خاطئ و تطبیقها علی مرادهم، و بذلک رفعوا علم الاختلاف مرّة ثانیة. و لکن هذا الاختلاف یختلف عن الاختلاف السابق، لأنّ الأوّل کان ناشئا عن الجهل و عدم الاطّلاع حیث زال و انتهی ببعث الأنبیاء و نزول الکتب السماویّة، فی حین أنّ منبع الاختلافات الثانیة هو العناد و الانحراف عن الحقّ مع سبق الإصرار و العلم، و بکلمة: (البغی)، و بهذا تقول الآیة بعد ذلک وَ مَا اخْتَلَفَ فِیهِ إِلَّا الَّذِینَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ

المرحلة السابعة: الآیة الکریمة بعد ذلک تقسّم الناس إلی قسمین، القسم الأوّل المؤمنون الّذین ینتهجون طریق الحقّ و الهدایة و

یتغلّبون علی کلّ الاختلافات بالاستنارة بالکتب السماویّة و تعلیم الأنبیاء، فتقول الآیة: فَهَدَی اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ فی حین أنّ الفاسقین و المعاندین ماکثون فی الضلالة و الاختلاف.

و ختام الآیة تقول وَ اللَّهُ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ و هذه الفقرة إشارة إلی حقیقة ارتباط مشیئة اللّه تعالی بأعمال الأفراد، فجمیع الأفراد الرّاغبون فی الوصول إلی الحقیقة یهدیهم اللّه تعالی إلی صراط مستقیم و یزید فی وعیهم و هدایتهم و توفیقهم فی الخلاص من الاختلافات و المشاجرات الدنیویّة مع الکفّار و أهل الدنیا و یرزقهم السکینة و الاطمئنان، و یبیّن لهم طریق النجاة و الاستقامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۱

بحوث

۱- الدین و المجتمع

یستفاد من الآیة أعلاه ضمنیا أنّ الدین و المجتمع البشری حقیقتان لا تقبلان الانفصال، فلا یمکن لمجتمع أن یحیی حیاة سلیمة دون دین و إیمان باللّه و بالآخرة، و لیس بمقدور القوانین الأرضیّة أن تحلّ الاختلافات و التناقضات الاجتماعیّة لعدم ارتباطها بدائرة إیمان الفرد و افتقارها التأثیر علی أعماق وجود الإنسان، فلا یمکنها حل الاختلافات و التناقضات فی حیاة البشر بشکل کامل، و هذه الحقیقة أثبتتها بوضوح أحداث عالمنا المعاصر، فالعالم المسمّی بالمتطوّر قد ارتکب من الجرائم البشعة ما لم نر له نظیرا حتّی فی المجتمعات المتخلّفة.

و بذلک یتّضح منطق الإسلام فی عدم فصل الدّین عن السّیاسة و أنه بمعنی تدبیر المجتمع الإسلامی.

۲- بدایة التشریع

و یتّضح من الآیة أیضا أنّ بدایة انبثاق الدین بمعناه الحقیقی کانت مقترنة مع ظهور المجتمع البشری بمعناه الحقیقی، من هنا نفهم سبب کون نوح أوّل أنبیاء اولوا العزم و أوّل أصحاب الشریعة و الرسالة لا آدم.

۳- الشرق الأوسط مهد الأدیان الکبری

و من الآیة محل البحث نفهم الجواب علی السؤال عن سبب ظهور الأدیان الإلهیّة الکبری فی منطقة الشرق الأوسط (الدین الإسلامی و المسیحی و الیهودی و دین إبراهیم و ...) لأنّ التاریخ یشهد علی أنّ مهد الحضارات البشریّة کانت فی هذه المنطقة من العالم و انتشرت منها إلی المناطق الاخری، و مع الالتفات إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۲

الرابطة الشدیدة بین الدین و الحضارة و حاجة المجتمعات المتحضّرة إلی الدین من أجل حل الاختلافات و التناقضات الهدّامة یتّضح أنّ الدین لا بدّ أن یتحقّق فی هذه المنطقة بالذّات.

و عند ما نری أنّ الإسلام انطلق من محیط جاهلی متخلّف کمجتمع مکّة و مدینة فی تلک الأیّام، فذلک بسبب أنّ هذه المنطقة تقع

على مفترق طرق عـدّة حضارات عظيمـة فى ذلك الزّمان، ففى الشـمال الشـرقى من جزيرة العرب كانت الحضارة الفارسـيّة و بقيّة من حضـارة بابـل، و إلى الشـمال كـانت حضـارة الرّوم، و فى الشّـمال الغربى كـانت حضارة مصـر القديمـة بينما كانت حضارة اليمن فى الجنوب.

و فى الحقيقـة أنّ مركز ظهور الإسـلام فى ذلـك الزمـان كان بمثابـة مركز الـدّائرة الّتى تحيط بها الحضارات المهمّـة فى ذلك الزمان (فتأمّل بالدّقة).

۴- حلّ الاختلافات من أهم أهداف الدّين

هناك عـدّة أهداف للأديان الإلهيّة، منها تهذيب النّفوس البشـريّة و إيصالها إلى المقام القرب الإلهى، و لكن من أهمّ الأهداف أيضـا هو رفع الاختلافـات، لأنّ هنـاك بعض العوامـل من قبيـل القوميّـة و الرّس و اللّغـة و المنـاطق الجغرافيـة دائما تكون عوامل تفرقـة بين المجتمعات البشـريّة، و الأمر الّـذى بإمكانه أن يوحّـد هـذه الحلقات المختلفـة و يكون بمثابة حلقة اتّصال بين أفراد البشـر من مختلف القوميّـات و الألـوان و اللّغـات و المنـاطق الجغرافيـة هو الـدّين الإلهى، حيث بإمكانه أن يهـدم جميع هـذه السـدود، و يزيل تمام هـذه الحدود، و يجمع البشريّة تحت راية واحدة بحيث نرى نموذجا من ذلك فى مناسك الحجّ العباديّة و السياسيّة.

و عنـد ما نرى أنّ بعض الأديان و المذاهب هى السبب فى الاختلاف و النّزاع بين طوائف البشـر، لأنّها قد خالطتها الخرافات و اقترنت بالتّعصب الأعمى، و إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۳

فإنّ الأديان الإلهيّة لو لم تتعرّض للتحريف لكانت سببا للوحدة فى كلّ مكان.

۵- الدّليل على عصمة الأنبياء

يذكر (العلّامة الطباطبائى) فى الميزان بعد أن يقسّم عصمة الأنبياء إلى ثلاثة أقسام:

۱- العصمة من الخطأ عند نزول الوحى و استلامه، ۲- العصمة من الخطأ فى تبليغ الرسالة، ۳- العصمة من الذنب و ما يؤدّى إلى هتك حرمـة العبوديّـة للّه. يقول: إنّ الآيـة مورد البحث دليل على عصـمة الأنبياء من الخطأ فى تلّقى الوحى و تبليغ الرّسالـة، لأنّ الهـدف من بعثتهم هو البشارة و الإنـذار للنّاس و بيان العقيـدة الحقّـة فى الإعتقاد و العمل، و بـذلك يمكنهم هدايـة النّاس عن هـذا الطريق، و من الواضح أنّ هذا الهدف لا يتحقّق بدون العصمة فى تلقّى الوحى و تبليغ الرّسالة.

القسم الثالث من العصـمة يمكن اسـتفادته من هذه الآية أيضا، لأنّه لو صدر خطأ فى تبليغ الرّسالة لكان بنفسه عاملا على الاختلاف، و لو حصـل تضـاد بين أعمـال و أقوال الأنبيـاء الإلهيّين بارتكابهم الـذنب فيكون أيضا عاملا و سـببا للاختلاف، و بهـذا فإنّ الآيـة أعلاه يمكن أن تكون إشارة إلى عصمة الأنبياء فى جميع الأقسام الثلاثة المذكورة[۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۴]

اشارة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (۲۱۴)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ الآية نزلت عند ما حوصر المسلمون و اشتدّ الخوف و الفزع بهم فی غزوة الأحزاب، فجاءت الآية لتثبّت على قلوبهم و تعدهم بالنصر.

و قيل: إنّ عبد اللّه بن أبی قال للمسلمين عند فشلهم فی غزوة أحد: إلى متى تتعرّضون للقتل و لو كان محمّد نبيّا لما واجهتم الأسر و التقتيل، فنزلت الآية[۷۴].

التّفسير

الصعاب و المشاقّ سنّة إلهية:

يبدو من الآية الكريمة أنّ جماعة من المسلمين كانت ترى أنّ إظهار الإيمان باللّه وحده كاف لدخولهم الجنّة، و لذلك لم يوطنوا أنفسهم على تحمّل الصعاب

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۵

و المشاقّ ظانّين أنه سبحانه هو الكفيل بإصلاح أمورهم و دفع شرّ الأعداء عنهم.

الآية تردّ على هذا الفهم الخاطئ و تشير إلى سنّة إلهية دائمة فی الحياة، هی أنّ المؤمنين ينبغی أن يعدّوا أنفسهم لمواجهة المشاقّ و التحدّيات على طريق الإيمان ليكون ذلك اختبارا لصدق إيمانهم، و مثل هذا الاختبار قانون عامّ سرى على كلّ الأمم السابقة.

و يتحدّث القرآن الكريم عن بنی إسرائيل- مثلا- و ما واجهوه من مصاعب بعد خروجهم من مصر و نجاتهم من التسلّط الفرعونی، خاصّة حين حوصروا بين البحر و جيش فرعون، فقد مرّوا بلحظات عصيبة فقد فيها بعضهم نفسه، لكن لطف اللّه شملهم فی تلك اللحظات و نصرهم على أعدائهم.

و هذا الذی عرضه القرآن عن بنی إسرائيل عامّ لكلّ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ و هو سنّة إلهيّة تستهدف تكامل الجماعة المؤمنة و تربيتها. فكلّ الأمم ينبغی أن تمرّ فی أفران الأحداث القاسية لتخلص من الشوائب كما يخلص الحديد فی الفرن ليتحوّل إلى فولاذ أكثر مقاومة و أصلب عودا. ثمّ ليتبيّن من خلال هذا الاختبار من هو اللائق، و ليسقط غير اللائق و يخرج من الساحة الاجتماعية.

المسألة الأخرى التی ينبغی التأكيد عليها فی تفسير هذه الآية: أنّ الجماعة المؤمنة و على رأسها النبیّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم ترفع صوتها حين تهجم عليها الشدائد بالقول مَتى نَصْرُ اللَّهِ !، و واضح أنّ هذا التعبير ليس اعتراضا على المشيئة الإلهية، بل هو نوع من الطلب و الدعاء.

فتقول الآية أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ ....

و بما أنّهم كانوا فی غاية الاستقامة و الصبر مقابل تلك الحوادث و المصائب، و كانوا فی غاية التوكّل و تفويض الأمر إلى اللّطف الإلهی، فلذلك تعقّب الآية أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ

(بأساء) من مادّة (بأس) و كما يقول صاحب معجم مقاييس اللّغة أنّها فی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۶

الأصل تعنی الشّدة و أمثالها، و تطلق علی کلّ نوع من العذاب و المشّقة، و یطلق علی الأشخاص الشّجعان الّذین یخوضون الحرب بضراوه و شدّة (بأیس) أو (ذو البأس).

و کلمة (ضرّاء) کما یقول الرّاغب فی مفرداته هی النقطة المقابلة للسرّاء، و هی ما یسرّ الإنسان و یجلب له النفع، فعلی هذا الأساس تعنی کلمة ضرّاء کلّ ضرر یصیب الإنسان، سواء فی المال أو العرض أو النفس و أمثال ذلک.

جملة مَتی نَصْرُ اللَّهِ قیلت من قبل النبی و المؤمنین حینما کانوا فی منتهی الشّدة و المحنة، و واضح أنّ هذا التعبیر لیس اعتراضا علی المشیئة الإلهیّة، بل هو نوع من الطلّب و الدعاء، و لذلک تبعته البشارة بالإمداد الإلهی.

و ما ذکره بعض المفسرین من احتمال أن تکون جملة (متی نصر اللّه) قیلت من طرف جماعة من المؤمنین، و جملة (ألا إنّ نصر اللّه قریب) قیلت من قبل النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بعید جدّا.

و علی ایّة حال، فإنّ الآیة أعلاه تحکی أحد السنن الالهیّة فی الأقوام البشریّة جمیعا، و تنذر المؤمنین فی جمیع الأزمنة و الأعصار أنّهم ینبغی علیهم لنیل النّصر و التوفیق و المواهب الاخرویّة أن یتقبّلوا الصّعوبات و المشاکل و یبذلوا التضحیات فی هذا السبیل، و فی الحقیقة إنّ هذه المشاکل و الصّعوبات ما هی إلّا إمتحان و تربیة للمؤمنین و لتمییز المؤمن الحقیقی عن المتظاهر بالإیمان.

و عبارة الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِکُمْ تقول للمسلمین: أنّکم لستم الوحیدین فی هذا الطریق الّذین ابتلیتم بالمصائب من قبل الأعداء، بل أنّ الأقوام السّالفة ابتلوا أیضا بهذه الشدائد و المصائب إلی درجة أنّهم مسّتهم البأساء و الضرّاء حتّی استغاثوا منها.

و أساسا فإنّ رمز التکامل للبشریّة أن یحاط الأفراد و المجتمعات فی دائرة البلاء و الشّدائد حتّی یکونوا کالفولاد الخالص و تتفتّح قابلیّاتهم الداخلیّة و ملکاتهم النفسانیّة و یشتد إیمانهم باللّه تعالی، و یتمیّز کذلک المؤمنون و الصّابرون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۷

عن الأشخاص الانتهازیّین، و نختتم هذا الکلام بالحدیث النبوی الشریف:

یقول (الخبّاب ابن الأرت) الّذی کان من المجاهدین فی صدر الإسلام: قال قلنا یا رسول اللّه ألا تستنصر لنا ألا تدعو اللّه لنا.

فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إن من کان قبلکم کان أحدهم یوضع المنشار علی مفرق رأسه فیخلص إلی قدمیه لا یصرفه ذلک عن دینه و یمشط بأمشاط الحدید ما بین لحمه و عظمه لا یصرفه ذلک عن دینه؛ ثمّ قال: و اللّه لیتمن هذا الأمر حتّی یسیر الراکب من صنعاء إلی حضرموت لا یخاف إلّا اللّه و الذئب علی غنمه و کلّکم یستعجلون»[۷۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۸

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۱۵]

اشارة

یَسْئَلُونَکَ ما ذا یُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَیْرٍ فَلِلْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ (۲۱۵)

سبب النّزول

(عمرو بن الجموح) شیخ ثریّ سأل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم عمّا ینفق و لمن یعطی؟

فنزلت الآیة[۷۶].

التّفسیر

یتعرّض القرآن الکریم فی آیات عدیدة إلی الإنفاق و البذل فی سبیل اللّه، و حثّ المسلمین بطرق عدیدة علی الإنفاق و الأخذ بید الضعفاء، و هذه الآیة تتناول مسألة الإنفاق من جانب آخر، فثمة سائل عن نوع المال الذی ینفقه، و لذلک جاء تعبیر الآیة بهذا الشکل یَسْئَلُونَکَ ما ذا یُنْفِقُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۹

و فی الجواب بیّنت الآیة نوع الإنفاق، ثمّ تطرّقت أیضا إلی الأشخاص المستحقّین للنفقة، و سبب نزول الآیة کما مرّ یبیّن أنّ السؤال اتّجه إلی معرفة نوع الإنفاق و مستحقّیه.

بشأن المسألة الاولی: ذکرت الآیة کلمة «خیر» لتبیّن بشکل جامع شامل ما ینبغی أن ینفقه الإنسان، و هو کلّ عمل و رأسمال و موضوع یشتمل علی الخیر و الفائدة للناس، و بذلک یشمل کلّ رأسمال مادّی و معنوی مفید.

و بالنسبة للمسألة الثانیة:- أی موارد الإنفاق- فتذکر الآیة أولا الأقربین و تخصّ الوالدین بالذکر، ثم الیتامی ثم المساکین، ثم أبناء السبیل، و من الواضح أنّ الإنفاق للأقربین- إضافة إلی ما یترکه من آثار تترتّب علی کلّ إنفاق- یوطّد عری القرابة بین الأفراد.

وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ

لعلّ فی هذه العبارة من الآیة إشارة إلی أنّه یحسن بالمنفقین أن لا یصرّوا علی اطّلاع الناس علی أعمالهم، و من الأفضل أن یسرّوا إنفاقهم تأکیدا لإخلاصهم فی العمل، لأنّ الذی یجازی علی الإحسان علیم بکلّ شیء، و لا یضیع عنده سبحانه عمل عامل من البشر.

بحث

التجانس فی السؤال و الجواب:

ذهب البعض إلی أنّ مورد السؤال فی هذه الآیة عن الأشیاء التی یجب الإنفاق منها، و لکنّ الجواب کان عن مصارف هذه النفقات و الصّدقات، أی الأشخاص المستحقّین لها، و ذلک بسبب أنّ معرفة موارد الصّرف أهم و أولی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۰

و لکنّ هذا الفهم من الآیة اشتباه محض، لأنّ القرآن الکریم أجاب عن سؤالهم و کذلک بیّن موارد الإنفاق، و هذا من فنون الفصاحة و البلاغة بحیث یجیب علی السؤال و یضیف علیه بیان مسألة مهمّة ضروریّة.

و علی أیّ حال فإنّ جملة ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَیْرٍ تبیّن أنّ الإنفاق أمر جمیل و حسن فی کلّ موضوع و من کلّ شیء و یستوعب جمیع الأمور الحسنة سواء کانت فی الأموال أو الخدمات أو الموضوعات المادیّة أو المعنویّة.

ثمّ أنّ کلمة (خیر) ذکرت بصورة مطلقة أیضا، و تدلّ علی أنّ المال و الثروة لیست شیئا مذموما بذاته، بل هی من أفضل وسائل الخیر بشرط الاستفادة السلیمة و الصحیحة منها.

و کذلک فإنّ التعبیر بکلمة (خیر) یمکن أن یکون إشارة إلی أنّ الإنفاق یجب أن یکون خالیا من کلّ أذی و منّة بالنسبة إلی الأشخاص المعوزین حتّی یمکن أن یطلق علیه کلمة (خیر) بشکل مطلق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۱

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۱۶]

اشارة

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۲۱۶)

التّفسير

التضحية بالنفس و المال:

الآية السابقة تناولت مسألة الإنفاق بالأموال، و هذه الآية تدور حول التضحية بالدم و النفس فی سبیل اللّه، فالآيتان يقترن موضوعهما فی میدان التضحیة و الفداء، فتقول الآية كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ

التعبير بكلمة (كتب) إشارة إلى حتميّة هذا الأمر الإلهی و مقطوعيّته.

(كره) و إن كان مصدرا، إلّا أنّه استعمل هنا باسم المفعول يعنی مكروه، فالمراد من هذه الجملة أنّ الحرب مع الأعداء فی سبیل اللّه أمر مكروه و شديد على الناس العاديّين، لأنّ الحرب تقترن بتلف الأموال و النفوس و أنواع المشقّات و المصائب، و أمّا بالنّسبة لعشّاق الشّهادة فی سبیل الحقّ و من له قدم راسخ فی المعركة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۲

فالحرب مع أعداء الحقّ بمثابة الشراب العذب للعطشان، و لا شكّ فی أنّ حساب هؤلاء يختلف عن سائر الناس و خاصّة فی بداية الإسلام.

ثمّ تشير هذه الآية الكريمة إلى مبدأ أساس حاكم فی القوانین التكوينيّة و التشريعيّة الإلهيّة و تقول: وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

و على العكس من تجنّب الحرب و طلب العافية و هو الأمر المحبوب لكم ظاهرا، إلّا أنّه وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ

ثمّ تضيف الآية و فی الختام وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فهنا يؤكّد الخالق جلّ و علا بشكل حاسم أنّه لا ينبغی لأفراد البشر أن يحكّموا أذواقهم و معارفهم فی الأمور المتعلّقة بمصيرهم، لأنّ علمهم محدود من كلّ جانب و معلوماتهم بالنّسبة إلى مجهولاتهم كقطرة فی مقابل البحر، و كما أنّ الناس لم يدركوا شيئا من أسرار الخلقة فی القوانين التكوينيّة الإلهيّة، فتارة يهملون شيئا و لا يعيرونه اهتماما فی حين أنّ أهميّته و فوائده فی تقدّم العلوم كبيرة، و هكذا بالنسبة إلى القوانين التشريعيّة فالإنسان لا يعلم بكثير من المصالح و المفاسد فيها، و قد يكره شيئا فی حين أنّ سعادته تكون فيه، أو أنّه يفرح لشیء و يطلبه فی حين أنّه يستبطن شقاوته.

فهؤلاء النّاس لا يحقّ لهم مع الالتفات إلى علمهم المحدود أن يتعرضوا على علم اللّه اللّامحدود و يعترضوا على أحكامه الإلهيّة، بل يجب أن يعلموا يقينا أنّ اللّه الرّحمن الرّحيم حينما يشرّع لهم الجهاد و الزكاة و الصوم و الحجّ فكلّ ذلك لما فيه خيرهم و صلاحهم.

ثمّ إنّ هذه الحقيقة تعمق فی الإنسان روح الانضباط و التسليم أمام القوانين الإلهيّة و تؤدی إلى توسعة آفاق إدراكه إلى أبعد من دائرة محيطه المحدود و تربطه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۳

بالعالم اللّامحدود يعنی علم اللّه تعالى.

بحوث

۱- لماذا کان الجهاد مکروها

و هنا یمکن أن یطرح هـذا السؤال و هو أنّ الجهاد الّذی هو أحد أرکان الشّـریعة المقدّسة و الأحکام الإلهیّة کیف أصبح مکروها فی طبع الإنسـان مع أنّنـا نعلم أنّ الأحکـام الإلهیّـة امور فطریّـة و تتوافق مع الفطرة، فـالمفروض علی الأـمور المتوافقـة مع الفطرة أن تکون مقبولة و مطلوبة؟

فی الجواب عن هـذا السؤال یجب الالتفـات إلی هـذه النقطـة، و هی أنّ المسائـل و الأـمور الفطریّـة تتناغم و توافق مع طبع الإنسان إذا اقترنت بالمعرفـة، مثلاـ الإنسـان یطلب النّفع و یتجنّب الضـرر بفطرته، و لکنّ هـذا یتحقّق فی موارد أن یعرف الإنسـان مصادیق النفع و الضرر و یتجنب الضرر بالنّسبة له، فلو اشتبه علیه الأمر فی تشخیص المصداق و لم یمیّز بین الموارد النافعة من الضّارة، فمن الواضح أنّ فطرته و نتیجة لهذا الاشتباه سوف تکره الأمر النافع، و العکس صحیح.

و فی مورد الجهاد نجد أنّ الأشخاص السطحیّین لا یرون فیه سوی الضرب و الجرح و المصائب، و لهذا قد یکون مکروها لدیهم و أمّا بالنسبة إلی الأفراد الّذین ینظرون إلی أبعد من هذا المدی المحدود فإنهم یعلمون أنّ شرف الإنسان و عظمته و افتخاره و حریّته تکمن فی الإیثـار و الجهاد، و بـذلک یرحبون بالجهاد و یسـتقبلوه بفرح و شوق، کما هو الحال فی الأشـخاص الّـذین لا یعرفون آثار الأدویة المرّة و المنفرّة، فهم فی أوّل الأمر یظهرون عدم رغبتهم فیها، إلّا أنّهم بعد أن یروا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۴

تأثیرها الإیجابی فی سلامتهم و نجاتهم من المرض، فحین ذاک یتقبّلوا الدّواء برحابة صدر.

۲- القانون الکلّی

ما ورد فی الآیـة الشـریفة آنفا لا ینحصـر بمسألة الجهاد و الحرب مع الأعداء، بل أن الآیة تکشف عن قانون کلّی و عام، و هو أنّ الآیة تجعل من جمیع الشدائد و المصاعب فی سبیل اللّه سهلة و میسورة و لذیذة للإنسان بمقتضی قوله تعالی وَ اللَّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فعلم اللّه تعـالی و رحمته و لطفه لعباده یتجلّی فی کلّ أحکامه المقدّسـة فیری ما فیه نجاتهم و سـعادتهم، و علی هـذا الأساس یسـتقبل المؤمنون هذه الأوامر و الأحکام الإلهیّة فیعتبروها کالأدویة الشافیة لهم و یطبّقونها بمنتهی الرضا و القبول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۵

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۱۷ الی ۲۱۸]

اشارة

یَسْئَلُونَکَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِیهِ قُلْ قِتالٌ فِیهِ کَبِیرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ کُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَکْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَکْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا یَزالُونَ یُقاتِلُونَکُمْ حَتَّی یَرُدُّوکُمْ عَنْ دِینِکُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا وَ مَنْ یَرْتَدِدْ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَیَمُتْ وَ هُوَ کافِرٌ فَأُولئِکَ حَبِطَتْ أَعْمـالُهُمْ فِی الـدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِکَ أَصْـحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِـدُونَ (۲۱۷) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هـاجَرُوا وَ جاهَـدُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أُولئِکَ یَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۲۱۸)

سبب النّزول

قيل إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعث سرية[۷۷] من المسلمين و أمر عليهم عبد اللّه

ابن جحش الأسدى- و هو ابن عمّة النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم- و ذلك قبل بدر بشهرين، على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم النبىّ المدينة، فانطلقوا حتّى هبطوا نخلة- و هى أرض بين مكّة و الطائف- فوجدوا بها عمرو بن الحضرمىّ فى قافلة تجارة لقريش فى آخر يوم من جمادى الآخرة، و كانوا يرون أنه من جمادى و هو رجب- من الأشهر الحرم- فاختلف المسلمون أ يقتلون الحضرمىّ و يغنمون ماله، لعدم علمهم بحلول الشهر الحرام، أم يتركونه احتراما لحرمة شهر رجب، و انتهى بهم الأمر أن شدّوا على الحضرمىّ فقتلوه و غنموا ماله، فبلغ ذلك كفّار قريش فطفقوا يعيّرون المسلمين و يقولون إنّ محمّدا أحلّ سفك الدماء فى الأشهر الحرم، فنزلت الآية الاولى.

ثمّ نزلت الآية الثانية حين سأل عبد اللّه بن جحش و أصحابه عمّا إذا كانوا قد أدركوا أجر المجاهدين فى انطلاقتهم أو لا[۷۸]؟!

التّفسير

القتال فى الأشهر الحرم:

كما مرّ بنا فى سبب النّزول و يشير إلى ذلك السياق أيضا فإنّ الآية الاولى تتصدّى للجواب عن الأسئلة المرتبطة بالجهاد و الاستثناءات فى هذا الحكم الإلهى فتقول الآية يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ ثمّ تعلن الآية حرمة القتال و أنّه من الكبائر قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ أى إثم كبير.

و بهذا يمضى القرآن الكريم بجديّة السنّة الحسنة الّتى كانت موجودة منذ قديم الأزمان بين العرب الجاهليّين بالنسبة إلى تحريم القتال فى الأشهر الحرم

(رجب، ذى القعدة، ذى الحجّة، محرم).

ثمّ تضيف الآية أنّ هذا القانون لا يخلوا من الاستثناءات، فلا ينبغى السّماح لبعض المجموعات الفاسدة لاستغلال هذا القانون فى إشاعة الظلم و الفساد، فعلى الرّغم من أنّ الجهاد حرام فى هذه الأشهر الحرم، و لكنّ الصد عن سبيل اللّه و الكفر به و هتك المسجد الحرام و إخراج الساكنين فيه و أمثال ذلك أعظم إثما و جرما عند اللّه وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۷۹].

ثمّ تضيف الآية بأنّ إيجاد الفتنة و السعى فى إضلال الناس و حرفهم عن سبيل اللّه و دينه أعظم من القتل وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ لأنّ القتل ما هو إلّا جناية على جسم الإنسان، و الفتنة جناية على روح الإنسان و إيمانه ۸۰]، ثمّ إنّ الآية تحذّر المسلمين أن لا يقعوا تحت تأثير الإعلان الجاهلى للمشركين، لأنهم لا يقنعون منكم إلّا بترككم لدينكم إن استطاعوا وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا.

فينبغى على هذا الأساس أن تقفوا أمامهم بجزم و قوّة و لا تعتنوا بوسوساتهم و أراجيفهم حول الأشهر الحرم، ثمّ تنذر الآية المسلمين و تحذّرهم من الارتداد عن دين اللّه وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

فما أشدّ عقاب المرتد عن الإسلام، لأنّ ذلك يبطل كلّما قدّمه الفرد من عمل صالح و يستحق بذلك العذاب الإلهى الأبدى.

و من الواضح أنّ الأعمال الصّالحة لها آثار طیّبة فی الدنیا و الآخرة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۸

و المرتدّون سوف یحرمون من هذه البرکات بسبب ارتدادهم، مضافا إلی محو جمیع معطیات الإیمان الدنیویّة للفرد حیث تنفصل عنه زوجته و تنتقل أمواله إلی ورثته فور ارتداده.

الآیـة التالیـة تشیر إلی النقطـة المقابلة لهذه الطائفة، و هم المؤمنون المجاهدون و تقول: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أُولئِکَ یَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ

أجل، فهـذه الطائفـة الّتی یتحلّی أفرادها بهـذه الصّـِفات الثلاث المهمّة (الإیمان و الهجرة و الجهاد) قد یرتکبون خطأ بسـبب جهلهم و عدم اطّلاعهم (کما صدر ذلک من عبد اللّه بن جحش الوارد فی سبب النزول) إلّا أنّ اللّه تعالی یغفر لهم زلّتهم بلطفه و رحمته ۸۱].

بحث

الإحباط و التکفیر:

(حبـط) فی الأصل کما یقول الراغب فی مفرداته بمعنی أنّ الحیوان قـد یأکل کثیرا حتّی تنتفـخ بطنه، و بما أنّ هـذه الحالـة تؤدّی إلی فساد الغـذاء و عـدم تأثیره الإیجابی فی الحیوان اسـتعملت هـذه الکلمة بمعنی البطلان و ذهاب الأثر، و لذلک ورد فی معجم مقاییس اللّغـة أنّ معنی هـذه الکلمـة هو البطلـان، و من ذلک ما ورد فی آیـة (۱۶) من سورة هود حیث أوردت هـذه الکلمـة مساوقـة للبطلان أُولئِکَ الَّذِینَ لَیْسَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِیها وَ باطِلٌ ما کانُوا یَعْمَلُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۹

و أمّا (الإحباط) فکما یقول علماء العقائد و المتکلّمون أنّها تعنی إبطال ثواب الأعمال السابقة بسـبب ارتکاب الذنوب اللّاحقة، و یقابله «التکفیر» بمعنی زوال العقوبات و آثار الذنوب السابقة بسبب الأعمال الصالحة بعد ذلک.

و هناک بحث بین علماء العقائـد فی صـحّة الإحباط و التکفیر بالنّسـبة لثواب الأعمال الصالحـة و عقوباتها و عقاب الأعمال الطالحـة و المشـهور بین المتکلّمین الإمامیّـة کمـا یقول العلّامـة المجلسـی هو بطلـان الإحبـاط و التکفیر، غایـة الأـمر إنهم یرون أنّ تحقق الثواب مشـروط أن یسـتمر الإنسان علی إیمانه فی الـدنیا إلی النهایـة، و العقاب مشـروط کـذلک بأن یرحل من هذه الدنیا بدون توبة، و لکنّ العلماء المعتزلة یعتقدون بصحّة الإحباط و التفکیر بالنّظر إلی ظواهر بعض الآیات و الروایات ۸۲].

و یری الخواجـة نصـر الدین الطوسـی فی کتاب (تجرید العقائد) بطلان القول بالإحباط، و اسـتدلّ علی ذلک بالدلیل العقلی و النقلی، أما الـدلیل العقلی فهو أنّ الإحباط نوع من الظلم (لأنّ الشـخص الّـذی قلّت حسـناته و کثرت ذنوبه سـیکون بعد الإحباط بمنزلة من لم یـأت بعمـل حسن إطلاقـا و هـذا نوع من الظلم بحقّه)، و أمّا الـدلیل النقلی فالقرآن یصـرّح فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ ۸۳][۸۴].

بعض علماء المعتزلة مثل (أبو هاشم) ذهب إلی اقتران الإحباط و التکفیر بشکل متوازن، بهذا المعنی أنّه جمع بین العقاب و الثواب فی میزان واحد و بعد حدوث الکسر و الانکسار بینهما یتمّ الحصول علی النتیجة النهایة.

و لکنّ الحقّ هو أنّ الإحباط و التکفیر من الأمور الممکنة، و لا تستلزم الظلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۰

مطلقا، و تدل علی ذلک الآیات و الرّوایات الصّریحة، و الظاهر أنّ ما ذهب إلیه المنکرون هو نوع من الالتباس اللّفظی.

و توضیح ذلک: تارة یعمل الإنسان سنوات طویلة بمشّقة کبیرة و ینفق رأس مال کثیر، و لکنّه قد یخسر کلّ تلک الأفعال بخطإ بسیط، فهـذا یعنی أنّ حسـناته السابقـة قـد أحبطت، و علی العکس من ذلک فیما لو کان قد خسـر کثیرا فی السابق لارتکابه بعض الأخطاء و الحماقـات، و لکنّه یجبر ذلـک بعمل عقلائیّ واحـد، فهـذا نوع من أنواع التکفیر (التکفیر نوع من أنواع التغطیـة و الجبران) و کـذلک یصدق هذا الأصل فی المسائل المعنویة أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۱

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۱۹ الی ۲۲۰]

اشارة

یَسْـئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِـرِ قُلْ فِیهِما إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَ یَسْـئَلُونَکَ ما ذا یُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ کَـذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ (۲۱۹) فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْیَتامی قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَیْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُکُمْ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَکُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۲۲۰)

سبب النّزول

قیل فی سبب نزول الآیة الاولی أنّ جماعة سألوا رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم عن حکم الخمر الّذی یذهب بالعقل، و المیسر الّذی یبدّل المال، فنزلت الآیة.

و عن سـبب نزول الآیـة الثانیـة فقـد ورد فی تفسـیر القمّی عن إمام الصادق علیه السّـلام و فی مجمع البیان عن ابن عباس أنّه لمّا نزلت الآیة وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْیَتِیمِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ ۸۵] و الآیة إِنَّ الَّذِینَ یَأْکُلُونَ أَمْوالَ الْیَتامی ظُلْماً إِنَّما یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَیَصْلَوْنَ سَعِیراً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۲

[۸۶] تخلّی النـاس عن الیتامی، و عمـد بعضـهم علی إخراج الیتیم من بیته، و أولئک الّـذین احتفظوا بهم فی بیوتهم عزلوا طعامهم عن طعام الیتیم، و جعلوا لا یجالسونهم علی مائدة واحدة و لا یسـتفیدون ممّا بقی من طعامهم، بل یحتفظون به له لوجبات اخری، فإن فسد یلقونه، کلّ ذلک لیتخلّصوا من أکل مال الیتامی، و اشتدّ ذلک علی الیتامی و علی من یرعاهم، فجاءوا إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یخبرونه بذلک، فنزلت الآیة.

التّفسیر

الجواب علی أربعة أسئلة:

الآیة الاولی تجیب عن سؤالین حول الخمر و القمار یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ.

(الخمر) فی اللّغة بقول الرّاغب بمعنی الغطاء و کلّ ما یخفی شـیئا وراءه هو (خمار) بالرّغم من أنّ الخمار یستعمل فی الاصطلاح لغطاء الرّأس بالنسبة للمرأة.

و فی معجم مقاییس اللّغـة ورد أنّ الأصل فی کلمـة (الخمر) هو الدلالـة علی التغطیة و الاختلاط الخفی و قیل للخمر خمر، لأنّه سـبب

السکر الّذی یغطی علی عقل الإنسان و یسلبه قدرة التمییز بین الحسنة و القبیح.

أمّا فی الاصطلاح الشرعی فیأتی (الخمر) بمعنی کلّ مایع مسکر، سواء أخذ من العنب أو الزبیب أو التمر أو شیء آخر، بالرّغم من أنّ الوارد فی اللّغة أسماء مختلفة لکلّ واحد من أنواع المشروبات الکحولیّة.

(المیسر) من مادّة (الیسر) و إنّما سمّی بذلک لأنّ المقامر یستهدف الحصول علی ثروة بیسر و دون عناء.

ثمّ تقول الآیة فی الجواب قُلْ فِیهِما إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۳

و مع الالتفات إلی أنّ المجتمع الجاهلی کان غارقا فی الخمر و القمار، و لذلک جاء الحکم بتحریمهما بشکل تدریجی و علی مراحل، کما نری من اللّین و المداراة و الأسلوب الهادیء فی لحن الآیة إنّما هو بسبب ما ذکرناه.

فی هذه الآیة وردت مقایسة بین منافع الخمر و المیسر و أضرارهما و أثبتت أنّ ضررهما و إثمهما أکثر من المنافع، و لا شکّ أنّ هناک منافع مادیّة للخمر و القمار أحیانا یحصل علیها الفرد عن طریق بیع الخمر أو مزاولة القمار، أی تلک المنفعة الخیالیّة الّتی تحصل من السکر و تخدیر العقل و الغفلة عن الهموم و الغموم و الأحزان، الّا أنّ هذه المنافع ضئیلة جدّا بالنسبة إلی الأضرار الأخلاقیّة و الاجتماعیّة و الصحیّة الکثیرة المترتّبة علی هذین الفعلین.

و بناء علی ذلک، فکلّ إنسان عاقل لا یقدم علی الإضرار بنفسه کثیرا من أجل نفع ضئیل.

(الإثم) کما ورد فی معجم مقاییس اللّغة أنّه فی الأصل بمعنی البطء و التأخّر، و بما أنّ الذنوب تؤخّر الإنسان عن نیل الدّرجات و الخیرات، و لذلک أطلقت هذه الکلمة علیها، بل أنّه ورد فی بعض الآیات القرآنیة هذا المعنی بالذّات من کلمة الإثم مثل وَ إِذا قِیلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [۸۷] أی أنّ الغرور و المقامات الموهومة تؤخّره عن الوصول إلی التّقوی.

و علی کلّ حال، فالمراد من الإثم هو کلّ عمل و شیء یؤثّر تأثیرا سلبیّا فی روح و عقل الإنسان و یعیقه عن الوصول إلی الکمالات و الخیرات، فعلی هذا یکون وجود (الإثم الکبیر) فی الخمر و القمار دلیل علی التأثیر السلبی لهما فی وصول الإنسان إلی التقوی و الکمالات المعنویّة و الإنسانیّة الّتی سوف یأتی شرحها.

السؤال الثالث المذکور فی الآیة محلّ البحث هو السؤال عن الإنفاق فتقول الآیة وَ یَسْئَلُونَکَ ما ذا یُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۴

ورد فی تفسیر «الدّر المنثور» فی شأن نزول هذه العبارة من الآیة عن ابن عبّاس أنّ المسلمین سألوا الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم عند نزول آیات الحثّ علی الإنفاق: ماذا ینفقون؟ أ ینفقون کلّ أموالهم أم بعضها؟ فنزلت الآیة لتأمر برعایة (العفو)[۸۸].

و لکن ما المراد من «العفو» فی الآیة؟

(العفو) فی الأصل- کما یقول الرّاغب فی المفردات- بمعنی القصد إلی أخذ شیء، أو بمعنی الشیء الّذی یؤخذ بسهولة، و بما أنّ هذا المعنی واسع جدّا و یطلق علی مصادیق مختلفة منها: المغفرة و الصفح و إزالة الأثر الحد الوسط بین شیئین.

المقدار الإضافی لشیء. و أفضل جزء من الثروة. فالظاهر أنّ المعنی الأوّل و الثانی لا یتناسب مع مفهوم الآیة، و المراد هو أحد المعانی الثلاثة المتأخّرة، یعنی رعایة الحد الوسط فی الإنفاق، أو إنفاق المقدار الزائد عن الحاجة، أو إنفاق القسم الجیّد للأموال و عدم بذل الحصّة الرخیصة و العدیمة النفع من المال.

و هذا المعنی وارد أیضا فی الروایات الإسلامیّة فی تفسیر هذه الآیة،

و قد ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: العفو الوسط

[۸۹] (أی أنّ المراد من العفو فی الآیة أعلاه هو الحد الوسط).

و ورد فی تفسیر علی بن إبراهیم (لا إقتار و لا إسراف)

[۹۰].

و

فی مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السّلام (العفو ما فضل عن قوت السّنة)[۹۱].

و یحتمل أیضا أن یکون العفو فی الآیة (و إن لم أجده فی کلمات المفسّرین) هو المعنی الأوّل، أی الصفح عن أخطاء الآخرین، و بذلک یکون معنی الآیة الکریمة: أنفقوا الصفح و المغفرة فهو أفضل الإنفاق.

و لا یبعد هذا الاحتمال لو أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع شبه جزیرة العربیّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۵

عامّة و خاصّة مکّة و المدینة محل نزول القرآن من حیث هیمنة روح التنافر و العداء و الحقد بین الناس، و خاصّة أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم هو النموذج الکامل لهذا المعنی، کما أعلن العفو العامّ عن مشرکی مکّة الّذین هم أشدّ الناس عداوة للإسلام و المسلمین، و الجواب بهذا المعنی لا- یتنافی مع سؤالهم بشأن الإنفاق المالی، لأنّهم قد یسألون عن موضوع کان ینبغی أن یسألوا عن أهم منه، و القرآن یستثمر فرصة سؤالهم المعبّر عن استعدادهم للسّماع و القبول لیجیبهم بما هو أهم و ألزم، و هذا من شؤون الفصاحة و البلاغة حیث یترک سؤالهم لیتناول موضوعا أهم. و لا یوجد تعارض بین هذه التفاسیر، فیمکن أن تکون مرادة بأجمعها من مفهوم الآیة.

و أخیرا یقول تعالی فی ختام الآیة: کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ

و یذکر بدون فصل فی الآیة التالیة المحور الأصلی للتفکّر و یقول فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ.

أجل، یجب أن تکون جمیع نشاطات الإنسان المادیّة و المعنویة فی الحیاة مشفوعة بالفکر و التدبّر، و یتّضح من هذه العبارة أمران:

الأوّل: إنّ الإنسان إضافة إلی وجوب التسلیم أمام أوامر اللّه یجب أن یطیع هذه الأوامر عن تفکّر و تعقّل لا عن اتّباع أعمی، و بعبارة اخری علی الإنسان المؤمن أن یعی أسرار الأحکام و روحها لیس فقط فی مجال تحریم الخمر و القمار، بل فی جمیع المجالات و لو إجمالا.

و لا یعنی هذا الکلام أنّ إطاعة الأحکام الإلهیّة مشروطة بإدراک فلسفتها و حکمتها، بل المراد أنّ الإنسان یجب علیه بموازاة الطّاعة العملیّة أن یسعی إلی فهم أسرار و روح الأحکام الإلهیّة.

الثانی: إنّ علی الإنسان أن لا یحصر تفکیره فی عالم المادّة وحده أو عالم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۶

المعنی وحده، بل علیه أن یفکّر فی الإثنین معا، لأنّ الدنیا و الآخرة مرتبطتان و کلّ خلل فی أحدهما یخلّ بالآخر، و أساسا لا یمکن أن یؤدی أحدهما إلی رسم صورة صحیحة عن الواقعیّات فی هذا العالم، لأنّ کلّا منهما هو قسم من هذا العالم، فالدنیا هی القسم الأصغر و الآخرة القسم الأعظم، فمن حصر فکره فی أحدهما فإنّه لا یمتلک تفکیرا سلیما عن العالم.

ثمّ تذکر الآیة السؤال الرابع و جوابه و تقول: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْیَتامی قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَیْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُکُمْ ۹۲].

و علی هذا الأساس فالقرآن یوصی المسلمین بعدم إهمال الیتامی، فإنّ الإعراض عن تحمّل مسئولیتهم و ترکهم و شأنهم أمر مذموم، فالأفضل أن یتقبلوا المسؤولیّة و یصلحوا أمر الیتامی و إن اختلطت معیشتهم بمعیشتکم فعاملوهم معاملة الأخ لأخیه، فلا حرج فی الاختلاط الأموال إذا کان الدافع هو الإصلاح.

ثمّ تضیف الآیة وَ اللَّهُ یَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ أجل، إنّ اللّه مطّلع علی نیّاتکم و یعلم من یقصد السوء بالاستفادة من أموال الیتامی لیحیف علیهم و من هو مخلص لهم.

و الفقرة الأخیرة من الآیة تؤکّد بأنّ اللّه تعالی قادر علی أن یضیّق و یشدّد علیکم برعایة الیتامی مع فصل أموالهم عن أموالکم، لکنّ

اللّه لا يفعل ذلك أبدا، لأنّه عزيز و حكيم، و لا داعى لأن يضيّق على عباده وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٩٣].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۷

بحوث

۱- الترابط بين الأحكام الأربعة

رأينا أنّ الآيتين أعلاه ذكرتا أربعة مسائل عن الخمر و القمار و الإنفاق و الأيتام مع أجوبتها، و يمكن أن يكون ذكر هذه الأسئلة و الأجوبة الأربعة مع بعضها لأنّ الناس كانوا مبتلين بهذه المسائل واقعا، و لذلك كانوا يسألون الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم هذه الأسئلة تباعا (مع الالتفات إلى أنّ يسألونك فعل مضارع و يدلّ على الاستمرار).

و يحتمل أنّ هذه المسائل ترتبط مع بعضها باشتراكها فى الأمور الماليّة فالخمر و القمار هما سبب لتلف الأموال و الإنفاق على العكس من ذلك سبب لنماء الأموال، و أمّا مسئوليّة اليتامى فيمكن أن تكون مفيدة أو مخرّبة.

و الآخر أنّ: الإنفاق له جنبة عموميّة شاملة و جنبة اخرويّة، و الخمر و القمار لهما طابع شخصى و مادّى مخرّب و إصلاح أمر اليتامى له جنبتين عموميّة و خصوصيّة، و بهذا الترتيب يكون مصداق للتفكّر فى الدنيا و الآخرة، و من هنا يتّضح الارتباط الوثيق بين الخمر و القمار، لأنّ كلّا منهما يؤدّى إلى تلف الأموال و فساد المجتمع و انتشار الأمراض البدنيّة و الروحيّة.

۲- أضرار المشروبات الكحولية

ألف: أثر الكحول فى العمر ذكر أحد علماء الغرب المشهورين أنه لو كان عدد الوفيات بين الشباب المدمنين البالغة أعمارهم بين ۲۱ إلى ۲۳ سنة يصل إلى ۵۱ شابّا، فإنّ عدد الوفيات من غير المدمنين فى تلك الأعمار لا يبلغ ۱۰ أشخاص.

و قال عالم مشهور آخر: الشباب فى سنّ العشرين الذين يتوقّع أن تطول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۸

أعمارهم إلى خمسين عاما، لا يعمّرون بسبب معاقرة الخمرة أكثر من خمسة و ثلاثين عاما.

التجارب التى أجرتها شركات التأمين على الحياة أثبتت أنّ أعمار المدمنين على الكحول أقلّ من أعمار غيرهم بنسبة ۲۵- ۳۰ بالمائة.

و تذكر إحصائيات أخرى أنّ معدّل أعمار المدمنين على الكحول يبلغ حوالى ۳۵- ۵۰ سنة، بينما معدّل العمر الاعتيادى مع رعاية القواعد الصحيّة يبلغ ستين عاما فصاعدا.

ب: أثر الكحول على النسل ۳۵ بالمائة من عوارض الإدمان الحادّة تنتقل إلى الوليد إذا كان أبوه- حين انعقاد النطفة- سكرانا، و إن كان الوالدان سكرانين فتر تفع نسبة هذه العوارض إلى مائة فى المائة. و هذه إحصائيات تبيّن آثار الإدمان على الجنين:

الأطفال الذين ولدوا قبل موعد ولادتهم الطبيعى: من أبوين مدمنين ۴۵ بالمائة. و من أمّ مدمنة ۳۱ بالمائة. و من أب مدمن ۱۷ بالمائة.

الأطفال الذين ولدوا و هم لا يحملون مقوّمات استمرار الحياة: من أب مدمن ۶ بالمائة، و من أمّ مدمنة ۴۵ بالمائة.

الأطفال الذين لا يتمتّعون بطول طبيعى: من والدين مدمنين ۷۵ بالمائة، و من أمّ مدمنة ۴۵ بالمائة.

و أخيرا الأطفال الذين يفتقدون القوّة العقلية و الروحية الكافية: من أمّهات مدمنات ۷۵ بالمائة، و من آباء مدمنين ۷۵ بالمائة أيضا.

ج: أثر الكحول فى الأخلاق العاطفة العائلية فى الشخص المدمن تضعف، و يقلّ انشداده بزوجته و أبنائه، حتّى يحدث أن يقدم

المدمن على قتل أبنائه بيده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۹

د: أضرار الكحول الاجتماعية حسب الاحصائيّة التى نشرها معهد الطب القانونى فى مدينة (نيون) عام ۱۹۶۱، كانت الجرائم الاجتماعية للمدمنين على النحو التالى:

القتلة: ۵۰ بالمائة، المعتدون بالضرب و الجرح بين المدمنين: ۸، ۷۷ بالمائة، السرقات بين المدمنين: ۵، ۸۸ بالمائة، الجرائم الجنسية المرتبطة بالمدمنين:

۸، ۸۸ بالمائة. هذه الإحصائيات تشير إلى أنّ الأكثرية الساحقة من الجرائم ترتكب فى حالة السكر.

ه: الأضرار الاقتصادية للمشروبات الكحوليّة أحد علماء النفس المشهورين يقول: من المؤسف أنّ الحكومات تحسب ما تدر عليها المشروبات الكحولية من ضرائب، و لا تحسب الميزانية الضخمة التى تنفق لترميم مفاسد هذه المشروبات. فلو حسبت الحكومات الأضرار الناتجة من المشروبات الكحولية، مثل زيادة الأمراض الروحية، و إهدار الوقت و الاصطدامات الناتجة عن السكر، و فساد الجيل، و انتشار روح التقاعس و التحلّل، و التخلّف الثقافى، و المشاكل التى تواجه رجال الشرطة و دور الحضانة المخصّصة لرعاية أبناء المخمورين، و ما تحتاجه جرائم المخمورين من مستشفيات و أجهزة قضائيّة و سجون، و غيرها من الخسائر و الأضرار الناتجة عن تعاطى الخمور، و قارنت هذه الخسائر بما تحصل عليه من ضرائب على هذه المشروبات لوجدت أنّ الأرباح تكاد تكون تافهة أمام الخسائر، هذا إضافة إلى أنّ الخسائر المؤسفة الناتجة عن المشروبات الكحولية لا يمكن حسابها بالدولار، لأنّ موت الأعزّاء و تشتّت العوائل و تبدّد الآمال و فقدان الأدمغة المفكّرة لا يمكن حسابه بالمال.

أضرار المشروبات الكحولية فظيعة للغاية، حتّى أنّ أحد العلماء قال: لو أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۰

الحكومة ضمنت لى غلق حانات الخمور لضمنت لها غلق نصف المستشفيات و دور المجانين.

ممّا تقدّم يتّضح بجلاء معنى الآية الكريمة بشأن الخمر، فلو كان فى الخمرة فائدة تجارية، و لو كان السكران يحسب لحظات غفلته عن عمومه أثناء السكر فائدة له، فإنّ الأضرار التى تترتب عليها أكثر بكثير و أوسع دائرة و أبعد مدى من فوائدها، حتّى لا يمكن المقارنة بين الاثنين.

۳- آثار القمار المشؤومة أضرار القمار لا تخفى على أحد، و لمزيد من التوضيح نذكر باختصار جانبا من المآسى المترتّبة على هذه الظاهرة الخطرة:

الف: القمار أكبر عوامل الهياج و الانفعال يجمع علماء النفس على أنّ الهياج هو النفسى هو العامل الأساسى فى كثير من الأمراض، مثل: نقص الفيتامينات، و قرحة المعدة، و الجنون، و الأمراض العصبية و النفسية الخفيفة و الحادّة. و القمار أكبر عامل على إثارة الهياج، حتّى أنّ عالما أمريكيا يقول: فى أمريكا يموت ألفا شخص سنويا نتيجة هياج القمار، و قلب لاعب البوكر «نوع من القمار» تزيد عدد ضرباته على مائة ضربة فى الدقيقة، و قد يؤدّى القمار إلى سكتة قلبيّة و دماغيّة أيضا، و من المؤكّد أنّه يدفع إلى شيخوخة مبكّرة.

إضافة إلى ما سبق فإنّ المقامر- كما يقول العلماء- يصاب بتوتّر روحى، بل أنّ جميع أجهزة جسمه تصاب بحالة استثنائيّة، كأن يزداد ضربان القلب و تزداد نسبة السكّر فى الدم، و يختلّ ترشّح الغدد الداخلية، و يشحب لون الوجه، و تقلّ الشهية، و يمرّ المقامر بعد اللعب بفترة حرب أعصاب و حالة أزمة نفسية، و قد يلجأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۱

إلى الخمور و المخدّرات لتهدئة أعصابه، فيزيد فى الطين بلّة و تتضاعف بذلك أضرار القمار.

و يقول عالم آخر: المقامر إنسان مريض يحتاج إلى إشراف مريض يحتاج إلى إشراف نفسى مستمر، و يجب تفهيمه بأنّ الفراغ الروحى هو الذى يدفعه لهذا العمل الشنيع، كى يتّجه لمعالجة نفسه.

ب: علاقة القمار بالجرائم إحدى مؤسسات الإحصاء الكبرى ذكرت: أنّ ۳۰ بالمائة من الجرائم ناتجة مباشرة عن القمار، و ۷۰ بالمائة من الجرائم ناتجة بشكل غير مباشر عن القمار أيضا.

ج: الأضرار الاقتصادية للقمار الملايين بل المليارات من ثروات الأفراد تبدّد سنويات على هذا الطريق، إضافة إلى المقدار الهائل من الوقت و من الطاقات الإنسانية.

و جاء فى أحد التقارير: فى مدينة «مونت مونت‌كارلو» حيث توجد أكبر دور القمار فى العالم، خسر شخص خلال مدّة ۱۹ ساعة من اللعب المستمر أربعة ملايين دولار، و حين أغلقت دار القمار اتّجه مباشرة إلى الغابة، و انتحر بإطلاق رصاصة على رأسه، و يضيف التقرير: أنّ غابات «مونت‌كارلو» تشهد باستمرار انتحار مثل هؤلاء الخاسرين.

د: الأضرار الاجتماعية للقمار القمار يصدّ أصحابه عن التفكير بالعمل الجادّ الإنتاجى المثمر فى الحقل الاقتصادى، و يشدّهم دائما إلى أمل الحصول على ثروة طائلة بدون عناء عن طريق القمار، و هذا يؤدّى إلى إهدار الطاقات الإنتاجية لهؤلاء المقامرين و بالتالى إلى ضعف الإنتاج على قدر نسبتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۲

المقامرون و عوائلهم يعيشون عادة حياة طفيلية فى الجانب الاقتصادى و لا ـ ينتجون، بل يجنون ثمار الآخرين، و قد يضطرّون فى حالات الإفلاس إلى السرقة.

أضرار القمار فادحة إلى درجة دفعت حتّى ببعض البلدان غير الإسلامية إلى إعلان منعه، كما حدث فى بريطانيا عام ۱۸۵۳، و أمريكا عام ۱۸۵۵، و الاتحاد السوفيتى عام ۱۸۵۴، و المانيا عام ۱۸۷۳.

و لا ـ بأس أن نشير فى الخاتمة إلى إحصائية أجراها بعض المحقّقين تذكر أنّ القمار وراء ۹۰ بالمائة من السرقات، و ۱۰ بالمائة من المفاسد الخلقية، و ۴۰ بالمائة من الاعتداءات بالضرب و الجرح، و ۱۵ بالمائة من الجرائم الجنسية، و ۳۰ بالمائة من الطلاق، و ۵ بالمائة من عمليات الانتحار.

لو أردنا أن نعرّف القمار تعريفا شاملا علينا أن نقول: إنّه إهدار للمال و الشرف، للحصول على أموال الآخرين بالخدعة و التزوير، و للترويج عن النفس أحيانا، ثمّ عدم الحصول على كلا الهدفين.

استعرضنا الأضرار الفادحة المترتّبة على «الخمر و الميسر»، و تلزم الإشارة إلى مسألة أخرى فى هذا المجال و هى سبب إشارة الآية الكريمة إلى منافع الخمر و الميسر، عند ما تعرّضت إلى ذمّهما، بينما نعلم أن منافعهما تافهة بالنسبة إلى أضرارهما.

قد يكون السبب هو أنّ سوق الخمرة و القمار كانت رائجة فى الجاهلية مثل عصرنا هذا، و لو لم تشر الآية إلى مسألة المنافع لظنّ ذووا الأفق الفكرى الضيّق أنّ القرآن تناول المسألة من جانب واحد.

أضف إلى ما سبق أن أفكار الإنسان تدور عادة حول محور المنفعة و الضرر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۳

و تجب الاستفادة من هذا المنطق لإنقاذ الفرد من المفاسد الأخلاقية الكبرى.

و الآية تجيب ضمنيا على بعض أقوال الأطباء بشأن إمكان الاستفادة من المشروبات الكحولية لمعالجة قسم من الأمراض، و تؤكّد أنّ الأضرار المترتّبة عليها أكبر بكثير من نفعها، أى إذا كان لها أثر إيجابى على الشفاء من مرض معيّن، فإنّها منشأ لأمراض خطرة اخرى، و قد تكون هذه الحقيقة هى التى تشير إليها الروايات القائلة: إن اللّه لم يجعل الشفاء فى الخمر.

۴- الاعتدال فى مسألة الإنفاق بالرغم من أنّ الإنفاق من أهم المسائل أكّد عليها الإسلام و القرآن الكريم إلّا أنّه لم يتركها بدون

حساب لتؤدّی إلی الإفراط الشدید بحیث تشلّ حیاة الإنسان، فالآیة محل البحث ناظرة إلی هذا المعنی کما ذهب إلیه بعض المفسّرون، و یمکن أن تکون إشارة إلی أنّ بعض الأشخاص یتذرّعون باحتیاجاتهم الشخصیّة للتخلّص من هذا الحکم الإسلامی المهم، فالقرآن الکریم یقول: أنّکم تتمتّعون فی الحیاة بالکثیر من الأمور الزّائدة عن الحاجة فعلیکم بانتخاب مقدار منها و إنفاقه.

۵- التفکّر فی کلّ شیء جملة لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ عبارة عن درس مهم للمسلمین فی أنّهم لا یخوضون فی جمیع أمورهم المادیّة و المعنویّة بدون تفکّر و تدبّر حتّی تبین الآیات الإلهیّة إلی النّاس لبعث روح التفکّر و التدبّر فیهم، فما أسوأ حال الأشخاص الّذین لا یتفکّرون فی أمورهم و أعمالهم الدینیّة و لا فی أعمالهم الدنیویّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۴

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۲۱]

اشارة

وَ لا تَنْکِحُوا الْمُشْرِکاتِ حَتَّی یُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَیْرٌ مِنْ مُشْرِکَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْکُمْ وَ لا تُنْکِحُوا الْمُشْرِکِینَ حَتَّی یُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَیْرٌ مِنْ مُشْرِکٍ وَ لَوْ أَعْجَبَکُمْ أُولئِکَ یَدْعُونَ إِلَی النَّارِ وَ اللَّهُ یَدْعُوا إِلَی الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ یُبَیِّنُ آیاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۲۲۱)

سبب النّزول

نزلت فی «مرثد الغنوی» بعثه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی مکّة لیخرج منها جماعة من المسلمین. و کان قویا شجاعا، فدعته امرأة یقال لها «عناق» إلی نفسها، فأبی و کانت صدیقته فی الجاهلیة، فقالت له: هل لک أن تتزوج بی؟ فقال: حتّی استأذن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فلمّا رجع استأذن فی التزویج بها، فنزلت الآیة تنهی عن الزواج بالمشرکات حتی یؤمنّ.

التّفسیر

حرمة الزواج مع المشرکین:

هذه الآیة و طبقا لسبب النزول المذکور أعلاه بمثابة جواب عن سؤال آخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۵

حول الزّواج مع المشرکین فتقول وَ لا تَنْکِحُوا الْمُشْرِکاتِ حَتَّی یُؤْمِنَ ثمّ تضیف مقایسة وجدانیّة فتقول وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَیْرٌ مِنْ مُشْرِکَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْکُمْ

فصحیح أنّ نکاح الجواری و خاصّة الجواری اللّاتی لیس لهنّ مال و لا جمال غیر محبّب فی عرف النّاس و لا محمود لا سیّما إذا کانت هناک امرأة مشرکة فی مقابل ذلک تتمتّع بجمال و ثروة مادیّة، و لکنّ قیمة الإیمان تجعل الکفّة تمیل لصالح الجواری، لأنّ الهدف من الزواج لیس هو اللّذة الجنسیّة فقط، فالمرأة شریکة عمر الإنسان و مربیّة لأطفاله و تشکّل قسما مهمّا من شخصیّته، فعلی هذا الأساس کیف یصحّ استقبال الشرک و عواقبه المشؤومة لاقترانه بجمال ظاهری و مقدار من الأموال و الثروة.

ثمّ أنّ الآیة الشّریفة تقرّر حکما آخر و تقول وَ لا تُنْکِحُوا الْمُشْرِکِینَ حَتَّی یُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَیْرٌ مِنْ مُشْرِکٍ وَ لَوْ أَعْجَبَکُمْ

و بهذا الترتیب منع الإسلام من زواج المرأة المؤمنة مع الرجل المشرک کما منع نکاح الرجل المؤمن من المرأة المشرکة حتّی أنّ

الآية رجّحت العبد المؤمن أيضا على الرجال المشركين من أصحاب النفوذ و الثروة و الجمال الظاهرى، لأنّ هذا المورد أهم بكثير من المورد الأوّل و أكثر خطورة، فتأثير الزوج على الزوجة أكثر عادة من تأثير الزوجة على زوجها.

و فى ختام الآية تذكر دليل هذا الحكم الإلهى لزيادة التفكّر و التدبّر فى الأحكام و تقول أُولئِكَ أى المشركين- يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ثمّ تضيف الآية وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

بحوث

۱- الحكمة فى تحريم نكاح المشركين

كما رأينا فى الآية مورد البحث أنّها تبيّن الغرض و الحكمة من هذا التحريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۶

بجملة قصيرة، و لو أنّنا توغّلنا فى المراد منها يتّضح: أنّ الزّواج هو الدّعامة الأساسيّة لتكثير النسل و تربية أولاد و توسعة المجتمع و أنّ المحيط العائلى مؤثّر جدّا لتربية الأولاد، هذا من جهة.

و من جهة اخرى التأثير الحتمى للوراثة على أخلاق الأولاد و سلوكهم، فالطّفل يتربّى فى أحضان الاسرة منذ تولّده و ينمو و يترعرع تحت رعاية امّه و أبيه غالبا، و هذه المرحلة هى المرحلة الحسّاسة فى تكوين شخصيّة الطفل.

و من جهة ثالثة أنّ الشرك هو المصدر الأساس لأنواع الانحرافات، و فى الحقيقة هو النار المحرقة فى الدنيا و الآخرة، و لذلك فالقرآن الكريم لا يبيح للمسلمين أن يلقوا بأولادهم فى هذا النّار. مضافا إلى أنّ المشركين الّذين هم بالحقيقة أجانب عن الإسلام و المجتمع الإسلامى سوف ينفذون إلى مفاصل المجتمع الإسلامى و بيوت المسلمين من هذا الطريق، فيؤدّى ذلك إلى تنامى قدرة الأعداء فى الداخل و الفوضى السياسيّة و الاجتماعيّة فى أوساط المجتمع، و هذا الحال إنّما يكون فى ما لو أصرّ المشركون على شركهم، و لكنّ الباب مفتوح أمامهم فبإمكانهم اعتناق الإسلام و الانخراط فى صفوف المسلمين و بذلك يستطيعون الزواج من أكفّائهم المسلمين.

كلمة (النكاح) وردت فى اللّغة فتارة بمعنى المقاربة الجنسيّة، و اخرى بمعنى عقد الزّواج، و المراد هنا فى هذه الآية هو الثانى، أى عقد الزّواج بالرّغم من أنّ الرّاغب فى المفردات يقول: (النكاح) فى الأصل بمعنى العقد، ثمّ استعمل مجازا فى العمليّة الجنسيّة.

۲- حقيقة المشركين

مفردة (المشرك) تطلق غالبا فى القرآن الكريم على من يعبد الأوثان، و لكنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۷

بعض المفسرين ذهب إلى أنّ المشرك يشمل سائر الكفّار كاليهود و النّصارى و المجوس (و بشكل عام أهل الكتاب) أيضا، لأنّ كلّ واحدة من هذه الطوائف يعتقد بوجود شريك للبارى عزّ و جلّ، فالنّصارى يعتقدون بالتثليث، و المجوس يذهبون إلى الثنويّة و أنّ ربّ العالم هو مزدا و أهريمن، و اليهود يرون أنّ «عزير» ابن اللّه.

و لكن بالرّغم من أنّ هذه الإعتقادات الباطلة موجبة للشّرك إلّا أنّ الآيات الشريفة الّتى تتحدّث عن المشركين فى مقابل أهل الكتاب و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ اليهود و النصارى و المجوس يرتكزون فى أساس ديانتهم على النبوّات الحقّة و الكتب السماويّة فيتّضح

أنّ منظور القرآن الکریم من المشرک هو عبّاد الوثن.

و قد ورد فی الحدیث النبوی المعروف فی ضمن وصایا متعدّدة (أخرجوا المشرکین من جزیرة العرب) و هو شاهد علی هذا المدّعی، لأنّ من المسلّم أنّ أهل الکتاب لم یخرجوا من جزیرة العرب، بل بقوا هناک یعیشون جنبا إلی جنب مع المسلمین بعنوان أقلیة دینیّة، و یلتزمون بما أمر به القرآن الکریم من أداء الجزیة إلی المسلمین.

۳- هل نسخت هذه الآیة؟

ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ حکم الآیة أعلاه قد نسخ و الناسخ له الآیة الشریفة وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ ۹۴] حیث أجازت نکاح نساء أهل الکتاب.

و قد نشأ هذا التصور من الإعتقاد أنّ الآیة مورد البحث قد حرّمت الزواج مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۸

جمیع الکفّار، فعلی هذا تکون الآیة (۵) من سورة المائدة الّتی أجازت الزواج من کفّار أهل الکتاب ناسخة لهذا الحکم (أو مخصّصة له) و لکن مع ملاحظة ما ذکرناه من تفسیر الآیة یتّضح أنّ نظر هذه الآیة خاص بالزّواج من المشرکین و عبّاد الأوثان لا کفّار أهل الکتاب کالیهود و النّصاری (و طبعا فی مورد الزواج من کفّار أهل الکتاب هناک قرائن فی الآیة و ما ورد من الأحادیث عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ المراد هو الزّواج الموقّت).

۴- تشکیل العائلة و الدّقة فی الأمر

أشار بعض المفسّرین المعاصرین إلی نکتة ظریفة فی هذه الآیة، و هی أنّ هذه الآیة و (۲۱) آیة اخری تأتی بعدها تبیّن الأحکام المتعلّقة بتشکیل الاسرة فی أبعادها المختلفة، و فی هذه الآیات بیّن القرآن الکریم اثنی عشر حکما شرعیا:

۱- حکم الزواج مع المشرکین. ۲- تحریم الاقتراب من الزوجة فی حال الحیض، ۳- حکم القسم بعنوان مقدّمة للإیلاء (المراد من الإیلاء هو أن یقسم الإنسان أن لا یجامع زوجته)، ۴- حکم الإیلاء و یتبعه حکم الطلاق، ۵- عدّة المرأة المطلّقة، ۶- عدد الطلقات، ۷- إبقاء الزّوجة بالمعروف أو ترکها بالمعروف، ۸- حکم الرّضاع، ۹- عدّة المرأة المتوفّی زوجها (الأرملة)، ۱۰- خطبة المرأة قبل تمام عدّتها، ۱۱- مهر المرأة المطلّقة قبل الدّخول، ۱۲- حکم الهدیّة للمرأة بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه.

و هذه الأحکام مع مجمل الإرشادات الأخلاقیّة فی هذه الآیات تبیّن أنّ مسألة تشکیل الأسرة هو نوع من العبادة للّه تعالی و یجب أن یکون مقرونا بالتفکّر و التدبّر[۹۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۹

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۲۲ الی ۲۲۳]

اشارة

وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْمَحِیضِ قُلْ هُوَ أَذیً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِی الْمَحِیضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّی یَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَیْثُ أَمَرَکُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ التَّوَّابِینَ وَ یُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِینَ (۲۲۲) نِساؤُکُمْ حَرْثٌ لَکُمْ فَأْتُوا حَرْثَکُمْ أَنَّی شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّکُمْ

مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۲۲۳)

سبب النّزول

للنساء عادة شهرية تستمر بين ثلاثة إلى عشرة أيام. و خلالها يخرج من رحم المرأة دم ذو أوصاف خاصّة مذكورة فی كتب الفقه. و المرأة فی هذه الحالة تكون حائضا، و موقف الديانتين اليهودية و النصرانية الحاليتين من المرأة الحائض متناقض يثير الاستغراب.
جمع من اليهود قالوا: إنّ معاشرة المرأة الحائض حرام حتّى المجالسة على مائدة الطعام أو فی غرفة واحدة. و يذهبون إلى حظر جلوس الرجل فی المكان الذی تجلس فيه الحائض، و إن فعل ذلک تنجّست ملابسه و عليه أن يغسلها، و إن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۰

رقد معها على سرير واحد تنجّس بدنه و لباسه، فهم يعتبرون المرأة فی هذه الحالة موجودا مدنسا يلزم اجتنابه.
و مقابل هؤلاء يذهب النصارى إلى عدم التفريق بين حالة الحيض و الطهر فی المرأة، حتّى بالنسبة للجماع.
المشركون العرب، و خاصّة أهل المدينة منهم، كانوا متأثرين بالنظرة اليهودية، و يعاملون المرأة الحائض على أساسها، فينفصلون عنها خلال مدّة الحيض. و هذا الاختلاف فی المواقف و ما يصحبه من إفراط و تفريط دفع ببعض المسلمين لأن يسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن ذلک، فنزلت الآية.

التّفسير

أحكام النساء فی العادة الشهريّة:

فی الآية الأولى نلاحظ سؤال آخر عن العادة الشهريّة للنّساء، فتقول الآية:
وَ يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً و تضيف بلا فاصلة فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ....
(المحيض) مصدر ميمی و يعنی العادة الشهريّة للنساء، و جاء فی معجم مقاييس اللّغة أنّ أصل هذه المفردة تعنی خروج سائل أحمر من شجرة تدعى «سمرة» (ثمّ استعملت للعادة الشهريّة للنساء) و لكن ورد فی تفسير «الفخر الرّازی» أنّ الحيض فی الأصل بمعنى السيل و لذلک يقال للسّيل عند حدوثه (حاض السّيل) و يقال للحوض هذه اللّفظة بسبب أنّ الماء يجری إليه.
و لكن يستفاد من كلمات الرّاغب فی المفردات عكس هذا المطلب و أنّ هذه المفردة فی الأصل تعنی دم الحيض (ثمّ استعملت فی المعانی الاخرى).
فعلى كلّ حال فهذه العبارة تعنی دم الحيض الّذی عرّفه القرآن بأنّه أذى، و فی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۱

الحقيقة أنّ هذه العبارة تبيّن علّة اجتناب الجماع فی أيّام الحيض، فهو إضافة إلى ما فيه من اشمئزاز، ينطوی على أذى و ضرر ثبت لدى الطبّ الحديث، و من ذلک احتمال تسبيب عقم الرجل و المرأة، و إيجاد محيط مناسب لتكاثر جراثيم الأمراض الجنسية مثل السفلس و التهابات الأعضاء التناسلية للرجل و المرأة، و دخول مواد الحيض المليئة بمكروبات الجسم فی عضو الرجل، و غير ذلک من الأضرار المذكورة فی كتب الطب، لذلک ينصح الأطباء باجتناب الجماع فی هذه الحالة.
خروج دم الحيض يعود إلى احتقان الرحم و تسلّخ جداره، و مع هذا الاحتقان يحتقن المبيض أيضا، و دم الحيض فی البداية يكون متقطّعا باهت اللون ثمّ يزداد و يحمرّ و يعود فی الأخير إلى وضعه المتقطّع الباهت [۹۶].

الدم الخارج فى أيّام العادهٔ الشهريهٔ هو الدم الذى يتجمّع شهريا فى العروق الداخليهٔ للرحم من أجل تقديم الغذاء للجنين المحتمل. ذلك لأنّ مبيض المرأهٔ يدفع كلّ شهر ببويضهٔ إلى الرحم، و فى نفس الوقت تمتلئ عروق الرحم بالدم استعداد لتغذيهٔ الجنين فإن انعقد الجنين يستهلك الدم لتغذيته، و إلّا يخرج بشكل دم حيض. من هنا نفهم جانبا آخر لحظر الجماع فى هذه الفترهٔ التى يكون الرحم خلالها غير مستعد استعداد طبيعيا لقبول نطفهٔ الرجل، حيث يواجه أذى من جراء ذلك.

جملهٔ (يطهرن) بمعنى طهارهٔ النساء من دم الحيض كما ذهب إليه كثير من المفسّرين، و أمّا جملهٔ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فقد ذهب الكثير منهم على أنّها تعنى الغسل من الحيض، فعلى هذا الأساس و طبقا للجملهٔ الاولى تكون المقاربهٔ الجنسيّهٔ بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۲

انتهاء دم الحيض جائزهٔ حتّى لو لم تغتسل، و أمّا الجملهٔ الثانيّهٔ فتعنى أنّها ما لم تغتسل فلا يجوز مقاربتها[۹۷].

و على هذا فالآيهٔ لا تخلو من إبهام، و لكن مع الالتفات إلى أنّ الجملهٔ الثانيهٔ تفسير للجملهٔ الاولى و نتيجهٔ لها (و لهذا اعطفت بفاء التفريع) فالظاهر أنّ (تطهّرن) أيضا بمعنى الطهارهٔ من دم الحيض، و بذلك تجوز المقاربهٔ الجنسيّهٔ بمجرّد الطّهارهٔ من العادهٔ الشهريّهٔ، و هذا هو ما ذهب إليه الفقهاء العظام فى الفقه و أفتوا بحليّهٔ المقاربهٔ الجنسيّهٔ بعد الطهارهٔ من الحيض حتّى قبل الغسل، و لكن لا شكّ فى أنّ الأفضل أن تكون بعد الغسل.

الفقرهٔ الثانيهٔ من الآيهٔ تقول فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ أى أن يكون الجماع من حيث أمر اللّه، و قد تكون هذه الفقرهٔ تأكيدا لما قبلها، أى آتوا نساءكم فى حالهٔ النقاء و الطّهر فقط لا فى غير هذه الحالهٔ، و قد يكون مفهومها أوسع بخصوص أنّ الجماع بعد الطّهر يجب أن يكون فى إطار أوامر اللّه أيضا.

هذا الأمر الإلهى من الممكن أن يشمل الأمر التكوينى و الأمر التشريعى معا، فاللّه سبحانه أودع فى الرّجل و المرأهٔ الغريزهٔ الجنسيّهٔ لبقاء نوع الإنسان، و هذه الغريزهٔ تدفع الإنسان للحصول على اللّذهٔ الجنسيّهٔ، لكنّ هذه اللّذهٔ مقدّمهٔ لبقاء النوع فقط، و من هنا لا يجوز الحصول عليها بطرق منحرفهٔ مثل الاستمناء و اللّواط و أمثالهما، لأنّ هذا الطريق نوع من الانحراف عن الأمر التكوينى.

و كذلك يمكن أن يكون المراد هو الأمر التشريعى، يعنى أنّ الزوجهٔ بعد طهارتها من العادهٔ الشهريّهٔ ينبغى عليها مراعاهٔ جهات الحلال و الحرام فى الحكم الشرعى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۳

و ذهب البعض إلى أنّ مفهوم هذه الجملهٔ هو حرمهٔ المقاربهٔ الجنسيّهٔ مع الزّوجهٔ عن غير الطريق الطبيعى، و لكن مع الالتفات إلى أنّ الآيات السابقهٔ لم تتحدّث عن هذا الأمر يكون هذا التفسير غير مناسب للسّياق ۹۸].

الآيهٔ الثانيهٔ إشارهٔ لطيفهٔ إلى الغايهٔ النهائيّهٔ من العمليّهٔ الجنسيّهٔ فتقول نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ فى هذه الآيهٔ الكريمهٔ شبّهت النساء بالمزرعهٔ، و قد يثقل هذا التشبيه على بعض، و يتساءل لماذا شبّه اللّه نصف النوع البشرى بهذا الشكل؟

و لو أمعنا النظر فى قوله سبحانه لوجدنا فيه إشارهٔ رائعهٔ لبيان ضرورهٔ وجود المرأهٔ فى المجتمع الإنسانى. فالمرأهٔ بموجب هذا التعبير ليست وسيلهٔ لإطفاء الشهوهٔ، بل وسيلهٔ لحفظ حياهٔ النوع البشرى.

«الحرث» مصدر يدلّ على عمل الزراعهٔ، و قد يدلّ على مكان الزراعهٔ «المزرعهٔ» و «أنّى» من أسماء الشرط، و تكون غالبا زمانيهٔ. و قد تكون مكانيهٔ كما جاء فى قوله سبحانه: يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۹۹].

يستفاد من الآيهٔ الكريمهٔ- على افتراض زمانيهٔ أنّى- الرخصهٔ فى زمان الجماع، أى جوازه فى كلّ ساعات الليل و النهار، و على افتراض مكانيهٔ أنّى يستفاد من الآيهٔ الرخصهٔ فى مكان الجماع و محلّه و كيفيته.

وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ هذا الأمر القرآنى يشير إلى أنّ الهدف النهائى من الجماع ليس هو الاستمتاع باللذهٔ الجنسيهٔ، فالمؤمنون يجب أن يستثمروه على طريق تربيهٔ أبناء صالحين، و أن يقدّموا هذه الخدمهٔ التربويهٔ المقدّسهٔ ذخيرهٔ لاخراهم. و بذلك يؤكّد القرآن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۴

علی رعایة الدقّة فی انتخاب الزوجة کی تکون ثمرة الزواج إنجاب أبناء صالحین و تقدیم هذه الذخیرة الاجتماعیة الإنسانیة الکبری.

و فی حدیث عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا عن ثلاث: صدقة جاریة، و علم ینتفع به، و ولد صالح یدعو له»

[۱۰۰].

و جاء فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «لیس یتبع الرجل بعد موته من الأجر إلّا ثلاث خصال: صدقة أجراها فی حیاته فهی تجری بعد موته و سنّة هدی سنّها فهی تعمل بها بعد موته و ولد صالح یستغفر له»

[۱۰۱].

و وردت بهذه المضمون روایات عدیدة أیضا، و قد جاء فی بعضها ستّة موارد أوّلها الولد الصالح ۱۰۲].

و علی هذا الأساس یأتی الولد الصالح من حیث الأهمیّة إلی جانب الخدمات العلمیّة و تألیف الکتب المفیدة و تأسیس المراکز الخیریّة کالمسجد و المستشفی و المکتبة و أمثال ذلک.

و فی ختام هذه الآیة تأمر بالتقوی و تقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّکُمْ مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ

لمّا کانت المقاربة الجنسیّة تعتبر من المسائل المهمّة و من أشد الغرائز إلحاحا علی الإنسان، فإنّ اللّه تعالی یدعو فی هذا الآیة الإنسان إلی الدقّة فی أمر ممارسة هذه الغریزة و الحذر من الانحراف، و تنذر الجمیع بأنّهم ملاقوا ربّهم و لیس لهم طریق للنّجاة سوی الإیمان و التقوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۵

بحوث

۱- الحکم الإسلامی العادل فی مسألة الحیض

هناک الاعتقادات مختلفة فی الأقوام السّالفة حول العادة الشهریّة للنّساء، فالیهود یشدّدون أمرها و یعزلون المرأة فی هذه الأیّام کلیّا عن کلّ شیء: عن الأکل و الشرب عن المجالسة و المؤاکلة و المضاجعة، و قد وردت فی التوراة الحالیّة أوامر متشدّدة فی هذا الصّدد[۱۰۳].

و علی العکس من ذلک النّصاری حیث لا- یلتزمون بأیّة محدودیّة فی هذه الأیّام، فلا فرق بین حالة الحیض و الطّهر لدی المرأة. المشرکون العرب لیس لدیهم حکما خاصّا فی هذا المجال، و لکنّ أهالی المدینة کانوا متأثّرین بآداب الیهود و عقائدهم فی معاشرتهم للنّساء أیّام الحیض فکانوا یتشدّدون مع المرأة فی هذه الأیّام، فی حین أنّ سائر العرب لم یکونوا کذلک، بل قد تکون المقاربة الجنسیّة محبّبة لدیهم فیها، و یعتقدون أنّه لو حصل من تلک المقاربة ولد فإنّه سوف یکون فتّاکا و متعطّشا للدّماء، و هذه من الصّفات المتمیّزة و المطلوبة لدی أعراب البادیة[۱۰۴].

۲- اقتران الطهارة بالتوبة

إنّ اقتران الطهارة و التوبة فی الآیات أعلاه یمکن أن یکون إشارة إلی أنّ الطّهارة تتعلّق بالطّهارة الظاهریّة و التوبة إشارة إلی الطّهارة

الباطنیّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۶

و یحتمل أیضا أنّ الطهارة هنا عدم التلوّث بالذنب، یعنی أنّ اللّه تعالی یحب من لم یتلوّث بالذنب، و کذلک یحب من تاب بعد تلوّثه.

و یمکن أن تشیر مسألة التوبة هنا إلی أنّ بعض الناس یصعب علیهم السیطرة علی الغریزة الجنسیّة فیتلوّثون بالذّنب و الإثم خلافا لما أمر اللّه تعالی، ثمّ یعتریهم النّدم علی عملهم و یتألمون من ذلک، فاللّه سبحانه و تعالی فتح لهم طریق التوبة کیلا یصیبهم الیأس من رحمة اللّه ۱۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۷

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۲۴ الی ۲۲۵]

اشارة

وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَیْمانِکُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَیْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۲۲۴) لا یُؤاخِذُکُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمانِکُمْ وَ لکِنْ یُؤاخِذُکُمْ بِما کَسَبَتْ قُلُوبُکُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِیمٌ (۲۲۵)

سبب النّزول

حدث خلاف بین صهر أحد الصحابة و ابنته، و هذا الصحابی هو «عبد اللّه بن رواحة» حیث أقسم أن لا یتدخّل فی الإصلاح بین الزّوجین، فنزلت الآیة تنهی عن هذا اللّون من القسم و تلغی آثاره.

التّفسیر

لا ینبغی القسم حتّی الإمکان:

کما قرأنا فی سبب النّزول أنّ الآیتین أعلاه ناظرتان إلی سوء الاستفادة من القسم، فکانت هذه مقدّمة إلی الأبحاث التالیة فی الآیات الکریمة عن الإیلاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۸

و القسم و ترک المقاربة الجنسیّة.

فی الآیة الاولی یقول تعالی وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَیْمانِکُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَیْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ ۱۰۶].

(الأیمان) جمع (یمین) و (عرضة) بضم العین، تقال للبضاعة و أمثالها التی تعرض أمام الناس فی السوق. و قد تطلق العرضة علی موانع الطریق لأنّها تعترض طریق الإنسان.

و ذهب البعض إلی أنّ المراد بها ما یشمل جمیع الأعمال، فالآیة تنهی عن القسم باللّه فی الأمور الصغیرة و الکبیرة و عن الاستخفاف باسمه سبحانه، و بهذا حذّرت الآیة من القسم إلّا فی کبائر الأمور، و هذا ما أکّدت علیه الأحادیث الکثیرة،

و قد روی عن الصادق علیه السّلام (لا تحلفوا باللّه صادقین و لا کاذبین فإنّ اللّه سبحانه یقول: وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَیْمانِکُمْ [۱۰۷].

و هناک أحادیث متعدّدة وردت فی هذا المجال ۱۰۸].

و لو أخذنا سبب نزول الآیة بنظر الإعتبار یکون مؤدّاها أنّ القسم لیس بعمل مطلوب فی الأعمال الصالحة، فکیف بالقسم بترک الأعمال الصالحة؟! و فی الآیة التالیة نلاحظ تکملة لهذا الموضوع و أنّ القسم لا- ینبغی أن یکون مانعا من أعمال الخیر فتقول: لا یُؤاخِذُکُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمانِکُمْ وَ لکِنْ یُؤاخِذُکُمْ بِما کَسَبَتْ قُلُوبُکُمْ أی عن إرادة و إختیار.

فی هذه الآیة یشیر اللّه تعالی إلی نوعین من القسم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۹

الأوّل: القسم اللغو الذی لا أثر له، و لا یعبأ به، هذا النوع من القسم یتردّد علی ألسن بعض الناس دون التفات، و یکرّرونه فی کلامهم عن عادة لهم، فیقولون: لا و اللّه ... بلی و اللّه ... علی کلّ شیء، و إنّما سمّی لغوا لأنّه لا هدف له و لم یطلقه المتکلّم عن عزم و وعی، و کلّ عمل و کلام مثل هذا لغو.

من هنا فالقسم الصادر عن الإنسان حین الغضب لغو (إذا أخرجه الغضب تماما عن حالته الطبیعیة). و حسب الآیة أعلاه لا یؤاخذ الإنسان علی مثل هذا القسم، و علیه أن لا یرتّب أثرا علیه، و یجب الالتفات إلی أنّ الإنسان یجب أن یتربّی علی ترک مثل هذا القسم و علی کلّ حال فإن العمل بهذا القسم غیر واجب و لا کفّارة علیه، لأنه لم یکن عن عزم و إرادة.

النوع الثانی: القسم الصادر عن إرادة و عزم، أو بالتعبیر القرآنی هو القسم الداخل فی إطار کسب القلب، و مثل هذا القسم معتبر، و یجب الالتزام به، و مخالفته ذنب موجب للکفّارة إلّا فی مواضع سنذکرها. و قد أشارت الآیة (۸۹) من سورة المائدة إلی هذا النوع من القسم بقولها «ما عقدتم الایمان».

الأیمان غیر المعتبرة:

الإسلام لا یحبّذ القسم کما أشرنا آنفا، لکنّه لیس بالعمل المحرّم، بل قد یکون مستحبّا أو واجبا تبعا لما تترتّب علیه من آثار.

و هناک أیمان لا قیمة لها و لا اعتبار فی نظر الإسلام، منها:

۱- القسم بغیر اسم اللّه و حتّی القسم باسم النبی و أئمّة الهدی علیهم السّلام مثل هذا القسم غیر المتضمّن اسم اللّه تعالی لا أثر له و لا یلزم العمل به و لا کفّارة علی مخالفته.

۲- القسم علی ارتکاب فعل محرّم أو مکروه أو ترک واجب أو مستحب،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۰

حیث لا- یترتّب علیه شیء. کأن یقسم شخص علی عدم أداء دین، أو علی قطع رحم، أو علی فرار من جهاد، و أمثالها أو یترک إصلاح ذات البین مثلا کما نلاحظ ذلک لدی بعض الأشخاص الذین واجهوا بعض السلبیات من إصلاح ذات البین فأقسموا علی ترک هذا العمل. فإن أقسم علی شیء من ذلک فعلیه أن لا- یعتنی بقسمه و لا- کفّارة علیه، و قیل إنّ هذا هو معنی قوله تعالی: لا یُؤاخِذُکُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمانِکُمْ

أمّا الأیمان- التی تحمل اسم اللّه- علی أداء عمل صالح أو مباح علی الأقل، فیجب الالتزام به، و إلّا وجبت علی صاحبه الکفّارة، و کفّارته کما ذکرته الآیة (۸۹) من سورة المائدة، إطعام عشرة مساکین، أو کسوتهم، أو تحریر رقبة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۱

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۲۶ الی ۲۲۷]

اشارة

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۲۶) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۲۷)

التّفسير

القضاء على تقليد جاهلى:

القسم على ترك وطء الزوجة أو الإيلاء[۱۰۹] تقليد جاهلى كان شائعا بين العرب، و استمرّ معمولا به عند المسلمين الجدد قبل نزول حكم الطلاق.

كان الرجل فى الجاهليـة- حين يغضب على زوجته- يقسم على عـدم وطئها، فيشـدّد عليها بهـذه الطريقـة الفضـة، لا هو يطلق سـراحها بالطلاق لتتزوج من رجل آخر، و لا يعود إليها بعد هذا القسم ليصالحها و يعايشـها. و طبعا لا يواجه الرجل غالبا صـعوبة فى ذلك لأنه يتمتع بعدة زوجات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۲

الآية الكريمة وضـعت لهذه القضـية حدّا، فذكرت أنّ الرجل يستطيع خلال مدّة أقصاها أربعة أشهر أن يتّخذ قرارا بشأن زوجته: إمّا أن يعود عن قسمه و يعيش معها، أو يطلّقها و يخلّى سبيلها.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

و الغاية من الامهال أربعة أشهر هو إعطاء الفرصة للزوج ليفكر فى أمره مع زوجته و ينقذها من هذا الحال. ثمّ تضيف:

فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أى إن عادوا وجدوا اللّه غفورا رحيما، و العبارة تدلّ أيضا أنّ العودة عن هذا القسم ليس ذنبا، بالرغم من ترتب الكفّارة عليه.

وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أى فلا مانع من ذلك مع توفّر الشروط اللازمة.

و فيما لو أهمل الزوج كلا الطريقين و لم يختر أحـدهما، فلم يرجع إلى الحياة الزوجيـة السـليمة، و لم يطلّق. ففى هـذه الصورة يتدخّل حاكم الشرع و يأمر بإلقاء الزوج فى السجن، و يشدد عليه حتّى يختار أحدهما، و ينقذ الزوجة من حالتها المعلّقة.

ينبغى التأكيـد هنا على أنّ الإسـلام، و إن لم يلغ حكم الإيلاء نهائيا، فقد أزال آثار هذه الظاهرة، لأنّه لم يسـمح للرجل أن ينفصل عن زوجته بالإيلاء. و تعيينه مـدّة للـذين يؤلون من نسـائهم لا يعنى إلغـاء حقّ من حقوق الزوجيّـة، لأنّ حقّ المرأة على زوجها- فى إطار الوجوب الشـرعى- الوطء كلّ أربعـة أشـهر، هذا طبعا فى حالة عدم انجرار المرأة إلى الذنب على أثر طول المدّة، و إلّا يجب أن تقلّل المدّة إلى مقدار تأمين الحاجة الجنسية و خاصّة بالنسبة للمرأة الشابّة التى يخشى انحرافها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۳

بحوث

۱- الإيلاء حكم استثنائى

تقـدّم الحـديث فى الآيات السّابقة عن القسم اللّغو، و قلنا أنّ كلّ قسم على فعل ما يخالف الشّـريعة المقدّسة فهو من مصاديق اللّغو فى

القسم، فلا إشكال من نقضه، و على ذلك فالقسم على ترك الواجبات الزوجيّة لا أثر له إطلاقا، في حين أنّ الإسلام قد جعل له كفّارة[۱۱۰] (و هي كفّارة نقض القسم و اليمين المذكورة في الأبحاث السّابقة) و هذا في الحقيقة عبارة عن عقوبة لبعض الرجال الّذين يتوسّلون بهذه الذريعة لتضييع حقوق الزّوجة حتّى لا يقوموا بتكرار هذا العمل مرّة اخرى.

۲- الإيلاء في حكم الإسلام و الغرب

في اوروبا نلاحظ وجود ما يشبه الإيلاء و يطلقون عليه الانفصال البدني و توضيحه: أنه بما أن الطلاق كان محضورا في الديانة المسيحية لذا قام الغربيّين بعد الثورة الفرنسيّة الكبرى باستخدام ظاهرة الانفصال الجسمي بين الزوجين باعتبارها إحدى سبل الطّلاق، و ذلك بأن يعيش الرجل في مكان و المرأة في مكان آخر عند عدم وجود الوفاق بينهما، و تبقى كلّ الحقوق الزوجيّة محفوظة سوى نفقة الرجل و تمكين المرأة، فالرجل لا يستطيع أن يتزوّج بامرأة اخرى و لا المرأة كذلك على أن لا تتجاوز مدّة الانفصال ثلاث سنوات يجب على الزوجين بعدها أن يعودا إلى حياتهم الزوجيّة[۱۱۱]، فالبرّغم من أنّ القانون الغربي سمح للزّوجين أن ينفصلا في ثلاث سنين، إلّا أنّ الإسلام لم يسمح لهذا الانفصال أن

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۴

يستمر أكثر من أربعة أشهر و استمرار هذه المدّة جائز حتّى مع عدم القسم، و بعد هذه المدّة يجب على الرجل أن يعيّن أمره، فإذا أراد أن يماطل أكثر من هذه المدّة فإنّ الحكومة الإسلاميّة تستدعيه و ترغمه على اتّخاذ قراره النّهائي.

۳- الصّفات الإلهيّة في ختام كلّ آية

ممّا يلفت النّظر أنّ الكثير من آيات القرآن تختتم أبحاثها بصفات اللّه تعالى و هذه الصفات لها ارتباط مباشر بمحتوى الآيات دائما، و من جملة هذه الآيات ما نحن فيه، فعند ما كان الحديث عن الإيلاء و التصميم على نقض هذا القسم الممنوع تذكر الآية بعدها جملة غَفُورٌ رَحِيمٌ و هي إشارة إلى أنّ هذا السلوك السليم سبب لغفران اللّه تعالى و شمول رحمته لهؤلاء الأشخاص، و عند ما كان الحديث يدور حول التصميم على الطّلاق كانت العبارة سَمِيعٌ عَلِيمٌ يعني أنّ اللّه تعالى يسمع كلامكما و مطّلع على دوافع الطّلاق و الفرقة و سوف يجازيكم وفقا لهذا العمل.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۲۸]

اشارة

وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۲۸)

التّفسير

حريم الزّواج أو العدّة:

كان الكلام فى الآيـة السّابقـة عن الطّلاق، و هنا تـذكر الآية بعض أحكام الطّلاق و ما يتعلّق به حيث ذكرت خمسة أحكام له فى هذه الآية.

فى البداية ذكرت الآية عدّة الطّلاق وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ.

(قروء) جمع (قرء) تطلق على الحيض و على النقـاء منه، و يمكن الاسـتفادة من كلاـ هـذين المعنيين مفهومـا كليّـا يجمع بينهمـا، و هو الانتقال من حالة إلى حالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۶

اخرى و يرى «الرّاغـب» فى المفردات أنّ «القرء» فى الحقيقـة هى كلمـة يراد منهـا الانتقـال من حالـة الحيض إلى الطّهر، و بمـا أنّ كلا هـذين العنوانين مأخوذان فى معنى الكلمة، فتسـتعمل أحيانا بمعنى الحيض و اخرى بمعنى الطّهر، و يسـتفاد من بعض الرّوايات و كثير من كتب اللّغـة أنّ القرء تعنى الجمع بين الحـالتين، و بما أنّ حالـة الطّهر يجتمع فى المرأة مع وجود دم الحيض فى رحمها فتطلق هـذه المفردة على الطّهر و على كلّ حال فقـد ورد التّصـريح فى الروايات أنّ المقصود بالقروء الثلاثـة فى الآيـة أن تطهر المرأة ثلاث مرّات من دم الحيض [۱۱۲].

و بمـا أنّ الطّلاق يشترط فيه أن تكون المرأة فى حالـة الطّهر الّـذى لم يجامعها زوجها فيه فيحسب ذلك الطّهر مرّة واحـدة، و بعـد أن ترى المرأة دم الحيض مرّة و تطهر منه حينئـذ تتم عدّتها بمجرّد أن ينتهى الطّهر الثالث و تشـرع و لو للحظة فى العادة، فيجوز لها حينئذ الزّواج، و مضافا إلى الروايات فى هذا المجال يمكن استنباط هذه الحقيقة من نفس الآية مورد البحث لأنّ:

أوّلا: (قرء) تستبطن جمعان: قروء و أقراء، و ما كان جمعه قروء فهو طهر، و ما كان جمعه أقراء فهو بمعنى الحيض [۱۱۳].

ثانيا: القرء فى اللّغـة بمعنى الجمع، كما تقـدّم و هى أنسب لحالة الطّهر، لأنّ الدم يتجمّع فى هذه الحالة فى الرّحم بينما يخرج و يتفرّق عند العادة الشهريّة[۱۱۴].

الحكم الثـانى المسـتفاد من هـذه الآيـة هو قوله تعـالى وَ لاـ يَحِـلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مـا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحـامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

الإسلام قرّر أن تكون المرأة بنفسها هى المرجع فى معرفة بداية العدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۱۴۶

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۷

و نهايتها حيث إنّ المرأة نفسها أعلم بذلك من الآخرين، و

فى الرّوايـة عن الإمام الصّادق عليه السّـلام فى تفسـير الآيـة محلّ البحث قال: «قد فوّض اللّه إلى النّساء ثلاثة أشـياء: الحيض و الطّهر و الحمل»[۱۱۵].

و يمكن أن يسـتفاد من الآيـة هـذا المعنى أيضـا، لأـنّ الآيـة تقول وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحامِهِنَ و يخبرن بخلاف الواقع، و هذا يعنى أن كلامهنّ مقبول.

و جملة ما خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحامِهِنَ كما ذهب إليه جماعة من المفسّـرين يمكن أن يراد بها معنيان: (الجنين) و (العادة الشـهريّة) لأنّ كلا هذين المعنيين قد جعلهما اللّه فى أرحام النساء أى يجب على المرأة أن لا تكتم حملها و تدّعى العادة الشهريّة بهدف تقليل مدّة العدّة (لأـنّ عـدّة الحامـل وضع حملها) و هكـذا يجب عليها أن لا تخفى وضع حيضـها و تبيّن خلاف الواقع، و لا يبعـد اسـتفادة كلا هـذين المعنيين من العبارة أعلاه.

الحكم الثالث المستفاد من الآية هو أنّ للزّوج حقّ الرّجوع إلى زوجته فى عدّة الطّلاق الرّجعى، فتقول الآية: وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً[۱۱۶].

و بهذا يستطيع الزّوج استئناف علاقته الزوجية بدون تشريفات خاصّة إذا كانت المرأة فى عدّة الطّلاق الرّجعى، فإذا قصد الرّجوع يتحصّل بمجرّد كلمة أو عمل يصدر منه بهذا القصد، و جملة: إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً فى الحقيقة هى لبيان أنّ هدف الرّجوع يجب أن يكون بنيّة الإصلاح لا كما كان عليه الحال فى العصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۸

الجاهلى من أنّ الزّوج يستخدم هذا الحق لغرض الإضرار بالزّوجة حيث يتركها فى حالة معلّقة بين الزّواج و الطّلاق.

فهذا الحقّ يكون للزّوج فى حالة إذا كان نادما واقعا و أراد أن يستأنف علاقته الزّوجيّة بجديّة، و لم يكن هدفه الإضرار بالزّوجة.

ضمنا يستفاد ممّا ورد فى ذيل الآية من مسألة الرّجوع هو أنّ حكم العدّة و الاهتمام بحساب أيّامها يتعلّق بهذه الطائفة من النساء، و بعبارة اخرى أنّ الآية تتحدّث بشكل عام عن الطّلاق الرّجعى و لهذا فلا مانع من أن تكون بعض أقسام الطّلاق بدون عدّة أصلا.

ثمّ تبيّن الآية حكما رابعا و تقول: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ.

يقول الطبرسى فى مجمع البيان أنّه يستفاد من هذه العبارة العجيبة و الجامعة فوائد كثيرة جدّا[۱۱۷]، فهى قد جرّت البحث إلى مسائل أهم بكثير من الطّلاق و العدّة، و قرّرت مجموعة من الحقوق المتبادلة بين الرّجال و النساء فتقول: كما أنّ للرّجال حقوقا على النساء، فكذلك للنساء حقوق على الرّجال أيضا، فيجب عليهم مراعاتها، لأنّ الإسلام اهتمّ بالحقوق بصورة متعادلة و متقابلة و لم يتحيّز إلى أحد الطّرفين.

و كلمة (بالمعروف) التى تأتى بمعنى الأعمال الحسنة المعقولة و المنطقيّة تكرّرت فى هذه السلسلة من الآيات اثنا عشر مرّة (من الآية مورد البحث إلى الآية ۲۴۱) كيما تحذّر النساء و الرّجال من عاقبة سوء الاستفادة من حقوق الطّرف المقابل، و عليهم احترام هذه الحقوق و الاستفادة منها فى تحكيم العلاقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۹

الزوجيّة و تحصيل رضا اللّه تعالى.

جملة وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ تكمّل القاعدة السابقة فى الحقوق المتقابلة بين الرّجل و المرأة، و فى الواقع أنّ مفهومها هو أنّ مسألة العدالة بين الرّجل و المرأة لا تكون بالضّرورة بمعنى التساوى فى الحقوق و أن يكونا فى عرض واحد، فهل يلزم أن يكون الجنسان، متساويين تماما فى الواجبات و الحقوق؟

لو أخذنا بنظر الإعتبار الاختلافات الكبيرة بين الجنسين على صعيد القوى الجسميّة و الروحيّة لا تّضح الجواب عن السؤال.

المرأة بطبيعة مسئوليتها الحسّاسة فى إنجاب الأبناء و تربيتهم تتمتّع بمقدار أوفر من العواطف و المشاعر و الإحساسات، فى حين أنّ الرجل و طبقا لهذا القانون انيطت به مسئولية الواجبات الاجتماعيّة التى تستلزم قوّة الفكر و الابتعاد عن العواطف و الأحاسيس الشخصيّة أكثر، و لو أردنا إقامة العدالة فيجب أن نضع الوظائف الاجتماعيّة التى تحتاج إلى تفكّر و تحمّل أكثر بعهدة الرّجال، و الوظائف و المسؤوليّات التى تحتاج إلى عواطف و إحساسات أكثر بعهدة النّساء، و لهذا السبب كانت إدارة الاسرة بعهدة الرّجل و مقام المعاونة بعهدة المرأة، و على أيّ حال فلا يكون هذا مانعا من تصدّى المرأة للمسؤوليّات الاجتماعيّة المتوائمة مع قدراتها الجسميّة و ملكاتها البيولوجيّة فتؤدّى تلك الوظائف و المسؤوليّات إلى جانب أداء وظيفة الامومة فى الاسرة.

و كذلك لا يكون هذا التفاوت مانعا من تفوّق بعض النّساء من الجهات المعنويّة و العلميّة و التقوائيّة على كثير من الرّجال.

فما نرى من إصرار بعض المثقّفين على مقولة التساوى بين الجنسين فى جميع الأمور هو إصرار لا تؤيّده الحقائق على أرض الواقع حيث ينكرون فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۰

دعواهم هـذه الثّوابت العلميّـة فی هـذا المجال، فحتّی فی المجتمعات التی تنادی بالمساواة بين الجنسين فی مختلف المجالات نشاهد عملاـ بونـا شاسـعا مع نـداءاتهم، فمثلاـ الإـدارة السياسيّة و العسـكريّة لجميع المجتمعات البشـريّة هی فی عهـدة الرّجال (إلّا فی موارد استثنائيّة) حيث يری هذا المعنی أيضا فی المجتمعات الغربيّة التی ترفع شعار المساواة دائما.

و علی كلّ حال، فالحقوق التی يختّص بها الرّجال مثل حقّ الطّلاق أو الرّجوع فی العدّة أو القضاء (إلّا فی موارد خاصّة اعطی فيها حقّ الطّلاق للزّوجة أو حاكم الشرع) ترتكز علی هذا الأساس و نتيجة مباشرة لهذه الحقائق العمليّة.

و ذهب بعض المفسّـرين إلی أنّ جملـة: لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ناظرة إلی مسألة الرّجوع فی عدّة الطّلاق فقط[۱۱۸]، و لكن من الواضح إنّ هـذا التفسير لا يتواءم و ظاهر الآيـة، لأنّ الآية ذكرت قبل ذلك قانونا كليّا حول حقوق المرأة و وجوب رعاية العدالة بجملة وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِی عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ثمّ أوردت العبارة مورد البحث بشكل قانون كلّی آخر بعد ذلك.

و أخيرا تقول الآية: وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ و هذا إشارة إلی ما يرد فی هذا المجال من إشـكالات و تساؤلات و أنّ الحكمة الإلهيّة و التدبير الرّبـانی يسـتوجبان أن يكون لكـلّ شـخص فی المجتمع وظـائف و حقوق معيّنـة من قبـل قانون الخلقـة و يتناسب مع قـدراته و قابليّاته الجسـميّة و الرّوحيّـة، و بـذلك فـإنّ الحكمـة الإلهيّـة تسـتوجب أن تكون للمرأة فی مقابل الوظائف و المسؤوليّات الملقاة علی عاتقها حقوقا مسلّمة كيما يكون هناك تعادل بين الوظيفة و الحقّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۱

بحوث

۱- العدّة وسيلة للعودة و الصّلح

أحيانا ينشأ فی مناخ الاسرة و بسبب عوامل مختلفة بعض الاختلافات الجزئيّة و تتهيّأ الأرضيّة النفسيّة لكلّ من الزّوجين بشكل يشتد فيه حس الانتقام و تنطفأ فيه أنوار العقل و الوجدان. و فی الغالب تكون حالات الفرقة و تشتّت العائلة ناشئة من هذه الموارد و الحالات، و لكن يشاهد فی كثير من الحالات أنّ كلّ من الزّوجة و الزّوج بعد حصول النّزاع و الفرقة بفترة قليلة من الزّمان يصـيبهم النّدم و خاصّـة بعد مشاهدة انهدام الاسرة و تلاشی المحيط العائلی الدّافئ لتصبّ حياتهم فی بحر المشاكل المختلفة.

و هنا تقول الآية مورد البحث: أنّ علی النّساء العدّة و الصبر ريثما تهدأ تلك الأمواج النفسـيّة و تنقشع سحب النّزاع و العداوة عن سماء الحياة المشتركة، و خاصّة إذا أخذنا بنظر الإعتبار حكم الإسلام فی وجوب بقاء المرأة و عدم خروجها من بيت زوجها طيلة مدّة العادة حيث يبعث ذلـك علی حسن التفكّر و إعـادة النّظر فی قرار الطّلاـق ممّـا يؤثّر ذلـك كـثيرا فی رسم و صـياغة علاقاتهـا مع زوجهـا، و لذلك نقرأ فی سورة الطّلاق آية (۱) لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَ ... لا تَدْرِی لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً.

و فی الغالب نلحظ أنّه يكفی لاستعادة المناخ الملائم و الأجواء الدّافئـة للاسـرة قبل الطّلاق قليل من تقويـة المحبّـة و إعادة المياه إلی مجاريها.

۲- العدّة وسيلة لحفظ النّسل

إنّ إحدی الأغراض المهمّة للعدّة هو اتّضاح حالة المرأة بالنّسبة إلی الحمل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۲

فصحیح أنّ رؤیة المرأة لدم الحیض مرّة واحدة دلیل علی عدم الحمل، و لکن أحیانا تری المرأة دم العادة حین الحمل أیضا و فی بدایته، فمن أجل رعایة هذا الموضوع و الحکم بشکل کامل کان علی المرأة أن تصبر لتری العدّة ثلاث مرّات و تطهر منها حتّی تقطع تماما بعدم حملها من زوجها السّابق فیمکنها بعد ذلک الزّواج المجدّد، و طبعا هناک فوائد اخری للعدّة سنشیر إلیها فی مواردها.

۳- تلازم الحقّ و الوظیفة

هنا یشیر القرآن الکریم إلی أصل أساس، و هو أنّه کلّما کانت هناک وظیفة و مسئولیّة کان هناک حقّ إلی جانبها، یعنی أنّ الوظیفة و الحقّ لا ینفصلان أبدا، فمثلا أنّ علی الوالدین وظائف بالنّسبة للأولاد، و هذه الوظائف تسبّب إیجاد حقوق فی عهدة الأولاد، أو أنّ القاضی موظّف فی تحقیق العدالة فی المجتمع ما أمکنه ذلک، و فی مقابل هذه الوظیفة و المسؤولیّة له حقوق کثیرة فی عهدة الآخرین، و هکذا بالنّسبة إلی الأنبیاء علیهم السّلام و أقوامهم.

و فی الآیة مورد البحث إشارة إلی هذه الحقیقة حیث تقول أنّ النساء لهنّ من الحقوق بمقدار ما علیهنّ من الواجبات و الوظائف، و هذا التّساوی بین الحقوق و الواجبات یسهّل عملیّا إجراء العدالة فی حقّهن، و کذلک یثبت عکس هذا المطلب أیضا فمن جعل له حقّا ففی مقابله علیه واجبات و مسئولیّات لا بدّ من أدائها، و لذلک لا نجد أحدا له حقّ من الحقوق فی أحد الموارد و لیست فی ذمّته وظیفة و مسئولیّة.

۴- قصّة المرأة فی التّاریخ و حقوقها المهدورة

عانت المرأة خلال العصور التاریخیّة المختلفة ألوانا من الظلم و الاضطهاد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۳

و التعسّف، و یشکّل هذا التاریخ المؤلم المرّ جزء هامّا من الدراسات الاجتماعیة بشکل عامّ یمکن تقسیم تاریخ حیاة المرأة إلی مرحلتین:

المرحلة الاولی: مرحلة ما قبل التاریخ، و لیس لنا معلومات صحیحة عن وضع المرأة فی هذه المرحلة، و من الممکن أن تکون قد تمتّعت آنذاک بحقوقها الإنسانیة الطبیعیّة.

و المرحلة الثانیة: مرحلة التاریخ، و المرأة کانت خلالها فی کثیر من المجتمعات شخصیّة غیر مستقلة فی جمیع الحقوق الاقتصادیة و السیاسیة و الاجتماعیة، و استمرّ هذا الوضع فی قسم من المجتمعات حتّی القرون الأخیرة.

هذا اللون من التفکیر بشأن المرأة مشهود حتّی فی القانون المدنیّ الفرنسیّ المشهور بتقدّمیته، علی سبیل المثال نشیر إلی بعض فقراته المتعلّقة بالشؤون المالیة للزوجین:

یستفاد من المادّتین ۲۱۵ و ۲۱۷ أنّ المرأة المتزوجة لا تستطیع بدون إذن زوجها و توقیعه أن تؤدّی أیّ عمل حقوقی، و تحتاج فی کلّ معاملة إلی إذن الزوج.

هذا إذا لم یرد الرجل أن یستغلّ قدرته و أن یمتنع عن الإذن دون مبرّر.

و حسب المادّة ۱۲۴۲ یحقّ للرجل أن یتصرّف لوحده بالثروة المشترکة بین المرأة و الرجل بأیّ شکل من الأشکال، و لا یلزمه استئذان المرأة بشرط أن یکون التّصرّف فی إطار الإدارة، و إلّا لزمت موافقة المرأة و توقیعها.

و أكثر من ذلك ورد فى المادة ۱۴۲۸.: إنّ حقّ إدارة جميع الأموال الخاصّة بالمرأة موكول إلى الرجل- على أنّ المعاملة الخارجة عن حدود الإدارة تتطلّب موافقة المرأة و توقيعها-.

و فى أرض الرسالة الإسلامية- أى الحجاز- كانت المرأة تعامل معاملة الكائن غير المستقل، و كانوا يستثمرونها بشكل فظيع قريب من حالة التوحّش.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۴

و بلغ وضع المرأة من الانحطاط بحيث إن صاحبها كان يستفيد منها للارتزاق أحيانا، فيعرضها للإيجار.

ما كان يعانيه هؤلاء من فقر حضارى و فقر مادّى جعل منهم قساة لا يتورّعون عن ارتكاب جريمة «الوأد» بحقّ الأنثى.

۵- المرحلة الجديدة فى حياة المرأة

مع ظهور الإسلام و انتشار تعاليمه السامية، دخلت حياة المرأة مرحلة جديدة بعيدة كلّ البعد عمّا سبقها. فى هذه المرحلة أصبحت المرأة مستقلّة و متمتّعة بكلّ حقوقها الفردية و الاجتماعية و الإنسانية.

تقوم تعاليم الإسلام بشأن المرأة على أساس الآيات التى ندرسها فى هذا المبحث حيث يقول تعالى: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِی عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ فالمرأة بموجب هذه الآية تتمتّع بحقوق تعادل ما عليها من واجبات ثقيلة فى المجتمع.

الإسلام اعتبر الرجل كالمرأة كائنا ذا روح إنسانيّة كاملة، و ذا إرادة و إختيار، و يطوى طريقه على طريق تكامله الذى هو هدف الخلقة، و لذلك خاطب الرجل و المرأة معا فى بيان واحد حين قال: يا أَيُّهَا النَّاسُ ... و يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.

وضع لهما منهجا تربويا و أخلاقيا و علميا و وعدهما معا بالسعادة الأبدية الكاملة فى الآخرة، كما جاء فى قوله تعالى: وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ[۱۱۹].

و أكّد أنّ الجنسين قادران على انتهاج طريق الإسلام للوصول إلى الكمال المعنوىّ و المادىّ و لبلوغ الحياة الطيّبة المفعمة بالطمأنينة، نظير ما جاء فى قوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۵

تعالى: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ۱۲۰].

الإسلام يرى المرأة كالرجل إنسانا مستقلّا حرّا، و هذا المفهوم جاء فى مواضع عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ[۱۲۱]. و مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها[۱۲۲].

هذه الحريّة قرّرها الإسلام للمرأة و الرجل، و لذلك فهما متساويان أمام قوانين الجزاء: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِی فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ[۱۲۳].

لمّا كان الاستقلال يستلزم الإرادة و الإختيار، فقد قرّر الإسلام هذا الاستقلال فى جميع الحقوق الاقتصادية، و أباح للمرأة كلّ ألوان الممارسات المالية، و جعلها مالكة عائدها و أموالها، يقول سبحانه فى سورة النساء: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ۱۲۴].

كلمة «اكتساب»- خلافا لكلمة «كسب»- لا تستعمل إلّا فيما يعود نتيجته على الإنسان نفسه ۱۲۵].

و لو أضفنا إلى هذا المفهوم القاعدة العامّة القائلة: «الناس مسلّطون على أموالهم» لفهمنا مدى الاحترام الذى أقرّه الإسلام للمرأة بمنحها الاستقلال الاقتصادى، و مدى التساوى الذى قرّره بين الجنسين فى هذا المجال.

فالمرأة- فى مفهوم الإسلام- ركن المجتمع الأساسى، و لا يجوز التعامل معها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۶

علی أنّها موجود تابع عدیم الإرادة یحتاج إلی قیّم.

۶- المفهوم الصحیح للمساواة

و هنا ینبغی الالتفات إلی مسألة الاختلافات الروحیة و الجسمیة بین المرأة و الرجل، و هی مسألة التفت إلیها الإسلام بشکل خاصّ و أنکرها بعضهم منطلقین من تطرّف فی أحاسیسهم.

إن أنکرنا کلّ شیء فلا نستطیع أن ننکر الاختلافات الصارخة بین الجنسین فی الناحیة الجسمیة و الناحیة الروحیة، و هذه مسألة تناولتها تألیفات مستقلّة ملخّصها:

إنّ المرأة قاعدة انبثاق الإنسان، و فی أحضانها یتربّی الجیل و یترعرع، و هی لذلک خلقت لتکون مؤهلة جسمیا لتربیة الأجیال، کما أنّ لها من الناحیة الروحیة سهما أوفی من العواطف و المشاعر.

و هل یمکن مع هذا الاختلاف الکبیر أن ندّعی تساوی الجنسین فی جمیع الأعمال و اشتراکهما المتساوی فی کلّ الأمور؟! أ لیست العدالة أن یؤدّی کلّ کائن واجبه مستفیدا من مواهبه و کفاءاته الخاصّة؟! أ لیس خلافا للعدالة أن تقوم المرأة بأعمال لا تتناسب مع تکوینها الجسمی و الروحی؟! من هنا نری الإسلام- مع تأکیده علی العدالة- یجعل الرجل مقدّما فی بعض الأمور مثل الإشراف علی الأسرة و ... و یدع للمرأة مکانه المساعد فیها.

العائلة و المجتمع یحتاج کلّ منهما إلی مدیر، و مسألة الإدارة فی آخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۷

مراحلها یجب أن تنتهی بشخص واحد، و إلّا ساد الهرج و المرج.

فهل من الأفضل أن یتولّی هذه المسؤولیة المرأة أم الرجل؟ کلّ المحاسبات البعیدة عن التعصّب تقول: إنّ الوضع التکوینی للرجل یفرض أن تکون مسئولیة إدارة الأسرة بید الرجل، و المرأة تعاونه.

مع إصرار المصرّین و لجاج المتعصّبین علی إنکار الواقع، فإنّ وضع الحیاة الواقعیة فی عالمنا المعاصر و حتّی فی البلدان التی منحت المرأة الحریّة و المساواة بالشکل الکامل- علی زعمهم- یدلّ علی أنّ المسألة علی الصعید العملی هی کما ذکرناه و إن کانت المزاعم خلاف ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۸

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۲۹]

اشارة

الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساکٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِیحٌ بِإِحْسانٍ وَ لا یَحِلُّ لَکُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَیْتُمُوهُنَّ شَیْئاً إِلَّا أَنْ یَخافا أَلَّا یُقِیما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا یُقِیما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَیْهِما فِیمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَ مَنْ یَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۲۹)

سبب النّزول

جاءت امرأة إلى إحدى زوجات النبىّ و شكت لها من زوجها الّذى يطلّقها مرارا ثمّ يعود إليها للإضرار بها، و كان للزّوج فى تقاليد الجهاليّة الحقّ فى أن يطلّق زوجته ألف مرّة ثمّ يعود إليها و هكذا فلم يكن للطّلاق حدّ حين ذاك، و حينما اطّلع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم على شكوى هذه الامرأة نزلت الآيات أعلاه و بيّنت حدّ الطّلاق ۱۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۹

التّفسير

إمّا الحياة الزوجيّة أو الطّلاق بالمعروف:

ذكرنا فى تفسير الآية السابقة إنّ الإسلام قرّر قانون (العدّة) و (الرّجوع) لإصلاح وضع الاسرة و منع تشتّتها و تمزّقها، لكنّ بعض المسلمين الجدد استغلّوا هذا القانون كما كانوا عليه فى الجاهليّة، و عمدوا إلى التضييق على الزّوجة بتطليقها المرّة بعد الاخرى و الرّجوع إليها قبل انتهاء العدّة، و بهذه الوسيلة ضيّقوا الخناق على النساء.

هذه الآية تحول بين هذا السّلوك المنحط و تقرّر أنّ الطّلاق و الرّجوع مشروعان لمرّتين، أمّا إذا تكرّر الطّلاق للمرّة الثالثة فلا رجوع، و الطّلاق الأخير هو الثالث، و المراد من عبارة (الطّلاق مرّتان) هو أنّ الطّلاق الّذى يمكن معه الرّجوع مرّتان و الطّلاق الثالث لا رجوع بعده، و تضيف الآية فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ

فعلى هذا يكون الطّلاق الثالث هو الأخير لا رجعة فيه، و بعبارة اخرى أنّ المحبّة و الحنان المتقابل بين الزّوجين يمكن إعادتهما فى المرّتين السابقتين و تعود المياه إلى مجاريها، و فى غير هذه الصّورة إذا تكرّر منه الطّلاق فى المرّة الثالثة فلا يحقّ له الرّجوع إلّا بشرائط معيّنة تأتى فى الآية التالية.

و يجب الالتفات إلى أنّ (إمساك) يعنى الحفظ و (تسريح) بمعنى إطلاق السّراح و مجىء جملة تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ بعد جملة الطَّلاقُ مَرَّتانِ إشارة إلى الطّلاق الثالث الّذى يفصل بين الزّوجين لا بدّ أن يكون مع مراعاة موازين الحقّ و الإنصاف و القيم الأخلاقيّة (جاء فى أحاديث متعدّدة أنّ المراد من قوله تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ هو الطّلاق الثالث)[۱۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۰

فعلى هذا يكون المراد من التسريح بإحسان أن يؤدّى للمرأة حقوقها بعد الانفصال النهائى، و لا يسعى الإضرار بها عملا و قولا بأن يعيبها فى غيابها أو يتّهمها بكلمات رخيصة و يسقط شخصيّتها و سمعتها أمام الناس، و بذلك يحرمها من إمكانيّة الزّواج المجدّد، فكما أنّ الصّلح و الرّجوع إلى الزّوجة يجب أن يكون بالمعروف و الإحسان و المودّة، فكذلك الانفصال النهائى يجب أن يكون مشفوعا بالإحسان أيضا، و لهذا تضيف الآية الشريفة وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً.

فعلى هذا الأساس لا يستطيع الزّوج عند الانفصال النهائى أن يأخذ ما أعطاها من مهرها شيئا، و هذا المعنى أحد مصاديق التسريح بإحسان.

و قد ذكر هذا الحكم بالتفصيل فى سورة النّساء الآيات ۲۰ و ۲۱ حيث يأتى ذكره.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ مفهوم هذه الجملة أوسع من (المهر) و قالوا أنّه يشمل كلّما أعطاه الزوج من الهدايا لزوجته أيضا[۱۲۸].

و ممّا يستجلب النظر فى مورد الرّجوع و الصّلح هو التعبير ب (المعروف) و لكن فى مورد الفرقة و الانفصال ورد التعبير (بإحسان) الّذى يفهم منه ما هو أعلى و أسمى من المعروف، و ذلك من أجل جبران ما يتخلّف من المرارة و الكآبة لدى المرأة بسبب الانفصال

و الطّلاق ۱۲۹].

و تستطرق الآیة إلی ذکر مسألة (طلاق الخلع) و تقرّر أنّه فی حالة واحدة تجوز استعادة المهر و ذلک عند رغبة المرأة نفسها بالطّلاق ۱۳۰] حیث تقول الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۱

إِلَّا أَنْ یَخافا أَلَّا یُقِیما حُدُودَ اللَّهِ ثمّ تضیف فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا یُقِیما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَیْهِما فِیمَا افْتَدَتْ بِهِ

أی الفدیة أو التعویض الّذی تدفعه المرأة للتخلّص من الرّابطة الزّوجیة، هذه الحالة تختلف عن الاولی فی أنّ الطّالب للفرقة هی المرأة نفسها و یجب علیها دفع الغرامة و التعویض للرّجل الّذی یرید و یطلب بقاء العلقة الزوجیّة، و بذلک یتمکّن الزّوج بهذه الغرامة و الفدیة أن یتزوّج مرّة اخری و یختار له زوجة ثانیة.

و الجدیر بالذکر أنّ الضمیر فی جملة أَلَّا یُقِیما الوارد بصورة التثنیة إشارة إلی الزّوجین، و لکنّ فی جملة فَإِنْ خِفْتُمْ ورد بصیغة الجمع للمخاطب، و هذا التفاوت یمکن أن یکون إشارة إلی لزوم نظارة حکّام الشرع علی هذا اللّون من الطّلاق، أو إشارة إلی أنّ تشخیص عدم إمکانیّة استمرار الحیاة الزوجیّة مع رعایة حدود الإلهیّة لا یمکن أن تکون بعهدة الزّوجین، لأنّه فی کثیر من الحالات یظنّ الزوجین و لأسباب نفسیّة و حالات عصبیّة عدم إمکانیّة إدامة الحیاة الزّوجیّة لأسباب تافهة، و لهذا یجب أن تطرح المسألة علی العرف و من له علاقة بهذین الزّوجین یثبت بهذه الصورة جواز الطّلاق الخلعی.

و فی ختام الآیة تشیر إلی مجمل الأحکام الواردة فیها و تقول: تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَ مَنْ یَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ

مسائل مهمة

۱- لزوم تعدّد مجالس الطّلاق

یستفاد من جملة الطَّلاقُ مَرَّتانِ أنّ تعدّد الطّلاق لا یصحّ أن یکون فی مجلس واحد، بل یجب أن یقع الطّلاق فی مجالس متعدّدة، و خاصّة إذا عرفنا بأنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۲

الغایة هو إعطاء فرصة أکثر للرّجوع و احتمال عودة المؤدة بعد النّزاع الأوّل.

فإن لم یتحقق الصلح فی المرحلة الاولی فسیتحقّق فی الثانیة و لکنّ وقوع عدّة طلقات مرّة واحدة یوصد هذا الباب کلیّا و ینفصل الزّوجان بعد ذلک نهائیّا فلا أثر لتعدّد الطّلاق عملا.

و هذا الحکم المذکور آنفا مقبول لدی فقهاء الشیعة، و لکن هناک اختلاف بین أهل السّنة بالرّغم من أنّ أکثرهم یری جواز تعدّد الطّلاق فی مجلس واحد.

أمّا کاتب تفسیر المنار فینقل عن مسند أحمد بن حنبل و صحیح مسلم أنّ حکم ثلاث طلقات فی مجلس واحد لا یحسب إلّا طلاق واحد، و هذا ما کانت السّنة جاریة علیه منذ حیاة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و حتّی سنتین من خلافة عمر حیث یتّفق علی ذلک جمیع الصّحابة، و لکنّ الخلیفة الثانی بعد ذلک حکم بأنّ الطّلاق ثلاثا فی مجلس واحد صحیح و یقع ثلاثا.

۲- شیخ الأزهر یأخذ برأی الشیعة

مع حکم الخلیفة الثانی بوقوع الطّلاقات الثلاثة فی مجلس واحد ذهب جماعة من أهل السّنة إلی عدم وقوعها، و منهم الشیخ الأزهر

الأکبر (الشیخ محمود شلتوت) حیث کتب فی مجلّة «رسالة الإسلام» و فی مقارنة بین آراء المذاهب الإسلامیّة و أخذ فی کثیر من الأحایین بآراء الشیعة، لأنّها کما یقول أقوی دلیلا و من ذلک مسألة تعدّد الطّلاق و أفتی رحمه اللّه بأنّ الطلاقات الثلاثة فی مجلس واحد هی بمثابة الطّلاق الواحد[۱۳۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۳

۳- الحدود الإلهیّة

فی هذه الآیة و آیات کثیرة اخری عبّرت عن القوانین الإلهیّة بکلمة (حد) و بهذا فإن المعصیة و مخالفة هذه القوانین تعدّد تجاوزا للحد، و فی الواقع فأنّ بین الأعمال التی یؤدّیها الإنسان توجد مجموعة مناطق ممنوعة، أی یکون الدخول فیها خطرا و ترسم القوانین و الأحکام الإلهیّة حدود هذه المناطق الممنوعة کالعلامات المنصوبة علی تلک المناطق، و لهذا نقرأ فی سورة البقرة النهی عن الاقتراب من هذه الحدود تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها[۱۳۲] لأنّ الاقتراب منها یعرّض الإنسان إلی خطر السقوط فی الهاویة، و کذلک ورد النهی فی روایات أهل البیت علیهم السّلام عن مواضع الشبهة، لأنّه بحکم الاقتراب من شفا الهاویة الذی قد یستتبعه السقوط بأدنی غفلة (من حام حول الحمی أو شک أن یقع فیه).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۴

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۳۰]

اشارة

فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّی تَنْکِحَ زَوْجاً غَیْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَیْهِما أَنْ یَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ یُقِیما حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ یُبَیِّنُها لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۲۳۰)

سبب النّزول

جاءت امرأة إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قالت: کنت عند ابن عمّی (رفاعة) فطلّقنی ثلاثا، فتزوّجت بعده عبد الرحمن بن الزبیر، و لکنّه أیضا طلّقنی قبل أن یمسّنی، فهل لی أن أعود إلی زوجی الأول؟ فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا، حتّی یذوق عسیلتک، و تذوقی عسیلته»

أی حتّی یتمّ النکاح مع الزوج الثانی ۱۳۳].

التّفسیر

جاء فی الآیة السابقة إجمالا أنّ للمرأة و للرجل بعد الطلاق الثانی أحد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۵

أمرین: إمّا أن یتصالحا و یرجعا إلی الحیاة الزوجیة، و إمّا أن ینفصلا انفصالا نهائیا.

هذه الآیة حکمها حکم الفقرة التابعة لمادّة قانونیة.

فهذه الآیة تقول إن حکم الانفصال حکم دائمی، إلّا إذا اتخذت المرأة زوجا آخر، و طلّقها بعد الدخول بها، فعندئذ لها أن ترجع إلی

زوجها الأوّل إذا رأيا أنهما قادران على أن يعيشا معا ضمن حدود اللّه.

و يستفاد من الرّوايات عن أئمّـة الـدّين أنّ لهذا الزّواج الثانى شـرطين، أوّلا: أن يكون هذا الزّواج دائميّا، و الثانى: أن يتبع عقد الزّواج الاتّصـال الجنسـى، و يمكن اسـتفادة هـذين الشـرطين من مفهوم الآيـة أيضا، أمّا الأوّل و هو أن يكون العقـد دائميّا فلجملـة فَإِنْ طَلَّقَها الشاهـدة على هـذا المعنى، لأنّ الطّلاق لا يكون إلّا فى العقد الدائمى، و أمّا الوطء فيمكن أن يسـتفاد من جملة حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ لأنّ المسـتعمل فى سيرة أدباء العرب أنّهم حينما يقولون (نكـح فلانا فلانـة) فيمكن أن يراد منه مجرّد العقد، أمّا لو قيل (نكح زوجته) فهـذا يـدلّ على الوطء (لأنّه حسب الفرض أنّها زوجته فعنـد ما يقال (نكـح) فى مورد الزوجـة فلا يعنى سوى العمليّـة الجنسـيّة)[۱۳۴] مضافا إلى أنّ المطلّق ينصـرف إلى الفرد الغـالب و الغالب فى عقـد الزواج هو اقترانه بالوطئ، و مضافا إلى ما تقـدّم فإنّ لهـذا الحكم فلسفة خاصّة لا تتحقّق بمجرّد إجراء العقد كما سنشير إلى ذلك لا حقا.

بحث

المحلّل مانع من تكرّر الطّلاق:

المعمول بين الفقهاء أنّهم يطلقون على الزّوج الثانى فى هذه الموارد قسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۶

(المحلّل) لأنّه يؤدّى إلى أن تكون هـذه المرأة حلال لزوجها السّابق (طبعا بعـد الطّلاق و العـدّة) و الظّاهر أنّ مراد الشارع المقدّس من ذلك هو منع تعدّد الطّلقات.

توضـيح ذلك: كما أنّ الزّواج أمر ضـرورىّ و حياتىّ بالنّسـبة للإنسان، فكـذلك الطّلاق تحت شـرائط خاصّـة يكون ضـروريّا أيضا، و لذلك نجد أنّ الإسـلام (و خلافا للمسيحيّة المحرّفة) يبيح الطّلاق، و لكن بما أنّه يؤدّى إلى تشتيت العائلة و إلى إنزال ضربات موجعة بالفرد و المجتمع، فقد وضعت شروط متنوعة للحيلولة دون وقوع الطّلاق قدر إمكان.

إنّ موضوع الزواج المجدّد أو «المحلّ» واحد من تلك الشـروط، إذ أنّ زواج المرأة من رجل جديد بعد طلاقها من زوجها الأول ثلاثا يعتبر عائقـا كبيرا بوجه اسـتمرار الطلاق أو التمادى فيه. فالـذى يريـد أن يطلّق زوجته الطلاق الثالث، يشـعر أنّه إن فعل ذلك فلن تعود إليه و تكون من نصيب غيره، و هذا الشعور يجرح كرامته، و لذلك فهو لن يقدم على هذا العمل عادة إلّا مضطرّا.

فى الحقيقـة أنّ قضـيـة «المحلّل» أو الأصحّ زواج المرأة برجل آخر زواجا دائميا يعتبر مانعا يقف بوجه الرجال من ذوى الأهواء المتقلّبة و المخـادعين لكى لاـ يجعلوا من النساء ألا عيب بين أيـديهم و غرضا لخدمـة أهوائهم، و أن لا يمارسوا- بلا حـدود- قانون الطلاق و العودة.

إنّ شـروط هـذا الزواج (كأن يكون دائميا) تـدلّ على أنّ هـذا الزواج ليس هـدفه إيجاد وسـيلة لإيصال الزوجة إلى زوجها الأول، لأنه يحتمل أن لا يطلقها الزوج الثانى، لذلك فلا يمكن استقلال هذا القانون و رفع العائق عن طريق زواج مؤقّت.

و مع الالتفات إلى ما ذكر أعلاه يمكن القول أنّ هـدف الزّواج الثانى بعد ثلاث طلقات و السّـماح لكلّ من الزوجين فى تشـكيل حياة زوجيّة جديدة من أجل أن لا يصبح الزّواج هذا الرّباط المقدّس مدعاة للتّغالب وفق أهواء الزوج الأوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۷

و مشـتهياته الشّيطانية، و فى نفس الوقت إذا طلّقها الزوج الثانى فإنّ طريق العودة و الرّجوع سيكون مفتوحا أمامهما فيجوز للزّوج الأوّل نكاحها من جديد، و لذلك اطلق على الزوج الثانى (المحلّل).

و من هنا یتّضح أنّ البحث یخص الزّواج الواقعی الجاد بالنّسبة إلی المحلّل، أمّا إذا قصد شخص منذ البدایة أن یتوسّل بزواج مؤقّت، و اعتبر القضیة مجرّد شکلیّات یحلّها (المحلّل) فإنّ زواجا هذا شأنه لا یؤخذ به و یکون باطلا، کما أنّ المرأة لا تحلّ لزوجها الأوّل، و لعلّ الحدیث المذکور

(لعن اللّه المحلّل و المحلّل له)

[۱۳۵] یشیر إلی هذا النوع من المحلّلین، و هذا الأسلوب من الزّواج الظّاهری و الشکلی.

و ذهب البعض إلی أنّ الزوج الثانی إذا قصد الزّواج الدائمی الجدّی، و لکن کانت نیّته أن یفتح طریق عودة المرأة و رجوعها إلی الزّوج الأوّل، فإن هذا الزّواج یعتبر باطلا أیضا، و ذهب البعض أیضا إلی أنّه فی هذه الحالة یقع الزّواج صحیحا رغم أن نیّته هی إرجاع المرأة إلی زوجها الأوّل، و لکنّه مکروها بشرط أن لا یذکر هذا المعنی کالجزء من شرائط العقد.

و من هنا یتضح أیضا الضجّة المفتعلة للمغرضین الّذین اتّخذوا من (المحلّل) ذریعة لشن حملاتهم الظّالمة علی أحکام الإسلام و مقدّساته، فهذه الضجّة المفتعلة دلیل علی جهلهم و حقدهم علی الإسلام، و إلّا فإنّ هذا الحکم الإلهی بالشّرائط المذکورة عامل علی منع الطّلاق المتکرّر و الحدّ من التصرّفات الهوجاء لبعض الأزواج، و دافع علی إصلاح الوضع العائلی و إصلاح الحیاة الزوجیّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۸

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۳۱]

اشارة

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِکُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِکُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لا تَتَّخِذُوا آیاتِ اللَّهِ هُزُواً وَ اذْکُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَیْکُمْ مِنَ الْکِتابِ وَ الْحِکْمَةِ یَعِظُکُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۲۳۱)

التّفسیر

تستمرّ هذه الآیة فی تبیان الأحکام التی أقرّها الإسلام للطلاق، لکی لا تهمل حقوق المرأة و حرمتها.

تقول الآیة: ما دامت العدّة لم تنته، و حتّی فی آخر یوم من أیامها، فإنّ للرجل أن یصالح زوجته و یعیدها إلیه فی حیاة زوجیة حمیمة:

فَأَمْسِکُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

و إذا لم تتحسّن الظروف بینهما فیطلق سراحها أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

و لکن کلّ رجوع أو تسریح یجب أن یکون فی جوّ من الإحسان و المعروف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۹

و أن لا یخالطه شیء من روح الانتقام. ثمّ تشیر الآیة إلی المفهوم المقابل لذلک و تقول:

وَ لا تُمْسِکُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ

هذه الجملة فی الحقیقة تفسیر لکلمة «معروف» أی أنّ الرجوع یجب أن یکون علی أساس من الصفا و الوئام، و ذلک لأن الجاهلیّین کانوا یتّخذون من الطّلاق و الرجوع وسیلة للانتقام، و لهذا یقول القرآن بلهجة قاطعة: إنّ استرجاع الزوجة یجب أن لا یکون رغبة فی الإیذاء و الاعتداء، إذ أنّ ذلک- فضلا عن کونه ظلما للزوجة- ظلم لنفس الزوج أیضا.

و الآن علینا أن نعرف لماذا یکون ظلم الزوج زوجته ظلما لنفسه أیضا؟

أولا: إنّ الرجوع المبنى على غمط الحقوق لا يمكن أن يمنح الهدوء و الاستقرار.

ثانيا: الرجل و المرأة- بالنظرة القرآنية- جزءان من جسد واحد فى نظام الخلقة فكلّ غمط لحقوق المرأة هو ظلم و عدوان على الرجل نفسه.

ثالثا: إنّ من يستسيغ ظلم الآخرين يكون غرضا لنيل العقاب الإلهى، فيكون بذلك قد ظلم نفسه.

ثمّ يحذّر القرآن الجميع: وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى بعض التقاليد الجاهلية المترسّخة فى أفكار الناس، ففى الرواية أنّ بعض الرجال فى العصر الجاهلى يقولون حين الطّلاق: أنّ هدفنا من الطّلاق هو اللّعب و المزاح، و كذلك الحال عند ما يعتقون عبدا أو يتزّوجون من امرأة.

فنزلت الآية أعلاه لتحذّرهم بأنّ كلّ من يطلّق زوجته أو يعتق عبده أو يتزوّج من امرأة أو يزوّجها من شخص آخر، ثمّ يدّعى أنّه كان يمزح و يلعب فإنّه لا يقبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۰

منه، و يتحقّق ما أقدم عليه فى الواقع العملى بشكل جاد[۱۳۶].

و يحتمل أيضا أنّ الآية ناظرة إلى حال الأشخاص الّذين يستغلّون الأحكام الشرعيّة لتبرير مخالفاتهم و يتمسّكون بالظّواهر من أجل بعض الحيل الشرعيّة، فالقرآن يعتبر هذا العمل نوع من الاستهزاء بآيات اللّه، و من ذلك نفس مسألة الزّواج و الطّلاق و الرّجوع فى زمان العدّة بنيّة الانتقام و إلحاق الضرّر بالمرأة و التّظاهر بأنّه يستفيد من حقّه القانونى.

فعلى هذا لا ينبغى الإغماض عن روح الأحكام الإلهيّة و التمسّك فقط بالظّواهر الجامدة لها، فلا ينبغى اتّخاذ آيات اللّه ملعبة بيد هؤلاء، فإنّه يعتبر ذنب عظيم و يترتّب عليه عقوبة أليمة.

ثمّ تضيف الآية وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

هذه تحذيرات من أجل أن تعلموا: أوّلا: أنّ اللّه تعالى عدّ تلك التصرّفات من خرافات و تقاليد الجاهليّة الشنيعة بالنّسبة إلى الزّواج و الطّلاق و غير ذلك، فأنقذكم منها و أرشدكم إلى أحكام الإسلام الحياتية، فينبغى أن تعرفوا قدر هذه النّعمة العظيمة و تؤدّوا حقّها، و ثانيا: بالنسبة إلى حقوق المرأة ينبغى أن لا تسيئوا إليها بالاستفادة من موقعيّتكم، و يجب أن تعلموا أنّ اللّه تعالى مطّلع حتّى على نيّاتكم ۱۳۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۱

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۲]

اشارة

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۲۳۲)

سبب النّزول

كان أحد أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و هو «معقل بن يسار» يعارض زواج أخته «جملاء» من زوجها الأوّل «عاصم بن عدى» لأنّ عاصما كان قد طلّقها من قبل، و لكن بعد انقضاء العدّة رغب الزوجان بالعودة بعقد نكاح جديد. فنزلت الآية و نهت

الأخ عن معارضة هذا الزواج.

و قيل إنّ الآية نزلت فى معارضة «جابر بن عبد اللّه» زواج ابنة عمّه من زوجها السابق ۱۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۲

و ربّما كان حقّ المنع هذا يعطى فى الجاهليّة للأقربين.

لا شكّ أنّ الأخ و ابن العمّ لا ولاية لهما- فى فقهنا- على الاخت و ابنة العم. إلّا أنّ هذه الآية تتحدّث عن حكم عام- كما سنرى- يشمل الأولياء و غير الأولياء، و تقول أنّه حتّى الأب و الأم و ابن العم، و كذلك الغرباء لا حقّ لهم فى الوقوف بوجه هذا الزواج.

التّفسير

ذكرنا فى البحوث السابقة كيف كانت النسوة يعشن فى أسر العادات الجاهلية، و كيف كن تحت سيطرة الرجال دون أن يعنى أحد برغبتهنّ و رأيهنّ.

و إختيار الزوج كان واحدا من قيود ذلك الأسر، إذ أنّ رغبة المرأة و إرادتها لم يكن لها أىّ تأثير فى الأمر، فحتّى من كانت تتزوج زواجا رسميا ثمّ تطلّق لم يكن لها حقّ الرجوع ثانية بمحض إرادتها، بل كان ذلك منوطا برغبة وليّها أو أوليائها، و كانت ثمّة حالات يرغب فيها الزوجان بالعودة إلى الحياة الزوجيّة بينهما، و لكن أولياء المرأة كانوا يحولون دون ذلك تبعا لمصالحهم أو لتخيّلاتهم و أوهامهم.

إلّا أنّ القرآن أدان هذه العادة، و رفض أن يكون للأولياء مثل هذا الحقّ، إذ أنّ الزوجين- و هما ركنا الزواج الأصليان، إذا توصّلا إلى اتفاق بالعودة بعد الانفصال- يستطيعان ذلك دون أن يكون لأحد حقّ الاعتراض عليهما. تقول الآية وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ هذا إذا كان المخاطب فى هذه الآية هم الأولياء من الرجال الأقارب، و لكن يحتمل أن يكون المخاطب هو الزوج الأوّل. بمعنى أنكم إذا طلقتم زوجاتكم فلا تمنعوهن من الزواج المجدّد مع رجال آخرين، حيث إن بعض الأشخاص المعاندين فى السابق و فى الحال الحاضر يشعرون بحساسية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۳

شديدة تجاه زواج زوجاتهم السابقة من آخرين، و ما ذلك سوى نزعة جاهلية فحسب ۱۳۹].

فى الآية السابقة «بلوغ الأجل» يعنى بلوغ أواخر أيام العدّة، و لكن فى هذه الآية المقصود هو انقضاء آخر يوم من العدّة، بقرينة الزواج المجدّد. فالغاية فى الآية السابقة جزء من المغيا و فى الآية محل البحث خارجة عن المغيا.

و يتبين من هذه الآية أنّ الثيبات- أى اللّواتى سبق لهنّ الزواج ثمّ طلّقن أو مات أزواجهنّ- إذا شئن الزّواج ثانية فلا يلزمهنّ موافقة أوليائهنّ أبدا.

ثمّ تضيف الآية و تحذّر ثانية و تقول: ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ثمّ من أجل التأكيد أكثر تقول: ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

يشير هذا المقطع من الآية إلى أنّ هذه الأحكام قد شرّعت لمصلحتكم غاية الأمر أنّ الأشخاص الّذين ينتفعون بها هم الّذين لهم أساس عقائدى من الإيمان باللّه و المعاد و لا يتبعون أهوائهم.

و بعبارة اخرى أنّ هذه الجملة تقول: أنّ نتيجة العلم بهذه الأحكام يصبّ فى مصلحتكم، لكنّكم قد لا تدركون الحكمة و الغاية منها لجهلكم و قلّة معارفكم، و اللّه هو العالم بكلّ الأسرار، و لذلك قرّر هذه الأحكام و شرّعها لما فيها من تزكيتكم و حفظ طهارتكم.

و الجدير بالذّكر أنّ الآية تشير إلى أنّ العمل بهذه الأحكام يستوجب:

(التزكية) و (الطهارة) فتقول أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ يعنى أنّ العمل بها يطهّر أفراد العائلة من مختلف الأدناس و الخبائث، و كذلك

یوجب لهم الخیر و البرکة و التکامل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۴

المعنوی، لأنّ «التّزکیة» فی الأصل (الزّکاة) بمعنی النمو.

و ذکر بعض المفسّرین إنّ جملة أَزْکی لَکُمْ تشیر إلی الثواب المترتّب علی الأعمال، و جملة (أطهر) تشیر إلی الطّهارة و النّقاء من الذّنوب. و من البدیهی أنّ الزّوجین بالرّغم من کلّ تلک العلاقة الوطیدة و الحمیمة التی تربط بینهما قد ینفصلا بسبب بعض الحوادث المؤسفة، و لکن بعد الانفصال و الفرقة و مشاهدة الآثار الوخیمة المترتّبة علی هذه الفرقة یندمان و یصمّمان علی العودة إلی الحیاة المشترکة، و هنا لا ینبغی التشدّد و التعصّب لمنع عودتهما لأنّ ذلک یخلّد آثارا سلبیّة و خیمة فی روحیّة کلّ منهما، و قد یؤدّی إلی انحرافهما و تلوّثهما بالرّذیلة، و إن کان لهما أبناء کما هو الغالب فإنّ مصیرهم سوف یکون تعیسا جدّا، و مسئولیّة هذه العواقب الألیمة و الإفرازات المشؤومة تکون بعهدة من یمنع هذین الزّوجین من المصالحة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۵

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۳۳]

اشارة

وَ الْوالِداتُ یُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَیْنِ کامِلَیْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ یُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَ عَلَی الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ کِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُکَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَها لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَی الْوارِثِ مِثْلُ ذلِکَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَیْهِما وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَکُمْ فَلا جُناحَ عَلَیْکُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَیْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۲۳۳)

التّفسیر

أحکام الرّضاع السّبعة:

هذه الآیة فی الواقع استمرار للأبحاث المتعلّقة بمسائل الزّواج و الحیاة الزّوجیّة، و تبحث مسألة مهمّة هی مسألة (الرّضاع)، و تذکر بعبارات مقتضبة و فی نفس الوقت ذات معنی عمیق الجزئیات المتعلّقة بالرّضاع المختلفة، فهناک علی العموم سبعة أحکام فی هذا الباب:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۶

۱- تقول الآیة فی أوّلها وَ الْوالِداتُ یُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَیْنِ کامِلَیْنِ

(والدات) جمع (والدة) و هی فی اللّغة بمعنی الام، و لکنّ کلمة الام لها معنی أوسع و هی قد تطلق علی الوالدة و علی الجدّة أی والدة الوالدة، و قد تعنی أصل الشیء و أساسه.

و فی هذا المقطع من الآیة نلاحظ أنّ حقّ الإرضاع خلال سنتی الرضاعة یعود للام، فهی التی لها أن ترضع مولودها خلال هذه المدّة و أن تعتنی به، و علی الرغم من أنّ (الولایة) علی الأطفال الصغار قد أعطیت للأب، و لکن لمّا کانت تغذیة الولید الجسمیة و الروحیة خلال هذه المدّة ترتبط ارتباطا لا ینفصم بلبن الأم و عواطفها، فقد أعطیت حقّ الاحتفاظ به، کما تجب مراعاة عواطف الأمومة، لأنّ الأم لا تستطیع فی هذه اللحظات الحسّاسة أن تری حضنها خالیا من ولیدها و أن لا تبالی به، و علیه فإنّ تخصیصها بحقّ الحضانة و

الرعايـة و الرضاعـة يعتبر حقـا ذا جـانبين، فهو يرعى حـال الطفـل كمـا يرعى حـال الأم، و التعبير ب «أولادهن» إشارة لطيفـة إلى هـذا المعنى. و بالرغم من أن الجملة مطلقة ظاهرا و تشـمل النساء المطلقات و غير المطلقات، و لكن الجملة اللاحقة توضح أن الآية تقصـد النساء المطلقات مع وجود هذا الحقّ لسائر الأمهات، و لكن فى صورة عدم وجود الطلاق فلا أثر عملى لهذا الحكم.

٢- ليس من الضرورى أن تكون مدّة رضاعة الطفل سنتين حتما، إنّما السنتان لمن يريد أن يقضى دورة رضاعة كاملة لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ و لكن للأم أن تقلل من هذه الفترة حسب مقتضيات صحّة الطفل و سلامته.

فى الروايـات الـتى وصـلتنا من أهـل البيت عليهم السّـلام أنّ دورة رضاعـة الطفـل الكاملـة سـنتان كاملتـان، و دورتهـا غير الكاملـة ٢١ شهرا[١۴٠]، و لعلّ هذا يأخذ أيضا بنظر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ١٧٧

الاعتبار مفاد هـذه الآية مع الآية (١۵) من سورة الأحقـاف التى تقول وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَـهْراً. و لمّا كانت فترة الحمل ٩ أشهر، فتكون فترة الرضاعة الاعتيادية ٢١ شهرا.

و لمّـا لم يكن فى آيـة سورة الأحقاف ما يفيـد الإلزام و الوجوب، فإنّ للوالـدات الحقّ فى تخفيض فترة ال ٢١ شـهرا بما يتّفق و صحّة الوليد و سلامته.

٣- نفقـة الأم فى الطعام و اللباس، حتّى عنـد الطلاق أثناء فترة الرضاعـة تكون على والـد الطفل، لكى تتمكن الأم من الانصـراف إلى العناية بطفلها و إرضاعه مرتاحة البال و بدون قلق.

وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

هنا تعبير «المولود له» بدلا من «الأب» يسـتلفت الانتباه، و لعلّه جاء لاستثارة عواطف الأبوة فيه فى سبيل حثّه على أداء واجبه. أى أنّه إذا كان قد وضع على عاتقه الإنفاق على الوليد و أمه خلال هذه الفترة، فذلك لأنّ الطفل ابنه و ثمرة فؤاده، و ليس غريبا عنه.

إنّ الإتيـان بقيـد «المعروف» يشير إلى أنّ طعـام الأم و لباسـها ينبغى أن يكونـا من اللائق بهـا و المتعارف عليه، فلا يجوز التقتير و لا الإسراف.

و لرفع كلّ غموض محتمل تشير الآيـة إلى أنّ على كلّ أب أن يؤدّى واجبه على قـدر طاقته لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها. و يرى البعض أن هذه الجملة بمثابة العلّة لأصل الحكم. و البعض الآخر بعنوان تفسير الحكم السابق (و النتيجة واحدة).

۴- لا يحقّ لأىّ من الوالـدين أن يجعلا من مسـتقبل وليـدهما و مصيره أمرا مرتبطا بما قـد يكون بينهما من اختلافات، فيكون من أثر ذلك أن تصاب نفسية الوليد بضربة لا يمكن تفادى آثارها.

لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ

على الأب أن يحذر انتزاع الوليد من أحضان أمه خلال فترة الرضاعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ١٧٨

فيعتدى بذلك على حقّ الأم فى حضانة وليدها. كما أنّ على الأم التى أعطيت هذا الحقّ أن لا تسـتغله و أن لا تتذرّع بمختلف الأعذار الموهومة للتنصّل من إرضاع وليدها، أو أن تحرم الأب من رؤية طفله.

و ذكر احتمال آخر فى تفسير الآيـة و هو أنّ المراد أنّ الأب ليس له أن يسـلب الزّوجـة حقّها فى المقاربة الجنسيّة بسـبب الخوف من الحمل و فى النتيجة الإضـرار بالمرضع، و لا الام بإمكانها منع زوجها من هذا الحقّ لهذا السـبب، و لكنّ التفسير الأوّل أكثر انسجاما مع ظاهر الآية[١۴١].

التعبير ب (ولـدها) و (ولـده) من أجل تشويق الآباء و الأمّهات برعاية حال الأطفال الرّضع، مضافا إلى أنّه إشارة إلى أنّ الرّضـيع متعلّق لكليهما خلافا لما هو المرسوم من تقاليد الجاهليّة من أنّ الولد متعلّق بالأب خاصّة و ليس للام سهم من الحقّ فيه.

۵- ثمّ تبیّن الآیة حکما آخر یتعلّق بما بعد وفاة الأب فتقول: وَ عَلَی الْوارِثِ مِثْلُ ذلِکَ

یعنی أنّ الورثة یجب علیهم تأمین احتیاجات الام فی مرحلة الرّضاعة للطفل، و هناک احتمالات اخری فی تفسیر الآیة الشریفة و لکنّها ضعیفة.

۶- و تتحـدّث الآیة أیضا عن مسألة فطام الطّفل عن الرّضاعة و تجعله بعهدة کلّ من الأبوین علی الرّغم ممّا جاء فی الآیات السابقة من تحدید فترة الرّضاعة، إلّا أنّ للأبوین أن یفطما الطّفل وقت ما یشاءان حسب ما تقتضیـه صـحّة الطّفل و سـلامته الجسمیّة، و تقول الآیة: فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَیْهِما.

و فی الواقع أنّ الأب و الام یجب أن یراعیا مصالح الطّفل و یتشاوران فی ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۹

للوصول إلی التّوافق و التّراضی، فیضعان برنامج مدروس لفطام الطّفل من الرّضاع دون أن یحدث لهما مشاجرة فی هذه المسألة و التی قد تؤدّی إلی ضیاع حقوق الطّفل.

۷- أحیانا تمتنع الام من حضانـة الطّفل و حقّها فی إرضاعه و رعایته أو أنّه یوجـد هناک مانع حقیقی لـذلک، ففی هذه الصّورة یجب التفکیر فی حلّ هذه المسألة و لهذا تقول الآیة وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَکُمْ فَلا جُناحَ عَلَیْکُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَیْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ

و هناک عدّة تفاسیر لجملة إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَیْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ فذهب بعض المفسّرین.

و أنّه لا مانع من اختیار مرضعة بدل الام بعد توافق الطرفین بشرط أنّ هذا الأمر لا یسبّب إهدار حقوق الام بالنسبة إلی المدّة الفائتة من الرّضاعة، بل یجب إعطاءها حقّها فی المدّة الفائتة التی أرضعت فیها الطّفل حسب ما تقتضیه الأعراف و العادات.

و ذهب بعض المفسّـرین إلی أنّ العبـارة نـاظرة إلی حقّ المرضـعة، فیجب أداء حقّها وفقا لمقتضـیات العرف و العادة، و ذهب آخرون إلی أنّ المراد من هـذه الجملـة هو اتّفاق الأب و الأم فی مسألـة انتخاب المرضـعة فعلی هـذا تکون تأکیـدا للجملة السابقة، و لکنّ هذا التفسیر ضعیف ظاهرا، و الصحیح هو التفسیر الأوّل و الثانی، و قد اختار المرحوم (الطبرسی) التفسیر الأوّل ۱۴۲].

و فی الختام تحذّر الآیة الجمیع و تقول وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ.

فلا_ ینبغی للاختلافات التی تحصل بین الزّوجین أن تؤدّی إلی إیقاد روح الانتقام فیهما حیث یعرّض مسـتقبلهما و مسـتقبل الطّفل إلی الخطر، فلا بدّ أن یعلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۰

الجمیع بأنّ اللّه تعالی یراقب أعمالهم بدقّة.

هـذه الأحکام المدروسـة بدقّـة و المشـفوعة بالتّحذیرات تبیّن بوضوح درجة اهتمام الإسـلام بحقوق الأطفال و کذلک الامّهات حیث یدعو إلی رعایة الحدّ الأکثر من العدالة فی هذا المجال.

أجل، فإنّ الإسـلام- و علی خلاف ما هو السائد فی العالم المادی المعاصر حیث تسحق فیه حقوق الطبقة الضعیفة- یهتم غایة الاهتمام بحفظ حقوقهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۱

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۳۴ الی ۲۳۵]

اشارة

وَ الَّذِینَ یُتَوَفَّوْنَ مِنْکُمْ وَ یَذَرُونَ أَزْواجاً یَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِـهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْـهُرٍ وَ عَشْـراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَیْکُمْ فِیما فَعَلْنَ فِی أَنْفُسِهِنَّ

بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۳۴) وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لٰكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۲۳۵)

التّفسير

خرافات تبعث على تعاسة المرأة:

إنّ واحدة من المشاكل الرئيسية فى حياة المرأة هى الزواج بعد موت زوجها.

و لمّا كان بناء الأرملة بزوج جديد بعد موت زوجها السابق مباشرة لا ينسجم مع ما تكنّه من حبّ و احترام لزوجها المتوفى، و لا مع الاطمئنان إلى عدم وجود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۲

حمل فى رحمها منه، و قد يؤدّى إلى جرح مشاعر أهل زوجها الأول، فقد جاءت الآية تشترط للزواج الجديد أن يمرّ على موت زوجها السابق أربعة أشهر و عشرة أيّام.

إنّ احترام الحياة الزوجية بعد موت أحد الزوجين أمر فطرى، بحيث نجد فى مختلف القبائل تقاليدا و طقوسا خاصّة بهذا الموضوع على الرغم من أنّ بعض هذه العادات كانت تبلغ حدّ الإفراط الذى يقيّد المرأة بقيود ثقيلة تبلغ حدّ القضاء على حياتها احتراما لذكرى زوجها الراحل. كقيام بعض القبائل بحرق المرأة بعد موت زوجها، أو بدفنها حيّة معه فى قبره. و بعض آخر كانوا يحرمون المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياة، و فى بعض القبائل كان على المرأة أن تقضى بعض الوقت بجانب قبر زوجها تحت خيمة سوداء قذرة و فى ملابس رثّة بعيدة عن كلّ نظافة أو زينة أو اغتسال ۱۴۳].

إلّا أنّ الآية المذكورة تلغى كلّ هذه الخرافات، و لكنّها تحافظ على احترام الحياة الزوجيّة بإقرار العدّة.

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ

و بما أنّ أولياء و أقرباء المرأة يتدخّلون أحيانا فى أمرها أو يأخذون بمصالحهم بنظر الإعتبار فى زواجها المجدّد تقول الآية فى ختامها: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ و سيجازى كلّ شخص بما عمله من أعمال سيئة أو حسنة.

و جملة فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ و التى تشير إلى أنّ المخاطب فيها هم الرّجال من أقرباء المرأة تدلّ على أنّهم كانوا يرون فى تحرّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۳

المرأة بعد وفاة زوجها عيبا و إثما، و يعتقدون بأنّ التضييق عليها و التشدّد فى أمرها من واجباتهم، فهذه الآية تأمر بصراحة بترك هذه الامرأة حرّة فى اختيارها و لا إثم عليكم من ذلك (و يستفاد ضمنا من هذه العبارة سقوط ولاية الأب و الجد أيضا عليها) و لكن فى نفس الوقت تتضمّن الآية تحذيرا للمرأة بأنّه لا ينبغى أن تسىء الاستفادة من هذه الحريّة، بل تتقدّم إلى اختيار الزوج الجديد بخطّوات مدروسة و أسلوب لائق (بالمعروف).

و حسب ما وصلنا من أئمّة المسلمين فإنّ على الأرامل فى هذه الفترة أن يحافظن على مظاهر الحزن، أى ليس لهنّ أن يتزينّ مطلقا، بل ينبغى التجرّد من كلّ زينة، و لا شكّ أنّ فلسفة المحافظة على هذه العدّة توجب ذلك أيضا.

لقد حرّر الإسلام المرأة من الخرافات الجاهليّة و اقتصر على هذه العدّة القصيرة بحيث ظنّ بعضهم أنّ لها أن تتزوّج حتّى خلال هذه الفترة، و من ذلک أنّ امرأة قدمت على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم تستجيزه أن تكتحل و هى فى العدّة فنهاها رسول اللّه و ذكّرها بما كان يفرض على المرأة فى الجاهليّة خلال سنة كاملة بعد الوفاة من حداد شديد و إرهاق فظيع مشيرا إلى سماحة الإسلام فى هذا الأمر[۱۴۴] و إنّه ممّا يلفت النّظر أنّ الأحكام الإسلاميّة بشأن العدّة تأمر المرأة بالتزام العدّة حتّى و إن لم يكن هناك أىّ احتمال بأن تكون حاملا، حيث إنّ عدّتها لا تبدأ بتاريخ موت زوجها، بل بتاريخ وصول خبر موت زوجها إليها و إن يكن بعد شهور، و هذا يدلّ دلالة قاطعة على أنّ الهدف من هذا التشريع هو الحفاظ على احترام الحياة الزوجيّة و حرمتها إضافه إلى ما لهذا التشريع من أهميّة بالنّسبة لاحتمال حمل المرأة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۴

الآية الثانية تشير إلى أحد الأحكام المهمّة للنّساء فى العدّة (بمناسبة البحث عن عدّة الوفاة فى الآيات السّابقة) فتقول: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً.

فهذه الآية تبيح للرّجال أن يخطبوا النّساء اللّواتى فى عدّة الوفاة بالكناية أو الإضمار فى النّفس أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ و هذا الحكم فى الواقع من أجل الحفاظ على حريم الزّواج السّابق من جهة، و كذلک لا يحرم الأرملة من حقّها فى تعيين مصيرها من جهة اخرى، فهذا الحكم يراعى العدالة و كذلک حفظ احترام الطّرفين.

و من الطّبيعى أن تفكّر المرأة فى مصيرها بعد وفاة زوجها، و كذلک يفكّر بعض الرّجال بالزّواج بهنّ للشروط اليسيرة السهلة فى الزّواج بالأرامل، و لكن من جهة لا بدّ من حفظ حريم دائرة الزّوجيّة السّابقة كما ورد من الحكم آنفا يدلّ بوضوح على رعاية كلّ هذه المسائل المذكورة، و نفهم من عبارة وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا أنّه مضافا إلى النهى عن الخطبة العلنيّة فإنّه لا يجوز كذلک أن تصارحوهنّ بالخطبة سرّا أيضا إلّا إذا كان الكلام بهذا الشأن يتّفق مع الآداب الاجتماعيّة فى موضوع موت الزّوج، أى أن يكون الكلام بالكناية و بشكل مبطّن.

و عبارة (عرّضتم) من مادّة (التّعريض) و التى تعنى كما يقول الرّاغب فى المفردات: الحديث الّذى يحتمل معنيين الصدق و الكذب أو الظّاهر و الباطن.

و على قول المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان أنّ التّعريض ضد التصريح، و هو فى الأصل من مادّة (عرض) الذى هو بمعنى جانب الشيء[۱۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۵

و يضرب أئمة الإسلام فى تفسير هذه الآية بشأن الخطبة الخفيّة أو القول المعروف كما يقول القرآن أمثلة عديدة، من ذلک ما ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام قال (يلقاها فيقول إنّى فيک راغب و إنّى للنّساء لمكرم فلا تسبقينى بنفسک)[۱۴۶].

و قد ورد هذا المضمون أو ما يماثله فى كلام كثير من الفقهاء و الجدير بالذّكر أنّ الآية أعلاه على الرّغم من أنّها وردت بعد الآية التى تذكر عدّة الوفاة، و لكنّ الفقهاء صرّحوا بأنّ الحكم أعلاه لا يختصّ بعدّة الوفاة بل يشمل غيرها أيضا.

يقول المرحوم الفقيه و المحدّث المعروف صاحب الحدائق: (و قد صرّح الأصحاب بأنّه لا يجوز التعريض بالخطبة لذات العدّة الرجعيّة لأنّها زوجة، فيجوز للمطلّقة ثلاثا من الزوج و غيره، و لا يجوز التصريح لها منه و لا من غيره، أمّا المطلّقة تسعا للعدّة ينكحها بينها رجلان فلا يجوز التعريض لها من الزوج و يجوز من غيره، و لا يجوز التصريح فى العدّة منه و لا من غيره.

أمّا العدّة البائنة فيجوز التعريض من الزوج و غيره و التصريح من الزوج دون غيره)[۱۴۷].

و إذا أردتم التفصيل راجعوا الكتب الفقهية بالأخص كتاب الحدائق فى استمرار هذا البحث.

ثمّ تضيف الآية وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ فمن المسلّم أنّ الشخص إذا عقد على المرأة فى عدّتها يقع العقد

باطلا، بل أنّه إذا أقدم على هذا العمل عالما بالحرمة فإنّ هذه المرأة ستحرم عليها أبدا.

و بعد ذلک تعقّب الآیة: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ ما فِی أَنْفُسِکُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِیمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۶

و بهذا لا بدّ أن تعلموا أنّ اللّه تعالى مطّلع على أعمالکم و نیّاتکم و فی نفس الوقت لا یؤاخذ المذنبین بسرعة.

جملة لا تَعْزِمُوا من مادّة (عزم) بمعنى قصد، فعند ما تقول الآیة وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّکاحِ فهو فی الواقع نهی مؤکّد عن الإقدام العملی على عقد الزّواج و یعنی التّحذیر حتّى من نیّة و قصد هذا العمل فی زمان العدّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۷

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۳۶ الى ۲۳۷]

اشارة

لا جُناحَ عَلَیْکُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِیضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِینَ (۲۳۶) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِیضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ یَعْفُونَ أَوْ یَعْفُوَا الَّذِی بِیَدِهِ عُقْدَةُ النِّکاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَیْنَکُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۲۳۷)

التّفسیر

کیفیّة أداء المهر:

فی هاتین الآیتین نلاحظ أحکام أخرى للطّلاق استمرارا للأبحاث السّابقة.

تقول الآیة فی البدایة لا جُناحَ عَلَیْکُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَ ۱۴۸] أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِیضَةً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۸

و هذا یعنی جواز طلاق النساء قبل المقاربة الجنسیّة و قبل تعیین المهر، و هذا فی صورة ما إذا علم الرّجل أو کلا الزّوجین بعد العقد و قبل المواقعة أنّهما لا یستطیعان استمرار الحیاة الزّوجیّة هذه، فمن الأفضل أن یتفارقا فی هذا الوقت بالذّات، لأنّ الطّلاق فی المراحل اللّاحقة سیکون أصعب.

و على کلّ حال فهذا التعبیر فی الآیة جواب على من یتصوّر أنّ الطّلاق قبل المواقعة أو قبل تعیین المهر لا یقع صحیحا، فالقرآن یقول أنّ هذا الطّلاق صحیح و لا إثم علیه (و قد یمنع من کثیر من المفاسد).

و ذهب البعض أن (جناح) فی هذه الآیة بمعنى (المهر) الّذی یثقل على الزّوج، یعنی أنّ الرّجل حین الطّلاق و قبل المقاربة الزوجیّة و تعیین المهر لیس مکلّفا بدفع أی شیء بعنوان المهر إلى المرأة، و بالرّغم من أنّ بعض المفسّرین ۱۴۹] أورد کلاما طویلا حول هذا التفسیر، و لکن استعمال کلمة «جناح» بمعنى المهر یعتبر غریبا و غیر مأنوس.

و احتمل آخرون أنّ معنى الجملة أعلاه هو جواز طلاق المرأة قبل المقاربة الجنسیّة فی جمیع الأحوال (سواء کانت فی العادة الشهریّة أو لم تکن) و الحال أنّ الطّلاق بعد المواقعة الجنسیّة یجب أن یکون فی الزّمان الطّهر الّذی لم یواقعها فیه حتما[۱۵۰]، و لکن هذا التفسیر بعید جدّا لأنّه لا ینسجم مع جملة أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِیضَةً.

ثمّ تبیّن الآیة حکما آخرا فی هذا المجال و تقول: وَ مَتِّعُوهُنَ أی یجب أن تمنح المرأة هدیّة تناسب شؤونها فیما لو جرى الطّلاق قبل

المضاجعة و قبل تعيين المهر، و لكن يجب أن يؤخذ بنظر الإعتبار قدرة الزّوج الماليّة فى هذه الهديّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۹

و لذلك تعقّب الآية الشريفة بالقول عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ

(الموسع) بمعنى المقتدر و الثّرى و (المقتر) بمعنى الفقير (من مادّة قتر و كذلك وردت بمعنى البخل أيضا) كقوله تعالى وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً[۱۵۱].

و جملة مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ يمكن أن تشير إلى جميع ما ذكرناه، أى أنّ الهديّة لا بدّ أن تكون بشكل لائق و بعيدة عن الإسراف و البخل. و مناسبة لحال المهدى و المهدى إليه.

و لمّا كان لهذه الهديّة أثر كبير للقضاء على روح الانتقام و فى الحيلولة دون إصابة المرأة بعقد نفسيّة بسبب فسخ عقد الزّواج، فإنّ الآية تعتبر هذا العمل من باب الإحسان حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ۱۵۲] أى أن يكون ممزوجا بروح الإحسان و اللّطف، و لا حاجة إلى القول بأنّ تعبير (المحسنين) لم يأت ليشير إلى أنّ الحكم المذكور ليس إلزاميّا، بل جاء لإثارة المشاعر و العواطف الخيّرة فى الناس للقيام بهذا الواجب الإلزامى.

الملاحظة الاخرى فى هذه الآية هى أنّ القرآن يعبّر عن الهدية الّتى يجب أن يعطيها الرجل للمرأة باسم (متاع) فالمتاع فى اللّغة هو كلّ ما يستمتع به المرء و ينتفع به، و يطلق غالبا على غير النقود، لأنّ الأموال لا يمكن التمتّع بها مباشرة، بل لا بدّ أوّلا من تبديلها إلى متاع، و لهذا كان تعبير القرآن عن الهديّة بالمتاع.

و لهذا العمل أثر نفسى خاص، فكثيرا ما يحدث أن تكون الهدية من المأكل أو الملبس و نظائرهما مهما كانت زهيدة الثمن أثر بالغ فى نفوس المهدى إليهم لا يبلغه أبدا أثر الهديّة النقديّة، لذلك نجد أنّ الروايات الواصلة إلينا عن أئمّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۰

الأطهار عليهم السّلام تذكر هذه الهدايا بصورة مأكل أو ملبس أو أرض زراعيّة.

كذلك يتّضح من هذه الآية أنّ تعيين المهر قبل إجراء العقد فى النكاح الدائم ليس ضروريّا إذ يمكن للطرفين أن يتّفقا على ذلك بعد[۱۵۳] إذ كما تفيد الآية أيضا أنّه إذا حصل الطّلاق قبل تعيين المهر و قبل المضاجعة فلا يجب المهر، بل يستعاض عنه بالهديّة المذكورة.

و يجب الالتفات إلى أنّ الزّمان و المكان مؤثّران فى مقدار الهديّة المناسبة.

و تتحدّث الآية التالية عن حالة الطّلاق الّذى لم يسبقه المضاجعة و لكن بعد تعيين المهر فتبيّن أنّ الحكم فى هذا اللّون من الطّلاق الّذى يكون قبل المضاجعة و بعد تعيين المهر يوجب على الزّوج دفع نصف المهر المعيّن وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ

و هذا هو حكم القانونى لهذه المسألة، فيجب دفع نصف المهر إلى المرأة بدون أيّة نقيصة، و لكن الآية تتناول الجوانب الأخلاقيّة و العاطفيّة و تقول: إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ

و المراد من ضمير (يعفون) هم الأزواج، أمّا فى قوله أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ هو ولىّ الصغير أو السفيه، و من الواضح أنّ الولىّ ليس له الحقّ من أن يعفو أو يتنازل عن حقّ الصغير إلّا إذا تضمّن مصلحة الصغير.

فعلى هذا يكون حكم دفع نصف المهر بغض النظر عن مسألة العفو و التنازل عن الحقّ، و ممّا تقدّم يتّضح أن من له العفو هو الولى للصّغير أو السفيه لأنّه هو الّذى بيده أمر زواج المولّى عليه، و لكن بعض المفسّرين تصوّروا أنّ المراد هو الزّوج، بمعنى أنّ الزوج متى ما دفع تمام المهر قبلا (كما هو المتعارف عند الكثير من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۱

العرب) فله الحقّ فی أن یسترجع نصف المهر إلّا أن یعفو و یتنازل عنه.

أمّا مع الملاحظة الدقیقة فی مضمون الآیة یتبیّن أنّ التفسیر الأوّل هو الصحیح، و أنّ المخاطب فی هذه الآیة هم الأزواج حیث تقول: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَ فی حین أنّ الضمیر فی جملة أَوْ یَعْفُوَا الَّذِی بِیَدِهِ عُقْدَةُ النِّکاحِ جاء حکایة عن الغائب و لا یتناسب ذلک مع عوده إلی الأزواج.

أجل، فإنّ الآیة فی الجملة التالیة تقول وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوی وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَیْنَکُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ.

فمن الواضح أنّ المخاطب فی هذه الجملة هم الأزواج، فتکون النتیجة أنّ الحدیث فی الجملة السّابقة کان عن عفو الأولیاء، و فی هذه الجملة تتحدّث الآیة عن عفو الأزواج، و جملة وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَیْنَکُمْ خطاب لعموم المسلمین أن لا ینسوا المثل الإنسانیة فی العفو و الصفح و الإیثار فی جمیع الموارد.

و هذا ما ورد فی الروایات الّتی وصلتنا من الأئمّة المعصومین علیهم السّلام فی تفسیر هذه الآیة، و کذلک نری أنّ المفسّرین الشّیعة قد اختاروا هذا الرّأی بالتّوجه إلی مضمون الآیة و الرّوایات الشریفة، فذهبوا إلی أنّ المقصود فی هذه العبارة هم أولیاء الزّوجة.

و من الطبیعی أن تطرأ ظروف تجعل الاضطرار إلی أخذ نصف المهر حتّی قبل الدّخول أمرا قد یثیر مشاعر الرّجل و أقرباءه و یجرح عواطفهم و قد ینزعون إلی الانتقام، و یحتمل أن تتعرّض سمعة المرأة و کرامتها إلی الخطر، فهنا قد یری الأب أنّ من مصلحة ابنته أن یتنازل عن حقّها.

جملة وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوی تبیّن جانبا آخر من واجبات الزّوج الإنسانیّة، و هو أن یظهر الزّوج التنازل و الکرم فلا یسترجع شیئا من المهر إن کان قد دفعه، و إن لم یکن دفعه بعد فمن الأفضل دفعه کاملا متنازلا عن النصف الّذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۲

هو من حقّه، و ذلک لأنّ المرأة الّتی تنفصل عن زوجها بعد العقد تواجه صدمة نفسیّة شدیدة، و لا شکّ أنّ تنازل الرجل عن حقّه من المهر لها یکون بمثابة البلسم لجرحها.

و نلاحظ تأکیدا فی سیاق الآیة الشریفة علی أصل (المعروف) و (الإحسان) فحتّی بالنّسبة إلی الطّلاق و الانفصال لا ینبغی أن یکون مقترنا بروح الانتقام و العداوة، بل ینبغی أن یتم علی أساس السماحة و الإحسان بین الرّجل و المرأة، لأنّ الزوجین إذا لم یتمکّنا من العیش سویّة و فضّلا الإفتراق بدلائل مختلفة، فلا دلیل حینئذ لوجود العداوة و البغضاء بینهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۳

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۳۸ الی ۲۳۹]

اشارة

حافِظُوا عَلَی الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطی وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِینَ (۲۳۸) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُکْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْکُرُوا اللَّهَ کَما عَلَّمَکُمْ ما لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ (۲۳۹)

سبب النّزول

تذرّع جمع من المنافقین بحرارة الجو لإلقاء التفرقة فی صفوف المسلمین، فلم یکونوا یشترکون فی صلاة الجماعة، فتبعهم آخرون و أخذوا یتخلّفون عن صلاة الجماعة، فقلّ بذلک عدة المصلّین، فتألّم النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لذلک کثیرا حتّی أنّه هدّدهم بعقاب ألیم، و

فی حدیث عن زید بن ثابت قال: إنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یؤدّی صلاة الظهر جماعة و الحرّ علی أشدّه ممّا کان یثقل علی أصحابه کثیرا بحیث أنّ صلاة الجماعة أحیانا لم تتجاوز صفا واحدا أو صفّین، فهنا هدّد النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم هؤلاء المنافقین و من لم یشترک صلاة الجماعة بإحراق منازلهم، فنزلت الآیة أعلاه و بیّنت أهمیّة صلاة الظهر جماعة بصورة مؤکّدة[۱۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۴

و هذا التأکید یدلّ علی أنّ مسألة عدم المشارکة فی صلاة الجماعة لم تکن بسبب حرارة الجو فقط، بل أنّ جماعة أرادوا تضعیف الإسلام بهذه الذّریعة و إیجاد الفرقة فی صفوف المسلمین بحیث دعی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی أن یتّخذ مثل ذلک الموقف الحازم من هؤلاء.

التّفسیر

أهمیّة الصّلاة و خاصّة الوسطی:

بما أن الصلاة أفضل وسیلة مؤثرة تربط بین الإنسان و خالقه، و إذا أقیمت علی وجهها الصحیح ملأت القلب بحبّ اللّه و استطاع الإنسان بتأثیر أنوارها أن یتجنّب الذنوب و التلوّث بالمعصیة، لذلک ورد التأکید فی آیات القرآن الکریم علیها، و من ذلک ما ورد فی الآیة محل البحث حیث تقول: حافِظُوا عَلَی الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطی وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِینَ

فلا ینبغی للمسلمین أن یترکوا هذا الأمر المهم بحجّة البرد و الحرّ و مشکلات الحیاة و دوافع الزوجة و الأولاد و الأموال.

أمّا ما هو المراد بقوله الصَّلاةِ الْوُسْطی ذکر المفسّرون معان مختلفة للمراد من الصلاة الوسطی، و ذکر صاحب تفسیر مجمع البیان ستّة أقوال، و الفخر الرّازی ذکر فی تفسیره سبعة أقوال، و بلغ بها القرطبی فی تفسیره إلی عشرة أقوال، أمّا تفسیر روح المعانی فذکر لها ثلاثة عشر قولا.

فالبعض یری أنّها صلاة الظهر، و آخر صلاة العصر، و بعض صلاة المغرب، و بعض صلاة العشاء، و بعض صلاة الصبح، و بعض صلاة الجمعة، و بعض صلاة اللّیل أو خصوص صلاة الوتر، و ذکروا لکلّ واحد من هذه الأقوال أدلّة و توجیهات مختلفة، و لکنّ القرائن المختلفة المتوفّرة تثبت أنّها صلاة الظهر، لأنّها فضلا عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۵

کونها تقع فی وسط النّهار، فإنّ سبب نزول هذه الآیة یدلّ علی أنّ المقصود بالصّلاة الوسطی هو صلاة الظهر التی کان الناس یتخلّفون عنها لحرارة الجو، کما أنّ هناک روایات کثیرة تصرّح بأنّ الصلاة الوسطی هی صلاة الظّهر[۱۵۵]. و التأکید علی هذه الصّلاة کان بسبب حرارة الجو فی الصّیف، أو بسبب انشغال الناس فی امور الدنیا و الکسب فلذلک کانوا لا یعیرون لها أهمیّة، فنزلت الآیة آنفة الذکر تبیّن أهمیّة صلاة الوسطی و لزوم المحافظة علیها[۱۵۶].

(قانتین) من مادّة (قنوت) و تأتی بمعنیین.

۱- الطاعة و الإتّباع.

۲- الخضوع و الخشوع و التّواضع.

و لا یبعد أن یکون المعنیان مرادین فی هذه الآیة، کما ورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الآیة وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِینَ قال: «إقبال الرّجل علی صلاته و محافظته علی وقتها حتّی لا یلهیه عنها و لا یشغله شیء».

و فی روایة اخری قال:

و فی الآیة الثانیة تؤکّد علی أنّ المسلم لا ینبغی له ترک الصلاة حتّی فی أصعب الظروف و الشّرائط کما فی میدان القتال، غایة الأمر أنّ الکثیر من شرائط الصّلاة فی هذا الحال تکون غیر لازمة کالاتّجاه نحو القبلة و أداء الرّکوع و السّجود بالشکل الطبیعی، و لذا تقول الآیة فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُکْباناً.

سواء کان الخوف فی حال الحرب أو من خطر آخر، فإنّ الصّلاة یجب أداءها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۶

بالإیماء و الإشارة للرّکوع و السّجود، سواء کنتم مشاة أو راکبین.

فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْکُرُوا اللَّهَ کَما عَلَّمَکُمْ ما لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ ففی هذه الصّورة، أی فی حالة الأمان یجب علیکم أداء الصّلاة بالصّورة الطبیعیّة مع جمیع آدابها و شرائطها.

و من الواضح أنّ أداء الشکر لهذا التعلیم الإلهی للصّلاة فی حالة الأمن و الخوف هو العمل علی وفق هذه التعلیمات.

(رجال) جمع (راجل) و (رکبان) جمع (راکب) و المقصود هو أنّکم إذا خفتم العدو فی میدان القتال لکم أن تؤدّوا الصلاة راجلین أو راکبین فی حالة الحرکة.

و

قد ورد عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه فی بعض الحروب أمر المقاتلین أن یصلّوا بالتّسبیح و التکبیر و قول (لا إله إلّا اللّه)[۱۵۷]، و کذلک نقرأ

فی حدیث آخر: إنّ النبی صلّی یوم الأحزاب إیماء

.[۱۵۸]

و کذلک ورد عن الإمام الکاظم علیه السّلام جواز أداء الصلاة فی حالة الخوف إلی غیر جهة القبلة و یومی للرّکوع و السجود فی حال القیام ۱۵۹].

فهذه الصلاة هی صلاة الخوف التی شرحها الفقهاء فی کتبهم شرحا مفصّلا، و علیه فالآیة توضّح أنّ إقامة الصلاة و الارتباط بین العبد و خالقه یجب أن یتحقّق فی جمیع الظروف و الحالات، و بهذا تتحصّل نقطة ارتکاز للإنسان و اعتماده علی اللّه، فتکون مبعث الأمل و الرّجاء فی الحیاة و تعینه فی التغلّب علی جمیع المصاعب و المشکلات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۷

بحث

دور الصلاة فی تقویة المعنویّات:

قد یحسب البعض أنّ هذا الإصرار و التوکید علی الصلاة ضرب من التعسیر، و لربّما منع ذلک الإنسان من القیام بواجبه الخطیر فی الدّفاع عن نفسه فی مثل ظروف القتال الصّعبة.

فی حین أنّ هذا الکلام اشتباه کبیر، فالإنسان فی مثل هذه الحالات أحوج إلی تقویة معنویّته من أی شیء آخر، لأنّه إذا ضعفت معنویّته و استولی علیه الخوف و الفزع فإنّ هزیمته تکاد تکون حتمیّة، فأیّ عمل أفضل من الصّلاة و الاتّصال باللّه القادر علی کلّ شیء و بیده کلّ شیء من أجل تقویة معنویّات المجاهدین أو من یواجه الخطر.

لو ترکنا الشواهد الکثیرة فی جهاد المجاهدین المسلمین فی صدر الإسلام فإنّنا نقرأ عن حرب الصهاینة الرّابعة مع العرب فی شهر رمضان عام ۱۳۹۳ ه. ق أنّ توجّه الجنود المسلمین إلی الصّلاة و المبادئ الإسلام کان له أثر فعّال فی تقویة عزائمهم و فی التالی انتصارهم علی عدوّهم. و علی أی حال فإنّ أهمیّة الصلاة و تأثیرها الإیجابی فی الحیاة أکبر من أن یستوعبها هذا المختصر، فلا شکّ فی أنّ الصّلاة إذا روعیت معها آدابه الخاصّة و حضور القلب فیها فإنّ لها تأثیرا إیجابیّا عظیما فی حیاة الفرد و المجتمع، و بإمکانها أن تحل الکثیر من المشاکل و تطهّر المجتمع من الکثیر من المفاسد، و تکون للإنسان فی الأزمات و الشدائد خیر معین و صدیق ۱۶۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۸

الآیة [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۴۰ الی ۲۴۲]

اشارة

وَ الَّذِینَ یُتَوَفَّوْنَ مِنْکُمْ وَ یَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِیَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَی الْحَوْلِ غَیْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَیْکُمْ فِی ما فَعَلْنَ فِی أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۲۴۰) وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَی الْمُتَّقِینَ (۲۴۱) کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۲۴۲)

التّفسیر

قسم آخر من أحکام الطّلاق:

تعود هذه الآیات لتذکر بعض مسائل الزواج و الطّلاق و الأمور المتعلّقة بها، و فی البدایة تتحدّث عن الأزواج الّذین یتوسّدون فراش الاحتضار و لهم زوجات فتقول: وَ الَّذِینَ یُتَوَفَّوْنَ مِنْکُمْ وَ یَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِیَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَی الْحَوْلِ غَیْرَ إِخْراجٍ

أی أنّ الأشخاص من المسلمین إذا حانت ساعة و فاتهم و بقیت زوجاتهم علی قید الحیاة فینبغی أن یوصوا بأزواجهم فی النفقة و السکن فی ذلک البیت لمدّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۹

سنة کاملة، و هذا طبعا فی صورة ما إذا بقیت الزوجة فی بیت زوجها و لم تخرج خارج البیت، و لهذا تضیف الآیة: فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَیْکُمْ فِی ما فَعَلْنَ فِی أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ کأن یخترن زوجا جدیدا، فلا مانع من ذلک و لا إثم علیکم، و لکن یسقط حقّها فی النفقة و السکنی.

و فی ختام الآیة تشیر إلی أنّه لا ینبغی التخوّف من عاقبة خروج النسوة، فتقول بأنّ اللّه قادر علی فتح أبواب اخری أمامهنّ بعد وفاة الأزواج فلو حدثت مشکلة فی البیت و لحقت بها مصیبة فإنّ ذلک سیکون لحکمة حتما لأنّ اللّه تعالی عزیز حکیم وَ اللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ فلو أغلق بابا بحکمته فسوف یفتح اخری بلطفه، فلا محلّ للقلق و التخوّف، و یعلم من ذلک أنّ جملة یُتَوَفَّوْنَ هنا لا تعنی الموت، بل تعنی المشرف علی الموت بقرینة ذکر الوصیّة.

و قوله فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَیْکُمْ فِی ما فَعَلْنَ فِی أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ تدلّ علی وجوب دفع ورثة الزّوج نفقة الزوجة لمدّة سنة کاملة، و فیما إذا لم ترض هذه المرأة بالبقاء فی بیت الزوج و الاستفادة من النفقة، فلا مانع من ذلک، و لا مانع کذلک من أن تختار زوجا آخر أیضا، و لکنّ بعض المفسّرین ذکر تفسیرا آخر لهذه العبارة و هو أنّها إذا صبرت فی بیت زوجها مدّة سنة کاملة ثمّ خرجت من البیت فتزوّجت فلا مانع من ذلک.

و طبقا للتفسير الثانى يجب على المرأة العدّة لمدّة سنة كاملة، و لكن على التفسير الأوّل لا يلزم ذلك. و بعبارة أخرى أنّ دوام العدّة لمدّة سنة كاملة على التفسير الأوّل يعتبر حقّ للمرأة، و لكنّه على التفسير الثانى حكم و إلزام، و لكنّ ظاهر الآية ينسجم أكثر مع التفسير الأوّل، لأنّ ظاهر الجملة الأخيرة هو أنّه استثناء من الحكم السابق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۰

مسألة: هل نسخت هذه الآية؟

يعتقد الكثير من المفسّرين أنّ هذه الآية قد نسخت بالآية ۲۳۴ من هذه السورة التى سبق بيانها و فيها ورد أنّ عدّة الوفاة أربعة أشهر و عشرة أيّام، و على الرغم من أنّ تلك الآية تأتى قبل هذه الآية من حيث الترتيب و لكننا نعلم أنّ الآيات فى السورة لم ترتّب بحسب نزولها، بل قد نجد آيات متأخّرة فى النّزول وضعت متقدّمة فى الترتيب، و قد جرى ذلك للتّناسب بين الآيات و لأمر من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يرى هؤلاء المفسّرين أيضا أنّ حقّ النفقة لمدّة سنة كاملة كان قبل نزول آيات الإرث، و لكن بعد أن قرّرت آيات الإرث للزّوجين مقدارا من الإرث زال هذا الحقّ عنها، فعلى هذا فإنّ الآية محل البحث منسوخة من جهتين (من جهة مقدار زمان العدّة و من جهة النفقة).

و ذكر المرحوم (الطبرسى) فى «مجمع البيان» أنّ جميع العلماء اتّفقوا أنّ هذه الآية منسوخة. ثمّ يذكر حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ الرجل فى العصر الجاهلى إذا مات كانت زوجته تتمتّع بالنفقة لمدّة سنة كاملة ثمّ أنّها تخرج من بيت زوجها بدون ميراث، و بعد ذلك نزلت الآيات المتعلّقة بإرث الزّوجة و نسخت هذه الآية بتعيين الربع أو الثمن من الميراث لها.

و على هذا يجب أن تحسب نفقة المرأة فى مدّة العدّة من حصّتها من الإرث، و كذلك ورد عن الإمام الصادق أيضا أنّ الآية التى تقرّر العدّة أربعة أشهر و عشرة أيّام و كذلك آية الإرث قد نسختا هذه الآية[۱۶۱].

و على كلّ حال، يستفاد من كلمات العلماء أنّ عدّة الوفاة كانت فى زمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۱

الجاهليّة سنة كاملة تمرّ خلالها الارملة بكثير من التقاليد و العادات الخرافيّة الشّاقة، فجاء الإسلام و ألغى تلك العادات و أبقى مدّة العدّة سنة فى بداية الأمر، ثمّ جعلها أربعة أشهر و عشرة أيّام، كما منع المرأة فقط من الزّينة خلال هذه المدّة.

و يستفاد من كلام «الفخر الرازى» هو أن الآية أعلاه نسخت بآيات الإرث و عدّة أربعة أشهر و عشرة أيّام ۱۶۲].

و لكن لو لا إجماع العلماء و الروايات المتعدّدة فى هذا المجال لأمكن القول بعدم وجود التعارض بين هذه الآيات، فإنّ الحكم بأربعة أشهر و عشرة أيّام للعدّة هو حكم إلهى، و أمّا المحافظة على العدّة لمدّة سنة كاملة و البقاء فى بيت الزوج و الاستفادة من النفقة فإنّه حقّ لها، أى أنّه قد اعطى الحقّ للمرأة أن تبقى فى بيت زوجها المتوفّى سنة كاملة إن أرادت ذلك و تستفيد من النفقة طبقا لوصيّة زوجها فى جميع هذه المدّة، و إن رفضت ذلك و لم ترغب فى البقاء، فيجوز لها الخروج من البيت بعد أربعة أشهر و عشرة أيّام، و يمكنها كذلك اختيار زوج آخر، و حينئذ سوف تقطع عنها بطبيعة الحال النفقة من مال زوجها السابق.

و لكن مع ملاحظة الروايات المتعدّدة عن أهل البيت عليهم السّلام و شهرة حكم النسخ أو اتفاق العلماء على ذلك، فلا يمكن قبول مثل هذا التفسير رغم أنّه موافق لظواهر الآيات الشريفة.

فى الآية الثانية يبيّن القرآن الكريم حكما آخر من أحكام الطّلاق و يقول:

وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ أى أنّ المتقين يجب عليهم تقديم هديّة لائقة للنساء المطلّقات.

و بالرّغم من أنّ ظاهر الآیة یشمل جمیع النساء المطلّقات، و لکن بقرینة الآیة ۲۳۶ السابقة نفهم أنّ هذا الحکم یختص بمورد النسوة التی لم یقرّر لهنّ مهر بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۲

وقوع الطّلاق قبل الوطء، و فی الحقیقة فإنّ هذه الجملة تأکید للحکم المذکور کیلا یتعرّض للإهمال، و یحتمل أیضا أنّ الحکم المذکور یشمل جمیع النسّاء المطلّقات، غایة الأمر أنّ المورد أعلاه من الموارد الوجوبیّة و الموارد الاخری لها جنبة استحبابیّة.

و علی کلّ حال فإنّ هذا الحکم هو أحد الأحکام الإنسانیّة و الأخلاقیّة فی الإسلام و التی لها أثر إیجابی علی إزالة الرسوبات المتخلّفة من عملیة الطّلاق و منع حالة العداوة و الانتقام و الکراهیّة الناشئة منه.

و ذکر البعض أن دفع هدیة لائقة للنساء المطلّقات أمر واجب و هو غیر المهر، و لکنّ الظاهر بین علماء الشیعة کما یستفاد من عبارة المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان أنّه لا قائل بهذا القول (و یصرّح المرحوم صاحب الجواهر أیضا أنّ الهدیّة المذکورة لا تجب إلّا فی ذلک المورد الخاص و أنّ هذه المسألة إجماعیّة)[۱۶۳].

و قد احتمل البعض أنّ المراد من المتاع هنا النفقة و هو احتمال بعید جدّا.

و علی کلّ حال أنّ هذه الهدیّة و طبق الرّوایات الواردة من الأئمّة المعصومین تعطی إلی المرأة بعد تمام العدّة و الإفتراق الکامل لا فی عدّة الطّلاق الرّجعی، و بعبارة أخری أنّ هذه الهدیّة لیست وسیلة للعودة، بل للوداع النهائی ۱۶۴].

و فی آخر آیة من الآیات مورد البحث و التی هی آخر آیة من الآیات المتعلّقة بالطّلاق تقول: کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ

و من البدیهی أنّ المراد من التفکّر و التعقّل هو ما یتعقّبه التحرّک نحو العمل، و إلّا فإنّ التفکّر و التعقّل لوحده فی الأحکام و الآیات لا یثمر نتیجة، و یتبیّن من دراسة الآیات و الأحادیث الإسلامیّة أن لفظة «العقل» تستعمل غالبا عند إیراد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۳

التعبیر عن امتزاج الإدراک و الفهم مع العواطف و الأحاسیس ثمّ یستتبع ذلک العمل. فعند ما یتحدّث القرآن فی مواضع کثیرة عن معرفة اللّه مثلا یشیر إلی نماذج من نظام هذا الکون العجیب، ثمّ یقول إننا نبین هذه الآیات لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ

و هذا لا یعنی أنّ القصد هو ملء الأدمغة ببعض المعلومات عن نظام الطبیعة، إذ أنّ العلوم الطبیعیة إذا لم تبعث فی القلب و العواطف حرکة نحو معرفة اللّه و حبّه و الانشداد به فلا- ارتباط لها بقضایا التوحید. و هکذا المعارف العلمیة لا تکون تعقّلا إلّا إذا اقترنت بالعمل.

صاحب تفسیر المیزان ۱۶۵] یؤیّد هذا الاتجاه فی فهم معنی التعقّل، و یری أنّه الذی یدفع الإنسان بعد الفهم و الإدراک إلی مرحلة العمل، و الدلیل علی ذلک قوله تعالی: لَوْ کُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما کُنَّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ[۱۶۶].

و قوله سبحانه أ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَتَکُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ یَعْقِلُونَ بِها[۱۶۷] فالتعقّل الذی یتحدّث عنه المجرمون یوم القیامة هو ذلک الذی یرافقه العمل، و هکذا التعقّل الناتج عن السیر فی الأرض و التفکیر فی خلق اللّه إنّما هو المعرفة التی تحمل الإنسان علی تغیّر مسیر حیاته و الاتجاه إلی الصراط المستقیم.

و بعبارة اخری أنّ التفکّر و التعقّل و التدبّر إذا کان متعمّقا و متجذّرا فی روح الإنسان فلا یمکن أن یکون عدیم الآثار فی دائرة الواقع العملی، فکیف یمکن أن یقطع الإنسان و یعتقد جازما بمسمومیّة الغذاء ثمّ یتناوله؟! أو یعتقد جزما بتأثیر الدّواء الفلانی علی معالجة أحد الأمراض الخطرة التی یعانی منها ثمّ لا یتناوله!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۴

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۴۳]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيـارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَـذَرَ الْمَوْتِ فَقـالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيـاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَـذُو فَضْـلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (۲۴۳)

سبب النّزول

انتشـر مرض الطـاعون فى إحـدى مـدن الشـام و أخـذ يحصـد الناس بسـرعة عجيبـة، فهجر المدينـة جمع من الناس أملا فى النجاة من مخالب الموت. و إذ نجوا من الموت فعلا بهروبهم من ذلك الجو المبوء، شـعروا فى أنفسهم بشىء من القدرة و الاستقلالية، و حسبوا أنّ نجاتهم مدينة لعوامل طبيعية غافلين عن إرادة اللّه و مشيئته، فأماتهم اللّه فى تلك الصحراء بالمرض نفسه.
قيـل: إنّ نزول المرض بأهـل هـذه المدينـة كـان عقابـا لهم، لأنّ زعيمهم و قائـدهم طلب منهم أن يسـتعدّوا للحرب و أن يخرجوا من المدينـة. و لكنّهم رفضوا الخروج للحرب بحجّة أنّ مرض الطـاعون متفشّى فى ميادينها، فابتلاهم اللّه بما كانوا يخشونه و يفرّون منه، فانتشر بينهم مرض الطاعون، فهجروا بيوتهم و هربوا من
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۵
المرض إلى خـارج المدينـة حيث انشب المرض مخالبه فيهم و ماتوا. و مضـى زمان على هـذا حتّى مرّ يوما «حزقيل»[۱۶۸] أحد أنبياء بنى إسرائيل بذلك المكان و دعا اللّه أن يحييهم، فاستجاب اللّه دعاءه و أحياهم.

التّفسير

كيف ماتوا و كيف عادوا إلى الحياة؟!

هذه الآية كما مرّ فى سبب نزولها تشـير إشارة عابرة و لكنّها معبّرة إلى قصّة أحد الأقوام السّالفة التى انتشـر بين أفرادها مرض خطير و موحش بحيث هرب الآلاف منهم من ذلك المكان فتقول الآية: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ
من الأسـاليب الشايعة فى الأدب العربى اسـتعمال تعبير ألم تر فيمـا يطلب الفـات النظر إليه، و بـالرّغم من أنّ المخاطب هو رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّ الكلام موجّه بطبيعة الحال إلى جميع الناس.
و رغم أنّ الآيـة أعلاه لاـ تشير إلى عـدد خـاص و اكتفت بكلمـة أُلُوفٌ و لكنّ الوارد فى الروايات أنّ عـددهم كان عشـرة آلاف، و ذكرت روايات اخرى أنّهم كانوا سبعين ألف أو ثمانين ألف ۱۶۹].
ثمّ أنّ الآيـة أشـارت إلى عـاقبتهم فقالت: فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ لتكون قصّـة موتهم و حياتهم مرّة اخرى عبرة للآخرين. و من الواضح أنّ المراد من مُوتُوا ليس هو الأمر اللفظى بل هو أمر اللّه التكوينى الحاكم على كلّ حىّ فى
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۶
عالم الوجود، أى أنّ اللّه تعالى أوجـد أسـباب هلاكهم فماتوا جميعا فى وقت قصـير، و هـذه أشـبه بالأمر الـذى أورد فى الآيـة ۸۲ من سورة يس إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۱۷۰].
و جملـة ثُمَّ أَحْيـاهُمْ إشـارة إلى عودتهم إلى الحياة بعـد موتهم اسـتجابة لـدعاء (حزقيل النبى) كما ذكرنا فى سـبب نزول الآيـة، و لمّا كانت عودتهم إلى الحياة مرّة اخرى من النعم الإلهيّة البيّنة (نعمة لهم و نعمة لبقيّة الناس للعبرة) ففى ختام الآية تقول إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْـلٍ

عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ فليست نعمة اللّه و ألطافه و عنايته تنحصر بهؤلاء، بل لجميع الناس.

بحوث

هنا ينبغى أن نشير إلى بعض النقاط:

۱- هل هذه الحادثة التاريخيّة حقيقيّة، أم مجرّد تمثيل؟

هـذه الحكايـة التى ذكرناهـا، أ هى حـدث تـاريخى واقعى أشـار إليه القرآن إشـارة عـابرة، ثمّ شـرحته الروايـات و الأحـاديث، أم أنّها أقصوصة لتجسيد الحقائق العقلية و بيانها بلغة حسّية؟

لمّا كان لهـذه الحكاية جوانب غير عادية بحيث صـعب هضـمها على بعض المفسّـرين، فإنّهم أنكروا كونها حقيقة واقعة، و قالوا إنّ ما جاء فى الآية إنّما هو من باب ضـرب المثل بقوم يضـعفون عن الجهاد ضدّ العدوّ فيهزمون ثمّ يعتبرون بما جرى فيستيقظون و يستأنفون الجهاد و محاربة العدوّ و ينتصرون.

و بموجب هذا التفسير يكون معنى «موتوا» الهزيمة فى الحرب بسبب الضعف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۷

و التهاون. و «أحياهم» إشارة إلى الوعى و اليقظة و من ثمّ النصر.

هذا التفسير يرى أنّ الروايات التى تعتبر هذه الحادثة واقعة تاريخية روايات مجعولة و إسرائيلية.

و على الرغم من أن مسألـة «الهزيمـة» بعـد التهاون و «الانتصار» بعـد اليقظة مسألة هامّة و رائعة، و لكن لا يمكن إنكار كون ظاهر الآية يدلّ على بيان حادثة تاريخية بعينها، و ليست تمثيلا.

إنّ الآيـة تتحـدّث عن قوم من الماضـين ماتوا على أثر هروبهم من حـدث مروّع ثمّ أحياهم اللّه. فإذا كانت غرابـة الحادثة و بعدها عن المألوف هو السبب فى تأويلها ذاك التأويل، فهذا إذا ما ينبغى أن نفعله بشأن جميع معاجز الأنبياء.

و لو أنّ أمثـال هـذه التأويلات و التوجيهات و جـدت طريقها إلى القرآن لأمكن إنكار معاجز الأنبياء، فضـلا عن إنكار معظم قصـص القرآن التاريخية و اعتبارها من قبيل القصـص الرمزى التمثيلى، كأن نعتبر قصّة هابيل و قابيل قصّة موضوعة لتمثّل الصراع بين العدالة و طلب الحقّ من جهة، و القسوة و الظلم من جهة اخرى، و بهذا تفقد قصص القرآن قيمتها التاريخية.

و فضـلا عن ذلك فإننا لا نسـتطيع أن نتجاهل الروايات الواردة فى تفسـير هـذه الآيـة، لأنّ بعضـها قد ورد فى الكتب الموثوق بها و لا يمكن أن تكون من الإسرائيليات المجعولة.

۲- درس للعبرة هدف الآية فى الواقع كما ورد فى سبب النزول هو إشارة إلى جماعة من بنى إسرائيل الّذين كانوا يتذرّعون تهرّبا من الجهاد بمختلف المعاذير، فابتلاهم اللّه بمرض الطّاعون حيث فتك بهم سريعا و أفناهم و أبادهم إلى درجة أنّه لا يستطيع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۸

أى عـدوّ شـرس أن يصنع ذلك فى ميـدان القتال، فبهـذا تقول الآيـة لهم أنّه لا تتصوّروا أنّ التهرّب من المسؤوليّـة و التوسّل بالأعذار الواهية يجعلكم فى مأمن من الخطر، فأنتم أعجز من أن تقفوا أمام قدرة اللّه تعالى، فإنّه تعالى قادر على أن يبتليكم بعدوّ صـغير لا يرى بالعين و هو مكروب الطّاعون أو الوباء و أمثال ذلك فيختطف أرواحكم فيذركم كعصف مأكول.

۳- مسألة الرّجعة النقطة الاخرى التى لا بدّ من الالتفات إليها هنا هى مسألة إمكان الرّجعة التى تستفاد من الآية بوضوح.

و توضـيح ذلـك: أنّ التاريـخ يحـدّثنا عن بعض الأـقوام من السالفين ماتوا ثمّ أعيـدوا إلى هـذه الـدنيا، كما فى حادثـة طائفـة من بنى

إسرائيل الّذين توجّهوا مع النبى موسى عليه السّلام إلى جبل طور الواردة فى آية ۵۵ و ۵۶ من سورة البقرة و قصّة «عزير» أو إرميا الواردة فى الآية ۲۵۹ من هذه السورة، و كذلك الحادثة المذكورة فى هذه الآية مورد البحث.

فلا مانع أن تتكرّر هذه الحادثة مرّة اخرى فى المستقبل.

العالم الشيعى المعروف ب «الصدوق» رحمه اللّه استدلّ بهذه الآية على القول بالرّجعة و قال: (إنّ من معتقداتنا الرّجعة) أى رجوع طائفة من الناس الّذين ماتوا فى الأزمنة الغابرة إلى هذه الدّنيا مرّة اخرى، و يمكن كذلك أن تكون هذه الآية دليلا على المعاد و إحياء الموتى يوم القيامة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۴۴ الى ۲۴۵]

اشارة

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۴۴) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۴۵)

سبب النّزول

قيل فى سبب نزول الآية الثانية

أنّ رسول اللّه قال: من تصدّق بصدقة فله مثلاها فى الجنّة. سوف ينال ضعفه فى الجنّة فقال (أبو الدحداح الأنصارى): يا رسول اللّه إنّ لى حديقتين إن تصدقت بأحدهما فإن لى مثليها فى الجنّة، قال: نعم.

قال: و ام الدحداح معى، قال: نعم. قال: و الصبية معى. قال: نعم. فتصدّق بأفضل حديقتيه فدفعها إلى رسول اللّه. فنزلت الآية فضاعف اللّه له صدقته الفى الف و ذلك قوله أضعاف كثيرة.

فرجع أبو الدحداح فوجد أم الدحداح و الصبية فى الحديقة التى جعلها صدقة، فقام على باب الحديقة و تحرج أن يدخلها فنادى يا أمّ الدحداح، قالت:

لبيك يا أبا الدحداح، قال: إنى قد جعلت حديقتى هذه صدقة و اشتريت مثليها فى

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۰

الجنّة و ام الدحداح معى و الصبية معى. قالت: بارك اللّه لك فيما شريت و فيما اشتريت، فخرجوا منها و اسلموا الحديقة إلى النبى فقال النبى: كم نخلة متدلّ عذوقها لأبى الدحداح فى الجنة[۱۷۱].

التّفسير

الجهاد بالنّفس و المال:

هذه الآيات تشرع فى حديثها عن الجهاد و تعقّب بذكر قصّة فى هذا الصدّد عن الأقوام السّالفة، مع الالتفات إلى الأحداث التى مرّت على جماعة من بنى إسرائيل الّذين تهرّبوا من الجهاد بحجّة الإصابة بمرض الطّاعون و أخيرا ماتوا بهذا المرض، يتّضح الارتباط بين

هذه الآیات و الآیات السّابقة.

فی البدایة تقول الآیة وَ قاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ یسمع أحادیثکم و یعلم نیاتکم و دوافعکم النفسیة فی الجهاد.

ثمّ یضیف القرآن فی الآیة التالیة: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَیُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً کَثِیرَةً أی ینفق من الأموال التی رزقه اللّه تعالی إیّاه فی طریق الجهاد و حمایة المستضعفین و المعوزین.

فعلی هذا یکون إقراض اللّه تعالی بمعنی (الإنفاق فی سبیل اللّه)، و کما ذکر بعض المفسّرین أنّها تعنی المصارف التی ینفقها الإنسان فی طریق الجهاد، لأنّ تأمین احتیاجات الجهاد فی ذلک الوقت کان فی عهدة المسلمین المجاهدین، فی حین أنّ البعض یری بأنّ الآیة تشمل کلّ أنواع الإنفاق ۱۷۲].

و لکنّ التفسیر الثانی أقرب و أکثر انسجاما مع ظاهر الآیة، و خاصّة أنّه شامل للمعنی الأوّل أیضا، و أساسا فإنّ الإنفاق فی سبیل اللّه و مساعدة الفقراء و المساکین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۱

و حمایة المحرومین یعطی ثمرة الجهاد أیضا، لأنّ کلّا منها یبعث علی استقلال المجتمع الإسلامی و عزّته.

(أضعاف) جمع (ضعف) علی وزن «علم». و الضّعف هو أنّ تضیف إلی المقدار مثله أو أمثاله، و قد ورد هنا الجمع مؤکّدا بالکثرة (کثیرة) کما أنّ کلمة (یضاعف) فیها تأکید علی هذا المعنی أکثر من کلمة (یضعّف)[۱۷۳]، و کلّ ذلک یدلّ علی أنّ اللّه تعالی یعطی کلّ من ینفق فی سبیله الکثیر الکثیر کالبذرة التی تبذر فی أرض صالحة و تسقی فینمّیها و یعیدها إلی صاحبها أضعافا کثیرة کما سیأتی فی الآیة (۲۶۱).

و فی ختام الآیة یقول: وَ اللَّهُ یَقْبِضُ وَ یَبْصُطُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ و تشیر الآیة إلی أنّه لا تتصوروا إن الإنفاق و البذل سوف یؤدی إلی قلّة أموالکم، لأنّ سعة و ضیق أرزاقکم بید اللّه فهو القادر علی أن یعوض ما أنفقتموه أضعافا مضاعفا، بملاحظة الارتباط الوثیق لأفراد المجتمع، فإن نفس تلک الأموال التی أنفقتموها سوف تعود إلیکم فی الواقع.

هذا من البعد الدنیوی، و أمّا البعد الأخروی للإنفاق فلا تنسوا أن جمیع المخلوقات سوف تعود إلی اللّه عزّ و جلّ و سوف یثیبکم حینذاک و یجزل لکم العطاء.

بحث

لماذا ورد التعبیر بالقرض؟

لقد ورد التعبیر بالقرض فی مورد الإنفاق فی عدّة آیات قرآنیة، و هذا من جهة یحکی عظیم لطف اللّه بالنسبة لعباده، و أهمیة مسائلة الإنفاق من جهة أخری،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۲

فالبرغم من أن المالک الحقیقی لجمیع عالم الوجود هو اللّه تعالی و أن الناس یمثلون و کلاء عن اللّه فی التصرف فی جزء صغیر من هذا العالم کما ورد فی الآیة (۷) من سورة الحدید آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَکُمْ مُسْتَخْلَفِینَ فِیهِ

و لکن مع ذلک یعود سبحانه إلی العبد لیستقرض منه و أیضا استقراض بربح وفیر جدّا (فانظر إلی کرم اللّه و لطفه).

یقول الإمام علی علیه السّلام فی نهج البلاغة: «و استقرضکم و له خزائن السموات و الأرض و هو الغنی الحمید و إنّما أراد أن یبلوکم أیّکم أحسن عملا»

[۱۷۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۳

الآیات [سورهٔ البقرهٔ (۲): الآیات ۲۴۶ الی ۲۵۲]

اشارهٔ

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِیٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِکاً نُقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ کُتِبَ عَلَیْکُمُ الْقِتالُ أَلاَّ تُقاتِلُوا قالُوا وَ ما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِیارِنا وَ أَبْنائِنا فَلَمَّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِیلاً مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ (۲۴۶) وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَکُمْ طالُوتَ مَلِکاً قالُوا أَنَّى یَکُونُ لَهُ الْمُلْکُ عَلَیْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْکِ مِنْهُ وَ لَمْ یُؤْتَ سَعَهً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَیْکُمْ وَ زادَهُ بَسْطَهً فِی الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ یُؤْتِی مُلْکَهُ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ (۲۴۷) وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ آیَهَ مُلْکِهِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ التَّابُوتُ فِیهِ سَکِینَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ بَقِیَّهٌ مِمَّا تَرَکَ آلُ مُوسى وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِکَهُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَهً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۲۴۸) فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِیکُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَیْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ یَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَهً بِیَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِیلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَهَ لَنَا الْیَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ کَمْ مِنْ فِئَهٍ قَلِیلَهٍ غَلَبَتْ فِئَهً کَثِیرَهً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ (۲۴۹) وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْکافِرِینَ (۲۵۰)

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ وَ الْحِکْمَهَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا یَشاءُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لکِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِینَ (۲۵۱) تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ (۲۵۲)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۴

حادثهٔ ذات عبرهٔ:

من الضروری و قبل الشروع فی تفسیر هذه الآیات الشریفهٔ التعرض لجانب من تاریخ بنی إسرائیل المنظور فی هذه الآیات.

الیهود الذین کانوا قد استضعفوا تحت سلطهٔ الفراعنهٔ استطاعوا أن ینجوا من وضعهم المأساوی بقیادهٔ موسى علیه السّلام الحکیمهٔ حتى بلغوا القوّهٔ و العظمهٔ.

لقد أنعم اللّه على الیهود ببرکهٔ نبیّهم الکثیر من النعم بما فیها «صندوق العهد»[۱۷۵] الذی حمله الیهود أمام الجند فأضفى علیهم الطمأنینهٔ و المعنویهٔ العالیهٔ، و ظلّت هذه الروحیهٔ فیهم بعد رحیل موسى علیه السّلام مدّهٔ من الزمن، إلّا أنّ تلک النعم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۵

و الانتصارات أثارت فی الیهود الغرور شیئا فشیئا، و أخذوا بمخالفهٔ القوانین، و أخیرا اندحروا على أیدی الفلسطینیین و خسروا قوّتهم و نفوذهم بخسارتهم صندوق العهد، فکان أن تشتّتوا و ضعفوا و لم یعودوا قادرین على الدفاع عن أنفسهم حتّى أمام أتفه أعدائهم، بحیث إنّ هؤلاء الأعداء طردوا الکثیرین منهم من أرضهم و أسروا أبناءهم.

استمرّت حالهم على هذا سنوات طوالا، إلى أن أرسل إلیهم اللّه نبیّا اسمه «اشموئیل» لإنقاذهم و هدایتهم، فتجمّع حوله الیهود الذین کانوا قد ضاقوا ذرعا بالظلم و کانوا یبحثون عن ملجأ یأوون إلیه، و طلبوا منه أن یختار لهم قائدا و أمیرا لکی یتوحّدوا تحت لوائه، و یحاربوا العدوّ متّحدین یدا و رأیا، لاستعادهٔ عزّتهم الضائعهٔ.

اشموئیل الذی کان یعرف ضعفهم و تهاونهم و هبوط معنویّاتهم قال لهم:

أخشى إن اخترت لكم قائدا أن تخذلوه عند ما يدعوكم إلى الجهاد و محاربة العدو.

فقالوا: كيف يمكن أن نعصى أوامر أميرنا و نرفض القيام بواجبنا، مع أنّ العدوّ قد شرّدنا من أوطاننا و استولى على أرضنا و أسر أبناءنا!! فرأى اشموئيل أنّ هؤلاء القوم قد شخّصوا داءهم و ها هم قد اتجهوا للمعالجة، و لعلّهم أدركوا سبب تخلّفهم، فتوجّه إلى اللّه يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه: أن اخترنا «طالوت» ملكا عليهم.

فقال اشموئيل: ربّ إنى لا أعرف طالوت و لم أره حتّى الآن. فجاءه الوحى:

سنرسله إليك فأعطه قيادة الجيش و لواء الجهاد.

من هو طالوت؟

كان طالوت رجلا طويل القامة، ضخما، حسن التركيب، متين الأعصاب قويّها، ذكيا، عالما، مدبّرا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۶

و يقول بعض: إنّ اختيار اسم «طالوت» له كان لطوله، و لكنّه مع كلّ ذلك لم يكن معروفا، حيث كان يعيش مع أبيه فى قرية على أحد الأنهر، و يرعى ماشية أبيه و يشتغل بالزراعة.

أضاع يوما بعض ماشيته فى الصحراء، فراح يبحث عنها مع صاحب له بضعة أيّام حتّى اقتربا من مدينة صوف.

قال له صاحبه: لقد اقتربنا من صوف مدينة النبيّ اشموئيل، فتعال نزوره لعلّه يدلّنا بما له من اتصال بالوحى و حصانة فى الرأى على ضالّتنا. و التقيا باشموئيل عند دخولهما المدينة.

ما أن تبادل اشموئيل و طالوت النظرات حتّى تعارف قلباهما، و عرف اشموئيل طالوت و أدرك أنّ هذا الشاب هو الذى أرسله اللّه ليقود الجماعة. و عند ما انتهى طالوت من قصّته عن ضياع ماشيته، قال له اشموئيل: أمّا ماشيتك الضائعة فهى الآن على طريق القرية تتّجه إلى بستان أبيك فلا تقلق بشأنها. و لكنى أدعوك لأمر أكبر من ذلك، إنّ اللّه قد أختارك لنجاة بنى إسرائيل.

فأصاب العجب طالوت من هذا الأمر فى البداية، و لكنّه قبل المهمّة مسرورا فقال اشموئيل لقومه: لقد اختار اللّه طالوت لقيادتكم، فعليكم جميعا أن تطيعوه، و أن تتهيّأوا للجهاد و محاربة الأعداء.

كان بنو إسرائيل يعتقدون أنّ قائدهم يجب أن تتوفّر فيه بعض المميّزات من حيث نسبه و ثروته، ممّا لم يجدوا منها شيئا فى طالوت، فانتابتهم حيرة شديدة لهذا الإختيار، فطالوت لم يكن من أسرة لاوى التى ظهر منها الأنبياء، و لا كان من أسرتى يوسف أو يهودا اللتين سبق لهما الحكم، بل كان من أسرة بنيامين المغمورة الفقيرة، فاعترضوا قائلين: كيف يمكن لطالوت أن يحكمنا، و نحن أحقّ منه بالحكم! فقال اشموئيل- الذى رآهم على خطأ كبير-: إنّ اللّه هو الذى اختاره أميرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۷

عليكم، و القيادة تحتاج إلى كفاءة جسمية و روحية و هى متوفّرة فى طالوت، و هو يفوقكم فيها. إلّا أنّهم لم يقبلوا بهذا القول، و طلبوا دليلا على أنّ هذا الإختيار إنّما كان من اللّه سبحانه.

فقال اشموئيل: الدليل هو أنّ التابوت- صندوق العهد- الذى هو أثر مهمّ من آثار أنبياء بنى إسرائيل، و كان مدعاة لثقتكم و طمئنانكم فى الحروب، سيعود إليكم يحمله جمع من الملائكة. و لم يمض وقت طويل حتّى ظهر الصندوق، و على أثر رؤيته وافق بنو إسرائيل على قيادة طالوت لهم.

طالوت فى الحكم

اشارة

تسلّم طالوت قیادة الجیش، و خلال فتره قصیرة أثبت لیاقته و جدارته للاضطلاع بمهامّ إدارة الملک و قیادة الجیش، ثمّ طلب من بنی إسرائیل أن یعدّوا العدّة لمحاربة عدوّ کان یهدّدهم من کلّ جانب. قال لهم مؤکّدا إنّه لا یرید أن یسیر معه للقتال إلّا الّذین ینحصر کلّ تفکیرهم فی الجهاد، أمّا الّذین لهم عمارة لم تتم، أو معاملة لم تکمل، و أمثالهم، فلیس لهم الاشتراک فی الجهاد. و سرعان ما اجتمع حوله جمع تظهر علیه الکثرة و القوّة، و تحرّکوا صوب العدو.

و فی المسیرة الطویلة و تحت أشعة الشمس المحرقة أصابهم العطش. فأراد طالوت- بأمر من اللّه- أن یختبرهم و یصفیهم، فقال لهم: سوف نصل قریبا إلی نهر فی مسیرتنا، و أنّ اللّه یرید أن یمتحنکم به، فمن شرب منکم منه و ارتوی فلیس منّی، و من لا یشرب إلّا قلیلاـ منه فهو منّی. و لکنّهم ما أن وقعت أنظارهم علی النهر حتّی فرحوا و هرعوا إلیه و شربوا منه حتّی ارتووا، إلّا نفر قلیل منهم ظلّوا علی العهد.

أدرک طالوت أنّ أکثریة جیشه یتألّف من أناس ضعفاء الإرادة و عدیمی العهد، ما خلا بعض الأفراد المؤمنین، لذلک فقد تخلّی عن تلک الأکثریة و اتّجه مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۸

النفر المؤمن القلیل خارجا من المدینة إلی میادین الجهاد.

إلّا أنّ هذا الجیش الصغیر انتابه القلق من قلّته، فقالوا لطالوت: إننا لا طاقة لنا بمقابلة جیش قویّ کثیر العدد. غیر أنّ الذین کان لهم إیمان راسخ بیوم القیامة، و کانت محبّة اللّه قد ملأت قلوبهم، لم یرهبوا کثرة العدوّ و قلّة عددهم، فخاطبوا طالوت بکلّ شجاعة قائلین: قرّر ما تراه صالحا، فنحن معک حیثما ذهبت، و لسوف نجالدهم بهذا العدد القلیل بحول اللّه و قوّته، و لطالما انتصر جیش صغیر بعون اللّه علی جیش کبیر، و اللّه مع الصابرین.

فاستعدّ طالوت بجماعته القلیلة المؤمنة للحرب، و دعوا اللّه أن یمنحهم الصبر و الثبات، و عند التقاء الجیشین خرج جالوت من بین صفوف عسکره و طلب المبارزة بصوت قوی أثار الرعب فی القلوب، فلم یجرأ أحد علی منازلته، فی تلک اللحظة خرج شاب اسمه داود من بین جنود طالوت، و لعلّه لصغر سنّه، لم یکن قد خاض حربا من قبل، بل کان قد جاء إلی میدان المعرکة بأمر من أبیه لیکون بصحبة اخوته فی صفوف جیش طالوت. و لکنّه کان سریع الحرکة خفیفها، و بالمقلاع الذی کان بیده رمی جالوت بحجرین- بمهارة شدیدة- فأصابا جبهته و رأسه، فسقط علی الأرض میّتا وسط تعجّب جیشه و دهشتهم. و علی أثر ذلک استولی الرعب و الهلع علی جیش جالوت، و لم یلبثوا حتّی رکنوا إلی الفرار من أمام جنود طالوت و انتصر بنو إسرائیل [۱۷۶].

التّفسیر

نعود إلی تفسیر الآیات محلّ البحث فی أوّل آیة یخاطب اللّه تعالی نبیّه الکریم و یقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الْمَلَإِ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ مِنْ بَعْدِ مُوسی إِذْ قالُوا لِنَبِیٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِکاً نُقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۹

(الملأـ) هم الجماعة یجتمعون علی رأی فیملئون العیون رواء و منظرا و النفوس بهاء و جلالا و لذلک یقال لأشراف کلّ قوم (الملأ) لأنّهم بما لهم من مقام و منزلة یملأون العین.

هذه الآیة- کما قلنا- تشیر إلی جماعة کبیرة من بنی إسرائیل طلبوا بصوت واحد من نبیّهم أن یختار لهم أمیرا و قائدا لیحاربوا بقیادته

(جالوت) الّذى كان يهدّد مجتمعهم و دينهم و اقتصادهم بالخطر.

و على الرّغم من أنّ الجماعة المذكورة كانت تريد أن تدفع العدو المعتدى الذى أخرجهم من أرضهم و يعيدوا ما أخذ منهم، فقد وصفت تلك الحرب بأنّها فى سبيل اللّه، و بهذا يتبيّن أنّ ما يساعد على تحرّر النّاس و خلاصهم من الأسر و رفع الظّلم و العدوان يعتبر فى سبيل اللّه.

و قد ذكر البعض أنّ اسم ذلك النبى هو (شمعون) و ذكر آخرون بأنّه (إشموئيل) و بعض (يوشع) و لكنّ المشهور بين المفسّرين أنّه (إشموئيل) أى إسماعيل بلغة العرب، و بهذا وردت رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أيضا[۱۷۷].

و لمّا كان نبيّهم يعرف فيهم الضعف و الخوف قال لهم: يمكن أن يصدر إليكم الأمر للجهاد فلا تطيعون قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۲۱۹

لكنّهم قالوا: كيف يمكن أن نتملّص من محاربة العدو الذى أجلانا عن أوطاننا و فرّق بيننا و بين أبنائنا قالُوا وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَ أَبْنائِنا و بذلك أعلنوا و و تمسّكهم بالعهد.

و مع ذلك فإنّ هذا الجمع من بنى إسرائيل لم يمنعهم اسم اللّه و لا ـ أمره و لا ـ الحفاظ على استقلالهم و الدفاع عن وجودهم و لا تحرير أبناءهم من نقض العهد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۰

و لذلك يقول القرآن مباشرة بعد ذلك: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

و ذكر بعض المفسّرين أنّ عدّة من بقى مع طالوت (۳۱۳ نفر) بعدد جيش الإسلام يوم بدر[۱۷۸].

و على كلّ حال فإنّ نبيّهم أجابهم على طلبهم التزاما منه بواجبه و جعل عليهم طالوت ملكا بأمر من اللّه تعالى وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً.

و يتّضح من هذه الآية أنّ اللّه هو الذى اختار طالوت ليكون ملكا على بنى إسرائيل و قائدا لعسكرهم، و لعلّ استعمال كلمة (قد بعث) يشير إلى ما ذكرنا فى القصّة من الحوادث غير المتوقّعة الذى جاءت بطالوت إلى مدينة ذلك النبى و الحضور فى مجلسه، فكذلك يظهر من كلمة (ملكا) أنّ طالوت لم يكن قائدا للجيش فحسب، بل كان ملكا على ذلك المجتمع ۱۷۹].

و من هنا بدأت المخالفات و الاعتراضات و قال بعضهم: قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ

و هذا هو أوّل اعترضا و نقض فى العهد من قبل بنى إسرائيل لنبيّهم مع أنّه قد صرّح لهم أنّ اللّه هو اختار طالوت، و فى الواقع أنّهم اعترضوا على اللّه تعالى بقولهم: (إنّنا أجدر من طالوت بالحكم لأنّ الحكم لا بدّ فيه من شرطين لا يتوفّران فى طالوت و هما: الحسب و النسب من جهة، و المال و الثروة من جهة اخرى، و قد ذكرنا فى القصّة أنّ طالوت كان من قبيلة مغمورة من قبائل بنى إسرائيل، و من حيث الثروة لم يكن سوى مزارع فقير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۱

غير أنّ القرآن الكريم يشير إلى الجواب القاطع على هذا الاعتراض إذ يقول:

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ

فأفهمهم بذلك أنّ اختيار اللّه طالوت ملكا و قائدا لما يتمتّع به من علم و حكمة و عقل، و من الناحية البدنيّة فهو قوى و مقتدر.

و هذا يعنى أوّلا، أنّ هذا الإختيار هو إختيار اللّه تعالى.

و ثانیا: إنّكم علی خطأ كبیر فی تشخیص شرائط القیادة، لأنّ النسب الرّفیع و الثروة الكبیرة لیستا امتیازین للقائد إطلاقا، لأنّهما من الامتیازات الاعتباریة الخارجیّة، أمّا العلم و المعرفة و كذلك القوّة الجسمیّة فهما امتیازان واقعیّان ذاتیان حیث یلعبان دورا مهمّا فی شخصیّة القائد.

إنّ قائد العالم یعرف طریق سعادة المجتمع و یرسم الخطط للوصول إلیه بعلمه و حنكته، و كذلك یرسم الأسلوب الصحیح فی مواجهة الأعداء، ثمّ یقوم بقوّته الجسمانیّة بتمثیل هذا المخطّط علی أرض الواقع.

كلمة (بسطة) إشارة إلی اتساع وجود الإنسان فی أنوار العلم و القوّة، أی أنّ الإنسان بالعلم و الحكمة و القوّة الجسمیّة الكافیة یزداد سعة فی وجوده، و هنا نلحظ أنّ البسطة فی العلم تقدّمت علی القوّة الجسمیّة، لأنّ الشرط الأوّل هو العلم و المعرفة.

و یستفاد ضمنا من هذا التعبیر أنّ مقام الإمامة و القیادة من الأحكام الإلهیّة و أنّ اللّه تعالی هو الذی یشخّص اللّائق لها، فلو رأی اللّیاقة الكافیة فی أولاد الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم لجعل الإمامة عندهم، و لو توفّرت عند أشخاص آخرین لجعلها فیهم، و هذا هو ما یعتقد به علماء الشیعة و یدافعون عنه.

ثمّ تضیف الآیة وَ اللَّهُ یُؤْتِی مُلْكَهُ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ

هذه الجملة یمكن أن تكون إشارة إلی شرط ثالث للقائد، و هو توفیر اللّه

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۲

تعالی الإمكانیّات و آلیات القیادة و وسائل الحكم، لأنّه من الممكن أن یكون قائدا كاملا- من حیث العلم و القوّة و لكنّه محاط بظروف لا تمنحه أیّ استعداد للوصل إلی أهدافه المقدّسة، و لا شكّ أنّ قائدا مع هذه الظّروف لا یمكن أن ینتصر و ینجح فی قیادته، و لذلك یقول القرآن هنا أنّ اللّه تعالی یمنح الحكومة الإلهیّة لمن یشاء، أی أنّه یهیّا الظروف اللازمة لنجاحه.

الآیة التالیة تبیّن أنّ بنی إسرائیل لم یكونوا قد اطمأنوا كلّ الاطمئنان إلی أنّ طالوت مبعوث من اللّه تعالی لقیادتهم علی الرّغم من أن نبیّهم صرّح ذلك لهم، و لهذا طلبوا منه الدّلیل، فكان جوابه أنّ الدلیل سیكون مجیء التابوت أو صندوق العهد إلیهم وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ آیَةَ مُلْكِهِ أَنْ یَأْتِیَكُمُ التَّابُوتُ

فما هو تابوت بنی إسرائیل أو صندوق العهد؟ و من الذی صنعه؟ و ما هی محتویاته؟ فإنّ فی تفاسیرنا و أحادیثنا، و كذلك فی العهد القدیم- التوراة- كلاما كثیرا عنه. إلّا أنّ أوضحها هو ما جاءنا فی أحادیث أهل البیت علیهم السّلام و أقوال بعض المفسّرین من أمثال ابن عبّاس، حیث قالوا إنّ التابوت هو الصندوق الذی وضعت فیه أمّ موسی ابنها موسی و ألقته فی الیمّ، و بعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر و أتوا به إلیه و أخرجوا موسی منه، ظلّ الصندوق فی بیت فرعون ثمّ وقع بأیدی بنی إسرائیل، فكانوا یحترمونه و یتبرّكون به.

موسی علیه السّلام وضع فیه الألواح المقدّسة- التی تحمل علی ظهرها أحكام اللّه- و درعه و أشیاء أخری تخصّه و أودع كلّ ذلك فی أواخر عمره لدی وصیّه یوشع ابن نون.

و بهذا ازدادت أهمیّة هذا الصندوق عند بنی إسرائیل فكانوا یحملونه معهم كلّما نشبت حرب بینهم و بین الأعداء، لیصعّد معنویاتهم، لذلك قیل: إنّ بنی إسرائیل كانوا أعزّة كرماء ما دام ذلك الصندوق بمحتویاته المقدّسة بینهم، و لكن

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۳

بعد هبوط التزاماتهم الدینیة و غلبة الأعداء علیهم سلب منهم الصندوق. و اشموئیل- كما تذكر الآیة- و عدهم بإعادة الصندوق باعتباره دلیلا علی صدق قوله.

فِیهِ سَكِینَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِیَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسی وَ آلُ هارُونَ

هذه الفقرة من الآیة تبیّن أنّ الصندوق كما قلنا كان یحتوی علی أشیاء تضفی السكینة علی بنی إسرائیل و ترفع معنویاتهم فی

الحوادث المختلفة فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

ثمّ إنّ محتويات الصندوق كانت تضمّ آثارا ممّا خلف آل موسى و آل هارون أضيفت إلى ما كان فيه من قبل، و ممّا يجدر ذكره هو أنّ «السكينة» بمعنى الهدوء، و يقصد بها هنا هدوء النفس و القلب.

قال لهم اشموئيل: إنّ الصندوق سوف يعود إليكم لتستعيدوا الهدوء الذى فقدتموه. و فى الحقيقة أنّ هذا الصندوق بطابعه المعنوى و التاريخىّ كان أكثر من مجرّد لواء لبنى إسرائيل و شعار لهم. كان يمثّل رمز استقلالهم و وجودهم و برؤيته كانوا يسترجعون ذكرى عظمتهم السابقة. لذلك كان الوعد بعودته بشارة عظيمة لهم.

تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ.

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد؟ فى هذا أيضا للمفسّرين كلام كثير أوضحها قولهم: جاء فى التاريخ أنّه عند ما وقع صندوق العهد بين عبدة الأصنام فى فلسطين و أخذوه إلى حيث يعبدون فيه أصنامهم، أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيرة، فقال بعضهم: ما هذه المصائب إلّا بسبب هذا الصندوق، فعزموا على إبعاده عن مدينتهم و ديارهم، و لمّا لم يرض أحد بالقيام بالمهمّة اضطّروا إلى ربط الصندوق ببقرتين و أطلقوهما فى الصحراء. و اتّفق هذا فى الوقت الذى تمّ فيه نصب طالوت ملكا على بنى إسرائيل. و أمر اللّه الملائكة أن يسوقوا الحيوانين نحو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۴

مدينة اشموئيل. و عند ما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من اللّه على اختيار طالوت ملكا عليهم.

و عليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة، لأنّهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى بنى إسرائيل.

فى الحقيقة أنّ للملائكة معنى واسعا فى القرآن و الروايات، يشمل فضلا عن الكائنات الروحية العاقلة، مجموعة من القوى الغامضة الموجودة فى هذا العالم.

و يستفاد ممّا تقدّم أنّه بالرّغم من ثبوت مسألة القيادة الإلهيّة لطالوت بالأدلّة و المعاجز الإلهيّة، فهناك بعض الأفراد لضعف إيمانهم لم يسلّموا إلى هذا الحقّ، و قد ظهرت هذه الحقيقة على أعمالهم العباديّة و من ذلك تشير الجملة الأخيرة فى هذه الآية إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

ثمّ أنّ بنى إسرائيل رضخوا لقيادة طالوت فصنع منهم جيوشا كثيرة و ساروا إلى القتال، و هنا تعرّض بنى إسرائيل لاختبار عجيب، و من الأفضل أن نجمع تلك الأحداث و مجريات الأمور من القرآن نفسه حيث يقول: فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ١٨٠].

و يتّضح فى هذه الموارد الامتحان الكبير الذى تعرّض له بنو إسرائيل و هو المقاومة الشديدة للعطش، و كان هذا الامتحان ضروريّا لجيش طالوت و خاصّة مع السّوابق السيّئة لهذا الجيش فى بعض الحروب السابقة، لأنّ الانتصار يتوقّف على مقدار الانضباط و قدرة الإيمان و الاستقامة فى مقابل الأعداء و الطّاعة لأوامر القيادة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۵

و طالوت الذى كان يتّجه بجنوده للجهاد، كان لا بدّ له أن يعلم إلى أىّ مدى يمكن الاعتماد على طاعة هؤلاء الجنود، و على الأخصّ أولئك الذين ارتضوه و استسلموا له على مضض متردّدين، و لكنّهم فى الباطن كانت تراودهم الشكوك بالنّسبة لإمرته، لذلك يؤمر طالوت أمرا إلهيّا باختبارهم، فيخبرهم أنّهم سوف يصلون عمّا قريب إلى نهر، فعليهم أن يقاوموا عطشهم، و ألّا يشربوا إلّا قليلا، و بذلك يستطيع أن يعرف إن كان هؤلاء الذين يريدون أن يواجهوا سيوف الأعداء البتّارة يتحمّلون سويعات من العطش أم لا.

و شرب الأكثرية كما قلنا فى سرد الحكاية، و كما جاء بايجاز فى الآية.

و هكذا جرت التصفية الثانية فى جيش طالوت. و كانت التصفية الأولى عند ما نادى المنادى للاستعداد للحرب و طلب الجميع

بالاشتراك فى الجهاد إلّا الذين كانت لهم التزامات تجارية أو عمرانية أو نظائرها.

فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ

تفيد هذه الآية أنّ تلك القلّة التى نجحت فى الامتحان هى وحدها التى تحرّكت معه، و لكن عند ما خطر لهؤلاء القلّة أنهم مقدمون على مواجهة جيش جرّار و قوى، ارتفعت أصواتهم بالتباكى على قلّة عددهم، و هكذا بدأت المرحلة الثالثة فى التصفية.

قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۱۸۱].

«الفئة» أصلا من «الفيء» بمعنى الرجوع، و يقصد بها الجماعة الملتحمة التى يرجع بعضهم إلى بعض ليعضده. تقول الآية: إنّ الذين كانوا يؤمنون بيوم القيامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۶

إيمانا راسخا قالوا للآخرين: ينبغى ألّا تلتفتوا إلى (الكم) بل إلى (الكيف) إذ كثيرا ما يحدث أنّ الجماعة الصغيرة المتحلّية بالإيمان و العزم و التصميم تغلب الجماعة الكبيرة بإذن اللّه.

ينبغى أن ننتبه إلى أنّ «يظنّون» هنا تعنى يعلمون، أى أنّهم على يقين من قيام يوم القيامة، و لا- يعنى الظنّ هنا الاحتمال، و ظنّ هذه تعنى اليقين فى كثير من الحالات، حتّى لو اعتبرناها بمعنى الاحتمال، فإنّها هنا تناسب المقام أيضا، إذ فى هذه الحالة يكون المعنى أنّ مجرّد احتمال قيام يوم القيامة يكفى، فكيف باليقين به حيث يحمل الإنسان على اتّخاذ قرار بالنسبة للأهداف الربّانية. إنّ من يحتمل النجاح فى حياته- فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو السياسة- يمضى فى مسيرته بكلّ عزم و تصميم.

أمّا لماذا يطلق على يوم القيامة يوم لقاء اللّه، فذلك ما أوضحناه فى الجزء الأول من هذا التفسير.

فى الآية التالية يذكر القرآن الكريم موضوع المواجهة الحاسمة بين الجيشين و يقول: وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ

(برزوا) من مادّة (بروز) بمعنى الظّهور، فعند ما يستعد المحارب للقتال و يتّجه إلى الميدان يقال أنّه برز للقتال، و إذا طلب القتال من الأعداء يقال أنّه طلب مبارزا.

تقول هذه الآية أنّه عند ما وصل طالوت و جنوده إلى حيث ظهر لهم جالوت و جيشه القوى و وقفوا فى صفوف أمامه رفعوا أيديهم بالدّعاء، و طلبوا من اللّه العلىّ القدير ثلاثة امور، الأوّل: الصّبر و الاستقامة إلى آخر حد، و لذا جاءت الجملة تقول: أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً.

و (الإفراغ) تعنى فى الأصل صبّ السائل بحيث يخلو الإناء ممّا فيه تماما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۷

و مجيء (صبر) بصيغة النكرة يؤكّد هذا المعنى بشكل أكبر.

الاعتماد على ربوبيّة الخالق جلّ و علا بقولهم (ربّنا) و كذلك عبارة (إفراغ) مضافا إلى كلمة (على) التى تبيّن أنّ النزول من الأعلى، و كذلك عبارة (صبرا) فى صيغة النكرة كلّ هذه المفردات تدلّ على نكات عميقة لمفهوم هذا الدعاء و أنّه دعاء عميق المغزى و بعيد الأفق.

الثانى: أنّهم طلبوا من اللّه تعالى أن يثبّت أقدامهم وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا حتّى لا يرجّح الفرار على القرار، و الواقع أنّ الدعاء الأوّل اتّخذ سمة الطلب النفسى و الباطنى، و هذا الدعاء له جنبة ظاهريّة و خارجيّة، و من المسلّم أنّ ثبات القدم هو من نتائج روح الاستقامة و الصبر.

الثالث: من الأمور التى طلبها جيش طالوت هو وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ و هو فى الواقع الهدف الأصلى من الجهاد و ينفّذ النتيجة النهائيّة للصبر و الاستقامة و ثبات الأقدام.

و من المسلّم أنّ اللّه تعالى سوف لا يترك عبادة هؤلاء لوحدهم أمام الأعداء مع قلّة عددهم و كثرة جيش العدو، و لذلك تقول الآية التالية: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ

و کان داوود فی ذلک الوقت شابّا صغیر السن و شجاعا فی جیش طالوت. و لا تبیّن الآیة کیفیّة قتل ذلک الملک الجبّار بید داود الشاب الیافع، و لکن کما تقدّم فی شرح هذه القصّة أنّ داود کان ماهرا فی قذف الحجارة بالقلّاب حیث وضع فی قلّابه حجرا أو اثنین و رماه بقوّة و بمهارة نحو جالوت، فأصاب الحجر جبهته بشدّة فصرعه فی الوقت، فتسرب الخوف إلی جمیع أفراد جیشه، فانهزموا بسرعة أمام جیش طالوت، و کأنّ اللّه تعالی أراد أن یظهر قدرته فی هذا المورد و أنّ الملک العظیم و الجیش الجرّار لا یستطیع الوقوف أمام شاب مراهق مسلّح بسلاح ابتدائی لا قیمة له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۸

تضیف الآیة: وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا یَشاءُ الضمیر فی هاتین الجملتین یعود علی داود الفاتح فی هذه الحرب، و علی الرّغم من أنّ الآیة لا تقول أنّ داود هذا هو داود النبی والد سلیمان علیهما السّلام و لکنّ جملة وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا یَشاءُ تدلّ علی أنّه وصل إلی مقام النبوّة، لأنّ هذا ممّا یوصف به الأنبیاء عادة، ففی الآیة ۲۰ من سورة ص نقرأ عن داود وَ شَدَدْنا مُلْکَهُ وَ آتَیْناهُ الْحِکْمَةَ کما أنّ الأحادیث الواردة فی ذیل هذه الآیة تشیر إلی أنّه کان داود النبی نفسه.

و هذه العبارة یمکن أن تکون إشارة إلی العلم الإداری و تدبیر البلاد و صنع الدّروع و وسائل الحرب و أمثال ذلک حیث کان داود علیه السّلام یحتاج إلیها فی حکومته العظیمة، لأنّ اللّه تعالی لا یعطی منصبا و مقاما لأحد العباد إلّا و یؤتیه أیضا الاستعداد الکامل و القابلیّة اللّازمة لذلک.

و فی ختام الآیة إشارة إلی قانون کلّی فتقول: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لکِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَی الْعالَمِینَ فاللّه سبحانه و تعالی رحیم بالعباد و لذلک یمنع من تشرّی الفساد و سرایته إلی المجتمع البشری قاطبة.

و صحیح أنّ سنّة اللّه تعالی فی هذه الدنیا تقوم علی أصل الحریّة و الإرادة و الإختیار و أنّ الإنسان حرّ فی اختیار طریق الخیر أو الشر، و لکن عند ما یتعرّض العالم إلی الفساد و الاندثار بسبب طغیان الطواغیت، فإنّ اللّه تعالی یبعث من عباده المخلصین من یقف أمام هذا الطغیان و یکسر شوکتهم، و هذه من ألطاف اللّه تعالی علی عباده. و شبیه هذا المعنی ورد فی آیة ۴۰ من سورة الحج وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِیَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ ....

و هذه الآیات فی الحقیقة بشارة للمؤمنین الّذین یقفون فی مواقع إمامیّة من مواجهة الطّواغیت و الجبابرة فینتظرون نصرة اللّه لهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۹

و یرد هنا سؤال، و هو أنّ هذه الآیة هل تشیر إلی مسألة تنازع البقاء التی تعتبر أحد الأرکان الأربعة لفرضیة دارون فی مسألة تکامل الأنواع؟ تقول الفرضیّة أنّ الحرب و النّزاع ضروریّ بین البشر، و إلّا فالسّکون و الفساد سیعم الجمیع، فتعود الأجیال البشریّة إلی حالتها الأولی، فالتّنازع و الصّراع الدائمی یؤدّی إلی بقاء الأقوی و زوال الضعفاء و انقراضهم، و هکذا یتمّ البقاء للأصلح بزعمهم.

الجواب:

إنّ هذا التفسیر یصح فیما إذا قطعنا صله هذه الآیة لما قبلها تماما، و کذلک الآیة المشابهة لها فی سورة الحجّ و لکنّنا إذا أخذنا بنظر الإعتبار هذه الآیات رأیناها تدور حوّل محاربة الظّالمین و الطّغاة، فلو لا منع اللّه تبارک و تعالی لملؤوا الأرض ظلما و جورا، فعلی هذا لا تکون الحرب أصلا کلیّا مقدّسا فی حیاة البشریّة.

ثمّ أنّ ما یقال عن قانون (تنازع البقاء) المبنی علی المبادئ الأربعة لنظریّة دارون فی (تطوّر الأنواع) لیست قانونا علمیّا مسلّما، به بل هو فرضیّة أبطلها العلماء، و حتّی الّذین کانوا یؤیّدون نظریّة تکامل الأنواع لم یعدّ أیّا منهم یعوّل علیها و یعتبرون تطوّر الأحیاء نتیجة الطفرة[۱۸۲].

و إذا ما تجاوزنا عن کلّ ذلک و اعتبرنا فرضیّة تنازع البقاء مبدء علمیّا فإنّه یمکن أن یکون کذلک فیما یتعلّق بالحیوان دون الإنسان، لأنّ حیاة الإنسان لا یمکن أن تتطوّر وفق هذا المبدأ أبدا، لأنّ تکامل الإنسان یتحقّق فی ضوء التّعاون علی البقاء لا تنازع البقاء.

و یبدو أنّ تعمیم فرضیّة تنازع البقاء علی عالم الإنسان انّما هو ضرب من الفکر الاستعماری الّذی یؤکّده بعض علماء الاجتماع فی الدول الرأسمالیة لتسویغ حروب حکوماتهم الدمویّة البغیضة و إطفاء الطّابع العلمی علی سلوکیاتهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۰

و جعل الحرب و النزاع ناموسا طبیعیا لتطوّر المجتمعات الإنسانیة و تقدّمها، أمّا الأشخاص الّذین وقعوا دون وعی تحت تأثیر أفکار هؤلاء اللّاإنسانیّة و راحوا یطبّقون هذه الآیة علیها فهم بعیدون عن تعالیم القرآن، لأنّ القرآن یقول بکلّ صراحة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِی السِّلْمِ کَافَّةً[۱۸۳].

و من العجب أنّ بعض المفسّرین المسلمین مثل صاحب المنار و کذلک (المراغی) فی تفسیره وقعوا تحت تأثیر هذه الفرضیّة إلی الحدّ الذی اعتبروها أحد السنن الإلهیّة، ففسّروا بها الآیة محلّ البحث و تصوّروا أنّ هذه الفرضیّة من إبداعات القرآن لا من ابتکارات و اکتشافات دارون، و لکن کما قلنا أنّ الآیة المذکورة لیست ناظرة إلی هذه الفرضیّة، و لا أنّ هذه الفرضیّة لها أساس علمی متین، بل أنّ الأصل الحاکم علی الروابط بین البشر هو التعاون علی البقاء لا تنازع البقاء.

و آخر آیة فی هذا البحث تقول: تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ

تشیر هذه الآیة إلی القصص الکثیرة التی وردت فی القرآن بشأن بنی إسرائیل و أنّ کلّا منها دلیلا علی قدرة اللّه و عظمته و منزّهة عن کلّ خرافة و أسطورة (بالحقّ) حیث نزلت علی نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کانت إحدی دلائل صدق نبوّته و أقواله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۱

الجزء الثالث من القرآن الکریم من الآیة ۲۵۳ من سورة البقرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۳

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۵۳]

اشارة

تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ کَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ آتَیْنا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ الْبَیِّناتِ وَ أَیَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ وَ لکِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ کَفَرَ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لکِنَّ اللَّهَ یَفْعَلُ ما یُرِیدُ (۲۵۳)

التّفسیر

دور الأنبیاء فی حیاة البشر:

هذه الآیة تشیر إلی درجات الأنبیاء و مراتبهم و جانبا من دورهم فی حیاة المجتمعات البشریة، تقول الآیة: تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ

«تلک» اسم إشارة للبعید. و الإشارة إلی البعید- کما نعلم- تستعمل أحیانا لإضفاء الاحترام و التبجیل علی مقام الشخص أو الشیء المشار إلیه، هنا أیضا أشیر إلی الرسل باسم الإشارة «تلک» لتبیان مقام الأنبیاء الرفیع.

و اختلف المفسّرون فی المقصود بالرسل هنا، هل هم جمیع الرسل و الأنبیاء؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۴

أم هم الرسل الذين وردت أسماؤهم أو ذكرت حكاياتهم في ما سبق من آيات هذه السورة فقط، مثل إبراهيم، موسى، عيسى، داود، اشموئيل؟ أم هم جميع الرسل الذين ذكرهم القرآن حتّى نزول هذه الآية؟

و لكن يبدو أنّ المقصود هم الأنبياء و المرسلون جميعا، لأنّ كلمة «الرسل» جمع حلّى بالألف و اللام الدالّتين على الاستغراق، فتشمل الرسل كافّة.

فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ

يتّضح جليّا من هذه الآية أنّ الأنبياء- و إن كانوا من حيث النبوّة و الرسالة متماثلين- هم من حيث المركز و المقام ليسوا متساوين لاختلاف مهمّاتهم، و كذلك مقدار تضحياتهم كانت مختلفة أيضا.

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ

هذه إشارة إلى بعض فضائل الأنبياء، و واضح أنّ المقصود بالآية موسى عليه السّلام المعروف باسم «كليم اللّه»، كما أنّ الآية ۱۶۳ من سورة النساء تقول عنه وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً.

أمّا القول بأنّ المقصود هو نبيّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أنّ التكليم المنظور هنا هو التكليم الذى كان فى ليله المعراج مع الرسول، أو أنّ المراد هو الوحى الإلهى الذى ورد فى آية ۵۱ من سورة الشورى وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً ...

حيث اطلق عليه عنوان التكلّم، فإنّه بعيد جدّا، لأنّ الوحى كان شاملا لجميع الأنبياء، فلا يتلائم مع كلمة «منهم» لأنّ (من) تعبضيّة.

ثمّ تضيف الآية وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ و مع الالتفات إلّا أنّ الآية أشارت إلى التفاضل بين الأنبياء بالدّرجات و المراتب، فيمكن أن يكون المراد فى هذا التكرار إشارة إلى أنبياء معيّنين و على

رأسهم نبيّ الإسلام الكريم لأنّ دينه آخر الأديان و أكملها، فمن تكون رسالته الإبلاغ أكمل الأديان لا بدّ أن يكون هو نفسه أرفع المرسلين، خاصّة و أنّ القرآن يقول فيه فى الآية ۴۱ من سورة النّساء فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً[۱۸۴].

و الشاهد الآخر على هذا الموضوع، و هو أنّ الآية السابقة تشير إلى فضيلة موسى عليه السّلام، و الآية التالية تبيّن فضيلة عيسى عليه السّلام، فالمقام يتطلّب الإشارة إلى فضيلة رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ كلّ واحد من هؤلاء الأنبياء الثلاثة كان صاحب أحد الأديان الثلاثة العظيمة فى العالم. فإذا كان اسم نبيّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد جاء بين اسميهما، فلا عجب فى ذلك، أو ليس دينه الحدّ الوسط بين دينيهما و أنّ كلّ شيء قد جاء فيه بصورة معتدلة و متعادلة؟ ألا يقول القرآن: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً[۱۸۵]! و مع ذلك، فإنّ العبارات المتقدّمة فى هذه الآية تدلّ على أنّ المقصود من رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ هم بعض الأنبياء السابقين، مثل إبراهيم إذ يقول سبحانه فى الآية التالية: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أى لو شاء اللّه ما أخذت امم هؤلاء الأنبياء تتقاتل فيما بينها بعد رحيل أنبيائها.

وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

أى أنّنا وهبنا عيسى عليه السّلام براهين واضحة مثل شفاء المرضى المزمنين و إحياء الموتى و المعارف الدينيّة السامية.

أمّا المراد من (روح القدس) هل هو جبرئيل حامل الوحى الإلهى، أو قوى اخرى غامضة موجودة بصورة متفاوتة لدى أولياء اللّه؟ تقدّم البحث مشروحا فى الآية ۸۷ من سورة البقرة، و عند ما تؤكّد هذه الآية على أنّ عيسى عليه السّلام كان مؤيّدا

بروح القدس فلأنّه كان يتمتّع بسهم أوفر من سائر الأنبياء من هذه الرّوح المقدّسة.

و تشير الآية كذلك إلى وضع الأمم و الأقوام السالفة بعد الأنبياء و الاختلافات التى جرت بينهم فتقول: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ

مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ فمقام الأنبياء و عظمتهم لن يمنعا من حصول الاختلافات و الاقتتال و الحرب بين أتباعهم لأنّها سنّة إلهيّة أن جعل اللّه الإنسان حرّا و لكنّه أساء الاستفادة من هذه الحريّة وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ.

و من الواضح أنّ هذا الاختلاف بين الناس ناشئ من اتّباع الأهواء و الشّهوات و إلّا فليس هناك أيّ صراع و اختلاف بين الأنبياء الإلهيّين حيث كانوا يتّبعون هدفا واحدا.

ثمّ تؤكّد الآية أنّ اللّه تعالى قادر على منع الاختلافات بين النّاس بالإرادة التكوينيّة و بالجبر، و لكنّه يفعل ما يريد وفق الحكمة المنسجمة مع تكامل الإنسان و لذلك تركه مختارا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ.

و لا شكّ في أنّ بعض الناس أساء استخدام هذه الحرّيّة، و لكنّ وجود الحرّيّة في المجموع يعتبر ضروريّا لتكامل الإنسان، لأنّ التكامل الإجبارى لا يعدّ تكاملا.

و ضمنا يستفاد من هذه الآية الّتى تعرّضت إلى مسألة الجبر مرّة اخرى بطلان الإعتقاد بالجبر، حيث تثبت أنّ اللّه تعالى ترك الإنسان حرّا فبعض آمن و بعض كفر.

مسألة: هل الأديان تسبّب الاختلافات؟

يتّهم بعض الكتّاب الغربيين الأديان على أنّها هى سبب التفرقة و النزاع بين أفراد البشر، و هى السبب فى إراقة الكثير من الدماء، فالتاريخ شهد الكثير من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۷

الحروب الدينية، و هكذا سعوا إلى إدانة الأديان و اعتبارها من الأسباب المثيرة للحروب و المخاصمات.

و إزاء هذا القول لا بدّ من الانتباه إلى ما يلى:

أولا: أنّ الاختلافات- كما جاء فى الآية المذكورة- لا تنشأ فى الحقيقة بين الأتباع الصادقين لدين من الأديان، بل هى بين أتباع الدين و مخالفيه. و إذا ما شاهدنا صراعا بين أتباع مختلف الأديان فإنّ ذلك لم يكن بسبب التعاليم الدينية، بل بسبب تحريف التعاليم و الأديان و بالتعصّب المقيت و مزج الأديان السماوية بالخرافات.

ثانيا: إنّ الدين- أو تأثيره- قد انحسر اليوم عن قسم من المجتمعات البشرية، و مع ذلك نرى أنّ الحروب قد ازدادت قسوة و اتساعا و انتشرت فى مختلف أرجاء العالم. فهل أن الدين هو السبب، أم أنّ روح الطغيان فى مجموعة من البشر هى السبب الحقيقى لهذه الحروب، و لكنّها تظهر اليوم بلبوس الدين، و فى يوم آخر بلبوس المذاهب الاقتصادية و السياسية، و فى أيّام اخرى بقوالب و مسمّيات أخرى؟! و عليه فالدين لا ذنب له فى هذا، إنّما الطغاة هم الذين يشعلون نيران الحروب بحجج متنوّعة.

ثالثا: إنّ الأديان السماوية- و على الأخصّ الإسلام- التى تكافح العنصرية و القومية، كانت سببا فى إلغاء الحدود العنصرية و الجغرافية و القبلية، فقضت بذلك على الحروب التى كانت تثار باسم هذه العوامل. و عليه فإن الكثير من الحروب فى التاريخ قد خمدت نيرانها بفضل الدين. كما أنّ روح السلام و الصداقة و الأخلاق و العواطف الإنسانية التى ترفع لواءها جميع الأديان السماوية، كان لها أثر عميق فى تخفيض الخصومات و المشاكسات بين مختلف الأقوام.

رابعا: أنّ من رسالات الأديان السماوية تحرير الطبقات المحرومة المعذّبة، و كانت هذه الرسالة هى سبب الحروب التى شنّها الأنبياء و أتباعهم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۸

الظالمين و المستغلّين، من أمثال فرعون و النمرود. إنّ هذه الحروب التى تعتبر جهادا فى سبيل تحرير الإنسان، ليست عيوبا تلصق

بالأديان، بل هى من مظاهر فخرها و اعتزازها و قوّتها. إنّ حروب رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم مع المشركين من العرب و المرابين فى مكّة من جهة، و مع قيصر و كسرى من جهة أخرى، كانت كلّها من هذا القبيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۹

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۵۴)

التّفسير

الإنفاق من أهمّ أسباب النجاة يوم القيامة:

بعد أن تحدّثت الآيات السّابقة عن الأمم الماضية و جهاد حكوماتها الإلهيّة و الاختلافات الّتى حدثت بعد الأنبياء عليهم السّلام تخاطب هذه الآية المسلمين و تشير إلى أحد الواجبات المهمّة عليهم الّتى تسبّب فى تقوية بنيتهم الدّفاعيّة و توحّد كلمتهم فتقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ

جملة مِمَّا رَزَقْناكُمْ لها مفهوم واسع حيث يشمل الإنفاق الواجب و المستحب، و كذلك الإنفاق المعنوى كالتعليم و أمثال ذلك، و لكن مع الالتفات إلى التهديد الوارد فى ذيل الآية لا يبعد أن يكون المراد به الإنفاق الواجب يعنى الزكاة و أمثالها، مضافا إلى أنّ الإنفاق الواجب هو الّذى يعزّز بيت المال و يقوّم كيان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۰

الحكومة، و بهذه المناسبة يشير تعبير (ممّا) أنّ هذا الإنفاق يكون بجزء من المال الّذى يملكه الشخص لا كلّه.

و قد رجّح المرحوم (الطبرسى) فى مجمع البيان شموليّة الآية للإنفاق الواجب و المستحب، و ذهب إلى أنّ ذيل الآية لا يعتبر تهديدا، بل هو إخبار عن الحوادث المخوفة يوم القيامة[۱۸۶].

و لكن مع ملاحظة آخر جملة فى هذه الآية الّتى تقول إنّ الكافرين هم الظالمون يتضح أنّ ترك الإنفاق نوع من الكفر و الظلم، و هذا لا يكون إلّا فى الإنفاق الواجب.

ثمّ تضيف الآية مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ[۱۸۷].

عليكم أن تنفقوا ما دمتم اليوم قادرين على ذلك، لأنّ العالم الآخر الذى هو محلّ حصاد ما زرعتموه فى الدنيا لن يتسنى لكم فيه أن تفعلوا شيئا، فلا معاملات و لا صفقات تجارية تستطيعون بها أن تشتروا السعادة و الخلاص من العقاب، و لا هذه الصداقات الماديّة التى تكسبونها فى الدنيا بأموالكم تنفعكم فى شيء هناك، لأنّ أصدقاءكم أنفسهم يعانون نتائج أعمالهم و لا يدفعون من أنفسهم للآخرين، و لا تنفعكم شفاعة، لأنكم بتخلّفكم حتّى عن الإنفاق الواجب لم تفعلوا ما هو جدير بأن يشفع لكم. و عليه فإنّ جميع أبواب النجاة مسدودة بوجوهكم.

وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأنهم بتركهم الإنفاق و الزكاة يظلمون أنفسهم و يظلمون الناس.

و يريد القرآن فى هذه الآية أن يوضّح ما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۱

أولا: إنّ الكافرين يظلمون أنفسهم، فبتركهم الإنفاق الواجب و سائر التكاليف الدينية و الإنسانية حرموا أنفسهم من أعظم السعادات، و أنّ أعمالهم هذه هى التى تثقل كواهلهم فى العالم الآخر، لذلك فإنّ اللّه لم يظلمهم أبدا.

ثانيا: يظلم الكافرون أفراد مجتمعهم أيضا، لأنّ الكفر منبع القسوة و تحجّر القلب و التمسّك بالمادة و عبادة الدنيا، و هذه كلّها من مصادر الظلم، لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الكفر فى الآية يعنى التمرّد و العصيان و التخلّف عن إطاعة أمر اللّه لورود الكلمة بعد الأمر بالإنفاق. و استعمال الكفر بهذا المعنى شائع فى القرآن و غيره من النصوص الإسلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۲

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۵]

اشارة

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۲۵۵)

آية الكرسى من أهم آيات القرآن:

يكفى لبيان أهميّة و فضيلة هذه الآية

قول الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما سأله (أبى بن كعب): أى آية من آيات كتاب اللّه أفضل؟ فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم: اللّه لا إله إلّا هو الحىّ القيّوم.

قال: فضرب يده فى صدرى ثمّ قال: ليهنك العلم، و الذى نفس محمّد بيده إن لهذه الآية لسانا و شفتين يقدس الملك للّه عن ساق العرض.

و فى حديث آخر عن علىّ عليه السّلام عن رسول اللّه قال: سيّد القرآن البقرة و سيّد البقرة آية الكرسى، يا على إنّ فيها لخمسين كلمة فى كلّ كلمة خمسون بركة،

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: من قرأ آية الكرسى مرة صرف اللّه عنه ألف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۳

مكروه من مكاره الدنيا و ألف مكروه من مكاره الآخرة أيسر مكروه الآخرة أيسر مكروه الدنيا الفقر و أيسر مكروه الآخرة عذاب القبر. و عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: إن لكلّ شىء ذروة و ذروة القرآن آية الكرسى ۱۸۸].

و الروايات الواردة فى كتب العلماء الشيعة و السنّة فى فضيلة هذه الآيات الشريفة كثيرة جدّا و نختتم كلامنا هذا

بروايتين عن رسول اللّه قال أعطيت آية الكرسى من كنز تحت العرض و لم يؤتها نبىّ كان قبلى

[۱۸۹].

و

فى حديث آخر أنّ أخوين جاء إلى رسول اللّه فقالا- نريد الشام فى التّجارة فعلمنا ما نقول؟ فقال: نعم، إذا آويتما إلى منزل، فصليا العشاء الآخرة، فإذا وضع أحدكما جنبه على فراشه بعد الصلاة، فليسبّح تسبيح فاطمة، ثمّ ليقرأ آية الكرسى فإنه محفوظ من كلا شىء

حتّی یصبح. و جاء فی ذیل الحدیث أن لصوصا تبعوهما و سعوا فی سرقة ما معهما إلّا أنهم لم یفلحوا فی ذلک ۱۹۰].
و من المعلوم أنّ کلّ هـذه الأهمیّة و الفضـیلة لآیة الکرسـی إنّما هی للمحتوی العمیق و المغزی المهم لها و الّذی سوف نلحظه ضـمن تفسیرها.

التّفسیر

مجموعة من صفات الجمال و الجلال:

تبدأ الآیة بذکر الذّات المقدّسة و مسألة التوحید فی الأسماء الحسنی و الصّفات العلیا للّه عزّ و جلّ فتقول: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.
(اللّه) یعنی الذّات الواحدة الجامعة لصفات الکمال، إنّه خالق عالم الوجود،
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۴
لذا لیس فی عالم الوجود معبود جدیر بالعبادة غیره.
و بعبـارة لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ یبیّن القرآن وحدانیـة خالق الوجود التی هی أساس الإسـلام، و لکن هـذه الحقیقـة- کما قلنا- موجودة فی لفظة «اللّه».
لذلک فإنّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ تأکید لتلک الحقیقة نفسها.
«الحی» من کانت فیه حیاة، و هـذه الصـفة المشـبّهة، کمثیلاتها تـدلّ علی الـدوام و الاسـتمرار. و حیاة اللّه حیاة حقیقیة، لأنّ حیاته عین ذاته، و لیس عارضة علیه مأخوذة من غیره. فی الآیة ۵۸ من سورة الفرقان یقول: وَ تَوَکَّلْ عَلَی الْحَیِّ الَّذِی لا یَمُوتُ
هـذا من جهة، و من جهة أخری تکون الحیاة الکاملة حیاة لا یعتریها الموت، و علیه فإنّ الحیاة الحقیقیة هی حیاته الباقیة من الأزل إلی الأبـد، أمّـا حیـاة الإنسـان التی یخالطهـا الموت فی هـذه الـدنیا فلا یمکن أن تکون حیاة حقیقیـة، لـذلک نقرأ فی الآیـة ۶۴ من سـورة العنکبوت: وَ ما هذِهِ الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَیَوانُ و علی ذلک فإنّ الحیاة الحقیقیة هی التی تختصّ باللّه.

و لکن ما مفهوم «اللّه حیّ»؟

فی التعبیر السائـد نقول للکائن أنّه حیّ إذا کان یتّصف بالنموّ و التغذیـة و التکاثر و الجذب و الدفع، و قد یتّصف بالحسّ و الحرکة. و لکن لا بدّ من الانتباه إلی أنّ بعضا من السذّج قد یحسـبون حیاة اللّه شبیهة بهذه، مع علمنا بأنّه لا یتّصف بأیّة واحدة من هذه الصفات.
هذا هو القیاس الذی یوقع الإنسان فی أخطاء فی حقل معرفة اللّه، حین یقیس صفات اللّه بصفاته.
«الحیاة» بمعناها الواسع الحقیقی هی العلم و القدرة، و علیه فإنّ من یملک العلم و القدرة اللامتناهیتین یملک الحیاة الکاملة.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۵
حیاة اللّه هی مجموعـة علمه و قـدرته، و فی الواقع بالعلم و القـدرة یمکن التمییز بین الحیّ و غیر الحیّ. أمّا النموّ و الحرکة و التغذیة و التکاثر فهی صـفات کائنات ناقصـة و محـدودة، فهی تکمل نقصـها بالتغذیـة و التکاثر و الحرکـة، أمّا الـذی لا نقص فیه فلا یمکن أن یتّصف بمثل هذه الصفات.
«القیوم» صـیغة مبالغـة من القیام. لـذلک فالکلمـة تـدلّ علی الموجود الـذی قیامه بـذاته، و قیام کلّ الکائنات بوجوده، و بعبارة أخری: جمیع کائنات العالم تستند إلیه.

بـدیهیّ أنّ القیام کما هو الشائع فی الکلام الیومی هو الوقوف و بالهیئـة المعروفـة، و لکن بما أنّ هذا المعنی لا یتّفق مع اللّه المنزّه عن الصـفات الجسـمیة، لـذلک فالمقصود به هو القیام بالخلق و التـدبیر و التعهّـد، فإنّه هو الـذی خلق المخلوقات کلّها و تعهّـد بتدبیرها و تربیتها و إدامتها، و لن یغفل عنها لحظة واحدة، فهو قائم دائما و أبدا و باستمرار دون توقّف.

و یتّضـح من هـذا أنّ «قیّوم» هی فی الواقع أسـاس کـلّ صـفات الفعل- و هی الصـفات التی تبیّن علاقـة اللّه بالموجودات مثل الخالق، الرزاق، الهادی، المحیی، و أمثالها-.

فالقیام بالخلق و تـدبیر أمور العالم یشـمل کلّ هذه الأمور، فهو الذی یرزق، و هو الذی یحیی، و هو الذی یمیت، و هو الذی یهدی. و علیه فإنّ صفات الخالق و الرازق و الهادی و المحیی و أمثالها تتجمّع کلّها فی «القیّوم».

و من هنا یتّضـح أن تحدیـد البعض لمفهوم هـذه الجملة بالقیام بأمر الخلقة أو القیام بأمر الرّزق و أمثال ذلک، هو فی الواقع إشارة إلی أحـد مصادیق القیام، فی حین أنّه مفهومه واسع و یشـمل کلّ ذلک، لأنّ مفهومه کما قلنا یعطی معنی القائم بالذّات و غیره متقوّم به و محتاج له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۶

و فی الحقیقـة أنّ (الحیّ) یشـمل جمیع الصّـِفات الإلهیّـة کـالعلم و القـدرة و السّـمیع و البصـیر و أمثال ذلک، و (القیّوم) تتحـدّث عن احتیاج جمیع المخلوقات إلیه، و لذا قیل أنّ الاسم الأعظم الإلهی هو مجموع هاتین الصّفتین.

ثمّ تضیف الآیة لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ

(سـنة) من مادّة (و سن) و تعنی کما یقول کثیر من المفسّـرین أنّها الإغفاءة و الاسترخاء الّذی یکون فی بدایة النوم، و بعبارة اخری أنّه النّوم الخفیف، و (نوم) یعنی الحالة الّتی ترکد فیها بعض حواس الإنسان المهمّة، و فی الواقع أنّ (سـنة) عبارة عن النوم العارض للعین، و لکن عند ما یتوغّل کثیرا فی الإنسان و یتعمّق و یعرض علی العقل فیقال له (نوم) و جملة لا تَأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَ لا نَوْمٌ هی فی الواقع تأکید لصـفة القیّوم التی یوصف بها اللّه، لأنّ القیام الکامل و المطلق بتدبیر عالم الوجود یتطلّب عدم إغفال ذلک حتّی للحظة واحدة. أی إنّ اللّه لا یغفل طرفة عین عن حکمه المطلق علی عالم الوجود و إدارته.

لـذلک فکلّ صـفة لا تتفق مع قیّومیـة اللّه تنتفی من ساحة قدس اللّه تلقائیا، بل انّ ذاته منزّهة حتّی عن أتفه عامل یمکن أن یؤدّی إلی أیّ تهاون فی عمله، مثل «السّنة».

أمّـا سـبب تقـدیم «السـنة» علی «النوم» فی الآیـة مع أنّ القویّ یـذکر عادة قبل الضـعیف، فیعود إلی التتالی الطبیعی فی عملیـة النوم، إذ تنتاب المرء «السنة» أوّلا ثمّ تزداد عمقا حتّی تورده فی النوم العمیق.

و تشـیر هذه الآیة إلی حقیقة اسـتمرار فیض اللطف الإلهی و دیمومته و عدم انقطاعه عن وجوده لحظة واحدة، فهو لیس کعبادة الذین یغفلون عن الآخرین بسبب النوم أو أیّ عامل آخر.

یلاحظ أنّ تعبیر لا تَأْخُذُهُ تعبیر رائع یؤدّی الغرض بدقّة، و هو یصوّر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۷

استیلاـء النوم علی الإنسان تصویرا مجسّـدا، و کأنّ النوم کائن قویّ ذو مخالب تمسک بالإنسان بقوّة و تأسـره، إنّ ضـعف أقوی الناس أمام سلطان النوم أمر لا اختلاف فیه.

مالکیة اللّه المطلقة

لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ

لا يكون هناك قيام بشؤون العالم بغير ملكية السماوات و الأرض و ما فيها، لذلك فهذه الآية- بعد ذكر قيّومية اللّه- تشير إلى حقيقة كون العالم كلّه ملك خاصّ للّه، و أنّ كلّ تصرّف يحدث فيه فبأمر منه.

و عليه، فإنّ الإنسان ليس المالك الحقيقى لما عنده و لما يقع تحت تصرّفه، بل أنّه يتصرّف فيه لمدّة محدودة و وفق شروط معيّنة قرّرها المالك الحقيقى، لذلك فعلى هؤلاء المالكين المؤقّتين أن يلتزموا تمام الالتزام بالشروط التى وصفها المالك الحقيقى، و إلّا فإنّ مالكيّتهم المؤقّتة هذه تصبح باطلة و تصرّفهم غير جائز.

الشروط المطلوبة للتصرّف بملك اللّه هى التى وردت فى الشرع و أبغت للناس.

من الواضح أنّ التقيّد بهذا يعتبر فى الواقع عاملا مهمّا من عوامل التربية، إذا اعتقد الإنسان أنّه ليس المالك الحقيقى لما يملك و إنما هو يتصرّف به لفترة قصيرة من الزمن، فسيمتنع- دون شكّ- عن الاعتداء على حقوق الآخرين و عن الحرص و الطمع و الاحتكار و البخل و أمثالها ممّا يتولّد فى الإنسان نتيجة التصاقه بالدنيا، فيكون ذلك مدعاة لتربيته تربية تجعله قانعا بحقوقه المشروعة[۱۹۱].

مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ و هذا فى الواقع ردّ على ادّعاء المشركين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۸

الذين يقولون إننا نعبد الأوثان لتكون شفعاءنا عند اللّه كما ورد فى الآية ۳ من سورة الزمر ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى ۱۹۲].

و هذه الآية من نوع الاستفهام الاستنكارى، أى ما من أحد يتقدّم بشفاعة إليه بإذنه. هذه الآية تكمل فى الواقع معنى قيّومية اللّه و مالكيته المطلقة لجميع ما فى عالم الوجود. أى أننا إذا رأينا أحدا يشفع عند اللّه، فليس معنى ذلك أنّه يملك شيئا و أنّ له تأثيرا مستقلّا، بل أنّ مقامه فى الشفاعة هبة من اللّه. و لمّا كانت شفاعته بإذن اللّه، فإنّ هذا بذاته دليل آخر على قيّومية اللّه و مالكيته.

بحث

الشفاعة ليست محسوبية:

«الشفاعة»[۱۹۳] هى العون الذى يقدّمه قويّ لضعيف لكى يساعده على اجتياز مراحل تكامله بسهولة و نجاح.

إلّا أنّ الكلمة تستعمل عادة فى التوسّط لغفران الذنوب. غير أنّ مفهوم الشفاعة أوسع من ذلك و تشمل جميع العوامل و الدوافع و الأسباب فى عالم الوجود، على سبيل المثال التربة و الماء و الهواء و أشعة الشمس هى العوامل الأربعة التى تشفع لبذرة النبات و تعينها على الوصول إلى مرحلة النضج لتصبح شجرة أو نبتة متكاملة. و لو نظرنا إلى الشفاعة فى الآية الكريمة بهذا المعنى الواسع أدركنا أنّ وجود العوامل و الأسباب المختلفة لا يحدّد مالكيّة اللّه المطلقة و لا يقلّل منها، لأنّ تأثير هذه العوامل كافّة لا يكون إلّا بإذن اللّه و أمره، و هذا أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۹

دليل على قيّوميته و مالكيته.

بيد أنّ بعضهم يظنّ أنّ الشفاعة فى المفاهيم الدينية تشبه التوصيات و المحسوبيات و المنسوبيات، و أنّ مفهومها العام هو السماح للإنسان أن يرتكب ما يشاء من المعاصى، ثمّ يتوسّل بالشفاعة لغفران ذنوبه كلّها بيسر و سهولة!! و لكن الأمر ليس كذلك، فلا المعترضون أدركوا شيئا من منطق الدين فى موضوع الشفاعة، و لا- العاصون المتجرّئون على حدود اللّه فهموا ذلك. فالشفاعة التى يقوم بها بعض عباد اللّه المقرّبين يمكن اعتبارها- كما قلنا- شفاعة تكوينية تتحقّق بوساطة عوامل طبيعية، كما تتحقّق فى بذرة النبات.

و كما أنّ البذرة لا تنمو إن لم تكن فيها عوامل الحياة حتّى لو سطعت عليها الشمس و هبّت عليها الرياح و هطل عليها المطر الهتون

سنوات طویلة، کذلک شفاعة أولیاء اللّه لغیر المؤهّلین، لن یکون لها أیّ أثر، أو قل إنهم لا یمکن أن یشفعوا لأمثال هؤلاء.

الشفاعة تستلزم نوعا من العلاقة المعنویة بین الشفیع و المشفوع له. لذلک فإنّ علی من یرجو الشفاعة أن یقیم فی هذه الدنیا علائق روحیة مع من یتوقّع شفاعته.

و هذه العلائق ستکون- فی الواقع- وسیلة من وسائل تربیة المشفوع له بحیث إنّها تقرّبه من مدرسة أفکار الشفیع و أعماله، و هذا ما سیوصله إلی أن یکون مؤهّلا لنیل تلک الشفاعة.

و بناء علی ذلک، فالشفاعة عامل تربوی، و لیست نوعا من المحسوبیة و المنسوبیة، و لا ذریعة للتنصّل عن المسؤولیة.

و من هذا یتّضح أنّ الشفاعة لا تغیّر إرادة اللّه بشأن العصاة المذنبین، بل أنّ العاصی و المذنب- بارتباطه الروحی بشفیعه- یحظی بتربیة تؤهّله لنیل عفو اللّه تعالی ۱۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۰

یَعْلَمُ ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ

بعد الإشارة إلی الشفاعة فی الآیة السابقة، و إلی أنّ هذه الشفاعة لا تکون إلّا بإذن اللّه، تأتی هذه الجملة لبیان سبب ذلک فتقول إنّ اللّه عالم بماضی الشفعاء و مستقبلهم، و بما خفی علیهم أیضا. لذلک فهم غیر قادرین علی أن یبیّنوا عن المشفوع لهم أمورا جدیدة تحمل اللّه علی إعادة النظر فی أمرهم بسببها و تغییر حکمه فیهم.

و ذلک لأنّ الشفیع- فی الشفاعات العادیة- یؤثّر فی المتشفّع عنده بطریقین اثنین: فهو إمّا أن یعمد إلی ذکر صفات و مؤهّلات المشفوع له التی تدعو إلی إعادة النظر فی أمره. أو أن یبیّن للمتشفّع عنده العلاقة التی تربط المشفوع بالشفیع ممّا یستدعی تغییر الحکم إکراما للشفیع.

بدیهیّ أنّ کلا هذین الاسلوبین یعتمدان علی کون الشفیع یعلم أشیاء عن المشفوع له لا یعلمها المتشفّع عنده. أمّا إذا کان المتشفّع عنده محیطا إحاطة کاملة بکلّ شیء ممّا یتعلّق بکلّ شخص، فلا یکون لأحد أن یشفع لأحد عنده، و ذلک لأنّ المتشفّع عنده أعلم بمن یستحقّ الشفاعة فیجیز للشفیع أن یشفع له.

کلّ ذلک فی صورة أن یکون ضمیر ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ یعود علی الشفعاء أو المشفوع لهم، و لکن یحتمل أیضا أن یعود الضمیر لجمیع الموجودات العاقلة فی السّموات و الأرض الواردة فی جملة لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ و تعتبر تأکیدا لقدرة اللّه الکاملة علی جمیع المخلوقات و عجز الکائنات أیضا و حاجتها إلیه، لأنّ من لیس له علم بماضیه و مستقبله و غیر مطّلع علی غیب السّموات و الأرض فإنّ قدرته محدوده جدّا، بخلاف من هو عالم و مطّلع علی جمیع الأشیاء، و فی جمیع الأزمنة و الأعصار، فی الماضی و الحاضر فإنّ قدرته غیر محدودة، و لهذا السبب فکلّ عمل حتّی الشفاعة یحتاج إلی إذنه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۱

و بهذا الترتیب یمکن الجمع بین کلا المعنیین.

أمّا المراد من جملة ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ فإنّ للمفسّرین احتمالات متعدّدة، فبعض ذهب إلی أنّ المراد من ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ امور الدّنیا التی تکون أمام الإنسان و بین یدیه، و جملة وَ ما خَلْفَهُمْ یراد بها امور الآخرة التی تقع خلف الإنسان، و ذهب بعض آخر إلی عکس هذا التفسیر.

و بعض ثالث ذهب إلی أنّها إشارة إلی أجر الإنسان أو أعماله الخیّرة أو الشّریرة أو الأمور التی یعلمها و الّتی لا یعلمها.

و لکن بمراجعة آیات القرآن الکریم یستفاد أنّ هذین التعبیرین استعملا فی بعض الموارد للمکان کالآیة ۱۷ من سورة الأعراف حیث تحدّثت عن قول الشیطان لَآتِیَنَّهُمْ مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَیْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ

و تارة تأتی بمعنی القبل و البعد الزمانی کالآیة ۷۱ من سورة آل عمران حیث تقول وَ یَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِینَ لَمْ یَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ فمن

الواضح أنّ الآیۀ هنا ناظرۀ إلی الزّمان.

أمّا فی الآیۀ التی نحن بصددها فالتعبیر قد یجمع بین المکان و الزمان، أی أنّ اللّه یعلم ما کان فی الماضی أو یکون فی المستقبل و ما هو أمام أنظارهم بحیث إنّهم یعلمونه، و ما هو خلفهم و محجوب عنهم و لا یعلمون عنه شیئا، و علی هذا فأنّ اللّه محیط بکل أبعاد الزمان و المکان فکل عمل حتّی الشفاعۀ یجب أن تکون بإذنه.

و فی ثامن صفۀ مقدّسۀ تقول الآیۀ وَ لا یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ[۱۹۵].

هذه الفقرۀ أیضا توکید لما سبق من سعۀ علمه اللامحدود و أنّ علم الکائنات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۲

إنّما هو قبس من علمه تعالی، فلذلک یکون علم الشفعاء محدودا بإزاء علمه تعالی، فلا حظّ لهم من العلم إلّا بمقدار ما یرید اللّه تعالی لهم.

و من هذه الفقرۀ من الآیۀ یستفاد أمرین:

الأول: أنّه لا أحد یعلم شیئا بذاته، فجمیع العلوم و المعارف البشریّۀ إنّما هی من اللّه تعالی، فهو الذی یزیح الستار عن حقائق الخلقۀ و اسرار الطبیعۀ و یضع معلومات جدیدۀ فی متناول البشر فیوسّع من أفق معرفتهم.

و الآخر: هو أنّ اللّه تعالی قد یضع بعض العلوم الغیبیّۀ فی متناول من یشاء من عباده فیطلعهم علی ما یشاء من أسرار الغیب، و هذا رد علی من یعتقد أنّ علم الغیب غیر متاح للبشر، و هو تفسیر أیضا للآیات التی تنفی علم الغیب عن البشر (و سیأتی أن شاء اللّه مزید من الشرح لهذا الموضوع فی مکانه عند تفسیر الآیات الخاصّۀ بالغیب کالآیۀ ۲۶ من سورۀ الجن).

و جملۀ لا یُحِیطُونَ إشارۀ لطیفۀ إلی حقیقۀ العلم و أنّه نوع من الإحاطۀ.

و فی تاسع و عاشر صفۀ إلهیّۀ تقول الآیۀ: وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا یَؤُدُهُ حِفْظُهُما.

و فی الصفۀ الحادیۀ عشر و الثانیۀ عشر تقول الآیۀ: وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ

بحوث

الأوّل: المراد من العرش و الکرسیّ

(الکرسی) من «کرس» بوزن إرث، و معناه أصل الشیء و أساسه، کما یطلق علی کلّ شیء متجمّع و مترابط، و لهذا یطلق علی المقعد الواطئ المتعارف علیه للجلوس، و یقابله «العرش» الذی یعنی السقف، أو الشیء ذا السقف، أو الکرسی ذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۳

القوائم المرتفعۀ. و لمّا کان الأستاذ أو المعلّم یجلس أحیانا علی کرسی أثناء التدریس، فقد انتقل اسم «الکرسی» لیدلّ علی العلم، و قد یستعمل رمزا للسلطۀ و السیطرۀ أو یکون کنایۀ عن الحکومۀ و الحکم.

فی هذه الآیۀ نقرأ عن کرسیّ اللّه أنّه یسع السماوات و الأرض. و علیه فیمکن أن یکون للکرسیّ عدّۀ معان:

۱- منطقۀ نفوذ الحکم: أی أنّ حکم اللّه نافذ فی السماوات و الأرض و أنّ منطقه نفوذه تشمل کلّ مکان، أی أنّه یشمل عالم المادّۀ برمّته، بما فیه من أرض و نجوم و مجرّات و سدم.

و علی هذا یکون «العرش» مرحلۀ أرفع و أعظم من عالمنا المادّی هذا، لأنّ العرش- کما قلنا- یعنی السقف أو المسقّف أو مقعدا أعلی من الکرسی. و بهذا یشمل العرش عالم الأرواح و الملائکۀ و ما وراء الطبیعۀ، و هذا یکون بالطبع إذا وضع الکرسی فی قبال

العرش بحيث يعنى الأوّل «عالم المادّة و الطبيعة» و يعنى الثانى «عالم ما وراء الطبيعة».

و للعرش معان أخرى كما سيأتى فى تفسير الآية ۵۳ من سورة الأعراف، خاصّة إذا لم يذكر فى قبال الكرسى، و عندئذ يمكن أن يكون بمعنى عالم الوجود كلّه.

۲- منطقة نفوذ العلم: أى أنّ علم اللّه يحيط جميع السماوات و الأرض و أنّ ما من شىء يخرج عن منطقة نفوذ علمه، لأنّ الكرسى- كما قلنا- قد يكون كناية عن العلم. و هناك أحاديث كثيرة تعتمد هذا المعنى، من ذلك ما رواه حفص بن غياث

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه سأله عن معنى وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قال:

هو العلم ۱۹۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۴

۳- شىء أوسع من السماوات و الأرض كلّها بحيث إنّه يحيط بها من كلّ جانب. و على هذا يكون معنى الآية: كرسىّ اللّه يضمّ جميع السماوات و الأرض و يحيط بها.

و قد نقل هذا التفسير عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «الكرسىّ محيط بالسماوات و الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى»

[۱۹۷].

بل يستفاد من بعض الروايات أنّ الكرسى أوسع بكثير من السماوات و الأرض.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «ما السماوات و الأرض عند الكرسى إلّا كحلقة خاتم فى فلاة، و ما الكرسى عند العرش إلّا كحلقة فى فلاة»

[۱۹۸].

المعنيان الأول و الثانى مفهومان، أمّا المعنى الثالث فأمر لم يتوصّل العلم البشرى بعد لمعرفته و كشف الستار عنه، فالعالم الذى يضمّ فى زاوية منه السماوات و الأرض لم يثبت وجوده بالطرق العلمية حتّى الآن، كما أنّه ليس هناك أىّ دليل على عدم وجوده، فالعلماء يعترفون جميعا بأن اتّساع السماء و الأرض يزداد بمرور الأيّام و بتقدّم وسائل المعرفة العلمية، و ما من أحد يستطيع أن يزعم أنّ سعة عالم الوجود هو ما يعرفه العلم اليوم، و لا يستبعد أن تكون هناك عوالم أخرى لا تعدّ و لا تحصى خارجة عن نطاق وسائل الأبصار عندنا اليوم.

نضيف هنا أنّ التفاسير الثلاثة المذكورة لا يتعارض بعضها مع بعض، و أنّ عبارة وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ يمكن أن تشير إلى حكومة اللّه المطلقة و نفوذ قدرته فى السماوات و الأرض، كما تشير فى الوقت نفسه إلى علمه النافذ، و كذلك إلى عالم أوسع بكثير من عالمنا هذا. و هذه الآية تكمل الآيات السابقة من سعة علم اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۵

بعبارة موجزة أنّ عرش حكومة اللّه و قدرته يهيمن على السماوات و الأرض جميعا، و أنّ كرسىّ علمه يحيط بكلّ هذه العوالم، و ما من شىء يخرج عن نطاق حكمه و نفوذ علمه.

قوله: وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما. «يؤوده» من «أود»- على وزن قول- بمعنى الثقل و المشقة، أى أنّ حفظ السماوات و الأرض ليس فيه أىّ ثقل أو مشقّة على اللّه، فهو ليس مثل مخلوقاته التى يتعبها الحفاظ على الأشياء و يوهنها، ذلك لأنّ المخلوقات ضعيفة محدودة القدرة، و قدرته غير محدودة، و من لا حدود لقدرته لا يكون للثقل و الخفّة و الصعب و السهل مفهوم عنده. فهذه مفاهيم تصدق عند من تكون قدراتهم محدودة.

ممّا تقدّم يتّضح أنّ الضمير فى «يؤوده» يعود على اللّه، و يؤكّد هذا ما سبق من آيات و الآية التالية، فضمائرها كلّها تعود على اللّه، و عليه فإنّ احتمال عود هذا الضمير إلى «الكرسى»- باعتبار أنّ حفظ السماوات و الأرض ليس ثقيلا على الكرسى- ضعيف جدا.

قوله: وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ توكید لما سبق. أی أنّ اللّه الذی هو أرفع و أعلی من كلّ شبیه و شریك، و منزّه عن كلّ نقص و عیب، و هو العظیم اللامحدود، لا یصعب علیه أی عمل و لا یتعبه حفظ عالم الوجود و تدبیره، و لا یغفل عنه أبدا، و علمه محیط بكلّ شیء.

الثّانی: هل أنّ آیهٔ الكرسیّ هی هذه الآیهٔ فحسب؟

و قد یرد سؤال و هو: هل أنّ آیه الكرسیّ هی التی تبدأ من قوله اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ و تنتهی بقوله وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ أو أنّ الآیتین التالیتین لهذه الآیهٔ جزء من آیهٔ الكرسیّ، فعلی هذا لو ورد الأمر بقراءهٔ آیهٔ الكرسیّ فی صلاهٔ (لیلهٔ الدفن) مثلا

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۶

فلا بدّ من قراءهٔ الثلاث آیات هذه.

هناك قرائن تشیر إلی أنّ آیهٔ الكرسیّ هی الآیهٔ المذكورهٔ آنفا:

۱- إنّ جمیع الروایات التی أوردت فضیلهٔ هذه الآیهٔ و عبّرت عنها بآیهٔ الكرسی تدلّ علی أنّها آیهٔ واحدهٔ لا أكثر.

۲- أنّ كلمهٔ (الكرسیّ) وردت فی الآیهٔ الاولی فقط، فلذلك فأنّ تسمیتها بآیهٔ الكرسیّ متعلّق بهذه الآیهٔ.

۳- ورد فی بعض الأحادیث تصریح بهذا المعنی، فالحدیث الذی ذكره الشیخ- فی أمالیه-

عن أمیر المؤمنین علیه السّلام حیث قال علیه السّلام ضمن بیان فضیلهٔ آیهٔ الكرسیّ أنّه بدأها من اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إلی قوله وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ

۴- ذكر صاحب مجمع البیان نقلا عن مستدرك سفینهٔ البحار أنّ (و آیهٔ الكرسیّ معروفهٔ و هی إلی قوله و هو العلیّ العظیم)[۱۹۹].

۵- و نقرأ

فی حدیث عن الإمام علی بن الحسین علیهما السّلام عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأ أربع آیات من أول البقرهٔ و آیهٔ الكرسی و آیتین بعدها، و ثلاث آیات من آخرها لم یر فی نفسه و ماله شیئا یكرهه و لا یقربه شیطان، و لا ینسی القرآن»[۲۰۰].

و من هذا التعبیر یستفاد أیضا أنّ آیهٔ الكرسیّ آیهٔ واحدهٔ.

۶- ورد فی بعض الروایات أنّ آیهٔ الكرسیّ خمسون كلمهٔ، و فی كلّ كلمهٔ خمسون بركهٔ[۲۰۱]، و عند ما یعدّ كلمات هذه الآیهٔ إلی قوله وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ تكون خمسین كلمهٔ.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۷

أجل یستفاد من بعض الروایات الأمر بقراءهٔ هذه الثلاث آیات إلی قوله:

هُمْ فِیها خالِدُونَ دون أن تكون معنونهٔ بعنوان آیهٔ الكرسیّ.

و علی كلّ حال أنّ المستفاد من القرائن أعلاه هو أنّ آیهٔ الكرسیّ آیهٔ واحدهٔ لا أكثر.

الثّالث: الدلیل علی أهمیّهٔ آیهٔ الكرسیّ.

إنّ اهمیّهٔ آیهٔ الكرسیّ الكبیرهٔ تكمن فی تضمّنها لمجموعهٔ من المعارف الإسلامیهٔ و الصفات الإلهیّهٔ أعم من صفات الذات و الفعل خاصّهٔ مسألهٔ التوحید فی أبعادها المختلفهٔ، و هذه الصفات البالغهٔ إثنا عشر صفهٔ و كلّ واحدهٔ منها یمكن أن تكون ناظرهٔ إلی أحد المسائل التربویّهٔ للإنسان تستحق التأمّل و التدبّر، و كما یقول أبو الفتوح الرازی أنّ كلّ واحدهٔ من هذه الصفات تنفی أحد المذاهب الباطلهٔ (و علی هذا یمكن إصلاح و تقویم اثنا عشر فكرهٔ باطلهٔ و خاطئهٔ بواسطهٔ هذه الآیهٔ)[۲۰۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۸

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۵۶]

اشارة

لا إِکْراهَ فِی الدِّینِ قَدْ تَبَیَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَیِّ فَمَنْ یَکْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ یُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقی لا انْفِصامَ لَها وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۲۵۶)

سبب النّزول

یقول الطبرسی فی مجمع البیان فی سبب نزول هذه الآیة: کان لرجل من المدینة اسمه «ابو الحصین» ولدان دعاهما إلی اعتناق المسیحیة بعض التجّار الذین کانوا یفدون علی المدینة، فتأثّر هذان بما سمعا و اعتنقا المسیحیة، و رحلا مع أولئک التجّار إلی الشام عند عودتهم. فأزعج ذلک أبو الحصین، و أقبل یخبر رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم بما حدث، و طلب منه أن یعمل علی الاعادة ولدیه إلی الإسلام، و سأله إن کان یجوز إجبارهما علی الرجوع إلی الإسلام، فنزلت الآیة المذکورة و بیّنت أن لا إِکْراهَ فِی الدِّینِ

و جاء فی تفسیر المنار أنّ أبو الحصین کان یرید إکراه ولدیه علی الرجوع إلی أحضان الإسلام، فجاءا مع أبیهما لعرض الأمر علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فقال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۹

أبو الحصین: کیف أجیز لنفسی أن أنظر إلی ولدیّ یدخلان النار دون أن أفعل شیئا؟

فنزلت الآیة.

التّفسیر

الدین لیس إجباریّا:

إنّ آیة الکرسیّ فی الواقع هی مجموعة من توحید اللّه تعالی و صفاته الجمالیة و الجلالیة التی تشکّل أساس الدین، و بما أنّها قابلة للاستدلال العقلی فی جمیع المراحل و لیست هناک حاجة للإجبار و الإکراه تقول هذه الآیة: لا إِکْراهَ فِی الدِّینِ قَدْ تَبَیَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَیِ

(الرشد) لغویا تعنی الهدایة للوصول إلی الحقیقة، بعکس (الغیّ) التی تعنی الانحراف عن الحقیقة و الابتعاد عن الواقع.

و لمّا کان الدین یهتّم بروح الإنسان و فکره و مبنیّ علی أساس من الإیمان و الیقین، فلیس له إلّا طریق المنطق و الاستدلال و جملة: لا إِکْراهَ فِی الدِّینِ فی الواقع إشارة إلی هذا المعنی، مضافا إلی أنّ المستفاد من شأن نزول هذه الآیة و أنّ بعض الجهلاء طلبوا من رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقوم بتغییر عقائد الناس بالإکراه و الجبر فجاءت الآیة جوابا لهؤلاء و أنّ الدین لیس من الأمور التی تفرض بالإکراه و الإجبار و خاصّة مع کلّ تلک الدلائل الواضحة و المعجزات البیّنة التی أوضحت طریق الحقّ من طریق الباطل، فلا حاجة لأمثال هذه الأمور.

و هذه الآیة ردّ حاسم علی الذین یتهمّون الإسلام بأنّه توسّل إحیانا بالقوّة و بحدّ السیف و القدرة العسکریة فی تقدّمه و انتشاره، و عند ما نری أنّ الإسلام لم یسوّغ التوسل بالقوّة و الإکراه فی حمل الوالد لولده علی تغییر عقیدته الدینیّة فإنّ واجب الآخرین بهذا الشأن یکون واضحا، إذ لو کان حمل الناس علی تغییر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۰

أدیانهم بالقوّة و الإکراه جائزا فی الإسلام، لکان الأولی أن یجیز للأب ذلک لحمل ابنه علی تغییر دینه، فی حین أنّه لم یعطه مثل هذا الحقّ.

و من هنا یتّضح أنّ هذه الآیة لا تنحصر بأهل الکتاب فقط کما ظنّ ذلک بعض المفسّرین، و کذلک لم یمسخ حکم هذه الآیة کما ذهب إلی ذلک آخرون، بل أنّه حکم سار و عام و مطابق للمنطق و العقل.

ثمّ أنّ الآیة الشریفة تقول کنتیجة لما تقدّم فَمَنْ یَکْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ یُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقی لَا انْفِصامَ لَها.

(الطاغوت) صیغة مبالغة من طغیان، بمعنی الاعتداء و تجاوز الحدود، و یطلق علی کلّ ما یتجاوز الحدّ. لذلک فالطاغوت هو الشیطان و الصنم و المعتدی و الحاکم الجبّار و المتکبر، و کلّ معبود غیر اللّه، و کلّ طریق لا ینتهی إلی اللّه. و هذه الکلمة تعنی المفرد و تعنی الجمع.

أمّا المقصود بالطاغوت، فالکلام کثیر بین المفسّرین. قال بعض إنّه الصنم، و قال بعض إنّه الشیطان، أو الکهنة، أو السحرة، و لکن الظاهر أنّ المقصود هو کلّ أولئک، بل قد تکون أشمل من کلّ ذلک، و تعنی کلّ متعدّ للحدود، و کلّ مذهب منحرف ضال.

إنّ الآیة فی الحقیقة تأیید للآیات السابقة التی قالت أن لا إِکْراهَ فِی الدِّینِ و ذلک لأنّ الدین یدعو إلی اللّه منبع الخیر و البرکة و کلّ سعادة، بینما یدعو الآخرون إلی الخراب و الانحراف و الفساد. علی کلّ حال، إنّ التمسّک بالإیمان باللّه هو التمسّک بعروة النجاة الوثقی التی لا تنفصم.

وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ

الإشارة فی نهایة الآیة إلی الحقیقة القائلة إنّ الکفر و الإیمان لیسا من الأمور الظاهریة، لأنّ اللّه عالم بما یقوله الناس علانیة- و فی الخفاء- و کذلک هو عالم بما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۱

یکنّه الناس فی ضمائرهم و قلوبهم.

و فی هذه الجملة ترغیب للمؤمنین الصادقین، و ترهیب للمنافقین.

بحث

الدین لا یفرض:

لا یمکن للإسلام و لا للأدیان الحقّة الاخری أن تفرض فرضا علی الناس لسببین:

۱- بعد کلّ تلک الأدلّة و البراهین الواضحة و الاستدلالات المنطقیة و المعجزات الجلیة لم تکن ثمة حاجة لذلک. إنّما یستخدم القوّة من أعوزه المنطق و الحجّة. و الدین الإلهی ذو منطق متین و حجّة قویّة.

۲- أنّ الدین القائم علی أساس مجموعة من العقائد القلبیة لا یمکن أن یفرض بالإکراه. إن عوامل القوّة و السیف و القدرة العسکریة یمکنها أن تؤثّر فی الأجسام، لا فی الأفکار و المعتقدات.

يتّضح ممّا تقدّم الردّ على الإعلام الصليبى- المسموم ضدّ الإسلام- القائل «إنّ الإسلام انتشر بالسيف»، إذ لا قول أبلغ و لا أفصح من لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ الذى أعلنه القرآن.

هؤلاء الحاقدون يتناسون هذا الإعلان القرآنى الصريح، و يحاولون من خلال تحريف مفهوم الجهاد و أحداث الحروب الإسلامية أن يثبتوا مقولتهم، بينما يتّضح بجلاء لكلّ منصف أنّ الحروب التى خاضها الإسلام كانت إمّا دفاعية، و إمّا تحريرية، و لم يكن هدف هذه الحروب السيطرة و التوسّع، بل الدفاع عن النفس، أو إنقاذ الفئة المستضعفة الرازحة تحت سيطرة طواغيت الأرض و تحريرها من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۲

ربقة العبودية لتستنشق عبير الحرية و تختار بنفسها الطريق الذى ترتئيه.

و الشاهد الحىّ على هذا هو ما تكرّر حدوثه فى التاريخ الإسلامى، فقد كان المسلمون إذا افتتحوا بلدا تركوا أتباع الأديان الأخرى أحرارا كالمسلمين.

أمّا الضريبة الصغيرة التى كانوا يتقاضونها منهم باسم الجزية، فقد كانت ثمنا للحفاظ على أمنهم، و لتغطية ما تتطلّبه هذه المحافظة من نفقات، و بذلك كانت أرواحهم و أموالهم و أعراضهم مصونة فى حمى الإسلام. كما أنّه كانوا أحرارا فى أداء طقوسهم الدينية الخاصّة بهم.

جميع الذين يطالعون التاريخ الإسلامى يعرفون هذه الحقيقة، بل إن المسيحيين الذين كتبوا فى الإسلام يعترفون بهذا أيضا. يقول مؤلّف «حضارة الإسلام او العرب»: «كان تعامل المسلمين مع الجماعات الأخرى من التساهل بحيث إنّ رؤساء تلك الجماعات كان مسموحا لهم بإنشاء مجالسهم الدينية الخاصّة».

و قد جاء فى بعض كتب التاريخ أنّ جمعا من المسيحيين الذين كانوا قد زاروا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم للتحقيق و الاستفسار أقاموا قدّاسا فى مسجد النبى فى المدينة بكلّ حرّية.

إنّ الإسلام- من حيث المبدأ- توسّل بالقوّة العسكرية لثلاثة امور:

۱- لمحو آثار الشرك و عبادة الأصنام، لأنّ الإسلام لا يعتبر عبادة الأصنام دينا من الأديان، بل يراها انحرافا و مرضا و خرافة، و يعتقد أنّه لا يجوز مطلقا أنّ يسمح لجمع من الناس أن يسيروا فى طريق الضلال و الخرافة، بل يجب إيقافهم عند حدّهم. لذلك دعا الإسلام عبدة الأصنام إلى التوحيد، و إذا قاوموه توسّل بالقوّة و حطّم الأصنام و هدّم معابدها، و حال دون بروز أى مظهر من مظاهر عبادة الأصنام، لكى يقضى تماما على منشأ هذا المرض الروحى و الفكرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۳

و هذا يتبيّن من آيات القتال مع المشركين، مثل الآية ۱۹۳ من سورة البقرة:

وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ. و ليس هناك أىّ تعارض بين الآية التى نحن بصددها و هذه الآية، و لا نسخ فى هذا المجال.

۲- لمقابلة المتآمرين للقضاء على الإسلام، عندئذ كانت الأوامر تصدر بالجهاد الدفاعى و بالتوسّل بالقوّة العسكرية. و لعلّ معظم الحروب الإسلامية على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم كانت من هذا القبيل، مثل حرب أحد و الأحزاب و حنين و مؤتة و تبوك.

۳- للحصول على حرّيّة الدعوة و التبليغ. حيث إنّ لكل دين الحقّ فى أن يكون حرّا فى الإعلان عن نفسه بصورة منطقية، فإذا منعه أحد من ذلك فله أن ينتزع حقّه هذا بقوّة السلاح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۷]

اشارة

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۵۷)

التّفسير

نور الإيمان و ظلمات الكفر:

بعد أن أشير فى الآيات السابقة إلى مسألة الإيمان و الكفر و اتضاح الحقّ من الباطل و الطريق المستقيم عن الطريق المنحرف توضّح هذه الآية الكريمة استكمالا للموضوع أنّ لكل من المؤمن و الكافر قائدا و هاديا فتقول: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا فهم يسيرون فى ظلّ هذه الولاية من الظلمات إلى النور يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

كلمة (وليّ) فى الأصل بمعنى القرب و عدم الانفصال و لهذا يقال للقائد و المربّى (ولى)- و سيأتى شرحها فى تفسير آية إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ ...[۲۰۳]-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۵

تطلق أيضا على الصديق و الرفيق الحميم، إلّا أنّه من الواضح أنّ الآية مورد البحث تعنى فى هذه الكلمة المعنى الأوّل، و لذلک تقول اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ....

و يمكن أن يقال أنّ هداية المؤمنين من الظلمات إلى النور هو تحصيل للحاصل، و لكن مع الالتفات إلى مراتب الهداية و الإيمان يتّضح أنّ المؤمنين فى مسيرهم نحو الكمال المطلق بحاجة شديدة إلى الهداية الإلهيّة فى كلّ مرحلة و فى كلّ قدم و كلّ عمل، و ذلک مثل قولنا فى الصلاة كلّ يوم: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

ثمّ تضيف الآية إنّ أولياء الكفّار هم الطاغوت (الأوثان و الشيطان و الحاكم الجائر و أمثال ذلک) فهؤلاء يسوقونهم من النور إلى الظلمات وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ و لهذا السبب أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

ملاحظات

۱- إنّ تشبيه الإيمان و الكفر بالنور و الظلمة تشبيه بليغ رائع، فالنور هو منبع الحياة و مصدر البركات و الرشد و النمّو التكامل و التحرّک و منطلق الاطمئنان و العرفة و الهداية، بينما الظلام رمز السكون و الموت و النوم و الجهل و الضلال و الخوف، و هكذا الإيمان و الكفر.

۲- النقطة الثانية هى أنّ «الظلام» فى هذه الآية و فى آيات اخرى جاء بصيغة الجمع (ظلمات)، و النور جاء بصيغة المفرد، و هذا يشير إلى أنّ مسيرة الحقّ ليس فيها تفرّق و تشتّت، بل هى مسيرة واحدة فهى كالخط المستقيم بين نقطتين حيث إنّه واحد دائما غير متعدّد، أمّا الباطل و الكفر فهما مصدر جميع أنواع الاختلاف و التشتّت، حتّى أنّ أهل الباطل غير منسجمين فى باطلهم، و ليس لهم هدف واحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۶

كما هو الحال فى الخطوط المائلة و المنحرفة بين نقطتين حيث يكون عددها على طرفى الخط المستقيم غير محدود و لا معدود.

و أحتمل البعض أنّ المراد من ذلک أن صفوف الباطل بالنسبة لأهل الحقّ کثیرة.

۳- یمکن أن یقال أنّ الکفّار لیس لهم نور فیخرجوا منه، و لکن مع الالتفات إلی أنّ نور الإیمان موجود فی فطرتهم دائما فینطبق علیه هذا التعبیر انطباقا کاملا.

۴- من الواضح أنّ اللّه تعالی لا یجبر المؤمنین للخروج من الظلمات إلی النور (ظلمات المعصیة و الجهل و الصفات الذمیمة و البعد عن الحقّ) و لا- یکره الکفّار علی خروجهم من نور التوحید الفطری، بل أنّ أعمال هؤلاء هی التی توجب هذا المصیر و تثمر هذه العاقبة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۷

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۵۸]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِی حَاجَّ إِبْراهِیمَ فِی رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ قالَ أَنَا أُحْیِی وَ أُمِیتُ قالَ إِبْراهِیمُ فَإِنَّ اللَّهَ یَأْتِی بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِی کَفَرَ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ (۲۵۸)

التّفسیر

محاجة إبراهیم مع طاغوت زمانه:

تعقیبا علی الآیة السابقة التی تناولت هدایة المؤمنین بواسطة نور الولایة و الهدایة الإلهیّة، و ضلال الکافرین لاتّباعهم الطاغوت، یذکر اللّه تعالی فی هذه الآیة: عدّة شواهد لذلک، و أحدها ما ورد فی الآیة أعلاه و هی تتحدّث عن الحوار الذی دار بین إبراهیم علیه السّلام و أحد الجبّارین فی زمانه و یدعی (نمرود) فتقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِی حَاجَّ إِبْراهِیمَ فِی رَبِّهِ

و تعقّب الآیة بجملة أخری تشیر فیها إلی الدافع الأساس لها و تقول: إنّ ذلک الجبّار تملّکه الغرور و الکبر و أسکره الملک أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۸

و ما أکثر الأشخاص الذین نجدهم فی الحالات الطبیعیّة أفراد معتدلین و مؤمنین، و لکن عند ما یصلون إلی مقام أو ینالون ثروة فأنّهم ینسون کلّ شیء و یسحقون کلّ المقدّسات.

و تضیف الآیة أنّ ذلک الجبّار سأل إبراهیم عن ربّه: من هو الإله الذی تدعونی إلیه؟ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ

الواقع أنّ أعظم قضیّة فی العالم هی قضیّة الخلقة، یعنی قانون الحیاة و الموت الذی هو أوضح آیة علی علم اللّه و قدرته.

و لکن نمرود الجبّار اتّخذ طریق المجادلة و السفسطة و تزییف الحقائق لإغفال الناس و الملأ من حوله فقال: إنّ قانون الحیاة و الموت بیدی قالَ أَنَا أُحْیِی وَ أُمِیتُ

و من أجل إثبات هذه الدعوی الکاذبة استخدم حیلة کما ورد فی الروایة المعروفة حیث أمر بإحضار سجینین أطلق سراح أحدهما و أمر بقتل الآخر، ثمّ قال لإبراهیم و الحضّار: أرأیتم کیف أحیی و أمیت.

و لکنّ إبراهیم قدّم دلیلا- آخر لإحباط هذه الحیلة و کشف زیف المدّعی بحیث لا- یمکنه بعد ذلک من إغفال النّاس فقال: قالَ إِبْراهِیمُ فَإِنَّ اللَّهَ یَأْتِی بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ و هنا ألقم هذا المعاند حجرا فَبُهِتَ الَّذِی کَفَرَ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ

الظَّالِمِینَ

و بهذا أسـقط فی یدی العدوّ المغرور، و عجز عن الکلام أمام منطق إبراهیم الحیّ، و هذا أفضل طریق لاسکات کلّ عدوّ عنید. بالرغم من أنّ مسألـهٔ الحیاهٔ و الموت أهم من قضـیّهٔ حرکـهٔ الشـمس و شـروقها و غروبها من حیث کونها برهانا علی علم اللّه و قدرته، و لهذا السـبب أورده إبراهیم دلیلاـ أوّل، و لو کان فی ذلک المجلس عقلاء و متفکّرون لاکتفوا بهـذا الـدلیل و اقتنعوا به، إذ أنّ کلّ شـخص یعرف

أنّ مسألـهٔ اطلاق سـراح سـجین و قتل آخر لا علاقـهٔ له بقضـیّهٔ الإحیاء و الإماتهٔ الطبیعیتین أبدا، و لکن قد یکون هذا الدلیل غیر کاف لأمثال هؤلاء السذّج، و یحتمل وقوعهم تحت تأثیر سفسطهٔ ذلک الجبّار المکّار، فلهذا قدّم إبراهیم علیه السّلام دلیله الآخر و هو مسألهٔ طلوع و غروب الشمس لکی یتضح الحق للجمیع ۲۰۴].

و ما أحسن ما صـنع إبراهیم علیه السّـلام من تقدیمه مسألهٔ الحیاهٔ و الموت کدلیل علی المطلوب حتّی یدّعی ذلک الجبّار مشارکهٔ اللّه تعالی فی تدبیر العالم، ثمّ طرح مسألهٔ طلوع و غروب الشمس بعد ذلک لیتّضح زیف دعواه و یحجم عن دعوی المشارکهٔ.

و یتّضـح ضـمنا من جملـهٔ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ أنّ الهدایهٔ و الضـلالهٔ بالرغم من أنّهما من أفعال اللّه تعالی، إلّا أنّ مقدّماتهما بیـد العباد، فارتکاب الآثام من قبیل الظلم و الجور و المعاصـی المختلفـهٔ تشـکّل علی القلب و البصـیرهٔ حجب مظلمهٔ تمنع من أدراک الحقائق علی حقیقتها.

ملاحظات

۱- القرآن لا یذکر اسم هذا الشخص الذی حاجّ إبراهیم، و یشیر إلیه بقوله:

أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ أی أنّه لغروره بحکمه قام بمحاجهٔ إبراهیم.

صاحب تفسیر الـدرّ المنثور نقل عن أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام روایـهٔ تـذکر أنّه «النمرود بن کنعان» و کتب التاریـخ تـذکر هـذا الاسم أیضا.

۲- علی الرغم من عدم تعرّض القرآن لذکر وقت هذا الحوار، فالقرائن تدلّ

علی أنّه وقع بعـد قیـام إبراهیم بتحطیم الأصـنام و نجـاته من النـار، إذ من الواضـح أنّه قبـل إلقـائه فی النـار لم تکن لتجری أمثال هـذه المجادلات، لأنّ عبدهٔ الأصـنام ما کانوا یسـمحون له بالکلام و هم یعتبرونه مجرما ینبغی أن ینال بأسـرع وقت جزاءه علی فعلته الشنیعهٔ بتحطیم آلهتهم المقدّسـهٔ! إنّهم سألوه عن سبب فعلته ثمّ أصـدروا أمرهم بإحراقه و هم غاضـبون، و لکن عنـد ما خرج من النار سـلیما علی تلک الصورهٔ العجیبهٔ استطاع أن یصل إلی نمرود و أن یحاوره.

۳- یتبیّن جلیّا من الآیـهٔ أنّ نمرود لم یکن فی الواقع یبحث عن الحقیقـهٔ، بـل کـان یریـد أن یظهر بـاطله بمظهر الحق. و لعلّ اسـتعمال الفعل «حاجّ» قصد به هذا المعنی، لأنّه یستعمل عادهٔ فی مثل هذه الحالات.

۴- یستدلّ من الآیهٔ بصورهٔ واضحهٔ أنّ جبّار ذلک الزمان کان یدعی الألوهیّهٔ، لا لیعبدوه فحسب، بل لیؤمنوا به خالقا لهذا العالم أیضا، أی أنّه کان یری نفسه معبودا و خالقا.

و لیس فی هـذا ما یـدعو إلی العجب، ففی الوقت الذی یسـجد فیه الناس لأصـنام من الحجر و الخشب، و فضـلا عن عبادتها یعتبرونها مؤثرهٔ فی إدارهٔ العالم و تساهم فیها، فإنّ الفرصـهٔ مناسـبهٔ لجبّار مخادع أن یسـتغفل الناس و یسـتغلّ سـذاجتهم و یـدعوهم إلیه و یظهر

نفسه بمظهر صنم یعبدونه و یعتبرونه خالقا.

۵- تاریخ عبادة الأصنام یصعب لنا بیان تاریخ لعبادة الأصنام و تعیین مبدأ له، فمنذ أقدم الأزمنة التی کانت عبادة الأصنام سائدة بین البشر الذین کانت أفکارهم منحطّة و علی مستوی واطئ.

الواقع أنّ عبادة الأصنام نوع من التحریف فی العقیدة الفطریة الطبیعیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۱

المودعة فی الإنسان المتمثّلة فی عبادة اللّه. و لمّا کانت هذه الفطرة موجودة فی الإنسان دائما، فإنّ تحریفها کان أیضا موجودا بین المجموعات البشریة المنحطّة دائما. لذلک یمکن القول أنّ تاریخ عبادة الأصنام یکاد یوازی تاریخ ظهور الإنسان علی الأرض، و ذلک لأن الإنسان بمقتضی فطرته و خلقه یتوجّه إلی قوّة فوق الطبیعة. إنّ طبیعته هذه کانت تؤیّدها أدلّة واضحة من نظام الوجود تقضی بوجود مبدأ عالم قادر، و کان الإنسان یدرک هذا بقدر ما عن طریقین- فطرته و عقله- و الإحساس بالجوع فی الأطفال مثلا إذا لم یوجّه فی الوقت المناسب إلی الغذاء السلیم فإنّ الطفل قد یمدّ یده إلی أشیاء کالطین و التراب، و یتعود علی ذلک بالتدریج فیفقد صحّته من جراء ذلک. کذلک الإنسان الذی یبحث عن اللّه بفطرته و عقله إذا لم یوجّه الوجهة الصحیحة یمدّ نظره إلی مختلف الآلهة و الأصنام المصطنعة، فینحنی و یسجد لها و یسبغ علیها کلّ صفات الألوهیّة.

و لا حاجة إلی القول بأنّ قصیری النظر و السفهاء یسعون إلی أن یجسّموا کلّ شیء فی قالب حسّی، لأنّ فکرهم لا یفارق منطقة المحسوسات أبدا، لذلک کان یصعب علیهم عبادة إله غیر منظور و مرئی، و رغبوا فی صبّ آلهتهم فی قالب حسّی. إنّ هذا الجهل إذا امتزج بفطرة عبادة اللّه یظهر فی صورة عباده الأصنام و الآلهة المجسّدة.

و قیل من جهة اخری: إنّ الأقوام السالفة کانت تقدّس أنبیاءها و شخصیّاتها الدینیة، فإذا توفی هؤلاء أقامت لهم التماثیل لإحیاء ذکراهم مدفوعین بروح تقدیس الأبطال، و الغلوّ التی نجدها فی ضعفاء العقول، و من ثمّ تقدیس تماثیلهم إلی حدّ التألیه، و کان هذا سببا آخر من أسباب عبادة الأصنام.

و من الأسباب الأخری لعبادة الأصنام هو أنّ عددا من الموجودات الطبیعیة التی هی مصدر خیر و برکة للإنسان کالقمر و الشمس و النار و الماء و غیرها قد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۲

أثارت اهتمام الإنسان بها، فراح یحنی رأسه أمامها تعظیما لها و اعترافا منه بجمیلها دون أن یوسع أفق تفکیره لیری المبدأ الأوّل فی خلق العالم وراء تلک الموجودات، فاتّخذ هذا التقدیر و الاحترام بمرور الزمان صورة عبادة لهذه الموجودات.

إنّ منشأ کلّ أنواع عبادة الأصنام شیء واحد، و هو الانحطاط الفکری و الجهل و عدم وجود الهادی المخلّص إلی طریق اللّه، الأمر الذی یمکن الوقایة منه باتّباع تعالیم الأنبیاء و تربیتهم و إرشاداتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۳

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۵۹]

اشارة

أَوْ کَالَّذِی مَرَّ عَلی قَرْیَةٍ وَ هِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها قالَ أَنَّی یُحْیِی هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ کَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ یَوْماً أَوْ بَعْضَ یَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلی طَعامِکَ وَ شَرابِکَ لَمْ یَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلی حِمارِکَ وَ لِنَجْعَلَکَ آیَةً لِلنَّاسِ وَ انْظُرْ إِلَی الْعِظامِ کَیْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَکْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَیَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۵۹)

التّفسیر

قصة «عزیر» العجیبة:

جاءت هـذه الآیـة معطوفـة علی الآیـة السابقـة و تقصّ حکایـة أحـد الأنبیاء القـدامی، و هی من الشواهد الحیّة علی مسألة البعث. و قد دارت الآیات السابقـة- التی اسـتعرضت الحوار بین إبراهیم علیه السّـلام و النمرود- حول التوحیـد و معرفة اللّه. أمّا هذه الآیة و الآیات التالیة فتدور حول المعاد و الحیاة بعد الموت. نبدأ بشرح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۴

الحکایة بصورة مجملة ثمّ نباشر بالتفسیر.

الآیـة تشیر إلی حکایـة رجل سافر علی حماره و معه طعام و شـراب، فمرّ بقریة قد تهدّمت و تحوّلت إلی انقاض تتخلّلها عظام أهالیها النخرة. و إذ رأی هذا المشهد المروع قال: کیف یقدر اللّه علی إحیاء هؤلاء الأموات؟

لم یکن تسـاؤله بـالطبع من بـاب الشـکّ و الإنکار، بل کان من باب التعجّب، إذ أنّ القرائن الأخری فی الآیـة تـدلّ علی أنّه کان أحد الأنبیاء، و قد تحدّث إلیه اللّه، کما أنّ الأحادیث تؤیّد هذا کما سیأتی.

عنـد ذلـک أماته اللّه مـدة مائـة سـنة، ثمّ أحیاه مرّة اخری و سأله: کم تظنّ أنّک بقیت فی هـذه الصـحراء؟ فقال و هو یحسب أنّه بقی سویعات: یوما أو أقل، فخاطبه اللّه بقوله: بل بقیت هنا مائة سـنة، انظر کیف أنّ طعامک و شـرابک طوال هذه المدّة لم یصـبه أی تغیّر بإذن اللّه. و لکن لکی تؤمن بأنک قد أمضـیت مائة سنة کاملة هنا انظر إلی حمارک الذی تلاشی و لم یبق منه شیء بموجب نوامیس الطبیعة، بخلاف طعامک و شـرابک، ثمّ انظر کیف إنّنا نجمع أعضاءه و نحییه مرّة اخری. فعند ما رأی کلّ هذه الأمور أمامه قال: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْ‌ءٍ قَدِیرٌ، أی: إننی الآن علی یقین بعد أن رأیت البعث بصورة مجسّمة أمامی.

و من هـذا النبیّ الـذی تحـدّثت عنه هـذه الآیـة؟ ثمّـة أقوال عدیـدة، قـال بعض: إنّه «ارمیا». و قال آخرون: إنّه «الخضـر». إلّا أنّ أشـهر الأقوال: إنّه «العزیر» و یؤیّده حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام ۲۰۵].

و اختلفت الأقوال أیضا بشأن القریة المذکورة، قال بعض: إنّها «بیت المقدس» التی دمّرها نبوخذ نصّر، و هو احتمال بعید.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۵

نعود إلی تفسیر الآیة: أَوْ کَالَّذِی مَرَّ عَلی قَرْیَةٍ وَ هِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها قالَ أَنَّی یُحْیِی هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها.

هذه الآیة- کما قلنا- تکملة للآیة السابقة التی دارت حول التوحید. هذه الآیة و الآیات التالیة تجسّد مسألة المعاد.

«عروش» جمع عرش، و هنا تعنی السـقف. و «خاویـة» فی الأصل بمعنی خالیة، و لکنّها هنا کنایة عن الخراب و الدمار، فالبیوت العامرة تکون عادة مسکونة، أمّا الدور الخالیة فإمّا أن تکون قد تهدّمت من قبل، أو أنّها تهدّمت بسبب خلوّها من الساکنین، و علیه فإنّ قوله وَ هِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِـها تعنی أنّ دور تلک القریة کانت کلّها خربة، فقد هوت سـقوفها ثمّ انهارت الجدران علیها، و هذا هو الخراب التام إذ أنّ الانهدام یکون عادة بسقوط السقف أوّلا، و تبقی الجدران قائمة بعض الوقت، ثمّ تنهار فوق السقف.

قالَ أَنَّی یُحْیِی هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها.

الظاهر أنّ أحدا لم یکن مع النبیّ فی هذه الواقعة، فهو بهذا یخاطب نفسه.

و بدیهیّ أنّ القریة هنا تعنی أهل القریة، و هذا یعنی أنّه کان یری عظام أهل القریة بعینیه، فأشار إلیها و هو ینطق بتساؤله.

فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ

یری أکثر المفسّـرین أنّ هـذه الآیـة تعنی أنّ اللّه قد أمات النبیّ المذکور مدّة مائة سـنة ثمّ أحیاه بعد ذلک، و هذا ما یستفاد من کلمة

«أماته». إلّا أنّ صاحب تفسير المنار يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى نوع من النوم الطويل المعروف عند بعض الحيوانات المسمّى بالسبات. حيث يغطّ الكائن الحى فى نوم عميق و طويل دون أن تتوقف فيه الحياة، كالذى حدث مثلا عند أصحاب الكهف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۶

و إذا كان النوم لبضع سنوات ممكنا، فهو على رأى صاحب المنار ممكن أيضا لمائة عام و إن لم يكن اعتياديا. و يلزم فى قبول الخوارق أن تكون ممكنة لا محاله عقلا[۲۰۶].

و لكن ليس فى هذه الآية ما يدلّ على صحّة هذا القول، بل إن ظاهر الآية يدلّ على أنّ النبىّ قد فارق الحياة، و بعد مائة سنة استأنف الحياة مرّة أخرى. و لا- شكّ أنّ موتا و حياة كهذين هما من خوارق العادات، و إن لم يكن مستحيلا. و على كلّ حال فإنّ الحوادث الخارقة للعادة فى القرآن ليست منحصرة بهذه الحادثة بحيث نعمد إلى تأويلها.

نعم نستطيع فى هذا المجال ذكر مسألة النوم الطويل الطبيعى أو السبات الشتوى لبعض الحيوانات التى تنام خلال أشهر الشتاء و تستيقظ عند انخفاض حدّة البرد، أو مسألة انجماد بعض الحيوانات انجمادا طبيعيا، أو تجميد بعض الأحياء على يد البشر لمدة طويلة دون أن تموت، كلّ ذلك لتقريب فكرة الإماتة و الإحياء مدّة عام إلى الأذهان، و يكون ذكر هذه المسائل بهدف الخروج بالنتيجة التالية:

إنّ اللّه القادر على الإبقاء الأحياء مئات السنين فى نوم طويل أو حالة انجماد، ثمّ إيقاظها و إعادتها إلى حالتها الأولى لهو قادر على إحياء الموتى.

إننا بقبولنا أصل المعاد و إحياء الموتى فى البعث و كذلك بقبول خوارق العادات و المعجزات على أيدى الأنبياء ليس ثمّة ما يدعونا إلى محاولة تفسير جميع آيات القرآن بسلسلة من المسائل العادية و الطبيعية مخالفين بذلك ظاهر الآيات، فهذا ليس صحيحا و لا لزوم له.

و كما قال بعض المفسّرين: كأننا نسينا أننا هنا أموات فى البداية و قد أحيانا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۷

اللّه تعالى، فما المانع أن تتكرر ظاهرة الموت و الحياة هذه.

قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

يسأل اللّه نبيّه فى هذه الآية عن المدّة التى قضاها فى النوم، فيتردّد فى الجواب بين قضائه يوما كاملا أو جزءا من اليوم. و يستفاد من هذا التردّد أنّ الساعة التى أماته اللّه فيها تختلف عن الساعة التى أحياه فيها من ساعات النهار، كأن تكون إماتته قد حدثت مثلا قبل الظهر، و أعيد إلى الحياة بعد الظهر. لذلك انتابه الشكّ إن كان قد نام يوما كاملا بليله و ناره، أم أنّه لم ينم سوى بضع ساعات من النهار. و لهذا بعد أن قال إنّه قضى يوما، راوده الشكّ فقال أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

و لكنّه ما لبث أن سمع اللّه يقول له: بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ

ثمّ أن اللّه تعالى أمر نبيه بأن ينظر إلى طعامه الذى كان معه من جهة، و ينظر إلى مركوبه من جهة اخرى ليطمئن إلى واقعية الأمر فالأول بقى سالما تماما. أمّا الثانى فتلاشى و أصبح رميما. ليعلم قدرة اللّه على حفظ الأشياء القابلة للفساد خلال هذه الأعوام، و يدرك من جهة اخرى مرور الزمان على وفاته:

فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ

«لم يتسنّه» من مادّة «سنة» أى لم يمض عليه مدّة سنة، لعدم تعفّنه و تفسّخه.

و على ذلك يكون معنى الآية: لاحظ طعامك و شرابك تجده كأنّه لم تمض عليه سنة و لا مدّة زمنية، فلم يتغير، أى أنّ اللّه القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسّخ و الفساد كالطعام و الشراب، قادر أيضا على إحياء الموتى بيسر. فإبقاء الطعام و الشراب نوع من إدامة

الحیاة لهذه المواد السریعة التفسّخ، و عملیة الإبقاء هذه لیست بأیسر من إحیاء الموتی ۲۰۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۸

إلّا أنّ الآیة لم تشر إلی ماهیّة طعام النبیّ و شرابه. یقول بعض: إنّ طعامه کان فاکهة التین و کان شرابه عصیر بعض الفواکه، و کلاهما یسرع إلیه الفساد و التفسّخ کما هو معلوم، لذلک فإنّ بقاءهما هذه المدّة الطویلة دون تلف أمر مهم.

وَ انْظُرْ إِلی حِمارِکَ

لم یذکر القرآن عن حماره شیئا فی الآیات السابقة، إلّا أنّ الآیات التالیة تشیر إلی أنّ حماره قد تلاشی تماما بمضیّ الزمان، و لو لا ذلک لما کان هناک ما یشیر إلی انقضاء مائة سنة، و هذا أمر عجیب أیضا، لأنّ حیوانا معروفا بطول العمر یتلاشی علی هذه الصورة، بینما الذی یطرأ علیه التفسّخ السریع کالفاکهة و عصیرها لم یتغیّر لا فی الرائحة و لا فی الطعم، و هذا منتهی تجلّی قدرة اللّه.

وَ لِنَجْعَلَکَ آیَةً لِلنَّاسِ

أی أنّ حکایتک هذه لیست آیة لک وحدک، بل هی کذلک للناس جمیعا.

وَ انْظُرْ إِلَی الْعِظامِ کَیْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَکْسُوها لَحْماً.

«النشوز» هو الارتفاع و البروز، و یعنی هنا رفع العظام من مکانها و ترکیبها مرّة اخری. فمعنی الآیة یکون: انظر إلی هذه العظام النخرة کیف نرفعها من مواضعها و نربط بعض ببعض ثمّ نغطّیها باللحم و نحییها. واضح أنّ العظام المقصودة هی عظام حماره المتلاشی، لا عظام أهل القریة لما فی ذلک من انسجام مع الآیات السابقة.

و احتمل بعض المفسّرین أن المراد من العظام هی عظام نفس ذلک النبی، و هذا بعید جدّا، لأنّ الحدیث کان بعد إحیائه، و کذلک احتمل الآخرون هی عظام الحمار أو عظام الموتی الذین تعجب من احیائهم ۲۰۸]، و هذا أیضا بعید لأن الکلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۹

قبل هذه الجملة کان یدور حول الحمار و الراکب لا أهل القریة.

فَلَمَّا تَبَیَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

عند ما اتّضحت کلّ هذه المسائل للنبیّ المذکور قال إنّه یعلم أنّ اللّه قادر علی کلّ شیء. لاحظ أنّه لم یقل: الآن علمت کقول زلیخا بشأن یوسف الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ۲۰۹] بل قال «أعلم» أی أنّنی أعترف و معرفتی بهذا الأمر بعلمی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۰

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۶۰]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ أَرِنِی کَیْفَ تُحْیِ الْمَوْتی قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلی وَ لکِنْ لِیَطْمَئِنَّ قَلْبِی قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّیْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَیْکَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلی کُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ یَأْتِینَکَ سَعْیاً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۲۶۰)

التّفسیر

تجلّی آخر للمعاد فی هذه الدنیا:

یذکر القرآن الکریم حول مسألة المعاد بعد قصة عزیر قصة اخری عن إبراهیم علیه السّلام لیکتمل البحث، و یذکر معظم المفسّرین و

المؤرخين فى تفسير هذه الآية الحكاية التالية:

مرّ إبراهيم عليه السّلام يوما على ساحل البحر فرأى جيفة مرميّة على الساحل نصفها فى الماء و نصفها على الأرض تأكل منها الطيور و الحيوانات البرّ و البحر من الجانبين و تتنازع أحيانا فيما بينها على الجيفة، عند رؤية إبراهيم عليه السّلام هذا المشهد خطرت فى ذهنه مسألة يودّ الجميع لو عرفوا جوابها بالتفصيل، و هى كيفيّة عودة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۱

الأموات إلى الحياة مرّة اخرى، ففكّر و تأمّل فى نفسه أنّه لو حصل مثل هذا الحادث لبدن الإنسان و أصبح طعاما لحيوانات كثيرة، و كان بالتالى جزء من بدن تلك الحيوانات، فكيف يحصل البعث و يعود ذلك الجسد الإنسانى نفسه إلى الحياة؟

فخاطب إبراهيم عليه السّلام ربّه و قال: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى

فأجابه اللّه تعالى: أو لم تؤمن بالمعاد؟ فقال عليه السّلام: بلى و لكن ليطمئّن قلبى.

فأمره اللّه أن يأخذ أربعة طيور و يذبحها و يخلط لحمها، ثمّ يقسّمها عدّة أقسام و يضع على كلّ جبل قسما منها، ثمّ يدعو الطيور إليه، و عندئذ سوف يرى مشهد يوم البعث، فامتثل إبراهيم للأمر و استولت عليه الدهشة لرؤيته أجزاء الطيور تتجمّع و تأتيه من مختلف النقاط و قد عادت إليها الحياة.

و ثمّة تفسير آخر للآية نقله الفخر الرازى عن أحد المفسّرين يدعى (أبو مسلم) يخالف آراء بقيّة المفسّرين و لكنّنا نذكره هنا لئنّ مفسّرا معاصرا و هو صاحب المنار قد اختار هذا الرأى.

يقول هذا المفسّر: ليس فى هذه الآية ما يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السّلام ذبح الطيور و بعد ذلك عادت إلى الحياة من جديد بأمر اللّه تعالى، بل أنّ الآية فى صدد بيان مثال لتوضيح مسألة المعاد، يعنى أنّك يا إبراهيم خذ أربعة من الطير فضمّها إليك حتّى تستأنس بك بحيث تعجيب دعوتك إذا دعوتها، فإنّ الطيور من أشدّ الحيوانات استعدادا لذلك، ثمّ اجعل كلّ واحدة منهنّ على جبل ثمّ ادعها، فإنّها تسرع إليك، و هذه المسألة اليسيرة بالنسبة لك تماثل فى سهولتها و يسرها مسألة إحياء الأموات و جمع إجزائها المتناثرة بالنسبة إلى اللّه تعالى.

فعلى هذا يكون أمر اللّه تعالى لإبراهيم عليه السّلام فى الطيور الأربعة لا يعنى أن يقدم إبراهيم على هذا العمل حتما، بل أنّه مجرّد بيان مثال و تشبيه كأن يقول شخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۲

لآخر لبيان سهولة الأمر عليه: اشرب هذا القدح من الماء حتّى أنهى هذا العمل و يريد بذلك بيان سهولته، لا أنّ الآخر يجب عليه أن يشرب الماء.

و أستدلّ أنصار النظريّة الثانية بكلمة فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ و قالوا إنّ هذه الجملة إذا كانت متعدّية بحرف (إلى) فتكون بمعنى الأنس و الميل، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة أنّه (خذ هذه الطيور و آنسهن بك) مضافا إلى أنّ الضمائر فى (صرهنّ) و (منهنّ) و (ادعهنّ) كلّها تعود إلى الطيور، و هذا لا يكون سليما إلّا إذا أخذنا بالتفسير الثانى، لأنّه على التفسير الأوّل تعود بعض هذه الضمائر على نفس الطيور و تعود البعض الآخر على أجزائها، و هذا غير مستساغ فى الاستعمال.

الجواب على هذه الاستدلالات سيأتى ضمن تفسيرنا للآية الشريفة و لكن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ الآية تبيّن بوضوح هذه الحقيقة، و هى أنّ إبراهيم عليه السّلام طلب من اللّه تعالى المشاهدة الحسيّة للمعاد و البعث لكى يطمئنّ قلبه، و لا شكّ أنّ ضرب المثل و التشبيه لا يجسّد مشهدا و لا يكون مدعاة لتطمين الخاطر، و فى الحقيقة أنّ إبراهيم كان مؤمنا عقلا و منطقا بالمعاد، و لكنّه كان يريد أن يدرك ذلك عن طريق الحس أيضا.

و الآن نبدأ بتفسير الآية ليتّضح لنا أىّ التفسيرين أقرب و أنسب:

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ أَرِنِی کَیْفَ تُحْیِ الْمَوْتی

سبق أن قلنا إنّ هذه الآیة تکملة للآیة السابقة فی موضوع البعث، یفید تعبیر أَرِنِی کَیْفَ ... أنّه طلب الرؤیة و الشهود عیانا لکیفیّة حصول البعث لا البعث نفسه.

قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلی وَ لکِنْ لِیَطْمَئِنَّ قَلْبِی

کان من الممکن أن یتصور بعضهم أنّ طلب إبراهیم علیه السّلام هذا إنّما یدلّ علی تزلزل إیمان إبراهیم علیه السّلام، و لإزالة هذا التوهّم أوحی إلیه السؤال: «أو لم تؤمن؟»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۳

لکی یأتی جوابه موضحا الأمر، و مزیلا کلّ التباس قد یقع فیه البعض فی تلک الحادثة، لذلک أجاب إبراهیم علیه السّلام بَلی وَ لکِنْ لِیَطْمَئِنَّ قَلْبِی

یفهم من هذه الآیة أیضا علی أنّ الاستدلالات العملیة و المنطقیة قد تؤدّی إلی الیقین و لکنها لا تؤدّی إلی اطمئنان القلب، إنّها ترضی العقل لا القلب و لا العواطف. إنّ ما یستطیع أن یرضی الطرفین هو الشهود العینی و المشاهد الحسیّة.

هذا موضوع مهمّ سوف نزیده إیضاحا فی موضعه.

التعبیر بالاطمئنان القلبی یدلّ علی أن الفکر قبل وصوله إلی مرحلة الشهود یکون دائما فی حالة حرکة و تقلّب و لکن إذا وصل مرحلة الشهود یسکن و یهدأ.

قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّیْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَیْکَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلی کُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً.

«صرهنّ» من «الصور» أی التقطیع، أو المیل، أو النداء، و معنی التقطیع أنسب.

أی خذ أربعة من الطیر و اذبحهنّ و قطّعهنّ و اخلطهنّ.

لقد کان المقصود أن یشاهد إبراهیم علیه السّلام نموذجا من البعث و عودة الأموات إلی الحیاة بعد أن تلاشت أجسادها. و هذا لا یأتلف مع أملهنّ و لا مع صح بهنّ و علی الأخصّ ما یأتی بعد ذلک ثُمَّ اجْعَلْ عَلی کُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً و هذا دلیل علی أنّ الطیور قد قطّعت أوّلا و صارت أجزاء. و لعلّ الذین قالوا إنّ فَصُرْهُنَّ إِلَیْکَ تعنی استمالتهنّ و ایناسهنّ قد غفلوا عن لفظة «جزءا» هذه، و کذلک الهدف من هذا العمل.

و بذلک قام إبراهیم بهذا العمل و عند ما دعاهنّ تجمّعت أجزائهنّ المتناثرة و ترکبت من جدید و عادت إلی الحیاة، و هذا الأمر أوضح لإبراهیم علیه السّلام أنّ المعاد یوم القیامة سیکون کذلک علی شکل واسع و بمقیاس کبیر جدّا.

و یری بعضهم أنّ کلمة (سعیّا) تعنی أنّ الطیور بعد أن عادت إلیهنّ الحیاة لم یطرن، بل مشین مشیا إلی إبراهیم علیه السّلام لئنّ السعی هو المشی السریع، و ینقل عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۴

الخلیل ابن أحمد الأدیب المعروف أنّ إبراهیم علیه السّلام کان یمشی عند ما جاءت إلیه الطیور، أی أنّ (سعیا) حال من إبراهیم لا من الطیور[۲۱۰]، و لکن بالرغم من کلّ ذلک فالقرائن تشیر إلی أنّ (سعیا) کنایة عن الطیران السریع.

بحوث

۱- الحادثة الخارقة للعادة

لاـ شکّ فی أنّ هـذه الحادثـة التی حـدثت للطیور کانت أمرا خارقا للعادة تماما کما فی وقوع البعث یوم القیامـة، و نعلم أنّ اللّه تعالی حاکم علی قوانین الطبیعة و لیس محکوما لها، فعلی هذا لا یکون من العسیر حدوث مثل هذه القضایا بأمره، و کما أشرنا سابقا إلی أنّ إصـرار بعض المفسّرین المثقفین علی الأعراض عن التفسیر المشهور. و القول بأنّ المراد هو تدجین و تأهیل هذه الطیور حتّی تستأنس به ثمّ یدعوها إلیه فتسـتجیب، ضـعیف جدّا و کلام لا یستند علی أساس منطقی و لا یتناسب مع مسألة المعاد و لا مع قصّة إبراهیم علیه السّلام و رؤیته للجیفة علی ساحل البحر ثمّ طلبه رؤیة مشهد البعث و المعاد.

و الجـدیر بالذکر أنّ (الفخر الرازی) قال بأنّ جمیع المفسّـرین اتّفقوا علی ما ذکر من التفسـیر المشـهور إلّا أبو مسـلم حیث أنکر ذلک [۲۱۱].

۲- أربع طیور مختلفة

لا شکّ أنّ الطیور الأربعة کانت من أربعة أنواع مختلفة، و إلّا فإنّ هدف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۵

إبراهیم علیه السّـلام من عودة کـلّ جزء إلی أصـله لاـ یتحقق. و فی بعض الروایـات أنّ هـذه الطیور کانت طاووسا و دیکا و حمامـة و غرابا، فکان الاختلاف بینها کبیرا، و یری بعض أنّها مظهر للصـفات و الخصال المختلفـة فی البشـر. فالطاوس یمثّل العجب و الخیلاء و التکبر، و الدیک یمثّل الرغبات الجنسیة الشدیدة، و الحمامة تمثّل اللهو و اللعب، و الغراب یمثّل الآمال و المطامح البعیدة.

۳- عدد الجبال

لم یرد فی القرآن ذکر عدد الجبال التی وضع علیها إبراهیم أجزاء الطیور، و لکن الأحادیث التی وصـلتنا عن أهل البیت علیهم السّـلام تقول أنّها عشـرة. و لهذا ورد فی الروایات: إنّ من یوصـی بإنفاق جزء من أمواله فی أمر من الأمور دون تعیین النسبة فإن صرف عشرة بالمائة یکفی [۲۱۲].

۴- متی وقعت هذه الحادثة؟

هل وقعت عند ما کان إبراهیم فی بابل، أم بعد نزوله بالشام؟ یظهر أنّ ذلک قد حدث فی الشام، لأنّ منطقة بابل خالیة من الجبال.

۵- المعاد الجسمانی

معظم الآیات الواردة فی القرآن المجیـد بشأن البعث تشـرح و توضـح المعاد الجسـمانی. إنّ العلیم بالمفاهیم القرآنیـة الخاصّـة بالمعاد یعلم أنّ ما یذکره القرآن هو المعاد الجسمانی فقط، أی عند ما یبعث الناس یکون البعث للجسم و الروح معا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۶

لذلک فالقرآن یعبّر عن ذلک بأنّه إحیاء الموتی، و لو کان البعث یقتصر علی الروح لما کان للإحیاء أی مفهوم.

و هذه الآیة تشرح بکلّ وضوح کیفیّة تجمّع أجزاء الجسد المتناثرة، و هو ما رآه إبراهیم علیه السّلام بعینیه.

۶- شبهة الأكل و المأكول

ما ذكرناه من الدافع الذى دفع بإبراهيم عليه السّلام إلى طلب مشاهدة إحياء الموتى و حكاية الجيفة التى كان يأكل منها حيوانات البرّ و البحر، نفهم أنّ اهتمام إبراهيم عليه السّلام كان منصبّا على أن يعرف كيف يمكن إرجاع جسد ميّت إلى حالته الأولى بعد أن أكلته الحيوانات و أصبح جزءا من أجساد تلك الحيوانات؟ و هذا ما يطلق عليه فى علم العقائد اسم «شبهة الآكل و المأكول».

لتوضيح ذلك نقول: إنّ اللّه سبحانه يعيد الإنسان فى يوم القيامة بهذا الجسد المادّى. و بعبارة أخرى يعود جسم الإنسان و تعود روحه أيضا.

فى هذه الحالة يبرز تساؤل يقول: إذا استحال جسد الإنسان إلى تراب، و امتصّته جذور الأشجار و النباتات و أصبح ثمرا أكله إنسان آخر و غدا جزءا من جسده. أو إذا افترضنا مثلا سنوات قحط شديدة أكل فيها إنسان لحم إنسان، فإلى أىّ جسد ستعود هذه الأجزاء المأكولة؟ فإذا غدت جزء من الجسد الأوّل أصبح الجسد الثانى ناقصا، و إن بقيت جزء من الجسد الثانى نقص الأول أو انعدم.

الجواب:

هذا الاعتراض القديم أجاب عليه الفلاسفة و علماء العقائد إجابات مختلفة لا نرى ضرورة لدرجها جميعا هنا. و هناك آخرون لم يستطيعوا أن يعثروا على جواب مقنع، فراحوا يؤوّلون الآيات المرتبطة بالمعاد الجسمانى و عمدوا إلى

اعتبار شخصية الإنسان منحصرة بالروح و الخصائص الروحية، مع أنّ شخصية الإنسان لا تنحصر بالروح فقط، و لا الآيات الخاصّة بالمعاد الجسمانى غامضة بحيث يمكن تأويلها، بل هى صريحة صراحة قاطعة كما قلنا.

و هناك غيرهم قالوا بنوع من المعاد الجسمانى الذى لا يختلف كثيرا عن المعاد الروحانى، إلّا أننا نجد أمامنا طريقا أكثر وضوحا بالاعتماد على النصوص القرآنية و يتّفق مع ما توصّل إليه العلم الحديث، و يحتاج توضيحه إلى عدّة مقدّمات.

۱- إنّنا نعلم أنّ أجزاء جسد الإنسان تتبدّل مرّات عديدة من الطفولة إلى الموت، حتّى خلايا الدماغ التى لا تتغيّر من حيث العدد، تتغيّر من حيث الأجزاء، فهى من جهة تتغذّى و من جهة اخرى تتجزّأ، و هذا نفسه يؤدّى إلى تبديلها الكامل على مدى الزمن، بحيث إنّه بعد مرور عشر سنوات لا تبقى أيّة ذرّة من ذرّات الجسم القديمة.

و لكن الذرّات السابقة عند ما تكون على أعتاب الهلاك تنقل جميع خواصّها و آثارها إلى الخلايا الجديدة، لذلك فإنّ مميّزات الإنسان الجسمية كالطول و الشكل و الهيئة و غيرها من الكيفيات الجسمانية تبقى ثابتة على مرور الزمان، و هذا لا يكون إلّا بانتقال هذه الصفات إلى الخلايا الجديدة، (لاحظ هذا بدقّة).

و عليه فإنّ الأجزاء الأخيرة من كلّ إنسان، عند ما تتبدّل بعد الموت إلى تراب، تكون حاوية على مجموعة من الصفات التى اكتسبتها على امتداد العمر، فهى تاريخ ينطق بمسيرة جسم الإنسان على امتداد العمر كلّه.

۲- صحيح أنّ الروح هى الأساس الذى تبنى عليه شخصية الإنسان، و لكن ينبغى أن نعرف أنّ الروح تتكامل و تتربّى بالجسم، و هما يتبادلان التأثير. لذلك فكما أنّ جسدين لا يتشابهان من جميع الجهات، كذلك لا تتشابه روحان من

جميع الجهات أيضا.

و لهذا السبب فإنّ الروح لا تستطيع أن تتفاعل تفاعلا كاملا إلّا مع الجسد الذى تربّت و تكاملت معه. لذلك ففى البعث لا بدّ من حضور الجسد السابق نفسه لكى تستطيع الروح الاندماج به و تستأنف نشاطها فى عالم أسمى، و لتجنى ثمار أعمالها.

۳- تتمثّل فى كـلّ ذرّة من ذرّات الجسم جميع صـفاته، أى أنّنـا لو أمكننـا أن نربّى كـلّ خليّـة من خلايـا جسم الإنسان لتصـبح إنسانا كاملا، فإنّ ذلك الإنسان سوف يحمل جميع صفات الإنسان الذى أخذ منه هذا الجزء، (لاحظ بدقّة).

هل أن الإنسان كان فى اليوم الأوّل أكثر من خليـة واحـدة؟ خلية النطفة التى كانت تحمل جميع الصـفات، ثمّ راحت كلّ خلية تنشـطر إلى خليتين على التوالى حتى اكتملت جميع خلايا الجسم، و عليه فإنّ كلّ خليـة فى جسم الإنسان هى جزء من الخلية الأولى بحيث لو أنّها تربّت لاستحالت إلى إنسان شبيه بالأوّل يحمل صفاته من جميع الجهات.

و الآن مع أخذ هذه المقدّمات الثلاث بنظر الإعتبار نباشر بالإجابة على الاعتراض المذكور.

فى القرآن آيات تقول بوضوح: إنّ الذرّات الموجودة فى جسم الإنسان عند الموت هى التى تعود إلى ذلك الجسد يوم القيامة[۲۱۳].

فـإذا كـان شـخص آخر قـد طعم من لحمه فإنّ الأجزاء التى طعمها تنفصل عنه و تعود إلى الجسم الأصـلى، كلّ ما فى الأمر أنّ جسـم الشـخص الآـخر يصـبح ناقصـا، و لكن ينبغى أن نقول إنّه لا ينقص، بل يصـغر، لأنّ أجزاء الجسم المأكول تكون قـد انتشـرت فى كلّ أجزاء جسم الآكل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۹

و لذلك فإنّ جسم الآكل حين تسترجع منه الأجزاء ينحف و يصـغر بنسـبة ما يؤخذ منه. فالذى يزن ستين كيلو غراما، مثلا، حين يؤخذ منه أربعون كيلو غراما لتعطى للشخص الأوّل يصغر بحيث لا يزيد على وزن طفل.

و هل يسبّب هذا مشكلة؟ كلّا طبعا، لأنّ هذا الجسد الصـغير يكون حاويا على جميع صـفات الشـخص دون زيادة و لا نقصان، و عند البعث يكون كالطفـل الـذى يولـد صـغيرا ثمّ ينمو و يكبر و يحشـر بهيئـة إنسـان كامل. و ليس فى هـذا النوع من النموّ عنـد البعث أىّ إشكال عقلى أو نقلى.

هل هذا النموّ عند البعث فورىّ أم تدريجىّ؟ هذا ما لا نعلمه، و لكن الذى نعلمه هو أنّه سواء أ كان هذا أم ذاك، فلا يثير أيّة مشـكلة، و المسألة محلولة فى كلتا الحالتين.

و يبقى سؤال واحد، و هو: إذا كان كلّ جسد الشخص الآكل مكوّنا من أجزاء جسد الشخص المأكول، فما العمل؟

الجواب بسيط، لأنّ حالة كهذه مستحيلة الوجود، فقضيـة الآكل و المأكول تقتضـى أن يكون هناك أوّلا جسد معيّن، ثمّ يتغذّى على جسـد آخر و ينمو، و على هـذا فلاـ يمكن أن تكون جميع أجزاء جسم الآكـل متكونـة من أجزاء جسم المأكول، إذ ينبغى أن نفترض أوّلاـ وجـود جسم سـابق حتـى يمكن أن يتغـذّى على جسم آخر، و عليه فـإنّ جسم الثـانى سوف يكون جزء من جسم الأوّل لاـ كلّه، فتأمّل.

يتّضح من هذا الشـرح أنّ مسألة المعاد الجسـمانى لجسم الإنسان نفسه ليس فيه أىّ إشكال، و لا حاجة إلى تأويل الآيات الصريحة فى إثبات هذا الموضوع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۱]

اشارة

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۲۶۱)

التّفسير

الإنفاق و ترشيد الشخصيّة:

تعتبر مسألـة الإنفـاق إحـدى أهمّ المسائـل التى أكـدّ عليها الإسـلام و القرآن الكريم، و الآيـة أعلاه هى أوّل آيـة فى مجموعـة الآيات الكريمـة من سورة البقرة التى تتحـدّث عن الإنفاق، و لعلّ ذكرها بعد الآيات المتعلّقة بالمعاد من جهة أنّ أحد الأسـباب المهمّة للنجاة فى الآخرة هو الإنفاق فى سبيل اللّه. و ذهب البعض إلى أنّ الآيات لها ارتباط بآيات الجهاد المـذكورة قبل آيات المعاد و التوحيد فى هذه السورة.

تقول الآيـة الشـريفة: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ فيكون المجموع المتحصّل من حبّة واحدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۱

سبعمائة حبّة، و تضيف الآية بأنّ ثواب هؤلاء لا ينحصر بذلك وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ.

و ذلـك باختلاـف النيّات و مقـدار الإخلاص فى العمل و فى كفيّته و كميّته. و لا عجب فى هـذا الثواب الجزيل لأنّ رحمـة اللّه تعالى واسعة و قدرته شاملة و هو مطّلع على كلّ شىء وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

و يرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الإنفاق فى الآية أعلاه هو الإنفاق للجهاد فى سبيل اللّه فقط لأنّ هذه الآية فى الواقع تأكيد لما مرّ فى الآيات التى تحـدّثت عن قصة عزير و إبراهيم و طالوت، و لكنّ الإنصاف أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك و مجرّد ارتباطها بالآيات السابقة لا يمكن أن يكون دليلا على تخصيص هذه الآية و الآيات التالية لأنّ عبارة فِي سَبِيلِ اللَّهِ لها مدلول واسع يشمل كلّ مصارف الخير، مضافا إلى أنّ الآيات التاليـة أيضا ورد فيها بحث الإنفاق بسورة مستقلّة، و قـد أشـير كـذلك فى الروايات الإسـلامية إلى عموم معنى الإنفاق فى هذه الآية[۲۱۴].

و الجـدير بالـذكر أنّ هذه الآية تشبّه الأشـخاص الذين ينفقون فى سبيل اللّه بالبذرة المباركة التى تزرع فى أرض خصـبة فى حين أنّ التشبيه عادة يجب أن يكون بين الإنفاق نفسه و البذرة أى أعمالهم لا أنفسهم، و لذلك ذهب الكثير من المفسّرين أنّ فى الآية حذف مثل كلمة (صدقات) قبل كلمة (الذين ينفقون) أو كلمة (زارع) قبل كلمة الحبّة و أمثال ذلك.

و لكن ليس هناك أى دليل على وجود الحذف و التقدير فى هذه الآية، بل إنّ تشبيه المنفقين بحبّات كثيرة البركة تشبيه رائع و عميق و كأنّ القرآن يريد أن يقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۲۹۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۲

إنّ عمل كلّ إنسان انعكاس لوجوده، و كلّما اتّسع العمل اتّسع فى الواقع وجود ذلك الإنسان.

و بعبارة اخرى: أنّ القرآن لا يفصل عمل الإنسان عن وجوده، بل يرى أنّهما مظهران مختلفان لحقيقـة واحـدة، و وجهان لعملة واحدة، لذلك فإنّ آية قابلة للتفسير من دون أن نفترض فيها حذفا و تقديرا، فالآية إشارة إلى حقيقة أنّ شخصـية الإنسان الصالح تنمو و تكبر معنويّا بأعمـاله الصالحـة، فمثل هؤلاء المنفقين كمثل البـذور الكثيرة الثمر التى تمـدّ جـذورها و أغصانها إلى جميع الجهات و تفيض ببركتها على كلّ الأرجاء.

و الخلاصة أنّه فى كلّ مورد للتشبيه مضافا إلى وجود أداة التشبيه لا بدّ من وجود ثلاثة امور اخرى:

المشبّه، و المشبّه به، و وجه التشبيه، ففى هذا المورد المشبّه هو الإنسان المنفق، و المشبّه به هو البذور الكثيرة البركة، و وجه التشبيه هو

النموّ و الرشد، و نحن نعتقد أنّ الإنسان المنفق ينمو و يرشد معنويّا و اجتماعيّا من خلال عمله ذاك و لا يحتاج إلى أيّ تقدير حينئذ.
و شبيه هذا المعنى ورد كذلك فى الآية ۲۶۵ من هذه السورة، و هناك بحث بين المفسّرين فى التعبير بقوله أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ حيث أشارت الآية إلى أنّ حبّة واحدة تصير سبعمائة حبّة أو أكثر، و أنّ هذا التشبيه لا وجود خارجى له فهو تشبيه فرضى (لأنّ حبّة الحنطة لا تبلغ فى موسم الحصاد سبعمائة حبّة أبدا) و أو أنّ المقصود هو نوع خاصّ من الحبوب (كالدخن) التى تعطى هذا القدر من الناتج، و يلفت النظر أنّ الصحف كتبت أخيرا أنّ بعض مزارع القمح أنتجت فى السنوات الممطرة سنابل طويلة يحمل بعضها نحوا من اربعمائة آلاف
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۳
حبّة، و هذا يدلّ على أنّ تشبيه القرآن واقعى و حقيقى.
جملة (يضاعف) من مادّة (ضعف) و يعنى مقدار المرتين أو المرّات و بالنظر إلى ما ذكرنا آنفا من وجود حبوب تعطى عدّة آلاف من المحصول نعرف بأنّ هذا التشبيه هو تشبيه واقعىّ أيضا.

بحث

الإنفاق و مشكلة الفوارق الطبقيّة:

من المشكلات الاجتماعية الكبرى التى يعانى منها الإنسان دوما و لا زال يعانى رغم كلّ ما حقّقه البشر من تقدّم صناعى و مادّى هى مشكلة التباين الطبقى المتمثّلة بالفقر المدقع فى جانب، و تراكم الثروة فى جانب آخر.
إنّك لترى بعضهم يكتنز من الثروة بحيث إنّه لا يستطيع أن يحصيها، و ترى بعضهم من الفقر فى عذاب ممض بحيث لا يستطيع أن يجد حتّى الضرورىّ اللازم لحياته كالحدّ الأدنى من الغذاء و الملبس و المأوى.
لا شكّ أنّ المجتمع الذى يقوم قسم من بنيانه على الغنى الفاحش، و القسم الأعظم على الفقر المدقع و الجوع القاتل، لا دوام له، و لن يصل إلى السعادة الحقيقة أبدا، إنّ مجتمعا كهذا يسوده حتما الهلع و الاضطراب و القلق و الخوف و سوء الظن، و من ثمّ العداء و الصراع.
هذا التباين الطبقى الذى كان موجودا فى القديم قد تفشّى فينا اليوم- مع الأسف- بأكثر و أخطر ممّا سبق، ذلك لأنك تجد أبواب التعاون الإنسانى الحقيقى قد أغلقت بوجوه الناس، و فتحت بمكانها أبواب الربا الفاحش الذى هو من أهمّ أسباب اتساع الهوة الطبقية بين الناس، و لا أدلّ على ذلك من ظهور الشيوعية
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۴
و أمثالها، و إراقة الدماء فى أنواع الحروب المروعة التى اندلعت فى قرننا الأخير و ما زالت مندلعة هنا و هناك فى أنحاء مختلفة من العالم، و معظمها ذات منشأ اقتصادى و ردّ فعل لحرمان أكثرية شعوب العالم.
و قد سعى العلماء و المذاهب الاقتصادية فى العالم للبحث عن علاج، و اختار كلّ طريقا، فالشيوعية اختارت إلغاء الملكية الفردية، و الرأسمالية اختارت طريق استيفاء الضرائب الثقيلة و إنشاء المؤسّسات الخيرية العامّة (و هى شكلية أكثر من كونها حلّا لمشكلة الطبقية)، ظانّين أنّهم بذلك يكافحون هذه المشكلة، لكن أيّا من هؤلاء لم يستطع فى الحقيقة أن يخطو خطوة فعّالة فى هذا السبيل، و ذلك لأنّ حلّ هذه المشكلة غير ممكن ضمن الروح الماديّة التى تسيطر على العالم.
بالتدقيق فى آيات القرآن الكريم يتّضح أنّ واحدا من الأهداف التى يسعى لها الإسلام هو إزالة هذه الفوارق غير العادلة الناشئة من

الظلم الاجتماعی بین الطبقتین الغنیة و الفقیرة، و رفع مستوی معیشة الذین لا یستطیعون رفع حاجاتهم الحیاتیة و لا توفیر حدّ أدنی من متطلّباتهم الیومیة دون مساعدة الآخرین.

و للوصول إلی هذا الهدف وضع الإسلام برنامجا واسعا یتمثّل بتحریم الربا مطلقا، و بوجوب دفع الضرائب الإسلامیة کالزکاة و الخمس، و الحثّ علی الإنفاق، و قرض الحسنة، و المساعدات المالیة المختلفة، و أهمّ من هذا کلّه هو إحیاء روح الأخوّة الإنسانیة فی الناس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۵

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۶۲]

اشارة

الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ لا یُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذیً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۲۶۲)

التّفسیر

الإنفاق المقبول:

الآیة السابقة بیّنت أهمیّة الإنفاق فی سبیل اللّه بشکل عام، و لکن فی هذه الآیة بیّنت بعض شرائط هذا الإنفاق (و یستفاد ضمنا من عبارات هذه الآیة أنّ الإنفاق هنا لا یختصّ بالإنفاق فی الجهاد).

تقول الآیة الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ لا یُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا ... وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ ۲۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۶

یستفاد بوضوح من هذه الآیة أنّ الإنفاق فی سبیل اللّه لا یکون مقبولا عند اللّه تعالی إذا تبعته المنّة و ما یوجب الأذی و الألم للمعوزین و المحتاجین، و علیه فإنّ من ینفق ماله فی سبیل اللّه و لکنّه یمنّ به علی من ینفق علیه، أو ینفقه بشکل یوجب الأذی للآخرین فإنّه فی الحقیقة یحبط ثوابه و أجره بعمله هذا.

إنّ ما یثیر الاهتمام أکثر فی هذه الآیة هو أنّ القرآن لا یعتبر رأسمال الإنسان فی الحیاة مقتصرا علی رأس المال المادّی، بل یحسب حساب رؤوس الأموال المعنویة و الاجتماعیة أیضا.

إنّ من یعطی شیئا لأحد و یمنّ علیه به أو یقوم بما یثیر الألم فی نفس المعطی له و یجرح عواطفه فإنّه لا یکون قد أعطاه شیئا فی الواقع، لأنّه إذا کان قد أعطاه رأسمال، فإنّه قد أخذ منه رأسمال أیضا، بل لعلّ المنّة التی یمنّ بها علیه و نظرة التحقیر التی ینظر بها إلیه ذات أضرار باهضة یفوق ثمنها ما أنفقه من مال إذا لم ینل أمثال هؤلاء الأشخاص أیّ ثواب علی إنفاقهم هذا فهو أمر طبیعی و عادل.

و قد یصحّ القول إنّ هؤلاء فی کثیر من الأحوال هم المدینون لا الدائنون لأنّ کرامة الإنسان أغلی بکثیر من أیّ مال و ثروة.

و لاحظ فی الآیة إنّ کلمتی المنّ و الأذی مسبوقتان ب (ثمّ) التی تفید التراخی، أی وجود فتره زمنیة بین فعلین. فیکون معنی الآیة: إنّ الذین ینفقون، و بعد ذلک لا یمنّون علی أحد و لا یؤذون أحدا یکون ثوابهم محفوظا عند اللّه.

و یعنی هذا ضرورة الابتعاد عن المنّ و الأذی لا فی حالة الإنفاق فحسب، بل علیه أن لا یمنّ علیه فی أوقات تالیة عن طریق تذکیر المنفق علیه بالإنفاق، و هذا دلیل علی الدقّة المتناهیة التی یبتغیها الإسلام من الخدمات الإسلامیة الخالصة.

لا بدّ من القول إنّ المنّ و الأذى اللذين يحبطان قبول الإنفاق لا يختصّان بالإنفاق على الفقراء فقط، بل تجنّبهما لازم في جميع الأعمال العامّة و الاجتماعية

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۷

كالجهاد في سبيل اللّه و الأعمال ذات المنفعة العامّة التي تتطلّب بذل المال.

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

تطمئن هذه الآية المنفقين أنّ أجرهم محفوظ عند اللّه لكي يواصلوا هذا الطريق بثقة و يقين. فما كان عند اللّه باق و لا ينقص منه شيء، بل أنّ عبارة (ربّهم) قد تشير إلى أن اللّه تعالى سيزيد في أجرهم و ثوابهم.

وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

سبق أن قلنا إنّ الخوف يكون من المستقبل، و الحزن على ما مضى. و عليه فإنّ المنفقين بعلمهم أنّ جزاءهم محفوظ عند اللّه لن ينتابهم الخوف من يوم البعث الآتي، و لا هم يحسّون بالحزن على ما أنفقوه في سبيل اللّه.

و ذهب البعض إلى أنّه لا خوف من الفقر و الحقد و البخل و الغبن و أمثال ذلك و لا حزن على ما أنفقوا في سبيل اللّه.

و في الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من أسدى إلى مؤمن معروفا ثمّ آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل صدقته»

[۲۱۶] فالشخص الذي ينفق في سبيل اللّه و لم يرتكب مثل هذه الأعمال بعد ذلك لا يخشى بطلان إنفاقه، و المفاهيم الإسلامية تؤكّد دقّة الشريعة المقدّسة في هذا المجال بحيث أنّ بعض العلماء الأقدمون قالوا: (إنّك إذا تصدّقت على شخص و تعلم أنّك إذا سلّمت عليه سيصعب عليه ذلك فيتذكر صدقتك عليه فلا تسلّم عليه)[۲۱۷].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۳]

اشارة

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (۲۶۳)

التّفسير

الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة مع المنّة:

هذه الآية تكمّل ما بحثته الآية السابقة في مجال ترك المنّة و الأذى عند الإنفاق و التصدّق فتقول: إنّ الكلمة الطيّبة للسائلين و المحتاجين و الصفح عن أذاهم أفضل من الصدقة التي يتبعها الأذى قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً

و يجب أن يكون معلوما أنّ ما تنفقوه في سبيل اللّه فهو في الواقع ذخيرة لكم لإنقاذكم و نجاتكم لأنّ اللّه تعالى غير محتاج إليكم و إلى أموالكم و حليم في مقابل جهالاتكم وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ

بحوث

۱- تبیّن هذه الآیة منطق الإسلام فی قیمة الأشخاص الاجتماعیّة و کرامتهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۹

و تری أن أعمال الـذین یسعون فی حفظ رؤوس الأموال الإنسانیـة، و یعاملون المحتاجین باللطف و یقـدّمون لهم التوجیه اللازم، و لا یفشون أسـرارهم، أفضـل و أرفع من إنفـاق أولئـک الأنـانیّین ذوی النظرة الضـیّقة الـذین إذا قـدّموا عونا صـغیرا یتبعونه تجریـح الناس المحترمین و تحطیم شخصـیّاتهم. فی الحقیقـة إنّ أمثال هؤلاء الأشـخاص ضـررهم أکثر من نفعهم، فهم إذا أعطوا ثروة عرضوا ثروات للإبادة و الضیاع.

یتّضح ممّا قلناه إنّ لتعبیر قَوْلٌ مَعْرُوفٌ مفهوما واسعا یشمل کلّ أنواع القول الطیّب و التسلیة و التعزیة و الإرشاد.

و ذهب بعضهم إلی أن المراد هو الأمر بالمعروف ۲۱۸] و لکن هذا المعنی لا یتناسب مع الآیة ظاهرا.

«المغفرة» بمعنی العفو بإزاء خشونـة المحتاجین، أولئک الذین طفح کیل صبرهم بسـبب تراکم الابتلاءات علیهم، فتزلّ ألسـنتهم أحیانا بـالخشن من القول ممّا لا یودونه قلبیا. هؤلاء بعنفهم هـذا إنّما یریـدون أن ینتقموا من المجتمع الـذی ظلمهم و غمط حقوقهم، فأقلّ ما یمکن للاشـخاص الأثریاء فی مقابل حرمان هؤلاء المحرومین هو أن یتحمّلوا منهم انـدفاعاتهم اللفظیة التی هی شـرر النار التی تسـتعر فی قلوبهم فتنطلق علی ألسنتهم.

لا شکّ أنّ تحمّل عنفهم و خشونتهم و العفو عنها یخفّف عنهم ضغط عقدهم النفسیة، و بهذا تتّضح أکثر أهمیّة هذه الأوامر الإلهیّة.

یری بعض أنّ «المغفرة» یقصد بها هنا المعنی الأصلی، و هو الستر و الإخفاء.

أی ستر أسـرار المحتاجین الـذین لهم کرامتهم مثل غیرهم. غیر أنّ هـذا التفسـیر لا یتعارض مع ما قلناه، لأنّنا إذا فسّـرنا المغفرة بمعناها الأوسع فهی تشمل العفو کما تشمل الستر و الإخفاء أیضا.

جاء فی تفسیر «مجمع البیان» عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا سأل السائل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۰

فلا تقطعوا علیه مسألته حتّی یفرغ منها، ثمّ ردّوا علیه بوقار ولین إمّا ببـذل یسـیر أو ردّ جمیل، فإنّه قـد یأتیکم من لیس بإنس و لا جان ینظرونکم کیف صنیعکم فیما خوّلکم اللّه تعالی»

[۲۱۹].

فی هذا الحدیث یبیّن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم جانبا من آداب الإنفاق.

۲- إن العبارات القصـیرة التی تأتی فی ختام الآیات عادة و تورد بعض صفات اللّه تعالی ترتبط حتما بمضمون الآیة نفسها. و علی هذا فمن الممکن أن یکون المقصود من وَ اللَّهُ غَنِیٌّ حَلِیمٌ هو: أنّ الإنسـان ظـالم بالطبع، و لـذلک فإنّه إذا نال منصـبا و حصل ثروة حسـب نفسه غنیا و لم یعـد بحاجـة إلی الآخرین، و قـد تحـدو به هـذه الحالـة إلی اسـتعمال الخشونـة و التهجّم ضدّ المحرومین و المحتاجین. لـذلک یقول القرآن إنّ الغنیّ بـذاته هو اللّه، فاللّه هو وحـده الغنیّ الـذی لا یحتاج شـیئا، أمّا إحساس البشـر بأنّه غنیّ فسـراب خادع لا ینبغی أن یؤدی إلی الطغیان و التعالی علی الفقراء. ثمّ إنّ اللّه حلیم بالنسبة للذین لا یشکرون، فعلی المؤمنین أن یکونوا کذلک أیضا.

و قـد تکون الآیـة إشارة إلی أنّ اللّه غنیّ عن إنفاقکم. و أنّ ما تنفقونه إنّما هو لخیرکم أنفسـکم، فلا تمنّوا علی أحد. ثمّ إنّ اللّه حلیم باتجاه خشونتکم و لا یتعجّل معاقبتکم لعلّکم تستیقظون و تصلحون أنفسکم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۱

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۶۴ الی ۲۶۵]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاـ تُبْطِلُوا صَـدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَـفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصـابَهُ وابِـلٌ فَتَرَكَهُ صَـلْداً لاـ يَقْـدِرُونَ عَلى شَـيْءٍ مِمَّا كَسَـبُوا وَ اللَّهُ لا يَهْـدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۲۶۴) وَ مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغـاءَ مَرْضـاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتـاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِـعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِـبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۶۵)

التّفسير

دوافع الإنفاق و نتائجه:

فى هاتين الآيتين نهى للمؤمنين عن المنّ و الأذى عند إنفاقهم فى سبيل اللّه، لأنّ ذلك يحبط أعمالهم. ثمّ يضرب القرآن مثلا للإنفاق المقترن بالمنّ و الأذى، و مثلا آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص و العواطف الإنسانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۲

يقول تعالى فى المثال الأوّل: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ ....

تصوّر قطعة حجر صـلد تغطّيه طبقه خفيفة من التراب، و قد وضعت فى هذا التراب بذور سليمة، ثمّ عرّض الجميع للهواء الطلق و أشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئا سوى اكتساح التراب و البذور و بعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته و صلابته التى لا تنفذ فيها الجذور، و هذا ليس لأنّ أشعة الشمس و الهواء الطلق و المطر كان لها تأثير سىء، بل لأنّ البذر لم يزرع فى المكـان المنـاسب، ظـاهر حسن و بـاطن خشن لاـ يسـمح بـالنفوذ إليه. قشـرة خارجيـة من التربـة لا تعين على نموّ النبات الـذى يتطلّب الوصول إلى الأعماق لتتغذّى الجذور.

و يشبّه القرآن الإنفاق الـذى يصاحبه الرياء و المنّـة و الأذى بتلك الطبقة الخفيفة من التربة التى تغطّى الصـخرة الصـلدة و التى لا نفع فيها، بل أنّها بمظهرها تخـدع الزارع و تـذهب بأتعابه أدراج الرياح. هـذا هو المثل الذى ضـربه القرآن فى الآية الاولى للإنفاق المرائى الذى يتبعه المنّ و الأذى ۲۲۰].

و فى نهايـة الآيـة يقول تعـالى: وَ اللَّهُ لاـ يَهْـدِى الْقَوْمَ الْكـافِرِينَ و هو إشـارة إلى أنّ اللّه تعالى سوف يسـلبهم التوفيق و الهدايـة، لأنّهم أقـدموا على الرياء و المنّة و الأذى باقـدامهم، و اختاروا طريق الكفر باختيارهم، و مثل هـذا الشـخص لا يليق بالهداية، و بذلك وضـع القرآن الكريم الإنفاق مع الرياء و المنّة و الأذى فى عرض واحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۳

مثال رائع آخر

فى الآية التالية نقرأ مثالا جميلا آخر يقع فى النقطة المقابلة لهذه الطائفة من المنفقين، و هؤلاء هم الذين ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه بدافع من الإيمان و الإخلاص فتقول الآية: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ

تصوّر هذه الآية مزرعة خضـراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل لنسيم الطلق و أشعة الشمس الوافرة و المطر الكثير النافع، و إذا لم يهطـل المطر ينزل الطـلّ و هو المطر الخفيف و ذرّات الهبـاب ليحافظ على طراوة المزرعـة و لطافتها، فتكون النتيجـة أنّ مزرعة

کهذه تعطی ضعف ما تعطی المزارع الاخری، فهذه الأرض فضلا عن کونها خصبة بحیث یکفیها الطلّ و المطر الخفیف ناهیک عن المطر الغزیر لأیناع حاصلها، و فضلا عن کونها تستفید کثیرا من الهواء الطلق و أشعّة الشمس و تلفت الأنظار لجمالها، فإنّها لوقوعها علی مرتفع تکون فی مأمن من السیول.

فالآیة الشریفة ترید أن تقول: إنّ الذین ینفقون أموالهم فی سبیل اللّه لتمکّن الإیمان و الیقین فی قلوبهم و أرواحهم هم أشبه بتلک المزرعة ذات الحاصل الوافر المفید و الثمین.

و فی ختام الآیة تقول: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ فهو سبحانه یعلم ما إذا کان الدافع علی هذا الإنفاق إلهیّا مقترنا بالمحبّة و الاحترام، أو للریاء المشفوع بالمنّة و الأذی.

بحوث

۱- إنّ عبارة لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِکُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذی تفید بأنّ بعض الأعمال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۴

یمکن أن تبدّد نتائج بعض الأعمال الحسنة، و هذا هو الإحباط الذی مرّ شرحه فی ذیل الآیة ۲۱۷ من هذه السورة.

۲- إنّ تشبیه العمل مع الریاء بالصخرة التی خطّتها قشرة ناعمة من التراب تشبیه دقیق جدّا لأنّ المرائی له باطن خشن و مجدب فیحاول تغطیته بمظهر حسن و جمیل، و هو حبّ الخیر و الإحسان للنّاس، فأعماله غیر متجذّرة فی وجوده و روحه و لیس لها أساس عاطفیّ ثابت فما أسرع ما ینقشع هذا الحجاب بسبب الأحداث و الوقائع فی الحیاة فیظهر باطنهم بذلک.

۳- جملة ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِیتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ تبیّن دوافع الإنفاق الإلهی السلیم، و هما دافعان: ابتغاء مرضاة اللّه، و تقویة روح الإیمان و الاطمئنان فی القلب.

هذه الآیة تقول إنّ المنفقین الحقیقیّین هم الذین یکون دافعهم رضا اللّه و تربیة الفضائل الإنسانیة و تثبیتها فی قلوبهم، و إزالة الاضطراب و القلق اللذین یحصلان فی نفس المرء بإزاء مسئولیته نحو المحرومین. و علیه فإنّ «من» فی الآیة تعنی «فی» أی فی نفوسهم.

۴- و جملة وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ المذکورة فی آخر الآیة الثانیة تحذیر إلی جمیع الذین یریدون القیام بعمل صالح کی یأخذوا حذرهم لئلّا یخالط عملهم و نیّتهم و أسلوب عملهم أی تلوّث، لأنّ اللّه یراقب أعمالهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۵

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۶۶]

اشارة

أَ یَوَدُّ أَحَدُکُمْ أَنْ تَکُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِیها مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْکِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّیَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِیهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ (۲۶۶)

التّفسیر

مثال آخر للإنفاق الملوث بالریاء و المنّة:

هنا یضرب القرآن مثلا آخر یبیّن حاجة الإنسان الشدیدة إلى الأعمال الصالحات یوم القیامة، و کیف أنّ الریاء و المنّ و الأذى تؤثّر على الأعمال الصالحات فتزیل برکتها.

یتجسّد هذا التمثیل فی صاحب مزرعة مخضرة ذات أشجار متنوّعة کالنخیل و الأعناب، و تجری فیها المیاه بحیث لا تتطلّب السقی، لکن السنون نالت من صاحبها و تحلّق حوله أبناؤه الضعفاء، و لیس ثمّة ما یقیم أودهم سوى هذه المزرعة، فإذا جفّت فلن یقدر هو و لا أبناؤه على إحیائها، و فجأة تهبّ عاصفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۶

محرقة فتحرقها و تبیدها. فی هذه الحالة ترى کیف یکون حال هذا العجوز الهرم الذی لا یقوى على الارتزاق و تأمین معیشته و معیشة أبنائه الضعفاء؟ و ما أعظم أحزانه و حسراته!.

أَ یَوَدُّ أَحَدُکُمْ أَنْ تَکُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِیها مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْکِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّیَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِیهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ ...).

إنّ حال أولئک الذین یعملون عملا صالحا ثمّ یحبطونه بالریاء و المنّ و الأذى أشبه بحال من تعب و عانى کثیرا حتّى إذا حان وقت اقتطاف النتیجة ذهب کلّ شیء و لم یبق سوى الحسرات و الآهات. و تضیف الآیة:

کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ

لمّا کان منشأ کلّ تعاسة و شقاء- و على الأخصّ کلّ عمل أحمق کالمنّ على الناس- هو عدم أعمال العقل و التفکیر فی الأمور، فإنّ اللّه فی ختام الآیة یحثّ الناس على التعمّق فی التفکیر فی آیاته کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ

بحوث

۱- هذه الأمثلة بالتوالی کلّ واحدة منها تدلّ على الأمور الزراعیة اللطیفة، لأن هذه الآیات لم تنزل على أهل المدینة الذین کانوا زرّاعا فحسب، بل أنها نزلت على جمیع الناس، على أیة حال کانت الزراعة تشکل جانبا من حیاتهم.

۲- یستفاد من وَ أَصابَهُ الْکِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّیَّةٌ ضُعَفاءُ إنّ الإنفاق فی سبیل اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۷

و مدّ ید العون للمحتاجین أشبه بالبستان الیانع الذی ینتفع بثمره صاحبه و أبناؤه أیضا. و لکن الریاء و المنّ و الأذى لا تحرم صاحبه وحده من ثمرات عمله، بل أنّ ذلک یحرم حتّى أبناءه و الأجیال التالیة من برکات تلک الأعمال الصالحات. و هذا دلیل على أنّ الأجیال القادمة تشارک الأجیال السابقة فی الانتفاع بثمرات العلم الطیّب.

و هو کذلک أیضا على الصعید الاجتماعی، إذ أنّ المحبوبیّة و الثقة التی ینالها الآباء نتیجة لأعمالهم الصالحة بین الناس، و تکون خیر رأسمال لأبنائهم من بعدهم.

۳- عبارة إِعْصارٌ فِیهِ نارٌ قد تکون إشارة إلى ریاح السموم التی تحرق الزرع و تجفّف المیاه، أو الریاح التی تکتسب الحراة من المرور على الحرائق فتکتسح معها النیران المحرقة و تحملها إلى مناطق اخرى، أو قد تکون إشارة إلى العواصف التی تصاحبها الصواعق فتصیب الأرض و تحیلها إلى رماد، إنّها على کلّ حال إشارة إلى إبادة سریعة[۲۲۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۸

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۶۷]

اشارة

یـا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَیِّباتِ ما کَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَیَمَّمُوا الْخَبِیثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِیهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِیهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ حَمِیدٌ (۲۶۷)

سبب النّزول

عن الصادق علیه السّلام أنّها نزلت فی أقوام لهم ربا فی الجاهلیة، و کانوا یتصدّقون منه، فنهاهم اللّه عن ذلک و أمر بالصدقة من الطیّب الحلال.

عن علی علیه السّلام أنّها نزلت فی قوم کانوا یأتون بالحشف (و هو أردأ التمر) فیدخلونه فی الصدقة[۲۲۲].

و لیس بین الروایتین أی تعارض، و لعلّ الآیة نزلت فی کلتا الفئتین، فالشأن الأوّل یخص الطهارة المعنویة، و یخص الثانی طیب الظاهر المادّی.

و لکن ینبغی الإشارة إلی أنّ المرابین فی الجاهلیة امتنعوا عن تعاطی الربا بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۹

نزول الآیة ۲۷۵ من سورة البقرة و لم تحرم علیهم أموالهم السابقة، أی أنّ الآیة لم یکن لها أثر رجعی، و لکن من الواضح أنّ هذا المال و إن یکن حلالا، فهو یختلف عن الأموال الأخری، فکان فی الحقیقة أشبه بتحصیل أموال عن طرق مکروهة.

التّفسیر

الأموال التی یمکن إنفاقها:

شرحت الآیات السابقة ثمار الإنفاق و صفات المنفقین و الأعمال التی قد تبطل أعمال الإنفاق الإنسانیة فی سبیل اللّه. و هذه الآیة تبیّن نوعیّة الأموال التی یمکن أن تنفق فی سبیل اللّه.

فی بدایة الآیة یأمر اللّه المؤمنین أن ینفقوا من (طیبات) أموالهم. و «الطیب» فی اللغة هو الطاهر النقی من الناحیة المعنویة و المادّیة، أی الأموال الجیدة النافعة و التی لا شبهة فیها من حیث حلّیتها. و یؤیّد عمومیة الآیة الروایتان المذکورتان فی سبب النزول.

کما أنّ جملة لَسْتُمْ بِآخِذِیهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِیهِ أی أنکم أنفسکم لا تأخذون غیر الطیّب من المال إلّا إذا أغمضتم أعینکم کارهین، دلیل علی أنّ المقصود لیس الطهارة الظاهریّة فقط، لأنّ المؤمنین لا یقبلون مالا تافها ملوّثا فی ظاهره، کما لا یقبلون مالا مشبوها مکروها إلّا بالإکراه و التغاضی.

وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ

کانت عبارة ما کَسَبْتُمْ إشارة إلی الدخل التجاری، و هذه العبارة إشارة إلی الدخل الزراعی و عائدات المناجم، فهو یشمل کلّ أنواع الدخل، لأنّ أصل دخل الإنسان ینبع من الأرض و مصادرها المتنوّعة، بما فیها الصناعة و التجارة و تربیة المواشی و غیر ذلک.

تقول هذه الآیة: إننا وضعنا مصادر الثروة هذه تحت تصرّفکم، لذلک ینبغی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۰

أن لا تمتنعوا عن إنفاق خیر ما عندکم فی سبیل اللّه.

وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۲۲۳].

اعتاد معظم الناس أن ينفقوا من فضول أموالهم التى لا قيمة لها أو الساقطة التى لم تعد تنفعهم فى شىء. إنّ هذا النوع من الإنفاق لا هو يربّى روح المنفق، و لا هو يرتق فتقا لمحتاج، بل لعلّه إهانة له و تحقير. فجاءت هذه الآية تنهى بصراحة عن هذا و تقول للناس: كيف تنفقون مثل هذا المال الذى لا تقبلونه أنتم إذا عرض عليكم إلّا إذا اضطررتم إلى قبوله؟ أ ترون إخوانكم المسلمين، بل أ ترون اللّه الذى فى سبيله تنفقون أقلّ شأنا منكم؟

الآية تشير فى الواقع إلى فكرة عميقة و هى أنّ للإنفاق فى سبيل اللّه طرفين، فالمحتاجون فى طرف، و اللّه فى طرف آخر. فإذا اختير المال المنفق من زهيد الأشياء ففى ذلك إهانة لمقام اللّه العزيز الذى لم يجده المنفق جديرا بطيّبات ما عنده كما هو إهانة للذين يحتاجونه، و هم ربما يكونون من ذوى الدرجات الإيمانية السامية، و عندئذ يسبّب لهم هذا المال الردىء الألم و العذاب النفسى.

التعبير بكلمة (الطيّبات) يشمل الطيّب الظاهرى الذى يستحقّ الإنفاق و المصرف، و كذلك الطيّب المعنوى، أى الطاهر من الأموال المشتبه و الحرام لأنّ المؤمنين لا يرغبون فى تناول مثل هذه الأموال.

و جملة إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ تشمل الجميع، فما ذهب إليه بعض المفسّرين من حصرها بأحد هذين المعنيين بعيد عن الصواب، و نظير هذه الآية ما جاء فى سورة آل عمران الآية ۹۲ حيث يقول: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ و طبعا هذه الآية ناظرة أكثر إلى الآثار المعنويّة للإنفاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۱

و فى ختام الآية يقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أى لا تنسوا أنّ اللّه لا حاجة به لإنفاقكم فهو غنىّ من كلّ جهة، بل أنّ جميع المواهب و النعم تحت أمره و فى دائرة قدرته، و لذلك فهو حميد و مستحق للثناء و الحمد، لأنّه وضع كلّ هذه النعم بين أيديكم.

و احتمل البعض أنّ كلمة (حميد) تأتى هنا بمعنى اسم الفاعل (حامد) لا بمعنى محمود، أى أنّه على الرغم من غناه عن إنفاقكم فإنّه يحمدكم على ما تنفقون.

ملاحظة

لا شكّ أنّ الإنفاق فى سبيل اللّه هو من أجل نيل القرب من ساحته المقدّسة، و عند ما يريد الناس التقرّب إلى السلاطين و أصحاب النفوذ فإنّهم يقدّمون إليهم هدايا من أفضل أموالهم و أحسن ثرواتهم، فى حين أنّ هؤلاء السلاطين أناس مثلهم فكيف يتقرّب الإنسان إلى ربّه و خالقه و ربّ السموات و الأرض لتقديم بعض أمواله الدنيئة كهديّة؟! فما نرى فى الأحكام الشرعيّة من وجوب كون الزكاة و حتّى الهدى فى الحجّ من المرغوب و الجيّد يدخل فى دائرة هذا الإعتبار. و على كلّ حال يجب الالتزام و نشر هذه الثقافة القرآنية بين صفوف المسلمين فى إنفاقهم الجيّد من الأموال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۲

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۸]

اشارة

الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۲۶۸)

التّفسير

مكافحة موانع الإنفاق:

تشير الآيـة هنا و تعقيبا على آيات الإنفاق إلى أحـد الموانع المهمّة للإنفاق، و هو الوساوس الشـيطانيّة التى تخوّف الإنسان من الفقر و العوز و خاصّة إذا أراد التصدّق بالأموال الطيّبة و المرغوبة، و ما اكثر ما منعت الوساوس الشـيطانيّة من الإنفاق المسـتحبّ فى سبيل اللّه و حتّى من الإنفاق الواجب كالزكاة و الخمس أيضا.

فتقول الآيـة فى هـذا الصدد الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ و يقول لكم: لا تنسوا مسـتقبل أطفالكم و تدبّروا فى غدكم، و أمثال هذه الوساوس المظلّة، و مضافا إلى ذلك يدعوكم إلى الإثم و ارتكاب المعصية وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ.

(الفحشاء) تعنى كلّ عمل قبيح و شـنيع، و يكون المراد به فى سياق معنى الآية البخل و ترك الإنفاق فى كثير من الموارد حيث يكون نوع من المعصية و الإثم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۳

(رغم أنّ مفرده الفحشاء تعنى عادة الأعمال المنافية للعفّة و لكنّنا نعلم أنّ هذا المعنى لا يناسب السياق).

حتّى أنّ بعض المفسّرين صرّح بأنّ العرب يسمّون الشخص البخيل (فاحش)[۲۲۴].

و يحتمـل أيضـا أنّ الفحشـاء هنـا بمعنى إختيار الأموال الرديئـة و غير القابلـة للمصـرف و التصـدّق بها، و قيل أيضا: أنّ المراد بها كلّ معصية، لأنّ الشيطان يحمل الإنسان من خلال تخويفه من الفقر على اكتساب الأموال من الطرق غير المشروعة.

و التعبير عن وسوسـة الشـيطان بالأـمر وَ يَأْمُرُكُمْ إشـارة لنفس الوسوسـة أيضـا، و أساسـا فكلّ فكرة سـلبيّة و ضـيّقة و مانعـة للخير فإنّ مصدرها هو التسـليم مقابل وساوس الشـيطان، و فى المقابل فإنّ كلّ فكرة إيجابيّة و بنّاءة و ذات بعد عقلى فإنّ مصدرها هو الإلهامات الإلهيّة و الفطرة السليمة.

و لتوضـيح هـذا المعنى ينبغى أن نقول: إنّ النظرة الاولى إلى الإنفاق و بـذل المال توحى أنّه يؤدى إلى نقص المال، و هذه هى النظرة الشيطانية الضـيّقة، و لكنّنـا بتـدقيق النظر نـدرك أن الإنفـاق هو ضـمان بقاء المجتمع، و تحكيم العـدل الاجتماعى، و تقليل الفواصـل الطبقية، و التقدّم العام.

و بديهىّ أنّ تقدّم المجتمع يعنى أنّ الأفراد الذين يعيشون فيه يكونون فى رخاء و رفاه، و هذه هى النظرة الواقعية الإلهيّة.

يريد القرآن بهذا أن يعلم الناس أنّ الإنفاق و إن بدأ فى الظاهر أنّه أخذ، و لكنّه فى الواقع عطاء لرؤوس أموالهم مادّيا و معنويا.

فى عالمنا اليوم حيث نشاهد نتائج الاختلافات الطبقية و المآسى الناتجة عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۴

الظلم و احتكار الثروة، نستطيع أن نفهم معنى هذه الآية بوضوح.

كمـا أنّ الآيـة تفيـد أيضـا أنّ هنـاك نوعـا من الارتبـاط بين ترك الإنفاق و الفحشاء. فإذا كانت الفحشاء تعنى البخل، فتكون علاقتها بترك الإنفـاق هو أنّ هـذا الترك يكرّس صـفة البخـل الذميمـة فى الإنسـان شـيئا فشـيئا. و إذا كـانت تعنى الإثم مطلقا أو الفحشاء فى الأـمور الجنسـية فـإن علامـة ذلـك بترك الإنفاق لا تخفى، إذ أنّ منشأ كثير من المعاصـى و الانحرافات الجنسـية هو الفقر و الحاجـة. يضاف إلى ذلك أن للإنفاق آثارا و نتائج معنوية مباركة لا يمكن إنكارها.

وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا.

جاء فى تفسير «مجمع البيان» عن الإمام الصادق عليه السّـلام: أنّ فى الإنفاق شـيئين من اللّه و شـيئين من الشيطان، فاللذان من اللّه هما غفران الذنوب و السعة فى المال، و اللذان من الشيطان هما الفقر و الأمر بالفحشاء».

و عليه فإنّ المقصود بالمغفرة هو غفران الذنوب، و المقصود بالفضل هو ازدياد رؤوس الأموال بالإنفاق، كما رواه ابن عبّاس.

و

قد جاء عن الإمام على أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «إذا أملقتم فتاجروا اللّه بالصدقة»[۲۲۵].

وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

فى هذا إشارة إلى أنّ للّه قدرة واسعة و علما غير محدود، فهو قادر على أن يفى بما يعد، و لا شكّ أنّ المرء يطمئّن إلى هذا الوعد، لا كالوعد الذى يعده الشيطان المخادع الضعيف الذى يجرّ المرء إلى العصيان، فالشيطان ضعيف و جاهل بالمستقبل، و لذلك ليس وعده سوى الضلال و التحريض على الإثم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۹]

اشارة

يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ (۲۶۹)

التّفسير

أفضل النعم الإلهيّة:

مع الالتفات إلى ما تقدّم فى الآية السابقة التى تحدّثت عن تخويف الشيطان من الفقر و وعد الرحمن بالمغفرة و الفضل الإلهى، ففى هذه الآية مورد البحث دار الحديث عن الحكمة و المعرفة و العلم لأنّ الحكمة فقط هى التى يمكنّها التفريق و التمييز بين هذين الدافعين الرحمانى و الشيطانى و تدعوا الإنسان إلى ساحل المغفرة و الرحمة الإلهيّة و ترك الوساوس الشيطانيّة و عدم الاعتناء بالتخويف من الفقر.

و بعبارة اخرى، أنّنا نلاحظ فى بعض الأشخاص نوع من العلم و المعرفة بسبب الطهارة القلبيّة و رياضة النفس حيث تترتّب عليها آثار و فوائد جمّة، منها أن يدرك الشخص فوائد الإنفاق و دوره المهم و الحيوى فى المجتمع و يميّز بينه و بين ما تدعوه إليه وساوس الشيطان فتقول الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۶

يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ.

و قد ذكر لكلمة (الحكمة) معان كثيرة منها (المعرفة و العلم بأسرار العالم) و منها (العلم بحقائق القرآن) و (الوصول إلى الحقّ بالقول و العمل) و (معرفة اللّه تعالى) و (أنّها النور الإلهى الذى يميّز بين وساوس الشيطان و إلهامات الرحمان).

و الظاهر هو أنّ الحكمة تأتى بالمعنى الواسع حيث تشمل جميع هذه الأمور بما فيها النبوّة التى هى نوع من العلم و الاطّلاع و الإدراك، فهى فى الأصل أخذت من مادة (حكم)- على وزن حرف- بمعنى المنع، و بما أنّ العلم و المعرفة و التدبير تمنع الإنسان من ارتباك الأعمال الممنوعة و المحرّمة، فلذا يقال عنها أنّها حكمة.

بديهىّ أنّ القصد من مَنْ يَشاءُ ليس إسباغ الحكمة على كلّ من هبّ و دبّ بغير حساب، بل أنّ مشيئة اللّه هى دائما منبعثة عن حكمة، أى أنّه يمنحها لمن يستحقّها، و يرويه من سلسبيل هذه العين الزلال.

وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً.

رغم أنّ واهب الحكمة هو اللّه فإنّ اسمه لم يرد فى هذه الآية و إنما بنى الفعل للمجهول وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ.

و لعلّ المقصود هو أنّ الحكمة أمر حسن بذاته بصرف النظر عن مصدرها و منشئها.

من الملاحظة أنّ الآية تقول: إذا نزلت الحكمة بساحة أحد فقد نزلت بساحته البركة و الخير الكثير لا الخير المطلق، لأنّ السعادة و الخير المطلق ليسا فى العلم وحده، بل العلم أهمّ عامل لهما.

وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ

«التذكّر» هو حفظ العلوم و العارف فى داخل الروح. و الألباب جمع لب و هو قلب كلّ شيء و مركزه، و لهذا قيل العقل اللب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۷

تقول هذه الفقرة من الآية إنّ أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق و يتذكّرونها. رغم أنّ جميع الناس ذو عقل- عدا المجانين- فلا يوصفون جميعا بأولى الألباب، بل هؤلاء هم الذين يستخدمون عقولهم فيشقّون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

و نختم هذا البحث بكلام لأحد علماء الإسلام (و يحتمل أنّه مقتبس من كلام الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم) حيث يقول: قد يريد اللّه تعالى أحيانا تعذيب أمّة على الأرض و لكنّه يرى معلّما يعلّم الأولاد الحكمة فيرفع عن تلك الأمّة العذاب بسبب ذلك [۲۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۸

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۰ الى ۲۷۱]

اشارة

وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۲۷۰) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۷۱)

التّفسير

كيفيّة الإنفاق:

تحدّثت الآيات السابقة عن الإنفاق و بذل المال فى سبيل اللّه، و أن ينفق الشخص ذلك المال من الطيّب دون الخبيث، و أن يكون مشفوعا بالمحبّة و الإخلاص و حسن الخلق، أمّا فى هاتين الآيتين أعلاه فيدور الحديث عن كيفيّة الإنفاق و علم اللّه تعالى بذلك.

فيقول اللّه تعالى فى الآية الاولى: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ

تقول الآية: إنّ كلّ ما تنفقونه فى سبيل اللّه سواء كان قليلا أو كثيرا، جيّدا أم رديئا، من حلال اكتسب أم من حرام، مخلصا كان فى نيّته أم مرائيا، اتّبعه المن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۹

و الأذى أم لم يتبعه، أ كان الإنفاق ممّا أوجب اللّه تعالى عليه أم ممّا أوجبه الإنسان على نفسه بنذر و شبهه، فإنّ اللّه تعالى يعلم تفاصيله و يثيب عليه أو يعاقب.

و فى ختام الآية تقول: وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (الظالمين) هنا إشارة إلى المحتكرين و البخلاء و المرائين و الّذين ينفقون بالمنّ و

الأذی، فإنّ اللّه تعالی لا ینصرهم، و سوف لا ینفعهم ما أنفقوا لا فی الدنیا و لا فی الآخرة.

أو أنّ المراد هم الأشخاص الّذین امتنعوا من الإنفاق إلی المحرومین و المعوزین، فإنّهم بذلک قد ظلموهم و ظلموا کذلک أنفسهم و مجتمعهم.

أو أنّهم الأشخاص الّذین لا ینفقون فی موارد الإنفاق، لأنّ مفهوم الظلم واسع یشمل کلّ عمل یأتی به الإنسان فی غیر مورده، و بما أنّه لا منافاة بین هذه المعانی الثلاثة لذلک یمکن أن تدخل هذه المعانی فی مفهوم الآیة بأجمعها.

أجل فهؤلاء لیس لهم ناصر فی الدنیا و لا شفیع فی الآخرة، و هذه النتیجة من الخصائص المترتّبة علی الظلم و الجور بأیّ صورة کان.

و یستفاد من هذه الآیة ضمنا مشروعیّة النذر و وجوب العمل بمؤدّاه، و هو من الأمور التی کانت موجودة قبل الإسلام و قد أمضاها الإسلام و أیدّها.

فی الآیة الثانیة إشارة إلی کیفیّة الإنفاق من حیث السرّ و العلن فتقول: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِیَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ

و سوف یعفو اللّه عنکم بذلک وَ یُکَفِّرُ عَنْکُمْ مِنْ سَیِّئاتِکُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ.

بحوث

۱- لا شکّ أنّ لکلّ من الإنفاق العلنی و الإنفاق الخفیّ فی سبیل اللّه آثارا نافعة، فإذا کان الإنفاق واجبا فالإعلان عنه یشجع الآخرین علی القیام بمثله، کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۰

یرفع عن المنفق تهمة إهماله لواجبه.

أمّا إذا کان الإنفاق مستحبّا، فإنّه یکون فی الواقع أشبه بالدعایة و الإعلان العملی لحثّ الناس علی فعل الخیر، و مساعدة المحتاجین، و القیام بالأعمال الخیریة الاجتماعیة العامّة.

أمّا الإنفاق الخفیّ البعید عن الأنظار فلا شکّ أنّه أبعد عن الریاء و حبّ الظهور و خلوص النیّة فیه أکثر، خاصّة و أن مدّ ید العون إلی المحتاجین فی الخفاء یحفظ لهم ماء وجههم و کرامتهم، و لذلک تثنی الآیة علی کلا الأسلوبین.

و ذهب بعض المفسرین إلی أنّ الإخفاء یقتصر علی الإنفاق المستحب، و أمّا الإنفاق الواجب کالزکاة و غیره فیفضّل فی حالة الجهر، و لیست هذه بقاعدة عامّة، بل تختلف باختلاف حالات الإنفاق.

ففی الحالات التی یکون فیها الجانب التشجیعی أکثر و لا- یصادر فیها الإخلاص فالإظهار أولی، و فی الحالات التی یکون فیها المحتاجون من ذوی العزّة و الکرامة فإن حفظ ماء وجوههم یقتضی إخفاء الإنفاق، کما أنّه إذا خشی الریاء و عدم الإخلاص فالإخفاء أولی.

و قد جاء فی بعض الأحادیث أنّ الإنفاق الواجب یفضّل فیه الإظهار، و المستحبّ یفضّل فیه الإخفاء.

و

قد نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: الزکاة المفروضة تخرج علانیة و تدفع علانیة، و غیر الزکاة إن دفعه سرّا فهو أفضل [۲۲۷].

إلّا أنّ هذه الأحادیث لا تتعارض مع ما قلناه آنفا، لأنّ أداء الواجب یکون أقلّ امتزاجا بالریاء، فهو واجب لا بدّ أن یؤدّیه کلّ مسلم فی محیط الاسلامی کالضریبة اللازمة التی یدفعها الجمیع، و علیه فإنّ إظهار الإنفاق أفضل، أمّا الإنفاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۱

المستحبّ فلیس إلزامیا لذلک، فإنّ إظهار إنفاقه قد یشوبه شیء من الریاء و عدم خلوص النیّة، فیکون الأجدر إخفاؤه.

۲- قوله: وَ یُکَفِّرُ عَنْکُمْ مِنْ سَیِّئاتِکُمْ یوضّح أن للإنفاق فی سبیل اللّه أثرا فی غفران الذنوب، فالتکفیر عن السیئات- أی تطغیة الذنوب- کنایة عن ذلک.

بدیهیّ أنّ هذا لا یعنی أنّ إنفاق بعض المال یذهب بکلّ ذنوب الإنسان، و لذلک لا بدّ من ملاحظة استعمال «من» التبعیضیة، أی أنّ الغفران یشمل قسما من ذنوب الإنسان، و أنّ هذا القسم یتناسب مع مقدار الإنفاق و میزان الإخلاص.

هنالک أحادیث کثیرة بشأن غفران الذنوب بالإنفاق وردت عن أهل البیت علیهم السّلام و فی کتب أهل السنّة.

من ذلک:

«صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ و تطفئ الخطیئة کما یطفئ الماء النار»[۲۲۸].

کما

جاء أیضا: «سبعة یظلّهم اللّه فی ظلّه یوم لا ظلّ إلّا ظلّه: الإمام العدل، و الشابّ الذی نشأ فی عبادة اللّه تعالی، و رجل قلبه یتعلّق بالمساجد حتّی یعود إلیها، و رجلان تحابّا فی اللّه و اجتمعا علیه و افترقا علیه، و رجل دعته امرأة ذات منصب و جمال فقال إنّی أخاف اللّه تعالی، و رجل تصدّق فأخفاه حتّی لم تعلم یمینه ما تنفق شماله، و رجل ذکر اللّه خالیا ففاضت عیناه»[۲۲۹].

۳- یستفاد من جملة وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ. هو أنّ اللّه عالم بما تنفقون سواء أ کان علانیة أم سرّا، کما أنّه عالم بنیّاتکم و أغراضکم من إعلان إنفاقکم و من إخفائه. علی کلّ حال أنّ الذی له تأثیر فی الإنفاق هو النیّة الطاهرة و الخلوص فی العمل للّه وحده، لأنّه هو الذی یجزی أعمال العبد، و هو عالم بما یخفی و یعلن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۲

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۷۲]

اشارة

لَیْسَ عَلَیْکَ هُداهُمْ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَیْرٍ فَلِأَنْفُسِکُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَیْرٍ یُوَفَّ إِلَیْکُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (۲۷۲)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عبّاس أنّ المسلمین لم یرضوا بالإنفاق علی غیر المسلمین، فنزلت هذه الآیة تجیز لهم ذلک عند الضرورة.

و هناک سبب نزول آخر لهذه الآیة قریب من سبب النزول السابق. فقد جاء أنّ امرأة مسلمة تدعی «أسماء» کانت فی رحلة عمرة القضاء مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فجاءتها أمّها و جدّتها تطلبان بعض العون منها، و لکن لمّا کانتا من المشرکین و عبدة الأصنام، فقد امتنعت أسماء عن مدّ ید المساعدة إلیهما، و قالت: لا بدّ أن استجیز رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی ذلک لأنکما لستما علی دینی. و أقبلت إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم تستجیزه، فنزلت الآیة المذکورة.

التّفسیر

الإنفاق على غير المسلمين:

تحدّثت الآيات السابقة عن مسألة الإنفاق فی سبيل اللّه بشكل عام، و لكن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۳

فی هذه الآية الحديث عن جواز الإنفاق على غير المسلمين، بمعنى أنّه لا- ينبغی ترك الإنفاق على المساكين و المحتاجين من غير المسلمين حتّى تشتدّ بهم الأزمة و الحاجة فيعتنقوا الإسلام بسبب ذلك.

تقول الآية لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ فلا يصحّ أن تجبرهم على الإيمان، و ترك الإنفاق عليهم نوع من الإجبار على دخولهم إلى الإسلام، و هذا الأسلوب مرفوض، و رغم أنّ المخاطب فی هذه الآية الشريفة هو النبی الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّه فی الواقع يستوعب كلّ المسلمين.

ثمّ تضيف الآية وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ و من تكون له اللياقة للهداية.

فبعد هذا التذكّر تستمر الآية فی بحث فوائد الإنفاق فی سبيل اللّه فتقول:

وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ

هذا فی صورة ما إذا قلنا أنّ جملة وَ ما تُنْفِقُونَ قد أخذت هنا بمعنى النهی، فيكون معناها أنّ إنفاقكم لا ينفعكم شيئا إلّا إذا كان فی سبيل اللّه تعالى.

و يحتمل أيضا أن تكون هذه الجملة خبريّة، أی أنكم أيّها المسلمون لا تنفقون شيئا إلّا فی سبيل اللّه تعالى و كسب رضاه.

و فی آخر عبارة من هذه الآية الكريمة نلاحظ تأكيدا أكثر على مقدار الإنفاق و كيفيّته حيث تقول الآية وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ

يعنی أنّكم لا- ينبغی أن تتصوروا أنّ إنفاقكم سيعود عليكم بربح قليل، بل أنّ جميع ما أنفقتم و تنفقون سيعود إليكم كاملا، و ذلك فی اليوم الذی تحتاجون إليه بشدّة، فعلى هذا لا تتردّدوا فی الإنفاق أبدا.

و يستفاد من ظاهر هذه الجملة أنّ نفس المال المنفق سيعود على صاحبه (لاثوابه) فيمكن أن تكون الآية دليلا على تجسّم الأعمال الذی سيأتی بحثه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۴

مفصّلا فی الآيات اللاحقة[۲۳۰].

بحوث

۱- الآية أعلاه تقول أنّ نعم اللّه و آلاءه فی هذا العالم كما أنّها تشمل الجميع بغضّ النظر عن العقيدة و الدين، كذلك ينبغی أن يشمل إنفاق المؤمنين المستحبّ رفع حاجات الناس غير المسلمين أيضا إذا اقتضت الضرورة.

و من الواضح أنّ الإنفاق على غير المسلمين يجب أن يكون ذا طابع إنسانی ففی هذه الصورة يكون جائزا، لا ما إذا كان موجبا لتقوية الكفر و دعم خطط الأعداء المشؤومة.

۲- للهداية أنواع مختلفة: من الواضح أنّ المقصود من عدم وجوب هداية الناس على الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يعنی أنّه غير مكلّف بإرشاد الناس و هدايتهم لأنّ الإرشاد و الدعوة من أهم جوانب مسئوليات النبی، و إنّما المقصود أنّه غير مكلّف بممارسة الضغط و عوامل الإكراه لحمل الناس على اعتناق الإسلام.

و هل أنّ المقصود من هذه الهداية هو الهداية التكوينيّة أو التشريعيّة؟ لأن الهداية لها عدّة أنواع:

أ- الهدایـة التکوینیـة: و تعنی أنّ اللّه تعـالی خلق مجموعـة من عوامل التقـدّم و التکامل فی مختلف کائنات هـذا العالم، یشـمل ذلک الإنسان و جمیع الکائنات الحیّة، بل حتّی الجمادات، و هذه العوامل تدفع الموجودات نحو تکاملها.

إنّ نموّ الجنین فی رحم أمّه و رشده، و نموّ البذرة فی الباطن الأرض و رشدها،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۵

و حرکـة السـیارات و المنظومات الشمسـیة فی مـداراتها، و أمثال ذلک نماذج مختلفـة من الهدایـة التکوینیـة. و هـذا النوع من الهدایة خاصّ باللّه تعالی، و وسائلها عوامل و أسباب طبیعیـة و ما وراء الطبیعیـة. یقول القرآن المجیـد: الَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی [۲۳۱].

ب- الهدایـة التوفیقیـة: و تعنی هدایـة الناس عن طرق التعلیم و التربیة، و القوانین، و الحکومات العادلة، و الموعظة و النصـیحة. و هذه الهدایة یقوم بها الأنبیاء و الأئمّة و الصالحون و المربّون المخلصون. و قد أشار القرآن إلی هذا بقوله:

ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ ۲۳۲].

ج- الهدایة التوفیقیة: و هی الهدایة إلی تهیئة الوسائل و وضـعها فی متناول الأفراد لکی یستفیدوا منها حسبما یشاءون فی مظان التقدّم، کبناء المـدارس و المساجـد و معاهـد التربیـة، و إعداد الکتب و وضع الخطط و تدریب المربّین و المعلّمین المؤهّلین، و هذا النوع من الهدایة یقع بین الهدایتین التکوینیة و التشریعیة. یقول القرآن: وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا[۲۳۳].

د- الهدایـة نحو النعمـة و المثوبـة: و هـذه تعنی هدایـة الأفراد اللائقین للانتفاع بنتائـج أعمالهم الصالحـة فی العالم الآخر، و هی هدایة تختصّ بالمؤمنین الصالحین. یقول القرآن: سَیَهْدِیهِمْ وَ یُصْلِحُ بالَهُمْ ۲۳۴].

هذه الآیة جاءت بعد ذکر تضحیة الشهداء فی سبیل اللّه. واضح أنّ هذا النوع من الهدایة ترتبط بتمتّع هؤلاء بثمار أعمالهم فی الآخرة.

الواقع أنّ هذه الأنواع الأربعة من الهدایة تشکّل مراحل مختلفة متوالیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۶

لحقیقـة واحـدة. ففی البدایة تکون الهدایة التکوینیة التی یهدی بها اللّه مخلوقاته و منها الإنسان الذی أودع فیه العقل و الفکر و القوی الأخری.

یلی تلک الهدایة هدایة الأنبیاء و الرسل الذین یهدون الناس إلی طریق الحقّ.

و الهدایة هنا بمعنی الإرشاد و التبلیغ.

ثمّ تأتی مرحلة العمل فیشمل اللّه مخلوقاته بتوفیقه فتتمهّد لهم سبل و طرائق تسیر علیها نحو التکامل. و هذه هی هدایة التوفیق.

و فی العالم الآخر ینالون جزاء أعمالهم الصالحات.

هدایـة الإرشاد و الـدعوة التی تشـکّل واحـدا من أنواع الهدایـة الأربعـة هی من واجبات الأنبیاء و الأئمّة، و قسم منها ممّا یتناول تمهید الطرق، یدخل معظمه ضمن واجبات الحکومات الإلهیة للأنبیاء و الأئمّة، و الباقی یختصّ باللّه تعالی.

و علیه حیثما نجد فی القرآن سلب الهدایة عن أنبیاء، فذلک لا یخصّ النوعین الأوّلین.

وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ.

و هی هدایة لا تأتی ارتباطا بدون حکمة و لا حساب، أی أنّه لا یمکن أن یهدی بهذا و یحرم ذاک بغیر سبب، فعلی الإنسان أن یکون جدیر بالهدایة لکی ینالها و یستفید منها.

نسـتخلص من هـذه الآیـة حقیقـة أخری، و هی أنّه یخـاطب نـبیّه قائلاـ إذا ظهر بین المسـلمین- بعـد کـلّ ذلـک التحـذیر من الإنفـاق المصـحوب بالریـاء و المنّ و الأـذی- أفراد مـا یزالون یلوّثون إنفـاقهم بهـذه الأمور، فلا یسؤک ذلک، إنّ واجبک هو بیان الأحکام و تهیئة المناخ الاجتماعی السلیم، و لیس من واجبک أبدا أن تجبرهم علی تجنّب هذه الأمور، و هذا التفسیر لا یتنافی مع التفسیر السابق،

فكلاهما محتملان.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۷

۳- أثر الإنفاق فی حياة المنفق:

نلاحظ فی جملة وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ أنّ فوائد الإنفاق تعود على المنفقين أنفسهم، و بهذا تدفعهم نحو هذا العمل الإنسانی، و طبيعی أنّ الإنسان يزداد حماسا لممارسة علمه حين يعلم أنّ منافع هذا العمل تعود إليه.

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ المنافع التی تعود على المنفق من إنفاقه هی ما يناله من ثواب فی الآخرة، هذا بالطبع صحيح، و لكن لا ينبغی أن يتصوّر أنّ نتائج الإنفاق أخروية فحسب، بل أنّ له منافع فی هذه الدنيا أيضا مادّية و معنوية.

ففائدته المعنوية هی أنّ روح البذل و الإنسانية و التضحية و الأخوّة تتربّى فی المنفق. و هذه فی الواقع وسيلة مؤثّرة فی تكامل شخصية الإنسان و تربيته.

أمّا فائدته المادّية فإنّ وجود أناس معدمين فقراء فی مجتمع ما يكون سببا فی أزمات اجتماعية خطرة قد تبتلع مبدأ الملكية نفسه فی ثورتها، فلا تبقی و لا تذر.

الإنفاق يقلّل من الفواصل الطبقيّة و يزل هذا الخطر الذی يهدّد الأفراد الأثرياء فی المجتمع، فالإنفاق يطفئ ليهب غضب الطبقات المحرومة و يقضی على روح الانتقام فی نفوسهم.

من هنا فالإنفاق لصالح المنفقين من حيث الأهميّة الاجتماعية و السلامة الاقتصادية و الجوانب المختلفة المادّية و المعنوية.

۴- ما معنى وَجْهِ اللَّهِ

«وجه» بالإضافة إلى معناها المعروف قد تستعمل بمعنى ذات، و عندئذ وَجْهِ اللَّهِ تعنی ذات اللّه التی يجب أن يتوجّه إليها المنفقون فی إنفاقهم، و عليه فإنّ ورود كلمة «وجه» فی هذه الآية و فی غيرها إنّما يقصد به التوكيد، فمن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۸

الواضح أنّ قولنا «لوجه اللّه» أو «لذات اللّه» أكثر تأكيدا من قولنا «للّه». فيكون المعنى أنّ الإنفاق للّه حتما لا لغير اللّه.

ثمّ إنّ الوجه أشرف جزء من أجزاء الجسم الظاهرة، ففيه أهمّ أعضاء الإنسان كالبصر و السمع و النطق. و لهذا حيثما استعملت كلمة «الوجه» كان القصد إيصال معانی الشرف و الأهميّة، و استعمالها هنا استعمال كناية يفهم منه الاحترام و الأهميّة، و إلّا فإنّ اللّه منزّه عن الصورة الجسدية.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۹

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷۳]

اشارة

لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِی الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (۲۷۳)

سبب النّزول

نقل عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: إنّ هذه الآية نزلت فی أصحاب «الصفّة».

و هم جمع نحو أربعمائة شخص من مسلمی مكّة و أطراف المدينة ممّن لم يكن لهم مأوى يأوون إليه فی المدينة، و لا قريب يؤويهم

فى منزله، فاتّخـذوا من مسـجد النبىّ منزلا معلنين اسـتعدادهم للـذهاب إلى ميادين الجهاد دائما، و لكن بما أنّ بقاءهم فى المسـجد لم يكن ينسـجم مع شؤونه فقـد أمروا بالانتقال إلى «صـفّة» دكّـة عريضـة كانت خارج المسجد. و نزلت الآية تحثّ المسـلمين أن يغدقوا مساعداتهم على إخوتهم هؤلاء فأعانوهم [۲۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۰

صرّح بعض المفسّـرين: «لقـد كان هـذا الوصف الموحى ينطبق على جماعة من المهاجرين، تركوا وراءهم أموالهم و أهليهم؛ و أقاموا فى المدينـة و وقفوا أنفسـهم على الجهـاد فى سبيـل اللّه، و حراسـة رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم كأهـل الصـفة الـذين كانوا بالمسجد حرسا لبيوت الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يخلص إليها من دونهم عدو ...»[۲۳۶]

التّفسير

خير مواضع الإنفاق:

يبيّن اللّه فى هذه الآية أفضل مواضع الإنفاق، و هى التى تتّصف بالصفات التالية:

۱- لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِـرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أى الـذين شـغلتهم الأعمال الهامّة كالجهاد و محاربة العدو، و تعليم فنون الحرب، و تحصـيل العلوم الأخرى، عن العمل فى سبيل الحصول على لقمة العيش كأصحاب الصفّة الذين كانوا خير مصداق لهذا الوصف [۲۳۷].

ثمّ للتأكيـد تضـيف الآية: لا يَسْـتَطِيعُونَ ضَـرْباً فِى الْأَرْضِ أى الذين لا يقدرون على الترحال لكسب العيش بالسـفر إلى القرى و المدن الاـخرى حيث تتوفر نعم اللّه تعـالى. و عليه فـإنّ القـادرين على كسب معيشـتهم يجب أن يتحمّلوا عنـاء السـفر فى سبيل ذلك و أن لا يستفيدوا من ثمار أتعاب الآخرين إلّا إذا كانوا منشغلين بعمل أهمّ من كسب العيش كالجهاد فى سبيل اللّه.

۲- الـذين يَحْسَـبُهُمُ الْجاهِـلُ أَغْنِيـاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ هؤلاـء الـذين لا يعرف الآخرون شـيئا عن بواطن أمورهم، و لكنهم- لما فيهم من عفّة النفس و الكرامة-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۱

يظنّون أنهم من الأغنياء.

و لكن هذا لا يعنى أنهم غير معروفين. لذا تضيف الآية تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ

السيماء: العلامة[۲۳۸]. فهؤلاء و إن لم يفصحوا بشىء عن حالهم، فإنّ على وجوههم علامات تنطق بما يعانون يدركها العارفون، فلون و جناتهم ينبئ عمّا خفى من أسرارهم.

۳- و الثالث من صفات هؤلاء أنهم لا يصرّون فى الطلب و السؤال: لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً[۲۳۹] أى أنّهم لا يشبهون الفقراء الشحّاذين الذين يلحّون فى الطلب من الناس، فهم يمتنعون عن السؤال فضلا عن الإلحاف، فالإلحاح فى السؤال شيمة ذوى الحاجات العاديّين، و هؤلاـء ليسوا عـاديّين. و قول القرآن إنّهم لاـ يلحفون فى السؤال لاـ يعنى أنّهم يسـألون بـدون إلحـاف، بل يعنى أنّهم ليسوا من الفقراء العاديّين حتّى يسألوا، و لذلك لا تتعارض هذه الفقرة من الآية مع قوله تعالى: تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لأنّهم لا يعرفون بالسؤال.

ثمّة احتمال آخر فى تفسير الآية، و هو أنّهم إذا اضطرّتهم الحالة إلى إظهار عوزهم فإنّهم لا يلحفون فى السؤال أبدا، بل يكشفون عن حاجتهم بأسلوب مؤدّب أمام إخوانهم المسلمين.

وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

فى هـذه الآيـة حثّ على الإنفـاق، و على الأـخصّ الإنفـاق على ذوى النفـوس العزيزة الأبيـة، لأـنّ المنفقين إذا علموا أنّ اللّه عـالم بما

ینفقون حتّی و إن کان سرّا و أنّه سوف یثیبهم علی ذلک، فستزداد رغبتهم فی هذا العمل الکبیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۲

بحث

الاستجداء بدون حاجهٔ حرام:

إنّ أحـد الـذنوب الکبیرهٔ هو السؤال و الاسـتجداء و الطلب من الناس من دون حاجـهٔ، لـذلک و قد ورد فی روایات متعدّدهٔ النهی عن هذا العمل بشدّهٔ،

ففی الحدیث عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: «لا تحل الصدقهٔ لغنی».

و ورد فی حدیث آخر عنه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من سأل و عنده ما یغنیه فإنّما یستکثر من جمرهٔ جهنّم»

[۲۴۰] و کذلک

ورد فی الأحادیث الشریفهٔ «أنّه لا تقبل شهادهٔ من یسأل الناس بکفّه»[۲۴۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۳

الآیهٔ [سورهٔ البقرهٔ (۲): آیهٔ ۲۷۴]

اشارهٔ

الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِیَهً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۲۷۴)

سبب النّزول

ورد فی أحادیث کثیرهٔ أنّ هذه الآیهٔ الشـریفهٔ نزلت فی علیّ علیه السّـلام لأنّه کان لدیه أربعهٔ دراهم فأنفق منها درهما فی اللیل و آخر فی النهار و ثالث علانیّهٔ و رابع ۲۴۲] خفیـهٔ، فنزلت هذه الآیهٔ، و لکن من الواضح أنّ نزول الآیهٔ فی مورد خاصّ لا یحدّد مفهوم تلک الآیهٔ و لا ینفی شمولیّهٔ الحکم لغیره من الموارد.

التّفسیر

الإنفاق محمود بکلّ أشکاله:

فی هذه الآیهٔ یدور الحدیث أیضا عن مسألهٔ اخری ممّا یرتبط بالإنفاق فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۴

سبیل اللّه و هی الکیفیّات المتنوّعهٔ و المخلفهٔ للإنفاق فتقول الآیهٔ: الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِیَهً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و من الواضح أنّ انتخاب أحد هذه الطرق المختلفهٔ یتمّ مع رعایهٔ الشـرائط الأفضل للإنفاق، یعنی أنّ المنفق یجب علیه مراعاهٔ الجوانب

الأخلاقية و الاجتماعية فى إنفاقه اللّيلى أو النهارى العلنى أو السرّى، فحين لا يكون ثمّة مبرّر لإظهار الإنفاق على المحتاجين فينبغى أن يكون فى الخفاء لحفظ كرامة المحتاجين و تركيزا لإخلاص النيّة.

و إذا تطلّبت المصلحة إعلان الإنفاق كتعظيم الشعائر الدينيّة و الترغيب و الحثّ على الإنفاق دون أن يؤدّى ذلك إلى هتك حرمة أحد من المسلمين، فليعلن عنه (كالإنفاق فى الجهاد و المراكز الخيريّة و أمثال ذلك).

و لا يبعد أن يكون تقديم اللّيل على النهار و السرّ على العلانية فى الآية مورد البحث إشارة إلى أنّ صدقة السرّ أفضل إلّا أن يكون هناك موجب لإظهاره رغم أنّه لا ينبغى نسيان الإنفاق على كلّ حال.

و من المسلّم أنّ الشىء الذى يكون عند اللّه (و خاصّة بالنظر إلى صفة الربوبيّة الناظرة إلى التكامل و النمو) لا يكون شيئا قليلا و غير ذا قيمة، بل يكون متناسبا مع ألطاف اللّه تعالى و عناياته التى تتضمّن بركات الدنيا و كذلك حسنات الآخرة و القرب إلى اللّه تعالى.

ثمّ تضيف الآية وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

إنّ الإنسان يعلم أنّه لكى يدبّر أموره المعاشية و الحياتية يحتاج إلى المال و الثروة، فإذا فقد ثروته ينتابه الحزن على ذلك، و يشتدّ به الخوف على مستقبله، لأنّه لا يعلم ما ينتظره فى مقبلات الأيام. هذه الحالة غالبا ما تمنع الإنسان من الإنفاق، إلّا الذين يؤمنون من جهة بوعود اللّه و يعرفون من جهة اخرى آثار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۵

الإنفاق الاجتماعية. فهؤلاء لا ينتابهم الخوف و القلق من الإنفاق فى سبيل اللّه على مستقبلهم و لا يحزنون على نقص أموالهم بالإنفاق، لأنّهم يعلمون أنّهم بإزاء ما أنفقوه سوف ينالون أضعافه من فضل اللّه و بركات إنفاقهم الفردية و الاجتماعية و الأخلاقية فى الدنيا و الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۶

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۵ الى ۲۷۷]

اشارة

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَ مَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۷۵) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَ يُرْبِى الصَّدَقاتِ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (۲۷۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۲۷۷)

التّفسير

الربا فى القرآن:

فى الآيات التى مضت كان الكلام على الإنفاق و بذل المال لمساعدة المحتاجين و فى سبيل رفاه المجتمع. و فى هذه الآيات يدور الكلام على الربا الذى يقف فى الجهة المضادّة للإنفاق، و الواقع هو أنّ هذه الآيات تكمل هدف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۷

الآيات السابقة، لأنّ تعاطى الربا يزيد من الفواصل الطبقية و يركّز الثروة فى أيدى فئة قليلة، و يسبّب فقر الأكثرية، و الإنفاق سبب

طهارة القلوب و النفوس و استقرار المجتمع، و الربا سبب البخل و الحقد و الكراهية و الدنس.

هذه الآيات شديدة و صريحة فى منع الربا، و لكن يبدو منها أنّ موضوع الربا قد سبق التطرّق إليه. فإذا لا حظنا تاريخ نزول هذه الآيات تتّضح لنا صحّة ذلك، فبحسب ترتيب نزول القرآن، السورة التى ورد فيها ذكر الربا لأول مرّة هى سورة الروم، و هى السورة الثلاثون التى نزلت فى مكّة، و لا نجد فى غيرها من السور المكّية إشارة إلى الربا.

لكن الحديث عن الربا فى السورة المكّية جاء على شكل نصيحة أخلاقية وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ [۲۴۳].

أى أنّ قصيرى النظر قد يرون أنّ الثروة تزداد بالربا، و لكنّه لا يزداد عند اللّه.

ثمّ بعد الهجرة، تناول القرآن الربا فى ثلاث سور أخرى من السور التى نزلت فى المدينة و هى بالترتيب: سورة البقرة، و سورة آل عمران، و سورة النساء. و على الرغم من أنّ سورة البقرة قد نزلت قبل سورة آل عمران، فلا يستبعد أن تكون الآية ۱۳۰ من سورة آل عمران- و هى التى تحرّم الربا تحريما صريحا- قد نزلت قبل سورة البقرة و الآيات المذكورة أعلاه.

على كلّ حال، هذه الآية و سائر الآيات التى تخصّ الربا نزلت فى وقت كان فيه تعاطى الربا قد راج بشدّة فى مكّة و المدينة و الجزيرة العربية حتّى غدا عاملا مهمّا من عوامل الحياة الطبقية، و سببا من أهمّ أسباب ضعف الطبقة الكادحة و طغيان الأرستقراطية، لذلك فإنّ الحرب التى أعلنها القرآن على الربا تعتبر من

أهمّ الحروب الاجتماعية التى خاضها الإسلام.

يقول تعالى:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ۲۴۴] الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ

فالآية تشبّه المرابى بالمصروع أو المجنون الذى لا يستطيع الاحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبّط فى خطواته.

و لعلّ المقصود هو وصف طريقة «سير المرابين الاجتماعى» فى الدنيا على اعتبار أنّهم أشبه بالمجانين فى أعمالهم، فهم يفتقرون إلى التفكير الاجتماعى السليم، بل أنّهم لا يشخّصون حتّى منافعهم الخاصّة، و أنّ مشاعر المواساة و العواطف الإنسانية و أمثالها لا مفهوم لها فى عقولهم إذ أنّ عبادة المال تسيطر على عقولهم إلى درجة أنّها تعميهم عن إدراك ما ستؤدّى إليه أعمالهم الجشعة الاستغلالية من غرس روح الحقد فى قلوب الطبقات المحرومة الكادحة و ما سيعقب ذلك من ثورات و انفجارات اجتماعية تعرض أساس الملكية للخطر، و فى مثل هذا المجتمع سينعدم الأمن و الاستقرار، و ستصادر الراحة من جميع الناس بمن فيهم هذا المرابى، و لذلك فإنّه يجنى على نفسه أيضا بعمله الجنونى هذا.

و لكن بما أنّ وضع الإنسان فى العالم الآخر تجسيد لأعماله فى هذا العالم فيحتمل أن تكون الآية إشارة إلى المعنيين. أى أنّ الذين يقومون فى الدنيا قياما غير معتّل و غير متوازن يخالطه اكتناز جنونى للثروة سيحشرون يوم القيامة كالمجانين.

الطريف الروايات و الأحاديث تشير إلى كلا المفهومين. ففى حديث عن

الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتّى يتخبّطه الشيطان»

[۲۴۵].

و

فى رواية أخرى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشأن تجسيد حال المرابين الذين لا يهمّهم غير مصالحهم الخاصّة، و ما ستجرّه عليهم أموالهم المحرّمة قال: «لمّا أسرى بى إلى السماء رأيت قوما يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه،

فقلت: من هؤلاء یا جبرائیل! قال: هؤلاء الذین یأکلون الربا لا یقومون إلّا کما یقوم الذی یتخبّطه الشیطان من المس»[۲۴۶].

الحدیث الأوّل یبیّن اضطراب الإنسان فی هذه الدنیا، و یعکس الحدیث الثانی حال المرابین فی مشهد یوم القیامهٔ، و کلاهما یرتبطان بحقیقهٔ واحدهٔ، فکما أنّ الإنسان المبطان الأکول یسمن بإفراط و بغیر حساب، کذلک المرابون الذین یسمنون بالمال الحرام لهم حیاهٔ اقتصادیهٔ مریضهٔ تکون وبالا علیهم.

سؤال: هل الجنون و الصرع اللذین أشارت إلیهما الآیهٔ المذکورهٔ من عمل الشیطان، مع أنّنا نعلم أنّ الصرع و الجنون من الأمراض النفسیهٔ التی لها أسباب معروفهٔ فی الغالب؟

الجواب: یری بعضهم أنّ تعبیر «مسّ الشیطان» کنایهٔ عن الأمراض النفسیهٔ و الجنون، و هو تعبیر کان شائعا عند العرب، و لا یعنی أنّ للشیطان تأثیرا فعلیا فی روح الإنسان.

و لکن مع ذلک لا یستبعد أن یکون لبعض الأعمال الشیطانیهٔ التی یرتکبها الإنسان دون تروّ أثر یؤدّی إلی نوع من الجنون الشیطانی، أی یکون للشیطان علی إثر هذه الأعمال فاعلیهٔ فی الشخص یسبّب اختلال تعادله النفسی. ثمّ إنّ الأعمال الشیطانیهٔ الخاطئهٔ إذا تکرّرت و تراکمت یکون أثرها الطبیعی هو أن یفقد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۰

الإنسان قدرته علی تمییز من السقیم من السلیم و الصالح من الطالح و التفکیر المنطقی من المعوج.

منطق المرابین:

ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَیْعُ مِثْلُ الرِّبا.

هذه الآیهٔ تبیّن منطق المرابین فهم یقولون: ما الفرق بین التجارهٔ و الربا؟

و یقصدون أنّ کلیهما یمثّلان معاملهٔ تبادل بتراضی الطرفین و اختیارهما.

یقول القرآن جوابا علی ذلک: وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَیْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا و لم یزد فی ذلک شرحا و تفصیلا، ربما لوضوح الاختلاف:

فأوّلا: فی صفقهٔ البیع و الشراء یکون کلا الطرفین متساویین بإزاء الربح و الخسارهٔ، فقد یربح کلاهما، و قد یخسر کلاهما، و مرّهٔ یربح هذا و یخسر ذاک، و مرّهٔ یخسر هذا و یربح ذاک، بینما فی المعاملهٔ الربویهٔ لا یتحمّل المرابی أیّهٔ خسارهٔ، فکلّ الخسائر المحتملهٔ یتحمّل ثقلها الطرف الآخر، و لذلک نری المؤسّسات الربویهٔ تتوسّع یوما فیوما، و یکبر رأس مالها بقدر اضمحلال و تلاشی الطبقات الضعیفهٔ.

و ثانیا: فی التجارهٔ و البیع و الشراء یسیر الطرفان فی «الإنتاج و الاستهلاک»، بینما المرابی لا یخطو أیّهٔ خطوهٔ إیجابیهٔ فی هذا المجال.

و ثالثا: بشیوع الربا تجری رؤوس الأموال مجری غیر سلیم و تتزعزع قواعد الإقتصاد الذی هو أساس المجتمع، بینما التجارهٔ السلیمهٔ تجری فیها رؤوس الأموال فی تداول سلیم.

و رابعا: الربا یتسبّب فی المخاصمات و المنازعات الطبقیهٔ، بینما التجارهٔ السلیمهٔ لا تجرّ المجتمع إلی المشاحنات و الصراع الطبقی.

فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَهٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهی فَلَهُ ما سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَی اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۱

تقول الآیهٔ إنّ من بلغته نصیحهٔ اللّه بتحریم الربا و اتّعظ فله الأرباح التی أخذها من قبل «أی أنّ القانون لیس رجعیا» لأنّ القوانین الرجعیهٔ تولد الکثیر من المشاکل و الاضطرابات فی حیاهٔ الناس، و لذلک فإنّ القوانین تنفّذ عادهٔ من تاریخ سنّها.

و هذا لا- یعنی بالطبع أنّ للمرابین أن یتقاضوا أکثر من رؤوس أموالهم من المدینین بعد نزول الآیهٔ، بل المقصود إباحهٔ ما جنوه من

أرباح قبل نزول الآية.

ثمّ يقول وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ أی أنّ النظر إلی أعمال هؤلاء يوم القيامة يعود إلی اللّه، و إن كان ظاهر الآية يدلّ علی أنّ مستقبل هؤلاء من حيث معاقبتهم أو العفو عنهم غير واضح، و لكن بالتوجّه إلی الآية السابقة نفهم أنّ القصد هو العفو. و يظهر من هذا أنّ إثم الربا من الكبر بحيث إنّ حكم العفو عن الذين كانوا يتعاطونه قبل نزول الآية لا يذكر صراحة.

وردت احتمالات اخری فی معنی هذه الجملة، أعرضنا عن ذكرها كونها خلاف الظاهر[۲۴۷].

وَ مَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

أی أنّ من يواصل تعاطی الربا علی الرغم من كلّ تلك التحذيرات، فعليه أن ينتظر عذابا أليما فی النار دائما.

إنّ العذاب الخالد لا يكون نصيب من آمن باللّه. لكن الآية تعد المصرّين علی الربا بالخلود فی النار، ذلك لأنّهم بإصرارهم هذا يحاربون قوانين اللّه، و يلجّون فی ارتكاب الإثم، و هذا دليل علی عدم صحّة إيمانهم، و بالتالی فهم يستحقّون الخلود فی النار.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۲

كما يمكن القول إنّ خلود العذاب هنا كما فی الآية ۹۳ من سورة النساء، يعنی العذاب المديد الطويل الأمد لا الأبديّ الدائم.

ثمّ أن الآية التالية تبيّن الفرق بين الربا و الصدقة و تقول:

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَ يُرْبِی الصَّدَقاتِ

ثمّ يضيف: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ يعنی الذين تركوا ما فی الصدقات من منافع طيبة و التمسوا طريق الربا الذی يوصلهم إلی نار جهنم.

«المحق» النقصان التدريجی. و «الربا» هو النموّ التدريجی. فالمرابی بما لديه من رأسمال و ثروة يستحوذ علی أتعاب الطبقة الكادحة، و قد يؤدّی عمله هذا إلی القضاء عليهم، أو يبذر علی الأقل بذور العداء و الحقد فی قلوبهم بحيث يصبحون بالتدريج متعطّشين إلی شرب دماء المرابين و يهدّدون أموالهم و أرواحهم. فالقرآن يقول إنّ اللّه يسوق رؤوس الأموال الربوية إلی الفناء.

إنّ هذا الفناء التدريجی الذی يحيق بالفرد المرابی يحيق بالمجتمع المرابی أيضا.

و بالمقابل، فالأشخاص الذين يتقدّمون إلی المجتمع بقلوب مليئة بالعواطف الإنسانية و ينفقون من رؤوس أموالهم و ثرواتهم يقضون بها حاجات المحتاجين من الناس يحظون بمحبّة الناس و عواطفهم عموما، و أموال هؤلاء فضلا عن عدم تعرّضها لأيّ خطر تنمو بالتعاون العامّ نموّا طبيعيا. و هذا ما يعنيه القرآن بقوله:

وَ يُرْبِی الصَّدَقاتِ

و هذا الحكم يجری فی الفرد كما يجری فی المجتمع. فالمجتمع الذی يعنی بالحاجات العامّة تتحرّك فيه الطاقات الفكرية و الجسمية للطبقة الكادحة التی تؤلّف أكثرية المجتمع و تبدأ العمل، و علی أثر ذلك يظهر إلی حيّز الوجود ذلك النظام الاقتصادی القائم علی التكافل و تبادل المنافع العامّة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۳

وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ

«الكفّار» من الكفور، بوزن فجور، و هو المغرق فی نكران الجميل و الكفر بالنعمة، و «الأثيم» هو الموغل فی ارتكاب الآثام.

هذه الفقرة من الآية تشير إلی أنّ المرابين بتركهم الإنفاق و الإقراض و البذل فی سبيل رفع الحاجات العامّة يكفرون بما أغدق اللّه عليهم من النعم، بل أكثر من ذلك يسخّرون هذه النعم علی طريق الإثم و الظلم و الفساد، و من الطبيعی أنّ اللّه لا يحبّ أمثال هؤلاء.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

مقابل المرابين الآثمين الكافرين بأنعم اللّه هناك أناس من المؤمنين تركوا حبّ الذات، و أحيوا عواطفهم الفطرية، و ارتبطوا باللّه

بإقامـة الصـلاة، و أسـرعوا لمعونـة المحتاجين بدفع الزكاة، و بذلك يحولون دون تراكم الثروة و ظهور الاختلاف الطبقى المؤدّى إلى الكثير من الجرائم. هؤلاء ثوابهم محفوظ عند اللّه و يرون نتائج أعمالهم فى الدنيا و الآخرة.

ثمّ إنّ هؤلاء لا يعرفون القلق و الحزن، و لا يهدّدهم الخطر الذى يتوجّه إلى المرابين من قبل ضحاياهم فى المجتمع.

و أخيرا فإنّهم يعيشون فى اطمئنان تام وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۴

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۸ الى ۲۸۱]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا مـا بَقِيَ مِنَ الرِّبـا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۷۸) فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُـوا فَـأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لاـ تَظْلِمُونَ وَ لاـ تُظْلَمُونَ (۲۷۹) وَ إِنْ كـانَ ذُو عُسْـرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَـرَةٍ وَ أَنْ تَصَـدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (۲۸۰) وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۸۱)

سبب النّزول

جاء فى تفسير على بن إبراهيم ۲۴۸] أنّه بعد نزول آيات الربا جاء «خالد بن الوليد» إلى رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و قال: كانت لأبى معاملات ربويـة مع بنى ثقيف، فمات و لم يتسلّم دينه، و قد أوصانى أن أقبض بعض الفوائد التى لم تدفع بعد. فهل يجوز لى ذلك؟ فنزلت الآيات المذكورة تنهى الناس عن ذلك نهيا شديدا.

و فى رواية أخرى أنّه بعد نزول هذه الآية قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ألا كلّ ربا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۵

من ربا الجاهلية موضوع، و أول ربا أضعه ربا العبّاس بن عبد المطّلب»

[۲۴۹].

يتضـح من هـذا أنّ رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم فى حملته لإلغاء الـديون الربوية فى الجاهلية قد بدأ بأقربائه أوّلا. و إذا كان بينهم أشـخاص أثرياء مثل العبّاس ممّن كانوا مثل غيرهم يتعاطون الربا فى الجاهليّة، فقد ألغى رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سلّم- أوّلا- ربا هؤلاء.

و جاء فى الروايـات أن النبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم بعـد نزول هـذه الآيات امر أمير مكّـة بأنه لو اسـتمر آل المغيرة الـذين كانوا معروفين بالربا فى عملهم فليقاتلهم ۲۵۰].

التّفسير

اشارة

فى الآية الأولى يخاطب اللّه المؤمنين و يأمرهم بالتقوى ثمّ يأمرهم أن يتنازعوا عمّا بقى لهم فى ذمّة الناس من فوائد ربوية.

یلاحظ أنّ الآیهٔ بدأت بذکر الإیمان باللّه و اختتمت بذکره، ممّا یدلّ بوضوح علی عدم انسجام الربا مع الإیمان باللّه.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ

تتغیّر فی هـذه الآیهٔ لهجهٔ السیاق القرآنی، فبعد أن کانت الآیات السابقهٔ تنصح و تعظ، تهاجم هذه الآیهٔ المرابین بکلّ شدهٔ، و تنذرهم بلهجهٔ صارمهٔ أنّهم إذا واصلوا عملهم الربوی و لم یستسلموا لأوامر اللّه فی الحقّ و العدل و استمرّوا فی امتصاص دماء الکادحین المحرومین فلا یسع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا أن یتوسّل بالقوّهٔ لإیقافهم عند حدّهم و إخضاعهم للحق، و هذا بمثابهٔ إعلان الحرب علیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۶

و هی الحرب التی تنطلق من قانون: فَقاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتَّی تَفِیءَ إِلی أَمْرِ اللَّهِ ۲۵۱].

لذلک عند ما سمع الإمام الصادق علیه السّلام أنّ مرابیا یتعاطی الربا بکلّ صراحهٔ و یستهزئ بحرمته هدّده بالقتل.

و یستفاد من هـذا الحـدیث أن حکم القتـل إنّمـا هو لمنکر تحریم الربا. فَأْذَنُوا من مادهٔ «اذن» و کلما کانت متعدیـهٔ بالأمر بالمعنی هو السماح و إذا تعدت بالیاء فتعنی العلم فعلی هذا یکون قوله فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ ۲۵۲] یعنی أعلموا أنّ اللّه و رسوله سیحاربوکم و هذا فی الحقیقـهٔ بمثابـهٔ إعلان الحرب علی هـذه الفئـهٔ، فعلی هذا لیس من الصـحیح ما ذهب إلیه البعض فی معنی هذه الآیهٔ بأنه «اسـمحوا بإعلان الحرب من اللّه».

عن أبی بکیر قال: بلغ أبا عبد اللّه الصادق علیه السّلام عن رجل أنّه کان یأکل الربا و یسمّیه اللبأ.

فقال: لئن أمکننی اللّه منه لأضربنّ عنقه ۲۵۳].

یتّضح من هذا أنّ هذا الحکم یخصّ الذین ینکرون تحریم الربا فی الإسلام.

علی کلّ حال یستفاد من هذه الآیهٔ أنّ للحکومهٔ الإسلامیهٔ أن تتوسّل بالقوّهٔ لمکافحهٔ الربا[۲۵۴].

وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَکُمْ رُؤُسُ أَمْوالِکُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ

أمّا إذا تبتم و رجعتم عن غیّکم و ترکتم تعاطی الربا فلکم أن تتسلّموا من الناس المدینین لکم رؤوس أموالکم فقط «بغیر ربح». و هذا قانون عادل تماما،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۷

لأنّه یحول دون أن تظلموا الناس و دون أن یصیبکم ظلم.

إنّ تعبیر لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ و إن کان قد جاء بشأن المرابین، و لکنّه فی الحقیقهٔ شعار إسلامی واسع و عمیق، یعنی أنّ المسلمین بقدر ما یجب علیهم تجنّب الظلم، یجب علیهم کذلک أن لا یستسلموا للظلم. و فی الحقیقهٔ لو قلّ الذین یتحمّلون الظلم لقلّ الظالمون أیضا، و لو أنّ المسلمین أعدّوا العدّهٔ الکافیهٔ للدفاع عن حقوقهم لما تمکّن أحد أن یعتدی علی تلک الحقوق و یظلمهم. فقبل أن نقول الظالم: لا تظلم، علینا أن نقول المظلوم: لا تستسلم للظلم.

وَ إِنْ کانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلی مَیْسَرَةٍ[۲۵۵].

استکمالا لبیان حقّ الدائن فی الحصول علی رأسماله «بدون ربح» تبیّن الآیهٔ هنا حقّا من حقوق المدین إذا کان عاجزا عن الدفع، ففضلا عن عدم جواز الضغط علیه و فرض فائدهٔ جدیدهٔ علیه کما کانت الحال فی الجاهلیهٔ، فهو حقیق بأن یمهل مزیدا من الوقت لتسدید أصل الدین عند القدرهٔ و الاستطاعهٔ.

إنّ القوانین الإسلامیهٔ التی جاءت لتوضیح مفهوم هذه الآیهٔ تمنع الدائن من استیلاء علی دار المدین و أمتعته الضروریهٔ اللازمهٔ لقاء دینه، إنّما للدائن أن یأخذ الزائد علی ذلک. و هذا قانون صریح و إنسانی یحمی حقوق الطبقات الفقیرهٔ فی المجتمع.

وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ و هـذه فی الواقع خطوهٔ أبعد من المسائل الحقوقیهٔ. أی أنّها مسألهٔ أخلاقیهٔ و إنسانیهٔ تکمل

البحث الحقوقی المتقدّم.

تقول الآیة للدائنین أن الأفضل من کلّ ما سبق بشأن المدین العاجز عن الدفع هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۸

ان یخطو الـدائن خطوة إنسانیـة کبیرة فیتنازل للمـدین عمّا بقی له بـذمّته، فهـذا خیر عمل إنسانی یقوم به، و کلّ من یدرک منافع هذا الأمر یؤمن بهذه الحقیقة.

من المألوف فی القرآن أنّه بعـد بیان تفاصیـل الأحکام و جزئیّات الشـریعة الإسـلامیة یطرح تـذکیرا عامّا شاملا یؤکّد به ما سـبق قوله، لکی تنفذ الأحکام السابقة نفوذا جیّدا فی العقل و النفس.

لـذلک فإنّه فی هـذه الآیـة یذکّر الناس بیوم القیامة و یوم الحساب و الجزاء، و یحذّرهم من الیوم الذی ینتظرهم حیث یوضع أمام کلّ امرئ جمیع أعمـاله دون زیـادة و لاـ نقصان، و کلّ ما حفظ فی ملفّ عالم الوجود یسـلّم إلیه دفعـة واحـدة، عندئـذ تهوله النتائـج التی تنتظره. و لکن ذلک حصیلة ما زرعه بنفسه و ما ظلمه فیه أحد، إنّما هو نفسه ظلم نفسه وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ

جدیر بالذکر أنّ هذه الآیة من الأدلّة الأخری علی تجسّد أعمال الإنسان فی العالم الآخر.

و مما یلفت النظر أنّ تفسیر «الـدرّ المنثور» ینقل بطرق عدیدة أنّ هذه الآیة هی آخر آیة نزلت علی رسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سلّم، و لا یستبعد هذا إذا أخذنا مضمونها بنظر الاعتبار.

و هذا لا یتناقض مع کون سورة البقرة لیست آخر سورة نزلت علی رسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سلّم، لأنّ بعض الآیات کما نعلم کانت توضع فی سورة سابقة علیها أو لا حقة لها، و ذلک بأمر النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه.

أضرار الربا

۱- الربا یخلّ بالتوازن الاقتصادی فی المجتمع، و یؤدی إلی تراکم الثروة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۹

لدی فئة قلیلة، لأنّ هذه الفئة هی وحدها التی تستفید من الأرباح بینما لا یجنی الآخرون سوی الخسائر و الأضرار و الضغوط.

الربا یشکّل الیوم أهم عوامل اتّساع الهوة المستمر بین الدول الغنیة و الدول الفقیرة، و ما یعقب ذلک من حروب دمویة طاحنة.

۲- الربا لون من ألوان التبادل الاقتصادی غیر السـلیم، یضـعف العلائق العاطفیـة، و یغرس روح الحقد فی القلوب، ذلک لأنّ الربا یقوم فی الواقع علی أساس أنّ المرابی لا ینظر إلّا إلی أرباحه، و لا یهمّه الضرر الذی یصیب المدّین.

هنا یبدأ المدین بالاعتقاد بأنّ المرابی یتّخذ من أمواله وسیلة لتدمیر حیاة الآخرین.

۳- صحیح أنّ دافع الربا یرضخ لعمله هذا نتیجة حاجة قد ألجأته إلی ذلک.

و لکنّه لن ینسـی هـذا الظلم أبـدا، و قـد یصل به الأمر إلی الإحساس بأصابع المرابی تشدّد من ضـغطها علی عنقه و تکاد تخنقه. و فی هـذه الحالة تبدأ کلّ جوارح المدین المسـکین ترسل اللعنات علی المرابی، و یتعطّش لشـرب دمه. إنّه یری بأمّ عینیه کیف أنّ حاصـل شقاءة و تعبه و ثمن حیاته یـدخل إلی جیب هـذا المرابی، فی مثل هـذه الحالـة الهائجة ترتکب عشـرات الجرائم المرعبـة، فقـد یقـدم المـدین علی الانتحار، و قـد تـدفعه حالته الیائسـة إلی أن یقتل المرابی شـرّ قتلـة، و قـد ینفجر الشـعب المضـطهد انفجارا عامّا فی ثورة عارمة.

إنّ انفصام علائق التعاون بین الـدول المرابیـة و الدول التی تسـتقرض منها بالربا واضح للعیان أیضا. إنّ الدول التی تجد ثرواتها تصـبّ فی خزائن دولـة أخری بـاسم الربـا تنظر دون شـکّ بعین البغض و الحقـد إلی الدولـة المرابیـة، و فی الوقت الـذی هی تسـتقرض منها

لحاجتها الماسة فإنّها تتحیّن الفرصة للإعراب عن نقمتها و کرهها بشتّی الوسائل و الطرق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۰

و هذا هو الذی یحدونا إلی القول بأنّ للربا أثرا أخلاقیا سیئا جدّا فی نفسیّة المدین و یثیر فی قلبه الکره و الضغینة، و یفصم عری التعاون الاجتماعی بین الأفراد و الملل.

۴- فی الأحادیث الإسلامیة إشارة إلی آثار الربا الأخلاقیة السیئة وردت فی جملة قصیرة و لکنها عمیقة المعنی. جاء فی کتاب «وسائل الشیعة» عن علّة تحریم الربا

عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إنّما حرّم اللّه عزّ و جلّ الربا لکی لا یمتنع الناس عن اصطناع المعروف»

[۲۵۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۱

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۸۲]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا تَدایَنْتُمْ بِدَیْنٍ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی فَاکْتُبُوهُ وَ لْیَکْتُبْ بَیْنَکُمْ کاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لا یَأْبَ کاتِبٌ أَنْ یَکْتُبَ کَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْیَکْتُبْ وَ لْیُمْلِلِ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ وَ لْیَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا یَبْخَسْ مِنْهُ شَیْئاً فَإِنْ کانَ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ سَفِیهاً أَوْ ضَعِیفاً أَوْ لا یَسْتَطِیعُ أَنْ یُمِلَّ هُوَ فَلْیُمْلِلْ وَلِیُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِیدَیْنِ مِنْ رِجالِکُمْ فَإِنْ لَمْ یَکُونا رَجُلَیْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَکِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْری وَ لا یَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَکْتُبُوهُ صَغِیراً أَوْ کَبِیراً إِلی أَجَلِهِ ذلِکُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنی أَلَّا تَرْتابُوا إِلَّا أَنْ تَکُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِیرُونَها بَیْنَکُمْ فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَلَّا تَکْتُبُوها وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبایَعْتُمْ وَ لا یُضَارَّ کاتِبٌ وَ لا شَهِیدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ یُعَلِّمُکُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۲۸۲)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۲

التّفسیر

تدوین الأوراق التجاریة:

بعد أن شنّ القرآن علی الربا و الاحتکار و البخل حربا شعواء، وضع تعلیمات دقیقة لتنظیم الروابط التجاریة و الاقتصادیة، لکی تنمو رؤوس الأموال نموّا طبیعیا دون أن تعتریها عوائق أو تنتابها خلافات و منازعات.

تضع هذه الآیة التی هی أطول آیات القرآن تسعة عشر بندا من التعلیمات التی تنظّم الشؤون المالیة، نذکرها علی التوالی:[۲۵۷] ۱- إذا أقرض شخص شخصا أو عقد صفقة، بحیث کان أحدهما مدینا، فلکی لا یقع أیّ سوء تفاهم و اختلاف فی المستقبل، یجب أن یکتب بینهما العقد بتفاصیله یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا تَدایَنْتُمْ بِدَیْنٍ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی فَاکْتُبُوهُ

من الجدیر بالذکر أنّه یستعمل کلمة «دین» هنا و لا یستعمل کلمة «قرض»، و ذلک لأنّ القرض هو تبادل شیئین متشابهین کالنقود أو البضاعة التی یقترضها المقترض و یستفید منها، ثمّ یعید نقودا أو بضاعة إلی المقرض مثلا بمثل. أمّا «الدین» فأوسع معنی، فهو یشمل کلّ تعامل، مثل المصالحة و الإیجار و الشراء و البیع و أمثالها، بحیث إنّ أحد الطرفین یصبح مدینا للطرف الآخر. و علیه فهذه الآیة تشمل جمیع المعاملات التی فیها دین یبقی فی ذمّة المدین، بما فی ذلک القرض.

۲- لکی یطمئن الطرفان علی صحّة العقد و یأمنا احتمال تدخّل أحدهما فیه، فیجب أن یکون الکاتب شخصا ثالثا وَ لْیَکْتُبْ بَیْنَکُمْ کاتِبٌ

علی الرغم من أنّ ظاهر الآیة یدلّ علی وجوب کتابة العقد، یتبیّن من الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۳

التالیة فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُکُمْ بَعْضاً فَلْیُؤَدِّ الَّذِی اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ أنّ لزوم الکتابة یتحقّق إذا لم یطمئن الطرفان أحدهما إلی الآخر و احتمل حصول خلافات فیما بعد.

۳- علی کاتب العقد أن یقف إلی جانب الحقّ، و أن یکتب الحقیقة الواقعة بِالْعَدْلِ

۴- یجب علی کاتب العقد، الذی و هبه اللّه علما بأحکام کتابة العقود و شروط التعامل، أن لا یمتنع عن کتابة العقد، بل علیه أن یساعد طرفی المعاملة فی هذا الأمر الاجتماعی وَ لا یَأْبَ کاتِبٌ أَنْ یَکْتُبَ کَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْیَکْتُبْ

إنّ تعبیر کَما عَلَّمَهُ اللَّهُ حسب التفسیر المذکور للتوکید و لزیادة الترغیب.

و یمکن القول إنّه یشیر إلی أمر آخر، و هو ضرورة التزامه الأمانة، و أن یکتب العقد، کما علّمه اللّه، کتابة متقنة.

بدیهیّ أنّ قبول الدعوة إلی تنظیم العقود لیست واجبا عینیا، کما یتّضح من قوله سبحانه وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَکْتُبُوهُ صَغِیراً أَوْ کَبِیراً.

۵- علی أحد الطرفین أن یملی تفاصیل العقد علی الکاتب. و لکن أیّ الطرفین؟ تقول الآیة: المدین الذی علیه الحق: وَ لْیُمْلِلِ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ

من المتّفق علیه أنّ التوقیع المهمّ فی العقد هو توقیع المدین، و لذلک فإنّ العقد الذی یکتب بإملائه یعتبر مستمسکا لا یمکن إنکاره [۲۵۸].

۶- علی المدین عند الإملاء أن یضع اللّه نصب عینیه، فلا یترک شیئا إلّا قاله لیکتبه الکاتب وَ لْیَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا یَبْخَسْ مِنْهُ شَیْئاً.

۷- إذا کان المدین واحدا ممّن تنطبق علیه صفة «السفیه»، و هو الخفیف العقل الذی یعجز عن إدارة أمواله و لا یمیّز بین ضرره و منفعته، أو «الضعیف» القاصر فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۴

فکره و الضعیف فی عقله المجنون، أو «الأبکم و الأصم» الذی لا یقدر علی النطق، فإنّ لولیّه أن یملی العقد فیکتب الکاتب بموجب إملائه فَإِنْ کانَ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ سَفِیهاً أَوْ ضَعِیفاً أَوْ لا یَسْتَطِیعُ أَنْ یُمِلَّ هُوَ فَلْیُمْلِلْ وَلِیُّهُ

۸- علی «الولی» فی الإملاء و الاعتراف بالدّین، أن یلتزم العدل و أن یحافظ علی مصلحة موکّله، و أن یتجنّب الابتعاد عن الحقّ فَلْیُمْلِلْ وَلِیُّهُ بِالْعَدْلِ

۹- بالإضافة إلی کتابة العقد، علی الطرفین أن یستشهدا بشاهدین وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِیدَیْنِ [۲۵۹].

۱۰ و ۱۱- یجب أن یکون الشاهدان بالغین و مسلمین و هذا یستفاد من عبارة مِنْ رِجالِکُمْ أی ممّن هم علی دینکم.

۱۲- یجوز اختیار شاهدتین من النساء و شاهد من الرجال فَإِنْ لَمْ یَکُونا رَجُلَیْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ

۱۳- لا بدّ أن یکون الشاهدان موضع ثقة مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ. یتبیّن من هذه الآیة أنّ الشهود یجب أن یکونوا ممّن یطمأنّ إلیهم من جمیع الوجوه، و هذه هی «العدالة» التی وردت فی الأخبار أیضا.

۱۴- و إذا کان الشاهدان من الرجال، فلکلّ منهما أن یشهد منفردا. أمّا إذا کانوا رجلا واحدا و امرأتین، فعلی المرأتین أن تدلیا بشهادتهما معا لکی تذکّر إحداهما الاخری إذا نسیت شیئا أو أخطأت فیه.

أمّا سبب اعتبار شهادة امرأتین تعدل شهادة رجل واحد، فهو لأنّ المرأة کائن عاطفی و قد تقع تحت مؤثّرات خارجیة، لذلک فوجود امرأة أخری معها یحول بینها و بین التأثیر العاطفی و غیره: أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَکِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْری

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۵

۱۵- و يجب على الشهود إذا دعوا إلى الشهادة أن يحضروا من غير تأخير و لا عذر كما قال: وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا.

و هذا من أهم الأحكام الإسلامية و لا يقوم القسط و العدل إلّا به.

۱۶- تجب كتابة الدين سواء أ كان الدين صغيرا أو كبيرا، لأنّ الإسلام يريد أن لا يقع أيّ نزاع فى الشؤون التجارية، حتّى فى العقود الصغيرة التى قد تجرّ إلى مشاكل كبيرة وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ۲۶۰] و السأم هو الملل من أمر لكثرة لبثه.

و تشير الآية هنا إلى فلسفة هذه الأحكام، فتقول إنّ الدقّة فى تنظيم العقود و المستندات تضمن من جهة تحقيق العدالة، كما أنّها تطمئن الشهود من جهة أخرى عند أداء الشهادة، و تحول من جهة ثالثة دون ظهور سوء الظنّ بين أفراد المجتمع ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا.

۱۷- إذا كان التعاقد نقدا فلا ضرورة للكتابة إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها.

«التجارة الحاضرة» تعنى التعامل النقدى، و «تديرونها» تعنى الجارية فى التداول لتوضيح معنى التجارة الحاضرة. و تعبير فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ يعنى: ليس هناك ما يمنع من كتابة العقود النقدية أيضا، و هو خير، لأنّه يزيل كلّ خطأ أو اعتراض محتملين فيما بعد.

۱۸- فى المعاملات النقدية و إن لم تحتج إلى كتابة عقد، لا بدّ من شهود:

وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۶

۱۹- و آخر حكم تذكرة الآية هو أنّه ينبغى ألّا يصيب كاتب العقد و لا الشهود أىّ ضرر بسبب تأييدهم الحقّ و العدالة: وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ.

و الفعل «يضارّ» يعنى- كما فسّرناه- أن لا يصيب الكتاب و الشهود ضرر، أى أنّه مجهول. و لا حاجة إلى تفسيره بأنّه يعنى أن لا يصدر من الكاتب و الشهود ضرر فى الكتابة و الشهادة، بعبارة أخرى لا حاجة إلى اعتباره فعلا معلوما، لأنّ هذا التأكيد ورد فى فقرة سابقة من الآية.

ثمّ تقول الآية إنّه إذا آذى أحد شاهدا أو كاتبا لقوله الحق فهو إثم و فسوق يخرج المرء من مسيرة العبادة للّه: وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ

و فى الختام، و بعد كلّ تلك الأحكام، تدعو الآية الناس إلى التقوى و امتثال أمر اللّه: وَ اتَّقُوا اللَّهَ ثمّ تقول إنّ اللّه يعلّمكم كلّ ما تحتاجونه فى حياتكم الماديّة و المعنوية: وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ و هو يعلم كلّ مصالح الناس و مفاسدهم و يقرّر ما هو الصالح لهم: وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

بحوث

۱- إنّ الأحكام الدقيقة المذكورة فى هذه الآية لتنظيم الأسناد و المعاملات و ذكر الجزئيّات أيضا فى جميع المراحل فى أطول آية من القرآن الكريم يبيّن الاهتمام الكبير الذى يليه القرآن الكريم بالنسبة للأمور الاقتصادية بين المسلمين و تنظيمها، و خاصّة مع الالتفات إلى أنّ هذا الكتاب قد نزل فى مجتمع متخلّف إلى درجة أنّ القراءة و الكتابة كانتا سلعة نادرة جدّا، و حتّى أنّ النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و هو صاحب القرآن لم يكن قد درس شيئا و لم يذهب إلى مدرسة أو مكتب، و هذا بنفسه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۷

دليل على عظمة القرآن من جهة، و أهميّة النظام الاقتصادى للمسلمين من جهة اخرى.

يقول (على بن إبراهيم) فى تفسيره المعروف: جاء فى الخبر أنّ فى سورة البقرة خمسمائة حكم إسلامى و فى هذه الآية ورد خمسة

عشر حكما[۲۶۱].

و كما رأينا أنّ عدد أحكام هذه الآية يصل إلى تسعة عشر حكما، بل أنّنا إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأحكام الضمنيّة لها فسيكون عدد الأحكام أكثر إلى حدّ أنّ الفاضل المقداد استفاد منها فى كتابه (كنز العرفان) واحدا و عشرين حكما بالإضافة إلى الفروع المتعدّدة الاخرى، فعلى هذا يكون قوله بأنّ عدد أحكام هذه الآية خمسة عشر حكما إنّما هو بسبب إدغام بعض أحكام هذه الآية بالبعض الآخر.

۲- إنّ جملة وَ اتَّقُوا اللَّهَ و جملة وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ رغم أنّها ذكرتا فى الآية بصوره مستقلّة و قد عطفت إحداهما على الاخرى، و لكنّ اقترانهما معا إشارة إلى الارتباط الوثيق بينهما، و مفهوم ذلك هو أنّ التقوى و الورع و خشية اللّه لها أثر عميق فى معرفة الإنسان و زيادة علمه و اطّلاعه.

أجل عند ما يتطّهر قلب الإنسان من الشوائب بوسيلة التقوى فسيغدوا كالمرآة الصافية تعكس الحقائق الإلهيّة، و هذا المعنى لا شكّ فيه و لا إشكال من جانبه المنطقى، لأنّ الصفات الخبيثة و الأعمال الذميمة تشكّل حجبا على فكر الإنسان و لا تدعه يرى وجه الحقيقة كما هى عليه، و عند ما يقوم الإنسان بإزاحة هذه الحجب بوسيلة التقوى فإنّ وجه الحقّ سيظهر و يتجلّى.

و لكنّ بعض الصوفيّين الجهلاء أساؤوا الاستفادة من هذا المعنى و جعلوه دليلا على ترك تحصيل العلوم الرسميّة فى حين أنّ هذا الكلام يخالف الكثير من آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۸

القرآن و الروايات الإسلامية الشريفة.

و الحقّ أنّ بعض العلوم يجب اكتسابها عن طريق العلم و التعلّم بالشكل السائد و المتعارف، و قسم آخر من العلوم الإلهيّة لا تتحصّل للإنسان إلّا بوسيلة تزكية القلب و تصفية الباطن بماء المعرفة و التقوى، و هذا هو النور الذى ورد فى الروايات أنّ اللّه يقذفه فى قلب من يليق بهذه الكرامة

«العلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۳۵۹

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۹

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۳]

اشارة

وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۲۸۳)

التّفسير

هذه الآية تكمل البحث فى الآية السابقة و تشتمل على احكام اخرى:

۱- عند التعامل إذا لم يكن هناك من يكتب لكم عقودكم، كأن يقع ذلك فى سفر، عندئذ على المدين أن يضع شيئا عند الدائن باسم الرهن لكى يطمئّن الدائن وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ.

قد یبدو من ظاهر الآیة لأول وهلة أنّ تشریع «قانون الرهن» یختصّ بالسفر، و لکن بالنظر إلی الجملة التالیة و هی وَ لَمْ تَجِدُوا کاتِباً یتبیّن أنّ القصد هو بیان نموذج لحاله لا- یمکن الوصول فیها إلی کاتب، و علیه فللطرفین أن یکتفیا بالرهن حتّی فی موطنهما. و کذلک وردت الأحادیث عن أهل البیت علیهم السّلام. و فی المصادر

الشیعیة و السنّیة أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم رهن درعه فی المدینة عند شخص غیر مسلم و اقترض منه مبلغا من المال [۲۶۲].

۲- یجب أن یبقی الرهن عند الدائن حتّی یطمئن فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ.

جاء فی تفسیر العیّاشی أنّ الإمام الصادق علیه السّلام قال: «لا رهن إلّا مقبوضة»[۲۶۳].

۳- جمیع هذه الأحکام- من کتابة العقد، و استشهاد الشهود، و أخذ الرهن- تکون فی حالة عدم وجود ثقة تامّة بین الجانبین، و إلّا فلا حاجة إلی کتابة عقد، و علی المدین أن یحترم ثقة الدائن به، فیسدّد دینه فی الوقت المعیّن، و أن لا ینسی تقوی اللّه فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُکُمْ بَعْضاً فَلْیُؤَدِّ الَّذِی اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَ لْیَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ

۴- علی الذین لهم علم بما للآخرین من حقوق فی المعاملات أو فی غیرها، إذا دعوا للإدلاء بشهادتهم أن لا یکتموها، لأنّ کتمان الشهادة من الذنوب الکبیرة وَ لا تَکْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ یَکْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ

طبیعیّ أنّ الشهادة تجب علینا إذا لم یستطع الآخرون إثبات الحقّ بشهادتهم، أمّا إذا ثبت الحقّ فیسقط وجوب الإدلاء بالشهادة عن الآخرین، أی أنّ أداء الشهادة واجب کفائی.

و بما أنّ کتمان الشهادة و الامتناع عن الإدلاء بها یکون من أعمال القلب، فقد نسب هذا الإثم إلی القلب ۲۶۴]، فقال: فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ و مرّة اخری یؤکّد فی ختام الآیة ضرورة ملاحظة الأمانة و حقوق الآخرین: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۸۴]

اشارة

لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِی أَنْفُسِکُمْ أَوْ تُخْفُوهُ یُحاسِبْکُمْ بِهِ اللَّهُ فَیَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۸۴)

التّفسیر

مالک کلّ شیء:

هذه فی الحقیقة تکملة للجملة الأخیرة فی الآیة السابقة و تقول: لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ و لهذا السبب فهو یعلم جمیع أفعال الإنسان الظاهریّة منها و الباطنیّة وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِی أَنْفُسِکُمْ أَوْ تُخْفُوهُ یُحاسِبْکُمْ بِهِ اللَّهُ

یعنی لا- ینبغی لکم أن تتصوروا أعمالکم الباطنیّة مثل کتمان الشهادة و الذنوب القلبیّة الاخری سوف تخفی علی اللّه تعالی الحاکم علی الکون بأجمعه و المالک للسموات و الأرض، فإنّه لا یخفی علیه شیء، فلا عجب إذا قیل أنّ اللّه تعالی یحاسبکم علی ذنوبکم القلبیّة و یجازیکم علیها فَیَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ.

و یحتمل أیضا أنّ الآیة أعلاه تشیر إلی جمیع الأحکام المذکورة فی الآیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۲

السابقة من قبیل الإنفاق الخالص و الإنفاق المشوب بالریاء أو المنّة و الأذی و کذلک الصلاة و الصوم و سائر الأحکام الشرعیّة و العقائد القلبیّة.

فی ختام الآیة تقول: وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ فهو عالم بکل شیء یجری فی هذا العالم، و قادر أیضا علی تشخیص اللّیاقات و الملکات، و قادر أیضا علی مجازات المتخلّفین.

ملاحظتان

۱- قد یتصوّر أنّ هذه الآیة مخالفة للأحادیث الکثیرة التی تؤکّد علی النیّة المجرّدة، و لکنّ الجواب واضح، حیث إنّ تلک الأحادیث تتعلق بالذنوب التی لها تطبیقات خارجیّة و عملیّة بحیث تکون النیّة مقدّمة لها من قبیل الظلم و الکذب و غصب حقوق الآخرین و أمثال ذلک، لا من قبیل الذنوب التی لها جنبة نفسیّة ذاتا و تعتبر من الأعمال القلبیّة مثل (الشرک و الریاء و کتمان الشهادة).

و هناک تفسیر آخر لهذه الآیة، و هو أنّه یمکن أن یکون لعمل واحد صور مختلفة، مثلا الإنفاق تارة یکون فی سبیل اللّه، و اخری یکون للریاء و طلب الشهرة، فالآیة تقول: أنّکم إذا أعلنتم نیّتکم أو أخفیتموها فإنّ اللّه تعالی أعلم بها و سیجازیکم علیها، فهی فی الحقیقة إشارة إلی مضمون

الحدیث الشریف «لا عمل إلّا بنیّة»

[۲۶۵].

۲- من الواضح أنّ قوله تعالی فَیَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ أنّ إرادته لا تکون بدون دلیل، بل أنّ عفوه أیضا یرتکز علی دلیل و مبرّر، و هو لیاقة الشخص للعفو الإلهی، و هکذا فی عقابه و عدم عفوه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۳

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۸۵]

اشارة

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَیْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ کُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَکَ رَبَّنا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ (۲۸۵)

التّفسیر

علائم الإیمان و طریقه:

لقد شرعت سورة البقرة ببیان بعض المعارف الإسلامیة و الاعتقادات الحقّة و اختتمت بهذه المواضیع أیضا کما فی الآیة أعلاه و الآیة التی بعدها، و بهذا تکون بدایتها و نهایتها متوافقة و منسجمة.

و قد ذکر بعض المفسّرین فی سبب نزول هذه الآیة أنّه حین نزلت الآیة السابقة و أنّ اللّه تعالی یعلم ما فی أنفسکم و یحاسبکم بما

أظهرتم و أخفيتم فى قلوبكم، خاف بعض الصحابة و قالوا: ليس أحد منّا إلّا و فى قلبه خطرات و وساوس شيطانيّة، فعرضوا الأمر على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فنزلت الآية أعلاه، و بيّنت طريق الحقّ و الإيمان، و منهج التضرّع و المناجاة و التسليم لأوامر اللّه تعالى ۲۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۴

فى البداية تقول آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ فهذا المعنى و هذه الخصيصة تعتبر من امتيازات الأنبياء الإلهيين جميعا بأنّهم مؤمنون بما جاءوا به إيمانا قاطعا، فلا شكّ و لا شبهة فى قلوبهم عن معتقداتهم، فقد آمنوا بها قبل الآخرين و استقاموا و صبروا عليها قبل الآخرين.

و نقرأ فى الآية ۱۵۸ من سورة الأعراف أنّ هذه الخصيصة تعتبر من صفات الرسول الأكرم و من امتيازاته حيث تقول: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ

ثمّ تضيف الآية الكريمة: وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۲۶۷] و هذه الجملة الأخيرة من كلام المؤمنين أنفسهم، حيث يؤمنون بجميع الأنبياء و المرسلين و شرائعهم بخلاف البعض من الناس الذين تقول عنهم الآية ۱۵۰ من سورة النساء وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ ۲۶۸].

المؤمنون لا- يرون تفاوتا بين رسل اللّه من جهة أنّهم مرسلون من قبل اللّه تعالى، و يحترمونهم و يقدّسونهم جميعا. و معلوم أنّ هذا الموضوع لا ينافى مقولة نسخ الشرائع السابقة بواسطة الشريعة البعديّة، لأنّه كما سبقت الإشارة إليه أنّ تعليمات الأنبياء و شرائعهم من قبيل المراحل الدراسيّة المختلفة من الابتدائية و المتوسطة و الاعدادية و الجامعة، فبالرغم من أنّها تشترك جميعا فى الأصول و المبادئ الأساسيّة، إلّا أنّها تختلف فى السطوح و التطبيقات المختلفة، فعند ما يرتقى الإنسان إلى مرحلة أسمى فإنّه يترك البرامج المعدّة للمرحلة السابقة و يأخذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۵

بالبرامج المعدّة لهذه المرحلة، و مع ذلك يبقى احترامه و تقديسه للمرحلة السابقة فى محلّه.

ثمّ تضيف الآية أنّ المؤمنين مضافا إلى إيمانهم الراسخ و الجامع فإنّهم فى مقام العمل أيضا كذلك وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

(سمعنا) وردت فى بعض الموارد بمعنى فهمنا و صدّقنا من قبيل هذه الآية، أى أنّنا قبلنا دعوة أنبيائك بجميع وجودنا و على استعداد تام للإطاعة و الإتّباع.

و لكن يا إلهنا و ربّنا نحن بشر و قد تتسلط علينا الغرائز و الأهواء و تجرّنا إلى المعصية أحيانا، و لهذا ننتظر عفوك و نتوقع منك المغفرة لأنّ مصيرنا إليك ۲۶۹].

و بهذا يتناغم الإيمان بالمبدأ و المعاد مع الالتزام العملى بجميع الأحكام الشرعيّة و الدساتير الإلهيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۶]

اشارة

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۲۸۶)

التّفسیر

عدّة حاجات مهمّة:

کما تقـدّم فی تفسـیر الآیة السابقة أنّ هاتین الآیتین تتعلّقان بالأشـخاص الّذین اسـتوحشوا من تعبیر الآیة السابقة فی أنّ اللّه تعالی مطّلع علی نیّاتهم و سیحاسبهم و یجازیهم علیها فقالوا: لا أحد منّا یصفو قلبه عن الوسوسة و الخاطرات القلبیّة.

فالآیة الحاضرة تقول: لا یُکَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

(الوسع) لغـة تعنی القـدرة و الإستیعاب، و علیه فإنّ الآیـة تؤیّـد الحقیقـة المنطقیّة القائلة أنّ التکالیف و الفرائض الإلهیّة لا تتجاوز طاقة الأفراد و میزان تحمّلهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۷

إطلاقا، لـذلک یمکن القول بأنّ کلّ الأحکام یمکن تقییـدها و تفسیرها بهذه الآیة حیث تتحدّد فی إطار قدرة الإنسان، و من البدیهی أنّ المشرّع الحکیم و العادل لا یمکن أن یضع قانونا علی نحو آخر.

کما أنّ الآیة تؤکّد أنّ الأحکام الشرعیّة لا تنفصل أبدا عن أحکام العقل و الحکمة، بل هی متواکبة معها فی کلّ المراحل.

ثمّ تضیف الآیة لَها ما کَسَبَتْ وَ عَلَیْها مَا اکْتَسَبَتْ

أجل فإنّ کلّ شخص یحصد ما جنته یداه حسنا کان أم سیئا، و سیواجه فی هذا العالم أو فی العالم الآخر نتائج و عواقب هذه الأعمال، فالآیة تنبّه الناس إلی مسئولیاتهم و عواقب أعمالهم، أو تفنّد الأساطیر التی تبرئ بعض الناس من عواقب أعمالهم، أو تجعلهم مسئولین عن أعمال الآخرین دون دلیل.

و تجـدر الإشارة إلی أنّ الآیة تطلق علی الأعمال الصالحة اسم «الکسب» و علی الأعمال السیّئة اسم «الاکتساب». و لعلّ السـبب هو أنّ «الکسب» یسـتعمل بالنسبـة إلی الأمور التی یحقّقها المرء برغبـة داخلیـة و بلا تکلیف و هی تناسب فطرته، بینما «الاکتساب» هو النقطة المقابلـة للکسب، أی الأعمـال التی تنافی الفطرة و طبیعـة الإنسان. یفهم من هـذا أنّ الأعمال الصالحـة مطابقـة لمسیرة الفطرة و طبیعة الإنسان، بینما أعمال الشرّ تخالف الفطرة و الطبیعة.

أمّـا الراغب الإصـفهانی فی «مفرداته» فیری رأیـا غیر هـذا و جـدیر بالملاحظـة یقول: الکسب مـا یتحرّاه الإنسان ممّا فیه اجتلاب نفع و تحصـیل حظّ ککسب المـال، و یقال فیما أخـذه لنفسه و لغیره (کأعمال الخیر التی لا تقتصـر فائـدتها علی الفاعل وحـده، بل قـد تعمّ الأقـارب و غیرهم) فی حین أنّ الاکتسـاب لاـ یقـال إلّـا فیما تعود نتائجه علی الفاعل نفسه، و هو الـذنب. هـذه الاختلافات فی المعنی تصلح طبعا عند ما تستعمل الواحدة فی قبال الاخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۸

رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِینا أَوْ أَخْطَأْنا.

لمّا کان المؤمنون یعرفون أنّ مصیرهم یتحدّد بما کسبت أیدیهم من أعمال صالحة أو سیئة بموجب قانون «لها ما کسـبت و علیها ما اکتسـبت» لذلک یتضـرّعون و یخاطبون اللّه بلفظ «الرب» الذی یوحی بمعانی اللطف فی النشأة و التربیة قائلین: إذا کنّا قد أذنبنا بسبب النسیان أو الخطأ، فاغفر لنا ذنوبنا برحمتک الواسعة و جنّبنا العقاب.

العقاب علی النسیان و الخطأ:

لماذا الدعاء لأن يغفر اللّه الذنوب المرتكبة نسيانا أو خطأ؟

فهل اللّه يعاقب على مثل هذه الذنوب؟

فى الجواب لا ـ بدّ من القول بأنّ النسيان يكون أحيانا من باب التماهل و التساهل من جانب الإنسان نفسه. بديهىّ أنّ هذا النوع من النسيان لا يضع المسؤولية عن الإنسان، كما جاء فى القرآن.

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا[۲۷۰] و عليه فإنّ النسيان الناشئ عن التساهل يوجب العقاب.

ثمّ لا بدّ من ملاحظة أنّ هناك فرقا بين النسيان و الخطأ. فالخطأ يقال عادة فى الأمور التى تقع لغفلة من الإنسان و عدم انتباه منه، كأن يطلق رصاصة ليصيد صيدا فتصيب رصاصته إنسانا فتجرحه. أمّا النسيان فهو أن يتّجه الإنسان للقيام بعمل ما و لكنّه ينسى كيف يقوم بذلك، كأن يعاقب المرء إنسانا بريئا ظنّا منه أنّه المذنب، لنسيانه مميّزات المذنب الحقيقى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۹

رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا.

«الإصر» عقد الشيء و حبسه. و تطلق على الحمل الثقيل الذى يمنع المرء من الحركة. و كذلك العهد المؤكّد الذى يقيّد الإنسان. و لهذا تطلق هذه الكلمة على العقاب أيضا.

و فى هذا المقطع من الآية يطلب المؤمنون من اللّه تعالى طلبين: الأوّل أن يرفع عنهم الفروض الثقيلة التى قد تمنع الإنسان من إطاعة اللّه، و هذا هو ما

ورد على لسان النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشأن التعاليم الإسلامية، إذ قال «بعثت بالشريعة السهلة السمحة»

[۲۷۱].

هنا قد يسأل سائل: إذا كانت السهولة و السماحة فى الدين جيّدة، فلما ذا لم يكن للأقوام السابقة مثلها؟

فى الجواب نقول: تفيد آيات فى القرآن أنّ التكاليف الشاقّة لم تكن موجودة فى أصل شرائع الأديان السابقة، بل فرضت كعقوبات على أثر عصيان تلك الأقوام و عدم إطاعتها، كحرمان بنى إسرائيل من أكل بعض اللحوم المحلّلة بسبب عصيانهم المتكرّر[۲۷۲].

و فى الطلب الثانى يريدون منه أن يعفيهم من الامتحانات الصعبة و العقوبات التى لا تطاق وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ و نرى فى الفقرة السابقة صيغة لا تَحْمِلْ و هنا نرى عبارة لا تَحْمِلْ فالأولى تستعمل عادة فى الأمور الصعبة، و الثانية فيما لا يطاق.

فاعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا.

«عفا» بمعنى أزال آثار الشيء، و أكثر استعمالها مع الذنب بمعنى محو آثار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۰

الإثم، و تشمل الآثار الطبيعية و الآثار الجزائية و العقوبات.

أمّا «الغفران» فتعنى أن يصون اللّه العبد من أن يمسّه العذاب عقوبة على ذنبه.

و عليه، فإنّ استعمال الكلمتين يفيد أنّ المؤمنين طلبوا من اللّه أن يزيل الآثار التكوينية و الطبيعية لزللهم عن أرواحهم و نفوسهم، لكى لا تصيبهم عواقبها السيّئة.

كما أنّهم طلبوا منه أن لا يقعوا تحت طائلة عقابها. و فى المرحلة الثالثة يطلبون «رحمته الواسعة» التى تشمل كلّ شيء.

أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ

و فى آخر دعواهم يخاطبون اللّه على أنّه مولاهم الذى يتعهّدهم بالرعاية و التربية و يطلبون منه أنّ يمنحهم الفوز و الإنتصار على الأعداء.

فى هاتين الآيتين خلاصة لسورة البقرة كلّها، و هما تهديانا إلى روح التسليم أمام ربّ العالمين، و تشيران إلى أن المؤمنين إذا أرادوا

من اللّه أن یغفر لهم زلّاتهم و أن ینصرهم علی الأعداء کافّة، فلا بدّ لهم أن ینفذوا برنامج «سمعنا و أطعنا» أن یقولوا: إنّنا سمعنا دعوات الداعین و قبلناها بکلّ جوارحنا و إنّنا متّبعوها، و لن ندخّر وسعا فی حثّ السیر علی هذا السبیل. و عندئذ لهم أن یطلبوا الإنتصار علی الموانع و الأعداء.

إنّ تکرار کلمة «ربّ» أی الذی یلطف بعباده و یربّیهم یکمل هذه الحقیقة.

و لهذا حثّنا أئمة الدین فی أحادیثهم علی قراءة هاتین الآیتین، و بیّنوا ما فیهما من أبواب الثواب. فإذا تناغم اللسان و القلب فی تلاوتهما و لم تکن التلاوة مجرّد ألفاظ تجری علی اللسان، تغدو حینئذ برنامجا حیاتیا، فإنّ تلاوتهما تربط بین القلب و خالق الکون، و تضفی الصفاء علی الروح و تکون عاملا علی التحرّک و النشاط.

یستفاد جیّدا من هذه الآیة أنّ (التکلیف بما لا یطاق) لا یوجد فی الشریعة المقدّسة، لا فی الإسلام و لا فی الأدیان الاخری، و الأصل هو حریّة الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۱

و إرادته لأنّ الآیة تقول: أنّ کلّ إنسان یلاقی جزاء أعماله الحسنة و السیئة، فما عمله من حسنات فسیعود إلیه، و ما ارتکبه من سیئات فعلیه، و من هذا المنطلق یکون طلب العفو و المغفرة و الصفح.

و هذا المعنی یتطابق تماما مع منطق العقل و مسألة الحسن و القبح، لأنّ اللّه تعالی حکیم و لا یمکن أن یکلّف العباد بما لا طاقة لهم به، و هذا بنفسه دلیل علی نفی مسألة الجبر، فکیف یحتمل أنّ اللّه تعالی یجبر العباد علی ارتکاب الذنب و الإثم و فی نفس الوقت ینهاهم عنه؟! و لکنّ التکالیف الشاقّة و الصعبة لیست بالأمر المحال کما قرأنا عن تکالیف بنی إسرائیل الشاقّة، و هذه التکالیف أیضا ناشئة من أعمالهم و عبارة عن عقوبة لما ارتکبوه من آثام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۳

سورة آل عمران

اشارة

مدنیة و عدد آیاتها مائتین آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۵

آل عمران

فضیلة تلاوة هذه السورة:

ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «من قرأ سورة آل عمران أعطی بکلّ آیة منها أمانا علی جسر جهنم»

[۲۷۳].

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «من قرأ البقرة و آل عمران جاء یوم القیامة یظلّانه علی رأسه مثل الغمامتین»

[۲۷۴].

محتوی السورة:

ذهب بعض المفسّرين المعروفين أنّ هذه السورة نزلت بين السنة الثانية و الثالثة للهجرة أى بين غزوة بدر و احد فهى تعكس فى طيّاتها فترة من أشد الفترات حساسيّة فى صدر الإسلام ۲۷۵].

و على كلّ حال، فإنّ المحاور الأصلية فى أبحاث هذه السورة عبارة عن:

۱- إنّ قسما مهمّا من هذه السورة يرتبط بمسألة التوحيد و صفات اللّه و المعاد و المعارف الإسلامية الاخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۶

۲- و قسم آخر منها يتعلّق بمسألة الجهاد و أحكامه المهمّة و الدقيقة، و كذلك الدروس المستفادة من غزوتى بدر و أحد، و بيان الإمداد الإلهى للمؤمنين، و الحياة الخالدة الأخرويّة للشهداء فى سبيل اللّه.

۳- و فى قسم من هذه السورة يدور الحديث حول سلسلة من الأحكام الإسلامية فى ضرورة وحدة صفوف المسلمين و فريضة الحجّ و بيت اللّه الحرام و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و التولّى و التبرّى و مسألة الأمانة و الإنفاق فى سبيل اللّه و ترك الكذب و ضرورة الاستقامة و الصبر فى مقابل الأعداء و المشكلات و الامتحانات الإلهيّة المختلفة و ذكر اللّه على كلّ حال.

۴- و تطرّقت هذه السورة إلى تكملة للأبحاث التى تتحدّث عن تاريخ الأنبياء عليهم السّلام و منهم آدم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و سائر الأنبياء و قصّة مريم و كرامتها و منزلتها عند اللّه، و كذلك المؤامرات التى كان يحوكها أتباع الديانة اليهوديّة و المسيحيّة ضدّ الإسلام و المسلمين.

إنّ مواضيع هذه السورة منسجمة و متناغمة بشكل كأنّها نزلت فى وقت واحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۷

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

الم (۱) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (۲) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (۳) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۴)

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين: إنّ ثمانين آية و نيفا من هذه السورة قد نزلت فى وفد مسيحيّى نجران ۲۷۶] الذى قدم المدينة للتحقيق فى أمر الإسلام.

كان الوفد يتألّف من ستّين شخصا، فيهم أربعة عشر شخصا من أشراف نجران و شخصيّاتها. ثلاثة من هؤلاء الأربعة عشر كانت لهم صفة الرئاسة، و إليهم يرجع المسيحيّون لحلّ مشاكلهم. أحدهم يدعى «عاقب» و يسمّى «عبد المسيح» أيضا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۸

كان زعيم قومه المطاع بينهم. و الثانى يدعى «السيّد» و يسمّونه «أيهم» أيضا، و هو المسؤول عن تنظيم برنامج الرحلة و معتمد المسيحيّين. و الثالث «أبو حارثة» و كان عالما و صاحب نفوذ، و بنيت كنائس عديدة باسمه. و حفظ عن ظهر قلب جميع كتب المسيحيّين الدينية.

دخل هؤلاء المدينة و هم بملابس قبيلة بنى كعب، و جاؤوا إلى مسجد النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم. كان النبىّ صلى اللّه عليه و

آله و سلّم قد انتهى من صلاة العصر مع المسلمين. و أثار هؤلاء انتباه المسلمين بملابسهم اللامعة الملوّنة الزاهية حتّى قال بعض صحابة النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم: ما رأينا مبعوثين بهذا الجمال! و عند ما وصلوا إلى المسجد كان موعد صلاتهم قد أزف، فقرعوا نواقيسهم بحسب طقوسهم و اتّجهوا نحو الشرق و شرعوا يصلّون، فحاول بعض أصحاب النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يمنعهم، إلّا أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم طلب من الصحابة أن يتركوهم و شأنهم.

و بعد الصلاة أقبل «عاقب» و «السيّد» على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بدءا يحادثانه، فدعاهم الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الدخول فی الإسلام و الاستسلام للّه.

قالا: قد أسلمنا قبلک.

قال: كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما للّه ولدا، و عبادتكما الصليب، و أكلكما الخنزير.

قالا: إن لم يكن عيسى ولدا للّه فمن أبوه؟ و خاصموه جميعا فی عيسى.

فقال لهم النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم: ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولدا إلّا و يشبه أباه؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت، و أن عيسى يأتی عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كلّ شیء و يحفظه و يرزقه؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۹

قالوا: بلى.

قال: فهل يملک عيسى من ذلک شيئا؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أنّ اللّه لا يخفى عليه شیء فی الأرض و لا فی السماء؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلک إلّا ما علّم؟

قالوا: لا.

قال: فإنّ ربّنا صوّر عيسى فی الرحم كيف شاء و ربّنا لا يأكل و لا يشرب و لا يحدث.

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة، ثمّ وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثمّ غذّی كما يغذّی الصبیّ، ثمّ كان يطعم و يشرب و يحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا فأنزل اللّه فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع و ثمانين آية[۲۷۷].

التّفسير

تفسير الحروف المقطّعة بالعقول الإلكترونية:

فیما یتعلّق بالحروف المقطّعة فی القرآن، سبق الحدیث عنها فی بدایة سورة البقرة، فلا موجب لتکرار ذلک. و ما ینبغی عرضه هنا هو النظریة المثیرة التی تقدّم بها مؤخّرا عالم مصری نورد هنا خلاصة لها لأهمیّتها، لا شکّ أنّ الحکم علی صحتها أو بطلانها یستلزم بحوثا دقیقة یقع عبؤها علی الأجیال القادمة. إنّما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۰

نوردها کنظریة لا غیر[۲۷۸].

مجلة «آخر ساعة» المصریة المعروفة نشرت تقریرا عن تحقیقات عجیبة قام بها عالم مصری مسلم بخصوص تفسیر بعض آیات القرآن المجید بوساطة العقول الإلکترونیة أثارت إعجاب الناس فی مختلف أنحاء العالم.

تلک التحقیقات التی أجراها الدکتور «رشاد خلیفة» العالم الکیمیاویّ المصری خلال ثلاث سنوات متواصلة، أثبتت أنّ هذا الکتاب السماویّ العظیم لیس من نتاج عقل بشری، و أنّ الإنسان غیر قادر علی الإتیان بمثله.

أجری الدکتور رشاد تحقیقاته فی مدینة «سانت لویس» بمقاطعة «میسوری» الأمریکیة و استخدم فی تحقیقاته العقول الإلکترونیة لفترات طویلة مع أنّ أجرتها فی کلّ دقیقة ۱۰ دولارات تبرّع بها المسلمون المقیمون هناک.

کان کلّ جهد الأستاذ المذکور ینصبّ علی معرفة معانی الحروف المقطّعة فی القرآن، مثل «ق، الم، یس». لقد استطاع بحسابات معقّدة أن یثبت وجود علاقة قویة بین هذین الحروف و السورة التی تقطع فی صدرها (فتأمّل).

لقد استعان بالعقل الإلکترونی لإجراء تلک الحسابات الخاصّة لمعرفة أعداد حروف السور و نسبة وجود کلّ حرف منها، لا لتفسیر القرآن.

و لولا هذه الأجهزة ما استطاع أحد أن یجری تلک الحسابات علی الورق.

و الآن نوجز الاکتشافات الذی توصّل إلیه العالم المصری: یقول الدکتور رشاد: نعلم أنّ القرآن یضمّ ۱۱۴ سورة، منها ۸۶ سورة نزلت فی مکّة و ۲۸ سورة فی المدینة، و من بین مجموع سور القرآن ۲۹ سورة تبدأ بحروف مقطعة.

من الجدیر بالذکر أنّ مجموع هذه الحروف یبلغ نصف حروف الهجاء العربیة، و هی (أ- ح- ر- س- ص- ط- ع- ق- ک- ل- م- ن- ه- ی) و قد یصفونها بالحروف النیّرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۱

یقول الدکتور: منذ سنوات و أنا أحبّ أن أعرف معنی هذه الحروف التی تبدو فی الظاهر أنّها مقطّعة و تتصدّر بعض السور. و علی الرغم من رجوعی إلی تفاسیر مشاهیر المفسّرین فلم أعثر لدیهم علی جواب مقنع، فاستنعت باللّه و اتّکلت علیه و بدأت بحثی:

خطر لی مرّة أنّه ربما تکون هناک علاقة بین هذه الحروف و حروف کلّ سورة تتصدّرها. غیر أنّ دراسة الحروف النیّرة الأربعة عشر کلّها ضمن حروف سور القرآن المائة و أربعة عشر و استخراج نسبة کلّ حرف و الحسابات الکثیرة الأخری لم تکن من الأمور التی یمکن إجراؤها دون الاستعانة بالعقول الإلکترونیة. لذلک شرعت أوّلا بتعیین تلک الحروف منفردة فی جمیع سور القرآن، ثمّ تعیین مجموع حروف کلّ سورة، و أعطیتها جمیعا إلی العقل الإلکترونی مع رقم کلّ سورة (لغرض القیام بالحسابات المعقّدة المطلوبة فیما بعد). لقد استغرق هذا العمل مع مقدّماته سنتین من الزمان.

ثمّ عملت علی العقل الإلکترونی لإجراء تلک الحسابات مدّة سنة کاملة.

کانت النتائج لامعة جدّا، و کشف الستار لأوّل مرّة فی تاریخ الإسلام عن حقائق مذهلة أکّدت إعجاز القرآن (إضافة إلی أمور أخری) من الناحیة الریاضیة و نسبة حروف القرآن.

لقد أوضحت لنا حسابات العقل الإلکترونی نسبة وجود کلّ من الحروف الأربعة عشر فی کلّ سورة من سور القرآن المائة و أربعة عشر.

فمثلا بالحسابات و جدنا أن نسبة حرف القاف، و هو أحد الحروف النورانیة فی القرآن فی سورة «الفلق» تحوز أعلی نسبة (۷۰۰/ ۶٪) و تحوز المرتبة الأولی بین سور القرآن، طبعا باستثناء سورة «ق». بعدها تأتی سورة «القیامة» التی یبلغ فیها عدد حروف القاف بالنسبة إلی حروف السورة (۹۰۷/ ۳٪)، ثمّ تأتی سورة «و الشمس» و نسبتها (۹۰۶/ ۳٪).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۲

و نلاحظ من ذلک أنّ الفرق بین سورة «القیامة» و سورة «و الشمس» یبلغ (۱۰۰/ ۰٪).

و هکذا استخرجنا هذه النسبة فی ۱۱۴ سورة لهذا الحرف و لسائر الحروف النورانیة الأخری، و بذلک ظهرت نسبة مجموعة حروف کلّ سورة إلی کلّ حرف من الحروف النورانیة.

و فیما یلی النتائج المثیرة التی توصّل إلیها التحقیق:

۱- نسبة حرف «ق» فی سورة «ق» أکثر من نسبتها فی أیة سورة أخری بدون استثناء. أی أنّ الآیات التی نزلت طوال ۲۳ سنة- و هی فترة نزول القرآن، فی ۱۱۳ سورة استعملت فیها القاف بنسبة أقل، إنّه مثیر و مدهش أن یکون إنسان قادر علی مراقبة تعداد کلّ حرف من الحروف التی یستعملها علی مدی ۲۳ سنة، و فی الوقت نفسه یعرب بکلّ طلاقة و بدون أی تکلّف عمّا یرید بیانه. لا شکّ أنّ أمرا کهذا خارج عن نطاق قدرة الإنسان، بل أنّ مجرّد حساب ذلک یتعذّر علی أعظم العقول الریاضیة بدون الالتجاء إلی العقل الإلکترونی.

و هذا کلّه یدلّ علی أنّ سور القرآن و آیاته لیست وحدها الموضوعة وفق حساب معیّن، بل حتّی حروفه موضوعة بحساب و نظام خاصّ لا یقدر علیه سوی اللّه تعالی.

کذلک دلّت الحسابات علی أنّ حرف «ص» فی سورة «ص» له هذه الخاصیّة نفسها، أی نسبة وجوده فی هذه السورة أکثر من نسبة وجوده فی أیة سورة أخری من سورة القرآن.

کما أنّ حرف «ن» فی سورة «ن و القلم» یمتاز بنسبة أعلی من وجوده فی أیة سورة أخری.

الاستثناء الوحید هو سورة «الحجر» التی فیها نسبة الحرف «ن» أکثر من سورة «ن و القلم». و لکن ما یلفت هو أنّ سورة «الحجر» تبدأ بالحروف «الر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۳

و سنجد أنّ السور التی تبدأ بحروف «الر» یجب أن تعتبر بحکم السورة الواحدة.

فإذا فعلنا ذلک نصل إلی النتیجة المطلوبة أی أنّ عدد حرف «ن» فی هذه السور سوف یکون أقلّ مما فی سورة «ن و القلم».

۲- حروف «المص» فی بدایة سورة الأعراف إذا حسبنا حروف الألف و المیم و الصاد فی هذه السورة نجدها أکثر ممّا هی فی أیة سورة أخری.

کذلک «المر» فی بدایة سورة «الرعد». و «کهیعص» فی بدایة سورة «مریم»، إذا حسبت الأحرف الخمس کان عددها فی هذه السورة أکثر ممّا هی فی السور الأخری.

و هنا تواجهنا ظاهرة جدیدة، فالحرف الواحد لیس هو وحده الذی یرد بحساب فی السور، بل أنّ مجموعات الأحرف أیضا تأتی هکذا بشکل مدهش.

۳- کان الکلام حتّی الآن یدور علی الحروف التی تتصدّر سورة واحدة من سورة القرآن، أمّا الحروف التی تتصدّر سورا متکرّرة، مثل «الر، ألم» فإنّها تتخذ شکلا آخر، فالحسابات الإلکترونیة تقول إنّ مجموع هذه الحروف الثلاث، مثلا «أل م» إذا حسبت فی مجموع السور التی تتصدّرها، و تستخرج نسبتها إلی مجموع حروف هذه السور، نجد أنّ هذه النسبة أکبر من نسبة وجودها فی السور الأخری من القرآن.

هنا أیضا تتّخذ المسألهٔ شکلا مثیرا و هو أنّ حروف کلّ سورهٔ من سور القرآن لیست هی وحدها التی تقع تحت الضبط و الحساب. بل أنّ مجموع حروف السور المتشابههٔ تقع تحت حساب متشابه أیضا.

و بهذه المناسبهٔ یتّضح أیضا لماذا تبدأ عدّهٔ سور مختلفهٔ بالحروف «الم» أو «الر» و هذا لم یکن من باب المصادفهٔ و الاتّفاق.

یقوم الدکتور رشاد بحسابات أعقد علی السور التی تتصدّرها «حم» لا نتطرّق إلیها اختصارا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۴

و یصل الأستاذ المذکور من خلال دراساته هذه إلی حقائق و استنتاجات أخری أیضا نوردها للقرّاء الکرام:

۱- لا بدّ من الإبقاء علی إملاء القرآن الأصلی

یقول الدکتور: إنّ هذه الحسابات تصحّ فی حالهٔ الإبقاء علی الإملاء الأصلی فی کتابهٔ القرآن، مثل: اسحق و زکوهٔ و صلوهٔ، فلا نکتبها إسحاق و زکاهٔ و صلاهٔ، و إلّا فإنّ الحسابات تختل.

۲- دلیل علی عدم تحریف القرآن

هذه التحقیقات تدلّ علی أنّ أیّ تحریف- و لو فی کلمهٔ واحدهٔ- لم یطرأ علی القرآن من حیث الزیادهٔ و النقصان، و إلّا لما ظهرت هذه الحسابات علی هذه الصورهٔ.

۳- إشارات عمیقهٔ المعنی

فی کثیر من السور التی تبدأ بالحروف المقطّعهٔ نلاحظ أنّه بعد الحروف تأتی الإشارهٔ إلی صدق القرآن و عظمته، مثل: الم* ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ ۲۷۹]، و هذه فی نفسه إشارهٔ ظریفهٔ إلی علاقهٔ هذه الحروف بإعجاز القرآن.

نتیجهٔ البحث

نستنتج من هذا البحث أنّ حروف القرآن الکریم الذی نزل علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی مدی ۲۳ سنهٔ تنتظم فی حساب دقیق، فکلّ حرف من حروف الهجاء له مع مجموع حروف کلّ سورهٔ نسبهٔ ریاضیهٔ دقیقهٔ بحیث إنّ الحفاظ علی هذا التنظیم و الحساب یتعذّر علی البشر بدون العقول الإلکترونیهٔ.

لا شکّ أنّ التحقیقات التی أجرها العالم المذکور ما زالت فی بدایهٔ الطریق و لا تخلو من النقائص. فیجب أن تتظافر جهود الآخرین للتغلّب علیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۵

فی الآیهٔ الثانیهٔ یقول تعالی: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ

سبق أن شرحنا هذه الآیهٔ فی سورهٔ البقرهٔ فی الآیهٔ ۲۵۵.

الآیهٔ التی تلیها تخاطب نبی الإسلام و تقول: إنّ اللّه تعالی قد أنزل علیک القرآن الذی فیه دلائل الحقّ و الحقیقهٔ، و هو یتطابق تماما

مع مـا جـاء به الأنبیاء و الکتب السابقـة (التوراة و الإنجیل) التی بشّـرت ۲۸۰] به و قـد أنزلها اللّه تعالی أیضا لهدایـة البشـر: نَزَّلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ مِنْ قَبْلُ هُدیً لِلنَّاسِ ثمّ تضیف الآیة وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ

و بعـد إتمام الحجّـة بنزول الآیات الکریمـة من اللّه تعالی و شـهادة الفطرة و العقل علی صدق دعوة الأنبیاء، فلا سبیل للمخالفین سوی العقوبـة، و لـذلک تقول الآیـة محلّ البحث بعـد ذکر حقّانیّـة الرسول الأکرم و القرآن المجیـد: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ.

و من أجل أن لا یتوهّم أحد أو یشک فی قدرة اللّه تعالی علی تنفیذ تهدیداته تضیف الآیة وَ اللَّهُ عَزِیزٌ ذُو انْتِقامٍ ۲۸۱].

(عزیز) فی اللّغة بمعنی کلّ شـیء صـعب و غیر قابل للنفوذ، و لذلک یقال للأرض الصـعبة العبور (عزاز) و کذلک یطلق علی کلّ أمر یصـعب الحصول علیه لقلّته و نـدرته (عزیز) و کـذلک تطلق هذه الکلمة علی الشـخص القویّ و المقتدر الذی یصـعب التغلّب علیه أو یستحیل التغلّب علیه، و کلّما أطلقت کلمة (عزیز) علی اللّه تعالی یراد بها هذا المعنی، أی أنّه لا أحد یقدر علی التغلّب علیه، و أنّ کلّ المخلوقات خاضعة لمشیئته و إرادته.

و فی الجملـة الآنفـة الـذکر و لکی یعرف الکفّـار أنّ هـذا التهدیـد جـادّ تماما تـذکّرهم الآیـة بأنّ اللّه عزیز، أی أنّه قاهر و ما من أحد یستطیع أن یقف بوجه تنفیذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۶

تهدیداته و أنّه فی الوقت الذی یکون فیه غفورا رحیما یکون شدید العقاب بالنسبة لمن لا یستحقّون هذه الرحمة.

کلمـة (الانتقام) تسـتعمل غالبا فی مفهومنا الحالی فی لجوء شـخص لا یسـتطیع أن یتسامح مع الآخرین و یغفر لهم أخطاءهم إلی عمل مقابل قـد یکون عنیفا لا یأخـذ حتّی مصـلحته الخاصّة بنظر الإعتبار، و بدیهیّ أنّ هذه الصـفة مذمومة، إذ أنّ علی الإنسان فی کثیر من الحالات أن یعفو و یغفر بـدلا من الانتقام، و لکنّ (الانتقام) فی اللّغـة لیس بهـذا المعنی بل یعنی إنزال العقاب بالمجرم، و لا شکّ أنّ معاقبة المجرمین العصاة فضلا عن کونها من الأمور الحسنة فإنّه لا یجوز التهاون فیها و إهمالها لأنّ ذلک یجانب العدالة و الحکمة.

هنا لا بدّ من ملاحظة ما یلی:

۱- أصـل (الحقّ) المطابقـة و الموافقـة، لـذلک یقـال لما یطابق الواقع «الحق». کما أنّ وصف اللّه بالحقّ ناشـئ من کون ذاته القدسـیة أعظم واقع غیر قابل للإنکار.

و بعبارة أخری «الحق» هو الموضوع الثابت المکین الذی لا باطل فیه.

و الباء فی «الحق» فی هذه الآیة للمصاحبة، أی یا أیّها النبیّ لقد أنزل علیک اللّه القرآن مصحوبا بدلائل الحقّ.

۲- «التوراة» لفظة عبریة تعنی «الشـریعة و القانون»، و أطلقت علی الکتاب الذی أنزل اللّه علی موسی بن عمران علیه السّلام. و قد تطلق أیضا علی مجموعة کتب العهد القدیم أو أسفاره الخمسة.

إنّ مجموعة کتب العهد القدیم تتألّف من التوراة و عدد من الکتب الأخری.

و التوراة تتألّف من خمسة أقسام، کلّ قسم یسـمّی «سـفرا» و هی: «سـفر التکوین» و «سـفر الخروج» و «سـفر لاوی» و «سـفر الاعداد» و «سـفر التثنیة». هذه الأقسام من العهد القدیم تشـرح تکوین العالم و الإنسان و المخلوقات و بعضا من سـیر الأنبیاء السابقین و موسی بن عمران و بنی إسرائیل و الأحکام.

أمّا الکتب الأخری فهی ما کتبه المؤرّخون بعد موسی علیه السّلام فی شرح أحوال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۷

الأنبیاء و الملوک و الأقوام التی جاءت بعد موسی بن عمران علیه السّلام.

بدیهیّ أنّ هذه الکتب- عدا الأسـفار الخمسة- لیست کتبا سماویة و الیهود أنفسهم لا یدّعون ذلک. و حتّی «زبور» داود الذی یطلقون

علیه اسم «المزامیر» هو شرح مناجاة داود و مواعظه.

أمّا أسفار التوراة الخمسة ففیها دلائل تشیر إلی أنّها لیست من الکتب السماویة، بل هی کتب تاریخیة دوّنت بعد موسی بن عمران علیه السّلام، إذ فیها بیان موت موسی علیه السّلام و مراسیم دفنه، و بعض الحوادث التی وقعت بعده، علی الأخصّ الفصل الأخیر من سفر التثنیة الذی یثبت أنّ هذا الکتاب قد کتب بعد موت موسی علیه السّلام.

یضاف إلی ذلک أنّ فی هذه الکتب الکثیر من الخرافات و هی تنسب أمورا فاضحة للأنبیاء، و بعض الأقوال الصبیانیة، ممّا یؤکّد زیف هذه الکتب. و الشواهد التاریخیة تؤکّد أنّ التوراة الأصلیة قد ضاعت، و أنّ أتباع موسی هم الذین کتبوا هذه الکتب بعده [۲۸۲].

۳- «الإنجیل» کلمة یونانیة بمعنی «البشارة» أو «التعلیم الجدید» و تطلق علی الکتاب الذی نزل علی عیسی بن مریم علیه السّلام. و من الجدیر بالتنویه أنّ القرآن کلّما أورد اسم کتاب عیسی علیه السّلام «الإنجیل» جاء به مفردا و علی أنّه قد نزل من اللّه.

و علیه فإنّ الأناجیل المتداولة بین أیدی المسیحیّین، و حتّی الأشهر منها، و هی الأناجیل الأربعة «لوقا، و مرقس، و متّی، و یوحنا» لیست من الوحی الإلهی، و هذا ما لا ینکره المسیحیّون أنفسهم، إذ یقولون إنّ هذه الأناجیل قد کتبت بأیدی تلامذة السیّد المسیح علیه السّلام بعده بمدّة طویلة. و لکنّهم یزعمون أن أولئک التلامذة قد کتبوها بإلهام من اللّه.

هنا یحسن بنا أن نتعرّف- و لو بإیجاز- علی «العهد الجدید» و الأناجیل و کتّابها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۸

إنّ أهم کتاب دینی عند المسیحیّین و الذی یعتمدونه علی أنّه کتاب سماوی هو المجموعة التی یطلق علیها اسم «العهد الجدید».

«العهد الجدید» الذی یبلغ نحو ثلث «العهد القدیم» یتألّف من ۲۷ کتابا و رسالة تشمل موضوعات عامّة متناثرة و مختلفة، علی النحو التالی:

۱- إنجیل متّی [۲۸۳]: و هو الإنجیل الذی کتبه «متّی» أحد حواریّی المسیح علیه السّلام الاثنی عشر فی سنة ۳۸ میلادیة، و بعض یقول فی سنة ۵۰ أو ۶۰ میلادیة [۲۸۴].

۲- إنجیل مرقس [۲۸۵]: بحسب ما جاء فی کتاب «القاموس المقدّس» صفحة ۷۹۲، لم یکن مرقس من الحواریّین، و لکنّه کتب إنجیله بإشراف «بطرس». قتل مرقس سنة ۶۸ م.

۳- إنجیل لوقا: کان «لوقا» رفیق سفر «بولس» الرسول. کان «بولس» علی عهد المسیح یهودیا متعصّبا، و لکنه اعتنق المسیحیة بعده. یقال إنّه توفی فی سنة ۷۰ م، و حسبما یقول مؤلّف «القاموس المقدّس» ص ۷۷۲: «إنّ تاریخ کتابة إنجیل لوقا یعود إلی حوالی سنة ۶۳ م».

۴- إنجیل یوحنا: «یوحنا» کان من تلامذة المسیح علیه السّلام و من أصحاب «بولس». یقول صاحب القاموس المذکور، اعتمادا علی عدد من المحقّقین: إنّه ألف فی أواخر القرن الأول المیلادی [۲۸۶].

یتّضح من محتویات هذه الأناجیل، التی تشرح عموما حکایة صلب المسیح و ما جری بعد ذلک، أنّ جمیع هذه الأناجیل قد کتبت بعد المسیح بسنوات و لیست کتبا سماویة نزلت علی المسیح علیه السّلام.

۵- أعمال الرسل: «أعمال الحواریّین و دعاة الصدر الأوّل».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۹

۶- رسائل بولس الأربعة عشرة إلی جهات مختلفة.

۷- رسالة یعقوب: «الرسالة العشرون من الرسائل السبع و العشرین فی العهد الجدید».

۸- رسالتا بطرس: «الرسالتا ۲۱ و ۲۲ من العهد الجدید».

۹- رسائل یوحنا: «الرسائل ۲۳ و ۲۴ و ۲۵ من العهد الجدید».

۱۰- رسالة يهودا: «الرسالة ۲۶ من العهد الجديد».

۱۱- مكاشفة يوحنا: «القسم الأخير من العهد الجديد».

استنادا إلى المؤرّخين المسيحيّين و حسبما ورد فی هذه الأناجيل و الكتب و الرسائل فی العهد الجديد، فإنّ أيّا منها ليس كتابا سماويا، بل هی كتب كتبت بعد المسيح عليه السّلام، و نستنتج من ذلک أنّ الإنجيل الأصلی السماوی الذی نزل علی المسيح عليه السّلام قد فقد و ليس له وجود الآن. إنّما تلامذة المسيح أدرجوا بعضا منه فی أناجيلهم و مزجوه- مع الأسف- بالخرافات.

أمّا القول بأنّ علی المسلمين أن لا يشكّوا فی صحّة الأناجيل و التوراة الموجودة- علی اعتبار أنّ القرآن قد صدقّها و شهد لها- فإنّه قول مردود، و قد أجبنا عليه فی المجلّد الأوّل عند تفسير الآية: وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ

۴- بعد ذكر التوراة و الإنجيل، يشار إلی نزول القرآن، و لكنّه سمّی الفرقان، لأنّ لفظة «الفرقان» تستعمل فی التفريق بين الحقّ و الباطل و كلّ ما يميّز الحقّ عن الباطل يقال له «الفرقان». و لذلک يسمّی القرآن حرب بدر «يوم الفرقان»[۲۸۷]، ففی ذلک اليوم انتصر فريق صغير مفتقر لكلّ أنواع المعدّات الحربيّة علی جيش كبير مسلّح و متفوّق تفوّقا كبيرا. و كذلک يطلق علی معجزات موسی عليه السّلام العشر اسم «الفرقان» أيضا[۲۸۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۰

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵ الی ۶]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (۵) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶)

التّفسير

علم اللّه و قدرته المطلقة:

هاتان الآيتان تكمّلان الآيات السابقة التی قرأنا فيها أنّ اللّه تعالی حیّ و قيّوم و هو مدبّر الكون بأجمعه و سيعاقب الكافرين المعاندين (حتّی لو لم يظهروا كفرهم و عنادهم) و من البديهی أنّ هذه الإحاطة و القدرة لتدبير العالم بحاجة إلی علم غير محدود و قدرة مطلقة، و لهذا أشارت الآية الأولی إلی علم اللّه تعالی، و فی الآية الثانية إلی قدرته المطلقة.

فی البداية تقول الآية الشريفة إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ.

فكيف يمكن أن يختفی عن أنظاره شیء من الأشياء فی حين أنّه حاضر و ناظر فی كلّ مكان، فلا يخلو منه مكان، و بما أنّ وجوده غير محدود، فلا يخلو منه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۱

مكان معين، و لهذا فهو أقرب إلينا من كلّ شیء حتّی من أنفسنا، و فی نفس الوقت الذی يتنزّه فيه اللّه تعالی عن المكان و المحل، فإنّه محيط بكل شیء، و هذه الإحاطة و الحضور الإلهی بالنسبة لجميع المخلوقات بمعنی (العلم الحضوری) لا- (العلم الحصولی)[۲۸۹].

ثمّ تبيّن الآية التالية واحدة من علم و قدرة اللّه تعالی الرائعة، بل هی فی الحقيقة إحدی روائع عالم الخلقة و مظهر بارز لعلم اللّه و قدرته المطلقة حيث تقول الآية هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ ثمّ تضيف لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

إنّه لأمر عجيب و محيّر حقّا أن يصوّر اللّه الإنسان و هو فى رحم أمّه صورا جميلة و متنوّعة فى أشكالها و مواهبها و صفاتها و غرائزها.
و هـذه الآيـة تؤكّد أنّ المعبود الحقيقى ليس سوى اللّه القادر الحكيم الذى يستحقّ العبادة، فلما ذا إذن يختارون مخلوقات كالمسيح عليه السّلام و يعبدونها، و لعلّ هذه العبارة إشارة إلى سبب النزول المتقدّم فى بداية السورة من أنّ المسيحيّين أنفسهم يوافقون على أنّ المسيح كان جنينا فى بطن أمّه مريم، ثمّ تولّد منها، إذن فهو مخلوق و ليس بخالق فكيف يكون معبودا؟!

بحوث

١- مراحل تطوّر الجنين من روائع الخلق

إنّ عظمة مفهوم هذه الآية تجلّت اليوم أكثر من ذى قبل نتيجة للتقدّم الكبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٣٩٢

فى علم الأجنّة. فهـذا الجنين يبدأ بخلية، لا شكل لها و لا هيكل و لا أعضاء و لا أجهزة. و لكنّها تتّخذ أشكالا مختلفة كلّ يوم و هى فى الرحم، و كأنّ هناك فريقا من الرّسامين المهرة يحيطون بها و يشتغلون عليها- ليل نهار و بسرعة عجيبة- ليصنعوا من هـذه الذرّة الصغيرة و فى وقت قصير إنسانا سويّا فى الظاهر، و فى جوفه أجهزة دقيقة رقيقة متعقّدة و محيّرة. لو أنّ فيلما صوّر مراحل تطوّر الجنين- و قد صوّر فعلا- و شاهده الإنسان يمرّ من أمام عينيه لأدرك بأجلى صورة عظمة الخلق و قدرة الخالق.
و العجيب فى الأمر أنّ كلّ هذا الرسم يتمّ على الماء الذى يضرب به المثل فى عدم احتفاظه بما يرسم عليه.
من الجدير بالذكر أنّه عند ما يتمّ اللقاح و يخلق الجنين للمرّة الأولى يسرع بالانقسام التصادى على هيئة ثمرة التوت التى تكون حبّاتها متلاصقة، و يطلق عليه اسم «مرولا». و فى غضون هذا التقدّم تخلق «المشيمة» و تتكامل، و تتّصل من جهة قلب الأم بوساطة شريانين و وريد واحد، و من الجهة الأخرى تتّصل بسرّة الجنين الذى يتغذّى على الدم القادم إلى المشيمة.
و بالتدريج و على أثر التغذية و التطور و اتجاه الخلايا نحو الخارج يتجوّف باطن «المولا»، و عندئذ يطلق عليه اسم «البلاستولا»، و لا تلبث هذه حتى يتكاثر عدد خلاياها، مؤلّفة كيسا ذا جدارين، ثمّ يحدث فيه انخفاض يقسم الجنين إلى قسمى الصدر و البطن.
إلى هنا تكون جميع الخلايا متشابهة و لا اختلاف بينها فى الظاهر. و لكن بعد هـذه المرحلة يبدأ الجنين بالتصوّر، و تتشكّل أجزاؤه بأشكال مختلفة بحسب وظيفتها المستقبلية، و تتكون الأنسجة و الأجهزة، و تقوم كلّ مجموعة من الخلايا ببناء أحد أجهزة الجسم و صياغته، كالجهاز العصبى و جهاز الدورة الدموية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٣٩٣

و جهاز الهضم، و غيرها من الأجهزة، حتّى يصبح الجنين بعد هـذه المراحل من التطوّر فى مخبئه الخفى فى رحم أمّه إنسانا كامل الصورة. و سوف ندرج- بمشيئة اللّه- شرحا كاملا لتطوّر الجنين و مراحل تكامله فى تفسير الآية ١٢ من سورة «المؤمنون».
٢- (أرحام) جمع (رحم) يعنى فى الأصل محل نموّ الجنين فى بطن الأمّ، ثمّ أطلق على جميع الأقرباء الذين يشتركون فى أمّ واحدة المتولّدون من أمّ واحدة، و بما أنّ حالة من المحبّة و العطف و الحنان ترتبط بين هؤلاء الأفراد أطلقت هذه المفردة على كلّ عطف و حنان (رحمة)، و يرى البعض أنّ المفهوم من هـذه الكلمة بالعكس، أى أنّ المفهوم الأصلى لها هو رقّة القلب و العطف و المحبّة، و لكن بما أنّ الأقرباء و الأرحام يشتركون فى هذه الصفة فيما بينهم أطلق على المكان الذى تولّدوا منه كلمة (رحم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٣٩٤

الآية [سورة آل‌عمران (٣): آية ٧]

اشارة

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ مِنْهُ آیاتٌ مُحْکَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَهِٔ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما یَذَّکَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (۷)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر «نور الثقلین»[۲۹۰] نقلا عن کتاب «معانی الأخبار» حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام ما مضمونه: أنّ نفرا من الیهود و معهم «حی بن أخطب» و أخوه، جاؤوا إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و احتجّوا بالحروف المقطّعة «الم» و قالوا: بموجب حساب الحروف الأبجدیة، فإنّ الألف فی الحساب الأبجدی تساوی الواحد، و اللام تساوی ۳۰، و المیم تساوی ۴۰، و بهذه فإنّ فترة بقاء أمّتک لا تزید علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۵

إحدی و سبعین سنة! و من أجل أن یلجمهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تساءل و قال ما معناه:

لماذا حسبتم «ألم» وحدها؟ أ لم تروا أنّ فی القرآن «المص» و «الر» و نظائرها من الحروف المقطّعة، فإذا کانت هذه الحروف تدلّ علی مدّة بقاء أمّتی، فلما ذا لا تحسبونها کلّها؟ (مع أنّ القصد من هذه الحروف أمر آخر) و عندئذ نزلت هذه الآیة.

فی تفسیر «فی ظلال القرآن» سبب نزول آخر ینسجم من حیث النتیجة مع سبب النزول المذکور، و هو أنّ جمعا من نصاری نجران جاؤوا إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم متذرّعین بقول القرآن «کلمة اللّه و روحه» بشأن المسیح علیه السّلام فی محاولة منهم لاستغلالها بخصوص مسألة «التثلیث» و «ألوهیّة» المسیح، متجاهلین کلّ الآیات الأخری الصریحة فی عدم وجود شریک أو شبیه للّه إطلاقا، فنزلت الآیة المذکورة تردّ علیهم.

التّفسیر

المحکم و المتشابه فی القرآن:

تقدّم فی الآیات السابقة الحدیث عن نزول القرآن بعنوان أحد الدلائل الواضحة و المعجزات البیّنة لنبوّة الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم، ففی هذه الآیة تذکر أحد مختصّات القرآن و کیفیّة بیان هذا الکتاب السماوی العظیم للمواضیع و المطالب فیقول فی البدایة: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ مِنْهُ آیاتٌ مُحْکَماتٌ

أی آیات صریحة و واضحة و التی تعتبر الأساس و الأصل لهذا الکتاب السماوی هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ ثمّ أنّ هناک آیات أخری غامضة بسبب علوّ مفاهیمها و عمق معارفها أو لجهات اخری وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ

هذه الآیات المتشابهة إنّما ذکرت لاختبار العلماء الحقیقیّین و تمیزهم عن الأشخاص المعاندین اللجوجین الذین یطلبون الفتنة، فلذلک تضیف الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۶

فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ فیفسّرون هذه الآیات المتشابه وفقا لأهوائهم کیما یضلّوا الناس و یسبّهوا علیهم فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ ۲۹۱] فَیَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ

ثمّ تضیف الآیة: أنّ هؤلاء أی الراسخون فی العلم بسبب درکهم الصحیح لمعنی المحکمات و المتشابهات یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا أجل وَ ما یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ

بحوث

اشارة

فی هذه الآیة مباحث مهمّة ینبغی بحثها بشکل مستقل کلّ علی حدة:

۱- ما المقصود بالآیات المحکمة و المتشابهة؟

«المحکم» من «الإحکام» و هو المنع. و لهذا یقال للمواضیع الثابتة القویّة «محکمة» أی أنّها تمنع عن نفسها عوامل الزوال. کما أنّ کلّ قول واضح و صریح لا یعتوره أیّ احتمال للخلاف یقال له «قول محکم».

و علیه فإنّ الآیات المحکمات هی الآیات ذات المفاهیم الواضحة التی لا مجال للجدل و الخلاف بشأنها، کآیة: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ[۲۹۲] و لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ[۲۹۳] و اللَّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ[۲۹۴] و لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ ۲۹۵] و آلاف أخری

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۷

مثلها ممّا تتعلّق بالعقائد و الأحکام و المواعظ و التواریخ، فهی کلّها من «المحکمات».

هذه الآیات المحکمات تسمّی فی القرآن «أمّ الکتاب» أی هی الأصل و المرجع و المفسّرة و الموضّحة للآیات الأخری.

و «المتشابه» هو ما تتشابه أجزاؤه المختلفة. و لذلک فالجمل و الکلمات التی تکون معانیها معقّدة و تنطوی علی احتمالات مختلفة، توصف بأنّها «متشابهة».

و هذا هو المقصود من وصف بعض آیات القرآن بأنها «متشابهات»، أی الآیات التی تبدو معانیها لأوّل وهلة معقّدة و ذات احتمالات متعدّدة، و لکنّها تتّضح معانیها بعرضها علی الآیات المحکمات.

و علی الرغم من أنّ المفسّرین أوردوا احتمالات متعدّدة فی تفسیر «المحکم» و «المتشابه»[۲۹۶]، و لکن الذی قلناه یناسب المعنی الأصلی لهذین المصطلحین کما یتّفق مع سبب نزول الآیة، و کذلک مع الأحادیث الواردة فی تفسیر هذه الآیة، و مع الآیة نفسها، لأنّنا نقرأ بعد ذلک أن المغرضین یتّخذون من الآیات المتشابهات وسیلة لإثارة الفتنة. و هم بالطبع یبحثون لهذا الغرض عن الآیات التی لها تفسیرات متعدّدة. و هذا نفسه یدلّ علی أن معنی «المتشابه» هو ما قلناه.

و یمکن إدراج بعض الآیات التی تخصّ صفات اللّه و المعاد کنماذج من الآیات المتشابهات، مثل یَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ ۲۹۷] بشأن قدرة اللّه، وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ ۲۹۸] بشأن علم اللّه، و وَ نَضَعُ الْمَوازِینَ الْقِسْطَ لِیَوْمِ الْقِیامَةِ[۲۹۹] بشأن طریقة حساب الأعمال.

بدیهیّ أنّ اللّه لا ید له «بمعنی العضو» و لا أذن «بالمعنی نفسه» و لا میزان مثل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۸

موازيننا يزن بها الأعمال. هذه كنايات عن مفاهيم كلّية لقدرة اللّه و علمه و ميزانه.

و لا بـدّ من الإشـارة إلى أنّ كلمتى «المحكم و المتشـابه» قـد وردتا فى القرآن بمعنى آخر. ففى أوّل سورة هود نقرأ: كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ فهنا أشـير إلى أنّ جميع آيات القرآن محكمات، و القصـد هو قوّة الترابط و التماسك بينها. و فى الآيـة ۲۳ من سورة الزمر نقرأ: كِتاباً مُتَشابِهاً أى الكتاب الذى كلّ آياته متشابهات، و هى هنا بمعنى التماثل من حيث صحّتها و حقيقتها.

يتّضح ممّا قلنا بشأن المحكم و المتشابه أنّ الإنسان الواقعىّ الباحث عن الحقيقة لا بدّ له لفهم كلام اللّه أن يضع الآيات جنبا إلى جنب ثمّ يسـتخرج منها الحقيقة. فإذا لاحظ فى ظاهر بعض الآيات إبهاما و تعقيدا، فعليه أن يرجع إلى آيات أخر لرفع ذلك الإبهام و التعقيد ليصل إلى كنهها.

تعتبر الآيـات المحكمـات فى الواقع أشـبه بالشـارع الرئيسـى، و المتشابهات أشـبه بالشوارع الفرعيـة، لا شكّ أنّ المرء إذا تاه فى شارع فرعى سعى للوصول إلى الشارع الرئيسى ليتبيّن طريقه الصحيح فيسلكه.

إنّ التعبير عن المحكمات بأم الكتاب يؤيّـد هذه الحقيقة أيضا، إذ أنّ لفظة «أم» فى اللغة تعنى الأصل و الأساس، و إطلاق الكلمة على «الأم» أى الوالـدة لأنّها أصل الأسـرة و العائلـة و الملجأ الـذى يفزع إليه أبناؤها لحلّ مشاكلهم. و على هـذا فالمحكمات هى الأساس و الجذر و الأم بالنسبة للآيات الأخرى.

۲- لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟

إنّ القرآن جـاء نورا لهدايـة عموم الناس، فما سـبب احتوائه على آيات متشابهات فيها إبهام و تعقيـد بحيث يسـتغلّها المفسـدون لاثارة الفتنة؟ هذا موضوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۹

مهمّ جدير بالبحث و التدقيق. و على العموم يمكن أن تكون النقاط التالية هى السرّ فى وجود المتشابهات فى القرآن:

أوّلا: إنّ الألفـاظ و الكلمـات التى يسـتعملها الإنسـان للحوار هى لرفع حاجته اليوميـة فى التفاهم. و لكن ما إن نخرج عن نطاق حياتنا الماديّـة و حـدودها، كـأن نتحـدّث عن الخـالق الـذى لا يحـدّه أىّ لون من الحـدود، نجـد بوضوح أنّ ألفاظنا تلك لا تسـتوعب هـذه المعانى، فنضطر إلى استخدام ألفاظ أخرى و إن تكن قاصرة لا تفى بالغرض تماما من مختلف الجهات. و هذا القصور فى الألفاظ هو منشـأ الكـثير مـن متشابهـات القرآن. إنّ آيـات مثـل يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۳۰۰] أو الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ۳۰۱] أو إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ[۳۰۲] الـتى سوف يـأتى تفسيرها فى موضـعه، تعتبر من هـذه النمـاذج. و هنـاك أيضـا تعبيرات مثـل «سـميع» و «بصـير»، و لكن بالرجوع إلى الآيات المحكمات يمكن تفسيرها بوضوح.

ثانيا: كثير من الحقائق تختصّ بالعالم الآخر، أو بعالم ما وراء الطبيعة ممّا هو بعيد عن أفق تفكيرنا، و إنّنا- بحكم وجودنا ضـمن حدود سجن الزمـان و المكـان، غير قـادرين على إدراك كنهها العميق. قصور أفق تفكيرنا من جهـة، و سـمّو تلك المعانى من جهـة أخرى، سبب آخر من أسباب التشابه فى بعض الآيات، كالتى تتعلّق بيوم القيامة مثلا.

و هذا أشـبه بالذى يريد أن يشـرح لجنين فى بطن أمّه مسائل هذا العالم الذى لم يره بعد، فهو إذا لم يقل شيئا يكون مقصّرا، و إذا قال كان لا بدّ له أن يتحدّث بأسلوب يتناسب مع إدراكه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۰

ثالثا: من أسـرار وجود المتشابهات فى القرآن إثارة الحركة فى الأفكار و العقول و إيجاد نهضة فكرية بين الناس. و هذا أشبه بالمسائل الفكرية المعقّدة التى يعالجها العلماء لتقوية أفكارهم و لتعميق دقّتهم فى المسائل.

رابعا: النقطهٔ الأخرى التی ترد بشأن وجود المتشابهات فی القرآن، و تؤیّدها أخبار أهل البیت علیهم السّلام، هی أنّ وجود هذه الآیات فی القرآن یصعّد حاجهٔ الناس إلى القادهٔ الإلهیّین و النبیّ صلى اللّه علیه و آله و سلّم و الأوصیاء، فتکون سببا یدعو الناس إلى البحث عن هؤلاء و اعتراف بقیادتهم عملیا و الاستفادهٔ من علومهم الاخرى أیضا. و هذا أشبه ببعض الکتب المدرسیهٔ التی أنیط فیها شرح بعض المواضیع إلى المدرّس نفسه، لکی لا تنقطع علاقهٔ التلامیذ بأستاذهم، و لکی یستمرّوا- بسبب حاجتهم هذه- فی التزوّد منه على مختلف الأصعدهٔ.

و هذا أیضا مصداق وصیّهٔ رسول اللّه صلى اللّه علیه و آله و سلّم حین

قال: «إنّی تارک فیکم الثقلین کتاب اللّه و أهل بیتی و أنهما لن یفترقا حتى یردا علیّ الحوض»

[۳۰۳].

۳- ما التأویل؟

الکلام کثیر بشأن معنى «التأویل»، و الأقرب إلى الحقیقهٔ هو أنّ «التأویل» من «الأول» أی الرجوع إلى الأصل، و هو إیصال العمل أو الکلام إلى الهدف النهائی المراد منه. فإذا أقدم أحد على عمل و لم یکن هدفه من هذا العلم واضحا، ثمّ یتوضّح ذلک فی النهایهٔ، فهذا هو التأویل، کالذی نقرأه فی حکایهٔ موسى علیه السّلام مع الحکیم الذی کان یقوم بأعمال غامضهٔ الأهداف «مثل تحطیم السفینهٔ» فکان هذا مدعاهٔ لانزعاج موسى، و لکن عند ما شرح له الحکیم فی نهایهٔ المطاف و عند

الفراق أهداف تلک الأعمال، و أنّه قصد إلى تخلیص السفینهٔ من الوقوع فی ید سلطان غاصب و ظالم، ختم شرحه بقوله: ذلِکَ تَأْوِیلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَیْهِ صَبْراً[۳۰۴].

کذلک إذا رأى الإنسان رؤیا لا تتّضح له نتیجتها، ثمّ تبیّن له تعبیرها بمراجعهٔ شخص أو مشاهدهٔ واقعهٔ، فذلک هو تأویل الرؤیا، مثل یوسف علیه السّلام الذی قال حین تحقّقت رؤیاه الشهیرهٔ عملیا، أو بعبارهٔ اخرى حین وصلت مرحلتها النهائیهٔ هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ مِنْ قَبْلُ [۳۰۵].

و هکذا إذا صدر عن الإنسان کلام فیه مفاهیم و أسرار خاصّهٔ تشکّل الهدف النهائی لذلک الکلام، فذلک هو التأویل.

هذا هو معنى التأویل فی الآیهٔ. أی أنّ فی القرآن آیات ذات أسرار و معان عمیقهٔ غیر أنّ ذوی الأفکار المنحرفهٔ و المقاصد الفاسدهٔ یضعون من عندهم تفسیرا لا أساس له من الصحّهٔ و یستندون إلیه لخداع أنفسهم أو غیرهم.

و علیه، فإنّ المقصود من ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ هو أنّ هؤلاء یریدون أن یؤولوا الآیات بصورهٔ تخالف حقیقتها، أی ابتغاء تأویله على خلاف الحقّ.

و کما قرأنا فی سبب نزول هذه الآیهٔ أنّ بعض الیهود أوّلوا تلک الحروف المقطّعهٔ فی القرآن تأویلا لا یتّفق مع الحقیقهٔ، فقالوا إنّها تحدّد عمر الإسلام. و هکذا المسیحیّون أساؤوا تأویل «روح منه» لیثبتوا ألوهیّهٔ المسیح علیه السّلام. هذه کلّها من قبیل «التأویل بخلاف الحقّ»، و إرجاعها إلى مقاصد بعیدهٔ عن الحقیقهٔ.

۴- من هم الراسخون فی العلم؟

هذا التعبیر القرآنی ورد فی موضعین. هذا أحدهما هنا و الآخر فی سورهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۲

النساء، إذ یقول: لکِنِ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ یُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ ۳۰۶].

و بحسب المعنی اللغوی لهذه الکلمهٔ، فإنّها تعنی الذین لهم قدم ثابتهٔ فی العلم و المعرفهٔ.

طبیعی أن یکون معنی الکلمهٔ واسعا یضمّ جمیع العلماء و المفکّرین، إلّا أن بین هؤلاء أفرادا متمیّزین لهم مکانتهم الخاصّهٔ، و یأتون علی رأس مصادیق الراسخین فی العلم و تنصرف إلیهم الأذهان عند استعمال هذه الکلمهٔ قبل غیرهم.

و هذا هو الذی تقول به بعض الأحادیث التی تفسّر الراسخین فی العلم بأنّهم النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّهٔ الهدی علیهم السّلام، فقد سبق أن قلنا إنّ لکلمات القرآن و مفاهیمه معانی واسعهٔ، و من مصادیقها البارزهٔ الشخصیّات النموذجیهٔ السامیهٔ التی تذکر أحیانا وحدها فی تفسیر تلک الکلمات و المفاهیم.

عن برید بن معاویهٔ قال: قلت لأبی جعفر «الباقر» علیه السّلام: قول اللّه وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ قال: «یعنی تأویل القرآن کلّه، إلّا اللّه و الراسخون فی العلم، فرسول اللّه أفضل الراسخین، و قد علّمه جمیع ما أنزل علیه من التنزیل و التأویل، و ما کان اللّه منزلا علیه شیئا لم یعلّمه تأویله و أوصیاؤه من بعده یعلمونه کلّه»[۳۰۷].

و هناک أحادیث کثیرهٔ أخری فی أصول الکافی ۳۰۸] و سائر کتب الحدیث بهذا الشأن، جمعها صاحبا تفسیر «نور الثقلین» و تفسیر «البرهان» فی ذیل هذه الآیهٔ.

و کما قلنا فإنّ تفسیر الراسخین بالعلم بأنّهم النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّهٔ الهدی علیهم السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۳

لا یتعارض مع المفهوم الواسع الذی یشمله هذا التعبیر، فقد نقل عن ابن عبّاس أنّه قال «أنا أیضا من الراسخین فی العلم» إلّا أنّ کلّ امرئ یتعرّف علی أسرار تأویل آیات القرآن بقدر سعته العلمیهٔ، فالذین یصدرون فی علمهم عن علم اللّه اللامتناهی لا شکّ أعلم بأسرار تأویل القرآن، و الآخرون یعلمون جزءا من تلک الأسرار.

۵- الراسخون فی العلم یعرفون معنی المتشابهات

ثمّهٔ نقاش هامّ یدور بین المفسّرین و العلماء حول ما إذا کانت عبارهٔ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ بدایهٔ جملهٔ مستقلّهٔ، أم أنّها معطوفهٔ علی إِلَّا اللَّهُ و بعبارهٔ أخری: هل أنّ معنی الآیهٔ و أنّه ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ أم أنّه ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا؟

إنّ لکلّ فریق من مؤیّدی هذین الاتجاهین أدلّته و براهینه و شواهده. أمّا القرائن الموجودهٔ فی الآیهٔ و الأحادیث المشهورهٔ المنسجمهٔ معها فتقول إنّ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ معطوفهٔ علی «اللّه»، و ذلک:

أوّلا: یستبعد کثیرا أن تکون فی القرآن آیات لا یعلم أسرارها إلّا اللّه وحده.

ألم تنزل هذه الآیات لهدایهٔ البشر و تربیتهم؟ فکیف یمکن أن لا یعلم بمعانیها و تأویلها حتّی النبیّ الذی نزلت علیه؟ هذا أشبه بمن یؤلّف کتابا لا یفهم معانی بعض أجزائه سواه! و ثانیا: کما یقول المرحوم الطبرسی فی «مجمع البیان»: لم یسبق أن رأینا بین علماء الإسلام و المفسّرین من یمتنع عن تفسیر آیهٔ بحجّهٔ أنّها من الآیات التی لا یعرف معناها سوی اللّه، بل کانوا جمیعا یجدّون و یجتهدون لکشف أسرار القرآن و معانیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۴

و ثالثا: إذا کان القصد هو أنّ الراسخین فی العلم یسلّمون لما لا یعرفونه، لکان الأولی أن یقال: و الراسخون فی الإیمان یقولون آمنّا

به. لأنّ الرسوخ فی العلم یتناسب مع العلم بتأویل القرآن، و لا یتناسب مع عدم العلم به و التسلیم له.

و رابعا: أنّ الأحادیث الکثیرة التی تفسّر هذه الآیة تؤکّد کلّها أنّ الراسخین فی العلم یعلمون تأویله، و علیه فیجب أن تکون معطوفة علی «اللّه». الشیء الوحید الباقی هو إنّ خطبة «الأشباح» للإمام علی علیه السّلام فی نهج البلاغة یستفاد منها أنّ الراسخین فی العلم لا یعلمون تأویل الآیات و یعترفون بعجزهم.

«و أعلم أنّ الراسخین فی العلم هم الذین أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغیوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسیره من الغیب الحجوب»

[۳۰۹].

و لکن فضلا عن کون هذه العبارة تناقض بعض الأحادیث المنقولة عنه علیه السّلام التی قال فیها: إنّ الراسخین فی العلم معطوفة علی «اللّه» و إنّهم عالمون بتأویل القرآن، فإنّها لا تنسجم أیضا مع الأدلّة التی سبق ذکرها[۳۱۰]. و علیه فیلزم تفسیر هذه الجملة من خطبه «الأشباح» بما یتّفق و الأسانید الأخری التی بین أیدینا.

۶- نتیجة الکلام فی تفسیر الآیة

من کلّ ما مرّ قوله تفسیرا لهذه الآیة نستنتج أنّ آیات القرآن قسمان: قسم معانیها واضحة جدّا بحیث لا یمکن إنکارها و لا إساءة تأویلها و تفسیرها، و هذه هی الآیات «المحکمات». و قسم آخر مواضیعها رفیعة المستوی، أو أنّها تدور حول عوالم بعیدة عن متناول أیدینا، کعلم الغیب، و عالم یوم القیامة، و صفات اللّه، بحیث إنّ معرفة معانیها النهائیة و إدراک کنه أسرارها یستلزم مستوی عالیا من

العلم، و هذه هی الآیات «المتشابهات».

المنحرفون و الشواذ من الناس یسعون لاستخدام إبهام هذه الآیات لتفسیرها بحسب أهوائهم و بخلاف الحقّ، لکی یثیروا الفتنة بین الناس و یضلّوهم عن الطریق المستقیم. بید أنّ اللّه و الراسخین فی العلم یعرفون أسرار هذه الآیات و یشرحونها للناس، فهم بعلمهم الواسع یفهمون المتشابهات کما یفهمون المحکمات، و لذلک فإنّهم یسلّمون بها قائلین إنّها جمیعا من عند اللّه: یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا.

و علی هذا یکون الرسوخ فی العلم سببا فی أن یزداد الإنسان معرفة بأسرار القرآن. و لا شکّ أنّ الذین رسخوا فی العلم أکثر من غیرهم- کالنبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة الهدی- یعلمون جمیع أسرار القرآن، بینما الآخرون یعلمون منها کلّ بقدر سعة علمه. و هذه الحقیقة هی التی تدفع الناس، و حتّی العلماء منهم، للبحث عن المعلّمین الإلهیّین لیتعلّموا منهم أسرار القرآن.

۷- وَ ما یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ

تشیر هذه الجملة فی ختام الآیة إلی أنّ هذه الحقائق یعرفها المفکّرون وحدهم، فهم الذین یدرکون لماذا ینبغی أن یکون فی القرآن «محکمات» و «متشابهات»، و هم الذین یعلمون أنّه یجب وضع المتشابهات إلی جانب المحکمات لکشفها. لذلک فقد نقل عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أنه قال: «من ردّ متشابه القرآن إلی محکمه هدی إلی صراط مستقیم»

[۳۱۱]

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۸ الی ۹]

اشارة

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَیْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَةً إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (۸) رَبَّنا إِنَّکَ جامِعُ النَّاسِ لِیَوْمٍ لا رَیْبَ فِیهِ إِنَّ اللَّهَ لا یُخْلِفُ الْمِیعادَ (۹)

التّفسیر

النجاة من الزیغ:

بالنظر لاحتمال أن تکون الآیات المتشابهات و أسرارها موضع زلل الناس، فإنّ الراسخین فی العلم المؤمنین یلجأون إلی ربّهم إضافة إلی استعمال رأسمالهم العلمی فی إدراک حقیقة الآیات. و هذا ما تبیّنه هاتان الآیتان علی لسان الراسخین فی العلم، و تقولان إنّ الراسخین فی العلم و المفکّرین من ذوی البصیرة لا یفتأون یراقبون أرواحهم و قلوبهم لئلّا ینحرفوا نحو الطرق الملتویة، فیطلبون لذلک العون من اللّه. فالغرور العلمی یخرج بعض العلماء عن مسیرهم إلی متاهات الضلال، لأنّهم یلتفتون إلی عظمة الخلق و الخالق و تفاهة ما عندهم من علم، فیحرمون من هدایة اللّه. أمّا العلماء المؤمنون فیقولون: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۷

و لیس أشدّ تأثیرا فی السیطرة علی المیول و الأفکار من الاعتقاد بیوم القیامة و المعاد. إنّ الراسخین فی العلم یصحّحون أفکارهم عن طریق الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و یحولون دون التأثّر بالمیول و الأحاسیس المتطرّفة التی تؤدّی إلی الزلل، و نتیجة لذلک یستقیمون علی الصراط المستقیم بأفکار سلیمة و دون عائق.

نعم هؤلاء هم القادرون علی الاستفادة من آیات اللّه کلّ الاستفادة.

فی الحقیقة تشیر الآیة الأولی إلی إیمان هؤلاء الکامل «بالمبدأ»، و تشیر الآیة الثانیة إلی إیمانهم الراسخ «بالمعاد».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۸

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۰ الی ۱۱]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً وَ أُولئِکَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (۱۰) کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَذَّبُوا بِآیاتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ (۱۱)

التّفسیر

بعد بیان مواقف الکفّار و المنافقین و المؤمنین من الآیات «المحکمات» و «المتشابهات» فی الآیات السابقة، تقول هذه الآیة: إذا کان الکفّار المعاندون یحسبون أنّهم بثرواتهم و أبنائهم قادرون علی الدفاع عن أنفسهم فی الآخرة فهم علی خطأ کبیر، فهذه الوسائل قد یکون لها تأثیرها المؤقت فی هذه الدنیا، و لکنّها عند اللّه لن یکون لها أیّ تأثیر، لا فی هذه الدنیا و لا فی الآخرة. لذلک ینبغی ألّا

يغترّ الإنسان بهذه الأمور فتحمله على ارتكاب الإثم، و إلّا فإنّه يصلى نارا سيكون هو حطبها.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۹

وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ[۳۱۲] يفيد هذا التعبير أنّ نار الجحيم مستعرة بوجود المذنبين، و هؤلاء المذنبون هم الذين يديمون أوارها و لهيبها. نعم ثمّة آيات تقول إنّ الحجارة أيضا تكون وقود نار جهنم بالإضافة إلى المذنبين. و لكن- كما قلنا فى تفسير الآية ۲۴ من سورة البقرة فى الجزء الأول- يمكن أن تكون هذه الحجارة هى الأصنام التى كانوا ينحتونها من الحجر. و عليه فإنّ نار جهنّم تستعر بأعمال المذنبين و بمعبوداتهم الباطلة.

ثمّ تشير الآية إلى نموذج من الأمم السالفة التى كانت قد أوتيت الثروة الإنسانية و المادية الكثيرة، و لم تستطيع هذه الثروة أن تكون مانع من هلاكهم.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ

«الدأب» إدامة السير، و العادة المستمرّة دائما على حالة واحدة. فهذه الآية تشبّه حال الكفّار المعاصرين لرسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بما كان آل فرعون قد اعتادوا عليه- و كذلك الأقوام السابقة- من تكذيب آيات اللّه، فأخذهم اللّه بذنبهم و أنزل بهم عقابه الصارم فى هذه الدنيا.

هذا فى الواقع إنذار للكافرين المعاندين على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لكى يعتبروا بمصير الفراعنة و الأقوام السالفة، و يصحّحوا أعمالهم.

صحيح أنّ اللّه «أرحم الراحمين» و لكنه فى المواضع و من أجل تربية عبيده «شديد العقاب» أيضا، و لا ينبغى أن يغترّ العبيد برحمة مولاهم الواسعة أبدا.

يستفاد أيضا من «الدأب» أنّ هذه الاتّجاه الخطأ- أى العناد إزاء الحقيقة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۰

و تكذيب آيات اللّه- أصبح عادة ثابتة فيهم، و لهذا يهدّدهم بعذاب شديد، و ذلك لأنّه ما دام الإثم لم يصبح عادة و نهجا فى الحياة فإنّ الرجوع عنه ميسور و عقابه خفيف، و لكنّه إذا نفذ إلى داخل أعماق الإنسان فالرجوع عنه متعذّر، و العقاب عليه شديد. فخير للكافرين أن ينتهزوا الفرصة قبل فوات الأوان و يرجعوا عن طريق الضلال.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۱

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۲]

اشارة

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۲)

سبب النّزول

بعد حرب بدر و انتصار المسلمين قال فريق من اليهود: إنّ النبىّ الأمىّ الذى بشرنا به موسى، و نجده فى كتابنا بنعته و صفته، و أنّه لا تردّ له راية، ثمّ قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتّى تنظروا إلى واقعة اخرى.

فلمّا كان يوم احد، و نكبّ أصحاب رسول اللّه، شكّوا و قالوا: لا و اللّه ما هو به، فغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا. و قد كان بينهم و بين رسول اللّه عهد إلى مدّة لم تنقض، فنقضوا ذلك العهد قبل أجله، و انطلق كعب بن الأشرف إلى مكّة فى ستين راكبا، فواقفوهم و

اجمعوا أمرهم على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لتكونن كلمتنا واحدة، ثمّ رجعوا إلى المدينة. عندئذ نزلت الآية المذكورة تقول لهم إنّ الحساب قريب و أنكم جميعا ستكونون عمّا قريب من المغلوبين ۳۱۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۲

التّفسير

مع ما تقدّم في سبب النزول يتضح أن الكفّار المغرورين بأموالهم و أولادهم، و عددهم و عدّتهم يتوقعون هزيمة الإسلام، و لكن القرآن الكريم يصرح في هذه الآية بأنهم سيغلبون، و يخاطب النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يخبرهم بذلك و أن عاقبتهم في الدنيا و الآخرة ليست سوى الهزيمة و الذلّ و العذاب الأليم: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ[۳۱۴].

تنبّؤ صريح هناك أخبار غيبية كثيرة في القرآن الكريم تعتبر من أدلة عظيمته و إعجازه.

و الآية أعلاه واحدة من هذه الأخبار الغيبية.

و في هذه الآية يبشّر اللّه نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالانتصار على جميع الأعداء، و ينذر الكافرين بأنّهم فضلا عن اندحارهم في هذه الدنيا، فإنّ لهم في الآخرة شرّ مصير.

إذا لا حظنا سبب نزول الآية، و كونها نزلت بعد فشل المسلمين في أحد، و ظهور ضعفهم الظاهرى، و ازدياد قوّة الأعداء باتّحادهم و تكاتفهم فإنّ هذا التنبّؤ الصريح و على الأخصّ عن المستقبل القريب: سَتُغْلَبُونَ يكون أمرا مثيرا للانتباه. و من هنا يمكن اعتبار هذه الآية من آيات إعجاز القرآن، لوجود هذا التنبّؤ عن المستقبل فيه، في الوقت الذى لا تشير فيه الظواهر إلى احتمال انتصار المسلمين على الكفّار و اليهود.

و لم تمض فترة طويلة حتّى تحقّقت نبوءة الآية و هزم يهود المدينة «بنو قريضة، و بنو النضير»، و في خيبر- أهم معقل من معاقلهم- اندحروا و تلاشت قواهم. كما هزم المشركون في فتح مكّة هزيمة نكراء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۳]

اشارة

قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (۱۳)

سبب النّزول

نزلت هذه الآية بشأن حرب «بدر». يقول المفسّرون إنّ عدد المسلمين يوم بدر كان ۳۱۳ شخصا، منهم ۷۷ من المهاجرين و ۲۳۶ من الأنصار. كان لواء المهاجرين بيد عليّ عليه السّلام، و كان سعد بن عبادة صاحب لواء الأنصار. و كانت عدّتهم لا تتجاوز ۷۰ بعيرا، و فرسين، و ستة دروع، و ثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيرة، في وجه عدوّ يزيد عدده على الألف، مع الكثير من السلاح و مائة فرس. و مع ذلك فقد انتصر المسلمون بتقديم ۲۲ شهيدا «۱۴ من المهاجرين و ۸ من الأنصار»، في مقابل ۷۰ قتيلا و ۷۰ أسيرا من الأعداء، و عادوا إلى المدينة تزيّنهم أكاليل النصر. و هذه الآية تحكى جانبا من معركة بدر[۳۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۴

التّفسیر

معرکة بدر و التأیید الإلهی:

تعقیبا علی الآیات السابقـة التی حـذّر القرآن فیها الکافرین من الاغترار بالمال و الأبناء و الأتباع، جاءت هـذه الآیة شاهدا حیّا علی هذا الأمر، فتدعوهم إلی الاعتبار بما جری فی معرکة بدر التاریخیة.

قَدْ کانَ لَکُمْ آیَةٌ فِی فِئَتَیْنِ الْتَقَتا.

کیف لا تکون لهم عبرة، و هم یرون أنّ جیشا صـغیرا لا یملک شـیئا من العدّة، سوی الإیمان الراسخ، ینتصـر علی جیش یفوقه أضعافا فی العـدد و العـدّة. فلو کـان المـال و العـدد- بغیر إیمـان- قـادرین علی شـیء لظهر مفعولهمـا فی معرکـة بـدر، و لکن النتیجـة کانت معکوسة.

یَرَوْنَهُمْ مِثْلَیْهِمْ رَأْیَ الْعَیْنِ

تقول الآیـة: إنّ الکفّار کانوا یرون جنـد المسـلمین ضـعف عددهم. أی أنّهم إذا کانوا ۳۱۳ شـخصا کـان الکفّار یرونهم أکثر من ۶۰۰ شخص ۳۱۶]. لیزید من خوفهم، و کان هذا أحد أسباب هزیمة الکفّار.

و هـذا- فضـلا عن کونه إمدادا غیبیا من اللّه انتصـر به المسـلمون، لأنّ اللّه یمدّ عباده المجاهدین المؤمنین بمختلف السـبل- کان أمرا طبیعیا من حیث جانبه الظاهری، و ذلک لأنّ الضربات الشدیدة التی أنزلها المسلمون- بقوة إیمانهم و تربیتهم الإسلامیة- علی الأعداء، أثارت فیهم الرعب و الهلع فظنّوا أنّ هناک قوّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۵

أخری التحقت بالمسلمین، و لذلک ظنّوا أنّ المسـلمین یحاربون بضعف قوّتهم الأولی و یسیطرون علی میدان الحرب سیطرة تامّة، مع أنهم قبل الدخول لم یکن یخطر لهم ذلک أبدا، بل کانوا یرون المسلمین أقلّ ممّا کانوا علیه. فی الآیة ۴۴ من سورة الأنفال إشارة إلی ذلک أیضا وَ إِذْ یُرِیکُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَیْتُمْ فِی أَعْیُنِکُمْ قَلِیلًا وَ یُقَلِّلُکُمْ فِی أَعْیُنِهِمْ لِیَقْضِیَ اللَّهُ أَمْراً کانَ مَفْعُولًا.

تـذکّروا یوم لقائکم بهم فی میـدان الحرب، فقـد أظهرناکم فی أعینهم قلّة لکی لا یتجنّبوا حربا سـتؤدّی إلی هزیمتهم- کما أظهرناهم فی أعینکم قلّة لکی لا تضـعف معنویاتکم فی حرب مصیریة-. و ما أن بدأ الحرب حتّی تبدّلت المشاهد، و ظهر المسلمون فی أعین الأعداء بأعداد مضاعفة، فکان هذا واحدا من أسباب هزیمتهم.

و جاء فی بعض الروایات أن أحد المسلمین قال: قبل نشوب القتال فی بدر قلت لرفیق لی: ألّا تظن أن عدد الکفّار سبعون نفرا؟ فقال: إنی احسبهم مائة نفر، و لکن عند ما انتصرنا فی الحرب و أسرنا منهم عددا غفیرا سمعنا أن عددهم ألف نفر[۳۱۷].

وَ اللَّهُ یُؤَیِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ یَشاءُ.

تشیر الآیـة إلی حقیقـة أنّ اللّه ینصـر من یشـاء. لقـد سـبق أن قلنا إنّ مشـیئة اللّه و إرادته لا تکون بغیر حساب، بل هی تکون بموجب حکمته و فی حدود لیاقة الأفراد، أی أنّ اللّه یؤیّد الذین یستحقّون ذلک.

جدیر بالذکر أنّ النصـر الإلهی للمسـلمین فی الحادثة التاریخیة کان ذا جانبین، فقد کان «نصـرا عسکریا» و «نصرا منطقیا». فمن الناحیة العسکریة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۶

انتصر جيش صغير مفتقر إلى المعدّات الحربية على جيش يبلغ أضعافه عددا و إمكانات. و من الناحية المنطقية: فإنّ اللّه كان قد أخبر المسلمين صراحة بهذا النصر قبل بدء الحرب.

إِنَّ فِی ذلِکَ لَعِبْرَةً لِأُولِی الْأَبْصارِ.

فی ختام الآية يؤكّد سبحانه أنّ الذين وهبوا البصيرة بحيث يرون الحقائق كما هی، يعتبرون بهذا الانتصار الذی أحرزه أناس مؤمنون، و يدركون أنّ أساس هذا الانتصار هو الإيمان ... الإيمان وحده ۳۱۸].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۷

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۴]

اشارة

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِکَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (۱۴)

التّفسير

جاذبية المتاع الدنيوی:

تعقيبا على الآيات السابقة التی اعتبرت الإيمان رأس المال الحقيقی للإنسان- لا المال و البنين و الأنصار- تشير هذه الآية إلى حقيقة أنّ الزوجة و الأبناء و الأموال إنّما هی ثروات تنفع فی الحياة المادّية هذه، و لكنّها لا يمكن أن تشكّل هدف الإنسان الأصيل. صحيح أنّه بغير هذه الوسائل لا- يمكن السير فی طريق السعادة و التكامل المعنوی، إلّا أنّ الاستفادة منها فی هذا السبيل شیء و حبّها و عبادتها- بغير أن تكون مجرّد وسيلة يستفاد منها- شیء آخر.

فی هذه الآية بضع نقاط ينبغی الالتفات إليها:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۸

۱- من الذی جعل المادّيات زينة؟

فی تعبير زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ ...[۳۱۹] جاء الفعل مبنيّا للمجهول، أی أنّ الفاعل المجهول قد زيّن للناس حبّ الزوجة و الأولاد و الأموال. فی هذه الحالة يخطر للمرء هذا السؤال: ترى من هو الذی زيّن هذه الأمور للناس؟

بعض المفسّرين يرون أنّ هذه المشتهيات من عمل الشيطان الذی يزيّنها فی أعين الناس، و يستدلّون على ذلك بالآية ۲۴ من سورة النمل: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ و أمثالها. إلّا أنّ هذا الاستدلال لا يبدو صحيحا، لأنّ الكلام فی الآية التی نبحث فيها لا تتكلّم عن «الأعمال»، بل عن الأموال و النساء و الأبناء.

إنّ التفسير الذی يبدو صحيحا هو أنّ اللّه هو الذی زيّن للناس ذلك عن طريق الخلق و الفطرة و الطبيعة الإنسانية.

إنّ اللّه هو الذی جعل حبّ الأبناء و الثروة فی جبلّة الإنسان لكی يختبره و يسير به فی طريق التربية و التكامل، كما يقول القرآن إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[۳۲۰].

ممّا يثير الالتفات فى الآيـة أنّ الزوجة أو المرأة قد وردت أوّلا، و هذا هو ما يقول به علماء النفس اليوم، بأنّ الغريزة الجنسـية من أقوى الغرائز فى الإنسان، كما أنّ التاريخ المعاصر و القديم يؤيّد أنّ كثيرا من الحوادث الاجتماعية ناشئة عن طغيان هذه الغريزة.

و ينبغى القول أيضا إنّ هـذه الآيـة و الآيات المشابهـة لا تـذمّ العلائق المعتدلـة مع المرأة و الأولاد و المال، لأنّ التقـدّم نحو الأهـداف المعنوية غير ممكن بدون الوسائل المادّية، و هى لا تتعارض مع نواميس الخلق الطبيعية. إنّما المذموم هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۹

الإفراط فى هذه العلائق، و بعبارة أخرى: المذموم هو عبادة هذه الأمور.

۲- ما هى «القناطير المقنطرة» و «الخيل المسوّمة»؟

«قناطير» جمع قنطار، و هو الشىء المحكم، ثمّ أطلق على المال الكثير.

و إطلاق «القنطرة» على الجسـر، و «القنطر» على الشـخص الـذكى إنّمـا هو لإحكام البناء أو الفكر. و «المقنطرة» اسم مفعول يـدلّ على الكثرة و المضاعفة، و ذكرهما متتاليين يعنى التوكيد، كقولنا «آلاف مؤلّفة» و نقصد به الكثرة الكاثرة.

هناك من حـدّد وزن القنطار بأنّه يساوى سـبعين ألف دينار ذهبا، و قال بعض إنّه مائة ألف دينار، و قال آخرون إنّه يساوى اثنى عشر ألف درهم، و يقول بعض إنّ القنطار كيس مملوء ذهبا أو فضة.

و

فى رواية عن الإمام الباقر و الإمام الصادق عليهما السّلام أنّ القنطار مقدار من الذهب الذى يملأ جلد بقرة.

إلّا أنّ كلّ هذه تشير إلى المال الوفير.

«الخيل» اسم جمع للفرس، و تطلق على الفرسان أيضا. و المقصود فى الآية هو المعنى الأول طبعا.

و «المسوّمة» بمعنى المعلّمة أى ذات العلامة، فقد تعلّم الخيل لإبراز جمال هيكلها و رشاقتها، أو لمعرفة أنّها مدرّبة و معدّة للركوب فى ميادين القتال.

و عليه، فإنّ الآية تعدّد سـتة من ثروات الحياة و هى: المرأة، و الولد، و المال، و الخيول الأصـيلة، و المواشـى و الإبل، و الزراعة، و هى أركان الحياة المادّية.

۳- ما هو المراد ب مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا؟

«المتاع» هو الانتفاع بالشـىء بعض الوقت. و الحياة الدنيا هى الحياة الواطئة الحقيرة. فيكون معنى الآية: إذا عشق أحد هذه الأشياء الستة و حدها باعتبارها الهدف النهائى للحياة، و لم يستفد منها كسلّم للصعود فى مسيرة حياته، يكون قد اختار لنفسه حياة منحطّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۰

و فى الحقيقـة أنّ تعبير «الحياة الـدنيا» إشارة إلى سـير الحياة التكاملى، إذ أنّ هـذه الحياة الـدنيا تعتبر المرحلـة الأولى فى ذلك السـير. لذلك تشير الآية فى النهاية إلى الحياة السامية التى تنتظر الإنسان فتقول: وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ

۴- كما تقدّم فى تفسير الآية، فقد اشارت الآية إلى النساء من بين النعم المادّية و قدّمتها على الجميع، لأنّها بالقياس الى النعم الاخرى أقوى تأثيرا و اشدّ جاذبية لأهل الدنيا و قد تدعوهم إلى ارتكاب أعظم الجنايات فى هذا السبيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۱

الآيات [سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١۵ الى ١٧]

اشارة

قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (١۵) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (١۶) الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (١٧)

التّفسير

اشارة

هذه الآية توضّح الخطّ البيانی الصاعد لتكامل الحياة الإنسانية الذی أشير إليه فی الآية السابقة. تقول الآية: هل أخبركم بحياة أرفع و أسمى من هذه الحياة المادّية المحدودة فی الدنيا، تلك الحياة فيها كلّ ما فی هذه الحياة من النعم لكنّها صورتها الكاملة الخالية من أیّ نقص و عيب خاصة بالمتقين.

بساتينها، لا كبساتين الدنيا، لا ينقطع الماء عن الجريان بجوار أشجارها:

تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ۴٢٢

و نعمها دائمة أبدية، لا كنعم الدنيا السريعة الزوال: خالِدِينَ فِيها.

نساؤها خلافا لكثير من غوانی هذه الدنيا، ليس فی أجسامهنّ و لا أرواحهنّ نقطة ظلام و خبث: وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ.

كلّ هذا بانتظار المتّقين. و أسمى من ذلك كلّه، النعم المعنوية التی تفوق كلّ تصوّر و هی رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ

نلاحظ أنّ الآية تبدأ بجملة: «أ أنبؤكم» الاستفهامية الموجّهة إلى الفطرة الإنسانية الواعية لكی تكون أنفذ فی السامع و أعمق، ثمّ إنّ الاستفهام ينصّ على «الإنباء» التی تستعمل للأداء بخبر مهمّ جدير بالاستيعاب.

و تخبر الآية المؤمنين أنّهم إذا امتنعوا عن اللذائذ غير المشروعة و الأهواء الطاغية الممزوجة بالمعصية، فإنّهم سيفوزون فی الآخرة بلذائذ مشابهة و لكن بمستوى أرفع و خالية من كلّ نقص و عيب. إلّا أنّ هذا لا يعنی حرمان النفس من لذائذ الحياة الدنيا التی لهم أن يتمتّعوا بها بصورة مشروعة.

هل فی الجنّة لذائذ مادّية أيضا؟

يظنّ بعضهم أنّ اللذائذ المادّية مقتصرة على الحياة الدنيا، و أنّ الحياة الأخرى خالية منها، و أنّ جميع ما جاء فی القرآن عن الجنّات و الفواكه و المياه الجارية و الأزواج الطاهرة إنّما هی كناية عن مقامات و نعم معنوية من باب «كلّم الناس على قدر عقولهم».

و لكنّا ينبغی أن نقول: إنّنا بعد أن قبلنا بالمعاد الجسمانی استنادا إلى الكثير من آيات القرآن الصريحة، فلا بدّ من وجود نعم تناسب الجسم و الروح و بمستوى أرفع و أعلى. و فی هذه الآية إشارة إلى كليهما: ما يناسب المعاد الجسمانی، و ما يناسب المعاد الروحی.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ۴٢٣

فى الواقع، إنّ الـذين يعتبرون نعم الآخرة المادّيـة كنايـة عن نعم معنوية، إنّما يؤوّلون ظاهر آيات القرآن دون سـبب، كما أنّهم ينسون المعاد الجسمانى و ما يقتضيه.

و لعلّ جملـة وَ اللَّهُ بَصِـيرٌ بِالْعِبادِ التى جاءت فى آخر الآيـة إشارة إلى هـذه الحقيقـة، أى أنّه يعلم ما يحتاجه الجسم و الروح فى العالم الآخر، و ما هى متطلّبات كلّ منهما و هو يضمن إشباع هذه الحاجات على أحسن وجه.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا ....

فى هذه الآية و الآية التى بعدها نتعرّف على المتّقين الذين كانوا فى الآية السابقة مشـمولين بنعم اللّه العظيمة فى العالم الآخر، فتعددان ستّ صفات من صفاتهم الممتازة.

۱- إنّهم يتوجّهون إلى اللّه بكـلّ جوارحهم، و الإيمـان يضـىء قلوبهم، و لـذلك يحسّون بمسؤوليـة كبيرة فى كلّ أعمالهم، و يخشون عقاب أعمالهم خشية شديدة، فيطلبون مغفرته و النجاة من النار: فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ.

۲- مثـابرون صـابرون ذوو همّـة، و مقـاومون عنـد مـواجهتهم الحـوادث فى مسـيرة إطـاعتهم للّه و تجنّبهم المعاصـى، و عنـد ابتلاـئهم بالشدائد الفردية و الاجتماعية الصَّابِرِينَ

۳- صادقون و مستقيمون، و ما يعتقدون به فى الباطن يعملون به فى الظاهر، و يتجنّبون النفاق و الكذب و الخيانة و التلوّث وَ الصَّادِقِينَ

۴- فى طريق العبودية للّه خاضعون و متواضعون و مواظبون على ذلك وَ الْقانِتِينَ [۳۲۱].

۵- لاـ ينفقون من أموالهم فحسب، بل ينفقون من جميع ما لـديهم من النعم المادّيـة و المعنويـة فى سبيل اللّه، فيعالجون بـذلك أدواء المجتمع وَ الْمُنْفِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۴

۶- فى أواخر الليل و عند السـحر، أى عند ما يسود الهدوء و الصـفاء و حين يغط الغافلون فى نوم عميق و تهدأ ضوضاء العالم المادّى، يقوم ذوو القلوب الحيّـة اليقظـة، و يـذكرون اللّه و يطلبون المغفرة منه و هم ذائبون فى نور اللّه و جلاله، و تلهج كلّ ذرّة من وجودهم بتوحيده سبحانه وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ.

بحوث

۱- فى تفسير هذه الآية،

روى عن الصادق عليه السّلام أنه قال: «من قال فى آخر صلاة الوتر فى السحر «استغفر اللّه و أتوب إليه» سبعين مرّة، و دوام على ذلك سنة كتبه اللّه من المستغفرين بالأسحار»[۳۲۲].

۲- «السحر» فى أصل اللغة هو «التغطية و الإخفاء». و لمّا كانت ساعات الليل الأخيرة تغطّى كلّ شىء بستار خاصّ، فقد سمّيت بالسحر. و «السحر»- بكسر السين- من المادّة نفسها، لأنّ الساحر يقوم بأعمال تخفى أسرارها على الآخرين.

و قد يطلق العرب اسم «السحر»- بوزن البشر- على الرئة لاختفاء ما فيها.

لما ذا يشار إلى السـحر من بين جميع ساعات الليل و النهار، مع أنّ الاسـتغفار و ذكر اللّه مطلوبان فى كلّ وقت؟ السـبب هو ما تتميّز به ساعـات السـحر من هـدوء و سـكون و ابتعـاد عن الأعمـال المادّيـة، و للنشاط الـذى يشعـر به المرء بعـد استراحته و نومه، فيكون أكثر اسـتعدادا للتوجّه إلى اللّه. و هـذا ما يسـهل دركه بالتجربة، حتّى أنّ بعض العلماء يسـتثمرون وقت السـحر لحلّ المسائل العلمية، إذا أنّ سراج الفكر و روح الإنسان أكثر تلألؤا و سـطوعا فى ذلك الوقت من أىّ وقت آخر. و لمّا كانت روح العبادة و الاسـتغفار هى التوجّه و حضور القلب، فإنّ العبادة و الاستغفار فى هذا الوقت أسمى من أىّ وقت آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۵

الآية [سورة آل‌عمران (٣): آية ١٨]

اشارة

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

التّفسير

الجميع يشهد بالوحدانية:

تعقيبا على البحث فى الآيات السابقة حول المؤمنين الحقيقيين، تشير هذه الآية إلى بعض أدلّة التوحيد و معرفة اللّه فتقول بأن اللّه تعالى يشهد بوحدانيته (من خلال إيجاد النظام الكونى العجيب)، كما تشهد الملائكة، و يشهد بعد ذلك العلماء و الذين ينظرون إلى حقائق العالم بنور العلم و المعرفة شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ

بحوث

١- كيف يشهد اللّه على وحدانيّته؟

المقصود من شهادة اللّه هنا هو الشهادة العملية و العقلية، لا الشهادة اللفظية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج٢، ص: ۴٢۶

أى أنّ اللّه بخلقه عالم المخلوقات الذى يسوده نظام موحّد، و تتشابه قوانينه فى كلّ مكان، و تجرى وفق برنامج واحد، لتكوّن «وحدة واحدة» و «نظاما واحدا»، قد أظهر عمليا أنّ الخالق و المعبود فى العالم ليس أكثر من واحد، و أنّ كلّ شىء ينطلق من ينبوع واحد. و عليه فإنّ خلق هذا النظام الواحد شهادة و دليل على وحدانيّته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج٢ ؛ ص۴٢۶

ًا شهادة الملائكة و العلماء، فهى شهادة لفظية، فهم بالتعبير اللفظى الذى يناسبهم يعترفون بهذه الحقيقة. إنّ هذا اللون من التفكيك فى الآيات القرآنية كثير فى الآية إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي ٣٢٣]، لا شكّ أنّ صلاة اللّه على النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم غير صلاة الملائكة عليه، فصلاة اللّه هى إرسال الرحمة، و صلاة الملائكة هى طلب الرحمة.

بديهىّ أنّ لشهادة الملائكة و العلماء جانبها العملى أيضا، ذلك لأنّهم لا يعبدون سواه، و لا يخضعون لمعبود غيره.

٢- ما القيام بالقسط؟

إنّ عبارة قائِماً بِالْقِسْطِ حال من فاعل «شهد» و هو «اللّه». أى أنّ اللّه يشهد بوحدانيّته فى حالة كونه قائما بالعدالة فى عالم الوجود. و هذا فى الحقيقة دليل على شهادته، لأنّ العدالة هى إختيار الطريق الوسط و المستقيم، بمعزل عن كلّ إفراط و تفريط و انحراف. و نعلم

أنّ الطریق الوسط المستقیم لا بدّ أن یکون طریقا واحدا، کما نقرأ فی الآیة ۱۵۳ من سورة الأنعام وَ أَنَّ هذا صِراطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِکُمْ عَنْ سَبِیلِهِ

تقول هذه الآیة إنّ طریق اللّه واحد، بینما طرق المنحرفین و البعیدین عن اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۷

متعدّدة و متناثرة، و ذلک لورود الصراط المستقیم بصیغة المفرد، و سبل المنحرفین بصیغة الجمع.

النتیجة هی أن «العدالة» تصاحب «النظام الواحد»، و النظام الواحد دلیل علی «المبدأ الواحد». و بناء علی ذلک فإنّ العدالة بمعناها الحقیقی فی عالم الخلق دلیل علی وحدانیة الخالق، فتأمّل.

۳- أهمیة العلماء

العلماء فی هذه الآیة وضعوا إلی جانب الملائکة، و هذا بذاته تمییز للعلماء علی غیرهم. کما یستفاد من الآیة أنّ العلماء إنّما امتازوا علی غیرهم لأنّهم بعلمهم توصّلوا إلی معرفة الحقائق، و علی رأسها معرفة وحدانیة اللّه.

من الواضح أنّ الآیة تشمل جمیع العلماء، أمّا قول بعض المفسّرین بأنّ أُولُوا الْعِلْمِ هم الأئمّة الأطهار علیهم السّلام فلأنّ الأئمّة من اظهر مصادیق ذلک.

ینقل المرحوم الطبرسی فی «مجمع البیان» ضمن تفسیر هذه الآیة،

عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری، عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «ساعة من عالم یتّکئ علی فراشه ینظر فی علمه خیر من عبادة العابد سبعین عاما».

یتکرّر تعبیر لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فی نهایة الآیة، و لعلّ التکرار إشارة إلی أنّه ما جاءت فی البدایة شهادة اللّه و الملائکة و العلماء، کذلک علی من یسمع هذه الشهادات أن یردّدها هو أیضا معهم، و یشهد علی وحدانیة المعبود.

و لمّا کان قوله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ تعظیما و إظهارا لوحدانیّته، فقد اختتم بالصفتین «العزیز» و «الحکیم» لأنّ القیام بالقسط یتطلّب القدرة و الحکمة، و أنّ اللّه القادر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۸

علی کلّ شیء، و العلیم بکلّ شیء هو وحده القادر علی إجراء العدالة فی عالم الوجود.

هذه الآیة من الآیات التی کانت موضع اهتمام رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم دائما و کان یردّدها فی مواضع مختلفة.

و روی عن الزبیر بن العوام قال: قلت لأدنونّ هذه العشیة من رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و هی عشیة عرفة، حتّی أسمع ما یقول ...، فسمعته یقول: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الآیة، فما زال یرددها حتّی رفع [۳۲۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۹

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۹]

اشارة

إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِآیاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسابِ (۱۹)

التّفسیر

روح الدین التسلیم للحقّ:

«الـدین» فی الأصـل بمعنی الجزاء و الثـواب، و یطلق علی «الطاعـة» و الانقیـاد للأـوامر، و «الـدین» فی الاصـطلاح: مجموعـة العقائـد و القواعد و الآداب التی یستطیع الإنسان بها بلوغ السعادة فی الدنیا، و أن یخطو فی المسیر الصحیح من حیث التربیة و الأخلاق الفردیة و الجماعیة.

«الإسـلام» یعنی التسلیم، و هو هنا التسلیم للّه. و علی ذلک، فإنّ معنی إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ إنّ الدین الحقیقی عند اللّه هو التسلیم لأوامره و للحقیقة.

فی الواقع لم تکن روح الدین فی کلّ الأزمنة سوی الخضوع و التسلیم للحقیقة.

و إنّما أطلق اسم «الإسلام» علی الدین الذی جاء به الرسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّه أرفع الأدیان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۰

و قد أوضح الإمام علی علیه السّـلام هذا المعنی فی بیان عمیق فقال: «لأنسـبنّ الإسلام نسبة لم ینسبها أحد قبلی: الإسلام هو التسلیم، و التسلیم هو الیقین، و الیقین هو التصدیق، و التصدیق هو الإقرار، و الإقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل»

[۳۲۵].

فالإمام فی کلمته هذه یضع للاسم ستّ مراحل، أولاها التسـلیم أمام الحقیقة، ثمّ یقول إنّ التسـلیم بغیر یقین غیر ممکن (إذ أنّ التسـلیم بغیر یقین یعنی الاستسـلام الأـعمی، لاـ التسـلیم الواعی). ثمّ یقول إنّ الیقین هو التصـدیق (أی أنّ العلم وحـده لا یکفی، بل لا بـدّ من الاعتقاد و التصـدیق القلبیّین) و التصـدیق هو الإقرار (أی لا یکفی أن یکون الإیمان قلبیّا فحسب، بل یجب إظهاره بشـجاعة و قوّة)، ثمّ یقول إنّ الإـقرار هو الأـداء (أی أنّ الإـقرار لا یکون بمجرّد القول باللسان، بل هو التزام بالمسؤولیـة). و أخیرا یقول إنّ الأداء هو العمل (أی إطاعـة أوامر اللّه و تنفیـذ البرامـج الإلهیـة) لأنّ الالتزام و تحمّل المسؤولیة لا یعنیان سوی العمل. أمّا الذین یسـخّرون کلّ قواهم و طاقـاتهم فی عقـد الجلسـات تلو الجلسـات و تقـدیم الاقتراحـات و ما إلی ذلک من الأمور التی لا تتطلّب سوی الکلام فلا هم تحمّلوا التزاما و لا مسئولیة، و لا هم وعوا روح الإسلام حقّا.

هـذا أجلی تفسـیر للإسـلام من جمیع جوانبه، ثمّ إنّ الآیـة تذکر علّة الاختلاف الدینی علی الرغم من الوحدة الحقیقیة للدین الإلهی و تقول:

وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ

فعلی هـذا إن الاختلاف ظهر أوّلا بعد العلم و الاطلاع علی الحقائق. و ثانیا کانت الدوافع لذلک هی الظلم و الطغیان و الحسد. فالیهود اختلفوا فی خلیفة موسی ابن عمران علیه السّلام و اقتتلوا بینهم، و المسیحیون اختلفوا فی أمر التوحید حیث خلطوه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۱

بالشـرک و التثلیث، و قد اختلف کلّ منهما فی أمر الإسـلام و دلائل صدق النبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم الواردة فی کتبهم، فقبل بعضهم و أنکر آخرون.

و الخلاصـة إنّ لکلّ دین سـماوی دلائله الواضـحة التی لا تترک إبهاما أمام الباحث عن الحقیقة. فالنبیّ الأکرم صـلی اللّه علیه و آله و سلّم مثلاـ- بالإضافة إلی أنّ المعجزات و الـدلائل الواضـحة فی نصـوص دینـه تؤکّـد صـدقه- وردت أوصـافه و علامـاته فی الکتب السـماویة السابقـة التی بقی قسم منها فی أیـدی الیهود و النصاری، و لـذلک بشّر علماؤهم بظهوره قبل ظهوره، و لکنّهم بعد أن بعث

رأوا مصالحهم فی خطر، فأنکروا کلّ ذلک، یحدوهم الظلم و الحسد و الطغیان.

وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ

هذا بیان لمصیر أمثال هؤلاء الذین لا یعترفون بآیات اللّه. إنّهم سوف یتلقّون نتائج عملهم هذا، فاللّه سریع فی تدقیق حساباتهم ۳۲۶].

المراد من «آیات اللّه» فی هذه الآیة ما یشمل جمیع آیاته و براهینه و کتبه السماویة، و لعلّها تشمل أیضا الآیات التکوینیة فی عالم الوجود، و ما ذکره بعض المفسرین من أنها تعنی آیات التوراة و الإنجیل خاصة، لا دلیل علیه.

ملاحظة

منشأ الاختلافات الدینیة

ممّا یلفت النظر فی هذه الآیة هو أنّ سبب الاختلافات الدینیة لیس الجهل و عدم المعرفة دائما، بل هو علی الأکثر الظلم و الطغیان و الانحراف عن الحقّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۲

و اتّباع و جهات النظر الخاصّة، فلو تخلّی الناس- و علی الأخصّ العلماء منهم- عن التعصّب، و الحقد، و ضیق النظر، و المصالح الخاصّة، و تجاوز الحدود، و الاعتداء علی الحقوق، و تعمّقوا فی دراسة أحکام اللّه بنظرة واقعیة و بروح من العدالة، فسیرون محجّة الحقّ منیرة و سیستطیعون حلّ الاختلافات بسرعة.

و هذه الآیة فی الواقع ردّ دامغ علی الذین یقولون: «إنّ الدین هو سبب الخلافات إراقة الدماء بین البشر علی امتداد التاریخ».

هؤلاء یخلطون بین «الدین» و «التعصّب الدینی» و الانحرافات الفکریة.

فنحن إذا درسنا تعالیم الأدیان السماویة نجد أنّها جمیعا تسعی لتحقیق هدف واحد، و کلّها جاءت من أجل سعادة الإنسان، و إن کان قد تکاملت تدریجیا علی مرور الزمن.

الأدیان السماویة أشبه فی الواقع بقطرات المطر النازلة من السماء حیث تکمن فیها الحیاة، و لکنّها إذا نزلت علی الأراضی السبخة، کالأرض المالحة، اکتسبت صبغة هذه الأرض. فهذه الاختلافات لیست من قطرات المطر، بل هی من تلک الأراضی. و لکن من حیث مبدأ التکامل، فإنّ اللّه آخر تلک الأدیان یکون أکملها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۳

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۲۰]

اشارة

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (۲۰)

التّفسیر

«المحاجّة» أن یسعی کلّ واحد فی ردّ الآخر عن حجّته و محجّته دفاعا عن عقیدته.

من الطبیعیّ أن یقوم اتباع کلّ دین بالـدفاع عن دینهم، و یرون أنّ الحقّ بجانبهم. لـذلک یخاطب القرآن رسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سلّم قائلا: قد یحاورک أهل الکتاب (الیهود و النصاری ...) فیقولون إنّهم قد أسـلموا بمعنی أنّهم قد استسلموا للحق، و ربّما هم یصرّون علی ذلک، کما فعل مسیحیّو نجران مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

فالآیة لا تطلب من رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یتجنّب محاورتهم و محاججتهم، بل تأمره أن یسلک سبیلا آخر، و ذلک عند ما یبلغ الحوار منتهاه، فعلیه لکی یهدیهم و یقطع الجدل و الخصام أن یقول لهم: إنّنی و أتباعی قد أسلمنا للّه و اتّبعنا الحقّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۴

فَإِنْ حَاجُّوکَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِیَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ

ثمّ یسأل أهل الکتاب و المشرکین إن کانوا هم أیضا قد أسلموا للّه و اتّبعوا الحقّ فعلیهم أن یخضعوا للمنطق وَ قُلْ لِلَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ وَ الْأُمِّیِّینَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا فإذا لم یستسـلموا للحقیقـة المعروضـة أمامهم، فإنّهم لا یکونون قـد أسـلموا للّه. عندئذ لا تمضی فی مجادلتهم، لأنّ الکلام فی هذه الحالة لا تأثیر له، و ما علیک إلّا أن تبلّغ الرسالة لا غیر وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَیْکَ الْبَلاغُ

و من الواضـح أن المراد لیس هو التسـلیم اللسـانی و الادعائی، بل التسـلیم الحقیقی و العملی فی مقابل الحق، فلو أنهم خضـعوا حقیقة للکلام الحق، فلا بدّ أن یؤمنوا بدعوتک القائمة علی المنطق و الدلیل الواضح، و إلّا فإنهم غیر مستسلمین للحق.

و الخلاصـة: إن وظیفتک هی إبلاغ الرسالـة المشـفوعة بالـدلیل و البرهان، فلو کانت لدیهم روحیة البحث عن الحقیقة فسوف یؤمنون حتما، و إلّا فإنک قد أدیت واجبک تجاههم.

و فی الختـام یقول: وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِالْعِبادِ فهو سـبحانه یعلم المـدّعی من الصادق و کـذلک أغراض و دوافع المتحاجّین، و یری أعمالهم الحسنة و القبیحة و یجازی کلّ شخص بعمله.

بحوث

۱- یستفاد من الآیة ضمنیّا لزوم تجنّب مجادلة المعاندین الذین لا یخضعون للمنطق السلیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۵

۲- المقصود بالأمّیین فی هذه الآیة هم المشـرکون، و السـبب فی وصف المشرکین بالأمّیین فی قبال أهل الکتاب- الیهود و النصاری- هو أنّ المشرکین لا یملکون کتابا سماویا حتی یکون حافزا لهم علی تعلّم القراءة و الکتابة.

۳- یتّضح من هذه الآیة بکلّ جلاء أنّ أسـلوب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن أسلوب فرض الفکرة و العقیدة، بل کان أسلوبه السعی إلی توضیح الحقائق أمام الناس، ثمّ یترکهم و شأنهم لکی یتّخذوا قرارهم فی اتّباع الحقّ بأنفسهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۶

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۲۱ الی ۲۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ یَقْتُلُونَ النَّبِیِّینَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَ یَقْتُلُونَ الَّذِینَ یَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِیمٍ (۲۱) أُولئِکَ الَّذِینَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ (۲۲)

التّفسیر

علامات الطغيان:

تعقيبا للآية السابقة التى تضمّنت أنّ اليهود و النصارى و المشركين كانوا يجادلون رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لا يستسلمون للحق، ففى الآية الاولى إشارة إلى بعض علامات هذا الأمر حيث تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ ....

و تشير هذه الآية فى البداية إلى ثلاث ذنوب كبيرة و هى الكفر بآيات اللّه و قتل الأنبياء بغير الحق و قتل الّذين يدعون إلى العدالة و يدافعون عن أهداف الأنبياء، و كلّ واحد من هذه الذنوب يكفى لوحده لجعل الإنسان معاندا و متصلّبا بكفره و عدم تسليمه للحق، بل يسعى لخنق كلّ صوت يدعو إلى الحقّ.

التعبير ب يَكْفُرُونَ و يَقْتُلُونَ جاء بصيغة الفعل المضارع و هو إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۷

أنّ كفرهم و قتلهم الأنبياء و الآمرين بالقسط كان من جملة برنامجهم فى الحياة فيرتكبون هذه الأعمال بصورة دائمة و مستمرّة (لأنّ الفعل المضارع يدلّ على الاستمراريّة).

و بطبيعة الحال إنّ هذه الأعمال كانت تصدر عادة من اليهود حيث نلحظ استمرارهم بهذه الأعمال فى زماننا الحاضر بشكل آخر، و لكنّ هذه لا يمنع من عموميّة مفهوم الآية أيضا.

ثمّ أنّ الآية تشير إلى ثلاثة عقوبات مترتّبة على ارتكاب هذه الذنوب، ففى البداية تشير الآية فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ

ثمّ تقول: أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فلو فرض أنّهم عملوا بعض الأعمال الصالحة فإنّها ستمحى و تزول بسبب الذنوب الكبيرة التى يرتكبونها.

و الثالث أنّ الآية تقول: وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ فلا أحد يحميهم من العقوبات الإلهيّة التى تنتظرهم و لا أحد يشفع لهم فى ذلك اليوم.

و سبق و أن قلنا فى تفسير الآية ۶۱ من سورة البقرة أنّ هذه الآية تشير إلى تاريخ اليهود المضطرب، فهم فضلا عن إنكارهم آيات اللّه تجرّؤا على قتل الأنبياء، كما كانوا يقتلون أتباع الأنبياء من المجاهدين، و لكنّ هذا العمل لا يختصّ بهم وحدهم، بل يصحّ بالنسبة إلى جميع الأقوام التى فعلت و تفعل فعلهم.

بحوث

۱- وضعت الآية الداعين إلى العدالة و الآمرين بالمعروف فى مصافّ الأنبياء. و ترى الكفر بآيات اللّه، و قتل الأنبياء، و قتل هؤلاء، على مستوى واحد، و هذا منتهى اهتمام الإسلام بنشر العدالة فى المجتمع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۸

و يتبيّن من الآية الثانية شدّة العقوبات التى ستنزل بالذين يقتلون أمثال هؤلاء الرجال الصالحين. و قد سبق أن قلنا إنّ «الحبط» لا يشمل جميع الذنوب، بل للذنوب الكبيرة التى تذهب بآثار الأعمال الصالحة[۳۲۷] و أخيرا عدم قبول أيّة شفاعة بحقّهم، كدليل على عظم ذنوبهم.

۲- المقصود من بِغَيْرِ حَقٍ ليس إمكان جواز قتلهم بحق، بل المقصود هو القول بأنّ قتل الأنبياء كان دائما ظلما و بغير حقّ. فعبارة «بغير حقّ» قيد توضيحىّ للتوكيد.

۳- يستفاد من عبارة فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أنّها تشمل الكفّار المعاصرين للنبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا، مع أنّا نعلم أنّ هؤلاء لم يقتلوا أحدا من الأنبياء. و قد أشرنا من قبل إلى السبب و قلنا إذا رضى أحد بفعال قوم و سلوكهم و أفكارهم، فإنّه يكون شريكا

لهم فی أعمـالهم الخیّرة و السـیّئة. و لمّـا کانت هـذه الجماعـة المعاصـرة للنبیّ من الکفّار- و خاصّـة الیهود- تؤیّـد أعمال أسـلافهم و جرائمهم، فهم یشارکونهم فیما ینتظرهم من العقاب أیضا.

۴- «البشارة» هی إخبار الرجل خبرا سارّا یبسط أساریر وجهه. و اسـتعمال هـذه الکلمـة فی الإخبار بالعـذاب فی هـذه الآیة و فی غیرها إنّما هو نوع من التهدیـد و الاسـتهزاء بأفکار المـذنبین. و هـذا أشـبه بما هو متـداول بیننا الیوم، إذ نقول- مسـتهزئین- لمن أساء الفعل: حسنا، سوف نکافؤک علی ذلک.

-۵

ورد فی حدیث عن أبی عبیدة الجراح أنّه قال سألت رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم عن أیّ الناس أشدّ عذابا فی الآخرة؟ فقال: رجل قتل نبیا أو رجلا أمر بالمعروف أو نهی عن منکر ثمّ قرأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۹

وَ یَقْتُلُونَ النَّبِیِّینَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَ یَقْتُلُونَ الَّذِینَ یَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ثمّ قال: یا أبا عبیـدة قتلت بنو إسـرائیل ثلاثـة و أربعین نبیا من أول النهار فی ساعـة واحـدة، فقام مائـة رجل و اثنا عشـر رجلا من عباد بنی إسـرائیل فأمروا من قتلهم بالمعروف و نهوهم عن المنکر فقتلوا جمیعا من آخر النهار فی ذلک الیوم، و هو الذی ذکره اللّه تعالی:

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِیمٍ ۳۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۰

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۲۳ الی ۲۵]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِـیباً مِنَ الْکِتـابِ یُـدْعَوْنَ إِلی کِتـابِ اللَّهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ یَتَوَلَّی فَرِیقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَیَّاماً مَعْدُوداتٍ وَ غَرَّهُمْ فِی دِینِهِمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۲۴) فَکَیْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِیَوْمٍ لا رَیْبَ فِیهِ وَ وُفِّیَتْ کُلُّ نَفْسٍ ما کَسَبَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۲۵)

سبب النّزول

جـاء فی تفسـیر «مجمع البیـان» عن ابن عبّاس أنّه حـدث علی عهـد رسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أن ارتکب یهودی الزنا مع امرأة محصـنة، علی الرغم من أنّ مـا جاء فی التوراة یقضـی بالرجم علی أمثال هؤلاء، فإنّهما لم ینالا عقابا لأنّهما کانا من الأشـراف، و اتّفقا علی الرجوع إلی رسول الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم لیکون هو الحکم، آملین أن ینالا عقابا أخف.

غیر أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أیّد العقاب المعیّن لهما، فاعترض بعض کبار الیهود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۱

علی حکم الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أنکروا أن یکون فی الیهود مثل هذا العقاب.

فقـال رسـول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم «بینی و بینکم التـوراة» فوافقوا، و اسـتدعوا «ابن صوریـا» أحـد علمـائهم، من فـدک إلی المدینـة، و عنـد وصوله عرفه النبیّ صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و سـأله: أ أنت ابن صوریـا؟ قال: نعم. فقال: أ أنت أعلم علماء الیهود؟ قال: هکذا یحسبوننی، فأمر رسول اللّه أن یفتحوا أمامه التوراة حیث ذکر الرجم لیقرأه، و لکنّه لمّا کان مطّلعا علی تفاصیل الحادث قرأ

جانبا من التوراة، و عند ما وصل إلى عبارة الرجم وضع يده عليها و تخطّاها و لم يقرأها و قرأ ما بعدها. فأدرك «عبد اللّه بن سلام»- الذى كان من علماء اليهود ثمّ أسلم- مكر ابن صوريا و قام إليه و رفع يده عن الآية و قرأ ما كان قد أخفاه بيده، قائلا: تقول التوراة: على اليهود، إذا ثبت زنا المحصن بالمحصنة رجما. فأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينفّذ العقاب بحقّهما بموجب شريعتهم. فغضب بعض اليهود، فنزلت هذه الآية بحقّهم ۳۲۹].

التّفسير

اشارة

هذه الآيات تصرّح ببعض تحريفات أهل الكتاب الذين كانوا يتوسّلون بالتبريرات و الأسباب الواهية لتفادى إجراء حدود اللّه، مع أنّ كتابهم كان صريحا فى بيان حكم اللّه بغير إبهام، و قد دعوا للخضوع للحكم الموجود فى كتابهم أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

و لكن عصيانهم كان ظاهرا و مصحوبا بالإعراض و الطغيان و اتّخاذ موقف المعارض لأحكام اللّه: ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۲

يمكن الاستنتاج من أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ أنّ ما كان بين أيدى اليهود و النصارى من التوراة و الإنجيل لم يكن كاملا، بل كان قسم منهما بين أيديهم، بينما كان القسم الأعظم من هذين الكتابين السماويّين قد ضاع أو حرّف.

هذه الآية تؤيّدها آيات أخرى فى القرآن، كما أنّ هناك شواهد و دلائل تاريخية تؤكّد ما ذهبنا إليه.

و فى الآية الثانية شرح سبب عصيانهم و تمرّدهم، و هو أنّهم كانوا يحملون فكرة خاطئة عن كونهم من عنصر ممتاز، و هم اليوم أيضا يحملون هذه الفكرة الباطلة الواضحة فى كتاباتهم الدالّة على الاستعلاء العنصرى.

كانوا يظنّون أنّ لهم علاقة خاصّة باللّه سبحانه، حتّى أنّهم سمّوا أنفسهم «أبناء اللّه» كما ينقل القرآن ذلك على لسان اليهود و النصارى فى الآية ۱۸ من سورة المائدة قولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ و بناء على ذلك كانوا يرون لأنفسهم حصانة تجاه العقوبات الربّانية، و كانوا ينسبون ذلك إلى اللّه نفسه. لذلك كانوا يعتقدون أنّهم لن يعاقبوا على ذنوبهم يوم القيامة إلّا لأيّام معدودات: قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ

و لعلّ القصد من «الأيام المعدودات» هى الأربعون يوما التى عبدوا فيها العجل فى غياب موسى عليه السّلام، و كان هذا ذنبا لم يكونوا هم أنفسهم قادرين على إنكاره.

أو لعلّها أيّام قليلة من أعمارهم ارتكبوا فيها ذنوبا كبيرة غير قابلة للإنكار، و لم يستطيعوا حتّى على إخفائها.

هذه الامتيازات الكاذبة المصطنعة، التى أسبغوها على أنفسهم و نسبوها إلى اللّه، صارت شيئا فشيئا جزءا من معتقداتهم بحيث إنّهم اغترّوا بها و راحوا يخالفون أحكام اللّه و يخرقون قوانينه مجترئين عليها جرأة لا مزيد عليها وَ غَرَّهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۳

فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

و تدحض الآية الثالثة كلّ هذه الخيالات الباطلة و تقول: لا شكّ أنّ هؤلاء سوف يلاقون يوما يجتمع فيه البشر أمام محكمة العدل الإلهى فيتسلّم كلّ فرد قائمة أعماله، و يحصدون ناتج ما زرعوه، و مهما يكن عقابهم فهم لا يظلمون لأنّ ذلك هو حاصل أعمالهم فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

يتّضح من ما كَسَبَتْ أنّ عقاب المرء و ثوابه يوم القيامة و فوزه و خذلانه فى العالم الآخر إنّما يرتبط بأعماله هو، و لا يؤثّر فيه شىء آخر. هذه حقيقة أشير إليها فى كثير من الآيات الكريمة.

سؤالان

١- أ يمكن للإنسان أن يختلق كذبا أو افتراء و ينسبه إلى اللّه، ثمّ يتأثّر به هو و يعتوره الغرور إلى تلك الدرجة التى أشار إيها القرآن فى الآيات السابقة بالنسبة لليهود؟

ليس من العسير الردّ على هذا السؤال، و ذلك لأنّ قضية خداع النفس من القضايا التى يعترف بها علم النفس المعاصر. إنّ العقل الإنسانى يسعى أحيانا إلى استغفال الضمير بأنّ يغيّر وجه الحقيقة فى عين ضميره. كثيرا ما نشاهد أناسا ملوّثين بالذنوب الكبيرة، كالقتل و السرقة و أمثالها، على الرغم من إدراكهم تماما قبح تلك الأعمال يسعون لإظهار ضحاياهم بأنّهم كانوا يستحقّون ما أصابهم لكى يسبغوا هدوءا كاذبا على ضمائرهم، و كثيرا ما نرى المدمنين على المخدّرات يبرّرون فعالهم بأنّهم يستهدفون الفرار من مصائب الدنيا و مشاكلها.

ثمّ إنّ هذه الأكاذيب و الافتراءات عن تفوّقهم العنصرى التى حاكتها الأجيال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۴

السابقة من أهل الكتاب وصلت بالتدريج إلى الأجيال التالية التى لم تكن تعرف الكثير عن هذا الموضوع- و لم تعن بالبحث عن الحقيقة- بصورة عقائد مسلّم بها.

٢- يمكن أن يقال إنّ الاعتقاد «بالعذاب لأيام معدودات» منتشر بيننا نحن المسلمين أيضا، لأنّنا نعتقد أنّ المسلمين لا يخلّدون فى العذاب الإلهى، إذ أنّ إيمانهم سوف ينجيهم أخيرا من العذاب.

و لكن ينبغى التوكيد هنا أنّنا لا يمكن أن نعتقد بأنّ المسلم المذنب و الملوّث بأنواع الآثام يعذّب بضعة أيّام فقط، بل أنّنا نعتقد أنّ عذاب هؤلاء يطول لسنوات و سنوات لا يعرف مداها إلّا اللّه، إلّا أنّ عذابهم لا يكون أبديا خالدا. و إذا وجد حقّا بين المسلمين من يحسبون أنّهم بالاحتماء بالإسلام و الإيمان و النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة الأطهار يجوز لهم أن يرتكبوا ما يشاءون من الذنوب، ثمّ لا يصيبهم من العقاب سوى بضعة أيّام من العذاب، فإنّهم على خطأ كبير و يجهلون تعاليم الإسلام و روح تشريعاته.

ثمّ إنّنا لا نعترف بأىّ امتياز خاصّ للمسلمين، بل نعتقد أنّ كلّ أمّة اتّبعت نبيّها فى زمانها ثمّ أذنبت مشمولة بهذا القانون أيضا، بغضّ النظر عن عنصرها. أمّا اليهود فيخصّون أنفسهم بهذا الامتياز دون غيرهم بزعم تفوّقهم العنصرى. و قد ردّ عليهم القرآن زعمهم الكاذب هذا فى الآية ١٨ من سورة المائدة: بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۵

الآيتان [سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٢۶ الى ٢٧]

اشارة

قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢۶) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢٧)

سبب النّزول

یذکر المفسّر المعروف «الطبرسی» فی «مجمع البیان» سببین لنزول هاتین الآیتین یتناولان حقیقة واحدة.

۱- عند ما فتحت مکّة، بشّر رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم المسلمین بأنّ دولة الفرس و دولة الروم سرعان ما ستنضویان تحت لواء الإسلام. غیر أنّ المنافقین الذین لم تکن قلوبهم قد استنارت بنور الإیمان و لم یدرکوا روح الإسلام، اعتبروا ذلک مبالغة، و قالوا بدهشة: لم یقنع محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلم بالمدینة و مکّة، و هو یطمع الآن بفتح فارس و الروم، فنزلت الآیة المذکورة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۶

۲- کان رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمون مشغولون بحفر الخندق فی أطراف المدینة، و انتظم المسلمون فی جماعات یحفرون بسرعة و جدّ لکی ینجزوا هذا الحصن الدفاعی قبل وصول جیش الأعداء. و فجأة ظهرت صخرة کبیرة بیضاء صلدة وسط الخندق عجز المسلمون عن کسرها أو تحریکها. فجاء «سلمان» إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یعرض علیه الأمر. فنزل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی الخندق و تناول المعول من سلمان و أنزل ضربة شدیدة بالصخرة، فانبعث منها الشرر، فصاح المعول من سلمان و أنزل ضربة شدیدة بالصخرة، فانبعث منها الشرر، فصاح النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم مکبرا تکبیرة الإنتصار، فردّد المسلمون التکبیر و راح صوتهم یدوّی فی کلّ مکان. و مرّة أخری أنزل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم معوله علی الصخرة، فانبعث الشرر و کسرت قطعة منها، و ارتفع صوت تکبیر الإنتصار من النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین بعده. و للمرّة الثالثة ارتفع معول النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین بعده. و للمرّة الثالثة ارتفع معول النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلم و نزل علی الصخرة، و للمرّة الثالثة انبعث الشرر من الضربة و أضاء ما حولها، و تحطّمت الصخرة، و ارتفع صوت التکبیر بین جنبات الخندق.

فقال سلمان: بأبی أنت و أمّی یا رسول اللّه، لقد رأیت شیئا ما رأیت منک قط.

فالتفت رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی القوم و قال: رأیتم ما یقول سلمان؟ قالوا: نعم یا رسول اللّه. قال: ضربتی الأولی فبرق الذی رأیتم أضاءت لی منها قصور الحیرة و مدائن کسری کأنّها أنیاب الکلاب، فأخبرنی جبرئیل أنّ أمّتی ظاهرة علیها، ثمّ ضربت ضربتی الثانیة فبرق الذی رأیتم أضاءت لی منها قصور الحمر من أرض الروم کأنّها أنیاب الکلاب، و أخبرنی جبرئیل أنّ أمّتی ظاهرة علیها، ثمّ ضربت ضربتی الثالثة فبرق الذی رأیتم أضاءت لی قصور صنعاء کأنّها أنیاب الکلاب، و أخبرنی جبرئیل أن أمّتی ظاهرة علیها. فابشروا، فاستبشر المسلمون و حمدوا اللّه. أمّا المنافقون فقد عبسوا و قالوا بلهجة المعترض: أمل باطل و وعد مستحیل! هؤلاء یحفرون الخنادق خوفا علی أرواحهم من جیش صغیر یخشون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۷

مواجهته، ثمّ یحلمون فتح أعظم دول العالم. و عندئذ نزلت الآیات المذکورة.

التّفسیر

بیده کلّ شیء:

دار الکلام فی الآیات السابقة حول المشرکین و أهل الکتاب الذین کانوا یخصّون أنفسهم بالعزة و بالملک، و کیف أنّهم کانوا یرون أنفسهم فی غنی عن الإسلام. فنزلت هاتان الآیتان تفنّدان مزاعمهم الباطلة یقول تعالی: قُلِ اللَّهُمَّ مالِکَ الْمُلْکِ تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشاءُ.

إنّ المالك الحقيقى للأشياء هو خالقها. و هو الذى يعطى لمن يشاء الملك و السلطان، أو يسلبهما ممّن يشاء، فهو الذى يعز، و هو الذى يذل، و هو القادر على كلّ هذه الأمور، وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و لا حاجة للقول بأنّ مشيئة اللّه فى هذه الآيات لا تعنى أنّه يعطى بدون حساب و لا موجب، أو يأخذ بدون حساب و لا موجب، بل أنّ مشيئته مبتيّة على الحكمة و النظام و مصلحة عالم الخلق و عالم الإنسانية عموما. و بناء على ذلك فإنّ أى عمل يقوم به إنّما هو خير عمل و أصحّه.

بِيَدِكَ الْخَيْرُ.

«خير» صيغة تفضيل يقصد بها تفضيل شيء على شيء، و الكلمة تطلق أيضا على كلّ شيء حسن. بدون مفهوم التفضيل، و الظاهر من الآية مورد البحث أنها جاءت بالمعنى الثانى هذا، أى إن مصدر كلّ خير بيده و منه سبحانه.

و عبارة بِيَدِكَ الْخَيْرُ تحصر كلّ الخير بيد اللّه من جهتين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۴۴۸

۱- الألف و اللام فى «الخير» هما للاستغراق.

۲- أنّ تقديم الخبر «بيدك» و تأخير المبتدأ «الخير» دليل على الحصر كما هو معلوم. فيكون المعنى: «كلّ الخير بيدك و حدك لا بيد غيرك».

كذلك يستفاد من «بيدك الخير» أنّ اللّه هو منبع كلّ خير و سعادة فإذا أعزّ أحدا أو أذلّه، أو أعطى السلطنة و الحكم لأحد الناس أو سلبها منه فذلك قائم على العدل، و لا شرّ فيه. فالخير للأشرار أن يكونوا فى السجن، و الخير للأخيار أن يكونوا أحرارا.

و بعبارة اخرى: أنه لا وجود للشر فى العالم، و نحن الذين نقلب الخيرات إلى شرور، فعند ما تحصر الآية الخير بيده تعالى و لا تتحدث عن الشر إنّما هو بسبب ان الشر لا يصدر من ذاته المقدسة إطلاقا.

إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذه الآية جاءت دليلا على الآية السابقة. أى ما دام اللّه ذا قدرة مطلقة، فليس ثمّة ما يمنع أن يكون كلّ خير خاضعا لمشيئته.

الحكومات الصالحة و غير الصالحة:

يطرح هنا سؤال هام يقول: قد يستنتج بعضهم من هذه الآية أنّ من يصل إلى مركز الحكم، أو يسقط منه، فذلك بمشيئة اللّه. و من هنا فلا بدّ من قبول حكومات الجبّارين و الظالمين فى التاريخ مثل حكومات جنكيزخان و هتلر و غيرهما. بل أنّنا نقرأ فى التاريخ أنّ «يزيد بن معاوية»- تبريرا لحكمه الشائن الظالم- استشهد بهذه الآية[۳۳۰]. لذلك نرى فى كتب التفسير توضيحات مختلفة بشأن هذه الشبهة. من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۴۴۹

ذلك أنّ الآية تختصّ بالحكومات الإلهيّة، أو أنّها تقتصر على حكومة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم التى أنهت حكم جبّارى قريش.

و لكن الآية تطرح فى الواقع مفهوما عامّا يقضى أنّ جميع الحكومات الصالحة و غير الصالحة مؤطّرة بقانون مشيئة اللّه، و لكن ينبغى أن نعلم أنّ اللّه قد أوجد مجموعة من الأسباب للتقدّم و النجاح فى العالم، و أنّ الاستفادة من تلك الأسباب هى نفسها مشيئة اللّه. و عليه فإنّ مشيئة اللّه هى الآثار المخلوقة فى تلك الأسباب و العوامل. فإذا قام ظلمة و طغاة- مثل جنكيز و يزيد و فرعون- باستغلال أسباب النجاح، و خضعت لهم شعوب ضعيفة و جبانة، و تحمّلت حكمهم الشائن، فذلك من نتائج أعمال تلك الشعوب و قد قيل: كيفما كنتم يولّى عليكم.

و لكن إذا كانت هذه الشعوب واعية، و انتزعت تلك الأسباب و العوامل من أيدى الجبابرة و أعطتها بيد الصلحاء، و أقامت حكومات

عادلة، فإن ذلك أيضا نتيجة لأعمالها و لطريقة استفادتها من تلك العوامل و الأسباب الإلهيّة.

فى الواقع، أنّ الآية دعوة للأفراد و المجتمعات إلى اليقظة الدائمة و الوعى و استفادة من عوامل النجاح و النصر، لكى يشغلوا المواقع الحسّاسة قبل أن يستولى عليها أناس غير صالحين.

خلاصة القول: إنّ مشيئة اللّه هى نفسها عالم الأسباب، إنّما الاختلاف فى كيفية استفادتنا من عالم الأسباب هذا.

فى الآية التالية و لتأكيد حاكمية اللّه المطلقة على جميع الكائنات تضيف الآية:

١- تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ....

و بهذا تذكر الآية بعض المصاديق البارزة على قدرة اللّه تعالى، و منها مسألة التغيير التدريجى للّيل و النهار، بمعنى أن الليل يقصر مدّته فى نصف من السنة، و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ۴۵۰

ما عبّر عنه بدخوله فى النهار، بينما يطول الليل و يقصر النهار فى النصف الثانى من السنة، و هو دخول و ولوج النهار فى الليل. و كذلك إخراج الموجودات الحية من الميّتة و بالعكس، و كذلك الرزق الكثير الذى يكون من نصيب بعض الأشخاص دون بعض، كلّها من علائم قدرته المطلقة.

بحوث

«الولوج» بمعنى الدخول. و القصد من الآية هو هذا التغيير التدريجى الذى نراه بين الليل و النهار طوال السنة. هذا التغيير ناشئ عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو ٢٣ درجة و اختلاف زاوية سقوط أشعّة الشمس عليها. لذلك نرى الشتاء فى النصف الشمالى من خطّ الإستواء تطول أيّامه تدريجيا، و تقصر لياليه تدريجيا، حتّى أوائل الصيف، حيث ينعكس التغيير فتقصر أيّامه و تطول لياليه حتّى أوائل الشتاء. أمّا فى جنوب خطّ الإستواء فالتناظر يكون معكوسا.

و بناء على ذلك فإنّ اللّه يدخل الليل فى النهار، و يدخل النهار فى الليل، دائما، أى أنّه ينقص هذا ليزيد ذاك و بالعكس.

قد يقول قائل إنّ الليل و النهار فى خطّ الإستواء الحقيقى و فى نقطتى القطبين فى الشمال و الجنوب متساويان و ليس ثمّة أىّ تغيير فيهما، فالليل و النهار فى خطّ الإستواء متساويان و يمتدّ كلّ منهما اثنتى عشرة ساعة على امتداد السنة، و فى القطبين يمتدّ الليل ستة أشهر و مثله النهار، لذلك فإنّ الآية ليست عامّة.

فى الجواب على هذا التساؤل نقول: إنّ خطّ الإستواء الحقيقى خطّ و همى، و الناس عادة يعيشون على طرفى الخط. كذلك الحال فى القطبين فهما نقطتان وهميّتان، و سكّان القطبين- إن كان فيهما سكّان- يعيشون فى مناطق أوسع طبعا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ۴۵۱

من نقطة القطب الحقيقة، و عليه فالاختلاف موجود فى كلّ الحالات.

و قد يكون للآية معنى آخر بالإضافة إلى ما ذكر، و هو أنّ الليل و النهار لا يحدثان فجأة فى الكرة الأرضية بسبب وجود طبقات «الجو» حولها. فالنهار يبدأ بالتدريج من الفجر و ينتشر، و يبدأ الليل من حمرة الأفق الغربى و الغسق، ثمّ ينتشر الظلام حتّى يعمّ جميع الأرجاء.

إنّ للتدرّج فى تغيير الليل و النهار- بأىّ معنى كان- آثارا مفيدة فى حياة الإنسان و الكائنات الأخرى على الأرض. لأنّ نموّ النباتات و كثير من الحيوانات يتمّ فى إطار نور الشمس و حرارتها التدريجيّة. فمن بداية الربيع حيث يزداد بالتدريج نور الشمس و حراراتها، تطوى النباتات و كثير من الحيوانات كلّ يوم مرحلة جديدة من تكاملها. و لمّا كانت هذه الموجودات تحتاج بمرور الأيّام إلى مزيد من النور و الحرارة، فإنّ حاجتها هذه تلبى عن طريق التغييرات التدريجيّة للّيل و النهار، لتصل إلى نقطة تكاملها النهائيّة.

فلو كان الليل و النهار كما هو دائما، لاختلّ نموّ كثير من النباتات و الحيوانات، و لاختفت الفصول الأربعة التى تنشأ من اختلاف الليل و النهار و من مقدار زاوية سقوط نور الشمس، و لخسر الإنسان فوائد ذلك.

كذلك هى الحال إذا أخذنا بنظر الإعتبار المعنى الثانى فى تفسير الآية أى أنّ حلول الليل و النهار تدريجى، لا فجائى، و أنّ هناك فترة بين الطلوعين تفصل بينهما، فمن ذلك يتّضح أنّ هذا التدرّج فى حلول الليل و النهار نعمة كبرى لسكنة الأرض، لأنّهم يتعرّفون بالتدرج على الظلام أو الضياء، و بذلك تتطابق قواهم الجسمية و حياتهم الاجتماعية مع هذا التغيير، و إلّا حدثت حتما مشاكل لهم.

۲- وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ

إنّ معنى خروج «الحىّ» من «الميّت» هو ظهور الحياة من كائنات عديمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۲

الحياة. فنحن نعلم أنّه فى اليوم الذى استعدّت فيه الأرض لاستقبال الحياة، ظهرت كائنات حيّة من كائنات عديمة الحياة. أضف إلى ذلك أنّ مواد لا حياة فيها تصبح باستمرار أجزاء من خلايانا الحيّة و خلايا جميع الكائنات الحيّة فى العالم، و تتبدّل إلى مواد حيّة.

أمّا خروج «الميّت» من «الحىّ» فهو دائم الحدوث أمام أنظارنا.

إنّ الآية- فى الواقع- إشارة إلى قانون التبادل الدائم بين الحياة و الموت، و هو أعمّ القوانين التى تحكمنا و أعقدها، كما أنّه أروعها فى الوقت نفسه.

لهذه الآية تفسير آخر أيضا- لا يتعارض مع التفسير السابق- و هو مسألة الحياة و الموت المعنويّين. فنحن كثيرا ما نرى أنّ بعض المؤمنين- و هم الاحياء الحقيقيّون- يخرجون من بعض الكافرين- و هم الأموات الحقيقيّون-. و قد يحدث العكس، حين يخرج الكفار من المؤمن.

إنّ القرآن يعبّر عن الحياة و الموت المعنويّين بالإيمان الكفر فى كثير من آياته.

و بموجب هذا التفسير يكون القرآن قد ألغى قانون الوراثة الذى يعتبره بعض العلماء من قوانين الطبيعة الثابتة. فالإنسان يتميّز بحريّة الارادة و ليس مثل الكائنات غير الحيّة فى الطبيعة التى تقع تحت تأثير مختلف العوامل وقوعا إجباريا. و هذا بذاته مظهر من مظاهر قدرة اللّه التى تغسل آثار الكفر فى نفوس أبناء الكافرين- أولئك الذين يريدون حقّا أن يكونوا مؤمنين- و يغسل آثار الإيمان من أبناء المؤمنين- الذين يريدون حقّا أن يكونوا كافرين-. و هذا الاستقلال فى الإرادة، القادر على الإنتصار، حتّى فى ظروف غير مؤاتية، من مظاهر قدرة اللّه أيضا.

هذا المعنى يرد

فى حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، كما جاء فى تفسير «الدرّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۳

المنثور» عن سلمان الفارسى أنّه قال: إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فسّر الآية يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ... فقال: أى أنّه يخرج المؤمن من صلب الكافر، و الكافر من صلب المؤمن.

۳- وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ

هذه الآية تعتبر من باب ذكر «العام» بعد «الخاص»، إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج من الرزق الإلهى، أمّا هنا فالآية تشير إلى جميع النعم على وجه العموم، أى أنّ العزّة و الحكم و الحياة و الموت ليست هى وحدها بيد اللّه، بل بيده كلّ أنواع الرزق و النعم أيضا.

و تعبير بِغَيْرِ حِسابٍ يشير إلى أنّ بحر النعم الإلهية من السعة و الكبير بحيث إنّه مهما اعطى منه فلن ينقص منه شىء و لا حاجة به لضبط الحسابات. فالتسجيل فى دفاتر الحساب من عادة ذوى الثروات الصغيرة المحدودة التى يخشى عليها من النفاذ و النقصان. فهؤلاء هم الذين يحسبون حسابهم قبل أن يهبوا لأحد شيئا، لئلّا تتبدّدا ثرواتهم. أمّا اللّه فلا يخشى النقص فيما عنده، و لا أحد يحاسبه،

و لا حاجه له بالحساب.

يتّضح ممّا قلنا أنّ هـذه الآيۀ لا تتعارض مع الآيات التى تبيّن التقدير الإلهى و تطرح موضوع لياقۀ الأفراد و قابليّتهم و مسألۀ التدبير فى الخلقۀ.

۴- ليس فى الأمر إجبار و هنا يطرح سؤال آخر و هو: إنّنا نعلم أنّ الإنسان حرّ فى كسب رزقه بغير إجبار، و ذلك بموجب قانون الخلق و حكم العقل و دعوۀ الأنبياء، فكيف تقول هذه الآيۀ أنّ كلّ هذه الأمور بيد اللّه؟

فى الجواب نقول: إن المصدر الأوّل لعالم الخلق و جميع العطايا و الإمكانات الموجودۀ عند الناس هو اللّه، فهو الذى وضع جميع الوسائل فى متناول الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۴

لبلوغ العزّۀ و السعادۀ. و هو الذى وضع فى الكون تلك القوانين التى إذا لم يلتزمها الناس انحدروا إلى الذلّ و التعاسۀ. و على هذا الأساس يمكن إرجاع كلّ تلك الأمور إليه، و ليس فى ذلك أىّ تعارض مع حرّيۀ إرادۀ البشر، لأنّ الإنسان هو الذى يتصرّف بهذه القوانين و المواهب و القوى و الطاقات تصرّفا صحيحا أو خاطئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۵

الآية [سورة آلعمران (۳): آية ۲۸]

اشارة

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۲۸)

التّفسير

العلاقۀ مع الأجنبى:

ذكرت الآيات السابقۀ أن العزّۀ و الذلّۀ و جميع الخيرات بيد اللّه تعالى. و بهذه المناسبۀ فإنّ هذه الآيۀ تحذّر المؤمنين من مصادقۀ الكافرين و تنهاهم بشدّۀ من موالاۀ الكفّار، لأنّه إذا كانت هذه الصداقۀ و الولاء من أجل العزّۀ و القدرۀ و الثروۀ.

فإنها جميعا بيد اللّه عزّ و جلّ. و لذلك تقول الآيۀ:

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ و لو ارتكب أحد المؤمنين ذلك فإنه يقطع ارتباطه مع اللّه تماما وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ و قد نزلت هذه الآيۀ فى وقت كانت هناك روابط بين المسلمين و المشركين مع اليهود و النصارى.

و هذه الآيۀ درس سياسىّ و اجتماعىّ مهمّ للمسلمين، فتحذّرهم من اتّخاذ الأجنبىّ صديقا أو حاميا أو عونا و رفيقا، فى أىّ عمل من أعمالهم، و من الانخداع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۶

بكلامه المعسول و عروضه الجذّابۀ و تظاهره بالمحبّۀ الحميمۀ، لأنّ التاريخ قد أثبت بأنّ أقسى الضربات التى تلقّاها المؤمنون جاءت من هذا الطريق.

لو أنّنا طالعنا تاريخ الاستعمار للاحظنا أنّ المستعمرين جاؤوا دائما فى لبوس الصداقۀ و الترحّم و حبّ الإعمار و البناء فتغلغلوا بين

طبقات المجتمع.

إنّ كلمة «استعمار» التى تعنى الإعمار و البناء دليل على هذا الخداع، فهم بعد أن يتمكّنوا من إنشاب مخالبهم فى جذور المجتمع المستعمر، يبدأون بامتصاص دمائه بكلّ قسوة و بغير رحمة.

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إشارة إلى أنّ الناس فى حياتهم الاجتماعية لا بدّ لهم من اتّخاذ الأولياء و الأصدقاء، فعلى المؤمنين أن يختاروا أولياءهم من بين المؤمنين، لا من بين الكافرين.

فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ.

تقول الآية: إن الذين يعقدون أواصر صداقتهم و ولاءهم مع أعداء اللّه، ليسوا من اللّه فى أىّ شىء من الأشياء، أى أنّهم يكونون قد تخلّوا عن إطاعة أوامر اللّه و قطعوا علاقتهم بالجماعة المؤمنة الموحّدة، و انقطعت ارتباطاتهم من جميع الجهات.

إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً.

هذا استثناء من الحكم المذكور، و هو أنّه إذا اقتضت الظروف- التقية- فللمسلمين أن يظهروا الصداقة لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم.

و لكن الآية تعود فى الختام لتؤكّد الحكم الأوّل فتقول: يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ فاللّه ينذر الناس أوّلا بغضب منه و بعقاب شديد، ثمّ إنّ مرجع الناس جميعا إلى اللّه. و إن تولّوا أعداء اللّه نالوا عاجلا نتيجة أعمالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۷

بحوث

۱- التقية أو الدرع الواقى

صحيح أنّ الإنسان قد يضحّى حتّى بحياته من أجل هدف كبير و لصيانة الشرف و نصرة الحقّ و قمع الباطل، و لكن هل يجيز عاقل لنفسه أن تتعرّض للخطر دون أن يكون أمامه هدف هام؟

الإسلام يجيز الإنسان صراحة أن يمتنع عن إعلان الحقّ مؤقّتا و أن يؤدّى واجبه فى الخفاء حين يعرضه ذلك لخطر فى النفس و المال و العرض و حين لا يكون للإعلان نتيجه مهمّة و فائدة كبيرة. كما جاء فى هذه الآية، و كما جاء فى الآية ۱۰۶ من سورة النحل حيث يقول: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ

إن كتب التاريخ و الحديث الإسلامى ما زالت تحفظ حكاية «عمّار» و أبيه و أمّه إذ وقعوا فى قبضة عبدة الأصنام الذين راحوا يعذّبونهم لكى يرتدّوا عن الإسلام. فرفض والدا عمّار ذلك فقتلهما المشركون. غير أنّ عمّارا قال بلسانه ما أرادوا أن يقوله، ثمّ هرع باكيا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم خوفا من اللّه،

فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن عادوا لك فعد لهم»

أى إذا قبضوا عليك مرّة أخرى و طلبوا منك أن تقول شيئا فقله، و بهذا هدأ روعه و زال عنه خوفه.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حكم التقية يختلف باختلاف الظروف، فهى قد تكون واجبة، و قد تكون حراما، و قد تكون مباحة.

تجب التقية حيثما تتعرّض حياة الإنسان للخطر دونما فائدة تذكر. أمّا إذا كانت التقية سببا فى ترويج الباطل و ضلالة الناس و إسناد الظالم فهى هنا حرام.

و هذا جواب لجميع الاعتراضات التى ترد بهذا الشأن. لو أنّ المعترضين دقّقوا فى البحث لأدركوا أنّ الشيعة ليسوا منفردين بهذا

الاعتقاد، بل أنّ التقیة فی موضعها حکم عقلی قاطع و یتّفق مع الفطرة الإنسانیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۸

فجمیع عقلاء العالم- حین یرون أنفسهم أمام طریقین: إمّا الإعلان عن عقیدتهم و المخاطرة بالنفس و المال و الکرامة، أو إخفاء معتقداتهم- یمعنون النظر فی الظروف القائمة. فإن کان الإعلان عن العقیدة یستحقّ کلّ هذه التضحیة بالنفس و المال و الکرامة اعتبروا إعلانها عملا صحیحا، و إن لم یکن للإعلان نتیجة تذکر ترکوا ذلک.

۲- التقیة أو تغییر أسلوب النضال:

فی تاریخ النضالات الدینیة و الاجتماعیة و السیاسیة حالات إذا أراد فیها المدافعون عن الحقّ أن یناضلوا علانیة، فإنّهم یتعرّضون للإبادة هم و مبادؤهم أو یواجهون الخطر علی الأقلّ، مثل الحالة التی مرّ بها شیعة علی علیه السّلام علی عهد بنی أمیّة. فی مثل هذه الحالة یکون الطریق الصحیح و المعقول هو أن لا یبدّدوا قواهم، و أن یواصلوا نضالهم غیر المباشر فی الخفاء. التقیة فی مثل هذه الحالات أشبه بتغییر أسلوب النضال الذی یجنّبهم الفناء و یحقّق لهم النصر فی الکفاح. إنّ الذین یرفضون التقیة کلّیة و یفتون ببطلانها لا ندری ما الذی یقترحونه فی مثل هذه الحالات؟ أ یرون الفناء خیرا، أم استمرار النضال بشکل صحیح و منطقی؟

هذا الطریق الثانی هو التقیة، و أمّا الطریق الأوّل فلیس بمقدور أحد أن یجیزه.

و یتضح ممّا تقدّم أن التقیة هی أصل قرآنی مسلّم، و لکنّها تکون مشروعة فی موارد معینة و وفق ضوابط خاصّة. و ما نری من بعض الجهلاء أنّهم تصوّروا أن التقیة من اختلاقات أتباع أهل البیت علیهم السّلام فهو دلیل علی عدم اطلاعهم علی القرآن بصورة کافیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۹

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۲۹]

اشارة

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِی صُدُورِکُمْ أَوْ تُبْدُوهُ یَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ یَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۹)

التّفسیر

العالم بأسرارکم:

نهت الآیة السابقة عن الصداقة و التعاون مع الکافرین و الاعتماد علیهم نهیا شدیدا، و استثنت من ذلک حالة «التقیة».

إلّا أنّ بعضهم قد یتّخذ من «التقیة» فی غیر محلّها ذریعة لمدّ ید الصداقة إلی الکفّار أو الخضوع لولایتهم و سیطرتهم. و بعبارة اخری أنّهم قد یستغلّون «التقیة» و یتّخذونها مبرّرا لعقد أواصر العلاقات مع أعداء الإسلام. فهذه الآیة تحذّر أمثال هؤلاء و تأمرهم أن یضعوا نصب أعینهم علم اللّه المحیط بأسرار القلوب و العالم بما ظهر و ما خفی و تقول قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِی صُدُورِکُمْ أَوْ تُبْدُوهُ یَعْلَمْهُ اللَّهُ و لا یقتصر علم اللّه الواسع علی ذلک بل: وَ یَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۰

فی الواقع أنّ هذه الآیة لکی تنبه الناس إلی إحاطة اللّه بأسرارهم الخفیة، تشیر إلی أنّ معرفة اللّه بأسرارهم إنّما هی جانب صغیر من

مدى علمه اللامحدود الذى يسع السماوات و الأرض. و هو إضافة إلى علمه الواسع قادر على معاقبة المذنبين: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۱

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۳۰]

اشارة

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (۳۰)

التّفسير

حضور الأعمال يوم القيامة:

تشير هذه الآية إلى حضور الأعمال الصالحة و السيئة يوم القيامة، فيرى كلّ امرئ ما عمل من خير و ما عمل من شرّ حاضرا أمامه. فالذين يشاهدون أعمالهم الصالحة يفرحون و يستبشرون، و الذين يشاهدون أعمالهم السيّئة يستولى عليهم الرعب و يتمنّون لو أنّهم استطاعوا أن يبتعدوا عنها تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً فالآية لم تقل أنه يتمنّى فناء عمله و سيئاته، لأنه يعلم أن كلّ شىء فى العالم لا يفنى فلذلك يتمنّى أن يبتعد عنه كثيرا.

«الأمد» فى اللغة الزمان المحدود، و «الأبد» اللامحدود، و الأمد يقصد من استعماله غالبا انتهاء الزمان، و إن استعمل أحيانا أيضا فى مطلق الزمان المحدود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۲

بناء على ذلك، فإنّ المذنبين- كما تقول الآية- يتمنّون أنّ يمتدّ الفاصل الزمانى بينهم و بين ذنوبهم طويلا، و هو تعبير عن ذروة ما يشعرون به من تعاسة جرّاء أعمالهم السيّئة، لأنّ طلب البعد الزمانى أبلغ فى التعبير عن هذا الاستيلاء من طلب البعد المكانى، فاحتمال الحضور موجود فى الفاصل المكانى، بينما ينتفى هذا الاحتمال تماما فى الفاصل الزمانى.

فإذا عاش أحد- مثلا- فى فترة الحرب العالمية، شمله القلق و الاضطراب و إن ابتعد مكانيا عن منطقة الحرب، لكن الشخص الذى يعيش فى فترة زمنية بعيدة عن الحرب لا يشعر بذلك القلق.

هذا مع أن بعض المفسّرين احتملوا أن يكون للفظة «الأمد» معنى البعد المكانى أيضا (كما ورد فى مجمع البيان نقلا- عن بعض المفسّرين)، غير أن هذا لم يرد فى اللغة على الظاهر.

وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ.

فى الجزء الأوّل من هذه العبارة يحذّر اللّه الناس من عصيان أوامره، و فى الجزء الثانى يذكّرهم برأفته. و يبدو أنّ هذين الجزءين هما- على عادة القرآن- مزيج من الوعد و الوعيد. و من المحتمل أن يكون الجزء الثانى وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ توكيدا للجزء الأوّل وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ و هذا أشبه بمن يقول لك: إنّى أحذّرك من هذا العمل الخطر، و إنّ تحذيرى إيّاك دليل على رأفتى بك، إذ لو لا حبّى لك لما حذّرتك.

القرآن و تجسید الأعمال و حضورها

هذه الآیة تبیّن بکل وضوح تجسّد الأعمال و حضورها یوم القیامة. کلمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۳

«تجد» من الوجود ضدّ العدم. و لفظتا «خیر» و «سوء» وردتا نکرتین لتفیدا العموم.

أی أنّ الإنسان یجد أعماله الحسنة و القبیحة یوم القیامة مهما تکن قلیلة.

بعضهم أوّل هذه الآیة و أشباهها و قال إنّ القصد من حضور الأعمال هو حضور ثوابها أو عقابها، أو حضور سجلّ الأعمال الذی دوّنت فیه الأعمال کلّها.

و لکن من الجلی أنّ ذلک لا ینسجم و ظاهر الآیة، لأنّ الآیة تقول بوضوح إنّ الإنسان یوم القیامة «یجد» عمله. و تقول: إنّ المسیء یودّ لو أنّ بینه و بین «عمله» القبیح فواصل مدیدة. فهنا «العمل» نفسه هو الذی یدور حوله الکلام. لا سجلّ الأعمال، و لا الثواب و العقاب.

کذلک نقرأ فی الآیة أنّ المسیء یودّ لو بعد عنه عمله، و لکنّه لا یتمنّی زوال عمله إطلاقا. و هذا یعنی أنّ زوال الأعمال غیر ممکن، و لذلک فهو لا یتمنّاه.

هناک آیات کثیرة أخری تؤیّد هذا الأمر، کالآیة ۴۹ من سورة الکهف.

وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً و الآیتان ۷ و ۸ من سورة الزلزال فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ* وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ

سبق أن قلنا إنّ بعض المفسّرین یرون أنّ لفظ «الجزاء» مقدّر و هذا خلاف ظاهر الآیة.

یستفاد من بعض الآیات أنّ الدنیا مزرعة الآخرة، و أنّ عمل الإنسان أشبه بالحبّ الذی یزرع فی التربة، فتنمو تلک الحبّة، ثمّ یحصد الإنسان معها حبّا کثیرا.

کذلک هی أعمال الإنسان التی تجری علیها تبدّلات و تغیّرات تناسب یوم القیامة، ثمّ تعود إلی الإنسان نفسه، کما جاء فی الآیة ۲۰ من سورة الشوری: مَنْ کانَ یُرِیدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ

و یستفاد من آیات أخری أنّ الأعمال الصالحة فی هذه الدنیا تأتی فی الآخرة بصورة نور و ضیاء، فیطلبه المنافقون من المؤمنین: انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۴

فیقال لهم: ارْجِعُوا وَراءَکُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً[۳۳۱].

هذه الآیات و غیرها العشرات تدلّ علی أننا یوم القیامة نجد العمل عینه بشکل أکمل، و هذا هو تجسید الأعمال الذی یقول به علماء الإسلام.

هناک روایات کثیرة أیضا عن أئمّة الإسلام تؤکّد هذا المعنی، من ذلک:

قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لمن طلب أن یعظه: «لا بدّ لک یا قیس من قرین یدفن معک و هو حیّ، و تدفن معه و أنت میّت، فإن کان کریما أکرمک، و إن کان لعینا أسلمک، لا یحشر إلّا معک و لا تحشر إلّا معه، و لا تسأل إلّا عنه، و لا تبعث إلّا معه، فلا تجعله إلّا صالحا، فإنّه إن کان صالحا لم تستأنس إلّا به، و إن کان فاحشا لا تستوحش إلّا منه، و هو عملک»

[۳۳۲].

و لإلقاء الضوء علی هذا البحث لا بدّ من معرفة کیفیة الإثابة و العقاب علی الأعمال.

رأى العلماء فى الثواب و العقاب

للعلماء آراء مختلفة في الثواب و العقاب:

۱- يعتقد البعض أن جزاء الأعمال الاخروى أمر اعتبارى، مثل المكافأة و العقوبة فى هذه الدنيا، أى كما أنّ هناك فى هذه الدنيا عقابا على كلّ عمل سيّء أقرّه القانون الوضعى، كذلك وضع اللّه لكلّ عمل ثوابا أو عقابا معيّنين. و هذه هى نظرة الأجر المعيّن و الجزاء القانونى.

۲- ثمّة آخرون يعتقدون أنّ النفس البشرية تخلق الثواب و العقاب، فالنفس تخلق ذلك فى العالم الآخر دون إختيار، أى أنّ الأعمال الحسنة و الأعمال السيّئة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۵

فى هذا العالم تخلق فى النفس صفات حسنة أو سيّئة، و هذه الصفات تصبح جزءا متمكّنا من ذات الإنسان، و تبدأ هذه بإيجاد صورة تناسبها من السعادة أو العذاب.

فذو الباطن الحسن فى هذا العالم يتعامل مع مجموعة من الأفكار و التصوّرات الحسنة، و الأشرار و الخبثاء مشغولون بأفكارهم الباطلة و تصوّراتهم الدنيئة فى نومهم و يقظتهم.

و فى يوم القيامة تقوم هذه الصفات نفسها بخلق السكينة و العذاب أو الشقاء و السعادة. و بعبارة أخرى أنّ ما نقرأه عن نعم الجنّة و عذاب جهنّم ليس سوى ما تخلقه هذه الصفات الحسنة أو السيّئة فى الإنسان.

۳- فريق ثالث من كبار علماء الإسلام اتّخذوا سبيلا آخر دعموه بكثير من الآيات و الأحاديث. يقول هؤلاء: إنّ لكلّ عمل من أعمالنا- حسنا كان أم سيّئا- صورة دنيوية هى التى نراها، و صورة أخروية كامنة فى باطن ذلك العمل. و فى يوم القيامة، و بعد أن تكون قد طرأت عليه تحوّلات كثيرة، يفقد صورته الدنيوية و يظهر بصورته الأخروية فيبعث على راحة فاعله و سكينته، أو شقائه و عذابه.

هذه النظرة، من بين النظرات الأخرى، تتّفق مع كثير من آيات القرآن، و بناء على ذلك، فإنّ أعمال الإنسان- و هى مظاهر مختلفة من الطاقة- لا تفنى بموجب قانون بقاء «المادة/ الطاقة» و تبقى أبدا فى هذه الدنيا، على الرغم من أنّ الناظر السطحى يظنّها قد تلاشت.

إنّ بقاء هذه الأعمال بقاء أبديا يتيح من جهة أن يراها الإنسان عند محاسبته يوم القيامة و لا يبقى له مجال للإنكار، كما يتيح للإنسان من جهة أخرى أن يعيش يوم القيامة بين أعماله، فيشقى أو يسعد. و على الرغم من أنّ علم الإنسان لم يبلغ بعد مرحلة اكتشاف الماضى، إلّا للحظات قليلة سابقة[۳۳۳]، فممّا لا شكّ فيه أنّه لو تمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۶

صنع جهاز أدقّ و أكمل، أو لو كانت لنا «رؤية» و «إدراك» أكمل لاستطعنا أن نرى و ندرك كلّ ما حدث فى الماضى. (ليس هناك ما يمنع أن يكون جانب من الثواب و العقاب ذا طابع توافقى).

العلم و تجسيد الأعمال

لإثبات إمكان تجسيد الأعمال الماضية، يمكن الاستناد إلى مبادئ الفيزياء الثابتة اليوم، فقوانين الفيزياء تقول إنّ المادة تتحوّل إلى طاقة، و ذلك لأنّ «المادّة» و «الطاقة» مظهران لحقيقة واحدة، كما تقول أحدث النظريات بهذا الخصوص، و أنّ المادّة طاقة متراكمة مضغوطة تتحوّل إلى طاقة فى ظروف معيّنة. و قد تكون الطاقة الكامنة فى غرام واحد من المادّة تعادل فى قوة انفجارها أكثر من

ثلاثین ألف طن من الدینامیت.

ملخّص القول: إنّ المادّة و الطاقة مظهران لحقیقة واحدة، و بالنظر لعدم فناء الطاقة و المادّة، فلیس هناک ما یحول دون تراکم الطاقات المنتشرة مرّة أخری و تتّخذ صورة مادّة أو جسم، فإذا کانت نتیجة الأعمال صالحة ظهرت بصورة نعم مادّیة جمیلة، و إذا کانت شرّا و سیئة فإنّها تتجسّد فی وسائل عذاب و عقاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۷

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۳۱ الی ۳۲]

اشارة

قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللَّهُ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۱) قُلْ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْکافِرِینَ (۳۲)

سبب النّزول

لهاتین الآیتین روایتان فی سبب نزولهما: إحداهما فی تفسیر «مجمع البیان» و الأخری فی تفسیر «المنار».

الأولی تقول: ادّعی جمع من الحاضرین فی مجلس رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّهم یحبّون اللّه، مع أنّ العمل بتعالیم اللّه کان أقلّ ظهورا فی أعمالهم. فنزلت هاتان الآیتان بشأنهم.

و تقول الأخری: حضر فریق من مسیحیّی نجران مجلس رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و زعموا فی حدیثهم أنّ مبالغتهم فی تقدیس المسیح علیه السّلام إنّما ینطلق من حبّهم للّه.

فنزلت الآیتان تردّان علیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۸

التّفسیر

الحب الحقیقی:

تقول الآیة الأولی إنّ الحبّ لیس بالعلاقة القلبیة فحسب، بل یجب أن تظهر آثاره فی عمل الإنسان. إنّ من یدّعی حبّ اللّه، فعلیه أوّلا اتّباع رسوله: إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی

فی الواقع أنّ من آثار الحبّ الطبیعیة انجذاب المحبّ نحو المحبوب و الاستجابة له. صحیح أنّ هناک حبّا ضعیفا لا تتجاوز أشعّته جدران القلب، إلّا أنّ هذا من التفاهة بحیث لا یمکن اعتباره حبّا. لا شکّ أنّ للحبّ الحقیقی آثارا عملیة تربط المحبّ بالحبیب و تدفعه للسعی فی تحقیق طلباته.

و الدلیل علی ذلک واضح، فحبّ المرء شیئا لا بدّ أن یکون بسبب عثوره علی أحد الکمالات فیه. لا یمکن أنّ یحبّ الإنسان مخلوقا لیس فیه شیء من قوّة الجذب، و علیه فإنّ حبّ الإنسان للّه ناشئ من کونه منبع جمیع الکمالات و أصلها. إنّ محبوبا هذا شأنه لا بدّ أن تکون أوامره کاملة أیضا، فکیف یمکن لإنسان یعشق الکمال المطلق أن یعصی أوامر الحبیب و تعالیمه، فإن عصی فذلک دلیل علی

أنّ حبّه غیر حقیقی.

هذه الآیهٔ لا تقتصر فی ردّها علی مسیحیّی نجران و الذین ادّعوا حبّ اللّه علی عهد رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، بل هذا الردّ أصیل و عامّ فی منطق الإسلام موجّه إلی جمیع العصور و القرون. إنّ الذین لا ـ یفتأون- لیل نهار- یتحدّثون عن حبّهم للّه و لأئمّهٔ الإسلام و للمجاهدین فی سبیل اللّه و للصالحین و الأخیار، و لکنّهم لا یشبهون أولئک فی العمل، هم کاذبون.

أولئک الغارقون فی الذنوب من قمهٔ الرأس حتّی أخمص القدم، و مع ذلک فهم یرون أن قلوبهم ملیئهٔ بحبّ اللّه و رسوله و أمیر المؤمنین و الأئمّهٔ العظام، أو الذین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۹

یعتقدون أنّ الإیمان و الحبّ و المحبّهٔ قلبیهٔ فحسب، هم غرباء علی منطق الإسلام تماما.

جاء فی «معانی الأخبار» عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «ما أحبّ اللّه من عصاه».

ثمّ قرأ الأبیات:

تعصی الإله و أنت تظهر حبّههذا لعمرک فی الفعال بدیع

لو کان حبّک صادقا لأطعتهإنّ المحبّ لمن یحبّ مطیع

یُحْبِبْکُمُ اللَّهُ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ

تقول هذه الآیهٔ: إذا کنتم تحبّون اللّه، و بدت آثار ذلک فی أعمالکم و حیاتکم، فإنّ اللّه سیحبّکم أیضا، و سوف تظهر آثار حبّه أنه سیغفر لکم ذنوبکم، و یشملکم برحمته.

و الدلیل علی هذا الحبّ المتقابل من قبل اللّه واضح أیضا، لأنّه سبحانه موجود کامل و لا متناه من کلّ الجهات، و سیرتبط- علی أثر السنخیهٔ- بکل موجود یقطع خطوات علی طریق التکامل برباط الحبّ.

یتبیّن من هذه الآیهٔ أن لیس هناک حبّ من طرف واحد، لأنّ الحبّ یدفع المحبّ إلی أن یحقّق عملیا رغبات حبیبه. و فی هذه الحالهٔ لا یمکن للمحبوب إلّا أن یرتبط بالمحبّ.

قد یسأل سائل: إذا کان المحبّ دائم الإطاعهٔ لأوامر المحبوب، فلا یبقی له ذنب فیغفر له، و لذلک فإن جملهٔ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ لیست ذات موضوع.

فی الجواب نقول: أوّلا یمکن أن تعنی هذه الجملهٔ غفران الذنوب السابقهٔ.

و ثانیا أنّ المحبّ لا یستمرّ فی عصیان المحبوب، و لکن قد یزلّ أحیانا بسبب طغیان الشهوات، و هذا هو الذی یغفره اللّه سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۰

الدین و الحبّ

جاء فی کثیر من الأحادیث أنّ أئمّهٔ الإسلام کانوا یقولون: ما الدین إلّا الحب. و من ذلک ما

جاء فی «الخصال» و «الکافی» عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «و هل الدین إلّا الحبّ؟» ثمّ تلا هذه الآیهٔ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی

هذه الأحادیث ترید أن تبیّن أنّ حقیقهٔ الدین و روحه هی الإیمان باللّه و حبّه، ذلک الإیمان و العشق اللذین یعمّ نورهما کلّ الوجود الإنسانی و یضیئانه، و تتأثر بهما الأعضاء و الجوارح، و یظهر أثرهما فی اتّباع أوامر اللّه.

قُلْ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ

هذه الآية تتابع حديث الآية السابقة، و تقول: ما دمتم تدّعون الحبّ للّه، إذا اتّبعوا أمر اللّه و رسوله، و إن لم تفعلوا فلستم تحبّون اللّه، و اللّه لا يحبّ هؤلاء فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ

و يستفاد من أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ أنّ إطاعة اللّه و إطاعة رسوله لا- تنفصلان، و أنّ إطاعة الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم هى إطاعة اللّه، و إطاعة اللّه هى إطاعة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لذلك فالآية السابقة تحدّثت عن إطاعة الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقط، و هنا دار الكلام على إطاعتهما كليهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۱

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۳ الى ۳۴]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (۳۳) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۳۴)

التّفسير

اشارة

فى مبتدأ هذه الآية يشرع القرآن بسرد حكاية مريم و أجدادها و مقامهم، فهم النموذج الكامل لحب اللّه الحقيقى و ظهور آثار هذا الحب فى مقام العمل و الذى أشارت إليه الآيات السابقة.

«اصطفى» من الصفو، و هو خلوص الشيء من الشوائب، و منه «الصفا» للحجارة الصافية. و عليه فالاصطفاء هو تناول صفو الشيء.

تقول الآية: إنّ اللّه اختار آدم و نوحا و آل إبراهيم و آل عمران من بين الناس جميعا. هذا الاختيار قد يكون «تكوينيا» و قد يكون «تشريعيا» أى أنّ اللّه قد خلق هؤلاء منذ البدء خلقا متميّزا، و إن لم يكن فى هذا الامتياز ما يجبرهم على إختيار طريق الحقّ، بل أنّهم بملء اختيارهم و حرّية إرادتهم اختاروه. غير أنّ ذلك التميز أعدّهم للقيام بهداية البشر ثمّ على أثر إطاعتهم أوامر اللّه، و التقوى و السعى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۲

سبيل هداية الناس نالوا نوعا من التميّز الاكتسابى، الذى امتزج بتميّزهم الذاتى، فكانوا من المصطفين.

ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ ۳۳۴].

تشير هذه الآية إلى أنّ هؤلاء المصطفين كانوا- من حيث الإسلام و الطهارة و التقوى و الجهاد فى سبيل هداية البشر- متشابهين، بمثل تشابه نسخ عدّة من كتاب واحد، يقتبس كلّ من الآخر: بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ

وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

فى النهاية تشير الآية إلى حقيقة أنّ اللّه كان يراقب مساعيهم و نشاطهم، و يسمع أقوالهم، و يعلم أعمالهم. و فى هذا إشارة أيضا إلى مسئوليات المصطفين الثقيلة نحو اللّه و مخلوقات اللّه.

فى هذه الآية إشارة إلى جميع الأنبياء من أولى العزم، فبعد نوح الذى صرّح باسمه، يأتى آل إبراهيم الذين يضمّون نوحا نفسه و موسى و عيسى و نبيّ الإسلام.

و ذكر آل عمران تكرار للإشارة إلى السيّدة مريم و المسيح، بالنظر لكون هذه الآية مقدّمة لبيان حالهما.

۱- امتیاز الأنبیاء:

هنـا یبرز هـذا السؤال: علی الرغم من أنّ هـذا التمیّز لم یجبر الأنبیـاء علی السـیر فی طریق الحقّ، و أنّه لاـ یتعـارض مع حریّـهٔ الإرادهٔ و الإختیار، و لکن ألا یعتبر نوعا من التفضیل؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۳

فی الجواب نقول: إنّ خلقـا مصحوبا بنظـام سـلیم یسـتتبع بالضـرورهٔ مثـل هـذا التفاضـل، فتأمّل جسم الإنسان- مثلا- مخلوق منظّم، و للحفاظ علی هـذا التنظیم لا بدّ من الاعتراف بالتفاضل بین عضو و عضو، إذ لو کانت جمیع الخلایا فی جسم الإنسان تشـبه فی لطافتها خلایا شـبکیهٔ العین، أو تشـبه فی صـلابتها و قوّتها خلایا عظام الساق، أو تشـبه خلایا الـدماغ فی حساسـیّتها، أو تشـبه خلایا القلب فی حرکتها، لا ختلّ حتما نظام الجسم. ذا لا بدّ من جود خلایا مثل خلایا الدماغ لکی تتولّی إدارهٔ سائر أعضاء الجسم و عضلاته، و خلایا العظـام المتینـهٔ لتحفـظ اسـتقامهٔ الجسم و خلایـا الأعصـاب الحسّاسـهٔ للتسـلّم أبسط الإیعازات، و الخلایا المتحرّکـهٔ لتخلق الحرکـهٔ فی الجسم.

ما من أحـد یسـتطیع أن یقول لماذا لیس الجسم کلّه دماغا؟ أو فی النباتات، لماذا لا تکون الخلایا کلّها بلطافـهٔ خلایا أوراق الورد؟ إنّ حالهٔ کهذه ستهدم بناء النبات و تعرضه للفناء.

النقطـهٔ المهمّـهٔ هی أنّ هـذا التمیّز الذاتیّ الضـروری لإیجاد بناء منظّم لیس بسـیطا، بل هو مصـحوب بمسؤولیهٔ عظیمهٔ، هذا «الامتیاز» و هـذه المسؤولیـهٔ الثقیلـهٔ نفسـها تحفظ توازن کفّتی میزان الخلق. أی أن نسـبهٔ تمیّز الأنبیاء علی سائر البشـر تتناسب مع أهمیّهٔ المسؤولیهٔ التی یضطلعون بها. کما أنّ الاختلاف فی تمیّز الآخرین یتناسب مع مسئولیاتهم.

فضلا عن ذلک فإنّ التمیّز الذاتی لا یکفی للاقتراب من اللّه، بل لا بدّ معه من التمیّز المکتسب.

فی الآیهٔ بعض النقاط ینبغی ذکرها:

۱- لیست الآیـهٔ بصدد ذکر جمیع الذین اصـطفاهم اللّه، بل تعدّد بعضا منهم، فإذا لم یکن بعض الأنبیاء من بین هؤلاء، فلا یعنی ذلک أنهم لیسوا مصطفین. ثمّ إنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۴

«آل إبراهیم» یشمل موسی بن عمران و نبیّ الإسلام و المصطفین من أهل أیضا لأنّهم جمعا من «آل إبراهیم».

۲- یری «الراغب» فی کتابه «المفردات» إنّ «الآل» من «الأهل»، و لکنّه خصّ بالإضافهٔ إلی أقرباء العظماء من الناس و الأشـراف و دون الأزمنهٔ و الأمکنهٔ.

و لکن «الأهل» یضاف إلی الکلّ، کالزمان و المکان و غیر ذلک، فیقال: أهل المدینهٔ الفلانیهٔ، و لکن لا یقال: آل المدینهٔ الفلانیهٔ.

۳- غنّی عن القول أنّ اصـطفاء آل إبراهیم و آل عمران لاـ یعنی اصـطفاء جمیع أبناء إبراهیم و عمران، إذ یحتمل أن یکون بینهم حتّی من الکفّار، إنّما المقصود هو «بعض» من آل إبراهیم و آل عمران.

۴- «عمران» فی هـذه الآیـهٔ هو أبو مریم، لاـ أبو موسـی، إذ کلّمـا ورد فی القرآن اسم عمران کان المعنی به هو أبو مریم، کما یسـتدلّ علی ذلک أیضا من الآیات التالیهٔ التی تخصّ شرح حال مریم.

۵- فی الأحادیث العدیدهٔ عن أهل البیت علیهم السّـلام اعتبرت هذه الآیهٔ دلیلا علی عصـمهٔ الأنبیاء و الأئمّهٔ، و ذلک لأنّ اللّه لا یمکن أن یصطفی المذنبین الملوّثین بالشرک و الکفر و الفسق. بل لا بدّ أن یقع إختیاره علی المطهّرین المعصومین.

(یستدلّ کذلک من الآیهٔ أنّ هناک مراتب للعصمهٔ).

۶- يستدلّ بعض الكتّاب المحدثين بهذه الآية على نظرية النشوء و الارتقاء، معتقدين أنّ الآية تدلّ على أنّ «آدم» لم يكن هو الإنسان الأوّل، بل كان هناك أناس كثيرون فاصطفى اللّه من بينهم آدم الذى خلّف نسلا متميّزا من أبنائه، و أنّ تعبير عَلَى الْعالَمِينَ دليل على ذلك. يقول هؤلاء: كان فى عصر آدم مجتمع إنسانى، و لذلك فليس ثمّة ما يمنع من أن يكون الإنسان الأوّل- الذى وجد قبل ذلك بملايين السنين- قد نشأ و تطوّر من حيوانات أخرى متطوّرة، و يكون «آدم»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۵

وحده الذى اصطفاه اللّه.

و لكن فى مقابل هذا الرأى يمكن القول أن ليس هناك أىّ دليل على أنّ «عالمين» هم أناس عاصروا آدم، بل قد يكون القصد هو مجموع المجتمعات البشرية على امتداد التاريخ. و على هذا يكون معنى الآية: إنّ اللّه اصطفى من بين جميع المجتمعات البشرية على امتداد التاريخ أفراد كان أوّلهم آدم، فنوحا، فآل إبراهيم، فآل عمران. و بما أنّ كلّ واحد من هؤلاء كان يعيش فى عصر غير عصر الآخر نفهم من ذلك أنّ القصد من «عالمين» هو البشر عموما على اختلاف عصورهم و أزمانهم. لذلك ليس ثمّة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأنّ آدم كان يعاصره أناس آخرون فاصطفاه اللّه من بينهم، فتأمّل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۶

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۵ الى ۳۶]

اشارة

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ ما فِی بَطْنِی مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّی إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۳۵) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّی وَضَعْتُها أُنْثی وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَیْسَ الذَّکَرُ کَالْأُنْثی وَ إِنِّی سَمَّیْتُها مَرْیَمَ وَ إِنِّی أُعِیذُها بِکَ وَ ذُرِّیَّتَها مِنَ الشَّیْطانِ الرَّجِیمِ (۳۶)

التّفسير

كيفية ولادة مريم:

تعقيبا على ما جاء فى الآية السابقة من إشارة إلى آل عمران، تشرع هاتان الآيتان بالكلام على مريم بنت عمران و كيفية ولادتها و تربيتها و ما جرى لهذه السيّدة العظيمة.

جاء فى التواريخ و الأخبار الإسلامية و أقوال المفسّرين أنّ «حنة» و «أشياع» كانتا أختين، تزوّجت الأولى «عمران»[۳۳۵] أحد زعماء بنى إسرائيل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۷

و تزوّجت الأخرى «زكريّا» النبىّ.

مضت سنوات على زواج «حنة» بغير أن ترزق مولودا. و فى أحد الأيّام بينما هى جالسة تحت شجرة، رأت طائرا يطعم فراخه. فأشعل هذا المشهد نار حبّ الأمومة فى قلبها، فتوجّهت إلى اللّه بمجامع قلبها طالبة منه أن يرزقها مولودا، فاستجاب اللّه دعاءها الخالص، و لم تمض مدّة طويلة حتّى حملت.

ورد فى الأحاديث أنّ اللّه قد أوحى إلى «عمران» أنّه سيهبه ولدا مباركا يشفى المرضى الميؤوس من شفائهم، و يحيى الموتى بإذن اللّه، و سوف يرسله نبيّا إلى بنى إسرائيل. فأخبر عمران زوجته «حنة» بذلك. لذلك عند ما حملت ظنّت أنّ ما تحمله فى بطنها هو

الابن الموعود، دون أن تعلم أنّ ما فی بطنها أم الابن الموعود «مريم» فنذرت ما فی بطنها للخدمة فی بيت اللّه «بيت المقدس». و لكنّها إذ رأتها أنثى ارتبكت و لم تدر ما تعمل، إذ أنّ الخدمة فی بيت اللّه كانت مقصورة على الذكور، و لم يسبق أن خدمت فيه أنثى.

و الآن نباشر بالتفسير من خلاله نتعرّف على تتمّة الأحداث:

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ ....

هـذه إشارة إلى النـذر الـذى نـذرته امرأة عمران و هى حامل بأنّها تهب ابنها خادما فی بيت المقـدس، لأنّها كانت تظنّه ذكرا بموجب البشارة التى أتاها بها زوجها، و لذلک قالت «محرّرا» و لم تقل «محرّرة» و دعت اللّه أن يتقبل نذرها:

فَتَقَبَّلْ مِنِّی إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

«المحرر» مـن التحرير، و كـانت تطلـق فی ذلـک الزمـان على الأبنـاء المعيّنيـن للخدمـة فی المعبـد ليتولّـوا تنظيفه و خـدماته، و ليـؤدّوا عباداتهم فيه وقت فراغهم. و لذلک سمّى الواحد منهم «المحرّر»، إذ هو محرّر من خدمة الأبوين،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۸

و كان ذلک مدعاة لافتخارهم.

قيـل إنّ الصبيـان القـادرين على هـذه الخدمـة كـانوا يقومون بها بإشـراف الأبوين إلى سنّ البلوغ، و من ثمّ كان الأمر يوكل إليهم، إن شاؤوا بقوا، و إن شاؤوا تركوا الخدمة.

و يرى البعض أن إقـدام امرأة عمران على النـذر دليل على أن عمران توفى أيّام حمل زوجته، و إلّا كان من البعيد أن تسـتقل الام بهذا النذر.

فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّی وَضَعْتُها أُنْثى

هذه الآية تشرح حال أم مريم بعد ولادتها، فقد أزعجها أن تلد أنثى، و راحت تخاطب اللّه قائلة: إنّها أنثى، و أنت تعلم أنّ الذكر ليس كالأـنثى فی تحقيق النـذر، فالأـنثى لاـ تسـتطيع أن تؤدّى واجبها فی الخدمـة كما يفعل الـذكر فالبنت بعـد البلوغ لها عادة شـهرية و لا يمكنها دخول المسجد، مضافا إلى أن قواها البدنية ضعيفة، و كذلک المسائل المربوطة بالحجاب و الحمل و غير ذلک. وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى

و يظهر من القرائن فی الآيـة و الأحاديث الواردة فی التفاسـير أنّ هـذا القول وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى قول أمّ مريم، لا قول اللّه كما ذهب إلى ذلک بعض المفسّـرين. و لكن كان ينبغى أن تقول «و ليست الأنثى كالـذكر» باعتبارها قـد ولدت أنثى لا ذكرا. لذلک يمكن أن يكون فی الجملـة تقديم و تأخير، كما نلاحظه فی كلام العرب و غير العرب. و لعلّ ما انتهابها من الكدر و الحزن لوضـعها أنثى جعلها تنطق بهذا الشكل، إذ كانت شديدة الاعتقاد بأنّ ما ستلده ذكر و أنّها ستفى بنذرها فی جعله خادما فی بيت المقدس. و هذا الاعتقاد و التوقّع جعلاها تقدّم الذكر على الأنثى، على الرغم من أنّ أصول تركيب الجمل و جنس المولود يقتضيان تقديم الأنثى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۹

و الجملـة المعترضـة وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَـعَتْ من قول اللّه. أى لم يكن يلزم أن تقول إنّها ولدت أنثى، لأنّ اللّه كان أعلم منها بمولودها منذ انعقاد نطفته و تعاقب مراحل تصوّره فی الرحم.

وَ إِنِّی سَمَّيْتُها مَرْيَمَ ....

يتّضـح من هـذه الجملة أنّ أم مريم هى التى سـمّتها بهـذا الاـسم عنـد ولادتها. و «مريم» بلغتها تعنى «العابـدة». و فی هـذا يظهر منتهى اشتيـاق هـذه الأـمّ الطـاهرة لوقـف وليـدها على خدمـة اللّه. لـذلک طلبت من اللّه- بعـد أن سـمّتها- أن يحفظهـا و نسلـها من وسوسـة الشياطين، و أن يرعاهم بحمايته و لطفه وَ إِنِّی أُعِيذُها بِکَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۰

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۳۷]

اشارة

فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۷)

التّفسیر

تواصل هذه الآیة سرد حکایة مریم. لقد أشرنا من قبل أنّ أمّ مریم لم تکن تصدّق إمکان قبول الأنثی خادمة فی بیت اللّه، لذلک کانت تتمنّی أن تلد مولودا ذکرا، إذ لم یسبق أن اختیرت أنثی لهذا العمل. و لکن الآیة تقول إنّ اللّه قد قبل قیام هذه الأنثی الطاهرة بهذه الخدمة الروحیة و المعنویة، لأوّل مرّة.

یقول بعض المفسّرین: إنّ دلیل قبولها لهذه الخدمة أنّها لم تکن تری العادة الشهریة أثناء خدمتها فی بیت المقدس لکی لا تضطرّ إلی ترک الخدمة، أو أن حضور طعامها من الجنّة إلی محرابها دلیل علی قبولها. و قد یکون قبول النذر و قبول مریم قد أبلغ للأمّ عن طریق الإلهام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۱

و کلمة «أنبتها» إشارة إلی تکامل مریم أخلاقیا و روحیا. کما أنّه یتضمّن نکتة لطیفة هی أنّ عمل اللّه هو «الإنبات» و الإنماء. أی کما أنّ بذور النباتات تنطوی علی استعدادات کامنة تظهر و تنمو عند ما یتعهّدها المزارع، کذلک توجد فی الإنسان کلّ أنواع الاستعدادات السامیة الإنسانیة التی تنمو و تتکامل بسرعة إن خضعت لمنهج المربّین الإلهیّین و لمزارعی بستان الإنسانیة الکبیر، و یتحقّق الإنبات بمعناه الحقیقی.

وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا.

«الکفالة» ضمّ شیء إلی آخر. لذلک یطلق علی من یلتزم رعایة شؤون أحد الأطفال اسم «الکافل» أو «الکفیل»، أی أنّه یضمّ الطفل إلیه. إذا استعملت الکلمة ثلاثیة مجرّدة کانت فعلا لازما، و تتعدّی بنقلها إلی باب الثلاثی المزید «کفّل» أی انتخاب الکفیل لشخص آخر.

فی هذه الآیة یقول القرآن: اختار اللّه زکریّا کی یتکفّل مریم، إذ أنّ أباها عمران قد ودّع الحیاة قبل ولادتها، فجاءت بها أمّها إلی بیت المقدس و قدّمتها لعلماء الیهود و قالت: هذه البنت هدیّة لبیت المقدس، فلیتعهّدها أحدکم، فکثر الکلام بین علماء الیهود، و کان کلّ منهم یرید أن یحظی بهذا الفخر، و فی احتفال خاص- سیأتی شرحه فی تفسیر الآیة ۴۴ من هذه السورة- اختیر زکریّا لیکفلها.

و کلّما شبّت و تقدّم بها العمر ظهرت آثار العظمة و الجلال علیها أکثر إلی حدّ یقول القرآن عنها:

كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً.

«المحراب» هو الموضع الذی یخصّص فی المعبد لإمام المعبد أو لأفراد من النخبة. و ذکروا فی سبب تسمیته بهذا الاسم أوجه کثیرة، أوجهها ثلاثة: أحدها: إنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۲

المحراب من «الحرب» سمّی بذلک لأنّه موضع محاربة الشیطان و الأهواء.

و الآخر: إنّ المحراب صدر المجلس، ثمّ أطلق أیضا علی صدر المعبد. (کان بناء المحراب عند الیهود یختلف عن بنائه عندنا،

فأولئک کانوا یبنون المحراب مرتفعا عن سطح الأرض بعدّهٔ درجات بین حائطین مرتفعین یحفظانه، بحیث کانت تصعب رؤیهٔ من بداخل المحراب من الخارج).

و الثالث: انه یطلق علی کلّ المعبد، و هو المکان الذی یخصّص للعبادهٔ و مجاهدهٔ النفس و الشیطان.

کبرت مریم تحت رعایهٔ زکریّا، و کانت غارقهٔ فی العبادهٔ و التعبّد. بحیث إنّها- کما یقول ابن عبّاس- عند ما بلغت التاسعهٔ من عمرها کانت تصوم النهار و تقوم اللیل بالعبادهٔ، و کانت علی درجهٔ کبیرهٔ من التقوی و معرفهٔ اللّه حتّی أنّها فاقت الأحبار و العلماء فی زمانها[۳۳۶]. و عند ما کان زکریّا یزورها فی المحراب یجد عندها طعاما خاصّا، فیأخذه العجب من ذلک. سألها یوما: یا مَرْیَمُ أَنَّی لَکِ هذا.

فقالت: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ بِغَیْرِ حِسابٍ

الآیهٔ لا تذکر شیئا عن ماهیّهٔ هذا الطعام و من أین جاء، لکنّ بعض الأحادیث الواردهٔ فی تفسیر العیّاشی و غیره من کتب الشیعهٔ و السنّهٔ تفید أنّه کان فاکهٔ من الجنّهٔ فی غیر فصلها تحضر بأمر اللّه إلی المحراب. و لیس ما یدعو إلی العجب فی أن یستضیف اللّه عبدا تقیّا. کما أنّ اعتبار «الرزق» طعاما من الجنّهٔ یتبیّن من القرائن التی نراها فی ثنایا الآیهٔ. فأوّلا- کلمهٔ «رزقا» النکرهٔ دلیل علی أنّ زکریّا لم یعرف نوع هذا الرزق.

و ثانیا جواب مریم التی قالت «من عند اللّه» دلیل آخر. و ثالثا انفعال زکریّا و طلبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۳

ولدا من اللّه- کما نقرأ فی الآیهٔ التالیهٔ- دلیل ثالث علی ذلک.

بید أنّ بعض المفسّرین- مثل صاحب المنار- یرون أنّ «رزقا» تعنی هذا الطعام الدنیویّ المألوف. یقول ابن جریر: إنّ قحطا أصاب بنی إسرائیل یومئذ، و لم یعد زکریّا قادرا علی سدّ جوعهٔ مریم. لذلک اقترعوا فکانت من نصیب رجل نجّار، فأخذ هذا یقتطع من کسبه الطیّب الحلال لیهیّئ الطعام لها، فکان هذا هو الطعام الذی یراه زکریّا فی محرابها و یعجب من وجوده فی تلک الظروف الصعبهٔ و کان جواب مریم یعنی أنّ اللّه قد سخّر لی مؤمنا فأحبّ القیام بهذه الخدمهٔ الشاقّهٔ.

و لکن- کما قلنا- هذا التفسیر لا یتّسق مع القرائن الموجودهٔ فی الآیهٔ، و لا مع الأحادیث الواردهٔ فی تفسیرها، و منها ما ورد فی تفسیر العیّاشی عن الإمام الباقر علیه السّلام ما ملخّصه أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم دخل یوما علی ابنته فاطمهٔ علیها السّلام و هو یعلم أنّها لم تکن تملک طعاما یذکر منذ أیّام، فوجد عندها طعاما وافرا خاصّا، فسألها عنه، فقالت: هو من عند اللّه إنّ اللّه یرزق من یشاء بغیر حساب. فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لعلیّ علیه السّلام: ألا أحدّثک بمثلک و مثلها؟ قال: بلی، قال: مثل زکریّا إذ دخل علی مریم المحراب فوجد عندها رزقا، قال: یا مریم أنّی لک هذا؟ قالت: هو من عند اللّه، إنّ اللّه یرزق من یشاء بغیر حساب ...[۳۳۷].

و فیما یتعلّق بعبارهٔ «بغیر حساب» فقد شرحنا ذلک فی تفسیر الآیهٔ ۲۰۲ من سورهٔ البقرهٔ، و الآیهٔ ۲۷ من هذه السورهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۴

الآیات [سورهٔ آلعمران (۳): الآیات ۳۸ الی ۴۰]

اشارهٔ

هُنالِکَ دَعا زَکَرِیَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ ذُرِّیَّهً طَیِّبَهً إِنَّکَ سَمِیعُ الدُّعاءِ (۳۸) فَنادَتْهُ الْمَلائِکَهُ وَ هُوَ قائِمٌ یُصَلِّی فِی الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ یُبَشِّرُکَ بِیَحْیی مُصَدِّقاً بِکَلِمَهٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَیِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِیًّا مِنَ الصَّالِحِینَ (۳۹) قالَ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ

وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (۴۰)

التّفسير

قلنا إنّ زوجة زكريّا و أمّ مريم كانتا أختين، و كانتا عاقرين، و عند ما رزقت أمّ مريم بلطف من اللّه هذه الذرّية الصالحة، و رأى زكريّا خصائصها العجيبة، تمنّى أن يرزق هو أيضا ذرّية صالحة و طاهرة و تقيّة مثل مريم، بحيث تكون آية على عظمة اللّه و توحيده. و على الرغم من كبر سن زكريّا و زوجته، و بعدهما من الناحية الطبيعيّة عن أن يرزقا طفلا، فإنّ حبّ اللّه و مشاهدة الفواكه الطرية فى غير وقتها فى محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملا بإمكان حصوله فى فصل شيخوخته على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۵

ثمرة الأبوّة، لذلك راح يتضرّع إلى اللّه قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ.

لم يمض وقت طويل حتّى أجاب اللّه دعاء زكريّا.

فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ

و فيما كان يعبد اللّه فى محرابه، نادته ملائكة اللّه و قالت له إنّ اللّه يبشّرك بمولود اسمه يحيى بل أنهم لم يكتفوا بهذه البشارة حتّى ذكروا للمولود خمس صفات:

أوّلا: سوف يؤمن بالمسيح و يشدّ أزره بهذا الإيمان: مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ و «كلمة اللّه» هنا و فى مواضع أخرى من القرآن سيرد شرحها- تعنى المسيح عليه السّلام- و قد جاء فى التاريخ أنّ يحيى كان يكبر عيسى ستة أشهر، و كان أول من آمن به. و إذا كان قد اشتهر بين الناس بالطهر و الزهد، فقد كان لإيمانه هذا بالمسيح تأثير كبير على الناس، فى توجيههم و حثّهم على الإيمان به.

و ثانيا: سيكون من حيث العلم و العمل قائدا للناس وَ سَيِّداً، كما أنّه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة و عن التلوّث بحبّ الدنيا. وَ حَصُوراً.

«الحصور» من الحصر، أى الذى يضع نفسه موضع المحاصرة، أو الذى يمتنع عن الزواج، و إلى هذا ذهب بعض المفسّرين، كما أشير إليه فى بعض الأحاديث.

و الرابعة و الخامسة من مميّزاته أيضا أنّه سيكون «نبيا» (و جاءت هذه الكلمة بصيغة النكرة لدلالة على العظمة) و أنّه من الصالحين.

فلما سمع زكريا بهذه البشارة غرق فرحا و سرورا، و لم يمتلك نفسه فى إخفاء تعجبّه من ذلك، فقال رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۶

فأجابه اللّه تعالى قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ فلما سمع زكريا هذا الجواب الموجز الذى يشير إلى نفوذ إرادته تعالى و مشيئته، قنع بذلك.

بحوث

۱- هل العزوبة فضيلة؟

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: إذا كان «الحصر» هو العزوف عن الزواج، فهل هذا محمدة يمتاز بها الإنسان، بحيث يوصف بها يحيى؟

فی الجواب نقول: لیس هناک ما یدلّ علی أنّ «الحصر» المذکور فی الآیة یقصد به العزوف عن الزواج، فالحدیث المنقول بهذا الخصوص لیس موثوقا به من حیث أسانیده. فلا- یستبعد أن یکون المعنی هو العزوف عن الشهوات و الأهواء و حبّ الدنیا، و فی صفات الزاهدین.

ثانیا: من المحتمل أن یکون یحیی- مثل عیسی- قد عاش فی ظروف خاصّة اضطرّته إلی الترحال من أجل تبلیغ رسالته، فاضطرّ إلی حیاة العزوبة. و هذا لا یمکن أن یکون قانونا عامّا للناس. فإذا مدحه اللّه لهذه الصفة فذلک لأنّه تحت ضغط ظروفه عزف عن الزواج، و لکنّه استطاع فی الوقت نفسه أن یحصن نفسه من الزلل و أن یحافظ علی طهارته من التلوّث. إنّ قانون الزواج قانون فطری، فلا یمکن فی أیّ دین أن یشرع قانون ضدّه. و علیه فالعزوبة لیست صفة محمودة، لا فی الإسلام و لا فی الأدیان الاخری.

۲- یحیی و عیسی

«یحیی» من الحیاة و تعنی البقاء حیّا، و قد اختیرت هذه الکلمة اسما لهذا النبیّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۷

العظیم، و المقصود بالحیاة هنا هی الحیاة المادّیة و الحیاة المعنویة فی نور الإیمان و مقام النبوّة و الارتباط باللّه. هذا الاسم قد اختاره اللّه له قبل أن یولد، کما جاء فی الآیة ۷ من سورة مریم یا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْیی لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا و من هذا یتبیّن أیضا أنّ أحدا لم یسبق أن سمّی بهذا الاسم.

قلنا فیما سبق أنّ زکریّا طلب من ربّه الذرّیة بعد أن شاهد ما نالته مریم من عطاء معنوی سریع. و علی أثر ذلک وهب اللّه له ولدا شبیها بعیسی بن مریم فی کثیر من الصفات: فی النبوّة و هما صغیران، و فی معنی اسمیهما (عیسی و یحیی کلاهما بمعنی البقاء حیّا)، و فی تحیة و سلام اللّه علیهما فی المراحل الثلاث: الولادة، و الموت، و الحشر و جهات اخری.

۳- فی هذه الآیة یصف زکریّا شیخوخته بقوله وَ قَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ و لکنه فی الآیة ۹ من سورة مریم یقول وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیًّا. فالعبارة الأولی تعنی أنّ الکبر قد وصلنی و الثانیة تعنی أنّی وصلت الکبر، و لعلّ هذا الاختلاف فی التعبیر یعود إلی أنّ الإنسان- کلّما تقدّم نحو الکبر- یتقدّم الکبر و الموت نحوه أیضا. کما

قال علیّ علیه السّلام «إذا کنت فی إدبار و الموت فی إقبال فما أسرع الملتقی»

[۳۳۸].

۴- «الغلام» الفتی الذی طرّ شاربه. و «عاقر» من «عقر» بمعنی الأصل و الأساس. أو بمعنی الحبس. و وصف المرأة التی لا تلد بأنّها عاقر یعنی أنّها وصلت إلی عقرها و انتهت، أو أنّها حبست عن الولادة.

و قد یسأل سائل: لماذا استولی العجب علی زکریّا مع أنّه عالم بقدرة اللّه التی لا تنتهی؟

یتّضح الجواب بالرجوع إلی الآیات الأخری. کان یرید أن یعرف کیف یمکن لامرأة عاقر- خلفت وراءها سنوات عدیدة بعد سنة الیأس- أن تحمل و تلد؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۸

ما الذی یتغیّر فیها؟ أ ترجع إلیها العادة الشهریة کسائر النساء المتوسّطات العمر؟

أم أنّها ستحمل بصورة اخری؟

ثمّ إنّ الإیمان بقدرة اللّه غیر «الشهود و المشاهدة». زکریّا کان یرید أن یبلغ إیمانه مبلغ الشهود، مثل إبراهیم الذی کان مؤمنا بالمعاد، و لکنّه طلب المشاهدة.

کـان یریـد أن یصـل إلی هـذه المرحلـة من الإیمـان. و أنّه لأمر طبیعیّ أن یفکّر الإنسان، إذا ما صادفه أمر خارق للقوانین الطبیعیـة فی کیفیّة حصول ذلک، و یودّ لو أنّه رأی دلیلا حسّیا علی ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۹

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۴۱]

اشارة

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِی آیَةً قالَ آیَتُکَ أَلاَّ تُکَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَیَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَ اذْکُرْ رَبَّکَ کَثِیراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکارِ (۴۱)

التّفسیر

هنا یطلب زکریّا من اللّه إمارة علی بشارته بمجیء یحیی. إنّ إظهار دهشته- کما قلنا- و کذلک طلب علامة من اللّه، لا یعنیان أبدا أنّه لا یثق بوعد اللّه، خاصّة و أنّ ذلک الوعد قد توکّد بقوله: کَذلِکَ اللَّهُ یَفْعَلُ ما یَشاءُ. إنّما کان یرید زکریّا أن یتحوّل إیمانه بهذا إیمانا شهودیا. کان یرید أن یمتلئ قلبه بالاطمئنان، کما کان إبراهیم یبحث عن اطمئنان القلب و الهدوء الناشئین عن الشهود الحسّی.

قالَ آیَتُکَ أَلَّا تُکَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَیَّامٍ إِلَّا رَمْزاً.

«الرمز» إشـارة بالشـفة، و الصوت الخفی. ثمّ اتّسع المعنی فی الحوار العـادی، فـأطلق علی کـلّ کلاـم و إشارة غیر صـریحة إلی أمر من الأمور.

أجـاب اللّه طلب زکریّا هـذا أیضـا، و عیّن له علامـة، و هی أنّ لسانه کفّ عن الکلام مـدّة ثلاثـة أیّام بغیر أیّ نقص طبیعی، فلم یکن قادرا علی المحادثة العادیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۰

و لکن لسانه کان ینطلق إذا ما شـرع یسبّح اللّه و یـذکره. هـذه الحالـة العجیبة کانت علامة علی قدرة اللّه علی کلّ شـیء. فاللّه القادر علی فـکّ لجـام اللسـان عنـد المباشـرة بـذکره، قادر علی أن یفکّ عقم رحم امرأة فیخرج منه ولـدا مؤمنا هو مظهر ذکر اللّه. و هکـذا تتّضح العلاقة بین هذه العلامة و ما کان یریده زکریّا.

هذا المضمون یرد فی الآیات الأولی من سورة مریم أیضا.

و فی الوقت نفسه یمکن أن تحمل هـذه العلامـة معنی آخر فی طیّاتها، و هو أنّ إلحاح زکریّا علی طلب العلامة و الآیة- و إن لم یکن أمرا محرّما و لا مکروها- کان من نوع «ترک الأولی». لذلک قرّر له علامة، إضافة إلی ما فیها من بیان لقدرة اللّه، طافحة بالإشارة إلی ترکه للأولی.

یتبادر هنا للذهن سؤال: أ یتّسق بکم نبیّ مع مقام النبوّة و واجب الدعوة و التبلیغ؟

لیس من الصـعب الإجابة علی هذا السؤال، إذ أنّ هذه الحالة لا تتّسق مع مقام النبوّة عند استمرارها مدّة طویلة. أمّا حدوثها لفترة قصیرة یستطیع النبیّ خلالها اعتزال الناس و التوجّه إلی عبادة اللّه، فلا مانع فیه، کما أنّه خلال هـذه المـدّة یسـتطیع أن یخاطب الناس بالإیماء فی الأمور الضـروریة، أو بتلاوة آیات اللّه، التی تعتبر ذکرا للّه، و تبلیغا للرسالـة الإلهیـة. و هـذا ما قام به فعلا، إذ کان یـدعو الناس إلی ذکر اللّه بالإشارة.

وَ اذْکُرْ رَبَّکَ کَثِیراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکارِ.

«العشـی» تطلق عـادة علی أوائل ساعات اللیل، کما یقال «الإبکار» للساعات الأولی من النهار. و قیل إنّ «العشـی» هو من زوال الشـمس

حتّی غروبها، و «الإبکار» من طلوع الفجر حتّی الظهر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۱

و الراغب الاصفهانی یقول فی «المفردات»: إنّ «العشی» من زوال الشمس حتّی الصباح، و «الإبکار» أوائل النهار.

و فی الآیـۀ یأمر اللّه زکریّا بالتسبیـح. إنّ هـذا التسبیح و الذکر علی لسان لا ینطق موقتا دلیل علی قدرة اللّه علی فتح المغلق، و کذلک هو أداء لفریضة الشکر للّه الذی أنعم علیه بهذه النعمة الکبری.

من الآیـات الأولی لسورة مریم یستفاد أنّ زکریّا لم ینفّـذ هـذا البرنامـج وحـده، بل طلب من الناس إیماء أن یسبّحوا اللّه صـباح مساء شکرا علی ما أنعم علیهم من موهبة ترتبط بمصیر مجتمعهم و من قائد کفوء مثل یحیی. و أضحت هذه الأیام أیّام شکر و تسبیح عام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۲

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۴۲ الی ۴۳]

اشارة

وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِکَةُ یا مَرْیَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاکِ وَ طَهَّرَکِ وَ اصْطَفاکِ عَلی نِساءِ الْعالَمِینَ (۴۲) یا مَرْیَمُ اقْنُتِی لِرَبِّکِ وَ اسْجُدِی وَ ارْکَعِی مَعَ الرَّاکِعِینَ (۴۳)

التّفسیر

الانتخاب الإلهی لمریم:

بعد الإشارات العابرة إلی مریم فی الآیات السابقة التی دارت حول عمران و زوجته، هذه الآیة تتحدّث بالتفصیل عن مریم.

تقول الآیة إنّ الملائکة کانوا یکلّمون مریم: وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِکَةُ یا مَرْیَمُ ....

مـا أعظم هـذا الافتخـار بأن یتحـدّث الإنسان مع الملائکـة و یحـدثونه. و خاصـة إذا کانت المحادثـة بالبشارة من اللّه تعالی باختیاره و تفضـیله. کما فی مورد مریم بنت عمران. فقـد بشـرتها الملائکـة بأنّ اللّه تعالی قد اختارها من بین جمیع نساء العالم و طهّرها و فضـلها بسبب تقواها و إیمانها و عبادتها.

و الجدیر بالذکر أن کلمة «اصطفاک» تکررت مرتین فی هذه الآیة، ففی المرّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۳

الاولی کانت لبیان الاصطفاء المطلق، و فی الثانیة إشارة إلی افضلیّتها علی سائر نساء العالم المعاصرة لها.

هذا یعنی أن مریم کانت أعظم نساء زمانها، و هو لا یتعارض مع کون سیّدة الإسلام فاطمة الزهراء علیها السّلام سیّدة نساء العالمین، فقد جاء فی أحادیث متعدّدة عن رسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و الإمام الصادق علیه السّـلام قولهما: «أمّا مریم فکانت سـیّدة نساء زمانها. أمّا فاطمة فهی سیّدة نساء العالمین من الأوّلین و الآخرین»

[۳۳۹].

کما أنّ کلمـة «العالمین» لا تتعارض مع هـذا الکلام أیضا، فقـد وردت هـذه الکلمـة فی القرآن و فی الکلام العام بمعنی الناس الـذین یعیشون فی عصـر واحد، کما جاء بشأن بنی إسرائیل وَ أَنِّی فَضَّلْتُکُمْ عَلَی الْعالَمِینَ ۳۴۰]. فلا شکّ أنّ تفضیل مؤمنی بنی إسرائیل کان علی أهل زمانهم.

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ

هذه الآية تكملة لكلام الملائكة مع مريم. فبعد أن بشّرها بأنّ اللّه قد اصطفاها، قالوا لها: الآن اشكرى اللّه بالركوع و السجود و الخضوع له اعترافا بهذه النعمة العظمى.

نلاحظ هنا أنّ الملائكة يصدرون إلى مريم ثلاثة أوامر:

الأول: القنوت أمام اللّه. و الكلمة- كما سبق أن قلنا- تعنى الخضوع و دوام الطاعة.

الثانى: السجود، الذى هو أيضا دليل الخضوع الكامل أمام اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۴

و الثالث: الركوع، و هو أيضا خضوع و تواضع.

أمّا القول: وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ فقد يكون إشارة إلى صلاة الجماعة، أو طلب التحاقها بجموع المصلّين الراكعين أمام اللّه. أى اركعى مع عباد اللّه المخلصين الذين يركعون للّه.

فى هذه الآية، الإشارة إلى السجود تسبق الإشارة إلى الركوع، و ليس معنى هذا أنّ سجودهم قبل ركوعهم فى صلاتهم، بل المقصود هو أداء العبادتين دون أن يكون القصد ذكر ترتيبهما، كما لو كنّا نطلب من أحدهم أن يصلّى، و أن يتوضّأ، و أن يتطهّر، إذ يكون قصدنا أن يقوم بكلّ هذه الأمور. إنّ العطف بالواو لا يقتضى الترتيب. ثمّ إنّ الركوع و السجود أصلا بمعنى التواضع و الخضوع، و ما حركتا الركوع و السجود المألوفان سوى بعض مصاديق ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۵

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۴۴]

اشارة

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۴۴)

التّفسير

كفالة مريم:

هذه الآية تشير إلى جانب آخر من قصة مريم و تقول بأن ما تقدّم من قصة مريم و زكريّا إنّما هو من أخبار الغيب ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ لأنّ هذه القصة بشكلها الصحيح و الخالى من شوائب الخرافة لا توجد فى أىّ من الكتب السابقة. مضافا إلى أن سند هذه القصة هو وحى السماء.

ثمّ تضيف الآية: وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ أى أنك لم تكن حاضرا حينذاك. بل جاءك الخبر عن طريق الوحى.

سبق أن قلنا إن أمّ مريم بعد أن وضعتها لفّتها فى قطعة قماش و أتت بها إلى المعبد و خاطبت علماء بنى إسرائيل و أشرافهم بقولها: هذه المولودة قد نذرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۶

لخدمة بيت اللّه، فليتعهّد أحدكم بتربيتها. و لمّا كانت مريم من أسرة معروفة «آل عمران»، أخذ علماء بنى إسرائيل يتنافسون فى الفوز

بتعهّد تربیتها. و أخیرا اتّفقوا على إجراء القرعة بینهم، فجاءوا إلى شاطئ نهر و أحضروا معهم أقلامهم و عصیّهم التی كانوا یقترعون بها. كتب كلّ واحد منهم اسمه على قلم من الأقلام، و ألقوها فی الماء، فكلّ قلم غطس فی الماء خسر صاحبه، و الرابح یكون من یطفو قلمه على الماء: غطس القلم الذی كتب علیه اسم زكریا، ثمّ عاد و طفا على سطحه، و بذلک أصبحت مریم فی كفالته، و قد كان فی الحقیقة أجدرهم بذلک، فهو نبی و زوج خالة مریم.

الاقتراع الحلّ الأخیر:

یستفاد من هذه الآیة و الآیات الأخرى الخاصّیة بیونس فی سورة الصافّات أنّ من الممكن اللجوء إلى القرعة لحلّ النزاع و الخصام الذی یصل إلى طریق مسدود بحیث لا یكون هناک أیّ حلّ مقبول من أطراف النزاع. هذه الآیة بالإضافة إلى الأحادیث الواردة عن أئمّة الإسلام كانت سببا فی اعتبار القرعة قاعدة فقهیة یجری بحثها فی الكتب الإسلامیة. و لكن شرط الالتجاء إلى القرعة هو الوصول إلى طریق مسدود تماما، كما قلنا: لذلک إذا كان من الممكن العثور على طریق لحلّ مشكلة ما فلا یجوز اللجوء إلى القرعة.

لیس للاقتراع طریقة خاصّیة فی الإسلام، فیجوز اتّخاذ العصى، أو الحصى، أو الورق و غیر ذلک وسیلة له، على أن لا یكون فیه أیّ تواطؤ.

من الواضح أنّ الإسلام لا یجیز الربح و الخسارة عن طریق القرعة، لأنّ الربح و الخسارة لیسا من المشاكل التی یستعصى حلّها لیلجأ فیها إلى القرعة. لذلک فالربح الناشئ عن القرعة غیر مشروع فی الإسلام.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۷

لا بدّ من الإشارة أیضا إلى أنّ القرعة لا تقتصر على حلّ المنازعات و الاختلافات بین الناس، بل یمكن بها حلّ المشاكل المستعصیة الأخرى أیضا.

فمثلا، كما جاء فی الأحادیث: وطأ شخص شاة، ثمّ أطلقها بین الغنم بحیث لا یمكن التعرّف علیها، فیجب عندئذ إخراج واحدة منها بطریق القرعة و الامتناع عن أكل لحمها، و ذلک لأنّ الامتناع عن أكل لحمها جمیعا یشكل ضررا كبیرا، كما أنّ أكل لحومها جمیعا غیر جائز. فهنا تحلّ القرعة المشكلة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۸

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۴۵ الى ۴۶]

اشارة

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ یا مَرْیَمُ إِنَّ اللَّهَ یُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِیحُ عِیسَى ابْنُ مَرْیَمَ وَجِیهاً فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِینَ (۴۵) وَ یُكَلِّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحِینَ (۴۶)

التّفسیر

هذه الآیة تبیّن حادث ولادة المسیح الذی یبدأ بتقدیم الملائكة البشارة لمریم بأمر من اللّه قائلین لها إنّ اللّه سوف یهب لک ولدا اسمه المسیح عیسى بن مریم، و سیكون له مقام مرموق فی الدنیا و الآخرة، و هو مقرّب عند اللّه.

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ یا مَرْیَمُ إِنَّ اللَّهَ یُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِیحُ عِیسَى ابْنُ مَرْیَمَ

و لا بدّ من الإشارة هنا إلى بضع مسائل:

۱- فی هذه الآیة و فی آیتین أخریین یوصف المسیح بأنّه «الکلمة» و هو تعبیر موجود فی کتب العهد الجدید أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۹

کلام المفسّرین کثیر فی بیان سبب إطلاق هذه الکلمة علی المسیح. إلّا أنّ أقربها إلی الذهن هو ولادة المسیح الخارقة للعادة و التی تقع ضمن: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ [۳۴۱].

أو لأنّ البشارة بولادته قد جاءت فی کلمة إلی أمّه.

کما أنّ لفظة «الکلمة» وردت فی القرآن بمعنی «المخلوق»: قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ کَلِماتُ رَبِّی وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً[۳۴۲].

ففی هذه الآیة «کلمات ربی» هی مخلوقات اللّه. و لمّا کان المسیح أحد مخلوقات اللّه العظیمة فقد سمّی بالکلمة، و هذا یتضمّن أیضا ردّا علی الذین یقولون بالوهیّة المسیح علیه السّلام.

۲- «المسیح» بمعنی الماسح أو الممسوح. و إطلاقها علی عیسی إما لأنّه کان یمسح بیده علی المرضی المیؤوس منهم فیشفیهم بإذن اللّه، إذ کانت هذه الموهبة قد خصّصت له منذ البدایة، و لذلک أطلق اللّه علیه اسم المسیح قبل ولادته.

أو لأنّ اللّه قد مسح عند الدنس و الإثم و طهّره.

۳- یصرّح القرآن فی هذه الآیة بأنّ عیسی هو ابن مریم، و هو تصریح یدحض مفتریات المفترین عن الوهیّة المسیح. إذ أنّ من یولد من امرأة و تطرأ علیه جمیع التحوّلات التی تطرأ علی الجنین البشری و الکائن المادّی لا یمکن أن یکون إلها، ذلک الإله المنزّه عن کلّ أنواع التغیّرات و التحوّلات.

تشیر الآیة التی بعدها إلی إحدی فضائل و معاجز عیسی علیه السّلام و هی تکلّمه فی المهد وَ یُکَلِّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِینَ فقد جاء فی سورة مریم أنّه لدفع التهمة عن أمّه تکلّم فی المهد کلاما فصیحا أعرب فیه عن عبودّیته للّه، و عن کونه نبیّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۰

و لمّا لم یکن من الممکن أن یولد نبیّ فی رحم غیر طاهرة، فإنّه یؤکد بهذا الإعجاز طهارة أمّه.

«المهد» هو کلّ مکان یعدّ لنوم المولود حدیثا، سواء أ کان متحرّکا أم ثابتا و الظاهر من آیات سورة مریم أنه علیه السّلام تکلّم منذ بدایة تولده ممّا یستحیل علی کلّ طفل أن یقوم به فی هذا العمر عادة، و بهذا کان کلامه فی المهد معجزة کبیرة. و لکن الکلام فی مرحلة الکهولة[۳۴۳]. امر عادی. و لعلّ ذکره فی الآیة أعلاه مقارنا للحدیث فی المهد إشارة أن کلامه فی المهد مثل کلامه فی الکهولة و الکمال لم یجانب الصواب و الحقّ و الحکم.

و تشیر الآیة کذلک إلی أنّ المسیح لا ینطق إلّا بالحقّ منذ ولادته حتّی کهولته، و أنّه یواصل الدعوة إلی اللّه و إرشاد الناس و لا یفتر عن ذلک لحظة واحدة.

و لعلّ إیراد هذا التعبیر عن المسیح ضرب من التنبؤ بعودة المسیح إلی الدنیا، إذ أنّنا نعلم من کتب التاریخ أنّ عیسی علیه السّلام قد رفع من بین الناس إلی السماء و هو فی الثالثة و الثلاثین من عمره. و هذا یتّفق مع کثیر من الأحادیث الواردة عن عودة المسیح فی عهد الإمام المهدی علیه السّلام و یعیش معه بین الناس و یؤیّده.

و بعد ذکر مناقب المسیح المختلفة یضیف إلیها وَ مِنَ الصَّالِحِینَ و من هذا یتّضح أنّ الصلاح من أعظم دواعی الفخر و الاعتزاز، و تنضمّ تحت لوائه القیم الإنسانیة الأخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۱

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۴۷]

اشارة

قالَتْ رَبِّ أَنَّى یَکُونُ لِی وَلَدٌ وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ قالَ کَذلِکِ اللَّهُ یَخْلُقُ ما یَشاءُ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۴۷)

التّفسیر

إنّنا نعلم أنّ هذه الدنیا هی دنیا العلل و الأسباب، و أنّ اللّه قد دبّر أمر الخلق بحیث إنّ خلق کلّ کائن یتمّ ضمن سلسلة من العوامل. فلکی یولد إنسان قرّر اللّه أن یکون ذلک عن طریق الاتّصال الجنسی، و نفوذ الحیمن فی البویضة. لذلک حقّ لمریم أن تصیبها الدهشة و أن تتقدّم بسؤالها: کیف یمکن أن تحمل و تلد و یکون لها ولد بغیر أن یکون لها أیّ اتّصال جنسی مع أیّ بشر؟ قالَتْ رَبِّ أَنَّى یَکُونُ لِی وَلَدٌ وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ.

فجاءتها الملائکة بأمر ربّها تخبرها بأنّ اللّه یخلق ما یشاء و کیفما یشاء، فنظام الطبیعة هذا من خلق اللّه و هو یأتمر بأمره، و اللّه قادر علی تغییر هذا النظام وقتما یشاء، فیخلق وفق أسباب و عوامل أخری غیر عادیة ما یشاء: کَذلِکِ اللَّهُ یَخْلُقُ ما یَشاءُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۵۰۲

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۲

ثمّ لتوکید هذا الأمر و إنهائه یقول إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ

إنّ تعبیر «کن فیکون» إشارة إلی سرعة الخلق.

بدیهیّ أن لفظة «کن» تشیر فی الحقیقة إلی إرادة اللّه الحاسمة التی لا- یعتورها الأخذ و الرد. أی أنّه ما إن یشاء أمرا و یصدر أمره بالخلق حتّی تتحقّق مشیئته فی عالم الوجود.

من الجدیر بالالتفات أنّه بشأن خلق عیسی قال: «یخلق» و لکنّه بشأن خلق یحیی قبل بضع آیات قال: «یفعل». و لعلّ هذا الاختلاف فی التعبیر ناشئ من اختلاف طریقة خلق هذین النبیّین، فأحدهما خلق بطریقة طبیعیة، و الآخر خلق بطریقة خارقة للطبیعة. و هناک ملاحظة اخری و هی أنّ هذه الآیات تذکر فی بدایتها محادثة الملائکة مع مریم. و هنا محادثتها مع اللّه عزّ و جلّ، و کأنها بلغ بها الوجد و الجذبة الإلهیّة أن زالت الوسائط و اتّصلت مع مبدأ العزة، فأخذت تحدثه و تسمع منه مباشرة. (و طبعا لا إشکال فی تکلّم غیر الأنبیاء مع اللّه تعالی إذا لم یکن بصورة الوحی).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۳

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۴۸ الی ۴۹]

اشارة

وَ یُعَلِّمُهُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ (۴۸) وَ رَسُولاً إِلی بَنِی إِسْرائِیلَ أَنِّی قَدْ جِئْتُکُمْ بِآیَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ أَنِّی أَخْلُقُ لَکُمْ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ فَأَنْفُخُ فِیهِ فَیَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْیِ الْمَوْتی بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۴۹)

التّفسیر

بقیة امتیازات المسیح علیه السّلام:

بعـد أن ذکرت الآیات السابقة أربع صـفات للمسـیح علیه السّـلام (وجیها فی الدنیا و الآخرة و من المقربین و یکلم الناس فی المهد، و من الصالحین) شرعت هاتان الآیتان بذکر صفتین أخریین من صفات هذا النبی العظیم، فالأولی تقول:

وَ یُعَلِّمُهُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ ففی البدایة تشیر إلی تعلیمه الحکمة و العلم بشکل عام، ثمّ تبیّن مصداقین من مصادیق الکتاب و الحکمة، و هما التوراة و الإنجیل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۴

إنّ الـذین یختـارهم اللّه لقیادة الناس و هـدایتهم، لا بـدّ أن یکونوا فی أعلی درجـة من العلم و المعرفـة و أن یقـدّموا أسـمی التعالیم و القوانین البنّاءة، ثمّ بعـد ذلـک علیهم أن یظهروا أدلّـة واضـحة علی علاقتهم باللّه، لتوکیـد مهمّتهم. و بهـذین الوسـیلتین تکتمل عملیة هدایـة النـاس، و فی الآیـات أعلاه تمت الإشارة إلی هـذین الأمرین. ففی الأولی کان الکلام عن علم المسـیح و کتبه السـماویة. و فی الآیة الثانیة إشارة إلی معجزاته العدیدة. ثمّ تبیّن الهدف من کلّ ذلک و هو هدایة بنی إسرائیل المنحرفین وَ رَسُولًا إِلی بَنِی إِسْرائِیلَ من الجـدیر بالـذکر أنّ الآیـة تفید أنّ رسالة عیسـی کانت موجّهة إلی بنی إسـرائیل فقط. و هذا لا یتنافی مع کونه من أولی العزم، لأنّ أولی العزم هم الأنبیـاء الـذین جاؤوا بـدین جدیـد، حتّی و إن لم یکن عالمیّ الرسالـة. و قـد جاء فی تفسیر «نور الثقلین» حـدیث عن اقتصار رسالة عیسی علی بنی إسرائیل ۳۴۴].

إلّا أنّ بعض المفسّـرین یرون احتمال عالمیـة رسالـة المسـیح، و أنّها لم تکن محصورة ببنی إسـرائیل، علی الرغم من أنّ بنی إسـرائیل کانوا علی رأس الذین أرسل إلیهم لهدایتهم. یورد المرحوم العلّامة المجلسـی فی «بحار الأنوار» أخبارا عن أولی العزم من الأنبیاء تؤیّد أنّها کانت رسالات عالمیة[۳۴۵].

ثمّ تضـیف الآیـة أَنِّی قَدْ جِئْتُکُمْ بِآیَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ و لیست آیـة واحـدة، بل آیات عدیـدة (لأنّ التنوین جاء هنا لبیان عظمة هذه الآیة، لا لبیان وحدتها».

و لمّا کانت دعوة الأنبیاء فی الحقیقة دعوة إلی حیاة حقیقیة، فإنّ هذه الآیة- عند بیان معجزات السـیّد المسیح علیه السّلام- تبدأ بذکر بثّ الحیـاة فی الأموات بإذن اللّه، و تقول علی لسان المسـیح علیه السّـلام أَنِّی أَخْلُقُ لَکُمْ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ فَأَنْفُخُ فِیهِ فَیَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِ اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۵

إنّ قضـیة إحیـاء الموتی التـدریجی بـإذن اللّه لیست عویصـة، لأنّنـا نعلم أنّ جمیع الکائنـات الحیّـة مخلوقـة من التراب و المـاء، إلّا أنّ المعجزة فی أن هذا الخلق الذی تحقّق علی امتداد سنوات طویلة. فما الذی یمنع من أن یکثّف اللّه تلک العوامل و الأسباب بحیث تتمّ مراحل الخلق بسرعة فائقة، و یتحوّل الطین إلی کائن حی؟

بدیهیّ أنّ تحقّق هذا الأمر فی ذلک المحیط، و فی أی محیط آخر، سند حیّ؟

و دلیل واضح علی علاقة صاحب المعجزة بعالم ما وراء الطبیعیة، و علی قدرة اللّه اللامتناهیة.

ثمّ تشیر إلی معالجـة الأـمراض الصـعبة العلاج أو التی لا علاج لها، و تقول علی لسانه: وَ أُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ ۳۴۶] وَ أُحْیِ الْمَوْتی بِإِذْنِ اللَّهِ لا شکّ أنّ القیام بکلّ هذه الأعمال و خاصّة لدی علماء الطبّ فی ذلک الزمان کان من المعجزات التی لا یمکن إنکارها.

بعـد ذلک تشـیر إلی إخباره عن أسـرار الناس الخافیة، فلکلّ امرئ فی حیاته بعض الأسـرار التی لا یعرف الآخرون شـیئا عنها. فإذا جاء من یخبرهم بما أکلوه، أو ما ادّخروه، فهذا یعنی أنّه یسـتقی معلوماته من مصدر غیبی: وَ أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ و

أخيرا يقول إنّ هذه كلّها دلائل صادقة للذين يؤمنون منكم: إِنَّ فِى ذلِکَ لَآيَةً لَکَمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

بحوث

١- أ كانت معجزات المسيح عجيبة؟

يصرّ بعض المفسّرين- مثل صاحب المنار- على تأويل المعجزات التى ذكرها القرآن للمسيح بشكل من الأشكال. من ذلك قولهم إنّ المسيح اكتفى بمجرّد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٥٠٦

الادّعاء بأنّه يفعل كـذا و كذا بإذن اللّه، و لكنّه لم يفعل منها شيئا أبدا! فإذا كان هذا الرأى قابلا للنقاش هنا، فإنّ ما جاء فى الآية ١١٠ من سورة المائـدة لاـ مجال فيه لأىّ نقاش: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ... لأنّ الآيـة تقول صـراحة إنّ واحـدة من نعم اللّه عليك أنّك كنت تصنع من الطين طيرا حيّا بإذن اللّه.

إنّ الإصـرار على أمثال هـذه التأويلات لا موجب له أبـدا. لأنّه إذا كان الهدف إنكار أعمال الأنبياء الخارقة للعادة، فإنّ القرآن يصـرّح بها فى كثير من المواضع، فإذا استطعنا- فرضا- أن نؤوّل المعجزات فكيف بسائر المعجزات التى لا يمكن تأويلها؟

ثمّ إنّنا إذا كنا نقول إنّ اللّه هو الذى يحكم قوانين الطبيعة، و ليست هى التى تحكمه، فما الذى يمنع هذه القوانين لطبيعية أن تتغيّر بأمر منه فى ظروف استثنائية فتظهر حوادث بطرق غير طبيعية.

أمّا إذا تصوّر هؤلاء أن ذلك يتعارض مع وحدة أفعال اللّه و خالقيّته و كونه لا شـريك له، فإنّ القرآن قد أجاب على هذا. فوقوع هذه الحوادث أينما وقعت مشـروط بأمر اللّه، أى أنّ أحـدا بقواه الخاصّـة غير قادر على القيام بأمثال هـذه الأعمال إلّا إذا شاء، و بإمـداد من قدرته اللامتناهية و هذا هو التوحيد عينه، لا الشرك.

٢- الولاية التكوينية

تفيـد هذه الآية و آيات أخرى سوف نتطرّق إليها- إن شاء اللّه- أنّ رسل اللّه و أولياءه يسـتطيعون بإذن منه و بأمره- إذا اقتضـى الأمر- أن يتـدخّلوا فى عالم الخلق و التكوين، و أن يحـدثوا ما يعتبر خارقا للقوانين الطبيعيـة. فاسـتعمال أفعال مثل «أبرئ» و «أحيى الموتى» و بضمير المتكلّم تدلّ على أنّ هذه الأفعال من عمل الأنبياء أنفسهم، و أنّ القول بأنّ هذه الأفعال كانت تقع بسبب دعائهم فقط هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص: ٥٠٧

قول لا يقوم عليه دليل، بل أنّ ظاهر الآيات يدلّ على أنّهم كانوا يتصرفون بعالم التكوين و يقومون بتلك الأفعال.

و لكن لكى لاـ يتصوّر أحـد أنّ الأنبيـاء و الأولياء كان لهم اسـتقلال فى العمل، و أنّهم أقاموا جهازا للخلق فى مقابل جهاز خلق اللّه، و كـذلك لكى لا يكون هناك أىّ احتمال للشـرك و للعبادة المزدوجـة، تكرّر قول «بإذن اللّه»، (تكرّر فى هـذه الآية مرّتين، و فى الآية ١١٠ من سورة المائدة أربع مرّات).

و ما الولاية التكويتيّة إلّا القول بأنّ الأنبياء و الأئمّة يستطيعون- إذا لزم الأمر- أن يتصرّفوا فى عالم الخلق بإذن اللّه. و هذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعيّة، أى إدارة الناس و حكمهم و نشر قوانين الشريعة بينهم و دعوتهم إلى اللّه و هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

و بـذلك يتضـح جواب الـذين ينكرون ولايـة أهل اللّه التكوينيـة يعتبرونها ضـربا من الشـرك. فما من أحـد يقول بأنّ للأنبياء و الأئمّة

جهازا للخلق مستقلا فى قبال اللّه. إنّما هم يفعلون ما يفعلون بإذن اللّه و بأمر منه. غير أنّ منكرى الولاية التكوينية يقولون إنّ مهمّة الأنبياء تنحصر فى الدعوة إلى اللّه و إبلاغ رسالته و أحكامه، و قد يتوسّلون أحيانا بالدعاء إلى اللّه فى بعض الأمور التكوينيّة، و أنّ هذا هو كلّ ما يقدرون عليه، مع أنّ هذه الآية و الآيات الأخرى تفيد غير ذلك.

كما يستنتج من هذه الآية أنّ كثيرا من معجزاتهم- على الأقل- قد فعلوها بأنفسهم، و إن كان ذلك بإذن اللّه و بعون من القدرة الإلهية. فى الواقع يمكن القول بأنّ المعجزة من عمل الأنبياء- لأنّهم هم الذين يقومون بها- كما هى من عمل اللّه لأنّها تتمّ بإذنه و بالاستعانة بقدرته.

۳- الجدير بالالتفات هنا إن تكرار القول «بإذن اللّه» و الاعتماد على مشيئته فى هذه الآية من أجل أن لا يبقى عذر لمدعى الوهية المسيح، و لكيلا يعتبره الناس ربّا، أما عدم تكرارها فى الأخبار بالغيب لوضوح الأمر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۸

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۰ الى ۵۱]

اشارة

وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۵۰) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۵۱)

التّفسير

هذه الآية جاءت على لسان المسيح عليه السّلام و لبيان بعض اهداف النبوّة حيث يقول: جئت أؤكّد لكم التوراة و أثبت أصولها و مبادئها وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ كما جئت لأرفع الحظر الذى فرض عليكم، بالنسبة لبعض الأشياء، فى دين موسى بسبب عصيانكم- مثل منع لحم الأباعر، و بعض شحوم الحيوانات، و بعض الطيور، و الأسماك- وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

و سوف نجد فى تفسير الآية ۱۶۰ من سورة النساء أنّه بسبب عناد بعض جماعات اليهود و طغيانهم حرّم اللّه عليهم بعض الطيّبات من النعم: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

إلّا أنّ هذه المحظورات أحلّت لهم مرّة أخرى ببركة ظهور المسيح عليه السّلام هذا النبىّ العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۹

ثمّ مرّة أخرى تتكرّر الجملة التى قرأنا على لسان المسيح فى الآية السابقة:

وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

و فى الآية الثانية تؤكد على لسان السيد المسيح عليه السّلام عبودية المسيح لرفع كلّ إبهام و ريب قد ينشأ من كيفية ولادته التى قد يتشبث بها البعض لإثبات ألوهيته و تقول: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ يتّضح من هذه الآية و من آيات أخرى أنّ السيّد المسيح، لكى يزيل كلّ إبهام و خطأ فيما يتعلّق بولادته الخارقة للعادة، و لكى لا يتّخذونها ذريعة لتأليهه، كثيرا ما يكرّر القول إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ و إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا[۳۴۷]، بخلاف ما نراه فى الأناجيل المحرّفة الموجودة التى تنقل عن المسيح أنّه كان يستعمل «الأب» فى كلامه عن اللّه. إنّ القرآن يذكر «الرب» بدلا من ذلك: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ و هذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح فى محاربة من يدّعى بالوهيّته. بل لكى يكون التوكيد على ذلك أقوى يقول للناس فَاعْبُدُوهُ أى اعبدوا اللّه و لا تعبدونى.

و لـذلک نجـد أنه لم یکن أحد من الناس یتجرأ فی حیاة السیّد المسیح علیه السّلام أن یدعی ألوهیته أو أنه أحد الإلهة، و حتّی بعد عروجه بقرنین من الزمان لم تخالط تعلیماته فی التوحیـد شوائب الشرک، إلّا أن التثلیث باعتراف أرباب الکنیسة ظهر فی القرن الثالث للمیلاد (و سیأتی تفصیل ذلک فی ذیل الآیة ۱۷۱ من سورة النساء).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۰

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۵۲ الی ۵۴]

اشارة

فَلَمَّا أَحَسَّ عِیسی مِنْهُمُ الْکُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِی إِلَی اللَّهِ قالَ الْحَوارِیُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۵۲) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاکْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِینَ (۵۳) وَ مَکَرُوا وَ مَکَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ (۵۴)

التّفسیر

استقامة الحواریین:

کـان الیهـود ینتظرون مجیء المسـیح بموجب مـا بشّـرهم به موسـی، قبـل أن یولـد. و لکنّه عنـد مـا ظهر، و تعرّضت مصالـح جمع من الظـالمین و المنحرفین من بنی إسـرائیل للخطر، لم یبـق معه إلّـا نفر قلیـل، بینمـا ترکه الـذین احتملوا أن یؤدّی قبولهم دعوة المسـیح و التقیّد بالقوانین الإلهیة إلی ضیاع مصالحهم.

بعـد أن أعلن عیسـی دعوته و أثبتها بالأدلّة الکافیة، أدرک أنّ جمعا من بنی إسـرائیل یصـرّون علی المعارضة و العصـیان و لا یترکون المعاندة و الانحراف فَلَمَّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۱

أَحَسَ ۳۴۸] عِیسـی مِنْهُمُ الْکُفْرَ، فنادی فی أصـحابه و قالَ مَنْ أَنْصارِی إِلَی اللَّهِ فاسـتجاب لندائه نفر قلیل. کانوا أطهارا سمّاهم القرآن ب «الحواریّین». لبّوا نداء المسیح و لم یبخلوا بشیء فی سبیل نشر أهدافه المقدّسة.

أعلن الحواریون استعدادهم لتقدیم کلّ عون للمسیح، و قالوا: نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

لاحـظ أنّ الحواریین لم یقولوا: نحن أنصـارک بل لکی یعربوا عن منتهی إیمانهم بالتوحیـد و لیؤکّـدوا إخلاصـهم، و لکن لا یشمّ من کلامهم أیّ رائحـة للشـرک، قالوا: نحن أنصار اللّه، ننصـر دینه، و نریـدک شاهـدا علی هـذه الحقیقة، لعلّهم قد شـمّوا منذ ذلک الیوم رائحة الانحراف فی المسـتقبل و أنّ هناک من یسـتدعی الوهیّة عیسـی من بعده، فسعوا ألّا یکون فی کلامهم ما یمکن أن یتذرّعوا به.

ضمنا نلاحظ أن الحواریین عبّروا فی کلامهم عن کونهم مسلمین، و هذا یدلّ علی أن الإسلام هو دین جمیع الأنبیاء علیهم السّلام.

و هنا میّز المسـیح علیه السّـلام أتباعه المخلصین من الأعداء و المنافقین کیما یضع لدعوته برنامجا دقیقا و خطة مدروسة کما صنع نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم ذلک فی بیعة العقبة.

و بعـد أن قبـل الحواریّون دعوة المسـیح إلی التعـاون معه و اتّخـاذه شاهـدا علیهم فی إیمـانهم، اتّجهوا إلی اللّه یعرضون علیه إیمـانهم قائلین: رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ

و لکن لمّا کانت دعوی الإیمان لا تکفی وحـدها، فقد اتّبعوا ذلک بقیامهم بتنفیذ أوامر اللّه و اتّباع رسوله المسـیح، و قالوا مؤکّدین: وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۲

عند ما یتغلغل الإیمان فی روح الإنسان لا بدّ أن ینعکس ذلک علی عمله، فبدون العمل یکون ادّعاؤه الإیمان تقوّلا، لا إیمانا حقیقیا.

بعد ذلک طلبوا من اللّه قائلین فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ و الشاهدون هم أولئک الذین لهم صفهٔ قیادهٔ الأمم، و یوم القیامهٔ یشهدون علی أعمال الناس الحسنهٔ و السیّئهٔ.

و بعد أن انتهی الحواریّون من شرح إیمانهم، أشاروا إلی خطط الیهود الشیطانیهٔ، و قالوا: إنّ هؤلاء- لکی یقضوا علی المسیح، و علی دعوته، و یصدّوا انتشار دینه- وضعوا الخطط الماکرهٔ. إلّا أن ما رسمه اللّه من مکر فاق مکرهم و کان أشدّ تأثیرا وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ

بحوث

۱- من هم الحواریون؟

«حواریّون» جمع حوری من مادهٔ «حور» بمعنی الغسل و التبییض، و قد تطلق علی الشیء الأبیض. لذلک یطلق العرب علی الطعام الأبیض «الحواری».

و «حور» جمع حوراء و هی البیضاء البشرهٔ.

أمّا سبب تسمیهٔ تلامذهٔ المسیح بالحواریّین فقد ذکرت له احتمالات کثیرهٔ، و لکن الأقرب إلی الذهن، و هو الوارد فی أحادیث أئمّهٔ الدین، هو لأنّهم فضلا عن طهارهٔ قلوبهم و صفاء أرواحهم، کانوا دائبی السعی فی تطهیر الناس و تنویر أفکارهم و غسلهم من أدران الذنوب.

و هذا ما أکّده حدیث عن الإمام الرضا علیه السّلام فی «عیون أخبار الرضا» ...؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۳

۲- الحواریّون فی القرآن و الإنجیل

تکلّم القرآن علی الحواریّین فی سورهٔ الصف، الآیهٔ ۱۴، مشیرا إلی إیمانهم.

و لکن یتبیّن ممّا نقرأه فی الإنجیل بشأن الحواریّین أنّهم جمیعا ارتکبوا بعض الزلل بالنسبهٔ للمسیح.

أمّا أسماؤهم کما جاءت فی إنجیل متّی و لوقا، الباب السادس، فهی:

۱- بطرس، ۲- اندریاس، ۳- یعقوب، ۴- یوحنّا، ۵- فیلوبس، ۶- برتولولما، ۷- توما، ۸- متّی، ۹- یعقوب بن حلفا، ۱۰- شمعون «الغیور»، ۱۱- یهوذا أخو یعقوب، ۱۲- یهوذا الاسخریوطی الذی خان المسیح.

یذکر المفسّر المعروف المرحوم الطبرسی فی «مجمع البیان» أنّ الحواریّین کانوا یرافقون المسیح فی رحلاته. کلّما عطشوا أو جاعوا رأوا الماء و الطعام مهیّأ أمامهم بأمر اللّه، فکانوا یرون فی ذلک فخرا لهم أیّ فخر، و سألوا المسیح: أهناک من هو أفضل منّا؟ فقال: نعم، أفضل منکم من یعمل بیده و یأکل من کسبه.

و علی أثر ذلک اشتغلوا بغسل الملابس للناس لقاء أجر، و انشغلوا بذلک؛ فکان ذلک درسا عملیا للناس بأنّ العمل لیس عیبا أو عارا.

۳- ما المراد بالمكر الإلهی

فی القرآن آيات مشابهة لهذه ينسب فيها المكر إلی اللّه ۳۴۹]. كلمة «المكر» بالمصطلح المعاصر تختلف كثيرا عن معناها اللغوی. فالمكر بالمعنی المعاصر هو وضع الخطط الشيطانية الضارّة. و لكن معناها بلغة العرب هو البحث عن العلاج لأمر مّا، و قد يكون حسنا أو سيّئا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۴

فی كتاب «المفردات» للراغب نقرأ: المكر: صرف الغير عمّا يقصد- خيرا كان أم شرّا-.

و فی القرآن وردت كلمة «المكر» مقرونة بكلمة «الخير»، إذ يقول وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ كما وردت مع «السيّئ»: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۳۵۰].

و عليه يكون المقصود من الآية هو أنّ أعداء المسيح وضعوا الخطط الشيطانية للوقوف بوجه هذه الدعوة الإلهيّة. و لكن اللّه لكی يحفظ حياة نبيّه و يصون الدعوة مكر أيضا فأحبط كلّ ما مكروه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۵

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۵۵]

اشارة

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۵۵)

التّفسير

قلنا إنّ اليهود- بالتعاون مع بعض المسيحيّين الخونة- قرّروا قتل السيّد المسيح، فأحبط اللّه مكرهم، و نجی نبيّه منهم. فی هذه الآية يذكر اللّه نعمته علی المسيح قبل وقوع الحادثة، قائلا: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَ

من المعروف عند المفسّرين، بالاستناد إلی الآية ۱۵۷ من سورة النساء، أنّ السيّد المسيح لم يقتل، و أنّ اللّه رفعه إلی السماء. غير أنّ المسيحيّين يقولون إنّه قتل و دفن، ثمّ قام من بين الأموات و بقی لفترة قصيرة علی الأرض ثمّ صعد إلی السماء[۳۵۱].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۶

و لكن الذی لا- بدّ من قوله الآن هو أنّ هذه الآية ليس فيها دليل علی موت عيسی، علی الرغم من أنّ بعضهم تصوّر أنّ كلمة «متوفّيك» من «الوفاة».

و علی ذلك فإنّهم يرون أنّ هذا الموضوع يتعارض مع الرأی السائد بين المسلمين، و الذی تؤيّده الأحاديث، من أنّ عيسی لم يمت و أنّه حی. و لكن الأمر ليس كذلك.

«الفوت» هو بعد الشیء عن الإنسان بحيث يتعذّر إدراكه. و «الوافی» الذی بلغ التمام، و وفی بعهده إذا أتمّه و لم ينقضه. و إذا استوفی أحد دينه من المدين قيل «توفّی دينه».

و فی القرآن وردت «توفّی» كرارا: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ[۳۵۲]. فهنا عبّر عن النوم بكلمة «يتوفّاكم».

هذا المعنی نفسه يرد فی الآية ۴۲ من سورة الزمر، كما ترد كلمة «توفّی» فی آيات أخری بمعنی الأخذ.

صحیح أنّ «توفّی» قد تأتی أحیانا بمعنی الموت، و لکنّها حتّی فی تلک المواضع لا تعنی الموت حقّا، بل بمعنی قبض الروح. و الواقع أنّ مادّة «فوت» و مادّة «و فی» منفصلتان تماما.

ممّا تقدّم یکون تفسیر الآیة واضحا.

یقول اللّه: یا عیسی إنّنی سوف استوفیک و أرفعک إلیّ. و هذا یعنی حیاة عیسی، لا موته (و طبعا إذا کانت کلمة «توفی» بمعنی قبض الروح فقط. فإن لازم ذلک هو الموت).

ثمّ تضیف الآیة وَ مُطَهِّرُکَ مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۷

هذا جانب آخر من خطاب اللّه إلی المسیح. و القصد من التطهیر هنا هو إنقاذه من الکفّار الخبثاء البعیدین عن الحقّ و الحقیقة الذین کانوا یوجّهون إلیه التهم الباطلة، و یحوکون حوله المؤامرات ساعین إلی تلویث سمعته، فنصر اللّه دینه، و طهّره من تلک التهم، بمثل ما نقرأه عن نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی أوّل سورة الفتح إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً لِیَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ. أی أنّنا هیّأنا لک نصرا واضحا کی یغفر لک اللّه ذنوبک السابقة و اللاحقة (و یطهّرک من التهم التی ألصقوها بک علی شکل ذنوب).

کما یحتمل أن یعنی التطهیر إخراج المسیح من ذلک المحیط الملوّث. و هذا یناسب الآیة السابقة.

وَ جاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ فَوْقَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ.

و هذه بشارة یبشّر بها اللّه المسیح و أتباعه لتشجیعهم علی المضیّ فی الطریق الذی اختاروه. و الواقع أنّ هذه واحدة من آیات الإعجاز و من تنبؤات القرآن الغیبیة التی تقول إنّ أتباع المسیح سوف یسیطرون دائما علی الیهود الذین عادوا المسیح.

و ها نحن الیوم نری هذه الحقیقة رأی العین، فالیهود الصهاینة- بغیر الاستناد إلی المسیحیّین- غیر قادرین علی إدامة حیاتهم السیاسیة و الاجتماعیة یوما واحدا. بدیهیّ أنّ «الکافرین» هنا هم الیهود الذین کفروا بالمسیح.

و فی ختام الآیة یقول تعالی: ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأَحْکُمُ بَیْنَکُمْ فِیما کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ و یعنی أن ما تقدّم من الانتصارات و البشائر یتعلق بالحیاة الدنیا، أمّا المحکمة النهائیة و نیل الجزاء الکامل فسیکون فی الآخرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۸

ملاحظة

هل الدیانتان الیهودیة و المسیحیّة باقیتان؟

هنا یتبادر سؤال إلی الذهن، و هو أنّ الیهود و النصاری- بموجب هذه الآیة- سیبقون فی الدنیا حتّی یوم القیامة، و أنّ أتّباع هاتین الدیانتین سیبقون أیضا، مع أنّ الأخبار الخاصّة بظهور المهدی علیه السّلام تبیّن أنّه یخضع جمیع الأدیان و یحکم العالم کلّه.

یتّضح جواب هذا السؤال بالتدقیق فی الأحادیث. فنحن نقرأ فی الأحادیث عن المهدی علیه السّلام أنّه لا یبقی بیت فی البدو و لا فی الحضر إلّا و یدخله التوحید، أی أنّ الإسلام سیکون الدین الرسمی فی العالم کلّه، و تکون الحکومة حکومة إسلامیة، و لا یحکم العالم سوی القوانین الإسلامیة. و لکن هذا لا یمنع من وجود أقلّیة من الیهود و النصاری تعیش تحت ظلّ حکومة المهدیّ علیه السّلام وفق شروط «أهل الذمّة».

إنّنا نعلم أنّ حکومة المهدیّ علیه السّلام لا تجبر الناس علی اعتناق الإسلام، بل تتقدّم بالمنطق. أمّا التوسّل بالقوّة العسکریة فلبسط

العدالـة، و للإطاحـة بالحکومـات الظالمـة، و لانضواء العـالم تحت لواء الإسـلام، لا لإجبار الناس علی قبول الإسـلام، و إلّا فلن یکون هناک أی معنی لحریة الإرادة و الإختیار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۹

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۵۶ الی ۵۸]

اشارة

فَأَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِیداً فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ (۵۶) وَ أَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ (۵۷) ذلِکَ نَتْلُوهُ عَلَیْکَ مِنَ الْآیاتِ وَ الذِّکْرِ الْحَکِیمِ (۵۸)

التّفسیر

عاقبة أنصار و أعداء المسیح علیه السّلام:

الآیة الاولی و الثانیة تتابعان الخطاب للسید المسیح و حال أتباعه و أعدائه، بینما الآیة الثالثة فتخاطب نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و بعـد ذکر رجـوع النـاس إلی اللّه و محـاکمتهم- فی الآیـة السابقـة- یـأتی فی هـذه الآیـة ذکر نتیجـة تلـک المحاکمـة. فالکـافرون و المعارضون للحقّ و العدالـة سیلاقون فی الآخرة من العذاب الألیم مثل ما یلاقون فی الدنیا، و لن یکون لأیّ منهم حام و لا نصیر، فَأَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِیداً فِی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۰

الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ

و من الإشـارة فی هـذه الآیـة إلی عـذاب الـدنیا نفهم أنّ الکـافرین- و هم هنـا الیهود- لا ینجون من العـذاب. و هـذا ما یؤکّده تاریخ الیهود، و من ذلک تفوّق الآخرین علیهم کما جاء فی الآیات السابقة.

ثمّ أشـار القرآن الکریم إلی الفئـة الثانیـة و قـال وَ أَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ ثمّ یؤکـد القول: وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ

تقدیم مصیر الکافرین علی المؤمنین من أجل أن الکافرین بنبوّة المسیح علیه السّلام کانوا یشکلون الأغلبیة.

و الملفت للنظر أن الآیـة الاولی اکتفت بـذکر الکفر فقط. أمّا الآیـة الثانیـة فقرنت الإیمان بالعمل الصالـح، و هـذا إشارة إلی أن الکفر لوحده یکون سببا للعذاب الإلهی. و لکن الإیمان لوحده لا یکفی للنجاة، بل لا بدّ و أن یقترن بالعمل الصالح.

و جملـة وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ لعلّهـا نـاظرة إلی أن جمیع معانی الکفر و الأعمال السـیّئة داخلـة فی مفهوم الظلم بمعناه الواسع. و من الواضح أن اللّه لا یحب الظالمین و لا یقدم علی ظلم عباده بل یوفیهم أجورهم بالکامل.

و بعـد ذکر تاریـخ المسیـح و بعض ما جری له، یتّجه الخطاب إلی رسول الإسـلام صـلی اللّه علیه و آله و سلّم فیقول: کلّ هـذا الذی سردناه علیکم دلائل صـدق لـدعوتک و رسالتک، و کان تذکیرا حکیما جاء بصورة آیات قرآنیة نزلت علیک، تبیّن الحقائق فی بیان محکم و خال من کلّ هزل و باطل و خرافة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۱

الآیتان [سورة آل‌عمران (٣): الآیات ۵٩ الی ۶٠]

اشارة

إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۵٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلا تَکُنْ مِنَ الْمُمْتَرِینَ (۶٠)

سبب النّزول

قلنا فی بدایة هذه السورة أنّ الکثیر من آیاتها کانت ردّا علی محاورات مسیحیّی نجران الذین جاؤوا فی وفد مؤلّف من ۶٠ شخصا و فیهم عدد من زعمائهم بقصد التحاور مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

من بین المواضیع التی طرحت فی ذلک الاجتماع مسألة الوهیّة المسیح التی رفضها رسول اللّه و استدلّ بأنّ المسیح ولد و عاش کبقیة الناس و لا- یمکن أن یکون إلها، لکنّهم استدلّوا علی الوهیّته بولادته من غیر أب، فنزلت الآیة ردّا علیهم، و لمّا رفضوا ذلک دعاهم إلی المباهلة، و سوف یأتی ذکرها قریبا إن شاء اللّه.

التّفسیر

نفی الوهیة المسیح:

الآیة الأولی تورد استدلالا قصیرا و واضحا فی الردّ علی مسیحیّی نجران

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج٢، ص: ۵٢٢

بشأن الوهیة المسیح: إنّ ولادة المسیح من غیر أب لا یمکن أن تکون دلیلا علی أنّه ابن اللّه أو أنّه اللّه بعینه، لأنّ هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غیر أب و لا أم. و علیه، فکما أنّ خلق آدم من تراب لا یستدعی التعجّب، لأنّ اللّه قادر علی کلّ شیء، و لأن «فعله» و «إرادته» متناسقان فإذا أراد شیئا یقول له: کن فیکون، کذلک ولادة عیسی من أمّ و بغیر أب، لیست مستحیلة.

و أساسا، فإن المیسور و المعسور یتحقّقان بالنسبة لمن کانت قدرته محدودة کما فی المخلوقات، أمّا من کانت قدرته مطلقة فلا مفهوم للصعب و السهل بالنسبة له. فخلق ورقة واحدة تتساوی بالنسبة له مع خلق غابة من آلاف الکیلومترات، و خلق ذرة واحدة کخلق المنظومة الشمسیة لدیه.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلا تَکُنْ مِنَ الْمُمْتَرِینَ

هذه الآیة تؤکّد الموضوع و تقول: إنّ ما أنزلنا علیک بشأن المسیح أمر حقیقی من اللّه و لا یعتوره الشکّ، فلا تتردّد فی قبوله.

فی تفسیر الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ للمفسّرین رأیان: الرأی الأول یقول: إنّ الجملة مبتدأ و خبر، و بذلک یکون المعنی: الحقّ دائما من ربّک، و ذلک لأنّ الحقّ هو الحقیقة، و الحقیقة هو الوجود، و کلّ وجود ناشئ من وجوده. لذلک فکلّ باطل عدم، و العدم غریب علی ذاته.

الرأی الثانی یقول: إنّ الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقدیره «تلک الأخبار».

أی تلک الأخبار التی أنزلناها علیک حقائق من اللّه. و کلّ من التفسیرین ینسجم مع الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج٢، ص: ۵٢٣

الآیة [سورة آل‌عمران (٣): آیة ۶١]

اشارة

فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَی الْکاذِبِینَ (۶۱)

سبب النّزول

قیل نزلت الآیات فی وفد نجران العاقب و السید و من معهما قالوا لرسول اللّه:

هل رأیت ولدا من غیر ذکر فنزلت: إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ ... الآیات فقرأها علیهم، فلمّا دعاهم رسول اللّه إلی المباهلة[۳۵۳] استنظروه إلی صبیحة غد من یومهم ذلک، فلمّا رجعوا إلی رجالهم قال لهم الأسقف: انظروا محمّد فی غد فإن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۴

غدا بولده و أهله فاحذروا مباهلته، و إن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه علی غیر شیء.

فلمّا کان الغد جاء النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم آخذا بیدی علی بن أبی طالب علیه السّلام و الحسن علیه السّلام و الحسین علیه السّلام بین یدیه یمشیان و فاطمة علیها السّلام تمشی خلفه، و خرج النصاری یتقدمهم أسقفهم. فلمّا رأی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد أقبل بمن معه فسأل عنهم فقیل له: هذا ابن عمّه و زوج ابنته و أحب الخلق إلیه، و هذان ابنا بنته من علی و هذه الجاریة بنته فاطمة أعزّ الناس علیه و أقربهم إلی قلبه، و تقدّم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فجثا علی رکبتیه.

قال أبو حارثة الأسقف جثا و اللّه کما جثا الأنبیاء للمباهلة.

فرجع و لم یقدم علی المباهلة، فقال السید: أذن یا أبا حارثة للمباهلة! فقال:

لا- إنّی لأری رجلا جریئا علی المباهلة و أنا أخاف أن یکون صادقا و لئن کان صادقا لم یحل و اللّه علینا حول و فی الدنیا نصرانی یطعم الماء.

فقال الأسقف: یا أبا القاسم! إنا لا نباهلک و لکن نصالحک فصالحنا علی ما ینهض به، فصالحهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی الفی حلة من حلل الاواقی قسمة کلّ حلة أربعون درهما فما زاد أو نقص فعلی حساب ذلک أو علی عاریة ثلاثین درعا و ثلاثین رمی و ثلاثین فرسا إن کان بالیمن کید، و رسول اللّه ضامن حتّی یؤدیها و کتب لهم بذلک کتابا.

و روی أن الأسقف قال لهم: إنّی لأری وجوها لو سألوا اللّه أن یزیل جبلا من مکانه لازاله، فلا تبتهلوا فتهلکوا و لا یبقی علی وجه الأرض نصرانی إلی یوم القیامة[۳۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۵

التّفسیر

فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ ....

بعد الآیات التی استدلّ فیها علی بطلان القول بالوهیة عیسی بن مریم، یأمر اللّه نبیّه بالمباهلة إذا جاءه من یجادله من بعد ما جاء من العلم و المعرفة. و أمره ان یقول لهم: إنّی سأدعو أبنائی، و أنتم ادعوا أبناءکم، و أدعو نسائی، و أنتم ادعوا نساءکم، و أدعو نفسی، و تدعون أنتم أنفسکم، و عندئذ ندعو اللّه أن ینزل لعنته علی الکاذب منّا فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ

أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ

و لا حاجة للقول بأنّ القصد من المباهلة لم يكن إحضار جمع من الناس للّعن، ثمّ ليتفرّقوا كلّ إلى سبيله، لأنّ عملا كهذا لن يكون له أيّ تأثير، بل كان المنتظر أن يكون لهذا الدعاء و اللعن أثر مشهود عيانا فيحيق بالكاذب عذاب فوری.

و بعبارة أخرى: فإنّ المباهلة- و إن لم يكن فی الآية ما يشير إلى تأثيرها- كانت بمثابة «السهم الأخير» بعد أن لم ينفع المنطق و الاستدلال، فإنّ الدعاء وحده لم يكن المقصود بها، بل كان المقصود منها هو «أثرها الخارجی».

بحوث

١- المباهلة دليل قاطع على أحقية نبی الإسلام:

لعلّ قضية المباهلة بهذا الشكل لم تكن معروفة عند العرب، بل كانت أسلوبا يبيّن صدق النبیّ و إيمانه بشكل قاطع. إذ يكف يمكن لمن لا يؤمن كلّ الإيمان

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۶

بعلاقته باللّه أن يدخل هذا الميدان، فيطلب من معارضيه ان يتقدّموا معه إلى اللّه يدعونه أن ينزل لعناته على الكاذب، و أن يروا سرعة ما يحلّ بالكاذب من عقاب؟ لا شكّ أنّ دخول هذا الميدان خطر جدّا، لأنّ المبتهل إذا لم يجد استجابة لدعائه و لم يظهر أیّ أثر لعقاب اللّه على معارضيه، فلن تكون النتيجة سوى فضيحة المبتهل. فكيف يمكن لإنسان عاقل و مدارك أن يخطو مثل هذه الخطوة دون أن يكون مطمئنا إلى أنّ النتيجة فی صالحه؟ لهذا قيل إنّ دعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المباهلة تعتبر واحدا من الأدلّة على صدق دعوته و إيمانه الراسخ بها، بصرف النظر عن النتائج التی كانت ستكشف عنها المباهلة.

تقول الروايات الإسلامية: عند عرض هذا الاقتراح للمباهلة، طلب ممثّلو مسيحيّی نجران من رسول اللّه أن يمهلهم بعض الوقت ليتبادلوا الرأی مع شيوخهم.

فكان لهم ما أرادوا. و كانت نتيجة مشاورتهم- التی تعتمد على ناحية نفسية- هی أنّهم أمروا رجالهم بالدخول فی المباهلة دون خوف إذا رأوا محمّدا قد حضر فی أكثير من الناس و وسط جلبة و ضوضاء، إذ أنّ هذا يعنی أنّه بهذا يريد بثّ الرعب و الخوف فی النفوس و ليس فی أمره حقيقة. أمّا إذا رأوه قادما فی بضعة أنفار من أهله و صغار أطفاله إلى الموعد، فليعلموا أنّه نبیّ اللّه حقّا، و ليتجنّبوا مباهلته.

و قد حضر المسيحيّون إلى المكان المعيّن، ثمّ رأوا أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أقبل يحمل الحسين على يد و يمسك الحسن باليد الأخرى و من خلفه علی و فاطمة، و هو يطلب منهم أن يؤمّنوا على دعائه عند المباهلة. و إذ رأى المسيحيّون هذا المشهد استولى عليهم الفزع، و رفضوا الدخول فی المباهلة، و قبلوا التعامل معه بشروط أهل الذمّة.

٢- أحد أدلة عظمة أهل البيت:

يصرّح المفسّرون من الشيعة و السنّة أنّ آية المباهلة قد نزلت بحقّ أهل بيت

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۷

النبیّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و أنّ الذين اصطحبهم النبیّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم معه للمباهلة بهم هم: الحسن و الحسين و

فاطمة و علی علیهم السّلام. و علیه، فإنّ «أبناءنا» الواردة فی الآیة ینحصر مفهومها فی الحسن و الحسین علیهم السّلام، و مفهوم «نساءنا» ینحصر فی فاطمة علیها السّلام، و مفهوم «أنفسنا» ینحصر فی علی علیه السّلام. و هناک أحادیث کثیرة بهذا الخصوص.

حاول بعض أهل السنّة أن ینکر وجود أحادیث فی هذا الموضوع، فصاحب تفسیر المنار یقول فی تفسیر الآیة:

الروایات متّفقة علی أنّ النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم اختار للمباهلة علیّا و فاطمة و ولدیهما و یحملون کلمة «نساءنا» علی فاطمة و کلمة «أنفسنا» علی علیّ فقط، و مصادر هذه الروایات شیعیة، و مقصدهم منها معروف، و قد اجتهدوا فی ترویجها ما استطاعوا حتّی راجت علی کثیر من أهل السنّة. و لکن بالرجوع إلی مصادر أهل السنّة الأصلیة یتّضح أنّ الکثیر من تلک الطرق لا تنتهی بالشیعة و بکتب الشیعة، و إنکار هذه الأحادیث الواردة بطریق أهل السنّة، یسقط سائر أحادیثهم و کتبهم من الإعتبار.

لکی نلقی الضوء علی هذه الحقیقة، نورد هنا بعضا من روایاتهم و مصادرها:

القاضی نور اللّه الشوشتری فی المجلّد الثالث من کتابه النفیس «إحقاق الحقّ»، الطبعة الجدیدة، ص ۴۶، یتحدّث عن اتّفاق المفسّرین فی أنّ «أبناءنا» فی هذه الآیة إشارة إلی الحسن و الحسین، و «نساءنا» إشارة إلی فاطمة، و «أنفسنا» إشارة إلی علیّ علیه السّلام.

ثمّ یشیر فی هامش الکتاب إلی نحو ستّین من کبار أهل السنّة من الذین قالوا إنّ آیة المباهلة نزلت فی أهل البیت، و یذکر أسماء هؤلاء العلماء بالتفصیل فی الصفحات ۴۶- ۷۶.

و من المشاهیر الذین نقل عنهم هذا التصریح:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۸

۱- مسلم بن الحجاج النیسابوری، صاحب أحد الصحاح الستة المعروفة التی یعتمدها أهل السنّة. المجلّد ۷ ص ۱۲۰ (طبعة محمّد علی صبیح- مصر).

۲- أحمد بن حنبل فی کتابه «المسند» ج ۱ ص ۱۸۵ (طبعة مصر).

۳- الطبری فی تفسیره المعروف: ج ۳ ص ۱۹۲ (المطبعة المیمنیة- مصر).

۴- الحاکم فی کتابه «المستدرک» ج ۳ ص ۱۵۰ (طبعة حیدرآباد الدکن).

۵- الحافظ أبو نعیم الأصفهانی فی کتابه «دلائل النبوة» ص ۲۹۷ (طبعة حیدرآباد).

۶- الواحدیّ النیسابوری فی کتابه «أسباب النزول» ص ۷۴ (المطبعة الهندیة- مصر).

۷- الفخر الرازی فی تفسیره المعروف، ج ۸ ص ۸۵ (المطبعة البهیة- مصر).

۸- ابن الأثیر فی کتابه «جامع الأصول» ج ۹ ص ۴۷۰ (مطبعة السنّة المحمدیة- مصر).

۹- ابن الجوزی فی کتابه «تذکرة الخواص» ص ۱۷ (طبعة النجف).

۱۰- القاضی البیضاوی فی تفسیره ج ۲ ص ۲۲ (مطبعة مصطفی محمّد- مصر).

۱۱- الآلوسی فی تفسیره «روح المعانی» ج ۳ ص ۱۶۷ (المطبعة المنیریة- مصر).

۱۲- الطنطاوی فی تفسیره المعروف «الجواهر» ج ۲ ص ۱۲۰ (مطبعة مصطفی البابی الحلبی- مصر).

۱۳- الزمخشری فی تفسیره «الکشّاف» ج ۱ ص ۱۹۳ (مطبعة مصطفی محمّد).

۱۴- الحافظ أحمد بن حجر العسقلانی فی کتابه «الإصابة» ج ۲ ص ۵۰۳

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۹

(مطبعة مصطفی محمّد).

۱۵- ابن الصبّاغ فی کتابه «الفصول المهمّة» ص ۱۰۸ (طبعة النجف).

۱۶- العلّامة القرطبی فی کتابه «الجامع لأحکام القرآن» ج ۳ ص ۱۰۴ (طبعة مصر سنة ۱۹۳۶).

جاء فی کتاب «غایة المرام» عن صحیح مسلم فی باب (فضائل علی بن أبی طالب) أنّ معاویة قال یوما لسعد بن أبی وقاص: لم لا تسبّ أبا تراب (علی علیه السّلام)!؟ فقال: «ترکت سبّه منذ أن تذکرت الأشیاء الثلاثة التی قالها رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی حقّ علی علیه السّلام (و أحدها) عند ما نزلت آیة المباهلة لم یدع النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم سوی فاطمة و الحسن و الحسین و علی، و قال: اللهمّ هؤلاء أهلی.

صاحب «الکشّاف» و هو من کبار علماء أهل السنّة، یذهب إلی أنّ هذه الآیة أقوی دلیل علی فضیلة أهل الکساء.

یتّفق المفسّرون و المحدّثون و المؤرّخون الشیعة أیضا أنّ هذه الآیة قد نزلت فی أهل البیت، و قد أورد صاحب تفسیر «نور الثقلین» روایات کثیرة بهذا الشأن.

من ذلک أیضا ما جاء فی کتاب «عیون أخبار الرضا» عن المجلس الذی عقده المأمون فی قصره للبحث العلمی. و

جاء فیه عن الإمام الرضا علیه السّلام قوله: ... میّز اللّه الطاهرین من خلقه، فأمر نبیّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالمباهلة بهم فی آیة الابتهال. فقال عزّ و جلّ: یا محمّد (فمنّ حاجّک فیه ...» الآیة. فأبرز النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم علیّا و الحسن و الحسین و فاطمة صلوات اللّه علیهم ....

و

قال علیه السّلام: فهذه خصوصیة لا یتقدّمهم فیها أحد، و فضل لا یلحقهم فیه بشر، و شرف لا یسبقهم إلیه خلق [۳۵۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۰

کذلک وردت روایات بهذا المضمون فی تفسیر البرهان و بحار الأنوار و تفسیر العیّاشی، و کلّها تقول إنّ الآیة قد نزلت فی أهل البیت.

۳- اعتراض و جوابه:

هنا اعتراض مشهور أورده الفخر الرازی و آخرون علی نزول هذه الآیة فی أهل البیت. یقول هؤلاء: کیف یمکن أن نعتبر أنّ القصد من «أبناءنا» هو الحسن و الحسین علیهما السّلام مع أنّ «أبناء» جمع و لا تطلق علی الاثنین؟ و کذلک «نساءنا» جمع، فکیف تطلق علی سیّدة الإسلام فاطمة علیها السّلام وحدها؟ و إذا کان القصد من «أنفسنا» علیّا علیه السّلام وحده فلما ذا جاء بصیغة الجمع؟

الجواب أوّلا: کما سبق أن شرحنا بإسهاب، أنّ هناک أحادیث کثیرة فی کثیر من المصادر الإسلامیة الموثوق بها- شیعیة و سنّیة- تؤکّد نزول هذه الآیة فی أهل البیت، و هی کلّها تقول إنّ النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یدع للمباهلة غیر علی و فاطمة و الحسن و الحسین علیهم السّلام، هذا بذاته قرینة واضحة لتفسیر الآیة، إذ أنّ من القرائن التی تساعد علی تفسیر القرآن هی السنّة و ما ثبت من أسباب النزول.

و علیه، فإنّ الاعتراض المذکور لیس موجّها للشیعة فقط، بل أنّ علی جمیع علماء الإسلام أن یجیبوا علیه، بموجب ما ذکرناه آنفا.

ثانیا: إطلاق صیغة الجمع علی المفرد أو المثنی لیس أمرا جدیدا فهو کثیر الورود فی القرآن و فی غیر القرآن من الأدب العربی، و حتی غیر العربی.

من ذلک مثلا أنّه عند وضع قانون، أو إعداد اتّفاقیة، تستعمل صیغة الجمع علی وجه العموم. فمثلا، قد یقال فی اتّفاقیة: إنّ المسؤولین عند تنفیذها هم الموقّعون علیها و أبناؤهم. فی الوقت الذی یمکن أن یکون لأحد الأطراف ولد واحد أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۱

اثنین. فلا یکون فی هذا أیّ تعارض مع تنظیم الاتّفاقیة بصیغة الجمع. و ذلک لأنّ هناک مرحلتین، مرحلة «الاتفاق» و مرحلة «التنفیذ».

ففى المرحلة الأولى قد تأتى الألفاظ بصيغة الجمع لكى تنطبق على جميع الحالات. و لكن فى مرحلة التنفيذ قد تنحصر الحالة فى فرد واحد، و هذا لا يتنافى مع عمومية المسألة.

و بعبارة أخرى: كان على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بموجب اتفاقه مع مسيحيّى نجران، أن يدعو للمباهلة جميع أبنائه و خاصّة نسائه و جميع من كانوا بمثابة نفسه. إلّا أنّ مصداق الاتّفاق لم ينطبق إلّا على ابنين و امرأة و رجل (فتأمّل!).

فى القرآن مواضع متعدّدة ترد فيها العبارة بصيغة الجمع، إلّا أنّ مصداقها لا ينطبق إلّا على فرد واحد. فمثلا نقرأ: الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ۳۵۶] المقصود من «الناس» فى هذه الآية هو «نعيم بن مسعود» حسب قول فريق من المفسّرين، لأنّ هذا كان قد أخذ أموالا من أبى سفيان فى مقابل إخافة المسلمين من قوّة المشركين.

و أيضا نقرأ: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ[۳۵۷]. فهنا المقصود ب «الذين» فى هذه الآية، على رأى كثير من المفسّرين، هو «حى بن أخطب» أو «فنحاص».

و قد يطلق الجمع على المفرد للتكريم، كما جاء عن إبراهيم: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ ۳۵۸]. فهنا أطلقت كلمة «أمّة» و هى اسم جمع، على مفرد.

۴- كما أنّ آية المباهلة تفيد بأنّ أبناء البنت يعتبرون أبناء أبيها أيضا، بخلاف ما كان سائدا فى الجاهلية فى اعتبار أبناء الابن فقط هم أبناء الجد، إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۲

كانوا يقولون:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنابنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

هذا اللون من التفكير كان من بقايا التقاليد الجاهلية الخاطئة التى لم تكن ترى المرأة عضوا من أعضاء المجتمع، بل كانت تنظر إليها على أنّها و وعاء لنموّ الأبناء فقط، و ترى أنّ النسب يلحق بالآباء لا غير. يقول شاعرهم:

و إنّما أمّهات الناس أوعيةمستودعات و للأنساب آباء

غير أنّ الإسلام قضى على هذا اللون من التفكير، و ساوى بين أبناء الابن و أبناء البنت.

نقرأ فى الآية ۸۴ و ۸۵ من سورة الأنعام بشأن أبناء إبراهيم: مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ

فالمسيح عيسى بن مريم عدّ هنا من أبناء إبراهيم مع أنّه كان ابنا من جهة البنت.

الأحاديث و الروايات الواردة عن طريق الشيعة و السنّة بشأن الحسن و الحسين عليهما السّلام تشير إلى كلّ منهما ب «ابن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم» كرارا.

و فى الآيات التى تحرّم الزواج ببعض النساء نقرأ: وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ يتّفق علماء الإسلام على أن الرجل يحرم عليه الزواج من زوجة ابنه و زوجة حفيده سواء أ كان من جهة الابن أم البنت، باعتبار شمولهم بالآية المذكورة.

۵- هل المباهلة تشريع عام؟

لا شكّ أنّ هذه الآية ليست دعوة عامّة للمسلمين للمباهلة، إذ أنّ الخطاب موجّه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم وحده. و لكن هذا لا يمنع من أن تكون المباهلة مع المعارضين حكما عامّا، و أنّ الأتقياء من المؤمنين الذين يخشون اللّه، لهم أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۳

يطلبوا من الذين لم ينفع فيهم المنطق و الاستدلال التقدّم للمباهلة.

و تظهر عمومية هذا الحكم فى بعض الروايات الإسلامية، فقد جاء فى تفسير نور الثقلين، ج ۱ ص ۳۵۱

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: إذا کان کذلک (أی إذا لم یقبل المعاند الحقّ) فادعهم إلی المباهلة ... أصلح نفسک ثلاثا ... و أبرز أنت و هو إلی الجبان (الصحراء) فشبّک أصابعک من یدک الیمنی فی أصابعه، ثمّ أنصفه و ابدأ بنفسک و قل: اللهمّ ربّ السماوات السبع و ربّ الأرضین السبع عالم الغیب و الشهادة الرحمن الرحیم إن کان (فلانا) جحد حقّا و ادّعی باطلا فأنزل علیه حسبانا (بلاء) من السماء و عذابا ألیما. ثمّ ردّد الدعوة علیه ... فإنّک لا تلبث أن تری ذلک فیه.

و یتّضح أیضا من هذه الآیة أنّه- خلافا للحملات التی یشنّها الزاعمون أنّ الإسلام دین الرجال و لیس للمرأة فیه أیّ حساب- قد ساهمت المرأة المسلمة مع الرجل خلال اللحظات الحسّاسة فی تحقیق الأهداف الإسلامیة و وقفت معه ضدّ الأعداء. إنّ الصفحات المشرقة التی تمثّل سیرة سیّدة الإسلام فاطمة الزهراء علیها السّلام و ابنتها السیّدة زینب الکبری و غیرهما من نساء الإسلام اللآتی سرن علی طریقهما دلیل علی هذه الحقیقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۴

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۶۲ الی ۶۳]

اشارة

إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶۲) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (۶۳)

التّفسیر

تقول الآیة- بعد شرح حیاة المسیح علیه السّلام-: إنّ ما قصصناه علیک من قصة عیسی حقیقة أنزلها اللّه علیک. و علیه، فإنّ المزاعم الباطلة القائلة بالوهیة المسیح، أو اعتباره ابن اللّه، أو بعکس ذلک اعتباره لقیطا، کلّها خرافات باطلة إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ

ثمّ تضیف للتوکید: إنّ الذی یلیق للعبادة هو اللّه وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وحده، و أن اتّخاذ معبود آخر دونه عمل بعید عن الحقّ و الحقیقة وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فهو قادر علی أن یخلق ولدا بدون أب، و ذلک علی اللّه یسیر.

«القصص» مفرد، تعنی القصّة، و هی فی الأصل من «القص» بمعنی تعقّب الأثر. فی موضع آخر من القرآن قالت أمّ موسی لابنتها «قصّیه» أی عقّبیه و ابحثی عنه وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۳۵۹] و قولهم لثأر الدم «القصاص» لأنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۵

تتبع لحقوق أصحاب الدم.

و «القصّة» تعنی بتاریخ القدامی و البحث فی سیر حیاتهم و من ذلک یعلم أن المشار إلیه فی (هذا) هو قصة حیاه المسیح لا القرآن الکریم و لا قصص الأنبیاء.

الآیة الثانیة تهدد من لم یستسلم هؤلاء للحقّ بعد الاستدلالات المنطقیة فی القرآن بشأن المسیح علیه السّلام، و کذلک إذا لم یخضعوا للمباهلة و استمرّوا فی عنادهم و تعصّبهم، لأن ذلک دلیل علی أنّهم لیسوا طلّاب حقّ، بل هم مقیّدون بأغلال تعصّبهم المجحف، و أهوائهم الجامحة، و تقالیدهم المتحجّرة، و بذلک یکونون من المفسدین فی المجتمع: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ

لأن هدفهم تخدیر الناس و إفساد العقائد السلیمة لأفراد المجتمع، و من المعلوم أن اللّه تعالی یعرف هؤلاء، و یعلم بنیاتهم و سیجازیهم فی الوقت المناسب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۶

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۶۴]

اشارة

قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ تَعالَوْا إِلی کَلِمَةٍ سَواءٍ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لا یَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۶۴)

التّفسیر

الدعوة إلی الاتّحاد:

بدأ القرآن فی الآیات السابقة بدعوة المسیحیّین إلی الاستدلال المنطقی، و إذ رفضوا، دعاهم إلی المباهلة، فکان لهذا أثره فی نفوسهم، فرفضوها و لکنّهم رضخوا لشروط اعتبارهم ذمّیین. فانتهز القرآن هذه الفرصة من استعدادهم النفسی، و عاد إلی طریقة الاستدلال.

غیر أنّ الاستدلال هذه المرّة یختلف عن الاستدلال السابق اختلافا کبیرا.

فی الآیات السابقة کانت الدعوة إلی الإسلام (بکلّ تفاصیله). و لکنّ الدعوة هذه المرّة تتّجه إلی النقاط المشترکة بین الإسلام و أهل الکتاب. و بهذا یعلّمنا القرآن درسا، مفاده: أنّکم إذا لم توفّقوا فی حمل الآخرین علی التعاون معکم فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۷

جمیع أهدافکم، فلا ینبغی أن یقعد بکم الیأس عن العمل، بل اسعوا لإقناعهم بالتعاون معکم فی تحقیق الأهداف المشترکة بینکم، کقاعدة للانطلاق إلی تحقیق سائر أهدافکم المقدّسة قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ تَعالَوْا إِلی کَلِمَةٍ سَواءٍ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً.

هذه الآیة تعتبر نداء «الوحدة و الاتّحاد» إلی أهل الکتاب، فهی تقول لهم:

إنّکم تزعمون- بل تعتقدون- أنّ التثلیث (أی الاعتقاد بالآلهة الثلاثة) لا ینافی التوحید، لذلک تقولون بالوحدة فی التثلیث. و هکذا الیهود یدعون التوحید و هم یتکلّمون بکلام فیه شرک و یعتبرون «العزیر» ابن اللّه.

یقول لهم القرآن: إنّکم جمیعا ترون التوحید مشترکا، فتعالوا نضع یدا بید لنحیی هذا المبدأ المشترک بدون لفّ أو دوران، و نتجنّب کلّ تفسیر یؤدّی إلی الشرک و الابتعاد عن التوحید.

و الملفت للنظر أن الآیة الشریفة تؤکّد موضوع التوحید فی ثلاث تعابیر مختلفة، فأوّلا ذکرت أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ و فی الجملة الثانیة وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً و فی المرّة الثالثة قالت وَ لا یَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ

و لعلّ فی هذه الجملة الأخیرة إشارة إلی أحد موضوعین:

«الأوّل»: أنّه لا یجوز تألیه المسیح، و هو بشر مثلنا و من أبناء نوعنا.

«و الثانی»: أنّه لا یجوز الاعتراف بالعلماء المنحرفین الذین یستغلّون مکانتهم و یغیّرون حلال اللّه و حرامه کیفما یحلو لهم، و لا یجوز اتّباع هؤلاء.

و یتّضح ممّا سبق من الآیات القرآنیة أنّه کان هناک بین علماء أهل الکتاب جماعات یحرّفون أحکام اللّه بحسب «مصالحهم» أو «تعصّبهم». إنّ الإسلام یری أنّ من یتّبع أمثال هؤلاء دون قید أو شرط و هو یعلم بهم، إنّما هو یعبدهم بالمعنی الواسع لکلمة العبادة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۸

إنّ سبب هذا الحكم واضح، فإن حقّ وضع القوانين و التشريعات يعود إلى اللّه، فإذا قرّر أحد هذا الحقّ لغير اللّه فقد أشرك.

يقول المفسّرون فى ذيل تفسير هذه الآية إنّ «عدى بن حاتم» الذى كان نصرانيا ثمّ أسلم، عند ما سمع هذه الآية، فهم من كلمة «أرباب» أنّ القرآن يقول إنّ أهل الكتاب يعبدون بعض علمائهم. فقال للنبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم: ما كنّا نعبدهم يا رسول اللّه.

فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم: أما كانوا يحلّون لكم و يحرّمون فتأخذون بقولهم؟

فقال: نعم.

فقال النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم: هو ذاك ۳۶۰].

فى الواقع يعتبر الإسلام الرقّ و الاستعمار الفكرى نوعا من العبودية و العبادة لغير اللّه، و هو كما يحارب الشرك و عبادة الأصنام، يحارب كذلك الاستعمار الفكرى الذى هو أشبه بعبادة الأصنام.

و لا بدّ من الإشارة إلى أنّ «أرباب» جمع، لذلك لا يمكن أن نقول إنّ المقصود هو النهى عن عبادة عيسى وحده. و لعلّ النهى يشمل عبادة عيسى و عبادة العلماء المنحرفين.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

لو أنّهم- بعد دعوتهم دعوة منطقية إلى نقطة التوحيد المشتركة- أصرّوا على الاعتراض، فلا بدّ أن يقال لهم: اشهدوا أنّنا قد أسلمنا للحق، و لم تسلموا، و بعبارة اخرى: فاعلموا من يطلب الحق، و من يتعصّب و يعاند. ثمّ قولوا لهم اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ فلا تأثير لعنادكم و عصيانكم و ابتعادكم عن الحقّ فى أنفسنا، و إنّا ما زلنا على طريقنا- طريق الإسلام- سائرون، لا نعبد إلّا اللّه، و لا نلتزم إلّا شريعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۹

الإسلام، و لا وجود لعبادة البشر بيننا.

بحث

رسائل النبىّ إلى رؤساء العالم:

يقول التاريخ: عند ما استقرّ الإسلام نسبيّا فى الحجاز، أرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم رسائل إلى عدد من كبار رؤساء العالم فى ذلك العصر. فى بعض هذه الرسائل استند إلى هذه الآية الداعية إلى التوحيد- المبدأ المشترك بين الأديان السماوية-.

و لأهميّة الموضوع ندرج بعضا من تلك الرسائل:

۱- رسالة إلى المقوقس ۳۶۱]

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمّد بن عبد اللّه إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد فإنّى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك اللّه أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم القبط[۳۶۲]. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلّا اللّه و لا نشرك به شيئا و لا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون» [۳۶۳].

حمل «حاطب بن أبى بلتعة» رسالة النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المقوقس حاكم مصر، فوجده قد رحل إلى الإسكندرية،

فرکب إلیه، و سلّمه الرسالة، ثمّ قال لحاطب:

ما منعه إن کان نبیّا أن یدعو علی من خالفه و أخرجه من بلده إلی غیرها أن یسلّط علیهم؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۰

فقال له حاطب: أ لست تشهد أنّ عیسی بن مریم رسول اللّه؟ فماله حیث أخذه قومه، فأرادوا أن یقتلوه، أن لا یکون دعا علیهم، أن یهلکهم اللّه تعالی، حتّی رفعه اللّه إلیه؟

قال: أحسنت أنت حکیم من عند حکیم.

ثمّ قال له حاطب: إنّه کان قبلک من یزعم أنّه الربّ الأعلی- یعنی فرعون- فأخذه اللّه نکال الآخرة و الأولی فانتقم به، ثمّ انتقم منه، فاعتبر بغیرک، و لا یعتبر غیرک بک.

إنّ هذا النبیّ دعا الناس، فکان أشدّهم علیه قریش، و أعداهم له الیهود، و أقربهم منه النصاری، و لعمری، ما بشارة موسی بعیسی علیهما الصلاة و السلام، إلّا کبشارة عیسی بمحمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و ما دعاؤنا إیّاک إلی القرآن، إلّا کدعائک أهل التوراة إلی الإنجیل، و کلّ نبیّ أدرک قوما فهم أمته، فالحقّ علیهم أن یطیعوه، فأنت ممّن أدرک هذا النبیّ، و لسنا ننهاک عن دین المسیح بل نأمرک به.

بقی حاطب بن أبی بلتعة أیّاما ینتظر جواب المقوقس علی رسالة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و بعدها استدعاه المقوقس إلی قصره و استزاده معرفة بالإسلام و قال له:

إلی ما یدعو محمّد؟

قال حاطب: إلی أن نعبد اللّه وحده، و یأمر بالصلاة، خمس صلوات فی الیوم و اللیلة، و یأمر بصیام رمضان، و حجّ البیت، و الوفاء بالعهد، و ینهی عن أکل المیتة، و الدم ... ثمّ شرح له بعض جوانب حیاة النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

فقال المقوقس: هذه صفته، و کنت أعلم أنّ نبیّا قد بقی، و کنت أظنّ أنّ مخرجه بالشام، و هناک کانت تخرج الأنبیاء من قبله، فأراه قد خرج من أرض العرب.

ثمّ دعا کاتبه الذی یکتب له بالعربیة فکتب إلی النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم:

«بسم اللّه الرحمن الرحیم، لمحمّد بن عبد اللّه من المقوقس عظیم القبط، سلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۱

علیک. أمّا بعد، فقد قرأت کتابک، و فهمت ما ذکرت فیه و ما تدعو إلیه، و قد علمت أنّ نبیّا قد بقی، و قد کنت أظنّ أنّه یخرج بالشام و قد أکرمت رسولک ...» ثمّ عدّد له الهدایا التی بعثها إلیه و ختم رسالته بعبارة «و السلام علیک»[۳۶۴].

تقول کتب التاریخ إنّ المقوقس أرسل نحو أحد عشر نوعا من الهدایا و بینها طبیب أرسله لمعاجلة مرضی المسلمین.

فقبل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم الهدایا، لکنّه أرجع الطبیب قائلا: «إنّا قوم لا نأکل حتّی نجوع، و إذا أکلنا لا نشبع» مشیرا بذلک إلی أنّ هذه القاعدة فی تناول الطعام کافیة لحفظ صحّة المسلمین (و لعلّه- إضافة إلی هذه القاعدة الصحّیة العظیمة- لم یکن یأمن جانب الطبیب الذی کان مسیحیا و ربما کان الطبیب متعصّبا أیضا، فلم یشأ أن یترک أرواح المسلمین بین یدیه).

إن إکرام المقوقس سفیر النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و الهدایا التی أرسلها إلیه، و تقدیم اسم محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی اسمه، تدلّ کلّها علی أنّه کان قد قبل دعوة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم فی قرارة نفسه، أو أنّه- علی الأقل- مال إلی الإسلام. و لکنّه لکیّ لا یهتزّ مرکزه امتنع عن إظهار ذلک علنا.

۲- رسالة إلی قیصر الروم

«بسم اللّه الرحمن الرحیم. من محمّد بن عبد اللّه إلی هرقل عظیم الروم، سلام علی من اتّبع الهدی. أمّا بعد، فإنّی أدعوک بدعایة الإسلام. أسلم تسلم یؤتک اللّه أجرک مرّتین فإن تولّیت فإنّما علیک إثم الأریسیّین ۳۶۵]. یا اهل الکتاب تعالوا إلی کلمة سواء بیننا و بینکم ألّا نعبد إلّا اللّه و لا نشرک به شیئا و لا یتخذّ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون».

کان حامل رسالة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی القیصر رجل اسمه «دحیة الکلبی».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۲

و تهیّأ السفیر للانطلاق نحو أرض الروم. و لکنّه قبل أن یصل القسطنطنیة، عاصمة القیصر، علم أنّ القیصر قد یمّم شطر بیت المقدس للزیارة. فاتّصل بحاکم «بصری» الحارث بن أبی شمر و کشف له عن مهمّته. و یبدو أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد أجاز دفع الرسالة إلی حاکم (بصری) لیوصلها هذا إلی القیصر.

بعد أن اطّلع الحاکم علی الأمر، استدعی عدی بن حاتم و کلّفه أن یسافر مع دحیة إلی بیت المقدس لیوصل الرسالة إلی القیصر. التقی السفیر قیصر فی حمص.

و کانت الحاشیة قبل ذلک قد أفهموا دحیة أنّ علیه أن یسجد أمام القیصر، و أن لا یرفع رأسه أبدا حتّی یأذن له. فقال دحیة: لا أفعل هذا أبدا، و لا أسجد لغیر اللّه.

فأعجبوا بمنطقه المتین. و قال له أحد رجال البلاط: إذا لک أن تضع الرسالة تجاه منبر قیصر و تنصرف، إنّ أحدا غیر القیصر لا یمسّها. فشکره دحیة علی ذلک، و ترک الرسالة فی ذلک المکان، و انصرف.

فتح قیصر الرسالة، و جلب انتباهه افتتاحها باسم اللّه، و قال: أنا لم أر رسالة مثل هذه غیر رسالة سلیمان. ثمّ طلب مترجمه لیقرأ له الرسالة و یترجمها. احتمل قیصر أن یکون کاتب الرسالة هو النبیّ الموعود فی التوراة و الإنجیل. فعزم علی معرفة دقائق حیاة هذا النبیّ. فأمر بالبحث فی الشام لعلّهم یعثرون علی من یعرف شیئا عن محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم. و اتّفق أن کان أبو سفیان و جمع من قریش قد قدموا إلی الشام- التی کانت الجناح الشرقی للروم- للتجارة، فاتّصل بهم رجال القیصر و أخذوهم إلی بیت المقدس، فسألهم القیصر: أیّکم أقرب نسبا من هذا الرجل الذی یزعم أنّه نبیّ؟ فقال أبو سفیان: أنا.

ثمّ قال القیصر للقریشیین- علی طریق ترجمانه-: إنی سائل (أبا سفیان) عن هذا الرجل الذی یزعم أنّه نبیّ. فإن کذبنی فکذّبوه. فقال أبو سفیان: و ایم اللّه لولا مخافة أن یؤثّر علیّ الکذب لکذبت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۳

۱- ثمّ قال لترجمانه: سله کیف حسبه فیکم؟

أبو سفیان: هو فینا ذو حسب.

۲- القیصر: هل کان من آبائه ملک؟

أبو سفیان: لا.

۳- القیصر: هل کنتم تتّهمونه بالکذب قبل أن یقول ما قال؟

أبو سفیان: لا.

۴- القیصر: من یتّبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

أبو سفیان: بل ضعفاؤهم.

۵- القیصر: أ یزیدون أم ینقصون؟

أبو سفیان: بل یزیدون.

۶- القيصر: هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟

أبو سفيان: لا.

ثمّ استمرّ الحوار بين الاثنين عن موقف قريش من النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و عن سجاياه ثمّ قال القيصر:

إن يكن ما تقول حقّا فإنّه نبيّ، و قد كنت أعلم أنّه خارج، و لم أكن أظنّه منكم، و لو أعلم أنّى أخلص إليه لأحببت لقاءه، و لو كنت عنده لغسلت قدميه- حسب تقاليد الاحترام يومئذ- و ليبلغن ملكه ما تحت قدميّ، ثمّ دعا بكتاب رسول اللّه فقرأه و دعا دحية و احترمه و كتب جواب الرسالة و ضمنّها بهدية و أرسلها الى الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أظهر فى جواب الرسالة ولاءه و محبته إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۴

الآيات [سورة آل‏عمران (۳): الآيات ۶۵ الى ۶۸]

اشارة

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۵) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۶۶) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۶۷) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (۶۸)

سبب النّزول

ورد فى الروايات الشريفة أن علماء اليهود و نصارى نجران جاءوا إلى النبيّ الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أخذوا يجادلونه فى إبراهيم، فقالت اليهود: أنه كان يهوديا، و قالت النصارى: أنه كان نصرانيا (و هكذا كلّ يدعى إبراهيم لنفسه لتكون له الغلبة و الافتخار على خصمه. لأن إبراهيم عليه السّلام كان نبيا عظيما لدى جميع الأديان و المذاهب) فنزلت الآيات أعلاه لتبيّن كذب هذه الادّعاءات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۵

التّفسير

اشارة

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ ....

هذه الآية تردّ على مزاعم اليهود النصارى، و تقول: إنّ جدلكم بشأن إبراهيم النبيّ المجاهد فى سبيل اللّه جدل عقيم، لأنّه كان قبل موسى و المسيح بسنوات كثيرة، و التوراة و الإنجيل نزلا بعده بسنوات كثيرة وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أ يعقل أن يدين نبيّ سابق بدين لاحق؟ أ فَلا تَعْقِلُونَ

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

هنا يوبّخهم اللّه قائلا إنّكم قد بحثتم فيما يتعلّق بدينكم الذى تعرفونه (و شاهدتم كيف أنّكم حتّى فى بحث ما تعرفونه قد وقعتم فى أخطاء كبيرة و كم بعدتم عن الحقيقة، فقد كان علمكم، فى الواقع، جهلا مركّبا)، فكيف تريدون أن تجادلوا فى أمر لا علم لكم به،

ثمّ تدّعون ما لا يتّفق مع أىّ تاريخ؟

و فى نهاية الآية يقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ توكيدا للموضوع السابق، و تمهيدا لبحث الآية التالية.

أجل، إنه يعلم متى بعث إبراهيم عليه السّلام بالرسالة لا أنتم الذين جئتم بعد ذلك بزمن طويل و تحكمون فى هذه المسألة بدون دليل.

ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا.

و هذا ردّ صريح على هذه المزاعم يقول إنّ إبراهيم لم يكن من اليهود و لا من المسيحيّين، و إنّما كان موحّدا طاهرا مخلصا أسلم للّه و لم يشرك به أبدا.

«الحنيف» من الحنف، و هو الميل من شىء إلى شىء، و هو فى لغة القرآن ميل عن الضلال إلى الاستقامة.

يصف القرآن إبراهيم أنّه كان حنيفا لأنّه شقّ حجب التعصّب و التقليد الأعمى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۶

و فى عصر كان غارقا فى عبادة الأصنام، نبذ هو عبادة الأصنام و لم يطأ طىء لها رأسا.

إلّا أنّ العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام فى العصر الجاهلى كانوا يعتبرون أنفسهم حنفاء على دين إبراهيم. و قد شاع هذا شيوعا حدا بأهل الكتاب إلى أن يطلقوا عليهم اسم «الحنفاء». و بهذا اتّخذت لفظة «الحنيف» معنى معاكسا تماما لمعناها الأصلى، غدت ترادف عبادة الأصنام. لذلك فإنّ القرآن بعد أن وصف إبراهيم بأنّه كان حَنِيفاً أضاف مُسْلِماً ثمّ أردف ذلك بقوله وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لإبعاد احتمال آخر.

كيف كان إبراهيم مسلما؟

قد يسأل سائل: إذا لم نكن نعتبر إبراهيم من أتباع موسى و لا من أتباع عيسى فنحن بطريق أولى لا نستطيع أن نعتبره مسلما أيضا، لأنّه كان قبل كلّ هذه الأديان.

فكيف يصفه القرآن بأنّه كان مسلما؟

جواب هذا السؤال هو أنّ «الإسلام» فى القرآن لا يعنى إتّباع رسول الإسلام فقط، بل الكلمة بالمعنى الأوسع تعنى التسليم المطلق لأمر اللّه لتوحيد الكامل الخالص من كلّ شرك و و ثنوية، و كان إبراهيم حامل لواء ذلك الإسلام.

و ممّا تقدّم يتّضح أن إبراهيم عليه السّلام لم يكن تابعا لهذه الأديان. و لكن يبقى شىء واحد، و هو من هم الذين يحقّ لهم ادعاء العلاقة و الارتباط بالدين الإبراهيمى و بعبارة اخرى كيف يمكننا اتباع هذا النبى العظيم الذى يفتخر باتّباعه جميع أتباع الأديان السماوية؟

آخر آية من الآيات مورد البحث توضح هذا المطلب و تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۷

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ...

لوضع حدّ لجدل أهل الكتاب حول إبراهيم، نبىّ اللّه العظيم، الذى كانت كلّ جهة تدّعى أنّه منها، و كانوا يستندون غالبا إلى قرابتهم منه، أو اشتراكهم معه فى العنصر، أعاد القرآن مبدأ رئيسا إلى الأذهان و هو أنّ الارتباط بالأنبياء و الولاء لهم إنّما يكون عن طريق الإيمان و اتّباعهم فقط. و بناء على ذلك، فإنّ أقرب الناس لإبراهيم هم الذين يتّبعون مدرسته و يلتزمون أهدافه، سواء بالنسبة للذين عاصروه لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ أو الذين بقوا بعده أوفياء لمدرسته و أهدافه، مثل نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أتباعه وَ هذَا النَّبِيُّ وَ

الَّذِينَ آمَنُوا.

و السبب واضح، فاحترام الأنبياء إنّما هو لمدرستهم، لا لعنصرهم و قبيلتهم و نسبهم. و عليه، إذا كان أهل الكتاب بعقائدهم المشركة قد انحرفوا عن أهم مبدأ من مبادئ دعوة إبراهيم، فقد بقى رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمون- بالاستناد إلى هذا المبدأ نفسه و تعميمه على جميع أصول الإسلام و فروعه- من أوفى الأوفياء له، فلا بدّ أن نعترف بأنّ هؤلاء هم الأقربون إلى إبراهيم، لا أولئك.

و فى ختام الآية يبشر اللّه تعالى الذين يتبعون رسالة الأنبياء حقيقة و يقول:

وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

ملاحظة

الارتباط الدينى أوثق الروابط:

ترى هذه الآية أنّ الرابط الوحيد الذى يربط الناس بالأنبياء هو اتّباع مدرستهم و أهدافهم، ليس غير.

لذلك نجد أنّ النصوص المروية عن أئمة الإسلام تؤكّد هذا الموضوع بصراحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۸

تامّة. من ذلك أنّه جاء فى تفسير مجمع البيان و نور الثقلين، نقلا

عن الإمام علىّ عليه السّلام أنّه قال: «إنّ أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاؤوا به- ثمّ تلا الآية المذكورة ثمّ قال:- إنّ ولىّ محمّد من أطاع اللّه و إن بعدت لحمته، و إنّ عدوّ محمّد من عصى اللّه و إن قربت قرابته».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۹

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۶۹]

اشارة

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۶۹)

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين إنّ فريقا من اليهود سعوا أن يستميلوا إلى اليهودية بعض الشخصيات الإسلامية المجاهدة، «معاذ» و «عمّار» و غيرهما مستعينين بالوساوس الشيطانية و غير ذلك. فنزلت هذه الآية تنذر المسلمين ممّا يبيت لهم اليهود.

التّفسير

وَدَّتْ طائِفَةٌ[۳۶۶] مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۳۶۷].

سعى أعداء الإسلام، و على الأخصّ اليهود، كما جاء فى سبب النزول أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۰

یباعدوا بین المسلمین و الإسلام، و لم یتوانوا فی سبیل ذلک فی بذل کلّ جهد، حتّی أنّهم طمعوا فی إغراء أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم المقرّبین لعلّهم یستطیعون صرفهم عن الإسلام. و لا شکّ أنّهم لو نجحوا فی التأثیر علی عدد منهم، أو حتّی علی فرد واحد منهم، لکان ذلک ضربة شدیدة علی الإسلام تمهّد الطریق لتضلیل الآخرین أیضا.

هذه الآیة تکشف خطّة الأعداء، و تنذرهم بالکفّ عن محاولاتهم العقیمة استنادا إلی التربیة التی نشأ علیها هذا الفریق من المسلمین فی مدرسة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم بحیث لا یمکن أن یکون هناک أیّ احتمال لارتدادهم. إنّ هؤلاء قد اعتنقوا الإسلام بکلّ وجودهم، و لذلک فإنّهم یعشقون هذه المدرسة الإنسانیة بمجامع قلوبهم و یؤمنون بها. و بناء علی ذلک لا سبیل للأعداء إلی تضلیلهم، بل أنّهم إنّما یضلّون أنفسهم.

وَ ما یُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ و ذلک لأنّهم بإلقاء الشبهات حول الإسلام و علی رسول الإسلام و اتّهامهما بشتّی التهم، إنّما یربّون فی أنفسهم روح سوء الظن. و بعبارة أوضح: إن العیّاب الذی یتصیّد الهفوات یعمی عن رؤیة نقاط القوّة، أو بسبب تعصّبه و عناده یری النقاط المضیئة الإیجابیة نقاطا مظلمة سلبیة، و کلّما ازداد إصرارا علی هذا، إزداد بعدا عن الحقّ.

و لعلّ تعبیر وَ ما یَشْعُرُونَ إشارة إلی هذه الحالة النفسیة، و هی أنّ الإنسان یقع دون وعی منه تحت تأثیر أقواله هو أیضا، و فی الوقت الذی یحاول فیه بالسفسطة و الکذب و الافتراء أن یضلّ الآخرین، لا یکون هو نفسه بمنأی عن التأثیر بأکاذیبه، فتروح هذه الاختلافات تؤثّر بالتدریج فی روحه و تتمکّن فیه بعد فترة وجیزة بصورة عقیدة راسخة، فیصدّقها و یضلّ نفسه بها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۱

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۷۰ الی ۷۱]

اشارة

یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَکْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۷۰) یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَکْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۷۱)

التّفسیر

کتمان الحقّ لما ذا؟

تعقیبا للحدیث عن الأعمال التخریبیة لأهل الکتاب الواردة فی الآیة السابقة، توجّه هاتان الآیتان الخطاب لأهل الکتاب و تلومهم علی کتمانهم للحقائق و عدم التسلیم لها. فتقول:

یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَکْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ۳۶۸].

السؤال هنا أیضا موجه إلی أهل الکتاب عمّا یدعوهم إلی العناد و اللجاجة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۲

و الإصرار علیهما بعد أن قرءوا علامات نبی الإسلام فی التوراة و الإنجیل و یعلمون ما فیهما، فلما ذا ینکرونها؟

یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ

مرّة اخری یستنکر القرآن قیامهم بالخلط بین الحقّ و الباطل، و إخفاءهم الحقّ مع علمهم به، فهم علی علمهم بالأمارات الواردة فی التوراة و الإنجیل عن رسول الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم یخفونها.

إنّه يوبّخهم أوّلا على انحرافهم عن طريق الحقّ مع علمهم به، ثمّ يوبّخهم فى الآية الثانية على تضليلهم الآخرين ۳۶۹].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۳

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۲ الى ۷۴]

اشارة

وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۷۲) وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۷۳) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۷۴)

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين القدامى إنّ اثنى عشر من يهود خيبر و غيرهما وضعوا خطّة ذكية لزعزعة إيمان بعض المؤمنين، فتعاهدوا فيما بينهم أن يصبحوا عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يتظاهروا باعتناق الإسلام، ثمّ عند المساء يرتدّون عن إسلامهم، فإذا سئلوا لماذا فعلوا هذا، يقولون: لقد راقبنا أخلاق محمّد عن قرب، ثمّ عند ما رجعنا إلى كتبنا و إلى أحبارنا رأينا أنّ ما رأيناه من صفاته و سلوكه لا يتّفق مع ما هو موجود فى كتبنا، لذلك ارتددنا. إنّ هذا سيحمل بعضهم على القول بأنّ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۴
هؤلاء قد رجعوا إلى كتبهم السماوية التى هم أعلم منّا بها، إذا لا بدّ أن يكون ما يقولونه صحيحا. و بهذا تتزعزع عقيدتهم.
هناك سبب نزول آخر، إلّا أنّ ما ذكرناه أقرب إلى معنى الآية.

التّفسير

مؤامرة خطيرة:

تكشف هذه الآية عن خطّة هدّامة أخرى من خطط اليهود، و تقول إنّ هؤلاء لكى يزلزلوا بنية الإيمان الإسلامى توسّلوا بكلّ وسيلة ممكنة. من ذلك أنّ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ اتّفقوا أن يؤمنوا بما أنزل على المسلمين فى أوّل النهار و يرتدّوا عنه فى آخره آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ
لعلّ المقصود من أوّل النهار و آخره قصر المدة بين إيمانهم و ارتدادهم، سواء أ كان ذلك فى أوّل النهار حقّا أم فى أىّ وقت آخر. إنّما قصر هذه المدّة يوحى إلى الآخرين أن يظنّوا أنّ هؤلاء كانوا يرون الإسلام شيئا عظيما قبل الدخول فيه، و لكنّهم بعد أن أسلموا وجدوه شيئا آخر قد خيّب آمالهم، فارتدّوا عنه.
لا شكّ أن مثل هذه المؤامرة كانت ستؤثّر فى نفوس ضعفاء الإيمان، خاصّة و أنّ أولئك اليهود كانوا من الأحبار العلماء، و كان الجميع يعرفون عنهم أنّهم عالمون بالكتب السماوية و بعلائم خاتم الأنبياء. فإيمانهم ثمّ كفرهم كان قادرا على أن يزلزل إيمان المسلمين الجديد. لذلك كانوا يعتمدون كثيرا على خطّتهم الماهرة هذه، و قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ دليل على أملهم هذا.
و كانت خطّتهم تقتضى أن يكون إيمانهم بالإسلام ظاهريا، و أن يبقى ارتباطهم باتّباع دينهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۵۵۵

وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِینَکُمْ

و یستفاد من بعض التفاسیر أنّ یهود خیبر أوصوا یهود المدینة بذلک لئلّا یقع القریبون من رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تحت تأثیره فیؤمنوا به حقّا، لأنّهم کانوا یعتقدون أنّ النبوّة یجب أن تکون فی العنصر الیهودی، فإذا ظهر نبیّ فلا بدّ أن یکون یهودیا.

یری بعض المفسّرین أنّ جملة لا تُؤْمِنُوا من الإیمان الذی یعنی «الوثوق و الاطمئنان» کما هو أصل الکلمة اللغوی. و بناء علی ذلک یکون المعنی: هذه المؤامرة یجب أن تبقی مکتومة و سرّیة، و أن لا یعلم بها أحد من غیر الیهود، حتّی المشرکین، لئلّا تنکشف و تحبط، ففضح اللّه هذه المؤامرة فی هذه الآیات و فضحهم، لیکون ذلک درس عبرة للمؤمنین، و درس هدایة للمعاندین.

قُلْ إِنَّ الْهُدی هُدَی اللَّهِ

هذه جملة معترضة جاءت ضمن کلام علی لسان الیهود فی ما قبلها و ما بعدها من الآیات.

فی هذه الآیة التی تقع بین کلام الیهود، یردّ اللّه علیهم ردّا قصیرا و لکنه عمیق المعنی. فأوّلا: الهدایة مصدرها اللّه، و لا تختصّ بعنصر أو قوم بذاته، فلا ضرورة فی أن یجیء النبیّ من الیهود فقط. و ثانیا: إنّ الذین شملهم اللّه بهدایته الواسعة لا تزعزعهم هذه المؤامرات و لا تؤثّر فیهم هذه الخطط.

أَنْ یُؤْتی أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِیتُمْ أَوْ یُحاجُّوکُمْ عِنْدَ رَبِّکُمْ ۳۷۰].

هذه الآیة استمرار لأقوال الیهود، بتقدیر عبارة و لا تصدقوا قبلها.

و علی ذلک یصبح معنی الآیة هکذا: «لا تصدّقوا أن ینال أحد ما نلتم من الفخر و ما نزل علیکم من الکتب السماویة، و کذلک لا تصدّقوا أن یستطیع أحد أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۵۵۶

یجادلکم یوم القیامة أمام اللّه و یدینکم، لأنکم خیر عنصر و قوم فی العالم، و أنتم أصحاب النبوّة و العقل و العلم و المنطق و الاستدلال!».

بهذا المنطق الواهی کان الیهود یسعون لنیل میزة یتمیّزون بها، من حیث علاقتهم باللّه، و من حیث العلم و المنطق و الاستدلال، علی الأقوام الأخری. لذلک یردّهم اللّه فی الآیة التالیة بقوله:

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِیَدِ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ

أی: قل لهم إنّ المواهب و النعم، سواء أ کانت النبوّة و الاستدلالات العقلیة المنطقیة، أم المفاخر الأخری، هی جمیعا من اللّه، یسبغها علی من یشاء من المؤهّلین اللائقین الجدیرین بها. إنّ أحدا لم یأخذ علیه عهدا و وعدا، و لا لأحد قرابة معه. إنّ جوده و عفوه واسعان، و هو علیم بمن یستحقّهما.

یَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ ۳۷۱].

هذا توکید لما سبق أیضا: إنّ اللّه یخصّ من عباده من یراه جدیرا برحمته- بما فی ذلک مقام النبوّة و القیادة- دون أن یستطیع أحد تحدیده فهو صاحب الأفضال و النعم العظیمة.

و یستفاد ضمنا من هذه الآیة الکریمة أن الفضل الإلهی إذا شمل بعض الناس دون بعض، فلیس ذلک المحدودیة الفضل الإلهی، بل بسبب تفاوت القابلیات فیهم.

خطط قدیمة

تعتبر هذه الآيات، في الواقع، من آيات إعجاز القرآن، لأنّها تكشف أسرار

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۷

اليهود و أعداء الإسلام و تفضح خططهم لزعزعة مسلمي الصدر الأوّل، فتيقّظ المسلمون ببركتها، و وعوا وساوس الأعداء المغرية. و لكنّنا لو دقّقنا النظر لأدركنا أنّ تلك الخطط تجري في عصرنا الحاضر أيضا بطرق مختلفة. إنّ وسائل إعلام الأعداء القوية المتطوّرة مستخدمة الآن للغرض نفسه، فهم يحاولون هدم أركان العقيدة الإسلامية في عقول المسلمين، و بخاصة الجيل الشاب. و هم في هذا السبيل لا- يتورّعون عن كلّ فرية، و يلجأون إلى كلّ السبل و يتلبّسون بلبوس العالم و المستشرق و المؤرّخ و عالم الطبيعيات و الصحفي، بل حتّى الممثّل السينمائي.

إنّهم يصرّحون أنّ هدفهم ليس التبشير بالمسيحية و حمل المسلمين على اعتناقها، و لا اعتناق اليهودية، بل هدفهم هو هدم أسس المعتقدات الإسلامية في أفكار الشباب، و جعلهم غير مهتمّين بدينهم و تراثهم. إنّ القرآن اليوم يحذّر المسلمين من هذه الخطط كما حذّرهم في القديم.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۸

الآيتان [سورة آل‏عمران (۳): الآيات ۷۵ الى ۷۶]

اشارة

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷۶)

سبب النّزول

نزلت هذه الآية بشأن يهوديّين أحدهما أمين و صادق، و الآخر و خائن منحط.

الأوّل هو «عبد اللّه بن سلام» الذي أودع عنده رجل ۱۲۰۰ أوقية[۳۷۲] من الذهب أمانة. ثمّ عند ما استعادها ردّها إليه. و اللّه يثني عليه في هذه الآية لأمانته.

و اليهوديّ الثاني هو «فنحاص بن عازورا» ائتمنه رجل من قريش بدينار، فخانه فيه. و اللّه يذمّه في هذه الآية لخيانته الأمانة.

و قيل إنّ القسم الأوّل من الآية يقصد جمعا من النصارى، و أمّا الذين خانوا

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۹

الأمانة فهم جمع من اليهود. و قد تشير الآية إلى الحالتين، إذ أنّنا نعلم أنّ الآيات- و إن كان لبعضها سبب نزول خاص- لها طابع عامّ و سبب النزول لا يخصّصها.

التّفسير

ترسم الآية ملامح أخرى لأهل الكتاب. كان جمع من اليهود يعتقدون أنّهم لا يكونون مسئولين عن حفظ أمانات الناس، بل لهم الحقّ في تملّك أماناتهم! كانوا يقولون: إنّنا أهل الكتاب، و أن النبيّ و الكتاب السماوي نزلا بين ظهرانينا، لذلك فأموال الآخرين غير محترمة عندنا. لقد تغلغلت فيهم هذه الفكرة بحيث غدت عقيدة دينية راسخة. و هذا ما يعبّر عنه القرآن بقوله يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

قال اليهود: إنّ لنا حقّ التصرّف بأموال العرب و اغتصابها لأنّهم مشركون و لا يتّبعون دين موسى.

و قيل أيضا إن اليهود كانت لهم مع العرب اتفاقات اقتصادية و تجارية و عند ما أسلم العرب، امتنع اليهود عن ردّ حقوقهم، قائلين: إنكم عند عقد الاتفاق لم تكونوا من مخالفينا. أما و قد أتخذتم دينا جديدا فقد سقط حقّكم.

من الجدير بالذكر أنّ هذه الآية تعلن أنّ أهل الكتاب لم يكونوا جميعا ينهجون هذا الطراز من التفكير غير الإنسانى، بل كان فيهم جماعة ترى أنّ من واجبها أن تؤدّى حقّ الآخرين. و لذلك فإنّ القرآن لم يدنهم جميعا و لم يلق تبعة أخطاء بعضهم على الجميع، و لذلك يقول وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ[۳۷۳] يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً. إنّ تعبير إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً أى واقفا و مسيطرا، يشير إلى مبدأ أصيل فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۰

نفسيّة اليهود، فكثير منهم لا يجدون أنفسهم ملزمين بردّ حقّ إلّا بالقوّة. ليس أمام المسلمين لاسترجاع حقوقهم منهم سوى هذا السبيل، سبيل السعى للحصول على القوّة التى تجعلهم يردّون حقوقهم.

إنّ الحوادث التى جرت فى الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة أثبتت بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ القرارات الدولية و الرأى العام العالمى، و قضايا الحقّ و العدالة و أمثالها، لا قيمة لها فى نظر الصهاينة و لا معنى، و ما من شىء يحملهم على الخضوع للحقّ سوى القوّة. و هذه من المسائل التى تنبّأ بها القرآن.

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ

هذه الآية تبيّن منطقهم فى أكل أموال الناس، و هو قولهم بأنّ «لأهل الكتاب» أفضلية على «الأميّين» أى على المشركين و العرب الذين كانوا أمّيّين غالبا أو أن المقصود كلّ من ليس له نصيب من قراءة التوراة و الإنجيل، لذلك يحقّ لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، و ليس لأحد الحقّ أن يؤاخذهم على ذلك، حتّى أنّهم ينسبون إلى اللّه تقرير التفوّق الكاذب.

لا شكّ أنّ هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرّد خيانة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون هذا حقّا من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلا: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

هؤلاء يعلمون أنّه ليس فى كتبهم السماوية أىّ شىء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس فى أموالهم، و لكنّهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب و ينسبونها إلى اللّه.

الآية التالية تنفى مقولة اليهود لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ التى قرّروا فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۱

لأنفسهم حرّية العمل، فاستندوا إلى هذا الزعم المزيّف للاعتداء على حقوق الآخرين بدون حقّ. حيث يتلاعبون بمصائر شعوب العالم، و لا يتورّعون عن ارتكاب كلّ اعتداء على حقوق الإنسان، و يرون القوانين مجرّد العوبة بيدهم لتحقيق مصالحهم، فتقول: بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

تقرر هذه الآية أنّ مقياس الشخصية و القيمة الإنسانية و محبّة اللّه يتمثّل فى الوفاء بالعهد و فى عدم خيانة الأمانة خاصّة، و فى التقوى بشكل عامّ، أجل، إن اللّه يحب هؤلاء، لا الخونة الكذابين الذين يبيحون لأنفسهم غصب حقوق الآخرين و يتجرءون كذلك على نسبتها إلى اللّه تعالى.

بحث

۱- اعتراض:

قد یقول قائل إنّ الإسلام قرّر أیضا مثل هذا الحکم بالنسبة لأموال الأجانب، إذ أنّه یجیز الاستیلاء علی أموالهم.

الجواب:

إنّ اتّهام الإسلام بهذا افتراء لا شکّ فیه، إذ أنّ من أحکام الإسلام القاطعة الواردة فی کثیر من الأحادیث، هو «لیس من الجائز خیانة الأمانة سواء أ کانت الأمانة تخصّ مسلما أم غیر مسلم، و حتّی المشرک و عابد الأصنام».

فی حدیث معروف عن الإمام السجاد علیه السّلام قال: «علیکم بأداء الأمانة، فوالذی بعث محمّدا بالحقّ نبیا لو أنّ قاتل أبی الحسین بن علی بن أبی طالب ائتمننی علی السیف الذی قتله به لأدّیته إلیه»[۳۷۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۲

و فی روایة اخری عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه لم یبعث نبیّا قط إلّا بصدق الحدیث و أداء الأمانة مؤدّاه إلی البرّ و الفاجر»

[۳۷۵].

بناء علی ذلک فإنّ ما جاء فی هذه الآیة عن الیهود و خیانتهم الأمانة و منطقهم فی تسویغ تلک الخیانة لم یسمح به الإسلام بأیّ شکل من الأشکال، فالمسلمون مکلّفون أن لا یخونوا الأمانة فی جمیع الأحوال.

۲- کلمة «بلی» تستعمل فی اللغة العربیة ردّا علی النفی أو جوابا علی استفهام مقترن بالنفی، کقوله تعالی: أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قالُوا بَلی ۳۷۶] و نِعْمَ جوابا للاستفهام المثبت، مثل فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ ۳۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۳

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۷۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ یَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَیْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِیلاً أُولئِکَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ وَ لا یُکَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا یَنْظُرُ إِلَیْهِمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ لا یُزَکِّیهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۷۷)

سبب النّزول

جمع من أحبار الیهود و علمائهم مثل «أبی رافع» و «حی بن أخطب» و «کعب بن أشرف» حین لاحظوا أنّ مراکزهم الاجتماعیة بین الیهود معرّضة للخطر، عمدوا إلی العلامات الموجودة فی التوراة بشأن خاتم الأنبیاء و التی کانوا هم أنفسهم قد دوّنوها بأیدیهم فی نسخ التوراة، فحرّفوها و أقسموا علی أنّ تلک الکتابات المحرّفة من اللّه. لذلک نزلت هذه الآیة و فیها إنذار شدید لهم.

و هناک مفسّرون آخرون ذهبوا إلی أنّ هذه الآیة نزلت فی «أشعث بن قیس» الذی کان یرید استملاک أرض لغیره عن طریق الکذب و التزویر. و عند ما تهیّأ لأداء الیمین لتوثیق ادّعائه نزلت الآیة، فاستولی الخوف علی أشعث و اعترف بالحقّ و أعاد الأرض لصاحبها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۴

التّفسیر

المحرفون للحقائق:

تشیر الآیة إلی جانب آخر من آثام الیهود و أهل الکتاب. و لکونها وردت بصیغة عامّة، فإنّها تشمل کلّ من تنطبق علیه هذه الصفات.
تقول الآیـة: إِنَّ الَّذِینَ یَشْتَرُونَ بِعَهْـدِ اللَّهِ وَ أَیْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِیلًا أی الـذین یجعلون عهودهم مع اللّه و القسم باسـمه المقـدّس موضع بیع و شراء لقاء مبالغ مادّیة، سیکون جزاءهم خمس عقوبات:
أحدها: أنّهم سوف یحرمون من نعم اللّه التی لا نهایة لها فی الآخرة أُولئِکَ لا خَلاقَ ۳۷۸] لَهُمْ
ثمّ إنّ اللّه یوم القیامة یکلّم المؤمنین و لکنّه لا یکلّم أمثال هؤلاء وَ لا یُکَلِّمُهُمُ اللَّهُ
کما إنّ اللّه سوف لا ینظر إلیهم بنظر الرحمـة و اللطف یوم القیامة وَ لا یَنْظُرُ إِلَیْهِمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ. و من ذلک یعلم أن اللّه تعالی فی ذلک الیوم یتکلم مع عبـاده المؤمنین (سواء مباشـرة أو بتوسـط الملائکـة) ممّـا یجلب لهم السـرور و الفرح و یکون دلیلاـ علی عنـایته بهم و رعایته لهم، و کذلک النظر إلیهم، فهو إشارة إلی العنایة الخاصّة بهم، و لیس المقصود انظر الجسمانی کما توهم بعض الجهلاء.
أمّا الأشخاص الذین باعوا آیات اللّه بثمن مادی فلا یشملهم اللّه تعالی بعنایته، و لا بمحادثته.
و لا یطهّرهم من ذنوبهم وَ لا یُزَکِّیهِمْ
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۵
و أخیرا سیعذّبهم عذابا شدیدا وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ
و لیس المقصود من «الثمن القلیـل» أن الإنسـان إذا بـاع العهـد الإلـهی بثمن کثیر فیجوز له ذلـک، بـل المقصود أی ثمن مـادّی یعطی مقابل ارتکاب هذه الذنوب الکبیرة، حتّی و إن کان هذا الثمن یتمثّل فی رئاسات کبیرة و واسعة، فهی مع ذلک قلیلة.
بـدیهیّ أنّ کلامـ اللّه لیس نطق اللسـان، لأـنّ اللّه منزّه عن التجسّـد، إنّمـا الکلام عن طریق الإلهام القلبی، أو عن طریق إحـداث أمواج صوتیة فی الفضاء، کالکلام الذی سمعه موسی علیه السّلام من شجرة الطور.

ملاحظة

تجـدر الإشارة هنا إلی أنّ هـذه العواقب الخمس المترتّبـة علی «نقض العهـد» و «الأیمان الکاذبـة» المـذکورة فی هذه الآیة ربّما تکون إشارة إلی مراحل «القرب و البعد» من اللّه.
إنّ من یقترب من اللّه و یـدنو من ساحـة قربه تشـمله مجموعـة من النعم الإلهیّة المعنویة، فإذا ازداد اقترابا کلّمه اللّه، و إن دنا أکثر نظر إلیه اللّه نظرة الرحمـة، و إن اقترب أکثر طهّره اللّه من آثار ذنوبه، و أخیرا ینجو من العـذاب الألیم و تغمره نعم اللّه، أمّا الذین یسـیرون فی طریق نقض العهود و اسـتغلال اسم اللّه بشـکل غیر مشـروع، فیحرمون من کلّ تلک النعم و یتراجعون مرحلة بعد مرحلة. فی تفسیر الآیة ۱۷۴ من سورة البقرة، المشابهة لهذه الآیة، شرح أوفی للموضوع.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۶

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۷۸]

اشارة

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِیقـاً یَلْوُونَ أَلْسِـنَتَهُمْ بِالْکِتابِ لِتَحْسَـبُوهُ مِنَ الْکِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْکِتابِ وَ یَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ وَ

يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۸)

التّفسير

هذه الآية التى تؤكّد ما بحثته الآيات السابقة بشأن خيانة بعض علماء أهل الكتاب و تقول: إنّ فريقا من هؤلاء يلوون ألسنتهم عند تلاوتهم الكتاب. و هذا كناية عن تحريفهم كلام اللّه. و «يلون» من مادة (لىّ) على وزن حىّ، و هو الإمالة، و هو تعبير بليغ عن تحريف كلام اللّه، و كأنهم حين تلاوتهم للتوراة و عند ما يصلون إلى الآيات التى فيها صفات رسول اللّه و البشارة بظهوره يغيّرون لحن كلامهم.

و تضيف: إنّهم فى تحريفهم هذا من المهارة بحيث إنّكم تحسبون ما يقرءونه آيات أنزلها اللّه، و هو ليس كذلك لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ

و لكنّهم لا يقنعون بذلك، بل يشهدون علانية بأنّه من كتاب اللّه، و هو ليس كذلك وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۷

مرّة أخرى يقول القرآن: إنّهم فى عملهم هذا ليسوا ضحية خطأ، بل هم يكذبون على اللّه بوعى و بتقصّد، و ينسبون إليه هذه التهم الكبيرة و هم عالمون بما يفعلون وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۸

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۹ الى ۸۰]

اشارة

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (۷۹) وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۸۰)

سبب النّزول

فى سبب نزول هذه الآية روايتان:

الأولى- أنّ رجلا قال: يا رسول اللّه نحن نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض، ألا نسجد لك؟

قال: لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون اللّه، و لكن أكرموا نبيّكم و اعرفوا الحقّ لأهله، فأنزل اللّه الآية.

الثانية- أنّ أبا رافع من اليهود و معه رئيس وفد نجران قالا للنبىّ: أ تريد أن نعبدك و نتّخذك إلها؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۹

(و لعلّهم ظنّوا أن مخالفة الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم لالوهية المسيح عليه السّلام لأنه ليس له نصيب من ذلك، فلو أنهم رفعوا منزلته إلى مستوى الإله كما هو الحال بالنسبة إلى المسيح عليه السّلام لترك الخلاف معهم، و لعلّ هذا الاقتراح يستبطن مؤامرة دبّرت لتلويث سمعة النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و دفع الأنظار عنه) و لكن

النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: معاذ اللّه أن أعبد غير اللّه أو آمر بعبادة غير اللّه، ما بذلك بعثنى، و لا بذلك أمرنى، فأنزل اللّه الآية.

التّفسير

الدعوة إلى عبادة غير اللّه مستحيلة:

سبق أن قلنا إنّ واحدة من عادات أهل الكتاب القبيحة- اليهود و النصارى- كانت تزييف الحقائق. من ذلك قولهم بألوهية عيسى، زاعمين أنّه هو الذى أمرهم بذلك، و كان هذا ما يريد بعضهم أن يحقّقه بشأن رسول الإسلام أيضا، للأسباب التى ذكرناها فى نزول الآية.

إنّ الآية ردّ حاسم على جميع الذين كانوا يقترحون عبادة الأنبياء. تقول الآية: ليس لكم أن تعبدوا نبىّ الإسلام و لا أىّ نبى آخر و لا الملائكة. و يخطئ من يقول إنّ عيسى قد دعاهم إلى عبادته.

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ

الآية تنفى نفيا مطلقا هذا الأمر. أى أنّ الذين أرسلهم اللّه و أتاهم العلم و الحكمة لا يمكن- فى أيّة مرحلة من المراحل- أن يتعدّوا حدود العبودية للّه. بل إنّ رسل اللّه هم أسرع خضوعا له من سائر الناس، لذلك فهم لا يمكن أن يخرجوا عن طريق العبودية و التوحيد و يجرّوا الناس إلى هوة الشرك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۰

وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۵۷۰

الربّانى» هو الذى أحكم ارتباطه باللّه. و لمّا كانت الكلمة مشتقّة من «ربّ» فهى تطلق أيضا على من يقوم بتربية الآخرين و تدبير أمورهم و إصلاحهم.

و على هذا يكون المراد من هذه الآية: إنّ هذا العمل (دعوة الأنبياء الناس إلى عبادتهم) لا يليق بهم، إنّ ما يليق بهم هو أن يجعلوا الناس علماء إلهيّين فى ضوء تعليم آيات اللّه و تدريس حقائق الدين، و يصيّروا منهم أفرادا لا يعبدون غير اللّه و لا يدعون إلّا إلى العلم و المعرفة.

يتّضح من ذلك أنّ هدف الأنبياء لم يكن تربية الناس فحسب، بل استهدفوا أكثر من ذلك تربية المعلّمين و المرّبين و قادة الجماعة، أى تربية أفراد يستطيع كلّ منهم أن يضيء بعلمه و إيمانه و معرفته محيطا واسعا من حوله.

تبدأ الآية بذكر «التعليم» أوّلا ثمّ «التدريس». تختلف الكلمتان من حيث اتّساع المعنى، فالتعليم أوسع و يشمل كلّ أنواع التعليم، بالقول و بالعمل، للمتعلّمين و للأمّيّين. أمّا التدريس فيكون من خلال الكتابة و النظر إلى الكتاب، فهو أخصّ و التعليم أعمّ.

وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً.

هذه تكلمة لما بحث فى الآية السابقة، فكما أنّ الأنبياء لا يدعون الناس إلى عبادتهم، فإنّهم كذلك لا يدعونهم إلى عبادة الملائكة و سائر الأنبياء. و فى هذا جواب لمشركى العرب الذين كانوا يعتقدون أنّ الملائكة هم بنات اللّه، و بذلك يسبغون عليهم نوعا من الالوهية، و مع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم من أتباع دين إبراهيم. كذلك هو جواب للصابئة الذين يقولون إنّهم أتباع «يحيى»، و كانوا يرفعون مقام الملائكة إلى حدّ عبادتهم. و هو أيضا ردّ على اليهود الذين قالوا إنّ «عزيرا»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۱

ابن اللّه، أو النصارى الذين قالوا إن «المسيح» ابن اللّه، و أضفوا عليه طابعا من الربوبية، فالآية تردّ هؤلاء جميعا و تقول إنّه لا يليق

بالأنبياء أن يدعو الناس إلى عبادة غير اللّه.

و فى الختام تقول الآية أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أ يمكن أن يدعوكم النبىّ إلى الكفر بعد أن اخترتم الإسلام دينا؟ واضح أنّ «الإسلام» هنا يقصد به معناه الأوسع، كما هى الحال فى مواضع كثيرة من القرآن، و هو التسليم لأمر اللّه و الإيمان و التوحيد. أى كيف يمكن لنبىّ أن يدعو الناس أوّلا إلى الإيمان و التوحيد، ثمّ يدلّهم على طريق الشرك؟ أو كيف يمكن لنبىّ أن يهدم ما بناه الأنبياء فى دعوتهم الناس إلى الإسلام. فيدعوهم إلى الكفر و الشرك؟

تنوّه الآية ضمنيّا بعصمة الأنبياء و عدم انحرافهم عن مسير إطاعة اللّه ۳۷۹].

ملاحظة

منع عبادة البشر:

تدين هذه الآيات بصراحة كلّ عبادة، و خاصّة عبادة البشر، سوى عبادة اللّه، و تربّى فى الإنسان روح الحرّية و استقلال الشخصية، تلك الروح التى لا يكون بدونها جديرا بحمل اسم إنسان.

نعرف من خلال التاريخ العديد من الأشخاص الذين كانوا، قبل الوصول إلى السلطة، يتميّزون بالبراءة و يدعون الناس إلى الحقّ و العدالة و الحرّية و الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۲

و لكنّهم ما أن صعدوا عروش السلطة و الهيمنة على المجتمع غيّروا سيرتهم شيئا فشيئا و انحازوا إلى فكرة عبادة الشخصية و دعوا الناس إلى عبادتهم.

فى الواقع، أنّ من أساليب تمييز «دعاة الحقّ» عن «دعاة الباطل» هو هذا.

فدعاة الحقّ- و على رأسهم الأنبياء و الأئمّة- كانوا و هم فى قمّة السلطة، كما كانوا قبل أن تكون لهم أيّة سلطة، يدعون إلى الأهداف الدينية المقدّسة و الإنسانية و التوحيد و الحرّية. أمّا دعاة الباطل، فإنّ أوّل ما يبادرون إليه عند وصولهم السلطة هو الدعوة لأنفسهم و حثّ الناس على نوع من عبادتهم، نتيجة تملّق الناس الضعفاء المحيطين بهم، و كذلك نتيجة ضيق أفقهم و غرورهم.

هناك حديث عن الإمام على عليه السّلام تظهر من خلاله شخصيّته الكبيرة الفذّة، و يعتبر دليلا و شاهدا على هذا البحث.

عند وصول الإمام عليه السّلام إلى أرض الأنبار- إحدى مدن العراق الحدودية- خرّ جمع من الدهّاقين ساجدين أمامه، بحسب التقاليد التى اعتادوا عليها، فغضب الإمام من فعلتهم هذه و صرخ فيهم:

«ما هذا الذى صنعتموه؟ فقالوا: خلق منّا نعظّم به أمراءنا. فقال: و اللّه ما ينتفع بهذا أمراؤكم، و أنّكم لتشقّون على أنفسكم فى دنياكم و تشقّون به فى آخرتكم، و ما أخسر المشقّة وراءها العقاب، و أربح الدعة معها الأمان من النار».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۳

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸۱ الى ۸۲]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۸۱) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۸۲)

التّفسير

الميثاق المقدس:

بعـد أن أشـارت الآيـات السابقـة الى وجود علائم لنبىّ الإسـلام فى كتب الأنبياء السابقين، أشارت هـذه الآيـة إلى مبـدأ عام، و هو أنّ الأنبياء السابقين و أتباعهم قـد أبرموا مع اللّه ميثاقا بالتسـليم للأنبياء الـذين يأتون بعدهم، و بالإضافة إلى الإيمان بهم، لا يبخلون عليهم بشىء فى مساعدتهم على تحقيق أهدافهم. تقول الآية:

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ ....

فى الواقع، مثلما أنّ الأنبياء و الأمم التالية تحترم الأنبياء السابقين و دياناتهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۴

فإنّ الأنبياء السابقين و الأمم السابقة كانوا يحترمون الأنبياء الذين يأتون بعدهم.

و فى القرآن إشارات كثيرة على وحدة الهدف عند أنبياء اللّه. و هذه الآية نموذج حىّ على ذلك.

و «الميثـاق» من «الوثوق»، أى مـا يـدعو إلى الاطمئنـان به و الاعتمـاد عليه. و «الميثاق» هو الاتّفاق المؤكّـد. و أخـذ الميثاق من الأنبياء مصـحوب بأخـذ الميثـاق من أتبـاعهم أيضـا. كان موضوع هـذا الميثاق هو أنّه إذا جاء نبىّ تنسـجم دعوته مع دعوتهم (و هـذا ما يثبت صدق دعوته) فيجب الإيمان به و نصرته.

ثمّ لتوكيد هذا الموضوع جاءت الآية:

قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِى ۳۸۰].

هل اعترفتم بهذا الميثاق و قبلتم عهدى و أخذتم من أتباعكم عهدا بهذا الموضوع؟

و جوابا على ذلك قالُوا أَقْرَرْنا.

ثمّ لتوكيد هذا الأمر المهمّ و تثبيته يقول اللّه: كونوا شـهداء على هذا الأمر و أنا شاهد عليكم و على أتباعكم قالَ فَاشْـهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

و فى الآية الأخيرة يذم و يهدد القرآن الكريم ناقضى العهود و يقول:

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

فلو أن أحدا بعد كلّ هذا التأكيد على أخذ المواثيق و العهود المؤكّدة- أعرض عن الإيمان بنبىّ كنبىّ الإسـلام الذى بشرت به الكتب القديمة و ذكرت علائمه، فهو فاسق و خارج على أمر اللّه تعالى. و نعلم أن اللّه لا يهدى الفاسقين المعاندين، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۵

مرّ فى الآية ۸۰ من سورة التوبة: وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ و من لا يكون له نصيب من الهداية الإلهيّة، فإن مصيره إلى النار.

هنا ثلاث نقاط لا بدّ أن ننتبه لها:

۱- هل هذه الآية مقصورة على بشارة الأنبياء السابقين و ميثاقهم بالنسـبة لنبىّ الإسـلام صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، أم أنّها تشمل كلّ نبىّ يبعث بعد نبىّ قبله؟

يظهر من الآيـة أنّهـا تعبّر عن مسألـة عامّـة، و إن كـان خـاتم الأنبياء مصـداقها البارز. كما أنّ هـذا المعنى الواسع يتّسق مع روح مفاهيم القرآن. لـذلك إذا مـا رأينـا فى بعض الأخبار أنّ المقصود هو نبىّ الإسـلام الكريم، فما ذلك إلّا من قبيل تفسـير الآيـة و تطبيقها على

أجلى مصاديقها، و ليس لأنّ المعنى جاء على سبيل الحصر.

ينقل الفخر الرازى فى تفسيره عن الإمام على عليه السّلام قال: «إنّ اللّه تعالى ما بعث آدم عليه السّلام و من بعده من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام إلّا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمّد عليه الصلاة و السلام و هو حى، ليؤمننّ به و لينصرنّه»[۳۸۱].

۲- بعد أخذ مضمون الآية بنظر الإعتبار، يبرز هذا السؤال: أ يمكن أن يظهر نبىّ من أولى العزم فى زمان نبىّ آخر من أولى العزم حتّى يتبعه؟

يمكن القول فى جواب هذا السؤال: إنّ الميثاق لم يؤخذ من الأنبياء وحدهم، بل و من أتباعهم أيضا، كما قلنا فى تفسير الآية، و الواقع أنّ القصد من أخذ الميثاق من الأنبياء و أخذه من أممهم و الأجيال التى تولد بعدهم و تدرك عصر النبىّ التالى. كما أنّ الأنبياء أنفسهم يؤمنون أيضا إذا أدركوا- فرضا- عهد الأنبياء التالين. أى أنّ أنبياء اللّه لا ينفصلون إطلاقا فى أهدافهم و فى دعوتهم و لا صراع أو خلاف بينهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۶

۳- و القول الأخير بشأن هذه الآية هو أنّها و إن تكن بخصوص الأنبياء، فهى تصدق طبعا بحقّ خلفائهم أيضا، إذ أنّ خلفائهم الصادقين لا ينفكّون عنهم، و هم جميعا يسعون لتحقيق هدف واحد. و لذلك كان الأنبياء يعيّنون خلفائهم، و يبشّرون الناس بهم و يدعونهم إلى الإيمان بهم و شدّ أزرهم.

و لئن وجدنا بعض الروايات الواردة فى تفاسيرنا لهذه الآية و كتب أحاديثنا بشأن نزول عبارة «و لتنصرنّه» فى على عليه السّلام و أنها تشمل قضية الولاية، إنّما هو إشارة إلى هذا المعنى.

و لا بدّ أن نشير إلى أنّ هذه الآية- من حيث تركيبها النحوى- كانت موضع بحث بين المفسّرين و رجال الأدب [۳۸۲].

۴- التعصّب المقيت يحدّثنا التاريخ أنّ أتباع دين من الأديان لا يتخلّون بسهولة عن دينهم و لا يستسلمون للأنبياء الجدد المبعوثين من قبل اللّه، بل يتمسّكون بدينهم القديم تمسّكا جافّا جامدا، و يدافعون عنه كأنّه جزء من وجودهم، و يرون تركه إبادة لقوميّتهم.

لذلك يشقّ عليهم القبول بالدين الجديد. إنّ منشأ الكثير من الحروب الدينية التى وقعت على امتداد التاريخ- و هى من أفظع حوادث التاريخ- هو هذا التعصّب الجاف و الجمود على الأديان القديمة.

غير أنّ قانون الارتقاء و التكامل يقول: هذه الأديان يجب أن تأتى الواحد تلو الآخر، و تتقدّم بالبشرية فى سيرها نحو معرفة اللّه و الحقّ و العدالة و الإيمان و الأخلاق و الإنسانية و الفضيلة، حتّى تصل إلى الدين النهائى، خاتم الأديان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۷

كالطفل الذى يتدرّج فى مراحل الدراسة و يطويها الواحدة بعد الأخرى حتّى يتخرّج من الكليّة و الجامعة.

فإذا أحبّ التلاميذ جوّ مدرستهم الابتدائية ذلك الحبّ الذى يربطهم بمدرستهم إلى درجة أنّهم يرفضون الانتقال إلى المدرسة الثانوية، فبديهىّ أنّ لا يكون نصيب هؤلاء سوى التخلّف عن ركب السائرين نحو التقدّم و الارتقاء.

إنّ إصرار الآية على أخذ الميثاق و العهد المؤكّد من الأنبياء و الأمم الماضية نحو الأنبياء التالين لهم قد يكون من أجل اجتناب أمثال هذا التعصّب و الجمود و العناد.

و لكنّ الذى يؤسف له أنّنا- بعد كلّ هذا التأكيد- ما زلنا نرى أتباع الأديان القديمة لا يسلّمون بسهولة أمام الحقائق الجديدة. سوف نشرح إن شاء اللّه فى تفسير الآية ۴۰ من سورة الأحزاب كيف يكون الإسلام آخر الأديان و خاتمها و لماذا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۸

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸۳ الى ۸۵]

اشارة

أ فَغَیْرَ دِینِ اللَّهِ یَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ کَرْهاً وَ إِلَیْهِ یُرْجَعُونَ (۸۳) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَیْنا وَ ما أُنْزِلَ عَلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِیَ مُوسی وَ عِیسی وَ النَّبِیُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۸۴) وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْلامِ دِیناً فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِی الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِینَ (۸۵)

التّفسیر

الإسلام أفضل الأدیان الإلهیّة:

مرّت بنا حتّی الآن بحوث مسهبة فی الآیات السابقة عن الأدیان الماضیة.

و ابتداء من هذه الآیة یدور البحث حول الإسلام و فیها إلفات لأنظار أهل الکتاب و أتباع الأدیان السابقة إلی الإسلام.

تبدأ الآیة بالتساؤل: أ فَغَیْرَ دِینِ اللَّهِ یَبْغُونَ أ یرید هؤلاء دینا غیر دین اللّه؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۹

و ما دین اللّه سوی التسلیم للشرائع الإلهیة، هی کلّها قد جمعت بصورتها الکاملة الشاملة فی دین نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم. فإذا کان هؤلاء یبحثون عن الدین الحقیقی فعلیهم أن یسلموا.

وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

یبدأ القرآن بتفسیر الإسلام بمعناه الأوسع، فیقول: کلّ من فی السماوات و الأرض، أو جمیع الکائنات فی السماوات و الأرض، مسلمون خاضعون لأوامره طَوْعاً وَ کَرْهاً. هذا الاستسلام و الخضوع یکون «طوعا» أو اختیاریا أحیانا، إزاء «القوانین التشریعیة»، و یکون «کرها» أو إجباریا أحیانا أخری، إزاء «القوانین التکوینیة».

و لتوضیح ذلک نقول: إنّ للّه نوعین من الأمر فی عالم الوجود. فبعض أوامره یکون بشکل (قوانین طبیعیة و ما وراء طبیعیة) تحکم علی مختلف کائنات هذا العالم، فهی خاضعة لها خضوع إکراه و لیس لها أن تخالفها لحظة واحدة، فإن فعلت- فرضا- یکتب لها الفناء و الزوال. هذا نوع من «الإسلام و التسلیم» أمام أمر اللّه.

و بناء علی هذا فإنّ أشعة الشمس التی تسطع علی البحار، و بخار الماء الذی یتصاعد منها، و قطع السحاب التی تتواصل، و قطرات المطر التی تنزل من السماء و النباتات التی تنمو بها، و الزهور التی تتفتح لها، جمیعها مسلّمة، لأنّ کلّا منها قد أسلم للقوانین التی فرضها علیها قانون الخلیقة.

و النوع الآخر من أوامر اللّه هی «الأوامر التشریعیة» و هی القوانین التی ترد فی الشرائع السماویة و تعالیم الأنبیاء. إنّ التسلیم أمامها تسلیم «طوعی» أو اختیاری. فالمؤمنون الذین یسلمون لها إنّما هم وحدهم المسلمون. إنّ مخالفة هذه القوانین و الشرائع لا تقلّ- علی کلّ حال- عن مخالفة القوانین التکوینیة، لأنّ مخالفتها تبعث علی الانحطاط و التخلّف و العدم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۰

و لمّا کانت «أسلم» مستعملة فی هذه الآیة بالمعنی الأوسع للإسلام، أی المعنی الذی یشمل النوعین من أوامر اللّه، لذلک فهی تقول إنّ فریقا یسلم طوعا- کالمؤمنین- و فریقا یسلم کرها- کالکافرین- أمام القوانین التکوینیة. و هکذا نجد أنّ الکافرین الذین یمتنعون عن التسلیم أمام بعض أوامر اللّه مجبرین علی التسلیم أمام بعض آخر من أوامر اللّه. فلما ذا إذا لا یسلمون لجمیع قوانین اللّه و دین الحقّ؟

هناک احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیة ذکره کثیر من المفسّرین، و إن لم یتعارض مع ما قلناه آنفا، و هو: أنّ المؤمنین و هم فی حال من الرفاه و الهدوء یسیرون نحو اللّه بملء اختیارهم. أمّا غیر المؤمنین فلا یسیرون نحو اللّه إلّا عند ما تحیق بهم البلایا و المشکلات التی لا تطاق، فیدعونه و یتوسّلون إلیه، فمع أنّهم فی الظروف العادیة یشرکون به، فإنّهم فی الشدائد و الملمّات لا یتوجّهون إلّا إلیه.

و یتضح ممّا تقدّم أن «من» فی جملة مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تشمل الموجودات العاقلة و غیر العاقلة، فبالرغم من کونها تستعمل عادة للعقلاء، إلّا أنها قد تکون عامّة للتغلیب. و «طوعا» إشارة إلی الموجودات العاقلة المؤمنة، و «کرها» إشارة إلی الکفّار و غیر العقلاء.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَیْنا ....

فی هذه الآیة یأمر اللّه النبیّ و المسلمین بأنّهم، فضلا عن إیمانهم بما أنزل علی رسول الإسلام، علیهم أن یظهروا إیمانهم بکلّ الآیات و التعلیمات التی نزلت علی الأنبیاء السابقین، و أن یقولوا: إنّنا لا نفرّق بینهم من حیث صدقهم و علاقتهم باللّه.

إنّنا نعترف بالجمیع، فهم جمیعا کانوا قادة إلهیّین، و هم جمیعا بعثوا لهدایة الناس.

إنّا نسلم بأمر اللّه من جمیع النواحی، و بذلک نقطع أیدی المفرّقین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۱

وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْلامِ دِیناً فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْهُ

«یبتغ» من «الابتغاء» بمعنی الطلب و السعی، و یکون فی الأمور المحمودة و فی الأمور المذمومة. هنا یختتم البحث المذکور باستنتاج نتیجة کلّیة، و هی أنّ الدین الحقیقی هو الإسلام، أی التسلیم لأمر اللّه بمعناه العام، و أمّا بمفهومه الخاصّ فهو الانتقال إلی الدین الإسلامی الذی هو أکمل الأدیان، فتقول الآیة: أنّه لا یقبل من أحد سوی الإسلام مع الأخذ بنظر الإعتبار احترام سائر الشرایع الإلهیّة المقدسة. فکما أن طلّاب الجامعة فی نفس الوقت الذی یحترمون فیه الکتب الدراسیة للمراحل السابقة من الابتدائیة و المتوسطة و الإعدادیة، فإنه لا یقبل منهم سوی دراسة الکتب و الدروس المقررة للمرحلة النهائیة، فکذلک الإسلام. و أمّا الذین یتّخذون غیر هذه الحقیقة دینا، فلن یقبل منهم هذا أبدا، و لهم علی ذلک عقاب شدید وَ هُوَ فِی الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِینَ ذلک لأنّه تاجر بثروة وجوده مقابل بضع خرافات و تقالید بالیة، و عصبیّات جاهلیة و عنصریة، و لا شکّ أنّه هو الخاسر فی هذه الصفقة. و إذا ما خسر الإنسان ثروة وجوده، وجد نتیجة ذلک حرمانا و عذابا و عقابا یوم القیامة.

و ذکر بعض المفسّرین أن هذه الآیة نزلت فی اثنی عشر من المنافقین الذین أظهروا الإیمان، ثمّ ارتدوا، و خرجوا من المدینة إلی مکّة، فنزلت الآیة و أنذرتهم بأنه من اعتنق غیر الإسلام فهو من الخاسرین.

و فی الدرّ المنثور فی قوله تعالی: وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْلامِ دِیناً الآیة

أخرج أحمد و الطبرانی فی الأوسط عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: تجیء الأعمال یوم القیامة فتجیء الصلاة فتقول: یا ربّ أنا الصلاة فیقول: إنّک علی خیر، و تجیء الصدقة فتقول یا ربّ أنا الصدقة فیقول: إنّک علی خیر، ثمّ یجیء الصیام فیقول: أنا الصیام فیقول: إنّک علی خیر، ثمّ تجیء الأعمال کلّ ذلک یقول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۲

اللّه: إنّک علی خیر، ثمّ یجیء الإسلام فیقول: یا رب أنت السلام و أنا الإسلام فیقول اللّه: إنّک علی خیر، بک الیوم آخذ، و بک أعطی. قال اللّه فی کتابه: وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْلامِ دِیناً فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِی الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِینَ ۳۸۳].

فیما یتعلّق باختلاف «الإسلام» عن «الایمان» سوف یأتی شرحه فی تفسیر الآیة ۱۴ من سورة الحجرات إن شاء اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۳

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۸۶ الی ۸۹]

اشارة

كَیْفَ یَهْدِی اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَیِّناتُ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ (۸۶) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَیْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ (۸۷) خالِدِینَ فِیها لا یُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ (۸۸) إِلَّا الَّذِینَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۸۹)

سبب النّزول

كان «الحارث بن سوید» من الأنصار، ارتكب قتل شخص بریء اسمه «المجذر بن زیاد»، فارتدّ عن الإسلام خوفا من العقاب، و فرّ من المدینة إلی مكّة. و لكنّه فی مكّة ندم علی فعلته، و راح یفكّر فیما یصنعه. و أخیرا استقرّ رأیه علی أن یبعث بأحد أقاربه فی المدینة یسأل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم عمّا إذا كان له سبیل للرجوع. فنزلت هذه الآیات، تعلن قبول توبته بشروط خاصّة. فمثل الحارث بن سوید بین یدی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و جدّد إسلامه، و ظلّ ملتزما وفیّا لإسلامه حتّی

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۴

آخر رمق فیه. غیر أنّ أحد عشر شخصا ممّن ارتدّوا عن الإسلام معه بقوا مرتدّین [۳۸۴].

فی تفسیر الدرّ المنثور و فی تفاسیر أخری، سبب نزول للآیات المذكورة لا یختلف كثیرا عمّا أوردناه.

التّفسیر

اشارة

كان الكلام فی الآیات السابقة عن أن الدین الوحید المقبول عند اللّه هو الإسلام، و فی هذه الآیات یدور الحدیث حول من قبلوا الإسلام ثمّ رفضوه و تركوه، و یسمی مثل هذا الشخص «مرتد» تقول الآیة:

كَیْفَ یَهْدِی اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَیِّناتُ

فالآیة تقول: إنّ اللّه لا یعین أمثال هؤلاء الأشخاص علی الاهتداء، لماذا؟

لأن هؤلاء قد عرفوا النبیّ بدلائل واضحة و قبلوا رسالته، فبعدولهم عن الإسلام أصبحوا من الظالمین و الشخص الذی یظلم عن علم و اطلاع مسبق غیر لائق للهدایة الإلهیّة: وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ

المراد من «البینات» فی هذه الآیة القرآن الكریم و سائر معاجز النبی الأكرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و المراد من «الظالم» هو من یظلم نفسه بالمرتبة الأولی. و یرتد عن الإسلام و فی المرتبة الثانیة یكون سببا فی إضلال الآخرین. ثمّ تضیف الآیة:

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَیْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذین یعدلون عن الحقّ بعد معرفتهم له، كما هو مبیّن فی الآیة، أن تلعنهم الملائكة و أن یلعنهم الناس.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۵

«اللعن» فی الأصل الطرد و الإبعاد علی سبیل السخط، من هنا فلعن اللّه هو إبعاد الشخص عن رحمته، أمّا لعن الملائكة و الناس فقد یكون السخط و الطرد المعنوی، و قد یكون الطلب من اللّه تعالی بابعادهم عن رحمته. هؤلاء الأشخاص یكونون فی الواقع غارقین فی الفساد و الإثم إلی درجة أنّهم یصبحون مورد استنكار كلّ عاقل هادف فی العالم، من البشر كان أم من الملائكة.

خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ

تضيف الآيـة هنا أنّهم فضـلا عن كونهم موضع لعن عام، فإنّهم سـيبقون فى هـذا اللعن إلى الأبد، فهم فى الواقع كالشـيطان الخالد فى اللعن الأبدى.

و لا شكّ أنّ نتيجة ذلك هو أن يكونوا فى عذاب شديد و دائم بغير تخفيف و لا إمهال.

و فى آخر آيـة تفتـح طريق العودة أمـام هؤلاء الأفراد، و تـدعوهم للتوبـة، لأن هـدف القرآن هو الإصـلاح و التربيـة، و من أهم الطرق لذلك هو فتح باب العودة للمذنبين و الملوثين كيما تتاح لهم الفرصة لجبران ما فرط منهم، فتقول:

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

إنّ هـذه الآية مثل الكثير من آيات القرآن، و بعد الإشارة إلى التوبة- تشـير إلى التكفير عن الذنوب السابقة و بجملة «و أصـلحوا» تبيّن أنّ التوبـة لا تعنى مجرّد النـدم على ما مضـى و العزم على تجنّب ارتكاب الـذنوب فى المسـتقبل، بل شـرط قبولها هو أن يمحو التائب بأعماله الصالحة فى المستقبل جميع أعماله القبيحة الماضية.

لـذلك نجـد فى كثير من الآيـات انّ التوبـة يرافقها العمل الصالـح، مثل: إِلَّا مَنْ تابَ (وَ آمَنَ) وَ عَمِلَ صالِحاً[۳۸۵] و إلّا فإنّ التوبـة لن تكون كاملة. فهؤلاء إن فعلوا ذلك نالوا رحمة اللّه و مغفرته فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۶

بل إنه يسـتفاد من هـذه الآيـة أن الـذنب عبارة عن نقص فى الإيمان، و أنه بعد التوبة يقوم الشـخص التائب بتجديد الإيمان ليتطهر من هذا النقص.

هل تقبل توبة المرتد؟

يبدو من الآية أعلاه و من سـبب نزولها أن قبول توبة المرتد (و هو الذى أسـلم ثمّ عاد عن إسـلامه) يرتبط بنوع الارتداد. فثمّة «المرتدّ الفطرى» و هو المرتد الذى ولد من أبوين مسـلمين، أو انعقدت نطفته حين كان أبواه مسلمين، ثمّ قبل الإسلام و عاد عنه بعد ذلك. و هناك «المرتدّ الملّى» و هو الذى لم يولد من أبوين مسلمين.

توبـة المرتـدّ الملّى تقبل، و عقوبته فى الواقع خفيفة لأنّه ليس مسلما بالمولد، لكن حكم المرتدّ الفطرى أشد. هذا المرتدّ- و إن قبلت توبته لـدى اللّه سـبحانه- يحكم بالإعدام إن ثبت ارتداده. و توزّع أمواله على ورثته المسـلمين، و تنفصل عنه زوجته، و لا تحول توبته دون إنزال هذه العقوبة بحقّه.

لكن هذه الشدّة تخصّ- كما قلنا- المرتدّ الفطرى، و بشرط أن يكون رجلا.

قد تعجّب بعضهم لهذا التشدّد، و ربّما اعتبر نوعا من الفظاظة القاسية البعيدة عن الرحمة، الأمر الذى لا يتّسق مع روح الإسلام.

غير أنّ لهـذا الحكم فلسـفة أساسـا، و هى حفظـة الجبهـة الداخليـة فى بلاـد الإسـلام ضـدّ نفوذ المنـافقين و الأجانب، و للحيلولـة دون تفكّكها و اضـمحلالها إنّ الارتـداد ضـرب من التمرّد على نظام البلـد الإسـلامى، و حكمه الإعـدام فى أنظمـة الكثير من قوانين العالم اليوم. إذ لو أجيز لمن يشـاء أن يعتنق الإسـلام متى شاء و أن يرتـدّ عنه متى شاء، لتحطّمت الجبهـة الداخليـة سـريعا، و لانفتحت أبواب البلد أمام الأعداء و عملائهم، و لساد المجتمع الإسلامى الهرج و المرج. و بناء على ذلك فإنّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۷

الحكم حكم سياسى فى الواقع، و لا بدّ منه لحماية الحكومة الإسلامية و المجتمع الإسلامى و للضرب على أيدى العملاء و الأجانب.

أضف إلى ذلك أنّ من يتقبّل الإسلام بعد التحقّق و التدقيق، ثمّ يتركه ليعتنق دينا آخر، لا يمتلك دوافع سليمة و منطقية، و هو بذلك

یستحقّ أشدّ العقوبات. أمّا تخفیف هذا الحکم بالنسبهٔ للمرأهٔ، فلأنّ جمیع العقوبات تخفّف بشأنها.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۸

الآیتان [سورهٔ آلعمران (۳): الآیات ۹۰ الی ۹۱]

اشارهٔ

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا کُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الضَّالُّونَ (۹۰) إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ کُفَّارٌ فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدی بِهِ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ (۹۱)

سبب النّزول

ذکر بعض المفسّرین أن الآیهٔ الأولی نزلت فی أهل الکتاب الذین آمنوا بالنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قبل بعثته، و لکنّهم بعد البعثهٔ کفروا به. و ذهب آخرون إلی أنها نزلت فی الحارث بن سوید و أحد عشر آخرین الذین ارتدّوا عن الإسلام لأسباب. ثمّ تاب و عاد إلی الإسلام. أمّا الآخرون فقد رفضوا دعوته للعودهٔ، و قالوا: سنبقی فی مکّهٔ و نواصل مناوءهٔ محمّد انتظارات لهزیمته. فإذا تحقّق ذلک فخیر، و إلّا فإنّ باب التوبهٔ مفتوح، نتوب وقتما نشاء و نرجع إلی محمّد، و سوف یقبل توبتنا! و عند ما فتح رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم مکهٔ اسلم بعضهم و قبلت توبتهم، و أمّا من أصرّ علی البقاء علی الکفر فقد نزلت الآیهٔ الثانیهٔ بشأنهم.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۹

التّفسیر

التوبهٔ الباطلهٔ:

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا کُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
کان الکلام فی الآیات السابقهٔ یدور حول الذین یندمون حقّا علی انحرافهم عن طریق الحقّ فیتوبون توبهٔ صادقهٔ. فی هذه الآیهٔ یدور الکلام علی الذین لن تقبل توبتهم، و هم الذین آمنوا أوّلا، ثمّ ارتدّوا و کفروا، و أصرّوا علی کفرهم، و رفضوا الانصیاع لأوامر اللّه، حتّی إذا اشتدّ علیهم الأمر اضطرّوا إلی العودهٔ للإسلام. إنّ اللّه لن یقبل توبهٔ هؤلاء، لأنّهم لن یتّخذوا باختیارهم خطوهٔ فی سبیل اللّه، بل هم مجبرون علی إظهار الندم و التوبهٔ بعد رؤیتهم انتصار المسلمین. لذلک فتوبتهم ظاهریهٔ و لن تقبل.
و ثمّهٔ احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیهٔ هو: أنّ أمثال هؤلاء الأشخاص عند ما یرون أنفسهم علی أعتاب الموت و نهایهٔ العمر قد یندمون و یتوبون حقّا. غیر أنّ توبتهم لن تقبل، لأنّ وقت التوبهٔ یکون قد انتهی، کما سیأتی شرحه. و هذا نظیر قوله تعالی فی الآیهٔ ۱۸ من سورهٔ النساء: وَ لَیْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئاتِ حَتَّی إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ
و قیل: من المحتمل أن یکون معنی الآیهٔ: إنّ التوبهٔ عن الذنوب العادیهٔ فی حال الکفر لن تقبل. أی إذا أصرّ أحدهم علی المضی فی طریق الکفر، ثمّ تاب عن ذنوب معیّنهٔ کالظلم و الغیبهٔ و أمثالهما، فإنّ توبته هذه لا طائل وراءها و لن تقبل، و ذلک لأنّ غسل التلوّث الظاهر عن الروح و النفس، مع بقاء التلوّث الأعمق فی الباطن، لا فائدهٔ منه.
لا بدّ أن نضیف هنا أنّ التفاسیر المذکورهٔ آنفا لا تعارض بینها، و قد تشملها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۰

الآیة جمیعا، و إن یکن التفسیر الأوّل أقرب إلی الآیات السابقة و إلی سبب نزول هذه الآیة.

و فی الآیة الثانیة یقول تعالی:

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ کُفَّارٌ فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدی بِهِ

تخصّ الآیـة أولئک الـذین یقضون أعمارهم کافرین فی هـذه الـدنیا، ثمّ یموتون و هم علی تلک الحال. یقول القرآن، بعد أن اتّضح لهؤلاء طریق الحقّ، یسیرون فی طریق الطغیان و العصیان، و هم فی الحقیقة لیسوا مسلمین، و لن یقبل منهم کلّ ما ینفقونه، و لیس أمامهم أیّ طریق للخلاص، حتّی و إن أنفقوا ملء الأرض ذهبا فی سبیل اللّه.

من الواضح أنّ القصـد من القول بإنفاق هـذا القـدر الکبیر من الذهب إنّما هو إشارة إلی بطلان إنفاقهم مهما کثر، لأنّه مقرون بتلوّث القلب و الروح بالعـداء للّه، و إلّا فمن الواضح أنّ ملء الأرض ذهبا یوم القیامة لا یختلف عن ملئها ترابا. إنّما قصد الآیة هو الکنایة عن أهمیّة الموضوع.

أمّا بشأن مکان هـذا الإنفاق، أفی الـدنیا أم فی الآخرة؟ فقـد ذکر المفسّرون لذلک احتمالین إثنین، و لکن ظاهر الآیة یدلّ علی العالم الآخر، أی کانوا کافرین وَ ماتُوا وَ هُمْ کُفَّارٌ، فلو کانوا یملکون ملء الأرض ذهبا، و ظنّوا أنّهم بالاستفادة من هذا المال، کما هی الحال فی الدنیا، یستطیعون أن یدرءوا العقاب عن أنفسهم، فهم علی خطأ فاحش، إذ أنّ هذه الغرامة المالیة و الفدیة لیست قادرة علی التأثیر فی ما سیواجههم من عقاب. و فی الواقع فان مضـمون هذه الآیة یشبه قوله تعالی فی الآیة ۱۵ من سورة الحدید: فَالْیَوْمَ لا یُؤْخَذُ مِنْکُمْ فِدْیَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۱

و فی الختام یشیر إلی نکتة اخری فی المقام و یقول: أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ

لا شکّ فی أنّهم سینالون عقابا شدیدا مؤلما، و لن یکون باستطاعة أحـد أن ینتصـر أو یشـفع لهم. لأن الشـفاعة لها شـرائط، و أهمها الإیمان باللّه، و لهذا السبب فلو أن جمیع الشفعاء اجتمعوا لإنقاذ أحد الکفّار من عذاب النار لم تقبل شفاعتهم.

و أساسا، بما أن الشـفاعة بإذن اللّه، فإن الشفعاء لا یشفعون أبدا لمثل هؤلاء الأفراد غیر اللائقین للشفاعة، لأن الشفاعة تحتاج إلی قابلیة المحل، و الإذن الإلهی لا یشمل الأفراد غیر اللائقین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۲

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۹۲]

اشارة

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ (۹۲)

التّفسیر

من علائم الإیمان:

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

و لفظـة «البر» فی أصـلها اللغوی تعنی «السـعة» و لهـذا یقال للصـحراء «البر» بفتـح الباء، و لهذه الجهة أیضا یقال للأعمال الصالحة ذات

الآثار الواسعهٔ التی تعم الآخرین و تشملهم «البر» بکسر الباء، و الفرق بین البر و الخیر من حیث اللغهٔ هو أن البر یراد منه النفع الواصل إلی الآخرین مع القصد إلی ذلک، بینما یطلق الخیر علی ما وصل نفعه إلی الآخرین حتّی لو وقع عن سهو غیر قصد.

ماذا یعنی «البر» فی الآیهٔ؟

لقد ذهب المفسّرون فی تفسیر «البر» فی هذه الآیهٔ إلی مذاهب شتی.

فمنهم من قال: إن المراد به هو «الجنهٔ»، و منهم من قال أن المراد هو «الطاعهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۳

و التقوی» و منهم من فسّره بأن معناه «الأجر الجمیل».

غیر أن المستفاد من موارد استعمال هذه اللفظهٔ فی آیات الکتاب العزیز نفسه هو: أن لکلمهٔ «البر» معنی واسعا یشمل کلّ أنواع الخیر إیمانا کان أو أعمالا صالحهٔ، کما أن المستفاد من الآیهٔ ۱۷۷ من سورهٔ البقرهٔ هو اعتبار «الإیمان باللّه و الیوم الآخر، و الأنبیاء، و إعانهٔ المحتاجین، و الصلاهٔ، و الصیام، و الوفاء، و الاستقامهٔ فی البأساء و الضراء» جمیعها من شعب البر و مصادیقه.

و علی هذا فإن للوصول إلی مراتب الأبرار الحقیقیین شروطا عدیدهٔ، منها:

لإنفاق ممّا یحبه الإنسان من الأموال، لأن الحبّ الواقعی للّه، و التعلّق بالقیم الأخلاقیهٔ و الإنسانیهٔ إنما یتضح و یثبت إذا انتهی المرء إلی مفترق طریقین، و واجه خیارین لا ثالث لهما، و یقع فی أحد الجانبین الثروهٔ، أو المنصب، و المکانهٔ المحببهٔ لدیه، و فی الجانب الآخر رضا اللّه و الحقیقهٔ و العواطف الإنسانیهٔ و فعل الخیر، و یتعین علیه أن یختار أحدهما و یضحی بالآخر، و یتغاضی عنه.

فإذا غض نظره عن الأول لحساب الثانی أثبت صدق نیته، و برهن علی حبه، و علی واقعیته فی ولائه و انتمائه.

و إذا اقتصر- فی هذا السبیل- علی إنفاق الحقیر القلیل، و بذل ما لا یحبه و یهواه، فإنه یکون بذلک قد برهن علی قصوره فی الإیمان و المحبهٔ، و التعلّق المعنوی عن تلک المرتبهٔ السامیهٔ، و أنه لیس إلّا بنفس الدرجهٔ التی أظهرها فی سلوکه و عطائه لا أکثر، و هذا هو المقیاس الطبیعی و المنطقی لتقییم الشخصیهٔ، و معرفهٔ مستوی الإیمان لدی الإنسان، و مدی تجذره فی ضمیره.

تأثیر القرآن فی قلوب المسلمین:

لقد کان لآیات الکتاب العزیز تأثیر بالغ و نفوذ سریع فی أفئدهٔ المسلمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۴

الأوائل، فما إن سمعوا آیات جدیدهٔ النزول، إلّا و ظهر هذا التأثیر علی سلوکهم و مواقفهم و تصرفاتهم، و نذکر من باب المثال ما نقرأه فی کتب التفسیر و التاریخ الإسلامی ممّا ورد فی مجال هذه الآیهٔ بالذات.

-۱

کان «أبو طلحهٔ» أکثر أنصاری المدینهٔ نخلا، و کان أحب أمواله إلیه بیرحاء، و کانت مستقبلهٔ المسجد، و کان رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یدخلها و یشرب من ماء فیها طیب، فلما أنزلت لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ قام أبو طلحهٔ فقال: یا رسول اللّه إن اللّه یقول: لن تنالوا البر حتّی تنفقوا ممّا تحبون و أن أحب أموالی إلی بیرحاء، و أنها صدقهٔ للّه أرجو برها و ذخرها عند اللّه، فضعها یا رسول اللّه حیث أراک اللّه. قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: بخ بخ ذلک مال رابح لک و قد سمعت ما قلت و إنی أری أن تجعلها فی الأقربین. قال أبو طلحهٔ: افعل یا رسول اللّه، فقسمها أبو طلحهٔ فی أقاربه و بنی عمه [۳۸۶].

۲- أضاف أبو ذر الغفاری ضيفا، فقال للضيف: إنی مشغول، و أن لی إبلا فاخرج و آتنی بخيرها، فذهب فجاء بناقة مهزولة، فقال أبو ذر: خنتنی بهذه، فقال:

وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إن يوم حاجتی إليه ليوم أوضع فی حفرتی، مع أن اللّه يقول:

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۳۸۷].

۳- كان لزبيدة زوجة هارون الرشيد مصحف ثمين جدّا، قد زينت غلافه بأغلى أنواع المجوهرات و الأحجار الكريمة و كانت تحبه حبا شديدا و تعتز به أكبر اعتزاز، و فيما هی تتلو القرآن فی ذلك المصحف ذات يوم و إذا بها مرت علی قوله

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۵

تعالی: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ فتأملت فيه، و غاصت فی معناه و تأثرت بندائه فقالت فی نفسها: «إنه ليس هناك ما هو أحب إلی من هذا المصحف المزين الثمين فلأنفقه فی سبيل اللّه»، فأرسلت إلی باعة الجواهر و باعت جواهره و أحجاره الكريمة عليهم ثمّ هيأت بثمنها آبارا و قنوات من الماء فی صحراء الحجاز ليشرب منه سكان الصحراء و ينتفع به المسافرون، و يقال أن بقايا هذه الآبار لا تزال باقية و تدعی ۳۸۸] باسمها عند الناس.

و حتّی يطمئن المنفقون إلی أن أی شیء ممّا ينفقونه لن يعزب عن اللّه سبحانه و لن يضيع، عقب اللّه علی حثه للناس علی الإنفاق ممّا يحبون بقوله: وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ إنه يعلم بما تنفقونه صغيرا أم كبيرا، تحبونه أو لا تحبونه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۶

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۹۳ الی ۹۵]

اشارة

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۹۳) فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹۴) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۹۵)

سبب النّزول

المستفاد من الروايات الواردة حول هذه الآيات و ما ينقله المفسّرون هو: أن اليهود طرحوا إشكالين آخرين علی رسول اللّه صلی اللّه عليه و آله و سلّم ضمن جدالهم له، أحدهما:

تحليله لحوم الإبل و ألبانها، و قد كانت حراما فی دين إبراهيم عليه السّلام و كانوا يقولون:

كلّ شیء نحرمه فهو كان محرما علی نوح و إبراهيم، فكيف تحلله و أنت تدعی متابعة إبراهيم و إنك علی ملته و دينه؟

و الآخر: صلاته باتجاه الكعبة فكانوا يقولون: كيف تدعی يا محمّد الاقتداء بملّة إبراهيم عليه السّلام و النبيين العظام، و قد كان جميع الأنبياء من ولد إسحاق يولون

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۷

وجوههم شطر «بيت المقدس» و يصلون باتجاهه و أنت تصلی شطر الكعبة و تعرض عن «بيت المقدس»؟

فجاءت الآيات الثلاثة تردّ علی إنكارهم للأمر الأول و تفند زعمهم، بينما تكفلت الآيات القادمة الردّ علی اعتراضهم الأخير.

التّفسیر

اشارهٔ

صرحت الآیهٔ الأولی من هذه الآیات الثلاث بتفنید کلّ المزاعم الیهودیهٔ حول تحریم بعض أنواع الطعام الطیب (مثل لحوم الإبل و ألبانها) وردت علی هذه الکذبهٔ بقولها: کُلُّ الطَّعامِ کانَ حِلًّا لِبَنِی إِسْرائِیلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِیلُ ۳۸۹] عَلی نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراهُ. أما لماذا حرّم یعقوب علی نفسه بعض الأطعمهٔ؟ و ما هو نوع الأطعمهٔ التی حرمها علی نفسه فلم یرد فی الآیهٔ أی توضیح بشأنها، بید أن المستفاد من الروایات الإسلامیهٔ هو أن یعقوب کان- کما قیل- کلّما أکل من لحم الإبل أخذه وجع العرق الذی یقال له عرق النساء[۳۹۰] فعزم إن شفاه اللّه علی أن یحرم لحم الإبل علی نفسه، فاقتدی به أتباعه فی هذا، حتّی اشتبه الأمر علی من أتوا من خلفهم فیما بعد فتصور بعض أنه تحریم إلهی، فاعتبروا ذلک حکما و نسبوه إلی اللّه، و ادعوا بأنه حرم علیهم لحم الإبل، فنزلت الآیهٔ تفند هذا الزعم ببیان علّهٔ الالتباس، و تصرّح بأن نسبه هذا التحریم إلی اللّه سبحانه محض اختلاق.

و علی هذا فقد کان کلّ الطعام حلالا، و لم یکن شیء من الطیبات منه حراما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۸

علی بنی إسرائیل قبل نزول التوراهٔ، کما یفید قوله سبحانه مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراهُ و إن کان قد حرمت- بعد نزول التوراهٔ و مجیء موسی بن عمران- بعض الأطعمهٔ الطیبهٔ، علی الیهود لظلمهم و عصیانهم، تنکیلا بهم، و جزاء لظلمهم.

و تأکیدا لهذه الحقیقهٔ أمر اللّه نبیه فی هذه الآیهٔ أن یطلب من الیهود بأن یأتوا بالتوراهٔ الموجودهٔ عندهم و یقرءوها لیتبین کذب ما ادعوه، و صدق ما أخبر به اللّه حول حلیهٔ الطعام الطیب کله إذ قال: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراهِ فَاتْلُوها إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ

و لکنّهم أعرضوا عن تلبیهٔ هذا الطلب لعلمهم بخلو التوراهٔ عن التحریم الذی أدعوه.

و الآن بعد أن تبین کذبهم و افتراؤهم علی اللّه لعدم استجابتهم لطلب النبی بإحضار التوراهٔ، فإن علیهم أن یعرفوا بأن کلّ من افتری علی اللّه الکذب استحق وصف الظلم، لأنه بهذا الافتراء ظلم نفسه بتعریضها للعذاب الإلهی، و ظلم غیره بتحریفه و إضلاله بما افتری، و هذا هو ما یعنیه قوله سبحانه فی ختام هذه الآیهٔ فَمَنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ

التوراهٔ الرائجهٔ و تحریم بعض اللحوم:

نقرأ فی الفصل الحادی عشر من سفر اللاولیین ضمن استعراض مفصل للحوم المحرّمهٔ و المحلّلهٔ: «کل ما شق ظلفا و قسمه ظلفین و یجتر من البهائم فإیاه تأکلون. إلّا هذه فلا تأکلوها ممّا یجتر و ممّا یشق الظلف. الجمل لأنه یجتر لکنّه لا یشق ظلفا فهو نجس لکم».

من هذه العبارات نفهم أن الیهود کانوا یحرمون الإبل و کل ما شق ظلفا من البهائم، و لکن ذلک لا یدلّ علی أنها کانت محرمهٔ فی شریعهٔ نوح و إبراهیم أیضا، إذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۹

یمکن أن یکون هذا التحریم مختصا بالیهود عقابا لهم و تنکیلا.

فإذا لم یکن للیهود حجّهٔ علی زعمهم، و إذا تبین لهم صدق الرسول الکریم فی دعوته، و اتضح لهم أنّه علی ملّهٔ إبراهیم، و دینه الحنیف حقّا یوجب علیهم أن یتبعوه قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّهَ إِبْراهِیمَ حَنِیفاً وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ اتبعوا ملّهٔ إبراهیم الذی کان حنیفا مستقیما لا یمیل إلی شیء من الأدیان الباطلهٔ، و الأهواء الفاسدهٔ، بل یسیر فی الطریق المستقیم، فلم یکن فی دینه أی حکم منحرف

مائل عن الحق و حتّی فی الأطعمة الطیبة الطاهرة لم یکن یحرم شیئا بدون مبرر أو سبب وجیه للتحریم ... إنه لم یکن مشرکا، فادعاء مشرکی العرب بأنهم علی ملته محض اختلاق، فأین الوثنیة و أین التوحید؟ و أین عبادة الأصنام، و أین تحطیم الأصنام؟

و الجدیر بالذکر أن القرآن الکریم یکرر هذا الوصف وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ فی شأن إبراهیم و یؤکد علیه فی مواطن کثیرة، و ما ذلک إلّا لأن العرب الجاهلیین الوثنیین کانوا- کما ألمحنا- ینسبون دیانتهم و عقائدهم الوثنیة إلی الخلیل علیه السّلام، و یدعون بأنهم علی دینه و ملته، و کانوا یصرون علی هذا إلی درجة أن الآخرین سموهم بالحنفاء (أی أتباع إبراهیم) و لذلک کرر القرآن نفی الشرک عن الخلیل و صرح مرارا و تکرارا بأنه علیه السّلام کان حنیفا، و لم یکن من المشرکین أبدا[۳۹۱] ابطالا لذلک الادعاء السخیف، و تنزیها لساحة هذا النبی العظیم من تلک الوصمة المقیتة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۰

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۹۶ الی ۹۷]

اشارة

إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً وَ هُدیً لِلْعالَمِینَ (۹۶) فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِیمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلاً وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ (۹۷)

أول بیت وضع للناس:

لقد أنکرت الیهود علی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أمرین کما أسلفنا. و قد رد القرآن علی الأمر الأول فی الآیات الثلاث المتقدمة، و ها هو یرد علی الأمر الثانی، و هو:

إنکارهم علی النبی اتخاذه الکعبة قبلة، و تفضیله لها علی «بیت المقدس» بینما کانوا یفضلونه علی الکعبة.

یقول سبحانه: إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً فلا عجب إذن أن تکون الکعبة قبلة للمسلمین، فهی أول مرکز للتوحید، و أقدم معبد بنی علی الأرض لیعبد فیه اللّه سبحانه و یوحد، بل لم یسبقه أی معبد آخر قبله، إنه أول بیت وضع للناس و لأجل خیر المجتمع الإنسانی فی نقطة من الأرض محفوفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۱

بالبرکات، غنیة بالخیرات، وضع لیکون مجتمع الناس، و ملتقاهم.

إن المصادر الإسلامیة و التاریخیة تحدثنا بأن الکعبة تأسست علی یدی «آدم» علیه السّلام ثمّ تهدمت بسبب الطوفان الذی وقع فی عهد النبی «نوح» ثمّ جدد بناءها النبی العظیم «إبراهیم الخلیل» علیه السّلام فهی إذن عریقة عراقة التاریخ البشری [۳۹۲].

و لا شکّ أن إختیار أعرق بیت أسس للتوحید من أجل أن یکون قبلة للمسلمین، أولی و أفضل من إختیار أیة نقطة أخری و أی مکان آخر.

هذا و ممّا یجدر الانتباه إلیه هو أن «الکعبة» و التی تسمی فی تسمیة أخری ب «بیت اللّه» وصفت فی هذه الآیة بأنها «بیت للناس»، و هذا التعبیر یکشف عن حقیقة هامة و هی: أن کلّ ما یکون باسم اللّه و یکون له، یجب أن یکون فی خدمة الناس من عباده، و أن کلّ ما یکون لخدمة الناس و خیر العباد فهو للّه سبحانه.

کما تتضح- ضمن ما نستفیده من هذه الآیة- قیمة الأسبقیة فی مجال العلاقات بین الخلق و الخالق، و لذلک نجد القرآن یشیر- فی هذه الآیة- إلی أسبقیة الکعبة علی جمیع الأماکن الأخری، و إلی تاریخها الطویل الضارب فی أعماق الزمن، معتبرا ذلک أول و أهم

مـا تتسم به الكعبـة من الفضائـل و المزايـا، و من هنـا يتضـح أيضا علّـة ما للحجر الأسود من الحرمـة، و يتبين جواب ما يحوم حوله من سؤال مفاده: ما قيمـة قطعة من الحجر و لماذا يندفع و يتدافع لاسـتلامه ملايين الناس كلّ عام، و يتسابقون- فى عناء بالغ- إليه حتّى أن استلامه يعد من المستحبات المؤكّدة فى مناسك الحجّ و برامجه؟

إن تاريخ هذا الحجر يكشف عن ميزه خاصة فى هذا الحجر لا نجدها فى أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۲

حجر آخر غيره فى هـذا العالم، و هى أن هـذا الحجر أسبق شـىء استخدم كمادة إنشائية فى أقدم بيت شـيد لعبادة اللّه، و تقديسه، و توحيده، فإننا نعلم بأن جميع المعابد حتّى الكعبة قد فقدت موادها الإنشائية فى كلّ عملية انهدام و تجديد، عدا هذه القطعة من الصخر التى بقيت منذ آلاف السـنين، و اسـتخدمت فى بناء هذه البنية المعظمة على طول التاريخ منذ تأسيسـها و إلى الآن. و لا شكّ أن لهذه الاسـتمرارية، و تلك الأسـبقية فى طريق اللّه و فى خدمـة الناس قيمة و أهمية من شأنها أن تكسب الأشـياء و الأشـخاص ميزة لا يمكن تجاهلها.

كلّ هذا مضافا إلى أن هذه الصخرة ليست إلّا تاريخ صامت لأجيال كثيرة من المؤمنين فى الأعصر المختلفة، فهى تحيى ذكرى استلام الأنبياء العظام و عباد اللّه البررة لها، و عبادتهم، و تضرعهم إلى اللّه فى جوارها عبر آلاف السنين و مئات من القرون و الأحقاب.

على أن ثمّـة أمرا آخر ينبغى الانتبـاه إليه و هو: أن الآيـة المبحوثـة هنا تصـرح بأن الكعبـة هى أول بيت وضع للناس، و من المعلوم أنه وضع لغرض العبادة فهو أول بيت وضع للعبادة إذن، و هو أمر لا يمنع من أن يكون قد شيدت فى الأرض قبل الكعبة بيوت للسكن.

و هـذا التعبير رد واضـح على كـلّ أولئـك ۳۹۳] الـذين يـدعون أن النـبى إبراهيم عليه السّـلام هو أول من أسـس الكعبـة المشـرفة، و يعتبرون بناءهـا على يـدى آدم عليه السّـلام من قبيـل الأساطير، فى حين أن من المسـلم وجود بيوت للعبادة فى العالم قبل إبراهيم عليه السّـلام كـان يتعبـد فيهـا من سـبقه من الأنبياء مثل نوح عليه السّـلام فكيف تكون الكعبـة التى هى أول بيت وضع للعبادة فى العالم قد أسست على يدى إبراهيم عليه السّلام؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۳

ما هو المراد من «بكّة»؟

«بكـة» مأخوذة أصـلا من «البك» و هو الزحم، و بكه أى زحمه، و تباك الناس أى ازدحموا، و إنما يقال للكعبـة أو الأرض التى عليها تلك البنية المعظمة بكة لازدحام الناس هناك، و لا يسـتبعد أن هذه التسـمية أطلقت عليها بعد أن اتخذت صـفة المعبد رسـميا لا قبل ذلك.

و

فى رواية عن أبى عبد اللّه (الصادق) عليه السّلام قال: «موضع البيت بكة، و القرية مكة».

و قـد احتمل بعض المفسّـرين أيضا أن تكون «بكـة» هى «مكة» أبدل ميمها باء، نظير «لازب» و «لازم» اللتين تعنيان شـيئا واحدا فى لغة العرب.

و قد ذكر فى علة تسـمية «الكعبة» و موضعها ببكة وجه آخر أيضا هو أنها سميت «بكة» لأنها تبك أعناق الجبابرة، و تحطم غرورهم و نخوتهم، لأن البك هو دق العنق، فعنـد الكعبـة تتساقط و تزول كلّ الفوارق المصـطنعة، و يعود المتكبرون و المغرورون كبقيـة الناس، عليهم أن يخضعوا للّه، و يتضرعوا إليه شأنهم شأن الآخرين، و بهذا يتحطم غرورهم.

بحث تاريخى

توسيع المسجد الحرام:

منذ العهد النبوى أخذ عدد المسلمين فى الإزدياد، و على أثر ذلك كان يتزايد عدد الحجاج و الوافدين إلى البيت الحرام، و لهذا كان المسجد الحرام يتعرض للتوسعة المستمرة على أيدى الخلفاء فى العصور المختلفة،

فقد جاء فى تفسير العيّاشى أن أبا جعفر (المنصور) طلب أن يشترى من أهل مكة بيوتهم ليزيدها فى

المسجد، فأبوا فأرغبهم، فامتنعوا فضاق بذلك، فأتى أبا عبد اللّه (الصادق) عليه السّلام فقال له: إنى سألت هؤلاء شيئا من منازلهم، و أفنيتهم لنزيد فى المسجد، و قد منعونى ذلك فقد غمنى غما شديدا، فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: أ يغمك ذلك و حجتك عليهم فيه ظاهرة؟ فقال: و بما أحتج عليهم؟ فقال: بكتاب اللّه، فقال: فى أى موضع؟ فقال:

قول اللّه عزّ و جلّ: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ قد أخبرك اللّه أن أول بيت وضع للناس هو الذى ببكة، فإن كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، و إن كان البيت قبلهم فله فناؤه، فدعاهم أبو جعفر (المنصور) فاحتج عليهم بهذا فقالوا له أصنع ما أحببت.

و

قد جاء فى ذلك التفسير أيضا أن المهدى (العباسى) لما بنى فى المسجد الحرام بقيت دار احتج إليها فى تربيع المسجد، فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكلّ قال له: إنه لا ينبغى أن يدخل شيئا فى المسجد الحرام غصبا، فقال له على بن يقطين: يا أمير المؤمنين لو أنك كتبت إلى موسى بن جعفر عليه السّلام لأخبرك بوجه الأمر فى ذلك، فكتب إلى و إلى المدينة أن يسئل موسى بن جعفر عليه السّلام عن دار أردنا أن ندخلها فى المسجد الحرام فامتنع علينا صاحبها فكيف المخرج من ذلك؟ فقال: ذلك لأبى الحسن عليه السّلام: فقال أبو الحسن عليه السّلام: و لا بدّ من الجواب فى هذا؟ فقال له: الأمر لا بدّ منه، فقال له: اكتب «بسم اللّه الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هى النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها، و إن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها» فلما أتى الكتاب إلى المهدى أخذ الكتاب فقبله (لفرحه الشديد)، ثمّ أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السّلام فسألوه أن يكتب لهم إلى المهدى كتابا فى ثمن دورهم فكتب إليه أن ارضخ لهم شيئا فأرضاهم.

إن فى هاتين الروايتين استدلالا لطيفا يتفق تماما مع المقاييس و الموازين

القانونية المعمول بها أيضا، فإن الاستدلال يقول: ان لمعبد تقصده الجماهير كالكعبة، قد بنى يوم بنى على أرض لا أحد فيها، الحق و الأولوية فى تلك الأرض بقدر حاجته و حيث إن الحاجة يوم أسس لم تكن تدعو إلى أكثر من تلك المساحة التى أقيم عليها أول مرّة كان للناس أن يسكنوا فى حريم الكعبة، أما الآن و قد اشتدت الحاجة إلى مساحة أوسع كما كانت عليه لتسع الحجيج، فإن للكعبة الحقّ فى أن تستخدم أولويتها بالأرض.

مزايا الكعبة و فضائلها:

لقد ذكرت فى هاتين الآيتين- مضافا إلى الميزتين اللتين مرّ شرحهما- أربع مزايا اخرى هى:

۱- مباركا:

«المبارك» يعنى كثير الخير و البركة، و إنما كانت الكعبة المعظمة مباركة لأنها تعتبر بحق واحدة من أكثر نقاط الأرض بركة و خيرا،

سواء الخير المادى، أو المعنوى.

و أما البركات المعنوية التى تتحلى بها هذه الأرض و هذه المنطقة من اجتماع الحجيج فيها، و ما ينجم عن ذلك من حركة و تفاعل و وحدة، و ما يصحبه من جاذبية ربانية تحيى الأنفس و القلوب و خاصة فى موسم الحج فمما لا يخفى على أحد.

و لو أن المسلمين لم يقصروا اهتمامهم- فى موسم الحج- على الجانب الصورى لهذه الفريضة بل أحيوا روحها، و التفتوا إلى فلسفتها، لاتضحت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۶

- حينذاك- البركات المعنوية، و تجلت للعيان أكثر فأكثر.

هذا من الناحية المعنوية.

و أما من الناحيـة الماديـة فإن هـذه المدينة رغم أنها أقيمت فى أرض قاحلة لا ماء فيها و لا عشب، و لا صـلاحية فيها للزراعة و الرعى بقيت على طول التاريـخ واحـدة من أكثر المدن عمرانا و حركة، و كانت دائما من المناطق المؤهلة- خير تأهيل- للحياة، بل و للتجارة أيضا.

۲- هدى للعالمين:

أجل، إن الكعبـة هـدى للعالمين فهى تجتـذب الملايين من الناس الـذين يقطعون إليها البحار و الوهاد، و يقصدونها من كلّ فج عميق ليجتمعوا فى هـذا الملتقى العبادى العظيم و هم بـذلك يقيمون هـذه الفريضـة فريضـة الحـجّ التى لم تزل تؤدى بجلال عظيم منذ عهد الخليل عليه السّلام.

و لقـد كانت هذه البنية معظمة أبدا حتّى من قبل العرب الجاهليين، فهم كانوا يحجون إليها و إن مزجوا مناسك الحجّ ببعض خرافاتهم و عقائـدهم الباطلـة، إلّا أنهم ظلوا أوفياء لهذه المناسك على أنها دين إبراهيم، و قد كان لهذه المناسك و المراسم الناقصة، و الخليطة أحيانا بالخرافات الجاهلية، أثرها فى سلوكهم، حيث كانوا يرتدعون بسببها عن بعض المفاسد بعض الوقت، و هكذا كانت الكعبة سببا للهداية حتّى للوثنيين ...

إن لهذا البيت من الجواذب المعنوية ما لا يستطيع أى أحد أن يقاومها و يصمد أمام تأثيرها الأخّاذ.

۳- فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ

إن فى هذا البيت معالم واضحة و علائم ساطعة لعبادة اللّه و توحيده، و فى تلك

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۷

النقطـة المباركـة من الآثار المعنويـة ما يبهر العيون و يأخذ بمجامع القلوب. و إن بقاء هذه الآثار و المعالم رغم كيد الكائدين و إفساد المفسدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها و محوها لمن تلك الآيات التى يتحدث عنها القرآن فى هذا الكلام العلوى.

فها هى آثار جليلة من إبراهيم عليه السّـلام لا تزال باقية عند هذا البيت مثل: زمزم و الصفا و المروة، و الركن ۳۹۴]، و الحطيم ۳۹۵]، و الحجر الأسود، و حجر إسماعيل ۳۹۶] الذى يعتبر كلّ واحد منها تجسيدا حيّا لتاريخ طويل، و ذكريات عظيمة خالدة.

و لقد خصّ «مقام إبراهيم» بالذكر من بين كلّ هذه الآثار و الآيات لأنه المحل الذى كان قد وقف فيه الخليل عليه السّلام لبناء الكعبة، أو لإتيـان مناسك الحـجّ، أو لإطلاق الـدعوة العامّـة التى وجهها إلى البشـرية كافـة، و الأذان بهم ليحجوا هـذا البيت، و يلتقوا فى هـذا الملتقى العبادى التوحيدى العظيم.

و على كلّ حال فإن هذا المقام لمن أهم الآيات التى مر ذكرها، و أنها لمن أوضح الدلائل و أقوى البراهين على ما شهدته هذه النقطة من العالم من التضحيات و الذكريات، و الاجتماعات و الحوادث، البالغة الأهمية.

يبقى أن نعرف أن ثمـة خلافا بين المفسّـرين فى أن المراد بمقام إبراهيم هل هو خصوص النقطة التى توجد فيها الصـخرة التى لا تزال

تحمل أثر قدمه الشریف، أو أنه الحرم المکی، أو أنّه جمیع المواقف التی ترتبط بمناسک الحجّ، و لکن فی الروایة المنقولة عن الإمام الصادق علیه السّلام فی کتاب الکافی ۳۹۷] إشارة إلی الاحتمال الأول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۸

۴- و من دخله کان آمنا:

لقد طلب إبراهیم علیه السّلام من ربه بعد الانتهاء من بناء الکعبة، أن یجعل بلد مکة آمنا إذ قال رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِناً[۳۹۸]، فاستجاب اللّه له، و جعل مکة بلدا آمنا، ففیه أمن للنفوس و الأرواح، و فیه أمن للجموع البشریة التی تفد إلیه و تستلهم المعنویات السامیة منه، و فیه أمن من جهة القوانین الدینیة، فإن الأمن فی هذا البلد قد بلغ من الاهتمام به و احترامه أن منع فیه القتال منعا باتا، و أکیدا.

و قد جعلت الکعبة بالذات مأمنا و ملجأ فی الإسلام لا یجوز التعرض لمن لجأ إلیها أبدا، و هو أمر یشمل الحیوانات أیضا إذ یجب أن تکون فی أمان من الأذی و المزاحمة إذا هی التجأت إلی هذه النقطة من الأرض.

فإذا التجأ إنسان إلی الکعبة لم یجز التعرض له حتّی لو کان قاتلا جانیا، بید أنّه حتّی لا تستغل حرمة هذا البیت و قدسیتها الخاصّة، و حتّی لا تضیع حقوق المظلومین سمح الإسلام بالتضییق فی المطعم و المشرب علی الجناة أو القتلة اللاجئین إلیه لیضطروا إلی مغادرته ثمّ ینالوا جزاءهم العادل.

و بعد أن استعرض القرآن الکریم فضائل هذا البیت و عدد مزایاه، أمر الناس بأن یحجوا إلیه- دون استثناء- و عبر عن ذلک بلفظ مشعر بأن مثل هذا الحجّ هو فی الحقیقة دین للّه علی الناس، فیتوجب علیهم أن یؤدوه و یفرغوا ذممهم منه إذ قال وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ

و تعنی لفظة «الحجّ» أصلا القصد، و لهذا سمیت الجادة بالمحجة (علی وزن مودة) لأنها توصل سالکها إلی المقصد، کما أن لهذا السبب نفسه سمی الدلیل ب «الحجة» لأنه یوضح المقصود.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۹

أما وجه تسمیة هذه الزیارة و هذه المناسک الخاصة بالحجّ فلأن قاصد الحجّ إنّما یخرج و هو «یقصد زیارة بیت اللّه» و لهذا أضیفت لفظة الحجّ إلی البیت فقال تعالی حِجُّ الْبَیْتِ

ثم إننا قد أشرنا سابقا إلی أن مراسم الحج هذه قد سنت و أسست منذ عهد إبراهیم علیه السّلام ثمّ استمرت حتّی العهد الجاهلی حیث کان العرب الجاهلیون یمارسونها و یؤدونها، و لکنها شرعت فی الإسلام فی صورة أکمل، و کیفیة خالیة عن الخرافات التی لصقت بها من العهد الجاهلی ۳۹۹] و لکن المستفاد من الخطبة القاصعة فی نهج البلاغة و بعض الأحادیث و الروایات أن فریضة الحج شرعت أول مرّة فی زمن آدم علیه السّلام إلّا أن اتخاذها الصفة الرسمیة یرتبط- فی الأغلب- بزمن الخلیل علیه السّلام.

إن الحجّ یجب علی کلّ إنسان مستطیع، فی العمر مرّة واحدة، و لا یستفاد من الآیة المبحوثة هنا أکثر من ذلک، لأن الحکم فیها مطلق، و هو یحصل بالامتثال مرّة واحدة.

إن الشرط الوحید الذی ذکرته الآیة الحاضرة لوجوب الحجّ و استقراره هو «الاستطاعة» المعبر عنها بقوله سبحانه مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا. نعم، قد فسرت الاستطاعة فی الأحادیث الإسلامیة و الکتب الفقهیة ب «الزاد و الراحلة (أی الإمکانیة المالیة لنفقات سفر الحجّ ذهابا و إیابا) و القدرة الجسدیة و التمکن من الإنفاق علی نفسه و عائلته بعد العودة من الحجّ» و الحقّ أن جمیع هذه الأمور موجودة فی الآیة، إذ لفظة «استطاع» التی تعنی القدرة و الإمکانیة تشمل کلّ هذه المعانی و الجهات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۰

ثمّ إنه یستفاد من هذه الآیة أن هذا القانون- مثل بقیة القوانین الإسلامیة- لا یختصّ بالمسلمین، فعلی الجمیع أن یقوموا بفریضة الحجّ

مسلمين و غير مسلمين، و تؤيد ذلك القاعدة المعروفة: «الكفّار مكلفون بالفروع كما أنهم مكلفون بالأصول». و إن كانت صحّة هذه المناسك و أمثالها من العبادات مشروطة بقبولهم للإسلام و اعتناقهم إياه، ثمّ أدائها بعد ذلك، و لكن لا بدّ أن يعلم بأن عدم قبولهم للإسلام لا يسقط عنهم التكليف، و لا يحررهم من هذه المسؤولية.

و ما قلناه فى هذه الآية فى هذا المجال جار فى أمثالها أيضا.

هذا و قد بحثنا باسهاب حول أهمية الحجّ و فلسفته و آثاره الفردية و الاجتماعية عند الحديث عن الآيات ۱۹۶ إلى ۲۰۳ من سورة البقرة.

أهمية الحجّ

و للتأكيد على أهمية الحجّ قال سبحانه فى ذيل الآية الحاضرة وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ أى أن الذين يتجاهلون هذا النداء، و يتنكرون لهذه الفريضة، و يخالفونها لا يضرون بذلك إلّا أنفسهم لأن اللّه غنى عن العالمين، فلا يصيبه شىء بسبب اعراضهم و نكرانهم و تركهم لهذه الفريضة.

إن لفظة «كفر» تعنى فى الأصل الستر و الإخفاء و أما فى المصطلح الدينى فتعطى معنى أوسع، فهى تعنى كلّ مخالفة للحقّ و كل جحد و عصيان سواء فى الأصول و الإعتقاد، أو فى الفروع و العمل، فلا تدلّ كثرة استعمالها فى الجحود الاعتقادى على انحصار معناه فى ذلك، و لهذا استعملت فى «ترك الحجّ».

و لذلك فسّر الكفر فى هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السّلام بترك الحجّ [۴۰۰].

و بعبارة اخرى أن للكفر و الابتعاد عن الحق- تماما مثل الإيمان و التقرب إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۱

الحقّ- مراحل و درجات، و لكلّ واحدة من هذه المراحل و الدرجات أحكام خاصة بها، و فى ضوء هذه الحقيقة يتضح الحال بالنسبة لجميع الموارد التى استعملت فيها لفظة الكفر و الإيمان فى الكتاب العزيز.

فإذا وجدنا القرآن يستعمل وصف الكفر فى شأن آكل الربا (كما فى الآية ۲۷۵ من سورة البقرة) و كذا فى شأن السحرة (كما فى الآية ۱۰۲ من نفس السورة) و يعبر عنهما بالكافر، كان المراد هو ما ذكرناه، أى أن الربا و السحر ابتعاد عن الحقّ فى مرحلة العمل.

و على كلّ حال فإنه يستفاد من هذه الآية أمران:

الأوّل: الأهمية الفائقة لفريضة الحجّ، إلى درجة ان القرآن عبر عن تركها بالكفر. و يؤيد ذلك ما رواه الصدوق فى كتاب «من لا يحضره الفقيه» من أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام: «يا على إن تارك الحجّ و هو مستطيع كافر يقول اللّه تبارك و تعالى: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ يا على؛ من سوف الحجّ حتّى يموت بعثه اللّه يوم القيامة يهوديا، أو نصرانيا»[۴۰۱].

الثانى: إن هذه الفريضة الإلهية المهمة- مثل بقية الفرائض و الأحكام الدينية الأخرى- شرعت لصلاح الناس، و فرضت لفرض تربيتهم، و إصلاح أمرهم و بالهم أنفسهم فلا يعود شىء منها إلى اللّه سبحانه أبدا، فهو الغنى عنهم جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۲

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۹۸ الى ۱۰۱]

اشارة

قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَکْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِیدٌ عَلی ما تَعْمَلُونَ (۹۸) قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۹۹) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تُطِیعُوا فَرِیقاً مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ یَرُدُّوکُمْ بَعْدَ إِیمانِکُمْ کافِرِینَ (۱۰۰) وَ کَیْفَ تَکْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلی عَلَیْکُمْ آیاتُ اللَّهِ وَ فِیکُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ یَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِیَ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۱۰۱)

سبب النّزول

یستفاد من مؤلفات الشیعة و السنّة و ما ذکروه فی سبب نزول هذه الآیة أن «شأس بن قیس» و کان شیخا من الیهود (قد أسن)، عظیم الکفر، شدید الضغن علی المسلمین، شدید الحسد لهم، مرّ ذات یوم علی نفر من أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم من الأوس و الخزرج فی مجلس قد جمعهم یتحدثون فیه، فغاظه ما رأی من ألفتهم و جماعتهم و صلاح ذات بینهم علی الإسلام، بعد الذی کان بینهم من العداوة فی

الجاهلیة فقال: قد اجتمع ملأ بنی قیلة بهذه البلاد، لا و اللّه ما لنا معهم- إذا اجتمع ملؤهم بها- من قرار، فأمر شابا من یهود کان معه، فقال: اعتمد إلیهم فاجلس معهم، ثمّ أذکر یوم «بعاث» و ما کان قبله، و أنشدهم بعض ما کانوا ما یتقاولون فیه من الأشعار.

و کان یوم «بعاث» یوما اقتتلت فیه الأوس و الخزرج، و کان الظفر فیه یومئذ للأوس علی الخزرج، و کان یرأس الأوس یومئذ حضیر بن سماک الأشهلی أبو أسید بن حضیر، و یرأس الخزرج یومئذ عمرو النعمان البیاضی، فقتلا جمیعا.

ففعل ذلک الشاب ما أراده «شأس» فتکلّم القوم عند ذلک، و تنازعوا و تفاخروا حتّی تواثب رجلان من الحیین، و تقاولا، و راح أحدهما یهدد الآخر، و کادت نیران الاقتتال تتأجج بینهم من جدید.

فبلغ ذلک رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فخرج إلیهم فیمن معه من أصحابه المهاجرین حتّی جاءهم، و قال: «یا معشر المسلمین اللّه اللّه، أ بدعوی الجاهلیة و أنا بین أظهرکم بعد أن هداکم اللّه للإسلام، و أکرمکم به، و قطع به عنکم أمر الجاهلیة، و استنقذکم به من الکفر، و ألف به بین قلوبکم»؟

فعرف القوم أنها نزعة من الشیطان و کید من عدوهم، فبکوا و عانق الرجال من الأوس و الخزرج بعضهم بعضا ثمّ انصرفوا مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم سامعین مطیعین قد أطفأ اللّه عنهم کید عدو اللّه «شأس بن قیس»، فأنزل اللّه تعالی هذه الآیات الأربع، الأولیان فی شأس بن قیس و ما صنع. و الآخریان لانذار المسلمین و تحذیرهم.

التّفسیر

مفرقو الصفوف و مثیرو الخلاف:

بعد أن فعل بعض العناصر الیهودیة الحاقدة فعلتها و کادت أن تشعل نیران العداوة بین المسلمین نزل- کما عرفت فی سبب النزول- قوله تعالی: قُلْ یا أَهْلَ

الْکِتابِ لِمَ تَکْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِیدٌ عَلی ما تَعْمَلُونَ و المخاطب فی هذه الآیة هم أهل الکتاب و یقصد منهم هنا الیهود، فاللّه سبحانه یأمر نبیه فی هذه الآیة أن یسألهم معاتبا عن علّة کفرهم بآیات اللّه فی حین أن اللّه یعلم بأعمالهم.

و المراد من آیات اللّه المذکورهٔ فی هذا المقام إما الآیات الواردهٔ فی التوراهٔ حول الرسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلم و علائم نبوته، أو مجموعهٔ الآیات و المعجزات التی نزلت علی نبی الإسلام، و تحققت علی یدیه، و کشفت عن حقانیته، و صدق دعوته، و صحّهٔ نبوته.

ثمّ جاءت الآیهٔ الثانیهٔ تلومهم قائلهٔ قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ، تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ أی قل یا رسول اللّه لهم لائما و منددا: إذا کنتم غیر مستعدین للقبول بالحقّ، فلما ذا تصرون علی صرف الآخرین عنه، و صدهم عن سبیل اللّه، و إظهار هذا الطریق المستقیم فی صورهٔ السبیل الأعوج بما تدخلون من الشبه علی الناس، فی حین ینبغی- بل یتعین- أن تکونوا أول جماعهٔ تبادر إلی تلبیهٔ هذا النداء الإلهی، لما وجدتموه من البشائر بظهور هذا النبی فی کتبکم و تشهدون علیه.

فإذا کان الأمر کذلک فلم هذه الوساوس و المحاولات لإلقاء الفرقهٔ و إضلال الناس، و إزاحتهم عن سمت الحقّ، و صدهم عن السبیل الإلهی القویم؟ و لم تحملون أثقالا إلی أثقالکم، و تتحملون إلی إثم الضلال جریمهٔ الإضلال؟، لماذا؟

هل تتصورون أن کلّ ما تفعلونه سیخفی علینا؟ کلّا ... وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ إنه تهدید بعد تندید، و إنه إنذار بعد لوم شدید.

و لعلّ وصفه سبحانه بعدم الغفلهٔ فی هذا المقام لأجل أن الیهود کانوا- لإنجاح محاولاتهم- یتکتمون و یتسترون، و یعمدون إلی حبک المؤامرات فی الخفاء، لینجحوا فی التأثیر علی المغفلین و البسطاء بنحو أفضل، و لیجنوا المزید من الثمار،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۵

و لهذا قال لهم سبحانه إذا کان بعض الناس ینخدعون بوساوسکم و مؤامراتکم لغفلتهم فإن اللّه یعلم بأسرارکم، و خفایا أعمالکم، و ما هو بغافل عمّا تعملون، فعلمه محیط بکم، و عقابه الألیم ینتظرکم.

و بعد أن ینتهی هذا التقریع و التندید، و الإنذار و التهدید لمشعلی الفتن، الصادین عن سبیل اللّه القویم، المستفیدین من غفلهٔ بعض المسلمین یتوجه سبحانه بالخطاب إلی هؤلاء المخدوعین من المسلمین، یحذرهم من مغبهٔ الانخداع بوساوس الأعداء، و الوقوع تحت تأثیرهم، و السماح لعناصرهم بالتسلل إلی جماعتهم، و ترتیب الأثر علی تحریکاتهم و تسویلاتهم، و أن نتیجهٔ کلّ ذلک هو الابتعاد عن الإیمان، و الوقوع فی أحضان الکفر، إذ یقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تُطِیعُوا فَرِیقاً مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ یَرُدُّوکُمْ بَعْدَ إِیمانِکُمْ کافِرِینَ

أجل إن نتیجهٔ الانصیاع لمقاصد هؤلاء الأعداء هو الرجوع إلی الکفر لأن العدو یسعی فی المرحلهٔ الاولی إلی أن یشعل بینکم نیران العداوهٔ و الاقتتال، و لکنه لن یکتفی بهذا القدر منکم، بل سیستمر فی وساوسه الخبیثهٔ حتّی یخرجکم عن الإسلام مرّهٔ واحدهٔ، و یعیدکم إلی الکفر تارهٔ اخری.

من هذا البیان اتضح أن المراد من الرجوع إلی الکفر- فی الآیهٔ- هو «الکفر الحقیقی، و الانفصال الکامل عن الإسلام» کما و یمکن أن یکون المراد من ذلک هی تلک العداوات الجاهلیهٔ التی تعتبر- فی حدّ ذاتها- شعبهٔ من شعب الکفر، و علامهٔ من علائمهٔ، و أثرا من آثاره، لأن الإیمان لا یصدر منه إلّا المحبهٔ و المودهٔ و التآلف، و أما الکفر فلا یصدر منه إلّا التقاتل و العداوهٔ و التنافر.

ثمّ یتساءل- فی عجب و استغراب- وَ کَیْفَ تَکْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلی عَلَیْکُمْ آیاتُ اللَّهِ وَ فِیکُمْ رَسُولُهُ أی کیف یمکن أن تسلکوا سبیل الکفر، و ترجعوا کفّارا و النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بین ظهرانیکم، و آیات اللّه البینات تقرأ علی أسماعکم، و تشع أنوار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۶

الوحی علی قلوبکم و تهطل علیکم أمطاره المحییهٔ؟

إن هذه العبارهٔ ما هی- فی الحقیقهٔ- إلّا الإشارهٔ إلی أنه لا عجب إذا ضل الآخرون و انحرفوا، و لکن العجب ممّن لا یزمون الرسول و یرونه فیما بینهم، و لهم مع عالم الوحی اتصال دائم ... و مع آیاته صحبهٔ دائمهٔ، إن العجب إنما هو- فی الحقیقهٔ- من هؤلاء کیف یضلون و کیف ینحرفون؟

إنه حقّا یـدعو إلی الدهشـة و الاسـتغراب و یبعث علی العجب أن یضـل مثل هؤلاء الـذین یعیشون فی بحبوحـة النور، و لا شک أنهم أنفسهم یتحملون إثم هذا الضلال- إن ضلوا- لأنهم لم یضلوا إلّا عن بیّنهٔ، و لم ینحرفوا إلّا بعد بصیرهٔ ... و لا شکّ أن عذابهم سیکون شدیدا جدّا لذلک.

ثمّ فی ختـام هـذه الآیات یوصـی القرآن الکریم المسلمین- إن أرادوا الخلاص من وساوس الأعـداء، و أرادوا الاهتـداء إلی الصـراط المستقیم- أن یعتصـموا باللّه و یلوذوا بلطفه و یتمسـکوا بهـدایاته و آیاته، و یقول لهم بصـراحهٔ تامـهٔ وَ مَنْ یَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِیَ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیم

هـذا و من النقاط المهمهٔ التی تلفت النظر فی هذه الآیات هو أن الخطاب الإلهی فی الآیتین الأولیین من هذه الآیات موجههٔ إلی الیهود بالواسطهٔ، لأن اللّه سبحانه یأمر نبیه الکریم أن یبلغ هذه المواضیع للیهود عن لسانه فیقول تعالی له قُلْ و لکنه عند ما یوجه الخطاب إلی المسلمین فی الآیتین الأخریین یخاطبهم بصورهٔ مباشرهٔ و دون واسطـهٔ فلا یشـرع خطابه لهم بلفظه قُلْ و هـذا یکشف عن منتهی عنایهٔ اللّه و لطفه بـالمؤمنین، و أنهم- دون غیرهـم- لائقون بـأن یخـاطبهم اللّه مباشـرهٔ، و أن یوجه إلیهم الکلام دون أن یوسط بینه و بینهم أحدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۷

الآیتان [سورهٔ آل‌عمران (۳): الآیات ۱۰۲ الی ۱۰۳]

اشارهٔ

یـا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۲) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِیعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْکُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ کُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ کُنْتُمْ عَلی شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَکُمْ مِنْها کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰۳)

سبب النّزول

کانت بین «الأوس» و «الخزرج» القبیلتین الکبیرتین القاطنتین فی یثرب حروب طویلـهٔ دامیهٔ و منازعات اسـتمرت ما یقرب من مائهٔ عام، و کانت المعارک و المناوشات تنشب بینهم بین فترهٔ و اخری و تکلف الجانبین خسائر جسمیهٔ فی الأموال و الأرواح.

کلّ ذلک کان أیّام الجاهلیهٔ قبل بزوغ الإسلام و طلوع شمسه علی تلک الربوع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۸

و قـد کـان ممّـا وفق له الرسول و نجـح فیه أکبر نجاح- بعـد هجرته إلی المدینـهٔ (یثرب)- هو تمکنه من وضع حـد لتلک المعارک و المناوشات و تلک المذابـح و المجازر، و إقرار الإخاء مکان العـداء و إحلال السـلام محل الحروب، و تشـکیل جبهـهٔ متحـدهٔ متراصـهٔ الصفوف، قویهٔ البنیان و الأرکان فی المدینهٔ المنورهٔ.

و لکن حیث أن جـذور النزاع کـانت قویـهٔ و عدیـدهٔ جـدا، کـان ذلک الاتحاد یتعرض أحیانا لبعض الهزات بسـبب بعض الاختلافات المنسیهٔ التی کانت تطفو علی السطح أحیانا فتشتعل نیران النزاع بعد غیاب، و لکن سرعان ما کانت تختفی مرّهٔ اخری بفضل تعلیمات النبی العظیم صلی اللّه علیه و آله و سلّم و حکمته، و تدبیره.

و قد لاحظنا فی الآیات السابقهٔ نموذجا من تلک الاختلافات المتجددهٔ التی کانت تبرز علی أثر التحریکات التی کان یقوم بها الأعداء الأذکیاء، و لکن هذه الآیات تشیر إلی نوع آخر من الاختلافات التی کان یسببها الأصدقاء الجاهلون، و العصبیات العمیاء و الحمقاء.

یقال: افتخر رجلان من الأوس و الخزرج هما «ثعلبة بن غنم» و «أسعد بن زرارة» فقال ثعلبة: منا خزیمة بن ثابت ذو الشهادتین، و منا حنظلة غسیل الملائکة و منا عاصم بن ثابت بن أفلح حمی الدین، و منا سعد بن معاذ الذی رضی اللّه بحکمه فی بنی قریظة، و قال أسعد منا أربعة أحکموا القرآن: أبی بن کعب و معاذ بن جبل و زید بن ثابت و أبو زید و منا سعد بن عبادة خطیب الأنصار و رئیسهم: فجری الحدیث بینهما فغضبا و تفاخرا و نادیا فجاء الأوس إلی الأوسی، و الخزرج إلی الخزرجی و معهم السلاح، فبلغ ذلک النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فرکب حمارا و أتاهم، فأنزل اللّه هذه الآیات فقرأها علیهم فاصطلحوا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۹

التّفسیر

الدعوة إلی التقوی:

فی الآیة الأولی من هاتین الآیتین دعوة إلی التقوی لتکون التقوی مقدمة للاتحاد و التآخی.

و فی الحقیقة أن الدعوة إلی الاتحاد دون أن تستعین هذه الدعوة و تنبع من الجذور الخلقیة و الاعتقادیة، دعوة قلیلة الأثر، إن لم تکن عدیمة الأثر بالمرّة، و لهذا یرکز الاهتمام فی هذه الآیة علی معالجة جذور الاختلاف، و إضعاف العوامل المسببة للتنازع فی ضوء الإیمان و التقوی، و لهذا توجه القرآن بالخطاب إلی المؤمنین فقال یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ

یبقی أن نعرف أنه قد وقع کلام کثیر بین المفسّرین حول المراد من قوله تعالی حَقَّ تُقاتِهِ و لکن ممّا لا شکّ فیه أن «حق التقوی» یعد من أسمی درجات التقوی و أفضلها لأنه یشمل اجتناب کلّ إثم و معصیة، و کلّ تجاوز و عدوان، و انحراف عن الحقّ.

و لذا

نقل عن الرسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم کما فی تفسیر الدرّ المنثور، و عن الإمام جعفر الصادق علیه السّلام کما فی تفسیر العیّاشی و معانی الأخبار- فی تفسیر قوله: حَقَّ تُقاتِهِ أنهما قالا: «أن یطاع فلا یعصی، و یذکر فلا ینسی (و یشکر فلا یکفر)».

و من البدیهی أن القیام بهذا الأمر کغیره من الأوامر الإلهیة، یرتبط بمدی قدرة الإنسان و استطاعته و لهذا لا تنافی بین هذه الآیة التی تطلب حقّ التقوی و أسمی درجاته و الآیة ۱۶ من سورة التغابن التی تقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فالکلام حول المنافاة بین الآیتین و ادعاء نسخ إحداهما بالأخری ممّا لا أساس له مطلقا، و لا داعی له أبدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۰

علی أنه لیس من شکّ فی أن الآیة الثانیة تعتبر تخصیصا- فی الحقیقة- لمفاد الآیة الأولی و تقییدا بالاستطاعة و القدرة، و حیث أن لفظة النسخ کانت- عند القدماء- تطلق علی التخصیص، لذلک من الممکن أن یکون المراد من قول القائل بأن الآیة الثانیة ناسخة للأولی هو کونها مخصصة للأولی لا غیر.

ثمّ إنه بعد أن أوصی جمیع المؤمنین بملازمة أعلی درجات التقوی انتهت الآیة بما یعتبر تحذیرا- فی حقیقته- للأوس و الخزرج و غیرهم من المسلمین فی العالم، تحذیرا مفاده: أن مجرد اعتناق الإسلام و الانضمام إلی هذا الدین لا یکفی، إنما المهم أن یحافظ المرء علی إسلامه و إیمانه و اعتقاده إلی اللحظة الأخیرة من عمره و حیاته، فلا یبدد هذا الإیمان بإشعال الفتن و إثارة نیران البغضاء أو بالانسیاق وراء العصبیات الجاهلیة الحمقاء، و الضغائن المندثرة فتکون عاقبته الخسران، و ضیاع کلّ شیء و لهذا قال سبحانه وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

الدعوة إلى الاتحاد

بعد أن أوصت الآية السابقة كلّ المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى و مهدت بذلك النفوس و هيأتها، جاءت «الآية الثانية» تدعوهم بصراحة إلى مسألة الاتحاد، و الوقوف في وجه كلّ ممارسات التجزئة و إيجاد الفرقة، فقال سبحانه فى هذه الآية وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا.

و لكن ما المقصود من «حبل اللّه» فى هذه الآية؟ فقد ذهب المفسّرون فيه إلى احتمالات مختلفة، فمنهم من قال بأنه القرآن، و منهم من قال: بأنه الإسلام، و منهم من قال بأنهم الأئمّة المعصومون من آل الرسول و أهل بيته المطهرين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۱

و قد وردت كلّ هذه المعانى فى روايات منقولة عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة من أهل بيته عليهم السّلام.

ففى تفسير «الدرّ المنثور» عن النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و فى كتاب «معانى الأخبار» عن الإمام السجّاد أنهما قالا: «كتاب اللّه حبل ممدود من السماء».

و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنه قال: «آل محمّد عليهم السّلام هم حبل اللّه الذى أمرنا بالاعتصام به فقال: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا.

و لكنه ليس هناك- فى الحقيقة- أى اختلاف و تضارب بين تلك الأقوال و الأحاديث لأن المراد من الحبل الإلهى هو كلّ وسيلة للارتباط باللّه تعالى سواء كانت هذه الوسيلة هى الإسلام، أم القرآن الكريم، أم النبى و أهل بيته الطاهرين.

و بعبارة اخرى فإن كلّ ما قيل يدخل بأجمعه فى مفهوم ما يحقق «الارتباط باللّه» سبحانه- الواسع- و الذى يستفاد من معنى حبل اللّه.

التعبير ب «حبل اللّه» لماذا؟

إن النقطة الجديرة بالاهتمام فى هذه الآية هو التعبير عن هذه الأمور بحبل اللّه، فهو إشارة إلى حقيقة لطيفة و هامة، و هى أن الإنسان سيبقى فى حضيض الجهل، و الغفلة، و فى قاع الغرائز الجامحة إذا لم تتوفر له شروط الهداية، و لم يتهيأ له الهادى و المربى الصالح فلا بدّ للخروج من هذا القاع، و الارتفاع من هذا الحضيض من حبل متين يتمسك به ليخرجه من بئر المادية و الجهل و الغفلة، و ينقذه من أسر الطبيعة، و هذا الحبل ليس إلّا حبل اللّه المتين، و هو الارتباط باللّه عن طريق الأخذ بتعاليم القرآن الكريم و القادة الهداة الحقيقيين، التى ترتفع بالناس من حضيض الحضيض إلى أعلى الذرى فى سماء التكامل المادى و المعنوى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۲

أعداء الأمس و إخوان اليوم:

ثمّ إن القرآن بعد كلّ هذا يعطى مثالا حيّا من واقع الأمة الإسلامية لأثر الارتباط باللّه و هو يذكر- فى نفس الوقت- بنعمة الاتحاد و الأخوة- تلك النعمة الكبرى- و يدعو المسلمين إلى مراجعة الماضى المؤسف، و مقارنة ذلك الاختلاف و التمزق بهذه الوحدة القوية الصلبة و يقول: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً.

و الملفت للنظر هو تكرار كلمة نعمة فى هذه الآية مرتين و هو إشعار بأهمية الوحدة هذه الموهبة الإلهية التى لا تحقّق إلّا فى ظل

التعالیم الإسلامیة و الاعتصام بحبل اللّه.

و النقطة الأخری الجدیدة بالاهتمام أیضا هی أن اللّه نسب تألیف قلوب المؤمنین إلی نفسه فقال فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ أی أن اللّه ألف بین قلوبکم، و بهذا التعبیر یشیر القرآن الکریم إلی معجزة اجتماعیة عظیمة للإسلام، لأننا لو لاحظنا ما کان علیه العرب و المجتمع الجاهلی من عداوات و اختلافات و ما کان یکمن فی القلوب من أحقاد طویلة عمیقة و ما تراکم فیها من ضغائن مستحکمة، و کیف أن أقل شرارة صغیرة أو مسألة جزئیة کانت تکفی لتفجیر الحروب، و اندلاع القتال فی ذلک المجتمع المشحون بالأحقاد، و خاصة بالنظر إلی تفشی الأمیة و الجهل الملازم عادة للإصابة باللجاج و العناد و العصبیة، فإن أفرادا من هذا النوع من الصعب أن یتناسوا أبسط أمورهم فکیف بالأحداث الدامیة الکبری؟ و من هنا تتجلی أهمیة المعجزة الاجتماعیة التی حققها الإسلام حیث و حد الصفوف، و ألف بین القلوب، و أنسی الأحقاد، تلک المعجزة التی أثبتت أن تحقیق مثل هذه الوحدة و تألیف تلک القلوب المتنافرة المتباغضة، و إیجاد أمة واحدة متآخیة من ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۳

الشعب الممزق الجاهل ما کان لیتیسر فی سنوات قلیلة بالطرق و الوسائل العادیة.

اعتراف العلماء و المؤرخین:

و قد کانت أهمیة هذا الموضوع (أی وحدة القبائل العربیة المتباغضة بفضل الإسلام) إلی درجة أنها لم تخف علی العلماء و المؤرخین، حتّی غیر المسلمین منهم، فقد اتفق الجمیع فی الإعجاب بهذه المسألة، و إظهارها فی کتاباتهم، و ها نحن نذکر نماذج من ذلک:

یقول «جان دیون پورت» العالم الإنجلیزی المشهور: «لقد حول محمّد العربی البسیط، القبائل المتفرقة و الجائعة، الفقیرة فی بلدة إلی مجتمع متماسک منظم، امتازت، فیما بعد- بین جمیع شعوب الأرض بصفات و أخلاق عظیمة و جدیدة، و استطاع فی أقل من ثلاثین عاما و بهذا الطریق أن یتغلب علی الامبراطوریة الرومانیة، و یقضی علی ملوک إیران، و یستولی علی سوریا و بلاد ما بین النهرین، و تمتد فتوحاته إلی المحیط الأطلسی و شواطئ بحر الخزر و حتی نهر سیحان (فی جنوب شرقی آسیا الوسطی)[۴۰۲].

و یقول توماس کارلیل: «لقد أخرج اللّه العرب بالإسلام من الظلمات إلی النور و أحیی به منها أمة خاملة لا یسمع لها صوت و لا یحس فیها حرکة حتّی صار الخمول شهرة، و الغموض نباهة، و الضعة رفعة، و الضعف قوّة، و الشرارة حریقا، و شمل نوره الأنحاء، و عم ضوؤه الأرجاء و ما هو إلّا قرن بعد إعلان هذا الدین حتّی أصبح له قدم فی الهند، و أخری فی الأندلس، و عم نوره و نبله و هداه نصف المعمورة»[۴۰۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۴

و یقول الدکتور «غوستاف لوبون»: معترفا بهذه الحقیقة: «... و إلی زمان وقوع هذه الحادثة المدهشة (یعنی الإسلام) الذی أبرز العربی فجأة فی لباس الفاتحین، و صانعی الفکر و الثقافة لم یکن یعد أن جزء من أرض الحجاز من التاریخ الحضاری و لا أنه کان یتراءی فیها للناظر أی شیء أو علامة للعلم و المعرفة، أو الدین»[۴۰۴].

و یکتب «نهرو» العالم و السیاسی الهندی الراحل فی هذا الصدد قائلا:

«إن قصة انتشار العرب فی آسیا و أوروبا و أفریقیا و الحضارة الراقیة و المدنیة الزاهرة التی قدموها للعالم أعجوبة من أعجوبات التاریخ، و لقد کان محمّد واثقا بنفسه و رسالته، و قد هیأ بهذه الثقة و هذا الإیمان لأمته أسباب القوّة و العزّة و المنعة»[۴۰۵].

لقد کان وضع العرب سیئا إلی أبعد الحدود حتّی أن القرآن یصف تلک الحالة بأنهم کانوا علی حافة الانهیار و السقوط إذ یقول: وَ

کُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَکُمْ مِنْها.

و تعنی «شفا» فی اللغة حافة الهاویة و طرف الحفرة أو الخندق و ما شابه ذلک، و من ذلک «الشفة»، کما و تستعمل لفظة «شفا» هذه فی البرء من المرض، لأن الإنسان بسببه یکون علی حافة السلامة و العافیة.

و یرید سبحانه من قوله هذا: أنکم کنتم علی حافة السقوط و الانهیار فی الهاویة، و أن سقوطکم کان محتملا فی کلّ آن و متوقعا فی کلّ لحظة، لتصبحوا بعد السقوط رمادا، و خبرا بعد أثر، و لکن اللّه نجاکم من ذلک السقوط المرتقب، و أبدلکم بعد الخوف أمنا، و بدل الانهیار اعتلاء و مجدا، و هداکم إلی حیث الأمن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۵

و الأمان فی رحاب الأخوة و المحبة.

و النار فی هذه الآیة: هل هی نار الجحیم، أو نیران هذه الدنیا؟ فیها خلاف بین المفسّرین، و لکن النظر فی مجموع الآیة یهدی إلی أن النار کنایة عن نیران الحروب و المنازعات التی کانت تتأجج کلّ لحظة بین العرب فی العهد الجاهلی بحجج واهیة، و لأسباب طفیفة.

فإن القرآن یصور بهذه العبارة الوضع الجاهلی المتأزم و یصور أخطار الحروب المدمرة التی کانت تتهدد حیاة الناس فی کلّ لحظة بالفناء و الدمار و الانهیار، و ما من به اللّه سبحانه علیهم من النجاة و الخلاص من ذلک الوضع فی ظل الإسلام و بفضل تعالیمه، و الذی بسببه تخلّص المسلمون أیضا من نار جهنم، و عذابه الألیم.

و لمزید من التأکید علی ضرورة الاعتصام بحبل اللّه مع الإعتبار بالماضی و الحاضر، یختم سبحانه الآیة بقوله کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ

إذن فالهدف الأساسی هو خلاصکم و نجاتکم و هدایتکم إلی سبل الأمن و السلام، و حیث إن فی ذلک مصلحتکم فإن علیکم أن تعیروا ما بیناه لکم مزیدا من الاهتمام، و مزیدا من العنایة.

دور الاتحاد فی بقاء الأمم

رغم کلّ ما قیل عن أهمیة الاتحاد و آثاره العظیمة فی التقدّم الاجتماعی عند الشعوب و الأمم فإن من الممکن القول و الادعاء بأن الآثار الواقعیة لهذه المسألة لا تزال مجهولة، و غیر معروفة کما ینبغی.

إن العالم یشهد الیوم سدودا کثیرة و کبیرة أقیمت فی مختلف المناطق، و قد أصبحت منشأ لإنتاج أضخم القوی الصناعیة، فقد استطاعت هذه السدود بفضل ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۶

أنتجت من طاقات و حفظت من میاه کانت تذهب قبل ذلک هدرا، أن تغطی مساحات کبیرة شاسعة بالری و الإضاءة.

فلو أننا فکرنا قلیلا- لوجدنا أن هذه القوّة العظیمة لم تنشأ إلّا من تجمع القوی الصغیرة، الجزئیة- أی تجمع قطرات المطر، و حبات الغیث الحقیرة- و من هنا تدرک أهمیة اجتماع القوی البشریة و تلاحم الطاقات الإنسانیة، و تجمعها، و ما یرافقها من جهود جماعیة.

و لقد عبرت النصوص و الأحادیث المأثورة عن النبی الکریم و أهل بیته الطاهرین- علیهم صلوات اللّه أجمعین- عن أهمیة الاتحاد و الاجتماع بعبارات متنوعة مختلفة.

فتارة

یقول النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم «المؤمن للمؤمن کالبنیان یشد بعضه بعضا» و شبک بین أصابعه [۴۰۶].

و اخری

يقول صلى اللّه عليه و آله و سلّم «المؤمنون كالنفس الواحدة»[۴۰۷].

و ثالثة

يقول صلى اللّه عليه و آله و سلّم «مثل المؤمنين فى توادهم و تراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر و الحمى»[۴۰۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۷

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۵]

اشارة

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۴) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰۵)

التّفسير

الدعوة إلى الحقّ و مكافحة الفساد:

بعد الآيات السابقة التى حثت على الأخوة و الاتحاد جاءت الإشارة- فى الآية الأولى من الآيتين الحاضرتين- إلى مسألة «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر» اللذين هما- فى الحقيقة- بمثابة غطاء وقائى اجتماعى لحماية الجماعة و صيانتها، إذ تقول وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

لأن فقدان «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر» يفسح المجال للعوامل المعادية للوحدة الاجتماعية بأن تنخرها من الداخل، و تأتى على كلّ جذورها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۸

كما تفعل الأرضة، و أن تمزق وحدة الأمة و تفرق جمعها، و لهذا فلا بدّ من مراقبة مستمرة و رعاية دائمة لهذه الوحدة، و لا يتم ذلك إلّا بالأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر.

و هذه الآية تتضمن دستورا أكيدا للأمة الإسلامية بأن تقوم بهاتين الفريضتين دائما، و أن تكون أمة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر أبدا لأن فلاحها رهن بذلك:

وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

يبقى أن نعرف أن «الأمة» مأخوذة لغة من «الأم» و هو كلّ ما انضم إليه الأشياء الأخرى، أو كلّ شىء ضم إليه سائر ما يليه، و الأمة كلّ جماعة يجمعهم أمر جامع إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد لهذا لا تطلق لفظة الأمة على الأفراد المتفرقين، و الأشخاص الذين لا يربطهم رباط واحد.

سؤال

و هنا يطرح سؤال و هو: أن الظاهر من جملة «منكم أمة» هو جماعة من المسلمين لا كافة المسلمين، و بهذا لا يكون الأمر بالمعروف و

النهی عن المنکر واجبا عامّا، بل وظیفة دینیة تختص بفریق من المسلمین، و إن کان انتخاب هذا الفریق الخاصّ من مسئولیة المسلمین جمیعا.

و بعبارة أخری أن جملة «منکم أمة» ظاهرة فی أن هذین الأمرین، واجبان کفائیان لا عینیان.

فی حین أن آیات أخری تفید بأنهما عامان غیر خاصین بجماعة دون اخری، کما فی آیة لا حقة و هی قوله سبحانه کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ.

أو ما جاء فی سورة «العصر»:

إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ فإن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۹

الأمر بالمعروف، و النهی عن المنکر، و التواصی بالحقّ، و التواصی بالصبر فی هذه الآیات و ما شابهها عامة غیر خاصّة.

و الجواب:

إن الإمعان فی مجموعة هذه الآیات یوضح لنا الجواب، فإنه یستفاد منها أن «الأمر بالمعروف» و «النهی عن المنکر» مرحلتین: «المرحلة الفردیة» التی یجب علی کلّ واحد القیام بها بمفرده، إذ یجب علیه أن یراقب تصرفات الآخرین، و «المرحلة الجماعیة» و هی التی تعتبر من مسئولیة الأمة بما هی أمة، حیث یجب علیها أن تقوم بمعالجة کلّ الاعوجاجات و الانحرافات الاجتماعیة، و تضع حدّا لها، بالتعاون بین أفرادها و أعضائها کافة.

و یعتبر القسم الأول من وظیفة الأفراد، فردا فردا، و حیث إن إمکانات الفرد و قدراته محدودة، و لذلک فإن إطار هذا القسم یتحدد بمقدار هذه الإمکانات.

و أمّا القسم الثانی فإنه یعتبر واجبا کفائیا، و حیث إنه من واجب الأمة بما هی أمة فإن حدوده یتسع و لهذا یکون من واجبات الحکومة الإسلامیة، و شؤونها بطبیعة الحال.

إن وجود هذین النوعین من مکافحة الفساد، و الدعوة إلی الحقّ یعتبران- بحقّ- من أهم التعالیم التی تتوج القوانین الإسلامیة، کما و یکشف عن سیاسة تقسیم الواجبات و الوظائف و توزیع الأدوار فی الدولة الإسلامیة، و عن لزوم تأسیس «فریق المراقبة» للنظارة علی الأوضاع الاجتماعیة و المؤسسات المختلفة فی النظام الإسلامی.

و قد جرت العادة فیما سبق بوجود أجهزة خاصّة تقوم بمهمة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر فی المستوی الاجتماعی فی البلاد الإسلامیة، و قد کانت تسمی هذه الأجهزة تارة باسم «دائرة الحسبة» و یسمی موظفوها بالمحتسبین، و تارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۰

باسم الآمرین بالمعروف، و قد کانت هذه الأجهزة بسبب موظفیها تقوم بمکافحة کلّ فساد فی المجتمع، أو کل فساد و ظلم فی أجهزة الدولة، إلی جانب ما تقوم به من تشجیع الناس علی الخیر و الحثّ علی المعروف.

و مع وجود مثل هذه الجماعة بما لها من القوة الواسعة لا یوجد أی تناف بین شمول فریضة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر علیها و علی الفرد بما له من القدرة المحدودة. إذ یکون الأمر و النهی الواسعان من واجب الدولة الإسلامیة لا الفرد.

و حیث إن هذا البحث یعتبر من أهم الأبحاث القرآنیة و قد أشارت إلیه آیات کثیرة فی الکتاب العزیز لذلک یلزم أن نذکر أمورا فی هذا المجال:

۱- ما هو «المعروف» و ما هو «المنکر»؟

«المعروف» هو کلّ ما یعرف و هو مشتق من عرف، و «المنکر» کلّ ما ینکر و هو مشتق من الإنکار، و بهذا النحو و صفت الأعمال الصالحة بأنها امور معروفة، و الأعمال السیّئة و القبیحة امور منکرة، لأن الفطرة الإنسانیة الطاهرة تعرف القسم الأول و تنکر القسم الثانی.

۲- هل الأمر بالمعروف واجب عقلی أو تعبدی؟

یعتقد جماعة من علماء المسلمین أن وجوب هاتین الفریضتین لم یثبت إلّا بالدلیل النقلی، و أن العقل لا یحکم بوجوب النهی عن منکر لا یتعدی ضرره إلی غیر فاعله.

و لکن نظرا إلی العلاقات الاجتماعیة، و ما للمنکر من الآثار السیئة التی لا- تنحصر فی نقطة وقوعها، بل تتعداها إلی العلاقات الاجتماعیة إذ یمکن سرایة شرارته إلی کلّ نواحی المجتمع تتضح الأهمیة العقلیة لهاتین الوظیفتین.

و بعبارة أخری: لیس هناک فی المجتمع ما یکون «ضررا فردیا» ینحصر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۱

نطاقه علی الفرد خاصة، بل کلّ ضرر فردی یمکن أن ینقلب إلی «ضرر اجتماعی» و لهذا یؤکد العقل و المنطق السلیم لأفراد المجتمع بأن لا یألوا جهدا فی الإبقاء علی سلامة البیئة الاجتماعیة و طهارتها من کلّ دنس.

و قد أشیر إلی هذا فی بعض الأحادیث.

فعن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال: «مثل القائم علی حدود اللّه و المرهن فیها کمثل قوم استهمّوا علی سفینة فی البحر فأصاب بعضهم أعلاها و أصاب بعضهم أسفلها ... فقال الذین فی أسفلها: إننا ننقبها من أسفلها فتستقی، فإن أخذوا علی أیدهم فمنعوهم نجوا جمیعا، و إن ترکوهم غرقوا جمیعا»[۴۰۹].

و لقد جسد النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم- بهذا المثال الرائع- موضوعیة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و منطقیة هاتین الفریضتین بغض النظر عن أمر الشارع بهما، و بذلک قرر حقّ الفرد فی النظارة علی المجتمع علی أساس أنه حقّ طبیعی ناشئ من اتحاد المصائر فی المجتمع، و ارتباط بعضها ببعض.

۳- أهمیة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر هناک علاوة علی الآیات القرآنیة الکثیرة، أحادیث مستفیضة فی المصادر الإسلامیة المعتبرة تتحدث عن أهمیة هاتین الفریضتین الاجتماعیتین الکبیرتین، قد أشیر فیها إلی العواقب الخطیرة المترتبة علی تجاهل و ترک هاتین الوظیفتین فی المجتمع، نذکر من باب المثال طائفة منها:

۱-

عن الإمام الباقر علیه السّلام قال: «إن الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر فریضة عظیمة بها تقام الفرائض، و تأمن المذاهب، و تحل المکاسب، و ترد المظالم، و تعمر الأرض و ینتصف من الأعداء، و یستقیم الأمر»[۴۱۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۲

۲-

قال النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «من أمر بالمعروف و نهی عن المنکر فهو خلیفة اللّه فی أرضه، و خلیفة رسول اللّه و خلیفة کتابه»[۴۱۱].

۳-

جاء رجل إلی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و هو علی المنبر فقال: یا رسول اللّه من خیر الناس؟

قال: «آمرهم بالمعروف، و أنهاهم عن المنکر و أتقاهم للّه و أرضاهم»[۴۱۲].

۴-

فى حديث عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «لتأمرون بالمعروف، و تنهون عن المنكر، أو ليسلطن اللّه عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم و لا يرحم صغيركم، و تدعو خياركم فلا يستجاب لهم، و تستنصرون فلا تنصرون، و تستغيثون فلا تغاثون، و تستغفرون فلا تغفرون»[۴۱۳].

هذه الأمور كلّها هى الآثار الطبيعية لموقف المجتمع الذى يعطل هاتين الوظيفتين الاجتماعيتين العظيمتين، لأن ترك النظارة العامّة على ما يجرى فى المجتمع يلازم خروج الأمور من قبضة الصالحين، و الإفساح للأشرار بأن يتسلموا أزمة الأمور و مقدرات المجتمع و يحكموا فيه بأهوائهم، فيقع ما يقع من المآسى و تصاب الجماعة بما ذكره الحديث المتقدم من التبعات و المفاسد.

و ما ذكر فى الحديث من عدم قبول توبتهم أيضا لأنه لا معنى لقبول التوبة مع استمرارهم على السكوت اللهم إلّا أن يعيدوا النظر فى سلوكهم.

-۵

عن على عليه السّلام: «و ما أعمال البر كلّها و الجهاد فى سبيل اللّه عند الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر إلّا كنفثة فى بحر لجئ»[۴۱۴].

كل هذه التأكيدات هى لكون هاتين الوظيفتين العظيمتين خير ضمان لإجراء و تنفيذ بقية الوظائف الفردية و الاجتماعية، و لأنهما بمثابة الروح لها، فبتركهما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۳

تندرس كلّ الأحكام و القيم الأخلاقية و تفقد قيمتها و تختفى من حياة المجتمع.

۴- هل الأمر بالمعروف يوجب سلب الحريات؟

فى الإجابة على هذا السؤال لا بدّ من القول بأن النمط الجماعى للحياة و إن كان- بلا ريب- ينطوى على فوائد كثيرة لأفراد البشر، بل إن هذه المزايا هى التى دفعت الإنسان ليختار الحياة الاجتماعية، إلّا أنه ينطوى فى مقابل ذلك على بعض التقييدات لحريات الأفراد، و لكن بما أن ضرر هذه التقييدات الجزئية ضئيل تجاه الفوائد الجمة التى تنطوى عليها الحياة الاجتماعية اختار الإنسان النمط الاجتماعى منذ الأيام الأولى من حياته على هذا الكوكب متحملا كلّ التقييدات.

و حيث إن مصائر الأفراد ترتبط ببعضها فى الحياة الاجتماعية، و يؤثر بعضها فى بعض بمعنى أن الجميع فى الحياة الاجتماعية يشتركون فى مصير واحد، لذلك كان حقّ النظارة على تصرفات الآخرين و سلوكهم حقّا طبيعيا تقتضيه الحياة الجماعية، كما جاء ذلك فى الحديث الرائع الذى نقلناه آنفا عن الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المجال.

و على هذا فإن الأمر بالمعروف لا ينافى الحريات الفردية فحسب، بل هو وظيفة كلّ فرد تجاه الفرد الآخر، لأن من شأنه الإبقاء على سلامة الآخرين و استقامة أمورهم، و من ثمّ سلامة الفرد نفسه و استقامة أمره.

۵- ألا يلازم الأمر بالمعروف الفوضى الاجتماعية؟

هناك سؤال آخر يطرح نفسه فى هذا المجال و هو إذا سمحنا للناس بأن يتدخلوا فى شؤون الآخرين و تكون لهم النظارة على أعمالهم و تصرفاتهم، فإن ذلك يوجب وقوع الفوضى فى المجتمع، إذ تحصل بسببه المصادمات بين الأفراد، و لأنه يخالف مبدأ توزيع الواجبات و المسؤوليات فى الحياة الاجتماعية فما هو الجواب؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۴

فى الإجابة على هذا السؤال لا بدّ من القول: بأن الأبحاث السابقة قد أوضحت أن لوظيفة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مرحلتين: المرحلة الأولى: و هى المرحلة العمومية، و هى ذات إطار محدود لا يتجاوز التذكير، و العظة، و الاعتراض، و النقد و ما شابه ذلك، و لا شكّ أن المجتمع إذا أراد أن يكون حيّا لا بدّ أن يشعر أفراده جميعا بمثل هذه المسؤولية تجاه المفاسد، و بمثل هذا الشعور تجاه

المنكرات.

و أمّا المرحلـة الثانيـة التى تختص بجماعة معيّنة و خاصة، و تكون من شؤون الحكومة الإسـلامية فهى أوسع إطارا، و أكبر مسـئولية، و أكثر قوة، بمعنى أن الأمر إذا تطلب اسـتخدام القوة، و حتى إجراء القصاص و إجراء الحدود كان من صلاحيات هذه الجماعة أن تقوم به تحت نظر الحاكم الشرعى، و مسئولى الحكومة الإسلامية، و هذا القسم هو الذى يقع بسببه الهرج و المرج لو أنيط إلى كلّ من هب و دب، دون القسم الأول الذى لا يتجاوز النصح و التذكير، و الاعتراض و الإعراض.

إذن فبملاحظـة المراحل المختلفـة فى هـذه الوظيفـة الدينيـة، و ما لكلّ واحـدة منها من الحـدود و الأبعاد، فإن القيام بهـذه الوظيفـة لا يسـتوجب الهرج و المرج فى المجتمع، بـل يخرج المجتمع من صورة الجماعـة الميتـة الخامـدة، إلى صورة المجتمع الحى النـابض، و الجماعة المتحركة الصاعدة.

۶- الأمر بالمعروف غير العنف فى ختام هـذا البحث لا بـدّ من التـذكير بهـذه الحقيقـة و هى أنّه لا بـدّ فى القيام بهـذه الفريضـة الإلهية السامية و الدعوة إلى الحقّ و مكافحة الفساد من حسن النية، و سلامة الهدف، و الشعور بالمسؤولية، كما يجب أن يتم بالطرق السلمية، و من هنا لا يمكن اعتباره عملا خشنا ملازما للعنف إلّا فى بعض الموارد الضرورية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۵

بيد أن البعض- مع الأسف- يسـتخدم العنف و الخشونة لدى القيام بهذا الواجب المقدس فى غير الموارد الضرورية التى تستدعى مثل ذلك، و ربما توسل بالسب و الشـتم، و لهذا نرى أن مثل هذه الممارسات لا تترك أثرا ايجابيا، بل تعطى فى الأغلب نتائجها العكسية، و ثمارها السـلبية، فى حين ترينا سـيرة الرسول الأكرم صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السّلام غير ذلك، فهم كانوا يسـتعملون- فى هـذه الوظيفة المقدسة- منتهى اللطف و المحبة، و غاية الأدب و الاتزان، و لهذا كانوا يؤثرون غاية التأثير، و يتركون أفضل النتائج حتّى أنهم كانوا يطوعون بذلك النهج أعتى الأفراد، و أكثرهم عنادا و جفافا.-

جـاء فى تفسـير «المنار» فى معرض الحـديث عن هـذه الآيـة: أن غلاما شابا أتى النبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم فقال: أ تأذن لى فى الزنا؟

فصاح الناس به فقال النبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم: قربوه ادن، فدنا حتّى جلس بين يديه فقال النبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أ تحبّه لأمّك؟

قال لا، جعلنى اللّه فداءك.

قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أ تحبه لابنتك؟

قال: لا، جعلنى اللّه فداءك.

قال: كذلك لا يحبونه لبناتهم، أ تحبه لأختك؟

قال: لا، جعلنى اللّه فداءك.

فوضع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يده- على صدره و قال:

«اللهم طهر قلبه، و اغفر ذنبه، و حصن فرجه».

فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا[۴۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۶

و كان هذا هو الأثر الطبيعى للأسلوب اللين فى النهى عن المنكر.

الفرقة بعد الاتحاد من شيم النصارى و اليهود:

تقتضـی أهمیـة الوحـدة أن یرکز القرآن الکریم و یؤکـد علیها مرّة بعد أخری، و لذا یذکر بأهمیة الاتحاد، و یحذر من تبعات الفرقة و النفاق و آثارها المشؤومة، بقوله وَ لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَیِّناتُ

إن هذه الآیة تحذر المسلمین من أن یتبعوا- کالأقوام السابقة مثل الیهود و النصاری- سبیل الفرقة و الاختلاف بعد أن جاءتهم البینات و توحدت صفوفهم علیها، فیکسبوا بذلک العذاب الألیم.

إنه فی الحقیقة یدعو المسلمین إلی أن یعتبروا بالماضی، و یتأملوا فی حیاة السابقین، و ما آلوا إلیه من المصیر المؤلم، بسبب الاختلاف و التشتت.

إنها لفتـة تاریخیة من شأنها أن توقفنا علی ما ینتظر کلّ أمة من سوء العواقب إذا هی سـلکت سبیل النفاق، و تفرقت بعد ما توحدت، و تشتّتت بعد ما تجمعت.

إن إصـرار القرآن الکریم فی هـذه الآیات علی اجتناب الفرقـة و النفاق إنما هو تلمیـح إلی أن هذا الأمر سـیقع فی المجتمع الإسـلامی مستقبلا، لأن القرآن لم یحذّر من شیء أو یصر علی شیء إلّا و کان ذلک إشارة علی وقوعه فی المستقبل.

و لقد تنبأ الرسول الأکرم بهذه الحقیقة و أخبر المسلمین عنها، بصراحة إذ قال:

«إن أمة موسـی افترقت بعده علی إحدی و سـبعین فرقة، و افترقت أمة عیسـی بعده علی اثنتین و سبعین فرقة، و أن أمتی ستفترق بعدی علی ثلاث و سبعین فرقة»[۴۱۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۷

و الظاهر أن عدد (۷۰) إشارة إلی الکثرة فهو عـدد تکثیری، لا عدد إحصائی، فالروایة تعنی ان فرقة واحدة فقط بین الیهود و النصاری هی المحقّة الناجیة، و فرقا کثیرة فی النار، و هکذا الحال فی المسلمین و ربّما یزداد عدد اختلافات المسلمین علی ذلک.

و لذا أشار القرآن الکریم بما أخبر الرسول الأکرم صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أیضا إلی ما یقع بین المسلمین بعد وفاته من الاختلاف و الفرقـة، و الخروج عن الطریق المسـتقیم الـذی لا یکون إلّا طریقا واحدا، و الانحراف عن جادة الحقّ فی العقائد الدینیة، بل و یذهب المسـلمون- فی هذا الاختلاف- إلی حد تکفیر بعضهم بعضا، و شهر السیوف، و التلاعن و التشاتم، و هدر النفوس، و استحلال الدماء و الأموال، بل و یبلغ الاختلاف بینهم أن یلجأ بعض المسلمین إلی الکفّار، و إلی مقاتلة الأخ أخاه.

و بهذا تتبدل الوحدة التی کانت من أسـباب تفوق المسـلمین السابقین و نجاحهم إلی النفاق و الاختلاف و التشـرذم و التمزق، و تنقل حیاتهم السعیدة إلی حیاة شقیة، و تحلّ الذلة محل العزّة، و الضعف مکان القوة و تتبدد العظمة السامیة، و ینتهی المجد العظیم.

أجل إن الذین یسلکون سبیل الاختلاف بعد الوحدة، و الفرقة بعد الاتحاد سیکون لهم عذاب ألیم.

أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ

إنّه لیس من شـکّ فی أن نتیجـة الاختلاـف و الفرقـة لن تکـون سـوی الذلـة و الانکسـار، فـذلک هـو سـر سـقوط الأـمم و ذلتهـا، إنه الاختلاف و التشتت، و النفاق و التدابر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۸

إن المجتمع الذی تحطمت وحدته بسـبب الفرقة، و تفتت تماسـکه بسـبب الاختلاف، سـیتعرض- لا محالة- لغزو الطامعین، و سـتکون حیاته عرضة لأطماع المستعمرین، بل و مسرحا لتجاوزاتهم، و ما أشد هذا العذاب، و ما أقسی هذه العاقبة؟ أجل تلک هی عاقبة النفاق و الاختلاف فی الدنیا.

و أما عذاب الآخرة فهو- کما وصـفه اللّه تعالی فی القرآن الکریم- أشد و أخری. فذلک هو ما ینتظر المفرّقین المختلفین، و ذلک هو ما یجب أن یتوقعه کلّ من حبذ النفاق علی الاتفاق، و التدابر علی التآلف، و التشتت علی الاجتماع ...

خزى فى الدنيا، و عذاب أخزى فى الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۹

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۷]

اشارة

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۰۷)

التّفسير

الوجوه المبيضة و الوجوه المسودة:

فى تعقيب التحذيرات القوية التى تضمنتها الآيات السابقة بشأن التفرقة و النفاق و العودة إلى عادات الكفر و نعرات الجاهلية، جاءت الآيتان الحاضرتان تشيران إلى النتائج النهائية لهذا الارتداد المشؤوم إلى خلق الجاهلية و عاداتها، و تصرحان بأن الكفر و النفاق و التنازع و العودة إلى الجاهلية توجب سواد الوجه، فيما يوجب الثبات على طريق الإيمان و الاتحاد، و المحبة و التآلف، بياض الوجوه، فتقول يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ ففى يوم القيامة تجد بعض الناس وجوههم مظلمة سوداء، و البعض الآخر وجوههم نقية بيضاء و نورانية فَأَمَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۰

الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فلما ذا اخترتم طريق النفاق و الفرقة و الجاهلية على الاتحاد فى ظلّ الإسلام، فذوقوا جزاءكم العادل، و أما المؤمنون فغارقون فى رحمة اللّه وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

إن هاتين الآيتين تصرحان بأن المنافقين و المتفرقين بعد ما جاءتهم البينات هم المسودة وجوههم الذائقون للعذاب الأليم بسبب كفرهم، و أما المؤمنون المتآلفون المتحابون المتحدون فهم فى رحمة اللّه و رضوانه مبيضة وجوههم.

و لقد قلنا مرارا أن ما يلاقيه الإنسان من الأوضاع و الحالات، و من الثواب و العقاب فى الحياة الآخرة ليس فى الحقيقة سوى أفكاره و أعماله و تصرفاته المجسمة التى قام بها فى هذه الحياة الدنيا، فهما و جهان لعملة واحدة، إنه تجسم صادق و دقيق لما كان ينويه أو يعمله هنا ليس إلّا.

و بعبارة أخرى: أن لكل ما يفعله الإنسان فى هذه الحياة آثارا واسعة تبقى فى روحه، و قد لا تدرك فى هذه الحياة، و لكنها تتجلّى- بعد سلسلة من التحولات- فى الآخرة، فتظهر بحقائقها الواقعية، و حيث إن جانب الروح يكون أقوى فى الآخرة، إذ تشتد حاكميتها و سيادتها على الجانب الآخر من الكيان البشرى من هنا يكون لتلك الآثار انعكاساتها حتّى على الجسد، فتبدو الآثار المعنوية للأعمال محسوسة كما يكون الجسد محسوسا لكلّ أحد.

فكما ان الإيمان و الاتحاد يوجبان الرفعة و بياض الوجوه فى هذا العالم، و يوجب العكس العكس، أى أن الكفر و الاختلاف يوجبان للأمة الكافرة المتفرقة سواد الوجه و الذلة، فإن هذا البياض و السواد (المجازيين) فى الدنيا يظهران فى الآخرة بصورة حقيقية حيث يحشر المؤمنون المتحدون المتآلفون بيض الوجوه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۱

بینما یحشر الکافرون المتفرقون المتخاصمون سود الوجوه.

و تلک حقیقة أشارت إلیها آیات اخری فی القرآن الکریم فی شأن من یتمادی فی المعصیة و یأتی بالذنب تلو الذنب، و الإثم بعد الإثم إذ یقول سبحانه: کَأَنَّما أُغْشِیَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّیْلِ مُظْلِماً[۴۱۷].

و یقول فی شأن الذین یفترون علی اللّه الکذب وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ تَرَی الَّذِینَ کَذَبُوا عَلَی اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ[۴۱۸].

و کلّ هذه الأمور هی المردودات و الآثار الطبیعیة لما یأتیه الإنسان فی عالم الدنیا من الأعمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۲

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۰۸ الی ۱۰۹]

اشارة

تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعالَمِینَ (۱۰۸) وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۱۰۹)

التّفسیر

هذه الآیة إشارة إلی ما تعرضت الآیات السابقة له حول الإیمان و الکفر، و الاتحاد، و الاختلاف، و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و آثارها و عواقبها، إذ تقول: تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعالَمِینَ فکلّ هذه الآیات تحذیرات عن تلک العواقب السیئة التی تترتب علی أفعال الناس أنفسهم وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعالَمِینَ و إنما هی آثار سیئة یجنیها الناس بأیدیهم.

و یدلّ علی ذلک أن اللّه لا یحتاج إلی ظلم أحد، کیف و هو القوی المالک لکلّ شیء و إنما یحتاج إلی الظلم الضعیف، و إلی هذا یشیر قوله سبحانه وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۶۴۲

لآیة- فی الحقیقة- تشتمل علی دلیلین علی عدم صدور الظلم منه سبحانه:

الأوّل: إن اللّه مالک الوجود کلّه فله ما فی السماوات و ما فی الأرض، فلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۳

معنی للظلم و لا موجب له عنده، و إنما یظلم الآخرین و یعتدی علیهم من یفقد شیئا، و إلی هذا یشیر المقطع الأول من الآیة و هو قوله تعالی: وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ

الثانی: إن الظلم یمکن صدوره ممّن تقع الأمور دون إرادته و رضاه، أما من ترجع إلیه الأمور جمیعا، و لیس لأحد أن یعمل شیئا بدون إذنه فلا یمکن صدور الظلم منه، و إلی هذا یشیر قوله سبحانه: وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۴

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۱۰]

اشارة

کُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (۱۱۰)

التّفسیر

مکافحة الفساد و الدعوة إلی الحقّ أیضا:

فی هذه الآیة تطرح مرّة أخری مسألة «الأمر بالمعروف» و «النهی عن المنکر»، و تعتبر الآیة الحاضرة هاتین المسألتین واجبین عمومیین کما مرّ فی تفسیر الآیة (۱۰۴)، بینما تبین الآیة السابقة مرحلة خاصّة، و هی مرحلة الوجوب الکفائی أی الخاصّ بجماعة معینة، کما مرّ تفصیله.

فالآیة السابقة تشیر إلی القسم الخاصّ، و هذه الآیة تشیر إلی القسم العام من هاتین الفریضتین.

و الجدیر بالذکر أن القرآن الکریم یصف المسلمین- فی هذه الآیة- بأنهم خیر أمة هیئت و عبئت لخدمة المجتمع الإنسانی، و الدلیل علی أن هذه الأمة خیر أمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۵

رشحت لهذه المهمة الکبری هو «قیامها بالأمر بالمعروف و النهی عن المنکر و إیمانها باللّه» و هذا یفید أن إصلاح المجتمع البشری لا یمکن بدون الإیمان باللّه و الدعوة إلی الحقّ، و مکافحة الفساد، کما و یستفاد من ذلک أن هاتین الوظیفتین مع ما هما علیه من السعة فی الإسلام ممّا تفرد بهما هذا الدین من دون بقیة الشرائع السابقة.

أما لماذا یجب أن تکون هذه الأمة خیر الأمم، فسببه واضح کذلک. لأنها تختص بآخر الأدیان الإلهیة و الشرائع السماویة، و لا شکّ أن هذا یقتضی أن یکون أکمل الشرائع و أتمها فی سلم الأدیان.

وقفتان عند هذه الآیة:

ثمّ إنه یتعین علینا أن ننتبه إلی نقطتین أخریین فی هذه الآیة و هما:

الأولی: التعبیر بلفظ الماضی «کنتم» یعنی أنکم کنتم کذلک فی السابق، و مفهوم هذا التعبیر و إن کان موضع احتمالات کثیرة بین المفسّرین، إلّا أن ما یترجح عند النظر هو أن التعبیر بالمضی إنما هو لأجل التأکید، و التلویح بأن الشیء محقّق الوقوع، و لذلک نظائر کثیرة فی الکتاب العزیز حیث عبّر عن القضایا المحقّقة الوقوع بصیغة الفعل الماضی، لإفادة أن ذلک ممّا یقع حتما حتّی أنه نزل منزلة الماضی الذی قد تحقّق فعلا.

الثانیة: أن الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر قدّما- فی هذه الآیة- علی الإیمان باللّه، و ذلک خیر شاهد علی أهمیة هاتین الفریضتین الإلهیتین- و خطورتهما- مضافا إلی أن القیام بهذین الواجبین المقدسین ممّا یوجب انتشار الإیمان، و اتساع رقعته، و تعمیق جذوره فی النفوس، و تنفیذ کلّ القوانین الفردیة و الاجتماعیة، و لا ریب أن ما یضمن تنفیذ القانون و تطبیقه مقدّم علی نفس القانون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۶

بل إن تعطیل هذین الواجبین یوجب ضعف العقائد فی القلوب، و انهیار قواعد الإیمان فی النفوس، و لهذا کلّه کان طبیعیا أن یقدّما علی الإیمان.

من هـذا البيـان يتضـح أن المسـلمين «خير أمـة» مـا داموا يـدعون إلى الخير و يـأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر، فإذا نسوا هاتين الفريضتين و أهملوهما لم يعودوا خير أمة، كما لم يعودوا فى خدمة المجتمع البشرى أبدا.

على أن المخاطب فى هـذه الآيـة هم عموم المسـلمين فى جميع العصور كما هو الحال فى كلّ الخطابات القرآنيـة، فما احتمله البعض من أنه خاص بالمهاجرين أو المسلمين الأوائل لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه.

ثم إن الآية تشير إلى أن دينا بمثل هذا الوضوح، و تشريعا بمثل هذه العظمة، و تعاليم تنطوى على مثل هذه الفوائد التى لا تنكر، ينبغى أن يؤمن به أهـل الكتاب من اليهود و النصارى لأن فى ذلك صـلاحهم، و خيرهم إذ يقول سـبحانه: وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ

و لكن- و للأسف- لم يؤمن به إلّا قلّة ممّن نبـذ التعصب الأعمى، و اعتنق الإسـلام برغبـة صادقـة، و اسـتقبل هذا الدين برحابة صدر، فيمـا أعرض الأـكثرون منهم، و فضـلوا البقـاء على مـا هم عليه من الكفر و العصبيـة على إتباع هـذا الأمر الإلهى، متجاهلين حتّى تلك البشائر التى نطقت بها كتبهم حول هـذا الـدين و إلى هـذا يشير سـبحانه بقوله مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِـقُونَ الخارجون عن هذا الأمر الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۷

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲]

اشارة

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (۱۱۱) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (۱۱۲)

سبب النّزول

عنـد ما أقدم بعض ذوى الضـمائر المستيقظة من كبار اليهود مثل عبد اللّه ابن سـلام على ترك دينهم و اعتناق الإسـلام عمد جمع من رؤوس اليهود إليهم و أنّبوهم لإسلامهم، بل و هددوهم لتركهم دين الآباء، و اعتناق الإسلام، فنزلت هذه الآيات لتثبيتهم، و تبشيرهم و تبشير المسلمين بالظفر.

التّفسير

اشارة

تبشر الآية الأولى المسلمين الذين يواجهون ضغوطا شديدة و تهديدات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۸

أحيانا من جانب قومهم الكافرين بسبب اعتناق الإسـلام، تبشـرهم و تعدهم بأنهم منصورون، و أن أهل الكتاب لا يقدرون عليهم و لا تنـالهم من جهتهم مضـرة، و أن مـا سـيلحقهم من الأـذى من جـانبهم لن يكون إلّا طفيفا و عابرا: لَنْ يَضُـرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ

يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ

إن هاتين الآيتين تحتويان- في الحقيقة- على عدّة أخبار غيبية، و بشائر مهمة للمسلمين قد تحقق جميعها في زمن النبي الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حياته الشريفة و هي:

١- إن أهل الكتاب لا يقدرون على إلحاق أي ضرر مهم بالمسلمين، و أن ما يلحقونه بهم لن يكون إلّا أضرارا بسيطة، و عابرة لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً

٢- إنهم لن يثبتوا- في القتال- أمام المسلمين، بل ينهزمون و يكون الظفر للمسلمين، و لا يجدون ناصرا و لا معينا: وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ

٣- إنهم لن يستطيعوا الوقوف على أقدامهم و لن يتمكنوا من العيش مستقلين، بل سيبقون أذلاء دائما، إلّا أن يعيدوا النظر في سلوكهم، و يسلكوا طريق اللّه، أو أن يعتمدوا على الآخرين و يستعينوا بقوتهم إلى حين: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ

و لم يمض على هذه الوعود الإلهية و البشائر المساوية زمن حتّى تحققت برمّتها في حياة الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و خاصّة بالنسبة إلى اليهود القاطنين في الحجاز (بني قريظة، و بني النضير، و بني قينقاع، و يهود خيبر و بني المصطلق) الذين آل أمرهم إلى الهزيمة في جميع ميادين القتال و الانحدار أمام القوى الإسلامية بعد أن اقترفوا سلسلة من التحرشات و المؤامرات ضد الإسلام و المسلمين.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۹

اليهود و المصير الخطير:

إن الآيات المذكورة و إن لم تصرح باسم اليهود و لكن بقرينة القرائن الموجودة في هذه الآية و الآيات السابقة و كذا بقرينة الآية ۶۱ من سورة البقرة و نظائرها ممّا صرّح فيه باسم اليهود يستفاد أن قوله تعالى: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ يرتبط باليهود، و يعنيهم.

ففي هذا المقطع من الآية يقول سبحانه: أن أمام اليهود طريقين يستطيعون بهما أن يتخلصوا من لباس الذلة:

إما أن يعودوا إلى اللّه، و يعقدوا حبلهم بحبله، و إما أن يتمسكوا بحبل من الناس، و يعتمدوا على هذا و ذاك، و يعيشوا ذيولا و أتباعا للآخرين.

و تعني لفظة «ثقفوا» المأخوذة من «ثقف» على وزن «سقف». الحذق في إدراك الشيء، و الظفر به بمهارة.

و يقصد القرآن من ذلك: أن اليهود أينما وجدوا فإنهم يوجدون و قد ختموا بخاتم الذلة على جباههم مهما حاولوا إخفاء ذلك- و كان ذلك هي الصفة البارزة لهم بسبب مواقفهم المشينة من تعاليم السماء، و رسالات الأنبياء العظام، إلّا إذا عادوا إلى منهج السماء، أو استعانوا بهذا أو ذاك من الناس لتخليصهم من هذا الذل.

و إنقاذهم من هذا الهوان.

و أما التعبير بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ و إن ذهب المفسّرون فيه إلى احتمالات عديدة، بيد أن ما قد ذكر قريبا يمكن أن يقال بأنه أنسب إلى الآية من بقية الاحتمالات، لأنه عند ما يوضع «حبل اللّه» في قبال «حبل من الناس» يتبين أن هناك معنى متقابلا متفاوتا لهما لا أن الأول بمعنى الإيمان باللّه، و الثاني بمعنى العهد المعطى لهم من جانب المسلمين على وجه الأمان و الذمة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۰

و علی هـذا تكون خلاصة المفهوم من هذه الآیة هی: إن علی الیهود أن یعیدوا النظر فی برنامج حیاتهم، و یعودوا إلی اللّه، و یمسـحوا عن أدمغتهم كلّ الأفكار الشیطانیة، و كلّ النوایا الشریرة، و یطرحوا النفاق و البغضاء للمسلمین جانبا، أو أن یستمروا فی حیاتهم النكدة المزیجـة بالنفـاق، مسـتعینین بهـذا أو ذاك. فأما الإیمان باللّه و الـدخول تحت مظلته و فی حصـنه الحصـین، و أما الاعتماد علی معونة الناس الواهیة. و الاستمرار فی الحیاة التعسة.

الیهود و المسكنة الدائمة:

لقد كان أمام الیهود طریقان: إما أن یعودوا إلی منهج اللّه، و إما أن یبقوا علی سلوكهم فیعیشوا أذلاء ما داموا، و لكنهم اختاروا الثانی و لهذا لزمتهم الذلة وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الْمَسْكَنَةُ.

و لفظة «باءوا» تعنی فی الأصل المراجعة و اتخاذ السـكنی، و قد اسـتخدمت هنا للكنایة عن الاستحقاق فیكون المعنی: أن الیهود بسبب إقامتهم علی المعاصی استحقوا الجزاء الإلهی، و اختاروا غضب اللّه كما یختار الإنسان مسكنا و منزلا للإقامة.

و أمّا لفظـة «مسـكنة» فتعنی الذلـة و الانقطاع الشدیـد الـذی لا تكون معه حیلة أبدا، و هی مأخوذة من السـكون أصـلا، لأن المساكین لشدة ما بهم من الفقر و الضعف لا یقدرون علی أیة حركة، بل هم سكون و جمود.

ثمّ إنه لا بـدّ من الالتفات إلی أن المسـكین لا یعنی المحتاج و المعـدم من الناحیة المالیة خاصّة، بل یشـمل هذا الوصف كلّ من عدم الحیلة و القدرة علی جمیع الأصعدة، فیدخل فیه كلّ ضعف و عجز و افتقار شدید.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۱

و یری البعض أن الفرق بین الذلة و المسـكنة هو أن الذلة ما كان مفروضا علی الإنسان من غیره، بینما تكون المسـكنة ناشئة من عقدة الحقارة و ازدراء الذات، أی أن المسـكین هو من یستهین بشخصیته و مواهبه و ذاته، فتكون المسكنة نابعة من داخله، بینما تكون الذلة مفروضة من الخارج.

و علی هذا الأساس یكون مفاد قوله تعالی وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الْمَسْكَنَةُ هو: أن الیهود بسبب إقامتهم علی المعاصی و تمادیهم فی الذنوب أصـیبوا بأمرین: أولا: طردوا من جانب المجتمع و حل علیهم غضب اللّه سبحانه، و ثانیا: إن هذه الحالة «أی الذلة» أصـبحت تدریجا صفة ذاتیة لازمة لهم حتّی أنهم رغم كلّ ما یملكون من امكانیات و قدرات مالیة و سیاسیة، یشعرون بحقارة ذاتیة، و صغار باطنی، و لهذا لا نجد أی استثناء فی ذیل هذه الجملة من الآیة.

و هـذا هو ما یشـیر إلیه قوله سـبحانه إذ یقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا یَكْفُرُونَ بِآیاتِ اللَّهِ* وَ یَقْتُلُونَ الْأَنْبِیاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا یَعْتَدُونَ و بذلك یشیر سبحانه إلی علة هذا المصیر الأسود الذی یلازم الیهود، و لا یفارقهم.

إنهم لم یصابوا بما أصـیبوا به من ذلة و مسـكنة، و حقارة و صـغار لأسـباب قومیة عنصریة أو ما شابه ذلك، بل لما كانوا یرتكبونه من الأعمال فهم:

أولا: كانوا ینكرون آیات اللّه و یكذبون بها.

ثانیا: یصرون علی قتل الأنبیاء الهداة الذین ما كانوا یریدون سوی إنقاذ الناس من الجهل و الخرافة، و تخلیصهم من الشقاء و العناء.

ثالثا: إنهم كانوا یرتكبون كلّ فعل قبیـح، و یقترفون كلّ جریمـة نكراء، و یمارسون كلّ ظلم فظیع، و تجاوز علی حقوق الآخرین، و لا شكّ أن أی قوم یرتكبون مثل هذه الأمور یصابون بمثل ما أصیب به الیهود، و یستحقون ما

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۲

استحقوه من العذاب الألیم و المصیر الأسود.

مصير اليهود المظلم:

إن التاريخ اليهودى الزاخر بالأحداث و الوقائع يؤيد ما ذكرته الآيات السابقة تأييدا كاملا، كما أن وضعهم الحاضر هو الآخر خير دليل على هذه الحقيقة، أى أن الذلة اللازمة لليهود و الصغار الملتصق بهم أينما حلوا و نزلوا، ليس حكما تشريعيا كما قال بعض المفسّرين، بل هو قضاء تكوينى، و هو حكم التاريخ الصارم الذى يقضى بأن يلازم الذلة، و يصاب بالصغار كلّ قوم يتمادون فى الطغيان، و يغرقون فى الآثام، و يتجاوزون على حقوق الآخرين و حدودهم، و يسعون فى إبادة القادة المصلحين و الهداة المنقذين، إلّا أن يعيد هؤلاء القوم النظر فى سلوكهم، و يغيروا منهجهم و طريقتهم، و يرجعوا و يعودوا إلى اللّه، أو يربطوا مصيرهم بالآخرين ليعيشوا بعض الأيام فى ظل هذا أو ذاك كما هى حال الصهيونية اليوم.

فإن الصهيونية التى تعادى المسلمين اليوم و تحارب الإسلام نجدها لا تستطيع الوقوف أمام الأخطار التى تهددها إلّا بالاعتماد على الآخرين، و حمايتهم رغم كلّ ما تملكه من الثروات و القدرات الذاتية، و كلّ هذا يؤكد و يؤيد ما ذكرته هذه الآيات و ما يستفاد منها من الحقائق، و لا شكّ أن هذا الوضع سيستمر بالنسبة إلى اليهود إلّا إذا تخلوا عن سلوكهم العدوانى و أعادوا الحقوق إلى أهلها، و عاشوا إلى جانب الآخرين على أساس من الوفاق لا الغصب و العدوان و الاحتلال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۳

الآيات [سورة آلعمران (۳): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۵]

اشارة

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (۱۱۳) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۱۴) وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۱۱۵)

سبب النّزول

يقال: لما أسلم «عبد اللّه بن سلام» و هو من علماء اليهود و جماعة منهم، انزعجت اليهود، و بخاصة أحبارهم من هذا الحادث، و صاروا بصدد اتهامهم بالخيانة، و عيبهم بالشر فقال أحبارهم: «ما آمن بمحمّد إلّا شرارنا» و هم بذلك يهدفون إلى إسقاطهم من أعين اليهود حتّى لا يقتدى بهم الآخرون. فنزلت الآيات أعلاه للدفاع عن هذه الفئة المؤمنة.

التّفسير

الإسلام و خصيصة البحث عن الحقّ:

بعد كلّ ذلك الذم لليهود، الذى تضمنته الآيات السابقة بسبب مواقفهم المشينة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۴

و أفعالهم الذميمة نجد القرآن- كما هو شأنه دائما- يراعى جانب العدل و الإنصاف، فيحترم كلّ من تنزه عن ذلك السلوك الذميم

الـذى سـار عليه اليهود، و يعلن بصـراحة أنه لا يعمم ذلك الحكم، و إنه لا يمكن النظر إلى الجميع بنظرة واحـدة دون التفريق بين من أقام على تلك الفعال، و بين من غادرها و طلب الحقّ، و لهذا يقول:

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ ۴۱۹].

أجـل ليس أهـل الكتاب سواء، فهناك جماعـة تطيع اللّه و تخافه، و تؤمن به و تهابه، و تؤمن بالآخرة و تعمل لها، و تقوم بواجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و بهذا يتورع القرآن الكريم عن إدانة العنصر اليهودى كافة، بل يركز على أفعالهم و أعمالهم و ممارساتهم، و يحترم و يمدح كلّ من انفصل عن أكثريتهم الفاسدة، و خضع للحقّ و الإيمان، و هذا هو أسلوب الإسلام الذى لا يعادى أحدا على أساس اللون و العنصر، بل إنما يعاديه على أساس اعتقادى محض، و يكافحه إذا كانت أعماله لا تنطبق مع الحقّ و العدل و الخير، لا غير.

ثمّ إنه يسـتفاد من بعض الأحاديث أن الممدوحين فى هذه الآية لم ينحصـروا فى «عبد اللّه بن سـلام» و جماعته الذين أسلموا معه، بل شمل هذا المدح (۴۰) من نصارى نجران و (۳۲) من نصارى الحبشة و (۸) أشخاص من أهل الروم كانوا قد أسلموا قبل ذلك، و يدل على ذلك أن الآية استخدمت لفظة «أهل الكتاب» و هو كما نعرف تعبير يعم اليهود و غيرهم.

ثمّ إنّه سبحانه قال: وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ معقبا بـذلك على العبارات السابقـة و مكملا للآيـة، و يعنى بقوله أن هؤلاء الذين أسلموا و اتخذوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۵

مواقعهم فى صـفوف المتقين لن يضـيع اللّه لهم عملاـ و إن كـانوا قـد ارتكبوا فى سـابق حـالهم ما ارتكبوه من الآثام، و ما اقترفوه من المعاصى، ذلك لأنهم قد أعادوا النظر فى سلوكهم و أصلحوا مسارهم، و غيروا موقفهم.

و المراد من كلمـة «الكفر» هنـا هو مـا يقابـل الشـكر، لأـن الشـكر يعنى أصـلا الاعتراف بالنعمـة و الجميل، و الكفر يعنى إنكار ذلك، فيكون المراد فى هذه الآية هو أن اللّه لن ينكر أعمالهم الصالحة، و لن يتنكر لها.

كيف وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ و كـأن هـذه العبـارة التى يختم بها سـبحانه الآيـة الحاضـرة تشـير إلى حقيقـة من الحقائق الهامـة و هى: أن المتقين و إن كـانوا قلـة قليلـة فى الأـغلب، و خاصـة فى جماعـة اليهود الـذين عاصـروا النـبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم حيث كـان المسـلمون المهتدون منهم قلة ضـعيفة، و من شأن ذلك أن لا تلفت كميتهم النظر، و لكنهم مع ذلك يعلمهم اللّه بعلمه الذى لا يعزب عنه شـىء، فلاـ موجب للقلق، و لا داعى للاضـطراب ما دام سـبحانه يعلم بالمتقين على قلتهم، و يعلم بأعمالهم، فلا يضـيعها أبـدا قليلة كانت أو كثيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۶

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۱۶) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۷)

التّفسير

اشارة

فی مقابل العناصر التی تبحث عن الحقّ، و تؤمن به من الذین وصفتهم الآیة السابقة، هناک عناصر کافرة ظالمة و صفهم اللّه سبحانه فی هاتین الآیتین بقوله:

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً لأنه لا ینفع فی الآخرة سوی العمل الصالح و الإیمان الخالص لا الامتیازات المادیة، فی هذه الحیاة: یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ ۴۲۰].

یبقی أن نعرف لما ذا أشیر فی هذه الآیة إلی الثروة و الأولاد من بین بقیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۷

الإمکانات؟ وجه ذلک أن أهم الإمکانات المادیة تنحصر فی أمرین:

الأول: الطاقة البشریة و قد ذکرت الأولاد کأفضل نموذج لها.

الثانی: الثروة الاقتصادیة.

و أما بقیة الإمکانات المادیة الاخری فتتفرع من هاتین.

إن القرآن ینادی بصراحة بأن الامتیازات المالیة و القدرة البشریة الجماعیة لا تعد امتیازا فی میزان اللّه، و أن الاعتماد علیها وحدها هو الخطأ الجسیم إلّا إذا قرنت بالإیمان و العمل الصالح، و استخدمت فی سبیلهما، و إلّا فستؤول بأصحابها إلی الجحیم و عذابها الخالد.

أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ

و لما کان الکلام عن الثروة و المال کان لا بدّ من الإشارة إلی مسألة الإنفاق فیقول سبحانه: مَثَلُ ما یُنْفِقُونَ فِی هذِهِ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَمَثَلِ رِیحٍ فِیها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَکَتْهُ

و «الصرّ» مأخوذ من «الإصرار» لغة، و تعنی الشد بقوّة و شدّة، و المراد بها هنا هی الریح الشدیدة سواء کانت مصحوبة بالبرد القارص، أو الحر اللافح.

إنفاق الکفّار:

و فی هذه الآیة إشارة إلی کیفیة إنفاق الکفّار و بذلهم المصحوب بالریاء، ضمن إعطاء مثل رائع یجسد مصیر هذا الإنفاق و البذل، و یصوره فی أبلغ تصویر.

القرآن یمثل إنفاق الکفّار بالریح الشدیدة الباردة أو اللافحة جدّا التی إذا هبت علی الزرع لا تبقی منه شیئا و لا تذر، بل تترک الزرع حطاما و الأرض بلاقع.

إنه لا شکّ أن النسائم الخفیفة تنعش الزرع و تحیی الطبیعة، فنسائم الربیع تفتح الأزهار، و تصب فی عروق الأشجار و النباتات روحا جدیدة و حیاة و نشاطا، و تساعد علی لقاحها، و کذلک یکون الإنفاق الصحیح و البذل الذی ینبع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۸

من الإخلاص و الإیمان. إنه یعالج مشاکل المجتمع کما یکون له أثر حسن و عمیق فی نفس الباذل المنفق، لأنه یرسخ فیها السجایا الإنسانیة و یعمق مشاعر العطف و اللطف و الرفق و الحبّ بما یستشعره من آثار إیجابیة لإنفاقه، و بما یسببه الإنفاق فی رفع الآلام الاجتماعیة، و توفیر السعادة للآخرین.

أما إذا تبدلت هذه النسائم الرقیقة إلی ریاح عاصفة لافحة، أو زوبعة شدیدة البرودة، فسوف تؤدی إلی إحراق جمیع النباتات و الأزهار أو تجمیدها.

و هذا هو حال غير المؤمن فى إنفاقه، فإنه لا ينفق ماله بدافع صحيح، بل ينفقه رياء و سمعة و أهواء و أهداف شريرة، و بذلك يكون كالريح العاتية، اللافحة أو الباردة، تأتى على كلّ ما أنفقه كما تأتى على الزرع، فتصيبه بالجفاف و الفناء، و الدمار و الهلاك.

إن مثل هـذا الإنفاق لا يعالـج أية مشـكلة اجتماعية (لأنه صـرف للمال فى غير محله فى الأغلب) كما لا ينطوى على أى أثر أخلاقى و نفسى للمنفق الباذل.

و الـذى يلفت النظر أن القرآن الكريم يقول فى هـذه الآيـة حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ و هو يشـير إلى أن هؤلاء المزارعين تعرضوا لما تعرضوا له لأنهم تساهلوا فى إختيار مكان الزرع و زمانه، و لأنهم زرعوا فى أرض معرضـة للرياح الشديـدة، أو أنهم اختاروا للزرع وقتا يكثر فيه هبوب رياح السـموم، و بهـذا ظلموا أنفسـهم، و كذلك حال غير المؤمن فى إنفاقه، فإنه ظلم نفسه بإنفاقه غير الصـحيح و غير المناسب من حيث الزمان و المكان و الهدف، و بهذا عرض أمواله و ثرواته للرياح.

من كلّ ما أشـرنا إليه، و بملاحظـة القرائن الموجودة فى الآيـة تبين أن هـذا التمثيل لإنفاق الكفّار بالزرع الذى أهلكته الرياح العاصـفة تمثيل به من ناحيتين:

الأولى: تشبيه لإنفاق الكافر بالزرع فى غير محله و موسمه المناسب.

الثانية: تشبيه لنواياه و أهدافه من الإنفاق بالرياح العاصفة الباردة أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۹

السموم، و لهذا فإن المقام لا يخلو عن تقدير شيء محذوف و أن معنى قوله: مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ أن مثل نوايا الكافر فى الإنفاق مثل الرياح الباردة أو السموم التى تهب على الزرع فتفنيه.

قال جماعة من المفسّـرين: إن هذه الآية إشارة إلى الأموال التى يسـتخدمها الكفّار للإيقاع بالإسلام و صد حركته، و التى يحركون بها الأعداء ضد النبى الكريم صلى اللّه عليه و آله و سلّم. أو الأموال التى يعطيها اليهود لأحبارهم ليحرفوا آيات اللّه عن مواضعها و يزيدوا أو ينقصوا فى الكتب السماوية.

و لكن من الواضح جدّا أن هذه الآية تنطوى على معنى واسع يشمل هذا الرأى و غيره.

ثمّ إنه سـبحانه يعقب على مـا قـال بشـأن إنفـاق الكفّار الـذى لا يعود عليهم إلّا بالوبال و الويل بقوله: وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ

أجـل، إن العمل الفاسـد لا يجر على صاحبه إلّا النتيجـة الفاسـدة، فما يحصـده الكفّار من إنفاقهم من الوبال و البطلان، إنما هو بسـبب نواياهم الباطلة الفاسدة من هذا الإنفاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۰

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۸ الى ۱۲۰]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۱۱۸) هـا أَنْتُمْ أُولاـءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لاـ يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۱۱۹) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۱۲۰)

سبب النّزول

عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت عند ما أقدم بعض المسلمين- بسبب ما كان بينهم و بين اليهود من الصداقة أو القرابة أو الجوار أو الحلف أو الرضاع- على

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۱

ذكر أسرار المسلمين عندهم، و بهذا كان اليهود الذين يتظاهرون بالمودة للمسلمين- و هم ألدّ أعداء الإسلام فی باطنهم- يطلعون على أسرار المسلمين، فنزلت هذه الآيات تحذر أولئك الرجال من المسلمين من مغبة هذه الصداقات و العلاقات، و توصيهم بأن لا يتخذوا اليهود بطانة يسرون إليهم بأسرارهم، لأنهم لا يتورعون عن استخدام كلّ وسيلة ممكنة- حتّى هذه الأسرار- لإلحاق الأذى و الضرر بكم، لأنهم يهمهم- دائما- أن تكونوا فی نصب و تعب و محن و مشاكل، و عناء و شقاء.

التّفسير

لا تتخذوا الأعداء بطانة:

هذه الآية التی جاءت بعد الآيات السابقة التی تعرضت لمسألة العلاقات بين المسلمين و الكفّار، تشير إلى قضايا حساسة بالغة الأهمية، و تحذر المؤمنين- ضمن تمثيل لطيف- بان لا يتخذوا من الذين يفارقونهم فی الدين و المسلك أصدقاء يسرون إليهم و يخبرونهم بأسرارهم، و أن لا يطلعوا الأجانب على ما تحتفظ به صدورهم و ما خفی من نواياهم و أفكارهم الخاصّة بهم، قال سبحانه:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً[۴۲۱] مِنْ دُونِكُمْ ....

و هذا يعنی أن الكفّار لا يصلحون لمواصلة المسلمين و مصادقتهم، كما لا يصلحون بأن يكونوا أصحاب سر لهم، و ذلك لأنهم لا يتورعون عن الكيد و الإيقاع بهم ما استطاعوا: لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا[۴۲۲].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۲

فليست الصداقات و العلاقات بقادرة على أن تمنع أولئك الكفّار- بسبب ما يفارقون به المسلمين فی العقيدة و المسلك- من إضمار الشر للمسلمين، و تمنی الشقاء و العناء لهم وَدُّوا ما عَنِتُّمْ أی أحبوا فی ضمائرهم و دخائل نفوسهم لو أصابكم العنت و العناء.

إنهم- لإخفاء ما يضمرونه تجاهكم- يحاولون دائما أن يراقبوا تصرفاتهم، و أحاديثهم كيلا يظهر ما يبطنونه من شر و بغض لكم، بيد أن آثار ذلك العداء و البغض تظهر أحيانا فی أحاديثهم و كلماتهم، عند ما تقفز منهم كلمة أو أخرى تكشف عن الحقد الدفين و الحنق المستكن فی صدورهم: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ

و تلك حقيقة من حقائق النفس يذكرها الإمام أمير المؤمنين علی عليه السّلام فی إحدى كلماته إذ

يقول: «ما أضمر أحد شيئا إلّا ظهر فی فلتات لسانه و صفحات وجهه»[۴۲۳].

إنه لا بدّ أن يرشح شیء إلى الخارج إذا ما امتلأ الداخل، كما يطفح الكيل فتنفضح السرائر، و تبدو الدخائل.

و قد أوضح اللّه سبحانه فی هذه الآية إحدى سبل التعرف على بواطن الأعداء و دخائل نفوسهم، ثمّ إنّه سبحانه يقول: وَ ما تُخْفِی صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ أی أن ما يبدو من أفواههم ما هی إلّا شرارة تحكی عن تلك النار القوية الكامنة فی صدورهم.

ثمّ إنه تعالى يضيف قائلا: قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ أی أن ما ذكرناه من الوسيلة للتعرف على العدو أمر فی غاية الأهمية لو كنتم تتدبرون فيه، فهو يوقفكم على وسيلة جدا فعالة لمعرفة ما يكنه الآخرون و يضمرونه تجاهكم، و هو أمر فی غاية الخطورة بالنسبة لأمنكم و حياتكم و برامجكم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۳

البغض فی مقابل الحبّ:

یحسب بعض المسلمین أن فی مقدورهم أن یکسبوا حبّ الأعداء و الأجانب إذا أعطوهم حبهم و ودهم، و هو خطأ فظیع، و تصور باطل، یقول سبحانه: ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا یُحِبُّونَکُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْکِتابِ کُلِّهِ

إنه سبحانه یخاطب هذا الفریق من المسلمین و یقول لهم: إنکم تحبون من یفارقکم فی الدین لما بینکم من الصداقهٔ أو القرابهٔ أو الجوار، و تظهرون لهم المودهٔ و المحبهٔ، و الحال أنهم لا یحبونکم أبدا، و تؤمنون بکتبهم و کتابکم المنزل من السماء- علی السواء- فی حین أنهم لا یؤمنون بکتابکم و لا یعترفون بأنه منزل من السماء.

إن هذا الفریق من أهل الکتاب ینافقون و یخادعون وَ إِذا لَقُوکُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَیْکُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَیْظِ.

و لا شکّ أن هذا الغیظ لن یضر المسلمین فی الواقع، إذن فقل لهم یا رسول اللّه:

قُلْ مُوتُوا بِغَیْظِکُمْ و استمروا علی هذا الحنق فإنه لن یفارقکم حتّی تموتوا.

هذه هی حقیقهٔ الکفّار التی غفلتم عنها، و لم یغفل عنها سبحانه: إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

ثمّ إنّ اللّه یذکر علامهٔ اخری من علائم العداوهٔ الکامنهٔ فی صدور الکفّار إذ یقول إِنْ تَمْسَسْکُمْ حَسَنَهٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْکُمْ سَیِّئَهٌ یَفْرَحُوا بِها.

و لکن هل تضر هذه العداوهٔ و ما یلحقها من ممارسات و محاولات شریرهٔ بالمسلمین؟

هذا ما یجیب عنه ذیل الآیهٔ الحاضرهٔ حیث یقول سبحانه: وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا یَضُرُّکُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ.

و علی هذا یستفاد من ذیل هذه الآیهٔ أن أمن المسلمین، و سلامهٔ حوزتهم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۴

کید الأعداء، یتوقف علی استقامهٔ المسلمین و حذرهم و تقواهم، ففی مثل هذه الحالهٔ فقط یمکنهم أن یضمنوا أمنهم و سلامتهم من کید الکائدین.

تحذیر إلی المسلمین:

حذر اللّه سبحانه المسلمین فی هذه الآیهٔ من أن یتخذوا أعداءهم بطانهٔ یسرون إلیهم بأسرارهم و أمورهم و هو تحذیر عام لا یختص بزمان دون زمان، و لا بمکان دون مکان، و لا بطائفهٔ من المسلمین دون طائفهٔ.

فلا بدّ أن یحذر المسلمون من هذا العمل فی جمیع الأزمنهٔ و الأمکنهٔ، حفاظا علی أمن المسلمین و کیانهم.

و لکننا مع الأسف نجد الکثیرین من أتباع القرآن قد غفلوا عن هذا التحذیر الإلهی المهم، فتعرضوا لتبعات هذا العمل و آثاره السلبیهٔ.

فها نحن نجد أعداء کثیرین یحیطون بالمسلمین من کلّ جانب، یتظاهرون بمحبهٔ المسلمین و صداقتهم، و ربّما أعلنوا تأییدهم فی بعض الأمور، و لکنهم بما یظهرون- فی بعض الأحیان- من مواقف عدائیهٔ یکشفون عن کذبهم، و مع ذلک ینخدع المسلمون بما یتظاهر هؤلاء الأعداء به من صداقهٔ وحب و تأیید، و یعتمدون علیهم أکثر ممّا یعتمدون علی إخوانهم من المسلمین المشارکین لهم فی العقیدهٔ و المصیر. فی حین أن الأعداء و الأجانب لا یریدون للأمهٔ الإسلامیهٔ إلّا الشقاء و التأخر، و إلّا الهلاک و الدمار، و لا یألون جهدا فی إثارهٔ المشاکل فی وجه المسلمین و إیجاد الصعوبات فی حیاتهم.

و لا نذهب بعیدا، فإن الأعوام الأخیرهٔ شهدت حربین بین المسلمین و أعدائهم الصهاینهٔ، ففی الحرب الاولی (حرب حزیران) تحمل

المسلمون هزيمة ساحقة و نكسة قاطمة، فى حين أنهم فى حربهم الثانية (حرب رمضان) استطاعوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۵

تحقيق انتصارات باهرة على الأعداء و تغيّرت الخارطة السياسية لصالحهم.

و تمكنوا من دفن اسطورة الجيش الإسرائيلى و الرعب و الخوف فى صحراء «سيناء» و هضبة «الجولان» منذ الأيّام الاولى للحرب، و ذاق المسلمون أخيرا طعم النصر لأول مرّة فى العقود الأخيرة.

ماذا حصل فى هذه المدّة القصيرة التى شهدت هذا التحول الكبير؟ الجواب بحاجة إلى بحث طويل، و لكن من المتيقّن أن أحد الأسباب المؤثرة فى تلك الهزيمة و هذا النصر هو أن الأجانب و الذين كانوا يظهرون الود و الصداقة للمسلمين كانوا على علم بأمر الحرب و تفاصيلها. و لكن فى الحرب الثانية لم يطلع على أسرار الحرب سوى اثنان أو ثلاثة من رؤساء البلدان الإسلامية، و هذا هو أحد عوامل النصر، و شاهد حىّ على عظمة هذا الدستور السماوى و القرآنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۶

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۲۱ الى ۱۲۲]

اشارة

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۲۱) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۲۲)

التّفسير

اشارة

من هنا تبدأ الآيات التى نزلت حول واحدة من أهم الأحداث الإسلامية ألا و هى معركة «أحد» لأن القرائن التى توجد فى الآيتين الحاضرتين يستفاد منها أن هاتين الآيتين نزلتا بعد معركة أحد، و تشير إلى بعض وقائعها المرعبة، و على هذا أكثر المفسّرين.

فى البدء تشير الآية الأولى إلى خروج النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من المدينة لاختيار المحل الذى يعسكر فيه عند «أحد» و تقول وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ

أى و اذكر عند ما خرجت غدوة من المدينة تهيئ للمؤمنين مواطن للقتال لغزوة «أحد».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۷

و لقد كانت بين المسلمين فى ذلك اليوم آراء مختلفة و كثيرة- كما ستعرفها قريبا- حول الموطن الذى ينبغى أن يعسكر فيه المسلمون، بل و كيفية مقابلة الأعداء القادمين، و أنه يتعيّن عليهم أن يتحصنوا بالمدينة، أم يخرجوا إليهم و يحاربوهم خارجها.

و لقد كان هناك خلاف شديد فى الرأى بين المسلمين فى هذه الأمور، فاختار النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد المشاورة رأى الأغلبية، و التى كانت تتألف- فى الأكثر من الشباب المتحمسين، و هو الخروج من المدينة و مقاتلة العدو خارجها، بعد الاستقرار عند جبل «أحد».

و من الطبيعى أن يكون هناك بين المسلمين من كان يخفى أشياء و أمورا يحجم عن الإفصاح بها لعلل خاصة، و من الممكن أن تكون عبارة وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ناظرة إلى هذه الأمور المكنونة، فهو سبحانه سميع لما يقولون، عليم بما يضمرون.

ثمّ إنّ الآیـة الثانیة تشـیر إلی زاویة أخری من هذا الحدث إذ تقول: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْکُمْ أَنْ تَفْشَـلا وَ اللَّهُ وَلِیُّهُما وَ عَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و الطائفتان کما یذکر المؤرخون هما «بنو سلمة» من الأوس و «بنو حارثة» من الخزرج.

فقد صممت هاتان الطائفتان علی التساهل فی أمر هذه المعرکة و الرجوع إلی المدینة، و همتا بذلک.

و قـد کان سـبب هـذا الموقف المتخاذل هو أنهما کانتا ممّن یؤیـد فکرة البقاء فی المدینة و مقاتلة الأعداء داخلها بدل الخروج منها و القتال خارجها، و قد خالف النبی هذا الرأی، مضافا إلی أن «عبد اللّه بن أبی سلول» الذی التحق بالمسلمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۸

علی رأس ثلاثمائـة من الیهود عاد هو و جماعته إلی المدینـة، لأن النبی عارض بقاءهم فی عسـکر المسـلمین، و قد تسـبب هذا فی أن تتراجع الطائفتان المذکورتان عن الخروج مع النبی و تعزما علی العودة إلی المدینة من منتصف الطریق.

و لکن یستفاد من ذیل الآیة أن هاتین الطائفتین عدلتا عن هذا القرار، و استمرتا فی التعاون مع بقیة المسلمین، و لهذا قال سبحانه وَ اللَّهُ وَلِیُّهُما وَ عَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ یعنی أن اللّه ناصرهما فلیس لهما أن تفشلا إذا کانتا تتوکلان علی اللّه بالإضافة إلی تأییده سبحانه للمؤمنین.

ثمّ لا بـدّ من التنبیه إلی نقطـة هامـة و هی أن ذکر هذه المقاطع من غزوة «أحد» بعد الآیات السابقة التی تحدثت عن لزوم عدم الوثوق بالکفّار، إشارة إلی نموذج واحد من هذه الحقیقة، لأن النبی- کما أسلفنا و کما سیأتی تفصیله- لم یسمح ببقاء الیهود- الذین تظاهروا بمساعـدة المسـلمین- فی المعسـکر الإسـلامی، لأنـهم کـانوا أجـانب علی کـلّ حـال، و لاـ یمکن السـماح لهم بأن یبقوا بین صـفوف المسلمین فیطلعوا علی أسرارهم فی تلک اللحظات الخطیرة، و أن یکونوا موضع اعتماد المسلمین فی تلک المرحلة الحساسة.

غزوة أحد

سبب هذه الغزوة:

هنا لا بدّ من الإشارة- قبل أی شیء- إلی مجموعة الحوادث التی وقعت فی هذه الغزوة، فإنه یستفاد من الروایات و النصوص التاریخیة الإسـلامیة، أن قریشـا لما رجعت من بـدر إلی مکـة و قـد أصابهم ما أصابهم من القتل و الأسـر، لأنه قتل منهم سـبعون شـخصا و أسر سبعون شخصا، و قال أبو سفیان یا معشر قریش لا تدعوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۹

نساءکم یبکین علی قتلاکم فإن الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن و العداوة لمحمّد صـلی اللّه علیه و آله و سلّم و أخذ أبو سفیان علی نفسه العهد علی أن لا یقرب فراش زوجته ما لم ینتقم لقتلی بدر.

و هکذا ألبت قریش الناس علی المسلمین و حرکتهم لمقاتلتهم و سرت نداءات «الانتقام الانتقام» فی کلّ نواحی مکّة.

و فی السـنة الثالثـة للهجرة عزمت قریش علی غزو النبی، و خرجوا من مکّـة فی ثلاـث آلاـف فـارس و ألفی راجـل، مجهزین بکـلّ ما یحتاجه القتال الحاسم، و أخرجوا معهم النساء و الأطفال و الأصنام، لیثبتوا فی ساحات القتال.

العباس یرفع تقریرا إلی النبی:

لم یکن العباس عمّ النبی قد أسلم إلی تلک الساعة، بل کان باقیا علی دین قریش، و لکنه کان یحب ابن أخیه غایة الحب، و لهذا فإنه عنـد ما عرف بتعبئة قریش و عزمهم الأکید علی غزو المدینة و مقاتلة النبی، بادر إلی إخبار النبی، محمّلا غفاریا (من بنی غفار) رسالة

عاجلة يـذكر فيها الموقف فى مكّة و عزم قريش. و كان الغفارى يسرع نحو المدينة، حتّى أبلغ النبى رسالة عمه العباس، و لما عرف صلى اللّه عليه و آله و سلم بالخبر التقى سعد بن أبى و أخبره بما ذكره له عمه، و طلب منه أن يكتم ذلك بعض الوقت.

النبى يشاور المسلمين

عمد النبى- بعد أن بلغته رسالة عمه العباس- إلى بعث رجلين من المسلمين إلى طرق مكّة و المدينة للتجسس على قريش، و تحصيل المعلومات الممكنة عن تحركاتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۰

و لم يمض وقت طويل حتّى عاد الرجلان و أخبرا النبى بما حصلا عليه حول قوات قريش و أن هذه القوات الكبيرة يقودها أبو سفيان.

و بعد أيّام استدعى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم جميع أصحابه و أهل المدينة لدراسة الموقف، و ما يمكن أو يجب اتخاذه للدفاع، و بحث معهم فى أمر البقاء فى المدينة و محاربة الأعداء الغزاة فى داخلها، أو الخروج منها و مقاتلتهم خارجها. فاقترح جماعة قائلين «لا نخرج من المدينة حتّى نقاتل فى أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف و المرأة و العبد و الأمة على أفواه السكك و على السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا و نحن فى حصوننا و دروبنا و ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلّا كان الظفر لهم علينا، و كان هذا هو ما قاله «عبد اللّه بن أبى».

و قد كان النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يميل إلى هذا الرأى نظرا لوضع المدينة يومذاك، فهو كان صلى اللّه عليه و آله و سلّم يرغب فى البقاء فى المدينة و مقاتلة العدو فى داخلها، إلّا أن فريقا من الشباب الأحداث الذين رغبوا فى الشهادة و أحبوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأى الذى كان عليه الأكابر من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: اخرج بنا إلى عدونا، و قام سعد بن معاذ و غيره من الأوس فقالوا: يا رسول اللّه ما طمع فينا أحد من العرب و نحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطمعون فينا و أنت فينا، لا حتى نخرج إليهم فنقاتلهم فمن قتل منا كان شهيدا، و من نجا منا كان قد جاهد فى سبيل اللّه، و قال مثلها الآخرون.

و هكذا تزايدت الطلبات بالخروج من المدينة و مقابلة العدو خارجها حتّى أصبح المقترحون بالبقاء أقلية.

فوافقهم النبى- رغم أنه كان يمل إلى البقاء فى المدينة- احتراما لمشورتهم، ثمّ خرج مع أحد أصحابه ليرتب مواضع استقرار المقاتلين المسلمين خارج المدينة و اختار الشعب من «أحد» لاستقرار الجيش الإسلامى باعتباره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۱

أفضل مكان من الناحية العسكرية و الدفاعية.

المسلمون يتهيئون للدفاع:

لقد استشار النبى أصحابه فى هذه المسألة يوم الجمعة، و لذلك فإنه بعد انتهاء المشاورة قام يخطب لصلاة الجمعة و قال بعد حمد اللّه و الثناء عليه:

«انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم اللّه فلكم النصر ما صبرتم».

ثمّ تولى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بنفسه قيادة المقاتلين و قد أمر بأن تعقد ثلاث ألوية، دفع واحد منها للمهاجرين، و اثنين منها للأنصار، ثمّ إن النبى قطع المسافة بين المدينة و «أحد» مشيا على الأقدام، و كان يستعرض جيشه طوال الطريق، و يرتب صفوفهم، يقول المؤرخ المعروف الحلبى فى سيرته:

و

سار إلى أن وصل «رأس الثنية» و عندها وجد كتيبة كبيرة فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم ما هذا؟ قالوا: هؤلاء خلفاء عبد اللّه بن أبى

الیهودی فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: أسلموا؟ فقیل: لا، فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «انا لا تنتصر بأهل الکفر علی أهل الشرک» فردهم، و رجع عبد اللّه بن أبی الیهودی و من معه من أهل النفاق و هم ثلاثة مائة رجل ۴۲۴].

و لکن المفسّرین کتبوا أن «عبد اللّه بن أبی» رجع من أثناء الطریق مع جماعة من أعوانه، یبلغون ثلاثمائة رجل، لأنه لم یؤخذ برأیه فی الشوری.

و علی أی حال فإن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بعد أن أجری التصفیة اللازمة فی صفوف جیشه و استغنی عن بعض أهل الریب و الشکّ و النفاق استقر عند الشعب من «أحد» فی عدوة الوادی إلی الجبل و جعل «أحدا» خلف ظهره و استقبل المدینة.

و بعد أن صلّی بالمسلمین الصبح صف صفوفهم و تعبأ للقتال.

فأمّر علی الرمّاة «عبد اللّه بن جبیر» و الرماة خمسون رجلا جعلهم صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۲

الجبل خلف المسلمین و أوعز إلیهم قائلا:

«إن رأیتمونا قد هزمناهم حتّی أدخلناهم مکّة فلا تبرحوا من هذا المکان، و إن رأیتموهم قد هزمونا حتّی أدخلونا المدینة فلا تبرحوا و ألزموا مراکزکم».

و من جانب آخر، وضع أبو سفیان «خالد بن الولید» فی مأتی فارس کمینا یتحینون الفرصة للتسلل من ذلک الشعب و مباغتة المسلمین من ورائهم و قالوا:

«إذا رأیتمونا قد اختلطنا فاخرجوا علیهم من هذا الشعب حتّی تکونوا وراءهم».

بدء القتال:

ثمّ اصطف الجیشان للحرب، و راح کلّ واحد منهما یشجع رجاله علی القتال بشکل من الأشکال و یحرضهم علی الجلاد بما لدیه من وسیلة.

و قد کان أبو سفیان یحرض رجاله باسم الأصنام و یغریهم بالنساء الجمیلات.

و أمّا النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقد کان یحث المسلمین علی الصمود و الاستقامة، مذکرا إیاهم بالنصر الإلهی و التأییدات الربانیة.

ها هی تکبیرات المسلمین و نداءات «اللّه أکبر، اللّه أکبر» تدوی فی جنبات ذلک المکان، و تملأ شعاب «أحد» و سهولها، بینما تحرض هند و النسوة اللاتی معها من نساء قریش و بناتها الرجال و یضربن بالدفوف و یقرأن الأشعار المثیرة.

و بدأ القتال و حمل المسلمون علی المشرکین حملة شدیدة هزمتهم شر هزیمة، و ألجأتهم إلی الفرار و راح المسلمون یتعقبونهم و یلاحقون فلو لهم.

و لما علم «خالد» بهزیمة المشرکین و أراد أن یتسلل من خلف الجبل لیهجم علی المسلمین من الخلف شقه الرماة بنبالهم، و حالوا بینه و بین نیته.

هذه الهزیمة القبیحة التی لحقت بالمشرکین دفعت ببعض المسلمین الجدیدی العهد بالإسلام إلی التفکر فی جمع الغنائم و الانصراف عن الحرب، بظن أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۳

المشرکین هزموا هزیمة کاملة، حتّی أن بعض الرماة ترکوا مواقعهم فی الجبل متجاهلین تذکیر قائدهم «عبد اللّه بن جبیر» إیاهم بما أوصاهم به النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یبق معه إلّا قلیل ظلوا یحافظون علی تلک الثغرة الخطرة فی الجبل محافظة علی

المسلمین.

فتنبه «خالـد بن الولیـد» إلی قلـة الرماة فی ذلك المكان، فكر راجعا بالخیل (و عـددهم مائتا رجل كانوا معه فی الكمین) فحملوا علی «عبد اللّه بن جبیر» و من بقی معه من الرماة و قتلوهم بأجمعهم، ثمّ هجموا علی المسلمین من خلفهم.

و فجأة وجد المسلمون أنفسهم و قد أحاط بهم العدو بسیوفهم، و داخلهم الرعب، فاختل نظامهم، و أكثر المشركون من قتل المسلمین فاستشهد- فی هذه الكرة- «حمزة» سید الشهداء و طائفة من أصحاب النبی الشجعان، و فر بعضهم خوفا، و لم یبق حول النبی سوی نفر قلیل جدا یدافعون عنه و یردون عنه عادیة الأعداء، و كان أكثرهم دفاعا عن النبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم ورد الهجمات العدو، و فـداء بنفسه هو «الإمام علی بن أبی طالب» علیه السّـلام الـذی كان یـذب عن النبی الطاهر ببسالـة منقطعة النظیر، حتّی أنه تكسـر سـیفه فأعطاه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم سیفه المسمی بذی الفقار، ثمّ تترس النبی بمكان، و بقی علی علیه السّلام یدفع عنه حتّی لحقه- حسب ما ذكره المؤرخون- ما یزید عن ستین جراحة فی رأسه و وجهه، و یدیه و كلّ جسمه المبارك، و

فی هذه اللحظة قال جبرائیل «إن هذه لهی المواساة یا محمّد» فقال النبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم «إنه منی و أنا منه» فقال جبرائیل: «و أنا منكما».

قال الإمام الصادق علیه السّـلام: نظر رسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی جبرائیل بین السماء و الأرض و هو یقول: «لا سیف إلّا ذو الفقار و لا فتی إلّا علی»[۴۲۵].

و فی هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمّد.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۴

من الصائح: قتل محمّد؟

یذهب بعض المؤرخین إلی أن «ابن قمئة» الذی قتل الجندی الإسلامی البطل «مصعب بن عمیر» و هو یظن أنه النبی، هو الذی صاح «و اللات و العزی: لقد قتل محمّد».

و سواء كانت هـذه الشائعـة من جانب المسـلمین، أو العدو فإنها- و لا ریب- كانت فی صالح الإسـلام و المسـلمین لأنها جعلت العدو یترك ساحـة القتـال و یتجه إلی مكّـة بظنّه أن النبی قـد قتـل و انتهی الأـمر، و لو لاـ ذلك لكان جیش قریش الفاتـح الغالب لا یترك المسـلمین حتّی یأتی علی آخرهم لما كانوا یحملونه من غیظ و حنق علی النبی، بل و لما كانوا یتركون ساحة القتال حتّی یقتلوا رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لأنهم لم یجیئوا إلی «أحد» إلّا لهذه الغایة.

لم یرد ذلك الجیش الـذی كان قوامه ما یقارب خمسـة آلاف- و بعد تلك الانتصارات- أن یبقی و لو لحظة واحدة فی ساحة القتال، و لذلك غادرها فی نفس اللیلة إلی مكّة، و قبل أن یندلع لسان الصباح.

إلّـا أن شائعـة مقتـل النبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أوجـدت زلزالا كبیرا فی نفوس بعض المسـلمین، و لـذلك فر هؤلاء من ساحة المعركة.

و أما من بقی من المسـلمین فی الساحـة فقـد عمـدوا- بهـدف الحفاظ علی البقیة من التفرق و إزالة الخوف و الرعب عنهم- إلی أخذ النبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم إلی الشـعب من «أحـد» لیطلع المسـلمون علی وجوده الشـریف و یطمئّنوا إلی حیاته، و هكـذا كان، فـإنهم لمـا عرفوا رسول اللّه عـاد الفـارون و آب المنهزمون و اجتمعوا حول الرسول و لاـ مهم النـبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم علی فرارهم فی تلك الساعة الخطیرة، فقالوا یا رسول اللّه أتانا الخبر بأنك قتلت فرعبت قلوبنا فولینا مدبرین.

و هكذا لحقت بالمسلمین- فی معركة أحد- خسائر كبیرة فی الأموال

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۵

و النفوس، فقد قتل منهم فی هذه الموقعة اثنان و سبعون من المسلمین فی میدان القتال، کما جرح جماعة کبیرة، و لکنهم أخذوا من هذه الهزیمة و النکسة درسا کبیرا ضمن انتصاراتهم فی المعارک القادمة، و سوف نعرض بتفصیل عند دراسة الآیات القادمة لآثار هذه الحادثة الکبری بإذن اللّه سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۶

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۲۳ الی ۱۲۷]

اشارة

وَ لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۲۳) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِینَ أَ لَنْ یَکْفِیَکُمْ أَنْ یُمِدَّکُمْ رَبُّکُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِکَةِ مُنْزَلِینَ (۱۲۴) بَلی إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ یَأْتُوکُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا یُمْدِدْکُمْ رَبُّکُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِکَةِ مُسَوِّمِینَ (۱۲۵) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْری لَکُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُکُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ (۱۲۶) لِیَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَوْ یَکْبِتَهُمْ فَیَنْقَلِبُوا خائِبِینَ (۱۲۷)

التّفسیر

المرحلة الخطیرة من الحرب:

بعد انتهاء معرکة «أحد» عاد المشرکون المنتصرون إلی مکّة بسرعة، و لکنّهم بدا لهم فی أثناء الطریق أن لا یترکوا هذا الإنتصار دون أن یکملوه و یجعلوه ساحقا، ألیس من الأحسن أن یعودوا إلی المدینة، و ینهبوها و یلحقوا بالمسلمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۷

مزیدا من الضربات القاضیة و أن یقتلوا محمّدا صلی اللّه علیه و آله و سلّم إذا کان لا یزال حیّا لیتخلصوا من الإسلام و المسلمین و یطمئن بالهم من ناحیتهم بالمرّة.

لهذا صدر قرار بالعودة إلی المدینة، و لا ریب أنه کان أخطر مراحل معرکة «أحد» بالنظر إلی ما کان قد لحق بالمسلمین من القتل و الجراحة و الخسائر، الذی کان قد سلب منهم کلّ طاقة للدخول فی معرکة جدیدة أو لاستئناف القتال، فیما کان العدو فی ذروة القوّة و الروحیة العسکریة التی کانت تمکن العدو من تحقیق انتصارات جدیدة، و إحراز النتیجة لصالحه، فنهایة هذه العودة و نتیجتها کانت معروفة سلفا.

و قد بلغ خبر العودة هذه إلی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و لو لا شهامته البالغة، و قدرته المکتسبة من الوحی علی الأخذ بزمام المبادرة لانتهی تاریخ الإسلام و حیاته عند تلک النقطة.

فی هذه المرحلة الحساسة بالذات نزلت الآیات الحاضرة لتقوی روحیة المسلمین و تصعد من معنویاتهم، و فی أعقاب ذلک صدر أمر من النبی إلی المسلمین بالتهیؤ لمقابلة المشرکین، فاستعد جمیع المسلمین حتّی المجروحین (و منهم الإمام علی علیه السّلام الذی کان یحمل فی جسمه أکثر من ستین جراحة) لمقابلة المشرکین، و خرجوا بأجمعهم من المدینة لذلک.

فبلغ هذا الخبر مسامع زعماء قریش فأرعبتهم هذه المعنویة العالیة التی یتمتع بها المسلمون و ظنوا أن عناصر جدیدة التحقت بالمسلمین و إن هذا یمکن أن یغیر نتائج المواجهة الجدیدة لصالح المسلمین، و لذلک فکروا فی العدول عن قرارهم بمهاجمة المدینة، حفاظا علی قواهم، و هکذا قفلوا راجعین إلی مکة بسرعة، و انتهت القضیة عند هذا الحدّ.

و إليك شرحا للآيات التى نزلت لتقوّى روحية المسلمين، و تجبر ما نزل بهم من هزيمة فى هذه المعركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۸

فقد بدأت هذه الآيات بتذكير المسلمين بما تحقق لهم من نصر ساحق بتأييد اللّه لهم فى «بدر»[۴۲۶] إذ قال سبحانه وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ و قد كان الهدف من هذا التذكير هو شد عزائم المسلمين و زرع الثقة فى نفوسهم و الاطمئنان إلى قدراتهم، و الأمل بالمستقبل، فقد نصرهم اللّه و هم على درجة كبيرة من الضعف، و قلة العدد و ضآلة العدة (حيث كان عددهم ۳۱۳ مع امكانيات بسيطة قليلة، و كان عدد المشركين يفوق ألف مقاتل مع امكانيات كبيرة).

فإذا كان الأمر كذلك فليتقوا اللّه، و ليجتنبوا مخالفة أوامر النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليكونوا بذلك قد أدوا شكر المواهب الإلهية فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

ثمّ تتعرض الآية اللاحقة لذكر بعض التفاصيل حول ما جرى فى «بدر» إذ قالت: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ أى اذكروا و اذكر أيّها النبى يوم كنت تقول للمسلمين الضعفاء آنذاك اخرجوا و سيمدكم اللّه بالملائكة ألا يكفيكم ذلك لتحقيق النصر الساحق على جحافل المشركين المدججين بالسلاح؟

نعم أيها المسلمون لقد تحقّق لكم ذلك فى «بدر» نتيجة صبركم و استقامتكم، و اليوم يتحقّق لكم ذلك أيضا إذا أطعتم أوامر النبى، و سرتم وفق تعليماته و صبرتم:

بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ ۴۲۷] هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ

على أن نزول الملائكة هذا لن يكون هو العامل الأساسى لتحقيق هذا الإنتصار لكم بل النصر من عند اللّه، و ليس نزول الملائكة إلّا لتطمئن قلوبكم وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۹

فهو العالم بسبل النصر و مفاتيح الظفر، و هو القادر على تحقيقه.

ثمّ إنه سبحانه عقب هذه الآيات بقوله: لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ

و هذه الآية و إن ذهب المفسّرون فى تفسيرها مذاهب مختلفة، إلّا أنها- فى ضوء ما ذكرناه فى تفسير الآيات السابقة بمعونة الآيات نفسها و بمعونة الشواهد التاريخية- واضحة المراد بيّنة المقصود كذلك. فهى تقصد أن تأييد اللّه للمسلمين بإنزال الملائكة عليهم إنما هو لأجل القضاء على جانب من قوّة العدو العسكرية، و إلحاق الذلة بهم.

يبقى أن نعرف أن «طرف» الشىء يعنى جانبه و قطعة منه. و أمّا «يكبتهم» فيعنى الرد بعنف و إذلال.

ثمّ إن هاهنا أسئلة تطرح نفسها حول كيفية نصرة الملائكة للمسلمين و مساعدتهم على تحقيق الإنتصار فسنجيب عليها- بإذن اللّه- لدى تفسير الآيات ۷- ۱۲ من سورة الأنفال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۰

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۲۸]

اشارة

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‌ءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (۱۲۸)

التّفسير

اشارة

وقع بين المفسّـرين فى تفسير هذه الآية كلام كثير، إلّا أن ما هو مسلّم تقريبا هو أن الآية الحاضرة نزلت بعد «معركة أحد» و هى ترتبط بأحداث تلك المعركة، و الآيات السابقة تؤيد هذه الحقيقة أيضا.

ثمّ إنّ هناك معنيين يلفتان النظر من بين المعانى المذكورة فى تفسير هذه الآية و هما:

أولا: إن هـذه الآيـة تشـكل جملـة مسـتقلة، و على هـذا تكون جملة أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ بمعنى «إلّا أن يتوب عليهم» و يكون معنى مجموع الآيـة كالتالى: ليس لك حول مصيرهم شـىء، فإنهم قد اسـتحقوا العذاب بما فعلوه، بل ذلك إلى اللّه، يعفو عنهم إن شاء أو يأخذهم بظلمهم، و المراد بالضـمير «هم» إمّا الكفّار الذين ألحقوا بالمسلمين ضربات مؤلمة، حتّى أنهم كسروا رباعية النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و شجوا جبينه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۱

المبارك، و أما المسـلمين الـذين فروا من ساحة المعركة، ثمّ ندموا على ذلك بعد أن وضـعت الحرب أوزارها و اعتذروا للنبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه العفو.

فالآية تقول: إن العفو عنهم، أو معاقبتهم على ما فعلوا، أمر يعود إلى اللّه تعالى، و أن النبى لن يفعل شيئا بدون إذنه سبحانه.

و هناك تفسير آخر، و هو أن يعتبر قوله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ جملة اعتراضية، و تكون جملة أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ جملة معطوفة على أَوْ يَكْبِتَهُمْ و تعتبر هذه الآية متصلة بالآية السابقة.

و على هذا يكون المراد من مجموع الآيتين، السابقة و الحاضـرة هو: إن اللّه سـيمكنكم من وسائل النصر و يصيب الكفّار بإحدى امور أربعـة: إمـا أن يقطـع طرفـا مـن جيش المشـركين، أو يردهم على أعقـابهم خـائبين مخزيين، أو يتـوب عليهم إذا أصـلحوا، أو يعـذبهم بظلمهم، و على كلّ حال فإنه سـيعامل كلّ طائفة وفق ما تقتضيه الحكمة و العدالة، و ليس لك أن تتخذ أى موقف من عندك إذ كلّ ذلك إلى اللّه تعالى.

و لقد نقلت فى سبب نزول هذه الآية روايات عديدة منها أنه لما كان من المشـركين يوم «أحد» ما كان من كسر رباعية الرسول صلى اللّه عليه و آله و سـلّم و شـجه حتّى جرى الدم على وجهه الشـريف، و لحق بالمسلمين ما لحق من الخسائر فى الأرواح و الإصابات فى الأبدان قلق النبى على مصير أولئك القوم، و فكر فى نفسه، كيف يمكن أن تهتدى تلك الجماعة المتمادية فى غيها و عنادها و قال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم و هو يدعوهم إلى ربهم»؟

فنزلت الآيـة و أخبره تعالى فيها أنه ليس إليه إلّا ما امر به من تبليغ الرسالـة و دعائهم إلى الهـدى، فهو ليس مسـئولا عن هدايتهم إن لم يهتدوا و لم يستجيبوا لندائه.

تصحيح خطأ:

لا بدّ هنا من الانتباه إلى نقطتين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۲

۱- إن المفسّـر المعروف صـاحب تفسـير «المنـار» يعتقـد أن هـذه الآيـة تعلم المسـلمين درسا كبيرا فى مجال الاسـتفادة من الوسائل و الأسـباب الطبيعيـة للنصـر، و إن وعـد اللّه لهم بإنزال النصـر عليهم، ليس بمعنى أن للمسـلمين أن يتجاهلوا الوسائل الحربية، و التخطيط العسـكرى، و مـا شاكل ذلك من الأسـباب الماديـة اللازمـة للقتال و لتحقيق الإنتصار، و انتظار أن يـدعو لهم النبى لينزل عليهم النصـر

الالهی، دون الأخذ بالأسباب القتالیهٔ المتعارفهٔ، و لهذا جاءت الآیهٔ تخاطب النبی قائلهٔ لَیْسَ لَکَ مِنَ الْأَمْرِ شَیْءٌ بمعنی أن أمر النصر لم یوکل إلیک، بل هو إلی اللّه، و قد جعل اللّه لتحقیقه سننا و نوامیس یجب أن یستخدمها الناس حتّی یتحقّق لهم النصر و الغلبهٔ (و بالتالی فإن دعاء النبی و إن کان مؤثرا و مفیدا، إلّا أن له موارد استثنائیهٔ خاصّهٔ).

و هذا الکلام و إن کان منطقیا فی حد ذاته، إلّا أنه لا یلائم ما جاء فی ذیل الآیهٔ إذ یقول سبحانه: أَوْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ، أَوْ یُعَذِّبَهُمْ و لهذا لا یمکن تفسیر الآیهٔ بما قاله هذا الکاتب.

۲- إن هذه الآیهٔ و إن کانت تنفی أن یکون للنبی الحقّ فی أن یغفر للکفار و المشرکین أو یعذبهم، إلّا أنها لا تتعارض مع ما یستفاد من الآیات الاخری من تأثیر دعائه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و عفوه و شفاعته، لأن المقصود فی الآیهٔ الحاضرهٔ هو نفی أن یکون للنبی کلّ ذلک علی نحو الاستقلال، و علی هذا لا ینافی أن یکون له کلّ ذلک (من العفو أو المجازاهٔ) بإذن اللّه سبحانه.

فله بالتالی أن یعفو- بإذن اللّه- لمن أراد، أو یجازی حیث تصح المجازاهٔ، کما أن له أن یهیئ عوامل النصر و أسباب الظفر، بل و له- بإذن اللّه- أن یحیی الموتی کما کان یفعل المسیح علیه السّلام بإذنه سبحانه.

إن الذین تمسکوا بقوله تعالی: لَیْسَ لَکَ مِنَ الْأَمْرِ شَیْءٌ لنفی و إنکار قدرهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۳

الرسول علی هذا الأمر نسوا- فی الحقیقهٔ- الآیات القرآنیهٔ الأخری فی هذا المجال.

فالقرآن الکریم یقول فی سورهٔ النساء الآیهٔ ۶۴ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً.

فاستغفار النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم عد- طبق هذه الآیهٔ- من العوامل المؤثرهٔ لمغفرهٔ الذنوب، و سوف نوضح هذه الحقیقهٔ فی أبحاثنا القادمهٔ عند تفسیر الآیات المناسبهٔ إن شاء اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۴

الآیهٔ [سورهٔ آلعمران (۳): آیهٔ ۱۲۹]

اشارهٔ

وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۲۹)

التّفسیر

هذه الآیهٔ- فی الحقیقهٔ- تأکید لمفاد الآیهٔ السابقهٔ، فیکون المعنی هو: أن العفو أو المجازاهٔ لیس بید النبی، بل هو اللّه الذی بیده کلّ ما فی السماوات و کلّ ما فی الأرض، فهو الحاکم المطلق لأنه هو الخالق، فله الملک و له التدبیر، و علی هذا الأساس فإن له أن یغفر لمن یشاء من المذنبین، أو یعذّب، حسب ما تقتضیه الحکمهٔ، لأن مشیئته تطابق الحکمهٔ: وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ.

ثمّ إنه سبحانه یختم الآیهٔ بقوله: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ تنبیها إلی أنه و إن کان شدید العذاب، إلّا أن رحمته سبقت غضبه، فهو غفور رحیم قبل أن یکون شدید العقاب و العذاب.

و هنا یحسن بنا أن نشیر إلی ما ذکره أحد کبار العلماء المفسّرین الإسلامیین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۵

و هو العلّامة الطبرسی من سؤال و جواب حول هذه الآیة، لکونه علی اختصاره فی غایة الأهمیة من الناحیة الاعتقادیة، فقد ذکر فی ذیل هذه الآیة أنه: سئل بعض العلماء: کیف یعذب اللّه عباده بذنوبهم مع سعة رحمته؟

فقال: «رحمته لا تغلب حکمته، إذ لا تکون رحمته برقة القلب کما تکون الرحمة منا».

بمعنی أن الرحمة الإلهیة لا- تکون علی أساس عاطفی کما هو الحال فینا، بل إن رحمته ممتزجة دائما مع حکمته، و حکمته توجب عقوبة المذنبین (إلّا فی موارد خاصّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۶

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۳۰ الی ۱۳۲]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَأْکُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۱۳۰) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِی أُعِدَّتْ لِلْکافِرِینَ (۱۳۱) وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۳۲)

التّفسیر

حول الارتباط بین الآیات القرآنیة:

الآیات السابقة- کما عرفت- تحدثت حول معرکة «أحد» و حوادثها و وقائعها، و الدروس و العبر المختلفة التی تعلمها منها المسلمون، غیر أن هذه الآیات الثلاث، و الآیات الست اللاحقة بها تحتوی علی سلسلة من البرامج الاقتصادیة، و الاجتماعیة، و التربویة، ثمّ یستأنف القرآن بعد هذه الآیات التسع، حدیثه حول معرکة «أحد» و وقائعها.

و یمکن أن یکون هذا النوع من الحدیث و البیان مبعث استغراب و دهشة للبعض، إلّا أن الانتباه إلی مبدء أساسی یوضح حقیقة هذا الأمر، و یکشف الغطاء عن سر هذا الأسلوب. و ذلک المبدأ هو:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۷

إن القرآن لیس کتابا کبقیة الکتب ذات النمط الکلاسیکی الذی یعتمد نظام الفصول و الأبواب الخاصة، بل هو کتاب نزل «نجوما» و بصورة تدریجیة طوال ثلاثة و عشرین عاما، و ذلک طبقا للاحتیاجات التربویة المختلفة، و فی أماکن و أزمنة مختلفة، فیوم حدثت معرکة أحد و وقائعها نزلت الآیات التی تتحدث عمّا یرتبط بهذه المعرکة من برامج و قضایا حربیة، و یوم کانت الحاجة تتطلب بیان بعض البرامج و التعالیم الاقتصادیة کالموقف من الربا، أو بعض المسائل الحقوقیة کأحکام الزوجیة أو بعض القضایا التربویة و الأخلاقیة کالتوبة کانت تنزل الآیات التی تتناول هذه الأمور.

فیستنتج من هذا أنه قد لا یوجد أی ارتباط خاص بین بعض الآیات و بین ما قبلها أو ما بعدها، و لیس من الضروری أن نبحث عن مثل هذا الارتباط- کما یحاول بعض المفسّرین ذلک- أو أن نتکلف افتعال ذلک بین قضایا لم یرد اللّه سبحانه الاتصال و الارتباط بینها، لأن مثل هذا العمل لا- یتفق مع روح القرآن و کیفیة نزوله فی الحوادث المختلفة، و المناسبات المتنوعة و حسب الاحتیاجات و الظروف المنفصلة.

علی أنه لا- ریب فی أن جمیع السور و الآیات القرآنیة مرتبطة و مترابطة- علی وجه- و هو أن جمیعها تؤلف برنامجا کاملا و منهاجا متکاملا مترابطا لصنع الإنسان و صیاغته، و تربیته بأفضل تربیة و صیاغة و أسماها، کما أنها بمجموعها نزلت لإیجاد مجتمع فاضل، واع

متقدم فى جميع الأبعاد و الجوانب المادية و المعنوية.

و بما قلناه يعلل عدم ارتباط الآيات التسع التى أشرنا إليها مع ما تقدمها أو يلحقها من الآيات فى هذه السورة المباركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۸

تحريم الرّبا فى مراحل:

كلنا يعرف أن أسلوب القرآن فى مكافحة الانحرافات الاجتماعية المتجذرة فى حياة الناس يعتمد معالجة الأمور خطوة فخطوة، فهو أولا- يهيئ الأرضية المناسبة، و يطلع الرأى العام على مفاسد ما يطلب محاربته و مكافحته، ثمّ بعد أن تتهيأ النفوس لتقبل التحريم النهائى يعلن عن التحريم فى صيغته القانونية النهائية (و يتبع هذا الأسلوب خاصة إذا كان ذلك الأمر الفاسد ممّا استشرى فى المجتمع، و كانت رقعة انتشاره واسعة).

كما أننا نعلم أيضا أن المجتمع العربى فى العهد الجاهلى كان مصابا- بشدة- بداء الربا، حيث كانت الساحة العربية (و خاصة مكة) مسرحا للمرابين. و قد كان هذا الأمر مبعثا للكثير من المآسى الاجتماعية، و لهذا استخدم القرآن فى تحريم هذه الفعلة النكراء أسلوب المراحل، فحرم الربا فى مراحل أربع:

۱- يكتفى فى الآية ۳۹ من سورة الروم بتوجيه نصح أخلاقى حول الربا إذ قال سبحانه و تعالى: وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ

بهذا يكشف عن خطأ الذين يتصورون أن الربا يزيد من ثروتهم، فى حين أن إعطاء الزكاة و الإنفاق فى سبيل اللّه هو الذى يضاعف الثروة.

۲- يشير- ضمن انتقاد عادات اليهود و تقاليدهم الخاطئة الفاسدة- إلى الربا كعادة سيئة من تلك العادات، إذ يقول فى الآية ۱۶۱ من سورة النساء: وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ

۳- يذكر فى الآية الحاضرة- كما سيأتى تفسيرها المفصل- حكم التحريم بصراحة، و لكنه يشير إلى نوع واحد من أنواع الربا، و هو النوع الشديد و الفاحش منه فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۹

۴- و أخيرا أعلن فى الآيات ۲۷۵ إلى ۲۷۹ من سورة البقرة عن المنع الشامل و الشديد عن جميع أنواع الربا، و اعتباره بمنزلة إعلان الحرب على اللّه سبحانه.

التحريم فى الآية الحاضرة:

قلنا إن الآية الحاضرة إشارة إلى الربا الفاحش معبرة عن ذلك بقوله أَضْعافاً مُضاعَفَةً.

و المراد من «الربا الفاحش» هو أن تكون الزيادة الربوية تصاعدية، بمعنى أن تضم الزيادة المفروضة أولا على رأس المال ثمّ يصبح المجموع موردا للربا، بمعنى أن الزيادة ثانيا تقاس بمجموع المبلغ (الذى هو عبارة عن رأس المال و الزيادة المفروضة فى المرة الأولى) ثمّ تضم الزيادة المفروضة ثانيا إلى ذلك المبلغ، و تفرض زيادة ثالثة بالنسبة إلى المجموع ۴۲۸].

و هكذا يصبح مجموع رأس المال و الزيادة فى كلّ مرّة رأس مال جديد تضاف عليه زيادة جديدة بالنسبة، و بهذا يبلغ الدين أضعاف المبلغ الأصلى المدفوع إلى المديون حتّى يستغرق كلّ ماله.

و لهذا قال القرآن الكريم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً.

و يستفاد من الأخبار و الروايات أن الرجل- فى الجاهلية- إذا كان يتخلف عن أداء دينه عند الموعد المقرر طلب من الدائن أن يضيف الزيادة على المبلغ ثمّ يؤخره إلى أجل آخر، و هكذا حتّى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۰

و هذا هو السائد بعينه فى عصرنا الحاضر و يفعله المرابون الكبار دون رحمة.

و لا شكّ أن مثل هذا الفعل يدر على أصحاب الأموال مبالغ ضخمة دون عناء، فلا يمكن الارتداع عنه الّا بتقوى اللّه، و لهذا عقب سبحانه نهيه عن مثل هذا الربا الظالم بقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

و لكن هل يكفى الأمر بتقوى اللّه و الترغيب فى الفلاح فى صورة ترك الربا؟

أم لا بدّ من التلويح بالعذاب الأخروى للمرابين؟ و لهذا قال سبحانه فى الآية الثانية وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِی أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ فهذه الآية تأكيد لحكم التقوى الذى مرّ فى الآية السابقة.

و يوحى التعبير ب «الكافرين» أن أخذ الربا لا يتفق أساسا مع روح الإيمان، و لهذا ينتظر المرابين ما ينتظر الكافرين من النار و العذاب.

كما يستفاد من ذلك أن النار أعدت أساسا للكافرين، و ينال العصاة و المذنبون من هذه النار بقدر شباهتهم بالكفار، و تعاونهم معهم.

ثم إنه سبحانه يمزج ذلك التهديد بشيء من التشجيع و الترغيب للمطيعين و الممتثلين لأوامره تعالى إذ يقول: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۱

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۶]

اشارة

وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (۱۳۳) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِی السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳۴) وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۳۵) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۱۳۶)

التّفسير

السباق فى مضمار السعادة:

بعد أن هددت الآيات السابقة العصاة و توعدتهم بالعذاب و الجحيم، و بشرت الأبرار المطيعين بالرحمة الإلهية و شوقتهم إليها جاءت الآية الأولى من هذه الآيات تشبه سعى المطيعين و اجتهادهم بالسباق، و المسابقة المعنوية التى تهدف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۲

الوصول إلى الرحمة الإلهية، و النعم و العطايا الربانية الخالدة وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

وَ سارِعُوا تعنى تسابق اثنين أو أكثر للوصول إلى هدف معين فيحاول كلّ واحد- باستخدام المزيد من السرعة- أن يسبق صاحبه و منافسه و هو أمر مندوب فى الأعمال و الأخلاق الصالحة، و مقبوح مذموم فى الأفعال السيئة و الأخلاق القبيحة.

إن القرآن الكريم يستفيد هنا- فى الحقيقة- من نقطة نفسية هى أن الإنسان لا يؤدى عمله بسرعة فائقة إذا كان بمفرده، و كان العمل من النوع الروتينى، أما إذا اتخذ العمل طابع المسابقة و التنافس الذى يستعقب جائزة قيمة و مكافأة ثمينة نجده يستخدم كلّ طاقاته، و يزيد من سرعته لبلوغ ذلك الهدف، و نيل تلك الجائزة.

ثمّ إذا كان الهدف المجعول فى هذه الآية هو «المغفرة» فى الدرجة الأولى فلأن الوصول إلى أى مقام معنوى لا يتأتى بدون المغفرة و التطهر من أدران الذنوب، فلا بدّ إذن من تطهير النفس من الذنوب أولا، ثمّ الدخول فى رحاب القرب الإلهى، و نيل الزلفى لديه.

هذا هو الهدف أول.

و أما الهدف الثانى لهذا السباق المعنوى العظيم فهو «الجنة» التى يصرح القرآن الكريم أن سعتها سعة السماوات و الأرض وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ

ثمّ إن هناك تفاوتا قليلا بين هذه الآية و بين الآية ۲۱ من سورة الحديد سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

ففى هذه الآية ذكرت لفظة «المسابقة» مكان «المسارعة» كما ذكرت السماء بصورة المفرد المصدّر بألف و لام الجنس الذى يفيد العموم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۳

كما استعمل هنا كاف التشبيه فيكون معنى هذه الآية هو أن سعة الجنة مثل سعة السماء و الأرض، و معنى الآية المبحوثة هنا هو أن سعة الجنة هى سعة السماوات و الأرض فيكون المعنيان سواء.

ثم إنه سبحانه يختم الآية الحاضرة بقوله أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ فهذه الجنة العظيمة الموصوفة بتلك السعة قد هيئت للذين يتقون اللّه و يخشونه و يجتنبون معاصيه و يمتثلون أوامره.

و ينبغى أن نعلم أن المراد بالعرض هنا ليس هو الطول و العرض الهندسى بل المراد- كما عليه اهل اللغة- هو السعة.

و هنا سؤالان:

أولا: هل الجنة و النار مخلوقتان و موجودتان بالفعل، أم أنهما توجدان فيما بعد على أثر أعمال الناس؟

ثانيا: إذا كانت الجنة و النار موجودتين فعلا فأين تقعان، و قد قال سبحانه بأن عرض الجنة عرض السماوات و الأرض.

هل الجنة و النار موجودتان الآن؟

يعتقد أكثر العلماء المسلمين أن للجنة و النار وجودا خارجيا و فعليا، و أن ظواهر الآيات القرآنية تؤيد هذه النظرية نذكر من باب النموذج ما يلى:

۱- ذكرت فى الآية الحاضرة و آيات قرآنية اخرى لفظة «أعدت» و ما شابه ذلك من مادة هذه اللفظة، و قد استعملت تارة بشأن الجنة و تارة بشأن النار[۴۲۹].

فيستفاد من هذه الآيات أن الجنة و النار معدتان فعلا، و إن كانتا تتوسعان فيما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۴

بعد على أثر أعمال الناس. (تأمل).

۲- نقرأ فی الآیات ۱۳ و ۱۴ و ۱۵ المرتبطة بالمعراج فی سورة «و النجم» قوله سبحانه: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْری عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهی عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوی و هذا یشهد مرّة أخری بأن الجنة موجودة فعلا.

۳- یقول سبحانه فی سورة «التکاثر» الآیة ۵ و ۶ و ۷ کَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَیْنَ الْیَقِینِ

أی لو کان لدیکم علم یقینی لشاهدتم الجحیم، بل لرأیتموها رأی العین.

ثمّ إن هناک روایات ترتبط بالمعراج، و روایات أخری تحمل شواهد علی هذه المسألة[۴۳۰].

أین تقع الجنة و النار؟

إذا ثبت أن الجنة و النار موجودتان بالفعل یطرح سؤال آخر هو: أین تقعان إذن؟

و یمکن الإجابة علی هذا السؤال علی نحوین:

الأول: إن الجنة و النار تقعان فی باطن هذا العالم و لا غرابة فی هذا، فإننا نری السماء و الأرض و الکواکب بأعیننا، و لکننا لا نری العوالم التی توجد فی باطن هذا العالم، و لو أننا ملکنا وسیلة اخری للإدراک و العلم لأدرکنا تلک العوالم أیضا، و لو قفنا علی موجودات اخری لا تخضع أمواجها لرؤیة البصر، و لا تدخل ضمن نطاق حواسنا الفعلیة.

و الآیة المنقولة عن سورة «التکاثر» و هی قوله سبحانه:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۵

کَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ هی الاخری شاهدة علی هذه الحقیقة و مؤیدة لهذا الرأی.

کما و یستفاد من بعض الأحادیث أیضا أنه کان بین الأتقیاء و الأولیاء من قد زودوا ببصیرة ثاقبة، و رؤیة نفاذة استطاعوا بها أن یشاهدوا الجنة و النار مشاهدة حقیقة.

و یمکن التمثیل لهذا الموضوع بالمثال الآتی:

لنفترض أن هناک فی مکان ما من الأرض جهازا قویا للإرسال الإذاعی یبث فی العالم- و بمعونة الأقمار الفضائیة و الأمواج الصوتیة- تلاوات شیقة لآیات القرآن الکریم. بینما یقوم جهاز قوی إذاعی آخر ببث أصوات مزعجة و صاخبة بنفس القوّة.

لا شکّ أننا لا نملک القدرة علی إدراک هذین النوعین من البث بحواسنا العادیة، و لا أن نعلم بوجودهما إلّا إذا استعنا بجهاز استقبال فإننا حینما ندیر المؤشر علی الموج المختص بکل واحد من هذین البثین نستطیع فورا أن نلتقط ما بثته کلّ واحدة من تینک الإذاعتین و نستطیع أن نمیز بینهما بجلاء، و دون عناء.

و هذا المثال و إن لم یکن کاملا من جمیع الجهات إلّا أنه یصور لنا حقیقة هامة، و هی أنه قد توجد الجنة و النار فی باطن هذا العالم غیر أننا لا نملک إدراکها بحواسنا، بینما یدرکها من یملک الحاسة النفاذة المناسبة.

الثانی: إن عالم الآخرة و الجنة و النار عالم محیط بهذا الکون، و بعبارة اخری:

إن کوننا هذا یقع فی دائرة ذلک العالم، تماما کما یقع عالم الجنین ضمن عالم الدنیا، إذ کلنا یعلم أن عالم الجنین عالم مستقل له قوانینه و أوضاعه و لکنه مع ذلک غیر منفصل عن هذا العالم الذی نحن فیه، بل یقطع فی ضمنه و فی محیطه و نطاقه، و هکذا الحال فی عالم الدنیا بالنسبة إلی عالم الآخرة.

و إذا وجدنا القرآن یقول: بأن سعة الجنة سعة السماوات و الأرض فإنما هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۶

لأجل أن الإنسان لا یعرف شیئا أوسع من السماوات و الأرض لیقیس به سعة الجنة، و لهذا یصور القرآن عظمة الجنة و سعتها و

عرضـها بأنها کعرض السـماوات و الأرض، و لم یکن بـد من هذا، فکما لو أننا أردنا أن نصور للجنین- فیما لو عقل- حجم الدنیا التی سینزل إلیها، لم یکن لنا مناص من التحدث إلیه بالمنطق الذی یدرکه و هو فی ذلک المحیط.

ثمّ إنه تبین من ما مرّ الجواب علی السؤال الآخر، و هو إذا کانت الجنة عرضها السماوات و الأرض فأین تکون النار؟

لأنه حسب الجواب الأول یتضـح أن النار هی الأخری تقع فی باطن هذا العالم، و لا ینافی وجودها فیه وجود الجنة فیه أیضا (کما تبین من مثال جهازی الإرسال).

و أما حسب الجواب الثانی (و هو کون عالم الجنـة و النار محیطا بهـذا العالم الذی نعیش فیه) فیکون الجواب علی هذا السؤال أوضـح لأنه یمکن أن تکون النار محیطة بهذا العالم، و تکون الجنة محیطة بها فتکون النتیجة أن تکون الجنة أوسع من النار.

سیماء المتقین:

لما صـرّح فی الآیة السابقة بأن الجنة أعدت للمتقین، تعرضت الآیة التالیة لذکر مواصفات المتقین فذکرت خمسا من صفاتهم الإنسانیة السامیة هی:

۱- إنّهم ینفقون أموالهم فی جمیع الأحوال، فی الشدّة و الرخاء، فی السرّاء و الضرّاء الَّذِینَ یُنْفِقُونَ فِی السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ.

و هم بهذا العمل یثبتون روح التعاطف مع الآخرین، و حب الخیر الذی تغلغل فی نفوسهم، و لهذا فهم یقدمون علی هذا العمل الصالح و الخطوة الإنسانیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۷

فی جمیع الظروف و الأحوال.

و لا شکّ أن الإنفاق فی حال الرخاء فقط لا یـدلّ علی التغلغل الکامل للصـفات الإنسانیـة فی أعماق الروح و إنما یدلّ علی ذلک إذا أقدم الإنسان علی الإنفاق و البذل فی مختلف الظروف و فی جمیع الأحوال، فإن ذلک ممّا یدلّ علی تجذر تلک الصفة فی النفوس.

یمکن أن یقال: و کیف یمکن للإنسان أن ینفق عند ما یکون فقیرا؟

و الجواب واضح تمام الوضوح:

أولا: لأن الفقراء یمکنهم إنفاق ما یستطیعون علیه، فلیس للإنفاق حدّ معین لا فی القلة و لا فی الکثرة.

و ثانیـا: لأـن الإنفاق لا ینحصـر فی بـذل المال و الثروة فحسب، إذ للإنسان أن ینفق من کلّ ما وهبه اللّه، ثروة کان أو علما أو جاها أو غیر ذلک من المواهب الإلهیة الاخری.

و بهذا یرید اللّه سـبحانه أن یرکز روح التضـحیة و العطاء، و البذل و السخاء حتّی فی نفوس الفقراء و المقلین حتّی یبقوا- بذلک- فی منأی عن الرذائل الأخلاقیة التی تنشأ من «البخل».

إن الـذین یستصـغرون الإنفاقـات القلیلـة فی سبیـل اللّه و یحتقرونها إنما یـذهبون هـذا المـذهب، لأنهم حسـبوا لکلّ واحـد منها حسابا مستقلا و خاصا، و لو أنهم ضموا هذه الإنفاقات الجزئیة بعضها إلی بعض، و درسوها مجتمعة لتغیرت نظرتهم هذه.

فلو أن کـلّ واحـد من أهـل قطر من الأقطـار- فقراء و أغنیاء- قـدم مبلغا صـغیرا لمساعـدة الآخرین من عباد اللّه، و لتقـدم الأهـداف و المشاریع الاجتماعیة، لاستطاعوا أن یقوموا بأعمال ضخمة و کبیرة، مضافا إلی ما یجنونه من هذا العمل من آثار معنویة لا ترتبط بحجم الإنفاق، و تعود إلی المنفق فی کلّ حال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۸

و الملفت للنظر هو أن أول صـفة ذکرت للمتقین هنا هو «الإنفاق» لأن هـذه الآیات تذکر- فی الحقیقة- ما یقابل الصـفات التی ذکرت

للمرابين و المستغلّين في الآيات السابقة. هذا مضافا إلى أن غض النظر عن المال و الثروة في السرّاء و الضراء من أبرز علائم التقوى.

۲- أنهم قادرون على السيطرة على غضبهم: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ.

و لفظة «الكظم» تعني في اللغة شد رأس القربة عند ملئها، فيقول كظمت القربة إذا ملأتها ماء ثمّ شددت رأسها، و قد استعملت كناية عمن يمتلئ غضبا و لكنه لا ينتقم.

و أما لفظة «الغيظ» فتكون بمعنى شدّة الغضب و التوتر و الهيجان الروحي الشديد الحاصل للإنسان عند ما يرى ما يكره.

و حالات الغيظ و الغضب من أخطر الحالات التي تعرى الإنسان، و لو تركت و شأنها دون كبح لتحولت إلى نوع من الجنون الذي يفقد الإنسان معه السيطرة على أعصابه و تصرفاته و ردود فعله.

و لهذا فإن أكثر ما يقترفه الإنسان من جرائم و أخطاء و أخطرها على حياته هي التي تحصل في هذه الحالة، و لهذا تجعل الآية «كظم الغيظ» و «كبح جماح الغضب» الصفة البارزة الثانية من صفات المتقين.

قال النبي الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم «من كظم غيظا و هو قادر على إنفاذه ملأه اللّه أمنا و إيمانا».

و هذا الحديث يفيد أن كظم الغيظ له أثر كبير في تكامل الإنسان معنويا، و في تقوية روح الإيمان لديه.

۳- أنهم يصلحون عمن ظلمهم وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ

إن كظم الغيظ أمر حسن جدا، إلّا أنه غير كاف لوحده، إذ من الممكن أن

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۹

لا- يقلع ذلك جذور العداء من قلب المرء، فلا بدّ للتخلص من هذه الجذور و الرواسب أن يقرن «كظم الغيظ» بخطوة أخرى و هي «العفو و الصفح» و لهذا أردفت صفة «الكظم للغيظ» التي هي بدورها من أنبل الصفات بمسألة العفو.

ثمّ إنّ المراد هو العفو و الصفح عن من يستحقون العفو، لا الأعداء المجرمون الذين يحملهم العفو و الصفح على مزيد من الإجرام، و ينتهي بهم إلى الجرأة أكثر.

۴- أنهم محسنون: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

و هنا إشارة إلى مرحلة أعلى من «العفو و الصفح» و بهذا يرتقي المتقون من درجة إلى أعلى في سلّم التكامل المعنوي.

و هذه السلسلة التكاملية هي أن لا- يكتفي الإنسان تجاه الإساءة إليه بكظم الغيظ بل يعفو و يصفح عن المسيء ليغسل بذلك آثار العداء عن قلبه، بل يعمد إلى القضاء على جذور العداء في فؤاد خصمه المسيء إليه أيضا، و ذلك بالإحسان إليه، و بذلك يكسب وده و حبه، و يمنع من تكرار الإساءة إليه في مستقبل الزمان.

و خلاصة القول أن القرآن يأمر المسلم بأن يكظم غيظه أولا ثمّ يطهر قلبه بالعفو عنه، ثمّ يطهر فؤاد خصمه من كلّ رواسب الضغينة و بقايا العداء بالإحسان إليه.

إنه تدرج عظيم من صفة إنسانية خيّرة إلى صفة إنسانية أعلى هي قمة الخلق و ذروة الكمال المعنوي.

و لقد روي في المصادر الشيعية و السنية في ذيل هذه الآية أن جارية لعلي بن الحسين جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية: إن اللّه تعالى يقول: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ فقال لها: قد كظمت غيظي. قالت: وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ قال: «قد عفوت و قد عفى اللّه

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۰

عنك» قالت: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه اللّه ۴۳۱].

إن هذا الحديث شاهد حي بأن كلّ مرحلة متأخرة من تلك المراحل أفضل من المرحلة المتقدمة.

۵- إنهم لا يصرون على ذنب: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

و «الفاحشة» مشتقة أصلا من الفحش، و هو کلّ ما اشتد قبحه من الذنوب، و لا یختص بالزنا خاصة، لأن الفحش- فی الأصل- یعنی «تجاوز الحدّ» الذی یشمل کلّ ذنب.

هذا و فی الآیة أعلاه إشارة إلی إحدی صفات المتقین، فالمتقون مضافا إلی الاتصاف بما ذکر من الصفات الإیجابیة، إذا اقترفوا ذنبا، ذَکَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَ مَنْ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، وَ لَمْ یُصِرُّوا عَلی ما فَعَلُوا.

یستفاد من هذه الآیة أن الإنسان لا یذنب ما دام یتذکر اللّه، فهو إنما یذنب إذا نسی اللّه تماما و اعترته الغفلة، و لکن لا یلبث هذا النسیان و هذه الغفلة- لدی المتقین- حتّی تزول عنهم سریعا و یذکرون اللّه، فیتدارکون ما فات منهم، و یصلحون ما أفسدوه.

إن المتقین یحسون إحساسا عمیقا بأنه لا ملجأ لهم إلّا اللّه، فلا بدّ أن یطلبوا منه المغفرة لذنوبهم دون سواه وَ مَنْ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

و ینبغی أن نعلم أن القرآن ذکر مضافا إلی «الفاحشة» «ظلم النفس» أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ و یمکن أن یکون الفرق بین هذین هو أن الفاحشة إشارة إلی الذنوب الکبیرة، و «ظلم النفس» إشارة إلی الذنوب الصغیرة.

ثمّ إنه سبحانه تأکیدا لهذه الصفة قال: وَ لَمْ یُصِرُّوا عَلی ما فَعَلُوا وَ هُمْ یَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۱

و قد نقل عن الإمام الباقر علیه السّلام أنه قال: «الإصرار: أن یذنب الذنب فلا یستغفر اللّه، و لا یحدث نفسه بتوبة، فذلک الإصرار»[۴۳۲].

و

فی أمالی الصدوق بإسناده إلی الإمام الصادق جعفر بن محمّد علیهما السّلام قال: «لما نزلت هذه الآیة إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَکَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ صعد إبلیس جبلا بمکة یقال له ثور، فصرخ بأعلی صوته بعفاریته، فاجتمعوا إلیه فقالوا یا سیدنا لم دعوتنا؟

قال: نزلت هذه الآیة فمن لها؟ فقام عفریت من الشیاطین.

فقال: أنا لها بکذا و کذا.

قال: لست لها فقام آخر فقال مثل ذلک.

فقال: لست لها.

فقال: الوسواس الخناس أنا لها.

قال: بماذا؟ قال: أعدهم و امنیهم حتّی یواقعوا الخطیئة فإذا واقعوا الخطیئة أنسیتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها، فوکله بها إلی یوم القیامة»[۴۳۳].

و من الواضح أن النسیان ناشئ من التساهل، و الوساوس الشیطانیة، و إنما یبتلی بها من سلم نفسه لها، و خضع لتأثیرها، و تعاون مع الوسواس الخناس و استجاب له.

و لکن الیقظین المؤمنین تجدهم فی أعلی درجة من مراقبة النفس، فکلّما صدرت منهم خطیئة أو بدر ذنب، بادروا- فی أقرب فرصة- إلی غسل ما ران علی قلوبهم و نفوسهم من درن المعصیة، و أغلقوا منافذ أفئدتهم علی جنود الشیطان الذین لا یستطیعون النفوذ إلی القلوب من الأبواب المؤصدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۲

هذه هی أبرز صفات المتقین و أقوی المعالم فی سلوکهم و خلقهم، قد تعرضت لذکرها الآیات السابقة.

و الآن جاء الدور لیذکر القرآن الکریم ما ینتظر هذا الفریق من الثواب و الجزاء اللائق.

و کان ذلک إذ قال سبحانه: أُولئِکَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ* وَ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها.

لقد ذكر فى هذه الآية جزاء المتقين الذين تعرضت الآيات السابقة لذكر أوصافهم و أبرز صفاتهم، و هذا الجزاء عبارة عن: مغفرة ربانية، و جنات خالدات تجرى من تحتها الأنهار بدون انقطاع أبدا.

و الحقيقة أن الإشارة هنا كانت إلى المواهب المعنوية (و هى المغفرة و الطهارة الروحية و التكامل المعنوى) أولا، ثمّ إلى المواهب المادية.

ثمّ إنه سبحانه يعقب ما قال عن الجزاء بقوله: وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ أى ما أروع هذا الجزاء الذى يعطى للعالمين لا للكسالى، الذين يتهربون من مسئولياتهم، و يتملصون من التزاماتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۳

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۳۷ الى ۱۳۸]

اشارة

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۳۷) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۱۳۸)

التّفسير

النظر فى تاريخ الماضين و آثارهم:

يعتبر القرآن الكريم ربط الماضى بالحاضر و الحاضر بالماضى أمرا ضروريا لفهم الحقائق، لأن الارتباط بين هذين الزمانين (الماضى و الحاضر) يكشف عن مسئولية الأجيال القادمة، و يوقفها على واجبها، و لهذا قال سبحانه: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

و هذا يعنى أن للّه فى الأمم سننا لا تختص بهم، بل هى قوانين و سنن عامة فى الحياة تجرى على الحاضرين كما جرت على الماضين سواء بسواء، و هى سنن للتقدّم و البقاء و سنن للتدهور و الانحدار، التقدّم للمؤمنين المجاهدين المتحدين الواعين، و التدهور و الانحدار للأمم المتفرقة المتشتتة الكافرة الغارقة فى الذنوب و الآثام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۴

أجل إن للتاريخ أهمية حيوية لكلّ أمة من الأمم، لأن التاريخ يعكس الخصوصيات الأخلاقية و الأعمال الصالحة و غير الصالحة، و الأفكار التى كانت سائدة فى الأجيال السابقة، كما يكشف عن علل سقوط المجتمعات أو سعادتها، و نجاحها و فشلها فى العصور الغابرة المختلفة.

و بكلمة واحدة: إن التاريخ مرآة الحياة الروحية و المعنوية للمجتمعات البشرية و هو لذلك خير مرشد محذر للأجيال القادمة.

و لهذا نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى السير فى الأرض و النظر بإمعان و تدبر فى آثار الأمم و الشعوب التى سادت ثمّ بادت إذ يقول: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ* فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

إن آثار الماضين خير عبرة للقادمين، و بالنظر فيها و الإعتبار بها يمكن للناس أن يعرفوا المسير الصحيح للسلوك و الحياة.

السياحة و السير فى الأرض:

إن الآثار المتبقیة فی مختلف بلدان العالم من الأمم و العهود السابقة ما هی- فی الحقیقة- إلّا و ثائق التاریخ الحیة و الناطقة. بل هی قادرة علی أن تعطینا من الحقائق و الأسرار أکثر ممّا یعطینا التاریخ المدون.

إن الآثار الباقیة من العصور السالفة بما فیها من أشکال و صور و نقوش و کیفیات تدلنا علی ما کانت تتمتع به الأمم البائدة من روح و فکر، و ثقافات و مبادئ، و عظمة أو صغار، فی حین لا یجسّد التاریخ المدون سوی الحوادث الواقعة و سوی صور خاویة عنها.

أجل، إن خرائب قصور الطغاة و بقایا آثار عظیمة مثل الأهرام، و برج بابل، و قصور کسری، و آثار الحضارة المندثرة لقوم سبأ، و مئات من نظائرها الاخری

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۵

من هذه الآثار المنتشرة فی شتی أنحاء هذا الکوکب تنطوی- رغم صمتها- علی ألف حدیث و حدیث، و ألف کلمة و کلمة.

و لهذا عمد کبار الشعراء إلی الاستلهام من هذه الأطلال و الآثار و استوحوا منها الدروس و العبر و العظات، و نقلوا إلی الآخرین عبر قصائدهم ما کان یجیش فی صدورهم، و ینقدح فی نفوسهم من المشاعر و الأحاسیس المختلفة، تجاه ما تحکیه هذه الأطلال و الآثار من معانی و تعطیه من دلالات.

و لقد لخص أحد الأدباء هذه الحقیقة فی بیت شعری إذ قال:

ان آثارنا تدل علینافانظروا بعدنا إلی الآثار

إن مطالعة سطر واحد من هذه التواریخ الحیة الناطقة تعادل- فی الحقیقة- مطالعة کتاب ضخم فی مجال التاریخ، و أن ما تبعثه تلک المطالعة فی النفس و الروح البشریة لا یقاس به شیء مهما عظم.

ذلک لأننا عند ما نقف أمام آثار الماضین تتمثل أمامنا تلک الآثار و کأنها قد استعادت حیاتها، و دب فیها الروح، و کأن العظام النخرة قد خرجت من تحت الأرض حیة، و کأن کلّ شیء قد عاد إلی سیرته الأولی، و کأن جمیع الأشیاء تنطق و تتحدث، ثمّ إذا أعدنا النظر وجدناها صامتة میتة منسیة، و هذه المقایسة بین هاتین الحالتین ترینا غباء أولئک المستبدون الذین یرتکبون آلاف الجرائم، و أفظع الجنایات للوصول إلی الشهوات العابرة، و اللذائذ الخاطفة.

و لهذا یحث القرآن المسلمین علی السیر فی الأرض، و النظر إلی آثار الماضین المدفونة تحت التراب أو الباقیة علی ظهر الأرض بأم أعینهم، و أن یتخذوا من کلّ ذلک العظة و العبرة و ما أکثر العبر.

أجل، إن الإسلام یقر مسألة السیاحة و السیر فی الأرض، و یولیها أهمیة کبری، لکن لا کما یرید السیاح و طلاب اللذة و الهوی، بل الدراسة آثار الأمم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۶

الماضیة و التدبر فیها، و الإعتبار بها، و الوقوف علی آثار العظمة الإلهیة فی شتی نقاط العالم و هذا هو ما یسمیه القرآن الکریم بالسیر فی الأرض، و الذی تأمر به الآیات العدیدة و من ذلک:

۱- قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِینَ ۴۳۴].

۲- أ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَتَکُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ یَعْقِلُونَ بِها[۴۳۵] و آیات اخری ...

۳- قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۴۳۶].

إن هذه الآیة تقول بأن السیر فی الأرض و النظر فی آثار الماضیین یفتح العقول و العیون، و ینیر القلوب و الأفئدة، و یخلص الإنسان من الجمود و الرکود.

و قد أشار الإمام علی أمیر المؤمنین علیه السّلام إلی هذه الحقیقة فی کلمات و خطب عدیدة منها

قوله: «فاعتبروا بما أصاب الأمم المستکبرین من قبلکم من بأس اللّه وصولاته، و وقائعه و مثلاته و اتعظوا بمثاوی خدودهم، و مصارع

جنوبهم و استعیذوا باللّه من لواقح الکبر کما تستعیذونه من طوارق الدهر ...

و احـذروا مـا نزل بالأمـم قبلکم من المثلات بسوء الأفعال، و ذمیم الأعمال، فتـذکروا فی الخیر و الشرّ أحوالهم، و احـذروا أن تکونوا أمثـالهم فـإذا تفکرتم فی تفـاوت حالیهم فالزموا کلّ أمر لزمت العزة به شأنهم و زاحت الأعـداء له عنهم، و مـدت العافیـة به علیهم، و انقادت النعمـة له معهم، و وصـلت الکرامـة علیه حبلهم من الاجتناب للفرقة و اللزوم للألفة و التحاض علیها، و التواصـی بها، و اجتنبوا کلّ أمر کسر فقرتهم و أوهن منّتهم، من تضاغن القلوب، و تشاحن الصدور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۷

و تدابر النفوس، و تخاذل الأیدی ...»[۴۳۷].

و لکن هـذا التعلیم الإسـلامی الحی قد نسـی- مع الأسف- کبقیة التعالیم الإسـلامیة و لم یلتفت إلیه المسـلمون، بل إنّ بعض العلماء و المفکرین الإسـلامیین حصـروا الزمـان و المکـان فی فکرهـم، فعـاشوا فی عـالم غیر عـالم الحیـاة هـذا، و بقـوا فی معزل عن التحولاـت الاجتماعیة، و أشغلوا أنفسهم بأمور حقیرة و قضایا جزئیة قلیله الأثر بالقیاس إلی الأعمال الجوهریة و القضایا الأساسیة.

ففی عـالم نجـد فیه البـابوات و القساوسـة المسـیحیین الـذین طال ما حبسوا أنفسـهم بین جـدران الکنائس قـد خرجوا من تلک العزلة الطویلـة و الانقطاع عن الحیاة الاجتماعیـة إلی العالم الخارجی و راحوا یسـیحون فی الأرض، و یقیمون الجسور و العلاقات مع الأمم و الشـعوب لیزدادوا خبرة بالعصـر، و یقفوا علی متطلبـاته و مسـتجداته و متغیراته الکثیرة، أ فلاـ یجـدر بالمسـلمین أن یعملوا بهـذا التعلیم الإسـلامی الصـریح، و یخرجوا من النطاق الفکری الضـیق الذی هم فیه حتّی یتحقق التحول المطلوب فی حیاة الأمة الإسـلامیة، و تحل الحرکة الصاعدة محل الجمود و التقهقر، و التقدّم المطرد مکان التخلّف و التراجع.

و لما کان التعلیم الإلهی العظیم- رغم کونه موجها إلی عامـة المخاطبین- لا ینتفع به و لا یسـتلهمه إلّا المتقون قال سـبحانه تعقیبا علی الآیة السابقة هذا بَیانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدیً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِینَ

أجل، إن المتقین الهادفین هم الـذین یتعظون بهـذه الأمور لأنهم یبحثون عن کلّ ما یعمق روح التقوی فی نفوسـهم، و یزید بصـیرتهم بالحقّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۸

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۳۹ الی ۱۴۳]

اشارة

وَ لاـ تَهِنُوا وَ لاـ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۳۹) إِنْ یَمْسَسْـکُمْ قَرْحٌ فَقَـدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْـکَ الْأَیَّامُ نُـداوِلُها بَیْنَ النَّاسِ وَ لِیَعْلَـمَ اللَّهُ الَّذِیـنَ آمَنُـوا وَ یَتَّخِـذَ مِنْکُمْ شُـهَداءَ وَ اللَّهُ لاـ یُحِبُّ الظَّالِمِینَ (۱۴۰) وَ لِیُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُـوا وَ یَمْحَـقَ الْکـافِرِینَ (۱۴۱) أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا یَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِینَ جاهَدُوا مِنْکُمْ وَ یَعْلَمَ الصَّابِرِینَ (۱۴۲) وَ لَقَـدْ کُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَیْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۱۴۳)

سبب النّزول

لقـد وردت فی سـبب نزول هـذه الآیات روایات مختلفـة، و لکن یسـتفاد من مجموعها أن هـذه الآیات تتبع الآیات السابقة التی کانت تدور حول غزوة «أحد».

و فی الحقیقة تعتبر هذه الآیات تحلیلا و دراسة لنتائج غزوة «أحد» و أسبابها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۹

لکونها تمثل دروسا کبیرة للمسلمین، و هی فی نفس الوقت تسلیة للمؤمنین و تقویة لقلوبهم و تثبیت لأفئدتهم، لأن هذه الغزوة- کما أسلفنا- انتهت بسبب تجاهل بعض الرماة لأوامر النبی المشدّدة بالبقاء فی الثغرة، بنکسة المسلمین، و استشهاد ثلة کبیرة من أعیانهم و أبطال الإسلام البارزین، و من جملتهم «حمزة» عم النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

فقد حضر النبی مع جماعة من أصحابه فی تلک اللیلة، عند القتلی، و جلس عند کلّ واحد من الشهداء کرامة له و بکی عنده و استغفر له، ثمّ دفن جمیع الشهداء عند «أحد» فی جو من الحزن العمیق، فکان المسلمون بحاجة- فی هذه اللحظات- إلی ما یمسح عنهم کآبة العزیمة و مرارة الانکسار، و یقوی قلوبهم و یفیدهم درسا فی نفس الوقت من نتائج النکسة و عبرها- فنزلت الآیات المذکورة هنا.

التّفسیر

دراسة نتائج غزوة أحد:

فی الآیة الأولی من هذه الآیات حذر المسلمون من أن یعتریهم الیأس و الفتور بسبب النکسة فی معرکة واحدة، و أن یتملکهم الحزن و ییأسوا من النصر النهائی، قال سبحانه: وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ

أجل، لا یحسن بهم أن یشعروا بالوهن أو یتملکهم الحزن لما حدث، فالرجال الواعون هم الذین یستفیدون الدروس من الهزائم کما یستفیدونها من الانتصارات و هم الذین یتعرفون فی ضوء النکسات علی نقاط الضعف فی أنفسهم أو مخططاتهم، و یقفون علی مصدر الخطأ و الهزیمة، و یسعون لتحقیق النصر النهائی بالقضاء علی تلک الثغرات و النواقص و الوهن المذکور فی الآیة، هو- کما فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۰

اللغة- کلّ ضعف یصیب الجسم أو الروح أو یصیب الإرادة و الإیمان.

علی أن عبارة وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ عبارة غنیة بالمعانی حریة بالنظر و التأمل. إذ هی تعنی أن هزیمتکم إنما کانت بسبب فقدانکم لروح الإیمان و آثارها، فلو أنکم لم تتجاهلوا أوامر اللّه سبحانه لم یصبکم ما أصابکم، و لم یلحقکم ما لحقکم، و لکن لا تحزنوا مع ذلک، فإنکم إذا ثبتم علی طریق الإیمان کان النصر النهائی حلیفکم، و الهزیمة فی معرکة واحدة لا تعنی الهزیمة النهائیة.

ثمّ إنه سبحانه یقول: إِنْ یَمْسَسْکُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ و بذلک یعطی للمسلمین درسا آخر للوصول إلی النصر النهائی.

و «القرح» جرح یصیب البدن بسبب اصطدامه بشیء خارجی.

فیکون معنی الآیة أن عزیمتکم لا ینبغی أن تکون أقل من عزیمة الأعداء، فهم رغم ما لحقهم من خسائر فادحة فی الأرواح و الأموال- فی بدر- حیث قتل منهم سبعون، و جرح و أسر کثیر، فإنهم لم یقعدوا عن منابذتکم و مقاتلتکم، و لم یصرفهم ذلک عن الخروج إلی محاربتکم، بل تلافوا فی هذه المعرکة ما فاتهم، و تدارکوا هزیمتهم، فإذا أصبتم فی هذه المعرکة بهزیمة شدیدة فإن علیکم أن لا تقعدوا حتّی تتلافوا ما فاتکم ف إِنْ یَمْسَسْکُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ فلما ذا الوهن و لماذا الحزن إذن؟

و یذهب بعض المفسّرین إلی أن الآیة تشیر إلی الجراح التی لحقت بالکفّار فی أحد، و لکن هذا لا یستقیم لأن الجراح التی لحقت بالکفّار فی أحد لم تکن مثل الجراح التی لحقت بالمسلمین، هذا أولا، و کذلک لا یتناسب مع الجملة اللاحقة التی سیأتی تفسیرها فیما بعد ثانیا، ألا و هی قوله سبحانه: وَ تِلْکَ الْأَیَّامُ نُداوِلُها بَیْنَ النَّاسِ وَ لِیَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَتَّخِذَ مِنْکُمْ شُهَداءَ.

ففی هذا القسم یشیر سبحانه إلی واحدة من السنن الإلهیة و هی أنه قد تحدث

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۱

فی حیاة البشر حوادث حلوة أو مرّة و لكنها غیر باقیة و لا ثابتة مطلقا، فالانتصارات و الهزائم، و الغالبیة و المغلوبیة، و القوّة و الضعف كلّ ذلك یتغیر و یتحول، و كلّ ذلك یزول و یتبدل، فلا ثبات و لا دوام لشیء منها، فیجب أن لا یتصور أحد أن الهزیمة فی معركة واحدة و ما یتبعها من الآثار امور دائمة ثابتة باقیة، بل لا بدّ من الانتفاع بسنة التحول، و ذلك بتقییم أسباب الهزیمة و عواملها و تلافیها، و تحویل الهزیمة إلی انتصار، فالحیاة صعود و نزول، و أحداثها فی تحول مستمر، و تبدل دائم و لا ثبات لشیء من أوضاعها و أحوالها. وَ تِلْكَ الْأَیَّامُ ۴۳۸] نُداوِلُها بَیْنَ النَّاسِ لتتضح سنة التكامل من خلال ذلك.

ثمّ إنه سبحانه یشیر إلی نتیجة هذه الحوادث المؤلمة فیقول: وَ لِیَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا أی أن ذلك إنما هو لأجل أن یتمیز المؤمنون حقّا عن أدعیاء الإیمان.

و بعبارة أخری: إذا لم تحدث الحوادث المؤلمة فی حیاة أمة من الأمم و تاریخها لم تتمیز الصفوف و لم یتبین الخبیث و الطیب، لأن الانتصارات وحدها تخدع و تغری، و تصیب المنتصرین بالغفلة بینما تشكل الهزائم عامل یقظة للمستعدین المتهیئین، و توجب ظهور القیم، و تعرف بها حقائق الرجال.

ثمّ إنه فی قوله: وَ یَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ یشیر إلی إحدی نتائج هذه الهزیمة المؤلمة، بأن هذه النتیجة كانت هی تقدیمكم بعض الشهداء فی هذه المعركة، فیجب أن تعلموا أن هذا الدین لم یصل إلیكم بالهیّن، فلا یفلت منكم كذلك فی المستقبل.

إن الأمة التی لا تضحی فی سبیل أهدافها المقدسة لا تعیر تلك الأهداف أهمیتها، و لا تعطیها قیمتها اللائقة، أما إذا ضحت فی سبیل أهدافها فإنها هی

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۲

و أجیالها القادمة كذلك ستعطی لتلك الأهداف الأهمیة و القیمة اللازمة و ستنظر إلیها بعین الاحترام و الإكبار.

و یمكن أن یكون المراد من «الشهداء» هنا هم الذین یشهدون، فیكون معنی قوله وَ یَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ أی أن یتخذ منكم بوقوع هذه الحادثة فی حیاتكم- شهودا- لتعرفوا كیف أن عدم الانضباط و عدم التقیید بالأوامر یؤدی إلی الهزیمة، و ینتهی إلی النكسة المؤلمة.

و إن هؤلاء الشهود سیعلمون الأجیال اللاحقة دروس الإنتصار و الهزیمة حتّی لا یكرروا الأخطاء، و لا تقع حوادث مشابهة.

ثمّ إنه تعالی یختم هذا الاستعراض للسنن و الدروس و النتائج بقوله: وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ فهو لا ینصرهم و لا یدافع عنهم، و لا یمكّنهم من المؤمنین الصالحین العاملین بتعالیم السماء الآخذین بسنن اللّه فی الكون و الحیاة.

الحوادث المرة میدان تربیة:

أجل، إن لمعركة «أحد» و ما لحق بالمسلمین فیها من هزیمة نتائج و آثارا، و من نتائجها و آثارها الطبیعیة أنها كشفت عن نقاط الضعف فی الجماعة و الثغرات الموجودة فی كیانها، و هی وسیلة فعالة و مفیدة لغسل تلك العیوب و التخلّص من تلك النواقص و الثغرات، و لهذا قال سبحانه: وَ لِیُمَحِّصَ ۴۳۹] اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا أی أن اللّه أراد- فی هذه الواقعة- أن یتخلص المؤمنون من العیوب و یریهم ما هم مبتلون به من نقاط الضعف. إذ یجب لتحقیق الانتصارات فی المستقبل أن یمتحنوا فی بوتقة الاختبار، و یزنوا فیها أنفسهم كما-

قال الإمام علی علیه السّلام: «فی تقلب الأحوال علم جواهر الرجال».

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۳

و لهذا قد یکون لبعض الهزائم و النکسات من الأثر فی صیاغة المجتمعات الإنسانیة و تربیتها ما یفوق أثر الانتصارات الظاهریة.

و الجدیر بالذکر أن مؤلف تفسیر المنار نقل عن استاذه مفتی مصر الأکبر الشیخ محمد عبده أنه رأی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام فقال له: «رأیت النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لیلة الخمیس الماضیة (غرة ذی القعدة سنة ۱۳۲۰) فی الرؤیا منصرفا مع أصحابه من أحد و هو یقول: «لو خیّرت بین النصر و الهزیمة لاخترت الهزیمة» أی لما فی الهزیمة من التأدیب الإلهی للمؤمنین و تعلیمهم أن یأخذوا بالاحتیاط و لا یغتروا بشیء یشغلهم عن الاستعداد و تسدید النظر[۴۴۰].

و أما نتیجة هذه التربیة و الصیاغة التی یتلقاها المؤمنون فی خضم المحن و المصائب و اتون الحوادث المرة فهو حصول القدرة الکافیة لدحر الشرک و الکفر دحرا ساحقا و کاملا. و إلی هذا أشار بقوله: وَ یَمْحَقَ ۴۴۱] الْکافِرِینَ

فإن المؤمنین بعد أن تخلصوا- فی دوامة الحوادث- من الشوائب یحصلون علی القدرة الکافیة للقضاء التدریجی علی الشرک و الکفر، و تطهیر مجتمعهم من هذه الأقذار و الشوائب، و هذا یعنی أنه لا بدّ أولا من تطهیر النفس ثمّ تطهیر الغیر.

أی التطهر ثمّ التطهیر.

و فی الحقیقة کما أن القمر- مع ما هو علیه من النور و البهاء الخاصین به- یفقد نوره شیئا فشیئا أمام وهج الشمس و بیاض النهار حتّی یغیب فی ظلمة المحاق فلا یعود یری إلّا عند ما تنسحب الشمس من الأفق، کذلک یأفل نجم الشرک و أهله و تتضاءل قوة الکفر و أشیاعه کلّما ازداد صفاء المسلمین المؤمنین، و خلصوا من رواسب الضعف و الاعوجاج و الانحراف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۴

فهناک علاقة متقابلة بین تمحیص المؤمنین و ارتقائهم فی مدارج الخلوص و الطهر، و مراتب الصفاء و التقوی، و بین انزیاح الکفر و الشرک و اندثار معالمها و آثارهما عن ساحة الحیاة الاجتماعیة.

هذه هی الحقیقة الکبری و الخالدة التی یلخصها القرآن فی هاتین الجملتین اللتین تشکل الأولی منها المقدمة و الثانیة النتیجة.

ثمّ إنه یفیدنا القرآن درسا من واقعة «أحد» فی تصحیح خطأ فکری وقع فیه المسلمون فیقول: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا یَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِینَ جاهَدُوا مِنْکُمْ وَ یَعْلَمَ الصَّابِرِینَ أی هل تظنون أنکم تنالون أوج السعادة المعنویة بمجرد اختیارکم لاسم المسلم، أو بمجرد أنکم حملتم العقیدة الإسلامیة فی الفکر دون أن تطبقوا ما یتبعها من التعالیم؟

لو کان الأمر کذلک لکان هینا جدا، و لکن لیس کذلک حتما، فإنه ما لم تطبق التعالیم التی تتبع تلک المعتقدات، فی واقع الحیاة العملیة لم ینل أحد من تلک السعادة العظمی شیئا.

و هنا بالذات یجب أن تتمیز الصفوف، و یعرف المجاهدون الصابرون عن غیرهم.

مزاعم جوفاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۷۱۴

ّ إنه کان هناک جماعة من المسلمین- بعد معرکة «بدر» و استشهاد فریق من أبطال الإسلام- یتمنون الموت فی أحادیثهم و مجالسهم و یقولون: لیتنا نلنا الشهادة فی «بدر»، و من الطبیعی أن یکون بعض تلک الجماعة صادقین فی تمنیهم و البعض الآخرون کاذبین یتظاهرون بهذه الأمنیة، أو یجهلون حقیقة أنفسهم، و لکن لم یلبث هذا الوضع طویلا، فسرعان ما وقعت معرکة أحد الرهیبة المؤلمة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۵

فقاتل المجاهدون الصادقون بشهامة و بسالة و صدق و کرعوا کؤوس الشهادة، و حققوا أمانیهم، و لکن الذین کانوا یتمنونها کذبا و

تظاهرا ما إن رأوا علائم الهزیمة التی لحقت بالجیش الإسلامی فی تلک الواقعة حتّی فروا خوفا و جبنا، و ظنا بنفوسهم و أرواحهم، تارکین الساحة للعدو الغاشم، فنزلت هذه الآیة توبخهم و تعاتبهم إذ تقول: وَ لَقَدْ کُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ، فَقَدْ رَأَیْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ فلما ذا فررتم و هربتم من الشیء الذی کنتم تتمنونه طویلا و کیف یفر المرء من محبوبه، و هو یراه و ینظر إلیه؟

دراسة سریعة لعلل الهزیمة فی «أحد»:

لقد مررنا فی الآیات السابقة فی هذا المقطع من الحدیث علی عبارات تکشف کلّ واحدة منها القناع عن واحدة من أسرار الهزیمة التی وقعت فی معرکة أحد، و ها نحن نشیر إلی أهم و أبرز هذه العوامل التی تعاضدت فأدت إلی هذه النکسة المرة، و الحاویة لکثیر من العبر فی نفس الوقت، و هذه العوامل هی:

۱- الخطأ فی المحاسبة عند بعض المسلمین الحدیثی العهد بالإسلام فی فهم مفاهیمه و تعالیمه، حیث إنهم تصوروا أن إظهار الإیمان وحده یکفی لتحقیق الإنتصار، و إن اللّه- لذلک سینزل علیهم نصره، و یمدهم بالقوی الغیبیة فی جمیع المیادین، و لهذا تناسوا و تجاهلوا السنن الإلهیة فی مجال الأسباب الطبیعیة للانتصار من إختیار الخطة الصحیحة، و الإعداد القوی اللازمة، و الیقظة القتالیة.

۲- عدم الانضباط العسکری و مخالفة أوامر النبی القائد المشددة للرماة بالبقاء فی الثغر من الجبل، و الذب عن ظهور المسلمین و قد کان هذا هو العامل الحقیقی المؤثر للهزیمة.

۳- حب الدنیا و الحرص علی الحطام الذی دفع بعض المسلمین الحدیثی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۶

العهد بالإسلام إلی الانصراف إلی جمع الغنائم، و ترک ملاحقة العدو، و وضع الأسلحة حتّی لا- یتأخروا عن الآخرین فی حیازة الغنائم، و کان هذا هو العامل الثالث لتلک النکسة الدامیة التی علمتهم أن الجهاد فی سبیل اللّه یستدعی نسیان جمیع هذه الأمور و التوجه بالکامل إلی الهدف.

۴- الغرور الناشئ عن الإنتصار الساحق و اللامع فی معرکة بدر إلی درجة أنه أنسی بعض المسلمین قوة العدو، و جعلهم یحتقرون تجهیزاته و طاقاته، و یستصغرون شأنه.

هذه هی بعض نقاط الضعف التی ینبغی أن تزول فی میاه هذه النکسة المؤلمة الساخنة، و تتبخر فی أتونها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۷

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۴۴ الی ۱۴۵]

اشارة

وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ وَ مَنْ یَنْقَلِبْ عَلی عَقِبَیْهِ فَلَنْ یَضُرَّ اللَّهَ شَیْئاً وَ سَیَجْزِی اللَّهُ الشَّاکِرِینَ (۱۴۴) وَ ما کانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ کِتاباً مُؤَجَّلًا وَ مَنْ یُرِدْ ثَوابَ الدُّنْیا نُؤْتِهِ مِنْها وَ مَنْ یُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَ سَنَجْزِی الشَّاکِرِینَ (۱۴۵)

سبب النّزول

إن الآیة الأولی من هاتین الآیتین ناظرة أیضا إلی حادثة أخری من حوادث معرکة «أحد» و هی الصیحة التی ارتفعت فجأة فی ذروة

القتال بین المسلمین و الوثنیین أن محمّدا قد قتل.

و لقد قارنت هذه الصیحة نفس اللحظة التی رمی فیها «عمرو بن قمئة الحارثی» النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بحجر فکسر به رباعیته و شجه فی وجهه، فسأل الدم، و غطی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۸

وجهه الشریف ۴۴۲] فقد کان العدو یرید فی هذه اللحظة أن یقضی علی رسول اللّه، و لکن «مصعب بن عمیر» و هو من حملة الرایات فی الجیش الإسلامی ذب عنه حتّی قتل دون النبی، فتوهم العدو أن النبی قد قتل، و لهذا صاح: إلّا أن محمّدا قد قتل، لیخبر الناس بذلک الأمر.

و قد کان لانتشار هذا الخبر أثره الإیجابی فی معنویات الوثنیین بقدر ما ترک من الأثر السیء فی نفوس المسلمین حیث تزعزعت روحیتهم و زلزلوا زلزالا شدیدا، فاضطرب جمع کبیر منهم کانوا یشکلون أغلبیة الجیش الإسلامی، و أسرعوا فی الخروج من میدان القتال، بل و فکر بعضهم أن یرتد عن الإسلام بمقتل النبی و یطلب الأمان من أقطاب المشرکین، بینما کان هناک أقلیة من المسلمین مثل الإمام علی علیه السّلام و أبو دجانة و طلحة و آخرون، یصرون علی الثبات و المقاومة و یدعون الناس إلیه.

فقد جاء أنس بن النضر إلی ذلک الفریق الذی کان یفکر فی الفرار و قال لهم:

«یا قوم إن کان قد قتل محمّد فربّ محمّد لم یقتل فقاتلوا علی ما قاتل علیه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و موتوا علی ما مات علیه» ثمّ شد بسیفه و حمل علی الکفّار و قاتل حتّی قتل، ثمّ لم یمض وقت طویل حتّی تبین أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی قید الحیاة، و تبین علی أثره خطأ ذلک الخبر أو کذبه، فنزلت الآیة الأولی- من الآیتین الحاضرتین- توبخ الذین لاذوا بالفرار بشدة.

التّفسیر

لا لعبادة الشخصیة و تقدیس الفرد:

تعلّم الآیة الأولی من هاتین الآیتین حقیقة أخری للمسلمین استلهاما من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۹

أحداث معرکة «أحد» إذ تقول: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ و هذه الحقیقة هی أن الإسلام لیس دین عبادة الشخصیة حتّی إذا قتل النبی صلی اللّه علیه و آله و سلم و نال الشهادة فی هذه المعرکة- افتراضا- ینتهی کلّ شیء و یسقط واجب الجهاد و النضال عن کاهل المسلمین، بل إن هذا الواجب مستمر، و علیهم أن یواصلوه لأن الإسلام لا ینتهی بموت النبی أو استشهاده، و هو الدین الحقّ الذی أنزل لیبقی خالدا إلی الأبد.

إن عبادة الشخصیة و تقدیس الفرد من أخطر ما یصیب أیة حرکة جهادیة و یهددها بالسقوط و الانتهاء، فإن ارتباط الحرکة أو الدین بشخص معین حتّی لو کان ذلک هو النبی الخاتم صلی اللّه علیه و آله و سلّم معناه توقف کلّ الفعالیات و کلّ تقدّم بفقدانه و غیابه عن الساحة، و هذا النوع من الارتباط هو أحد علائم النقص فی الرشد الاجتماعی.

إنّ ترکیز النبی و إصراره علی مکافحة تقدیس الفرد و عبادة الشخصیة آیة اخری من آیات صدقه، و دلیلا آخر یدل علی حقانیته، لأن قیامه و دعوته لو کان لنفسه و بهدف تحقیق مصالحه الشخصیة للزم أن یعمق فی الأذهان و القلوب هذه الفکرة، و یزید من توجیه الأنظار إلی نفسه و أن جمیع الأشیاء فی هذا الدین مرتبطة بشخصه بحیث إذا غاب عنهم ذهب و انتهی کلّ شیء، و لکن القادة الصادقین کالنبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم لا یفعلون مثل هذا أبدا، و لا یشجعون علی مثل هذه الأفکار، بل یکافحونها بقوة،

و یقولون: إن أهدافنا أعلى من أشخاصنا و هی لا تنتهی بموتنا و بغیابنا، و لهذا یقول القرآن الکریم: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِکُمْ و هو بذلک یستنکر ما دار فی خلد البعض أو قد یدور من أن کلّ شیء فی هذا الدین ینتهی بغیاب النبی- القائد- صلى اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۰

و الجدیر بالذکر أن القرآن استخدم للتعبیر عن الردة إلى الجاهلیة کلمة انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِکُمْ و «الأعقاب» جمع عقب (وزان خشن) بمعنى مؤخرة القدم، فهو تعبیر موح یصور التراجع إلى الوراء و الارتداد الواقعی، و هو أکثر إیحاء و أقوى تصویرا من لفظة الردة و الرجوع و العودة، لأنه بمعنى السیر القهقری.

ثمّ إنه سبحانه یقول: وَ مَنْ یَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَیْهِ فَلَنْ یَضُرَّ اللَّهَ شَیْئاً یعنی أن العودة إلى الکفر و الوثنیة تضرّکم أنتم دون اللّه سبحانه، لأن أمثال هذا التراجع لا یعنی سوى توقفکم فی طریق الخیر و السعی نحو السعادة الکاملة، بل فقدان کلّ ما حصلتموه من العزّة و الکرامة و المجد بسرعة.

ثمّ إنه لما کان هناک- فی معرکة أحد- أقلیة استمرت على جهادها رغم الصعوبات، و انتشار الخبر المفجع عن مقتل الرسول، کان من الطبیعی أن ینال صمودهم هذا و ثباتهم التقدیر اللائق، و لهذا قال سبحانه: وَ سَیَجْزِی اللَّهُ الشَّاکِرِینَ و بذلک مدح القرآن الکریم استقامتهم و صمودهم، و وصفهم بالشاکرین لأنهم أحسنوا الاستفادة و الانتفاع بالنعم فی سبیل اللّه، و هذا أفضل مصادیق الشکر.

إن الدرس الذی تعطیه هذه الآیة فی مکافحة عبادة الشخصیة و تقدیس الفرد هو أبلغ و أفضل درس لجمیع المسلمین فی جمیع العصور و الأزمنة، فعلیهم جمیعا أن یتعلموا من القرآن أن لا یربطوا القضایا الإستراتیجیة و الأهداف العلیا و المصیریة بالأشخاص، بل لا بدّ أن یلتفوا حول الأسس و المبادئ الخالدة التی لا تفنى و لا تتغیر، و لا تتأثر بتغیر الأشخاص أو غیابهم عن الساحة بسبب الموت أو القتل حتّى لو کان ذلک هو النبیّ الأکرم، لکیلا تتوقف عجلة المسیرة عن الحرکة، و لا یتعطل دولاب العمل عن الدوران، بل إن ذلک هو رمز الخلود فی أی مبدأ و حرکة أساسا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۱

و على هذا الأساس فإن جمیع البرامج و التشکیلات المرتبطة بالأشخاص و القائمة بوجودهم الشخصی هی فی الحقیقة برامج و تشکیلات غیر سلیمة و لا طبیعیة، و هی معرضة للزوال و الفناء فی أیة لحظة.

و ممّا یؤسف له أن یکون أغلب التشکیلات الإسلامیة الیوم من هذا القبیل، أی أنها قائمة بالأشخاص، و لذلک فهی سرعان ما تزول و تتهاوى و تتلاشى عند ما یغیب الأشخاص بذواتهم عن الساحة.

إن على المسلمین أن یستلهموا من هذه الآیة فیقیموا مؤسساتهم المتنوعة المختلفة بنحو یستفاد فیها من مواهب الأشخاص اللائقین الموهوبین دون أن یکون مصیرها مرتبطا بمصیرهم حتّى لا تندثر بتغیرهم أو غیابهم.

ثمّ إن جماعة کثیرة من المسلمین ارعبوا و زلزلوا لشائعة مقتل النبی فی أحد- کما أسلفنا- إلى درجة أنهم ترکوا ساحة المعرکة، و فروا بأنفسهم من الموت و حتّى أن بعضهم فکر فی الردة عن الإسلام فکان قوله سبحانه: وَ ما کانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ کِتاباً مُؤَجَّلًا و هو یکرر توبیخهم، و تنبیههم إلى أن الموت بید اللّه، و الفرار لا ینفع فی الخلاص من الأجل الإلهی، فإذا صحّ أن النبی قتل فی المعرکة و نال الشهادة لم یکن ذلک إلّا تحقیقا لسنة إلهیة، فلما ذا خاف المسلمون و کفوا عن القتال؟؟

و من ناحیة أخرى أن الفرار من المعرکة لا یدفع الأجل کما أن مواصلة القتال و البقاء فی المعرکة لا یقرب هو الآخر أجلا، فالفرار من میدان الجهاد حفاظا على النفس لغو لا فائدة فیه.

و هناک بحث حول معنى الأجل، و أن منه حتمیا، و منه معلقا، و الفرق بین النوعین سنوافیک به فی تفسیر الآیة الثانیة من سورة الأنعام بإذن اللّه تعالى.

و بعد عرض هذه الحقائق یعقب سبحانه علی ما قال بقوله: وَ مَنْ یُرِدْ ثَوابَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۲

الدُّنْیا نُؤْتِهِ مِنْها* وَ مَنْ یُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها أی أن ما عمله الإنسان لا یضیع أبدا، فإن کان هدفه دنیویا مادیا کما کان علیه بعض المقاتلین فی «أحد» فإنه سیحصل علی ما یسعی إلیه و یناله.

و أما إذا کان هدفه أسمی من ذلک، و صب جهوده فی سبیل الحصول علی الحیاة الخالدة و الفضائل الإنسانیة بلغ إلی هدفه حتما و أوتی ثواب الآخرة الذی هو أعظم من کلّ ثواب و أسمی من کلّ نتیجة، فلما ذا إذن لا یصرف الإنسان جهوده، و یوظف ما أوتی من طاقات معنویة و مادیة فی الطریق الثانی و هو الطریق الخالد السامی؟

و تأکیدا لهذه الحقیقة قال سبحانه: مرة أخری وَ سَنَجْزِی الشَّاکِرِینَ

و الجدیر بالتأمل أن الفعل فی هذه العبارة جاء فی الآیة السابقة، بصیغة الغائب سَیَجْزِی و جاء هنا فی صورة المتکلم «سنجزی» و هذا یفید غایة التأکید للوعد الإلهی بإعطاء الثواب لهم، فهو تدرج من الوعد العادی إلی الوعد المؤکد، فکأنّ اللّه یرید أن یقول- و ببساطة- أنا ضامن لجزائهم و ثوابهم.

ثمّ إنه

جاء فی تفسیر «مجمع البیان» فی ذیل هذه الآیة عن الإمام الباقر علیه السّلام أنه قال: إنه أصاب علیا علیه السّلام یوم «أحد» إحدی و ستون جراحة، و أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أمر أم سلیم و أم عطیة أن تداویاه، فقالتا إنا لا نعالج منه مکانا إلّا انفتق مکان آخر، و قد خفنا علیه، فدخل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمون یعودونه و هو قرحة واحدة فجعل یمسحه بیده، و یقول: «إن رجلا لقی هذا فی اللّه فقد أبلی و أعذر» و کان القرح الذی یمسحه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یلتئم،

و

قال علی علیه السّلام: «الحمد للّه إذ لم أفر و لم أوّل الدبر»

فشکر اللّه له ذلک فی موضعین من القرآن و هو قوله تعالی: وَ سَیَجْزِی اللَّهُ الشَّاکِرِینَ و قوله تعالی: وَ سَنَجْزِی الشَّاکِرِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۳

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۴۶ الی ۱۴۸]

اشارة

وَ کَأَیِّنْ مِنْ نَبِیٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّیُّونَ کَثِیرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَکانُوا وَ اللَّهُ یُحِبُّ الصَّابِرِینَ (۱۴۶) وَ ما کانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِی أَمْرِنا وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْکافِرِینَ (۱۴۷) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْیا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ (۱۴۸)

التّفسیر

المجاهدون السابقون:

بعد استعراض حوادث معرکة «أحد» فی الآیات السابقة، جاءت الآیات الحاضرة لتحث المسلمین علی التضحیة و الثبات و تشجعهم و تثبتهم بذکر تضحیات من سبقوهم من أصحاب الرسل الماضین و أتباعهم المؤمنین الصادقین الأبطال، و توبخ ضمنا أولئک الذین

فروا فی «أحد» و حدثوا أنفسهم بما حدثوا إذ

یقول سبحانه: فی الآیة الأولی من هذه الآیات: وَ کَأَیِّنْ ۴۴۳] مِنْ نَبِیٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّیُّونَ ۴۴۴] کَثِیرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ فأنصار الأنبیاء إذا واجهوا المصاعب و الجراحات و الشدائد فی قتالهم الأعداء لم یشعروا بالضعف و الهوان أبدا، و لم یخضعوا للعدو أو یستسلموا له، و من البدیهی أن اللّه تعالی یحب مثل هؤلاء الأشخاص الذین یثبتون و یصبرون فی القتال وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَکانُوا وَ اللَّهُ یُحِبُّ الصَّابِرِینَ

فهؤلاء عند ما کانوا یواجهون المشاکل بسبب بعض الأخطاء أو العثرات و عدم الانضباط لم یفکروا فی الاستسلام للأمر الواقع، أو یحدثوا أنفسهم بالفرار أو الارتداد عن الدین و العقیدة بل کانوا یتضرعون إلی اللّه یطلبون منه الصبر و الثبات، و العون و المدد و یقولون رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِی أَمْرِنا* وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْکافِرِینَ

إنهم بمثل هذا التفکر الصحیح و العمل الصالح کانوا یحصلون علی ثوابهم دون تأخیر، و هو ثواب مزدوج، أما فی الدنیا فالنصر و الفتح، و أما فی الآخرة فما أعد اللّه للمؤمنین المجاهدین الصادقین: فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْیا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ.

ثمّ إنه سبحانه یعد هؤلاء- فی نهایة هذه الآیة- من المحسنین إذ یقول:

وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ

و بهذا النحو یبین القرآن درسا حیا للمسلمین الحدیثی العهد بالإسلام، من

حیاة الأمم السابقة و سلوکهم مع أنبیائهم، و کیفیة تعاملهم مع المشکلات الطارئة، و کیفیة التغلب علیها، و هو درس من شأنه أن یربیهم و یعدّهم للحوادث المستقبلة، و المعارک القادمة.

وقفات اخری عند هذه الآیات

ثمّ إن هناک فی هذه الآیات نقاطا هامة أخری جدیرة بالتوجه و الالتفات نشیر إلیها فیما یلی:

۱- الصبر- کما أشرنا إلیه سابقا- یعنی الثبات و الصمود، و لهذا جاء فی هذه الآیة فی مقابل «الضعف و الاستکانة» کما و یدل علی ذلک کون الصابرین فی ردیف المحسنین إذ قال فی الآیة الأولی: وَ اللَّهُ یُحِبُّ الصَّابِرِینَ و قال فی الآیة الثالثة وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ و هو إشعار بأن الإحسان لا یمکن إلّا بالثبات و الصمود و الصبر، لأن المحسن تواجهه آلاف المشاکل، فإذا لم یکن مزودا بالصمود و الصبر و الثبات و الاستقامة لم یمکنه الاستمرار فی عمله، بل سرعان ما یترکه فی خضم المشکلات.

۲- إن المجاهدین الحقیقیین هم الذین لا ینسبون الهزیمة إلی غیرهم، أو یسندونها إلی عوامل و أسباب خیالیة و وهمیة، بل یبحثون عنها فی نفوسهم و ذواتهم، و یحاولون- بصدق- التخلص منها من خلال تصحیح الأخطاء، و ترمیم الثغرات، بل لا یتلفظون بکلمة الهزیمة، إنما یعبرون عنها بالإسراف، و الإفراط غیر المبرر، تماما علی العکس منا الیوم حیث نسعی غالبا لأن نتجاهل هزائمنا بالمرة، و أن ننسبها إلی عوامل خارجیة لا تمت إلی ذواتنا بصلة، و لا ترتبط بسلوکنا و أفکارنا، و لهذا فإننا لا نفکر فی إصلاح الأخطاء، و إزالة نقاط ضعفنا.

۳- لقد عبرت الآیة الثالثة عن الجزاء الدنیوی بثواب الدنیا، و لکنها عبرت

عن الجزاء الأخروی بحسن ثواب الآخرة، و هذه إشارة إلی أن ثواب الآخرة یختلف عن ثواب الدنیا اختلافا کلیا، لأن ثواب الدنیا

مهمـا يكن فهو ممزوج بالفناء و العـدم، و يقترن ببعض المنغصات و المكروهات الـذى هو من طبيعـة الحياة الـدنيا، فى حين أن ثواب الآخرة حسن كلّه، إنه خير خـالص لا فنـاء فيه و لا عناء، و لا انقطاع فيه و لا انتهاء، و لا كـدورات فيه و لا منغصات، و لا متاعب و لا مزعجات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۷

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۴۹ الى ۱۵۱]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِـرِينَ (۱۴۹) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِـرِينَ (۱۵۰) سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (۱۵۱)

التّفسير

تحذيرات مكررة:

هـذه الآيات- كسابقاتها- نزلت بعـد معركـة «أحـد» و بهدف تقويم و تحليل الحوادث التى وقعت أو لا بست تلكم المعركة، و يشـهد بهذا وضع هذه الآيات و الآيات السابقة.

إن ما يبـدو للنظر هو أن أعـداء الإسـلام أخـذوا- بعـد معركـة أحـد- يسـعون فى إلقاء الفرقـة فى صـفوف المسـلمين ببث سلسلة من الدعايات المسمومة، و المغلفة أحيانا بلباس النصيحة، و التحرّق على ما آل إليه المسلمون، و كانوا بالاستفادة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۸

الأوضاع النفسية المتردية التى كان يمر بها جماعة من المسلمين، يحاولون زرع بذور النفور من الإسلام بينهم.

و لا يسـتبعد أن يكون اليهود و النصارى قـد ساعـدوا المنافقين فى هـذه الخطة الحاقدة، كما حدث فى المعركة نفسـها حيث كان لهم حظ فى الترويج للشائعة التى أطلقت حول مقتل النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بهدف إضعاف معنويات المقاتلين المسلمين.

الآيـة الأولى من هـذه الآيـات تقول: يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِـرِينَ فهى تحـذر المسـلمين من إطاعـة الكفّار و تقول: إن إطاعة الكفّار تعنى العودة إلى الجاهلية بعد تلك الرحلة العظيمة فى طريق التكامل المعنوى و المادى فى ظل التعاليم الإسلامية.

إن إطاعة الكفّار فى وساوسهم و تلقيناتهم، و الإصغاء إلى دعاياتهم تعنى العودة إلى النقطة الأولى ألا و هى الكفر و الفساد و السقوط فى حضـيض الانحطاط، و فى هـذه الصورة يكونون قد ارتكبوا إثما كبيرا سـتلازمهم تبعاته، و آثاره الشـريرة، فأية خسارة أكبر من أن يستبدل الإنسان الإيمان بالكفر، و النور بالظلام، و الهدى بالضلال و السعادة بالشقاء؟! ثمّ إنه سبحانه يؤكد بأن لهم خير ناصر و ولى و هو اللّه: بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

إنه الناصر الذى لا يغلب، بل لا تساوى قدرته أية قدرة، فى حين ينهزم غيره من الموالى، و يندحر غيره من الأسياد.

ثمّ إنه سـبحانه يشـير إلى نموذج من نماذج التأييد الإلهى للمسـلمين فى أحرج الظروف، و أحلك المراحل إذ يقول: سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

ففى هذا المنقطع من الآية يشـير إلى نجاة المسـلمين بعد معركة أحد، و خلاصهم بأعجوبة، و هو بذلك- كما أسلفنا- يشير إلى واحد

من موارد حمایة اللّه للمسلمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۹

و غضبه علی الکفّار، و یطمئن المسلمین إلی المستقبل و یزید من ثقتهم بأنفسهم، و یؤمّلهم فی التأییدات الإلهیة القادمة.

فالوثنیون المکیون- کما سبق أن قلنا فی قصة معرکة أحد- مع أنهم أحرزوا فی تلک المعرکة انتصارا ملفتا للنظر، و استطاعوا أن یبددوا الجیش الإسلامی و لو ظاهرا، رأوا أن یعودوا إلی ساحة المعرکة، و یأتوا علی البقیة الباقیة من القوّة الإسلامیة، بل و لم یترددوا مطلقا فی إغارة علی المدینة المنورة، و القضاء علی شخص النبی الکریم صلی اللّه علیه و آله و سلّم الذی کان قد بلغهم عدم صحة الخبر بمقتله فی تلک المعرکة.

إلّا أن اللّه سبحانه قد ألقی فی قلوبهم رعبا عجیبا، و خوفا بالغا صرفهم عن نیتهم تلک.

علی أن هذا لخوف الذی لم یکن له ما یبره أبدا سوی أنه من خواص الکفر و الوثنیة و الإعتقاد بالخرافة قد شمل وجودهم کلّه حتّی أنهم- کما نقرأ ذلک فی الأحادیث- کانوا عند عودتهم من «أحد» و اقترابهم من مکة أشبه ما یکونون بجیش منهزم مندحر، رغم ما قد حققوه من انتصار شبه ساحق.

و هذا هو ما تلخصه الآیة إذ تقول: سَنُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِینَ کَفَرُوا الرُّعْبَ أی أننا کما ألقینا الرعب فی قلوب الکفّار فی أعقاب معرکة «أحد» و رأیتم نموذجا منه بأم أعینکم، سنلقی مثله فی قلوب الذین کفروا فیما بعد، و لهذا ینبغی أن تطمئنوا إلی المستقبل، و لا تأخذکم فی اللّه لومة لائم، و لا تهزکم و لا تزعزعکم شماتة شامت و وسوسة موسوس.

و الجدیر بالذکر أن الآیة تعلل نشأة هذا الرعب الواقع فی قلوب الکفّار کالتالی: بِما أَشْرَکُوا بِاللَّهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً.

لقد کانوا قوما أهل خرافة، لا یتبعون دلیلا، و لا یلتمسون برهانا، و لهذا کثیرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۰

ما کانت المحقرات من الأشیاء تعظم فی عیونهم و أفکارهم، فیتخذون الحجر و المدر و الخشب معبودات و آلهة لهم، یضعفون أمام الحوادث ضعفا عجیبا و یستکینون لها استکانة مذلة لأنهم سرعان ما یخطئون فی حساباتهم و تقدیراتهم، فإذا ما حدث حادث طفیف- فی حیاتهم- کما لو سمعوا مثلا- بأن المسلمین المهزومین عادوا مع جراحاتهم و جرحاهم إلی ساحة المعرکة لملاحقة الأعداء، عظم ذلک فی عیونهم و کبر فی نظرهم، و حسبوا له أعظم حساب، و خافوا من ذلک أشد الخوف، و هی بعینها الحالة التی یعانی منها المستکبرون فی عالمنا الراهن و عصرنا الحاضر، حیث إننا نشاهد کیف یخافون من أصغر حادث، فیتصورون الذرة جبلا و الحبة قبة، و ذلک لأنهم لا یرکنون إلی رکن وثیق، و لم یختاروا لأنفسهم کهفا حصینا، من إیمان صحیح و عقیدة مستقیمة.

لقد ظلم هؤلاء الکافرون أنفسهم و ظلموا مجتمعاتهم ف: مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَی الظَّالِمِینَ و ما أسوأه من مثوی و مآل.

الإنتصار بسبب خوف العدو:

تفید روایات کثیرة أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یمتاز فی جملة ما یمتاز به أنه کان ینتصر علی أعدائه بسبب خوفهم و إلقاء الرعب فی قلوبهم ۴۴۵].

إن هذا الموضوع یشیر- فی نفس الوقت- إلی أحد عوامل الإنتصار فی المعارک و الحروب و خاصة فی مثل هذا الیوم الذی تعتبر فیه معنویات المقاتلین من أهم الأمور العسکریة، و من أهم القضایا فی شؤون التکتیک الحربی.

و لهذا فإن لمعنویة المقاتلین المرتفعة من التأثیر فی تحقیق النصر ما لیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۱

للسلاح من حيث الكمية و الكيفية.

من هنا بالغ الإسلام في رفع معنويات المقاتلين، فمضى يقوى فيهم روح الإيمان و الحبّ للجهاد، و الاعتزاز بالشهادة، و الاتكال على اللّه القادر المنان و بهذا بلغ بالمجاهدين المسلمين أعلى قمم الاستقامة و الثبات، و الشجاعة و البسالة فى حين كان المشركون و عبدة الأوثان، الذين لم يكونوا يعتقدون إلّا بأصنام صم بكم لا تضر و لا تنفع، و لا يؤمنون بمعاد و قيامة و حياة بعد الموت، كانوا يعانون من نفسية ضعيفة منهزمة مهزوزة، فكان هذا التفاوت بين النفسيتين هو أحد العوامل المؤثرة لانتصار المسلمين عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۲

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵۲ الى ۱۵۴]

اشارة

وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (۱۵۲) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا ما أَصابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۵۳) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۱۵۴)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۳

التّفسير

الهزيمة بعد الإنتصار:

قاتل المسلمون فى المرحلة الأولى من معركة «أحد» بشجاعة خاصّة، و وقفوا وقفة رجل واحد فأحرزوا انتصارا سريعا، و بددوا جيش العدو فى أقرب وقت، فدب السرور و الفرح فى المعسكر الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه كما أسلفنا، إلّا أنّ تجاهل فريق من الرماة لأوامر الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم المشددة بالبقاء عند ثغر الجبل و المحافظة عليه سبّب فى أن تنقلب الآية.

فقد أقدم ذلك الفريق من الرماة الذين كلّفهم النبى القائد صلى اللّه عليه و آله و سلّم بحراسة الثغر الموجود فى جبل «عينين» بقيادة «عبد اللّه بن جبير» على ترك موقعهم المهم جدا عند ما عرفوا بهزيمة قريش، و اشتغال المسلمين بجمع الغنائم، و فسح هذا الأمر المجال لكمين من قريش فى أن يهاجموا المسلمين من الخلف فيتحمل الجيش الإسلامى ضربة نكراء.

و عند ما عاد المسلمون بعد تحمل خسائر عظيمة إلى المدينة كان يسأل أحدهم رفيقه: ألم يعدنا اللّه سبحانه بالفتح و النصر، فلما ذا هزمنا فى هذه المعركة؟

فكانت الآيات الحاضرة جوابا على هذا السؤال، و توضيحا للعلل الحقيقية التى سببت تلك الهزيمة، و إليك فيما يلى تفسير جزئيات هذه الآيات و تفاصيلها:

قال سبحانه: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ ۴۴۶] بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا[۴۴۷] فَشِلْتُمْ

ففی هذه العبارة یشیر القرآن الکریم بل و یصرح بأن اللّه قد صدق وعده و أنزل النصر علی المسلمین فی بدایة تلک المعرکة، فقتلوا العدو، و فرقوا جمعهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۴

و مزقوا شملهم ما داموا کانوا یتبعون تعالیم النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و یتقیدون بأوامره، و ما داموا کانوا یتحلون بالثبات و الاستقامة، فلم تلحق بهم الهزیمة إلّا عند ما وهنوا و تجاهلوا أوامر القیادة النبویة الدقیقة. و هذا یعنی أن علیهم أن لا یتوهموا بأن الوعد بالتأیید و النصر مطلق لا قید له و لا شرط، بل کل الوعود الإلهیة بالنصر مقیدة باتباع تعالیم اللّه بحذافیرها، و التمسک بأهدافها.

أما متی وعد اللّه المسلمین بالنصر فی هذه المعرکة، فهناک احتمالان:

الأوّل: أن یکون المراد هو تلک الوعود العامة التی یعد اللّه بها المؤمنین دائما حیث یخبرهم بأنّه سبحانه ینصرهم علی الکافرین و الأعداء.

الآخر: ان النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد وعد المسلمین بصراحة قبل أن یخوضوا معرکة «أحد» بأنهم منتصرون فی تلک المعرکة، و وعد النبی هو الوعد الإلهی بلا ریب.

ثمّ إنه سبحانه یقول: بعد بیان هذه الحقیقة حول النصر الإلهی وَ تَنازَعْتُمْ فِی الْأَمْرِ وَ عَصَیْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراکُمْ ما تُحِبُّونَ

و من هذه العبارة التی هی إشارة إلی ما طرأ علی وضع الرماة فی جبل «عینین» یستفاد بوضوح بأن الرماة الذین کلفوا بحراسة الثغر قد اختلفوا فیما بینهم فی ترک ذلک الثغر و مغادرة ذلک الموقع فی الجبل فعصی فریق کبیر منهم، (و هذا قد یستفاد من لفظة عصیتم التی تفید أن الأغلبیة و الأکثریة من الرماة قد عصت و تجاهلت تأکیدات النبی بالبقاء هناک).

و لهذا یقول القرآن الکریم بأنّکم عصیتم من بعد ما أراکم النصر الساحق الذی کنتم تحبون، أی أنّکم بذلتم غایة الجهد لتحقیق النصر، و لکنکم وهنتم فی حفظه، و تلک حقیقة ثابتة أبدا أن الحفاظ علی الانتصارات أصعب بکثیر من تحقیقها.

أجل لقد اختلفتم فیما بینکم و تنازعتم فی تلک اللحظات الحساسة البالغة الأهمیة مِنْکُمْ مَنْ یُرِیدُ الدُّنْیا وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرِیدُ الْآخِرَةَ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۵

ففی الوقت الذی کان البعض (و هم الأغلب کما قلنا) یفکرون فی الغنائم و قد سال لعابهم لها حتّی أنهم ترکوا موقعهم الخطیر فی الجبل، بینما بقیت جماعة أخری قلیلة مثل «عبد اللّه بن جبیر» و بعض الرماة ثابتین فی مکانهم یذبون عنه الأعداء و یطلبون الآخرة و الثواب الإلهی العظیم.

و هنا تغیر مجری الأمور، و انعکست القضیة فبدل اللّه الإنتصار إلی الهزیمة لیمتحنکم و ینبّهکم، و یربّیکم: ثُمَّ صَرَفَکُمْ عَنْهُمْ لِیَبْتَلِیَکُمْ

ثمّ إن سبحانه غفر لکم کلّ ما صدر و بدر عنکم من عصیان و تجاهل لأوامر الرسول و ما ترتب علی ذلک من التبعات فی حین کنتم تستحقون العقاب، و ما ذلک إلّا لأن اللّه لا یضن بنعمة علی المؤمنین، و لا یبخل علیهم بموهبة وَ لَقَدْ عَفا عَنْکُمْ، وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ

أجل، إنه تعالی یحب المؤمنین، و لا یترکهم و شأنهم و لا یکلهم إلی أنفسهم إلّا فی بعض الأحیان لیتنبهوا، و یثوبوا إلی رشدهم فیزدادوا التصاقا بالشریعة، و اهتماما بالمسؤولیات، و یقظة و إحساسا.

ثمّ إنه سبحانه یذکر المسلمین بموقفهم فی نهایة معرکة «أحد» فیقول: إِذْ تُصْعِدُونَ [۴۴۸] وَ لا تَلْوُونَ عَلی أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ فِی أُخْراکُمْ [۴۴۹] أی تذکروا إذ فررتم من المعرکة، و رحتم تلوذون بالجبل أو تنتشرون فی السهل، تارکین رسول اللّه وحده بین المهاجمین المباغتین من المشرکین و هو یدعوکم من ورائکم وینادیکم قائلا: «إلیّ عباد اللّه- إلیّ عباد اللّه فإنی رسول اللّه» و أنتم لا تلتفتون إلی الوراء أبدا، و لا تلبون نداء النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۶

و فی ذلک الوقت أخـذت الهموم و الأحزان تترى علیکم فَأَثابَکُمْ غَمًّا بِغَم لما أصابکم من النکسـة و لفقـدان مجموعة کبیرة من خیار فرسانکم و جنودکم و لمـا أصـاب جماعـة منکم من الجراحـات و الإصابات و لما بلغکم من شائعـة قتل النبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و لقد کان کلّ ذلک من نتائج مخالفتکم لأوامر القیادة النبویة، و تجاهلکم لتأکیداتها بالمحافظة على المواقع المناطة لکم.

و لقـد کـان هجوم تلـک الغموم علیکم من أجـل أن لا تحزنوا على ما فاتکم من غنائم الحرب، و ما أصابکم من الجراحات فی ساحة المعرکة فی سبیل تحقیق الإنتصار لِکَیْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَکُمْ وَ لا ما أَصابَکُمْ

وَ اللَّهُ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ فهو یعرف جیـدا من ثبت منکم و أطاع، و کان مجاهـدا واقعیا، و من هرب و عصـی، و على ذلک فلیس لأحد أن یخـدع نفسه، فیـدعی خلاف ما صـدر منه فی تلک الحادثـة، فإذا کنتم من الفریق الأول بحق و صـدق فاشکروه سبحانه، و إن لم تکونوا کذلک فتوبوا إلیه و استغفروه من ذنوبکم.

وساوس الجاهلیة:

اتسـمت اللیلـة التی تلت معرکـة «أحـد» بالقلق و الاضـطراب الشدیـدین، فقـد کان المسـلمون یتوقعون أن یعود جنود قریش الفاتحون المنتصـرون إلى المدینـة مرة أخرى لاجتیاح البقیـة الباقیـة من القوّة الإسـلامیة، و القضاء على من تبقى من المقاتلین المسـلمین، و لعلّ بعض الأخبار کان قد نمّ إلى المسلمین عن اعتزام المشرکین و نیتهم فی العودة إلى ساحة القتال.

و لا شکّ أنهم لو عادوا لکان المسلمون یواجهون أحلک الظروف فی تلک الموقعة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۷

بید أنه کان هناک بین المسـلمین ثلة من المجاهدین الصادقین الذین ندموا على الفرار من المیدان فی «أحد» فتابوا إلى اللّه، و اطمأنوا إلى وعود النبی الکریم حول المستقبل، قد أخذهم نوم مریح، و غلبهم نعاس هانئ و لذیذ و هم فی عدة الحرب، فی الوقت الذی کان فیه المنافقون و ضـعاف الإیمان، و الجبناء یعانون من کابوس الأوهام و الوساوس طوال اللیل، و لم یذوقوا لذة النوم، فکانوا- من حیث لا یشـعرون و لا یقصـدون- یحرسون المؤمنین الحقیقین الـذین کانوا یستریحون فی تلک النومة الطارئة اللذیذة. و إلى هذا کلّه یشـیر الکتاب العزیز فی الآیة الحاضرة إذ یقول: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً[۴۵۰] نُعاساً یَغْشى طائِفَةً مِنْکُمْ، وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أجـل، إن المنافقین و الجبناء و ضـعاف النفوس و الإیمان لم یزرهم النوم و لا حتى النعاس فی تلک اللیلـة خوفا على نفوسـهم، و على أرواحهم، و جریـا وراء الوسـاوس الشـیطانیة، و المخـاوف التی هی من طبیعـة و لوازم النفـاق و ضـعف الیقین و وهن الإیمان، فیما ان المؤمنون الصـادقون یستریحون فی ذلک النعاس اللذیـذ، و تلک النومـة الطارئـة الهانئـة، و هـذا هو أحـد آثار الإیمان و ثماره المهمة البارزة، فإن المؤمن یحظى بالراحـة و الطمأنینـة حتّى فی هـذه الدنیا، على العکس من غیر المؤمنین من الکفار أو المنافقین أو ضـعاف الإیمان، فإنهم محرومون من الطمأنینة و الراحة اللذیذة تلک.

ثمّ إن القرآن الکریم یعمد إلى بیان و استعراض طبیعة ما کان یدور بین أولئک المنافقین و ضعاف الإیمان من أحادیث و حوار، و ما کان یدور فی خلدهم من ظنون و أفکار، إذ یقول: یَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَیْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِیَّةِ.

إنّهم کانوا یظنون باللّه ما کانوا یظنونه به أیام کانوا یعیشون فی الجاهلیة، و قبل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۸

أن تبزغ علیهم شـمس الإسـلام، فقـد کانوا یتصورون أن اللّه سـیکذبهم وعده، و یظنون أن وعود النبی غیر محققة و لا صادقة، و کان یقول بعضـهم للآخر: هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَیْءٍ أی هل سیصیبنا النصر و نحن فی هذه الحالة من السقوط و الهزیمة، و المحنة و البلیة؟

إنهم كانوا يستبعدون أن ينزل عليهم نصر من اللّه بعد ما لقوا، أو كانوا يرون ذلك محالا.

و لكن القرآن يجيبهم قائلا- قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ أى كيف تستبعدون ذلك أو ترونه محالا- و الأمر كلّه بيد اللّه، و هو قادر أن ينزل عليكم النصر متى وجدكم أهلا لذلك.

على أنهم لم يظهروا كلّ ما كان يدور فى خلدهم من ظنون و أوهام و هواجس خوفا من أن يعدوا فى صفوف الكفار: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ

و كأنهم كانوا يتصورون أن الهزيمة فى «أحد» من العلائم الدالة على بطلان الإسلام، و لذا كانوا يقولون: لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا أى لو كنا على حق لكسبنا المعركة، و لم نخسر كلّ هذه الأرواح و النفوس.

و لكن اللّه تعالى أجابهم و هو يشير فى هذه الإجابة إلى مطلبين.

الأول: إن عليكم أن لا- تتوهموا بأن الفرار من ساحة المعركة، و تجنب الصعاب يمكنه أن ينقذكم من الموت الذى هو قدر لكلّ إنسان و لهذا يقول سبحانه:

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ فإن الذين جاء أجلهم، و حان حين موتهم لا بدّ أن يموتوا و لا محالة هم مقتولون حتّى لو كانوا فى مضاجعهم.

و فى الأساس فإن كلّ أمة استحقت الهزيمة لوهن أكثريتها، لا بدّ أن تذوق الموت، و لا محالة يصيبها القتل، فالأجدر بها أن تموت فى ساحات المعارك، و تحت ضربات السيوف، و هى تسطر ملاحم البطولة، و تخط أسطر البسالة، لا أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۹

تموت خانعة، أو تقتل ذليلة على فراشها، و ما أروع ما قاله الإمام على إذ قال عليه السّلام:

«لألف ضربة بالسيف أحب إلىّ من ميتة على فراش».

و الثانى: إن هذه الحوادث لا- بدّ أن تقع حتّى يبدى كلّ واحد مكنون صدره، و مكتوم قلبه، فتتشخص الصفوف، و تتميز جواهر الرجال، هذا مضافا إلى أن هذه الحوادث سبب لتربية الأشخاص شيئا فشيئا، و لتخليص نياتهم، و تقوية إيمانهم، و تطهير قلوبهم وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ

ثمّ يقول سبحانه: فى ختام هذه الآية وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ و لذلك فهو لا ينظر إلى أعمال الناس بل يمتحن قلوبهم، ليطهرها من كلّ ما تعلق بالنفوس و الأفئدة من شوائب الشرك و النفاق، و الشك و التردد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۰

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۵۵]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۱۵۵)

التّفسير

الذنب ينتج ذنبا آخر:

هذه الآية ناظرة أيضا إلى وقائع معركة «أحد»، و تقرر حقيقة أخرى للمسلمين، و هى أن الذنوب و الانحرافات التى تصدر من الإنسان

بسبب من وساوس الشيطان، تفرز آثاما و ذنوبا اخرى بسبب وجود القابلية الحاصلة فى النفس الإنسانية نتيجة الذنوب السابقة، و التى تمهد لذنوب مماثلة و آثام أخرى و إلّا فإن القلوب و النفوس التى خلت و طهرت من آثار الذنوب السالفة لا تؤثر فيها الوساوس الشيطان، و لا تتأثر بها، و لهذا قال سبحانه:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۱

و هكذا يعلمهم القرآن أن عليهم أن يضاعفوا الجهد فى تربية نفوسهم و تطهير قلوبهم لتحقيق الإنتصار فى المستقبل.

و يمكن أن يكون المقصود من الذنب الذى كسبوا هو حب الدنيا و جمع الغنائم، و مخالفة الرسول، و تجاهل أوامره فى بحبوحة المعركة، أو ذنوب أخرى كانوا قد اقترفوها قبل معركة «أحد» أضعفت من طاقاتهم الإيمانية، و أضرت بالجانب المعنوى فيهم.

و قد نقل العلّامة الطبرسى عن أبى القاسم البلخى أنه لم يبق مع النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يوم «أحد» إلّا ثلاث عشرة نفسا (فيكون عددهم مع النبى ۱۴) خمسة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار و قد اختلف فى الجميع إلّا فى على و طلحة فإنهما ثبتا و لم يفرا باتفاق الجميع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۲

الآيات [سورة آلعمران (۳): الآيات ۱۵۶ الى ۱۵۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۵۶) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّم لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۱۵۷) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (۱۵۸)

التّفسير

استغلال المنافقين:

كانت حادثة «أحد» تحظى بأهمية كبيرة من وجهة نظر المسلمين و ذلك من جهتين:

أولا: لأنها كانت تعتبر خير مرآة تعكس حقيقة المسلمين فى تلك المرحلة، و تساعدهم على رؤية نقاط ضعفهم، فإصلاحها و إزالتها، و لهذا السبب ركز القرآن على أحداث هذه الواقعة و ملابساتها و قضاياها ذلك التركيز الكبير و أولاها ذلكم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۳

الاهتمام البالغ، فنحن نرى كيف نستفيد منها دروسا و عبرا كثيرة و كبيرة، فى الآيات القادمة كما فى الآيات السابقة.

و من جهة أخرى هيأت أحداث هذه الواقعة أرضية و فرصة مناسبة للمنافقين بأن يقوموا بمحاولاتهم التشويشية، و من أجل هذا نزلت آيات عديدة لإبطال مفعول هذه المحاولات و تفشيل هذه المساعى الماكرة، من جملتها الآيات المذكورة أعلاه.

فهذه الآيات تتوجه بالخطاب أولا إلى المؤمنين بهدف تحطيم جهود المنافقين و محاولاتهم التخريبية، و تحذير المسلمين منهم فتقول:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ، أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا.

هذه الكلمات و إن كانوا يطلقونها فى ستار من التعاطف و تحت قناع الإشفاق، إلّا أنهم لم يكونوا- فى الحقيقة- يقصدون منها إلّا

تسمیم روحیة المسلمین، و إضعاف معنویاتهم، و زعزعة إیمانهم، فینبغی ألا تقعوا تحت تأثیرها، و تکرروا نظائرها من العبارات.

لِیَجْعَلَ اللَّهُ ذلِکَ حَسْرَةً فِی قُلُوبِهِمْ

أنکم أیها المؤمنون إذا وقعتم تحت تأثیر هذه الکلمات المضلة الغاویة، و کررتم نظائرها ستضعف روحیتکم أیضا، و ستمتنعون أیضا عن الخروج إلی میادین الجهاد و السفر و الرحیل من أجل اللّه و فی سبیله، و حینئذ سیتحقق للمنافقین ما یصبون إلیه، و لکن لا تفعلوا ذلک، و تقدموا إلی سوح الجهاد و میادین القتال بمعنویة عالیة، و عزم أکید و دون تردد و لا کلل، لیجعل اللّه ذلک حسرة فی قلوب المنافقین المخذلین، أبدا.

ثمّ إن القرآن الکریم یرّد علی خبث المنافقین و تسویلاتهم و تشویشاتهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۴

بثالث أجوبة منطقیة هی:

۱- إن الموت و الحیاة بید اللّه علی کلّ حال، و أن الخروج و الحضور فی میدان القتال لا یغیر من هذا الواقع شیئا، و أن اللّه یعلم بأعمال عباده جمیعها:

وَ اللَّهُ یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ.

۲- ثمّ إنکم حتّی إذا متم أو قتلتم، و بلغکم الموت المعجل- کما یحسب المنافقون- فإنکم لم تخسروا شیئا، لأن رحمة اللّه و غفرانه أعظم و أعلی من کلّ ما تجمعه أیدیکم أو یجمعه المنافقون مع الاستمرار فی الحیاة من الأموال و الثروات وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَیْرٌ مِمَّا یَجْمَعُونَ

و أساسا لا- تصحّ المقارنة بین هذین الأمرین فأین الثری من الثرایا، و لکنه أمر لا مفر منه عند مخاطبة تلک العقول المنحطة التی تفضل أیاما معدودة من الحیاة الفانیة و جفنة من الثروة الزائلة علی عزة الجهاد و فخر الشهادة.

إنه لیس من سبیل أمام هؤلاء إلّا أن یقال لهم: إن ما یحصل علیه المؤمنون عن طریق الشهادة أو الموت فی سبیل اللّه، أفضل من کلّ ما یجمعه الکفّار من طریق حیاتهم الموبوءة، المزیجة بالشهوات الرخیصة و عبادة المال و الدنیا.

۳- و بغضّ النظر عن کلّ ذلک فإن الموت لا یعنی الفناء و العدم حتّی یخشی منه هذه الخشیة و یخاف منه هذا الخوف، و یستوحش منه هذا الاستیحاش، إنه نقلة من حیاة إلی حیاة أوسع و أعلی و أجل و أفضل، حیاة مزیجة بالخلود موصوفة بالبقاء وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَی اللَّهِ تُحْشَرُونَ

إن الجدیر بالملاحظة فی هذه الآیات هو جعل الموت فی أثناء السفر، فی مصاف الشهادة فی سبیل اللّه، لأن المراد بالسفر هنا هی تلک الأسفار التی یقوم بها الإنسان فی سبیل اللّه و لأجل اللّه کالسفر و شد الرحال إلی میادین القتال أو للعمل التبلیغی، و ذلک لأن الأسفار فی تلک العصور کانت محفوفة بالمشاکل، و مقترنة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۵

بالمصاعب و المتاعب، و کانت تلازم فی الأغلب الأمراض التی تؤدی فی أکثر الأحیان إلی الموت، و لذلک لم یکن ذلک الموت بأقل فضلا من القتل و الشهادة فی میادین الجهاد و سوح النضال.

و أما ما احتمله بعض المفسّرین من أن الأسفار المذکورة فی هذه الآیة هی الأسفار التجاریة فهو بعید جدا عن معنی الآیة، لأن الکفّار لم یتأسفوا قط لهذا الأمر بل کان هذا هو نفسه وسیلة من وسائل الحصول علی الثروة و تکریسها، هذا مضافا إلی أن هذا الموضوع لم یکن له أی تأثیر فی إضعاف روحیة المسلمین بعد معرکة أحد، کما و ان عدم تنسیق المسلمین مع الکفّار فی هذا المورد لم یوجد و لم یسبب أیة حسرة للکفّار، و لهذا فإن الظاهر هو أن المراد من الموت فی أثناء السفر فی هذه الآیة هو الموت فی السفر الذی یکون بهدف الجهاد فی سبیل اللّه، أو لغرض القیام بغیر ذلک من البرامج الإسلامیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۶

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۵۹ الی ۱۶۰]

اشارة

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (۱۵۹) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۶۰)

التّفسیر

الأمر بالعفو العام:

هـذه الآیـة و إن کـانت تتضـمن سلسـلة من التعـالیم الکلیـة الموجهـة إلی رسـول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و تشـتمل من حیث المحتوی علی برامـج کلیـة و أساسـیة، و لکنهـا من حیث النزول ترتبـط بواقعـة «أحـد» لأـنه بعـد رجـوع المسـلمین من «أحـد» أحـاط الأشخاص الذین فروا من المعرکة برسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أظهروا له الندامة من فعلتهم و موقفهم، و طلبوا منه العفو.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۷

فأصـدر اللّه سـبحانه إلی نبیه صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أمره بأن یعفو عنهم، و یتجاوز عن سـیئهم و یسـتقبل المخطئین التائبین منهم بصدر رحب.

إذ قال تعالی: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ و لقد أشیر فی هذه الآیة- قبل أی شـیء- إلی واحدة من المزایا الأخلاقیة لرسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سلّم، ألا و هی اللین مع الناس و الرحمة بهم، و خلوه من الفظاظة و الخشونة.

«الفظّ»- فی اللغة- هو الغلیظ الجافی الخشن الکلام، و «غلیظ القلب» هو قاسی الفؤاد الذی لا تلمس منه رحمة، و لا یحس منه لین.

و هاتـان الکلمتـان و ان کانتـا بمعنی واحـد هو الخشونـة، إلّا أن الغالب اسـتعمال الأولی فی الخشونـة الکلامیـة، و اسـتعمال الثانیـة فی الخشونة العملیة و السلوکیة، و بهذا یشیر سبحانه إلی ما کان یتحلی به الرسول الأعظم من لین و لطف تجاه المذنبین و الجاهلین.

ثمّ إنه سبحانه یأمر نبیه بأن یعفو عنهم إذ یقول: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ

و هـذا الکلاـم یعنی أنه سبحانه یطلب منه صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أن یتنـازل عن حقه لهم إذ تفرقوا عنه فی أحلـک الظروف، و سببوا له تلک المصائب و المتاعب فی تلک المعرکة، و أنه یشفع لهم لدی نبیه بأن یتجاوز عنهم، و أن یشفع هو بدوره لهم عند اللّه و یطلب المغفرة لهم منه سبحانه.

و بتعبیر آخر أنه سـبحانه یطلب من نبیه أن یعفو عنهم فیما بینه و بینهم، و أما ما بین اللّه و بینهم فهو سـبحانه یغفر لهم ذلک. و قد فعل الرسول الکریم ما أمره به ربه و عفی عنهم جمیعا.

و من الواضح أن هذا المقام کان من الموارد التی تتطلب حتما العفو و المغفرة، و اللطف و اللین، و لو أن النبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم فعل غیر ذلک لکان یؤدی ذلک إلی انفضاض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۸

الناس من حوله، و تفرقهم عنه، إذ أن الجماعة رغم أنها أصيبت بالهزيمة النكراء، و تحملت ما تحملت من القتلى و الجرحى، و كانوا هم السبب فى ذلك، إلّا أنهم أحوج ما يكونون إلى العطف و اللطف و إلى اللين و العفو، و إلى البلاسم التى تبل جراحاتهم، و إلى المراهم التى تهدئ خواطرهم، حتّى يتهيئوا بعد شفائها و استعادة معنوياتهم إلى مواجهة أحداث المستقبل، و تحمل المسؤوليات القادمة.

إن فى هذه الآية إشارة صريحة إلى إحدى أهم الصفات التى يجب توفرها فى أية قيادة، ألا و هى العفو و اللين تجاه المتخلفين التائبين، و العصاة النادمين، و المتمردين العائدين، و من البديهى أن الذى يتصدى للقيادة لو خلى عن هذه الخصلة الهامة، و افتقر إلى روح السماحة، و افتقد صفة اللين، و عامل من حوله بالخشونة و العنف و الفظاظة فسرعان ما يواجه الهزيمة، و سرعان ما تصاب مشاريعه و برامجه بنكسات ماحقة، تبدد جهوده، و تذرى مساعيه أدراج الرياح، إذ يتفرق الناس من حوله، فلا يمكنه القيام بمهام القيادة و مسئولياتها الجسمية، و لهذا قال الإمام أمير المؤمنين مشيرا إلى هذه الخصلة القيادية الحساسة «آلة الرياسة سعة الصدر».

الأمر بالمشاورة:

بعد إصدار الأمر بالعفو العام يأمر اللّه نبيه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يشاور المسلمين فى الأمر و يقف على و جهات نظرهم، و ذلك إحياء لشخصيتهم، و لبث الروح الجديدة فى كيانهم الفكرى و الروحى اللذين أصابهما الفتور بعد الذى حدث.

على أن هذا الأمر للنبى بمشاورة المسلمين إنما هو لأجل أنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم- كما أسلفنا- قد استشار المسلمين قبل الدخول فى معركة «أحد» فى كيفية مواجهة العدو و استقر رأى الأغلبية منهم على التعسكر عند جبل «أحد» فكان ما كان من

المكروه و وقع ما وقع من البلاء، و هنا كان كثيرون يتصورون بأن على النبى أن لا يشاور بعد ذلك أحدا، و أن عليه أن يتصرف كما يرى هو، و لكن القرآن الكريم جاء يرد على هذا التصور، و يجيب على هذا النوع من التفكير و يأمر النبى بأن يعيد المشاورة إذ يقول: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ لأن المشاورة و إن لم تنفع فى بعض المواضع، فإنها نافعة على العموم، بل إن نتائجها المفيدة الكثيرة لو قيست إلى بعض النتائج السلبية و غير المفيدة تبدو أكثر أضعافا كما و أن أثرها فى صياغة الأفراد و الجماعات و إنماء شخصيتهم من الأهمية بحيث يغطى على نقاط ضعفها، بل هو أبرز آثارها و أهم فوائدها الذى لا يمكن و لا يجوز التغاضى عنه.

و الآن نرى فى أى المواضيع كان يشاور الرسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أصحابه؟

صحيح أن كلمة «الأمر» فى قوله تعالى وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ذات مفهوم واسع يشمل جميع الأمور، و لكن من المسلم أيضا أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يشاور الناس فى الأحكام الإلهية مطلقا، بل كان فى هذا المجال يتبع الوحى فقط.

و على هذا الأساس كانت المشاورة فى كيفية تنفيذ التعاليم و الأحكام الإلهية على أرض الواقع.

و بعبارة أخرى: إن النبى لم يشاور أحدا فى التقنين، بل كان يشاور فى كيفية التطبيق و يطلب وجهة نظر المسلمين فى ذلك.

و لهذا عند ما كان يقترح النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمرا- أحيانا- بادره المسلمون بهذا السؤال: هل هذا حكم إلهى لا يجوز إبداء الرأى فيه، أو أنه يرتبط بكيفية التطبيق و التنفيذ؟ فإذا كان من النوع الثانى، أدلى الناس فيه بآرائهم، و أما إذا كان من النوع الأول لم يكن منهم تجاهه سوى التسليم و التفويض.

ففى يوم بدر جاء النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أدنى ماء من بدر فنزل عنده، فقال «الحباب ابن المنذر»: يا رسول اللّه أ رأيت هذا المنزل، أ منزلا أنزله اللّه ليس لنا أن نتقدمه و لا

نتأخر عنه أم هو الرأى و الحرب و المكيدة؟ فقال: «بل هو الرأى و الحرب و المكيدة» فقال: يا رسول اللّه ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتّى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثمّ نغور ما وراءه إلى آخر ما قال ... فقال له النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «لقد أشرت بالرأى» و عمل برأيه [۴۵۱].

أهمية المشاورة فى نظر الإسلام:

لقد حظيت مسألة المشاورة بأهمية خاصة فى نظر الإسلام، فالنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم رغم أنه كان يملك- بغض النظر عن الوحى الإلهى- قدرة فكرية كبيرة تؤهله لتسيير الأمور و تصريفها دون حاجة إلى مشاورة أحد، إلّا أنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم كيما يشعر المسلمين بأهمية المشاورة و فوائدها حتّى يتخذوها ركنا أساسيا فى برامجهم و حتّى ينمى فيهم قواهم العقلية و الفكرية نجده يشاور أصحابه فى أمور المسلمين العامة التى تتعلق بتنفيذ القوانين و الأحكام الإلهية (لا أصل الأحكام و التشريعات التى مدارها الوحى) و يقيم لآراء مشيريه أهمية خاصة و يعطيها قيمتها اللائقة بها، حتّى أنه كان- أحيانا- ينصرف عن الأخذ برأى نفسه احتراما لهم و لآرائهم كما فعل ذلك فى «أحد»، و يمكن القول بأن هذا الأمر بالذات كان أحد العوامل المؤثرة وراء نجاح الرسول الأكرم فى تحقيق أهدافه الإسلامية العليا.

و الحقّ أن أية أمة أقامت إدارة شؤونها على أساس من الشورى و المشاورة، قل خطأها، و ندر عثارها، على العكس من الأفراد الذين يعانون من استبداد الرأى، و يرون أنفسهم فى غنى عن نصح الناصحين و رأى الآخرين فإنهم إلى العثار أقرب، و من الصواب و الرشد أبعد، مهما تمتعوا بسديد الرأى، و قوى التفكير، هذا مضافا إلى أن الاستبداد فى الرأى يقضى على الشخصية فى الجمهور،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۱

و يوقف حركة الفكر و تقدمه، و يميت المواهب المستعدة بل يأتى عليها، و بهذا الطريق تهدر أعظم طاقات الأمة الإنسانية.

و مضافا أيضا إلى أن الذى يشاور الآخرين فى أموره و أعماله إذا حقق نجاحا قل أن يتعرض لحسد الحاسدين، لأن الآخرين يرون أنفسهم شركاء فى تحقيق ذلك الإنتصار و النجاح، و ليس من المتعارف أن يحسد الإنسان نفسه على نجاح حققه، أو انتصار أحرزه.

و أما إذا أصابته نكسة لم تلمه ألسن الناس، و لم يتعرض لسهام نقدهم و اعتراضهم، لأن الإنسان لا يعترض على عمل نفسه، و لا ينقد فعل ذاته، بل سيشاطرونه الألم، و يتعاطفون معه، و يشاركونه فى التبعات.

كلّ ذلك لأنهم شاركوه فى الرأى و شاطروه فى التخطيط، و لم يكن متفردا فى العمل، و لا مستبدا فى الرأى.

ثمّ إن هناك فائده أخرى للمشاورة و هى أن المشاورة خير محك لمعرفة الآخرين، و التعرف على ما يكنونه للمستشير من حب أو كراهية، و ولاء أو عداء، و لا ريب فى أن هذه المعرفة ممّا يمهد سبيل النجاح، و لعلّ استشارات النبى الأكرم- مع ما كان يتمتع به من قوة فكرية و عقلية جبارة- كانت لهذه الأسباب مجتمعة.

لقد ورد حث شديد و تأكيد ليس فوقه تأكيد على سنة المشاورة، و فى الأحاديث و الأخبار الإسلامية ففى حديث منقول عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «ما شقى عبد قط بمشورة و لا سعد باستغناء رأى»[۴۵۲].

كما و نقرأ

فى كلمات الإمام على عليه السّلام قوله: «من استبد برأيه هلك، و من شاور الرجال شاركها فى عقولها»[۴۵۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۲

و

نقل عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا أنه قال: «إذا كان امراؤكم خياركم، و أغنياؤكم سمحاؤكم و أمركم شورى بينكم

فظهر الأرض خير لكم من بطنها، و إذا كان أمراؤكم شراركم، و أغنياؤكم بخلاؤكم، و لم يكن أمركم شورى بينكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»[۴۵۴].

مع من تشاور؟

من المسلم أن للمشورة أهلا، فلا يصح أن يستشار كلّ من هب و دب، فرب مشيرين يعانون من نقاط ضعف، توجب مشورتهم فساد الأمر، و ضياع الجهود، و فشل العمل، و التأخر و السقوط.

فعن على عليه السّلام أنه قال فى هذا الصدد «لا تدخلن فى مشورتك»:

۱- بخيلا يعدل بك عن الفضل و يعدك بالفقر.

۲- و لا جبانا يضعفك عن الأمور.

۳- و لا حريصا يزين لك الشره بالجور[۴۵۵].

وظيفة المشير:

كما تأكد الحث فى الإسلام على المشاورة فقد أكدت النصوص على المشيرين أيضا بأن لا يألوا جهدا فى النصح، و لا يدخروا فى هذا السبيل خيرا، و تعتبر خيانة المشير للمستشير من الذنوب الكبيرة، بل و تذهب أبعد من ذلك حيث لا تفرق فى هذا الحكم بين المسلم و الكافر، يعنى أنه لا يحق لمن تكفل تقديم النصح و المشورة أن يخون من استشاره، فلا يدله على ما هو الصحيح فى

نظره، مسلما كان ذلك المستشير أو كافرا.

فى رسالة الحقوق عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليهما السّلام أنه قال: «و حق المستشير إن علمت له رأيا أشرت عليه، و إن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم، و حق المشير عليك أن لا تتهمه فى لا يوافقك من رأيه»[۴۵۶].

شورى عمر بن الخطاب

عند ما بلغ جماعة من علماء أهل السنة و مفسريهم إلى هذه الآية (آية الشورى) أشاروا إلى شورى عمر السداسية لاختيار الخليفة الثالث، و حاولوا عبر بيان مفصل تطبيق مفاد هذه الآية و روايات المشاورة على تلك العملية و الفكرة.

و الكلام المفصل حول هذه المسألة و إن كان من مهمة الكتب الاعتقادية، إلّا أنه لا بدّ من الإشارة هنا إلى بعض النقاط بصورة مختصرة و سريعة:

أولا: إن انتخاب الخليفة للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يجب أن يكون فقط من جانب اللّه، لأن الخليفة يجب أن يتمتع على غرار النبى- بصفات و مؤهلات كالعصمة و ما شاكل ذلك و هى أمور لا يمكن الوقوف و الاطلاع عليها إلّا من قبل اللّه سبحانه.

و بتعبير آخر: كما أن تعيين النبى لا يمكن أن يكون بالمشاورة و الشورى فكذلك انتخاب الإمام لا يمكن أن يكون بالشورى.

ثانيا: إن الشورى السداسية المذكورة لم تنطبق بالمرة على معايير الشورى و موازين المشاورة، لأن الشورى التى ذهب إليها عمر إن كان المراد منها مشاورة المسلمين عامة، فما ذا يعنى تخصيصها بستة أنفار؟

و إن کـان الهـدف منهـا مشـاورة العقلاء و المفکرین و أهل الرأی من الأمـة فهم لا ینحصـرون فی هؤلاء السـتة، إذ هناک شخصـیات ناضجة أمثال سلمان الذی کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۴

مستشارا شخصـیا للنبی الأـکرم صـلی اللّه علیه و آله و سلّم و مثـل أبی ذر و المقـداد و ابن عبـاس، و غیرهم ممن قـد نحوا عن هـذه الشوری.

و علی هذا الأساس فإن حصر هذه الشوری بالأنفار الستة المعینین یجعل هذا الاجتماع و الشوری أقرب إلی التحزب السیاسی منه إلی التجمع الشوروی.

و أمّا إذا کان المراد من حصر المشیرین فی هؤلاء الستة هو جعلها فی أصحاب الکلمة و النفوذ حتّی تنفذ قراراتهم و لا یخالفها أحد من الأمة، و لا یتمرد علیها أحد من الناس فإنه لم یکن موقفا صائبا أیضا، لأن ثمة شخصیات من أصحاب الکلمة و النفوذ أمثال سعد بن عبادة الذی کان یرأس فی حینه الأنصار بدون منازع، و أبی ذر الغفاری أکبر شخصـیة مسموعة الکلمة فی قبیلة «غفار»، قد أقصیت من حلبة الشوری؟

ثالثا: نحن نعلم أنه قد اشترط فی هذه الشوری شـروط صـعبة و قاسیة إلی درجة أنه هدد المخالفون و المعارضون بالموت، فی حین لا یوجد لمثل هذه الشروط فی سنة الشوری التی سنها الإسلام أی مکان، و لا أی أثر، فکیف تنطبق علی هذه الشوری؟

مرحلة القرار الأخیر!

بقـدر ما یجب علی المستشـیر أن یتخذ جانب الرفق و اللین فی المشورة مع مسـتشاریه، یجب علیه أن یکون حاسـما و حازما فی اتخاذ القرار الأخیر.

و علی هذا یجب التخلص من أی تردد، أو اسـتماع إلی الآراء المتشـتتة بعد استکمال مراحل المشاورة و اتضاح نتیجتها، و یجب اتخاذ القرار الأخیر بصرامة و حسم، و هذا هو ما یعبر عنه بالعزم فی قوله سبحانه فی هذا السیاق إذ یقول:

فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۵

إن الجـدیر بالتأمـل هو أن مسألـة المشـاورة ذکرت فی الآیـة الحاضـرة بصـیغة الجمع «و شاورهم» و لکن اتخاذ القرار الأخیر جعل من وظیفة الرسول الکریم خاصة إذا جاء بصیغة المفرد «عزمت».

إن الاختلاف فی التعبیر إشارة إلی نکتـة مهمـة و هی أن تقلیب وجوه الأمر، و دراسـة القضـیة الاجتماعیـة من جمیع جوانبها و أطرافها یجب أن تتم بصورة جماعیـة، و أما عنـد ما یتم التصـدیق علی شـیء فإن إجراءه و إبرازه فی صورة القرار القطعی یجب أن یوکل إلی إرادة واحـدة، و إلّا وقع الهرج و المرج، و دبت الفوضـی فی الأمة لأن التنفیذ بوساطة قادة متعددین من دون الانطلاق من قیادة واحدة متمرکزة سـیواجه الاختلاـف، و یؤول إلی النکسـة و الهزیمـة، و لهـذا تتم المشاورات فی عالمنا الراهن بصورة جماعیـة، و لکن إجراء نتائجها تناط إلی الدول و الأجهزه التی تدار و تعمل تحت إشراف شخص واحد، و فرد معنی لا متعددین.

و الموضوع المهم الآخر الـذی تشـیر إلیه الجملة السابقة فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ هو أن اتخاذ القرار الأخیر یجب أن یقترن بالتوکل علی اللّه، بمعنی أن علیکم أن تسـتمدوا العون من اللّه القادر المطلق و لا تنسوه فی الوقت الذی تهیئون فیه الأسـباب العادیة و الوسائل المادیة للأمر.

علی أن التوکل لا یعنی بالمرة أن یتجاهل الإنسان الأسباب المادیة و الوسائل العادیة للنصر و التی جعلها اللّه سبحانه فی عالم المادة، و

مكن الإنسان الأخذ بها،

فقد روى في حديث أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال لأعرابى حضر عند النبى و قد ترك ناقته سادرة فى الصحراء دون أن يعقلها حتّى لا تفر أو تضل، ظنا بأن هذا من التوكل على اللّه «أعقلها و توكل».

أجل ليس المراد من التوكل هو هذا المفهوم الخاطئ، بل المراد منه هو أن لا ينحصر الإنسان فى حصار هذا العالم المادى، و فى حدود قدرته الضيقة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۶

فلا ينطلق قدما إلى الأمام، بل يعلّق أمله- إلى جانب الأخذ بالأسباب- على عناية اللّه و حمايته و لطفه و منّه.

و لا ريب أن مثل هذه الالتفاتة تهب للإنسان استقرار نفسيا عاليا، و طاقة روحية فعالة، و معنوية تتضائل أمامها كلّ الصعاب و المشاق، و تتحطم عندها كلّ أمواج المشكلات العاتية، أو تنزاح أمامها كلّ الأهوال (و سوف نشرح بإسهاب إن شاء اللّه مسألة التوكل و كيفية العلاقة بينها و بين الاستفادة من وسائل العالم المادى فى ذيل قوله تعالى وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً[۴۵۷].

ثمّ إنه سبحانه و تعالى يأمر المؤمنين فى ختام الآية أن يتوكلوا على اللّه فحسب لأنه تعالى يحب المتوكلين إذ يقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ

هذا و يستفاد من هذه الآية أن التوكل يجب أن يكون بعد التشاور، و بعد الأخذ و الاستفادة من جميع الإمكانيات المتاحة للإنسان حتما.

نتيجة التوكل و ثمرته:

بعد أن يحث البارى سبحانه و تعالى عباده على أن يتوكلوا عليه، يبين فى هذه الآية- التى هى مكملة للآية السابقة- نتيجة التوكل و ثمرته و فائدته العظمى فيقول: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ و هو بهذا يشير إلى أن قدرة اللّه فوق كلّ القدرات، فإذا أراد بعبد خيرا و أراد نصره و تأييده و الدفاع عنه لم يكن فى مقدور أية قوة فى الأرض- مهما عظمت- أن تتغلب عليه، فمن كان- هكذا- منبع كلّ الانتصارات، وجب التوكل عليه، و استمداد العون منه.

فهذه الآية تتضمن ترغيبا للمؤمنين بأن يتكلوا على اللّه و قدرته التى لا تقهر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۷

مضافا إلى تهيئة كلّ الوسائل الظاهرية، و الأسباب العادية.

و الكلام فى الآية السابقة موجه إلى شخص النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أمر له فى الحقيقة و لكنه فى هذه الآية موجه إلى جميع المؤمنين و كأنها تقول لهم: إن عليهم أن يتوكلوا على اللّه كما يفعل النبى، و لهذا يختم هذه الآية بقوله: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و لا يخفى أن تأييد اللّه للمؤمنين أو عدم تأييده ليس من غير حساب، فهو يتم بناء على أهليتهم لذلك.

فمن أعرض عن تعاليم اللّه، و غفل عن تحصيل المقومات المادية و المعنوية و تقاعس عن إعداد القوى العادية اللازمة لم يشمله التأييد الإلهى مطلقا، على العكس من الذين استعدوا لمواجهة الأعداء بصفوف متراصة و نيات خالصة و عزائم راسخة، مهيئين كلّ الوسائل اللازمة للمواجهة، فإن تأييد اللّه سيشمل هؤلاء، و ستكون يد اللّه معهم حتّى تحقيق الإنتصار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۸

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۱]

اشارة

وَ ما کانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَغُلَّ وَ مَنْ یَغْلُلْ یَأْتِ بِما غَلَّ یَوْمَ الْقِیامَةِ ثُمَّ تُوَفَّی کُلُّ نَفْسٍ ما کَسَبَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۱۶۱)

التّفسیر

الخیانة ممنوعة مطلقا:

بالنظر إلی الآیة السابقة التی نزلت بعد الآیات المتعلقة بوقعة «أحد» و بالنظر إلی روایة نقلها جمع من مفسری الصدر الأول، تعتبر هذه الآیة ردا علی بعض التعللات الواهیة التی تمسک بها بعض المقاتلین، و توضیح ذلک هو: إن بعض الرماة عند ما أرادوا ترک مواقعهم الحساسة فی الجبل لغرض جمع الغنائم، أمرهم قائدهم بالبقاء فیها، لأن الرسول لن یحرمهم من الغنائم، و لکن تلک الجماعة الطامعة فی حطام الدنیا اعتذرت لذلک بعذر یخفی حقیقتهم الواقعیة، إذ قالوا:

نخشی أن یتجاهلنا النبی عند تقسیم الغنائم فلا- یقسم لنا، قالوا هذا و أقبلوا علی جمع الغنائم تارکین مواقعهم التی کلفهم الرسول بحراستها فوقع ما وقع من عظائم الأمور و جلائل المصائب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۹

فجاء القرآن یرد علی زعمهم و تصورهم هذا فقال: وَ ما کانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَغُلَ ۴۵۸] أی أنکم تصورهم و ظننتم أن النبی یخونکم، و الحال أنه لیس لنبی أن یغل و یخون أحدا.

إن اللّه سبحانه ینزه فی هذه الآیة جمیع الأنبیاء و الرسل من الخیانة، و یقول إن هذا الأمر لا یصلح- أساسا- للأنبیاء، و لا یتناسب أساسا مع مقامهم العظیم.

یعنی أن الخیانة لا تتناسب مع النبوة، فإذا کان النبی خائنا لم یمکن الوثوق به فی أداء الرسالة و تبلیغ الأحکام الإلهیة.

و غیر خفی أن هذه الآیة تنفی عن الأنبیاء مطلق الخیانة سواء الخیانة فی قسمة الغنائم أو حفظ أمانات الناس و ودائعهم، أو أخذ الوحی و تبلیغه للعباد.

و من العجیب أن یثق أحد بأمانة النبی فی الحفاظ علی وحی اللّه، و تبلیغه و أدائه، ثمّ یحتمل- و العیاذ باللّه- أن یخون النبی فی غنائم الحرب، أو یقضی بما لیس بحق، و یحکم بما لیس بعدل، و یحرم أهلها منها من غیر سبب.

إن من الوضوح بمکان أن الخیانة محظورة علی کلّ أحد، نبیا کان أو غیر نبی، و لکن حیث إن الکلام هنا یدور حول اعتذار تلک الجماعة المتمردة و تصوراتهم الخاطئة حول النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم لذلک تتحدث الآیة عن الأنبیاء أولا، ثمّ تقول:

وَ مَنْ یَغْلُلْ یَأْتِ بِما غَلَّ یَوْمَ الْقِیامَ ِۀِ أی أن کلّ من یخون سیأتی یوم القیامة و هو یحمل علی کتفه وثیقة خیانته، أو یصحبه معه إلی المحشر، و هکذا یفتضح أمام الجمیع، و تنکشف أوراقه و تعرف خیانته.

قال بعض المفسّرین أن المراد من حمل الخیانة علی الظهر أو استصحاب ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۰

غلّ یوم القیامة لیس هو أنّه یحمل کلّ ذلک حملا أو یستصحبه استصحابا حقیقیا معه یوم القیامة، بل المراد هو أنه یتحمل مسئولیة ذلک، و لکن بالنظر إلی مسألة «تجسم الأعمال» فی یوم القیامة لا یبقی أی مبرر و لا أی داع لهذا التفسیر، بل- و کما یدلّ علیه ظاهر الآیة و یشهد به- یأتی الخائن و هو یحمل عین ما غل کوثیقة حیة تشهد علی خیانته و غلوله، أو یستصحبها معه.

ثُمَّ تُوَفَّی کُلُّ نَفْسٍ ما کَسَبَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ یعنی أن الناس یجدون عین أعمالهم هناک، و لهذا فهم لا یظلمون لأنه یصل إلی کلّ أحد نفس ما کسبه خیرا کان أو شرا.

و لقد أثّرت الآیة السابقة، و الأحادیث التی صدرت عن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و هی تذم الخیانة و الغلول فی نفوس المسلمین و خلقهم تأثیرا عجیبا حتّی أنهم- نتیجة لهذه التربیة- لم یصدر عنهم أقل خیانة و لا أدنی غلول فی غنائم الحرب أو الأموال العامة، إلی درجة أنهم کانوا یأتون بالغنائم الغالیة الثمن الصغیرة الحجم التی کان من السهل إخفاؤها إلی النبی، أو القادة من بعده دون أی تصرف فیها، الأمر الذی یدعو إلی الدهشة و الإکبار و العجب.

فقد کان هؤلاء نفس أولئک العرب القساة، الجفاة، المغیرون، السلابون قطاع الطرق فی الجاهلیة، و قد أصبحوا الآن- فی ظل التربیة الإسلامیة- فی قمة الصلاح و الأمانة، و فی ذروة الاستقامة و الطهر، و التقی و کأنهم یرون مشاهد القیامة بأم أعینهم، کیف یقدم الخائنون فی الأموال و الأمانات إلی المحشر و هم یحملون علی أکتافهم و ظهورهم ما غلوه و خانوه.

أجل لقد کان هذا الإیمان یحذرهم من الخیانة، بل یصرفهم حتّی عن التفکیر فیها.

کتب الطبری فی تاریخه أنه لما هبط المسلمون بالمدائن، و جمعوا الأقباض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۱

(الغنائم) أقبل رجل بحق معه فدفعه إلی صاحب الأقباض، فقال الذین معه: ما رأینا مثل هذا قط ما یعد له ما عندنا و لا یقاربه فقالوا: هل أخذت منه شیئا؟ فقال:

«أما و اللّه لو لا اللّه ما آتیتکم به فعرفوا أن للرجل شأنا، فقالوا من أنت؟ فقال: و اللّه لا أخبرکم لتحمدونی، و لا غیرکم لیقرظونی و لکنی أحمد اللّه و أرضی بثوابه»[۴۵۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۲

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۶۲ الی ۱۶۳]

اشارة

أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ کَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ (۱۶۲) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِما یَعْمَلُونَ (۱۶۳)

التّفسیر

المتخلفون عن الجهاد:

تضمنت الآیات السابقة الحدیث عن شتی جوانب معرکة «أحد» و ملابساتها و نتائجها، و قد جاء الآن دور المنافقین و ضعاف الإیمان من المسلمین الذین تقاعسوا عن الحضور فی «أحد» تبعا للمنافقین، لأننا نقرأ فی الأحادیث أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عند ما أمر بالتحرک إلی «أحد» تخلف جماعة من المنافقین عن التوجه إلی المیدان بحجة أنه لن یقع قتال، و تبعهم فی ذلک بعض المسلمین من ضعاف الإیمان، فنزل قوله تعالی أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ و لبی نداء النبی و اتبع أمره بالخروج کَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ.

ثمّ یقول تعالی: هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ أی أن لکل واحد منهم درجة بنفسه و مکانة عند اللّه، و هو إشارة إلی أنه لا یختلف المنافقون عن المجاهدین فقط، بل إن لکلّ فرد من أفراد هذین الطائفتین درجة خاصة تناسب مدی تضحیته و تفانیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۳

فی سبیل اللّه أو مدی نفاقه و عدائه للّه تعالی، و تبدأ هذه الدرجات من الصفر و تستمر إلی خارج حدود التصوّر.

هذا و قد نقل فی روایة عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أنه قال: «الدرجة ما بین السماء و الأرض»[۴۶۰].

و

جاء فی حدیث آخر «إن أهل الجنة لیرون أهل علیین کما یری النجم فی أفق السماء»[۴۶۱]

بید أننا یجب أن نعلم أن «الدرجة» تطلق عادة علی تلک الوسیلة التی یرتقی بها الإنسان و یصعد إلی مکان مرتفع، فی حین أن الدرجات التی یستخدمها الإنسان للنزول من مکان مرتفع إلی مکان منخفض تسمی «درکا» و لهذا جاء فی شأن الأنبیاء علیهم السّلام فی سورة البقرة الآیة ۲۵۳ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ و جاء فی حقّ المنافقین فی سورة النساء الآیة ۱۴۵ إِنَّ الْمُنافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ و لکن حیث کان البحث فی الآیة الحاضرة حول کلا الفریقین غلب جانب المؤمنین، فکان التعبیر بالدرجة دون غیرها إذ قیل هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ

ثمّ یقول سبحانه فی ختام هذه الآیة وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِما یَعْمَلُونَ أی أنه سبحانه عالم بأعمالهم جمیعا فهم یعلم جیدا من یستحق أیة درجة من الدرجات، بحیث تلیق بنیته و إیمانه و علمه.

مع أسلوب تربوی قرآنی مؤثر

هناک الکثیر من الحقائق المتعلقة و المرتبطة بالقضایا الدینیة أو الخلقیة أو الاجتماعیة، یطرحها القرآن الکریم فی قالب التساؤل و الاستفهام تارکا للسامع- و بعد أن یضعه أمام کلا جانبی القضیة- أن یختار هو بمعونة من فکره، و انطلاقا من تحلیله و تقویمه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۴

إن لهذا الأسلوب- الذی لا بدّ أن نسمیه بالأسلوب التربوی غیر المباشر- أثرا بالغا فی تحقیق الأهداف المرجوة من البرامج التربویة و تأثیرها فیمن یراد توجیههم و تربیتهم، و ذلک لأن الإنسان- فی الأغلب- یهتم أکثر بما توصل إلیه بنفسه من النتائج و الأفکار و الآراء و ما انتهی إلیه بفکره من التفاسیر و التحالیل فی القضایا المختلفة، فإذا طرحت علیه قضیة بصورة قطعیة و صبغة جازمة، قاومها أحیانا، و لعله ینظر إلیها کما ینظر إلی أیة فکرة غریبة.

و لکن عند ما یطرح علیه الأمر فی صورة التساؤل الذین یطلب منه الجواب علیه حسب قناعته الشخصیة ثمّ یسمع ذلک الجواب من أعماق ضمیره و فؤاده، فإنه لا یسعه حینئذ أن یقاوم هذا الجواب و یعادیه، بل ینظر إلیه نظر العارف به، و لن تعود لدیه- حینئذ- تلک الفکرة الغریبة البعیدة، بل تکون الفکرة القریبة إلی قلبه، المأنوسة إلی فؤاده.

إن هذا الأسلوب من التوجیه و الإرشاد مؤثر غایة لتأثیر خاصة مع المعاندین، و کذا الأطفال و الناشئین.

و لقد استفاد القرآن الکریم من هذا الأسلوب التربوی الرائع المؤثر فی مواضع عدیدة نذکر منها بعض النماذج:

۱- هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ ۴۶۲].

۲- قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ أَ فَلا تَتَفَکَّرُونَ ۴۶۳].

۳- قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِی الظُّلُماتُ وَ النُّورُ[۴۶۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۵

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۶۴]

اشارة

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۱۶۴)

التّفسير

النعمة الإلهية الكبرى:

في هذه الآية يدور الحديث حول أكبر النعم الإلهية، ألا و هي نعمة «بعثة الرسول الأكرم و النبي الخاتم» صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو في الحقيقة إجابة قوية على التساؤل الذي خالج بعض الأذهان من الحديثي العهد بالإسلام بعد «معركة أحد» و هو:

لماذا لحق بنا ما لحق، و لماذا أصبنا بما أصبنا به؟ فيجيبهم القرآن الكريم بقوله:

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أي إذا كنتم قد تحملتم كلّ هذه الخسائر، و أصبتم بكلّ هذه المصائب، فإن عليكم أن لا تنسوا أن اللّه قد أنعم عليكم بأكبر نعمة، ألا و هي بعثه نبي يقوم بهدايتكم و تربيتكم، و ينقذكم من الضلالات و ينجيكم من المتاهات، فمهما تحملتم في سبيل الحفاظ على هذه

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۶

النعمة العظمى و الموهبة الكبرى، و مهما كلفكم ذلك من ثمن، فهو ضئيل إلى جانبها، و حقير بالنسبة إليها.

و الجدير بالاهتمام- في المقام- هو أن هذه النعمة قد شرع ذكرها بكلمة «منّ» التي قد لا تبدو جميلة و لا مستحسنة في بادئ الأمر، و لكننا عند ما نراجع مادة هذه اللفظة و أصلها اللغوي يتضح لنا الأمر غاية الوضوح، و توضيحه هو: ان المن- كما قال الراغب في مفرداته: هو ما يوزن به، و لذلك أطلق على النعمة الثقيلة: المنة، و يقال ذلك إذا كان ذلك بالفعل، فيقال: من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة الجميلة الثمينة و هو حسن لا بأس فيه، أما إذا عظّم أحد- في القول و الادعاء- ما قام به من حقير الخدمات و الأفعال و الصنائع فهو في غاية القبح.

و على هذا فإن المن المستقبح هو الذي يكون استعظاما للصنائع و النعم في القول، أما المنة المستحسنة فهي بذل النعم الكبرى و الصنائع العظيمة.

أما تخصيص المؤمنين بالذكر في هذه الآية في حين أن الهدف من بعثة النبي صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو هداية عموم البشر، فلأن المؤمنين هم الذين يستفيدون- بالنتيجة و المآل- من هذه النعمة العظمى فهم الذين يستأثرون بآثارها عملا دون غيرهم.

ثمّ إن اللّه سبحانه يقول: مِنْ أَنْفُسِهِمْ أن إحدى مميزات هذا النبي صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو أنه من نفس الجنس و النوع البشري، لا من جنس الملائكة و ما شابهها، و ذلك لكي يدرك كلّ احتياجات البشر بصورة دقيقة، و لا يكون غريبا عنها، غير عارف بها، و حتّى يلمس آلام الإنسان و آماله، و مشكلاته و مصائبه، و متطلبات الحياة و مسائلها، ثمّ يقوم بما يجب أن يقوم به من التربية و التوجيه على ضوء هذه المعرفة.

هذا مضافا إلى أن القسط الأكبر من برامج الأنبياء التربوية يتكون من تبليغهم

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۷

العملي بمعنى أن أعمالهم تعتبر أفضل مثل، و خير وسيلة تربوية للآخرين، لأن التبليغ بلسان العمل أشد تأثيرا، و أقوى أثرا من التبليغ بأية وسيلة أخرى، و هذا إنما يمكن إذا كان المبلّغ من نوع البشر و جنسه بخصائصه، و مواصفاته الجسمية، و بذات غرائزه و بنائه

الروحى.

فـإذا كان الأنبياء من جنس الملائكـة- مثلا- كان للبشـر الـذين أرسل الأنبياء إليهم أن يقولوا: إذا كان الأنبياء لا يعصون أبـدا، فلأجل أنهم من الملائكة ليست فى طبائعهم الشهوات و الغرائز، و لا الغضب و لا الحاجة.

و هكذا كانت رسالة الأنبياء و مهمتهم تتعطل و تفقد تأثيرها، و لا تحقق أغراضها.

و لهـذا اختير الأنبيـاء من جنس البشـر و من فصـيلة الإنسـان بغرائزه، و احتياجـاته، ليمكنهـم أن يكونوا أسوة لغيرهـم من البشـر، و قـدوة لسواهم من بنى الإنسان.

ثمّ إن اللّه سبحانه يقول واصفا مهمات هذا النبى العظيم: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ أى أنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقوم بثلاثة أمور فى حقّهم:

۱- تلاوة آيات اللّه على مسامعهم، و إيقافهم على هذه الآيات و الكلمات الإلهية.

۲- تعليمهم بمعنى إدخال هذه الحقائق فى أعماق ضمائرهم و قلوبهم.

۳- تزكية نفوسهم، و تنمية قابلياتهم الخلقية، و مواهبهم الإنسانية.

و لكن حيث إن الهـدف الأصـلى هو «التربيـة» لـذلك قـدمت على «التعليم» مع أن الحال- من حيث الترتيب الطبيعى- تقتضـى تقـديم التعليم على التربية.

إن الذين يبتعدون عن الحقائق الإنسانية بالمرة، ليس من السهل إخضاعهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۸

للتربيـة، فلاـ بـدّ أولا من إسـماعهم آيات اللّه مـدة من الزمن حتّى تـذهب عنهم الوحشـة التى وقعوا فريسـة لها من قبل، ليتسـنى حينئذ إدخالهم فى مرحلة التعليم، ثمّ يمكن اقتطاف ثمار التربية بعد ذلك.

ثمّ إن هناك احتمالا آخر فى تفسير الآيـة و هو أن المقصود من التزكية هو التنقية من رواسب الجاهلية و الشـرك، و من بقايا العقائد الباطلة و الأفكار الخرافية، و الأخلاق الحيوانية القبيحة لأن الضـمير الإنسانى ما دام لم يطهر من الأدران و الرواسب لم يمكن إعداده و تهيئته لتعليم الكتـاب الإلـهى، و الحكمـة و العلم الواقعيين، تماما مثـل اللوحـة التى لا تقبل الألوان و النقوش الجميلـة ما لم تنظف من النقوش القبيحة أولا.

و لهذا السبب قدمت التزكية فى الآية الحاضرة على تعليم الكتاب و الحكمة التى يراد بها معارف الإسلام العالمية، و مفاهيمه السامية.

متى تعرف قيمة البعثة النبوية؟

إن أهمية هذه النعمة العظمى (البعثة النبوية) إنما تتضح تمام الوضوح و تتجلى تمام الجلاء عند ما يقاس الوضع الذى آلوا إليه بالوضع الذى كانوا عليه، و ملاحظة مدى التفاوت بينهما و هذا هو ما يعنيه قوله: وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و كأن القرآن يخاطبهم قائلا: ارجعوا إلى الوراء و انظروا إلى ما كنتم عليه من سوء الحال قبل الإسلام، كيف كنتم، و كيف صرتم؟؟

إن الجدير بالتأمل هو وصف القرآن الكريم للعهد الجاهلى بقوله: ضَـلالٍ مُبِينٍ لأن للضـلال أنواعا و أصـنافا: فمن الضلال ما لا يمكن معه للإنسان أن يميز بين الحق و الباطل، و الخطأ و الصواب بسهولة، و من الضلال ما يكون بحيث لو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۹

رجع الإنسان إلى نفسه أدنى رجوع، و تمتع بأقل قدر من الإدراك و الشعور اهتدى إلى الصواب و أدرك الخطأ فورا.

و لقـد كـان النـاس و خاصـة سـكان الجزيرة العربيـة قبل البعثـة النبويـة المباركـة، و مجىء الرسول الأكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم

بالإسلام فی ضلال مبین، فقد کان الشقاء و الجهل، و غیر ذلک من حالات الانحطاط و السقوط و الفساد سائدا فی کلّ أرجاء المعمورة فی ذلک العصر، و هو أمر لم یکن خافیا علی أحد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۰

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۶۵]

اشارة

أ وَ لَمَّا أَصابَتْکُمْ مُصِیبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَیْها قُلْتُمْ أَنَّی هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِکُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۶۵)

التّفسیر

دراسة أخری لمعرکة أحد:

هذه الآیة تتضمن دراسة أخری و تقییما آخر لمعرکة أحد و توضیح ذلک: إن بعض المسلمین کانوا یعانون من حزن عمیق و قلق بالغ لنتائج أحد، و کانوا لا یکتمون حزنهم و قلقهم هذا بل طالما کرروه و أظهروه علی ألسنتهم، فذکرهم اللّه- فی هذه الآیة- بثلاث نقاط هی:

۱- یجب أن لا تقلقوا لنتائج معرکة معیّنة، بل علیکم أن تحاسبوا کلّ قضایا المجابهة مع العدو، و تزنوا المسألة من جمیع أطرافها فلو أنه أصابتکم علی أیدی أعدائکم فی هذه المعرکة مصیبة فإنکم قد أصبتم أعداءکم ضعفها فی معرکة اخری (معرکة بدر) لأنهم قتلوا من المسلمین فی معرکة «أحد» سبعین و لم یأسروا أحدا بینما قتل المسلمون من المشرکین فی معرکة «بدر» سبعین و أسروا سبعین أ وَ لَمَّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۱

أَصابَتْکُمْ مُصِیبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَیْها.

و عبارة قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَیْها هی فی الحقیقة بمثابة إجابة مقدمة علی سؤال.

۲- أنتم تقولون. هذه المصیبة کیف أصابتنا؟ قُلْتُمْ أَنَّی هذا و لکن «قل» أیها النبی: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِکُمْ أی هو نابع من مواقفکم فی تلک المعرکة، فابحثوا عن أسباب الهزیمة فی أنفسکم.

فأنتم الذین خالفتم أمر الرسول، و ترکتم الجبل ذلک الموقع الخطیر.

و أنتم الذین لم تحسموا المعرکة، و لم تذهبوا إلی نهایتها، بل انصرفتم إلی جمع الغنائم بعد انتصار محدود.

و أنتم الذین ترکتم ساحة المعرکة و فررتم و لم تصمدوا عند ما باغتکم العدو من الخلف، و من ناحیة الجبل الذی ترکتم حراسته.

فکلّ هذه العیوب و الذنوب، و کلّ هذا الوهن هو الذی سبب تلک الهزیمة النکراء، و أدی إلی قتل تلک المجموعة الکبیرة من المسلمین.

۳- یجب أن لا تقلقوا للمستقبل لأن اللّه قادر علی کلّ شیء، فإذا أصلحتم أنفسکم، و أزلتم النواقص، و تخلصتم ممّا تعانون منه من نقاط الضعف شملکم تأییده، و أنزل علیکم نصره إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۲

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۶۶ الی ۱۶۷]

اشارة

وَ ما أَصابَکُمْ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِیَعْلَمَ الْمُؤْمِنِینَ (۱۶۶) وَ لِیَعْلَمَ الَّذِینَ نافَقُوا وَ قِیلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناکُمْ هُمْ لِلْکُفْرِ یَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِیمانِ یَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَیْسَ فِی قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما یَکْتُمُونَ (۱۶۷)

التّفسیر

لا بد أن تتمیز الصفوف:

تنوه الآیتان الحاضرتان بحقیقة هامة هی أن أیة مصیبة (کتلک التی وقعت فی أحد) مضافا إلی أنها لم تکن دون سبب و علة، فإنها خیر وسیلة لتمییز صفوف المجاهدین الحقیقیین عن المنافقین أو ضعفاء الإیمان، و لذلک جاء فی القسم الأول من الآیة الأولی وَ ما أَصابَکُمْ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ أی أن ما أصابکم یوم تقاتل المسلمون و المشرکون فهو بإذن اللّه و مشیئته و إرادته لأن لکلّ ظاهرة فی عالم الکون المخلوق للّه سبحانه سببا خاصّا و علّة معیّنة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۳

و أساسا أن هذا العالم عالم مقنن یجری وفق قانون الأسباب و المسببات، و هذه حقیقة ثابتة لا تتغیر.

و علی هذا الأساس إذا وهنت جماعة فی الحرب، و تعلقت بالدنیا و حطامها، و الثروة و جواذبها، و تجاهلت أوامر قائدها المحنک الرؤوف کانت محکومة بالهزیمة و الفشل، و هذا هو المقصود من إذن اللّه، فإذن اللّه و مشیئته هی تلک القوانین التی أرساها فی عالم الکون و دنیا البشر.

ثمّ یقول سبحانه فی المقطع التالی من الآیة: وَ لِیَعْلَمَ الْمُؤْمِنِینَ وَ لِیَعْلَمَ الَّذِینَ نافَقُوا.

إنه إشارة إلی أثر آخر من آثار هذه الحرب و هو تمییز المؤمنین عن المنافقین، و فرز أقویاء الإیمان عن ضعفاء الإیمان.

و علی العموم فقد تمیز المسلمون- فی معرکة أحد- فی طوائف ثلاث:

الطائفة الأولی: و هم قلة، قد ثبتوا أمام العدو فی تلک الموقعة حتّی آخر لحظه، حتّی قضی بعض و جرح بعض و تحمل أشد الآلام.

الطائفة الثانیة: هم الذین زلزلوا، و وقعوا فریسة الاضطراب و لم یمکنهم الثبات حتّی آخر لحظة، ففروا من المیدان.

الطائفة الثالثة: و هم جماعة المنافقین الذین رجعوا من منتصف الطریق و أحجموا عن المشارکة و الإسهام فی القتال بحجج و أعذار واهیة، و عادوا إلی المدینة، و هم عبد اللّه بن أبی سلول، و ثلاثمائة شخص من أعوانه و أنصاره و جماعته.

فلو لم تقع حادثة أحد لما تمیزت هذه الصفوف مطلقا، و لما اتضح الأمر بمثل هذا الاتضاح أبدا، و لما تبین کلّ شخص بقسماته الحقیقیة، و ملامحه الواقعیة و صفاته الخاصة به، و بالتالی کان یمکن أن یتصور الجمیع- فی مقام الادعاء- أنهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۴

مؤمنون واقعیون، و أنهم الأمثلة الکاملة للصالحین.

و فی الحقیقة- تتضمن الآیة الإشارة إلی أمرین:

الأول: العلة الفاعلیة للهزیمة.

الثانی: العلة الغائیة (و النتیجة النهائیة) لها.

على أنّ هناك نقطة يلزم التنويه بها و هى أن الآية الحاضرة تقول: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا و لم تقل «ليعلم المنافقين».

و بتعبير آخر: جاء ذكر النفاق بصيغة الفعل، و لم يأت بصورة «الوصف» و هو- لعلّه- لأجل أن النفاق لم يكن قد حصل فى الجميع فى شكل الصفة الثابتة اللازمة و لهذا نقرأ فى التاريخ أن بعضهم قد وفق للتوبة و هدى إليها فيما بعد، و التحق بصف المؤمنين الصادقين، ثمّ إن القرآن الكريم يستعرض حوارا قد وقع بين بعض المسلمين، و المنافقين قبل المعركة بالشكل التالى: وَ قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا فإن بعض المسلمين «و هو عبد اللّه بن عمر بن حزام على ما نقل عن ابن عباس) عند ما رأى انسحاب عبد اللّه بن أبى سلول و انفصالهم عن الجيش الإسلامى، و اعتزامهم العودة إلى المدينة قال: تعالوا قاتلوا فى سبيل اللّه أو ادفعوا عن حريمكم و أنفسكم إن لم تقاتلوا فى سبيل اللّه.

و لكنهم تعللوا، و اعتذروا بأعذار واهية إذ قالوا: لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ أى إننا نظن أن الأمر ينتهى بلا قتال فلا حاجة لوجودنا معكم.

و بناء على تفسير آخر قال المنافقون: لو أننا كنا نعتبر هذا قتالا معقولا لتعاونا معكم و لاتبعناكم، و لكننا لا نعتبر هذا قتالا بل نوعا من الانتحار و المغامرة الانتحارية لعدم التكافؤ بين قوى الكفر و قوى الإسلام، الأمر الذى يعنى أن قتالهم أمر غير عقلائى، خاصة أن الجيش الإسلامى قد استقر فى مكان غير مناسب و نقطة غير مؤاتية و لا ملائمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۵

و على كلّ حال فإن هذه كانت مجرد اعتذارات و تعللات، لأن الحرب كانت حتمية الوقوع، و لأن المسلمين انتصروا فى بداية المعركة، و أما ما لحق بهم من الهزيمة و الانكسار فلم يكن إلّا بسبب أخطاء و مخالفات ارتكبوها هم أنفسهم بحيث لولاها لما وقعت بهم هزيمة، و لذا يقول اللّه سبحانه: هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ (أى أنهم يكذبون)، هذا مضافا إلى أنه يستفاد من هذه الجملة (أى أقرب) أن للإيمان و الكفر درجات ترتبط باعتقاد الإنسان و أسلوب عمله و سلوكه.

ثمّ علل سبحانه ما ذكره عنهم بقوله: يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِی قُلُوبِهِمْ أى أنهم يظهرون خلاف ما يضمرون، و يبدون من القول خلاف ما يكتمون من الاعتقاد و النية، فإنهم لإصرارهم على اقتراحهم بالقتال داخل أسوار المدينة، أو رهبة من ضربات العدو، أو لعدم حبهم للإسلام أحجموا عن الإسهام فى تلك المعركة، و امتنعوا عن المضى إلى أحد فى صحبة المسلمين، وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ فإن اللّه يعلم جيدا ما يخفونه و يضمرونه من النوايا، و سيكشف عن نواياهم للمسلمين فى هذه الدنيا، كما سيعاقبهم و يحاسبهم على مواقفهم و نواياهم الشريرة فى الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۶

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۸]

اشارة

الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۶۸)

التّفسير

مزاعم المنافقين الباطلة:

لم يكتف المنافقون بانصرافهم عن الإسهام مع المؤمنين فى القتال، و السعى فى إضعاف الروح المعنوية للآخرين، بل عمدوا إلى لوم المقاتلين المجاهدين بعد عودتهم من المعركة، و بعد ما لحق بهم ما لحق قائلين لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا.

فیرد علیهم القرآن الکریم فی الآیـة الحاضـرة قائلا الَّذِینَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَـدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِـکُمُ الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ

یعنی أنکم بکلامکم هذا تریدون الادعاء بأنکم مطلعون علی عالم الغیب.

و إنکم عـارفون بالمسـتقبل و حوادثه، فإذا کنتم صادقین فی ذلک فادفعوا عن أنفسـکم الموت، لأنکم- طبقا لهـذا الادعاء- ینبغی أن تعرفوا علهٔ موتکم، و تقدرون علی تجنبها، و تحاشیها، و إبطال مفعولها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۷

افرضوا أنکم لم تقتلوا فی ساحات الجهاد و الشرف، فهل یمکنکم أن تضـمنوا لأنفسـکم سنا طویلا، و عمرا خالدا؟؟ هل یمکنکم أن تمنعوا الموت عن أنفسکم أبدا و دائما؟؟

فإذا لم یمکنکم تحاشـی الموت- هـذه النهایـهٔ المحتّمهٔ لکل نفس- فلما ذا تموتون فی الفراش بذل و هوان، و لا تختارون الشـهادهٔ و الموت بشرف و عز فی ساحات الجهاد ضد أعداء اللّه و أعداء الرسالهٔ؟؟

ثمّ إن الآیهٔ الحاضرهٔ تتضمن نقطهٔ أخری یجب الانتباه إلیها و هی:

لقـد عبّر القرآن عن المؤمنین فی هـذه الآیهٔ بأنهم إخوان للمنافقین فی حین لم یکن المؤمنون إخوانا للمنافقین إطلاقا، فما هذه الأنواع من الملامهٔ و التوبیخ للمنافقین؟ فیکون المعنی هو: إنکم أیها المنافقون کنتم تعتبرون المؤمنین إخوانا لکم فکیف ترکتم نصـرتهم فی هذه اللحظات الخطیرهٔ؟ و لهذا أردف سبحانه هذه الکلمهٔ لِإِخْوانِهِمْ بکلمهٔ «الذین قعدوا» أی تقاعسوا عن المشارکهٔ فی المعرکهٔ.

فهل یصحّ أن یدعی الإنسان إخوته لآخر ثمّ یخذله حین یحتاج إلی نصره و تأییده و یقعد عنه حین یحتاج إلی حمایته؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۸

الآیات [سورهٔ آلعمران (۳): الآیات ۱۶۹ الی ۱۷۱]

اشارهٔ

وَ لا تَحْسَـبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ (۱۶۹) فَرِحِینَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَ یَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِینَ لَمْ یَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۱۷۰) یَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَـۀٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْـلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لا یُضِـیعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِینَ (۱۷۱)

التّفسیر

الحیاهٔ الخالدهٔ:

یری بعض المفسـرین أن الآیـات الحاضـرهٔ نزلت فی شـهداء «أحـد» و یری آخرون أنهـا نزلت فی شـهداء «بـدر»، و لکن الحقّ هو أن ارتبـاط هـذه الآیـات بمـا قبلها من الآیات یکشف عن أنها نزلت فی أعقاب حادثـهٔ «أحـد»، و إن کان محتواها، و مضـمونها یعم حتّی شهداء «بدر» الذین کانوا ۱۴ شهیدا و لهذا روی عن الإمام محمّد الباقر علیه السّلام أنه قال: إنها تتناول قتلی بدر و أحد معا[۴۶۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۹

و قد

روی ابن مسعود عن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال اطلع إلیهم (أی أرواح شهداء أحد و هی فی الجنهٔ) ربهم اطلاعهٔ فقال:

هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أى شيء نشتهى و نحن نسرح من الجنة حيث شئنا. ففعل ذلک بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أين يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتّى نقتل فى سبيلک مرّة أخرى فقال تعالى: قد سبق منى أنهم لا يرجعون قالوا: فتقرئ نبينا السلام و تبلغهم ما نحن فيه من كرامة فلا يحزنوا «فنزلت هذه الآيات»[۴۶۶].

و على كلّ حال فإن الذى يبدو للنظر هو أن بعض ضعاف الإيمان كانوا- فى مجالسهم و ندواتهم بعد حادثة أحد- يظهرون الأسف على شهداء أحد، و كيف أنهم ماتوا و فنوا، و خاصة عند ما كانت تتجدد عليهم النعمة فيتأسفون لغياب أولئک القتلى فى تلک المواقع، و كانوا يحدثون أنفسهم قائلين كيف ننعم بهذه النعم و المواهب و إخواننا و أبناءنا رهن القبور لا يصيبهم ما أصابنا من الخير، و لا يمكنهم أن يحظوا بما حظينا به من النعيم؟؟.

و قد كانت هذه الكلمات- مضافا إلى بطلانها و مخالفتها للواقع- تسبب إضعاف الروح المعنوية لدى ذوى الشهداء.

فجاءت الآيات الحاضرة لتفند كلّ هذه التصورات، و تذكر بمكانة الشهداء السامية، و مقامهم الرفيع و تقول: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً.

و الخطاب- هنا- متوجه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم خاصة حتّى يحسب الآخرون حسابهم.

ثمّ يقول سبحانه معقبا على العبارة السابقة بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

و المقصود من الحياة فى الآية هى «الحياة البرزخية» فى عالم ما بعد الموت، لا الحياة الجسمانية و المادية، و إن لم تختص الحياة البرزخية بالشهداء فللكثير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸۰

من الناس حياة برزخية أيضا[۴۶۷] و لكن حيث أن حياة الشهداء من النمط الرفيع جدا، و من النحو المقرون بأنواع النعم المعنوية، هذا مضافا إلى أنها هى محط البحث و الحديث فى هذا السياق القرآنى لذلک خصوا بالذكر و خصت حياتهم بالإشارة فى هذه الآية، دون سواهم و دون غيرها أيضا.

إن حياتهم البرزخية محفوفة بالنعم و المواهب المعنوية العظيمة و كأن حياة الآخرين من البرزخيين بما فيها لا تكاد تكون شيئا يذكر بالنسبة إليها.

ثمّ إن الآية التالية تشير إلى بعض مزايا حياة الشهداء البرزخية، و ما يكتنفها و يلازمها من عظيم البركات من خلال الإشارة إلى عظيم ابتهاجهم بما أوتوا هناک فتقول: فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

ثمّ إن السبب الآخر لابتهاجهم و مسرتهم هو ما يجدونه و يلقونه من عظيم الثواب و رفيع الدرجات الذى ينتظر إخوانهم المجاهدين الذين لم ينالوا شرف الشهادة فى المعركة إذ يقول القرآن: وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ

ثمّ يردف هذا بقوله: أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ يعنى أن الشهداء يحسون هناک و فى ضوء ما يرونه أن إخوانهم المجاهدين لن يكون عليهم أى خوف ممّا تركوه فى الدنيا، و لا أى حزن من الآخرة و وقائعها الرهيبة.

على أنه من الممكن أن يكون لهذه العبارة تفسير آخر هو أن الشهداء بالإضافة إلى سرورهم و فرحهم لما يشاهدونه من الدرجات و المراتب الرفيعة لإخوانهم الذين لم ينالوا شرف الشهادة و لم يلحقوا بهم، لا يشعرون هم أنفسهم بأى خوف من المستقبل و لا أى حزن من الماضى ۴۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸۱

ثمّ إنه سبحانه يقول: يَسْتَبْشِرُونَ ۴۶۹] بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ

و هذه الآية- فى الحقيقة- مزيد تأكيد و توضيح حول البشائر التى يتلقاها الشهداء بعد قتلهم و استشهادهم.، فهم فرحون و مسرورون من ناحيتين:

الأولى: من جهة النعم و المواهب الإلهية التى يتلقونها، لا بها فقط بل لما يتلقونه من الفضل الإلهى الذى هو التصعيد المتزايد المستمر للنعم الذى يشمل الشهداء أيضا.

و الثانية: من جهة أنهم يرون أن اللّه سبحانه و تعالى لا يضيع أجر المؤمنين ...

لا أجر الشهداء الذين نالوا شرف الشهادة، و لا أجر المجاهدين الصادقين الذين لم ينالوا ذلك الشرف رغم اشتراكهم فى المعركة: وَ أَنَّ اللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ أجل، إنهم يرون بأم أعينهم ما كانوا يوعدون به و يسمعون بآذانهم.

إنها فرحة مضاعفة.

شهادة على بقاء الروح تعد الآيات الحاضرة من جملة الآيات القرآنية ذات الدلالة الصريحة على بقاء الروح.

فهذه الآيات تتحدث عن حياة الشهداء بعد الموت و القتل. و ما يحتمله البعض من أن المراد بهذه الحياة هو معنى مجازى، و أن المقصود هو بقاء اسمهم، و خلود آثارهم، و أعمالهم و جهودهم بعيد جدا عن معنى الآية، و غير منسجم بالمرّة مع أى واحد من العبارات الواردة فى الآيات الحاضرة، سواء تلك التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸۲

تصرح بأن الشهداء يرزقون، أو التى تتحدث عن سرورهم من نواح مختلفة، هذا مضافا إلى أن الآيات الحاضرة دليل بيّن و برهان واضح على مسألة «البرزخ» و النعم البرزخية التى سيأتى الحديث عنها و شرحها عند تفسير قوله سبحانه:

وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۴۷۰] إن شاء اللّه.

أجر الشهداء

لقد قيل عن الشهداء و مكانتهم و أهمية مقامهم الكثير الكثير، فكلّ الأمم، و كلّ الشعوب تحترم شهداءها و تقيم لهم وزنا خاصّا و لكن ما يوليه الإسلام للشهداء فى سبيل اللّه من الاحترام و ما يعطيهم من المقام لا مثيل له أصلا، و هذه حقيقة لا مبالغة فيها، فإن الحديث التالى نموذج واضح من هذا الاحترام العظيم، الذى يوليه الإسلام الحنيف للذين استشهدوا فى سبيل اللّه، و فى ظل هذه التعاليم استطاعت تلك الجماعة المحدودة المختلفة أن تكتسب تلكم القوّة العظيمة الهائلة التى استطاعت بها أن تركع أمامها أعظم الإمبراطوريات، بل و تدحر أعظم العروش.

و إليك هذا الحديث:

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام عن الحسين بن على عليهما السّلام قال: بينما أمير المؤمنين يخطب و يحضهم على الجهاد إذ قام إليه شاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن فضل الغزاة فى سبيل اللّه فقال: كنت رديف رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم على ناقته العضباء و نحن منقلبون عن غزوة ذات السلاسل فسألته عمّا سألتنى عنه فقال:

الغزاة إذا هموا بالغزو كتب اللّه لهم براءة من النار.

فإذا تجهزوا لغزوهم باهى اللّه بهم الملائكة.

فإذا ودعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان و البيوت، و يخرجون من الذنوب ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸۳

و يكتب له (أى لكلّ شهيد و غاز) كلّ يوم عبادة ألف رجل يعبدون اللّه ...

و إذا ضاروا بحضرة عدوهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب اللّه إياهم.

فإذا برزوا لعدوهم و أشرعت الأسنة و فوقت السهام، و تقدّم الرجل إلى الرجل حفتهم الملائكة بأجنحتها يدعون اللّه بالنصرة و التثبيت فينادى مناد: «الجنة تحت ظلال السيوف» فتكون الطعنة و الضربة على الشهيد أهون من شرب الماء البارد فى اليوم الصائف.

و إذا زال الشهيد من فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتّى يبعث اللّه إليه زوجته من الحور العين فتبشره بما أعد اللّه له من الكرامة. فإذا وصل إلى الأرض تقول له الأرض: مرحبا بالروح الطيب الذى خرج من البدن الطيب، أبشر فإن لك ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر و يقول اللّه: أنا خليفته فى أهله من أرضاهم فقد أرضانى و من أسخطهم فقد أسخطنى [۴۷۱].

---

[۱] (۱)- اقتباس من تفسير فى ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۵۲

[۲] (۱)- جمله« تدلوا» عطف على تأكلوا، فعلى هذا يكون مفهومها« لا تدلوا».

[۳] (۱)- فى ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۵۲.

[۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

[۵] (۲)- وسائل الشيعة: ج ۱۲ باب ۵ من أبواب ما يكتسب به ح ۲

[۶] (۳)- بحار الأنوار: ج ۱۰۱ ص ۲۷۴ و ج ۱۱ باب الرشا فى الحكم.

[۷] (۱)- تفسير البيضاوى: ذيل الآية المذكورة.

[۸] (۲)- مجمع البيان، المجلد الأوّل، ص ۲۸۴ فى تفسير الآية.

[۹] (۱)- مجمع البيان: فى تفسير الآية.

[۱۰] (۲)- و ذهب البعض إلى وجود حذف فى الجملة و تقديره: لكن البر من اتقى ذلك.

[۱۱] (۱)- بحثنا فى هذا الموضوع ذيل الآية(۱۲) من سورة الاسراء، و كذلك ذيل الآية(۵) من سورة يونس.

[۱۲] (۱)- تفسير الفخر الرازى، المجلد ۵، ص ۱۲۷.

[۱۳] (۲)- مجمع البيان، ج ۱، ص ۲۸۴(ذيل الآية مورد البحث) و ورد مثلها فى تفاسير اخرى.

[۱۴] (۱)- نهج البلاغة- الكتب و الرسائل- رقم ۱۴.

[۱۵] (۲)- سورة النساء، ۷۷.

[۱۶] (۳)- التوبة، ۳۶.

[۱۷] (۱)- روح المعانى، المجلد الثانى، ص ۶۵.

[۱۸] (۲)- العنكبوت: ۲.

[۱۹] (۱)- الأعراف: ۲۷.

[۲۰] (۲)- الذاريات: ۱۳، ۱۴.

[۲۱] (۳)- المائدة: ۴۱.

[۲۲] (۱)- إنجيل متّى- الباب ۵- الرقم ۳۹.

[۲۳] (۱)- التوبة: ۹۲.

[۲۴] (۱)- نهج البلاغة، الحكمة ۱۴۶.

[۲۵] (۲)- تفسير فى ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۷۶.

[۲۶] (۱)- المیزان، المجلد ۲، ص ۷۵(ذیل الآیة مورد البحث).

[۲۷] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۷۷.

[۲۸] (۲)- ذکر احتمالان فی تفسیر الآیة، أحدهما أن« ما» فی« ما استیسر» مبتدأ، و خبرها محذوف بتقدیر« علیکم» فتکون الجملة« فعلیکم ما استیسر من الهدی» و الثانی أن« ما» مفعول لفعل مقدّر تقدیره:« فاهدوا ما استیسر من الهدی».

[۲۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۰.

[۳۰] (۱)- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۵۲.

[۳۱] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۱(و مثل هذا المعنی ورد فی تفسیر القرطبی عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم حول الصوم و إطعام المسکین ذیل هذه الآیة).

[۳۲] (۱)-« عشرون» و« عشرین» و إن کان علی شکل الجمع، و لکن یطلق الجمع أحیانا علی الاثنین و ما علا.

[۳۳] (۱)- نهج البلاغة، الکتاب ۴۷، وصیة الإمام لابنیه الحسن و الحسین.

[۳۴] (۱)- شبهات حول الإسلام.

[۳۵] (۲)- فی بعض النسخ(تقربة للدین)- متن ابن أبی الحدید- و مفهومها أنه سبب وحدة الامّة الإسلامیة و تقریب الصفوف.

[۳۶] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۸، ص ۱۴، باب عدم جواز تعطیل الکعبة عن الحج، ح ۵.

[۳۷] (۱)- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۵۳.

[۳۸] (۱)- بما أن الحج لیس هو الأشهر نفسها، لذا ذهب المفسرون إلی وجود تقدیر و هو:« أشهر الحج أشهر معلومات»، و ذهب بعض إلی عدم وجود تقدیر، و احتملوا أن الجملة کنایة عن شدة ارتباط الحج بهذه الأشهر الخاصّة و کأنه هو هی.

[۳۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۳- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۶۰.

[۴۰] (۳)- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۶۴.

[۴۱] (۱)- التحقیق فی کلمات القرآن الکریم.

[۴۲] (۱)-« الباب» جمع« لب»، و یقال للعقل الخالص« لب» أیضا.

[۴۳] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۸، کتاب الحجّ باب ۱ من أبواب وجوب الحجّ، ح ۱۸.

[۴۴] (۱)- ذکر الفخر الرازی هنا ثمانیة أقوال فی معنی« عرفات»(ج ۵، ص ۱۷۳- ۱۷۴).

[۴۵] (۲)- هناک بحث بین المفسرین فی أن« عرفات» مفرد أو جمع ل« عرفة». و قیل أن« عرفة» اسم زمان للأعمال فی یوم التاسع من ذی الحجة و« عرفات» اسم ذلک المکان(روح المعانی، ج ۲، ص ۸۷).

[۴۶] (۱)- الحمس: هم الأفراد المتمسّکون بالدین.

[۴۷] (۲)- سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۱۱ و ۲۱۲.

[۴۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۷.

[۴۹] (۱)- روح المعانی، ج ۲، ص ۸۹- و القرطبی، ج ۲، ص ۸۰۳- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۸۳- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۸۹- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۲۰۳.

[۵۰] (۱)-« خلاق» کما یقول الراغب تعنی الفضائل الأخلاقیة التی یکتسبها، و هنا علی قول الطبرسی أنها تعنی النصیب(الذی هو نتیجة الفضائل الأخلاقیة).

[۵۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۷.

[۵۲] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۸.

[۵۳] (۳)- التفسير الكبير، ج ۵، ص ۱۸۹.

[۵۴] (۴)- فى ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۹۰.

[۵۵] (۱)- مجمع البيان، ج ۱، ص ۲۹۸، ذيل الآية.

[۵۶] (۱)- بالرغم من أن« أيام» جمع« يوم» و هو مذكر، إلّا أنه وصف ب« معلومات» و« معدودات» بصيغة المؤنث، و قيل أن ذلك لأن الأيّام مركبة من ساعات، و لعلّه إشارة إلى أنكم ينبغى أن تذكروا اللّه طيلة ساعات هذه الأيّام.

[۵۷] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى و غيره من التفاسير.

[۵۸] (۱)- تفسير أبو الفتوح، ج ۲، ص ۱۴۰، قلمّا روى هذا السبب النّزول.

[۵۹] (۱)- تفسير الميزان، ج ۲، ص ۹۶- و كذلك أشير إلى هذا البحث فى ذيل هذه الآية فى تفسير مجمع البيان و أبو الفتوح الرازى، و لكن هذا الرأى لا يناسب سبب النّزول، و إن كان مفهوم الآية واسعا.

[۶۰] (۲)- البقرة، ۲۳۳.

[۶۱] (۳)- العزة فى مقابل الذلّة فى الأصل. و لكن هنا ورد بمعنى الغرور و النخوة،(روح المعانى) و الراغب يرى أنها بمعنى عدم المغلوبية فى الأصل، و مجازا تأتى بمعنى الغرور.

[۶۲] (۱)- ذكر صاحب الغدير: ج ۲ ص ۴۴ و ۵۵ أنّ ليلة المبيت رواها الغزالى فى إحياء العلوم: ج ۳ ص ۲۳۸، و الصفوى فى نزهة المجالس: ج ۲ ص ۲۰۹، و ابن الصبّاغ المالكى فى الفصول المهمّة، و السبط ابن الجوزى الحنفى فى تذكرة الخواص: ص ۲۱، و مسند أحمد: ج ۱ ص ۴۸ و تاريخ الطبرى: ج ۲ ص ۹۹- ۱۰۱، و ابن هشام فى السيرة: ج ۲ ص ۲۹۱، و الحلبى فى السيرة: ج ۲ ص ۲۹، و تاريخ اليعقوبى: ج ۲ ص ۲۹.

[۶۳] (۱)- التوبة: ۱۱۱.

[۶۴] (۱)- نقل قصّة هذه المعاملة« ابن أبى الحديد» فى شرح« نهج البلاغة» ج ۴، ص ۷۳.

[۶۵] (۱)- تفسير الكبير، المجلد الخامس، ص ۲۰۷- روح المعانى، ج ۲، ص ۹۷، و لكن نظر أن« كافة» تشمل جميع المؤمنين و ليس كافة تشريعات الإسلام(فى الحقيقة حال ل« الذين آمنوا» لا السلم) و التفسير الأوّل أصح فى النظر.

[۶۶] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد الثانى، ص ۸۳۲.

[۶۷] (۱)-« ظلل» جمع« ظلة» يقال لكلّ شىء يصنع ظلا، و« غمام» بمعنى السحاب.

[۶۸] (۱)- لم يذكر التقدير فى التفسير الأوّل و يجب أخذه بنظر الاعتبار فى التفسير الثانى و الثالث فى كلمة« امر» قبل لفظ الجلالة« اللّه».

[۶۹] (۲)- راجع الآية(۱۸۹) من سورة الشعراء.

[۷۰] (۳)- المصدر السابق.

[۷۱] (۱)- نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۵۳.

[۷۲] (۱)-« امّة» بمعنى الجماعة التى ترتبط بنوع من الرابطة الموحدة لأفرادها سواء كانت وحدة دينية أو زمانية أو مكانية.

[۷۳] (۱)- اقتباس من تفسير الميزان، ج ۲، ص ۱۳۴، فى ذيل الآية(۲۱۳) من سورة البقرة.

[۷۴] (۱)- مجمع البيان، ج ۱، ص ۳۰۸.

[۷۵] (۱)- الدر المنثور: ج ۱ ص ۲۴۳، تفسير الكبير: ج ۶ ص ۲۰.

[۷۶] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۰۹، كذلك تفسير روح المعانى: ج ۲ ص ۹۱، و التفسير الكبير: ج ص ۲۳۲.

[۷۷] (۱)- السرية: هى الحرب الإسلامية التى لم يشترك فيها رسول اللّه(ص)، و قيل إنّها مجموعة من الجيش تتكون من ۵ إلى ۳۰۰

رجل. و السرية من« السرى» أى الشيء النفيس، و إنّما سمّيت بذلك لأن أفرادها ممتازون.

و قال المطرزى: السرية من« السرى» و هو المشى ليلا، لأنّ هذه المجموعة كانت تستتر بالليل فى حركتها، و ذهب إلى ذلك أيضا ابن حجر فى الملتقطات.

[۷۸] (۱)- سيرة ابن هشام: ج ۲ ص ۲۵۲.

[۷۹] (۱)-« صدّ» مبتدأ،« كفر» و« إخراج أهله» معطوف عليه، و« اكبر» خبرها و هو ما ذهب إليه الطبرسى فى« مجمع البيان» و القرطبى فى تفسير« الجامع».

[۸۰] (۲)- قدمنا بحثا مفصلا عن معنى« الفتنة» فى ذيل الآية(۱۹۱) من هذه السورة المبحوثة.

[۸۱] (۱)- أشرنا إلى معنى« المرتد الفطرى و الحلى» فى ذيل الآية(۱۰۶) من سورة النحل، و سيأتى الكلام عنه فى ذيل الآية(۸۹) من سورة آل عمران من هذا المجلد.

[۸۲] (۱)- بحار الأنوار: ج ۵ ص ۳۳۲.

[۸۳] (۲)- الزلزلة: ۷ و ۸.

[۸۴] (۳)- تجريد العقائد: ص ۳۲۷.

[۸۵] (۱)- الإسراء: ۳۴.

[۸۶] (۱)- النساء: ۱۰.

[۸۷] (۱)- البقرة: ۲۰۶.

[۸۸] (۱)- الدر المنثور: ج ۱ ص ۲۵۳.

[۸۹] (۲، ۳)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۱۰.

[۹۰] (۲، ۳)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۱۰.

[۹۱] (۴)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۱۶.

[۹۲] (۱)- جملة شرطية، فيها محذوف و تقديره« لا بأس به» أو« فلكم ذلك».

[۹۳] (۲)-« اعنتكم» من مادة« عنت» و فى الأصل بمعنى الوقوع فى أمر مخوف، و على قول مقاييس اللغة أنه يعنى كلّ أمر شاق. و عبارة« فإخوانكم» بمثابة الدليل على ذلك.

[۹۴] (۱)- المائدة: ۵.

[۹۵] (۱)- تفسير فى ظلال القرآن: ج ۱ ص ۳۴۴- ۳۴۶.

[۹۶] (۱)- مقتبس من إعجاز القرآن: ص ۵۵- ۵۶.

[۹۷] (۱)- الجملة الثانية مفهوم الشرط، و الأول مفهوم الغاية.

[۹۸] (۱)- تأتى كلمة« حيث» بعنوان اسم مكان و اسم زمان، و لكن هنا تشير إلى زمن جواز المقاربة الجنسية أى زمن الطهر.

[۹۹] (۲)- آل عمران: ۳۷.

[۱۰۰] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۲۱.

[۱۰۱] (۲)- بحار الأنوار: ج ۱ ص ۲۹۴ ح ۴.

[۱۰۲] (۳)- المصدر نفسه ص ۲۹۳ ح ۱.

[۱۰۳] (۱)- ورد فى باب ۱۵ من سفر اللاويين من التوراة:« و إذا حاضت المرأة فسبعة أيّام تكون فى طمثها، و كلّ من يلمسها يكون نجسا إلى المساء، كل ما تنام عليه فى أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجسا، و كلّ من يلمس فراشها يغسل ثيابه و يستحم بماء و

يكون نجسا إلى المساء ...» و أحكام اخرى من هذا القبيل.

[۱۰۴] (۲)- مقتبس من تفسير الميزان: ج ۲ ص ۲۰۸ ذيل الآيـة مورد البحث، كتاب أنيس الأعلام: ج ۲ ص ۱۰۶ و ۱۰۷، و كذلك شرح المبسوطى مع ذكر المصادر.

[۱۰۵] (۱)- تحدّثنا تفصيلا عن حقيقة« التوبة» و شرائطها فى المجلد الثالث فى ذيل الآية(۱۷) من سورة النساء، و فى المجلد ۱۴ ذيل الآية(۵) من سورة النور.

[۱۰۶] (۱)- طبقا لهـذا التفسير« لا» مقدرة و فى الأصل« لئلا تبرو» و هذا المعنى مطابق تماما لشأن النزول و يحتمل أيضا أن« عرضة» بمعنى المانع يعنى لا تجعلوا القسم باللّه مانعا لأداء الأعمال الصالحة و الإصلاح بين الناس« بتقدير: لا تجعلوا اللّه بسبب ايمانكم حاجزا أن تبروا و تتقوا» و لكنّ التوجيه الأوّل أنسب.

[۱۰۷] (۲)- الكافى حسب نقل تفسير نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۱۸ ح ۸۳۳، وسائل الشيعة: ج ۱۶ ص ۱۱۶ ح ۵.

[۱۰۸] (۳)- راجع نفس المصدر: ح ۸۳۲ و ۸۳۴، وسائل الشيعة: ج ۱۶ ص ۱۱۵ و ما بعد.

[۱۰۹] (۱)- كلمة« إيلاء» من مادة« الو» بمعنى القدرة و العزم، و بما أن القسم نموذج من هذا المعنى و لذا اطلق على الطلاق.

[۱۱۰] (۱)- إذا جامع الرجل قبل الأربعة أشهر فإن الكفّارة واجبة عليه إجماعا و إذا جامع بعد الأربعة أشهر فإن هذا الحكم مشهور بين الفقهاء، رغم أن البعض أنكروا الكفّارة فى هذه الصورة.

[۱۱۱] (۲)- حقوق المرأة فى الإسلام و أوروبا.

[۱۱۲] (۱)- راجع تفسير نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۳۰ و ۲۳۱.

[۱۱۳] (۲)- راجع قاموس اللّغة.

[۱۱۴] (۳)- لسان العرب: مادة« قرء».

[۱۱۵] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۲۶ فى ذيل الآية المبحوثة.

[۱۱۶] (۲)-« بعولـة» جمع« بعـل» بمعنى الزوج و يقـول الراغب فى مفرداته بـأن البعض يرى إطلاقهـا على الزوج و الزوجـة.(تفسير الكبير: ج ۶ ص ۹۳) و قيل أن هذه المفردة تعطى معنى العلو و الأفضلية.

[۱۱۷] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۲۷.

[۱۱۸] (۱)- تفسير فى ظلال القرآن: ج ۱ ص ۳۶۰.

[۱۱۹] (۱)- غافر: ۴۰.

[۱۲۰] (۱)- النحل: ۹۵.

[۱۲۱] (۲)- المدّثر: ۲۸.

[۱۲۲] (۳)- فصّلت: ۴۶.

[۱۲۳] (۴)- النور: ۲.

[۱۲۴] (۵)- النساء: ۳۲.

[۱۲۵] (۶)- راجع مفردات الراغب، هذا طبعا حين تتقابل كلمتى: كسب و اكتساب.

[۱۲۶] (۱)- مجمع البيـان: ج ۱ و ۲ ص ۳۲۹. و ورد هـذا السبب فى تفسـير الكبير، و القرطبى و روح المعـانى أيضـا فى ذيـل الآيـة المبحوثة.

[۱۲۷] (۱)- تفسير العياشى: ج ۱ ص ۱۱۶.

[۱۲۸] (۱)- تفسير الكبير: ج ۹ ص ۹۹.

[۱۲۹] (۲)- المیزان: ج ۲ ص ۲۳۴ ذیل الآیة.

[۱۳۰] (۳)- و هو الطلاق الخلعی المشروح فی کتب الفقه.

[۱۳۱] (۱)- رسالة الإسلام: العدد الأول السنة ۱۱ ص ۱۰۸، نقلا عن هامش کنز العرفان: ج ۲ ص ۲۷۱.

[۱۳۲] (۱)- البقرة: ۱۸۷.

[۱۳۳] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۳۰، مع التلخیص من سبب النّزول الوارد فی تفسیر روح المعانی، و القرطبی، و المراغی.

[۱۳۴] (۱)- تفسیر التکبیر: ج ۶ ص ۱۰۴.

[۱۳۵] (۱)- مجمع البیان: ج ۲ ص ۳۳۱، و نقل هذا الحدیث تفسیر القرطبی و المنار و المراغی فی ذیل الآیة المبحوثة أیضا.

[۱۳۶] (۱)- تفسیر القرطبی: ج ۲ ص ۹۶۴، و مثله فی تفسیر المراغی: ج ۲ ص ۱۷۹.

[۱۳۷] (۲)- فعلی هـذا تکون جملـة« و ما نزل علیکم من الکتاب و الحکمة» عطف« نعمة اللّه» أو من قبیل عطف الخاصّ علی العامّ و فی هـذه الصورة یکون مفهوم« نعمـة اللّه» واسـعا حیث یشـمل جمیع النعم الإلهیّـة التی منها نعمـة المحبّـة و الألفـة التی جعلها اللّه بین الزوجین.

[۱۳۸] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۳۲. و نقل أکثر المفسّرین مثل: القرطبی، تفسیر الکبیر، روح المعانی، فی ظلال القرآن أحد سبب نزول أو کلاهما فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۳۹] (۱)- رجح البعض التفسیر الثانی لأن المخاطب فی الآیات السابقة هو الأزواج و لکنه یشکل بأن تعبیر« أزواجهن» یکون تعبیرا مجازیا بالنسبة إلی الأزواج مضافا إلی انه لا ینسجم مع شأن النّزول.

[۱۴۰] (۱)- وسائل الشیعة: ج ۱۵ ص ۱۷۷(باب أقلّ مـدّة الرضاع و أکثره) ج ۲ و ۵، و ورد فی بعض هـذه الروایات إذا نقص عن(۲۱) شهرا کان ظلما للرضیع.

[۱۴۱] (۱)- علی التفسیر الأوّل فعـل« لا- تضـار» فعل معلوم، و علی التفسیر الثانی فعل مجهول و إن کان تلفظ الاثنین واحـدا، تأمل جیدا.

[۱۴۲] (۱)- تفسیر مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۳۶.

[۱۴۳] (۱)- الإسلام و عقائد الإنسان: ص ۶۱۷.

[۱۴۴] (۱)- المنار: ج ۲ ص ۴۲۲.

[۱۴۵] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲، ص ۳۳۸.

[۱۴۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۳۲ ح ۹۰۵.

[۱۴۷] (۲)- الحدائق: ج ۲۴ ص ۹۰.

[۱۴۸] (۱)-« مس» فی اللغة بمعنی الملامسة، و هنا کنایة عن الجماع و« فریضة» بمعنی الواجب، و هنا جاءت بمعنی المهر.

[۱۴۹] (۱)- تفسیر الکبیر: ج ۶ ص ۱۳۷.

[۱۵۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۵۱] (۱)- الاسراء: ۱۰۰.

[۱۵۲] (۲)-« حقّا» یمکن أن تکون صـفة ل« متاعا»، أو حال أو مفعول مطلق لفعل محـذوف-« متاعا» مفعول مطلق أیضا عن جملة« و متعوهن».

[۱۵۳] (۱)- لا شکّ أنّ المهر لا یسـقط إن لم یـذکر فی العقد الدائم بل یعبر(مهر المثل) أی المهر الذی یعادل مهور نساء مماثلات إلّا إذا حصل الطلاق قبل الدخول عندئذ یتوجب تقدیم هدیّة کما ذکرنا.

[۱۵۴] (۱)- تفسير مجمع البيان: ج ۱ و ۲ ص ۳۴۲- و بنفس المضمون فى تفسير« الدّر المنثور» فى ذيل الآية المبحوثة حسب نقل الميزان.

[۱۵۵] (۱)- انظر الكتب الفقهية للاستزادة.

[۱۵۶] (۲)- المشهور بين فقهاء الشيعة أن المراد منها« صلاة الظهر» بل ادعى الإجماع على ذلك و من عدّة روايات معتبرة وردت فى كتاب وسائل الشيعة: ج ۳ ص ۱۴ الباب ۵ أو هناك قول شاذ و ضعيف بأن المراد منها صلاة العصر« و ذهب أغلب فقهاء أهل السنّة إلى هذا الرأى» و استدلوا على ذلك بعدّة روايات ضعيفة السند و قد اعرض الأصحاب عنها(لمزيد الإيضاح راجع الكتب الفقهية).

[۱۵۷] (۱)- تفسير نور الثقلين.

[۱۵۸] (۲)- مجمع البيان، فى ذيل الآية المبحوثة.

[۱۵۹] (۳)- وسائل الشيعة: ج ۵، ص ۴۸۳ الباب ۳، الحديث ۳ مع التلخيص و نقل الحديث بالمعنى، و وردت أحاديث اخرى بهذا المضمون فى هذا الباب.

[۱۶۰] (۱)- للاستزادة و معرفة فوائد الصلاة تراجع الآية(۴۵) من سورة العنكبوت من هذا التفسير.

[۱۶۱] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ و ۲ ص ۳۴۵ ذيل الآية المبحوثة.

[۱۶۲] (۱)- الفخر الرازى: ج ۶ ص ۱۵۸.

[۱۶۳] (۱)- جواهر الكلام: ج ۳۱ ص ۵۸.

[۱۶۴] (۲)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۴۰ ح ۹۵۶ و ۹۵۷.

[۱۶۵] (۱)- الميزان: ج ۲ ص ۲۵۰- ۲۴۹.

[۱۶۶] (۲)- الملك: ۱۰.

[۱۶۷] (۳)- الحج: ۴۶.

[۱۶۸] (۱)- فى بعض الروايات أنّ حزقيل هو النبىّ الثالث بعد موسى عليه السّلام فى بنى إسرائيل.

[۱۶۹] (۲)- راجع التفاسير: مجمع البيان، القرطبى، روح البيان، فى ذيل الآية المبحوثة.

[۱۷۰] (۱)- يس: ۸۲.

[۱۷۱] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ و ۲ ص ۳۴۹.

[۱۷۲] (۲)- راجع تفسير الكبير: ج ۶ ص ۱۶۶.

[۱۷۳] (۱)- قال الراغب فى المفردات، فى مادة« ضعف»: قال البعض: ضاعفت أبلغ من ضعّفته.

[۱۷۴] (۱)- نهج البلاغة القسم الأخير من الخطبة ۱۸۳.

[۱۷۵] (۱)- سوف نتطرّق قريبا إلى تاريخ هذا الصندوق و محتوياته.

[۱۷۶] (۱)- عن مجمع البيان و الدر المنثور و قصص القرآن باختصار.

[۱۷۷] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ و ۲ ص ۳۵۰.

[۱۷۸] (۱)- روح المعانى و تفسير الكبير فى ذيل الآية المبحوثة.

[۱۷۹] (۲)- اعتبر صاحب« الكشّاف» طالوت اسما أعجميا مثل: جالوت و داود، و قال الآخرون: إنّه اسم عربى مأخوذ من مادة« طول» و إشارة إلى طول قامة.(تفسير الكبير: ج ۶ ص ۱۷۲).

[۱۸۰] (۱)- جنود جمع جند فى الأصل بمعنى الأرض الكثيرة الأحجار و المتراكمة الصخور ثمّ أطلقت على كلّ شىء متراكم و عادة تأتى بمعنى الجيش الكبير، و عبارة« لم يطعمه» جاءت بدل كلمة لم يشربه و هى إشارة إلى أن الجنود لا ينبغى لهم أن يشربوا منه

بمقدار كف واحدة بل لا يذوقونه أيضا.

[۱۸۱] (۱)-« فئة» من« فیء» فی الأصل بمعنى الرجوع و بما أن كلّ جماعة تتعاضد فيما بينها و تعود أحدها على الاخرى بالعون و المساعدة أطلقت كلمة« فئة».

[۱۸۲] (۱)- لمزيد من الاطلاع راجع الكتاب« الفرضية الأخيرة فی التكامل».

[۱۸۳] (۱)- البقرة: ۲۰۸.

[۱۸۴] (۱)- النساء: ۴۱.

[۱۸۵] (۲)- البقرة: ۱۴۳.

[۱۸۶] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ و ج ۲ ص ۳۶۰.

[۱۸۷] (۲)-« خلّة» مأخوذة من مادة« خلل» بمعنى الفاصلة بين شيئين و بما أن المحبّة و الصداقة تحل فی وجود الإنسان و روحه و تملأ الفواصل لذا أطلقت هذه المفردة على الصداقة العميقة.

[۱۸۸] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۲۶۰.

[۱۸۹] (۲)- تفسير البرهان: ج ۲ ص ۲۴۵، بحار الأنوار: ج ۸۹ ص ۲۶۴، ج ۷(باب فضائل سورة يذكر فيها البقرة و آية الكرسی) و لأجل الاطلاع أكثر راجع بحار الأنوار: ج ۸۹ ص ۲۶۲- ۲۷۲.

[۱۹۰] (۳)- بحار الأنوار: ج ۸۹ ص ۲۶۶ باب فضائل سورة البقرة ح ۱۱(بتلخيص).

[۱۹۱] (۱)- شرحنا معنى الأحلام فی سورة يوسف شرحا وافيا.

[۱۹۲] (۱)- وردت« ما» فی جملة(ما فی السموات و ما فی الأرض) للموجودات غير العاقلة، و مع أن الموجودات العاقلة أيضا مملوكة للّه سبحانه جاءت« ما» للتغليب لأن الغلبة الأكثرية للموجودات غير العاقلة.

[۱۹۳] (۲)- تحدّثنا عن الشفاعة فی المجلد الأول الآية(۴۸) من سورة البقرة بصورة مفصلة.

[۱۹۴] (۱)- فی المجلّد الأول من هذا التفسير بحث واف تحت عنوان« القرآن و الشفاعة». راجع ص ۱۶۳ منه.

[۱۹۵] (۱)- ذهب أكثر المفسّرين إلى ان كلمة« علم» هنا بمعنى المعلوم. و هذا ما يتناسب مع معنى الآية و من هنا تبعيضية. مجمع البيان، تفسير الكبير، روح البيان، و القرطبی فی ذيل الآية المبحوثة.

[۱۹۶] (۱)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۵۹ ح ۱۰۳۹.

[۱۹۷] (۱)- المصدر السابق: ص ۲۶۰ ح ۱۰۴۲.

[۱۹۸] (۲)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۶۲.

[۱۹۹] (۱)- مستدرك سفينة البحار: ج ۹ ص ۹۷.

[۲۰۰] (۲)- بحار الأنوار: ج ۸۹ ص ۲۶۵.

[۲۰۱] (۳)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۶۱.

[۲۰۲] (۱)- تفسير ابو الفتوح الرازی: ج ۲ ص ۳۲۷.

[۲۰۳] (۱)- المائدة: ۵۵.

[۲۰۴] (۱)- إن الاستدلال الثانی يبدأ بإلغاء و قد يكون إشارة إلى أن الاستدلال الثانی لا يعنی صرف النظر عن الاستدلال الأوّل بل تضاف إليه.

[۲۰۵] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۷۰.

[۲۰۶] (۱)- تفسير المنار و المراغی فی ذيل الآية المبحوثة.

[۲۰۷] (۱)- الضمير فى« لم يتسنّه» مفرد و عائده مثّنى: الطعام و الشراب، و إنّما أفرد لقصد الجنس، فكلاهما من جنس واحد.

[۲۰۸] (۱)- الكشّاف: ج ۱ ص ۳۰۷.

[۲۰۹] (۱)- يوسف: ۵۱.

[۲۱۰] (۱)- البحر المحيط: ج ۲ ص ۳۰۰ ذيل الآية المبحوثة.

[۲۱۱] (۲)- تفسير الكبير: ج ۷ ص ۴۱.

[۲۱۲] (۱)- تفسير نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۷۸.

[۲۱۳] (۱)- انظر الآيات التى تشير إلى أنّ اللّه يبعث من فى القبور.

[۲۱۴] (۱)-« الطبرسى» فى مجمع البيان بعد أن يذكر المفهوم الآية معنا واسعا يقول: و هو المروى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام.

[۲۱۵] (۱)-« منّ» بمعنى حجر الميزان المعروف ثمّ أطلقت على النعم المهمّة التى يلاحظ فيها الجانب العملى« و منن اللّه تعالى من هذا القبيل» و إن كان الملحوظ فيها الجانب اللفظى كانت قبيحة جدّا و فى الآية أعلاه وردت بهذا المعنى الثانى.

[۲۱۶] (۱)- تفسير البرهان: ج ۱ ص ۲۵۳ ح ۱.

[۲۱۷] (۲)- تفسير أبو الفتوح الرازى: ج ۲ ص ۳۶۴.

[۲۱۸] (۱)- ذكره فى تفسير« البحر المحيط»: ج ۲ ص ۳۰۷ بعنوان: قيل.

[۲۱۹] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۷۵، نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۸۳.

[۲۲۰] (۱)- صفوان: جمع مفرده صفوانة، و تعنى الصخرة الصافية. و الوبل: هو المطر الشديد الكبير و الصلد:

بمعنى الحجر الأملس. و ضعفين: تثنية الضعف و لكنه لا يعنى أربع مرّات بل مرّتين مثل زوجين التى تعنى طرفين، تأمّل بدقّة.

[۲۲۱] (۱)-« الإعصار» ريح تثير الغبار، و هى تهبّ من اتجاهين مختلفين، بحيث إنّها تتجه من الأرض عموديا إلى السماء.

[۲۲۲] (۱)- تفسير مجمع البيان للطبرسى.

[۲۲۳] (۱)-« يتمم» فى الأصل بمعنى القصد أى شىء و جاءت هنا بهذا المعنى و أطلقت هذه الكلمة على التيمم لأن الإنسان يقصد الاستفادة من التراب الطاهر كما يقول القرآن\:i فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً\E(النساء: ۴۳).

[۲۲۴] (۱)- تفسير روح البيان: ج ۱ ص ۴۳۱ ذيل الآية المبحوثة.

[۲۲۵] (۱)- نهج البلاغة: الكلمات القصار: رقم ۲۵۸.

[۲۲۶] (۱)- تفسير القرطبى: ج ۲ ص ۱۱۳۸.

[۲۲۷] (۱)- تفسير مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۸۴ نقلا عن على بن إبراهيم: ج ۱ ص ۹۳.

[۲۲۸] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۸۵.

[۲۲۹] (۲)- المصدر السابق.

[۲۳۰] (۱)- سوف تأتى هذه المسألة مفصلا فى ذيل الآية(۳۰) من سورة آل عمران و فى هذا المجلد بالذات.

[۲۳۱] (۱)- طه: ۵۰.

[۲۳۲] (۲)- البقرة: ۲.

[۲۳۳] (۳)- العنكبوت: ۶۹.

[۲۳۴] (۴)- محمّد: ۵.

[۲۳۵] (۱)- مجمع البيان، أبو الفتوح الرازى، البحر المحيط، القرطبى، روح المعانى، و تفاسير اخرى و مع تفاوت فى العبارات.

[۲۳۶] (۱)- فى ظلال القرآن: ذيل الآية المبحوثة.

[۲۳۷] (۲)-« حصر» بمعنى الحبس و المنع و التضييق و جاءت هنا بمعنى جميع الأمور التى تمنع الإنسان من تأمين معاشه.

[۲۳۸] (۱)- قيل أنها من مادة« وسم»، و قيل أنها من مادة« سوم».

[۲۳۹] (۲)-« الحاف» من مادة« لحاف» بمعنى الغطاء المعروف، و اطلق على الإصرار فى السؤال لأنّه يغطى قلب الشخص المقابل.

[۲۴۰] (۱)- تفسير المراغى: ج ۳ ص ۵۰.

[۲۴۱] (۲)- وسائل الشيعة: ج ۸ ص ۲۸۱ كتاب الشهادات ب ۳۵.

[۲۴۲] (۱)- نـور الثقلين: ج ۱ ص ۲۹۰ و ۲۹۱. ورد مضـمون هـذا الحديث فى كتب تفسـير أهل السـنّة أيضا، و ينقله صاحب(الدر المنثور) عن ابن عساكر و الطبرانى و أبى حاتم و ابن جرير و غيرهم. و يرى البعض أن علماء الشيعة بالاتفاق و أكثر علماء السنّة ذهبوا إلى أنّ هـذه الآيـة نزلـت فى على بـن أبى طـالب عليـه السّـلام و فى علمـاء السـنّة، الواحـدى، ثعلبى، الخـوارزمى، السـدّى، العكـبى، الزمخشرى، الكافى، القشيرى، الحاوردى، ابن المغازلى، ابن أبى الحديد، و غيرهـم، و راجع تفسير البرهان.

[۲۴۳] (۱)- الروم: ۳۹.

[۲۴۴] (۱)-« يتخبّطه» من مادة« الخبط» هو فقدان توازن الجسم عند المشى أو القيام.

[۲۴۵] (۱)- تفسير العياشى: ج ۱ ص ۱۵۲ ح ۵۰۳.

[۲۴۶] (۲)- تفسير نور الثقلين: ج ۱ ص ۲۹۱ ح ۱۱۵۷.

[۲۴۷] (۱)- تفسـير القرطبى: ج ۲ ص ۱۶۹، هنـا ذكر أربع تفاسـير، و فى مجمع البيـان ذيـل الآيـة مورد البحث و ذكرت احتمالات عديدة اخرى أيضا.

[۲۴۸] (۱)- تفسير على بن إبراهيم: ج ۱ ص ۹۳.

[۲۴۹] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۳۹۲، و الدر المنثور: ج ۲ ص ۱۰۹ مع تفاوت يسير.

[۲۵۰] (۲)- الدر المنثور: ج ۲ ص ۱۰۸- ۱۰۷.

[۲۵۱] (۱)- الحجرات: ۹.

[۲۵۲] (۲، ۳)- وسائل الشيعة: ج ۱۲ ص ۴۳۹ باب ثبوت القتل و الكفر باستحلال الربا ح ۱.

[۲۵۳] (۲، ۳)- وسائل الشيعة: ج ۱۲ ص ۴۳۹ باب ثبوت القتل و الكفر باستحلال الربا ح ۱.

[۲۵۴] (۴)- فسّـر« فـأذنوا» ب« فـاعلموا» غالبـا من قبـل المفسّـرين أمثـال: الطبرى فى مجمع البيـان، أبو الفتوح الرازى، الفخر الرازى، الآلوسى فى روح المعانى، العلّامة الطباطبائى فى الميزان ... و غيرهم.

[۲۵۵] (۱)- يحتمـل أن تكون(كـان) فى الجملـة أعلاه تامّـة حيث لا تحتاج إلى خبر أو ناقصـة و يكون التقـدير« إن كان هناك ذو عسرة».

[۲۵۶] (۱)- وسائل الشيعة: ج ۱۲، أبواب الربا، الباب ۱، ص ۴۲۲.

[۲۵۷] (۱)- و طبعا يستفاد من بعض الأحكام ضمنا« و ليس بالدلالة المطابقية» أنه لو أضيفت تلك الأحكام إلى الأحكام التسعة عشر المذكورة لبلغت أكثر من واحد و عشرين حكما.

[۲۵۸] (۱)-« و ليملل» من مادة« ملة» بمعنى الدين و الأحكام الإلهية و قال بعض أنها من مادة« ملال» و بما أن فى الملاء هناك تكرار مملل أطلقت هذه الكلمة عليه(تارة بصورة إملاء و اخرى بصورة املال).

[۲۵۹] (۱)- قال بعض ان التفاوت بين« شاهد» و« شـهيد» هو أن الشاهد يقال لمن حضـر الواقعة حتّى يمكنه أن يشـهد عليها و الشهيد هو الذى يؤدى الشهادة.

[۲۶۰] (۱)- تقديم« الصغير» على« الكبير» من أجل أن الناس عادة يهملون المعاملات الصغيرة أو لا يلتزمون بكتابتها و هذا يؤدى إلى

التنازع أو أنه يحتمل أن الناس يظنون أن كتابة المعاملات الصغيرة دليل على البخل، و لذلك تعرض القرآن لنفيه.

[۲۶۱] (۱)- تفسير القمى: ج ۱ ص ۹۴.

[۲۶۲] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى: ج ۲ ص ۴۲۰، و تفسير المراغى ذيل الآية المبحوثة.

[۲۶۳] (۲)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۳۰۱.

[۲۶۴] (۳)- لتوضيح معنى القلب انظر الجزء الأوّل ص ۷۲.(المراد من القلب فى القرآن هو الروح و العقل).

[۲۶۵] (۱)- وسائل الشيعة: ج ۱ ص ۳۳.

[۲۶۶] (۱)- اقتباس من(البحر المحيط): ج ۲ ص ۳۶۳.

[۲۶۷] (۱)- جملة« و المؤمنون» يمكن أن تكون جملة مستأنفة كما ذكر فى التفسير أعلاه و يمكن أن تكون معطوفة على(الرسول) و لا يختلف المعنى كثيرا و إن كان المعنى الأول أنسب.

[۲۶۸] (۲)- النساء: ۱۵۰.

[۲۶۹] (۱)- ذهب كثير من المفسّرين إلى أن فى الجملة الأخيرة فعل محذوف و تقديره(نسألك) أو(نريد غفرانك).

[۲۷۰] (۱)- السجدة: ۱۴.

[۲۷۱] (۱)- بحار الأنوار: ج ۶۵ ص ۳۱۹ ط بيروت، و ورد مثله فى فروع الكافى: ج ۵ ص ۴۹۴ باب كراهة الرهبانية.

[۲۷۲] (۲)- الأنعام: ۱۴۶، النساء: ۱۶۰.

[۲۷۳] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۴۰۵.

[۲۷۴] (۲)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۳۰۹.

[۲۷۵] (۳)- تشير الآية(۱۳) إلى« غزوة بدر» و من آية(۱۲۱) إلى(۱۲۸) تشير إلى غزوة بدر و احد، ثمّ تعقب فى الآيات(۱۳۹) إلى(۱۴۴) إلى نفس المسألة و كذلك الآيات الاخرى.

[۲۷۶] (۱)-« نجران» منطقة فى جبال اليمن الشمالية على بعد نحو عشرة منازل من صنعاء، و تسكنها قبائل همدان التى كان لها فى الجاهلية صنم باسم« يعوق». و يقول ياقوت الحموى فى معجم البلدان: نجران اسم لعدد من المواضع.

[۲۷۷] (۱)- تفسير مجمع البيان: ج ۱ ص ۴۰۶.

[۲۷۸] (۱)- مع الأسف أن هذا العالم الذى يعيش فى أمريكا، وقع تحت تأثير المحيط الفاسد هناك و قد أنكر بصراحة بعض المسائل و الأحكام الإسلامية المسلمة ما دعا ادعاءات باطلة.

[۲۷۹] (۱)- البقرة: ۲.

[۲۸۰] (۱)- انظر الجزء الأول ص ۱۴۶ فى تفسير الآية ۴۰ من سورة البقرة، شرح(مصدّقا لما بين يديه).

[۲۸۱] (۲)- ذكر بعض المفسّرين أن« ذو» لها معنا أقوى من« صاحب» و لذلك لا نجد فى صفات اللّه أنها تذكر معنى كلمة صاحب بل تذكر دائما مع كلمة« ذو» البحر المحيط: ج ۲ ص ۳۷۹.

[۲۸۲] (۱)- انظر« الهدى إلى دين المصطفى» و« الرحلة المدرسية».

[۲۸۳] (۱)- متّى: على وزن حتّى، بمعنى عطاء اللّه.

[۲۸۴] (۲)- كتاب القاموس المقدّس: ص ۷۸۲.

[۲۸۵] (۳)- مرقس: على وزن قنفذ، و قيل على وزن أسهم، جمع سهم.

[۲۸۶] (۴)- القاموس المقدّس: ص ۹۶۶.

[۲۸۷] (۱)- الأنفال: ۴۱.

[۲۸۸] (۲)- البقرة: ۵۳.

[۲۸۹] (۱)- العلم الحضورى: يعنى أن يكون المعلوم ذاته حاضـرا عند العلم. أمّا فى العلم الحصولى فإنّ الحاضر عند العالم هو صورة المعلوم و رسـمه، فمثلا أنّ علمى بنفسـى علم حضورى لأنّ نفسـى ذاتها حاضـرة فى نفسى، أمّا بالنسبة للموجودات الأخرى فعلمنا بها حصولى، لأنّ صورتها فقط هى الحاضرة فى أذهاننا.

[۲۹۰] (۱)- ج ۱ ص ۳۱۳.

[۲۹۱] (۱)-« زيغ» فى الأصل. بمعنى الانحراف عن الخط المسـتقيم و التمايل إلى جهـة، و الزيغ فى القلب بمعنى الانحراف العقائدى عن صراط المستقيم.

[۲۹۲] (۲)- سورة الإخلاص: ۱.

[۲۹۳] (۳)- الشورى: ۱۱.

[۲۹۴] (۴)- الزمر: ۲۶.

[۲۹۵] (۵)- النساء: ۱۱.

[۲۹۶] (۱)- ذكر« الطبرسى» فى مجمع البيان خمسة تفاسير لذلك، و ذكر« الفخر الرازى» أربعة أقوال و« العلّامة» فى الميزان ستة عشر قولا و فى« البحر المحيط» عشرين قولا تقريبا عن تفسيرها.

[۲۹۷] (۲)- الفتح: ۱۰۰.

[۲۹۸] (۳)- البقرة: ۲۲۴.

[۲۹۹] (۴)- الأنبياء: ۴۷.

[۳۰۰] (۱)- الفتح: ۱۰.

[۳۰۱] (۲)- طه: ۵.

[۳۰۲] (۳)- القيامة: ۳.

[۳۰۳] (۱)- مستدرك الحاكم: ج ۳ ص ۱۴۸.

[۳۰۴] (۱)- سورة الكهف: ۸۲.

[۳۰۵] (۲)- سورة يوسف: ۱۰۰.

[۳۰۶] (۱)- النساء: ۱۶۲.

[۳۰۷] (۲)- تفسير العيّاشى: ج ۱ ص ۱۶۴.

[۳۰۸] (۳)- اصول الكافى: ج ۱ ص ۲۱۳.

[۳۰۹] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة ۹۱.

[۳۱۰] (۲)- انظر تفسير نور الثقلين: ج ۱ ص ۳۱۵.

[۳۱۱] (۱)- تفسير الصافى فى تفسير الآية.

[۳۱۲] (۱)- سبق أن قلنا إنّ« الوقود» هو ما تشتعل به النار كالحطب، لا ما تشتعل به النار كالكبريت.

[۳۱۳] (۱)- مجمع البيان: ج ۱ ص ۴۱۳.

[۳۱۴] (۱)-« مهاد» بمعنى المكان المهيأ، كما يقول الراغب، و هى فى الأصل من مادة(مهد) و هو محل استراحة الطفل.

[۳۱۵] (۱)- مـا ذكر أعلاـه ورد فى مجمع البيـان و لكن ورد فى« الكامـل» لاـبن الأثير: ج ۳ ص ۱۳۶ أنه« و كـان جميع من قتـل من المسلمين ببدر أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار».

[۳۱۶] (۱)- هذا التفسیر یعتمد علی إرجاع الضمیر فی« یرون» إلی الکفّار، و الضمیر« هم» إلی المسلمین. و هذا أوضح التفاسیر العدیدة للآیة.

و سنشرح معرکة بدر شرحا وافیا عند تفسیر الآیات ۴۱- ۴۵ من سورة الأنفال.

[۳۱۷] (۱)- تفسیر القرطبی: ج ۲ ص ۱۲۶۸.

[۳۱۸] (۱)-« عبرة» فی الأصل من مادة« عبور» بمعنی الانتقال من مرحلة إلی اخری أو من مکان إلی آخر و یقال لدمع العین« عبرة» علی وزن« حسرة» لأنه یعبر من العین، و یقال للکلمات التی تمر من خلال اللسان و الاذن« عبارات» أیضا و کذلک یقال للحوادث« عبرة» لأجل أن الإنسان عند ما یراها یعلم بمخلفاتها من الحقائق.

[۳۱۹] (۱)- الشهوات: جمع شهوة، أی حبّ شیء من الأشیاء حبّا شدیدا، و لکنها فی هذه الآیة بمعنی المشتهیات.

[۳۲۰] (۲)- الکهف: ۷.

[۳۲۱] (۱)-« قانتین» من مادة« قنوت» بمعنی الخضوع امام اللّه و أیضا بمعنی المداومة علی الطاعة و العبودیة.

[۳۲۲] (۱)- تفسیر البرهان: ج ۱ ص ۲۷۳.

[۳۲۳] (۱)- الأحزاب: ۵۶.

[۳۲۴] (۱)- مجمع البیان: ج ۲ ص ۴۲۱.

[۳۲۵] (۱)- نهج البلاغة: قصار الکلمات، ۱۲۰، اصول الکافی: ج ۲ ص ۴۵ مع تفاوت یسیر.

[۳۲۶] (۱)- انظر تفسیر الآیة ۲۰۲ من سورة البقرة بشأن معنی« سریع الحساب».

[۳۲۷] (۱)- انظر تفسیر الآیة ۲۱۷ من سورة البقرة بخصوص« حبط».

[۳۲۸] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ج ۲ ص ۴۲۳.

[۳۲۹] (۱)- فی التوراة الموجودة حالیّا، فی سفر اللاویّین فی الفصل العشرین، الجملة العاشرة نقرأ ما یلی:« إذا زنا أحد بامرأة غیره، أی بامرأة جاره(مثلا) یجب قتل الزانی و الزانیة». علی الرغم من أنّ الرجم نفسه لم یرد، فقد ورد العقاب بالموت، و ربما یکون التصریح بالرجم قد ورد فی النسخة التی کانت موجودة علی عهد رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم.

[۳۳۰] (۱)- إرشاد المفید: نقلا عن تفسیر المیزان.

[۳۳۱] (۱)- الحدید: ۱۳.

[۳۳۲] (۲)- البحار: طبعة کمبانی: ج ۳ ص ۲۵۷.

[۳۳۳] (۱)- اکتشف العلماء جهاز تصویر یعمل بالأشعة ما تحت الحمراء تستطیع أن تصوّر حدثا لم یمض علیه أکثر من بضع لحظات، إنّ الجهاز یعمل وفق نظام حراری یجتذب الأمواج الصادرة عن الأجسام، و یحوّلها بوساطة جهاز یدعی« ثرموجرام» إلی سالب و موجب، ثمّ یصوّرها بالأسود و الأبیض- کما ذکرت وسائل الإعلام- و بهذا یمکن- أن نعرف کیفیة وقوع جریمة و تصویر أعمال المجرمین السابقة ثمّ عرضها علیهم و کشف کذبهم.

[۳۳۴] (۱)-« الذریة» أصلها الصغار من الأولاد. و قد یشمل الأبناء الصغار و الکبار أیضا بلا واسطة أو مع الواسطة، و الکلمة من(الذرء)، بمعنی الخلق و الإیجاد.

[۳۳۵] (۱)- تفید بعض الأحادیث أنّ« عمران» کان نبیّا و یوحی إلیه. و عمران هذا غیر عمران والد موسی، إذ بینهما ۱۸۰۰ سنة من الزمان.(مجمع البیان- و تفسیر المراغی، ذیل الآیة مورد البحث).

[۳۳۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان: ج ۲ ص ۴۳۶.

[۳۳۷] (۱)- تفسیر العیّاشی: ج ۱ ص ۱۷۲.

[۳۳۸] (۱)- نهج البلاغة: الكلمات القصار: ۲۸.

[۳۳۹] (۱)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۳۳۶، و البحار: ج ۱۰ ص ۲۴.

[۳۴۰] (۲)- البقرة: ۴۷.

[۳۴۱] (۱)- يس: ۸۲.

[۳۴۲] (۲)- الكهف: ۱۰۹.

[۳۴۳] (۱)-« الكهولة» هى متوسط العمر، و قيل إنّها الفترة ما بين السنة الرابعة و الثلاثين حتّى الحادية و الخمسين، و ما قبلها« شاب» و ما بعدها« شيخ».

[۳۴۴] (۱)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۳۴۳.

[۳۴۵] (۲)- بحار الأنوار: ج ۱۱ ص ۳۲ الطبعة الجديدة.

[۳۴۶] (۱)-« أكمه» قيل أنه يعنى أعمى، و ذهب بعض إلى أنه العشو الليلى، و لكن اغلب المفسّرين و أرباب اللغة ذهبوا إلى أنه يعنى الأعمى منذ الولادة. و بعض ذهب إلى أكثر من ذلك بأن المراد هو عدم وجود أصل العين.

[۳۴۷] (۱)- مريم: ۳۰.

[۳۴۸] (۱)- التعبير ب« أحسّ» مع أن الكفر أمر باطنى لا يدرك بالحواس قد يكون أن إصرارهم على الكفر بلغ مرتبة من الشدّة و كأنه أصبح محسوسا(الميزان- ذيل الآية مورد البحث).

[۳۴۹] (۱)- انظر الآية ۳۰ من سورة الأنفال، أو الآية ۵۰ من سورة النمل و غيرهما.

[۳۵۰] (۱)- فاطر: ۴۳.

[۳۵۱] (۱)- إنجيل مرقس الباب ۶- إنجيل متى الباب ۲۸- إنجيل لوقا الباب ۲۴- إنجيل يوحنا الباب ۳۱.

[۳۵۲] (۱)- الأنعام: ۶۰.

[۳۵۳] (۱)-« مباهلة» فى الأصل من مادة« بهل»(على وزن اهل) بمعنى اطلاق و فك القيد عن الشىء و بذلك يقال للحيوان الطلق حيث لا توضع محالبها فى كيس كى يستطيع وليدها أن يرضع بسهولة يقال له:« باهل»، و« ابتهال» فى الدعاء بمعنى التضرع و تفويض الأمر إلى اللّه.

و إذا فسّروها بمعنى الهلاك و اللعن و البعد عن اللّه كذلك بسبب ترك العبد طلقا و حرا فى كلّ شىء تترتب عليه هذه النتائج، هذا معنى« المباهلة» لغة.

امّا مفهوما ما هو المعروف نزول هذه الآية، بمعنى الملاعنة بين الشخصين، و لذا يجتمع أفراد للحوار حول مسألة دينية مهمّة فى مكان واحد و يتضرعون اللّه أن يفضح الكاذب و يعاقبه.

[۳۵۴] (۱)- مجمع البيان، ورد سبب نزول هذه الآيات فى تفاسير اخرى مع تفاوت يسير مثل: تفسير أبو الفتوح الرازى و تفسير الكبير و غيرها، و ادّعى الفخر الرازى أن هذه الروايات متفق عليها عند علماء التفسير و الحديث.

[۳۵۵] (۱)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۳۴۹، البرهان: ج ۱ ص ۲۹۰، تفسير العيّاشى: ج ۱ ص ۱۷۷، البحار: ج ۲۰ ص ۵۲ و ج ۶ ص ۶۵۲ الطبعة الجديدة.

[۳۵۶] (۱)- آل عمران: ۱۷۳.

[۳۵۷] (۲)- آل عمران: ۱۸۱.

[۳۵۸] (۳)- النحل: ۱۲۰.

[۳۵۹] (۱)- القصص: ۱۱.

[۳۶۰] (۱)- مجمع البیان: ذیل الآیة المذکورة. تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۳۵۲.

[۳۶۱] (۱)- المقوقس: حاکم مصر من قبل هرقل ملک الروم، و کان نصرانیا.

[۳۶۲] (۲)- الأقباط: أقوام کانت تقطن مصر.

[۳۶۳] (۳)- مکاتیب الرسول: ج ۱ ص ۹۷.

[۳۶۴] (۱)- مکاتیب الرسول: ج ۱ ص ۱۰۰.

[۳۶۵] (۲)- الأریسیون: هم العنصر الرومی و العمال.

[۳۶۶] (۱)-« طائفة» من مادة الطواف. بمعنی الحرکة حول الشیء. و بما أن الناس کانوا فی السابق یسافرون بشکل جماعات لاحراز الأمان أطلقت هذه الکلمة علیها، ثمّ استعملت فی کل فئة و جماعة.

[۳۶۷] (۲)-« لو» فی جملة(لو یضلّونکم) بمعنی(أن) المصدریة، و بما أن(لو) تعطی معنی التمنی جاءت فی هذه الجملة بدل(أن) لیکون التعبیر أبلغ.

[۳۶۸] (۱)- جملة« تشهدون» تعنی العلم و المعرفة وفقا للتفسیر أعلاه، کما ورد فی مجمع البیان و غیره- و هذا العلم ناشئ من اطلاعهم علی أوصاف النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم الواردة فی التوراة و الإنجیل، و لکن البعض یری أن المراد بالعلم هنا هو کفایة المعجزات لإثبات نبوة نبی الإسلام. و ذهب آخرون إلی أن المراد تنکرون بها فی الظاهر، و لکن فی جلساتکم الخاصّة تشهدون بصدق دعوة نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و حقانیته.

[۳۶۹] (۱)- فی تفسیر الآیة ۴۲ من سورة البقرة المشابهة لهذه الآیة تحدّثنا عن هذا الموضوع- انظر الجزء الأوّل-.

[۳۷۰] (۱)- جملة« و لا تؤمنوا» تعنی انکم لا تصدقوا ان ینزل کتاب سماوی علی احد کما نزل علیکم.

[۳۷۱] (۱)-« فضل» بمعنی کلّ شیء زاد عن المقدار اللازم من المواهب و النعم، و هو معنی إیجابی و ممدوح. و لکن تارة یستبطن معنی مذموما و سلبیا، و ذلک عند ما یأتی بمعنی الخروج عن حدّ الاعتدال. و المیل إلی الإفراط، و یأتی غالبا بصیغة(فضول) جمع(فضل) کما فی قولهم(فضول الکلام).

[۳۷۲] (۱)- الأوقیة تساوی ۱/ ۱۲ من الرطل و یساوی ۷ مثاقیل، جمعها: أواق.

[۳۷۳] (۱)- بشأن معنی قنطار انظر تفسیر الآیة ۱۴ من هذه السورة.

[۳۷۴] (۱)- أمالی الصدوق: ص ۱۴۹.

[۳۷۵] (۱)- مشکاة الأنوار: عن سفینة البحار.

[۳۷۶] (۲)- الأعراف: ۱۷۲.

[۳۷۷] (۳)- الأعراف: ۴۴.

[۳۷۸] (۱)-« خلاق» من مادة« خلق» بمعنی النصیب و الفائدة. و ذلک لأن الإنسان یحصل علیها بواسطة أخلاقه(و هو إشارة إلی أنهم یفتقدون الأخلاق الحمیدة التی تؤهلهم للانتفاع فی ذلک الیوم).

[۳۷۹] (۱)- فی القراءة المعروفة التی اعتمدتها طبعة القرآن السائده، تأتی« و لا یأمرکم» فی حالة نصب- بفتح الراء- و هی معطوفة علی« أی یؤتیه اللّه» فی الآیة السابقة. و« لا» توکید ل« ما» النافیة فی الآیة السابقة. و علیه تکون الآیة بهذا المعنی: و ما کان لبشر أن یأمرکم أن تتّخذوا الملائکة و النبیّین أربابا.

[۳۸۰] (۱)- الإصر: العهد المؤکّد الذی یستوجب نقضه العقاب الشدید.

[۳۸۱] (۱)- التفسیر الکبیر: ج ۸ ص ۱۲۳.

[۳۸۲] (۱)- فی« لما آتیتکم» یعتبر بعضهم« ما» موصولة و مبتدأ، و اللام موطئة للقسم، و جملة« لتؤمننّ به» خبر.

و قال فریق آخر« ما» شرطیة زمانیة و جزاؤها« لتؤمننّ به و لتنصرنّه». و هذا الاحتمال الثانی أقرب إلی معنی الآیة.

[۳۸۳] (۱)- تفسیر الدر المنثور: ج ۲ ص ۴۸، نقلا عن معجم الأوسط: ج ۸ ص ۲۹۶ حدیث ۷۶۰۷.

[۳۸۴] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۴۷۱.

[۳۸۵] (۱)- طه: ۸۲.

[۳۸۶] (۱)- مجمع البیان و صحیح مسلم و البخاری کتاب التفسیر باب ما جاء فی سورة آل عمران، و یرحاء موضع کان لأبی طلحة بالمدینة.

[۳۸۷] (۲)- مجمع البیان: ج ۲ ص ۴۷۴.

[۳۸۸] (۱)- راجع تفسیر أبی الفتوح الرازی ج ۳ ص ۱۵۷ فی تفسیر الآیة.

[۳۸۹] (۱)- إسرائیل هو الاسم الآخر لیعقوب.

[۳۹۰] (۲)- عرق النساء ألم عصبی یمتد علی مسار العصب الورکی من الالیة إلی معصم القدم و یشتد هذا الألم جدا إذا ما ثنیت الساق الممتدة عند مفصل الحوض(الموسوعة العربیة المیسرة).

[۳۹۱] (۱)- جملة« و ما کان من المشرکین» جاءت فی آل عمران ۶۷- ۹۵ و الأنعام ۱۶۱ و النحل ۱۲۴ و البقرة ۱۳۵.

[۳۹۲] (۱)- للوقوف علی معلومات أکثر حول مصادر و نصوص هذا الموضوع من الآیات و الأحادیث راجع الجزء الأول من هذا التفسیر فی ذیل الآیة ۱۲۷ من سورة البقرة.

[۳۹۳] (۱)- أمثال رشید رضا مؤالف المنار.

[۳۹۴] (۱)- کل زاویة من زوایا الکعبة- الأربعة یسمی رکنا.

[۳۹۵] (۲)- یقع الحطیم بین الحجر الأسود و باب الکعبة المعظمة، و إنما سمی بالحطیم إما لکثرة ازدحام الناس و الطائفین فیها، و هو موضع توبة آدم، و إما لکونه موضع غفران الذنوب، و غفرانها بمنزلة تحطیمها.

[۳۹۶] (۳)- حجر إسماعیل هو محل بنی فیه جدار هلالی الشکل عند الضلع الشمالی الغربی من الکعبة.

[۳۹۷] (۴)- راجع کتاب فروع الکافی کتاب الحجّ باب حد موضع الطواف.

[۳۹۸] (۱)- إبراهیم: ۳۵.

[۳۹۹] (۱)- یستفاد من بعض الروایات أن تشریع هذه الفریضة فی الإسلام کان فی السنة العاشرة من الهجرة و أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أمر جماعة- فی تلک السنة- أن یؤذنوا فی الناس بالحجّ، و یهیئوا الناس لأداء هذه الفریضة، و إن کان النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم و جماعة من صحبه قد سبق لهم أن أتوا بالعمرة قبل ذلک أیضا.

[۴۰۰] (۱)- التهذیب بناء علی نقل تفسیر الصافی فی ذیل هذه الآیة.

[۴۰۱] (۱)- من لا یحضره الفقیه: ج ۴ ص ۳۶۸ باب النوادر.

[۴۰۲] (۱)- من کتاب عذر تقصیر به پیشگاه محمّد و قرآن(بالفارسیة) ص ۷۷.

[۴۰۳] (۲)- الإسلام و العلم الحدیث ص ۳۳، و المخططات الاستعماریة لمکافحة الإسلام للصواف ص ۳۸.

[۴۰۴] (۱)- حضارة العرب لغوستاف لوبون.

[۴۰۵] (۲)- لمحات من تاریخ العالم ص ۲۳- ۲۴.

[۴۰۶] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی ج ۲ ص ۴۵۰ نقلا عن البخاری کتاب المظالم باب ۵.

[۴۰۷] (۲)- المصدر السابق.

[۴۰۸] (۳)- المصدر السابق.

[۴۰۹] (۱)- راجع سنن الترمذی: ج ۴ کتاب الفتن الباب ۱۲ و مسند أحمد: ج ۴ ص ۲۶۸.

[۴۱۰] (۲)- وسائل الشیعة: ج ۱۱ کتاب الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر ص ۳۹۵.

[۴۱۱] (۱، ۲، ۳)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۴۱۲] (۱، ۲، ۳)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۴۱۳] (۱، ۲، ۳)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۴۱۴] (۴)- نهج البلاغة قصار الکلم، الکلمة رقم ۳۷۴.

[۴۱۵] (۱)- المنار: ج ۴ ص ۳۳- ۳۴.

[۴۱۶] (۱)- نقلت هـذه الروایـة بطرق مختلفـة عن الشیعة و السـنة و أما کتب الشیعة التی نقلت هـذه الروایة فهی: الخصال، و معانی الأخبـار، و الإحتجـاج، و أمـالی الصـدوق، و أصـل سـلیم بن قیس، و تفسـیر العیاشـی، و أما الکتب السـنیة فهی الـدرّ المنثور، و جامع الأصول، و الملل و النحل.

[۴۱۷] (۱)- یونس: ۲۷.

[۴۱۸] (۲)- الزمر: ۶۰.

[۴۱۹] (۱)- الآناء جمع أنا(علی وزن وفا) و أنا(علی وزن غنا) بمعنی الأوقات.

[۴۲۰] (۱)- الشعراء: ۸۸ و ۸۹.

[۴۲۱] (۱)-« البطانـة» مأخوذة من بطانـة الثوب، و هی الوجه الذی یلی البدن لقربه منه، و نقیضـها« الظهارة» و البطانة فی المقام کنایة عن خاصة الرجل الذین یستبطنون أمره و یطلعون علی أسراره.

[۴۲۲] (۲)-« الخبـال» فی الأصـل بمعنی ذهـاب شـیء، و هی تطلق فی الأـغلب علی الأضـرار التی تؤثر علی عقـل الإنسان و تلحق به الضرر.

[۴۲۳] (۱)- نهج البلاغة- الحکمة ۲۶.

[۴۲۴] (۱)- السیرة الحلبیة المجلد الثانی الصفحة ۲۳۳.

[۴۲۵] (۱)- تفسیر مجمع البیان المجلد الأول الصفحة ۴۹۷.

[۴۲۶] (۱)-« بدر» سمیت بدر لأن الماء کان لرجل من جهینة اسمه بدر(مجمع البحرین).

و بدر من حیث اللغة یعنی الممتلی الکامل. و لهذا سمی القمر إذا امتلأ: بدرا.

[۴۲۷] (۲)-« الفور» السرعة التی تقلب المعادلات کما یفور القدر و تتقلب محتویاتها بسرعة.

[۴۲۸] (۱)- فإذا کان أصل المبلغ المـدفوع إلی المـدیون أول مرّة هو(۱۰۰) و الزیادة المفروضة(۱۰) فإذا تخلف عن الأداء ضـمت الزیادة(۱۰) إلی المبلغ(۱۰۰) فیکون رأس المـال(۱۱۰) و أضـیفت إلی المجموع زیـادة بنسـبة(۱۱٪) فـإذا تخلف عن الأـداء ثانیا، ضمت الزیادة(۱۱) إلی(۱۱۰) فکان المجموع(۱۲۱) و هکذا فصاعدا.

[۴۲۹] (۱)- راجع الآیات التالیة: التوبة: ۸۹، التوبة: ۱۰۰، الفتح: ۶، البقرة: ۲۴، آل عمران: ۱۳۱، آل عمران: ۱۳۳، الحدید: ۲۱.

[۴۳۰] (۱)- لا بد من الانتباه إلی أن الجنة المبحوث عنها هنا و التی ترتبط بالعالم الآخر هی غیر الجنة التی أسـکن آدم و حواء فیها و کانت قبل خلقهما.

[۴۳۱] (۱)- راجع تفسیر الدر المنثور، و نور الثقلین فی ذیل هذه الآیة.

[۴۳۲] (۱، ۲)- تفسیر العیاشی فی ذیل الآیة.

[۴۳۳] (۱، ۲)- تفسیر العیاشی فی ذیل الآیة.

[۴۳۴] (۱)- النمل: ۷۱.

[۴۳۵] (۲)- الحج: ۴۶.

[۴۳۶] (۳)- العنکبوت: ۲۰.

[۴۳۷] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة ۱۹۲.

[۴۳۸] (۱)-« الأیام» جمع یوم یعبر به عن وقت طلوع الشمس إلی غروبها، و قد یطلق علی فترات الانتصارات الکبری فی حیاة الشعوب، و« نداولها» من المداولة بمعنی إذا صار الشیء من بعض القوم إلی البعض الآخر.

[۴۳۹] (۱)-« التمحیص» و المحص أصله: تخلیص الشیء ممّا فیه من عیب.

[۴۴۰] (۱)- المنار: ج ۴ ص ۴۶.

[۴۴۱] (۲)- المحق: النقصان و منه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال و امتحق و قل ضیاؤه.

[۴۴۲] (۱)- و لقد جاء فی بعض کتب التاریخ أن هذه الإصابات لحقت بالنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من جراء هجمات أفراد عدیدین من العدو.

[۴۴۳] (۱)-« کأیّن» أی ما أکثر، و یقال أنها اسم مرکب- أصلا- من کاف التشبیه و أی الاستفهامیة فظهرتا فی صورة الکلمة الواحدة التی فقد عندها معنیا الجزئین، و اکتسبت معنی جدیدا هو« ما أکثر».

[۴۴۴] (۲)-« ربیون» جمع« ربی» وزان« علی» یطلق علی من اشتد ارتباطه باللّه عزّ و جلّ، و یکون مؤمنا عالما، صامدا مخلصا.

[۴۴۵] (۱)- راجع کتاب الخصال و تفسیر مجمع البیان.

[۴۴۶] (۱)-« الحس» القتل علی وجه الاستئصال، و سمی القتل حسا لأنه یبطل الحس.

[۴۴۷] (۲)-« إذا» لیست هنا شرطیة، بل بمعنی« حین».

[۴۴۸] (۱)-« تصعدون» من الإصعاد و هو- کما فی المفردات للراغب- الأبعاد و المشی فی الأرض سواء کان ذلک فی صعود أو حدور فی حین أن الصعود یعنی الذهاب فی المکان العالی، و لعلّ استعمال الإصعاد فی الآیة بدل الصعود لأن جماعة من الفارین صعدوا الجبل، و جماعة آخرین انتشروا فی الصحراء.

[۴۴۹] (۲)-« أخراکم» بمعنی« ورائکم».

[۴۵۰] (۱)- الامنة أی الأمن و النعاس هو النوم الخفیف.

[۴۵۱] (۱)- تفسیر المنار: ج ۴ ص ۲۰۰.

[۴۵۲] (۱)- تفسیر أبی الفتوح الرازی.

[۴۵۳] (۲)- نهج البلاغة- الحکمة ۱۶۱.

[۴۵۴] (۱)- تفسیر أبی الفتوح الرازی.

[۴۵۵] (۲)- نهج البلاغة کتابه علیه السّلام و عهده لمالک الأشتر.

[۴۵۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۴۰۵.

[۴۵۷] (۱)- الطلاق: ۳.

[۴۵۸] (۱)- الغلول: تعنی الخیانة، و أصله تدرع الشیء و توسطه و منه الغلل للماء الجاری بین الشجر، و هو الماء الذی یتسلل و یتسرب فیما بین الشجر و یدخل فیه، و یطلق الغلیل علی ما یقاسیه الإنسان فی داخله من العطش و من شدة الوجد و الغیظ، لهذا السبب.

[۴۵۹] (۱)- تاریخ الطبری: ج ۳ ص ۱۲۸.

[۴۶۰] (۱)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۴۰۶.

[۴۶۱] (۲)- تفسیر مجمع البیان عند تفسیر الآیة.

[۴۶۲] (۱)- الزمر: ۹.

[۴۶۳] (۲)- الأنعام: ۵۰.

[۴۶۴] (۳)- الرعد: ۱۶.

[۴۶۵] (۱)- تفسیر العیاشی حسبما نقله تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۴۰۶.

[۴۶۶] (۱)- الدر المنثور: ج ۲ ص ۹۵- ۹۶.

[۴۶۷] (۱)- ینقسم أصحاب الحیاة البرزخیة- حسبما یذهب إلیه بعض المحققین- إلی نوعین الصالحون جدا، و الطالحون جدا.

[۴۶۸] (۲)- الضمائر فی« لا خوف علیهم و لا هم یحزنون» حسب التفسیر الأول تعود إلی المجاهدین الباقین علی قید الحیاة الذین لم یلحقوا بالشهداء، و علی التفسیر الثانی تعود إلی الشهداء أنفسهم.

[۴۶۹] (۱)- الاستبشار یعنی الابتهاج و السرور الحاصل بسبب تلقی بشارة أو مشاهدة نعمة للنفس أو للغیر من الأحبة.

و لیست بمعنی التبشیر و الإبشار.

[۴۷۰] (۱)- المؤمنون: ۱۰۰.

[۴۷۱] (۱)- هذه قبسات من الروایة التی نقلها المفسر الإسلامی الکبیر العلّامة الطبرسی رحمه اللّه فی تفسیره(مجمع البیان) عند تفسیر هذه الآیات.

الجزء الثالث

[تتمة سورة آل عمران]

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۷۲ الی ۱۷۴]

اشارة

الَّذِینَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِیمٌ (۱۷۲) الَّذِینَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَکُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِیماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَکِیلُ (۱۷۳) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ یَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِیمٍ (۱۷۴)

التفسیر

غزوة حمراء الأسد:

قلنا أن جیش أبی سفیان المنتصر أسرع بعد انتصاره فی معرکة «أحد» علی الجیش الإسلامی یغذ السیر فی طریق العودة إلی مکّة حتی إذا بلغ أرض «الروحاء» ندم علی فعله، و عزم علی العودة إلی المدینة للإجهاز علی ما تبقی من فلول المسلمین، و استئصال جذور الإسلام حتی لا تبقی له و لهم باقیة.

و لما بلغ هذا الخبر إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر مقاتلی أحد أن یستعدوا للخروج إلی معرکة اخری مع المشرکین، و

خص بأمره هذا الجرحى و المصابين حيث أمرهم بأن ينضموا إلى الجيش.

يقول رجل من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد شهد أحدا: شهدت أحدا و أخ لى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶

فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالخروج فى طلب العدو قلنا: لا تفوتنا غزوة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فو اللّه ما لنا دابة نركبها و ما منّا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كنت أيسر جرحا من أخى، فكنت إذا غلب حملته عقبة و مشى عقبة حتى انتهينا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى «حمراء الأسد».

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان و أدرك صمود المسلمين، و الذى تجلّى فى اشتراك الجرحى و المصابين خاف و أرعب، و لعله ظن أنه أدركت المسلمين قوّة جديدة من المقاتلين و أتاهم المدد.

هذا و قد حدثت فى هذا الموضع حادثة زادت من إضعاف معنوية المشركين، و ألقت مزيدا من الوهن فى عزائمهم، و هى أنه: مرّ برسول اللّه «معبد الخزاعى» و هو يومئذ مشرك، فلما شاهد النّبى و ما عليه هو و أصحابه من الحالة تحركت عواطفه و جاشت، فقال للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا محمّد و اللّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى قومك و أصحابك، و لوددنا أن اللّه كان أعفاك فيهم، ثمّ خرج من عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى لقى أبا سفيان و من معه بالرّوحاء و قد أجمعوا الرّجعة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلمّا رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراك يا معبد؟ قال: محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر قط مثله يتحرقون عليكم تحرقا، و قد اجتمع عليه من كان تخلف عنه فى يومكم، و ندموا على صنيعهم، و فيه من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ قال معبد: «فأنا و اللّه ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل».

قال أبو سفيان: فو اللّه لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصلهم.

قال معبد: فأنا و اللّه أنهاك عن ذلك.

فثنى ذلك أبا سفيان و من معه و قفل راجعا و منسحبا إلى مكّة بسرعة، و حتى يتوقف المسلمون عن طلبه و ملاحقته و يجد فرصة كافية للانسحاب قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷

لجماعة من بنى عبد قيس كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح:

«أخبروا محمّدا إنا قد أجمعنا الكرّة عليه و على أصحابه لنستأصل بقيتهم» ثمّ انصرف إلى مكّة.

و لما مرّت هذه الجماعة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو بحمراء الأسد أخبره بقول أبى سفيان،

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «حسبنا اللّه و نعم الوكيل»

و بقى هناك ينتظر المشركين ثلاثة أيّام، فلم ير لهم أثرا فانصرف إلى المدينة بعد الثالثة. و الآيات الحاضرة تشير إلى هذه الحادثة و ملابساتها[۱] يقول سبحانه: الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ

و يتبيّن من تخصيص جماعة معينة بالأجر العظيم فى هذه الآية أنه كان هناك بينهم من لم يملك الإخلاص الكامل، كما يمكن أن يكون التعبير ب «منهم» إشارة إلى أن بعض المقاتلين فى أحد امتنعوا ببعض الحجج عن تلبية نداء الرّسول و الإسهام فى هذه الحركة.

ثمّ أنّ القرآن الكريم يبيّن إحدى العلائم الحيّة لاستقامتهم و ثباتهم إذ يقول:

الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ

و المعنيون بالناس فى قوله: قالَ لَهُمُ النَّاسُ هم ركب عبد القيس، أو نعيم بن مسعود الذى جاء بهذا الخبر على رواية اخرى.

ثمّ بعد ذکر هذه الاستقامة الواضحة و هذا الإیمان البارز یذکر القرآن الکریم نتیجة عملهم إذ یقول: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ و أیة نعمة و أی فضل أعظم و أعلی من أن ینهزم الأعداء الخطرون أمامهم من دون أی صدام أو لقاء و یعود هؤلاء المقاتلون إلی المدینة سالمین.

یبقی أن نعرف أن الفرق بین النعمة و الفضل، یمکن أن یکون بأن النعمة هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸

الأجر بقدر الاستحقاق و الفضل هو النفع الزائد علی قدر الاستحقاق.

و تأکیدا لهذا الأمر یقول القرآن: لَمْ یَمْسَسْهُمْ سُوءٌ مضافا إلی أنّهم اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِیمٍ أنه فضل عظیم ینتظر المؤمنین الحقیقیین، و المجاهدین الصادقین.

التّربیة الإلهیة و عطاؤها السّریع:

إنّ مقارنة معنویة المسلمین فی معرکة «بدر» بمعنویتهم فی حادثة «حمراء الأسد» التی مرّ تفصیلها، أمر یدعو إلی الإعجاب لدی المرء، إذ کیف استطاعت جماعة منکسرة لا تملک المعنویة العالیة، و لا العدد البشری الکافی، مع ما یحمل أفرادها من الجراحات الثقلیة و الإصابات الفادحة أن تغیر ملامحها فی مدّة قد لا تزید علی یوم و لیلة، فتستعد و علی درجة عالیة من العزم و الإرادة لطلب العدو و ملاحقته، و مواجهته مرة اخری إلی درجة أن القرآن الکریم یقول عنهم: الَّذِینَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَکُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِیماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَکِیلُ ثمّ استقاموا و صمدوا.

هذا هو أثر الإیمان بالهدف، فکلّما ازدادت مصائب الإنسان المؤمن و ازدادت مشکلاته ازدادت استقامته، و تضاعف ثباته، و شحذت عزیمته، و فی الحقیقة تهیأت کل قواه المعنویة و المادیة و تعبأت لمواجهة الخطر.

إن هذا التغیر العجیب، و هذا التحول السریع و العظیم فی مثل هذه المدّة القصیرة یوقف الإنسان علی مدی سرعة تأثیر التربیة القرآنیة و عمقها، و مدی فاعلیة البیان النبوی الأخّاذ الذی یکاد یکون معجزة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۷۵]

اشارة

إِنَّما ذلِکُمُ الشَّیْطانُ یُخَوِّفُ أَوْلِیاءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۷۵)

التّفسیر

هذه الآیة تعقیب علی الآیات التی نزلت حول غزوة «حمراء الأسد»، و لفظة «ذلکم» إشارة إلی الذین کانوا یخوفون المسلمین من قوّة قریش، و بأس جیشهم لإضعاف معنویات المسلمین.

و علی هذا الأساس یکون معنی هذه الآیة هو: إن عمل نعیم بن مسعود، أو رکب عبد القیس من عمل الشیطان لکی یخوفوا به أولیاء الشیطان، یعنی أن هذه الوساوس إنما تؤثر فی أتباع الشیطان و أولیائه خاصّة، و أمّا المؤمنون الثابتون فلا تزل أقدامهم لهذه الوساوس مطلقا، و لن یرعبوا و لن یخافوا أبدا، و علی هذا الأساس فأنتم لستم من أولیاء الشیطان، فلا تخافوا هذه الوساوس، و یجب أن لا

تزلزلكم أو تزعزع إيمانكم.

إنّ التّعبير عن نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس و وصفهم ب «الشّيطان» إمّا لكون عملهم ذلك من عمل الشيطان و مستلهم منه و مأخوذ من وحيه، لأن القرآن يسمّى كل عمل قبيح و فعل مخالف للدين عمل شيطانى، لأنه يتم بوسوسته،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰

و يصدر عن وحيه إلى أتباعه.

و إمّا أن المقصود من الشّيطان هم نفس هؤلاء الأشخاص، فيكون «هذا المورد» من الموارد التى يطلق فيها اسم «الشّيطان» على المصداق الإنسانى له، لأن للشيطان معنى وسيعا يشمل كل غاو مضل، إنسانا كان أم غير إنسان كما نقرأ فى سورة الأنعام الآية (۱۱۲)، وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ

ثمّ أنّه سبحانه يقول فى ختام الآية: وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يعنى أن الإيمان باللّه و الخوف من غيره لا يجتمعان، و هذا كقوله سبحانه فى موضع آخر:

فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً[۲].

و على هذا الإساس فإن وجد فى أحد الخوف من غير اللّه كان ذلك دليلا على نقصان إيمانه و تأثيره بالوساوس الشيطانية لأنّنا نعلم أنّه لا ملجأ و لا مؤثر بالذات فى هذا الكون العريض سوى اللّه الذى ليس لأحد قدرة فى مقابل قدرته.

و أساسا لو أن المؤمنين قارنوا وليهم (و هو اللّه سبحانه) بولى المشركين و المنافقين (الذى هو الشيطان) لعلموا أنّهم لا يملكون تجاه اللّه أية قدرة، و لهذا لا يخافونهم قيد شعرة.

و خلاصة هذا الكلام و نتيجته هى أنّ الإيمان أينما كان، كانت معه الشجاعة و الشهامة، فهما توأمان لا يفترقان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱

الآيتان [سورة آل‏عمران (۳): الآيات ۱۷۶ الى ۱۷۷]

اشارة

وَ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۷۶) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۷۷)

التّفسير

تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

الخطاب فى قوله تعالى: وَ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ موجه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فاللّه تعالى يسلى نبيّه فى أعقاب أحداث «أحد» المؤلمة قائلا له: أيّها الرّسول لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ و كأنّهم يتسابقون إليه إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً بل يضرّون بذلك أنفسهم، و أساسا فالمتضرر و المنتفع إنّما هى الموجودات التى لا تملك من عند أنفسها شيئا حتى وجودها، أمّا اللّه الأزلى الأبدى سبحانه فهو الغنى المطلق، فما الذى يعود به كفر الناس أو إيمانهم عليه سبحانه، و أى أثر يمكن أن يكون لجهودهم و محاولاتهم بالنّسبة إليه تعالى؟

إنّهم هم المنتفعون بإيمانهم إذ يتكاملون بهذا الإيمان، و هم المتضررون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲

بالكفر أيضا، إذ يؤدى هذا الكفر إلى سقوطهم و انحطاطهم.

هـذا مضافا إلى أن اللّه سوف لن ينسى مواقفهم المشينة و لن تفوته مخالفاتهم، و سيصيبهم جزاء ما يعملونه يوم القيامة: يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

و فى الحقيقة فإن الآية تقول: إذا كان هؤلاء يتسابقون فى الكفر فليس ذلك لأنّ اللّه لا يقدر على كبح جماحهم، بل لأنّ اللّه أراد أن يكونوا أحرارا فى اتّخاذ المواقف و سلوك الطريق الـذى يريدون، و لا شك أنّ نتيجة ذلك هو الحرمان الكامل من المواهب الرّبانيّة فى العالم الآخر.

و على هذا فالآية لا تنفى الجبر فحسب، بل هى من الأدلة و البراهين السّاطعة على حرية الإرادة الإنسانية.

ثمّ يقرّر القرآن هـذه الحقائق فى الآيـة الثانيـة بشـكل أكثر تفصيلا إذ يقول: إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يعنى ليس الّذين يتسابقون فى طريق الكفر و يسارعون إليه هم وحدهم على هـذا الحال، بل كل الّذين يسلكون طريق الكفر بشكل من الأشكال و يشترون الكفر بالإيمان، كل هؤلاء لن يضرّوا اللّه شيئا، و إنّما يضرّون أنفسهم.

و يختم سبحانه الآيـة بقوله: وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ هـذا التفاوت فى التعبير فى خاتمـة هـذه الآية و الآية التى قبلها حيث قال هناك: وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ و قال هنا وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ إنّما هو لأجل إن الذين جاء ذكرهم فى الآية السابقة أسرع فى المبادرة و التوجه نحو الكفر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۷۸]

اشارة

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۱۷۸)

التّفسير

المثقلون بأوزارهم:

بعد تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآيات السّابقة و تطمينه تجاه ما يقوم به أعداء الرسالة و الحق من محاولات عدائية لا تحصى، توجه سبحانه إلى الأعداء فى هذه الآية بالخطاب، و أخذ يحدّثهم عن المصير المشؤوم الذى ينتظرهم، (و هذه الآية ترتبط- فى الحقيقة- بأحداث معركة «أحد» فهى مكملة للأبحاث التى مرّت حول هذه الواقعة، لأن الحديث و الخطاب تارة كان موجها إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أخرى موجها إلى المؤمنين، و ها هو هنا موجه إلى الكفار و المشركين).

إنّ الآية الحاضرة التى يقول فيها سبحانه: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي ۳] لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ تحذّر المشركين بأن عليهم أن لا يعتبروا ما أتيح لهم من إمكانات فى العدّة و العدد، و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴

يكسبونه من انتصارات فى بعض الأحيان، و ما يمتلكونه من حرّية التصرف، دليلا على صلاحهم، أو علامة على رضا اللّه عنهم.

و توضيح ذلك: إنّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنّ اللّه سبحانه ينبّه العصاة الذين لم يتوغّلوا فى الخطيئة و لم يغرقوا فى الآثام غرقا، فهو سبحانه ينبّههم بالنذر تارة، و بما يتناسب مع أعمالهم من البلاء و الجزاء تارة أخرى، فيعيدهم بذلك إلى جادة الحق و

الصواب. و هؤلاء هم الـذين لم يفقدوا بالمرّة قابلية الهداية، فيشـملهم اللطف الإلهى، فتكون المحن و البلايا نعمة بالنسـبة إليهم، لأنها تكون بمثابة جرس إنذار لهم تنبّههم من غفلتهم، و تنتشـلهم من غفوتهم كما يقول اللّه سبحانه: ظَهَرَ الْفَسادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النَّاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ ۴].

و لكن الـذين تمـادوا فى الـذنوب و غرقوا فيها، و بلغ طغيانهم نهايته فإنّ اللّه يخـذلهم، و يكلهم إلى نفوسـهم، أىّ أنّه يملى لهم لتثقل ظهورهم بأوزارهم، و يستحقوا الحدّ الأكثر من العقوبة و العذاب المهين.

هؤلاء هم الـذين نسـفوا كـلّ الجسور، و قطعوا كـلّ علاقـاتهم مع اللّه، و لم يـتركوا لأنفسـهم طريق لا ـ العودة إلى ربّهم، و هتكوا كل الحجب، و فقدوا كل قابلية للهداية الإلهية، و كل أهلية للّطف الرّبانى.

إن الآيـة الحاضـرة تؤكـد هذا المفهوم و هذا الموضوع إذ تقول: وَ لا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّما نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِینٌ

و لقـد اسـتدلت بطلـة الإسـلام زينب الكبرى بنت الإمام على بن أبى طالب عليه السّـلام بهـذه الآية فى خطابها المدوى و الساخن أمام طاغية الشام «يزيد بن معاوية» الذى كان من أظهر مصاديق العصاة و المجرمين الذين قطعوا جميع جسور العودة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵

على أنفسهم بما ارتكبوه من فظيع الفعال، و ما اقترفوه من شنيع الأعمال إذ قالت:

«أ ظننت يا يزيـد ... أنّ بنا على اللّه هوانا، و بك عليه كرامة، و أنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشـمخت بأنفك، و نظرت فى عطفك، جذلان مسرورا، حين رأيت الدنيا لك مسـتوثقة و الأمور متّسـقة، و حين صـفا لك ملكنا و سلطاننا، فمهلا مهلا أنسيت قول اللّه عزّ و جلّ: وَ لا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّما نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِینٌ .

جواب على سؤال:

إنّ الآية الحاضرة تجيب ضمنا على سؤال يخالج أذهان كثير من الناس و هو: لما ذا يرفل بعض العصاة و المجرمين فى مثل هذا النعيم، و لا يلقون جزاءهم العادل على إجرامهم؟

فإنّ القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشّائع قائلا: إنّ هؤلاء فقدوا كل قابلية للتغيير و الإصلاح، و هم بالتالى من الّذين تقتضى سنّة الخلق و مبـدأ حرّيـة الإنسان و اختياره أن يتركوا لشأنهم، و يوكّلوا إلى أنفسـهم ليصـلوا إلى مرحلة السـقوط الكامل، و يسـتحقوا الحدّ الأكثر من العذاب و العقوبة.

هـذا مضافا إلى مـا يستفاد من بعض الآيات القرآنيـة من أنّه سـبحانه قـد يمـدّ البعض بالنعم الوافرة و هو بـذلك يسـتدرجهم، أى أنّه يأخذهم فجأة و هم فى ذروة التنعم، و يسلبهم كلّ شـىء و هم فى أوج اللّذة و التمتع، ليكونوا بذلك أشقى من كلّ شقى، و يواجهوا فى هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب، لأن فقدان هذا النعيم أشدّ وقعا على النفس، و أكثر مرارة كما نقرأ فى الكتاب العزيز: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُکِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ أَبْوابَ کُلِّ شَیْءٍ حَتَّی إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ ۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶

و مثـل هؤلاء ـ فى الحقيقـة ـ مثـل الـذى يتسلق شـجرة، فـإنّه كلّمـا إزداد رقيـا ازداد فرحا فى نفسه، حتى إذا بلغ قمتها فاجأته عاصـفة شديدة، فهوى على أثرها من ذلك المترفع الشاهق إلى الأرض فتحطمت عظامه، فتبدل فرحه البالغ إلى حزن شديد.

لفتة أدبية:

يتبيّن ممّا قلناه فى تفسير هذه الآية أن «اللام» فى قوله سبحانه: لِيَزْدادُوا إِثْماً «لام العاقبة» و ليست «لام الغاية».

و توضيح ذلك: إنّ العرب قد تستعمل اللام لبيان أن ما بعد اللام مراد للإنسان و مطلوب له كقوله: لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ[۶].

و من البديهى أن هداية الناس و خروجهم من الظّلمات إلى النّور مراد له سبحانه.

و قد تستعمل العرب «اللام» لا لبيان أن هذا هو مراد و مطلوب للشخص، بل لبيان أن هذا نتيجة عمل المرء و مآل موقفه كقوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً[۷] و لا شك أنّهم إنما أخذوه ليكون لهم سرورا و قرّة عين. و لا يختص هذا الأمر باللغة العربية و آدابها، بل هو مشهور فى غيره من اللغات و الآداب.

و من هنا يتضح الجواب على تساؤل آخر يطرح نفسه هنا و هو: لما ذا قال سبحانه: لِيَزْدادُوا إِثْماً الذى معناه- بحسب الظاهر- أى نريد أن يزدادوا إثما.

لأن هذا الإشكال و التساؤل إنّما يكون واردا إذا كانت اللام هنا لام الإرادة و الغاية المبينة للعلّة و الهدف، لا «لام العاقبة» ليكون معنى قوله لِيَزْدادُوا إِثْماً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷

هو: لتكون عاقبة أمرهم ازديادهم الإثم.

و على هذا يكون معنى الآية: نحن نمهلهم لتكون عاقبة أمرهم ازدياد ذنوبهم و أوزارهم من الإثم، فالآية لا تدلّ على الجبر مطلقا، بل هى خير دليل على حرية الإنسان و اختياره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۷۹]

اشارة

ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۷۹)

التّفسير

المسلمون فى بوتقة الاختبار و الفرز:

لم تكن قضية «المنافقين» مطروحة بقوّة قبل حادثة معركة «أحد» و لهذا لم يكن المسلمون يعرفون عدوا لهم غير الكفار، و لكن الهزيمة التى أفرزتها «أحد» و ما دبّ فى المسلمين على أثرها من الضعف المؤقت مهّد الأرضية لنشاط المنافقين المندسّين فى صفوف المسلمين، و على أثر ذلك عرف المسلمون و أدركوا بأنّ لهم عدوا آخر أخطر يجب أن يراقبوا تحركاته و نشاطاته و هو «المنافقون»، و كان هذا إحدى أهم معطيات حادثة «أحد» و نتائجها الإيجابية.

و الآية الحاضرة التى هى آخر الآيات التى تتحدث- هنا- عن معركة «أحد» و أحداثها، تبيّن و تستعرض هذه الحقيقة فى صورة قانون عام إذ تقول: ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ فلا بدّ أن تتميز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹

الصفوف، و تتمّ عملیة الفرز بین الطیب الطاهر، و الخبیث الرجس. و هذا قانون عام و سنة إلهیة خالدة و شاملة، فلیس کلّ من یدعی الإیمان، و یجد مکانا فی صفوف المسلمین یترک لشأنه، بل ستبلی سرائره، و تنکشف حقیقته فی الآخرة بعد الاختبارات الإلهیة المتتابعة له.

و هنا یمکن أن یطرح سؤال (و هو السؤال الذی کان مطروحا بین المسلمین آنذاک أیضا حسب بعض الأحادیث و الرّوایات) و هو: إذا کان اللّه عالما بسریرة کل إنسان و أسراره فلما ذا لا یخبر بها الناس- عن طریق العلم بالغیب- و یعرفهم بالمؤمن و المنافق؟

إنّ المقطع الثّانی من الآیة و هو قوله: وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُطْلِعَکُمْ عَلَی الْغَیْبِ یجیب علی هذا السؤال. أی أن اللّه سبحانه لن یوقفکم علی الأسرار، لأن الوقوف علی الأسرار- علی عکس ما یظن کثیرون لا یحلّ مشکلة، و لا یفکّ عقدة، بل سیؤدی إلی الهرج و المرج و الفوضی، و إلی تمزق العلاقات الاجتماعیة و انهیارها، و انطفاء شعلة الأمل فی النفوس و تبدده، و توقف الناس عن الحرکة و النشاط و الفعالیة.

و الأهم من کلّ ذلک هو أنّه لا بدّ أن تتضح قیمة الأشخاص من خلال المواقف العملیة و السلوکیة، و لیس عن أی طریق آخر، و مسألة الاختبار الإلهی لا تعنی سوی هذا الأمر، و لهذا فإن الطریق الوحید لمعرفة الأشخاص و تقویمهم هو أعمالهم فقط[۸].

ثمّ إنّ اللّه سبحانه یستثنی الأنبیاء من هذا الحکم إذ یقول: وَ لکِنَّ اللَّهَ یَجْتَبِی مِنْ رُسُلِهِ مَنْ یَشاءُ أی أنّه یختار فی کل عصر من بین أنبیائه من یطلعهم علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰

شیء من تلک الغیوب و یوقفهم علی بعض الأسرار بحکم احتیاج القیادة الرسالیة إلی ذلک، و تبقی الأعمال- مع ذلک کلّه- هی الملاک الوحید و المعیار الخالد و المسار الأبدی لمعرفة الأشخاص و تمییزهم و تصنیفهم.

و من هذه العبارة یستفاد أنّ الأنبیاء- بحسب ذواتهم- لا یعرفون شیئا من الغیب، کما و یستفاد منها أنّ ما یعلمونه منه إنما هو بتعلیم اللّه لهم و اطلاعهم علی شیء من الغیوب، و علی هذا الأساس یکون الأنبیاء ممن یطلعون علی الغیب، کما أن مقدار علمهم بالغیب یتوقف علی المشیئة الإلهیة.

و من الواضح و المعلوم أنّ المراد من المشیئة الإلهیة فی هذه الآیة- کغیرها من الآیات- هو «الإرادة المقرونة بالحکمة» أی أنّ اللّه سبحانه یطلع علی الغیب کلّ من یراه صالحا لذلک، و تقتضی حکمته سبحانه ذلک.

ثمّ أنّه تعالی یذکرهم- فی ختام الآیة- بأن علیهم- و هو الآن فی بوتقة الحیاة، بوتقة الامتحان الکبیر، بوتقة التمییز بین الصالح و الطالح، و الطیب و الخبیث، و المؤمن و المنافق- علیهم أن یجتهدوا لینجحوا فی هذا الامتحان و یخرجوا مرفوعی الرؤوس من هذا الاختبار العظیم، إذ یقول: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَکُمْ أَجْرٌ عَظِیمٌ

ثمّ أن الملاحظة الملفتة للنظر و الجدیرة بالتأمل فی هذه الآیة التعبیر عن المؤمن بالطیب، و من المعلوم أن الطیب هو الباقی علی أصل خلقته الذی لم تشبه الشّوائب، و لم یدخل فی حقیقة الغرائب. و لم تلوثه الکدورات، فالماء الطاهر الطیب، و الثوب الطیب الطاهر و ما شابه ذلک هو الذی لم تلوثه الکدورات، و یستفاد من هذا أن الإیمان هو فطرة الإنسان الأصلیة، و هو جبلته الأولی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۸۰]

اشارة

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

التّفسير

طوق الأسر الثّقيل:

تبيّن الآيـة الحاضـرة مصـير البخلاء فى يوم القيامـة، أولئك الذين يبذلون غاية الجهد فى جمع الثّروة ثمّ يمتنعون عن الإنفاق فى سبيل اللّه، و لصالح عباده.

و الآيـة هـذه و إن لم تتعرض صـراحة لـذكر الزكـاة و غيرهـا من الحقوق و الفرائض الماليـة، إلّـا أنّ الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام، و كـذا أقوال المفسـرين خصـصت هذه الآية و ما وعد به فيها من الوعيد بمانعى الزكاة، و يؤيده التشديد المشـهود فى الآية، فإن أمثال هذا التشديد و التغليظ لا يتناسب مع الإنفاق المندوب المستحب.

تقول الآية أوّلا: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ثمّ تصف مصير هؤلاء فى يوم القيامة هكذا: سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى ستكون تلك الأموال التى بخلوا بها طوقا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٢٢

أعناقهم فى ذلك اليوم الرهيب.

و من هـذه الجملـة يسـتفاد أن الأـموال التى لم يـدفع صاحبها الحقوق الواجبـة فيها، و لم ينتفع بها المجتمع، بل صـرفت فقط فى سبيل الأهواء الشخصـية، و ربّما صـرفت فى ذلك السبيل بشـكل جنونى، أو كـدست دون أى مبرر و لم يسـتفد منها أحد سـيكون مصـيرها مصير أعمال الإنسان، أى أنّها- طبقا لقانون تجسم الأعمال البشريـة- ستتجسم يوم القيامة و تتمثل فى شكل عذاب مؤلم يؤذى صاحبها و يخزيه.

إنّ تجسّم مثـل هـذه الأـموال التى تطوق بها أعناق ذويها إشارة إلى الحقيقـة التاليـة، و هى أن كل إنسان يتحمل ثقل مسـئوليتها كاملا دون أن يكون هو قد انتفع بها.

إنّ الأـموال الوفيرة التى تجمع بشـكل جنونى و تكنز و لا تصـرف فى خدمـة المجتمع لا تكون سوى أغلال و سـجون لأصـحابها، لأن للاسـتفادة- كما نعلم- من الأموال و الثروة الشخصـية حـدودا، فإذا تجاوزها الإنسان عادت عليه نوعا من الأسـر الثقيل، و الوزر الضّار، اللّهم إلّا أن يستفيد من آثارها المعنوية و ذلك حينما يوظفها فى الأعمال الإيجابية الصالحة.

ثمّ إن هـذه الأموال لا تشـكل طوقا ثقيلا فى أعناق أصـحابها فى الآخرة فحسب، بل تكون كـذلك فى هذه الدنيا أيضا، غاية الأمر أن هذا المعنى يكون أكثر ظهورا فى الآخرة، بينما يكون فى شىء من الخفاء فى هذه الحياة، فأية حماقة- ترى- أكبر من أن يتحمل المرء مسـئولية جمع الثّروة مضافـة إلى مسـئولية الحفـاظ عليهـا و حسابهـا و الـدّفاع عنها و ما يلازم ذلك من مشاق تثقل كاهله، فى حين لا ينتفع بها هو أبدا، و هل الأموال حينئذ إلّا طوق أسر ثقيل لا غير؟

ففى تفسير العياشى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنه قال: «الذى يمنع الزكاة يحول اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٢٣

ماله يوم القيامة شجاعا[٩] من نار ... ثمّ يقال له: ألزمه كما لزمك فى الدنيا».

و الملفت للنظر التعبير عن المال فى هذه الآية بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الذى يفهم منه أن المالك الحقيقى لهذه الأموال و مصادرها هو

اللّه سبحانه، و إن ما أعطاه لأیّ واحد من الناس فإنّما هو من فضله، و لهذا ینبغی أن لا یبخل، أن ینفق من تلک الأموال فی سبیل صاحبها الحقیقی.

ثمّ إنّ بعض المفسرین یری أن مفهوم هذه العبارة یعم جمیع المواهب الإلهیة و منها العلم، و لکن هذا الاحتمال لا ینطبق مع ظاهر التعبیرات الواردة فی الآیة.

ثمّ إنّ الآیة تشیر إلی نقطة أخری إذ تقول: وَ لِلَّهِ مِیراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ یعنی أن الأموال سواء أنفقت فی سبیل اللّه أو لم تنفق فإنّها ستفصل فی النهایة عن أصحابها، و یرث اللّه الأرض و السماء و ما فیهما، فالأجدر بهم- و الحال هذه- أن ینتفعوا من آثارها المعنویة، لا أن یتحملوا وزرها و عناءها، و حسرتها و تبعتها.

ثمّ تختم الآیة بقوله تعالی: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ أی أنّه علیم بأعمالکم، یعلم إذا بخلتم، کما یعلم إذا أنفقتم ما أوتیتموه من المال فی السبیل الصالح العام و خدمة المجتمع الإنسانی، و یجازی کلا علی عمله بما یلیق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۸۱ الی ۱۸۲]

اشارة

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِینَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِیرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِیاءُ سَنَکْتُبُ ما قالُوا وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِیاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِیقِ (۱۸۱) ذلِکَ بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَیْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ (۱۸۲)

سبب النّزول

هذه الآیة نزلت ردّا علی مقالة الیهود و توبیخا لهم.

فعن ابن عباس أنّه قال: کتب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کتابا إلی یهود «بنی قینقاع» دعاهم فیه لإقامة الصلاة و إیتاء الزکاة و أن یقرضوا للّه «و المراد منه الإنفاق فی سبیل اللّه و إنما عبر عنه بالإقراض لتحریک المشاعر و إثارتها لدی الناس قدرا أکبر) فدخل رسول النّبی إلی بیت المدارس (حیث یتلقی الیهود دروسا فی دینهم) و سلم کتاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی «فنحاص» و هو من کبار أحبار الیهود فلمّا قرأه قال مستهزءا: لو کان ما تقولونه حقا فإن اللّه إذن لفقیر و نحن أغنیاء، و لو کان غنیا لما استقرض منّا (و هو یشیر إلی قوله تعالی: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵

حَسَناً[۱۰] هذا مضافا إلی أن «محمّدا» یعتقد أنّ اللّه نهاکم عن أکل الرّبا، و هو یعدکم أن یضاعف لکم إذا أنفقتم أضعافا مضاعفة، و هو یشیر إلی قوله تعالی:

یُرْبِی الصَّدَقاتِ ۱۱].

و لکنّ «فنحاص» أنکر أنّه قال شیئا من هذه فی ما بعد فنزلت الآیتان المذکورتان أعلاه ۱۲].

التّفسیر

تقول الآیة الأولی لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِینَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِیرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِیاءُ.

أی لو أنّ هؤلاء استطاعوا أن يخفوا عن الناس مقالتهم هذه فإن اللّه قد سمعها و يسمعها حرفا بحرف فلا مجال لإنكارها، فهو يسمع و يدرك حتى ما عجزت أسماع الناس عن سماعها من الأصوات الخفية جدا أو الأصوات العالية جدا:

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ.

إذن فلا فائدة و لا جدوى فی الإنكار، ثمّ يقول سبحانه: سَنَكْتُبُ ما قالُوا أی أن ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنكتبه جميعه.

و من البديهی أن المراد من الكتابة ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابة و التدوين، بل المراد هو حفظ آثار العمل التی تبقى خالدة فی العالم حسب قانون بقاء «الطاقة- المادة».

بل و حتى كتابة الملائكة الموكّلين من قبل اللّه بالبشر لضبط تصرفاتهم، هو الآخر نوع من حفظ العمل الذی هو مرتبة أعلى من الكتابة المتعارفة.

ثمّ يقول: وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ أی أنّنا لا نكتفی بكتابة مقالاتهم الكافرة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶

الباطلة فحسب، بل سنكتب موقفهم المشين جدا و هو قتلهم للأنبياء.

يعنی أن مجابهة اليهود، و مناهضتهم للأنبياء ليس بأمر جديد، فليست هذه هی المرّة الأولى التی تستهزء يهود برسول من الرسل، فإن لهم فی هذا المجال باعا طويلا فی التاريخ، و صفحة مليئة بنظائر هذه الجرائم و المخازی، فإن جماعة بلغت فی الدناءة و الشراسة و القحة و الجرأة أن قتلت جماعة من رسل اللّه و أنبيائه، فلا مجال للاستغراب من تفوهها بمثل هذه الكلمات الكافرة.

و يمكن أن يقال فی هذا المقام: إن قتل الأنبياء مسألة لم ترتبط باليهود فی عصر الرسالة المحمّدية، فلما ذا حمل وزرها عليهم؟ و لكننا نقول- كما أسلفنا أيضا- أنّ هذه النسبة إنّما صحّت لأنّهم كانوا راضين بما فعله و ارتكبه أسلافهم من اليهود، و لهذا أشركوا فی إثمهم و وزرهم و فی مسئوليتهم عن ذلك العمل الشنيع.

و أمّا تسجيل و كتابة أعمالهم فلم يكن أمرا اعتباطيا غير هادف، بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامة، و نقول لهم: ها هی نتيجة أعمالكم قد تجسدت فی صورة عذاب محرق و نقول: ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ

إنّ هذا العذاب الأليم الذی تذوقونه ليس سوى نتيجة أعمالكم، فأنتم- أنفسكم- قد ظلمتم أنفسكم ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ۱۳] وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

بل لو أنكم و أمثالكم من المجرمين لم تنالوا جزاء أعمالكم و لم تروها بأمّ أعينكم، و وقفتم فی عداد الصالحين لكان ذلك غاية فی الظلم، و لو أنّ اللّه سبحانه لم يفعل ذلك لكان ظلاما للناس.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷

و

لقد نقل عن الإمام علی عليه السّلام فی نهج البلاغة أنّه قال: «و أيم اللّه ما كان قوم قط فی غض نعمة من عيش فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها لأن اللّه ليس بظلام للعبيد».

إنّ هذه الآية تعدّ من الآيات التی تفنّد- من جهة- مقولة الجبريين، و- تعمم- من جهة اخرى- أصل- العدالة و تسحبه على كل الأفعال الإلهية، فتكون جميعا مطابقة للعدالة.

و توضيح ذلك: إنّ الآية الحاضرة تصرّح بأنّ كلّ جزاء- من ثواب أو عقاب- ينال الناس من جانب اللّه سبحانه فإنّما هو جزاء أعمالهم التی ارتكبوها بمحض إرادتهم و اختيارهم ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ

و تصرّح من جانب آخر بأن اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ و إنّ قانونه فی الجزاء يدور على محور العدل المطلق، و هذا هو نفس ما تعتقد به العدلية (و هم القائلون بالعدل الإلهی، و هم الشيعة و طائفة من أهل السنة المسمّون بالمعتزلة).

غير أنّ هناك فى الطرف الآخر جماعة من أهل السنة «و هم الذين يسمّون بالأشاعرة» لهم اعتقاد غريب فى هذا المجال فهم يقولون: إنّه تعالى هو المالك فى خلقه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنّة لم يكن حيفا، و لو أدخلهم النّار لم يكن جورا ... فلا يتصوّر منه ظلم، و لا ينسب إليه جور[۱۴].

و الآية الحاضرة تفند هذا النوع من الآراء و المقالات تفنيدا باتا و مطلقا و تقول بصراحة لا غبش فيها و لا غموض: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸

على أنّ لفظة «ظلام» صيغة مبالغة، و تعنى من يظلم كثيرا، و لعل اختيار هذه الصيغة فى هذا المكان مع أنّ اللّه سبحانه لا يظلم حتى إذا كان الظلم صغيرا، لأجل أنّه إذا أجبر الناس على الكفر و المعصية، و خلق فيهم دواعى العمل القبيح و دوافعه، ثمّ عاقبهم على ما فعلوه بإجباره و إكراهه لم يكن بذلك قد ارتكب ظلما صغيرا فحسب، بل كان «ظلاما».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۸۳ الى ۱۸۴]

اشارة

الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۸۳) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ (۱۸۴)

سبب النّزول

حضر جماعة من أقطاب اليهود عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا له: يا محمّد إنّ اللّه عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أنّ اللّه بعثك إلينا فجئنا به نصدقك، فأنزل اللّه هاتين الآيتين.

التّفسير

مغالطات اليهود و تعللاتهم:

كانت اليهود تتحجج و تجادل كثيرا بهدف التملص من الانضواء تحت راية الإسلام.

و من مغالطاتهم ما جاء ذكره فى هذه الآية الحاضرة التى تقول: الَّذِينَ قالُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰

إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ.

قال المفسرون: إن اليهود كانت تزعم أنّه يجب أن يكون للأنبياء خصوص هذه المعجزة، و هى أن يقربوا قربانا فتنزل النّار من السماء و تأكل قربانهم، ففى ذلك دلالة على صدق المقرب (أى صاحب القربان).

و لو أن اليهود كانوا صادقين فى هذا الطلب، و كانوا يريدون- حقّا- مثل هذا الأمر من باب إظهار الإعجاز، و ليس من باب العناد و اللجاجة و المغالطة لكان من الممكن إعذارهم، و لكن تاريخهم الغابر، و كذا مواقفهم المشينة مع نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و

سلّم تثبت الحقيقـة التاليـة، و هى أنّهم لم يكونوا أبـدا طلاب حقّ و بغاة علم، بل كانوا يأتون كل يوم بمغالطة و اقتراح جديد لمواجهة الجو الضاغـط عليهم، و مـا كـان يخلقه القرآن من وضع محرج لهم بفضـل ما كان يقيمه من براهين ساطعـة و قويـة، و ذلك فرارا من قبول الإسـلام، و الانـضواء تحت رايته، و حتى لو أنّهم حصـلوا على مقترحـاتهم فإنّهم كانوا يمتنعون عن الإيمان، بـدليل أنهم كانوا قد قرءوا فى كتبهم كل علائم نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكنهم مع ذلك أبوا إلّا رفض الحقّ، و عدم الإذعان له.

يقول القرآن فى مقام الردّ عليهم: قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و فى ذلك إشارة إلى زكريا و يحيى و طائفة من الأنبياء الذين قتلوا على أيدى بنى إسرائيل.

هذا و يذهب بعض متأخرى المفسرين (مثل كاتب تفسير المنار) إلى احتمال آخر حول مسألة القربان خلاصته: إن مقصودهم لم يكن إن على النّبى أن يذبـح قربانـا و تنزل من السـماء نـار بطريقـة إعجازيـة و تحرق ذلـك القربان، بل كان مرادهم هو أنّه كان فى تعاليم دينهم نوع من هذا القربان الذى يذبح بطريقة خاصّة و فى مراسـيم معينة، ثمّ يحرق بالنّار و هو ما جاء شرحه فى الفصل الأوّل من سفر «اللاويين» من التوراة (العهد القديم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱

إنّهم كانوا يقولون: إنّ اللّه عهـد إلينا أن يبقى مثل هـذا التعليم، و مثل هـذا القربان فى كل دين سـماوى، و حيث إنّنا لا نجـد مثل هذا الأمر فى التعاليم الإسلامية لذلك فإننا لا نؤمن لك.

و لكن هذا الاحتمال بعيد عن تفسير الآية جدا لأنّه:

أوّلا: إنّ هـذه الجملـة قـد عطفت فى الآيـة الحاضـرة على «البيّنات» و يظهر من ذلك أن مرادهم كان عملا إعجازيا، و هو لا ينطبق مع هذا الاحتمال.

و ثانيا: إنّ ذبح حيوان ثمّ حرقه بالنار عمل خرافى و لا يمكن أن يكون من تعاليم الأنبياء و شرائعهم السماوية.

ثمّ يعقب سبحانه على الآية السابقة بقوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ

و فى هـذه الآيـة يسلى اللّه سـبحانه النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و يقول: إن كـذبتك هذه الجماعة فلا تقلق لذلك و لا تحزن، فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، و عارضوا دعوتهم بصلابة و عناد.

و لم يكن هؤلاء الأنبياء غير مزودين بما يبرهن على صدقهم، بل جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ.

و هنا لا بدّ من الانتباه إلى أن «زبر» و هو جمع (زبور) يعنى كتابا أحكمت كتابة مواضيعه، لأن الزبر أصلا من الكتابة، لا مطلق الكتابة، بل الكتابة المتقنة المحكمة.

و أمّا الفرق بين «الزبر» و «الكتـاب المنير» مع أنّهمـا من جنس واحـد هو الكتـاب، فيمكن أن يكون بسبب أن الاوّل إشارة إلى كتب الأنبياء قبل موسى عليه السّلام، و الثّانى إشارة إلى التوراة و الإنجيل، لأنّ القرآن الكريم عبر عنهما فى سورة المائـدة الآيـة ۴۴، و ۴۶ بالنور إذ قال: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ ...

وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲

هذا و يحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من «الزّبور» هو تلك الكتب السماوية التى تحتوى على المواعظ و الزواجر خاصّة (كما كان عليه الزبور المنسوب إلى داود الـذى هو الآن بين الأيـدى و الذى يحتوى بأسره على المواعظ و الزواجر) و لكن «الكتاب المنير» أو الكتاب السماوى فيطلق على ما يحتوى على التشريعات و القوانين و الأحكام الفردية و الاجتماعية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۵]

اشارة

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (۱۸۵)

التّفسير

الموت و قانونه العام:

تعقيبا على البحث حول عناد المعارضين و غير المؤمنين تشير هذه الآية إلى قانون «الموت» العام و إلى مصير الناس في يوم القيامة، ليكون ذلك تسلية للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و تحذيرا- كذلك- للمعارضين العصاة.

فهذه الآية تشير- أوّلا- إلى قانون عام يشمل جميع الأحياء في هذا الكون و تقول: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ

و الناس، و إن كان أكثرهم يحب أن ينسى مسألة الفناء و يتجاهل الموت، و لكن هذا الأمر حقيقة واقعة إن حاولنا تناسيها و التغافل عنها، فهي لا تنسانا، و لا تتغافل عنّا.

إنّ لهذه الحياة نهاية لا محالة، و لا بدّ أن يأتي ذلك اليوم الذي يزور فيه الموت كل أحد، و لا يكون أمامه- حينئذ- إلّا أن يفارق هذه الحياة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٣۴

إن المراد من «النفس» في هذه الآية هو مجموعة الجسم و الروح، و إن كانت النفس في القرآن تطلق أحيانا على خصوص «الرّوح» أيضا.

و التعبير بالتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل، لأن المرء قد يرى الطعام بعينيه أو يلمسه بيده، و لكن كل هذه لا يكون- و الأحرى لا يحقق الإحساس الكامل بالشيء، نعم إلّا أن يتذوق الطعام بحاسة الذوق فحينئذ يتحقق الإحساس الكامل، و كأن الموت- في نظام الخلقة- نوع من الغذاء للإنسان و الأحياء.

ثمّ تقول الآية بعد ذلك وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أي أنّه ستكون بعد هذه الحياة مرحلة أخرى هي مرحلة الثواب و العقاب، و بالتالي الجزاء على الأعمال، فهنا عمل و لا حساب و هناك حساب و لا عمل.

و عبارة «توفون» التي تعني إعطاء الجزاء بالكامل تكشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله- يوم القيامة- وافيا و بدون نقيصة، و لهذا لا مانع من أن يشهد الإنسان- في عالم البرزخ المتوسط بين الدنيا و الآخرة- بعض نتائج عمله، و ينال قسطا من الثواب أو العقاب، لأن هذا الجزاء البرزخي لا يشكل الجزاء الكامل.

ثمّ قال سبحانه: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ.

و كلمة «زحزح» تعني محاولة الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثير شيء، و تخليصها من جاذبيته تدريجا.

و أمّا كلمة «فاز» فتعني في أصل اللغة «النجاة» من الهلكة، و نيل المحبوب و المطلوب.

و الجملة بمجموعها تعني أنّ الذين استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من جاذبية النّار و دخلوا الجنّة فقد نجوا من الهلكة، و لقوا ما يحبونه، و كأن النّار تحاول بكلّ طاقتها أن تجذب الأدميين نحو نفسها .. حقّا أنّ هناك عوامل عديدة تحاول أن تجذب الإنسان إلى نفسها، و هي على درجة كبيرة من الجاذبية.

ألیس للشهوات العابرة، و اللذات الجنسیة الغیر المشروعة، و المناصب،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵

و الثروات الغیر المباحة مثل هذه الجاذبیة القویة؟؟

کما أنّه یستفاد من هذا التعبیر أن الناس ما لم یسعوا و یجتهدوا لتخلیص أنفسهم و تحریرها من جاذبیة هذه العوامل المغریة الخداعة فإنّها ستجذبهم نحو نفسها تدریجا، و سیقعون فی أسرها فی نهایة المطاف.

أمّا إذا حاولوا من خلال تربیة أنفسهم و ترویضها، و تمرینها علی مقاومة هذه الجواذب و المغریات و کبح جماحها، و بلغوا بها إلی مرتبة «النفس المطمئنة» کانوا من النّاجین الواقعیین، الذین یشعرون بالأمن و الطمأنینة.

ثمّ یقول سبحانه فی نهایة هذه الآیة: وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ.

و هذه الجملة تکمل البحث السابق و کأنها تقول: إنّ هذه الحیاة مجرّد لهو و متاع تخدع الإنسان من بعید، فإذا بلغ إلیها الإنسان و نال منها و لمسها عن کثب وجدها- علی الأغلب- فراغا فی فراغ و خواء فی خواء، و ما متاع الغرور إلّا هذا.

هذا مضافا إلی أن اللذائذ المادیة تبدو من بعید و کأنها خالصة من کل شائبة، و خالیة من کل ما یکدرها، حتی إذا اقترب إلیها الإنسان وجدها ممزوجة بکل ألوان العناء و العذاب، و هذا جانب آخر من خداع الحیاة المادیة.

کما أنّ الإنسان ینسی- فی أکثر الأحیان- طبیعته الفانیة، و لکنه سرعان ما ینتبه إلی أنّها سریعة الزوال، قابلة للفناء.

إنّ هذه التعابیر قد تکررت فی القرآن و الأحادیث کثیرا، و الهدف منها جمیعا شیء واحد هو أن لا یجعل الإنسان هذه الحیاة المادیة و لذاتها العابرة الفانیة الزّائلة هدفه الأخیر، و مقصده الوحید النّهائی الذی تکون نتیجته الغرق و الارتطام فی شتی ألوان الجریمة و المعصیة، و الابتعاد عن الحقیقة و عن التکامل الإنسانی، و أمّا الانتفاع بالحیاة المادیة و مواهبها کوسیلة للوصول إلی التکامل الإنسانی و المعنوی فلیس غیر مذموم فقط، بل هو ضروری و واجب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۸۶]

اشارة

لَتُبْلَوُنَّ فِی أَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ مِنَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا أَذیً کَثِیراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۸۶)

سبب النّزول

عند ما هاجر المسلمون من مکّة إلی المدینة و ابتعدوا عن دورهم و دیارهم، راحت أیدی المشرکین تطال أموالهم و تمتدّ إلی ممتلکاتهم، و تنالها بالتصرف و السیطرة علیها، و إیذاء کلّ من وقعت علیه أیدیهم و الإیقاع فیه بالجهاء و الاستهزاء.

و عند ما جاؤوا إلی المدینة، واجهوا أذی الیهود القاطنین فی المدینة، خاصّة «کعب بن الأشرف» الذی کان شاعرا سلیط اللسان، فقد کان کعب هذا یهجو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین و یحرض المشرکین علیهم حتی أنّه کان یشبب بنساء المسلمین و یصف محاسنهن و یتغزل بهن.

و قد بلغت وقاحته مبلغا دفعت بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی أن یأمر بقتله، فقتل علی أیدی المسلمین غیلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷

و الآیـة الحاضـرة- حسب بعض الأحادیث المنقولة عن المفسـرین- تشـیر إلی هذه الأمور و تحث المسـلمین علی مواصـلة الصـمود و المقاومة.

التّفسیر

لا تتبعکم المقاومة:

لَتُبْلَوُنَّ فِی أَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِـکُمْ أجل إنّ هذه الحیاة- أساسا- ساحة اختبار و دار إمتحان، فلا بدّ أن یتهیأ الإنسان لمواجهة کل الحوادث و المفاجئـات الصـعبة العسـیرة، و هـذا فی الحقیقـة تنبیه و تحـذیر لجمیع المسـلمین بـأن لا یظنوا بأن الحوادث العسـیرة فی حیاتهم قد انتهت، أو أنّهم قد تخلصوا من أذی الأعداء، و سـلاطة لسانهم بمجرد قتلهم لکعب بن الأشرف الشاعر السلیط اللسان الذی کان یؤذی المسلمین بلسانه، و شعره.

و لهذا قال سبحانه: وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ مِنَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا أذیً کَثِیراً.

إنّ مسألـة التعرض الأذی المشـرکین اللسانی و سـبهم و شـتمهم و هجائهم و إن کانت من إحدی الابتلاءات التی جاء ذکرها فی مطلع الآیة، و لکنه ذکر هنا بخصوصه للأهمیة الفائقة، لأن مثل هذا قلّما یتحمله الشـرفاء من الناس لعظیم أثره فی أرواحهم و نفوسهم، و من قدیم قال الشاعر:

جراحات السنان لها التیامو لا یلتام ما جرح اللسان

ثمّ أنّه سبحانه عقب علی هذا الإنذار و التنبیه بقوله: وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

و بهذا یبیّن القرآن وظیفة المسـلمین و واجبهم فی أمثال هذه الحوادث الصعبة و الظروف العسیرة، و یدعوهم إلی الصبر و الاستقامة و الصمود و التزام التقوی فی مثل هذه الحوادث معلنا بأن هذه الأمور من الأمور الواضحة النتائج،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸

و لذلک یتعین علی کل عاقل أن یتخذ موقفه منها.

و العزم فی اللغـة هو «القرار المحکم» و ربّما یطلق علی مطلق الأمور المحکمة، و علی هذا فإن «عزم الأمور» یعنی الأعمال البینة الرشـد التی یجب علی کل إنسان عاقل العزم علیها أو بمعنی کل أمر محکم یطمأن إلیه.

و اقتران الصبر بالتقوی فی هـذه الآیـة لعله إشارة إلی أن بعض الأشـخاص قـد یصبرون و لکنهم مع ذلک یظهرون الشـکوی، و یبدون التبرم بما لقوا، و لکن المؤمنین الصادقین هم الذین یمزجون الصبر بالتقوی دائما و أبدا و یتجنبون مثل ذلک السلوک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۸۷]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثاقَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ لَتُبَیِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَکْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِیلاً فَبِئْسَ ما یَشْتَرُونَ (۱۸۷)

التّفسیر

بعد ذكر جملة من أعمال أهل الكتاب المشينة و مخالفاتهم تشير الآية الحاضرة إلى واحدة أخرى من تلك الأعمال و المخالفات، ألا و هو كتمان الحقائق فتقول: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ أى اذكروا إذ أخذ اللّه مثل هذا الميثاق منكم.

و الملفت للنظر أن عبارة «لتبيّننه» جاءت مع لام القسم، و نون التأكيد الثقيلة، و ذلك نهاية في التأكيد.

ثمّ أردفها- مع ذلك- بقوله: «و لا تكتمونه» الذي هو أمر صريح بعدم الكتمان و الإخفاء.

و من كل هذه التعابير يتضح أو يستفاد أن اللّه سبحانه قد أخذ بوساطة الأنبياء السابقين آكد المواثيق و العهود من أهل الكتاب لإظهار الحقائق، و بيانها، و لكنّهم رغم كل ذلك- خانوا تلك العهود و تجاهلوا تلك المواثيق، و أخفوا ما أرادوا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰

إخفائه من حقائق الكتب السماوية، و لهذا قال سبحانه عنهم فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ أنّها كناية رائعة عن عدم العمل بالواجب و تناسيه، لأن الإنسان إذا عزم على العمل بشيء و أراد جعله ملاكا له، فإن يجعله قدامه، و ينظر إليه مرة بعد اخرى، و لكنه إذا لم يرد العمل به و أراد تناسيه بالمرة أزاحه من وجهه، و ألقاه خلف ظهره.

ثمّ أنّه سبحانه أشار إلى حرص اليهود و جشعهم و حبّهم المفرط للدنيا إذ يقول: وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ

إن حبّهم الشديد للدنيا الذي بلغ حد العبادة، و انحطاطهم الفكرى آل بهم إلى أن يكتموا الحقائق لقاء مكاسب مادية، و لكن الآية تقول: أنهم لم يشتروا بذلك و لم يكسبوا إلّا ثمنا قليلا، و بئس ما يشترون.

و لو أنهم قد حصلوا لقاء كتمان الحقائق- هذه الجريمة الكبرى- على ثروة عظيمة و طائلة لكان ثمّة مجال لأن يقال: إنّ عظمة المال و الثروة قد أعمت أبصارهم و أسماعهم، و لكن الذي يدعو إلى الدهشة و العجب أنّهم باعوا كلّ ذلك لقاء ثمن بخس و متاع قليل، (طبعا المقصود هنا هو علماؤهم الدنيئو الهمة).

العلماء و الوظيفة الكبرى:

إن الآية الحاضرة و إن كانت قد وردت بحق أهل الكتاب (من اليهود و النصارى) إلّا أنّها في الحقيقة تحذير و إنذار لكل علماء الدين و رجاله بأن عليهم أن يجتهدوا في تبليغ الحقائق و بيان الأحكام الإلهية، و توضيحها و إظهارها بجلاء، و إن ذلك ممّا كتبه اللّه عليهم، و أخذ منهم ميثاقا مؤكدا و غليظا.

إنّ كلمة «لتبيّننه» و ما اشتقت منه في أصل اللغة في هذه الآية تكشف عن أنّ المقصود ليس هو فقط تلاوة آيات اللّه أو نشر ما احتوت عليه الكتب السماوية من كلمات و عبارات، بل المقصود هو عرض ما فيها من الحقائق على الناس،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱

و جعلها في متناول الجميع بوضوح و دون غبش ليقف عليها الناس أجمعون من دون إبهام، و يتذوقونها بأرواحهم و أفئدتهم دون أيّة حجب و سدود.

فالذين يتقاعسون أو يقصرون في عرض الحقائق الإلهية و بيانها و توضيحها للمسلمين لا شك تشملهم هذه الآية، و ينالهم نفس المصير الذي ذكره اللّه فيها لعلماء اليهود و أحبارهم.

فقد روى عن النّبى الأكرم- صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أنّه قال: «من كتم علما عن أهله ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

و عن الحسن بن عمار قال: أتيت الزهرى بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدّثنى فقال: أو ما علمت أنّى تركت الحديث، فقلت: إمّا أن تحدّثنى و إمّا أن أحدثك؟ فقال: حدّثنى فقلت:

حدّثنى الحكم بن عيينة عن نجم الجزار قال: سمعت على بن أبى طالب عليه السّلام يقول: «ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلموا

حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا».

قال: فأطرق برأسه مليا بعد أن سمع قولى ثمّ قال: اسمع لأحدثك، فحدثنى أربعين حديثا.[۱۵] هذا و للتعرف- بصورة أكبر- على خيانات أحبار اليهود و علماء النصارى، راجع الآيات (۷۹ و ۱۷۴) من سورة البقرة، و الآيات (۷۱ إلى ۷۷) من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۸۸ الى ۱۸۹]

اشارة

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۸۸) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۸۹)

سبب النّزول

ذكر المحدّثون و المفسرون أسبابا عديدة لنزول هذه الآية، منها أن اليهود كانوا يفرحون لما يقومون به من تحريف لآيات الكتب السماوية و كتمان حقائقها ظنا منهم بأنّهم يحصلون من وراء ذلك على نتيجة، و فى الوقت نفسه كانوا يحبّون أن ينسبهم الناس إلى العلم، و يعتبرونهم من حماة الدين فنزلت هذه الآية ترد على تصورهم الخاطئ هذا.

و قال آخرون أنّها نزلت فى شأن المنافقين، لأنهم كانوا يجمعون و يتفقون على التخلف عن الجهاد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا نشبت حرب من الحروب الإسلامية، متذرّعين لذلك بمختلف المعاذير و الحجج، فإذا عاد المجاهدون من القتال اعتذروا و حلفوا لهم بأنّهم كانوا يودّوا المشاركة لو لا بعض الأعذار، و أحبوا بالتالى أن يقبل منهم العذر و يحمدوا بما ليسوا عليه من الإيمان و بما لم يفعلوه من أفعال المجاهدين الصادقين. فنزلت هذه الآية ترد على هذا التوقع غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳

المبرر و غير الوجيه ۱۶].

التّفسير

المعجبون بأنفسهم:

المرتكبون لقبائح الفعال على نوعين: طائفة تستحى من أفعالها فور انتباهها إلى قبح ما فعلت، و هى لم تفعل ما فعلت من القبيح إلّا لطغيان غرائزها، و هيجان شهواتها، و هذه الطّائفة سهلة النّجاة جدا، لأنها تندم بعد كل قبيح ترتكبه، و تتعرض لوخز ضميرها و عتب وجدانها باستمرار.

بيد أنّ هناك طائفة اخرى ليست فقط لا تشعر بالندم و الحياء ممّا ارتكبت من الإثم، بل هى على درجة من الغرور و الإعجاب بالنفس بحيث تفرح بما فعلت، بل تتبجح به و تتفاخر، بل و فوق ذلك تريد أن يمدحها الناس على ما لم تفعله أبدا من صالح الأعمال و حسن الفعال.

إنّ الآية الحاضرة تقول عن هؤلاء: لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ

الْعَذابِ أی لا تحسبن أن هؤلاء یعذرون علی موقفهم هذا و ینجون من العذاب، إنّما النجاة لمن یستحون- علی الأقل- من أعمالهم القبیحة، و یندمون علی أنّهم لم یفعلوا شیئا من الأعمال الصالحة.

إنّ هؤلاء المعجبین بأنفسهم لیسوا فقط ضلّوا طریق النجاة و حرّموا من الخلاص، بل وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ ینتظرهم.

و یمکن أن نستفید من هذه الآیة أن ابتهاج الإنسان بما وفق لفعله و إتیانه من صالح الإعمال لیس مذموما (إذا کان ذلک لا یتجاوز حد الاعتدال، و لم یکن سببا للغرور و العجب)، و هکذا الحال فی رغبة الإنسان فی التشجیع و الإجلال علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴

الأفعال الحسنة إذا کان- کذلک- فی حدود الاعتدال، و لم یکن الإتیان بتلک الأعمال الصالحة بدافع الحصول علی ذلک، لأن کل ذلک من غریزة الإنسان و مقتضی فطرته. و لکن أولیاء اللّه و من هم فی المستویات العلیا من الإیمان بعیدون حتی من مثل هذا الابتهاج المباح و حبّ التقدیر الغیر المذموم.

إنّهم یرون أعمالهم دائما دون المستوی المطلوب، و یشعرون أبدا بالتقصیر تجاه ربّهم العظیم، و بالتفریط فی جنبه سبحانه و تعالی.

علی أنّه ینبغی أن لا نتصور أنّ الآیة الحاضرة- مورد البحث- تختص بأهل النفاق فی صدر الإسلام أو من شاکلهم- فی کل عصر و زمان- و فی جمیع الظروف و المجتمعات المختلفة، ممن یفرحون و یبتهجون بأعمالهم القبیحة أو یحرکون الآخرین لیحمدوهم علی ما لم یفعلوه بالقلم أو اللسان.

إنّ مثل هؤلاء مضافا إلی العذاب الألیم فی الآخرة، سیصیبهم- فی هذه الحیاة- غضب الناس و سخطهم، و سیؤول أمرهم إلی الانفصال عن الآخرین و إلی غیر ذلک من العواقب السیئة.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه یقول فی آیة لاحقة: وَ لِلَّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ و هذا الکلام یتضمن بشری للمؤمنین، و تهدیدا للکافرین، فهی تقول: إنّه لا داعی لأن یسلک المؤمنون لإحراز التقدم طرقا و سبلا منحرفة، و أن یحمدوا علی ما لم یفعلوه، ذلک لأنّهم یقدرون أن یواصلوا تقدمهم، و یحرزوا النجاحات بالاستفادة من السبل المشروعة و الصحیحة و فی ظل قدرة اللّه خالق السماوات و الأرضین، کما أنّه علی المنافقین و العصاة أن لا یتصوروا أنّهم قادرون علی إحراز شیء أو علی الخلاص و النجاة من عقاب خالق الکون و ربّ السماوات و الأرضین بسلوک هذه السبل المنحرفة و استخدام هذه الأسالیب غیر المشروعة!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۹۰ الی ۱۹۴]

اشارة

إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ لَآیاتٍ لِأُولِی الْأَلْبابِ (۱۹۰) الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللَّهَ قِیاماً وَ قُعُوداً وَ عَلی جُنُوبِهِمْ وَ یَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَکَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (۱۹۱) رَبَّنا إِنَّکَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَیْتَهُ وَ ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ أَنْصارٍ (۱۹۲) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِیاً یُنادِی لِلْإِیمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّکُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ کَفِّرْ عَنَّا سَیِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (۱۹۳) رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلی رُسُلِکَ وَ لا تُخْزِنا یَوْمَ الْقِیامَةِ إِنَّکَ لا تُخْلِفُ الْمِیعادَ (۱۹۴)

التّفسیر

أهمیة هذه الآیات:

لا شک أنّ جمیع الآیات القرآنیـة تتمتّع بأهمیـة کبری لأنّها جمیعا کلام اللّه، و آیاته التی نزلت لتربیة الإنسان و نجاته و خلاصه، و إلّا أنّ هنـاک من الآیـات مـا تحظی و تتمیز علی سواهـا ببریق خاص، و من هـذا الصـنف ما نقرؤه الآن من الآیات الخمسـة التی تعـد من القمم القرآنیة العظیمة التأثیر، و التی امتزجت فیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶

مجموعـة من معـارف الـدین بلحن لطیف و سـاحر من المناجـاة و الـدعاء، فإذا هی نعمـة سـماویة تدغـدغ المشاعر، و تثیر الشـعور، و تحرک ما غفا من العقل و الضمیر.

و لهذا أولتها الأحادیث و الأخبار المرویة أهمیة خاصّة و مکانة سامیة بین غیرها من الآیات.

عن «عطاء بن رباح» قال: قلت لعائشـة: أخبرینی بأعجب ما رأیت من رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قالت: و أی شأن لم یکن عجبا، أنّه أتانی لیلة فدخل معی فی لحافی ثمّ قال: ذرینی أتعبد لربّی، فقام فتوضأ ثمّ قام یصـلی، فبکی حتی سالت دموعه علی صدره فرکع فبکی، ثمّ سـجد فبکی، ثمّ رفع رأسه فبکی فلم یزل کـذلک حتی جاء بلال فأذنه بالصـلاة، فقلت: یا رسول اللّه ما یبکیک و قد غفر اللّه لـک مـا تقـدم من ذنبـک و مـا تـأخر؟ قـال: أ فلا أکون عبـدا شـکورا، و لم لا أفعل و قـد أنزل علیّ هـذه اللیلـة: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ لَآیاتٍ لِأُولِی الْأَلْبابِ إلی قوله- سُبْحانَکَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ ثمّ قال: «ویل لمن قرأها و لم یتفکر فیها»[۱۷]

و العبارة الأخیرة التی تأمر الجمیع- بتأکید کبیر- بأن یفکروا فی هذه الآیات، و قد رویت فی روایت عدیدة بعبارات مختلفة.

و

فی روایـة عن أمیر المـؤمنین علیه السّـلام أنّ رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم کـان إذا قـام الصـلاة اللیـل یسوک، ثمّ ینظر إلی السماء ثمّ یقول: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ... إلی قوله تعالی: فَقِنا عَذابَ النَّارِ[۱۸].

و ورد عن الأئمّة من أهل البیت علیه السّلام الأمر بقراءة هذه الآیات الخمس وقت القیام باللیل للصلاة[۱۹].

و

عن نوف البکالی قال: بت لیلة عند أمیر المؤمنین علیه السّلام فکان یصلی اللیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷

کلّه، و یخرج ساعة بعد ساعة فینظر إلی السـماء و یتلو القرآن- و یردد هذه الآیات- فمرّ بی بعد هدوء اللیل، فقال: یا نوف أ راقد أنت أم رامق؟.

قلت: بل رامق ببصری یا أمیر المؤمنین.

قال: «یا نوف طوبی للزاهدین فی الدنیا الراغبین فی الآخرة، أولئک الذین اتخذوا الأرض بساطا، و ترابها فراشا، و ماءها طیبا، و القرآن دثارا، و الدعاء شعارا ...»[۲۰].

التّفسیر

أوضح السّبل لمعرفة اللّه:

آیـات القرآن الکریم لیست للقراءة و التلاوة فقـط، بـل نزلت لکی یفهم النـاس مقاصـدها و یـدرکوا معانیها، و ما التّلاوة و القراءة إلّا

مقدمـة لتحقيق هذا الهدف، أى التفكر و التدبر و الفهم، و لهذا جاء القرآن فى الآية الأولى من الآيات الحاضـرة يشـير إلى عظمة خلق السماوات و الأرض، و يقول: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ ۲۱].

و بهذا يحثّ الناس على التفكر فى هذا الخلق البديع و العظيم، ليصيب كلّ واحد منهم- بقدر استعداده، و قدرته على الإستيعاب- من هذا البحر العظيم الذى لا يدرك له ساحل و لا قعر، و يرتوى من منهل أسرار الخلق العذب.

حقّا أنّ هـذا الكون العظيم بما فيه من نظام متقن و بـديع، و نقوش رائعة، و لوحات خلابة كتاب بالغ العظمة، كتاب فى كلّ حرف من حروفه، و كل سطر من أسطره دليل ساطع على وجود اللّه الخالق المبدع و وحدانيته، و تفرّده ۲۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸

إنّ هذا النقش الساحر الآسر للقلوب، المبثوث فى كل ناحية من نواحى هذا الكون العريض يشدّ إلى نفسه فؤاد كلّ لبيب و عقله شدّا- يجعله يتـذكر خالقه، فى جميع الحالات، قائما أو قاعـدا، و حين يكون فى فراشه نائما على جنبه، و لهذا يقول سـبحانه: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ أى أنّهم مسـتغرقون كامـل الاسـتغراق فى التفكير الحيوى حول هـذا الكون الرائع و نظـامه البـديع و مبدعه، و مبديه.

و لقد أشير- فى هذه الآية- إلى الذكر أوّلا، ثمّ إلى الفكر ثانيا، و يعنى ذلك أن ذكر اللّه وحده لا يكفى، إنّ الذكر إنّما يعطى ثماره القيّمة إذا كان مقترنا بالفكر، كما أنّ التفكر فى خلق السماء و الأرض هو الآخر لا يجدى و لا يوصل إلى النتيجة المتوخاة ما لم تقترن عملية التفكر بعملية التذكر، و بالتالى لا يقرن الفكر بالذكر.

فمـا أكثر العلمـاء الـذين يقفون- فى تحقيقـاتهم الفلكيـة و الفضائيـة- على مظـاهر رائعـة من النظـام الكونى البـديع، و لكنّهم حيث لا يتذكرون اللّه و لا ينظرون إلى كل هذه المظاهر بمنظار الموحد الفاحص، بل ينظرون إليها من الزاوية العلمية المجردة البحتة، فإنّهم لا يقطفون من هـذه التحقيقـات مـا يترتب عليهـا من النتائـج التربويـة و الآثـار الإنسانيـة، و مثلهم فى ذلك مثل من يأكل طعاما ليقوى به جسمه فلا يكون لما يأكله أى أثر فى تقوية فكره و روحه.

إنّ التفكير فى أسـرار الخليقة، و فى نظام السماء و الأرض يعطى للإنسان وعيا خاصّا و يترك فى عقله آثارا عظيمة، و أوّل تلك الآثار هو الانتباه إلى هدفيـة الخلق و عـدم العبثيـة فيه، فالإنسان الذى يلمس الهدفية فى أصـغر أشـياء هذا الكون كيف يمكنه أن يصدق بأنّ الكون العظيم بأسره مخلوق من دون هدف، و مصنوع من دون غاية؟

لو أنّنا نظرنا فى تركيبة نبتة معينة للاحظنا أهدافا واضـحة فيها، و هكذا نلاحظ مثل تلك الأهداف فى قلب الإنسان و ما فيه من حفر، و صمامات، و أبواب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹

و بطون، فكلّ شـىء فيه مخلوق لغايـة، و مجعول لهدف، و كذا الحال فى طبقات العين، بل و حتى الأجفان، و الأظافر، كل واحد منها يؤدى دورا، و يحقق غاية، فهل يمكن أن يكون لهذه الأجزاء الصـغيرة جدا بالنسبة للكون العظيم أهداف واضحة و غايات ملحوظة، و لا يكون لمجموعه المتمثل فى الظاهرة الكونية الهائلة العظيمة أى هدف مطلقا؟ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا.

إنّ العقلاء لا يمكنهم و هم يواجهون هـذه الحقيقـة الساطعـة إلّا أن يقولوا بخشوع هـذه الجملة: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ أى ربّنـا إنّـك لم تخلق هـذا العـالم العظيم، و هـذا الكون الـذى لاـ يعرف له حـدّ، و هـذا النظام المتقن البـديع الّا على أساس الحكمـة و المصلحة، و لهدف صحيح، فكل هذا آية وحدانيتك، و كل هذا ينزّهك عن اللغو و العبث.

إن أصـحاب العقول السـليمة الواعيـة بعد أن يعترفوا بالهدفية فى الخليقة يتذكرون أنفسـهم فورا، و كيف يعقل أن يكونوا- و هم ثمرة هـذا الموجود نفسه و هذا الكون بالذات- قد خلقوا سدى، أو جاؤوا إلى هذه الحياة عبثا، و أنّه ليس هناك من هدف سوى تربيتهم و تكاملهم!! إنّهم لم يأتوا إلى هـذه الحياة لأجل أن يعيشوا فيها أيّاما سـرعان ما تفنى و تنقضـى، فـذلك أمر لا يسـتحق كلّ هذا العناء و

التعب کما لا یلیق بمکانة الإنسان و لا یتناسب مع حکمة اللّه العلیا، بل هناک دار اخری تنتظرهم حیث یجدون فیها جزاء أعمالهم، أن خیرا فخیر، و إن شرّا فشر، و فی هذه اللحظة ینتبهون إلی مسئولیاتهم، و یسألون اللّه التوفیق للقیام بها حتی یتجنبوا عقابه، و لهذا یقول: فَقِنا عَذابَ النَّارِ ثمّ یقول: رَبَّنا إِنَّکَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَیْتَهُ ....

و یستفاد من هذه العبارات أنّ العقلاء یخافون من الخزی قبل أن یخافوا من نار جهنم، و هذا هو حال کل من یمتلک شخصیة، فإنّه مستعد لأن یتحمل کلّ شیء من الأذی و المحن شریطة أن یحافظ علی شخصیته، و لهذا فإن أشدّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰

عقوبات الآخرة علی هؤلاء هو الخزی فی محضر اللّه و عند عباده.

علی أن النقطة الجدیرة بالاهتمام التی تنطوی علیها جملة وَ ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ أَنْصارٍ هی أن العقلاء بعد التعرف علی الأهداف التربویة المطلوبة للإنسان یقفون علی هذه الحقیقة و هی أن الوسیلة الوحیدة لنجاح الإنسان و نجاته هی أعماله و ممارساته، و لهذا لا یمکن أن یکون للظالمین أی أنصار، لأنّهم فقدوا النصیر الأصلی و هو العمل الصالح، و الترکیز علی لفظة «الظلم» إمّا لأجل خطورة هذه المعصیة من بین المعاصی الاخری، و إمّا لأن جمیع الذنوب ترجع إلی ظلم الإنسان لنفسه.

علی أنّه لیست ثمّة أیّة منافاة بین هذه الآیة و مسألة الشفاعة (بمعناها الصحیح) لأنّ الشفاعة (کما قلنا سابقا فی بحث الشفاعة) تحتاج إلی قابلیة و أهلیة خاصّة فی المشفوع له، و هذه الأهلیة و الصلاحیة لشمول الشفاعة تحصل فی ضوء بعض الأعمال الصالحة الخیرة.

ثمّ إنّ أصحاب العقول و ذوی الألباب بعد التعرف علی هدف الکون و الغایة من الخلق ینتبهون إلی هذه النقطة، و هی أنّ هذا الطریق الوعر یجب أن لا یسلکه أحد بدون قیادة الهداة الإلهیین، و لهذا فهم یترصّدون نداء من یدعوهم إلی الإیمان بصدق و إخلاص و یستجیبون لأوّل دعوة یسمعونها منه و یسرعون إلیه، و یعتنقونها بعد أن یحققوا فیها، و یتأکدوا من صدقها و صحّتها و یؤمنون بها بکلّ وجودهم، و لهذا یقولون فی محضر ربّهم:

رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِیاً یُنادِی لِلْإِیمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّکُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ کَفِّرْ عَنَّا سَیِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ.

أی ربّنا الآن و قد أمنا بکل وجودنا و إرادتنا، و لکننا یحیط بنا طوفان الغرائز المختلفة من کلّ جانب، فربّما ننزلق و ربّما نزلّ و نرتکب معصیة، ربّنا فاغفر لنا زلتنا، و استر عثرتنا، و توفّنا مع الأبرار الصالحین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱

لقد اتصل هؤلاء بالمجتمع الإنسانی اتصالا عجیبا، و ترکوا التفرد و الأنانیة إلی درجة أنّهم یطلبون من اللّه فی دعواتهم أن لا یجعلهم مع الأبرار و الصالحین فی حیاتهم فحسب، بل یجعل مماتهم- سواء أ کان مماتا طبیعیا أو بالشهادة فی سبیل اللّه- کممات الأبرار الصالحین أیضا، أو یحشرهم معهم، لأن الموت مع الأشرار موتة مضاعفة، و عناء مضاعف.

و هنا یطرح سؤال و هو: ما ذا یعنی الستر علی السیئات بعد طلب غفرانها؟

و الجواب هو: مع ملاحظة بقیة الآیات القرآنیة تتضح حقیقة الإجابة علی هذا السؤال، فإن الآیة ۳۱ من سورة النساء تقول: إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ فیستفاد من ذلک أنّ السیئات تطلق علی المعاصی الصغیرة، و لهذا فإنّ العقلاء ذوی الألباب یطلبون من اللّه فی أدعیتهم و ضراعاتهم أن یغفر لهم ذنوبهم الکبیرة، و یستر- عقب ذلک- علی ذنوبهم الصغیرة، و یمحو آثارها من الوجود.

ثمّ أن هؤلاء العقلاء یطلبون من ربّهم فی نهایة المطاف، و بعد أن یسلکوا طریق الإیمان و التوحید و إجابة دعوة الأنبیاء و القیام بالواجبات الموجهة إلیهم، أن یؤتیهم وعدهم علی لسان الرسل فیقولون: رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلی رُسُلِکَ أی ربّنا لقد وفینا بالتزاماتنا، فأتنا ما وعدتنا عن طریق أنبیائک و رسلک و لا تفضحنا و لا تلحق بنا الخزی یوم القیامة: وَ لا تُخْزِنا یَوْمَ الْقِیامَةِ إِنَّکَ لا تُخْلِفُ الْمِیعادَ.

إنّ الترکیز علی «الخزی» یؤکّد مرّة أخری هذه الحقیقة الهامّة، و هی أن هؤلاء بسبب ما یرون لشخصیتهم من أهمیة و احترام یعتبرون «الخزی» من أشد ما یلحق بالإنسان من الأذی، و لهذا یرکزون علیه دون سواه من ألوان العقوبات.

و

فی مستدرک الوسائل نقلا عن أبی الفتوح الرّازی فی تفسیره، أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: من کان له إلی اللّه حاجة فلیقل خمس مرات ربّنا یعطی حاجته، و مصداق

ذلک فی کلام اللّه فی قوله تعالی: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا إلی آخر الآیات فیها ربّنا خمس مرّات ثمّ قال تعالی: فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ [۲۳].

و من الواضح الذی لا یخفی أن التأثیر الواقعی و العمیق لهذه الآیات، إنما یتحقق إذا وافق اللسان فی ما یقوله القلب و العمل، و أن یحل مضمون هذه الآیات الذی یکشف عن طریقة تفکیر اولی الألباب و شدّة حبّهم للّه، و إحساسهم بالمسؤولیات الملقاة علی عواتقهم، و القیام بواجباتهم، فی فؤاد قارئها و قلبه، فیحصل له نفس ذلک الخضوع و الخشوع الحاصل لأولی الألباب عند مناجاتهم للّه، و تضرعهم إلیه.

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۹۵]

اشارة

فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّی لا أُضِیعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْکُمْ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِینَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیارِهِمْ وَ أُوذُوا فِی سَبِیلِی وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُکَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (۱۹۵)

سبب النّزول

هذه الآیة تعقیب علی الآیات السابقة حول أولی الألباب و العقول النّیرة و نتیجة أعمالهم، و الشروع بفاء التفریع- فی هذه الآیة- أوضح دلیل علی هذا الارتباط، و مع ذلک ذکرت أسباب نزول متعددة لها فی الأحادیث و أقوال المفسرین، لکنها لا تنافی- فی حقیقتها- الارتباط الذی ذکرناه لهذه الآیة مع الآیات السابقة.

و من جملة ذلک ما نقل عن أمّ سلمة (و هی إحدی زوجات النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم) أنّها قالت للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا رسول اللّه ما بال الرجال یذکرون فی الهجرة دون النساء؟

فأنزل اللّه هذه الآیة.

کما نقل أیضا أنّ علیّا علیه السّلام لما هاجر بالفواطم (و هن فاطمة بنت أسد، و فاطمة

بنت النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فاطمة بنت الزبیر) من مکّة إلی المدینة، و لحقت به أم أیمن- و هی إحدی زوجات النّبی المؤمنات- فی أثناء الطریق نزلت الآیة الحاضرة[۲۴].

و المسألة کما قلناه، فإن الأسباب المذکورة لنزول الآیة لا تنافی الارتباط الذی أشرنا إلیه بین هذه الآیة. و الآیات السابقة، کما أنه لا

تنافى أيضا بين هذين السببين المذكورين للآية أيضا.

التّفسير

النّتيجة الطّيبة لموقف أولى الألباب:

فى الآيات الخمس الآنفة استعرض القرآن الكريم موجزا من إيمان أولى الألباب و العقول النّيرة، و برامجهم العملية، و طلباتهم و أدعيتهم، و فى هذه الآية يقول سبحانه: فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ و التعبير بلفظة «ربّهم» حكاية عن غاية اللّطف، و منتهى الرحمة الإلهية بالنسبة إليهم: ثمّ يضيف قائلا: أَنِّی لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ دفعا للاشتباه و التوهم الذى قد يسبق إلى الذهن بأنه لا ارتباط بين الفوز و النجاة، و بين أعمال الإنسان و مواقفه، ففى هذه العبارة إشارة واضحة إلى أصل «العمل» و إشارة أيضا إلى عامله، حتى يتبيّن أن الملاك و المحور الأصلى لقبول الدعاء و استجابته هو الأعمال الصالحة الناشئة من الإيمان، و أنّ الأدعية التى تستجاب فورا هى تلك التى يدعمها العمل الصالح.

ثمّ أنّه سبحانه يقول: مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ و هذا لأجل أن لا يتصور أحد أنّ هذا الوعد الإلهى يختص بطائفة معينة كالذكور دون الإناث مثلا، فلا فرق فى هذا الأمر بين أن يكون العامل ذكرا أو يكون أنثى، لأنّ الجميع يعودون فى أصل الخلقة إلى مصدر واحد بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أى تولد بعضكم من بعض، النساء من الرجال، و الرجال من النساء، فلا تفاوت فى هذه المسألة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵

إذن بين الذكر أو الأنثى، فلما ذا يكون تفاوت فى الجزاء و الثواب؟

و يمكن أن تكون عبارة بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ إشارة إلى أنّكم جميعا أتباع دين واحد، و رواد منهج واحد و أنصار حقيقة واحدة، فلا معنى لأن يفرق اللّه سبحانه بين جماعة و اخرى و يميز بين طائفة و طائفة، و جنس و آخر.

ثمّ أنّه سبحانه يستنتج من ذلك إذ يقول: فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِی سَبِيلِی، وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أى أنّ اللّه سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم، جاعلا من هذه المشاق و المتاعب التى نالتهم كفارة لذنوبهم، ليطهروا من أدرانها تطهيرا.

ثمّ يقول تعالى: وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ مضافا إلى غفران ذنوبهم و التكفير عنهم.

و هذا هو الثواب الإلهى لهم على ما قاموا به من تضحية و فداء ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ ... إنّ لهم أفضل الأجر عند اللّه و أحسنه، و قوله:

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ إشارة إلى أنّ الأجر الإلهى و المثوبات الإلهية ليست قابلة للوصف للناس بشكل كامل فى هذه الحياة، بل يكفى أن يعلموا بأنّه أفضل و أعلى من أى ثواب.

هذا و يستفاد- جيدا- من هذه الآية أن الإنسان لا بدّ أن يتطهّر من أدران الذنوب فى ظل العمل الصالح أوّلا، ثمّ يدخل فى رحاب القرب الرّبانى و النعيم الإلهى، لأنّه سبحانه قال أوّلا: لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ثمّ قال: لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ

و بعبارة اخرى: أنّ الجنّة مقام المتطهرين، و لا طريق لمن لم يتطهر إليها.

القيّمة المعنويّة للرّجل و المرأة:

إن الآیهٔ الحاضرهٔ- کبقیهٔ الآیات القرآنیهٔ الاخری- تساوی بین الرجل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶

و المرأهٔ عنـد اللّه، و فی مسألـهٔ الوصول إلی الـدرجات المعنویـهٔ، و لاـ تفرق بینهمـا بسـبب اختلافهمـا فی الجنس، و لاـ تعتـبر الفروق العضویـهٔ و ما یلحقها من الفروق فی المسؤولیات الاجتماعیـهٔ دلیلا علی اختلافهما فی إمکانیهٔ الحصول علی درجات التکامل الإنسانی و بلوغهما للمقامات المعنویهٔ الرفیعهٔ، بل تعتبرهما فی مستوی واحد- من هذه الجههٔ- و لذلک ذکرتهما معا.

إن اختلافهمـا فی التکـالیف و توزیع المسؤولیات یشـبه إلی حـد کبیر الاختلاف الـذی تقتضـیه مسألـهٔ النظام و الانضـباط حیث یختار شخص کرئیس، و آخر کمعـاون و مساعـد، فـإنّه ینبغی أن یکون الرئیس أکثر حنکـهٔ و أوسع علمـا، و أکثر تجربـهٔ فی مجال عمله، و لکن هـذا التفاوت و الاختلاف فی مراتب المسؤولیـهٔ و سـلم الوظائف لا یکون دلیلا مطلقا علی أن شخصـیهٔ الرئیس و قیمته الوجودیهٔ أکثر من شخصیهٔ معاونیه و مساعدیه، و قیمتهم الوجودیهٔ.

إنّ القرآن الکریم یقول بصـراحهٔ: وَ مَنْ عَمِـلَ صالِحـاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِـکَ یَـدْخُلُونَ الْجَنَّهَٔ، یُرْزَقُونَ فِیهـا بِغَیْرِ حِسـابٍ [۲۵].

و یقول فی آیـهٔ اخری: مَنْ عَمِـلَ صالِحـاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیـاهًٔ طَیِّبَـهًٔ وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما کانُوا یَعْمَلُونَ [۲۶].

هذه الآیات و غیرها من الآیات القرآنیهٔ الاخری نزلت فی عصـر کان المجتمع البشـری فیه یشک فی إنسانیهٔ جنس المرأهٔ أساسا، بل و یعتقد أنها کائن ملعون، و أنها منبع کل إثم و انحراف و موت و فساد.

لقد کان الکثیر من الشـعوب الماضـیهٔ تذهب فی نظرتها السلبیهٔ تجاه المرأهٔ إلی درجهٔ أنها تعتقد أحیانا إنّ عبادهٔ المرأهٔ و ما تقدمه فی سبیل اللّه لا تقبل، و کان الکثیر من الیونانیین یعتقدون أنّ المرأهٔ کائن نجس و شریر و أنّها من عمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷

الشّـیطان، و کان الرّوم و بعض الیونانیین یعتقـدون أنّ المرأهٔ لیست ذات روح إنسانیـهٔ أساسا، و أن الرجل وحـده هو الـذی یحمل بین جنبیه مثل هذه الروح دون غیره.

و الملفت للنظر أن العلماء المسیحیین فی أسبانیا کانوا یبحثون- حتی إلی الآونهٔ الأخیرهٔ- فی أن المرأهٔ هل تملک- مثل الرجل- روحا إنسانیهٔ أم لا؟ و أن روحها هل تخلد بعد الموت أم لا؟

و قـد توصـلوا- بعد مداولات طویلهٔ- إلی أن للمرأهٔ روحا برزخیهٔ، و هی نوع متوسط بین الروح الإنسانیهٔ و الروح الحیوانیهٔ، و أنه لیس هناک روح خالدهٔ- بین أرواح النساء- إلّا روح مریم [۲۷].

من هنا یتضح مدی ابتعاد بعض المغفلین عن الحقیقهٔ حیث یتهمون الإسلام أنّه دین الرجال دون النساء.

إنّ بعض الاختلاف فی نوع المسؤولیات الاجتماعیـهٔ الـذی یقتضـیه اختلافات فی الترکیب العضوی و العاطفی لـدی الرجل و المرأهٔ لا یضرّ بالمرأهٔ و قیمتها المعنویهٔ أساسا، و لهذا لا یختلف الرجل و المرأهٔ من هذه الجههٔ، فأبواب السعادهٔ و التکامل الإنسانی مفتوحهٔ فی وجهیهما کلیهما علی السواء کما ذکرنا ذلک عند البحث فی قوله تعالی: بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸

الآیات [سورهٔ آلعمران (۳): الآیات ۱۹۶ الی ۱۹۸]

اشارهٔ

لاـ يَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (۱۹۶) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۹۷) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ (۱۹۸)

سبب النّزول

كان أكثر مشركى مكّة أهل تجارة، و قد كانوا يحصلون من هذا الطريق على ثروة ضخمة، يتنعمون بها، و هكذا كان يهود المدينة أهل تجارة، و كانوا يعودون من رحلاتهم التّجارية على الأغلب موفورين، فى حين كان المسلمون بسبب أوضاعهم الخاصّة، لا سيما بسبب الهجرة، و الحصار الذى كان مشركو مكّة قد فرضوه عليهم، يعانون من وضع اقتصادى صعب جدا، و بكلمة واحدة كانوا يعيشون فى عسرة شديدة.

فكانت مقارنة هاتين الحالتين تطرح على البعض السّؤال التالى: كيف يتنعّم أعداء اللّه فى العيش الرخى، بينما يقاسى المؤمنون ألم الجوع و الفقر المدقع؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹

فنزلت الآيات الحاضرة تجيب على هذا التساؤل ۲۸].

التّفسير

سؤال مزعج:

السّؤال الذى مرّ ذكره فى سبب نزول هذه الآيات و الذى كان يطرحه بعض المسلمين فى عصر النّبى يعتبر سؤالا عاما يطرح نفسه على الناس فى كل زمان و مكان.

فإنّهم يرون كيف يتنعم العصاة و الطّغاة، و الفراعنة و الفسّاق، و يرفلون فى النعيم، و يعيشون الحياة الرفاهية، و الرخاء العريض، و يقيسونه- غالبا- بحياة الشدّة و العسرة التى يعيشها جماعة من المؤمنين، و يقولون متسائلين: كيف ينعم أولئك العصاة- مع ما هم عليه من الإثم و الفساد و الجريمة- بمثل تلك الحياة الرخية، بينما يعيش هؤلاء- مع ما هم عليه من الإيمان و التقوى و الصلاح- فى مثل هذه الشدّة و العسرة، و ربّما أدى هذا الأمر ببعض ضعفاء الإيمان إلى الشك و التّردد.

و لو أنّنا درسنا هذا السؤال بصورة دقيقة و جيدة، و حللنا عوامل الأمر و أسبابه فى كلا الجانبين، لظهرت أجوبة كثيرة على هذا التساؤل، و قد أشارت هذه الآيات إلى بعضها، و يمكننا الوقوف على بعضها الآخر بشىء من التأمل و الفحص.

تقول الآية الأولى من هذه الآيات: لا يَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ و المخاطب فى هذه الآية و إن كان شخص النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلا أنه من الواضح البيّن أن المراد هو عموم المسلمين.

ثمّ تقول: مَتاعٌ قَلِيلٌ أى أنّ هذه النّجاحات المادية التى يحرزها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰

المشركون، و هذه الثروات الهائلة التى يحصلون عليها من كل سبيل ليست سوى متاع قليل، و لذّة عابرة.

ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ فالملذات المادية تستعقب عواقب سيئة، فإنّ مسئولية هذه الأموال و الثروات ستجرّهم إلى مصير مشؤوم، ذلک هو الجحيم الذى ستكون محطتهم الأخيرة و مآلهم و بئس المآل.

إنّ هذه الآية تشير- فى الحقيقة- إلى نقطتين:

الأولى: إنّ أكثر مظاهر تفوّق هؤلاء العصاة الطّغاة الظالمين محدودة الأبعاد، كما أنّ متاعب أكثر المؤمنين و مشاكلهم و محنهم كذلك مؤقتة، و محدودة أيضا.

و أفضل شاهد على هذا الموضوع هو ما نلاحظه فى حياة المسلمين و حياة أعدائهم و مناوئيهم فى صدر الإسلام.

فحيث أنّ الحكومة الإسلامية كانت آنذاك فى بداية أمرها كنبتة شابّة لا تمتلك كل عناصر القوّة و المنعة لم تكن تملك القدرة الكاملة على الدفاع عن حوزتها و كيانها أمام هجوم أعدائها الألداء الذين كانوا يهاجمونها بشراسة و دونما رحمة، و خاصّة أنّ هجرة المسلمين الذين كانوا جماعة قليلة فى مكّة جعلتهم فى وضع حرج جدّا إلى درجة أنّهم فقدوا كل شىء فى الهجرة، و لا يختص مثل هذا الوضع بهم، بل يتعرض لمثل هذه المعاناة و مثل هذا الوضع كل من يناصر ثورة تغييرية، و نهضة معنوية و روحية جذرية فى مجتمع فاسد يراد تغييره بها.

و لكننا نعلم أنّ هذا الوضع لم يدم طويلا، فما لبثت الحكومة الإسلامية إلّا أن ترسخت جذورها و قويت دعائمها، و اشتدّ أمرها، و قويت شوكتها، و انحدرت الأموال إلى مركز الإسلام من كل صوب و حدب، فانعكس الوضع تماما، إذ عاد المترفون الكافرون و الأعداء المتنعمون الذين كانوا يرفلون فى النعيم و الخير مساكين و فقدوا كل ذلك النعيم، و هذا هو ما يعنيه قوله سبحانه: مَتاعٌ قَلِيلٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ۶١

الثّانية: إن النّجاحات المادية التى يحرزها بعض العصاة و الفاسقين إنّما هى لكونهم لا يتقيدون فى جمع الثّروة بأى قيد أو شرط، فهم يجمعون المال من كل سبيل، سواء كان مشروعا أم غير مشروع، حراما كان أم حلالا، بل إنّهم يجوزون لأنفسهم اكتناز الثروة حتى على حساب الضعفاء و الفقراء و امتصاص دمائهم، فى حين يتقيد المؤمنون بمبادئ الحق و العدالة فى هذا المجال، فلا يسوغون لأنفسهم بأن يكتسبوا المال من أى طريق كان، و أى سبيل اتفق، و لهذا لا يمكن (أو لا تصح) المقارنة و المقايسة بين هؤلاء و هؤلاء. هؤلاء يشعرون بالمسؤولية الثّقيلة، و أولئك لا يشعرون بأية مسئولية، و لا يعترفون بأى ضابطة، و حيث إن الحياة الحاضرة حياة الإرادة البشرية الحرّة، و عالم الإختيار الحر، كان طبيعيا أن يترك اللّه سبحانه كلتا الطائفتين أحرارا ليتصرفوا كيف شاؤوا، و لينتهوا فى المآل إلى نتائج أعمالهم التى اكتسبوها بأيديهم، و هو ما يقصده و يعنيه سبحانه، بقوله فى ختام هذه الآية: ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ.

معرفة نقاط الضّعف و القوّة معا:

ثمّ أن هناك سببا آخر لتقدم و نجاح بعض الكفار و الفاسقين، و تأخر بعض المؤمنين هو أن الطائفة الأولى رغم خلوهم من عنصر الإيمان يتحلون- أحيانا- ببعض نقاط القوّة التى يحققون فى ظلّها ما يحققون من المكاسب، و يحرزون ما يحرزون من النجاحات، فيما تعانى الطائفة الثانية من نقاط ضعف توجب تأخرهم و انحطاطهم.

فنحن نعرف أشخاصا- رغم انقطاعهم عن اللّه- يتسمون بالجدّية الكبيرة فى أعمالهم، و يتحلّون بالاستقامة و العزم، و التنسيق و التعاون فيما بينهم، و المعرفة بقضايا العصر و متطلباته، و مقتضياته و مستجداته، و من الطبيعى أن يحقق هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ۶٢

مكاسب كبيرة و يحرزوا انتصارات و نجاحات فى حياتهم المادية، و ما هم فى هذا الأمر- فى الحقيقة- إلّا مطبقون لتعاليم الدين و برامجه من دون إسنادها إلى الدين و إعطائها صفته و صبغته.

و فى المقابل، هناك أشخاص متدينون أوفياء للعقائد الدينية، لكنهم بسبب غفلتهم عن تعاليم الدين الحيوية يعانون من الجبن و الإحجام، و يفتقرون إلى الشهامة و الاستقامة و يفقدون عنصر الثبات و الاستمرار و الاتحاد و التعاون، و طبيعى أن يصاب هذا الصنف من الناس بإخفاقات متلاحقة و هزائم متتابعة، و لكن هذه الهزائم و الإخفاقات ليست أبدا بسبب إيمانهم باللّه، بل هى بسبب ما بهم

من نقاط الضعف، و ما بأنفسهم من عوامل الهزيمة، و موجبات السقوط و الإخفاق.

إنّهم يتصورون (و بالأحرى يظنون) بأنهم سيتنصرون بمجرد الصلاة و الصوم فی جميع المجالات، و ينجحون فی جميع المواقف، فی حين جاء الدين بسلسلة من البرامج و المناهج العملية الحيوية للتقدم و النجاح فی الحياة، يستلزم تجاهلها الفشل و السقوط و الهزيمة.

إنّ لكلّ شيء سببا، و لكل نجاح مفتاحه الخاص، و وسيلته الخاصّة، و قد أتى الدّين بكل ذلک، و بيّنه فی تعاليمه و توصياته، فلا يمكن أن يتحقق نجاح بغيره هذه التعاليم و بغير هذه الوسائل.

و خلاصة القول: إنه لدى كل طائفة من هاتين الطائفتين نقاط ضعف، و نقاط قوّة، و لكل واحدة منها آثارها و نتائجها الطبيعية، غاية ما فی الأمر أنه قد تلتبس هذه الآثار و تشتبه على المرء عند التقييم و المحاسبة.

مثلا: هناک كافر يتمتع لسعيه و جهاده و استمراره فی أعماله بالحياة و يحقق فی هذا المجال النجاح تلو النجاح، و لكنّه إذ يفتقد عنصر الإيمان باللّه فإنّه يفتقر إلى نعمة الطمأنينة النفسية و فضيلة المشاعر الطاهرة، و الأهداف الإنسانية العالية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳

يبقى أن نعرف أن ما ذكرناه من العوامل الثلاث لتقدم الكفار و نجاحهم، و تأخر بعض المؤمنين و فشلهم لا تصدق فی مكان واحد، بل لكل واحد منها مورده و مجاله الخاص.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه بعد أن بيّن مصير الكفار فی الآية السابقة، بيّن هنا- فی الآية التی تلت تلک الآية- مصير المؤمنين، إذ قال: لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أی إن الذين اتبعوا موازين الحق و العدل فی الوصول إلى المكاسب المادية، أو أنّهم بسبب إيمانهم تعرضوا للحصار الاقتصادی و الاجتماعی و لكنهم مع ذلک بقوا ملتزمين بالتقوى، فإنّه تعالى سيعوضهم عن كل ذلک بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ.

و «النّزل» فی اللغة هو ما يعدّ للضيف من الكرامة و البر، و قال البعض: أنّه أول ما يقدم إلى الضّيف النازل من شراب أو فاكهة.

و على هذا يكون معنى الآية أن الجنات المذكورة مع كل ما فيها من المواهب المادية هی أوّل ما يقدّم يوم القيامة إلى المؤمنين المتقين، و أمّا الضيافة المهمّة و العليا فهی النعم و المواهب المعنوية التی عبر عنها سبحانه بقوله: وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۹۹]

اشارة

وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِکَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۱۹۹)

سبب النّزول

هذه الآية- حسب ما يذهب إليه أكثر المفسّرين- نزلت فی مؤمنی أهل الكتاب الذين تركوا العصبية العمياء، و التحقوا بصفوف المسلمين، و كانوا يشكلون عددا معتدّا به من النصارى و اليهود.

و لكنّها حسب اعتقاد بعض المفسّرين أنّها نزلت فی النّجاشی ملک الحبشة العادل، و إن كان مفهومها أوسع من ذلک المورد.

ففی السنة التاسعة للهجرة و فی شهر رجب بالذات توفی النجاشی، فبلغ خبر وفاته إلى النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإلهام إلهی فی اليوم الذی مات فيه و

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «اخرجوا فصلّوا على أخ لكم مات بغير أرضكم»

، قالوا: و من؟ قال: النجاشـى، فخرج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى البقيع و كشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشـى، و صـلى عليه، فقال بعض المنافقين: انظروا إلى هذا يصـلّى على علج نصـرانى حبشى لم يره قطّ و ليس على دينه، فأنزل اللّه هذه الآية ردّا على

مقالتهم ۲۹].

هذا و يستفاد من هذه الرواية أن النجاشى اعتنق الإسلام بالكامل و إن لم يظهر ذلك.

التّفسير

أهل الكتاب ليسوا سواء:

قلنـا- فى ما سـبق- ان القرآن الكريم إذا تطرق إلى أمور حول إتباع الشـرائع الاخرى لم ينظر إلى الجميع نظرة سواء، و لم يحسب لهم حسابا واحـدا، و لم تتسم أبحاثه حولهم بصـفة قومية أو حزبية علائية، بل ينطلق فى أحكامه من أسـس اعتقادية و مبدئية، و لهذا ينتقد أعمالهم، و ممارساتهم و لا يتناول بسوء قومياتهم أو أجناسـهم، و لهـذا لا ينسـى فضل تلك القلّة المؤمنة الصالحة منهم و التى تميزت عن الأكثرية الساحقة بصلاحها و حسن عملها، و لا يتجاهل قيمتها و مكانتها.

و المقام الذى نحن فيه هو أحد تلك الموارد التى جاء فيها الكلام عن هذه القلة المؤمنة الصالحة التى اسـتجابت لدعوة الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خضعت للحق.

فالآيـة الحاضـرة بعـد أن و بّخت كثيرا من أهل الكتاب على كتمانهم لآيات اللّه، و طغيانهم و تمردهم فى الآيات السابقـة ذكرت هذه القلّة المؤمنة، و بينت خمسا من صفاتها الممتازة هى:

۱- يُؤْمِنُ بِاللَّهِ (أى أنهم يؤمنون باللّه عن طواعية و صدق).

۲- وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ (أى يؤمنون بالقرآن).

۳- وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ أى إيمانهم بنبىّ الإسـلام نابع فى الحقيقة من إيمانهم بكتبهم السّـماوية الواقعية التى بشّرت بهذا النّبى و دعت إلى الإيمان به إذا ظهر، فهم فى الحقيقة يؤمنون بكتبهم.

۴- خاشِعِينَ لِلَّهِ أى أنّهم مسلمون لأمر اللّه و خاضعون لإرادته، و هذا التسليم و الخضوع هو السبب الحقيقى لإيمانهم، و هو الذى فرّق بينهم و بين العصبيات الحمقاء، و حرّرهم من التعنت و الاستكبار تجاه منطق الحقّ.

۵- لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أى أنّهم ليسوا مثل بعض أحبار اليهود الـذين يحرفون آيات اللّه حفاظا على مراكزهم و إبقاء على حاكميتهم على أقوامهم و جماعاتهم، وصولا إلى بعض المكاسب المادية.

و الإشارة إلى «الثّمن القليل» فى الآية للتلويح بما كان عليه أولئك الأحبار المحرفون للكلم من تفاهة الهمّة، و ضـعف الطموح، و قصر النظر، و حقارة النفس.

هـذا مضافا إلى أن كـل أجر دون الأـجر الإلـهى حقير، و كـل مكسب يحصـل عليه الإنسـان عوضـا عن آيات اللّه فهو مكسب تافه و رخيص.

و سيكون لهذه الطائفة من أهل الكتاب بسبب هذه الصفات الإنسانية العالية هذا الموقف الواضح الحى، أجرهم عند ربّهم أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و التعبير هنا بلفظة «ربّهم» إشارة إلى غاية لطفه سبحانه و منتهى رحمته بهم، كما أنه إشارة أيضا إلى أن اللّه هو الذى يهديهم فى هذه المسيرة الخيرة، و هو يتكفل بمساعدتهم، و يعينهم فى هذا الطريق.

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ فلا يتأخر عن إعطاء الصالحين المؤمنين أجرهم، كما لا يبطئ عن مجازاة المنحرفين و الظالمين.

و هذه العبارة بشارة إلى الصالحين المؤمنين، كما هى أيضا تحذير و تهديد للعصاة و المذنبين ٣٠].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٦٧

الآية [سورة آل‌عمران (٣): آية ٢٠٠]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

التّفسير

هذه الآية هى آخر الآيات من سورة آل عمران، و تحتوى على برنامج يتكون من أربع نقاط لعامّة المسلمين، و هى لذلك تبدأ بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين إذ تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.

١- «اصبروا»: إن أوّل مادة فى هذا البرنامج الذى يكفل عزّة المسلمين و انتصارهم هو الاستقامة و الثبات، و الصبر فى وجه الحوادث الذى هو- فى الحقيقة- أصل كلّ نجاح مادى، و علّة كل انتصار معنوى، و هو الأمر الذى يستحق حديثا مفصلا لما له من أثر جدّ مهم فى الانتصارات و النجاحات الفردية و الاجتماعية، و هو الذى

قال عنه الأمام على عليه السّلام فى حكمه و كلماته القصار: «إن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد».

٢- «و صابروا» و هى من المصابرة (من باب المفاعلة) بمعنى الصبر و الاستقامة و الثبات فى مقابل صبر الآخرين و ثباتهم و استقامتهم.

و على هذا فإن القرآن يوصى المؤمنين أوّلا بالصبر و الاستقامة (التى تشمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٦٨

كل ألوان الجهاد، كجهاد النفس، و الاستقامة فى مواجهة مشاكل الحياة)، ثمّ يوصى ثانيا بالصبر و الثبات و الاستقامة أمام الأعداء، و هذا بنفسه يفيد أن الأمّة ما لم تتغلب و تنتصر فى جهادها مع النفس، و فى إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخلية يستحيل انتصارها على الأعداء، و هذا يعنى أن أكثر هزائمها أمام أعدائها إنّما هى بسبب ما لحق بها من هزائم فى جبهة الجهاد مع النفس و ما أصابها من إخفاقات فى إصلاح نقاط الضعف التى تعانى منها.

كما و أنّه يستفاد من هذا التعليم «صابروا» أن على المسلمين أن يضاعفوا من صبرهم و من ثباتهم كلما ضاعف العدو من صبره و ثباته و مقاومته و عناده.

٣- «و رابطوا» و هذه العبارة مشتقة من مادة «الرباط» و تعنى ربط شىء فى مكان (كربط الخيل فى مكان)، و لهذا يقال لمنزل المسافرين «الرباط»، و يقال أيضا ربط على قلبه بمعنى أنّه أعطاه السكينة، و ملأه بالطمأنينة و كأن قلبه انشد إلى مكان، و ارتكز على ركن وثيق، و «المرابطة» بمعنى مراقبة الثغور و حراستها لأن فيها يربط الجنود أفراسهم.

و هذه العبارة أمر صريح إلى المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائم لمواجهة الأعداء، و أن يكونوا فى حالة تحفز و تيقظ و مراقبة

مستمرهٔ لثغور البلاد الإسلامیهٔ و حدودها حتی لا یفاجئوا بهجمات العدوّ المباغتهٔ، کما أنّه حثّ علی التأهب الکامل لمواجههٔ الشیطان، و الأهواء الجامحهٔ حتی لا تباغتهم و تأخذهم علی حین غرّهٔ و غفلهٔ، و لهذا جاء فی بعض الأحادیث عن الإمام علی علیه السّلام تفسیر المرابطهٔ بانتظار الصلاهٔ بعد الصلاهٔ، لأن من حافظ علی یقظهٔ روحه و ضمیره بهذه العبادات المستمرهٔ المتلاحقهٔ، کان کالجندی المتأهب لمواجههٔ الأعداء علی الدّوام.

و خلاصهٔ القول: إن للمرابطهٔ معنی وسیعا یشمل کل ألوان الدفاع عن النفس و المجتمع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹

ثمّ إنّ هناک فی الفقه الإسلامی بابا خاصّا- فی کتاب الجهاد- تحت عنوان «المرابطهٔ» بمعنی الاستعداد و التأهب الکامل فی الثغور لحراستها و حمایتها و حفظها أمام حملات الأعداء الاحتمالیهٔ، و قد ذکرت لها أحکام خاصّهٔ یقف علیها کل من راجع الکتب الفقهیهٔ.

هذا و قد أطلق علی العلماء- کما فی بعض الأحادیث- صفهٔ المرابط،

فعن الإمام الصادق علیه السّلام: «علماء شیعتنا مرابطون فی الثغر الذی یلی إبلیس و عفاریته، و یمنعونهم عن الخروج علی ضعفاء شیعتنا و عن أن یتسلط علیهم إبلیس ...»[۳۱].

و تعتبر نهایهٔ هذا الحدیث العلماء أعلی مکانهٔ من الجنود و القادهٔ الذین یحرسون الثغور و یذبون عنها أعداء الإسلام. و ما ذلک إلّا أن العلماء حماهٔ الدین و حرّاسه و الأمناء المدافعون عن القیم الإسلامیهٔ، و الجنود حماهٔ الثغور الجغرافیهٔ، و من الثابت المسلم به أن الثغور الفکریهٔ و الثقافیهٔ لأمّهٔ من الأمم لو تعرضت لکید الأعداء، و لم تستطع الذّب عنها بنجاح، فإنّها سرعان ما تصیبها الهزائم العسکریهٔ و السیاسیهٔ أیضا.

۴- وَ اتَّقُوا اللَّهَ و هذا بالتالی آخر التعالیم و الأوامر فی هذا البرنامج، و هو بمثابهٔ المظلهٔ الواقیهٔ لما سبقها من التعالیم أنّه حثّ علی التقوی، و لا بدّ للاستقامهٔ و المصابرهٔ و المرابطهٔ من أن تمتزج بعنصر التقوی، و لا یشوبها شیء من أنانیهٔ أو ریاء أو أغراض شخصیهٔ.

لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ و هکذا تختم الآیهٔ هذا البرنامج بذکر النّتیجهٔ التی تنتظر کلّ من یطبق هذا البرنامج، إنه الفلاح و النجاح الذی یمکنکم الوصول إلیه عبر الأخذ بهذه التعالیم و الأوامر، و إلّا فلن تحصلوا علی شیء من النجاح و الإنتصار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۰

سؤال:

هناک سؤال یطرح نفسه و هو: لما ذا تبدأ بعض العبارات و الجمل القرآنیهٔ بلفظهٔ «لعل» مثل قوله تعالی لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ و لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ و لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ و هی کما نعلم تفید التّردید الذی لا یلیق باللّه سبحانه العالم بکل شیء.

و قد صارت هذه المسألهٔ ذریعهٔ بأیدی بعض أعداء الإسلام الذین انطلقوا یقولون: إن الإسلام لا یعطی وعودا قطعیهٔ بالثواب، فوعوده مرددهٔ غیر مجزوم بها، لأنها تبدأ- فی أغلبها- بلعلّ.

الجواب:

من حسن الاتفاق أن هذا النمط من التعبیر یشکّل جانبا من عظمهٔ هذا الکتاب العزیز، و واقعیته فی النظرهٔ إلی الأمور و فی بیانها، ذلک لأن القرآن استخدم هذه اللفظهٔ فی کل مقام یتوقف الاستنتاج فیه علی شرائط و مقدمات قد أشار إلیها و لوح بها إجمالا بلفظهٔ «لعل».

فالسکوت عند الاستماع إلی القرآن و الانتباه و التوجه إلی ألفاظ الآیات القرآنیهٔ مثلا لا یکفی- بمجرده- لإحراز الرحمهٔ الإلهیهٔ، بل لا بدّ من فهم الآیات و درک معانیها، و مقاصدها، و تطبیق توصیاتها، و تعالیمها و أوامرها و نواهیها، و لهذا یعلق سبحانه شمول

الرحمة بقوله: وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۳۲].

و على هذا الأساس لو كان القرآن يقول أنكم سترحمون حتما كان بعيدا عن الواقعية، لأنّ لتحقق هذا الموضوع كما قلنا شرائط أخرى أيضا، فيكون التعبير الجازم تجاهلا لهذه الشرائط، و لكنّه إذا قال «لعلّكم» فإنّه يكون قد أخذ تلك الشرائط بنظر الإعتبار و حسب لها حسابها.

بيد أن عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة جرّ البعض إلى الاعتراض على مثل هذا التعبير فى الآيات القرآنية إلى درجة أن بعض علمائنا- أيضا- ذهب إلى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۱

القول بأن «لعل» ليست مستعملة فى مثل هذه الموارد فى معناها الحقيقى، و هذا كما ترى خلاف للظاهر دونما دليل.

و فى المقام نجد الآية الحاضرة مع أنها أشارت إلى أربع نقاط من أهم التعاليم الإسلامية، و لكن حتى لا يغفل المسلمون عن بقية البرامج و التعاليم الإسلامية البناءة استخدمت كلمة «لعل» للإيذان بأن هناك أيضا من الظروف و الشرائط ما له دخل فى تحقق هذه الرحمة ينبغى أن تؤخذ بعين الإعتبار.

و على كلّ حال لو أن المسلمين اليوم جعلوا الآية الحاضرة شعارهم و منهجهم فى حياتهم اليومية و طبقوا مفادها لانحل الكثير من مشاكلهم التى يعانون منها الآن بشدّة.

إن الضربات الموجعة التى يتلقاها الإسلام و المسلمون اليوم ليست- فى الحقيقة- إلّا بسبب تجاهل هذه التوصيات الإسلامية الأربع أو تناسيها كلّها أو بعضها.

و لو أنّ المسلمين أعادوا إلى نفوسهم روح الثبات و الاستقامة، و لو أنّهم ضاعفوا جهودهم فى مقابل مضاعفة الأعداء لجهودهم، و لو أنّهم- حسب ما فى هذه الآية- شددوا من مراقبتهم للثغور الجغرافية و الفكرية و الاعتقادية و حافظوا على حالة الاستعداد و التأهب الدائمة لمواجهة أى خطر داهم، أو أى عدوّ مباغت، و لو أنّهم- فوق كل هذا- تسلحوا بسلاح التقوى و الورع، أفرادا و جماعات، و طهروا بيئاتهم من أدران الفساد لضمنوا النصر و الظفر.

رباه، وفقنا جميعا للأخذ بتعاليم كتابك السماوى العزيز فى حياتنا، وجد علينا برحمتك الواسعة، و منّ علينا بلطفك، آمين يا أرحم الراحمين و يا ربّ العالمين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۳

سورة النّساء

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها مائة و ستّ و سبعون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۵

سورة النّساء قبل الخوض فى تفسير آيات هذه السورة يلزم أن نذكر للقارىء الكريم بعدّة نقاط هى:

۱- موضع نزول هذه السورة

كل آيات هذه السورة (باستثناء الآية ۵۸ حسب نقل بعض المفسرين) نزلت فى المدينة المنورة، و تقع من حيث ترتيب النّزول بعد سورة الممتحنة، لأنّ التّرتيب الفعلى للسّور القرآنية- كما نعلم- لا يطابق ترتيبها فى النزول، بمعنى أن كثيرا من السّور التى نزلت فى

مكّة تقع فى الترتيب الحاضر فى آخر القرآن الكريم، و كثيرا من السّور التى نزلت فى المدينة تقع فى أوائل القرآن.

على أنّنا قد نوهنا فى بداية المجلد الأوّل من هذه المجموعة التّفسيرية، بأنّ ثمّة دلائل تؤكد أن جمع السّور القرآنية على الشكل الفعلى قد تمّ فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه، و على هذا الأساس يكون النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمر بأن ترتب السّور على النحو الموجود الآن (بأن يكون أوّلها الحمد و آخرها النّاس) لأسباب مختلفة منها أهمية المواضيع التى تضمنتها السور، و الترتيب الطبيعى لهذه السور بدون أن يكون قد تغيّر من هذا الترتيب أو زيد أو نقص فى الحروف و الآيات و السور.

إنّ هذه السّورة تعتبر من حيث عدد الكلمات و الأحرف- أطول السور بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٧٦

سورة البقرة، و تحتوى على (١٧۶) آية، و تسمّى بسورة النساء نظرا لتضمنها أبحاثا كثيرة و حديثا مفصلا حول أحكام «المرأة» و حقوقها.

٢- محتويات هذه السورة:

هذه السّورة- كما قلنا- نزلت فى المدينة، بمعنى أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما كان مقبلا على تأسيس حكومة إسلامية و تكوين مجتمع إنسانى قويم، نزلت هذه السورة و هى تحمل جملة من القوانين التى لها أثر كبير فى إصلاح المجتمع، و إيجاد البيئة الاجتماعية الصالحة النقية.

و من ناحية أخرى فإنّ أكثر أفراد هذا المجتمع الجديد كانوا قبل ذلك من الوثنيين بما فيهم من لوثات الجاهلية و انحرافاتها و رواسبها، لذلك يتعين قبل أى شىء تطهير عقولهم، و تزكية أرواحهم و نفوسهم من تلك الرّواسب، و إحلال القوانين و البرامج اللازمة لإعادة بناء المجتمع محل تلك العادات و التقاليد الجاهلية الفاسدة.

و على العموم فإن المواضيع المختلفة التى تحدثت عنها هذه السّورة هى عبارة عن:

١- الدّعوة إلى الإيمان و العدالة، و قطع العلاقات الودّية بالأعداء الألداء، و الخصوم المعاندين.

٢- ذكر بعض قصص الأمم الماضية لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحة.

٣- العناية بالمحتاجين إلى الحماية مثل الأيتام، و بيان التعاليم اللازمة لصيانة حقوقهم.

۴- قانون الإرث و التوارث بنحو طبيعى و عادل فى قبال الكيفية القبيحة التى كان عليها وضع التوريث فى ذلك الزمان، حيث كان يحرم الضعفاء بحجج واهية، و أعذار غير وجيهة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٧٧

۵- القوانين المتعلقة بالزّواج و البرامج التى تصون العفاف العام.

۶- القوانين العامّة لحفظ الأموال العامّة.

٧- حفظ و تحسين حالة الوحدة الأساسية للمجتمع، أى العائلة.

٨- الحقوق و الواجبات الفردية المتقابلة فى المجتمع.

٩- التعريف بأعداء المجتمع الإسلامى و تحذير المسلمين منهم.

١٠- الحكومة الإسلامية و وجوب طاعة قائد هذه الحكومة.

١١- حثّ المسلمين على مجابهة الأعداء و جهادهم.

١٢- الكشف عن الأعداء و الخصوم الذين قد يتوسلون بالعمل السرى.

۱۳- أهمية الهجرة و وجوبها عند مواجهة مجتمع فاسد غير قابل للتأثير فيه و تغييره.

۱۴- البحث مجددا عن الإرث و نظام التوريث، و ضرورة تقسيم الثروات المكدسة بين الوارثين.

۳- فضل تلاوة هذه السّورة

عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما فى روايـة أنّه قال: «من قرأها (أى سورة النساء) فكأنّما تصدق على كلّ مؤمن ورث ميراثا، و أعطى من الأجر كمن اشترى محرّرا»[۳۳].

و من البيّن أنّ المقصود فى هـذه الروايـة و أمثالها ليس هو القراءة المجردة، بل تلك القراءة التى تكون مقدمة للفهم و الإدراك الذى هو بدوره مقدمة لتطبيق تعاليم هذه السّورة فى الحياة الفردية و الاجتماعية.

و من المسلم أن المسلمين لو استلهموا من مفاهيم هذه السورة فى حياتهم لنالوا كل هذا الأجر مضافا إلى النتائج الدنيوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَ نِساءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (۱)

التّفسير

مكافحة التّمييزات و الاستثناءات:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۷۸

يا أَيُّهَا النَّاسُ الخطاب فى الآية الأولى من هذه السّورة موجه إلى كافة أفراد البشـر، لأنّ محتويات هذه السورة- هى فى الحقيقة- نفس الأمور التى يحتاج إليها كل أفراد البشر فى حياتهم.

ثمّ إنّ الآية تدعو إلى التقوى باعتبارها أساسا لأىّ برنامج إصلاحى للمجتمع، فأداء الحقوق و التقسيم العادل للثروة، و حماية الأيتام، و رعاية الحقوق العائلية، و ما شابه ذلك كلها من الأمور التى لا تتحقق بدون التقوى، و لهذا تفتتح هذه السورة- التى تحتوى على جميع هذه الأمور- بالدعوة إلى التزام التقوى:

اتَّقُوا رَبَّكُمُ

و للتعريف باللّه الـذى يراقب كلّ أعمال الإنسان و تصـرفاته أشـير فى الآية إلى واحدة من صـفاته التى تعتبر أساسا للوحدة الاجتماعية فى عالم البشر: الَّذِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۹

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ.

و على هـذا الأسـاس لا مبرر للتمييز العنصرى، و اللغوى، و المحلى، و العشائرى و ما شابه ذلك ممّا يسبب فى عالمنا الرّاهن آلافا من المشاكل فى المجتمعات. و لا مجال لهـذه الأمور و ما يترتب عليها من الأمجاد الكاذبـة و التفوق الموهوم فى المجتمع الإسـلامى، لأنّ كافة البشر على اختلاف ألوانهم، و لغاتهم، و أقطارهم يرجعون إلى أب واحد و أمّ واحدة.

و تتّضـح أهميـة مكافحـة هـذا الأمر- أكثر فأكثر- إذا لاحظنا أنّ ذلك قـد تمّ فى زمن كان يعانى بقايا و رواسب نظام قبلى و عشائرى ظالم، و نعنى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

هذا و قد ورد نظير هذا التعبير فى موارد أخرى من القرآن الكريم أيضا، و سنشير إلى كل ذلك فى موضعه.

و الآن يجب أن نرى من هو المقصود من «نفس واحدة»؟

هل المراد من «نفس واحدة» هو شخص معين، أو أنه واحد نوعى (أى جنس المذكر)؟

لا شك أنّ ظاهر هذا التعبير هو الشـخص المعين، و الواحد الشخصـى، و هو إشارة إلى أوّل إنسان قد سمّاه القرآن الكريم ب «آدم» و يعتبره أبا البشر.

كما و قد عبر عن البشر ببنى آدم فى آيات كثيرة من القرآن الكريم.

فاحتمال أن يكون المراد من نفس واحدة هو الواحد النوعى بعيد عن ظاهر الآية جدّا.

ثمّ أنّ قوله تعالى: وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها قـد فهم منها بعض المفسـرين أن «حواء» قد خلقت من جسم آدم و استشـهدوا لذلك بروايات و أحاديث غير معتبرة تقول: إنّ حواء خلقت من أضلاع آدم (و هو أمر قد صرّح به فى سفر التكوين من التوراة أيضا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۰

لكن مع ملاحظـة سائر الآيات القرآنيـة يرتفع كلّ إبهام حول تفسير هـذه الآيـة، و يتضح أن المراد منها هو أن اللّه سـبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أى جنس البشـر) ففى الآيـة (۲۱) من سورة الروم نقرأ وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها كما نقرأ: فى الآية (۷۲) من سورة النّحل وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً.

و من الواضح أنّ معنى قوله تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً هو أنّه خلقهم من جنسكم لا أنّه خلقهن من أعضاء جسمكم.

و وفقا لروايـة منقولـة عن الإمام محمّـد الباقر عليه السّـلام كما فى تفسير العياشـى- أنه كذّب بشدّة فكرة خلق حواء من ضـلع آدم، و صرح عليه السّلام- بأنه خلقت من فضل الطينة التى خلق منها آدم.

كيف كان زواج أبناء آدم؟:

قال سـبحانه: وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَ نِساءً هـذه العبارة يسـتفاد منها أنّ انتشار نسل آدم، و تكاثره قد تمّ عن طريق آدم و حواء فقط، أى بدون أن يكون الموجود ثالث أى دخالة فى ذلك.

و بعبارة أخرى أنّ النسل البشرى الموجود إنّما ينتهى إلى آدم و زوجته من غير أن يشاركهما فى ذلك غيرهما من ذكر أو أنثى.

و هـذا يسـتلزم أن يكون أبناء آدم (أخوة و أخوات) قد تزاوجوا فيما بينهم، لأنه إذا تمّ تكثير النسل البشـرى عن طريق تزوجهم بغيرهم لم يصدق و لم يصح قوله: «منهما».

و قـد ورد هـذا الموضوع فى أحـاديث متعـددة أيضـا، و لاـ داعى للتعجب و الاسـتغراب إذ طبقـا للاسـتدلال الـذى جاء فى طائفـة من الأحـاديث المنقولة عن أهل البيت عليهم السّلام إنّ هذا النوع من الزواج كان مباحا حيث لم يرد بعد حكم بحرمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۱

«تزوج الأخ بأخته».

و من البديهى أن حرمة شىء تتوقف على تحريم اللّه سبحانه له، فما الذى يمنع من أن توجب الضرورات الملحة و المصالح المعينة أن يبيح شيئا فى زمان، و يحرمه بعد ذلك فى زمن آخر.

غير أنّه قد صرّح فى أحاديث أخرى بأن أبناء آدم لم يتزوجوا بأخواتهم، و تحمل بشدّة على من يرى هذا الرأى و يذهب هذا المذهب.

و لو كان علينا عند تعارض الأحاديث أن نرجح ما وافق منها ظاهر القرآن لوجب أن نختار الطائفة الأولى، لأنّها توافق ظاهر الآية الحاضرة كما عرفت قبل هذا.

ثمّ أنّ هاهنا احتمالا آخر يقول: إن أبناء آدم تزوجوا بمن تبقى من البشر الذين سبقوا آدم و نسله، لأن آدم- حسب بعض الروايات- لم يكن أوّل إنسان سكن الأرض.

و قد كشفت الدراسات و التحقيقات العلمية اليوم أن النوع الإنسانى كان يعيش فى الأرض منذ عهد ضارب فى القدم، فى حين لم يمر على تاريخ ظهور «آدم» فى الأرض زمن طويل، فلا بدّ إذن من القبول النظرية التى تقول: بأنّه كان يعيش فى الأرض قبل آدم بشر آخرون قارن غياب آخر بقاياهم ظهور آدمنا، فما المانع من أن يكون «أبناء آدم» قد تزوجوا ببقايا النوع البشرى السابق الذى كان فى أواخر انقراضه؟

و لكن هذا الاحتمال هو أيضا لا يتوافق و ظاهر الآية الحاضرة (و هذا البحث يحتاج إلى توسع أكثر لا يسعه هذا المجال).

الدّعوة إلى العناية بالرّحم:

بعد ذكر ما بين أبناء النوع الإنسانى من وشيجة القربى قال سبحانه: وَ اتَّقُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۲

اللَّهَ الَّذِی تَسائَلُونَ ۳۴] بِهِ وَ الْأَرْحامَ

إنّ أهمية التقوى، و دورها فى بناء قاعدة المجتمع الصالح سببت فى أن تذكر مجددا فى نهاية الآية الحاضرة، و أن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غاية الأمر أنه تعالى أضاف إليها جملة أخرى إذ قال: اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی تَسائَلُونَ بِهِ أى اتقوا اللّه الذى هو عندكم عظيم، و تذكرون اسمه عند ما تطلبون حقوقكم و حوائجكم فيما بينكم.

ثمّ أنّه يقول: «و الأرحام» و هو عطف على «اللّه»، و لهذا كانت القراءة المعروفة هى نصب «و الأرحام» فيكون معناها: و اتقوا الأرحام، و لا تقطعوا صلاتكم بهم.

إنّ ذكر هذا الموضوع هنا يدل أوّلا على الأهمية الفائقة التى يعطيها القرآن الكريم لمسألة الرحم و وشيجة القربى إلى درجة أنّه يذكر اسم الأرحام بعد ذكر اسم اللّه سبحانه، و هو إشارة- ثانيا- إلى الأمر الذى ذكر فى مطلع الآية، و هو أنكم جميعا من أب واحد و أمّ واحدة، و هذا يعنى- فى الحقيقة- أنّ جميع أبناء آدم أقرباء و أرحام، و هذا الارتباط و الترابط يستوجب أن يتحاب الجميع و يتوادوا دون تفريق أو تمييز بين عنصر و آخر، و قبيلة و أخرى، تماما كما يتحاب أفراد القبيلة الواحدة.

ثمّ يختم الآية بقوله: إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلَيْکُمْ رَقِيباً.

و الرقيب أصله من الترقب، و هو الانتظار من مكان مرتفع، ثمّ استعمل بمعنى الحافظ و الحارس، لأن الحراسة من لوازم الترقب و النظارة.

و ارتفاع مكان الرقيب قد يكون من الناحية الظاهرية بكون الرقيب يرقب على مكان مرتفع، و يمارس النظارة من ذلك الموقع، و قد يكون من الناحية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۳

المعنویة.

یقول سبحانه: إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلَیْکُمْ رَقِیباً أی أنّه یحصی علیکم نیاتکم و أعمالکم، و یعلم بها و یراها جمیعا، کما أنه هو الذی یحفظکم أمام الحوادث (و التعبیر ب «کان» المفید للماضی، إنّما هو للتأکید).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۴

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۲]

اشارة

وَ آتُوا الْیَتامی أَمْوالَهُمْ وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِیثَ بِالطَّیِّبِ وَ لا تَأْکُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلی أَمْوالِکُمْ إِنَّهُ کانَ حُوباً کَبِیراً (۲)

سبب النّزول

روی أنّ رجلا- من بنی غطفان کان معه مالا- کثیر لابن أخ له یتیم، فلما بلغ الیتیم طلب ماله فمنعه عنه، فخاصمه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فنزلت: وَ آتُوا الْیَتامی أَمْوالَهُمْ ... فلما سمع الغطفانی ذلک ارتدع و قال: أعوذ باللّه من الحوب الکبیر[۳۵].

التّفسیر

لا ... للخیانة فی أموال الیتامی:

کثیرا ما یحدث فی المجتمعات البشریة أن یفقد أطفال صغار ءاباءهم بسبب الحوادث و النکبات و الکوارث، فتلک حالة کثیرا ما تقع، فإن المجتمعات المریضة التی تعانی من صراعات و حروب و نزاعات داخلیة مستمرة مثل المجتمع الجاهلی العربی یقع فیها هذا الأمر بنسبة أکبر، و لذلک یکثر فیها عدد الأیتام، و هو ما یجب أن تهتمّ به الحکومة الإسلامیة، بل و یهتمّ به کل المسلمین،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۵

فیتکفّلوا أمر الیتامی و شؤونهم.

و فی هذه الآیة ثلاثة تعالیم بشأن أموال الیتامی.

۱- وَ آتُوا الْیَتامی أَمْوالَهُمْ أی یجب أن تعطوا الیتامی عند رشدهم أموالهم المودعة عندکم، و یکون تصرفکم فی هذه الأموال علی نحو تصرف الأمین و النّاظر و الوکیل لا علی نحو تصرّف المالک.

۲- وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِیثَ بِالطَّیِّبِ أی لا تأخذوا أموالهم الطّیبة و ثرواتهم الجیدة و تضعوا بدلها من أموالکم الخبیثة و المغشوشة و هذا التعلیم- فی الحقیقة- یهدف إلی المنع ممّا قد یرتکبه بعض القیمین علی أموال الیتامی من أخذ الجید من مال الیتیم و الرفیع منه و جعل الخسیس و الردیء مکانه، بحجّة أن هذا التبدیل یضمن مصلحة الیتیم، أو لأنّه لا تفاوت بین ماله و البدیل، أو لأن بقاء مال الیتیم یؤول إلی التلف و الضیاع و غیر ذلک من الحجج و المعاذیر.

۳- وَ لا- تَأْکُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلی أَمْوالِکُمْ یعنی لا- تخلطوا أموال الیتامی مع أموالکم بحیث تکون نتیجتها تملک الجمیع، أو أنّ المراد لا تخلطوا الجید من أموالهم بالردی من أموالکم بحیث تکون نتیجتها الإضرار بالیتامی و ضیاع حقوقهم، و لفظة «إلی» فی العبارة بمعنی

(مع) فى الحقيقة.

ما ذا يعنى الحوب؟:

ثمّ إنّه سبحانه، لبيان أهمية هذا الموضوع و التأكيد عليه يختم الآية بقوله:

إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً.

يقول الرّاغب فى مفرداته: «الحوبة حقيقتها هى الحاجة التى تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم» و حيث أن العدوان على أموال اليتامى ينشأ- فى الأغلب- من الحاجة، أو بحجّة الحاجة استعمل القرآن الكريم مكان لفظة الإثم فى هذه الآية لفظة «الحوب» للإشارة إلى هذه الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۶

إنّ ملاحظة الآيات القرآنية المختلفة- فى هذا المجال- تكشف عن أن الإسلام يولى هذا الموضوع أهمية كبرى، و يهدد الخائنين فى أموال اليتامى بالعقوبات الشديدة، و يدعو القيمين على اليتامى بكلمات صريحة و جازمة إلى مراقبة أموالهم و المحافظة عليها مراقبة شديدة، و محافظة بالغة، و سيأتى تفصيل كلّ هذا فى نفس هذه السورة فى الآيات القادمة، و فى ذيل الآيات (۱۵۲) من سورة الأنعام، و (۳۴) من سورة الإسراء.

إنّ اللهجة القوية التى اتسمت بها هذه الآيات قد تركت من التأثير البالغ فى نفوس المسلمين بحيث خافوا أن يخالطوا اليتامى و أن يشتركوا معهم فى الطعام، و لهذا كانوا يهيئون طعاما خاصّا لأنفسهم و لأولادهم، و طعاما مستقلا لليتامى و لا يخالطون طعام اليتامى بطعامهم خشية الإجحاف بهم، و قد شقّ هذا على الجميع- اليتامى و الأولياء- و لهذا أمرهم سبحانه فى الآية (۲۲۰) من سورة البقرة قائلا وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ أى إن كان فى مخالطتهم لطعام اليتيم بطعامهم خير و مصلحة لليتيم فلا بأس ۳۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳]

اشارة

وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلاَّ تَعُولُوا (۳)

سبب النّزول

لقد نقل لهذه الآية سبب نزول خاص، فقد كان المتعارف فى العهد الجاهلى قبل الإسلام أن يتكفل أغلب الناس فى الحجاز أمر اليتيمات، ثمّ يتزوجون بهنّ، ثمّ يمتلكون أموالهنّ، و ربما ينكحوهنّ بدون صداق أو بصداق أقل من شأنهنّ، بل و ربّما يتركوهنّ لأدنى سبب أو كراهية بكل سهولة، و بالتالى لم يكونوا يعطونهنّ ما يليق بهنّ- كزوجات- بل و حتى كبقية النساء العاديات- من الاحترام و المكانة، فنزلت هذه الآية توصى أولياء اليتيمات إذا أرادوا الزواج بهنّ أن يلاحظوا جانب العدل معهن، و إلّا فليختاروا الأزواج من غيرهنّ ۳۷].

يقول سبحانه فى هذه الآية: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ و قد جاء هذا

الکلام بعد ما جاء فی الآیة السابقة من الحث علی حفظ أموال الیتامی من التلف و عدم التفریط فیها،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۸

فجاءت هذه الآیة لتنوه بحق آخر من حقوقهم، و هو هذه المرّة یتعلق بالیتیمات خاصّة.

التّفسیر

اشارة

بملاحظة ما ذکرناه فی سبب النزول یتّضح تفسیر هذه الآیة و المراد منها، کما یتّضح الجواب أیضا علی السؤال المطروح هنا، و هو: لما ذا تبتدئ الآیة بذکر الیتامی، و تنتهی بمسألة الزواج، و یرتفع ما قد یتوهم من المنافاة بین تلک البدایة، و هذه النهایة، فالبدایة و النهایة کلتاهما تتعلقان بمسألة الزواج، غایة ما فی الباب أنّ الآیة تقول: إذا لم یمکنکم الزواج بالیتیمات و معاشرتهنّ علی أساس من العدل و القسط فالأفضل أن تترکوا الزواج بهنّ، و تتزوجوا بغیرهنّ من النساء تجنبا لظلم الیتیمات و الإجحاف بحقوقهنّ، و الجور علیهنّ.

فالذی یستفاد من ذات الآیة- و إن اختلفت و جهات نظر المفسرین و کثرت أقوالهم و تعددت فی المراد منها- هو ما ذکرناه فی سبب النزول، و هو أن الخطاب موجه إلی أولیاء الیتیمات اللاتی جاء الحثّ فی الآیة السابقة علی حفظ أموالهنّ ضمن الیتامی.

فهذه الآیة تعلیم آخر و وصیة أخری بهم، و لکنّها هذه المرّة تتعلق بمسألة الزواج بالیتیمات، و إن علی أولیائهنّ أن یعاملوهنّ فی مسألة الزواج علی أساس من العدل و القسط کما یعاملونهنّ فی مسألة المال، فعلیهم أن یراعوا فی أمر الزواج مصلحة الیتیمة، و إلّا فمن الأحسن أن یدعوا الزواج بهنّ، و یختاروا الأزواج من غیرهنّ من النساء.

هذا و ممّا یؤید و یوضح هذا التّفسیر ما جاء فی الآیة (۱۲۷) من نفس هذه السّورة[۳۸] حیث حثّ سبحانه علی التزام العدل فی الزواج بالیتیمات، و سیأتی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۹

تفصیل ذلک فی محله.

کما أن ثمّة أحادیث نقلت فی الکتب المختلفة تشهد بهذا الاتجاه، و تؤید هذا التّفسیر[۳۹] و ما نقل عن الإمام علی علیه السّلام من الأخبار بسقوط أو حذف شیء کثیر من القرآن بین مطلع هذه الآیة، و نهایتها غیر معتبر من حیث السند أصلا، فهذه الأحادیث و ما یشابهها من الأحادیث التی تدل علی حذف شیء من الآیات القرآنیة و إسقاطها أو وقوع التحریف فیه إمّا أنّها من موضوعات أعداء الإسلام و خصومه و المنافقین بغیة الحط من اعتبار القرآن و أهمیته و مکانته، و إمّا لأنّها ناشئة من عجز البعض عن التوفیق بین صدر الآیة و ذیلها و فهم الارتباط الطبیعی بینهما، و لهذا توهّموا بأنّ هناک حذفا و إسقاطا و قد تطور هذا الوهم حتی اتّخذ صورة الحدیث المروی و الخبر المنقول، فی حین یتّضح الارتباط الوثیق بین هذه الجمل و العبارات بالتأمل و التدبر و الإمعان.

«مثنی» و «ثلاث» و «رباع»:

و تعنی «مثنی» فی اللّغة اثنتین اثنتین، و «ثلاث» ثلاثا ثلاثا، و «رباع» أربعا أربعا، و حیث أنّ الخطاب فی هذه الآیة موجّه إلی المسلمین کافة، کان المعنی: إن علیکم أن تنصرفوا عن الزواج بالیتیمات تجنبا من الجور علیهنّ، و أن تتزوجوا بالنساء اللاتی لا تسمح مکانتهنّ

الاجتماعية و العائلية بأن تجوروا عليهنّ، و تظلموهنّ، و يجوز لكم أن تتزوجوا منهنّ باثنتين أو ثلاث أو أربع، غاية ما فى الأمر حيث أنّ الخطاب هنا موجّه إلى عامّة المسلمين، و كافتهم عبر بالمثنى، و الثلاث، و الرّباع إذ لا شك فى أن تعدد الزوجات- بالشروط الخاصّة- لا يشمل أكثر من أربع نساء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۰

و لا بدّ من التنبيه إلى أن «الواو» هنا أتت بمعنى «أو»، فليس معنى هذه الجملة هو أنّه يجوز لكم أن تتزوجوا باثنتين و ثلاث و أربع ليكون المجموع تسع زوجات، لأن المراد لو كان هذا لوجب أن يذكر ذلك بصراحة فيقول: و انكحوا تسعا لا أن يذكره بهذه الصورة المتقطعة المبهمة.

هذا مضافا إلى أنّ حرمة الزّواج بأكثر من أربع نسوة من ضروريات الفقه الإسلامى، و أحكامه القطعية المسلمة.

و على كلّ حال فإنّ الآية الحاضرة دليل صريح على جواز تعدد الزوجات.

طبعا بشروطها التى سنذكرها قريبا.

ثمّ أنّه سبحانه عقب على ذلك بقوله: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أى التزوج بأكثر من زوجة إنّما يجوز إذا أمكن مراعاة العدالة الكاملة بينهنّ، أمّا إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهن، فاكتفوا بالزوجة الواحدة لكى لا تجوروا على أحد.

ثمّ يقول: أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ أى يجوز أن تقتصروا على الإماء اللاتى تملكونهنّ بدل الزوجة الثانية لأنهنّ أخف شروطا (و إن كن يجب أن يحظين و يتمتعن بما لهنّ من الحقوق أيضا).

و يقول: ذلِكَ أَدْنى أَلَّا تَعُولُوا أى أن هذا العمل (و هو الاقتصار على زوجة واحدة أو الاقتصار على الإماء و عدم التزوج بزوجة حرّة ثانية) أحرى بأن يمنع من الظلم و الجور، و يحفظكم من العدوان على الآخرين (و سيكون لنا حديث مفصل عن الرّق فى الإسلام عند تفسير الآيات المناسبة إن شاء اللّه).

ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟:

قبل الخوض فى بيان فلسفة تعدد الأزواج فى الشريعة الإسلامية يجب أن يتّضح أوّلا المراد من العدل بين الأزواج الذى هو من شروط جواز التعدد، فما هو المقصود من العدل هنا يا ترى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۱

أ هى العدالة فى الجوانب المادية كالمضاجعة و توفير وسائل العيش و تحقيق الرّفاه و المتطلبات المعيشية؟ أم أنّ المراد أيضا هو العدالة فى نطاق القلب و العواطف و الأحاسيس الإنسانية؟ و بعبارة صريحة: العدالة فى الحبّ و الرغبة، مضافا إلى العدالة فى الجوانب المادية؟

لا شكّ أنّ مراعاة العدالة فى الميل القلبى، و الحبّ، و الرغبة شىء خارج عن نطاق القدرة البشرية.

فمن ذا يستطيع أن يضبط حبّه من جميع الجوانب، و يعطيه الحجم الذى يريد، و الحال أنّ موجباته و عوامله خارجة عن نطاق قدرته، و إطار إرادته؟

و لهذا لم يوجب سبحانه مراعاة مثل هذه العدالة حيث قال سبحانه فى الآية ۱۲۹ من نفس هذه السّورة- النساء: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ أى لا يمكنكم مهما أردتم أن تعدلوا بين الأزواج فى الميل القلبى، و الحبّ و المودّة.

إذن فلا ضير فى الحبّ و الميل القلبى الذى لا يوجب تفضيل بعض الأزواج فى المواقف العملية، و على هذا الأساس فإن ما يجب على الرجل مراعاته هو العدالة بين أزواجه فى الجوانب العملية الخارجية أى فى نوع التعامل العملى خاصّة إذ يستحيل مثل هذه

المراعاة فی المجال العاطفی.

من هذا الکلام یتّضح بجلاء إن الذین أرادوا من ضمّ قوله تعالی: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً إلی قوله تعالی فی الآیة (۱۲۹): وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ أن یستنتجوا حرمة تعدد الأزواج مطلقا بحجّة استحالة مراعاة العدالة بینهن قد وقعوا فی خطأ کبیر، لأن العدالة المستحیلة مراعاتها- کما أسلفنا- هی العدالة فی المجال العاطفی،- و لیس هذا من شرائط جواز التعدد فی الأزواج، بل إن من شرائط جوازه هو مراعاة العدالة فی المجال العملی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۲

و یشهد بذلک ما جاء فی ذیل الآیة (۱۲۹) من نفس هذه السّورة حیث یقول سبحانه: فَلا تَمِیلُوا کُلَّ الْمَیْلِ فَتَذَرُوها کَالْمُعَلَّقَةِ أی أنّکم إذ لا- تقدرون علی مراعاة المساواة الکاملة فی محبّة الزوجات و ودّهنّ، فلا- أقل أن لا تمیلوا فی حبّ بعض الأزواج میلا شدیدا یحملکم علی أن تذروا التی لا تمیلون إلیها، فلا هی ذات زوج و لا أیم.

و خلاصة القول و نتیجته، هی أن الذین أمسکوا بقسم من هذه الآیة، و نسوا القسم الآخر و تورطوا فی رفض تعدد الزوجات فی خطأ یدهش کل محقق، و یستغرب منه کل باحث.

أضف إلی ذلک أن مسألة جواز تعدد الأزواج بشرائطها علی درجة من الثبوت و الوضوح فی الفقه الإسلامی و مصادره الشیعیة و السنیة بحیث لا یبقی مجال للجدل، و لا محل للنقاش، بل هو من ضروریات الفقه الإسلامی و مسلماته، و بدیهیاته. و لنعطف عنان البحث الآن إلی معرفة فلسفة هذا القانون الإسلامی.

تعدد الزّوجات ضرورة اجتماعیة:

لقد أجازت الآیة الحاضرة تعدد الزوجات (و لکن بشرائط ثقیلة و فی حدود معینة) و قد أثارت هذه الإباحة جماعة، فانطلقوا یوجهون إلیها الاعتراضات و الإشکالات، و تعرض هذا القانون الإسلامی لهجمة کبیرة من المعارضین الذین تسرعوا فی إصدار الحکم عن هذا القانون الإسلامی متأثرین بالأحاسیس، و دون أن یتناولوه بالدرس و التمحیص، و التأمل و التحقیق. و کان الغربیون أکثر هذه الجماعة معارضة لهذا القانون و هجوما علیه، متسائلین کیف یجوز للإسلام أن یسمح للرجال أن یقیموا لأنفسهم حریما و یتخذوا زوجات متعددة علی نحو ما کان شائعا فی الجاهلیة؟

الأمثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۳

کلّا، إنّ الإسلام لم یسمح لأحد بأن یقیم حریما بالمعنی الذی تصورتم، و لا أنّه أباح تعدد الزوجات دون قید أو شرط، و دون حدّ أو قانون.

و لتوضیح هذه الحقائق نقول: إن دراسة البیئات المختلفة قبل الإسلام تکشف لنا أنّ تعدد الزوجات دونما عدد معین کان أمرا عادیا و شائعا، لدرجة أنّ بعض الوثنیین أسلموا و تحت الرجل منهم عشر زوجات أو أقل، من هنا لم تکن مسألة تعدد الزّوجات ممّا أبدعه الإسلام، نعم إنّ ما فعله الإسلام هو وضع هذا الأمر فی إطار الحاجة و الضرورة الحیویة الإنسانیة، و تقییده بطائفة من القیود و الشروط الثقیلة.

إنّ قوانین الإسلام و تشریعاته تدور علی محور الحاجات الإنسانیة، و تقوم علی أساس مراعاة الضرورات الحیویة فی دنیا البشر، لا الدعایة الظاهرة و لا المشاعر الموجهة توجیها غیر صحیح، و مسألة تعدد الزوجات من هذا القبیل أیضا، فقد لوحظت هی الاخری من هذه الزاویة، لأنّه لا- أحد یمکنه أن ینکر أنّ الرجال أکثر تعرضا من النساء لخطر الفناء و الموت بسبب کثرة ما یحیط بهم من الحوادث، المختلفة.

فالرجال یشکلون القسم الأکبر من ضحایا الحروب، و المعارک.

کما أنّه لا یمکن إنکار أنّ أعمار الرجال من الناحیـة الجنسیـة أطول من أعمار النساء فی هذا المجال، فالنساء یفقدون القدرة الجنسیـة (و القدرة علی الإنجاب) فی سن معین من العمر قریب، فی حین یبقی الرجال متحفظین بهذه الطاقة و القدرة مدّة أطول بکثیر.

کما أنّ النساء- فی فترة العادة الشـهریة و شـیء من فترة الحمل- یعانین من موانع جنسیة بصورة عملیة فی حین لا یعانی الرجل من أی مانع جنسی من هذا النوع.

هذا کلّه مضافا إلی أن هناک نساء یفقدون أزواجهنّ لبعض الأسباب، فلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۴

یتیسر لهن أن یجلبن اهتمـام نظر الرجال إلی أنفسـهن کزوجـة أولی، فإذا لم یسـمح بتعـدد الزوجات، وجب أن تبقی تلک النسوة بلا أزواج، کما نقرأ ذلک فی الصـحف المختلفة حیث یشـکو هذا النوع من النساء الأرامل من صـعوبات الحیاة و مشکلات العیش بسبب تحدید مسألة تعدد الأزواج أو إلغائها بالمرّة، و حیث یعتبرن المنع من التعدد نوعا من القوانین الظالمة الجائرة و المعادیة لهنّ.

بالنظر إلی هذه الحقائق، و عند ما یضطرب التوازن بین عدد النساء و الرجال نجد أنفسنا مضطرین لأن نختار أحد طرق ثلاث هی:

۱- أن یقنـع کـل رجـل بزوجـة واحـدة فقـط فی جمیع الحالاـت و المـوارد، و یبقی العـدد الإضـافی مـن النسـاء بلاـ أزواج إلی آخر أعمارهن، و یکبتن حاجاتهنّ الفطریة و یقمعن غرائزهنّ الباطنیة الملتهبة.

۲- أن یتزوج الرجـل بـامرأة واحـدة بصورة مشـروعة ثمّ یترک حرّا لإقامـة علاقـات جنسیـة مع من شاء و أراد من النساء اللائی فقـدن أزواجهن لسبب و آخر علی غرار اتّخاذ الأخدان و العشیقات.

۳- أن یسـمح لمن یقدر أن یتزوج بأکثر من واحدة و لا یقع فی أیة مشـکلة من الناحیة «الجسمیة» و «المالیة» و «الخلقیة» من جراء هذا الأمر، کما و یمکنه أن یقیم علاقات عادلة بین الزوجات المتعددة و أولادهن، أن یسمح لهم بأن یتزوجوا بأکثر من واحدة (علی أن لا یتجاوز عدد الأزواج أربعا)، و هذه هی ثلاث خیارات و طرق لا رابع لها.

و إذا أردنا اختیار الطریق الأوّل یلزم أن نعادی الفطرة و الغریزة البشـریة، و نحارب جمیع الحاجات الروحیـة و الجسـمیة لدی البشـر، و نتجاهل مشاعر هـذه الطّائفـة من هذه النّسوة، هذه الحرب و المعرکة التی لن یکون فیها أی انتصار، و حتی لو نجح هذا الطرح و کتب له التوفیق، فإن ما فیها من الجوانب اللاإنسانیة أظهر من أن تخفی علی أحد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۵

و بعبارة أخری أن تعدد الزوجات فی الموارد الضـروریة یجب أن لا ینظر إلیه أو یدرس من منظار الزوجة الأولی، بل یجب أن یدرس من منظار الزوجة الثانیة أیضا.

إنّ الـذین یعالجون هـذه المسألـة و ینظرون إلی خصوص مشاکل الزوجـة الأولی فی صورة تعدد الزوجات هم أشـبه بمن یطالع مسألة ذات زوایـا ثلاـث من زاویـة واحـدة، لأـن مسألـة تعـدد الزوجات ذات ثلاث زوایا، فهی یجب أن تطالع من ناحیـة الرجل، و من ناحیة الزوجـة الأولی، و من ناحیـة الزوجـة الثانیة أیضا، و یجب أن یکون الحکم بعد ملاحظة کل هذه الزوایا فی المسألة، و یتمّ علی أساس مراعاة مصلحة المجموع فی هذا الصعید.

و إذا اخترنا الطریق الثانی وجب أن نعترف بالفحشاء و البغاء بصورة قانونیة، هذا مضافا إلی أن النساء العشـیقات اللائی یجعلن أنفسهنّ فی متناول هؤلاء الرجال لإرواء حاجتهم الجنسیـة یفتقدن کل ضـمانة و کل مستقبل، و یعنی ذلک سحق شخصیتهنّ سحقا کاملا- فی الحقیقة- إذ یصبحن حینئذ مجرد متاع یقتنی عند الحاجة و یترک عند ارتفاعها دون التزام و مسئولیة، و لا شک أن هذه الأمور ممّا لا یسمح به أی عاقل مطلقا.

و علی هـذا الأساس لا یبقی إلّا الطریق الثالث، و هو الطریق الـذی یلبی الحاجات الفطریة و الغریزیة للنساء، کما أنه یجنب هذه الطائفة

من النساء و يحفظهنّ من عواقب الفحشاء و الانزلاق إلى الفساد، و بالتالى ينقذ المجتمع من مستنقع الآثام و الذنوب.

على أن من الواجب أن نلتفت إلى أنّ السماح بتعدد الزوجات مع أنّه ضرورة اجتماعية فى بعض الموارد و مع أنّه من أحكام الإسلام القطعية، إلّا أن توفير شرائطه يختلف اختلافا كبيرا عن الأزمنة الماضية، لأن الحياة كانت فى العصور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۶

السابقة ذات نمط بسيط و مواصفات سهلة، و لهذا كانت رعاية المساواة و العدالة بين الزوجات المتعددات أمرا ممكنا و ميسرا لأكثر الناس، فى حين يجب على الذين يريدون الأخذ بهذا القانون الإسلامى فى هذا العصر أن يراعوا مسألة العدالة من جميع الجوانب، و أن يقدموا على هذا الأمر إذا كانوا قادرين على الوفاء بجميع شروطه.

و بالجملة يجب أن لا يقدم أحد على هذا العمل بدافع الهوى و الهوس.

هذا و الملفت للنظر هنا هو أن الذين يعارضون مبدأ تعدد الزوجات (كالغربيين) قد واجهوا طوال تأريخهم ظروفا ألجأتهم إلى هذا المبدأ بصورة واضحة.

ففى الحرب العالمية الثانية برزت حاجة شديدة فى البلاد التى تعرضت لويلات الحرب هذه و بالأخص ألمانيا، إلى هذا الموضوع مما دفع بطائفة من المفكرين فى سياق البحث عن حلّ لهذه المشكلة إلى إعادة النظر فى مسألة المنع عن تعدد الزوجات، إلى درجة أنّهم طلبوا من الجامع «الأزهر» بالقاهرة البرنامج الإسلامى حول تعدد الزوجات للدراسة، و لكنهم اضطروا- و تحت ضغوط شديدة من جانب الكنائس- إلى التوقف عن المضى فى دراسة هذا البرنامج، و كانت النّتيجة هو تفشى الفحشاء و الفساد الجنسى الشديدين فى جميع البلاد التى تعرضت للحرب و ويلاتها.

هذا بغض النظر عن أنّه لا يمكن إنكار ما يحس به طائفة من الرجال من الميل إلى اتّخاذ زوجات متعددة، فإن كان هذا الميل و الرغبة ناشئين من الهوى و الهوس لم يكن جديرا بالنظر، أمّا إذا كانا ناشئين عن عقم الزوجة عن إنجاب الأولاد من جانب، و رغبة الرجل الشديدة فى الحصول على أبناء له- كما هو الحال فى كثير من الموارد- من جانب آخر، فهو ميل و رغبة منطقيان و جديران

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۷

بالاهتمام و الرعاية.

كما أنّه لو كانت الرغبة فى تعدد الزوجات ناشئة من الميل الجنسى الشديد لدى الرجل و عدم قدرة الزوجة الأولى على تلبية هذا الميل كما ينبغى، و لهذا يرى الرجل نفسه مضطرا إلى اتخاذ زوجة ثانية حتى لا يقدم على إشباع هذه الحاجة من طريق غير مشروع لإمكان إشباعه من طريق مشروع، و فى هذه الصورة أيضا لا يمكن إنكار منطقية هذا الميل لدى الرجل، و لهذا تكون إقامة العلاقات مع النساء المتعددات أمرا رائجا عمليا حتى فى البلاد التى تحظر تعدد الزوجات، فيعقد الرجل الواحد علاقات غير مشروعة مع نساء عديدات.

إن المؤرخ الفرنسى المعروف «غوستاف لوبون» يعتبر قانون تعدد الزوجات الذى يقرّه الإسلام ضمن حدود و شروط خاصّة- من مزايا هذا الدين، و يكتب عند المقارنة بينه و بين طريقة العلاقات الجنسية الحرّة غير المشروعة الرائجة فى الغرب قائلا: «و فى الغرب حيث الجو و الطبيعة لا يساعدان على تعدد الزوجات، و برغم أنّ القوانين الغربية تمنع التعدد، و لكن الغربيين قلما تقيدوا بهذه القوانين و خرقوها بعلاقاتهم السرّية الآثمة.

و لا أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعى عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السرى عند الأوروبيين، بل أرى ما يجعله أسنى منه»[۴۰] طبعا لا- يمكننا إنكار أنّ هناك بعض أدعياء الإسلام ممن يستخدمون هذا القانون الإسلامى من دون مراعاة الروح الإسلامية فيه فيتخذون حريما كلّه فساد و فجور و يتعدون على حقوق أزواجهم، بيد أنّ هذا ليس هو عيب فى هذا القانون الإسلامى و لا يجوز اعتبار أعمالهم القبيحة و أفعالهم الرخيصة هذه من الإسلام، فهى ليست من أحكام الإسلام فى شىء. ترى أى

حكم أو قانون جيد

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۸

من الأحكام و القوانين لم يستغله النفعيون و المصلحيون استغلالا سيئا؟

سؤال

ثمّ إنّ هاهنا من يسأل أنّه قد تتوفر الشرائط و الكيفيات المذكورة أعلاه بالنسبة إلى امرأة أو نساء، فهل يجوز أن نسمح لها أن تختار لنفسها زوجين كما نسمح للرجال ذلك؟

الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال ليس صعبا كما يمكن أن يتصور، و ذلك:

أوّلا: إنّ الرغبة الجنسية لدى الرجال (على خلاف ما هو شائع بين السواد من الناس) أقوى و أشدّ بأضعاف من النساء، و أن المرض النفسى الذى تصرّح به أكثر الكتب النفسية و الطبية هو «البرود الجنسى» لدى المرأة فى حين أن الأمر فى الرجال هو العكس، و لا يقتصر هذا الأمر على البشر، ففى عالم الحيوانات كذلك نجد ذكورها أسبق إلى إظهار الميول الجنسية من إناثها.

ثانيا: إنّ تعدد الزوجات للرجال لا ينطوى على أية مشاكل اجتماعية و حقوقية، فى حين أنّ السماح بتعدد الأزواج للنساء (أى لو أنّنا سمحنا لامرأة أن تتزوج برجلين) يسبب مشاكل كثيرة أبسطها هو ضياع النسب، إذ لا يعرف فى هذه الصورة إلى من ينتسب الولد، و لا شك أن مثل هذا الولد المجهول الأب لن يحظى باهتمام أى واحد من الرجال، بل و يعتقد بعض العلماء أن الولد المجهول الأب قلّما يحظى حتى بحبّ الأمّ و اهتمامها به، و بهذه الصورة يصاب الولد الناشئ من مثل المرأة ذات الزوجين بحرمان مطلق من الناحية العاطفية، كما أنّه يكون- بطبيعة الحال- مجهول الحال من الناحية الحقوقية أيضا.

و لعلّه لا يحتاج إلى التذكير بأن التوسل بوسائل منع الحمل للحيلولة دون انعقاد النطفة، و حصول ولد لا يورث الاطمئنان مطلقا، و لا يكون دليلا قاطعا

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۹

على عدم حمل الزوجة بولد، لأن ثمّة كثيرا من النساء يستخدمن هذه الوسائل، أو يخطئن فى استخدامها فيلدن و ينجبن أولادا، و لهذا لا يمكن لأية امرأة أن تسمح لنفسها بأن تتزوج بأكثر من رجل اعتمادا على هذه الوسائل.

لهذه الأسباب لا يمكن أن يكون السماح للمرأة بتعدد الأزواج أمرا منطقيا، فى حين أنّه بالنسبة للرجال- ضمن الشروط المذكورة سابقا- أمر منطقى، و عملى أيضا.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۰

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴]

اشارة

وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (۴)

التّفسير

اشارة

«النّحلة» فى اللغة تعنى الدّين، كما أنّها بمعنى العطية أيضا، يقول الرّاغب الأصفهانى فى مفرداته: «و اشتقاقه فيما أرى أنه من النحل نظرا منه إلى فعله فكان نحلته أعطيته النحل».

و «صدقاتهن» جمع الصداق و هى بمعنى المهر ...

و الآية الحاضرة التى جاءت بعد البحث المطروح فى الآية السابقة حول انتخاب الزّوجة تتضمن إشارة إلى إحدى حقوق النساء المسلّمة، و تؤكّد قائلة:

وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً أى أعطوا المهر للزوجة كمّلا و اهتموا بذلك كما تهتمون بما عليكم من ديون فتؤدونها كاملة دون نقص (و فى هذه الصورة نكون قد أخذنا لفظة النّحلة بمعنى الدّين).

و أمّا إذا أخذنا لفظة النّحلة بمعنى العطية و الهبة فيكون تفسير الآية المذكورة بالنحو التالى: «أعطوا النساء كامل مهرهنّ الذى هو عطية من اللّه لهنّ لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر فى المجتمع و ينجبر بهذا الأمر ما فيهنّ من ضعف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۱

جسمى نسبى».

ثمّ بعد أن يأمر اللّه سبحانه- بصراحة- فى مطلع الآية بأن تعطى للنساء مهورهن كاملة و دون نقصان حفظا لحقوقهنّ، يعمد فى ذيل هذه الآية إلى بيان ما من شأنه احترام مشاعر كلا الطرفين، و من شأنه تقوية أواصر الودّ و المحبّة و العلاقة القلبية، و كسب العواطف إذ يقول: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً أى لو تنازلت الزوجة عن شىء من المهر و وهبته للزوج عن طيب نفسها جاز للزوج أكل الموهوب له، و إنّما أقرّ الإسلام هذا المبدأ لكيلا تكون البيئة العائلية و الحياة الزوجية ميدانا لسلسلة من القوانين و المقررات الجافة، بل يكون مسرحا للتلاقى العاطفى الإنسانى، و تسود فى هذه الحياة المحبّة جنبا إلى جنب مع المقررات و الأحكام الحقوقية المذكورة.

الصّداق دعامة اجتماعية للمرأة:

لمّا كانت المرأة- فى العصر الجاهلى- لم تحظ بأية قيمة أو مكانة كان الرجل إذا تزوج امرأة ترك أمر صداقها- الذى هو حقها المسلّم- إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صداقها، و يعتبرونه حقّا مسلّما لهم لا لها، و ربّما جعلوا التزوج بامرأة صداقا لامرأة أخرى، مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل، و كان هذا هو صداق الزوجتين.

و لقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد و الأعراف الظالمة، و اعتبر الصداق حقّا مسلّما خاصا بالمرأة، و أوصى الرجال مرّات عديدة و فى آيات الكتاب العزيز برعاية هذا الحق للمرأة.

على أنه ليس للصداق حدّ معين فى الإسلام، فهو أمر يتبع اتفاق الزوجين، و إن تأكد فى روايات كثيرة على التخفيف فى المهور، و لكن هذا لا يكون حكما إلزاميا، بل هو أمر مستحب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۲

و هاهنا ينطرح هذا السؤال، و هو إذا كان الرجل و المرأة يستفيدان من الزواج بشكل متساو، و كانت رابطة الزوجية قائمة على أساس

مصالح الطرفین فلما ذا یجب علی الرجل أن یدفع مبلغا- قلیلا أو کثیرا- إلی المرأة بعنوان الصداق و المهر؟ ثمّ ألا ینطوی هذا الأمر علی إساءة إلی شخصیة المرأة، ألا یسبغ هذا الأمر صبغة البیع و الشراء علی مشروع الزواج؟

إنّ هذه الأمور هی التی تدفع بالبعض إلی أن یعارضوا بشدّة مبدأ المهر و مسألة الصداق، و یقوی هذا الاتجاه لدی المتغربین خاصّة ما یجدونه من عدم الأخذ بهذا المبدأ فی الزیجات الغربیة، فی حین أن حذف الصداق و المهر من مشروع الزواج لیس من شأنه رفع شخصیة المرأة فقط، بل یعرض وضعها للخطر.

و توضیح ذلک هو، أنّه صحیح أنّ المرأة و الرجل یستفیدان من مشروع الزواج، و إقامة الحیاة الزوجیة علی قدم المساواة، و لکن لا یمکن إنکار أنّ الأکثر تضررا لدی افتراق الزوج عن زوجته هی المرأة، و ذلک:

أوّلا: إنّ الرجل- بحکم قابلیاته الجسدیة الخاصّة- یمتلک- عادة- سلطانا و نفوذا و فرصا أکثر فی المجتمع، و هذه هی حقیقة ساطعة مهما حاول البعض إنکارها عند الحدیث حول المرأة، و لکن الوضع الاجتماعی و حیاة البشر- حتی فی المجتمعات الغربیة و الأوروبیة التی تحظی فیها النساء بما یسمّی بالحرّیة الکاملة ترینا بوضوح- و کما هو مشهود للجمیع- إنّ الفرص و أزمة الأعمال المربحة جدّا هی فی الأغلب فی أیدی الرجال.

هذا مضافا إلی أنّ أمام الرجال إمکانیات أکثر لاختیار الزوجات، و إقامة حیاة عائلیة جدیدة بینما لا تتوفر مثل هذه الإمکانیات للمرأة، فإن النساء الثیبات- خاصّة تلک التی یصبن بهذه الحالة بعد مضی شطر من أعمارهنّ،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۳

و فقدان شبابهنّ و جمالهنّ- یمتلکن فرصا أقل للحصول علی أزواج لهنّ.

بملاحظة هذه النقاط یتضح أنّ الإمکانات التی تخسرها المرأة بالزواج أکثر من الإمکانات التی یفقدها الرجل بذلک، و یکون الصداق و المهر- فی الحقیقة- بمثابة التعویض عن الخسارة التی تلحق بالمرأة، و وسیلة لضمان حیاتها المستقبلیة، هذا مضافا إلی أنّ المهر و الصداق خیر وسیلة رادعة تردع الرجل عن التفکیر فی الطلاق و الإفتراق.

صحیح أنّ المهر- فی نظر القوانین الإسلامیة یتعلق بذمّة الرجل من لحظة انعقاد الرابطة الزوجیة و قیامها بین الرجل و المرأة، و یحق للمرأة المطالبة به فورا، و لکن حیث أن الغالب هو أن یتخذ الصداق صفة الدّین المتعلق فی الذمّة یکون لذلک بمثابة توفیر للمرأة تستفید منه فی مستقبلها، کما یعتبر خیر دعامة لحفظ حقوقها، إلی جانب أنه یساعد علی حفظ الرابطة الزوجیة من التبعثر و التمزق (طبعا هناک استثناءات لهذا الموضوع، و لکن ما ذکرناه صادق فی أغلب الموارد).

و أمّا تفسیر البعض لمسألة المهر بنحو خاطئ، و اعتبار الصداق أنّه من قبیل ثمن المرأة فلا یرتبط بالقوانین الإسلامیة، لأن الإسلام لا یعطی للصداق الذی یقدمه الرجل إلی المرأة صفة الثمن کما لا یعطی المرأة صفة البضاعة القابلة للبیع و الشراء، و أفضل دلیل علی ذلک هو صیغة عقد الزواج الذی یعتبر فیه الرجل و المرأة کرکنین أساسیین فی الرابطة الزوجیة، فی حین یقع الصداق و المهر علی هامش هذا العقد، و یعتبر أمرا إضافیا، بدلیل صحّة العقد إذا لم یرد فی صیغة البیع و الشراء و غیر ذلک من المعاملات المالیة إذ بدونه تبطل هذه المعاملات (طبعا لا بدّ من الانتباه إلی أن علی الزوج- إذا لم یذکر الصداق ضمن عقد الزواج- أن یدفع إلی المرأة مهر المثل فی صورة الدخول بها).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۴

من کلّ ما قیل نستنتج أنّ المهر بمثابة جبران للخسارة اللاحقة بالمرأة، و بمثابة الدعامة القویة التی تساعد علی احترام حقوق المرأة، لا أنّه ثمن المرأة، و لعل التعبیر بالنّحلة التی هی بمعنی العطیة فی الآیة إشارة إلی هذه النقطة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۵

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۵ الی ۶]

اشارة

وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِی جَعَلَ اللَّهُ لَکُمْ قِیاماً وَ ارْزُقُوهُمْ فِیها وَ اکْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۵) وَ ابْتَلُوا الْیَتامی حَتَّی إِذا بَلَغُوا النِّکاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَیْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَ لا تَأْکُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً أَنْ یَکْبَرُوا وَ مَنْ کانَ غَنِیًّا فَلْیَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ کانَ فَقِیراً فَلْیَأْکُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَیْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَیْهِمْ وَ کَفی بِاللَّهِ حَسِیباً (۶)

التّفسیر

اشارة

الآیات الحاضرة تکملة للأبحاث المرتبطة بالیتامی، التی مرّت فی الآیات السّابقة.

یقول اللّه سبحانه: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَکُمُ بل انتظروا رشدهم، و نضجهم فی المسائل الاقتصادیة لکی لا تتعرض أموالکم للتلف و الفناء.

من هو السّفیه؟:

قال الرّاغب فی المفردات: «السّفه خفّة فی البدن (یحصل بسببها عدم التعادل فی المشی) و منه قیل زمام سفیه أی کثیر الاضطراب، و استعمل فی خفّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۶

النفس لنقصان العقل فی الأمور الدّنیویة، و الأخرویة».

و لکنّ من الواضح أنّ المراد من السّفه فی الآیة الحاضرة هو عدم الرشد اللازم فی الأمور الاقتصادیة بحیث لا یستطیع الشخص من تدبیر شؤونه الاقتصادیة و إصلاح ماله علی الوجه الصحیح، و لا یتمکن من ضمان منافعه فی المبادلات و المعاملات المالیة، أی أنّه عرضة للغبن و الضرّر، و یدل علی هذا المعنی ما جاء فی الآیة الثانیة إذ یقول سبحانه: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَیْهِمْ أَمْوالَهُمْ

و علی هذا الأساس فإنّ الآیة الحاضرة و إن کانت تبحث حول الیتامی، لکنّها تتضمّن حکما کلیا و قانونا عامّا لجمیع الموارد، و هو أنّه لا یجوز لأحد مطلقا أن یعطی أموال من یتولی أمره، أو ترتبط به حیاته بنوع من الارتباط، إلیه إذا کان سفیها غیر رشید، و لا فرق فی هذا الحکم بین الأموال الخاصّة و الأموال العامّة (و هی أموال الحکومة الإسلامیة) و یشهد علی هذا الموضوع- مضافا إلی سعة مفهوم الآیة- و خاصّة کلمة «السّفیه» روایات منقولة عن أئمّة الدین فی هذا الصدد.

ففی روایة عن الإمام الصّادق علیه السّلام نقرأ أنّ شخصا یدعی إبراهیم بن عبد الحمید یقول: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَکُمُ قال:

«کلّ من یشرب المسکر فهو سفیه [41] فلا تعطوهم أموالکم».

و فی روایة أخری نجد النهی عن اختیار شارب الخمر لجعله أمینا علی الأموال.

و خلاصة القول أنّنا نجد توصیف شارب الخمر بالسفه فی أحادیث کثیرة و موارد متعددة، و هذا التعبیر إنّما هو لأن شارب الخمر فقد رأس ماله المادی و رأس ماله المعنوی، و أی سفیه أشدّ من أن یعطی الإنسان ماله، و عقله أیضا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۷

و يبتاع الجنون ... و يضحى فى هذا السبيل بكل طاقاته البدنية و الروحية، و يتسبب فى أضرار اجتماعية كثيرة و كبيرة.

ثمّ أنّنا نلاحظ أن رواية أخرى تصف كلّ من لا يوثق به بالسفيه، و تنهى من تسليم الأموال الخاصّة و العامّة إليه، فعن يونس بن يعقوب قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن قوله: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ قال: «من لا تثق به ۴۲]».

و من هذه الرّوايات يتبيّن أنّ للفظة السفيه معنى واسعا، و أن النهى يشمل تسليم الأموال الخاصّة و العامّة إليهم، غاية ما فى الأمر أن هذا النهى يكون فى بعض الموارد نهى تحريم، و فى بعض الموارد الاخرى التى لا تشتد فيها درجة السفه يكون نهى كراهة.

و هنا ينطرح سؤال و هو، إذا كانت هذه الآية فى مورد أموال اليتامى فلما ذا قال تعالى: أَمْوالَكُمُ و لم يقل «أموالهم»؟

يمكن أن تكون النكتة و السرّ فى هذا التعبير هو بيان مسألة اجتماعية و اقتصادية مهمّة فى المقام و هى أن الإسلام يعتبر الأفراد فى المجتمع بمثابة فرد واحد بحيث لا يمكن أن تنفصل مصالح فرد عن مصالح الآخرين، و هكذا تكون خسارة فرد عين خسارة الآخرين، و لهذا السبب أتى القرآن فى هذا المقام بضمير المخاطب بدل ضمير الغائب إذ قال: «أموالكم» و لم يقل «أموالهم»، يعنى أنّ هذه الأموال- فى الحقيقة- ليست مرتبطة باليتامى فقط، بل هى مرتبطة بكم أيضا، فإذا لحق بها ضرّر، يكون ذلك الضرّر قد لحق بكم بصورة غير مباشرة أيضا، و لهذا يجب أن تحرصوا فى حفظها كل الحرص.

ثمّ إنّ هناك تفسيرا آخر لهذا التعبير و هو أن المقصود من «أموالكم»، هو أموال نفس الأولياء لا أموال اليتامى، فيكون المعنى إذا أردتم مساعدة الأيتام الذين لم يرشدوا ربّما أعطيتهم شيئا من أموالكم- تحت تأثير العاطفة و الإشفاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۸

- إليهم، و اخترتموهم لبعض الأعمال التى لا يقدرون عليها فلا تفعلوا ذلك، بل عليكم أن تعملوا شيئا آخر مكان هذا العمل الغير العقلائى، و هو أن تقوموا بالإنفاق على مأكلهم و ملبسهم و مسكنهم حتى يبلغوا سن الرشد، فإذا بلغوا هذه المرتبة، و حصلت لديهم البصيرة الكافية أعطوهم ما شئتم، و انتخبوهم لما تريدون من الأعمال.

و هذا فى الواقع درس اجتماعى كبير يعلمه القرآن لنا حيث ينهانا عن تشغيل من لا يقدر على بعض الأعمال فيها، و ذلك بدافع مساعدتهم و تحت تأثير الإشفاق و العاطفة، لأن هذه الأعمال و إن كانت تنطوى على بعض الأرباح القليلة، و لكنّها من الممكن أن تجرّ على المجتمع أضرارا و ويلات كبيرة، فلا بدّ إذن من إدارة أمور هذه الطائفة من المجتمع عن طريق تقديم المساعدات الغير المعوضة إليهم أو تشغيلهم فى أمور سهلة و صغيرة.

من هنا يتّضح أنّ بعض قاصرى النظر يختارون الضعفاء و القصر لبعض المسؤوليات التبليغية و الدينية إرفاقا بهم و إشفاقا عليهم و هذا لا شك من أضرّ الأعمال، و أكثرها بعدا عن العقل و المنطق الصحيح.

أموالكم قوام لكم:

ثمّ أنّ القرآن الكريم يصف الأموال المذكورة فى مطلع الآية الحاضرة بقوله:

الَّتِی جَعَلَ اللَّهُ لَکُمْ قِیاماً هو تعبير جميل و رائع جدا عن الأموال و الثّروات، فهى قوام الحياة الناس و المجتمع، و بدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه، فلا يصحّ إعطاؤها إلى السفهاء و المسرفين الذين لا يعرفون إصلاحها، بل ربّما أفسدوها و أتلفوها و ألحقوا بسبب ذلك أضرارا كبيرة بالمجتمع.

و من هذا التعبير نعرف جيدا ما يوليه الإسلام من الاهتمام بالأمور و الشؤون الاقتصادية و المالية، و على العكس نقرأ فى الإنجيل الحاضر: «فقال يسوع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۹

لتلامیذه: الحق أقول لکم أنّه یعسر أن یدخل غنی إلی ملکوت السماوات»[۴۳] فی حین یری الإسلام أنّ الأمّة الفقیرة لا تستطیع أبدا الوقوف علی قدمیها. و أنّه لعجیب أن نری تلک الطائفة بلغت إلی ما بلغت من المراتب فی عالمنا الراهن فی حقول التقدم الاقتصادی مع ما هم علیه من التعالیم الخاطئة، فی حین نعانی من هذا الوضع المأسوی مع ما نملک من التعالیم الحیویة العظیمة.

غیر أنّه لا- داعی للعجب، فهم ترکوا تلک الخرافات و الأضالیل- فی الحقیقة- فوصلوا إلی ما وصلوا، بینما ترکنا نحن هذه التعالیم الراقیة فوقعنا فی هذه الحیرة، و التخلف.

تعلیمان فی شأن الیتامی:

ثمّ أن اللّه سبحانه یأمر- فی شأن الیتامی- بأمرین مهمین هما:

أوّلا: رزق الیتامی و إکسائهم من أموالهم حتی یبلغوا سن الرشد إذ یقول:

وَ ارْزُقُوهُمْ فِیها وَ اکْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً.

و الجدیر بالنظر هو أنّ اللّه تعالی عبّر فی هذه الآیة بلفظة «فیها» أی فی أموال الیتامی لا «منها» أی من أموالهم إذ المفهوم من هذا التعبیر هو أن تدبیر شؤون الیتامی و الإنفاق علیهم یجب أن یتمّ من أرباح أموالهم، إذ لو قال سبحانه:

و ارزقوهم منها لفهم من ذلک أنّ علی الولی أن یقتطع من أصل أموالهم شیئا فشیئا، و هذا یعنی أن یفقد الیتامی شیئا کبیرا من أموالهم حینما یبلغون و یصلون إلی سن الرشد، و لکن القرآن الکریم باستبداله لفظة «منها» بلفظة «فیها» یکون قد أوصی أولیاء الیتامی بأن یحرصوا کلّ الحرص علی أموال الیتامی، و یحاولوا الإنفاق من أرباح رؤوس أموالهم و ذلک باسترباح هذه الأموال و استثمارها و لو بقدر نفقات الیتامی کیما تبقی هذه الأموال علی حالها حین بلوغهم سن الرشد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۰

ثانیا: مخاطبة الیتامی و التکلم معهم بقول طیب و رقیق إذ قال سبحانه:

وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً کیما یزیلوا بمثل هذا القول المعروف ما یشعر به الیتامی من نقصان روحی و عقد نفسیة، کما یساعدوا بذلک علی ترشیدهم و بلوغهم حدّ الرشد العقلی، حتی یتمتعوا عند البلوغ بالرشد العقلی اللازم، و بهذا الطریق یکون بناء شخصیة الیتیم و ترشیده عقلیا من وظائف الأولیاء و مسئولیاتهم أیضا.

تعلیم آخر فی شأن الیتامی و أموالهم:

هاهنا تعلیم آخر فی شأن الیتامی و أموالهم، إذ یقول سبحانه: وَ ابْتَلُوا الْیَتامی حَتَّی إِذا بَلَغُوا النِّکاحَ فإذا بلغوا سن الرشد الذی آنستم فیه قدرتهم علی إدارة أموالهم و التصرف فیها بنحو معقول فأعطوهم أموالهم: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَیْهِمْ أَمْوالَهُمْ و ها هنا نقاط لا بدّ من الالتفات إلیها.

۱- إنّه یستفاد من التعبیر ب «حتی» أنّه یجب اختبار الیتامی قبل بلوغ سنّ النکاح، و أن یتمّ هذا الأمر بصورة مستمرة و متکررة حتی یعرف بلوغهم حدّ النکاح و یتبیّن أنّهم بلغوا الحدّ اللازم من الرشد العقلی اللازم لإدارة الأمور المالیة علی الوجه الصحیح.

کما أنّه یستفاد- ضمنا- أنّ المراد من الاختبار و الابتلاء هو التربیة التدریجیة و المستمرة للیتامی، و هذا یعنی أن لا ترکوا الیتامی و تهملوهم حتی یبلغوا سن الرشد ثمّ تعمدوا إلی إعطائهم أموالهم، بل لا بدّ أن تهیئوهم- قبل البلوغ- للحیاة المستقلة و ذلک بالبرامج

التربوية العملية.

و أمّا أنّه كيف يمكن اختبار اليتيم فطريقه هو أن يعطى مقدارا من المال، فيتّجر به و يشترى و يبيع مع نظارة الولى بنحو لا يسلب اليتيم استقلاله فإذا تبيّن أنّه قادر على الاتجار و التعامل كما ينبغى و من دون أن يغبن، وجب تسليم أمواله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۱

إليه و إلّا فلا بدّ أن تستمر تربيته و إعداده حتى يبلغ تلك الدرجة التى يستطيع فيها أن يستقل بإدارة شؤونه و تدبير معيشته، و أخذ زمام حياته المستقبلية بيده.

۲- إنّ التعبير بجملة إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ إشارة إلى أن الرشد المطلوب هو أن يبلغ اليتيم إلى درجة القدرة على الزواج، و واضح أن الذى يقدر على الزواج لا بدّ أنّه يقدر على تشكيل عائلة، و لا شك أنّ الإنسان بدون امتلاكه لرأس مال لا يتوصل إلى أهدافه، و لهذا فإن بداية الحياة العائلية تتزامن مع بداية الحياة الاقتصادية المستقلة.

و بعبارة أخرى أنّ الثروة لا تعطى إليهم إلّا عند ما يصلون إلى البلوغ الجسمى، فيحتاجون إلى المال بشدّة و يصلون إلى البلوغ الفكرى، و يتمكنون من المحافظة على أموالهم فى وقت واحد.

۳- إنّ التعبير بجملة آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً إشارة إلى أنّه يجب أن يتأكد من رشدهم، لأنّ الإيناس بمعنى المشاهدة و الرؤية و هذه المادة مشتقة من مادة «الإنسان» الذى فى معانيه ناظر العين و عدستها التى بها تبصر (و الرؤية إنّما تتمّ بالاستعانة من إنسان العين- فى الحقيقة- و لهذا عبر عن المشاهدة بالإيناس).

ثمّ أنّه سبحانه قال: وَ لا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً أَنْ يَكْبَرُوا و هو تأكيد آخر للأولياء بأن لا يسلموا الأموال إلى اليتامى قبل أن يكبروا بأن يحافظوا على أموال اليتامى و لا يتلفوها أبدا.

ثمّ أنه تعالى يردف هذا التأكيد بقوله: وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ و بهذا أذن اللّه تعالى للأولياء بأن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى لقاء ما يتحملون من أتعاب فى حفظها، و حراستها، على أن يراعوا جانب العدل و الإنصاف فيما يأخذونه بعنوان الأجرة، هذا إذا كان الولى فقيرا، أما إذا كان غنيّا فلا يأخذ من مال اليتيم شيئا أبدا.

و قد وردت فى هذا الصدد كذلك روايات توضح و تبيّن ما أشير إليه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۲

مضمون الآية.

و من هذه الأحاديث ما

روى عن الإمام الصّادق عليه السّلام إذ قال: «فذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشة، فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم فإن كان المال قليلا (و لا يستغرق ذلك وقتا كبيرا) طبعا فلا يأكل منه شيئا».[۴۴]

ثمّ يقول سبحانه: فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ لكى لا يبقى أى مجال للاتهام و التنازع، و هذا هو آخر حكم فى شأن الأولياء و اليتامى جاء ذكره فى هذه الآية.

و اعلموا أنّ الحسيب الواقعى هو اللّه تعالى، و الأهم من ذلك هو أن حسابكم جميعا عنده لا يخفى عليه شىء أبدا و لا يفوته صغير و لا كبير فإذا بدرت منكم خيانة خفيت على الشهود فإنّه سبحانه سيحصيها عليكم، و سوف يحاسبكم عليها و يؤاخذكم بها: وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷]

اشارة

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۷)

سبب النّزول

کانت العرب فی الجاهلیة تورث الذکور دون الإناث، و کانوا یعتقدون أنّه لا یرث من لا یطاعن بالرماح و لا یقدر علی حمل السلاح، و لا یذود عن الحریم و المال، و لهذا کانوا یحرمون النساء و الأطفال عن الإرث، و یورثون الرجال الأباعد، و لو کان من الورثة من هو أقرب منهم.

حتی إذا مات أنصاری یدعی «أوس بن ثابت» و قد ترک صغارا من بنات و أولاد، فاقتسم أبناء عمومته «خالد» و «عرفجة» أمواله بینهم و لم یورثوا زوجته و أولاده الصغار من ترکته أبدا، فشکت زوجته إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لم یکن فی ذلک حکم إلی ذلک الحین، فنزلت هذه الآیة فاستدعی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذینک الشخصین، و أمرهما بأن لا یتصرفا فی أموال الأنصاری، و أن یترکا تلک الأموال إلی ورثة المیت من الطبقة الأولی و هم زوجته و أولاده، بانتظار أن تنزل آیات أخری توضح کیفیة تقسیمها بین هؤلاء الورثة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۴

التّفسیر

خطوة أخری لحفظ حقوق المرأة:

هذه الآیة- فی الحقیقة- خطوة أخری علی طریق مکافحة العادات و الأعراف الخاطئة التی تؤدی إلی حرمان الأطفال و النساء من حقوقهم المسلّمة الطبیعیة، و علی هذا الأساس تکون هذه الآیة مکملة للأبحاث التی مرّت فی الآیات السابقة، لأن العرب الجاهلیین کانوا- حسب تقالیدهم و أعرافهم الظالمة- یمنعون النساء و الصغار من حق الإرث، و لا یسهمون لهم من المواریث، فأبطلت هذه الآیة هذا التقلید الخاطئ الظالم إذ قال سبحانه: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ، وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ.

ثمّ قال سبحانه فی ختام هذه الآیة بغیة التأکید علی الموضوع نَصِيباً مَفْرُوضاً حتی یقطع الطریق علی کل تشکیک أو تردید فی هذا المجال.

ثمّ أنّ الآیة الحاضرة- کما هو ملاحظ- تذکر حکما عامّا، و شاملا لجمیع الموارد، و لهذا فإن ما یتصوره البعض من أنّ الأنبیاء لا یورثون، أی أنّهم إذا ترکوا شیئا من ثروة و مال لم یرثهم أقرباؤهم، خلاف الآیة (طبعا المقصود من الأموال التی یترکها النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی تلک الأموال الخاصّة به، و أمّا الأموال المتعلقة ببیت المال الذی هو من حق المسلمین عامّة، فالحکم الإسلامی فیها هو صرفها فی مواردها.

کما أنّه یتبیّن من إطلاق الآیة الحاضرة و الآیات الاخری التی تأتی فی ما بعد حول الإرث أنّ القول بالتعصیب (و هو إعطاء شیء من الترکة إلی عصبة المیت و هم من ینتسبون إلیه من طرف الأب، و ذلک فی بعض الموارد کما یذهب إلیه علماء السنة) یخالف هو أیضا ما جاء به القرآن الکریم من تعالیم فی مجال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۵

الإرث، لأن ذلک یستلزم حرمان النساء من المیراث فی بعض الموارد، و هـذا ضـرب من التمییز الجاهلی الذی رفضه الإسـلام و أبطله بالآیهٔ الحاضرهٔ و الآیات المشابههٔ لها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۶

الآیهٔ [سورهٔ النساء (۴): آیهٔ ۸]

اشارهٔ

وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَهَٔ أُولُوا الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۸)

التّفسیر

حکم أخلاقی:

نزلت الآیهٔ الحاضرهٔ بعد قانون تقسیم الإرث حتما إذ تقول: وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَهَٔ أُولُوا الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ و علی هذا الأساس یتضـمّن محتوی هذه الآیهٔ حکما أخلاقیا اسـتحبابیا فی شأن طبقات محجوبهٔ عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلی المورث، فالآیـهٔ تقول: إذا حضـر مجلس تقسیم الإرث جماعـهٔ من الأقرباء من الطبقـهٔ الثانیـهٔ و الثالثـهٔ، و کذا بعض الیتامی و المساکین فارزقوهم من الإرث، و بهـذا تکونون قـد منعتم من تحرک شـعور الحسـد و البغضاء لـدی من یمکن أن یثور لـدیهم ذلک الشعور بسبب حرمانهم من الإرث، و لا شک أنّ هذا العمل من شأنه أن یقوی أواصر القرابهٔ الإنسانیهٔ بینکم.

إنّ کلمتی «الیتامی» و «المساکین» و إن ذکرتا بنحو مطلق فی هـذه الآیهٔ، غیر أن الظاهر هو أنّ المراد منهما هم الیتامی و المساکین من قربی المیت، لأنّ الأقرب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۷

یحجب- فی قانون الإرث- الأبعد من الإرث، و علی هذا فلو حضر أحد من هذه الطبقات قسمهٔ المیراث فإنّه ینبغی أن یعطی الورثهٔ له شیئا من المیراث هدیهٔ (یتوقف مقدارها علی إرادهٔ الوراث علی أن یکون ذلک من مال الورثهٔ الکبار دون الصغار).

هذا و یحتمل جماعهٔ من المفسـرین أن یکون المراد من الیتامی و المساکین فی هذه الآیهٔ هو مطلق الیتامی و المساکین سواء کانوا من قرابهٔ المیت أم لا، و لکن هذا الاحتمال یبدو بعیدا فی النظر، لأن الأجانب لیس لهم طریق إلی المجالس العائلیهٔ غالبا.

کما أنّه یعتقـد بعض المفسِّرین أن الآیـهٔ تتضـمن حکما وجوبیا لا اسـتحبابیا، بیـد أن هذا الأمر فیها علی نحو الوجوب، وجب تعیین و تحدید ما یلزم إعطاؤه لهاتین الطائفتین، فی حین ترک الأمر فیه إلی إرادهٔ الورثهٔ.

ثمّ أنّه سبحانه یختم هـذه الآیهٔ بدسـتور أخلاقی إذ یقول: وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً یعنی أنّه مضافا إلی تقدیم مساعدهٔ مادیهٔ إلی هؤلاء أشفعوا ذلک بموقف أخلاقی و استفیدوا من المعین الإنسانی لکسب مودّتهم، و حتی لا یبقی فی قلوبهم أی شعور عدائی تجاهکم، و هـذا الدسـتور علامـهٔ أخری و دلیـل آخر علی أن الأـمر بإعطاء شـیء من المیراث إلی الیتامی و المساکین إنما هو علی نحو النـدب لا الوجوب.

من کل ما ذکرناه اتّضح أنّه لا مبرر أبدا لأن یقال أن الحکم المذکور فی هذه الآیهٔ منسوخ بالآیات التی تعین السهام فی الإرث، لعدم وجود أیهٔ منافاهٔ و تعارض بین هذه الآیهٔ و تلک الآیات المحددهٔ للأسهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۸

الآیهٔ [سورهٔ النساء (۴): آیهٔ ۹]

اشارهٔ

وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (۹)

التّفسير

دعوهٔ إلى العطف على اليتامى:

يشير القرآن الكريم- بهدف إثارهٔ مشاعر العطف و الإشفاق لدى الناس بالنسبهٔ إلى اليتامى- إلى حقيقهٔ يغفل عنها الناس أحيانا، و تلك الحقيقهٔ هى: إن على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحبّ أن يعامل الناس يتاماه.

تصوروا مشهد أطفال فقدوا آباءهم و أمهاتهم يعيشون تحت كفالهٔ شخص قاسى القلب خائن لا يرعى مشاعرهم، كما لا يراعى جانب العدالهٔ فى حقّهم.

أجل تصوروا هذا المشهد المؤلم، كم يؤلمكم و يحزنكم ذلك؟ هل تحبّون مثل ذلك لأبنائكم الصغار من بعدكم؟ كلا حتما، فكما تحبّون ورثتكم فأحبّوا ورثهٔ غيركم و يتاماهم، و أحزنوا لما يحزنهم.

و على هذا يكون مفهوم قوله سبحانه: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ هو أنّ الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبهٔ الخيانهٔ فى شؤون اليتامى و يخافوا مغبهٔ إيذائهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۹

و أساسا: إنّ القضايا الاجتماعية تنتقل فى شكل سنهٔ من السنن- من اليوم إلى الغد، و من الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يروّجون فى المجامع سنهٔ ظالمهٔ مثل إيذاء اليتامى فإن ذلك سيكون سببا لسريان هذه السنهٔ على أولادهم و أبنائهم أيضا، و على هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد أذى يتامى الآخرين و ورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده و يتاماه أيضا.

لهذا وجب أن يتجنب أولياء اليتامى مخالفهٔ الأحكام الإلهيهٔ، و يتقوا اللّه فى اليتامى و يقولوا لهم قولا عدلا موافقا للشرع و الحق، قولا ممزوجا بالعواطف الإنسانيهٔ و المشاعر الأخويهٔ، لكى ينـدمل بـذلك مـا فى قلوب أولئك من الجراح، و ينجبر ما فى أفئدتهم من الكسر، و إلى هذا يشير قوله سبحانه: فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً.

إنّ هذا التعليم الإسلامى الرفيع المذكور فى العبارهٔ السابقهٔ إشارهٔ إلى ناحيهٔ نفسيهٔ فى مجال تربيهٔ اليتامى- جديرهٔ بالاهتمام و الرعايهٔ، و هى: إنّ حاجهٔ الطفل اليتيم لا تنحصر فى الطعام و الكساء، بل مراعاهٔ مشاعرهم و أحاسيسهم القلبيهٔ هو الأهم، و هو ذو تأثير كبير جدّا فى بناء مستقبلهم، لأن الطفل اليتيم إنسان كغيره، يجب أن يحصل على غذائه اللازم من الناحيهٔ العاطفيهٔ، فيجب أن يحظى بالحنو و الرعايهٔ كما يحظى بذلك أى طفل آخر فى حضن أبيه و أمّه. أنه ليس «حمل» يخرج مع القطيع للرعى عند الصباح، و يعود عند الغروب، بل هو إنسان يجب- مضافا إلى الرعايهٔ الجسديهٔ- أن يحظى بالرعايهٔ الروحيهٔ، و العنايهٔ العاطفيهٔ، و إلّا نشأ قاسيا مهزوما، عديم الشخصيهٔ، بل و حاقدا خطيرا.

إيضاح ضرورى:

عن عبـد الأعلى مولى آل سام قال قال أبو عبد اللّه عليه السّـلام مبتدءا: «من ظلم سـلّط اللّه عليه من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه، قال (أى الراوى) فذكرت فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۰

نفسـى فقلت: يظلم (و) هو يتسـلط على عقبه و عقب عقبه؟ فقـال لى قبل أن أتكلم: إن اللّه يقول: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ .

إنّ السؤال الذى خالج ذهن الراوى يخالج نفسه أذهان كثيرين، فيتساءلون:

كيف يحمـل البـارئ تعـالى جزاء شـخص على شـخص آخر، بل و ما ذا فعل أبناء العاصـى حتى يبتلوا بمن يظلمهم، و يتحملوا وزر ما جناه والدهم؟

إنّ جواب هـذا السؤال يتضـح من الإيضاح الـذى ذكر فى الحديث السابق و هو أن ما يرتكبه الأشـخاص فى المجتمع من أعمال تتخذ شكل السـنة شيئا فشيئا، و ينتقل إلى الأجيال اللاحقة، و على هذا الأساس فإن الذين يظلمون اليتامى فى المجتمع، و يرسون قواعد هذا السـلوک الظالم سـيصاب أبناؤهم بلهيب هـذه البدعـة يوما ما أيضا، و يعـدّ هـذا فى الحقيقـة أحـد الآثار الوضـعية التكوينيـة لمثل هذا العمل، و أمّا نسـبته إلى اللّه فهى لأجل أن جميع الآثار التكوينية و كل خواص العلّة و المعلول منسوبة إلى اللّه و مسـتندة إليه تعالى، و لا يظلم ربّک أحدا أبدا.

و خلاصة القول: إذا ساد الظلم فى المجتمع فإنّه سوف يسرى و يصيب الظالم و أولاده أيضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۱

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (۱۰)

التّفسير

الوجه الحقيقى لأفعال البشر:

لقـد ذكرنا فى مطلع هـذه السّورة أن آيات هـذه السورة نزلت لبناء مجتمع صالح و سـليم، و لهذا تسـعى آياتها فى تطهير المجتمع من الرواسب الجاهليـة و ما تبقّى فى نفوس بعض المسـلمين الحديثى العهد بالإسـلام من العادات السـيئة أوّلا، لتتهيأ الأرضـية لإقامة ذلک المجتمع الصالح المنشود.

و أيـة عادة ترى أقبـح من أكل أموال اليتامى؟ و لهـذا ابتـدأت هـذه السورة بعبارات شديدة النكير على من يتصـرف فى أموال اليتامى تصرفا غير مشروع، و غير صحيح، و الآية الحاضرة هى أوضح هذه العبارات.

تقول هذه الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً.

و لقـد ورد نظير هـذه العبارة فى موضع آخر من القرآن الكريم و ذلک فى شأن الـذين يكتمون الحق، و يحرفون الكلم عن مواضـعها لتحقيق بعض المكاسب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۲

المادیـة الشخصـیة إذ یقول سـبحانه عنهم: إِنَّ الَّذِینَ یَکْتُمُونَ مـا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْکِتـابِ، وَ یَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنـاً قَلِیلًا أُولئِکَ مـا یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ[۴۵].

ثمّ أنّه سبحانه یقول فی بیان نتیجة أکل أموال الیتامی: وَ سَیَصْلَوْنَ سَعِیراً.

و «یصلی» من «الصلی» بمعنی الدخول فی النار و الاحتراق بلهیبها، و أمّا «السعیر» فبمعنی النار المشتعلة.

و یقصـد القرآن من هـذه الجملة إنّ الذین یأکلون أموال الیتامی مضافا إلی أنّهم یأکلون النار- فی الحقیقة- فی هذه الدنیا سیدخلون عمّا قریب نارا مشتعلة الأوار و حارقة اللهب فی الدار الآخرة.

و یستفاد من هذه الآیة أن لأعمالنا مضافا إلی وجهها الظاهری وجها واقعیا أیضا، وجها مستورا عنّا فی هذه الدنیا، لا نراه بعیوننا هنا، و لکنّه یظهر فی العالم الآخر، و هذا الأمر هو ما یشکل مسألة تجسم الأعمال المطروحة فی المعتقدات الإسلامیة.

إنّ القرآن یصرح فی هـذه الآیـة بـأنّ الـذین یـأکلون أموال الیتامی ظلما و جورا، و إن کان الوجه الظاهری لفعلهم هـذا هو الأکل من الأطعمـة اللذیـذة الملونـة، و لکن الوجه الواقعی لهـذه الأغذیـة هو النار المحرقـة الملتهبـة، و هـذا الوجه هو الـذی یظهر و یتجلّی علی حقیقته فی عالم الآخرة.

إنّ بین الوجه الواقعی للعمـل و الکیفیـة الظاهریـة للعمـل تناسبا و تشابهـا دائمـا، فکمـا أن أکـل مال الیتیم و غصب حقوقه یحرق فؤاد الیتیم، و یؤذی روحه، فکذا یکون الوجه الواقعی للعمل نارا محرقة.

إنّ الانتباه إلی هذا الأمر (أی الوجه الحقیقی الواقعی لکل عمل) خیر رادع للذین یؤمنون بهذه الحقائق، کیما لا یرتکبوا المعاصی و لا یقترفوا الذنوب، فهل یوجد ثمّة من یحب أن یأخذ بیدیه قبسات من النار، و یضعها فی فمه و یبتلعها؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۳

إنّه من غیر الممکن- و الحال هـذه- أن یقدم المؤمنون علی أکل مال الیتیم ظلما، و لو أنّنا وجدنا ثمّة من لا یقدم علی هذا الفعل، بل و لا یفکر فی المعصـیة أبـدا (کالأولیاء)، فلأنهم یرون- بفضل ما لدیهم من الإیمان و العلم، و ما حصـلوا علیه من تربیة خلقیة- حقائق الأفعال البشریة و وجوهها الواقعیة، فلا یفکرون فی اقتراف هذه الأعمال السیئة، فضلا عن الهمّ باقترافها.

إنّ الطفل الجاهل هو الـذی یمکن أن یسحره و یجـذبه جمال الجذوات المتقدمة و ألسـنة اللهب المندفعة منها فیمد یده إلیها، و لکن الإنسان العاقل الذی جرب حرارة النار و ذاق ألمها، کیف یمکن أن یفکر یوما بذلک.

هـذا و لقـد وردت أحـادیث کثیرة تنهی بشـدّة عن أکل مال الیتیم و العـدوان علی حقوقه، و تؤکـد علی أنّها کبیرة موبقـة، بل و تعتبر أبسط الأعمال من هذا النوع مشمولا لهذا الحکم الصارم و موضوعا لهذه العقوبة القاسیة.

ففی حدیث عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر علیه السّلام لما سئل فی کم یجب لأکل مال الیتیم من النار؟ قال: فی درهمین ۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۴

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشارة

یُوصِیکُمُ اللَّهُ فِی أَوْلادِکُمْ لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ فَإِنْ کُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَیْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَکَ وَ إِنْ کانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَیْهِ لِکُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَکَ إِنْ کانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ کانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ یُوصِی بِها أَوْ دَیْنٍ آباؤُکُمْ وَ أَبْناؤُکُمْ لا تَدْرُونَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ لَکُمْ نَفْعاً فَرِیضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً (۱۱) وَ لَکُمْ نِصْفُ

ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۵

سبب النّزول

لمّا مات «عبد الرحمن بن ثابت الأنصارى» «أخو حسان بن ثابت» الشاعر المعروف فى صدر الإسلام و قد خلف امرأة و خمسة أخوان، اقتسم إخوانه ميراثه بينهم و لم يعطوا زوجته شيئا ممّا تركه من المال، فشكت ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنزلت الآيات الحاضرة التى تبيّن و تحدد سهم الأزواج من الإرث بنحو دقيق.

كما

نقل عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أنّه قال: مرضت فعادنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأغمى علىّ، فطلب النّبى ماء و توضأ لبعضه و صب بعضه الآخر على فأفقت فقلت: يا رسول اللّه كيف أصنع فى مالى (أى كيف يجب أن يكون أمره من بعد وفاتى) فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يقل شيئا، فنزلت آية المواريث تبيّن نظام الإرث و تحدد أسهم الورثة.

الإرث حق طبيعى:

قبل أن نعمد إلى تفسير الآيات الحاضرة لا بدّ أن نشير إلى عدّة نقاط.

أوّلا: قد يتصور كثيرون أنّ من الأفضل أن تعود أموال الشخص بعد وفاته إلى الملكية العامّة، و أن تضاف إلى بيت مال المسلمين، و لكن الإمعان فى هذا العمل يكشف لنا عن كونه خلاف العدل، لأن مسألة الإرث و التوارث مسألة طبيعية منطقية جدا، فكما أن الآباء و الأمهات ينقلون قسما من صفاتهم الجسمية و الروحية إلى أبنائهم- حسب قانون الوراثة الطبيعى- فلما ذا يستثنى من ذلك أموالهم فلا تنتقل إلى أبنائهم؟

هذا مضافا إلى أنّ الأموال المشروعة هى نتاج جهود الإنسان المضنية، و مساعيه و أتعابه فهى فى الحقيقة طاقاته المتجسدة فى صورة المال و هيئة الثروة، و لهذا لا بدّ من الاعتراف بأن كل شخص هو المالك الطبيعى لحاصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۶

جهوده و ثمرة أتعابه، و هذا هو حكم فطرى.

و على هذا، فعند ما يمتنع أن يتصرف الشخص فى أمواله بعد وفاته و يحال بينه و بين ثروته بسبب الموت، تصبح هذه الأموال من حق أقرب الناس إليه، و الذين يعتبرون- فى الحقيقة- بشخصيتهم و وجودهم امتدادا لشخصيته و وجوده.

على هذا الأساس نجد الكثيرين لا يتركون الكد و العمل، و الكسب و التجارة حتى آخر لحظة من حياتهم رغم ما يملكون من ثراء طائل، و ذلك لبغية أن يوفروا لأبنائهم مستقبلا زاهرا و يقيموا لهم حياة سعيدة بعدهم، و هذا يعنى أن الإرث و قانون التوريث قادر على إعطاء العجلة الاقتصادية دفعة قوية و يزيد من حركتها و دورانها و نشاطها، و أمّا إذا عرف الشخص أنّ أمواله بعد موته، و امتناع تصرفه فى تلك الأموال بسبب الوفاة تعود إلى الملكية العامة، فإنّه قد يفقد قسطا كبيرا من نشاطه الاقتصادى، و يصاب بالفتور و الكسل.

و يشـهد بهـذا الأمر ما وقع فی فرنسا قبل حين، عند ما أقدم مجلس النواب الفرنسـی- كما قيل- علی إلغاء قانون الإرث قبل مدّة و أقرّ بـدل ذلـك إلحـاق أموال الأشـخاص بعـد موتهم إلی خزانـة الدولـة، و صـيرورتها أموالا عامّـة، فتؤخـذ من قبل الدولـة و تصـرف فی المصارف العامّة بحيث لا يحصل ورثة الميت علی أی شـیء من التركة، فكان لهذا القانون أثر سـیء و ظاهر علی الحركة الاقتصادية، فقـد لوحـظ اختلال كبير فی أوضـاع التصـدير و الاـستيراد، كمـا خف النشـاط الاقتصـادی هنـاك بشـكل ملحوظ، فـأقلق ذلـك بـال الحكومة، و كان السبب الوحيد وراء هذه الحالة هو «إلغاء قانون الإرث» ممّا دفع بالدولة إلی إعادة النظر فی هذا القرار.

و علی هذا لا يمكن إنكار أن قانون الإرث و مبدأ التوريث مضافا إلی كونه قانونا طبيعيا فطريا، له أثر قوی و عميق فی تنشيط الحركة الاقتصادية.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۷

الإرث فی الأمم السابقة:

لما كان لقانون الإرث جذورا فطرية فإنّه شوهد وجود الإرث و التوريث فی الشعوب و الأمم السابقة فی أشكال و صور مختلفة.

أمّا بين اليهود- و إن ادعی البعض عـدم وجود مبـدأ التوارث عنـدهم- و لكننا حينما نراجع التوراة نجـدها تذكر هذا القانون فی سـفر الأعداد بصورة صريحة إذ يقول:

و تكلم بنی إسـرائيل قائلا: أيّما رجل مات و ليس له ابن تنقلون ملكه إلی ابنته، و إن لم تكن له ابنة تعطوا ملكه لإخوته، و إن لم يكن له أخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه، و إن لم يكن لأبيه أخوة تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه فصارت لبنی إسرائيل فريضة قضاء كما أمر الرّب موسی ۴۷] يدور لدی بنی إسرائيل.

و يستفاد من هذه العبارات أنّ مبدأ التوارث كان علی محور النسب فقط، و لهذا لم يرد ذكر عن سهم الزوجة فی الميراث.

و أمّا فی الدين النصـرانی فالمفروض أن يكون مبدأ الإرث المذكور فی التوراة معتبرا أيضا، و ذلك لما نقل عن المسـيح عليه السّـلام من أنّه قال: «أنا لم أبعث لأغير من أحكام التوراة شـيئا» و لهـذا لا نجـد فی كتابات الفتاوی الدينية أی كلام حول الإرث، نعم ورد فی هذه الكتب بعض مشتقات الإرث فی بعض الموارد، و لكنها تعنی جميعا الإرث المعنوی الأخروی.

هذا و قد كان التوارث لدی العرب الجاهليين يتحقق بإحدی هذه الطرق الثلاث:

۱- بالنسب، و كان المقصود منه عندهم هم الأبناء الذكور و الرجال خاصّة، فلا يرث الصغار و النساء أبدا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۸

۲- بالتبنی، و هو من طرده أهله من الأبناء، فتكفله و تبناه شخص آخر أو عائلة أخری، و فی هذه الصورة يتحقق التوارث بين المتبنی و المتبنی له.

۳- بالعهـد، يعنی إذا تعاهـد شـخصان أن يـدافع كـل واحـد منهما عن الآخر طيلـة حياتهما و يرث أحـدهما الآخر بعـد وفاته، فإنّه يقع التوارث بينهما بعد وفاة أحدهما.

و قـد حرّر الإسـلام قـانون الإـرث الطبيعی الفطری مما علق به من الخرافات، و لحق به من رواسب التمييز العنصـری الظالم الـذی كان يفرق بين الرجـل و المرأة حينـا، و بين الكبـار و الأطفال حينا آخر، و جعل ملاك التوارث فی ثلاثـة أمور لم تكن معروفـة إلی ذلك الحين:

۱- النّسب و ذلـك بمفهومه الوسيع، و هم كـل علاقـة تنشـأ بين الأشـخاص بسـبب الولاـدة فی مختلف المسـتويات من دون فرق بين الرجال و النساء و الصغار و الكبار.

۲- السبب و هی العلاقات الناشئة بين الأفراد بسبب المصاهرة و التزاوج.

۳- الولاء و هی العلاقات الناشئة بین شخصین من غیر طریق القرابة (السبب و النسب) مثل ولاء العتق، یعنی إذا أعتق رجل عبده، ثمّ مات العبد و خلف من بعده مالا و لم یترک أحدا ممن یرثونه بالسبب أو النسب، ورثه المعتق، و فی هذا حیث علی التحریر و الإعتاق، و کذلک ولاء ضمان الجریرة، و هو أن یرکن شخص إلی آخر- لا سبب بینهما و لا نسب- و یتعاهدان أن یضمن کل منهما جنایة الآخر و یدافع کل منهما عن الآخر، و یکون إرث کل منهما للآخر، و «ولاء الإمامة» یعنی إذا مات أحد و لم یترک من یرثونه ممن ذکر ورثه الإمام علیه السّلام، أی أن أمواله تنتقل إلی بیت المال الإسلامی، و تصرف فی شؤون المسلمین العامّة.

هذا، و لکل واحدة من هذه الطبقات أحکام و شرائط خاصّة مذکورة فی الکتب الفقهیة المفصلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۹

التّفسیر

اشارة

قال اللّه تعالی فی الآیة الأولی من هذه الآیات یُوصِیکُمُ اللَّهُ فِی أَوْلادِکُمْ لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ و هو بذلک یشیر إلی حکم الطبقة الأولی من الورثة (و هم الأولاد و الآباء و الأمهات)، و من البدیهی أنّه لا رابطة أقوی و أقرب من رابطة الأبوة و البنوة و لهذا قدموا علی بقیة الورثة من الطبقات الاخری.

ثمّ إنّ من الجدیر بالاهتمام من ناحیة الترکیب اللفظی جعل الأنثی هی الملاک و الأصل فی تعیین سهم الرجل، أی أن سهمها من الإرث هو الأصل، و إرث الذکر هو الفرع الذی یعرف بالقیاس علی نصیب الأنثی من الإرث إذ یقول سبحانه: لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ و هذا نوع التأکید علی توریث النساء و مکافحة للعادة الجاهلیة المعتدیة القاضیة بحرمانهن من الإرث و المیراث، حرمانا کاملا.

و أمّا فلسفة هذا التفاوت بین سهم الأنثی و الذکر فذلک ما سنتعرض له عمّا قریب إن شاء اللّه.

ثمّ یقول سبحانه و تعالی: فَإِنْ کُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَیْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَکَ أی لو زادت بنات المیت علی اثنتین فلهن الثلثان أی قسم الثلثان بینهن.

ثمّ قال وَ إِنْ کانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ أی لو کانت البنت واحدة ورثت النصف من الترکة.

و هاهنا سؤال:

القرآن یقول فی هذا المجال «فوق اثنتین» أی لو کانت بنات المیت أکثر من بنتین استحققن ثلثی الترکة یقسّم بینهن، و هذا یعنی أن القرآن ذکر حکم البنت الواحدة، و حکم البنات فوق اثنتین، و سکت عن حکم «البنتین»، فلما ذا؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۰

الجواب:

بملاحظة المقطع الأوّل من الآیة الحاضرة یتضح جواب هذا السؤال، و نعنی قوله تعالی: لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ و لو إجمالا، لأن ورثة المیت إن انحصروا فی ابن واحد و بنت واحدة کان للابن الثلثان و للبنت الثلث، فإذا کانتا بنتین کان لهما الثلثان حسب هذه العبارة.

و خلاصة القول: أنّه إذا قال للذكر مثل حظ الأنثيين و كان أوّل العدد ذكرا و أنثى و للذكر الثلثان و للأنثى الثلث، علم من ذلك أن للبنتين الثلثين، و لعل لوضوح هذا الأمر لم تتعرض الآية لبيانه (أى لذكر سهم الأختين) و اكتفت بذكر سهم البنات المتعددات فوق اثنتين، و هو الثلثان.

على أن هذا المطلب يتّضح أيضا بمراجعة الآية الأخيرة من سورة النساء، لأنّها جعلت نصيب الأخت الواحدة النصف (مثل نصيب البنت الواحدة) ثمّ تقول:

فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ فمن هذا يتضح أن سهم البنتين هو الثلثان أيضا.

هذا مضافا إلى ورود مثل هذا التعبير فى الأدب العربى، إذ يقول العرب أحيانا «فوق اثنتين» و يكون مرادهم هم «اثنتان فما فوق».

و بغض النظر عن كل ما قيل أنّ الحكم المذكور من الأحكام القطعية المسلمة من وجهة نظر الفقه الإسلامى و الأحاديث الشريفة، و الرجوع إلى السنة المطهرة (أى الأحاديث) كفيل برفع أى إبهام فى الجملة المذكورة إن كان.

لما ذا يرث الرّجل ضعف المرأة؟:

مع أنّ ما يرثه الرجل هو ضعف ما ترثه المرأة، إلّا أنّه بالإمعان و التأمل يتّضح أنّ المرأة ترث- فى الحقيقة- ضعف ما يرثه الرجل إذا لا حظنا القضية من جانب آخر، و هذا إنّما هو لأجل ما يوليه الإسلام من حماية لحقوق المرأة.

توضيح ذلك: إن هناك وظائف أنيطت بالرجل (و بالأحرى كلّف بأدائها تجاه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۱

المرأة) تقتضى صرف و إنفاق نصف ما يحصل عليه الرجل على المرأة، فى حين لا يجب على المرأة أى شيء من هذا القبيل.

إنّ على الرجل (الزوج) أن يتكفل نفقات زوجته حسب حاجتها من المسكن و الملبس و المأكل و المشرب و غير ذلك من لوازم الحياة كما أن عليه أن ينفق على أولاده الصغار أيضا، فى حين أعفيت المرأة من الإنفاق حتى على نفسها، و على هذا يكون فى إمكان المرأة تدخر كل ما تحصله عن طريق الإرث، و تكون نتيجة ذلك أن الرجل يصرف و ينفق نصف مدخوله على المرأة، و نصفه فقط على نفسه، فى حين يبقى سهم المرأة من الإرث باقيا على حاله.

و لمزيد من التوضيح نلفت نظر القارئ الكريم إلى المثال التالى: لنفترض أنّ مجموع الثروات الموجودة فى العالم و التى تقسم تدريجا- عن طريق الإرث- بين الذكور و الإناث هو (۳۰) مليارد دينار، و الآن فلنحاسب مجموع ما يحصل عليه الرجال و نقيسه بمجموع ما تحصل عليه النساء عن طريق الإرث.

فلنفترض أن عدد الرجال و النساء متساو فتكون حصة الرجال هو (۲۰) ميليارد، و حصة النساء هى (۱۰) ميلياردات.

و حيث أن النساء يتزوجن- غالبا- فإن الإنفاق عليهنّ يكون من واجب الرجال، و هذا يعنى أن تحتفظ النساء ب (۱۰) ميلياردات (و هو سهمهنّ من الإرث)، و يشاركن الرجال فى العشرين ميليارد، لأن على الرجال أن يصرفوا من سهمهم على زوجاتهم و أطفالهم.

و على هذا يصرف الرجال (۱۰) ميلياردات على النساء (و هو نصف سهمهم من الإرث) فيكون مجموع ما تحصل عليه النساء و يملكنه هو (۲۰) ميليارد و هو ثلثا الثروة العالمية فى حين لا يعود من الثروة العالمية على الرجال إلّا (۱۰) ميلياردات، أى ثلث الثروة العالمية (و هو المقدار الذى يصرفه الرجال على أنفسهم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۲

و تكون النتيجة أنّ سهم المرأة التى تصرفه و تستفيد منه و تتملكه واقعا هو ضعف سهم الرجل، و هذا التفاوت إنّما لكونهنّ أضعف من الرجال على كسب الثروة و تحصيلها (بالجهد و العمل)، و هذا- فى حقيقته- حماية منطقية و عادلة قام بها الإسلام للمرأة، و هكذا

یتبیّن أنّ سهمها الحقیقی أکثر- فی النظام الإسلامی- و إن کان فی الظاهر هو النصف.

و من حسن الصدف أنّنا نقف علی هذه النقطة إذا راجعنا التراث الإسلامی حیث أنّ هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بدایة الإسلام و خالج بعض الأذهان، فکان الناس یسألون أئمّة الدین عن سرّ ذلک بین حین و آخر، و کانوا یحصلون علی إجابات متشابهة فی مضمونها- علی الأغلب- و هو أن اللّه إذ کلف الرجال بالإنفاق علی النساء و أمهارهنّ، جعل سهمهم أکثر من سهمهنّ.

إن أبا الحسن الرضا علیه السّلام کتب إلیه فی ما کتب من جواب مسائله علّة إعطاء النساء نصف ما یعطی الرجال من المیراث: لأن المرأة إذا تزوجت أخذت، و الرجل یعطی، فلذلک و فرّ علی الرجال، و علة أخری فی إعطاء الذکر مثل ما یعطی الأنثی لأن الأنثی من عیال الذکر إن احتاجت، و علیه أن یعولها و علیه نفقتها، و لیس علی المرأة أن تعول الرجل و لا تؤخذ بنفقته إن احتاج فوفرّ علی الرجال لذلک ۴۸].

إرث الأب و الأمّ:

و أمّا میراث الآباء و الأمهات الذین هم من الطبقة الأولی، و فی مصاف الأبناء أیضا، فإن له کما ذکرت الآیة الحاضرة (أی الآیة الأولی من هذه المجموعة) ثلاث حالات هی:

الحالة الأولی: إنّ الشخص المتوفی إن کان له ولد أو أولاد، ورث کل من الأب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۳

و الأمّ السدس: وَ لِأَبَوَیْهِ لِکُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَکَ إِنْ کانَ لَهُ وَلَدٌ.

الحالة الثّانیة: إن لم یکن للمتوفی ولد، و انحصر ورثته فی الأب و الأمّ، ورثت الأمّ ثلث ما ترک، یقول سبحانه: فَإِنْ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ و إذا کنّا لا نجد هنا أی ذکر عن سهم الأب فلان سهمه واضح و بیّن و هو الثلثان، هذا مضافا إلی أنّه قد یخلف المیت زوجة فینقص فی هذه الصورة من سهم الأب دون سهم الأم، و بذلک یکون سهم الأب متغیّرا فی الحالة الثانیة.

الحالة الثالثة: إذا ترک المیت أبا و أمّا و أخوة من أبویه أو من أبیه فقط، و لم یترک أولادا، ففی مثل هذه الحالة ینزل سهم الأم إلی السدس، و ذلک لأن الأخوة یحجبون الأم عن إرث المقدار الزائد عن السدس و إن کانوا لا یرثون، و لهذا یسمی أخوة المیت بالحاجب، و هذا ما یعنیه قول اللّه سبحانه: فَإِنْ کانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ

و فلسفة هذا الحکم واضحة، إذ وجود أخوة للمیت یثقل کاهل الأب، لأن علی الأب الإنفاق علی أخوة المیت حتی یکبروا، بل علیه أیضا أن ینفق علیهم بعد أن یکبروا، و لهذا یوجب وجود أخوة للمیت من الأبوین أو من الأب خاصّة تدنی سهم الأمّ، و لا یوجب تدنی سهم الأب، و لا یحجبونها عن إرث ما زاد علی السدس إذا کانوا من ناحیة الأمّ خاصّة، إذ لا یجب لهم علی والد المیت شیء من النفقات. کما هو واضح.

سؤال:

و یرد هنا سؤال، و هو أن القرآن استعمل فی المقام صیغة الجمع إذ قال: فَإِنْ کانَ لَهُ إِخْوَةٌ و نحن نعلم أن أقل الجمع هو ثلاثة، فی حین یذهب جمیع الفقهاء إلی أن الأخوین یحجبان أیضا، فکیف التوفیق بینهما؟

الجواب:

إنّ الجواب يتّضح من مراجعة الآيات القرآنية الاخرى، و إذ لا يلزم أن يكون

المراد كلّما استعملت صيغة الجمع، الثلاثة فما فوق، بل استعملت أحيانا على شخصين فقط كما فى الآية (۷۸) من سورة الأنبياء وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ

و الآية ترتبط بقضاء داود و سليمان، و قد استخدم القرآن الكريم ضمير الجمع فى شأنهما، فقال «لحكمهم».

و من هنا يتّضح أنّه قد تستعمل صيغة الجمع فى شخصين أيضا، و لكن هذا يحتاج طبعا إلى قرينة و شاهد، و الشاهد فى المقام هو ورود الدليل من أئمّة الدين على ذلك، و إجماع المسلمين، إذ أجمع فقهاء المسلمين سنة و شيعة (إلّا ابن عباس) إن الحكم المذكور فى الآية يشمل الأخوين أيضا.

الإرث بعد الوصية و الدّين:

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يقول: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِها أَوْ دَيْنٍ فلا بدّ من تنفيذ ما أوصى به الميت من تركته، أو أداء ما عليه من دين أوّلا، ثمّ تقسيم البقية بين الورثة.

(و قد ذكرنا فى باب الوصية أنّ لكل أحد أن يوصى بأمور فى مجال الثلث الخاص به فقط، فلا يصح أن يوصى بما زاد عن ذلك إلّا أن يأذن الورثة بذلك).

ثمّ قال سبحانه: آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً و هذه العبارة تفيد أن قانون الإرث المذكور قد أرسى على أساس متين من المصالح الواقعية، و أن تشخيص هذه المصالح بيد اللّه، لأن الإنسان يعجز عن تشخيص مصالحه و مفاسده جميعا، فمن الممكن أن يظن البعض أنّ الآباء و الأمهات أكثر نفعا لهم، و لذلك فهم أولى بالإرث من الأبناء و إن عليه أن يقدمهم عليهم، و من الممكن أن يظن آخرون العكس، و لو كان أمر الإرث و قسمته متروكا إلى الناس لذهبوا فى ذلك ألف مذهب، و لآل الأمر إلى الهرج و المرج و الفوضى، و انتهى إلى الاختلاف و التشاجر، و لكن اللّه الذى يعلم بحقائق الأمور كما هى أقام قانون

الإرث على نظام ثابت يكفل خير البشرية و يتضمّن صلاحها ...

و لأجل أن يتأكد كل ما ذكر من الأمور، و يتخذ صفة القانون الذى لا يحتمل الترديد، و لا يكون فيه للناس أى مجال نقاش، يقول سبحانه: فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً و بذلك يقطع الطريق على أى نقاش فى مجال القوانين المتعلقة بالأسهم فى الإرث.

سهم الأزواج بعضهم من بعض:

فى الآية السابقة أشير إلى سهم الأولاد و الآباء و الأمهات، و فى الآية التى تليها يقول اللّه سبحانه: وَ لَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ و يشير سبحانه إلى كيفية إرث الزوجين بعضهما من بعض، فإن الزوج يرث نصف ما تتركه الزوجة هذا إذا لم يكن للزوجة ولد، فإن كان لها ولد أو أولاد (و لو من زوج آخر) ورث الزوج ربع ما تتركه فقط، و إلى هذا يشير تعالى فى نفس الآية:

فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ

على أن هذا التقسيم يجب أن يتمّ بعد تنفيذ وصايا المتوفاة، أو تسديد ما عليها من ديون كما يقول سبحانه: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها

أَوْ دَيْنٍ

و أمّا إرث الزوجة مما يتركه الزوج، فإذا كان للزوج أولاد (و إن كانوا من زوجة أخرى) ورثت الزوجة الثمن لقوله سبحانه: فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ

و يكون لها الربع إن لم يكن للزوج الميت ولد لقوله سبحانه: وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ.

على أنّ هذا التقسيم يجب أن يتمّ أيضا من بعد تنفيذ وصايا الميت أو تسديد ديونه من أصل التركة: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ

و الملفت للنظر فى المقام هو انخفاض سهام الأزواج إلى النصف إذا كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۶

للميت ولد، و ذلك رعاية لحال الأولاد.

و أمّا العلّة لكون سهم الأزواج ضعف سهم الزوجات فهى ما ذكرناه فى البحث السابق حول علّة الفرق بين سهم الذكر و الأنثى.

ثمّ إنّ هاهنا نقطة مهمة يجب التنبيه إليها أيضا، و هى أنّ السهم المعين للنساء (سواء الربع أو الثمن) خاص بمن ترك زوجة واحدة فقط (فإنّها ترث كل الربع أو كل الثمن) و أمّا إذا ترك الميت زوجات متعددة قسم ذلك السهم (الربع أو الثمن) بينهن بالتساوى، و هذا هو ما يدل عليه ظاهر الآية مورد البحث أيضا.

إرث أخوة الميت و أخواته:

ثمّ أنّه سبحانه بعد أن يذكر سهم الأزواج بعضهم من بعض، يعمد إلى ذكر أسهم أخوة الميت و أخواته فيقول: وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً ....

و فى هذه العبارة نواجه مصطلحا جديدا ورد فى موضعين من القرآن فقط، أحدهما، فى الآية المبحوثة هنا، و الثانى، فى آخر آية من سورة النساء و هى كلمة «كلالة».

إنّ ما يستفاد من كتب اللغة هو اشتقاق كلالة من الكلال، و هو ذهاب القوّة، فقد جاء فى صحاح اللغة: الكلالة فى الأصل مصدر بمعنى الكلال و هو ذهاب القوّة.

و لكنّها استعملت فى ما بعد فى أخوة الميت و أخواته الذين يرثونه، و لعل التشابه بين المعنى الأوّل و الثّانى هو أن الأخوة و الأخوات يعتبرون من الطبقة الثانية فى طبقات الإرث، و هم لا يرثون إلّا مع عدم وجود الأب و الأمّ و الأولاد للميت و مثل هذا الفاقد للأب و الأم و الأبناء لا بدّ أن يعانى من الضعف الشديد، و ذهاب القوّة، و لهذا قيل له كلالة، قال الراغب فى كتابه المفردات: «الكلالة اسم لما عدا الولد و الوالد من الورثة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۷

و

روى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سئل عن الكلالة، فقال: من مات و ليس له ولد و لا والد، فجعله اسما للميت، كلا القولين صحيح فإن الكلالة مصدر يجمع الوارث و الموروث جميعا.

و أمّا تعبير القرآن الكريم عن أخوة الميت و أخواته بالكلالة فلعله لأنّ على أمثال هؤلاء ممن عدموا الآباء و الأمهات و الأولاد أن يعلموا أن أموالهم ستقع من بعدهم فى أيدى من يمثلون ضعفه، و يدلون على ذهاب قوتهم، و لذلك ينبغى لهم أن يصرفوها فى مواضع أكثر ضرورة و لزوما، و ينفقونها فى سبيل المحتاجين و فى حفظ المصالح العامّة.

عودة إلى تفسير الآية:

يقول اللّه سبحانه تعالى: وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ أى إن مات رجل و لم يترك إلّا أخا أو أختا، أو ماتت امرأة و لم تترك سوى أخ أو أخت، يورث كل منهما السدس من التركة، هذا إذا كان الوارث أخا واحدا و أختا واحدة.

أمّا إذا كانوا أكثر من واحد ورث الجميع ثلثا واحدا، أى قسم مجموع الثلث بينهم: فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ ثمّ أضاف القرآن: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ أى تكون قسمة الميراث هكذا بعد أن ينفذ الورثة من التركة ما أوصى به المتوفى، أو يسددوا ما عليه من ديون، ثمّ قال: غَيْرَ مُضَارٍّ أى فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث و كذا الدين مضرّا بالورثة، أى أن لا يكون أكثر من الثلث، لأن تجاوز الوصية أو الدين عن حد الثلث إضرار، كما أنّه يتوقف إمضاء الزائد على الثلث على إذن الورثة و رضاهم بذلك، أو أن يخبر الميت عن ديون كذبا، ليحرم ورثته عن الإرث و يضرّ بهم، كما نصت على ذلك روايات كثيرة مروية عن رسول

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۸

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته الطاهرين عليهم السّلام.

ثمّ أنّه سبحانه للتأكيد على هذا الحكم يقول: وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ أى أنّ هذا المطلب وصية من اللّه يجب أن تحترموها، لأنّه العالم بمصلحتكم و خيركم، فهو أمركم بهذا عن حكمة، كما أنّه تعالى عالم بنيات الأوصياء، هذا مع أنّه تعالى حليم لا يعاقب العصاة فورا، و لا يأخذهم بظلمهم بسرعة.

بحوث أخرى عند هذه الآية:

هذا و تجب و الإشارة- هنا- إلى عدّة أمور:

۱- إنّ ما ورد فى الآية السابقة حول إرث الأخوة و الأخوات و إن كان فى ظاهره مطلقا يشمل الأخوة و الأخوات من الأبوين أو من الأب وحده أو من الأم وحدها، إلّا أنّه بملاحظة آخر آية من سورة النساء (التى يأتى تفسيرها قريبا) يتّضح أنّ المراد- هنا- هو الأخوة و الأخوات من جانب الأم فقط (أى الذين ينتسبون إلى الميت من جانب الأم فقط)، فى حين أنّ المقصود فى الآية الأخيرة من السورة هو الأخوة و الأخوات من جانب الأبوين أو من جانب الأب خاصّة (سنتعرض لذكر الأدلة على هذا الأمر عند تفسير الآية الأخيرة من هذه السورة إن شاء اللّه).

و على هذا الأساس فإن الآيتين و إن كانتا حول إرث «الكلالة» (أى أخوة الميت و أخواته) و يبدو للنظر تعارض الآيتين، إلّا أن التدبر و الإمعان فى مضمون الآيتين يكشف لنا أنّ كل واحدة منهما تقصد طائفة خاصّة من أخوة الميت و أخواته، و أنّه لا تعارض بين مفاد الآيتين أبدا.

۲- من الواضح أن هذه الطبقة لا ترث إلا عند فقدان الطبقة الأولى (و هو الأب و الأم، و الأولاد) مطلقا، و يدل على ذلك قوله تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۹

بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ ۴۹] كما تدل عليه روايات متظافرة وردت فى هذا الصعيد تعين طبقات الإرث، و ترجح بعضها على البعض الآخر.

۳- إنّ لفظة فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ تفيد أن أخوة الميت و أخواته أى «الكلالة» إن كانوا أكثر من أخ و أخت يقتسمون الثلث فيما بينهم بالتساوى، من دون فرق بين الذكور و الإناث، لأنّ المفهوم من «الشركاء فى الثلث» هو تساوى الأسهم.

۴- يستفاد من الآية المبحوثة أنّه لا يحق للإنسان أن يعترف بديون- كذبا- ليضرّ بالورثة و يضيع حقوقهم و يحرمهم من إرثه، أنّه يجب عليه فقط أن يعترف- فى آخر فرصة من حياته- بما عليه من الديون واقعا، كما له أن يوصى بوصايا عادلة عبّر عنها فى الروايات بأن تكون فى حد «الثلث» و إطاره.

فقد وردت فى روايات الأئمّة عليهم السّلام- فى هذا الصعيد- عبارات شديدة النكير على من يوصى بوصايا مضرّة بالورثة منها قولهم: «إنّ الضرار فى الوصية من الكبائر»[۵۰].

إنّ الإسلام الحنيف بسنّه لهذا القانون يكون قد حفظ للميت نفسه شيئا من الحق فى مسألة، إذ يهيئ له إمكانية الاستفادة و الانتفاع بمقدار الثلث، كما حفظ حقوق الورثة أيضا حتى لا ينشأ فى أفئدتهم أية ضغينة، و حتى لا تتزعزع وشائج المودّة و روابط القربى التى يجب أن تستمر بعد وفاة المورث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۰

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۳ الى ۱۴]

اشارة

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۳) وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَ لَهُ عَذابٌ مُهِينٌ (۱۴)

التّفسير

اشارة

«الحدود» جمع حدّ، و يعنى فى أصل اللّغة لمنع، ثمّ اطلق على كلّ حائل و حاجز بين شيئين يفصل بينهما و يميز، فحدّ البيت و البستان و الدّولة يراد منه الموضع الذى يفصل هذه النقطة عن غيرها من النقاط الاخرى.

هذا و لقد بدأت الآية الأولى من هاتين الآيتين بالإشارة إلى قوانين الإرث التى مرّت فى الآيات السابقة بلفظة «تلك» إذ قال سبحانه: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ أى تلك حدود اللّه التى لا يجوز تجاوزها و تجاهلها لأحد، فإن من تعدى هذه الحدود كان عاصيا مذنبا.

و قد وردت هذه العبارة تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فى مواضع عديدة من القرآن الكريم، و قد جاءت دائما بعد ذكر سلسلة من الأحكام و القوانين و المقررات الاجتماعية، ففى الآية ۱۸۷ من سورة البقرة مثلا تأتى هذه العبارة بعد الإعلان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۱

عن حرمة اللقاء الجنسى بين الزوجين حال الاعتكاف، و بعد ذكر سلسلة من الأحكام المتعلقة بالصوم، كما جاءت فى الآيات (۲۲۹ و ۲۳۰) من سورة البقرة، و الآية (۱۰) من سورة الطلاق بعد بيان قسم من أحكام الطلاق، و فى الآية (۴) من سورة المجادلة بعد بيان كفارة «الظهار».

و فى جميع هذه الموارد أحكام و قوانين منع من تجاوزها، و لهذا وصفت بكونها «حدود اللّه»[۵۱].

ثمّ بعد الإشارة إلى هذا القسم من حدود اللّه يقول سبحانه: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها،

و هو بذلك يشير إلى النّتيجة الأخروية للالتزام بحدود اللّه و احترامها، ثمّ يصف هذه النتيجة الأخروية بقوله: وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ثمّ يذكر سبحانه ما يقابل هذا المصير فى صورة المعصية، و تجاوز الحدود الإلهية إذ يقول: وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها.

على أنّنا نعلم أن معصية اللّه (مهما كانت كبيرة) لا توجب الخلود و العذاب الأبدى فى النار، و على هذا الأساس يكون المقصود فى الآية الحاضرة هم الذين يتعدون حدود اللّه عن تمرد و طغيان و عداء و إنكار لآيات اللّه، و فى الحقيقة الذين لا يؤمنون باللّه و لا باليوم الآخر، و لا يستبعد هذا المعنى إذا لا حظنا أن «حدود» جمع، و هو مشعر بأن يكون التعدى شاملا لجميع الحدود و الأحكام الإلهية، لأن الذى يتجاهل كل القوانين الإلهية لا يؤمن باللّه عادة، و إلّا فإنّه يحترم و لو بعضها- على الأقل.

إنّ الملفت للنظر فى الآية السابقة أنّ اللّه تعالى عبّر عن أهل الجنّة بصيغة الجمع حيث قال تعالى: خالِدِينَ فِيها بينما عبر عن أهل النّار بصيغة المفرد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۲

حيث قال خالِداً فِيها.

إنّ هذا التفاوت فى التعبير- فى الآيتين المتلاحقتين- شاهد واضح على أن لأهل الجنّة اجتماعات (أو بعبارة أخرى أنّ هناك حالة اجتماعية بين أهل الجنّة و نزلائها) و تلك هى فى حد ذاتها نعمة من نعم الجنّة، ينعم بها ساكنوها و أصحابها، بينما يكون الوضع بالنسبة إلى أهل النار مختلفا عن هذا، فكل واحد من أهل النار مشغول بنفسه- لما فيه من العذاب- بحيث لا يلتفت إلى غيره، و لا يفكر فيه، بل هو مهتم بنفسه، يعمل لوحده، و هذه هى حالة المستبدين المتفردين بالرأى و الموقف، و الجماعات المتحدة و المجتمعة فى المقابل، فى هذه الدنيا أيضا، فالفريق الأول يمثل أهل جهنم، بينما يمثل الفريق الثانى أهل الجنّة.

ميزات قانون الإرث الإسلامى:

فى قانون الإرث عموما، و فى نظام الإرث الإسلامى خاصّة مزايا نشير إلى قسم منها فى ما يلى:

۱- فى نظام الإرث الإسلامى، و فى ضوء ما أقرّ من الطبقات للورثة لا يحرم أى واحد من أقرباء المتوفى من الإرث، فليس فى الإسلام ما كان متعارفا (أو لا يزال) عند العرب الجاهليين، أو فى بعض المجتمعات البشرية من حرمان النساء و الأطفال من الإرث لعدم قدرتهم على حمل السلاح و المشاركة فى الحروب و ما شاكل ذلك، بل يشمل نظام الإرث الإسلامى كل من يمتّ إلى المتوفى بوشيجة القربى.

۲- يلبى هذا النظام الحاجات الإنسانية الفطرية و المشروعة، لأنّ كل إنسان من أبناء البشر يجب أن يرى حصيلة جهوده و ثمرة أتعابه و نتاج كدّه و كدحه بيد من يعتبره امتدادا لوجوده و شخصيته، و لهذا يكون سهم الأبناء- حسب هذا النظام- أكثر من سهام غيرهم، فى حين تكون سهام الآباء و الأمهات و غيرهم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۳

الأقرباء و أنصبتهم بدورها سهاما و أنصبة محترمة و جديرة بالاهتمام أيضا.

۳- إنّ هذا القانون يشجع الأشخاص على السعى و العمل و بذل المزيد من الفعالية فى سبيل تحصيل الثروة، و تشغيل عجلة الإقتصاد. و ذلك لأنّ الإنسان إذا عرف أنّ نتاج كده و كدحه و حصيلة جهوده و أتعابه طوال حياته ستنتقل إلى من يحبّهم و يودّهم، فإنّه يتشجع على المزيد من العمل و النشاط مهما كان عمره و سنه، و مهما كانت ظروفه و ملابساته، و بهذا لا يحدث أى ركود فى فعاليته و نشاطه مطلقا.

و قد أشرنا فی ما مضی- کیف أنّ إلغاء قانون الإرث و التوارث فی بعض البلاد، و تأمیم أموال الموتی، و حیازتها من قبل الدولة أدی إلی آثار سیئة فی المجال الاقتصادی، و ظهر فی صورة رکود اقتصادی مخیف دفع بالدولة إلی إعادة النظر فی إلغاء قانون الإرث و حذفه.

۴- إنّ قانون الإرث الإسلامی یمنع من تراکم الثّروة، لأنّ هذا النظام یقضی بتقسیم الثّروة- بعد کلّ جیل- بین الأفراد المتعددین بصورة عادلة، و هذا ممّا یساعد علی تفتیت الثروة، کما یساعد علی التوزیع العادل لها.

هذا و الجدیر بالاهتمام أنّ هذا التقسیم لا یعانی ممّا تعانی منه بعض الأشکال السائدة فی عالمنا الراهن لتقسیم الثروة، و التی ترافق غالبا سلسلة من المضاعفات و الآلام الاجتماعیة السیئة، فهو نظام فرید من نوعه یشمل الجمیع برحمته، و لا یتسبب فی انزعاج أی شخص أو جهة.

۵- إنّ الأسهم و الأنصبة فی قانون الإرث الإسلامی لم تنظم علی أساس الارتباط و الانتساب إلی المتوفی برابطة النسب خاصّة، بل علی أساس الحاجات الواقعیة عند الورثة، فإذا رأینا الذکور من أولاد المیت یرثون ضعف ما ترثه الإناث، أو یرث الأب- فی بعض الموارد- أکثر من الأمّ، فهو لأجل أنّ الرجال یتحملون مسئولیة مالیة أکبر فی النظام الإسلامی، و لأنّ علیهم أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۴

یتحملوا الإنفاق علی زوجاتهم و عوائلهم، و لهذا لا بدّ أن یسهم لهم- فی الإرث- أکثر من الإناث.

ما هو العول، و ما هو التعصیب؟:

فی کتاب الإرث نقف علی بحثین أحدهما تحت عنوان «العول»، و الآخر تحت عنوان «التعصیب» و هما حالتان تعرضان لمسألة الإرث عند ما تکون الأسهم المذکورة فی الآیات المتقدمة أقل من الترکة أحیانا، أو أکثر أحیانا أخری.

و للمثال نقول: إذا ترک المیت أختین من جانب الأب و الأمّ، و زوجا، ورثت الأختان ثلثی المال و ورث الزوج النصف، فیکون المجموع ۶/ ۷ أی بزیادة ۶/ ۱ علی مجموع المال، و هنا یطرح السؤال التالی و هو: ننقص هذا السدس الزائد ۶/ ۱ من جمیع الورثة- حسب سهامهم- و بصورة عادلة، أم یجب أن تنقص من نصیب أشخاص معینین خاصّة؟

المعروف عن علماء السنة أنّهم یذهبون إلی إدخال النقص علی جمیع الورثة، و سمّی الفقهاء هذا القسم عولا، لأن العول یعنی فی اللغة الارتفاع و الزیادة.

ففی المثال الحاضر یقول فقهاء السنة: إنّ السدس الزائد یجب أن یقسم علی الجمیع، و أن ننقص من جمیع الورثة من کل واحد حسب سهمه ۵۲]، و هکذا یکون العمل فی الموارد الاخری، و فی الحقیقة ینزل الورثة- هنا- منزلة الغرماء الذین لا تفی أموال المفلس بتسدید دیونهم جمیعا و بصورة کاملة، فهنا یدخل النقص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۵

علی جمیع الغرماء بنسب متناسبة مع مقادیر دیونهم.

و لکن فقهاء الشیعة یذهبون فی هذا المجال مذهبا آخر، فهم یدخلون النقص علی أشخاص معنیین، لا علی جمیع الورثة.

فهم فی المثال الحاضر، مثلا یدخلون النقص علی الأختین، و یقولون کما جاء فی حدیث شریف: «إن الذی أحصی رمل عالج- أی المتراکم من الرمل الداخل بعضه فی بعض- لیعلم أن السهام لا تعول» أی لا تتعدی الأسهم و لا تؤول إلی الکسر، فلا بدّ أن یکون سبحانه قد وضع لمثل هذه الحالة قانونا، و ذلک هو أن بین الورثة الذین ذکرهم القرآن الکریم من له سهم ثابت من حیث الأقل أو الأکثر کالزوج و الزوجة و الأب و الأمّ، و من لیس سهم کذلک کالأختین و البنتین، و من هنا نفهم أن النقص یجب أن یدخل دائما

علی من لیس له سهم محدد فی جانب القلّة أو الکثرة (أی الذی لیس له حدّ أقل أو حدّ أکثر معین) أی الذی یکون عرضة للتغیر و الاضطراب، و لهذا لا یدخل النقص المذکور علی سهم الزوج، فهو یرث سهمه من الترکة و هو النصف بلا نقصان بسبب العول، و إنّما یدخل النقص علی سهم الأختین فقط (فلا حظ ذلک بدقّة).

و قد یکون مجموع الأسهم أقلّ من مجموع المال- فیفضل شیء من المال بعد أخذ کل واحد من أفراد الطبقة الوارثة فرضه.

فمثلا إذا توفی رجلا و خلف بنتا واحدة و أمّا، فإن سهم الأم هو ۶/ ۱ و سهم البنت هو ۶/ ۳ فیکون مجموع الأسهم هو ۶/ ۴ أی یفصل ۶/ ۲ من المال، فی هذه الصورة یذهب علماء السنة و فقهاؤهم إلی إعطاء هذا الفاضل من الترکة إلی عصبة المیت ۵۳] و هم رجال الطبقة الثانیة من الإرث (کالأخوة) و یسمی هذا القسم بالتعصیب.

و لکن فقهاء الشیعة یذهبون إلی أنّ ذلک الفاضل یجب أن یقسّم بین الوارثین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۶

المذکورین أی بنسبة ۱ و ۳، لأنه مع وجود الطبقة السابقة لا تصل النوبة إلی الطبقة اللاحقة، هذا مضافا إلی أن إعطاء الفاضل من الترکة إلی رجال الطبقة اللاحقة یشبه ما کان سائدا فی العهد الجاهلی حیث تحرم النساء من الإرث.

هذا و البحث الراهن من الأبحاث العلمیة المعقدة، و قد أعطینا هنا خلاصة موضحة منه تبعا للحاجة، و أما التفصیل فموکول إلی محله فی الکتب الفقهیة المفصّلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۷

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۵ الی ۱۶]

اشارة

وَ اللَّاتِی یَأْتِینَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِکُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَیْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْکُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِکُوهُنَّ فِی الْبُیُوتِ حَتَّی یَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ یَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِیلًا (۱۵) وَ الَّذانِ یَأْتِیانِها مِنْکُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَ أَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ کانَ تَوَّاباً رَحِیماً (۱۶)

التّفسیر

اشارة

تعنی لفظة «الفاحشة» حسب اللّغة: العمل أو القول القبیح جدّا- کما أسلفنا- و یستعمل فی الزنا لقبحه الشدید، و قد وردت هذه اللفظة فی (۱۳) موردا من القرآن الکریم، و قد استعملت تارة فی «الزّنا» و أخری فی «اللواط» و تارة فی الأفعال الشدیدة القبح علی العموم.

و الآیة الأولی- من هاتین الآیتین- تشیر کما فهم أکثر المفسرین- إلی جزاء المرأة المحصنة التی تزنی. فتقول: وَ اللَّاتِی یَأْتِینَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِکُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَیْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْکُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِکُوهُنَّ فِی الْبُیُوتِ حَتَّی یَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ

و ما یدل علی أنّ الآیة المبحوثة تعنی زنا المحصنة- مضافا إلی القرینة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۸

المذکورة فی الآیة اللاحقة- التعبیر ب «من نسائکم» أی زوجاتکم، لأنّ التعبیر بهذه اللفظة عن الزوجات قد تکرر فی مواضع عدیدة من القرآن الکریم، و علی هذا یکون جزاء المحصنة التی ترتکب الزنا فی هذه الآیة هو الحبس الأبدی.

و لکنه تعالی أردف هذا الحکم بقوله: أَوْ یَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِیلًا فإذن لا بدّ أن یستمر هذا الحبس فی حقهنّ إلی الأبد حتی یأتی

أجلهنّ، أو يعين لهنّ قانون جديد من جانب اللّه سبحانه.

و يستفاد من هذه العبارة أنّ هذا الحكم (أى الحبس الأبدى للمحصنة الزانية) حكم مؤقت، و لهذا ذكر من بداية الأمر أنّه سوف ينزل فى حقهنّ قانون جديد، و حكم آخر فى المستقبل (و بعد أن تتهيأ الظروف و الأفكار لمثل ذلك) حينئذ سيتخلص النساء اللاتى شملهنّ ذلك الحكم (أى الحكم بالحبس أبدا) من ذلك السجن إذا كن على قيد الحياة طبعا، و لا يشملهنّ حكم جزائى آخر، و ليس الخلاص من السجن إلّا بسبب إلغاء الحكم السابق، و أما عدم شمول الحكم الجديد لهنّ فلئن الحكم الجزائى لا يشمل الموارد التى سبقت مجيئه، و بهذا يكون الحكم و القانون الذى سيصدر فى ما بعد- مهما كان- سببا لنجاة هذه السجينات، على أنّ هذا الحكم الجديد يشمل حتما كل الذين سيرتكبون هذا المنكر فى ما بعد. (فلا حظ بدقّة هذه النقطة).

و أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من قوله تعالى: أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا هو أنّ اللّه سبحانه قد جعل الرجم للمحصنات الزانيات فى ما بعد، يجعل و بذلك سيكون للسجينات سبيلا إلى النجاة و الخلاص من عقوبة السجن، فهو احتمال مردود، لأنّ لفظة «لهنّ سبيلا» لا تتلاءم أبدا مع مسألة الأعدام، فعبارة «لهنّ» تعنى ما يكون نافع لهنّ و ليس الاعدام سبيلا لنجاتهنّ، و الحكم الذى قرّره اللّه فى الإسلام للمحصنات الزانيات فى ما بعد هو الرجم (و قد ورد هذا الحكم فى لسان السنة النبوية الشريفة أى الأحاديث قطعا، و إن لم ترد فى القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۹

أية إشارة إليها).

من كلّ ما قلناه اتّضح أنّ الآية الحاضرة لم تنسخ قط، لأنّ النسخ إنّما يكون فى الأحكام التى تردّ مطلقة من أوّل الأمر لا التى تذكر مؤقتة و محدودة كذلك، و الحكم المذكور فى الآية الحاضرة (أى الحبس الأبدى) من القسم الثّانى، أى أنّه حكم مؤقت محدود، و ما نجده فى بعض الرّوايات من التصريح بأنّ الآية الحاضرة قد نسخت بالأحكام التى وردت فى عقوبة مرتكبى الفاحشة، فالمراد منه ليس هو النسخ المصطلح، لأنّ النسخ فى لسان الروايات و الأخبار يطلق على كل تقييد و تخصيص (فلا حظ ذلك بدقّة و عناية).

ثمّ لا بدّ من الالتفات إلى ناحية مهمّة، و هى أن الحكم بحبس هذا النوع من النساء فى «البيوت» من صالحهن من بعض الجهات، لأنّه أفضل- بكثير- من سجنهن فى السجون العامّة المتعارفة، هذا مضافا إلى أن التجربة قد دلّت أن للسجون و المتعقلات العامّة أثرا سيئا و عميقا فى إفساد المجتمع، إذ أنّ هذه المراكز تتحول- شيئا فشيئا- إلى معاهد كبرى لتعليم شتى ألوان الجريمة و الفساد بسبب أن المجرمين سيتبادلون فيها- من خلال المعاشرة و اللقاء و فى سعة من الوقت و فراغ من الشغل- تجاربهم فى الجريمة.

ثمّ أنّ اللّه سبحانه يذكر بعد ذلك حكم الزنا عن إحصان إذ يقول: وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَ أَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً و يقصد أنّ الرجل غير المحصن أو المرأة غير المحصنة إن أتيا بفاحشة الزنا فجزاؤهما أن يؤذيا».

و الآية و إن كانت لا تذكر قيد «عدم الإحصان»، صراحة، إلّا أنّها حيث جاءت بعد ذكر حكم المحصنة و ذكر عقوبتها التى تختلف عن هذه العقوبة التى هى أخف من العقوبة المذكورة فى الآية السابقة، أستفيد منها إنها واردة فى حق الزنا عن غير إحصان، و إنها بالتالى عقوبة الزانى غير المحصن و الزانية غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۰

المحصنة اللذين لا يدخلان فى عنوان الآية السابقة، و بالتالى حيث أن الآية السابقة اختصّت- بالقرينة التى ذكرت- بالزانية المحصنة استنتجنا أنّ هذه الآية تبيّن حكم الزنا عن غير إحصان.

كما أنّ هناك نقطة واضحة أيضا، و هى أنّ الحكم المذكور فى هذه الآية (أى الإيذاء) عقوبة كلية، يمكن أن تكون الآية الثانية من سورة النور التى تذكر أن حدّ الزنا هو (۱۰۰) جلدة لكل واحد من الزانى و الزانية تفسيرا و توضيحا لهذه الآية و تعيينا للحكم الوارد فيها، و لهذا لا يكون هذا الحكم منسوخا أيضا.

ففى تفسير العياشى روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «يعنى البكر إذا أتت الفاحشة التى أتتها هذه الثيب فآذوهما».

و على هذا يكون المراد من «اللذان»- و إن كان للإشارة إلى مثنى مذكر- هو الرجل و المرأة أى من باب التغلب.

هذا و قد احتمل جماعة من المفسرين أن يكون الحكم الوارد فى هذه الآية واردا فى مجال «اللواط» و اعتبروا الحكم فى الآية السابقة واردا فى مجال «المساحقة»، و لكن رجوع الضمير فى «يأتيانها» إلى «الفاحشة» فى الآية السابقة يفيد أن العمل المستلزم لهذا الحكم الصارم فى هذه الآية هو من نوع العمل المذكور فى الآية السابقة لا من نوع آخر، و لهذا فإن اعتبار أنّ هذه الآية واردة فى شأن اللوط، و الآية السابقة واردة فى شأن المساحقة خلاف الظاهر، (و إن كان كلا العملين اللواط و المساحقة يشتركان فى عنوان كلى، و هو الميل إلى الجنس الموافق) و على هذا تكون كلتا الآيتين واردتين فى حدّ الزنا و حكمه.

هذا مضافا إلى أننا نعلم أنّ عقوبة «اللواط» فى الإسلام هو القتل و الإعدام و ليست الإيذاء و الجلد، و ليس ثمّة أى دليل على انتساخ الحكم المذكور فى الآية الحاضرة.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسألة التوبة و العفو عن مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۱

هؤلاء العصاة، فيقول: فَإِنْ تابا، وَ أَصْلَحا، فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً.

و هذا التعليم هو فى الحقيقة يفتح طريق العودة و يرسم خط الرجعة لمثل هؤلاء العصاة، فإن على المجتمع الإسلامى أن يحتضن هؤلاء إذا تابوا و رجعوا إلى الطهر و الصواب و أصلحوا، و لن يطردوا من المجتمع بعد هذا بحجّة الفساد و الانحراف.

هذا و يستفاد من هذا الحكم أيضا- أنّه يجب أن لا يعير العصاة الذين رجعوا إلى جادة الصواب و تابوا و أصلحوا على أفعالهم القبيحة السابقة، و أن لا يلاموا على ذنوبهم الغابرة، فإذا كان الحكم الشرعى و العقوبة الإلهية يسقطان بسبب التوبة و الإنابة، فإنّ من الأولى أن يغض الناس الطرف عن سوابقهم، و هذا بنفسه جار فى من نفذ فيه الحدّ الشرعى ثمّ تاب بعد ذلك، فإنّه يجب أن تشمله مغفرة المسلمين و عفوهم.

العقوبات الإسلامية السهل الممتنع:

قد يتساءل البعض أحيانا: لما ذا قرر الإسلام عقوبات صارمة، و أحكاما جزائية قاسية و ثقيلة؟ فمثلا: لما ذا حكم بالحبس الأبدى أوّلا على الزانية عن إحصان، ثمّ قرّر الحكم القتل و الإعدام فى شأنهما فى ما بعد، أ لم يكن من الأفضل أن يتّخذ الإسلام موقفا أكثر تسامحا و لينا تجاه هذه الأفعال، لتتعادل الجريمة و العقوبة و لا يرجح أحدهما على الآخر؟

غير أنّ العقوبات الإسلامية و إن كانت تبدو فى الظاهر صعبة و قاسية و ثقيلة، إلّا أنّ إثبات الجريمة فى الإسلام فى المقام ليس سهلا، أيضا فقد عين الإسلام و حدد لإثبات الجريمة شروطا لا تثبت- فى الأغلب- إلّا إذا وقعت الجريمة علنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۲

فمثلا: تصعيد عدد الشهود فى الزنا إلى الأربعة- كما فى الآية الحاضرة- من الأمور الصعبة جدّا بحيث لا يثبت بها إلّا من كان مجرما جسورا جدّا، و لا شك أن مثل هؤلاء لا بدّ أن ينالوا عقابا ثقيلا و قاسيا ليعتبر بهم الآخرون، فتطهر بذلك البيئة الاجتماعية من لوث الفساد و الانحراف و التورط فى الجريمة، كما أن المواصفات و الشروط المعتبرة فى الشهود مثل رؤية العملية الجنسية بعينها، و عدم الاكتفاء بالقرائن، و مثل الاتحاد فى الشهادة و ما شاكل ذلك تجعل إثبات الجريمة أصعب جدّا.

و بهذا الطريق جعل الإسلام احتمال التعرض لمثل هذه العقوبة القاسية الثقيلة نصيب عينى هذا النوع من المجرمين، و هو احتمال مهما

كان ضعيفا من شأنه أن يؤثر فى ردع الأشخاص، و كبح جماحهم، و أمّا الدقّة فى كيفية إثبات هذه الجريمة، و التشدد فى الشرائط التى اعتبرها فى الشهادة و الشهود فهو لأجل أن لا تتسع دائرة هذه الأعمال الخشنة، و لا يقتصر استعمال العقوبات الخشنة فيها على أقل الموارد، و فى الحقيقة أراد الإسلام أن يحافظ على الأثر التهديدى لهذا القانون الجزائى من دون أن يعرض أفرادا كثيرين لعقوبة الإعدام من جانب آخر.

و نتيجة ذلك هى أنّ هذا الأسلوب الإسلامى فى تعيين العقوبة و طريق إثبات الجريمة من أكثر الأساليب تأثيرا و نجاحا فى خلاص المجتمع من التورط فى الآثام و المعاصى فى حين لا يتعرض لمثل هذه العقوبة أفراد كثيرون، و بهذا نصف هذا الأسلوب بالأسلوب «السهل الممتنع».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۳

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۷ الى ۱۸]

اشارة

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۸)

التّفسير

شرائط قبول التوبة:

فى الآية السابقة بيّن اللّه تعالى بصراحة مسألة سقوط العقوبة عن مرتكبى الفاحشة و معصية الزّنا إذا تابوا و أصلحوا، ثمّ عقب ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً مشيرا بذلك إلى قبول التوبة من جانب اللّه أيضا.

و فى هذه الآية يشير سبحانه إلى شرائط قبول التوبة إذ يقول: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ.

و هنا يجب أن نرى ما ذا تعنى «الجهالة» هل هى الجهل و عدم المعرفة بالمعصية، أم هى عدم المعرفة بالآثار السيئة و العواقب المؤلمة للذنوب و المعاصى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۴

إنّ كلمة الجهل و ما يشتق منها و إن كانت لها معان مختلفة، و لكن يستفاد من القرائن أنّ المراد منها فى الآية المبحوثة هنا هو طغيان الغرائز، و سيطرة الأهواء الجامحة و غلبتها على صوت العقل و الإيمان، و فى هذه الصورة و إن لم يفقد المرء العلم بالمعصية، إلّا أنّه حينما يقع تحت تأثير الغرائز الجامحة، ينتفى دور العلم و يفقد مفعوله و أثره، و فقدان العلم لأثره مساو للجهل عملا.

و أمّا إذا لم يكن الذنب عن جهل و غفلة، بل كان عن إنكار لحكم اللّه سبحانه و عناد و عداء، فإن ارتكاب مثل هذا الذنب ينبئ عن الكفر، و لهذا لا تقبل التوبة منه، إلّا أن يتخلّى عن عناده و عدائه و إنكاره و تمرده.

و

فى الحقيقة إنّ هذه الآية تبيّن نفس الحقيقة التى يذكرها الإمام السجاد عليه السّلام فى دعاء أبى حمزة ببيان أوضح إذ يقول: «إلهى لم أعصك حين عصيتك و أنا بربوبيتك جاحد و لا بأمرك مستخف، و لا لعقوبتك متعرض، و لا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة

عرضت و سولت لى نفسى و غلبنى هواى».

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يشير إلى شرط آخر من شروط قبول التوبة إذ يقول: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

هـذا و قـد وقع كلام بين المفسّـرين فى المراد من «قريب» فقد ذهب كثيرون إلى أنّ معناه التوبة قبل أن تظهر آثار الموت و طلائعه، و يستشـهدون لهـذا الرأى بقوله تعـالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ الـذى جاء فى مطلع الآية اللاحقة، و يشير إلى أن التوبة لا تقبل إذ ظهرت علامات الموت.

و لعل استعمال لفظة «قريب» إنّما هو لأجل أن نهاية الحياة الدنيوية مهما بعدت فهى قريبة.

و لكن بعض المفسـرين ذهب إلى تفسـير لفظة «من قريب» بالزمان القريب من وقت حصول المعصية، فيكون المعنى أن يتوبوا فورا، و يندموا على ما فعلوه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۵

بسرعة، و يتوبوا إلى اللّه، لأنّ التوبة الكاملة هى التى تغسل آثار الجريمة و تزيل رواسبها من الجسم و الروح بشكل مطلق حتى لا يبقى أى أثر منه فى القلب، و لا يمكن هذا إلّا إذا تاب الإنسان و ندم قبل أن تتجذر المعصـية فى كيانها، و تتعمق آثارها فى وجوده فتكون له طبيعة ثانية، إذ فى غير هذه الصورة سـتبقى آثار المعصـية فى زوايا الروح الإنسانية، و تعشعش فى خلايا قلبه، فالتوبة الكاملة- إذن- هى التى تتحقق عقيب وقوع الذنب فى أقرب وقت، و لفظة «قريب» أنسب مع هذا المعنى من حيث اللغة و الفهم العرفى.

صحيح أنّ التوبة التى تقع بعد زمن طويل من ارتكاب المعصية تقبل أيضا، إلّا أنّها ليست التوبة الكاملة، و لعل التعبير بجملة «على اللّه» (أى على اللّه قبولها) كـذلك إشارة إلى هـذا المعنى، لأن مثل هذا التعبير لم يرد فى غير هذا المورد من القرآن الكريم، و مفهومه هو أن قبول التوبة القريبة من زمن المعصـية حق من حقوق العباد، فى حين ان قبول التوبة البعيدة عن زمن المعصـية تفضل من اللّه و ليس حقا.

ثمّ أنّه سـبحانه- بعـد ذكر شـرائط التوبـة- يقول: فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً مشـيرا بذلك إلى نتيجة التوبة التى توفرت فيها الشروط المذكورة.

ثمّ يقول تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ ... و هو إشارة إلى من لا تقبل توبته.

و علّة عدم قبول هذا النوع من التوبة واضـحة، لأن الإنسان عند الاحتضار فى رحاب الموت تنكشف له الأسـتار، فيرى ما لم يكن يراه من قبل، فهو يرى بعد انكشاف الغطاء عن عينيه بعض الحقائق المتعلقة بالعالم الآخر، و يشاهد بعينيه نتائج أعماله التى ارتكبها فى هذه الدنيا، و تتخذ القضايا التى كان يسمع بها صفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۶

محسوسـة، و فى هذه الحالة من الطبيعى أن يندم كل مجرم على جرمه و أفعاله السـيئة، و يفرّ منها فرار الذى يرى اقتراب ألسـنة اللهب من جسمه.

و من المسـلم أن التكليف الإلهى و الإختيار الربانى للبشـر لا يقوم على أساس هذا النوع من المشاهدات و المكاشـفات، بل يقوم على أساس الإيمان بالغيب، و المشاهدة بعينى العقل و القلب.

و لهـذا نقرأ فى الكتاب العزيز أنّ أبواب التوبـة كانت تغلق فى وجه بعض الأقوام العاصـية عنـد ظهور طلائع العـذاب الدنيوى و النقمة العاجلة، و للمثال نقرأ قول اللّه سبحانه عن فرعون إذ يقول: حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۵۴].

كما يستفاد من بعض الآيات القرآنية (مثل الآية ۱۲ من سورة السجدة) إنّ العصاة يندمون عند ما يشاهدون العذاب الإلهى فى الآخرة،

و لكن لات حين منـدم، فلا فائـدة لندمهم في ذلك الوقت، إن هؤلاء أشـبه ما يكونون بالمجرمين الذين إذا شاهدوا أعواد المشـنقة و أحسوا بالحبل على رقابهم نـدموا على جرائمهم و أفعالهم القبيحـة، فمن الواضـح أنّ مثل هـذه التوبـة و هـذا الندم لا يعد فضـيلة، و لا مفخرة و لا تكاملا، و لهذا لا يكون أى تأثير.

على أنّ هـذه الآيـة لاـ تنـافى الروايـات التى نصت على إمكـان قبول التوبـة حتى عنـد اللحظـة الأـخيرة من الحياة، لأن المراد فى هـذه الروايات هى اللحظات التى لم تظهر فيها بعد ملامح الموت و آثاره و طلائعه، و بعبارة أخرى لم تحصل لدى الشـخص العين البرزخية التى يقف بها على حقائق العالم الآخر.

هذا عن الطائفة الأولى الذين لا تقبل توبتهم، و هم من يتوبون عند ما تظهر أمام عيونهم ملامح الموت و تبدو عليهم آثاره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۱۵۷

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۷

و أمّا الطائفة الثّانية الذين لا تقبل توبتهم فهم الذين يموتون كفارا، إذ يقول سبحانه: وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ.

و لقد ذكر اللّه سبحانه بهذه الحقيقة فى آيات أخرى فى القرآن الكريم [۵۵].

و هنا يطرح سؤال و هو: متى لا تقبل توبة الذين يموتون كفارا؟

احتمل البعض أن لا تقبل توبتهم فى العالم الآخر، و احتمل آخرون أن يكون المراد من التوبـة- فى هـذا المقام- ليس هو توبـة العباد، بل توبة اللّه، يعنى عود اللّه على العبد و عفوه و رحمته له.

و لكن الظاهر هو أنّ الآيـة تهدف أمرا آخر و تقول: إن الذين يتوبون من ذنوبهم حال العافية و الإيمان و لكنهم يموتون و هم كفار لا تقبل توبتهم و لا يكون لها أى أثر.

و توضيح ذلـك: إنّنـا نعلم إن من شـرائط قبول الأعمـال «الموافاة على الإيمان» بمعنى أن يموت الإنسان مؤمنا، فالـذين يموتون و هم كفار تحبط أعمالهم السابقة حتى الصالحة منها حسب صريح الآيات القرآنية[۵۶]. و تنتفى فائدة توبتهم من ذنوبهم حتى إذا تابوا حال الإيمان فى هذه الصورة أيضا.

و خلاصة القول إنّ قبول التوبة مشروط بأمرين.

الأوّل: أنّ تتحقق التوبة قبل أن يرى الشخص علائم الموت.

و الثّانى: أن يموت و هو مؤمن.

ثمّ أنّه يستفاد من هـذه الآيـة أيضـا إن على الإنسان أن لا يؤخر توبته، إذ يمكن أن يأتيه أجله على حين غفلـة، فتغلق فى وجهه أبواب التوبة و لا يتمكن منها حينئذ.

و الملفت للنظر أن تأخير التوبة الذى يعبر عنه بالتسويف قد أردف فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۸

الحاضرة بالموت حال الكفر، و هذا يكشف عن أهمية التسويف و خطورته البالغة فى نظر القرآن.

ثمّ يقول سبحانه فى ختـام الآيـة: أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً، و لا حاجـة إلى التـذكير بأنّ للتوبـة مضافا إلى ما قيل شـرائط اخرى مذكورة فى آيات مشابهة من الكتاب العزيز.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۹

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (۱۹)

سبب النّزول

روی فی مجمع البیان عن الإمام محمّد الباقر علیه السّلام: «نزلت فی الرجل یحبس المرأة- من دون أن یعاملوها کالزّوجة- عنده لا حاجة له إلیها ینتظر موتها حتی یرثها»، أی فیأخذ أموالها من بعد وفاتها.

و روی عن ابن عباس أنّ الآیة الحاضرة نزلت فی الذین أمهروا نساءهم بمهور کبیرة ثمّ یحبسونهن من دون حاجة إلیهن، و لا یطلقونهن لغلاء المهر و ثقله، و یؤذونهن حتی یقبلن بالطلاق بعد أن یتنازلن عن تلک المهور.

و قد روی جماعة من المفسرین سببا آخر لنزول هذه الآیة لا یناسب هذه الآیة، بل یناسب الآیة (۲۲) من هذه السورة، و سنذکر ذلک الرأی عند تفسیر تلک الآیة بإذن اللّه تعالی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۰

التّفسیر

الدفاع عن حقوق المرأة أیضا:

قلنا فی مطلع تفسیر هذه السورة أنّ آیات هذه السورة تهدف إلی مکافحة الکثیر من الأعمال الظالمة و الممارسات المجحفة التی کانت رائجة فی العهد الجاهلی، و فی هذه الآیة بالذات أشیر إلی بعض هذه العادات الجاهلیة المقیتة و حذر اللّه سبحانه فیها المسلمین من التورط بها، و تلک هی:

۱- لا تحبسوا النساء لترثوا أموالهنّ، فلقد کانت إحدی العادات الظالمة فی الجاهلیة- کما ذکرنا فی سبب نزول الآیة- أنّ الرجل کان یتزوج بالنساء الغنیات ذوات الشرف و المقام اللاتی لم یکن یحظین بالجمال، ثمّ کانوا یذرونهن هکذا فلا یطلقونهنّ، و لا یعاملونهنّ کالزوجات، بانتظار أن یمتن فیرثوا أموالهن، فقالت الآیة الحاضرة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً و بهذا استنکر الإسلام هذه العادة السیئة.

۲- لا تضغطوا علی أزواجکم لیهبنّ لکم مهورهنّ، فقد کان من عادات الجاهلیین المقیتة أیضا أنّهم کانوا یضغطون علی الزوجات بشتی الوسائل و الطرق لیتخلین عن مهورهنّ، و یقبلن بالطلاق، و کانت هذه العادة تتبع إذا کان المهر ثقیلا باهظا، فمنعت الآیة الحاضرة من هذا العمل بقولها: وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَ أی من المهر.

و لکن ثمّة استثناء لهذا الحکم قد أشیر إلیه فی قوله تعالی فی نفس الآیة:

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ و الفاحشة هی أن ترتکب الزوجة الزنا و تخون بذلک زوجها، ففی هذه الحالة یجوز للرجل أن یضغط علی زوجته لتتنازل عن مهرها، و تهبه له و یطلقها عند ذلک، و هذا هو فی الحقیقة نوع من العقوبة، و أشبه ما یکون بالغرامة فی قبال ما ترتکبه هذه الطائفة من النساء.

هذا و المقصود من الفاحشة المبینة فی الآیة هل هو خصوص الزنا، أو کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۱

سلوک ناشز مع الزوج؟ فیه کلام بین المفسرین إلّا أنّه

روی فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام التصریح بأنه کل معصیة من الزوجة[۵۷]

(طبعا یستثنی من ذلک المعاصی الطفیفة لعدم دخولها فی مفهوم الفاحشة التی تشیر إلی أهمیة المعصیة و خطرها، و الذی یتأکد بکلمة «مبینة»).

۳- عاشروهن بالمعاشرة الحسنة، و هذا هو الشیء الذی یوصی به سبحانه الأزواج فی هذه الآیة بقوله: وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ أی عاشروهن بالعشرة الإنسانیة التی تلیق بالزوجة و المرأة، ثمّ عقب علی ذلک بقوله: فَإِنْ کَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسی أَنْ تَکْرَهُوا شَیْئاً وَ یَجْعَلَ اللَّهُ فِیهِ خَیْراً کَثِیراً.

فحتی إذا لم تکونوا علی رضا کامل من الزوجات، و کرهتموهنّ لبعض الأسباب فلا تبادروا إلی الانفصال عنهن و الطلاق، بل علیکم بمداراتهنّ ما استطعتم، إذ یجوز أن تکونوا قد وقعتم فی شأنهنّ فی الخطأ و أن یکون اللّه قد جعل فیما کرهتموه خیرا کثیرا، و لهذا ینبغی أن لا تترکوا معاشرتهنّ بالمعروف و المعاشرة الحسنة ما لم یبلغ السیل الزبی، و لم تصل الأمور إلی الحدّ الذی لا یطاق، خاصّة و إن أکثر ما یقع بین الأزواج من سوء الظن لا یستند إلی مبرر صحیح، و أکثر ما یصدرونه من أحکام لا یقوم علی أسس واقعیة إلی درجة أنّهم قد یرون الأمر الحسن سیئا و الأمر السیء حسنا فی حین ینکشف الأمر علی حقیقة بعد مضی حین من الزمن، و شیء من المداراة.

ثمّ إنّه لا- بدّ من التذکیر بأن للخیر الکثیر فی الآیة الذی یبشر به الأزواج الذین یدارون زوجاتهن مفهوما واسعا، و من مصادیقه الواضحة الأولاد الصالحون و الأبناء الکرام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۲

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۲۰ الی ۲۱]

اشارة

وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَکانَ زَوْجٍ وَ آتَیْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَیْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِیناً (۲۰) وَ کَیْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضی بَعْضُکُمْ إِلی بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْکُمْ مِیثاقاً غَلِیظاً (۲۱)

سبب النّزول

کان التقلید المتبع قبل الإسلام أنه إذا أراد الرجل أن یطلق زوجته، و یتزوج بأخری أن یتّهم الزوجة الأولی بالزنا و الخیانة الزوجیة فرارا من دفع مهرها، أو یعمد إلی معاملتها بقسوة حتی ترد مهرها الذی قد أخذته من قبل إلی الرجل، لیستطیع أن یعطی ذلک المبلغ للزوجة الجدیدة التی یبغی الزواج بها، و یمهرها به.

فنزلت هذه الآیات تستنکر هذا العمل القبیح الظالم بشدّة، و تشجبه و تقبحه و تدعو إلی إنصاف الأزواج و عدم ظلمهنّ فی مهورهنّ.

التّفسیر

نزلت الآیتان الحاضرتان لتحمیا قسما آخر من حقوق المرأة، فقد جاءت الآیة الأولی تقول: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَکانَ زَوْجٍ وَ

آتَيْتُمْ إِحْداهُنَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۳

قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً فهی تخبر المسلمین- إذا عزموا علی تطلیق الزوجة و اختیار زوجة أخری- أنّه لا یحق لهم أبدا أن یبخسوا من صداق الزوجة الأولی شیئا أو یستردوا شیئا من الصداق إذا کانوا قد سلموه إلی الزوجة مهما کان مقداره کثیرا و ثقیلا، و الذی عبّر عنه فی الآیة بالقنطار، و القنطار- کما سبق یعنی المال الکثیر و قد جاء فی المفردات للراغب: أنّ القنطار جمع القنطرة، و القنطرة من المال ما فیه عبور الحیاة تشبیها بالقنطرة[۵۸].

لأن المفروض أن تطلیق الزوجة الأولی- هنا- یتمّ لأجل مصلحة الزوج، و لیس لأجل انحراف الزوجة عن جادة العفاف و الطهر، و لهذا لا معنی لأن تهمل حقوقها القطعیة.

ثمّ إنّ الآیة تشیر فی مقطعها الأخیر إلی الأسلوب السائد فی العهد الجاهلی حیث کان الرجل یتّهم زوجته بالخیانة الزوجیة لحبس الصداق عنها، إذ تقول فی استفهام إنکاری: أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً أی هل تأخذون صداق الزوجة عن طریق بهتهنّ، و اتهامهنّ بالفاحشة، و هو إثم واضح و معصیة بیّنة، و هذا یعنی أن أصل حبس الصداق عن الزوجة ظلم و معصیة، و التوسل لذلک بمثل هذه الوسیلة الأثیمة معصیة اخری واضحة، و ظلم آخر بیّن.

ثمّ أضاف سبحانه- فی الآیة الثانیة من الآیتین الحاضرتین- و ضمن استفهام إنکاری بهدف تحریک العواطف الإنسانیة لدی الرجال بأنّه کیف یحق لکم ذلک، و قد عشتم مع الزوجة الأولی زمنا طویلا، و کانت لکم معهنّ حیاة مشترکة، و اختلیتم بهن و استمتع کل واحد منکما بالآخر کما لو کنتما روحا واحدة فی جسمین، أ فبعد ما کانت بینکما هذه العلاقة الزوجیة الحمیمة یحق لکم- أیّها الأزواج- أن تبخسوا حق الزوجة الأولی؟ و قد لخصّ سبحانه کل هذه بقوله:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۴

وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضى ۵۹] بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ أ فیصح أن تفعلوا ذلک و کأنّکما غریبان لا رباط بینکما و لا علاقة؟

و هذا یشبه قولنا لمن عاشا صدیقین حمیمین زمنا طویلا ثمّ تنازعا: کیف تتنازعان و قد کنتما صدیقین حمیمین سنوات طویلة و أعواما عدیدة؟

و فی الحقیقة أن ارتکاب مثل هذا الفعل فی حق الزوجة شریکة الحیاة ما هو إلّا ظلم للنفس.

ثمّ أنّه سبحانه تعالی: وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً أی کیف تبخسون الزوجة حقّها فی الصداق و قد أخذت منکم- لدی عقد الزواج بینکما- میثاقا غلیظا و عهدا موثقا بأن تؤدوا إلیهنّ حقوقهنّ کاملة، فکیف تتنکرون لهذا المیثاق المقدس و هذا العهد المأخوذ منکم لها حالة العقد؟

ثمّ یجب أن نعرف أنّ الآیة الحاضرة و إن وردت فی مقام تطلیق الزوجة الأولی لغرض إحلال زوجة أخری مکانها إلّا أنّها لا تختصّ بهذا المورد خاصّة، بل تعمّ کل موارد الطلاق الذی یتمّ باقتراح من جانب الزوج و لا تکون لدی الزوجة رغبة فی الإفتراق، فإنّه یجب علی الزوج فی هذه الحالة أن یعطی الصداق بکامله إلی الزوجة إذا أراد أن یطلقها، و أن لا یسترد شیئا من الصداق إذا کان قد أعطاه إیاها، سواء قصد أن یتزوج بامرأة أخری أو لا.

و علی هذا تکون عبارة: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ ناظرة فی الحقیقة إلی ما کان سائدا فی العهد الجاهلی، و لیس له أی دخل فی أصل الحکم، فهو لیس قیدا.

علی أنّه ینبغی التنبیه أیضا إلی أن لفظة «استبدال» تعنی طلب البدیل، و لهذا یکون قد أخذ فیها قید الإرادة، فإذا قرنت بکلمة «أردتم» فإنما ذلک لأجل التنبیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۵

إلى نقطة فی المقام، و هی أنکم- عند تهیئة المقدمات و العزم على استبدال زوجة اخرى- یجب أن لا تبدأوا من المقدمات الغیر المشروعة الظالمة، فتضیعوا مهر زوجتکم إذا أردتم زوجة أخرى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۶

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۲۲]

اشارة

وَ لا تَنْکِحُوا ما نَکَحَ آباؤُکُمْ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ کانَ فاحِشَةً وَ مَقْتاً وَ ساءَ سَبِیلًا (۲۲)

سبب النّزول

کانت العادة فی الجاهلیة أنّه إذا مات رجل و خلف زوجة و أولادا، و کان الأولاد من زوجة أخرى ورثوا زوجة أبیهم کما یرثون أمواله، أی أنّه کان یحق لهم أن یتزوجوا بها أو یزوجوها لأحد، و أن یتصرفوا فیها کما یتصرفون فی المتاع و المال، و قد حدث مثل هذا- بعد ظهور الإسلام- لأحد المسلمین، فقد مات أحد الأنصار یدعى «أبو قیس» و خلف زوجة و ولدا من زوجة أخرى، فاقترح الولد علیها الزواج بها، فقالت تلک المرأة له: إنی أعتبرک مثل ابنی و أنت من صالحی قومک، و لکن

آتی رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم فاستأمره و استوضحه الحکم، فأتته فأخبرته. فقال لها رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم: «ارجعی إلى بیتک» فأنزل اللّه هذه الآیة

تنهى عن هذا النوع من النکاح بشدّة.

التّفسیر

هذه الآیة- کما ذکرنا فی شأن النّزول- تبطل عادة سیئة من العادات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۷

الجاهلیة المقیتة فتقول: وَ لا تَنْکِحُوا ما نَکَحَ آباؤُکُمْ مِنَ النِّساءِ أی لا تنکحوا زوجة أبیکم.

و لکن حیث أنّ القانون لا یشمل ما سبق من الحالات الواقعة قبل نزول القانون عقب سبحانه على ذلک النّهی بقوله: إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ

ثمّ أنّه سبحانه لتأکید هذا النهی یستخدم ثلاث عبارات شدیدة حول هذا النوع من الزواج و النکاح إذ یقول أوّلا: إِنَّهُ کانَ فاحِشَةً ثمّ یضیف قائلا:

وَ مَقْتاً أی عملا منفرا لا تقبله العقول، و لا تستسیغه الطباع البشریة السلیمة، بل تمقته و تکرهه، ثمّ یختم ذلک بقوله: وَ ساءَ سَبِیلًا أی أنّها عادة خبیثة و سلوک شائن.

حتى أنّنا لنقرأ فی التاریخ أنّ الناس فی الجاهلیة کانوا یکرهون هذا النوع من النکاح و یصفونه بالمقت، و یسمّون ما ینتج منه من ولد بالمقیت، أی الأولاد المبغوضین.

و من الواضح أنّ هذا الحکم إنّما هو لمصالح مختلفة و حکم متنوعة فی المقام، فإن الزواج بامرأة الأب هو من ناحیة یشبه الزواج بالأمّ، لأن امرأة الأب فی حکم الأمّ الثانیة، و من ناحیة أخرى اعتداء على حریم الأب و هتک له، و تجاهل لاحترامه.

مضافا إلى أنّ هذا العمل یزرع عند أبناء الأب المیت بذور النفاق بسبب النزاع على نکاح زوجته، و بسبب الاختلاف الواقع بینهم فی

هذا الأمر (أى فى من يتزوج بها).

بـل إنّ هـذا النوع من النكـاح يوجب الاختلاف و التنافس البغيض بين الأب و الولـد، لأنّ هناك تنافسا و حسـدا بين الزوجـة الأولى و الزوجة الثّانية غالبا، فإذا تحقق هذا النكاح (أى نكاح زوجة الأب من جانب الولد) فى حياة الوالد (أى بعد طلاقها من الأب طبعا) كان السبب فى الحسد واضحا، لأنّ امرأة الأب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۸

ستحظى بهـذا الزواج منزلـة أرفع، ممّـا يؤدى إلى تأجـج نيران الحسـد لـدى الزوجـة الاـخرى أكثر، و أمّا إذا تحقق بعـد وفاته فإنّه من الممكن أن يوجد لدى الابن نوعا من الحسد بالنسبة لأبيه.

هـذا و ليس من المسـتبعد أن تكون التعابير الثلاثـة الواردة فى ذم هـذا النوع من النكاح إشارات إلى هذه الحكم الثلاث لتحريم نكاح امرأة الأب على وجه الترتيب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۹

الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۳]

اشارة

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خالاتُكُمْ وَ بَناتُ الْأَخِ وَ بَناتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِى أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِى فِى حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللَّاتِى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۳)

التّفسير

تحريم الزّواج بالمحارم:

فى هـذه الآيـة أشار سـبحانه إلى النساء اللاتى يحرم نكاحهنّ و الزواج بهنّ، و يمكن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسـباب و هى:

۱- الولادة التى يعبّر عنها بالارتباط النّسبى.

۲- الزّواج الذى يعبّر عنه بالارتباط السّببى.

۳- الرّضاع الذى يعبّر عنه بالارتباط الرّضاعى.

و قد أشار فى البداية إلى النساء المحرمات بواسطة النّسب و هنّ سبع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۰

طوائف إذ يقول حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خالاتُكُمْ وَ بَناتُ الْأَخِ وَ بَناتُ الْأُخْتِ

و يجب التّنبيه إلى أنّ المراد من «الأـمّ» ليس هى التى يتولـد منهـا الإنسـان دونما واسـطة فقط، بل يشـمل الجـدّة من ناحيـة الأب و من ناحيـة الأمّ و إن علون، كما أنّ المراد من البنت ليس هو البنت بلا واسـطة، بل تشـمل بنت البنت و بنت الابن و أولادهما و إن نزلن، و هكذا الحال فى الطوائف الخمس الاخرى.

و من الواضح جدّا أنّ الإنسان يبغض النكاح و الزواج بهذه الطوائف من النسوة، و لهذا تحرمه جميع الشعوب و الجماعات (إلّا من شذ

و هو قليل)، و حتى المجوس الـذين كانوا يجوزون هذا النوع من النكاح فى مصادرهم الأصـلية ينكرونه و يشـجبونه اليوم، و إن حاول البعض أن يردّ هذه المبغوضـية إلى العادة و التقليد القديم، و لكن عمومية هذا القانون و شـيوعه لدى جميع أفراد البشر و طوائفه و فى جميع القرون و الأعصار تحكى- عادة- عن فطرية هذا القانون، لأن التقليد و العادة لا يمكن أن يكون أمرا عامّا و دائميا.

هـذا مضافا إلى أنّ هناك حقيقة ثابتة اليوم، و هى أنّ الزواج بين الأشـخاص ذوى الفئة المشابهة من الدم ينطوى على أخطار كثيرة، و يؤدى إلى انبعـاث أمراض خفيـة و موروثـة، و تشـددها و تجـددها (لأنّ هـذا النوع من الزواج يولـد هـذه الأمراض، بل يساعـدها على التشـدد و التجـدد و الانتقال) إلى درجة أنّ البعض لا يسـتحسن حتى الزواج بالأقرباء البعيدين (فضـلا عن المحارم المذكورة هنا) مثل الزواج الواقع بين أبناء و بنات العمومة[۶۰] و يرون أنّه يؤدى هو الآخر أيضا إلى أخطار تصاعد الأمراض الوارثية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۱

إلّا أنّ هذا النوع من الزواج إذا لم يسبب أية مشكلة لدى الأقرباء البعيدين (كما هو الغالب) فإنّه لا شك يسبب مضاعفات خطيرة لدى الأقرباء القريبين الذين تشتدّ عندهم ظاهرة وحدة الدم و تشابهه.

هذا مضافا إلى ضـعف الرغبة الجنسية و التجاذب الجنسى لدى المحارم عادة، لأنّ المحارم- فى الأغلب- يكبرون معا، و يشبّون معا، و لهذا لا ينطوى الزواج فيما بينهم على عنصـر المفاجأة و صـفة العلاقة الجديدة، لأنّهم تعودوا على التعامل فيما بينهم، فلا يكون أحدهم جديـدا على الآخر، بل العلاقـة لـديهم علاقـة عاديـة و رتيبـة، و لا يمكن أن يكون بعض الموارد النادرة مقياسا لانتزاع القوانين الكلية العامّة أو سـببا لنقض مضاداتها، و نحن نعلم أن التجاذب الجنسى شرط أساسى لدوام العلاقة الزوجية و استمرار الرابطة العائلية، و لهذا إذا تمّ التزاوج بين المحارم فإن الرابطة الزوجية الناشئة من هذا الزواج ستكون رابطة ضعيفة مهزوزة و قصيرة العمر.

وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِی أَرْضَـعْنَكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَـةِ يشـير اللّه سـبحانه فى هذه الآية إلى المحارم الرّضاعية و القرآن و إن اقتصـر فى هـذا المقام على الإشارة إلى طائفتين من المحارم الرضاعيـة، و هى الأم الرضاعيـة و الأخت الرضاعيـة فقط، إلّا أنّ المحارم الرضاعية- كما يستفاد من روايات عديـدة- لا تنحصـر فى من ذكر فى هـذه الآية، بل تحرم بالرّضاعة كل من يحرمن من النساء بسـبب «النسب» كما يصرّح بذلك الحديث المشهور

المروى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «يحرم من الرّضاع ما يحرم من النّسب»[۶۱].

على أن بيـان مقـدار الرّضـاع الموجب للحرمـة و الشـروط و الكيفيـة المعتبرة فيه، و غير ذلـك من التفاصـيل و الخصوصـيات متروك للكتب الفقهية.

و فلسفة حرمة الزواج بالمحارم الرضاعية هى، أن نشوء و نبات لحم المرتضع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۲

و عظمه من لبن امرأة معينـة تجعله بمثابـة ابنهـا الحقيقى، فـالمرأة التى ترضع طفلا مقـدارا معينا من اللبن ينشأ و ينبت معه و منه للطفل لحم و عظم، فإنّ هـذا النوع من الرضاع يجعل الطفل شبيها بأبنائها و أولادها لصـيرورته جزء من بدنها كما هم جزء من بدنها، فإذا هم جميعا (أى الأخوة الرضاعيون و الأخوة النسبيون كأنّهم اخوة بالنسب.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يشير- فى المرحلة الأخيرة- إلى الطائفة الثالثة من النسوة اللاتى يحرم الزواج بهنّ و يذكرهنّ ضمن عدّة عناوين:

۱- وَ أُمَّهـاتُ نِسـائِكُمْ يعنى أن المرأة بمجرّد أن تتزوج برجـل و يجرى عقـد النكاح بينهما تحرم أمها و أم أمها و إن علون على ذلك الرجل.

۲- وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِی فِی حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللَّاتِی دَخَلْتُمْ بِهِنَ يعنى أنّ مجرّد العقـد على امرأة لا يوجب حرمة نكاح بناتها من زوج آخر على زوجها الثّانى، بل يشترط أن يدخل بها أيضا مضافا على العقد عليها.

إنّ وجود هـذا القيـد فى هذا المورد دَخَلْتُمْ بِهِنَ يؤيد كون حكم أمّ الزوجة الذى مرّ فى الجملة السابقة وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ غير مشـروط

بهـذا الشـرط، و بعبارة أخرى إن هـذا القيد هنا يؤيد و يؤكّد إطلاق الحكم هناك، فتكون النتيجة أن بمجرّد العقد على امرأة تحرم أمّ تلك المرأة على الرجل و إن لم يدخل بتلك المرأة، لخلو ذلك الحكم من القيد المشروط هنا فى مورد الرّبيبة.

ثمّ أنّ قيـد فِي حُجُورِكُمْ و إن كـان ظـاهره يفهم منه أنّ بنت الزوجـة من زوج آخر إذا لم ترب فى حجر الزوج الثانى لا تحرم عليه، و لكن هـذا القيـد بدلالة الروايات، و قطعية هذا الحكم- ليس قيدا احترازيا- بل هو فى الحقيقة إشارة إلى نكتة التحريم- لأن أمثال هذه الفتيات اللاتى تقدم أمّهاتها على زواج آخر، هنّ فى الأغلب فى سـنين متدنية من العمر، و لذلك غالبا ما يتلقين نشأتهنّ و تربيتهنّ فى حجر الزوج الجديد مثل بناته، فالآية تقول إن بنات نسائكم من غيركم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۳

كبناتكم أنفسكم، فهل يتزوج أحـد بابنـة نفسه؟ و اختيار وصف الربائب التى هى جمع الرّبيبـة (لتربية الزوج الثانى إيّاها فهى مربوبته) إنّما هو لأجل هذا.

ثمّ يضـيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلا: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أى إذا لم تدخلوا بامّ الرّبيبة جاز لكم نكاح بناتهنّ.

۳- وَ حَلائِلُ ۶۲] أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ و المراد من حلائـل الأبنـاء زوجاتهم، و أمّا التعبير ب «من أصـلابكم» فهو فى الحقيقة لأجـل أن هـذه الآيـة تبطـل عادة من العادات الخاطئـة فى الجاهليـة، حيث كان المتعارف فى ذلك العهـد أن يتبنى الرجل شـخصا ثمّ يعطى للشـخص المتبنى كـل أحكـام الولـد الحقيقى، و لهـذا كـانوا لا يتزوجون بزوجات هـذا النوع من الأبناء كما لا يتزوجون بزوجة الولد الحقيقى تماما، و التبنى و الأحكام المرتبة عليها لا أساس لها فى نظر الإسلام.

۴- وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ يعنى أنّه يحرم الجمع بين الأختين فى العقـد، و على هـذا يجوز الزواج بالأختين فى وقتين مختلفين و بعد الانفصال عن الأخت السابقة.

و حيث أنّ الزواج بأختين فى وقت واحد كان عادة جارية فى الجاهلية، و كان ثمّة من ارتكبوا هذا العمل فإن القرآن عقب على النهى المذكور بقوله: إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ يعنى إنّ هذا الحكم كالأحكام الاخرى لا يشـمل الحالات السابقة، فلا يؤاخذهم اللّه على هذا الفعل و إن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الأختين، و يفارقوا الاخرى، بعد نزول هذا الحكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۴

يبقى أن نعرف أنّ سـرّ تحريم هـذا النمـط من الزواج (أى التزوج بـأختين فى وقت واحـد) فى الإسـلام لعلّه أن بين الأـختين بحكم ما بينهما من نسب و رابطـة طبيعيـة- علاقة حبّ و مودّة، فإذا أصـبحتا متنافستين فى ظل الانتماء إلى زوج واحد لم يمكنهما الحفاظ على تلـك المودّة و المحبّـة و العلاقـة الوديـة بطبيعـة الحال، و بهـذه الصورة يحـدث هناك تضاد عاطفى فى وجود كل من الأختين يضـرّ بحياتهما، لأن كلّ واحدة منهما سـتعانى حينئذ و بصورة دائمية من صراع حالتين نفسيتين متضادتين هما دافع الحب، و غريزة التنافس، و هو صراع نفسى مقيت ينطوى على مضاعفات خطيرة لا تحمد عقباها.

ثمّ إن بعض المفسّـرين احتمـل أن تعود جملـة إِلَّا مـا قَدْ سَلَفَ إلى كـل المحارم من النسوة اللاتى مرّ ذكرهنّ فى مطلع الآيـة فيكون المعنى: إذا كان قد أقدم أحد فى الجاهلية على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهنّ لم يشـمله حكم تحريم الزواج بهنّ هذا، و كان ما نتـج من ذلك الزواج الـذى حرم فى ما بعـد من الأولاد شـرعيين، و إن وجب عليهم بعـد نزول هـذه الآيـة أن يتخلوا عن تلكم النساء، و يفارقوهنّ.

و تناسب خاتمة هذه الآية أعنى قوله سبحانه و تعالى: إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً هذا المعنى الأخير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۴]

اشارة

وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ کِتابَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ أُحِلَّ لَکُمْ ما وَراءَ ذلِکُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِکُمْ مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسافِحِینَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِیضَةً وَ لا جُناحَ عَلَیْکُمْ فِیما تَراضَیْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِیضَةِ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً (۲۴)

التّفسیر

اشارة

هذه الآیة تواصل البحث السابق حول النساء اللاتی یحرم نکاحهنّ و الزواج بهنّ و تضیف قائلة:

وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ أی و یحرم الزواج بالنساء، اللاتی لهنّ أزواج.

و المحصنات جمع المحصنة و هی مشتقة من «الحصن»، و قد أطلقت علی المرأة ذات الزوج لأنّها بالزواج برجل تکون قد أحصنت فرجها من الفجور، و کذا أطلقت علی النساء العفیفات النقیات الجیب، أو اللاتی یعشن فی کنف رجل و تحت کفالته و بذلک یحفظن أنفسهنّ و یحصنها من الفجور و الزنا.

و قد تطلق هذه اللفظة علی الحرائر مقابل الإماء، لأن حریتهنّ تکون بمثابة حصن یحفظهنّ من أن یتجاوز حدوده أحد دون إذنهنّ، إلّا أنّه من الواضح أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۶

المراد بها فی الآیة الحاضرة هو ذوات الأزواج.

إن هذا الحکم لا یختص بالنساء المحصنات المسلمات، بل یشمل المحصنات حتی غیر المسلمات، أی أنّه یحرم الزواج بهنّ مهما کان دینهنّ.

نعم یستثنی من هذا الحکم فقط النساء المحصنات الکتابیات اللاتی أسرّهنّ المسلمون فی الحروب، فقد اعتبر الإسلام أسرهنّ بمثابة الطلاق من أزواجهنّ، و أذن أن یتزوج بهنّ المسلمون بعد انقضاء عدتهنّ ۶۳] أو یتعامل معهنّ کالإماء کما قال سبحانه: إِلَّا ما مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ

و لکن هذا الاستثناء (استثناء منقطع یعنی أن هذه النساء المحصنات اللاتی وقعن أسیرات فی أیدی المسلمین لا یعتبرن محصنات لأن علاقتهنّ بأزواجهنّ قد انقطعت بمجرد وقوعهنّ أسیرات، تماما کما تنقطع علاقة النساء غیر المسلمات بأزواجهن باعتناقهنّ الإسلام فی صورة استمرار الزوج السابق علی کفره، فیکن فی مصاف النساء المجردات من الأزواج (أی غیر المحصنات).

و من هنا یتّضح أنّ الإسلام لا یسمح مطلقا بأن یتزوج المسلمون بالنساء المحصنات حتی الکتابیات و غیرهنّ من أهل الدیانات الاخری، و لهذا قرّر لهنّ العدّة، و منع من الزواج بهنّ فی تلک الفترة.

و فلسفة هذا الحکم تتمثل فی أن هذا النوع من النساء إمّا یجب أن تعاد إلی دار الکفر، أو یبقین هکذا بدون زوج بین المسلمین، أو تقطع علاقتهنّ بالزوج السابق، و یتزوجن من جدید بزوج آخر، و حیث أن الصورة الأولی تخالف الأسس التربویة الإسلامیة، کما أن الصورة الثانیة عملیة ظالمة، و لهذا لا تبقی إلّا صورة واحدة و هی الصورة الثالثة.

و یظهر من بعض الروایات التی ینتهی إسنادها إلی أبی سعید الخدری أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۷

الآیة نزلت فی سبایا غزوة أوطاس ۶۴] و أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سمح للمسلمین بأن یتزوجوا بهن بعد التأکد من کونهنّ غیر حبالی أو یعاملن کما تعامل الأمة، و هو یؤید الصورة الثالثة التی أشرنا إلیها فی ما سبق.

ثمّ أن اللّه سبحانه أکّد هذه الأحکام الواردة فی شأن المحارم من النساء و من شابههنّ حیث قال: کِتابَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ و علی هذا لا یمکن تغییر هذه الأحکام أو العدول عنها أبدا.

ثمّ إنّه یشیر سبحانه إلی حلّیة الزواج بغیر هذه الطوائف من المذکورات فی هذه الآیة و الآیات السابقة إذ یقول: وَ أُحِلَّ لَکُمْ ما وَراءَ ذلِکُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِکُمْ مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسافِحِینَ أی أنّه یجوز لکم أن تتزوجوا بغیر هذه الطوائف من النساء شریطة أن یتمّ ذلک وفق القوانین الإسلامیة و أن یرافق مبادئ الفقه و الطهر و یبتعد عن جادة الفجور و الفسق.

و علی هذا یکون معنی «محصنین» فی الآیة و الذی هو إشارة إلی حال الرجال هو «عفیفین»، و عبارة «غیر مسافحین» تأکید لهذا الوصف، لأن السفاح (الذی هو وزن کتاب) یعنی الزنا و أصله من السفح و هو صب الماء أو الأعمال العابثة و الأفعال الطائشة و حیث أنّ القرآن یستخدم- فی مثل هذه الموارد- الکنایات یکون المراد من السفاح الزنا و اللقاء الجنسی الغیر المشروع.

و جملة أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِکُمْ إشارة إلی أنّ العلاقة الزوجیة إمّا یجب أن تتمّ من خلال الزواج مع دفع صداق و مهر، أو من خلال تملک أمة فی لقاء دفع قیمتها[۶۵].

کما أن عبارة «غیر مسافحین» فی الآیة الحاضرة لعلها إشارة إلی حقیقة أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۸

الهدف من الزواج یجب أن لا یکون فقط إطفاء الشهوة، و تلبیة الرغبة الجنسیة، بل الزواج قضیة حیویة هامّة تهدف غایة جد سامیة یجب أن تکون الغریزة الجنسیة فی خدمتها أیضا، ألا و هو بقاء النوع البشری، و حفظه من التلوث و الانحراف.

الزّواج المؤقت فی الإسلام:

یقول سبحانه: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِیضَةً أی أنّه یجب علیهم دفع أجور النساء اللاتی تستمتعون بهنّ، و هذا القسم من الآیة إشارة إلی مسألة الزواج المؤقت أو ما یسمّی بالمتعة، و یستفاد منها أن أصل تشریع الزواج المؤقت کان قطعیا و مسلما عند المسلمین قبل نزول هذه الآیة، و لهذا یوصی المسلمون فی هذه الآیة بدفع أجورهنّ.

و حیث أن البحث فی هذه المسألة من الأبحاث التّفسیریة و الفقهیة و الاجتماعیة المهمة جدا یجب دراستها من عدّة جهات هی:

۱- القرائن الموجودة فی هذه الآیة التی تؤکد دلالتها علی الزواج المؤقت.

۲- إن الزواج المؤقت کان فی عصر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم ینسخ.

۳- الحاجة بل و الضرورة الاجتماعیة إلی هذا النوع من الزواج.

۴- الإجابة علی بعض الإشکالات.

و أمّا بالنسبة إلی النقطة الأولی فلا بدّ من الالتفات إلی أمور:

أوّلا: إنّ کلمة المتعة التی اشتق منها لفظة «استمتعتم» تعنی الزواج المؤقت، و بعبارة أخری المتعة حقیقة شرعیة فی هذا النوع من الزواج، و یدل علی ذلک أن هذه الکلمة استعملت فی هذا المعنی نفسه فی روایات النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کلمات الصحابة مرارا و تکرارا[۶۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۹

ثانیا: إنّ هذه اللفظة إذا لم تکن بالمعنی المذکور یجب أن تفسّر حتما بمعناها اللغوی و هو «الانتفاع» فیکون معنی هذا المقطع من

الآيـة هكـذا: «إذا انتفعتم بالنساء الـدائمات فادفعوا إليهنّ أجورهنّ» فى حين أننا نعلم إن دفع الصـداق و المهر غير مقيـد و لا مشـروط بالانتفـاع بالزوجـات الـدائمات بـل يجب دفع تمام المهر- بناء على ما هو المشـهور[۶۷] بين الفقهـاء- أو نصـفه على الأقـل إلى المرأة بمجرد العقد للزواج الدائم عليها.

ثالثـا: إنّ كبـار «الصـحابة» و «التابعين»[۶۸] مثـل ابـن عبـاس العـالم (المفسّـِر الإسـلامى الكـبير) و أبى بـن كعب، و جـابر بن عبـد اللّه الأنصـارى، و عمران بن الحصـين، و سـعيد بن جبير، و مجاهـد، و قتـادة و السـدى، و جماعـة كبيرة من مفسّـِرى أهـل السـنة، و جميع مفسّـِرى أهل البيت، فهموا من الآية الحاضـرة حكم الزواج المؤقت إلى درجة أن الفخر الرازى- رغم ما عهد عنه من التشكيك الكثير فى القضايا المرتبطة بالشيعة و عقائدهم قال بعد بحث مفصل: و الذى يجب أن يعتمد عليه فى هذا الباب أن نقول أنّها منسوخة و على هـذا التقدير فلو كانت هذه الآية دالة على أنها مشـروعة لم يكن ذلك قادحا فى غرضـنا، و هذا هو الجواب أيضا عن تمسـكهم بقراءة أبى و ابن عبـاس فـإن تلـك القراءة بتقـدير ثبوتها لا تـدل إلّا على أن المتعـة كانت مشـروعة، و نحن لا ننازع فيه، إنّما الـذى نقوله أن النسخ طرأ عليه ۶۹].

رابعـا: اتفق أئمّـة أهـل الـبيت عليهم السّـلام و هم أعلم النـاس بأسـرار الوحى، على تفسـير الآيـة المـذكورة بهـذا المعنى (أى بـالزواج المؤقت) و قد وردت فى هذا الصعيد روايات كثيرة منها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۰

ما

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «المتعة نزل بها القرآن و جرت بها السنّة من رسول اللّه»[۷۰].

و

عن الإمام الباقر عليه السّـلام أنّه قال فى جواب سؤال أبى بصـير حول المتعة: نزلت فى القرآن فَمَا اسْـتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً[۷۱].

و

عن الإمام الباقر عليه السّـلام أيضا أنّه قال: فى جواب عبـد اللّه بن عمير الليثى الـذى سأل عن المتعـة: «أحلّها اللّه فى كتابه و على لسان نبيّه فهى حلال إلى يوم القيامة»[۷۲].

هل نسخ هذا الحكم؟:

لقد اتفق عامّة علماء المسـلمين، بل قامت ضرورة الدين على أنّ الزواج المؤقت (المتعة) كان أمرا مشروعا فى صدر الإسلام (و الكلام حول دلالة الآية الحاضـرة على مشـروعية المتعة لا ينافى قطعية وجود أصل الحكم لأنّ المخالفين يرون ثبوت مشروعية هذا الحكم فى السـنة النبويـة)، بل كان المسـلمون فى صـدر الإسـلام يعملوا بهذا الحكم، و العبارة المعروفة المروية عن عمر: «متعتان كانتا على عهد رسول اللّه و أنا محرمهما و معاقب عليهما، متعـة النساء و متعة الحج»[۷۳] دليل واضح على وجود هذا الحكم فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، غاية ما فى الأمر أن من خالف هذا الحكم ادعى أنّه قد نسخ فى ما بعد، و حرم هذا النوع من الزواج.

و لكن الملفت للنظر هو أنّ الروايات الناسخة لهذا الحكم التى ادعوها مضطربة اضطرابا كبيرا، فبعضها يقول: إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه هو الذى نسخ هذا الحكم، و على هذا يكون الناسخ لهذا الحكم القرآنى هو السنة النبوية، و بعضها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۱

يقول: إنّ ناسخه هو آية الطلاق إذ يقول سبحانه: إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ فى حين أنّ هذه الآية لا ترتبط بالمسألة المطروحة

فی هـذا البحث لأنّ هـذه الآیـة تبحث فی الطلاق، فی حین أن الزواج المؤقت (أو المتعة) لا طلاق فیه، و الإفتراق بین الطرفین فی هذا الزواج یتمّ بانتهاء المدّة المقررة.

إنّ القدر المتیقن فی المقام هو أن أصل مشـروعیة هذا النوع من الزواج فی زمن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أمر قطعی و مفروغ عنه، و لیس ثمّـة أی دلیل یمکن الاطمئنان إلیه و یثبت نسخ هذا الحکم، و لهذا فلا بدّ من أن نحکم ببقاء هذا الحکم، بناء علی ما هو مقرر و ثابت فی علم الأصول.

و العبارة المشهورة المرویة عن «عمر» خیر شاهد علی هذه الحقیقة، و هی أنّ هذا الحکم لم ینسخ فی زمن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ... و إلخ.

ثمّ إن من البدیهی أنّه لا یحق لأحد إلّا النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن ینسخ الأحکام، فهو وحده یحق له- و بأمر من اللّه سبحانه و إذنه- أن ینسخ بعض الأحکام، و قد سد باب نسخ الأحکام بعد وفاة النّبی تماما، و إلّا لاستطاع کل واحد أن ینسخ شیئا من الأحکام الإلهیـة حسب اجتهـاده و مزاجه، و حینئـذ لا یبقی شـیء من الشـریعة الخالـدة الأبدیـة، و هـذا مضافا إلی أنّ الاجتهاد فی مقابل النص النّبوی لا ینطوی علی أیة قیمة أبدا.

و الملفت للنظر أننا نقرأ فی صـحیح الترمـذی الـذی هو من صـحاح أهل السـنة المعروفة، و کذا عن الدارقطنی ۷۴] أن رجلاـ من أهل الشـام سأل «عبـد اللّه بن عمر» عن التمتع بالعمرة إلی الحـج، فقال ابن عمر: حسن جمیل، قال: فإن أباک کان ینهی عنها، فقال: ویلک فإن کان أبی نهی عنها و قد فعله رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أمر به أ فبقول أبی آخذ، أم بأمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قم عنّی ۷۵].

و قد ورد نظیر هذا الحدیث و بنفس الصورة التی قرأتها حول زواج المتعة عن «عبد اللّه بن عمر» فی صحیح الترمذی ۷۶].

و جاء فی کتاب «المحاضـرات» للراغب أنّ رجلا من المسـلمین کان یفعلها (أی المتعـة) فقیل له: عمّن أخـذت حلّها؟ فقال: عن عمر، فقـالوا: کیف ذلـک و عمر هو الـذی نهی عنهـا و عـاقب علی فعلهـا؟ فقـال: لقوله: متعتان کانتا علی عهـد رسول اللّه، و أنا أحرمهما و أعاقب علیهما متعـة الحج و متعة النساء، فأنا أقبل روایته فی شـرعیتها علی عهد رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، و ما أقبل نهیه من قبل نفسه ۷۷].

ثمّ إن هناک مطلبا آخر لا بدّ أن نذکر به هنا و هو أن الذین ادعوا نسخ هذا الحکم (أی انتساخه) قد واجهوا مشکلات عدیدة.

أوّلا: أنّه صـرّح فی روایات عدیدة فی مصادر أهل السنة بأنّ هذا الحکم لم ینسخ فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أبدا، بل نهی عنه فی عهـد عمر، و علی هـذا یجب علی مـدعی النسـخ أن یجیبوا علی هـذه الروایات البالغـة- عددا- عشـرین روایة، جمعها العلّامة الأمینی رحمه اللّه مفصلة فی الجزء السادس من «الغدیر» و ها نحن نشیر إلی نموذجین منها.

۱- روی فی صحیح مسلم عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری أنّه کان یقول: کنا نستمتع بالقبضة من التمر و الدقیق الأیّام علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أبی بکر حتی- ثمّ- نهی عنه عمر فی شأن عمرو بن حریث ۷۸].

۲- و فی حدیث آخر فی کتاب «الموطأ» لمالک و «السنن الکبری» للبیهقی

روی عن «عروة بن زبیر» إنّ خولـة بنت حکیم دخلت علی عمر بن الخطـاب رضـی اللّه عنه فقـالت: إنّ ربیعـة بن أمیّة اسـتمتع بـامرأة مولـدة فحملـت منـه فخرج عمر رضـی اللّـه عنه یجرّ رداءه فزعـا فقـال: هـذه المتعـة لـو کنت تقـدمت فیه لرجمته، (أی أمنـع منهـا من الآن)[۷۹].

و فی کتاب «بدایـة المجتهـد» تألیف «ابن رشد الأندلسـی» نقرأ أیضا أنّ جابر بن عبد اللّه الأنصاری کان یقول: تمتعنا علی عهد رسول

اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أبی بكر و نصفا من خلافهٔ عمر ثمّ نهی عنها عمر الناس ۸۰].

و المشكلهٔ الاخری هی أنّ الروایات التی تتحدث عن نسخ حكم المتعهٔ فی عهد رسول اللّه مضطربهٔ و متناقضهٔ جدّا، فبعضها یقول نسخ فی خیبر و بعضها یقول: نسخ یوم فتح مكّهٔ، و بعض یقول: فی معركهٔ تبوك و آخر یقول: یوم أوطاس و ما شابه ذلك، و من هنا یتبیّن إن هذه الأحادیث المشیرهٔ إلی النسخ موضوعهٔ برمتها لما فیها من التناقض البیّن و التضارب الواضح.

من كل ما قلناه اتّضح أنّ ما كتبه صاحب تفسیر المنار حیث قال: «و قد كنّا قلنا فی (محاورات المصلح و المقلد) التی نشرت فی المجلدین الثالث و الرابع:

من المنار أن عمر نهی عن المتعهٔ اجتهادا منه وافقه علیه الصحابهٔ ثمّ تبیّن لنا أنّ ذلك خطأ فنستغفر اللّه منه»[۸۱].

إنّه حدیث العصبیهٔ لأنّ هناك فی مقابل الرّوایات المتضاربهٔ المتناقضهٔ التی تتحدث عن انتساخ حكم المتعهٔ فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم روایات تصرّح باستمرار المسلمین علی ممارسهٔ هذا الأمر (أی المتعهٔ) إلی عهد عمر، و علی هذا لیس المقام مقام الاعتذار و لا الاستغفار، فالشواهد التی ذكرناها سابقا تشهد بأن

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۴

كلامه الأوّل مقترن بالحقیقهٔ و لیس كلامه الثّانی كذلك.

و لا- یخفی أنّه لا- «عمر» و لا- أی شخصیهٔ أخری حتی أئمهٔ أهل البیت علیهم السّلام و هم خلفاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقادرین علی نسخ أحكام ثبتت فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بل لا معنی للنسخ- أساسا- بعد وفاهٔ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و انسداد باب الوحی و انقطاعه، و حملهم كلام «عمر» علی الاجتهاد مثیر للعجب، لأنّه من «الاجتهاد» فی مقابل «النص».

و أعجب من ذلك أن جماعهٔ من فقهاء السنهٔ اعتبروا الآیات المرتبطهٔ بأحكام الزواج مثل الآیهٔ (۶) من سورهٔ المؤمنین ناسخهٔ لآیهٔ المتعهٔ، و كأنّهم تصوروا أن زواج المتعهٔ لیس زواجا أصلا، فی حین أنّه أحد أقسام الزواج.

الزّواج المؤقت ضرورهٔ اجتماعیهٔ:

إنّه قانون عام إن الغریزهٔ البشریهٔ الطبیعیهٔ إذا لم تلّب بصورهٔ صحیحهٔ سلك الإنسان لإشباعها و تلبیتها طریقا منحرفا، لأن من الحقائق المسلمهٔ غیر القابلهٔ للإنكار أن الغرائز الطبیعیهٔ لا یمكن أن یقضی علیها بالمرّهٔ و حتی أننا إذا استطعنا أن نقضی علیها- افتراضا- لم یكن هذا العمل عملا صحیحا، لأنّه حرب علی قانون من قوانین الخلقهٔ.

و علی هذا فإنّ الطریق الصحیح هو أن نشبع هذه الحاجهٔ، و نلبی هذه الغریزهٔ بطریقهٔ معقولهٔ، و أن نستفید منها فی سبیل البناء.

علی أننا لا یمكننا أن ننكر أنّ الغریزهٔ الجنسیهٔ هی إحدی أقوی الغرائز الإنسانیهٔ إلی درجهٔ أن بعض المحللین النفسانیین اعتبرها الغریزهٔ الإنسانیهٔ الأصلیهٔ التی إلیها ترجع بقیهٔ الغرائز الاخری.

فإذا كان الأمر كذلك ینطرح سؤال فی المقام و هو أنّه قد یكون هناك من لا یمكنه- و فی كثیر من الظروف و الأحوال- أن یتزوج بالزواج الدائم فی سن

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۵

خاص، أو یكون هناك من المتزوجین من سافر فی رحلهٔ طویلهٔ و مهمّهٔ بعیدهٔ عن الأهل فیواجه مشكلهٔ الحاجهٔ الجنسیهٔ الشدیدهٔ التی تتطلب منه التلبیهٔ و الإرضاء.

خاصّهٔ و إنّ هذه المسألهٔ قد اتّخذت فی عصرنا الحاضر الذی أصبح فیه الزواج- بسبب طول مدّهٔ الدراسهٔ و بعد زمن التخرج و بعض

المسائل الاجتماعية المعقدة التى قلّما يستطيع معها الشباب أن يتزوجوا فى سن مبكرة، أى فى السن التى تعتبر فترة الفوران الجنسى لدى كل شاب- اتّخذت صفة أكثر عنفا و ضراوة، ترى ما الذى يجب عمله فى هذه الحالة؟

هل يجب حثّ الناس على أن يقمعوا هذه الغريزة (كما يفعل الرهبان و الراهبات)؟

أو أنّه يجب أن يفسح لهم المجال لأن يتحرروا جنسيا فيفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا، فتتكرر الصورة المقرفة؟

أو أن نسلك طريقا ثالثة تخلو عن مشاكل الزواج الدائم، كما و تخلو عن مفاسد التحرر الجنسى أيضا؟

و خلاصة القول إن الزواج الدائم لم يكن لا فى السابق و لا فى الحاضر بقادر على أن يلبى كل الاحتياجات الجنسية، و لا أن يحقق رغبات جميع الفئات و الطبقات فى الناس، فنحن لذلك أمام خيارين لا ثالث لهما و هما: إمّا أن نسمح بالفحشاء و البغاء و نعترف به (كما هو الحال فى المجتمعات المادية اليوم حيث سمحوا بالبغاء بصورة قانونية) أو أن نعالج المسألة عن طريق الزواج المؤقت (المتعة) فما هو يا ترى جواب الذين يعارضون فكرة البغاء، و فكرة المتعة، على هذا السؤال الملح؟

إنّ أطروحة الزواج المؤقت (المتعة) ليست مقيدة بشرائط النكاح الدائم لكى يقال بأنّها لا تنسجم و لا تتلاءم مع عدم القدرة المالية، أو لا تتلاءم مع ظروف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۶

الدراسة، كما لا تنطوى على إضرار الفحشاء و البغاء و مفاسده و ويلاته.

مؤاخذات على الزواج المؤقت:

نعم هناك مؤاخذات تؤخذ على الزواج المؤقت لا بدّ أن نذكرها هنا، و نجيب عليها باختصار.

۱- ربّما يقال: ما الفرق بين «الزواج المؤقت» و «الزنا»، أليس كلاهما بيع للجسد لقاء دفع مبلغ معين، و فى الحقيقة ليس وصف الزواج المؤقت سوى ستار على وجه الفحشاء و الزنا، نعم غاية الفرق بين الأمرين هو إجراء ما يسمّى بالصيغة، و هى ليست سوى عبارة بسيطة.

و الجواب هو: إن الذين يرددون هذا الكلام كأنّهم لم يطّلعوا أصلا على مفهوم الزواج المؤقت و حقيقته، لأنّ الزواج المؤقت ليس عبارة عن مجرّد كلمتين تقال و ينتهى كل شىء، بل ثمّة مقررات نظير ما فى الزواج الدائم، يعنى أن المرأة المتمتع بها تكون- طوال المدّة المضروبة فى الزواج المؤقت خاصّة بالرجل المتمتع، ثمّ عند ما تنتهى المدّة المذكورة يجب على المرأة أن تعتد، يعنى أن تمتنع من الزواج مطلقا برجل آخر لمدّة خمسة و أربعين يوما على الأقل، حتى يتبيّن أنّها حملت من الرجل الأوّل أو لا، على أنّها يجب أن تعتد حتى إذا توسلت بوسائل لمنع الحمل أيضا و إذا حملت من ذلك الرجل و أتت بوليد وجب أن يتكفله ذلك الرجل كما يتكفل أمر ولده من الزواج الدائم و يجرى عليه من الأحكام كل ما يجرى على الولد الناشئ من الزواج الدائم، فى حين أن الزنا و البغاء لا ينطوى على أى شىء من هذه الشروط و الحدود، فهل يمكن أن نقيس هذا الزواج بالبغاء؟

نعم إنّ بين الزواج المؤقت و الزواج الدائم بعض الفروق من حيث التوارث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۷

بين الزوجتين ٨٢] و النفقة و بعض الأحكام، و لكن هذه الفروق لا تسبب فى أن يجعل «الزواج المؤقت» فى رديف البغاء، خلاصة القول: إنّ المتعة نوع من الزواج بمقررات الزواج و النكاح.

۲- إنّ «الزواج المؤقت» يتيح لبعض الأشخاص من طلاب الهوى أن يسىء استعمال هذا القانون، و أن يرتكبوا كل فاحشة تحت هذا الستار لدرجة أن ذوى الشخصيات من الناس لا تقبل بمثل هذا الزواج، بل و تأنف منه كما أن ذوات الشخصية من النساء يأبين ذلك أيضا.

و الجواب هو: و أی قانون فی عالمنا الراهن لم یسأ استعماله؟ و هل یجوز أن نمنع من الأخذ بقانون تقتضیه الفطرة البشریة و تملیه الحاجة الاجتماعیة الملحة بحجّة أن هناک من یسیء استعماله، أم أن علینا أن نمنع من سوء استخدام القانون الصحیح؟

لو أنّ البعض استغل موسم الحج لبیع المخدرات علی الحجیج- افتراضا- فهل یجب أن نمنع من هذا التصرف الشائن، أم نمنع من اشتراک الناس فی هذا المؤتمر الإسلامی العظیم؟

و هکذا الأمر فی المقام، و إذا لا حظنا بعض الناس من ذوی الشخصیات یکره الأخذ بهذا القانون الإسلامی (أی الزواج المؤقت) لم یکشف ذلک عن عیب فی القانون، بل یکشف عن عیب فی العاملین به، أو بتعبیر أصح: یکشف عن عیب فی الذین یسیئون استخدام القانون.

فلو أنّ الزواج المؤقت اتّخذ فی المجتمع المعاصر صورته الصحیحة، و قامت الحکومة الإسلامیة بتطبیقه علی النحو الصحیح، و ضمن ضوابطه و مقرراته الخاصّة به، أمکن المنع من سوء استخدام المستغلین لهذا القانون، کما لم یعد ذوو الشخصیات یکرهون هذا القانون و یرفضونه عند وجود ضرورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۸

اجتماعیة أیضا.

۳- یقولون: إنّ «الزواج المؤقت» یسبب فی أن یحصل فی المجتمع أطفال بلا- أسر، تماما کما یحصل من البغاء من الأولاد الغیر الشرعیین.

و الجواب هو: إنّ الإجابة علی هذه المؤاخذة تتّضح تماما ممّا قلناه، لأنّ الأولاد غیر الشرعیین غیر مرتبطین بآبائهم و لا أمهاتهم من الناحیة القانونیة، فی حین إن الأولاد الناتجین من الزواج المؤقت لا یختلفون فی أی شیء عن الأولاد الناشئین من الزواج الدائم حتی فی المیراث و سائر الحقوق الاجتماعیة، و هذا الاعتراض نشأ من عدم الانتباه إلی هذه الحقیقة الساطعة فی صعید الزواج المؤقت.

«راسل» و الزواج المؤقت:

فی خاتمة هذا البحث من المفید الإشارة إلی موضوع هام ذکره فی هذا المجال العالم الإنجلیزی المعروف «برتراندراسل» فی کتابه: «الزواج و الأخلاق» تحت عنوان «زواج اختیاری».

لقد کتب راسل بعد أن ذکر اقتراحا لأحد قضاة محاکم الشباب یدعی «بن بن‌بی‌لیندسی» فی مجال «الزواج الودّی أو الزواج الاختیاری» قائلا: وفق هذا الاقتراح یجب أن یکون الشباب قادرین علی أن یدخلوا فی نوع جدید من الزواج یختلف عن الزواج المتعارف (الدائم) من ثلاث نواح:

أوّلا: أن لا یقصد الطرفان الحصول علی أبناء، و لهذا یجب أن یتعرفوا علی أفضل السبل لمنع الحمل.

و ثانیا: أن یتمّ الإفتراق بین الطرفین بأبسط الطرق و أسهلها.

و ثالثا: أن لا تستحق المرأة أی نفقة من الرجل بعد وقوع الإفتراق و الطلاق بینهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۹

ثمّ إنّ راسل بعد أن یذکر خلاصة ما اقترحه «لیندسی» یقول: و إنّی لأتصور أن مثل هذا الأمر لو اعترف به القانون لأقبل جمهور کبیر من الشباب و خاصّة الطلبة الجامعیین علی الزواج المؤقت و لدخلوا فی حیاة مشترکة مؤقتة، حیاة تتمتع بالحریة، و خالصة من کثیر من التبعات و العواقب السیئة للعلاقات الجنسیة الطائشة، الراهنة»[۸۳].

إنّ هذا الطرح- کما تلاحظ أیّها القارئ الکریم- حول الزواج المؤقت یشابه إلی حدّ کبیر قانون الزواج المؤقت الإسلامی، غایة ما

هنالك إنّ الشروط التی قرّرها الإسلام فی صعید «الزواج المؤقت» أوضح و أکمل من نواحی کثیرة ممّا اعتبر فی ذلك الطرح (الذی اقترحه لیندسی)، هذا مضافا إلی أن المنع من تکون الولد فی الزواج المؤقت الإسلامی غیر محضور و إنّ الانفصال سهل، کما أنّه لا تجب النفقة فی هذا الزواج علی الرجل.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه قال:- بعد ذکر وجوب دفع المهر- وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ و هو بذلك یشیر إلی أنّه لا مانع من التغییر فی مقدار الصداق إذا تراضی طرفا العقد، و علی هذا الأساس یکون الصداق نوعا من الدین الذی یخضع للتغییر من زیادة أو نقصان إذا تراضیا. (و لا فرق فی هذا الأمر بین العقد المؤقت و العقد الدائم و إن کانت الآیة الحاضرة- کما شرحنا ذلك سلفا- تدور حول الزواج المؤقت).

ثمّ إنّ هناك احتمالا آخر فی تفسیر الآیة أیضا و هو أنّه لا مانع من أن یقدم الطرفان- بعد انعقاد الزواج المؤقت علی تمدید مدّة هذا الزواج و کذا التغییر فی مقدار المهر برضا الطرفین، و هذا یعنی أن مدّة الزواج المؤقت قابلة للتمدید حتی عند إشرافها علی الانتهاء (أی قبیل انتهائها) بأن یتفق الزوجات أن یضیفا علی المدّة المتفق علیها فی مطلع هذا الزواج، مدّة أخری معینة لقاء إضافة مقدار معین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۰

من المال إلی الصداق المتفق علیه أوّلا (و قد أشیر فی روایات أهل البیت علیهم السّلام إلی هذا التّفسیر أیضا).

ثمّ أنّه سبحانه قال: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً یرید بذلك أن الأحکام المذکورة فی هذه الآیة تتضمّن خیر البشریة و صلاحها و سعادتها لأنّ اللّه علیم بمصالحهم، حکیم فی ما یقرره لهم من القوانین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۱

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۲۵]

اشارة

وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ وَ لا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۵)

التّفسیر

التّزوج بالإماء:

تعقیبا علی الأبحاث السابقة المتعلقة بالزواج نزلت هذه الآیة تبیّن شروط التزویج بالإماء، فتقول أولا: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا[۸۴] أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ أی من لم یجد قدرة مالیة علی أن یتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، و لیس لدیه ما یقدر علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۲

مهرهنّ و نفقتهنّ، فإن له أن یتزوج ممّا ملکت أیمانکم من الإماء، فإن مهورهنّ أقل، و مؤونتهنّ أخفّ عادة.

علی أنّ المراد من الأمة هنا هی أمة الغیر، إذ لا یجوز لصاحب الأمة أن یتزوج بأمته و یتعامل معها کما یتعامل مع زوجته بشروط مذکورة فی الکتب الفقهیة.

كما أن التعبير ب «المؤمنات» فى الآية يستفاد منه أنّه يجب أن تكون «الأمة» التى يراد نكاحها مسلمة حتى يجوز التزوج بها، و على هذا لا يصح التزوج بالإماء الكتابيات.

ثمّ إنّ الملفت للنظر فى المقام هو أنّ القرآن عبر عن الإماء بالفتيات جمع فتاة، هو مشعر عادة بالاحترام الخاص الذى يولى للنساء، و هى تستخدم غالبا فى الشّابات من الإناث.

ثمّ إن اللّه سبحانه عقّب على هذا الحكم بقوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ و يريد بذلك أنكم لستم مكلّفين- فى تشخيص إيمان الإماء- إلّا بالظاهر، و أمّا الباطن فاللّه هو الذى يعلم ذلك، فهو وحده العالم بالسرائر، و المطلع على الضمائر.

و حيث إن البعض كان يكره التزوج بالإماء و يستنكف من نكاحهنّ قال تعالى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أى أنّكم جميعا من أب واحد، و أمّ واحدة، فإذن يجب أن لا تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتى لا يختلفن من الناحية الإنسانية عنكم، و اللائى يشبهنّ غيرهنّ من ناحية القيمة المعنوية، فقيمتهنّ تدور مدار التقوى و الإيمان لا غير.

و خلاصة القول إنّ الإماء من جنسكم، و كلّكم كأعضاء جسم واحد.

نعم لا بدّ أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهنّ و إلّا كان باطلا، و إلى هذا أشار سبحانه بقوله: فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَ و التعبير عن المالك بالأهل إنّما هو للإشارة إلى أنّه لا يجوز التعامل مع الإماء على أنهنّ متاع أو بضاعة، بل يجب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۳

أن يكون التعامل معهنّ على أنهنّ من أعضاء العائلة، فلا بدّ أن يكون تعاملا إنسانيا كاملا.

ثمّ إنّه سبحانه قال: وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ و من هذه الجملة يستفاد أن الصّداق الذى يعطى نهنّ يجب أن يكون متناسبا مع شأنهن و مكانتهن، و أن يعطى المهر لهنّ، يعنى أن الامة تكون هى المالكة للصداق، و إن ذهب بعض المفسرين إلى أن فى الآية حذفا، أى أن الأصل هو (و آتوا مالكهنّ أجورهنّ) غير أن التّفسير لا يوافق ظاهر الآية، و إن كانت تؤيده بعض الروايات و الأخبار.

هذا و يستفاد أيضا من ظاهر الآية أنه يمكن للعبيد و الإماء أن يملكوا ما يحصلون عليه بالطرق المشروعة.

كما يستفاد من التعبير ب «المعروف» أنّه لا يجوز أن تظلم الإماء فى تعيين مقدار المهر، بل هو حقهنّ الطبيعى الحقيقى الذى يجب أن يعطى إليهنّ بالقدر المتعارف.

ثمّ إن اللّه سبحانه ذكر شرطا آخر من شروط هذا الزواج، و هو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللائى لم يرتكبن البغاء إذ قال:

مُحْصَناتٍ سواء بصورة علنية غَيْرَ مُسافِحاتٍ أو بصورة خفية وَ لا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ ۸۵] أى أصدقاء و أخلاء فى السرّ.

و يمكن أن يرد هنا سؤال هو أنّ النهى عن الزنا بلفظة غَيْرَ مُسافِحاتٍ تكفى و تغنى عن النهى عن اتّخاذ الأخدان، فلما ذا الوصف الثانى أيضا؟

و يجاب على هذا: بأن البعض- فى عهد الجاهلية- كان يرى أنّ المذموم فقط هو الزنا العلنى و السفاح الظاهر، و أمّا اتّخاذ الأخلاء و الرفاق أو الرفيقات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۴

السرّ فلا بأس به، و بهذا يتّضح سبب ذكر القرآن و تصريحه بكلا النوعين.

ثمّ إن اللّه سبحانه قال: فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ

و تتضمن الآية بحثا حول عقوبة الإماء إذا خرجن عن جادة العفة و الطهر، و ذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإماء، و بعض الأحكام حول حقوقهنّ.

و الحكم المذكور فى هذا المجال هو أن الإماء إذا زنين فجزاؤهنّ نصف جزاء الحرائر إذا زنين، أى خمسون جلدة.

ثمّ إنّ هاهنا نقطة جديرة بالانتباه هى أنّ القرآن الكريم يقول فى هذا المقام فَإِذا أَحْصِنَ فيكون معناه أنّ الجزاء المذكور إنّما يترتب على زنا الأمة إذا أحصنت، فما ذا يعنى ذلك؟

لقد احتمل المفسّرون هنا احتمالات عديدة، فبعضهم ذهب إلى أنّ المراد هو الأمة ذات بعل (و ذلك حسب الاصطلاح الفقهى المعروف و الآية السابقة).

و ذهب آخرون إلى أنّ المراد هى الأمة المسلمة، بيد أن تكرار لفظة المحصنة مرتين فى الآية يقضى بأن يكون المعنى واحدا فى المقامين، هذا من جهة، و من جهة أخرى فإن جزاء النساء المحصنات هو الرجم لا الجلد، فيتّضح أنّ التّفسير الأوّل و هو تفسير المحصنة بالأمة ذات بعل غير مقبول، كما أنّ التّفسير الثّانى و هو كون المراد من المحصنة هو المسلمة ليس له ما يدل عليه.

فالحقّ هو أنّ مجىء لفظة الْمُحْصَناتِ فى القرآن الكريم بمعنى المرأة العفيفة الطاهرة- على الأغلب- يجعل من القريب إلى النظر أن تكون لفظة المحصنة هنا فى الآية الحاضرة مشيرة إلى هذا المعنى نفسه، فيكون المراد أنّ الإماء اللاتى كن يرتكبن الفاحشة بضغط و إجبار من أوليائهنّ لا يجرى عليهنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۵

الحكم المذكور (أى الجلد)، أمّا الإماء اللاتى لم يتعرضن للضغط و الإجبار، و يمكنهنّ أن يعشن عفيفات نقيات، فإنهنّ إذا أتين بالفاحشة عوقبن كما تعاقب الحرائر و إن كانت عقوبة هذا النوع من الإماء على النصف من حدّ الحرائر فى الزنا.

ثمّ قال سبحانه معقبا على الحكم السابق: ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ و «العنت» (على وزن سند) يقال فى الأصل للعظم المجبور- بعد الكسر- إذا أصابه ألم و كسر آخر فهضّه قد أعنته، لأن هذا النوع من الكسر مؤلم جدّا، و لهذا يستعمل فى المشاكل الباهظة و الأعمال المؤلمة.

و يقصد الكتاب العزيز من العبارة الحاضرة أنّ الزواج بالإماء إنّما يجوز لمن يعانى من ضغط شديد بسبب شدّة غلبة الغريزة الجنسية عليه و لم يكن قادرا على التزوج بالحرائر من النساء، و على هذا الأساس لا يجوز الزواج بالإماء لغير هذه الطائفة.

و يمكن أن تكون فلسفة هذا الحكم فى أنّ الإماء خاصّة فى تلك العهود لم يحظين بتربية جيدة، و لهذا كن يعانين من نواقص خلقية و نفسية و عاطفية، و من الطبيعى أن يتّخذ الأطفال المتولدون من هذا الزواج صفة الأمهات و يكتسبوا خصوصياتهنّ الخلقية، و لهذا السبب طرح الإسلام طريقة دقيقة لتحرير العبيد تدريجا حتى لا يبتلوا بهذا المصير السىء، و فى نفس الوقت فسح للأرقاء أنفسهم أن يتزوجوا فيما بينهم.

نعم، هذا الموضوع لا يتنافى مع وضع بعض الإماء اللائى حظين بوضع استثنائى و خاص من الناحية الخلقية و التربوية، فالحكم المذكور أعلاه يرتبط بأغلبية الإماء، و كون بعض أمهات الأئمّة، من أهل البيت النبوى عليهم السّلام من الإماء هو من هذه الجهة، و لكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ ما قيل فى مجال الإماء من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۶

«المنع فى غير الضرورة» هو الزواج بهنّ، لا نكاحهنّ بسبب الملك، فإنّه لا مانع منه حتى فى غير الضرورة.

ثمّ عقب سبحانه على ذلك بقوله: وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ أى إن صبركم عن التزوج بالإماء ما استطعتم و ما لم تقعوا فى الزنا خير لكم و من مصلحتكم:

وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى يغفر اللّه لكم ما تقدم منكم بجهل أو غفلة فهو رحيم بكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارهٔ

یُرِیدُ اللَّهُ لِیُبَیِّنَ لَکُمْ وَ یَهْدِیَکُمْ سُنَنَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ یَتُوبَ عَلَیْکُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۲۶) وَ اللَّهُ یُرِیدُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْکُمْ وَ یُرِیدُ الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِیلُوا مَیْلاً عَظِیماً (۲۷) یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُخَفِّفَ عَنْکُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِیفاً (۲۸)

التّفسیر

هذه القیود لما ذا؟:

بعد أن بیّن اللّه سبحانه فی الآیات السابقهٔ ما هناک من شروط و قیود و أحکام مختلفهٔ فی مجال الزواج، یمکن أن ینقدح سؤال فی ذهن البعض و هو: ما المقصود من کلّ هذه القیود و لما ذا الحدود القانونیهٔ؟ أ لم یکن من الأفضل أن تترک للأفراد الحریهٔ الکاملهٔ فی هذه المسائل، لیتاح لهم أن یستفیدوا من هذا الأمر و لیتعرفوا فی هذا المجال کما یفعل عبدهٔ الدنیا حیث یتوسلون بکل وسیلهٔ فی طریق اللّذهٔ؟

إنّ الآیات الحاضرهٔ هی فی الحقیقهٔ إجابهٔ علی هذه التساؤلات إذ یقول سبحانه: یُرِیدُ اللَّهُ لِیُبَیِّنَ لَکُمْ وَ یَهْدِیَکُمْ سُنَنَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ یَتُوبَ عَلَیْکُمْ أی أنّ اللّه یبیّن لکم الحقائق بواسطهٔ هذه القوانین و یهدیکم إلی ما فیه مصالحکم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۸

مع العلم بأن هذه الأحکام لا تختص بکم، فقد سار علیها من سبقکم من أهل الحق من الأمم الصالحهٔ، هذا مضافا إلی أنّ اللّه تعالی یرید أن یغفر لکم و یعید علیکم نعمه التی قطعت عنکم بسبب انحرافکم عن جادهٔ الحقّ، و کل هذا إنّما یکون إذا عدتم عن طریق الانحراف الذی سلکتموه فی عهد الجاهلیهٔ و قبل الإسلام.

وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ یعلم بأسرار الأحکام، و یشرعها لکم عن حکمهٔ.

ثمّ إن اللّه سبحانه أکّد ما مرّ بقوله: وَ اللَّهُ یُرِیدُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْکُمْ وَ یُرِیدُ الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِیلُوا مَیْلًا عَظِیماً أی أنّ اللّه یرید بتشریع هذه الأحکام لکم أن یعید علیکم نعمه التی قطعت و منعت عنکم بسبب ذنوبکم، و ارتکابکم للشّهوات، و لکن الذین یریدون الانسیاق وراء الشّهوات الغارقین فی الآثام و الذنوب یریدون لکم أن تنحرفوا عن طریق السعادهٔ، إنّهم یریدون أن تسایروهم فی اتّباع الشّهوات و أن تنغمسوا فی الآثار انغماسا کاملا، فهل ترون- و الحال هذه- إنّ هذه القیود و الحدود الکفیلهٔ بضمان سعادتکم و خیرکم و مصلحتکم أفضل لکم، أو الحریهٔ المنفلتهٔ المقرونهٔ بالانحطاط الخلقی، و الفساد و السقوط؟

إنّ هذه الآیات فی الحقیقهٔ تجیب علی تساؤل أولئک الأفراد الذین یعیشون فی عصرنا الحاضر أیضا و الذین یعترضون علی القیود و الحدود المفروضهٔ فی مجال القضایا الجنسیهٔ، و تقول لهم: إنّ الحریات المطلقهٔ المنفلتهٔ لیست أکثر من سراب، و هی لا تنتج سوی الانحراف الکبیر عن مسیر السعادهٔ و التکامل الإنسانی، و کما توجب التورط فی المتاهات و المجاهل، و تستلزم العواقب الشریرهٔ التی یتجسد بعضها فی ما نراه بأم أعیننا من تبعثر العوائل، و وقوع أنواع الجریمهٔ الجنسیهٔ البشعهٔ، و ظهور الأمراض التناسلیهٔ و الآلام الروحیهٔ و النفسیهٔ المقیتهٔ، و نشوء الأولاد غیر الشرعیین حیث یکثر فیهم المجرمون القساهٔ الجناهٔ.

ثمّ إنّه سبحانه یقول بعد کل هذا: یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُخَفِّفَ عَنْکُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۹

ضَعِیفاً و هذه الآیهٔ إشارهٔ إلی أنّ النقطهٔ التالیهٔ و هی أنّ الحکم السابق فی مجال حریهٔ التزوج بالإماء بشروط معینهٔ ما هو- فی الحقیقهٔ- إلّا تخفیف و توسعهٔ، ذلک لأنّ الإنسان خلق ضعیفا، فلا بدّ و هو یواجه طوفان الغرائز المتنوعهٔ الجامحهٔ التی تحاصره و تهجم علیه من

کل صوب و حدب أن تطرح علیه طرق و وسائل مشروعة لإرضاء غرائزه، لیتمکن من حفظ نفسه من الانحراف و السقوط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۰

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۲۹ الی ۳۰]

اشارة

یـا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَأْکُلُوا أَمْوالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَکُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْکُمْ وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَـکُمْ إِنَّ اللَّهَ کانَ بِکُمْ رَحِیماً (۲۹) وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِیهِ ناراً وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً (۳۰)

التّفسیر

سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الإقتصاد:

الآیـة الأولی من هاتین الآیتین تشـکل- فی الحقیقـة- القاعـدة الأساسـیة للقوانین الإسـلامیة فی مجال المسائل المتعلقـة «بالمعاملات و المبادلات المالیة» و لهذا یستدلّ بها فقهاء الإسلام فی جمیع أبواب المعاملات و المبادلات المالیة.

إنّ هـذه الآیـة تخاطب المؤمنین بقولها: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَأْکُلُوا أَمْوالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْباطِلِ و هذا یعنی أنّ أی تصـرف فی أموال الغیر بـدون حق أو بدون أی مبرر منطقی و معقول، ممنوع و محرم من وجهة نظر الإسـلام، فقد أدرج الإسـلام کل هذه الأمور تحت عنوان «الباطل» الذی له مفهوم واسع و کبیر.

و الباطل کما نعلم یقابل «الحقّ» و هو شامل لکل ما لیس بحقّ و کلّ ما لا هدف له و لا أساس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۱

و فی آیات أخری من القرآن الکریم أکّد هذا المعنی بعبارات شبیهة بالعبارة المذکورة فی الآیة الحاضـرة، فعند ما یشنع علی الیهود و یـذکر أعمـالهم القبیحـة یقول: وَ أَکْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ ۸۶] و یقـول فی الآیـة (۱۸۸) من سـورة البقرة لاـ تَـأْکُلُوا أَمْوالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْباطِلِ کمقدمة للنهی عن جر الناس إلی المحاکم و أکل أموالهم بحجج واهیة غیر منطقیة.

و علی هـذا الأسـاس ینـدرج تحت هـذا العنوان الکلی کل لون من ألوان العـدوان، و الغش، و جمیع المعاملات الرّبویـة، و المعاملات المجهولـة الخصوصـیات تماما، و تعـاطی البضـائع التی لاـ فائـدة فیها بحکم العقلاء، و التجارة بأدوات اللهو و الفساد و المعصـیة و ما شاکل ذلک.

و تفسـیر بعض الروایـات کلمـة «الباطـل» بالقمـار و الرّبـا و مـا شابه ذلک إنّما هو فی الحقیقـة من باب ذکر المصادیق الواضـحة لهـذا المفهوم، و لیس من باب الحصر و القصر.

و لعلّنا لا نحتاج إلی التـذکیر بأنّ التعبیر ب «الأکل» کنایة عن کل تصـرف، سواء تمّ بصورة الأکل المتعارف أو اللبس، أو السـکنی أو غیر ذلک، تعبیر رائج فی اللغة العربیة و غیر العربیة، غیر غریب علی الاستعمال.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه یقول معقبا علی العبارات السابقة: إِلَّا أَنْ تَکُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ

و هذه العبارة اسـتثناء من القانون الکلی، و هو بحسب الاصـطلاح «اسـتثناء منقطع»[۸۷] و هو یعنی إن مـا جـاء فی هـذا العبارة لم یکن مشمولا للحکم السابق من الأساس، بل قد ذکر تأکیدا و تذکیرا، فهو فی حدّ ذاته قانون کلی، و ضابطة عامّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۲

برأسها، لأنّه یقول: إلّا أن یکون التصرف فی أموال الآخرین بسبب التجارهٔ الحاصلهٔ فی ما بینکم، و التی تکون عن رضا الطرفین.

فبناء علی هـذا تکون جمیع أنواع المعاملات المالیهٔ و التبادل التجاری الرائج بین الناس- فی ما إذا تمّ برضا الطرفین و کان له وجه معقول- أمرا جائزا من وجههٔ نظر الإسلام (إلّا الموارد التی ورد فیها نهی صریح لمصالح خاصّهٔ).

ثمّ أنّه تعالی ینهی فی ذیل هـذه الآیهٔ عن قتل الإنسان لنفسه إذ یقول: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ و ظاهر هذه الجملهٔ بقرینهٔ قوله: إِنَّ اللَّهَ کانَ بِکُمْ رَحِیماً النهی عن الانتحار، یعنی أنّ اللّه الرحیم کما لا یرضی بأن تقتلوا أحدا، کذلک لا یسمح لکم و لا یرضی بأن تقتلوا أنفسکم بأیدیکم، و قد فسّرت الآیهٔ الحاضرهٔ فی روایات أهل البیت علیهم السّلام بالانتحار أیضا[۸۸].

و هنا یطرح سؤال و هو: أی ارتباط بین مسألهٔ قتل الإنسان لنفسه، و «التصرف الباطل فی أموال الناس»؟

إنّ الجواب علی هـذا السؤال واضح تماما، و فی الحقیقهٔ یشیر القرآن بذکر هذین الحکمین بصورهٔ متتالیهٔ إلی نکتهٔ اجتماعیهٔ مهمّهٔ، و هی أنّ العلاقات الاقتصادیهٔ فی المجتمع إذا لم تکن قائمهٔ علی أساس صحیح، و لم یتقدم الإقتصاد الاجتماعی فی الطریق السلیم، و وقع الظلم و التصرف العدوانی فی أموال الغیر أصیب المجتمع بنوع من الانتحار، و آل الأمر إلی تصاعد حالات الانتحار الفردی مضافا إلی الانتحار الجماعی الذی هو من آثار الانتحار الفردی ضمنا.

إنّ الحوادث و الثورات التی تقع فی المجتمعات العالمیهٔ المعاصرهٔ خیر شاهد و أفضل دلیل علی هذه الحقیقهٔ، و حیث أنّ اللّه لطیف بعباده رحیم بخلقه فقد أنذرهم و حذرهم من مغبهٔ الأمر، و حثّهم علی تجنب المبادلات الاقتصادیهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۳

المالیهٔ الغیر الصحیحهٔ، و أخطرهم بأن الإقتصاد المریض یؤدی بالمجتمع إلی السقوط و الانهیار، و الفناء و الاندحار.

کما حذر قائلا: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِیهِ ۸۹] ناراً أی أن من یعصی هذه الأحکام و یتجاهل هذا التحذیر، و یأکل أموال الآخرین بالباطل و دون استحقاق، أو ینتحر بیدیه لم یصبه العذاب الألیم فی الدنیا فحسب، بل ستصیبه نار الغضب الإلهی، و هذا أمر هین علی اللّه: وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۴

الآیهٔ [سورهٔ النساء (۴): آیهٔ ۳۱]

اشارهٔ

إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ وَ نُدْخِلْکُمْ مُدْخَلاً کَرِیماً (۳۱)

التّفسیر

المعاصی الکبیرهٔ و الصّغیرهٔ:

هذه الآیهٔ تقول بصراحهٔ: إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ وَ نُدْخِلْکُمْ مُدْخَلًا کَرِیماً.

و من هذا التعبیر یستفاد أنّ المعاصی و الذنوب علی قسمین:

القسم الأوّل: هو ما یسمّیه القرآن الکریم بالمعصیهٔ الکبیرهٔ.

و القسم الثّانی و هو ما یسمّیه القرآن الکریم بالسّیئهٔ.

و قد عبّر فی الآیهٔ (۳۲) من سورهٔ النجم «باللمم»[۹۰] بدلا عن السیئهٔ، و فی الآیهٔ (۴۹) من سورهٔ الکهف ذلک لفظهٔ «الصّغیرهٔ» فی

مقابل الکبیرة عند ما یقول:

لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصاها.

و من التعابیر المذکورة یثبت- بوضوح- أنّ الذنوب و المعاصی علی صنفین محددین، یعبر عنهما تارة بالکبیرة و الصغیرة، و تارة أخری بالکبیرة و السیئة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۵

و ثالثة بالکبیرة و «اللمم».

و الآن یجب أن نعرف ما هو الملاک و الضابطة فی تحدید الصّغیرة و الکبیرة.

یذهب البعض إلی أنّ هذین الوصفین من الأمور النسبیة، تکون کل معصیة بالنسبة إلی ما هو أکبر منها صغیرة، و بالنسبة إلی ما هو أصغر منها کبیرة[۹۱].

و لکن من الواضح أنّ هذا المعنی لا ینجسم مع ظاهر الآیة الحاضرة، لأنّ الآیة الحاضرة تقسم الذنوب إلی صنفین مستقلین، و تعتبرهما نوعین متقابلین، و تعتبر الاجتناب عن صنف موجبا للعفو و التکفیر عن الصنف الآخر.

و لکننا إذا راجعنا المعنی اللغوی للکبیرة وجدنا أنّ الکبیرة هی کل معصیة بالغة الأهمیّة من وجهة نظر الإسلام، و یمکن أن تکون علامة تلک الأهمیة أن القرآن لم یکتف بالنهی عنها فقط، بل أردف ذلک بالتهدید بعذاب جهنم، مثل قتل النفس و الزنا و أکل الربا و أمثال ذلک، و لهذا

جاء فی روایات أهل البیت علیهم السّلام: «الکبائر التی أوجب اللّه عز و جل علیها النار»،

و قد روی مضمون هذا الحدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام، و الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام [۹۲].

و علی هذا الأساس تسهل معرفة المعاصی الکبیرة إذا أخذنا بنظر الإعتبار الضابطة المذکورة، و ما قد ذکر فی بعض الروایات من أنّ عدد الکبائر سبع و فی بعضها عشرون و فی بعضها سبعون لا ینافی ما ذکرناه قبل قلیل، إذ أنّ بعض هذه الروایات یشیر- فی الحقیقة- إلی المعاصی الکبیرة من الدرجة الأولی، و بعضها الآخر یشیر إلی المعاصی الکبیرة من الدرجة الثّانیة، و بعضها الثالث یشیر إلی جمیع الذّنوب الکبیرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۶

إشکال:

یمکن أن یقال أنّ هذه الآیة تشجع الناس علی ارتکاب المعاصی و الذنوب الصغیرة إذا، کأنّها تقول: لا بأس بارتکاب المعاصی الصغیرة شریطة ترک الکبائر من الذنوب.

الجواب:

إنّ الجواب علی هذا الإشکال یتّضح من التعبیر المذکور فی الآیة الحاضرة، إذ یقول القرآن الکریم: نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ یعنی إنّ الاجتناب عن الذنوب الکبار، خصوصا مع توفر أرضیة ارتکابها، یوجد حالة من التقوی الروحیة لدی الإنسان یمکنها أن تطهره من آثار الذنوب و المعاصی الصغیرة.

و فی الحقیقة أنّ الآیة الحاضرة تشبه الآیة (۱۱۴) من سورة هود التی تقول:

إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ فهی إشارة إلی أحد الآثار الواقعیة للأعمال الصالحة و هو یشبه ما إذا قلن، إذا اجتنب الإنسان المواد السّامة الخطیرة و توفرت له صحة جیدة و مناعة قویة أمکنه أن یتخلص من الآثار السیئة لبعض الأطعمة غیر المناسبة لسلامة مزاجه، و بسبب مناعته الجسمیة.

و بتعبیر آخر إنّ التکفیر عن الذنوب الصغیرة و غفرانها یعد نوعا من «الأجر المعنوی» لتارکی المعاصی و الذنوب الکبیرة، و لهذا- فی الحقیقة- أثر تشجیعی قوی علی ترک الکبائر، محفز علی اجتنابها.

متی تنقلب الصّغیرة إلی کبیرة؟:

إلّا أنّ هاهنا نقطة مهمّة لا بدّ من الالتفات إلیها، و هی أنّ المعاصی الصغیرة تبقی صغیرة ما لم تتکرر، هذا مضافا إلی کونها لا تصدر عن استکبار أو غرور و طغیان، لأنّ الصغائر- کما یستفاد من الکتاب العزیز و الأحادیث الشریفة- تتبدل إلی الکبیرة فی عدّة موارد هی:

۱- إذا «تکررت الصغیرة»،

قال الإمام الصّادق علیه السّلام: «لا صغیرة مع الإصرار».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۷

۲- إذا استصغر صاحب المعصیة معصیته و استحقرها،

فقد جاء فی نهج البلاغة: «أشدّ الذّنوب ما استهان به صاحبه».

۳- إذا ارتکبها مرتکبها عن عناد و استکبار و طغیان و تمرد علی أوامر اللّه تعالی، و هذا هو ما یستفاد من آیات قرآنیة متنوعة إجمالا، من ذلک قوله تعالی:

فَأَمَّا مَنْ طَغی وَ آثَرَ الْحَیاةَ الدُّنْیا، فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْوی ۹۳].

۴- إن صدرت المعصیة ممن لهم مکانة اجتماعیة خاصّة بین الناس و ممن لا تحسب معصیتهم کمعصیة الآخرین، فقد جاء فی القرآن الکریم حول نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی سورة الأحزاب الآیة (۳۰): یا نِساءَ النَّبِیِّ مَنْ یَأْتِ مِنْکُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ یُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَیْنِ و

قد روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: (من سن سنّة سیئة فعلیه وزرها و وزر من عمل بها لا ینقص من أوزارهم شیئا).

۵- أن یفرح مرتکب المعصیة بما اقترفه من المعصیة، و یفتخر بذلک کما

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من أذنب ذنبا و هو ضاحک دخل النّار و هو باک».

۶- أن یعتبر تأخیر العذاب العاجل عنه علی المعصیة دلیلا علی رضاه تعالی، و یری العبد نفسه محصنا من العقوبة آمنا من العذاب، أو یری لنفسه مکانة عند اللّه لا- یعاقبه اللّه علی معصیة لأجلها، کما جاء فی سورة المجادلة الآیة (۸) حاکیا عن لسان بعض العصاة المغرورین الذین یقولون فی أنفسهم: لَوْ لا یُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ ثمّ یرد علیهم القرآن الکریم قائلا: حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۸

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۳۲]

اشارة

وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَ سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۳۲)

سبب النّزول

قال المفسّر الشّهیر الطّبرسی رحمه اللّه فی «مجمع البیان»: قیل أن أم سلمهٔ (و هی من أزواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم) قالت: یا رسول اللّه یغزو الرجال و لا تغزو النساء، و إنّما لنا نصف المیراث؟ فلیتنا رجال و نغزو و نبلغ ما یبلغ الرجال، فنزلت الآیهٔ تجیب علی جمیع هذه التساؤلات.

و نقرأ فی تفسیر المنار: إنّ جماعهٔ من الرجال المسلمین قالوا: نرجو أن نفضل علی النساء بحسناتنا فی الآخرهٔ کما فضلنا علیهنّ فی المیراث فیکون أجرنا علی الضعف من أجر النساء، و قالت جماعهٔ من النساء المسلمات: إنا نرجو أن یکون الوزر علینا نصف ما علی الرجال فی الآخرهٔ کما لنا المیراث علی النصف من نصیبهم فی الدنیا، فنزلت الآیهٔ.

و قد ذکر سبب النّزول هذا بعینه فی تفسیر «فی ظلال القرآن» و تفسیر «روح المعانی» مع فارق بسیط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۹

التّفسیر

اشارهٔ

لقد أوجب التفاوت فی سهم الرجال و النساء من الإرث- کما قرأت فی سبب النزول- تساؤلا لدی البعض، و یبدو أنّهم لم یلتفتوا إلی أنّ هذا التفاوت إنّما هو لأجل أن النفقهٔ بکاملها علی الرجل، و لیس علی النساء شیء من نفقات العائلهٔ، بل نفقهٔ المرأهٔ هی الاخری مفروضهٔ علی الرجل، و لهذا یکون ما تصیبه المرأهٔ ضعف ما یصیبه الرجل من الثروهٔ، و لهذا قال اللّه تعالی فی هذه الآیهٔ: وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لأنّ لکل نوع من أنواع هذا التفصیل و التفاوت أسرار خفیّهٔ عنکم غیر ظاهرهٔ لکم، سواء کان التفاوت من جهۀ الخلقهٔ و الجنسیهٔ و بقیهٔ الصفات الجسمیهٔ و الروحیهٔ التی تشکل أساس النظام الاجتماعی فیکم، أو التفاوت من الناحیهٔ الحقوقیهٔ بسبب اختلاف الموقع و المکانهٔ کالتفاوت فی سهم الإرث، إنّ جمیع أنواع هذا التفاوت قائم علی أساس العدل و القانون الإلهی الحکیم، و لو کانت مصلحتکم فی غیر ذلک لسنّه و بیّنه لکم.

و علی هذا فإن تمنّی تغییر هذا الوضع نوع من المخالفهٔ للمشیئهٔ الرّبانیهٔ التی هی عین الحق و العدالهٔ.

علی أنّه یجب أن لا نتصور خطأ أنّ الآیهٔ الحاضرهٔ تشیر إلی التفاوت المصطنع الذی برز نتیجهٔ الاستعمار و الاستغلال الطبقی، بل تشیر إلی الفروق الطبیعیهٔ الواقعیهٔ، لأنّ الفروق المصطنعهٔ لا هی من المشیئهٔ الإلهیهٔ فی شیء، و لا أن تمنی تغییرها مرفوض و غیر صحیح، بل هی فروق ظالمهٔ و غیر منطقیهٔ یجب السعی فی رفعها و إزالتها و تفنیدها، فللمثال: لا یمکن للنساء أن یتمنین أن یکنّ رجالا، کما لا یمکن للرجال أن یتمنوا أن یکونوا نساء، لأنّ وجود هذین الجنسین أمر ضروری للنظام الاجتماعی الإنسانی، و لکن هذا التفاوت الجنسی یجب أن لا یتّخذ ذریعهٔ، لأن یسحق أحد الجنسین حقوق الجنس الآخر، و من هنا فإنّ الذین اتّخذوا هذه الآیهٔ ذریعهٔ لإثبات التمییز الاجتماعی الظالم أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۰

یتصوروها حجّهٔ علی هذا التمییز قد أخطئوا خطأ کبیرا.

و لذا عقب اللّه سبحانه على الجملة السابقة فورا بقوله: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ أى لكلّ من الرجال و النساء نصيب من سعيه و جهده و مكانته سواء كانت مكانة طبيعية (كالتفاوت و الفرق بين جنسى الرجل و المرأة) أو غير طبيعية ناشئة عن التفاوت بسبب الجهود الاختيارية.

إنّ الجدير بالالتفات هنا هو: إنّ لكلمة «الاكتساب» التى هى بمعنى التحصيل مفهوما واسعا يشمل الجهود الاختيارية، كما يشمل ما يحصل عليه الإنسان بواسطة بنيانه الطبيعى.

ثمّ يقول: وَ سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ أى بدل أن تتمنوا هذا التفصيل و التفاوت اطلبوا من فضل اللّه و اسألوا من لطفه و كرمه أن يتفضل عليكم من نعمه المتنوعة و توفيقاته و مثوباته الطيبة، لتكونوا- بنتيجة ذلك- سعداء رجالا و نساء، و من أى عنصر كنتم، و على كل حال اطلبوا و اسألوا ما هو خيركم و سعادتكم واقعا، و لا تتمنوا ما هو خيال أو ما تتخيلونه (و لعلّ التعبير بلفظة «من فضله» إشارة إلى المعنى الأخير).

على أنّه من الواضح جدّا أن طلب الفضل و العناية الرّبانية ليس بمعنى أن لا يسعى الإنسان فى الأخذ بأسباب كلّ شيء و عوامله، بل لا بدّ من البحث عن فضل اللّه و رحمته من خلال الأسباب التى قرّرها و أرساها فى الكون.

إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً أى يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع و ما يلزمه من الفروق سواء من الناحية الطبيعية أو الحقوقية، و لهذا لا وجود للظلم و الحيف و لا لأى شيء من التفاوت الظالم و التمييز غير العادل فى أفعاله، كما أنّه تعالى خبير بما فى بواطن الناس من الأسرار و الخفايا و النوايا و يعلم من الذى يتمنى الأمانى الخاطئة فى قلبه، و من يتمنى الأمانى الإيجابية الصحيحة البناءة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۱

التفاوت الطبيعى بين النّاس لما ذا؟:

إنّ ثمّة كثيرين يطرحون على أنفسهم السّؤال التالى: لما ذا خلق البعض بمواهب و قابليات أكثر، و آخرون بمواهب و قابليات أقل، و البعض متحلين بالجمال، و آخرون خلو منه، أو بجمال قليل، و البعض بامتيازات جسمية عالية و قوية متفوقة، و آخرون عاديين، هل يتلاءم هذا التفاوت مع العدل الإلهى؟؟.

فى الإجابة على هذه التساؤلات لا بدّ من الالتفات إلى النقاط التالية:

۱- إنّ بعض الفروق الجسمية و الروحية بين الناس ناشئة عن الاختلافات الطبقية و المظالم الاجتماعية، أو التفريط الفردى الذى لا علاقة له بنظام الخلق و جهاز الإيجاد أبدا، فمثلا كثير من أبناء الأغنياء أقوى من أبناء الفقراء و أكثر جمالا و تقدما من ناحية المواهب و القابليات بسبب أن الفريق الأوّل (أولاد الأغنياء) يحظى بإمكانيات أكبر من حيث الغذاء و الجوانب الصحية، فى حين يعانى الفريق الثانى من حرمان و نقصان من هذه الجهة. أو أن هناك من يخسر الكثير من طاقاته الجسمية و الروحية بسبب التوانى، و البطالة، و التفريط و التقصير.

إنّنا يجب أن نعتبر هذه الفروق و هذا التفاوت تفاوتا و مصطنعا و مزيفا، و غير مبرر، و يتحقق القضاء عليها من خلال القضاء على النظام الطبقى، و تعميم العدالة الاجتماعية فى الحياة البشرية، و القرآن الكريم و الإسلام لا يقرّ أى شيء من هذه الفروق، و أى لون من ألوان هذا التفاوت و التمييز أبدا.

۲- إنّ القسم الآخر من الفروق و ألوان التفاوت أمر طبيعى، و شيء لازم من لوازم الجبلة البشرية، بل و ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، يعنى أنّ مجتمعا من المجتمعات حتى إذا كان يحظى بالعدالة الاجتماعية الكاملة لا يمكن أن يكون جميع أفراده متساوين و على نمط واحد و صورة واحدة مثل منتجات معمل. بل لا بدّ أن يكون هناك بعض التفاوت، و لكن يجب أن نعلم أنّ المواهب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۲

الإلهیة و القابلیات الجسمیة و الروحیة قد قسمت- فی الأغلب- تقسیما یصیب فیه کل واحد قسطا من تلک المواهب و القابلیات. لا أن یحظی بعض بجمیع المواهب، و یحرم آخرون من أی شیء منها، و بمعنی أنّه قل أن یوجد هناک من تجتمع فیه کل المواهب جملة واحدة، بل هناک من یحظی بالمقدرة البدنیة الکافیة، و آخر یحظی بموهبة ریاضیة جیدة، و من یحظی بذوق شعری رفیع، و آخر یحظی برغبة کبیرة فی التجارة، و من یتمتع بذکاء وافر فی مجال الزراعة، و آخر بمواهب و قابلیات خاصّة أخری.

المهم أن یکتشف المجتمع أو الأفراد أنفسهم تلک المواهب و القابلیات، و أن یقوموا بتربیتها و تنمیته فی بیئة سلیمة، حتی یتمکن کل إنسان إظهار ما ینطوی علیه من نقطة ضعف و یستفید منها.

۳- یجب أن نذکر القارئ أیضا بأنّ المجتمع مثل الجسد الإنسانی بحاجة إلی الأنسجة و العضلات و الخلایا المختلفة، یعنی کما أنّ البدن لو تألف جمیعه من خلایا دقیقة و رقیقة مثل خلایا العین و المخ لم یدم طویلا، و لو تألف جمیعه من خلایا غلیظة و خشنة لا تعرف انعطافا مثل خلایا العظام، فقدت القدرة الکافیة علی القیام بوظائفها، بل لا بدّ أن تکون الخلایا المکونة للجسم متنوعة، لیصلح بعضها للقیام بوظیفة التفکیر، و بعضها للمشاهدة و النظر، و آخر علی الاستماع و رابع علی التحدث، هکذا لا بدّ لوجود «المجتمع الکامل» من وجود عناصر ذات مواهب و قابلیات و أذواق، و تراکیب مختلفة متنوعة، بدنیة و فکریة، لکن لا یعنی هذا أن یعانی بعض أعضاء الجسد الاجتماعی من حرمان، أو تستصغر خدماته أو یستحقر دوره، تماما کما تستفید کل خلایا البدن الواحد رغم ما بینها من تفاوت و فروق من الغذاء و الهواء و غیرها من الحاجات بالمقدار اللازم لکل واحد.

و بعبارة أخری: إنّ الفروق و أشکال التفاوت فی البینة الروحیة و الجسمیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۳

فی الجوانب الطبیعة (التی لا هی ظالمة و لا هی مفروضة) إنّما هی فی الحقیقة مقتضی «الحکمة الرّبانیة»، و العدل لا یمکنه بحال أن ینفصل عن الحکمة.

فعلی سبیل المثال إذا کانت خلایا الجسم البشری مخلوقة فی شکل واحد کان ذلک بعیدا عن الحکمة کما أنّه خال عن العدل الذی یعنی وضع کل شیء فی محله و موضعه المناسب، و کذلک إذا تشابه الناس فی یوم من الأیّام فی التفکیر أو تشابهوا فی القابلیة و الموهبة لتهافت بنیان المجتمع برمته فی ذلک الیوم.

إذن فما ورد فی هذه الآیة فی مجال التفصیل و التفاوت فی جبلة الرجل و المرأة و خلقتهما إنّما هو فی الواقع إشارة إلی هذا الموضوع، لأنّه من البدیهی إذا کان البشر جمیعا رجالا، أو کانوا جمیعا نساء لانقرض النوع البشری عاجلا، هذا مضافا إلی انتفاء قسم من ملاذ البشر المشروعة.

فإذا اعترض جماعة قائلین لما ذا خلق البشر صنفین رجالا و نساء، و زعموا بأنّ هذا الأمر لا یتلاءم مع العدالة الإلهیة. لم یکن هذا الاعتراض منطقیا، لأنهم لم یلتفتوا إلی حکمة هذا التفاوت، و لم یتدبروا فیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۴

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۳۳]

اشارة

وَ لِکُلٍّ جَعَلْنا مَوالِیَ مِمَّا تَرَکَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِینَ عَقَدَتْ أَیْمانُکُمْ فَآتُوهُمْ نَصِیبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیداً (۳۳)

التّفسیر

یعود القرآن مرّة أخری إلی مسألة الإرث إذ یقول: وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ ۹۵] مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ أی لکل رجل أو امرأة جعلنا ورثة یرثون ممّا ترک الوالدان و الأقربون الذی یجب أن یقسّم بینهم طبق برنامج خاص.

إنّ هذه العبارة هی- فی الحقیقة- خلاصة أحکام الإرث التی مرّ ذکرها فی الآیات السابقة فی مجال الأقرباء، و هی مقدمة لحکم سیأتی بیانه فی ما بعد.

ثمّ إنّ اللّه تعالی یضیف قائلا: وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ أی ادفعوا إلی الذین عقدتم معهم عقدا نصیبهم من الإرث.

و التعبیر عن المیثاق بعقد الیمین (و هو العقد بالید الیمنی) لأجل أنّ الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۵

غالبا ما یستفید من یده الیمنی للقیام بأعماله، کما أنّ المیثاق یشبه نوعا من العقد (فی مقابل الحل).

و الآن لننظر من هم الذین عقد معهم المیثاق، الذین لا بدّ أن یعطوا نصیبهم من الإرث؟

یحتمل بعض المفسّرین أنّ المراد هو الزوج و الزوجة لأنّهما عقدا فی ما بینهما رابطة الزوجیة.

و لکن هذا الاحتمال یبدو مستبعدا، لأنّ التعبیر عن الزواج بعقد الیمین و نظیره فی القرآن الکریم قلیل جدا، هذا مضافا إلی أنّه یعد تکرارا للمواضیع السابقة.

إنّ ما هو أقرب إلی مفهوم الآیة هو عقد «ضمان الجریرة» الذی کان رائجا قبل الإسلام، و قد عدله الإسلام بعد أن أقرّه لما فیه من ناحیة إیجابیة و هو: «أن یتعاقد شخصان فیما بینهما علی أن یتعاونا فیما بینهما بشکل أخوی أن یعین أحدهما الآخر عند المشکلات، و إذا مات أحدهما قبل الآخر ورثه الباقی» و لقد أقر الإسلام هذا النوع من التعاقد الأخوی الودی، و لکنّه أکد علی أنّ التوارث بسبب هذا المیثاق إنّما یمکن إذا لم یکن هناک ورثة من طبقات الأقرباء، یعنی إذا لم یبق أحد من الأقرباء ورث ضامن الجریرة الذی وقع بینه و بین الآخر مثل هذا العقد (لمعرفة التفاصیل أکثر راجع بحث الإرث فی الکتب الفقهیة)[۹۶].

ثمّ ختم سبحانه الآیة بقوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً أی إذا قصرتم فی إعطاء نصیب الورثة و لم تعطوهم حقوقهم کاملة، علم اللّه بذلک و لم یخف علیه ما فعلتم، لأنّه علی کل شیء شهید و بکل شیء علیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۶

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۳۴]

اشارة

الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً (۳۴)

التّفسیر

القوامة فی النّظام العائلی:

قال اللّه تعالی فی مطلع هذه الآیة الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ و لا بدّ لتوضیح هذه العبارة من الالتفات إلی أنّ العائلة وحدة اجتماعیة صغیرة، و هی کالاجتماع الکبیر لا بدّ لها من قائد و قائم بأمورها، لأن القیادة و القوامة الجماعیة التی یشترک فیها الرجل و المرأة معا،

لا معنى لها و لا مفهوم، فلا بدّ أن يستقل الرجل أو المرأة بالقوامة، و يكون «رئيسا» للعائلة، بينما يكون الآخر بمثابة «المعاون» له الذى يعمل تحت إشراف الرئيس.

إنّ القرآن يصرّح- هنا- بأنّ مقام القوامة و القيادة للعائلة لا بدّ أن يعطى للرجل (و يجب أن لا يساء فهم هذا الكلام، فليس المقصود من هذا التعبير هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۷

الاستبداد و الإجحاف و العدوان، بل المقصود هو أن تكون القيادة واحدة و منظمة تتحمل مسئولياتها مع أخذ مبدأ الشورى و التشاور بنظر الإعتبار).

إنّ هذه المسألة تبدو واضحة فى هذا العصر أكثر من أى وقت مضى، و هى أن أية هيئة حتى المؤلفة من شخصين مكلفة بالقيام بأمر لا بدّ أن يتولى أحدهما زعامة تلك الهيئة فيكون رئيسها، بينما يقوم الآخر بمساعدته فيكون بمثابة (المعاون أو العضو)، و إلّا سادت الفوضى أعمال تلك الهيئة و اختلت نشاطاتها و أخفقت فى تحقيق أهدافها المنشودة، و هكذا الحال بالنسبة إلى العائلة، فلا بدّ من إسناد إدارة العائلة إلى الرجل.

و إنّما تعطى هذه المكانة للرجل لكونه يتمتع بخصوصيات معينة مثل القدرة على ترجيح جانب العقل على جانب العاطفة و المشاعر، (على العكس من المرأة التى تتمتع بطاقة فياضة و طاغية من الأحاسيس و العواطف) و مثل امتلاك بنية داخلية و قوة بدنية أكبر ليستطيع بالأولى أن يفكر و يخطط جيدا، و يستطيع بالثانية أن يدافع عن العائلة و يذّب عنها.

هذا مضافا إلى أنّه يستحق- لقاء ما يتحمله من الإنفاق على الأولاد و الزوجة، و لقاء ما تعهده من القيام بكل التكاليف اللازمة من مهر و نفقة و إدارة مادية لائقة للعائلة- أن تناط إليه وظيفة القوامة و الرئاسة فى النظام العائلى.

نعم يمكن أن يكون هناك بعض النسوة ممن يتفوقن على أزواجهنّ فى بعض الجهات، إلّا أن القوانين- كما أسلفنا مرارا- تسن بملاحظة النوع و مراعاة الأغلبية لا- بملاحظة الأفراد، فردا فردا، و لا شك أنّ الحالة الغالبة فى الرجال أنّهم يتفوقون على النساء فى القابلية على القيام بهذه المهمّة، و إن كانت النسوة يمكنهنّ أن يتعهدن القيام بوظائف أخرى لا يشك فى أهميتها.

إنّ جملة بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ إشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۸

أيضا إلى هذه الحقيقة، لأنّ القسم الأوّل من هذه الفقرة يقول: إن هذه القوامة إنّما هو لأجل التفاوت الذى أوجده اللّه بين أفراد البشر من ناحية الخلق لمصلحة تقتضيها حياة النوع البشرى، بينما يقول فى القسم الثانى منها: و أيضا لأجل أن الرجال كلفوا بالقيام بتعهدات مالية تجاه الزوجات و الأولاد فى مجال الإنفاق و البذل.

و لكن غير خفى أن إناطة مثل هذه الوظيفة و المكانة إلى الرجل لا تدل على أفضلية شخصية الرّجل من الناحية البشرية، و لا يبرر تميزه فى العالم الآخر (أى يوم القيامة) لأنّ التميز و الأفضلية فى عالم الآخرة يدور مدار التقوى فقط، كما أنّ شخصية المعاونة الإنسانية قد تترجح فى بعض الجهات المختلفة على شخصية الرئيس، و لكن الرئيس يتفوق على معاونه فى الإرادة التى أنيطت إليه، فيكون أليق من المعاون فى هذا المجال.

ثمّ إنّه سبحانه يضيف قائلا: فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ و هذا يعنى أن النساء بالنسبة إلى الوظائف المناطة إليهنّ فى مجال العائلة على صنفين:

الطّائفة الأولى: و هنّ «الصالحات» أى غير المنحرفات «القانتات» أى الخاضعات تجاه الوظائف العائلية «الحافظات للغيب» اللاتى يحفظن حقوق الأزواج و شؤونهم لا فى حضورهم فحسب، بل يحفظنهم فى غيبتهم، يعنى أنهنّ لا يرتكبن أية خيانة سواء فى مجال المال، أو فى المجال الجنسى، أو فى مجال حفظ مكانة الزوج و شأنه الاجتماعى، و أسرار العائلة فى غيبته، و يقمن بمسئولياتهنّ تجاه

الحقوق التی فرضها اللّه علیهنّ و التی عبّر عنها فی الآیة بقوله:

بِما حَفِظَ اللَّهُ خیر قیام.

و من الطبیعی أن یکون الرجال مکلفین باحترام أمثال هذه النسوة، و حفظ حقوقهنّ، و عدم إضاعتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۹

النّساء المقصرات النّاشزات

الطّائفة الثّانیة: هنّ النسوة اللاتی یتخلفن عن القیام بوظائفهنّ و واجباتهنّ، و تبدو علیهنّ علائم النشوز و أماراته فإن علی الرجال تجاه هذه الطائفة من النساء واجبات لا بدّ من القیام بها مرحلة فمرحلة، و علی کل حال یجب أن یراعوا جانب العدل و لا یخرجوا عن حدوده و إطار، و هذه الوظائف هی بالترتیب:

۱- المواعظة

إنّ المرحلة الأولی التی علی الرجال أن یسلکوها تجاه النساء اللاتی تبدو علیهنّ علائم التمرد و النشوز و العداوة، تتمثل فی وعظهن کما قال سبحانه فی الآیة الحاضرة: وَ اللَّاتِی تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَ ۹۷]. و علی هذا فإن النساء اللاتی یتجاوزن حدود النظام العائلی و حریمه لا بدّ قبل أی شیء أن یذکرن- من خلال الوعظ و الإرشاد- بمسئولیاتهنّ و واجباتهنّ و نتائج العصیان و النشوز.

۲- الهجر فی المضاجع

و تأتی هذه المرحلة إذا لم ینفع الوعظ و لم تنجع النصیحة وَ اهْجُرُوهُنَّ فِی الْمَضاجِعِ و بهذا الموقف و الهجر و عدم المبالاة بالزوجة أظهروا عدم الرضا من الزوجة، لعل هذا الموقف الخفیف یؤثر فی أنفسهنّ.

۳- الضرب:

و أمّا إذا تجاوزن فی عصیانهنّ، و التمرد علی واجباتهنّ و مسئولیاتهنّ الحدّ، و مضین فی طریق العناد و اللجاج دون أن یرتد عن بالأسالیب السابقة، فلا النصیحة تفید، و لا العظة تنفع، و لا الهجر ینجح، و لم یبق من سبیل إلّا استخدام العنف، فحینئذ یأتی دور الضرب ف اضْرِبُوهُنَ لدفعهنّ إلی القیام بواجباتهنّ الزوجیة لانحصار الوسیلة فی هذه الحالة فی استخدام شیء من العنف، و لهذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۰

سمح الإسلام فی مثل هذه الصورة بالضغط علیهنّ و دفعهنّ إلی القیام بواجباتهنّ من خلال التنبیه الجسدی.

اشکال:

یمکن أن یعترض معترض فی هذا المقام قائلا: کیف سمح الإسلام للرجال بأن یتوسلوا بأسلوب التنبیه الجسدی المتمثل بالضرب؟

الجواب:

إنّ الجواب على هذا الاعتراض يبدو غير صعب بملاحظة معنى الآية و الروايات الواردة لبيان مفادها و ما جاء فى توضيحها فى الكتب الفقهية، و أيضا بملاحظة ما يعطيه علماء النفس اليوم من توضيحات علمية فى هذا المجال، و نلخص بعض هذه الأمور فى نقاط:

أوّلا: إنّ الآية تسمح بممارسة التنبيه الجسدى فى حق من لا يحترم وظائفة و واجباته، الذى لا تنفع معه أية وسيلة أخرى، و من حسن الصدف أن هذا الأسلوب ليس بأمر جديد خاص بالإسلام فى حياة البشر، فجميع القوانين العالمية تتوسل بالأساليب العنيفة فى حق من لا ـ تنجح معه الوسائل و الطرق السلمية لدفعه إلى تحمل مسئولياته و القيام بواجباته، فإن هذه القوانين ربّما لا تقتصر على وسيلة الضرب، بل تتجاوز ذلك- فى بعض الموارد الخاصّة- إلى ممارسة عقوبات أشد تبلغ حدّ الإعدام و القتل.

ثانيا: إنّ التّنبيه الجسدى المسموح به هنا يجب أن يكون خفيفا، و أن يكون الضرب ضربا غير مبرح، أى لا يبلغ الكسر و الجرح، بل و لا الضرب البالغ حد السواد كما هو مقرر فى الكتب الفقهية.

ثالثا: إنّ علماء التحليل النفسى- اليوم- يرون أن بعض النساء يعانين من حالة نفسية هى «المازوخية» التى تقتضى أن ترتاح المرأة لضربها و أن هذه الحالة قد تشتد فى المرأة إلى درجة تحس باللّذة و السكون و الرضا إذا ضربت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۱

ضربا طفيفا.

و على هذا يمكن أن تكون هذه الوسيلة ناظرة إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يكون التنبيه الجسدى الخفيف بمثابة علاج نفسى لهم.

و من المسلم أنّ أحد هذه الأساليب لو أثر فى المرأة الناشزة و دفعها إلى الطاعة، و عادت المرأة إلى القيام بوظائفها الزوجية لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأة، و يعمد إلى إيذائها، و مضايقتها حتى تعود إلى جادة الصواب و استقامت فى سلوكها و لهذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقة بقوله: فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا.

و لو قيل: إن مثل هذا الطغيان و العصيان و التمرد على الواجبات الزوجية و العائلية قد يقع من قبل الرجال أيضا، فهل تشمل هذه المراحل الرجال أيضا؟

أى أ يمكن ممارسة هذه الأمور ضد الرجل كذلك، أم لا؟

نقول فى الإجابة على ذلك: نعم إنّ الرجال العصاة يعاقبون حتى بالعقوبة الجسدية أيضا- كما تعاقب النساء العاصيات الناشزات- غاية ما هنالك أن هذه العقوبات حيث لا تتيسر للنساء، فإن الحاكم الشرعى مكلف بأن يذكر الرجال المتخلفين بواجباتهم وظائفهم بالطرق المختلفة و حتى بالتعزير (الذى هو نوع من العقوبة الجسدية).

و قصّة الرجل الذى أجحف فى حق زوجته و رفض الخضوع للحق، فعمد الإمام على عليه السّلام إلى تهديده بالسيف و حمله على الخضوع، معروفة.

ثمّ أنّ اللّه سبحانه ذكّر الرجال مرّة أخرى فى ختام الآية بأن لا ـ يسيئوا استخدام مكانتهم كقيمين على العائلة فيجحفوا فى حق أزواجهم، و أن يفكروا فى قدرة اللّه التى هى فوق كل قدرة إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۲

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۵]

اشارة

وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَیْنِهِما فَابْعَثُوا حَکَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَکَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ یُرِیدا إِصْلاحاً یُوَفِّقِ اللَّهُ بَیْنَهُما إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً خَبِیراً (۳۵)

التّفسیر

محکمة الصّلح العائلیة:

فی هذه الآیة إشارة إلی مسألة ظهور الخلاف و النزاع بین الزوجین، فهی تقول: وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَیْنِهِما فَابْعَثُوا حَکَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَکَماً مِنْ أَهْلِها لیتفاوضا و یقربا من أوجه النظر لدی الزوجین، ثمّ یقول تعالی: إِنْ یُرِیدا إِصْلاحاً یُوَفِّقِ اللَّهُ بَیْنَهُما أی ینبغی أن یدخل الحکمان المندوبان عن الزوجین فی التفاوض بنیة صالحة و رغبة صادقة فی الإصلاح، فإنّهما إن کانا کذلک أعانهما اللّه و وفق بین الزوجین بسببهما.

و من أجل تحذیر (الحکمین) و حثّهما علی استخدام حسن النّیة، یقول سبحانه فی ختام هذه الآیة: إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً خَبِیراً.

إنّ محکمة الصلح العائلیة التی أشارت إلیها الآیة الحاضرة، هی إحدی مبتکرات الإسلام العظیمة، فإن هذه المحکمة تمتاز بمیزات تفتقر إلیها المحاکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۳

الاخری، من جملتها.

۱- إن البیئة العائلیة بیئة عاطفیة، و لذلک فإن المقیاس الذی یجب أن یتبع فی هذه البیئة، یختلف عن المقاییس المتبعة فی البیئات الاخری، یعنی کما أنّه لا یمکن العمل فی «المحاکم الجنائیة» بمقیاس المحبّة و العاطفة، فإنّه لا یمکن- فی البیئة العائلیة- العمل بمقیاس القوانین الجافة. الضوابط الصارمة الخالیة عن روح العاطفة، فهنا یجب حل الخلافات العائلیة بالطرق العاطفیة حدّ الإمکان، و لهذا یأمر القرآن الکریم أن یکون الحکمان فی هذه المحکمة ممن تربطهم بالزوجین رابطة النسب و القرابة لیمکنهما تحریک المشاعر و العواطف باتجاه الإصلاح بین الزوجین، و من الطبیعی أن تکون هذه المیزة هی میزة هذا النوع من المحاکم خاصّة دون بقیة المحاکم الاخری.

۲- إنّ المدعی و المدعی علیه فی المحاکم العادیة القضائیة مضطرین- تحت طائلة الدفاع عن النفس- أن یکشفا عن کل ما لدیهما من الأسرار، و من المسلم أنّ الزوجین لو کشفا عن الأسرار الزوجیة أمام الأجانب و الغرباء لجرح کل منهما مشاعر الطرف الآخر، بحیث لو اضطر الزوجان أن یعودا- بحکم المحکمة- إلی البیت لما عادا إلی ما کانا علیه من الصفاء و المحبة السالفة، بل لبقیا یعیشان بقیة حیاتهما کشخصین غریبین مجبرین علی القیام بوظائف معینة، و لقد دلّت التجربة و أثبتت أنّ الزوجین اللذین یضطران إلی التحاکم إلی مثل هذه المحاکم لحل ما بینهما من الخلاف لم یعودا ذینک الزوجین السابقین.

بینما لا تطرح أمثال هذه الأمور فی محاکم الصلح العائلیة للاستحیاء من الحضور، أو إذا اتفق أن طرحت هذه الأمور فإنّها تطرح فی جو عائلی، و أمام الأقرباء فإنّها لن تنطوی علی ذلک الأثر السیء الذی أشرنا إلیه.

۳- إنّ الحکمین فی المحاکم العادیة المتعارفة لا یشعران عادة بالمسؤولیة الکاملة فی قضایا الخلاف و المنازعات، و لا تهمهما کیفیة انتهاء القضیة المرفوعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۴

إلی المحکمة، هل یعود الزوجان إلی البیت علی وفاق، أو ینفصلا مع طلاق؟

فی حین أنّ الأمر فی محکمة الصلح العائلیة علی العکس من ذلک تماما، فإن الحکمین فی هذه المحکمة حیث یرتبطان بالزوجین

برابطـة القرابـة، فإن لافتراق أو صـلح الزوجين أثرا كبيرا فى حياة الحكمين من الناحيـة العاطفيـة، و من ناحيـة المسؤوليات الناشـئة عن ذلك، و لهذا فإنّهما يسـعيان- جهد إمكانهما- أن يتحقق الصـلح و السلام و الوفاق و الوئام بين الزوجين اللذين يمثلانهما، و أن يعيدا المياه إلى مجاريها كما يقول المثل.

۴- مضافا إلى كلّ ذلك فإن مثل هـذا المحكمـة لا تعانى من أية مشـكلات، و لا تحتاج إلى أية ميزانيات باهظة، و لا تعانى من تلك الخسارة و الضـياع الذى تعانى منه المحاكم العادية، فهى تسـتطيع أن تقوم بأهدافها و تحقق أغراضـها من دون أية تشريفات و فى أقل مدّة من الزمن.

و لا يخفى أنّه يجب أن يختار الحكمان من بين الأشخاص المحنّكين المطلعين المعروفين، فى عائلتى الزوجين بالفهم و حسن التدبير.

مع هذه المميزات التى عددناها يتبيّن أنّ هذه المحكمة تحظى بفرصة للإصلاح بين الزوجين.

إنّ مسألة الحكمين و ما يشترط فيهما من الشـروط، و مدى صلاحيتهما و ما يحكمان به فى مجال الزوجين، قد ذكر فى الكتب الفقهية بالتفصيل، منها أن يكون الحكمان بالغين عاقلين عادلين بصيرين بعملهما.

و أمّا مـدى نفوذ حكمهمـا فى حق الزوجين، فقـد ذهب بعض الفقهـاء إلى نفوذ كل ما يصـدر أنّه من حكم فى هـذا المجال، و ظاهر التعبير به «حكم» فى الآيـة الحاضـرة يفيـد هـذا المعنى أيضـا، لأـن مفهوم الحكميـة و القضـاء هو نفوذ الحكم مهما كان، و لكن أكثر الفقهاء يرون نفوذ ما يراه الحكمان فى مورد التوفيق بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۵

الزوجين و رفع الاختلاف و النزاع بينهما، بل يرون نفوذ ما يشترطه الحكمان على الزوجين، و أمّا حكمهما فى مجال الطلاق و الإفتراق بين الزوجين فغير نافذ لوحده، و ذيل الآية الذى يشـير إلى مسألة الإصـلاح أكثر ملاءمة مع هذا الرأى، و للتوسع فى هذا المجال يجب مراجعة الكتب الفقهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۶]

اشارة

وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لاـ تُشْـرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَ بِالْوالِـدَيْنِ إِحْساناً وَ بِـذِي الْقُرْبى وَ الْيَتـامى وَ الْمَسـاكِينِ وَ الْجـارِ ذِى الْقُرْبى وَ الْجـارِ الْجُنُبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً (۳۶)

التّفسير

اشارة

الآيـة الحاضـرة تبيّن سلسـلة من الحقوق الإسـلامية بما فيها الحقوق الإلهيـة، و حقوق العباد، و آداب العشـرة مع الناس، و يسـتفاد منها عشرة تعاليم:

۱- و اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا

إنّ الآیة تدعو الناس قبل أی شیء إلی عبادة اللّه و الخضوع له وحده، و ترک الشرک و الوثنیة التی هی أساس کل البرامج و المناهج الإسلامیة.

إنّ الدّعوة إلی التوحید و عبادة اللّه وحده تطهر الروح، و تخلص النیة، و تقوی الإرادة، و تشدد من عزیمة الإنسان علی الإتیان بأی برنامج مفید.

و حیث أنّ الآیة الحاضرة تبیّن سلسلة من الحقوق الإسلامیة لذلک فقد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۷

أشارت إلی حقّ اللّه علی الناس قبل أی شیء و قبل أی حقّ و قالت: وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً.

۲- و بالوالدین إحسانا

ثمّ إنّها تشیر إلی حقّ الوالدین و توصی بالإحسان إلیهما و لا شک أنّ حقّ الوالدین من القضایا التی یهتمّ بها القرآن الکریم کثیرا، و قلّما حظی موضوع بمثل هذا الاهتمام و العنایة، فقد جاءت التوصیة بالوالدین بعد الدعوة إلی التوحید فی العبادة فی أربعة مواضع فی القرآن الکریم ۹۸].

من هذه التعابیر المتکررة یستفاد أن ثمّة ارتباطا بین هاتین المسألتین، و القضیة فی الحقیقة کالتالی: حیث إن أکبر نعمة هی نعمة الوجود و الحیاة و هی مأخوذة من جانب اللّه سبحانه فی الدرجة الأولی، فیما ترتبط بالوالدین فی الدرجة الثانیة، لأنّ الولد جزء من وجود الوالدین، لذلک کان ترک حقوق الوالدین و تجاهلها، فی مصاف الشرک باللّه سبحانه.

هذا و لنا أبحاث مفصلة حول حقوق الوالدین فی ذیل الآیات المناسبة فی سورة الإسراء و لقمان بإذن اللّه تعالی.

۳- و بذی القربی

ثمّ أنّها توصی بالإحسان إلی کلّ الأقرباء، و هذا الموضوع من المسائل التی یهتم بها القرآن الکریم اهتماما بالغا تارة تحت عنوان «صلة الرحم» و أخری بعنوان «الإحسان إلی القربی» و قد أراد الإسلام بهذا- فی الحقیقة- أن یقوی من أواصر العلاقة الواسعة بین جمیع أفراد البشر مضافا إلی إیجاد أواصر و علاقات أقوی و أمتن منها فی الوحدات الاجتماعیة التی هی أکثر انسجاما مثل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۸

«العشیرة» و «العائلة» لیستطیعوا التعاون فی ما بینهم عند ظهور المشاکل و الحوادث، و التعاون علی الدفاع عن حقوقهم.

۴- و الیتامی

ثمّ أشارت إلی حقوق «الیتامی» و أوصت المؤمنین ببرهم و الإحسان إلیهم، لأنّه یوجد فی کل مجتمع أطفال أیتام علی أثر الحوادث المختلفة، لا یهدد تناسیهم و إهمالهم وضعهم الخاص فقط، بل الوضع الاجتماعی بصورة عامّة، لأنّ الأطفال الیتامی لو ترکوا دون ولایة أو حمایة و لم ینالوا حاجتهم من المحبّة و اللطف یتحولون إلی أفراد منفلتین فاسدین، بل أشخاص خطرین جناة.

و علی هذا یکون الإحسان إلی الیتامی إحسانا إلی الفرد و إلی المجتمع معا.

۵- و المساکین

ثمّ یذکّر سبحانه- فی هذه الآیة- بحقوق الفقراء و المساکین، لأنّه قد یوجد حتی فی المجتمع السلیم الذی یسوده العدل من یعانی من نواقص و عاهات تعوقه عن الحرکة و النشاط و الفعالیة، و لا شک أنّ تناسی هؤلاء أمر یخالف کل الأسس و القیم الإنسانیة، فلا بدّ من تقدیم العون إلیهم، و معالجة حرمانهم.
و أمّا إذا کان الفقر و الحرمان الذی یعانی منه الأفراد الأصحاء ناشئین عن الانحراف عن مبادئ و أسس العدالة الاجتماعیة فإنّه لا بدّ من مکافحتهما أیضا.

۶- و الجار ذی القربی

ثمّ یوصی بالجیران من ذوی القربی، و هناک احتمالات متعددة حول المراد من «الجار ذی القربی» أبداها المفسرون، فبعضهم قال: معناه الجار القریب فی النسب، غیر أن هذا التّفسیر یبدو بعیدا بملاحظة العبارات السابقة التی أشارت
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۹
إلی حقوق الأقرباء فی هذه الآیة، فلا بدّ أن یکون المراد هو القرب المکانی لا القرب النسبی، لأن الجیران الأقربین مکانا یستحقون احتراما و حقوقا أکثر من غیرهم، أو أن یکون المراد الجیران الأقربین إلی الإنسان من الناحیة الدینیة و الاعتقادیة.

۷- و الجار الجنب

ثمّ إنها توصی بالجیران البعیدین، و المراد- کما أسلفنا- هو البعد المکانی، لأنّ کل أربعین دارا من بین یدیه و خلفه و عن یمینه و شماله تعتبر من الجیران، کما تصرح بعض الروایات ۹۹]، و هذا یستوعب فی المدن الصغیرة کل المدینة تقریبا (لأنّنا لو فرضنا دار کل شخص مرکز دائرة یقع فی امتداد شعاعها من کل صوب أربعون بیتا لاتّضحت من خلال محاسبة بسیطة مساحة هذه الدائرة التی یکون مجموع البیوت الواقعة فیها ما یقرب من خمسة آلاف بیت، و من المسلم أن المدن الصغیرة قلّما تتشکل من أکثر من هذا العدد من المنازل و البیوت.
و الجدیر بالتأمل أنّ القرآن یصرّح- فی هذه الآیة- مضافا إلی ذکر الجیران القریبین- بحقّ الجیران البعیدین، لأنّ لفظة الجار لها فی العادة مفهوم محدود و ضیق و تشمل الجیران القریبین فقط، و لهذا لم یکن بدّا فی نظر الإسلام أن یذکر بالجیران البعیدین أیضا.
کما یمکن أن یکون المراد من الجیران البعیدین الجیران غیر المسلمین، لأنّ حقّ الجوار غیر منحصر فی نظر الإسلام بالجیران المسلمین، فهو یعمّ المسلمین و غیر المسلمین (اللّهم إلّا الذین یحاربون المسلمین و یعادونهم).
إنّ لحقّ الجوار فی الإسلام أهمیّة بالغة إلی درجة أنّنا نقرأ
فی وصایا الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام المعروفة: «ما زال (رسول اللّه) یوصی بهم حتی ظننا أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۰
سیورثهم»[۱۰۰]
(و قد ورد هذا الحدیث فی مصادر أهل السنة أیضا فقد روی فی تفسیر المنار و تفسیر القرطبی من البخاری مثل هذا المضمون عن

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا).

و

روى فى حديث آخر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال ذات يوم «و اللّه لا يؤمن و اللّه لا يؤمن و اللّه لا يؤمن، فقيل: يا رسول اللّه و من؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه»[۱۰۱].

كما نقرأ فى حديث آخر أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏۳ ؛ ص ۲۳۰

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[۱۰۲].

و

روى عن الإمام الصّادق جعفر بن محمّد عليهما السّلام أنّه قال: «حسن الجوار يعمر الدّيار و يزيد فى الأعمار»[۱۰۳].

فى عالمنا المادى حيث لا يعرف الجار عن جاره شيئا، بل و ربّما لا يتعرف على اسم صاحبه بعد عشرين سنة من الجيرة و الجوار يتألّق هذا التعليم الإسلامى فى حق الجار بشكل خاص، فإنّ الإسلام يقيم للعلاقات العاطفية و التعاون الإنسانى وزنا خاصّا، و يوليها اهتماما كبيرا، فى حين تؤول هذه العلاقات و العواطف فى الحياة الصناعية المادية إلى الزوال يوما بعد يوم، و تعطى مكانها إلى القسوة و الجفاء و الخشونة.

۸- و الصّاحب بالجنب

ثمّ أوصت بالرّفيق و الصّاحب، غير أنّه لا بدّ من الانتباه إلى أنّ ل «الصاحب بالجنب» معنى أوسع من الرفيق و الصديق المتعارف، و فى الحقيقة تشمل كل من رافق أو صاحب الإنسان مرافقة ما سواء كان صديقا دائميا أو صديقا مؤقتا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۳، ص: ۲۳۱

(كالذى يرافق الإنسان فى السفر بعض الوقت) و تفسير لفظة «لصاحب بالجنب» فى بعض الروايات بالرفيق مثل «رفيقك فى السفر» أو الذى يقصد الإنسان رجاء نفعه مثل: (المنقطع إليك يرجو نفعك) ليس المراد هو اختصاص هذا العنوان بهم، بل هو نوع من التوسعة فى مفهوم هذه اللفظة بحيث تشمل هذه الموارد أيضا، و بهذا الطريق تكون هذه الآية أمرا كليا و جامعا بحسن معاشرة كل من يرتبط بالمرء، سواء كان صديقا واقعيا، أو زميلا، أو رفيق سفر، أو مراجعا، أو تلميذا، أو مشاورا، أو خادما.

و قد فسرت لفظة الصاحب بالجنب فى بعض الروايات بالزّوجة، و قد روى صاحب تفسير المنار، و تفسير روح المعانى و القرطبى فى ذيل هذه الآية هذا المعنى عن على عليه السّلام، و لكن لا يبعد أن يكون هذا من باب بيان أحد المصاديق أيضا.

۹- و ابن السبيل

و أمّا الصنف الآخر الذى أوصت بهم الآية هنا فهم الذين تحدث لهم حاجة السفر و بلاد الغربة، فابن السبيل هو الذى ينقطع فى السفر و إن كان يمكن أن يكون متمكّنا ذا مال فى بلده، و التعبير عن هذا الشخص بابن السبيل (أى ابن الطريق) إنّما هو لأجل أنّنا لا نعرفهم أصلا حتى ننسبهم إلى عائلة أو قبيلة أو شخص، بل لا بدّ أن نحميهم بمجرّد أنّهم مسافرون انقطعوا فى السفر، و برزت لديهم حاجة إلى المساعدة و العون.

۱۰- و ما ملکت أیمانکم

و فی نهایهٔ المطاف توصی هذه الآیهٔ بالإحسان إلی العبید و الأرقاء، و بهذا تکون الآیهٔ- فی الحقیقهٔ- قد بدأت بحق اللّه، و ختمت بحقوق العبید، لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۲

علی أنّ هذه الآیهٔ لیست هی الآیهٔ الوحیدهٔ التی توصی بالعبید، بل لقد بحثت هذه المسألهٔ فی آیات مختلفهٔ أخری أیضا.

هذا مضافا إلی أنّ الإسلام قد نظم برنامجا دقیقا لتحریر العبید تدریجا، و الذی یؤول فی النتیجهٔ إلی تحریرهم المطلق، و سوف نتحدّث حول هذه المسألهٔ فی ذیل الآیات المناسبهٔ إن شاء اللّه تعالی.

ثمّ إنّه سبحانه یقول فی ختام هذه الآیهٔ إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ مَنْ کانَ مُخْتالًا فَخُوراً و هو بذلک یحذر کل من یتمرّد و یعصی أوامر اللّه، و یتقاعس عن القیام بحقوق أقربائه و والدیه و الیتامی و المساکین و ابن السبیل و الأصدقاء و الأصحاب بدافع التکبر بأنّه سیکون معرضا لسخط اللّه، و سیحرم من عنایته سبحانه، و لا ریب أنّ من حرم من اللطف الإلهی و العنایهٔ الرّبانیهٔ حرم من کل خیر و سعادهٔ.

و تؤید هذا المعنی روایات و أخبار قد رویت فی ذیل هذه الآیهٔ منها ما

عن أصحاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث قال: کنت عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقرأ هذه الآیهٔ إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ فذکر الکبر فعظمه، فبکی ذلک الصحابی فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ما یبکیک؟ فقال یا رسول اللّه: إنّی لأحب الجمال حتی أنّه لیعجبنی أن یحسن شراک نعلی قال: «فأنت من أهل الجنّهٔ، أنّه لیس بالکبر أن تحسن راحلتک و رحلک، و لکن الکبر من سفه الحقّ و غمص الناس»[۱۰۴].

و الخلاصهٔ أنّ ما یستفاد من العبارهٔ الاخیرهٔ أنّ مصدر الشرک و هضم حقوق الآخرین هو الانانیهٔ و التکبر غالبا، و لا یتسنی للشخص أداء تلک الحقوق، و خاصّهٔ حقوق الأیتام و المساکین و الأرقاء إلّا من تحلّی بروح التواضع و نکران الذات ۱۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۳

الآیات [سورهٔ النساء (۴): الآیات ۳۷ الی ۳۹]

اشارهٔ

الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ یَکْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً (۳۷) وَ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ یَکُنِ الشَّیْطانُ لَهُ قَرِیناً فَساءَ قَرِیناً (۳۸) وَ ما ذا عَلَیْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَ کانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِیماً (۳۹)

التّفسیر

الإنفاق ریاء و الإنفاق قربهٔ:

الآیهٔ الأولی من هذه الآیات الثلاث- هی فی الحقیقهٔ- تعقیب علی الآیات السابقهٔ و إشارهٔ إلی المتکبرین إذ تقول: الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ هذا مضافا إلی أنّهم یسعون دائما أن یخفوا عن الآخرین ما تفضل اللّه علیهم به من الخیر کیلا یتوقع المجتمع

منهم شيئا وَ يَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

ثمّ يقول عن نهاية هذا الفرق من الناس و عاقبة أمرهم: وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً و لعل السرّ فى استخدام هذا التعبير فى حق هذه الطائفة هو أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۴

«البخل» ينبع فى الغالب من الكفر، لأنّ البخلاء لا يمتلكون الإيمان الكامل بالمواهب الربانية المطلقة و الوعود الإلهية العظيمة للمحسنين. إنّهم يتصورون أنّ مساعدة الآخرين و تقديم العون إليهم يجرّ إليهم التعاسة و الشقاء.

و أمّا الحديث عن الخزى فى عذاب هؤلاء، فلأن الجزاء المناسب للتكبر و الاستكبار هو العذب المهين.

ثمّ إنّه لا بدّ من الالتفات إلى أنّ البخل لا يختص بالأمور المالية، بل يشمل كل نوع من أنواع الموهبة الإلهية، فثمّة كثيرون لا يعانون من صفة البخل الذميمة فى المجال المالى، و لكنّهم يبخلون عن بذل العلم أو الجاه أو الأمور الاخرى من هذا القبيل.

ثمّ إن اللّه سبحانه يذكر صفة أخرى من صفات المتكبرين إذ يقول: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إنّهم ينفقون أموالهم لا فى سبيل اللّه و كسب رضاه، بل مراءاة الناس لكسب السمعة و جلب الشهرة و الجاه، و بالتالى ليس هدفهم من الإنفاق هو خدمة الناس و كسب رضا اللّه سبحانه، و لهذا فإنّهم لا يتقيدون فى من ينفقون عليه بملاك الاستحقاق، بل يفكرون دائما فى أنّه كيف يمكنهم أن يستفيدوا من إنفاقاتهم و يحققوا ما يطمحون إليه من أغراض شخصية، و أهداف خاصّة، كتقوية نفوذهم و تكريس موقعهم فى المجتمع مثلا، لأنهم لا يؤمنون باللّه و اليوم الآخر، و لهذا السبب يفتقر إنفاقهم إلى الدافع المعنوى الذى ينبغى توفره فى الإنفاق، بل دافعهم هو الوصول إلى الشّهرة و الشّخصية الكاذبة المزيفة من هذا السبيل، و هذا هو أيضا من آثار التكبر و نتائج الأنانية.

إنّ هؤلاء اختاروا الشّيطان رفيقا و قرينا لهم: مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً إنّه لن يكون له مصير أفضل من مصير الشّيطان، لأنّ منطقهم هو منطق الشيطان، و سلوكهم سلوكه سواء بسواء، إنّه هو الذى يقول لهم: إنّ الإنفاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۵

بإخلاص يوجب الفقر الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ[۱۰۶] و لهذا فإمّا أن يبخلوا و يمتنعوا عن الإنفاق و البذل (كما أشير إلى هذا فى الآية السابقة) أو أنّهم ينفقون إذا ضمن هذا الإنفاق مصالحهم الشخصية و عاد عليهم بفوائد شخصية (كما أشير إلى ذلك فى الآية الحاضرة).

من هذه الآية يستفاد مدى ما للقرين السىء من الأثر فى مصير الإنسان، ذلك الأثر الذى ربّما يبلغ فى آخر المطاف إلى السقوط الكامل.

كما يستفاد أنّ علاقة «المتكبرين» ب «الشيطان و الأعمال الشيطانية» علاقة مستمرة و دائمة لا مؤقتة و لا مرحلية، ذلك لأنّهم اختاروا الشيطان قرينا و رفيقا لأنفسهم.

و هنا يقول سبحانه و كأنّه يتأسف على أحوال هذه الطائفة من الناس وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ... أى شىء عليهم لو تركوا هذا السلوك و عادوا إلى جادة الصواب و أنفقوا ممّا رزقهم اللّه من الخير و النعمة فى سبيل اللّه، بإخلاص لا رياء، و كسبوا بذلك رضا اللّه، و تعرضوا للطفه و عنايته، و أحرزوا سعادة الدنيا و الآخرة؟

فلما ذا لا يفكر هؤلاء و لا يعيدون النظر فى سلوكهم؟ و لما ذا ترى يتركون طريق اللّه الأنفع و الأفضل و يختارون طريقا أخرى لا تنتج سوى الشقاء، و لا تنتهى بهم إلّا إلى الضرر و الخسران؟

و على كل حال فإنّ اللّه يعلم بأعمالهم و نواياهم و يجزيهم بما عملوا: وَ كانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً.

و الجدير بالانتباه أنّ الإنفاق فى الآية السابقة التى كان الحديث فيها حول الإنفاق مراءاة نسب إلى الأموال يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ و فى هذه

الآیهٔ نسب إلی مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ و هذا التفاوت و الاختلاف فی التعبیر یمکن أن یکون إشارهٔ إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۶

ثلاث نقاط:

أوّلا: إنّه فی الإنفاق ریاء لا تلحظ حلّیهٔ المال و حرمته، فی حین تلحظ فی الإنفاق للّه حلّیهٔ المال و أن یکون مصداق مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ

ثانیا: إنّه فی الإنفاق ریاء حیث أنّهم یحسبون أنّ المال الذی ینفقونه خاص بهم، لذلک فهم لا یمتنعون عن الکبر و المنّ، فی حین أنّ المنفقین للّه حیث یعتقدون بأنّ اللّه هو الذی رزقهم ما یملکون من المال، و أنّه لا مجال للمنّ إذا هم أنفقوا شیئا من ذلک، و لذلک یمتنعون من الکبر و السنّ.

ثالثا: إنّ الإنفاق ریاء ینحصر غالبا فی المال، لأنّ أمثال هؤلاء محرومون من أی رأسمال معنوی لینفقوا منه، و لکن الإنفاق لوجه اللّه تتسع دائرته فتشمل کل المواهب الإلهیهٔ من المال، و العلم و الجاه، و المکانهٔ الاجتماعیهٔ و ما شابه ذلک من الأمور المادیهٔ و المعنویهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۷

الآیهٔ [سورهٔ النساء (۴): آیهٔ ۴۰]

اشارهٔ

إِنَّ اللَّهَ لا یَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّهٍٔ وَ إِنْ تَکُ حَسَنَهًٔ یُضاعِفْها وَ یُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِیماً (۴۰)

التّفسیر

ما هی «الذّرهٔ»؟:

«الذّرهٔ» فی الأصل هی النملهٔ الصغیرهٔ التی لا تری، و قال البعض: هی من أجزاء الهباء و الغبار فی الکوّهٔ التی تظهر عند دخول شعاع الشمس خلالها، و قیل أیضا أنّه الغبار الدقیق المتطایر من یدی الإنسان إذا جعلهما علی التراب و ما شابهه ثمّ نفخهما.

و لکنّها أطلقت تدریجا علی کل شیء صغیر جدّا، و تطلق الآن و یراد منها ما یتکون من الإلکترون و البروتون أیضا. لأنّها إذا کانت تطلق سابقا علی أجزاء الغبار، فلأن تلک الأجزاء کانت أصغر أجزاء الجسم، و لکن حیث ثبت الیوم أنّ أصغر أجزاء «الجسم المرکب» هو «المولوکول» أو الجزئیهٔ، و أصغر أجزاء «الجسم البسیط» هو «الذّرات»، اختیرت لفظهٔ «الذّرهٔ» فی الاصطلاح العلمی علی تلک الجزئیات التی لا تری بالعین المجرّدهٔ، بل لا یمکن أن تری حتی بأقوی المیکروسکوبات الإلکترونیهٔ، و إنّما یحسّ بوجودها من خلال القوانین و المعادلات العلمیهٔ و التصویر بآلات مزودهٔ بأدقّ الأجهزهٔ و أقواها، و حیث أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۸

«مثقال» یعنی الثقل، فإنّ التعبیر بمثقال ذرهٔ یعنی جسما فی غایهٔ الدقهٔ و الصغر.

إنّ الآیهٔ الحاضرهٔ تقول: إنّ اللّه لا یظلم قط زنهٔ ذرهٔ، بل یضاعف الحسنهٔ إذا قام بها أحد، و یعطی من لدنه علی ذلک أجرا عظیما: إِنَّ اللَّهَ لا یَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّهٍٔ وَ إِنْ تَکُ حَسَنَهًٔ یُضاعِفْها وَ یُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِیماً.

إنّ هذه الآیهٔ- فی الحقیقهٔ- تقول للکافرین الذین یبخلون و الذین مرّ الحدیث عن أحوالهم فی الآیات السابقهٔ: إنّ العقوبات التی تصیبکم ما هی فی الحقیقهٔ إلّا جزاء ما قمتم به من الأعمال، و أنّه لا یصیبکم أی ظلم من جانب اللّه، بل لو أنّکم ترکتم الکفر و البخل و سلکتم طریق اللّه لنلتم المثوبات العظیمهٔ المضاعفهٔ.

ثمّ أنّه لا بـدّ من الانتباه إلى أن لفظـة «ضـعف» و «المضاعف» تعنى فى اللغة العربية ما يعادل الشـيء أو يربو عليه مرّات عديدة، و على هـذا الأساس لا تنافى هذه الآية الآيات الاخرى التى تقول: إن أجر الإنفاق قد يصل إلى عشـرة أضـعاف، و قد يصل إلى سـبعمائة مرّة ....

و على أى حـال فإنّها تحكى عن لطف اللّه بالنسبة إلى عباده، حيث لا يعاقبهم على سيئاتهم و ذنوبهم بأكثر ممّا عملوا، بينما يضاعف الأجر بمرات كثيرة إذا أتوا بحسنة واحدة.

يبقى أن نعرف لما ذا لا يظلم اللّه سبحانه؟ فإنّ السبب فيه واضح، لأن الظلم عادة- إمّا ناشئ عن الجهل، و إمّا ناشئ عن الحاجة، و إمّا ناشئ عن نقص نفسى.

و من كان عالما بكل شـيء، و كان غنيّا عن كل شـيء، و لم يكن يعانى من أى نقص، لا يمكن صدور الظلم منه، فهو لا يظلم أساسا، لا- أنّه تعـالى لا- يقـدر على الظلم، و لا أن الظلم غير متصوّر فى حقّه (كما تـذهب إليه طائفـة من الأشاعرة)، بل مع قـدرته تعالى على الظلم- لا يظلم أبـدا لحكمته و علمه، فهو يضع كل شـيء فى عالم الوجود موضـعه، و يعامل كل أحـد حسب عمله، و طبقا لسلوكه و سيرته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۹

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

اشارة

فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (۴۱) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (۴۲)

التّفسير

شهود يوم القيامة:

تعقيبا على الآيات السابقـة التى كانت تـدور حول العقوبات و المثوبات المعـدّة للعصاة و المطيعين. جاءت هـذه الآيـة تشـير إلى مسألة الشـهود فى يوم القيامـة فتقول: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَـهِيداً و هكـذا يكون نبى كل أمّـة شـهيدا عليها، مضافا إلى شـهادة أعضاء الإنسان و جوارحه، و شـهادة الأرض التى عليها عاش، و شـهادة ملائكة اللّه على أعماله و تصرفاته، و يكون نبيّ الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو آخر أنبياء اللّه و رسله و أعظمهم، شاهدا على أمّته أيضا، فكيف يستطيع العصاة مع هذه الشهود إنكار حقيقة من الحقائق، و تخليص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

ثمّ إنّ نظير هذا المضـمون قد جاء أيضا فى عدّة آيات قرآنية أخرى، منها الآية (۱۴۳) من سورة البقرة، و الآية (۸۹) من سورة النحل، و الآية (۷۸) من سورة الحج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۰

و الآن يطرح هذا السؤال، و هو: كيف تتمّ شهادة الأنبياء على أعمال أممهم، و كيف تكون؟

إذا كانت كلمـة «هؤلاء» إشارة إلى المسـلمين كما جاء فى تفسـير مجمع البيان، فإن الجواب على هـذا السؤال يكون واضـحا، لأنّ كل نبيّ مـا دام موجودا بين ظهرانى أمّته فهو شاهـد على أعمالهم، و بعـده يكون أوصـياؤه و خلفاؤه المعصومون هم الشـهداء على أعمال

تلك الأمّة، و لهذا جاء فی حق المسيح عليه السّلام أنّه يقول فی يوم القيامة فی جواب سؤال اللّه سبحانه إيّاه: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِی بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّكُمْ، وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِی كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[۱۰۷].

و لكن بعض المفسرين احتمل أن تكون لفظة «هؤلاء» إشارة إلى شهود الأمم السابقة، يعنی أنّنا نجعلك أيّها النّبی شهيدا على شهداء الأمم من الأنبياء، و قد أشير فی بعض الروايات إلى هذا التّفسير[۱۰۸] و على هذا يكون معنى الآية هكذا: إنّ كل نبیّ شاهد على أعمال أمّته جميعها فی حياته و بعد مماته عن طريق المشاهدة الباطنية و الروحانية، و هكذا الحال بالنسبة إلى رسول الإسلام، فإنّ روحه الطاهرة ناظرة- عن هذا الطريق أيضا- على أعمال أمّته و جميع الأمم السابقة، و بهذا الطريق يمكنه أن تشهد على أفعالهم و أعمالهم، بل و حتى الصلحاء من الأمّة و الأبرار الأتقياء منها يمكنهم الاطلاع و الحصول على مثل هذه المعرفة، فيكون المفهوم من كل ذلك وجود روح النّبی الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من بدء الخلق، لأنّ معنى الشّهود هو العلم المقترن بالحضور، و لكن هذا التّفسير لا ينسجم مع ما نقل عن السيد المسيح، لأنّ الآية المذكورة تقول: إنّ المسيح لم يكن شاهدا على أمّته جمعاء، بل كان شاهدا عليها ما دام فی الحياة (فتأمل).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۱

أمّا إذا أخذنا الشهادة بمعنى الشهادة العملية، يعنی أن تكون أعمال «فرد نموذجی» مقياسا و معيارا لأعمال الآخرين كان التّفسير حينئذ خاليا عن أی إشكال، لأنّ كل نبیّ بما له من صفات متميزة و خصال ممتازة يعدّ خير معيار لأمّته، إذ يمكن معرفة الصالحين و الطالحين بمشابهتهم أو عدم مشابهتهم له، و حيث إن النّبی الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أعظم الأنبياء و الرسل الإلهيين كانت صفاته و أعماله معيارا لشخصية كل الأنبياء و الرسل.

نعم لا يبقى هنا إلّا سؤال واحد هو: هل جاءت الشهادة بهذا المعنى، أم لا؟

بيد أنّه مع الانتباه إلى أنّ أعمال الرجال النموذجيين و تصرفاتهم و أفكارهم تشهد عمليا على أنّه من الممكن أن يرقى إنسان ما إلى هذه الدرجة، و يطوى هذه المقامات و المراحل المعنوية لم يبد مثل هذا المعنى بعيدا فی النظر.

عندئذ يندم الكفار الذين عارضوا الرّسول و عصوه، أی عند ما رأوا بأمّ أعينهم تلك المحكمة الإلهية العادلة، و واجهوا الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم، إنهم يندمون ندما بالغا لدرجة أنّهم يتمنون لو أنّهم كانوا ترابا أو سووا بالأرض كما يقول القرآن الكريم فی الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ

و قد ورد مثل هذا التعبير فی آخر سورة النبأ إذ يقول تعالى: وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِی كُنْتُ تُراباً.

و لكن لفظة لَوْ تُسَوَّى تشير إلى مطلب آخر أيضا، و هو: إنّ الكفار مضافا إلى أنّهم يتمنون أن يصيروا ترابا، يحبّون أن تضيع معالم قبورهم فی الأرض أيضا و تسوى بالأرض حتى ينسوا بالمرّة، و لا يبقى لهم ذكر و لا خبر و لا أثر.

إنّهم فی هذه الحالة لا يمكنهم أن ينكروا أية حقيقة واقعة و لا أن يكتموا شيئا: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً لأنّه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۲

نعم، لا ينافی هذا الكلام ما جاء فی الآيات الأخر التی تقول: هناك من الكفار من يكتم الحقائق يوم القيامة أيضا و يكذبون ۱۰۹] لأنّ كذبهم و كتمانهم واقع قبل إقامة الشهود و قيام الشهادة، و أمّا بعد ذلك فلا مجال لأی كتمان، و لا سبيل إلى أی إنكار، بل لا بدّ من الاعتراف بجميع الحقائق.

و

قد روی عن أمير المؤمنين عليه السّلام فی بعض خطبه أنّه قال عن يوم القيامة «ختم على الأفواه فلا تكلم و تكلمت الأيدی و شهدت

الأرجل و نطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون اللّه حديثا».[۱۱۰]

هذا و يحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً أنّهم يتمنون لو أنّهم لم يكتموا فى الدنيا أية حقيقة، خصوصا فى ما يتعلق برسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و على هذا تكون هذه العبارة عطفا على جملة لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ

و لكن هـذا التّفسير لا ينجسم مع ظاهر «لا يكتمون» الذى هو فعل مضارع، و لو كان المراد ما ذكره هذا الفريق من المفسرين لوجب أن يقول: «لم يكتموا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَ لا جُنُباً إِلاَّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً (۴۳)

التّفسير

بعض الأحكام الفقهية:

تستفاد من الآية الحاضرة عدّة أحكام إسلامية هى:

۱- حرمة الصّلاة فى حال السكر، أى لا يجوز للسكارى أن يقربوا الصّلاة لبطلان صلاتهم فى حالة السكر، و فلسفة ذلك واضحة، فإن الصلاة حديث العبد إلى ربّه و مناجاته و دعاؤه، و لا بدّ أن يتمّ كل هذا فى حالة الوعى الكامل، و السكارى أبعد ما يكونون عن هذه الحالة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ

و هنا يمكن أن يطرح أحد سؤالا هو: أليس مفهوم الآية هو المنع من شرب المسكرات إذا بقى أثرها و سكرها إلى وقت الصلاة، و هو ينطوى على دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۴

جوازه فى سائر الحالات؟

و الإجابة على هذا السؤال تأتى- بإذن اللّه- مفصّلة عند تفسير الآية (۹۰) من سورة المائدة، إلّا أن الجواب الإجمالى هو: إنّ الإسلام استخدم لتطبيق الكثير من أحكامه أسلوب «التغيير التدريجى» فمثلا مسألة تحريم تعاطى الخمور هذه طبقها الإسلام فى مراحل، فهو أوّلا- أعطاه صفة المشروب الغير المحبّذ فى قبال «الرزق الحسن» (كما فى الآية (۶۷) من سورة النحل «و رزقا حسنا») ثمّ منع من الاقتراب إلى الصلاة إذا كان السكر الناشئ منها لا يزال باقيا (كما فى الآية الحاضرة) ثمّ قارن بين منافعه و مضاره و رجحان مضاره و مساوئه، كما فى سورة البقرة الآية (۲۱۹)، و فى المرحلة الأخيرة نهى عن الخمر بصورة قاطعة و صريحة، كما فى سورة المائدة الآية (۹۰).

و أساسا ليس هناك من سبيل لتطهير المجتمع من جذور مفسدة اجتماعية أو خلقية متجذرة فى أعماق المجتمع و اقتلاعها من الجذور أفضل من هذا الأسلوب، و أجدى من هذا الطريق، و هو أن يهيأ الأفراد تدريجا، ثمّ يتمّ الإعلان عن الحكم النهائى.

كما أنّه لا بـدّ من الالتفات إلى نقطة مهمّة، هى أنّ الآية الحاضـرة لا تجيز بأى وجه من الوجوه شـرب الخمر، بل هى تتحدث فقط عن مسألة الاقتراب إلى الصـلاة فى حال السـكر، بينما التزمت الصمت بالنسبة إلى حكم شرب الخمر فى غير هذا المورد حتى يحين موعد المرحلة النهائية للحكم.

هـذا مع الالتفات إلى أنّ أوقات الصـلوات الخمس خاصّـة فى ذلك الزمان الذى كانت العادة فيه إقامة الصـلوات الخمس فى أوقاتها، بحكم أنّها كانت متقاربة كان الإتيان بالصـلاة فى حال الوعى يقتضى أن ينصرف الأشخاص عن تناول المسكرات فى الفترات الواقعة بين أوقات الفرائض انصرافا كليا، لأنّ السكر كان يستمر غالبا إلى حين حلول وقت الفريضة و على هذا كان الحكم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۵

المذكور فى الآية الحاضرة أشبه بالحكم النهائى و التحريم الأبدى المطلق.

كما أنّ هناك موضوعا لا بدّ من التذكير به، و هو أنّ الآية الحاضـرة فسّـرت فى روايات عديدة فى كتب الشـيعة و السـنة بسـكر النوم، يعنى لا تقربوا الصلاة ما لم تطردوا النوم عن عيونكم كاملة لتعلموا ما تقولون.

و لكن يبدو للنظر أن هذا التّفسير مستفاد من مفهوم: حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ و إن لم يدخل فى مصداق «السكارى»[۱۱۱].

و بعبـارة أخرى، يسـتفاد من جملـة: حَتَّى تَعْلَمُوا مـا تَقُولُونَ المنع عن الصـلاة فى كل حالـة لا يتمتع فيها الإنسان بالوعى الكامل، سواء كان بسبب حالة السكر، أو بسبب ما تبقى من النوم.

كما أنّه يستفاد من هذه الجملة أيضا أنّ الأفضل عدم إقامة الصلاة عند الكسل أو قلّة التوجه، لأنّ الحالة السابقة توجد فى هذه الصورة بشـكل ضـعيف، و لعلّه لهذا السبب جاء فى ما روى عن الإمام الباقر عليه السّلام من أنّه قال: «لا تقم إلى الصلاة متكاسلا، و لا متناعسا و لا متثاقلا و قد نهى اللّه عزّ و جلّ المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة و هم سكارى ...»[۱۱۲].

۲- بطلان الصـلاة فى حال الجنابـة الـذى أشـير إليه بعبارة وَ لا جُنُباً ثمّ اسـتثنى سـبحانه من هـذا الحكم بقوله: إِلَّا عابِرِی سَبِيلٍ أى إذا فقدتم الماء فى السفر جاز لكم أن تقيموا الصلاة (شريطة أن تتيمموا كما يجىء فى ذيل الآية).

غير أن هناك تفسـيرا آخر جاء لهـذه الآيـة فى الروايات و الأخبار[۱۱۳]، هو أنّ المقصود من الصـلاة فى الآيـة هو محل الصـلاة- أى المسجد- أى لا تدخلوا المساجد و أنتم على جنابة، ثمّ استثنى العبور فى المسجد بقوله:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۶

إِلَّا عابِرِی سَبِيلٍ يعنى يجوز لكم العبور فى المسجد و أنتم على جنابة و إن لم يجز لكم المكث و اللبث فيه.

و يستفاد من بعض الروايات أنّ جماعة من المسلمين، و صحابة النّبى كانوا قد بنوا بيوتهم حول المسجد النّبوى بحيث تفتح أبوابها فى المسجد، فسمح لهم بأن يعبروا من المسجد و هم على جنابة دون أن يتوقفوا فيه.

و لكن لا بدّ أن ننتبه إلى أن هذا التّفسـير يسـتلزم أن تكون لفظة الصـلاة فى الآية الحاضـرة قد أتت بمعنيين: أحدهما الصلاة نفسها، و الآخر محل الصـلاة، لوجود بيان حكمين مختلفين فى الآيـة: أحدهما المنع و النهى عن الاقتراب إلى الصـلاة فى حالة السـكر، و الآخر الاجتناب عن دخول المساجـد فى حالـة الجنابـة (طبعا لا مانع و لا ضـير فى اسـتعمال لفظـة واحدة فى معنيين أو أكثر كما قلنا فى علم الأصول، و لكنّه خلاف الظاهر، و هو لا يجوز بدون قرينة، نعم يمكن أن تكون الروايات المذكورة قرينة على ذلك).

۳- جواز الصلاة، أو عبور المسجد بعد الاغتسال، هو المبين بقوله: حَتَّى تَغْتَسِلُوا.

۴- التيمم لذوى الأعذار، ثمّ تشير الآية إلى حكم التيمم لذوى الأعذار فتقول:

وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضـى أَوْ عَلى سَـفَرٍ و فى هـذه العبارة من الآية قد اجتمعت- فى الحقيقة- كل موارد التيمم، فالمورد الأوّل هو ما إذا كان فى استعمال الماء ضرر على البدن، و المورد الآخر هو ما إذا تعذر على الإنسان الحصول على الماء (أم لم يمكن استعماله) و بقوله: أَوْ جاءَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْـتُمُ النِّساءَ إشارة إلى علل الاحتياج إلى التيمم و أسـبابه، و معناه إذا أحـدثتم حدثا أو جامعتم النساء

فَلَمْ تَجِدُوا ماءً أى لم تقدروا على تحصيل الماء أو استعماله فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً.

ثمّ أنّه سبحانه يبيّن طريقة التيمم بقوله: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۷

ثمّ أنّه فى ختام الآية يشير إلى حقيقة أنّ الحكم المذكور ضرب من التخفيف عنكم، لأنّ اللّه كثير الصفح كثير الستر لذنوب عبادة إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً.

بحوث عند الآية:

اشارة

هنا لا بدّ من التنبيه إلى نقاط عديدة:

١- إنّ عبارة فَلَمْ تَجِدُوا ماءً المبدوة بفاء التفريع ترتبط بعبارة أَوْ عَلى سَفَرٍ يعنى أنّكم إذا كنتم فى سفر و لم تجدوا ماء للوضوء أو الغسل، فتحتاجون إلى التيمم، لأنّ الإنسان قلما تتفق له هذه الحالة و هو فى البلد، و من هنا يتبيّن بطلان ما قاله بعض المفسّرين- مثل صاحب المنار- من أن مجرّد السفر وحده كاف للتكليف بالتيمم بدل الوضوء حتى لو كان الشخص المسافر واجدا للماء، فإنّ فاء التفريع فى قوله فَلَمْ تَجِدُوا يبطل هذا الكلام، لأنّ المفهوم منه هو أنّ السفر قد يوجب أحيانا عدم التمكن من الماء، و هنا لا مناص من التيمم، لا أنّ السفر بوحده يسوغ التيمم، و العجب أنّ الكاتب المذكور تحامل على فقهاء الإسلام فى هذا المجال من دون مبرر لهذا التحامل.

٢- إنّ كلمة (أو) فى قوله تعالى: أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ هى بمعنى (الواو) لأن مجرّد المرض أو السفر لا يوجب التيمم، بل يجب التيمم إذا تحققت موجبات التيمم أو الغسل فى هذا الحال.

٣- إنّ «العفة فى البيان» المعهودة من القرآن دفعت بالقرآن فى هذه الآية- كما فى الآيات الكثيرة الاخرى- إلى أن يعبّر عن قضاء الحاجة بعبارة تفهم المراد من جانب، و لا تكون غريبة و غير مناسبة من جانب آخر إذ يقول: أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۸

و توضيح ذلك أنّ «الغائط»- خلاف ما يفهم منه هذا اليوم- يعنى فى أصل اللغة المنخفض من الأرض الذى كان يقصده الإنسان و سكان الصحارى و المسافرون فى تلك العهود لقضاء الحاجة فيه ليسترهم عن أعين الناظرين، و على هذا يكون معنى هذه الجملة هو: إذا عاد أحدكم من المكان المنخفض من الأرض الذى هو فى جملته كناية عن قضاء الحاجة.

و الملفت للنظر أن القرآن استعمل لفظة «أحد منكم» بدل ضمير الجمع المخاطب المصدر بالفعل أى «جئتم» ليحافظ على خصيصة «عفة البيان» التى تجلى بها القرآن الكريم أكثر فأكثر.

و هكذا الحال عند ما يتحدّث عن الجماع فإنّ القرآن يشير إلى هذا الموضوع بعبارة أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ و لفظة اللمس كناية جميلة عن المقاربة الجنسية.

۴- سنتحدث بتفصيل حول بقية خصوصيات التيمم عند تفسير قوله تعالى:

صَعِيداً طَيِّباً فى ذيل الآية (۶) من سورة المائدة إن شاء اللّه.

فلسفة التيمم:

یتساءل کثیرون: ما الفائدة من ضرب الیدین بالتراب و مسح الجبین و ظهر الیدین بهما خاصّة أنّنا نعلم أن کثیرا من الأتربة ملوثة، و ناقلة للمیکروبات و الجراثیم؟

فی جواب هذه الأسئلة نشیر إلی نقطتین مهمتین:

الأولی: الفائدة الخلقیة، فإن التیمم إحدی العبادات، و تتجلی فیها روح العبادة بکل معنی الکلمة، لأن الإنسان یمس جبهته التی هی أشرف الأعضاء فی بدنه بیدیه المتربتین لیظهر بذلک خضوعه للّه و تواضعه فی حضرته و لسان حاله یقول:

یا ربّی إنّ جبهتی و کذا یدای خاضعات أمامک إلی أبعد حدود الخضوع و التواضع، ثمّ یتوجه عقیب هذا العمل إلی القیام بالصلاة و سائر العبادات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۹

المشروطة بالغسل و الوضوء، و بهذا الطریق یزرع التیمم فی نفس الإنسان روح الخضوع للّه، و ینمی فیه صفة التواضع فی حضرة ذی الجلال، و یدرّبه علی العبودیة له سبحانه، و الشکر لأنعمه تعالی.

الثّانیة: الفائدة الصحیة، فقد ثبت الیوم بأنّ التراب بحکم احتوائه علی کمیات کبیرة من البکتریا تزیل التلوثات، إن البکتریات الموجودة فی التراب و التی تعمل علی تحلیل الموارد العضویة و إبادة کل أنواع العفونة، توجد- فی الأغلب- بوفرة فی سطح الأرض، و الأعماق القریبة التی یمکن لها الانتفاع بنور الشمس و الهواء بصورة أکثر، و لهذا عند ما تدفن جثث الأموات من البشر أو الحیوان فی الأرض، و کذا ما یشابهها من المواد العضویة، نجدها تتحلل فی مدّة قصیرة تقریبا و تتلاشی بؤر التعفن علی أثر هجوم البکتریات علیها، و من المسلّم أنّ هذه الخاصّیة لو لم تکن فی التربة لتحولت الکرة الأرضیة فی مدّة قصیرة إلی بؤرة عفونة قاتلة.

إنّ للتربة خاصّیة تشبه مواد «الأنتوبیوتیک» التی لها أثر فعال جدّا فی قتل و إبادة المیکروبات.

و علی هذا لا یکون التراب عاریا عن التلوث فقط، بل هو مطهر فعال للتلوثات، و یمکنه- من هذه الجهة- أن یحل محل الماء بفارق واحد، هو أن الماء یحلل المیکروبات، و یذهب بها معه، فی حین أن مفعول التراب یقتصر علی قتل المیکروبات فقط.

و لکن یجب الانتباه إلی أنّ التراب الذی یستعمل فی التیمم یجب أن یکون طاهرا نظیفا، کما أشار الیه القرآن الکریم فی تعبیره الجمیل إذا یقول: طَیِّباً.

و الجدیر بالانتباه أنّ التعبیر ب «الصعید» المشتق من «الصعود» یشیر إلی أن أفضل أنواع التربة الذی ینبغی أن تختاره للتیمم هو التربة الموجودة فی سطح الأرض، یعنی تلک التربة التی هی عرضة لأشعة الشمس و الملیئة بالهواء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۰

و البکتریا المبیدة للمیکروبات، فإذا کانت تلک التربة المستعملة فی التیمم طیبة و طاهرة أیضا کان التیمم بها ینطوی علی الآثار المذکورة من دون أن یکون فیه أی ضرر أو أیة مضاعفات. (و سنتحدث فی هذا المجال أیضا عند تفسیر المقطع الأخیر من الآیة (۶) فی سورة المائدة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۱

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۴۴ الی ۴۵]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتابِ یَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَ یُرِیدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِیلَ (۴۴) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِکُمْ وَ کَفی بِاللَّهِ وَلِیًّا وَ کَفی بِاللَّهِ نَصِیراً (۴۵)

التّفسير

فى هذه الآيات يخاطب اللّه سبحانه نبيّه الكريم بعبارة حاكية عن التعجب و الاستغراب قائلا: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ أى عجيب أمر هؤلاء الذين أتوا نصيبا من الكتاب السماوى، و لكنهم بدل أن يقوموا بهداية الآخرين و إرشادهم فى ضوء ما أوتوا من الهدى، فإنّهم يشترون الضلالة لأنفسهم و يريدون أن تضلوا أنتم أيضا.

و بهذا الطريق فإنّ ما نزل لهدايتهم و هداية الآخرين تحول إلى وسيلة لضلالهم و إضلال الآخرين بسوء نيّتهم، لأنّهم لم يكونوا أبدا بصدد الحقيقة، بل كانوا ينظرون إلى كل شىء بمنظار النفاق و الحسد و المادية السوداء.

ثمّ يقول سبحانه: إنّ هؤلاء و إن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لكم إلّا أنّهم أعداؤكم الحقيقيون وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ

و أية عداوة أشدّ و أكثر من أن يكرهوا هدايتكم و يخالفوا سعادتكم، تارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۲

باللسان و تارة عن طريق إظهار النصح، و ثالثة عن طريق الذم، و يجتهدون فى تحقيق أهدافهم المشؤومة فى كل ظرف و زمان بنحو خاص، و شكل معين.

و لكن لا- تخافوا عداوتهم أبدا و لا تستوحشوا لمواقفهم المعادية فلستم وحدكم فى الميدان، فكفاكم أنّ اللّه قائدكم و وليكم و ناصركم: وَ كَفى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَ كَفى بِاللَّهِ نَصِيراً.

لأنّه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئا، فإذا تجاهلتم أحاديثهم و وساوسهم لم يبق أى مجال للخوف و القلق.

ثمّ إنّه يستفاد من عبارة: أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ أنّ ما كان عندهم من الكتاب لم يكن كل ما فى الكتاب السماوى «التوراة» بل كان بعضه و قسما منه، و هذا يتفق مع حقائق التاريخ المسلمة أيضا، تلك الحقائق التى تؤكد ضياع أو تحريف أقسام من التوراة الحقيقية مع مضى الزمن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۶]

اشارة

مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً (۴۶)

التّفسير

جانب آخر من أعمال اليهود:

تعقيبا على الآيات السابقة تشرح هذه الآية صفات جماعة من أعداء الإسلام، و تشير إلى جانب من أعمالهم و مواقفهم.

فتقول أوّلا- إنّ أحد أعمال هذه الجماعة هو تحريف الحقائق، و تغيير حقيقة الأوامر الإلهية: مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ أى أنّ جماعة من اليهود يحرفون الكلمات عن مواضعها.

و هذا التحريف قد يكون له جانب لفظى، و قد يكون له جانب معنوى و عملى.

أمّا العبارات اللاحقة فتفيد أن المراد من التحريف في المقام هو التحريف اللفظی و تغيير العبارة، لأنّه تعالى يقول بعد هذه الجملة: وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۴

وَ عَصَيْنا يعنی بدل أن يقولوا «سمعنا و أطعنا» يقولون «سمعنا و عصينا» و هذا يشبه تماما كلام من يقول مستهزء: «منك الأمر و منّا عدم السماع»، هذا و العبارات الاخرى فی هذه الآية خير شاهد على هذا القول.

ثمّ يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائية المزيجة بروح التحدی و الصلافة حيث يقول: إنّهم يقولون: وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ و بهذا الطريق يتوسل هذا الفريق للحفاظ على جماعة من المغفلين،- مضافا إلى سلاح تحريف الحقائق و الخيانة فی إبلاغ الكتب السماوية التی كانت تشكل الوسيلة الحقيقية لنجاة ذلك الفريق و شعبهم من مخالب الطغاة الظلمة مثل فرعون- يتوسلون بسلاح الاستهزاء و السخرية الذی هو سلاح الأنانيين و المغرورين و وسيلة العتاة و المعاندين، و ربّما استخدموا مضافا إلى كل ذلك عبارات كان المسلمون المخلصون يرددونها أمام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع تغييرات فی معانيها تكميلا لاستهزائهم و سخريتهم، مثل جملة «راعنا» التی معناها «تفقدنا و أمهلنا» و كان المسلمون الصادقون فی صدر الإسلام و مطلع الدّعوة المحمّدية يرددونها أمام النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليتمكنوا من سماع صوت النّبی و كلامه بنحو أفضل، و لكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجملة لإيذاء النّبی و يسيئون استخدامها و يكررونها أمام النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم يقصدون منها معناها العبری الذی هو «سمعنا غير مسمع» أو «أسمعنا لا سمعت» أو معناه العربی الآخر، و هو ما يرجع إلى الرعونة[۱۱۴] الذی يعنی الحمق، قصدا منهم إلى أن عمل النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان- و العياذ باللّه- خداع الناس و استغلال سذاجتهم.

و قد كان هذا كله بهدف إزاحة الحقائق عن محورها الأصلی بألسنتهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۵

و الطعن فی الدين الحق، و الشريعة الحقة: لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ

(و اللی على وزن الحی بمعنى الفتل، مثل فتل الحبل و ما شابهه، و يأتی أيضا بمعنى التغيير و التحريف).

وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ أی أنّهم إن سلكوا الطريق المستقيم و تركوا كل ذلك اللجاج و العناد، و معاداة الحق، و سوء الأدب، و الجرأة و القحة و قالوا: سمعنا كلام اللّه و أطعنا، فاستمع إلى كلامنا و أمهلنا لكی ندرك الحقائق إدراكا كاملا، لكان ذلك من مصلحتهم، و كان فی ذلك منفعتهم، و أكثر انسجاما و توافقا مع العدل و المنطق و العدل و الأدب.

وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

أی أنّهم لن يتخلوا عن هذا السلوك الشائن بسرعة، كيف؟ و قد ابتعدوا عن رحمة اللّه بسبب ما هم عليه من كفر و تمرد و طغيان، و ماتت أفئدتهم و تحجرت بحيث صار من المتعذر أن تخضع للحق، و أن تحيا من رقدتها بهذه السرعة، اللّهم إلّا بعضهم ممن يمتلك فؤادا طاهرا و عقلا يقظا، فهؤلاء هم المستعدون للقبول بالحقائق، و الاستماع إلى نداء الحق و الإيمان به.

و قد اعتبر جماعة هذه الجملة من مغيبات القرآن و إخباراته الغيبية، لأنّه- كما يخبر القرآن الكريم فی هذه الآية- لم يؤمن من اليهود طوال التاريخ الإسلامی و لم يذعن للحق إلّا جماعة قليله، و أمّا غيرهم- و هم الأكثرية الساحقة- فقد بقوا- و إلى الآن- على عدائهم الشديد، و خصومتهم للإسلام، و لم يزالوا يكيدون له المكائد، و يحيكون ضده المؤامرات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۷]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلی أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ کَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (۴۷)

التّفسیر

مصیر المعاندین:

تعقیبا علی البحث السابق فی الآیة المتقدمة حول أهل الکتاب، وجه الخطاب فی هذه الآیة إلیهم أنفسهم، إذ قال سبحانه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَکُمْ أی آمنوا بالقرآن الکریم الذی تجدونه موافقا لما جاء فی کتبکم من العلامات و البشائر، و لا شک أنّکم أولی من غیرکم- و لدیکم مثل هذه الأدلة و العلائم- بالإیمان بهذا الدین الطاهر.

ثمّ إن اللّه سبحانه یهددهم بأنّ علیهم أن یخضعوا للحقّ و یذعنوا له قبل أن یصابوا بإحدی عقوبتین، الأولی: أن تنمحی صورهم کاملة، و أن تذهب عنهم جوارحهم و أعضاؤهم التی یرون و یسمعون و یدرکون بها الحق، کلّها ثمّ تقلب وجوههم إلی خلف کما یقول سبحانه: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ ۱۱۵] وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلی أَدْبارِها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۷

. و لعلّنا لسنا بحاجة إلی أن نذکر بأنّ المراد من هذه العبارة هو تعطل عقولهم و حواسهم من حیث عدم رؤیة حقائق الحیاة و إدراکها، و الانحراف عن الصراط المستقیم کما جاء فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام من أنّ المراد: «نطمسها عن الهدی فنردّها علی أدبارها فی ضلالتها ذمّا لها بأنّها لا تفلح أبدا»[۱۱۶].

توضیح ذلک أنّ أهل الکتاب، و بخاصّة الیهود منهم، عند ما أعرضوا عن الإذعان بالحق رغم کل تلک العلائم و البراهین، و عاندوا تعنتا و استکبارا و أظهروا مواقفهم المعاندة فی أکثر من ساحة، صار العناد و الزور طبیعتهم الثانیة شیئا فشیئا، و کأن أفکارهم قد مسخت و کأن عیونهم قد عمیت و آذانهم قد صمت، و مثل هؤلاء من الطبیعی أن یتقهقروا فی طریق الحیاة بدل أن یتقدموا، و أن یرتدوا علی الأدبار بدل أن یتحرکوا إلی الأمام، و هذا هو جزاء کل من ینکر الحق عنادا و عتوا، و هذا فی الحقیقة یشبه ما أشرنا الیه فی مطلع سورة البقرة الآیة (۶).

و علی هذا، فإن المراد من «الطمس و عفو الأثر و الرّد علی العقب» فی الآیة الحاضرة هو المحو الفکری و الروحی، و التأخر المعنوی.

و أمّا العقوبة الثانیة التی هددهم اللّه بها فهی اللعن و الطرد من رحمته تعالی إذ قال: أَوْ نَلْعَنَهُمْ کَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ ۱۱۷].

و هنا یطرح سؤال و هو: ما الفرق بین هذین التهدیدین، حتی یفصل بینهما ب «أو»؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۸

ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ التهدید الأوّل ینطوی علی جانب معنوی، و التهدید الثّانی ینطوی علی جانب ظاهری و مسخ جسمی، و ذلک بقرینة أن اللّه قال فی هذه الآیة: کَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ و نحن نعلم أن أصحاب السبت- کما یتّضح من مراجعة الأعراف- قد مسخوا مسخا ظاهریا و جسدیا.

و ذهب آخرون إلی أن هذا اللعن و الطرد من رحمة اللّه ینطوی أیضا علی جانب معنوی بفارق واحد، هو أنّ التهدید الأوّل إشارة إلی الانحراف و الضلال و التقهقر الذی أصابهم، و التهدید الثّانی إشارة إلی معنی الهلاک و الفناء (الذی هو أحد معانی اللعن).

خلاصة القول: إنّ أهل الکتاب بإصرارهم علی مخالفة الحق یسقطون و یتقهقرون أو یهلکون.

ثمّ إنّ هنا سؤالا آخر هو: هل تحقق التهدید فی شأن هؤلاء، أم لا؟

لاـ شـک أنّ التهدیـد الأوّل قـد تحقق فی شأن کثیر منهم، و أمّا التهدیـد الثّانی فقـد تحقق فی بعضـهم، و لقـد هلک کثیر منهم فی الحروب الإسلامیة، و ذهبت شوکتهم و قدرتهم. و إنّ تأریخ العالم لیشهد کیف تعرضوا بعد ذلک لکثیر من الضغوطات فی البلاد المختلفة، و فقدوا الکثیر من أفرادهم و عناصرهم، و خسروا الکثیر من طاقاتهم، و لاـ یزالون إلی الآن یعیشون فی ظروف صعبة و أحوال قاسیة.

ثمّ إنّ اللّه یختم هذه الآیة بقوله: وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا لیؤکّد هذه التهدیدات، فإنّه لا توجد قوّة فی الأرض تستطیع أن تقف فی وجه إرادة اللّه و مشیئته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۹

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۴۸]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَری إِثْماً عَظِیماً (۴۸)

التّفسیر

أرجی آیات القرآن:

الآیة الحاضرة تعلن بصراحة أنّ جمیع الذنوب و المعاصی قابلة للمغفرة و العفو، إلا «الشرک» فإنّه لا یغفر أبدا، إلّا أن یکف المشرک عن شرکه و یتوب و یصیر موحدا، و بعبارة أخری: لیس هناک أی ذنب قادر بوحده علی إزالة الإیمان، کما لیس هناک أی عمل صالح قادر علی خلاص الإنسان إذا کان مقرونا بالشرک إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ.

إنّ ارتباط هذه الآیة بالآیات السابقة إنّما هو من جهة أن الیهود و النصاری کانوا بشکل من الاشکال مشرکین، کل طائفة بشکل معین، و القرآن ینذرهم- بهذه الآیة- بأن یترکوا هذه العقیدة الفاسدة التی لا یشملها العفو و الغفران، ثمّ یبیّن فی خاتمة الآیة دلیل هذا الأمر إذ یقول: وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَری إِثْماً عَظِیماً[۱۱۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۰

و هذه الآیة من الآیات التی تطمئن الموحدین إلی رحمة اللّه و لطفه، لأنّ فی هذه الآیة قد بیّن سبحانه إمکان العفو عن جمیع المعاصی و الذنوب غیر الشرک، فهی کما جاء

فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أرجی آیات القرآن الکریم إذ قال: «ما فی القرآن آیة أرجی عندی من هذه الآیة».

و هذه الآیة- کما قال ابن عباس «ثمانی آیات نزلت فی سورة النساء، خیر لهذه الأمّة ممّا طلعت علیه الشمس و غربت و عدّ منها هذه الآیة»[۱۱۹].

لأنّ هناک کثیرین یرتکبون المعاصی العظیمة ثمّ یقنطون من رحمة اللّه و غفرانه إلی الأبد، فیتسبب قنوطهم فی أن یسیروا بقیة عمرهم فی طریق المعصیة و الخطأ بنفس القوّة و الإصرار، و لکن الأمل فی عفو اللّه و غفرانه خیر وسیلة رادعة بالنسبة إلی هؤلاء، و خیر مانع من تمادیهم فی المعصیة و الطغیان، و علی هذا الأساس فإنّ هذه الآیة تهدف- فی الحقیقة- إلی مسألة تربویة.

فإذا رأینا عصاة مجرمین (کما یقول بعض المفسّرین، و یعلم ذلک من الروایات المذکورة فی ذیل هذه الآیة) أمثال «وحشی» غلام

هند و قاتل بطل الإسلام حمزة بن عبد المطلب عم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یؤمن مع نزول هذه الآیة، و ینتهی عن جرائمه و شقاوته، فإن من الطبیعی أن یوجد ذلک مثل هذا الأمل لدی العصاة الآخرین، فلا ییأسوا من رحمة اللّه و غفرانه، و لا یتورطوا فی المزید من الذنوب و المعاصی.

و یمکن أن یقال: إنّ هذه الآیة من شأنها أن تشجع الناس فی الوقت ذاته علی الذنب و تغریهم بالمعصیة، لما فیها من الوعد بالعفو عن «جمیع الذنوب ما عدا الشرک».

و لکن لا شک أنّ المراد من الوعد بالعفو و المغفرة لیس هو الوعد المطلق من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۱

کل قید و شرط، بل یشمل الأشخاص الذین یظهرون من أنفسهم نوعا من اللیاقة و الصلاح لمثل هذا العفو و الغفران، و کما أشرنا إلی ذلک فی ما سبق، فإن مشیئة اللّه- فی هذه الآیة و الآیات المشابهة لها- بمعنی الحکمة الإلهیة، لأن مشیئته تعالی لا تنفصل عن حکمته أبدا، و من البدیهی و المسلم أن حکمته لا تقتضی أن ینال أحد العفو الإلهی من دون قابلیة و صلاح لذلک.

و علی هذا الأساس فإن الجوانب و الأبعاد التربویة البناءة فی هذه الآیة تفوق- بمراتب کثیرة- إمکان سوء استخدام الوعد الموجود فیها.

أسباب مغفرة الذنوب:

ثمّ إنّ النقطة الجدیرة بالانتباه إنّ هذه الآیة لا ترتبط بمسألة التوبة، لأنّ التوبة و العودة عن الذنب تغسل جمیع الذنوب و المعاصی حتی الشرک، بل المراد هو إمکان شمول العفو الإلهی لمن لم یوفق للتوبة، یعنی الذین یموتون قبل الندم من ذنوبهم، و بعد الندم و قبل جبران ما بدر منهم من الأعمال الطالحة بالأعمال الصالحة.

و توضیح ذلک: أنّه یستفاد من آیات عدیدة فی القرآن الکریم أن وسائل التوصل إلی العفو و المغفرة الإلهیة متعددة، و یمکن تلخیصها فی خمسة أمور:

۱- التوبة و العودة إلی اللّه تعالی، المقرونة بالندم علی الذنوب السابقة، و العزم علی الاجتناب عن الذنب و المعصیة فی المستقبل، و جبران و تلافی الأعمال الطالحة السالفة بالأعمال الصالحة (و الآیات الدّالة علی هذا المعنی کثیرة) و من جملتها قوله سبحانه: وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ یَعْفُوا عَنِ السَّیِّئاتِ ۱۲۰].

۲- الأعمال الصّالحة المهمّة جدّا و التی تسبب العفو عن الأعمال القبیحة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۲

کما یقول سبحانه: إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ ۱۲۱].

۳- الشّفاعة التی مرّ شرحها فی المجلد الأول عند تفسیر الآیة (۴۸) من سورة البقرة.

۴- الاجتناب عن المعاصی الکبیرة الذی یوجب العفو عن المعاصی الصغیرة کما مرّ شرحها عند تفسیر الآیتین (۳۱ و ۳۲) من هذه السورة.

۵- العفو الإلهی الذی یشمل الأشخاص اللائقین له، کما مرّ بحثه فی تفسیر هذه الآیة.

هذا و نکرر تذکیرنا بأن العفو الإلهی مشروط و مقید بالمشیئة الإلهیة، و لا یکون قضیة مطلقة دون أی قید أو شرط، بل تشمل هذه المشیئة و الإرادة خصوص الأشخاص الذین یثبتون بصورة عملیة لیاقتهم و صلاحیتهم لهذه الهبة الإلهیة بنحو من الأنحاء.

و من هنا یتّضح لما ذا لا یکون الشرک ممّا یشمله العفو و الغفران الإلهی، فالسبب فی ذلک هو: إنّ المشرک قد قطع صلته باللّه

بصورة کاملة، و ارتکب ما یخالف کل الشرائع و الأدیان و القوانین الطبیعیة و النّوامیس الکونیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۳

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۴۹ الی ۵۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُزَکُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ یُزَکِّی مَنْ یَشاءُ وَ لا یُظْلَمُونَ فَتِیلًا (۴۹) انْظُرْ کَیْفَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ وَ کَفی بِهِ إِثْماً مُبِیناً (۵۰)

سبب النّزول

روی فی کثیر من التفاسیر فی ذیل هذه الآیة أنّ الیهود و النصاری کانوا یرون لأنفسهم أمورا و امتیازات، فهم- کما نری ذلک فی آیات القرآن الکریم عند الحکایة عنهم- کانوا یقولون: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ و ربّما قالوا: لَنْ یَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ کانَ هُوداً أَوْ نَصاری (الآیة (۱۸) من سورة المائدة، و الآیة (۱۱۱) من سورة البقرة) فنزلت هذه الآیات تبطل هذه التصورات و المزاعم.

التّفسیر

تزکیة النفس ۱۲۲]:

قال تعالی فی الآیة الأولی من الآیتین الحاضرتین: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُزَکُّونَ أَنْفُسَهُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۴

و فی هذه إشارة إلی إحدی الصفات الذمیمة التی قد یبتلی بها کثیر من الأفراد و الشعوب، إنّها صفة مدح الذات و تزکیة النفس، و ادعاء الفضیلة لها.

ثمّ یقول سبحانه: بَلِ اللَّهُ یُزَکِّی مَنْ یَشاءُ فهو وحده الذی یمدح الأشخاص و یزکیهم طبقا لما یتوفر عندهم من مؤهلات و خصال حسنة دون زیادة أو نقصان، و علی أساس من الحکمة و المشیئة البالغة، و لیس اعتباطا أو عبثا. و لذلک فهو لا یظلم أحدا مقدار فتیل: وَ لا یُظْلَمُونَ فَتِیلًا[۱۲۳].

و فی الحقیقة أنّ الفضیلة هی ما یعتبرها اللّه سبحانه فضیلة لا ما یدعیه الإشخاص لأنفسهم انطلاقا من أنانیتهم، فیظلمون بذلک أنفسهم و غیرهم.

إن هذا الخطاب و إن کان موجها إلی الیهود و النصاری الذین یدعون لأنفسهم بعض الفضائل دونما دلیل، و یعتبرون أنفسهم شعوبا مختارة فیقولون أحیانا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَیَّاماً مَعْدُودَةً[۱۲۴] و یقولون تارة أخری: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ ۱۲۵] إلا أنّ مفهومه لا یختص بقوم دون قوم، و جماعة دون جماعة، بل یشمل کل الأشخاص أو الأمم المصابة بمثل هذا المرض الوبی، و هذه الصفة الذمیمة.

إنّ القرآن یخاطب جمیع المسلمین فی (سورة النجم- الآیة ۳۲) فیقول:

فَلا تُزَکُّوا أَنْفُسَکُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقی

إنّ مصـدر هـذا العمل هو الإعجاب بالنفس و الغرور، و العجب الذی یتجلی شـیئا فشیئا فی صورة امتداح الذات و تزکیة النفس، بینما ینتهی فی نهایة المطاف إلی التکبر و الاستعلاء علی الآخرین.

إنّ هذه العادة الفاسدة- مع الأسف- من العادات الشائعة بین کثیر من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۵

الشعوب و الفئات و الأشخاص، و هی مصدر الکثیر من المآسی الاجتماعیة و الحروب و حالات الاستعلاء و الاستعمار.

إنّ التاریخ یرینا کیف أن بعض الأمم فی العالم کانت تزعم تفوقها علی الشعوب و الأمم الاخری تحت وطأة هذا الشعور و الإحساس الکاذب، و لهذا کانت تمنح لنفسها الحق فی أن تستعبد الآخرین، و تتخذهم لأنفسها خولا و عبیدا.

لقـد کـان العرب الجـاهلیون مع کل التخلف و الانحطاط و الفقر الشامل الـذی کانوا یعانون منه، یرون أنفسـهم «العنصـر الأعلی» بل و کانت هذه الحالة سائدة حتی بین قبائلهم حیث کان بعض القبائل یری نفسه الأفضل و الأعلی.

و لقد تسبب الإحساس بالتفوق لدی العنصر الألمانی و الإسرائیلی فی وقوع الحروب العالمیة أو الحروب المحلیة.

و لقـد کـان الیهود و النصـاری فی صـدر الإسـلام یعـانون- أیضـا- من هـذا الإحسـاس و الشـعور الخاطئ و هـذا الوهم، و لهـذا کانوا یسـتثقلون الخضوع أمام حقائق الإسـلام، و لهذا السبب شدد القرآن الکریم النکیر- فی الآیة اللاحقة الثانیة- علی هذا التصور و شجب هـذا الوهم، و هم التفوق العنصـری، و یعتـبره نوعـا من الکـذب علی اللّه و الافـتراء علیه سـبحانه، و معصـیة کبری و ذنبـا بیّنـا إذ یقول سبحـانه: انْظُرْ کَیْفَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَـذِبَ، وَ کَفی بِهِ إِثْمـاً مُبِیناً أی أنظر کیف أن هـذه الجماعـة بافتعالها لهـذه الفضائل و ادعائها لنفسها من ناحیة، و نسبتها إلی اللّه من ناحیة أخری، تکذب علی اللّه، و لو لم یکن لهذه الجماعة أی ذنب إلّا هذا لکفی فی عقوبتهم.

یقول الإمـام علی علیه السّـلام فی حـدیثه المعروف ل «همـام» الـذی یـذکر فیه صـفات المتقین: «لا یرضون من أعمـالهم القلیل، و لا یستکثرون الکثیر، فهم لأنفسهم متهمون، و من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۶

أعمالهم مشـفقون إذا زکی أحد منهم خاف ممّا یقال له فیقول: أنا أعلم بنفسی من غیری و ربّی أعلم بی من نفسی، اللّهم لا تؤاخذنی بما یقولون، و اجعلنی أفضل ما یظنون، و اغفر لی ما لا یعلمون».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۷

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۵۱ الی ۵۲]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتابِ یُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ یَقُولُونَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدی مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا سَبِیلًا (۵۱) أُولئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ یَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِیراً (۵۲)

سبب النّزول

قال کثیر من المفسّـرین- فی شأن نزول الآیتین الحاضـرتین: أنّه بعـد معرکة «أحد» توجه أحد أقطاب الیهود و هو «کعب بن الأشـرف» مع سبعین شخصا من الیهود إلی مکّة للتحالف مع مشرکی مکّة ضد رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و نقض ما کان بینهم و بین رسول اللّه من الحلف.

فنزل کعب علی أبی سفیان فأحسن مثواه و نزلت الیهود فی دور قریش، فقال أهل مکّة: أنکم أهل کتاب و محمّد صاحب کتاب، فلا

نأمن أن یکون هذا مکر منکم، فإن أردت أن نخرج معک فاسجد لهذین الصنمین (و أشاروا إلیها) و آمن بهما، ففعل.

ثمّ اقترح کعب بن الأشرف علی أهل مکّة قائلا: یا أهل مکّة لیجیء منکم ثلاثون و منّا ثلاثون فنلصق أکبادنا بالکعبة، فنعاهد ربّ هذا البیت لنجهدن علی

قتال محمّد، ففعلوا ذلک.

فلمّا فرغوا قال أبو سفیان لکعب: إنّک امرؤ تقرأ الکتاب و تعلم، و نحن أمیون لا نعلم، فأینا أهدی طریقا و أقرب إلی الحقّ، نحن أم محمّد؟

قال کعب: اعرضوا علیّ دینکم، فقال أبو سفیان: نحن ننحر للحجیج الکوماء (و هی الناقة العظیمة السنام) و نسقیهم الماء، و نقری الضیف، و نفک العانی، و نصل الرحم، و نعمّر بیت ربّنا، و نطوف به، و نحن أهل الحرم، و محمّد فارق دین آبائه، و قاطع الرحم، و فارق الحرم، و دیننا القدیم، و دین محمّد الحدیث.

فقال کعب: أنتم و اللّه أهدی سبیلا ممّا علیه محمّد.

فأنزل اللّه تعالی الآیات الحاضرة إجابة لهم وردا علیهم:

التّفسیر

المداهنون:

إن الآیة الأولی من الآیتین الحاضرتین تعکس- بملاحظة- ما ذکر فی سبب النزول قریبا- صفة أخری من صفات الیهود الذمیمة، و هی أنّهم لأجل الوصول إلی أهدافهم کانوا یداهنون کل جماعة من الجماعات، حتی أنّهم لکی یستقطبوا المشرکین سجدوا لأصنامهم، و تجاهلوا کل ما قرءوه فی کتبهم، أو عملوا به حول صفات رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عظمة الإسلام، بل و ذهبوا- بغیة إرضاء المشرکین- إلی ترجیح عقیدة الوثنیین بما فیها من خرافات و تفاهات و فضائح علی الإسلام الحنیف، مع أنّ الیهود کانوا من أهل الکتاب، و کانت المشترکات بینهم و بین الإسلام تفوق بدرجات کبیرة ما یجمعهم مع الوثنیین، و لهذا یقول سبحانه فی هذه الآیة مستغربا: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتابِ یُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ و هی الأصنام؟

و لکنّهم لا یقتنعون بهذا، و لا یقفون عند هذا الحدّ، بل: وَ یَقُولُونَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدی مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا سَبِیلًا.

الجبت و الطّاغوت:

استعملت لفظة «الجبت» فی هذه الآیة من القرآن الکریم خاصّة، و هو اسم جامد لا- تعریف له فی اللغة العربیة، و یقال أنّه یعنی «السّحر» أو «السّاحر» أو «الشّیطان» بلغة أهل الحبشة، ثمّ دخل فی اللغة العربیة و استعمل بهذا المعنی، أو بمعنی الصنم أو أی معبود غیر اللّه فی هذه اللغة، و یقال: أنه فی الأصل «جبس» ثمّ أبدل «س» إلی «ت».

و أمّا لفظة «الطّاغوت» فقد استعملت فی ثمانیة موارد من القرآن الکریم، و هی- کما قلنا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر لدی الحدیث عن الآیة (۲۵۶) من سورة البقرة- صیغة مبالغة[۱۲۶] من مادة الطغیان، بمعنی التعدی و تجاوز الحدّ، و یطلق علی کل شیء

موجب لتجاوز الحدّ (و منها الأصنام) و لهذا يسمى الشيطان، و الصنم و الحاكم الجبار المتكبر، و كل معبود سوى اللّه، و كل مسيرة تنتهى إلى غير الحق، طاغوتا.

هذا هو المعنى الكلى لهاتين اللفظتين.

أمّا المراد منهما فى الآية المبحوثة الآن، فذهب المفسرون فيه مذاهب شتى.

فقال البعض بأنّهما اسمان لصنمين سجد لهم اليهود فى القصّة السابقة.

و قال آخرون: الجبت هنا هو الصنم، و الطّاغوت هم عبدة الأصنام، أو حماتها الذين كانوا يمثلون تراجمة الأصنام الذين كانوا يتكلمون بالتكذيب عنها ليخدعوا الناس ۱۲۷]، و هذا المعنى أوفق لما جاء فى سبب النزول و تفسير الآية، لأنّ اليهود سجدوا للأصنام كما خضعوا أمام عبدتها الوثنيين أيضا.

ثمّ إنّه سبحانه بيّن- فى الآية الثانية- مصير أمثال هؤلاء المداهنين قائلا:

أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۰

إنّ اليهود- كما تقول هذه الآية- لم يحصلوا من مداهنتهم الفاضحة على نتيجة، بل انهزموا فى النهاية، و تحققت نبوءة القرآن الكريم فى شأنهم.

إن الآيات الحاضرة و إن كانت قد نزلت فى شأن جماعة خاصّة، و لكنها لا تختص بهم حتما، بل تشمل كل الأشخاص المداهنين المصلحيين (الانتهازيين) الذين يضحّون بشخصيتهم و مكانتهم، بل و إيمانهم و معتقداتهم فى سبيل الوصول إلى مآربهم السافلة و أغراضهم الدنيئة.

فإنّ هؤلاء أبعد ما يكونون عن رحمة اللّه فى الدنيا و الآخرة، و غالبا ما يؤول أمرهم إلى الهزيمة و الفشل.

إنّ الجدير بالانتباه هو أنّ هذه الحالة أو الصفة الذميمة المذكورة لا تزال باقية على قوّتها عند هؤلاء القوم، فإنا نجد كيف أنهم لا يمتنعون عن أى مداهنة مهما كانت الشروط للوصول إلى أهدافهم، و لهذا ظلوا يعانون من هزائمهم المنكرة طول تاريخهم الماضى و الحاضر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۱

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۵۳ الى ۵۵]

اشارة

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (۵۳) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (۵۴) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (۵۵)

التّفسير

اشارة

فى تفسير الآيتين السابقتين قلنا أنّ اليهود عمدوا- لإرضاء الوثنيين فى مكّة و استقطابهم- إلى الشهادة بأنّ وثنية قريش أفضل من توحيد المسلمين، بل و عمدوا عمليا إلى السجود أمام الأصنام، و فى هذه الآيات يبيّن سبحانه أن حكمهم هذا لا قيمة له لوجهين.

۱- إنّ اليهود ليس لهم- من جهة المكانة الاجتماعية- تلك القيمة التى تؤهلهم للقضاء بين الناس و الحكم فى أمورهم، و لم يفوض الناس إليهم حق الحكم و القضاء بينهم أبدا ليكون لهم مثل هذا العمل: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ

هذا مضافا إلى أنّهم لا يمتلكون أية قابلية و أهلية للحكومة المادية و المعنوية على الناس، لأن روح الاستئثار قد استحكم فى كيانهم بقوّة إلى درجة أنّهم إذا حصلوا على مثل هذه المكانة لم يعطوا لأحد حقّه، بل خصّوا كل شيء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۲

بأنفسهم دون غيرهم فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً[۱۲۸].

فبالنظر إلى أنّ هذه الأحكام التى يطلقها اليهود صادرة عن مثل هذه النفسية المريضة التى تسعى دائما إلى الاستئثار بكل شيء لأنفسهم أو لغيرهم ممن يعملون لصالحهم، على المسلمين أن لا يتأثروا بأمثال هذه الأحاديث و الأحكام و أن لا يقلقوا لها.

۲- إنّ هذه الأحكام الباطلة ناشئة من حسدهم البغيض للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته المكرمين، و لهذا تفقد أية قيمة، إنّهم إذ خسروا مقام النبوة و الحكومة بظلمهم و كفرهم، لذلك لا يحبّون أن يناط هذا المقام الإلهى إلى أى أحد من الناس، و لذا يحسدون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته الذين شملتهم هذه الموهبة الإلهية و أعطوا ذلك المقام الكريم و ذلك المنصب الجليل، و لأجل هذا يحاولون بإطلاق تلك الأحكام الباطلة و تلك المزاعم السخيفة أن يخففوا من لهيب الحسد فى كيانهم:

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

ثمّ أن اللّه سبحانه يقول معقبا على هذا: و لما ذا تتعجبون من إعطائنا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بنى هاشم ذلك المنصب الجليل و ذلك المقام الرفيع، و قد أعطاكم اللّه سبحانه و أعطى ال إبراهيم الكتاب السماوى و العلم و الحكمة و الملك العريض (مثل ملك موسى و سليمان و داود) و لكنّكم- مع الأسف- أسأتم خلافتهم ففقدتم تلكم النعم المادية و المعنوية القيمة بسبب قسوتكم و شروركم: فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً.

و المراد من الناس فى قوله: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ كما أسلفنا- هم رسول اللّه و أهل بيته عليهم السّلام، لإطلاق لفظة الناس على جماعة من الناس، و أمّا إطلاقها على شخص واحد (هو النّبى خاصّة) فلا يصح ما لم تكن هناك قرينة على إرادة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۳

الواحد فقط[۱۲۹].

هذا مضافا إلى أنّ كلمة آل إبراهيم قرينة أخرى على أنّ المراد من «الناس» هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام، لأنّه يستفاد- من قرينة المقابلة- أنّنا إذا أعطينا لبنى هاشم مثل هذا المقام و مثل هذه المكانة- فلا داعى للعجب- فقد أعطينا لآل إبراهيم أيضا تلك المقامات المعنوية و المادية بسبب أهليتهم و قابليتهم.

و قد جاء التصريح فى روايات متعددة وردت فى مصادر الشيعة و السنة بأنّ المراد من «الناس» هم أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فقد روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى ذيل هذه الآية أنّه قال فى تفسير الآية:

«جعل منهم الرسل و الأنبياء و الأئمّة فكيف يقرّون فى آل إبراهيم و ينكرونه فى آل محمّد»[۱۳۰]؟

و

فى رواية أخرى عن الإمام الصّادق عليه السّلام يجيب الإمام على من يسأل عن المحسودين فى هذه الآية قائلا: «نحن محسودون»[۱۳۱].

و

روى فى الدّر المنثور عن ابن منذر و الطبرانى عن ابن عباس أنّه قال فى هذه الآية: «نحن الناس دون الناس».

ثمّ قال القرآن الكريم في الآية اللاحقة: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً. أي أنّ من الناس آنذاك من آمن بالكتاب الذي نزل على آل إبراهيم، و منهم من لم يكتف بعدم الإيمان بذلك الكتاب، بل صدّ الآخرين عن الإيمان و حال دون انتشاره، أولئك كفاهم نار جهنم المشتعلة عذابا و عقوبة.

و سينتهي إلى نفس هذا المصير كل من كفر بالقرآن الكريم الذي نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۴

دور الحسد في الجرائم:

«الحسد» يعني تمني زوال النعمة عن الآخرين سواء وصلت تلك النعمة إلى الحسود، أم لم تصل إليه، و على هذا الأساس تنصب جهود الحسود على فناء ما لدى الآخرين و زواله عنهم أم تمني ذلك، لا أن تنتقل تلك النعمة إليه.

إن الحسد منشأ للكثير من المآسي و المتاعب الاجتماعية، من ذلك.

۱- إنّ الحاسد يصرف كل أو جلّ طاقاته البدنية و الفكرية- التي يجب أن تصرف في ترشيد الأهداف الاجتماعية- في طريق الهدم و التحطيم لما هو قائم، و لهذا فهو يبدد طاقاته الشخصية و الطاقات الاجتماعية معا.

۲- إنّ الحسد هو الدافع لكثير من الجرائم في هذا العالم، فلو أنّنا درسنا العلل الأصلية وراء جرائم القتل و السرقة و العدوان و ما شابه ذلك لرأينا- بوضوح- أنّ أكثر هذه العلل تنشأ من الحسد، و لعلّه لهذا السبب شبّه الحسد بشرارة من النار يمكنها أن تهدد كيان الحاسد أو المجتمع الذي يعيش في وسطه بالخطر، و تعرضه للضرر.

يقول أحد العلماء: إنّ الحسد من أخطر الصفات، و يجب أن يعتبر من أعدى أعداء السعادة، فيجب أن يجتهد الإنسان لدفعه و التخلص منه.

إنّ المجتمعات التي تتألف من الحاسدين الضيقي النظرة مجتمعات متأخرة متخلفة، و الحساد- في الأغلب- عناصر قلقة و أفراد مرضى يعانون من متاعب و آلام جسدية و عصبية، و ذلك قد أصبح من المسلم اليوم أن أكثر الأمراض و الآلام الجسدية تنشأ من علل نفسية، فإنّنا نلاحظ الآن بحوثا مفصلة في الطب حول الأمراض التي تختص بمثل هذه.

هذا و الجدير بالذكر ورود التأكيد على هذه المسألة في أحاديث أئمة الدين وقادة الإسلام،

ففي رواية عن الإمام علي عليه السّلام نقرأ قوله: «صحة الجسد من قلّة الحسد»

و

«العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد».

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۵

بل و وردت روايات تصرح بأن الحسد يضرّ بالحاسد قبل أن يضرّ بالمحسود، بل و يؤدي إلى القتل و الموت تدريجا.

۴- إنّ الحسد يعدّ- من الناحية المعنوية- من علائم ضعف الشخصية و عقدة الحقارة، و من دلائل الجهل و قصر النظر و قلّة الإيمان، لأنّ الحاسد- في الحقيقة- يرى نفسه أعجز و أقل من أن يبلغ ما بلغه المحسود من المكانة أو أعلى من ذلك، و لهذا يسعى الحاسد إلى أن يرجع المحسود إلى الوراء، هذا مضافا إلى أنّه بعمله يعترض على حكمة اللّه سبحانه واهب جميع النعم و جميع المواهب، و على إعطائه سبحانه النعم إلى من تفضل بها عليه من الناس، و لهذا

جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السّلام «الحسد أصله من عمى القلب و الجحود لفضل اللّه تعالى، و هما جناحان للكفر، و بالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، و هلك مهلكا لا ينجو منه أبدا»[۱۳۲].

فهذا هو القرآن الکریم یصرّح بأنّ أوّل جریمۀ قتل ارتکبت فی الأرض کان منشؤها الحسد[۱۳۳].

و

جاء فی نهج البلاغۀ عن الإمام علی علیه السّلام أنّه قال: «إنّ الحسد یأکل الإیمان کما تأکل النار الحطب»[۱۳۴]

و ذلک لأنّ الحاسد یزداد سوء ظنه باللّه و بحکمته و عدالته شیئا فشیئا، و هذا الأمر یؤدی به إلی الخروج عن جادۀ الإیمان.

إنّ آثار الحسد و أضراره المادیۀ و المعنویۀ و تبعاته الفردیۀ و الاجتماعیۀ کثیرۀ جدّا، و ما ذکرناه إنّما هو فی الحقیقۀ جدول سریع عن بعض هذه الآثار و المضار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۶

الآیتان [سورۀ النساء (۴): الآیات ۵۶ الی ۵۷]

اشارۀ

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِنا سَوْفَ نُصْلِیهِمْ ناراً کُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَیْرَها لِیَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَزِیزاً حَکِیماً (۵۶) وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً لَهُمْ فِیها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِیلًا (۵۷)

التّفسیر

تعقیبا علی الآیات السابقۀ شرحت هاتان الآیتان مصیر المؤمنین و الکافرین.

فالآیۀ الأولی تقول: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِنا سَوْفَ نُصْلِیهِمْ ۱۳۵] ناراً کُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَیْرَها لِیَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَزِیزاً حَکِیماً.

و علّۀ تبدیل الجلود- علی الظاهر- هی أنّه عند ما تنضج الجلود یخف الإحساس بالألم لدی الإنسان، و لکی لا تتخفف عقوبتها و عذابها و لیحس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۷

الإنسان بالألم إحساسا کاملا، تبدل الجلود، و تأتی مکان الجلود الناضجۀ جلود جدیدۀ، و ما هذا إلّا نتیجۀ الإصرار علی تجاهل الأوامر الإلهیۀ، و مخالفۀ الحق و العدل، و الإعراض عن طاعۀ اللّه.

ثمّ یقول سبحانه فی ختام الآیۀ: إِنَّ اللَّهَ کانَ عَزِیزاً حَکِیماً أی أنّه قادر بعزّته أن یوقع هذه العقوبات بالعصاۀ، و أنّه لا یفعل ذلک اعتباطا، بل عن حکمۀ و علی أساس الجزاء علی المعصیۀ.

ثمّ یقول سبحانه فی الآیۀ الثانیۀ: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً لَهُمْ فِیها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِیلًا[۱۳۶].

أی أنّنا نعد المؤمنین الذین یعملون الصالحات بأنّ ندخلهم جنّات تجری من تحت أشجارها الأنهار و السواقی یعیشون فیها حیاۀ خالدۀ، هذا مضافا إلی ما یعطون من أزواج مطهّرات یستریحون إلیهن، و یجدون فی کنفهن لذۀ الروح و الجسد، و ینعمون تحت ظلال خالدۀ بدل الظلال الزائلۀ، لا تؤذیهم الریاح اللافحۀ کما لا یؤذیهم الزمهریر أبدا.

بحث عن الآیۀ:

اشارة

من الأمور الجدیرة بالاهتمام و المستفادة من المقایسة بین هاتین الآیتین هو عموم الرحمة الإلهیة و سبق رحمته علی غضبه، لأنّ فی الآیة الأولی ذکرت عقوبة الکفار مبدوءة بکلمة «سوف» فی حین بدأ الوعد الإلهی للمؤمنین ب «السین» «سندخلهم»، و من المعلوم استعمال سوف فی اللغة العربیة فی المستقبل البعید، و استعمال السین فی المستقبل القریب، مع أننا نری أنّ کلتا الآیتین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۸

ترتبطان بالعالم الآخر، و جزاء المؤمنین و عقوبة الکافرین فی ذلک العالم- من الناحیة الفاصلة الزمانیة- بالنسبة إلینا سواء.

فیکون الاختلاف و التفاوت بین التعبیرین للإشارة إلی سرعة وسعة الرحمة الإلهیة، و بعد و محدودیة الغضب الإلهی، و هو یشابه نفس العبارة التی نرددها فی الأدعیة و هی: «یا من سبقت رحمته غضبه».

سؤال:

من الممکن أن یعترض معترض هنا قائلا بأنّ الآیة الحاضرة تقول: إنّنا کلّما نضجت جلود العصاة الکفرة بدّلناهم جلودا غیرها لیذوقوا العقوبة الإلهیة، فی حین أنّ الجلود العاصیة هی الجلود الأصلیة، فیکون تعذیب الجلود الجدیدة مخالفا للعدل الإلهی، فکیف ذلک؟

جواب:

لقد طرح هذا السؤال بعینه من قبل ابن أبی العوجاء الرجل المادی المعروف علی الإمام الصّادق علیه السّلام حیث قال بعد تلاوة هذه الآیة «و ما ذنب الغیر»؟ یعنی ما ذنب الجلود الجدیدة؟ فردّ الإمام علی هذا السؤال بجواب مختصر فی غایة العمق حیث

قال: «هی هی و هی غیرها»

یعنی أنّ الجلود الجدیدة هی نفس الجلود السابقة فی حین أنّها غیرها.

فقال ابن أبی العوجاء الذی کان یعلم أنّ فی هذه العبارة القصیرة سرّا: مثل لی فی ذلک شیئا من أمر الدنیا.

فقال الإمام علیه السّلام: «أ رأیت لو أنّ رجلا أخذ لبنة فکسرها، ثمّ ردها فی ملبنها، فهی هی، و هی غیرها»[۱۳۷].

و یستفاد من هذه الرّوایة أن الجلود الجدیدة تتألف من نفس عناصر الجلود القدیمة، أی أن العناصر هی ذات العناصر و إن اختلف الترکیب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۹

ثمّ إنّه لا بدّ الالتفات إلی أن الثواب و العقاب یرتبطان- فی الحقیقة- بروح الإنسان و قوّة إدراکه، و الجسم- دائما- وسیلة لانتقال الثواب و العذاب إلی روح الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۰

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۵۸]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً (۵۸)

سبب النّزول

و روی فی تفسیر مجمع البیان و تفاسیر إسلامیة أخری إنّ هذه الآیة نزلت عند ما دخل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکّة المکرمة منتصرا فاتحا، فاستحضر عثمان بن طلحة و کان سادن الکعبة فطلب منه مفتاح الکعبة المعظمة، لیطهرها من الأصنام و الأوثان الموضوعة فیها، فلمّا فرغ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من ذلک سأله العباس أن یعطیه المفتاح لیجمع له بین منصب السقایة و منصب السدانة الذی له فی العرب شان و شاو مجید (و الظاهر أنّ العباس أراد أن یستفید من نفوذ و مکانة ابن أخیه الاجتماعیة و السیاسیة لمصلحته الشخصیة)، و لکن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فعل خلاف ذلک، فإنّه بعد ما طهر الکعبة من الأصنام و الأوثان، أمر علیا علیه السّلام أن یردّ المفتاح إلی «عثمان بن طلحة» ففعل ذلک و هو یتلو الآیة الحاضرة: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها ...[۱۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۱

التّفسیر

قانونان إسلامیان مهمان:

الآیة الحاضرة و إنّ نزلت- کالکثیر من الآیات- فی مورد خاص، إلّا أن من البدیهی أنّها تتضمّن حکما عامّا و شاملا للجمیع، فهی تقول بصراحة: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها.

و من الواضح أنّ للأمانة معنی وسیعا یشمل کلّ شیء مادی و معنوی، و یجب علی کل مسلم- بصریح هذه الآیة- أن لا یخون أحدا فی أیة أمانة دون استثناء، سواء کان صاحب الأمانة مسلما أو غیر مسلم، و هذا هو فی الواقع إحدی المواد فی «المیثاق الاسلامی لحقوق الإنسان» التی یتساوی تجاهها کل أفراد البشر.

و الجدیر بالذکر أنّ الأمانة المذکورة فی سبب النزول لم تکن مجرد أمانة مادیة، و من جانب آخر کان صاحبها المؤدی إلیه تلک الأمانة مشرکا.

ثمّ إنّه سبحانه یشیر- فی القسم الثّانی من الآیة- إلی قانون مهم آخر، و هو مسألة «العدالة فی الحکومة» فیقول: وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ أی إنّ اللّه یوصیکم أیضا أن تلتزموا جانب العدالة فی القضاء و الحکم بین الناس، فتحکموا بعدل.

ثمّ قال سبحانه تأکیدا لهذین التعلیمین: إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ

ثمّ یقول مؤکدا ذلک أیضا: إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً فهو یراقب أعمالکم و هو یسمع أحادیثکم و یری أفعالکم.

إنّ هذا القانون هو الآخر قانون کلّی و عام، و یشمل کل نوع من القضاء و الحکومة، سواء فی الأمور الکبیرة و الأمور الصغیرة، إلی درجة أنّنا نقرأ فی الأحادیث الإسلامیة

أنّ صبیین ترافعا إلی الإمام الحسن بن علی فی خط کتباه و حکماه فی ذلک لیحکم أیّ الخطین أجود، فبصر به علیّ علیه السّلام فقال: «یا بنی انظر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۲

کیف تحکم فإن هذا حکم و اللّه سائلک عنه یوم القیامهٔ»[۱۳۹].

إنّ هـذین القانونین المهمّین (حفظ الأمانـهٔ، و العدالهٔ فی الحکم و الحکومهٔ) یمثلان قاعدهٔ المجتمع الإنسانی السـلیم، و لا یسـتقیم أمر مجتمع، سواء کان مادیا أو إلهیا من دون تنفیذ و إجراء هذین الأصلین.

فالأصـل الأـوّل یقول: إنّ الأـموال و الثروات و المناصب و المسؤولیات و المهام و الرسامیل الإنسانیـهٔ و الثقافات و التراث و المخلفات التاریخیهٔ، کلها أمانات إلهیهٔ سلمت بأیدی أشخاص مختلفین فی المجتمع، و الجمیع مکلّفون أن یحفظوا هذه الأمانات، و یجتهدوا فی تسلیمها إلی أصحابها الأصلیین، و لا یخونوا فیها أبدا.

و من جهـهٔ أخری حیث إنّ الاجتماعـات تلاـزم التصادمات و الاحتکاکات فی المصالـح و المنافع، و لهـذا یتطلب الحل و الفصل علی أساس من الحکومهٔ العادلهٔ و القضاء العادل حتی یزول و ینمحی کل أنواع التمییز الظالم من الحیاهٔ الاجتماعیهٔ.

و کمـا أسـلفنا فإنّ الأمانـهٔ لا تنحصـر فی الأموال التی یودعها الناس- بعضـهم عنـد بعض- بل العلماء فی المجتمع هم أیضا مسـتأمنون یجب علیهم أن لاـ یکتموا الحقـائق، بـل حتی أبنـاء الإنسـان و أولاده أمانات إلهیـهٔ لـدی الآباء و الأمهات فلا یفرطوا فی تربیتهم، و لا یقصـروا فی تـأدیبهم و تعلیمهم، و إلّا کان ذلک خیانـهٔ فی الأمانـهٔ الإلهیـهٔ التی أمر اللّه بأدائها، بل و فوق ذلک کلّه الوجود الإنسانی، فهو و جمیع الطاقات المودوعهٔ فیه «أمانات اللّه» التی یجب علی الإنسان أن یجتهد فی المحافظهٔ علیها، کما علیه أن یحافظ علی صـحّهٔ جسـمه و سـلامهٔ روحه، و یحافظ علی طاقـهٔ الشـباب الفیاضـهٔ، و فکره، و لاـ یفرط فیها، و لهـذا لا یجوز له أن ینتحر أو یلحق الضـرر بنفسه، حتی أنّه یستفاد من بعض الأحادیث و النصوص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۳

الإسلامیهٔ إنّ علوم الإمامهٔ و أسرارها و ودائعها التی یسلمها کل إمام إلی الإمام الذی بعده داخلهٔ فی هذه الآیهٔ أیضا[۱۴۰].

و الجـدیر بالـذکر، إنّ مسألـهٔ «أداء الأمانـهٔ» قـدمت فی هـذه الآیهٔ علی مسألهٔ «العدالهٔ» و لعلّ ذلک لأجل أنّ مسألهٔ العدل فی القضاء و الحکم مترتبـهٔ دائما علی الخیانـهٔ، لأنّ الأصل هو أن أمناء بالأصالهٔ، فإذا انحرف شـخص أو أشـخاص عن هذا الأصل وصل الدور إلی العدالهٔ لتوقّفهم علی مسئولیاتهم و تعرفهم بوظائفهم.

أهمیّهٔ الأمانهٔ و العدل فی الإسلام:

لقـد ورد تأکیـد کبیر علی هـذه المسألـهٔ فی المصادر الإسـلامیهٔ إلی درجـهٔ أنّنا قلّما نجد مثله فی مورد غیره من الأحکام و المسائل، و الأحادیث القصیرهٔ التالیهٔ توضیح هذه الحقیقهٔ:

-۱

عن الإمام الصّادق علیه السّـلام أنّه قال: «لا تنظروا إلی طول رکوع الرجل و سجوده فإن ذلک شیء اعتاده فلو ترکه استوحش، و لکن انظروا إلی صدق حدیثه و أداء أمانته»[۱۴۱].

-۲

جـاء فی حـدیث آخر عن الإمـام الصّـادق علیه السّـلام أنّه قال: «إن علیّا إنّما بلغ ما بلغ به عنـد رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بصدق الحدیث و أداء الأمانهٔ»[۱۴۲].

-۳

روی فی حـدیث آخر عن الإمـام الصّـادق علیه السّـلام أیضـا قـال لأحـد أصـحابه: «أعلم أن ضارب علی بالسـیف و قاتله لو ائتمننی و

استنصحنی و استشارنی ثمّ قبلت ذلک منه لأدیت إلیه الأمانة»[۱۴۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۴

۴- و

فی روایات مرویة فی مصادر الشیعة و السنة عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نلاحظ هذا الحدیث السّاطع: «آیة المنافق ثلاث: إذا حدّث کذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان»[۱۴۴].

۵-

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی علیه السّلام: «سوی بین أخصمین فی لحظک و لفظک»[۱۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۵

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۵۹]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِی شَیْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَی اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلًا (۵۹)

التّفسیر

اشارة

هذه الآیة و بعض الآیات اللاحقة تبحث عن واحدة من أهم المسائل الإسلامیة، ألا و هی مسألة القیادة، و تعیین القادة و المراجع الحقیقیین للمسلمین فی مختلف المسائل الدینیة و الاجتماعیة.

فهی تأمر المؤمنین- أوّلا- بأن یطیعوا اللّه، و من البدیهی أنّه یجب أن تنتهی جمیع الطاعات- عند الفرد المؤمن- إلی طاعة اللّه سبحانه، و کل قیادة و ولایة یجب أن تنبع من ولایة اللّه سبحانه و ذاته المقدسة تعالی و تکون حسب أمره و مشیئته، لأنّه الحاکم و المالک التکوینی لهذا العالم، و کلّ حاکمیة و مالکیة یجب أن تکون بإذنه و بأمره: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ

و فی المرحلة الثّانیة تأمر باتّباع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إطاعته، و هو النّبی المعصوم الذی لا ینطق عن الهوی و لا ینطلق من الهوس، و النّبی الذی هو خلیفة اللّه بین الناس، و کلامه کلام اللّه، و قد أعطی هذا المقام من جانب اللّه سبحانه، و لهذا تکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۶

إطاعة اللّه ممّا تقتضیه خالقیته و حاکمیة ذاته المقدسة، و لکن إطاعة النّبی و اتّباع أمره ناشئ من أمر اللّه. و بعبارة أخری فإنّ اللّه واجب الإطاعة بالذات و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم واجب الإطاعة بالعرض، و لعل تکرار «أطیعوا» فی هذه الآیة للإشارة إلی مثل هذا الفرق بین الطاعتین وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ

و فی المرحلة الثانیة یأمر سبحانه بإطاعة أولی الأمر القائمین من صلب المجتمع الإسلامی، و الذین یحفظون للناس أمر دینهم و دنیاهم.

من هم أولوا الأمر؟

ثمّة كلام كثير بين المفسّرين فى المقصود من أولى الأمر فى هذه الآية، و يمكن تلخيص أوجه النظر فى هذا المجال فى ما يلى:

۱- ذهب جماعة من مفسّرى أهل السنّة إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم الأمراء و الحكام فى كل زمان و مكان، و لم يستثن من هؤلاء أحدا، فتكون نتيجة هذا الرأى هى: إنّ على المسلمين أن يطيعوا كل حكومة و سلطة مهما كان شكلها حتى إذا كانت حكومة المغول، و دولتهم الجائرة.

۲- ذهب البعض من المفسّرين- مثل صاحب تفسير المنار و صاحب تفسير فى ظلال القرآن و آخرون- إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» ممثلو كافة طبقات الأمة، من الحكام و القادة و العلماء و أصحاب المناصب فى شتى مجالات حياة الناس، و لكن لا تجب طاعة هؤلاء بشكل مطلق و بدون قيد أو شرط، بل هى مشروطة بأن لا تكون على خلاف الأحكام و المقررات الإسلامية.

۳- ذهبت جماعة أخرى إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم القادة المعنويون و الفكريون، أى العلماء و المفكرون العدول العارفون بمحتويات الكتاب و السنة معرفة كاملة.

۴- و ذهب بعض مفسّرى أهل السنة إلى أنّ المراد من هذه الكلمة هم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۷

«الخلفاء الأربعة» الذين شغلوا دست الخلافة بعد رسول اللّه خاصّة و لا تشمل غيرهم، و على هذا لا يكون لأولى الأمر أى وجود خارجى فى الأعصر الاخرى.

۵- يفسر بعض المفسّرين «أولى الأمر» بصحابة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۶- هناك احتمال آخر يقول- فى تفسير أولى الأمر- إنّ المراد منه هم القادة العسكريون المسلمون، و أمراء الجيش و السرايا.

۷- ذهب كلّ مفسّرى الشيعة بالاتفاق إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم الأئمّة المعصومون عليهم السّلام الذين أنيطت إليهم قيادة الأمة الإسلامية المادية و المعنوية فى جميع حقول الحياة من جانب اللّه سبحانه و النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لا تشمل غيرهم، اللّهم إلّا الذى يتقلد منصبا من قبلهم، و يتولى أمرا فى إدارة المجتمع الإسلامى من جانبهم- فإنّه يجب طاعته أيضا إذا توفرت فيه شروط معينة، و لا تجب طاعته لكونه من أولى الأمر، بل لكونه نائبا لأولى الأمر و وكيلا من قبلهم.

و الآن لنستعرض التفاسير المذكورة أعلاه باختصار:

لا شك أنّ التّفسير الأوّل لا يناسب مفهوم الآية و روح التعاليم الإسلامية بحال، إذ لا يمكن أن تقترن طاعة كل حكومة- مهما كانت طبيعتها- و من دون قيد أو شرط بإطاعته اللّه و النّبى، و لهذا تصدى كبار علماء السنة لنفى هذا الرأى و التّفسير مضافا إلى علماء الشيعة.

و كذا التّفسير الثّانى: فإنّه لا يناسب إطلاق الآية الشريفة، لأنّ الآية توجب إطاعة أولى الأمر من دون قيد أو شرط.

و هكذا التّفسير الثّالث، يعنى تفسير «أولى الأمر» بالعلماء و العدول و العارفين بالكتاب و السنة، فهو لا يناسب إطلاق الآية، لأنّ لإطاعة العلماء و إتباعهم شروطا من جملتها أن لا يكون كلامهم على خلاف الكتاب و السنة، و على هذا لو ارتكبوا خطأ (لكونهم عرضة للخطأ و غير معصومين) أو انحرفوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۸

عن جادة الحقّ لأى سبب آخر لم تجب طاعتهم، فى حين توجب الآية الحاضرة إطاعة أولى الأمر بنحو مطلق كإطاعة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، هذا مضافا إلى أنّ إطاعة العلماء إنّما هى فى الأحكام التى يستفيدونها من الكتاب و السنة، و على هذا لا تكون إطاعتهم شيئا غير إطاعة اللّه و إطاعة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلا حاجة إلى ذكرها بصورة مستقلة.

و أمّا التّفسير الرّابع (و هو حصر عنوان أولى الأمر بالخلفاء الأربعة الأوائل) فمؤداه عدم وجود مصداق لأولى الأمر بين المسلمين فى

هذا الزمان هذا مضافا إلی عدم وجود دلیل علی مثل هذا التخصیص.

و التّفسیر الخامس و السّادس: یعنیان تخصیص هذا العنوان بالصحابة أو القادة العسکریین المسلمین، و یرد علیها نفس الإشکال الوارد علی التّفسیر الرّابع، یعنی أنّه لا یوجد أی دلیل علی مثل هذا التخصیص أیضا.

و قد أراد جماعة من مفسّری السنة مثل «محمّد عبده» العالم المصری المعروف- تبعا لبعض ما قاله المفسّر المعروف الفخر الرازی- أن یقبل بالاحتمال الثّانی (القاضی بأنّ أولی الأمر هم ممثلو مختلف طبقات المجتمع الإسلامی من العلماء و الحکام و غیر هؤلاء من طبقات و فئات المجتمع الإسلامی) مشروطا ببعض الشروط و مقیدا ببعض القیود، مثل أن یکونوا مسلمین (کما یستفاد من کلمة «منکم» فی الآیة) و أن لا یکون حکمهم علی خلاف الکتاب و السنة، و أن یحکموا عن اختیار لا جبر و لا قهر، و أن یحکموا وفق مصالح المسلمین، و أن یتحدثوا فی مسائل یحقّ لهم التدخل فیها (لا مثل العبادات التی لها قوانین و أحکام ثابتة فی الإسلام) و أن لا یکون قد ورد فی الحکم الذی أصدروه نص خاص من الشرع، و أن یکونوا- فوق کل هذا- متفقین فی الرأی و الحکم.

و حیث إنّ هؤلاء یعتقدون أن مجموع الأمّة أو مجموع ممثلیها لا تخطأ و لا تجتمع علی خطأ،- و بعبارة أخری- أن مجموع الأمّة معصومة (أو أنّ الأمّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۹

بوصفها معصومة) تکون نتیجة هذه الشروط وجوب إطاعة مثل هذا الحکم بشکل مطلق و من دون قید أو شرط تماما مثل إطاعة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (و مؤدی هذا الکلام هو حجّیّة الإجماع). و لکن ترد علی هذا التّفسیر أیضا إشکالات و اعتراضات عدیدة و هی:

أوّلا: إنّ الاتفاق فی الرأی فی المسائل الاجتماعیة قلّما یتفق و قلّما یتحقق، و علی هذا فإن هذا الرأی یستلزم وجود حالة من الفوضی و الانتظام فی أغلب شؤون المسلمین و بصورة دائمة.

و أمّا إذا أراد هؤلاء قبول رأی الأکثریة فیرد علیه: إنّ الأکثریة لا تکون معصومة أبدا، و لهذا لا تجب إطاعتها بنحو مطلق.

ثانیا: لقد ثبت فی علم الأصول، أنّه لیس هناک أی دلیل علی عصمة مجموع الأمّة من دون وجود الإمام المعصوم بینهم.

ثالثا: إنّ أحد الشرائط التی یذکرها أنصار هذا التّفسیر هو أن لا یکون حکم هؤلاء «أی أولوا الأمر» علی خلاف الکتاب و السنة، فیجب حینئذ أن نری من الذی یشخّص أن هذا الحکم مخالف للکتاب و السنة أو لا، لا شک أن ذلک من مسئولیة المجتهدین و الفقهاء العارفین بالکتاب و السنة، و یعنی هذا إنّ إطاعة أولی الأمر لا یجوز بدون إجازة المجتهدین و العلماء، بل تلزم أن تکون إطاعة العلماء أعلی من إطاعة أولی الأمر، و هذا لا یناسب و لا یوافق ظاهر الآیة الشریفة.

صحیح أن هؤلاء اعتبروا العلماء جزء من أولی الأمر «و لکن الحقیقة أن العلماء و المجتهدین- وفق هذا التّفسیر- اعترف بهم علی أنّهم المراقبون و المراجع العلیا من بقیة ممثلی مختلف فئات الأمّة، لا أنّهم فی مستوی بقیة الممثلین المذکورین، لأنّ علی العلماء و الفقهاء أن یشرفوا علی أعمال الآخرین و یشخصوا موافقتها للکتاب و السنة، و بهذا یکون العلماء مراجع علیا لهم، و هذا لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۰

یناسب التّفسیر المذکور و لا یوافقه.

و علی هذا الأساس یواجه التّفسیر الحاضر (أی الثّانی) إشکالات و مآخذ من وجهات عدیدة.

فیبقی تفسیر واحد سلیما من جمیع الاعتراضات السابقة و هو التّفسیر السّابع: (و هو تفسیر أولی الأمر بالأئمّة المعصومین علیهم السّلام لموافقة هذا التّفسیر لإطلاق وجوب الإطاعة المستفاد من الآیة المبحوثة هنا، لأن مقام «العصمة» یحفظ الإمام من کلّ معصیة و یصونه عن کل خطأ، و بهذا الطریق یکون أمره- مثل أمر الرّسول- واجب الإطاعة من دون قید أو شرط، و ینبغی أن یوضع فی مستوی إطاعته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل و إلی درجة أنها تعطف علی إطاعة الرّسول من دون تکرار «أطیعوا».

و الجدير بالانتباه إلى أنّ بعض العلماء المعروفين من أهل السنة، و منهم المفسر المعروف الفخر الرازى اعترف بهذه الحقيقة فى مطلع حديثه عند تفسير هذه الآية حيث قال: «إنّ اللّه تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم فى هذه الآية، و من أمر اللّه بإطاعته على سبيل الجزم و القطع لا- بدّ أن يكون معصوما عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوما عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ قد أمر اللّه بمتابعته، فيكون ذلك أمرا بفعل ذلك الخطأ، و الخطأ لكونه خطأ منهيّ عنه، فهذا يفضى إلى اجتماع الأمر و النهى فى الفعل الواحد، فثبت أن اللّه تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم، و ثبت إن كل من أمر اللّه بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوما عن الخطأ».

و أضاف قائلا: «ذلك المعصوم إمّا مجموع الأمّة أو بعض الأمّة، و لا يجوز أن يكون بعض الأمّة لأن إيجاب طاعتهم قطعا مشروط بكوننا عارفين بهم، و نحن عاجزون عن الوصول إليهم، و إذا كان الأمر كذلك علمنا أنّ المعصوم الذى أمر اللّه المؤمنين بطاعته ليس بعضا من أبعاض الأمّة، و لمّا بطل هذا وجب أن يكون ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۱

المعصوم الذى هو المراد بقوله: «و أولى الأمر» هم أهل الحل و العقد و من الأمّة (أى الأمّة كلها و ذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمّة حجّة)[۱۴۶].

و هكذا نرى الفخر الرازى مع ما نعهد منه من كثيرة الإشكال فى مختلف المسائل العلمية، قد قبل دلالة هذه الآية على أنّ أولى الأمر يجب أن يكونوا معصومين، غاية ما فى الأمر حيث أنّه لم يكن عارفا بمذهب أهل البيت النبوى عليهم السّلام و أئمّة هذا المذهب تجاهل احتمال أن يكون «أولى الأمر» أشخاصا معنيين من الامة، فاضطر إلى تفسير «أولى الأمر» بمجموع الامّة (أو ممثلى عموم فئات الامّة)، فى حين أن هذا الاحتمال لا يمكن القبول به، لأن أولى الأمر- كما قلنا فى ما سبق- يجب أن يكونوا قادة المجتمع الإسلامى، و تتمّ الحكومة الإسلامية و الحكم بين المسلمين بهم، و نعلم أنه لا يمكن لا فى الحكومة الجماعية (المتألفة من مجموعة الأمّة) بل و لا- من ممثلى فئاتها أن يتحقق اجتماع و اتفاق فى الرأى مطلقا، لأنّ الحصول على إجماع من جانب الامّة جميعا أو من جانب ممثليها فى مختلف المسائل الاجتماعية و السياسية و الثقافية و الخلقية و الاقتصادية، لا يتيسر و لا يتحقق فى الأغلب، كما أنّ إتّباع الأكثرية- كذلك- لا يعد اتّباعا لأولى الأمر، و لهذا يلزم من كلام الرازى و من تبعه من العلماء المعاصرين أن تتعطل مسألة إطاعة «أولى الأمر»، أو تصير مسألة نادرة و استثنائية جدا ....

و من كل ما قلناه نستنتج أنّ الآية الشريفة تثبت قيادة و ولاية الأئمّة المعصومين الذين يشكلون نخبة من الامّة الإسلامية (تأمل).

أجوبة على أسئلة:

ثمّ إنّ هناك اعتراضات و مآخذ على هذا التّفسير (السّابع) يجدر طرحها هنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۲

بتجرّد و موضوعية:

۱- إذا كان المراد من «أولى الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فإنّ ذلك لا يناسب مع كلمة «أولى» التى هى بصيغة الجمع، لأنّ الإمام المعصوم فى كل عصر، شخص واحد لا أكثر.

و الجواب على هذا السؤال: أنّ الإمام المعصوم و إن كان فى كل عصر شخصا واحدا لا أكثر، إلّا أنّ الأئمة المتعددين فى الأعصر المختلفة يشكلون جماعة، و نحن نعلم أنّ الآية لا تحدد وظيفة الناس فى عصر واحد.

۲- إنّ أولى الأمر- بهذا المعنى- لم يكونوا فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكيف أمر القرآن الكريم بإطاعتهم؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح أيضا من الكلام السابق، لأنّ الآية لا تنحصر (أو لا تعنى) زمانا خاصا، بل توضح و تبيّن وظيفة المسلمين و واجبهم فی جميع العصور و القرون.

و بعبارة أخرى، يمكن أن نقول أن أولى الأمر فی زمان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان شخص النّبى بالذات، لأن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان له منصبان منصب «الرسالة» الذى أشير إليه فی الآية المذكورة تحت عنوان أَطِيعُوا الرَّسُولَ و الآخر منصب «قيادة الأمّة الإسلامية» الذى ذكره القرآن الكريم تحت عنوان أُولِي الْأَمْرِ.

و على هذا يكون القائد و ولى الأمر المعصوم فی عهد النّبى هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهو مضافا إلى ما له من منصب الرسالة و إبلاغ الأحكام الإسلامية، له منصب قيادة الأمّة و ولاية أمرها، و لعل عدم تكرار جملة (و أطيعوا) بين (الرّسول) و «أولى الأمر» لا يخلو عن الإشارة إلى هذه النقطة.

و بعبارة أخرى إن منصب «الرسالة» و منصب «أولى الأمر» منصبان مختلفان اجتمعا فی شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن المنصب الثّانى فقط يتوفر فی كل إمام على حدة، فللإمام منصب اولى الأمر فقط.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۳

۳- إذا كان المقصود من «أولى الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فلما ذا أشار سبحانه فی ذيل الآية إلى مسألة التنازع و الاختلاف بين المسلمين إذ قال: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا فإنّنا لا نشاهد هنا أى حديث عن «أولى الأمر» بل أشير إلى اللّه تعالى (كتاب اللّه- القرآن) و النّبى (السنة) كمرجع يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف و التنازع.

فی الإجابة على هذا الإشكال يجب أن نقول:

أوّلا: إنّ هذا الإشكال لا يختص بالتّفسير الشّيعى لهذه الآية، بل يردّ على بقية التفاسير أيضا، إذا أمعنا النظر قليلا.

و ثانيا: لا شك أنّ المراد من الاختلاف و التنازع فی العبارة الحاضرة هو الاختلاف و التنازع فی الأحكام، لا فی المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة و القيادة الإسلامية، لأنّه فی هذه المسائل يجب إطاعة أولى الأمر (كما صرّح بذلك فی الجملة الأولى من الآية المبحوثة هنا).

و على هذا فالمراد من الاختلاف هو الاختلاف فی الأحكام و القوانين الكلية الإسلامية التى يعود أمر تشريعها إلى اللّه سبحانه و نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّنا نعلم أنّ الإمام مجرّد منفذ للأحكام الإلهية و ليس مشرعا، و لا ناسخا لشىء من تلك الأحكام، و إنّما عليه فقط أن يطبق الأحكام و الأوامر الإلهية و السنة النّبوية فی حياة الأمة، و لهذا جاء فی أحاديث أهل البيت عليهم السّلام إنّهم قالوا: «إذا بلغكم عنّا ما يخالف كتاب اللّه و سنة نبيّه فاضربوه عرض الحائط و لا تقبلوه» أى يستحيل أن نقول ما يخالف كتاب اللّه و سنة نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و على هذا فإنّ أوّل مرجع يرجع إليه المسلمون لحل خلافاتهم فی الأحكام الإسلامية هو اللّه سبحانه و النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يوحى إليه، و إذا ما بيّن الأئمّة المعصومون أحكاما، فإنّ تلك الأحكام ليست سوى اقتباس من كتاب اللّه، أو هى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۴

من العلوم التى وصلت إليهم من النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بهذا تتّضح علّة عدم ذكر أولى الأمر إلى جانب المرجع فی حلّ الاختلاف فی الأحكام المذكورة فی هذا الجزء من الآية[۱۴۷].

شهادة الأحاديث:

هذا و قد وردت فی المصادر الإسلامیة أیضا أحادیث تؤید تفسیر «أولی الأمر» بأئمّة أهل البیت علیهم السّلام منها:

۱- ما کتبه المفسّر الإسلامی المعروف أبو حیان الأندلسی المغربی (المتوفی عام ۷۵۶) فی تفسیره البحر المحیط: من أنّ هذه الآیة نزلت فی حقّ علی علیه السّلام و أهل بیته ۱۴۸].

۲- روی العالم السنی أبو بکر بن مؤمن الشیرازی فی رسالة الإعتقاد (حسب نقل الکاشی فی المناقب) عن ابن عباس أنّ الآیة الحاضرة نزلت فی علی علیه السّلام عند ما خلفه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المدینة (فی غزوة تبوک)

فقال علی علیه السّلام: یا رسول اللّه تخلفنی مع النساء و الصبیان؟ فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«أما ترضی أن تکون منی بمنزلة هارون من موسی حین قال أخلفنی فی قومی و أصلح فقال عز و جل: وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ ۱۴۹].

۳- و

روی الشیخ سلیمان الحنفی القندوزی و هو من أعلام أهل السنة المشهورین فی کتابه «ینابیع المودة» من کتاب «المناقب» عن «سلیم بن قیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۵

الهلالی» قال سمعت علیا صلوات اللّه علیه یقول: أتاه رجل فقال أرنی أدنی ما یکون به العبد مؤمنا، و أدنی ما یکون به العبد کافرا، و أدنی ما یکون به العبد ضالا فقال: قد سألت فافهم الجواب ... و أمّا أدنی ما یکون العبد به ضالا أن لا یعرف حجة اللّه تبارک و تعالی و شاهده علی عباده الذی أمر اللّه عزّ و جلّ عباده بطاعته و فرض ولایته. قلت: یا أمیر المؤمنین. صفهم لی. قال: الذین قرنهم اللّه تعالی:

بنفسه و بنبیّه فقال: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ

فقلت له: جعلنی اللّه فداک أوضح لی؟ فقال: الذین قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مواضع و فی آخر خطبة یوم قبضه اللّه عز و جل إلیه: «إنّی ترکت فیکم أمرین لن تضلوا بعدی إن تمسکتم بهما: کتاب اللّه عز و جل و عترتی أهل بیتی»[۱۵۰].

۴- و کذلک کتب نفس العالم فی کتاب «ینابیع المودة»: و فی المناقب فی تفسیر مجاهد: إنّ هذه الآیة نزلت فی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام ۱۵۱].

۵- رویت أحادیث کثیرة فی مصادر الشیعة مثل کتاب الکافی و تفسیر العیاشی و کتب الصدوق و مصنفاته و غیرها تشهد جمیعها بأنّ المراد من «أولی الأمر» هم الأئمّة المعصومون، حتی أن بعضها ذکرت أسماء الأئمّة علیهم السّلام واحدا واحدا[۱۵۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۶

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۶۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ یُرِیدُونَ أَنْ یَتَحاکَمُوا إِلَی الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ یَکْفُرُوا بِهِ وَ یُرِیدُ الشَّیْطانُ أَنْ یُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِیداً (۶۰)

سبب النّزول

کان بین رجل من الیهود و رجل من المسلمین المنافقین خصومة و اختلاف، فعزما علی أن یحتکما إلی شخص، و حیث کان الیهودی

یعرف بعدل النّبی و حیاده و لأنّه علم أنّه لا یأخذ الرّشوة و لا یجور فی الحکم قال: أحاکم إلی محمّد، و لکن المنافق قال: لا، بل بینی و بینک کعب بن الأشرف، (لأنّه یأخذ الرّشوة و هو من أقطاب الیهود)، و بذلک رفض التحاکم إلی رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فنزلت الآیة توبّخ أمثال هذا الشخص، و تشجب بشدّة موقفهم المشین هذا[۱۵۳].

و قد ذکر بعض المفسرین أسبابا أخری لنزول هذه الآیة تشهد بأنّ بعض المسلمین الحدیثی العهد بالإسلام کانوا- علی عادتهم فی الجاهلیة- یحتکمون- فی مطلع الإسلام- إلی علماء الیهود أو الکهنة، فنزلت الآیة الحاضرة تنهی عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۷

هذه العادة المقیتة بشدّة[۱۵۴].

التّفسیر

حکومة الطّاغوت:

الآیة الحاضرة- هی فی الواقع- مکملة للآیة السابقة، لأنّ الآیة السابقة کانت تدعو المؤمنین إلی طاعة اللّه و الرّسول و أولی الأمر، و التحاکم إلی الکتاب و السنة، و هذه الآیة تنهی عن التحاکم إلی الطاغوت و اتّباع أمره و حکمه.

و الطّاغوت- کما أشرنا إلی ذلک سابقا- مشتقّة من الطغیان، و هذه الکلمة مع جمیع مشتقاتها تعنی التجاوز و التعدی و کسر الحدود و تجاهل القیود، أو کل شیء یکون وسیلة للطغیان أو التمرّد.

و علی هذا الأساس یکون کل من یحکم بالباطل طاغوتا، لأنّه تجاوز حدود اللّه و تعدی علی قوانین الحقّ و العدل،

ففی الحدیث عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «الطّاغوت کلّ من یتحاکم إلیه ممن یحکم بغیر الحقّ».

و الآیة الحاضرة تنهی المسلمین عن أن یترافعوا فی الحکم و القضاء إلی مثل هؤلاء الحکام و تقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ یُرِیدُونَ أَنْ یَتَحاکَمُوا إِلَی الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ یَکْفُرُوا بِهِ

ثمّ یضیف القرآن قائلا: وَ یُرِیدُ الشَّیْطانُ أَنْ یُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِیداً أی أنّ التحاکم إلی الطاغوت فخّ الشیطان لیضل المؤمنین عن الصراط المستقیم.

و غیر خفی أن الآیة الحاضرة- شأنها شأن سائر الآیات القرآنیة الاخری- تتضمّن حکما عاما، و تبیّن قانونا خالدا لجمیع المسلمین فی جمیع العصور و الدهور. و تحذرهم من مراجعة الطواغیت، و طلب الحکم منهم، و إنّ ذلک لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۸

یناسب الإیمان باللّه و الکتب السماویة، هذا مضافا إلی کونه یضل الإنسان عن طریق الحقّ، و یلقیه فی مجاهیل الباطل بعیدا عن الحق.

إنّ مفاسد و تبعات مثل هذه الأقضیة و الأحکام، و أثرها فی تحطیم کیان المجتمع البشری و تخریب علاقاته و روابطه و أسسه ممّا لا یخفی علی أحد، فهی أحد العوامل المؤثرة فی انحطاط المجتمعات و تأخرها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۹

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۶۱ الی ۶۳]

اشارة

وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلی ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَی الرَّسُولِ رَأَیْتَ الْمُنافِقِینَ یَصُدُّونَ عَنْکَ صُدُوداً (۶۱) فَکَیْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِیبَةٌ بِما قَدَّمَتْ

أَیْدِیهِمْ ثُمَّ جاؤُکَ یَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْساناً وَ تَوْفِیقاً (۶۲) أُولئِکَ الَّذِینَ یَعْلَمُ اللَّهُ ما فِی قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِی أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِیغاً (۶۳)

التّفسیر

نتائج حکم الطّاغوت:

فی أعقاب النهی الشدید عن التحاکم إلی الطاغوت و حکام الجور الذی مرّ فی الآیة السابقة جاءت هذه الآیات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحکام و الأقضیة، و ما یتمسک به المنافقون لتبریر تحاکمهم إلی الطّواغیت و حکام الجور و الباطل.

ففی الآیة الأولی یقول سبحانه: وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلی ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَی الرَّسُولِ رَأَیْتَ الْمُنافِقِینَ یَصُدُّونَ عَنْکَ صُدُوداً.

و فی الحقیقة یقول القرآن فی هذه الآیة: إنّ التحاکم إلی الطاغوت لیس خطأ عابرا یمکن أن یعالج ببعض التذکیر، بل إنّ الإصرار علی هذا العمل یکشف عن ضعف إیمانهم و روح النفاق فیهم، و إلّا لوجب أن ینتبهوا و یثوبوا إلی رشدهم علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۰

دعوة رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهم و یعترفوا بخطئهم: وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلی ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَی الرَّسُولِ رَأَیْتَ الْمُنافِقِینَ یَصُدُّونَ عَنْکَ صُدُوداً.

ثمّ فی الآیة الثّانیة یبیّن هذه الحقیقة، و هی أن هؤلاء المنافقین عند ما یتورطون فی مصیبة کنتیجة لمواقفهم و أعمالهم، و یواجهون طریقا مسدودة یعودون إلیک عن اضطرار و یأس: فَکَیْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِیبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ ثُمَّ جاؤُکَ ....

و یحلفون فی هذه الحالة أنّ هدفهم من التحاکم إلی الآخرین لم یکن إلّا الإحسان و التوصل إلی الوفاق بین طرفی الدّعوی: یَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَ تَوْفِیقاً.

و هنا لا بدّ من الإشارة إلی نقطتین:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۳۰۰

ولی: أن نری ما هو المقصود من المصیبة التی تصیبهم؟

لا- یبعد أن تکون المصیبة هی ما ینشأ من مضاعفات و مآسی و ویلات من حکم الطواغیت، لأنّه لا شک فی أن الحکم الصادر من الأشخاص غیر الصالحین و الظالمین و إن کان ینطوی علی منفعة آنیة لأحد جانبی الدعوی، و لکن لا یمضی زمان إلّا و یوجب هذا الحکم ظهور الفساد و انتشار الظلم و الجور، و سیادة الهرج و المرج و تبعثر الکیان الاجتماعی، و لهذا فإنّه سرعان ما تواجه هؤلاء المتحاکمین إلی الطواغیت تبعات و مفاسد عملهم هذا، و سرعان ما یندمون علی فعلهم هذا.

هذا و یحتمل بعض المفسّرین أنّ المراد من «المصیبة» هو الفضیحة التی تلحق بالمنافقین، أو المصائب التی تصیبهم بأمر اللّه سبحانه (کالمآسی و المحن الغیر المتوقعة).

النّقطة الثّانیة: إنّ مقصود المنافقین من «الإحسان» هل هو الإحسان إلی طرفی الدعوی، أو إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ یمکن أن یکون مرادهم کلا الأمرین، فهم تذرعوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۱

بحجج مضحکة لتحاکمهم إلی الطاغوت و الرجوع إلی الأجانب، من جملتها أنّهم کانوا یقولون: إنّ التحاکم إلی الرّسول صلّی اللّه

علیه و آله و سلّم لا یناسب شأنه و لا یلیق بمقامه، لأنّ الغالب أن یحصل شجار و صیاح فی محضر القضاة و من جانب المتداعیین، و ذلک أمر لا یناسب شأن النّبی و لا یلیق بمکانته و محضره.

هذا مضافا إلی أنّ القضاء ینتهی دائما إلی الإضرار بأحد الطرفین، و لذلک فهو یثیر حفیظته و عداوته ضد القاضی و الحاکم، و کأنّهم بأمثال هذه الحجج الواهیة و الأعذار الموهونة، کانوا یحاولون تبرئة أنفسهم و تبریر مواقفهم الباطلة، و ادعاء أنّ تحاکمهم إلی غیر النّبی کان بهدف التخفیف عن النّبی.

و ربّما اعتذروا لذلک قائلین: إنّ هدفنا لم یکن مادیا فی الأساس، بل کان التوصل إلی وفاق بین المتداعیین.

و لکن کشف سبحانه فی الآیة الثّالثة النقاب عن وجههم، و أبطل هذه التبریرات الکاذبة و قال: أُولئِکَ الَّذِینَ یَعْلَمُ اللَّهُ ما فِی قُلُوبِهِمْ

و لکنّه سبحانه یأمر نبیّه مع ذلک أن ینصرف عن مجازاتهم و عقوبتهم فیقول:

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

و لقد کان رسول اللّه یداری المنافقین ما أمکنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنّه کان مأمورا بالتعامل معهم علی حسب ظواهرهم، فلم یکن یجازیهم إلّا فی بعض الموارد الاستثنائیة، لأنّهم کانوا بین صفوف المسلمین- فی الظاهر- فکانت مجازاتهم یمکن أن تحمل علی أنها نشأت من أغراض شخصیة.

ثمّ إنّه سبحانه یأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یعظهم، و أن ینفذ إلی قلوبهم بالقول البالغ، و العظة المؤثرة، یذکرهم بنتائج أعمالهم: وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِی أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِیغاً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۲

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۶۴]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِیُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً (۶۴)

التّفسیر

فی الآیات السابقة شجب القرآن الکریم التحاکم إلی حکّام الجور، و فی هذه الآیة یقول سبحانه مؤکدا:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِیُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ أی أنّنا بعثنا الأنبیاء لیطاعوا بإذن اللّه و أمره و لا یخالفهم أحد، لأنّهم کانوا رسل اللّه و سفراءه کما کانوا رؤساء الحکومة الإلهیة أیضا، و علی هذا یجب علی الناس أن یطیعوهم من جهة بیان أحکام اللّه و من جهة طریقة تطبیقها، و لا یکتفوا بمجرّد ادعاء الإیمان.

و من هذه العبارة یستفاد أنّ الهدف من إرسال الرسل و بعث الأنبیاء هو إطاعة جمیع الناس لهم، فإذا أساء بعض الناس استخدام حریتهم و لم یطیعوا الأنبیاء کان اللوم متوجها إلی أنفسهم لا إلی أحد. و بهذا تنفی الآیة الحاضرة عقیدة الجبریین الذین یقولون: الناس صنفان: صنف کلّف بالطاعة من البدء، و صنف کلّف بالمعصیة من البدء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۳

کما أنّه یستفاد من عبارة بِإِذْنِ اللَّهِ أن کل ما عند الأنبیاء من اللّه، أو بعبارة أخری: إن وجوب طاعتهم لیس بالذات، بل هی- أیضا- بأمر اللّه و من ناحیته.

ثمّ إنّه سبحانه يترك باب التوبة و الإنابة- عقيب تلك الآية- مفتوحا على العصاة و المذنبين، و على الذين يراجعون الطواغيت و يتحاكمون إليهم أو يرتكبون معصية بنحو من الأنحاء، و يقول: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً.

و الجدير بالتأمل و الانتباه إنّ القرآن يقول بدل: عصوا أمر اللّه و تحاكموا إلى الطاغوت: إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ و هو إشارة إلى أنّ فائدة الطاعة لأمر اللّه و أمر الرّسول تعود إليكم أنفسكم، و إن مخالفة ذلك نوع من الظلم توقعونه على أنفسكم، لأنّها تحطم حياتكم المادية، و توجب تخلفكم و انحطاطكم من الناحية المعنوية.

إنّ هذه الآية تجيب ضمنا على كل الذين يعتبرون التوسل برسول اللّه أو بالإمام نوعا من الشرك، لأنّ الآية تصرح بأن التوسل بالنّبى و الاستشفاع به إلى اللّه، و طلب الاستغفار منه لمغفرة المعاصى، مؤثر و موجب لقبول التوبة و شمول الرحمة الإلهية.

فلو كانت وساطة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعاؤه للعصاة المتوسلين به، و الاستشفاع به و طلب الاستغفار منه شركا، فكيف يمكن أن يأمر القرآن العصاة و المذنبين بمثل هذا الأمر؟

نعم، غاية ما فى الباب أنّ على العصاة و المذنبين أنفسهم أن يتوبوا هم و يرجعوا عن طريق الخطأ، ثمّ يستفيدوا- لقبول توبتهم- من استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و من البديهى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس من شأنه أن يغفر الذنوب، بل شأنه فى المقام أن يطلب من اللّه المغفرة خاصّة، و هذه الآية إجابة مفحمة للذين ينكرون مشروعية أو فائدة هذه الوساطات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۴

هذا و المفلت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يقل: استغفر لهم يا رسول اللّه، بل قال: وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ و هذا التعبير- لعلّه- إشارة إلى أن يستفيد النّبى من مقامه و مكانته و يستغفر للعصاة التائبين.

إنّ هذا الموضوع (أى تأثير استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للمؤمنين) ورد فى آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا مثل الآية (۱۹) من سورة محمّد و الآية (۵) من سورة المنافقون و الآية (۱۱۴) من سورة التوبة التى تشير إلى استغفار إبراهيم لأبيه (عمّه)، و الآيات الاخرى التى تنهى عن الاستغفار للمشركين، و مفهومها جواز الاستغفار للمؤمنين، كما يستفاد من بعض الروايات إن الملائكة تستغفر لجماعة من المؤمنين المذنبين عند اللّه (سورة غافر الآية ۷۷، و سورة الشورى الآية ۵).

و خلاصة القول، إنّ هناك آيات كثيرة تكشف عن هذه الحقيقة و هى إنّ الأنبياء، أو الملائكة، أو المؤمنين الصادقين الطيبين بامكانهم أن يستغفروا لبعض العصاة، و إن استغفارهم مؤثر عند اللّه، و هذا هو أحد معانى شفاعة النّبى أو الملائكة أو المؤمنين الطيبين للعصاة و الخاطئين، و لكن الشّفاعة كما قلنا تحتاج إلى أرضية و صلاحية و أهلية فى العصاة أنفسهم.

و العجيب أنّه يستفاد من بعض ما قاله جماعة من المفسّرين أنّهم أرادوا اعتبار استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- فى الآية الحاضرة- مرتبطا بالتجاوزات الواقعة فى شؤون النّبى خاصّة لا مطلق المعاصى و الذنوب، و كأنّهم أرادوا أن يقولوا: لو أنّ أحدا ظلم النّبى أو أساء إليه وجب استحلاله و استرضاؤه ليغفر اللّه تلك الإساءة و يتوب على ذلك التجاوز.

و لكن من الواضح البيّن أن إرجاع التحاكم إلى غير النّبى ليس ظلما شخصيا يهدف به شخص النّبى، بل هى مخالفة لمنصبه الإلهى الخاص (أو بعبارة أخرى) إنّها مخالفة للأمر الإلهى، و حتى إذا كان ذلك ظلما شخصيا موجها إلى شخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۵

النّبى- افتراضا- فإن القرآن لم يقصده و لم يركز عليه، بل ركز القرآن على هذا الموضوع و هو أن ذلك التحاكم مخالفة لأمر اللّه و تجاهل لإرادته.

هذا مضافا إلى أنّنا لو ظلمنا أحدا كفانا رضاه، فما الحاجة إلى طلب استغفاره، و دعائه للمسيء؟ بل و فوق ذلك كلّه، لو أننا فسّرنا

الآيـة بمثل هـذا التّفسـير- فرضا- فما الـذى نقوله فى تلك المجموعة الكبيرة من الآيات التى تشـير إلى اسـتغفار الأنبياء، و الملائكة و المؤمنين للعصاة و الخاطئين؟

فهل المقام فيها مقام الحقوق الشخصية أيضا؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۶۵]

اشارة

فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (۶۵)

سبب النّزول

وقع خصـام بين الزّبير بن العوام- و هو من المهـاجرين- و بين رجـل من الأنصـار على سـقى نخيلهمـا التى كانت متقاربـة فى المكان، فترافعا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و حيث أن نخيل الزبير كانت أعلى مكانا من نخيل الأنصارى،

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للزبير: «اسق ثمّ أرسل إلى جارك»

(و قـد كـانت هـذه هى العـادة فى البساتين المتجاورة آنـذاك) فغضب الأنصارى من حكم النّبى العادل هـذا، و قال: يا رسول اللّه لئن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انزعاجا من موقف الأنصارى و كلامه، فنزلت الآية الحاضرة تحذر المسلمين من مثل هذه المواقف.

و قـد ذكرت فى بعض التفاسـير أسـباب أخرى لنزول الآيـة تشابه- إلى درجـة كبيرة- ما ذكر فى سـبب النزول المتقـدم (راجع تفسـير التّبيان و الطّبرسى، و المنار).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۷

التّفسير

التّسليم أمام الحق:

الآية، و إن ذكر لها سبب نزولها خاص- و لكننا أسلفنا غير مرّة أن أسباب النزول الخاصّة لا تنافى عمومية مفهوم الآيات، و لهذا يمكن اعتبار هذه الآية تكميلا لما جاء من البحث فى الآيات السابقة.

و لقـد أقسم اللّه- فى هـذه الآيـة- بـأنّ الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيمانا واقعيا إلّا إذا تحاكموا إلى النّبى و قضائه، و لم يتحاكموا إلى غيره فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ

ثمّ يقـول سـبحانه: يجب عليهم، أن يتحـاكموا إليـك فقـط، و مضافـا إلى ذلـك ليرضـوا بمـا تحكمه، سواء كـان فى صـالحهم أو فى ضررهم و لا يشعروا بأى حرج فى نفوسهم فضلا عن أن لا يعترضوا، و بالتالى ليسلموا تسليما.

ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً:

و الانزعـاج النفسـى البـاطنى من الأحكـام التى ربّمـا تكون فى ضـرر الإنسـان، و إن كان فى الأغلب أمرا غير اختيارى، إلّا أنّه على أثر

التربيـة الخلقيـة المسـتمرة يمكن أن تحصل لـدى الإنسان روح التسـليم أمام الحق، و الخضوع للعدالة، خاصّة بملاحظة المكانة لواقعية النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلا ينزعج من أحكام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل و لا من أحكام العلماء الذين يخلفونه، و على كل فإن المسلمين الواقعيين مكلفون دائما بتنمية روح الخضوع للحق، و التسليم أمام العدل فى نفوسهم.

إن الآية الحاضرة تبيّن علائم الإيمان الواقعى الراسخ فى ثلاث مراحل:

۱- أن يتحاكموا إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم- و حكمه النابع من الحكم الإلهى- فى ما اختلفوا فيه، كبيرا كان أم صغيرا، لا إلى الطواغيت و حكام الجور و الباطل.

۲- أن لاـ يشـعروا بـأى انزعاج أو حرج فى نفوسـهم تجاه أحكام الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أقضـيته العادلـة التى هى- فى الحقيقة- نفس الأوامر الإلهية، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۸

يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

۳- أن يطبقوا تلك الأحكام- فى مرحلة تنفيذها- تطبيقا كاملا و يسلموا أمام الحق تسليما مطلقا.

و من الواضح أنّ القبول بأى دين و أحكامه فى ما إذا كانت فى مصـلحة الإنسان و كانت مناسبة لمنافعه و تطلعاته، لا يمكن أن يكون دليلاـ على إيمـانه بـذلك الـدين، بـل يثبت ذلك إذا كانت تلك الأحكام فى الاتجاه المتعاكس لمنافعه و تطلعاته ظاهرا، و إن كانت مطابقة للحق و العدل فى الواقع، فإذا قبل بمثل هذه الأحكام و سلم لها تسليما كاملا كان ذلك دليلا على إيمانه و رسوخ اعتقاده.

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية: «لو أن قوما عبدوا اللّه وحده لا شريك له و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و حجوا البيت و صاموا شـهر رمضان ثمّ قالوا لشـىء صنعه اللّه و صنع رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم صنع هكذا و كذا، و لو صنع خلاـف الـذى صـنع، أو وجـدوا ذلـك فى قلوبهم لكانوا بـذلك مشـركين، ثمّ تلا هـذه الآيـة (الحاضـرة) ثمّ قال عليه السّـلام: عليكم بالتسليم»[۱۵۵].

ثمّ أنّه يستفاد من الآية الحاضرة مطلبان مهمّان- ضمنا:

۱- إنّ الآية إحدى الأدلة على عصـمة النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ الأمر بالتسليم المطلق أمام جميع أحكامه و أوامره قولا و عملا، بل و التسـليم القلبى و الخضوع الباطنى له أيضا دليل واضح على أنّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لا يخطئ فى أحكامه و أقضيته و تعليماته، و لا يتعمد قول ما يخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ، كما هو معصوم عن الذنب أيضا.

۲- إنّ الآية الحاضـرة تبطل كلّ اجتهاد فى مقابل النص الوارد عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و تنفى شرعية كل رأى شخصى فى الموارد التى وصلت إلينا فيها أحكام صريحة من جانب اللّه تعالى و نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۹

و على هـذا الإسـاس فـإن ما نراه فى التاريـخ الإسـلامى من اجتهاد بعض الأشـخاص فى مقابل الأحكام الإلهيـة و النصوص النبويـة، و قولهم: قال النّبى كذا و نقول كذا، فليس أمامنا حياله إلّا أن نذعن بأنّهم عملوا على خلاف صريح هذه الآية، و خالفوا نصها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۰

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۶۶ الى ۶۸]

اشارة

وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ

أَشَدَّ تَثْبِيتاً (۶۶) وَ إِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (۶۷) وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۶۸)

التّفسير

تكميلا للبحث السابق حول أولئك الذين يشعرون بضيق و حرج تجاه أحكام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقضيته العادلة بعض الأحيان- يشير القرآن هنا إلى بعض التكاليف و الفرائض الثقيلة فى الأمم السالفة فيقول: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ

أى أنّنا لم نكلّفهم بأية فريضة شاقة لا تتحمل، و لو أنّنا كنّا نكلّفهم بمثل ما كلّفنا به الأمم السابقة (مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضهم البعض الآخر كفارة لما ارتكبوه من عبادة العجل، أو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟ إنّهم لم يتحملوا حكما بسيطا أصدره النّبى فى أمر سقى نخلات، و لم يسلموا لهذا القضاء العادل، فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمات العظيمة و المسؤوليات الجسيمة و يمروا بالاختبارات الصعبة بنجاح، فلو أنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۱

أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم (أى يقتل بعضهم بعضا) أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلّا قليل منهم.

إنّ مسألة «الاستعداد للقتل» تشبه- حسب قول بعض المفسّرين- مسألة «الخروج عن الوطن» من جهات عديدة، لأنّ البدن وطن الروح الإنسانية تماما كما أنّ الوطن مثل الجسم الإنسانى، فكما أنّ التغاضى عن ترك وطن الجسم أمر صعب، كذلك التغاضى عن الوطن الذى هو مسقط رأس الإنسان و محل ولادته و نشأته.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يقول: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أى لو أنّهم قبلوا نصائح النّبى و مواعظه لكان ذلك من مصلحتهم، و لكان سببا لتقوية أسس الإيمان عندهم.

و الملفت للنظر أنّ القرآن يعبّر- فى هذه الآية- عن الأحكام و الأوامر الإلهية بالموعظة، و هو إشارة إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست أمورا تصب فى مصلحة المشرّع (أى اللّه) أو تجر له نفعا، بل هى- فى الحقيقة- نصائح و مواعظ نافعة لكم، و لهذا يقول و دون تأخير: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أى تقوية لإيمانهم و ترسيخا لجذورها فى نفوسهم.

و لا بدّ أيضا أن ننتبه إلى هذه النقطة، و هى أنّ اللّه سبحانه يقول فى ختام هذه الآية وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أى كلّما اجتهد الإنسان فى السير فى سبيل طاعة اللّه و تنفيذ أوامره ازدادت استقامته و ازداد ثباته، و هذا يعنى أن إطاعة الأوامر الإلهية نوع من الرياضة الروحية التى تحصل للإنسان من تكرارها قوة و ثبات أكبر و استحكام أكثر، على غرار ما يحصل للجسم نتيجة تكرار الرياضات الجسمية و التمارين الرياضية البدنية، فيصل الإنسان- نتيجة ذلك- إلى مرحلة لا يمكن لأية قدرة أن تغلب قدرته أو تخدعه أو تزعزعه.

ثمّ إنّه سبحانه يبيّن- فى الآية الثّانية- الفائدة الثّالثة من فوائد التسليم لأوامر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۲

اللّه و طاعته إذ يقول: وَ إِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً أى إذا لأعطيناهم- مضافا إلى ما ذكرناه- أجرا من عندنا عظيما، لا يعرف منتهاه و لا يدرك مداه.

ثمّ فى آخر آية من هذه الآيات يشير سبحانه إلى رابع نتيجة إذ يقول:

وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً.

و من الواضح البيّن أنّ المراد من هذه «الهداية» ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد الطاف جديدة يمن بها اللّه سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب و الهداية الثانوية، فهو يشبه ما أشير إليه فى الآية (۱۷) من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً

و

قد روی أنّه عند ما نزل قوله: وَ لَوْ أَنَّا کَتَبْنا عَلَیْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ ...

قال رجل من المسلمین: و اللّه لو أمرنا لفعلنا فالحمد للّه الذی عافانا.

فلما بلغ هذا الکلام إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:

«إنّ من أمتی لرجالا الإیمان أثبت فی قلوبهم من الجبال الرواسی»[۱۵۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۳

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۶۹ الی ۷۰]

اشارة

وَ مَنْ یُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ وَ الصِّدِّیقِینَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِینَ وَ حَسُنَ أُولئِکَ رَفِیقاً (۶۹) ذلِکَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ عَلِیماً (۷۰)

سبب النّزول

کان أحد الصّحابة یدعی «ثوبان» شدید الحبّ لرسول اللّه قلیل الصبر عنه، فأتاه ذات یوم و قد تغیر لونه و نحل جسمه

فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا ثوبان ما غیر لونک؟

فقال: یا رسول اللّه ما من مرض و لا وجع غیر أنی إذا لم أراک اشتقت إلیک حتی ألقاک، ثمّ ذکرت الآخرة فأخاف أنّی لا أراک، و إنّی إن أدخلت الجنّة کنت فی منزلة أدنی من منزلتک، و إن لم أدخل الجنّة فذاک حتی لا أراک أبدا.

فنزلت الآیتان الحاضرتان تبشران أمثال هذا بأنّ المطیعین سیکونون مع النّبیین و من اختارهم اللّه و أنعم علیهم فی الجنّة.

ثمّ

أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «و الذی نفسی بیده لا یؤمنن عبد حتی أکون أحبّ إلیه من نفسه و أبویه و أهله و ولده و الناس أجمعین»

أی یکون مسلما لتعالیمی و أوامری، تسلیما کاملا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۴

التّفسیر

رفقاء الجنّة:

فی هذه الآیة یبیّن القرآن میزة أخری من میزات من یطیع أوامر اللّه تعالی و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و فی الحقیقة مکملة للمیزات التی جاء ذکرها فی الآیات السابقة، و هی صحبة الذین أتمّ اللّه نعمه علیهم و مرافقتهم: وَ مَنْ یُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ ....

و کما أسلفنا فی سورة الحمد فإنّ الذین أنعم اللّه علیهم هم الذین ساروا فی الطریق المستقیم و لم یرتکبوا أی خطأ، و لم یکن فیهم

أى انحراف.

ثمّ يشير- لدى توضيح هذه الجملة، و تحديد من أنعم اللّه عليهم- إلى أربع طوائف يشكلون فى الحقيقة الأركان الأربعة لهذا الموضوع و هم:

۱- الأنبياء: أى رسل اللّه تعالى الذين كانوا طليعة السائرين فى سبيل هداية الناس و دعوتهم إلى الصراط المستقيم مِنَ النَّبِيِّينَ

۲- الصّادقون: و هم الذين يصدقون فى القول و يصدقون إيمانهم بالعمل الصالح، و يثبتون أنّهم ليسوا مجرّد أدعياء الإيمان، بل مؤمنون بصدق بأوامر اللّه و تعاليمه وَ الصِّدِّيقِينَ

و من هذا التعبير يتّضح أنّه ليس بعد مقام النبوة أعلى من مقام الصدق، و الصدق هذا لا ينحصر فى الصدق فى القول فقط، بل هو الصدق فى الفعل و العمل ... الصدق فى الممارسات و المواقف، و هو لذلك يشمل الأمانة و الإخلاص أيضا، لأن الأمانة هى الصدق فى العمل كما أن الصدق أمانة فى القول، و فى المقام ليس هناك صفة بعد الكفر أقبح من الكذب و النفاق و الخيانة فى القول و العمل (و يجب الانتباه- هنا- إلى أن الصدّيق صيغة مبالغة و هى بمعنى الصادق كله، ظاهرا و باطنا).

و قد فسّر «الصدّيق» فى بعض الروايات و الأخبار بعلى عليه السّلام و الأئمّة من أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۵

البيت النّبوى عليهم السّلام، و هذا التّفسير كما قلنا فى ما سبق من باب بيان المصداق الأكمل و الأوضح لهذه الآيات، فلا تفيد الحصر و القصر.

۳- الشّهداء: الذين قتلوا فى سبيل اللّه و فى سبيل العقيدة الإلهية الطاهرة، أو الذين يشهدون على الناس و أعمالهم فى الآخرة وَ الشُّهَداءِ[۱۵۷].

۴- الصّالحون: و هم الذين بلغوا بأعمالهم الصالحة و المفيدة و باتّباع الأنبياء و أوامرهم إلى مراتب عالية و مقامات رفيعة وَ الصَّالِحِينَ

و لهذا فسّر «الصّالحون» فى رواياتنا و أحاديثنا، بالصفوة المختارة من أصحاب الأئمّة عليهم السّلام و هذا هو أيضا من باب بيان أظهر المصاديق و أوضحها كما أسلفنا فى تفسير الصديقين.

و النقطة الجديرة بالتذكير هنا هى أن ذكر هذه المراحل الأربع يمكن أن يكون إشارة إلى أنّه لا بدّ لبناء المجتمع الإنسانى الصالح و السليم من: أن يبدأ الأنبياء- و هم القادة و الهداة بحق الهداية، ثمّ يتبعهم المبلغون الصادقون بالقول و العمل، و هم الصادقون الذين يصدق عملهم قولهم و فعلهم دعواهم فينشروا الحقائق فى كل مكان، ثمّ بعد مرحلة البناء الفكرى و الاعتقادى هذه، يقوم جماعة فى وجه العناصر الفاسدة و من يريدون الوقوف فى طريق الحقّ، فيضحون بأنفسهم و يقدمون أجسادهم و حياتهم قرابين للحقّ و العدل، فيكون حاصل هذه الجهود و المساعى ظهور الصّالحين و استقرار المجتمع الطاهر السليم.

و من الواضح البيّن أنّ على الصالحين أيضا أن يقوموا بهذه الواجبات الثلاث أى عليهم أن يقودوا، و يبلغوا، و يضحوا لكى يبقوا على جذوة الحق متقدة، و على مشعل العدل مضيئا للأجيال اللاحقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۶

كما أنّه يستفاد من الآيات الحاضرة ضمنا هذه الحقيقة، و هى أنّ مسألة مرافقة الصالحين و صحبة الرفقاء الطيبين لها من الأهمية بحيث تعتبر فى الآخرة الجزء المكمل للنعم الإلهية الكبرى التى يمنّ اللّه بها على المطيعين فى الجنّة، فهم علاوة على كل ما يحصلون عليه من نعم و ميزات سيحظون بمرافقة رفقاء كالأنبياء و الصّديقين و الشّهداء و الصّالحين.

و لعلنا فى غنى عن التذكير بأن معاشرة المطيعين لهذه الطوائف الأربع ليس معناه أنّهم فى منزلتهم و رتبتهم، و إنّهم فى درجتهم من جميع الجهات، بل يعنى أن لكل واحد منهم- مع معاشرة بعضهم لبعض- سهما خاصا (يتناسب و مقامه) من المواهب و الألطاف الإلهية، فهم كأشجار بستان واحد و وروده و أعشابه، فهى مع كونها مجتمعة متجاوزة و مع أنّها تستفيد برمتها من ضوء الشمس و

المطر، و لکنها لیست متساویة فی حجم الاستفادة من تلک العناصر، کما أنّها لیست متساویة فی القیمة.

ثمّ یبیّن سبحانه فی الآیة اللاحقة أهمیة هذا الامتیاز الکبیر (أی مرافقة تلک الصفوة المختارة) إنّ هذه الهبة من جانب اللّه، و هو علیم بأحوال عباده و نوایاهم و مؤهلاتهم: ذلِکَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَ کَفی بِاللَّهِ عَلِیماً، فلا یخطئ فی الإثابة و الجزاء حیث أن «ذلک» إشارة إلی البعید لهذا یوحی فی هذه الموارد إلی أهمیة المقام و علوه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۷

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۷۱]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَکُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِیعاً (۷۱)

التّفسیر

الحذر الدّائم:

«الحذر» یعنی الیقظة و التأهب و الترقب لخطر محتمل، کما یعنی أحیانا الوسیلة التی یستعان بها لدفع الخطر.

أمّا کلمة «ثبات» فتفید معنی المجموعات المتفرقة، و مفردها «ثبة» من مادة «ثبی» أی جمع.

و القرآن یخاطب عامّة المسلمین فی الآیة المذکورة أعلاه، و یقدم لهم اثنتین من التعالیم اللازمة لصیانة وجود المسلمین و المجتمع الإسلامی تجاه کل خطر یهدد هذا الوجود.

ففی البدایة تأمر الآیة المؤمنین بالتمسک بالیقظة و البقاء فی حالة التأهب من أجل مواجهة العدو، و تحذرهم من الغفلة عن هذا الأمر: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَکُمْ ....

ثمّ تأمر الآیة بالاستفادة من الأسالیب و التکتیکات المختلفة فی مواجهة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۸

العدو، من ذلک الزحف علی شکل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو علی شکل جیش موحّد مترابط إن استدعت المواجهة هجوما شاملا منسجما، و فی کلتا الحالتین لا بدّ من المواجهة الجماعیة فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِیعاً.

ذهب بعض المفسّرین إلی أن معنی «الحذر» فی الآیة هو «السلاح» لا غیر، بینما للحذر معنی واسع لا یقتصر علی السلاح، ثمّ أن الآیة (۱۰۲) من هذه السورة تدل بوضوح علی أنّ الحذر غیر السلاح حیث یقول تعالی: ... أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَکُمْ وَ خُذُوا حِذْرَکُمْ ... و جواز وضع السلاح (فی الصلاة) مع أخذ الحذر یدل علی أنّ الحذر لا یعنی السلاح بالذات.

الآیة الکریمة هذه تشتمل علی أمر عام مطلق لجمیع المسلمین فی کلّ العصور و الأزمنة، و یدعو هذا الأمر المسلمین إلی الالتزام بالیقظة و الاستعداد الدائم لمواجهة أی طاریء من جانب الأعداء و لحمایة أمن الأمّة، و ذلک عن طریق التحلّی بالاستعداد المادی و المعنوی الدائمین.

و کلمة «الحذر» أیضا تستوعب بمعانیها الواسعة- کل أنواع الوسائل المادیة و المعنویة الدفاعیة التی یتحتم علی المسلمین اتباعها، من ذلک التعرف علی قدرة العدو من حیث العدّة و العدد، و أسالیبه الحربیة، و الإستراتیجیة، و مدی فاعلیة أسلحته، و کیفیة مواجهتها و الاحتماء من خطرها و خطر العدوّ نفسه، و بذلک یکون المسلمون قد أوفوا من حیث العمل بما یتطلبه منهم أمر «الحذر» من الاستعداد

و التأهب و اليقظة لمواجهة أى خطر طارىء.

و يشتمل أمر «الحذر» أيضا على الاستعداد النفسى و الثقافى و الاقتصادى، لتعبئة كافة الإمكانيات البشرية، و الاستفادة من أقوى أنواع الأسلحة و أكثرها تطورا فى الوقت المطلوب، و كذلك الإلمام بصور استخدام هذا السلاح و أساليبه، فإذا كان المسلمون يلتزمون بهذا الأمر و يطبقونه على حياتهم لاستطاعوا أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۹

يجنّبوا أنفسهم و أمّتهم الفشل و التقهقر و الهزيمة على مدى تاريخهم الملىء بالأحداث.

و الشىء الآخر الذى يفهم من هذه الآية الكريمة، هو اختلاف أساليب مواجهة العدو بحسب ما تقتضيه الضرورة، و يعينه الظرف، و يحدد موقع العدو- فلو كان هذا الموقع يتطلب مقابلة العدو بجماعات منفصلة، لوجب استخدام هذا الأسلوب مع كل ما يحتاج إليه من عدد و عدّة و غير ذلك، و قد يكون موقع العدو بصورة تقتضى مواجهة العدو فى هجوم عام ضمن مجموعة واحدة متماسكة، و عند هذا يجب أن يعدّ المسلمون العدّة اللازمة و العدد الكافى لمثل هذا الهجوم الشامل.

و من هنا يتّضح أنّ إصرار البعض على أن يكون للمسلمين أسلوب كفاحى واحد دون اختلاف فى التكتيك لا يقوم على منطق و لا تدعمه التجارب، إضافة إلى أنّه يتنافى مع روح التعاليم الإسلامية.

لعل الآية- أعلاه- تشير أيضا إلى أنّ المسألة الهامّة هى تحقيق الأهداف الواقعية سواء تطلب الأمر أن يسلك الجميع أسلوبا واحدا، أو أن ينهجوا أساليب متنوعة.

و يفهم من كلمة «جميعا» أنّها تعنى أنّ المسلمين كافّة مكلّفون بالمشاركة فى أمر مواجهة العدو، و لا يختص هذا الحكم بطائفة معينة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۰

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۷۲ الى ۷۳]

اشارة

وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (۷۲) وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۳)

التّفسير

بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد و الاستعداد لمقابلة العدوّ فى الآية السابقة تبيّن هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد، و تفضح تذبذبهم، فهم يصرّون على الامتناع عن المشاركة فى صفوف المجاهدين فى سبيل اللّه ...

وَ إِنَّ مِنْكُمْ ۱۵۸] لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ۱۵۹] ....

و حين يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معاركهم، فإن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۱

كان قد أصابهم مكروه فى قتالهم يتحدث المنافقون بابتهاج بأنّ اللّه قد أنعم عليهم نعمة كبيرة إذ لم يشاركوا المجاهدين فى ذلك القتال، و يفرحون لعدم حضورهم فى مشاهد الحرب الرهيبة فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ....

و حين تصل الأخبار بانتصار المسلمين المجاهدين و نيلهم المغانم، يتبدل موقف هؤلاء المنافقين فتبدو الحسرة عليهم و يظهر الندم على وجوههم، و يشرعون- و كأنّهم غرباء لا- تربطهم بالمسلمين أية رابطة- بترديد عبارات التأسف: وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ

لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ و بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً.

فی الآیة إشارة إلی المفهوم المادی للنصر فی نظر المنافقین، فالذی یری الشهادة و القتل فی سبیل اللّه مصیبة و بلاء، و یخال النجاة من القتل أو الشهادة فی هذه السبیل نعمة إلهیة، لا ینظر إلی النصر و الفوز إلّا من خلال منظار کسب الغنائم و المتاع المادی لا غیر.

هؤلاء المتلونون الموجودون- مع الأسف- فی کل المجتمعات، سرعان ما یغیرون أقنعتهم تجاه ما یواجهه المؤمنون من نصر أو هزیمة، هؤلاء لا یشارکون المؤمنین فی معاناتهم و لا یساعدونهم فی الملمات، لکنّهم یتوقعون أن یکون لهم فی الانتصارات السّهم الأوفی، و أن یحصلوا علی ما یحصل علیه المجاهدون المؤمنون من امتیازات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۲

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۷۴]

اشارة

فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۷۴)

التّفسیر

إعداد المؤمنین للجهاد:

بعد أن أوضحت الآیة السابقة إحجام المنافقین عن مشارکة المجاهدین فی القتال تتوجه الآیة (۷۴) و التی تلیها- بلغة مشجعة مشوقة- إلی المؤمنین فتدعوهم إلی الجهاد فی سبیل اللّه، و نزول هذه الآیات حین کان الإسلام مهددا من قبل مختلف الأعداء- سواء من الداخل أو الخارج- یدل علی أهمیتها فی تربیة الروح الجهادیة لدی المسلمین.

و توضح الآیة فی بدایتها أنّ أعباء الجهاد یجب أن تکون علی عاتق أولئک النفر الذین باعوا حیاتهم الدنیویة المادیة الزائلة، مقابل فوزهم بالحیاة الأخرویة الخالدة: فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ ... أی أن المجاهدون الحقیقیون هم وحدهم المستعدون للدخول فی هذه الصفقة، بعد أن انکشفت لهم دناءة الحیاة المادیة (و هو ما یفهم من لفظ الدنیا)، فهؤلاء أدرکوا أن هذه الحیاة لا قیمة لها تجاه الحیاة الأبدیة الخالدة، أمّا الذین یرون الأصالة فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۳

الحیاة المادیة الدنیئة، و یعتبرونها أرفع و أکبر من الأهداف الإلهیة المقدسة و الأهداف الإنسانیة السامیة، فلا یمکن أن یکونوا أبدا مجاهدین صالحین.

و تستمر الآیة مبینة أنّ مصیر المجاهدین الحقیقیین الذین باعوا الحیاة الدنیا بالآخرة واضح لا یخرج عن حالتین: إمّا النصر علی الأعداء، أو الشهادة فی سبیل اللّه، و هم فی کلتا الحالتین ینالون الأجر و الثواب العظیم من اللّه تعالی ... وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً و بدیهی أن جنودا کهؤلاء لا- یفهمون معنی الهزیمة، فهم یرون النصر إلی جانبهم فی الحالتین:

سواء تغلّبوا علی العدو، أو نالوا الشهادة فی سبیل اللّه، و مثل هذه المعنویات کفیلة بأن تمهد الطریق للانتصار علی العدو، و یعتبر التاریخ خیر شاهد علی أنّ هذه المعنویات هی العامل فی انتصار المسلمین علی أعداء فأقوهم عددا و عدّة.

و یؤکّد هذا الأمر حتی المفکرون من غیر المسلمین ممن کتبوا عن انتصارات المسلمین السریعة التی حققوها فی عصر الرّسول صلّی

اللّه عليه و آله و سلّم و فى العصور التاليـة، فهؤلاء المفكرون يرون أن منطق الفوز بإحـدى الحسـنيين أحد العوامل الحاسـمة فى تقدم المسلمين.

يقول مؤرخ غربى مشـهور فى كتاب له فى هذا المجال: إنّ المسـلمين لم يكونوا ليخافوا الموت فى سبيل دينهم الجديد، لما وعدوا به من هبات إلهيـة فى الآخرة، و أنّهم لم يعتقدوا بأصالة خلود هذه الحياة الدنيا، و لذلک فهم قد تنازلوا عن هذه الحياة فى سبيل العقيدة و الهدف ۱۶۰].

و الجـدير ذكره هنا هو أنّ هذه الآيـة- و آيات أخرى من القرآن الكريم- اعتبرت الجهاد أمرا مقدسا إذا كان فى سبيل اللّه، و من أجل إنقاذ البشـر، و إحياء مبادئ الحق و العدالـة و الطهارة و التقوى، على عكس الحروب التى تشن بهـدف التوسع و بـدافع من التعصب و التوحش و الاستعمار و الاستغلال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۵]

اشارة

وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (۷۵)

التّفسير

الاستعانة بالعواطف و المشاعر الإنسانية:

كانت الآيـة السابقـة تطالب المؤمنين بالجهاد معتمـدة على إيمانهم باللّه و اليوم الآخر، و قـد اعتمدت أيضا قضـية الربح و الخسارة فى سياق دعوتها إلى الجهاد، أمّا هذه الآية فتستند فى دعوتها الجهادية إلى العواطف و المشاعر الإنسانية و تستثيرها فى هذا الاتجاه- فهى تخـاطب مشـاعر المؤمنين و عواطفهم بعرض مـا يتحمله الرجـال و النساء و الأطفال المضـطهدون من عـذاب و ظلم بين مخالب الطغاة الجبارين، و تطالب المؤمنين- مسـتثيرة عواطفهم فى هذا الاتجاه- عن طريق عرض المشاهد المأساوية التى يعانى منها المستضـعفون و تدعوهم إلى الجهاد فى سبيل اللّه من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومين فتقول الآية: وَ ما لَكُمْ لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۵

تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ۱۶۱] مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ ....

و لأجـل إثـارة المشاعر أكثر، تنبه الآيـة المؤمنين بأنّ المستضـعفين المـذكورين لكثرة معاناتهم من البطش و الإرهاب و الاضـطهاد قد انقطع أملهم فى النجاة و يئسوا من كل عون خارجى، فأخذوا يدعون اللّه لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش و الرعب و الظلم الفاحش: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها و يطلب المستضـعفون من اللّه- أيضا- أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم و ينجيهم من الظالمين بقولهم:

وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً.

الآية- فى الواقع- نشير إلى أنّ اللّه قد استجاب دعاء المستضعفين، فهذه الرسالة الإنسانية الكبرى قد أوكلت إليكم أنتم أيّها المسلمون المخاطبون، فقد أصـبحتم أنتم «الولى» المرتقب و أنتم «النصـير» من قبل اللّه تعالى لإنقاذ المستضعفين، من هنا عليكم أن تنهضوا بهذه

المسؤولیهٔ و تستثمروا هذه المکانهٔ الکبری المناطهٔ إلیکم و لا تضیعوها.

و الآیهٔ هذه یستفاد منها أیضا عدّهٔ أمور، هی:

۱- إنّ الجهاد فی سبیل اللّه و کما أشیر إلیه من قبل- لیس من أجل انتزاع الأموال و السلطهٔ و الثروات من أیدی الآخرین، کما أنّه لا یستهدف إیجاد أسواق لاستهلاک البضائع أو لفرض عقائد خاصّهٔ بالقوّهٔ، بل أنه یستهدف نشر الفضیلهٔ و الإیمان و الدفاع عن المظلومین و المضطهدین من النساء و الرجال و الولدان، و من هذا المنطلق یتّضح أنّ للجهاد هدفین شاملین جامعین أشارت الآیهٔ إلیهما، أحدهما «ربّانی»، و آخر «إنسانی» یکمل أحدهما الآخر، و لا ینفصلان، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۶

کلاهما یعودان إلی حقیقهٔ واحدهٔ.

۲- إنّ الإسلام یری أن المحیط السالم الذی یمکن للإنسان أن یعیش فیه، هو ذلک المحیط الذی یوفّر الحریهٔ للإنسان، و یضمن له العمل بما یعتقد دون مانع أو أذی، و یری الإسلام- أیضا- أنّ المحیط الذی یسوده الکبت و الإرهاب و القمع، و لا یستطیع المسلم فیه إظهار عقیدته أو إعلان إسلامه، فهو محیط لا یجدر بالإنسان المسلم أن یبقی فیه، لذلک فإن الآیهٔ تنقل عن المؤمنین دعاءهم إلی اللّه لکی یخلصهم من مثل هذا الجو الملیء بالقمع و الإرهاب.

و علی الرغم من أن مکّهٔ کانت ملجأ و ملاذا للمهاجرین، فإنّ تفشی الظلم فیها جعل المؤمنین یدعون اللّه لإنقاذهم من ظلم أهل هذه المدینهٔ، و ییسر لهم سبیلا إلی الخروج منها.

۳- و فی نهایهٔ الآیهٔ نری أنّ المؤمنین الذین یعانون من محیطهم الظالم، یسألون اللّه أن یبعث لهم من یتولی شؤونهم، و أن یمدهم- أیضا- بمن ینصرهم علی الظالمین و یخلصهم من مخالبهم، و یفهم من هذه الآیهٔ أهمیهٔ القیادهٔ الصالحهٔ، و أهمیهٔ قدرهٔ هذه القیادهٔ فی إنقاذ المظلومین و ضرورهٔ امتلاکها من العدد و العدّهٔ ما یمکنها من القیام بمسؤولیتها الخطیرهٔ هذه.

بذلک نستنتج من الآیهٔ العناصر التی یجب أن تتوفر فی کل قیادهٔ إسلامیهٔ، و هی کما یلی:

أ- أن تکون القیادهٔ صالحهٔ (بما فی کلمهٔ الصلاح من شمولیهٔ) ب- أن تکون قویهٔ مقتدرهٔ (أن تملک العدد و العدّهٔ الکافیین، بالإضافهٔ إلی الخطط العسکریهٔ التی تضمن نجاح استخدام القوّهٔ الموجودهٔ).

۴- تبیّن الآیهٔ أنّ المؤمنین یطلبون حاجاتهم من اللّه العلی القدیر وحده، و لا یلجئون إلی غیره فی حوائجهم، حتی أنّهم یسألون اللّه أن یمدهم بمن یتولی الدفاع عنهم و ینصرهم علی الظالمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۷

الآیهٔ [سورهٔ النساء (۴): آیهٔ ۷۶]

اشارهٔ

الَّذِینَ آمَنُوا یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِیاءَ الشَّیْطانِ إِنَّ کَیْدَ الشَّیْطانِ کانَ ضَعِیفاً (۷۶)

التّفسیر

لقد أوضحت الآیات السابقهٔ قضیهٔ الجهاد، و أبرزت عناصره و المخاطبین به و دوافعه، و فی هذه الآیهٔ نلاحظ أنّها تحث المجاهدین علی القتال، و تبیّن أهدافهم، مؤکّدهٔ أنّهم یقاتلون فی سبیل اللّه و لمصلحهٔ عباد اللّه، و أن الکافرین یقاتلون فی سبیل الطاغوت المتجبر: الَّذِینَ آمَنُوا یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ الطَّاغُوتِ أی أنّ الحیاهٔ فی کل الأحوال لا تخلو من

الکفاح و الصراع، غیر أن جمعا یقاتلون فی طریق الحق، و جمعا یقاتلون فی طریق الشیطان و الباطل.

لذلک تطلب الآیة من أنصار الحق أن ینبروا لقتال أنصار الشیطان دونما رهبة و خوف: فَقاتِلُوا أَوْلِیاءَ الشَّیْطانِ

کما توضح هذه الآیة حقیقة مهمّة، هی أنّ الطاغوت و القوی المتجبرة- مهما امتلکت من قوة ظاهریة- ضعیفة فی نفسها و جبانة فی باطنها، و بهذا تطمئن الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۸

المؤمنین کی لا یخافوا من هؤلاء الطواغیت مهما أوتوا من عدّة أو عدد، لأنّهم خالون من الهدف فارغون من الإیمان، و لذلک کانت خططهم کلها ضعیفة خاویة کقدرتهم و لأنّهم لا یعتمدون علی منشأ القدرة الأزلیة الأبدیة الذی هو اللّه العزیز القدیر، بل یعتمدون علی قدرة الشیطان الضعیفة الجوفاء: إِنَّ کَیْدَ الشَّیْطانِ کانَ ضَعِیفاً.

أما سبب قوة المؤمنین من أنصار الحق فیعود إلی أنهم یسیرون فی طریق أهداف و حقائق تنسجم مع قانون الخلیقة و الوجود، و تتمتع بالصفة الأزلیة الأبدیة، فهم یجاهدون فی سبیل تحریر الإنسان و محو آثار الظلم و العدوان بینما الطاغوت و أنصاره یقاتلون من أجل منافعهم الشخصیة أو یعملون فی خدمة الطواغیت و المستکبرین من أجل استغلال البشر إرضاء لشهواتهم الفانیة الزائلة، الأمر الذی یدفع فی النهایة بالمجتمع إلی الانحطاط و الزّوال، لأنّ عمل الطواغیت یتناقض و سرّ الوجود و یتعارض مع قوانین الفطرة و الطبیعة، هذا من جهة، و من جهة أخری فإن المؤمنین باعتمادهم علی القوی الروحیة یتمتعون بثقة عالیة بالنفس و بهدوء باطنی یمهّد لهم سبیل النصر و الفوز علی العدو، بل و یهبهم القوّة و القدرة علی الاندفاع لمواجهة الأعداء، بینما العدو و الکافر لا یعتمد علی أساس قوی أبدا.

و تجدر الملاحظة هنا أنّ الآیة قرنت الطاغوت بالشیطان، و هذا یدل علی أن القوی الطاغوتیة المتجبرة إنّما تستمد القوة و العون من منبع ضعیف یتمثل فی القوی الشیطانیة و الجوفاء.

هذا المضمون تذکره- أیضا- الآیة (۲۷) من سورة الأعراف: إِنَّا جَعَلْنَا الشَّیاطِینَ أَوْلِیاءَ لِلَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۹

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۷۷]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا أَیْدِیَکُمْ وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ فَلَمَّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِیقٌ مِنْهُمْ یَخْشَوْنَ النَّاسَ کَخَشْیَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْیَةً وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ کَتَبْتَ عَلَیْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلی أَجَلٍ قَرِیبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْیا قَلِیلٌ وَ الْآخِرَةُ خَیْرٌ لِمَنِ اتَّقی وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِیلًا (۷۷)

سبب النّزول

روی جمع من المفسّرین کالشّیخ الطوسی فی التبیان، و القرطبی و صاحب المنار عن ابن عباس أنّ نفرا من المسلمین کانوا أثناء وجودهم فی مکّة قبل الهجرة یعانون من ضغط المشرکین و أذائهم، فجاءوا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبوا منه أن یسمح لهم بقتال الأعداء فأجابهم النّبی فی حینه أنّه لم یؤمر بالجهاد.

و مضت أیّام علی طلب هؤلاء، حتی هاجر المسلمون إلی المدینة و تهیأت هناک ظروف و شروط الجهاد المسلح، و أمر اللّه المسلمین بالجهاد، فأخذ بعض من أولئک النفر الذین کانوا یصرّون علی النّبی للسماح لهم بالجهاد و قتال الأعداء فی مکّة یظهرون

الكسل و التهاون فى تنفيذ الأمر الإلهى، و لم يبدوا أى حماس أو رغبة فى الجهاد، كما كانوا يظهرون ذلك فى مكّة، فنزلت هذه الآية و هى تحثّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۰

المسلمين على الجهاد و تؤنب المتهاونين و المتقاعسين عن هذا الواجب الحسّاس.

و قد تطرقت الآية الكريمة إلى عدد من الحقائق فى هذا الصدد.

التّفسير

قوم بضاعتهم الكلام دون العمل:

تتحدث الآية بلغة التعجب من أمر نفر أظهروا رغبة شديدة فى الجهاد خلال ظرف غير مناسب، و أصرّوا على السماح لهم بذلك، و قد صدرت الأوامر لهم- حينئذ- بالصبر و الاحتمال، و دعوا إلى إقامة الصلاة، و أداء الزكاة، و بعد أن سنحت الفرصة و آتت الظروف للجهاد بصورة كاملة و أمروا به، استولى على هؤلاء النفر الخوف و الرعب، و انبروا يعترضون على الأمر الإلهى و يتهاونون فى أدائه.

تقول الآية: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ... فكان هؤلاء فى اعتراضهم على أمر الجهاد يقولون صراحة: لما ذا أسرع اللّه فى إنزال أمر الجهاد؟ و يتمنون لو أخر اللّه هذا الأمر و لو قليلا! أو يطلبون أن يناط أمر الجهاد للأجيال القادمة[۱۶۲] وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ....

و القرآن الكريم يردّ على هؤلاء أوّلا من خلال عبارة: يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً أى أن هؤلاء بدل أن يخافوا اللّه القادر القهار، أخذتهم الرّجفة و استولى عليهم الرعب من إنسان ضعيف عاجز، بل أصبح خوفهم من هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۱

الإنسان أكبر من خشيتهم اللّه العلى القدير.

ثمّ يواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقيقة: لو أنّهم استطاعوا بعد تركهم الجهاد أن يوفّروا لأنفسهم- فرضا- حياة قصيرة رغيدة هانئة، فإنّهم سيخسرون هذه الحياة لأنّها زائلة لا محالة، بينما الحياة الأبدية التى وعد اللّه بها عباده المؤمنين المجاهدين الذين يخشونه و لا يخشون سواه، هى خير من تلك الحياة الزائلة، و إن المتقين سيلقون فيها ثوابهم كاملا غير منقوص دون أن يصيبهم أى ظلم، قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا[۱۶۳].

من الضرورى الالتفات إلى عدة نقاط فى تفسير هذه الآية، و هى:

۱- لما ذا أمرت أولئك النفر بإقامة الصلاة و أداء الزكاة دون غيرهما من الفرائض الكثيرة الاخرى؟

و الجواب على هذا السؤال يتلخص فى أنّ الصلاة هى سر الاتصال باللّه سبحانه عزّ و جل، و الزكاة تعتبر مفتاحا لباب الاتصال بعباد اللّه، و على هذا الأساس فقد صدرت الأوامر للمسلمين بأن يعدّوا أنفسهم و أرواحهم و مجتمعهم للجهاد فى سبيل اللّه، عن طريقة إقامة الصلة الوثيقة بينهم و بين اللّه و عباده، و بعبارة أخرى أن يسعوا إلى بناء أنفسهم و إعدادها، و بديهى أن أى جهاد يحتاج بالضرورة إلى إعداد النفس و الروح، و إلى توثيق عرى التلاحم الاجتماعى، و بدون ذلك لا يمكن إحراز أى انتصار.

و الإنسان يقوى صلته باللّه من خلال الصلاة و يربّى بها روحه و معنوياته، فيكون بذلك مستعدا لتقديم أغلى التضحيات بما فى ذلك التضحية بالنفس، كما أنّ الزكاة هى الوسيلة الوحيدة لرأب كل صدع اجتماعى، بالإضافة إلى كونها دعما اقتصاديا فى سبيل إعداد

ذوی الخبرة و التجربة و العدة الحربیة، و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۲

یحتاجه المسلمون فی قتال الأعداء لیکونوا علی استعداد لمواجهة العدو إذا صدر الأمر إلیهم بذلک.

۲- المعروف أنّ حکم الزکاة ورد فی آیات نزلت فی المدینة (أی أنّها آیات مدنیة) و لم یکلف المسلمون بأداء الزکاة فی مکّة- فکیف إذن یمکن القول إن هذه الآیة تتحدث عن وضع المسلمین فی مکّة؟

یجیب علی هذا السؤال الشیخ الطوسی رحمه اللّه فی تفسیر «التّبیان» فیقول: إنّ المقصود بالزکاة الواردة فی هذه الآیة هو الزکاة المستحبة التی کانت معروفة فی مکّة، أی أنّ القرآن المجید کان یحثّ المسلمین حتی فی مکّة علی تقدیم المساعدات المالیة إلی مستحقیها و لدعم اقتصاد المجتمع الإسلامی الجدید فی مکّة.

۳- و تشیر هذه الآیة الکریمة إلی حقیقة مهمة، هی أنّ المسلمین فی مکّة کان لهم منهج، ثمّ أصبح لهم فی المدینة منهج آخر، ففی مکّة انشغل المسلمون ببناء شخصیتهم الإسلامیة بعد أن تحرروا من أدران الجاهلیة، فکان سعی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مکّة منصبا علی تربیة هؤلاء الذین نبذوا عبادة الأصنام لیجعل منهم أناسا یسترخصون النفس و النفیس فی مواجهة ما یعترض سبیل المسلمین من تحدیات، فما أحرزه المسلمون من انتصارات باهرة فی المدینة المنورة، کان حصیلة عملیة بناء الشخصیة الإسلامیة، هذه العملیة التی تعهدت بها رسالة الإسلام فی مکّة.

لقد تعلم المسلمون الکثیر فی مکّة و مارسوا تجارب جمّة و اکتسبوا استعدادا روحیا و معنویا عظیما خلال العهد المکی، و دلیل هذا الأمر هو نزول قرابة التسعین سورة- من مجموع سور القرآن الکریم البالغة مائة و أربع و عشرة سورة- فی مکّة، و قد تناولت هذه السور فی الغالب الجوانب العقائدیة التربویة الخاصّة بإعداد الشخصیة الإسلامیة- أمّا فی المدینة فقد انصرف المسلمون إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۳

تشکیل الحکومة الإسلامیة و إقامة أسس المجتمع الإسلامی السلیم.

و یدل هذه- أیضا- علی عدم نزول حکم الجهاد و الزکاة الواجبین فی العصر المکی لأنّ الجهاد من واجبات الحکومة الإسلامیة مثل تشکیل بیت المال فإنّه من شؤون الحکومة الإسلامیة أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۴

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۷۸ الی ۷۹]

اشارة

أَیْنَما تَکُونُوا یُدْرِکْکُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ کُنْتُمْ فِی بُرُوجٍ مُشَیَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِکَ قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا یَکادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً (۷۸) ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِکَ وَ أَرْسَلْناکَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً (۷۹)

التّفسیر

اشارة

نستنتج من الآیات السابقة و اللاحقة أنّ هاتین الآیتین تقصدان مجموعة من المنافقین تسللوا إلی صفوف المسلمین، و قد قرأنا فی

الآيات السابقة أن هؤلاء قد أبدوا الخوف و القلق من المشاركة فی مسئولية الجهاد، و قد ظهر عليهم الضجر و الاستياء حين نزول حكم الجهاد، فردّ عليهم القرآن الكريم و أنبّهم لموقفهم هذا بقوله: قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى ۱۶۴] موضحا أن الحياة بكل زخارفها سرعان ما تزول، و إنّ ما يناله المؤمنون الذين يخشون اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۵

و لا يعصونه من الخير و الثواب هو خير من كل ما فی هذه الدنيا من خيرات.

و فی هذا المقطع القرآنی ردّ آخر على أولئك المنافقين، حيث بيّن أن الموت آتيهم يوما لا محالة، حتى إذا تحصنوا فی قلاع عالية و منيعة بحسب ظنّهم، و ما دام الموت يدرك الإنسان بهذه الصورة أليس من الخير له أن يموت على طريق مثمر و صحيح كالجهاد؟! و ممّا يلفت الانتباه أنّ القرآن الكريم يطلق فی مواقع متعددة اسم «اليقين» على الموت، كما فی الآية (۹۹) من سورة الحجر، و الآية (۴۸) من سورة المدثر- و معنى هذه العبارة القرآنية هو أن الإنسان مهما كانت عقيدته- يؤمن بوجود الموت إيمانا لا يخامره فيه شك مطلقا، و مهما أنكر المرء من حقائق لا يستطيع إنكار الموت الذی يشهده بأم عينه أو يسمع عنه كل يوم، و الإنسان الذی يحب الحياة و يخال أن الموت هو الفناء الذی لا حياة بعده أبدا يخاف من ذكر الموت و يفر من مظاهره.

الآيتان الأخيرتان تؤكدان حقيقة عدم جدوى الفرار من الموت، فهو يدرك الإنسان يوما ما لا محالة، و هو حقيقة قطعية يقينية فی عالم الوجود.

و عبارة يُدْرِكْكُمُ الواردة فی الآية الأولى تعنی الملاحقة، و اللاحق هو الموت الذی يدرك الإنسان، و توحی بأنّ الفرار لا ينقذ الإنسان من هذا المصير الحتمی.

و تؤكد الحقيقة المذكورة الآية الثّامنة من سورة الجمعة إذ تقول: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِی تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ

إذن ليس من العقل و المنطق أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة و يفر بعد ذلك من ميدان الجهاد، و يحرم نفسه أشرف ميتة و هی الشهادة فی سبيل اللّه، فيموت على فراشه فلو عاش الإنسان بعد فراره من الجهاد أيّاما أو شهورا أو سنوات لتكرر ما فعل و لتكررت أمامه المشاهد الماضية، فهل من العقل أن يحرم الإنسان نفسه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۶

لأجل هذه المتكررات من الثواب الأبدی الذی يناله المجاهد فی سبيل اللّه؟! و هنا أمر ثان يجب الانتباه له فی الآية الأولى من هاتين الآيتين، و هو عبارة بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ[۱۶۵] التی تؤكد أنّ الموت لا تحول دونه القلاع و الحصون المنيعة العالية، و السرّ فی هذا الأمر هو أنّ الموت الطبيعی لا يداهم الإنسان من خارج وجوده- خلافا لما يتصورون- و لا يحتاج إلى اجتياز القلاع و الحصون، بل يأتی من داخل وجود الإنسان حيث تقف أجهزة الإنسان عن العمل بعد نفاذ قدرتها المحدودة على البقاء.

نعم، الموت غير الطبيعی يأتی الإنسان طبعا من خارج وجوده، و بذلك قد تنفع القلاع و الحصون فی تأخير هذا النوع من الموت عنه. و لكن ما ذا ستكون النهاية و النتيجة؟ هل بمقدور القلاع و الحصون أن تحول دون وصول الموت الطبيعی الذی سيدرك الإنسان- دون شك- فی يوم من الأيّام؟!

من أين تأتی الانتصارات و الهزائم؟

يشير القرآن فی هاتين الآيتين إلى و هم آخر من أوهام المنافقين، حين يوضح أن هؤلاء إذا أحرزوا نصرا أو غنموا خيرا قالوا: إنّ اللّه هو الذی أنعم عليهم بذلك، و زعموا أنّهم أهل لهذه النعمة: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أمّا إذا منی هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى فی ميدان القتال، ألقوا اللوم على النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و افتروا عليه بقولهم إنّ ما

نالهم من سوء هو من عنده، متهمين خططه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۷

العسكرية بالضعف، من ذلك ما حدث في غزوة أحد، تقول الآية: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ....

و يحتمل بعض المفسّرين أن تكون هـذه الآية قد نزلت بشأن اليهود، و يرون أنّ المقصود بالحسنة و السيئة- هنا- هو ما كان يحدث من وقائع سارة و ضارة، حيث كان اليهود حين بعثة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ينسبون كلّ حدث سار و نافع إلى اللّه، و يعزون حدوث الوقائع الضّارة إلى وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين ظهرانيهم، بينما اتصال الآية بالآيات السابقة و التالية- التي يدور الحديث فيها عن المنافقين- يدل على أنّ المقصود في هذه الآية الأخيرة هم المنافقون.

و مهما يكن من أمر، فإنّ القرآن الكريم يردّ على هؤلاء مؤكدا إنّ الإنسان المسلم الموحد الذى يؤمن صادقا باللّه و يعبده و لا يعبد سواه، إنّما يعتقد بأنّ كل الوقائع و الأحداث و الانتصارات و الهزائم هى بيد اللّه العليم الحكيم، فاللّه هو الذى يهب الإنسان ما يستحقه و يعطيه بحسب قيمته الوجودية، و في هذا المجال تقول الآية: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

و الآية- هذه- تحمل في آخرها تقريعا و تأنيبا للمنافقين الذين لا يتفكرون و لا يمعنون في حقائق الحياة المختلفة، حيث تقول: فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً.

و بعد هذا- في الآية التالية- يصرّح القرآن بأنّ كل ما يصيب الإنسان من خيرات و فوائد و كل ما يواجهه الكائن البشرى من سرور و انتصار هو من عند اللّه، و إن ما يحصل للإنسان من سوء و ضرر و هزيمة أو خسارة فهو بسبب الإنسان نفسه تقول الآية: ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ... و تردّ الآية في آخرها على أولئك الذين كانوا يرون وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سببا لوقوع الحوادث المؤسفة فيما بينهم فتقول: وَ أَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۸

جواب على سؤال مهم:

السّؤال المهم الذى يتبادر إلى الذهن حين قراءة هاتين الآيتين الأخيرتين هو: لما ذا نسب الخير و الشر في الآية الأولى كلّه للّه؟ و لما ذا حصرت الآية التالية الخير- وحده- للّه، و نسبت الشرّ إلى الإنسان؟

حين نمعن النظر في الآيتين تواجهنا عدّة أمور، يمكن لكل منها أن يكون هو الجواب على هذا السؤال.

۱- لو أجرينا تحليلا على عناصر تكوين الشر لرأينا أنّ لها اتجاهين:

أحدهما إيجابى و الآخر سلبى، و الاتجاه الأخير هو الذى يجسد شكل الشر أو السيئة و يبرزه على صورة «خسارة نسبية» فالإنسان الذى يقدم على قتل نظيره بسلاح نارى أو سلاح بارد يكون قد ارتكب بالطبع عملا شريرا و سيئا، فما هى إذن عوامل حدوث هذا العمل الشرير؟

إنّها تتكون من: أوّلا: قدرة الإنسان و عقله و قدرة السلاح و القدرة على الرمى و التهديف الصحيحين و اختيار المكان و الزمان المناسبين، و هذه تشكل عناصر الاتجاه الإيجابى للقضية، لأنّ كل عنصر منها يستطيع في حدّ ذاته أن يستخدم كعامل لفعل حسن إذا استغل الاستغلال الحكيم، أمّا الاتجاه السلبى فهو في استغلال كل من هذه العناصر في غير محله، فبدلا من أن يستخدم السلاح لدرء خطر حيوان مفترس أو للتصدى لقاتل و مجرم خطير، يستخدم في قتل إنسان برىء، فيجسد بذلك فعل الشر، و إلّا فإنّ قدرة الإنسان و عقله و قدرته على الرمى و التهديف، و أصل السلاح و كل هذه العناصر، يمكن أن يستفاد منها في مجال الخير.

و حين تنسب الآية الأولى الخير و الشرّ كلّه للّه، فإن ذلك معناه أنّ مصادر القوّة جميعها بيد اللّه العليم القدير حتى تلك القوّة التى

یساء استخدامها، و من هذا المنطلق تنسب الخیر و الشرّ للّه، لأنّه هو واهب القوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۹

و الآیة الثّانیة: تنسب «السیئات» إلی الناس انطلاقا من مفهوم «الجوانب السلبیة» للقضیة و من الإساءة فی استخدام المواهب الإلهیة. تماما مثل والد وهب ابنه مالا لیبنی به دارا جدیدة، لکن هذا الولد بدلا من أن یستخدم هذا المال فی بناء البیت المطلوب، اشتری مخدرات ضارة أو صرفه فی مجالات الفساد و الفحشاء، لا شک أنّ الوالد هو مصدر هذا المال، لکن أحدا لا ینسب تصرف الابن لوالده، لأنه أعطاه للولد لغرض خیری حسن، لکن الولد أساء استغلال المال، فهو فاعل الشرّ، و لیس لوالده دخل فی فعلته هذه.

۲- و یمکن القول- أیضا- بأنّ الآیة الکریمة إنّما تشیر إلی موضوع «الأمر بین الأمرین».

و هذه قضیة بحثت فی مسألة الجبر و التفویض، و خلاصة القول فیها أنّ جمیع وقائع العالم خیرا کانت أم شرّا- هی من جانب واحد تتصل باللّه سبحانه القدیر لأنّه هو الذی وهب الإنسان القدرة و القوّة و حریة الانتخاب و الإختیار، و علی هذا الأساس فإنّ کل ما یختاره الإنسان و یفعله بإرادته و حریته لا یخرج عن إرادة اللّه، لکن هذا الفعل ینسب للإنسان لأنّه صادر عن وجوده، و إرادته هی التی تحدد اتجاه الفعل.

و من هنا فإنّنا مسئولون عن أعمالنا، و استناد أعمالنا إلی اللّه- بالشکل الذی أوضحناه- لا یسلب عنّا المسؤولیة و لا یؤدی إلی الإعتقاد بالجبر.

و علی هذا الأساس حین تنسب «الحسنات» و «السیئات» إلی اللّه سبحانه و تعالی، فلفاعلیة اللّه فی کل شیء، و حین تنسب السیئة إلی الإنسان فلإرادته و حریته فی الإختیار.

و حصیلة هذا البحث إنّ الآیتین معا تثبتان قضیة الأمر «الأمر بین الأمرین» (تأمل بدقّة)! ۳- هناک تفسیر ثالث للآیتین ورد فیما أثر عن أهل البیت علیهم السّلام، و هو أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۰

المقصود من عبارة السّیئات جزاء الأعمال السیئة و عقوبة المعاصی التی ینزلها اللّه بالعاصین، و لما کانت العقوبة هی نتیجة لأفعال العاصین من العباد، لذلک تنسب أحیانا إلی العباد أنفسهم و أحیانا أخری إلی اللّه، و کلا النسبتین صحیحتان، إذ یمکن القول فی قضیة إنّ القاضی هو الذی قطع ید السارق، کما یجوز أن یقال إنّ السارق هو السبب فی قطع یده لارتکابه السرقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۱

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۸۰ الی ۸۱]

اشارة

مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ وَ مَنْ تَوَلَّی فَما أَرْسَلْناکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً (۸۰) وَ یَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِکَ بَیَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَیْرَ الَّذِی تَقُولُ وَ اللَّهُ یَکْتُبُ ما یُبَیِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلاً (۸۱)

التّفسیر

سنّة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمنزلة الوحی:

توضح الآیة الأولی موضع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الناس و حسناتهم و سیئاتهم و تؤکد أوّلا بأن إطاعة النّبی صلّی اللّه

علیه و آله و سلّم هی فی الحقیقة طاعة للّه: و مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ ... أی لا انفصال بین طاعة اللّه و طاعة الرّسول، و ذلک لأن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یخطو أیة خطوة خلافا لإرادة اللّه ... کل ما یصدر منه من فعل و قول و تقریر إنّما یطابق إرادة اللّه سبحانه و تعالی و مشیئته.

ثمّ تبیّن إنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس مسئولا عن الذین یتجاهلون و یخالفون أوامره، کما أنه لیس مکلّفا بإرغام هؤلاء علی ترک العصیان، بل إن مسئولیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی الدعوة للرسالة الإلهیة التی بعث بها، و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و إرشاد الضالین و الغافلین تقول الآیة: وَ مَنْ تَوَلَّی فَما أَرْسَلْناکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۲

و تجدر الإشارة هنا إلی أن کلمة «حفیظ» صفة مشبهة باسم الفاعل، و تدل علی ثبات و استمرار الصفة فی الموصوف، بخلاف اسم الفاعل «حافظ»، فعبارة «حفیظ» تعنی الذی یراقب و یحافظ بصورة دائمة مستمرة، و یستدل من الآیة علی أن واجب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو قیادة الناس و هدایتهم و إرشادهم، و دعوتهم إلی اتّباع الحقّ و اجتناب الباطل، و مکافحة الفساد، و حین یصر البعض علی اتّباع طریق الباطل و الانحراف عن جادة الحقّ، فلا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مسئول عن هذه الانحرافات، و لا المطلوب منه أن یراقب هؤلاء المنحرفین فی کل صغیرة و کبیرة، کما لیس المطلوب منه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یستخدم القوة لإرغام المنحرفین علی العدول عن انحرافهم، و لا یمکنه بالوسائل العادیة القیام بمثل هذه الأعمال.

و علی هذا الأساس، فإنّ الآیة قد تکون- أیضا- إشارة إلی غزوات کغزوة أحد حیث کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکلّفا- فقط- بتجنید الإمکانیات المتوفرة من الناحیة العسکریة فی إعداد خطة للدفاع عن المسلمین حیال هجمات الأعداء، و بدیهی أن تکون إطاعة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا الأمر إطاعة للّه، و لو افترضنا أنّ أفرادا عصوا الرّسول فی هذا المجال و أدی عصیانهم إلی تراجع المسلمین، فالعاصون- وحدهم- هم المسؤولون عن ذلک، و لیس الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و الأمر المهم الآخر فی هذه الآیة هو أنّها واحدة من أکثر آیات القرآن دلالة علی حجّیّة السنّة النّبویة الشّریفة، فهی حکم بوجوب الإذعان للأحادیث الصحیحة المرویة عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و استنادا إلی هذه الآیة لا یجوز لأحد القول بقبول القرآن وحده و عدم قبول أحادیث و سنّة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لأنّ الآیة صریحة بأن إطاعة أقوال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أحادیثه المرویة عنه بطرق صحیحة، هی بمثابة إطاعة اللّه.

و من المنطلق نفسه تثبت حقیقة أخری، هی ضرورة إطاعة أئمة أهل بیت النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هی ما أکد علیها حدیث «الثقلین» الوارد فی المصادر الإسلامیة السنیة و الشیعیة، و فیه بیّن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- صراحة- حجیة أحادیث أئمة أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۳

البیت علیهم السّلام، و منه نستنتج أنّ إطاعة أوامرهم هی إطاعة للرسول و بالنتیجة إطاعة للّه تعالی، و لما کانت أحادیث أئمة أهل البیت علیهم السّلام بمثابة أحادیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فلا یستطیع أحد أن یقول: إنّی أقبل القرآن و أرفض أحادیث أهل البیت علیهم السّلام، فذلک نقض للآیة المذکورة أعلاه و للآیات المشابهة.

و لذلک نقرأ فی الأحادیث التی أوردها صاحب تفسیر البرهان فی تفسیر هذه الآیة ما یؤکّد هذه الحقیقة:

إنّ اللّه وهب نبیّه حقّ الأمر و النهی فی الآیة المذکورة، و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بدوره وهب هذا الحق لعلی بن أبی طالب علیه السّلام و سائر الأئمة علیهم السّلام من بعده، و الناس ملزمون بإطاعة أوامر هذه النخبة الطاهرة علیهم السّلام، لأن أوامر و نواهی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة من أهل بیته الکرام هی أوامر و نواهی اللّه، و طاعتهم طاعة للّه، و هم لا یأتون بشیء من عند أنفسهم و کل ما جاؤوا به للمسلمین هو من عند اللّه.[۱۶۶] أمّا الآیة الثّانیة ففیها إشارة إلی وضع نفر من المنافقین أو المتذبذبین من ضعاف الإیمان، الذین یتظاهرون حین یحضرون عند النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین بأنّهم مع الجماعة، و یظهرون

الطاعة للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیدفعوا بذلک الضرر عن أنفسهم و لیحموا مصالحهم الخاصّة، بدعوی الإخلاص و الطاعة للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وَ یَقُولُونَ طاعَةٌ.

و بعد أن ینصرف الناس من عند النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یختلی هؤلاء بأنفسهم یتجاهلون عهودهم فی إطاعة النّبی و یتآمرون فی ندواتهم الخاصّة- السریة اللیلیة- علی أقوال النّبی: فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِکَ بَیَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَیْرَ الَّذِی تَقُولُ ....

نعرف من هذه الآیة أنّ المنافقین فی زمن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانوا لا یألون جهدا فی التآمر علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و کانوا یخططون فی اجتماعاتهم السرّیة للوقوف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۴

بوجه الدعوة.

و لکن اللّه یأمر نبیّه بأن لا یلتفت إلی مکائد هؤلاء، و أن لا یخافهم و لا یخشی خططهم و أن یتجنب الاعتماد علیهم فی مشاریعه، بل یتوکل علی اللّه الذی هو خیر ناصر و معین: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۵

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۸۲]

اشارة

أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً (۸۲)

التّفسیر

خلوّ القرآن من الاختلاف دلیل حی علی إعجازه:

هذه الآیة تخاطب المنافقین و سائر الذین یرتابون من حقیقة القرآن المجید، و تطلب منهم- بصیغة السؤال- أن یحققوا فی خصائص القرآن لیعرفوا بأنفسهم أنّ القرآن وحی منزل، و لو لم یکن کذلک لکثر فیه التناقض و الاختلاف، و إذا تحقق لدیهم عدم وجود الاختلاف، فعلیهم أن یذعنوا أنّه وحی من اللّه تعالی.

و التّدبر من مادة «دبر» و هو مؤخر الشیء و عاقبته «و التدبر» المطلوب فی هذه الآیة هو البحث عن نتائج آثار الشیء، و الفرق بین التدبر و التفکر هو أنّ الأخیر یعنی التحقیق فی علل و خصائص الموجود، أمّا التدبر فهو التحقیق فی نتائجه و آثاره.

و نستدل من هذه الآیة علی عدّة أمور:

۱- إنّ الناس مکلّفون بالبحث و التحقیق فی أصول الدین و المسائل المشابهة لها، مثل صدق دعوی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و حقانیة القرآن، و أن یتجنّبوا التقلید

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۶

و المحاکاة فی مثل هذه الحالات.

۲- إنّ القرآن- خلافا لما یظن البعض- قابل للفهم و الإدراک للجمیع، و لو کان علی غیر هذه الصورة لما أمر اللّه بالتدبر فیه.

۳- أحد الأدلة التی تثبت أنّ القرآن حقّ، و أنّه منزل من اللّه الحکیم العلیم خلوه المطلق من کل تناقض أو اختلاف.

و لتوضیح هذه الحقیقة نقول:

الجوانب الروحیـة للإنسان تتغیر باسـتمرار، «قانون التکامل»- فی الظروف العادیـة الخالیة من الأوضاع الاسـتثنائیة- یسـتوعب الإنسان و جوانبه الروحیة و أفکاره، و بمرور الأیّام یتغیر بموجب هذا القانون کلام الإنسان و فکره و أحادیثه.

لو أمعنا النظر فیما یکتبه الکتاب، لما وجدنا مؤلفات الکاتب الواحد علی نمط واحد، بل أن بدایة کل کتاب تختلف أیضا عن نهایته.

هـذا التغییر یزداد سـرعة حین یعیش الإنسان فی خضم أحـداث کبری کالتی تصاحب إرساء قواعـد ثورة فکریة و اجتماعیة و عقائدیة شاملـة، الشـخص الـذی یعیش مثل هـذه التحولات الاجتماعیـة الکبری لا یسـتطیع أن یسـیطر علی وحـدة کلامه، و لا یمکنه أن یوجد انسجاما کاملا فی أقواله، خاصّة إذا کان هذا الشخص غیر متعلم، و کان ناشئا فی بیئة اجتماعیة متخلفة.

و القرآن کتـاب نزل خلال مـدّة (۲۳) عامـا بحسب مـا یحتـاجه النـاس من تربیـة و توجیه فی الظروف المختلفـة، و موضوعات القرآن متنوعـة، فهو لاـ یشـبه کتابـا عادیا متخصـصا فی بحث اجتماعی أو سیاسـی أو فلسـفی أو حقوقی أو تاریخی، بل هو یتحـدث تارة عن التوحیـد و أسـرار الخلیقـة، و تـارة یطرح القوانین و الأحکـام و الآداب و السـنن، و تارة یقص علینا أخبار الأمم السابقـة، و تارة یتناول المواعظ و النصائح و العبادات و ارتباط العبد بخالقه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۷

و کما یقول (غوستاف لوبون): القرآن- کتاب المسلمین السماوی- لا یقتصر علی التعالیم الدینیة، بل یتناول- أیضا- الأحکام السیاسیة و الاجتماعیة للمسلمین.

مثل هـذا الکتاب- بهذه الخصائص- لا یمکن أن یکون- عادة- خالیا من التناقض و التضاد و الاختلاف و التأرجح، أمّا حین نری هذا الکتاب- مع کل ذلک- متناسقا متوازنا فی آیاته خالیا من کل تضاد و اختلاف نستطیع أن نفهم- بوضوح- أنّ هذا الکتاب لیس ولید فکر بشری، بل هو من قبل اللّه تعالی، کما تذکر الآیة الکریمة أعلاه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۸

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۸۳]

اشارة

وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَی الرَّسُولِ وَ إِلی أُولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِینَ یَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّیْطانَ إِلَّا قَلِیلًا (۸۳)

التّفسیر

نشر الإشاعات:

تشیر هـذه الآیـة إلی حرکـة منحرفـة أخری من حرکات المنافقین أو ضـعاف الإیمان، تتمثل فی سـعیهم إلی تلقف أی نبأ عن انتصار المسـلمین أو هزیمتهم، و بثّه بین الناس فی کل مکان، دون التحقیق و التـدقیق فی أصل هـذا النبأ أو التأکـد من مصدره، و کان الکثیر من هذه الأنباء لا یتعدی إشاعة عمد أعداء المسـلمین إلی بثّها لتحقیق أهدافهم الدنیئة و لیسـیئوا إلی معنویات المسلمین و یضروا بهم، وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ ....

بینما کان من واجب هؤلاء أن یوصـلوا هـذه الأخبار إلی قادتهم کی یسـتفیدوا من معلومات هؤلاء القادة و فکرهم و لکی یتجنبوا دفع المسـلمین إلی حالـة من الغرور حیال انتصارات خیالیـة وهمیـة، أو إلی إضـعاف معنویاتهم بإشاعـة أنباء عن هزیمـة لا حقیقة لها، وَ لَوْ

رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أَولِی الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۹

یَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ....

«یستنبطونه» من مادة «نبط» التی تعنی أوّل ما یستخرج من ماء البئر أو الینبوع، و الاستنباط استخراج الحقیقة من الأدلة و الشواهد و الوثائق، سواء کانت العملیة فی الفقه أو الفلسفة أو السیاسة أو سائر العلوم.

أُولِی الْأَمْرِ فی الآیة هم المحیطون بالأمور القادرون علی أن یوضحوا للناس ما کان حقیقیا منها و ما کان إشاعة فارغة. و هم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و خلفاؤه من أئمّة أهل البیت علیهم السّلام بالدّرجة الأولی.

و یأتی من بعدهم العلماء المتخصصون فی هذه المسائل.

روی عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام فی تفسیر أُولِی الْأَمْرِ فی هذه الآیة قال: «هم الأئمّة»

کما فی تفسیر نور الثقلین، و هناک روایات أخری أیضا فی هذا المجال بنفس المضمون.

و لعل هناک من یعترض علی هذه الرّوایات قائلا: إنّ الأئمة من أهل البیت علیهم السّلام لم یکونوا موجودین فی زمن نزول هذه الآیة، و لم یتعین أحد منهم فی ذلک الوقت بمنصب الإمامة أو الولایة، فکیف یمکن القول بأنّهم هم المعنیون بهذه الآیة؟

و الجواب علی هذا الاعتراض: هو أنّ هذه الآیة مثل سائر الآیات القرآنیة الاخری لا تقتصر علی زمن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقط، بل تحمل حکما عاما یشمل کل الأزمنة و القرون التالیة لمواجهة الإشاعات التی یبثّها الأعداء أو البسطاء من المسلمین بین الأمّة.

أضرار اختلاق الإشاعة و نشرها:

لقد ابتلیت المجتمعات البشریة و عانت الکثیر من المصائب و النکبات الرهیبة، بسبب بروز ظاهرة اختلاق الإشاعة و نشرها بین الأفراد حیث کانت تؤثر تأثیرا سلبیا کبیرا علی معنویات أفراد المجتمع، و تضعف فیهم الروح الاجتماعیة و روح التفاهم و التعاون بین أبناء المجتمع الواحد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۰

و تبدأ الإشاعة بأن یختلق منافق کذبة، ثمّ ینشرها بین أفراد مغرضین أو بسطاء، لیقوموا بدورهم بالترویج لها بین أبناء المجتمع دون التحقیق فیها، بل یهولونها و یفرعونها ممّا یؤدی إلی استنزاف مقدار کبیر من طاقات الناس و أفکارهم و أوقاتهم، و إلی إثارة القلق و الاضطراب بینهم، و کثیرا ما تؤدی الإشاعة إلی زعزعة الثقة بین أفراد المجتمع، و تؤدی إلی خلق حالة من اللامبالاة و التردد فی أداء المسؤولیات.

و مع أنّ بعض المجتمعات التی تعانی من الکبت و الإرهاب تعمد إلی الإشاعة کأسلوب من الکفاح السلبی، انتقاما من الحکومات الطاغیة الجائرة، فالإشاعة بحدّ ذاتها تعتبر خطرا کبیرا علی المجتمعات السلیمة، فإذا اتجهت الإشاعة إلی الأفراد الکفوئین من المفکرین و الخبراء و العاملین فی المرافق الهامّة للمجتمع، فإنّها ستؤدی إلی حالة من البرود فی نشاطات هؤلاء، و قد تصادر مکانتهم الاجتماعیة، و تحرم المجتمع من خدماتهم.

من هنا کافح الإسلام بشدة «اختلاق الإشاعات» و الافتراء و الکذب و التهمة، مثل ما حارب نشر الإشاعات کما فی هذه الآیة.

و تؤکد الآیة فی ختامها علی أنّ اللّه قد صان المسلمین بفضله و لطفه و کرمه من آثار إشاعات المنافقین و المغرضین و ضعاف الإیمان، و أنقذهم من نتائجها و عواقبها الوخیمة، و لو لا الإنقاذ الإلهی ما نجی من الانزلاق فی خط الشیطان إلّا قلیلا: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا أى أنّ النّبى و أصحاب الرأى و العلماء المدققين هم وحدهم القادرون على أن يكونوا مصونين من وساوس الشائعات و مشيعيها، أمّا أكثرية المجتمع فلا بدّ لها من القيادة السليمة لتسلم من عواقب اختلاق الشائعات و نشرها[۱۶۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۱

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۴]

اشارة

فَقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ لا تُکَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَکَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِینَ عَسَى اللَّهُ أَنْ یَکُفَّ بَأْسَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْکِیلاً (۸۴)

سبب النّزول

ورد فى بعض التفاسير مثل «مجمع البيان» و «القرطبى» و «روح المعانى» فى سبب نزول هذه الآية أنّه حين عاد أبو سفيان و معه جيش قريش منتصرين فى واقعة أحد توعدوا المسلمين بالمواجهة مرّة أخرى فى موسم «بدر الصغرى» أى وقت إقامة السوق التّجارية فى شهر ذى القعدة الحرام فى منطقة بدر، و حين حان موعد المواجهة دعا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين للاستعداد و التوجه إلى المنطقة المذكورة، إلّا أنّ نفرا من المسلمين- الذين كانوا إلى ذلك الحين ما زالوا يعانون من مرارة الهزيمة فى واقعة أحد- رفضوا التحرك مع النّبى، فنزلت هذه الآية، فجدد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الدّعوة إلى المسلمين بالتحرك، فما تبعه غير سبعين رجلا منهم الذين حضروا موقع المواجهة، و لكن أبا سفيان الذى كان قد تملكه الرعب من مواجهة المسلمين جبن و لم يحضر إلى المكان الموعود و عاد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه سالما إلى المدينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۲

التّفسير

كل انسان مسئول عمّا كلّف به:

بعد ما تقدم من الآيات الكريمة حول الجهاد، تأتى هذه الآية لتعطى أمرا جديدا و خطيرا إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنّه مكلّف بمواجهة الأعداء و جهادهم حتى لو بقى وحيدا و لم يرافقه أحد من المسلمين إلى ميدان القتال. لأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مسئول عن أداء واجبه هو، و ليس عليه مسئولية بالنسبة للآخرين سوى التشويق و التحريض و الدعوة الى الجهاد: فَقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ لا تُکَلَّفُ إِلَّا نَفْسَکَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِینَ

الآية تشتمل على حكم اجتماعى مهم يخصّ القادة، و يدعوهم إلى التزام الرأى الحازم و العمل الجاد فى طريقهم و مسيرتهم نحو الهدف المقدس الذى يعملون و يدعون من أجله، حتى لو لم يجدوا من يستجيب لدعوتهم، لأنّ استمرار الدعوة غير مشروط باستجابة الآخرين لها، و أى قائد لا يتوفر فيه هذا الحزم فهو بلا ريب عاجز عن النهوض بمهام القيادة، فلا يستطيع أن يواصل الطريق نحو تحقيق الأهداف المرجوة خاصّة القادة الإلهيون الذين يعتمدون على اللّه ... مصدر كل قدرة و قوّة فى عالم الوجود، و هو سبحانه أقوى من كل ما يدبّره الأعداء من دسائس و مكائد بوجه الدّعوة، لذلك تقول الآية: عَسَى اللَّهُ أَنْ یَکُفَّ بَأْسَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ

بَأْساً[۱۶۸] وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا[۱۶۹].

معنى كلمتى «عسى» و «لعل» فى كلام اللّه:

فى كلمة «عسى» طمع و ترج، و فى كلمة «لعل» طمع و إشفاق، هنا يتبادر إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۳

الذهن سؤال هو: لو كان التمنى و الترجى جائزين بالنسبة للإنسان لعدم علمه بالغيب و لمحدودية قدرته و عجزه عن فعل و إنجاز كل ما يريد، فكيف يجوز استخدامهما من قبل اللّه العالم بالغيب و الشهادة و القادر على كل شىء؟! و الطمع و الترجى يكونان فى جاهل عاجز و اللّه منزّه عن ذلك؟

ذهب كثير من العلماء إلى تأويل معنى كلمتى «عسى» و «لعل» الواردتين فى كلام اللّه فقالوا: بأنّهما إذا وردتا فى كلامه سبحانه عزّ و جل فإنّهما تفقدان معانيهما الحقيقية الأصلية و تكتسبان معانى جديدة، و قالوا: إن كلمة «عسى» إذا أتت فى كلام اللّه جاءت بمعنى «الوعد» و إن كلمة «لعل» تأتى فى كلامه- عزّ من قائل- بمعنى «الطلب».

و الحق أنّ هاتين الكلمتين لا يتغير معناهما إذا وردتا فى كلام اللّه، و لا يستلزمان الجهل أو العجز، لكن استخدامهما يأتى فى مواضع يكون الوصول فيها إلى الهدف بحاجة إلى مقدمات عديدة، فإن لم تتوفر إحدى هذه المقدمات أو بعضها لم يمكن القطع بتحقق ذلك الهدف، بل تأتى مسألة تحقق الهدف على شكل احتمال، و يكون الحكم فى هذا المجال احتماليا.

على سبيل المثال يقول القرآن الكريم: وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۱۷۰] و لا يعنى هنا أنّ رحمة اللّه تشمل كل من يستمع أو ينصت إلى القرآن أثناء قراءته، بل أنّ الاستماع و الإنصات يكونان مقدمة من مقدمات نيل رحمة اللّه، و هناك مقدمات أخرى مثل فهم القرآن و تدبر آياته و العمل بأحكامه.

و يتّضح من هذا أنّ تحقيق مقدمة واحدة لا يكفى لحصول النتيجة المطلوبة و لا يمكن الجزم أو القطع بحتمية تحقق النتيجة، بل كل ما يمكن الحكم به هو احتمال حدوثها، و الحقيقة إن مثل هذه الكلمات حين تأتى فى كلام اللّه، يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۴

الهدف منها تنبيه السامع إلى وجود مقدمات و شروط أخرى يجب تحقيقها للوصول إلى الهدف بالإضافة إلى الشرط أو المقدمة المذكورة المصرح بها فى الكلام.

و قد تبيّن لنا أنّ نيل رحمة اللّه لا يتحقق فقط بالاستماع و الإنصات إلى القرآن فقط، بل يجب لنيل هذه الرحمة توفير المقدمات الاخرى لذلك.

من هنا فإنّ هذه الآية التى نبحث فيها تقول إن قدرة الكفار و قوتهم لا- تزول و لا- تضمحل بمجرّد دعوة المؤمنين إلى الجهاد و ترغيبهم فيه، بل يجب هنا- أيضا- أن يسعى المؤمنون لتوفير المقدمات الاخرى للقضاء على قدرة الكفار، منها إعداد وسائل القتال و الالتزام بالخطة التى يضعها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و السير عليها من أجل الوصول إلى الهدف النهائى.

و هكذا يتبيّن لنا أنّ لا- ضرورة لصرف كلمتى «عسى» و «لعل» و أشباههما عن معانيها الحقيقية متى ما وردت فى كلام اللّه تعالى [۱۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۵]

اشارة

مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (۸۵)

التّفسير

عواقب التّحريض على الخير أو الشرّ:

لقد أشير فی الآیة السابقة إلی أنّ کل إنسان مسئول عن عمله و عمّا هو مکلّف بأدائه، و لا یسأل أی إنسان عن أفعال الآخرین.
أمّا هذه الآیة فقد جاءت لکی تسدّ الطریق أمام کل فهم خاطئ للآیة السابقة، فبیّنت أنّ الإنسان إذا حرّض الغیر علی فعل الخیر أو فعل الشر فینال نصیبا من ذلک الخیر أو الشر:
مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها ....
و هـذا بحدّ ذاته- حثّ علی دعوة الآخرین إلی فعل الخیر و التزام جانب الحق، و نهی الغیر عن فعل الشـر، کما تبیّن هـذه الآیة اهتمام القرآن بنشر الروح الاجتماعیة لدی المسلمین، و دعوتهم إلی نبذ الأنانیة أو الانطوائیة، و إلی عدم تجاهل الآخرین، و ذلک من خلال التواصی بالخیر و الحق و التحذیر من الشرّ
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۶
و الباطل.
و کلمة «الشـفاعة» الواردة فی الآیة من «الشّفع» و هو ضم الشیء إلی مثله، و قد یکون هذا الضم أحیانا فی عمل الإرشاد و الهدایة، أی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و تکون الشفاعة السیئة أمرا بالمنکر و نهیا عن المعروف.
و إذا حصـلت الشـفاعة للعاصـین لإنقاذهم من نتائـج أعمالهم السـیئة، فهی بمعنی الإغاثة للعاصـین اللائقین للشـفاعة، بعبارة أخری قد تحصل الشـفاعة قبل القیام بممارسـة الـذنب، و فتعنی الإرشاد و النصح، کما تحصل بعد ارتکاب الذنب أو الخطأ، و تعنی- هنا- إنقاذ المذنب أو الخاطئ من عواقب و نتائج جریرته، و کلا الحالتین یصدق علیهما معنی ضم شیء إلی آخر.
و مع أنّ مفهوم الآیة عام شامل لکل دعوة إلی الخیر أو الشـر، و لکن ورود الآیة ضـمن آیات الدعوة إلی الجهاد یجعل معنی الشـفاعة الحسـنة دعوة النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم المسـلمین إلی الجهـاد، و حثّهم علیه، و یجعـل معنی الشـفاعة السـیئة دعوة المنـافقین المسلمین إلی ترک الجهاد و عدم المشارکة فیه، و الآیة تؤکد بأن کلا الشفیعین ینال نصیبا من شفاعته.
ثمّ إن ورود کلمة الشـفاعة هنا ضمن الحدیث عن القیادة (القیادة إلی الحسنات أو إلی السیئات) قد یکون إشارة إلی أن حدیث القائد (قائـد خیر کـان أم قائـد شـرّ) لا یـدخل قلوب الآخرین إلّا إذا ألغوا کل امتیاز یفرقهم عن هؤلاء الآخرین، فلا بـدّ لهم أن یکونوا قرناء للناس و منضمّین إلیهم کی تکون لهم الکلمة النافذة، و هذه مسألة هامة فی تحقیق الأهداف الاجتماعیة.
و مـا ورد عبـارة «أخـوهم» أو «أخـاهم» فی الحـدیث عن الأنبیـاء و الرسـل، ضـمن آیـات سـور الشـعراء و الأعـراف و هود و النمـل و العنکبوت، إلّا للإشارة إلی هذه المسألة.
و الشیء الآخر الذی تجدر الإشارة إلیه هنا، هو أنّ القرآن أتی بعبارة
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۷
«نصـیب» لدی الحدیث عن الشـفاعة الحسـنة، بینما استخدم عبارة «کفل» حین تحدث عن الشفاعة السیئة، و الفرق بین التعبیرین هو أنّ الأولی تسـتخدم حین یکون الحدیث عن حصّة من الربح و الفائدة و الخیر، أمّا الثّانیة فتستخدم إذا کان الکلام عن الخسارة و الضرر و

الشرّ، فالنصیب تعبیر عن نصیب الخیر، و الکفل تعبیر عن حصّة الشرّ[۱۷۲].

و هذه الآیة، تبیّن نظرة إسلامیة أصیلة إلی المسائل الاجتماعیة، و تصرّح أنّ الناس شرکاء فی مصائر ما یقوم به قسم منهم من أعمال عن طریق الشفاعة و التشجیع و التوجیه، من هنا فکل کلام أو عمل- بل کل سکوت- یؤدی إلی تشجیع الآخرین علی الخیر، فإنّ المشجع یناله سهم من نتائج ذلک العمل دون أن ینقص شیء من سهم الفاعل الأصلی.

فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من أمر بمعروف أو نهی عن منکر أو دل علی خیر أو أشار به، فهو شریک، و من أمر بسوء أو دل علیه أو أشار به، فهو شریک».

و یبیّن هذا الحدیث الشریف ثلاث مراحل لدعوة الأشخاص إلی الخیر أو إلی الشر.

المرحلة الأولی: الأمر، و هی الأقوی.

و الثّانیة: الدلالة و هی الوسطی.

و الثّالثة: الإشارة و هی المرحلة الضّعیفة.

و علی هذا الأساس فإن حثّ الآخرین أو تحریضهم علی ممارسة فعل معین، سیجعل للمحرض نصیبا من نتیجة هذا الفعل یتناسب و مدی قوّة التحریض وفق المراحل الثلاث المذکورة.

و بناء علی هذه النظرة الإسلامیة، فإن مرتکبی الذنب لیسوا هم وحدهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۸

مذنبین، بل یشترک فی الذنب معهم کل الذین شجعوا المرتکبین علی ذنبهم، عن طریق وسائل الإعلام المختلفة أو إعداد الأجواء المساعدة، بل حتی عن طریق إطلاق کلمة صغیرة مشجعة، و هکذا الذین یقومون بمثل هذه الأعمال علی طریق الخیرات ینالون سهمهم من نتائجها.

و یستشف من الأحادیث المرویة فی تفسیر هذه الآیة أنّ الشفاعة بکلا جانبیها تطلق- أیضا- علی الدعاء بالخیر أو بالشر للآخرین، و إنّ الدعاء للآخرین أو علیهم یعتبر نوعا من الشفاعة لدی اللّه تعالی.

نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «من دعا لأخیه المسلم بظهر الغیب أستجیب له و قال له الملک: فلک مثلاه، فذلک النصیب»[۱۷۳].

و لا ینافی هذا التّفسیر ما تطرقنا إلیه سابقا، بل یعتبر توسعا فی معانی الشفاعة، فکل إنسان یقدم مساعدة لنظیره الإنسان، سواء کانت عن طریق الدعوة إلی فعل الخیرات أو الدعاء له أو عن أی طریق آخر، فسینال نصیبا من ثمار هذه المساعدة.

و بهذا الأسلوب من المشاطرة الفعلیة الخیرة یخلق الإسلام لدی الإنسان روحا اجتماعیة تخرجه من أنانیته و انطوائیته و تجعله یعتقد أن لن یصیبه ضرر إذا سعی فی حاجة أخیه الإنسان أو ساعد علی تحقیق مصالح غیره، بل سیناله الخیر، و سیکون شریکا لأخیه فیما سعی إلی تحقیقه له من مصالح و منافع.

و الآیة- هذه- تؤکد أیضا حقیقة ثابتة أخری، و هی أنّ اللّه قادر علی مراقبة الإنسان و تدوین ما یقوم به من أعمال، ثمّ محاسبته علیها، و اثابته علی خیرها، و معاقبته علی شرها وَ کانَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ مُقِیتاً.

و عبارة «مقیت» مشتقة من «القوت» و هو الغذاء الذی یساعد جسم الإنسان علی البقاء و علی هذا یکون «مقیت» اسم فاعل من باب افعال، و تعنی هنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۹

الشخص الذی یعطی الآخرین قوتهم و غذاءهم، و هو بهذه الوسیلة یکون حافظا لحیاتهم و لهذا تأتی کلمة «مقیت» بمعنی «حافظ» و الحافظ یمتلک القدرة علی الحفظ، و من هنا تکون کلمة «مقیت» بمعنی «المقتدر» أیضا، کما أن المقتدر یمتلک حساب من یعملون

ضمن قدرته فتكون عندئذ كلمة «المقيت» بمعنى «الحسيب» أيضا، و قد يكون معنى الكلمة فى الآية شاملا لكل هذه المعانى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۰

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۶]

اشارة

وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (۸۶)

التّفسير

دعوة إلى مقابلة الودّ بالودّ:

رغم أنّ بعض المفسّرين يرون أنّ العلاقة بين هذه الآية و الآيات السابقة ناشئة عن كون الآيات تلك تناولت موضوع الجهاد و الحرب، و الآية الأخيرة تدعو المسلمين إلى أن يواجهوا كل بادرة سليمة من قبل العدو بموقف يناسبها، و لكن هذه الصلة لا تمنع أن تكون الآية الأخيرة حكما عاما يشمل كل أقسام تبادل المشاعر الخيرة النّبيلة بين مختلف الأطراف و الأفراد، و هذه الآية تأمر المسلمين بمقابلة مشاعر الحبّ بما هو أحسن منها، أو على الأقل بما يساويها أو يكون مثلها، فتقول الآية: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها.

و «التّحية» مشتقة من «الحياة» و تعنى الدعاء لدوام حياة الآخرين، سواء كانت التحية بصيغة «السّلام عليكم» أو «حياك اللّه» أو ما شاكلهما من صيغ التحية و السلام، و مهما تنوعت صيغ التحية بين مختلف الأقوام تكون صيغة «السلام» المصداق الأوضح من كل تلك الأنواع، و لكن بعض الروايات و التفاسير تفيد أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۱

مفهوم التحية يشمل- أيضا- التعامل الودى العملى بين الناس.

فى تفسير على بن إبراهيم عن الباقر و الصّادق عليهما السّلام أن: «المراد بالتّحية فى الآية السلام و غيره من البر».

و فى «المناقب» أنّ جارية أهدت إلى الإمام الحسن عليه السّلام باقة من الورد فأعتقها، و حين سئل عن ذلك استشهد بقوله تعالى: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها.

و هكذا يتّضح لنا أنّ الآية هى حكم عام يشمل الردّ على كل أنواع مشاعر الودّ و المحبّة سواء كانت بالقول أو بالعمل- و تبيّن الآية فى آخرها أنّ اللّه يعلم كل شىء، حتى أنواع التحية و السلام و الردّ المناسب لها، و أنّه لا يخفى عليه شىء أبدا، حيث تقول: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً.

السّلام، تحية الإسلام الكبرى:

لا يخفى أنّ لكل جماعة إنسانية تقاليد خاصّة فى التحية لدى التلاقى فيما بينهم، بها يتبادلون مشاعر الحبّ و الصفاء، و المودة، و التحية كما هى صيغة لفظية يمكن أن تكون- أيضا- حركة عملية يستدل منها على مشاعر الحبّ و الودّ المتبادلة.

و قد جاء الإسلام بكلمة «السّلام» مصطلحا للتحية بين المسلمين، و الآية موضوع البحث مع كونها عامة شاملة لأنواع التحية، لكن

المصداق الأوضح و الأظهر لها يتجسد فى كلمة «السّلام».

و بناء على ذلك فإنّ المسلمين مكلّفون بردّ السّلام بأحسن منه، أو على الأقل بما يماثله.

و فى آية أخرى إشارة واضحة إلى أنّ السّلام هو التحية حيث تقول: فَإِذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۲

دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۱۷۴] و يمكن الاستدلال من هذه الآية على أن عبارة (السلام عليكم» هى فى الأصل «سلام اللّه عليكم» أى ليهبك اللّه السلامة و الأمن، و هكذا يتّضح لنا أنّ السلام يعتبر دلالة على الحبّ و الود المتبادل، كما هو دلالة على نبذ الحرب و النزاع و الخصام.

و قد دلت آيات قرآنية أخرى على أنّ السّلام هو تحية أهل الجنّة، حيث يقول سبحانه: أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً[۱۷۵].

و يقول تعالى: تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ...[۱۷۶].

كما أنّ آيات قرآنية أخرى دلت على أنّ السلام أو أى صيغة أخرى تعادله، كان سائدا بين الأقوام التى سبقت الإسلام، و هذا هو ما تشير إليه الآية (۲۵) من سورة الذاريات فى قصة إبراهيم مع الملائكة حيث تقول: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ

و الشعر الجاهلى فيه دلائل تثبت أن السلام كان- أيضا- تحية أهل الجاهلية[۱۷۷].

إنّ تحية الإسلام تبرز أهميتها و قيمتها العظيمة، لدى مقارنتها بما لها من نظائر لدى الأمم و الأقوام الاخرى.

النصوص الإسلامية تؤكد كثيرا على السّلام و التّحية، حيث

يروى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من بدأ بالكلام قبل السّلام فلا تجيبوه»[۱۷۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۳

كما

يروى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ اللّه يقول: «البخيل من يبخل بالسّلام»[۱۷۹]

و عن الإمام الباقر عليه السّلام: «إنّ اللّه يحبّ إفشاء السلام»[۱۸۰].

و قد ورد فى الروايات و الأحاديث آداب كثيرة للتحية و السلام، منها أنّ السلام يجب أن يشيع بين جميع أبناء المجتمع و أن لا ينحصر فى إطار الأصدقاء و الأقارب،

فقد روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه سئل: أى العمل خير: فأجاب صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«تطعم الطّعام و تقرأ السّلام على من عرفت و من لم تعرف»[۱۸۱].

كما ورد فى الأحاديث أن من آداب التحية أن يسلم الراكب على الراجل، و الراكب على دابة غالية الثمن يسلم على من يركب دابة أقل ثمنا، و قد يكون الأمر حثّا على التزام التواضع، و نهيا عن التكبر أو محاربة له، فالتكبر غالبا ما يستولى على أهل المال و الجاه و هذا عكس ما نشاهده فى عصرنا حيث يتحتم على الطبقات الدانية من المجتمع أن تبادر الطبقات العليا بالسّلام، و بذلك يضفون على هذا الأمر طابعا استعباديا وثنيا، بينما كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أوّل من يبادر الآخرين بالسلام، و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبتدئ بالسلام حتى على الصبية الصغار، و بديهى أنّ هذا الأمر لا ينافى ما ورد فى الروايات من حثّ صغار السن على مبادرة كبارهم بالسلام و التحية و الاحترام، لأنّ هذا السلوك يعتبر نوعا من الآداب الإنسانية الحميدة، و لا ارتباط له بالتمييز الطبقى.

و من جانب آخر نجد روايات تأمر بعدم السّلام على المرابين و الفاسقين و أمثالهم، و يعتبر هذا الأمر سلاحا لمحاربة الفساد و الربا، أمّا إذا كان السلام يؤدى إلى التأثير على المفسد و المنحرف، و يجعله يرتد عن غيه و يترك الفساد و الانحراف، فلا مانع منه و لا بأس به.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۴

و لا یفوتنا هنا أن نوضح أنّ المراد من رد التحیة بالأحسن هو أن نعقب السلام بعبارات مثل «و رحمة اللّه» أو «و رحمة اللّه و برکاته».

ورد فی تفسیر «الدّر المنثور» أنّ شخصا أتی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: السّلام علیکم. فإجابة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: و علیک السّلام و رحمة اللّه. ثمّ جاءه آخر و قال:

السّلام علیکم و رحمة اللّه.

فأجابه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و علیک السّلام و رحمة اللّه و برکاته. فجاءه ثالث و قال:

السّلام علیک و رحمة اللّه و برکاته. فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «و علیک»- و عند ما سئل عن علّة هذا الجواب القصیر، قال: إنّ القرآن یقول: إذا حیّیتم بتحیة فحیوا بأحسن منها، و لکنک لم تبق شیئا»[۱۸۲].

و فی الحقیقة أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد ردّ التحیة بأحسن منها فی الموردین السابقین، أمّا فی المورد الثّالث ردّها بالمساوی کلمة «و علیک» تعنی أنّ کل ما قلته لی مردود علیک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۵

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۸۷]

اشارة

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَیَجْمَعَنَّکُمْ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ لا رَیْبَ فِیهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِیثاً (۸۷)

التّفسیر

جاءت هذه الآیة مکملة لما سبقتها و مقدمة لما تلیها من آیات، فالآیة السابقة بعد أن أمرت بردّ التحیة قالت: إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ حَسِیباً.

و الآیة موضوع البحث تشیر إلی قضیة غیبیة مهمّة هی قضیة یوم البعث و الحساب، حیث محکمة العدل الإلهیة العامّة للبشر أجمعین، و تقرنها بمسألة التوحید الذی هو رکن آخر من أرکان الإیمان اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَیَجْمَعَنَّکُمْ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ لا رَیْبَ فِیهِ

و عبارة لَیَجْمَعَنَّکُمْ تدلّ علی الشمولیة لکل البشر من أوّلهم حتی آخرهم، حیث سیجمعون «کلّهم» فی یوم واحد هو یوم الحشر و القیامة.

و فی موضع آخر من القرآن (الآیتان ۹۳ و ۹۴ من سورة مریم) أشیر أیضا إلی هذه الحقیقة ... حقیقة بعث جمیع عباد اللّه- من سکن منهم علی هذه الکرة الأرضیة أو علی کرات أخری- فی یوم واحد.

و عبارة لا رَیْبَ فِیهِ الواردة فی الآیة و فی آیات أخری، إنّما هی إشارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۶

إلی الأدلة القطعیة البدیهیة علی وقوع یوم القیامة، مثل دلیل «قانون التکامل» و «حکمة الخلق» و «قانون العدل الإلهی»، المذکورة بالتفصیل فی مبحث المعاد.

و تؤکد الآیة فی نهایتها علی حقیقة أنّ اللّه هو أصدق الصادقین: مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِیثاً من هنا لا یجوز أن یساور أحد الشک فیما یعد به اللّه من بعث و نشور و غیره من الوعود، فالکذب لا یصدر إلّا عن جهل أو ضعف و حاجة، و اللّه أعلم العالمین، و إلیه سبحانه یحتاج العباد دون أن یحتاج هو إلی أحد مطلقا، فهو منزّه عن صفات الجهل و الضعف و العجز، و لذلک فهو أصدق الصادقین، بل

إن الكذب بالنسبة إلى اللّه تعالى لا مفهوم له إطلاقا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۸]

اشارة

فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (۸۸)

سبب النّزول

نقل جمع من المفسّرين عن ابن عباس أن نفرا من أهل مكّة من الـذين كانوا قـد أظهروا الإسـلام امتنعوا عن ترک مجاورة و مـداهنة المنافقين، و أحجموا لـذلک عن الهجرة إلى المدينـة، و كان هؤلاء فى الحقيقة يساندون و يدعمون عبدة الأوثان المشـركين، إلّا أنّهم اضـطروا فى النهاية إلى الخروج من مكّة (و ساروا مع المسـلمين حتى وصـلوا إلى مشارف المدينة، و لعلّهم فعلوا ذلک لدرء الفضيحة عن أنفسـهم أو بهـدف التجسس على المسـلمين المهـاجرين) و كانوا يظهرون الفرح لانطواء حيلتهم على المسلمين، كما حسـبوا أن دخولهم إلى المدينـة سوف لاـ تعترضه أى مشاكل من قبل الآخرين- لكن المسـلمين انتبهوا الى حقيقـة هؤلاء، غير أنّهم انقسـموا إلى فئتين، فئـة منهم رأت ضـرورة طرد أولئک النفر من المنافقين الـذين كانوا فى الحقيقة يدافعون عن المشـركين أعداء الإسـلام، و الفئة الثانيـة من المسـلمين الـذين كـانوا لسـذاجتهم يرون ظـاهر الأمور دون باطنها، و خالفوا طرد المنافقين و اعترضوا بزعمهم أنّه لا يمكن محاربة أو طرد من يشهد للّه بالوحدانية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۸

و لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنّبوة، و قالوا: أنّه لا يمكن استباحة دماء هؤلاء لمجرّد عدم هجرتهم مع المسلمين: فنزلت هذه الآية الكريمة و هى تلوم الفئة الأخيرة على خطئها، و ترشدها إلى طريق الحقّ الصواب [۱۸۳].

التّفسير

اسـتنادا إلى سبب النزول الذى ذكرناه، تتّضح لنا الصّلة الوثيقة بين هذه الآية و الآيات التى تليها، و كذلک الآيات السابقة التى تناولت مواضيع و قضايا عن المنافقين.

فهـذه الآيـة تخاطب فى البدايـة المسـلمين و تلومهم على انقسامهم إلى فئتين، كل فئة تحكم بما يحلو لها بشأن المنافقين، حيث تقول: فَمـا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ ...[۱۸۴] و تنهى المسـلمين عن الاختلاـف فى أمر نفر أبوا أن يهـاجروا معهم، و تعاونوا مع المشـركين، و أحجموا عن مشاركـة المجاهـدين، فظهر بـذلک نفـاقهم، و دلت على ذلک أعمالهم، فلا يجوز للمسـلمين أنّ ينخـدعوا بتظاهر هؤلاء بالتوحيد و الإيمان، كما لا يجوز لهم أن يشفعوا فى هؤلاء، و قد أكّدت الآية السابقة أن: مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها.

و تبيّن الآيـة بعد ذلک: إنّ اللّه قد سلـب من هؤلاء المنافقين كل فرصة للنجاح، و حرمهم من لطفه و عنايته بسـبب ما اقترفوه و إنّ اللّه قد قلب تصورات هؤلاء بصورة تامّة فأصبحوا كمن يقف على رأسه بدل رجليه: ... وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا ...[۱۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۹

و تـدل عبـارة «بما كسـبوا» على أنّ كل ارتـداد أو خروج عن جادة الحقّ و طريق الهدايـة و السـعادة و النجاة، إنّما يتمّ بعمل الإنسان و

فعله، و حین ینسب الإضـلال إلی اللّه سـبحانه عزّ و جلّ، فذلک معناه أنّ اللّه القدیر الحکیم یجازی کل إنسان بما کسبت یداه و یثیبه بقدر ما یستحق من ثواب.

و فی الختام تخاطب الآیـهٔ أولئک البسـطاء من المسـلمین الـذین انقسـموا علی أنفسـهم و أصـبحوا یـدافعون لسذاجتهم عن المنافقین، فتؤکـد لهم أنّ هدایـهٔ من حرمه اللّه من لطفه و رحمته بسبب أفعاله الخبیثهٔ الشـنیعهٔ أمر لا یمکن تحقیقه، لأنّ اللّه قد کتب علی هؤلاء المنافقین ما یستحقونه من عذاب و ضـلال و حرمان من الهدایهٔ و النجاهٔ أ تُرِیدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلًا.

إذ أنّ عمـل کـل شـخص لاـ ینفصـل عنه ... و هـذه سـنهٔ إلهیـهٔ ... فکیف یؤمـل فی هدایـهٔ أفراد امتلأت أفکارهم و قلوبهم بالنفاق، و اتجهت أعمالهم إلی حمایهٔ أعداء اللّه؟! إنّه أمل لا یقوم علی دلیل ۱۸۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۰

الآیهٔ [سورهٔ النساء (۴): آیهٔ ۸۹]

اشارهٔ

وَدُّوا لَوْ تَکْفُرُونَ کَمـا کَفَرُوا فَتَکُونُونَ سَواءً فَلاـ تَتَّخِـذُوا مِنْهُمْ أَوْلِیـاءَ حَتَّی یُهـاجِرُوا فِی سَبِیـلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُـذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۸۹)

التّفسیر

اشارهٔ

لقـد تحـدثت الآیـهٔ السابقـهٔ عن المنافقین الـذین کانوا یحظون بحمایـهٔ نفر من المسـلمین البسـطاء و شـفاعتهم، و أوضـحت أنّ هؤلاء المنافقین غرباء عن الإسـلام، و هـذه الآیهٔ تبیّن أنّ المنافقین لفرط انحرافهم و ضـلالتهم یعجبهم أن یجروا المسـلمین إلی الکفر کی لا یظلوا وحدهم کافرین: وَدُّوا لَوْ تَکْفُرُونَ کَما کَفَرُوا فَتَکُونُونَ سَواءً.

و لهذا السـبب فإنّ المنافقین أسوأ من الکفار، لأنّ الکافر لا یحاول سـلب معتقدات الآخرین، و المنافقون یفعلون هذا الشـیء و یسعون دائما لإفساد المعتقـدات، و هم بطبعهم هـذا لا یلیقون بصـحبهٔ المسـلمین أبـدا، تقول الآیـهٔ الکریمـهٔ: فَلا تَتَّخِـذُوا مِنْهُمْ أَوْلِیاءَ ... إلّا إذا غیروا ما فی أنفسهم من شرّ، و تخلوا عن کفرهم و نفاقهم و أعمالهم التخریبیهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۱

و لکی یثبتـوا حصـول هـذا التغییر، و یثبتوا صـدقهم فیه، علیهم أن یبـادروا إلی الهجرهٔ من مرکز الکفر و النفـاق إلی دار الإسـلام (أی یهاجروا من مکّهٔ إلی المدینهٔ) فتقول الآیهٔ: حَتَّی یُهاجِرُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ ... أمّا إذا رفضوا الهجرهٔ فلیعلم المسـلمون بأن هؤلاء لا یرضون لأنفسـهم الخروج من حالهٔ الکفر و النفاق، و إن تظاهرهم بالإسلام لیس إلّا من أجل تمریر مصالحهم و أهدافهم الدنیئهٔ و من أجل أن یسهل علیهم التآمر و التجسس علی المسلمین.

و فی هـذه الحالـهٔ یستطیع المسـلمون أن یأسـروهم حیثمـا وجـدوهم، و أن یقتلوهم إذا اسـتلزم الأـمر، تقول الآیـهٔ الکریمـهٔ: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

و تکرر هذه الآیهٔ التأکید علی المسلمین أن یتجنّبوا مصاحبهٔ هؤلاء المنافقین و أمثالهم فتقول: لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً.

و القرآن فى هذا الحكم يؤكّد حقيقة مصيرية للمجتمع، هى أنّ حياة أى مجتمع تمرّ بمرحلة إصلاحية لا يمكن أن تستمر بصورة سليمة ما لم يتخلص من جراثيم الفساد المتمثلة بهؤلاء المنافقين أو الأعداء الذين يتظاهرون بالإخلاص، و هم فى الحقيقة عناصر مخربة هدامة تعمل فى التآمر و التجسس على المجتمع و مصالحه العامّة.

و الطريف هنا أنّ الإسلام- مع اهتمامه برعاية أهل الكتاب من اليهود و النصارى و غيرهم و منعه الظلم و العدوان عنهم- نراه يشدد كثيرا فى التحذير من خطر المنافقين، و يرى ضرورة التعامل معهم بعنف و قسوة، و رغم تظاهرهم بالإسلام يصرح القرآن بأسرهم، بل حتى بقتلهم إن استلزم الأمر.

و ما هذا التشديد إلّا لأنّ هؤلاء يستطيعون ضرب الإسلام تحت ستار الإسلام، و هذا ما يعجز عن أدائه أى عدو آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۲

سؤال:

قد يرى البعض أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يتحاشى قتل المنافقين كى لا يتهمه الأعداء بأنّه يقتل أصحابه، أو أنّه لم يقتلهم حتى لا يستغل الآخرون هذا الأمر فيقتلون كل من يعادونه بدعوى أنّه منافق، فكيف يتلاءم هذا الموقف مع الآية الشريفة.

الجواب:

الحقيقة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اتّبع هذا الأسلوب مع منافقى المدينة الذين لم يظهروا العداء الصريح له أو للإسلام، بينما اتّبع مع منافقى مكّة الذين جهروا بعدائهم للمسلمين و ساعدوا الكفار عليهم أسلوبا غير هذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۰]

اشارة

إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (۹۰)

سبب النّزول

وردت روايات عديدة تفيد أنّ إثنتين من القبائل العربية فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هما قبيلتا «بنى ضمرة» و «أشجع» كانت إحداهما و هى قبيلة بنى ضمرة قد عقدت مع النّبى اتفاقا بترك النزاع، و كانت القبيلة الثانية حليفة للقبيلة الأولى دون أن تعقد مثل هذا الاتفاق مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تقول الروايات إن بعض المسلمين أخذوا يشككون فى وفاء «بنى ضمرة» للمسلمين، و اقترحوا على النّبى أن يهاجم هذه القبيلة قبل أن تبادر هى بالهجوم على المسلمين،

فرد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا:

«كلّا، فإنّهم أبر العرب بالوالدين، و أوصلهم للرّحم، و أوفاهم بالعهد».

و بعد فترة علم المسلمون أنّ قبیلة «أشجع» و علی رأسها «مسعود بن رجیلة» قد وصلت حتی مشارف المدینة، و هی فی سبعمائة رجل، فبعث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وفدا للتعرف علی سبب مجیئهم إلی ذلک المکان، فأجابت هذه القبیلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۴

بأنّها جاءت لکی تعقد اتفاقا مع المسلمین مماثلا لاتفاق «بنی ضمرة» معهم، و ما أن علم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الأمر حتی أمر أصحابه بأن یأخذوا مقدارا من التمر هدیة لهذه القبیلة، ثمّ التقی بهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فأخبروه بأنّهم لعجزهم عن موازرة المسلمین فی قتال الأعداء، و لعدم رغبتهم فی المشارکة فی قتال ضد المسلمین، لما تربطهم بهم من صلة الجوار، لذلک یرومون عقد اتفاق أو میثاق مع المسلمین بتحریم العدوان بینهما، فنزلت الآیة المذکورة بهذا الشأن و هی تبیّن للمسلمین ما یجب علیهم أن یفعلوه فی مثل هذه الحالة.

و یقول مفسرون آخرون إنّ قسما من هذه الآیة قد نزل فی شأن قبیلة «بنی مدلج» التی جاءت إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أخبرته أنّها ترید الاتفاق معه علی عدم اللجوء إلی العدوان فیما بینهما، و ذلک لرغبتها فی البقاء علی الحیاد تجاه المسلمین و دعوتهم.

التّفسیر

التّرحیب باقتراح السّلم:

بعد أن أمر القرآن الکریم المسلمین فی الآیات السابقة باستخدام العنف مع المنافقین الذین یتعاونون مع أعداء الإسلام، تستثنی هذه الآیة من الحکم المذکور طائفتین:

۱- من کانت لهم عهود و مواثیق مع حلفائکم إِلَّا الَّذِینَ یَصِلُونَ إِلی قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثاقٌ

۲- من کانت ظروفهم لا تسمح لهم بمحاربة المسلمین، کما أنّ قدرتهم لیست علی مستوی التعاون مع المسلمین لمحاربة قبیلتهم أَوْ جاؤُکُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ یُقاتِلُوکُمْ أَوْ یُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ

و من الواضح أنّ أفراد الطائفة الأولی یجب أن یکونوا مستثنین من هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۵

القانون احتراما للعقود و العهود، و أمّا المجموعة الثانیة- و إن لم تکن معذورة، بل علیها أن تستجیب للحق بعد معرفته- فقد أعلنت حیادها، و لذلک فمجابهتها یتعارض مع مبادئ العدالة و المروءة.

و لکی لا یستولی الغرور علی المسلمین إزاء کل هذه الانتصارات الباهرة، و کی لا یعتبروا ذلک نتیجة قدرتهم العسکریة و ابتکارهم، و لا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحایدة تقول الآیة: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَیْکُمْ فَلَقاتَلُوکُمْ

و هذا تذکیر للمسلمین بعدم نسیان اللّه فی کل انتصار، و أن یتجنّبوا الغرور و العجب حیال ما لدیهم من قوّة، و أن لا یعتبروا العفو عن الضعفاء خسارة أو ضررا لأنفسهم.

و تکرر الآیة فی ختامها التأکید بأنّ اللّه لا یسمح للمسلمین بالمساس بقوم عرضوا علیهم الصلح و تجنبوا قتالهم، و إن المسلمین مکلفون بأن یقبلوا دعوة الصلح هذه، و یصافحوا الید التی امتدت إلیهم و هی ترید الصلح و السلام فَإِنِ اعْتَزَلُوکُمْ فَلَمْ یُقاتِلُوکُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَیْکُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَکُمْ عَلَیْهِمْ سَبِیلًا.

یلفت النظر أنّ القرآن فی هذا الموضع و مواضع أخری یذکر مقترح السلام بعبارة «إلقاء السلام» و قد یکون ذلک إشارة إلی التباعد

بین الجانبین المتنازعین قبل الصلح، حتی أنّ أحد الجانبین یطرح اقتراحه باحتیاط و عن بعد لیلقیه علی الجانب الآخر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۶

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۹۱]

اشارة

سَتَجِدُونَ آخَرِینَ یُرِیدُونَ أَنْ یَأْمَنُوکُمْ وَ یَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ کُلَّما رُدُّوا إِلَی الْفِتْنَةِ أُرْکِسُوا فِیها فَإِنْ لَمْ یَعْتَزِلُوکُمْ وَ یُلْقُوا إِلَیْکُمُ السَّلَمَ وَ یَکُفُّوا أَیْدِیَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَیْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِکُمْ جَعَلْنا لَکُمْ عَلَیْهِمْ سُلْطاناً مُبِیناً (۹۱)

سبب النّزول

لقد ذکروا أسبابا مختلفة لنزول هذه الآیة، و أشهرها هو أنّ نفرا من أهل مکّة کانوا حین یحضرون عند النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتظاهرون بالإسلام کذبا و خداعا، و ما أن یرجعوا إلی قریش یعودون لعبادة الأصنام، و قد انتخب هؤلاء هذا النوع من السلوک درءا لخطر المسلمین و خطر قریش عن أنفسهم، بالإضافة إلی سعیهم لإمرار مصالحهم لدی الطرفین، فنزلت هذه الآیة و أمرت المسلمین بالتعامل مع هؤلاء بعنف و شدّة.

التّفسیر

عقاب ذی الوجهین:

إنّ هذه الآیة تصور لنا طائفة من الناس نقیض تلک الطائفة التی تحدثت عنها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۷

الآیة السابقة و أمرت بقبول الصلح منها، و الطائفة تتشکل من أفراد نفعیین انتهازیین، همّهم الوحید تحقیق مصالحهم و التحرک بحریة تامّة لدی المسلمین، و قریش عن طریق الریاء و الخیانة و الخداع، و التظاهر بتأیید و اتباع الجانبین و التعاون معهما، و فی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: سَتَجِدُونَ آخَرِینَ یُرِیدُونَ أَنْ یَأْمَنُوکُمْ وَ یَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ....

و هؤلاء حین تسنح لهم الفرصة ینقلبون علی أعقابهم و ینغمسون فی الفتنة و الشرک نکسا علی رؤوسهم کُلَّما رُدُّوا إِلَی الْفِتْنَةِ أُرْکِسُوا فِیها ....

و عمل هؤلاء و سلوکهم علی عکس سلوک الطائفة السابقة التی أرادت أن تبقی علی الحیاد فقد تجنبت الفئة السابقة إیذاء المسلمین، أمّا هذه الأخیرة فقد انطوت سریرتها علی إیذاء المسلمین و الوقوف ضدهم.

و قد اشترط القرآن الکریم علی هذه الطائفة ثلاثة شروط من أجل أن تبقی فی مأمن من انتقام المسلمین، و هذه الشروط هی: اعتزال المسلمین، أو مصالحتهم، أو الکف عن إیذائهم حیث تقول الآیة الکریمة: فَإِنْ لَمْ یَعْتَزِلُوکُمْ وَ یُلْقُوا إِلَیْکُمُ السَّلَمَ وَ یَکُفُّوا أَیْدِیَهُمْ ....

و إذا رفضت هذه الطائفة الشروط المذکورة و أصرت علی العصیان و التمرد، فالمسلمون مکلّفون عند ذلک بإلقاء القبض علی أفرادها و قتلهم أینما وجدوا، کما تقول الآیة: فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَیْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ

و لما کانت الحجّة قد تمّت علی هؤلاء، تقول الآیة فی الخاتمة: أُولئِکُمْ جَعَلْنا لَکُمْ عَلَیْهِمْ سُلْطاناً مُبِیناً.

و قد يكون هذا التسلط فى مجال الكلام و المنطق إذا تغلب منطق المسلمين على منطق المشركين و الكافرين، و قد يكون سلطانا ماديا ظاهريا عليهم لأنّ الآية نزلت فى وقت كان المسلمون يتمتعون فيه بقدر كاف من القوّة.

و تشير عبارة «ثقفتموهم» الواردة فى الآية إلى احتياج المسلمين إلى الدقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۸

و المهارة فى التعرف على هذه الفئة المنافقة الخطيرة، لما لها من قابلية عجيبة على التلون و الخداع و الانفلات من العقاب، فعبارة «ثقفتموهم» مشتقة من المصدر «ثقافة» الذى يعنى الحصول على شىء باستخدام الدقّة و المهارة، بينما الفعل «وجد» يعنى الحصول على الشىء بصورة مطلقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۹

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۲]

اشارة

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۹۲)

سبب النّزول

ذكروا أنّ مشركا من أهل مكّة و هو «الحارث بن زيد» كان يعذب أحد المسلمين- و لفترة طويلة- بالتعاون مع أبى جهل، و كان اسم هذا المسلم «عياش بن أبى ربيعة» و لم يكن تعذيبه بسبب جرم اقترفه، بل كان يعذب لمجرّد أنّه آمن بالإسلام، و بعد هجرة المسلمين إلى المدينة هاجر «عياش» إليها، فصادف يوما «الحارث بن زيد» فى إحدى طرقات المدينة فقتله ظنّا منه أنّه ما زال عدوا للمسلمين، و لم يكن على علم بأن الحارث كان قد تاب و أسلم، فعلم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الحادث، فنزلت الآية الشّريفة و هى تبيّن حكم مثل هذا القتل الناتج عن الخطأ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۰

التّفسير

أحكام القتل النّاتج عن الخطأ:

لقد أطلقت الآية السابقة أيدى المسلمين فى المنافقين الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على الإسلام، و سمحت لهم حتى بقتل أمثال هؤلاء المنافقين، و لكن تفاديا لاستغلال هذا الحكم استغلالا سيئا، و لسد الطريق أمام الأغراض الشخصية التى قد تدفع صاحبها إلى قتل إنسان بتهمة أنّه منافق، و أمام أى تساهل فى سفك دماء الأبرياء، بيّنت هذه الآية و التى تليها أحكام قتل الخطأ و قتل العمد، لكى يكون المسلمون على غاية الدقّة و الحذر فى مسألة الدّماء التى تحظى باهتمام بالغ فى الإسلام، تقول الآية الكريمة: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً.

هـذه الآيـة تقرر فى الواقع حقيقـة من الحقـائق، فالمؤمن لا يسـمح لنفسه إطلاقا أن يسـفك دما بريئا، لأنّ المشاعر الإيمانيـة تجعل من الجماعـة المؤمنـة أعضاء جسـد واحـد، و هل يقـدم عضو فى جسـد على قطع عضو آخر إلّا خطأ! من هـذه الحقيقـة يتّضح أنّ مرتكب جريمة القتل متهم أوّلا فى إيمانه.

و عبارة «إلّا خطأ» لا تعنى السـماح بارتكاب قتل الخطأ! لأنّ مثل هذا القتل لا يكون عن قرار مسبق، و لا يكون مرتكبه حين الارتكاب على علم بخطئه أنّها- إذن- تقرير لحقيقة عدم ارتكاب المؤمن مثل هذه الجريمة إلّا عن خطأ.

ثمّ تبيّن الآية الكريمة غرامة قتل الخطأ، و تقسمها إلى ثلاثة أنواع:

فالنّوع الأوّل: هو أن يحرر القاتل عبـدا مسـلما، و يـدفع الديـة عن دم القتيل إلى أهله إذا كان القتيل ينتمى إلى عائلة مسـلمة وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ فإذا وهب أهل القتيل الدية و تصدقوا بها له فلبس على القاتل أن يدفع شيئا: إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ....

و النّوع الثّانى: من غرامة قتل الخطأ يكون فى حالة ما إذا كان القتيل مسلما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۱

و لكن من عائلة معاديـة للإسـلام و يجب فى هـذه الحالـة عتق عبـد مسـلم و لا تدفع الدية إلى أهل القتيل، لأنّ الإسـلام يرفض تعزيز الحالـة الماليـة لأعدائه، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الإسـلام قد قطع الصـلة بين هذا الفرد و عائلته المعادية للإسـلام، فلا معنى إذن لجبران الخسارة.

أما النّوع الثّالث: من غرامة القتل الناتج عن الخطأ، فيكون فى حالة كون القتيل من عائلة غير مسـلمة لكن بينها و بين المسـلمين عهدا و ميثاقا، فى مثل هـذه الحالـة أمر بـدفع ديـة القتيل إلى أهله، كما أمر- أيضا- بتحرير عبد من العبيد المسـلمين احتراما للعهود و المواثيق تقول الآية: وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۳۸۱

اختلف المفسّرون فى قتيل الحالة الثالثة، هل يجب أن يكون من المسلمين، أم أن الحكم يشمل غيرهم من الكفار الذميين؟

و ظاهر الآية و الروايات التى وردت فى تفسيرها تدل على أنّ المقصود فيها هو القتيل «المسلم».

كمـا اختلف المفسّـرون فى جواز دفع الديـة إلى أهـل القتيـل غير المسـلمين، حيث أنّ الديـة تعتبر جزءا من الإـرث، و الكـافر لا يرث المسـلم، و لكن ظـاهر الآيـة يـدل على وجوب دفع الديـة إلى أهـل مثـل هـذا القتيـل، و ذلـك تأكيـدا من الإسـلام لاحترامه للعهود و المواثيق.

و ذهب بعض المفسّـرين إلى أنّ الدية تدفع فى هذه الحالة إلى المسلمين من ورثة القتيل دون الكافرين منهم معتمدين على أنّ الكافر لا يرث المسلم و أنّ الدية هى جزء من الإرث، و قد وردت إشارات إلى هذا المعنى فى بعض الروايات أيضا.

بينما ظاهر الآية يدل على أن الورثة ليسوا من المسلمين، و ذلك حين تقول:

مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ ... لأن العهود و المواثيق كانت فى ذلك الزمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۲

بين المسـلمين و بين غيرهم، و لم تكن بين المسـلمين أنفسـهم- حينـذاك- عهود أو مواثيق، (و هنا يجب الإمعان و التـدقيق كثيرا من الأمر).

و تسـتطرد الآيـة فى بيـان الحكم فتتطرق إلى أولئـك النفر من المسـلمين الـذين يرتكبون القتل عن خطأ، و لا يسـعهم- لفقرهم- دفع المال ديـة عن القتيل، كما لا يسـعهم شـراء عبـد لتحرير رقبته غرامة عن ارتكابهم للقتل الخطأ، و تبيّن حكم هؤلاء، و تعلن أنهم يجب

أن يصوموا شـهرين متتابعين غرامـة عن القتل الخطأ الـذى ارتكبوه، بدلا من الدية و تحرير الرقبة، و قد اعتبرت ذلك نوعا من تخفيف الجزاء على الـذين لا يطيقون الغرامـة المالية و توبة منهم إلى اللّه، علما أنّ جميع أنواع الغرامات التى ذكرت فى الآية عن القتل الخطأ، إنما هى توبـة و كفارة للـذنب المرتكب فى هذا المجال، و اللّه يعلم بخفايا الأمور و قد أحاط علمه بكل شـىء حيث تقول الآية: تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

لقد وردت فى الآية- موضوع البحث- أمور عديدة يجدر الانتباه إليها و هى:

١- ذكرت الآيـة ثلاثـة أنواع من التعويض عنـد حصول قتـل عن خطأ، و كل نوع فى حـدّ ذاته تعويض عن الخسارة الناجمـة عن هـذا القتل.

فتحرير رقبة عبد مسلم يعتبر تعويضا عن خسارة اجتماعية ناتجة عن القتل الواقع على إنسان مسلم، إذ بعد أن خسر المجتمع فردا نافعا من أفراده بسبب وقوع القتل عليه، حصل على تعويض مماثل و ذلک بدخول إنسان نافع آخر بين أفراده عن طريق التحرير.

و أمّا التعويض المادى «الديـة» فهو مقابل الخسارة الماديـة اللاحقـة بأهل القتيل نتيجـة فقـدهم إياه، و الحقيقة أن الدية ليست ثمنا لدم القتيل المسـلم البرىء، لأن دمه لا تعادله قيمـة، بل هى- و كما أسـلفنا- نوع من التعويض عن خسارة مادية لاحقة بذوى القتيل بسـبب فقدانه.

و أمّا الخيار الثّالث الوارد فى حالة تعذر تقديم التعويض المادى، فيتمثل فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٣٨٣

صيـام شـهرين متتابعين يقوم به القاتل، فهو تعويض أخلاقى و معنوى لخسارة معنويـة لحقت بالقاتل نفسه بسـبب ارتكابه لحادث قتل، فالكفارة تتحقق فى الدرجـة الأولى فى تحرير رقبـة مؤمنة، فإن عجز القاتل فصـيام شـهرين متتابعين- و يجب الانتباه هنا إلى أن تحرير العبيد يعتبر بحدّ ذاته عبادة، لما له من أثر معنوى على العبد الذى يتحرر من قيود الرق.

٢- ورود عبـارة إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا بالنسبـة إلى أهـل القتيـل الـذين هم من المسـلمين، أى أن يتنازلوا عن «ديـة» قتيلهم، حيث لم ترد هـذه العبارة بالنسـبة لغير المسـلمين- و سـبب ذلک واضح، و هو لأن الأرضـية للصـفح و العفو متوفرة لدى المسلمين حيال أمثالهم، بينما لا تتوفر مثل هـذه الأرضـية لدى غير المسـلمين تجاه المسـلمين، كما أن المسـلم يجب أن لا يقبل معروفا أو منّة من غير المسـلم فى هذه الحالات.

٣- و ممّـا يجلب الانتبـاه أنّ الحالـة الثالثـة الواردة فى آيـة موضوع البحث، قـد قـدمت كفارة الديـة على كفارة التحرير، و هـذه الحالة تتناول مسألة القتل الخطأ الواقع على شـخص لا ينتمى أهله إلى الإسـلام، بينما الحالة الأولى- التى كان القتيل فيها من عائلة إسـلامية- تقدمت فيها كفارة التحرير على كفارة الدية.

و يمكن الاسـتنتاج من هـذا التقـديم و التأخير أن مسألـة دفع الديـة فى موعـد متأخر بالنسـبة للمسـلمين فيما بينهم، لا تترک أثرا سـلبيا عليهم- فى الغالب- بينما لو كان أهل القتيل من غير المسـلمين لوجب التعجيل فى دفع الديـة- أوّلا- اتقاء للفتنة، و لكى لا يفسّـِر أهل القتيل و قومه مسألة القتل الحاصلة بأنّها نقض للعهد من جانب المسلمين.

۴- لم تحـدد الآية الكريمة مقدار الدية أو مبلغها فى أى من الحالات الثلاثة المذكورة، و يسـتنتج من هذا أن مسألة التحديد هذه إنّما أوكلت إلى السنة التى عينت بالفعل مقدارها الكامل بألف مثقال من الذهـب، أو بمائة بعير، أو مائتين من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٣٨۴

البقر، و يمكن أن يكون ثمن هـذه الأنواع مالا إذا حصل اتفاق بين طرفى القضـية، (و بـديهى أن تخصـيص الـذهب أو نوع من أنواع الماشية دية عن القتل، إنما هو سنة إسلامية تستند مبرراتها على الأمور الطبيعية لا الوضعية المتغيرة بتغير الزمان).

۵- قـد يرد هـذا الوهم لـدى البعض بأنّ القتل الواقع خطأ، يجب أن لا يكون بإزائه غرامـة أو عقوبة، لأن القاتل لم يرتكب جريمة عن

عمد أو سبق إصرار و إن الخطأ لا عقوبة أو غرامة مالية عليه.

و جواب هذا- أو توضيحه- هو أن القتل، دون سواه من الجرائم، تدخل فيه قضية بالغة الأهمية و هى قضية الدم المراق فيها و الحياة الإنسانية التى تسلب عضو من أعضاء المجتمع ... و لكى يبيّن الإسلام اهتمامه الكبير بحياة الأفراد، و يدفع معتنقيه إلى التزام الحيطة و الحذر الدقيقين لعدم التورط فى ارتكاب مثل هذه الأخطاء، شدد فى مسألة الغرامة و العقوبة حرصا منه على حياة أفراد المجتمع، و لكى لا يصبح الخطأ عذرا يتوسل به من شاء فى إهدار دماء الأبرياء من الناس.

و العبارة الأخيرة من الآية الكريمة التى هى تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ... قد تكون إشارة إلى أنّ وقوع الخطأ يكون غالبا بسبب التهاون و قلة الحذر، و ان الخطأ إذا كان كبيرا كالقتل- يجب التعويض عنه أوّلا و إرضاء أهل القتيل لكى تشمل القاتل أو الخاطئ بعد ذلك التوبة الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۳]

اشارة

وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً (۹۳)

سبب النّزول

ذكروا أنّ «المقيس بن صبابة الكنانى» كان قد وجد قاتل أخيه «هشام» فى محلة بنى النجار، و أخبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الأمر، فبعثه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع «قيس بن هلال المهرى» إلى زعماء بنى النجار يأمرهم أن يسلموا قاتل «هشام» إلى أخيه «المقيس» و إن لم يكن لهم علم به أو بمكانه فليدفعوا إلى «المقيس» دية أخيه القتيل، فدفع بنو النجار الدية لعدم علمهم بمكان القاتل، فأخذ «المقيس» الدية و توجه إلى المدينة مع «قيس بن هلال المهرى» إلّا أنه فى الطريق راودته نعرة من نعرات الجاهلية، فظن أنه قد جلب على نفسه العار بقبوله المال بدل دم أخيه، فعمد إلى قتل رفيق سفره، أى قيس بن هلال الذى كان من قبيلة بنى النجار، انتقاما لدم أخيه على حسب ظنّه، ثمّ هرب «المقيس» إلى مكّة و ارتد عن إسلامه، فاستباح النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دم هذا القاتل، أى «المقيس» لخيانته، و قد نزلت هذه الآية فى هذه المناسبة و هى تبيّن عقوبة مرتكب القتل العمد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۶

التّفسير

عقوبة القتل العمد:

لقد بيّنت الآية السابقة عقوبة- أو غرامة- القتل الناتج عن الخطأ، و جاءت الآية الأخيرة عقوبة القتل عن عمد و سبق إصرار، فى حالة إذا كان القتيل من المؤمنين، و بما أن جريمة قتل الإنسان من أعظم و أكبر الجرائم و أخطر الذنوب، و ان التهاون فى مكافحة مثل هذه الجريمة يهدد أمن المجتمع و سلامة أفراده، الأمن الذى يعتبر من أهم متطلبات المجتمع السليم، لذلك فإنّ القرآن الكريم قد تناول هذه القضية فى آيات مختلفة بأهمية بالغة، حتى أنّه اعتبر قتل النفس الواحدة قتلا للناس جميعا، إلّا أن يكون القتل عقابا لقتل مثله أو عقابا لجريمة الإفساد فى الأرض حيث يقول القرآن فى هذا المجال: مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ

النَّاسَ جَمِيعاً[۱۸۷].

و قد قررت الآية- موضوع البحث- أربع عقوبات أخروية لمرتكب القتل العمد، و عقوبة أخرى دنيوية هى القصاص، و العقوبات الأخروية هى:

۱- الخلود و البقاء الأبدى فى نار جهنم، حيث تقول الآية: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها.

۲- احاطة غضب اللّه و سخطه بالقاتل: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ....

۳- الحرمان من رحمة اللّه: وَ لَعَنَهُ

۴- العذاب العظيم الذى ينتظره يوم القيامة: وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً و الملاحظ هنا أن العقاب الأخروى الذى خصصه اللّه للقاتل فى حالة العمد، هو أشدّ أنواع العذاب و العقاب بحيث لم يذكر القرآن عقابا أشدّ منه فى مجال آخر أو لذنب آخر.

أمّا العقاب الدنيوى الذى وردت تفاصيله فى الآية (۱۷۹) من سورة البقرة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۷

فهو القصاص، و قد تطرقنا إليه لدى تفسير هذه الآية فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا.

جريمة القتل العمد و العقاب الأبدى:

يرد سؤال فى هذا المجال، و هو أن الخلود فى العذاب قد ورد بالنسبة إلى من يموت كافرا، بينما قد يكون مرتكب جريمة القتل العمد مؤمنا، كما يحتمل أن يندم على ما ارتكبه من إثم و يتوب عن ذلك فى الدنيا، و يسعى إلى تعويض و تلافى ما حصل بسبب جريمته، فكيف إذن يستحق مثل هذا الإنسان عذابا أبديا و عقابا يخلد فيه؟

إنّ جواب هذا السؤال يشتمل على ثلاث حالات هى:

۱- قد يكون المراد بقتل المؤمن- الوارد فى الآية موضوع البحث- هو القتل بسبب إيمان الشخص، أى استباحة دم المؤمن، و واضح من هذا إنّ الذى يعمد إلى ارتكاب جريمة قتل كهذه إنما هو كافر عديم الإيمان، و إلا كيف يمكن لمؤمن أن يستبيح دم أخيه المؤمن، و بناء على هذا يستحق القاتل الخلود فى النار و يستحق العذاب و العقاب المؤبد، و قد نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام حديث بهذا الفحوى ۱۸۸].

۲- كما يحتمل أن يموت مرتكب جريمة القتل العمد مسلوب الإيمان بسبب تعمده قتل إنسان مؤمن برىء، فلا يحظى بفرصة للتوبة عن جريمته، فينال فى الآخرة العذاب العظيم المؤبد.

۳- و يمكن أيضا- أن يكون المراد بعبارة «الخلود» الواردة فى الآية هو العذاب الذى يستمر لآماد طويلة و ليس العذاب المؤبد.

و يمكن أن يطرح سؤال آخر- فى هذا المجال- و هو هل أنّ جريمة القتل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۸

العمد قابلة للتوبة؟! لقد ردّ جمع من المفسّرين بالنفى صريحا على هذا السؤال، و قالوا: أن هذه الجريمة التى ورد ذكرها فى الآية موضوع البحث غير قابلة للتوبة مطلقا، حيث أشارت الروايات الواردة فى هذا الأمر إلى ذلك، فقد صرحت الروايات بأنّ لا توبة لقاتل المؤمن عمدا.

و لكن الذى نستنتجه من روح التعاليم الإسلامية، و روايات الأئمّة عليهم السّلام، و غيرهم من علماء الدين الكبار، و كذلك من فلسفة التوبة القائمة على أساس التربية و الوقاية من الوقوع فى الذنوب و الخطايا فى مستقبل الفرد المسلم ...

المستخلص من ذلک کله هو أنه لا یوجد ذنب غیر قابل للتوبة، لکن التوبة من بعض الذنوب تکون مقیدة بشروط قاسیة جدا یصعب بل یستحیل أحیانا علی الفرد تحقیقها.

و الدلیل علی هذا الأمر هو قول القرآن الکریم: إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ[۱۸۹].

و قد قلنا فی تفسیر هذه الآیة: إنّها وردت فی شأن العفو عن الذنوب بواسطة الشفاعة و ما شاکل ذلک، و لکن المعروف أنّه حتی الشرک- ذاته- یعتبر من الجرائم و الذنوب القابلة للتوبة، إذا تخلی الإنسان عنه و عاد فآمن باللّه الواحد الأحد و أسلم وجهه للّه، کما حصل للجاهلیین الذین تخلوا عن شرکهم و قبلوا الإسلام و تابوا إلی اللّه فعفا عنهم و غفر لهم ذنوبهم السابقة.

و یتبیّن من هذا العرض الموجز أنّ کل الذنوب- حتی الشرک- قابلة للتوبة، و تؤکد علی ذلک الآیتان (۵۳ و ۵۴) من سورة الزمر حیث یقول تعالی: إِنَّ اللَّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ وَ أَنِیبُوا إِلی رَبِّکُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ

و قد ذکر بعض المفسّرین أن الآیات التی تتحدث عن غفران جمیع الذنوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۹

هی آیات عامّة قابلة للتخصیص- و لکن لا یمکن الحکم بصحة هذا القول، لأنه یتناقض و منطق هذه الآیة التی اعتبرت التوبة نعمة و منة من اللّه علی المذنبین، و أکدت ذلک بالقرائن، لذلک لا- یمکن تخصیص هذه الآیات، فهی- کما فی الاصطلاح- تأبی التخصیص.

إضافة إلی ذلک کلّه فقد یحتمل أن یلجأ مرتکب القتل العمد إلی التوبة، و یخلص الطاعة للّه فی بقیة عمره، و یتجنب ارتکاب الذنوب و لا یعصی اللّه بعد ذلک، و لا یعمد إلی ارتکاب جریمة قتل مشابهة، فهل یصح أن ییأس التائب- فی مثل هذه الحالة- من رحمة اللّه و عفوه و مغفرته؟ و هل یجوز القول بأن هذا الشخص مع توبته و ندمه و سیبقی مشمولا بعذاب اللّه المؤبد؟ إن القول برفض توبة إنسان کهذا یکون مخالفا لروح التعالیم الدینیة السامیة التی جاء بها الأنبیاء لتربیة البشر و هدایتهم فی جمیع مراحل التاریخ.

و الذی نلاحظه فی تاریخنا الإسلامی، هو أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد عفا عن أخطر المجرمین من أمثال «وحشی» الذی قتل «حمزة بن عبد المطلب» عم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قبل النّبی توبته، و کذلک لا- یمکن القول بأن ارتکاب جریمة القتل فی حال الشرک یختلف عنه فی حال الإیمان، بحیث یقال باحتمال التغاضی و العفو عن الجریمة فی الحالة الأولی، و عدم احتماله فی حالة الإیمان، و قد سبق أن علمنا أن لیس هناک ذنب أعظم من الشرک باللّه، و عرفنا أنّ هذا الذنب- أیضا- قابل للتوبة و ان اللّه یعفو عن المشرک إذا تاب عن شرکه و اعتنق الإسلام ... فکیف- و الحالة هذه- یمکن القول بأنّ جریمة القتل العمد- التی لم یذکر القرآن أنّها أعظم الجرائم لیست قابلة للتوبة أو العفو؟

إنّ قولنا بأنّ جریمة قتل العمد قابلة للتوبة و العفو لا یقلل من عظم خطورة هذه الجریمة، و قبول التوبة فی هذا المجال لا یعنی أنّ التوبة متیسرة بسیطة فی مثل هذه الحالة، بل أنّها من أصعب الأمور، و هی إن أرید تحقیقها- تحتاج إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۰

بذل و تضحیات کبیرة للتعویض عما خلفته الجریمة من آثار خطیرة و سیئة علی المجتمع، و التعویض فی هذا المجال لیس بالأمر الیسیر[۱۹۰] و لکننا أردنا من ذلک أن نبین أن باب التوبة لیست مغلقة علی من تاب و آمن و عمل صالحا ثمّ اهتدی، حتی لو کان قد ارتکب فی وقت من الأوقات جریمة کالقتل المتعمد.

ما هی أنواع القتل؟

لقـد قسم الفقهاء القتل إلى ثلاثـة أنواع: كما ورد فى كتب القصاص و الـديات، و قـد اسـتندوا فى هذا التقسـيم على ما اسـتلهموه من الآيات القرآنية و الروايات و الأحاديث الواردة فى هذا المجال ... و هذه الأنواع هى:

١- القتل العمد.

٢- القتل شبه العمد.

٣- القتل الخطأ.

و القتل العمد هو الذى يحصل باسـتخدام وسائل القتل مع وجود سـبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، مثل أن يعمد إنسان إلى قتل إنسان آخر مستخدما فى ذلك وسائل كالسكين أو العصى أو الحجارة أو غير ذلك من الوسائل القاتلة.

أمّا القتل شبه العمد فهو الذى يكون مسبوقا بإصرار القاتل على إيذاء القتيل دون استهداف قتله، فيؤدى الإيذاء إلى القتل، كأن يضرب شخص شخصا آخر، دون أن يقصد قتله، فيؤدى الضرب إلى قتل المضروب.

و القتل الخطأ هو القتل الـذى يحصل دون أن يكون لدى القاتل سـبق إصـرار على ارتكاب هذه الجريمة، و لم يكن يهدف إلى إيذاء القتيل، و يحدث هذا- مثلا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٣٩١

لدى محاولة إنسان اصطياد بعض الحيوانات بنوع من أنواع السلاح، فبدل أن يقع السلاح فى الحيوان يقع سهوا على إنسان آخر فيقتله.

و قد وردت الأحكام المختلفة لهذه الأنواع الثلاثة من القتل فى الكتب الفقهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٣٩٢

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَـرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الـدُّنْيا فَعِنْـدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۹۴)

سبب النّزول

لقد ذكرت الرّوايات و التفاسير الإسـلامية أسـباب عدة لنزول هذه الآية، و كلها تتشابه مع بعضـها الآخر، و من ذلك أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم حين عاد من واقعة خيبر بعث أسامة بن زيد مع جمع من المسـلمين إلى يهود كانوا يسكنون فى قرية فدك، من أجل دعوتهم إلى الإسـلام أو الإذعان لشـروط الذمّـة، مرداس اليهودى، و هو أحـد الذين عرفوا بقدوم جيش الإسـلام و كان قد أخذ أمواله و أولاده و لجأ بهم إلى أحـد الجبال، هبّ لاسـتقبال المسـلمين و هو يشـهد بوحدانيـة اللّه و رسالة النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قـد ظن أسامة بن زيد أن هذا اليهودى يتظاهر بالإسـلام خوفا على نفسه و حفظا لماله و أنه لا يبطن الإسـلام فى الحقيقة فعمد أسامة إلى قتل هذا اليهودى و اسـتولى على أغنامه، و ما أن وصل نبأ هذه الواقعة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تأثر تأثرا شديدا منها و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما معناه إن أسامة لم يكن ليعرف ما فى نفس هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ٣٩٣

الإنسان فلعله كان قد أسلم حقيقة.

عنـد ذلك نزلت الآيـة المذكورة فحذرت المسـلمين من أن تكون الغنائم الحربية أو أمثالها سـببا فى رفض إسـلام من يظهر الإسـلام،

مؤكدة ضرورة قبول إسلام مثل هذا الإنسان.

التّفسير

اشارة

بعد أن وردت التأكيدات اللازمة- في الآيات السابقة- فيما يخص حماية أرواح الأبرياء، ورد في هذه الآية أمر احترازي يدعو إلى حماية أرواح الأبرياء الذين قد يعرضون إلى الاتهام من قبل الآخرين، إذ تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً ....

تأمر هذه الآية المسلمين أن يستقبلوا- بكل رحابة صدر- أولئك الذين يظهرون الإسلام و أن يتجنبوا إساءة الظن بإيمان أو إسلام هؤلاء، و تؤكد الآية بعد ذلك محذرة و ناهية عن أن تكون نعم الدنيا الزائلة سببا في اتهام أفراد أظهروا الإسلام، أو قتلهم على أنّهم من الأعداء و الاستيلاء على أموالهم، إذ تقول الآية:

... تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا ...[۱۹۱]. و تؤكّد على أنّ النعم الخالدة القيمة هي عند اللّه بقوله: ... فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ.

و تشير الآية أيضا إلى حروب الجاهلية التي كانت تنشب بدوافع مادية مثل السلب و النهب فتقول: ... كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ...[۱۹۲] و تضيف- مخاطبة المسلمين- أنّهم في ظل الإسلام و لطف اللّه و كرمه و فضله قد نجوا من ذلك الوضع السيء مؤكّدة أنّ شكر هذه النعمة الكبيرة يستلزم منهم التحقق و التثبيت

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۴

من الأمور، إذ تقول الآية: ... فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

الجهاد الإسلامي نفي من البعد المادي:

توضح الآية السالفة هذه الحقيقة بصورة جلية، و هي أنّ أي مسلم يجب أن لا يتقدم إلى ساحة الجهاد بأهداف مادية، و لذلك عليه أن يقبل- منذ الوهلة الأولى- من العدو إظهاره للإيمان و يلبي نداءه للصلح و السلام، حتى لو حرم المسلم بقبوله إيمان العدو الكثير من الغنائم المادية، و السبب في ذلك أن هدف الجهاد في الإسلام ليس التوسع و لا الاستيلاء على الغنائم المادية، بل الهدف من الجهاد الإسلامي هو تحرير البشر من قيود العبودية لغير اللّه، سواء كان هذا الغير هم الطغاة الجبابرة، أو كانت العبودية للمال و للثروة و الجاه، و يجب على كل مسلم أن يسعى إلى هذه الحقيقة كلما برقت له بارقة أمل صوبها.

و تذكّر الآية الكريمة المسلمين بعهدهم في الجاهلية، حيث كانوا يحملون الأفكار المادية الدنيئة قبل إسلامهم، فكانوا يتسببون في إراقة سيول من الدماء لأسباب مادية محضة، و قد نجوا اليوم بفضل إسلامهم و إيمانهم من تلك الحروب و تغير أسلوب حياتهم.

كما تشير الآية إلى حقيقة أخرى، و هي أنّ المسلمين ساعة إظهارهم الإسلام لم يكن أحد ليعرف حقيقة هذا الإظهار أو حقيقة ما ينويه المظهر للإسلام، و تؤكد لهم ضرورة أن يطبقوا ما كانوا هم عليه عند إسلامهم على من يظهر الإسلام أمامهم من الأعداء.

سؤال:

قد يطرأ على الذهن سؤال، و هو لو أنّ الإسلام قبل دعوى كل من يتظاهر بالإسلام منذ الوهلة الأولى دون التحقيق من حقيقة هذه الدعوى، لأصبح ذلك

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۵

سببا فى إيجاد أرضية النفاق و ظهور المنافقين فى المحيط الإسلامى، و بهذا الأسلوب يمكن للكثير من الأعداء إساءة استغلال هذه الظاهرة و التستر فى ظل الإسلام، و من خلال ذلك القيام بأعمال عدائية ضد الإسلام؟

الجواب:

من الممكن القول أن ليس هناك قانون فى العالم لا يمكن إساءة استغلاله أبدا، بل المهم فى القانون هو أن يحوى فى أغلب جوانبه النفع للعموم، لو رفضنا- منذ الوهلة الأولى- إسلام من يظهر الإسلام من الأعداء و غيرهم لمجرّد عدم معرفتنا بسريرة هذا الذى يظهر الإسلام، لأدى رفضنا فى كثير من الحالات إلى مفاسد لا تحمد عقباها، بل ستكون أكثر ضررا على الإسلام، إذ أنّها تعنى سحق المبادئ و العواطف الإنسانية، و يكون- هذا الرفض- عند ذلك وسيلة بيد كل من يضمر العداء لصاحبه ليتهمه بأنّ إظهاره للإسلام لم يكن إظهارا حقيقيا مخلصا أو مطابقا لما فى سريرته، و بهذه الصورة من الممكن أن تراق دماء كثيرة لأناس أبرياء.

و فوق كل ذلك فإنّ الكثيرين لدى بدء كل دعوة ممن تكون توجهاتهم لهذه الدّعوة بسيطة و شكلية و ظاهرية، و لكنهم بمرور الزمان و اتصالهم الدائم بتلك الدّعوة- تتجذر فى نفوسهم مبادئ الدعوة و تتأصل و تتعزز، لذلك لا يمكن القبول برفض مثل هؤلاء الضعيفى الصلة بالدّعوة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۶

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۹۵ الى ۹۶]

اشارة

لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (۹۵) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۹۶)

التّفسير

اشارة

تناولت الآيات السابقة الحديث عن الجهاد، و الآيتان الأخيرتان تبيّنان التمايز بين المجاهدين و غيرهم من القاعدين، فتؤكد عدم التساوى بين من يبذل المال و النفس رخيصين فى سبيل الهدف الإلهى السامى، و بين من يقعده عن هذا البذل سبب آخر غير المرض الذى يحول دونه و دون المشاركة فى الجهاد، لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ ....

و واضح من هذه الآية أنّ المقصود بالقاعدين فيها هم أولئك المؤمنون بالإسلام الذين لم يشاركوا فى الجهاد فى سبيله بسبب

افتقارهم إلى العزم الكافی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۷

لـذلک، و تبیّن هنا- أیضا- أنّ الجهاد المقصود لم یکن واجبا عینیا، فلو کان واجبا عینیا لما تحدث القرآن عن هؤلاء التارکین للجهاد بمثل هذه اللهجة المرنة و لم یکن لیوعدهم بالثواب.

و علی هـذا الأساس فإنّ فضل المجاهـدین علی القاعـدین لا یمکن إنکاره حتی لو کان الجهاد لیس واجبا عینیا، و لا تشـمل الآیة بأی حـال من الأـحوال أولئک الـذین أحجموا عن المشارکـة فی الجهـاد نفاقـا، و عـدوانا و یجب الانتبـاه- أیضا- إلی أنّ عبارة غَیْرُ أُولِی الضَّرَرِ لها مفهوم واسع یشمل کل أولئک الذین یعانون من نقص العضو أو المرض أو الضعف الشدید، مما یحرمهم من المشارکة فی الجهاد، فهؤلاء مستثنون من ذلک.

و تکرر الآیة من جدید مسألة التفاضل بشکل أوضح و أکثر صراحة، و تؤکد فی نهایة المقارنة، أنّ اللّه وهب المجاهدین أجرا عظیما، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِینَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَی الْقاعِدِینَ دَرَجَةً[۱۹۳].

و لکن- کما أسـلفنا- لما کان فی الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدین یقف أولئک الذین لم یکن الجهاد بالنسبة لهم واجبا عینیا أو لم یشـارکوا فی الجهـاد بسـبب مرض أو عجز أو علـة أخری أعجزتهم عن هـذه المشارکـة، فـذلک و لأجل أن لا یغفل ما لهؤلاء من نیّة صالحـة و إیمانه و أعمال صالحـة أخری فقـد وعدوا خیرا حیث تقول الآیة الکریمة: ... وَ کُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْـنی إلّا أنّه من البدیهی أن هناک فرقا شاسعا بین الخیر الذی وعد به المجاهدون، و بین ذلک الذی یصیب القاعدین من العاجزین عن المشارکة فی الجهاد.

و تبیّن الآیة القرآنیة فی هذا المجال: أنّ لکل عمل صالح نصیب محفوظ من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۸

الثواب لا یغفل و لا ینسـی، خاصّـة و هی تتحـدث عن قاعـدین أحبّوا المشارکـة فی الجهاد و کانوا یرونه سامیا مقـدسا، و بما أن عدم کون هـذا الجهاد واجبا عینیا قـد حال دون تحقق هذا الهدف السامی المقدس فإن أولئک الذین قعدوا عن المشارکة فیه سـینالون من الثـواب علی قـدر رغبتهم فی المشارکـة، أمّـا أولـئک الـذین عجزوا عن المشارکـة بسـبب عاهـة أو مرض إلّـا أنّهم کـانوا یرغبون فی الاشتراک فی الجهاد برغبـة جامحة، بل کانوا یعشـقون الجهاد، لذلک فإنّ لهـم- أیضا- سـهم و نصـیب لا ینکر من ثواب المجاهدین، کما

جاء فی حدیث مروی عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخاطب فیه جند الإسلام فیقول: «لقد خلفتم فی المدینة أقواما ما سرتم مسیرا و لا قطعتم وادیا إلّا کانوا معکم، و هم الذین صحت نیاتهم و نصحت جیوبهم و هوت أفئدتهم للجهاد و قد منعهم عن المسیر ضرر أو غیره».[۱۹۴]

و بما أنّ أهمیـة الجهاد فی الإسـلام بالغة جدا، لذلک تتطرق الآیة مرّة أخری للمجاهدین و تؤکد بأن لهم أجرا عظیما یفوق کثیرا أجر القاعدین عن الجهاد عن عجز، ... وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِینَ عَلَی الْقاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً.

و تشرح الآیة التالیة- و هی الآیة (۹۶) من سورة النساء- نوع هذا الأجر العظیم فقول أنّه: دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً فلو أنّ أفرادا من بین المجاهـدین تورطوا فی زلـة أثناء أدائهم لواجبهم فنـدموا علی تلک الزّلـة، فقد وعدهم اللّه بالمغفرة و العفو، حیث یقول فی نهایة الآیة: ... وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً.

نکات مهمة حول المجاهدین:

۱- لقد کررت الآیة (۹۵) عبارة المجاهدین ثلاث مرات:

فی المرّة الأولی ذکر المجاهدون مع الهدف و الوسیلة الخاصّة بالجهاد:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۹

الْمُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ ....

و فی الثّانیة: ذکر اسم المجاهدین مقرونا بوسیلة الجهاد، و لم یذکر شیء عن الهدف: الْمُجاهِدُونَ (فِی سَبِیلِ اللَّهِ) بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ ....

و أمّا فی المرحلة الأخیرة فقد جاءت الآیة باسم المجاهدین فقط، حیث یدل ذلک بوضح علی الأسلوب البلاغی الرفیع فی الکلام القرآنی، حیث یتعرف السامع شیئا فشیئا بواسطته علی الموضوع و تخف قیوده و صفاته لدیه، و تصل درجة التعرف إلی مرحلة یفهم السامع بها کل شیء من خلال إشارة واحدة.

۲- لقد ذکرت الآیة فی البدایة تفوق المجاهدین علی القاعدین بعبارة مفردة و هی «درجة» بینما فی الآیة التالیة جاءت هذه العبارة بصیغة الجمع «درجات» و جلّی أن لا تناقض بین هاتین العبارتین، لأن القصد من العبارة الأولی تبیان تفوق المجاهدین علی غیرهم، و لکن العبارة الثانیة تشرح هذا التفوق حین تقترن بذکر عبارات «المغفرة» و «الرحمة»، و بعبارة أخری فإن الفرق بین هاتین العبارتین «درجة» و «درجات» هو الفرق بین المجمل و المفصل.

کما یمکن الاستفادة من عبارة «درجات» علی أنّها تعنی أن المجاهدین لیسوا کلّهم فی درجة أو مستوی واحد، بل تختلف درجاتهم باختلاف درجة إخلاصهم و تفانیهم و تحملهم للمشاق، و تختلف بذلک منزلتهم المعنویة، لأنّه من البدیهی أن الذین یجاهدون الأعداء فی صف واحد لیسوا جمیعا بمستوی جهادی واحد، کلها تختلف درجات الإخلاص لدی کل واحد منهم بالقیاس إلی أمثالهم، و لذلک فإنّ لکل واحد منهم ثوابا خاصا به یتناسب مع عمله الجهادی و نیّته فی هذا العمل.

الأهمیة بالبالغة للجهاد:

إنّ الجهاد قانون عام فی عالم الخلیقة، فإنّ کل مخلوق سواء کان من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۰

النباتات أو الحیوانات یسعی لإزالة ما یعترض طریقه من موانع بواسطة الجهاد، لکی یستطیع کل واحد منهم بلوغ الکمال المطلوب فی التکوین.

و علی سبیل المثال فجذر النبات الذی ینشط للحصول علی الغذاء و الطاقة بصورة دائمة، لو ترک نشاطه، هذا و کف عن السعی لاستحال علیه إدامة حیاته.

و لذلک فإن هذا الجذر حین یعترض طریقه مانع فی عمق الأرض یحال تخطیه بثقبه، و العجیب هنا أنّ الجذور الرقیقة تعمل فی مثل هذه الحالة کالمسمار الفولاذی فی ثقب الموانع التی تعترضها، فلو عجزت فی هذا المجال لحرفت طریقها و اجتازت المانع عن طریق الالتفات حوله.

و فی داخل وجود الإنسان أیضا و حتی فی ساعات النوم هناک صراع غریب و مستمر ما دام الإنسان حیا، و هو الصراع بین کریات الدم البیضاء و الأجسام المعادیة المهاجمة، فلو أن هذا الصراع توقف لساعة واحدة و تخلت الکریات البیض عن الدفاع، لتسلطت الجراثیم و المکروبات المتنوعة علی کافة أجهزة جسم الإنسان و لعرضت حیاته إلی الخطر.

إنّ ما هو موجود فی أوساط المجتمعات و القومیّات و الشعوب فی العالم من کفاح من أجل البقاء، هو عین ذلک الکفاح و الجهاد الذی لمسناه فی النبات و فی جسم الإنسان.

و علی هـذا الأساس فإن کل من یواصل «الجهاد» و «المراقبة» تکون الحیاة من نصـیبه و هو منتصـر دائما- أما الذین تلهیهم عن الجهاد الأهواء و الملـذات و الشـهوات و الأنانیـة و حبّ الذات فلن ینالهم غیر الفناء و الدمار عاجلا أو آجلا، و سـیحل محلهم أناس یمتازون بالحیویة و النشاط و الکفاح الدؤوب.

و هذا هو الشیء الذی یؤکّد علیه

رسول اللّه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ یقول: «فمن ترک الجهاد ألبسه اللّه ذلا و فقرا فی معیشته، و محقا فی دینه، إنّ اللّه أعزّ أمّتی بسنابک خیلها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۱

و مراکز رماحها»[۱۹۵].

و

یقول النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مناسبة أخری: «اغزوا تورثوا أبناءکم مجدا»[۱۹۶].

أمّا

أمیر المؤمنین علی بن أبی طـالب علیه السّـلام فهو یقول فی مسـتهل خطبته عن الجهاد «... فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنـة، فتحه اللّه لخاصّـة أولیائه، و هو لباس التقوی، و درع اللّه الحصـینة، و جنّته الوثیقـة، فمن ترکه رغبـة عنه ألبسه اللّه ثواب الـذّل و شـملة البلاء، و دیث بالصغار و القماء ...»[۱۹۷].

و یجب الالتفات إلی أنّ الجهاد لا یقتصـر معناه علی الحرب أو القتال المسـلح، بل هو أیضا کل سـعی حثیث و جهـد جهیـد یبذل من أجل التقـدم نحو تحقیق الأهـداف المقدسة- الإلهیة- و من هذا المنطلق فإنّه بالإضافة إلی الحروب الدفاعیة أو الهجومیة- أحیانا- فإنّ الکفاح العلمی و المنطقی و الاقتصادی و الثقافی و السیاسی یعتبر نوعا من الجهاد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۲

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۹۷ الی ۹۹]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنَّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِیها فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً (۹۷) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا یَسْتَطِیعُونَ حِیلَةً وَ لا یَهْتَدُونَ سَبِیلاً (۹۸) فَأُولئِکَ عَسَی اللَّهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ کانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (۹۹)

سبب النّزول

لقـد أنـذر رؤساء قریش قبل بـدء غزوة بـدر جمیع الأفراد من أهالی مکّـة الـذین یسـتطیعون حمل السـلاح، أنّ علیهم أن یتأهبوا لقتال المسـلمین، محذرین بأن من یخالف هذا الأمر سـتهدم داره و تصادر أمواله، و قد أدی هذا التهدید بنفر من الذین کانوا قد أسلموا فی الظـاهر، و لکنّهم کـانوا قـد رفضوا الهجرة لشـدة حبهم لموطنهم و لأـموالهم ... أدی بهؤلاـء إلی أن یرغموا علی مشارکـة الوثنیین فی التحرک إلی ساحة الحرب، و راودهم الشک فی انتصار المسلمین لقلّة عددهم، فکان أن قتلوا و هم إلی جانب المشرکین.

فنزلت الآیات المذکورة و حدثت عن المصیر الأسود الذی لاقاه هؤلاء بسبب إصرارهم علی البقاء فی موطن الشرک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۳

التّفسير

اشارة

تعقيبا للبحوث الخاصّة بالجهاد، تشير الآيات الثلاث الأخيرة إلى المصير الأسود الذى كان من نصيب أولئك الذين ادعوا الإسلام و لكنهم رفضوا أن يطبقوا خطة الإسلام فى الهجرة، فانحرفوا إلى مزالق رهيبة، فكانت نتيجة انحرافهم أن أصابهم القتل و هم فى صفوف المشركين.

فالقرآن الكريم يذكر كيف أنّ الملائكة لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، يسألونهم عن حالهم فى الدنيا و أنّهم لو كانوا حقا من المسلمين، فلما ذا اشتركوا فى صفوف المشركين لقتال المسلمين إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ... فيجيب هؤلاء بأنّهم تعرضوا فى مواطنهم للضغط و أن ذلك أعجزهم عن تنفيذ الأمر الإلهى قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِی الْأَرْضِ

لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم، إذ يرد الملائكة عليهم قائلين: لما ذا لم تتركوا موطن الشرك و تنجوا بأنفسكم من الظلم، و الكبت عن طريق الهجرة إلى أرض غير أرضكم من أرض اللّه الواسعة، قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها.

و فى النهاية تشير الآية إلى مصير هؤلاء فتقول بأنّ الذين امتنعوا عن الهجرة لأسباب واهية أو لمصالحهم الشخصية، و قرروا البقاء فى محيط ملوث و فضلوا الكبت و القمع على الهجرة فإن مكان هؤلاء سيكون فى جهنم، و إن نهايتهم و عاقبتهم هناك ستكون سيئة لا محالة: فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً.

أمّا الآية الاخرى من الآيات الثلاث المذكورة، فهى تستثنى المستضعفين و العاجزين الحقيقيين لا المزيفين، فتقول: إنّ أولئك الرجال و النساء و الأطفال الذين لم يجدوا لأنفسهم مخرجا للهجرة، و لم يتمكنوا من إيجاد وسيلة للنجاة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۴

محيطهم الملوث، فهم مستثنون من حكم العذاب، لأنّ هؤلاء معذورون فى الحقيقة، و إنّ اللّه لا يكلف نفسا ما لا تطيق، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا.

و الآية الأخيرة من الآيات الثلاث المذكورة تبيّن احتمال أن يشمل اللّه بعفوه هؤلاء، إذ تقول: فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً.

و قد يرد هنا سؤال و هو: لو أن هؤلاء الأشخاص كانوا فى الحقيقة معذورين، فلما ذا لا تعدهم الآية بعفو إلهى حتمى، بل تبين احتمال أن يشملهم هذا العفو إذ تأتى الآية بعبارة «عسى» لتأكيد احتمالية الأمر؟

و جواب هذا السؤال هو نفس الجواب الذى ذكرناه فى ذيل الآية (۸۴) من سورة النساء و الذى بيّنا من خلاله أن القصد من استخدام مثل هذه العبارات هو أن الحكم الوارد فى الآية مقيد بشروط خاصّة يجب الالتفات إليها، و هنا يكون الشرط هو أن يتبادر هؤلاء المستضعفون حقيقة إلى الهجرة- دون تردد- حتى ما سنحت لهم فرصة ذلك دون أن يقصروا فى هذا الأمر فعند ذلك يشملهم العفو الإلهى.

نقاط يجب الالتفات إليها:

۱- استقلال الرّوح

إن الإتيان بكلمـة توفی فی الآيـة الشـريفة المارة الذكر بدلا من ذكر كلمة «الموت» إنّما هو فی الحقيقة إشارة إلی أنّ الموت ليس هو الفناء التام، بل هو حالـة تتلقی فيها الملائكـة روح الإنسان، أی أن الملائكة يقبضون من الإنسان روحه التی هی جوهر وجوده، فتؤخذ هـذه الروح إلی العـالم الآخر، و إنّ الإتيان بمثل هـذه العبارة بصورة متكررة فی القرآن الكريم، يعتبر من أوضـح الأدلـة القرآنيـة علی قضية وجود الروح و بقائها بعد الموت، حيث سنتطرق إلی ذلك لدی تفسير

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۵

الآية الخاصّة بالروح.

و إن هذا هو جواب أولئك الذين يزعمون أنّ القرآن لم يشر مطلقا إلی قضية الروح ۱۹۸].

۲- ملك الموت أم ملائكة الموت

لـدی البحث فی موارد متعـددة من القرآن الكريم (أی حوالی ۱۲ موردا) و التی وردت فيهـا عبارة «توفی» و هی تتحـدث عن الموت، نسـتنتج أن قبض الأرواح يقوم به ملائكـة متعـددون و ليس ملكا واحدا، و هؤلاء الملائكة هم المكلّفون بنقل أرواح بنی آدم من هذه الـدنيا إلی العالم الآخر، ففی الآيـة المارة الـذكر ورد اسم الملائكة بصـيغة الجمع، و هذا هو أحد الأدلة علی أن قبض الأرواح يقوم به ملائكة متعددون فنحن.

نقرأ فی الآية (۶۱) من سورة الأنعام قوله تعالی: حَتَّی إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا ....

و هناك من الآيات ما ينسب قبض الروح إلی ملك الموت ۱۹۹]، و هذا الملك هو كبير ملائكة قبض الروح الذی ذكر فی الأحاديث باسم «عزرائيل».

و يتّضح لنا ممّا سبق جواب من يسأل عن كيفية قيام ملك واحد بقبض أرواح أناس عديدين فی آن واحد و فی مناطق مختلفة.

و مع ذلـك فإننـا لو افترضـنا أنّ هنـاك ملـك واحـد فقط لقبض الأرواح لا العديـد من الملائكـة، فعنـد هـذا الفرض لا يرد أيضا أی معضـل، و السـبب هو أنّ التجرّد الوجودی لهـذا الملـك يقتضـی أن تكون دائرة عمله و نفوذه وسـيعة متراميـة الأطراف بشـكل خارق للعادة، لأن أی وجود مجرّد عن المادة يمكن أن تكون إحاطته واسعة بما يخص عالم المادة- و

قد نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۶

النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم حين سأل ملك الموت عن كيفية إحاطته بما فی العالم، أجابه هذا الملك: «ما الدنيا عندی كلها فيما سخرها اللّه لی و مكننی عليها إلّا كالدرهم فی كف الرجل يقلبه كيف يشاء»[۲۰۰].

و لكننـا نری فی بعض الآيـات أن قبض الروح ينسـب إلی اللّه عزّ و جـلّ: اللَّهُ يَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهـا[۲۰۱]، و هـذا لا يتناقض مع الآيات السابقة، لأن فی كثير من الحالات حين يتمّ عمل بوسيلة معينة، ينسب فعل هذا العمل تارة للوسيلة ذاتها، و أخری للذی أوجد و صنع هذه الوسيلة، و كلا النسبتين صحيحتان.

و الطريف أنّ القرآن قد نسب فعل الكثير من أحداث العالم إلی الملائكة الذين هم مكلفون من قبل اللّه سبحانه و تعالی، و نحن نعلم أن لعبارة «ملائكة» أو «ملك» معانی واسعة تدور بين معنی «الموجودات المجرّدة العاقلة» إلی معنی «الطاقات و القوی الطبيعية».

۳- من هو المستضعف؟

لدی البحث فی الآيات القرآنية و الأحاديث و الروايات يسـتنتج أن المستضـعف هو ذلك الشـخص الذی يعانی من ضـعف فكری أو

بـدنى أو اقتصـادى يمنعه من التعرف على الحق و الباطـل، أو أنه ذلـك الـذى يسـتطيع التعرف على العقيـدة الصادقـة الحقـة، إلّا أنّه و لمعاناته من عجز جسـمانى أو مالى أو قيود يفرضـها عليه المحيط الذى يعيش فيه، يعجز عن أداء واجباته التى كلّف بها بصورة كاملة، كما يعجز عن القيام بالهجرة.

و

عن أمير المـؤمنين على بن أبى طـالب عليه السّـلام أنّه قـال: «و لاـ يقع اسم الاستضـعاف على من بلغته الحجـة فسـمعتها أذنه و وعـاها قلبه»[۲۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۷

و

عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام أنه حين سئل: أى قوم يقال لهم المستضعفون؟ فأجاب عليه السّلام كتابة: «الضعيف من لم ترفع له حجة، و لم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف»[۲۰۳].

و واضـح من الروايات المذكورة أنّ المستضـعف هو ذلك الذى يعانى من ضـعف فكرى عقائدى، إلّا أنّ الآية موضوع البحث و الآية (۷۵) من نفس هذه السورة التى سبق و أن تحدثنا فيها تدلان على أنّ المستضعف هو ذلك الذى استضعف عمليا، فهو يعرف الحق و يميزه، و لكن الكبت الذى يعانى منه فى المحيط الذى يعيش فيه لا يسمح له بالعمل بالحق الذى عرفه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۰]

اشارة

وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۰)

التّفسير

الهجرة حكم اسلامى بنّاء:

بعد أنّ بحثت الآيات السابقة حول الأفراد الذين يقعون فريسة الذّل و المسـكنة بسبب عدم إيفائهم بواجب الهجرة، تشرح الآية الأخيرة بشكل صريح و حاسم أهمية الهجرة فى قسمين:

فى القسم الأوّل: تشير هذه الآية إلى نعم و بركات الهجرة فى الحياة الدنيا، فتقول إن الذى يهاجر فى سبيل اللّه إلى أى نقطة من نقاط هذه الأرض الواسعة، سيجد الكثير من النقاط الآمنة الواسـعة ليسـتقر فيها، و يعمل هناك بالحقّ و يرغم أنف المعارضين وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً ....

و يجب الالتفات إلى أن عبارة «مراغم» مشـتقة من المصـدر «رغام» على وزن «كلام» و الـذى يعنى التراب، و الإرغام معناه التمريغ فى التراب و الإذلال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۹

و «مراغم» صيغة لاسم المفعول و اسم مكان أيضا.

و قد وردت فى الآية هذه بمعنى اسم مكان كذلك، أى أنّها المكان الذى يمكن فيه تحقيق الحق و تطبيقه و العمل به، كما يمكن فيه إدانة المعارضين للحق و تمريغ أنفهم بالتراب.

بعد ذلك تشير الآية فى القسم الثانى منها إلى الجانب المعنوى الأخروى للهجرة: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً، و على هذا الأساس فإن المهاجرين فى كل الأحوال سينالهم نصر كبير، سواء وصلوا إلى المكان الذى يستهدفونه ليتمتعوا فيه بحرية العمل بواجباتهم، أو لم يصلوا إليه فيفقدوا حياتهم فى هذا الطريق، و فى هذا المجال و على الرغم من بداهة حقيقة تلقى الصالحين أجرهم من اللّه سبحانه و تعالى، إلّا أنّ الآية موضوع البحث قد صرحت بهذا الأمر بقولها:

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ... و هذا يوضح مدى عظمة و أهمية الثواب و الأجر الذى يناله المهاجرون.

الإسلام و الهجرة:

إنّ الإسلام- استنادا إلى هذه الآية و آيات كثيرة أخرى- يأمر المسلمين بكل صراحة بالهجرة من المحيط الذى يعانون فيه- لأسباب خاصّة- من عدم التمكن من أداء واجباتهم إلى محيط و منطقة آمنة، و سبب هذا الأمر واضح، لأنّ الإسلام لا يحدّ بمكان و لا يقيد بمحيط معين خاص، و لهذا فإن التمسك المفرط بالمحيط و محل التولد و العلاقات المختلفة الاخرى لا تقف فى نظر الإسلام حائلا دون هجرة المسلمين.

و لذلك نرى انفصام كل هذه العلاقات فى الصدر الأوّل للإسلام و من أجل حماية الإسلام و تقدمه، و فى هذا المجال يقول أحد المؤرخين الغربيين: إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۰

القبيلة و العائلة هما الشجرة الوحيدة التى تنبت فى الصحراء، و لن يستطيع أحد الحياة دون اللجوء إليها، إلّا أنّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد قلع هذه الشجرة التى نمت بلحم و دم عائلته، و فعل ذلك من أجل ربه و خالقه (فقد فصم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علاقته بقريش فى سبيل الإسلام)[۲۰۴].

علاوة على ما ذكر فإن من بين جميع الموجودات الحيّة، حين تتعرض حياة أى واحدا أو مجموعة منها إلى الخطر، نراها تضطر إلى ترك مكان تواجدها و الهجرة منه إلى مأوى و ملجأ أمن آخر، و الكثير من أبناء البشر الأقدمين عمدوا إلى الهجرة من مكان ولادتهم- بسبب تغير الظروف الجغرافية فيه- إلى نقاط أخرى من العالم من أجل مواصلة الحياة، و ليس البشر وحدهم الذين مارسوا الهجرة، بل هناك من بين الحيوانات أنواع كثيرة عرفت بالحيوانات المهاجرة، مثل الطيور التى تضطر أحيانا إلى الدوران حول الأرض تقريبا من أجل إيجاد مأوى تواصل فيه حياتها، و بعض هذه الطيور تهاجر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى، و أحيانا تقطع مسافة حوالى (۱۸) ألف كيلومتر للوصول الى المكان الذى تريد العيش فيه.

و هذه الشواهد هى خير دليل على أنّ الهجرة هى إحدى القوانين الخالدة للحياة، فهل يصح أن يكون الإنسان أقل حظا من الحيوان فى هذا المجال؟

و حين تتعرض، حياته المعنوية، و كيانه و أهدافه المقدسة التى هى أثمن و أغلى من حياته المادية إلى الخطر، فهل يستطيع هذا الإنسان البقاء فى مكان الخطر متشبثا بالأرض و المولد و غير ذلك متحملا ألوان الذل و الإهانة و الحرمان و سلب الحريات، و الأهم من ذلك كلّه زوال أهدافه التى يعيش من أجلها؟! أو أن عليه أن يختار قانون الطبيعة فى الهجرة، و يترك ذلك المكان، و يختار مكانا آخر يتيسر فيه المجال لنموه المادى و المعنوى؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۱

الطریف فی هذا الأمر أنّ الهجرة- أی تلک الهجرة التی کانت لأجل حفظ النفس و حمایة الشریعة الإسلامیة- تعتبر مبدأ- أو بدایة- التاریخ الإسلامی، و هی بذلک تعد البنیة الأساسیة لکل الأحداث السیاسیة و الاعلامیة و الاجتماعیة للمسلمین.

فلننظر لما ذا انتخبت هجرة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مبدأ- أو بدایة- للتاریخ الإسلامی؟

إنّ هذا الموضوع جدیر بالملاحظة، لأنّنا نعلم أن أی مجموعة بشریة صغرت أو کبرت، تتخذ لنفسها مبدأ أو بدایة تاریخیة تحسب منه تاریخها، فالمسیحیون مثلا اتّخذوا بدایة تاریخهم السنة التی ولد فیها عیسی علیه السّلام، أمّا المسلمون فمع وجود أحداث مهمة کثیرة وقعت لهم قبل الهجرة، مثل یوم ولادة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یوم البعثة المحمّدیة الشریفة، و فتح مکّة، و وفاة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لکنهم لم یتخذوا أی واحد من الأحداث مبدأ أو بدایة لتاریخهم، بل اعتبروا حادثة الهجرة وحدها بدایة للتاریخ الإسلامی.

إنّ التاریخ یقول أنّ المسلمین بدأوا یفکرون بتعیین بدایة تاریخهم الذی له أهمیة عامّة و شاملة فی زمن الخلیفة الثانی الذی توسعت فی عهده رقعة البلاد الإسلامیة- و أنّ المسلمین بعد البحث الکثیر فی هذا الأمر، اختاروا رأی علی بن أبی طالب علیه السّلام باتّخاذ حادثة الهجرة النبویة الشریفة مبدأ و بدایة للتاریخ الإسلامی ۲۰۵].

و الحقیقة أنّ هذا الإختیار کان هو المتعیّن، لأنّ الهجرة کانت أهم و المع حدث أو برنامج حصل للإسلام، و کانت الهجرة مبدأ فصل جدید مهم فی التاریخ الإسلامی، فالمسلمون حین وجودهم فی مکّة کانوا یمارسون تعلم شؤونهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۲

الحیاتیة وفق دینهم الجدید (الإسلام) و لم تکن لدیهم فی هذه الحالة- علی ما یبدو- أی قدرة سیاسیة و اجتماعیة، و لکنهم بعد الهجرة شکلوا مباشرة الدولة الإسلامیة التی تقدمت بسرعة فائقة- فی کل المجالات- و لو أنّ المسلمین لم یذعنوا لأمر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی اختیار الهجرة و فضلوا البقاء فی مکّة، لما تیسر عند ذلک للإسلام أن یمتد خارج حدود مکّة، بل حتی کان من الممکن أن یقبر الإسلام فی مکّة و یمحی أثره.

و یتّضح لنا أنّ الهجرة لم تکن حکما خاصا بزمن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل أنّها تجب علی المسلمین متی ما تعرضوا لظروف مشابهة لتلک الظروف التی اضطرت النّبی و أصحابه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی ترک مکّة و الهجرة إلی المدینة.

و القرآن یعتبر الهجرة فی الأساس جوهرا لوجود الحریة و الرفاه، و قد أشارت الآیة- موضوع البحث- إلی هذا الأمر، کما أن الآیة (۴۱) من سورة النحل تشیر من جانب آخر إلی هذه الحقیقة، إذ تقول: وَ الَّذِینَ هاجَرُوا فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِی الدُّنْیا حَسَنَةً.

و تجدر الإشارة- أیضا- إلی هذه النقطة، و هی أنّ الهجرة فی نظر الإسلام لا تقتصر علی الهجرة المکانیة و الخارجیة، بل یلزم قبل ذلک أن تتحقق لدی الفرد المسلم هجرة باطنیة فی نفسه، یترک بها کل ما ینافی الأصالة و الکرامة الإنسانیة، لکی یتیسر له بهذا السبیل إلی الهجرة المکانیة- إذن فالهجرة الباطنیة ضروریة قبل أن یبدأ الإنسان المسلم هجرته الخارجیة- و إذا لم یکن هذا الإنسان بحاجة إلی الهجرة الخارجیة، یکون قد نال درجة المهاجرین بهجرته الباطنیة.

و الإساس فی الهجرة هو الفرار من «الظلمات» إلی «النور» و من الکفر إلی الإیمان، و من الخطأ و العصیان إلی إطاعة حکم اللّه، لذلک نجد فی الحدیث ما یدل علی أنّ المهاجرین الذین هاجروا بأجسامهم دون أن تتحقق الهجرة فی بواطنهم و أرواحهم، لیسوا فی درجة المهاجرین، و علی عکس هؤلاء فإنّ من تتحقق لدیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۳

الهجرة الباطنیة الروحیة و لم یتمکن أو لم یحتج إلی الهجرة الخارجیة فهو فی عداد المهاجرین حقا.

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام قوله: «و يقول الرجل هاجرت، و لم يهاجر، إنّما المهاجرون الذين يهجرون السيئات و لم يأتوا بها».

و

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من فر بدينه من أرض إلى أرض و إن كان شبرا من الأرض، استوجب الجنّة و كان رفيق محمّد و إبراهيم عليهما السّلام»[۲۰۶].

لأنّ هذين النّبيين هما قادة و أئمّة مهاجرى العالم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۱]

اشارة

وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (۱۰۱)

التّفسير

صلاة المسافر:

بعد الآيات التى تحدثت سابقا عن الجهاد و الهجرة، تتطرق الآية (۱۰۱) من سورة النساء- التى هى موضوع بحثنا الآن- إلى صلاة المسافر، فتبيّن أن لا مانع للمسلم من أن يقصر صلاته لدى السّفر إذا خاف من خطر الكافرين الذين هم الأعداء البارزون للمسلمين، و قد عبّرت هذه الآية عن السّفر بالضرب فى الأرض، لأنّ المسافر يضرب الأرض برجليه لدى السّفر[۲۰۷].

و يرد هنا سؤال: و هو أن الآية هذه قد جعلت الخوف من العدو شرطا لقصر الصّلاة، بينما نقرأ فى البحوث الفقهية أنّ حكم صلاة القصر يعتبر حكما عاما يشمل جميع أنواع السّفر، سواء كان فيه الخوف من الأعداء أو كان سفرا آمنا لا خوف فيه، و قد وردت روايات عديدة عن طرق الشيعة و السنة فى مجال صلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۵

القصر تؤيد كلّها شمولية حكم صلاة القصر لكل أنواع السّفر المباح ۲۰۸].

و فى جواب هذا السؤال يجب القول: بأنّ تقييد حكم القصر فى صلاة بالخوف قد يكون سببه واحدا من الموارد التالية:

أ- إنّ القيد جاء بسبب وضع المسلمين فى بداية العصر الإسلامى، و يصطلح على هذا القيد ب «القيد الغالب» أى أنّ أغلب أسفار المسلمين فى ذلك الزمن كانت مشوبة بالخوف، و جاء فى علم الأصول أنّ القيود الغالبة لا مفهوم لها مستدلا بآية وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ ۲۰۹] أى بنات نسائكم اللواتى تربونهنّ و هنّ من أزواج سابقين و هنّ حرام عليكم.

حيث نواجه فى هذه الآية نفس مسألة «القيد الغالب» لأن بنات الزوجة يعتبرن محارم للزوج- سواء تربين فى حجره أم لم يتربين لديه- و لكن بما أنّ أغلب النساء المطلقات اللواتى يتزوجن مرّة أخرى هنّ نساء شابات لداهنّ أطفال صغار تتمّ تربيتهم فى حجر الزوج الجديد، لذلك جاءت الآية بقيد «حجوركم».

ب- و یعتقد بعض المفسّرین أنّ صلاة القصر شرعت فی البدایة لزمن الخوف- کما جاء فی الآیة موضوع البحث- و إنّ هذا الحکم قد توسع فیما بعد فشمل جمیع الحالات.

ج- و یحتمل أیضا أن یکون فی هذا القید جانب توکیدی، أی أن صلاة القصر لازمة للمسافر أینما کان، و لکن فی حالة الخوف من العدو تکون هذه الصّلاة مؤکدة أکثر.

و علی أی حال، فلیس هناک من شک أنّ صلاة القصر للمسافر- مع الأخذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۶

بنظر الاعتبار الرّوایات المفسّرة لهذه الآیة- لا تقتصر علی حالة الخوف، و لهذا السبب فإن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان فی أسفاره حتی فی موسم الحج (فی أرض منی) یقصر صلاته.

سؤال:

و هنا یرد سؤال آخر، و هو أنّ الآیة قد أتت بعبارة وَ لا جُناحَ عَلَیْکُمْ و لیس فی هذه العبارة دلالة الحتمیة فی الحکم، أی لا تحتم علی المسافر أن یقصر صلاته، فکیف یمکن القول أنّ صلاة القصر واجب عینی للمسافر و لیس واجبا تخییریا؟

الجواب:

لقد وجّه هذان السؤالان إلی أئمّة الإسلام، فأشاروا لدی الإجابة علیهما إلی نقطتین مهمتین:

النّقطة الأولی: هی أنّ عبارة «لا جناح»، أی لا ذنب علیکم، قد استخدمت فی بعض الموارد فی القرآن الکریم للدلالة علی الوجوب، فمثلا فی آیة: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما[۲۱۰] فی حین أن جمیع المسلمین یعرفون أنّ السعی بین الصفا و المروة واجب سواء فی الحج أو العمرة.

و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام و المسلمون یؤدون السعی بعنوان الواجب ...

و قد نقل عن الإمام الباقر علیه السّلام حدیث بهذا المضمون ۲۱۱].

و بعبارة أخری فإنّ عبارة «لا جناح»- فی الآیة موضوع البحث و کذلک فی آیة الحج- جاءت لنفی التحریم، و السبب هو أنّ بعض المسلمین فی بدء الإسلام، و لوجود أصنام علی جبلی الصفا و المروة، کانوا یظنون أنّ السعی بینهما من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۷

عادات و تقالید الوثنیین، فی حین أنّه لم یکن کذلک، فجاءت عبارة- «لا جناح» فی الآیة المذکورة لرفع الوهم الحاصل.

و کذلک فی حالة المسافر، من الممکن أن یتوهّم البعض أنّ قصر الصّلاة فی السّفر قد یعتبر نوعا من المعصیة، فجاء القرآن الکریم فی الآیة بعبارة «لا جناح» لرفع هذا الوهم أیضا.

و النّقطة الثّانیة: هی أنّ بعض الرّوایات قد أشارت إلی أنّ قصر الصّلاة فی السّفر نوع من التسهیل الإلهی، و تقتضی الأدب أن لا یرد هذا التسهیل و لا یتجاهل.

و فی روایات أهل السنّة

نقل عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال فی موضوع قصر الصّلاة: «صدقة تصدق اللّه بها علیکم فاقبلوا صدقته»[۲۱۲].

کما ورد مثل هذا الحدیث فی مصادر الشّیعة حیث

ینقل الإمام الصّادق علیه السّلام عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله بأن: الإفطار فی السّفر و قصر الصّلاة فیه هدیتان إلهیتان فمن انصرف عنهما أصبح رادّا لهدیة اللّه ۲۱۳].

أمّا النّقطة الثّالثة: التی یجب الانتباه لها فهی أنّ بعض المسلمین قد تصوروا أن الآیة (۱۰۱) من سورة النساء تبیّن حکم صلاة الخائف (أثناء الحروب و أمثال ذلک) و یستدلون لذلک بعبارة إِنْ خِفْتُمْ الواردة فی الآیة، و لکن جملة إِذا ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فیها مفهوم عام یشمل کل أنواع السّفر سواء کان من الأسفار الاعتیادیة أو کان سفرا من أجل الجهاد، و الذی تناولته الآیة التالیة بصورة مستقلة.

إذن فعبارة إِنْ خِفْتُمْ و کما أسلفنا- تعتبر نوعا من القیود أو الشروط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۸

الغالبة، حیث أنّ أغلب أسفار المسلمین فی ذلک الزمان کانت مشوبة بالخوف و الخطر- لذلک فلا دلالة علی اقتصار الآیة علی الصّلاة فی حالة الخوف، بالإضافة إلی ذلک، فإنّ الخوف من هجوم العدو موجود أثناء الحروب و لیس فی محلّه أن یقال لمن فی ساحة الحرب إِنْ خِفْتُمْ من هجوم العدو، و هذا دلیل آخر علی أنّ الآیة تشیر إلی جمیع أنواع السّفر التی یحتمل أن یوجد فیها بعض الأخطار علی المسافر.

کما یجب التنبیه إلی أنّ شروط صلاة المسافر لم ترد فی القرآن، کما لم ترد شروط و أوصاف بقیة الأحکام الإسلامیة فیه أیضا، بل أشارت إلی ذلک السنّة الشریفة.

و من هذه الشروط أنّ صلاة القصر لا تجب فی الأسفار التی لا تبلغ المسافة فیها ثمانیة فراسخ، لأنّ المسافر فی تلک الأیّام کان یقطع فی الیوم الواحد مسافة الثمانیة فراسخ بصورة اعتیادیة.

و الشرط الآخر هو أنّ المسافر الذی یتّخذ من السّفر حرفة لنفسه أو جزءا من برنامج حیاته الیومیة مستثنی من القصر فی الصّلاة، لأنّ السّفر بالنسبة إلی أمثال هؤلاء أمر اعتیادی، و لیس أمرا استثنائیا.

کما أنّ من یسافر من أجل ارتکاب معصیة، لا یکون مشمولا لحکم صلاة المسافر، أی لا یجوز له القصر فی الصّلاة، و السبب هو أن حکم القصر یعتبر نوعا من التسهیل الإلهی، و لا یمکن أن یشمل هذا التسهیل من یسیر فی طریق معصیة اللّه.

کما أنّ أی مسافر لم یصل إلی حدّ الترخیص (أی إلی النقطة التی لا یمکن سماع صوت أذان المدینة فیها، أو لا یمکن مشاهدة أسوار المدینة عندها) لا یمکنه أن یقصر صلاته، لأنّه فی هذه الحالة لا یعد خارجا عن حدود المدینة و لا یعتبر فی عداد المسافرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۹

و بالإضافة إلی ما ذکر هناک أحکام أخری ذکرتها کتب الفقه بالتفصیل، و قد ذکرت الأحادیث التی وردت فی هذا الأمر کتب الحدیث.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۰

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۰۲]

اشارة

وَ إِذا کُنْتَ فِیهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَکَ وَ لْیَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْیَکُونُوا مِنْ وَرائِکُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْری لَمْ یُصَلُّوا فَلْیُصَلُّوا مَعَکَ وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِکُمْ وَ أَمْتِعَتِکُمْ فَیَمِیلُونَ عَلَیْکُمْ مَیْلَةً واحِدَةً وَ لا جُناحَ عَلَیْکُمْ إِنْ کانَ بِکُمْ أَذیً مِنْ مَطَرٍ أَوْ کُنْتُمْ مَرْضی أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَکُمْ وَ خُذُوا حِذْرَکُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً (۱۰۲)

سبب النّزول

نزل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع عدد من المسلمین أرض الحدیبیة- و هم فی طریقهم إلی مکّة- فسمعت قریش بذلک فبعثت بخالد بن الولید علی رأس زمرة من مائتی شخص لاعتراض طریق النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین الذین معه و منعهم من الوصول إلی مکّة، فاستقرّ خالد و الذین رافقوه فی الجبال القریبة من مکة.

و لما کان موعد صلاة الظهر، أذن بلال، فصلّی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالمسلمین جماعة، فشاهد خالد بن الولید صلاة المسلمین ففکر فی خطّة للهجوم علی المسلمین، و أخبر جماعته أن یغتنموا فرصة أداء المسلمین لصلاة العصر التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۱

یعتبرونها أعزّ علیهم من أعینهم، فیباغتونهم بهجوم خاطف و هم فی الصّلاة و یقضون علیهم.

و فی هذه الأثناء نزلت الآیة بحکم صلاة الخوف التی تصون المسلمین من کل هجوم خاطف.

و هذه الآیة إحدی معاجز القرآن الکریم حیث أخبرت عن وقوع هجوم قبل قیام العدو بتنفیذه و بذلک أفشلت خطة العدو، و یقال بأنّ خالدا أعلن إسلامه حال مشاهدته لذلک المشهد بعینه.

التّفسیر

اشارة

بعد آیات الجهاد السابقة تبیّن هذه الآیة للمسلمین طریقة صلاة الخوف التی تؤدی فی ساحة الحرب، فتخاطب الآیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قائلة: وَ إِذا کُنْتَ فِیهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَکَ وَ لْیَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ... فإذا سجدت جماعة و انقضت الرکعة الأولی من الصّلاة، علی النّبی أن یقف فی مکانه فتؤدی الجماعة- سریعا- الرکعة الثّانیة و تعود إلی ساحة القتال لمواجهة العدو.

و تأتی بعد ذلک الجماعة الثّانیة التی لم تصل بعد، و تأخذ مکان الجماعة الأولی فتصلّی مع النّبی: فَإِذا سَجَدُوا فَلْیَکُونُوا مِنْ وَرائِکُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْری لَمْ یُصَلُّوا فَلْیُصَلُّوا مَعَکَ ... و علی الجماعة الثّانیة أن لا تضع أرضا لامة حربها، بل تحتفظ بها معها: وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ ....

و تشیر الآیة إلی أنّ أداء الصّلاة بهذا الأسلوب من أجل أن یبقی المسلمون فی مأمن من أی هجوم مباغت قد یقوم به العدو علیهم، لأنّه یتحین الفرص دائما لتنفیذ هذا الهجوم، و یتمنی لو تخلی المسلمون و غفلوا عن أسلحتهم و أمتعتهم لیشنّ علیهم حملته الغادرة: وَدَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِکُمْ وَ أَمْتِعَتِکُمْ فَیَمِیلُونَ عَلَیْکُمْ مَیْلَةً واحِدَةً ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۲

و لما کان حمل السلاح و الوسائل الدفاعیة الأخری صعبا أثناء أداء الصّلاة فی بعض الأحیان مثل أن یکون بعض المسلمین یعانون من ضعف بدنی أو مرضی أو جراحات تحملوها من ساحة القتال، فیشق علیهم بذلک حمل السلاح أو وسائل الدفاع الأخری، لذلک تأمر الآیة فی الختام قائلة: وَ لا جُناحَ عَلَیْکُمْ إِنْ کانَ بِکُمْ أَذیً مِنْ مَطَرٍ أَوْ کُنْتُمْ مَرْضی أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَکُمْ

و هذا مشروط بأن یحتفظ المسلمون بما یقیهم من وسائل الدفاع کالدروع، و أمثالها حتی فی حالة وجود العذر کالضعف أو المرض، و ذلک لحمایة أنفسهم إذا باغتهم العدو بهجومه إلی أن تصلهم الإمدادات حیث تقول الآیة: وَ خُذُوا حِذْرَکُمْ ....

و هنا عدّة ملاحظات جدیرة بالانتباه، هی:

۱- واضح أنّ الهدف من وجود النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین المسلمین فی حال إقامة صلاة الخوف، لا یعنی أنّ هذه الصّلاة لا تقام إلّا بوجود النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل القصد و الهدف هنا فی الآیة هو أن یکون للمقاتلین و المجاهدین إمام أو قائد یتقدمهم و یؤمهم فی صلاة الجماعة أثناء الحرب، و من هذا المنطلق نری الإمام علی و الإمام الحسین علیهما السّلام قد أقاما صلاة الخوف، کما أنّ العدید من قادة الجیوش الإسلامیة کحذیفة قد قاموا بهذه العبادة الإسلامیة فی ساعات الضرورة[۲۱۴].

۲- و الآیة تأمر المجموعة الأولی بأن تحتفظ بسلاحها أثناء أداء صلاة الخوف، لکنها تقول للمجموعة الثّانیة أن لا تلقی أرضا بوسائلها الدفاعیة کالدروع و الأسلحة الأخری.

و من المحتمل أن یکون الفرق بین هاتین المجموعتین هو أنّ العدو قد لا یکون علی علم بعد بخطة المسلمین أثناء أداء المجموعة الأولی لصلاتها، و فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۳

هذه الحالة یکون احتمال هجوم العدو علی المسلمین ضعیفا، أمّا بالنسبة للمجموعة الثانیة- حین- ینتبه العدو لمراسم الصّلاة فیکون هجومه علی المسلمین أکثر احتمالا.

۳- إنّ القصد من الاحتفاظ بالمتاع المطلوب من المسلمین فی الآیة- موضوع البحث- هو أن یراقب المسلمون وسائلهم الأخری الحربیة و الشخصیة و الغذائیة و الحیوانات التی جلبوها لتکون غذاء لهم، بالإضافة إلی الدفاع عن أنفسهم.

۴- من الواضح أنّ أداء الصّلاة جماعة لیست واجبة فی الإسلام، لکنّها من المستحبات المؤکدة کثیرا، و هذه الآیة تعتبر أحد الأدلة الحیة علی التأکید بالنسبة لأهمیة مراسیم صلاة الجماعة فی الإسلام، بحیث إنّ هذه الصّلاة- صلاة الجماعة- تقام حتی فی ساحة الحرب بالاستفادة من أسلوب و طریقة صلاة الخوف، و یستدل من هذا الموضوع علی أهمیة الصّلاة نفسها بالإضافة إلی أهمیة إقامتها جماعة.

و من الطبیعی أن یکون لصلاة الجماعة تأثیر نفسی و معنوی علی المقاتلین من زاویة التنسیق فی الهدف، کما أنّ لها تأثیر علی العدو- أیضا- حین یری أنّ المسلمین حتی و هم فی ساحة القتال یهتمون بواجباتهم الدینیة.

کیفیة صلاة الخوف:

لا یبدو فی الآیة- موضوع البحث- التوضیح اللازم لکیفیة أداء صلاة الخوف. و هذا هو أسلوب القرآن إذ یبیّن کلیات الحکم، و یترک شرح الأحکام إلی السنّة الشریفة.

و طریقة أداء صلاة الخوف- کما توضحها السنّة- هی أن تتحول الصّلاة الرباعیة إلی صلاة ثنائیة، أی تحویل صلاة الظهر أو العصر مثلا التی هی أربع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۴

رکعات فی کل منهما إلی صلاة برکعتین، فتصلی المجموعة الأولی رکعة واحدة مع الإمام، ثمّ یتوقف الإمام بعد أداء الرکعة الأولی فتؤدی المجموعة الأولی الرکعة الثانیة فرادی، ثمّ تعود إلی جبهة القتال، فتأتی المجموعة الثانیة لتأخذ مکان المجموعة الأولی خلف الإمام، فتؤدی الرکعة الأولی جماعة مع الإمام و تؤدی الرکعة الثّانیة فرادی (و قد وردت طرق أخری لأداء صلاة الخوف، و لکن أشهرها الطریقة التی تحدثنا عنها هنا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۳]

اشارة

فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (۱۰۳)

التّفسير

أهمية فريضة الصّلاة:

بعد أن ذكرت الآية السابقة صلاة الخوف، و أكدت ضرورة إقامتها حتى فی جبهات الحرب، تحث الآية (۱۰۳) المسلمين على أن لا ينسوا ذكر اللّه بعد أداء الصّلاة، و ليذكروا اللّه حين قيامهم و قعودهم و أثناء نومهم على جنوبهم و ليسألوه العون و النصر، و القصد من ذكر اللّه فی حالة القيام و القعود و النوم على الجنبين، يحتمل أن يكون فی فترات الاستراحة التی تسنح للمسلمين و هم فی ساحة الحرب، كما يحتمل أن تكون فی الحالات المختلفة للقتال، أی أثناء وقوف المقاتل أو جلوسه أو استلقائه على أحد جنبيه و هو يقاتل بأحد أنواع الأسلحة الحربية كالقوس و السهم مثلا.[۲۱۵]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۶

إنّ هذه الآية تشير فی الحقيقة إلى أمر إسلامی مهم، يدل على أنّ أداء الصّلاة فی أوقات معينة ليس معناه أن ينسى الإنسان ذكر اللّه فی الحالات الأخرى، فالصّلاة أمر انضباطی يحيی و يجدد روح التوجه إلى اللّه لدى الفرد، فيستطيع فی أوقات أخرى غير وقت الصّلاة أن يحتفظ بذكر اللّه فی ذهنه، سواء كان فی ساحة القتال أو فی مكان آخر.

و قد فسّرت هذه الآية فی روايات عديدة على أنها تبيّن كيفية أداء الصّلاة بالنسبة للمرضى، أی أنّهم إذا استطاعوا فليؤدوا الصّلاة قياما، و إن لم يقدروا على ذلك فقعودا، و إذا عجزوا عن القعود فعلى أحد جنبيهم.

و هذا التّفسير فی الحقيقة نوع من التعميم و التوسع فی معنى الآية، و لو أنّها لا تخص هذا المجال [۲۱۶].

و تؤكد هذه الآية أنّ حكم صلاة الخوف هو حكم استثنائی طارىء، و على المسلمين إذا ارتفعت عنهم حالة الخوف أن يؤدوا صلاتهم بالطريقة المعتادة فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ....

و توضح الآية فی النهاية سر التأكيد على الصّلاة بقولها إن الصّلاة فريضة ثابتة للمؤمنين و أنّها غير قابلة للتغيير: ... إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً.

إنّ عبارة «موقوت» من المصدر «وقت»، و على هذا الأساس فإن الآية تبيّن أنّه حتى فی ساحة الحرب يجب على المسلمين أداء هذه الفريضة الإسلامية، لأنّ للصّلاة أوقات محددة لا يمكن تخطيها[۲۱۷].

و لكن الروايات العديدة التی وردت فی شرح هذه الآية تبيّن أنّ عبارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۷

«موقوتا» تعنی «ثابتا» و «واجبا» ممّا لا ينافی مفهوم الآية أيضا، و النتيجة هی أنّهما قريبين من المعنى الأوّل.

سؤال:

یقول البعض: إنّهم لا ینکرون فلسفة و اهمیة الصّلاة و آثارها التربویة، و لکنهم یسألون عن ضرورة إقامتها فی أوقات محددة، و یرون أن الأحسن أن یترک الناس أحرارا لکی یؤدی کل منهم الصّلاة متی ما سنحت له الفرصة أو متی ما وجد استعدادا روحیا لأداء هذه الفریضة؟

الجواب:

إنّ التّجربة قد أثبت أنّ القضایا التربویة لو لم تخضع لشروط و قیود معینة، فإن العدید من الناس سیتجاهلون و یترکون هذه القضایا، و سیؤدی هذا التجاهل إلی أن تتزلزل أرکانها، لذلک فإن القضایا التربویة یجب أن تخضع لقیود خاصّة و یخصص لأدائها أوقات محددة، و أن لا یسمح لأحد بتخطی هذه القیود أو تجاهل تلک الأوقات، خاصّة و إنّ أداء فریضة کالصّلاة و فی وقت معین و بصورة جماعیة یظهر عظمتها و هیبتها و تأثیرها القوی الذی لا یمکن لأحد نکرانه، و الصّلاة فی الحقیقة من أهم العوامل فی تربیة الإنسان و تکوین شخصیته الإنسانیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۸

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۰۴]

اشارة

وَ لا تَهِنُوا فِی ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَکُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ یَأْلَمُونَ کَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا یَرْجُونَ وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً (۱۰۴)

سبب النّزول

قرع السّلاح بسلاح یشابهه:

روی عن ابن عباس و مفسّرین آخرین أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- بعد الأحداث الألیمة لواقعة أحد- صعد إلی جبل أحد و کان علی الجبل أبو سفیان، فخاطب النّبی بلهجة الفاتح بقوله: «یا محمّد یوم بیوم بدر!» و عنی أبو سفیان بذلک أن انتصارهم فی أحد کان مقابل هزیمتهم فی واقعة بدر.

فطلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المسلمین أن یردوا علیه فورا، و لعل النّبی أراد أن یثبت لأبی سفیان إنّ من تربوا فی ظل الرسالة الإسلامیة یتمتعون بکامل الوعی، فرد المسلمون علی أبی سفیان: هیهات أن یستوی الوضع بین المؤمنین و المشرکین، فشهداء المؤمنین فی الجنّة و قتلی المشرکین فی النّار.

فأجاب أبو سفیان- صارخا و مفتخرا- بالعبارة التالیة:

«لنا العزّی و لا عزّی لکم» فردّ علیه المسلمون:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۹

«اللّه مولانا و لا مولی لکم» و لما عجز أبو سفیان عن الردّ علی هذا الجواب و الشعار الإسلامی الحی تخلی عن صنمه «العزی» و عرج

على صـنم آخر هو «هبل» متوسـلا إليه بقوله: «أعل هبل، أعل هبل» فردّ عليه المسـلمون بجواب قوى علّمهم إياه نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو:

«اللّه أعلى و أجل».

فما أعيت أبا سفيان الحيلة و لم تجده شعاراته الوثنية نفعا قال صارخا:

«موعدنا فى أرض بدر الصغرى».

عاد المسـلمون من ساحـة القتال مثخنين بالجراح، و حين كان يعتصـرهم الألم من أحـداث أحـد، نزلت الآيـة المذكورة أعلاه محذرة المسلمين من الغفلة عن المشركين مطالبة إياهم بملاحقة قوى الشرك دون كلل أو ملل، و أن لا يتأثروا بحوادث مؤلمة كحادثة أحد، فهب المسـلمون و هم فى تلـك الحالـة لملاحقـة العـدو، فما أن سـمع المشـركون بعزم المسـلمين حتى أسـرعوا الخطى مبتعـدين عن المدينة و عادوا إلى مكّة[۲۱۸].

إنّ سـبب النّزول هذا يعلّمنا أنّ المسـلمين يجب أن لا يغيب عن بالهم أنواع التكتيك الذى يستخدمه العدو، و أن يواجهوا كل أسلوب حربى يتبعه العدو، سواء الأسـلوب القتالى أو النفسـى بأسـلوب إسـلامى أقوى، و أعنف من أسلوب العدو، و أن يواجهوا منطق الأعداء بمنطق أقوى و أشد، و يقابلوا سـلاحهم بسـلاح أمضى، و حتى شعارات الأعداء يجب أن تقابل بشعارات إسلامية ضاربة، و بغير ذلك فإنّ الرياح ستجرى بما يشتهيه الأعداء.

و من هـذا المنطلق، فإنّنا نحن المسـلمين- بـدلا من أن نجلس و نـذرف الـدموع على ما مر و يمر علينا من أحـداث مؤلمـة مريرة، و ما تشهده مجتمعاتنا من مفاسد رهيبة تحيط بهذه المجتمعات من كل جانب، علينا أن نبادر بصورة فعالة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۰

العمل، فنواجه العدوان المكتوب بكتابات تدحضه و تقمعه، و نواجه الإعلام الضال المسموم المضلل بأسلوب إعلامى يحبطه و يقضى على أمره، و نقابل مراكز اللهو الخليع ببناء مراكز للهو البرىء السليم لشبابنا و أبنائنا، و نقرع الأفكار و الأطروحات و المذاهب السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية بالفكر الإسلامى الجامع بأسلوب عصرى يفهمه الجميع.

و إذا اسـتطعنا أن نواجه أعـداءنا بهذه الصورة فقد أفلحنا فى الحفاظ على كياننا الإسـلامى، و فى أن نبرز للعالم بشـكل مجتمع تقدمى أصيل.

التّفسير

أعقبت الآيـة- موضوع البحث هذه- الآيات السابقة التى تحدثت عن الجهاد و الهجرة و اسـتهدفت إحياء روح التضـحية و الفداء لدى المسلمين بقولها:

وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ و هـذا تأكيـد على ضـرورة أن لا يواجه المسـلمون عـدوهم اللدود بأسـلوب دفاعى، بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجومية دائما، لأنّ هذا الأسلوب الأخير له أثر قامع للعدو و مؤكد على معنوياته.

و قـد جرّب المسـلمون هـذا الأمر فى مواجهتهم للعـدو بعـد واقعـة أحـد التى هزموا فيها، فارغموا العدو على الفرار مع أنّه كان لم يزل يتلـذذ بطعم الإنتصـار الـذى أحرزه فى أحـد. إذ لمـا علم المشـركون بقـدوم المسـلمين خافوا من العودة إلى ساحـة القتال، و أسـرعوا مبتعدين عن المدينة.

بعد ذلك تأتى الآية باستدلال حى و واضح للحكم الذى جاءت به، فتسأل المسلمين لما ذا الوهن؟ فأنتم حين يصيبكم ضرر فى ساحة الجهاد فإنّ عدوكم سيصيبه هو الآخر سهم من هذا الضرر، مع فارق هو أنّ المسلمين يأملون أن يعينهم اللّه و يشملهم برحمته الواسعة،

بینما الکافرون لا- یرجون و لا- یتوقعون ذلک، حیث تقول الآیة: إِنْ تَکُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ یَأْلَمُونَ کَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا یَرْجُونَ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۱

و فی الختام- و من أجل إعادة التأکید- تطلب الآیة من المسلمین أن لا- ینسوا علم اللّه بجمیع الأمور، فهو یعلم معاناة المسلمین و مشاکلهم و آلامهم و مساعیهم و جهودهم، و یعلم أنّهم أحیانا یصابون بالتهاون و الفتور، فتقول الآیة:

وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً و سیری المسلمون نتیجة کل الحالات تلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۲

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۰۵ الی ۱۰۶]

اشارة

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ بِما أَراکَ اللَّهُ وَ لا تَکُنْ لِلْخائِنِینَ خَصِیماً (۱۰۵) وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ کانَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۰۶)

سبب النّزول

لقد نقلوا واقعة مفصلة عن سبب نزول الآیتین المذکورتین، خلاصتها أنّ فی قبیلة بنی الأبیرق المعروفة نسبیا کان ثلاثة أشقاء هم «بشر» و «بشیر» و «مبشر» سطا أحدهم و هو «بشیر» علی دار أحد المسلمین و یدعی «رفاعة» فسرق سیفه و درعه و کمیة من الغذاء، و کان ابن أخیه و یدعی «قتادة» من مجاهدی بدر فأخبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالواقعة.

و لکن الأشقاء الثّلاثة اتهموا شخصا من المسلمین اسمه «لبید» الذی کان یسکن فی دار واحد معهم، فتألم لبید ألما شدیدا من هذه التهمة الباطلة و استل سیفه و توجه إلی الأشقاء الثلاثة صارخا فی وجوههم قائلا: «ا تتهموننی أنا بالسّرقة و أنتم أجدر بهذا العمل؟ فأنتم هم أولئک المنافقون الذین کنتم تهجون النّبی و تنسبون أبیات الهجو إلی قریش، فأمّا أن تثبتوا ما تنسبونه لی من تهمة، أو أن أهوی بسیفی علی رؤسکم».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۳

فلمّا رأی أخوة السارق ذلک حاولوا استرضاء «لبید» و لکنّهم لمّا علموا أنّ القضیة قد وصلت إلی أسماع النّبی بواسطة «قتادة» لجؤوا إلی أحد متکلمی قبیلتهم فطلبوا منه أن یذهب مع جمع من الناس إلی النّبی و یتظاهر بأنّ الحق إلی جانبهم لیبرئ السارق و یتهم «قتادة» بتلفیق التهمة علی شقیقهم، و قد قبل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم استنادا إلی واجب العمل بظاهر الأمور- شهادة تلک المجموعة و أنّب «قتادة» علی عمله.

و قد تألم «قتادة» الذی کان یعرف نفسه برئیا ... تألم من هذه الواقعة و عاد إلی عمّه و أخبره بالحادث مظهرا أسفه الکبیر لما حصل، فخفف علیه عمّه و قال «لا- تحزن یا قتادة إن اللّه فی عوننا» فنزلت الآیتان المذکورتان لتعلنا براءة الرجل، و تؤنبا مرتکبی الخیانة الحقیقیین.

و نقلوا- أیضا- واقعة أخری فی سبب نزول الآیتین، و هی أن درعا لأحد الأنصار کانت قد سرقت فی إحدی الحروب، و کان الشک یدور علی شخص من قبیلة «الأبیرق» فی سرقة ذلک الدرع، و لما علم السارق بأنّ الشکوک بدأت تدور حوله رمی بالدرع فی دار أحد الیهود، و طلب من قبیلته أن یشهدوا ببراءته أمام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یستدلوا بذلک علی وجود الدرع فی دار

الیهودی، و لمّا رأی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الأمر بتلک الصورة برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهادة التی جاءت لصالحه و أدین الرجل الیهودی بسرقة الدرع، فنزلت الآیتان المذکورتان لتوضحا الحقیقة.

التّفسیر

منع الدّفاع عن الخائنین:

یعرف اللّه سبحانه و تعالی- فی بدایة الآیة (۱۰۵) من سورة النساء- نبیّه محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّ الهدف من إنزال الکتاب السماوی هو تحقیق مبادئ الحق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۴

و العدالة بین الناس، إذ تقول الآیة: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ بِما أَراکَ اللَّهُ ....

ثمّ یحذّر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من حمایة الخائنین أبدا بقوله: وَ لا تَکُنْ لِلْخائِنِینَ خَصِیماً.

و مع أنّ الآیة خطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لکن ممّا لا شک فیه هو أنّ هذا الحکم حکم عام لجمیع القضاة و المحکمین، و بهذا الدلیل فإنّ مثل هذا الخطاب لیس المفهوم منه أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تبدر منه مثل هذه الأعمال، لأن الحکم المذکور یشمل جمیع الأفراد.

أمّا الآیة الأخری فهی تأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بطلب المغفرة من اللّه سبحانه و تعالی، إذ تقول: وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ کانَ غَفُوراً رَحِیماً.

و حول سبب الاستغفار المطلوب فی هذه الآیة توجد احتمالات عدیدة، هی:

الأوّل: إنّ الاستغفار هو لترک الأولی الذی حصل بسبب الاستعجال فی الحکم فی القضیة التی نزلت بسببها الآیتان، أی مع أنّ ذلک القدر من الاعتراف، و شهادة الطرفین کان کافیا لإصدار الحکم من قبل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّه کان الأحری أن یجری تحقیق أکثر فی ذلک المجال.

و الثّانی: هو أنّ النّبی قد حکم فی تلک القضیة وفقا لقوانین القضاء الإسلامی، و بما أنّ الأدلة التی جاء بها الخائنون کانت بحسب الظاهر أقوی، لذلک أعطی الحق لهم، و بعد انکشاف الحقیقة و وصول الحق إلی صاحبه یأتی الأمر بطلب المغفرة من اللّه، لیس لذنب مرتکب، بل لتعرض حق فرد مسلم إلی خطر الزوال بسبب خیانة البعض من الأشخاص (أی أن الاستغفار بحسب الاصطلاح- لأجل الحکم الحقیقی لا الحکم الظاهری).

و قد احتمل البعض أن یکون الاستغفار مطلوبا من طرفی الدعوی اللذین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۵

ظهر منهما الخلاف فی عرض و متابعة دعواهما.

و

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّما أنا بشر، و إنّکم تختصمون إلیّ و لعل بعضکم یکون الحن بحجته من بعض، فأقضی بنحو ما أسمع، فمن قضیت له من حق أخیه شیئا فلا یأخذه، فإنّما أقطع له قطعة من نار»[۲۱۹].

یتبیّن لنا من هذا الحدیث أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکلّف بالحکم وفقا لظاهر القضیة و استنادا إلی أدلة طرفی الدعوی، و بدیهی أن الحق فی مثل هذه الحالة یصل إلی صاحبه، و یحتمل أحیانا أن لا ینطبق ظاهر الدلیل و شهادة الشهود مع الحقیقة، فیجب

الانتباه هنا إلى أنّ حكم الحاكم لا يغير من الحقيقة شيئا فلا يصبح الحق باطلا و لا الباطل حقا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۶

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۰۷ الى ۱۰۹]

اشارة

وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً (۱۰۷) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ كانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (۱۰۸) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (۱۰۹)

التّفسير

بعد الآيات التی جاءت بتحريم الدّفاع عن الخائنين، تستطرد الآيات الثلاث الأخيرة فی التشديد على حرمة الدفاع عن الخائنين، بالأخص أولئك الذين يخونون أنفسهم.

و يجب الانتباه هنا إلى أن الآية (۱۰۷) تشير إلى الذين يخونون أنفسهم، بينما الذی عرفنا من سبب نزول الآيات السابقة، هو أنّها نزلت فی شأن الذين يخونون الغير، و فی هذا إشارة إلى ذلك المعنى الدقيق الذی ينبه إليه القرآن فی العديد من الآيات، و هو أن أی عمل يصدر عن الإنسان يتأثر بنتيجته- سواء كانت حسنة أو سيئة- الإنسان ذاته قبل غيره، كما جاء فی الآية (۷) من سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۷

الإسراء، إذ تقول إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها.

أو أنّ الآية المذكورة تشير إلى موضوع آخر أكّد عليه القرآن أيضا، و هو أن جميع أفراد البشر هم جميعا كأعضاء جسد واحد، فإذا أضر أحدهم بغيره فكأنما أضرّ بنفسه، أی يكون بالضبط كالذی يصنع نفسه بنفسه.

و الأمر الآخر فی الآية أنّها لا تخص الذين يرتكبون الخيانة لمرّة واحدة ثمّ يندمون على ما فعلوا، حيث لا ضرورة لاستعمال العنف و الشدة مع هؤلاء، بل هم بحاجة إلى الرأفة أكثر، و الشدّة يجب أن تطبق على أولئك الذين يحترفون الخيانة و تكون جزءا من حياتهم.

و يدل على هذه القرينة الواردة فی الآية من خلال عبارة يَخْتانُونَ التی هی فعل مضارع يدل على الاستمرارية، بالإضافة إلى القرينة الأخرى التی تفهم من عبارتی خَوَّاناً أی كثير الخيانة و أَثِيماً أی كثير الذّنب، و الكلمة الأخيرة جاءت لتأكيد عبارة «خوان» فی الآية، كما أنّ الآية السابقة جاءت بكلمة «خائن» التی هی اسم فاعل و التی لها معنى وصفی يدل على تكرار الفعل.

لقد تعرض الخائنون فی الآية الأخرى إلى التوبيخ، حيث قالت أن هؤلاء يستحيون أن تظهر بواطن أعمالهم و سرائرهم و تنكشف إلى الناس، لكنهم لا يستحيون لذلك من اللّه سبحانه و تعالى، إذ تقول الآية: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ... فلا يتورع هؤلاء من تدبير الخطط الخيانية فی ظلام الليل، و التحدث بما لا يرضى اللّه الذی يراهم و يراقب أعمالهم، أينما كانوا: وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ كانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً.

بعد ذلك تتوجه الآية (۱۰۹) من سورة النساء بالحديث عن شخص السارق الذی تمّ الدفاع عنه، و تقول بأنّه على فرض أن يتمّ الدفاع عن هؤلاء فی الدنيا فمن يستطيع الدفاع عنهم يوم القيامة، أن من يقدر أن يكون لهؤلاء وكيلا ليرتب أعمالهم و يحل مشاكلهم؟!

حيث تقول الآية: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۸

الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا. و لذلك فإنّ الدفاع عن هؤلاء الخونة فى الدنيا ليس له أثر إلا القليل، لأنّهم سوف لا يجدون أبدا من يدافع عنهم أمام اللّه فى الحياة الآخرة الخالدة.

و الحقيقة هى أنّ الآيات الثلاث الأخيرة تحمل فى البداية إرشادات إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إلى كل قاض يريد أن يحكم بالحق، بأن ينتبهوا حتى يفوتوا الفرصة على أولئك الذين يريدون انتهاك حقوق الآخرين، عبّر وسائل مصطنعة و شهود مزورين.

بعد ذلك تحذر الآية الخائنين و من يدافع عنهم، بأن ينتظروا عواقب سيئة لأعمالهم فى هذه الدنيا و فى الآخرة أيضا.

و فى تلك الآيات سر من أسرار البلاغة القرآنية، حيث أنّها أحاطت جميع جوانب القضية و أعطت الإرشادات و التحذيرات اللازمة فى كل مورد، مع أنّ موضوع القضية يبدو موضوعا صغيرا بحسب الظاهر، إذ يدور حول درع مسروقة أو مواد غذائية أو يهودى من أعداء الإسلام.

و قد تناولت الآية- أيضا- الإشارة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يعتبر إنسانا معصوما عن الخطأ، كما أشارت إلى الأفراد الذين يحترفون الخيانة، أو الذين يدافعون عن الخائنين اندفاعا وراء عصبيات قبلية، إشارات تتناسب و منزلة الأشخاص المشار إليهم فى الآيات المذكورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۹

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۲]

اشارة

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۱۰) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱۱) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۱۱۲)

التّفسير

اشارة

لقد بيّنت هذه الآيات الثلاث، ثلاثة أحكام كلية بعد أن تطرقت الآيات السابقة إلى مسائل خاصّة بالخيانة و التهمة.

۱- لقد وردت فى الآية (۱۱۰) من الآيات الثلاث أعلاه الإشارة أوّلا إلى هذه الحقيقة و هى أن باب التوبة مفتوح أمام المسيئين على كل حال، فإذا ارتكب أحد ظلما بحقّ نفسه أو غيره، و ندم حقيقة على فعلته، أو استغفر اللّه لذنبه، و كفّر عن خطيئته فيجد اللّه غفورا رحيما، حيث تقول الآية: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً.

۲- يجب الانتباه إلى أنّ الآية الأولى تشير إلى نوعين من الذنوب، حيث جاءت فيها كلمة «سوء» و كلمة «الظلم» للنفس، و لدى النظر إلى قرينة المقابلة، و كذلك الأصل اللغوى لعبارة «سوء» التى تعنى هنا الإضرار بالغير، يفهم من الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۰

أنّ أى نوع من الذنوب- سواء كانت من نوع الإضرار بالغير، أو الإضرار بالنفس قابلة للغفران إذا تاب فاعلها توبة حقيقية و سعى إلى التكفير عنها.

و يفهم- أيضا- من العبارة القرآنية: يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً إنّ التوبة الحقيقية لها من الأثر بحيث يجد الإنسان التائب نتيجتها فى باطن

نفسه، فمن ناحية فإنّ تأنيب الضمير الذى يخلقه ارتكاب الذّنب يزول عن المذنب التائب نظرا للغفران الذى يناله من اللّه الغفور، و من جانب آخر يحسّ الإنسان التائب بالقرب إلى اللّه بسبب رحمته سبحانه و تعالى بعد أن كان يحس بالبعد عنه بسبب الذنب الذى ارتكبه.

۳- إنّ الآية الثانية من الآيات الثلاث الأخيرة، تحكى نفس الحقيقة التى وردت بصورة إجمالية فى الآيات السابقة، حيث تؤكّد أنّ أى ذنب يقترفه الإنسان ستكون نتيجته فى النهاية على المذنب نفسه، و يكون قد أضرّ بنفسه بذنبه، إذ تقول الآية: وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ ....

و فى آخر الآية تأكيد على أنّ اللّه عالم بأعمال العباد، و هو حكيم يجازى كل إنسان بما يستحقه: وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

و بالصورة المارة الذكر فإنّ الذنوب مهما اختلفت فى الظاهر، فإنّ اضرارها ستلحق أحيانا بالغير و تلحق أحيانا أخرى بمرتكبها، و لكن بالتحليل النهائى، فإنّ الذنب تعود نتيجته كلها إلى الإنسان المذنب نفسه، و إن الآثار السيئة للذنب تظهر قبل كل شىء فى روح و نفس الشخص المذنب.

۴- أمّا الآية الثّالثة من الآيات الأخيرة، فهى تشير إلى خطورة خطيئة اتهام الناس الأبرياء، إذ تقول: وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً.

و قد قسمت هذه الآية الذنب الذى يرتكبه شخص و ينسبها زورا إلى غيره، إلى قسمين: سمت الأوّل بالخطيئة، و الثّانى بالإثم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۱

و قد قال المفسّرون الكثير فى شأن الفرق بين هذين النوعين من الذنب، و أقرب الأقوال إلى الذهن هو أنّ الخطيئة مشتقة من الخطأ، و الذى يعنى فى الأصل: الزلل أو الذنب الذى يصدر دون قصد من صاحبه، و يكون أحيانا مشمولا بالكفارة و الغرامة لكن معنى الخطيئة قد توسع تدريجيا، و أخذ يشمل كل ذنب سواء المتعمد أو غير المقصود، حيث أنّ روح الإنسان لا تحتمل الذنب- أ كان عمدا أو عن غير عمد- و حين يصدر الذنب من الإنسان إنّما هو فى الحقيقة نوع من الزلل و الخطأ الذى لا يناسب مقامه كإنسان.

و النتيجة من هذا القول أنّ الخطيئة لها معنى واسع يشمل الذنب المتعمد و الذنب الصادر عن غير عمد، أمّا كلمة «إثم» فتطلق عادة على الذنوب الصادرة عن عمد، و تعنى- فى الأصل- ذلك الشىء الذى يمنع الإنسان من عمل معين، و لما كانت الذنوب تحول دون وصول الخيرات إلى الإنسان فقد سميت «إثما».

و تجدر الإشارة إلى أنّ الآية استخدمت كناية جميلة بالنسبة للتهمة، و هى أنّها جعلت الذنب فى هذا المجال كالسهم، و جعلت نسبته إلى الغير زورا بمثابة رمى السهم صوب الهدف، و هذه إشارة إلى أنّه فى حين أن تصويب السهم نحو إنسان آخر قد يؤدى إلى القضاء عليه، فإنّ رمى الإنسان البرىء بذنب لم يقترفه يكون بمثابة رمية بسهم يقضى على سمعته التى هى بمنزلة دمه.

و بديهى أنّ وزر و عاقبة هذا العمل تكونان فى النهاية- و إلى الأبد- على عاتق الشخص الذى ينسب التهمة زورا إلى غيره، و أن عبارة «احتمل» الواردة فى الآية تعنى أخذ على عاتقه إنّما جاءت للدلالة على ثقل و بقاء هذه المسؤولية!

جريمة البهتان:

إنّ اتهام إنسان برىء يعتبر من أقبح الأعمال التى أدانها الإسلام بعنف، و إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۲

الآية المذكورة أخيرا التى وردت بهذا الشأن- بالإضافة إلى الروايات الإسلامية العديدة التى إلى جانبها- توضح رأى الإسلام الصريح عن هذا العمل.

ینقل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق علیه السّلام عن أحد الحکماء أنّه قال: «أن البهتان علی البریء أثقل من جبال راسیات»[۲۲۰]

و

نقل عنه علیه السّلام قوله: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإیمان فی قلبه کما ینماث الملح فی الماء»

أی أن الإیمان یذوب و یزول من قلب المؤمن بسبب اتهامه لأخیه المؤمن، کما یذوب الملح فی الماء و یزول عن النظر[۲۲۱].

فالتهمة و البهتان- فی الحقیقة- هما أقبح أنواع الکذب، لأنّهما بالإضافة إلی احتوائهما لمفاسد الکذب، فإنّهما أیضا یحملان أضرار الغیبة، و هما کذلک من أسوأ أنواع الظلم و الجور و لهذا السبب

یقول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الخصوص: «من بهت مؤمنا أو مؤمنة أو قال فیهما ما لیس فیهما أقامه اللّه تعالی یوم القیامة علی تل من نار حتی یخرج ممّا قاله»[۲۲۲].

و حقیقة الأمر أن إشاعة مثل هذا العمل الجبان- فی أی محیط إنسانی کان- یؤدی فی النهایة إلی انهیار نظام العدالة الاجتماعیة، و اختلاط الحق بالباطل، و تورط البریء و تبرئة المذنب، و زوال الثقة من بین الناس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۳

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۱۳]

اشارة

وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ یُضِلُّوکَ وَ ما یُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَضُرُّونَکَ مِنْ شَیْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَیْکَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَکَ ما لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ وَ کانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکَ عَظِیماً (۱۱۳)

التّفسیر

اشارة

فی هذه الآیة الکریمة إشارة أخری إلی حادثة «بنی الأبیرق» التی تحدثنا عنها لدی تطرقنا إلی سبب النّزول فی آیات سابقة، و هذه تؤکد أن اللّه قد صان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بفضله و رحمته- سبحانه و تعالی- من کید بعض المنافقین الذین کانوا یأتمرون به صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیحرفوه عن طریق الحق و العدل، فکانت رحمة اللّه أقرب إلی نبیّه فصانته من کید المنافقین، حیث تقول الآیة: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ یُضِلُّوکَ

لقد سعی أولئک المنافقون- من خلال اتهامهم لشخص بریء و جرّ النّبی و توریطه فی هذه الحادثة- إلی إلحاق ضربة بشخصیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الاجتماعیة و المعنویة أوّلا، و تحقیق مآربهم الدنیئة بحق إنسان مسلم بریء ثانیا، و لکنّ اللّه العزیز العلیم کان لهم بالمرصاد، فصان نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من تلک المؤامرة و أحبط عمل المنافقین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۴

و یذکر بعض المفسّرین سببا آخر لنزول هذه الآیة و هو أنّ جماعة من قبیلة «بنی ثقیف» وردوا علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فذکروا له أنّهم مستعدون لمبایعته بشرطین:

الأوّل هو أن یرغم أفراد هذه القبیلة علی کسر أصنامهم بأیدیهم، و الثّانی أن یسمح النّبی لهم بأن یواصلوا عبادة صنمهم (العزی) لسنة واحدة أخری! فنزل أمر اللّه علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یبدی أیة مرونة أمام هؤلاء، حیث نزلت الآیة المذکورة و

أعلنت بأن فضل اللّه و رحمته قد شملت النّبی و صانته من تلک الوساوس.
بعد ذلک تذکر الآیة أن هؤلاء القوم إنّما یرمون بأنفسهم فی الضلالة و لا یضرّون بعملهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شیئا، إذ تقول ... وَ ما یُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَضُرُّونَکَ مِنْ شَیْءٍ ....
و أخیرا توضح الآیة سبب عصمة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الخطأ و الزلل و الذنب، فتذکر أنّ اللّه أنزل علی نبیّه الکتاب و الحکمة و علمه ما لم یکن یعلم من قبل:
وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَیْکَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَکَ ما لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ ... ثمّ تردف الآیة ذلک بجملة: وَ کانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکَ عَظِیماً.

مصدر عصمة الأنبیاء!:

إنّ هذه الآیة الأخیرة من الآیات التی تشیر إلی عصمة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن ارتکاب الخطأ و السهو و الذنب، فتقول بأنّ العون الإلهی الذی شمل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو الذی صانه من الخطأ و الضلالة التی کان یرید المنافقون أن یوقعوه فیهما، و لکنّهم و بفضل هذه المعونة الإلهیة عجزوا عن تحقیق مآربهم، و لم یلحق النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أی ضرر نتیجة کید المنافقین.
و هکذا فقد عصم اللّه نبیّه و صانه من کل خطأ أو سهو أو ذنب، کی یستطیع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یصبح قدوة و أسوة للامّة الإسلامیة و نبراسا لها فی فعل الخیرات

و الحسنات، و قد صانه اللّه العزیز القدیر من عواقب کل خطأ یحتمل أن یقع فیه أی زعیم، لکی یبعد الأمّة الإسلامیة عن الحیرة فی قضیة إطاعة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لیجنبها التناقض بین فعلی الطاعة و عدمها، نعم لقد عصم اللّه نبیّه محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من کل خطأ، لکی یضمن له ثقة المسلمین الکاملة به، حیث تعتبر هذه الثقة من أولویات شروط الزعامة الإلهیة.
و قد ورد فی آخر الآیة دلیل من الأدلة الأساسیة لقضیة العصمة بشکل مجمل، و هذا الدلیل هو قوله تعالی أنّه علم نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من العلوم و المعارف التی یکون النّبی فی ظلها مصونا من الوقوع فی أی خطأ أو زلل، و لأنّ العلم و المعرفة تکون نتیجتهما فی المرحلة النهائیة حفظ الإنسان من ارتکاب الخطأ.
فالطبیب- مثلا- لا یقدم أبدا علی شرب ماء ملوث بأنواع الجراثیم الفتاکة، بعد أن أجری علیه الفحوصات المختبریة و اکتشف تلوثه بتلک الجراثیم الخطیرة.
نستنتج من هذا المثل أنّ علم الطب الذی تعلمه هذا الطبیب، هو السبب فی حفظه و منعه من شرب الماء الملوث بالجراثیم القاتلة، فقد وفّر هذا العلم العصمة و المصونة للطبیب حیال ارتکاب مثل هذا الخطأ، لکن الإنسان الذی یجهل خطورة ذلک الماء یحتمل کثیرا أن یقدم علی شربه.
و هکذا یتبیّن أنّ مصدر الکثیر من الأخطاء هو الجهل بمقدمات العمل أو مستلزماته أو عواقبه، لذلک فإنّ من یحاط عن طریق الوحی الإلهی إحاطة کاملة بالقضایا المختلفة و مقدماتها و مستلزماتها و عواقبها لن یقع فی خطأ، و لن یرتکب أی زلل أبدا، و لن یضل الطریق، و لن یمارس ذنبا مطلقا.
و یجب أن لا نقع فی الوهم هنا، فإنّ هذا العلم الذی بحوزة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من جانب اللّه سبحانه و تعالی لیس عملا مفروضا و لا یحمل طابع القسر و الإجبار، أی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس مجبورا أبدا علی أن یعمل بعلمه، بل أنّه یمارس عمله بکامل اختیاره، فکما أنّ الطبیب الذی ذکرناه فی مثلنا السابق مع علمه بحالة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۶

الماء الملوث فإنّه لیس مرغما علی عدم شرب هذا الماء، بل هو بإرادته المطلقة یمتنع عن شربه.

و إذا تساءل أحد: لما ذا شمل اللّه نبیّه وحده بهذا الفضل الإلهی، و لم یشمل الآخرین؟

کان الجواب: إنّ ذلک قد حدث للمسؤولیة العظیمة و الخطیرة التی تتضمنها القیادة التی أنیطت بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و حمل أعبائها الثقیلة علی عاتقه، و لأن الآخرین لا یحملون مثل هذه الأعباء الثقیلة، لذلک فإن اللّه اللطیف الخبیر یهب لعبده من القدرة و الطاقة بمقدار ما یضع علی عاتق هذا العبد من مسئولیات، و لن یکلف اللّه نفسا إلّا وسعها فیجب التعمق فی هذا الأمر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۷

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۱۴]

اشارة

لا خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَیْنَ النَّاسِ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً (۱۱۴)

التّفسیر

النجوی أو الهمس:

لقد أشارت الآیات السابقة إلی اجتماعات سریة شیطانیة کان یعقدها بعض المنافقین أو أشباههم، و قد تطرقت الآیة الأخیرة إلی هذا الأمر بشیء من التفصیل، و کلمة «النجوی» لا تعنی الهمس فقط، بل تطلق علی کل اجتماع سری أیضا، لأنّها مشتقة من المادة «نجوه» علی وزن «دفعه» أی بمعنی الأرض المرتفعة، و بما أنّ الأرض المرتفعة تکون شبه معزولة عن الأراضی التی حولها، و أن الجلسات السریة و الهمس یتمّان بمعزل عن الأفراد الذین یکونون فی الأراضی المحیطة بها سمّیت هذه الأخیرة بالنجوی.

و یری بعضهم أنّ کلمة «النجوی» مشتقة من مادة «النجاة» أی التحرر، و بمعنی أن البقعة المرتفعة تکون بمنأی و منجی عن خطر السیل، و إن الاجتماع السری أو الهمس یکونان بمنجی من معرفة الآخرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۸

و الآیة هنا تذکر أنّ أغلب الاجتماعات السرّیة التی یعقدها أولئک تهدف إلی غایات شیطانیة شریرة لا خیر فیها و لا فائدة، إذ تقول: لا خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْواهُمْ

و لکی لا یحصل و هم من أن کل نجوی أو همس أو اجتماع سری یعتبر عملا مذموما أو حراما جاءت الآیة بأمثال کمقدمة لبیان قانون کلی، و أوضحت الموارد التی تجوز فیها النجوی، مثل أن یوصی الإنسان بصدقة أو بمعونة للآخرین أو بالقیام بعمل صالح أو أن یصلح بین الناس، فتقول الآیة فی هذا المجال: إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَیْنَ النَّاسِ

فإذا کان هذا النوع من النجوی أو الهمس أو الاجتماعات السرّیة لا یشوبه الریاء و التظاهر، بل کان مخصصا لنیل مرضاة اللّه، فإنّ اللّه سیخصص لمثل هذه الأعمال ثوابا و أجرا عظیما، حیث تقول الآیة: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً.

و قد عرف القرآن النجوی و الهمس و الاجتماعات السرّیة- من حیث المبدأ- بأنّها من الأعمال الشّیطانیة، فی قوله تعالی: إِنَّمَا النَّجْوی مِنَ الشَّیْطانِ ...[۲۲۳] و السبب هو أنّ هذه الأعمال غالبا ما تحدث لأغراض سیئة، و حیث أنّ عمل الخیر و الشیء النافع و الإیجابی لا

يحتاج فى العادة إلى أن يكون- أو يبقى- سرّيا أو مكتوما عن الناس، و لـذلك فلا حاجـة بالتحدث عن مثل هذه الأعمال بالهمس و النجوى، أو فى اجتماعات سرّية.

و لمّا كـان من المحتمـل أن تطرأ ظروف اسـتثنائية تجبر الإنسـان على الاسـتفادة من أسـلوب النجـوى فى أعمـال الخير، لـذلك ورد الاستثناء بصورة مكررة فى القرآن، كما فى قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۹

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى ...[۲۲۴].

و النجوى إذا حصلت ابتـداء فى جمع من النـاس، أثـارت لـديهم سوء الظّن حيالهـا، حتى أنّ سوء الظن قـد يبـدر من الأصـدقاء حيال النجوى التى تحصل بينهم، و على هذا الأساس فإنّ الأفضل أن لا يبادر الإنسان إلى النجوى إلّا إذا اقتضت الضـرورة ذلك، و هذه هى فلسفة هذا الحكم الوارد فى القرآن.

و بديهى أنّ سـمعة الإنسان تسـتلزم- أحيانا- اتباع أسلوب النجوى، و من جملة هذه الموارد تأتى مسألة الصدقات أو المعونات المالية، التى أجاز القرآن استخدام النجوى بشأنها لحفظ ماء الوجه و سمعة الأشخاص الذين يتلقون هذه المعونات.

و المجـال الآـخر للنجوى هو عنـد الأـمر بـالمعروف، حيث أنّ هـذا الأمر لو تمّ أحيانا بصورة علنيـة لأصبـح سـببا فى فضـيحة أو خجل الشـخص المخاطب بالمعروف بين الناس الحاضـرين، و قد يصبح سببا فى أن يمتنع عن قبول ذلك و يقاوم هذا الأمر الذى عبّرت عنه الآية بالمعروف.

و الحالة الأخرى التى يجوز فيها النجوى هى فى مجال الإصـلاح بين الناس، الذى يقتضى أن يكون سريا أحيانا لضمان تحقيقه، إذ من الممكن لو أنّ الأمر تمّ بصورة علنية لحال دون حدوث الإصـلاح، لذلك يجب أن يتمّ الإصـلاح بالتحدث إلى كل طرف من أطراف النزاع بصورة خفية، أى بطريق النجوى.

إذن فالنجوى جائزة و قد تكون ضرورية فى الحالات الثلاث التى مر الحديث عنها، و كذلك فى حالات مشابهة.

و الملفت للنظر فى الحالاـت الثلاـث المـذكورة أعلاـه هو أنّهـا تأتى كلها ضـمن معنى «الصدقـة» و ذلك لأنّ من يأمر بالمعروف إنّما يدفع زكاة علمه، و من يسعى فى إصلاح ذات البين يدفع بذلك زكاة قدرته و منزلته المؤثرة فى الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۰

و

قـد نقـل عن على بن أبى طـالب أمير المؤمنين عليه السّـلام قوله: «إنّ اللّه فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة ما ملكت أيديكم»[۲۲۵].

و

نقل عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله لأبى أيوب: «أ لا أدلك على صدقة يحبّها اللّه و رسوله تصلح بين الناس إذا تفاسدوا و تقرب بينهم إذا تباعدوا»[۲۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۱

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۵]

اشارة

وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (۱۱۵)

سبب النّزول

لقد قلنا فی سبب نزول الآیة السابقة: إنّ بشیر بن الأبیرق کان قد سرق من أحد المسلمین، و أتهم إنسانا بریئا بهذه السرقة، و استطاع بالأجواء المزیفة التی اختلقها أمام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یبرئ نفسه، و لکن حین نزلت تلک الآیات افتضح أمره، فبدلا من أن یختار طریق التوبة بعد فضیحته، سار فی طریق الکفر و ارتد عن الإسلام بصورة علنیة رسمیة.

فنزلت الآیة الأخیرة متضمنة إشارة إلی هذا الموضوع، بالإضافة إلی بیانها لحکم إسلامی عام و کلی.

التّفسیر

اشارة

حین یرتکب الإنسان خطأ و یدرک هذا الخطأ، فلیس أمامه سوی طریقین:

أحدهما: طریق العودة و التوبة التی أشارت الآیات السابقة إلی أثرها فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۲

غسل الذنوب عن الإنسان.

و الطّریق الثّانی: هو أن یسلک الإنسان سبیل العناد، و قد أشارت الآیة الأخیرة إلی الآثار و العواقب السیئة لهذا الطریق، حیث أعلنت أنّ من یواجه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالعناد و المخالفة بعد وضوح الحق له، و یسیر فی طریق غیر طریق المؤمنین فإنّ اللّه سوف لن یهدیه إلی غیر هذا الطریق، و سیرسله اللّه فی یوم القیامة إلی جهنم، و ما أسوأ هذا المکان الذی ینتظره! فتقول الآیة: وَ مَنْ یُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُ الْهُدی وَ یَتَّبِعْ غَیْرَ سَبِیلِ الْمُؤْمِنِینَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّی وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِیراً.

و یجب الانتباه إلی أنّ عبارة یُشاقِقِ مأخوذة من مادة «شقاق» بمعنی المخالفة الصریحة المقرونة بالحقد و الضغینة و تؤکّد جملة مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُ الْهُدی هذا المعنی أیضا، و فی الحقیقة فإنّ من یکون هذا شأنه فلن یلقی مصیرا خیرا ممّا ذکرته الآیة له، مصیر ینطوی علی نهایة مشؤومة له فی هذه الدنیا و عاقبة سیئة ألیمة فی الدار الآخرة، فهو فی الدنیا- کما تقول الآیة- یستمر منجرفا فی الطریق الأعوج الذی اختاره، فتتوسع بذلک زاویة انحرافه عن جادة الحق و الصواب، و هذا الطریق هو الذی اختاره لنفسه و البناء الذی وضع أساسه بیده، و لهذا لم یکن قد وقع علیهم أی ظلم من الخارج.

و أمّا بالنسبة لقول الآیة: نُوَلِّهِ ما تَوَلَّی فهو إشارة إلی حرمان هؤلاء من التوفیق المعنوی، لتمییز الحقّ، و مواصلتهم السیر فی طریق الضلالة، و قد بیّنا تفاصیل هذا الموضوع لدی الحدیث عن تفسیر الهدایة و الضلالة فی الجزء الأوّل من تفسیرنا هذا.

و حین تقول الآیة: نُصْلِهِ جَهَنَّمَ فهی تشیر إلی مصیر هؤلاء یوم القیامة.

و هناک تفسیر آخر حول جملة نُوَلِّهِ ما تَوَلَّی و هو أن هؤلاء و أمثالهم، یوکل أمرهم إلی الآلهة المصطنعة التی انتخبوها لأنفسهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۳

حجیة الإجماع:

یعتبر الإجماع أحد الأدلة الفقهیة الأربعة، و هو بمعنی اتفاق علماء و مفکری الإسلام حول مسألة فقهیة. و ذکروا فی علم أصول الفقه أدلة مختلفة لإثبات حجیة الإجماع، و من ضمنها الآیة الأخیرة التی مرّ البحث فی تفسیرها، إذ یعتبرها البعض دلیلا علی حجیة الإجماع

لأنّها تقول أنّ من يختار طريقا غير طريق المؤمنين سيكون له مصير مشؤوم أسود فى الدنيا و الآخرة.

و بناء على هذه الآية، فإنّ أى طريق يختاره المؤمنون- فى أى مسألة كانت- يجب على الجميع السير فى هذا الطريق.

و الحقيقة أنّ هذه الآية لا صلة لها بمسألة حجية الإجماع، لا من قريب و لا من بعيد (و طبيعى إنّنا نقبل حجّية الإجماع الذى يكشف لنا عن قول المعصوم، و لكننا نعتبر حجية السنة و قول المعصوم دليلا لحجية هذا الإجماع، و ليس الآية المذكورة).

و السبب فى عدم قبولنا دلالة هذه الآية على حجية الإجماع، هو أنّها تعين أوّلا: عقوبات للأشخاص الذين يخالفون النّبى صراحة و عن علم و إدراك، و يختارون طريقا غير طريق المؤمنين، فهذان العنصران يشكّلان باتحادهما العلّة لذلك المصير المشؤوم، مع التأكيد بأن هذا المصير إنّما يتحقق لدى اختيار الشخص للعنصرين المذكورين عن علم و دراية. و ليس لهذا الموضوع أية صلة بمسألة حجية الإجماع، و لا يدل بوحده على هذه الحجية.

و الأمر الثّانى: هو أنّ المقصود بعبارة سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ الواردة فى الآية، هو طريق التوحيد و الخضوع للّه وحده، و هو مبدأ الإسلام، و ليس معناه الفتاوى الفقهية أو الأحكام الفرعية، و هذه الحقيقة يثبتها ظاهر الآية بالإضافة إلى ما قيل فى سبب نزولها.

و الحقيقة هى أنّ السير فى طريق غير طريق المؤمنين لا يتجاوز عن كونه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۴

مخالفة للنّبى، و كلا العنصرين يعودان إلى موضوع واحد.

و ينقل أنّه حين كان أمير المؤمنين على عليه السّلام فى الكوفة، جاءه جمع من الناس و طلبوا منه أن يعين لهم إماما لصلاة الجماعة (لكى يصلوا خلفه صلاة التراويح جماعة، حيث كان عمر بن الخطاب فى زمانه قد أمر بأن تصلّى هذه الصّلاة جماعة) و ما كان من الإمام غير أن يمتنع عمّا طلبوا منه، و نهى عن إقامة جماعة كتلك (لأن الجماعة لم تشرع فى النوافل) لكن هذه الجماعة التى سمعت الحكم الصريح الحازم من الإمام على عليه السّلام أصرّت على عنادها، و أخذت بالصراخ و العويل، داعية الناس إلى الإحتجاج على حكم الإمام.

فجاءت جماعة أخرى إلى الإمام على عليه السّلام و أخبرته بما أخذ يفعله أولئك القوم و بعصيانهم لأمره، فطلب أن يتركوا و شأنهم ليختاروا من شاؤوا ليصلّى بهم تلك الجماعة غير الشرعية[۲۲۷] ثمّ تلى الإمام هذه الآية الأخيرة، و فى هذا الخبر دليل آخر على التّفسير الذى تحدثنا عنه بالنسبة لهذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۶]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (۱۱۶)

التّفسير

الشّرك ذنب لا يغتفر:

تشير هذه الآية مرة أخرى إلى خطورة جريمة الشرك الذى يعتبر ذنبا لا يغتفر و لا يتصور وجود ذنب أعظم منه، و يأتى هذا البحث بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين و المرتدين الذين ينساقون بعد إسلامهم إلى الكفر.

و لقـد مرّ ما يشابه مضـمون هذه الآيهٔ، فی نفس سورهٔ النساء فی الآيهٔ (۴۸) و ما إعادهٔ تكرار مثل هـذه المسائل التربويـهٔ إلا دليل على بلاغهٔ القرآن، لأنّ المسائل الأساسيهٔ تستلزم التكرار فی فواصل مختلفهٔ بغيهٔ ترسيخها فی الأذهان و النفوس.

و الحقيقـهٔ أنّ الذنوب تشبـه سائر الأمراض، فما دام المرض لم يهاجم موقعا مهما فی جسم الإنسان و لم يشل أحد هذه المواقع، كانت القـدرهٔ الدفاعيهٔ للجسم تحمل معها الشـفاء و التحسن، و لكن لو هاجم المرض مركزا حساسا فی جسم الإنسان- مثل الدماغ- و أوجد نتيجهٔ لذلك شللا فی الجسم، فإنّ أبواب الأمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۶

بالشفاء و التحسن قد تغلق فی مثل هذه الحالهٔ التی تنذر بقدوم الموت المحتم.

و الشـرك كهذا المرض الأخير يشل مركزا حساسا فی روح الإنسان، و ينشـر الظلمهٔ فی نفسه، و إذا استمر الشرك فلا أمل يرتجى فی نجاهٔ الإنسان، بينما لو بقيت حقيقهٔ التوحيد و عبادهٔ الواحد الأحد التی هی ينبوع كل فضيلهٔ و حركهٔ ...

لو بقيت هـذه الحقيقـهٔ حيـهٔ فلا يعدم الإنسان الآمل فی غفران ذنوبه الأخرى، و فی هذا المجال تقول الآيهٔ الكريمهٔ: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

و قد قلنا: بأنّ هذه الآيهٔ قد تكررت مرّتين فی هذه السورهٔ، و ما ذلك إلّا لتزيل آثار الشرك و الوثنيهٔ- و إلى الأبد- من نفوس أولئك الناس الذين ظل الشرك يعشش فی أعماق نفوسهم لآماد طويلهٔ، و لتظهر آثار التوحيد المعنويهٔ و الماديهٔ على وجوه هؤلاء.

و لكن تتمهٔ الآيتين تختلف فی إحداهما عن الأخرى اختلافا طفيفا، حيث تقول الآيهٔ الأخيرهٔ: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً بينما الآيهٔ السابقهٔ تقول: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً.

و فی الحقيقـهٔ فإنّ الآيـهٔ السابقـهٔ تشير إلى الفساد العظيم الـذی ينطوی عليه الشـرك فيما يخص الجانب الإلهی، و معرفهٔ اللّه، أمّا الآيهٔ الأخيرهٔ فقـد بيّنت الأضـرار التی يلحقهـا الشـرك بنفس الإنسـان و التی لا يمكن تلافيها، فهناك تبحث الآيـهٔ فی الجانب العلمی من القضيهٔ، و هنا تتناول الآيهٔ الأخيرهٔ الجانب العملی منها و نتائجها الخارجيهٔ.

و يتّضـح من هـذا أنّ الآيتين تعتبر إحداهما بالنسبـهٔ للأخرى بمثابهٔ اللازم و الملزوم بحسب الاصـطلاح (و قد اشـتمل الجزء الثّالث من نفس هذا التّفسير على توضيحات أكثر حول هذه الآيهٔ).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۷

الآيات [سورهٔ النساء (۴): الآيات ۱۱۷ الى ۱۲۱]

اشارة

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اللَّهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (۱۱۹) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲۰) أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (۱۲۱)

التّفسير

مكائد الشّيطان:

إنّ الآيهٔ الأولى- من مجموع الآيات الخمس الأخيرهٔ- تشـرح أوضاع المشركين الذين أشارت إليهم الآيهٔ السابقهٔ لهذه الأخيرهٔ، و هذه

الآیة إنّما تبیّن سبب ضلال المشرکین، فتذکر أنّهم یعانون من ضیق شدید فی أفق تفکیرهم، إذ یترکون عبادة اللّه خالق و منشئ عالم الوجود الوسیع، و یخضعون أمام المخلوقات التی لا تملک أقل أثر إیجابی فی الوجود، بل هی- أحیانا مضللة کالشّیطان: إِنْ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً وَ إِنْ یَدْعُونَ إِلَّا شَیْطاناً مَرِیداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۴۵۸

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۸

و ممّا یلفت النظر أن هذه الآیة تحصر أصنام المشرکین بنوعین من المخلوقات هما «إناث» و «شیطان مرید».

و کلمة «إناث» مشتقة من المصدر «أنث» علی وزن «أدب» و تعنی المخلوق الرقیق اللطیف و المرن، و لهذا السبب فإنّ العرب تقول: «أنث الحدید» إذا لانّ فی النار، و قد سمی جنس المرأة ب «الإناث» لأنّها أکثر رقّة و لطفا و لینا من الرجل.

لکن بعض المفسّرین یری هنا- أنّ القرآن یشیر فی هذه الآیة إلی أصنام کانت معروفة لدی قبائل العرب حیث انتخبت کل قبیلة صنما من هذه الأصنام و وضعت له اسما مؤنثا. فالصنم «اللات» سمّی هکذا لیکون مؤنثا لکلمة لفظ الجلالة «اللّه»، أمّا الصنم «عزی» فهو مؤنث کلمة «أعز» و کذلک أصنام أخری مثل «مناة» و «نائله» و أمثالها.

بینما یری بعض آخر من کبار المفسّرین أنّ القصد من کلمة «إناث» الواردة فی الآیة لیس المعنی المعروف بالمؤنث، بل أنّ القصد منها هو الجذر اللغوی الذی اشتقت منه هذه اللفظة، أی أنّ المشرکین یعبدون مخلوقات ضعیفة و مطاوعة بین یدی الإنسان، و أن وجود هذه المخلوقات بکاملها قابل للتأثر و الانحناء أمام الأحداث، و بعبارة أوضح: أنّها موجودات لا تملک الإرادة و الإختیار و لا تنفع و لا تضرّ شیئا أبدا.

أمّا کلمة «مرید» و هی من حیث الجذر اللغوی مأخوذة من مادة «مرد» بمعنی سقوط أوراق و أغصان الشجر، و لهذا سمّی الشاب الیافع الذی لم ینبت الشعر فی وجهه بالأمرد، و علی هذا فإنّ الشیطان المرید یعنی ذلک الشیطان الذی سقطت منه جمیع صفات الفضیلة، و لم یبق فی وجوده شیء من مصادر القوّة.

أو قد تکون هذه الکلمة مأخوذة من الأصل «مرود» بمعنی الطغیان و الجبروت، أی أن معبود هؤلاء الوثنیین هو شیطان متکبر متجبر.

و الحقیقة أنّ القرآن قسم أصنام هؤلاء المشرکین إلی نوعین: بعضها ضعیف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۹

الإرادة مطلقا، و البعض الآخر طاغ متکبر متجبر، لکی یبیّن أن الذی یسلم قیاده و یخضع لمثل هذه الأصنام إنّما یعیش فی ضلال واضح مبین.

بعد ذلک کله تشیر الآیة إلی صفات الشیطان و أهدافه و عدائه الخاص لأبناء آدم و تتناول بالشرح بعضا من خططه الدنیئة، و قبل کل شیء تؤکد أن اللّه قد أبعد الشیطان عن رحمته لَعَنَهُ اللَّهُ

و فی الحقیقة فإنّ أساس شقاء و تعاسة الشیطان هو البعد عن رحمة اللّه، التی أصابته بسبب غروره و تکبره المفرطین، و بدیهی أنّ من یکون بعیدا عن رحمة اللّه کالشیطان، یکون خاویا من کل خیر أو حسن، و لا یمکنه أن یترک خیرا أو حسنا فی حیاة غیره، و فاقد الشیء لا یعطیه، فهو لن یکون غیر نافع فحسب، بل سیکون ضارا أیضا.

ثمّ تذکر الآیة التالیة أنّ الشیطان قد أقسم علی أن ینفذ بعضا من خططه:

أوّلها: أن یأخذ من عباد اللّه نصیبا معینا، حیث تقول الآیة حاکیة قول الشیطان: وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِکَ نَصِیباً مَفْرُوضاً فالشیطان یعلم بعجزه عن إغواء جمیع عباد اللّه، لأنّ من یستسلم لإرادة الشیطان و یخضع له هم فقط أولئک المنجرفون وراء الأهواء و النزوات، و الذین لا إیمان لهم، أو ضعاف الإیمان.

و الثّانیة: خطط الشیطان تلخصها الآیة بعبارة: وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ

و الثّالثة: اشغلهم بالامنیات العریضة و طول الأمل وَ لَأُمَنِّیَنَّهُمْ ۲۲۸].

أمّا الخطّة الرّابعة: ففیها یدعو الشیطان اتباعه إلی القیام بأعمال خرافیة، مثل قطع أو خرق أذان الحیوانات کما جاء فی الآیة: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَیُبَتِّکُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ و هذه إشارة لواحد من أقبح الأعمال التی کان یرتکبها الجاهلیون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۰

المشرکون، حیث کانوا یقطعون أو یخرقون أذان بعض المواشی، و کانوا یحرمون علی أنفسهم رکوبها بل یحرمون أی نوع من أنواع الانتفاع بهذه الحیوانات.

و خامس: الخطط التی أقسم الشیطان أن ینفذها ضد الإنسان، هی ما ورد علی لسانه فی الآیة إذ تقول: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَیُغَیِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ... و هذه الجملة تشیر إلی أنّ اللّه قد أوجد فی فطرة الإنسان منذ خلقة إیاه- النزعة إلی التوحید و عبادة الواحد الأحد، بالإضافة إلی بقیة الصفات و الخصال الحمیدة الأخری، و لکن وساوس الشیطان و الانجراف وراء الأهواء و النزوات تبعد الإنسان عن الطریق المستقیم الصحیح، و تحرفه إلی الطرق المعوجة الشاذة.

و الشاهد علی و القول أیضا الآیة (۳۰) من سورة الرّوم، إذ تقول: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ

و نقل عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه فسّره بأنّ القصد من التغییر المذکور فی هذه الآیة من سورة النساء هو تغییر فطرة الإنسان و حرفها عن التوحید و عن أمر اللّه ۲۲۹].

و هذا الضرر الذی لا یمکن التعویض عنه، یلحقه الشیطان بأساس سعادة الإنسان، لأنّه یعکس له الحقائق و الوقائع و یستبدلها بمجموعة من الأوهام و الخرافات و الوساوس التی تؤدی إلی تغییر السعادة بالشقاء للناس، و قد أکّدت الآیة فی آخرها مبدأ کلیا، و هو أنّ أی إنسان یعبد الشیطان و یجعله لنفسه ولیا من دون اللّه، فقد ارتکب إثما و ذنبا واضحا إذ تقول الآیة: وَ مَنْ یَتَّخِذِ الشَّیْطانَ وَلِیًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِیناً.

و الآیة التی تلت هذه الآیة جاءت ببعض النقاط بمثابة الدلیل علی ما جاءت به الآیة السابقة حیث ذکرت أنّ الشیطان یستمر فی إعطائه الوعود الکاذبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۱

لأولئک و یمنیهم الأمنیات الطوال العراض، و لکنه لا یفعل شیئا بالنسبة لهؤلاء غیر الإغواء و الخداع: یَعِدُهُمْ وَ یُمَنِّیهِمْ وَ ما یَعِدُهُمُ الشَّیْطانُ إِلَّا غُرُوراً[۲۳۰].

و بیّنت آخر آیة من الآیات الخمس الأخیرة مصیر اتباع الشیطان، بأنّهم ستکون نتیجتهم السکنی فی جهنم التی لا یجدون منها مفرا أبدا، فتقول الآیة:

أُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا یَجِدُونَ عَنْها مَحِیصاً[۲۳۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۲

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۲۲]

اشارة

وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِیلًا

(۱۲۲)

التّفسیر

لقـد بیّنت الآیات السابقـة أنّ الذین یتخذون الشـیطان ولیا لهم، إنّما ینالهم ضـرر واضح و مبین، و أنّ الشـیطان یعدهم زیفا و خداعا و یلهیهم بالأمنیات الواهیة الخیالیة الطویلة العریضة، و إن وعد الشیطان مکر و خداع لا غیر.

أمّا فی هـذه الآیـة الأخیرة- التی هی موضوع بحثنا الآن- فقـد بیّنت مقابل أولئک فی النهایـة أعمال المؤمنین و الثواب الذی سـینالونه یوم القیامـة، من جنّات و بسـاتین و أنهار تجری فیها، حیث تقول الآیـة: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَـنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

و إنّ هـذه النعمـة العظیمة دائمة أبدا، و لیست کنعم الدنیا الزائلة، فالمؤمنون فی الجنّة یتمتعون بما أوتوه من خیر دائما أبدا، تؤکّد هذه بعبارة خالِدِینَ فِیها أَبَداً.

و إنّ هذا الوعد وعد صادق و لیس کوعود الشیطان الزّائفة، حیث تقول الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۳

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا.

و بـدیهی أنّ أی فرد لا- یسـتطیع- أبـدا- أن یکون أصـدق قولا- من اللّه العزیز القـدیر فی وعوده و فی کلامه، کما تقول الآیـة: وَ مَنْ أَصْـدَقُ مِنَ اللَّهِ قِیلًا و طبیعی أنّ عـدم الوفـاء بالوعـد ناتـج إمّا عن العجز و إمّا الجهل و الحاجـة، و اللّه سـبحانه و تعالی منزه عن هـذه الصفات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۴

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۲۳ الی ۱۲۴]

اشارة

لَیْسَ بِأَمـانِیِّکُمْ وَ لا- أَمـانِیِّ أَهْـلِ الْکِتـابِ مَـنْ یَعْمَـلْ سُـوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لا- یَجِـدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا- نَصِـیراً (۱۲۳) وَ مَـنْ یَعْمَـلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا یُظْلَمُونَ نَقِیراً (۱۲۴)

سبب النّزول

جـاء فی تفسـیر مجمع البیـان- و تفاسـیر أخری- أنّ المسـلمین و أهل الکتاب کانوا یتفاخرون بعضـهم علی بعض، فکان أهل الکتاب یتباهون بکون نبیّهم قد بعث قبل نبیّ الإسـلام و إن کتابهم أسبق من کتاب المسلمین، بینما کان المسلمون یفتخرون علی أهل الکتاب بأنّ نبیّهم هو خاتم الأنبیاء و أن کتابه هو آخر الکتب السماویة و أکملها.

و فی روایـة أخری، نقل أنّ الیهود کانوا یـدعون أنّهم هم الشـعب المختار، و أنّ نار جهنم لا تمسّـهم إلّا لأیّام معدودات، کما ورد فی سورة البقرة- الآیة (۸۰) وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَیَّاماً مَعْـدُودَةً ... و أن المسـلمین کانوا یقولون، ردّا علی کلام الیهود هذا: بأنّهم خیر الأمم لأنّ اللّه قال فی شأنهم: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۵

أَخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...[۲۳۲] و لـذلک نزلت الآیـة الأخیرة هـذه و دحضت کل تلک الدعاوی و حددت قیمة کل شـخص بما یقوم به من أعمال.

التّفسیر

امتیازات حقیقیة و أخری زائفة:

لقد بیّنت هذه الآیة واحدا من أهم أعمدة أو أرکان الإسـلام، هو أنّ القیمة الوجودیة لأی إنسان و ما یناله من ثواب أو عقاب، لا تمت بصلـة إلی دعاوی و أمنیات هـذا الإنسان مطلقا، بل أن تلک القیمـة ترتبط بشـکل وثیق بعمل الإنسان و إیمانه و أنّ هـذا مبدأ ثابت، و سنّـة غیر قابلـة للتغییر، و قانون تتساوی الأمم جمیعها أمامه، و لذلک تقول الآیة فی بدایتها: لَیْسَ بِأَمانِیِّکُمْ وَ لا أَمانِیِّ أَهْلِ الْکِتابِ ... و تستطرد فتقول: مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لا یَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً.

و کـذلک الـذین یعلمون الخیر، و یتمتعون بالإیمـان، سواء أ کانوا من الرجال أو النساء- فإنّهم یـدخلون الجنّة و لا یصـیبهم أقل ظلم أبدا، حیث تقول الآیة: وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا یُظْلَمُونَ نَقِیراً[۲۳۳].

و بهـذه الصورة یعمـد القرآن إلی نبـذ کل العصبیات بکل بساطـة، معتبرا الاعتبارات و الارتباطات المصـطنعة الخیالیـة و الاجتماعیـة و العرقیة و أمثالها خاویة من کل قیمة إذا قیست برسالة دینیة، و یعتبر الإیمان بمبادئ الرسالة و العمل بأحکامها هو الأساس.

و فی تفسیر الآیة الأولی من الآیتین الأخیرتین حدیث نقلته مصادر الشیعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۶

و السنّة، مفاده أنّ المسلمین حین نزلت هـذه الآیة اسـتولی علیهم الرعب و أخذوا یبکون خوفا، لمعرفتهم بأنّ الإنسان معرض للخطأ و یحتمـل کثیرا صـدور ذنوب منه، فلو فرض عـدم وجود عفو أو غفران و أن یؤاخـذ کـل إنسـان بجریرته، فـإنّ الأـمر سـیکون فی غـایة الصعوبة، لذلک لجؤوا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فذکروا له أن هذه الآیة قد أفقدتهم کل أمل، فأقسم النّبی لهم باللّه أنّه ما جاءت به الآیة هو الصـحیح، و لکنه بشّـرهم بأنّها سـتکون خیر محفز لهم للتقرب إلی اللّه و القیام بالأعمال الصالحة، و إنّ ما سیصیبهم من محن و مصائب و آلام حتی لو کانت من وخز شوکة سیکون کفارة لذنوبهم ۲۳۴].

سؤال:

من الممکن أن یستدل البعض من الجملة القرآنیة التالیة: وَ لا یَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً علی أنّ قضیة الشفاعة و نظائرها قد ألغیت بهذه الآیة بصورة تامّة، فیعتبرونها دلیلا لإلغاء الشفاعة بصورة مطلقة.

الجواب:

لقد أشـرنا سابقا إلی أن الشـفاعة لا تعنی أنّ الشفعاء من أمثال الأنبیاء و الأئمة و الصالحین لهم جهاز أو تنظیم مستقل یقابل قدرة اللّه، بل الصـحیح هو أنّ الشـفعاء لا یشفعون لأحد إلّا بإذن اللّه، و علی هذا الأساس فإنّ مثل هذه الشفاعة ستعود فی النهایة إلی اللّه و تعتبر فرعا من ولایة و نصرة و عون اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۷

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۲۵ الی ۱۲۶]

اشارة

وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً (۱۲۵) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (۱۲۶)

التّفسیر

لقد تحدثت الآیات السابقة عن أثر الإیمان و العمل، کما بیّنت أن اتّباع أی مذهب أو شریعة غیر شرع اللّه لا یغنی عن الإنسان شیئا، و الآیة الحاضرة تدارکت کل و هم قد یطرأ علی الذهن من سیاق الآیات السابقة، فأوضحت أفضلیة شریعة الإسلام و تفوقها علی سائر الشرائع الموجودة، حیث قالت وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً.

و مع أنّ هذه الآیة قد جاءت بصیغة الاستفهام، إلّا أنّها تهدف إلی کسب الاعتراف من السامع بالحقیقة التی أوضحتها.

لقد بیّنت الآیة- موضوع البحث- أمورا ثلاثة تکون مقیاسا للتفاضل بین الشرائع و بیانا لخیرها:

۱- الاستسلام و الخضوع المطلق للّه العزیز القدیر، حیث تقول الآیة: أَسْلَمَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۸

وَجْهَهُ لِلَّهِ ۲۳۵].

۲- فعل الخیر، کما تقول الآیة: وَ هُوَ مُحْسِنٌ و المقصود بفعل الخیر- هنا- کل خیر یفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله، و فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذکره صاحب تفسیر الثقلین فی تفسیره للآیة- هذه- و هو جواب لمن سأل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تحدید معنی الإحسان، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «أن تعبد اللّه کأنک تراه فإن لم تکن تراه فإنّه یراک».

فالإحسان فی هذه الآیة هو کل عمل ینجزه الإنسان و یقصد به التعبد للّه و التقرب إلیه، و أن یکون الإنسان لدی إنجازه لهذا العمل قد جعل اللّه نصب عینیه، و کأنّه یراه، فإن کان هو یعجز عن رؤیة اللّه فإن اللّه یراه و یشهد علی أعماله.

۳- إتّباع شریعة إبراهیم النقیة الخالصة، کما فی الآیة: وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً[۲۳۶].

و دلیل الاعتماد علی شریعة إبراهیم ما ذکرته الآیة نفسها فی آخرها: إذ تقول: وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا.

ما هو معنی الخلیل؟

إنّ کلمة «خلیل» قد تکون مشتقة من المصدر «خلّة» علی وزن «حجّة» الذی یعنی الصداقة، و قد یکون اشتقاقها من المصدر «خلة» علی وزن «ضربة» بمعنی الحاجة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۹

و قد اختلف المفسّرون فی أی المعنیین أقرب إلی مفهوم الآیة موضوع البحث.

فرأی البعض منهم أنّ المعنی الثّانی أقرب لحقیقة هذه الآیة، لأنّ إبراهیم علیه السّلام کان یؤمن بأنّه محتاج إلی اللّه فی کل شؤونه بدون استثناء، و لکن مفسّرین آخرین یرون أنّه ما دامت الآیة تتحدث عن منزلة وهبها اللّه لنبیه إبراهیم فالمقصود بکلمة «الخلیل»

الواردة هو «الصدیق» لأننا لو قلنا أنّ اللّه قد انتخب إبراهیم صدیقا له، یکون أقرب کثیرا إلی الذهن من قولنا أن اللّه انتخب إبراهیم لیکون محتاجا إلیه. لأنّ الحاجة إلی اللّه لا تقتصر علی إبراهیم وحده، بل یشارکه و یساویه فیها جمیع المخلوقات، فالکل محتاجون إلی اللّه دون استثناء، و کان تقول الآیة (۱۵) من سورة فاطر: یا أَیُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَی اللَّهِ و هذا علی عکس الصداقة و الخلّة مع اللّه التی لا یتساوی فیها کل المخلوقات.

و فی روایة عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «أنّه (اللّه) إنّما اتّخذ إبراهیم خلیلا- لطاعته و مسارعته إلی رضاه لا لحاجة منه سبحانه إلی خلته» و تدل هذه الروایة[۲۳۷] أیضا بأن عبارة «خلیل» الواردة فی الآیة المذکورة إنّما تعنی الصدیق و لا تعنی غیره.

و علی هذا الأساس لنری ما الذی امتاز به إبراهیم لینال هذه المنزلة العظیمة من اللّه، لقد ذکرت الروایات الواردة فی هذا المجال عللا مختلفة تکون بمجملها دلیلا لهذا الانتخاب، و من هذه الروایات

قول الإمام الصّادق علیه السّلام «إنّما اتّخذ اللّه إبراهیم خلیلا لأنّه لم یرد أحدا و لم یسأل أحدا غیر اللّه»[۲۳۸].

و تفید روایات أخری أن إبراهیم قد حاز هذه الدرجة لکثرة سجوده للّه، و إطعامه للجیاع و إقامة صلاة اللیل، أو لسعیه فی طریق مرضاة اللّه و طاعته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۰

بعد ذلک تتحدث الآیة التالیة بملکیة اللّه و المطلقة و إحاطته بجمیع الأشیاء، حیث تقول: وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطاً و هذه إشارة إلی أنّ اللّه حین انتخب إبراهیم خلیلا له، لیس من أجل الحاجة إلی إبراهیم فاللّه منزّه عن الاحتیاج لأحد، بل أن هذا الإختیار قد تمّ لما لإبراهیم من صفات و خصال و سجایا طیبة بارزة لم توجد فی غیره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۱

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۲۷]

اشارة

وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی النِّساءِ قُلِ اللَّهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ وَ ما یُتْلی عَلَیْکُمْ فِی الْکِتابِ فِی یَتامَی النِّساءِ اللاَّتِی لا تُؤْتُونَهُنَّ ما کُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الْوِلْدانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْیَتامی بِالْقِسْطِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِهِ عَلِیماً (۱۲۷)

التّفسیر

عود علی حقوق المرأة:

تجیب الآیة الأخیرة هذه علی أسئلة وردت حول النساء من قبل المسلمین (و بالأخص حول الیتامی منهنّ) فتخاطب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تبیّن له أنّ اللّه هو الذی یفتی فی الأسئلة التی وجهت إلیک یا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول الأحکام الخاصّة بحقوق النساء، فتقول: وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی النِّساءِ قُلِ اللَّهُ یُفْتِیکُمْ ....

و تضیف الآیة إنّ ما ورد فی القرآن الکریم حول الفتیات الیتامی اللواتی کنتم تتصرفون فی أموالهنّ، و لم تکونوا لتتزوجوا بهنّ، و لم تدفعوا أموالهنّ إلیهنّ لکی یتزوجن من آخرین، فإنّه یجیب علی قسم آخر من اسئلتکم و یبیّن لکم قبح ما کنتم تعلمون من ظلم بحق هؤلاء النسوة، وَ ما یُتْلی عَلَیْکُمْ فِی الْکِتابِ فِی یَتامَی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۲

النِّساءِ اللَّاتِی لا تُؤْتُونَهُنَّ ما کُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ ...[۲۳۹].

ثمّ توصی الآیة الکریمة بالأولاد الذکور الصغار الذین کانوا یحرمون من الإرث وفق التقالید الجاهلیة، فتؤکد ضرورة رعایة حقوقهم، حیث تقول:

وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الْوِلْدانِ

کما تعود الآیة فتکرر التأکید علی حقوق الیتامی، فتذکر أن اللّه یوصیکم فی أن تراعوا العدالة فی تعاملکم مع الیتامی: وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْیَتامی بِالْقِسْطِ ....

و فی الختام تجلب الآیة الانتباه إلی أن أی عمل خیر یصدر منکم و بالأخص إذا کان فی حق الیتامی و المستضعفین- فإنّه لا یخفی علی اللّه- و إنّکم ستنالون أجر ذلک فی النهایة، حیث تقول الآیة: وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِهِ عَلِیماً.

هذا و یجب الالتفات إلی أنّ عبارة یَسْتَفْتُونَکَ مشتقة من المصدر «فتوی» أو «فتیا» و معناها الإجابة علی کل سؤال معضل، و لما کانت هذه الکلمة تعود فی الأصل إلی کلمة «فتی» أی الشاب الیافع، فمن الممکن أن الفتوی کانت تستخدم للتعبیر عن الإجابة علی الأسئلة المستحدثة، و بعد ذلک أصبحت تطلق بصورة شاملة علی کل أنواع الأجوبة الخاصّة بالمسائل المنتخبة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۳

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۲۸]

اشارة

وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَیْهِما أَنْ یُصْلِحا بَیْنَهُما صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَیْرٌ وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۱۲۸)

سبب النّزول

لقد ورد فی الکثیر من کتب التّفسیر و الحدیث، فی سبب نزول هذه الآیة، أنّه کان فی زمن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شخص یدعی «رافع بن خدیج» و کانت له زوجتان، إحداهما کبیرة السن عجوز، و الأخری شابة، فطلق «رافع» زوجته العجوز (اثر خلافات بینهما) لکنه- قبل أی تنتهی عدّتها- عرض علیها الصلح مشترطا علیها أن لا تضجر إذا قدم علیها زوجته الشابة، أو أن تصبر حتی تنتهی عدتها فیتم الفصل و الفراق بینهما، فقلبت زوجته العجوز الشرط أو الاقتراح الأوّل، فاصطلحا، فنزلت هذه الآیة الکریمة مبیّنة حکم هذا العمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۴

التّفسیر

الصّلح خیر:

لقد قلنا سابقا- فی هامش الآیتین (۳۴ و ۳۵) من نفس سورة النساء- إنّ کلمة «نشوز» مشتقة من المصدر «نشز» بمعنی «الأرض المرتفعة» و حین تستخدم هذه العابرة فی شأن الرجل و المرأة تعنی ذلک «التکبر» و «الطغیان».

و قد بیّنت الآیات السابقهٔ حکم نشوز المرأهٔ، و فی هذه الآیهٔ إشارهٔ لنشوز الرجل فالآیهٔ تتحدث عن المرأهٔ إذا أحست من زوجها التکبر و الإعراض عنها، و تبیّن أن لا مانع من أن تتنازل عن بعض حقوقها، و تتصالح مع زوجها، من أجل حمایهٔ العلاقهٔ الزوجیهٔ من التصدع، فتقول: وَ إِنِ امْرَأَهٌٔ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَیْهِما أَنْ یُصْلِحا بَیْنَهُما صُلْحاً.

و لمّا کانت المرأهٔ تتنازل عن بعض حقوقها طوعا و عن طیب خاطر و من غیر إکراه فلا ذنب فی هذا العمل، حیث عبّرت الآیهٔ عن ذلک بعبارهٔ «فلا جناح» أی لا ذنب، للدلالهٔ علی الحقیقهٔ المذکورهٔ.

و عند النظر إلی سبب نزول الآیهٔ، نستخلص منها مسألتین فقهیتین:

الأولی: إنّ حکما مثل تقسیم أیّام الأسبوع بین الزوجات، له طابع الحق أکثر من طابع الحکم، و لذلک فبإمکان المرأهٔ التخلی عن هذا الحق بشکل تام إذا شاءت أو بصورهٔ جزئیهٔ.

و المسألهٔ الثّانیهٔ: إنّ التراضی و التصالح لا یشترط أن یکون بالمال، بل یصح أن یکون بالتنازل عن حق من الحقوق.

بعد ذلک تؤکد الآیهٔ علی أنّ الصلح خیر و أحسن، حیث تقول: وَ الصُّلْحُ خَیْرٌ و هذه الجملهٔ الصغیرهٔ مع أنّها جاءت فی مجال الخلافات العائلیهٔ، لکنها تبیّن قانونا کلیا عاما شاملا، و تؤکد أنّ الصلح هو المبدأ الأوّل فی کل المجالات، و أنّ الخلاف و النزاع و الصراع و الفراق لیس له وجود فی الطبع و الفطرهٔ الإنسانیهٔ السلیمهٔ، و لذلک فلا تسوغ هذه الفطرهٔ التوسل بالنزاع و ما یجری مجراه إلّا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۵

الحالات الاستثنائیهٔ الطارئهٔ.

و هذا الأمر علی عکس ما یصوّره المادیون من أنّ الصراع من أجل البقاء هو الأصل فی حیاهٔ الموجودات الحیّهٔ، و یزعمون أن التکامل یحصل من خلال هذا الصراع.

و قد کان هذا النوع من التفکیر سببا فی بروز الکثیر من النزاعات الدّمویهٔ و الحروب فی القرون الأخیرهٔ، لکن الإنسان لا یقاس بالحیوانات الأخری المفترسهٔ بسبب ما یملکه من عقل و إحساس، و إنّ تکامله یتمّ فی ظل التعاون و لیس فی ظل النزاع، و من حیث المبدأ فإن الصراع من أجل البقاء حتی فی الحیوانات لا یعتبر مبدأ مقبولا للتکامل ۲۴۰].

و تشیر الآیهٔ بعد ذلک مباشرهٔ إلی أنّ الإنسان بسبب غریزهٔ حبّ الذات التی یمتلکها تحیط به أمواج البخل، بحیث أنّ کل إنسان یسعی إلی نیل حقوقه دون التنازل عن أقل شیء منها، و هذا هو سبب و منبع النزاع و الصراع، تقول الآیهٔ:

وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ

و لذلک فلو أحسّ کلّ من الزوجین بأنّ البخل هو منبع الکثیر من الخلاف و أدرکوا حقیقهٔ البخل و أنّه من الصفات القبیحهٔ، وسعوا لإصلاح ذات بینهم و أبدوا العفو و الصفح، فسوف لا یؤدی هذا إلی زوال الخلاف و النزاع العائلی فحسب، بل سیؤدی أیضا إلی إنهاء الکثیر من الصراعات الاجتماعیهٔ.

و لکی لا یسیء الرجال استغلال هذا الحکم الوارد فی الآیهٔ، وجه الخطاب إلیهم فی نهایتها و دعوا إلی فعل الخیر و التزام التقوی، و نبهوا إلی أنّ اللّه یراقب أعمالهم دائما فلیحذروا الانحراف عن جادهٔ الحق و الصواب، تقول الآیهٔ فی هذا المجال: وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۶

الآیتان [سورهٔ النساء (۴): الآیات ۱۲۹ الی ۱۳۰]

اشارهٔ

وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِیلُوا کُلَّ الْمَیْلِ فَتَذَرُوها کَالْمُعَلَّقَةِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ کانَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۲۹) وَ إِنْ یَتَفَرَّقا یُغْنِ اللَّهُ کُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَ کانَ اللَّهُ واسِعاً حَکِیماً (۱۳۰)

التّفسیر

العدالة شرط فی تعدد الزّوجات:

نستنتج من الجملة التی وردت فی نهایة الآیة السابقة- التی تمّ البحث عنها و التی دعت الرجال إلی فعل الخیر و التزام التقوی- إنّها تعتبر نوعا من التهدید للأزواج من الرجال، بأن یراقبوا حالهم و لا ینحرفوا قید شعرة عن جادة الحق و العدالة لدی التعامل مع زوجاتهم.

و قد یرد اعتراض و هو: إنّ تحقیق العدالة فی مجال الحبّ و العلاقات القلبیة أمر بعید المنال، فکیف یمکن إذن و الحالة هذه اتباع العدل مع الزوجات؟

و ردا علی الاعتراض المذکور توضح الآیة (۱۲۹) من سورة النساء، بأنّ تحقیق العدالة فی مجال الحبّ بین الزوجات أمر غیر ممکن، مهما بذل الإنسان من سعی فی هذا المجال فتقول الآیة: وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ النِّساءِ وَ لَوْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۷

حَرَصْتُمْ و یتبیّن من عبارة وَ لَوْ حَرَصْتُمْ هذه وجود أشخاص بین المسلمین کانوا یسعون کثیرا لتحقیق تلک العدالة المطلوبة، و لعل سعیهم ذلک کان من أجل الحکم المطلق الذی طالب المسلمین باتّباع العدل من زوجاتهم و الذی ورد فی الآیة الثّالثة من سورة النساء، التی تقول: ... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً.

بدیهی أنّ أی حکم سماوی لا یمکن أن ینزل علی خلاف فطرة البشر، کما لا یمکن أن یکون تکلیفا بما لا یطاق، و لمّا کانت العلاقات القلبیة تنتج عن عوامل یکون بعضها خارجا عن إرادة الإنسان، لم یحکم اللّه بتحقیق العدالة فی مجال الحبّ القلبی بین الزوجات، أمّا فیما یخص الأعمال و أسلوب التعامل و رعایة الحقوق بین الأزواج ممّا یمکن للإنسان تحقیقه، فقد تمّ التأکید علی تحقیق العدالة فیه.

و لکی لا یسیء الرجال استغلال هذا الحکم، طالبت الآیة الرجال بأن لا یظهروا المیل الکامل لإحدی الزوجات إذا تعسر علیهم تحقیق المساواة فی حبّهم لهنّ جمیعا، کی لا یضیع حق الأخریات و لا یحرن فی أمرهنّ ما ذا یفعلن! حیث تقول الآیة: فَلا تَمِیلُوا کُلَّ الْمَیْلِ فَتَذَرُوها کَالْمُعَلَّقَةِ ....

و تحذر الآیة فی آخرها أولئک الذین یجحفون فی حقّ زوجاتهم، و تطالبهم بأن یتبعوا طریق الإصلاح و التقوی، و یعرضوا عمّا فات فی الماضی، کی یشملهم اللّه برحمته و عفوه، فتقول الآیة: وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ کانَ غَفُوراً رَحِیماً ....

لقد وردت روایات اشتملت علی مواضیع تخص مسألة تحقیق العدالة بین الزّوجات، و تبیّن عظمة هذا الحکم و القانون الإسلامی.

من هذه الروایات ما

روی عن علی بن أبی طالب أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه کان له امرأتان، فکان إذا کان یوم واحدة لا یتوضأ فی بیت الاخری»[۲۴۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۸

و

روی عن جعفر بن محمّد عن أبیه عن ءابائه علیهم السّلام «أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یقسم بین نسائه فی مرضه،

فيطاف به بينهن».[۲۴۲]

و كـان معـاذ بن جبـل له امرأتـان ماتتـا فى الطاعون أقرع بينهما أيّهما تـدفن قبل الاخرى؟[۲۴۳] أى أيّهما يقـدم أوّلا فى الـدفن لكى يتجنب ما من شأنه أن يخدش العدل المفروض اتباعه بين الزوجات.

جواب على سؤال ضرورى:

كنّا قد نوّهنا- فى هامش الآيهٔ (۳) من نفس هذه السورهٔ- بأنّ بعضا ممن ليس لهم علم اسـتنتجوا- من ضم تلك الآيهٔ إلى هذه الآيهٔ- أن تعدد الزوجات مشـروط بتحقيق العدالهٔ بينهنّ، و أنّه لمّا كان تحقيق العدالهٔ أمرا غير ممكن، فلذلك قالوا بأنّ الإسـلام قد منع تعدد الزوجات.

و يفهـم مـن الروايـات الإسـلاميهٔ أنّ أوّل مـن طرح هـذا الرأى هـو «ابـن أبى العوجـاء» و كـان مـن أصـحاب المـذهب المـادى، و من المعاصرين للإمام الصّادق عليه السّلام، و جاء طرحه لرأيه هذا فى نقاش له مع المفكر الإسلامى المجاهد «هشام بن الحكم» فلما أعيى «هشاما» الجواب توجه من بلـدته الكوفهٔ إلى المدينهٔ المنورهٔ «لمعرفهٔ الجواب» فقدم على الإمام الصّادق عليه السّـلام فتعجب الإمام من مقـدمه قبـل حلول موسم الحـج أم العمرهٔ، و لكن هشامـا أخبر الإمام بسؤال ابن أبى العوجاء، فكان جواب الإمام الصّادق عليه السّـلام على السؤال هو أنّ المقصود بالعدالهٔ الواردهٔ فى الآيهٔ الثّالثهٔ من سورهٔ النساء، هى العدالهٔ فى النفقهٔ (و ضرورهٔ رعايهٔ الحقوق الزوجيهٔ و أسـلوب التعامل مع الزوجـهٔ) أمّا العدالـهٔ الواردهٔ فى الآيهٔ (۱۲۹) من نفس السورهٔ (و التى اعتبر تحقيقهـا أمرا مسـتحيلا) فـالمقصود بها العدالهٔ فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۹

الميول القلبيهٔ، (و على هذا الأساس فإن تعدد الزوجات ليس ممنوعا و لا مسـتحيلا إذا روعيت فيه الشروط الإسلاميهٔ)، فلما رجع هشام بالجواب إلى ابن أبى العوجاء حلف هذا الأخير أن هذا الجواب ليس من عندك.

و معلوم أنّ تفسيرنا لكلمتى العدالهٔ- الواردتين فى الآيهٔ الثّالثهٔ و الآيهٔ (۱۲۹) من سورهٔ النساء- بمعنين يختلف أحدهما عن الآخر، إنّما هو للقرينـهٔ الواضـحهٔ الواردهٔ مع كل من الآيتين المـذكورتين، لأنّ الآيهٔ الأخيرهٔ تأمر الإنسان أن لا يميل ميلا شديدا لإحدى زوجاته و يترك الأخريـات فى الحيرهٔ من شأنهنّ، و لهـذا فهى تـدل على جواز تعـدد الزوجات مع اشتراط أن لا يحصل إجحاف بحق إحـداهنّ لحسـاب الأخرى، مع الإذعان باسـتحالهٔ تحقق المساواهٔ فى الحب القلبى لكلا الزوجتين، أمّا فى الآيـهٔ الثّالثـهٔ من سورهٔ النساء فقـد ورد التصريح فى أوّلها بجواز تعدد الزوجات.

أمّـا الآيـهٔ الثانيـهٔ من الآيتين الأخيرتين، فهى تشـير إلى هـذه الحقيقـهٔ، و هى أنّه لو اسـتحال مواصـلهٔ الحياهٔ الزوجيـهٔ للطرفين- الزوج و الزوجهٔ- و استحال الإصلاح بينهما، فإنّهما- و الحالهٔ هذه- غير مرغمين على الاستمرار فى مثل هذه الحياهٔ المرّهٔ الكريههٔ، بل يستطيعان أن ينفصـلا عن بعضـهما و عليهما اتخاذ موقف شجاع و حاسم فى هذا المجال دون خوف أو رهبهٔ من المستقبل، لأنّهما لو انفصلا فى مثل تلك الحالهٔ فإن اللّه العليم الحكيم سـيغنيهما من فضـله و رحمته، فلا يعدمان الأمل فى حياهٔ مسـتقبليهٔ أفضل، فتقول الآيهٔ الكريمهٔ فى هذا المجال:

وَ إِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَ كانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۰

الآيات [سورهٔ النساء (۴): الآيات ۱۳۱ الى ۱۳۴]

اشارة

وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّیْنَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ إِیَّاکُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ غَنِیًّا حَمِیداً (۱۳۱) وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا (۱۳۲) إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا النَّاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کانَ اللَّهُ عَلی ذلِکَ قَدِیراً (۱۳۳) مَنْ کانَ یُرِیدُ ثَوابَ الدُّنْیا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ کانَ اللَّهُ سَمِیعاً بَصِیراً (۱۳۴)

التّفسیر

لقد أوضحت الآیة السابقة أن إذا اقتضت الضرورة لزوجین أن ینفصلا عن بعضهما دون أن یجدا حلا بدیلا عن الانفصال فلا مانع من ذلک، و لیس علیهما أن یخافا من حیاة المستقبل، لأن اللّه سیشملهما بکرمه و فضله، و یزیل احتیاجاتهما برحمته و برکته.

أمّا فی الآیة- موضوع البحث- فإنّ اللّه یؤکّد قدرته علی إزالة و رفع تلک الاحتیاجات، لأنّه مالک ما فی السموات و ما فی الأرض وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ و إنّ من یملک ملکا لا نهایة له کهذا الملک، و یملک قدرة لا نفاذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۱

لها أبدا، لن یکون عاجزا- مطلقا- عن رفع احتیاجات خلقه و عباده.

و لکی تؤکّد الآیة ضرورة التقوی فی هذا المجال و فی أی مجال آخر، تشیر الآیة إلی أنّ الیهود و النصاری و کل من کان له کتاب سماوی قبل المسلمین قد طلب منهم جمیعا کما طلب منکم مراعاة التقوی وَ لَقَدْ وَصَّیْنَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ إِیَّاکُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ....

بعد ذلک تتوجه الآیة إلی مخاطبة المسلمین، فتؤکد لهم أن الالتزام بحکم التقوی سیجلب النفع لهم، و أن لیس للّه بتقواهم حاجة، کما تؤکد أنّهم إذا عصوا و بغوا، فإنّ ذلک لا یضرّ اللّه أبدا، لأنّ اللّه هو مالک ما فی السّموات و ما فی الأرض، فهو غیر محتاج إلی أحد أبدا، و من حقّه أن یشکره عباده دائما و أبدا، وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ غَنِیًّا حَمِیداً.

الغنی و عدم الحاجة هما من صفات اللّه سبحانه و تعالی- حقیقة- لأنّه عزّ و جلّ غنی بالذات، و ارتفاع حاجات غیره و زوالها إنّما یتمّ بعونه و مدده، و کل المخلوقات محتاجة إلیه احتیاجا ذاتیا، لذلک فهو یستحق- لذاته- أن یشکره عباده و مخلوقاته، کما أنّ کمالاته التی تجعله أهلا للشکر لیست خارجة عن ذاته، بل هی کلّها فی ذاته، و هو لیس کالمخلوقات التی تمتلک صفاتا کمالیة عرضیة خارجیة مکتسبة من الغیر.

و فی الآیة التالیة جری التأکید- و للمرة الثّالثة- علی أنّ کل ما فی السموات و ما فی الأرض هو ملک للّه، و إنّ اللّه هو الحافظ و المدبر و المدیر لکل الموجودات وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا.

و قد یرد سؤال- هنا- عن سبب تکرار موضوع واحد لثلاث مرات و فی فواصل متقاربة جدّا، و هل أن هذا التکرار من أجل التأکید علی الأمر الوارد فی هذا الموضوع، أم هناک سرّ آخر؟

و بالإمعان فی مضمون الآیات یظهر لنا أن الموضوع المتکرر ینطوی فی کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۲

مرّة علی أمر خاص:

ففی المرّة الأولی حیث تحمل الآیة وعدا لزوجین بأنّهما إذا انفصلا فإن اللّه سیغنیهما و لأجل إثبات قدرة اللّه علی ذلک، یذکر اللّه ملکیته لما فی السموات و ما فی الأرض.

أمّا فی المرّهٔ الثّانیهٔ فإنّ الآیهٔ توصی بالتقوی، و لکی لا یحصل و هم بأن إطاعهٔ هذا الأمر ینطوی علی نفع أو فائدهٔ للّه، أو أن مخالفته ینطوی علی الضرر له، فقد تکررت الجملهٔ للتأکید علی عدم حاجهٔ اللّه لشیء، و هو مالک ما فی السموات و ما فی الأرض.

و هذا الکلام یشبه فی الحقیقهٔ ما قاله أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی مستهل خطبهٔ الهمّام الواردهٔ فی کتاب نهج البلاغهٔ حیث قال علیه السّلام: «بأنّ اللّه سبحانه و تعالی خلق الخلق حین خلقهم غنیّا عن طاعتهم آمنا عن معصیتهم لأنه لا تضرّه معصیهٔ من عصاه و لا تنفعه طاعهٔ من أطاعه»[۲۴۴].

و یذکر اللّه ملکیته لما فی السموات و ما فی الأرض للمرّهٔ الثّالثهٔ کمقدمهٔ للموضوع الذی یلی فی الآیهٔ (۱۳۳)، ثمّ یبیّن- عز من قائل- أنّه لا یأبه فی أن یزیل قوما عن الوجود، لیأتی مکانهم بقوم آخرین أکثر استعدادا و عزما و أکثر دأبا فی طاعهٔ اللّه و عبادته، و اللّه قادر علی هذا الأمر إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا النَّاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کانَ اللَّهُ عَلی ذلِکَ قَدِیراً.

و فی تفسیر «التبیان» و تفسیر «مجمع البیان» نقلا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه حین نزلت هذه الآیهٔ ربت علی کتف سلمان الفارسی و قال بأن المعنی بالآخرین فی الآیهٔ هم قوم من العجم من بلاد فارس.

و هذا الکلام- فی الحقیقهٔ- تنبؤ بالخدمات الکبیرهٔ التی قدمها المسلمون الإیرانیون إلی الإسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۳

و الآیهٔ الأخیرهٔ من الآیات الأربع الماضیهٔ، ورد الحدیث فیها عن أناس یزعمون أنّهم مسلمون، و یشارکون فی میادین الجهاد، و یطبقون أحکام الإسلام، دون أن یکون لهم هدف إلهی، بل یهدفون لنیل مکاسب مادیهٔ مثل غنائم الحرب فتنبه الآیهٔ إلی أنّ الذین یطلبون الأجر الدنیوی یتوهمون فی طلبهم هذا، لأنّ اللّه عنده ثواب الدنیا و الآخرهٔ معا مَنْ کانَ یُرِیدُ ثَوابَ الدُّنْیا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِٔ.

فلما ذا لا یطلب- و لا یرجوا- هؤلاء، الثوابین معا؟! و اللّه یعلم بنوایا الجمیع، و یسمع کل صوت، و یری کل مشهد، و یعرف أعمال المنافقین و أشباههم، وَ کانَ اللَّهُ سَمِیعاً بَصِیراً.

و تکرر هذه الآیهٔ الأخیرهٔ حقیقهٔ أنّ الإسلام لا ینظر فقط إلی الجوانب المعنویهٔ و الأخرویهٔ، بل أن ینشد لأتباعه السعادتین المادیهٔ و المعنویهٔ معا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۴

الآیهٔ [سورهٔ النساء (۴): آیهٔ ۱۳۵]

اشارهٔ

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوَّامِینَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلی أَنْفُسِکُمْ أَوِ الْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ إِنْ یَکُنْ غَنِیًّا أَوْ فَقِیراً فَاللَّهُ أَوْلی بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوی أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۱۳۵)

التّفسیر

العدالهٔ الاجتماعیهٔ:

علی غرار الأحکام التی وردت فی الآیات السابقهٔ حول تطبیق العدالهٔ مع الأیتام و الزوجات تذکر الآیهٔ الأخیرهٔ- موضوع البحث- مبدأ أساسیا و قانونا کلیا فی مجال تطبیق العدالهٔ فی جمیع الشؤون و الموارد بدون استثناء، و تأمر جمیع المؤمنین بإقامهٔ العدالهٔ یا أَیُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ....

و يجب الانتباه إلى أنّ كلمـة «قوامين» هى جمع لكلمـة «قوّام» و هى صـيغة مبالغـة من «قائم» و تعنى «كثير القيام» أى أن على المؤمنين أن يقوموا بالعـدل فى كـل الأحوال و الأعمال و فى كل العصور و الـدهور، لكى يصـبح العـدل جزءا من طبعهم و أخلاقهم، و يصـبح الانحراف عن العدل مخالفا و مناقضا لطبعهم و روحهم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۵

و الإتيان بكلمة «القيام» فى هذا المكان، يحتمل أن يكون بسبب أنّ الإنسان حين يريد القيام بأى عمل، يجب عليه أن يقوم على رجليه بصورة عامّـة و يتابع ذلك العمل، و على هذا الأساس فإن التعبير هنا بالقيام كناية عن العزم و الإرادة الرّاسـخة و الإجراء لإنجاز العمل، حتى لو كان هذا العمل من باب حكم القاضى الذى لا يحتاج إلى القيام لدى ممارسة عمله.

و يمكن أن يكون التعبير بالقيام جاء لسـبب آخر، و هو أنّ كلمة «القائم» تطلق عادة على شـىء يقف بصورة عمودية على الأرض دون أن يكون فيه انحراف إلى اليمين أو الشـمال، و على هذا فإن المعنى المراد منه فى الآية يكون تأكيدا لضـرورة تحقيق العدالة دون أقل انحراف إلى أى جهة كانت.

و لتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشـهادة» فشددت على ضـرورة التخلى عن كل الملاحظات و المجاملات أثناء أداء الشهادة، و أن يكون هدف الشـهادة بالحق هو كسب مرضاة اللّه فقط، حتى لو أصبحت النتيجة فى ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه شُهَداءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ ....

و قـد شاع هذا الأمر فى كل المجتمعات، و بالأخص المجتمعات الجاهلية، حيث كانت الشـهادة تقاس بمقدار الحبّ و الكراهية و نوع القرابة بين الأشخاص و الشاهد، دون أن يكون للحق و العدل أثر فيما يفعلون.

و قد نقل عن ابن عباس حديث يفيد أنّ المسـلمين الجدد كانوا بعد وصولهم إلى المدينة يتجنبون الإدلاء بالشهادة لاعتبارات القرابة و النسب، إذا كانت الشهادة تؤدى إلى الإضرار بمصالح اقربائهم، فنزلت الآية المذكورة محذرة لمثل هؤلاء[۲۴۵].

و لكن- و كما تشير الآية الكريمة- فإنّ هذا العمل لا يتناسب و روح الإيمان،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۶

لأنّ المؤمن الحقيقى هو ذلك الشـخص الـذى لا يعير اهتماما للاعتبارات فى مجال الحق و العدل، و يتغاضـى عن مصـلحته و مصـلحة أقاربه من أجل تطبيق الحق و العدل.

و تفيـد هـذه الآيـة أنّ للأقارب الحق فى الإدلاء بالشـهادة لصالـح- أو ضـد- بعضـهما البعض، شـرط الحفاظ على مبدأ العدالة (إلّا إذا كانت القرائن تشير إلى وجود انحياز أو تعصب فى الموضوع).

و تشـير الآيـة بعد ذلك عوامل الانحراف عن مبدأ العدالة، فتبيّن أنّ ثروة الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشـهادة العادلة، كما أنّ العواطف و المشاعر التى تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن تكون سـببا فى الامتناع عن الأدلاء بالشهادة العادلة حتى و لو كـانت نتيجتهـا لغير صالـح الفقراء، لأـنّ اللّه أعلم من غيره بحال هؤلاء الـذين تكون نتيجـة الشـهادة العادلـة ضـدهم، فلا يسـتطيع صاحب الجاه و السـلطان أن يضـرّ بشاهـد عادل يتمتع بحماية اللّه، و لا الفقير سـيبيت جوعانا بسـبب تحقيق العدالة، تقول الآية فى هذا المجال: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما.

و للتأكيـد أكثر تحكم الآيـة بتجنّب اتّبـاع الهوى، لكى لاـ يبقى مـانع أمـام سـير العدالـة و تحقيقها إذ تقول الآيـة: فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا[۲۴۶].

و يتّضـح من هـذه الجملـة- بجلاء- أن مصـدر الظلم و الجور كلّه، هو اتّباع الهوى، فالمجتمع الـذى لا تسوده الأهواء يكون بمأمن من الظلم و الجور.

و لأهمیـة موضوع تحقیق العدالة، یؤکّد القرآن هذا الحکم مرّة أخری، فیبیّن أنّ اللّه ناظر و عالم بأعمال العباد- فهو یشـهد و یری کل من یحاول منع صاحب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۷

الحق عن حقّه، أو تحریـف الحق، أو الاـعراض عن الحق بعـد وضوحه، فتقول الآیـة: وَ إِنْ تَلْوُوا[۲۴۷] أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ کـانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً.

و جملـة إِنْ تَلْوُوا تشـیر- فی الواقع- إلی تحریف الحق و تغییره، بینما تشـیر جملـة «تعرضوا» إلی الامتناع عن الحکم بالحق، و هـذا هو ذات الشیء المنقول عن الإمام الباقر علیه السّلام ۲۴۸].

و الطریف أن الآیـة اختتمت بکلمـة خَبِیراً و لم تختتم بکلمـة «علیمـا» لأـنّ کلمـة «خبیر» تطلق بحسب العادة علی من یکون مطلعا علی جزئیات و دقائق موضوع معین، و فی هذا دلالة علی أن اللّه یعلم حتی أدنی انحراف یقوم به الإنسان عن مسیر الحق و العدل بأی عذر أو وسیلة کان، و هو یعلم کل موطن یتعمد فیه إظهار الباطل حقا، و یجازی علی هذا العمل.

و تثبت الآیـة اهتمام الإسـلام المفرط بقضـیة العدالـة الاجتماعیـة، و إن مواطن التأکیـد المتکررة فی هذه الآیة تبیّن مدی هذا الاهتمام الذی یولیه الإسـلام لمثل هذه القضیة الإنسانیة الاجتماعیة الحساسة، و ممّا یؤسف له کثیرا أن نری الفارق الکبیر بین عمل المسلمین و هذا الحکم الإسلامی السامی، و إن هذا هو سرّ تخلف المسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۸

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۳۶]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْکِتابِ الَّذِی نَزَّلَ عَلی رَسُولِهِ وَ الْکِتابِ الَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِیداً (۱۳۶)

سبب النّزول

نقل عن ابن عباس أنّ هذه الآیة نزلت فی شأن جمع من کبار شخصـیات أهل الکتاب- مثل عبد اللّه بن سـلام و أسد بن کعب و أخیه أسـید بن کعب و نفر آخر من هؤلاء- و السـبب هو أنّهم قدموا منذ البدایة علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا له: إنّهم قد آمنوا به و بکتابه السـماوی و بموسـی و التوراة و العزیز، و لم یؤمنوا ببقیـة الأنبیاء، فنزلت هـذه الآیة و أعلمتهم ضـرورة الإیمان بجمیع الأنبیاء و الکتب السماویة[۲۴۹].

التّفسیر

یتبیّن من سبب النّزول أنّ الکلام فی الآیة موجه إلی جمع من مؤمنی أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۹

الکتاب الـذین قبلوا الإسـلام، و لکنهم لعصبیات خاصّـِهٔ أبوا أن یؤمنوا بما جاء قبل الإسـلام من أنبیاء و کتب سـماویة غیر الدین الذی کانوا علیه، فجاءت الآیة توصـیهم بضرورة الإیمان و الإقرار و الاعتراف بجمیع الأنبیاء و المرسلین و الکتب السماویة، لأنّ هؤلاء جمیعا

یسیرون نحو هدف واحد، و هم مبعوثون من مبدأ واحد (علما بأن لکل واحد منهم مرتبة خاصّة به، فکل واحد منهم جاء لیکمل ما أتی به النّبی أو الرّسول الذی سبقه من شریعة و دین).

و لذلک فلا معنی لقبول البعض و إنکار البعض الآخر من هؤلاء الأنبیاء و الرسل، فالحقیقة الواحدة لا یمکن التفریق بین أجزائها، و أنّ العصبیات لیس بإمکانها الوقوف أمام الحقائق، لذلک تقول الآیة الکریمة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْکِتابِ الَّذِی نَزَّلَ عَلی رَسُولِهِ وَ الْکِتابِ الَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ....

و بعض النظر عن سبب النّزول المذکور، فإنّنا لدی تفسیرنا لهذه الآیة نحتمل أن یکون الخطاب موجها فیها لعامّة المؤمنین، أولئک الذین اعتنقوا الإسلام إلّا أنّه لم یتغلغل بعد فی أعماق قلوبهم، و لهذا السبب یطلب منهم أن یکونوا مؤمنین من أعماقهم.

کما یوجد احتمال آخر، و هو أنّ الکلام فی هذه الآیة موجه لجمیع المؤمنین الذین آمنوا بصورة إجمالیة باللّه و الأنبیاء، إلّا أنّهم ما زالوا لم یتعرفوا علی جزئیات و تفاصیل العقائد الإسلامیة.

و من هذا المنطلق یبیّن القرآن أنّ المؤمنین الحقیقیین یجب أن یعتقدوا بجمیع الأنبیاء و الکتب السماویة السابقة و ملائکة اللّه، لأن عدم الإیمان بالمذکورین یعطی مفهوم إنکار حکمة اللّه، فهل یمکن أن یترک اللّه الحکیم الملل السابقة بدون قائد أو زعیم یرشدهم فی حیاتهم؟! و هل أنّ الملائکة المعنیین بالآیة هم ملائکة الوحی- فقط- الذین یعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۰

الإیمان بهم جزءا لا یتجزأ من الإیمان الضروری بالأنبیاء و الکتب السماویة، أو أنّهم جمیع الملائکة؟ فکما أن بعض الملائکة مکلّفون بأمر الوحی و التشریع، یلتزم جمع آخر منهم بتدبیر و إرادة عالم الکون و الخلیقة؛ و إن الإیمان بهم فی الحقیقة جزء من الإیمان باللّه سبحانه و تعالی و قد بیّنت الآیة- فی آخرها- مصیر الذین یجهلون هذه الحقائق، حیث قالت: وَ مَنْ یَکْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِیداً.

و فی هذه الآیة اعتبر الإیمان واجبا و ضروریا بخمسة مبادئ، فبالإضافة إلی ضرورة الإیمان بالمبدأ و المعاد، فإن الإیمان لازم و ضروری بالنسبة إلی الکتب السماویة و الأنبیاء و الملائکة.

إنّ عبارة «ضلال بعید» عبارة دقیقة، و تعنی أنّ الذین لا یؤمنون بالمبادئ الخمسة المارة الذکر، قد انجرفوا خارج الصراط أو الطریق المبدئی، و أن عودتهم إلی هذا الطریق لا تتحقق بسهولة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۱

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۱۳۷ الی ۱۳۹]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا کُفْراً لَمْ یَکُنِ اللَّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِیَهْدِیَهُمْ سَبِیلاً (۱۳۷) بَشِّرِ الْمُنافِقِینَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۱۳۸) الَّذِینَ یَتَّخِذُونَ الْکافِرِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ أَ یَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِیعاً (۱۳۹)

التّفسیر

مصیر المنافقین المعاندین:

تماشیا مع البحث الذی ورد فی الآیة السابقة و الذی تناول وضع الکفار و ضلالهم البعید، تشیر هذه الآیات الأخیرة إلی وضع مجموعة

من الكفار الـذين يتلوّنون فى كل يوم تلون الحرباء، فهم فى يوم إلى جانب المؤمنين، و فى يوم آخر إلى جانب الكفار، ثمّ إلى جانب المؤمنين، و فى النهايـة إلى جانب الكفار المعاندين، حتى يموتوا على هذه الحالة! فالآية الأولى من الآيات الثلاثة الأخيرة تتحدث عن مصـير أفراد كهؤلاء، فتؤكـد بأنّ اللّه لن يغفر لهم أبدا، و لن يرشدهم إلى طريق الصواب: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۲

إنّ هـذا السـلوك الحربائى فى التلون المتوالى، إمّا أن يكون نابعا من الجهل و عـدم إدراك الأسـس الإسـلامية، و إمّا أن يكون خطّة نفّذها المنافقون و الكفار المتطرفون من أهل الكتاب لزعزعة إيمان المسـلمين الحقيقيين، و قد سبق شرح هذا الموضوع فى الآية (۷۲) من سورة آل عمران.

و لاـ تـدل الآيـة- موضوع البحث- على عـدم قبول توبـة أمثال هؤلاء، و لكنها تتناول أفرادا يموتون و هم فى كفر شديـد، فإنّ هؤلاء- نتيجة لأعمالهم- لا يستحقون العفو و الهداية إلّا إذا غيروا اسلوبهم ذلك.

ثمّ تؤكّد الآية التالية نوع العذاب الذى يستحقه هؤلاء فتقول: بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً.

و استخدام عبارة (بشـر) فى الآيـة إنّما جاء من باب التهكم و الاسـتهزاء بالأفكار الخاويـة الواهيـة التى يحملها هؤلاء المنافقون، أو أنّ العبارة مشـتقة من المصـدر «بشـر» بمعنى الوجه، و فى هذه الحالة تحتمل معانى واسـعة فتشـمل كل خبر يؤثر فى سـحنة الإنسان، سواء كان الخبر مفرحا أو محزنا.

و قد أشارت الآية الأخيرة إلى المنافقين بأنّهم يتخذون الكفار أصدقاء و أحباء لهم بدلا من المؤمنين، بقولها: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

ثمّ يأتى التساؤل فى الآية عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبة الكافرين، و هل أنّهم يريدون حقّا أن يكتسبوا الشرف و الفخر عبر هذه الصحبة؟ تقول الآية:

أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ بينما العزة و الشـرف كلها للّه فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً لأنّها تنبع من العلم و القدرة، و أن الكفار لا يمتلكون من القوّة و العلم شيئا، و لذلك فإنّ علمهم لا شىء أيضا، و لا يستطيعون إنجاز شىء لكى يصبحوا مصدرا للعزّة و الشرف.

إنّ هذه الآية- فى الحقيقة- تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر و العزّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۳

فى شؤونهم الاقتصادية و السياسـية و الاجتماعية و الثقافية عن طريق إنشاء علاقات الود و الصداقة مع أعداء الإسـلام، بل إنّ عليهم أن يعتمدوا فى ذلك على الذات الإلهية الطاهرة التى هى مصدر للعزة و الشـرف كله، و أعداء الإسلام لا عزّة لديهم لكى يهبوها لأحد، و حتى لو امتلكوهـا لمـا أمكن الركون إليهم و الاعتمـاد عليهم، لأنّهم متى مـا اقتضت مصـالحهم الشخصـية تخلوا عن أقرب حلفائهم و ركضوا وراء مصـالحهم، و كـأنّهم لم يكونوا ليعرفوا هؤلاـء الحلفـاء مسـبقا، و التاريـخ المعاصـر خير دليـل على هـذا السـلوك النفعى الانتهازى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۰]

اشارة

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً

مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِی جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١۴٠)

سبب النّزول

نقل عن ابن عباس أنّ نفرا من المنافقين كانوا يحضرون اجتماعات لعلماء اليهود، حيث كانوا يستهزئون بآيات القرآن فی تلك الاجتماعات، فنزلت هذه الآية و أوضحت النهاية المشؤومة لهذه اللقاءات.

التّفسير

النّهی عن المشاركة فی مجالس يعصی اللّه فيها:

لقد ورد فی الآية (۶٨) من سورة الانعام أمر صريح إلى النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی أن يعرض عن أناس يستهزئون بآيات القرآن و يتكلمون بما لا يليق، و طبيعی أنّ هذا الحكم لا ينحصر بالنّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، وحده بل يعتبر حكما و أمرا عاما يجب على جميع المسلمين اتّباعه، و قد جاء هذا الحكم على شكل خطاب موجه إلى النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ۴٩۵

و فلسفته جلية واضحة، لأنّه يكون بمثابة كفاح سلبی ضد مثل تلك الأعمال.

و الآية هذه تكرر الحكم المذكور مرّة أخرى، و تحذر المسلمين مذكرة إياهم بحكم سابق فی القرآن نهی فيه المسلمون عن المشاركة فی مجالس يستهزأ فيها و يكفر بالقرآن الكريم، حتى يكفّ أهل هذه المجالس عن الاستهزاء و يدخلوا فی حديث آخر، تقول الآية: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِی الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِی حَدِيثٍ غَيْرِهِ

بعد ذلك تبيّن الآية لنا نتيجة هذا العمل، و تؤكد أن من يشارك فی مجالس الاستهزاء بالقرآن فهو مثل بقية المشاركين و سيكون مصيره نفس مصير أولئك المستهزئين، تقول الآية: إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ

ثمّ تكرر الآية التأكيد على أنّ المشاركة فی المجالس المذكورة تدل على الروحية النفاقية التی يحملها المشاركون، و إن اللّه يجمع المنافقين و الكافرين فی جهنم حيث العذاب الأليم، تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِی جَهَنَّمَ جَمِيعاً.

إنّ الآية تخبرنا عن عدة أمور:

١- إنّ المشاركة فی مجالس المعصية تكون بمثابة المشاركة فی ارتكاب المعصية، حتى لو بقی المشارك ساكتا أو ساكنا و لم يشارك فی الاستهزاء بنفسه، لأنّ السكوت فی مثل هذه الأحوال دليلا على رضا صاحبه بالذنب المرتكب.

٢- لو تعذر النهی عن المنكر بالشكل الإيجابی له، فلا بدّ أن يتحقق النهی و لو بالصورة السلبية، مثل أن يبتعد الإنسان عن مجالس المعصية و يتجنب الحضور فيها.

٣- إنّ الذين يشجعون أهل المعاصی بسكوتهم و حضورهم فی مجالس المعصية، إنّما يجازون و يعاقبون بمثل عقاب العاصين أنفسهم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ۴٩۶

۴- لا ضير من مجالسة الكفار إن لم يدخلوا فى حديث فيه استهزاء و كفر بالآيات الإلهية و لم تكن هذه المجالسة تحمل خطرا آخر، و يدل على إباحة المشاركة فى مجالس الكفار التى لا يعصون فيها اللّه قوله تعالى فى الآية: حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ

۵- إنّ المجاملة و المداهنة مع العاصين المذنبين، إنّما تدل على وجود روح النفاق لدى الشخص المجامل، و ذلك لأن المسلم الحقيقى الواقعى لا يمكنه أن يشارك فى مجلس يعصى فيه اللّه و يستهزأ بآياته الكريمة و أحكامه السامية، دون أن يبدى اعتراضا على هذه المعاصى، أو- على الأقل- أن عدم رضاه عليها بترك هذا المجلس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۱]

اشارة

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (۱۴۱)

التّفسير

صفات المنافقين:

تبيّن هذه الآية- و آيات أخرى تالية- قسما آخر من صفات المنافقين و أفكارهم المضطربة، فتؤكد أنّ المنافقين يسعون دائما لاستغلال أى حدث لصالحهم، فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين، زاعمين بأنّهم شاركوا المؤمنين فى تحقيق النصر و أدعوا بأنّهم قدموا دعما مؤثرا للمؤمنين فى هذا المجال، مطالبين بعد ذلك بمشاركة المؤمنين فى الثمار المعنوية و المادية للنصر حيث تقول الآية فى حقهم: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ....

و هؤلاء المنافقون ينقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهرى من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء، و يعلنون لهم الرضى و الموافقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۸

بقولهم أنّهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين و عدم الاستسلام لهم، و يدعون بأنّهم شركاء فى النصر الذى حققه أعداء الإسلام تقول الآية: وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ....[۲۵۰] و على هذا المنوال تحاول هذه الفئة المنافقة أن تستغل الفرصة لدى انتصار المسلمين ليكون لهم نصيب من هذا النصر و سهم من الغنائم، و لإظهار المنّة على المسلمين، و فى حالة انكسار المسلمين تظهر هذه الفئة الرضى و الفرح لدى الكفار، و تدفعهم إلى الإصرار على كفرهم و تتجسس لصالحهم، و تهيئ لهم أسباب الفوز المادى، فهم تارة رفاق الطريق مع الكفار، و تارة شركاؤهم فى الجريمة، و هكذا يمضون حياتهم بالتلون و النفاق و اللعب على الحبال المختلفة.

و لكن القرآن الكريم يوضح بعبارة واحدة مصير هؤلاء و نهايتهم السوداء، و يبيّن أنّهم- لا محالة- سيلاقون ذلك اليوم الذى تكشف فيه الحجب عن جرائمهم و يرفع النقاب عن وجوههم الكريهة، و عند ذلك- أى فى ذلك اليوم، و هو يوم القيامة- سيحكم اللّه بينهم و هو أحكم الحاكمين، فتقول الآية فى هذا المجال: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

و لكى يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء، تؤكد هذه الآية- فى آخرها- بأنّ اللّه لن يجعل للكافرين مجالا للانتصار أو

التسلط على المسلمين، و ذلك حيث تقول الآية: وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا.

و هنا يرد هذا السؤال، و هو: هل أنّ العبارة الأخيرة تفيد عدم انتصار الكفار على المؤمنين من حيث المنطق، أو أنّها تشمل عدم انتصار الكفار من الناحية العسكرية أيضا؟

و لما كانت كلمة «سبيل» نكرة جاءت فى سياق النفى و تؤدى معنى عاما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۹

لذلك يفهم من الآية أن الكافرين بالإضافة إلى عدم انتصارهم من حيث المنطق على المؤمنين، فهم لن ينتصروا و لن يتسلطوا على المؤمنين فى أى من النواحى العسكرية و السياسية و الثقافية و الاقتصادية، بل و لا فى أى مجال آخر.

و ما نشاهده من انتصار للكافرين على المسلمين فى الميادين المختلفة، إنّما هو بسبب أنّ المسلمين المغلوبين لم يكونوا ليمثلوا- فى الحقيقة- المسلمين، المؤمنين الحقيقيين، بل هم مسلمون نسوا آدابهم و تقاليدهم الإيمانية، و تخلوا عن مسئولياتهم و تكاليفهم و واجباتهم الدينية بصورة تامّة، فلا كلام عن الاتحاد و التضامن و الأخوة الإسلامية بينهم، و لا هم يقومون بواجب الجهاد بمعناه الحقيقى، كما لم يبادروا إلى اكتساب العلم الذى أوجبه الإسلام و جعله فريضة على كل مسلم و مسلمة و دعا إلى تحصيله و طلبه من يوم الولادة حتى ساعة الوفاة، حيث

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أطلب العلم من المهد إلى اللّحد».

و لما أصبحوا هكذا فقد استحقوا أن يكونوا مغلوبين للكفار.

و قد استدل جمع من الفقهاء بهذه الآية على أنّ الكفار لا يمكن أن يتسلطوا على المسلمين المؤمنين من الناحية الحقوقية و الحكمية، و نظرا للعمومية الملحوظة فى الآية، لا يستبعد أن تشمل الآية هذا الأمر أيضا.

و ممّا يلفت النظر فى هذه الآية هو التعبير عن انتصار المؤمنين بكلمة «الفتح» بينما عبّرت الآية عن انتصار الكفار بكلمة «النصيب» و هو إشارة إلى أن انتصار الكفار إنّما هو نصيب محدود و زائل، و أنّ الفتح و النصر النهائى هو للمؤمنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۰

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۴۲ الى ۱۴۳]

اشارة

إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۴۲) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (۱۴۳)

التّفسير

لقد وردت فى هذه الآية خمس صفات للمنافقين، فى عبارة قصيرة، و هى:- ۱- إنّ هؤلاء- لأجل تحقيق أهدافهم الدنيئة- يتوسلون بالخدعة و الحيلة، حتى أنّهم يريدون على حسب ظنهم أن يخدعوا اللّه تعالى أيضا، و لكنهم يقعون فى نفس الوقت و من حيث لا يشعرون فى حبال خدعتهم و مكرهم، إذ هم- لأجل اكتساب ثروات مادية تافهة- يخسرون الثروات الكبيرة الكامنة فى وجودهم، تقول الآية فى هذا المجال: إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ ....

و يستفاد التّفسير المذكور أعلاه بالواو الحالية الواردة مع عبارة: وَ هُوَ خادِعُهُمْ

هناك قصّة مشهورة مفادها أن أحد الأكابر كان ينصح أهل الحرف من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۱

مواطنیه، بأن ینتبهوا لکی لا یخدعهم المسافرون الغرباء، فقال أحدهم: کیف یمکن للغرباء البسطاء الذین لا یعرفون شیئا عن وضع المدینة و أهلها، أن یخدعوا أهل الحرف فیها نحن بمقدورنا خداع أولئک الغرباء، فأجابهم بأن قصده من الانخداع بالغرباء هو هذا المعنی، أی أن تنالوا من هؤلاء ثروة تافهة بالخداع، و تفقدوا بذلک ثروة الإیمان العظیمة! ۲- إنّ المنافقین بعیدون عن رحمة اللّه، و لذلک فهم لا یتلذذون بعبادة اللّه و التقرب إلیه، و یدل علی ذلک أنّهم حین یریدون أداء الصّلاة یقومون إلیها و هم کسالی خائر و القوی، تقول الآیة فی هذا الأمر: وَ إِذا قامُوا إِلَی الصَّلاةِ قامُوا کُسالی ....

۳- و لما کان المنافقون لا یؤمنون باللّه و بوعوده، فهم حین یقومون بأداء عبادة معینة، إنّما یفعلون ذلک ریاء و نفاقا و لیس من أجل مرضاة اللّه، تقول الآیة:

یُراؤُنَ النَّاسَ ....

۴- و لو نطقت ألسن هؤلاء المنافقین بشیء من ذکر اللّه، فإنّ هذا الذکر لا یتجاوز حدود الألسن، لأنّه لیس من قلوبهم، و لا هو نابع من وعیهم و یقظتهم، و حتی لو حصل هذا الأمر فهو نادر و قلیل، تقول الآیة: وَ لا یَذْکُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِیلًا.

۵- إنّ المنافقین یعیشون فی حیرة دائمة و دون أی هدف أو خطّة لطریقة الحیاة معینة، و لهذا فهم یعیشون حالة من التردد و التذبذب، فلا هم مع المؤمنین حقّا و لا هم یقفون إلی جانب الکفار ظاهرا، و فی هذا تقول الآیة الکریمة:

مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذلِکَ لا إِلی هؤُلاءِ وَ لا إِلی هؤُلاءِ ....

و یحسن هنا الالتفات إلی أنّ کلمة «مذبذب» اسم مفعول من الأصل «ذبذب» و هی تعنی فی الأصل صوتا خاصا یسمع لدی تحریک شیء معلق إثر تصادمه بأمواج الهواء، و قد أطلقت کلمة «مذبذب» علی الإنسان الحائر الذی یفتقر إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۲

الهدف أو إلی أی خطّة و طریقة للحیاة.

هذا واحد من أدق التعابیر التی أطلقها القرآن الکریم علی المنافقین، کما هی إشارة إلی إمکانیة معرفة المنافقین عن طریق هذا التذبذب الظاهر فی حرکتهم و نطقهم، کما یمکن أن یفهم من هذا التعبیر أن المنافقین هم کشیء معلق یتحرک بدون أی هدف و لیس لحرکته أی اتجاه معین، بل یحرکه الهواء من أی صوب کان اتجاهه و یأخذه معه إلی الجهة التی یتحرک فیها.

و تبین الآیة فی الختام مصیر هؤلاء المنافقین، و توضح أنّهم أناس قد سلب اللّه عنهم حمایته نتیجة لأعمالهم و ترکهم یتیهون فی الطریق المنحرف الذی سلکوه بأنفسهم، فهم لن یهتدوا أبدا إلی طریق النجاة، لأنّ اللّه کتب علیهم التیه و الضلالة عقابا لهم علی أعمالهم.

تقول الآیة الکریمة فی ذلک: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلًا، (و قد شرحنا معنی الإضلال، و بیّنا کیف أنّه لا یتنافی مع حریة الإرادة و الانتخاب، و ذلک فی الجزء الأوّل من هذا التّفسیر فی هامش الآیة (۲۶) من سورة البقرة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۳

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۱۴۴ الی ۱۴۶]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْکافِرِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَیْکُمْ سُلْطاناً مُبِیناً (۱۴۴) إِنَّ الْمُنافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِیراً (۱۴۵) إِلَّا الَّذِینَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِکَ مَعَ

الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (۱۴۶)

التّفسير

لقد أشارت الآيات السابقة إلى قسم من صفات المنافقين، و الآيات التالية- هذه- تحذر المؤمنين و تأمرهم أن لا يعتمدوا على المنافقين و الكفار بدل الاعتماد على المؤمنين، و أن لا- يطلبوا النصرة منهم يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

و تبيّن أنّ الاعتماد على الكفار يعتبر جريمة و خرقا صارخا للقانون الإلهى و شركا باللّه، و نظرا لقانون العدل الإلهى فإن هذه الجريمة تستحق عقابا شديدا، حيث تؤكد الآية: أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً[۲۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۴

و فى الآية الثانية من الآيات الأخيرة بيان لأحوال المنافقين، الذين اتخذهم بعض الغافلين من المؤمنين أصدقاء لأنفسهم، حيث توضح الآية أنّ المنافقين يستقرون فى القيامة فى أحط و أسفل دركة من دركات جهنم، و لن يستطيع أحد أن ينصرهم أو ينقذهم من هذا المصير أبدا، تقول الآية: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً.[۲۵۲] و يتبيّن من هذه الآية أن النفاق فى نظر الإسلام أشد أنواع الكفر، و إن المنافقين أبعد الخلق من اللّه، و لهذا السبب فإن مستقرهم و مكانهم النهائى فى أحط نقطة من نقاط جهنم، و هم يستحقون هذا العقاب، لأنّ ما يلحق البشرية من ويلات من جانب هؤلاء هو أشد خطرا من كل الأخطار، فإنّ هؤلاء بسبب احتمائهم بظاهر الإيمان يحملون بصورة غادرة و بمطلق الحرية على المؤمنين العزل و يطعنونهم من الخلف بخناجرهم المسمومة، و بديهى أن يكون حال اعداء- كهؤلاء- يظهرون بلباس الأصدقاء، أشدّ خطرا من الأعداء المعروفين الذين يعلنون عداوتهم صراحة، و فى الواقع فإنّ النّفاق هو أسلوب و سلوك كل فرد ابتر و منحط و مشبوه و جبان و ملوث بكل الخبائث و من لا شخصية له.

و قد أوضحت الآية الثّالثة من الآيات الأخيرة، أنّ المجال مفتوح حتى لأكثر الناس تلوثا للتوبة من أعمالهم و إصلاح شأنهم، و السعى للتعويض بالخير عن ماضيهم المشين، و العودة إلى رحمة اللّه و التمسك بحبله و الإخلاص للّه بالإيمان به تقول الآية: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۵

فالتائبون هؤلاء سيكونون أهلا للنجاة فى النهاية و يستحقون صحبة المؤمنين، تقول الآية: فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ....

و إنّ اللّه سيهب ثوابا و أجرا عظيما لكل المؤمنين وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً.

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية تبيّن أن هؤلاء التائبين مع المؤمنين، و ذلك للتدليل على أن منزلة المؤمنين الثابتين أكبر و أعظم من منزلة هؤلاء، فالمؤمنون الراسخون فى إيمانهم هم الأصل، و هؤلاء هم الفروع، و ما يظهر عليهم من نور و صفاء إنّما هو بسبب وجودهم فى ظل المؤمنين الراسخين.

و هناك أمر ثان يجب الانتباه إليه فى هذه الآية، و هو أنّها بيّنت مسير المنافقين بصورة واضحة و صريحة، إذ عينت لهم أحط نقطة من الجحيم مكانا و مستقرا، بينما شخصت للمؤمنين الأجر و الثواب العظيم الذى لا حدّ له و لا حصر، بل هو منوط بعظمة اللّه و لطفه جلت عظمته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۷]

اشارة

ما یَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ کانَ اللَّهُ شاکِراً عَلِیماً (۱۴۷)

التّفسیر

العقاب الإلهی لیس دافعه الانتقام:

لقد أظهرت و بیّنت الآیات السابقة صورا من عقاب الکافرین و المنافقین، و الآیة الأخیرة- التی هی موضوع بحثنا الآن- تشیر إلی حقیقة ثابتة و هی أنّ العقاب الإلهی الموجه للبشر العاصین لیس بدافع الانتقام و لا هو بدافع التظاهر بالقوّة، کما أنّه لیس تعویضا عن الخسائر الناجمة عن تلک المعاصی، فهذه الأمور إنّما تحصل ممن فی طبیعته النقص و الحاجة، و اللّه سبحانه و تعالی منزّه من کل نقص و لا یحتاج أبدا إلی شیء.

إذن فالعقاب الذی یلحق الإنسان لما یرتکبه من معاص، إنما هو انعکاس للنتائج السیئة التی ترتبت علی تلک المعاصی- سواء کانت فعلیة أو فکریة- و لذلک یقول اللّه تعالی عزّ من قائل فی هذه الآیة: ما یَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ

و بالنظر إلی أنّ حقیقة الشکر هی أن یستغل الإنسان النعم التی وهبها اللّه له

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۷

فی الجهات المخصصة لها فی الطبیعة و الخلق، یتّضح لنا أنّ القصد من الآیة إنّما هو: إنّ من یؤمن و یعمل الخیر و یستغل الهبات الإلهیة فی المجالات التی خصصت لها من حیث الخلق- دون إساءة هذا الاستغلال- فلا شک أنّ هذا الإنسان المؤمن لا یصیبه أی عقاب من اللّه، و لتأکید هذا الأمر تضیف الآیة مبیّنة أنّ اللّه عالم بأعمال و نوایا عباده، و هو یشکر و یثیب کل من یفعل الخیر من العباد لوجه اللّه. فتقول الآیة: وَ کانَ اللَّهُ شاکِراً عَلِیماً.

و قد قدمت هذه الآیة مسألة الشکر علی الإیمان لأجل بیان هذه الحقیقة، و هی أنّ الإنسان ما لم یدرک نعم اللّه و هباته العظیمة و یشکره علی هذه النعم فلن یستطیع التوصل إلی معرفة اللّه و الایمان به، لأن أنعمه سبحانه و تعالی إنّما هی وسائل لمعرفته.

و قد ورد فی کتب العقیدة الإسلامیة فی بحث «وجوب معرفة اللّه» عن جمع من الباحثین أنّهم استدلوا علی معرفة اللّه بوجوب شکر النعم و جعلوا من الوجوب الفطری لشکر المنعم دلیلا علی لزوم معرفته (فدقق).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۸

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۴۸ الی ۱۴۹]

اشارة

لا یُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَ کانَ اللَّهُ سَمِیعاً عَلِیماً (۱۴۸) إِنْ تُبْدُوا خَیْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ کانَ عَفُوًّا قَدِیراً (۱۴۹)

التّفسیر

اشارة

فى هذه الآية إشارتان إلى التكاليف الأخلاقية الإسلامية:

الأولى: تبين أنّ اللّه لا يحبّ التجاهر بالكلام البذىء، و لا يرضى بما يصدر من كلام عن عيوب الناس و فضائح أعمالهم، فتقول الآية: لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ....

إن عدم الرضى من نشر فضائح أعمال الناس، نابع من حقيقة أنّ اللّه هو ستار العيوب، فلا يجب أن يقوم عباده بكشف سيئات الآخرين من أمثالهم أو الإساءة إلى سمعتهم، و ممّا لا يخفى على أحد هو أنّ لكل إنسان نقاط ضعف خفية، و لو انكشفت هذه العيوب لساد المجتمع جو من سوء الظن بين أفراده، فيصعب عندئذ قيام التعاون بين هؤلاء الأفراد، لذلك منع الإسلام و حرّم التحدث عن نقائص أو فضائح أعمال الآخرين دون وجود هدف سليم، لتبقى الأواصر الاجتماعية قوية مستحكمة، و رعاية للجوانب الإنسانية الأخرى فى هذا المجال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۹

و تجدر الإشارة إلى أنّ كلمة «سوء» تشمل كل أنواع القبح و الفضيحة، و المقصود من عبارة «الجهر ... من القول» هو كل حالة من الكشف و الفضح اللفظى، سواء كان بصورة شكوى، أو على شكل حكاية أو لعن أو ذم أو غيبة.

و قد استدل بهذه الآية- أيضا على تحريم الغيبة، إلّا أن مفهومها لا ينحصر بهذه الصفة الأخيرة، بل يشمل كل أنواع الكلام البذىء و المذموم.

إلّا أنّ الآية الكريمة لم تحرم القول بالسوء تحريما مطلقا، فقد استثنت حالة يمكن فيها أن يصار إلى الكشف و الفضح، و هذه الحالة هى إذا وقع الإنسان مظلوما حين قالت الآية: إِلَّا مَنْ ظُلِمَ و بهذا الدليل يستطيع المظلوم- فى مقام الدفاع عن نفسه- أن يكشف فضائح الظالم، سواء عن طريق الشكوى أو فضح مساوئ الظالم أو توجيه النقد له، أو استغابته، و لا يسكت على الظلم حتى استعادة حقوقه من الظالم.

و حقيقة هذا الاستثناء هى أنّ اللّه أراد به أن يسلب من الظالمين فرصة إساءة استغلال حكم المنع و التحريم، و لكى لا يكون هذا الحكم سببا فى سكوت المظلوم عن المطالبة بحقه من الظالم.

واضح من الآية بأنّ عملية الكشف و الفضح يجب أن تنحصر فى إطار بيان مساوئ الظالم لدى الدفاع عن المظلومين أو لدى دفاع المظلوم عن نفسه.

و لكى تسد الآية الطريق على كل انتهازى كاذب يريد إساءة استغلال هذا الحكم بدعوى وقوع الظلم عليه أكّدت على أنّ اللّه يراقب أعمال البشر و يعلم و يسمع بكل ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآية: وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً.

و فى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى النقطة المواجهة لهذا الحكم، حيث يبيح التحدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها (على عكس المساوئ التى يجب أن تكتم إلّا فى حالة استثنائية) كما تبيح- أو بالأحرى تحثّ- الفرد على إصدار العفو على من ارتكب السوء بحقّه، لأنّ العفو عند المقدرة من صفات اللّه العزيز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۰

القدير الذى يعفو عن عباده مع امتلاكه القدرة على الانتقام بأى صورة شاء، فتقول الآية فى هذا المجال: إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً.

العفو عن المعتدى و أثره على نزعة العدوان:

سؤال يطرأ هنا على الذهن و هو: ألا يعتبر العفو عن الظالم المعتدى تأييدا لظلمه و تشجيعا لنزعة العدوان لديه؟ ألا يؤدى العفو إلى

ظهور حالة سلبية من اللامبالاة لدى المظلومين.

و الجواب هو: أنّ العفو لا صلة له بمسألة تحقيق العدل و مكافحة الظالم، و الدليل على ذلك ما نقرؤه فى الأحكام الإسلامية من نهى عن ارتكاب الظلم و أمر بعدم الخضوع له، كما فى الآية لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ [۲۵۳] و قول أمير المؤمنين على عليه السّلام «كونا للظالم خصما و للمظلوم عونا»[۲۵۴] و قوله تعالى: فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ [۲۵۵].

كما نقرأ من جانب آخر الأمر بالعفو و الصفح كما فى قوله تعالى: وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى [۲۵۶] و قوله: وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ [۲۵۷] من الممكن أن يتبادر إلى ذهن بعض البسطاء أن هناك تناقضا بين هذين الحكمين، و لدى الإمعان فيما ورد فى المصادر الإسلامية فى هذا المجال، يتّضح أنّ العفو و الصفح يجب أن يكون فى موضع بحيث لا يساء استغلاله، و إنّ الدعوة إلى مكافحة الظلم و قمع الظالم يكون له مجال آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۱

و يجدر توضيح أنّ العفو و الصفح يكونان لدى تملك القدرة و عند الإنتصار على العدو و هزيمته النهائية، أى فى حال لا يحتمل فيها حصول أى خطر جديد من جانب العدو، و يكون العفو و الصفح عنه سببا لإصلاحه و استقامته و دفعه إلى إعادة النظر فى سلوكه، و التاريخ الإسلامى فيه أمثلة كثيرة فى هذا المجال، و

الحديث المشهور القائل «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه»[۲۵۸]

خير دليل على هذا القول.

أمّا فى حالة وجود خطر من جانب العدو، و احتمال أن يؤدى العفو عنه إلى تجريه و تماديه أكثر فى عدوانه، أو إذا اعتبر العفو استسلاما للظلم و خضوعا أمامه و رضى به، فإنّ الإسلام لا يجيز مطلقا مثل هذا العفو، و كما أنّ أئمّة الإسلام لم ينتخبوا طريق العفو فى مثل هذه المجالات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۲

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۰ الى ۱۵۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (۱۵۰) أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (۱۵۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۵۲)

التّفسير

لا تمييز بين الأنبياء:

تحدثت الآيات الأخيرة عن مواقف طائفة من الكافرين، و مواقف أخرى لطائفة من المؤمنين، كما ذكرت هذه الآيات نهاية كل من الطائفتين، و هى بهذا تأتى مكملة للآيات السابقة التى تحدثت بشأن المنافقين.

و تشير الآية الأولى إلى طائفة فرقوا بين الأنبياء، فاعتبروا بعضهم على حق و البعض الآخر على باطل، فتؤكد أنّ هذا النفر من الناس كفار حقيقيون.

و الواقع أنّ هـذه الآية توضح موقف اليهود و النصارى، فاليهود كانوا يرفضون الإيمان بالنّبى عيسـى نبى النصارى، و اليهود و النصارى معا كانوا يرفضون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۳

الإذعان لنبوة نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حين أنّ كتابيهم السماويين قد أثبتا نبوة هؤلاء الأنبياء.

و هذا التمييز بين الحقائق الثابتة و قبول بعضـها و رفض البعض الآخر، سـببه أنّ هؤلاء كانوا يتبعون أهواءهم و نزواتهم و يسـيرون وراء عصبياتهم الجاهلية، و ينبع أحيانا من حسد هؤلاء و نظرتهم الضيقة.

و هـذا دليـل عـدم إيمـان هؤلاـء بالأنبياء و باللّه، لأنّ الإيمان ليس هو قبول ما طابق هوى النفس أو رفض ما يخالف الأهواء و الميول، فهـذه الحالـة ما هى إلّا نوع من عبادة الهوى و لا صـلة لها بالإيمان، فالإيمان الحقيقى هو ذلك الذى يدفع الإنسان إلى قبول الحقيقة- سواء طـابقت هواه و ميوله أو خالفتهمـا- و لـذلك فـإنّ القرآن الكريم اعتبر الـذين يزعمون أنّهم يؤمنون بـاللّه و ببعض الأنبيـاء كفارا حقيقيين، و على هذا الأساس فإن ما يتظاهرون به من إيمان لا حقيقة و لا قيمة له مطلقا، لأنّه لا ينبع من روح طلب الحقيقة.

و القرآن الكريم يهـدد هؤلاـء- و أمثالهم- بأنّهم يلقون الـذل و الهوان، حيث تقول الآيـة: وَ أَعْتَـدْنا لِلْكافِرِينَ عَـذاباً مُهِيناً و قـد يكون وصف العـذاب فى هـذه الآيـة ب «المهين» سـببه أنّ هؤلاء بقبولهم بعض الأنبياء و رفضـهم الإيمان بالبعض الآخر منهم، إنّما يوجّهون الإهانة بحق عدد من الأنبياء، لذلك يجب أن ينال هؤلاء عذابا مهينا يتناسب و اهانتهم تلك.

التّناسب بين الذّنب و العقاب:

و يجدر هنا توضـيح أنّ العذاب قد يكون أليما أحيانا، مثل: الجلد و التعذيب الجسدى، و قد يكون مهينا كرش الشـخص بالقاذورات، أو يكون العذاب عظيما كأن يكون العقاب أمام أعين الناس، و قد يكون أثره عميقا فى نفس الإنسان يسـتمر معه لمدّة طويلة و يسمى هذا بالعذاب الشديد، و ما إلى ذلك من أنواع العذاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۴

و واضـح أنّ وصف العـذاب بواحـد من الصـفات يتنـاسب مع نوع الـذنب، و لـذلك فقـد ورد فى كثير من الآيات القرآنيـة أنّ عقاب الظالمين هو العذاب الأليم، لأنّه يتناسب و ألم الظلم الذى يمارسه الظالم على المظلوم، و هكذا بالنسبة للأنواع الأخرى من العذاب، و قد قصدنا بهذا الشـرح تقريب مسألة العذاب إلى الأذهان، علما بأنّ العذاب الأخروى شـىء لا يمكن مقارنته بما هو موجود من عذاب فى حياتنا الدنيوية هذه.

و قـد تطرقت الآيـة الأـخيرة إلى موقف المؤمنين الـذين آمنوا بـاللّه و بجميع أنبيـائه و رسـله و لم يفرقوا بين أى من الأنبيـاء و الرسل و أخلصـوا للحق، و كـافحوا كـل أنواع العصبيـات الباطلـة، و بيّنت أنّ اللّه سـيوفّى هؤلاـء المؤمنين أجرهم و ثوابهم فى القريب العاجـل، فتقول الآية: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ....

و بديهى أنّ الإيمان بجميع الأنبياء و الرسل لا يتنافى و مسألة تفضيل بعضهم على البعض الآخر، لأنّ مسألة التفاضل هذه ترتبط ارتباطا وثيقا بأهمية و عظم المسؤولية التى تحمّلها كل منهم، و طبيعى أنّ المسؤوليات المناطة بالأنبياء عليهم السّلام تتفاوت من حيث الأهمية و الخطورة بالنسبـة لكـل منهم، و قـد ثبت هـذا الأـمر بالـدليل القطعى و المهم هنـا أن لاـ يحصل تمايز أو تفريق فى الإيمان بالأنبياء و الإقرار بنبوّتهم.

و قـد أكـدت الآيـة فى الختام أنّ اللّه سـيغفر للمؤمنين الـذين ارتكبوا اخطاء بالانجرار وراء العصبيات و ممارسـة التفرقة بين الأنبياء إن أخلص هؤلاء المؤمنون فى إيمانهم و عادوا إلى اللّه، أى تابوا إليه من اخطائهم السابقة، حيث تقول الآية: وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

و یجب الانتباه هنا إلی أنّ الآیات الأخیرة ذکرت الـذین یعمـدون إلی التفرقـة بین الأنبیاء بأنّهم کفار حقیقیون، بینما لم تـذکر الـذین یؤمنون بجمیع الأنبیاء بأنّهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۵

مؤمنون حقا و حقیقـة، بل وصـفتهم بالمؤمنین فقط، و قـد یکون هذا التفاوت فی الوصف هو لبیان أنّ المؤمنین حقّا هم أولئک الذین استقرّ الإیمان فی قلوبهم و ظهرت آثاره علی أعمالهم، و کما

یقول الخبر المأثور بأنّ «الإیمان ما وقر فی القلب و صدقه العمل».

و یـدلّ علی هـذا الأـمر آیـات وردت فی بدایـة سورة الأنفـال التی ذکرت المؤمنین بأوصاف عدیـدة: أوّلها الإیمان باللّه، و یلی ذلک إقامـة الصّلاة و إیتـاء الزکاة و التوکل علی اللّه و الاعتماد علیه، ثمّ یأتی التأکیـد بعـد سـرد هـذه الصـفات فی قول اللّه تعالی فی الآیة المذکورة: أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۶

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۵۳ الی ۱۵۴]

اشارة

یَسْئَلُکَ أَهْلُ الْکِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَیْهِمْ کِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسی أَکْبَرَ مِنْ ذلِکَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِکَ وَ آتَیْنا مُوسی سُلْطاناً مُبِیناً (۱۵۳) وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِیثاقِهِمْ وَ قُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِی السَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِیثاقاً غَلِیظاً (۱۵۴)

سبب النّزول

جاء فی تفاسیر «التبیان» و «مجمع البیان» و «روح المعانی» حول سبب نزول هاتین الآیتین، أنّ عـددا من الیهود جاءوا إلی النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا له: لو کنت حقّا نبیّا مرسلا من قبل اللّه فأرنا کتابک السماوی کلّه دفعة واحـدة، کما جاء موسی بالتوراة کلّها دفعة واحدة، فنزلت الآیتان جوابا لهؤلاء الیهود.

التّفسیر

هدف الیهود من اختلاق الأعذار:

تشیر الآیة الأولی إلی طلب أهل الکتاب «الیهود» من النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأن ینزل علیهم کتابا من السماء کاملا و فی دفعة واحدة، فتقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۷

یَسْئَلُکَ أَهْلُ الْکِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَیْهِمْ کِتاباً مِنَ السَّماءِ ....

و لاـ شک أنّ هؤلاء لم یکونوا صادقین فی نوایاهم مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لأنّ الهـدف من نزول الکتاب السماوی هو الإرشاد و الهدایة و التربیة، و قد یتحقق هذا الهدف أحیانا عن طریق نزول کتاب کامل من السماء دفعة واحدة، و أحیانا أخری یتحقق

الهدف عن طریق نزول الکتاب السماوی علی دفعات و بصورة تدریجیة.

و بناء علی هـذا فقـد کان الأجـدر بالیهود أن یطالبوا النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بالـدلیل و یسألوه عن تعالیم سامیـة قیمة، لا أن یحددوا له طریقة لنزول الکتب السماویة و یطالبوه بأن ینزل علیهم کتابا الطریقة التی عینوها.

و لهذا السـبب فضح اللّه نوایاهم السیـئة بعد طلبهم هذا، و أوضح للنّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بأنّ هذا العمل هو دیدن الیهود، و أنّهم معروفون بصـلفهم و عنادهم و اختلافهم الأعـذار مع نبیّهم الکبیر موسـی بن عمران علیه السّـلام، فقد طلب هؤلاء من نبیّهم ما هو أکبر و أعجب إذ سألوه أن یریهم اللّه جهارا و علنا! تقول الآیة: فَقَدْ سَأَلُوا مُوسی أَکْبَرَ مِنْ ذلِکَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ....

و ما مصدر هذا الطلب العجیب الغریب البعید عن المنطق غیر الصـلف و العناد، فهم بطلبهم هذا قد تبنّوا عقیدة المشـرکین الوثنیین فی تجسیـد اللّه و تحدیـده، و قد أدی عنادهم هذا إلی نزول عذاب اللّه علیهم، صاعقة من السـماء أحاطت بهم لما ارتکبوه من ظلم کبیر، تقول الآیة: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ

ثمّ تشیر الآیـة إلی عمـل قبیـح آخر ارتکبه الیهود، و ذلک حین لجئوا إلی عبادة العجل بعـد أن شاهـدوا بأعینهم المعجزات الکثیرة و الدلائل الواضحة، فتقول: ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ ....

و مع کـل هـذا الصـلف و العناد و الشـرک، یریهم اللّه لطفه و رحمته و یغفر لهـم لعلهم یرتـدعوا عن غیّهم، و یهب لنبیّهم موسـی علیه السّـلام ملکا بارزا و سـلطانا مبینا، و یفضح السامری صاحب العجل و یخمد فتنته و فی هذا تقول الآیة: فَعَفَوْنا عَنْ ذلِکَ وَ آتَیْنا مُوسی سُلْطاناً مُبِیناً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۸

لکن الیهود بسـبب ما انطوت علیه سـریرتهم من شـرّ- لم یستیقظوا من غفلتهم، و لم یخرجوا من ضـلالتهم، و لم یتخلوا عن صـلفهم و غرورهم، فرفع اللّه جبل الطور لینزله علی رؤوسـهم، حتی أخذ منهم العهد و المیثاق و أمرهم أن یدخلوا خاضـعین خاشـعین- من باب بیت المقدس- دلیلا علی توبتهم و ندمهم، و أکّد علیهم أن یکفوا عن أی عمل فی أیّام السـبت، و أن لا یسـلکوا سبیل العدوان، و أن لاـ یـأکلوا السـمک الـذی حرم صـیده علیهم فی ذلک الیوم، و فوق کل ذلک أخـذ اللّه منهم میثاقا غلیظا مؤکّـدا، و لکنّهم لم یثبتوا- مطلقـا- وفاءهم لأی من هـذه المواثیق و العهود[۲۵۹] یقول القرآن الکریم فی هـذا المجـال: وَ رَفَعْنـا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِیثـاقِهِمْ وَ قُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِی السَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِیثاقاً غَلِیظاً.

فهل یصـح أن تکون هـذه المجموعة مع ما تمتلکه من سوابق سـیئة و تاریخ أسود صادقة مع النّبی محمّد صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فیمـا طلبته منه و إن کـان هؤلاـء صادقین، لما ذا إذن لم یلتزموا بما نزل علیهم صـریحا فی کتابهم السـماوی و حول العلامات الخاصّـة بخاتم النّبیین؟ و لما ذا أصروا علی تجاهل کل ما أتی به النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من براهین و أدلة واضحة بیّنة؟

و هنا تجدر الإشارة إلی أمرین، و هما:

أوّلا: لو اعترض معترض فقال: إن تلک الأعمال کانت خاصّة بالیهود السابقین، فما صـلتها بالیهود فی زمن النّبی محمّد صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟

فنقول: إنّ الیهود فی زمن النّبی محمّد صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لم یبدوا اعتراضا و اسـتنکارا- أبدا- لأعمال أسلافهم السابقین، بل کانوا یظهرون الرضی عن تلک الأعمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۹

أمّـا الأمر الثّانی: فیخصّ مسألـة نزول التوراة دفعـة واحـدة، حیث قلنا فی سـبب نزول الآیتین الأخیرتین: «إنّ الیهود کانوا یزعمون نزول هذا الکتاب السـماوی دفعة واحدة، فی حین أنّ هذا الأمر لا یعتبر من الأمور المؤکّدة، و لعل الشیء الذی أدی إلی حصول هذا الوهم هو الوصایا العشـرة» التی نزلت فی ألواح دفعـة واحـدة علی النّبی موسـی علیه السّـلام، بینما لا یوجد لدینا دلیل علی نزول بقیة أحکام

التوراة دفعة واحدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۰

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۵ الى ۱۵۸]

اشارة

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (۱۵۵) وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً (۱۵۶) وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً (۱۵۷) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۵۸)

التّفسير

نماذج أخرى من ممارسات اليهود العدوانية:

تشير هذه الآيات إلى نماذج أخرى من انتهاكات بني إسرائيل و ممارساتهم العدوانية التي واجهوا بها أنبياء اللّه.

فالآية الأولى تشير إلى قيام اليهود بنقض العهود، و إلى ارتداد بعضهم و كفرهم بآيات اللّه و قتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب اللّه و الحرمان من رحمته و حرمانهم من قسم من نعم اللّه الطاهرة.

فقد أنكر هؤلاء آيات اللّه و كفروا بها بعد نقضهم للعهد و اتّبعوا بذلك سبيل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۱

الضلال و لم يكتفوا بهذا الحدّ، بل تمادوا في غيّهم، فارتكبت أياديهم الآثمة جريمة كبرى، إذ عمدوا إلى قتل الهداة و القادة إلى طريق الحق من أنبياء اللّه، إيغالا منهم في اتباع طريق الباطل و الابتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجة من العناد و الصلف و الوقاحة، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخرية و الاستهزاء، و وصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحة أنّ قلوبهم تغطيها حجب عن سماع و قبول قول الأنبياء! تقول الآية الأولى من الآيات الأربع الأخيرة: فَبِما نَقْضِهِمْ ۲۶۰] مِيثاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ ....

و هنا يؤكّد القرآن الكريم أنّ قلوب هؤلاء مختومة حقا، بحيث لا ينفذ إليها أي حقّ، و سبب ذلك هو كفرهم و انعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم و صلفهم إلّا القليل منهم.

و قد تجاوز هؤلاء المجرمون الحدّ، فالصقوا بمريم العذراء الطاهرة تهمة شنيعة و بهتانا عظيما، هي أمّ لأحد أنبياء اللّه الكبار، و ذلك لأنّها حملت به بإذن اللّه دون أن يمسها رجل، تقول الآية في هذا المجال: وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً.

و قد تباهى هؤلاء الجناة و افتخروا بقتلهم الأنبياء، و زعموا أنّهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول اللّه، تقول الآية: وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ... و لعل هؤلاء كانوا يأتون بعبارة «رسول اللّه» استهزاء و نكاية، و قد كذبوا بدعواهم هذه في قتل المسيح، فهم لم يقتلوه و لم يصلبوه، بل صلبوا شخصا شبيها بعيسى المسيح عليه السّلام، و إلى هذه الواقعة تشير الآية بقولها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۲

وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ...

و أكّدت الآية أنّ الذين اختلفوا فى أمر المسيح عليه السّلام كانوا- هم أنفسهم- فى شك من أمرهم، فلم يكن أحدهم يؤمن و يعتقد بما يقول، بل كانوا يتبعون الأوهام و الظن، تقول الآية: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ ....

و قد بحث المفسّرون حول موضوع الخلاف الوارد فى هذه الآية، فاحتمل بعضهم أن يكون الخلاف حول منزلة و مقام المسيح عليه السّلام حيث اعتبره جمع من المسيحيين ابنا للّه، و رفض البعض الآخر- كاليهود- كونه نبيّا، و إن كل هؤلاء كانوا على خطأ من أمرهم.

و قد يكون المقصود بالخلاف هو موضوع كيفية قتل المسيح عليه السّلام حيث قال البعض بأنّه قتل، و قال آخرون بأنّه لم يقتل، و لم يكن أى من هاتين الطائفتين ليثق بقول نفسه.

أو لعل الذين ادعوا قتل المسيح وقعوا فى شك من هذا الأمر لعدم معرفتهم بالمسيح عليه السّلام، فاختلفوا فى الذى قتلوه هل كان هو المسيح، أو هو شخص غيره ...؟! و يأتى القرآن ليؤكّد هنا بأن هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبدا، بل رفعه اللّه إليه، و اللّه هو القادر على كل شىء، و هو الحكيم لدى فعل أى شىء، تقول الآية: وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

اسطورة الصّليب؟

يؤكّد القرآن الكريم فى الآية المارة الذكر على أنّ المسيح عليه السّلام لم يقتل و لم يصلب، بل اشتبه الأمر على اليهود فظنوا أنّهم صلبوه، و هم لم يقتلوه أبدا! أمّا الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم فى متناول أيدينا فهى كلها تقول بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۳

المسيح عليه السّلام قد صلب و قتل على هذه الصورة، و قد جاء هذا القول فى الفصول الأخيرة من هذه الأناجيل الأربعة «متى- لوقا- مرقس- يوحنا» و بصورة تفصيلية.

و المسيحيون اليوم يعتقدون بهذا الأمر بصورة عامّة، و مسألة الصلب أو قتل المسيح عليه السّلام تعتبر اليوم أحد أهم المسائل الأساسية للديانة المسيحية، و نحن نعلم أنّ المسيحيين اليوم لا يعتبرون المسيح عليه السّلام مجرّد نبى أرسل لهداية و إرشاد البشرية، بل يعتقدون بأنّه «ابن اللّه» من أركان الثالوث المقدس لديهم، و يزعمون بأنّ هدف مجىء المسيح إلى هذا العالم ليكون قربانا يفتدى بنفسه مقابل الخطايا و الآثام التى يرتكبها البشر.

فيقولون: إنّه جاء ليضحى بنفسه من أجل ذنوبهم و خطاياهم، و قد صلب و قتل ليغسل بدمه ذنوب البشر، و لينقذ البشرية من العقاب، و لذلك فهم يعتقدون بأنّ طريق الخلاص و النجاة من العذاب و العقاب هو الإيمان بهذا الموضوع.

و من هذا المنطلق فهم- أحيانا- يدعون المسيحية بدين «الإنقاذ» أو دين «الفداء» و يسمّون المسيح عليه السّلام ب «المنقذ» أو «المخلص» أو «الفادى».

و اعتمادهم المفرط على الصليب و اتخاذه شعارا لأنفسهم إنّما يرتكز على قضية القتل و الصلب هذه.

كانت تلك نبذة عن عقيدة المسيحيين حول مصير المسيح عليه السّلام.

أمّا المسلمون فلا يشك أحدهم ببطلان و زيف هذه العقيدة، و السبب هو أنّ المسيح عيسى بن مريم عليه السّلام، كان نبيّا كسائر أنبياء اللّه أوّلا، و لم يكن هو اللّه و لا ابن اللّه، لأن اللّه واحد أحد فرد صمد لا شبيه و لا مثيل و لا زوج له و لا ولد.

و ثانيا: إنّ مسألة الفداء و التضحية من أجل خطايا الآخرين، تعتبر مسألة بعيدة عن المنطق كل البعد، فكل إنسان يؤاخذ بجريرته و عمله، و إنّ طريق النجاة و الخلاص يكون فى الإيمان و العمل الصالح فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۴

و ثالثا: إنّ عقیدة الفداء من أجل الخطایا تعتبر خیر مشجع علی الفساد و ممارسة الذنوب، و تؤدی بالبشریة إلی التلوث و الهلاک.

و حین تلاحظ أن القرآن یؤکّد علی قضیة عدم صلب المسیح علیه السّلام مع أنّ هذه القضیة تظهر للعیان و کأنّها مسألة اعتیادیة بسیطة، من أجل دحض عقیدة الفداء الخرافیة بشدّة، لمنع المسیحیین من الإیغال فی هذا الإعتقاد الفاسد، و لکی یؤمنوا بأنّ طریق الخلاص و النجاة إنّما هو فی أعمالهم هم أنفسهم و لیس فی ظل الصلیب.

رابعا: هناک قرائن موجودة تثبت وهن و ضعف قضیة الإعتقاد بصلب المسیح علیه السّلام هی:

۱- المعروف أنّ الأناجیل الأربعة المتداولة فی الوقت الحاضر، و التی تشهد بصلب المسیح علیه السّلام- کانت قد دوّنت بعده بسنین طویلة، و قد دوّنها حواریوه أو التالون من أنصاره علیه السّلام- و هذه حقیقة یعترف بها حتی المؤرخون المسیحیون.

کما نعرف أیضا أنّ حواری المسیح علیه السّلام قد هربوا حین هجم الأعداء علیه، و الأناجیل نفسها تشهد بهذا الأمر[۲۶۱] و علی هذا الأساس فإنّ هؤلاء الحواریین قد تلقفوا مسألة صلب عیسی المسیح علیه السّلام من أفواه الناس الآخرین، و لم یکونوا حاضرین أثناء تنفیذ عملیة الصلب، و قد أدت التطورات التی حصلت آنذاک إلی تهیئة الأجواء المساعدة للاشتباه بشخص آخر و صلبه بدل المسیح علیه السّلام، و سنوضح هذا الأمر فیما یلی من حدیثنا.

۲- إنّ العامل الآخر الذی یجعل من الاشتباه بشخص آخر بدل المسیح علیه السّلام أمرا محتملا هو أنّ المجموعة التی کلّفت بالقبض علی عیسی المسیح علیه السّلام و التی ذهبت إلی بستان «جستیمانی» هذه المجموعة کانت تتشکل من أفراد الجیش الرومی الذین کانوا منهمکین فی أمور عسکریة، فهم لم یکونوا یعرفون الیهود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۵

و لغتهم و تقالیدهم، کما لم یمیزوا بین حواری المسیح علیه السّلام و بین المسیح نفسه.

۳- تذکر الأناجیل أن الهجوم علی مقر عیسی المسیح علیه السّلام قد تمّ لیلا، و بدیهی أنّ ظلام اللیل یعتبر خیر ستار للشخص المطلوب لیتخفی به و یهرب، و لیقع شخص آخر فی أیدی المهاجمین.

۴- یستنتج من نصوص جمیع الأناجیل أنّ المقبوض علیه قد اختار الصمت أمام «بیلاطیس» الحاکم الرومی لبیت المقدس- آنذاک- و لم یتفوه إلّا بالقلیل دفاعا عن نفسه و یستبعد کثیرا أن یقع عیسی المسیح علیه السّلام فی خطر کهذا و لا یدافع عن نفسه بما یستحقه الدفاع عن النفس، و هو المعروف بالفصاحة و البلاغة و الشجاعة و الشهامة.

أ لا یحتمل فی هذا المجال أن یکون شخص آخر- ک «یهوذا الأسخربوطی» الذی خان و وشی بعیسی المسیح علیه السّلام و کان یشبهه کثیرا- قد وقع هو بدل المسیح فی الأسر و أنّه لهول الموقف قد استولی علیه الخوف و الرعب، فعجز عن الدفاع عن نفسه أو التحدث أمام الجلادین بشیء.

نقرأ فی الأناجیل أنّ «یهوذا الأسخربوطی» لم یظهر بعد حادثة الصّلب أبدا، و أنّه- کما تقول هذه الأناجیل- قد قتل نفسه و انتحر[۲۶۲].

۵- لقد بیّنا أنّ حواری المسیح علیه السّلام- و کما ذکرت الأناجیل- قد هربوا حین أحسوا بالخطر یحدق بهم، کما هرب و اختفی الأنصار الآخرون، و أخذوا یراقبون الأوضاع عن بعد، بحیث أصبح الشخص المقبوض علیه وحیدا بین الجنود الرومان، و لم یکن أی من أصحابه قریبا منه، و لذلک لا یستبعد و لا یبدو غریبا أن یقع خطأ أو سهو فی تشخیص هویة الشخص المقبوض علیه.

۶- و نقرأ فی الأناجیل- أیضا- أنّ الشخص المصلوب قد اشتکی من ربه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۶

(و لیس لربّه) لأنّه- بحسب قوله- قد جفاه و ترکه بأیدی الأعداء لیقتلوه ۲۶۳]! فلو صدقنا مقولة أنّ المسیح جاء لهذه الدنیا لیصلب و لینقذ بصلبه البشریة من عواقب خطایاهم و آثامهم، فلا یلیق لمن یحمل هدفا سامیا کهذا الهدف أن یصدر منه هذا الکلام، و هذا

دلیل علی أن الشخص المصلوب لم یکن المسیح نفسه، بل کان إنسانا ضعیفا و جبانا، و عاجزا، و مثل هذا الإنسان یمکن أن یصدر منه کلام کالذی سبق، لا یمکن أن یکون هذا الإنسان هو المسیح علیه السّلام ۲۶۴].

۷- لقد نفت بعض الأناجیل الموجودة مثل إنجیل «برنابا» قضیة صلب المسیح علیه السّلام (و هذا الإنجیل هو غیر الأناجیل الأربعة التی یقبلها المسیحیون) کما أنّ بعضا من الطوائف المسیحیة أبدت شکوکها حول قضیة الصلب ۲۶۵] و قد ذهب بعض الباحثین إلی أبعد من هذا، فادعوا بأن التاریخ قد ذکر شخصین باسم «عیسی» أحدهما عیسی المصلوب و الآخر هو عیسی غیر المصلوب و بینهما فاصل زمنی یقدر بخمسمائة عام ۲۶۶].

کانت تلک مجموعة من القرائن المؤیدة لقول القرآن الکریم فی قضیة الشبه الحاصل فی قتل أو صلب المسیح علیه السّلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۷

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۵۹]

اشارة

وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلَّا لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً (۱۵۹)

التّفسیر

اشارة

هنالک احتمالان فی تفسیر هذه الآیة، و کل واحد منهما جدیر بالملاحظة من جوانب متعددة:

۱- إنّ الآیة تؤکّد أنّ أی إنسان یمکن أن لا یعتبر من أهل الکتاب ما لم یؤمن قبل موته بالمسیح علیه السّلام حیث تقول: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ إِلَّا لَیُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ... و أن هذا الأمر یتمّ حین یشرف الإنسان علی الموت و تضعف صلته بهذه الدنیا، و تقوی هذه الصلة بعالم ما بعد الموت، و ترفع عن عینیه الحجب فیری بعد ذلک الکثیر من الحقائق و یدرکها، و فی هذه اللحظة یری المسیح بعین بصیرته و یؤمن به، فالذین أنکروا نبوته یؤمنون به، و الذین وصفوه بالألوهیة یدرکون فی تلک اللحظة خطأهم و انحرافهم.

و بدیهی أنّ مثل هذا الإیمان لا ینفع صاحبه، کما أنّ فرعون و الأقوام الأخری و أقوام استولی علیهم العذاب، فقالوا: آمنا فلم ینفعهم إیمانهم أبدا، فالأجدر بالإنسان أن یؤمن قبل أن تدرکه لحظة العذاب عند الموت، حین لا ینفع الإیمان صاحبه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۸

و تجدر الإشارة- هنا- إلی أنّ الضمیر فی عبارة «قبل موته» یعود لأهل الکتاب بناء علی التّفسیر الذی ذکرناه.

۲- قد یکون المقصود فی الآیة هو أنّ جمیع أهل الکتاب یؤمنون بعیسی المسیح قبل موته، فالیهود یؤمنون بنبوته و المسیحیون یتخلون عن الإعتقاد بربوبیة المسیح علیه السّلام، و یحدث هذا- طبقا للروایات الإسلامیة- حین ینزل المسیح علیه السّلام من السماء لدی ظهور المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه، و واضح أن عیسی المسیح سیعلن فی مثل هذا الیوم انضواءه تحت رایة الإسلام، لأن الشریعة السماویة التی جاء بها إنّما نزلت قبل الإسلام، و لذلک فهی منسوخة به.

و بناء علی هذا التّفسیر فإن الضمیر فی عبارة «قبل موته» یعود إلی عیسی المسیح علیه السّلام.

و

قد نقل عن النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «کیف بکم إذا نزل فیکم ابن مریم و إمامکم منکم»[۲۶۷]

و طبیعی أنّ هذا التّفسیر یشمل الیهود و المسیحیین الموجودین فی زمن ظهور المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف، و نزول عیسی المسیح علیه السّلام من السماء.

و جاء فی تفسیر «علی بن إبراهیم» نقلا عن «شهر بن حوشب» إنّ الحجاج ذکر یوما أن هناك آیة فی القرآن قد أتبعته کثیرا و هو حائر فی معناها، فسأله «شهر» عن الآیة، فقال الحجاج: إنّها آیة وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ ... و ذکر أنّه قتل یهودا و مسیحیین و لم یشاهد فیهم أثرا لمثل هذا الإیمان.

فأجابه «شهر» بأنّ تفسیره للآیة لم یکن تفسیرا صحیحا، فاستغرب الحجاج و سأل عن التّفسیر الصحیح للآیة.

فأجاب «شهر» بأنّ تفسیر الآیة هو أن المسیح ینزل من السماء قبل نهایة العالم، فلا یبقی یهودی أو غیر یهودی إلّا و یؤمن بالمسیح قبل موته، و أن المسیح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۹

سیقیم الصّلاة خلف المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف.

فلما سمع الحجاج هذا الکلام قال ل «شهر» ویلك من أین جئت بهذا التّفسیر؟ فأجابه «شهر» بأنّه قد سمعه من محمّد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب علیهم السّلام.

و عند ذلک قال الحجاج: «و اللّه جئت بها من عین صافیة»[۲۶۸].

و تقول الآیة فی الختام: وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً أی شهادة المسیح علیه السّلام علی قومه بأنّه قد بلّغهم رسالة اللّه و لم یدعهم لاتّخاذه إلها من دون اللّه، بل دعاهم إلی الإقرار بربوبیة اللّه الواحد القهار.

سؤال:

و قد یعترض البعض بأنّ المسیح علیه السّلام- کما جاء فی الآیة (۱۱۷) من سورة المائدة- إنّما یقصر شهادته علی الزمن الذی کان هو موجودا فیه بین قومه و یتنصل عن الشهادة بالنسبة للأزمنة التی جاءت بعده، و ذلک بدلالة الآیة التی جاءت علی لسانه و هی تقول: وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً ما دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ لکن الآیة التی هی موضوع بحثنا الآن تدل علی أنّ المسیح علیه السّلام یشهد علی الجمیع یوم القیامة، سواء أولئك الذین کانوا فی عصره و زمانه أو الذین لم یکونوا فی ذلك الزمان.

الجواب:

و الجواب علی هذا الاعتراض هو أنّنا لو أمعنا النظر فی مضمون الآیتین المذکورتین، لرأینا أنّهما تدلان علی أنّ الآیة الأخیرة التی هی موضوع البحث- تتحدث عن الشهادة حول تبلیغ الرسالة و نفی الألوهیة عن المسیح علیه السّلام بینما الآیة (۱۱۷) من سورة المائدة تشهد علی أعمال أولئك القوم.

فالآیة الأخیرة تذکر أنّ عیسی المسیح علیه السّلام سیشهد علی جمیع الذین نسبوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۰

له الألوهیة، سواء من کانوا فی زمانه أو من جاءوا بعد ذلك الزمان، و أن المسیح علیه السّلام یؤکّد أنّه لم یدع هؤلاء القوم إلی مثل هذا الأمر أبدا، بینما الآیة (۱۱۷) من سورة المائدة تذکر علی لسان المسیح علیه السّلام أنّه علاوة علی الدعوة لرسالته بالأسلوب

الصحیح، فهو قد حال طیلة فترة بقائه بین قومه- دون انحرافهم، إلّا أنّهم انحرفوا بعده و نسبوا له الألوهیة فی زمن لم یکن هو موجودا بینهم، لیشهد علی أعمالهم و لیحول دون انحرافهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۱

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۱۶۰ الی ۱۶۲]

اشارة

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ طَیِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ کَثِیراً (۱۶۰) وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۱۶۱) لکِنِ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ یُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ الْمُقِیمِینَ الصَّلاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ أُولئِکَ سَنُؤْتِیهِمْ أَجْراً عَظِیماً (۱۶۲)

التّفسیر

مصیر الصالحین و الطالحین من الیهود:

لقد أشارت الآیات السابقة إلی نماذج من انتهاکات الیهود، أما الآیات الأخیرة فإنما ذکرت نماذج أخری من تلک الانتهاکات، و بیّنت العقوبات التی استحقها الیهود بسبب تمردهم و عصیانهم، و العذاب الذی لا قوه و سیلاقوه نتیجة لذلک فی الدنیا و الآخرة.

فالآیة الأولی من الآیات الأخیرة تبیّن أنّ اللّه قد حرم بعضا من الأشیاء الطاهرة علی الیهود بسبب ممارستهم الظلم و الجور، و تصدیهم للسائرین فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۲

طریق اللّه، حیث تقول الآیة: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ طَیِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ کَثِیراً کما عاقبهم اللّه بالحرمان من تلک الطیبات لتعاملهم بالربا علی الرغم من منعهم من ممارسة المعاملات الربویة و لاستیلائهم علی أموال الآخرین بطرق غیر مشروعة، فتقول الآیة فی هذا المجال: وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ ....

و تؤکّد الآیة أنّ عذاب الیهود لمعاصیهم تلک لا یقتصر علی العقاب الدنیوی، بل سیذیقهم اللّه- أیضا- عقاب و عذاب الآخرة الألیم الذی یشمل الکافرین من الیهود، تقول الآیة الکریمة: وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً.

و تجدر الإشارة- هنا إلی عدة أمور، و هی:

۱- إنّ المقصود بالطیبات المحرمة علی الیهود هی تلک التی ذکرتها الآیة (۱۴۶) من سورة الأنعام، و التی شملت بعض الحیوانات و شحوم حیوانات أخری کالبقر و الأغنام التی أحبّها الیهود، و لم یکن هذا التحریم تحریما تکوینیا، بل کان تحریما تشریعیا قانونیا، أی أن الیهود منعوا من استعمال هذه النعم مع أنّها کانت متیسرة فی أیدیهم.

و قد جاء ذکر بعض هذا التحریم فی التوراة المتداولة بید الیهود حالیا، فی «سفر الآویین» فی الفصل الحادی عشر، و لکن لم تشر التوراة الحالیة إلی الطابع العقابی لهذا التحریم ۲۶۹].

۲- أمّا هل أنّ هذا التحریم یتمیز بطابع شمولی، أی هل یشمل غیر الظالمین من الیهود، أم یخص الظالمین وحدهم؟ فإنّ ظاهر الآیة المذکورة أعلاه و الآیة (۱۴۶) من سورة الأنعام، یدلان علی أنّ التحریم له طابع عام بدلالة عبارة «لهم» علی عکس العقاب الأخروی الذی تخصصه الآیة لِلْکافِرِینَ مِنْهُمْ و علی هذا الأساس فإن هذا التحریم له طابع عقابی بالنسبة للظالمین من الیهود، کما یحمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۳

طابع الاختبار و الامتحان بالنسبة لأخیارهم الذین یشکلون الأقلیة فیهم.

و قد ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ هذا التحریم یشمل الظالمین من الیهود فقط، کما تدل بعض الروایات علی هذا الرأی- أیضا- فقد جاء فی تفسیر البرهان فی تفسیر الآیة (۱۴۶) من سورة الأنعام،

نقلا عن الإمام الصّادق علیه السّلام: «إنّ زعماء بنی إسرائیل کانوا قد حرموا علی فقراء طائفتهم أکل لحوم الطیور و شحوم الحیوانات، و لهذا السبب حرم اللّه علی هؤلاء الظالمین مثل هذه الطیبات عقابا لهم علی ظلمهم و جورهم ۲۷۰]».

۳- و تدل هذه الآیة- أیضا- علی أنّ تشریع تحریم «الربا» لم یقتصر علی الإسلام وحده، بل کان محرما لدی الأقوام و الدیانات السابقة، و التوراة المتداولة حالیا و المحرفة إنّما تحرم علی الیهود أخذ الربا من أبناء عقیدتهم فقط، و لا تعتبر أخذه من أبناء الدیانات الأخری حراما علیهم ۲۷۱].

و قد أشارت الآیة الثّالثة من الآیات الأخیرة إلی حقیقة مهمّة اعتمدها القرآن الکریم مرارا فی آیات متعددة، و هی أنّ ذمّ الیهود و انتقادهم فی القرآن لا یقومان علی أساس عنصری أو طائفی علی الإطلاق، لأنّ الإسلام لم یذم أبناء أی طائفة أو عنصر لانتمائهم الطائفی أو العرقی، بل وجه الذم و الانتقاد للمنحرفین و الضالمین منهم فقط، لذلک استثنت هذه الآیة المؤمنین الأتقیاء من الیهود و مدحتهم و بشرتهم بنیل أجر عظیم، حیث تقول الآیة الکریمة: لکِنِ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ یُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ الْمُقِیمِینَ الصَّلاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ أُولئِکَ سَنُؤْتِیهِمْ أَجْراً عَظِیماً[۲۷۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۴

و قد آمن جمع من کبار الطائفة الیهودیة بالإسلام حین بعث النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و حین شاهدوا علی یدیه الکریمتین دلائل أحقّیة الإسلام، و دافع هؤلاء بأرواحهم و أموالهم عن الإسلام، و کانوا موضع احترام و تقدیر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر المسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۵

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۱۶۳ الی ۱۶۶]

اشارة

إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِیسی وَ أَیُّوبَ وَ یُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَیْمانَ وَ آتَیْنا داوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ وَ کَلَّمَ اللَّهُ مُوسی تَکْلِیماً (۱۶۴) رُسُلًا مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ لِئَلَّا یَکُونَ لِلنَّاسِ عَلَی اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ کانَ اللَّهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۱۶۵) لکِنِ اللَّهُ یَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِکَةُ یَشْهَدُونَ وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً (۱۶۶)

التّفسیر

لقد تناولت الآیات السابقة مسألة التمییز الذی مارسه الیهود بشأن الأنبیاء، حیث کانوا یؤمنون و یصدقون ببعض أنبیاء اللّه تعالی و یکفرون بالبعض الآخر منهم.

أمّا الآیات أعلاه فهی ترد علی الیهود، و تؤکّد أنّ اللّه أوحی إلی نبیّه محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما أنزل الوحی علی أنبیائه نوح و النّبیین الذین جاؤوا من بعد نوح، و کما أوحی إلی إبراهیم و إسماعیل و إسحاق و یعقوب علیهم السّلام و أنزل الوحی علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۶

الأنبياء من أبناء يعقوب، و على عيسى و أيوب و يونس و هارون و سليمان عليهم السّلام، و كما أنزل اللّه على داود عليه السّلام كتاب الزّبور، حيث تقول الآية: إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً.

و هذه الآية تردّ على اليهود مؤكّدة على أنّ شرائع الأنبياء العظام مستقاة كلها من ينبوع الوحى الإلهى، و إنّهم جميعا يسيرون فى طريق واحد، و لذلك لا تجوز التفرقة بينهم.

و قد تكون هذه الآية خطابا للمشركين و الكفار من عرب الجاهلية، الذين كانوا يظهرون الدهشة و العجب من نزول الوحى على نبى الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهى تردّ على هؤلاء مؤكّدة أن لا عجب فى نزول الوحى على محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد نزل قبل ذلك على الأنبياء السابقين.

ثمّ تبيّن الآية أنّ الوحى لم يقتصر نزوله على هؤلاء الأنبياء، بل نزل على أنبياء آخرين حكى اللّه قصصهم للنّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل، و أنبياء لم يحك اللّه قصصهم، و كل هؤلاء الأنبياء أرسلهم اللّه إلى خلقه، و أنزل عليهم الوحى من عنده، تقول الآية: وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ....

و تبيّن هذه الآية فى آخرها قضية مهمّة جدّا، و هى أنّ اللّه قد كلم موسى بدل أن ينزل عليه الوحى، فتقول: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً ....

و على هذا الأساس فإنّ صلة الوحى ظلت باقية بين البشر، و لم يكن من عدل اللّه أن يترك البشر دون مرشد أو قائد، أو أن يتركهم دون أن يعين لهم واجباتهم و تكاليفهم، و هو الذى بعث الأنبياء و الرسل للبشر مبشرين و منذرين، لكى يبشروا الناس برحمته و ثوابه، و ينذرونهم من عذابه و عقابه لكى يتمّ الحجة عليهم فلا يبقى لهم عذر أو حجّة، تقول الآية: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۷

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

فقد أحكم اللّه العزيز القدير خطّة إرسال الأنبياء و نفذها بكل دقة، و بهذا تؤكد الآية وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً فحكمته توجب تحقيق هذا العمل، و قدرته تمهد السبيل إلى تنفيذه، و على عكس ذلك فإن إهمال هذا الأمر المهم، إمّا أن يدل على الافتقار إلى الحكمة و المعرفة، أو أنّه دلالة على العجز، و اللّه منزّه عن كل هذه العيوب.

أمّا الآية الأخرى فهى تطمئن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توضح له أن المهم هو أنّ اللّه قد شهد بما أنزل عليه من كتاب، و ليس المهم أن يؤمن نفر من هؤلاء بهذا الكتاب أو يكفروا به- فتؤكد الآية فى هذا المجال- لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ

و لم يكن اختيار اللّه لمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمنصب النّبوة أمرا عبثا- و العياذ باللّه- بل كان هذا الإختيار نابعا من علم اللّه بما كان يتمتع به النّبى من لياقة و كفاءة لهذا المنصب العظيم، و لنزول آيات اللّه عليه- حيث تقول الآية: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ

و يمكن- أيضا- أن تشمل هذه الآية معنى آخر، و هو أن ما نزل على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من آيات إنّما ينبع من بحر علم اللّه اللامتناهى، و إن محتوى هذه الآيات يعتبر دليلا واضحا على أنّها نابعة من علم اللّه- و على هذا الأساس فإن الشاهد على صدق ادعاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الآيات القرآنية، و لا يحتاج إلى دليل آخر لإثبات دعوته، فلو لم يكن محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتلقى الوحى من قبل اللّه سبحانه و تعالى لما أمكنه أبدا- و هو المعروف بالأمى- أن يأتى بكتاب كالقرآن يشتمل على أرفع و أسمى التعاليم و الفلسفات و القوانين و المبادئ الأخلاقية و البرامج الاجتماعية.

و القرآن الكريم يؤكّد أن ليس اللّه وحده الذى يشهد بأن دعوة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى الحق، بل يشهد معه ملائكته بأحقّية هذه الدعوة، مع أن شهادة اللّه كافية وحدها فى هذا المجال تقول الآية الكريمة: وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۸

و یجب- هنا- الانتباه إلی عدّة أمور، و هی:

۱- إنّ بعض المفسّرین فهموا من عبارة إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا ... إنّها تهدف إلی بیان حقیقة من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هی أنّ جمیع الخصائص التی وردت فی الشرائع السماویة التی نزلت علی الأنبیاء قبله، جاءت مجتمعة فی الشریعة التی أنزلها اللّه علیه، و إنّ کل خصلة اتصف بها عباد اللّه الصالحون هی موجودة فیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قد أشارت بعض الروایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام إلی هذا الموضوع أیضا فکان ما استلهمه المفسّرون من هذه الآیة نابعا أو مستندا علی تلک الروایات ۲۷۳].

۲- نقرأ فی الآیات الأخیرة أنّ الزّبور من الکتب السماویة أنزله اللّه علی داود- و لا یتنافی هذا مع ما ورد من أنّ الأنبیاء أولی العزم الذین نزلت علیهم کتب من اللّه هم خمسة أنبیاء فقط، حیث إن الآیات القرآنیة و الروایات الإسلامیة توضح أن الکتب السماویة التی نزلت علی الأنبیاء کانت علی نوعین، هما:

النّوع الأوّل: الکتب التی اشتملت علی الأحکام التشریعیة، حیث أن کل کتاب من هذه الکتب قد أعلن عن شریعة جدیدة، و أن هذه الکتب السماویة هی خمسة فقط نزلت علی خمسة أنبیاء هم «اولوا العزم».

النّوع الثّانی: الکتب التی لم تحتو علی أحکام جدیدة، بل کان فیها الحکم و النصائح و الإرشادات و الوصایا و أنواع الدعاء، و کتاب «الزّبور» الذی نزل علی داود علیه السّلام من هذا النّوع الثّانی من الکتب السماویة- و «مزامیر داود» أو «زبور داود» الذی ورد اسمه فی «العهد القدیم» دلیل علی هذا الأمر الذی أثبتناه، مع العلم أنّ کتاب «العهد القدیم» لم یسلم من التحریف، کما لم تسلم کتب العهد الجدید و القدیم الأخری من التحریف أیضا، إلّا أنّ ما یمکن قوله هو أنّ هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۹

الکتب قد احتفظت نوعا ما بشکلها القدیم.

و کتاب «مزامیر داود» یشتمل علی مائة و خمسین فصلا، یسمی کل فصل منه «مزمورا» و هو من أوّله إلی آخره یشتمل علی صنوف النصح و الإرشاد و الدعاء و المناجاة.

و

نقل عن أبی ذر رضی اللّه عنه أنّه سأل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن عدد الأنبیاء فأجابه النّبی: بأن عددهم یبلغ مائة و أربعا و عشرین ألفا، فسأل أبو ذر رضی اللّه عنه عن عدد الرسل من بین هؤلاء الأنبیاء- فأجابه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: بأن عددهم هو ثلاثمائة و ثلاثة عشر رسولا و الباقون کلهم أنبیاء ... فسأل أبو ذر مرة أخری عن عدد الکتب السماویة التی نزلت علی أولئک الأنبیاء و الرسل، فأجابه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: بأنّها مائة و أربع کتب، نزل عشرة منها علی آدم، و نزل خمسون منها علی شیث، و ثلاثون علی إدریس، و عشرة کتب علی إبراهیم، حیث یصبح مجموع هذه الکتب مائة کتاب، و الأربعة الأخری هی التوراة، و الإنجیل و الزبور و القرآن ۲۷۴].

۳- إنّ عبارة «أسباط» هی صیغة للجمع و مفردها «سبط» و معناها طوائف بنی إسرائیل، و لکن المقصود منها فی الآیة هم الأنبیاء الذین بعثوا من هذه الطوائف ۲۷۵].

۴- لقد کان نزول الوحی علی الأنبیاء یتمّ بصور مختلفة، فمرّة ینزل بالوحی ملک من الملائکة المکلفین به و أحیانا یلقی الوحی علی النّبی بواسطة الإلهام القلبی، و أخری ینزل بصورة صوت یسمعه النّبی، أی أن اللّه یخلق الأمواج الصوتیة فی الفضاء أو الأجسام فیسمعها أنبیاؤه و بهذه الواسطة کان یتمّ التخاطب بینهم و بین اللّه سبحانه و تعالی.

و من الذین حظوا بمزیة التخاطب مع اللّه النّبی موسی بن عمران علیه السّلام، فکان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۵۳۹

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۰

یسمع الصوت، أحیانا من شجرة وادی الأیمن، و أحیانا فی جبل طور، و لذلک لقب هذا النّبی بلقب «کلیم اللّه»، و لعل مجیء اسم النّبی موسی علیه السّلام فی الآیات الأخیرة بصورة منفصلة کان من أجل بیان هذه الخصیصة التی امتاز بها موسی علیه السّلام علی غیره من أنبیاء اللّه علیهم السّلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۱

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۱۶۷ الی ۱۶۹]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِیداً (۱۶۷) إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللَّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً (۱۶۸) إِلَّا طَرِیقَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها أَبَداً وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً (۱۶۹)

التّفسیر

جری البحث فی الآیات السابقة حول المؤمنین و غیر المؤمنین، أمّا الآیات الثلاثة الأخیرة فهی تشیر إلی مجموعة اختارت أقبح أنواع الکفر، فهؤلاء- بالإضافة- إلی انحرافهم و ضلالهم سعوا إلی تحریف و إضلال الآخرین، و قد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا و ظلموا الآخرین معهم لأنهم لم یسیروا فی طریق الحق و لم یسمحوا للآخرین- أیضا- باتّباع هذا السبیل، و الآیة الکریمة تصف هؤلاء بأنّهم فی ضلال بعید و ذلک بقولها: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِیداً.

فلما ذا- یا تری- استحق هؤلاء الإبعاد عن طریق الحق؟ إنّهم استحقوا ذلک لدعوتهم الآخرین إلی طریق الضلال، حیث من المستبعد جدّا أن یتخلوا عن طریق هم یدعون الآخرین لاتّباعه- فقط خلط هؤلاء کفرهم بالعناد، و وضعوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۲

أقدامهم فی طریق الضلال و الانحراف، و ابتعدوا بذلک کثیرا عن طریق الحق و الصواب.

أمّا الآیة الأخری فتشیر إلی الذین کفروا و ظلموا، إذ ظلموا الحق أوّلا لعدم التزامهم بالصواب، کما ظلموا أنفسهم بذلک- أیضا- إذ حرموها من السعادة و سقطوا فی هوة الضلالة، و ظلموا الآخرین حین منعوهم من التوجه إلی طریق الحق و الصواب، فهؤلاء لن یشملهم أبدا عفو اللّه، و إن اللّه لا یهدیهم أبدا إلّا إلی طریق جهنم، تقول الآیة: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللَّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً إِلَّا طَرِیقَ جَهَنَّمَ ....

فهؤلاء باقون و خالدون فی جهنم دائما و أبدا، کما تقول الآیة: خالِدِینَ فِیها أَبَداً ....

و علی هؤلاء أن یعلموا أنّ وعد اللّه حق، و أن تهدیده یتحقق لا محالة، فلیس ذلک علی اللّه بالأمر الصعب تقول الآیة: وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً.

و نشاهد فی الآیتین المذکورتین تأکیدا من طراز خاص حول هذا النوع من الکفار و العقوبات التی ینالونها- فمن جهة یوصف انحرافهم بالضلال البعید، و من جهة ثانیة تؤکد الآیة باستخدام عبارة لَمْ یَکُنِ اللَّهُ ... أنّ العفو عن هؤلاء الکفار لا یلیق بمنزلة اللّه سبحانه و تعالی، و من جانب آخر فقد جاء التأکید علی خلود هؤلاء فی النار و التشدید علی أنّه خلود أبدی، لأنّ هؤلاء و أمثالهم

بالإضافة إلى خروجهم عن جادة الحق و انحرافهم، سعوا إلى إبعاد و حرف الآخرين عن هذا السبيل، و بذلك تحملوا مسئولية و إثما عظيما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۰]

اشارة

يـا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷۰)

التّفسير

لقـد أوضـحت الآيات السابقـة نهايـة و عاقبـة الناس الذين انعدم لديهم عنصـر الإيمان، أمّا الآية الأخيرة فهى تدعو إلى الإيمان و تبيّن نتيجـة هذا الإيمان، و تستخدم فى ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامى عبارات و اصـطلاحات تثير عند الأفراد الرغبة و الاندفاع نحو الإيمان.

و هـذه الآيـة تشير فى البدايـة إلى أنّ النّبى المرسـل هو ذلـك الـذى كـان ينتظر الناس ظهوره، و الـذى أشارت إليه الكتب السـماوية السابقة، و هو يحمل إليهم شريعة الحق و العدالة فتقول الآية فى هذا المجال: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ ۲۷۶] بِالْحَقِ ۲۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۴

ثمّ تردف الآيـة بأن هذا النّبى قد جاء إلى الناس من اللّه الذى تعهد تربية الخلق أجمعين، و ذلك من خلال العبارة القرآنية الواردة فى هذه الآية، و هى عبارة: مِنْ رَبِّكُمْ

و بعـد ذلك تؤكّد الآيـة- على أنّ إيمان الأفراد إنّما تعود فائدته و يعود نفعه عليهم أنفسـهم، أى أن الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم به غيره تقول الآية: فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ

كما تؤكّد الآية فى النهاية على أن من يتخذ الكفر سبيلا لنفسه فلن يضـرّ اللّه بعمله هذا أبدا، لأن اللّه يملك كل ما فى السماوات و ما فى الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أى شيء من الآخرين، تقول الآية فى هذا الصدد: وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و تبيّن الآيـة فى النهايـة أنّ أحكام اللّه و أوامره كلّها لمصـلحة البشـر، لأنّها نابعة من حكمة اللّه و علمه و هى قائمة على أساس تحقيق مصالح الناس، و منافعهم الخيّرة، فتقول الآية: وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

و من المنطلق نفسه فإنّ ما أرسـله اللّه من شـرائع لتنظيم الحياة الاجتماعية للبشـر بواسطة الأنبياء عليهم السّلام، لم يكـن- مطلقا- لحاجة اللّه إلى ذلك، بل إنّه نابع من علمه و حكمته، فهل يحق للبشر بعد هذا البيان أن يتركوا طريق الإيمان و يتبعوا سبيل الكفر؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۱]

اشارة

يـا أَهْـلَ الْكِتـابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ

رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۱۷۱)

التّفسير

اسطورة التثليث الوهمية:

تتطرق هـذه الآية و الآية التى تليها إلى واحد من أهم انحرافات الطائفة المسيحية، و هذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أى وجود آلهة ثلاثة و يأتى التطرق إلى هذا البحث فى سياق البحوث القرآنية التى وردت فى الآيات السابقة عن أهل الكتاب و الكفار.

فهـذه الآيـة تحـذر فى البداية أهل الكتاب من المغالاة و التطرف فى دينهم، و تدعوهم أن لا يقولوا على اللّه غير الحق، حيث تقول: يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ....

لقد كانت قضية الغلو فى حق القادة السابقين إحدى أخطر منابع الانحراف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۶

فى الأديـان السـماوية، فالإنسـان بمـا أنّه يميـل إلى ذاته ينـدفع بهـذا الميـل إلى إظهـار زعمائه و قادته بصورة أكبر ممّا هم عليه، لكى يضفى على نفسه الأهمية و العظمة من خلال هؤلاء القادة، و قد يدفع الإنسان التصور الواهى بأن الإيمان هو المبالغة و الغلو فى احترام و تعظيم القادة- إلى الوقوع فى متاهات هذا النوع من الانحراف الرهيب.

و الغلو فى أصله ينطوى على عيب كبير يفسد العنصر الأساسى للدين- الذى هو عبادة اللّه و توحيده- و لهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاة أو المغالين بعنف و شدّة، إذ عرفت كتب الفقه و العقائد هذه الفئة من الناس بأنّهم أشد كفرا من الآخرين.

بعـد ذلك تشير الآيـة الكريمـة إلى عدّة نقاط، يعتبر كل واحد منها فى حدّ ذاته دليلا على بطلان قضـية التثليث، و عدم صـحة الوهية المسيح عليه السّلام، و هذه النقاط هى:

۱- لقد حصـرت الآية بنوة السـيد المسـيح عليه السّلام بمريم عليها السّلام إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ و إشارة البنوة- هذه الواردة فى ستة عشر مكانا من القرآن الكريم- إنّما تؤكّد أنّ المسيح عليه السّلام هو إنسان كسائر الناس، خلق فى بطن امّه، و مرّ بدور الجنين فى ذلك الرحم، و فتح عينيه على الدنيا حين ولد من بطن مريم عليها السّلام كما يولد أفراد البشر من بطون أمهاتهم و مرّ بفترة الرضاعة و تربى فى حجر امّه، ممّا يثبت بأنّه امتلك كل صـفات البشر فكيف يمكن- و حالة المسيح عليه السّلام هذه- أن يكون إلها أزليا أبديا، و هو فى وجوده محكوم بـالظواهر و القوانين الماديـة الطبيعيـة و يتـأثر بالتحولات الجاريـة فى عالم الوجود؟! و عبارة الحصـر التى هى «إنّما» الواردة فى الآية تحصر بنوة المسيح عليه السّلام بمريم عليها السّلام و تؤكّد على أنّه و إن لم يكن له والد، فليس معنى ذلك أن أباه هو اللّه، بل هو فقط ابن مريم عليها السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۷

۲- تؤكّد الآية الكريمة أنّ المسيح عليه السّلام هو رسول اللّه و مبعوث إلى البشر من قبله سبحانه و تعالى، و إن هذه المنزلة- أى منزلة النّبوة- لا تتناسب و مقام الألوهية.

و الجـدير بالذكر هو أنّ معظم كلام المسـيح عليه السّلام الوارد قسم منه فى الأناجيل المتداولة فى الوقت الحاضـر، إنّما يؤكّد نبوته و بعثته لهداية الناس، و ليس فيه دلالة على ادعائه الألوهية و الربوبية.

۳- تبيّن الآية أن عيسى المسيح عليه السّلام هو كلمة اللّه التى ألقاها إلى مريم عليها السّلام حيث تقول: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ

و قد وردت عبارة: «كلمة» في وصف المسيح في عدد من الآيات القرآنية، و هذه إشارة إلى كون المسيح مخلوقا بشريا، إذ أن الكلمات مخلوقة من قبل اللّه، كما أنّ الموجودات فى الكون من مخلوقاته عزّ و جلّ، فكما أن الكلمات تبيّن مكنونات أنفسنا- نحن البشر- و تدل على صفاتنا و أخلاقياتنا، فإنّ مخلوقات الكون تحكى صفات خالقها و جماله و تدل على جلاله و عظمته.

و على هذا الأساس فقد وردت عبارة «كلمة» فى عدد من العبارات القرآنية، لتشمل جميع مخلوقات اللّه، كما فى الآية (۱۰۹) من سورة الكهف و الآية (۲۹) من سورة لقمان، و بديهى أنّ الكلمات الإلهية تتفاوت بعضها مع البعض فى المنزلة و الأهمية و عيسى عليه السّلام يعتبر إحدى كلمات اللّه البارزة الأهمية، لكونه ولد من غير أب، إضافة إلى كونه يتمتع بمقام الرسالة الإلهية.

۴- تشير الآية إلى أنّ عيسى المسيح عليه السّلام هو روح مخلوقة من قبل اللّه، حيث تقول وَ رُوحٌ مِنْهُ و هذه العبارة التى وردت فى شأن خلق آدم- أو بعبارة أخرى خلق البشر أجمعين- فى القرآن الكريم، إنما تدل على عظمة تلك الروح التى خلقها اللّه تعالى و أودعها فى أفراد البشر بصورة عامّة، و فى المسيح عليه السّلام و سائر الأنبياء بصورة خاصّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۸

و على الرغم من أنّ البعض أساء الاستفادة من هذه العبارة و فسّرها بأنّ المسيح عليه السّلام هو جزء من اللّه سبحانه و تعالى، مستندا إلى عبارة «منه» و لكن الواضح فى مثل هذه الحالات أن كلمة «من» ليست للتبعيض، بل تدل على مصدر و منشأ و أصل وجود الشيء.

و هناك طرفة تاريخية تذكر أنّه كان لهارون الرشيد طبيب نصرانى، دخل يوما فى نقاش مع «على بن الحسين الواقدى» و هو أحد المفكرين الإسلاميين فى ذلك العصر، فقال له هذا الطبيب: «توجد فى كتابكم السماوى آية تبيّن أنّ المسيح عليه السّلام هو جزء من اللّه ...» و تلا هذا النصرانى الآية موضوع البحث، فرد عليه «الواقدى» مباشرة تاليا هذه الآية: وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ...[۲۷۸]، و أضاف مبيّنا أنّ كلمة «من» لو كانت تفيد التبعيض، لاقتضى ذلك أن تكون جميع موجودات السماء و الأرض- بناء على هذه الآية- جزءا من اللّه، فلما سمع الطبيب النصرانى كلام الواقدى أسلم فى الحال، و سر إسلامه هارون الرشيد فكافأ الواقدى بجائزة مناسبة[۲۷۹].

إنّ ما يثير العجب- إضافة إلى ما ذكر- هو أنّ المسيحيين يرون ولادة المسيح من أمّ دون أب دليلا على ألوهيته، و هم ينسون فى هذا المجال أن آدم عليه السّلام كان قد ولد من غير أب، و لا أم، و لم ير أحد هذه الخصيصة الموجودة فى آدم دليلا على ربوبيته.

بعد ذلك تؤكّد الآية على ضرورة الإيمان باللّه الواحد الأحد و بأنبيائه، و نبذ عقيدة التثليث، مبشرة المؤمنين بأنّهم إن نبذوا هذه العقيدة فسيكون ذلك خيرا لهم حيث قالت الآية: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۹

و تعيد الآية التأكيد على وحدانية اللّه قائلة: إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ ... و هى تخاطب المسيحيين لأنّهم حين يدعون التثليث يقبلون- أيضا- بوحدانية اللّه، فلو كان للّه ولد لوجب أن يكون شبيهه، و هذه حالة تناقض أساس الوحدانية.

فكيف- إذن- يمكن أن يكون للّه ولد، و هو منزّه من نقص الحاجة إلى زوجة أو ولد، كما هو منزّه من نقائص التجسيم و أعراضه؟ تقول الآية: سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ... و اللّه هو مالك كل ما فى السموات و ما فى الأرض و الموجودات كلها مخلوقاته و هو خالقها جميعا، و المسيح عليه السّلام- أيضا- واحد من خلق اللّه، فكيف يمكن الادعاء بهذا الاستثناء فيه؟ و هل يمكن المملوك و المخلوق أن يكون ابنا للمالك و الخالق؟! حيث تؤكد الآية: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ... و اللّه هو المدبر و الحافظ و الرازق و الراعى لمخلوقاته، تقول الآية: وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

و الحقيقة هى أنّ اللّه الأزلى الأبدى الذى يرعى جميع الموجودات منذ الأزل إلى الأبد لا يحتاج مطلقا إلى ولد، فهل هو كسائر الناس لكى يحتاج إلى ولد يخلفه من بعد الموت؟

عقیدة التثلیث أکبر خرافة مسیحیة:

لیس فی الانحرافات التی تورط بها العالم المسیحی أکبر من انحراف عقیدة التثلیث، لأنّ المسیحیین یعتقدون صراحة بالثالوث الإلهی، و هم فی نفس الوقت یصرحون بأن اللّه واحد! أی أنّهم یرون الحقیقة فی التثلیث و التوحید فی أن واحد.

و قد خلقت هذه القضیة- التی لها حدان متناقضان- مشکلة کبیرة للمفکرین و الباحثین المسیحیین.

فلو کان المسیحیون مستعدین لقبول مسألة التوحید بأنّها «مجازیة» و قبول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۰

مسألة التثلیث بأنّها مسألة حقیقیة أو قبول العکس، لأمکن تبریر هذا الأمر، و لکنهم یرون الحقیقة فی الجمع بین هذین المتناقضین، فیقولون أن الثلاثة واحد کما یقولون أن الواحد ثلاثة فی نفس الوقت.

و ما یلاحظ من ادعاء فی الکتابات التبشیریة الأخیرة للمسیحیین، و التی توزع للناس الجهلاء، من أن التثلیث شیء مجازی، إنّما هو کلام مشوب بالریاء و لا یتلاءم مطلقا مع المصادر الأساسیة للمسیحیة، کما لا یتفق مع الآراء و المعتقدات الحقیقیة للمفکرین المسیحیین.

و یواجه المسیحیون- هنا- قضیة لا تتفق مع العقل فالمعادلة التی افترضوا فیها أن ۱ ۳ لا یقبلها حتی الأطفال الذین هم فی مرحلة الدراسة الابتدائیة.

و لهذا السبب ادعوا أنّ هذه القضیة لا تقاس بمقیاس العقل، و طلبوا الإذعان بها عبر ما سمّوه بالرؤیة التعبدیة القلبیة.

و کان هذا التناقض منشأ للتباعد الحاصل لدیهم بین الدین و العقل، و سببا لجر الدین إلی متاهات خطیرة، الأمر الذی اضطرهم إلی القول بأن الدین لیس له صلة بالعقل، أو لیس فیه الطابع العقلانی، و أنّه ذو طابع تعبدی محض.

و هذا هو أساس التناقض بین الدین و العلم فی منطق المسیحیة، فالعلم یحکم بأنّ الثلاثة لا تساوی الواحد، و المسیحیة المعاصرة تصر علی أنّهما متساویان! و یجب الالتفات- هنا- إلی عدّة نقاط حول هذا الإعتقاد المسیحی:

۱- لم یشر أی من الأناجیل المتداولة فی الوقت الحاضر إلی مسألة التثلیث لذلک یعتقد الباحثون المسیحیون أنّ مصدر التثلیث فی الأناجیل خفی و غیر بارز، و فی هذا المجال یقول الباحث الأمریکی المستر هاکس: «إنّ قضیة التثلیث تعتبر فی العهدین القدیم و الجدید خفیة و غیر واضحة، (القاموس المقدس، ص ۳۴۵، طبعة بیروت).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۱

و ذکر المؤرّخون أنّ قضیة التثلیث قد برزت بعد القرن الثّالث المیلادی لدی المسیحیین و إن منشأ هذه البدعة کان الغلو من جانب، و اختلاط المسیحیین بالأقوام الأخری من جانب آخر.

و یری البعض احتمال أن یکون مصدر التثلیث عند المسیحیین واردا من عقیدة الثالوث الهندی، أی عبادة الهنود للآلهة الثلاثة[۲۸۰].

۲- إنّ قضیة التثلیث القائلة بأن الثلاثة واحد تعتبر أمرا غیر معقول أبدا، و یرفضها العقل بالبداهة، و الشیء الذی نعرفه هو أن الدین لا یمکنه أن یکون منفصلا عن العقل و العلم، فالعلم الحقیقی و الدین الواقعی کلاهما متفقان و متناسقان دائما- و لا یمکن القول بأن الدین أمر تعبدی محض- لأننا لو أزحنا العقل جانبا عند قبول مبادئ الدین و أذعنا للعبادة العمیاء الصماء، فلا یبقی لدینا ما نمیز به بین الأدیان المختلفة.

و فی هذه الحالة، أی دلیل یوجب علی الإنسان أن یعبد اللّه و لا یعبد الأصنام؟ و أی دلیل یدعو المسیحیین إلی التبشیر لدینهم لا للأدیان الأخری؟

و من هذا المنطلق فإن الخصائص التی یراها المسیحیون لدینهم و یصرّون علی دعوة الناس للقبول بها، هی بحدّ ذاتها دلیل علی أن

الدين يجب أن يعرف بمنطق العقل، و هذا يناقض دعواهم حول قضية التثليث التي يرون فيها انفصال الدين عن العقل.

و ليس هناك كلام يستطيع تحطيم الدين أشد و أقبح من أن يقال: إن الدين لا يمتلك طابعا عقلانيا و منطقيا، و أنّه ذو طابع تعبدي محض! ۳- إنّ الأدلة العديدة التي يستشهد بها- في مجال إثبات التوحيد، و وحدانية الذات الإلهية- ترفض كل أنواع التثنية أو التثليث- فاللّه سبحانه و تعالى هو وجود مطلق لا يحد بالجهات، و هو أزلي أبدي لا حدود لعلمه و لقدرته و لقوته.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۲

و بديهي أنّه لا يمكن تصور التثنية في اللامتناهي، لأنّ فرض وجود لا متناهيين يجعل من هذين الإثنين متناهيين و محدودين، لأن وجود الأوّل يفتقر إلى قدرة و قوة و وجود الثّاني كما أن وجود الثّاني يفتقر إلى وجود و خصائص الأوّل، و على هذا الأساس فإن كلا الوجودين محدودان.

و بعبارة أخرى: إنّنا لو افترضنا وجود لا متناهيين من جميع الجهات، فلا بدّ حين يصل اللامتناهي الأوّل إلى تخوم اللامتناهي الثّاني ينتهي إلى هذا الحد كما أن اللامتناهي الثّاني حين يصل إلى حد اللامتناهي الأوّل ينتهي هو أيضا، و على هذا الأساس فإن كليهما يكونان محدودين و لا تنطبق صفة اللامتناهي على أي منهما، بل هما متناهيان محدودان، و النتيجة هي أن ذات اللّه- الذي هو وجود لا متناه- لا يمكن أن تقبل التعدد أبدا.

و هكذا فإنّنا لو اعتقدنا بأن الذات الإلهية تتكون من الأقانيم الثلاثة، لا يستلزم أن يكون كل من هذه الأقانيم محدودا، و لا تصح فيه صفة اللامحدود و اللامتناهي، و كذلك فإن أي مركب في تكوينه يكون محتاجا إلى أجزائه التي تكونه، فوجود المركب يكون معلولا لوجود أجزائه.

و إذا افترضنا التركيب في ذات اللّه لزم أن تكون هذه الذات محتاجه أو معلولة لعلّة سابقة في حين إنّنا نعرف أنّ اللّه غير محتاج، و هو العلّة الأولى لعالم الوجود، و علّة العلل كلها منذ الأزل و إلى الأبد.

۴- بالإضافة إلى كل ما ذكر، كيف يمكن للذات الإلهية أن تتجسد في هيكل إنساني لتصبح محتاجة إلى الجسم و المكان و الغذاء و اللباس و أمثالها؟

إنّ فرض الحدود للّه الأزلي الأبدي، أو تجسيده في هيكل إنسان و وضعه جنينا في رحم أمّ، يعتبر من أقبح التهم التي تلصق بذات اللّه المقدسة المنزهة عن كل النقائص، كما أنّ افتراض وجود الابن للّه- و هو يستلزم عوارض التجسيم المختلفة- إنما هو افتراض غير منطقي و بعيد عن العقل بعدا مطلقا.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۳

بدليل أنّ أي إنسان لم ينشأ في محيط مسيحي و لم يتربّ منذ طفولته على هذه التعليمات الوهمية الخاطئة عند ما يسمع هذه التعابير المنافية للفطرة الإنسانية و المخالفة لما يحكم به العقل البشري، يشعر بالسخط و الاشمئزاز، و إذا كان المسيحيون أنفسهم لا يرون بأسا في كلمات مثل «اللّه الأب» و «اللّه الابن» فما ذلك إلّا لأنّهم جبلوا على هذه التعاليم الخاطئة منذ نعومة أظفارهم.

۵- لوحظ في السنين الأخيرة أنّ جماعة من المبشرين المسيحيين يلجؤون إلى أمثلة سفسطائية من أجل خداع الجهلاء من الناس في قبول قضية التثليث.

من هذه الأمثلة قولهم أن اجتماع التوحيد و التثليث معا يمكن تشبيهه بقرص الشمس و النور و الحرارة النابعتين من هذا القرص، حيث أنّها ثلاثة أشياء في شيء واحد.

أو تشبيههم ذلك بانعكاس صورة إنسان في ثلاث مرايا في آن واحد، فهذا الإنسان مع كونه واحدا إلّا أنّه يظهر و كأنّه ثلاثة في المرايا الثلاث.

كما يشبهون التثليث بالمثلث الذي له ثلاث زوايا من الخارج، و يقولون بأنّ هذه الزوايا لو مدت من الدخل لوصلت كلها إلى نقطة

واحدة؟! لکننا بالتعمق قلیلا فی هذه الأمثلة یتبیّن لنا أن لا صلة لها بموضوع بحثنا الحاضر، فقرص الشمس شیء و نورها شیء آخر و النور الذی یتکون من الأشعة فوق الحمراء یختلف عن الحرارة التی تتکون من الأشعة دون الحمراء، و هذه الأشیاء الثلاثة تختلف الواحدة منها عن الأخری من حیث النظرة العلمیة، و هی لیست بمجموعها شیئا واحدا من خلال هذه النظرة.

و إذا صح القول بأنّ هذه الأشیاء الثلاثة شیء واحد، إنّما یکون ذلک من باب التسامح أو التعبیر المجازی لیس إلّا.

و الأوضح من ذلک مثال الجسم و المرایا الثلاث، فالصورة الموجودة فی المرایا عن الجسم لیست إلّا انعکاسا للنور، و بدیهی أنّ انعکاس النّور عن جسم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۴

معین غیر ذات الجسم، و علی هذا الأساس فلیس هناک أی اتحاد حقیقی أو ذاتی بین الجسم و صورته المنعکسة فی المرآة، و هذه قضیة یدرکها حتی الدارس المبتدی لعلم الفیزیاء.

أمّا فی مثال المثلث فالأمر واضح کما فی المثالین السابقین، حیث أن زوایا المثلث المتعددة لا علاقة لها بالبداهة بالامتداد الداخلی الحاصل للزوایا، و الذی یوصلها جمیعا إلی نقطة واحدة.

و الذی یثیر العجب- أکثر من ذلک- هو محاولة بعض المسیحیین المستشرقین مطابقة قضیة «التوحید فی التثلیث» مع نظریة «وحدة الوجود» التی یقول بها الصوفیون ۲۸۱] و الأمر الواضح من غیر دلیل- فی هذا المجال- هو إنّما لو قبلنا بالنظریة الخاطئة و المنحرفة القائلة بوحدة الوجود، لاقتضی ذلک منّا أن نذعن بأن کل موجودات العالم أو الکون هی جزء من ذات اللّه سبحانه و تعالی، بل الإذعان بأنّها هی عین ذاته.

عند ذلک لا یبقی معنی للتثلیث، بل تصبح جمیع الموجودات- صغیرها و کبیرها- جزءا أو مظهر اللّه سبحانه، و علی هذا الأساس فلا یمکن تطابق نظریة التثلیث المسیحیة بالنظریة الصوفیة القائلة بوحدة الوجود بأی شکل من الأشکال، علما بأن النظریة الصوفیة هذه قد دحضت و بان بطلانها.

۶- یقول بعض المسیحیین- أحیانا- إنّها حین یسمّون المسیح علیه السّلام ب «ابن اللّه» إنّما یفعلون ذلک کما یفعل المسلمون فی تسمیة سبط الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الحسین بن علی بن أبی طالب علیه السّلام ب «ثار اللّه و ابن ثاره» أو کالتسمیة التی وردت فی بعض الروایات لعلی بن أبی طالب علیه السّلام حیث سمی فیها ب «ید اللّه»، و هؤلاء المسیحیون یفسرون کلمة «ثار» بأنّها تعنی الدم، أی أنّ العبارة الواردة فی الحسین الشهید علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۵

تعنی «دم اللّه و ابن دمه».

إنّ هذا الأمر هو عین الخطأ:

أوّلا: لأنّ العرب لم تطلق کلمة الثأر أبدا لتعنی بها الدم، بل اعتبرت الثأر دائما ثمنا للدم، و لذلک فإن معنی العبارة أن اللّه هو الذی یأخذ ثمن دم الحسین الشهید، و أن هذا الأمر منوط به سبحانه و تعالی، أی أنّ الحسین علیه السّلام لم یکن ملکا أو تابعا لعشیرة أو قبیلة معینة لتطالب بدمه، بل هو یخص العالم و البشریة جمعاء و یکون تابعا لعالم الوجود و ذات اللّه المقدسة، و لذلک فإن اللّه هو الذی یطالب و یأخذ ثمن دم هذا الشهید- کما أن الحسین هو ابن علی بن أبی طالب علیه السّلام الذی استشهد فی سبیل اللّه، و اللّه هو الذی یطالب و یأخذ ثمن دمه أیضا.

و ثانیا: حین یعبّر فی بعض الأحیان عن بعض أولیاء اللّه بعبارة «ید اللّه» فإن هذا التعبیر- حتما- من باب التشبیه و الکنایة و المجاز لیس إلّا.

فهل یجیز أی مسیحی لنفسه أن یقال فی عبارة «ابن اللّه» الواردة عندهم فی حق المسیح علیه السّلام أنّها ضرب من المجاز و الکنایة؟

بدیهی أنّه لا یقبل ذلک، لأنّ المصادر المسیحیة الأصلیة اعتبرت صفة البنوة للّه سبحانه منحصرة بالمسیح علیه السّلام وحده و لیس فی غیره، و اعتبروا تلک الصفة حقیقیة لا مجازیة، و ما بادر إلیه بعض المسیحیین من الادعاء بأن هذه الصفة هی من باب الکنایة أو المجاز، إنّما هو من أجل خداع البسطاء من الناس.

و لإیضاح هذا الأمر نحیل القاری إلی کتاب «القاموس المقدس» فی مادة «اللّه» حیث یقول هذا الکتاب بأنّ عبارة «ابن اللّه» هی واحدة من القاب منجی و مخلص وفادی المسیحیین، و أن هذا اللقب لا یطلق علی أی شخص آخر إلّا إذا وجدت قرائن تبیّن بأنّ المقصود هو لیس الابن الحقیقی للّه ۲۸۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۶

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۷۲ الی ۱۷۳]

اشارة

لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لا الْمَلائِکَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ فَسَیَحْشُرُهُمْ إِلَیْهِ جَمِیعاً (۱۷۲) فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِینَ اسْتَنْکَفُوا وَ اسْتَکْبَرُوا فَیُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۱۷۳)

سبب النّزول

روی جمع من المفسّرین أنّ هذه الآیة نزلت بشأن طائفة من مسیحیی نجران، حین زاروا النّبی محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و استفسروا منه عن سبب اعتراضه علی نبیّهم المسیح علیه السّلام، فسألهم النّبی علیه السّلام عن أی اعتراض هم یتحدثون؟ فقالوا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّک تقول بأنّ المسیح هو عبد اللّه و رسوله ...» فنزلت الآیتان جوابا علی قولهم هذا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۷

التّفسیر

المسیح هو عبد اللّه:

علی الرغم من أنّ هاتین الآیتین لهما سبب نزول خاص بهما، إلّا أنّهما جاءتا فی سیاق الآیات السابقة التی تحدثت فی نفی الألوهیة عن المسیح علیه السّلام و علاقتهما بالآیات السابقة فی دحض قضیة التثلیث واضحة و جلیة.

فی البدایة تشیر الآیة الأولی إلی دلیل آخر لدحض دعوی ألوهیة المسیح، فتقول مخاطبة المسیحیین: کیف تعتقدون بألوهیة عیسی علیه السّلام فی حین أنّ المسیح لم یستنکف عن عبادة اللّه و الخضوع بالعبودیة له سبحانه، کما لم یستنکف الملائکة المقرّبون من هذه العبادة؟ حیث قالت الآیة: لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِکَةُ الْمُقَرَّبُونَ

و بدیهی أنّ من یکون عبدا لا یمکن أن یصبح معبودا فی آن واحد، فهل یمکن أن یعبد فرد نفسه؟ أو هل یکون العابد و المعبود و الرّب فردا واحدا؟

و فی هذا المجال ینقل بعض المفسّرین حادثة طریفة تحکی أن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام لکی یدین و یفند عقیدة

التثلیث المنحرفة قال لکبیر المسیحیین فی ذلک الحین- و کان یلقب ب «الجاثلیق»- بأنّ المسیح علیه السّلام کان حسنا فی کل شیء لو لا وجود عیب واحد فیه، و هو قلة عبادته للّه، فغضب الجاثلیق و قال للإمام الرضا علیه السّلام: ما أعظم هذا الخطأ الذی وقعت فیه، إنّ عیسی المسیح کان من أکثر أهل زمانه عبادة، فسأله الإمام علیه السّلام علی الفور: و من کان یعبده المسیح؟! فها أنت قد أقررت بنفسک أنّ المسیح کان عبدا و مخلوقا للّه و أنّه کان یعبد اللّه و لم یکن معبودا و لا ربّا؟ فسکت الجاثلیق و لم یحر جوابا.[۲۸۳] بعد ذلک تشیر الآیة إلی أن الذین یمتنعون عن عبادة اللّه و الخضوع له بالعبودیة، یکون امتناعهم هذا ناشئا عن التکبر و الأنانیة و إنّ اللّه سیحضر هؤلاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۸

الناس فی یوم القیامة و یجازی کل واحد منهم بالعقاب الذی یناسبه، فتقول الآیة:

وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ فَسَیَحْشُرُهُمْ إِلَیْهِ جَمِیعاً.

و إنّ اللّه العزیز القدیر سیکافئ فی یوم القیامة أولئک الذین آمنوا و عملوا الصالحات و قاموا بالأعمال الخیرة، و یعطیهم ثوابهم کاملا غیر منقوص و یجزل لهم الثواب و النعم، أمّا الذین تکبروا و امتنعوا عن عبادة اللّه، فإنهم سینالون منه عذابا ألیما شدیدا، و لن یجدوا فی یوم القیامة لأنفسهم ولیا أو حامیا من دون اللّه، حیث تقول الآیة: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِینَ اسْتَنْکَفُوا وَ اسْتَکْبَرُوا فَیُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً.

فی هذه الآیة نقطتان یجب الانتباه إلیهما، و هما:

۱- إنّ کلمة «استنکاف» تأتی بمعنی الامتناع أو الاستیاء الشدید من شیء، و لها معان واسعة، و تحدد معناها- هنا- بما أتی بعدها من قرینة فی عبارة اسْتَکْبَرُوا لإنّ الامتناع عن عبادة اللّه و رفض الخضوع له بالعبودیة إمّا ناشئ عن الجهل أو الغفلة. و أحیانا أخری ینشأ هذا الامتناع عن التکبر و الأنانیة و الغرور، و مع أن الامتناعین یعتبران ذنبا، إلّا أن الامتناع الأخیر یفوق الأوّل قبحا بمراتب کبیرة.

۲- إنّ الآیة جاءت بعبارة توضح عدم استنکاف الملائکة المقرّبین عن عبادة اللّه، و ذلک ردّا علی المسیحیین الذین یثلثون الآلهة (الأب و لابن و روح القدس) و لتدحض عن هذا الطریق فرضیة وجود المعبود الثّالث الذی ادعاه المسیحیون و مثلوه فی أحد الملائکة المسمی ب «روح القدس» و لتثبت التوحید و وحدانیة ذات اللّه سبحانه و تعالی.

و قد تکون هذه الآیة إشارة إلی الشرک الذی وقع فیه الوثنیون العرب، و الشرک الذی تورط به المسیحیون حیث أنّ مشرکی الجاهلیة کانوا یعتبرون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۹

الملائکة أبناء اللّه سبحانه، أو یعدونهم جزءا منه، فجاءت هذه الآیة لترد علیهم و تدخص أقوالهم هذه.

و عند التعمق فی هذین الأمرین یتبیّن لنا- بجلاء- أنّ الآیة لم تأت لبیان التفاضل بین الملائکة و الأنبیاء، بل جاءت فقط لدحض عقیدة «الأقنوم الثّالث» أو دحض عقیدة المشرکین العرب فی الملائکة، و لیس فیها أی دلالة علی مسألة التفاضل بین المسیح علیه السّلام و بین الملائکة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۰

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۷۴ الی ۱۷۵]

اشارة

یا أَیُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَکُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ نُوراً مُبِیناً (۱۷۴) فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَیُدْخِلُهُمْ فِی رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ

فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۱۷۵)

التّفسير

النّور المبين:

بعد أن تناولت الآيات السابقة بعضا من انحرافات أهل الكتاب بالنسبة لمبدأ التوحيد و مبادئ و تعاليم الأنبياء، جاءت الآيتان الأخيرتان لتختما القول فى بيان سبيل النّجاة و الخلاص من تلك الانحرافات.

لقد توجه الخطاب أوّلا إلى عامّة الناس، مبينا أنّ اللّه قد بعث من جانبه نبيّا يحمل معه الدلائل و البراهين الواضحة، و بعث معه النور المبين المتجسد فى القرآن الكريم الذى يهدى الناس إلى طريق السعادة الأبدية، حيث تقول الآية الأولى: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُم وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً.

و يعتقد بعض العلماء أنّ كلمة «برهان» المشتقة من المصدر «بره» على وزن «فرح» تعنى الابيضاض- و لمّا كانت الأدلة الواضحة تجلى للمسامع وجه الحق و تجعله واضحا مشرقا أبيض لذلك سميت ب «البرهان».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ۵۶۱

و المقصود بالبرهان الوارد فى الآية موضوع البحث- و كما يقول جمع من المفسّرين و تؤكّد ذلك القرائن- هو شخص نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أنّ المقصود بالنور هو القرآن المجيد الذى عبّرت عنه آيات أخرى بالنور أيضا.

و قد فسّرت الأحاديث المتعددة المنقولة عن أهل البيت عليهم السّلام- و التى أوردتها تفاسير «نور الثقلين» و «على بن إبراهيم» و «مجمع البيان»- أن «البرهان» هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و «النّور» هو على بن أبى طالب عليه السّلام.

و لا يتنافى هذا التّفسير مع ذلك الذى أوردناه قبله، حيث يمكن أن يقصد بعبارة «النور» معان عديدة لتشمل «القرآن» و «أمير المؤمنين على عليه السّلام» الذى يعتبر حافظا و مفسّرا للقرآن و مدافعا عنه.

و توضح الآية الثانية عاقبة اتّباع هذا البرهان و هذا النور، فتؤكّد على أنّ الذين آمنوا باللّه و تمسكوا بهذا الكتاب السماوى، سيدخلهم اللّه عاجلا فى رحمته الواسعة، و يجزل لهم الثواب من فضله و رحمته، و يهديهم إلى الطريق المستقيم. تقول الآية: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً[۲۸۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ۵۶۲

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۶]

اشارة

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۷۶)

سبب النّزول

نقل الكثير من المفسرين عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى قوله بأنّه كان يعانى من مرض شديد، فعاده النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توضأ عنده و رشّ عليه من ماء وضوئه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فذكر جابر- و هو يفكر فى الموت- للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ ورثته هن أخواته فقط، و استفسر من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن كيفية تقسيم الإرث بينهنّ، فنزلت هذه الآية و التى تسمّى- أيضا- ب «آية الفرائض» و بيّنت طريقة تقسيم الإرث بينهنّ (و قد وردت الرّواية المذكورة أعلاه بفارق طفيف فى تفاسير «مجمع البيان» و «التبيان» و «المنار» و «الدر المنثور» و غيرها من التفاسير ...).

و يعتقد البعض أن هذه الآية هى آخر آية من آيات الأحكام نزولا على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۲۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۳

التّفسير

تبيّن الآية الواردة أعلاه كمية الإرث للأخوة و الأخوات، و قد بيّنا فى أوائل سورة النساء- فى تفسير الآية الثانية عشر منها- إنّ القرآن اشتمل على آيتين توضحان مسألة الإرث للأخوة و الأخوات و إن إحدى هاتين الآيتين هى الآية الثانية عشرة من سورة النساء، و الثانية هى الآية الأخيرة موضوع بحثنا هذا و هى آخر آية من سورة النساء.

و على الرغم ممّا ورد من اختلاف فى الآيتين فيما يخص مقدار الإرث، إلّا أنّ كل آية من هاتين الآيتين تتناول نوعا من الأخوة و الأخوات كما أوضحنا فى بداية السورة.

فالآية الأولى تخصّ الأخوة و الأخوات غير الأشقاء، أى الذين هم من أمّ واحدة و آباء متعددين.

أمّا الآية الثانية أى الأخيرة، فهى تتناول الإرث بالنسبة للأخوة الأشقاء، أى الذين هم من أمّ واحدة و أب واحد، أو من أمهات متعددات و أب واحد.

و الدليل على قولنا هذا، أن من ينتسب إلى شخص المتوفى بالواسطة يتعين إرثه بمقدار ما يرثه الواسطة من شخص المتوفى.

فالأخوة و الأخوات غير الأشقاء- أى الذين هم من أمّ واحدة و آباء متعددين- يرثون بمقدار حصّة أمّهم من الإرث و التى هى الثلث.

أمّا الأخوة و الأخوات الأشقاء- أى الذين هم من أمّ واحدة و أب واحد، أو من أب واحد و أمهات متعددات- فهم يرثون بمقدار حصّة والدهم من الإرث التى هى الثلثان.

و لمّا كانت الآية الثانية عشرة من سورة النساء تتحدث عن حصّة الثلث من الإرث للأخوة و الأخوات، و تتناول الآية الأخيرة حصّة الثلثين، لذلك يتّضح أنّ الآية السابقة تخص الأخوة و الأخوات غير الأشقاء الذين يرتبطون بشخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۴

المتوفى عن طريق أمهم، و أنّ الآية الأخيرة تخصّ الأخوة و الأخوات الأشقاء الذين يرتبطون بشخص المتوفى عن طريق الأب أو عن طريق الأب و الأمّ معا.

و الروايات الواردة عن الأئمّة عليهم السّلام فى هذا المجال تؤكّد هذه الحقيقة أيضا.

و على أى حال فإن كانت حصّة الأخ أو الأخت هى الثلث أو الثلثان، فإنّ الباقى من الإرث يوزع بناء على القانون الإسلامى بين الباقين من الورثة، و هكذا و بعد أن توضح لنا عدم وجود أى تناقض بين الآيتين، نتطرق الآن إلى تفسير الأحكام الواردة فى الآية الأخيرة.

و تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الآية جاءت لتفصل إرث الكلالة أى إرث الأخوة و الأخوات ۲۸۶] فتقول الآية: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ... أى يسألونك فخبرهم بأنّ اللّه هو الذى يعين حكم «الكلالة» (أى الأخوة و الأخوات).

بعد ذلك تشير الآية إلى عدد من الأحكام، و هى:

۱- إذا مات رجل و لم يكن له ولد و كانت له أخت واحدة، فإنّ هذه الأخت ترث نصف ميراثه تقول الآية الكريمة: إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ

لَیْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَکَ ....

۲- و إذا ماتت امرأة و لم یکن لها ولـد، و کان لها أخ واحـد- شـقیق من أبیها وحده أو من أبیها و أمها معا- فإنّ أخاها الوحید یرثها، تقول الآیة: وَ هُوَ یَرِثُها إِنْ لَمْ یَکُنْ لَها وَلَدٌ ....

۳- و إذا مات شخص و کانت له أختان فقط، فإنّهما ترثان ثلثی ما ترکه من المیراث، تقول الآیة الکریمة: فَإِنْ کانَتَا اثْنَتَیْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَکَ ....

۴- و إذا کـان ورثـة الشـخص المتوفی عـددا من الأخوة و الأخوات أکثر من اثنین، فإن میراثه یقسم جمیعه بینهم، بحیث تکون حصّـة الأخ من المیراث ضعف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۵

حصّة الأخت الواحدة منه. تقول الآیة الکریمة: وَ إِنْ کانُوا إِخْوَةً رِجالًا وَ نِساءً فَلِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ ....

و فی الختام تؤکد الآیة أنّ اللّه یبیّن للناس هذه الحقائق لکی یصونهم من الانحراف و الضلالة، و یدلهم علی طریق الصواب و السعادة (و حقیق أن یکون الطریق الـذی یرسـمه اللّه للناس و یهدیهم إلیه هو الطریق الصـحیح) و اللّه هو العالم العارف بکل شـیء، و فی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ [۲۸۷].

و الجـدیر بالـذکر هنا أنّ الآیـة- موضوع البحث- إنّما تبیّن إرث الأخوة و الأخوات فی حالـة عـدم وجود ولد الشـخص المتوفی، و لم تتطرق الآیـة إلی وجود الأب و الأم للشـخص المتوفی، و لکن بناء علی الآیات الواردة فی بدایـة سورة النساء- فإن الأب و الأمّ یأتون فی مصاف الأبناء فی الطبقـة الأولی من الوارثین، و لـذلک یتوضـح أن المقصود من الآیـة الأخیرة هی حالـة عـدم وجود أبناء و عـدم وجود أبوین للشخص المتوفی.

انتهی تفسیر سورة النساء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۷

سورة المائدة

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها مائة و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۹

محتویات سورة المائدة

إنّ هذه السورة من السور المدنیة، و تشـتمل علی مائة و عشـرین آیة، و قیل أنّها نزلت بعد سورة الفتح، و تدل روایات علی أنّها نزلت کلّها فی فترة حجّة الوداع بین مکة و المدینة[۲۸۸].

و تشتمل هذه السورة علی مجموعة من المعارف و العقائد الإسلامیة بالإضافة إلی سلسلة من الأحکام و الواجبات الدینیة.

و قد وردت فی القسم الأول منها الإشارة إلی قضـیة الخلاف بعد النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و قضایا أخری مثل: عقیدة التثلیث المسیحیة، و مواضیع خاصّة بیوم القیامة و الحشر و استجواب الأنبیاء حول أممهم.

أمّا القسم الثّانی فقـد اشـتمل علی قضـیة الوفاء بالعهود و المواثیق، و قضایا العدالـة الاجتماعیة، و الشـهادة العادلة، و تحریم قتل النفس (من خلال ذکر قضـیة ابنی آدم، و قتل قابیل لأخیه هابیل) بالإضافة إلی بیان أقسام من الأغذیة المحرمة و المحللة، و أقسام من أحکام

الوضوء و التيمم.

أمّا وجه تسمية السورة ب «سورة المائدة» فهو لورود قصّة نزول المائدة السماوية على حوارى المسيح عليه السّلام فى الآية (۱۱۴) منها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۰

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ (۱)

التّفسير

الإلزام بالوفاء بالعهد و الميثاق:

تـدل الروايات الإسـلامية و أقوال المفسّـرين على أنّ هـذه السورة هى آخر سورة أو من السور الأخيرة التى نزلت على النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و

قد ورد فى تفسير العياشى نقلا عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّ الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام قال: «نزلت المائدة قبل أن يقبض النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشهرين أو ثلاثة»[۲۸۹].

و ما ورد بشأن هذه السورة من أنّها من السور الناسخة و ليست المنسوخة يعتبر إشارة إلى المعنى المذكور أعلاه.

و لا يتنافى هذا الكلام مع ذلك الذى ورد فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۱

فى هامش الآية (۲۸۱) من سورة البقرة- حيث قلنا هناك بأنّ هذه الآية هى آخر آية نزلت على النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لأنّ كلامنا الحالى هو عن آخر سورة نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلامنا السابق كان عن آية واحدة.

لقـد تمّ التأكيـد فى هـذه السورة- لما تمتاز به من موقع خاص- على مجموعة من المفاهيم الإسـلامية، و على آخر البرامج و المشاريع الدينيـة، و قضـية قيادة الأمّة و خلافة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد يكون هذا هو السبب فى اسـتهلال سورة المائدة بقضـية الإلـزام بالوفـاء بالعهـد و الميثاق، حيث تقول الآيـة فى أوّل جملـة لها: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ... و ذلك لكى تلزم المؤمنين بالوفاء بعهودهم التى عقدوها فى الماضى مع اللّه أو تلك التى أشارت إليها هذه السورة.

و يـأتى هـذا التأكيـد على غرار مـا يفعله المسـافر فى اللحظات الأخيرة، من الوداع مع أهله و أقاربه و أنصاره حيث يؤكّـد عليهم أن لا ينسوا وصاياه و نصائحه، و أن يوفوا بالعهود و المواثيق التى عقدوها معه.

و يجب الالتفات إلى أنّ كلمة «عقود» هى صـيغة جمع من «عقد» التى تعنى فى الأصل شد أطراف شـىء معين ببعضها شدا محكما، و من هنا يسمّى شد طرفى الحبل أو شد حبلين ببعضهما «عقدا».

بعـد ذلك تنتقل الآيـة من هذا المعنى المحسوس إلى المفهوم المعنوى فتسـمّى كلّ عهد أو ميثاق عقدا، لكن بعض المفسّـرين- قالوا بأنّ كلمـة «عقـد» مفهوم أضـيق من العهد، لأن كلمة العقد تطلق على العهود المحكمة إحكاما كافيا، و لا تطلق على كل العهود، و إذا وردت فى بعض الروايات أو فى عبارات المفسّرين كلمتا العقد و العهد للدلالة على معنى واحد فذلك لا ينافى ما قلناه، لأنّ المقصود

فی هذه الروايات أو العبارات هو التّفسير الإجمالی لهاتين الكلمتين لا بيان جزئياتهما.

و نظرا لأنّ كلمة العقود هی صيغة جمع دخلت عليها الألف و اللام للدلالة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۲

علی الاستغراق، و الجملة التی وردت فيها هذه الكلمة جملة مطلقة أيضا إطلاقا تاما، لذلک فإن الآية- موضوع البحث- تعتبر دليلا علی وجوب الوفاء بجميع العهود التی تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلک العهود التی تعقد مع اللّه سبحانه و تعالی عقدا محكما.

و بذلک تشمل هذه الآية جميع العهود و المواثيق الإلهية و الإنسانية و الاتفاقيات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، و التجارية، و عقود الزواج، و أمثال ذلک، و لها مفهوم واسع يطوی بين جنبيه جميع جوانب حياة الإنسان العقائدية و العملية، و يشمل العهود الفطرية و التوحيدية و حتی العهود التی يعقدها الناس فيما بينهم علی مختلف قضايا الحياة.

و جاء فی تفسير «روح المعانی» عن «الراغب الأصفهانی» أنّ العقد- نظرا لطرفيه ينقسم إلی ثلاثة أنواع، فأحيانا يكون عقدا بين العبد و ربّه، و طورا بين الفرد و نفسه، و حينا بين الفرد و نظائره من سائر أفراد البشر[۲۹۰].

و طبيعی أن لكل من هذه الأنواع الثلاثة من العقود طرفين، و غاية الأمر أنّ الإنسان حين يتعاقد مع نفسه يفترض هذه النفس بمثابة الشخص الثّانی، أو الطرف الآخر من العقد.

و علی أی حال، فإنّ مفهوم هذه الآية- لسعته- يشمل حتی تلک العقود و العهود التی يقيمها المسلمون مع غير المسلمين.

و هناک عدّة أمور فی هذه الآية يجب الانتباه إليها و هی:

۱- تعتبر هذه الآية من الآيات التی تستدل بها جميع كتب الفقه، فی البحوث الخاصّة بالحقوق الإسلامية و تستخلص منها قاعدة فقهية مهمة هی «أصالة اللزوم فی العقود» أی أنّ كل عقد أو عهد يقام بين اثنين حول أشياء أو أعمال يكون لازم التنفيذ.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۳

و يعتقد جمع من الباحثين أنّ أنواع المعاملات و الشركات و الاتفاقيات الموجودة فی عصرنا الحاضر، و التی لم يكن لها وجود فی السابق، أو التی ستوجد بين العقلاء فی المستقبل، و التی تقوم علی أسس و مقاييس صحيحة- تدخل ضمن هذه القاعدة، حيث تؤكّد هذه الآية صحتها جميعا (و طبيعی أن الضوابط الكلية التی أقرّها الإسلام للعقود و العهود يجب أن تراعی فی هذا المجال).

و الاستدلال بهذه الآية كقاعدة فقهية ليس معناه أنّها لا تشمل العهود الإلهية المعقودة بين البشر و بين اللّه تعالی، أو القضايا الخاصّة بالقيادة و الزعامة الإسلامية التی أخذ النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم العهد و الميثاق فيها من الأمّة، بل إنّ للآية مفهوما واسعا يشمل جميع هذه الأمور.

و تجدر الإشارة هنا إلی أن حقيقة العهد و الميثاق ذات طرفين، و لزوم الوفاء بالعهد يبقی ساريا ما دام لم يقم أحد من المتعاقدين بنقض العهد، و لو نقض أحد الطرفين العقد لم يكن الطرف الثّانی عند ذلک ملزما بالوفاء بالعهد إذ يخرج العهد بهذا النقض من حقيقة العهد و الميثاق.

۲- إنّ قضية الوفاء بالعهد و الميثاق التی تطرحها الآية- موضوع البحث- تعتبر واحدا من أهم مستلزمات الحياة الاجتماعية، إذ بدونها لا يتمّ أی نوع من التعاون و التكافل الاجتماعی، و إذا فقد نوع البشر هذه الخصلة فقدوا بذلک حياتهم الاجتماعية و آثارها أيضا.

و لهذا تؤكد مصادر التشريع الإسلامی بشكل لا مثيل له- علی قضية الوفاء بالعهود التی قد تكون من القضايا النوادر التی تمتاز بهذا النوع من السعة و الشمولية، لأنّ الوفاء لو انعدم بين أبناء المجتمع الواحد لظهرت الفوضی و عم الاضطراب فيه و زالت الثقة العامّة، و زوال الثقة يعتبر من أكبر و أخطر الكوارث.

و

قد ورد فی نهج البلاغة من قول الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام لمالک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۴

الأشتر رضی اللّه عنه ما یلی: «فإنّه لیس من فرائض اللّه شیء للناس أشدّ علیه اجتماعا- مع تفرق أهوائهم و تشتت آرائهم- من تعظیم الوفاء بالعهود، و قد لزم ذلک المشرکون فیما بینهم- دون المسلمین- لما استوبلوا من عواقب الغدر»[۲۹۱].

و جملة

«لما استوبلوا من عواقب الغدر»

معناها: لما نالهم من وبال من عواقب الغدر.

و

ینقل عن الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه لا یقبل إلّا العمل الصالح، و لا یقبل اللّه إلّا الوفاء بالشروط و العهود»[۲۹۲].

و

نقل عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لا دین لمن لا عهد له»[۲۹۳].

و التأکیدات الشدیدة هذه کلها تدل علی أنّ موضوع الوفاء بالعهد لا فرق فی الالتزام به بین إنسان و إنسان آخر- سواء کان مسلما أو غیر مسلم- و هو- کما یصطلح علیه- یعتبر من حقوق الإنسان بصورة عامّة، و لیس- فقط- من حقوق أنصار الدین الواحد.

و

فی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «ثلاث لم یجعل اللّه عزّ و جلّ لأحد فیهنّ رخصة: أداء الأمانة إلی البر و الفاجر، و الوفاء بالعهد للبر و الفاجر، و بر الوالدین برین کانا أو فاجرین!»[۲۹۴].

نقل عن الإمام علی علیه السّلام بأن العهد حتی لو کان بالإشارة یجب الوفاء به، و ذلک فی قوله: «إذا أومی أحد من المسلمین أو أشار إلی أحد من المشرکین، فنزل علی ذلک فهو فی أمان»[۲۹۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۵

و بعد أن تطرقت الآیة إلی حکم الوفاء بالعهد و المیثاق- سواء کان إلهیا أو إنسانیا محضا- أردفت ببیان مجموعة أخری من الأحکام الإسلامیة، کان الأوّل منها حلیة لحوم بعض الحیوانات، فبیّنت أن المواشی و أجنتها تحل لحومهما علی المسلمین، حیث تقول الآیة: أُحِلَّتْ لَکُمْ بَهِیمَةُ الْأَنْعامِ و کلمة «الأنعام» صیغة جمع من «نعم» و تعنی الإبل و البقر و الأغنام ۲۹۶].

أمّا کلمة «بهیمة» فهی مشتقة من المصدر «بهمة» علی وزن «تهمة» و تعنی فی الأصل الحجر الصلب، و یقال لکل ما یعسر درکه «مبهما» و جمیع الحیوانات التی لا تمتلک القدرة علی النطق تسمی «بهیمة» لأنّ أصواتها تکون مبهمة للبشر، و قد جرت العادة علی إطلاق کلمة «بهیمة» علی المواشی من الحیوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحیوانات الوحشیة و الطیور.

و من جانب آخر فإن جنین المواشی یطلق علیه اسم «بهیمة» لأنّه یکون مبهما نوعا ما.

و علی الإساس المذکور فإنّ حکم حلیة بَهِیمَةُ الْأَنْعامِ یشمل إمّا جمیع المواشی ما عدا التی استثنتها الآیة فیما بعد، أو تکون الجملة بمعنی أجنة الحیوانات من ذوات اللحم الحلال (تلک الأجنة التی اکتمل نموها و هی فی بطن أمّها، و کسی جلدها بالشعر أو الصوف)[۲۹۷].

و لما کان حکم حلیة حیوانات کالإبل و البقر و الأغنام قد تبیّن للناس قبل هذه الآیة، لذلک من المحتمل أن تکون الآیة- موضوع البحث- إشارة إلی حلیة أجنة هذه الحیوانات.

و الظاهر من الآیة أنّها تشمل معنی واسعا، أی تبیّن حلیة هذه الحیوانات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۶

بالإضافة إلی حلیة لحوم أجنتها أیضا، و مع أنّ هذا الحکم کان قد توضح فی السابق إلّا أنّه جاء مکررا فی هذه الآیة کمقدمة للاستثناءات الواردة فیها.

و یتبیّن لنا ممّا تقدم أن علاقة الجملة الأخیرة و حکمها بالأصل الکلی- الذی هو لزوم الوفاء بالعهد- هی التأکید علی کون الأحکام الإلهیة نوعا من العهد بین اللّه و عباده- حیث تعتبر حلیة لحوم بعض الحیوانات و حرمة لحوم البعض الآخر منها قسما من تلک الأحکام.

و فی الختام تبیّن الآیة موردین تستثنیهما من حکم حلیة لحوم المواشی، و أحد هذین الموردین هو اللحوم التی سیتم بیان حرمتها فیما بعد، حیث تقول الآیة: إِلَّا ما یُتْلی عَلَیْکُمْ و المورد الثّانی هو أن یکون الإنسان فی حالة إحرام للحج أو العمرة، حیث یحرم علیه الصید فی هذه الحالة، فتقول الآیة: غَیْرَ مُحِلِّی الصَّیْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ ۲۹۸].

و فی آخر الآیة یأتی التأکید علی أنّ اللّه إذا أراد شیئا أو حکما انجزه أو أصدره، لأنه عالم بکل شیء، و هو مالک الأشیاء کلها، و إذا رأی أن صدور حکم تکون فیه مصلحة عباده و تقتضی الحکمة صدوره، أصدر هذا الحکم و شرعه، حیث تقول الآیة فی هذا المجال: إِنَّ اللَّهَ یَحْکُمُ ما یُرِیدُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۷

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۲]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لا الْهَدْیَ وَ لا الْقَلائِدَ وَ لا آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرامَ یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوکُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعاوَنُوا عَلَی الْبِرِّ وَ التَّقْوی وَ لا تَعاوَنُوا عَلَی الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ (۲)

التّفسیر

ثمانیة احکام فی آیة واحدة:

لقد بیّنت هذه الآیة عددا من الأحکام الإلهیة الإسلامیة المهمة، و هی من الأحکام الأواخر التی نزلت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کلها أو أغلبها تتعلق بحج بیت اللّه، و هی علی الوجه التالی:

۱- الطلب من المؤمنین بعدم انتهاک شعائر اللّه، و نهیهم عن المساس بحرمة هذه الشعائر المقدسة، کما تقول الآیة الکریمة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ ... و اختلف المفسّرون حول المراد بکلمة «الشعائر» الواردة هنا، و بالنظر إلی الأجزاء الأخری من هذه الآیة، و إلی السنة التی نزلت فیها و هی السنة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۸

العاشرة للهجرة التی أدی فیها النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم آخر حجّة إلی مکّة المکرمة هی حجّة الوداع، یتّضح أنّ المراد بهذه الکلمة مناسک الحج التی کلف المسلمون باحترامها کلّها، و یؤکّد هذا الرأی مجیء کلمة «الشّعائر» فی القرآن الکریم مقترنة بالحدیث عن مناسک الحج دائما[۲۹۹].

۲- دعت الآیة إلی احترام الأشهر الحرم و هی شهور من السنة القمریة، کما نهت عن الدخول فی حرب فی هذه الشهور، حیث قالت: وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ ....

۳- حرمت الآیة المساس بالقرابین المخصصة للذبح فی شعائر الحج، سواء ما کان منها ذا علامة و هو المسمّی ب «الهدی»[۳۰۰] أو تلک الخالیة من العلامات و التی تسمّی ب «القلائد»[۳۰۱] أی نهت عن ذبحها و أکل لحومها حتی تصل إلی محل القربان للحج و تذبح فیه، فقالت الآیة: وَ لَا الْهَدْیَ وَ لَا الْقَلائِدَ ....

۴- أوجبت الآیة توفیر الحریة التامّة لحجاج بیت اللّه الحرام أثناء موسم الحج، الذی تزول خلاله کل الفوارق القبلیة و العرقیة و اللغویة و الطبقیة، و نهت عن مضایقة المتوجهین إلی زیارة بیت اللّه الحرام ابتغاء لمرضاته، أو حتی الذین توجهوا إلی هذه الزیارة و هم یحملون معهم أهدافا أخری کالتجارة و الکسب الحلال لا فرق فیهم بین صدیق أو غریم، فما داموا کلهم مسلمین و قصدهم زیارة بیت اللّه، فهم یتمتعون بالحصانة کما تقول الآیة الکریمة: وَ لَا آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرامَ یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً ....

یعتقد بعض المفسّرین و الفقهاء أنّ الجملة القرآنیة المذکورة أعلاه ذات معنی عام و تشمل غیر المسلمین، أی المشرکین أیضا إن هم جاءوا لزیارة بیت اللّه الحرام یجب أن یتعرضوا للمضایقة من قبل المسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۹

و لکن نظرا لنزول آیة تحریم دخول المشرکین إلی المسجد الحرام فی سورة التوبة التی نزلت فی العام التاسع للهجرة، و نزول سورة المائدة فی أواخر عمر النّبی الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أی فی العام العاشر للهجرة و هی سورة لم یطرأ النسخ علی أیّ من الأحکام الواردة فیها- بحسب روایات الطائفتین الشیعة و السنة- لذلک یستبعد أن یکون هذا التّفسیر صحیحا، و الحق أن الحکم المذکور خاص بالمسلمین وحدهم.

۵- لقد خصصت هذه الآیة حکم حرمة الصید بوقت الإحرام فقط، و أعلنت أنّ الخروج من حالة الإحرام إیذان بجواز الصید للمسلمین- حیث تقول الآیة الکریمة: وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا.

۶- منعت هذه الآیة الکریمة المسلمین من مضایقة أولئک النفر من المسلمین الذین کانوا قبل إسلامهم یضایقون المسلمین الأوائل فی زیارة بیت اللّه الحرام و یمنعونهم من أداء مناسک الحج، و کان هذا فی واقعة الحدیبیة، فمنع المسلمون من تجدید الأحقاد و مضایقة أولئک النفر فی زمن الحج بعد أن أسلموا و قبلوا الإسلام لهم دینا، تقول الآیة الکریمة: وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوکُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا[۳۰۲].

و مع أنّ هذا الحکم قد نزل فی مجال زیارة بیت اللّه الحرام، لکنه- فی الحقیقة- یعد حکما عاما، و قانونا کلیا یدعو المسلمین إلی نبذ «الحقد» و عدم إحیاء الأحداث السابقة فی أذهانهم بهدف الانتقام من مسببیها.

و لمّا کانت خصلة الحقد إحدی عناصر ظهور و بروز النفاق و الفرقة لدی المجتمعات یتّضح لنا- منذ ذلک- جلیا أهمیة هذا الحکم الإسلامی فی التصدی و الوقوف بوجه استعار نار النفاق بین المسلمین و بالأخص فی زمن کان نبی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۰

الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوشک علی وداع المسلمین و الرحیل عنهم.

۷- تؤکّد الآیة- جریا علی سیاق البحث الذی تناولته و بهدف إکماله- علی أنّ المسلمین بدلا من أن یتحدوا للانتقام من خصومهم السابقین الذین أسلموا- و أصبحوا بحکم إسلامهم أصدقاء- علیهم جمیعا أن یتحدوا فی سبیل فعل الخیرات و التزام التقوی، و أن لا یتعاونوا- فی سبیل الشر و العدوان تقول الآیة:

وَ تَعاوَنُوا عَلَی الْبِرِّ وَ التَّقْوی وَ لا تَعاوَنُوا عَلَی الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ ....

۸- و لکی تعزز الآیة الأحکام السابقة و تؤکّدها تدعو المسلمین فی الختام إلی اتّباع التقوی و تجنّب معصیة اللّه، محذره من عذاب

اللّه الشديد، فتقول:

وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

التعاون فى أعمال الخير:

إنّ الدعوة إلى التعاون التى تؤكّد عليها الآية الكريمة تعتبر مبدأ إسلاميا عاما، تدخل فى إطاره جميع المجالات الاجتماعية و الأخلاقية و السياسية و الحقوقية و غيرها و قد أوجبت هذه الدعوة على المسلمين التعاون فى أعمال الخير، كما منعتهم و نهتهم عن التعاون فى أعمال الشرّ و الإثم اللّذين يدخل إطارهما الظلم و الاستبداد و الجور بكل أصنافها.

و يأتى هذا المبدأ الإسلامى تماما على نقيض مبدأ ساد فى العصر الجاهلى، و ما زال يطبق حتى فى عصرنا الحاضر، و هو المبدأ القائل: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، و كان فى العصر الجاهلى إذا غزت جماعة من إحدى القبائل جماعة من قبيلة أخرى، هب أفراد القبيلة الغازية لموازرة الغازين بغض النظر عمّا إذا كان الغزو لغرض عادل أو ظالم، و نرى فى وقتنا الحاضر- أيضا- آثار هذا المبدأ الجاهلى فى العلاقات الدولية، و بالذات لدى الدول المتحالفة حين تهب فى الغالب لحماية بعضها البعض، و التضامن و التعاون معا حيال القضايا الدولية دون رعاية لمبدأ العدالة و دون تمييز بين الظالم و المظلوم: لقد ألغى الإسلام هذا المبدأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۱

الجاهلى، و دعى المسلمين إلى التعاون فى أعمال الخير و المشاريع النافعة و البناءة فقط، و نهى عن التعاون فى الظلم و العدوان.

و الطريق فى هذا المجال هو مجىء كلمتى «البر» و «التقوى» معا و على التوالى فى الآية، حيث أنّ الكلمة الأولى تحمل طابعا إيجابيا و تشير الى الأعمال النافعة، و الثانية لها طابع النهى و المنع و تشير إلى الامتناع عن الأعمال المنكرة- و على هذا الأساس- أيضا- فإن التعاون و التآزر يجب أن يتمّ سواء فى الدّعوة إلى عمل الخير، أو فى مكافحة الأعمال المنكرة.

و قد استخدم الفقه الإسلامى هذا القانون فى القضايا الحقوقية، حيث حرّم قسما من المعاملات و العقود التجارية التى فيها طابع الإعانة على المعاصى أو المنكرات، كبيع الأعناب إلى مصانع الخمور أو بيع السلاح إلى أعداء الإسلام و أعداء الحق و العدالة، أو تأجير محل للاكتساب لتمارس فيه المعاملات غير الشرعية و الأعمال المنكرة (و بديهى أن لهذه الأحكام شروطا تناولتها كتب الفقه الإسلامى بالتوضيح).

إنّ إحياء هذا المبدأ لدى المجتمعات الإسلامية، و تعاون المسلمين فى أعمال الخير و المشاريع النافعة البناءة دون الاهتمام بالعلاقات الشخصية و العرقية و النسبية، و الامتناع عن تقديم أى نوع من التعاون إلى الأفراد الذين يمارسون الظلم و العدوان، بغض النظر عن تبعية أو انتمائية الفئة الظالمة، كل ذلك من شأنه أن يزيل الكثير من النواقص الاجتماعية.

أمّا فى العلاقات الدولية، فلو امتنعت دول العالم عن التعاون مع كل دولة معتدية- أيّا كانت- لقضى بذلك على جذور العدوان و الاستعمار و الاستغلال فى العالم، و لكن حين ينقلب الوضع فتتعاون الدول مع المعتدين و الظالمين بحجّة أنّ مصالحهم الدولية تقتضى ذلك، فلا يمكن توقع الخير أبدا من وضع كالذى يسود العالم اليوم.

لقد تناولت الأحاديث و الروايات الإسلامية هذه القضية بتأكيد كبير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۲

و نورد- هنا- بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر.

-۱

نقل عن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المجال قوله: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة و أعوان الظلمة و

أشباه الظلمة حتى من بریء لهم قلما و لاق لهم دواة؟

قال: فیجتمعون فی تابوت من حدید ثمّ یرمی بهم فی جهنّم»[۳۰۳].

-۲

نقل عن صفوان الجمال، و هو أحد أنصار الإمام السابع موسى بن جعفر الکاظم علیه السّلام، بأنّه تشرف بلقاء الإمام علیه السّلام فقال له الکاظم علیه السّلام: یا صفوان کل شیء منک حسن جمیل ما خلا شیئا واحدا.

قلت: جعلت فداک، أی شیء؟

قال: اکراؤک جمالک من هذا الرجل، یعنی هارون.

قال: و اللّه ما أکریته أشرا و لا بطرا و لا للصید و لا للهو و لکنّی أکریته لهذا الطریق- یعنی طریق مکّة- و لا أتولّاه بنفسی، و لکن أبعث معه غلمانی.

فقال لی: یا صفوان، أیقع کراؤک علیهم؟

قلت: نعم.

قال: من أحب بقاءهم فهو منهم، و من کان منهم کان ورد النار ... إلى آخر الحدیث ۳۰۴].

و

فی حدیث عن النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم خاطب به علیّا علیه السّلام قائلا: «یا علی کفر باللّه العلی العظیم من هذه الأمّة عشرة ... و بائع السلاح لأهل الحرب»[۳۰۵].

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۳]

اشارة

حُرِّمَتْ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِیرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَیْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّیَةُ وَ النَّطِیحَةُ وَ ما أَکَلَ السَّبُعُ إِلاَّ ما ذَکَّیْتُمْ وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِکُمْ فِسْقٌ الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَةٍ غَیْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳)

التّفسیر

اشارة

لقد تمّت الإشارة فی بدایة السورة إلى الحلال من لحوم المواشی، و ورد- أیضا- أنّ هناک استثناءات تحرم فیها لحوم المواشی، حیث ذکرتها الآیة الأخیرة- موضوع البحث- فی أحد عشر موردا تکرر ذکر بعضها فی آیات قرآنیة أخرى على سبیل التأکید.

و المحرمات التی وردت فی هذه الآیة، بحسب الترتیب الذی جاءت علیه کما یلی:

أوّلا: المیتة.

ثانيا: الدم.

ثالثا: لحم الخنزير.

رابعا: الحيوانات التى تذبح باسم الأصنام، أو باسم غير اسم اللّه، كما كان يفعل الجاهليّون، و قد تحدثنا عن هذه اللحوم الأربعة المحرمة فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

خامسا: الحيوانات المخنوقة، سواء كان الخنق بسبب الفخ الذى تقع فيه أو بواسطة الإنسان أو بنفسها، و كان الجاهليون يخنقون الحيوانات أحيانا للانتفاع بلحومها و قد أشارت الآية إلى هذا النوع باسم «المنخنقة».

و ورد فى بعض الروايات أنّ المجوس كان من عادتهم أن يخنقوا الحيوانات التى يريدون أكلها، و لهذا يمكن أن تشملهم الآية أيضا[۳۰۶].

سادسا: الحيوانات التى تموت نتيجة تعرضها للضرب و التعذيب، أو التى تموت عن مرض و سمّيت فى الآية ب «الموقوذة»[۳۰۷].

و نقل القرطبى فى تفسيره أن عرب الجاهلية اعتادوا على ضرب بعض الحيوانات حتى الموت إكراما لأصنامهم و تقربا لها.

سابعا: الحيوان الذى يموت نتيجة السقوط من مكان مرتفع، و قد سمى هذا النوع فى الآية ب «المتردية».

ثامنا: الحيوان الذى يموت جراء نطحه من قبل حيوان آخر، و قد سمت الآية هذا النوع من الحيوانات ب «النطيحة».

تاسعا: الحيوان الذى يقتل نتيجة هجوم حيوان متوحش عليه، و سمى هذا النوع فى الآية ب «ما أكل السبع».

و قد يكون جزءا من فلسفة تحريم هذه الأنواع من الحيوانات، هو عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۵

نزفها المقدار الكافى من الدم لدى الموت أو القتل، لأنّه ما لم تقطع عروق رقابها لا تنزف الدم بمقدار كاف، و لما كان الدم محيطا مناسبا جدا لنمو مختلف أنواع الجراثيم، و بما أنّه يتفسخ حين يموت الحيوان قبل الأجزاء الأخرى من الجسد، لذلك يتسمم لحم الحيوان و لا يمكن أن يعد هذا اللحم من اللحوم السليمة، و غالبا ما يحصل هذا التسمم عند ما يموت الحيوان على أثر مرض أو من جراء التعذيب أو نتيجة تعرضه لملاحقة حيوان متوحش آخر.

من جانب آخر فإنّ الشرط المعنوى للذبح لا يتحقق فى أى نوع من تلك الحيوانات، أى شرط ذكر اسم اللّه و توجيه الحيوان صوب القبلة لدى الذبح.

لقد ذكرت الآية شرطا واحدا لو تحقق لأصبحت لحوم الحيوانات المذكورة حلالا، و هذا الشرط هو أن يذبح الحيوان قبل موته وفق الآداب و التقاليد الإسلامية، ليخرج الدم منه بالقدر الكافى فيحل بذلك لحمه، و لذلك جاءت عبارة إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ بعد موارد التحريم مباشرة.

و يرى بعض المفسّرين أن هذا الاستثناء يخص القسم الأخير فقط، أى ذلك الذى جاء تحت عنوان: وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ لكن أغلب المفسّرين يرون أنّ الاستثناء يشمل جميع الأنواع المذكورة، و النظرية الأخيرة أقرب للحقيقة من غيرها.

و هنا قد يسأل البعض: لما ذا لم تدخل جميع أنواع الحيوانات المحرمة فى الآية فى إطار «الميتة» التى ذكرت كأوّل نوع من المحرمات الأحد عشر فى الآية، أ ليست الميتة فى مفهومها تعنى كل الأنواع المذكورة؟

و الجواب هو: إنّ الميتة لها معان واسعة من حيث مفهوم الفقهى الشرعى، فكل حيوان لم يذبح وفق الطريقة الشرعية يدخل فى إطار مفهوم الميتة، أمّا المعنى اللغوى للميتة فيشمل- فقط- الحيوان الذى يموت بصورة طبيعية. و لهذا السبب فإن الأنواع المذكورة فى الآية- غير الميتة- لا تدخل من الناحية اللغوية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۶

ضمن مفهوم الميتة، و هى محتاجة إلى البيان و التوضيح.

عاشرا: کان الوثنيون فی العصر الجاهلی ینصبون صخورا حول الکعبة لیست علی أشکال أو هیئات معینة، و کانوا یسمون هذه الصخور ب «النصب» حیث کانوا یذبحون قرابینهم أمامها و یمسحون الصخور تلک بدم القربان.

و الفرق بین النصب و الأصنام هو أنّ النصب لیست لها أشکال و صور بخلاف الأصنام، و قد حرم الإسلام لحوم القرابین التی کانت تذبح علی تلک النصب، فجاء حکم التحریم فی الآیة بقوله تعالی: وَ ما ذُبِحَ عَلَی النُّصُبِ

و واضح أنّ تحریم هذا النوع من اللحوم إنّما یحمل طابعا معنویا و لیس مادیا. و فی الحقیقة فإن هذا النوع یعتبر من تلک القرابین التی تدخل ضمن مدلول العبارة القرآنیة: وَ ما أُهِلَّ لِغَیْرِ اللَّهِ بِهِ و قد ذکر تشخیصا فی الآیة بسبب رواجه لدی عرب الجاهلیة.

أحد عشر: و هناک نوع آخر من اللحوم المحرمة، و هو اللحوم التی تذبح و توزع بطریقة القمار، و توضیح ذلک هو أنّ عشرة من الأشخاص یتراهنون فیما بینهم فیشترون حیوانا و یذبحونه، ثمّ یأتون بعشرة سهام کتب علی سبعة منها عبارة «فائز»، و علی الثلاثة الأخری کتبت عبارة «خاسر»، فتوضع فی کیس و تسحب واحدة واحدة باسم کل من الأشخاص العشرة علی طریقة الاقتراع، فالأشخاص الذین تخرج النبال السبعة الفائزة بأسمائهم یأخذون قسما من اللحم دون أن یدفعوا ثمنا لما أخذوه من اللحم، أمّا الأشخاص الثلاثة الآخرون الذین تخرج النبال الخاسرة بأسمائهم فیتحملون ثمن الحیوان بالتساوی، فیدفع کلّ واحد منهم ثلث قیمة الحیوان دون أن یناله شیء من لحمه.

و قد سمی الجاهلیون هذه النبال ب «الأزلام» و هی صیغة جمع من «زلم» و قد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم، لا بمعنی وجود تأصل الحرمة فی اللحم، بل لأنّ الحیوان کان یذبح فی عمل هو أشبه بالقمار، و یجب القول هنا أن تحریم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۷

القمار و أمثاله لا ینحصر فی اللحوم فقط، بل إن القمار محرم فی کل شیء و بأیّ صورة کان.

و لکی تؤکّد الآیة موضوع التحریم و تشدد علی حرمة تلک الأنواع من اللحوم تقول فی الختام: ذلِکُمْ فِسْقٌ [۳۰۸]

الاعتدال فی تناول اللحوم:

إنّ الذی نستنتجه من البحث المار الذکر و من المصادر الإسلامیة الأخری، هو أنّ الإسلام اتبع فی قضیة تناول اللحوم أسلوبا معتدلا تمام الاعتدال جریا علی طریقته الخاصّة فی أحکامه الأخری.

و یختلف أسلوبه هذا اختلافا کبیرا مع ما سار علیه الجاهلیون فی أکل لحم النصب و المیتة و الدم و أشباه ذلک، و ما یسیر علیه الکثیر من الغربیین فی الوقت الحاضر فی أکل حتی الدیدان و السلاحف و الضفادع و غیرها.

و یختلف مع الطریقة التی سار علیها الهنود فی تحریم کل أنواع اللحوم علی أنفسهم.

فقد أباح الإسلام لحوم الحیوانات التی تتغذی علی الأشیاء الطاهرة التی لا- تعافها النفس البشریة، و ألغی الأسالیب التی فیها طابع الإفراط أو التفریط.

و قد عیّن الإسلام شروطا أبان من خلالها أنواع اللحوم التی یحلّ للإنسان الاستفادة منها، و هی:- ۱- لحوم الحیوانات التی تقتات علی الأعشاب، أمّا الحیوانات التی تقتات علی اللحوم فهی غالبا ما تأکل لحوم حیوانات میتة أو موبوءة، و بذلک قد تکون سببا فی نقل أنواع الأمراض لدی تناول لحومها، بینما الحیوانات التی تأکل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۸

العشب یکون غذاؤها سلیما و خالیا من الأمراض.

و قد تقدم أیضا فی تفسیر الآیة (۷۲) من سورة البقرة بأنّ الحیوانات تورث صفاتها عن طریق لحومها أیضا، فمن یأکل لحم حیوان

متوحش یرث صفات الوحش كالقسوة و العنف، و بناء على هذا الدليل- أيضا- حرمت لحوم الحيوانات الجلّالة، و هى التى تأكل فضلات غيرها من الحيوانات.

۲- أن لا تكون الحيوانات التى ينتفع من لحمها كريهة للنفس الإنسانية.

۳- أن لا يترك لحم الحيوان أثرا سيئا أو ضارا على جسم أو نفس الإنسان.

۴- لقد حرمت الحيوانات التى تذبح فى طريق الشرك فى سبيل الأصنام، و أمثال ذلك لما فيها من نجاسة معنوية.

۵- لقد بيّن الإسلام أحكاما خاصّة لطريقة ذبح الحيوانات لكل واحد منها- بدوره- الأثر الصحى و الأخلاقى على الإنسان.

بعد أنّ بيّنت الآية الأحكام التى مرّ ذكرها أوردت جملتين تحتويان معنى عميقا: الأولى منهما تقول: الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ

و الثّانية هى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً.

متى أكمل اللّه الدين للمسلمين:

إنّ أهمّ بحث تطرحه هاتان الفقرتان القرآنيتان يتركز فى كنهه و حقيقته كلمة «اليوم» الواردة فيهما.

فأىّ يوم يا ترى هو ذلك «اليوم» الذى اجتمعت فيه هذه الأحداث الأربعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۹

المصيرية، و هى يأس الكفار، و إكمال الدين، و إتمام النعمة، و قبول اللّه لدين الإسلام دينا ختاميا لكل البشرية؟

لقد قال المفسّرون الكثير فى هذا المجال، و ممّا لا شك فيه و لا ريب أن يوما عظيما فى تاريخ حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- كهذا اليوم- لا يمكن أن يكون يوما عاديا كسائر الأيّام، و لو قلنا بأنّه يوم عادى لما بقى مبرر لإضفاء مثل هذه الأهمية العظيمة عليه كما ورد فى الآية.

و قيل أنّ بعضا من اليهود و النصارى قالوا فى شأن هذا اليوم بأنّه لو كان قد ورد فى كتبهم مثله لاتّخذوه عيدا لأنفسهم و لاهتموا به اهتماما عظيما[۳۰۹].

و لنبحث الآن فى القرائن و الدلائل و فى تاريخ نزول هذه الآية و تاريخ حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الروايات المختلفة المستفادة من مصادر إسلامية عديدة، لنرى أى يوم هو هذا اليوم العظيم؟

ترى هل هو اليوم الذى أنزل فيه اللّه الأحكام المذكورة فى نفس الآية و الخاصّة بالحلال و الحرام من اللحوم؟

بديهى أنّه ليس ذلك لأنّ نزول هذه الأحكام لا يوجب إعطاء تلك الأهمية العظيمة، و لا يمكن أن يكون سببا لإكمال الدين، لأنّها لم تكن آخر الأحكام التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الدليل على هذا القول ما نراه من أحكام تلت الأحكام السابقة فى نزولها، كما لا يمكن القول بأن الأحكام المذكورة هى السبب فى يأس الكفار، بل إنّ ما يثير اليأس لدى الكفار هو إيجاد دعامة راسخة قوية لمستقبل الإسلام، و بعبارة أخرى فإنّ نزول أحكام الحلال و الحرام من اللحوم لا يترك أثرا فى نفوس الكفار، فما ذا يضيرهم لو كان بعض اللحوم حلالا و بعضها الآخر حراما؟! فهل المراد من ذلك «اليوم» هو يوم عرفة من حجّة الوداع، آخر حجّة قام بها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۰

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (كما احتمله بعض المفسّرين)؟

و جواب هذا السؤال هو النفى أيضا، لأنّ الدلائل المذكورة لا تتطابق مع هذا التّفسير، حيث لم تقع أىّ حادثة مهمّة فى مثل ذلك

الیوم لتکون سببا لیأس الکفار و لو کان المراد هو حشود المسلمین الذین شارکوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی یوم عرفة، فقد کانت هذه الحشود تحیط بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مکّة قبل هذا الیوم أیضا، و لو کان المقصود هو نزول الأحکام المذکورة فی ذلک الیوم، فلم تکن الأحکام تلک شیئا مهمّا مخیفا بالنسبة للکفار.

ثمّ هل المقصود بذلک «الیوم» هو یوم فتح مکة (کما احتمله البعض)؟ و من المعلوم أنّ سورة المائدة نزلت بعد فترة طویلة من فتح مکة! أو أنّ المراد هو یوم نزول آیات سورة البراءة، و لکنها نزلت قبل فترة طویلة من سورة المائدة.

و الأعجب من کل ما ذکر هو قول البعض بأن هذا الیوم هو یوم ظهور الإسلام و بعثة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع أن هذین الحدثین لا علاقة زمنیة بینهما و بین یوم نزول هذه الآیة مطلقا و بینهما فارق زمنی بعید جدّا.

و هکذا یتّضح لنا أنّ أیّا من الاحتمالات الستة المذکورة لا تتلاءم مع محتوی الآیة موضوع البحث.

و یبقی لدینا احتمال أخیر ذکره جمیع مفسّری الشیعة فی تفاسیرهم و أیدوه کما دعمته روایات کثیرة، و هذا الاحتمال یتناسب تماما مع محتوی الآیة حیث یعتبر «یوم غدیر خم» أی الیوم الذی نصب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علیا أمیر المؤمنین علیه السّلام بصورة رسمیة و علنیة خلیفة له، حیث غشی الکفار فی هذا الیوم سیل من الیأس، و قد کانوا یتوهمون أن دین الإسلام سینتهی بوفاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أن الأوضاع ستعود إلی سابق عهد الجاهلیة، لکنّهم حین شاهدوا أنّ النّبی أوصی بالخلافة بعده لرجل کان فریدا بین المسلمین فی علمه و تقواه و قوته و عدالته، و هو علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۱

بن أبی طالب علیه السّلام، و رأوا النّبی و هو یأخذ البیعة لعلی علیه السّلام أحاط بهم الیأس من کل جانب، و فقدوا الأمل فیما توقعوه من شر لمستقبل الإسلام و أدرکوا أن هذا الدین باق راسخ.

ففی یوم غدیر خم أصبح الدین کاملا، إذ لو لم یتمّ تعیین خلیفة للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لو لم یتمّ تعیین وضع مستقبل الأمّة الإسلامیة، لم تکن لتکتمل الشریعة بدون ذلک و لم یکن لیکتمل الدین.

نعم فی یوم غدیر خم أکمل اللّه و أتمّ نعمته بتعیین علی علیه السّلام، هذا الشخصیة اللائقة الکفؤ، قائدا و زعیما للأمة بعد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و فی هذا الیوم- أیضا- رضی اللّه بالإسلام دینا، بل خاتما للأدیان، بعد أن اکتملت مشاریع هذا الدین، و اجتمعت فیه الجهات الأربع.

و فیما یلی قرائن أخری إضافة إلی ما ذکر فی دعم و تأیید هذا التّفسیر:

أ- لقد ذکرت تفاسیر «الرازی» و «روح المعانی» و «المنار» فی تفسیر هذه الآیة أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یعش أکثر من واحد و ثمانین یوما بعد نزول هذه الآیة، و هذا أمر یثیر الانتباه فی حد ذاته، إذ حین نری أنّ وفاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت فی الیوم الثّانی عشر من ربیع الأوّل (بحسب الروایات الواردة فی مصادر جمهور السنّة، و حتی فی بعض روایات الشیعة، کالتی ذکرها الکلینی فی کتابه المعروف بالکافی) نستنتج أن نزول الآیة کان بالضبط فی یوم الثامن عشر من ذی الحجّة الحرام، و هو یوم غدیر خم [۳۱۰].

ب- ذکرت روایات کثیرة- نقلتها مصادر السنّة و الشیعة- أنّ هذه الآیة الکریمة نزلت فی یوم غدیر خم، و بعد أن أبلغ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المسلمین بولایة علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۲

بن أبی طالب علیه السّلام، و من هذه الروایات:

۱- ما نقله العالم السنّی المشهور «ابن جریر الطبری» فی کتاب «الولایة» عن «زید بن أرقم» الصحابی المعروف، أنّ هذه الآیة نزلت فی یوم غدیر خم بشأن علی بن أبی طالب علیه السّلام.

۲- و نقل الحافظ «أبو نعیم الأصفهانی» فی کتاب «ما نزل من القرآن بحق علی علیه السّلام» عن «أبی سعید الخدری» و هو صحابی معروف- أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أعطی فی «یوم غدیر خم» علیا منصب الولایة ... و إنّ الناس فی ذلک الیوم لم یکادوا لیتفرقوا حتی نزلت آیة: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ ... فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فی تلک اللحظة «اللّه أکبر علی إکمال الدین و إتمام النعمة و رضی الرب برسالتی و بالولایة لعلی علیه السّلام من بعدی» ثمّ

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من کنت مولاه فعلی مولاه، اللّهم و ال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره و اخذل من خذله».

۳- و روی «الخطیب البغدادی» فی «تاریخه» عن «أبی هریرة» عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ آیة الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ ... نزلت عقیب حادثة «غدیر خم» و العهد بالولایة لعلی علیه السّلام و قول عمر بن الخطاب: «بخ بخ لک یا ابن أبی طالب، أصبحت مولای و مولی کل مسلم»[۳۱۱].

و جاء فی کتاب «الغدیر» إضافة إلی الروایات الثلاث المذکورة، ثلاث عشرة روایة أخری فی هذا المجال.

ورود فی کتاب «إحقاق الحق» نقلا عن الجزء الثّانی من تفسیر «ابن کثیر» من الصفحة ۱۴ و عن کتاب «مقتل الخوارزمی» فی الصفحة ۴۷

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ هذه الآیة نزلت فی واقعة غدیر خم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۳

و نری فی تفسیر «البرهان» و تفسیر «نور الثقلین» عشر روایات من طرق مختلفة حول نزول الآیة فی حق علی علیه السّلام أو فی یوم غدیر خم، و نقل کل هذه الروایات یحتاج إلی رسالة منفردة[۳۱۲].

و قد ذکر العلّامة السید عبد الحسین شرف الدین فی کتابه «المراجعات» أن الروایات الصحیحة المنقولة عن الإمامین الباقر و الصّادق علیهما السّلام تقول بنزول هذه الآیة فی «یوم غدیر خم» و إنّ جمهور السنّة أیضا قد نقلوا ستة أحادیث بأسانید مختلفة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تصرح کلها بنزول الآیة فی واقعة غدیر خم ۳۱۳].

یتّضح ممّا تقدم أنّ الروایات و الأخبار التی أکّدت نزول الآیة- موضوع البحث- فی واقعة غدیر خم لیست من نوع أخبار الآحاد لکی یمکن تجاهلها، عن طریق اعتبار الضعف فی بعض أسانیدها، بل هی أخبار إن لم تکن فی حکم المتواتر فهی علی أقل تقدیر من الأخبار المستفیضة التی تناقلتها المصادر الإسلامیة المشهورة.

و مع ذلک فإنّنا نری بعضا من العلماء المتعصبین من أهل السنّة کالآلوسی فی تفسیر «روح المعانی» الذی تجاهل الأخبار الواردة فی هذا المجال لمجرّد ضعف سند واحد منها، و قد وصم هؤلاء هذه الروایة بأنّها موضوعة أو غیر صحیحة، لأنّها لم تکن لتلائم أذواقهم الشخصیة، و قد مرّ بعضهم فی تفسیره لهذه الآیة مرور الکرام و لم یلمح إلیها بشیء، کما فی تفسیر المنار، و لعل صاحب المنار وجد نفسه فی مأزق حیال هذه الروایات فهو إن وصمها بالضعف خالف بذلک منطق العدل و الإنصاف، و إن قبلها عمل شیئا خلافا لمیله و ذوقه.

و قد وردت فی الآیة (۵۵) من سورة النور نقطة مهمّة جدیرة بالانتباه- فالآیة تقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۴

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ... و اللّه سبحانه و تعالی یقطع فی هذه الآیة وعدا علی نفسه بأن یرسخ دعائم الدین، الذی ارتضاه للمؤمنین فی الأرض.

و لمّا کان نزول سورة النور قبل نزول سورة المائدة، و نظرا إلی جملة رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً الواردة فی الآیة الأخیرة- موضوع

البحث- و التی نزلت فی حق علی بن أبی طالب علیه السّلام، لذلک کله نستنتج أنّ حکم الإسلام یتعزز و یترسخ فی الأرض إذا اقترن بالولایة، لأن الإسلام هو الدین الذی ارتضاه اللّه و وعد بترسیخ دعائمه و تعزیزه، و بعبارة أوضح أن الإسلام إذا أرید له أن یعم العالم کله یجب عدم فصله عن ولایة أهل البیت علیهم السّلام.

أمّا الأمر الثّانی الذی نستنتجه من ضمن الآیة الواردة فی سورة النور إلی الآیة التی هی موضوع بحثنا الآن، فهو أن الآیة الأولی قد أعطت للمؤمنین و عودا ثلاثة:

أوّلها: الخلافة علی الأرض.

و الثّانی: تحقق الأمن و الاستقرار لکی تکون العبادة للّه وحده.

و الثّالث: استقرار الدین الذی یرضاه اللّه فی الأرض.

و لقد تحققت هذه الوعود الثلاثة فی «یوم غدیر خم» بنزول آیة: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ ... فمثال الإنسان المؤمن الصالح هو علی علیه السّلام الذی نصب وصیّا للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و دلت عبارة الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ ... علی أن الأمن قد تحقق بصورة نسبیة لدی المؤمنین، کما بیّنت عبارة: وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً إنّ اللّه قد اختار الدین الذی یرتضیه، و أقرّه بین عباده المسلمین.

و هذا التّفسیر لا ینافی الروایة التی تصرح بأنّ آیة سورة النور قد نزلت فی شأن المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف، و ذلک لأنّ عبارة آمَنُوا مِنْکُمْ لها معنی واسع تحقق واحد من مصادیقه فی «یوم غدیر خم» و سیتحقق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۵

علی مدی أوسع و أعم فی زمن ظهور المهدی عجل اللّه تعالی فرجه الشریف (و علی أساس هذا التّفسیر فإنّ کلمة الأرض فی الآیة الأخیرة لیست بمعنی کل الکرة الأرضیة، بل لها مفهوم واسع یمکن أن یشمل مساحة من الأرض أو الکرة الأرضیة بکاملها).

و یدل علی هذا الأمر المواضع التی وردت فیها کلمة «الأرض» فی القرآن الکریم، حیث وردت أحیانا لتعنی جزءا من الأرض، و أخری لتعنی الأرض کلها، (فأمعنوا النظر و دققوا فی هذا الأمر).

سؤال یفرض نفسه:

و أخیرا بقی سؤال ملح و هو:

أوّلا: إن الأدلة المذکورة فی الآیة- موضوع البحث- و الأدلة التی ستأتی فی تفسیر الآیة (۶۷) من سورة المائدة و التی تقول: یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ ... لو کانت کلها تخص واقعة واحدة، فلما ذا فصل القرآن بین هاتین الآیتین و لم تأتیا متعاقبین فی مکان واحد؟

و ثانیا: لا یوجد ترابط موضوعی بین ذلک الجزء من الآیة الذی یتحدث عن واقعة «غدیر خم» و بین الجزء الآخر منها الذی یتحدث عن الحلال و الحرام من اللحوم، فما هو سبب هذه المفارقة الظاهرة؟[۳۱۴]

الجواب:

أوّلا: نحن نعلم أنّ الآیات القرآنیة- و کذلک سور القرآن الکریم- لم تجمع کلها مرتبة بحسب نزولها الزمنی، بل نشاهد کثیرا من السور التی نزلت فی المدینة فیها آیات مکیة أی نزلت فی مکة، کما نلاحظ آیات مدنیة بین السور المکیة أیضا.

و بناء على هذه الحقيقة، فلا عجب- إذن- من وجود هذا الفاصل في القرآن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۶

بين الآيتين المذكورتين (و يجب الاعتراف بأن ترتيب الآيات القرآنية بالصورة التي هي عليها الآن قد حصل بأمر من النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه) فلو كانت الآيات القرآنية مرتبة بحسب زمن نزولها لأصبح الاعتراض واردا في هذا المجال.

ثانيا: هناك احتمال بأن يكون سبب حشر موضوع واقعة «غدير خم» في آية تشمل على موضوع لا صلة لها به مطلقا، مثل موضوع أحكام الحلال و الحرام من اللحوم، إنما هو لصيانة الموضوع الأوّل من أن تصل إليه يد التحريف أو الحذف أو التغيير.

إنّ الأحداث التي وقعت في اللحظات الأخيرة من عمر النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الاعتراض الصريح الذي واجهه طلب النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكتابة وصيته، إلى حدّ وصفوا النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لدى طلبه هذا الأمر بأنّه يهجر (و العياذ باللّه) و قد وردت تفاصيل هذه الوقائع في الكتب الإسلامية المعروفة، سواء عن طريق جمهور السنّة أو الشيعة، و هي تدل بوضوح على الحساسية المفرطة التي كانت لدى نفر من الناس تجاه قضية الخلافة بعد النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث لم يتركوا وسيلة إلّا استخدموها لإنكار هذا الأمر[۳۱۵].

فلا يستبعد- و الحالة هذه- أن تتخذ اجراءات وقائية لحماية الأدلة و الوثائق الخاصّة بالخلافة من أجل إيصالها إلى الأجيال المتعاقبة دون أن تمسّها يد التحريف أو الحذف، و من هذه الإجراءات حشر موضوع الخلافة- المهم جدّا- في القرآن بين آيات الأحكام الشرعية الفرعية لإبعاد عيون و أيدي المعارضين و العابثين عنها.

إضافة إلى ذلك- و كما أسلفنا في حديثنا- فإنّ الوثائق الخاصّة بنزول آية:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۷

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... الواردة في واقعة «غدير خم» حول قضية الخلافة بعد النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم تقتصر كتب الشيعة وحدهم على ذكرها، بل تناقلها- أيضا- الكثير من كتب السنّة من طرق متعددة عن ثلاثة من الصحابة المعروفين.

لقد أعادت الآية- في نهايتها- الكرة في التحدث عن اللحوم المحرمة فبيّنت حكم الاضطرار في حالة المعاناة من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا يكون هدف الشخص ارتكاب المعصية من تناول ذلك، مشيرة إلى غفران اللّه و رحمته في عدم إلجاء عباده عند الاضطرار إلى تحمل المعاناة و المشقة، و عدم معاقبتهم في مثل هذه الحالات. قالت الآية الكريمة:

فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و المراد بالمخمصة هنا الجوع الشديد الذي يؤدي إلى انخماص البطن، سواء كان بسبب حالة المجاعة العامّة، أو كان ناتجا عن الحرمان الخاص.

أمّا عبارة غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فمعناها غير مائل إلى ارتكاب الذنب، و قد يكون الإتيان بها تأكيدا لمفهوم الاضطرار، أو أنّ الهدف منها هو المنع من الإفراط في أكل اللحم الحرام أثناء الضرورة، توهما من الشخص بأن ذلك حلال في مثل هذه الحالة، و منعا من أن يحاول الشخص بنفسه إعداد مقدمات الاضطرار أو أن يحصل الاضطرار أثناء قيام الشخص بسفر من أجل ارتكاب الحرام فيه.

هذه المعاني كلها يحتمل ورودها ضمن العبارة الأخيرة الماضية «و لأجل الاطلاع على توضيحات أكثر في هذا المجال، راجع الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۸

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۴)

سبب النّزول

ذكر المفسرون أسبابا عديدة لنزول هذه الآية، و أكثر هذه الأسباب ملاءمة مع فحوى الآية هو: أنّ «زيد الخير» و «عدى بن حاتم» اللذين كانا من الصحابة المقرّبين، قدما على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أخبراه بأنّ قومهما يصيدون بواسطة كلاب و صقور الصيد، و إنّ هذه الكلاب تصيد لهم الحيوانات الوحشية من ذوات اللحم الحلال، و تأتى بالحيوان المصيد حيا فى بعض الأحيان فيذبح، و أحيانا أخرى تأتى به و قد قتلته قبل وصولها إلى أصحابها دون أن يتاح لهم ذبحه، و سألا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن حكم الصيد و المقتول بواسطة كلاب الصيد و هل يعتبر ميتة و حراما أم لا؟ ... فنزلت الآية هذه و أجابت على سؤالهما.[۳۱۶]

التّفسير

الحلال من الصيد:

أعقبت الآية الأخيرة آيتين سبق و أن تناولتا أحكاما عن الحلال و الحرام عن اللحوم، و قد بيّنت هذه الآية نوعا آخر من اللحوم أو الحيوانات التى يحل للإنسان تناولها، و جاءت على صيغة جواب لسؤال ذكرته الآية نفسها بقولها:

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ ....

فتأمر الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أوّلا- بأن يخبرهم إنّ كل ما كان طيبا و طاهرا فهو حلال لهم، حيث تقول: قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ ... دالة على أنّ كل ما حرمه الإسلام يعتبر من الخبائث غير الطاهرة، و إن القوانين الإلهية لا- تحرم- مطلقا- الموجودات الطاهرة التى خلقها اللّه لينتفع بها البشر، و إن الجهاز التشريعى يعمل دائما بتنسيق تام مع الجهاز التكوينى و فى كل مكان.

ثمّ تبيّن الآية أنواع الصيد الحلال، فتشير إلى الصيد الذى تجلبه أو تصيده الحيوانات المدربة على الصيد، فتؤكد بأنّه حلال، بقولها: وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ [۳۱۷].

و عبارة جوارح مشتقة من المصدر «جرح» الذى يعنى أحيانا «الكسب» و تارة يعنى «الجرح» الذى يصاب به البدن، و لذلك يطلق على الحيوانات المدرّبة على الصيد، سواء كانت من الطيور أو من غيرها، اسم «جارحة» و جمعها «جوارح» أى الحيوان الذى يجرح صيده، أو بالمعنى الآخر الحيوان الذى يكسب لصاحبه، و أمّا إطلاق لفظة «الجوارح» على أعضاء الجسم فلأن الإنسان يستطيع بواسطتها إنجاز الأعمال أو الاكتساب.

و جملة وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ تشمل كل الحيوانات المدرّبة على

الصيد، و لكن كلمة «مكلبين» التى تعنى تدريب الكلاب للقيام بأعمال الصيد، و المشتقة من مادة «كلب» أى الكلب، تقيد هذه الجملة و تخصصها بكلاب الصيد، و لذلك فإنّها لا تشمل الصيد بحيوانات غير هذه الكلاب مثل الصقور المدرّبة على الصيد.

و لذلك ذهب فقهاء الشيعة إلى تخصيص الصيد الحلال بما يصاد من قبل كلاب الصيد، لكن جمعا من علماء السنّة و مفسّريهم ذهبوا إلى جواز الكل و أعطوا تفسيرا واسعا لعبارة «مكلبين» و لم يخصصوا ذلك بكلاب الصيد فقط.

إلّا أنّنا نری أنّ المصدر الأساس لهذه الکلمة المشتقة إنما یدل علی أنّها مخصصة بکلاب الصید فقط، و بدیهی أنّ الصید الذی تجلبه حیوانات مدرّبة أخری، یعتبر حلالا فی حالة جلبه حیّا و ذبحه وفق الطریقة الشرعیة.

أمّا عبارة تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَکُمُ اللَّهُ فإنّها تشیر إلی عدّة أمور هی ۱- إنّ تدریب مثل هذه الحیوانات یجب أن یستمر، فلو نسیت ما تعلمته و قتلت حیوانا کما تفعله بعض الکلاب السائبة، فلا یعتبر عند ذلک ما قتلته صیدا، و لا یحل لحم هذا الحیوان المقتول فی مثل هذه الحالة، و الدلیل علی هذا القول هو کون فعل «تعلمونهن» فعلا مضارعا، و الفعل المضارع یدل علی الحال و الاستقبال.

۲- یجب أن یتمّ تدریب هذه الکلاب وفق الأصول الصحیحة التی تتلاءم مع مفهوم العبارة القرآنیة مِمَّا عَلَّمَکُمُ ....

إنّ العلوم کلها- سواء کانت بسیطة أم معقدة- مصدرها هو اللّه، و إنّ الإنسان لا یملک بنفسه شیئا ما لم یعلمه اللّه.

إضافة إلی ما ذکر فإنّ کلاب الصید یجب أن تدرب بحیث تأتمر بأمر صاحبها، أی تتحرک بأمره و تعود إلیه بأمره أیضا.

و بدیهی أنّ الحیوان الذی تصیده کلاب الصید، یجب أن یذبح وفق الطریقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۱

الشرعیة إن جلب حیّا، و إن مات الحیوان قبل درکه فلحمه حلال و إن لم یذبح.

و أخیرا أشارت الآیة الکریمة إلی شرطین آخرین من شروط تحلیل مثل هذا النوع من الصید.

أوّلهما: أن لا یأکل کلب الصید من صیده شیئا، حیث قالت الآیة: فَکُلُوا مِمَّا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ ....

و علی هذا الأساس فإن الکلاب لو أکلت من الصید شیئا قبل إیصاله إلی صاحبها، و ترکت قسما آخر منه، فلا یحل لحم مثل هذا الصید و یدخل ضمن حکم ما أَکَلَ السَّبُعُ الذی ورد فی الآیة السابقة، و مثل هذا الکلب الذی یأکل الصید لا یعتبر فی الحقیقة کلبا مدربا، کما لا یعتبر ما ترکه من الصید مصداقا لعبارة مِمَّا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ لأنّه فی هذه الحالة یکون (أی الکلب) قد صاد لنفسه (لکن بعض الفقهاء لم یروا فی هذا الموضوع شرطا، مستندین إلی روایات وردت فی مصادر الحدیث و ذکرتها کتب الفقه بالتفصیل).

و مجمل القول هو أن کلاب الصید یجب أن تدرب بحیث لا تأکل من الصید الذی تمسکه.

و الأمر الثّانی: هو ضرورة ذکر اسم اللّه علی الصید بعد أن یترکه الکلب، حیث قالت الآیة: وَ اذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَیْهِ ....

و لکی تضمن الآیة رعایة الأحکام الإلهیة- هذه- کلها، أکّدت فی الختام قائلة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسابِ داعیة إلی الخوف من اللّه العزیز القدیر، و من حسابه السریع ۳۱۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۲

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۵]

اشارة

الْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ حِلٌّ لَکُمْ وَ طَعامُکُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ إِذا آتَیْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسافِحِینَ وَ لا مُتَّخِذِی أَخْدانٍ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِی الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِینَ (۵)

التّفسیر

حکم طعام أهل الکتاب و حکم الزّواج بهم:

تناولت هـذه الآيـة، التى جاءت مكملـة للآيات السابقـة، نوعا آخر من الغذاء الحلال، فبيّنت أنّ كل غذاء طاهر حلال، و إن غذاء أهل الكتـاب حلال للمسلمين، و غـذاء المسلمين حلال لأهـل الكتـاب، و حيث قالت الآيـة: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ....

و تشتمل هذه الآيهٔ الكريمهٔ على أمور نجلب الالتفات إليها، و هى:

۱- إنّ المراد بكلمهٔ «اليوم» الواردهٔ فى هذه الآيهٔ هو يوم «عرفهٔ» بناء على ما اعتقده بعض المفسّرين، و قد ذهب مفسرون آخرون إلى أنّ المراد هو اليوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۳

الذى تلا فتح خيبر- و لا يبعد- أن يكون هو نفس «يوم غدير خم» الذى تحقق فيه النصر الكامل للمسلمين على الكفار (و سنتاول هذا الموضوع بالشرح قريبا).

۲- لقـد تنـاولت هـذه الآيـهٔ قضـيهٔ تحليل الطيبات مع أنّها كانت حلالا قبل نزول الآيـهٔ و الهـدف من ذلك هو أن تكون هـذه القضـيهٔ مقدمهٔ لبيان حكم «طعام أهل الكتاب».

۳- ما هو المقصود ب «طعام أهل الكتاب» الذى اعتبرته الآيهٔ حلالا على المسلمين؟

يعتقد أغلب مفسّرى علماء السنهٔ أن «طعام أهل الكتاب» يشمل كل أنواع الطعام، سواء كان من لحوم الحيوانات المذبوحهٔ بأيدى أهل الكتـاب أنفسـهم أو غير ذلـك من الطعـام، بينمـا تعتقـد الأغلبيـهٔ الساحقـهٔ من مفسّرى الشـيعهٔ و فقهـائهم أنّ المقصود من «طعام أهل الكتـاب» هو غير اللحوم المذبوحـهٔ بأيـدى أهـل الكتـاب، إلّا أن هنـاك القليل من علماء الشـيعهٔ- أيضا- ممن يقولون بصـحهٔ النظريهٔ الأولى التى اتبعها أهل السنهٔ.

و تؤكد رأى غالبيهٔ الشيعهٔ- فى هذا المجال- الروايات العديدهٔ الواردهٔ عن أئمّهٔ أهل البيت عليهم السّلام.

فقـد جاء فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال فى هذه الآيهٔ: «عنى بطعامهم ها هنا الحبوب و الفاكهٔ غير الذبائح التى يذبحون، فإنه لا يذكرون اسم اللّه عليها».

و وردت روايـات عديـدهٔ أخرى فى هـذا المجال فى الجزء السادس عشـر من كتاب وسائل الشـيعهٔ فى الباب ۵۱ من أبواب الأطعمـهٔ و الأشربهٔ، فى الصفحهٔ ۳۷۱.

و بالإمعان فى الآيات السابقهٔ يتبيّن أن التّفسير الثّانى ذهبت إليه الأكثريهٔ من مفسّرى الشيعهٔ و فقهائهم (تفسير الطعام بغير الذبيحهٔ) هو أقرب إلى الحقيقهٔ من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۴

التّفسير الأوّل.

و ذلك- كما أوضـح الإمام الصّادق عليه السّلام فى الروايـهٔ التى أوردناها أعلاه- لأنّ أهل الكتاب لا يراعون الشـروط الإسـلاميهٔ فى ذبـائحهم، فهم لاـ يـذكرون اسم اللّه على الذبيحـهٔ، و لاـ يوجهونهـا صوب القبلـهٔ أثنـاء ذبحهـا، كمـا أنّهم لا يلتزمون برعايـهٔ الشـروط الأخرى- فهل يعقل أن تحرم الآيهٔ السابقهٔ- و بصورهٔ صريحهٔ- لحم الحيوان المذبوح بهذه الطريقهٔ، و تأتى آيهٔ أخرى بضدها لتحلله؟!

و ترد على الذهن فى هذا المجال أسئلهٔ نلخصها فيما يلى:

۱- لو كـان المقصود بالطعـام سـائر الأغذيـهٔ مـا عـدا لحوم ذبائـح أهل الكتاب، فإنّ هـذه الأغذيـهٔ كانت حلالا من قبل، و لا فرق بين وجودها فى أيدى أهل الكتاب أو غيرهم، فهل كان شـراء الحبوب و الغلات من أهل الكتاب قبل نزول هذه الآيهٔ شـيئا مخالفا للشـرع، فى حين أن المسـلمين كانوا دائما يتعاطون مع أهل الكتاب شـراء و بيع هذه الأشـياء؟! إذا توجهنا إلى نقطهٔ أساسـيهٔ فى الآيهٔ الكريمهٔ، يتوضح لنا بجلاء جواب هذا السؤال، فالآيهٔ الأخيرهٔ- هذه- نزلت فى زمن كان للإسـلام فيه السـلطهٔ الكاملهٔ على شـبه الجزيرهٔ العربيهٔ و

قد أثبت الإسلام وجوده فی کل الساحات و المیادین علی طول هذه الجزیرة و عرضها، بحیث أنّ أعداء الإسلام قد تملکهم الیأس التام لعجزهم عن دحر المسلمین، و لذلک اقتضت الضرورة- فی مثل هذا الظرف المناسب للمسلمین- أن ترفع القیود و الحدود التی کانت مفروضة قبل هذا فی مجال مخالطة المسلمین لغیرهم، حیث کانت هذه القیود تحول دون تزاور المسلمین مع الغیر.

لذلک نزلت هذه الآیة الکریمة و أعلنت تخفیف قیود التعامل و المعاشرة مع أهل الکتاب، بعد أن ترسخت قواعد و أساس الحکومة الإسلامیة، و لم یعد هناک ما یخشی منه من جانب غیر المسلمین، فسمحت الآیة بالتزاور بین المسلمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۵

و غیرهم، و أحلت طعام بعضهم لبعض کما أحلت التزواج فیها بینهم (و لکن علی أساس الشروط التی سنبیّنها).

جدیر بالقول أنّ الذین لا یرون طهارة أهل الکتاب یشترطون أن یکون طعامهم خالیا من الرطوبة أو البلل، و إذا کان الطعام رطبا یشترط أن لا تکون أیادی أهل الکتاب قد مسته لکی یستطیع المسلمین تناول هذا الطعام، کما یری هؤلاء عدم جواز تناول طعام أهل الکتاب إن لم تتوفر الشروط المذکورة فیه.

إلّا أنّ مجموعة أخری من العلماء الذین یرون طهارة أهل الکتاب، لا یجدون بأسا فی تناول الطعام مع أهل الکتاب و الحلول ضیفا علیهم، شرط أن لا یکون طعامهم من لحوم ذبائحهم و أن یحصل الیقین من براءته من نجاسة عرضیة (کأن یکون قد تنجس باختلاطه أو ملامسته للخمرة أو الجعة «ماء العشیر»).

و خلاصة القول: إنّ الآیة- موضوع البحث- جاءت لترفع الحدود و القیود السابقة الخاصّة بمعاشرة أهل الکتاب، و الدلیل علی ذلک هو إشارة الآیة لإباحة طعام المسلمین لأهل الکتاب، أی السماح للمسلمین باستضافتهم، کما تتطرق الآیة بعد ذلک مباشرة إلی حکم التزاوج بین المسلمین و أهل الکتاب (أی الزواج بنساء أهل الکتاب).

و بدیهی أنّ النظام الذی یمتلک السیطرة الکاملة علی أوضاع المجتمع، هو وحده القادر علی إصدار مثل هذا الحکم لمصلحة أتباعه دون أن یساوره أی قلق بسبب الأعداء، و قد ظهرت هذه الحالة فی الحقیقة فی یوم غدیر خم، أو فی یوم عرفة فی حجّة الوداع کما اعتقده البعض، أو بعد فتح خیبر، مع أن یوم غدیر خم هو الأقرب إلی هذا الموضوع.

أورد صاحب تفسیر المنار فی کتابه اعتراضا آخر فی تفسیر هذه الآیة، حیث یقول بأنّ کلمة «طعام» وردت فی کثیر من آیات القرآن بمعنی کل أنواع الطعام، و هی تشمل اللحوم أیضا، فکیف یمکن تقیید الآیة بالحبوب و الفواکه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۶

و أمثالها؟، ثمّ یقول بأنّه طرح هذا الاعتراض فی مجلس کان یضم جمعا من الشیعة فلم یجب أحد علیه.

و باعتقادنا نحن أنّ جواب اعتراض صاحب کتاب المنار واضح، فنحن لا ننکر أنّ لفظة «طعام» تحمل مفهوما واسعا، إلّا أنّ ما ورد فی الآیات السابقة، کبیان أنواع اللحوم المحرمة- و بالأخص لحوم الحیوانات التی لم یذکر اسم اللّه علیها لدی ذبحها- إنّما یخصص هذا المفهوم الواسع و یحدد کلمة «طعام» فی الآیة بغیر اللحوم، و لا ینکر أحد أن کل عام أو مطلق قابل للتخصیص و التقیید، کما نعلم أنّ أهل الکتاب لا یلتزمون بذکر اسم اللّه علی ذبائحهم، ناهیک علی أنّهم لا یراعون- أیضا- الشروط الواردة فی السنّة فی مجال الذبح.

و جاء فی کتاب «کنز العرفان» حول تفسیر هذه الآیة اعتراض آخر خلاصته أن کلمة «طیبات» لها مفهوم واسع، و هی «عامّة» بحسب الاصطلاح، بینما جملة وَ طَعامُ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ خاصّة، و طبیعی أنّ ذکر الخاص بعد العام یجب أن یکون لسبب، و لکن السبب فی هذا المجال غیر واضح، ثمّ یرجو صاحب الکتاب من اللّه أن یحل له هذه المعضلة العلمیة[۳۱۹].

إنّ جواب هذا الاعتراض یتّضح أیضا ممّا قلناه سابقا بأنّ الآیة إنّما جاءت بعبارة أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّباتُ کمقدمة من أجل بیان رفع القیود فی التقارب مع أهل الکتاب، فالحقیقة أنّ الآیة تقول بأنّ کل شیء طیب هو حلال للمسلمین، و بناء علی هذا فإن طعام أهل الکتاب (إذ کان طیبا و طاهرا) هو حلال أیضا للمسلمین- و أن الحدود و القیود التی کانت تقف حائلا دون تقارب المسلمین مع أهل الکتاب

قد رفعت أو خففت فى هذا اليوم بعد الانتصارات التى أحرزها المسلمون فيه، (فليمعن النظر فى هذا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۷

حكم الزّواج بغير المسلمات:

بعد أن بيّنت هذه الآية حلية طعام أهل الكتاب تحدثت عن الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات و من أهل الكتاب، فقالت بأنّ المسلمين يستطيعون الزّواج بالنساء المحصنات من المسلمات و من أهل الكتاب، شرط أن يدفعوا لهن مهورهن، حيث تقول الآية: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ... على أن يكون التواصل بوسيلة الزّواج المشروع و ليس عن طريق الزنا الصريح، و لا عن طريق المعاشرة الخفية، حيث تقول الآية: مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ ۳۲۰].

و هذا الجزء من الآية الكريمة يقلل فى الحقيقة الحدود التى كانت مفروضة على الزواج بين المسلمين و غيرهم، و يبيّن جواز زواج المسلم بالمرأة الكتابية ضمن شروط خاصّة.

و قد اختلف فقهاء المسلمين فى أنّ جواز الزواج بالمرأة الكتابية هل ينحصر بالنوع المؤقت من الزّواج، أو يشمل النوعين: الدائم و المؤقت؟

لا- يرى علماء السنّة فرقا بين نوعى الزواج فى هذا المجال، و يعتقدون بأنّ الآية عامّة، بينما يعتقد جمع من علماء الشيعة أنّ الآية مقتصرة على الزواج المؤقت، و تؤيّد روايات وردت عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام هذا الرأى أيضا.

و القرائن الموجودة فى الآية يمكن أن تكون دليلا على هذا القول.

و أوّل هذه القرائن هو قوله تعالى: إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ و لو أن لفظة «الأجر» تطلق على المهر فى نوعى الزواج الدائم و المؤقت، إلّا أنّها غالبا ما ترد لبيان المهر فى الزواج المؤقت، أى أنّها تناسب هذا الأخير أكثر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۸

أمّا القرينة الثّانية فهى قوله تعالى: غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ ...

فهى تتلاءم أكثر مع الزواج المؤقت، لأنّ الزواج الدائم ليس فيه شبه الزنا أو الصداقة السرية لكى ينهى عنه، بينما يشتبه بعض السذج من الناس- أحيانا- فى الزواج المؤقت فيخلطون بينه و بين الزنا و الصداقة السرية غير المشروعة مع المرأة.

أضف إلى ذلك كلّه ورد هذه التعابير فى الآية (۲۵) من سورة النساء، و كما نعلم فإنّ تلك الآية نزلت فى شأن الزواج المؤقت.

مع ذلك كلّه فإنّ هناك العديد من الفقهاء ممن يجيزون الزواج بالكتابيات بصورة مطلقة، و لا يرون القرائن المذكورة كافية لتخصيص الآية، كما يستدلون فى هذا المجال ببعض الروايات «للاطلاع على تفاصيل أكثر فى المجال يجدر الرجوع إلى كتب الفقه».

و لا يخفى علينا ما شاع فى عالم اليوم من تقاليد الجاهلية بصورة مختلفة، و من ذلك انتخاب الرجل أو المرأة خليلا من الجنس الآخر و بصورة علنية، و قد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلى فى التحلل و الخلاعة و المجون الجنسى، ففى حين كان الإنسان الجاهلى ينتخب الأخلاء سرّا و فى الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأسا من إعلان هذا الأمر و التباهى به بكل صلف و وقاحة، و يعتبر هذا التقليد المشين نوعا صريحا و مفضوحا من الفحشاء و هدية مشؤومة انتقلت من الغرب إلى الشرق و أصبحت مصدرا للكثير من النكبات و الكوارث.

و لا يفوتنا أن نوضح هذه النقطة و هى أن الآية أجازت تناول طعام أهل الكتاب كما أجازت إطعامهم وفق الشروط التى ذكرت، بينما

فی قضیهٔ الزواج أجازت فقط الزواج بنساء أهل الکتاب، و لم تجز للنساء المسلمات الزواج بالرجال من أهل الکتاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۹

و فلسفهٔ هذا الأمر جلیهٔ واضحهٔ لا تحتاج إلی الشرح و التفصیل، لأنّ النساء بما یمتلکنه من عواطف و مشاعر رقیقهٔ یکن أکثر عرضهٔ لاکتساب أفکار أزواجهنّ، من الرجال.

و لکی تسد الآیهٔ طریق إساءهٔ استغلال موضوع التقارب و المعاشرهٔ مع أهل الکتاب و الزواج من المرأهٔ الکتابیهٔ علی البعض من ضعاف النفوس، و تحول دون الانحراف إلی هذا الأمر بعلم أو بدون علم، حذرت المسلمین فی جزئها الأخیر فقالت: وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِی الْآخِرَهِٔ مِنَ الْخاسِرِینَ

و هذه إشارهٔ إلی أنّ التسهیلات الواردهٔ فی الآیهٔ بالإضافهٔ إلی کونها تؤدی إلی السعهٔ و رفع الحرج عن حیاهٔ المسلمین، یجب أن تکون- أیضا- سببا لتغلغل الإسلام إلی نفوس الأجانب، لا أن یقع المسلمون تحت نفوذ و تأثیر الغیر فیترکوا دینهم، و حیث سیؤدی بهم هذا الأمر إلی نیل العقاب الإلهی الصارم الشدید.

و هناک احتمال آخر فی تفسیر هذا الجزء من الآیهٔ نظرا لبعض الروایات الواردهٔ و سبب النّزول المذکور، و هو أن نفرا من المسلمین أعلنوا- بعد نزول هذه الآیهٔ و حکم حلیهٔ طعام أهل الکتاب و الزواج بالکتابیات- استیاءهم من تطبیق هذه الأحکام، فحذرتهم الآیهٔ من الاعتراض علی حکم اللّه و من الکفر بهذه الحکم، و أنذرتهم بأنّ أعمالهم ستذهب هباء و ستکون عاقبتهم الخسران.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۰

الآیهٔ [سورهٔ المائدهٔ (۵): آیهٔ ۶]

اشارهٔ

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاهِٔ فَاغْسِلُوا وُجُوهَکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ إِلَی الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَی الْکَعْبَیْنِ وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ ما یُرِیدُ اللَّهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ وَ لِیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۶)

التّفسیر

تطهیر الجسم و الرّوح:

لقد تناولت الآیات السابقهٔ بحوثا متعددهٔ عن الطیبات الجسمانیهٔ و النعم المادیهٔ، أمّا الآیهٔ الأخیرهٔ فهی تتحدث عن الطیبات الروحیهٔ و ما یکون سببا لطهارهٔ الرّوح و النفس الإنسانیهٔ، فقد بیّنت هذه الآیهٔ أحکاما مثل الوضوء و الغسل و التیمم، التی تکون سببا فی صفاء و طهارهٔ الروح الإنسانیهٔ- فخاطبت المؤمنین فی البدایهٔ موضحهٔ أحکام الوضوء بقولها: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۱

قُمْتُمْ ۳۲۱] إِلَی الصَّلاهِٔ فَاغْسِلُوا وُجُوهَکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ إِلَی الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَی الْکَعْبَیْنِ

لم توضّح الآیهٔ مناطق الوجه التی یجب غسلها فی الوضوء، لکن الروایات التی وردت عن أئمّهٔ أهل البیت علیهم السّلام قد بیّنت بصورهٔ مفصلهٔ طریقهٔ الوضوء التی کانت النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یعمل بها.

۱- إنّ حدود الوجه طولا من منابت الشعر علی الجبههٔ حتی منتهی الذقن، و عرضا ما یقع من الوجه بین الأصبع الوسطی و الإبهام- و

هذا هو ما يسمّى و يفهم من الوجه عرفا، لأنّ الوجه هو ذلك الجزء من الجسم الذى يواجه الإنسان لدى التلاقى مع نظيره.

۲- لقد ذكرت الآية حدود ما يجب غسله من اليدين فى الوضوء، فأشارت إلى أنّ الغسل يكون حتى المرفقين- و قد جاء التصريح بالمرفقين فى الآية لكى لا يتوهم بأنّ الغسل المطلوب هو للرسغين كما هو العادة فى غسل الأيدى.

و يتبيّن من هذا التوضيح أنّ كلمة «إلى» الواردة فى الآية هى لمجرّد بيان حد الغسل و ليست لبيان أسلوبه كما التبس على البعض، حيث ظنوا أنّ المقصود فى الآية هو غسل اليدين ابتداء من أطراف الأصابع حتى المرفقين (و راج هذا الأسلوب لدى جماعات من أهل السنة).

و لتوضيح هذا الأمر نقول: أنّه حين يطلب إنسان من صباغ أن يصبغ جدار غرفة من حد ارضيتها لغاية متر واحد، فالمفهوم من ذلك أنّه لا يطلب أن يبدأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۲

الصباغ عمله من تحت إلى فوق، بل إنّ ذكر هذه الحدود هو فقط لبيان المساحة المراد صبغها لا أكثر و لا أقل، و على هذا الأساس فإن الآية أرادت من ذكر حدود اليد بيان المقدار الذى يجب غسله منها لا أسلوب و كيفية الغسل.

و قد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أسلوب الغسل وفق سنّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.

و يجب الانتباه إلى أنّ المرفق- أيضا- يجب غسله أثناء الوضوء، لأن الغاية فى مثل هذه الحالات تدخل ضمن المغيّى، أى أن الحدّ يدخل فى حكم المحدود[۳۲۲].

۳- إنّ حرف (ب) الوارد مع عبارة «برؤوسكم» فى الآية يعنى التبعيض، كما صرّحت به بعض الروايات و أيده البعض من علماء اللغة، و المراد بذلك بعض من الرأس، أى مسح بعض من الرأس حيث أكدت روايات الشيعة أنّ هذا البعض هو ربع الرأس من مقدمته، فيجب مسح جزء من هذا الربع حتى لو كان قليلا باليد، بينما الرائج بين البعض من طوائف السنّة فى مسح كل الرأس و حتى الأذنين لا يتلاءم مع ما يفهم من هذه الآية الكريمة.

۴- إنّ اقتران عبارة «أرجلكم» بعبارة «رؤوسكم» دليل على أنّ الأرجل يجب أن تمسح هى- أيضا- لا أن تغسل، و ما فتح اللام فى «أرجلكم» إلّا لأنّها معطوفة محلا على «رؤوسكم» و ليست معطوفة على «وجوهكم»[۳۲۳].

۵- تعنى كلمة «كعب» فى اللغة النتوء الظاهر خلف الرجل، كما تعنى- أيضا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۳

المفصل الذى يربط مشط الرجل بالساق ۳۲۴].

بعد ذلك كله بيّنت الآية حكم الغسل عن جنابة حيث قالت: وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ... و الواضح أنّ المراد من جملة «فاطّهروا» هو غسل جميع الجسم، لأنّه لو كان المراد جزءا خاصا منه لاقتضى ذكر ذلك الجزء، و على هذا الأساس فإنّ العبارة المذكورة تعنى جميع الجسم- و قد جاء حكم مشابه لهذا الحكم فى الآية (۴۳) من سورة النساء حيث تقول: حَتَّى تَغْتَسِلُوا.

إنّ كلمة «جنبا»- و كما أوضحنا سابقا فى الجزء الثّالث من تفسيرنا هذا، لدى تفسير الآية (۴۳) من سورة النساء- مصدر، و قد وردت بمعنى اسم الفاعل، و تعنى فى الأصل «المتباعد» أو «البعيد» لأنّ الجذر الأصلى هو «جنابة» بمعنى «بعد»، و سبب إطلاق هذا اللفظ على الإنسان المجنب لأن هذا الإنسان يجب عليه أن يبتعد عن الصلاة و التوقف فى المساجد و أمثالها.

و تطلق هذه الكلمة «جنب» على المفرد و الجمع و المذكر و المؤنث، و إطلاق «جار الجنب» على البعيد هو لنفس المناسبة.

و يمكن أن يستدل من الآية التى تدعو المجنب إلى الاغتسال قبل الصّلاة على أن غسل الجنابة يجزئ، و ينوب عن الوضوء أيضا.

و من ثمّ بادرت الآية إلى بيان حكم التيمم حيث قالت: وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ

فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ....

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌٣ ؛ ص٦١٤

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٣، ص: ٦١٤

و هنـا يجب الالتفـات إلى أن جملتى أَوْ جـاءَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ و أَوْ لامَسْـتُمُ النِّساءَ هما- كما أشـرنا سابقا- معطوفتان على بـداية الآيه، أى على جملة: إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فالآية أشارت فى البداية حقيقة إلى قضية النوم، و تطرقت فى آخرها إلى نوعين آخرين من موجبات الوضوء و الغسل.

أمّا لو عطفنا الجملتين على جملـة عَلى سَـفَرٍ فسنواجه مشـكلتين فى هـذه الآيـة و هما أوّلا: إنّ عودة الإنسان بعـد التخلى لا يمكن أن تكون كحالـة المرض أو السّـفر فلا تناظر بين تلك و هاتين الحالتين، لـذلك ترانا مضـطرين إلى أن نأخـذ حرف «أو» الوارد فى الآية بمعنى الواو العاطفة (و أكّد هذا الأمر جمع من المفسّرين) و هذا خلاف لظاهر الآية.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ ذكر التغوط بصورة خاصّة من بين كل موجبات الوضوء سـيبقى بدون مبرر، لكننا لو فسّـرنا الآية بالصورة التى قلناها سابقا فلا يبقى بعـد ذلك مبرر لهـذين الاعتراضـين الأخيرين، (و مع أنّنا اعتبرنا فى تفسـير الآيـة (٤٣) من سورة النسـاء)، و جريا على ما فعله الكثير من المفسّـرين، اعتبرنا كلمـة «أو» بمعنى الواو العاطفـة، إلّا أنّ الذى ذكرناه مؤخرا- هنا- يعتبر أقرب إلى القبول من ذلك.

أمّا الموضـوع الآخر فهو تكرار موضوع الجنابـة مرّتين فى هـذه الآيـة، و يحتمـل أن يكون هـدف هـذا التكرار هو التأكيـد على هـذه القضـية، أو قـد تكون كلمـة «جنبا» الواردة بمعنى الجنابـة التى تحدث أثناء النوم أو بسـبب الاحتلام، بينما المراد من جملة أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ هو الجنابة الحاصـلة نتيجة المقاربة الجنسـية بين الرجل و المرأة، و إذا فسّـرنا كلمة «قمتم» الواردة فى الآية بالقيام من النوم (كما ورد فى روايات أئمّة أهل البيت عليهم السّـلام و أيضا اشتملت الآية على قرينة بهذا الخصوص) يكون تفسيرنا هذا تأييدا للمعنى الذى أوردناه بخصوص تكرار موضوع الجنابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٣، ص: ٦١٥

لقـد بيّنت الآيـة- بعـد ذلك- أسـلوب التيمم بصورة إجمالية فقالت: فَامْسَـحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ... و الواضح هنا هو أنّ المراد ليس حمل شـىء من التراب و مسـح الوجه و اليـدين به، بل أنّ المقصود هو ضـرب الكفين على تراب طاهر ثمّ مسـح الوجه و اليدين بهما، لكن بعض الفقهاء استدلوا بعبارة «منه» الموجودة فى الآية و قالوا بضرورة أن يلاصق الكفين شيء و لو قليل من التراب ٣٢٥].

بقيت مسألـة أخيرة فى هـذا المجـال، و هى مسألـة معنى كلمتى صَعِيداً طَيِّباً فقـد ذهب الكثير من علماء اللغـة إلى أنّ لكلمـة «صـعيد» معنيين هما التراب أوّلا، أو كل شـىء يغطى سـطح البسيطة أى الكرة الأرضية ثانيا، سواء كان ترابا أو صخرا أو حصى أو حجرا أو غير ذلك من الأشـياء، و قد أدى هذا إلى حصول اختلاف فى آراء الفقهاء حول الشـىء الذى يجوز التيمم به، هل هو التراب وحده أو أنّ الحجر و الرمل و أمثالهما- أيضا- يجوز التيمم بهما؟

و حين نرجع إلى الأصل اللغوى لكلمـة «صـعيد» الـذى يـدل على «الصـعود و الارتفاع» فإن المعنى الثّانى لهذه الكلمة يبدو أقرب إلى الذهن.

و تطلق كلمة «طيب» على الأشياء التى تلائم الطبع و الذوق الإنسانى، و قد أطلق القرآن الكريم هذه الكلمة فى موارد كثيرة مثل: «البلد الطيب» و «مساكن طيبـة» و «ريـح طيبـة» و «حياة طيبـة» و غيرها ... و كـذلك فإنّ كل شـىء طاهر يعتبر طيبا، لأنّ طبع الإنسان ينفر من الأشياء النجسة المدنّسة، و من هذا نستدل على أنّ تراب التيمم يجب أن يكون ترابا طاهرا أيضا.

و قد أكّدت الروايات الواردة إلينا عن أئمّة الإسلام عليهم السّلام على هذا الموضوع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۶

بصورة متکررة، و نقرأ واحدة من هذه الروایات و هی تقول:

«نهی أمیر المؤمنین أن یتیمم الرجل بتراب من أثر الطریق»[۳۲۶].

و الجدیر بالنظر أنّ عبارة «التیمم» الواردة فی القرآن و الحدیث بمعنی التکلیف الشرعی الذی مضی الحدیث عنه، جاءت فی اللغة بمعنی «القصد» و القرآن الکریم یقرر أنّ الإنسان لدی قصد التیمم علیه أن یختار قطعة طاهرة من الأرض من بین القطعات المختلفة للتیمم منها. قطعة ینطبق علیها مفهوم «الصعید» معرضة للأمطار و الشمس و الریاح، و بدیهی أن تکون قبل اتخاذهما للتیمم مثل هذه القطعة من الأرض التی لم تتعرض لوطء الأقدام، فیها الصفات التی تستوعبها کلمة «طیب» و عندئذ فإن هذه القطعة من الأرض- بالإضافة إلی کونها لا تضرّ بالصحّة- تکون أیضا- و کما أسلفنا لدی تفسیرنا للآیة (۴۳) من سورة النساء- ذات أثر أیضا فی قتل الجراثیم و المیکروبات، کما یؤکّده العلماء من ذوی الإختصاص فی هذا المجال.

فلسفة الوضوء و التیمم:

لقد تناولنا فلسفة التیمم بالبحث بصورة وافیة فی الآیة (۴۳) من سورة النساء، أمّا بالنسبة لفلسفة الوضوء فالشیء الذی لا یختلف علیه اثنان، هو أنّ للوضوء فائدتین واضحتین:

إحداهما صحیة و الأخری أخلاقیة معنویة، فغسل الوجه و الیدین فی الیوم خمس مرّات أو علی الأقل ثلاث مرات، لا یخفی أثره فی نظافة الإنسان و صحته، أمّا الفائدة الأخلاقیة المعنویة فهی فی الأثر التربوی الذی یخلفه قصد التقرّب إلی اللّه فی نفس الإنسان حین یعقد النیّة للوضوء بالأخصّ حین ندرک أنّ المفهوم النفسی للنیة یعنی أن حرکة الإنسان أثناء الوضوء و التی تبدأ من الرأس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۷

و تنتهی بالقدمین- هی خطوات فی طاعة اللّه.

و نقرأ

فی روایة عن الإمام علی بن موسی الرّضا علیه السّلام قوله: «إنّما أمر بالوضوء و بدئ به لأن یکون العبد طاهرا إذا قام بین یدی الجبار عند مناجاته إیّاه، مطیعا له فیما أمره نقیا من الأدناس و النجاسة، مع ما فیه من ذهاب الکسل، و طرد النعاس، و تزکیة الفؤاد للقیام بین یدی الجبار»[۳۲۷].

و تتوضح فلسفة الوضوء أکثر فی الحدیث عن فلسفة الغسل، و الذی سنتناوله فیما یلی:

فلسفة الغسل:

قد یسأل البعض لما ذا أمر الإسلام بغسل کامل الجسم لدی حصول «الجنابة» فی حین أن عضوا معینا واحدا یتلوث أو یتسخ فی هذه الحالة؟

فهل هناک فرق بین البول الخارج من ذلک العضو، و بین «المنی» الخارج منه أثناء الجنابة بحیث یجزی غسل العضو وحده فی حالة التبول، بینما یجب غسل الجسم کله بعد خروج المنی من العضو؟

لهذا السّؤال جوابان، مجمل و مفصل، و هما کما یلی: فالجواب المجمل یتلخص فی أن خروج المنی من الإنسان لا ینحصر أثره فی العضو الذی یخرج منه، أی أنّه لیس کالبول و الفضلات الأخری.

و الدلیل علی هذا القول هو تأثر الجسم کله أثناء خروج المنی من العضو بحیث تطرأ علی خلایا الجسم کلها حالة من الاسترخاء و الخمول، و هذه الحالة هی الدلیل علی تأثیر الجنابة علی أجزاء الجسم کلها، و قد أظهرت بحوث العلماء المتخصصین- فی هذا المجال- أن هناک سلسلتین عصبیتین نباتیتین فی جسم الإنسان، هما السلسلة السمبثاویة (الأعصاب المحرکة) و السلسلة شبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۸

السمبثاویة (الاعصاب الکابحة) تمتدان فی کافة أجزاء الجسم و أجهزته الداخلیة، و تتولی السلسلة السمبثاویة تحفیر أجهزة الجسم علی العمل و تسریع عملها، بینما السلسلة شبه السمبثاویة تعمل عکس الأولی، فتحدّ عمل أجهزة الجسم و تبطئها فالأولی تلعب دور جهاز دفع البنزین فی السیارة من أجل تحریکها و الأخری یکون دورها دور الکابح فیها لإیقافها عن الحرکة، و بالتوازن الحاصل فی عمل هاتین السلسلتین العصبیتین تعمل جمع أجهزة جسم الإنسان بصورة متوازنة أیضا.

و قد تحدث فی جسم الإنسان- أحیانا- فعالیات تعیق استمرار هذا التوازن فیطغی عمل أحد السلسلتین العصبیتین علی عمل الجملة الأخری، و من هذه الفعالیات وصول الإنسان إلی الذروة فی اللذة الجنسیة، أی ما یسمی بحالة «الأورکازم» التی تقترن بخروج المنی من عضو الإنسان، و فی هذه الحالة یطغی عمل السلسلة العصبیة شبه السمبثاویة الکابح علی عمل السلسلة العصبیة الأخری التی هی السمبثاویة الدافعة فیختل التوازن بصورة سلبیة فی جسم الإنسان، و قد ثبت بالتجربة أن الشیء الذی یمکنه إعادة التوازن بین عمل تلک السلسلتین العصبیتین، هو وصول الماء إلی جسم الإنسان، و لما کانت حالة «الأورکازم» التی یصل إلیها الإنسان لدی «الجنابة» تؤثر بصورة محسوسة علی أجهزة جسم الإنسان و تخل بتوازن السلسلتین العصبیتین المذکورتین، لذلک أمر الإسلام بأن یباشر الإنسان غسل کل جسمه بعد کل مقاربة جنسیة، أو لدی خروج «المنی» منه، حیث یعود بهذا الغسل التوازن بین عمل السلسلتین العصبیتین السمبثاویة و شبه السمبثاویة فی کل أجزاء الجسم، فتعود لها حالتها الطبیعیة فی الحرکة و الحیاة[۳۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۹

و بدیهی أنّ فائدة الغسل لا تنحصر فی الذی تحدثنا عنه قبل قلیل، بل أنّ الغسل یعتبر أیضا نوعا من العبادة التی لها آثار أخلاقیة لا تنکره، و لهذا السبب یبطل الغسل إن لم یکن مقترنا بنیّة الطاعة و التقرب إلی اللّه سبحانه، لأنّ الحقیقة هی أنّ الجسم و الروح کلیهما یتأثران أثناء خروج «المنی» من الإنسان أو لدی حصول المقاربة الجنسیة- فالروح تجر بذلک وراء الشهوات المادیة و یدفع الجسم إلی حالة الخمول و الرکود.

و غسل الجنابة یعتبر غسلا للجسم بما یشمله من عملیة إیصال الماء إلی جمیع أجزائه، و یعتبر غسلا للروح بما یحتویه من نیة الطاعة و التقرب إلی اللّه، أی أنّ لهذا الغسل أثرین مادی و روحی، یدفع الأثر المادی منه الجسم إلی استعادة حالة النشاط و الفعالیة، و یدفع الأثر الروحی الإنسان للتوجه إلی اللّه و إلی المعنویات.

أضف إلی ذلک کلّه أنّ وجوب غسل الجنابة فی الإسلام هو أیضا من أجل إبقاء جسم الإنسان المسلم طاهرا، کما هو رعایة للجانب الصحی فی حیاة الإنسان، و قد یوجد الکثیر من الناس ممن لا یعتنون بنظافة أجسامهم لکن هذا الأمر و الواجب الإسلامی یجبرهم علی غسل أجسامهم بین فترة و أخری و لا یقتصر التهاون فی غسل الجسم علی إنسان العهود القدیمة، بل حتی فی عصرنا الحاضر هناک الکثیر ممن لا یعتنون بغسل أجسامهم، بل یتهاونون فی هذا الأمر الحیاتی المهم (و طبیعی أن حکم غسل الجنابة حکم عام، و قانون کلی یشمل حتی الشخص الذی غسل جسمه قبل حصول الجنابة بقلیل).

إنّ الجوانب الثلاثة المذکورة فیما سبق- توضح بمجموعها سبب وجوب الغسل لدی خروج المنی من الإنسان سواء کان فی أثناء النوم أو الیقظة و کذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۰

بعد المقاربة الجنسیة (حتی لو لم تؤد إلی خروج المنی).

و قد أوضحت الآية- فی آخرها- أنّ الأوامر الإلهية ليس فيها ما يحرج الإنسان أو يوجد العسر له، بل إنها أوامر شرعت لتحقق فوائد و منافع معينة للناس، فقالت الآية ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

و تؤكد هذه العبارات القرآنية الأخيرة أنّ جميع الأحكام و الأوامر الشرعية الإلهية و الضوابط الإسلامية هی فی الحقيقة لمصلحة الناس و لحماية منافعهم، و ليس فيها أی هدف آخر، و إنّ اللّه يريد بالأحكام الأخيرة الواردة فی الآية- موضوع البحث- أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانية و الروحية معا.

و يجب هنا الانتباه إلی أن جملة ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ مع أنّها وردت فی أواخر الآيات التی اشتملت علی أحكام الغسل و الوضوء و التيمم، إلّا أنّها تبيّن قانونا عامّا معناه أنّ أحكام اللّه ليست تكاليف شاقّة أبدا، و لو كان فی أی حكم شرعی العسر و الحرج لأی فرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء علی الاستثناء الوارد فی الجملة القرآنية الأخيرة من الآية موضوع البحث، و لهذا لو كان الصوم يشكل مشقة و عناء علی أی فرد بسبب مرض أو شيخوخة أمّا ما شابه ذلك، لسقط أداؤه عن هذا الفرد و ارتفع التكليف عنه، بناء علی هذا الدليل نفسه.

و لا- يخفی- أيضا- أنّ هناك من الأحكام الإلهية ما يظهر فيها الصعوبة و المشقة بذاتها مثل حكم الجهاد، إلّا أنّه و لدی مقارنة المصالح التی تتحقق بالجهاد مع الصعوبات و المشاق التی فيه، ترجح كفة المصالح و أهميتها فلا تكون المشاق أمامها شيئا يذكر، و قد سمی القانون الذی أثبتته الجملة القرآنية الأخيرة بقانون «لا حرج» و هو مبدأ أساسی يستخدمه الفقهاء فی أبواب مختلفة و يستنبطون منه أحكاما كثيرة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۱

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۷]

اشارة

وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثاقَهُ الَّذِی واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۷)

التّفسير

العهود الرّبانية:

تناولت الآية السابقة مجموعة من الأحكام الإسلامية بالإضافة إلی موضوع إكمال النعمة الإلهية علی المسلمين، و جاءت الآية الأخيرة لتكمل السياق الموضوعی لما سبق من آيات، فاستقطبت انتباه المسلمين إلی أهمية و عظمة النعم الإلهية التی أعظمها و أهمها نعمة الإيمان و الهداية و الإسلام، تقول الآية: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... و مع أن كلمة «نعمة» جاءت بصيغة المفرد فی هذه الآية، إلّا أنّها وردت اسم جنس لتفيد العموم، حيث عنی بالنعمة جميع النعم، كما يحتمل أيضا أن يكون المراد نعمة الإسلام بصورة خاصّة، و التی أشارت إليها الآية السابقة بصورة إجمالية حيث قالت: وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ...

فأی نعمة أعظم من أن ينال الإنسان- فی ظل الإسلام- كل الهبات الإلهية و المفاخر و الإمكانيات الدنيوية، بعد أن كان الناس يعانون فی الجاهلية من التشتت و الجهل و الضلال و يسود بينهم قانون الغاب، و كان الفساد و الظلم يعم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۲

مجتمعهم آنذاك، و قد تحولوا بفضل الإسلام إلی مجتمع يسوده الاتحاد و التماسك و العلم، و يرفل بالنعم و الإمكانيات المادية و

المعنوية الزّاخرة.

بعد هذا تعيد الآية إلى الأذهان ذلك العهد الذى بين البشر و بين اللّه، فتقول وَ مِيثاقَهُ الَّذِى واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا ....

هناك احتمالان حول المعنى المراد بلفظة «العهد» الواردة فى الآية و موضوعه.

الاحتمال الأوّل: أن يكون هو ذلك العهد الذى عقده المسلمون فى بداية ظهور الإسلام فى واقعة «الحديبية» أو واقعة «حجة الوداع» أو «العقبة» مع اللّه، أو بصورة عامّة هو العقد الذى عقده جميع المسلمين بصورة ضمنية مع اللّه بمجرّد قبولهم الإسلام.

و الاحتمال الثّانى: هو أن يكون العهد المقصود فى الآية الكريمة الأخيرة هو ذلك العهد المعقود بين كل فرد إنسانى- بحكم فطرته و خلقه- و بين اللّه، و الذى يقال عنه بأنّه تم فى «عالم الذر»[۳۲۹].

و بيان ذلك هو أنّ اللّه حين خلق الإنسان أودع فيه استعدادات و مواهب كثيرة، و منها نعمة العلم التى بها يتتبع أسرار الخليقة، و تتحقق لديه معرفة الحق، و كذلك نعم كالعقل و الذكاء و الإدراك ليعرف الإنسان بها أنبياء اللّه و يلتزم بأوامرهم، و اللّه سبحانه حين أودع هذه النعم لدى الإنسان أخذ منه عهدا بأنّ يستغلها خير استغلال، و أن لا يهملها أو يسىء استعمالها، فردّ الإنسان بلسان الحال و الاستعداد «سمعنا و أطعنا».

و يعتبر هذا العهد أوسع و أحكم و أعم عهد أخذه اللّه من عباده البشر، و هذا هو العهد الذى يشير إليه الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام فى خطبته الأولى الواردة

فى كتاب «نهج البلاغة» بقوله: «ليستأدوهم ميثاق فطرته»

أى ليطلب منهم أداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۳

الميثاق الفطرى الذى أخذه منهم و الوفاء به.

و بديهى أنّ يشمل هذا العهد الواسع جميع المسائل و الأحكام الدينية.

و لا مانع مطلقا من أن تكون فى هذه الآية إشارة إلى جميع العهود و المواثيق التكوينية و التشريعية التى أخذها اللّه أو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المسلمين بمقتضى فطرتهم فى مراحل مختلفة، و هنا يتوضح لنا الحديث القائل بأنّ المراد من الميثاق هو العهد الذى أخذه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المسلمين فى حجّة الوداع بخصوص ولاية على بن أبى طالب عليه السّلام ۳۳۰] و يتفق هذا التّفسير مع ما ورد أعلاه.

و قد أكّدنا مرارا أنّ التفاسير التى ترد على الآيات القرآنية، ما هى إلّا إشارة لواحد من المصاديق الجلية المعنية فى كل آية، و لا تعنى مطلقا انحصار المعنى بالتّفسير الوارد.

و تجدر الإشارة- أيضا- إلى أنّ كلمة «ميثاق» مشتقّة من المصدر «وثاقة» أو «وثوق» و تعنى الشدّ المحكم بالحبل و أمثاله، كما يطلق على كل عمل يؤدى إلى راحة البال و اطمئنان الخاطر، حيث أنّ العهد يكون بمثابة عقدة تربط شخصين أو جماعتين أحدهما بالآخر، و لذلك سمّى «ميثاقا».

و فى النهاية تؤكّد الآية على ضرورة التزام التقوى، محذرة أنّ اللّه محيط بأسرار البشر، و عالم بما يختلج فى صدورهم، بقولها: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

و تدل عبارة بِذاتِ الصُّدُورِ على أنّ اللّه عالم بأدقّ أسرار البشر المكنونة فى أعماق نفوسهم و التى لا يمكن لأىّ مخلوق معرفتها غير صاحب السرّ و خالقه، أى اللّه العالم بذات الصدور.

و قد شرحنا فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا سبب نسبة العواطف و المشاعر و النوايا و العزائم إلى القلب أو إلى مكنونات الصدور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۴

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۸) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۹) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۱۰)

التّفسير

دعوة مؤكّدة إلى العدالة:

إنّ الآية الأولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العدالة، و هى شبيهة بتلك الدعوة الواردة فى الآية (۱۳۵) من سورة النساء، التى مضى ذكرها مع اختلاف طفيف.

فتخاطب هذه الآية أوّلا المؤمنين قائلة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ.

ثمّ تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدلة، و تحذّر المسلمين من هذا الانحراف مؤكّدة أنّ الأحقاد و العداوات القبلية و الثارات الشخصية، يجب أن لا تحول دون تحقيق العدل، و يجب أن لا تكون سببا للاعتداء على حقوق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۵

الآخرين، لأنّ العدالة أرفع و أسمى من كل شيء، فتقول الآية الكريمة: وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا ... و تكرر الآية التأكيد لبيان ما للعدل من أهمية قصوى فتقول اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى

و بما أنّ العدالة تعتبر أهم أركان التقوى، تؤكّد الآية مرّة ثالثة قائلة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

و الفرق بين فحوى هذه الآية و الآية المشابهة لها الواردة فى سورة النساء، يتحدد من عدّة جهات:

أوّلا: إنّ الآية الواردة فى سورة النساء دعت إلى إقامة العدل و الشهادة للّه، أمّا الآية الأخيرة فقد دعت إلى القيام للّه و الشهادة بالحق و العدل، و لعل وجود هذا الفارق لأنّ الآية الواردة فى سورة النساء استهدفت بيان ضرورة أن تكون الشهادة للّه، لا لأقارب و ذوى الشاهد، بينما الآية الأخيرة و لكونها تتحدث عن الأعداء أوردت تعابير مثل الشهادة بالعدل و القسط أى تجنب الشهادة بالظلم و الجور.

ثانيا: أشارت الآية الواردة فى سورة النساء إلى واحد من عوامل الانحراف عن العدالة، بينما الآية الأخيرة أشارت إلى عامل آخر فى نفس المجال، فهناك ذكرت الآية عامل الحب المفرط الذى لا يستند على تبرير أو دليل، بينما ذكرت الآية الأخيرة الحقد المفرط الذى لا مبرر له.

و لكن الآيتين كليهما تتلاقيان فى عامل إتّباع الأهواء و النزوات التى تتحدث عنها الآية الأولى فى جملة: فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا ... لأنّ الهوى مصدر كلّ ظلم و جور ينشأ من الاندفاع الأعمى وراء الأهواء و المصالح الشخصية، لا من دافع الحب أو الكراهية، و على هذا الأساس فإنّ المصدر الحقيقى للانحراف عن العدل هو نفس إتّباع الهوى، و

قد جاء فى كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۶

و الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام قولهما: «امّا إتّباع الهوی فیصدّ عن الحق»[۳۳۱].

العدل رکن إسلامی مهم:

قلما نجد قضیة أعطی الإسلام لها أهمیة قصوی کقضیة العدل، فهی و قضیة التوحید سیان فی تشعب جذورهما إلی جمیع الأصول و الفروع الإسلامیة، و بعبارة أخری: کما أنّ جمیع القضایا العقائدیة و العملیة و الاجتماعیة و الفردیة و الأخلاقیة و القانونیة لا تنفصل مطلقا عن حقیقة التوحید، فکذلک لا تنفصل کل هذه القضایا و لا تخلو أبدا من روح العدل.

و لیس من العجیب و الحالة هذه أن یکون العدل واحدا من أصول العقیدة و الدین، و أساسا من أسس الفکر الإسلامی، و هو مع کونه صفة من صفات اللّه سبحانه و یدخل ضمن مبادئ المعرفة الإلهیة، إلّا أنّه یشتمل علی معان واسعة فی خصائصه و مزایاه، و لذلک کان ما أولته البحوث الاجتماعیة فی الإسلام من الاهتمام بالعدل و الاعتماد علیه یفوق ما حظیت به المبادئ الإسلامیة الأخری من ذلک.

و یکفی إیراد عدد من الأحادیث و الرّوایات نماذج لدرک أهمیة هذه الحقیقة:

-۱

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إیّاکم و الظلم فإنّ الظلم عند اللّه هو الظلمات یوم القیامة»[۳۳۲].

و بدیهی أن کل ما هو موجود من خیر و برکة و نعم هو من النور و فی النور،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۷

و إنّ الظلام هو مصدر کل عدم وفاقة.

۲- و

قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا: «بالعدل قامت السموات و الأرض»[۳۳۳].

و یعتبر هذا القول من أوضح التعابیر التی قیلت فی شأن العدل، و معناه أنّ حیاة البشر المحدودة فی الکرة الأرضیة لیست وحدها التی یکون قوامها العدل، بل إنّ حیاة و وجود الکون بأکمله، و السماوات و الأرضین کلها قائمة بالعدل، و فی ظل حالة من توازن القوی الفاعلة فیها، و وجود و استقرار کل شیء فی محله منها، بحیث لو أنّها انحرفت عن هذا التوازن لحظة واحدة أو بمقدار قید أنملة لحکمت علی نفسها بالفناء و الزوال.

و یؤید هذا القول حدیث آخر هو: «الملک یبقی مع الکفر و لا یبقی مع الظلم» لأنّ للظلم أثرا سریعا فی هذه الحیاة الدنیویة و من نتائجه الحروب و الاضطرابات و القلاقل و الفوضی السیاسیة و الاجتماعیة و الأخلاقیة و الأزمات الاقتصادیة التی تعمّ العالم الیوم، و هذا ما یثبت الحقیقة المذکورة بصورة جیدة.

و یجب الانتباه جیدا إلی أنّ اهتمام الإسلام لم ینصب فی مجرد العدالة، بل إنّه أولی أهمیة أکبر لتحقیق العدالة، و طبیعی أنّ محض تلاوة هذه الآیات فی المجالس أو من علی المنابر، و کتابتها فی الکتب، لا یجدی نفعا فی استعادة العدالة المفقودة، و علاج التمییز الطبقی و العنصری، و الفساد و الاجتماعی فی المجتمع الإسلامی، بل إنّ عظمة هذه الآیات و الأحکام تتجلّی فی یوم تطبق فیه العدالة فی صمیم حیاة المسلمین.

بعد التأکید الشدید الذی حملته الآیة الکریمة حول قضیة العدالة و ضرورة تطبیقها بادرت الآیة التالیة و تمشیا مع الأسلوب القرآنی، فأعادت إلی الأذهان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۸

ما أعده اللّه للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه و نعمه العظيمة، حيث تقول الآية:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ

كما ذكرت الآية فى المقابل جزاء الكافرين الذين يكذبون بآيات اللّه، فقالت: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ و ممّا يلفت النظر أنّ الآية جعلت المغفرة و الأجر العظيم فى إطار «وعد اللّه» بينما ذكرت عقاب جهنم بأنّه نتيجة للكفر و للتكذيب بآيات اللّه، و ما هذا إلّا إشارة إلى فضل اللّه و رحمته لعباده فيما يخص نعم و هبات الآخرة التى لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت و عظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقا، كما أنّها إشارة- أيضا- إلى أنّ عقاب الآخرة ليس فيه طابع انتقامى أبدا، بل هو نتيجة عادلة لما ارتكبه الإنسان من أعمال سيئة فى حياته.

أمّا فيما يخص معنى عبارة «أصحاب الجحيم»[٣٣۴] فهى مع ما فى كلمة «أصحاب» من معنى الملازمة، أى أن الكافرين و المكذبين بآيات اللّه يلازمون جهنم، لكن هذه الآية لوحدها لا يمكن أن تكون دليلا على مسألة «الخلود» فى نار جهنم، كما جاء توضيح ذلك فى تفسيرى «التبيان» و «مجمع البيان» و تفسير «الفخر الرّازى»، لأنّ الملازمة ربما تكون دائمة، و قد تستمر لفترة طويلة ثمّ تنقطع، بدلالة التعبير القرآنى الوارد فى شأن ركاب سفينة نوح النّبى عليه السّلام حيث وردت فيهم عبارة «أصحاب السفينة» و هم لم يكونوا ملازمين لتلك السفينة ملازمة دائمة.

و مع انتفاء الشك حول خلود الكفار فى نار جهنم، فالآية الكريمة- موضوع البحث- لم تتحدث بشىء عن هذا «الخلود» بل يستنتج هذا من آيات قرآنية أخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ۶٢٩

الآية [سورة المائدة (۵): آية ١١]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

التّفسير

لقد ذكرت الآيات السابقة بعضا من النعم الإلهية، و جاءت الآية الأخيرة تخاطب المسلمين و تذكر لهم أنواعا من النعم التى أنعم اللّه بها عليهم، لكى يؤدوا شكرها عن طريق طاعة اللّه و السعى لتحقيق مبادئ العدالة، فتقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ....

و قد دأب القرآن الكريم فى كثير من آياته على تذكير المسلمين بالنعم المختلفة التى أنعم اللّه بها عليهم، و ذلك من أجل تعزيز دافع الإيمان لديهم، و لاستثارة و تحفيز دافع الشكر و الصمود فيهم ليقفوا بوجه المشاكل، و الآية الأخيرة من سنخ تلك الآيات.

و اختلف المفسّرون حول الواقعة التى تشير إليها الآية موضوع البحث، فبعضهم قال: بأنّها إشارة إلى إنقاذ المسلمين من قبيلة «بنى النضير» اليهودية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص: ۶٣٠

تواطأت على قتل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين فى المدينة.

و ذهب البعض الآخر من المفسّرين على أنّها إشارة إلى واقعة «بطن النخل» التى حصلت فى العام السادس من الهجرة النبوية فى واقعة

«الحديبيّة» حيث قرر المشركون هناك فی ذلك الحين- بزعامة (خالد بن الوليد)- الهجوم على المسلمين أثناء أدائهم لصلاة العصر، فعلم النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه المؤامرة فصلّى صلاة الخوف القصيرة، ممّا أدى إلى إحباط المؤامرة.

و قد ذكر مفسّرون آخرون وقائع أخرى من حياة النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين المليئة بالحوادث، و قالوا بأنّ هذه الآية إشارة لتلك الوقائع.

و يرى مفسّرون آخرون أن هذه الآية إشارة إلى كل الوقائع و الأحداث التی حصلت طيلة التاريخ الإسلامی حتى ذلك الوقت.

و لو تغاضينا عن كلمة «قوم» الواردة فی هذه الآية بصيغة النكرة التی تدل على وحدة المجموعة المعينة، فإنّ هذا التّفسير يمكن اعتباره من أحسن التفاسير فی هذا المجال.

و الآية على كل حال تلفت انتباه المسلمين إلى الأخطار التی تعرضوا لها، و كان يحتمل أن تدفع بالوجود الإسلامی إلى الفناء و الزوال و إلى الأبد، و لكن فضل اللّه و نعمته شملتهم و أنقذت الإسلام و المسلمين من تلك الأخطار.

كما تحذر الآية المسلمين و تنبههم إلى ضرورة التزام التقوى و الاعتماد على اللّه كدليل على شكر ذلك الفضل و تلك النعمة، و ليعلموا بأنّهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم و السند و الحماية من اللّه فی حياتهم الدنيوية هذه، و فی هذا المجال تقول الآية الكريمة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و واضح أنّ التوكل على اللّه ليس معناه التخلی عن المسؤوليات أو الاستسلام لحوادث الزمان، بل يعنی أنّ الإنسان حين يستخدم طاقاته و الإمكانيات المتوفرة لديه، يجب عليه أن ينتبه فی نفس الوقت إلى أنّ هذه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۱

الطاقات و الإمكانيات ليست من عنده بل أن مصدرها و منشأها هو اللّه تعالى، و إذا حصل هذا التوجه فإن من شأنه أن يقضی على دافع الغرور و الأنانية عند الإنسان أوّلا- و من ثمّ لا- يدع إلى نفسه طريقا للخوف و القلق و اليأس حيال الأحداث و المشاكل مهما كبرت و عظمت، لأنّه يعلم بأنّ سنده و حاميه هو اللّه الذی فاقت قدرته كل القدرات.

إضافة إلى ما ذكر، فإنّ تقديم الأمر بالتقوى على قضية التوكل يستشف منه أنّ حماية اللّه و رعايته تشمل حال المتقين.

و يجب الانتباه إلى أنّ عبارة «التقوى» المشتقة من المصدر «وقاية» معناها حماية النفس و إبعادها عن عناصر السوء و الفساد.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۲

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۲]

اشارة

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِی إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَیْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اللَّهُ إِنِّی مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِی وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱۲)

التّفسير

لقد أشارت هذه الآية أوّلا إلى قضية الوفاء بالعهد، و قد تكررت هذه الإشارة فی مناسبات مختلفة فی آيات قرآنية عديدة، و ربّما كانت إحدى فلسفات هذا التأكيد المتكرر على أهمية الوفاء بالعهد و ذم نقضه، هی إعطاء أهمية قصوى لقضية ميثاق الغدير الذی سيرد فی الآية (۶۷) من هذه السورة.

و الآية فى بدايتها تشير إلى العهد الذى أخذه اللّه من بنى إسرائيل على أن يعملوا بأحكامه، و إرسالة إليهم بعد هذا العهد اثنى عشر زعيما و قائدا ليكون كل واحد منهم زعيما لطائفة واحدة من طوائف بنى إسرائيل الاثنتى عشر- حيث تقول الآية الكريمة: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۳

و الأصل فى كلمة «نقيب» إنّها تعنى الثقب الكبير الواسع، و تطلق بالأخص على الطرق المحفورة تحت الأرض، و سبب استخدام كلمة نقيب للدلالة على الزعامة، لأنّ زعيم كل جماعة يكون عليما بأسرار قومه، و كأنّه قد صنع ثقبا كبيرا يطلع من خلاله على أسرارهم، كما تطلق كلمة نقيب أحيانا على الشخص الذى يكون بمثابة المعرف للجماعة، و حين تطلق كلمة «مناقب» على الفضائل و المآثر، يكون ذلك لأنّ الفضائل لا تعرف إلّا عن طريق البحث و التنقيب فى آثار الشخص.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ كلمة «نقيب» الواردة فى الآية موضوع البحث إنما تعنى- فقط- العارف بالأسرار، لكننا نستبعد هذا الأمر استنادا لما يدلنا عليه التاريخ و الحديث و هو أن نقباء بنى إسرائيل هم زعماء الطوائف الإسرائيلية، جاء فى تفسير «روح المعانى» عن ابن عباس قوله:

«إنّهم كانوا وزراء ثمّ صاروا أنبياء بعد ذلك». أى أنّهم كانوا وزراء للنّبى موسى عليه السّلام ثمّ نالوا منزلة النّبوة بعده [۳۳۵].

و نقرأ فى أحوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه حين قدم أهل المدينة فى ليلة العقبة لدعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى منطقة العقبة، أمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أهل المدينة لينتخبوا من بينهم اثنى عشر نقيبا على عدد نقباء بنى إسرائيل، و بديهى أنّ مهمّة هؤلاء كانت زعامة قومهم و ليس فقط إخبار النّبى بتقارير عن أوضاعهم [۳۳۶].

لقد وردت روايات عديدة من طرق السنة، و هى تلفت الانتباه- لما فيها من إشارة إلى خلفاء النّبى الأئمّة الإثنى عشر عليهم السّلام و بيان أن عددهم يساوى عدد نقباء بنى إسرائيل- ننقل هنا قسما من هذه الروايات:

۱- ينقل «أحمد بن حنبل»- و هو أحد أئمّة السنّة الأربعة، عن «مسروق» أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۴

سأل عبد اللّه بن مسعود: كم عدد الذين سيحكمون هذه الأمّة؟ فرد ابن مسعود قائلا:

«لقد سألنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «اثنى عشر كعدّة نقباء بنى إسرائيل»[۳۳۷].

۲- و

جاء فى تاريخ «ابن عساكر» نقلا عن ابن مسعود، أنّهم سألوا النّبى عن عدد الخلفاء الذين سيحكمون هذه الأمّة، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ عدّة الخلفاء بعدى عدة نقباء موسى»[۳۳۸]

۳- و ورد فى «منتخب كنز العمال» عن جابر بن سمرة قوله «سيحكم هذه الأمّة اثنا عشر خليفة بعدد نقباء بنى إسرائيل»[۳۳۹].

و جاء مثل هذا الحديث أيضا فى كتاب (ينابيع المودة) فى الصفحة ۴۴۵ و كذلك فى كتاب (البداية و النهاية)، ج ۶ فى الصفحة ۲۴۷ أيضا.

و تشير الآية بعد ذلك إلى وعد اللّه لبنى إسرائيل حيث تقول: وَ قالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ

و إنّ هذا الوعد سيتحقق إذا التزم بنو إسرائيل بالشروط التالية:

۱- أن يلتزموا بإقامة الصّلاة كما تقول الآية: لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ.

۲- و أن يدفعوا زكاة أموالهم: وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ.

۳- أن يؤمنوا بالرسل الذين بعثهم اللّه و يحترموا و ينصروا هؤلاء الرسل، حيث تقول الآية وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ ۳۴۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۵

۴- و بالإضافة إلى الشروط الثلاثة المذكورة أعلاه، أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التى تعتبر نوعا من معاملات القرض الحسن مع اللّه سبحانه و تعالى حيث تقول الآية: وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً.

ثمّ أردفت الآية الكريمة ببيان نتائج الوفاء بالشروط المذكورة بقوله تعالى:

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

كما بيّنت الآية مصير الذين يكفرون و لا يلتزمون بما أمر اللّه حيث تقول:

فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ

لقد أوضحنا فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا لما ذا اصطلح القرآن المجيد على الإنفاق، أنّه قرض للّه سبحانه؟

و يبقى فى هذا المجال- أيضا- سؤال أخير و هو لما ذا تقدمت مسألتا الصّلاة و الزكاة على الإيمان بموسى عليه السّلام، فى حين أنّ الإيمان يجب أن يسبق العمل؟

و يجيب بعض المفسّرين على هذا السؤال بقولهم: إن المراد بعبارة «الرسل» الواردة فى الآية هم الأنبياء الذين جاءوا بعد النّبى موسى عليه السّلام و ليس موسى نفسه، لذلك فإن الأمر الوارد هنا بخصوص الإيمان بالرسل يحمل على أنّه أمرّ لمّا يستقبل من الزمان، فلا يتعارض لذلك وروده بعد الأمر بالصّلاة و الزكاة، كما يحتمل- أيضا- أن يكون المراد بعبارة «الرسل» هم «نقباء» بنى إسرائيل حيث أخذ اللّه الميثاق من بنى إسرائيل بأن يكونوا أولياء معهم، (و نقرأ فى تفسير «مجمع البيان» أنّ بعضا من المفسّرين القدماء، احتملوا أن يكون نقباء بنى إسرائيل رسلا من قبل اللّه، و يؤيد هذا الاحتمال الرأى الأخير الذى ذهبنا إليه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۶

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۳]

اشارة

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳)

التّفسير

اشارة

إنّ هذه الآية الكريمة جاءت تشير إلى نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللّه عليهم و الذى ذكرته الآية السابقة.

كما ذكرت هذه الآية نتائج و عواقب هذا النقض حيث تقول: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً[۳۴۱].

و الحقيقة هى أن هؤلاء عوقبوا بهذين الجزاءين بسبب نقضهم لميثاقهم، فقد حرموا من رحمة اللّه، و تحجرت أفكارهم و قلوبهم فلم تعد تبدى أى مرونة أمام الحقائق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۷

و تشرح الآية آثار هذا التحجّر فتقول: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ ...

و وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ....

و لا يستبعد أن تكون علامات و آثار نبيّ الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و التى أشير إليها فى آيات قرآنية أخرى، جزءا

من الأمور التی نسیها بنو إسرائیل- کما یحتمل أن تکون هذه الجملة القرآنیة إشارة إلی ما حرفه أو نسیه جمع من علماء الیهود أثناء تدوینهم للتوراة من جدید بعد أن فقدت التوراة الأصلیة، و إنّ ما وصل إلی هؤلاء من کتاب موسی الحقیقی کان جزءا من ذلک الکتاب و قد اختلط بالکثیر من الخرافات، و قد نسی هؤلاء حتی هذا الجزء الباقی من کتاب موسی علیه السّلام.

ثمّ تتطرق الآیة إلی ظاهرة خبیثة طالما برزت لدی الیهود- بصورة عامّة- إلّا ما ندر منهم، و هی الخیانة التی کانت تتکشف للمسلمین بین فترة و أخری، تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلی خائِنَةٍ[۳۴۲] مِنْهُمْ إِلَّا قَلِیلًا مِنْهُمْ ....

و فی الختام تطلب الآیة من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یعفو عن هؤلاء و یصفح عنهم، مؤکدة أنّ اللّه یحب المحسنین، و ذلک فی قوله تعالی: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ

و لنری هل أنّ المراد فی الآیة أن یعفو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الأخطاء السابقة للأقلیة الصالحة من الیهود، أم أنّ المراد هو العفو عن الأغلبیة الطالحة منهم؟

إنّ ظاهر الآیة یدعم و یؤیّد الاحتمال الثّانی، لأنّ الأقلیة الصالحة لم ترتکب ذنبا أو خیانة لکی یطلب من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم العفو عنهم- و الظن الغالب هو أنّ العفو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۸

و الصفح المطلوبان فی الآیة یشملان- فقط- تلک الحالات التی کان الیهود یوجهون فیها أذاهم و تحرشاتهم و استفزازاتهم إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لا یشملان أخطاء الیهود و جرائمهم بحق الأهداف و المبادئ الإسلامیة، حیث لا معنی للعفو فی هذا المجال.

الممارسات التّحریفیة للیهود:

إنّ ما یستشف من مجموع الآیات الواردة فی القرآن الکریم بخصوص الممارسات التحریفیة للیهود، هو أنّهم کانوا یمارسون أنواع التحریف فی الکتب السماویة الخاصّة بهم.

و کان تحریفهم یتخذ أحیانا طابعا معنویا، أی أنّهم کانوا یفسّرون العبارات الواردة فی تلک الکتب بشکل یناقض المعنی الحقیقی لها، فهم کانوا یحفظون الألفاظ کما هی لکنهم کانوا یغیرون معانیها و هو (التحریف المعنوی)، و کانوا- أیضا- یقومون بتحریف الألفاظ فی بعض الأحیان، فهم بدل أن یقولوا «سمعنا و أطعنا» کانوا یقولون «سمعنا و عصینا» کما کانوا أحیانا یخفون بعض الآیات الإلهیة، فما کان یطابق أهواءهم أظهروه، و أخفوا الآیات التی لم تکن لتتلاءم مع میولهم و رغباتهم و هو «التحریف اللفظی»، و قد وصلت بهم الوقاحة إلی حد أنّهم مع موجود الکتاب السماوی بین أیدیهم کانوا یخادعون الناس بوضع أیدیهم علی الحقائق الواردة فیها، لکی لا یستطیع الناظر قراءتها.

و ستأتی تفاصیل هذا الموضوع لدی تفسیر الآیة (۴۱) من نفس هذه السورة فی قصّة «ابن صوریا».

هل یجعل اللّه قلب الإنسان قاسیا؟

نقرأ فی الآیة- موضوع البحث- إنّ اللّه ینسب لنفسه فعل جعل القسوة فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۹

قلوب مجموعة من الیهود! و الذی نعرفه هو أنّ هذه القسوة ما هی إلّا نتیجة لارتکاب الذنوب و الانحرافات، فکیف إذن ینسب اللّه

فعل جعل القسوة فى قلوب أولئك اليهود إلى نفسه؟ و لو كان هذا الفعل من اللّه، فكيف يكون أولئك الأشخاص مسئولين عن أعمالهم، ألا يعتبر هذا نوعا من الجبر؟

ولدى الإمعان بدقة فى الآيات القرآنية المختلفة، و منها الآية موضوع البحث، يتبيّن لنا أنّ الأشخاص إنما يحرمون- بسبب اخطائهم و ذنوبهم- من لطف اللّه و رحمته و هدايته، و أن أعمالهم هذه فى الحقيقة مصدر لمجموعة من الانحرافات الفكرية و الأخلاقية، بحيث يستحيل على الإنسان- أحيانا- أن يجنب نفسه عواقبها و نتائجها.

و بما أنّ العلل- أو الأسباب- تعطى آثارها بإذن اللّه، لذلك نسب مثل هذه الآثار فى القرآن الكريم إلى اللّه، ففى الآية موضوع البحث نقرأ أنّ اليهود- نتيجة لنقضهم الميثاق- جعل الله قلوبهم قاسية. كما نقرأ فى الآية (۲۷) من سورة إبراهيم قوله تعالى وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ و فى الآية (۷۷) من سورة التوبة نقرأ قوله سبحانه: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ

و واضح أنّ هذه الآثار السيئة تنبع من عمل الإنسان نفسه، و لا تناقض فى هذا الأمر حرية الإرادة و الإختيار، لأنّ مقدمات تلك الآثار تكون من عمل الإنسان و تصدر عنه بعلمه و اختياره، و لأنّ آثار عمله هى النتيجة الحتمية للعمل نفسه، و على سبيل المثال لو أنّ إنسانا تناول شيئا من المشروبات الكحولية، و حصلت لديه حالة من السكر، فقام على أثر هذه الحالة بارتكاب جريمة معينة، فهو و إن كان لا يمتلك إرادته فى حالة السكر، إلّا أنّه قبل ذلك أقدم على شرب الخمرة مختارا و مدركا لما يفعل، و بذلك هيّأ بنفسه مقدمات العمل الجنائى، و هو يعمل احتمال صدور هذا العمل منه فى حالة السكر، و لذلك فهو مسئول عن هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۰

العمل، فلو قيل فى مثل هذه الحالة: إنّ شخصا قد شرب الخمرة فسلبنا منه عقله، فتورط نتيجة عمله فى ارتكاب جريمة، فهل فى هذا القول أى تناقض أو هل يستشف منه مفهوم الجبر؟

و خلاصة القول فإنّ كل أنواع الهداية و الضلال و أمثالها التى تنسب فى القرآن الكريم إلى اللّه سبحانه، إنّما تحصل بشكل حتمى كنتيجة للمقدمات و الأعمال التى تصدر من الإنسان نفسه، و على أثرها يستحق إمّا الهداية أو الضلال، و فى غير ذلك فإنّ العدل و الحكمة الإلهيين، لا يسمحان مطلقا أن يساق إنسان إلى طريق الهداية دون أى مبرر، أو أن يساق آخر إلى طريق الضلال دون وجود سبب لذلك ۳۴۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۱

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۴]

اشارة

وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (۱۴)

التّفسير

العداء الأبدى:

لقد تناولت الآية السابقة ظاهرة نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللّه منهم، أمّا الآية الأخيرة- هذه- فهى تتحدث عن نقض العهد

عنـد النصارى الـذين نسوا قسـما من أوامر اللّه التى كلّفوا بها- فتقول الآيـة فى هذا المجال: وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فهـذه الآية تدل بوضوح على أنّ النصارى- أيضا- كانوا قد عقدوا مع اللّه عهدا على أن لا ينحرفوا عن حقيقة التوحيـد، و أن لاـ ينسوا أوامر و أحكـام اللّه، و أن لاـ يكتموا علائم خاتم النّبيين صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، لكنّهم تورطوا بنفس ما تورط به اليهود مع فارق واحد، و هو أنّ القرآن الكريم يصـرّح بالنسـبة لليهود بأنّ القليل منهم كانوا من الصالحين، بينما يذكر القرآن بأنّ مجموعة من النصارى اختارت طريق الانحراف، حيث يفهم من هذه التعبير أنّ المنحرفين من اليهود كانوا أكثر من المنحرفين من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۲

النصارى.

إنّ تاريـخ تدوين الأناجيل المتداولة يدل على أنّها كتبت بعد المسـيح عليه السّـلام بسـنين طويلة و بأيدى بعض المسـيحيين، و هذا هو دليل وجود الكثير من التناقض الصـريح فيها، و يـدلنا هـذا- أيضا- على أنّ كتبـة الأناجيل قـد نسوا- بصورة تامّـة- أجزاء غير قليلة من الإنجيل الأصلى، و وجود خرافات فى الأناجيل المتداولة من قبيل قصة صنع المسيح عليه السّلام للخمرة[۳۴۴] الأمر الذى يرفضه العقل و يتنافى حتى مع بعض آيات التوراة و الإنجيل المتـداولين، و كذلك قصّة مريم المجدلية[۳۴۵] و غيرها من القصص، كلها دليل على ذلك التناقض.

أمّا كلمـة «نصارى» التى وردت فى الآيـة فهى صـيغة جمع نصـرانى، فقد وردت تفاسير مختلفة حولها، و منها أن المسـيح قد تربى فى صباه ببلدة الناصرة، و قيل- أيضا- أنّ هذه الكلمة هى نسبة إلى نصران، و هى قرية يوليها المسيحيون احتراما خاصا، و يحتمل- أيضا- أن يكون وجه التسـمية ناشـئا عن قول المسـيح عليه السّـلام كمـا تحكيـة الآيـة عنه إذ تقول: كَمـا قـالَ عِيسَـى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ ۳۴۶] فسمّى المسيحيون لذلك بالنصارى.

و لمـا كان جمع من النصارى يقولون ما لا يفعلون، و يزعمون أنّهم من أنصار المسيـح عليه السّـلام يقول القرآن فى هـذه الآيـة: وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ... و هم لم يكونوا صادقين فى دعواهم هـذه، لذلك تسـتطرد الآية الكريمة فتبيّن نتيجة هذا الادعاء الكاذب، و هو انتشار عداء أبدى فيما بينهم حتى يوم القيامة، كما تقول الآية: فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۳

كما ذكرت الآيـة نوعا آخر من الجزاء و العقاب لهـذه الطائفـة النصـرانية، و هو أنّهم سوف يعلمون نتيجـة أعمالهـم و سـيرونها بأعينهم حيث تقول الآية: سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ

و تجدر الإشارة هنا إلى عدّة أمور، هى:

۱- إنّ عبـارة «أغرينـا» مشـتقة من المصـدر «إغراء» و تعنى الصاق شـىء بشـىء آخر، كما تعنى الترغيب أو حمل الشـخص على القيام بعمل معين، بحيث يدفع الشخص إلى الارتباط بأهداف معينة.

و على هـذا الأسـاس يكون مفهوم الآيـة- موضوع البحث- هو أن نقض النصـارى لعهـدهم و ارتكـابهم المعاصـى أديـا إلى أن تنتشـر العـداوة فيمـا بينهم و يعمهم النفـاق و الخلاـف، (و المعلوم أن آثـار الأسـباب التكوينيـة و الطبيعيـة تنسب إلى اللّه) و مـا نراه اليوم من صراعات كثيرة بين الدول المسـيحية، كانت فى يوم ما سببا لاندلاع الحربين العالميتين، و هى كذلك سبب للتكتلات المقترنة بالعداوة و البغضـاء المسـتمرة فيمـا بينهم، أضف إلى ذلـك الخلافـات المذهبيـة الكثيرة التى تسود بين الطوائف المسـيحية التى مـا زالت سـببا لاستمرار الصراع و الاقتتال فيما بينهم.

و قـد ذهب بعض المفسّـرين إلى أنّ المراد من اسـتمرار العـداوة، هو العـداوة و البغضـاء الموجودة بين اليهود و النصارى و اسـتمرارها حتى فناء العالم، و لكن الملاحظ من ظاهر الآية هو استمرار العداوة بين المسيحيين أنفسهم ۳۴۷].

و غنى عن البيان أنّ مثل هـذه العاقبـة لا تقتصـر على المسـيحيين وحدهم، فلو أن المسـلمين ساروا فى نفس هذا الطريق فإن مصيرهم

سیکون مشابها لمصیر المسیحیین أیضا.

۲- إنّ کلمة «العداوة» مشتقة من المصدر «عدو» و هی بمعنی التجاوز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۴

و الانتهاک، أمّا کلمة «البغضاء» المشتقة من المصدر «بغض» فهی تعنی النفور و الاستیاء الشدید من شیء معین، و یحتمل أن یکون الفرق بین الکلمتین المذکورتین هو أنّ لکلمة «بغض» طابع وجدانی أکثر ممّا هو عملی، کما فی کلمة «العداوة» التی لها طابع عملی، و قد یکون لکلمة «بعض» أو «بغضاء» مفهوم أشمل یستوعب العملی منه و القلبی الوجدانی.

۳- یستدل من الآیة هذه علی أنّ النصاری کطائفة دینیة (أو الیهود و النصاری معا) سیکون لهم وجود فی هذه الدنیا حتی یوم القیامة، و قد یقول معترض فی هذا المجال: أنّ الأخبار الإسلامیة تفید بأن دینا واحدا سیعم العالم کله بعد ظهور المهدی (عج) و لن تکون هناک أدیان أخری غیر هذا الدین الذی هو الإسلام الحنیف، فکیف إذن یمکن الجمع و التوفیق و رفع هذا التناقض الظاهر؟

و الجواب هو أنّه یحتمل أن یبقی من المسیحیة و الیهودیة حتی بعد ظهور المهدی (عج) شیء ضئیل علی شکل أقلیة ضعیفة جدا، لأن ما نعلمه هو بقاء حرّیة الإرادة للبشر حتی فی عصر المهدی (عج) و إنّ الدین الإسلامی فی ذلک العصر لا یأخذ طابعا إجباریا، مع أن الأغلبیة العظمی من البشر ستتبع طریق الحق و تمیل إلیه، و الأهم من هذا کله فإن الحکم فی الأرض سیکون للإسلام وحده.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۵

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۱۵ الی ۱۶]

اشارة

یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمَّا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْکِتابِ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ قَدْ جاءَکُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ کِتابٌ مُبِینٌ (۱۵) یَهْدِی بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ یَهْدِیهِمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۱۶)

التّفسیر

بعد أنّ تحدثت الآیات السابقة عن نقض الیهود و النصاری لمیثاقهم، جاءت الآیة الأخیرة لتخاطب أهل الکتاب بصورة عامّة و تدعوهم إلی الإسلام الذی طهر الدیانتین الیهودیة و المسیحیة من الخرافات التی لصقت بهما، و الذی یهدیهم إلی الصراط السّوی المستقیم، و الذی لیس فیه أی انحراف أو اعوجاج.

و تبیّن الآیة- فی البدایة- أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المبعوث إلیهم جاء لیظهر الکثیر من الحقائق الخاصّة بالکتب السماویة التی أخفوها هم (أهل الکتاب) و کتموها عن الناس، و إن هذا الرّسول یتغاضی عن کثیر من تلک الحقائق التی انتفت الحاجة إلیها و زال تأثیرها بزوال العصور التی نزلت لها، فتقول الآیة فی هذا المجال: یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ کَثِیراً مِمَّا کُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۶

الْکِتابِ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ ....

و تدلّ هذه الجملة القرآنیة علی أنّ أهل الکتاب کانوا قد أخفوا و کتموا الکثیر من الحقائق، لکن نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد أظهر من تلک الحقائق ما یفی منها بحاجة البشریة فی عصر الإسلام، مثل بیان حقیقة التوحید و طهارة الأنبیاء و تنزههّم عمّا نسب إلیهم فی التوراة و الإنجیل المزورین، کما بیّن تحریم الربا، و الخمرة و أمثالهما، بینما بقیت حقائق تخص الأمم السابقة و الأزمنة

الغابرة ممّا لا أثر لذكرها فی تربية الأجيال الإسلامية، فلم يتمّ التطرق إليها.

و تشير الآية الكريمة- أيضا- إلى أهمية و عظمة القرآن المجيد و آثاره العميقة فی هداية و إرشاد و تربية البشرية، فتقول: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ النور الذی يهدی به اللّه كل من يبتغی كسب مرضاته إلى سبل السلام، كما تقول الآية الأخرى: يَهْدِی بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ... و ينقذهم من أنواع الظلمات (كظلمة الشرك و ظلمة الجهل و ظلمة التفرقة و النفاق و غيرها ...) و يهديهم إلى نور التوحيد و العلم و الاتحاد، حيث تقول الآية:

وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ....

و إضافة إلى ذلك كلّه يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذی لا اعوجاج و لا انحراف فی جانبيه العقائدی و العملی أبدا، كما تقول الآية: وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

لقد اختلف المفسّرون فی المعنى المراد من كلمة «النّور» الواردة فی الآية، فذهب البعض منهم إلى أنّها تعنی شخص النّبی محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قال مفسّرون آخرون: إنّ المعنی بالنور هو القرآن المجيد.

و حين نلاحظ آيات قرآنية عديدة تشبه القرآن بالنور، يتبيّن لنا أنّ كلمة «النور» الواردة فی الآية- موضوع البحث- إنّما تعنی القرآن، و على هذا الأساس فإنّ عطف عبارة «كتاب مبين» على كلمة (النور) يعتبر من قبيل عطف التوضيح،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۷

كما نقرأ فی الآية (۵۷) من سورة الأعراف: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و فی الآية (۸) من سورة التغابن نقرأ ما يلی: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِی أَنْزَلْنا ... و آيات عديدة أخرى تشير إلى نفس المعنى، بينما لا نجد فی القرآن آية أطلقت فيها كلمة النور على شخص النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و إضافة إلى ما ذكر فإنّ الضمير المفرد الوارد فی عبارة «به» الواردة فی الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، يؤكّد هذا الموضوع أيضا، و هو أن النور و الكتاب المبين هما إشارتان لحقيقة واحدة.

و مع إنّنا نجد روايات عديدة تفسّر كلمة «النّور» على أنّها إشارة إلى الإمام علی بن أبی طالب أمير المؤمنين عليه السّلام أو الأئمّة الإثنی عشر عليهم السّلام جميعهم، لكن الواضح هو أنّ هذا التّفسير يعتبر من باب بيان بواطن الآيات، لأنّنا كما نعلم أنّ للآيات القرآنية- بالإضافة إلى معانيها الظاهرية- معان باطنية يعبّر عنها ب «بواطن القرآن» أو «بطون القرآن»، و دليل قولنا هذا أنّ الأئمّة عليهم السّلام لم يكن لهم وجود فی زمن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكی يدعو القرآن أهل الكتاب للإيمان بهم.

أمّا الأمر الثّانی الوارد فی الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، فهو أنّ القرآن يبشر أولئك الذين يسعون لكسب مرضاة اللّه بأنّهم سيحظون فی ظل القرآن بنعم عظيمة ثلاثة هی:

أوّلا: الهداية إلى سبل السلامة التی تشمل سلامة الفرد و المجتمع، و الروح و الجسد و العائلة، و السلامة الأخلاقية، و كل هذه الأمور تدخل فی الجانب العملی من العقيدة.

و ثانيا: نعمة النجاة من ظلمات الكفر و الإلحاد.

و ثالثا: الهداية إلى النور، و فی هذا دلالة على الطابع العقائدی، و يتمّ كل ذلك من خلال أقصر و أقرب الطرق و هو الذی أشارت إليه الآية ب الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۸

و بديهی أن هذه النعم لا يحظى بها إلّا من أسلم وجهه للّه، و خضع للحق بالعبودية و الطاعة، و كان مصداقا للعبارة القرآنية القائلة: مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ بينما لا يحضى المنافقون و المعاندون و أعداء الحق بأیّ فائدة مطلقا، كما تشير إلى ذلك آيات قرآنية عديدة.

و بديهی- أيضا- أنّ كل هذه النتائج و الآثار، إنّما تحصل بمشيئة اللّه و إرادته وحده دون سواه، كما تشير عبارة «بإذنه» الواردة فی

الآية الأخيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۹

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۷]

اشارة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷)

التّفسير

كيف يمكن للمسيح أن يكون هو اللّه؟!

جاءت هذه الآية الكريمة لتكمل بحثا تطرقت إليه آيات سابقة، فحملت بعنف على دعوى ربوبية المسيح عليه السّلام، و بيّنت أنّ هذه الدعوى ما هى إلّا الكفر الصريح، حيث قالت: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ....

و لكى يتّضح لنا مفهوم هذه الجملة، يجب أن نعرف أنّ للمسيحيين عدّة دعاوى باطلة بالنسبة إلى اللّه سبحانه و تعالى.

فهم أوّلا: يعتقدون بالآلهة الثلاث (أى الثالوث) و قد أشارت الآية (۱۷۱) من سورة النساء إلى هذا الأمر حيث قالت: لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۰

إِلهٌ واحِدٌ ...[۳۴۸].

و ثانيا: إنّهم يقولون: إنّ خالق الكون و الوجود هو واحد من هؤلاء الآلهة الثلاث و يسمونه بالإله الأب ۳۴۹] و القرآن الكريم يبطل هذا الإعتقاد- أيضا- فى الآية (۷۳) من سورة المائدة حيث يقول: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ ... و سيأتى بإذن اللّه تفسير هذه الآية قريبا فى نفس هذا الجزء.

و ثالثا: إنّ المسيحيين يقولون: إنّ الآلهة الثلاث مع تعددهم الحقيقى هم واحد، حيث يعبرون عن ذلك أحيانا ب «الوحدة فى التثليث»، و هذا الأمر أشارت إليه الآية الأخيرة حيث قالت حكاية عن دعوى المسيحيين: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... و قالوا: إنّ المسيح ابن مريم هو اللّه! و إن هذين الإثنين يشكلان مع روح القدس حقيقة واحدة فى ذوات ثلاثة متعددة! و قد ورد كل جانب من جوانب عقيدة التثليث، الذى يعتبر من أكبر انحرافات المسيحيين فى واحدة من الآيات القرآنية، و نفى نفيا شديدا (راجع تفسير الآية ۱۷۱- من سورة النساء من تفسيرنا هذا و فيه التوضيح اللازم فى بيان بطلان عقيدة التثليث).

و يتبيّن- ممّا سلف- أنّ بعض المفسّرين مثل «الفخر الرازى» قد توهّموا فى قولهم بعدم وجود أحد من النصارى ممن يصرح باعتقاده فى اتحاد المسيح باللّه، و ذلك لعدم إلمام هؤلاء المفسّرين بالكتب المسيحية، مع أنّ المصادر المسيحية المتداولة تصرح بقضية «الوحدة فى التثليث» و من المحتمل أن مثل هذه الكتب لم تكن متداولة فى زمن الرازى، أو أنّها لم تصل إليه و إلى أمثاله الذين شاركوه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۱

فى هذا الرأى.

بعد ذلك و لكی تبطل الآیة الكریمة عقیدة ألوهیة المسیح علیه السّلام تقول: قُلْ فَمَنْ یَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ یُهْلِكَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً ... و هذه إشارة إلی أنّ المسیح علیه السّلام إنّما هو بشر كأمه و كسائر أفراد البشر، و علی هذا الأساس فهو یعتبر- لكونه مخلوقا- فی مصاف المخلوقات الأخری یشاركها فی الفناء و العدم، و من حاله كهذا كیف یمكنه أن یكون إلها أزلیا أبدیا؟! و بتعبیر آخر: لو كان المسیح علیه السّلام إلها لاستحال علی خالق الكون أن یهلكه، و تكون نتیجة ذلك أن تتحدد قدرة هذا الخالق، و من كانت قدرته محدودة لا یمكن أن یكون إلها، لأنّ قدرة اللّه كذاته لا تحدّها حدود مطلقا (تدبّر جیدا).

إنّ ذكر عبارة «المسیح بن مریم» بصورة متكررة فی الآیة، قد یكون إشارة إلی هذه الحقیقة، و هی اعتراف المسیحیین ببنوّة المسیح علیه السّلام لمریم، أی أنّه ولد من أم و أنّه كان جنینا فی بطن أمّه قبل أن یولد، و حین ولد طفلا احتاج إلی النموّ لیصبح كبیرا، فهل یمكن أن یستقر الإله فی محیط صغیر كرحم الأمّ، و یتعرض لجمیع تحولات الوجود و الولادة و یحتاج للأمّ حین كان جنیا و حین الرضاعة؟! و الجدیر بالانتباه أنّ الآیة الأخیرة تذكر بالإضافة إلی اسم المسیح علیه السّلام اسم أمّه و تذكرها بكلمة «أمه» و بهذه الصورة تمیز الآیة أمّ المسیح علیه السّلام عن سائر أفراد البشر، و یحتمل أن یكون هذا التعبیر بسبب أنّ المسیحیین أثناء ممارستهم للعبادة، یعبدون أمّ المسیح أیضا، و الكنائس الموجودة الیوم تشتمل علی تماثیل لأم المسیح، حیث یقف المسیحیون أمامها تعظیما و تعبدا.

و إلی هذا الأمر تشیر الآیة (۱۱۶) من سورة المائدة فتقول: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلهَیْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... و هذا الخطاب حكایة عمّا یحصل من حوار فی یوم القیامة.

و فی الختام ترد الآیة الكریمة علی أقوال أولئك الذین اعتبروا ولادة المسیح

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۲

من غیر أب دلیلا علی ألوهیته فتقول: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما یَخْلُقُ ما یَشاءُ وَ اللَّهُ عَلی كُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

فاللّه قادر علی أن یخلق إنسانا من غیر أب و من غیر أم كما خلق آدم علیه السّلام، و هو قادر أیضا علی أن یخلق إنسانا من غیر أب كما خلق عیسی المسیح علیه السّلام، و قدرة اللّه هذه كقدرته فی خلق البشر من آبائهم و أمّهاتهم، و هذا التنوع فی الخلق دلیل علی قدرته، و لیس دلیلا علی أی شیء آخر سوی هذه القدرة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۳

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۱۸]

اشارة

وَ قالَتِ الْیَهُودُ وَ النَّصاری نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ یُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ (۱۸)

التّفسیر

استكمالا للبحوث السابقة التی تناولت بعض انحرافات الیهود و النصاری، تشیر الآیة الأخیرة إلی أحد الدعاوی الباطلة التی تمسك بها هؤلاء، فتقول:

وَ قالَتِ الْیَهُودُ وَ النَّصاری نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ

و لم یكن هذا الامتیاز الوهمی الذی ادعاه الیهود و النصاری لأنفسهم هو الوحید من نوعه، إذ أن القرآن الكریم قد أشار فی آیات

عدیدة إلی أمثال هذه الادعاء.

ففی الآیة (۱۱۱) من سورة البقرة، أشار القرآن إلی ادعائهم الـذی زعموا فیه أن أحـدا غیرهم لا یـدخل الجنّة، و زعموا أن الجنّة هی حکر علی الیهود و النصاری، و قد فند القرآن هذه الادعاء.

کما جاء الآیة (۸۰) من سورة البقرة ادعاء آخر للیهود، و هو زعمهم أن نار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۴

جهنم لن تمسهم إلا فی أیّام معدودة، و قد وبخهم القرآن علی زعمهم هذا.

و فی الآیـة الأـخیرة یشیر القرآن الکرم إلی ادعـائهم البنوة للّه، و زعمهم أنّهم أحباء للّه، و لا شک أن هؤلاء لم یعرّفوا أنفسـهم کأبناء حقیقیین للّه، بل إنّ المسیحیین وحدهم یدّعون أن المسیح هو الابن الحقیقی للّه، و قد صـرحوا بهذا الأمر[۳۵۰] و أنّهم حین اختاروا لأنفسـهم صـفة البنوة للّه و أدعوا بأنّهم اللّه إنما لیظهروا بأن لهم علاقـة خاصّة باللّه سـبحانه، و کأنّهم أرادوا کل من ینتمی إلیهم انتماء قومیا أو عقائدیا یصبح من أبناء اللّه و أحبائه حتی لو لم یقم بأی عمل صالح.[۳۵۱] و واضح لدینا أنّ القرآن الکریم حارب کل هذه الامتیازات و الدعاوی الوهمیة، فهو لا یری للإنسان امتیازا إلّا بالإیمان و العمل الصالح و التقوی، و لذلک تقول الآیة الأخیرة فی تفنید و إبطال الادعاء الأخیر: قُلْ فَلِمَ یُعَـذِّبُکُمْ بِذُنُوبِکُمْ فهؤلاء- بحسب اعترافهم أنفسـهم- یشـملهم العـذاب الإلهی حیث قالوا بأن العذاب یمسّـهم لأیّام معـدودة، فکیف یتلاءم ذلک الادعاء و هـذا الاعتراف؟ و کیف یمکن أن یشـمل عـذاب اللّه أبناءه و أحباءه؟! و من هنا یثبت أن لا أساس و لا صـحة لهذا الادعاء، و قد شـهد تاریخ هؤلاء علی أنّهم حتی فی هذه الدنیا ابتلوا بسلسلة من العقوبات الإلهیة، و یعتبر هذا دلیلا آخر علی زیف و بطلان دعواهم تلک.

و لکی تؤکد الآیة الکریمة زیف و بطلان الدعوی المذکورة استطردت تقول:

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ... و القانون الإلهی عام، فإن اللّه یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ ....

و بالإضافة إلی ذلک فإنّ کل البشـر هم من خلق اللّه، و هم عباده و أرقاؤه، و علی هذا الأساس لیس من المنطق إطلاق اسم «ابن اللّه» علی أی منهم، حیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۵

تقول الآیة: وَ لِلَّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما ....

و فی النهایة تعود المخلوقات کلها إلی اللّه، حیث تؤکد الآیة هنا بقولها:

وَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ.

و قـد یسأل البعض: أین و متی ادعی الیهود و النصـاری أنّهم أبناء اللّه حتی لو کان معنی البنوة فی هـذه الآیـة هو معنی مجازی و غیر حقیقی).

الجواب هو أنّ الأناجیل المتداولـة قـد ذکرت هـذه العبارة، و یلاحظ ذلک فیها بصورة متکررة، من ذلک ما جاء فی إنجیل یوحنا فی الإصحاح ۸- الآیة ۴۱ و مـا بعـدها، حیث نقرأ علی لسان عیسـی فی خطابه للیهود قوله: «إنّکم تمارسون أعمال أبیکم، فقال له الیهود: نحن لم نولد من الزنا و إن أبانا واحد و هو اللّه! فقال لهم عیسی: لو کان أبوکم هو اللّه لکنتم احبیتمونی ...».

و قد ورد فی الروایات الإسـلامیة- أیضا- فی حدیث عن ابن عباس مضـمونه أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا جمعا من الیهود إلی دین الإسـلام و حذّرهم من عذاب اللّه، فقال له الیهود: کیف تخوفنا من عذاب اللّه و نحن أبناؤه و أحباؤه [۳۵۲]! و ورد فی تفسیر مجمع البیان، فی تفسیر الآیـة موضوع البحث، حـدیث علی غرار الحـدیث المذکور أعلاه، مضـمونه أنّ جمعا من الیهود حین هددهم النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بعـذاب اللّه قـالوا: لاـ تهـددنا فنحن أبنـاء اللّه و أحباؤه، و هو إن غضب علینا یکون غضـبة کغضـب الإنسان علی ولده، و هو غضب سریع الزوال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۶

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۱۹]

اشارة

یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلی فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِیرٍ وَ لا نَذِیرٍ فَقَدْ جاءَکُمْ بَشِیرٌ وَ نَذِیرٌ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۹)

التّفسیر

اشارة

تکرر هذه الآیة الخطاب إلی أهل الکتاب من الیهود و النصاری، فتبیّن لهم أنّ النّبی المرسل إلیهم مرسل من عند اللّه، أرسله فی عصر ظلت البشریة قبله فترة دون أن یکون لها نبیّ، فبیّن لهم هذا النّبی الحقائق، لکی لا یقولوا بعد هذا إنّ اللّه لم یرسل إلیهم من یهدیهم إلی الصراط السوی و یبشرهم بلطف اللّه و رحمته و یحذرهم من الانحراف و الاعوجاج، و ینذرهم بعذاب اللّه، حیث تقول الآیة: یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلی فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِیرٍ وَ لا نَذِیرٍ ....

نعم، فالبشیر و النذیر هو نبیّ الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذی یبشر المؤمنین الذین یعملون الصالحات برحمة اللّه و ثوابه، و ینذر الذین کفروا و العاصین بعذاب اللّه و عقابه، و قد جاء لیبشر و لینذر أهل الکتاب و البشریة جمعاء، حیث تؤکّد الآیة هذا بقوله تعالی: فَقَدْ جاءَکُمْ بَشِیرٌ وَ نَذِیرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۷

أمّا کلمة «فترة» الواردة فی الآیة فهی تعنی فی الأصل الهدوء و السکینة کما تطلق علی الفاصلة الزمنیة بین حرکتین أو جهدین أو نهضتین أو ثورتین.

و قد شهدت الفاصلة الزمنیة بین موسی علیه السّلام و عیسی علیه السّلام عددا من الأنبیاء و الرسل، بینما لم یکن الأمر کذلک فی الفاصلة الزمنیة بین عیسی علیه السّلام و النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لذلک أطلق القرآن الکریم علی هذه الفاصلة الأخیرة اصطلاح فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ و المعروف أن هذه الفترة دامت ستمائة عام تقریبا[۳۵۳].

أمّا ما جاء فی القرآن- فی سورة یس الآیة ۱۴- و ما ذکره المفسّرون، فیدلان علی أنّ ثلاثة من الرسل- علی الأقل- قد بعثوا فی الفاصلة الزمنیة بین النّبی عیسی علیه السّلام و نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و قد ذکر البعض أنّ أربعة من الرسل بعثوا فی تلک المدة، و علی أی حال لا بدّ أن تکون هناک فترة خلت من الرسل بین وفاة أولئک الرسل و النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لذلک عبّر القرآن عن تلک الفترة الخالیة من الرسل بقوله: عَلی فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ

سؤال:

و قد یعترض البعض بأنّه کیف یمکن القول بوجود مثل تلک الفترة مع أنّ الإعتقاد السائد لدینا یقضی بأن المجتمع البشری لا یمکن أن یخلو و لو للحظة من رسول أو إمام معین من قبل اللّه سبحانه و تعالی؟

الجواب:

إنّ القرآن الكريم حين يقول: عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ إنّما ينفى وجود الرسل فى تلك المدّة، و لا يتنافى هذا الأمر مع القول بوجود أوصياء للرسل فى ذلك الوقت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۸

و بعبارة أخرى، فإنّ الرسل هم أشخاص كانوا يمارسون الدعوة على نطاق واسع، و كانوا يبشرون و ينذرون الناس، و يثيرون الحركة و النشاط فى المجتمعات، و يوقظونها من سباتها بهدف إيصال ندائهم الى الجميع، بينما لم يكن جميع أوصياء الرسل ليحملوا مثل تلك المهمّة، بل يحتمل- أيضا- إنهم لظروف و عوامل اجتماعية خاصّة، كانوا يعيشون بين الناس أحيانا متخفين متنكرين.

و

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى إحدى خطبه الواردة فى كتاب «نهج البلاغة» فى هذا المجال ما يلى: «اللّهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجة إمّا ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا لئلا تبطل حجج اللّه و بيناته، يحفظ اللّه بهم حججه و بيّناته حتى يودعوها نظراءهم و يزرعوها فى قلوب أشباههم»[۳۵۴].

و واضح أن المجتمع البشرى لو خلى من الرسل الثوريين و الدعاة العالمين، لعمت هذه المجتمع الخرافات و الوساوس الشيطانية و الانحرافات و الجهل بالتعاليم الإلهية، و تكون مثل هذه الحالة خير حجة بأيدى أولئك الذين يريدون الفرار و التخلى عن المسؤوليات، لذلك فإن اللّه يبطل هذه الحجة عن طريق الرجال الرساليين المرتبطين به و الموجودين دائما بين أبناء البشر.

و فى الختام تؤكد الآية على شمولية قدرة اللّه عزّ و جلّ فتقول: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و هذا بيان بأنّ إرسال الأنبياء و الرسل و تعيين أوصيائهم أمر يسير بالنسبة لقدرة اللّه العزيز المطلقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۹

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۲۰ الى ۲۶]

اشارة

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (۲۰) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (۲۱) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (۲۲) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۳) قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (۲۴)

قالَ رَبِّ إِنِّى لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَ أَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۲۵) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۲۶)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۰

التّفسير

بنو إسرائيل و الأرض المقدسة:

جاءت هذه الآيات لتثير لدى اليهود دافع التوجه إلى الحق و السعى لمعرفته أوّلا، و إيقاظ ضمائرهم حيال الأخطاء و الآثام التى ارتكبوها ثانيا، و لكى تحفزهم إلى السعى لتلافى اخطائهم و التعويض عنها، و يذكرهم القرآن فى الآية الأولى بما قاله النّبى موسى عليه السّلام لأصحابه حيث تقول: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ....

و لا يخفى أنّ عبارة (نعمة اللّه) تشمل جميع الأنعم الإلهية، لكن الآية استطردت فبيّنت ثلاثا من أهم هذه النعم، أوّلها نعمة ظهور أنبياء و قادة كثيرين بين اليهود، و التى تعتبر أكبر نعمة وهبها اللّه لهم، فتقول الآية: إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ ... و قد نقل أنّ فى زمن موسى بن عمران وحده كان يوجد بين اليهود سبعون نبيّا، و إنّ السبعين رجلا الذين ذهبوا مع موسى عليه السّلام إلى جبل «الطور» كانوا كلهم بمنزلة الأنبياء.

و فى ظل هذه النعمة (نعمة وجود الأنبياء) نجى اليهود من هاوية الشرك و الوثنية و عبادة العجل و تخلصوا من مختلف أنواع الخرافات و الأوهام و القبائح و الخبائث، لذلك أصبحت هذه النعمة أكبر النعم المعنوية التى أنعم اللّه بها على بنى إسرائيل.

بعد هذا تشير الآية إلى أكبر نعمة مادية وهبها اللّه لليهود فتقول: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً ... و تعتبر هذه النعمة- أيضا- مقدمة للنعم المعنوية، فقد عانى بنو إسرائيل لسنين طويلة من ذل العبودية فى ظل الحكم الفرعونى، فلم يكونوا ليمتلكوا فى تلك الفترة أى نوع من حرية الإرادة، بل كانوا يعاملون معاملة البهائم المكبلة فى القيود، و قد أنقذهم اللّه من كل تلك القيود ببركة النّبى موسى بن عمران عليه السّلام و ملكهم مصائرهم و مقدراتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۱

و قد ظن البعض أنّ المراد من كلمة «الملوك» الواردة فى الآية هم المملوك و السلاطين الذين ظهروا من سلالة بنى إسرائيل، فى حين أنّ المعروف هو أنّ بنى إسرائيل لم يحكموا إلّا فترة قصيرة، فلم يحظ منهم إلّا القليل بمنزلة الملوكية، بينما الآية- موضوع البحث- تقول: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً و هذه إشارة إلى تمتع جميع بنى إسرائيل بهذه المنزلة، و يتبيّن من هذا أنّ المراد بكلمة «ملوك» الواردة فى الآية أن بنى إسرائيل قد تملكوا مصائرهم و مقدارتهم بعد أن كانوا مكبلين بقيود العبودية فى ظل الحكم الفرعونى.

إضافة إلى ذلك فإنّ كلمة «ملك» فى اللغة لها معان عديدة منها «السلطان» و منها «المالك لزمان الأمور» و منها- أيضا- المالك لرقبة شيء معين ۳۵۵].

و

نقل فى تفسير «الدر المنثور» عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديثا جاء فيه: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم و دابة و امرأة كتب ملكا ...».

و تشير هذه الآية فى اخرها إلى أنّ اللّه قد وهب بنى إسرائيل فى ذلك الزمان نعما لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر فى ذلك الحين فتقول: وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ و كانت هذه النعم و الوافرة كثيرة الأنواع، فمنها نجاة بنى إسرائيل من مخالب الفراعنة الطغاة، و انفلاق البحر لهم، و نزول غذاء خاص عليهم مثل «المن و السلوى»، و قد أوردنا تفاصيل ذلك فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا، لدى تفسير الآية (۵۷) من سورة البقرة.

و الآية التالية تبيّن واقعة دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة نقلا عن لسان نبيّهم موسى عليه السّلام فتقول: يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ

و قد اختلف المفسّرون حول المراد بعبارة (الأرض المقدسة) الواردة فى الآية،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۲

و حول موقعها الجغرافی من العالم.

فيرى البعض أنّها أرض «بيت المقدس» حيث القدس الشريف، و آخرون يرون أنّها «أرض الشام» و فئة ثالثة ترى أنّها «الأردن و فلسطين» و جماعة أخرى تقول أنّها أرض «الطور».

و لكن لا يستبعد أن يكون المراد من العبارة المذكورة كل أرض الشام التی تشمل جميع الاحتمالات الواردة، لأنّ هذه الأرض- كما يشهد التاريخ- تعتبر مهدا للأنبياء، و مهبطا للوحی، و محلا لظهور الأديان السماوية الكبرى، كما أنّها كانت لفترت طوال من التاريخ مركزا للتوحيد و عبادة اللّه الواحد الأحد، و نشر تعاليم الأنبياء ... لهذه الأسباب كلها سمّيت ب «الأرض المقدسة» مع أنّ هذا الاسم يطلق عن منطقة «بيت المقدس» بصورة خاصّة أحيانا (و قد بينا هذا الأمر فی الجزء الأوّل من كتابنا هذا).

و يستدل من جملة كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ... إنّ اللّه قد قرر أن يعيش بنو إسرائيل فی الأرض المقدسة بالرغد و الرخاء و الرفاه (شريطة أن يحموا هذا الأرض من دنس الشرك و الوثنية) و أن لا ينحرفوا (عن تعاليم الأنبياء) إن لم يلتزموا بهذا الأمر سيحيط بهم من قبل اللّه عذاب أليم شديد.

و على هذا الأساس لا يوجد أیّ تناقض بين فشل جيل من بنی إسرائيل الذين خوطبوا بهذه الآية فی دخول الأرض المقدسة، و ابتلائهم بالتيه و الضياع لمدة أربعين عاما فی الصحارى و القفار، حتى نجح الجيل التالی من بعدهم بدخول تلك الأرض، لا يوجد أیّ تناقض بين ما ذكر و بين جملة كتب الله عليكم ... لأنّ هذا التقدير الإلهی و القرار الربانی إنّما قيد بشروط لم ينفذها ذلك الجيل الأوّل من بنی إسرائيل، و توضح هذا الأمر الآيات التالية.

و قد واجه بنو إسرائيل دعوة موسى عليه السّلام للدخول إلى الأرض المقدسة مواجهة الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الانتصارات فی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۳

ظل الصدف و المعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد فی هذا المجال، و ردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السّلام بقولهم كما تنقله الآية: قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ ۳۵۶] وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ

و يدل جواب بنی إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذی خلفه الحكم الفرعونی على نفوس هؤلاء فإنّ فی كلمة «لن» التی تفيد التأبيد دلالة على الخوف و الرعب العميقين اللذين استوليا على هذه الطائفة ممّا أرغمهم على الامتناع عن الدخول فی أی صراع من أجل تحرير الأرض المقدسة و تطهيرها.

و كان على بنی إسرائيل أن يحرروا تلك الأرض بكفاحهم و تضحياتهم، أمّا لو أنّ الأعداء تركوا الأرض المقدسة أو أبيدوا فيها بمعجزة على خلاف السنة الإلهية الطبيعية، فإن بنی إسرائيل بدخولهم إليها- فی مثل هذه الحالة دون أی عناء أو مشقة- كانوا سيواجهون العجز فی إدارة تلك الأرض الواسعة الغنية، و لم يكونوا ليبدوا أیّ اهتمام بالحفاظ على شیء حصلوا عليه دون جهد أو معاناة، فلا يظهر لديهم و الحالة هذه أی استعداد أو كفاءة لعمل ذلك.

أمّا المراد من عبارة قَوْماً جَبَّارِينَ فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقة»[۳۵۷] الذين كانوا يمتلكون أجساما ضخمة، و كانت لهم أطوال خارقة، بحيث ذهب الكثير إلى المبالغة فی طول أجسام هؤلاء و صنعوا الأساطير

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۴

الخرافية من ذلك، و كتبوا فيهم مواضيع تثير السخرية لا يسندها أیّ دليل علمی، و بالأخص فيما كتبوه عن المدعو ب «عوج» فی التواريخ المصطنعة المشوبة بالخرافات و الأساطير.

و يبدو أن مثل هذه الخرافات التی تسربت حتى إلى بعض الكتب الإسلامية، و إنّما هی من صنع بنی إسرائيل، و التی تسمّى عادة ب «الإسرائيليات» و الدليل على هذا القول هو ما ورد نصا فی التوراة المتداولة من أساطير خرافية تشبه أساطير العمالقة، نقرأ فی سفر

الأعداد فى أواخر الفصل الثّالث عشر «إن الأرض التى ذهب بنو إسرائيل إليها لاستقصاء أخبارها هى أرض تبيد ساكنيها و إن جميع من فها هم أناس طوال و فيهم العمالقة من أبناء «عناق» بشكل كان بنو إسرائيل الذين ذهبوا للتجسس هناك أشبهٔ بالجراد قياسا بأحجام العمالقة الموجودين فى تلك الأرض!».

بعد هذا الحديث يشير القرآن الكريم إلى رجلين أنعم اللّه عليهما بالإيمان و التقوى و الورع و شملهما بنعمه الكبيرة، فجمعا صفات الشجاعة و الشهامة و المقاومة مع الدرك الاجتماعى و العسكرى ممّا دفعهما إلى الدفاع عن اقتراح النّبى موسى عليه السّلام فواجها بنى إسرائيل بقولهما: ادخلوا عليهم من باب المدينة، و حين تدخلون عليهم سيواجهون الإمر الواقع فتكونون أنتم المنتصرون، تقول الآية الكريمة فى هذا المجال: قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ

و تؤكد الآية- بعد ذلك على ضرورة الاعتماد على اللّه فى كل خطوة من الخطوات، و الاستمداد من روح الإيمان بقوله تعالى: وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

و ما ذكره أغلب المفسّرين حول هوية هذين الرجلين هو أنّهما «يوشع بن نون» و «كالب بن يوحنا» و هما من النقباء الإثنى عشر فى بنى إسرائيل، كما ورد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۵

سابقا[۳۵۸].

مع كل الاحتمالات العديدة الواردة فى تفسير جملة مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ إلّا أنّ الواضح من ظاهر هذه الجملة، هو أنّ الرجلين المذكورين فى الآية هما من جماعة تخاف اللّه و تخشاه وحده دون غيره، و يؤيد هذا التّفسير ما جاء فى جملة أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ... فأى نعمة أكبر و أرفع من أن يخاف الإنسان من اللّه وحده و لا يخشى أحدا سواه.

و قد يسأل سائل فى هذا المجال عن مصدر علم هذين الرجلين، و كيف أنّهما علما أن بنى إسرائيل ستكون لهم الغلبة إن هم دخلوا المدينة- أو الأرض المقدسة- فى هجوم مباغت؟

و جوابه: لعل علم هذين الرجلين بتلك الغلبة كان نابعا من ثقتهما بأقوال النّبى موسى عليه السّلام أو أنّهما اعتمدا على قاعدة كلية فى الحروب، مفادها أن الجماعة المهاجمة إن استطاعت الوصول إلى مقر و مركز العدو- أى تمكنت من محاربة العدو فى داره- فإنها ستنتصر عليه ۳۵۹] عادة.

و المستهدفون فى تلك الحرب هم قوم المعالقة، و هم بسبب ما كانوا عليه من طول خارق، كان أسهل عليهم أن يحاربوا فى بر أو فضاء مفتوح بدل الحرب فى مدينة، فيها- بحسب العادة- الأزقة و الطرق الملتوية (بغضّ النظر عن الجوانب الأسطورية التى تتحدث عن الطول الخارق لهؤلاء العمالقة)، أضف إلى ذلك كله أنّ العمالقة- كما نقل- كانوا على رغم قاماتهم الطويلة أناسا جبناء رعاديد، يرهبهم كل هجوم مباغت، و كل هذه الأسباب أصبحت دليلا قويا لدى الرجلين المذكورين ليقولا بحتمية انتصار بنى إسرائيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۶

و الذى حصل حقيقة هو أنّ بنى إسرائيل لم يقتنعوا بأى من الاقتراحات المذكورة، فهم بسبب الضعف و الجبن المتأصلين فى نفوسهم خاطبوا موسى عليه السّلام و أخبروه صراحة بأنّهم لن يدخلوا تلك الأرض ما دام العمالقة موجودين فيها، و طالبوا موسى أن يذهب هو و ربه لمحاربة العمالقة و سألوه أن يخبرهم عن انتصاره حيث هم قاعدون، و فى هذا المجال تقول الآية الكريمة: قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ

و تبيّن هذه الآية مدى الوقاحة التى وصل إليها بنو إسرائيل فى مخاطبة نبيّهم موسى عليه السّلام، فهم بقولهم «لن» و «أبدا» أكدوا رفضهم القاطع للدخول إلى الأرض المقدسة، كما أنّهم استخفوا بموسى عليه السّلام و دعوته و استهزءوا بهما، بقولهم: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ... كما أنّهم- أيضا- لم يعيروا التفاتا لاقتراح الرجلين المؤمنين المذكورين فى الآية، و لم يبدوا حيال

ذلک أی جواب.

و الطریف فی الأمر أن التوراة المتداولة قد أوردت أجزاء مهمّة من هذه القصة، فی الباب الرابع عشر من سفر الأعداد، حیث جاء فیها أن جمیع بنی إسرائیل لاموا موسی و هارون أخاه و قالوا جمیعا: لیتنا متنا جمیعا فی أرض مصر أو فی الفلاة، فلما ذا جاء بنا الرّب إلی هذه الأرض لکی نقتل بحدّ السیف، و تسبی عیالنا و أطفالنا بعدنا ... فحار موسی و أخاه هارون أمام القوم، ما ذا یفعلان؟ أمّا یوشع بن نون و کالیب بن یفنة، اللذان کانا من مجموعة الرجال الذین ذهبوا للتجسس علی تلک الأرض فقد شقا جیبهما ...

ثمّ نقرأ فی الآیة التالیة أنّ موسی أصابه الیأس و القنوط من القوم، و رفع یدیه للدعاء مناجیا ربّه قائلا: إنّه لا یملک حریة التصرف إلّا علی نفسه و أخیه، و طلب من اللّه أن یفصل بینهما و بین القوم الفاسقین العصاة، لکی یلقی هؤلاء جزاء أعمالهم و یبادروا إلی إصلاح أنفسهم، حیث تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال:

قالَ رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِکُ إِلَّا نَفْسِی وَ أَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۷

و بدیهی إنّ رفض بنی إسرائیل القاطع لأمر نبیهم کان بمثابة الکفر، و ما استخدام القرآن لعبارة «الفاسق» بحق هؤلاء إلا لأن کلمة «الفسق» لها معان واسعة، و تشمل کل خروج و انحراف عن سنة العبودیة للّه، و لذلک نقرأ فی القرآن الکریم- حین التحدث عن انحراف الشیطان- قول اللّه تعالی: فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...[۳۶۰].

و تجدر هنا الإشارة إلی أنّ جملة: مِنَ الَّذِینَ یَخافُونَ ... الواردة فی الآیات السابقة تدل علی وجود قلة من الیهود کانت تخشی اللّه، و منهم الرجلان المذکوران فی إحدی الآیات الأخیرة و هما «یوشع» و «کالیب» بینما نلاحظ أن موسی علیه السّلام لا یذکر هنا غیر نفسه و أخیه، و لا یذکر و لو حتی بالتلمیح أحدا من تلک القلّة، و قد یکون السبب هو أن هارون لکونه الوصی لأخیه موسی علیه السّلام و لکونه أبرز شخصیة فی بنی إسرائیل من بعد موسی علیه السّلام ... لذلک ذکر اسمه دون غیره.

و کانت نتیجة صلف و عناد بنی إسرائیل أنّهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب اللّه دعاء نبیه موسی علیه السّلام، فحرم علیهم دخول الأرض المقدسة، الملیئة بالخیرات مدّة أربعین عاما، و فی هذا المجال تقول الآیة القرآنیة الکریمة: قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَیْهِمْ أَرْبَعِینَ سَنَةً ....

و زادهم عذابا إذ کتب علیهم التیه و الضیاع فی البراری و القفار طیلة تلک الفترة، حیث تقول الآیة فی ذلک: یَتِیهُونَ فِی الْأَرْضِ ... و قد سمیت الصحراء التی تاه فیها بنو إسرائیل باسم «التیه» أیضا، و کانت جزءا من صحراء سیناء، کما ذکرنا فی الجزء الأوّل من تفسیرنا هذا.

بعد ذلک تذکر الآیة أنّ ما نال بنی إسرائیل من عذاب فی تلک المدة، کان مناسبا لما فعلوه، و تطلب من موسی علیه السّلام أن لا یحزن علی المصیر الذی لا قوه حیث تقول الآیة الکریمة: فَلا تَأْسَ عَلَی الْقَوْمِ الْفاسِقِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۸

و ربما کان سبب ورود الجملة الأخیرة، هو أنّ موسی علیه السّلام قد ثارت عاطفته بعد أن علم بالعذاب الذی کتبه اللّه علی بنی إسرائیل، فطلب من اللّه العفو لقومه- کما ورد فی التوراة المتداولة- فأجابه برد سریع أوضح له أن بنی إسرائیل یستحقون ذلک العذاب، و هم لا یستحقون العفو الإلهی لأنّهم أناس فاسقون و عصاة، متکبرون، و من کان هذا شأنه سیلاقی- حتما- مثل هذا المصیر.

و یجب الانتباه إلی أنّ حرمان بنی إسرائیل من الدخول إلی الأرض المقدسة، لم یکن له طابع للانتقام (کما أن جمیع العقوبات الإلهیة لیس فیها طابع انتقامی، بل هی إما أن تکون لأجل تقویم شخصیة الفرد، أو تکون نتیجة لأخطائه و معاصیه.

و قد اشتمل هذا الحرمان علی فلسفة خاصّة، حیث تحرر بنو إسرائیل بعد معاناة طویلة قاسوها فی ظل الکبت و القمع الفرعونی اللذین خلفا فیهم عقد الإحساس باحتقار النفس و الذل و الضعة و النقص، لذلک فهم لم یبدوا استعدادا لتطهیر أنفسهم و أرواحهم فی تلک الفترة بعد التحرر و فی ظل قیادة و زعامة نبیّهم موسی علیه السّلام کما لم یکونوا مستعدین لتلک القفزة المعنویة التی کان من شأنها

أن تهیء لهم حیاة جدیدة مقرونة بالفخر و العز و السؤدد، و جوابهم لموسی علیه السّلام- الذی اشتمل علی رفضهم الدخول إلی میدان الجهاد التحرری فی الأرض المقدسة- خیر دلیل علی هذه الحقیقة.

لذلک کان من الضروری أن یعانی بنو إسرائیل من التیه و الضیاع فی الصحراء، لیزول الجیل الضعیف العاجز منهم بشکل تدریجی و لیحل محله جیل جدید فی محیط الصحراء، محیط الحریة و فی أحضان التعالیم الإلهیة، و قد صقلت نفوسهم حیاة الصحراء القاسیة الضاریة، و وهبت لأرواحهم و أنفسهم القوة و القدرة، و أعدتهم لخوض غمار ذلک الجهاد لیقیموا حکومة الحق فی تلک الأرض المقدسة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۹

الآیات [سورة المائدة (۵): الآیات ۲۷ الی ۲۹]

اشارة

وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قالَ إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی ما أَنَا بِباسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ (۲۸) إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَ ذلِکَ جَزاءُ الظَّالِمِینَ (۲۹)

التّفسیر

أوّل حادثة قتل علی الأرض:

لقد تناولت هذه الآیات الثلاث الأخیرة قصّة ولدی آدم علیه السّلام و کیف قتل أحدهما أخاه الآخر، و لعل وجه الصلة بین هذه الآیات و الآیات التی سبقتها فی شأن بنی إسرائیل، هو غریزة «الحسد» التی کانت دائما أساسا للکثیر من مخالفات و انتهاکات بنی إسرائیل حیث یحذرهم اللّه فی هذه الآیات من مغبة و عاقبة الحسد الوخیمة القاتلة، التی تؤدی أحیانا إلی أن یعمد أخ إلی قتل أخیه!

و الآیة تقول فی هذا المجال لنبیّ اللّه أن یتلو علی قومه قصّة ولدی آدم: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۰

و لعل استخدام کلمة «بالحق» فی هذه الآیة جاء للإشارة إلی أن القصّة المذکورة قد أضیفت لها خرافات مختلفة، و لبیان أنّ القرآن الکریم جاء بالقصة الحقیقیة التی حصلت بین ولدی آدم علیه السّلام.

و لا شک أنّ کلمة «آدم» الواردة فی الآیة، تشیر إلی أبی البشریة الحاضرة، و إنّ ما ذهب إلیه البعض مع أنّها إشارة إلی شخص من بنی إسرائیل اسمه «آدم» لا أساس له من الواقع، لأنّ هذه الکلمة استخدمت مرارا فی القرآن للدلالة علی اسم أبی البشریة، فلو صحّ الافتراض الأخیر لوجب أن تشتمل الآیة- أو الآیات- التی بعدها علی قرینة تصرف الاسم عن مسماه الحقیقی الأوّل، و لا یمکن لآیة مِنْ أَجْلِ ذلِکَ ... التی سیأتی تفسیرها قریبا، أن تکون قرینة علی الافتراض المذکور کما سیأتی تفصیله.

و تواصل الآیة سرد القصّة فتقول: إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ....

و قد أدت هذه الواقعة إلی أن یهدد الأخ- الذی لم یتقبل اللّه القربان منه- أخاه بالقتل و یقسم أنّه قاتله لا محالة، کما جاء فی قوله تعالی فی الآیة: قالَ لَأَقْتُلَنَّکَ أما الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشیرا إلی أن عدم قبول القربان منه إنّما نتج عن علّة فی عمله، و أنّه لیس لأخیه أی ذنب فی رفض القربان، مؤکدا أنّ اللّه یقبل أعمال المتقین فقط حیث تقول الآیة: قالَ إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ

و أكـد له أنّه لو نفـذ تهديـده و عمـد إلى قتله، فـإنه- أى الأخ الـذى تقبل اللّه منه القربان- لن يمـد يـده لقتل أخيه، فهو يخاف اللّه و يخشاه، و لن يرتكب أو يلوث يـده بمثل هـذا الإثم حيث تقول الآيـة: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ

و أضاف هذا الأخ الصالح- مخاطبا أخاه الذى أراد أن يقتله- أنّه لا يريد أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۱

يتحمل آثام الآخرين، قائلا له: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ[۳۶۱] بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ (أى لأنّك إن نفذت تهديدك فستتحمل ذنوبى السابقة أيضا، لأنّك سلبت منى حق الحياة و عليك التعويض عن ذلك، و لما كنت لا تمتلك عملا صالحا لتعوض به، فما عليك إلّا أن تتحمل إثمى أيضا، و بديهى أنك لو قبلت هذه المسؤولية الخطيرة فستكون حتما من أهل النار، لأنّ النار هى جزاء الظالمين) كما تقول الآية: فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ

نقاط مهمّة يجب الانتباه لها:

۱- إن القرآن الكريم لم يـذكر فى هـذه الآيـة- و لا فى آيات أخرى- أى اسم لأبناء آدم عليه السّلام: لكن الروايات الإسلامية تـدل على أن ولـدى آدم المـذكورين فى هـذه الآيـة كان اسم أحـدهما «هابيل» و الآخر «قابيل» و قـد ورد فى سـفر التكوين من التوراة فى الباب الرابع أنّ ولدى آدم المذكورين اسمهما «قائن» و «هابيل».

و قـد ذكر المفسّر المعروف «أبو الفتوح الرازى» أن هـذين الاسـمين قد وردا بألفاظ مختلفة، فالاسم الأوّل جاء فيه «هابيل» و «هابل» و «هـابن»، «أمـا الاسم الثّانى فجاء فيه «قابيـل» و «قـايين» و «قابـل» و «قـابن» أو «قبن»، و على أى صورة كـان الاسم فإنّ الاختلاف بين الروايات الإسلامية و نص التوراة بخصوص اسم «قابيل» نابع عن الاختلاف اللغوى، و لا يشكل أمرا مهما فى هذا المجال.

و الغريب فى الأمر أنّ أحـد الكتاب المسيحيين قد أورد الاختلاف المذكور دليلا اعترض به على القرآن، فقال: إنّ القرآن أورد لفظة «قابيل» بـدل «قائن»! و الجواب هو أنّ مثل هذا الاختلاف اللغوى أمر شائع و بالأخص فى مجال الأسـماء- فمثلا كلمة «إبراهيم» الواردة فى القرآن قد وردت فى التوراة على شكل «أبراهام»، كما أنّ القرآن الكريم لم يأت مطلقا باسم «هابيل» و «قابيل»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۲

و قد ورد هذان الاسمان فى الروايات الإسلامية فقط[۳۶۲].

۲- إنّ المعروف عن «القربان» هو أنّه كل شـيء يحصل به التقرب إلى اللّه، لكن القرآن الكريم لم يـذكر شـيئا عن ماهية القربان الذى قدمه ولدا آدم، بينما نقلت الروايات الإسلامية- و التوراة فى سفر التكوين، الباب الرابع- أن «هابيل» كان يمتلك ماشية فاختار أفضل أغنامه و منتوجاتها للقربان المذكور، و أن «قابيل» الذى كان صاحب زرع، قد اختار لقربانه أردأ الأنواع من زرعه.

۳- لم يرد فى القرآن أى توضيح عن الأسلوب الذى عرف به ابنا آدم قبول قربان أحدهما و رفض قربان الآخر عند اللّه- و الذى ورد فى هـذا المجال هو ما نقلته بعض الروايات الإسلامية من أنّ هـذين الشخصين كانا قـد وضـعا قربانهما على قمـة جبل، فنزلت صاعقة فأحرقت قربان هابيل دلالة على قبوله، و بقى قربان قابيل على حاله لم يمسه شيء، و كانت لهذه العلامة سابقة معروفة أيضا.

لكن بعض المفسّرين يعتقدون أنّ قبول و رفض القربانين إنّما أعلنا عن طريق الوحى لآدم عليه السّلام، و ما كان سبب ذلك غير أنّ هابيل كان إنسانا ذا سريرة نقية يحبّ التضحية و العفو فى سبيل اللّه فتقبل اللّه لذلك قربانه، بينما كان قابيل رجلا ملوث القلب حسودا معاندا فرفض اللّه قربانه، و الآيات التالية توضح حقيقة ما جبلت عليه نفسا هذين الأخوين من خير و شر.

۴- يستنتج من هـذه الآيات- بصورة جليـة- أنّ مصـدر أولى النزاعات و الجرائم فى العالم الإنسانى هو «الحسد» و يدلنا هذا الموضوع

على خطورة هذه الرذيلة الأخلاقية و أثرها العجيب فى الأحداث الاجتماعية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۳

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۰ الى ۳۱]

اشارة

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ (۳۰) فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (۳۱)

التّفسير

التّستر على الجريمة:

تواصل هاتان الآيتان بقية الواقعة التى حصلت بين ابنى آدم عليه السّلام، فتبيّن الآية الأولى منهما أن نفسى قابيل هى التى دفعته إلى قتل أخيه فقتله، حيث تقول:

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ

و نظرا لأنّ كلمة «طوع» تأتى فى الأصل من «الطاعة» لذلك يستدل من هذه العبارة على أن قلب «قابيل» بعد أن تقبل اللّه قربان أخيه هابيل أخذت تعصف به الأحاسيس و المشاعر المتناقضة، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد و كانت تدفعه إلى الانتقام من أخيه «هابيل» و من جانب آخر كانت عواطفه الإنسانية و شعوره الفطرى يقبح الذنب و الظلم و الجور و قتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمة، لكن نفسه الأمارة بالسوء تغلبت رويدا رويدا على مشاعره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۴

الرادعة فطوعت ضميره الحى و كبلته بقيودها و أعدته لتقل أخيه، و تدل عبارة «طوعت» مع قصرها على جميع المعانى التى ذكرناها لأنّ عملية التطويع كما نعلم لا تتمّ فى لحظة واحدة، بل تحصل بشكل تدريجى و عبر صراعات مختلفة.

و تشير الآية- فى آخرها- إلى نتيجة عمل «قابيل» فتقول فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِينَ فأين ضرر أكبر من أن يشترى الإنسان لنفسه عذابا سيلازمه إلى يوم القيامة، و يشمل عذاب الضمير و عقاب اللّه و العار و الأبدى.

و قد حاول البعض الاستدلال من كلمة «أصبح» على أن جريمة القتل قد وقعت ليلا، فى حين أنّ كلمة «أصبح» من حيث معناها اللغوى لا تنحصر فى زمن معين ليلا مكان أم نهارا، بل تدل على حدوث شىء ما، كما جاء فى الآية (۱۰۳) من سورة آل عمران فى قوله تعالى: ... فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ....

و تفيد بعض الروايات المنقولة عن الإمام الصّادق عليه السّلام أن قابيل حين قتل أخاه ترك جثته فى العراء حائرا لا يدرى ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتى حملت الوحوش المفترسة على جثة «هابيل» فاضطر «قابيل» (ربّما نتيجة لضغط وجدانى شديد) إلى حمل جثة أخيه مدة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، لكن الطيور الجارحة أحاطت به و هى تنتظر أن يضعها على الأرض للهجوم عليها ثانية و فى تلك الأثناء بعث اللّه غرابا (كما تصرّح الآية) فأخذ يحفر الأرض و يزيح التراب ليدفن جسد غراب ميت آخر، أو ليخفى جزءا من طعامه- كما هى عادة الغربان- و ليدل بذلك «قابيل» كيف يدفن جثة أخيه، حيث تقول الآية الكريمة، فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ ۳۶۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۵

و لا غرابة فی أن یتعلم إنسان شیئا من طیر من الطیور، فالتاریخ و التجربة یدلان علی أنّ للکثیر من الحیوانات مجموعة من المعلومات الغریزیة تعلمها منها البشر علی طول التاریخ، مکملا بذلک معلوماته و معارفه، و حتی بعض الکتب الطبیّة تذکر أنّ الإنسان مدین فی جزء من معلوماته الطبیة للحیوانات! ثمّ تشیر الآیة الکریمة إلی أنّ قابیل استاء من غفلته و جهله، فأخذ یؤنب نفسه کیف أصبح أضعف من الغراب فلا یستطیع دفن أخیه مثله، فتقول الآیة:

قالَ یا وَیْلَتی أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِیَ سَوْأَةَ أَخِی ....

و کانت العاقبة أن ندم قابیل علی فعلته الشنیعة کما تقول الآیة: فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِینَ

فهل کان ندمه علی جریمته، خوفا من افتضاح أمره أمام أبویه؟ أو ربّما أخوته الآخرین الّذین کانوا سیلومونه علی فعلته؟ أم أنّ ندمه کان إشفاقا علی نفسه، لأنه حمل جسد أخیه القتیل لفترة دون أن یعلم ما ذا یفعل به أو کیف یدفنه؟

أم کان سبب الندم هو ما یشعر به الإنسان- عادة- من قلق و استیاء بعد ارتکاب کل عمل قبیح؟

مهما کانت أسباب الندم و دوافعه لدی «قابیل» فذلک لا یعنی أنّه تاب من فعلته و جریمته التی ارتکبها، فالتوبة معناها أن لا یعاود الإنسان المذنب تکرار الذنب، خوف من اللّه و استقباحا للذنب، و لم یشر القرآن الکریم إلی صدور مثل هذه التوبة عن «قابیل»، و قد تکون الآیة التالیة إشارة إلی عدم صدور التوبة عنه.

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «لا تقتل نفس ظلما إلّا کان علی ابن آدم الأوّل کفل من دمها لأنّه کان أوّل من سن القتل»[۳۶۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۶

و یستدل من هذا الحدیث أیضا علی أنّ من سنّ سنّة سیئة، سیبقی یتحمل وزرها ما دامت باقیة فی الدنیا.

ممّا لا ریب فیه أنّ قصّة ولدی آدم علیه السّلام قصّة حقیقیة، یثبتها ظاهر الآیات القرآنیة الأخیرة و الروایات الإسلامیة، کما أنّ عبارة «بالحق» الواردة فی هذه القصّة القرآنیة تعتبر شاهدا علی هذا الأمر، و علی هذا الأساس فإنّ الأقوال التی افترضت لهذه القصّة طابعا رمزیا من قبیل التشبیه أو الکنایة أو القصّة المفترضة لا أساس لها مطلقا.

و لا مانع من أن تکون هذه القصّة الحقیقیة مثالا من الصراع الدائم الذی یطغی علی المجتمعات البشریة، حیث یقف فی أحد جانبیه أناس جبلوا علی الطهارة و الصفاء و الإیمان و العمل الصالح المقبول عند اللّه، و فی الجانب الآخر یقف أفراد تدنسوا بالانحراف و جبلوا علی الحقد و الحسد و الضغینة و البغضاء و العمل الشریر.

و کم هو العدد الکبیر من أولئک الإبرار الأخیار الذین ذاقوا حلاوة الشهادة علی أیدی هؤلاء الأشرار الذین سیدرکون- فی النهایة- فظاعة الأعمال الآثمة التی ارتکبوها، و سیسعون إلی إخفائها و التستر علیها، فتظهر لهم فی مثل هذه اللحظات آمالهم السوداء الشبیهة بالغراب- المذکور فی الآیة القرآنیة الأخیرة- فتحثّهم و تدفعهم إلی إخفاء جرائمهم، لکنّهم سوف لا یجنون فی النهایة غیر الخیبة و الخسران.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۷

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۳۲]

اشارة

مِنْ أَجْلِ ذلِکَ کَتَبْنا عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیاها فَکَأَنَّما أَحْیَا

النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲)

التّفسير

وحدة الإنسانية و كرامتها:

إنّ هذه الآية تقوم باستخلاص نتيجة إنسانية كلية بعد الآيات التى تطرقت إلى قصّة ولدى آدم عليه السّلام.

ففى البداية تشير الآية إلى حقيقة اجتماعية تربوية مهمّة، و هى أن قتل أىّ إنسان، إن لم يكن قصاصا لقتل إنسان آخر، أو لم يكن بسبب جريمة الإفساد فى الأرض، فهو بمثابة قتل الجنس البشرى بأجمعه، كما أنّ إنقاذ أىّ إنسان من الموت، يعد بمثابة إنقاذ الإنسانية كلّها من الفناء، حيث تقول الآية الكريمة: مِنْ أَجْلِ ۳۶۵] ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۸

و يرد هنا سؤال و هو: كيف يكون قتل إنسان واحد مساويا لقتل الناس جميعا، و كيف يكون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانية جمعاء من الفناء؟

و لقد وردت أجوبة عديدة من قبل المفسّرين على هذا السّؤال ... جاء فى تفسير «التبيان» ستة أجوبة عليه، و فى «مجمع البيان» خمسة أجوبة، و فى «كنز العرفان» أربعة أجوبة، و لكن بعضا من هذه الأجوبة يبتعد كثيرا عن معنى هذه الآية.

و كما قلنا فى بداية تفسير هذه الآية، فإنّها تتحدث عن حقيقة اجتماعية تربوية، لأنّه: أوّلا: إن من يقتل إنسانا بريئا و يلطخ يده بدم برىء يكون- فى الحقيقة- مستعدا لقتل أناس آخرين يساوونه فى الإنسانيه و البراءة، فهو- فى الحقيقة- إنسان قاتل، و ضحيته إنسان آخر برىء، و معلوم أنّه لا فرق بين الأبرياء من الناس من هذه الزاوية.

كما أنّ أى إنسان يقوم- بدافع حب النوع الإنسانى- بإنقاذ إنسان آخر من الموت، يكون مستعدا للقيام بعملية الإنقاذ الإنسانية هذه بشأن أىّ إنسان آخر، فهذا الإنسان المنقذ يحبّ إنقاذ الناس الأبرياء، لذلك لا فرق لديه بين إنسان برىء و آخر مثله.

و نظرا لكلمة «فكأنّما» التى يستخدمها القرآن فى هذا المجال، فإننا نستدل بأن موت و حياة إنسان واحد، مع أنّه لا يساوى موت و حياة المجتمع، إلّا أنّه يكون شبيها بذلك.

و ثانيا: إنّ المجتمع يشكل فى الحقيقة كيانا واحدا، و أعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد، و أنّ أى ضرر يصيب أحد أعضائه يكون أثره واضحا- بصورة أو بأخرى- فى سائر الأعضاء، و لأنّ المجتمع البشرى يتشكل من الأفراد، لذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۹

فإن فقدان أى فرد منهم يعتبر خسارة للجميع الإنسانى الكبير، لأنّ هذا الفقدان يترك أثرا بمقدار ما كان لصاحبه من أثر فى المجتمع، لذلك يشمل الضرر جميع أفراد المجتمع.

و من جانب آخر فإن إحياء فرد من أفراد المجتمع، يكون- لنفس السبب الذى ذكرناه- بمثابة إحياء و إنقاذ جميع أفراد المجتمع، لأنّ لكل إنسان أثر بمقدار وجوده فى بناء المجتمع الإنسانى و فى مجال رفع احتياجاته، فيكون هذا الأثر قليلا بالنسبة للبعض و كثيرا بالنسبة للبعض الآخر.

و حين نقرأ فى الروايات أنّ جزاء و عقاب قاتل النفس المحرمة، يكون كجزاء قاتل جميع أفراد البشر، إنّما ذلك إشارة لهذا المعنى الذى ذكرناه، و لا يعنى أنّ الناس متساوون مع بعضهم فى كل الجهات، و لذلك نقرأ فى تفسير هذه الروايات- أيضا- أن عقاب

القاتل يتناسب مع عدد الأفراد الذين قتلهم تناسبا طريدا قلة و زيادة.

و تبيّن هـذه الآيـة بجلاء أهميـة حياة و موت الإنسان فى نظر القرآن الكريم، و تتجلى عظمـة هـذه الآيـة أكثر حين نعلم أنّها نزلت فى محيط لم يكن يعير أى أهمية لدماء أفراد الإنسانية.

و تلفت الانتباه فى هـذا المجال روايات عديدة ذكرت أنّ هذه الآية مع أنّها تتحدث- أو يشير ظاهرها- إلى الحياة و الموت الماديين، إلّا أنّ الأهمّ من ذلک هو الموت و الحياة المعنويين، أى إضلال الفرد أو إنقاذ من الضلال،

و قد سأل شـخص الإمام الصّادق عليه السّلام عن تفسير هذه الآية فأجابه عليه السّلام قائلا: «من حرق أو غرق- ثمّ سكت عليه السّلام- ثمّ قال: تأويلها الأعظم أنّ دعاها فاستجابت له».

و فحوى قول الإمام الصّادق عليه السّـلام فى هذه الرواية هو الإنقاذ من الحريق أو الغرق ثمّ يستطرد الإمام عليه السّـلام- بعد سكوت- فيبيّن أن التأويل الأعظم لهذه الآية هو دعوة الغير إلى طريق الحق و الخير أو الباطل و الشر، و تحقق القبول من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۰

الجانب الآخر المخاطب بهذه الدّعوة[۳۶۶].

و السوال الآخر الـذى يمكن أن يرد فى هذا المجال أيضا، هو عن سـبب ورود اسم بنى إسـرائيل بالذات فى هذه الآية، مع أنّها تشـمل حكما لا يخص هذه الطائفة؟

و يمكن القول فى الجواب بأن سـبب الإتيان باسم بنى إسـرائيل فى هـذه الآية هو أن هذه الطائفة قد شاعت بينها حوادث القتل و إراقة الدماء، و بالأخص ما كان منها ناشئا عن الحسد و حبّ الذات و الأنانية و حبّ التسلط، و ما زال الذين يتعرضون للقتل على أيدى هذه الطائفة- فى الوقت الحاضـر- هم الأبرياء من الناس غالبا، و لهذا السـبب ورد هذا الحكم الإلهى- لأوّل مرّة- فى سـيرة بنى إسـرائيل! و تشير الآية فى آخرها- إلى انتهاكات بنى إسرائيل، فتؤكّد أن هذه الطائفة على الرغم من ظهور الأنبياء بينهم يحملون الدلائل الواضحة لإرشادهم، إلّا أنّ الكثير منهم قد نقضوا و انتهكوا القوانين الإلهية، و اتبعوا سبيل الإسراف فى حياتهم، حيث تقول الآية: وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ

و يجدر الانتباه إلى أنّ كلمة «إسـراف» لها معان واسـعة، تشمل كل تجاوز أو تعد عن الحدود، و لو أنّها تستخدم فى الغالب فى مجال الهبات و النفقات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۱

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۳ الى ۳۴]

اشارة

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۳۳) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۴)

سبب النّزول

ورد فى سـبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين، أنّ جماعة من المشـركين قدموا إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعلنوا إسلامهم لكنّهم- لعدم تعودهم على طقس و مناخ المدينة- أصـيبوا ببعض الأمراض، فنصـحهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يذهبوا إلى

منطقة ذات مناخ جيد من الصحراء خارج المدينة، كانت مرتعا لإبل الزكاة، و أجاز لهم الانتفاع بلبن تلك الإبل بما يكفيهم، ففعلوا و تعافوا ممّا كانوا يعانون منه من الأمراض، لكنّهم بدل أن يقدموا الشكر على صنيع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معهم، و عمدوا إلى قتل الرعاة المسلمين و التمثيل بهم و سمل عيونهم، و نهبوا إبل الزكاة و ارتدوا عن الإسلام إلى الشرك، فأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإلقاء القبض عليهم و القصاص منهم بمثل ما ارتكبوه بحق أولئك الرعاة الأبرياء، و جزاء لهم على جرائمهم فسملت عيونهم

و قطعت أوصالهم و قتلوا، لكى يصبحوا عبرة لغيرهم فلا تسول لأحد نفسه أن يرتكب مثل هذه الجرائم الوحشية البشعة، و قد نزلت الآيتان الأخيرتان و هما تبيّنان حكم الإسلام فى هذه الجماعة[۳۶۷].

جزاء مرتكب العدوان:

تكمل الآية الأولى- من الآيتين الأخيرتين- البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول قتل النفس، و تبيّن جزاء و عقاب من يشهر السلاح بوجه المسلمين، و ينهب أموالهم عن طريق التهديد بالقتل أو بارتكاب القتل، فتقول: إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ

و معنى قطع الأيدى و الأرجل من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى.

و يجدر الانتباه هنا إلى عدّة أمور، و هى:

۱- إنّ المراد جملة الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الواردة فى الآية- كما تشير إليه أحاديث أهل البيت و يدل عليه سبب نزول الآية- هو ارتكاب العدوان ضد أرواح أو أموال الناس باستخدام السلاح و التهديد به، سواء كان هذا العدوان من قبل قطاع الطرق خارج المدن أو داخلها، و على هذا الأساس فإن الآية تشمل أيضا الأشرار الذين يعتقدون على أرواح الناس و أموالهم و نواميسهم.

و الذى يلفت الانتباه فى هذه الآية هو أنّها اعتبرت العدوان الممارس ضد البشر بمثابة إعلان الحرب و ممارسة العدوان ضد اللّه و رسوله، و هذه النقطة تبيّن بل تثبت مدى اهتمام الإسلام العظيم بحقوق البشر و رعاية أمنهم و سلامتهم.

۲- المراد بقطع اليد أو الرجل- المذكور فى الآية، و كما أشارت إليه كتب

الفقه- هو القطع بنفس المقدار الذى ينفذ بحق السارق لدى قطع يده، أى مجرّد قطع أربعة من أصابع اليد أو الرجل [۳۶۸].

۳- هل أنّ العقوبات الأربع المذكورة فى الآية لها طابع تخييرى؟ أى هل أن الحكومة الإسلامية مخيرة فى استخدام أى منهما بحق الفرد الذى تراه يستحق ذلك، أم أن العقوبة يجب أن تتناسب و نوع الجريمة التى ارتكبها الفرد؟ أى إذ ارتكب الفرد المحارب جريمة قتل ضد أفراد أبرياء تطبق بحقّه عقوبة الإعدام، و إن ارتكب سرقة عن طريق التهديد بالسلاح تنفذ فيه عقوبة قطع أصابع اليد أو الرجل، و إذا ارتكب الجريمتين معا يكون عقابه الإعدام و الصلب على الأعواد لفترة معينة لكى يعتبر به الناس، و إذا شهر الفرد المحارب السلاح على الناس دون أن يراق أىّ دم أو تتم سرقة شىء يكون عقابه النفى إلى بلد آخر؟

لا شك أنّ الاحتمال الثّانى- و هو تطبيق العقوبة المتناسبة مع الجريمة أقرب إلى الحقيقة، و قد أيد هذا المعنى ما ورد فى أحاديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام أيضا[۳۶۹].

و بالرغم من أنّ بعض الأحاديث أشارت إلى أنّ الحكومة الإسلامية مخيرة فى انتخاب أى من العقوبات الأربع الواردة، لكننا- نظرا للأحاديث التى أشرنا إليها قبل قليل- نرى أنّ المراد من التخيير لا يعنى أن تنتخب الحكومة الإسلامية واحدا من العقوبات المذكورة انتخابا اعتباطيا دون أن تأخذ نوع الجريمة بنظر الإعتبار، حيث من المستبعد كثيرا أن تكون عقوبتا الإعدام و الصلب متساويتين مع

عقوبهٔ النفی، أو أن تکونا بمنزلهٔ واحدهٔ! و یلاحظ هذا الأمر أیضا فی الکثیر من القوانین الوضعیهٔ المعاصرهٔ بصورهٔ واضحهٔ، حیث تعین عقوبات مختلفهٔ لنوع واحد من الجرائم، و علی سبیل المثال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۴

نری أن بعض الجرائم تتراوح عقوبتها بین ۳ سنین إلی ۱۰ سنین من السجن، و القاضی یتعامل فی هذا المجال وفق ما یراه مناسبا لواقع الحال، و لیس وفق ما یشتهیه هو، فتارهٔ یکون المناسب فی الجریمهٔ أن تطبق العقوبهٔ المشددهٔ، و أخری یتناسب معها تخفیف العقوبهٔ، نظرا للظروف المحیطهٔ و الملابسات الواردهٔ فی حالهٔ ارتکاب الجریمهٔ.

و هذا القانون الإسلامی الذی جاء بحق المحاربین، یتفاوت فیه أسلوب العقاب و نوعه مع اختلاف الجریمهٔ التی یرتکبها الفرد المحارب أو الجماعهٔ المحاربهٔ.

و غنی عن القول أنّ العقوبات المشددهٔ التی جاء بها الإسلام لقطاع الطریق تتوضح فلسفتها فی الأهمیهٔ القصوی التی أعارها هذا الدین للدماء البریئهٔ، لکی یحول دون اعتداء الأفراد الأشقیاء الأشرار القتلهٔ علی أرواح و أموال و أعراض الناس الأبریاء[۳۷۰].

و فی الختام تشیر الآیهٔ إلی أن هذه العقوبات هی لفضح المجرمین فی الدنیا، و سوف لا یتوقف الأمر علی هذه العقوبات، بل سینالون یوم القیامهٔ عقابا أشد و أقسی حیث تقول الآیهٔ: ذلِکَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی الدُّنْیا وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِیمٌ

و یستدل من هذه الجملهٔ القرآنیهٔ علی أن العقوبات الإسلامیهٔ الدنیویهٔ التی تنفذ فی المجرمین لن تکون حائلا دون نیلهم لعقاب الآخرهٔ، و لکن طریق العودهٔ و التوبهٔ لا یغلق حتی بوجه مجرمین خطیرین کالذین ذکرتهم الآیهٔ إن هم عادوا إلی رشدهم و بادروا إلی إصلاح أنفسهم، و لکی یبقی مجال التعویض عن الأخطاء مفتوحا تقول الآیهٔ الثانیهٔ:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۵

إِلَّا الَّذِینَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

و الذی یظهر من هذه الآیهٔ هو أنّ العقاب و الحدّ الشرعی یرفعان عن أولئک المجرمین فی حالهٔ انصرافهم طوعا عن ارتکاب الجریمهٔ و ندمهم قبل أن یلقی القبض علیهم فقط.

و بدیهی أنّ توبهٔ هؤلاء لا تسقط العقاب عنهم إن کانوا قد ارتکبوا جریمهٔ قتل أو سرقهٔ، إلّا فی حالهٔ ارتکاب جریمهٔ التهدید بالسلاح فإن العقوبهٔ تسقط إن هم تابوا و ندموا قبل إلقاء القبض علیهم.

و بعبارهٔ أخری فإنّ التوبهٔ فی مثل هذه الجرائم لها تأثیر فی ما یخص اللّه فقط، أمّا حق الناس فلا یسقط بالتوبهٔ ما لم یرض صاحب الحق.

و هکذا فإنّ عقاب المحارب یکون أشدّ و أقسی من عقاب السارق أو القاتل العادی، فهو إن تاب نجا من العقوبهٔ التی تشمله لکونه محاربا، لکنه لا یتخلص من عقوبهٔ السرقهٔ و القتل العادیین.

و قد یطرأ هنا سؤال و هو کیف یمکن إثبات التوبهٔ ما دامت هی عملیهٔ قلبیهٔ باطنیهٔ؟

و الجواب هو: أن طرق إثبات التوبهٔ فی هذا المجال کثیرهٔ وافرهٔ، و أحدها:

أن یشهد عادلان علی أنّهما سمعا توبهٔ المجرم فی مکان ما، و أنّه تاب دون أن یرغمه أحد علی التوبهٔ، و الآخر: أنّ یغیر المجرم أسلوب حیاته بشکل تظهر علیه آثار التوبهٔ بجلاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۶

الآیهٔ [سورهٔ المائدهٔ (۵): آیهٔ ۳۵]

اشارهٔ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵)

التّفسير

حقيقة التوسل إلى اللّه:

توجه هذه الآية الخطاب إلى الأفراد المؤمنين، تتضمن تكاليف ثلاثة يؤدى الالتزام بها و تطبيقها إلى نيل الفلاح، و هذه التكاليف هى:

۱- إتّباع الحيطة و التقوى، كما تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ....

۲- إختيار وسيلة للتقرب إلى اللّه سبحانه و تعالى، حيث تقول الآية:

وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ....

۳- الجهاد فى سبيل اللّه، إذ تقول الآية: وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ....

و ستكون نتيجة الالتزام بهذه التكاليف الإلهية و تطبيقها نيل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام و الإيمان فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

إنّ أهم موضوع سنتناوله بالبحث فى هذه الآية، هو الدعوة الموجهة للإنسان المؤمن لاختيار طريقة تؤدى إلى التقرب إلى اللّه سبحانه و تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۷

فكلمة «الوسيلة» فى الأصل بمعنى نشدان التقرب أو طلب الشىء الذى يؤدى إلى التقرب للغير عن ميل و رغبة، و على هذا الأساس فإن كلمة «الوسيلة» الواردة فى هذه الآية لها معان كثيرة واسعة، فهى تشمل كل عمل أو شىء يؤدى إلى التقرب إلى اللّه سبحانه و تعالى، و أهم الوسائل فى هذا المجال هى الإيمان باللّه و بنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الجهاد فى سبيل اللّه، و العبادات كالصّلاة و الزكاة و الصوم، و الحج إلى بيت اللّه الحرام و صلة الرحم و الإنفاق فى سبيل اللّه سرّا و علانية و كذلك الأعمال الصالحة- كما يقول الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى خطبة له وردت فى «نهج البلاغة» منها: «إنّ أفضل ما توسل به المتوسلين إلى اللّه سبحانه و تعالى الإيمان به و برسوله و الجهاد فى سبيله فإنّه ذروة الإسلام و كلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، و إقامة الصّلاة فإنّها الملّة[۳۷۱]، و إيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة، و صوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب، و حج البيت و اعتماره فإنهما ينفيان الفقر، و يرحضان [۳۷۲] الذنب، و صلة الرحم فإنها مثراة[۳۷۳] فى المال و منساة[۳۷۴] فى الأجل و صدقة السرّ فإنّها تكفر الخطيئة، و صدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، و صنائع المعروف فإنّها تقى مصارع الهوان ...»[۳۷۵].

كما أن شفاعة الأنبياء و الأئمّة و الأولياء الصالحين تقرّب- أيضا- إلى اللّه وفق ما نصر عليه القرآن الكريم، و هى داخلة فى المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة»- و كذلك إتّباع النّبى و الإمام و السير على نهجهما، كل ذلك يوجب التقرب إلى الساحة الإلهية المقدسة. و حتى عند ما نقسم على اللّه بمقام الأنبياء و الأئمّة و الصالحين فأنّه يدلّ على حبّنا لهم و الاهتمام بالدين الذى دعوا إليه، هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۸

القسم يعتبر- أيضا- واحدا من المعانى الداخلة فى المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة».

و الذين خصصوا هذه الآية و قيدوها ببعض هذه المفاهيم لا يمتلكون فى الحقيقة أى دليل على هذا التخصيص، لأنّ كلمة «الوسيلة» تطلق فى اللغة على كل شىء يؤدى إلى التقرب.

و الجدير بالذكر هنا هو أنّ المراد من التوسل لا يعنى- أبدا- طلب شىء من شخص النّبى أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان

المؤمن- عن طریق الأعمال الصالحة و السیر علی نهج النّبی و الإمام- بطلب الشفاعة منهم إلی اللّه، أو أن یقسم بجاههم و بدینهم (و هذا یعتبر نوعا من الاحترام لمنزلتهم و هو نوع من العبادة) و یطلب من اللّه بذلک حاجته، و لیس فی هذا المعنی أیّ أثر للشرک، کما لا یخالف الآیات القرآنیة الأخری، و لا یخرج عن عموم الآیة الأخیرة موضوع البحث «فتدبّر».

التوسل فی القرآن:

هناک آیات قرآنیة أخری تدل بوضوح علی أنّ التوسل بمقام إنسان صالح عند اللّه، و طلب شیء من اللّه عن طریق التوسل بجاه هذا الإنسان عند اللّه، لا یعتبر أمرا محظورا و لا ینافی التوحید.

فنحن نقرأ فی الآیة (۶۴) من سورة النساء قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً.

کما نقرأ فی الآیة (۹۷) من سورة یوسف، إنّ أخوة یوسف طلبوا من أبیهم أن یستغفر لهم اللّه، فقبل یعقوب هذا الطلب و نفذه.

و الآیة (۱۱۴) من سورة التوبة تشیر إلی موضوع استغفار إبراهیم لأبیه، و هذا دلیل علی تأثیر دعاء الأنبیاء فی حق الآخرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۹

و قد ورد هذا الموضوع فی آیات قرآنیة أخری أیضا.

التّوسل فی الرّوایات الإسلامیة:

إنّ الروایات العدیدة التی وردت عن طرق الشیعة و السنة تفید بوضوح أنّ التوسل بالمعنی الذی عرضناه لا ریب و لا شبهة فیه، بل أنّه یعد عملا جیدا أیضا، و هذه الرّوایات کثیرة و قد نقلتها کتب عدیدة، و نحن نورد بعضا منها مما ورد فی مصادر جمهور السنّة علی سبیل المثال لا الحصر.

۱- جاء فی کتاب «وفاء الوفا» لمؤلّفه العالم السنّی المشهور «السمهودی» إن طلب العون و الشفاعة من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو التوسل إلی اللّه بجاه النّبی و شخصه جائز قبل أن یولد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعد ولادته و وفاته و فی عالم البرزخ و فی یوم القیامة، ثمّ ینقل «السمهودی» فی هذا المجال عن عمر بن الخطاب الروایة المعروفة التی تتحدث عن توسل آدم علیه السّلام إلی اللّه بنبی الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذلک لعلم آدم بأنّ هذا النّبی سیأتی إلی الوجود فی المستقبل، و لعلمه بالمنزلة العظیمة التی یحظی بها عند اللّه، فیقول آدم: «ربّ إنّی أسألک بحق محمّد لما غفرت لی»[۳۷۶].

ثمّ ینقل «السمهودی» حدیثا آخر عن جماعة من رواة الحدیث کالنسائی و الترمذی، و هما عالمان مشهوران من أهل السنّة، کدلیل علی جواز التوسل بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حیاته و خلاصة هذا الحدیث إنّ رجلا بصیرا طلب من النّبی أن یدعو له بشفاء مریضه، فأمره النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتلاوة هذا الدعاء:

«اللّهم إنّی أسألک و أتوجه إلیک بنبیّک محمّد نبیّ الرّحمة یا محمّد إنّی توجهت بک إلی ربّی فی حاجتی لتقضی لی، اللّهم شفعه فیّ»[۳۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۰

و بعد هذا الحدیث ینقل «السمهودی» حدیثا ثالثا فی جواز التوسل بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد وفاته، فیذکر أن صاحب حاجة جاء فی زمن عثمان إلی قبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فجلس بجوار القبر و دعا اللّه بهذا الدعاء: «اللّهم إنّی أسألک و

أتوجه إليك بنبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نبى الرحمة، يا محمّد إنّى أتوجه بك إلى ربّك أن تقضى حاجتى».

ثمّ يضيف «السمهودى» إنّه لم تمض فترة حتى قضيت حاجة الرجل [۳۷۸].

۲- أمّا صاحب كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» الذى يعارض بشدة موضوع التوسل فهو ينقل (۲۶) حديثا من كتب و مصادر مختلفة ينعكس منها جواز التوسل، و مع أنّه سعى فى أن يطعن بإسناد تلك الأحاديث، إلّا أنّ الواضح هو أنّه متى ما كانت الروايات كثيرة- فى موضوع معين لدرجة التواتر- لا- يبقى عند ذلك مجال للطعن، و التجريح فى سند الحديث، و الروايات التى وردت فى المصادر الإسلامية بشأن التوسل قد تجاوزت حدّ التواتر لكثرتها.

و من هذه الأحاديث التى رواها صاحب الكتاب المذكور، الحديث التالى:

نقل «ابن حجر المكى» صاحب كتاب «الصواعق» عن الإمام «الشافعى»، و هو أحد أئمّة السنّة الأربعة المشهورين، أنّه كان يتوسل إلى أهل بيت النّبى و يقول:

آل النّبى ذريعتىو هم إليه وسيلتى

أرجو بهم أعطى غدايبد اليمين صحيفتى ۳۷۹]

و ينقل صاحب كتاب «التوصل ...» أيضا عن (البيهقى) أن الجفاف أصاب المسلمين فى أحد الأعوام من عهد الخليفة الثّانى، فذهب بلال و معه عدد من الصحابة إلى قبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: «يا رسول اللّه استسق لأمتك ... فإنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص ۶۹۱

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۱

قد هلكوا ...»[۳۸۰].

و نقل أيضا عن «ابن حجر» من كتاب «الخيارات الحسان» أنّ الإمام الشافعى كان أثناء وجوده فى بغداد يزور أبا حنيفة و يتوسل إليه فى حوائجه ۳۸۱].

و من صحيح «الدارمى» ينقل صاحب كتاب «التوصل ...» أيضا، أن بعض الصحابة فى المدينة اشتكوا إلى عائشة ما يعانونه من الجفاف الشديد الذى أصاب البلدة فى أحد الأعوام، فأشارت عليهم أن يفتحوا فجوة فى سقف المسجد على قبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى ينزل اللّه المطر ببركة قبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ففعلوا ذلك و نزل مطر غزير! و نقل «الآلوسى» فى تفسيره الكثير من الأحاديث و الروايات الشبيهة بالأحاديث المارة الذكر، و لكنّه بعد إجراء تحليل و نقاش طويل حولها حتى أنّه تشدد فى نقدها اضطر إلى الإذعان بها، فذكر أنّه بعد البحث الذى أجراه لا يرى مانعا من التوسل إلى اللّه بمقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سواء فى حياته أو بعد وفاته، ثمّ أطال البحث فى هذا المجال، و قال بأنّ التوسل إلى اللّه بمقام غير النّبى لا مانع فيه- أيضا- شريطة أن يكون المتوسل به صاحب منزلة عند اللّه ۳۸۲].

أما مصادر الشيعة فقد تناولت هذا الموضوع بشكل واضح، لا نرى معه أى حاجة إلى نقل الأحاديث الواردة بهذا الصدد.

ملاحظات ضرورية:

نرى من الضرورى- هنا- الإشارة إلى عدّة أمور:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۲

۱- لقد أسلفنا القول بأنّ التوسل ليس معناه طلب الحاجة من النّبى أو الإمام، بل المراد منه جعل النّبى أو الإمام شفيعا إلى اللّه فى قضاء

الحاجهٔ، و هذا الأمر- فی الحقیقهٔ- توجه إلی اللّه، لأن احترام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنّما هو من أجل أنّه رسول اللّه و السائر علی هـداه، و العجب هنا أن یـدعی البعض أن هـذا التوسل نوع من الشـرک، فی حین أنّ المعروف عن الشـرک هو القول بوجود من یشارک اللّه سبحانه فی صفاته و أعماله، و التوسل الذی تحدثنا عنه لا صلهٔ له مطلقا و لا تشابه مع الشرک.

۲- یصـرّ البعض وجود الفرق بین حیاهٔ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّهٔ المعصومین علیهم السّلام و بین وفاتهم، و کما رأیت فإنّ الکثیر من الأحادیث السالفهٔ کان یخص ما بعد وفاهٔ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بالإضافهٔ إلی ذلک فإن الفرد المسلم یعتقد بأن للنّبی و الصالحین بعـد وفاتهم حیاهٔ برزخیـهٔ أوسع من الحیاهٔ الـدنیا، و قـد صـرّح القرآن فی هـذا المجال بخصوص حیاهٔ الشـهداء، حیث أکّد أنّهم لیسوا أمواتا بل أحیاء عند ربّهم [۳۸۳] ....

۳- و أصـرّ آخرون علی أنّ هناک فرقا بین طلب الدعاء من النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و بین القسم علی اللّه بجاه النّبی، فهؤلاء یجیزون طلب الدعاء و لا یجیزون ما سواه، فی حین لا یوجد بین هذین الأمرین أی فرق منطقی.

۴- یسـعی البعض من کتـاب و علماء السـنهٔ و بالأخص «الوهابیون» منهم، و بعناد خاص، إلی الادعاء بضـعف جمیع الأحادیث الواردهٔ فی موضوع التوسل، أو تجاهلها بشتی الحجج الواهیهٔ.

و هؤلاـء یبحثون هـذا الموضوع بأسـلوب خاص یظهر من خلاله لکل ناظر محایـد أنّهم اختاروا فی البدایـهٔ هـذا الإعتقاد لأنفسـهم، ثمّ یحاولون- بعـد ذلک- فرضه علی الرّوایات الإسـلامیهٔ و یعمـدون بشـکل من الأشـکال إلی إزاحـهٔ کل من یخالف معتقـدهم هذا عن طریقهم، و هذا الأسلوب المشوب بالعصبیهٔ و مجافاهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۳

المنطق لا یقبل به أی باحث منصف مطلقا.

۵- لقد بیّنا أنّ أحادیث التوسل قد وصـلت بکثرتها إلی حد التواتر، أی أنّها لوفرتها تغنی الباحث عن التحقیق فی أسانیدها، إضافهٔ إلی ذلک فإنّ من بین هذه الأحادیث الکثیر من الروایات و الأحادیث الصـحیحهٔ، فلا یبقی بذلک لمن یرید الاعتراض علی بعض الأسانید أی مجال.

۶- و یتبیّن ممّـا قلناه سابقا أن لا تناقض بین الروایات التی وردت فی تفسـیر الآیـهٔ الأخیرهٔ تلک التی تقول بأن النّبی دعا الناس إلی أن یطلبوا له الوسیلهٔ من اللّه، أو ما

جاء عن الإمام علی علیه السّلام فی کتاب «الکافی» من أنّه قال: بأنّ (الوسیلهٔ) هی أرفع و أسمی منزلهٔ فی الجنّهٔ

فلا ینافی ما ذکرناه نحن فی تفسـیر الآیـهٔ، لأنّ الوسـیلهٔ- کما أوضـحنا- تشـمل کل أنواع التقرب إلی اللّه، و إن تقرب النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی اللّه، و کذلک ما قیل عن أرفع منزلهٔ فی الجنّهٔ، هما من مصادیق الوسیلهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۴

الآیتان [سورهٔ المائدهٔ (۵): الآیات ۳۶ الی ۳۷]

اشارهٔ

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِیَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ یَوْمِ الْقِیامَهِٔ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۳۶) یُرِیدُونَ أَنْ یَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِینَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِیمٌ (۳۷)

التّفسیر

تعقيبا على الآية السابقة التى كلّفت المؤمنين بالتقوى و الجهاد و إعداد الوسيلة، جاءت الآيتان الأخيرتان و هما تشيران إلى مصير الكافرين، و تؤكّدان أنّهم مهما بذلوا- حتى لو كان كل ما فى الأرض أو ضعفه- فى سبيل انتقاذ أنفسهم من عذاب يوم القيامة، فلن يقبل منهم ذلك- و أنّهم سينالون العذاب الشديد، فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

و قد وردت بنفس المضمون آية أخرى و هى الآية (۴۷) من سورة الرعد.

و يبيّن هذا الأسلوب القرآنى أقصى درجات التأكيد فيما يخص العقوبات الإلهية التى لا يمكن- مطلقا- التخلص منها بأى ثروة أو قدرة مهما بلغت، و حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۵

لو شملت جميع ما فى الأرض أو ضعف ذلك، و إن طريق الخلاص الوحيد يمكن- فقط- فى اتّباع التقوى و الجهاد فى سبيل اللّه و القيام بالأعمال الصالحة.

بعد ذلك تشير الآية التالية إلى استمرار عذاب اللّه، و توضح أنّ الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدروا على ذلك، و إنّ عذابهم ثابت و باق لا يتغير، كما تقول الآية: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ

و سنوافيكم بتفاصيل أكثر عن العقوبة الدائمة الأبدية، و عن خلود الكفار فى نار جهنم، لدى تفسير الآية (۱۰۸) من سورة هود، بإذن اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۶

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

التّفسير

عقوبة السّرقة:

لقد بيّنت آيات سابقة عقاب و حكم «المحارب» الذى يتعرض لأرواح و أموال و نواميس الناس عن طريق التهديد بالسلاح، أمّا الآيات الثلاث الأخيرة فهى تبيّن حكم السارق و السارقة أى الفرد الذى يسرق خلسة أموال و ممتلكات الناس، فتقول الآية أوّلا: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما ....

و قد قدمت هذه الآية الرجل السارق على المرأة السارقة، بينما الآية التى ذكرت حد و عقوبة الزنا قد قدمت المرأة الزانية على الرجل الزانى، و لعل هذا التفاوت ناشئ عن حقيقة أن السرقة غالبا ما تصدر عن الرجال، بينما النساء الخليعات المستهترات يشكلن فى الغالب العامل و العنصر المحفز للزنا!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۷

بعد ذلك تبيّن الآية أنّ العقوبة المذكورة هى جزاء من اللّه لجريمة السرقة المرتكبة من قبل الرجل أو المرأة، حيث تقول: جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ ....

و الحقيقة هى أنّ هذه الجملة القرآنية تشير.

أوّلا: إلى أنّ العقوبة المذكورة نتيجة لعمل الشخص السارق أو السارقة و أنّها شيء اكتسبه هو أو هى لنفسها.

و ثانيا: إلى أنّ الهدف من تنفيذ هذه العقوبة هو وقاية المجتمع و تحقيق الحق و العدل فيه لأنّ كلمة «نكال» تعنى العقوبة التى تنفذ لتحقيق الوقاية و ترك المعصية، و هذه الكلمة تعنى فى الأصل «اللجام» و تطلق أيضا على كل عمل يحول دون حصول الانحراف.

و لكى لا- يتوهم الناس وجود الإجحاف فى هذه العقوبة، تؤكّد الآية- فى آخرها- على أن اللّه عزيز، أى قادر على كل شىء، فلا حاجة له للانتقام من الأفراد، و هو حكيم- أيضا- و لا يمكن أن يعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلك، حيث تقول الآية: وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أمّا الآية الثانية فهى تفتح لمن ارتكب هذه المعصية باب العودة و التوبة، فتقول: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و السؤال الوارد هنا هو: هل أنّ التوبة وحدها تكفى لغفران الذنب فقط، أم أنّها تسقط عنه حد أو عقوبة السرقة أيضا؟

إنّ المعروف لدى فقهاء الشيعة أنّ مرتكب السرقة إن تاب قبل أن تثبت سرقته فى محكمة إسلامية يسقط عنه حدّ السرقة أيضا، أمّا إذا شهد عادلان على سرقته فإن التوبة لا تسقط عنه الحدّ.

و الحقيقة هى أنّ التوبة- فى هذه الحالة التى تطرقت لها الآية- هى تلك التى تتمّ قبل ثبوت الجرم فى المحكمة، و لو لا ذلك لتظاهر كل سارق بالتوبة لدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۸

ثبوت الجرم عليه، بغية إنقاذ نفسه من الحدّ أو العقوبة، فلا يبقى- و الحالة هذه- مبرر لإجراء الحدّ عليه بعد التوبة! و بعبارة أخرى: إنّ التوبة الاختيارية هى تلك التى تتمّ قبل أن يثبت الجرم فى المحكمة بينما التوبة الاضطرارية هى التوبة التى تصدر من الإنسان العاصى لدى مشاهدته العذاب الإلهى، أو لدى بلوغه حالة الاحتضار، و مثل هذه التوبة لا قيمة لها مطلقا.

ثمّ توجه الآية الأخرى الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و يجدر الانتباه هنا إلى عدّة نقاط، و هى:

أ- شروط معاقبة السارق:

لقد بيّن القرآن الكريم فى الآيات الأخيرة التى تطرقت لحكم السرقة أساس للقضية، على عادته بالنسبة لسائر الأحكام، و قد ترك التفصيل فى ذلك إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الذى يستدل من مجموع الروايات الإسلامية هو أن تنفيذ هذا الحد الإسلامى (أى قطع اليد) مقيد بشروط كثيرة، لا يجوز- بدون تحققها- المباشرة بإجراء الحدّ، و من هذه الشروط.

۱- أن يكون الحدّ الأدنى لثمن الشيء المسروق مبلغ ربع دينار[۳۸۴].

۲- أن تتمّ السرقة من مكان محفوظ، أى أن تكون من دار أو محل للكسب أو من جيوب و مخابئ داخلية.

۳- أن لا تكون السرقة فى زمن الجفاف أو المجاعة التى يعانى الناس فيها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۹

من الجوع لعدم حصولهم علی المواد الغذائیة.

۴- أن یکون السارق- أثناء ارتکابه لجریمة السرقة- بالغا عاقلا حر الإرادة.

۵- لا یطبق حدّ السرقة فی حالة سرقة الأب من مال ولده، أو الشریک من مال شریکه المخصوص بالشرکة.

۶- و قد استثنیت الفاکهة المسروقة من البساتین من حدّ السرقة.

۷- کما استثنیت من ذلک حالة اشتباه السارق بین ماله و مال غیره.

و هناک شروط أخری تطرقت إلیها کتب الفقه فی باب السرقة.

و یجب هنا التأکید علی أنّ السرقة حرام سواء تحققت الشروط المذکورة أعلاه فیها أو لم تتحقق، و أما هذه الشروط فهی مختصة بموضوع الحدّ و العقوبة الخاصّة بالسرقة.

و السّرقة بأی شکل حصلت، و مهما کان مبلغ و ثمن الشیء المسروق، حرام فی الإسلام.

ب- المقدار الذی یجب قطعه من ید السّارق:

لقد اشتهر لدی فقهاء الشیعة- استنادا علی روایات أهل البیت علیهم السّلام- أنّ حدّ السرقة یتحقق بقطع أربع من أصابع ید السارق الیمنی فقط دون زیادة، بینما قال فقهاء السنّة بأکثر من ذلک.

ج- حدّ السرقة و أقاویل اعداء الإسلام:

کثیرا ما کرر أعداء الإسلام أو حتی بعض المسلمین من الذین یجهلون أسرار التشریع الإسلامی، أنّ هذه العقوبة الإسلامیة تتسم بالعنف الشدید، و أنّها لو نفذت فی عصرنا الحاضر للزم أن تقطع أیدی الکثیر من الناس، و إن هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۰۰

سیؤدی بالإضافة إلی حرمان أفراد من أحد أعضاء جسمهم الحساسة سیؤدی إلی فضیحة الفرد طیلة حیاته بسبب الأثر البارز الذی یخلفه حد السرقة مدی العمر.

و للردّ علی هذا الاعتراض یجب الانتباه إلی الحقیقة التالیة:

أوّلا: لقد بیّنا فیما سبق أن حکم السرقة- وفق الشروط التی ذکرناها- لا یشمل کل سارق، فهذا الحکم یشمل فقط تلک المجموعة من السراق الذین یشکلون خطرا علی المجتمع.

ثانیا: إنّ احتمال تنفیذ عقوبة السرقة یقل نظرا للشروط الخاصّة التی یجب توفرها حتی تثبت الجریمة علی المتهم بالسرقة.

ثانیا: إنّ أکثر الاعتراضات التی یوردها الأفراد الذین یجهلون أو الذین لا یعرفون الکثیر عن القوانین الإسلامیة، منشؤها النظرة الآحادیة الجانب التی یرون و یبحثون بها الحکم الإسلامی بعیدا عن الأحکام الأخری، أی أنّهم یفترضون هذا الحکم فی مجتمع بعید کل البعد عن الإسلام.

فلو علمنا أنّ الإسلام لیس حکما واحدا فقط، بل یشتمل علی مجموعة کبیرة من الأحکام لو طبقت فی مجتمع معین لأدت إلی تحقیق العدالة الاجتماعیة و مکافحة الفقر و الجهل، و لأدت إلی تحقیق التعلیم و التربیة الصحیحین، و لنشرت الوعی و الورع و التقوی بین الناس، و بهذا یتّضح لنا ندرة احتمال بروز حوادث تحتاج إلی تطبیق هذا الحکم أو العقوبة الإسلامیة.

و یجب أن لا یجرنا هذا القول إلی الوهم بأنّ هذا الحکم الإسلامی لا یجب تطبیقه فی المجتمعات المعاصرة، بل المراد من قولنا هذا هو أن تؤخذ کل الشروط المذکورة بنظر الإعتبار أثناء إصدار الحکم فی هذا المجال.

و خلاصة القول: إنّ الحکومة الإسلامیة مکلّفة بأن توفر لکل أفراد الأمّة احتیاجاتها الأولیة و أن توفر لهم التعلیم اللازم، و تربی فیهم الملکات و الخصال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۰۱

الفاضلة الخیرة، و تحسن إعدادهم من الناحیة الأخلاقیة، و طبیعی أنّه إذا حصل هذا الأمر فلا یظهر فی محیط کهذا إلّا القلیل النادر ممن یرتکبون مخالفة أو جریمة.

رابعا: إنّ ما نلاحظه الیوم من ارتفاع فی عدد السرقات ناجم عن عدم تطبیق هذا الحکم الإسلامی، بینما یندر فی البیئات التی تطبق هذا الحکم بروز مثل هذه الحوادث، فهی تتمتع بوضع أمنی جید فیما یخص حمایة أموال الناس، فزوار بیت اللّه الحرام کثیرا ما ترکوا حقائبهم فی الأزقة و الطرقات دون عین تحرسها فلم یجرأ أحد علی مد یده إلیها الی أن یأتی موظفو ادارة المفقودات و یحملوها الی الادارة حتی یأتی صاحبها و یستردها بعد ذکر العلامات الخاصّة، و أغلب المحلات تفتقد إلی الأبواب و الأوصدة الکافیة، و فی هذا الحال لا تمتد ید سارق نحوها. أو یکونوا فقدوا شیئا ثمّ راجعوا لذلک إدارة المفقودات فوجده عندها.

و الأمر الملفت للنظر هو أن هذا الحکم الإسلامی و علی الرغم من تطبیقه لعدّة قرون، حیث کان المسلمون و منذ عصر صدر الإسلام یعیشون آمنین مطمئنین فی ظله، فهو لم ینفذ طیلة تلک الفترة إلّا بحق عدد قلیل من الأفراد.

فهل یعتبر قطع عدد من الأیدی الآثمة لکی ینعم المجتمع لقرون عدیدة بالأمن ثمنا غالیا لهذا الأمن؟!

د- اعتراضات أخری:

یقول البعض: إنّ تنفیذ حدّ أو عقوبة السرقة فی سارق من أجل ربع دینار یعتبر منافیا للاحترام الفائق الذی یفرضه الإسلام لحیاة الإنسان المسلم و حمایتها من کل خطر، بحیث أنّ الإسلام فرض دیة باهظة مقابل قطع أربعة أصابع من ید أی إنسان، و قد ذکرت بعض کتب التاریخ بأن هذا السؤال وجهه البعض إلی العالم الإسلامی الکبیر الشریف المرتضی علم الهدی قبل حوالی ألف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۰۲

سنة، و جاء السؤال فی البیت التالی:-

ید بخمس مئین عسجد ودیتما بالها قطعت فی ربع دینار؟[۳۸۵]

فأجاب السّید المرتضی رحمة اللّه ببیت آخر هو:

عزّ الأمانة أغلاها و أرخصهاذل الخیانة فافهم حکمة الباری ۳۸۶]

---

[۱] (۱)- نور الثقلین و مجمع البیان، و تفسیر المنار و کتب اخری.

[۲] (۱)- الجن: ۱۳.

[۳] (۱)- نملی مشتقة من الإملاء، و تغنی المساعدة و الإعانة و تستعمل فی أکثر الموارد فی إطالة المدّة و الإمهال الذی هو نوع من

المساعدة، و قد جاءت فی الآیة الحاضرة بالمعنی الثانی.

[۴] (۱)- الروم، ۴۱.

[۵] (۱)- الأنعام، ۴۴.

[۶] (۱)- إبراهیم، ۱.

[۷] (۲)- القصص، ۸.

[۸] (۱)- لقد مرّ طرح هذا السؤال بالتفصیل عند تفسیر قوله تعالی\:i وَ لَنَبْلُوَنَّکُمْ بِشَیْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ\ ...E و أجبنا هناک بأن الامتحان الإلهی- هو فی الحقیقة- نوع من التربیة العملیة للبشر، و لا یعنی الاستخبار و الاستعلام، و لمزید الاطلاع راجع ذلک البحث.

[۹] (۱)- الشّجاع العظیم الخلقة من الحیات.

[۱۰] (۱)- الحدید، ۱۱.

[۱۱] (۲)- البقرة، ۲۷۶.

[۱۲] (۳)- أسباب النزول للواقدی، ص ۹۹ و تفسیر روح البیان فی تفسیر هذه الآیة.

[۱۳] (۱)- إنّما أضیف أعمال الإنسان إلی یده و إن کانت الذنوب تکتسب بجمیع الجوارح لأن أکثر ما یکسبه الإنسان إنما یکسبه بیده، و لأن العادة قد جرت بإضافة الأعمال التی یقوم بها الإنسان إلی الید و إن اکتسبها بجارحة أخری.

[۱۴] (۱)- الملل و النحل للشهرستانی، طبعة بیروت، ج ۱، ص ۱۰۱، تحقیق محمّد سید کیلانی.

[۱۵] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، و تفسیر مجمع البیان عند تفسیر هذه الآیة، و متن الحدیث العلوی منقول عن نهج البلاغة.

[۱۶] (۱)- أسباب النزول للواقدی فی تفسیر هذه الآیة و تفسیر المنار و تفسیر مجمع البیان.

[۱۷] (۱)- تفسیر الدر المنثور، ج ۲، ص ۱۱۱، و تفسیر أبی الفتوح الرازی فی ذیل هذه الآیات.

[۱۸] (۲)- تفسیر نور الثقلین و مجمع البیان.

[۱۹] (۳)- المصدر السابق.

[۲۰] (۱)- سفینة البحار، مادة نوف، ج ۲، ص ۶۲۲.

[۲۱] (۲)- التعبیر بأولی الألباب- فی هذه الآیة و آیات عدیدة اخری فی الکتاب العزیز- إشارة لطیفة إلی أرباب العقول، لأن اللب من کلّ شیء خیره خالصه، و لا شک أنّ العقل هو خیر ما فی الإنسان، و هو عصارة وجوده الإنسانی.

[۲۲] (۳)- لقد بحثنا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر فی معنی اختلاف اللیل و النهار و أسرارهما عند تفسیر الآیة ۱۶۴ من سورة البقرة فراجع.

[۲۳] (۱)- مستدرک الوسائل، ج ۱، ص ۳۶۹.

[۲۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۲، ص ۵۵۹، و المیزان، ج ۴، ص ۹۵- ۹۶.

[۲۵] (۱)- غافر، ۴۰.

[۲۶] (۲)- النحل، ۹۷.

[۲۷] (۱)- راجع کتاب و ستر مارک، و کتاب« حقوق المرأة فی الإسلام» و الکتب الباحثة فی مذاهب البشر و عقائدهم.

[۲۸] (۱)- تفسیر مجمع البیان و المنار و المیزان.

[۲۹] (۱)- أسباب النزول للواقدی.

[۳۰] (۱)- للوقوف علی تفصیل أکثر حول معنی هذه العبارة راجع، الآیة ۲۰۲ من سورة البقرة.

[۳۱] (۱)- الإحتجاج للطبرسی، الفصل الأول.

[۳۲] (۱)- الأعراف، ۲۰۴.

[۳۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۱.

[۳۴] (۱)- تساءلون: من مادة تسائل، و تسائل باللّه من قولهم أسألک باللّه أن تفعل کذا. و هذا یدل علی تعظیم الناس للّه تعالی.

[۳۵] (۱) الدّر المنثور، ج ۲، ص ۱۱۷.

[۳۶] (۱)- و للتوسع و التفصیل الأکثر راجع ما ذکرناه فی تفسیر هذه الآیة فی سورة البقرة فی الجزء الثانی من هذا التّفسیر.

[۳۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۵ و ۶.

[۳۸] (۱)- و هو قوله تعالی\:i وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی النِّساءِ قُلِ اللَّهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ وَ ما یُتْلی عَلَیْکُمْ فِی الْکِتابِ فِی یَتامَی النِّساءِ\ ...E.

[۳۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۳۸ و تفسیر المنار فی تفسیر هذه الآیة.

[۴۰] (۱)- حضارة العرب، ص ۳۹۸.

[۴۱] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، فی ذیل هذه الآیة.

[۴۲] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ذیل الآیة المبحوثة و هکذا فی تفسیر نور الثقلین.

[۴۳] (۱)- إنجیل متی الإصحاح، ۱۹- ۲۳.

[۴۴] (۱)- البرهان، ج ۱، ص ۳۴۴، الحدیث ۹.

[۴۵] (۱)- البقرة، ۱۷۴.

[۴۶] (۱)- تفسیر البرهان عند تفسیر الآیة.

[۴۷] (۱)- سفر الأعداد الإصحاح السابع و العشرون: ۸- ۱۱.

[۴۸] (۱)- البرهان، ج ۱، ص ۳۴۷.

[۴۹] (۱)- الأنفال، ۷۵.

[۵۰] (۲)- مجمع البیان.

[۵۱] (۱)- لقد مرّ حول« حدود اللّه» و تفسیره بحث أکثر تفصیلا فی المجلد الثانی من هذا التّفسیر.

[۵۲] (۱)- فتکون طریقة الحساب هنا هی أنّنا یجب أن ننقص ۶/ ۱ من سهم الأختین الذی هو ۶/ ۴ و سهم الزوج الذی هو ۶/ ۳ بمقدار أسهمهم أی نقسم ۶/ ۱ علی ۷ أقسام فننقص من سهم الأختین بمقدار ۴، و من الزوج بمقدار ۳، و ذلک طبقا لقانون« الإسهام بالنسبة» المذکورة فی الریاضیات فتکون النتیجة أنه ینقص من سهم الأختین بمقدار ۴۲/ ۴ و من سهم الزوج بمقدار ۴۲/ ۳.

[۵۳] (۱)- العصبة هم الرجال الذین ینتسبون إلی المیت بلا واسطة کالأخوة.

[۵۴] (۱)- یونس، ۹۰- ۹۱.

[۵۵] (۱)- آل عمران- ۹۱، البقرة، ۱۶۱، البقرة، ۲۱۷، محمّد- ۳۴.

[۵۶] (۲)- البقرة، ۲۱۷.

[۵۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۵۷.

[۵۸] (۱)- و لمزید التوضیح راجع الجزء الثانی من تفسیرنا هذا عند تفسیر الآیة(۱۵) من سورة آل عمران.

[۵۹] (۱)- الإفضاء أصله من الفضاء، و هو السعة، و بذلک یکون معنی الإفضاء إیجاد السعة، لأن الإنسان بسبب الاتصال و التعایش مع شخص آخر یکون و کأنه وسع دائرة وجوده، و لهذا استعمل الإفضاء بمعنی الملامسة و الاتصال.

[۶۰] (۱)- طبعا إنّ الإسلام لم یحرّم التزاوج بین أبناء و بنات العمومة، لأنّ هذا النوع من التزاوج لیس مثل الزواج بالمحارم فی الخطورة، و احتمال ظهور مثل هذه الحوادث الخطیرة فی هذا النوع من الزواج أقل، و قد لا حظنا بأنفسنا موارد و نماذج عدیدة من

نتائج هذا النوع من الزواج حيث يكون الأولاد- فى هذه الحالة- أكثر سلامة و أفضل فكرا و موهبة من غيرهم.

[۶۱] (۱)- من لا يحضره الفقيه، ج ۲، ص ۱۵۵، و غيره.

[۶۲] (۱)- الحلائل جمع الحليلة، و هى من مادة حل، و هى بمعنى المحللة، أى المرأة التى تحل للإنسان، أو من مادة حلول معنى المرأة التى تسكن مع الرجل فى مكان واحد و تكون بينهما علاقة جنسية، لأن كل واحد منهما يحل مع الآخر فى الفراش.

[۶۳] (۱)- مقدار عدتهن حيضة واحدة أو وضع حملهن إذا كن حبالى.

[۶۴] (۱)- أوطاس منطقة وقعت فيها إحدى المعارك الإسلامية و هو واد فى ديار بنى هوازن.

[۶۵] (۲)- لقد بحثنا بالتفصيل عن برنامج الإسلام حول تحرير العبيد و ما هناك من تخطيط دقيق فى النظام الإسلامى فى هذا المجال عند تفسير الآيات المناسبة فى سورة« محمّد» صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[۶۶] (۱)- راجع كتاب كنز العرفان و تفسير مجمع البيان و تفسير نور الثقلين و البرهان، و الغدير، ج ۶.

[۶۷] (۱)- المشهور أو الأشهر وجوب تمام المهر بمجرد عقد الزواج الدائم و إن كان الطلاق قبل الدخول يوجب إعادة نصفه إلى الزوج.

[۶۸] (۲)- التابعون هم الذين جاؤوا بعد الصحابة و لم يدركوا عهد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[۶۹] (۳)- التّفسير الكبير، ج ۱۰، ص ۵۳.

[۷۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۱، ص ۴۶۷، و تفسير البرهان، ج ۱، ص ۳۶۰.

[۷۱] (۲)- المصدر السابق.

[۷۲] (۳)- تفسير البرهان ذيل الآية(و قد ورد هذا الحديث و الحديثان السابقان عليه فى كتاب الكافى).

[۷۳] (۴)- كنز العرفان، ج ۲، ص ۱۵۸، و لقد روى الحديث المذكور عن تفسير القرطبى و الطبرى بعبارات تشابه العبارة أعلاه، كما أن هذا الحديث جاء فى السنن الكبرى للبيهقى، ج ۷، كتاب النكاح.

[۷۴] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۲، ص ۷۶۲، ذيل الآية(۱۹۵) البقرة.

[۷۵] (۲)- المراد من متعة الحج التى حرّمها عمر هو لو أننا صرفنا النظر عن حج التمتع، فإن حج التمتع عبارة عن الأمر التالى: إن يحرم الشخص أوّلا، ثمّ بعد الإتيان بمناسك« العمرة» يخرج من إحرامه(فيحلّ له كل شيء حتى الجماع) ثمّ يحرم من جديد ليؤدى مناسك الحج من تاسع ذى الحجّة، و قد كان الناس فى الجاهلية يبطلون هذا العمل و يستغربون ممن يدخل مكّة أيام الحج ثمّ يأتى بالعمرة و يخرج من إحرامه قبل أن يأتى بالحج، و لكن الإسلام أباح هذا و قد صرّح بهذا الأمر فى الآية(۱۸۶) من سورة البقرة.

[۷۶] (۱)- شرح اللمعة الدمشقية، ج ۲، كتاب النكاح.

[۷۷] (۲)- كنز العرفان، ج ۲، ص ۱۵۹ الهامش.

[۷۸] (۳)- الغدير، ج ۶، ص ۲۰۵ و ۲۰۶.

[۷۹] (۱)- الغدير، ج ۱، ص ۲۰۵ و ۲۰۶.

[۸۰] (۲)- بداية المجتهد كتاب النكاح.

[۸۱] (۳)- تفسير المنار، ج ۵، ص ۱۶.

[۸۲] (۱)- طبعا ليس هناك أى فرق بين أولاد الزواج المؤقت و أبناء الزواج الدائم من هذه النواحى.

[۸۳] (۱)- من كتاب(زناشوئى و أحلاق)، ص ۱۸۹- ۱۹۰.

[۸۴] (۱)-« الطول» على وزن« نوع» مأخوذ من الطول(على وزن النور) بمعنى القدرة و الإمكانية المالية و ما شابه ذلك.

[۸۵] (۱)- الأخدان جمع« خدن» و هى بمعنى الرفيق و الخل فى الأصل، و لكنها تستعمل عادة فى الأشخاص الذين يقيمون علاقات

جنسیهٔ غیر مشروعهٔ مع الجنس الآخر، و لا بدّ أن نعرف أن القرآن أطلق لفظهٔ الخدن علی المرأهٔ کما أطلقها علی الرجل.

[۸۶] (۱)- النساء، ۱۶۱.

[۸۷] (۲)- الاستثناء المنقطع یأتی- غالبا- لتأکید عمومیهٔ الحکم العام، و هو أمر صادق فی المقام، هذا مضافا إلی أنه یکشف عن هذه الحقیقهٔ، و هی أن تحریم التصرفات الباطلهٔ لا یقفل علیکم أبواب الرزق و الحیاهٔ، بل فی إمکانکم أن تحققوا أهدافکم عن طریق التجارهٔ المشروعهٔ و الکسب المباح شرعا.

[۸۸] (۱)- راجع تفسیر مجمع البیان، ذیل الآیهٔ، و تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۷۲.

[۸۹] (۱)-« الصلی» یعنی فی الأصل الاقتراب إلی النار، و یطلق علی التدفؤ و الاحتراق و الاکتواء بالنار أیضا، و قد استعملت فی الآیهٔ الحاضرهٔ فی معنی الاحتراق بالنار احتراقا.

[۹۰] (۱)-« اللمم»(علی وزن القسم) تعنی الأعمال الصغیرهٔ غیر الهامهٔ.

[۹۱] (۱)- و قد نسب العلّامهٔ الطبرسی رحمه اللّه فی مجمع البیان هذا الإعتقاد إلی علماء الشیعهٔ فی حین أنّ الأمر لیس کذلک، فلکثیر من علماء الشیعهٔ رأی آخر سنأتی علی ذکره بالتفصیل.

[۹۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۷۳.

[۹۳] (۱)- النازعات، ۳۷- ۳۹.

[۹۴] (۲)- المحجهٔ البیضاء، ج ۷، ص ۶۱.

[۹۵] (۱)-« الموالی» جمع مولی، و هی فی الأصل من مادهٔ الولایهٔ بمعنی الاتصال و الارتباط، و تطلق علی جمیع الأفراد الذین یرتبط بعضهم ببعض بنوع من الارتباط، غایهٔ ما هناک أنّها تکون فی بعض الموارد بمعنی ارتباط الولی، مع أتباعه، و أمّا فی الآیهٔ الحاضرهٔ فتکون بمعنی الورثهٔ.

[۹۶] (۱)- صورهٔ عقد ضمان الجریرهٔ هکذا« عاقدتک علی أن تنصرنی و أنصرک و تعقل عنی و أعقل عنک و ترثنی و أرثک» فیقول الآخر:« قبلت».

[۹۷] (۱)-« النشوز» من نشز(علی وزن نذر) یعنی الأرض المرتفعهٔ، و یکنی به هنا عن الطغیان و الترفع.

[۹۸] (۱)- سورهٔ البقرهٔ، الآیهٔ ۸۳، سورهٔ الأنعام، الآیهٔ ۱۵۱، سورهٔ الإسراء، الآیهٔ ۲۳ مضافا إلی الآیهٔ الحاضرهٔ.

[۹۹] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۸۰.

[۱۰۰] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۳، ص ۱۷۵۴.

[۱۰۱] (۲)- تفسیر المنار، ج ۵، ص ۱۹۲، طبعهٔ بیروت.

[۱۰۲] (۳)- تفسیر الصافی، ص ۱۳۰.

[۱۰۳] (۴)- تفسیر الصافی، ص ۱۲۰.

[۱۰۴] (۱)- غمص الناس: احتقرهم و استصغرهم و لم یرهم شیئا. انظر لسان العرب(غمص).

[۱۰۵] (۲)-« مختال» من مادهٔ« خیال» حیث یری الشخص نفسه بسبب بعض المتخیلات عظیما و کبیرا، و سمی الخیل خیلا لأن مشیته تشبه مشیهٔ المتکبر،« فخور» من مادهٔ« فخر» و الفرق بینها و بین الأولی ان المختال اشارهٔ إلی تخیلات الکبر فی مجالها الذهنی و الاخری یراد بها الأعمال الصادرهٔ عن کبر فی المجال الخارجی.

[۱۰۶] (۱)- البقرهٔ، ۲۶۸.

[۱۰۷] (۱)- المائدهٔ، ۱۱۷.

[۱۰۸] (۲)- راجع تفسیر نور الثقلین و البرهان فی ذیل الآیهٔ.

[۱۰۹] (۱)- مثل الآیة(۲۲) و(۲۳) من سورة الأنعام، و الآیة(۱۸) من سورة المجادلة.

[۱۱۰] (۲)- تفسیر نور الثّقلین، ج ۱، ص ۴۸۲- ۴۸۳، نقلا عن تفسیر العیاشی.

[۱۱۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۸۳، و تفسیر القرطبی، ج ۳، ص ۱۱۷۱.

[۱۱۲] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۸۳، و قد جاء نظیر هذا المضمون فی صحیح البخاری أیضا.

[۱۱۳] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۴۸۶.

[۱۱۴] (۱)- راعنا إذا أخذت مشتقة من مادة الرعی تکون بمعنی فعل الطلب من المراعاة و المراقبة، و بمعنی أمهلنا، و إذا أخذت مشتقة من الرعونة تکون بمعنی« أخدعنا و اجعلنا حمقاء عندک»، یقولون ذلک علی سبیل الاستهزاء و السب، و لا بدّ من الالتفات إلی أن راعنا علی الوجه الأوّل تکون بدون تشدید النون، و علی الوجه الثانی بتشدید النون، و یستفاد من جملة من الروایات أن الیهود کانوا یتعمدون تشدید النون فی راعنا و مد آخرها.

[۱۱۵] (۱)- الطمس هو إزالة الأثر بالمحو، مثل أن نهدم بیتا ثم نزیل أثره بالمرة- و لکنه یطلق- کنایة- علی ما فقد أثره و خاصیته.

[۱۱۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۲، ص ۵۵، فی ذیل الآیة الحاضرة.

[۱۱۷] (۲)- أصحاب السبت هم الذین ستأتی قصّتهم فی سورة الأعراف عند تفسیر الآیات(۱۶۳- ۱۶۶) و هم جماعة من الیهود کانوا قد کلفوا بتعطیل العمل و الکسب فی یوم السبت، و لکنّهم اشتغلوا بالصید فی ذلک الیوم بالرغم من نهی نبیّهم، فتجاوزوا فی الطغیان الحدّ، فابتلاهم اللّه بأشد العقوبات.

[۱۱۸] (۱)- الافتراء، مشتقة من مادة فری علی وزن(فرد) بمعنی القطع، و حیث أنّ قطع بعض أجزاء الشیء السالم یفسد ذلک الشیء و یخربه استعمل فی کل مخالفة، و من جملة ذلک الشرک و الکذب و التهمة.

[۱۱۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۵۷.

[۱۲۰] (۱)- الشوری، ۲۵.

[۱۲۱] (۱)- هود، ۱۱۴.

[۱۲۲] (۱)- یزکون من مادة« تزکیة» بمعنی تطهیر، و تأتی أحیانا بمعنی التربیة و التنمیة، ففی الحقیقة إذا کانت التزکیة مقترنة بالعمل فإنها تعتبر امرا محمودا، و إلا لو کانت مجرد ادعاء و کلام فارغ فهی مذمومة.

[۱۲۳] (۱)- القتیل فی اللغة بمعنی الخیط الدقیق الموجود بین شقی نواة التمر، و یأتی کنایة عن الأشیاء الصغیرة و الدقیقة جدا، و أصله من مادة« فتل» بمعنی البرم.

[۱۲۴] (۲)- البقرة، ۸۰.

[۱۲۵] (۳)- المائدة، ۱۸.

[۱۲۶] (۱)- تفسیر المنار، ج ۳، ص ۳۵، و ذهب البعض إلی أنه مصدر استعمل بالمعنی الوصفی و صیغة المبالغة.

[۱۲۷] (۲)- تفسیر التبیان، و تفسیر روح المعانی.

[۱۲۸] (۱)-« النقیر» مشتقة من مادة النقر(وزن فقر) الدق فی شیء بحیث یوجد فیه ثقبا و اشتق منه المنقار، و قال بعض: النقیر و قبّة صغیرة جدّا فی ظهر النّواة و یضرب به المثل فی الشیء الطفیف.

[۱۲۹] (۱)- الناس اسم جمع و یؤید ذلک ضمیر الجمع الراجع إلیه فی الآیة.

[۱۳۰] (۲)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۳۷۶، و قد جاء فی تفسیر روح المعانی حدیث مشابه لهذا الحدیث فی المضمون(روح المعانی، ج ۵، ص ۵۲).

[۱۳۱] (۳)- المصدر السابق.

[۱۳۲] (۱)- مستدرک الوسائل، ج ۲، ص ۳۲۷.

[۱۳۳] (۲)- المائدة، ۲۷.

[۱۳۴] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۸۶.

[۱۳۵] (۱)-« نصلیهم» من مادة« الصلی» بمعنی الإلقاء فی النار، و الاشتواء بالنّار، أو التدفؤ بالنار، و« نضجت» من مادة« نضج» بمعنی أدرکت شیها، و صارت مشویة.

[۱۳۶] (۱)-« الظلیل» من مادة« الظل» بمعنی الفیء، و استعمل هنا للتأکید، لأن معناه الظل المظلل أو الظل الظلیل و هو کنایة عن غایة الراحة و الدعة و الرفاه.

[۱۳۷] (۱)- مجالس، للشّیخ الطّوسی رحمه اللّه، و الإحتجاج، للطّبرسی رحمه اللّه.

[۱۳۸] (۱)- ذهب بعض المفسرین إلی أن الآیة الحاضرة قبل فتح مکّة، و أنّ ما ذکر فی سبب النزول لیس بصحیح، و لکن ما ذکر فی سبب النزول صح أم لا، فإنّه لا یؤثر فی القانون المهم المستفاد من الآیة.

[۱۳۹] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۳، ص ۶۴.

[۱۴۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۹۶.

[۱۴۱] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۹۶.

[۱۴۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۴۳] (۴)- المصدر السابق.

[۱۴۴] (۱)- صحیح الترمذی و النسائی بناء علی نقل المنار و قد ورد نفس هذا المضمون فی سفینة البحار أیضا.

[۱۴۵] (۲)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۶۴.

[۱۴۶] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، ج ۱۰، ص ۱۴۴، طبعة مصر، عام ۱۳۵۷.

[۱۴۷] (۱)- و إذا رأیناه سبحانه یرجع الأمّیة فی حلّ بعض اختلافاتها إلی أولی الأمر فی الآیة(۸۳) من هذه السورة فالمراد منه لیس هو الاختلاف فی الأحکام و القوانین الإسلامیة الکلیة، بل هو- کما سیأتی فی تفسیر هذه الآیة- الاختلاف فی المسائل المتعلقة بطریقة تطبیق الأحکام الإسلامیة، و سیأتی شرح مفصل فی هذا المجال عند تفسیر الآیة بإذن اللّه.

[۱۴۸] (۲)- البحر المحیط، ج ۳، طبعة مصر، ص ۴۲۵.

[۱۴۹] (۳)- إحقاق الحق، ج ۳، ص ۴۲۵.

[۱۵۰] (۱)- ینابیع المودة طبعة النجف الأشرف(الطبعة السابعة ص ۱۳۶- ۱۳۷).

[۱۵۱] (۲)- ینابیع المودة النجف، ص ۱۳۴.

[۱۵۲] (۳)- راجع تفسیر البرهان، ج ۱، تفسیر الآیة.

[۱۵۳] (۱)- تفسیر مجمع البیان، نقل هذا السبب عن أکثر المفسرین.

[۱۵۴] (۱)- تفسیر المنار، ج ۵، ص ۲۲۲.

[۱۵۵] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۳۸۹.

[۱۵۶] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۲، ص ۴۲۸.

[۱۵۷] (۱)- الشهید فی أصل اللغة هو من یشهد، غایة ما هناک أن الإنسان قد یشهد علی حق بکلامه، و قد یشهد بعمله و قتله فی سبیل أهدافه الطاهرة.

[۱۵۸] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ الآیة أعلاه تخاطب المؤمنین، لکنّها تتطرق إلی المنافقین أیضا، کما أنّ عبارة« منکم» جعلت

المنافقین جزءا من المؤمنین، و ما ذلک إلّا لأنّ المنافقین کانوا دائما متغلغلین بین المؤمنین، و من هنا فهم یحسبون علی الظاهر جزءا منهم.

[۱۵۹] (۲)-« لیبطئن» من« البطء» فی الحرکة، و هو فعل لازم و متعد کما ذکر علماء اللغة، أی أنّهم یبطؤون فی حرکتهم و یدعون الآخرین إلی البطء، و لعل استعمال الفعل فی باب التفعیل هنا یعنی أنّه متعد فقط، أی أنّهم یدفعون أنفسهم إلی البطء تارة، و یدفعون الآخرین إلی ذلک تارة أخری.

[۱۶۰] (۱)- راجع غوستاف لوبون، تاریخ الحضارة الإسلامیة و العربیة.

[۱۶۱] (۱)- إنّ الفرق بین المستضعف و الضعیف واضح و جلی، فالضعیف هو من کان معدوم القدرة و القوّة، و المستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم و جور الآخرین، سواء کان الاستضعاف فکریا أم ثقافیا أم کان أخلاقیا أو اقتصادیا أم سیاسیا أم اجتماعیا، فالعبارة هنا جامعة شاملة تستوعب جمیع أنواع الاستضعاف.

[۱۶۲] (۱)- تدل بعض الأحادیث أنّ هذا النفر من المسلمین کان قد سمع بحدیث نهضة المهدی المنتظر، فکان البعض منهم یترقب أن یؤخر الجهاد إلی زمن المهدی علیه السّلام، تفسیر نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۱۸.

[۱۶۳] (۱)- الفتیل یعنی الشعیرة الرفیعة جدا الموجودة بین فلقتی نواة التّمر، و قد تطرفنا إلی شرح ذلک فی الآیة(۴۹) من سورة النساء و فی هذا المجلد من تفسیرنا هذا.

[۱۶۴] (۱)- الآیة ۷۷ من نفس السورة.

[۱۶۵] (۱)-« مشیدة» فی الأصل من مادة« شید» علی وزن فیل، بمعنی الجص و المواد الاخری التی تستخدم لتقویة البنیان، و بما أن أکثر المواد استعمالا فی البناء فی تلک الازمنة هو الجص فان هذه الکلمة تطلق علیه عادة، فیکون معنی« بروج مشیدة» هو القلاع الرصینة و المتینة، و قد تستعمل و یراد بها المرتفعة و العالیة. و ذلک أیضا لنفس السبب لأنّه من دون استخدام الجص لم یکن بالإمکان بناء تلک الابنیة المرتفعة.

[۱۶۶] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۳۹۶.

[۱۶۷] (۱)- یتبیّن ممّا قلناه أن عبارة« إلّا قلیلا» هی استثناء من ضمیر« اتبعتم» و لا یوجد فی الآیة تقدیم أو تأخیر(تأمل بدقّة).

[۱۶۸] (۱)- البأس و البأساء بمعنی الشدّة و القهر و الغلبة.

[۱۶۹] (۲)- التنکیل من نکل فی الشیء، أی ضعف و عجز، و النکل: قید الدابة و حدیدة اللجام لکونهما مانعین، و التنکیل: أداء عمل یردع مشاهده عن الذنب و هو العقاب الذی ینزل بالظالمین فیردعهم و یردع من یتعض بمصیرهم.

[۱۷۰] (۱)- الآیة ۲۰۴ من سورة الأعراف.

[۱۷۱] (۱)- یذکر الراغب فی« المفردات» احتمالا- آخر فی تفسیر« عسی» و« لعل» هو أنّ اللّه تعالی إذا ذکر ذلک یذکره لیکون الإنسان منه راجیا، لا لأن یکون اللّه هو الذی یرجو. أی انه یقول للإنسان کن أنت راجیا لا انا الذی أرجو.

[۱۷۲] (۱)- الکفل هو عجز الحیوان و مؤخرته التی یصعب رکوبها و یشق، من هنا فکل ذنب و حصة ردیئة کفل، و الکفالة کل عمل ینطوی علی تعب و عناء.

[۱۷۳] (۱)- تفسیر الصافی، فی تفسیر الآیة الکریمة.

[۱۷۴] (۱)- النّور، ۶۱.

[۱۷۵] (۲)- الفرقان، ۷۵.

[۱۷۶] (۳)- إبراهیم، ۲۳.

[۱۷۷] (۴)- روی أن« نوبة» و هو من شعراء الجاهلیة قال:

و لو أن ليلى الأخيلية سلمت‌على و دونى جندل و صفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقاإليها صدى من جانب القبر صائح [۱۷۸] (۵)- أصول الكافى، الجزء الثانى، باب التسليم.

[۱۷۹] (۱)- أصول الكافى، الجزء الثانى، باب التسليم.

[۱۸۰] (۲)- أصول الكافى، الجزء الثانى، باب التسليم.

[۱۸۱] (۳)- تفسير فى ظلال القرآن، فى هامش الآية.

[۱۸۲] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۲، ص ۸.

[۱۸۳] (۱)- ذكرت أسباب أخرى لنزول هذه الآية و الآيات التى تليها، و قيل أنّها نزلت فى واقعة أحد بينما الآيات التالية تتحدث عن الهجرة و لا تنسجم مع هذا القول، بل تنسجم مع سبب النزول الذى ذكرناه أعلاه.

[۱۸۴] (۲)- فى هـذه الجملـة، جملـة أخرى محذوفـة تتضح لدى الإمعان فى الأجزاء الاخرى من الآية و التقدير:« فما لكم تفرقتم فى المنافقين فئتين ...».

[۱۸۵] (۳)-« أركسهم»: من ركس و هو قلب الشيء على رأسه، و تأتى أيضا بمعنى ردّ أوّل الشيء إلى آخره.

[۱۸۶] (۱)- فى المجلد الأول من هذا التّفسير بحث عن الهداية و الضلالة، فراجعه.

[۱۸۷] (۱)- الآية ۳۲ من سورة المائدة.

[۱۸۸] (۱)-

\i\'i فقد ورد فى كتاب الكافى و تفسير العياشـى فى تفسـير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السّـلام E قوله:« إن من قتـل مؤمنا على دينه فذلك المتعمد الذى قال اللّه تعالى فى كتابه عنه\:i« وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً\»E.\E

[۱۸۹] (۱)- النساء، ۴۷.

[۱۹۰] (۱)- إنّ الآيات التى وردت فى بيان خطورة قتل الأبرياء لها أثر يهز الإنسان من الأعماق، و

\i\'i فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال\:E« لزوال الدنيا أهون على اللّه من قتل امرئ مسلم\»E

و

\i\'i قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا\:E« لو أن رجلا قتل بالمشرق و آخر رضى بالمغرب لاشرك فى دمه\»E

من تفسير المنار، الجزء الخامس، ص ۳۶۱.

[۱۹۱] (۱)- العرض كلمـة على وزن(مرض) و تعنى كـل شـيء زائل لا دوام له، و على هـذا الأساس فإن« عرض الحياة الـدنيا» معناه رؤوس الأموال الدنيوية التى يكون مصير جميعها إلى الزوال و الفناء لا محالة.

[۱۹۲] (۲)- و قـد ورد فى تفسـير هـذه الآيـة احتمال آخر، هو أنّها تخاطب المسـلمين بأنهم كان لهم نفس الحالة عند إسـلامهم، أى أنّهم أقروا بالإسلام بألسنتهم و قبل منهم إسلامهم، و فى حين لم يكن أحد غير اللّه يعلم بما يخفونه فى سرائرهم.

[۱۹۳] (۱)- لقـد وردت عبارة« درجـة» فى الآيـة على صـيغة النكرة، و تؤكد كتب الأدب بأن النكرة فى مثل هذه الحالات تأتى لبيان العظمـة و الأهميـة- أى أن درجة المجاهدين من السـمو و الرفعة بحيث لا يمكن للبشـر معرفتها بصورة كاملة- و هذا شبيه بالعبارة التى تطلق لبيان القيمة العظيمة لشيء يجهل قيمته البشر.

[۱۹۴] (۱)- تفسير الصافى، هامش الآية المذكورة.

[۱۹۵] (۱)- الوسائل، كتاب الجهاد، ج ۱، ص ۲ و ۱۶.

[۱۹۶] (۲)- الوسائل، كتاب الجهاد، ج ۱، ص ۲ و ۱۶.

[۱۹۷] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۷.

[۱۹۸] (۱)- لمعرفة معنی« توفی» من الناحیة اللغویة یرجی مراجعة الجزء الثانی من تفسیرنا هذا.

[۱۹۹] (۲)- سورة السجدة.

[۲۰۰] (۱)- تفسیر البرهان، الجزء الثانی، ص ۳۹۱، هامش الآیة الأولی من سورة الإسراء.

[۲۰۱] (۲)- من سورة الزمر الآیة ۴۲.

[۲۰۲] (۳)- نور الثقلین، الجزء الأول، ص ۵۳۶.

[۲۰۳] (۱)- نور الثقلین، الجزء الأول، ص ۵۳۹.

[۲۰۴] (۱)- محمّد خاتم الأنبیاء، الجزء الأول.

[۲۰۵] (۱)- تاریخ الطبری، الجزء الثانی، ص ۱۱۲، و یجب التنبیه إلی وجود رسائل من أیّام الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، مذیلة بالتاریخ الهجری. راجع کتاب(مکاتیب الرّسول) للأحمدی.

[۲۰۶] (۱)- نور الثقلین، الجزء الأول، ص ۵۴۱.

[۲۰۷] (۱)- مفردات الراغب، مادة« ضرب».

[۲۰۸] (۱)- للاطلاع أکثر راجع الجزء الخامس من کتاب وسائل الشیعة، و کتاب سنن البیهقی، الجزء الثّالث، ص ۱۳۴ و غیرهما من الکتب.

[۲۰۹] (۲)- النساء، ۲۳.

[۲۱۰] (۱)- من سورة البقرة، الآیة ۱۵۸.

[۲۱۱] (۲)- نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۴۲.

[۲۱۲] (۱)- جاء هذا الحدیث فی سنن البیهقی، الجزء الثّالث، ص ۱۳۴ نقلا عن صحیح مسلم، کما ورد فی کتب التفاسیر و الفقه أیضا.

[۲۱۳] (۲)- وسائل الشیعة الجزء الخامس، ص ۵۴۰.

[۲۱۴] (۱)- کنز العرفان، الجزء الأوّل، ص ۱۹۱.

[۲۱۵] (۱)-« قیام» تارة یأتی بمعناه المصدری،(و یعنی به حالة القیام، و تارة یأتی للجمع أی« قائمین»- و« قعود» کذلک أیضا، فیأتی بمعنی حالة القعود و الجلوس، و یأتی بمعنی« قاعدین» للجمع. و فی الآیة أعلاه یحتمل کلا الأمرین.

[۲۱۶] (۱)- للاطلاع أکثر عن الأحادیث التی وردت فی هذا المجال راجع کتاب نور الثقلین الجزء الأوّل، ص ۵۴۵.

[۲۱۷] (۲)- و یؤید کتاب کنز العرفان، فی الجزء الأوّل، ص ۵۹، هذا المعنی، کما جاء فی تفسیر التبیان و فی مجمع البیان أیضا ذکر هذا الأمر.

[۲۱۸] (۱)- تفسیر التبیان الجزء الثّالث، ص ۳۱۴، تفسیر مجمع البیان، الجزء الثّالث، ص ۱۰۵.

[۲۱۹] (۱)- تفسیر المنار، الجزء الخامس، ص ۳۹۴، نقلا عن صحیحی مسلم و البخاری.

[۲۲۰] (۱)- سفینة البحار، الجزء الأوّل، فی مادة بهت.

[۲۲۱] (۲)- أصول الکافی، الجزء الثّانی، ص ۲۶۹، باب التهمة و سوء الظن.

[۲۲۲] (۳)- سفینة البحار، الجزء الأوّل، ص ۱۱۱.

[۲۲۳] (۱)- المجادلة، ۱۰.

[۲۲۴] (۱)- المجادلة، ۹.

[۲۲۵] (۱)- تفسیر نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۵۰، و فی کتب أخری للتفسیر.

[۲۲۶] (۲)- تفسير القرطبى، الجزء الثّالث ص ۱۹۵۵ فى شرح الآية.

[۲۲۷] (۱)- نور الثقلين، الجزء الأوّل، ص ۵۵۱.

[۲۲۸] (۱)- إنّ عبارة« و لامنّينّهم» تعود إلى المصدر« منى» على وزن« منع» و تعنى قياس الشىء أو تقييمه، و لكنّها ترد فى أغلب الأحيان لتعنى القياس و التقييم و الآمال الوهمية و الخيالية أمّا النطفة التى تسمّى ب« منى» فمعناها أن قياس تركيب أولى الموجودات الحسية قد تمّ فيها.

[۲۲۹] (۱)- تفسير التبيان، الجزء الثّالث، ص ۳۳۴.

[۲۳۰] (۱)- الغرور يعنى فى الأصل الأثر الواضح للشىء، و لكنه يطلق فى الغالب على الآثار التى لها ظاهر خادع و باطن كريه، و يطلق على كل شىء يخدع الإنسان مثل المال و الجاه و السلطان التى تبعد الإنسان عن الحق و عن جادة الصواب على أنّه مادة للغرور.

[۲۳۱] (۲)- المحيص مشتق من المصدر« حيص» و يعنى العدول و الانصراف عن الشىء، و على هذا الأساس فإن المحيص هو وسيلة الانصراف و الفرار.

[۲۳۲] (۱)- آل عمران، ۱۱۰.

[۲۳۳] (۲)- لقد أوضحنا المراد من عبارة« نقير» فى تفسير الاية ۵۳ من نفس هذه السورة.

[۲۳۴] (۱)- نور الثقلين، الجزء الأوّل، ص ۵۵۳.

[۲۳۵] (۱)- الوجه فى اللغة هو مقدمة الرأس، أو ذلك الجزء من البدن الذى يشمل الجبهة و العينين و الأنف و الفم و الجبين، و لما كان الوجه بمثابة مرآة لروح الإنسان و قلبه، و فيه الحواس التى تربط باطن الإنسان بالعالم الخارجى، لذلك جاء فى الآية التعبير عنه بذات الإنسان و نفسه.

[۲۳۶] (۲)- إنّ عبارة« ملّة» الواردة فى الآية أعلاه تعنى« الشريعة أو الدين» و الفرق بين الملّة و الدين أن الأولى لا تنسب إلى اللّه، أى لا يقال« ملّة اللّه» و يمكن أن تضاف إلى النّبى بينما كلمة الدين أو الشريعة يمكن أى يضافا إلى لفظ الجلالة فيقال:« دين اللّه» أو« شريعة اللّه» كما يمكن إضافتهما إلى النّبى أيضا، و عبارة« حنيف» تعنى الشخص الذى يترك الأديان الباطلة و يتبع دين الحق.

[۲۳۷] (۱)- مجمع البيان فى هامش الآية الشريفة.

[۲۳۸] (۲)- عيون أخبار الرضا، و تفسير الصافى فى هامش الآية المذكورة و فى تفسير البرهان الجزء الأوّل، ص ۴۱۷.

[۲۳۹] (۱)- بناء على التّفسير الذى أوردناه بشأن الآية أعلاه يتبيّن لنا أنّ عبارة« ما يتلى» مبتدأ و خبرها جملة« يفتيكم فيهنّ» التى حذفت للقرينة الموجودة فى القسم السابق من الآية. كما أنّ عبارة« ترغبون» هنا تعنى عدم الميل و الرغبة، حيث تشير القرائن إلى تقدير« عن» بعد عبارة« ترغبون» فى هذه الآية و الفرق بين« رغب عنه» و« رغب فيه» واضح.

[۲۴۰] (۱)- من أجل معرفة تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع راجع الجزء الثّانى من هذا التّفسير فى فصل« الصراع من أجل البقاء».

[۲۴۱] (۱)- تفسير التبيان، الجزء الثّالث، ص ۳۵۰.

[۲۴۲] (۱)- المصدر السابق.

[۲۴۳] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۳.

[۲۴۵] (۱)- تفسير المنار، الجزء الخامس، ص ۴۵۵.

[۲۴۶] (۱)- يمكن أن تكون عبارة« تعدلوا» اشتقاقا إمّا من مادة« العدالة» أو من مادة« العدول» فإن كانت من مادة« العدالة» يكون معنى الجملة القرآنية هكذا: فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أى لكى تستطيعوا تحقيق العدل، و أما إذا كانت من مادة« العدول» يكون المعنى هكذا: فلا تتبعوا الهوى فى أن تعدلوا أى لا تتبعوا الهوى فى سبيل الانحراف عن الحق.

[۲۴۷] (۱)- إن عبارة« تلووا» مشتقة من المصدر« لی» علی وزن« طی» و تعنی المنع و الإعاقة و قد وردت فی الأصل بمعنی اللی و البرم.

[۲۴۸] (۲)- تفسیر التبیان، الجزء الخامس، ص ۳۵۶.

[۲۴۹] (۱)- تفسیر مجمع البیان و المنار.

[۲۵۰] (۱)- إن عبارة« استحوذ» مشتقة من« حوذ» و هی تعنی هنا دفع أو ساق إلی القیام بأمر معین.

[۲۵۱] (۱)- إنّ کلمة« سلطان» مشتقة من مادة أو مصدر« سلاطة» علی وزن« مقالة» و هی تعنی القوة و القدرة علی التغلب علی الآخرین، و فی کلمة« سلطان» معنی لاسم المصدر حیث تطلق علی کل أنواع التسلط، و لهذا السبب تطلق کلمة« سلطان» أیضا علی« السبب» الذی یسلط الإنسان علی الآخرین من أمثاله، کما تطلق علی أصحاب القدرة و النفوذ، و لکنها فی الآیة المذکورة أعلاه إنما تعنی الحجة و الدلیل.

[۲۵۲] (۱)- إنّ کلمة« درک» تعنی أحط نقطة فی أعماق البحر، و یسمی آخر حبل متصل بالحبال التی توصل الإنسان إلی قعر البحر، ب« الدرک» أیضا، و یظهر أن هذه المعانی مأخوذة من معنی« درک الشیء» أی الوصول إلیه- کما تسمّی السلالم التی توصل الإنسان إلی موضع سفلی کالسرداب و البئر ب« الدرک» و هذه العبارة تقابل السلالم التی یتسلق بها الإنسان إلی أعلی حیث تسمّی بالدرجات.

[۲۵۳] (۱)- البقرة، ۲۷۹.

[۲۵۴] (۲)- نهج البلاغة، الوصیة رقم ۴۸.

[۲۵۵] (۳)- الحجرات، ۹.

[۲۵۶] (۴)- البقرة، ۲۳۷.

[۲۵۷] (۵)- النور، ۲۲.

[۲۵۸] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة العاشرة.

[۲۵۹] (۱)- للاطلاع أکثر علی قضیة جبل الطّور، و هل أنّ رفعه فوق رؤوس الیهود کان نتیجة زلزلة، أم هناک عامل آخر و کذلک فیما یتعلق بعجل السامری، و مساوئ الیهود، راجع الجزء الأوّل من هذا التّفسیر فی البحث الخاص بهذه المواضیع.

[۲۶۰] (۱)- إن عبارة« فبما نقضهم» من ناحیة الإعراب جار و مجرور، و یجب أن یکون لها عامل محذوف قد یکون تقدیره« لعناهم» أو جملة« حرمنا علیهم» الواردة فی الآیة(۱۶۰) التالیة، و علی هذا الأساس فإن ما ورد فی هذا الإطار یکون بمثابة جملة معترضة، تضفی فی مثل هذه الحالة جمالا أکثر علی الکلام القرآنی البلیغ.

[۲۶۱] (۱)- لقد ترک الحواریون المسیح علیه السّلام فی ذلک الوقت و هربوا کلهم ...(من إنجیل متی، الإصحاح ۲۶ الجملة ۵۷).

[۲۶۲] (۱)- إنجیل متی، الإصحاح ۳۷، الجملة ۶.

[۲۶۳] (۱)- إنجیل متی- الإصحاح ۲۷، الجملتان ۴۶ و ۴۷.

[۲۶۴] (۲)- لقد اقتبسنا عددا من القرائن المذکورة أعلاه من کتاب« بطل الصلیب».

[۲۶۵] (۳)- تفسیر المنار، الجزء السابع، ص ۳۴.

[۲۶۶] (۴)- المیزان، الجزء الثّالث، ص ۳۴۵.

[۲۶۷] (۱)- مسند أحمد، و صحیح البخاری، و صحیح مسلم، و سنن البیهقی، کما جاء فی تفسیر المیزان.

[۲۶۸] (۱)- تفسیر البرهان، الجزء الأوّل، ص ۴۲۶.

[۲۶۹] (۱)- راجع الجزء الثّانی من تفسیرنا هذا.

[۲۷۰] (۱)- تفسير البرهان، الجزء الأوّل، ص ۵۵۹.

[۲۷۱] (۲)- التوراة، سفر التثنية، الفصل ۲۳، الجملتان ۱۹ و ۲۰.

[۲۷۲] (۳)- لقد شرحنا بنوع من التفصيل، معنى عبارة« الراسخون فى العلم» و ذلك فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا.

[۲۷۳] (۱)- راجع تفاسير الصافى، ص ۱۳۹، و البرهان الجزء الأوّل، ص ۴۲۷، و نور الثقلين، الجزء الأوّل، ص ۵۷۳.

[۲۷۴] (۱)- مجمع البيان، الجزء الأوّل، ص ۴۷۶.

[۲۷۵] (۲)- لقد ورد ذكر الأسباط بالتفصيل فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

[۲۷۶] (۱)- يبدو من سياق الآية أنّ حرفى« ال» الداخلة على كلمة« رسول» هما« ال» العهدية، و فيها إشارة إلى النّبى الذى كانوا ينتظرون قدومه، و لم يقتصر هذا الانتظار على اليهود و النصارى وحدهم، بل أنّ المشركين- أيضا- كانوا يتوقعون- لما سمعوه من أهل الكتاب- ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[۲۷۷] (۲)- لقد فسّرت بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام كلمة« الحق» الواردة فى الآية إشارة إلى ولاية على بن أبى طالب عليه السّلام، و قد بيّنا سابقا إن مثل هذه التفاسير واضحة فى بيان المصاديق، و هى لا تدل على الحصر.

[۲۷۸] (۱)- الجاثية، ۱۳.

[۲۷۹] (۲)- تفسير المنار، الجزء السادس، ص ۸۴.

[۲۸۰] (۱)- انظر دائرة المعارف للقرن العشرين(لفريد وجدى) فى مادة(ثالوث) ...

[۲۸۱] (۱)- المراد بوحدة الوجود عند الصوفية، هى وحدة الموجود، و يستدلون بها على أن الوجود ليس أكثر من واحد يظهر فى صور مختلفة، و إن هذا الواحد هو اللّه.

[۲۸۲] (۱)- القاموس المقدس، طبعة بيروت، ص ۳۴۵.

[۲۸۳] (۱)- مناقب ابن شهر آشوب، ج ۴، ص ۳۵۲.

[۲۸۴] (۱)- راجع تفسير سورة الحمد فى تفسيرنا هذا الجزء الأوّل للاطلاع على تفسير عبارة« الصراط المستقيم».

[۲۸۵] (۱)- تفسير الصافى فى هامش الآية.

[۲۸۶] (۱)- لمعرفة معنى« الكلالة» و سبب إطلاقها على الأخوة و الأخوات، راجع تفسير الآية الثانية عشرة من سورة النساء.

[۲۸۷] (۱)- و جملة« أن تضلوا» بمعنى« أن لا تضلوا» حيث تكون كلمة« لا» مقدرة، و القرآن و كلام العرب الفصحاء مليئان بمثل هذه التعابير البليغة.

[۲۸۸] (۱)- تفسير المنار- الجزء السادس، ص ۱۱۶، و يجب الانتباه إلى أنّ المقصود بالسورة المدنية، هو نزولها بعد هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة إلى المدينة، حتى لو لم تكن السورة قد نزلت فى المدينة نفسها.

[۲۸۹] (۱)- تفسير البرهان- الجزء الأوّل، ص ۴۳۰، يجب الانتباه إلى أن ورد أحكام الوضوء و التيمم و أمثالهما فى هذه السورة، لا ينافى كونها آخر سورة من سور القرآن، لأنّ أغلب هذه الأحكام لها طابع تكرارى، أى أنّها وردت بصورة مكررة للتأكيد عليها، لذلك ترى بعضا من هذه الأحكام قد وردت فى سورة النساء أيضا.

[۲۹۰] (۱)- تفسير« روح المعانى» الآية موضوع البحث.

[۲۹۱] (۱)- نهج البلاغة، رسائل الإمام على عليه السّلام، الرسالة ۵۳.

[۲۹۲] (۲)- سفينة البحار، الجزء الثّانى، ص ۲۹۴.

[۲۹۳] (۳)- البحار، الجزء السادس عشر، ص ۱۴۴.

[۲۹۴] (۴)- أصول الكافى، ج ۲، ص ۱۶۲.

[۲۹۵] (۵)- مستدرک الوسائل، ج ۲، ص ۲۵۰.

[۲۹۶] (۱)- إذا جاءت کلمة« نعم» مفردة فهی تعنی الإبل، و إذا جاءت جمعا فتعنی الأنواع الثلاثة، مفردات الراغب مادة(نعم).

[۲۹۷] (۲)- لو قلنا: إنّ کلمة« بهیمة» تعنی الحیوانات وحدها دون الأجنة، لکانت إضافة کلمة« بهیمة» إلى کلمة« أنعام» إضافة بیانیة، أمّا إذا قلنا: إنها تعنی الأجنة أیضا، تکون هذه الإضافة« لامیة».

[۲۹۸] (۱)- طبیعی أن جملة« إلا ما یتلی علیکم» هی جملة استثنائیة، و إن جملة« غیر محلی الصید» هی حال من ضمیر« کم» و تکون نتیجة للاستثناء بحسب المعنى.

[۲۹۹] (۱)- سورة البقرة، الآیة ۱۵۸ و سورة الحج، الآیتان ۳۲ و ۳۶.

[۳۰۰] (۲)- الهدی جمع« هدیة» و هو یعنی هنا المواشی التی تهدى لتکون قرابین إلى بیت اللّه الحرام.

[۳۰۱] (۳)- القلائد جمع« قلادة» و هی الشیء الذی یوضع حول رقبة الإنسان أو الحیوان، و تعنی هنا المواشی التی تعلم بالقلائد لذبحها فی مراسم الحج.

[۳۰۲] (۱)- تفید أقوال أهل اللغة و التّفسیر أنّ کلمة« جرم» تعنی فی الأصل قطع الثمار أو قطفها من الأغصان قبل الأوان، و تطلق- أیضا على کل عمل مکروه، کما تطلق على الآخرین بالقیام بعمل غیر محبوب- و هنا فإن عبارة« لا یجر منکم» تعنی لا یحملنکم على القیام بعمل غیر صائب.

[۳۰۳] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۱۳۱.

[۳۰۴] (۲)- الوسائل، ج ۱۲، ص ۱۳۱- ۱۳۲.

[۳۰۵] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۷۱.

[۳۰۶] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۶، ص ۱۷۳.

[۳۰۷] (۲)- الموقوذة المضروبة بعنف حتى الموت.

[۳۰۸] (۱)- بالرغم من أنّ« ذلکم»، اشارة لمفرد، إلّا أنّه لمّا کان یحتوی على ضمیر الجمع، و قد فرض المجموع بمثابة الشیء الواحد، فلا اشکال فی هذا الاستعمال.

[۳۰۹] (۱)- تفسیر المنار، ج ۶، ص ۱۵۵.

[۳۱۰] (۱)- إنّ هذا الحساب یکون صحیحا إذا لم ندخل یوم وفاة النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و یوم غدیر خم فی الحساب، و أن یکون فی ثلاثة أشهر متتالیات مشهرات عدد أیّام کل منهما(۲۹) یوما، و نظرا لأن أی حدث تاریخی لم یحصل قبل و بعد یوم غدیر خم، فمن المرجح أن یکون المراد بالیوم المذکور فی الآیة هو یوم غدیر خم.

[۳۱۱] (۱)- لقد أورد العلّامة الأمینی رحمه اللّه هذه الروایات الثلاثة بتفاصیلها فی الجزء الأوّل من کتابه« الغدیر» فی الصفحات ۲۳۰ و ۲۳۱ و ۲۳۲ کما ورد فی کتاب« إحقاق الحق» فی الجزء السادس و الصفحة ۳۵۳ أن نزول الآیة کان فی حادثة غدیر خم نقلا عن أبی هریرة من طریقین، کما نقلها عن أبی سعید الخدری من عدة طرق.

[۳۱۲] (۱)- راجع تفسیر الآیة فی الجزء الأول من تفسیر البرهان و الجزء الأول من تفسیر« نور الثقلین».

[۳۱۳] (۲)- راجع کتاب« المراجعات» الطبعة الرابعة، ص ۳۸.

[۳۱۴] (۱)- لقد أورد هذا الاعتراض تلمیحا صاحب تفسیر« المنار» لدى الحدیث عن هذه الآیة، ج ۶، ص ۲۶۶.

[۳۱۵] (۱)- نقل هذه الواقعة واحد من أشهر کتب السنّة و هو کتاب« صحیح البخاری» و فی عدّة أبواب منها باب« کتاب المرضى» فی الجزء الرابع، و باب« کتاب العلم» فی الجزء الأوّل، ص ۲۲ و فی باب« جوائز وفد» من کتاب الجهاد، ص ۱۱۸، ج ۲ کما وردت فی کتاب« صحیح مسلم» فی آخر الوصایا بالإضافة إلى کتب أخرى ذکرها المرحوم السید عبد الحسین شرف الدین رحمه اللّه فی

کتابه« المراجعات» تحت عنوان« رزیة یوم الخمیس».

[۳۱۶] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۳، تفسر الآیة موضوع البحث.

[۳۱۷] (۱)- هناک محذوف مقدر فی بدایة هذه الجملة القرآنیة، حیث إن الأصل یفترض أن یکون« و صید ما علمتم» و ذلک استدلالا بالقرینة الواردة فی جملة\i فَکُلُوا مِمَّا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ\ ...E(فلیلاحظ ذلک).

[۳۱۸] (۱)- لقد شرحنا معنی جملة« سریع الحساب» فی الجزء الثّانی من تفسیرنا هذا.

[۳۱۹] (۱)- کنز العرفان، ج ۲، ص ۳۱۲.

[۳۲۰] (۱)- لقد أوضحنا فی هذا الجزء من تفسیرنا هذا فی تفسیر الآیة(۲۵) من سورة النساء، أنّ کلمة« أخذان» جمع« خدن» و هی تعنی فی الأصل الصدیق، و عادة ما تطلق علی الصداقة السریة غیر الشرعیة مع الجنس الآخر.

[۳۲۱] (۱)- وردت روایات عدیدة عن أئمّة أهل البیت علیهم السّلام تؤکّد أنّ المراد بجملة« قمتم» هو القیام من النوم، حیث لدی الإمعان فی محتویات الآیة یتأکد لنا هذا الأمر أیضا، لأن الجمل التالیة التی تبین فیها الآیة حکم التیمم قد وردت فیها عبارة\i أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغائِطِ\E، فلو کانت الآیة تبیّن فی بدایتها حکم جمیع من لیسوا علی وضوء، فإن عطف الجملة الأخیرة- و بالأخص- بحرف« أو» لا- یتلاءم و ظاهر هذه الآیة، لأنّ المقصود فیها یدخل ضمن عنوان من هو لیس علی وضوء أیضا. أمّا إذا کان الآیة فی بدایتها تتکلم بصورة خاصة عن الذین یقومون من النوم، أی أنها تبیّن فقط ما أصطلح علیه ب« حدث النوم» فإن الجملة المذکورة تصبح مفهومة بشکل تام.

[۳۲۲] (۱)- لقد ذکر« سیبویه» الذی هو من مشاهیر علماء اللغة العربیة أنّه متی ما کان الشیء الوارد بعد(إلی) و الشیء الوارد قبلها من جنس واحد، و یدخل هذا(المابعد) فی الحکم- أمّا لو کانا من جنسین مختلفین فیعتبر خارجا عن الحکم- فلو قیل: أمسک إلی آخر ساعة من النهار، یکون المفهوم من هذه الجملة أن الإمساک یشمل الساعة الأخیرة أیضا، بینما لو قیل: أمسک إلی أول اللیل فإن أوّل اللیل لا یدخل ضمن حکم الإمساک(المنار، ج ۶، ص ۲۲۳).

[۳۲۳] (۲)- لیس هناک من شک بأنّ عبارة« وجوهکم» تفصلها مسافة کبیرة نسبیا عن عبارة« أرجلکم» لذلک یستبعد أن تکون الأخیرة معطوفة علی« وجوهکم»، إضافة إلی ذلک فإنّ الکثیر من القراء قد قرءوا عبارة« أرجلکم» بکسر اللام.

[۳۲۴] (۱)- لقد ذکر القاموس ثلاثة معان للکعب و هی: النتوء الظاهر خلف الرجل، و المفصل، و النتوئین البارزین علی جانبی الرجل- و قد بینت السنة الشریفة أن المراد فی الآیة لیس النتوآت المذکورات و لکن العلماء اختلفوا فی هل أن المراد هو النتوء البارز خلف الرجل أو هو المفصل؟- و علی أی حال- فإن الاحتیاط یوجب أن یکون المسح حتی المفصل.

[۳۲۵] (۱)- لقد أوضحنا فی تفسیر الآیة(۴۳) من سورة النساء، بصورة مفصلة، أحکام التیمم و فلسفتها الإسلامیة و کیف أن التیمم لا یعتبر مغایرا للوقایة الصحیّة، بل فیه جانب وقائی صحی أیضا، و کذلک حول معنی« غائط» و قضایا أخری فلیراجع ....

[۳۲۶] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۲، ص ۹۶۹.

[۳۲۷] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۲۵۷.

[۳۲۸] (۱)- و نقرأ فی روایة عن الإمام الثامن علی بن موسی الرضا علیه السّلام قوله:« إنّ الجنابة خارجة من کل جسده فلذلک وجب علیه تطهیر جسده کله» و فی هذه الروایة إشارة للبحث الذی تناولناه أعلاه- من وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۴۶۶.

[۳۲۹] (۱)- سیرد شرح مفصل عن« عالم الذر» و سبب تسمیته بهذا الاسم فی تفسیر الآیة(۱۷۲) من سورة الأعراف، بإذن اللّه.

[۳۳۰] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۴۵۴.

[۳۳۱] (۱)- ورد هذا الحدیث نقلا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی کتاب سفینة البحار فی مادة(هوی)، و ورد فی کتاب نهج البلاغة فی الخطبة ۴۲ نقلا عن علی بن أبی طالب علیه السّلام.

[۳۳۲] (۲)- سفينة البحار، مادة(ظلم).

[۳۳۳] (۱)- تفسير الصافى، فى تفسير الآية ۷ من سورة الرحمن.

[۳۳۴] (۱)- إنّ كلمة جحيم تعنى النار الشديدة الالتهاب، و قد أطلقت فى القرآن على نار جهنم كما فى هذه الآية، و على نار الدنيا كالنار التى سعروها لحرق النّبى إبراهيم عليه السّلام الآية(۹۷) من سورة الصافات.

[۳۳۵] (۱)- تفسير روح المعانى، ج ۶، ص ۷۸.

[۳۳۶] (۲)- سفينة البحار، فى مادة« نقيب».

[۳۳۷] (۱)- مسند أحمد، ص ۳۹۸، طبعة مصر، سنة ۱۳۱۳.

[۳۳۸] (۲)- كتاب فيض القدير فى شرح الجامع الصغير، ج ۲، ص ۴۵۹.

[۳۳۹] (۳)- منتخب كنز العمال فى حاشية مسند أحمد، ج ۵، ص ۳۱۲.

[۳۴۰] (۴)- إنّ عبارة« عزرتموهم» مشتقة من مادة« تعزير» أى المنع أو العون، أمّا حين تسمى بعض العقوبات الإسلامية بالتعزير فذلك لأنّ هذه العقوبات تكون فى الحقيقة عونا للمذنب لكى يرتدع عن مواصلة الذنب، و هذا دليل على أنّ العقوبات الإسلامية لا تتسم بطابع الانتقام بل تحمل طابعا تربويا لذلك سمّيت بالتعزير.

[۳۴۱] (۱)- إنّ كلمة« لعن» تعنى فى اللغة« الطرد و الإبعاد» و حين ينسب اللعن إلى اللّه فإنه يعنى الحرمان من رحمته، أمّا كلمة« قاسية» فهى فى الأصل مشتقة من المصدر« قساوة» و تطلق على الأخص على الحجر الصلد، و لذلك أطلقت على الذين لا يبدون أى مرونة من جانبهم أمام الحقائق التى تتكشف لهم.

[۳۴۲] (۱)- إنّ كلمة« خائنة» مع كونها اسما للفاعل، فهى فى هذه الآية تكون بمعنى المصدر و تطابق كلمة الخيانة ... و قد جرت عادة العرب على استخدام مثل هذه الاستعمالات فى أشعارهم حيث جاؤوا باسم الفاعل و عنوا به المصدر فى كلمات مثل« العافية» و الخاطية» و قد احتملوا أيضا أنّ تكون كلمة« خائنة» صفة للطائفة.

[۳۴۳] (۱)- لقد وردت تفاصيل أخرى فى هذا المجال- أيضا- فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

[۳۴۴] (۱)- إنجيل يوحنا، الإصحاح ۲، الآيات ۲- ۱۲.

[۳۴۵] (۲)- إنجيل لوقا، الإصحاح ۷، الآيات ۳۶- ۴۷.

[۳۴۶] (۳)- يوسف، ۱۴.

[۳۴۷] (۱)- و على هذا الأساس فإن الضمير فى كلمة« بينهم» تعود إلى كلمة« النصارى» المذكورة فى بداية الآية.

[۳۴۸] (۱)- لقد مضى تفسير هذه الآية فى بداية هذا الجزء من تفسيرنا.

[۳۴۹] (۲)- نقرأ فى المصادر المسيحية أنّ« الإله الأب» هو خالق جميع الكائنات(قاموس الكتاب المقدس، الصفحة ۳۴۵) كما نقرأ أنّ الرّب هو الموجود بنفسه، و إن هذا هو اسم خالق جميع المخلوقات و حاكم كلّ الكائنات، و إنّه هو الروح اللامتناهية الأزلية الأبدية ...(قاموس الكتاب المقدس، ص ۳۴۴).

[۳۵۰] (۱)- تقول المصادر المسيحية بأنّ عبارة« ابن اللّه» هى فقط من ألقاب منقذ المسيحيين وفاديهم، و إنّ هذا اللقب لا يطلق على أحد غيره إلّا إذا دلت القرينة على أنّ المراد ليس البنوة الحقيقة للّه(قاموس الكتاب المقدس، ص ۳۴۵).

[۳۵۱] (۲)- ظهرت فى الآونة الأخيرة لدينا مجموعة تبشر للمسيحية و تسمّى نفسها جماعة« ابن اللّه».

[۳۵۲] (۱)- تفسير الرازى، ج ۱۱، ص ۱۹۲.

[۳۵۳] (۱)- و يرى البعض أنّ هذه الفترة تبلغ أكثر من ستمائة عام، و آخرون يرون أنّها أقل من هذه المدّة و استنادا على قول البعض فإنّ الفاصلة الزمنية بين ولادة المسيح عليه السّلام و هجرة نبى الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وفق التاريخ الميلادى تبلغ

۶۲۱ عاما و ۹۵ یوما(تفسیر ابن الفتوح الرازی، ج ۴، هامش الصفحة ۱۵۴).

[۳۵۴] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۱۴۷.

[۳۵۵] (۱)- نقرأ فی کتب أن الملک هو« من کان له الملک، و الملک هو ما یملکه الإنسان و یتصرف به- أو- العظمة و السلطة».

[۳۵۶] (۱)- یجب الانتباه إلی أنّ کلمة« جبار» مأخوذة أو مشتقة من الأصل(جبر) أی إصلاح الشیء بالقسر و الإرغام، و لذلک سمّی إصلاح العظم المکسور(تجبیرا) فهذه الکلمة تطلق من جهة علی کل نوع من التجبیر و الإصلاح، و من جهة أخری تطلق علی کل أنواع التسلط القسری، و حین تطلق کلمة(جبار) علی اللّه سبحانه و تعالی فذلک إمّا لتسلطه علی کل شیء، أو لأنّه هو المصلح لکل موجود محتاج إلی الإصلاح.

[۳۵۷] (۲)- العمالقة قوم من العنصر السامی یعیشون فی شمال شبه جزیرة العرب بالقرب من صحراء سیناء، و قد هاجموا معصر و استولوا علیها لفترات طویلة و دامت حکومتهم حوالی ۵۰۰ عام منذ عام ۲۲۱۳ قبل المیلاد حتی عام ۱۷۰۳ قبل المیلاد.

عن دائرة المعارف لفرید وجدی، ج ۶۰، ص ۲۳۲(الطبعة الثّالثة).

[۳۵۸] (۱)- الباب الأوّل من سفر التثنیة فی التوراة المتداولیة، فیه إشارة إلی أنّ اسمی هذین الرجلین هما« یوشع» و« کالیب».

[۳۵۹] (۲)- و قد أشار الإمام علی بن أبی طالب فی إحدی خطبه الواردة فی کتاب نهج البلاغة التی هذه الحقیقة بقوله علیه السّلام:

(فو اللّه ما غزی قوم فی عقر دارهم إلا ذلوا)(الخطبة ۲۷).

[۳۶۰] (۱)- الکهف، ۵۰.

[۳۶۱] (۱)- إن کلمة« تبوء» مشتقة من المصدر« بواء» أی« العودة».

[۳۶۲] (۱)- و قد کتب العلّامة الفقید الشّیخ« محمّد جواد البلاغی» رسالة فی هذا المجال سماها ب« الأکاذیب الأعاجیب» جمع فیها أکاذیب من نمط الکذبة التی جاء ذکرها أعلاه.

[۳۶۳] (۱)- جاء فی مجمع البیان أنّ کلمة« یبحث» معناها فی الأصل هو البحث عن شیء فی التراب ثمّ استعملت فی مختلف أنواع البحوث، أمّا کلمة« سوأة» فهی تعنی کل شیء یستاء الإنسان من رؤیته، و لذلک تطلق أحیانا علی جسد المیت، و علی عورة الإنسان، و یجب الانتباه هنا إلی أنّ الفاعل فی جملة« لیریه» قد یکون هو اللّه، أی أنّ اللّه أراد أن یری« قابیل» کیف یدفن أخاه، و ذلک احتراما ل« هابیل» و یحتمل أن یکون الغراب هو الفاعل فی الجملة المذکورة.

[۳۶۴] (۱)- مسند أحمد بن حنبل کما جاء فی تفسیر« فی ضلال القرآن»، ج ۲، ص ۷۰۳، فی تفسیر الآیة.

[۳۶۵] (۱)- إن کلمة« أجل» التی هی علی وزن« نخل» تعنی فی الأصل الجریمة، و قد شاع استعمالها فیما بعد فی کل عمل له عاقبة سیئة، ثم استعملت لکل عمل ذی عاقبة، و هی الآیة تستخدم للتعلیل أو بیان علة الشیء.

[۳۶۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۲۰ و قد وردت فی هذا المجال روایات أخری بنفس المضمون.

[۳۶۷] (۱)- تفسیر المنار، الجزء السادس، ص ۳۵۳، و تفسیر القرطبی، ج ۳، ص ۲۱۴۵.

[۳۶۸] (۱)- کنز العرفان فی فقه القرآن، ج ۲، ص ۳۵۲.

[۳۶۹] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۲۲.

[۳۷۰] (۱)- إن الأحکام التی تطرقنا إلیها جاءت علی شکل بحث تفسیری ملخص، و تفاصیل هذه الأحکام و شروطها موجود فی کتب الفقه.

[۳۷۱] (۱)- الملة شریعة الإسلام.

[۳۷۲] (۲)- یرحضان یطهران أو یغسلان.

[۳۷۳] (۳)- مثراة مکثرة.

[۳۷۴] (۴)- منساة مطیلة.

[۳۷۵] (۵)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۱۰.

[۳۷۶] (۱)- وفاء الوفاء، ج ۳، ص ۱۳۷۱، فی کتاب« التوصل إلی حقیقة التوسل» نقل الحدیث المذکور أعلاه کواحد من دلائل النبوة، ص ۲۱۵.

[۳۷۷] (۲)- کتاب(وفاء الوفاء)، ص ۱۳۷۲.

[۳۷۸] (۱)- وفاء الوفاء، ص ۱۳۷۳.

[۳۷۹] (۲)- کتاب« التوصل ...»، ص ۳۲۹.

[۳۸۰] (۱)- کتاب التوصل ...، ص ۲۵۳.

[۳۸۱] (۲)- کتاب التوصل ...، ص ۳۳۱.

[۳۸۲] (۳)- روح المعانی،(ج ۴- ۶)، ص ۱۱۴- ۱۱۵.

[۳۸۳] (۱)- آل عمران، ۱۶۹.

[۳۸۴] (۱)- الدینار الوارد فی هذا الحکم یبلغ مثقالا شرعیا من الذهب المسکوک و یعادل ثمانیة عشر حبة أی ثلاثة أرباع المثقال المتعارف.

[۳۸۵] (۱)- یجب الانتباه إلی أن الخمسمائة دینار إنّما تدفع دیة قطع خمسة أصابع، و قد أسلفنا أن المذهب الشیعی یری عقوبة السارق فی قطع أربعة أصابع من الید.

[۳۸۶] (۲)- ذکر هذه الحادثة(الآلوسی» فی تفسیره، ج ۳، ص ۶، لکنّه ذکر اسم(علم الدین السخاوی) بدل اسم(علم الهدی).

الجزء الرابع

[تتمة سورة المائدة]

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۴۱ الی ۴۲]

اشارة

یا أَیُّهَا الرَّسُولُ لا یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسارِعُونَ فِی الْکُفْرِ مِنَ الَّذِینَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِینَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْکَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِینَ لَمْ یَأْتُوکَ یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ یَقُولُونَ إِنْ أُوتِیتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ یُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً أُولئِکَ الَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اللَّهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِی الدُّنْیا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِیمٌ (۴۱) سَمَّاعُونَ لِلْکَذِبِ أَکَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ یَضُرُّوکَ شَیْئاً وَ إِنْ حَکَمْتَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ (۴۲)

سبب النّزول

وردت روایات عدیدة فی سبب نزول الآیتین الأخیرتین أوضحها ما نقل عن الإمام الباقر علیه السّلام فی هذا المجال، و خلاصة ذلک أنّ أحد وجهاء الیهود فی منطقة خیبر کان متزوجا، فارتکب عملا غیر شرعی و مخالفا للعفة مع امرأة

متزوجة من عائلة خيبرية مشهورة، فاغتم اليهود كيف ينفذون حكم التّوراة (الرجم) في وجيههم ذلك و في شريكته في الذنب، فأخذوا يبحثون عن حل لهذه المعضلة لينقذوهما من العقوبة المذكورة، و في نفس الوقت ليظهروا التزامهم بالأحكام الإلهية، و دفعهم هذا الأمر إلى الاستعانة بأبناء طائفتهم الموجودين في المدينة المنورة، و طلبوا منهم أن يسألوا عن حكم هذه الحادثة من النّبي محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (حتى إذا كان الحكم بسيطا و خفيفا أخذوا به، و إذا كان شديدا تجاهلوه و تناسوه، و لعلهم أرادوا بسؤالهم ذلك أن يلفتوا انتباه نبيّ الإسلام إلى أنفسهم و ليظهروا أنفسهم بأنّهم أصدقاء للمسلمين).

و لهذا الغرض توجه عدد من وجهاء يهود المدينة للقاء النّبي محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فسألهم النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن كانوا سيقبلون بكل حكم يصدره، فأجابوه بأنّهم قدموا إليه لهذا السبب! فنزل في تلك الأثناء حكم رجم مرتكب الزنا مع المرأة المحصنة، لكن اليهود لم يبدوا استعدادا لقبول هذا الحكم، بدعوى أنّ ديانتهم تخلو من مثله، فرد عليهم النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ هذا الحكم هو نفس ذلك الذي هو عندهم في التّوراة، و سألهم إن كانوا يقبلون بحضور أحد علمائهم ليتلو عليهم حكم التّوراة في تلك القضية ليأخذوا به، فوافقوا على ذلك، فسألهم النّبي عن رأيهم في العالم اليهودي (ابن صوريا) الذي كان يقطن منطقة (فدك) فأجابوه بأنّه خير من يعرف التّوراة من اليهود.

فبعث النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى هذا العالم، فلمّا قدم عنده أقسم عليه النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باللّه الواحد الأحد الذي أنزل التّوراة على موسى و فلق البحر لإنقاذ بني إسرائيل و أغرق عدوّهم فرعون و أنزل عليهم نعمه في صحراء سيناء، أن يصدق القول إن كان حكم الرجم قد نزل في التّوراة في مثل تلك الواقعة أم لم ينزل؟ فأجاب العالم اليهودي (ابن صوريا) بأنّه مرغم بسبب القسم الذي أقسمه عليه النّبي أن يقول الحقيقة و يعترف بوجود حكم الرجم في التّوراة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶

فسأل النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اليهود عن سبب احجامهم عن تطبيق الحكم المذكور، فأجاب (ابن صوريا) بأنّهم كانوا يطبقون هذا الحكم بحقّ العامّة من أبناء طائفتهم و يصونون الأثرياء و الوجهاء منهم من تنفيذ هذا الحكم بحقّهم، فأدى هذا التهاون إلى انتشار الخطيئة المذكورة بين أثرياء اليهود حتى بادر إلى ارتكابها ابن عم لأحد رؤساء الطائفة، فلم يطبق بحقه الحكم الشرعي بحسب العادة المتبعة لديهم، و صادف في نفس ذلك الوقت أن ارتكب نفس الخطيئة أحد عامّة الناس من أبناء الطائفة، فأرادوا تطبيق حكم الرجم بحقّه لكن أقاربه اعترضوا على ذلك، و قالوا:

إذا كان لا بدّ من تنفيذ هذا الحكم فيجب أن ينفذ بحق الاثنين (الوجيه اليهودي و الشخص الآخر العادي)، فعمد عند ذلك علماء الطائفة إلى سنّ حكم أخف من الرجم و هو أن يجلد الزناة ۴۰ جلدة و تسود وجوههم و يركبوا دابة و يطاف بهم في أزقة و أسواق المنطقة! فأمر النّبي محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على الفور أن يرجم ذلك الرجل الوجيه و المرأة الثرية أمام المسجد[۱] و أشهد اللّه في ذلك الحين بأنّه هو أول شخص يحيي حكم اللّه بعد أن أماته اليهود.

في تلك الأثناء نزلت الآيتان الأخيرتان و تحدّثتا عن القضية المذكورة بالإيجاز.

التّفسير

التّحكيم بين الأنصار و الأعداء:

تدلّ هاتان الآيتان و الآيات التي تليهما، على أنّ للقاضي المسلم الحق- في ظل شروطه خاصّة- في الحكم في جرائم الطوائف الأخرى من غير المسلمين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷

و سيأتى شرح هذا الموضوع فى تفسير نفس هذه الآيات.

لقد بدأت الآية الاولى- من الآيتين الأخيرتين- الخطاب بعبارة يا أَيُّهَا الرَّسُولُ و قد وردت هذه العبارة فى مكانين من القرآن: أوّلهما فى الآية موضوع البحث، و الثّانى فى الآية (۶۷) من نفس هذه السورة و التى تتعرض لقضية الولاية و الخلافة. و ربّما جاء استخدام هذا التعبير من أجل إثارة أكثر لدافع الشعور بالمسؤولية لدى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تعزيز ارادته، و مخاطبته بأنّه هو رسول اللّه، و عليه أن يستقيم و يصمد فى إبلاغ الحكم المكلّف به.

بعد ذلك تطمئن الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- كتمهيد لبيان الحكم التالى- فتقول: لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ

و يرى البعض أن عبارة يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ تختلف عن عبارة «يسارعون إلى الكفر» و ذلك لأنّ العبارة الاولى تقال بشأن أفراد كافرين غارقين فى كفرهم، و يتسابقون فيما بينهم للوصول إلى آخر مرحلة من الكفر، أمّا العبارة الثّانية فتقال فى من يعيشون خارج حدود الكفر لكنّهم يتسابقون للوصول إليه ۲].

و بعد أن تذكر الآية تجاوزات المنافقين و الأعداء الداخليين، تتناول وضع الأعداء الخارجيين و اليهود الذين كانوا سببا لحزن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول الآية: وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا ...

ثمّ تشير الآية إلى قسم من تصرفات هؤلاء المشوبة بالنفاق و الرياء، و فتؤكّد أنّهم إنّما يستمعون كلام النّبى لا لأجل أطاعته، بل لكى يجعلوا من ذلك وسيلة لتكذيب النّبى و الافتراء عليه حيث تقول الآية: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ

و لهذه الجملة القرآنية تفسير آخر، هو أنّ هؤلاء اليهود يستمعون كثيرا إلى أكاذيب قادتهم و زعمائهم، لكنّهم لا يبدون استعدادا لاستماع قول الحق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸

و الإذعان له ۳].

ثمّ تفضح الآية الصفة الثالثة لليهود، فتبيّن أنّهم يتجسّسون على المسلمين لمصلحة قوم آخرين ممّن لا يحضرون الاجتماعات الإسلامية التى تعقد فى مجلس النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول الآية: سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ....

و فى تفسير آخر لهذه الجملة قيل أن هؤلاء اليهود كانوا يستمعون إلى أوامر جماعتهم- فقط- و قد كلّفهم قومهم بأن يقبلوا ما وافق أهواءهم من أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أن يخالفوا أو يرفضوا ما كان عكس ذلك من أقواله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بناء على هذا السلوك فإنّ ما كان يظهر من طاعة هؤلاء لبعض أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن فى الحقيقة إلّا طاعة منهم لأقوال كبارهم و وجهائهم الذين أمروهم باتباع هذا الأسلوب، و لذلك أشارت الآية على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يحزن لمخالفات هؤلاء، فهم لم يحضروا عنده أبدا من أجل الاستماع إلى الحقّ و اتّباعه! ثمّ تذكر الآية انحرافا آخر لهؤلاء اليهود، فتشير إلى تحريفهم لكلام اللّه سبحانه و تعالى من خلال تحريف الألفاظ أو تحريف المعانى الواردة فى هذا الكلام، فهم إن وجدوا فى كلام اللّه حكما يخالف مصالحهم أوّلوه أو رفضوه جملة و تفصيلا، كما تقول الآية: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ ...[۴].

و الأعجب من ذلك أنّ هؤلاء قبل أن يحضروا مجلس النّبى كانوا يقررون كما يأمرهم كبارهم أنّهم إن تلقوا من محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حكما موافقا لميولهم و أهوائهم قبلوا به، و إن كان مخالفا لهوى أنفسهم ردوه و ابتعدوا عنه، تقول الآية الكريمة: يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ....

فهؤلاء قد غرقوا فى الضلال و تحجرت عقولهم لغاية أنّهم كانوا يرفضون كل شىء يخالف ما عندهم من أحكام محرفة، دون أن يبذلوا جهدا أو عناء فى التفكير

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹

لمعرفة الحقیقة، و قد أبعدتهم هذه الحالة عن طریق الرشاد و أخرجتهم من جادة الصواب، بحیث لم یبق أمل فی هدایتهم، فاستحقوا بذلک عذاب اللّه، و لم تعد تنفع فیهم شفاعة الشافعین، و فی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: وَ مَنْ یُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً و قد تدنست قلوب هؤلاء إلی درجة لم تعد قابلة للتطهیر، و حرمهم اللّه لذلک طهارة القلوب، فتقول الآیة: أُولئِکَ الَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اللَّهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ... و عمل اللّه مقرون بالحکمة دائما، لأن من یقضی عمرا فی الانحراف و یمارس النفاق و الکذب و یخالف الحق و یرفض الحقیقة، و یحرف قوانین اللّه لن یبقی له مجال للتوبة و العودة إلی الحق، حیث تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: لَهُمْ فِی الدُّنْیا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِیمٌ

أمّا الآیة الثّانیة فتؤکّد- مرّة أخری- علی أن هؤلاء لدیهم آذان صاغیة لاستماع حدیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا لإطاعته بل لتکذیبه، أو کما یقول تفسیر آخر فإنّ هؤلاء آذانهم صاغیة لاستماع أکاذیب کبارهم، فتقول الآیة: سَمَّاعُونَ لِلْکَذِبِ .. و قد تکررت هذه الجملة فی آیتین متتالیتین تأکیدا و اثباتا لوجود هذه الصفة الشنیعة فی هؤلاء.

کما أضافت الآیة صفة شنیعة أخری اتصف بها الیهود، و هی تعودهم و ادمانهم علی أکل الأموال المحرمة و الباطلة من الرّبا و الرّشوة و غیر ذلک، حیث تقول الآیة: أَکَّالُونَ لِلسُّحْتِ ..[۵].

ثمّ تخیر الآیة النّبی بین أن یحکم بینهم أو أن یتجنبهم و یترکهم، حیث تقول الآیة: فَإِنْ جاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ... و لا یعنی التخییر أن یستخدم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم میله و رغبته فی اختیار أحد الأمرین المذکورین، بل إن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰

المراد من ذلک هو أن یراعی النّبی الظروف و الملابسات المحیطة بکل حالة، فإن رأی الوضع یقتضی الحکم بینهم حکم، و إن رأی خلاف ذلک ترکهم و أعرض عنهم.

و لکی تعزز الآیة الاطمئنان فی نفس النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إن هو ارتأی الإعراض عن هؤلاء لمصلحة أکّدت قائلة: وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ یَضُرُّوکَ شَیْئاً ....

کما أکّدت ضرورة اتباع العدل و تطبیقه إذا کانت الحالة تقتضی أن یحکم النّبی بین هؤلاء فقالت الآیة: وَ إِنْ حَکَمْتَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ

و قد اختلف المفسّرون فی قضیة تخییر النظام الإسلامی بین الحکم فی غیر المسلمین بأحکام الإسلام أو الإعراض عنهم، و هل أن هذا التخییر باق علی قوته أو أنّه أصبح منسوخا؟

و یری البعض أنّ الناس فی ظل الحکم الإسلامی مشمولون من الناحیتین الحقوقیة و الجزائیة بالقوانین الإسلامیة، سواء کانوا مسلمین أم غیر مسلمین. و بناء علی هذا الرأی فإن حکم التأخیر إمّا أن یکون منسوخا و إمّا أنّه یخص غیر الکفار الذمیین، أی یخض أولئک الکفار الذین لا یعیشون فی ظل حکم اسلامی، بل یرتبطون بالمسلمین باتفاقیات أو مواثیق، أو یکون بینهم علاقات ود و تزاور.

و یعتقد مفسّرون آخرون أنّ الحاکم المسلم یکون مخیرا- حتی فی الوقت الحاضر لدی التعامل مع غیر المسلمین، فهو إمّا أن یطبق فیهم الأحکام الإسلامیة إذا اقتضت الضرورة و المصلحة ذلک، و إمّا أن یعرض عنهم و یحیلهم إلی قوانینهم الخاصّة بهم، بحسب ظروف و ملابسات کل حالة «للاطلاع أکثر علی تفاصیل هذا الحکم تراجع کتب الفقه».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۴۳]

اشارة

وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۳)

التّفسير

تتابع هذه الآية موضوع الحكم بين اليهود تطرقت إليه الآيتان السابقتان، اللتان بيّنتا أنّ اليهود كانوا يأتون إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يطلبون منه الحكم فيهم، و قد أظهرت هذه الآية الأخيرة الاستغراب من حالة اليهود الذين كانوا مع وجود التّوراة بينهم، و احتوائها على حكم اللّه، يأتون إلى النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يطلبون منه الحكم فيهم بالرغم من وجود التّوراة عندهم، فتقول: وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ....

و يجب الانتباه إلى أنّ المقصود من الحكم فى الآية هو حكم الرجم للزانى المحصن من الرجال و النساء و الذى ورد فى التّوراة أيضا، فى سفر التثنية الفصل الثّانى و العشرين.

و العجيب فى أمر هؤلاء اليهود أنّهم مع وجود التّوراة بينهم و عدم اعترافهم بنسخها من قبل القرآن و رفضهم للشريعة الإسلامية، كانوا حين يرون حكما فى التّوراة لا يوافق ميولهم و أهوائهم يتركون ذلك الحكم و يبحثون عن حكم آخر فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲

مصادر لم يقرّوا و لم يعترفوا بها.

و الأعجب من ذلك أنّهم حين كانوا يطلبون التحكيم من نبى الإسلام بينهم، كانوا لا يقبلون بحكمه إذا كان مطابقا لحكم التّوراة لكنه لم يوافق ميولهم و رغباتهم حيث تقول الآية: ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ و ما ذلك إلّا لأن هؤلاء لم يكونوا بمؤمنين فى الحقيقة، و لو كانوا مؤمنين لما استهزءوا هكذا بأحكام اللّه، حيث تؤكّد الآية قائلة: وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

و قد يرد اعتراض فى هذا المجال و هو: إن الآية الشريفة تقرّ بوجود حكم اللّه فى التّوراة و نحن نعلم عن طريق القرآن و الرّوايات الإسلامية، بأن التّوراة قد أصابها التحريف قبل ظهور نبى الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

إنّ جوابنا على هذا الاعتراض هو أننا أوّلا: لا نقول بأن التحريف قد أصاب التّوراة كلّها، بل نقر بوجود أحكام فى التّوراة تطابق الحقيقة و الواقع، و حكم الرجم- الذى هو موضوع بحثنا الآن- من الأحكام التى لم تصبها يد التحريف فى التّوراة.

ثانيا: إنّ التّوراة مهما كان حالها لا يعتبرها اليهود كتابا محرفا، و لذلك فإن الغرابة هنا تكمن فى رفض اليهود العمل بحكم اللّه مع وجوده فى توراتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۴]

اشارة

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (۴۴)

التّفسير

إنّ هذه الآية و الآية التى تليها تكملان البحث أو الموضوع الوارد فى الآيات السابقة، و تبيّن هذه الآية أهمية الكتاب السماوى الذى

نزل على النّبى موسى عليه السّلام أى التّوراة، حيث تشير إلى أنّ اللّه أنزل هذا الكتاب و فيه الهداية و النّور اللذان يرشدان إلى الحق، و أن النّور و الضياء الذى فيه هو لإزاحة ظلمات الجهل من العقول فتقول الآية: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ ...

و لذلك فإنّ الأنبياء الذين أطاعوا أمر اللّه، و الذين تولوا مهامهم بعد نزول التّوراة كانوا يحكمون بين اليهود بأحكام هذا الكتاب، تقول الآية الكريمة: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴

كما أنّ علماء اليهود و وجاءهم و مفكريهم المؤمنين الأتقياء، كانوا يحكمون وفق هذا الكتاب السماوى الذى وصل أمانة بأيديهم و كانوا شهودا عليه، حيث تقول الآية: وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ[۶].

ثمّ توجه الآية الخطاب إلى أولئك العلماء و المفكرين من اليهود الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر، فتطلب منهم أن لا يخافوا الناس لدى بيان أحكام اللّه، بل عليهم أن يخافوا اللّه، فلا تسول لهم أنفسهم مخالفة أوامره أو كتمان الحق، و إن فعلوا ذلك فسيلقون الجزاء و العقاب، فتقول الآية هنا: فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ

ثمّ تحذر الآية من الاستهانة و الاستخفاف بآيات اللّه، فتقول: وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا ....

و حقيقة كتمان الحق و أحكام اللّه نابعة إمّا عن الخوف من الناس، و إمّا بدافع المصلحة الشخصية، و أيّا كان السبب فهو دليل على ضعف الإيمان و انحطاط الشخصية، و قد أشير فى الجمل القرآنية أعلاه إلى هذين السببين.

و تصدر الآية حكما صارما و حازما على مثل هؤلاء الأفراد الذين يحكمون خلافا لما أنزل اللّه فتقول: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ

و واضح أنّ عدم الحكم بما أنزل اللّه يشمل السكوت و الابتعاد عن حكم اللّه الذى يؤدى بالناس إلى الضلال، كما يشمل التحدث بخلاف حكم اللّه.

و واضح- أيضا- أنّ للكفر مراتب و درجات مختلفة، تبدأ من إنكار أساس وجود اللّه و يشمل عصيان أوامره، لأنّ الإيمان الكامل يدعو و يحثّ الإنسان على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵

العمل وفق أوامر اللّه، و من لا عمل له ليس له ايمان كامل.

و تبيّن هذه الآية- أيضا- المسؤولية الكبرى التى يتحملها علماء و مفكر و أكل أمّة حيال العواصف الاجتماعية، و الأحداث التى تقع فى بيئاتهم، و تدعو بأسلوب حازم لمكافحة الانحرافات و عدم الخوف من أى بشر- كائنا من كان- لدى تطبيق أحكام اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۵]

اشارة

وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۴۵)

التّفسير

القصاص و العفو:

تشرح هذه الآیة الکریمة قسما آخر من الأحکام الجنائیة و الحدود الإلهیة التی وردت فی التّوراة، فتشیر إلی ما ورد فی هذا الکتاب السماوی من أحکام و قوانین تخص القصاص، و تبیّن أن من یقتل إنسانا بریئا فإنّ لأولیاء القتیل حق القصاص من القاتل بقتله نفسا بنفس. حیث تقول الآیة فی هذا المجال: وَ کَتَبْنا عَلَیْهِمْ فِیها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ

کما بیّنت أن من یصیب عین انسان آخر و یتلفها، یستطیع هذا الإنسان المتضرر فی عینه أن یقتص من الفاعل و یتلف عینه، إذ تقول الآیة فی هذا المجال:

وَ الْعَیْنَ بِالْعَیْنِ .....

و کذلک الحال بالنسبة للأنف و الأذن و السن و الجروح الأخری، وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ ...

و علی هذا الأساس فإنّ حکم القصاص یطبق بشکل عادل علی المجرم الذی یرتکب أحد الجرائم المذکورة، دون الالتفات إلی عنصره أو قومیته أو طبقته الاجتماعیة أو طائفته، و لا- مجال أبدا لاستخدام التمایز القومی أو الطبقی أو الطائفی لتأخیر تطبیق حکم القصاص علی الجانی.

و بدیهی أنّ تطبیق حکم القصاص علی المعتدی شأنه شأن الأحکام الإسلامیة الأخری، مقید بشروط و حدود ذکرتها کتب الفقه، و لا یختص هذا الکلام و لا ینحصر ببنی إسرائیل وحدهم، لأنّ الإسلام- أیضا- جاء بنظیره کما ورد فی آیة القصاص فی سورة البقرة- الآیة (۱۷۸).

و قد أنهت هذه الآیة التمایز غیر العادل الذی کان یمارس فی ذلک الوقت حیث ذکرت بعض التفاسیر أنّ تمایزا غریبا کان یسود بین طائفتین من الیهود، هما بنو النضیر و بنو قریظة الذین کانوا یقطنون المدینة المنورة فی ذلک العصر، لدرجة أنّه إذا قتل أحد أفراد طائفة بنی النضیر فردا آخر من طائفة بنی قریظة فالقاتل لا ینال القصاص، بینما فی حالة حصول العکس فإن القاتل الذی کان من طائفة بنی قریظة کان ینال القصاص إن هو قتل واحدا من أفراد طائفة بنی النضیر.

و لمّا امتد نور الإسلام إلی المدینة سأل بنو قریظة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن هذا الأمر، فأکّد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا فرق فی الدماء بین دم و دم ... فاعترضت قبیلة بنی النضیر علی حکم النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ادعت أنّ حکمه حطّ من شأنهم، فنزلت الآیة الأخیرة و بیّنت أنّ هذا الحکم غیر مختص بالإسلام، بل حتی الدیانة الیهودیة أوصت بتطبیق قانون القصاص بصورة عادلة[۷].

و لکی لا یحصل و هم أنّ القصاص أو المقابلة بالمثل أمر الزامی لا یمکن

الحیدة عنه، استدرکت الآیة بعد ذکر حکم القصاص فبیّنت أن الذی یتنازل عن حقه فی هذا الأمر و یعفو و یصفح عن الجانی، یعتبر عفوه کفارة له عن ذنوبه بمقدار ما یکون للعفو من أهمیة فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ کَفَّارَةٌ لَهُ ...[۸].

و یجب الانتباه إلی أنّ الضمیر الوارد فی کلمة (به) یعود علی القصاص، و کانت الآیة جعلت التصدق بالقصاص عطیة أو منحة للجانی و استخدام عبارة «التصدق» و الوعد الذی قطعه اللّه للمتصدق، یعتبران عاملا محفزا علی العفو و الصفح، لأنّ القصاص لا یمکنه أن یعید للإنسان ما فقده مطلقا، بل یهبه نوعا من الهدوء و الاستقرار النفسی المؤقت، بینما العفو الذی وعد به اللّه للمتصدق، بإمکانه أن یعوضه عما فقده بصورة أخری، و بذلک یزیل عن قلبه و نفسه بقایا الألم و الاضطراب، و یعتبر هذا الوعد خیر محفز لمثل هؤلاء الأشخاص.

و

قد ورد عن الحلبی قال سألت أبا عبد اللّه- الإمام الصادق- علیه السّلام عن قوله اللّه عزّ و جلّ: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ کَفَّارَةٌ لَهُ وَ ... قال: «یکفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفی»[۹].

و تعتبر هذه الجملة القرآنیة فی الحقیقة خیر جواب مفحم للذین یزعمون أن القصاص لیس بقانون عادل، و یدعون أنّه یشجع روح الانتقام و المثلة.

و الذی یفهم من الصیاغة العامّة للآیة هو أنّ جواز القصاص إنّما هو لإخافة و إرعاب الجناة و بالنتیجة لضمان الأمن لأرواح الناس الأبریاء، کما أنّ الآیة فتحت باب العفو و التوبة، و بذلک أراد الإسلام أن یحول دون ارتکاب مثل هذه الجرائم باستخدام الروادع و الحوافز کالخوف و الأمل، کما استهدف الإسلام من ذلک- أیضا- الحیلولة دون الانتقام للدم بالدم بقدر الإمکان- إذا استحق الأمر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹

ذلک.

و فی الختام تؤکّد الآیة قائلة: وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و أی ظلم أکبر من الانجرار وراء العاطفة الکاذبة، و ترک القاتل دون أن ینال قصاصه العادل بحجّة لا ضرورة فی غسل الدم بالدم، و فسح المجال للقتلة للتمادی بارتکاب جرائم قتل أخری، و بالنهایة الإساءة عبر هذا التغاضی إلی أفراد أبریاء، و ممارسة الظلم بحقّهم نتیجة لذلک.

و یجب الانتباه إلی أنّ التّوراة المتداولة حالیا قد اشتملت علی هذا الحکم أیضا، و ذلک فی الفصل الواحد و العشرین من سفر الخروج، حیث جاء فیها أنّ النفس بالنفس و العین بالعین و السن بالسن و الید بالید و الرجل بالرجل و الحرق بالحرق و الجرح بالجرح و الصفعة بالصفعة (سفر الخروج، الجمل ۲۳ و ۲۴ و ۲۵).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۴۶]

اشارة

وَ قَفَّیْنا عَلی آثارِهِمْ بِعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ آتَیْناهُ الْإِنْجِیلَ فِیهِ هُدیً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ هُدیً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِینَ (۴۶)

التّفسیر

بعد الآیات التی تحدثت عن التّوراة جاءت هذه الآیة، و هی تشیر إلی حال الإنجیل و تؤکّد بعثة و نبوة المسیح علیه السّلام بعد الأنبیاء الذین سبقوه، و تطابق الدلائل التی جاء بها مع تلک التی وردت فی التّوراة، حیث تقول الآیة: وَ قَفَّیْنا عَلی آثارِهِمْ بِعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْراةِ ... و لهذه الجملة القرآنیة تفسیر آخر و هو أنّ عیسی المسیح علیه السّلام قد أقرّ بحقیقة کلّ ما نزل فی التّوراة علی النّبی موسی علیه السّلام کاقرار جمیع الأنبیاء علیهم السّلام بنبوة من سبقوهم من الأنبیاء، و بعدالة ما جاؤوا به من أحکام.

ثمّ تشیر الآیة الکریمة إلی إنزال الإنجیل علی المسیح علیه السّلام و فیه الهدایة و النّور فتقول: وَ آتَیْناهُ الْإِنْجِیلَ فِیهِ هُدیً وَ نُورٌ و قد أطلق اسم النّور فی القرآن المجید علی التّوراة و الإنجیل و القرآن نفسه، حیث نقرأ بشأن التّوراة قوله تعالی: إِنَّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱

أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِیها هُدیً وَ نُورٌ[۱۰].

و أمّا الإنجيل فقد أطلقت عليه الآية الأخيرة اسم النّور.

و القرآن- أيضا- حيث نقرأ قوله تعالى: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ ۱۱].

فكما أنّ النّور يعتبر- في الحقيقة- ضرورة حتمية لجميع الموجودات من أجل أن تواصل حياتها، كذلك تكون الأديان الإلهية و الشرائع و الكتب السماوية ضرورة حتمية لنضوج و تكامل بني الإنسان.

و قد ثبت من حيث المبدأ أنّ مصدر كل الطاقات و القوى و الحركات و كل أنواع الجمال هو النّور، فكذلك الحال في تعليمات الأنبياء و ارشاداتهم، فلولاها لساد الظلام كل القيم الإنسانية سواء الفردية منها أو الاجتماعية، و هذا ما نلاحظه في المجتمعات المادية بكل وضوح.

لقد كرر القرآن الكريم في مجالات متعددة أنّ التّوراة و الإنجيل هما كتابان سماويان، و مع أن هذين الكتابين- دون شك- منزلان في الأصل من قبل اللّه سبحانه و تعالى، لكنّهما- بالتأكيد- قد تعرضا بعد حياة الأنبياء إلى التحريف، فحذفت منهما حقائق و أضيفت إليهما خرافات، و أدى ذلك إلى أن يفقدا قيمتهما الحقيقية، أو أنّ الكتب الأصلية تعرضت للنسيان و التجاهل و حلت محلها كتب أخرى حوت على بعض الحقائق من الكتب الأصلية[۱۲].

و على هذا الأساس فإنّ كلمة النّور التي أطلقت في القرآن الكريم على هذين الكتابين، إنما عنت التّوراة و الإنجيل الأصليين الحقيقيين.

بعد ذلك تكرر الآية التأكيد على أن عيسى عليه السّلام لم يكن وحده الذي أيد

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲

و صدق التّوراة، بل أن الإنجيل- الكتاب السماوي الذي نزل عليه- هو الآخر شهد بصدق التّوراة حيث تقول الآية: مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ ....

و في الختام تؤكّد الآية أنّ هذا الكتاب السماوي قد حوى سبل الرشاد و الهداية و المواعظ للناس المتقين، حيث تقول: وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

و تشبه هذه العبارة، عبارة أخرى وردت في بداية سورة البقرة، حين كان الحديث يدور عن القرآن الكريم، حيث جاء قوله تعالى: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

إن هذه الصفة لا- تنحصر بالقرآن وحده، بل أن كل الكتب السماوية تحتوي على سبل الهداية للناس المؤمنين المتقين، و المراد بالمتقين هم أولئك الذين يبحثون عن الحق و الحقيقة و المستعدون لقبول الحق، و بديهي أن الذين يغلقون أبواب قلوبهم إصرارا و عنادا بوجه الحق، لن ينتفعوا بأي حقيقة أبدا.

و الملفت للنظر في هذه الآية أيضا، أنّها ذكرت أوّلا أنّ الإنجيل (فيه هدى) ثمّ كررت الآية كلمة (هدى) بصورة مطلقة، و قد يكون المراد من هذا الاختلاف في التعبير هو بيان أنّ الإنجيل و الكتب السماوية الأخرى تشتمل على دلائل الهداية للناس- جميعا- بصورة عامّة، و لكنّها بصورة خاصّة- تكون باعثا لهداية و تربية و تكامل الأتقياء من النّاس الذي يتفكرون فيها بعمق و تدبر.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۷]

اشارة

وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴۷)

التّفسیر

الامتناع عن الحکم بالقانون الإلهی:

بعـد أن أشارت الآیات السابقة إلی نزول الإنجیل، أکّدت الآیة الأخیرة أنّ حکم اللّه یقضـی أن یطبق أهل الإنجیل ما أنزله اللّه فی هذا الکتاب من أحکام، فتقول الآیة: وَ لْیَحْکُمْ أَهْلُ الْإِنْجِیلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِیهِ ....

و بدیهی أنّ القرآن لا یأمر بهذه الآیة المسـیحیین أن یواصـلوا العمل بأحکام الإنجیل فی عصـر الإسلام، و لو کان کذلک لناقض هذا الکلام الآیات القرآنیـة الأخری، بل لناقض أصل وجود القرآن الـذی أعلن الـدین الجدید و نسخ الدین القدیم، لذلک فالمراد هو أنّ المسیحیین تلقوا الأوامر من اللّه بعد نزول الإنجیل بأن یعملوا بأحکام هذا الکتاب و أن یحکموها فی جمیع قضایاهم ١٣].

و تؤکّد هذه الآیة- فی النهایة- فسق الذین یمتنعون عن الحکم بما أنزل اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴

من أحکام و قوانین فتقول: وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ

و یلفت النظر اطلاـق کلمـة «الکـافر» مرّة و «الظّالم» أخری و «الفاسق» ثالثـة، فی الآیات الأخیرة علی الـذین یمتنعون عن تطبیق أحکام اللّه، و لعل هذا التنوع فی اطلاق صفات مختلفة إنّما هو لبیان أنّ لکل حکم جوانب ثلاثة:

أحدها: ینتهی بالمشرع الذی هو اللّه.

و الثّانی: یمس المنفذین للحکم (الحاکم أو القاضی).

الثّالث: یرتبط بالفرد أو الأفراد الذین یطبق علیهم الحکم.

أی أنّ کل صـفة من الصفات الثلاث المذکورة قد تکون إشارة إلی واحد من الجوانب الثلاثة، لأنّ الذی لا یحکم بما أنزل اللّه یکون قـد تجـاوز القانون الإلهی و تجاهله، فیکون قـد کفر بغفلته هـذه، و من جانب آخر ارتکب الظلم و الجور بابتعاده عن حکم اللّه- علی انسان بری‌ء مظلوم، و ثالثا: یکون قـد خرج عن حـدود واجباته و مسـئولیته، فیصـبح بذلک من الفاسـقین (لأنّ «الفسق» کما أوضـحنا، یعنی الخروج عن حدود العبودیة و الواجب).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۴۸]

اشارة

وَ أَنْزَلْنـا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَکَ مِنَ الْحَقِّ لِکُلٍّ جَعَلْنـا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَ لکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی ما آتاکُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَیْراتِ إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸)

التّفسیر

تشیر هذه الآیة إلی موقع القرآن بعد أن ذکرت الآیات السابقة الکتب السماویة التی نزلت علی الأنبیاء السابقین.

و کلمة «مهیمن» تطلق فی الأصل علی کل شـی‌ء یحفظ و یراقب أو یؤتمن علی شی‌ء آخر و یصونه، و لمّا کان القرآن الکریم یشرف

فى الحفاظ على الكتب السماوية السابقة و صيانتها من التحريف اشرافا كاملا، و يكمل تلك الكتب، لذلك أطلق عليه لفظ «المهيمن» حيث تقول الآية: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶

لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ ....

فالقرآن بالإضافة إلى تصديقه الكتب السماوية السابقة، اشتمل- أيضا- على دلائل تتطابق، مع ما ورد فى تلك الكتب، فكان بذلك حافظا و صائنا لها.

إنّ الكتب السماوية جاءت كلها متناسقة فى المبادئ و الهدف الواحد الذى تبنى تربية الإنسان و السمو به إلى مراتب الكمال المعنوى و المادى، على الرغم من الفوارق الموجودة بين هذه الكتب و التى تنبع من مقتضى التكامل التدريجى للإنسان، حيث أن كل شرعة جديدة ترتقى بالإنسان إلى مرحلة أسمى من مراحل الرقى و الكمال الإنسانى، و تشتمل على خطط و برامج أكثر شمولا و تطورا، و الإتيان بعبارة: مُهَيْمِناً عَلَيْهِ بعد جملة مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يدل على هذه الحقيقة، أى أنّ القرآن فى الوقت الذى يصدّق الكتب السابقة، يأتى فى نفس الوقت ببرامج و خطط أكثر شمولا للحياة.

ثمّ تؤكّد على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انطلاقا من الحقيقة المذكورة- ضرورة الحكم بتعاليم و قوانين القرآن بين الناس، حيث تقول فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ ....

و قد اقترنت هذه الجملة بالفاء التفريعية، فتدلّ على شمولية أحكام الإسلام بالنسبة لأحكام الشرائع السماوية الأخرى، و لا تعارض هنا بين هذا الأمر و بين ما سبق من أمر فى أية سابقة و التى خيرت النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين الحكم بين اليهود أو تركهم لحالهم، لأنّ هذه الآية ترشد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- إن هو أراد أن يحكم بين أهل الكتاب- إلى أنّ عليه أن يحكم بتعاليم و قوانين القرآن بينهم.

ثمّ تؤكّد عليه أن يبتعد عن أهواء و ميول أهل الكتاب، الذين يريدون أن يطوعوا الأحكام الإلهية لميولهم و رغباتهم، و أن ينفذ ما نزل عليه بالحق، حيث تقول الآية: وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ....

و لأجل إكمال البحث تشير الآية إلى أن كل ملّة قد أفردت لها شرعة و نظام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷

للحياة يهديها إلى السبيل الواضح، حيث تقول: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ....

و كلمة «شرع» أو «الشريعة» تعنى الطريق الذى يؤدى إلى الماء و ينتهى به، و اطلاق كلمة «الشريعة» على الدين لأن الدين ينتهى بحقائق و تعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانية و ضمان الحياة السليمة للبشرية، أمّا كلمة «النهج» أو «المنهاج» فتطلقان على الطريق الواضح.

نقل (الراغب) فى كتابه (المفردات) عن ابن عباس قوله بأنّ الفرق بين كلمتى «الشرعة» و «المنهاج» هو أنّ الاولى تطلق على كل ما ورد فى القرآن، و أن المنهاج يطلق على ما ورد فى سنّة النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و هذا الفرق مع كونه جميلا، إلّا أنّنا لا نملك دليلا جازما لتأييده)[۱۴].

ثمّ تبيّن الآية أنّ اللّه لو أراد أن يجعل من جميع أبناء البشر أمّة واحدة، تتبع دينا و شرعة واحدة لقدر على ذلك، لكن هذا الأمر يتنافى مع قانون التكامل التدريجى، و حركة مراحل التربية المختلفة، فتقول: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ ....

و جملة لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ .. إشارة إلى ما قلناه سابقا من أنّ اللّه قد أودع لدى أفراد البشر استعدادات و كفاءات تنمو فى ظل الاختبارات و فى ضوء تعاليم الأنبياء، فعند ما يطوى بنو الإنسان مرحلة معينة، يجعلهم اللّه فى مرحلة أسمى و حين تنتهى مرحلة تربوية

یأتی اللّه بمرحلة تربویة أخری علی ید نبی آخر، کما یحصل بالضبط للمراحل التعلیمیة التی یمرّ بها الشاب فی مدرسته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸

بعد ذلک تخاطب الآیة- فی الختام- جمیع الأقوام و الملل، و تدعوهم إلی التسابق فی فعل الخیرات بدل تبذیر الطاقات فی الاختلاف و التناحر، حیث تقول: فَاسْتَبِقُوا الْخَیْراتِ مؤکدة أنّ الجمیع یکون مرجعهم و عودتهم إلی اللّه الذی یخبرهم فی یوم القیامة بما کانوا فیه یختلفون: إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۴۹ الی ۵۰]

اشارة

وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُصِیبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُکْمَ الْجاهِلِیَّةِ یَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُکْماً لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۵۰)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرین فی سبب نزول هذه الآیة عن ابن عباس قوله: أنّ رهطا من وجهاء الیهود تآمروا و اتفقوا علی الذهاب إلی النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بغیة حرفه عن الإسلام، فذهبوا إلیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذکروا له أنّهم قوم من مفکری و علماء الیهود، و أنّهم إن اتبعوه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اقتدی بهم بالتأکید بقیة الیهود، و زعموا أنّ بینهم و بین جماعة أخری نزاع (فی قضیة قتل أو أمر آخر) و طلبوا من النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یحکم فی النزاع المزعوم لمصلحتهم، و وعدوه أنّه إن استجاب لأمرهم یؤمنوا به، فامتنع النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن إصدار حکم غیر عادل، فنزلت الآیة المذکورة[۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰

التّفسیر

اشارة

تکرر هذه الآیة تأکید الباری عزّ و جلّ علی نبیّه محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی أن یحکم بین أهل الکتاب طبقا لأحکام اللّه، و أن لا یستسلم لأهوائهم و نزواتهم، فتقول: وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ ....

و التکرار للأمر هنا إمّا أن یکون بسبب المواضیع التی اشتملت علیها الآیة، و إمّا لأنّ موضوع الحکم فی هذه الآیة یختلف عن موضوع الحکم فی الآیات السابقة، حیث کان موضوع الحکم فی الآیات السابقة هو الزنا مع المحصنة، و موضوع الحکم فی هذه الآیة هو القتل أو شیء آخر.

ثمّ تحذر الآیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مؤامرة هؤلاء الذین أرادوا عدول النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن شرعة الحقّ و العدل، و طالبته بأن یراقب تحرکاتهم، حیث تقول: وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکَ ....

و أکّدت هذه الآیة استمرارا لخطابها لنبی الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ هؤلاء الکتابیین إن لم یذعنوا لحکمه العادل

فإنّ ذلك يكون دلالة على أن ذنوبهم و آثامهم قد طوقتهم فحرمتهم من التوفيق، و أنّ اللّه يريد أن يعاقبهم و يعذبهم بسبب بعض ذنوبهم، حيث تقول الآية: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ....

و سبب ذكر «بعض الذنوب» لا كلّها، قد يكون لأنّ عقاب كل الذنوب لا يتم فى الحياة الدنيا بل يذوق و بال بعضها، و الباقى منها يوكّل أمرها إلى العالم الثّانى، أى بعد الموت.

و لم تصرّح هذه الآية بنوع الذنوب التى طوقت و أحاطت بهؤلاء، و يحتمل أن تكون إشارة إلى المصير الذى أحاط بيهود المدينة، بسبب الخيانات المتوالية التى مارسوها، ممّا اضطرهم إلى ترك بيوتهم و مغادرة المدينة المنورة، أو أن يكون فشل هؤلاء و حرمانهم من التوفيق نوعا من العقاب لهم على ذنوبهم السابقة، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱

الحرمان من التوفيق يعتبر- بحد ذاته- نوعا من العقاب، أى أن الذنوب المتتالية و العناد و الإصرار على الذنب، جزاؤهما الحرمان من الأحكام العادلة، و التورط بالضّلال و الحيرة متاهات الحياة.

و تشير الآية فى النهاية إلى أنّ إصرار هؤلاء القوم من أهل الكتاب على باطلهم يجب أن لا يكون باعثا للقلق عند النّبى، لأنّ الكثير من الناس منحرفون عن طريق الحق، أى أنّهم فاسقون، حيث تقول الآية: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ

سؤال:

يمكن أن يعترض البعض بأنّ هذه الآية توحى باحتمال صدور الانحراف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و العياذ باللّه، و أن اللّه يحذره من ذلك، فهل أنّ هذا الأمر يتلائم و منزلة العصمة التى يتمتع بها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

الجواب:

إنّ العصمة لا تعنى مطلقا استحالة صدور الخطأ من المعصوم، و لو كان كذلك لما بقيت لهم مكرمة أو فضل، و معنى العصمة هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة عليهم السّلام مع وجود احتمال صدور الذنب أو الخطأ منهم إلّا أنّهم لا يرتكبون الذنب أبدا و إن كان عدم ارتكاب الذنب من قبل المعصوم ناشئ عن التنبيه و التحذير و التذكير الإلهى للمعصوم، أى أن التنبيه الإلهى يعتبر جزءا من عامل العصمة لدى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى يحول دون ارتكاب الخطأ، و سنبادر إلى توضيح موضوع العصمة لدى الأنبياء- بتفصيل أكثر- عند تفسير آية التطهير (الآية ۳۳ من سورة الأحزاب بإذن اللّه).

أمّا الآية الأخرى فتساءلت بصيغة استفهام استنكارى، هل أنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم اتباع الكتب السماوية يتوقعون أن تحكم بينهم (الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بأحكام الجاهلية التى فيها أنواع التمايز المقيت؟ حيث تقول الآية: أَ فَحُكْمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲

الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ....

لكنّ أهل الإيمان لا يرون أى حكم أرفع و أفضل من حكم اللّه، حيث تتابع الآية قولها: وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

و لقد بيّنا- عند تفسير الآيات السابقة- أن نوعا من التمايز الغريب كان يسود الأوساط اليهودية بحيث لو أن فردا من يهود بنى قريظة قتل فردا من يهود بنى النضير لتعرض للقصاص، بينما لو حصل العكس لم يكن ليطبق حكم القصاص فى القاتل، و قد شمل هذا التمايز المقيت- أيضا- حكم الغرامة و الدية عند هؤلاء، فكانوا يأخذون ضعف الدية من جماعة، و لا يأخذونها من جماعة أخرى، أو

یأخذون أقل من الحدّ المقرر، و لذلک استنکر القرآن هذا النوع من التمایز و اعتبره من أحکام الجاهلیة، فی حین أنّ الأحکام الإلهیة تشمل البشر أجمعین و تطبق دون أی تمایز.

و

جاء فی کتاب «الکافی» عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام أنّه قال: «الحکم حکمان: حکم اللّه، و حکم الجاهلیة، فمن أخطأ حکم اللّه حکم بحکم الجاهلیة»[۱۶].

و هکذا یتّضح أنّ أی مسلم یتبع الأحکام الوضعیة و لا یلتزم بالأحکام و القوانین الإلهیة السماویة إنّما یسیر فی الحقیقة فی طریق الجاهلیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳

الآیات [سورة المائدة (۵): الآیات ۵۱ الی ۵۳]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصاری أَوْلِیاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ (۵۱) فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسارِعُونَ فِیهِمْ یَقُولُونَ نَخْشی أَنْ تُصِیبَنا دائِرَةٌ فَعَسَی اللَّهُ أَنْ یَأْتِیَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَیُصْبِحُوا عَلی ما أَسَرُّوا فِی أَنْفُسِهِمْ نادِمِینَ (۵۲) وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِینَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَکُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِینَ (۵۳)

سبب النّزول

نقل الکثیر من المفسّرین أنّ (عبادة بن صامت الخزرجی) قدم إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد غزوة بدر و ذکر له أن له حلفاء من الیهود ذوی عدة و عدد، و أکّد للنبی أنّه یرید البراءة من صداقتهم و من عهده معهم ما داموا یهددون المسلمین بالحرب، و قال بأنّه یرید أن یکون حلیفا للّه و لنبیه دون سواهما، أمّا عبد اللّه بن أبی فرفض التنصل من عهده مع الیهود، و اعتذر بأنّه یخشی المشاکل و ادعی أنّه یحتاج إلی الیهود.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴

و أظهر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خشیته علی عبادة و عبد اللّه من صداقة الیهود مشیرا إلی أنّ خطر صداقة الیهود علی عبد اللّه أکبر من خطرها علی عبادة بن صامت، فقال عبد اللّه بأنّه ما دام الأمر کذلک فإنّه سیتخلی عن صداقته و عهده مع الیهود، فنزلت الآیات الأخیرة و هی تحذر المسلمین من التحالف مع الیهود و النصاری.

التّفسیر

اشارة

لقد حذرت الآیات الثلاث الأخیرة المسلمین- بشدّة- من الدخول فی أحلاف مع الیهود و النصاری، فالآیة الاولی منها تمنع المسلمین من التحالف مع الیهود و النصاری أو الاعتماد علیهم (أی أنّ الإیمان باللّه یوجب عدم التحالف مع هؤلاء إن کان ذلک لأغراض و

مصالح مادية) حيث تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ ....

و كلمة «أولياء» صيغة جمع من «ولى» و هى مشتقة من مصدر «الولاية» و هى بمعنى التقارب الوثيق بين شيئين، و قد وردت بمعنى «الصداقة» و «التحالف» و «الإشراف».

لكن بالنظر إلى سبب النّزول و القرائن الأخرى الموجودة، فإنّ المراد ليس منع المسلمين من اقامة أى علاقات تجارية و اجتماعية مع اليهود و النصارى، بل المقصود هو منع المسلمين من التحالف مع هؤلاء أو الاعتماد عليهم فى مواجهة الأعداء.

و كانت قضية التحالف رائجة فى ذلك العصر بين العرب، و كان يطلق على ذلك «الولاء».

و الملفت للنظر فى هذه الآية أنّها لم تعتمد تسمية «أهل الكتاب» لدى تحدثها عن اتباع الديانتين السماويتين المعروفتين، بل استخدمت كلمتى «اليهود و النّصارى» و ربّما يكون هذا إشارة إلى أنّ اليهود و النصارى لو كانوا يعملون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵

بكتابيهم السماويين، لكان اتباع هذين الدينين خير حليفين للمسلمين، لكنّهم اتّحدوا معا- لا بأمر من كتابيهم- بل لأغراض سياسية و تكتلات عنصرية و أمثال ذلك.

بعد ذلك تبيّن الآية سبب هذا النهى فى جملة قصيرة، و تقول بأن هاتين الطائفتين إنّما هما أصدقاء و حلفاء أشباههما من اليهود و النصارى حيث تقول:

بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى أنهما يهتمان بمصالحهما و مصالح أصدقائهما فقط، و لا يعيران اهتماما لمصالح المسلمين، و لذلك فإن أى مسلم يقيم صداقة أو حلفا مع هؤلاء فإنّه سيصبح من حيث التقسيم الاجتماعى و الدينى جزءا منهم، حيث تؤكّد الآية فى هذا المجال بقولها: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ

و بديهى أنّ اللّه لا يهدى الأفراد الظالمين الذين يرتكبون الخيانة بحق أنفسهم و إخوانهم و أخواتهم المسلمين و المسلمات، و يعتمدون على أعداء الإسلام تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

و تشير الآية التّالية إلى الأعذار التى كان يتشبث بها أفراد ذوى نفوس مريضة لتبرير علاقاتهم اللاشرعية مع الغرباء، و اعتمادهم عليهم و تحالفهم معهم، مبررين ذلك بخوفهم من الوقوع فى مشاكل إن أصبحت القدرة يوما فى يد حلفائهم الغرباء، فتقول الآية: فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ[۱۷].

و يذكر القرآن الكريم هؤلاء الضعفاء ذوى النفوس المريضة ردا على تعللهم فى التخلى عن حلفهم مع الغرباء، فيبيّن لهم أنّهم حين يحتملون أن يمسك اليهود و النصارى يوما بزمام القدرة و السلطة يجب أن يحتملوا- أيضا- أن ينصر اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶

المسلمين فتقع القدرة بأيديهم، حيث يندم هؤلاء على ما أضمروه فى أنفسهم، كما تقول الآية: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِى أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ

و يشتمل هذا الجواب القرآنى- فى الحقيقة على جانبين:

أوّلهما: أنّ أفكارا كهذه إنما تخرج من قلوب مريضة لأفراد تزلزل ايمانهم و أصبحوا يسيئون الظن باللّه، و لو لم يكونوا كذلك لما سمحوا لهذه الأفكار بأن تداخل نفوسهم.

أمّا الجانب الثّانى فى هذا الجواب فهو مواجهتهم بنفس الحجة التى أوردوها لتعللهم ذلك، إذ أنّ احتمالهم لوقوع السلطة بيد اليهود و النصارى يقابله- بالضرورة- احتمال آخر و هو انتصار المسلمين و استلامهم لمقاليد الأمور، و بهذا لا يكون هناك أى مجال لتشبث هؤلاء بحلفهم مع أولئك أو الاعتماد عليهم.

و على أساس هذا التّفسير فإنّ كلمة (عسى) التى لها مفهوم الاحتمال و الأمل، تبقى فى هذه الآية محتفظة بمعناها الأصلى لكن بعض

المفسّرين قالوا بأنّها تعنى هنا الوعد الجازم من قبل اللّه للمسلمين، و هذا ما لا يتلائم و ظاهر كلمة (عسى) البتة.

أمّا المراد من جملة أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ التى جاءت بعد كلمة (الفتح) فى هذه الآية فيحتمل أنّها تعنى أنّ المسلمين- فى المستقبل- إمّا أن يتغلبوا و ينتصروا على أعدائهم عن طريق الحرب أو بدونها كأن تتوسع قدرتهم إلى درجة يضطر بعدها الأعداء إلى الخضوع و الاستسلام للمسلمين دون الحاجة إلى الدخول فى حرب.

و بتعبير آخر: كلمة (الفتح) تشير إلى الإنتصار العسكرى للمسلمين، و أنّ جملة أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ إشارة إلى الانتصارات الاجتماعية و الاقتصادية و ما شابه ذلك.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷

إنّ بيان هذا الاحتمال من قبل اللّه سبحانه و تعالى، مع كونه- عزّ و جلّ- عالما بجميع ما سيحصل فى المستقبل، يدل على أنّ الآية تشير إلى الانتصارات العسكرية و الاجتماعية و الاقتصادية التى سيحرمها المسلمون فى المستقبل.

و تشير الآية فى الختام إلى مصير عمل المنافقين، و تبيّن أنّه حين يتحقق الفتح للمسلمين المؤمنين و تنكشف حقيقة عمل المنافقين يقول المؤمنون- بدهشة-: هل أنّ هؤلاء المنافقين هم أولئك الذين كانوا يتشدقون بتلك الدعاوى و يحلفون بالايمان المغلظة بأنّهم معنا، فكيف وصل الأمر بهم إلى هذا الحدّ؟ حيث تقول الآية: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ..[۱۸].

إنّ هؤلاء لنفاقهم هذا ذهبت أعمالهم أدراج الرياح، لأنّها لم تكن نابعة من نيّة خالصة صادقة، و لهذا فقد أصبحوا من الخاسرين- سواء فى هذه الدنيا أو الآخرة معا- حيث تؤكّد الآية هذا الأمر بقولها: حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ

و الجملة الأخيرة تشبه- فى الحقيقة- جوابا لسؤال مقدر، و كأن شخصا يسأل: ماذا سيكون مصير هؤلاء؟

فيجاب بأنّ أعمالهم أدراج الرياح، و ستطوقهم الخسارة من كل جانب، أى أنّ هؤلاء- حتى لو كانت لهم أعمال صدرت عنهم بإخلاص و نية صادقة- فهم لا يحصلون على أى نتيجة حسنة من تلك الأعمال الصالحة لانحرافهم صوب النفاق و الشّرك بعد ذلك:

و قد شرحنا هذا الأمر فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا عند تفسير الآية (۲۱۷) من سورة البقرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸

الاعتماد على الغرباء:

على الرّغم من أنّ الواقعة- التى ذكرت سببا لنزول الآيات الأخيرة- تحدثت عن شخصين هما «عبادة بن الصامت» و «عبد اللّه بن أبى» إلّا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ هذين الشخصين لا يشار إليهما باعتبارهما شخصيتين تاريخيتين- فحسب- بل لأنّهما يمثلان مذهبين فكريين و اجتماعيين. يدعو أحدهما إلى التخلى عن التعاون و التحالف مع الغرباء، و عدم تسليم زمام المسلمين بأيديهم، و عدم الثقة بتعاونهم.

و المذهب الآخر يرى أنّ كل انسان أو شعب فى هذه الدنيا المليئة بالمشاكل و الأهوال يحتاج إلى من يتكئ و يعتمد عليه، و أن الحاجة تدعو أحيانا إلى انتخاب الدّعم و السند من بين الغرباء بحجة أن الصداقة معهم لا تخلو من قيمة و فائدة، و لا بدّ أن تظهر ثمارها فى يوم من الأيّام.

و قد دحض القرآن الكريم رأى المذهب الثّانى بشدّة، و حذر المسلمين بصراحة من مغبة الوقوع و التورط فى نتائج مثل هذا النوع من التفكير، لكن البعض من المسلمين- و مع الأسف- قد نسوا و تجاهلوا هذا الأمر القرآنى العظيم، فانتخبوا من بين الغرباء و الأجانب من يعتمدون عليهم، و قد أثبت التّأريخ أن كثيرا من النكبات التى أصابت المسلمين تنبع من هذا الاتجاه الخاطئ! و بلاد الأندلس تعتبر

دليلا حيّا و بارزا على هـذا الأمر، و تظهر كيف أن المسـلمين بالاعتماد على قواهم الذاتية- اسـتطاعوا أن يبنوا أكثر الحضارات ازدهارا فى الأندلس- أسبانيا اليوم- لكنّهم نتيجة لاعتمادهم على قوى غريبة أجنبية فقدوا تلك المكتسبات العظيمة بكل سهولة.

و الإمبراطورية العثمانية التى سرعان ما ذابت كذوبان الجليد فى الصيف، تعتبر دليلا آخر على هذه الدعوى.

كما أنّ التّأريخ المعاصر يشهد على ما أصاب المسلمين من خسائر و مصائب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹

كبيرة بسبب انحرافهم عن رسالتهم و اعتمادهم فى كثير من الأمور على الأجانب الغرباء، و العجب كل العجب من أن هـذا السبات ما زال يلف العالم الإسلامى، و لم توقظه بعد الكوارث و النكبات التى أصابته بسبب اعتماده على القوى الأجنبية.

على أى حـال فـإن الأجنبى أجنبى، و مهما اشترك معنا فى المصالـح و تعاون معنا فى مجالات محـدودة فهو فى النهايـة يعتزل عنّا فى اللحظات الحساسة، و كثيرا ما تنالنا منه- أيضا- ضربات مؤثرة.

و مـا على المسـلمين اليوم إلّـا أن ينتبهوا أكثر من أى وقت مضـى إلى هـذا النـداء القرآنى و لاـ يعتمـدوا على أحـد سوى اللّه و قواهم الذاتية التى وهبها اللّه لهم.

لقد اهتمّ نبىّ الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كثيرا بهذا الأمر، حتى أنّه رفض مساعدة اليهود فى واقعة «أحد» حين أعلن ثلاثمائة منهم اسـتعدادهم للوقوف بجانب المسـلمين ضد المشـركين، فأعادهم النّبى إلى حيث كانوا و لما يصـلوا إلى منتصف الطريق، و امتنع عن قبول عرضـهم فى حين أن مثل هذا العدد من الناس كان يمكن له أن يلعب دورا مؤثرا فى واقعة أحد، فلما ذا رفضـهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

لقـد رفضـهم لأنّه لم يسـتبعد منهم أن يخـذلوه و يخـذلوا المسـلمين فى أحرج اللحظات و أكثرها خطورة أثناء الحرب، و يتحولوا إلى التعاون مع العدوّ و يقضوا على ما تبقى من جيش المسلمين فى ذلك الوقت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۵۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۵۴)

التّفسير

بعـد الانتهـاء من موضوع المنـافقين، يـأتى الكلاـم- فى هـذه الآيـة الكريمـة- عن المرتـدين الـذين تنبّأ القرآن بارتـدادهم عن الـدين الإسلامى الحنيف، و هذه الآية أتت بقانون عام يحمل إنذارا لجميع المسلمين، فأكّدت أنّ من يرتد عن دينه فهو لن يضر اللّه بارتداده هذا أبدا، و لن يضـر الدين و لا المجتمع الإسلامى أو تقدمه السريع، لأنّ اللّه كفيل بإرسال من لديهم الاستعداد فى حماية هذا الدين، حيث تقول الآية الكريمة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ ....

ثمّ تتطرق الآية إلى صفات هؤلاء الحماة الذين يتحملون مسئولية الدفاع العظيمة، و تبيّنها على الوجه التّالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱

۱- إنّهم يحبّون اللّه و لا يفكرون بغير رضاه، فاللّه يحبّهم و هم يحبّونه، كما تقول الآية: يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ

۲- و ۳- یبدون التواضع و الخضوع و الرأفة أمام المؤمنین، بینما هم أشداء أقویاء أمام الأعداء الظالمین- حیث تقول الآیة: أَذِلَّةٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّةٍ عَلَی الْکافِرِینَ ....

۴- إنّ شغلهم الشاغل هو الجهاد فی سبیل اللّه، إذ تقول الآیة: یُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ

۵- و آخر صفة تذکرها الآیة لهؤلاء العظام، هی أنّهم لا یخافون لوم اللائمین فی طریقهم لتنفیذ أوامر اللّه و الدفاع عن الحق، حیث تقول الآیة: وَ لا یَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ... فهؤلاء بالإضافة إلی امتلاکهم القدرة الجسمانیة، یمتلکون الجرأة و الشّجاعة لمواجهة التقالید الخاطئة، و الوقوف بوجه الأغلبیة المنحرفة التی اعتمدت علی کثرتها فی الاستهزاء بالمؤمنین.

و هناک الکثیر من الأفراد المعروفین بصفاتهم الطیبة، لکنّهم یبدون الکثیر من التحفظ أمام الفوضی السائدة فی المجتمع و هجوم الأفکار الخاطئة لدی سواد الناس أو من الأغلبیة المنحرفة، و یتملکهم الخوف و الجبن، و سرعان ما یترکون الساحة و یخلونها للمنحرفین، فی حین أنّ القائد المصلح و من معه من الأفراد بحاجة إلی الجرأة و الشهامة لتطبیق أفکارهم و اصلاحاتهم. و علی عکس هؤلاء فالذین لا یمتلکون هذه الصفات الروحیة الرفیعة، یقفون سدّا و حائلا دون حصول الإصلاحات المطلوبة.

و تؤکّد الآیة فی الختام- علی أنّ اکتساب أو نیل مثل هذه الامتیازات السامیة (بالإضافة إلی الحاجة لسعی الإنسان نفسه) مرهون بفضل اللّه الذی یهبها لمن یشاء، و لمن یراه کفؤا لها من عباده، حیث تقول الآیة فی هذا المجال: ذلِکَ فَضْلُ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲

و فی النهایة تبیّن الآیة أنّ مجال فضل اللّه و کرمه واسع، و هو یعرف الأفکاء و المؤهلین من عباده، و کما تقول الآیة: وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ لقد نقلت الرّوایات الإسلامیة التی أوردها المفسّرون أقوالا کثیرة حول هویة الأشخاص المعنیین بهذه الآیة، فمن هم أنصار الإسلام هؤلاء الذین مدحهم اللّه بهذه الصفات؟

فی الکثیر من الرّوایات الواردة عن طرق الشیعة و السنة نقرأ أن هذه الآیة نزلت فی حقّ (علی بن أبی طالب علیه السّلام) و قتاله للناکثین و القاسطین و المارقین (مثیری حرب الجمل، و جیش معاویة، و الخوارج)، و ممّا یدل علی ذلک قول النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین رأی عجز قادة جیش الإسلام عن فتح حصن خیبر، حیث وجه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهم الخطاب فی إحدی اللیالی و فی مقر جیش الإسلام قائلا:

لأعطین الرایة غدا رجلا یحبّ اللّه و رسوله و یحبّه اللّه و رسوله، کرارا غیر فرار، لا یرجع حتی یفتح اللّه علی یده»[۱۹].

و نقرأ فی روایة أخری أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سئل عن هذه الآیة فوضع صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یده الشریفة علی کتف «سلمان» و قال ما مضمونه: «هذا و أنصاره و بنی قومه ...» و بذلک تنبأ النّبی عن إسلام الإیرانیین و جهودهم و مساعیهم المثمرة فی خدمة هذا الدین فی المجالات المختلفة، ثمّ

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لو کان الدین (و فی روایة أخری- لو کان العلم-) معلقا بالثریا لتناوله رجال من أبناء فارس»[۲۰].

و ذکرت روایات أخری أن هذه الآیة نزلت فی شأن أنصار المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف الذین سیواجهون الارتداد و المرتدین بکل قوّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳

و حزم، و یملؤون العالم قسطا و عدلا و إیمانا.

و ممّا لا شکّ فیه أنّه لا تناقض بین هذه الرّوایات الواردة فی تفسیر الآیة الأخیرة، لأنّ الآیة- جریا علی أسلوب القرآن الکریم- تبیّن مفهوما کلیا عاما، بحیث تعتبر «علی بن أبی طالب علیه السّلام» أو «سلمان الفارسی» مصداقین مهمین ضمن هذا المفهوم الذی یشمل أفرادا آخرین یسیرون علی نفس النهج، حتی لو لم تتطرق الرّوایات إلی أسمائهم.

إنّ الأمر الـذی یثیر الأسف فی هـذا المجـال، هو تـدخل العصبیات الطائفیـة و القومیـة فی تفسیر هـذه الآیـة، و التی أدخلت أفرادا لا یمتلکون أی کفاءة و لا یتمتعون بأی من الصـفات المـذکورة ضـمن مصادیق هـذه الآیـة و اعتبرتهم ممّن نزلت الآیة فی شأنهم، و من هؤلاء الأفراد «أبو موسـی الأشـعری» الذی ارتکب تلک الحماقة التّأریخیة المعروفة التی دفعت بالإسلام نحو هاویة السقوط، و وضعت أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی أحرج موقف [۲۱].

و الغریب فی هذا الأمر هو انتقال آثار التطرف الذی نلاحظه فی الکتب العلمیة- بشـکل رهیب- إلی سواد الناس، بل إلی متعلمیهم، و کأن هناک یدا خفیة تسـعی الی تشتیت صـفوف المسلمین، و تحول دون اتحاد کلمتهم، و قد سری هذا التطرف لیشمل تاریخ ما قبل الإسـلام، بحیث نری هؤلاء المتطرفین و قـد سـمّوا شارعا فخما یقع بجوار بیت اللّه الحرام باسم «أبی سـفیان» و هـذا الشارع هو أکبر و أفخم بکثیر من شارع «إبراهیم الخلیل علیه السّلام» مؤسس الکعبة الشریفة.

و أخذ أمثال هؤلاء المتطرفین یصـمون کثیرا من المسلمین و بکل بساطة بالشرک، لا لشیء إلّا لأنّ تحرک هؤلاء المسلمین لا یتفق مع أهوائهم و طریقتهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴

الخاصـة، و کأن الإسـلام ینحصـر فی هذه الطریقة، أو کأنّهم- وحدهم- سدنة القرآن و حفظته دون غیرهم، أو کأنّهم هم المکلفون- دون غیرهم- ببیان من هو المسـلم و من هو الکافر، فیشـیرون بکلمة واحدة إلی هذا بأنّه مشرک و إلی ذاک بأنّه مسلم، وفق ما تشتهیه أهواؤهم و رغباتهم.

فی حین أنّنا نقرأ فی الرّوایات الواردة فی تفسیر الآیات الأخیرة، أنّ الإسلام حین یصبح غریبا بین أهله یبرز أشخاص کسلمان الفارسی لإعادة مجد الإسلام و عظمته، و هذه بشارة وردت علی لسان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لقوم سلمان.

و المثیر للدهشة و الحیرة أن کلمة التوحید التی هی رمز لوحدة المسـلمین، أصـبحت الیوم تستخدم من قبل جهات معلومة للتفریق بین المسـلمین و اتهامهم بالشـرک و الوثنیـة، و قـد خاطب أحد العلماء هؤلاء المتطرفین بقوله: إنّکم قد وصـلت بکم الحالة إلی درجة أن إسـرائیل إذا تسـلطت علی جماعـة منکم فرحت جماعـة أخری بهـذا التسـلط، و إذا ضـربت إسـرائیل الجماعة الأخری فرحت الجماعة الاولی بهذا العمل، أو لیس هذا هو ما یبتغیه و یهدف إلیه أعداء الإسلام؟

و من الإنصاف القول بأن اللقاءات المتکررة التی حصـلت بیننا و بین عدد من علماء هؤلاء المتعصبین المتطرفین، کشفت القناع عن أنّ الواعین منهم کثیرا مـا لاـ یرضون بهـذا الوضع، و قـد التقیت بأحـد علمـاء الیمن فی المسـجد الحرام فقال أمام جمع من کبار مدرسـی الحرم المکی: إنّ اتهـام أهـل القبلـة بالشـرک یعتبر ذنبـا کبیرا، اسـتقبحه السـلف الصالـح کثیرا، و قـد صـدر هـذا القول منه حین کان الحدیث یدور حول مسألة حدود الشرک، و قد أعرب هذا العالم عن استیائه لما یقوم به بعض الجهلاء من اتهام الناس بالشرک مشیرا إلی أن هؤلاء یتحملون بعملهم هذا مسئولیة عظیمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۵۵]

اشارة

إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ (۵۵)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان- و تفاسیر و کتب أخری- نقلا عن عبد اللّه بن عباس قوله: أنّه کان فی أحد الأیّام جالسا إلی جوار بئر زمزم، و یروی للناس أحادیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فتقرب إلیهم- فجأة- رجل کان یرتدی عمامة، و یضع علی وجهه نقابا، و کان کلما تلا ابن عباس حدیثا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تلا هو حدیثا عن النّبی مستهلا قوله بعبارة: «قال رسول اللّه ...» فأقسم علیه ابن عباس أن یعرف نفسه، فرفع هذا الشخص النقاب عن وجهه و صاح أیّها الناس من عرفنی فقد عرفنی و لم یعرفنی فأنا جندب بن جنادة البدری أبو ذر الغفاری، سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهاتین و إلّا صمتا، و رأیته بهاتین و إلّا فعمیتا،

یقول: «علی قائد البررة، و قاتل الکفرة منصور من نصره، مخذول من خذله».

و

أضاف أبو ذر: أمّا إنّی صلیت مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوما من الأیّام صلاة الظهر فسأل سائل فی المسجد فلم یعطه أحد فرفع السائل یده الی السماء و قال: اللّهم أشهد بأنّی سألت فی مسجد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلم یعطنی أحد شیئا، و کان علی علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶

راکعا فأومی إلیه بخنصره الیمنی و کان یختتم فیها فاقبل السائل حتی أخذ الخاتم من خنصره و ذلک بعین النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلمّا فرغ من صلاته رفع رأسه إلی السماء و قال: «اللّهم موسی سألک فقال: رَبِّ اشْرَحْ لِی صَدْرِی وَ یَسِّرْ لِی أَمْرِی وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِی یَفْقَهُوا قَوْلِی وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی هارُونَ أَخِی اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی فأنزلت علیه قرآنا ناطقا: سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما ... اللّهم و أنا محمّد نبیّک و صفیک اللّهمّ فاشرح لی صدری و یسّر لی أمری و اجعل لی وزیرا علیّا أشدد به ظهری».

قال أبو ذر رحمه اللّه: فما استتم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کلامه حتی نزل جبرائیل من عند اللّه عزّ و جلّ فقال علیه السّلام: یا محمّد اقرأ، قال: و ما اقرأ؟ قال: اقرأ: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ ۲۲].

و طبیعی أنّ سبب النّزول هذا قد نقل عن طرق مختلفة (کما سیأتی تفصیله) بحیث تختلف الرّوایات أحیانا بعضها عن البعض الآخر فی جزئیات و خصوصیات الموضوع، لکنها جمیعا متفقة من حیث الأساس و المبدأ.

التّفسیر

اشارة

ابتدأت هذه الآیة بکلمة «إنّما» التی تفید الحصر، و بذلک حصرت ولایة أمر المسلمین فی ثلاث هم: اللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و الذین آمنوا و أقاموا الصّلاة و أدوا الزّکاة و هم فی حالة الرکوع فی الصّلاة کما تقول الآیة: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ

و لا شک أنّ الرّکوع المقصود فی هذه الآیة هو رکوع الصّلاة و لا یعنی الخضوع، لأنّ الشارع المقدس اصطلح فی القرآن علی کلمة الرّکوع للدلالة علی الرکن الرّابع للصلاة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷

و بالإضافة إلى الرّوايات الواردة فى شأن نزول الآية، و التى تتحدث عن تصدق على بن أبى طالب عليه السّلام بخاتمه فى الصّلاة- و سنتطرق إليها بالتفصيل- فإنّ جملة يُقيمُونَ الصَّلاةَ تعتبر دليلا على هذا الأمر، و ليس فى القرآن أثر عن ضرورة أداء الزّكاة مقرونة بالخضوع، بل ورد التأكيد على دفع الزّكاة بنيّة خالصة و بدون منة.

كما لا- شك فى أنّ كلمة «الولى» الواردة فى هذه الآية، لا تعنى الناصر و المحب، لأنّ الولاية التى هى بمعنى الحب أو النصرة لا تنحصر فى من يؤدون الصّلاة و يؤتون الزّكاة و هم راكعون، بل تشمل كل المسلمين الذين يجب أن يتحابوا فيما بينهم و ينصر بعضهم البعض، حتى أولئك الذين لا زكاة عليهم، أو لا يمتلكون- أساسا- شيئا ليؤدوا زكاته، فكيف يدفعون الزّكاة و هم فى حالة الركوع؟! هؤلاء كلهم يجب أن يكونوا أحباء فيما بينهم و ينصر بعضهم البعض الآخر.

و من هنا يتّضح لنا أنّ المراد من كلمة «ولى» فى هذه الآية، هو ولاية الأمر و الإشراف و حق التصرف و الزعامة المادية و المعنوية، خاصّة و قد جاءت مقترنة مع ولاية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ولاية اللّه حيث جاءت الولايات الثلاث فى جملة واحدة.

و بهذه الصورة فإن الآية تعتبر نصّا قرآنيا يدل على ولاية و إمامة على بن أبى طالب عليه السّلام للمسلمين.

شهادة الأحاديث و المفسّرين و المؤرخين:

لقد قلنا أنّ الكثير من الكتب الإسلامية و مصادر أهل السنّة تشتمل على العديد من الرّوايات القائلة بنزول هذه الآية فى شأن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام، و قد ذكرت بعض هذه الرّوايات قضية تصدق الإمام على عليه السّلام بخاتمه على السائل و هو فى حالة الركوع، كما لم تذكر روايات أخرى مسألة التصدق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸

هذه، بل اكتفت بتأييد نزول هذه الآية فى حق على عليه السّلام.

و قد نقل هذه الرّوايات كل من ابن عباس، و عمار بن ياسر، و عبد اللّه بن سلام، و سلمة بن كهيل، و أنس بن مالك، و عتبة بن حكيم، و عبد اللّه بن أبى، و عبد اللّه بن غالب، و جابر بن عبد اللّه الأنصارى، و أبى ذر الغفارى [۲۳].

و بالإضافة إلى الرواة العشرة المذكورين، فقد نقلت كتب الجمهور (أهل السنة) هذه الرواية عن على بن أبى طالب عليه السّلام نفسه [۲۴].

و الطّريف أنّ كتاب (غاية المرام)، قد نقل ۲۴ حديثا عن طرق أهل السنة و ۱۹ حديثا عن طرق الشّيعة[۲۵].

و قد تجاوز عدد الكتب التى أوردت هذه الرّوايات الثلاثين كتابا، كلها من تأليف علماء أهل السنة، منهم: محب الدين الطبرى فى ذخائر العقبى ص ۸۸، و العلامة القاضى الشوكانى فى تفسير فتح القدير ج ۲، ص ۵۰، و من هذه المصادر المعتمدة أيضا: جامع الأصول، ج ۹، ص ۴۷۸، و فى أسباب النّزول للواحدى ص ۱۴۸، و فى لباب النقول للسيوطى ص ۹۰، و فى تذكرة سبط ابن الجوزى ص ۱۸، و فى نور الأبصار للشبلنجى ص ۱۰۵، و فى تفسير الطبرى ص ۱۶۵، و فى كتاب الكافى الشافى لابن حجر العسقلانى ص ۵۶، و فى مفاتيح الغيب للرازى ج ۳، ص ۴۳۱، و فى تفسير الدرّ المنثور ج ۲، ص ۳۹۳، و فى كتاب كنز العمال ج ۶، ص ۳۹۱، و فى مسند ابن مردويه و مسند ابن الشيخ، بالاضافة إلى صحيح النسائى، و كتاب الجمع بين الصحاح الستة، و كتب عديدة أخرى نقلت حديث الولاية[۲۶].

اذن كيف يمكن- و الحالة هذه- انكار هذه الأحاديث و المصادر التى نقلتها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹

فى حين أنّها اكتفت فى مجال أسباب نزول آيات أخرى بحديث واحد أو حديثين؟! لعل التطرف الطائفى هو سبب تجاهل كل هذه

الأحاديث و الشهادات التى أدلى بها العلماء فى مجال سبب نزول هذه الآية.

فلو أمكن التغاضى عن كل الرّوايات التى وردت فى تفسير هذه الآية، و هى روايات كثيرة للزم أن لا نعتمد على أى رواية فى تفسير النصوص القرآنية، لأنّنا قلما نجد أسبابا لنزول آية أو آيات قرآنية جاءت مدعومة بهذا العدد الكبير من الرّوايات، كما ورد فى هذه الآية الكريمة.

إنّ هذه القضية كانت بدرجة من الوضوح بحيث أنّ حسان بن ثابت الشاعر المعروف الذى عاصر و اصطحب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- جاء بمضمون آية الولاية فى قالب شعرى من نظمه الذى قاله فى حق على بن أبى طالب عليه السّلام حيث يقول:

فأنت الذى أعطيت إذ كنت راكعازكاة فدتك النفس يا خير راكع

فأنزل فيك اللّه خير ولايةو بيّنها فى محكمات الشرائع

و قد وردت هذه الأشعار باختلافات طفيفة فى كتب كثيرة، منها كتاب تفسير (روح المعانى) للآلوسى، و كتاب (كفاية الطالب) للكنجى الشافعى، و كتب كثيرة أخرى.

الرّد على اعتراضات ثمانية:

لقد أصرت جماعة من المتطرفين من أهل السنّة على تكرار الاعتراضات حول نزول هذه الآية فى حق على بن أبى طالب عليه السّلام، و كذلك على تفسير (الولاية) الواردة فى الآية الكريمة بمعنى الإشراف و التصرف و الإمامة، و فيما يلى نعرض أهم هذه الاعتراضات للبحث و النقد، و هى:

۱- قالوا: أنّ عبارة «الذين» المقترنة بكلمة «آمنوا» الواردة فى الآية: لا يمكن أن تطبق على المفرد، و ذلك ضمن اعتراضهم على الرّوايات التى تقول

بنزول هذه الآية فى حق على بن أبى طالب عليه السّلام و قالوا: أنّ الآية أشارت بصيغة الجمع قائلة الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ فكيف يمكن أن تكون هذه الآية فى حق شخص واحد كعلى عليه السّلام؟

الجواب:

لقد زخرت كتب الأدب العربى بجمل تمّ التعبير فيها عن المفرد بصيغة الجمع، و قد اشتمل القرآن الكريم على مثل هذه الجمل، كما فى آية المباهلة، حيث وردت كلمة «نساءنا» بصيغة الجمع مع أنّ الرّوايات التى ذكرت سبب نزول هذه الآية أكّدت أن المراد من هذه الكلمة هى فاطمة الزهراء عليها السّلام وحدها، و كذلك فى كلمة (أنفسنا) فى نفس الآية و هى صيغة جمع، فى حين لم يحضر من الرجال فى واقعة المباهلة مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غير على عليه السّلام.

و كذلك نقرأ فى الآية (۱۷۲) من سورة آل عمران فى واقعة أحد قوله تعالى:

الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً ....

و قد بيّنا فى الجزء الثّالث من تفسيرنا هذا عند تفسير هذه الآية، أن بعض المفسّرين ذكروا أنّها نزلت بشأن (نعيم بن مسعود) الذى لم يكن إلّا واحدا.

و نقرأ فى الآية (۵۲) من هذه السّورة- أيضا- قوله تعالى: ... يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ ... فى حين أن هذا الجزء من الآية نزل فى شخص واحد، كما جاء فى سبب النّزول، و هو (عبد اللّه بن أبى) و قد مضى تفسير ذلك.

و كذلك فى الآية الاولى من سورة الممتحنة، و الآية الثامنة من سورة (المنافقون) و الآيتين (۲۱۵ و ۲۷۴) من سورة البقرة، نقرأ فيها

كلها عبارات جاءت بصيغة الجمع، بينما الذى ذكر فى أسباب نزول هذه الآيات هو أنّ المراد فى كل منها شخص واحد.

و التعبير بصيغة الجمع عن شخص واحد فى القرآن الكريم إمّا أن يكون بسبب أهمية موقع هذا الشخص و لتوضيح دوره الفعال، أو لأجل عرض الحكم القرآنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱

بصيغة كلية عامّة حتى إذا كان مصداقه منحصرا فى شخص واحد، و قد ورد فى كثير من آى القرآن ضمير الجمع للدلالة على اللّه الواحد الأحد، و ذلك تعظيما له جلّ شأنه.

و بديهى أنّ استخدام صيغة الجمع للدلالة على الواحد يعتبر خلافا للظاهر، و لا يجوز بدون قرينة و لكن مع وجود الرّوايات الكثيرة الواردة فى شأن نزول الآية تكون لدينا قرينة واضحة على هذا التّفسير و قد اكتفى فى موارد أخرى بأقل من هذه القرينة؟! ۲- و قال الفخر الرّازى و متطرفون آخرون: أنّ عليّا عليه السّلام بما عرف عنه من خشوع و خضوع إلى اللّه، بالأخص فى حالة الصّلاة (إلى درجة، أنّهم استلوا أثناء صلاته سهما كان مغروزا فى رجله، دون أن يحس بالألم كما فى (الرواية المعروفة) فكيف يمكن القول بأنّه سمع أثناء صلاته كلام السائل و التفت إليه؟! الجواب:

إنّ الذين جاؤوا بهذا الاعتراض قد غفلوا عن أن سماع صوت السائل و السعى لمساعدته لا يعتبر دليلا على الانصراف و التوجه إلى النفس، بل هو عين التوجه إلى اللّه، و على عليه السّلام كان أثناء صلاته يتجرد عن ذاته و ينصرف بكله إلى اللّه، و معروف أن التنصل عن خلق اللّه يعتبر تنصلا أيضا عن اللّه، و بعبارة أوضح: أن أداء الزّكاة أثناء الصّلاة يعد عبادة ضمن عبادة أخرى، و ليس معناه القيام مباح ضمن العبادة، بعبارة ثالثة: إنّ ما يلائم روح العبادة هو الانشغال و الانصراف أثناءها إلى الأمور الخاصّة بالحياة و الشخصية، بينما التوجه إلى ما فيه رضى اللّه تعالى يتلائم بصورة تامّة مع روح العبادة و يؤكّدها.

و من الضرورى أن تؤكّد هنا أن الذوبان فى التوجه إلى اللّه، ليس معناه أن يفقد الإنسان الإحساس بنفسه، و لا أن يكون بدون إرادة، بل الإنسان بإرادته يصرف عن نفسه التفكير فى أى شىء لا صلة له باللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲

و الطّريف فى الأمر أنّ الفخر الرازى قد أوصله تطرّفه إلى الحدّ الذى اعتبر فيه ايماءة الإمام على عليه السّلام إلى السائل بأصبعه- لكى يأخذ الخاتم- مصداقا للفعل الكثير المنافى للصلاة، فى حين أن هناك أفعالا يمكن القيام بها أثناء الصّلاة أكثر بكثير من تلك الإيماءة التى قام بها الإمام عليه السّلام، و فى نفس الوقت لا تضر و لا تمس الصّلاة بشىء، و من هذه الأفعال قتل الحشرات الضارة كالحية و العقرب، و رفع الطفل من محله و وضعه فيه، و إرضاع الطفل الرضيع، و كل هذه الأفعال لا تعتبر من الفعل الكثير فى نظر الفقهاء، فكيف يمكن القول بأن تلك الإيماءة تعتبر من الفعل الكثير؟! و قد لا يكون هذا الخطأ غريبا عن عالم استولى عليه التطرف!

۳- أمّا الاعتراض الآخر فى هذا المجال، فهو أنّ كلمة (ولى) الواردة فى الآية تعنى الصديق و الناصر و أمثالهما، و ليست بمعنى المتصرف أو المشرف أو ولى الأمر.

الجواب: لقد بيّنا فى تفسير هذه الآية أن كلمة (ولى)- الواردة فيها- لا يمكن أن تكون بمعنى الصديق أو الناصر، لأنّ هاتين الصفتين قد ثبتت شموليتهما لكل المسلمين المؤمنين، و ليستا منحصرتين بالمؤمنين المذكورين فى الآية و الذين يقيمون الصّلاة و يؤتون الزّكاة أثناء الركوع، و بعبارة أخرى: إنّ الصداقة و النصرة حكمان عامان، بينما الآية- موضوع البحث- تهدف إلى بيان حكم خاص بشخص واحد.

۴- و قالوا- أيضا- أنّ عليّا عليه السّلام لم يكن يمتلك شيئا من حطام الدنيا حتى تجب عليه الزّكاة، و لو قلنا بأنّ المراد فى الآية هو الصداقة المستحبة فهى لا تسمى زكاة؟! الجواب:

أوّلا: إنّ التّأريخ ليشهد على امتلاك على عليه السّلام المال الوفير الذى حصل عليه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳

من کدّ یمینه و عرق جبینه و تصدق به فی سبیل اللّه، و قد نقلوا فی هذا المجال أنّ علیّا علیه السّلام أعتق و حرر ألف رقبة من الرقیق، کان قد اشتراهم من ماله الخاص الذی کان حصیلة کدّه و معاناته، أضف إلی ذلک فقد کان علیه السّلام یحصل- أیضا- علی حصته من غنائم الحرب، و علی هذا الأساس فقد کان علی علیه السّلام یمتلک ذخیرة بسیطة من المال، أو من نخلات التمر ممّا یتعین فیهما الزّکاة.

و نحن نعلم- أیضا- ان الفوریة الواجبة فی أداء الزّکاة هی «فوریة عرفیة» لا تتنافی مع أداء الصّلاة، أی لا فرق فی أداء الزّکاة سواء کان وقت الأداء قبل وقت الصّلاة أو أثناءها.

ثانیا: لقد أطلق القرآن الکریم فی کثیر من الحالات کلمة الزّکاة علی الصدقة المستحبة، و بالأخص فی السور المکیة، حیث وردت هذه الکلمة للدلالة علی الصدقة المستحبة، لأنّ وجوب الزّکاة کان قد شرع بعد هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المدینة، کما فی (الآیة ۳ من سورة النمل، و الآیة ۳۹ من سورة الروم، و الآیة ۴ من سورة لقمان، و الآیة ۷ من سورة فصلت و غیرها).

۵- و یقولون: إنّهم حتی لو أذعنوا بأن علیا علیه السّلام هو الخلیفة بعد النّبی مباشرة، فهذا لا یعنی أن یکون علی علیه السّلام ولیا فی زمن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لأنّ ولایته فی زمن النّبی لم تکن ولایة فعلیة، بل کانت ولایة بالقوة، و أن ظاهر الآیة- موضوع البحث- یدل علی الولایة الفعلیة.

الجواب:

نلاحظ کثیرا فی کلامنا الیومی- و کذلک فی النصوص الأدبیة- اطلاق اسم معین أو صفة خاصّة علی أفراد لا- یتمتعون بمزایاها الفعلیة، بل یمتلکون المزیة أو المزایا بالقوة، و هذا مثل أن یوصی انسان فی حیاته و یعین لنفسه وصیا و قیما علی أطفاله فیکون الشخص الثّانی فور اقرار الوصیة من قبل الشخص الأوّل وصیا و قیما، و یدعی بهذین العنوانین حتی لو کان الإنسان الموصی باقیا علی قید

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴

الحیاة.

و نحن نقرأ فی الرّوایات التی نقلت فی أسانید الشّیعة و السنّة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحقّ علی علیه السّلام أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا علیا: وصیه و خلیفته، فی حین أن هذین العنوانین لم یکونا لیتحققا فی زمن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و القرآن المجید- أیضا- یشتمل علی مثل هذه التعابیر، و من ذلک ما ورد عن (زکریا) الذی توسل إلی اللّه بقوله: .. فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ ..[۲۷] و المعروف أنّ المراد- هنا- من کلمة (ولی) المشرف الذی یتولی شؤون الإشراف بعد الموت کما یعیّن الکثیر من الناس فی حیاتهم من یقوم مقامهم بعد الموت، و یسمّی الشخص المعین منذ لحظة تعیینه بالنائب أو الخلیفة مع کون هذه الصفات بالقوة، و لیست بالفعل.

۶- و احتجّوا- أیضا- بقولهم: لماذا لم یعتمد علی علیه السّلام علی هذا الدلیل الواضح للدفاع عن حقّه؟

الجواب:

لقد لاحظنا- من خلال البحث الذی تناول الرّوایات فی سبب نزول هذه الآیة- أن هذا الحدیث قد نقل فی کتب عدیدة عن الإمام علی علیه السّلام نفسه، و من ذلک ما جاء فی مسند «ابن مردویه» و «ابن الشّیخ» و «کنز العمال» و هذا بذاته دلیل علی استدلال الامام علی علیه السّلام بهذه الآیة الشریفة.

و نقل فی کتاب (الغدیر) القیم عن کتاب (سلیم بن قیس الهلالی) حدیث مفصل مفاده أنّ علیّا علیه السّلام حین کان منشغلا بحرب

صفین، تحدث فی میدان الحرب امام جمع من الناس مستدلا بدلائل عدیدة فی إثبات حقّه، و کان من جملة ما استدل به الإمام علیه السّلام هذه الآیة الکریمة[۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵

و جاء فی کتاب (غایة المرام) نقلا عن أبی ذر رضی اللّه عنه أنّ علیّا علیه السّلام استدل فی یوم الشوری بهذه الآیة[۲۹].

۷- و قد ادعوا- أیضا- أنّ هذا التّفسیر الذی أوردناه موضوع البحث لا یتناسب أو لا یتلاءم مع الآیات الواردة قبل و بعد هذه الآیة، لأن تلک الآیات جاءت فیها کلمة «الولایة» بمعنی الصداقة.

الجواب:

لقد قلنا مرارا- أنّ الآیات القرآنیة بسبب نزولها بصورة تدریجیة، و بحسب الوقائع المختلفة تکون دائما ذات صلة بالأحداث التی نزلت الآیات فی شأنها، أی أنّ الآیات الواردة فی سورة واحدة أو الآیات المتعاقبة، لیست دائما ذات مفهوم مترابط، کما لا تشیر دائما إلی معنی واحد، و لذلک یحصل کثیرا أن تروی لآیتین متعاقبتین حادثتان مختلفتان أو سببان للنزول، و تکون النتیجة أن ینفصل مسیر و اتجاه کل آیة- لصلتها بحادثة خاصّة- عن مسیر الآیة التّالیة لها لاختلاف الحادثة التی نزلت بشأنها، و بما أنّ آیة إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللَّهُ ... بدلالة سبب نزولها جاءت فی شأن تصدق الإمام علی علیه السّلام أثناء الرکوع، أمّا الآیات السابقة و اللاحقة لها- کما رأینا و سنری- فقد نزلت فی أحداث أخری، لذلک لا یمکن الاعتماد- هنا کثیرا علی مسألة ترابط المفاهیم فی الآیات.

و هناک نوع من التناسب بین الآیة- موضوع البحث- و الآیات السابقة و اللاحقة لها، لأنّ الآیات الأخری تضمنت الحدیث عن الولایة بمعنی النصرة و الإعانة، بینما الآیة- موضوع البحث- تحدثت عن الولایة بمعنی القیادة و التصرف، و بدیهی أنّ القائد و الزعیم و المتصرف فی أمور جماعة معینة، یکون فی نفس الوقت حامیا و ناصرا و صدیقا و محبا لجماعته، أی أن مسألة النصرة و الحمایة تعتبر من مستلزمات و شؤون الولایة المطلقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶

۸- و أخیرا قالوا: من أین أتی علی علیه السّلام بذلک الخاتم النفیس؟

و سألوا أیضا: ألا یعتبر ارتداء خاتم بتلک القیمة العالیة نوعا من الإسراف؟

ألا تعتبر هذه الأمور دلیلا علی عدم صحة التّفسیر المذکور.

الجواب:

إنّ المبالغات الواردة بشأن قیمة الخاتم الذی تصدق به علی علیه السّلام أثناء الرکوع لا أساس لها مطلقا، و لا یقوم علیها أی دلیل مقبول- و ما جاء فی قیمة ذلک الخاتم من أنّه کان یعادل خراج الشام مبالغة أقرب إلی الأسطورة منه إلی الحقیقة، و قد جاء ذلک فی روایة ضعیفة[۳۰] و لعل هذه الروایة وضعت لتشویه حقیقة القضیة الأصلیة و إظهارها بمظهر الأمر التافه، و قد خلت الرّوایات الصحیحة- التی وردت حول سبب نزول هذه الآیة- من أی أثر لمثل هذه الأسطورة.

و علی هذا الإساس لم یتمکن أحد من تهمیش هذه الواقعة التّأریخیة التی أشارت إلیها الآیة الکریمة- بمثل هذه الحکایة التافهة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۵۶]

اشارة

وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (۵۶)

التّفسیر

جاءت هـذه الآیـة مكملـة لمضـمون الآیـة السابقـة، و هی تؤكّـد و تتابع الهدف المقصود فی تلك الآیة، و تعلن للمسـلمین أنّ النصـر سیكون حلیف أولئك الذین یقبلون القیادة المتمثلة فی اللّه و رسوله و الذین آمنوا، الذین أشارت إلیهم الآیة السابقة.

و تصف الآیـة الـذین قبلوا بهـذه القیـادة بأنّهم من حزب اللّه المنصورون دائما، حیث تقول وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ

و تشـتمل هذه الآیة- أیضا- علی قرینة أخری تؤكّد المعنی المذكور فی تفسیر الآیة السابقة لكلمة (الولایة) و هو الإشراف و التصرف و الزعامـة، لأنّ عبارة (حزب اللّه) و التأكیـد علی أنّ الغلبـة تكون لهـذا الحزب- فی الآیة- لهما صـلة بالحكومة الإسـلامیة، و لا علاقة لهما بقضـیة الصداقـة التی هی أمر بسـیط و عادی، و هـذا یؤكّـد بنفسه أنّ الولایـة- الواردة فی الآیـة- تعنی الأشـرف و الحكم القیادة بالإسلام و المسلمین، لأنّ معنی الحزب یتضمن التنظیم و التضامن

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸

و الاجتماع لتحقیق أهداف مشتركة.

و یجب الانتباه إلی نقطـة مهمّـة و هی أنّ المراد بعبـارة الَّذِینَ آمَنُوا الـواردة فی هـذه الآیـة لیسـوا جمیـع الأـفراد المؤمنین، بـل ذلك الشخص الذی ذكر فی الآیة السابقة و أشیر إلیه بأوصاف معینة.

أمّا قضـیة الغلبة أو الإنتصار كفلته الآیة لحزب اللّه فهل هو الإنتصار المعنوی وحده، أم یشـمل الإنتصار علی كل الأصـعدة و فی جمیع المجالات المادیة و المعنویة؟

لا شك أنّ الإطلاق فی الآیـة الكریمة یدل علی الإنتصار الشامل فی جمیع الجبهات، و بدیهی أنّ أی جماعة تنضوی تحت لواء حزب اللّه، أی تتحلی بالإیمان القوی و تلتزم التقوی و تـدأب علی العمل الصالـح و تسـعی إلی الاتحاد و التكافل و التضامن و تتمتع بالوعی الكافی، فهی لا شك ستنال النصر فی كل المجالات و علی جمیع الأصعدة، و العجز الذی نشهده الیوم بین المسلمین عن نیل مثل هذا الإنتصار إنّما هو بسـبب افتقارهـم- فی الغالب- إلی الصفات التی ذكرناها أعلاه، و التی هی صفات الأفراد المنضوین تحت لواء حزب اللّه، و لـذلك فهم بـدلا من أن یسـتخدموا قـواهم و طاقـاتهم فی طرد الأعـداء و حـل مشـاكلهم الاجتماعیـة یصـرفون هـذه القوی فی إضعاف بعضهم البعض.

و قد ذكرت الآیة (۲۲) من سورة المجادلة- أیضا- قسما من صفات حزب اللّه، سنأتی علی شرحها بإذن اللّه عند تفسیر هذه السورة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۵۷ الی ۵۸]

اشارة

یـا أَیُّهَـا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا الَّذِینَ اتَّخَـذُوا دِینَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِیاءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۵۷) وَ إِذا نادَیْتُمْ إِلَی الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَعْقِلُونَ (۵۸)

سبب النّزول

جـاء فی تفاسیر (مجمـع البیـان) و (أبـو الفتوح الرازی) و (الفخر الرازی) أن اثنین من المشـركین یـدعیان (رفاعـة) و (سویـد) تظـاهرا

بإعلان الإسلام ثمّ انضما إلی المنافقین، و کان لبعض المسلمین صحبهٔ مع هذین الشخصین و یظهرون لهما التودد، فنزلت الآیتان الأخیرتان و نهت هؤلاء المسلمین من عملهما ذلک (و یتّضح هنا أنّه حین تتحدث هاتان الآیتان عن الولایهٔ فالمقصود هو الصّحبهٔ و الصداقهٔ و المودّهٔ لأنّ سبب نزولهما یختلف عن سبب نزول الآیتین السابقتین، و لا یمکن اعتبار إحداهما قرینهٔ للأخری).

أمّا بخصوص سبب نزول الآیهٔ الثّانیهٔ من الآیتین الأخیرتین، فنقل أنّ جماعهٔ من الیهود و بعضا من النصاری حین کانوا یسمعون صوت الأذان، أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰

حینما یرون المسلمین و هم یقیمون الصّلاهٔ یبادرون إلی الاستهزاء بهم، لذلک حذر القرآن المجید المسلمین عن التودد إلی هؤلاء و أمثالهم.

التّفسیر

اشارهٔ

یحذر القرآن فی الآیهٔ المؤمنین من اتّخاذ أصدقاء لهم من بین المنافقین و الأعداء، إلّا أنّه لأجل استثارهٔ عواطف المؤمنین و استقطاب انتباههم إلی فلسفهٔ هذا الحکم خاطبهم بهذا الأسلوب، کما تقول الآیهٔ: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِینَ اتَّخَذُوا دِینَکُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ الْکُفَّارَ أَوْلِیاءَ و لتأکید التحذیر تقول الآیهٔ فی الختام: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ بمعنی أنّ التودد مع الأعداء و المنافقین لا یتناسب و التقوی و الإیمان أبدا.

«الهزو» هو الکلام المصحوب بحرکات تصور السخریهٔ، و یستخدم للاستخفاف و الاستهانهٔ بشیء أو شخص معین، و فسّر «الراغب» فی کتابه (المفردات) الهزو بأنّه یقال لفعل المزاح و الاستخفاف الذی یصدر بشأن شخص فی غیابه، کما یطلق فی حالات نادرهٔ علی المزاح أو الاستخفاف الذی یحصل بشخص معین فی حضوره.

أمّا «اللعب» فهو الذی یصدر عبثا و بدون هدف صحیح، أو خالیا من أی هدف و سمّیت بعض أفعال الصبیان لعبا لنفس السبب.

و الآیهٔ الثّانیهٔ من الآیتین الأخیرتین تتابع البحث فی النهی عن التودد إلی المنافقین و جماعهٔ من أهل الکتاب الذین کانوا یستهزئون بأحکام الإسلام، و تشیر إلی واحد من ممارساتهم الاستهزائیهٔ دلیلا و شاهدا علی هذا الأمر، فتقول:

إِذا نادَیْتُمْ إِلَی الصَّلاهِٔ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ...[۳۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۱

بعد ذلک تبیّن الآیهٔ الکریمهٔ دوافع هذا الاستهزاء، فتذکر أنّ هذه الجماعهٔ إنّما تفعل ذلک لجهلها و ابتعادها عن الحقائق، فتقول: ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَعْقِلُونَ

الأذان شعار اسلامی کبیر:

إنّ لکل أمّهٔ- فی أی عصر أو زمان کانت- شعار خاص بها تنادی به أفرادها و تستحث به هممهم للقیام بواجباتهم الفردیهٔ و الاجتماعیهٔ، و یشاهد هذا الأمر فی عالمنا الحاضر بصورهٔ أوسع.

فالمسیحیون ینادون قومهم و یدعونهم لحضور الصّلاهٔ فی الکنائس بدق الناقوس و هذه هی طریقتهم و شعارهم سابقا و حاضرا.

و الإسلام جاء بالأذان شعارا لدعوة المسلمين، حيث يعتبر هذا الشعار أكثر تأثيرا و جاذبية فی نفوس الناس قياسا بشعارات الديانات و الأمم الأخرى، فقد ذكر صاحب تفسير (المنار) أنّ بعض المسيحيين المتطرفين حين يستمعون إلى أذان المسلمين لا يجدون بدأ من يعترفوا بتأثيره المعنوى العظيم فی نفوس سامعيه، و ينقل صاحب المنار- أيضا- أنّ بعضهم فی إحدى مدن مصر شاهد جماعة من النصارى كانوا قد اجتمعوا أثناء أذان المسلمين للاستماع إلى هذا اللحن السماوی.

فأی شعار أقرب إلى الذوق و آنس إلى الأسماع من شعار يبدأ بذكر اسم اللّه و يشهد بتوحيده و وحدانيته و بنبوة رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و يدعو إلى الفلاح و العمل الصالح، و ينتهی- كذلك- بذكر اللّه!! فبدايته اسم «اللّه» و ختامه اسم (اللّه) فی جمل موزونة متناغمة، ذات عبارات قصيرة واضحة المعنى و ذات محتوى تربوی بنّاء.

و لذلك أكّدت الرّوايات الإسلامية كثيرا على ضرورة أداء الأذان، فقد ورد

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۲

عن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديث معروف فی هذا المجال، أنّه قال: المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة[۳۲]

و هذا العلو هو نفس علو منزلة القيادة التی تدعو الناس إلى اللّه و إلى عبادة كالصّلاة.

إنّ صوت الأذان الذی ينطلق فی أوقات الصّلاة من مآذن المدن الإسلامية بمثابة نداء الحرية و النسيم الذی يهب الحياة لروح الاستقلال و المجد، و يدغدغ أذان المسلمين الأبرار و يثير الرعب و الخوف فی نفوس الأعداء الحاقدين، و يعتبر رمزا من رموز بقاء الإسلام، و الدليل على هذا الأمر اعتراف أحد رجالات انجلترا المعروفين الذی قال أمام جمع من المسيحيين: ما دام اسم النّبی محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يرفع على المآذن، و ما دامت الكعبة باقية و ما دام القرآن يهدی و يوجه المسلمين، فلا يمكن أن تترسخ قواعد سياسة الإنجليز فی الأراضی الإسلامية[۳۳].

و بالرّغم من ذلك فانّ بعض المسلمين البؤساء أزاحوا مؤخرا هذا الشعار الإسلامی العظيم- الذی هو سند و مستمسك حیّ على صمود و مقاومة دينهم و ثقافتهم على مر العصور- من إذاعاتهم و وضعوا مكانه برامج رخيصة، نسأل اللّه أن يهدی هؤلاء للعودة إلى صفوف المسلمين.

و من الطبيعی أنّ الأذان- لفحواه و محتواه الجميل البديع- يحتاج أدائه إلى صوت مقبول، لكی لا يشوّه الأداء غير المستساغ هذا المحتوى الجميل الجذاب.

نزول الأذان وحيا على النّبی:

وردت فی بعض الرّوايات المنقولة من طرق أهل السنة قصص غريبة حول تشريع الأذان لا تتناسب و لا تتلاءم مع المنطق الإسلامی، و ممّا نقلوا فی هذا الباب أن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد أن سأله أصحابه عن إيجاد طريقة لمعرفة أوقات الصّلاة،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۳

استشار الصحابة، فقدم كل منهم اقتراحا، و من ذلك رفع علم خاص فی أوقات الصّلاة أو إشعال نار، أو دق ناقوس، لكن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يوافق على أی من هذه الاقتراحات، ثمّ أن عبد اللّه بن زيد و عمر بن الخطاب- رأيا فی المنام- شخصا يأمرهما بأداء الأذان لإعلان وقت الصّلاة، و علمهما كيفية هذا الأذان، فقبل النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك ۳۴].

إنّ هذه الرواية المختلقة تعتبر اهانة لمنزلة النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الرفيعة، حيث تدّعی أن النّبی- بدلا من أن يعتمد على الوحی- استند على حلم رآه أفراد من أصحابه فی تشريع الأذان.

و الصحيح فی هذا الباب ما

ورد فی روایات أهل البیت علیهم السّلام من أن الأذان نزل وحیا علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، یحدثنا الإمام الصّادق علیه السّلام أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان واضعا رأسه فی حجر علی علیه السّلام حین نزل جبرائیل بالأذان و الإقامة، فعلّمهما للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثمّ رفع النّبی رأسه و سأل علیّا إن کان قد سمع صوت أذان جبرائیل، فردّ علی علیه السّلام بالإیجاب، فسأله النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرّة ثانیة إن کان قد حفظ ذلک، فردّ علی علیه السّلام بالإیجاب أیضا- ثمّ طلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من علی علیه السّلام أن ینادی بلالا- الذی کان یتمتع بصوت جید- و یعلمه الأذان و الإقامة، فاستدعی علی علیه السّلام بلالا و علمه الأذان و الإقامة[۳۵].

و للاستزادة من التفاصیل فی هذا الباب یمکن مراجعة کتاب (النص و الاجتهاد) للسید عبد الحسین شرف الدین- ص ۱۲۸.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۴

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۵۹ الی ۶۰]

اشارة

قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَکْثَرَکُمْ فاسِقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُکُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِکَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَیْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِیرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِکَ شَرٌّ مَکاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِیلِ (۶۰)

سبب النّزول

اشارة

نقل عن عبد اللّه بن عباس أنّ جماعة من الیهود جاؤوا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبوا منه أن یشرح لهم معتقداته، فأخبرهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه یؤمن باللّه الواحد الأحد، و یؤمن بأنّ کل ما نزل علی إبراهیم و إسماعیل و إسحاق و یعقوب و موسی و عیسی و جمیع الأنبیاء هو الحقّ، و أنّه لا یفرق بین أنبیاء اللّه، فأجابوه بأنّهم لا یعرفون عیسی و لا یؤمنون بنبوّته، ثمّ قالوا للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّهم لا یعرفون دینا أسوأ من دینه! فنزلت هاتان الآیتان ردّا علی هؤلاء الحاقدین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۵

التّفسیر

فی هذه الآیة یأمر اللّه نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یسأل أهل الکتاب عن سبب اعتراضهم و انتقادهم للمسلمین، و هل أنّ الإیمان باللّه الواحد الأحد و الإعتقاد بما أنزل علی نبی الإسلام و الأنبیاء الذین سبقوه یجابه بالاعتراض و الانتقاد، حیث تقول الآیة:

قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ...[۳۶].

و تشیر هذه الآیة- أیضا- إلی جانب آخر من جوانب صلف و وقاحة الیهود و تطرفهم غیر المبرر، و نظرتهم الضیقة الآحادیة الجانب التی دفعت بهم إلی الاستهانة بکل شخص و دین غیر أنفسهم و دینهم، و هم لتطرفهم ذلک کانوا یرون الحقّ باطلا و الباطل حقّا.

و تأتی فی آخر الآیة عبارة تبیّن علّة الجملة السابقة، حیث تبیّن أن اعتراض الیهود و انتقادهم للمسلمین الذین آمنوا باللّه و بکتبه، ما

هو إلّا لأنّ أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا فى الذنوب، و لذلك فهم- لانحرافهم و تلوثهم بالآثام- يعيبون على كل انسان ظاهر اتباعه للصواب و سيره فى طريق الحقّ حيث تؤكّد الآية: وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ

و بديهى أنّ المقاييس فى محيط موبوء بالفساد و الفسق، تنقلب- أحيانا- بحيث يصبح الحقّ باطلا- و الباطل حقا، و يصبح العمل الصالح و الإعتقاد النزيه شيئا قبيحا مثيرا للاعتراض و الانتقاد، بينما يعتبر كل عمل قبيح شيئا جميلا جديرا بالاستحسان و المديح، و هذه هى طبيعة المسخ الفكرى الناتج عن الانغماس فى الخطايا و الذنوب إلى درجة الإدمان.

و تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية تنتقد جميع أهل الكتاب، و واضح أنّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۶

عزلت حساب الأقلية الصالحة بدقة عن الأكثرية الآثمة باستخدام كلمة (أكثركم) فى العبارة الأخيرة منها.

الآية الثّانية تقارن المعتقدات المحرفة و أعمال أهل الكتاب و العقوبات التى تشملهم بوضع المؤمنين الأبرار من المسلمين لكى يتبيّن أى الفريقين يستحق النقد و التقريع، و هذا بذاته جواب منطقى للفت انتباه المعاندين و المتطرفين فى عصبيتهم.

و فى هذه المقارنة تطلب الآية من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يسأل هؤلاء: هل أنّ الإيمان باللّه الواحد و بكتبه التى أنزلها على أنبيائه أجدر بالنقد و الاعتراض، أم الأعمال الخاطئة التى تصدر من أناس شملهم عقاب اللّه؟

فتخاطب الآية النّبى بأن يسأل هؤلاء: إن كانوا يريدون التعرف على أناس لهم عند اللّه أشد العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال، حيث تقول: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ...[۳۷].

و لا شك أنّ الإيمان باللّه و كتبه ليس بالأمر غير المحمود، و أن المقارنة الجارية فى هذه الآية بين الإيمان و بين أعمال و أفكار أهل الكتاب، هى من باب الكناية، كما ينتقد انسان فاسد إنسانا تقيا فيسأل الإنسان التقى ردا على هذا الفاسد: أيّهما أسوأ الأتقياء أم الفاسدون.

بعد هذا تبادر الآية إلى شرح الموضوع، فتبيّن أنّ أولئك الذين شملتهم لعنة اللّه فمسخهم قرودا و خنازير، و الذين يعبدون الطاغوت و الأصنام، إنّما يعيشون فى هذه الدنيا و فى الآخرة وضعا أسوأ من هذا الوضع، لأنّهم ابتعدوا كثيرا عن طريق الحقّ و عن جادة الصواب، تقول الآية الكريمة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۷

مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ ۳۸].

و سنتطرق إلى معنى المسخ الذى يتغير بموجبه شكل الإنسان، و هل أنّ هذا التغير فى الشكل يشمل صورته الجسمية، أم المراد التغير الفكرى و الأخلاقى؟

و ذلك عند تفسير الآية (۱۶۳) من سورة الأعراف، و بصورة مفصلة بإذن اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۸

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۶۱ الى ۶۳]

اشارة

وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (۶۱) وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۶۲) لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (۶۳)

التّفسير

الآيـة الاولى من هـذه آيات الثلاث- و اسـتكمالا للبحث الـذى تناولته الآيات السابقـة حول المنافقين- تكشف عن ظاهرة الازدواجية النفاقيـة عنـد هؤلاء، و تنبّه المسـلمين إلى أنّ المنـافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان و قلبهم يغمره الكفر، و يخرجون من عنـدهم المسـلمين و لا يزال الكفر يملأ قلوبهم، حيث لا يترك منطق المسـلمين و اسـتدلالهم و كلامهم فى نفوس هؤلاء المنـافقين أى أثر يذكر، تقول الآية الكريمة:

وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ... و لذلك يجب على المسـلمين أن لا ينخدعوا بهؤلاء الذين يتظاهرون بالحقّ و الإيمان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۹

و يبدون القبول لأقوال المسلمين رياء و كذبا.

و تؤكّد الآية أنّ المنافقين مهما تستروا على نفاقهم، فإنّ اللّه يعلم ما يكتمون.

ثمّ تبيّن الآيـة الأـخرى علائم من نوع آخر للمنافقين، فتشـير إلى أنّ كثيرا من هؤلاء فى انتهاجهم طريق العصـيان و الظلم و أكل المال الحرام، يتسابقون بعضهم مع بعضهم الآخر تقول الآية: وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ ...[۳۹] أى أن هؤلاء يسـرعون الخطى فى طريق المعاصـى و الظلم، و كأنّهم يسعون إلى أهداف تصنع لهم الفخر و المجد، و يتسابقون فيما بينهم فى هذا الطريق دون خجل أو حياء.

و تجدر الإشارة- هنا- إلى أنّ كلمة «إثم» قد وردت بمعنى (الكفر) كما وردت لتعنى جميع أنواع الذنوب أيضا، و بما أنّها اقترنت فى هـذه الآيـة بكلمـة (العدوان) قال بعض المفسّـرين: أنّها تعنى الذنوب التى تضـرّ صاحبها فقط، على عكس العدوان الذى يتعدى طوره صاحبه إلى الآخرين، كما يحتمل أن يكون مجىء كلمـة (العـدوان) بعـد كلمـة (الإثم) فى هـذه الآية، من باب ما يصـطلح عليه بذكر العام قبل الخاص، و أن مجىء كلمة «السحت» بعدهما هو من قبيل ذكر الأخص.

و عليه فـالقرآن قـد ذم المنـافقين، أوّلاـ لكـل ذنب اقترفوه، ثمّ خصـص ذنبين كبيرين لمـا فيهما من خطر- و هما الظلم و أكل الأموال المحرمة، سواء كانت ربا أم رشوة أم غير ذلك.

و خلاصة القول أن القرآن الكريم قد ذم هذه الجماعة من المنافقين من أهل الكتاب، لوقاحتهم و صـلفهم و تعنتهم فى ارتكاب أنواع الآثام و بالأخص الظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۰

و أكل المال الحرام، و لكى يؤكّد القرآن قبح هذه الأعمال، قالت الآية: لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ....

و تدل عبارة كانُوا يَعْمَلُونَ على أنّ هذه الذنوب لم تكن تصدر عن هؤلاء صدفة، بل كانوا يمارسونها دائما مع سبق إصرار.

بعـد ذلـك تحمـل الآيـة الثالثـة على علمائهم الـذين أيّـدوا قومهم على ارتكاب المعاصـى بسـكوتهم، فتقول: لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ ....

و قد أشـرنا سابقا إلى أنّ كلمة (ربّانيون) هى صـيغة جمع لكلمة (ربّانى) المشتقة من كلمة (رب) و تعنى العالم أو المفكر الذى يدعو الناس إلى اللّه، لكنّها قد أطلقت فى كثير من الحالات على علماء المسيحيين، أى رجال الدين المسيحى.

أمّا كلمـة (أحبار) فهى صـيغة جمع لكلمـة (حبر) و هى تعنى العلماء الـذين يخلفون أثارا حسـنة فى المجتمع، لكنّها أطلقت فى موارد كثيرة على رجال الدين اليهود.

أمّا خلو هذه الآية من كلمة (العدوان) التى وردت فى الآية قبلها، فقد استدل بعضهم من ذلك على أن كلمة (الإثم) الواردة هنا تشمل

جمیع المعانی التی تدخل فی إطار هذه الکلمة و من ضمنها (العدوان).

لقد وردت فی هذه الآیة عبارة قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ التی تختلف عمّا ورد فی الآیة السابقة، و لعل هذه إشارة إلی أن العلماء مکلفون بردع الناس عن النطق بما یشوبه الذنب من قول، کما هم مکلّفون بمنع الناس عن ارتکاب العمل السیء، و لربّما تکون کلمة (قول) الواردة هنا بمعنی (العقیدة) أی أن العلماء الذین یهدفون إلی إصلاح أی مجتمع فاسد، علیهم أوّلا أن یصلحوا أو یغیروا المعتقدات الفاسدة التی تشیع فی هذا المجتمع، فما لم یحصل التغییر الفکری لا- یمکن توقع حصول اصلاحات جذریة فی الجوانب العملیة، و بهذه الصورة تبیّن الآیة للعلماء أنّ الثورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۱

الفکریة هی الأساس و المنطلق لکل إصلاح یراد تحقیقه فی کل مجتمع فاسد.

و فی الختام، یمارس القرآن الکریم نفس أسلوب الذم الذی اتّبعه مع أهل المعاصی الحقیقیین، فیذم العلماء الساکتین الصامتین التارکین للأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و یقبح صمتهم هذا، کما تقول الآیة: لَبِئْسَ ما کانُوا یَصْنَعُونَ

و هکذا تبیّن أنّ مصیر الذین یتخلون عن مسئولیة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر العظیمة و خاصة إن کانوا من العلماء یکون کمصیر أصحاب المعاصی، و هؤلاء فی الحقیقة شرکاء فی الذنب مع العاصین.

و نقل عن ابن عباس المفسّر المعروف قوله: بأنّ هذه الآیة أعنف آیة و بخت العلماء المتجاهلین لمسؤولیاتهم الصامتین عن المعاصی.

و بدیهی أنّ هذا الحکم لا ینحصر فی علماء الیهود و النصاری، بل یشمل کل العلماء مهما کانت دیاناتهم إن هم سکتوا و صمتوا أمام تلوث مجتمعاتهم بالذنوب و تسابق الناس فی الظلم و الفساد، ذلک لأنّ حکم اللّه واحد بالنسبة لجمیع البشر.

و ورد عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی إحدی خطبه، أنّ سبب هلاک الأقوام السابقة هو ارتکابهم للمعاصی و سکوت علمائهم علیهم و امتناعهم عن النهی عن المنکر فکان ینزل علیهم- لهذا السبب- البلاء و العذاب من اللّه، و أن علی الناس أن یأمروا بالمعروف و ینهوا عن المنکر لکی لا یتورطوا بمصیر أولئک الأقوام ۴۰].

کما ورد بنفس هذا المضمون

کلام للإمام علی علیه السّلام فی (نهج البلاغة) فی آخر خطبته القاصعة (الخطبة ۱۹۲) قوله علیه السّلام: «فإنّ اللّه سبحانه لم یلعن القرن الماضی بین أیدیکم إلّا لترکهم الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر فلعن السفهاء لرکوب المعاصی و الحلماء لترک التناهی ...».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۲

و یلفت الانتباه هنا أیضا أنّ الآیة السابقة حین کانت تتحدث عن سواد الناس جاءت بعبارة (یعملون) بینما حین صار الحدیث فی هذه الآیة عن العلماء جاءت بعبارة (یصنعون) و الصنع هو کل عمل استخدمت فیه الدقة و المهارة، بینما العمل یطلق علی جمیع الأفعال حتی لو کانت خالیة من الدقة، هکذا فإن هذه العبارة (یصنعون) تتضمن بحدّ ذاتها ذما أکبر، و ذلک لأنّ سواد الناس إن ارتکبوا ذنبا یکون ارتکابهم هذا- غالبا- بسبب جهلهم، بینما العالم الذی لا یؤدی واجبه فهو یرتکب إثما عن درایة و علم و تفکیر، و لهذا یکون عقابه أشد و أعنف من عقاب الجاهل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۳

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۶۴]

اشارة

وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۶۴)

التّفسير

تبرز هذه الآية واحدا من المصاديق الواضحة للأقوال الباطلة التی کان الیهود یتفوهون بها، و قد تطرقت الآیة السابقة إلیها- أیضا- و لکن علی نحو کلی.

و یتحدث لنا التّأریخ عن فترة من الوقت کان الیهود فیها قد وصلوا إلی ذروة السلطة و القدرة، و کانوا یمارسون الحکم علی قسم مهم من المعمورة، و یمکن الاستشهاد بحکم سلیمان و داود کمثال علی حکم الدولة الیهودیة، و قد استمر حکم الیهود بعدهما بین رقی و انحطاط حتی ظهر الإسلام، فکان إیذانا بأفول الدولة الیهودیة، و بالأخص فی الحجاز، إذ أدی قتال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیهود بنی النضیر و بنی قریظة و یهود خیبر إلی إضعاف سلطتهم بصورة نهائیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۴

و فی ذلک الوضع کان البعض من الیهود حین یتذکرون سلطتهم القویة السابقة، کانوا یقولون استهزاء و سخریة- إنّ ید اللّه أصبحت مقیدة بالسلاسل (و العیاذ باللّه) و أنّه لم یعد یعطف علی الیهود! و یقال: أنّ المتفوه بهذا الکلام کان الفخاس بن عازوراء رئیس قبیلة بنی القینقاع، أو النباش بن قیس کما ذکر بعض المفسّرین.

و بما أنّ سائر أبناء الطائفة الیهودیة أظهروا الرضی عن أقوال کبار قومهم هؤلاء، لذلک جاء القرآن لینسب هذه الأقوال إلی جمیعهم، کما تقول الآیة: قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ....

و یجب الانتباه إلی أنّ کلمة (الید) تطلق فی اللغة العربیة علی معان کثیرة و منها (الید العضویة) کما أن معانیها (النعمة) و (القدرة) و (السلطة) و (الحکم)، و بدیهی أنّ المعنی الشائع لها هو الید العضویة.

و لما کان الإنسان ینجز أغلب أعماله المهمّة بیده، فقد أطلقت من باب الکنایة علی معان أخری.

و تفیدنا الکثیر من الرّوایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ هذه الآیة تشیر إلی ما کان الیهود یعتقدون به حول القضاء و القدر و المصیر و الإرادة، حیث کانوا یذهبون إلی أنّ اللّه قد عین کل شیء منذ بدء الخلیقة، و أنّ کل ما یجب أن یحصل قد حصل، و أنّ اللّه لا یستطیع من الناحیة العملیة إیجاد تغییر فی ذلک ۴۱].

و بدیهی أنّ تتمة الآیة التی تتضمن عبارة بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ کما سیأتی شرحه- تؤید المعنی الأوّل، کما یمکن أن یقترن المعنی الثّانی بالمعنی الأوّل فی مسیر واحد، لأنّ الیهود حین أفل نجم سلطانهم، کانوا یعتقدون أن هذا الأفول هو مصیرهم المقدر، و أنّ ید اللّه مقیدة لا تستطیع فعل شیء أمام هذا المصیر.

و اللّه تعالی یرد علی هؤلاء توبیخا و ذما لهم و لمعتقدهم هذا بقوله:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۵

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا ... ثمّ لکی یبطل هذه العقیدة الفاسدة یقول سبحانه و تعالی بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ ... فلا إجبار فی عمل اللّه کما أنّه لیس محکوما بالجبر الطبیعی و لا الجبر التّأریخی، بل أنّ إرادته فوق کل شیء و تعمل فی کل شیء.

و الملفت للنظر هنا أنّ الیهود ذکروا الید بصیغة المفرد کما جاء فی الآیة موضوع البحث، لکن اللّه تعالی من خلال رده علیهم قد ثنّی کلمة الید فقال: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ و هذا بالإضافة إلی کونه تأکیدا للموضوع، هو کنایة لطیفة تظهر عظمة جود اللّه و عفوه، و ذلک لأنّ الکرماء جدّا یهبون ما یشاءون للغیر بیدین مبسوطتین، أضف إلی ذلک أنّ ذکر الیدین کنایة عن القدرة الکاملة، أو ربّما یکون

إشارة إلى النعم المادية و المعنوية، أو الدنيوية و الأخروية.

ثمّ تشير الآية إلى أنّ آيات اللّه التى تفضح أقوال و معتقدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر فى صلفهم و عنادهم و يتمادون فى طغيانهم و كفرهم بدلا من تأثيرها الايجابى فى ردعهم عن السير فى نهجهم الخاطئ حيث تقول الآية الكريمة:

وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً ....

بعد ذلك تؤكّد الآية على أن صلف هؤلاء و طغيانهم و كفرهم سيجر عليهم الوبال، فينالهم من اللّه عذاب شديد فى هذه الدنيا، من خلال تفشى العداء و الحقد فيما بينهم حتى يوم القيامة، فتقول الآية الكريمة: وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ....

و قد اختلف المفسّرون فى معنى عبارة الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ الواردة فى هذه الآية، لكنّنا لو تغاضينا عن الوضع الاستثنائى غير الدائم الذى يتمتع به اليهود فى الوقت الحاضر، و نظرنا إلى تاريخ حياتهم المقترن بالتشتت و التشرد، لثبت لدينا أنّ هناك عامل واحد لهذا الوضع التّأريخى الخاص لهؤلاء، و هو انعدام الاتحاد و الإخلاص فيما بينهم على الصعيد العالمى، فلو كان هؤلاء يتمتعون بالوحدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۶

و الصدق فيما بينهم، لما عانوا طيلة تاريخ حياتهم من ذلك التشرد و الضياع و التشتت و التعاسة.

و قد شرحنا قضية العداوة و البغضاء الدائمة بين أهل الكتاب بشىء من التفصيل عند تفسير الآية (۱۴) من نفس هذه السورة.

و تشير الآية- فى الختام- إلى المساعى و الجهود التى كان يبذلها اليهود لتأجيج نيران الحروب، و عناية اللّه و لطفه بالمسلمين فى انقاذهم من تلك النيران المدمرة الماحقة، فتقول كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ....

و تعتبر هذه الظاهرة إحدى معاجز حياة النّبى الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز و الأعرف بمسائل الحرب، بالإضافة إلى ما كانوا يمتلكون من قلاع حصينة و خنادق منيعة، ناهيك عن قدرتهم المالية الكبيرة التى كانت لهم عونا فى كل صراع بحيث أن قريشا كانوا يستمدون العون منهم، و كان الأوس، و الخزرج يسعى كل منهما إلى التحالف معهم و كسب صداقتهم و نيل العون منهم فى المجال العسكرى، لكنّهم فقدوا فجأة قدرتهم المتفوقة- هذه- و طويت صفحة جبروتهم دفعة واحدة، بشكل لم يكن متوقعا لديهم، فاضطر يهود بنى النضير و بنى قريظة و بنى القينقاع إلى ترك ديارهم، كما استسلم نزلاء قلاع خيبر الحصينة و سكان فدك من اليهود خاضعين للمسلمين، و حتى أولئك الذين كانوا يقطنون فى فيافى الحجاز منهم اضطروا إلى الخضوع أمام عظمة الإسلام، فهم بالإضافة إلى عجزهم عن نصرة المشركين اضطروا إلى ترك ميدان النزال و الصراع.

ثمّ تبيّن الآية- أيضا- أنّ هؤلاء لا يكفون عن نثر بذور الفتنة و الفساد فى الأرض فتقول: وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً ... و تؤكّد أيضا قائلة: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

و يستدلّ من هذا على أن أسلوب المواجهة القرآنى لليهود لم يكن يتركز على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۷

أساس عنصرى مطلقا، بل أن المعيار الذى استخدمه القرآن فى توجيه النقد إليهم، هو معيار الأعمال التى يمكن أن تصدر من أى جنس و عنصر أو طائفة، و سنلاحظ فى الآيات القادمة أنّ القرآن على الرغم من كل ما صدر من هؤلاء، قد ترك باب التوبة مفتوحا أمامهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۸

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۶۵ الى ۶۶]

اشارة

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْکِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَکَفَّرْنا عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِیمِ (۶۵) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما یَعْمَلُونَ (۶۶)

التّفسیر

بعد أن وجهت الآیات السابقة النقد لنهج و أسلوب أهل الکتاب، جاءت هاتان الآیتان وفقا لما تقتضیه مبادئ التربیة الإنسانیة لتفتحا باب العودة و التوبة أمام المنحرفین من أهل الکتاب، لکی یعودوا إلی الطریق القویم، و لتریهم الدرب الحقیقی الذی یجب أن یسیروا فیه، و لتثمن دور تلک الأقلیة من أهل الکتاب التی عاشت فی ذلک العصر لکنّها لم تواکب الأکثریة فی أخطائها، فتقول الآیة الاولی فی البدء: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْکِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَکَفَّرْنا عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ

بل ذهبت إلی أبعد من هذا فوعدتهم بالجنّة و نعیمها، إذ قالت: وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِیمِ و هذه إشارة إلی النعم المعنویة الأخرویة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۹

ثمّ تشیر الآیة الثّانیة إلی الأثر العمیق الذی یترکه الإیمان و التقوی- فی الحیاة الدنیویة للإنسان، فتؤکّد أنّ أهل الکتاب لو طبقوا التّوراة و الإنجیل و جعلوهما منهاجا لحیاتهم و عملوا لکل ما نزل علیهم من ربّهم، سواء فی الکتب السماویة السابقة أو فی القرآن، دون تمییز أو تطرف لغمرتهم النعم الإلهیة من السماء و الأرض، فتقول الآیة: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ...

و بدیهی أنّ المراد من اقامة التّوراة و الإنجیل هو اتّباعهم لما بقی من التّوراة و الإنجیل الحقیقیین فی أیدیهم فی ذلک العصر، و لا یعنی اتّباع ما حرّف منهما و الذی یمکن معرفته من خلال القرائن.

و المراد بجملة ما أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ هو کل الکتب السماویة و الأحکام الإلهیة، لأنّ هذه الجملة یفهم منها الإطلاق، و هی فی الحقیقة إشارة إلی النهی عن خلط العصبیات القومیة بالوسائل الدینیة الإلهیة، فلیس المهم کون هذا الکتاب عربیا أو ذلک الکتاب یهودیا، بل المهم هو الأحکام الإلهیة الواردة فیهما و فی کل الکتب السماویة، أی أنّ القرآن أراد أن یطفئ- ما أمکنه ذلک- نار العصبیة القومیة عند هؤلاء، و یمهد السبیل إلی التغلغل فی أعماق نفوسهم و قلوبهم، لذلک فالضمائر الواردة فی هذه الآیة تعود إلی أهل الکتاب و هی: (إلیهم، من ربّهم، من فوقهم، و من تحت أرجلهم) و ما ذلک إلّا لکی یترک هؤلاء عنادهم و صلفهم، و لکی لا یتصوروا أنّ الخضوع و الاستسلام أمام القرآن یعنی استسلام الیهود للعرب، بل هو استسلام و خضوع لربّهم العظیم.

و لا شک أنّ المراد باقامة التّوراة و الإنجیل هو العمل بالمبادئ السماویة الواردة فیهما، لأنّ جمیع المبادئ و التعالیم کما أسلفنا سابقا- التی جاء بها الأنبیاء أینما کانوا- واحدة لا فرق بینها غیر الفرق بین الکامل و الأکمل، و لا یتنافی هذا مع النسخ الذی ورد فی بعض الأحکام الواردة فی الشریعة اللاحقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۰

لأحکام وردت فی شریعة سابقة.

و مجمل القول هو أن الآیة الأخیرة تؤکّد مرّة أخری هذا المبدأ الأساسی القائل بأن اتباع التعالیم السماویة التی جاء بها الأنبیاء، لیس لأعمار الحیاة الآخرة التی تأتی بعد الموت فحسب، بل أنّ لها- أیضا- انعکاسات واسعة علی الحیاة الدنیویة المادیة للإنسان، فهی تقوی الجماعات و تعزز صفوفها و تکثف طاقاتها، و تغدق علیها النعیم و تضاعف امکانیاتها و تضمن لها الحیاة السعیدة المقترنة بالأمن و الاستقرار.

و لو ألقینا نظرة علی الثروات الطائلة و الطاقات البشریة الهائلة التی تهدر الیوم فی عالم الإنسان نتیجة للانحراف عن هذه التعالیم، و فی صنع و تکدیس أسلحة فتّاکة، و فی صراعات لا مبرر لها و مساع هدامة لرأینا أن ذلک کله دلیل حیّ علی هذه الحقیقة، حیث أنّ

الثروات التى تستخدم لإشاعة الدمار فى هذا العالم- إذا أمعنا النظر جيدا- إن لم تكن أكثر حجما من الثروات التى تنفق فى سبيل البناء، فهى ليست بأقلّ منها.

إنّ العقول المفكرة التى تسعى و تعمل جاهدة- اليوم- لإكمال و توسيع انتاج الأسلحة الحربية، و لتوسيع بقعة النزاعات الاستعمارية، إنّما تشكل جزءا مهما من الطاقات البشرية الخلاقة التى طالما احتاجها المجتمع البشرى لرفع احتياجاته، و كم سيصبح وجه الدنيا جميلا و جذابا لو كانت كل هذه الطاقات تستغل فى سبيل الإعمار؟

و جدير بالانتباه هنا- أيضا- إلى أن عبارتى مِنْ فَوْقِهِمْ و مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ الواردتان فى الآية الأخيرة، معناهما أن نعم السماء و الأرض ستغمر هؤلاء المؤمنين، كما يحتمل أن تكونا كناية عن النعم بصورة عامّة كما ورد فى الآثار الأدبية العربية و غيرها قولهم: (إنّ فلانا غرق فى النعمة من قمة رأسه حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۱

أخمص قدمه).

كما أنّ هذه الآية تعد جوابا على أحد أقوال اليهود الذى ورد ذكره فى الآيات السابقة، حيث تؤكّد أنّ سبب انقطاع نعم اللّه عنهم، ليس هو ما زعموه من أن ذات اللّه المقدسة المنزهة قد شابها البخل (و العياذ باللّه) أو أن يده أصبحت مغلولة، بل لأنّ أعمالهم الخبيثة قد انعكست آثارها فى حياتهم المادية و المعنوية فسودتهما، فإن لم يتوبوا لن ينقذهم اللّه من آثار هذه الأعمال.

و فى الختام تشير الآية الكريمة إلى الأقلية الصالحة من أهل الكتاب الذين اختاروا طريق الاعتدال فى حياتهم خلافا لنهج الأغلبية المنحرفة، فعزل اللّه حسابهم عن حساب هذه الأكثرية الضالة، حيث تقول الآية: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ

و قد وردت عبارات مشابهة عن الأقلية الصالحة من أهل الكتاب، فى الآيتين (۱۵۹ و ۱۸۱) من سورة الأعراف، و الآية (۷۵) من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۲

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۶۷]

اشارة

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۶۷)

التّفسير

اختيار الخليفة مرحلة انتهاء الرسالة:

إنّ لهذه الآية نفسا خاصا يميزها عمّا قبلها و عمّا بعدها من آيات، إنّها تتوجه بالخطاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحده و تبيّن له واجبة، فهى تبدأ بمخاطبة الرّسول:

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ و تأمره بكل جلاء و وضوح أن بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۴۲].

ثمّ لكى يكون التوكيد أشد و أقوى- تحذره و تقول: وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ

ثمّ تطمئن الآية الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و كأن أمرا يقلقه- و تطلب منه أن يهدئ من روعه و أن لا يخشى الناس: فيقول

له: وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ

و فى ختام الآية إنذار و تهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۳

الخاصّة و يكفرون بها عنادا، فتقول: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ

أسلوب هذه الآية، و لحنها الخاص، و تكرر توكيداتها، و كذلك ابتداؤها بمخاطبة الرّسول يا أَيُّهَا الرَّسُولُ التى لم ترد فى القرآن الكريم سوى مرّتين، و تهديده بأنّ عدم تبليغ هذه الرسالة الخاصّة إنّما هو تقصير- و هذا لم يرد إلّا فى هذه الآية وحدها- كل ذلك يدل على أنّ الكلام يدور حول أمر مهم جدا بحيث أن عدم تبليغه يعتبر عدم تبليغ للرسالة كلها.

لقد كان لهذا الأمر معارضون أشداء إلى درجة أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قلقا لخشيته من أنّ تلك المعارضة قد تثير بعض المشاكل بوجه الإسلام و المسلمين، و لهذا يطمئنه اللّه تعالى من هذه الناحية.

هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالى- مع الأخذ بنظر الإعتبار تأريخ نزول هذه الآية- و هو قطعا فى أواخر حياة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ترى ما هذا الموضوع المهم الذى يأمر اللّه رسوله- مؤكّدا- أن يبلّغه للناس؟

هل هو ممّا يخص التوحيد و الشرك و تحطيم الأصنام، و هو ما تمّ حله للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و للمسلمين قبل ذلك بسنوات؟

أم هو ممّا يتعلق بالأحكام و القوانين الإسلامية، مع أنّ أهمها كان قد سبق نزوله حتى ذلك الوقت؟

أم هو الوقوف بوجه أهل الكتاب من اليهود و النصارى، مع أنّنا نعرف أنّ هذا لم يعد مشكلة بعد الانتهاء من حوادث بنى النضير و بنى قريظة و بنى قينقاع و خيبر و فدك و نجران؟

أم كان أمرا من الأمور التى لها صلة بشأن المنافقين، مع أنّ هؤلاء قد طردوا من المجتمع الإسلامى بعد فتح مكّة، و امتداد نفوذ المسلمين و سيطرتهم على أرجاء الجزيرة العربية كافة، فتحطمت قوتهم، و لم يبق عندهم إلّا ما كانوا يخفونه مقهورين؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۴

فما هذه المسألة المهمّة- يا ترى- التى برزت فى الشهور الأخيرة من حياة رسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحيث تنزل هذه الآية و فيها كل ذلك التوكيد؟

ليس ثمّة شك أنّ قلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن لخوف على شخصه و حياته، و إنّما كان لما يحتمله من مخالفات المنافقين و قيامهم بوضع العراقيل فى طريق المسلمين.

هل هناك مسألة تستطيع أن تحمل كل هذه الصفات غير مسألة استخلاف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تعيين مصير مستقبل الإسلام؟! سوف نرجع إلى مختلف الرّوايات الواردة فى الكثير من كتب السنة و الشيعة بشأن هذه الآية، لكى نتبيّن إن كانت تنفعنا فى إثبات الاحتمال الذى أوردناه آنفا، ثمّ نتناول بالبحث الاعتراضات و الانتقادات التى أوردها بعض المفسّرين من السنة حول هذا التّفسير.

نزول آية التبليغ:

على الرغم من أنّ الأحكام المتسرعة، و التعصبات المذهبية قد حالت- مع الأسف- دون وضع الحقائق الخاصّة بهذه الآية فى متناول أيدى جميع المسلمين بغير تغطية أو تمويه، إلّا أن هناك مختلف الكتب التى كتبها علماء من أهل السنة فى التّفسير و الحديث و التّأريخ، أوردوا فيها روايات كثيرة تقول جميعها بصراحة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۴ ؛ ص۸۴

ّ الآیة المذکورة قد نزلت فی علی علیه السّلام.

هذا الرّوایات ذکرها الکثیرون من الصحابة، منهم «زید بن أرقم» و «أبو سعید الخدری» و «ابن عباس» و «جابر بن عبد اللّه الأنصاری» و «أبو هریرة» و «البراء بن عازب» و «حذیفة» و «عامر بن لیلی بن ضمرة» و «ابن مسعود» و قالوا:

إنّها نزلت فی علی علیه السّلام و بشأن یوم الغدیر.

بعض هذه الأحادیث نقل بطریق واحد مثل روایة زید بن أرقم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۴، ص: ۸۵

و بعضها نقل بأحد عشر طریقا، مثل روایة أبی سعید الخدری و روایة ابن عباس.

و بعضها نقل بثلاثة طرق، مثل روایة البراء بن عازب، أمّا العلماء الذین أوردوا هذه الرّوایات فی کتبهم فهم کثیرون، من بینهم:

الحافظ أبو نعیم الأصفهانی فی کتابه «ما نزل من القرآن فی علی» (نقلا عن «الخصائص» الصفحة ۲۹).

و أبو الحسن الواحدی النیسابوری فی «أسباب النّزول» الصفحة ۱۵۰.

و الحافظ أبو سعید السجستانی فی کتابه «الولایة» (نقلا عن کتاب «الطرائف»).

و ابن عساکر الشافعی (انظر «الدر المنثور» المجلد ۳ من الصفحة ۲۹۸).

و الفخر الرازی فی «تفسیر الکبیر» المجلد ۳ الصفحة ۶۳۶.

و أبو إسحاق الحموینی فی «فرائد السمطین».

و ابن الصباغ المالکی فی «الفصول المهمّة» الصفحة ۲۷.

و جلال الدین السیوطی فی «الدر المنثور» المجلد ۳ الصفحة ۲۹۸.

و القاضی الشوکانی فی «فتح القدیر» المجلد ۳ الصفحة ۵۷.

و شهاب الدین الآلوسی الشافعی فی «روح المعانی» المجلد ۶ الصفحة ۱۷۲.

و الشیخ سلیمان القندوزی الحنفی فی «ینابیع المودة» الصفحة ۱۲۰.

و بدر الدین الحنفی فی «عمدة القارئ فی شرح صحیح البخاری» المجلد ۸، الصفحة ۵۸۴.

و الشیخ محمّد عبده المصری فی تفسیر «المنار» المجلد ۶ الصفحة ۴۶۳.

و الحافظ ابن مردویه (المتوفی سنة ۴۱۶) (عن السیوطی فی «الدر المنثور»).

و جماعة کثیرون غیرهم أشاروا إلی سبب نزول هذه الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۴، ص: ۸۶

و نحن لا نعنی- طبعا- أنّ العلماء و المفسّرین الذین مرّ ذکرهم قد قبلوا نزول الآیة فی علی علیه السّلام، بل نقصد أنّهم ذکروا- فقط- الرّوایات الخاصّة بذلک فی کتبهم، و لکنّهم بعد أن نقلوا تلک الرّوایات المعروفة، امتنعوا عن قبولها، إمّا خوفا من الظروف التی کانت تحیط بهم، و إمّا لأنّ التسرع فی الحکم وقف حائلا دون إصدار حکم سلیم فی أمثال هذه الأمور، بل لقد سعوا- قدر إمکانهم- أن یعتموا الرؤیة الصحیحة لها و یظهروها بشکل هامشی.

فهذا الرازی- مثلا- و هو المعروف بتعصبه المذهبی فی مسائل خاصّة، أدرج سبب نزول هذه الآیة کاحتمال عاشر بعد إیراده تسعة احتمالات أخری کلها واهیة و ضعیفة و لا قیمة لها.

و لیس هذا بمستغرب من الرازی، فهذا شأنه فی کل المواضیع. لکنّنا نتعجب من کتّاب مثقفین أمثال سید قطب، فی تفسیره «فی ظلال

القرآن» و محمّد رشيد رضا فی تفسيره «المنار»، الذين أهملوا- كليا- الإشارة إلی سبب نزول هذه الآيةُ المذكور فی أمهات المصادر الإسلامية، أو ضعّفوا أهميته بحيث أصبح بتصويرهم لا يستلفت نظرا.

هل كانت الظروف المحيطة بهؤلاء لا- تسمح لهم بذكر الحقيقة؟ أم أنّ حجب التعصب أكثف من أن تخترقها أشعة التنوير؟! لا ندری!! و هناك آخرون اعتبروا نزول الآية فی علی عليه السّلام أمرا مسلّما به، و لكنّهم ترددوا فی الإقرار بأنّها تدل علی الولاية و الخلافة. و سنردّ- إن شاء اللّه- علی إشكالات هؤلاء.

علی كل حال، إنّ الرّوايات المنقولة فی كتب أهل السنّة المعروفة- دع عنك كتب الشيعة- فی هذا الموضوع من الكثرة بحيث لا يمكن إنكارها أو تجاوزها بسهولة.

لسنا ندری لماذا يكتفی فی أسباب نزول سائر الآيات بحديث واحد أو

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۷

حديثين إثنين فقط، و لا تكون كل هذه الرّوايات الواردة بشأن نزول هذه الآية كافية؟! أفی هذه الآية من الخصوصية ما ليس فی الآيات الأخری؟

تری هل هناك دليل منطقی يسوّغ كل هذا التصلّب؟

ثمّة موضوع آخر لا بدّ من الإشارة إليه، هو أنّ الرّوايات التی ذكرناها فيما سبق تتعلق كلها بنزول هذه الآية فی علی عليه السّلام، أی الرّوايات الخاصّة بسبب نزول هذه الآية فقط، أم الرّوايات الواردة عن حادثة غدير خم و خطبة الرّسول الكريم صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و إعلانه وصاية علی عليه السّلام و ولايته، فإنّها أكثر بكثير من تلك، حتی أنّ العلّامة الأمينی رحمه اللّه ينقل فی كتابه «الغدير» حديث الغدير عن ۱۱۰ من صحابة رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم مع اسنادها، و عن ۸۴ من التابعين، و عن ۳۶۰ من العلماء و الأدباء المسلمين المعروفين بما لا يدع مجالا للشك فی أنّ حديث الغدير واحد من أوثق الأحاديث المتواترة، و لئن شك أحد فی تواتر هذه الرّوايات فإنّه لا يمكنه أن يقبل أی حديث متواتر آخر.

و لمّا كانت دراسة كل هذه الرّوايات الخاصّة بشأن نزول هذه الآية، و كذلك البحث فی الرّوايات الخاصّة بحادث الغدير، يتطلب تأليف كتاب ضخم يخرجنا عن طريقتنا فی التّفسير، فإنّنا نكتفی بهذا القدر، و نحيل طالب الاستزادة حول هذا الموضوع الی الكتب التّالية: «الدر المنثور» للسيوطی، و «الغدير» للعلّامة الأمينی، و «إحقاق الحقّ» للقاضی نور الدين التستری، و «المراجعات» للسيد عبد الحسين شرف الدين، و «دلائل الصدق» للشيخ محمّد حسن المظفر.

حادثة الغدير بايجاز:

علی الرغم من أنّ الرّوايات التی تذكر هذه الحادثة كثيرة و هی تصف واقعة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۸

بعينها، فإنّ الرّوايات التی عبّرت عنها متنوعة، فبعض هذه الرّوايات مسهب مطوّل، و بعضها الآخر موجز مكثف، و بعضها يتناول جانبا معينا من الحادثة، و من مجموع تلك الرّوايات و من التّأريخ الإسلامی و من ملاحظة القرائن و الظروف المحيطة بوقوعها و بمكانها يتبيّن ما يلی:

أنّه فی السنة الأخيرة من حياة النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أدّی المسلمون مع رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم حجّة الوداع فی عظمة و جلال، و كان لهذه الحجة أثر كبير فی النفوس، و بعد انتهائها أحاطت بالقلوب هالة من السموّ الروحی، و تشرّبت فی الأعماق لذّة هذه العبادة الكبری.

و کانت الجموع الغفیرة[۴۳] من المسلمین المشارکین فی تلک الحجّة یکادون یطیرون فرحا لهذه السعادة الکبری التی شرفهم اللّه بها.

لم یکن أهل المدینة وحدهم قد رافقوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذه الحجة، بل التحق برکبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزیرة العربیة لینالوا شرف الصحبة فی هذه الحجّة.

کانت الشمس ترسل أشعتها اللافحة المحرقة علی الودیان و السهول لکن لذّة هذا السفر الروحی یسّرت کل شیء. اقترب وقت الظهیرة، و اقترب الرکب الکبیر من أرض الجحفة، و ظهرت من بعید أرض «غدیر خم» القاحلة الجافة المحرقة.

کانت المنطقة، فی الحقیقة تقع علی مفترق طرق أربع حیث کان علی الحجیج أن یتفرقوا إلی الوجهة التی یقصدونها فطریق یتجه إلی المدینة نحو الشمال، و آخر یوصل إلی العراق شرقا، و طریق الغرب یتجه إلی مصر، و طریق الجنوب یصل إلی الیمن. هاهنا کان لا بدّ أن یتحقق أهم فصل من فصول هذه الرحلة و آخر ذکریاتها. و کان علی المسلمین أن یتلقوا آخر تکلیف لهم، أو المرحلة النهائیة من المهمات الناجحة التی اضطلع بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، قبل أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۹

یتفرقوا إلی حال سبیلهم.

کان یوم الخمیس من السنة العاشرة للهجرة، و قد مضت ثمانیة أیّام علی عید الأضحی، و إذا برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یصدّر أمره للحجیج بالتوقف، فراح المسلمون یتنادون الذین فی مقدمة الرکب أن یعودوا، و انتظروا حتی یلتحق بهم من کان فی المؤخرة أیضا. کان الشمس قد تخطت نقطة الزوال، و صعد مؤذن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ینادی فی الناس لصلاة الظهر، و أخذ الناس یستعدون- مسرعین- لأداء الصّلاة.

کانت الریاح لافحة محرقة، حتی اضطر بعضهم إلی أن یضع قسما من عباءته تحت قدمیه و قسما منها فوق رأسه کی یتقی حرارة الحصی و أشعة الشمس.

ما کان فی تلک الصحراء ما یستظل به، و لا ما تستریح إلیه العین من خضرة الأعشاب، اللّهم إلّا بضع شجیرات عجاف عاریة تصارع حرارة الجو صراعا مریرا.

کان جمع قد لجأ إلی هذه الشجیرات و نشر رداءه علیها لیستظل به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّ الریاح الساخنة کانت تعصف بتلک المظلة فتنشر تحتها حرارة الشمس الحارقة.

انتهت صلاة الظهر. و هرع الحجیج یریدون نصب خیامهم الصغیرة التی کانوا یحملونها معهم یلوذون بها من حر الهاجرة. إلّا أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أخبرهم أنّ علیهم أن یستعدوا لسماع رسالة إلهیة، جدیدة فی خطبته، و کان الذین یقفون علی مسافة من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یستطیعون رؤیته، لذلک

صنعوا له منبرا من أحداج الإبل ارتقاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال:

«الحمد للّه و نستعینه و نؤمن به، و نتول علیه، و نعوذ به من شرور أنفسنا، و من سیئات أعمالنا الذی لا هادی لمن ضلّ، و لا مضلّ لمن هدی، و أشهد أن لا إله إلّا اللّه، و أنّ محمّدا عبده و رسوله.

أمّا بعد: أیّها الناس قد نبّأنی اللطیف الخبیر أنّه لم یعمر نبیّ إلّا مثل نصف عمر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۰

الذی قبله، و إنّی أوشک أن أدعی فأجیب، و إنی مسئول و أنتم مسئولون، فما ذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنک بلّغت و نصحت و جهدت فجزاک اللّه خیرا.

قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلّا اللّه، و أن محمّدا عبده و رسوله، و أن جنّته حقّ، و ناره حقّ، و أن الموت حقّ، و أن الساعة آتیة لا

ریب فیها، و أنّ اللّه یبعث من فی القبور؟

قالوا: بلی نشهد بذلک.

قال: اللّهم اشهد، ثمّ قال:

أیّها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

ثمّ ساد الجوّ صمت عمیق، و لم یسمع فیه سوی أزیز الریاح .. قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «... فانظروا کیف تخلفونی فی الثقلین».

فنادی مناد: و ما الثقلان، یا رسول اللّه؟

قال: الثقل الأکبر کتاب اللّه طرفٌ بید اللّه عزّ و جلّ، و طرف بأیدیکم فتمسکوا به لا تضلّوا، و الآخر الأصغر عترتی، و إنّ اللطیف الخبیر نبّأنی أنّهما لن یتفرّقا حتی یردا علیّ الحوض، فسألت ذلک لهما ربّی، فلا تقدّموهما فتهلکوا، و لا تقصروا عنهما فتهلکوا.

ثمّ أخذ بید علی فرفعها حتی رؤی بیاض آباطهما، و عرفه القوم أجمعون، فقال:

أیّها النّاس: من أولی الناس بالمؤمنین من أنفسهم؟

قالوا: اللّه و رسوله أعلم.

قال: إنّ اللّه مولای، و أنا مولی المؤمنین، و أنا أولی بهم من أنفسهم فمن کنت مولاه فعلیّ مولاه، «یقولها ثلاث مرات»، و فی لفظ الإمام أحمد إمام الحنابلة: «أربع مرات». ثمّ قال: «اللّهم و ال من والاه، و عاد من عاداه، و أحبّ من أحبّه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۱

و أبغض من أبغضه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله، و أدر الحقّ معه حیث دار، ألا فلیبلغ الشاهد الغائب».

ثمّ لم یتفرقوا حتی نزل أمین وحی اللّه بقوله: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ، وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی ... الآیة. فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«اللّه أکبر علی إکمال الدین، و إتمام النعمة، و رضی الرّب برسالتی و الولایة لعلی من بعدی».

ثمّ طفق القوم یهنئون أمیر المؤمنین علیه السّلام و ممن هنّأه أبو بکر و عمر کلّ یقول: بخّ بخّ لک یا ابن أبی طالب، أصبحت و أمسیت مولای و مولی کل مؤمن و مؤمنة.

و قال ابن عباس: وجبت و اللّه فی أعناق القوم.

و انبری حسان بن ثابت، شاعر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یستأذنه فی تخلید ذکری هذه الحادثة فی شعره، فقال:

ینادیهم یوم الغدیر نبیّهمبخم و أسمع بالرّسول منادیا

فقال: فمن مولاکم و نبیّکم؟فقالوا، و لم یبدوا هناک التعامیا

إلهک مولانا و أنت نبیّناو لم تلق منا فی الولایة عاصیا

فقال له: قم یا علیّ فإنّنیرضیتک من بعدی إماما و هادیا

فمن کنت مولاه فهذا ولیهفکونوا له أتباع صدق و والیا

هناک دعا: اللّهم وال ولیهو کن للذی عادی علیا معادیا[۴۴]

محاورات و شبهات:

اشارة

لیس ثمّة شک فی أنّ هذه الآیة، لو لم تکن قد نزلت فی خلافة علی علیه السّلام،

لأکتفی فیها- کما قلنا- بأقل ممّا ورد فیها من روایات و من قرائن موجودة فی الآیة نفسها، فکثیر من کبار المفسّرین المسلمین یکتفون فی تفسیر سائر الآیات القرآنیة حتی بعشر الرّوایات الموجودة بشأن هذه الآیة، أو أقل من ذلک. و لکن ممّا یؤسف له أنّ حجاب التعصب قد حال دون قبول کثیر من الحقائق.

إنّ الذین یحملون لواء المخالفة تجاه تفسیر هذه الآیة و الرّوایات الکثیرة الواردة بشأن نزولها، و الرّوایات المتواترة بخصوص أصل حادثة الغدیر، ینقسمون إلی قسمین:

قسم حمل منذ البدایة روح العناد و التعنت، و حمل بشدّة علی الشیعة بالإهانة و السب و الشتم.

و آخرون حافظوا- إلی حد ما- علی الروح العلمیة فی البحث و التحقیق، و تابعوا القضیة عن طریق الاستدلال، و لذلک فهم یعترفون بجانب من الحقائق، و لکنّهم بعد إیرادهم بعض الإشکالات- التی ربّما کانت نتیجة لظروفهم الفکریة الخاصّة یترکون الوقوف عند الآیة و الرّوایات المرتبطة بها.

و النموذج البارز الذی یمثل القسم الأوّل هو ابن تیمیة فی کتابه «منهاج السنة» حیث یبدو فیه کمن یغمض عینیه فی رابعة النهار و یضع أصابعه فی أذنیه بشدّة، ثمّ ینادی: أین الشمس؟ فلا هو مستعد أن یفتح طرفا من عینه لیری بعض الحقائق، و لا هو یرضی برفع أصابعه عن أذنیه کی یستمع الی ضجیج المحدثین و المفسّرین المسلمین، بل یستمر فی سبه و شتمه و إهاناته.

إنّ دافع هؤلاء هو الجهل و عدم الاطلاع و التعصب المقرون بالعناد، ممّا دفع بهم إلی إنکار البدیهیات و الواضحات التی لا تخفی علی أحد.

لذلک فنحن لا نجشم أنفسنا عناء نقل أقوالهم، و لا نحمل القراء عناء سماع إجاباتهم، فما ذا یمکن أن یقال لمن ینبری بکل وقاحة لتجاهل هذا الحشد الکبیر من کبار علماء الإسلام و المفسّرین- و معظمهم من أهل السنة- من الذین أعلنوا

أن تلک الآیة قد نزلت بشأن علی علیه السّلام فیدعی- متعامیا عن الحقّ- أن أحدا من العلماء لم یقل شیئا کهذا فی کتابه!! و ما قیمة قوله هذا لیستحق البحث فیه؟! من الجدیر بالذکر أنّ ابن تیمیة، فی محاولته تبرئة نفسه قبال کل هذه الکتب المعتبرة التی تقول بنزول هذه الآیة بحق علی علیه السّلام، یلجأ إلی تعبیر مضحک، و یکتفی بقوله: «إن العلماء الذین یعرفون ما یقولون لا یرون أن هذه الآیة قد نزلت فی علی»!! فالظاهر «أنّ العلماء الذین یعرفون ما یقولون» هم أولئک الذین یضمون أصواتهم إلی أصوات ابن تیمیة و عناده المفرط. أمّا من لا یضمّ صوته إلیه فإنّه عالم لا یدرک ما یقول. و هذا منطق من ألقی العناد و حبّ الذات علی عقله ظلالا مشؤومة، فلندع هؤلاء.

أمّا الشبهات التی أوردها القسم الثّانی من العلماء، فمنها ما یجدر بالبحث، و سوف نتناولها فیما یلی:

۱- هل معنی «المولی» هو «الأولی بالتصرف»؟

إنّ أهم اعتراض یورد علی حادثة الغدیر هو أنّ من معانی «مولی» الصدیق و النصیر و المحب، و من الممکن أن تکون الکلمة هنا بهذا المعنی أیضا.

لیس رد هذا الاعتراض بصعب، لأنّ کل ناظر منصف یدرک أن تذکیر الناس بمحبّة علی علیه السّلام لا یقتضی کل تلک المقدمات، لا إلقاء خطبة فی تلک الصحراء القاحلة و تحت ذلک الحر المحرق، و إیقاف تلک الجموع و انتزاع الاعترافات المتوالیة منهم. إنّ حب المسلم لأخیه المسلم من المفاهیم الإسلامیة الواضحة التی تقررت منذ بدایة الدعوة.

ثمّ إنّ هذا الأمر لم يكن من الأمور التی لم يبلغها رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم حتی ذلك الوقت، بل ثبّته و أعلنه مرارا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۴

كما إنّه لم يكن من الأمور التی تثير قلق رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و تخوفه حتی يطمئنه اللّه تعالی بشأنه.

و لا كان أمرا علی هذا القدر من الأهمية بحيث تتخذ الآية هذا الأسلوب الشديد فی مخاطبة رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ

كل هذه تدل علی أنّ الأمر كان أكثر من مجرّد محبّة عادية تلك المحبّة التی كانت من أوليات الأخوة الإسلامية منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية.

ثمّ، إذا كان القصد هو تبيان مثل هذه المحبة العادية، فلما ذا يعمد رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم إلی استخلاص الاعترافات من الحاضرين قبل بيان قصده، فيسألهم:

«أ لست أولی بكم من أنفسكم»[۴۵]

؟ أ يتناسب هذا مع بيان محبّة عادية؟

ثمّ إنّ المحبّة العادية لا تستدعی من الناس، و حتی من عمر نفسه، أن يهنئ عليا عليه السّلام بقوله:

«أصبحت مولای و مولی كل مؤمن و مؤمنة»[۴۶].

حبّ المسلم واجب، و علیّ كسائر المسلمين، و يجب حبّه، و ليس فی ذلك شیء جديد يستوجب التهنئة فی ذلك اليوم و فی آخر سنة من حياة رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ إنّ هناك ارتباطا بين حديث «الثقلين»[۴۷] و عبارات وداع رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و موالاة علی عليه السّلام، و إلّا فإنّ حبّ علی عليه السّلام حبّا عاديا لا يستدعی أن يجعله رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی مصافّ القرآن! أ فلا يری المنصف المحايد فی التعبير الوارد فی حديث الثقلين أنّ المسألة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۵

تتعلق بالقيادة، لأنّ القرآن هو القائد الأوّل للمسلمين بعد رحيل رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و أهل البيت عليهم السّلام هو القائد الثّانی؟

۲- ترابط الآيات

قد يقال أحيانا إنّ الآيات السابقة و اللاحقة علی هذه الآية تخص أهل الكتاب و مخالفاتهم. و هذا ما يقول به صاحب تفسير «المنار» فی المجلد ۶ صفحة ۴۶۶ و يصر علی ذلك.

و لكن لا ضير فی ذلك- كما قلنا فی تفسير الآية نفسها- لأنّ اختلاف لحن الآية يختلف عن مواضيع الآيات التی قبلها و بعدها. و ثانيا سبق أن قلنا مرارا أن القرآن ليس كتابا أكاديميا يلتزم فی مواضيعه أسلوب التبويب و التقسيم إلی فصول و فقرات معينة، بل إنّ آياته نزلت بحسب الحاجات و الحوادث و الوقائع المختلفة الطارئة.

لذلك نلاحظ أنّ القرآن فی الوقت الذی يتكلم عن إحدی الغزوات، ينتقل إلی ذكر حكم من الأحكام الفرعية- مثلا- و فی الوقت الذی يتحدث عن اليهود و النصاری، يخاطب المسلمين و يذكرهم بأحد القوانين الإسلامية السابقة. (راجع بحثنا فی بداية تفسير هذه الآية لزيادة التوضيح).

من العجيب أنّ بعض المتعصبين يصرّون علی القول بأنّ هذه الآية قد نزلت فی أوائل البعثة، مع أن سورة المائدة نزلت فی أواخر عمر رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم. فإذا قالوا: إن هذه الآية وحدها نزلت فی مكّة فی أوائل البعثة، ثمّ أدخلت فی هذه الآية

للتناسب نقول: إن هذا على عكس ما تبحثون عنه تماما، لأننا نعرف أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أوائل البعثة لم يصطدم باليهود و لا بالنصارى. و عليه فإن ارتباط هذه الآية ينقطع بما قبلها و ما بعدها من آيات (تأمل بدقّة).

هذه كلها أدلة على أن هذه الآية قد تعرضت إلى هبوب عواصف التعصب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۶

فأحاطت بها بعض علامات الاستفهام ممّا لا يعتور آيات مشابهة أخرى أبدا. أمّا هذه الآية فكل يحاول من جهة أن يتشبث بما حرفها عن مسيرها.

۳- أتذكر الصّحاح كلّها هذا الحديث؟

يقول بعضهم: كيف يمكن قبول هذا الحديث مع أنّه لم يرد فى صحيحى مسلم و البخارى؟

و هذا من عجائب القول أيضا: فهناك:

أوّلا: كثير من الأحاديث المعتبرة التى قبل بها أهل السنّة مع أنّها ليست فى صحيحى مسلم و البخارى، فهذا الحديث ليس الأوّل من نوعه فى هذه الحالة.

ثانيا: هل أنّ هذين الصحيحين هما الكتابان الوحيدان الموثقان عندهم، مع أنّ هذا الحديث قد ورد فى سائر الكتب الأخرى المعتبرة عندهم، و حتى فى بعض الصحاح الستة (و هى التى يعتمدها أهل السنة)، مثل «سنن ابن ماجة»[۴۸] و «مسند أحمد»[۴۹]. و هناك علماء مثل «الحاكم النيسابورى» و «الذهبى» و «ابن حجر» اعترفوا بصحة الكثير من طرق هذا الحديث، على الرغم ممّا عرف عنهم من التعصب.

لذلك فلا يستبعد أن يقع البخارى و مسلم تحت ضغط السياسة الذى ساد زمانهما، فلم يستطيعا، أو لم يشاءا أن يقولا ما لا يتلاءم و رغبة سلطات زمانهما فى كتابيهما.

۴- لم لم يستدل على و أهل البيت عليهم السّلام بهذا الحديث؟

يقول بعض: لو كان حديث الغدير- على عظمته- صحيحا فلما ذا لم يستدل به

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۷

على عليه السّلام و أهل البيت عليهم السّلام و أصحابهم و محبّوهم عند اقتضاء الضرورة؟ ألم يكن من الخير لو أنّهم استندوا إلى مثل هذا السند المهم لإثبات حق على عليه السّلام؟

هذا أيضا قول آخر ينبع من عدم الإحاطة بالمصادر الإسلامية فى حقل الحديث و التّفسير و التّأريخ، إذ أنّ كثيرا من كتب علماء السنة قد ذكرت أن عليّا عليه السّلام و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام و أتباعهم قد استدلوا فعلا بحديث الغدير.

فهذا الخطيب الخوارزمى الحنفى

فى «المناقب» يروى عن عامر بن واثلة، قال: كنت على الباب يوم الشورى مع على عليه السّلام فى البيت و سمعته يقول: «لأحتجنّ عليكم بما لا يستطيع عربيكم و لا عجميكم تغيير ذلك» ثمّ قال: «أنشدكم اللّه أيّها النفر جميعا أ فيكم أحد وحّد اللّه قبلى؟» قالوا: لا (ثمّ استمر فى تعديد مناقبه و فضائله) ... إلى أن قال: «فانشدكم باللّه هل فيكم أحد قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، ليبلّغ الشاهد الغائب، غيرى؟».

قالوا: اللهم لا ...» الحديث ۵۰].

هذه الرواية يذكرها الحموينى فى «فرائد السمطين» فى الباب ۵۸، و ابن حاتم فى «الدر النظيم» و الدار قطنى، و ابن عقدة، و ابن أبى

الحديد فی شرح نهج البلاغة.

كذلك نقرأ فی «فرائد السمطين» فی الباب ۵۸ أن عليا عليه السّلام استشهد بحديث الغدير أمام جمع من الناس فی المسجد على عهد عثمان، و فی الكوفة أيضا استند إلى هذا الحديث لتفنيد رأی الذين أنكروا خلافته بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مباشرة.

يقول صاحب كتاب «الغدير»: إنّ أربعة من الصحابة و أربعة عشر من التابعين قد رووا هذا الحديث حسب ما نقلته مصادر أهل السنة المعروفة.

و كما يقول الحاكم النيسابوری- فی الصفحة ۳۷۱ من المجلد الثّالث- من «المستدرك» فإنّ عليا عليه السّلام قد استشهد بهذا الحديث يوم حرب الجمل أمام طلحة.

كذلك فی حرب صفين- كما يقول سليم بن قيس الهلالی- إنّ عليا كان فی عسكره و أمام جمع من المهاجرين و الأنصار و القادمين من أطراف البلاد، فاستشهد بهذا الحديث فقام إثنا عشر من الذين أدركوا بدرا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أكّدوا أنّهم سمعوا الحديث من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بعد علی عليه السّلام استند إلى هذا الحديث سيدة الإسلام فاطمة الزّهراء عليها السّلام و الإمامان الحسن و الحسين عليهما السّلام و عبد اللّه بن جعفر، و عمّار بن ياسر، و قيس بن سعد، و عمر بن عبد العزيز، و المأمون الخليفة العباسی.

بل أنّ عمرو بن العاص فی رسالة له إلى معاوية أراد أن يثبت لمعاوية فيها أنّه على علم تام بالحقائق الخاصّة بمكانة كل من علی عليه السّلام و معاوية بالنسبة للخلافة، فاستشهد صراحة بحديث الغدير، و قد نقله الخطيب الخوارزمی الحنفی فی كتابه «المناقب» صفحة ۱۲۴ (على الذين يرغبون فی المزيد من التوضيح بشأن استدلال علی عليه السّلام و أهل البيت و بعض الصحابة و غير الصحابة بحديث الغدير، أن يرجعوا إلى الصفحات ۱۵۹- ۲۱۳، من المجلد الأوّل من كتاب «الغدير» فقد أورد العلّامة الأمينی رحمه اللّه أسماء ۲۲ من الصحابة، و غير الصحابة ممن استدلوا بهذا الحديث).

۵- مفهوم الجملة الأخيرة من الآية

يقولون: لو كانت الآية تخص تنصيب علی عليه السّلام فی الخلافة و الولاية و ترتبط بحديث غدير خم، فما علاقة كلّ هذا بما جاء فی آخر الآية: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الْكافِرِينَ

للردّ على هذا الاعتراض يكفی أن نعرف أنّ لفظة «الكفر» فی اللغة و فی

القرآن تعنی الإنكار و المخالفة و الترك. فمرّة يقصد بها إنكار اللّه و نبوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مرّة يراد بها إنكار بعض الأحكام أو مخالفتها، ففی الآية (۹۷) من سورة آل عمران فيما يرتبط بالحج نقرأ: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ و الآية (۱۰۲) من سورة البقرة تصف السحرة و الذين تلوثوا بالسحر بأنّهم كفّار:

وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ، و فی الآية (۲۲) من سورة إبراهيم نرى أنّ الشيطان يندد يوم القيامة بأولئك الذين أطاعوه و اتبعوه و يقول لهم: إنكم بعد إطاعتكم أوامر اللّه قد جعلتمونی شريكا له، و إنی اليوم أكفر بعملكم ذاك: إِنِّی كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ و عليه، فلا عجب أن يطلق القرآن صفة الكفر على الذين يخالفون مسألة الولاية و الخلافة.

۶- هل يمكن وجود وليّين فی وقت واحد؟

من الذرائع الأخرى التی تذرعوا بها للنكوص عن هذه الحديث المتواتر و الآية المذكورة، هی أنّه إذا كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و

آله و سلّم قد نصب علیا علیه السّلام یوم الغدیر للخلافة و الولایة، فإن ذلک یعنی وجود ولیّین و قائدین فی وقت واحد.

إلّا أنّ الالتفات إلی الظروف الزمانیة الخاصّة بنزول الآیة و ورود الحدیث، و کذلک القرائن المستوحاة من خطبة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تنفی هذه الذریعة أیضا، إنّنا نعلم أنّ هذا الحدث قد جری فی أواخر عمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إنّه کان یبلغ الناس بآخر الأوامر لأنّه

قال «و إنّی أوشک أن أدعی فأجیب».

إنّ من یقول هذا لا شک فی أنّه بصدد تعیین خلیفته، و إنّه یضع الخطط للمستقبل، لا للحاضر، کذلک من الواضح، إنّه لا یقصد إعلان وجود قائدین أو ولیّین فی وقت واحد.

و ممّا یلفت النظر أنّ بعض علماء أهل السنة الذین یطرحون هذا الاعتراض، یتقدم بعضهم برأی یناقض ذلک تماما، و هو أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد عین علیا علیه السّلام فی

الخلافة و الولایة، و لکنّه لم یعین تأریخ التعیین، فما المانع أن یأتی ذلک بعد ثلاثة خلفاء؟

إنّه لأمر محیر حقّا! یتشبثون بألوان المتناقضات لکی یبتعدوا عن حقیقة القضیة! ألا یسأل هؤلاء أنفسهم: إذا أراد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یعین خلیفته الرابع ضمانا لمستقبل المسلمین، فلما ذا لم یعین الخلیفة الأوّل و الثّانی و الثّالث فی یوم الغدیر، و هم یتقدمون الرّابع و تنصیبهم مقدم علی الأوّل؟! و مرّة أخری نکرر مقولتنا السابقة لنختم به بحثنا هذا، و هی أنّه لو لا وجود نظرات خاصّة فی الأمر، لما حدثت کل هذه الاعتراضات و الإشکالات بشأن هذه الآیة و هذا الحدیث، کما لم یحدث شیء من ذلک فی غیرهما.

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۶۸ الی ۶۹]

اشارة

قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ لَسْتُمْ عَلی شَیْءٍ حَتَّی تُقِیمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ طُغْیاناً وَ کُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَی الْقَوْمِ الْکافِرِینَ (۶۸) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصاری مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۶۹)

سبب النّزول

اشارة

جاء فی تفسیر «مجمع البیان» و تفسیر القرطبی، عن ابن عباس قال: جاء جماعة من الیهود إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا: أ لست تقرّ بأن التّوراة من عند اللّه؟

قال: «بلی».

قالوا: فإنّا نؤمن بها و لا نؤمن بما عداها (و فی الحقیقة فانّ التّوراة تعتبر القدر المشترک بیننا و بینکم، و لکنّ القرآن کتاب مختص بکم).

فنزلت الآية الاولى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۲

التّفسير

لاحظنا فى ما سبق من تفسير آيات هذه السورة أنّ قسما كبيرا منها يدور حول العقبات التى كان يضعها أهل الكتاب «اليهود و النصارى» فى طريق المسلمين و ما كانوا يوردونه من مجادلة و تساؤل، هذه الآية- أيضا- تشير إلى جانب آخر من ذلك الموضوع، ترد فيها على منطقهم الواهى الداعى إلى اعتبار التّوراة كتابا متفقا عليه بين المسلمين و اليهود، و ترك القرآن باعتباره موضع خلاف.

لذلك فالآية تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ

و ذلك لأنّ هذه الكتب- كما قلنا- صادرة عن مبدأ واحد و أصولها واحدة، و لمّا كان آخر هذه الكتب السماوية أكملها و أجمعها فإنّه هو الأجدر بالعمل به، كما أنّ الكتب السابقة تحمل بشائر و ارشادات إلى آخر الكتب، و هو القرآن، فإذا كانوا- حسب زعمهم- يقبلون التّوراة و الإنجيل، و كانوا صادقين فى زعمهم، فلا مندوحة لهم عن القبول بتلك البشائر أيضا، و إذ وجدوا تلك العلامات فى القرآن، فإن عليهم أن يحنوا رؤوسهم خضوعا لها.

هذه الآية تقول أنّ الادعاء لا يكفى، بل لا بدّ من إتباع ما جاء فى هذه الكتب السماوية عمليا، ثمّ أن القضية ليست «كتابنا» و «كتابكم»، بل هى الكتب السماوية و ما أنزل من اللّه، فكيف تريدون بمنطقكم الواهى هذا أن تتجاهلوا آخر كتاب سماوى؟

و يعود القرآن ليشير إلى حالة أكثريتهم، فيقرّر أنّ أكثرهم لا يأخذون العبرة و العظة من هذه الآيات و لا يهتدون بها، بل أنّهم- لمّا فيهم من روح العناد- يزدادون فى طغيانهم و كفرهم وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۳

و هكذا يكون التأثير المعكوس للآيات الصادقة و القول المتزن فى النفوس المملوءة عنادا و الجاجا.

و فى ختام الآية يخفف اللّه من حزن رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إزاء تصلب هذه الأكثرية من المنحرفين و عنادهم، فيقول له فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ ۵۱].

هذه الآية ليست مقصورة على اليهود- طبعا- فالمسلمون أيضا إذا اكتفوا بادعاء الإسلام و لم يقيموا تعاليم الأنبياء، و خاصة ما جاء فى كتابهم السماوى، فلن تكون لهم منزلة و مكانة لا عند اللّه، و لا فى حياتهم الفردية و الاجتماعية، بل سيظلون دائما أذلاء و مغلوبين على أمرهم.

الآية التّالية تعود لتقرر مرّة أخرى هذه الحقيقة، و تؤكّد أنّ جميع الأقوام و أتباع كل المذاهب دون استثناء، مسلمين كانوا أم يهودا أم صابئين ۵۲] أم مسيحيين، لا ينجون و لا يأمنون الخوف من المستقبل و الحزن على ما فاتهم إلّا إذا آمنوا باللّه و بيوم الحساب و عملوا صالحا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

هذه الآية، فى الحقيقة ردّ قاطع على الذين يظنون النجاة فى ظل قومية معينة، و يفضلون تعاليم بعض الأنبياء على بعض، و يتقبلون الدعوة الدينية على أساس من تعصب قومى، فتقول الآية إن طريق الخلاص ينحصر فى نبذ هذه الأقوال.

و كما أشرنا فى تفسير الآية (۶۲) من سورة البقرة، التى تقترب فى مضمونها من مضمون هذه الآية سعى بعضهم بجد ليثبت أنّ هذه الآية تعتبر دليلا على «السلام العام» و على أنّ أتباع جميع الأديان ناجون، و أن يتجاهل فلسفة نزول الكتب السماوية بالتتابع الذى يدل

على تقدم الإنسان فی مسیرته التكاملیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۴

التدريجية.

و لكن- كما قلنا- تضع الآيـة حدّا فاصـلا بقولها وَ عَمِلَ صالِحاً لكل قول، و تشـخص الحقيقة، بخصوص تباين الأديان، فتوجب العمل بـآخر شـريعة إلهيـة، لأنّ العمـل بقوانين منسوخـة ليس من العمـل الصالـح، بل العمل الصالـح هو العمل بالشـرائع الموجودة و بآخرها (لمزيد من الشرح و التوضيح بهذا الشأن انظر المجلد الأوّل ص ۲۱۷.

ثمّ إنّ هنـاك احتمالاـ مقبولاـ فی تفسير عبـارة مَنْ آمَنَ بِـاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْـآخِرِ وَ عَمِـلَ صالِحـاً و هو إنّهـا تختص بـاليهود و النصـارى و الصابئين، لأنّ الَّذِينَ آمَنُوا فی البداية لا تحتاج إلى مثل هذا القيد، و عليه، فإن معنى الآية يصبح هكذا:

إنّ المؤمنين من المسـلمين- و كذلك اليهود و النصارى و الصابئين، بشرط أن يؤمنوا و أن يتقبلوا الإسلام و يعملوا صالحا- سيكونون جميعا من الناجين و إن ماضيهم الدينی لن يكون له أی أثر فی هذا الجانب، و إن الطريق مفتوح للجميع (تأمل بدقّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۵

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۰ الى ۷۱]

اشارة

لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِی إِسْـرائِيلَ وَ أَرْسَـلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (۷۰) وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (۷۱)

التّفسير

فی آيات سابقـة من سورة البقرة، و فی أوائل هـذه السورة أيضا إشارة إلى عهـد و ميثاق أخذه اللّه تعالى على بنی إسـرائيل و فی هذه الآية تذكير بهذا الميثاق:

لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِی إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا.

يبـدو أنّ هذا الميثاق هو الذی جاءت الإشارة إليه فی الآية (۹۳) من سورة البقرة، أی العمـل بما أنزل اللّه! ثمّ يضاف إلى ذلك القول بأنّهم، فضلا عن كونهم لم يعملوا بذاك الميثاق، كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ

هـذه هی طرائق المنحرفين الأنانيين و سـبلهم، فهم بـدلا من إتباع قادتهم، يصـرون على أن يكون القادة هم التابعين و لا هوائهم، و إلّا فليس لهؤلاء الهداة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۶

و الأنبياء حتى حق الحياة.

فی هذه الآية جاء الفعل «كذبوا» بصـيغة الماضی بينما جاء الفعل «يقتلون» بصيغة المضارع، و لعل السبب- بالإضافة إلى المحافظة على التناسب اللفظی فی أواخر الآيات السابقة و التّالية و كلها بصـيغة المضارع- هو كون الفعل المضارع يدل على الاسـتمرار، و القصد من ذلك الإشارة إلى اسـتمرار هـذه الروح فيهم، و أن تكـذيب الأنبياء و قتلهم لم يكن حـدثا عارضا فی حياتهم، بل كان طريقا و اتجاها لهم [۵۳].

فی الآية التّالية إشارة إلى غرورهم أمام كل ما اقترفوه من طغيان و جرائم:

وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ أی ظنوا مع ذلک أن البلاء و الجزاء لن ينزل بهم، و اعتقـدوا- كما صـرحت الآيات الأخرى- أنّهم من جنس أرقى، و أنّهم أبناء اللّه! و أخيرا استحال هذا الغرور الخطير و التكبر إلى ما يشبه حجابا غطى أعينهم و آذانهم: فَعَمُوا وَ صَمُّوا عن رؤية آيات اللّه و عن سماع كلمات الحقّ.

و لكنّهم عنـد ما أصابتهم مظاهر من عقاب اللّه و شاهـدوا نتائـج أعمالهم المشؤومـة، نـدموا و تابوا بعد أن أدركوا أن وعد اللّه حق، و أنّهم ليسوا عنصرا متميزا فائقا.

و تقبل اللّه توبتهم: ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

إلّا أنّ حالـة النـدم و التوبة لم تلبث طويلا، فسرعان ما عاد الطغيان و التجبر و سـحق الحقّ و العدالة، و عادت أغشـية الغفلة الناتجة عن الانغمـاس فی الإثم تحجب أعينهم و آذانهم مرّة أخرى ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ فلم يعودوا يرون آيات أو يسـمعوا كلمـة الحقّ، و عمت الحالة الكثير منهم.

و لعل تقديم «عموا» على «و صمّوا» يعنی أن عليهم أوّلا أن يبصروا آيات اللّه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۷

و معجزات رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ثمّ يستمعوا إلى تعاليمه و يستوعبوها.

و ورود عبارة كَثِيرٌ مِنْهُمْ بعد تكرار عَمُوا وَ صَمُّوا جاء لتوضيح أنّ حالة الغفلة و الجهل و العمى و الصمم تجاه الحقائق لم تكن عامّة، بل كان بينهم بعض الأقليـة من الصالحين، و فی هـذا دليل على أن تنديد القرآن باليهود لا ينطوی على أی جانب عنصـری أو طائفی، بل هو موجّه إلى أعمالهم فحسب.

هل أن تكرار عبارة عَمُوا وَ صَمُّوا ذو طابع عام تأكيدی، أم للإشارة إلى حادثتين مختلفتين؟

يرى بعض المفسّـرين أنّ التكرار يشـير إلى واقعتين مختلفتين حدثتا لبنی إسـرائيل، الاولى: الغزو البابلی لهم، و الثّانية: غزو الإيرانيين و الروم، و القرآن أشار إليها بشكل عابر فی بداية سورة بنی إسرائيل.

و لا يستبعد- أيضا- أنّ بنی إسرائيل قد تعرضوا مرات عديدة لهذه الحالات فحينما يشاهدون نتائج أعمالهم الشريرة، كانوا يتوبون، ثمّ ينقضون توبتهم، و قد حدث هذا عدّة مرّات لا مرّتين فقط.

فی نهاية الآية جملة قصيرة عميقة المعنى تقول: إنّ اللّه لا يغفل أبدا عن أعمالهم، إذ أنّه يرى كل ما يعملون: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۸

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۲ الى ۷۴]

اشارة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِی إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۷۲) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۴)

التّفسير

تعقيبـا على البحوث الماضيـة بشأن انحرافـات اليهود التی مرّت فی الآيـات السابقـة، تتحـدث هـذه الآيـات و التی تليهـا عن انحرافات المسيحيين، فتبدأ أولا بأهم تلک الانحرافات، أی «تأليه المسيح» «تثليث المعبود»: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

و أیّ کفر أشدّ من أن یجعلوا اللّه اللامحدود من جمیع الجهات متحدا مع مخلوق محدود من جمیع الجهات، و أن یصفوا الخالق بصفات المخلوق. مع أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۹

المسیح علیه السّلام نفسه یعلن صراحة لبنی إسرائیل: یا بَنِی إِسْرائِیلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ و بهذا یستنکر کل لون من ألوان الشرک، و یفرض الغلوّ فی شخصه، و یعتبر نفسه مخلوقا کسائر مخلوقات اللّه.

و لکی یشدد المسیح التوکید علی هذا الأمر، و لیزیل کل إبهام و خطأ، یضیف قائلا: إِنَّهُ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَیْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ.

و یمضی فی التوکید و إثبات أنّ الشرک و الغلو ضرب من الظلم الواضح، فیقول أیضا: وَ ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ أَنْصارٍ.

سبق أن أشرنا إلی أنّ تاریخ المسیحیة یؤکّد بأنّ التثلیث لم یکن معروفا فی القرون الاولی من المسیحیة، و لا حتی علی عهد المسیح علیه السّلام، بل أن الأناجیل الموجودة- علی الرغم من کل ما فیها من تحریفات و إضافات- لیس فیها أدنی إشارة إلی التثلیث، و هذا ما یعترف به المحققون المسیحیون أنفسهم، و علیه فإن ما ورد فی الآیة المذکورة عن إصرار المسیح علیه السّلام علی مسألة التوحید إنّما ینسجم مع المصادر المسیحیة الموجودة، و یعتبر من دلائل عظمة القرآن ۵۴].

و ینبغی الالتفات إلی أنّ الموضوع الذی تتناوله الآیة هو الغلو و وحدة المسیح باللّه. أو بعبارة أخری، هو «التوحید فی التثلیث»، و لکن الآیة التّالیة تشیر إلی مسألة «تعدد الآلهة» فی نظر المسیحیین، أی «التثلیث فی التوحید»، و تقول:

إنّ الذین قالوا أن اللّه ثالث الأقانیم ۵۵] الثلاثة لا ریب أنّهم کافرون: لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ.

اعتقد کثیر من المفسّرین، و منهم الطبرسی فی «مجمع البیان»، و الشیخ الطوسی فی «التبیان»، و الفخر الرازی و القرطبی فی تفسیریهما، أنّ الآیة السابقة تشیر إلی فرقة من المسیحیین باسم «الیعاقبة» یعتقدون أن اللّه متحد بالمسیح علیه السّلام،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۰

و هذه الآیة وردت بشأن فرقة أخری هی «الملکانیة» و «النسطوریة» الذین یقولون بالأقانیم الثلاثة، أو الآلهة الثلاثة.

غیر أنّ هذه النظرة عن المسیحیة کما سبق أن قلنا- لا تطابق مع الواقع، لأن الإعتقاد بالتثلیث عام بین المسیحیین کافة، کما أن التوحید بیننا نحن المسلمین عقیدة عامّة قطعیة، و لکنّهم فی الوقت الذی یعتقدون حقا بتثلیث الأرباب، یؤمنون أیضا بالوحدة الحقیقیة، قائلین أن ثلاثة حقیقیین یؤلفون واحدا حقیقیا! الظاهر أنّ الآیتین المذکورتین تشیران إلی جانبین مختلفین لهاتین القضیتین: فی الاولی إشارة إلی وحدة الآلهة الثلاثة، و فی الثّانیة إشارة إلی تعددها، و توالی المسألتین هو فی الحقیقة إشارة الی واحد من الأدلة الواضحة علی بطلان عقیدتهم، فکیف یمکن للّه أن یکون واحدا مع المسیح و روح القدس مرّة، و مرّة أخری یکون ثلاثة أشیاء؟ أمن المعقول أن یتساوی الثلاثة مع الواحد؟! إنّ ما یؤید هذه الحقیقة هو أنّنا لا نجد بین المسیحیین أیة طائفة لا تؤمن بالآلهة الثلاثة![۵۶].

و یرد القرآن علیهم ردا قاطعا فیقول: وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ و فی ذکر «من» قبل «إله» نفی أقوی لأی معبود آخر.

ثمّ ینذرهم بلهجة قاطعة: وَ إِنْ لَمْ یَنْتَهُوا عَمَّا یَقُولُونَ لَیَمَسَّنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ

یقول بعضهم أن «من» فی «منهم» بیانیة، و لکن الظاهر أنّها تبعیضیة تشیر إلی الذین بقوا علی کفرهم حتی بعد أن دعا القرآن إلی التوحید، لا الذین تابوا و رجعوا.

یذکر صاحب «المنار» قصّة فی المجال تکشف عن غموض تثلیث النصاری

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۱

و توحیدهم نقلا عن صاحب (إظهار الحقّ) قال:

«نقل أنّه تنصر ثلاثة أشخاص، و علمهم بعض القسیسین العقائد الضروریة، سیما عقیدة التثلیث و کانوا فی خدمته، فجاء أحد

المسيحيين إلى هذا القسيس، و سأله عمن تنصّر. فقال: ثلاثة أشخاص تنصّروا فسأله: هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية؟ فقال: نعم، و استدعى واحدا منهم ليريه ذلك فسأله القسيس عن عقيدة التثليث، فقال: إنّك علمتنى أن الآلهة ثلاثة، أحدهم فى السماء، و الثّانى تولد من بطن مريم العذراء، و الثّالث الذى نزل فى صورة الحمامة على الإله الثّانى بعد ما صار ابن ثلاثين سنة، فغضب القسيس و طرده و قال: هذا جاهل.

ثمّ طلب الآخر منهم سأله فقال: إنّك علمتنى أن الآلهة كانوا ثلاثة و صلب واحد منهم فالباقى إلهان، فغضب عليه القسيس- أيضا- و طرده.

ثمّ طلب الثّالث و كان ذكيا بالنسبة إلى الأولين و حريصا فى حفظ العقائد، فسأله، فقال: يا مولاى، حفظت ما علمتنى حفظا جيدا، و فهمت فهما كاملا بفضل السيد المسيح: أن الواحد ثلاثة و الثلاثة واحد، و صلب واحد منهم و مات، فمات الكل لأجل الاتحاد، و لا إله الآن، و إلّا يلزم نفى الاتحاد! فى الآية الثالثة يدعوهم القرآن إلى أن يتوبوا عن هذه العقيدة الكافرة لكى يغفر لهم اللّه تعالى، فيقول: أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۲

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۵ الى ۷۷]

اشارة

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۷۵) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۷۶) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (۷۷)

التّفسير

تواصل هذه الآيات البحث الذى جاء فى الآيات السابقة حول غلو المسيحيين فى المسيح عليه السّلام و اعتقادهم بألوهيته، فتفند فى بضع آيات قصار اعتقادهم هذا، و تبدأ متسائلة عمّا وجدوه فى المسيح من اختلاف عن باقى الأنبياء حتى راحوا يؤلهونه، فالمسيح ابن مريم قد بعثه اللّه كما بعث سائر الأنبياء من قبله: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

إذا كان بعثه من قبل اللّه سببا للتأليه و الشرك، فلما ذا لا تقولون القول نفسه بشأن سائر الأنبياء؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۳

و لكنّنا نعلم أنّ المسيحيين المنحرفين لا يقنعون باعتبار عيسى عليه السّلام مجرّد مبعوث من اللّه، فاعتقادهم العام فى الوقت الحاضر هو اعتباره ابن اللّه، و أنّه هو اللّه بمعنى من المعانى و أنّه جاء ليفتدى ذنوب البشر (و لم يأت لهدايتهم و قيادتهم) لذلك أطلقوا عليه اسم «الفادى» أى الذى افتدى بنفسه آثام البشر.

و لمزيد من التوكيد، يقول: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ أى أنّ من تكون له أمّ حملته فى رحمها، و من يكون محتاجا إلى كثير من الأمور، كيف يمكن أن يكون إلها؟! ثمّ إذا كانت أمّه صديقة فذلك لأنّها هى- أيضا- على خط رسالة المسيح عليه السّلام، منسجمة معه، و تدافع عن رسالته، لهذا فقد كان عبدا من عباد اللّه المقربين، فينبغى ألّا يتخذ معبودا كما هو السائد بين المسيحيين الذين يخضعون أمام تمثاله إلى حدّ العبادة.

و مرّة أخرى يشير القرآن إلى دليل آخر ينفى الربوبية عن المسيح عليه السّلام، فيقول:

كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ

فهـذا الـذى يحتاج إلى الطعام، و لو لم يتناول طعاما لعـدّة أيّام يضـعف عن الحركة، كيف يمكن أن يكون ربّا أو يقرن بالربّ؟! و فى ختام الآيـة إشارة وضوح هـذه الـدلائل من جهـة، و إلى عناد أولئك و جهلهم من جهـة أخرى، فيقول: انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۵۷].

تكرر كلمة «انظر» فى الآية توجيه للنظر إلى جهتين: إلى الدلائل الواضـحة الكافية لكل شـخص، و إلى رد الفعل السـلبى المحير المثير للعجب الصادر من هؤلاء.

و لكى يكمل الاسـتدلال السابق تستنكر الآية التّالية عبادتهم المسيح مع أنّهم يعلمون أن له احتياجات بشرية، و إنّه لا قدرة له على دفع الضرر عن نفسه أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۴

نفعها، فكيف يتسنى له دفع الضرر عن الغير أو نفعهم؟ قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً؟

فكثيرا ما تعرّض هو و أتباعه للأذى على أيدى أعدائهم، و لو لا أنّ اللّه شمله بلطفه لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة.

و فى النهاية يحذرهم من أن يظنوا أنّ اللّه لا يسمع ما يتقولونه أو لا يعلم ما يكنونه: وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ممّا يلفت النظر أنّ مسألة كون المسيح عليه السّـلام بشـرا ذا حاجات مادية جسـمانية- و هى ما يسـتند إليها القرآن فى هذه الآية و فى آيات أخرى- كانت من أكبر المعضـلات بوجه المسـيحيين الـذين يدعون ألوهيته، فسعوا إلى تبرير ذلك بشتى الأساليب، حتى أنّهم اضطروا أحيانا إلى القول بثنائية المسيح: اللاهوت و الناسوت، فهو من حيث لاهوتيته ابن اللّه، بل هو اللّه نفسه و من حيث ناسوتيته فهو جسم و مخلوق من مخلوقات اللّه، و أمثال ذلك من التبريرات التى هى خير دلالة على ضعف منطقهم و خطله.

لا بـدّ من الالتفات- أيضا- أنّ الآيـة اسـتعملت «ما» بمكان «من» و التى تشـير عادة إلى غير العاقل، و لعل ذلك يفيـد الشـمول بالنسـبة للمعبودات و الأصنام المصنوعة من الحجر أو الخشب، فيكون المقصود هو أنّه إذا جاز أن يعبد الناس مخلوقا، جازت كذلك عبادتهم الأصـنام، لأنّ هـذه المعبودات تتساوى من حيث كونها جميعا مخلوقات، و أنّ تأليه المسيح عليه السّـلام ضـرب من عبادة الأصـنام، لا عبادة الإله.

الآية التّالية تأمر رسول اللّه عليه السّلام، بعد اتضاح خطأ أهل الكتاب فى الغلو أن يدعوهم بالأدلة الجلية إلى الرجوع عن السير فى هذا الطريق: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِ ۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۵

إنّ غلو النصارى معروف، إلّا أنّ غلو اليهود، الـذى يشـملهم تعبير يا أَهْلَ الْكِتابِ قـد يكون إشارة إلى ما كانوا يقولونه عن العزير و قد اعتبروه ابن اللّه، و لمـا كـان الغلو ينشـأ- أكثر مـا ينشأ- عن إتباع الضالين أهواءهم، لـذلك يقول اللّه سـبحانه وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ

و فى هـذا إشارة- أيضا- إلى ما انعكس فى التّأريـخ المسـيحى، إذ أنّ موضوع التثليث و الغلو فى أمر المسيح عليه السّـلام لم يكن له وجود خلال القرون الاولى من المسـيحية، و لكن عند ما اعتنق بعض الهنود و أمثالهم من عبدة الأصـنام المسيحية أدخلوا فيها شيئا من دينهم السابق، كالتثليث و الشرك.

إنّ الثـالوث الهنـدى (الإيمـان بالآلهـة الثلاثـة: برهمـا، و فيشـنو، و سـيغا)، كان تاريخيا أسـبق من التثليث المسـيحى الـذى لا شك أنّه انعكـاس لـذاك، ففى الآيـة الثلاثين من سورة التوبـة و بعـد ذكر غلو اليهود و النصارى فى مسألـة العزير و المسيح عليه السّـلام يقول سبحانه يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ

و قـد وردت كلمـة «ضـلوا» فى هـذه الآيـة مرّتين بالنسـبة للكفـار الـذين اقتبس منهم أهـل الكتـاب الغلو، و لعـل هـذا التكرار من باب

التوكيد، إذ أنّهم كانوا قبل ذلك من الضّالين، ثمّ لمّا أضلّوا لآخرين بدعواهم وقعوا فى ضلال آخر، و من يسعى لتضليل الآخرين يكون أضلّ منهم فى الواقع، لأنّه يكون قد استهلك قواه لدفع نفسه و دفع الآخرين إلى طريق التعاسة و لحمل آثام الآخرين- أيضا- على كاهله، و هل يرتضى المرء السائر على الطريق المستقيم أن يضيف إلى آثامه آثام غيره أيضا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۶

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۸ الى ۸۰]

اشارة

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (۷۸) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (۷۹) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِى الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (۸۰)

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى المصير المشؤوم الذى انتهى إليه الكافرون السابقون، لكى يعتبر به أهل الكتاب فلا يتبعونهم اتباعا أعمى، فيقول: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

أمّا لماذا ورد اسما هذين النّبيين دون غيرهما، فللمفسّرين فى ذلك أقوال، فمن قائل: إنّ السبب هو أنّهما كانا أشهر الأنبياء بعد موسى عليه السّلام، و قيل: إنّ السبب هو أنّ كثيرا من أهل الكتاب كانوا يفخرون بأنّهم من نسل داود.

و تذكر الآية أوّلا أنّ داود كان يلعن السائرين على طريق الكفر و الطغيان.

و يقول بعض: إنّ فى الآية إشارة إلى حادثتين تأريخيتين أثارتا غضب هذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۷

النّبيين، فلعنا جمعا من بنى إسرائيل، فداود قد لعن سكان مدينة (أيلة) الساحلية المعروفين باسم (أصحاب السبت)، و سيأتى تفصيل تأريخهم فى سورة الأعراف، و عيسى عليه السّلام لعن جمعا من اتباعه ممن أصروا على اتباع طريق الإنكار و المعارضة حتى بعد نزول المائدة من السماء.

على كل حال، فالآية تشير إلى أنّ مجرّد كون الإنسان من بنى إسرائيل، أو من أتباع المسيح دون أن ينسجم مع خط سيرهما، لا يكون مدعاة لنجاته، بل أنّ هذين النّبيين قد لعنا من كان على هذه الشاكلة من الناس.

و فى آخر الآية توكيد لهذا الأمر و بيان للسبب: ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ

الآية التّالية تؤكّد أنّ هؤلاء لم يعترفوا أبدا بأنّ عليهم يتحملوا أية مسئولية اجتماعية، و لا هم كانوا يتناهون عن المنكر، بل أنّ بعضا من صلحائهم كانوا بسكوتهم و ممالاتهم يشجعون العصاة عمليا كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لذلك فقد كانت أعمالهم سيئة و قبيحة: لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ

هنالك فى تفسير هذه الآية روايات منقولة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن أهل البيت عليهم السّلام ذات دلالات تعليمية.

ففى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر و لتأخذون على يد السفيه و لتأطرنه على الحقّ اطرا، أو ليضربن اللّه قلوب بعضكم على بعض و يلعنكم كما لعنهم»[۵۹].

و
فى حديث آخر عن الامام الصّادق عليه السّلام فى تفسير كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ أنّه قال: «أمّا أنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم و لا يجلسون مجالسهم، و لكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا فى وجوههم و أنسوا بهم»[۶۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۸

الآيهٔ الثّالثهٔ تشير إلى معصيهٔ أخرى من معاصيهم: تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

من البديهى أنّ صداقتهم لأولئك لم تكن صداقهٔ عاديهٔ، بل كانت ممتزجهٔ بأنواع المعاصى، و كانوا يشجعون الأعمال و الأفكار الخاطئهٔ، لذلك أدانت الآيهٔ فى عباراتها الأخيرهٔ الأعمال التى قدموها ليوم المعاد، تلك الأعمال التى استوجبت غضب اللّه و عذابه الدائم: لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ

أمّا من هم المقصودون بتعبير الَّذِينَ كَفَرُوا فإنّ بعضا يقول: إنّهم كانوا مشركى مكّهٔ الذين صادقوا اليهود.

و يرى بعض أنّهم الجبارون و الظالمون الذين كان اليهود قديما يمدون إليهم يد الصداقهٔ، و هذا الرأى يؤكّده

الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السّلام إذ قال: «يتولون الملوك الجبارين و يزينون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم»[۶۱].

و ليس ثمّهٔ ما يمنع أن تشمل الآيهٔ كلا المعنيين، بل و تكون أعم منهما أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۹

الآيهٔ [سورهٔ المائدهٔ (۵): آيهٔ ۸۱]

اشارهٔ

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۸۱)

التّفسير

هذه الآيهٔ تبيّن لهم طريق النجاهٔ من نهجهم الخاطئ، و هو أنّهم لو كانوا حقا يؤمنون باللّه و برسوله و بما أنزل عليه، لما عقدوا أواصر الصداقهٔ مع أعداء اللّه و لا اعتمدوهم أبدا:

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ و لكن الذى يؤسف له هو أنّ الذين يطيعون أوامر اللّه قلّهٔ، و معظمهم خارجون عن نطاق إطاعته و سائرون على طريق الفسق وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ

من الواضح أنّ كلمهٔ «النّبى» هنا تعنى «رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» و ذلك لأنّ هذه الكلمهٔ قد استعملت فى القرآن المجيد فى آيات متعددهٔ بهذا المعنى، و هذا الموضوع يتكرر فى عشرات الآيات.

ثمّهٔ احتمال آخر فى تفسير هذه الآيهٔ، هو أنّ الضمير فى «كانوا» يعود على المشركين و عبدهٔ الأصنام، أى لو أنّ هؤلاء المشركين الذين يعتمدهم اليهود و يثقون بهم، قد آمنوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن، لما اختارهم اليهود أصدقاء لهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۰

و هذا دليل بيّن على على ضلال هؤلاء و فسقهم، و ذلك لأنّهم- على الرغم من زعمهم أنّهم يتبعون الكتب السماويهٔ- يتخذون عبدهٔ الأصنام أصدقاء لهم ما دام هؤلاء مشركين، و لكنّهم يبتعدون عنهم إذا توجهوا إلى اللّه و الكتب السماويهٔ.

بيد أنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى ظاهر الآيات، حيث الضمائر كلّها تعود إلى مرجع واحد هو اليهود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۱

الجزء السّابع من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۳

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸۲ الى ۸۶]

اشارة

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (۸۲) وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (۸۳) وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (۸۴) فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (۸۵) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۸۶)

سبب النّزول

المهاجرون الأوّل فى الإسلام:

كثير من المفسّرين- و منهم الطبرسى فى «مجمع البيان»، و الفخر الرازى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۴

و صاحب «المنار» ينقلون فى تفاسيرهم عن المفسّرين السابقين أنّ هذه الآيات قد نزلت بحقّ «النّجاشى» صاحب الحبشة على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أتباعه، و فى تفسير «البرهان» حديث يشرح هذا الموضوع شرحا وافيا.

يمكن تلخيص الرّوايات الإسلامية و التواريخ و أقوال المفسّرين بهذا الخصوص فى ما يلى:

فى السنوات الاولى من بعثة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته العامّة كان المسلمون أقلية ضعيفة، و كانت قريش قد تواصت أن تضيق الخناق على مواليها و أتباعها الذين يؤمنون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و على هذا فقد أصبح كلّ مسلم واقعا تحت ضغط عشيرته و قومه يومئذ لم يكن عدد المسلمين يكفى للقيام بجهاد تحررى.

و لكى يحافظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على حياة هذه الجماعة القليلة، و يهيئ قاعدة للمسلمين خارج الحجاز، اختار لهم الحبشة و أمرهم بالهجرة إليها قائلا:

«إنّ بها ملكا صالحا لا يظلم و لا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل اللّه عزّ و جلّ للمسلمين فرجا».

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقصد النجاشى (النجاشى اسم عام لجميع سلاطين الحبشة، مثل كسرى لملوك إيران، أمّا النجاشى المعاصر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو (أصحمة)، أى العطية و الهبة بلغة الأحباش).

فهاجر أحد عشر رجلا و أربع نساء من المسلمين إلى الحبشة بحرا على ظهر سفينة صغيرة استأجروها، كان ذلك فى شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، و قد أطلق عليها اسم الهجرة الاولى.

و لم يمض على ذلك وقت طويل حتى لحقهم جعفر بن أبى طالب و جمع من المسلمين، فكانوا مع السابقين جمعا مؤلفا من ۸۲ رجلا سوى النساء و الصبيان، و شكلت هذه المجموعة النواة الاولى للتجمع الإسلامى المنظم.

كان لفكرة هذا الهجرة وقع شديد على عبدة الأصنام، لأنّهم أدركوا جيدا أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۵

لن یمضی زمن طویل حتی یکون علیهم أن یواجهوا جمعا قویا من المسلمین الذین اعتنقوا الإسلام- بالتدریج- دینا لهم فی أرض الحبشة حیث الأمن و الأمان.

فشمروا عن ساعد الجد لإحباط تلک الفکرة، فاختاروا اثنین من فتیانهم الأذکیاء المعروفین بالدهاء و المکر، و هما (عمرو بن العاص) و (عمارة بن الولید) و حملوهما مختلف الهدایا و التحف إلی النجاشی لیوغروا صدره علی المسلمین فیطردهم من بلاده، و علی ظهر السفینة التی أقلت هذین إلی الحبشة سکرا و تخاصما إلّا أنهما- لکی ینفذا المهمّة التی جاءا من أجلها- نزلا إلی البر الحبشی، و حضرا مجلس النجاشی بکثیر من الأبهة، و خاصّة بعد أن اشتریا ضمائر حاشیة النجاشی بالکثیر من الهدایا و الرشاوی، فوعدهم هؤلاء بالوقوف إلی جانبهما و تأییدها.

بدأ عمرو بن العاص کلامه للنجاشی قائلا: «أیّها الملک، إنّ قوما خالفونا فی دیننا و سبوا آلهتنا، و صاروا إلیک فردهم إلینا».

ثمّ قدما ما حملاه من هدایا إلی النجاشی.

فوعدهم النجاشی أن یبت بالأمر بعد استجواب ممثلی اللاجئین و بعد التشاور مع حاشیته.

و فی یوم آخر عقدت جلسة حافلة حضرتها حاشیة النجاشی و جمع من العلماء المسیحیین، و ممثل المسلمین جعفر بن أبی طالب، و مبعوثا قریش، و بعد أن استمع النجاشی إلی أقوال مبعوثی قریش، التفت إلی جعفر و طلب منه بیان ما لدیه.

قال جعفر: یا أیّها الملک سلهم، أ نحن عبید لهم؟

فقال عمرو: لا، بل أحرار کرام.

جعفر: سلهم ألهم علینا دیون یطالبوننا بها؟

عمرو: لا، ما لنا علیکم دیون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۶

جعفر: فلکم فی أعناقنا دماء تطالبونا بذحول بها؟

عمرو: لا.

جعفر: فما تریدون منّا؟ آذیتمونا فخرجنا من دیارکم، ثمّ قال:

«نعم أیّها الملک خالفناهم بعث اللّه فینا نبیّا أمرنا بخلع الأنداد و ترک الاستقسام بالأزلام، و أمرنا بالصّلاة و الزّکاة، و حرّم الظلم و الجور و سفک الدّماء بغیر حقّها، و الزنا و الربا و المیتة و الدّم و لحم الخنزیر، و أمرنا بالعدل و الإحسان و إیتاء ذی القربی، و نهانا عن الفحشاء و المنکر و البغی».

فقال النّجاشی: بهذا بعث اللّه عیسی، ثمّ قال النجاشی لجعفر:

هل تحفظ ممّا أنزل اللّه علی نبیّک شیئا؟

قال جعفر: نعم، فقرأ سورة مریم، فلمّا بلغ قوله: وَ هُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَیْکِ رُطَباً جَنِیًّا قال: هذا و اللّه هو الحقّ.

فقال عمرو: إنّه مخالف لنا فردّه إلینا.

فرفع النجاشی یده و ضرب بها وجه عمرو و قال: اسکت، و اللّه لئن ذکرته بعد بسوء لأفعلنّ بک و قال: ارجعوا إلی هذا هدیته، و قال لجعفر و أصحابه: امکثوا فإنّکم آمنون.

کان لهذا الحدث أثر بالغ بعید المدی، ففضلا عمّا کان له من أثر إعلامی عمیق فی تعریف الإسلام لجمع من أهل الحبشة، فإنّه شد من عزیمة المسلمین فی مکّة و حملهم علی الاطمئنان و الثقة بقاعدتهم فی الحبشة لإرسال المسلمین الجدد إلیها، إلی أن یشتد ساعدهم و تقوی شوکتهم.

و مضت سنوات، و هاجر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المدینهٔ، و ارتفع شأن الإسلام، و تمّ التوقیع علی صلح الحدیبیهٔ، و توجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لفتح خیبر، و فی ذلک الیوم الـذی کان فیه المسـلمون یکادون یطیرون فرحا لتحطیمهم أکبر قلعـهٔ للأعداء الیهود، فإذا بهم یشـهدون من بعید قدوم جمع من الناس صوبهم، ثمّ ما لبثوا حتی عرفوا أن أولئک لم یکونوا سوی المهاجرین الأوائل إلی الحبشهٔ و قد عادوا فی

ذلک الیوم إلی أوطانهم بعد أن تحطمت قوی الأعداء الشیطانیهٔ، و قویت جذور شجیرهٔ الإسلام النامیهٔ.

و إذ شاهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مهاجری الحبشهٔ، قال قولته التّأریخیهٔ: «لا أدری أنا بفتح خیبر أسر أم بقدوم جعفر»؟!

یروی أنّ جعفر و أصحابه جاؤوا إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و معهم سبعون رجلا، اثنان و ستون من الحبشهٔ و ثمانیهٔ من أهـل الشـام فیهم بحیراء الراهب، فقرأ علیهم رسـول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم سـورهٔ «یس» إلی آخرهـا فبکوا حـتی سـمعوا القرآن و آمنوا و قالوا:

ما أشبه هذا بما کان ینزل علی عیسی، فأنزل اللّه فیهم هذه الآیات.

و روی عن سـعید بن جبیر فی سبب نزول الآیهٔ أنّ النجاشی أرسل ثلاثین شخصا من أخلص أتباعه إلی المدینهٔ لإظهار حبّه لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و للإسـلام، أولئک هم الـذین اسـتمعوا إلی آیات سورهٔ «یس» فأسـلموا، فنزلت الآیات المـذکورهٔ تقـدیرا لأولئک المؤمنین.

(لا یتعارض سـبب النّزول هذا مع کون سورهٔ المائدهٔ قد نزلت فی أواخر عمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)، إذ أنّ هذا القول یرجع إلی معظم آیات السورهٔ، و لیس ثمّـهٔ ما یمنع أن تکون بعض تلک الآیات قـد نزلت فی حوادث سابقهٔ، ثمّ وضـعت- لأسـباب- بأمر من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذه السّورهٔ.

التّفسیر

حقد الیهود و مودّهٔ النصاری:

تقارن هذه الآیات بین الیهود و النصاری الذین عاصروا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فی الآیهٔ الاولی وضع الیهود و المشرکون فی طرف واحد و المسیحیون فی طرف آخر: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِینَ آمَنُوا الْیَهُودَ وَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا، وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ قالُوا إِنَّا نَصاری

یشهد تاریخ الإسلام، بجلاء علی هذه الحقیقهٔ، ففی کثیر من الحروب التی

أثیرت ضـد المسـلمین کان للیهود ضـلع فیها، بصورهٔ مباشـرهٔ أو غیر مباشـرهٔ، و لم یتورعوا عن التوسل بأیـهٔ وسـیلهٔ للتآمر، و قلیل منهم اعتنق الإسلام، و لکننا قلّما نجد المسلمین یواجهون المسیحیین فی غزواتهم، کما أنّ الکثیرین منهم التحقوا بصفوف المسلمین.

ثمّ یعزوا القرآن هذا الاختلاف فی السلوک الفردی و الاجتماعی إلی وجود خصائص فی المسیحیین المعاصرین لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم تکن موجودهٔ فی الیهود:

فأوّلا کان بینهم نفر من العلماء لم یسعوا- کما فعل علماء الیهود- إلی إخفاء الحقائق ذلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ ۶۲].

ثمّ کان منهم جمع من الزهاد الذین ترکوا الدنیا، و هی النقطهٔ المناقضهٔ لما- کان یفعله بخلاء الیهود الجشعین.

و على الرغم من كلّ انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود: «و رهبانا».

و كثير منهم كـانوا يخضـعون للحق، و لم يتكبروا، فى حين كـان معظم اليهود يرون أنّهم عنصـر أرفع، فرفضوا قبول الإسـلام الـذى لم يأت على يد عنصر يهودى:

وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ

ثمّ إنّ نفرا منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفر من الأحباش لأنّهم يعرفون الحقّ إذا سمعوه:

وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ

فكانوا ينادون بكل صراحة و شجاعة، يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ

لقـد كان تأثرهم بالآيات القرآنية من الشدة بحيث أنّهم كانوا يقولون: وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ

سبق أن قلنا إنّ هذه المقارنة كانت بين اليهود و النصارى المعاصرين لرسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۹

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فاليهود- و إن كانوا من أصحاب الكتب السماوية- بلغت شدة تعلقهم بالمادة و حبّهم لها أن انخرطوا فى سلك المشركين الذين لم يكن يربطهم بهم أى وجه شبه مشترك، مع أن اليهود فى البداية كانوا من المبشرين بمجىء الإسلام و لم تكن قـد دخلتهم انحرافات كالتثليث و الغلو اللذين كانا عند المسيحيين، غير أن حبّهم للدنيا حبّ عبادة قد أبعدهم عن الحقّ، بينما معاصروهم المسيحيون لم يكونوا على هذه المشاكلة.

إلّا أنّ التّأريخ القديم و المعاصـر يقول لنا: أنّ المسـيحيين فى القرون التى أعقبت ذلك قد ارتكبوا بحق الإسـلام و المسلمين جرائم لا تقل عمّا فعله اليهود فى هذا المجال.

إنّ الحروب الصـليبية الطّويلة و الدّموية فى القرون الماضـية، و الاسـتفزازات الكثيرة التى يقوم بها الاسـتعمار ضد الإسـلام و المسلمين اليوم غير خافيـة على أحـد، لـذلك ليس لنا أن نأخـذ الآيات المـذكورة مأخـذ قانون عام بالنسـبة لجميع المسـيحيين، بل إنّ الآيـة: إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ... و ما بعـدها دليل على إنّها نزلت بحق جمع من المسـيحيين الـذين كانوا يعاصـرون رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الآيتـان الأخيرتـان فيهمـا إشارة إلى مصـير هاتين الطائفتين و إلى عقابهما و ثوابهما، أولئك الـذين أظهروا المودة للمؤمنين و خضـعوا لآيـات اللّه و أظهروا إيمـانهم بكـل شـجاعة و صـراحة: فَأَثـابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ ۶۳].

و أمّا أولئك الذين ساروا فى طريق العداء و العناد فتقول الآية عنهم: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۰

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸۷ الى ۸۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۸۷) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸) لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَ

احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۸۹)

سبب النّزول

لا تتجاوزوا الحدود!

ثمّة روايات متعددة وردت بشأن نزول هذه الآيات منها: فی أحد الأيام أخذ رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يصف بعض ما يجری يوم القيامة و حال الناس فی تلك المحكمة الإلهية العظمی، فهزّ الوصف نفوس الناس و راح بعضهم يبكی، و علی أثر ذلك عزم بعض أتباع رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم علی ترك بعض لذائذ الحياة و رفاهها، و أن ينصرف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۱

بدلا من ذلك إلی العبادة، فأقسم أمير المؤمنين عليه السّلام أن ينام من الليل أقلّه و يصرفه فی العبادة، و أقسم بلال أن يصوم أيّامه كلّها، و أقسم عثمان بن مظعون أن يترك إتيان زوجته و أن ينقطع إلی العبادة.

جاءت زوجة عثمان بن مظعون- و كانت امرأة جميلة- يوما إلی عائشة فعجبت عائشة من حالها فقالت: ما لی أراك متعطلة؟

فقالت: لمن أتزين؟ فو اللّه ما قاربنی زوجی منذ كذا و كذا فانّه قد ترهب و لبس المسوح و زهد فی الدنيا، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم، فجاء إليهم و أخبرهم أن ذاك خلاف سنّته و قال: «فمن رغب عن سنتی فليس منی» ثمّ جمع الناس و خطبهم و قال:

«ما بال أقوام حرموا النساء و الطعام و الطيب و النوم و شهوات الدنيا، أمّا إنّی لست آمركم أن تكونوا قسيسين و رهبانا، فإنّه ليس فی دينی ترك اللحم و لا النساء و لا اتّخاذ الصوامع، و إنّ سياحة أمّتی الصوم و رهبانيتهم الجهاد، اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا و حجوا و اعتمروا و أقيموا الصّلاة و آتوا الزّكاة و صوموا رمضان، و استقيموا يستقم لكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا علی أنفسهم فشدّد اللّه عليهم ...».

فقام الذين كانوا قد أقسموا علی ترك تلك الأمور و قالوا: يا رسول اللّه، لقد أقسمنا علی ذلك، فما ذا نفعل؟ فنزلت الآيات المذكورة جوابا لهم ۶۴].

لا بدّ من القول بأنّ قسم البعض مثل قسم عثمان بن مظعون لم يكن مشروعا لما فيه من غمط لحقوق زوجته، و لكن فيما يتعلق بقسم الإمام علی عليه السّلام بإحياء الليل بالعبادة، فإنّه كان أمرا مباحا، و لكن المستفاد من الآيات هو أنّ الاولی أن لا يكون ذلك بصورة مستمرة و دائمة، و لا يتعارض مع عصمة علی عليه السّلام، لأننا نقرأ بما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۲

يشبه ذلك بالنسبة لرسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی الآية الاولی من سورة التحريم: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ

التّفسير

القسم و كفارته:

فی هذه الآية و الآيات التّالية لها مجموعة من الأحكام الإسلامية المهمّة، بعضها يشرع لأوّل مرّة، و بعض آخر جاء توكيدا و توضيحا

لأحكام سابقة وردت فى آيات اخرى من القرآن، لأنّ هذه السورة- كما سبق أن قلنا- نزلت فى أواخر عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكان لا بدّ من التأكيد فيها على أحكام اسلامية مختلفة.

فى الآية الاولى إشارة إلى قيام بعض المسلمين بتحريم بعض النعم الإلهية.

فنهاهم اللّه عن ذلك قائلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ۶۵].

إنّ ذكر هذا الحكم، مع أخذ سبب النّزول بنظر الإعتبار، قد يكون إشارة إلى أنّه إذا كان فى الآيات السابقة شىء من الثناء على فريق من علماء المسيحية و رهبانها لتعاطفهم مع الحقّ و التسليم له، لا لتركهم الدنيا و تحريم الطيبات، و ليس للمسلمين أن يقتبسوا منهم ذلك، فبذكر هذا الحكم يعلن الإسلام صراحة استنكار الرهبنة و هجر الدنيا كما يفعل المسيحيون و المرتاضون (ثمّة شرح أوفى لهذا الموضوع فى تفسير الآية (۲۷) من سورة الحديد: ... وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها.

ثمّ لتوكيد هذا الأمر تنهى الآية عن تجاوز الحدود، لأنّ اللّه لا يحبّ الذين يفعلون ذلك وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

و فى الآية التى تليها آخر للأمر، إلّا أنّ الآية السابقة كان فيها نهى عن التحريم، و فى هذه الآية أمر بالانتفاع المشروع من الهبات الإلهية، فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۳

وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً.

و الشرط الوحيد لذلك هو الاعتدال و التقوى عند التمتع بتلك النعم: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أى أنّ إيمانكم باللّه يوجب عليكم احترام أوامره فى التمتع و فى الاعتدال و التقوى.

هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الآية، و هو أنّ الأمر بالتقوى يعنى إن تحريم المباحات و الطيبات لا يأتلف مع درجات التقوى المتكاملة الرفيعة، فالتقوى تستلزم أن لا يتجاوز الإنسان حد الاعتدال من جميع الجهات.

و الآية التى بعدها تتناول القسم الذى يقسم به الإنسان فى حالة تحريم الحلال و فى غيره من الحالات بشكل عام، و يمكن القول أنّ القسم نوعان:

فالاولى: هو القسم اللغو، فيقول: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمانِكُمْ

فى تفسير الآية (۲۲۵) من سورة البقرة- التى تتناول موضوع عدم وجود عقاب على اللغو فى الأيمان- قلنا: إنّ المقصود باللغوّ فى الأيمان- كما يقول المفسّرون و الفقهاء- الأيمان التى ليس لها هدف معين و لا تصدر عن وعى و عزم إرادى، و إنما هى قسم يحلف به المرء من غير تمعن فى الأمر فيقول: و اللّه و باللّه، أو لا و اللّه و لا باللّه، أو إنّه فى حالة من الغضب و الهياج يقسم دون وعى.

و يقول بعضهم: إنّ الإنسان إذا كان واثقا من أمر فاقسم به، ثمّ ظهر أنّه قد أخطأ، فقسمه- يعتبر أيضا- من نوع اللغو فى الأيمان، كأن يتيقن أحدهم من خيانة زوجته على أثر سعاية بعض الناس و وشايتهم، فيقسم على طلاقها، ثمّ يتّضح له أن ما سمعه بحقّها كان كذبا و افتراء، فإنّ قسمه ذاك لا اعتبار له، إننا نعلم أيضا أنّه بالإضافة إلى توفر القصد و الإرادة و العزم فى القسم الجاد، يجب أن يكون محتواه غير مكروه و غير محرم، و عليه إذا أقسم أحدهم مختارا أن يرتكب عملا محرما أو مكروها، فإن قسمه لا قيمة له و لا يلزمه الوفاء به، و يحتمل أن يكون مفهوم «اللغو» فى هذه الآية مفهوما واسعا يشمل هذا النوع من الأيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۴

أيضا.

و القسم الثّانى: هو القسم الجاد الإرادى الذى قرره المرء بوعى منه، هذا النوع من القسم هو الذى يعاقب عليه اللّه إذا لم يف به الإنسان: وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ

كلمة «العقد» تعنى فى الأصل- كما قلنا فى بداية سورة المائدة- جمع أطراف الشىء جمعا محكما.

و منه تسمیة ربط طرفی الحبل ب «العقدة» ثمّ انتقل هذا المعنی إلی الأمور المعنویة، فأطلق علی کل اتفاق و عهد اسم العقد، فعقد الأیمان- کما فی الآیة- یعنی التعهد بکل جد و عزم و تصمیم علی أمر ما بموجب القسم.

بدیهی أن الجد وحده فی القسم لا یکفی لصحته، بل لا بدّ أیضا من صحة محتواه- کما قلنا- و أن یکون أمرا مباحا فی الأقل، کما لا بدّ من القول بأنّ القسم بغیر اسم اللّه لا قیمة له.

و علیه إذا أقسم إمرؤ باللّه أن یعمل عملا- محمودا، أو مباحا علی الأقل، فیجب علیه أن یعمل بقسمه، فإن لم یفعل، فعلیه کفارة التخلف.

و کفارة القسم هی ما ورد فی ذیل الآیة المذکورة، و هی واحدة من ثلاثة:

الأولی: فَکَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساکِینَ و لکیلا یؤخذ هذا الحکم علی إطلاقه بحیث یصار إلی أی نوع من الطعام الدنیء و القلیل، فقد جاء بیان نوع الطعام بما لا یقل عن أوسط الطعام الذی یعطی لأفراد العائلة عادة: مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِیکُمْ

ظاهر الآیة یدل علی النوعیة المتوسطة، و لکن یحتمل أنّه إشارة إلی الکمیة و الکیفیة کلیهما، فقد جاء عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه الحد الوسط من الکیفیة، و عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه الحدّ الوسط من الکمیة، الأمر الذی یدل علی أن المطلوب هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۵

الحد الوسط من کلیهما[۶۶].

و لا حاجة للقول بأنّ «الحدّ الوسط» سواء فی الکمیة أو الکیفیة، یختلف باختلاف المدن و القری و الأزمنه.

و قد احتمل بعضهم تفسیرا آخر للأوسط، و هو أنّه یعنی الجید الرفیع، و هما من معانی «الأوسط» کما نقرأ فی الآیة (۲۸) من سورة القلم: قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ

الثّانیة: أَوْ کِسْوَتُهُمْ

من الطبیعی أنّ ذلک یعنی الملابس التی تغطی الجسم حسب العادة، لذلک ورد فی بعض الرّوایات أنّ الإمام الصادق علیه السّلام بیّن أنّ المقصود بالکسوة فی هذه الآیة قطعتا اللباس (الثوب و السروال)، أمّا الروایة المنقولة عن الإمام الباقر علیه السّلام بأن ثوبا واحدا یکفی، فربّما تکون إشارة إلی الثوب العربی الطویل المعروف و الذی یکسو الجسم کلّه، أمّا بشأن النسوة فلا شک أنّ ثوبا واحدا لا یکفی، بل لا بدّ من غطاء للرأس و الرقبة، و هذا هو الحدّ الأدنی لکسوة المرأة لذلک لا یستبعد أن تکون الکسوة التی تعطی کفارة تختلف أیضا باختلاف الفصول ۶۷] و الأمکنة و الأزمنة.

أمّا من حیث الکیفیة، و هل یکفی الحد الأدنی، أم ینبغی مراعاة الحد الأوسط؟ فإن للمفسرین رأیین فی ذلک:

۱- إن کل کسوة تکفی إذا أخذت الآیة علی إطلاقها.

۲- إنّه ما دمنا قد راعینا الحدّ الأوسط فی الإطعام، فلا بدّ أن نراعی هذا الحد فی الکساء أیضا، غیر أن الرأی الأوّل أکثر انسجاما مع إطلاق الآیة.

الثّالثة: أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَةٍ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۶

و إن کانت الآیة مطلقة فی الظاهر.

و هذا ما یدل علی أنّ الإسلام یتوسل بطرق مختلفة لتحریر العبید، أمّا فی الوقت الحاضر حیث یبدو أنّه لا وجود للرق، فإنّ علی المسلمین أن یختاروا واحدة من الکفارتین المتقدمتین.

لیس ثمّة شک فی أنّ هذه المواضیع الثلاثة متباینة من حیث قیمتها تباینا کبیرا، و لعل القصد من هذا التباین هو حریة الإنسان فی إختیار الکفارة التی تناسبه و تناسب إمکاناته المادیة.

و لكن قد يوجد من لا قدرة له على أیّ منها، لذلك فإنّه بعد بيان تلك الأحكام يقول سبحانه و تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّام إذن، فصيام ثلاثة أيّام مقصور على الذين لا قدرة لهم على تحقيق أى من الكفارات الثلاث السابقة، ثمّ يؤكّد القول ثانية: ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ

و مع ذلك، فلكى لا يظن أحد أنّه بدفع الكفارة يجوز للمرء أن يرجع عن قسم صحيح أقسمه، يقول تعالى: وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ

و بعبارة أخرى: إنّ الالتزام بالقسم واجب تكليفى، و عدم تنفيذه حرام، و الكفارة تأتى بعد الرجوع عن القسم.

فى ختام الآيات يبيّن القرآن أنّ هذه الآيات توضح لكم الأحكام التى تضمن سعادة الفرد و المجتمع و سلامتها لتشكروه على ذلك: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۷

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۹۰ الى ۹۲]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۹۲)

سبب النّزول

تذكر التفاسير الشيعية و السنّية روايات متعددة عن سبب نزول الآية الاولى تكاد تكون متشابهة، من ذلك أنّه جاء فى تفسير «الدر المنثور» عن سعد بن أبى وقاص أنّه قال: إنّ هذه الآية قد نزلت بشأنى. كان أنصارى قد أعد طعاما دعانا إليه مع جمع من الناس، فتناولوا الطعام و شربوا الخمر، و كان هذا قبل تحريمها فى الإسلام، و عند ما صعدت النشوة إلى رؤوسهم أخذوا يتفاخرون و ارتفع بينهم الكلام شيئا فشيئا حتى وصل الأمر بأحدهم أن تناول عظم بعير فضربنى به على أنفى فشجه فقمت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حكيت له ما جرى، فنزلت الآية المذكورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۸

و فى «مسند أحمد» و «سنن أبى داود» و «النسائى» و «الترمذى» أنّ عمر (و كان يكثر من الخمر كما جاء فى تفسير «فى ظلال القرآن» ج ۳، ص ۳۳) كان يدعو اللّه أن ينزل حكما واضحا فى الخمر، و عند ما نزلت الآية (۲۱۹) من سورة البقرة يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ .. قرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكنّه ظل يكرر دعاءه و يطلب مزيدا من التوضيح حتى نزلت الآية (۴۳) من سورة النساء:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى فقرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا، غير أنّه استمر فى دعاءه، حتى نزلت الآية التى نحن بصددها موضحة الحكم بشكل كامل، و عند ما قرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على عمر، فقال: انتهينا انتهينا[۶۸]!

التّفسير

مراحل تحريم الخمر و حكمها النهائى:

سبق أنّ ذكرنا فى المجلد الثّالث من هـذا التّفسير فى ذيل الآية (۴۳) من سورة النساء، إنّ معاقرة الخمر فى الجاهلية و قبيل الإسلام كانت منتشرة انتشارا أشبه بالوباء العام، حتى قيل: أنّ حبّ عرب الجاهلية كان مقصورا على ثلاثة:

الشعر و الخمر و الغزو.

و يستفاد من بعض الرّوايات، أنّه حتى بعد تحريم الخمر فإن الإقلاع عنها كان شاقّا على بعض المسلمين، حتى قالوا: ما حرم علينا شىء أشد من الخمر[۶۹]! من الواضح أنّ الإسلام لو أراد أن يحارب هذا البلاء الكبير الشامل بغير أن يأخذ الأوضاع النفسية و الاجتماعية بنظر الإعتبار لتعذر الأمر و شق تطبيق التحريم، لذلك اتخذ أسلوب التحريم التدريجى و إعداد الأفكار و الأذهان لاقتلاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۹

هـذه الآفة من جذورها، و هى العادة التى كانت قد تأصلت فى نفوسهم، و عروقهم، ففى أوّل الأمر وردت إشارات فى الآيات المكية تستقبح شرب الخمر، كما فى الآية (۶۷) من سورة النحل: وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً.

فهنا «سكر» و تعنى الشراب المسكر الذى كانوا يستخرجونه من التمر و العنب، قد وضع فى قبال الرزق الحسن، فاعتبره شرابا غير طيب بخلاف الرزق الحسن، إلّا أنّ تلك العادة الخبيثة- عادة معاقرة الخمرة- كانت أعمق من أن تستأصل بهذه الإشارات، ثمّ أنّ الخمر كانت تؤلف جانبا من دخلهم الاقتصادى لذلك، عند ما هاجر المسلمون إلى المدينة و أسسوا أولى الحكومات الإسلامية، نزلت آية ثانية أشد فى تحريم الخمر من الاولى، لكى تهيئ الأذهان أكثر إلى التحريم النهائى، تلك هى الآية (۲۱۹) من سورة البقرة: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما.

فها هنا إشارة إلى منافع الخمر الاقتصادية لبعض المجتمعات، كالمجتمع الجاهلى، مصحوبة بإشارة إلى أخطارها الكبيرة و مضارها التى تفوق كثيرا منافعها الاقتصادية.

ثمّ فى الآية (۴۳) من سورة النساء: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ يأمر اللّه المسلمين أمرا صريحا بأن لا يقيموا الصّلاة و هم سكارى حتى أدركوا ما يقولونه أمام اللّه.

واضح أنّ هذا لم يكن يعنى أنّ شرب الخمر فى غير الصّلاة جايز، بل هى مسألة التدرج فى تحريم الخمر مرحلة مرحلة، أى أنّ هذه الآية كأنّها تلتزم الصمت و لا تقول شيئا صراحة فى غير مواقع الصّلاة.

إنّ تقدم المسلمين فى التعرف على أحكام الإسلام و استعدادهم الفكرى لاستئصال هذه المفسدة الاجتماعية الكبيرة التى كانت متعمقة فى نفوسهم، أصبحا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۰

سببا فى نزول آية صريحة تماما فى تحريم الخمر حتى سدت الطريق أمام الذين كانوا يتصيدون الأعذار و المسوغات، و هذه الآية هى موضوع البحث.

و إنّه لمما يستلفت النظر أنّ تحريم الخمرة يعبر عنه فى هذه الآية بصورة متنوعة:

۱- فالآية تبدأ بمخاطبة المؤمنين: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أى أنّ عدم الصدوع بهذا الأمر لا ينسجم مع روح الإيمان.

۲- استعمال «إنّما» التى تعنى الحصر و التوكيد.

۳- وضعت الخمر و القمار إلى جانب الأنصاب ۷۰] (و هى قطع أحجار لا صورة لها كانت تتخذ كالأصنام) للدلالة على أنّ الخمر و القمار لا يقلان ضررا عن عبادة الأصنام، و لهذا

جاء فى حديث شريف أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «شارب الخمر كعابد الوثن»[۷۱].

۴- الخمر و القمار و عبادة الأصنام، و الاستقسام و الأزلام (ضرب من اليانصيب)[۷۲] كلها قد اعتبرها القرآن رجسا و خبثا: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ

۵- و هذه الأعمال القبيحة كلّها من أعمال الشيطان: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ

۶- و أخيرا يصدر الأمر القاطع الواجب الإتباع: فَاجْتَنِبُوهُ

لا بدّ من التنويه بأنّ لتعبير «فاجتنبوه» مفهوما أبعد، إذ أنّ الاجتناب يعنى الابتعاد و الانفصال و عدم الاقتراب، ممّا يكون أشد و أقطع من مجرّد النهى عن شرب الخمر.

۷- و فى الختام يقول تعالى أن ذلك: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى لا فلاح لكم بغير

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۱

ذلك.

۸- و فى الآية التّالية لها يعدد بعضا من أضرار الخمر و القمار، التى يريد الشيطان أن يوقعها بهم: إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ.

۹- و فى ختام هذه الآية يتقدم باستفهام تقريرى: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ

أى بعد كل هذا التوكيد و التوضيح، ثمّة مكان لخلق المبررات أو للشك و التردد فى تجنب هذين الإثمين الكبيرين؟ لذلك نجد أنّ عمر الذى كان شديد الولع بالخمر (كما يقول مفسرو أهل السنة) و الذى كان- لهذا السبب- لا يرى فى الآيات السابقة ما يكفى لمنعه، قال عند ما سمع هذه الآية: انتهينا، انتهينا! لأنّه رأى فيها الكفاية.

۱۰- فى الآية الثالثة التى تؤكّد هذا الحكم، يأمر المسلمين: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا.

ثمّ يتوعد المخالفين بالعقاب، و أنّ مهمّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى الإبلاغ: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

الآثار المهلكة للخمر و الميسر:

على الرغم من أننا أشرنا فى تفسير الآية (۲۱۹) من سورة البقرة فى المجلد الثّانى من هذا التّفسير إشارة موجزة أضرار هاتين الآفتين الاجتماعيتين، إلّا أنّنا لتوكيد الأمر- اقتداء بالقرآن الكريم- نضيف هنا أمورا أخرى هى مجموعة من الإحصاءات المختلفة كل واحدة منها تعتبر شهادة وافية تدل على عظم تلك الأضرار و عمق تأثيرها.

۱- فى إحصائية صدرت فى بريطانيا بشأن الجنون الكحولى و مقارنته بالجنون العادى، جاء أنّه فى مقابل (۲۲۴۹) مجنونا بسبب الإدمان على الخمر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۲

هناك (۵۳) مجنونا فقط لأسباب مختلفة أخرى [۷۳].

۲- و فى إحصاء آخر من أمريكا أنّ ۸۵٪ من المصابين بأمراض نفسية هم من المدمنين على الخمر[۷۴].

۳- يقول عالم إنجليزى اسمه (بنتام): أنّ المشروبات الكحولية تحول أهالى الشمال إلى أناس حمقى و بله، و أهالى الجنوب إلى مجانين، ثمّ يضيف: إنّ الدين الإسلامى يحرم جميع أنواع المسكرات، و هذا واحد من مميزات الإسلام [۷۵].

۴- لو أجرى إحصاء عن السكارى الذين انتحروا، أو ارتكبوا الجرائم و حطموا العوائل، لكان لدينا رقم رهيب [۷۶].

۵- فى فرنسا يموت كلّ يوم ۴۴۰ شخصا ضحية للخمور[۷۷].

۶- تقول إحصائیة أخری من أمریکا: أنّ عدد المرضی النفسانیین خلال سنة واحدة بلغ ضعف قتلاها فی الحرب العالمیة الثّانیة، و یری العلماء الأمریکان أنّ السببین الرئیسیین لهذا هما المشروبات الکحولیة و التدخین ۷۸].

۷- جاء فی إحصائیة وضعها عالم یدعی (هوگر) نشرها فی مجلة (العلوم) بمناسبة عید تأسیسها العشرین، قال فیها: أنّ ۶۰٪ من القتل المتعمد، ۷۵٪ من الضرب و الجرح و ۳۰٪ من الجرائم الأخلاقیة (بما فیها الزنا بالمحارم!) و ۲۰٪ من جرائم السرقة، سببها المشروبات الکحولیة، و عن هذا العالم نفسه أنّ ۴۰٪ من الأطفال المجرمین قد ورثوا آثار الکحول ۷۹].

۸- إنّ الخسائر التی تصیب الإقتصاد البریطانی من جراء تغیب العمال عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۳

العمل بسبب إدمانهم علی الخمر تبلغ سنویا نحو ۵۰ ملیون دولار، و هو مبلغ یکفی لإنشاء الآلاف من ریاض الأطفال و المدارس الابتدائیة و الثانویة.

۹- الإحصاءات التی نشرت عن خسائر الإدمان علی الکحول فی فرنسا تقول: أنّ الخزینة الفرنسیة تتحمل سنویا مبلغ (۱۳۷) ملیارد فرنک، إضافة إلی الأضرار الأخری کما یلی:

۶۰ ملیار فرنک للصرف المحاکم و السجون.

۴۰ ملیار فرنک للصرف علی الإعانات العامّة و المؤسسات الخیریة.

۱۰- ملیارات من الفرنکات للصرف علی المستشفیات الخاصّة لمعالجة المدمنین علی المسکرات.

۷۰ ملیار فرنک للصرف علی الأمن الاجتماعی.

و هکذا یتّضح أنّ عدد المرضی النفسانیین و مصحات الأمراض العقلیة و جرائم القتل و المخاصمات الدمویة و السرقة و الاغتصاب و حوادث المرور، تتناسب تناسبا طردیا مع عدد حانات الخمور.

۱۰- أثبتت الدوائر الاحصائیة فی أمریکا أنّ القمار کان السبب المباشر فی ۳۰٪ من الجرائم، و فی إحصائیة أخری عن جرائم القمار نری و للأسف الشدید أن ۹۰٪ من جرائم السرقة و ۵۰٪ من الجرائم الجنسیة و ۱۰٪ من فساد الأخلاق و ۳۰٪ من الطلاق و ۴۰٪ من الضرب و الجرح و ۵٪ من حوادث الانتحار إنما هی بسبب القمار[۸۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۴

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۹۳]

اشارة

لَیْسَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِیما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ (۹۳)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر «مجمع البیان» و تفسیر «الطبری» و تفسیر «القرطبی» و غیرها من التفاسیر أنّه بعد نزول آیة تحریم الخمر و المیسر، قال بعض أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إذا کان هذان العملان علی هذا القدر من الإثم، فما حال المسلمین الذین توفاهم اللّه قبل نزول هذه الآیة و کانوا ما یزالون یمارسونهما؟

فنزلت هذه الآیة جوابا لهم.

التّفسیر

تجیب هذه الآیة الذین یتساءلون عن الماضین قبل نزول آیة تحریم الخمر و المیسر، أو الذین لم یسمعوا بعد تلک الآیة لبعد مناطقهم التی یعیشون فیها،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۵

فتقول: لَیسَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِیما طَعِمُوا[۸۱] و لکنّها تشترط لتلک التقوی و الإیمان و العمل الصالح: إِذا ما اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثمّ تکرر ذلک ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا و للمرّة الثالثة تکرر الآیة بقلیل من الاختلاف ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا، و تنتهی بالتوکید وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ

هنالک کلام کثیر بین المفسّرین القدامی و المحدثین حول هذا التکرار، فبعض یراه للتوکید و یقول: أنّ أهمیة التقوی و الإیمان و العمل الصالح تقتضی الإعادة و التکرار و التوکید.

إلّا أنّ جمعا آخر من المفسّرین یعتقدون أنّ کلّ جملة من هذه الجمل المکررة تشیر إلی حقیقة منفصلة عن الأخری، و أنّ هناک احتمالات متعددة بشأن اختلاف کل جملة عن الأخری، و لکن معظم هذه الاحتمالات لا یقوم علیها دلیل أو شاهد.

و لعل خیر ما قیل بهذه الخصوص هو قولهم: أنّ المقصود بالتقوی فی المرّة الاولی هو ذلک الإحساس الداخلی بالمسؤولیة و الذی یسوق الإنسان نحو البحث و التدقیق فی الدین، و مطالعة معجزة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و البحث عن اللّه، فتکون نتیجة ذلک الإیمان و العمل الصالح، و بعبارة أخری: إذا لم یکن فی الإنسان شیء من التقوی فإنّه لا یتجه إلی البحث عن الحقیقة، و علیه فإن ورد کلمة «التقوی» لأوّل مرّة فی هذه الآیة إشارة إلی هذا المقدار من التقوی، و لیس فی هذا تناقض مع بدایة الآیة التی تقول: لَیسَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... لأنّ الإیمان هنا یمکن أن یکون بمعنی التسلیم الظاهری، بینما الإیمان الذی یحصل بعد التقوی هو الإیمان الحقیقی.

و تکرار التقوی للمرّة الثّانیة إشارة إلی التقوی التی تنفذ إلی أعماق الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۶

فیزداد تأثیرها، و تکون نتیجتها الإیمان الثابت الوطید الذی یؤدی إلی العمل الصالح، و لذلک لم یرد «العمل الصالح» بعد «الإیمان» فی الجملة الثّانیة: ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا أی أنّ هذا الإیمان من الثبوت و النفاذ بحیث لا حاجة معه لذکر العمل الصالح.

و فی المرحلة الثّالثة یدور الکلام علی التقوی التی بلغت حدّها الأعلی بحیث أنّها فضلا عن دفعها إلی القیام بالواجبات، تدفع إلی الإحسان أیضا، أی إلی الأعمال الصالحة التی لیست من الواجبات.

و علیه فإنّ هذه الضروب الثلاثة من التقوی تشیر إلی ثلاث مراحل من الإحساس بالمسؤولیة و کأنّها تمثل المرحلة (الابتدائیة) و المرحلة (المتوسطة) و المرحلة (النهائیة)، و لکل مرحلة قرینة تدل علیها فی الآیة.

أمّا ما ذهب إلیه مفسّرون آخرون بشأن تناول الآیة ثلاثة أنواع من التقوی و ثلاثة أنواع من الإیمان فلا قرینة علیه و لا شاهد فی الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۷

الآیات [سورة المائدة (۵): الآیات ۹۴ الی ۹۶]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَیَبْلُوَنَّکُمُ اللَّهُ بِشَیْءٍ مِنَ الصَّیْدِ تَنالُهُ أَیْدِیکُمْ وَ رِماحُکُمْ لِیَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ یَخافُهُ بِالْغَیْبِ فَمَنِ اعْتَدی بَعْدَ ذلِکَ فَلَهُ عَذابٌ

أَلِيمٌ (۹۴) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶)

سبب النّزول

جاء فى كتاب الكافى و فى كثير من التفاسير أنّه فى سنة الحديبية، عند ما قصد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من معه من المسلمين العمرة و هم محرمون، صادفوا فى

طريقهم كثيرا من الحيوانات البرية و كانوا قادرين على صيدها باليد أو بالرمح، لقد كان الصيد من الكثرة بحيث قيل أنّ الحيوانات كانت تجوس بين الخيام و تمر بين الناس، الآية الاولى من هذه الآيات فنزلت فى هذا الوقت تحذر المسلمين من صيدها، و تعتبر امتناعهم عن صيدها ضربا من الامتحان لهم.

التّفسير

أحكام الصّيد عند الإحرام:

تبيّن هذه الآيات أحكام صيد البر و البحر أثناء الإحرام للحج أو للعمرة.

فى البداية إشارة إلى ما حدث للمسلمين فى عمرة الحديبية، فيقول سبحانه و تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ

يستفاد من تعبير الآية أنّ اللّه تعالى يريد إنباء الناس عن قضية سوف تقع فى المستقبل، كما يظهر أيضا أنّ وفرة الصيد فى ذلك المكان لم يكن أمرا مألوفا، فكان هذا امتحانا للمسلمين، على الأخص إذا أخذنا بنظر الإعتبار حاجتهم الماسة إلى الحصول على طعامهم من لحوم ذلك الصيد الذى كان موفورا و فى متناول أيديهم، إنّ تحمل الناس فى ذلك العصر الحرمان من ذلك الغذاء القريب يعتبر امتحانا كبيرا لهم.

قال بعضهم: أنّ المقصود من عبارة: تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ هو أنّهم كانوا قادرين على صيدها بالشباك أو بالفخاخ، و لكن ظاهر الآية يشير إلى أنّهم كانوا حقّا قادرين على صيدها باليد.

ثمّ يقول من باب التوكيد: لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ سبق أن أوضحنا فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير فى ذيل الآية (۱۴۳) من سورة البقرة أنّ تعبير «لنعلم» أو «ليعلم» و أمثالها لا يقصد بها، أن اللّه لم يكن يعلم شيئا، و أنّه يريد أن

يعلمه عن طريق اختبار الناس، بل المقصود هو البأس الحقيقة المعلومة لدى اللّه لباس العمل و التحقق الخارجى، و ذلك لأنّ الاعتماد على نوايا الأشخاص الداخلية و استعدادهم غير كاف للتكامل و للمعاقبة و الإثابة، بل يجب أن ينكشف كل ذلك خلال أعمال خارجية لكى يكون لها تلك الآثار (لمزيد من التوضيح انظر ذيل الآية المذكورة).

و الآية فى الخاتمة تتوعد الذين يخالفون هذا الحكم الإلهى بعذاب شديد:

فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِکَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِیمٌ

على الرّغم من أنّ الجملة الأخيرة فى الآية تدل على تحريم الصيد أثناء الإحرام، و لكن الآية التّالية لها تصدر حكما قاطعا و صريحا و عاما بشأن تحريم الصيد أثناء الإحرام، إذ تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ

و هل تحريم الصيد (و هو صيد البر بدلالة الآية التى تليها) يشمل جميع أنواع الحيوانات البرية، سواء أ كان لحمها حلالا أم حراما، أم أنّه يختص بحلال اللحم منها؟

لا- تتفق آراء المفسّرين و الفقهاء بهذا الشأن، إلّا أنّ المشهور بين فقهاء الإمامية و مفسريهم أنّ الحكم عام، و يؤيد ذلك الرّوايات المروية عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، أمّا فقهاء أهل السنة فمنهم- مثل أبى حنيفة- من يتفق مع الإمامية فى ذلك، و منهم- كالشافعى- من يرى الحكم مقصورا على الحيوانات المحللة اللحوم و لكن الحكم، على كل حال، لا يشمل الحيوانات الأهلية، لأنّ الحيوانات الأهلية لا- توصف بالصيد، إنّ ممّا يستلفت النظر فى رواياتنا هو أنّ الصيد ليس وحده المحرم أثناء الإحرام، بل التحريم يشمل حتى الإعانة على الصيد، و الإشارة أو الدلالة عليه أيضا.

قد يظن بعض أنّ الصيد لا- يشمل ذوات اللحم الحرام، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّ الغرض من صيد الحيوان متنوع، فمرّة يكون الغرض لحمها، و أخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۰

جلدها، و ثالثة لدفع أذاها، ثمّة بيت ينسب إلى الإمام على عليه السّلام من الممكن أن يكون شاهدا على هذا التعميم: يقول:

صيد الملوک أرانب و ثعالبو إذا ركبت فصيدى الأبطال

و للاستزادة من المعرفة بشأن أحكام الصيد الحلال و الحرام يمكن الرجوع إلى الكتب الفقهية.

ثمّ بعد ذلك يشار إلى كفارة الصيد فى حال الإحرام، فيقول: وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ

فهل المقصود من «مثل» هو التماثل فى الشكل و الحجم أى إذا قتل أحد حيوانا وحشيا كبيرا مثل النعامة- مثلا- فهل يجب عليه أنّ يختار الكفارة من الحيوانات الكبيرة، كالبعير مثلا أو إذا صاد غزالا، فهل كفارته تكون شاة تقاربه فى الحجم و الشكل؟ أم أنّ «مثل» هو التماثل فى القيمة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۴ ؛ ص۱۵۰

ّ المشهور و المعروف بين الفقهاء و المفسّرين هو الرأى الأوّل، كما أنّ ظاهر الآية أقرب إلى هذا المعنى، و ذلك لأنّه بالنظر لعمومية الحكم على الحيوانات ذوات اللحم الحلال و ذوات اللحم الحرام، فإنّ أكثر هذه الحيوانات ليس لها قيمة ثابتة لكى يمكن إختيار مثيلاتها من الحيوانات الأهلية.

و هذا- على كلّ حال- قد يكون ممكنا فى حالة وجود المثيل من حيث الشكل و الحجم، أمّا حالة انعدام المثيل، فلا مندوحة من تقدير قيمة للصيد بشكل من الأشكال، و ليمكن إختيار حيوان أهلى حلال اللحم يقاربه فى القيمة.

و لمّا كان من الممكن أن تكون قضية التماثل موضع شك عند بعضهم فقد أصدر القرآن حكمه بأن ذلك ينبغى أنّ يكون بتحكيم شخصين مطلعين و عادلين:

يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ

أمّا عن مكان ذبح الكفارة، فيبيّن القرآن أنّه يكون بصورة «هدى» يبلغ أرض الكعبة: هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۱

و المشهور بين فقهائنا هو أنّ «كفارة الصيد أثناء الإحرام للعمرة» يجب أنّ تذبح فى «مكّة» و «كفارة الصيد أثناء الإحرام للحج» يجب

أن تذبح فى «منى»، و هذا لا يتعارض مع الآية المذكورة، لأنّها نزلت فى إحرام العمرة، كما قلنا.

ثمّ يضيف أنّه ليس ضروريا أنّ تكون الكفارة بصورة أضحية، بل يمكن الاستعاضة عنها بواحد من اثنين آخرين: أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ و أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً.

مع أنّ الآية لا تذكر عدد المساكين الذين يجب إطعامهم، و لا عدد الأيّام التى يجب أنّ تصام، فإن اقتران الاثنين معا من جهة، و التصريح بلزوم الموازنة فى الصيام، يدل على أنّ المقصود ليس إطلاق عدد المساكين الذين يجب إطعامهم بحسب رغبتنا، بل المقصود تحديد ذلك بمقدار قيمة الأضحية.

أمّا كيف يتمّ التوازن بين الصيام و إطعام المسكين، فيستفاد من بعض الرّوايات أنّ مقابل كلّ «مدّ» من الطعام (ما يعادل نحو ۷۵۰ غراما من الحنطة و أمثالها) يصوم يوما واحدا، و يستفاد من روايات أخرى أنّه يصوم يوما واحدا فى مقابل كلّ «مدّين» من الطعام، و هذا يعود فى الواقع إلى أن الذى لا يستطيع صوم رمضان يكفّر عن كل يوم منه بمدّ واحد أو بمدّين اثنين من الطعام للمحتاجين (لمزيد من الاطلاع بهذا الخصوص انظر الكتب الفقهية).

أمّا إذا ارتكب محرم صيدا فهل له أن يختار أيّا من هذه الكفارات الثلاث، أو أنّ عليه أن يختار بالترتيب واحدة منها، أى الذبيحة أوّلا، فإن لم يستطع فإطعام المسكين، فإنّ لم يستطع فالصيام، فالفقهاء مختلفون فى هذا، و لكن ظاهر الآية يدل على حرية الإختيار.

إنّ الهدف من هذه الكفارات هو لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ ۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۲

ثمّ لما لم يكن لأى حكم أثر رجعى يعود إلى الماضى، فيقول: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ

أمّا من لم يعتن بهذه التحذيرات المتكررة و لم يلتفت إلى أحكام الكفارة و كرر مخالفاته لحكم الصيد و هو محرم فإنّ اللّه سوف ينتقم منه فى الوقت المناسب: وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقام

ثمّة نقاش بين المفسّرين عمّا إذا كانت كفارة صيد المحرم تتكرر بتكرره، أو لا، ظاهر الآية يدل على أنّ التكرار يستوجب انتقام اللّه، فلو استلزم تكرار الكفارة لوجب أنّ لا يكتفى بذكر الانتقام الإلهى، و للزم ذكر تكرار الكفارة صراحة، و هذا ما جاء فى الرّوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام.

بعد ذلك يتناول الكلام صيد البحر: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ

لكن ما المقصود من الطعام؟ فإن بعض المفسّرين يرون أنّه ذلك النوع من السمك الذى يموت بدون صيد و يطفو على سطح الماء، مع أنّنا نعلم أنّ هذا الكلام ليس صحيحا، لأنّ السمك الميت بهذا الشكل حرام مع أنّ بعض الرّوايات التى يرويها أهل السنّة تدل على حليته.

إنّ ما يستفاد من التعمق فى ظهور الآية هو أنّ القصد من الطعام ما يهيأ للأكل من سمك الصيد إذ أنّ الآية تريد أن تحلل أمرين، الأوّل هو الصيد، و الثّانى هو الطعام المتخذ من هذا الصيد.

و بهذه المناسبة، ثمّة فتوى معروفة بين فقهائنا تعتمد مفهوم هذا التعبير، و ذلك فيما يتعلق بصيد البر، فإن هذا الصيد ليس وحده حراما، بل أنّ طعامه حرام أيضا.

ثمّ تشير الآية إلى الحكمة فى هذا الحكم و تقول: مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ، أى لكيلا تعانوا المشقّة فى طعامكم و أنتم محرومون، فلكم أن تستفيدوا من نوع واحد من الصيد، ذلك هو صيد البحر.

و لمّا كان من المألوف أن يكون السمك الذى يحمله المسافر معه هو السمك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۳

المملح، فقد ذهب بعض المفسّرين إلى تفسير العبارة المذكورة فى الآية بأنّه يجوز «للمقيمين» أن يطعموا السمك الطازج و

«للمسافرين» السمك المملح.

و لا بدّ من التنبيه إلى أنّ حكم أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ ليس حكما مطلقا و عاما في حلّية صيد البحر كافة كما يظن بعضهم، و ذلك لأنّ الآية ليست في معرض بيان أصل حكم صيد البحر، بل هدف الآية هو أنّ تبيّن للمحرم أنّ صيد البحر (الذى كان حلالا قبل الإحرام له أن يطعمه في حال الإحرام أيضا)، و بعبارة أخرى: لتبيّن الآية أصل تشريع القانون، و إنّما تشير إلى خصائص قانون سبق تشريعه فليست الآية في معرض عمومية الحكم، بل هي تبيّن حكم المحرم فحسب.

و للتوكيد تعود الآية إلى الحكم السابق مرّة أخرى و تقول: وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً.

و لتوكيد جميع الأحكام التي ذكرت، تقول الآية في الخاتمة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

حكمة تحريم الصّيد حال الإحرام:

معلوم أنّ الحج و العمرة من العبادات التي تفصل الإنسان عن عالم المادة و تنقله إلى محيط مليء بالمعنويات، فخصوصيات الحياة المادية، و الجدال الخصام، و الرغبات الجنسية، و اللذائذ المادية كلّها تنفصل عن الإنسان في مناسك الحج و العمرة، و يبدأ الإنسان ضربا من الرياضة الإلهية المشروعة، و يبدو أن تحريم صيد البرّ في حال الإحرام يرمى إلى الهدف نفسه.

ثمّ لو أحل الصيد لزائرى بيت اللّه الحرام، مع الأخذ بنظر الإعتبار كثرة الزوار و كثرة ترددهم في كلّ سنة على هذه الأرض المقدسة، لقضى على وجود الكثير من الحيوانات القليلة أصلا في تلك الأرض القاحلة الخالية من الماء و الزرع،

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۴

فجاء هذا التشريع لضمان بقاء حيوانات تلك المنطقة و الحفاظ عليها من الانقراض.

و إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّه حتى في غير حال الإحرام يمنع صيد الحرم، و كذلك قطع أشجاره و حشائشه، تبيّن لنا أنّ لهذا التشريع ارتباطا وثيقا بقضية الحفاظ على البيئة و على النبات و الحيوان في تلك المنطقة، و صيانتها من الإبادة.

إنّ هذا التشريع من الدّقة و الإحكام بحيث أنّه يمنع فيه حتى هداية الصياد إلى مكان الصيد، فقد جاء في بعض الرّوايات من طرق أهل البيت عليهم السّلام

أنّ الإمام الصادق عليه السّلام قال لأحد أصحابه: «لا تستحلن شيئا من الصيد و أنت حرام و لا أنت حلال في الحرم و لا تدلن محلا و لا محرما فيصطاده، و لا تشر إليه فيستحل من أجلك، فإنّ فيه فداء لمن تعمّده»[۸۳].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۵

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۹۷ الى ۹۹]

اشارة

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۹۷) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۸) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (۹۹)

التّفسير

اشارة

بعد الکلام فی الآیات السابقة علی تحریم الصید فی حال الإحرام، یشیر القرآن الکریم فی هذه الآیة إلی أهمیة «مکّة» و أثرها فی بناء حیاة المسلمین الاجتماعیة، فیقول أوّلا: جَعَلَ اللَّهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرامَ قِیاماً لِلنَّاسِ

فهذا البیت المقدس رمز وحدة الناس و مرکز لتجمع القلوب حوله، و مؤتمر عظیم لتوثیق الرّوابط المختلفة، فهم فی ظل هذا البیت المقدس و فی مرکزیته و معنویته المستمدة من جذور تاریخیة عمیقة یستطیعون إصلاح الکثیر ممّا یستوجب الإصلاح و الترمیم فی حیاتهم، و إقامة سعادتهم علی قواعده المتینة، لذلک فقد وصف هذا البیت فی سورة آل عمران (الآیة ۹۶): إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۶

لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبارَکاً وَ هُدیً لِلْعالَمِینَ

فی الحقیقة إنّ المسلمین یستطیعون- انطلاقا من المفهوم الواسع لقوله: قِیاماً لِلنَّاسِ أن یصلحوا کل أمورهم بالرکون إلی هذا البیت و فی إطار تعالیم الحج البناءة.

و لما کانت هذه المناسک یجب أنّ تجری فی جو آمن و خال من الحروب و المنازعات و المخاصمات، فقد أشارت الآیة إلی أثر الأشهر الحرم (و هی الأشهر التی تمنع فیها الحرب مطلقا) و قالت: وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ ۸۴] کما أشارت إلی الأضاحی الفاقدة للعلامة (الهدی) و الأضاحی ذات العلامة (القلائد) التی منها یطعم الناس فی موسم الحج، و تؤمن جانبا من احتیاجات الحاج للقیام بمناسکه، فقالت: وَ الْهَدْیَ وَ الْقَلائِدَ.

و لمّا کان مجموع هذه الأحکام و القوانین و التشریعات بشأن الصید، و کذلک بشأن حرم مکّة و الشهر الحرام و غیر ذلک، یحکی عمق تدبیر الشارع وسعة علمه تقول الآیة: ذلِکَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ بناء علی ما مرّ بناء فی تفسیر هذه الآیة یتّضح الارتباط بین بدایتها و نهایتها، إذ أنّ هذه الأحکام التشریعیة لا یستطیع أن ینظمها إلّا من کان علیما بأعماق القوانین التکوینیة، فالذی لا علم له بدقائق شؤون السماء و الأرض و بما استقرّ فی روح الإنسان و جسمه عند خلقه، لا تکون له القدرة علی تقریر أحکام کهذه، فالقانون الصحیح السلیم هو ذاک الذی ینسجم مع قانون الخلق و الفطرة.

الآیة التّالیة تؤکّد تلک التشریعات، و تحث الناس علی إتباعها و تهدد المخالفین و العاصین فتقول: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

و لعل تقدیم شَدِیدُ الْعِقابِ علی غَفُورٌ رَحِیمٌ إشارة إلی أنّ عقاب اللّه الشدید یمکن إطفاؤه بماء التوبة و الدخول فی رحمة اللّه و غفرانه.

و مرّة أخری تؤکّد الآیة علی أنّ الناس هم المسؤولون عن أعمالهم، و أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۷

النّبی مسئول عن تبلیغ الرّسالة لا غیر ما عَلَی الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ و فی الوقت نفسه: وَ اللَّهُ یَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَکْتُمُونَ

أهمیة الکعبة:

إنّ «الکعبة»- التی ذکرت فی هذه الآیة و فی الآیات السابقة مرّتین- من مادة «کعب» أی بروز خلف القدم، ثمّ أطلق علی کل بروز، و المکعب کذلک لأنّه بارز من جهاته الأربع، و الکاعب (و جمعها کواعب) هی الأنثی التی برز صدرها.

و الظاهر أنّ تسمیة بیت اللّه بالکعبة یرجع أیضا، إلی ارتفاعه الظاهری و بروزه، کما هو رمز لارتفاع مقامه و عظمة مکانته.

إنّ للكعبة تاريخا عريقا حافلا بالحوادث و الوقائع، و كلّ هذه الحوادث تنطلق من عظمتها و مكانتها المهمّة.

أهميـة الكعبة تبلغ حدا بحيث أنّ الأحاديث الإسـلامية تعتبر هدمها فى مصاف قتل النّبى و الإمام و النظر إليها عبادة، و الطواف بها من أفضل الأعمال، و قد

جاء فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «لا ينبغى لأحد أن يرفع بناءه فوق الكعبة»[۸۵].

طبيعى أنّ أهمية الكعبة و احترامها لم يأتيا من بنائها،

فقد قال أمير المؤمنين على عليه السّـلام فى الخطبة القاصـعة: «ألا ترون أنّ اللّه، سبحانه، اختبر الأولين من لدن آدم صلوات اللّه عليه، إلى الآخرين من هـذا العالم، بأحجار لا تضر و لا تنفع و لا تبصر و لا تسمع، فجعلها بيته الحرام (الـذى جعله للنّاس قياما) ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، و أقل نتائق الدنيا مدرا ...»[۸۶].

أهمية مكانة الكعبة عند اللّه تعود إلى أنّها أقدم مراكز العبادة و التوحيد، و نقطة تجتذب إليها أنظار الشعوب و الأقوام المختلفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۸

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۰۰]

اشارة

قُلْ لا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِى الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰۰)

التّفسير

الأكثرية ليست دليلا على الطهارة:

دار الحـديث فى الآيات السّابقـة حول تحريم الخمر و القمار و الأنصاب و الأزلام و صـيد البر فى حال الإحرام، و لكن قـد نجد أناسا يتـذرعون لارتكاب هذه المعاصـى بالكثرة الكاثرة من الذين يرتكبونها فى بعض الأمصار، فيقولون مثلا: أنّ أكثر أهل المدينة الفلانية يعـاقرون الخمرة، أو أنّهم يمارسون القمار، أو أنّ أكثريـة الناس فى ظروف خاصّـة لا يقيمون وزنا لتحريم الصـيد و لغيره لـذلك، فهم أيضا يحذون حذوهم و يهملون العمل بتلك التشـريعات، فلكيلا يتذرع الناس بأمثال هذه الأعذار، يضع اللّه سبحانه قاعدة كلية عامّة و رئيسية فى عبارة قصيرة شاملة يخاطب بها رسوله الكريم: قُلْ لا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ

و عليه فإن الخبيث و الطيب- فى الآية- يشملان كل ما يرتبط بالإنسان، طعاما كان ذلك أم فكرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۹

و فى الختام يخاطب العلماء و أصحاب العقول و الأذكياء فيقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِى الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

أمّا أنّ مـدلول الآية من قبيل توضـيح الواضـحات، فذلك لأن ثمّة من يظن أنّ أمورا عارضة، مثل كثرة إتباع الخبيث، أو ما يسـمى ب «الأكثرية» تجعل ذلك الخبيث فى مصاف الطيب، كما يحدث أحيانا أن نرى بعضـهم يقع تحت تأثير الجماعة و اتجاه أهواء الأكثرية، ظانا أنّه حيثما مالت الأكثرية كان ذلك دليلا قاطعا على صحة ما مالت إليه، بينما الأمر ليس كذلك، و القضايا التى أيدتها الأكثرية و ظهر بطلانها كثيرة جدا.

فى الواقع إنّ مـا يميز الخبيث من الطيب هو الأكثريـة الكيفيـة لاـ الكميـة، أى أنّ المطلوب هو أفكـار أقوى و أرفع و أسـمى و أنقى لا كثرة المؤيدين.

هذه القضیة لا تلاءم أذواق بعض الناس فی العصر الحاضر، بعد أنّ تشبعت أذهانهم علی أثر التلقین و وسائل الأعلام بأن الأكثرية هی معيار معرفة الخبيث من الطيب، إلی حدّ الإيمان بأن «الحقّ» هو ما أرادته الأكثرية، و «الطيب» هو ما مالت إليه الأكثرية، و ليس كذلك. إن معظم مشاكل العالم ناتجة عن هذا اللون من التفكير.

نعم، إذا تمتعت الأكثرية بقيادة صادقة و تعليمات صحيحة، بحيث تؤلف أكثرية ناضجة بما للكلمة من معنی، فيمكن حينئذ اعتبار هذه الأكثرية و اتجاهاتها مقياس تمييز الخبيث عن الطيب، لا الأكثرية الفجة غير الناضجة.

علی كل حال، يشير القرآن إلی هذا الأمر فی هذه الآية، و يحذر الناس من الانجراف مع أكثرية الخبثاء، و فی مواضع أخری تكاد تبلغ العشرة يقول تعالی:

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أمّا تقديم «الخبيث» علی «الطيب» فی الآية، فذلك لأنّ الكلام موجه إلی الذين يحسبون كثرة الخبيث دليلا علی صحة ما يذهبون إليه، فلا بدّ من الردّ علی هؤلاء، و تعريفهم بأن معيار الخباثة و الطيبة لم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۰

يكون فی يوم من الأيّام هو الأكثرية أو الأقلية، بل فی كل زمان و مكان كان «الطيب» خيرا من «الخبيث» و أن أصحاب الحجی و التبصر لا- ينخدعون بالكثرة، فهم يتجنبون الخبيث دائما حتی و إن تلوث به جميع المحيطين بهم، و يندفعون نحو الطّيب حتی و إن ابتعد عنه الجميع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۱

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۱ الی ۱۰۲]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۱۰۱) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (۱۰۲)

سبب النّزول

الأقوال فی سبب نزول هاتين الآيتين مختلف فی مصادر الحديث و التّفسير، و لكن الذی ينسجم أكثر مع سبب نزول هاتين الآيتين، هو ما

جاء فی تفسير «مجمع البيان» عن علی بن أبی طالب عليه السّلام قال: خطب رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «إنّ اللّه كتب عليكم الحجّ» فقام عكاشة بن محصن و قيل سراقة بن مالك فقال: أفی كلّ عام يا رسول اللّه؟ فأعرض عنه حتی عاد مرّتين أو ثلاثا، فقال رسول اللّه: «ويحك ما يؤمنك أن أقول: نعم، و اللّه لو قلت نعم لوجبت، و لو وجبت ما استطعتم، و لو تركتم لكفرتم، فاتركونی كما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم علی أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشیء فأتوا منه ما استطعتم، و إذا نهيتكم عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۲

شیء فاجتنبوه»[۸۷].

ينبغی ألا يظن أحد بأن سبب نزول هاتين الآيتين- كما سنتطرق إلی ذلك فی تفسيرهما- يعنی غلق أبواب السؤال و باب تفهم الأمور بوجوه الناس، لأنّ القرآن فی آياته يأمر الناس صراحة بالرجوع إلی أصحاب الخبرة فی فهم الأمور:

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ٨٨] بل المقصود هو الأسئلة التافهة و التحجج، و الإلحاح المؤدی غالبا إلی تشویش أفکار الناس و قطع التسلسل الفکری للخطیب.

التّفسیر

الأسئلة الفضولیة:

لا شک أنّ السّؤال مفتاح المعرفة، و لذلک من قلّت أسئلته قلت معرفته، و فی القرآن و فی الرّوایات الکثیر من التوکید علی الناس أن یسألوا عمّا لا یعرفون، و لکن لکل قاعدة استثناء، و لهذا المبدأ التربوی الأساس استثناءاته أیضا، منها أن هناک أحیانا بعض المسائل التی یکون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعی و لمصلحة أفراد المجتمع، ففی أمثال هذه الحالات لا یکون الإلحاح فی السؤال عنها و السعی لکشف النقاب عن حقیقتها بعیدا عن الفضیلة فحسب، بل یکون مذموما أیضا مثلا:

یری معظم الأطباء ضرورة کتمان الأمراض الصعبة الشفاء و المخیفة عن المریض نفسه، و قد یخبرون أهله شریطة أنّ یلتزموا کتمان الأمر عن المریض، و السبب هو أن التجارب قد دلت علی أنّ المریض إذا عرف أنّ مرضه لا یشفی بسرعة انتابه الرعب و الهلع و قد یؤخر ذلک شفاءه، إن لم یکن مرضه مهلکا فعلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۳

المریض أنّ لا یلح فی إلقاء الأسئلة علی طبیبه العطوف، لأنّ هذا الإلحاح قد یحرج الطبیب، فیصرّح للمریض بما لا ینبغی أنّ یصارحه به تخلصا من هذا الإصرار و اللجاج.

کذلک الناس عموما، فهم فی التعامل فیما بینهم یحتاجون إلی أن یحسن بعضهم الظن ببعض، فللحفاظ علی هذا الرصید الهام خیر لهم ألّا یعرفوا خفایا الآخرین، إذ أن لکل امرئ نقاط ضعیفه، فانکشاف نقاط ضعف الناس یضرّ بالتعاون فیما بینهم فقد یکون امرؤ ذو شخصیة مؤثرة قد ولد فی عائلة واطئة و منحطة، و إذا انکشف هذا فقد تتزلزل آثاره الوجودیة فی المجتمع، لذلک ینبغی علی الناس ألا یلحوا فی السؤال و التفتیش فی هذا المجال.

کما أنّ الکثیر من الخطط و المناهج الاجتماعیة یلزمها الکتمان حتی یتمّ تنفیذها، فالإعلان عنها یعتبر ضربة تؤخر سرعة إنجاز العمل.

هذه و أمثالها نماذج لما لا یصح فیه الإلحاح فی السؤال، و علی القادة أن لا یفشوا أمثال هذه الأسرار ما لم یقعوا تحت ضغط شدید.

و القرآن فی هذه الآیة یشیر إلی الموضوع نفسه و یقول: یا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ

و لکن إلحاح بعض الناس بالسؤال من جهة، و عدم الإجابة علی أسئلتهم من جهة أخری، قد یثیر الشکوک و الریب عند الآخرین بحیث یؤدی الأمر إلی مفاسد أکثر، لذلک تقول الآیة: وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ فیشق علیکم الأمر.

أمّا قصر افشائها علی وقت نزول القرآن، فذلک لأنّ تلک التساؤلات کانت متعلقة بمسائل ینبغی أن تنزل أجوبتها عن طریق الوحی.

ثمّ لا تحسبوا اللّه غافلا عن ذکر بعض الأمور إن سکت عنها، فقد عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۴

یقول علی علیه السّلام: «إنّ اللّه افترض علیکم فرائض فلا تضیعوها، و حدّ لکم حدودا فلا تعتدوها، و نهی عن أشیاء فلا تنتهکوها، و سکت لکم عن أشیاء و لم یدعها نسیانا فلا تتکلفوها»[۸۹].

سؤال:

قد يسأل سائل: إذا كان إفشاء هذه الأمور يتعارض مع مصلحة الناس، فلما ذا يماط اللثام عنها على أثر الإلحاح؟

الجواب:

السبب هو ما قلناه من قبل، فالقائد إذا لزم الصمت رغم الإلحاح بالسؤال، فقد تنجم عن ذلك مفاسد أخطر، و يثار سوء ظن يشوب أذهان الناس، مثل صمت الطبيب إزاء إلحاح المريض فى السؤال عن مرضه، فإن ذلك يثير شكوك المريض، و قد يحمله على الظن بأن الطبيب لم يشخص مرضه بعد، فيهمل استعمال ما يصفه له من علاج، عندئذ لا يسع الطبيب إلّا أن يفشى له سرّ مرضه، و لو سبب له ذلك بعض المشاكل.

الآية التى بعدها تؤكّد هذه الحقيقة، و تبيّن أنّ أقواما سابقين كانت لهم أسئلة كهذه، و بعد أن سمعوا أجوبتها خالفوها و عصوا: قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ

و للمفسّرين أقوال مختلفة بشأن تلك الأقوام، منهم من ذهب إلى أن الأمر يخص تلامذة عيسى عليه السّلام عند ما طلبوا مائدة من السماء، فعند ما تحقق لهم ما أرادوا عصوا، و يقول بعض: إنّها حكاية مطالبة النّبى صالح عليه السّلام بمعجزة، و لكن الظاهر أن هذه الاحتمالات بعيدة عن الصواب، لأنّ الآية تتحدث عن «سؤال» عن مجهول يراد الكشف عنه، لا عن «طلب» شىء، و لعل استعمال كلمة «سؤال» فى كلا الحالين هو سبب هذا الخطأ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۵

قد تكون تلك الأقوام من بنى إسرائيل أمروا بذبح بقرة للتحقيق فى أمر جريمة (انظر شرح ذلك فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير) فراحوا يمطرون موسى بالأسئلة عن خصائص البقرة و مميزاتها ممّا لم يكن قد نزل بشأنها أى شىء، و لكنّهم بسؤالاتهم المتكررة التى لم تكن ضرورية أخذوا يشقون على أنفسهم، بحيث أن العثور على تلك البقرة الموصوفة أصبح من الصعوبة بمكان و تحملوا الكثير من النفقات فى سبيل ذلك، حتى كادوا أن ينصرفوا عن التنفيذ.

فى تفسير قوله تعالى: ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ احتمالان:

الأوّل: أنّ المقصود بالكفر هو العصيان، كما سبقت الإشارة إليه.

و الثّانى: هو أنّ الكفر قصد بمعناه المعروف، و ذلك لأن سماع الإجابات المزعجة التى تثقل على السامع قد تدفع به إلى إنكار أصل الموضوع و صلاحية المجيب، كأن يسمع مريض جوابا لا يروقه من طبيبه، فيؤدى ردّ الفعل به إلى إنكار صلاحية الطبيب و اتهامه بعدم الفهم مثلا أو بالهرم و نسيان المعلومات.

فى ختام هذا البحث نجد لزاما أن نكرر ما قلناه فى بدايته، و هو أنّ هذه الآيات لا تمنع أبدا إلقاء الأسئلة المنطقية التربوية و البناءة، بل تتحدد بالأسئلة التى لا لزوم لها، و بالتعمق فى أمور لا ضرورة للتعمق فيها و التى من الأفضل بل من اللازم- أحيانا- بقاؤها فى طى الكتمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۶

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۴]

اشارة

ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۱۰۳) وَ إِذا

قِیلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلی ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَی الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَیْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ (۱۰۴)

التّفسیر

فی الآیـة الاولی إشارة إلی أربعة «بدع» کانت سائدة فی الجاهلیة، فقد کانوا یضـعون علی بعض الحیوانات علامات و أسـماء لأسـباب معینـة و یحرمون أکـل لحومهـا و لاـ یجیزون شـرب لبنهـا أو جز صوفها أو حتی امتطاءها، کانوا أحیانا یطلقون سـراح هـذه الحیوانات تسـرح و تمرح دون أن یعترضـها أحد، أی أنّهم کانوا یطلقونها سائبة دون أن یستفیدوا منها شیئا، لذلک یقول اللّه تعالی: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِیرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِیلَةٍ وَ لا حامٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۷

بحوث

اشارة

۱- «البحیرة» هی النّاقة التی ولدت خمسة أبطن خامسها أنثی- و قیل ذکر- فیشقون أذنها، و تترک طلیقة و لا تذبح.

«البحیرة» من مـادة «بحر» بمعنی الواسع العریض، و لهـذا سـمی البحر بحرا، و تسـمیة الناقـة بـالبحیرة جـاءت من شق أذنهـا شـقا واسـعا عریضا.

۲- «السائبـة» هی الناقـة التی تکون قـد ولـدت اثنی عشـر بطنا- و قیل عشـرة أبطن- فیطلقونها سائبـة و لا یمتطیها أحد، و لها أن ترعی حیثما تشاء و ترد حیثما تشاء دون أن یعترضـها أحد، و قد یحلبونها أحیانا لإطعام الضیف، و «السائبة» من مادة «سیب» أی جریان الماء أو المشی بحرّیة.

۳- «الوصیلة» هی الشاة التی ولدت سبعة أبطن- و قیل أنّها التی تلد التوائم، من مادة «وصل» و کانوا یحرمون ذبحها.

۴- «الحام» و اللفظة اسم فاعل من مادة «حمی»، و یطلق علی الفحل الذی یتخذ للتلقیح، فإذا اسـتفید منه فی تلقیح الأناث عشر مرات و ولدن منه، قالوا: لقد حمی ظهره، فلا یحق لأحد رکوبه، و من معانی «الحمایة» المحافظة و الحیلولة و المنع.

هناک احتمالات أخری وردت عند المفسّرین و فی الأحادیث بشأن تحدید هذه المصطلحات الأربعة، لکن القاسم المشترک بین کل هـذه المعانی هو أنّها تدل جمیعا علی حیوانات قدّمت خدمات کبیرة لأصـحابها فی «النتاج» فکان هؤلاء یحترمونها و یطلقون سـراحها لقاء ذلک.

صحیـح أنّ عملهم هـذا ضـرب من العرفـان بالجمیـل و مظهر من مظـاهر الشـکر، حـتی نحو الحیوانـات، و هو بهـذا جـدیر بالتقـدیر و الإجلال، و لکنّه کان تکریما لا معنی له لحیوانات لا تدرک ذلک.

کما کان- فضلا عن ذلک- مضیعة للمال و إتلافا لنعم اللّه و تعطیلها عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۸

الاسـتثمار النافع، ثمّ أنّ هذه الحیوانات، بسبب هذا الاحترام و التکریم، کانت تعانی من العذاب و الجوع و العطش لأنّه قلما یقدم أحد علی تغذیتها و العنایة بها.

و لما کانت هذه الحیوانات کبیرة فی السن عادة، فقد کانت تقضی بقیة أیّامها فی کثیر من الحرمان و الحاجة حتی تموت میتة محزنة، و لهذا کله وقف الإسـلام بوجه هذه العادة! إضافة إلی ذلک، یستفاد من بعض الرّوایات و التفاسیر أنّهم کانوا یتقربون بذلک کله، أو

بقسم منه إلی أصنامهم، فکانوا فی الواقع ینذرون تلک الحیوانات لتلک الأصنام، و لذلک کان إلغاء هذه العادات تأکیدا لمحاربة کل مخلفات الشرک.

و العجیب فی الأمر، أنّهم کانوا یأکلون لحوم تلک الحیوانات إذا ما ماتت موتا طبیعیا (و کأنّهم یتبرکون بها) و کان هذا عملا قبیحا آخر[۹۰].

ثمّ تقول الآیة: وَ لکِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ قائلین أنّ هذه قوانین إلهیة دون أن یفکروا فی الأمر و یعقلوه، بل کانوا یقلدون الآخرین فی ذلک تقلیدا أعمی: وَ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْقِلُونَ

الآیة الثّانیة تشیر إلی منطقهم و دلیلهم علی قیامهم بهذه الأعمال: وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلی ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَی الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَیْهِ آباءَنا.

فی الواقع، کان کفرهم و عبادتهم الأصنام ینبع من نوع آخر من الوثنیة، هو التسلیم الأعمی للعادات الخرافیة التی کان علیها أسلافهم، معتبرین ممارسات أجدادهم لها دلیلا قاطعا علی صحتها، و یرد القرآن بصراحة علی ذلک بقوله: أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْلَمُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ

أی لو کان أجدادکم الذین یستندون إلیهم فی العقیدة و العمل من العلماء و المهتدین لکان اتباعکم لهم إتباع جاهل لعالم، لکنکم تعلمون أنّهم، لا یعلمون أکثر منکم و لعلهم أکثر تخلفا منکم، و من هنا فإنّ تقلیدکم إیّاهم تقلید جاهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۹

لجاهل، و هو فوض و مذموم فی میزان العقل.

ترکیز القرآن فی هذه الآیة علی کلمة «أکثر» یدل علی أنّه کانت فی ذلک المحیط الجاهلی المظلم فئة- و إن قلت- علی قدر من الفهم بحیث تنظر بعین الاحتقار و الاشمئزاز إلی تلک الممارسات.

وثن اسمه «الأسلاف»:

من الأمور التی کانت سائدة فی الجاهلیة و التی تکررت الإشارة إلیها فی القرآن التفاخر بالآباء و الأجداد و إجلالهم إلی حدّ التقدیس الأعمی و إتباع أفکارهم و عاداتهم و تقالیدهم. و لیس هذا مقصورا علی الجاهلیة الاولی، فهو موجود بین کثیر من الأقوام المعاصرة، و لعلّه أحد أسباب اشاعة الخرافات و انتقالها من جیل إلی جیل، و کان «الموت» یضفی هالة من القدسیة و الاحترام و الإجلال علی الأسلاف.

لا شک أنّ روح الاعتراف بالجمیل و رعایة المبادئ الإنسانیة توجب علینا احترام الماضین من آبائنا و أجدادنا، و لکن لا أن نعتبرهم معصومین عن کل خطأ و مصونین عن کل نقد و تجریح لأفکارهم و سلوکهم فنتبع خرافاتهم و نقلدهم فیها تقلیدا أعمی، لیس هذا فی الواقع سوی لون من ألوان الوثنیة و المنطق الجاهلی، إنّنا من الممکن أن نحترم أفکارهم و تقالیدهم المفیدة، و نحطم فی الوقت نفسه عاداتهم غیر الصحیحة، خاصّة و أن الأجیال الحدیثة أوسع علما و أعمق معرفة من الأجیال السابقة بسبب مضی الزمن و تقدم العلم و التجربة، و ما من عقل رصین یجیز تقلید الماضین تقلیدا أعمی.

و من العجیب أن نری بعض العلماء و أساتذة الجامعة یعیشون هذا اللون من التقدیس الأعمی لعادات السلف، فیبلغ بهم التعصب القومی إلی التمسک بعادات و تقالید ما أنزل اللّه بها من سلطان متبعین بذلک منطق العرب فی جاهلیتهم الاولی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۰

تناقض بلا مبرّر:

جاء فی تفسیر «المیزان» و «الـدر المنثور» عن عـدد من الرواهٔ منهم الحکیم الترمذی فی «نوادر الأصول» و عن غیره، عن أبی الأحوص عن أبیه، قال: أتیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی خلقان من الثیاب، فقال لی: «هل لک من مال؟» قلت: نعم، قال: «من أی المال؟» قلت: من کل المال، من الإبل و الغنم و الخیل و الرقیق، قال:

«فإذا أتاک اللّه، فلیر علیک». أی لا ینبغی أن تعیش کالمساکین مع انک صاحب ثروهٔ.

ثمّ قال: «تنتج إبلک وافیهٔ آذانها؟» قلت: نعم و هل تنتج الإبل إلّا کذلک؟ قال:

«فلعلک تأخـذ موسـی فتقطع آذان طائفـهٔ منها و تقول: هـذه بحر، و تشق آذان طائفـهٔ منها و تقول: هـذه الصـرم؟» قلت: نعم، قال: «فلا تفعل، إن کل ما أتاک اللّه لک حل، ثمّ قال: ما جعل اللّه من بحیرهٔ و لا سائبهٔ و لا وصیلهٔ و لا حام»[۹۱].

نفهم من هذه الروایهٔ أنّهم کانوا یجمدون قسما من أموالهم، و لکنّهم فی الوقت نفسه کانوا یقتصدون فی ملبسهم، بل و یبخلون فیه، و هذا نوع من التناقض الذی لا مسوغ له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۱

الآیهٔ [سورهٔ المائدهٔ (۵): آیهٔ ۱۰۵]

اشارهٔ

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ لا یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵)

التّفسیر

کلّ امرئ مسئول عن عمله:

دار الحـدیث فی الآیـهٔ السابقـهٔ حول تقلید الجاهلیین آباءهم الضالین، فأنذرهم القرآن بأن تقلیدا کهذا لا ینسـجم مع العقل و المنطق، فمن الطبیعی أن یتبادر إلی أذهانهم السؤال: إنّنا إذا کان علینا أن ننفصل عن أسـلافنا فی هذه الأمور، فما ذا سـیکون مصـیرهم؟ ثمّ إذا نحن أقلعنا عن هـذه التقالیـد فما مصائر الکثیر من الناس الـذین ما یزالون متمسـکین بها و واقعین تحت تأثیرها فکان جواب القرآن: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ لا یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ

ثمّ یشیر إلی موضوع البعث و الحساب و مراجعهٔ حساب کل فرد: إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۲

ردّ علی اعتراض:

أثـار بعضـهم شـبههٔ حول هـذه الآیـهٔ، فظن أنّ بین هـذه الآیـهٔ و الأـمر بالمعروف و النهی عن المنکر- و هو من التشـریعات الإسـلامیهٔ الصریحهٔ المسلم بها- ضرب من التضاد أو التناقض، إذ أن هذه الآیهٔ تقول عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ لا یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ

هناک أحادیث و روایات تـدل علی أنّ هـذا الموضوع أثار شـبههٔ حتی فی عصـر نزول الآیـهٔ یقول (جبیر بن نفیل): کنت فی جمع من

أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالسين بحضرته، و كنت أحدثهم سنا، و كان الحديث يدور حول الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فقاطعتهم و قلت: ألم يأت فى القرآن يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (أى بهذه الآية لا يبقى ما يوجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر) و إذا بالحاضرين يجمعون على توبيخى و تقريعى قائلين: كيف تقتبس آية من القرآن دون أن تعرف معناها و تفسيرها؟

فندمت على ما قلت أشد الندم، و عادوا إلى بحثهم السابق.

و عند انفضاض المجلس التفتوا إلى قائلين: إنّك شاب حدث السن، قمت بتفصيل آية من القرآن عما حولها بغير أن تعرف معناها.

و قد يطول بك العمر حتى ترى كيف يحيط البخل بالناس و يسيطر عليهم، و تسيطر عليهم أهواؤهم و يعتدّ كل منهم برأيه، فلتحذر يومئذ من أن يضرّك من ضل منهم (أى أنّ الآية تشير إلى ذلك الزمان).

و اليوم نجد الراكنين إلى الدعة و طلاب الراحة، عند ما يدور الحديث حول القيام بهاتين الفريضتين الإلهيتين الكبيرتين- الأمر بالمعروف- و النهى عن المنكر- يتذرعون بهذه الآية و يحرفونها عن موضعها، مع أنّنا بقليل من الدقّة فى النظر ندرك ألّا تضاد بين هاتين الفريضتين و ما جاء فى هذه الآية:

فأوّلا: تبيّن الآية أنّ كل امرئ يحاسب على انفراد، و أنّ ضلال الآخرين من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۳

الأسلاف و غير الأسلاف لا يؤثر فى هداية الذين اهتدوا، حتى و إن كانوا قريبين قرب الأخ أو الأب أو الابن، لذلك فلا تتبعوهم و انجوا بأنفسكم (لاحظ بدقّة).

و ثانيا: تشير هذه الآية إلى الحالة التى لا يكون للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر أى أثر، أو تكون شروط فاعليتهما غير متوفرة، ففى أمثال هذه الحالات يشعر بعض المؤمنين بالألم، و يتساءلون عمّا ينبغى لهم أن يفعلوه، فتجيبهم الآية:

لا تثريب عليكم، فقد أديتم واجبكم، إذ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

نجد هذا المعنى فى الحديث الذى ذكرناه أعلاه، و كذلك

فى بعض الأحاديث الأخرى فقد سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن هذه الآية فقال: «ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحا مطاعا و هوى متبعا و إعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك و ذر عوامهم»[۹۲].

و هناك روايات أخرى بالمضمون نفسه و تفيد هذه الحقيقة ذاتها.

فخر الدين الرازى- حسب عادته- يذكر عدة أوجه فى الإجابة على السؤال المذكورة، و لكنّها تكاد تعود كلها إلى الأمر الذى ذكرناه، و لعله ذكرها جميعا لبيان كثرة عددها.

على كلّ حال، لا شك أنّ مسألة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من أركان الإسلام التى لا يمكن التغاضى عنها بأى شكل من الأشكال، و لا تسقط إلّا عند اليأس من تأثيرها أو من توفر شروطها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۴

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ لا نَكْتُمُ

شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (۱۰۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلی أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۷) ذلِكَ أَدْنی أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلی وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۱۰۸)

سبب النّزول

جاء فی «مجمع البیان» و بعض التفاسیر الأخری فی سبب نزول هذه الآیات أنّ أحد المسلمین، و یدعی (ابن أبی ماریة) و معه اخوان مسیحیان من العرب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۵

یدعیان (تمیم)، (عدی) خرجوا من المدینة للتجارة، و فی الطریق مرض (ابن أبی ماریة) المسلم، فکتب وصیة أخفاها فی متاعه، و عهد بمتاعه إلی رفیقیه- النصرانیین- فی السفر، و طلب منهما أن یسلماه، إلی أهله، ثمّ مات ففتح النصرانیان متاعه و استولیا علی الثمین و النفیس فیه، و سلما الباقی إلی الورثة، و عند ما فتح الورثة متاعه لم یجدا فیه بعض ما کان ابن أبی ماریة قد أخذه معه عند سفره و فجأة عثروا علی الوصیة، و وجدوا فیها ثبتا بکل الأشیاء المسروقة، ففاتحوا المسیحیین بالموضوع، فأنکرا و قالا: لقد سلمناکم کل ما سلمه لنا، فشکوا الرجلین إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فنزلت هذه الآیات تبیّن حکم القضیة.

غیر أن سبب النّزول المذکور فی «الکافی» یقول: إنّهما أنکرا أوّلا وجود متاع آخر، و وصل الأمر إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لما لم یکن هناک دلیل ضدهما طلب منهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یحلفا الیمین، و برأهما، و لکن بعد أیّام قلیلة ظهر بعض المتاع المسروق عند الرجلین فثبت کذبهما، فبلغ ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فانتظر حتی نزلت الآیات المذکورة، عندئذ أمر أولیاء المیت بالقسم، و أخذ الأموال دفعها إلیهم.

التّفسیر

من أهم المسائل التی یؤکّدها الإسلام هی مسألة حفظ حقوق الناس و أموالهم و تحقیق العدالة الاجتماعیة هذه الآیات تبیّن جانبا من التشریعات الخاصّة بذلک، فلکیلا تغمط حقوق ورثة المیت و أیتامه الصغار، یصدر الأمر للمؤمنین قائلا: یا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ

المقصود بالعدل هنا العدالة، و هی تجنب الذنوب الکبیرة و نظائرها، و لکن یحتمل من معنی الآیة أیضا أنّ یکون المقصود من العدالة: الأمانة فی الشؤون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۶

المالیة، إلّا إذا ثبت بدلائل أخری ضرورة توفر شروط أخری فی الشاهد.

و «منکم» تعنی من المسلمین بإزاء غیر المسلمین، الذین تأتی الإشارة إلیهم فی العبارة التّالیة من الآیة.

لا بدّ من القول بأنّ القضیة هنا لا تتعلق بالشهادة العادیة المألوفة، بل هی شهادة مقرونة بالوصایة، أی أن هذین وصیان و شاهدان فی الوقت نفسه، أمّا الاحتمال القائل باختیار شخص ثالث کوصی بالإضافة إلی الشاهدین هنا، فإنه خلاف ظاهر الآیة و یخالف سبب نزولها، لأنّنا لاحظنا أنّ ابن أبی ماریة لم یکن یرافقه فی السفر غیر اثنین اختارهما وصیین و شاهدین.

ثمّ تأمر الآیة: إذا کنتم فی سفر و وافاکم الأجل و لم تجدوا وصیّا و شاهدا من المسلمین فاختاروا اثنین من غیر المسلمین: أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ

و على الرغم من عدم وجود ما يفهم من الآية أنّ اختيار الوصى و الشاهد من غير المسلمين مشروط بعدم وجودهما من المسلمين، فهو واضح، لأنّ الاستعاضة تكون عند ما لا تجد من المسلمين من توصيه، كما أنّ ذكر قيد السفر يفيد هذا المعنى أيضا، و على الرغم من أنّ (أو) تفيد «التخيير» عادة، إلّا أنّها هنا- و فى كثير من المواضع الأخرى- تفيد «الترتيب»، أى اخترهما أوّلا من المسلمين، فإن لم تجد، فاخترهما من غير المسلمين.

و غنى عن القول أنّ المقصود من غير المسلمين هم أهل الكتاب من اليهود و النصارى طبعا، لأنّ الإسلام لم يقم وزنا فى أية مناسبة للمشركين و عبدة الأصنام مطلقا.

ثمّ تقرر الآية حمل الشاهدين عند الشهادة على القسم باللّه بعد الصّلاة، فى حالة الشك و التردد: تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ

و يجب أنّ تكون شهادتهما بما مفاده: إنّنا لسنا على استعداد أن نبيع الحقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۷

بمنافع مادية، فنشهد بغير الحقّ حتى و إن كانت الشهادة ضد أقربائنا: لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى و إننا لن نخفى أبدا الشهادة الإلهية، و إلّا فسنكون من المذنبين: وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ

و لا بدّ أن نلاحظ ما يلى:

أوّلا: إنّ هذه التفاصيل فى أداء الشهادة إنّما تكون عند الشك و التردد.

و ثانيا: لا فرق بين المسلم و غير المسلم فى هذا كما يبدو من ظاهر الآية، و إنّما هو فى الحقيقة- وسيلة لإحكام أمر حفظ الأموال فى إطار الاتهام، و ليس فى هذا ما يناقض القبول بشهادة عدلين بغير تحليف، لأنّ هذا يكون عند انتفاء الشك فى الشاهدين، لذلك فلا هو ينسخ الآية و لا هو مختص بغير المسلمين (تأمل بدقّة).

ثالثا: الصّلاة بالنسبة لغير المسلمين يقصد بها صلاتهم التى يتوجهون فيها إلى اللّه و يخشونه، أمّا بالنسبة للمسلمين فيقول بعض: إنّها خاصّة بصلاة العصر، و فى بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام إشارة إلى ذلك، إلّا أنّ ظاهر الآية هو الإطلاق و يشمل الصلوات جميعها، و لعل ذكر صلاة العصر فى رواياتنا يعود إلى جانبه الاستحبابى، إذ أنّ الناس يشتركون أكثر فى صلاة العصر، ثمّ ان وقت العصر كان الوقت المألوف للتحكيم و القضاء بين المسلمين.

رابعا: اختيار وقت الصّلاة للشهادة يعود إلى أنّ المرء فى هذا الوقت يعيش آثار الصّلاة التى تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ[۹۳] و أنّه فى هذا الظرف الزمانى و المكانى يكون أقرب إلى الحقّ، بل قال بعضهم: إنّ من الأفضل أن تكون الشهادة فى «مكّة» عند الكعبة و بين «الركن» و «المقام» باعتباره من أقدس الأمكنة، و فى المدينة تكون جنب قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى الآية التّالية يدور الكلام على ثبوت خيانة الشاهدين إذا شهدا بغير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۸

الحقّ، كما جاء فى سبب نزول الآية، فالحكم فى مثل هذه الحالة- أى عند الاطلاع على أن الشاهدين قد ارتكبا إثمّ العدوان على الحقّ و اضاعته- هو أن تستعيضوا عنهما باثنين آخرين ممن ظلمهما الشاهدان الأولان (أى ورثة الميت) فيشهدان لإحقاق حقهما: فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ

يذهب العلّامة الطبرسى فى «مجمع البيان» إلى أنّ هذه الآية تعتبر من حيث المعنى و الإعراب من أعقد الآيات و أصعبها، و لكن بالالتفات إلى نقطتين نجد أنّها ليست بتلك الصعوبة و التعقيد.

فالنّقطة الاولى: هى أن معنى «استحق» هنا بقرينة كلمة «إثم» هو إثمّ العدوان على حق الآخرين.

و النّقطة الثّانية: هى أنّ «الأوليان» تعنى هنا «الأولان» أى الشاهدان اللذان كانا عليهما أنّ يشهدا أوّلا و لكنّهما انحرفا عن طريق الحقّ.

و علیه یکون المعنی: إذا ثبت أنّ الشاهـدین الأولین ارتکبا مخالفـة، فیقوم مقامهما اثنان آخران ممن وقع علیهم ظلم الشاهدین الأولین ۹۴].

ثمّ تبیّن ما ینبغی علی هذین الشاهدین أن یفعلاه فَیُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَیْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِینَ

لمّـا کـان أولیـاء المیت علی علم بالأمـوال و الأمتعـة التی أخـذها معه عنـد سـفره أو التی یملکهـا عمومـا، فیمکن أن یشـهدوا علی أنّ الشاهدین الأولین قد خانا و ظلما، و تکون هذه الشهادة حسیة مبنیة علی القرائن، لا حدسیة.

و الآیـة الأخیرة، فی الحقیقـة، بیان لحکمـة الأحکام التی جاءت فی الآیات السابقة بشأن الشـهادة و هی أنّه إذا أجریت الأمور بحسـب التعالیم، أی إذا طلب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۹

الشاهـدان للشـهادة بعـد الصّـلاة بحضور جمع، ثمّ ظهرت خیانتهما، و قام اثنان آخران من الورثـة مقامهما للکشف عن الحقّ، فـذلک یحمل الشـهود علی أن یکونوا أدق فی شهادتهم، خوفا من اللّه أو خوفا من الناس: ذلِکَ أَدْنی أَنْ یَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلی وَجْهِها أَوْ یَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَیْمانٌ بَعْدَ أَیْمانِهِمْ

فی الواقع سیکون هذا سببا فی الخشیة من المسؤولیة أمام اللّه و أمام الناس، فلا ینحرفان عن محجة الصواب.

و لتوکید الأحکام المذکورة یأمر الناس قائلا: اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۰

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۱۰۹]

اشارة

یَوْمَ یَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَیَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُیُوبِ (۱۰۹)

التّفسیر

هـذه الآیـة، فی الحقیقة، تکملة للآیات السابقة، ففی ذیل تلک الآیات الخاصّة بالشـهادة الحقّة و الشـهادة الباطلة، کان الأمر بالتقوی و الخشـیة من عصیان أمر اللّه، و فی هذه الآیة تذکیر بذلک الیوم الذی یجمع اللّه الرسل فیه و یسألهم عن رسالتهم و مهمتهم و عمّا قاله الناس ردا علی دعواتهم یَوْمَ یَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَیَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ

لقـد نفوا عن أنفسـهم العلم، و أوکلوا جمیع الحقـائق إلی علم اللّه و قـالُوا لا ـ عِلْمَ لَنـا إِنَّکَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُیُوبِ و علیه فـإنکم أمـام علام الغیوب و أمام محکمة هذا شأنها، فاحذروا أن تنحرف شهادتکم عن الحقّ و العدل ۹۵].

هنا یبرز سؤالان: الأوّل: إنّ ما یستفاد من الآیات القرآنیة أنّ الأنبیاء شهداء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۱

علی أممهم، بینما نجدهم فی هذه الآیة ینکرون کل علم و یوکلون کل شیء إلی اللّه.

و لکن لیس فی هـذا اختلاف و لا ـ تضـاد، بـل هو یحکی عن مرحلـتین، فی المرحلـة الاولی و هی الـتی تشـیر إلیهـا الآیـة الـتی نحن بصددها، یظهر الأنبیاء الأدب بإزاء سؤال اللّه، فینفون العلم عن أنفسهم، و یوکلون کل شیء إلی علم اللّه، و لکنّهم فی المراحل التّالیة یبیّنون ما یعرفونه عن أممهم و یشـهدون، و هـذا یکاد یشـبه المعلم الـذی یطلب من تلمیـذه أن یجیب علی سؤال فیظهر التلمیذ التأدب أوّل الأمر و یقول: أن علمه لا شیء بالنسبة لعلم المعلم، ثمّ بعد ذلک یدلی بما یعرف.

و السؤال الآخر: کیف ینفی الأنبیاء العلم عن أنفسهم مع أنّهم إضافة إلی العلوم العادیة یعلمون الکثیر من الحقائق الخفیة التی علمها اللّه لهم.

رغم أنّ للمفسّرین کلاما کثیرا فی جواب هذا السؤال، نری أنّ الموضوع واضح و هو أنّ الأنبیاء یرون علمهم لا شیء بالنسبة لعلم اللّه، و الحقّ کذلک، فوجودنا لا شیء بالنسبة لوجود اللّه الأبدی و علمنا لا وزن له بإزاء علم اللّه، فمهما یکن «الممکن» فإنّه لا یکون شیئا بإزاء «الواجب»، و بعبارة أخری: إنّ علم الأنبیاء، و إن کان فی حد ذاته غزیرا، لکنه لا شیء بالقیاس إلی علم اللّه.

فی الحقیقة، العالم الحقیقی هو الذی یکون حاضرا و ناظرا فی کل مکان و زمان، و عارفا بترکیب کل ذرة من ذرات العالم، و بکل أجزاء هذا العالم المترابط فی وحدة واحدة، و هذه صفة تختص باللّه سبحانه.

یتّضح ممّا قلنا أنّ هذه الآیة لیست دلیلا علی نفی کل علم بالغیب عن الأنبیاء و الأئمّة کما زعم بعضهم، و ذلک لأن «علم الغیب» بالذات یختص بمن یکون حاضرا فی کل مکان و زمان، و أمّا غیره تعالی فإنّه لا علم له بالغیب سوی ما یعلمه اللّه.

و هذا مأخوذ من آیات عدیدة فی القرآن، منها الآیة (۲۶) من سورة الجن:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۲

عالِمُ الْغَیْبِ فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ و الآیة (۴۹) من سورة هود: تِلْکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیها إِلَیْکَ

یستفاد من هذه الآیات و أمثالها أنّ علم الغیب مختص بذات اللّه، و لکنّه یعلّمه لمن یشاء و بالقدر الذی یشاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۳

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۱۱۰]

اشارة

إِذْ قالَ اللَّهُ یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ اذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَ عَلی والِدَتِکَ إِذْ أَیَّدْتُکَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُکَلِّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیها فَتَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِی وَ تُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتی بِإِذْنِی وَ إِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرائِیلَ عَنْکَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَقالَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۱۰)

التّفسیر

نعم اللّه علی المسیح:

هذه الآیة و الآیات التّالیة لها حتی آخر سورة المائدة تختص بسیرة حیاة السید المسیح علیه السّلام و النعم التی أسبغها اللّه علیه و علی أمّته، یبیّنها اللّه هنا لتوعیة المسلمین و ایقاظهم فتقول الآیة: إِذْ قالَ اللَّهُ یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ اذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَ عَلی والِدَتِکَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۴

و معنی «إذ قال»: و اذکر إذ قال.

و حسب هذا التّفسیر، تشرع هذه الآیات ببحث مستقل له جانبه التربوی للمسلمین و یرتبط بهذه الدنیا، إلّا أن عددا من المفسّرین- کالطبرسی و البیضاوی و أبی الفتوح و الرازی- یرون أنّ هذه الآیة تابعة للآیة السابقة و تتعلق بالحوار الذی یدور بین اللّه و الأنبیاء یوم القیامة، و علی هذا یکون الفعل الماضی «قال» بمعنی «یقول» المضارع، غیر أنّ هذا یخالف ظاهر الآیة، خاصّة و أنّ تعداد النعم التی

أنزلت على شخص ما يستهدف إحياء روح الاعتراف بالجميل و الشكر فيه، و هذا لإمكان له يوم القيامهٔ.

ثمّ تشرع الآيهٔ بذكر النعم: إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ

لقد بحثنا معنى «روح القدس» فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير بحثا مستفيضا و أحد الاحتمالات المقصودهٔ هو أنّه إشارهٔ إلى ملك الوحى، جبرائيل، و الاحتمال الآخر هو تلك القوهٔ الغيبيهٔ التى كانت تعين عيسى على إظهار المعجزات و على تحقيق رسالته المهمّهٔ، و هذا المعنى موجود فى غير الأنبياء أيضا بدرجهٔ أضعف.

من نعم اللّه الأخرى: تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا أى أنّ كلامك فى المهد، مثل كلامك و أنت كهل، كلام ناضج و محسوب، لا كلام طفل غر.

ثمّ أيضا: وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ إنّ ذكر التّوراهٔ و الإنجيل بعد ذكر كلمهٔ كتاب مع أنّهما من الكتب السماويهٔ، إنّما هو من باب التفصيل بعد الإجمال.

و من النعم الأخرى: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي

و مع ذلك فإنّك تشفى بإذن اللّه الأعمى بالولادهٔ و المصاب بالمرض الجلدى البرص: وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۵

ثمّ وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي

و أخيرا كان من نعمى عليك بأن منعت عنك أذى بنى إسرائيل يوم قام الكافرون منهم بوجهك و وسموا ما تفعل بأنّه السحر، فدفعت أذى أولئك المعاندين اللجوجين عنك و حفظتك حتى تسير بدعوتك: وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

يستلفت النظر فى هذه الآيهٔ أنّها تكرر «باذنى» أربع مرات لكيلا يبقى مكان للغلو فى المسيح عليه السّلام و ادعاء الألوهيهٔ له، أى أنّ ما كان يحققه المسيح عليه السّلام بالرغم من إعجازه و إثارته الدهشهٔ و مشابهته للأفعال الإلهيهٔ، لم يكن ناشئا منه، بل كان من اللّه و باذنه، فما كان عيسى سوى عبد من عبيد اللّه، مطيع لأوامره، و ما كان له إلّا ما يستمده من قوهٔ اللّه الخالدهٔ.

و قد يسأل سائل: إنّ كانت هذه النعم كلها قد أسبغت على عيسى عليه السّلام فلما ذا تعتبر الآيهٔ هذه النعم قد أسبغت على أمّه أيضا؟

لا شك أنّ كل موهبهٔ تصل الابن تكون قد وصلت الأم أيضا، فكلاهما من اصل واحد، و من شجرهٔ واحدهٔ.

و كما ذكرنا فى ذيل الآيهٔ (۴۹) من سورهٔ آل عمران، فإن هذه الآيهٔ و الآيات المشابههٔ دلائل على ولايهٔ أولياء اللّه التكوينيهٔ، ففى تاريخ حياهٔ المسيح عليه السّلام ينسب إليه إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص، و لكن بأمر اللّه و إذنه.

يتّضح من هذا أنّ من الممكن أن ينعم اللّه على من يشاء قدرهٔ كهذه تمكنه من التصرف بعالم التكوين و القيام بأمثال هذه الأعمال أحيانا، إنّ تفسير هذه الآيهٔ بأنّها تشير إلى دعاء الأنبياء و استجابهٔ اللّه لدعائهم هو خلاف ظاهر الآيهٔ، و أنّ ما نقصده بولايهٔ أولياء اللّه التكوينيهٔ هو هذا الذى قلناه آنفا، إذ ليس ثمّهٔ دليل على أكثر من هذا المقدار (انظر تفسير سورهٔ آل عمران الآيهٔ (۴۹) لمزيد من التوضيح).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۶

الآيات [سورهٔ المائدهٔ (۵): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۵]

اشارهٔ

وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (۱۱۱) إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ

يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۱۲) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (۱۱۳) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۱۱۴) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (۱۱۵)

التّفسير

قصّة نزول المائدة على الحواريين:

تعقيبا على ما جاء فى الآيات السابقة من بحث حول ما أنعم اللّه به على المسيح عليه السّلام و أمّه يدور الحديث هنا حول النعم التى أنعم اللّه بها على الحواريين، أى أصحاب المسيح عليه السّلام.

ففى البداية تشير الآية إلى ما أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا باللّه و برسوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۷

المسيح عليه السّلام فاستجابوا وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ

إن للوحى فى القرآن معنى واسعا لا ينحصر فى الوحى الذى ينزل على الأنبياء، بل أن الإلهام الذى ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضا، لذلك جاء هذا المعنى فى الآية (۷) من سورة القصص بشأن أم موسى التى أوحى إليها[۹۶] بل إن الكلمة تطلق فى القرآن حتى على الغرائز التكوينية عند الحيوان، كالنحل.

و هناك احتمال أن يكون المقصود هو الإيحاء الذى كان يلقيه المسيح عليه السّلام بواسطة المعاجز فى نفوسهم.

لقد تناولنا الحواريين و أصحاب المسيح عليه السّلام بالبحث فى تفسير آية (۵۲) آل عمران هذا التّفسير.

ثمّ تذكر الآية نزول المائدة من السماء: إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ.

«المائدة» تعنى فى اللغة الخوان و السفرة و الطبق، كما تعنى الطعام الذى يوضع عليها و أصلها من «ميد» بمعنى التحرك و الاهتزاز، و لعل سبب إطلاق لفظة المائدة على السفرة و الطعام هو ما يلازمها من تحريك و انتقال.

شعر المسيح عليه السّلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذى يدل على الشك و التردد، على الرغم من كل تلك الأدلة و الآيات، فخاطبهم و قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

و لكنّهم سرعان ما أكّدوا للمسيح عليه السّلام أن هدفهم برىء، و أنّهم لا يقصدون العناد و اللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافا إلى الحالة النّورانية فى قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوى لأنّ للغذاء و نوعيته اثر مسلّم فى روح الإنسان) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا، وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۸

فبيّنوا قصدهم أنّهم طلبوا المائدة للطعام، و لتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهى من أثر فى الروح و من زيادة فى الثقة و اليقين.

و لمّا أدرك عيسى عليه السّلام حسن نيّتهم فى طلبهم ذاك، عرض الأمر على اللّه: قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

من الواضح هنا أنّ الأسلوب الذى عرض به عيسى بن مريم الأمر على اللّه كان أليق و أنسب، و يحكى عن روح البحث عن الحقيقة و

رعاية الشؤون العامّة للمجتمع.

فاستجاب اللّه لهذا الطلب الصادر عن حسن نیة و إخلاص، قالَ اللَّهُ إِنِّی مُنَزِّلُها عَلَیْکُمْ فَمَنْ یَکْفُرْ بَعْدُ مِنْکُمْ فَإِنِّی أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِینَ

فبعد نزول المائدة تزداد مسئولیات هؤلاء و تقوى الحجة عليهم، و لذلك فإنّ العقاب سيزداد أيضا فی حالة الكفر و الانحراف.

ملاحظات:

اشارة

هنا لا بدّ من التحقيق فی عدّة نقاط من هذه الآيات الكريمة:

۱– ما القصد من طلب المائدة؟

لا شك أنّ الحواريين لم يكونوا مدفوعين بقصد شیء فی طلبهم هذا، و لا هم كانوا يريدون المشاكسة و المعاندة، بل كانوا يرغبون فی بلوغ مرحلة الاطمئنان الأقوى و إبعاد ما بقی من رواسب الشك و الوسوسة من أعماقهم، فكثيرا ما يحدث أنّ إنسانا يتأكد من أمر بالمنطق و حتى بالتجربة، و لكن إذا كان الأمر مهما جدّا فإنّ بقايا من الشك و التردد تظل فی ثنايا قلبه، لذلك فهو شديد الرغبة فی أن تتكرر تجاربه و اختباراته، أو أن تتبدل استدلالاته المنطقية و العلمية إلى مشاهدات عينية تقتلع من أعماق قلبه جذور تلك الشكوك و الوساوس، و لهذا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۹

نرى إبراهيم عليه السّلام، على ما كان عليه من مقام و يقين يسأل اللّه أن يرى المعاد رأی العين لكی يتبدل إيمانه العلمی إلى «عين اليقين» و إلى «شهود».

و لكن أسلوب طلب الحواريين تميز بشیء من الفضاضة لذلك ظن عيسى عليه السّلام أنّهم بصدد البحث عن الأعذار و الحجج، فاعترضهم و بعد أن شرحوا له حقيقة موقفهم وافق على طلبهم.

۲– ما المقصود بعبارة هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ

لا شك أنّ ظاهر هذا الكلام يوحی بأنّ الحواريين كانوا يشكون فی قدرة اللّه على إنزال مائدة، إلّا أنّ المفسّرين المسلمين لهم آراء أخرى فی تفسيرها، منها أنّ هذا الطلب وقع فی بداية أمرهم و قبل أن يتعرفوا على جميع صفات اللّه.

و رأى آخر يقول: إنّ سؤالهم يعنی: هل يرى اللّه أن من المصلحة أن ينزل عليهم مائدة من السماء؟ كأن يقول شخص: لا أستطيع أن أعهد إلى فلان بكل ثروتی، و لا يعنی أنّه ليس بقادر على ذلك، بل يعنی أنّه لا يرى مصلحة فی الأمر.

و رأى ثالث يقول: أن «يستطيع» تعنی «يستجيب» لأن مادة (طوع) تعنی الانقياد، فإذا وردت من باب (الاستفعال) فيمكن أن تفيد المعنى نفسه، فيكون المعنى: هل يستجيب اللّه لطلبنا بشأن إنزال مائدة من السماء؟

۳- ما هی تلک المائدة السماویة؟

لم یذکر القرآن شیئا عن محتویاتها، و لکن یستفاد من بعض الأحادیث، و خاصة الحدیث المروی عن الإمام الباقر علیه السّلام، أن تلک المائدة کانت تحوی أرغفة من الخبز و مقدارا من السمک، و لعل سبب طلب هذه المعجزة کان ما سمعوه عن المائدة السماویة التی نزلت علی بنی إسرائیل باعجاز من موسی علیه السّلام فطلبوا هم أیضا من عیسی علیه السّلام مثل ذلک.

۴- هل نزلت علیهم مائدة؟

رغم أنّ الآیات المذکورة تکاد تصرح بنزول المائدة، فاللّه لا یخلف وعده، و لکن العجیب أنّ بعض المفسّرین یشکون فی نزول المائدة، و یقولون: أنّ

الحواریین حین عرفوا عظم المسؤولیة التی سوف تقع علیهم بعد نزول المائدة، تخلوا عن طلبهم، و لکن الواقع أنّ المائدة قد نزلت فعلا.

۵- ما العید؟

«العید» فی اللغة من «العود» أی الرجوع، لذلک فذکری الأیّام التی تنداح فیها المشاکل عن قوم أو مجتمع و تعود أیام الفوز و الهناء الأوّل تکون عیدا. کذلک هی الأعیاد الإسلامیة فبعد شهر من طاعة اللّه فی صوم رمضان، أو بعد أداء فریضة الحج العظیمة، یعود إلی النفس طهرها و صفاؤها الأولین الفطریین، و یزول التلوث عن الفطرة، فیکون العید، و لما کان یوم نزول المائدة یوم العودة إلی الفوز و الطهارة و الإیمان باللّه، فقد سمّاه المسیح علیه السّلام عیدا.

و قد ورد فی الأخبار أنّ نزول المائدة کان فی یوم الأحد، و لعل هذا هو سبب الاحترام الذی یکنه المسیحیون لهذا الیوم.

إنّنا

نقرأ لأمیر المؤمنین علی علیه السّلام قوله: «و کل یوم لا یعصی اللّه فیه فهو یوم عید»[۹۷].

و فی هذا إشارة إلی الموضوع نفسه، لأنّ یوم ترک المعصیة هو یوم فوز و طهارة و عودة إلی الفطرة الاولی.

۶- لماذا العقاب الشدید؟

هنا أمر مهم ینبغی ألا نغفل عنه، و ذلک أنّه عند ما یبلغ الإیمان مرحلة الشهود و عین الیقین أی عند ما تری الحقیقة رأی العین، و لا یبقی مکان لأی شک أو تردد، فإنّ مسئولیة المرء تزداد و تثقل، لأنّ هذا المرء لم یعد ذلک الذی کانت تنتابه الوساوس و الشکوک من قبل، بل هو امرؤ ورد مرحلة جدیدة من الإیمان و تحمل المسؤولیة، فأقل تقصیر أو غفلة من جانبه یستدعی العقاب الشدید، و لهذا فإنّ مسئولیة الأنبیاء و أولیاء اللّه أشد و أثقل، بحیث أنّهم کانوا فی خشیة دائمة منها، إننا فی الحیاة الیومیة نصادف نماذج من هذا القبیل أیضا، فمثلا یعلم کل شخص

أنّ فی بلده أو مدینته جیاعا یتحمل مسئولیتهم، و لکنه عند ما یری بعینیه إنسانا بریئا یتضور جوعا و یتألم سغبا، فلا شک أنّ درجة مسئولیته تکون عندئذ أعلی.

۷- «العهد الجدید» و المائدة.

فی الأناجیل الأربعة الموجودة حالیا لا نجد کلاما عن المائدة کما فی القرآن، عدا ما جاء فی إنجیل یوحنا، فی الباب (۲۱)، حول استضافة المسیح الإعجازیة جمعا من الناس بالخبز و السمک، و لکننا بقلیل من التفحص ندرک أنّ ذلک لا علاقة له بالمائدة التی نزلت من السماء للحواریین ۹۸].

ثمّة کلام فی کتاب «أعمال الرسل» و هو من کتب العهد الجدید، یدور حول نزول مائدة علی أحد الحواریین و اسمه بطرس، و لکن هذا أیضا لیس هو الموضوع الذی نحن بصدده، غیر أنّنا نعلم أن کثیرا من الحقائق التی نزلت علی عیسی علیه السّلام لا أثر لها فی الأناجیل السائدة، کما أن کثیرا ممّا نراه فی هذه الأناجیل لم ینزل علی المسیح علیه السّلام ۹۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۲

الآیات [سورة المائدة (۵): الآیات ۱۱۶ الی ۱۱۸]

اشارة

وَ إِذْ قالَ اللَّهُ یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلهَیْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَکَ ما یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ ما لَیْسَ لِی بِحَقٍّ إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِی نَفْسِی وَ لا أَعْلَمُ ما فِی نَفْسِکَ إِنَّکَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُیُوبِ (۱۱۶) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِی بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً ما دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُکَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱۱۸)

التّفسیر

براءة المسیح من شرک أتباعه:

هذه الآیات تشیر إلی حدیث یدور بین اللّه و المسیح یوم القیامة، بدلیل أنّنا بعد بضع آیات نقرأ: هذا یَوْمُ یَنْفَعُ الصَّادِقِینَ صِدْقُهُمْ و لا شک أنّه یوم القیامة.

ثمّ أنّ جملة فَلَمَّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ دلیل آخر علی أنّ الحوار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۳

قد جری بعد عهد نبوة المسیح علیه السّلام، و الفعل «قال» الماضی لا یتعارض مع ما ذهبنا إلیه، لأنّ القرآن ملیء بذکر أمور عن یوم القیامة استعمل فیها الزمن الماضی، و هو إشارة إلی أنّ وقوعه حتمی، أی أنّ مجیئه فی المستقبل علی درجة من الثبوت و الحتمیة بحیث أنّه یبدو و کأنّه قد وقع فعلا، فیستعمل له صیغة الماضی.

علی کل حال تقول الآیة الاولی: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلهَیْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لا ریب أنّ المسیح علیه السّلام لم یقل شیئا کهذا، بل دعا إلی التوحید و عبادة اللّه، أنّ القصد من هذا الاستفهام هو استنطاقه أمام أمّته

و بيان إدانتها.

فيجيب المسيح عليه السّلام بكل احترام ببضع جمل على هذا السؤال:

۱- أوّلا ينزّه اللّه عن كل شرك و شبهة: قالَ سُبْحانَكَ

۲- ثمّ يقول: ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍ أى ما لا يحق لى قوله و لا يليق بى أن أقوله.

فهو فى الحقيقة لا ينفى هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفى أن يكون له حق فى قول مثل هذا القول الذى لا ينسجم مع مقامه و مركزه.

۳- ثمّ يستند إلى علم اللّه الذى لا تحده حدود تأكيدا لبراءته فيقول: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۱۰۰].

۴- ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ لا أكثر من ذلك.

۵- وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[۱۰۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۴

أى كنت أحول دون سقوطهم فى هاوية الشرك مدّة بقائى بينهم، فكنت الرقيب و الشاهد عليهم، و لكن بعد أن رفعتنى إليك، كنت أنت الرقيب و الشاهد عليهم.

۶- إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى على كل حال فالأمر أمرك و الإرادة إرادتك، إن شئت أن تعاقبهم على انحرافهم الكبير فهم عبيدك و ليس بامكانهم أن يفروا من عذابك، فهذا حقّك بإزاء العصاة من عبيدك، و إن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنّك أنت القوى الحكيم، فلا عفوك دليل ضعف، و لا عقابك خال من الحكمة و الحساب.

هنا يتبادر إلى الذهن سؤالان:

۱- هل يوجد فى تاريخ المسيحية ما يدل على أنّهم اتّخذوا من (مريم) معبودة؟ أم أنّهم إنّما قالوا فقط بالتثليث أو الآلهة الثلاثة: (الإله الأب) و (الإله الابن) و (روح القدس) على اعتبار أن (روح القدس) هو الوسيط بين (الإله الأب) و (الإله الابن) و هو ليس (مريم).

للإجابة على هذا السؤال نقول: صحيح أنّ المسيحيين لم يؤلهوا مريم، و لكنّهم كانوا يؤدون أمام تمثالها طقوس العبادة، كالوثنيين الذى لم يكونوا يعتبرون الأصنام آلهة، و لكنّهم كانوا يعتبرونها شريكة للّه فى العبادة.

و هناك فرق بين «اللّه» بمعنى الخالق، و ال «إله» بمعنى المعبود، و كانت (مريم) عند المسيحيين (آلهة) لا أنّها بمثابة «اللّه».

يقول أحد المفسّرين: إنّ المسيحيين على اختلاف فرقهم، و إن لم يطلقوا كلمة (إله) أو معبود على مريم، و اعتبروها أم الإله لا غير، فهم فى الواقع يقدمون لها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۵

طقوس الدعاء و العبادة، سواء أطلقوا عليها هذا الاسم أم لم يطلقوه، ثمّ يضيف قائلا: قبل مدّة صدر فى بيروت العدد التاسع من السنة السابقة من مجلة (المشرق) المسيحية بمناسبة الذكرى الخمسين للبابا (بيوس التاسع) و فيها مواضيع مثيرة عن السيدة مريم، منها تصريح بأنّ كلتا الكنيستين الشرقية و الغربية تعبدان (مريم).

و فى العدد الرّابع عشر من السنة الخامسة من الجملة نفسها مقال بقلم (الأب انستانس الكرملى) حاول فيه أن يعثر عن أصول عبادة مريم حتى فى العهد القديم، فراح يفسر حكاية الأفعى (الشيطان) و المرأة (حواء) باعتبارها حكاية مريم ۱۰۲].

و عليه فإنّ عبادة مريم موجودة بينهم.

۲- السؤال الثّانى: كيف يتحدث المسيح عليه السّلام عن مشركى أمّته بعبارات يشم منها رائحة الشفاعة لهم فيقول: وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أ يكون المشرك أهلا للشفاعة و الغفران؟

فی الجواب نقول: لو کان قصد عیسی علیه السّلام هو الشفاعة لهم لکان علیه أن یقول:

فإنـک أنت الغفور الرحیم لأن غفران اللّه و رحمته هما اللـذان یناسـبان مقام الشـفاعة، و لکنّنا نراه یقول فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ من هذا یتّضح أنّه لم یکن فی مقام الشـفاعة لهم، بل کان یرید أن ینفی عن نفسه أی اختیار و أن یوکل الأمر کلّه إلی اللّه، إن شاء عفا، و إن شاء عاقب، و کل مشیئة منه سبحانه تستند إلی حکمة.

ثمّ ربّما کما بینهم جماعة أدرکت خطأها و سارت علی طریق التوبة، فتکون هذه الجملة قد قیلت بحقها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۶

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۱۱۹ الی ۱۲۰]

اشارة

قالَ اللَّهُ هـذا یَوْمُ یَنْفَعُ الصَّادِقِینَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۱۱۹) لِلَّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِیهِنَّ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۲۰)

التّفسیر

الفوز العظیم:

بعد الحوار الذی جری بین اللّه و المسـیح علیه السّـلام یوم القیامة- کما شرحناه فی تفسیر الآیات السابقة- تقول الآیة قالَ اللَّهُ هذا یَوْمُ یَنْفَعُ الصَّادِقِینَ صِدْقُهُمْ

طبیعی أنّ المقصود من هـذا هو أنّ الصدق فی القول و العمل فی هذه الدنیا هو الذی ینفع فی الآخرة، لأنّ الصدق فی الآخرة- التی لا تکلیف فیها- لا ینفع شـیئا ثمّ أنّ الوضع فی تلک الحیاة مختلف بحیث لا یسـتطیع أحـد إلّا أن یقول الصـدق، حتی المـذنبون یعترفون بسیئات ما عملوا، و علی هذا فلا وجود للکذب یوم القیامة.

و علیه، فإنّ الذین أنجزوا ما کلّفوا من مسئولیة و رسالة و لم یسیروا إلّا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۷

و علیه، فإنّ الذین أنجزوا ما کلّفوا من مسـئولیة و رسالة و لم یسـیروا إلّا فی طریق الصدق، مثل المسیح علیه السّلام و أتباعه الصادقین، أو أتباع سائر الأنبیاء الآخرین الذین التزموا الصدق سینالون ثوابهم.

یتّضح لنا من هذا بأنّ جمیع الأعمال الصالحات یمکن أن تنطوی تحت عنوان الصدق فی القول و الفعل، و أنّه الرصـید الذی ینفع یوم القیامة لا غیر.

و هؤلاء الصادقون: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها و خیر من هذه النعمة المادیة أنّهم: رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ و لا شک أنّ هذه النعمة الکبری التی تجمع بین النعم المادیة و النعم المعنویة شیء عظیم: ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ

یلفت النظر أنّ الآیـة، بعـد ذکر بساتین الجنّة و نعمها الکثیرة، تذکر نعمة رضـی اللّه عن عباده، و رضـی عباده عنه و تصف ذلک بأنّه الفوز العظیم، و هـذا یدل علی مدی أهمیة هذا الرضـی المتبادل، فقد یکون امرؤ غارقا فی أرفع نعم اللّه، و لکنّه إذا أحس بأنّ مولاه و معبوده و محبوبه لیس راضیا عنه، فإن جمیع تلک النعم و الهبات تصیر علقما فی ذائقة روحه.

کما یمکن أن یتوفر لامرئ کل شـیء، و لکنه لا یکون راضـیا و لا قانعا بما عنـده، فمن الواضـح أنّ هذه النعم بأجمعها غیر قادرة علی

إسعاد تلك الروح، بل تكون دائما معرضة لعذاب قلق غامض و اضطراب نفسى مستمر يقضيان على الراحة النفسية التى هى من أعظم نعم اللّه.

ثمّ إذا كان اللّه راضيا عن امرئ فإنّه يعطيه كل ما يريد، فإذا أعطاه كل ما يريد فإنّه يكون راضيا عن ربّه أيضا، من هنا فإنّ أعظم النعم هى أن يرضى اللّه عن الإنسان و يرضى الإنسان عن ربّه.

و فى آخر الآية إشارة إلى امتلاك اللّه كل شىء و سيطرته على السموات و الأرض و ما فيها، و أنّ قدرته عامّة تشمل كل شىء: لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۸

وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذه الآية، فى الواقع، تعتبر سبب رضى عباد اللّه عن اللّه، و ذلك لأنّ الذى يملك كل شىء فى عالم الوجود له القدرة أن يعطى عباده ما يريدون و أن يغفر لهم و أن يفرحهم و يرضيهم، كما تتضمن إشارة إلى عدم صدق أعمال النصارى فى عبادة مريم، لأنّ العبادة جديرة بأن تكون لمن يحكم عالم الخليقة بأكمله، لا مريم التى لا تزيد عن كونها مخلوقة مثلهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۹

سورة الأنعام

اشارة

مكيّة و فيها مائة و خمس و ستون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۱

سورة الأنعام

سورة محاربة أنواع الشرك و الوثنية

قيل أنّ سورة الأنعام مكية، و هى السورة التاسعة و الستون فى تسلسل نزول السور القرآنية، إلّا أنّ هناك اختلافا بشأن عدد من آياتها، يعتقد بعض أنّ تلك الآيات نزلت فى المدينة، لكن الأخبار الواصلة إلينا من أئمّة أهل البيت عليهم السّلام تفيد بأن واحدة من مميزات هذه السورة هى أنّ آياتها جميعا نزلت فى مكان واحد، و عليه فكل آياتها مكية.

هدف هذه السورة الرئيسى- مثل أهداف السور المكية- توكيد الأصول الثلاثة: «التوحيد» و «النبوة» و «المعاد»، و لكنها تؤكّد أكثر ما تؤكّد قضية عبادة اللّه الواحد و محاربة الشرك و الوثنية، بحيث أنّ معظم آيات هذه السورة يخاطب المشركين و عبدة الأصنام، و بهذا يتناول البحث فى أكثر المواضع أعمال المشركين و بدعهم.

على كل حال، فإن تدبر آيات هذه السورة و التفكير فى استدلالاتها الحية الجلية، يحيى روح التوحيد و عبادة اللّه فى الإنسان، و يحطم قواعد الشرك و يقتلع جذوره، و لعل السبب فى نزول هذه السورة فى مكان واحد هو هذا التماسك المعنوى و إعطاء الأولوية لمسألة التوحيد.

و لعل هذا أيضا هو السبب لما نقرؤه من روايات عن فضل هذه السورة، و إنّها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملك، و أنّ من يقرأها و ترتوى روحه من ينبوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۲

التوحيد يستغفر له كل أولئك الملائكة.

إنّ التمعن فى آيات هذه السورة يقضـى على روح النفاق و التشـتت بين المسـلمين، و يجعل الآذان سميعة، و الأعين بصيرة، و القلوب عارفة.

و لكن العجيب أن نرى بعضـهم يكتفى من هـذه السورة بقراءة ألفاظهـا فقـط، و يعقـد الجلسـات لتلاوة آياتها من أجل حل المشاكل الشخصـية، فلو اهتمت هـذه الجلسـات بمحتوى السورة، فلا تنحل المشاكل الخاصّـة وحـدها، بل تنحل جميع مشاكل المسـلمين العامّة أيضا، و من المؤسف جـدا أنّ جمعا من الناس يعتبرون القرآن مجموعة من (الأوراد) التى لها خواص غامضة و مجهولة فيقرءونها بغير تمعن فى مضامينها، مع أن القرآن كلّه مدرسة و دروس و منهج و يقظة، و رسالة و وعى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۳

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲)

التّفسير

اشارة

تبدأ السّورة بالحمد للّه و الثناء عليه، ثمّ تشـرع بتوعية الناس على مبدأ التوحيد، عن طريق خلق العالم الكبير (السموات و الأرض) أولا، ثمّ عن طريق خلق العالم الصـغير (الإنسان) ثانيا: الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ اللّه الذى هو مبدأ الظّلمة و النّور، و بخلاف ما يعتقده الثنويون، و هو وحده خالق كل شىء: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ.

غير أنّ الكافرين و المشـركين، بـدلا من أن يتعلموا من هـذا النظام الواحـد درس التوحيد، يصـطنعون للّه الشـريك و الشبيه: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۱۰۳].

نلاحظ أنّ القرآن يـذكر عقيدة المشـركين بعد حرف العطف «ثم» الذى يدل فى اللغة العربية على الترتيب و التراخى، و هذا يدل على أن التوحيد كان فى أوّل الأمر مبدأ فطريا و عقيدة عامّة للبشر، بعد ذلك حصل الشرك كانحراف عن الأصل الفطرى.

أمّا لماذا استعملت الآية كلمة «الخلق» بشأن السموات و الأرض، و كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۴

«جعل» بشأن النّور و الظلمـة، فـإنّ للمفسّـرين فى ذلـك كلاما كثيرا، و لكن أقربه إلى الـذهن هو القول بأنّ «الخلق» يكون فى أصـل وجود الشـىء، و «الجعل» يكون بشأن الخصائص و الآثار و الكيفيات التى هى نتيجـة لخلق تلك المخلوقات، و لما كان النّور و الظلمة حالتين تابعتين فقد عبّر عنهما بلفظة «جعل».

و

روى عن أمير المؤمنين على عليه السّـلام فى تفسير هـذه الآية قوله: «و كان فى هذه الآية ردّ على ثلاثة أصـناف منهم، لما قال: الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فکان ردّا علی الدهریة الذین قالوا: إنّ الأشیاء لا بدء لها و هی دائمة، ثمّ قال: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ فکان ردّا علی الثنویة الذین قالوا: إنّ النّور و الظلمة هما المدبران.

ثمّ قال: ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ یَعْدِلُونَ فکان ردّا علی مشرکی العرب الذین قالوا: إنّ أوثاننا آلهة»[۱۰۴].

هل الظّلمة من المخلوقات؟

تفید الآیة إنّه مثلما أن «النّور» من مخلوقات اللّه، فإنّ «الظلمة» کذلک من مخلوقاته، مع أنّ الفلاسفة و المختصین بالعلوم الطبیعیة یعرفون أنّ الظلمة هی انعدام النّور، و لهذا فلا یمکن اطلاق صفة «المخلوق» علی المعدوم إذن، کیف تعتبر الآیة المذکورة الظلمة من المخلوقات؟

فی ردّ هذا الاعتراض نقول.

أوّلا: الظّلمة لیس تعنی دائما الظلام المطلق، بل کثیرا ما تطلق علی النّور الضعیف جدا بالمقارنة مع النّور القوی، فنحن جمیعا نقول، مثلا، لیل مظلم، مع العلم بأنّ ظلام اللیل لیس ظلاما مطلقا، بل هو مزیج من نور النجوم الضعیف أو مصادر أخری للنور، و علی هذا یکون مفهوم الآیة هو أنّ اللّه جعل لکم نور النهار و ظلام اللیل، فالأوّل نور قوی و الآخر نور ضعیف جدا و واضح أنّ الظلمة، بهذا المعنی، تکون من المخلوقات.

و ثانیا: صحیح أنّ الظلمة المطلقة أمر عدمی، و لکن الأمر العدمی- فی ظروف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۵

خاصّة- یکون نابعا من أمر وجودی، أی أنّ یوجد الظلمة المطلقة فی ظروف خاصة لهدف معین، لا بدّ أن یکون قد استعمل لذلک وسائل وجودیة، فإذا أردنا أنّ نجعل الغرفة مظلمة لتحمیض صورة- مثلا- فعلینا أن نمنع النّور لکی تحصل الظلمة فی تلک اللحظة المعینة، و ظلمة هذا شأنها ظلمة مخلوقة (مخلوقة بالتبع).

و إذا لم یکن (العدم المطلق) مخلوقا، فإن (العدم الخاص) له نصیب من الوجود، و هو مخلوق.

النّور رمز الوحدة، و الظلمة رمز التشتت:

الأمر الآخر الذی ینبغی الالتفات إلیه هنا هو أنّ لفظة (نور) ترد فی القرآن بصیغة المفرد، بینما الظلمة تأتی بصیغة الجمع (ظلمات).

و قد یکون هذا إشارة لطیفة إلی حقیقة کون الظلام (المادی و المعنوی) مصدرا دائما للتشتت و الانفصال و التباعد، بینما النّور رمز التوحد و التجمع طالما شاهدنا أنّنا فی اللیلة الصیفیة الظلماء نوقد سراجا فی فناء الدار، ثمّ لا تمضی إلّا دقائق حتی نری مختلف أنواع الحشرات تتجمع حول السراج مؤلفة تجمعا حیا حول النّور، و لکننا إذا أطفأنا السراج تفرقت الحشرات کل إلی جهة، کذلک الحال فی الشؤون المعنویة و الاجتماعیة. فنور العلم و القرآن و الإیمان أساس الوحدة، و ظلام الجهل و الکفر و النفاق أساس التفرق و التشتت.

قلنا: إنّ هذه السورة تسعی إلی لفت نظر الإنسان إلی العالم الکبیر لتثبیت قواعد عبادة اللّه و التوحید فی القلوب، توجه نظره أوّلا إلی العالم الکبیر، و الآیة التّالیة تلفت نظره إلی العالم الصغیر (الإنسان) فتشیر إلی أعجب أمر، و هو خلقه من الطین فتقول هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ طِینٍ

صحیح أنّنا ولدنا من أبوینا، لا من الطین، و لکن بما أنّ خلق الإنسان الأوّل کان من الطین، فیصح أن نخاطب نحن أیضا علی أننا

مخلوقين من الطين.

و تستمر السورة فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول: إنّ اللّه بعد ذلك عين مدّة يقضيها الإنسان على هذه الأرض للنمو و التكامل: ثُمَّ قَضى أَجَلًا.

«الأجل» فى الأصل بمعنى «المدّة المعينة» و «قضاء الأجل» يعنى تعيين تلك

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۶

المدّة أو إنهاءها، و لكن كثيرا ما يطلق على الفرصة الأخيرة اسم «الأجل»، فتقول، مثلا: جاء أجل الدّين، أى أنّ آخر موعد التسديد الدّين قد حل. و من هنا أيضا يكون التعبير عن آخر لحظة من لحظات عمر الإنسان بالأجل لأنّها موعد حلول الموت.

ثمّ لاستكمال البحث تقول: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ

بعد ذلك تخاطب الآية المشركين و تقول لهم: ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ أى تشكون فى قدرة الخالق الذى خلق الإنسان من هذه المادة التافهة (الطين) و اجتاز به هذه المراحل المدهشة، و تعبدون من دونه موجودات لا قيمة لها كالأصنام.

ما معنى الأجل المسمى؟

لا شك أنّ «الأجل المسمى» و «أجلا» فى الآية مختلفتان فى المعنى، أمّا اعتبار الإثنين بمعنى واحد فلا ينسجم مع تكرار كلمة «أجل» خاصّة مع ذكر القيد:

«مسمى» فى الثّانى.

لذلك بحث المفسّرون كثيرا فى الاختلاف بين التعبيرين، و القرائن الموجودة فى القرآن و الرّوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام تفيد أنّ «أجل» وحدها تعنى غير الحتمى من العمر و الوقت و المدّة، و «الأجل المسمى» بمعنى الحتمى منها، و بعبارة أخرى «الأجل المسمى» هو «الموت الطبيعى» و «الأجل» هو الموت غير الطبيعى.

و لتوضيح ذلك نقول: إنّ الكثير من الموجودات لها من حيث البناء الطبيعى و الذاتى الاستعداد القابلية للبقاء مدّة طويلة، و لكن قد تحصل خلال ذلك موانع تحول بينها و بين الوصول إلى الحد الطبيعى الأعلى، افترض سراجا نفطيا يستطيع أنّ يبقى مشتعلا مدّة عشرين ساعة مع الأخذ بنظر الإعتبار سعته النفطية، غير أن هبوب ريح قوية، أو هطول المطر عليه أو عدم العناية به، يكون سببا فى قصر مدّة الإضاءة، فإذا لم يصادف السراج أى مانع، و ظل مشتعلا حتى آخر قطرة من نفطه ثمّ انطفأ نقول: إنّه وصل إلى أجله المحتوم، و إذا أطفأته الموانع قبل ذلك، فيكون عمره «أجل» غير محتوم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۷

و الحال كذلك بالنسبة للإنسان، فإذا توفرت جميع ظروف بقائه و زالت جميع الموانع من طريق استمرار حياته، فإن بنيته تضمن بقاءه مدّة طويلة إلى حد معيّن، و لكنّه إذا تعرض لسوء التغذية، أو ابتلى بنوع من الإدمان، أو إذا انتحر، أو أعدم لجريمة و مات قبل تلك المدّة، فإنّ موته فى الحالة الاولى يكون أجلا محتوما، و فى الحالة الثّانية أجلا غير محتوم.

و بعبارة أخرى: الأجل الحتمى يكون عند ما ننظر إلى «مجموع العلل التامّة».

و الأجل غير الحتمى يكون عند ما ننظر إلى «المقتضيات» فقط.

استنادا إلى هذين النوعين من الأجل يتّضح لنا كثير من الأمور، من ذلك مثلا ما نقرؤه فى الرّوايات و الأحاديث من أن صلة الرحم تطيل العمر، و قطعها يقصر العمر، و واضح أنّ العمر هنا هو الأجل غير الحتمى.

أمّا قوله تعالى: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ ١٠٥].

فهو الأجل المحتوم، أی أنّ الإنسان قد وصل إلی نهایة عمره، و هو لا یشمل الموت غیر المحتوم السابق لأوانه.

و لکن علینا أن نعلم- علی کل حال- أنّ الأجلین یعینهما اللّه، الأوّل بصورة مطلقة، و الثّانی بصورة معلقة أو مشروطة، و هذا یشبه بالضبط قولنا: إنّ هذا السراج ینطفئ بعد عشرین ساعة بدون قید و لا شرط، و نقول إنّه ینطفئ بعد ساعتین إذا هبت علیه ریح، کذلک الأمر بالنسبة للإنسان و الأقوام و الملل، فنقول: إنّ اللّه شاء أن یموت الشخص الفلانی أو أن تنقرض الأمّة الفلانیة بعد کذا من السنین، و نقول إنّ هذه الأمّة إذا سلکت طریق الظلم و النفاق و التفرقة و الکسل و التهاون فإنّها ستهلک فی ثلث تلک المدّة، کلا الأجلین من اللّه، الأوّل مطلق و الآخر مقید بشروط.

جاء عن الإمام الصادق علیه السّلام تعقیبا علی هذه الآیة قوله: «هما أجلان: أجل محتوم و أجل موقوف»

کما جاء عنه فی أحادیث أخری أنّ الأجل الموقوف قابل للتقدیم و التأخیر، و الأجل الحتمی لا یقبل التغییر[۱۰۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۸

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۳]

اشارة

وَ هُوَ اللَّهُ فِی السَّماواتِ وَ فِی الْأَرْضِ یَعْلَمُ سِرَّکُمْ وَ جَهْرَکُمْ وَ یَعْلَمُ ما تَکْسِبُونَ (۳)

التّفسیر

هذه الآیة تکمل البحث السابق فی التوحید و وحدانیة اللّه، و ترد علی الذین یقولون بوجود إله لکل مجموعة من الکائنات، أو لکل ظاهرة من الظواهر، فیقولون: إله المطر، و إله الحرب، و إله السلم، و إله السماء، و ما إلی ذلک، تقول الآیة: وَ هُوَ اللَّهُ فِی السَّماواتِ وَ فِی الْأَرْضِ ۱۰۷] أی کما أنّه خالق کل شیء فهو مدبر کل شیء أیضا، و بذلک ترد الآیة علی مشرکی الجاهلیة الذین کانوا یعتقدون أنّ الخالق هو «اللّه» لکنّهم کانوا یؤمنون أنّ تدبیر الأمور بید الأصنام.

هنالک احتمال آخر فی تفسیر الآیة، و هو أنّها تعنی حضور اللّه فی کل مکان، فی السموات و الأرض، و لا یخلو منه مکان، فلیس هو بجسم لیشغل حیزا معینا، بل هو المحیط بکل الأمکنة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۹

من الطبیعی أن یکون الحاکم علی کل شیء و المدبر لکل الأمور و الحاضر فی کل مکان عارفا بجمیع الأسرار و الخفایا و لهذا تقول الآیة: إنّ ربّا کهذا یَعْلَمُ سِرَّکُمْ وَ جَهْرَکُمْ وَ یَعْلَمُ ما تَکْسِبُونَ

قد یقال بأنّ (السرّ) و (الجهر) یشملان أعمال الإنسان و نوایاه، و علی ذلک فلا حاجة لذکر وَ یَعْلَمُ ما تَکْسِبُونَ

و لکن ینبغی الالتفات إلی أنّ «الکسب» هو نتائج العمل و الحالات النفسیة الناشئة عن الأعمال الحسنة و الأعمال السیئة، أی أنّ اللّه یعلم أعمالکم و نوایاکم، کما یعلم الآثار التی تخلفها تلک الأعمال و النوایا فی نفوسکم، و علی کل حال، فانّ ذکر العبارة هذه یفید التوکید بشأن أعمال الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۰

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۴ الی ۵]

اشارة

وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۴) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۵)

التّفسیر

قلنا: إنّ معظم الخطاب فی سورة الأنعام موجه إلی المشرکین، و القرآن یستخدم شتی السبل لإیقاظهم و توعیتهم، فهذه الآیة و الآیات الکثیرة التی تلیها تواصل هذا الموضوع.

تشیر هذه الآیة إلی روح العناد و اللامبالاة و التکبر عند المشرکین تجاه الحقّ و تجاه آیات اللّه فتقول: وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ ١٠٨].

أی أنّ أبسط شروط الهدایة- و هو البحث و التقصی- غیر موجود عندهم، و لیس فیهم أی اندفاع لطلب الحقیقة، و لا یحسّون بعطش إلیها لیبحثوا عنها،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۱

و حتی لو تدفّق ینبوع الماء الزلال عند عتبات بیوتهم لأعرضوا عنه و لما نظروا الیه ... و کذلک فهم یعرضون عن آیات «ربّهم» النازلة لتربیتهم و تکاملهم.

مثل هذه النفسیة لا یقتصر وجودها علی عهود الجاهلیة و مشرکی العرب، فالیوم أیضا نجد من بلغ الستین من عمره و مع ذلک لم یجشم نفسه عناء ساعة واحدة من البحث و التحقیق فی اللّه و الدین، و إن وقع بیده کتاب أو بحث فی هذا الموضوع لم ینظر إلیه، و إن تحدث إلیه أحد بهذا الشأن لم یصغ إلیه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذین قد یظهرون أحیانا أمام الناس بمظهر العالم المتجبر! ثمّ تشیر الآیة إلی نتیجة أعمالهم، و هی: أنّهم عند ما رأوا الحقیقة کذبوها، و لو أنّهم دققوا فی آیات اللّه جیدا لرأوا الحقیقة و أدرکوها و آمنوا بها: فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ و لسوف تصلهم نتیجة هذا التکذیب و السخریة: فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

فی هاتین الآیتین إشارة إلی ثلاث مراحل من الکفر تتزاید فی الشدّة علی التوالی، المرحلة الاولی هی مرحلة الإعراض، ثمّ مرحلة التکذیب، و أخیرا مرحلة الاستهزاء بآیات اللّه.

یدل هذا علی أنّ الإنسان فی کفره لا یتوقف فی مرحلة واحدة، بل یزداد باستمرار إنکارا للحق و عدواة له و ابتعادا عن اللّه.

المقصود من التهدید المذکور فی آخر الآیة أنّ أوزار عدم الإیمان ستحیق بهم عاجلا أو آجلا فی الدنیا و الآخرة، و الآیات التّالیة تؤکّد هذا التّفسیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۲

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۶]

اشارة

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۶)

التّفسیر

مصير الطّغاة:

ابتداء من هذه الآية و ما بعدها يشرع القرآن بعرض خطّة تربوية مرحلية لإيقاظ عبدة الأصنام و المشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عنـد الفريقين، يبـدأ أوّلا بمكافحـة عامل (الغرور) و هو من عوامل الطغيان و العصـيان و الانحراف المهمّـة، فيذكرهم بالأمم السالفة و مصائرهم المؤلمة، و بذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوة الغرور، و يقول: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً[۱۰۹] وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۳

و لكنّهم لمّا استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهى: فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ

أ فلاـ ينبغى أنّ يكون علمهم بمصـائر الماضـين عبرة لهم، توقظهم من نوم غفلتهم، و من سـكرتهم؟ أليس اللّه الـذى أهلـك السابقين بقادر على أن يهلك هؤلاء أيضا؟

هاهنا بضع نقاط نلفت إليها الانتباه:

۱- على الرّغم من أن «قرن» تعنى فترة طويلة من الزمن (مائة، أو سبعين أو ثلاثين سـنة)، و لكنّها قد تعنى أيضا- كما يقول اللغويون- القوم و الجماعـة فى زمـان معين (القرن من الاقتران بمعنى التقارب، و بالنظر لأنّ أهل العصـر الواحـد أو العصور المتقاربـة قريبون من بعضهم فقد يطلق عليهم و على زمانهم اسم القرن).

۲- يتكرر فى القرآن القول بأنّ الإمكانات الماديـة الكثيرة تبعث على الغرور و الغفلـة لـدى ضـعفاء النفس من الناس كقوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى ۱۱۰] لأنّهم بتوفر تلك الإمكانات عنـدهم يرون أنفسـهم فى غنى عن اللّه، غافلين عن العنايـة الإلهية و الإمدادات الربانية المغدقة عليهم فى كل لحظة و ثانية، و لولاها لما استمروا على قيد الحياة.

۳- ليس هـذا التحـذير مختصا بعبـدة الأصـنام، فالقرآن يخاطب- أيضا- اليوم العالم الصـناعى الثرى الـذى أثملته الإمكانات المادية و ملأـته بالغرور، و يحـذره من نسـيان الأقوام السابقـة و ممّا حاق بهم نتيجـة ما ارتكبوه من ذنوب، و كأنى بالقرآن يقول للمغرورين فى عالمنا اليوم: إنّكم ستفقدون كل شيء بانطلاق شرارة حرب عالمية أخرى، لتعودوا إلى عصر ما قبل التمدن الصناعى اعلموا أنّ سبب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۴

تعاسة أولئك لم يكن شيئا سوى إثمهم و ظلمهم و اضطهادهم الناس و عدم إيمانهم و هذه عوامل ظاهرة فى مجتمعكم أيضا.

حقا إنّ دراسة تاريخ فراعنة مصـر، و ملوك سبأ و سـلاطين كلدة و آشور، و قياصـرة الرّوم، و معيشـتهم الباذخة الأسطورية و ما كانوا يتقلبون فيه من نعم لا تعـد و لا تحصـى، ثمّ رؤيـة عواقب أمورهم المؤلمـة التى حاقت بهم بسبب ظلمهم الذى قوض أركان حياتهم، فيها أعظم العبر و الدروس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۵

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷]

اشارة

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِى قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷)

التّفسير

منتهى العناد!

من عوامل انحرافهم الأخرى التكبر و العناد اللذين تشير إليهما، هذه الآية، أنّ المتكبر المكابر انسان عنيد فى العادة، لأنّ التكبر لا يسمح لهم بالاستسلام للحق و الحقيقة، و الأفراد المتصفون بهذه الصفة يكونون عادة معاندين مكابرين، ينكرون حتى الأمور الواضحة القائمة على الدليل و البرهان، بل ينكرون حتى البديهيات، كما نراه بأمّ أعيننا فى المتكبرين من أبناء مجتمعاتنا.

يشير القرآن هنا إلى الطلب الذى تقدم به جمع من عبدة الأصنام (يقال أنّ هؤلاء هم نضر بن الحارث و عبد اللّه بن أبى أمية، و نوفل بن خويلد الذين قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لن نؤمن حتى ينزل اللّه كتابا مع أربعة من الملائكة!) و يقول:

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۶

أى أنّ عنادهم قد وصل حدّا ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم و يلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحرا لكيلا يستسلموا للحقيقة، مع أنّهم فى حياتهم اليومية يكتفون بعشر هذه الدلائل للإيمان بالحقائق و يقتنعون بها، و ما هذا بسبب ما فيهم من أنانية و تكبر و عناد.

و بهذه المناسبة فإنّ «القرطاس» هو كل ما يكتب عليه، سواء أ كان ورقا أو جلدا أو ألواحا، أمّا إطلاقه اليوم على الورق فذلك لانتشار تداول الورق أكثر من غيره للكتابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (۸) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (۹) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰)

التّفسير

خلق المبررات:

من عوامل الكفر و الإنكار الأخرى، روح التحجج و البحث عن المبررات، و على الرغم من أنّ لهذه الروح عوامل أخرى، مثل التكبر و الأنانية، و لكنّه ينقلب بالتدريج إلى حالة نفسية سلبية، تصبح بدورها عاملا من عوامل عدم التسليم للحق.

و من جملة الحجج التى احتج بها المشركون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أشار إليها القرآن فى كثير من آياته- و منها هذه الآية- هى أنّهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۸

جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أ يمكن لإنسان من جنسنا أنّ يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ

و لا مجال لهذا التحجج على نبوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع كل هذه الدلائل الواضحة و الآيات البيّنات، ثمّ إنّ الملك ليس أقدر من الإنسان و لا يملك قابلية لحمل رسالة أكثر من قابلية الإنسان بل انّ قابلية الإنسان أكثر بكثير.

يرد القرآن عليهم بجملتين فى كل منهما برهان:

الاولى: وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ

أي لو نزل ملك لمعاونة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهلك الكافرون، و سبب ذلك ما مرّ فى آيات سابقة، و هو أنّه إذا اتخذت النبوة جانب الشهود و الحس، أى إذا تحول الغيب بنزول الملك إلى شهود، بحيث يرى كل شيء عيانا، غدت المرحلة هى المرحلة النهائية فى إتمام الحجة، إذ لا يكون ثمّة دليل أوضح منها، و على ذلك فإن العصيان فى هذه الحالة يستوجب العقاب القاطع، و لكن اللّه للطفه و رحمته بعباده، و لكى يمنحهم فرصة التأمل و التفكير، لا يفعل ذلك إلّا فى حالات خاصّة يكون فيها طالب الدليل على أتمّ استعداد، أو فى حالات يستحق فيها طالب الدليل الهلاك، أى أنّه ارتكب ما يستوجب معه العقاب الإلهى، فى هذه الحالة يحقق له طلبه، ثمّ إذا لم يستسلم صدر أمر هلاكه.

الثّانية: هى أنّ الرّسول الذى يبعثه اللّه لقيادة الناس و تربيتهم و ليكون أسوة لهم، لا بدّ أن يكون من جنس الناس أنفسهم و على شاكلتهم من حيث الصفات و الغرائز البشرية، أمّا الملك فلا يظهر لعيون البشر كما أنّه ليس بإمكانه أنّ يكون قدوة عملية لهم، لأنّه لا يدرى شيئا عن حاجاتهم و آلامهم و لا عن غرائزهم و متطلباتها، لذلك فإن قيادته لجنس يختلف عنه كل الاختلاف لا يحقق الهدف.

لذلك فالقرآن فى الجواب الثّانى يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكا حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان و أن يظهر فى هيئة إنسان:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۹

وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا[۱۱۱].

يتّضح ممّا قلنا أنّ جملة لَجَعَلْناهُ رَجُلًا لا تعنى: أنّنا سنجعله على هيئة انسان، كما تصور بعض المفسّرين، بل تعنى: أنّنا نجعله على هيئة البشر فى الصفات الظاهرية و الباطنية، ثمّ يستنتج من ذلك أنّهم- فى هذه الحالة أيضا- كانوا سيعترضون الاعتراض نفسه، و هو: لماذا أوكل اللّه مهمّة القيادة إلى بشر و أخفى عنّا وجه الحقيقة: وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ

«اللبس» بمعنى خلط الأمر و جعله مشتبها بغيره خافيا، و «اللبس» بمعنى ارتداء اللباس، و من الواضح أنّ الآية تقصد المعنى الأوّل، أى أنّنا لو أردنا أن نرسل ملكا لوجب أن يكون فى صورة الإنسان و سلوكه، و فى هذه الحالة سيعتقدون أنّنا خلطنا الأمر على الناس و أوقعناهم فى الاشتباه، و لكانوا يشكلون علينا الإشكالات السابقة، بمثل ما يوقعون الجهلة من الناس فى الخطأ و الاشتباه و يلبسون وجه الحقيقة عنهم، و عليه فإنّ نسبة «اللبس» و الإخفاء إلى اللّه إنّما هى من وجهة نظرهم الخاصة.

و فى الختام يهون الأمر على رسوله و يقولون له: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

هذه الآية فى الواقع تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يطلب اللّه فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع، و يهدد فى الوقت نفسه المخالفين و المعاندين و يطلب منهم أن يتفكروا فى عاقبة أمرهم المؤلمة[۱۱۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۰

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۱]

اشارة

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۱)

التّفسير

لكى يوقظ القرآن هؤلاء المعاندين المغرورين يسلك فى هذه الآية سبيلا آخر فيأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحة فى أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر أولئك الذين كذبوا بالحقائق، فلعل ذلك يوقظهم من غفلتهم قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

لا شك أنّ لرؤية آثار السابقين و الأقوام التى هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيرا أعمق من مجرّد قراءة كتب التّأريخ، لأنّ هذه الآثار تجسد الحقيقة ناطقة ملموسة، و لهذا استعمل جملة «أنظروا» و لم يقل «تفكروا».

و لعل استعمال «ثم» لعاطفة التى تفيد عادة التراخى الزمنى يراد منه أن لا يتعجلوا فى سيرهم و فى اطلاق أحكامهم، عليهم أن يمعنوا النظر فى تلك الآثار التى خلفتها الأقوام السالفة و يفكروا فيها ثمّ يأخذوا منها العبر و يروا عاقبة أعمال تلك الأمم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۱

فيما يتعلق بالسير و السياحة فى الأرض و تأثيره فى إيقاظ الأفكار انظر تفسير الآية (۱۳۷) من سورة آل عمران فى هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۲

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲ الى ۱۳]

اشارة

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۲) وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۳)

التّفسير

اشارة

يواصل القرآن مخاطبة المشركين، ففى الآيات السابقة دار الكلام حول التوحيد و عبادة اللّه الأحد و هنا يدور الحديث عن المعاد، و بالإشارة إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقة رائعة، هى طريقة السؤال و الجواب، و السائل و المجيب كلاهما واحد، و هو من الأساليب الأدبية الجميلة.

يتكون الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

أوّلا- يقول: قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثمّ يقول مباشرة: أجب أنت بلسان فطرتهم و روحهم: قُلْ لِلَّهِ فبموجب هذه المقدمة يكون كل عالم الوجود ملكا للّه و بيده و تدبيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۳

ثانيا: إنّ اللّه هو وحده مصدر كل رحمة، و هو الذى أوجب على نفسه الرحمة، و يفيض بنعمه على الجميع: كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

أ يمكن لربّ هذا شأنه أن يقطع سلسلة حياة البشر نهائيا بالموت فيوقف التكامل و استمرار الحياة؟ أ يتفق هذا مع مبدأ كون اللّه

«فياضا» و «ذا رحمة واسعة»؟ أ يمكن أن يكون قاسيا على عباده بهذا الشكل، و هو مالكهم و مدبر شؤونهم، بحيث أنّهم بعد مدّة يفنون و يتبدلون إلى لا شيء؟

طبعا لا، إذ أنّ رحمته الواسعة توجب عليه أن يسير بالكائنات- و خاصة البشر- فى طريق التكامل، بمثل ما يجعل برحمته من البذرة الصغيرة الزهيدة شجرة ضخمة قوية، أو يحيلها إلى شجيرة ورد جميلة، كما أنّه بفيض رحمته يبدل النطفة التافهة إلى انسان كامل، هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدى الإنسان- الذى عند امكانية الخلود- لباس حياة جديدة بعد موته فى عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة فى سيره التكاملى الأبدى، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ

إنّ الآية تبدأ بالاستفهام التقريرى الذى يراد به انتزاع الإقرار من السامع، و لمّا كان هذا الأمر مسلما به بالفطرة، كما كان المشركون يعترفون بأنّ مالك عالم الوجود ليس الأصنام، بل اللّه، فإنّ الجواب يرد مباشرة، و هذا أسلوب جميل فى عرض مختلف المسائل.

فى مواضع أخرى من القرآن يستدل على المعاد بطرق أخرى، بطريق قانون العدالة، و قانون التكامل، و الحكمة الإلهية، و لكن الاستدلال بالرحمة استدلال جديد جاءت به هذه الآية.

فى نهاية الآية إشارة إلى مصير المشركين المعاندين و عاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم فى سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق:

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۴

ما أعجب هذا التعبير! فقد يخسر المرء أحيانا ثروته أو مركزه أو أى نوع آخر من أنواع رأس المال، ففى هذه الحالات يكون قد خسر شيئا، و لكن هذا الشيء الذى خسره لا يكون جزءا من وجوده، أى أنّه خارج وجوده، أمّا أعظم الخسائر التى هى فى الواقع الخسارة الحقيقية، فهى عند ما يخسر الإنسان أصل وجوده.

إنّ أعداء الحقيقة و المعاندين يخسرون تماما رأس مال العمر و رأس مال الفكر و العقل و الفطرة و جميع المواهب الروحية و الجسمية التى كان ينبغى لهم أن يستخدموها فى طريق الحقّ للوصول إلى مرحلة التكامل، و عندئذ لا يبقى رأس المال و لا صاحبه.

لقد ورد هذا التعبير فى عدد من آيات القرآن الكريم، و هى تعبيرات مرعبة عن المصير المؤلم الذى ينتظر منكرى الحقيقة و المذنبين الملوثين.

سؤال:

قد يقال: إنّ الحياة الأبدية تكون مصداقا للرّحمة بالنسبة للمؤمنين فقط، أمّا لغيرهم فهى لا تعدو أن تكون شقاء و تعاسة.

الجواب:

لا- شك أنّ اللّه هو الذى يوفر فرص الرحمة، فهو الذى خلق الإنسان، و وهب له العقل، و أرسل له الأنبياء لقيادته و هدايته، و منحه مختلف أنواع النعم، و فتح أمامه طريقا للحياة الخالدة، فهذه كلّها ألوان من الرحمة.

و الإنسان فى غضون مسيرته للوصول إلى ثمرات هذه الرحمة إذا انحرف عن طريق و حول هذه الرحمة إلى عذاب و شقاء، فإنّ ذلك لا يخرجها عن كونها رحمة، بل الإنسان هو الملوم على الانحراف عنها و تبديلها إلى عذاب و ألم.

الآية الثّانية تكمل فى الواقع الآية السابقة، فالآية السابقة تشير إلى أنّ اللّه مالك كلّ شيء يستوعبه ظرف «المكان»: قُلْ لِمَنْ ما فِي

السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ...؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۵

أمّا هذه الآية فتشير إلى ملكية اللّه لما يستوعبه ظرف «الزمان» الوسيع، و تقول: وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ.

فى الواقع، عالم المادة هذا يتحدد بالزمان و المكان، فكل الكائنات التى تقع ضمن ظرف المكان و الزمان- أى عالم المادة كله- ملك للّه.

و ليس الليل و النهار مختصين- طبعا- بالمنظومة الشمسية، فإنّ لجميع كائنات السماوات و الأرض ليلا و نهارا، بعضها له نهار دائم بلا ليل، و لبعضها ليل بلا نهار، ففى الشمس- مثلا- نهار دائم، فهناك ضوء دائم بلا ظلام، و فى بعض الكواكب الخامدة، التى لا نور فيها و لا تجاوز النجوم، ليل دائم سرمدى، و هذه كلّها مشمولة بالآية المذكورة.

لا بدّ هنا أن نلاحظ أنّ «سكن» و السكونة تعنى التوقف و الاستقرار فى مكان ما، سواء أ كان ذلك الموجود الساكن فى حالة حركة أو سكون، نقول مثلا: فلان «ساكن» فى المدينة الفلانية، أى أنّه مستقر هناك، مع أنّه يمكن أن يكون متحركا فى شوارعها.

كما يحتمل أن تقابل «السكون» فى هذه الآية «الحركة»، و لمّا كان السكون و الحركة من الحالات النسبية، فإنّ ذكر أحدهما يغنينا عن ذكر الآخر، و عليه يصبح معنى الآية هكذا: كل ما هو كائن فى الليل و النهار و ظرف الزمان ساكنا كان أم متحركا، ملك للّه.

و بهذا يمكن أن تكون الآية إشارة إلى أحد أدلة التوحيد، لأنّ «الحركة» و «السكون» حالتان عارضتان و حادثتان طبعا، فلا يمكن أن تكونا قديمتين أزليتين، لأنّ الحركة تعنى وجود الشىء فى مكانين مختلفين خلال زمانين، و السكون يعنى وجود الشىء فى مكان واحد خلال زمانين، و عليه فإنّ الالتفات إلى الحالة السابقة كامن فى ذات الحركة و السكون. و نحن نعلم أنّ الشىء إذا كانت له حالة سابقة لا يمكن أن يكون أزليا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۶

نستنتج من هذا الكلام أنّ الأجسام لا تخلو من الحركة و السكون، و أنّ ما لا يخلو من الحركة و السكون لا يمكن أن يكون أزليا، و عليه فكل جسم حادث، و كل حادث لا بدّ من محدث (خالق).

و لكن اللّه ليس جسما، فلا حركة له و لا سكون، و لا زمان و لا مكان، و لذلك فهو أبدى أزلى.

و فى نهاية الآية، و بعد ذكر التوحيد، تشير الآية إلى صفتين بارزتين فى اللّه فتقول: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى أنّ اتساع عالم الوجود، و الكائنات فى آفاق الزمان و المكان لا تحول أبدا دون أن يكون اللّه عليما بأسرارها، بل إنّه يسمع نجواها، و يعلم حركة النملة الضعيفة على الصخرة الصمّاء فى الليلة الظّلماء فى أعماق واد سحيق صامت، و إنّه ليدرك حاجاتها و حاجات غيرها، و يعلم ما تفعل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴ الى ۱۶]

اشارة

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۴) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۱۶)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏۴ ؛ ص۲۲۷

التّفسير

لا ملجأ غير اللّه!

من المفسّرين من يـذكر أنّ سـبب نزول الآيـة هو أنّه جـاء جمع من أهـل مكّـة إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و قالوا: يا محمّـد، إنّك تركت دين قومك، و لم يكن ذلك إلّا بسـبب فقرك، فاقبل منّا نصف أموالنا تكن غنيا على أن نترك آلهتنا و شأنها و تعود إلى ديننا، فنزلت هذه الآية ترد عليهم ۱۱۳].

سبق أن قلنا: إنّ آيات هذه السورة نزلت مرّة واحدة فى مكّة، كما جاء فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۸

الأخبار المرويـة، لـذلك لا يمكن أن يكون لكل منها سبب نزول خاص، غير أنّ أحاديث كانت قـد جرت قبل نزول هذه السورة بين رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و المشركين و بعض هذه الآيات تشير إلى تلك الأحاديث، لذلك ليس ثمّة ما يمنع أن تكون أحـاديث من هـذا القبيل أيضا قـد جرت بين رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و المشـركين، فيشير القرآن فى هـذه الآيات إلى أحاديثهم و يرد عليهم.

على كلّ حال، الهـدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد و محاربة الشـرك و عبادة الأصـنام فالمشـركون، و إن اعتقدوا أنّ اللّه هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصـنام ملجأ لأنفسـهم، و لربّما اتخذوا صنما لكل حاجة معينة، فلهم إله للمطر، و إله للظلام، و إله للحرب و السلم، و إله للرزق، و هذا هو تعدد الأرباب الذى ساد اليونان القديم.

و لكى يزيـل القرآن هـذا التفكير الخـاطئ، يـأمر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ

فإذا كان هو خالق عالم الوجود كله دون الاسـتناد إلى قـدرة أخرى، و هو الـذى يرزق مخلوقاته، فما الذى يدعو الإنسان إلى أن يتخذ من دونه وليا و ربّا؟

و إنّ كل الأشياء غيره مخلوقات و هى بحاجة إليه فى كل لحظات وجودها، فكيف يمكن لها أن تقضى حاجة الآخرين؟

هذه الآية تستعمل كلمة «فاطر» فى حديثها عن خالق السموات و الأرض، و أصل «الفطر» و «الفطور» هو الشق، يروى عن ابن عباس أنّه قـال: ما عرفت معنى فاطر السـموات و الأرض إلّا عنـد ما رأيت اعرابيين يتنازعان على بئر قال أحـدهما: «أنا فطرتها» أى أنا أحـدثتها و أوجدتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۹

و لكننا اليوم أقدر من ابن عباس على معرفة معنى «فاطر» بالاسـتعانة بالعلوم الحديثة، أنّه تعبير ينسجم مع أدق النظريات العلمية الحديثة عن تكون العالم، لقـد أظهرت دراسات العلماء أنّ العالم الكبير (الكون) و العالم الصـغير (المنظومة الشمسـية) كانت كلها كتلة واحدة تشـققت على أثر الإنفجارات المتتالية، و تكونت المجرات و المنظومات و الكرات، و فى الآية (۳۰) من سورة الأنبياء بيان أوضح لهذا الأمر: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما.

و النقطة الأخرى التى ينبغى ألا نغفل عنها فى هذه الآية هو أنّها تقتصر على توكيد اتصاف اللّه باطعام مخلوقاته و رزقهم، و لعل ذلك إشـارة إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان فى حياته الماديـة هى حاجته إلى «لقمـة العيش» كما يقال، و هـذه اللقمـة هى التى تحمل الناس على الخضوع لأصـحاب المال و القوّة، و قـد يصل خضوعهم لأولئك حـدّ العبوديـة، ففى هـذا يقرر القرآن رزق الناس بيد اللّه لا بيد هؤلاء و لا بيـد الأصـنام، فأصـحاب المال و القوّة هم أنفسـهم محتاجون إلى الطعام، و أنّ اللّه هو وحـده الذى يطعم الناس و لا يحتاج إلى طعام.

و فی آیات أخری نری القرآن یؤکّد مالکیة اللّه و رزاقیته بإنزال الأمطار و إنبات النباتات، و ذلک لکی یزیل من أذهان البشر کلیا فکرة اعتمادهم علی مخلوقات مثلهم.

ثمّ للردّ علی أولئک المشرکین الذین کانوا یدعون رسول اللّه إلی الانضمام إلیهم، یؤکّد القرآن علی ضرورة رفض دعوة هؤلاء انطلاقا من مبدأ نهی الوحی الإلهی عن ذلک، إضافة إلی نهی العقل: قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ [۱۱۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۰

لا شک أنّ أنبیاء اللّه و الصالحین من أقوامهم سبقوا النّبی الخاتم فی استسلامهم لأمر اللّه و علیه فإن قوله تعالی: إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ یعنی أوّل مسلم من أمّة الرسالة الخاتمة.

کما أنّ هذا إشارة إلی أمر تربوی مهم أیضا، و هو أنّ کل قائد ینبغی أن یکون فی تطلیق تعالیم دینه قدوة و طلیعة، علیه أن یکون أوّل المؤمنین برسالته، و أوّل العاملین بها، و أکثر الناس اجتهادا فیها، و أسرعهم إلی التضحیة فی سبیلها.

الآیة التّالیة فیها توکید أشدّ لهذا النهی الإلهی عن إتّباع المشرکین: قُلْ إِنِّی أَخافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ ۱۱۵] أی یأمر اللّه رسوله أن یقول بأنّه لیس مستثنی من القوانین الإلهیة، و أنّه یخاف- إن رکن إلی المشرکین- عذاب یوم القیامة.

و من هذه الآیة نفهم أیضا أنّ شعور الأنبیاء بالمسؤولیة یفوق شعور الآخرین بها.

و لکی یتّضح أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یستطیع شیئا بغیر الاستناد إلی لطف اللّه و رحمته، فکل شیء بید اللّه و بأمره، و حتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه یترقب بعین الرجاء رحمة اللّه الواسعة، و منه یطلب النجاة و الفوز: مَنْ یُصْرَفْ عَنْهُ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِکَ الْفَوْزُ الْمُبِینُ

هذه الآیات تبیّن منتهی درجات التوحید، و ترد علی الذین کانوا یرون للأنبیاء سلطانا مستقلا عن ارادة اللّه، کما فعل المسیحیون عند ما جعلوا من المسیح علیه السّلام المخلّص و المنقذ، فتقول لهم: إنّ الأنبیاء أنفسهم یحتاجون إلی رحمة اللّه مثلکم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۱

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۷ الی ۱۸]

اشارة

وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا کاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَ إِنْ یَمْسَسْکَ بِخَیْرٍ فَهُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۷) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ (۱۸)

التّفسیر

قدرة اللّه القاهرة:

قلنا إنّ هدف هذه السّورة هو استئصال جذور الشرک و عبادة الأصنام، و هاتان الآیتان تواصلان تحقیق ذلک.

فالقرآن یتساءل أوّلا: لماذا تتوجهون إلی غیر اللّه، و تلجأون إلی معبودات تصطنعونها لحل مشاکلکم و دفع الضر عن أنفسکم و استجلاب الخیر لها؟ بینما لو أصابک أدنی ضرر فلا یرفعه عنک غیر اللّه، و إذا أصابک الخیر و البرکة و الفوز و السعادة فما ذلک إلّا بقدرة اللّه، لأنّه هو القادر القوی: وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا کاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ یَمْسَسْکَ بِخَیْرٍ فَهُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ[۱۱۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۲

فی الواقع إنّ سبب الاتجاه إلی غیر اللّه إمّا لتصورهم أنّ ما یتجهون إلیه مصدر الخیرات، و إمّا لاعتقادهم بقدرته و أنّه یدرأ عنهم المصائب و یحل لهم مشاکلهم، و الخضوع إلی حد العبادة لذوی السلطان و المال و القوة ینشأ من أحد هذین الدافعین، هذه الآیة تبیّن أنّ إرادة اللّه حاکمة علی کل شیء، فإذا منع عن أحد نعمة، أو منح أحدا نعمة، فما من قدرة فی العالم تستطیع أن تغیر ذلک، فلما ذا إذن یطأطئون رؤوسهم خضوعا لغیره؟

إنّ استعمال «یمسسک» فی الخیر و الشر، و هی من «مسّ»، تشیر إلی أنّ الخیر و الشر- مهما قلّ- لا یکون إلّا بإرادته و قدرته.

ثمّ إنّ الآیة المذکورة تدحض فکرة «الثنویین» القائلین بمبدأی «الخیر» و «الشر» و عبادتهما، و تقول إنّ الإثنین کلیهما من جانب اللّه، و لکننا سبق أن قلنا أن لیس ثمّة شیء اسمه «الشر المطلق».

و علیه فعند ما ینسب الشر إلی اللّه فإنّما یقصد به علی الظاهر «سلب النعمة» و هو بحدّ ذاته «خیر»، فهو إمّا أن یکون للإیقاظ و التربیة و التعلیم و کبح حالات الغرور و الطغیان و الذاتیة، أو لمصالح أخری.

و فی الآیة التی تلیها إکمال للبحث، فیقول: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ

«القاهر» و «الغالب» و إن کانا بمعنی واحد، إلّا أنّهما من جذرین مختلفین، «القهر» یطلق علی ذلک النصر الذی یتحقق دون أن یتمکن الطرف المقهور من إبداء أیة مقاومة، و فی کلمة «الغلبة» لا یوجد هذا المعنی، و قد تحصل بعد المقاومة، و بعبارة أخری: القاهر یقال لمن یکون تسلطه علی الطرف الآخر من الشمول بحیث إنّه لا یستطیع المقاومة مطلقا کصبّ سطل من الماء علی جذوة صغیرة من النّار فیطفؤها فورا.

یری بعض المفسّرین أنّ «القهر» تستعمل حیث یکون المقهور کائنا عاقلا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۳

و لکن «الغلبة» أوسع منها و تشمل النصر علی الکائنات غیر العاقلة أیضا[۱۱۷].

و علیه إذا کانت الآیة السابقة تشیر إلی شمول قدرة اللّه إزاء المعبودات الزائفة الأخری و أصحاب القوّة، فذلک لا یعنی أنّه مضطر إلی الدخول مدّة فی صراع مع تلک القوی کی یتغلب علیها، بل یعنی أنّ قدرته قاهرة، و قد جاء تعبیر فَوْقَ عِبادِهِ لتأکید هذا المعنی.

و علی هذا، کیف یمکن لإنسان واع أن یعرض عن ربّ العالمین و یتجه إلی کائنات و أشخاص لا یملکون بذواتهم أیة قدرة، و ما یملکونه من قوّة زهیدة إنّما مصدرها اللّه أیضا.

و لإزالة کل و هم قد یخطر لأحدهم بأنّ اللّه قد یسیء استعمال قدرته غیر المتناهیة کما هو الحال فی ذوی القدرة من البشر، یقول القرآن: وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ أی أنّه صاحب حکمة و کل أعماله محسوبة، لأنه خبیر و عالم و لا یخطئ فی استعمال قدرته أبدا.

و نقرأ فی حالات «فرعون» أنّه عند ما هدد بقتل بنی إسرائیل، قال: وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ ۱۱۸] أی أنّه اتّخذ من قدرته القاهرة- و إن تکن ضعیفة- وسیلة للظلم و غمط حقوق الآخرین، إلّا أنّ اللّه الحکیم الخبیر بتلک القدرة القاهرة منزّه عن أن یظلم حتی أصغر مخلوقاته.

و من نافلة القول أنّ تعبیر فَوْقَ عِبادِهِ هو التفوق فی المقام لا فی المکان، إذ لیس للّه مکان محدد.

و من العجیب جدا أنّ بعض ذوی العقول المتحجرة اتّخذ من هذه الآیة دلیلا علی تجسیم اللّه سبحانه، علی الرغم من عدم وجود أی شک فی أنّ هذا التعبیر معنوی یدل علی تفوق اللّه من حیث القدرة علی عبیده و حتی فرعون- مع کونه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۴

بشرا ذا جسم- یستعمل الکلمة نفسها لإظهار تفوقه السلطوی، لا تفوقه المکانی (تأمل بدقّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۵

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۱۹) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۲۰)

التّفسير

أعظم الشّاهدين:

يذكر جمع من المفسّرين أنّ عددا من مشركى مكّة جاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: كيف تكون نبيّا و لا نرى أحدا يؤيدك؟ و حتى اليهود و النصارى الذين سألناهم، لم يشهدوا بصحة أقوالك بحسب ما عندهم فى التّوراة و الإنجيل، فهات من يشهد لك على رسالتك، و الآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعة.

فى مواجهة هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤية كل تلك الدلائل على صدق الرسالة، و يطلبون مزيدا من الشواهد، يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۶

أهناك شهادة أعظم من شهادة ربّ العالمين؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ و هل هناك دليل أكبر من هذا القرآن؟: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ هذا القرآن الذى لا يمكن أن يكون وليد فكر بشرى، خاصّة فى تلك الظروف الزّمانية و المكانية، هذا القرآن الذى يضمّ مختلف الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزة، و معانيه معجزة، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقا إلهيا للدعوة!!.

يستفاد من هذه العبارة أيضا أنّ القرآن أعظم معجزة و أكبر شاهد على صدق دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يشير إلى هدف نزول القرآن و يقول: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أى أنّ القرآن قد نزل علىّ لكى أنذركم، و أنذر جميع الذين يصل إليهم- عبر تاريخ البشر، و على امتداد الزمان و فى أرجاء العالم كافة- كلامى، و أحذرهم من عواقب عصيانهم.

يلاحظ هنا أنّ الكلام مقتصر على الإنذار مع أنّ خطابات القرآن تجمع غالبا بين الإنذار و البشرى، و السبب فى ذلك يعود إلى أنّ الكلام موجه هنا إلى أفراد معاندين مصرين على المكابرة، و لا يمكن أن نتصور فى الواقع عبارة أوجز و أشمل لبيان المقصود من هذه العبارة، و ما فيها من دقّة و سعة يزيل كل إيهام فى عدم اختصاص دعوة القرآن بالعرب أو بزمان أو مكان معينين.

بعض العلماء استدلوا بهذا التعبير و أمثاله على ختم النّبوة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهذه الجملة تعنى أنّ الرّسول قد بعث إلى جميع الذين تصلهم دعوته، و هذا يشمل جميع الذين يردون الحياة حتى نهاية العالم.

و تفيد الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ مفهوم إبلاغ القرآن لا يعنى مجرّد وصول نصوصه إلى الأقوام الأخرى فحسب، بل أنّ المفهوم يشمل وصول ترجماته بمختلف اللغات إلى تلك الأقوام.

جاء عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه عند ما سئل عن هذه الآية قال: «بكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۷

لسان»[۱۱۹].

كما أنّ من أصول الفقه المسلم بها هو مبدأ «قبح العقاب بلا بيان» و هذا ما تفيده الآية المذكورة.

فقد ثبت فى أصول الفقه أنّه ما دام الحكم لم يبلغ شخصا، فإنّه لا يتحمل مسئولية تنفيذه (إلّا إذا كان مقصرا فى استيعاب الحكم)، فهذه الآية تقول بأنّ الذين تصلهم الدعوة يتحملون مسئوليتها، أمّا الذين لم تصلهم الدعوة، بدون تقصير، فلا مسئولية عليهم.

فى تفسير (المنار) رواية عن أبىّ بن كعب قال: أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأسارى فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام؟ قالوا: لا، فخلى سبيلهم، ثمّ قرأ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هـذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ثمّ قال: خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنّهم لم يدعوا[۱۲۰].

و من هذه الآية نفهم- أيضا أنّ إطلاق كلمة «شىء» على اللّه جائز، إلّا أنّه شىء لا كالأشياء المخلوقة المحدودة، بل هو خالق و لا تحده حدود.

ثمّ أمر اللّه رسوله أن يسألهم: أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى

و يأمره أن: قُلْ لا أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ

ذكر العبارات الأخيرة فى الآية له هدف نفسى هام، و هو أنّ المشركين قد يتصورون حدوث تزلزل فى نفس النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أثر كلامهم، فيتركون المجلس آملين، و يبشرون أصحابهم بإمكان أن يعيد محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم النظر فى دعوته.

فهذه الجمل الصريحة الحاسمة تقضى على أمل المشركين و تحيله إلى يأس، و تبيّن لهم أنّ الأمر أعظم ممّا يظنون، و أنّه لم يداخله أدنى شك فى دعوته، و لقد دلت التجارب على أنّ ذكر أمثال هذه العبارات الجازمة و الحاسمة فى ختام كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۸

بحث له أثر عميق فى تحقيق الهدف النهائى.

أمّا الذين قالوا: إنّ أهل الكتاب لم يشهدوا لنبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فإنّ الآية التى بعدها ترد عليهم و تقول: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ أى أن معرفتهم به لا تقتصر على مبدأ ظهوره و دعوته فحسب، بل إنّهم يعرفون حتى التفاصيل و الخصائص و علاماته الدقيقة أيضا، و عليه، إذ قال جمع من أهل مكّة: إنّهم رجعوا إلى أهل الكتاب فلم يجدوا عندهم علما بالنّبى، فإنّهم إمّا أن يكونوا قد كذبوا و لم يتحققوا من الأمر، أو أنّ أهل الكتاب قد أخفوا عنهم الحقائق و لم يطلعوهم عليها، و هذا الكتمان تشير إليه آيات أخرى من القرآن (لمزيد من التوضيح انظر المجلد الأوّل من هذا التّفسير فى ذيل الآية (۱۴۶) من سورة البقرة).

و الآية تعلن فى آخر مقاطعها النتيجة النهائية: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أى أنّ الذين لا يؤمنون بالنّبى- مع كل ما تحيطه من دلائل و علامات واضحة- هم فقط أولئك الذين خسروا كل شىء فى تجارة الحياة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۹

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۱ الى ۲۴]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۱) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۲۲) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (۲۳) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴)

التّفسير

أشدّ الظّلم:

تواصل هذه الآيات المنهج القرآنى فى مقارعة الشرك و عبادة الأصنام بشكل شامل، تقول الآية الاولى بصراحة و بصورة استفهام استنكارى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ

الجملة الأولى- فى الواقع- إشارة إلى إنكار التوحيد، و الثّانية إشارة إلى إنكار النّبوة ... حقّا لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعة جماد لا قيمة لها، أو إنسانا ضعيفا مثله شريكا لربّ لا تحدّه، حدود، و له الحكم على كل عالم الوجود، فهذا ظلم من جهات ثلاث: ظلم لذات اللّه بالقول بوجود شريك له، و ظلم للشخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۰

نفسه بالحط من قدره إلى حد السجود و الخضوع لقطعة حجر أو خشب، و ظلم بحق المجتمع الذى يسبب له الشرك و التشتت و التفرق و الابتعاد عن روح الوحدة و التوحد.

فلا شك إذن فى أنّ أى ظالم- و على الأخص أولئك الذين لظلمهم جوانب متعددة- لا يمكن أن يرى السعادة و الفلاح: إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

إنّ لفظة «الشّرك» لم ترد صراحة فى الآية، و لكن بأخذ الآيات السابقة و اللّاحقة لها بنظر الاعتبار التى تدور حول الشرك، يتّضح أنّ القصد من كلمة «افتراء» هو القول بوجود شريك للّه سبحانه.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يصف فى خمسة عشر موضعا بعض الناس بأنّهم من أظلم الناس فى سياق الاستفهام: «و من أظلم ...» أو «فمن أظلم ...» و على الرغم من أنّ معظم تلك الآيات تتناول الشرك و عبادة الأصنام و إنكار آيات اللّه، أى أنّها تدور حول التوحيد، فإنّ بعضا آخر منها يدول حول أمور أخرى، مثل وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ۱۲۱].

و قول سبحانه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۱۲۲].

هنا يثار هذا السّؤال: كيف يمكن أن تكون كل طائفة من هؤلاء أظلم الناس، فى حين أنّ صفة (الأظلم) لا يمكن أن تنطبق إلّا على طائفة واحدة منها؟

نقول فى الجواب: كل هذه الحالات تستقى- فى الحقيقة- من منبع واحد، و هو الشرك و الكفر و العناد. فمنع الناس من ذكر اللّه فى المساجد و السعى فى خرابها دليل على الكفر و الشرك، و كتمان الشهادة أى كتمان الحقائق المؤدى إلى حيرة الناس و ضلالهم، هو معلم من معالم الشرك و إنكار وحدانية اللّه.

الآية التّالية تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنة أنّهم باعتمادهم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۱

مخلوقات ضعيفة كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة فى هذا العالم، و لا هم ضمنوا ذلك فى الحياة الآخرة، فتقول الآية: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أين هم، لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذهم؟ لماذا لا يظهر أى حول و لا يبدون أية قوّة؟

ألم تكونوا تتوقعون منهم أن يعينوكم على حل مشكلاتكم؟ فلما ذا- إذن- لا نرى لهم أثرا؟

فيستولى على هؤلاء الرعب و الخوف و يبهتون و لا يحيرون جوابا، سوى أن يقسموا باللّه إنّهم لم يكونوا مشركين، ظنا منهم أنّهم هناك أيضا قادرون على إخفاء الحقائق: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ

حول معنی «فتنة» ثمّة کلام بین المفسّرین، منهم من قال: إنّها بمعنی الاعتذار، و قال آخرون: إنّها بمعنی الجواب: و قالوا أیضا: إنّها الشرک ۱۲۳].

هنالک احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیة، و هو القول بأنّ «الفتنة» من «الافتتان» أی الوله بالشیء، فیکون المعنی أن افتتانهم بالشرک و عبادة الأصنام، بشکل یغشی عقولهم و أفکارهم، قد أدی إلی أن یدرکوا یوم القیامة- یوم یزاح الستر- خطأهم الکبیر، و یستقبحوا أعمالهم و ینکروها تماما.

یقول الراغب فی «المفردات»: أن أصل «الفتن» إدخال الذهب النّار لتظهر جودته من رداءته، فقد یکون هذا المعنی ممّا تفسر به الآیة المذکورة، أی أنّهم عند ما تحیط بهم شدّة یوم القیامة یستیقظون و یقفون علی خطأهم، فینکرون أعمالهم طلبا للنجاة.

الآیة الثّالثة، و من أجل أن یعتبر الناس بمصیر هؤلاء الأفراد تقول: انْظُرْ کَیْفَ کَذَبُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۲

و تنهار المساند التی اختاروا الاستناد علیها و جعلوها شریکة للّه، و خابوا فی مسعاهم وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ

لا بدّ هنا من ملاحظة النقاط التّالیة:

۱- لا شک أنّ المقصود بعبارة «انظر» هو النظر بعین العقل، لا بالعین الباصرة إذا لا یمکن أن تری مشاهد یوم القیامة رأی العین فی هذه الدنیا.

۲- و قوله سبحانه کَذَبُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ إمّا أن یعنی أنّهم خدعوا أنفسهم فی الدنیا و خرجوا عن طریق الحقّ، و إمّا أن یراد منه یوم القیامة حیث یقسمون علی أنّهم لم یکونوا مشرکین، و الحقیقة أنّهم بهذا یکذبون علی أنفسهم، فقد کانوا مشرکین فعلا.

۳- یبقی سؤال آخر، و هو أنّ الآیة المذکورة تفید أنّ المشرکین ینکرون شرکهم یوم القیامة مع أنّ ظروف یوم القیامة لا یمکن أن تسمح لأحد أن یجانب الصدق و هو یری تلک الحقائق الحسیة، کما لو کان أحد یرید أن یغطی علی الشمس فی رابعة النهار، لیقول کذبا: إنّ الدنیا ظلام، ثمّ إن هناک آیات أخری تفید بأنّهم یوم القیامة یعترفون صراحة بشرکهم و لا یخفون أمرا: وَ لا یَکْتُمُونَ اللَّهَ حَدِیثاً[۱۲۴].

یمکن أن نذکر لهذا السؤال جوابین:

أوّلا: لیوم القیامة مراحل، ففی المراحل الأولی یظن المشرکون أنّهم بالکذب یستطیعون التملص من عذاب اللّه الألیم، لذلک یرجعون إلی عادتهم القدیمة فی التوسل بالکذب، و لکن فی المراحل التّالیة یدرکون أن لا مهرب لهم أبدا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۳

فیعترفون بأعمالهم.

یبدو أنّ الأستار یوم القیامة ترفع- بالتدریج- عن عین الإنسان، و فی البدایة- عند ما لا یکون المشرکون قد درسوا ملفات أعمالهم جیدا بعد- یرکنون إلی الکذب، و لکن فی المراحل التّالیة حیث ترتفع فیها الأستار أکثر و یرون کل شیء حاضرا، لا یجدون مندوحة عن الاعتراف تماما، مثل المجرمین الذین ینکرون کل شیء فی بدایة التحقیق، حتی معرفتهم بأصدقائهم ... و لکنّهم عند ما یرون الأدلة المادیة و المستندات الحیّة التی تفضح جریمتهم، یدرکون أنّ الأمر من الوضوح بحیث لا یحتمل الإنکار، فیعترفون و یدلون بإفادة کاملة، و قد ورد هذا الجواب فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام ۱۲۵].

و ثانیا: إنّ الآیة المذکورة تتحدث عمّن لا یری نفسه مشرکا مثل المسیحیین الذین قالوا بالآلهة الثلاثة و اعتقدوا أنّهم موحدون، أو مثل الذین یدّعون التوحید، لکن أعمالهم ملوثة بالشرک، لأنّهم کانوا یعرضون عن تعالیم الأنبیاء، و یعتمدون علی غیر اللّه و ینکرون ولایة أولیاء اللّه ... هؤلاء یقسمون یوم القیامة علی أنّهم کانوا موحدین، و لکنّهم سرعان ما یدرکون أنّهم فی الباطن کانوا مشرکین، هذا الجواب أیضا قد ورد فی عدد من الرّوایات نقلا عن الإمام علی علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام ۱۲۶].

و کلا الجوابین مقبولان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۴

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۲۵ الی ۲۶]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ وَ جَعَلْنا عَلی قُلُوبِهِمْ أَکِنَّةً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَ فِی آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ یَرَوْا کُلَّ آیَةٍ لا یُؤْمِنُوا بِها حَتَّی إِذا جاؤُکَ یُجادِلُونَکَ یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۲۵) وَ هُمْ یَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ یَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ یُهْلِکُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ (۲۶)

التّفسیر

حجب لا تقبل الاختراق:

فی هذه الآیة إشارة إلی الوضع النفسی لبعض المشرکین، فهم لا یبدون أیة مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أکثر من ذلک- یناصبونها العداء، و یقذفونها بالتهم، فیبعدون أنفسهم و غیرهم عنها، عن هؤلاء تقول الآیة: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ وَ جَعَلْنا عَلی قُلُوبِهِمْ أَکِنَّةً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَ فِی آذانِهِمْ وَقْراً[۱۲۷].

فی الواقع کانت عقولهم و أفکارهم منغمسة فی التعصب الجاهلی الأعمی، و فی المصالح المادیة و الأهواء، بحیث أصبحت و کأنّها واقعة تحت الأستار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۵

و الحواجز، فلا هم یسمعون حقیقة من الحقائق، و لا هم یدرکون الأمور إدراکا صحیحا.

سبق أن قلنا مرارا أنّ نسبة هذه الأمور إلی اللّه، إنّما هو إشارة إلی قانون «العلة و المعلول» و خاصیة «العمل»، أی أنّ أثر الاستمرار فی الانحراف و الإصرار علی المعاندة و التشاؤم یظهر فی اتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، و فی تحولها إلی مثل المرآة المعوجة التی تعکس صور الأشیاء معوجة منحرفة، لقد أثبتت التجربة أنّ المنحرفین و المذنبین یحسون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم، و لکنّهم یعتادون ذلک بالتدریج، و قد یصل بهم الأمر إلی اعتبار أعمالهم القبیحة لازمة و ضروریة، و بتعبیر آخر: هذا واحد من أنواع العقاب الذی یناله المصّرون علی العصیان و معاداة الحقّ.

و هؤلاء وصلوا حدّا تصفه الآیة فتقول: وَ إِنْ یَرَوْا کُلَّ آیَةٍ لا یُؤْمِنُوا بِها، بل الأکثر من ذلک أنّهم عند ما یأتون إلیک، لا یفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، و لا یأتون- علی الأقل- بهیئة الباحث عن الحقّ الذی یسعی للعثور علی الحقیقة و التفکیر فیها، بل یأتون بروح و فکر سلبیین، و لا هدف لهم سوی الجدل و الاعتراض: حَتَّی إِذا جاؤُکَ یُجادِلُونَکَ أنّهم عند سماعهم کلامک الذی یستقی من ینابیع الوحی و یجری علی لسانک الناطق بالحقّ، یبادرون إلی اتهامک بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها أناس غابرون: یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ

الآیة التّالیة تذکر أنّ هؤلاء لا یکتفون بهذا، فهم مع ضلالهم یسعون جاهدین للحیلولة دون سلوک الباحثین عن الحقیقة هذا الطریق بما یشیعونه و یروجونه من مختلف الأکاذیب، و یمنعونهم أن یقتربوا من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ هُمْ یَنْهَوْنَ عَنْهُ و یبتعدون عنه بأنفسهم: وَ یَنْأَوْنَ عَنْهُ ۱۲۸]، دون أن یدرکوا أنّ من یصارع الحقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۶

يكن صريعه، و أخيرا، و بحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحقّ من وراء السحب، و ينتصر بماله من قوّة، و يتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافى على سطح الماء، و عليه فإنّ مساعيهم سوف تتحطم على صخرة الإخفاق و الخيبة و ما يهلكون غير أنفسهم، و لكنّهم لا يدركون الحقيقة: وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ

الصاق تهمة عظيمة بأبى طالب مؤمن قريش:

يتّضح ممّا قيل فى تفسير هذه الآية أنّها تتابع الكلام على المشركين المعاندين و أعداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الألداء، و الضمير «هم» يعود بموجب قواعد الأدب و اللغة- إلى الذين تتناولهم الآية بالبحث، أى الكفار المتعصبين الذين لم يدخروا وسعا فى إيذاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وضع العثرات فى طريق الدعوة إلى الإسلام.

و لكن- لشديد الأسف- نرى بعض المفسّرين من أهل السنة يخالفون جميع قواعد اللغة العربية، فيقطعون الآية الثّانية من الآية الاولى و يقولون: إنّها نزلت فى أبى طالب والد أمير المؤمنين على عليه السّلام.

أنّهم يفسرون الآية هكذا: هناك فريق يدافعون عن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّهم فى الوقت نفسه يبتعدون عنه: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ و هم يستشهدون فى توكيد رأيهم ببعض الآيات الأخرى من القرآن، ممّا سنتناوله فى موضعه، مثل الآية (۱۱۴) من سورة التوبة و الآية (۵۶) من سورة القصص.

لكن جميع علماء الشيعة و جمع من علماء أهل السنة، و مثل ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة و القسطلانى فى «إرشاد السارى» و زينى دحلان فى حاشية السيرة الحلبية، و يعتبرون أبا طالب من مؤمنى الإسلام، و هناك فى المصادر الإسلامية الأصيلة دلائل كثيرة على هذا.

و من يطالع هذه الأدلة يندفع للتساؤل بدهشة: ما السبب الذى حدا ببعضهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۷

إلى كره أبى طالب و توجيه مثل هذا الاتهام الكبير إليه؟! كيف يكون هدفا لمثل هذا الاتهام من كان يدافع بكل كيانه و وجوده عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لطالما وقف هو و ابنه فى مواقع الخطر يدر آن عن حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كل خطر؟! هنا يرى المحققون المدققون أنّ التيار المناوئ لأبى طالب تيار سياسى ينطلق من عداء «شجرة بنى أمية الخبيثة» لمكانة على عليه السّلام.

ذلك لأنّ أبا طالب ليس الوحيد الذى تعرض لمثل هذه الهجمات بسبب قرابته من أمير المؤمنين على عليه السّلام، بل إنّنا نلاحظ على امتداد تاريخ الإسلام أنّ كل من كان له بأى شكل من الأشكال نوع من القرابة من أمير المؤمنين على عليه السّلام لم ينج من هذه الحملات اللئيمة، و فى الحقيقة كان ذنب أبى طالب الوحيد أنّه والد الشخصية الإسلامية الكبرى على عليه السّلام.

و نذكر هنا بإيجاز مختلف الأدلة التى تثبت إيمان أبى طالب، تاركين التفاصيل للكتب المختصة فى الموضوع.

۱- كان أبو طالب يعلم، قبل بعثة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّ ابن أخيه سوف يصل إلى مقام النبوة، فقد كتب المؤرخون أنّه فى رحلته مع قافلة قريش إلى الشام اصطحب معه ابن أخيه محمّدا البالغ يومئذ الثّانية عشرة من العمر، و فى غضون الرحلة رأى منه مختلف الكرامات، ثمّ عند ما مرّت القافلة بالراهب (بحيرا) الذى أمضى سنوات طوالا فى صومعته على طريق القوافل التجارية، استلفت محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نظر الراهب الذى راح يدقق فى وجهه و ملامحه، ثمّ التفت إلى الجمع سائلا: من منكم صاحب هذا الصبى؟ فأشار الجمع إلى أبى طالب الذى قال له: هذا ابن أخى، فقال بحيرا: إنّ لهذا الصبى شأنا، إنّه النّبى الذى

أخبرت به و برسالته الكتب السماوية، و قد قرأت فيها تفاصيل ذلك كله ۱۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۸

و لقد كان أبو طالب قبل ذلك قد أدرك من الوقائع و القرائن التى رآها من ابن أخيه أنّه سيكون نبى هذه الأمّة.

و بموجب ما يـذكره الشهرستانى صاحب «الملل و النحل» و غيره من علماء السـنة أنّ سـماء مكّة قد جست بركتها عن أهلها سـنة من السنين، فواجه الناس سنة- جفاف شديد، فأمر أبو طالب أنّ يأتوه بابن أخيه محمّد، فأتوه به و هو رضيع فى قماطه، فوقف تجاه الكعبة، و فى حالـة من التضـرع و الخشوع أخـذ يرمى بالطفـل ثلاث مرات إلى أعلى ثمّ يتلقفه و هو يقول: يا ربّ بحق هـذا الغلام اسـقنا غيثا مغيثا دائما هطلا، فلم يمض إلّا بعض الوقت حتى ظهرت غمامة من جانب الأفق و غطت سـماء مكّة كلّها و هطل مطر غزير كادت معه مكّة أن تغرق.

ثمّ يقول الشهرسـتانى: هـذه الواقعـة، التى تـدل على علم أبى طالب بنبوة ابن أخيه و رسالته منـذ طفولته تؤكّـد إيمانه به، و هـذا أبيات أنشدها أبو طالب بعد ذلك بتلك المناسبة:

و أبيض يستسقى الغمام بوجههثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشمفهم عنده فى نعمة و فواضل

و ميزان عدل لا يخيس شعيرةو وزان صدق وزنه غير عائل

إنّ حكاية إقبال قريش على أبى طالب رحمه اللّه عند الجفاف، و استشـفاع أبى طالب إلى اللّه بالطفل قد ذكرها غير الشهرسـتانى عدد آخر من كبـار المؤرخين، و قـد أورد العلّامـة الامـينى قـدس سرّه صـاحب كتـاب «الغـدير» هـذه الحكايـة و ذكر أنّه نقلهـا من «شـرح البخـارى» و «المـواهب اللدنيـة» و «الخصـائص الكـبرى» و «شـرح بهجـة المحافـل» و «السـيرة الحلبيـة» و «السـيرة النبويـة» و «طلبة الطالب»[۱۳۰].

۲- إضافة إلى كتب التّأريخ المعروفة، فإنّ بين أيدينا شعرا لأبى طالب جمع فى «ديوان أبى طالب»، و منه الأبيات التّالية:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۹

و اللّه لن يصلوا إليك بجمعهمحتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضةو ابشر بذاك و قر منك عيونا

و دعوتنى و علمت أنك ناصحىو لقد دعوت و كنت ثمّ أمينا

و لقد علمت بأنّ دين محمّدمن خير أديان البرية دينا

كما قال أيضا:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّدارسولا كموسى خط فى أوّل الكتب

و إنّ عليه فى العباد محبّةو لا حيف فى من خصّه اللّه بالحبّ ۱۳۱]

يذكر ابن أبى الحديد طائفة كبيرة من أشعار أبى طالب (التى يقول عنها ابن شهر آشوب فى «متشابهات القرآن» أنّها تبلغ ثلاثة آلاف بيت) ثمّ يقول: إن هذه الأشعار لا تدع مجالا للشك أنّ أبا طالب كان يؤمن برسالة ابن أخيه.

۳- ثمّـة أحاديث منقولة عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم تؤكّد شـهادته بإيمان عمه الوفى أبى طالب، من ذلك ما ينقله لنا صاحب كتاب «أبو طالب مؤمن قريش» فيقول:

عند ما توفى أبو طالب رثاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو على قبره، قائلا:

«وا أبتاه! وا أبا طالباه وا حزناه عليك! كيف أسلو عليك يا من ربيتنى صـغيرا، و اجبتنى كبيرا، و كنت عندك بمنزلة العين من الحدقة

و الروح من الجسد»[۱۳۲].

و کثیرا ما

کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: «ما نالت منّی قریش شیئا أکرهه حتی مات أبو طالب»[۱۳۳].

۴- من المتفق علیه أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد أمر بقطع کل رابطة صحبة له بالمشرکین، و کان ذلک قبل وفاة أبی طالب بسنوات، و علیه فإنّ ما أظهره رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الحبّ و التعلق بأبی طالب یدل علی أنّه کان یری فی أبی طالب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۰

تابعا لمدرسة التوحید، و إلّا فکیف ینهی الآخرین عن مصاحبة المشرکین، و یبقی هو علی حبّه العمیق لأبی طالب؟

۵- فی الأحادیث التی وصلتنا عن أهل البیت علیهم السّلام أدلة وافرة علی إیمان أبی طالب و إخلاصه، و لا یسع المجال هنا لذکرها، و هی أحادیث تستند إلی الاستدلال المنطقی و العقلی، کالحدیث

المنقول عن الإمام زین العابدین علیه السّلام الذی قال- بعد أن سئل عن إیمان أبی طالب و أجاب الإیجاب-: «إنّ هنا قوما یزعمون أنّه کافر .. وا عجبا کل العجب! أ یطعنون علی أبی طالب أو علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد نهاه اللّه أن تقرّ مؤمنة مع کافر فی غیر آیة من القرآن (أی فی أکثر من آیة) و لا یشک أحد أن فاطمة بنت أسد رضی اللّه تعالی عنها من المؤمنات السابقات، فإنّها لم تزل تحت أبی طالب حتی مات أبو طالب رضی اللّه عنه»[۱۳۴].

۶- و إذا ترکنا کل هذا جانبا، فاننا قد نشک فی کل شیء إلّا فی حقیقة کون أبی طالب کان علی رأس حماة الإسلام و رسول الإسلام، و کانت حمایته تتعدی الحدود المألوفة بین أبناء العشیرة و العصبیات القبلیة و لا یمکن تفسیرها بها.

و من الأمثلة الحیّة علی ذلک حکایة (شعب أبی طالب) یجمع المؤرخون علی أنّه عند ما حاصرت قریش النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین محاصرة اقتصادیة و اجتماعیة و سیاسیة شدیدة و قطعت علائقها بهم، ظل أبو طالب الحامی و المدافع الوحید عنهم مدّة ثلاث سنوات ترک فیها کل أعماله، و سار ببنی هاشم إلی واد بین جبال مکّة یعرف بشعب أبی طالب فعاشوا فیه، و قد بلغت تضحیاته حدا أنّه، فضلا عن بنائه الأبراج الخاصّة للوقوف بوجه أی هجوم قد تشنه قریش علیهم، کان فی کل لیلة یوقظ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من نومه و یأخذه إلی مضجع آخر یعده له و یجعل ابنه الحبیب إلیه علیا علیه السّلام فی مکانه، فإذا ما قال له ابنه علی علیه السّلام: یا أبة، إنّ هذا سیوردنی موارد الهلکة،

أجابه أبو طالب علیه السّلام: ولدی علیک بالصبر، کل حی إلی ممات، لقد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۱

جعلت فداء ابن عبد اللّه الحبیب،

فیرد علی علیه السّلام: یا أبه، ما قلت لک ذلک خوفا من الموت فی سبیل محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل کنت أریدک أن تعلم مدی طاعتی لک و استعدادی للوقوف إلی جانب محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ۱۳۵].

إنّنا نری أن من یترک التعصب، و یقرأ- بغیر تحیز- ما کتبه التّأریخ بحروف من ذهب عن أبی طالب، سیرفع صوته مع صوت ابن أبی الحدید منشدا:

و لو لا أبو طالب و ابنهلما مثل الدین شخصا و قاما

فذاک بمکّة آوی و حامیو هذا بیثرب جس الحماما[۱۳۶]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۲

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۲۷ الی ۲۸]

اشارة

وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٢٨)

التّفسير

يقظة عابرة عقيمة:

فی هـاتين الآـيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشـركين، و فيهما يتجسـد مشـهد من مشاهـد نتائـج أعمالهم لكى يـدركوا المصـير المشؤوم الـذى ينتظرهـم فيسـتيقظون، أو تكون حـالهم- على الأقـل- عـبرة لغيرهـم، فتقول الآيـة: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ...[١٣٧] لتبيّن لک مصيرهم السيئ المؤلم.

إنّهم فی تلک الحال على درجـة من الهلع بحيث أنّهم يصـرخون: ليتنا نرجع إلى الـدنيا لنعوض عن أعمالنا القبيحة، و نعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم.

و نصدق آيات ربّنا، و نقف إلى جاب المؤمنين:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۳

فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٣٨].

الآية التّالية تؤكّد أن ذلک ليس أكثر من تمن كاذب، و إنّما تمنوه لأنّهم رأوا فی ذلک العالم كل ما كانوا يخفونه- من عقائد و نيات و أعمال سيئة- مكشوفا أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ

غير أن هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنّها قد حصلت لظروف طارئة، و لذلک فحتى لو افترضـنا المسـتحيل و عادوا إلى هذه الدنيا مرّة أخرى لفعلوا مـا كـانوا يفعلـونه من قبـل و مـا نهـوا عنه: وَ لَوْ رُدُّوا لَعـادُوا لِمـا نُهُوا عَنْهُ لـذلک فهم ليسوا صـادقين فی تمنيـاتهم و مزاعمهم وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

ملاحظات:

١- يتبيّن من ظـاهر بَدا لَهُمْ أنّهم لم يكونوا يخفون كثيرا من الحقـائق عن الناس فحسب، بل كانوا يخفونها حتى عن أنفسـهم، فتبـدوا لهم جليـة يوم القيامـة، و ليس فی هـذا مـا يـدعو إلى العجب، فالإنسان كثيرا ما يخفى عنه نفسه الحقائق و يغطى على ضـميره و فطرته لكى ينال شيئا من الراحة الكاذبة.

إنّ قضـية مخادعة النفس و إخفاء الحقائق عنها من القضايا التى تعالجها البحوث الخاصّة بنشاط الضـمير، فقد نجد الكثيرين من الذين يتبعون أهواءهم يتنبهون إلى أضـرار ذلـک عليهم، و لكنّهم لكى يواصـلوا أعمالهم تلک بغير أن تنغصـها عليهم ضـمائرهم- يحاولون إخفاء هذا الوعى فيهم بشكل من الأشكال.

غير أنّ بعض المفسّرين- دون الالتفات إلى هذه النكتة- فهموا من (لهم) ما

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۴

ينطبق على الأعمال التى أخفاها المشركون عن الناس (تأمل بدقّة).

۲- قـد يقال أنّ التمنى ليس من الأمور يصـح فيها أن تكون صادقة أو كاذبة، فهى مثل «الإنشاء» الذى لا يحتمل الصدق و الكذب، إلّا أنّ هـذا القول بعيد عن الصواب، و ذلك لأنّ «الإنشاء» كثيرا ما يصاحبه «الإخبار» ممّا يحتمل الصدق و الكذب، فقد يقول قائل أتمنى أن يعطينى اللّه مالا وفيرا فأعينك، هـذا من باب التمنى بالطبع، و لكن مفهومه هو أنّه إذا أعطانى اللّه مالا وفيرا فانى سوف أساعدك، و هـذا مفهوم خبرى يحتمـل أن يكون صادقـا أو كاذبـا، فإذا كنت تعرف بخل المتمنى و ضـيق نظرته فأنت تعرف أنّه كاذب حتى إن أعطاه اللّه ما يشاء من المال (هذا الموضوع مشهور كثيرا فى الجمل الإنشائية).

۳- إنّ سـبب ذكر الآيـة أنّهم لو عـادوا إلى الـدنيا لعـادوا إلى تكرار أعمـالهم السابقـة هو أن كثيرا من النـاس عنـد ما يشاهـدون نتائج أعمالهم بأعينهم، أى حينما يصلـون إلى مرحلة الشـهود، يسـتنكرون ما فعلوا و يندمون آنيا و يتمنون لو يتاح لهم أن يجبروا ما كسروا، إلّا أنّ هـذه تمنيات عارضـة تنشأ من مشاهدة نتائج الأعمال عيانا، و تعرض لكل إنسان يشـهد بأم عينه ما ينتظره من عذاب و عقاب، و لكن ما أن تغيب تلك المشاهد عن نظره حتى يزول تأثيرها عنه، و يعود إلى سابق عهده.

شأنهم فى ذلك شأن عبدة الأصـنام الذين دهمهم طوفان عظيم فى البحر و رأوا أنفسهم على عتبة الهلاك، فنسوا كل شىء سوى اللّه، و لكن ما أن هدأت العاصفة و وصلوا إلى ساحل الأمان حتى عاد كل شىء إلى ما كان عليه ۱۳۹].

۴- ينبغى الالتفات إلى أنّ هـذه الحالات تخص جمعا من عبـدة الأصـنام الذين مرّت الإشارة إليهم فى الآيات السابقة لا كلهم، لذلك كان لا بدّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يواصل نصح الآخرين لإيقاظهم و هدايتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۵

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۹ الى ۳۲]

اشارة

وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (۲۹) وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۰) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۳۲)

التّفسير

فى تفسير الآية الأولى احتمالان:

الأوّل: أنّها استئناف لأقوال المشـركين المعانـدين المتصـلبين الـذين يتمنون- عنـد ما يشاهـدون أهوال يوم القيامة- أن يعودوا إلى دار الـدنيا ليتلافوا مـا فـاتهم، و لكن القرآن يقول إنّهم إذا رجعوا لا يتجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يسـتمرون على ما كانوا عليه، و أكثر من ذلك فإنّهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۱۴۰].

الاحتمال الثّانى: أنّ الآية تشرع بكلام جديد يخصّ نفرا من المشركين ممّن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۶

كفروا بالمعاد كليا، فقد كان بين مشركى العرب فريق لا يؤمنون بالمعاد، و فريق آخر يؤمنون بنوع من المعاد.

الآية التّالية تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدى اللّه: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِ فيكون جوابهم

أنّهم يقسمون بأنّه الحقّ: قالُوا بَلى وَ رَبِّنا.

عندئذ: قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ لا شك أنّ «الوقوف بين يدى اللّه» لا يعنى إنّ للّه مكانا، بل يعنى الوقوف فى ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسّرين، أو أنّه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصّلاة أنّه يقف بين يدى اللّه و فى حضرته.

الآية التى بعدها فيها، إشارة إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ إنّ المقصود بلقاء اللّه هو- كما قلنا من قبل- اللقاء المعنوى و الإيمان الشهودى (الشهود الباطنى)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة و الحساب و الجزاء.

ثمّ تبيّن الآية أنّ هذا الإنكار لن يدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامة، حين يرون أنفسهم فجأة أمام مشاهده الرهيبة، و يشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصروا فى حق هذا اليوم: حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها.

و «الساعة» هى يوم القيامة، و «بغتة» تعنى فجأة و على حين غرة، إذ تقوم القيامة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى اللّه تعالى، و سبب إطلاق «الساعة» على يوم القيامة إمّا لأنّ حساب الناس يجرى سريعا فيها، أو للإشارة إلى فجائية حدوث ذلك، حيث ينتقل الناس بسرعة خاطفة من عالم البرزخ إلى عالم القيامة.

و «التحسر» هو التأسف على شىء، غير أنّ العرب عند تأثرهم الشديد يخاطبون «الحسرة» فيقولون: «يا حسرتنا»، فكأنّهم يجسدونها أمامهم و يخاطبونها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۷

ثمّ يقول القرآن الكريم وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ

«الأوزار» جمع «وزر» و هو الحمل الثقيل، و تعنى الأوزار هنا الذنوب، و يمكن أن تتخذ هذه الآية دليلا على تجسد الأعمال، لأنّها تقول إنّهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم، و يمكن أيضا أن يكون الاستعمال مجازيا كناية عن ثقل حمل المسؤولية، إذ أنّ المسؤوليات تشبه دائما بالحمل الثقيل.

و فى آخر الآية يقول اللّه تعالى: أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ

فى هذه الآية جرى الكلام على خسران الذين ينكرون المعاد، و الدليل على هذا الخسران واضح، فالإيمان بالمعاد، فضلا عن كونه يعد الإنسان لحياة سعيدة خالدة، و يحثه على تحصيل الكمالات العلمية و العملية، فان له تأثيرا عميقا على وقاية الإنسان من التلوث بالذنوب و الآثام، و هذا ما سوف نتناوله- إن شاء اللّه- عند بحث الإيمان بالمعاد و أثره البناء فى الفرد و المجتمع.

ثمّ لبيان نسبة الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، يقول اللّه تعالى: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ فهؤلاء الذين اكتفوا بهذه الحياة، و لا يطلبون غيرها، هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كلّه فى اللعب و اللهو غافلين عن كل شىء.

إن تشبيه الحياة الدنيا باللهو و اللعب يستند إلى كون اللهو و اللعب من الممارسات الفارغة السطحية التى لا ترتبط بأصل الحياة الحقيقية، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شىء يعود إلى حالته الطبيعية بعد اللعب.

و كثيرا ما نلاحظ أنّ الأطفال يتحلقون و يشرعون باللعب، فهذا يكون «أميرا» و ذاك يكون «وزيرا» و آخر «لصا» و رابع يكون «قافلة»، ثمّ لا تمضى ساعة حتى ينتهى اللعب و لا يكون هناك «أمير» و لا «وزير» و لا «لص» و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۸

«قافلة»! أو كما يحدث فى المسرحيات أو التمثيليات، فنشاهد مناظر للحرب أو الحبّ أو العداء تتجسد على المسرح، ثمّ بعد ساعة يتبدد كل شىء.

و الدنيا أشبه بالتمثيلية التى يقوم فيها الناس بتمثيل أدوار الممثلين، و قد تجتذب هذه التمثيلية الصبيانية حتى عقلاءنا و مفكرينا، و لكن

سرعان ما تسدل الستارة و ینتهی التمثیل.

«لعب» علی وزن «لزج» من «اللعاب» علی وزن «غبار» و هو الماء الـذی یتجمع فی الفم و یسـیل منه، فإطلاق لفظـة «اللعب» علی اللهو و التسلیة جاء للتشابه بینه و بین اللعاب الذی یسیل دون هدف.

ثمّ تقارن الآیة حیاة العالم الآخر بهذه الدنیا، فتقول: وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

فتلک حیاة خالـدة لا تفنی فی عالم أوسع و علی أرفع، عالم یتعامل مع الحقیقـة لا المجاز و مع الواقع، لا الخیال، عالم لا یشوب نعمه الألم و العذاب، عالم کلّه نعمة خالصة لا ألم فیه و لا عذاب.

و لکن إدراک هـذه الحقائق و تمییزها عن مغریات الدنیا الخداعة غیر ممکن لغیر المفکرین الذین یعقلون، لذلک اتجهت الآیة إلیهم بالخطاب فی النهایة.

فی حـدیث رواه هشـام بن الحکم عن الامـام موسـی بن جعفر علیه السّـلام قـال: «یا هشام إنّ اللّه وعظ أهل العقل و رغبهم فی الآخرة فقال: وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ۱۴۱].

غنی عن القول أنّ هـدف هـذه الآیات هو محاربـة الانشـداد بمظاهر عالم المادة و نسیان الغایـة النهائیـة، أمّا الذین جعلوا الدنیا وسـیلة للسعادة فهم یبحثون- فی الحقیقة- عن الآخرة، لا الدنیا.

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۳۳ الی ۳۴]

اشارة

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَیَحْزُنُکَ الَّذِی یَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا یُکَذِّبُونَکَ وَ لکِنَّ الظَّالِمِینَ بِآیاتِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ (۳۳) وَ لَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ فَصَبَرُوا عَلی ما کُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّی أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِکَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَکَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِینَ (۳۴)

التّفسیر

المصلحون یواجهون الصعاب دائما:

لا شک أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی نقاشاته المنطقیة و محاوراته الفکریة مع المشـرکین المعاندین المتصـلبین، کان یواجه منهم المعانـدة و اللجاجة و التصـلب و التعنت، بل کانوا یرشـقونه بتهمهم، و لذلک کله کان النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم یشـعر بـالغم و الحزن، و اللّه تعـالی فی مواضع کـثیرة من القرآن یواسـی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و یصبّره علی ذلـک، لکی یواصل مسیرته بقلب أقوی و جأش أربط، کما جاء فی هذه الآیة: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَیَحْزُنُکَ الَّذِی یَقُولُونَ فاعلم أنّهم لا ینکرونک أنت، بل هم ینکرون آیات اللّه، و لا یکذبونک بل یکذبون اللّه: فَإِنَّهُمْ لا یُکَذِّبُونَکَ وَ لکِنَّ الظَّالِمِینَ بِآیاتِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ

و مثل هـذا القول شائع بیننا، فقـد یری «رئیس» أنّ «مبعوثه» إلی بعض الناس عاد غاضـبا، فیقول له: «هوّن علیک، فان ما قالوه لک إنّما کان موجها إلیّ، و إذا

حصلت مشکلة فأنّا المقصود بها، لا أنت» و بهذا یسعی إلی مواساة صاحبه و التهوین علیه.

ثمّة مفسّـرون یرون للآیة تفسیرا آخر، لکن ظاهر الآیة هو هذا الذی قلناه، و لکن لا بأس من معرفة هذا الاحتمال القائل بأن معنی الآیة

هو: إنّ الذين يعارضونك هم فى الحقيقة مؤمنون بصدقك و لا يشكون فى صحة دعوتك، و لكن الخوف من تعرض مصالحهم للخطر هو الذى يمنعهم من الرضوخ للحق، أو أنّ الذى يحول بينهم و بين التسليم هو التعصب و العناد.

يتبيّن من كتب السيرة أنّ الجاهليين- بما فيهم أشدّ المعارضين للدّعوة- كانوا يعتقدون فى أعماقهم بصدق الدعوة، و من ذلك ما روى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقى أبا جهل فصافحه أبو جهل، فقيل له فى ذلك، فقال: و اللّه إنى لأعلم أنّه صادق، و لكنا متى كنّا تبعا لعبد مناف! (أى أنّ قبول دعوته سيضطرنا إلى اتباع قبيلته).

و ورد فى كتب السيرة أنّ أبا جهل جاء فى ليلة متخفيا يستمع قراءة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما جاء فى الوقت نفسه أبو سفيان و الأخنس بن شريق، و لا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوا إلى الصباح، فلمّا فضحهم الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر ما جاء به، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، لما يخافون من علم شبان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلمّا كانت الليلة الثّانية جاء كل منهم ظانا أنّ صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلمّا أصبحوا جمعتهم الطريق مرّة ثانية فتلاوموا، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، فلمّا كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضا، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودا لمثلها، ثمّ تفرقوا فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال: اخبرنى- يا أبا حنظلة- عن رأيك فيما سمعت من محمّد؟

قال: يا أبا ثعلبة، و اللّه لقد سمعت أشياء أعرفها، و أعرف ما يراد بها، و سمعت أشياء، ما عرفت معناها و لا ما يراد بها.

قال الأخنس: و أنا و الذى حلفت به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۱

ثمّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن و بنو عبد المناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، و حملوا (أى أعطوا الناس ما يركبونه) فحملنا، و أعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب و كنّا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ و اللّه لا نؤمن به أبدا، و لا نصدقه، فقام عنه الأخنس و تركه.

و روى أنّه التقى أخنس بن شريق، و أبو جهل بن هشام فقال له: يا أبا الحكم، اخبرنى عن محمّد أصادق هو أم كاذب، فإنّه ليس هاهنا أحد غيرى و غيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك و اللّه إنّ محمّدا لصادق و ما كذب قط، و لكن إذا ذهب بنو قصى باللواء و الحجابة و السقاية و الندوة و النّبوة فما ذا يكون لسائر قريش؟![۱۴۲].

يتبيّن من هذه الرّوايات و أمثالها أنّ كثيرا من أعداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الألداء كانوا فى باطنهم يعترفون بصدق ما يقول، إلّا أنّ التنافس القبلى و ما إلى ذلك، لم يكن يسمح لهم بإعلان ما يعتقدون، أو لم تكن لديهم الشجاعة على ذلك.

إنّنا نعلم أنّ مثل هذا الإعتقاد الباطنى ما لم يصاحبه التسليم، لن يكون له أى أثر، و لا يدخل الإنسان فى زمرة المؤمنين الصادقين.

الآية الثّانية تستأنف مواساة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تبيّن له حال من سبقه من الأنبياء، و تؤكّد له أنّ هذا ليس مقتصرا عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضا: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ

و لكنّهم صبروا و تحملوا حتى انتصروا بعون اللّه: فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا و هذه سنة إلهية لا قدرة لأحد على تغييرها: وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

و عليه، فلا تجزع و لا تبتئس إذا ما كذبك قومك و آذوك، بل اصبر على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۲

معاندة الأعداء و تحمل أذاهم، و اعلم أنّ الإمدادات و الألطاف الإلهية ستنزل بساحتك بموجب هذه السنة، فتنتصر فى النهاية عليهم جميعا، و إنّ ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد و المصاعب و عن ثباتهم و صبرهم و انتصارهم فى النهاية، لهو شهادة بيّنة لك: وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ

تشیر هذه الآیة- فی الواقع- إلی مبدأ عام هو أنّ قادة المجتمع الصالحین الذین یسعون لهدایة الشعوب عن طریق الدعوة إلی مبادئ و تعالیم بناءة، و بمحاربة الأفکار المنحطة و الخرافات السائدة و القوانین المغلوطة فی المجتمع، یواجهون معارضة شدیدة من جانب فریق الانتهازیین الذین یرون فی انتشار تلک التعالیم و المبادئ البناءة خطرا یتهدد مصالحهم، فلا یترکون وسیلة إلّا استخدموها لترویج أهدافهم المشؤومة، و لا یتورعون حتی عن التوسل بالتکذیب و الاتهام، و الحصار الاجتماعی، و الإیذاء و التعذیب، و السلب و النهب، و القتل، و بکل ما یخطر لهم من سلاح لمحاربة أولئک المصلحین.

إلّا أنّ الحقیقة، بما فیها من قوة الجاذبیة و العمق، و بموجب السنة الإلهیة، تعمل عملها و تزیل من الطریق کل تلک الأشواک، إلّا أنّ شرط هذا الإنتصار هو الصبر و المقاومة و الثبات.

تعبر هذه الآیة عن السنن بعبارة «کلمات اللّه»، لأنّ الکلم و الکلام فی الأصل التأثیر المدرک بإحدی الحاستین، السمع أو البصر، فالکلام مدرک بحاسة السمع، و الکلم بحاسة البصر، و کلمته: جرحته جراحة بان تأثیرها، ثمّ کان توسع فی إطلاق «الکلمة» علی الألفاظ و المعانی و حتی علی العقیدة و السلوک و السنة و التعالیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۳

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۳۵ الی ۳۶]

اشارة

وَ إِنْ کانَ کَبُرَ عَلَیْکَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِیَ نَفَقاً فِی الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِی السَّماءِ فَتَأْتِیَهُمْ بِآیَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَی الْهُدی فَلا تَکُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِینَ (۳۵) إِنَّما یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ یَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتی یَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَیْهِ یُرْجَعُونَ (۳۶)

التّفسیر

الأموات المتحرکون:

هاتان الآیتان استمرار لمواساة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم التی بدأت فی الآیات السابقة لقد کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یشعر بالحزن العمیق لضلال المشرکین و عنادهم، و کان یود لو أنّه استطاع أن یهدیهم جمیعا إلی طریق الإیمان بأیة وسیلة کانت.

فیقول اللّه تعالی: وَ إِنْ کانَ کَبُرَ عَلَیْکَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِیَ نَفَقاً فِی الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِی السَّماءِ فَتَأْتِیَهُمْ بِآیَةٍ[۱۴۳]. أی إذا کان إعراض هؤلاء المشرکین یصعب و یثقل علیک، فشق أعماق الأرض أو ضع سلّما یوصلک إلی السماء للبحث عن آیة- إن استطعت- و لکن اعلم أنّهم مع ذلک لن یؤمنوا بک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۴

«النفق» فی الأصل «النقب» و هو الطریق النافذ، و السرب فی الأرض النافذ فیها، و منه النفاق، و هو الدخول فی الشرع من باب و الخروج عنه من باب، أی أنّ للمنافق سلوکا ظاهرا و آخر خفیا.

فی هذه الآیة یخبر اللّه نبیّه بأن لیس فی تعلیماتک و دعوتک و سعیک أی نقص، بل النقص فیهم لأنّهم هم الذین رفضوا قبول الحقّ، لذلک فانّ أی مسعی من جانبک لن یکون له أثر فلا تقلق.

و لکن لکیلا یظن أحد أنّ اللّه غیر قادر علی حملهم علی التسلیم یقول: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَی الْهُدی أی لو أراد حملهم علی

الاستسلام و الرضوخ لدعوتک و الإیمان باللّه لکان علی ذلک قدیرا.

غیر أنّ الإیمان الإجباری لا طائل تحته، إنّ خلق البشر للتکامل مبنی علی أساس حریة الإختیار و الإرادة، ففی حالة حریة الإختیار وحدها یمکن تمییز «المؤمن» من «الکافر»، و «الصالح» من «غیر الصالح» و «المخلص» من «الخائن» و «الصادق» من «الکاذب». أمّا فی الإیمان الإجباری فلن یکن ثمّة اختلاف بین الطیب و الخبیث، و علی صعید الإجبار تفقد کل هذه المفاهیم معانیها تماما.

ثمّ یقول سبحانه لنبیّه: فَلا تَکُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِینَ أی لقد قلت هذا لئلا تکون من الجاهلین، أی لا تفقد صبرک و لا تجزع، و لا یأخذک القلق بسبب کفرهم و شرکهم.

و ما من شک أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یعلم هذه الحقائق و لکن اللّه ذکرها له من باب التطمین و تهدئة الروع، تماما کالذی نقوله نحن لمن فقد ابنه: لا تحزن فالدنیا فانیة، سنموت جمیعا، و أنت ما تزال شابا و لسوف ترزق بابن آخر، فلا تجزع کثیرا.

فلا ریب أنّ فناء دار الدنیا، أو کون المصاب شابا لیسا مجهولین عنده،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۵

و لکنها أمور تقال للتذکیر.

علی الرّغم من أنّ هذه الآیة من الآیات التی تنفی الإجبار و الإکراه، فإنّ بعض المفسّرین کالرّازی، یعتبرها من الأدلة علی «الجبر» و یستند إلی وَ لَوْ شاءَ ... و یقول: یتّضح من هذه الآیة أنّ اللّه لا یرید للکفار أن یؤمنوا! و لکنّه غفل عن أنّ الإرادة و المشیئة فی هذه الآیة هما الإجباریتان، أی أنّ اللّه لا یرید الناس أن یؤمنوا بالإجبار و الإکراه، بل یریدهم أن یؤمنوا باختیارهم و إرادتهم، و علیه فانّ هذه الآیة دلیل قاطع یدحض مقوله «الجبریین».

فی الآیة التی تلیها استکمال لما سبق و مزید من المواساة للرسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فتقول الآیة إِنَّما یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ یَسْمَعُونَ

أمّا الذین هم فی الواقع أشبه بالأموات فأنّهم لا یؤمنون حتی یبعثهم اللّه یوم القیامة: وَ الْمَوْتی یَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَیْهِ یُرْجَعُونَ ۱۴۴].

یومئذ، و بعد أن یروا مشاهد یوم القیامة یؤمنون، إلّا أنّ إیمانهم ذاک لا ینفعهم شیئا، لأنّ رؤیة مناظر یوم القیامة العظیمة تحمّل کل مشاهد علی الإیمان فیکون نوعا من الإیمان الاضطراری.

و من نافلة القول أنّ «الموتی» فی هذه الآیة لا تشیر إلی الموت الجسمانی فی الأفراد، بل الموت المعنوی، فالحیاة و الموت نوعان: حیاة و موت عضویان، و حیاة و موت معنویان، کذلک أیضا السمع و البصر، عضویان و معنویان فکثیر ما نصف المبصرین السامعین الأحیاء الذین لا یدرکون الحقائق بأنّهم عمی أو صم أو حتی أموات، إذ إنّ رد الفعل الذی یصدر عادة من الإنسان الحی البصیر السامع إزاء الحقائق لا یصدر من هؤلاء.

أمثال هذه التعبیرات کثیرة فی القرآن، و لها عذوبة، و جاذبیة خاصّة، بل إنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۶

القرآن لا یعیر أهمیة کبیرة للحیاة المادیة البایلوجیة التی تتمثل فی «الأکل و النوم و التنفس» و إنّما یعنی أشد العنایة بالحیاة الإنسانیة المعنویة التی تتمثل فی تحمل التکالیف و المسؤولیة و الإحساس و الیقظة و الوعی.

لا بدّ من القول أیضا: إنّ المعنوی من العمی و الصمم و الموت ینشأ من ذات الأفراد، لأنّهم- لاستمرارهم فی الإثم و إصرارهم علیه و عنادهم- یصلون إلی تلک الحالة.

إنّ من یغمض عینیه طویلا یصل إلی حالة یفقد فیها تدریجیا قوة البصر، و قد یبلغ به الأمر إلی العمی التام، کذلک الذی یغمض عین روحه عن رؤیة الحقائق طویلا یفقد بصیرته المعنویة شیئا فشیئا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳۷]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۷)

التّفسير

اشارة

تشير هذه الآية إلى واحد من الأعذار التى يتذرع بها المشركون، فقد جاء فى بعض الرّوايات أنّه عند ما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن و مقابلته، قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: كل هذا الذى تقوله لا فائدة فيه، إذا كنت صادقا فيما تقول: فأتنا بمعجزات كعصا موسى و ناقة صالح، يقول القرآن بهذا الشأن:

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

من الواضح أنّ أولئك لم يكونوا جادين فى بحثهم عن الحقيقة، لأنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد جاء لهم من المعاجز بما يكفى، و حتى لو لم يأت بمعجز سوى القرآن الذى تحداهم فى عدة آيات منه و دعاهم بصراحة إلى أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، لكان فيه الكفاية لإثبات نبوته، غير أنّ هؤلاء المزيفين كانوا يبحثون عن عذر يتيح لهم إهانة القرآن من جهة، و التملص من قبول دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة أخرى، لذلك كانوا لا يفتأون يطالبونه بالمعجزات، و لو أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استجاب لمطاليبهم لأنكروا كل ذلك بقولهم هذا سِحْرٌ مُبِينٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۸

كما جاء فى آيات أخرى من القرآن، لذلك يأمر اللّه رسوله أنّ: قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً إلّا أنّ فى ذلك أمرا أنتم عنه غافلون، و هو أنّه إذا حقق اللّه مطاليبكم التى يدفعكم إليها عنادكم، ثمّ بقيتم على عنادكم و لم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعاجز، فسوف يقع عقاب اللّه عليكم جميعا، و تفنون عن آخركم، لأنّ ذلك سيكون منتهى الاستهتار بمقام الألوهية المقدس و بمبعوثه و آياته و معجزاته، و لهذا تنتهى الآية بالقول: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

إشكال:

يتبيّن من تفسير «مجمع البيان» أنّ بعض مناوئى الإسلام قد اتّخذوا من هذه الآية- منذ قرون عديدة- دليلا يستندون إليه فى الزعم بأنّه لم تكن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أية معجزة، لأنّه كلما طلبوا منه معجزة كان يكتفى بالقول: إنّ اللّه قادر على ذلك، و لكن أكثركم لا تعلمون، و هذا ما نهجه بعض الكتاب المتأخرين فأحيوا هذه الفكرة البالية مرّة أخرى.

الجواب:

أوّلا: يبدو أنّ هؤلاء لم يمعنوا النظر فى الآيات السابقة و التّالية لهذه الآية، و إلّا لأدركوا أنّ الكلام يدور مع المعاندين الذين لا

یستسلمون للحق مطلقا، و إنّ موقف هؤلاء هو الذی منع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من إجابة طلبهم، فهل نجد فی القرآن أنّ طلاب الحقیقة سألوا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یحقق لهم معجزة فامتنع؟ الآیة (۱۱۱) من هذه السورة نفسها تتحدث عن أمثال هؤلاء فتقول: وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا.

ثانیا: تفید الرّوایات أنّ هذا الطلب تقدم به بعض رؤساء قریش، و کان هدفهم من ذلک إهانة القرآن و الإعراض عنه، فمن الطبیعی أن لا یستجیب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۹

رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لطلب یکون دافعه بهذا الشکل.

ثالثا: إنّ أصحاب هذا الإشکال قد أغفلوا سائر آیات القرآن الأخری التی تصرّح بأنّ القرآن نفسه معجزة خالدة، و کثیرا ما دعت المخالفین إلی معارضته، و أثبتت ضعفهم و عجزهم عن ذلک، کما أنّهم نسوا الآیة الأولی من سورة الإسراء التی تقول بکل وضوح: إنّ اللّه أسری بنبیّه من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی فی لیلة واحدة.

رابعا: لیس من المعقول أن یکون القرآن ملیئا بذکر معاجز الأنبیاء و خوارق عاداتهم و یدّعی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنّه خاتم الأنبیاء و أرفعهم منزلة، و أنّ دینه أکمل من أدیانهم ثمّ ینکص عن إظهار معجزة استجابة لطلب الباحثین عن الحقّ و الحقیقة، أ فلا یکون هذا نقطة غامضة فی دعوته فی نظر المحایدین و طلاب الحقیقة؟

فلو لم تکن له أیة معجزة، لکان علیه أن یسکت عن ذکر معاجز الأنبیاء الآخرین لکی یتمکن من تمریر خطّته و یغلق طریق الاعتراض و الانتقاد علیه، و لکنّه لا یفتأ یتحدث عن إعجاز الآخرین و یعدد خوارق العادات عند موسی بن عمران و عیسی بن مریم و إبراهیم و صالح و نوح علیهم السّلام، و هذا دلیل بیّن علی ثقته التامّة بمعاجزه، إنّ کتب التّأریخ الإسلامی و الرّوایات المعتبرة و نهج البلاغة تشیر بما یشبه التواتر إلی خوارق عادات رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۰

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۳۸]

اشارة

وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (۳۸)

التّفسیر

لاتساع البحث حول هذه الآیة، سنبدأ بشرح ألفاظها، ثمّ نفسّرها بصورة إجمالیة، ثمّ نتناول سائر جوانبها بالبحث.

«الدّابة» من «دبّ» و الدبیب المشی الخفیف، و یستعمل ذلک فی الحیوان و الحشرات أکثر، و قد ورد فی الحدیث «لا یدخل الجنّة دیبوب» و هو النمام الذی یمشی بین الناس بالنمیمة.

«الطائر» کل ذی جناح یسبح فی الهواء، و قد یوصف بها بعض الأمور المعنویة التی تتقدم بسرعة و اندفاع، و الآیة تقصد الطائر الذی یطیر بجناحیه.

«أمم» جمع أمّة، و هی کل جماعة یجمعهم أمر ما، کالدین الواحد أو الزمان الواحد أو المکان الواحد.

«یحشرون» من «حشر» بمعنی «الجمع»، و المعنی الوارد فی القرآن یقصد به یوم القیامة، و خاصة لأنّه یقول: إِلى رَبِّهِمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۱

هـذه الآیة تسـتأنف ما جاء فی الآیات السابقة من الکلام مع المشـرکین و تحذیرهـم من مصـیرهم یوم القیامة، فتتحدث عن «الحشـر» و بعث عام یشمل جمیع الکائنات الحیة و الحیوانات، فتقول أولا: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ یَطِیرُ بِجَناحَیْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُکُمْ یتّضح من هذا أنّ فصائل الحیوان و الطیور أمم مثل البشر، غیر أنّ للمفسّرین أقوالا مختلفة بشأن وجه الشبه فی هذا التمثیل.

بعض یقول: إنّ التشابه یختص بأسرار خلقتها العجیبة التی تدل علی عظمة الخالق سبحانه.

و بعض آخر یری التشابه فی حاجاتها الحیاتیة المختلفة و فی طرق سد تلک الحاجات و إشباعها.

و منهم من یعتقـد أنّ التشـابه کـائن فی تشـابه الإـدراک و الفهم و المشاعر، أی أنّ للحیوان و الطیر أیضا- إدراکه و مشاعره فی عالمه الخـاص، و یعرف اللّه و یسـبح له و یقـدسه بحسب طـاقته، و إن تکن قوّة إدراکه أدنی ممّـا فی الإنسـان، ثمّ إنّ ذیل هـذه الآیـة- کما سیأتی بیانه- یؤید هذا الرأی الأخیر.

ثمّ تقول الآیة: ما فَرَّطْنا فِی الْکِتابِ مِنْ شَیْءٍ.

لعل المقصود بالکتاب هو القرآن الـذی یضم کل شـیء (ممّا یتعلق بتربیة الإنسان و هدایته و تکامله) یبیّنه مرّة بیانا عاما، کالحث علی طلب العلم مطلقا، و مرّة بیانا تفصیلیا کالکثیر من الأحکام الإسلامیة و القضایا الأخلاقیة.

ثمّـة احتمال آخر یقول: إنّ المقصود بالکتاب هو «عالم الوجود» إذ أنّ عالم الخلیقـة مثل الکتاب الضـخم، یضم کلّ شـیء و لا ینسـی شیئا.

لیس ثمّة ما یمنع من أن تشـمل الآیة کلا التّفسیرین، فالقرآن لم یترک شیئا تربویا إلّا و ذکره بین دفتیه، کما أنّ عالم الخلیقة یخلو من کل نقص و عوز.

و تختم الآیة بالقول: ثُمَّ إِلی رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۲

یظهر أنّ ضـمیر (هم) یعود إلی الدواب و الطیر علی اختلاف أنواعها و أصـنافها، أی أنّ لها- أیضا بعثا و نشورا، و ثوابا و عقابا، و هذا ما یقول به معظم المفسّـرین، إلّا أنّ بعض المفسّـرین ینکرون هـذا، و یفسّـرون هـذه الآیة و الآیات المشابهة تفسـیرا آخر، کقولهم: إنّ معنی «الحشر إلی اللّه» هو الموت و الرجوع إلی نهایة الحیاة[۱۴۵].

ظاهر الآیة یشیر- کما قلنا- إلی البعث و الحشر یوم القیامة.

من هنـا تنـذر الآیـة المشـرکین و تقول لهـم: إنّ اللّه الـذی خلق جمیع الحیوانـات و وفر لهـا ما تحتاجه، و رعی کل أفعالها، و جعل لها حشـرا و نشورا، قـد أوجـد لکم دون شک بعثا و قیامة، و لیس الأمر کما تقول تلک الفئة من المشـرکین من أنّه لیس ثمّة شـیء سوی الحیاة الدنیا و الممات.

ملاحظات:

۱- هل هناک بعث للحیوانات؟

ما من شک أنّ الشّرط الاوّل للمحاسبة و الجزاء هو «العقل و الإدراک» و یستتبعهما (التکلیف و المسؤولیة).

یقول أصـحاب هـذا الرأی: إنّ لـدیهم مـا یثبت أن للحیوانات إدراکا و فهما بمقـدار ما تطیق، و من ذلک أن حیاة کثیر من الحیوانات تجری وفق نظـام دقیق و مثیر للعجب، و یـدلّ علی ارتفاع مسـتوی إدراکها و فهمها، فمن ذا الـذی لم یسـمع بالنمل و النحل و تمـدّنها العجیب و نظامهـا المحیر فی بنـاء بیوتها و خلایاها، و لم یسـتحسن فهمها و إدراکها؟ فعلی الرغم من أنّ بعضـهم یعزوا ذلک کله إلی

نوع من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۳

الإلهام الغریزی، فلیس ثمّة دلیل علی أنّ هذه الأعمال تجری بصورة غریزیة لا عقلیة.

ما الدلیل علی أنّ هذه الأعمال- حسبما یدل ظاهرها- لیست ناشئة عن تعقل و إدراک؟ کثیرا ما یحدث أنّ الحیوان یبتکر- استجابة لظرف من الظروف- شیئا لم یسبق له أن مرّ به و جربه، فالشاة التی لم یسبق لها أن رأت ذئبا فی حیاتها تفرغ منه أوّل ما تراه و تدرک خطره علیها، و تتوسل بکل حیلة لدرء خطره عنها.

إن العلاقة التی تتکون بین الحیوان و صاحبه تدریجیا دلیل آخر علی هذا الأمر، فکثیر من الکلاب المفترسة الخطرة تعامل أصحابها- بل و حتی أطفالهم- کما یعاملهم الخادم العطوف.

و یحکی الکثیر عن وفاء الحیوانات و عن تقدیمها کثیرا من الخدمات الإنسانیة و لا شک أنّ هذه أمور لیس من السهل اعتبارها ناشئة بدافع الغریزة، إذ إنّ الغریزة تنشأ عنها أعمال رتیبة من طراز واحد باستمرار، أمّا الأعمال التی تقع فی ظروف خاصّة کردود فعل لحوادث طارئة غیر متوقعة، فهذه تکون إلی التعقل و الإدراک أقرب منها إلی الغریزة.

نشاهد الیوم أنّ حیوانات مختلفة یجری تدریبها لأغراض متنوعة، فالکلاب البولیسیة تدرب للقبض علی المجرمین، و الحمام الزاجل لنقل الرسائل، و حیوانات أخری ترسل لابتیاع بعض الحوائج من السوق، و حیوانات أخری للصید، و هی کلها تؤدی مهماتها بکل دقة و إتقان (حتی أنّهم افتتحوا مؤخرا مدارس خاصّة لتعلیم مختلف الحیوانات)! فضلا عن ذلک کلّه، فإنّ هناک بعض الآیات التی تدل- بوضوح- علی أنّ للحیوانات فهما و إدراکا، من ذلک حکایة هروب النمل من أمام جیش سلیمان، و حکایة ذهاب الهدهد إلی منطقة سبأ بالیمن و رجوعه بأخبار مثیرة لسلیمان.

ثمّة أحادیث إسلامیة کثیرة حول بعث الحیوانات، من ذلک ما

روی عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۴

أبی ذر قال: بیّنا أنا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ انتطحت عنزان، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «أ تدرون فیما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندری، قال: «و لکن اللّه یدری و سیقضی بینهما»[۱۴۶].

و

فی روایة بطرق أهل السنة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «إنّه یحشر هذه الأمم یوم القیامة و یقتص من بعضها لبعض حتی یقتص للجماء من القرناء»[۱۴۷].

و فی الآیة (۵) من سورة التکویر یقول سبحانه: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ و هی دلیل آخر علی ذلک.

۲- الحشر و التکلیف:

تطرح هنا مسألة یتوقف فهم الآیة علیها، و هی هل أن مقولة تکلیف الحیوانات معقولة، مع أنّ من شروط التکلیف العقل، و لهذا لا یکون الطفل و المجنون مکلّفین؟ فهل للحیوانات ذلک العقل الذی یؤهلها للتکلیف؟ و هل یمکن أن نعتبر الحیوان أکثر عقلا و إدراکا من الصبی غیر البالغ و من الجنون؟ فإذا لم یکن له مثل هذا العقل و الإدراک، فکیف یجوز أن یکلّف، و بأی تکلیف؟

للجواب علی هذه السؤال نقول: إنّ للتکلیف مراحل و درجات، و کل مرحلة تناسب درجة معینة من العقل و الإدراک، و انّ التکالیف الکثیرة المفروضة فی القوانین الإسلامیة علی الإنسان تتطلب مستوی رفیعا من العقل و الإدراک لإنجازها، و لا یمکن أن نفرض مثل

تلك التكاليف على الحيوانات طبعا، لأنّ الشرط المطلوب لإنجازها غير متوفر فى الحيوانات، إلّا أنّ مرحلة من التكاليف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۵

البسيطة التى يكفى لها ما يناسبها من الفهم و الإدراك يمكن تصورها و قبولها فى الحيوان و لا يمكن إنكارها، بل من الصعب أن نرفض كل تكليف بشأن الأطفال و المجانين القادرين على فهم بعض المسائل، فالصبى الذى لم يبلغ سن الرشد- كأن يكون عمره ۱۴- سنة مثلا- لو ارتكب جريمة قتل، و هو عالم بكل أضرار هذا العمل، فلا يمكن اعتباره بريئا، و القوانين الجزائية فى العالم تضع عقوبات على بعض جرائم الأطفال غير البالغين، و إن كانت العقوبات أخف طبعا.

و عليه، فإنّ البلوغ و اكتمال العقل من شروط التكليف فى المراحل العليا المتكاملة، أمّا فى المراحل الأدنى، أى فى الذنوب التى لا يخفى قبحها حتى على من هم أدنى مرتبة، فان البلوغ و التكامل العقلى ليسا شرطا لازما.

فإذا أخذنا اختلاف مراحل التكليف و اختلاف مراتب العقل بنظر الاعتبار، يمكن حل قضية الحيوانات أيضا بهذا الشأن.

۳- هل تدل هذه الآية على التناسخ؟

من العجيب أن بعض مؤيدى فكرة «التناسخ» الخرافية يتخذون من هذه الآية دليلا على صحة فكرتهم، و يقولون: يفهم من الآية أنّ الحيوانات أمم مثلكم، مع أنّنا نعلم أنّها ذاتيا ليست مثلنا، فيمكن إذن القول بأن أرواح البشر التى تفارق أبدانها تحل فى أبدان الحيوانات، و بهذا الشكل تنال الأرواح المذنبة العقاب.

و لكن على الرغم من أنّ فكرة التناسخ تناقض «قانون التكامل» و لا تتفق مع منطق العقل، و تستوجب إنكار «المعاد» (كما سبق شرحه فى موضعه)، فإنّ هذه الآية لا تدل على التناسخ مطلقا، إذ إنّ المجتمعات الحيوانية- كما قلنا- تشبه المجتمعات البشرية، و هو شبه بالفعل لا بالقوّة، لأن للحيوانات نصيبها من الفهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۶

و الإدراك، و نصيبها من المسؤولية أيضا، و من ثمّ نصيبها من البعث و الحساب، أنّها تشبه الإنسان فى هذه الحالات.

ينبغى أن نعرف أنّ التكاليف و المسؤوليات الملقاة على الحيوانات فى مرحلة خاصّة لا تعنى أنّ لها إماما و قائدا و شريعة و دينا كما ذهب إليه بعض أصحاب التصوف، فهى لا يقودها سوى إدراكها الباطنى، أى أنّها تدرك بعض الأمور، فتكون مسئولة عنها بقدر إدراكها لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳۹]

اشارة

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۳۹)

التّفسير

الصّم و البكم:

مرّة أخرى يعود القرآن ليتطرق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ فهم لا يملكون آذانا صاغية لكى يستمعوا إلى الحقائق، و لا ألسنا ناطقة بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق، و لمّا كانت ظلمات الأنانية و عباده الذات و المعاندة و الجهل تحيط بهم من كل جانب، فهم لا يستطيعون رؤية وجه الحقيقة، و لذلك فهم محرومون من النعم الثلاث التى تربط الإنسان بالعالم الخارجى (أى السمع و البصر و النطق).

يرى بعض المفسّرين أنّ المقصود بالصمّ هم المقلّدون الذين يتبعون قادتهم الضالين دون اعتراض، و يصمون آذانهم عن سماع دعوات الهداة الإلهيين، و إنّ المقصود بالبكم هم أولئك القادة الضالون الذين يدركون الحقائق جيدا، و لكنّهم حفاظا على مصالحهم و مراكزهم الدنيوية- يكمون أفواههم، و لا ينطقون بالحقّ،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۸

فكلا الفريقين غريقان فى ظلمات الجهل و عبادة الذات ۱۴۸].

و بعد ذلك يقول القرآن الكريم: مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

سبق أن قلنا إنّ نسبة الهداية و الضلالة إلى مشيئة اللّه و إرادته نسبة تفسرها آيات أخرى فى القرآن يقول سبحانه: يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ و يقول: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ و فى موضع آخر يقول: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا يتّضح من هذه الآيات و غيرها من الآيات القرآنية أنّ الهداية و الضلالة اللتين تنسبان فى هذه الحالات إلى مشيئة اللّه إنّما هما فى الحقيقة ثواب اللّه و عقابه لعباده على أفعالهم الحسنة أو السيئة.

و بعبارة أخرى: قد يرتكب الإنسان أحيانا إثما كبيرا يؤدى به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، فتفقد عينه القدرة على رؤية الحقّ، و تفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحقّ، و يفقد لسانه القدرة على قول الحقّ.

و قد يكون الأمر على عكس ذلك، أى قد يعمل الإنسان أعمالا صالحات كثيرة بحيث أن عالما من النّور و الضوء يشع فى روحه، فيتسع بصره و بصيرته، و تزداد أفكاره إشعاعا، و يكون لسانه ابلغ فى إعلان الحقّ، ذلكم هو مفهوم الهداية و الضلالة اللتين تنسبان إلى إرادة اللّه و مشيئته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۰ الى ۴۱]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۰) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (۴۱)

التّفسير

التّوحيد الفطرى:

يعود الكلام مرّة أخرى إلى المشركين، و يدور الاستدلال حول وحدانيّة اللّه و عبادة الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجة و المؤلمة التى تمر بهم فى الحياة، و يستشهد بضمائرهم، فهم فى مثل تلك المواقف ينسون كل شىء، و لا يجدون غير اللّه ملجأ لهم.

يأمر اللّه سبحانه نبيّه أن: قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ۱۴۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۰

الحالـة النفسيـة التى تصوّرها هـذه الآيـة لا تنحصـر فى المشـركين، بل فى كل إنسان حين يتعرّض إلى الشدة و حوادث الخطر و قد لا يلجـأ الإنسان فى الحوادث الصـغيرة و المألوفـة إلى اللّه، إلّا أنّه فى الحوادث الرهيبـة و المخيفـة ينسـى كل شـىء و إن ظل فى أعماقه يحس بأمل فى النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوة غامضة خفية، و هذا هو التوجه إلى اللّه و حقيقة التوحيد.

حتى المشـركون و عبدة الأصـنام لا يخطر لهم التوسل بأصـنامهم، بل ينسونها فى مثل هذه الظروف تماما، فتقول الآية: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ

بحوث

هنا يحسن الالتفات إلى النقاط التّالية:

۱- إنّ الاسـتدلال المطروح فى هـاتين الآـيتين هو الاسـتدلال على التوحيـد الفطرى الـذى يمكن الاسـتفادة منه فى مبحثين: الأوّل: فى إثبـات وجود اللّه، و الثّانى: فى إثبات وحـدانيته، لـذلك استشـهدت الرّوايات الإسـلامية و العلماء المسـلمون بهاتين الآيتين للرد على منكرى وجود اللّه، و كذلك للردّ على المشركين.

۲- من الملاحظ أنّ الاستدلال المذكور تطرق إلى (قيام الساعة)، و قد يقال:

إنّ المخاطبين لا يؤمنون بالقيامة أصلا، فكيف يمكن طرح مثل هذا الاستدلال أمام هؤلاء؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۱

نقول أوّلا: إنّ هؤلاء لم يكونوا جميعا ينكرون يوم القيامة، فقد كان فريق منهم يؤمنون بنوع من البعث.

و ثانيا: قد يكون المعنى بالساعة هى ساعة الموت، أو الساعة الرهيبة التى تنزل فيها على الإنسان مصيبة تضعه على شفا الهلاك.

و ثالثا: قـد يكون هـذا تعبيرا مجازيا عن الحوادث المخيفـة، فالقرآن يكرر القول بأنّ يوم القيامـة يقترن بسلسـلة من الحوادث المروعة، كالزلازل و العواصف و الصواعق و أمثالها.

۳- إنّنا نعلم أنّ يوم القيامـة و ما يصـحبه من وقائع و أمور حتميـة الوقوع، و لا يمكن تغييرها إطلاقا، فكيف تقول الآية: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ؟ فهل القصد هو إظهار قدرة اللّه، أم أنّ هناك قصد آخر؟

فى جواب هذا السؤال نقول: لا يعنى هذا أنّ اللّه سوف يلغى بالدعاء البعث و قيام الساعة أصـلا، بل الآية تقصد القول بأنّ المشركين- و حتى غير المشـركين عنـد مشاهـدتهم الحوادث الرهيبـة عند قيام الساعة و بالأهوال و العذاب الذى ينتظرهم، يسـتولى عليهم الفزع و الجزع، فيـدعون اللّه ليخفف عنهم تلك الأهوال، و ينجيهم من تلك الأخطار، فـدعاؤهم يكون لنجاتهم من أهوال يوم القيامة الرهيبة، لا للإلغاء ذلك اليوم من الأساس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۲

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۲ الى ۴۵]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۴۲) فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۴۳) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً

فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (۴۴) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۴۵)

التّفسیر

مصیر الذین لا یعتبرون:

تواصل هذه الآیات توجیه الکلام للضّالین و المشرکین، و یتخذ القرآن فیها طریقا آخر لإیقاظهم و ذلک بأن ینقلهم إلی القرون السالفة و الأزمان الماضیة، یشرح لهم حال الأمم الضالة و الظالمة و المشرکة، و یبیّن لهم کیف أتیح لها جمیع عوامل التربیة و التهذیب و الوعی، غیر أنّ جمعا منهم لم یلقوا بالا إلی أی من تلک العوامل، و لم یعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و (ضراء)[۱۵۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۳

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلی أُمَمٍ مِنْ قَبْلِکَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ یَتَضَرَّعُونَ

أما کان من الأجدر بهؤلاء أن یستیقظوا عند ما جاءهم البأس و أحاطت بهم الشدائد؟! فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا أنّهم لم یستیقظوا، و لذلک سببان:

الأوّل: إنّهم لکثرة آثامهم و عنادهم فی الشرک زایلت الرحمة قلوبهم و اللیونة أرواحهم: وَ لکِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ

و الثّانی: إنّ الشیطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزیّن فی نظرهم أعمالهم، فکل قبیح ارتکبوه أظهره لهم جمیلا، و لکل خطأ فعلوه جعله فی عیونهم صوابا:

وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ ما کانُوا یَعْمَلُونَ

ثمّ تذکر الآیة الثّانیة أنّه لمّا لم تنفع معهم تلک المصائب و المشاکل و الضغوط عاملهم اللّه تعالی بالعطف و الرحمة، ففتح علیهم أبواب أنواع النعم، لعلهم یستیقظون و یلتفتون إلی خالقهم الذی وهب لهم کل تلک النعم، و یشخصوا الطریق السوی: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُکِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ أَبْوابَ کُلِّ شَیْءٍ.

إلّا أنّ هذه النعم کانت فی الواقع ذات طابع مزدوج، فهی مظهر من مظاهر المحبّة التی تستهدف إیقاظ النائمین، و هی کذلک مقدمة لنزول العذاب الألیم إذا استمرت الغفلة، و الذی ینغمس فی النعمة و الرفاهیة، یشتد علیه الأمر حین تؤخذ منه هذه النعم فجأة، بینما لو أخذت منه بالتدریج، فلا یکون وقع ذلک علیه شدیدا، و لهذا یقول إنّنا أعطیناهم الکثیر من النعم حَتَّی إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ ۱۵۱].

و هکذا استؤصلت جذور أولئک الظلمة و انقطع نسلهم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۴

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِینَ ظَلَمُوا.

و «الدابر» بمعنی المتأخر و التابع.

و لما کان اللّه قد وفر لهؤلاء کل وسائل التربیة و لم یبخل علیهم بأی شیء منها، لذلک فانّ الحمد یختص باللّه الذی یربی أهل الدنیا کافة وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ

ملاحظات:

لا بدّ هنا من التنبه إلی بضع نقاط:

۱- قد یبدو لبعضهم أنّ هذه الآیات تتعارض مع الآیات السابقة، فقد بیّنت الآیات السابقة أنّ المشرکین إذا هاجمتهم المصاعب و الشدائد یتوجهون إلی اللّه و ینسون کل ما عداه، و لکن هذه الآیات تقول: إنّ هؤلاء لا یستیقظون حتی بعد تعرضهم للمنغصات الشدیدة.

هذا التباین الظاهری یزول إذا انتبهنا إلی النقطة التّالیة، و هی أنّ الیقظة الخاطفة المؤقتة عند ظهور الشدائد لا تعتبر یقظة حقیقیة، لأنّهم سرعان ما یعودون إلی الغفلة السابقة.

فی الآیات السابقة کان الکلام عن التوحید الفطری، فکان التیقظ و التوجه العابر و نسیان کل شیء سوی اللّه فی تلک اللحظات الحساسة ما یکفی لإثبات ذلک، أمّا فی هذه الآیات فالکلام یدور عن الاهتداء و الرجوع عن الضلال إلی الطریق المستقیم، لذلک فانّ الیقظة العابرة المؤقتة لا تنفع شیئا.

قد یتصور أنّ الاختلاف بین الموضعین هو أنّ الآیات السابقة تشیر إلی المشرکین الذین عاصروا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و الآیات التی بعدها تشیر إلی الأقوام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۵

السابقین، و لذلک لا تعارض بینهما[۱۵۲].

و لکن من المستبعد جدّا أن یکون المشرکون المعاندون المعاصرون لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خیرا من الضالین السابقین، و علیه فلا حلّ للإشکال إلّا بما قلناه.

۲- نقرأ فی هذه الآیات أنّه عند ما لم یکن لابتلائهم بالشدائد تأثیر فی توعیتهم، فإنّ اللّه یفتح أبواب الخیرات علی أمثال هؤلاء الآثمین، فهل هذا ترغیب بعد المعاقبة، أم هو مقدمة لعقاب ألیم؟ أی: هل هذه النعم نعم استدراجیة، تغمر المتمرد تدریجیا بالرفاهیة و التنعم و السرور ... تغمره بنوع من الغفلة، ثمّ ینتزع منه کل شیء دفعة واحدة؟

ثمّة قرائن فی الآیة تؤید الاحتمال الثّانی، و لکن لیس هناک ما یمنع من قبول الاحتمالین، أی أنّه ترغیب و تحریض علی الاستیقاظ، فإن لم یؤثر، فمقدمة لسلب النعمة و من ثمّ إنزال العذاب الألیم.

جاء فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «إذا رأیت اللّه یعطی العبد من الدنیا علی معاصیه ما یحب، فإنّما هو استدراج) ثمّ تلی الآیة فَلَمَّا نَسُوا ...[۱۵۳].

و

فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «یا ابن آدم، إذا رأیت ربّک سبحانه یتابع علیک نعمه و أنت تعصیه فاحذره»[۱۵۴].

و

فی کتاب (تلخیص الأقوال) عن الإمام الحسن العسکری علیه السّلام قال: «إنّ قنبر مولی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أدخل علی الحجاج، فقال: ما الذی کنت تلی من علی بن أبی طالب؟ قال: کنت أوضیه، فقال له: ماذا یقول إذا فرغ من وضوئه؟ فقال: کان یتلو هذه الآیة: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُکِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ أَبْوابَ کُلِّ شَیْءٍ حَتَّی إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۶

فقال الحجاج: أظنّه کان یتأولها علینا؟! قال: نعم»[۱۵۵].

۳- یتّضح من هذه الآیات أنّ هدف الکثیر من الحوادث المؤلمة هو الإیقاظ و التوعیة، و هذا جانب من فلسفة «المصائب و الآفات»

التی تحدثنا بشأنها فی بحث التوحید، و لکن الملفت للنظر هو أنّه یبدأ الموضوع بکلمهٔ «لعل»، و ذلک لأنّ نزول البلاء وحده لا یکفی للإیقاظ، بل هو تمهید للقلوب المستعدهٔ (سبق أن قلنا أنّ «لعل» فی کلام اللّه تستعمل حیثما تکون هناک شروط أخری).

هنالک أیضا کلمهٔ «تضرع» التی تعنی أصلا نزول اللبن فی الثدی و استسلامه للرضیع، ثمّ انتقل المعنی إلی الاستسلام مع الخضوع و التواضع، أی أنّ تلک الحوادث الشدیدهٔ تهدف إلی إنزالهم عن مطیهٔ الغرور و التمرد و الأنانیهٔ، و الاستسلام للّه.

۴- ممّا یلفت النظر اختتام الآیـهٔ بقول: الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ و هـذا دلیل علی أنّ استئصال جذور الظلم و الفساد و القضاء علی شأفهٔ الذین یمکن أن یواصلوا هذا الأمر من الأهمیهٔ بحیث یستوجب الحمد للّه.

فی حـدیث ینقله فضـیل بن عیـاض عن الإمـام الصـادق علیه السّـلام یقول: «من أحبّ بقاء الظالمین فقـد أحبّ أن یعصـی اللّه، إنّ اللّه تبارک و تعالی حمد بنفسه بهلاک الظلمهٔ فقال: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۷

الآیات [سورهٔ الأنعام (۶): الآیات ۴۶ الی ۴۹]

اشارهٔ

قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَخَـذَ اللَّهُ سَـمْعَکُمْ وَ أَبْصارَکُمْ وَ خَتَمَ عَلی قُلُوبِکُمْ مَنْ إِلهٌ غَیْرُ اللَّهِ یَأْتِیکُمْ بِهِ انْظُرْ کَیْفَ نُصَـرِّفُ الْآیاتِ ثُمَّ هُمْ یَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أَ رَأَیْتَکُمْ إِنْ أَتاکُمْ عَـذابُ اللَّهِ بَغْتَـهً أَوْ جَهْرَهً هَلْ یُهْلَکُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (۴۷) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَـلِینَ إِلَّا مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۴۸) وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا یَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما کانُوا یَفْسُقُونَ (۴۹)

التّفسیر

اعرفوا واهب النعم!

الخطاب ما یزال موجها إلی المشرکین.

فی هذه الآیات حثّ استدلالی علی إیقاظهم ببیان آخر یعتمد غریزهٔ دفع الضرر، فیبدأ بالقول: إنّه إذا سلب منکم اللّه النعم الثمینهٔ التی وهبها لکم، مثل السـمع و البصـر، و أغلق علی قلوبکم أبواب التمییز بین الحسن و السـیء، و الحقّ الباطل، فمن یا تری یستطیع أن یعید إلیکم تلک النعم؟ قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۸

سَمْعَکُمْ وَ أَبْصارَکُمْ وَ خَتَمَ عَلی قُلُوبِکُمْ مَنْ إِلهٌ غَیْرُ اللَّهِ یَأْتِیکُمْ بِهِ

فی الواقع، کان المشرکون أنفسهم یعتقدون أنّ الخالق و الرازق هو اللّه، و کانوا یعبدون الأصنام للاستشفاع بها عند اللّه.

و القرآن یحثّهم علی الاتجاه المباشر نحو اللّه مصدر کل الخیرات و البرکات بدل الاتجاه إلی أصنام لا قیمهٔ لها.

و إضافهٔ إلی ما کان یحمله عبـدهٔ الأصـنام من اعتقاد باللّه، فإنّ القرآن اسـتجوب عقولهم هنا لإبـداء رأیها و حکمها فی أمر أصـنام لا تملک هی نفسـها عینا و لا أذنا و لا عقلا و لا شـعورا، فهل یمکنها أن تهب أمثال هذه النعم للآخرین؟! ثمّ تقول الآیهٔ: انظر إلی هؤلاء الذین نشرح لهم الآیات و الدلائل بمختلف الوسائل، و لکنّهم مع ذلک یعرضون عنها: انْظُرْ کَیْفَ نُصَرِّفُ الْآیاتِ ثُمَّ هُمْ یَصْدِفُونَ

و فیما یتعلق بمعنی «ختم» و سبب ورود «سمع» بصیغهٔ المفرد، و «أبصار» بصیغهٔ الجمع فی القرآن راجع المجلد الاوّل من هذا التّفسیر، (۹۲).

«نصرف» من «التصريف» بمعنى «التغيير»، و الكلمة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات فى صور متنوعة.

و «يصدفون» من «صدف» بمعنى «الجانب» و «الناحية» أى أنّ المعرض عن شىء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية أخرى.

و هذه الكلمة تستعمل بمعنى الإعراض أيضا، و لكنه «الإعراض الشديد» كما يقول الراغب الأصفهانى.

تشير الآية الثّانية، بعد ذكر هذه النعم الثلاث «العين و الأذن و الإدراك» التى هى منبع جميع نعم الدنيا و الآخرة- إلى إمكان سلب هذه النعم كلها دفعة واحدة، فتقول: قُلْ أ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۹

الظَّالِمُونَ ۱۵۶].

«بغتة» بمعنى «فجأة» و «جهرة» بمعنى «الظاهر» و العلانية، و المألوف استعمال «سرّا» فى مقابل «جهرة» لا «بغتة»، و لكن لما كانت مقدمات العمل المباغت خافية غالبا، إذ لو لا خفاؤه لما كان مباغتا، فإن فى «بغتة» يكمن معنى الخفاء و السرية أيضا.

و القصد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، و سلب مختلف النعم هو اللّه وحده، و إنّ الأصنام لا دور لها فى هذا أبدا، لذلك ليس ثمّة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن اللّه لحكمته و رحمته لا يعاقب إلّا الظالمين.

و من هذا يستفاد أنّ للظلم معنى واسعا يشمل أنواع الشرك و الذنوب، بل إنّ القرآن يعتبر الشرك ظلما عظيما، كما قال لقمان لابنه: لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۱۵۷].

الآية الثالثة تشير إلى مركز الأنبياء، فتقول: ليست الأصنام العديمة الروح هى وحدها العاجزة عن القيام بأى أمر، فإن الأنبياء العظام و القادة الإلهيين أيضا لا عمل لهم سوى إبلاغ الرسالة و الإنذار و التبشير، فكل ما هنالك من نعم إنّما هى من اللّه و بأمره، و أنّهم إن أرادوا شيئا طلبوه من اللّه: وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ

و الاحتمال الآخر فى ربط هذه الآية بالآيات السابقة هو أنّ تلك الآيات كانت تتكلم عن البشارة و الإنذار، و هنا يدور القول على أنّ هذا هو هدف بعثة الأنبياء، فهم مبشرون و منذرون.

ثمّ تقول: إنّ طريق النجاة ينحصر فى أمرين، فالذين يؤمنون و يصلحون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۰

أنفسهم و يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ فلا خوف عليهم من العقاب الإلهى، و لا حزن على أعمالهم السابقة. فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

أمّا أولئك الذين لا يصدقون بآياتنا، بل يكذبون بها فإنّ عقابهم على فسقهم و عصيانهم عذاب من اللّه: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

من الجدير بالانتباه أنّ الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات اللّه بعبارة يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ فكأنّ هذا العقاب يطاردهم فى كل مكان حتى يشملهم بأشد ما يكون من العذاب.

كذلك ينبغى القول أنّ لكلمة «فسق» معنى واسعا أيضا، يشمل كل أنواع العصيان و الخروج عن طاعة اللّه و عبوديته و حتى الكفر فى بعض الأحيان، و هذا المعنى هو المقصود فى هذه الآية، لذلك لا محل للبحوث التى عقدها الفخر الرازى و مفسّرون آخرون بشأن معنى «الفسق» و شمولها الذنوب، و من ثمّ الدفاع عن ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۱

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۵۰]

اشارة

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّی مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِی الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ (۵۰)

التّفسير

معرفة الغيب:

هذه الآية استمرار للردّ على اعتراضات الكفار و المشركين المختلفة، و الرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الاعتراضات فی جمل قصيرة:

الأوّل: هو أنّهم كانوا يريدون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم القيام بمعجزات عجيبة و غريبة، و كان كل واحد يتقدم باقتراح حسب رغبته، بل إنّهم لم يكونوا يقنعون بمشاهدة معجزات طلبها آخرون، فمرّة كانوا يطلبون بيوتا من ذهب، و مرّة يريدون هبوط الملائكة، و مرّة يريدون أن تتحول أرض مكّة القاحلة المحرقة إلى بستان ملیء بالمياه و الفواكه و غير ذلك ممّا كانوا يطلبونه من النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ممّا سيأتی شرحه فی تفسير الآية (۹۰) من سورة الإسراء.

و لعلهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يروا للنبی مقام الألوهية و امتلاك الأرض و السماء، فللردّ على هؤلاء يأتی الأمر من اللّه: قُلْ لا أَقُولُ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۲

لَكُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللَّهِ

«الخزائن» جمع الخزينة، بمعنى المكان الذی تخزن فيه الأشياء التی يراد حفظها و إخفاؤها عن الآخرين، و استنادا إلى الآية: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۱۵۸] يتّضح أنّ «خزائن اللّه» تشمل مصدر و منبع جميع الأشياء، و هی فی الحقيقة تستقی من ذات اللّه اللامتناهية منبع جميع الكمالات و القدرات.

ثمّ تردّ الآية على الّذين كانوا يريدون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل و يطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكی يدفعوا الضرر و يستجلبوا النفع، فتقول: وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ

سبق أن قلنا إنّه لا يكون أحد مطلعا على كل شیء إلّا إذا كان حاضرا و شاهدا فی كل مكان و زمان، و هو اللّه وحده، أمّا الذی يكون وجوده محددا بمكان و زمان معينين فلا يمكن بالطبع أن يطلع على كل شیء، و لكن ما من شیء يحول دون أن يمنح اللّه جزءا من عمله هذا إلى الأنبياء و القادة الإلهيين لإكمال مسيرة القيادة، حسبما يراه من مصلحة، و هذا بالطبع لا يكون علما بالغيب بالذات، بل هو «علم بالغيب بالعرض» أی أنّه تعلم من عالم الغيب.

هنالك آيات عديدة فی القرآن تدل على أنّ اللّه لا يظهر علمه هذا للأنبياء و القادة الإلهيين وحدهم، بل قد يظهره لغيرهم أيضا، ففی الآيتين (۲۶ و ۲۷) من سورة الجن نقرأ: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

لا شك أنّ مقام القيادة، و خاصة القيادة العالمية العامة، يتطلب الاطلاع على كثير من المسائل الخافية على عامّة الناس، فإذا لم يطلع اللّه مبعوثيه و أولياءه على علمه، فإنّ مراكزهم القيادية لن تكون كاملة (تأمل بدقّة).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۳

و إذا تجاوزنا ذلك، فإنّنا نلاحظ أنّ بعض الكائنات الحيّة لا بدّ لها أن تعلم الغيب للمحافظة على حياتها، فيهبها اللّه ما تحتاجه من علم، فنحن- مثلا- قد سمعنا عن بعض الحشرات التی تتنبأ فی الصيف بما سيكون عليه الجو فی الشتاء، أی أنّ اللّه قد وهبها هذا العلم بالغيب، لأنّ حياتها ستتعرض لخطر الفناء دون هذه المعرفة، و سوف نفصل هذا الموضوع أكثر إن شاء اللّه عند تفسير الآية (۱۸۸) من

سورة الأعراف.

فى الجملة الثّالثة ردّ على الذين كانوا يتصورون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ملكا، أو أن يصاحبه ملك، و ان لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام و السير فى الطرقات، و غير ذلك، فقال: وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّی مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما یُوحى إِلَیَ

يتّضح من هذه الآية بجلاء أن كل ما عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من علم، و كل ما فعله كان بوحى من السماء، و إنّه لم يكن يفعل شيئا باجتهاده و لا- بالعمل بالقياس و لا بأى شيء آخر كما يرى بعض- و إنّما كان يتبع الوحى فى كل أمر من أمور الدين.

و فى الختام يؤمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم و يغلقون عقولهم فلا يفكرون أن ينظر إليهم على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيدا و يتفهمونها؟ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمى وَ الْبَصِیرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ

إنّ ذكر هذه الجملة فى أعقاب الجملات الثلاث السابقة قد يكون لأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سبق أن قال: لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللَّهِ و وَ لا- أَعْلَمُ الْغَیْبَ و لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّی مَلَكٌ بل إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما یُوحى إِلَیَ و لكن هذا كلّه لا يعنى إنّنى مثلكم، أيّها المشركون، بل أنا إنسان بصير بالواقع بينما المشرك أشبه بالأعمى، فهل يستويان؟

ثمّة احتمال آخر لربط هذه الجمل، و هو أن الأدلة و البراهين على التوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۴

و على صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم واضحة جلية، و لكنّها تتطلب عينا بصيرة لكى تراها، فإذا كنتم لا تقبلونها فليس لأنها أدلة غامضة معقدة، بل لكونكم تفتقرون إلى العين البصيرة، فهل يستوى الأعمى و البصير؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۵

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۵۱]

اشارة

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِینَ یَخافُونَ أَنْ یُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَیْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِیٌّ وَ لا شَفِیعٌ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۵۱)

التّفسير

فى ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، و فى هذه الآية يأمر نبيّه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِینَ یَخافُونَ أَنْ یُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ أى أن هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب و جزاء، و فى ضوء هذا الاحتمال و الخوف من المسؤولية تتولّد فيهم القابلية على التلقّى و القبول.

سبق أن قلنا: إنّ وجود القائد المؤهل و البرنامج التربوى الشامل لا يكفيان وحدهما لهداية الناس، بل ينبغى أن يكون لدى هؤلاء الناس الاستعداد لتقبل الدعوة، تماما مثل أشعة الشمس التى لا تكفى وحدها لتشخيص معالم الطريق، بل لا بدّ من وجود العين الباصرة أيضا، و مثل البذرة السليمة التى لا يمكن أن تنمو بغير وجود الأرض الصالحة للزراعة.

يتّضح من هذا أنّ الضمير فى «به» يعود على القرآن، و هذا يتبيّن من القرائن، على الرغم من أنّ القرآن لم يذكر فى الآيات السابقة صراحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۶

كما أنّ المقصود من «يخافون» أى يحتملون وجود الضرر، إذ يخطر ببال كل عاقل يستمع إلى دعوة الأنبياء الإلهيين، بأنّ من المحتمل

أن تكون دعوة هؤلاء صادقة، و أنّ الإعراض عنها يوجب الخسران و الضرر، و يستنتج من ذلك أنّ من الخير له أن يدرس الدعوة و يطلع على الأدلة.

و هذا واحد من شروط الهداية، و هو ما يطلق عليه علماء العقائد اسم «لزوم دفع الضرر المحتمل» و يعتبرونه دليل وجوب دراسة دعوى من يدعى النّبوة، و لزوم المطالعة لمعرفة اللّه.

ثمّ يقول: إنّ أمثال هؤلاء من ذوى القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذى ليس فيه غير اللّه ملجأ و لا شفيع: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس و ادعهم إلى اللّه، إذ أنّ الأمل فى هدايتهم موجود: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

بديهى أنّ نفى «الشفاعة» و «الولاية» فى هذه الآية عن غير اللّه لا يتناقض مع شفاعة أولياء اللّه و ولايتهم، إذ إنّنا سبق أن أشرنا إلى أنّ المقصود هو نفى الشفاعة و الولاية بالذات، أى أنّ هذين الأمرين مختصان ذاتا باللّه، فإذا كان لأحد غيره مقام الشفاعة و الولاية فبإذن منه و بأمره، كما يصرح القرآن بذلك: مَنْ ذَا الَّذِی يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۱۵۹].

للمزيد من التوضيح بشأن الشفاعة عموما، انظر المجلد الأوّل: ص ۱۹۸.

و المجلد الثّانى من هذا التّفسير.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۷

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۲ الى ۵۳]

اشارة

وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (۵۲) وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (۵۳)

سبب النّزول

اشارة

ذكرت روايات عديدة فى سبب نزول هاتين الآيتين، و لكنّها متشابهة، من ذلك ما جاء فى تفسير «الدار المنثور»: مرّت جماعة من قريش بمجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث كان «صهيب» و «عمار» و «بلال» و «خباب» و أمثالهم من الفقراء و العمال حاضرين فيه، فتعجبوا من ذلك (لأنّهم كانوا يحسبون أن شخصية المرء مرهونة بالثروة و الجاه و المقام، و لم يستطيعوا إدراك المنزلة المعنوية لهؤلاء الأشخاص، و لا ما سيكون لهم من دور بناء فى إيجاد المجتمع الإسلامى و الإنسانى الكبير) فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك، أ فنحن نكون تبعا لهم؟، أ هؤلاء الذين منّ اللّه عليهم؟! اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم اتّبعناك،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۸

فأنزل اللّه الآية.

بعض مفسّرى أهل السنة، مثل صاحب تفسير (المنار) يورد حديثا أشبه بذاك، ثمّ يقول: إنّ عمر بن الخطاب كان حاضرا و اقترح على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقبل عرض هؤلاء الملأ من قريش، ليتبيّن مدى صدق قولهم؟ فنزلت الآيتان فى رفض

اقتراحه.

ينبغى ألّا يغرب عن البال أنّ ذكر سبب نزول بعض آيات هذه السورة لا يتنافى مع نزول السورة كلها فى مكان واحد، فقد سبق أن قلنا إنّ من الممكن أن تقع حوادث مختلفة فى أوقات مختلفة قبل نزول السورة، ثمّ تنزل السورة بشأن تلك الحوادث.

يلزم هنا أن نذكر أنّه جاء فى رواية أنّ الملأ من قريش- حينما رفض رسول اللّه عرضهم- اقترحوا عليه شيئا آخر، و قالوا له: لو نحيت هؤلاء حتى نخلو بك ... فإذا انصرفنا، فإذا شئت أعدتهم إلى مجلسك، فأجابهم النّبى إلى ذلك، فقالوا له: اكتب لنا بهذا على نفسك كتابا، فدعا بصحيفة و أحضر عليا ليكتب، فنزل جبرائيل بالآية تنهى عن ذلك.

غير أنّ هذه الرواية، على الرغم من كونها لا- تنسجم مع روح تعاليم الإسلام التى رفضت دوما المساومة فى مثل هذه الحالات، و أكّدت باستمرار على وحدة المجتمع الإسلامى، فإنّها لا تنسجم مع الآية السابقة: إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ فكيف يمكن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبول الاقتراح دون انتظار للوحى.

ثمّ إنّ عبارة وَ لا- تَطْرُدِ فى بداية الآية تدل على أنّهم قد طلبوا طرد أولئك، لا التناوب معهم، و البون شاسع بين طلب الطرد و طلب التناوب، و هذا يدل على أنّ سبب نزول الآية هو ما أوردناه أوّلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۹

مكافحة التّفكير الطّبقى:

فى هذه الآية إشارة إلى واحد من احتجاجات المشركين، و هو أنّهم كانوا يريدون من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقرّ ببعض الامتيازات لطبقة الأغنياء و يفضلهم على طبقة الفقراء، إذ كانوا يرون فى جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منقصة لهم أى منقصة! مع أنّ الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الامتيازات الزائفة الجوفاء، كانوا يصرون على هذا الطلب فى طرد أولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستندا إلى أدلة حية، فيقول: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۱۶۰].

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يشر إلى هؤلاء الأشخاص إشارة خاصّة، بل اكتفى بصفتهم البارزة و هى أنّهم يذكرون اللّه صباح مساء، أى دائما، و انّ ذكرهم اللّه هذا ليس فيه رياء، بل هو لذات اللّه وحده، فهم يريدونه وحده و يبحثون عنه، و ليس ثمّة امتياز اسمى من هذا.

يتبيّن من آيات قرآنية مختلفة أنّ هذا لم يكن أوّل طلب من نوعه يتقدم به هؤلاء المشركون الأغنياء المتكبرون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل لقد تكرر اعتراضهم على النّبى بشأن اجتماع الفقراء حوله، و مطالبتهم إياه بطردهم.

فى الحقيقة كان هؤلاء يستندون فى طلبهم ذاك إلى سنة قديمة خاطئة تقيم المرء على أساس ثروته، و كانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقية القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة، و يرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم و المعايير.

فى سيرة النّبى نوح عليه السّلام نرى أنّ أشراف زمانه كانوا يقولون له:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۰

وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ ۱۶۱] و اعتبروا ذلك دليلا على بطلان رسالته.

إنّ واحدا من دلائل عظمة الإسلام و القرآن، و عظمة مدرسة الأنبياء عموما، هو أنّها وقفت ثابتة لا تتزحزح فى وجه أمثال هذه الطلبات، و راحت تحطم هذه الامتيازات الموهومة فى كل المجتمعات التى تعتبر التمايز الطبقى مسألة ثابتة، لتعلن أنّ الفقر ليس نقصا فى أشخاص مثل سلمان و أبى ذر و الخباب و بلال، كما أنّ الثروة ليست امتيازا اجتماعيا، أو معنويا لهؤلاء الأثرياء الفارغين

المتحجرین المتکبرین.

ثمّ تقول الآیـة: إنّه لیس ثمّـة مـا یـدعو إلی إبعـاد هؤلاء المؤمنین عنک، لأنّ حسابهم لیس علیک، و لا حسابک علیهم: ما عَلَیْکَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ، وَ ما مِنْ حِسابِکَ عَلَیْهِمْ مِنْ شَیْءٍ، و لکنّک مع ذلک إذا فعلت تکون ظالما: فَتَطْرُدَهُمْ فَتَکُونَ مِنَ الظَّالِمِینَ

یختلف المفسّرون فی توضیح المقصود من «الحساب» هنا.

منهم من یقول: إنّ المقصود هو حساب رزقهم، أی أنّهم و إن کانوا فقراء فإنّهم لا یثقلون علیک بشـیء، لأنّ حساب رزقهم علی اللّه، کما أنّک أنت أیضا لا تحملهم ثقل معیشتک، إذ لیس من حساب رزقک علیهم من شیء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۴ ؛ ص ۳۰۰

ر أنّ هـذا الاحتمال یبـدو بعیـدا، لأن الظاهر أن القصد من الحساب هو حساب الأعمال، کما یقول کثیر من المفسّـرین، أمّا لماذا یقول اللّه أن حساب أعمالهم لیس علیک، مع أنّهم لم یبدر منهم أی عمل سیء یستوجب هذا القول؟

فالجواب: إنّ المشـرکین کانوا یتهمون أصـحاب رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم الفقراء بالابتعاد عن اللّه بسبب فقرهم، زاعمین أنّهم لو کانت أعمالهم مقبولة عند اللّه لزمه الترفیة و التوسعة علیهم فی معیشتهم، بل کانوا یتهمونهم بأنّهم لم یؤمنوا إلّا لضمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۴، ص: ۳۰۱

معیشتهم و الوصول إلی لقمة العیش.

فیرد القرآن علی ذلـک مبینـا أنّنـا حتی لو فرضـنا أنّهم کـذلک، فان حسابهم علی اللّه، ما دام هؤلاء قـد آمنوا و أصـبحوا فی صـفوف المسلمین، فلا یجوز طردهم بأی ثمن، و بهذا یقف فی وجه إحتجاج أشراف قریش.

و شاهـد هـذا التّفسـیر ما جاء فی حکایهٔ النّبی نوح علیه السّـلام التی تشـبه حکایهٔ أشـراف قریش، فأولئک کانوا یقولون لنوح: أَ نُؤْمِنُ لَـکَ وَ اتَّبَعَـکَ الْأَرْذَلُونَ فیرد علیهم نوح قائلاـ: وَ مـا عِلْمِی بِمـا کـانُوا یَعْمَلُونَ إِنْ حِسـابُهُمْ إِلَّا عَلی رَبِّی لَوْ تَشْـعُرُونَ، وَ مـا أَنَـا بِطـارِدِ الْمُؤْمِنِینَ ۱۶۲].

من هنـا یجب علی الأنبیـاء أن یتقبلوا کـل امرئ یظهر الإیمان بـدون أی تمییز و من أیـهٔ طبقـهٔ کان فکیف بالمؤمنین الأطهار الـذین لا یریدون إلّا وجه اللّه، و کل ذنبهم هو أنّهم فقراء صفر الیدین من الثروة، و لم یتلوثوا بالحیاة الدنیئة لطبقة الأشراف!

امتیاز کبیر للإسلام:

إنّنا نعلم أنّ دائرة صـلاحیات رجال الـدین المسـیحیین المعاصـرین قد اتسـعت اتساعا مضـحکا بحیث إنّهم أعطوا أنفسـهم حق غفران الذنوب، فبإمکانهم طرد الأشخاص و تکفیرهم أو قبولهم لأتفه الأمور.

إلّا أنّ القرآن، فی هـذه الآیـة و فی آیات أخری ینفی صـراحة أن یکون لأحـد الحقّ، بل و لا لرسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم نفسه فی أن یطرد أحـدا أظهر إیمـانه و لم یفعل ما یوجب إخراجه من الإسـلام، و أن غفران الـذنوب و الحساب بیـد اللّه وحـده، و لا یحق لأحد التدخل فی هذا أبدا.

و الکلام هنا علی «الطرد الدینی» لا «الطرد الحقوقی» فلو کانت إحدی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۴، ص: ۳۰۲

المـدارس وقفا علی طبقـهٔ خاصّـهٔ من الطلاب، و قبل أحـدهم فیها لتوفر شـروط القبول فیه، ثمّ فقـد بعض تلک الشـروط، فان طرده و إخراجه من تلک المدرسـهٔ لا مانع فیه، کذلک لو أنّ مدیر مدرسهٔ أعطیت له صـلاحیات معینهٔ لغرض إدارهٔ شؤونها، فله کل الحقّ فی

الاستفادة من تلک الصلاحیات لحفظ النظام و رعایة مصالح المدرسة (فما ورد فی حدیث صاحب تفسیر المنار عند تفسیره الآیة ممّا یخالف هذا المعنی ناشی من الاشتباه بین الطرد الدینی و الطرد الحقوقی).

الآیـة الثّانیـة یحـذر فیهـا القرآن أصـحاب المـال و الثروة من أن هـذه الأـمور اختبـار لهم، فإذا لم یجتازوا الامتحان فعلیهم أن یتحملوا العواقب المؤلمة، فاللّه یمتحن بعضهم ببعض: وَ کَذلِکَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

«الفتنـة» تعنی هنـا الامتحان ۱۶۳] و أی إمتحـان أصـعب ممّـا یمر به الأغنیـاء الـذین کـانوا قـد اعتادوا لسـنوات طویلـة علی الترفع علی الطبقـات الـدنیا، فلاـ یشارکونهم أفراحهم و أتراحهم، بل حتی أنّهم یبعـدون قبور موتاهم عن قبورهم، أمّا الآن فیطلب منهم أن یتخلوا عن کل ذلک و أن یحطموا کل تلک العادات و السـنن، و یکسـروا القیود و السـلاسل لیلتحقوا بدین طلائعه من الفقراء و من یسـمون بالطبقة الدنیا.

ثـمّ تضیـف الآیـة أنّ الأـمر یصـل بهؤلاـء إلی أنّهـم ینظرون إلی المـؤمنین الصـادقین نظرة احتقـار لِیَقُولُـوا أ هؤُلاـءِ مَـنَّ اللَّهُ عَلَیْهِمْ مِنْ بَیْنِنا[۱۶۴]؟! ثمّ تجیب الآیـة علی المعترضـین مؤکـدة أنّ هؤلاء الأشـخاص أناس شـکروا نعمة التشـخیص الصـحیح بالعمل، کما أنّهم شکروا نعمـة دعوة رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بقبولها، فأی نعمـة أکبر، و أی شـکر أرفع، و لـذلک رسخ اللّه الإیمان فی قلوبهم:

أ لَیْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاکِرِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۳

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۵۴ الی ۵۵]

اشارة

وَ إِذا جاءَکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِآیاتِنا فَقُلْ سَـلامٌ عَلَیْکُمْ کَتَبَ رَبُّکُمْ عَلی نَفْسِهِ الرَّحْمَـةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْکُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵۴) وَ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ وَ لِتَسْتَبِینَ سَبِیلُ الْمُجْرِمِینَ (۵۵)

التّفسیر

یری بعض المفسّـرین أنّ الآیـة نزلت بشأن الذین نهت الآیات السابقة عن طردهم و إبعادهم، و یری بعض آخر أنّها نزلت فی فریق من المذنبین قدموا علی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا: إنّهم قد أذنبوا کثیرا، فسکت النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتی نزلت الآیة.

و مهما یکن سبب نزول الآیة، فالذی لا شک فیه أنّ معناها واسع و شامل، لأنّها تبدأ أوّلا بالطلب من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یطرد المذنبین مهما عظمت ذنوبهم، بل علیه أن یستقبلهم و یتقبلهم: وَ إِذا جاءَکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِآیاتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَیْکُمْ یحتمل أن یکون هذا السّـلام من اللّه بوساطة رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أو أنّه من الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباشرة، و هو- علی کلا الاحتمالین دلیل علی القبول و الترحیب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۴

و التفاهم و المحبّة.

ثمّ تقول الآیة کَتَبَ رَبُّکُمْ عَلی نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

«کتب» تأتی فی کثیر من الأحیان کنایة عن الإلزام و التعهد، إذ إنّ من نتائج الکتابة توکید الأمر و ثبوته.

و فی الجزء الأخیر من الآیة- و هو توضیح و تفسیر لرحمة اللّه- یتحدث بلهجة عاطفیة: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و قد سبق القول ۱۶۵] أنّ «الجهالة» فی مثل هذه المواضع تعنی طغیان الشهوة و سیطرتها، و الإنسان بسبب هذه الأهواء المستفحلة، لا بسبب عدائه للّه و للحق- یفقد المقدرة العقلیة و السیطرة علی الشهوات، مثل هذا الشخص- و إن کان عالما بالذنب و الحرمة- یسمی جاهلا لأنّ علمه مستتر وراء حجب الأهواء و الشهوات، و هذا الشخص مسئول عن ذنوبه، و لکنّه یسعی لإصلاح نفسه و جبران أخطائه لأنّ أفعاله لم تکن عن روح عداء و خصام.

تأمر الآیة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یطرد أی شخص مؤمن مهما تکن طبقته و ظروفه و عنصره، بل علیه أن ینظر إلی الجمیع بعین المساواة، و أن یحتضنهم و یعمل علی إصلاحهم حتی و إن کانوا ملوثین بالذنوب.

الآیة التّالیة و من أجل توکید هذا الموضوع تشیر إلی أنّ اللّه سبحانه یوضح آیاته و أوامره توضیحا بیّنا لکی یتبیّن طریق الباحثین عنه و المطیعین له، کما یتبیّن طریق الآثمین المعاندین من أعداء اللّه: وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ۱۶۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۵

من الواضح فی هذه الآیة أنّ «المجرم» لیس کل مذنب، لأنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکلّف فی هذه الآیة أن یتقبل المذنبین الذین یقبلون علیه، مهما یکن جرمهم الذی ارتکبوه عن جهل، و علیه فان المجرمین هنا هم أولئک المذنبون المعاندون الذین لا یستسلمون للحق.

أی بعد هذه الدعوة العامّة إلی اللّه، التی تشمل حتی المجرمین النادمین یتّضح بشکل کامل طریق المعاندین الذین لا یرجعون عن عنادهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۶

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۵۶ الی ۵۸]

اشارة

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (۵۶) قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (۵۷) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (۵۸)

التّفسیر

الإصرار العقیم:

ما یزال الخطاب فی هذه الآیات موجها إلی المشرکین و عبدة الأصنام المعاندین- کدأب معظم آیات هذه السورة- یبدو من سیاق هذه الآیات أنّهم دعوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی اعتناق دینهم، الأمر الذی یستدعی نزول الآیة: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۱۶۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۷

جملة «نهیت» التی وردت بصیغة الماضی و مبنیة للمجهول تشیر إلی أنّ النهی عن عبادة الأصنام لیس أمرا جدیدا، بل کان دائما قائما

و سيبقى كذلك.

ثمّ بجملة قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، بالنظر لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق و لا مع الأدلة العقلية، لأنّ العقل يدرك بسهولة أن الإنسان أشرف من الجماد، فكيف يمكن للإنسان أن يخضع لأى مخلوق آخر فضلا عن المخلوق الأدنى؟ هذا مع أنّ هذه الأصنام هى من صنع الإنسان نفسه فكيف يتخذ الإنسان ما خلقه بنفسه معبودا يعبده و يلجأ إليه فى كل مشاكله؟ و بناء على ذلك، فإنّ منشأ عبادة الأصنام ليس سوى التقليد الأعمى و الإتّباع المقيت للأهواء و الشهوات.

و فى ختام الآية يؤكّد القرآن مرّة أخرى على أنّه إذا فعل ذلك قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ

الآية التّالية تتضمّن جوابا آخر، و هو: قُلْ إِنِّى عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ

«البيّنة» أصلا ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثمّ أطلقت على الدليل و الحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحق و الباطل.

و فى المصطلح الفقهى تطلق «البيّنة» على الشاهدين العدلين، غير أنّ معنى الكلمة اللغوى واسع جدا، و شهادة العدل واحد من تلك المعانى، و كذلك كانت المعجزة بيّنة لأنّها تفصل بين الحق و الباطل، و إذا قيل للآيات و الأحكام الإلهية بينات فلكونها من مصاديق الكلمة الواسعة.

و عليه، فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤمر فى هذه الآية أن يقول: إنّ دليلى فى قضية عبادة اللّه و محاربة الأصنام واضح و بيّن، و ان تكذيبكم و إنكاركم لا يقللان من صدق الدليل.

ثمّ يشير إلى حجّة واهية أخرى من حججهم، و هى أنّهم كانوا يقولون: إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۸

كنت على حق فعلا فعجل بالعقاب الذى تتوعدنا به، فيقول لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

ما عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لأنّ الأعمال و الأوامر كلها بيد اللّه: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

و بعد ذلك يقول مؤكدا: إنّ اللّه هو الذى: يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ

بديهى أنّ القادر على أن يفصل بين الحق و الباطل على خير وجه هو الذى يكون أعلم الجميع، و من السهل عليه التمييز بين الحق و الباطل، ثمّ تكون له القدرة الكافية على استخدام علمه، و هاتان الصفتان (العلم و القدرة) هما من صفات الذات الإلهية اللامحدودة، و عليه فإنّه عزّ و جلّ خير من يقص الحق، أى يفصل الحق من الباطل.

الآية التّالية تأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أن ما تطلبونه منى على عجل كان فى سعتى و قدرتى، و أجبتكم إليه لانتهى الأمر، و لم يعد بينى و بينكم شىء: قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ

و لكيلا يظنوا أن عقابهم قد طواه النسيان، يقول فى النهاية وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ و سوف يعاقبهم فى الوقت المناسب.

بحوث

هنا لا بدّ من ذكر بعض النقاط:

۱- يستفاد من آيات القرآن أنّ كثيرا من الأمم الماضية طلبوا مثل هذا الطلب من أنبيائهم، و هو: إذا كنت صادقا فيما تقول فلما ذا لا ترسل علينا العقاب الذى تتوعدنا به؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۹

قوم نوح عليه السّلام طلبوا منه ذلك قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۱۶۸] و نظير ذلك

جاء على لسان قوم صالح ۱۶۹] و كذلك فعل قوم عاد مع نبيّهم هود[۱۷۰].

و يستفاد من سورة الإسراء أنّ هذا الطلب قد تكرر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حتى أنّهم قالوا له: إننا لا نؤمن لك أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً[۱۷۱].

كان الدافع إلى هذه الطلبات غير المعقولة السخرية و الاستهزاء، أو الرغبة فى رؤية المعجزة، و فى كلتا الحالتين كان الطلب أحمقا، إذ فى الحالة الثانية يكون تحقق الطلب سببا فى إبادتهم، و لا يكون ثمّة مجال للاستفادة من ظهور المعجزة، و فى الحالة الأولى كان لدى الأنبياء أدلة بينة توفر- على الأقل- احتمال التصديق عند كل ناظر بصير، فكيف يمكن مع هذا الاحتمال أن يطلب أحد القضاء على نفسه، أو أن لا يأخذ المسألة مأخذ الجد، غير أنّ التعصب و العناد بلاء عظيم يقفان بوجه كل فكر و منطق.

۲- إنّ معنى إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ واضح، أى أنّ كل أمر فى عالم الخلق و التكوين و فى عالم الأحكام و التشريع بيد اللّه، و بناء على ذلك إذا كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقوم بمهمّة فذلك أيضا بأمر من اللّه.

فإذا أحيا المسيح عليه السّلام ميتا- مثلا- فهو بإذن اللّه، و كذلك كل منصب- بما فى ذلك القيادة الإلهية و التحكيم و القضاء- إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر اللّه تعالى.

و لكنّ الذى يؤسف له أنّ هذه الآية الواضحة استغلت على مدى التّأريخ، فمرّة تمسك بها الخوارج فى قضية «الحكمين» التى أرادوها هم و أمثالهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۰

حرب «صفين» فكانت

«كلمة حق أريد بها باطل» كما قال الإمام على عليه السّلام

، حتى أصبح شعارهم (لا حكم إلّا للّه).

لقد كانوا من الجهل و البلاهة إنّهم حسبوا أن من حكم بأمر اللّه و الإسلام فى أمر من الأمور يكون قد خالف إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ بينما كانوا يقرءون القرآن كثيرا، و لكن لا يفهمونه إلّا قليلا فالقرآن نفسه فى موضوع الاحتكام العائلى يصرح باختيار حكم من جانب الزوجة و حكم من جانب الزوج: فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها[۱۷۲].

و اعتبر بعض آخر هذه الآية- كما يقول الفخر الرازى فى تفسيره- دليلا على الجبرية، قائلين إنّنا إذا قبلنا بأنّ الأوامر فى عالم الخلق بيد اللّه، فلا يبقى لأحد مجال للاختيار.

و لكنّنا نعلم أنّ حرية إرادة عباد اللّه و حرية اختيارهم هى أيضا، بأمر من اللّه الذى شاء أن يكونوا أحرارا فى إختيار ما يعملون، لكى يحملهم مسئولية أعمالهم و التكاليف الملقاة على عواتقهم.

۳- «يقص» فى اللغة ترد بمعنى القطع، و فى القاموس: «قص الشعر و الظفر أى قطع منهما بالمقص أى المقراض»، و على هذا يكون معنى و «يقص الحق» إنّ اللّه يقطع الحق عن الباطل و يفصل بينهما، و لذلك يتلوها بقوله: هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ للتوكيد، فالفعل «يقص» هنا لا يعنى سرد حكاية، كما ظن بعض المفسّرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۱

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۹ الى ۶۲]

اشارة

وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ

لاـ یابِسٍ إِلاّٰ فِی کِتابٍ مُبِینٍ (۵۹) وَ هُوَ الَّذِی یَتَوَفّٰاکُمْ بِاللَّیْلِ وَ یَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ یَبْعَثُکُمْ فِیهِ لِیُقْضیٰ أَجَلٌ مُسَمًّی ثُمَّ إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ ثُمَّ یُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۶۰) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ یُرْسِلُ عَلَیْکُمْ حَفَظَةً حَتّٰی إِذا جاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا یُفَرِّطُونَ (۶۱) ثُمَّ رُدُّوا إِلَی اللّٰهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُکْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِینَ (۶۲)

التّفسیر

أسرار الغیب:

فی هذه الآیات یدور الکلام حول علم اللّه و قدرته وسعة حکمه و أمره، و هی تشرح ما أجملته الآیات السابقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۲

تشرع الآیة فی الکلام علی علم اللّه فتقول: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَیْبِ لا یَعْلَمُها إِلّٰا هُوَ.

«مفاتح» جمع «مفتح» (بکسر المیم و فتح التاء) و هو المفتاح، أمّا إذا کانت بفتح المیم فهی بمعنی الخزانة التی تختزن فیها الأشیاء.

و علی الأوّل یکون المعنی: إنّ جمیع مفاتیح الغیب بید اللّه.

و علی الثّانی یکون المعنی: إنّ جمیع خزائن الغیب بید اللّه.

و یحتمل أن یکون المعنیان قد اجتمعا فی عبارة واحدة، و کما هو ثابت فی علم الأصول، فإن استعمال لفظة واحدة لعدة معان لا مانع منه، و علی کل حال فهاتان الکلمتان متلازمتان، لأنّه حیثما کانت الخزانة کان المفتاح.

و أغلب الظن أنّ «مفاتح» بمعنی «مفاتیح» لاـ بمعنی «خزائن» لأنّ الهدف هو بیان علم اللّه، فتکون المفاتیح وسائل لمعرفة مختلف الذخائر و هو أنسب بالآیة، و فی موضعین آخرین فی القرآن ترد کلمة «مفاتح» بمعنی المفاتیح ۱۷۳].

ثمّ لتوکید ذلک أکثر یقول: وَ یَعْلَمُ ما فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ.

«البرّ» کل مکان واسع فسیح، و تطلق علی الیابسة، «و البحر» کذلک تعنی المحل الواسع الذی یتجمع فیه الماء، و تطلق علی البحار و المحیطات و علی الأنهر العظیمة أحیانا.

فالقول بأنّ اللّه یعلم ما فی البر و البحر، کنایة عن إحاطته بکل شیء، و هذه الإحاطة بما فی البرّ و البحر إنّما تمثل فی الحقیقة جانبا من علمه الأوسع.

فهو عالم بحرکة آلاف الملایین من الکائنات الحیة، الکبیرة و الصغیرة، فی أعماق البحار.

و هو عالم بارتعاش أوراق الأشجار فی کل غابة و جبل.

و هو عالم بمسیرة کل برعمة و تفتح أوراقها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۳

و هو عالم بجریان النسیم فی البوادی و منعطفات الودیان.

و هو عالم بعدد خلایا جسم الإنسان و کریات دمه.

و هو عالم بکل الحرکات الغامضة فی الإلکترونات فی قلب الذّرة.

و هو عالم بکل الحرکات الغامضة فی الإلکترونات فی قلب الذّرة.

و هو عالم بکل الأفکار التی تمرّ بتلافیف أدمغتنا حتی أعماق أرواحنا ...

نعم أنّه عالم بکل ذلک علی حدّ سواء.

لذلک فإنّه یؤکّد ذلک مرّة أخری فیقول: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا یَعْلَمُها.

أی أنّه یعلم عدد الأوراق و لحظة انفصال کل ورقة عن غصنها و طیرانها فی الهواء، حتی لحظة استقرارها علی الأرض، کل هذا جلی أمام علم اللّه.

کذلک لا تختفی حبّة بین طیات التراب إلّا و یعلمها اللّه و یعلم کل تفاصیلها:

وَ لا حَبَّةٍ فِی ظُلُماتِ الْأَرْضِ

الترکیز هنا- فی الحقیقة- علی نقطتین حساستین لا- یمکن أن یتوصل إلیهما الإنسان حتی لو أمضی ملایین السنین من عمره یرتقی سلم الکمال فی صنع أجهزته و أدواته المدهشة.

تری من ذا الذی یستطیع أن یعرف کم تحمل الریاح معها فی هبوبها علی مختلف أصقاع الأرض فی اللیل و النهار، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها؟

و إلی أین تحملها و تنشرها، أو تدسها فی التراب حیث تبقی سنوات مختفیة، حتی یتهیأ لها الماء فتنبت و تنمو؟

من ذا الذی یعلم کم من هذه البذور فی کل أنحاء الدنیا تحمل عن طریق الإنسان أو الحشرات فی کل ساعة من نقطة إلی نقطة أخری؟

أی دماغ الکترونی هذا الذی یستطیع أن یحصی عدد أوراق الشجر التی تسقط کل یوم من أشجار الغابات؟ انظر إلی غابة من الغابات فی الخریف، و خاصّة بعد مطر شدید أو ریح عاصفة، و تطلع إلی مشهد سقوط الأوراق المتواصل البدیع، عندئذ تتکشف لک هذه الحقیقة، و هی أنّ علوما من هذا القبیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۴

لن تکون یوما فی متناول ید الإنسان.

إنّ سقوط الورقة- فی الحقیقة- هو لحظة موتها، بینما سقوط البذرة فی مکمنها من الأرض هو لحظة بدء حیاتها، و ما من أحد غیر اللّه یعلم بنظام هذا الموت و هذه الحیاة، و حتی أنّ کل خطوة تخطوها البذرة نحو حیاتها و انبعاثها و تکاملها خلال اللحظات و الساعات، جلیة فی علم اللّه.

إنّ لهذا الموضوع أثرا «فلسفیا» و آخر «تربویا»:

أمّا أثره الفلسفی، فینفی رأی الذین یحصرون علم اللّه بالکلیات، و یعتقدون أنّه لا یعلم عن الجزئیات شیئا، و فی الآیة هنا تأکید علی أنّ اللّه یعلم الکلیات و الجزئیات کلها.

أمّا أثره التربوی فواضح، لأنّ الإیمان بهذا العلم الواسع للّه یقول للإنسان: إنّ جمیع أسرار وجودک، و أعمالک، و أقوالک و نیاتک، و أفکارک کلّها بیّنة أمام اللّه، فإذا آمن الإنسان حقّا بهذا، فکیف یمکن له أن لا یکون رقیبا علی نفسه و یسیطر علی أعماله و أقواله و نیاته! و فی ختام الآیة یقول تعالی: وَ لا رَطْبٍ وَ لا یابِسٍ إِلَّا فِی کِتابٍ مُبِینٍ

تبیّن هذه العبارة القصیرة سعة علم اللّه اللامحدود و إحاطته بکل الکائنات بدون أی استثناء، إذ أن «الرطب» و «الیابس» لا یقصد بهما المعنی اللغوی، بل هما کنایة عن الشمول و العمومیة.

و للمفسّرین آراء متعددة فی معنی: «کتاب مبین»، و لکنّ الأقوی أنّه کنایة عن علم اللّه الواسع، أی انّ کل الموجودات مسجلة فی علم اللّه اللامحدود، کما أنّه تفسر بکونه «اللوح المحفوظ» نفسه، إذ لا یستبعد أن یکون اللوح المحفوظ هو صفحة علم اللّه.

و ثمّة احتمال آخر عن معنی «کتاب مبین» و هو أنّه عالم الخلق و سلسلة العلل و المعلولات التی کتب فیها کل شیء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۵

جاء فیما روی عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ «الورقة» الساقطة بمعنی الجنین الساقط، و «الحبّة» بمعنی الابن، و «ظلمات الأرض»

بمعنى رحم الأمّ، و «رطب» ما بقى حيا من النطفة، و «يابس» ما تلاشى من النطفة[۱۷۴].

لا شك أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع الجمود على المعانى اللغوية للآية، إذ إنّ معنى «الورقة» و «الحبّة» و «ظلمات الأرض» و «الرّطب» و «اليابس» معروف، و لكنّ أئمّة أهل البيت عليهم السّلام بهذا التّفسير أرادوا أن يوسعوا من آفاق نظرة المسلمين إلى القرآن، و أن لا ينحصروا فى إطار الألفاظ، بل يتوسعوا فى نظرتهم حين توجد قرائن على هذا التوسع.

الرّواية أعلاه تشير إلى أنّ معنى «الحبّة» لا ينحصر فى بذور النباتات، بل يشمل أيضا بذور النطف الإنسانية.

فى الآية الثانية ينتقل الكلام إلى إحاطة علم اللّه بأعمال الإنسان و هو الهدف الأصلى و إلى بيان قدرة اللّه القاهرة، لكى يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأنّ اللّه هو الذى يقبض أرواحكم فى الليل، و يعلم ما تعملون فى النهار: وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ.

«توفى» تعنى استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، و انقطاع تام فى ارتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ و ضعف فى هذا الارتباط، و عليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت ۱۷۵].

«جرحتم» من «جرح» و هى هنا بمعنى الاكتساب، أى أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة اللّه و علمه ليلا و نهارا، و انّ الذى يعلم بانفلاق الحبّة و نموها فى باطن الأرض، و يعلم بسقوط أوراق الأشجار و موتها فى أى مكان و زمان، يعلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۶

بأعمالكم أيضا.

ثمّ يقول: إنّ نظام النوم و اليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون فى الليل ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ۱۷۶] أى ثمّ يوقظكم فى النهار .. و تستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.

و يبيّن القرآن النتيجة النهائية لهذا المبحث بالشكل التالى: ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و فى الآية الثّالثة توضيح أكثر لإحاطة علم اللّه بأعمال عباده و حفظها بكل دقة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً.

سبق أن قلنا إنّ «القاهر» هو المتسلط الغالب المهيمن الذى لا تقف أمامه أية قوّة، و يرى بعضهم هذه الكلمة تستعمل حيث يكون المقهور عاقلا.

أمّا كلمة «الغالب» فليست فيها هذه الخصوصية، فهى عامّة واسعة المعنى.

«حفظة» جمع «حافظ» و هم هنا الملائكة الموكّلون بحفظ أعمال الناس، كما جاء فى سورة الإنفطار، الآيات ۱۰- ۱۳: إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ

و يرى بعض المفسّرين أنّهم لا يحفظون أعمال الإنسان، بل هم مأمورون بحفظ الإنسان نفسه من الحوادث و البلايا حتى يحين أجله المعين، و يعتبرون حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ بعد «حفظة» قرينة تدل على ذلك، كما يمكن اعتبار الآية (۱۱) من سورة الرعد دليلا عليه كذلك ۱۷۷].

و لكنّ بالتدقيق فى مجموع الآية التى نحن بصددها نتبيّن أنّ القصد من الحفظ هنا هو حفظ الأعمال، أمّا بشأن الملائكة الموكّلين بحفظ الناس فسوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۷

نشرحه بإذن اللّه عند تفسير سورة الرعد.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم أن حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار و حلول الموت: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا.

و تبيّن الآيـة فى النهايـة أنّ هؤلاـء الملائكـة لاـ يقصـرون و لا يفرطون فى مهمتهم، فلا يتقـدمون لحظـة و لا يتأخرون فى موعـد قبض الروح.

و يحتمل أيضا أنّ هـذه الصـفة ترتبط بالملائكـة الـذين يحفظون حساب أعمال البشـر، فهم فى حفظهم للحساب لا يصـدر منهم أدنى تقصير أو قصور، و الآية تركز على هذا القسم بالذات.

فى الآية الاخيرة يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول:

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ أى عادوا إلى اللّه بعد أنّ طووا مرحلة حياتهم، و اختتم ملفهم الحاوى على كل شيء.

و فى تلك المحكمة يكون النظر فى القضايا و إصدار الأحكام بيد اللّه: أَلا لَهُ الْحُكْمُ

و على الرغم من كـل تلـك الأعمال و الملفّات المتراكمـة عن أفراد البشـر طوال تاريخهم الصاحب فانّ اللّه سـريع فى النظر فيها: وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ

لقد جاء فى بعض الرّوايات: «إنّه سبحانه يحاسب جميع عباده فى مقدار حلب شاة»

أى أنّ ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة[۱۷۸].

و كما قلنا فى تفسـير الآيـة (۲۰۲) من سـورة البقرة، إنّ إجراء الحسـاب من السـرعة بحيث إنّه يمكن أن يتمّ فى لحظـة واحـدة بالنسـبة للجميع، بل إن ذكر فترة حلب شاة فى الروايـة المـذكورة يقصـد منه بيان قصـر الزمن اللازم لـذلك، و على هذا نقرأ فى رواية أخرى: «إن اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۸

البصر»[۱۷۹].

و الدليل على ذلك هو ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية، و هو أنّ أعمال الإنسان تؤثر فى وجوده و فى وجود الكائنات المحيطة به، تماما مثل الماكنة التى تسجل مقدار حركتها فى عداد متصل بها.

و بتعبير أوضـح، لو كانت هناك أجهزة دقيقـة جـدا لاسـتطاعت أن تسـجّل فى عين الإنسان عـدد النظرات الآثمة، و على الألسـنة عدد الأكـاذيب و الاـفتراءات و التهم و الطعون التى اقترفتهـا، أى أن كـل عضو من أعضاء الجسم فيه- بالإضافة إلى روحه- جهاز حاسـب يكشف الحساب فى لحظة واحدة.

و إذا جاء فى بعض الرّوايات أنّ محاسـبة المسؤولين و الأغنياء تطول يوم القيامـة فإن هذا لا يعنى فى الواقع طول زمن الحساب، بل هو طول زمن المحاسـبة عليهم، إذ لاـ بـدّ لهم من الإجابـة على الأسـئلة الكثيرة التى تلقى عليهم بشـأن الأعمال التى ارتكبوها، أى أن ثقل مسئولياتهم و لزوم إجابتهم على الأسئلة لإتمام الحجّة عليهم هى التى تطيل زمن محاكمتهم.

يؤلف مجموع هذه الآيات درسا تربويا كاملا لعباد اللّه فى إحاطة علمه تعالى بأصـغر ذرات هذا العالم و بأكبرها و قدرته و قهره لعباده و معرفته بجميع أعمال البشـر، و قيام كتبة أمناء بحفظ أعمال الناس و قبض أرواحهم فى لحظات معينة بالنسبة لكل منهم، و بعثهم يوم القيامة، و من ثمّ محاسبتهم محاسبة دقيقة و سريعة.

كيـف يمكـن أن يـؤمن الشـخص بمجمـوع هـذه المسائـل ثـمّ لاـ يراقب أعمـاله، يظلم دون وازع، و يكـذب و يفـترى و يعتـدى على الآخرين؟

هل يجتمع كل هذا مع الإيمان و الاعتقاد على صعيد واحد؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۳ الى ۶۴]

اشارة

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴)

التّفسير

النّور الّذى يضىء فى الظلّام:

مرّة أخرى يأخذ القرآن بيد المشركين و يتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، و هناك فى تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد و عبادة الواحد الأحد، فيقول للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قل لهم: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ؟

إنّ الظلام يكون حسيا أحيانا و معنويا أحيانا أخرى، الظلام الحسى هو الذى يكون عند انقطاع النّور انقطاعا تاما، أو يضعف بحيث لا يرى شىء، أو يرى بالجهد الجهيد، و الظلام المعنوى هو المشاكل و الصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة، الجهل ... الاضطرابات الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية، و الانحرافات و الفساد الأخلاقى التى لا يمكن التكهن بعواقبها السيئة، أو التى تجر إلى التعاسة و الشقاء ... كلّها ظلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۰

إنّ الظلام بذاته مخيف مثير للأوهام و التخيلات، فهجوم الكثير من الحيوانات الخطرة و سطوة اللصوص و المجرمين يقع تحت جنح الظلام، أنّ لكل امرئ ذكرياته عن هذه الحالات، فعند هبوط الظلام تنشط الأوهام و تخرج منها الأشباح المرعبة، فيستولى الخوف و الهلع على العامّة من الناس.

الظلام من العدم، و الإنسان يهرب بطبيعته من العدم و يخافه، و لهذا نراه يخاف الظلام.

و إذا حدثت فى هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافرا فى البحر، و تحاصره فى ليلة ظلماء الأمواج الهائلة و الدوامات المائية، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، لأنّ الإنسان فى مثل هذه الظروف يجد أبواب النجاة مسدودة فى وجهه، و هكذا لو كان فى ليلة حالكة الظلام يسير فى الصحراء فيضل الطريق و يسمع زمجرة الوحوش المفترسة من هنا و هناك و هى تبحث عن فريسة، فى مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شىء و لا يعود يتذكر شيئا سوى نفسه، و النّور الذى يسطع فى أعماقه و يجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما يعتوره من بلاء و ضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد و معرفة اللّه، لذلك يقول فى أمثال هذه الحالات: تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً.

و تعقدون- و أنتم فى تلك الحالة- عهدا و ميثاقا على أنفسكم، و تقولون:

لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ

ثمّ تأمر الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يخبرهم أنّ اللّه سوف ينجيهم من هذه و من غيرها من الأخطار، و قد فعل ذلك من قبل مرارا، و لكنّهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك و الكفر: قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۱

ملاحظات:

هنا لا بدّ من الالتفات إلى عدّة نقاط:

۱- لعل ذكر «التضرع» و هو الدعاء علانية، و «الخفية» هى الدّعاء فى السرّ، إشارة إلى أنّ المصائب تختلف، فالتى لم تصل مرحلة شديدة قد تستدعى الدعاء خفية، و عند ما تكون شديدة تحمل المرء على أن يرفع يديه بالدعاء جهرا، و قد يصاحب ذلك البكاء و الصراخ، أى أنّ اللّه يحل مشاكلكم خفيفها و شديدها.

۲- يرى بعضهم أنّ الآية تشير إلى أربع حالات نفسية فى الإنسان، كل واحدة منها ردة فعل معينة لظهور المشاكل: حالة «الدعاء» و حالة «التضرع» و حالة «الإخلاص» و حالة «تقديم الشكر عند النجاة من الأخطار».

و لكنّ الذى يؤسف له أن هذه الحالات تمر ببعض الناس مرورا خاطفا و كأنّه حالات اضطرارية فى مواجهة الأخطار و المشاكل، و بما أنّها ليست مصحوبة بالوعى و الإدراك، فإنّها تخفت و تنطفئ بمجرّد انتهاء الأزمة.

و بناء على ذلك، فإن هذه الحالات، و ان تكن خاطفة، تستطيع أن تكون دليلا على معرفة اللّه لمن عسر عليه ادراك الدلائل الأخرى.

۳- «الكرب» فى الأصل بمعنى حفر الأرض و قلبها، و كذلك تعنى العقدة المحكمة الشد فى حبل الدلو، ثمّ أطلقت بعد ذلك على الغم و الهم و الحزن التى تقلب قلب الإنسان و تثقل عليه كالعقدة.

لذلك فإنّ ذكر «الكرب» بما له من المعنى الواسع الذى يشمل أنواع المشاكل و الأزمات بعد ذكر «ظلمات البرّ و البحر» و التى تشمل جانبا من المشاكل فقط، يعتبر من قبيل ذكر مفهوم عام بعد بيان مفهوم خاص (تأمل بدقة).

و هذا يجدر بنا أنّ نذكر حديثا تورده بعض التفاسير فى هذه الآية:

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «خير الدعاء الخفى و خير الرزق ما يكفى»

(لا الثروات الضخمة التى هى حصيلة حرمان الآخرين، و تكون عبئا على كاهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۲

الإنسان)، و

روى أيضا أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء فقال: «إنّكم لا تدعون أصمّ و لا غائبا، و إنّما تدعون سميعا قريبا»[۱۸۰].

يستفاد من هذا الحديث أنّ خير الدعاء ما كان خفيا مقترنا بتوجه و إخلاص.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۳

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۶۵]

اشارة

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۶۵)

التّفسير

ألوان العذاب:

فى الآيات السابقة التى تتضمن بيان التوحيد الفطرى تتجلى محبّة اللّه لعباده، و حنوه عليهم عند الشّدائد و الصعاب، و استجابته

لدعواتهم.

و فى هـذه الآيـة تركيز على التهديـد بعـذاب اللّه و عقابه، من أجل إكمال طرق التربيـة و التهذيب، أى أنّ اللّه و هو أرحم الراحمين و ملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففى هذه الآية يؤمر الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عـذاب من فوق، و عـذاب من تحت، و عقاب يتمثل فى اختلاف الكلمـة و الحرب و إراقـة الـدماء: قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ

و فى الختـام تقول الآيـة: انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ أى انظر كيف نوضـح لهم المعـالم و الـدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق و يعودا إلى اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۴

بحوث

هنا أيضا لا بدّ من الإشارة إلى بعض النقاط:

۱- هنالـك اختلاـف بين المفسّـرين بشأن المقصود من العـذاب من فوق و من تحت، و يظهر أنّ لهاتين الكلمتين معانى واسـعة، فهما تشـملان الجهتين الماديتين من السـماء و من الأرض كالصواعق و الأمطار الغزيرة و العواصف المدمّرة التى يأتى من فوق، و الزلازل و الانشقاقات الأرضية المدمرة و فيضانات الأنهر و البحار من تحت.

كذلك تشـمل الآلام و المصائب التى ينزلها بعض الحكام و الطبقات المتسـلطة فى المجتمع على رؤوس الشـعوب، و كذلك الآلام و العذاب الذى يسببه بعض الموظّفين الذين لا يعرفون واجبهم للناس ممّا قد لا يقل عما يسببه الحكام و الطّبقات العليا من المجتمع.

و كذلك يحتمل أن تشـمل أسـلحة الحرب المخيفة فى عصـرنا التى تبيد حياة البشر بشكل وحشى من الأرض و الجو، و تحيل المدن خلال مدّة قصيرة إلى ركام و انقاض عن طريق القصف الجوى و الهجوم الأرضى و زرع الألغام و الغواصات المدمّرة داخل البحار.

۲- «يلبسـكم» من «اللبس» بفتـح اللاـم بمعنى الاختلاـط و الاـمتزاج، لاـ من «اللبس» بضم اللاـم بمعنى ارتـداء الملابس، و على ذلك يكون معنى الآية: إنّه قادر على أن يجعل منكم جماعات مختلفة تختلط بعض ببعض.

يستنتج من هذا التعبير أنّ مسألة اختلاف الكلمة و التفرق فى المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السـماوى و الصواعق و الزلازل، و هو فى الحقيقـة كـذلك، بل قـد يكون الخراب الناشـئ من اختلاف الكلمة و التفرق أحيانا أشد وطأة و دمارا من الزلازل و الصواعق، كثيرا ما نلاحظ أنّ دولا عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق و التفرقة، و هذه الكلمة تحذير لجميع مسلمى العالم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۵

هنالك أيضا احتمال آخر فى تفسير هذه الآية، و هو- أنّ اللّه قد أشار- إلى جانب العذاب السماوى و الأرضى- إلى لونين آخرين من العذاب: أحدهما:

اختلاف العقيـدة و الفكر (و هو فى الواقع مثل العذاب النازل من فوق)، و الآخر: هو الاختلاف فى العمل و السـلوك الاجتماعى الذى يؤدى إلى الحروب و إراقة الدماء (و هو أشبه بالعذاب الآتى من تحت).

و عليه، فالآية تشير إلى أربعة ألوان من العذاب الطبيعى، و لونين من العذاب الاجتماعى.

۳- لا بدّ من الانتباه إلى أن قوله تعالى: أَوْ يَلْبِسَـكُمْ شِيَعاً[۱۸۱]، لا يعنى أنّ اللّه يبتلى الناس- بـدون مبرر- بالنفاق و الاختلاف، بل إنّ ذلـك نتيجـة سوء أعمـالهم و غرورهم و أنانياتهم، و الانغماس فى منافعهم الشخصـية، ممّا يثير روح النفاق و التفرقـة بينهم، و ما نسـبة ذلك إلى اللّه إلّا لأنّه جعل تلك الآثار من نتائج تلك الأعمال.

۴- على الرّغم من أنّ الخطاب فى هذه الآية موجه إلى المشـركين و عبدة الأصـنام، فإنّنا نستنتج أنّ المجتمع المشرك و المنحرف عن

طريق التوحيد و عبادة اللّه، يصاب بظلم الطبقات العليا، و ظلم الطبقات الدنيا المتهاونة فى واجباتها، كما تقع البشرية بين براثن الاختلاف العقائدية و المخاصمات الدموية فى المجتمع، كما هو حال المجتمعات المعاصرة التى تعبد أوثان الصناعة و الثروة، فهى رهين مصائب لا فكاك لها من مخالبها.

بعض الشعوب المسلمة تتحدث عن التوحيد و عبادة اللّه بأقوالها، و لكنّها بأفعالها مشركة تعبد الأصنام. إن مصائر شعوب كهذا لا يختلف عن مصائر المشركين. و

قد يكون حديث الإمام الباقر عليه السّلام: «كل هذا فى أهل القبلة»

إشارة إلى هذا الاختلاف بين المسلمين، فعند ما ينحرف المسلمون عن طريق التوحيد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۶

تأخذ الأنانية وحبّ الذات مكان الأخوة الإسلامية، و تتغلب المصالح الشخصية على المصلحة العامّة، و لا يفكر الفرد إلّا بنفسه و ينسى الناس أوامر اللّه و نواهيه، فيحيق بهم ما أحاق بأولئك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۷

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۶ الى ۶۷]

اشارة

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۶۶) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۶۷)

التّفسير

تكمل هاتان الآيتان البحث الذى جرى فى الآيات السابقة عن الدعوة إلى اللّه و المعاد و حقائق الإسلام و الخشية من عقاب اللّه.

الآية الأولى: تخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ قومه- أى قريش و أهل مكّة- لم يصدقوا ما يقول مع أنّه صدق و حق و تؤكّده الأدلة العقلية المختلفة و الفطرية:

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ ۱۸۲] ثمّ يصدر الأمر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أى إنّما أنا رسول و لست أضمن قبولكم.

فى الآيات الكثيرة المشابهة لهذه الآية (كالآيات ۱۰۷- الأنعام، ۱۰۸- يونس، ۴۱- الزمر، ۶- الشورى) يتبيّن أنّ المقصود من «وكيل» فى هذه المواضع هو المسؤول عن الهداية العملية للأفراد و الضامن لهم- لذلك فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول لهم فى هذه الآية: إنّ الأمر يعود إليكم، فأنتم الذين يجب أن تتخذوا القرار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۸

النهائى فى قبول الحقيقة أو ردّها، فما أنا إلّا رسول أبلغ رسالة اللّه.

و فى الآية التّالية القصيرة ذات المعنى العميق تحذير لهم، و دعوة إلى إختيار الطريق الصحيح، و لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۱۸۳] أى أنّ كل خبر أخبركم به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذه الدنيا أو فى الآخرة موضع و مقر، و سوف يتحقق فى موعده المقرر، و عندئذ ستعرفون ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۸ الى ۶۹]

اشارة

وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۶۸) وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۶۹)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه عند ما نزلت الآیة الأولی و نهی المسلمون عن مجالسة الکفار و الذین کانوا یسخرون من آیات اللّه، قال فریق من المسلمین إذا کان علینا أن نلتزم بهذا النهی فی کل مکان فإنّه یمتنع علینا الذهاب إلی المسجد الحرام و الطواف به (و ذلک لأنّ أولئک کانوا منتشرین فی أطراف المسجد و لا یفتأون یتناولون الآیات القرآنیة بالکلام الباطل، فحیثما نتوقف فی أرجاء المسجد ثمّة احتمال أن یصل کلامهم الی مسامعنا). عندئذ نزلت الآیة الثانیة تأمر المسلمین فی مثل هذه الحالات أن ینصحوهم و یهدوهم و یرشدوهم قدر إمکانهم.

إنّ ورود سبب نزول لهذه الآیة لا یتعارض- کما قلنا من قبل- مع نزول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۰

السورة کلها مرّة واحدة، إذ من المحتمل أن تکون هناک حوادث مختلفة فی حیاة المسلمین، فتنزل سورة واحدة تختص کل مجموعة من آیاتها ببعض تلک الحوادث.

التّفسیر

اجتناب مجالس أهل الباطل:

بما أنّ المواضیع التی تتطرق إلیها هذه السورة تتناول حال المشرکین و عبدة الأصنام، فهاتان الآیتان تبحثان موضوع آخر من المواضیع التی تتعلق بهم، ففی البدایة تقول للرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۱۸۴].

علی الرغم من أنّ الکلام هنا موجه إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّه لا یقتصر علیه وحده، بل هو موجه إلی المسلمین کافة، إنّ فلسفة هذا الحکم واضحة، إذ لو اشترک المسلمون فی مجالسهم، لاستمر المشرکون فی خوضهم فی آیات اللّه بالباطل نکایة بالمسلمین و استهزاء بکلام اللّه و لکنّ المسلمین إذا مروا دون أن یبالوا بهم، فسیکفّون عن ذلک و یغیرون الحدیث إلی أمور أخری، لأنّهم کانوا یتقصدون إیذاء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین.

ثمّ تخاطب الآیة رسول اللّه مؤکّدة أهمیة الموضوع: وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ[۱۸۵] بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أی إذا أنساک الشیطان هذا الأمر و جلست مع هؤلاء القوم سهوا، فعلیک- حالما تنتبه- أن تنهض فورا و تترک مجالسة الظالمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۱

سؤالان:

هنا يبرز سؤالان:

الأوّل: هل يمكن للشّيطان أن يتسلط على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يسبب له النسيان؟

و بعبارة أخرى، كيف يمكن للنّبى مع عصمته و كونه مصونا عن الخطأ حتى فى الموضوعات أن يخطئ و أن ينسى؟

فى الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأنّ الخطاب فى الآية و إن يكن موجها إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو يتحدث فى الواقع مع اتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيساهموا فى اجتماعات المشركين الآثمة، فهؤلاء عليهم حال انتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان، أنّ مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث فى حياتنا اليومية و موجود فى مختلف آداب العالم، فأنت قد توجه الخطاب إلى أحدهم و لكنّ هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل: إياك أعنى و اسمعى يا جارة.

هناك مفسّرون آخرون مثل الطبرسى فى مجمع البيان و أبى الفتوح فى تفسيره المعروف يوردون جوابا آخر عن هذا السؤال خلاصته: إنّ السهو و النسيان فى قضايا الأحكام و مقام حمل الرسالة من جانب اللّه غير جائزين بالنسبة للأنبياء، أمّا فى الحالات التى لا تؤدى إلى ضلال الناس فجائزان، إلّا أنّ هذا الجواب لا يتفق مع ما هو مشهور عند متكلمينا من أن الأنبياء و الأئمّة معصومون عن الخطأ و مصونون عن النسيان، لا فى قضايا الأحكام وحدها، بل حتى فى القضايا العادية أيضا.

السؤال الثّانى: يعتبر بعض علماء أهل السنة هذه الآية دليلا على عدم جواز التقية الدينية للقادة الدينيين، و ذلك لأنّ الآية تصرّح بالنهى عن اللجوء إلى التقية أمام الأعداء و تأمر بترك مجلسهم.

و الجواب على هذا الاعتراض واضح، فالشيعة لا يقولون بوجوب التقية دائما، بل إنّ التقية فى بعض الأحيان حرام، إنّما ينحصر وجوبها فى الظروف التى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۲

تكون فيها للتقية و كتمان الحق منافع أكبر من منافع إظهاره، أو تكون سببا فى دفع خطر أو ضرر كبير.

الآية التّالية فيها استثناء واحد، فإذا اشترك بعض المتقين فى جلسات هؤلاء المشركين لكى ينهوهم عن المنكر على أمل أن يؤدى ذلك إلى انصراف أولئك عن الإثم، فلا مانع من ذلك، و أنّ آثام أولئك لا تسجل على هؤلاء، لأنّ قصدهم هو الخدمة و القيام بالواجب: وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

و هنالك تفسير آخر لهذه الآية، و الذى قلناه أكثر انسجاما مع ظاهر الآية و مع سبب النّزول.

و ينبغى أن نعلم- فى الوقت نفسه- إنّ الذين لهم أن يستفيدوا من هذا الاستثناء هم الذين تنطبق عليهم شروط الآية، فيكونون متميزين بالتقوى، و بعدم التأثر بهم، و بالقدرة على التأثير فيهم.

سبق فى تفسير الآية (۱۴۰) من سورة النساء أن تطرقنا إلى هذا الموضوع و ذكرنا مسائل أخرى أيضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۳

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷۰]

اشارة

وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰)

التّفسير

الذين اتّخذوا الدّين لعبا:

هـذه الآية تواصل ما بحثته الآية السابقة، و تأمر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يدع أولئك الذين يسـتهينون بأمر دينهم، و يتخـذون ممّـا يلهون و يلعبون به مـذهبا لهم و يغترون بالـدنيا و بمتاعهـا المادى: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا.

بـديهى أنّ الأـمر بترك هؤلاء لا يتعارض مع قضـية الجهاد، فللجهاد شـروط، و لإهمال الكفار شـروط أخرى، و كل واحـد من هـذين الحالين يجب أن يتحقق فى ظروفه الخاصّة، قد يستلزم الأمر- أحيانا- دفع المناوئين عن طريق عدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۴

الاعتنـاء بهم، و فى أحيان أخرى قـد يقتضـى الأمر الجهاد و التوسل بالسـلاح، أمّا القول بأنّ آيات الجهاد قـد نسـخت هـذه الآيـة فغير صحيح.

و تشير هذه الآية إلى أنّ سلوكهم الحياتى من حيث المحتوى أجوف و واه، فهم يطلقون اسم الدين على بعض الأعمال التى هى أشبه بلعب الأطفـال و مجمون الكبار، فهؤلاء غير جـديرين بالمناقشـة و المباحثـة، و عليه يؤمر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بأن يعرض عنهم و لا يعتنى بدينهم الفارغ.

يتضـح ممّا قلنا أنّ «دينهم» يعنى «دين الشـرك و عبادة الأصـنام» الذى كانوا يدينون به، أمّا القول بأنّ المقصود هو «الدين الحق» و إنّ إضافة الدين إليهم يستند إلى كون الدين فطريا، فيبدو بعيد الاحتمال.

و الاحتمال الآخر فى تفسير الآية هو أن القرآن يشير إلى جمع من الكفار الذين كانوا يتعاملون مع دينهم كألعوبة و ملهاة، و لم ينظروا أبدا إلى الدين كأمر جاد يستوجب إمعان الفكر و التأمل، أى أنّهم كانوا لا يؤمنون حقيقة حتى فى معتقدات شركهم، و لم يقيموا وزنا حتى لدينهم الذى لا أساس له.

على كل حال فالآية لا تخص الكفار وحدهم، بل هى تشـمل جميع الذين يتخذون من الأحكام الإلهية و من المقدسات وسائل للتلهى و ملء الفراغ و بلوغ الأهداف المادية الشخصية، أولئك الذين يجعلون الدين آلة الدنيا، و الأحكام الإلهية العوبة أغراضهم الخاصّة.

ثمّ يؤمر الرّسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن ينبّههم إلى أعمالهم هـذه و إلى أنّ هناك يوما لا بدّ لهم أن يستسـلموا فيه لنتائج أعمالهم و لن يجدوا من ذلك مفرا: وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ [۱۸۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۵

يوم لا شفيع ينفع و لا ولى سوى اللّه: لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ

إنّهم يؤمئـذ فى حال صـعبة مؤلمـة يرزحون فى قيود أعمالهم بحيث إنّهم يرتضون أن يدفعوا أية غرامة (إن كان عندهم ما يدفعونه) و لكنّها لن تقبل منهم:

وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها[۱۸۷].

ذلك لأنّهم يكونون بين مخالب أعمالهم، و لا فدية تنجيهم، و لا توبة تنفعهم بعد أن فات الأوان: أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا.

ثمّ يشار إلى جانب ممّا سيصـيبهم من العذاب الأليم بسبب إعراضهم عن الحق و الحقيقة: لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ

إنّهم يتعذّبون بالماء الحريق من الداخل، و يكتوون بنار الجحيم.

يجـدر الانتباه هنا إلى أن جملة أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا هى بمثابة السـبب الذى يمنع من قبول الغرامة و من قبول أى شـفيع و ولى، أى أن عقابهم ليس لعلـة خارجيـة بحيث يمكن دفعها بشـكل من الأشـكال، بل ينبع من داخل الذات و سـلوكها و أعمالها، إنّهم

أسرى أعمالهم القبيحة، لذلك لا مفر لهم، لأنّ فرار المرء من أعماله و آثارها إنّما هو فرار من ذاته، و هو غير ممكن.

غير أنّنا لا بدّ أن نعلم أنّ هذه الحالة من الشدّة و الصعوبة و انعدام طريق العودة و رفض الشفاعة إنّما تكون بحق الذين أصروا على كفرهم و استمروا عليه، كما يتبيّن من عبارة: بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (الفعل المضارع يفيد الاستمرارية).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۶

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۷۱ الى ۷۲]

اشارة

قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۷۱) وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۷۲)

التّفسير

اشارة

كان المشركون يصرّون على دعوة المسلمين إلى العودة إلى الكفر و عبادة الأصنام، فنزلت هذه الآية تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالردّ عليهم ردّا يدحض رأيهم و يفند دعوتهم فى جواب بصيغة الاستفهام الاستنكارى: أ تريدون منّا أن نشرك مع اللّه ما لا يملك لنا نفعا فنعبده لذلك، و لا يملك لنا ضررا فنخافه؟!: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا.

هذه الآية تشير إلى أنّ أفعال الإنسان تنشأ عادة عن دافعين، فهى إمّا أن تهدف إلى استجلاب منفعة (مادية كانت أم معنوية)، و أمّا إلى دفع ضرر (ماديا كان أم معنويا). فكيف يقدم الإنسان على أمر ليس فيه أى من هذين العاملين؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۷

ثمّ يأتى باستدلال آخر على المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهية نكون قد رجعنا القهقهرى، و هذا يناقض قانون التكامل الذى هو قانون حياتى عام: وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ ۱۸۸].

ثمّ يضرب مثلا لتوضيح الأمر، فيقول: إنّ الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذى أغوته الشياطين (أو غيلان البوادى التى كان عرب الجاهلية يعتقدون أنّه تمكن فى منعطفات الطرق و تغوى السابلة و تضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده و ظل حيرانا فى الباديّة: كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرانَ بينما له رفاق يرشدونه إلى الصراط السوى المستقيم و ينادونه: هلم إلينا، و لكنّه من الحيرة و التيه بحيث لا يسمع النداء، أو إنّه غير قادر على اتخاذ القرار: لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا[۱۸۹].

و فى الختام يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول: إنّ الهداية من اللّه و ليس لنا إلّا أن نسلم لأمر اللّه ربّ العالمين: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ

و هذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلّا لخالق الكون و مالكه و ربّ عالم الوجود، لا الأصنام التى لا دور لها فى إيجاد هذا العالم و إدارته.

سؤال:

یبرز هنا هـذا السؤال: لم یکن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قبل البعثـة من أتباع دین المشـرکین فکیف تقول الآیة: نُرَدُّ عَلی أَعْقابِنا و نحن نعلم أنّه لم یسجد قط

لصنم، إذ لم یرد هذا فی جمیع التواریخ التی کتبت عنه، بل أن مقام العصمة لا یمکن أن یسمح بحدوثه؟

الجواب:

فی الحقیقة تعتبر هذه الآیة ممّا جاء علی لسان جمیع المسـلمین، لا علی لسان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده، و لذلک جاءت الضمائر فیها بصیغة الجمع.

الآیة التّالیة، تواصل شرح الدعوة الإلهیة قائلة: إنّنا فضلا عن التوحید، فقد أمرنا بإقامة الصّلاة و بتقوی اللّه: وَ أَنْ أَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ و فی الختام یشار إلی المعاد و إلی أنّ الناس إلی اللّه یرجعون: وَ هُوَ الَّذِی إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ

هذه الآیات القصار تکشف عن البرنامج الذی یدعو الیه الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المتألف من أربعة مبادئ، تبدأ بالتوحید و تنتهی بالمعاد، و بینهما مرحلتان متوسطتان هما: تقویة الارتباط باللّه، و الاتقاء من کل ذنب.

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۷۳]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ یَوْمَ یَقُولُ کُنْ فَیَکُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْکُ یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ عالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ (۷۳)

التّفسیر

هذه الآیة دلیل علی ما جاء فی الآیة السابقة، و علی ضرورة التسلیم للّه و إتّباع رسوله، لذلک تقول: هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدیر بالعبادة، و هو وحده الذی یجب الخضوع و التسلیم له، لأنّه خلق الأشیاء لمقاصد حقّه.

المقصود من «الحق» فی الآیـة هو الأهـداف و النتائـج و المنافع و الحکم، أی أنّ کل مخلوق قد خلق لهدف و غایة و مصـلحة، و هذه الآیة تشبه الموضوع الذی تتناوله الآیة (۷۷) من سورة ص التی جاء فیها: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما باطِلًا.

ثمّ یقول: إنّه فضـلا عن کونه مبـدع عـالم الوجود، فـان یوم القیامـة أیضا یقوم بأمره، و إذا ما أصـدر أمره بقیام ذلک الیوم فإنّه یتحقق فورا: وَ یَوْمَ یَقُولُ کُنْ

فَیَکُونُ ۱۹۰].

یحتمـل بعضـهم أنّ هـذه العبـارة تشیر إلی مبـدأ الخلق و إیجاد عالم الوجود، حیث خلق کل شـیء بأمر اللّه، و لکن بالنظر لأنّ الفعل

«یقول» مضارع، و هناک قبل هذه الآیة إشارة إلی أصل الخلق، و کذلک بالرجوع إلی الآیات التّالیة، یمکن القول بأنّ هذه العبارة تخص البعث و یوم القیامة.

سبق فی تفسیر الآیة (۱۱۷) من سورة البقرة فی المجلد الأوّل أن قلنا إنّ کُنْ فَیَکُونُ لا تعنی إصدار أمر لفظی لشیء أن یکون فیکون، بل تعنی إنّه إذا شاء خلق شیء، فإنّ إرادته تتحقق دون حاجة الی وجود أی عامل آخر، فإذا شاء أن یتحقق الشیء فهو یتحقق فورا. و إذا شاء أن یتحقق تدریجیا فإنّ خطّة تحققه التدریجی تبدأ.

ثمّ یضیف: أنّ ما یقوله اللّه هو الحق، أی أنّه مثلما کان مبدأ الخلق ذا أهداف و نتائج و مصالح، کذلک سیکون یوم القیامة: قَوْلُهُ الْحَقُّ

و فی ذلک الیوم الذی ینفخ فیه فی صور و یبعث الناس یوم القیامة، یکون الحکم و الملک للّه: وَ لَهُ الْمُلْکُ یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ.

حکومة اللّه علی عالم الوجود و مالکیته له قائمتان منذ بدایة الخلق حتی نهایته و فی یوم القیامة، و لا یختص ذلک بیوم القیامة وحده، لکن هناک عوامل و أسبابا تؤثر فی مسار هذه الدنیا و تقدمها نحو أهدافها، لذلک قد یغفل الإنسان أحیانا عن وجود اللّه وراء هذه الأسباب و العوامل، أمّا فی ذلک الیوم الذی تتعطل فیه جمیع الأسباب و العوامل، فإنّ حکومة اللّه و مالکیته تکونان أجلی و أوضح من أی وقت سابق، کما جاء فی آیة أخری:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۱

لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ[۱۹۱].

فیما یتعلق بماهیة «الصور» و کیف ینفخ فیه إسرافیل فتموت الأحیاء، ثمّ یعید النفخ فی الصور فیعود الجمیع إلی الحیاة و یبدأ یوم القیامة- سوف نشرح ذلک إن شاء اللّه- فی تفسیر الآیة (۶۸) من سورة الزمر.

و فی ختام الآیة إشارة إلی ثلاث من صفات اللّه تعالی، فهو: عالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ.

ترد هذه الصفات غالبا فی الآیات التی تخص یوم القیامة، أی أنّه بمقتضی صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، و بمقتضی قدرته و حکمته یجازی کلا بما یستحقه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۲

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۷۴]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ لِأَبِیهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّی أَراکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۷۴)

التّفسیر

اشارة

لما کانت هذه السورة تحارب الشرک و عبادة الأصنام و یدور فیها الکلام أکثر ما یدور علی المشرکین و عبدة الأصنام، و تستخدم مختلف الأسالیب لإیقاظهم، فهی تستخدم هنا حکایة إبراهیم بطل التوحید، و تشیر إلی منطقه القوی فی تحطیم الأصنام ضمن بضع آیات.

من الجدیر بالانتباه أنّ القرآن فی کثیر من بحوثه عن التوحید و محاربة عبادة الأصنام یستند إلی هذه الحقیقة، لأنّ إبراهیم علیه السّلام

کان یحظی باحترام الأقوام کافة، و علی الأخص مشرکی العرب.

یقول: إنّ إبراهیم و بخ أباه (عمّه) قائلا: أ تختار هذه الأصنام الحقیرة التی لا حیاة فیها آلهة للعبادة: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ لِأَبِیهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّی أَراکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ و أی ضلال أشد و أضح من أن یجعل الإنسان ما یخلقه بیده إلها یعبده، و یتخذ من کائن جامد لا روح فیه و لا إحساس ملجأ یفزع إلیه و یبحث عن حل مشاکله عنده.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۳

هل کان آزر أبا إبراهیم؟

تطلق کلمة «الأب» فی العربیة علی الوالد غالبا، و لکنّها قد تطلق أیضا علی الجد من جهة الأمّ و علی العم، و کذلک علی المربی و المعلم و الذین یساهمون بشکل ما فی تربیة الإنسان، و لکنّها إذا جاءت مطلقة فانّها تعنی الوالد ما لم تکن هناک قرینة تدلّ علی غیر ذلک.

فهل الرجل الذی تشیر إلیه الآیة (آزر) هو والد إبراهیم؟ أ یجوز أن یکون عابد الأصنام و صانعها والد نبی من أولی العزم؟ ألا یکون للوراثة من هذا الوالد تأثیر شیء فی أبنائه؟

بعض مفسّری أهل السنّة یجیب بالإیجاب علی السؤال الأوّل، و یعتبر آزر والد إبراهیم الحقیقی، أمّا المفسّرون الشیعة فیجمعون علی أن آزر لیس والد إبراهیم، بل قال بعضهم: إنّه کان جدّه لأمّه، و قال أکثرهم: إنّه کان عمه، و هم فی ذلک یستندون إلی القرائن التّالیة:

۱- لم یرد فی کتب التّأریخ أنّ أبا إبراهیم هو آزر، بل یقول التّأریخ إنّ اسم أبیه هو «تارخ» و هذا ما ورد أیضا فی العهدین القدیم و الجدید، و الذین یعتبرون آزر والد إبراهیم یستندون إلی تعلیلات لا یمکن قبولها من ذلک أنّهم یقولون: إنّ اسم والد إبراهیم هو تارخ و لقبه آزر، و هذا القول لا تسنده الوثائق التّأریخیة.

أو یقولون: إنّ «آزر» اسم صنم کان أبو إبراهیم یعبده، و هذا القول لا یأتلف مع هذه الآیة التی تقول أن أباه کان آزر، إلّا إذا قدرنا جملة أو کلمة، و هذا أیضا خلاف الظاهر.

۲- یقول القرآن: ما کانَ لِلنَّبِیِّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا أَنْ یَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِکِینَ وَ لَوْ کانُوا أُولِی قُرْبی ... ثمّ لکیلا یتخذ أحد من استغفار إبراهیم لآزر حجّة یقول:

وَ ما کانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِیَّاهُ فَلَمَّا تَبَیَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۴

تَبَرَّأَ مِنْهُ ۱۹۲] و ذلک لأنّ إبراهیم کان قد وعد آزر أن یستغفر له: سَأَسْتَغْفِرُ لَکَ رَبِّی ۱۹۳] بأمل رجوعه عن عبادة الأصنام، و لکنّه عند ما رآه مصمما علی عبادة الأصنام و معاندا، ترک الاستغفار له.

یتّضح من هذه الآیة بجلاء أن إبراهیم بعد أن یئس من آزر، لم یعد یطلب له المغفرة و لم یکن یلیق به أن یفعل.

کل القرائن تدل علی أنّ هذه الحوادث وقعت عند ما کان إبراهیم شابا، یعیش فی بابل و یحارب عبدة الأصنام.

و لکن آیات أخری فی القرآن تشیر إلی أن إبراهیم فی أواخر عمره، و بعد الانتهاء من بناء الکعبة، طلب المغفرة لأبیه (فی هذه الآیات- کما سیأتی- لم تستعمل کلمة «أب» بل استعملت کلمة «والد» الصریحة فی المعنی) حیث یقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّی لَسَمِیعُ الدُّعاءِ ...

رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ الْحِسابُ ۱۹۴].

إذا جمعنا هـذه الآیة مع آیة سورة التوبة التی تنهی المسلمین عن الاستغفار للمشـرکین و تنفی ذلک عن إبراهیم، إلّا لفترة محدودة و لهـدف مقـدس، تبیّن لنا بجلاء أنّ المقصود من «أب» فی الآیـة المـذکورة لیس «الوالد»، بل هو العم أو الجد من جانب الأمّ أو ما إلی ذلک، و بعبارة أخری: إنّ «والد» تعطی معنی الأبوة المباشرة، بینما «أب» لا تفید ذلک.

و قـد وردت فی القرآن کلمـة «أب» بمعنی العـم، کمـا فی الآیـة (۱۳۳) من سـورة البقرة: قـالُوا نَعْبُـدُ إِلهَـکَ وَ إِلهَ آبائِـکَ إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً و الضمیر فی «قالوا» یعود علی أبناء یعقوب، و کان إسماعیل عم یعقوب،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۵

لا أباه.

۳- و هناک روایات إسلامیة مختلفة تؤکّد هذا الأمر،

فقد جاء فی حدیث معروف عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لم یزل ینقلنی اللّه من أصـلاب الطاهرین إلی أرحام المطهرات حتی أخرجنی فی عالمکم هذا لم یدنسنی بدنس الجاهلیة»[۱۹۵].

و لا شک أن أقبـح أدناس الجاهلیة هو الشـرک و عبادة الأوثان، أما القائلون أنّ أقبحها هو الزنا فلا یقوم علی قولهم دلیل. خاصّة و انّ القرآن یقول: إِنَّمَا الْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ ۱۹۶].

الطبری، و هو من علماء أهل السـنة، ینقل فی تفسـیره «جامع البیان» عن المفسّـِر المعروف «مجاهـد» أنّه قال: لم یکن آزر والد إبراهیم ۱۹۷].

الآلوسـی فی «روح المعانی» یؤکّد عند تفسیر هذه الآیة أنّ الشـیعة لیسوا وحدهم الذین یعتقدون أن آزر لم یکن والد إبراهیم، بل إن کثیرا من علماء المذاهب الأخری یرون أن آزر اسم عم إبراهیم ۱۹۸].

و السـیوطی العـالم السـنی المعروف، نقل فی کتابه «مسالک الحنفاء» عن أسـرار التنزیل للفخر الرازی أن والـدی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و أجـداده لم یکونوا مشـرکین أبـدا. مسـتدلا علی ذلـک بالحـدیث الـذی نقلنا آنفا، ثمّ یسـتند السـیوطی نفسه إلی مجموعتین من الرّوایات.

الأولی: تقول إنّ آباء رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و أجداده حتی آدم کان کل واحد منهم أفضل أهل زمانه (و ینقل أمثال هذه الرّوایات عن «صحیح البخاری» و «دلائل النبوة» للبیهقی و غیرهما من المصادر).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۶

و الثّانیـة: هی الـتی تقـول: إنّـه فی کـل عصـر و زمـان کـان هنـاک أنـاس مـن الموحـدین الـذین یعبـدون اللّـه، ثمّ یجمـع بین هـاتین المجموعتین من الرّوایات و یستنتج أنّ أجداد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بما فیهم والد إبراهیم، کانوا حتما من الموحدین ۱۹۹].

یتبیّن من هذا أنّ التّفسیر المذکور لهذه الآیة مبنی علی وجود قرائن واضحة من القرآن نفسه و من مختلف الرّوایات الإسلامیة، و لیس تفسیرا مبنیا علی الرأی الشخصی فقط، کما یقول بعض مفسّری أهل السنة، مثل صاحب «المنار».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۷

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۷۵ الی ۷۹]

اشارة

وَ کَذلِکَ نُرِی إِبْراهِیمَ مَلَکُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَیْهِ اللَّیْلُ رَأی کَوْکَباً قالَ هـذا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ

قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هـذا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَـةً قالَ هـذا رَبِّى هـذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ (۷۸) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۷۹)

التّفسير

أدلة التوحيد فى السموات:

على أثر الكره الذى كان يحمله إبراهيم للأوثان و طلبه من آزر أن يترك عبادة الأصنام، تشير هذه الآيات إلى نضال إبراهيم المنطقى مع مختلف عبدة الأصنام، و تبيّن كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلى الواضح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۸

تبيّن أولا ـ أنّ اللّه كمـا عرّف إبراهيم على أضـرار عبـادة الأصـنام عرّفه على مالكيـة اللّه و سـلطته المطلقـة على السـموات و الأرض: وَ كَذلِكَ نُرِى إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۲۰۰].

«الملكوت» من «ملك» بمعنى المالكيـة و الحكم و «الواو» و «التاء» أضـيفتا للتوكيـد و المبالغـة، فالمقصود من الكلمـة هنا حكومـة اللّه المطلقة على عالم الوجود برمته.

و لعل هذه الآية إجمال للتفصيل الوارد فى الآيات التّالية بشأن الكواكب و القمر و الشمس و إدراك أنّها من المخلوقات لدى مشاهدة أفولها.

أى أنّ القرآن بدأ بذكر مجمل تلك الحالات، ثمّ أخذ يفصلها، و بهذا يتّضح المقصود من إراءة ملكوت السموات و الأرض لإبراهيم عليه السّلام.

كما أنّه فى الختام يقول إنّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ

لا شك أنّ إبراهيم كان موقنا يقينا اسـتدلاليا و فطريا بواحدانيـة اللّه، و لكنّه بدراسـة أسـرار الخلق بلغ يقينه حـد الكمال، كما أنّه كان مؤمنا بالمعاد و يوم القيامة، و لكنّه بمشاهدة الطيور المذبوحة التى عادت إليها الحياة بلغ إيمانه مرحلة «عين اليقين».

الآيات التّاليـة تشـرح هـذا المعنى، و تبيّن اسـتدلال إبراهيم من أفول الكواكب و الشـمس على عدم الوهيتها، فعند ما غطى سـتار الليل المظلم العالم كلّه، ظهر أمام بصـره كوكب لامع، فنادى إبراهيم: هـذا ربّى! و لكنّه إذ رآه يغرب، قال: لا أحبّ الذين يغربون: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۹

و مرّة أخرى رفع عينيه إلى السـماء فلاح له قرص القمر الفضى ذو الإشعاع و اللمعان الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانية: هذا ربّى: و لكنّ مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكواكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيات الأفق.

هنـا قال إبراهيم: إذا لم يرشـدنى ربّى إلى الطريق الموصل إليه فسأكون فى عـداد التائهين فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هـذا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ

عند ذاك كان الليل قد انقضـى، و راح يجمع أطراف أسـتاره المظلمة هاربا من كبد السـماء، بينما راحت الشـمس تطل من المشرق و تلقى بأشـعتها الجميلة كنسيج ذهبى تنشره على الجبل و الوادى و الصحراء، و ما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشـمس الساطع صاح: هـذا ربّى فإنّه أكبر و أقوى ضوءا، و لكنّه إذ رآها كـذلك تغرب و تختفى فى جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم

قراره النهائى قائلا: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التى تجعلونها شريكة للّه: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّى هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلها قادرا و حاكما على نظام الكائنات، فإنى أتجه إلى الذى خلق السموات و الأرض، و فى إيمانى هذا لن أشرك به أحدا، فانى موحد و لست مشركا: إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

للمفسّرين كلام كثير فى تفسير هذه الآية و الآيات التّالية بشأن ما دفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۰

بإبراهيم الموحد العابد للّه الواحد، أن يشير إلى كوكب فى السماء و يقول: هذا ربّى؟ و من بين آراء المفسّرين الكثيرة نقف عند تفسيرين قد اختار كلا منهما عدد من كبار المفسّرين، كما أنّهما مدعومان بشواهد من المصادر الحديثة:

الأوّل: يقول إنّ إبراهيم كان يريد شخصيا أن يفكر فى معرفة اللّه و أن يعثر على المعبود الذى كان يجده بفطرته النقية فى أعماق ذاته، إنّه كان يعرف اللّه بنور فطرته و دليل العقل الإجمالى إذ إنّ كل تعبيراته تدل على أنّه لم يكن يشك أبدا فى وجوده، و لكنّه كان يبحث عن مصداقه الحقيقى، بل لقد كان يعلم بمصداقه الحقيقى أيضا، و لكنّه كان يريد أن يصل عن طريق الاستدلال العقلى الأوضح إلى مرحلة «حق اليقين».

و قد وقعت له هذه الحوادث قبل نبوته، و يحتمل أن تكون فى أوّل بلوغه أو قبيل ذلك.

نقرأ فى بعض التواريخ و الرّوايات أنّ هذه كانت المرّة الأولى التى يرنو فيها إبراهيم بنظره إلى السماء و إلى كواكبها الساطعة، لأن أمّه كانت منذ طفولته قد أخفته فى عار خوفا عليه من بطش نمرود الجبار و جلاوزته.

غير أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا، إذ يصعب أن نتصور إنسانا يعيش سنوات طويلة فى بطن غار و لا يخلو خارجه، و لو مرّة، فى ليلة ظلماء، فلعل الذى قوى هذا الاحتمال فى نظر بعض المفسّرين هو تعبير رَأى كَوْكَباً الذى يوحى بأنه لم يكن قد رأى كوكبا حتى ذلك الحين، و لكن هذا التعبير لا يحمل فى الواقع مثل هذا المفهوم، بل المقصود هو أنّه، و إن كان قد رأى الكواكب و الشمس و القمر مرات حتى ذلك الوقت، فقد ألقى الأوّل مرّة نظرة فاحصة مستطلعة إلى هذه الظواهر. و كان يفكر فى مغزى بزوغها و أفولها و نفى الألوهية عنها، فى الحقيقة كان إبراهيم قد رآها مرارا، و لكن لا بتلك النظرة.

لذلك فإنه عند ما يقول: هذا رَبِّى لا يقولها قاطعا جازما، بل يقولها من باب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۱

الفرض و الاحتمال حتى يفكر فى الأمر، و هذا يشبه تماما حالنا و نحن نحاول أن نعثر على سبب حادثة ما، فنقلب مختلف الاحتمالات و الافتراضات على وجوهها واحدة واحدة، و نستقصى لوازم كل فرضية حتى نعثر على العلة الحقيقية، و هذا لا يكون كفرا، بل و لا حتى دليلا على عدم الإيمان، بل هو طريق لتحقيق أكثر و لمعرفة أفضل، للوصول إلى مراحل أعلى من الإيمان، كما فعل إبراهيم فى مسألة «المعاد» إذ قام بمزيد من الدراسة يوصل إلى مرحلة الشهود و الاطمئنان.

جاء فى تفسير العياشى عن محمّد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السّلام أنّه قال: «إنّما كان إبراهيم طالبا لربّه، و لم يبلغ كفرا، و انّه من فكر من الناس فى مثل ذلك فإنه بمنزلته»[۲۰۱].

و هنالك روايتان أخريان يذكرهما تفسير نور الثقلين بهذا الشأن.

أمّا التّفسير الثّانى فيقول: إن إبراهيم كان يقول هذا الكلام أثناء مخاطبته عبدة النجوم و الشمس، و يحتمل أن يكون ذلك بعد مخاصماته الشديدة فى بابل مع عبدة الأوثان و خروجه منها إلى الشام، حيث التقى بهؤلاء الأقوام، و إبراهيم الذى كان قد خبر عناد الأقوام الجاهلة فى بابل و خطأ تفكيرهم، أراد أن يحلب إليه انتباه عبدة الكواكب و الشمس و القمر، فأظهر فى البداية أنّه معهم و قال

لهم:

إنكم تقولون: إنّ كوكب الزاهرة هذا هو ربّى، حسنا، فلنر ما يحصل لهذا الإعتقاد فى النهاية، و لم يمض وقت طويل حتى اختفى وجه الكواكب النير خلف ستار الأفق المظلم، عندئذ اتّخذ إبراهيم من هذا الأفول سلاحا يواجههم به فقال: أنا لا يمكننى أن أتقبل معبودا كهذا.

و عليه، فإنّ عبارة هذا رَبِّى تعنى: هذا ما تعتقدون أنّه ربّى، أو أنّه قالها بلهجة الاستفهام: «هذا ربّى؟».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۲

و يؤيد هذا التّفسير أيضا رواية فى «نور الثقلين» و تفاسير أخرى عن كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السّلام».

كيفية استدلال إبراهيم على التوحيد:

هنا يبرز هذا السؤال: كيف استطاع إبراهيم أن يستدل من غروب الشمس و القمر و الكواكب على عدم ربوبيتها؟

يمكن أن يكون هذا الاستدلال من طرق ثلاثة:

۱- إنّ اللّه المربى، كما يستفاد من كلمة «رب» لا بدّ أن يكون دائما قريبا من مخلوقاته و أن لا ينفصل عنهم لحظة واحدة، و عليه لا يجوز لكائن يغرب و يختفى ساعات طويلة، بنوره و بركته و تنقطع صلته كليا عن الكائنات الأخرى، أن يكون ربّا و إلها.

۲- إنّ كائنا يغرب و يبزغ و يخضع للقوانين الطبيعية، لا يمكن أن يحكم على هذه القوانين و يملكها؟ إنّه هو نفسه مخلوق ضعيف يخضع لأوامرها و غير قادر على أدنى انحراف عنها ...

۳- إنّ الكائن المتحرك لا يمكن إلّا يكون كائنا حادثا، فقد أثبتت الفلسفة أنّ الحركة دليل على الحدوث، لأنّ الحركة ذاتها نوع من الوجود الحادث، و أن ما يكون فى معرض الحوادث، أى يكون ذا حركة، لا يمكن أن يكون كائنا أزليا و أبديا (تأمل بدقّة).

ملاحظات

هنا لا بدّ من الانتباه إلى النقاط التّالية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۳

۱- فى الآية الأولى من الآيات التى نحن بصددها، كلمة «كذلك ...» تلفت النظر، و هى تعنى: إنّنا مثلما أوضحنا عقلا أضرار عبادة الأصنام لإبراهيم، كذلك نريه مالكية اللّه للسماوات و الأرض و حكمه عليها، يقول بعض المفسّرين:

ذلك يعنى: إنّنا كما أريناك قدرة اللّه و حكمه على السموات، أريناها لإبراهيم أيضا لكى يزداد معرفة باللّه.

۲- أصل «الجن» ستر الشىء عن الحاسة، فمعنى الآية هو: عند ما ستر الليل ملامح الكائنات عن إبراهيم ... و إطلاق كلمة «مجنون» على المخبول لإسدال ستار على عقله، و إطلاق «الجن» على الكائنات غير المرئية جاء من هذا الباب، و كذلك الجنين لاختفائه عن الأنظار فى رحم أمه، و «الجنّة» هى البستان التى اختفت أرضها تحت أغصان الأشجار، و قيل للقلب «الجنان» لاستتاره فى الصدر، أو لأنّه يخفى أسرار الإنسان.

۳- و بشأن تعيين الكوكب الذى رآه إبراهيم، ذهب المفسّرون مذاهب شتى، غير أنّ معظمهم يراه «الزهرة» أو «المشترى» و يذكر التّأريخ أنّ القدامى كانوا يعبدون هذين الكوكبين من بين آلهتهم، أمّا الحديث المنقول عن الإمام الرضا عليه السّلام فى «عيون الأخبار» فيقول: إنّ ذلك الكوكب كان «الزهرة»، و هذا ما جاء أيضا فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام ۲۰۲].

يقول بعض المفسّرين أنّ أهالى كلدة و بابل شرعوا فى محاربة عبدة الأصنام، و راحوا يختارون السيارات باعتبار كل واحدة منها تمثل

إلها لنوع من أنواع الأشياء من ذلك أنّهم اعتبروا «المريخ» إله الحرب، و «المشترى» إله العدل و العلم، و «عطارد» إليه الوزراء و «الشمس» ملك الآلهة جميعا[۲۰۳].

۴- «بازغ» من «بزغ» و بزغه: شقه و أسال دمه، و لذلك تطلق على عمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۴

البيطار فى الجراحة، و إطلاق هذه الكلمة على طلوع الشمس أو القمر تعبير بليغ يحمل أجمل صور التشبيه، فالشمس و القمر عند الطلوع يشقان الظلام، و يسكبان عند الأفق إحمرار الشفق الذى ليس ببعيد الشبه عن الدم المسفوح.

۵- «فطر» من «الفطور» بمعنى الشق، و لعل إطلاق هذه الكلمة على خلق السماء و الأرض ناشئ- كما قلنا فى تفسير الآية (۱۴) من هذا السورة- من كون العالم كان فى اليوم الأوّل حسبما يقول العلم اليوم- كتلة واحدة، ثمّ تشققت و ظهرت الكرات و الإجرام السماوية الواحدة بعد الأخرى (انظر تفسير الآية المذكورة لمزيد من الإيضاح).

۶- «الحنيف» هو الخالص، كما جاء فى تفسير الآية (۶۷) من سورة آل عمران.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۵

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸۰ الى ۸۳]

اشارة

وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (۸۰) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۱) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۸۲) وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۸۳)

التّفسير

اشارة

تعقيبا على ما جرى بحثه فى الآيات السابقة بشأن استدلالات إبراهيم عليه السّلام التوحيدية، تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم و الأقوام المشركة من عبدة الأصنام، الذين بدأوه بالمحاجة وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ

فردّ عليهم إبراهيم عليه السّلام قائلا: لماذا تجادلوننى فى اللّه الواحد الأحد و تخالفوننى فيه، و هو الذى وهبنى من الدلائل المنطقية الساطعة ما هدانى به إلى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۶

طريق التوحيد قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ

يتّضح فى هذه الآية بجلاء أنّ قوم إبراهيم المشركين من عبدة الأصنام كانوا يحاولون جهدهم و بأى ثمن أن يبعدوا إبراهيم عن عقيدته و يرجعوه إلى عبادة الأصنام، و لكنّه بكل شجاعة و جرأة ردّ عليهم بالدلائل المنطقية الواضحة.

لا تشير هذه الآيات إلى المنطق الذى توسل به قوم إبراهيم لحمله على ترك عقيدته، و لكن يبدو من جواب إبراهيم أنّهم قد حذروه و هددوه بغضب آلهتهم و عقابها فى محاولة لإرعابه و إخافته، لأنّنا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم و يؤكّد لهم أنّه لا

یخشـی أصـنامهم التی لا حول لها و لا قوّة فی إیصال أی أذی إلیه وَ لا أَخافُ ما تُشْـرِکُونَ بِهِ .. فما من أحد و لا من شیء بقادر علی أن یلحق بی ضررا إلّا إذا شاء اللّه: إِلَّا أَنْ یَشاءَ رَبِّی شَیْئاً[۲۰۴].

یظهر من هذه الآیة أنّ إبراهیم علیه السّلام سعی لاتخاذ إجراء وقائی تجاه حوادث محتملة، فیؤکّد أنّه إذا أصابه فی هذا الصراع شیء- فرضا- فلن یکون لـذلک أی علاقـة بالأصـنام، بل یعود إلی إرادة اللّه، لأنّ الصـنم الذی لا روح فیه و لا قدرة له علی أن ینفع نفسه أو یضرها، لا یتأتی له أن ینفع أو یضرّ غیره.

و یضیف إلی ذلک مبینا أنّ ربّه علی درجة من سعة العلم بحیث یسع بعلمه کل شیء: وَسِعَ رَبِّی کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً.

هـذه العبـارة- فی الواقع- دلیـل علی العبارة السابقـة التی تقول: إنّ الأصـنام لا قـدرة لها علی النفع و الضـرر، لأنّها لا تملک العلم و لا المعرفة اللازمین لمن یرید أن ینفع أو یضـرّ، إنّ اللّه الذی أحاط علمه بکل شـیء هو وحده القادر علی أن یکون منشأ النفع و الضـرر، فلم إذن أخشی غضب غیر اللّه؟! ثمّ یحرک فیهم روح البحث و التفکیر فیخاطبهم قائلا: أَ فَلا تَتَذَکَّرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۷

فی الآیة التّالیة ینهج إبراهیم منطقا استدلالیا آخر، فیقول لعبدة الأصنام:

کیف یمکننی أن أخشـی الأصـنام و یستولی علیّ الخوف من تهدیدکم، مع إنّی لا أری فی أصنامکم أثرا للعقل و الإدراک و الشعور و القـوة و العلم، أمّا أنتم فعلی الرغم من إیمـانکم بوجود اللّه و إقرارکم له بـالعلم و القـدرة، و معرفتکم بـأنّه لم یـأمرکم بعبـادة هـذه الأصنام، فانّکم لا تخافون غضبه: وَ کَیْفَ أَخافُ ما أَشْرَکْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّکُمْ أَشْرَکْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکُمْ سُلْطاناً[۲۰۵].

إنّنـا نعلم أن عبـدة الأصـنام لم یکونوا ینکرون وجود اللّه خـالق السـموات و الأـرض، و لکنّهم کـانوا یشـرکون الأصـنام فی عبـادته و یعتبرونها شفیعة لهم عنده، کونوا منصفین إذن و قولوا: فَأَیُّ الْفَرِیقَیْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

یستند منطق إبراهیم علیه السّـلام هنـا إلی منطق العقـل القـائم علی الواقع، إنّکم تهـددوننی بغضب الأصـنام، مع أن تأثیرهـا و هم من الأوهـام، و لکنّکم بعـدم خشـیتکم من اللّه العظیم الـذی نؤمن به جمیعـا، و نعتقـد بوجوب اتبـاع أمره تکونون قـد ترکتم أمرا ثابتـا، و تمسکتم بأمر و همی فهو لم یصدر إلینا أمرا بعبادة الأصنام.

فی الآیة التّالیة جواب یدلی به إبراهیم علی سؤال کان هو قد ألقاه فی الآیة السابقة (و هذا أسـلوب من أسالیب الاستدلال العلمی، فقد یسأل المتکلم سؤالا عن لسان المخاطب ثمّ یبادر إلی الإجابـة علیه مباشـرة کدلیل علی أن الجواب من الوضوح بحیث ینبغی أن یعرفه کـل شـخص)، یقول: إنّ المؤمنین الـذین لم یمزجوا إیمانهم بظلم، هم الآمنون و هم المهتـدون الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِکَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

ثمّة روایة عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام تؤید کون هذه الآیة استکمالا لحوار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۸

إبراهیم مع عبدة الأصنام ۲۰۶].

بعض المفسّـرین یری أن من المحتمل أن تکون هـذه الآیـة بیانا إلهیا، و لیست مقولـة قالها إبراهیم، إلّا أن ما ذکرناه- فضـلا عن تأیید الروایـة المـذکورة له- أکثر انسـجاما مع ترتیب الآیات و وضـعها، أمّا القول بأنّ هذه الآیة لسان حال عبدة الأصـنام، و إنّهم قالوها بعد تیقظهم علی أثر سماع أدلة إبراهیم، فأمر بعید الاحتمال جدّا.

ما معنی «الظلم» هنا؟

یری معظم المفسّرین أنّ معنی «الظلم» هنا هو «الشرک». و أنّ الآیة (۱۲) من سورة لقمان: إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ دلیل علی ذلک.

و

فى رواية منقولة عن ابن عباس أنّه عند نزول هذه الآية شقّ على الناس فقالوا: يا رسول اللّه و أينا لم يظلم نفسه؟ (أى أنّ الآية تشملهم جميعا)، فقال:

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح:

... يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۲۰۷].

غير أنّ لآيات القرآن معانى متعددة فى كثير من الحالات بحيث يمكن أن يكون أحدها أوسع و أشمل، و هذا الاحتمال جائز فى هذه الآية أيضا، فيحتمل أن يكون «الأمن» عاما يشمل الأمن من عقاب اللّه، و الأمن من حوادث المجتمع المؤلمة، و الأمن من الحروب و المفاسد، و الجرائم و حتى الأمن النفسى لا يتحقق إلّا عند ما يسود المجتمع مبدءان معا: الإيمان و العدالة الاجتماعية، فإذا ما تزلزلت قاعدة الإيمان باللّه، و زال الشعور بالمسؤولية أمام اللّه، و حل الظلم محل العدالة الاجتماعية، فلن يكون فى مثل هذا المجتمع أمان. لذلك فعلى الرغم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۹

المساعى و الجهود التى يبذلها فريق من العلماء فى العالم للحيلولة دون انعدام الأمن، فإنّ الهوة بين العالم و حالة الأمن و الاستقرار تتسع يوما بعد يوم إنّ السبب هو ما جاء فى الآية المذكورة: تزلزل أركان الإيمان، و قيام الظلم مقام العدالة.

إنّ تأثير الإيمان فى الاطمئنان النفسى و الهدوء الروحى لا- يمكن إنكاره، كما لا يخفى على أحد حالات تبكيت الضمير و القلق النفسى بسبب ارتكاب المظالم.

روى عن الإمام الصّادق عليه السّلام فى قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ قال: «بما جاء به محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الولاية، و لم يخلطوها بولاية فلان و فلان»[۲۰۸].

هذا التّفسير يستهدف- فى الحقيقة- بيان روح الموضوع فى الآية الشريفة، إذ أنّ الكلام يدور حول ولاية اللّه و عدم خلطها بولاية غيره، و لما كانت ولاية أمير المؤمنين على عليه السّلام بموجب إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ .. قبسا من ولاية اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الولايات غير المعينة من قبل اللّه ليست كذلك، فإنّ هذه الآية من خلال نظرة واسعة تشمل الجميع، و عليه ليس المقصود من هذا الحديث أن ينحصر معنى الآية فى هذا فقط، بل إنّ هذا التّفسير قبس من مفهوم الآية الأصلى.

لذلك نجد فى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه جعل هذه الآية تشمل الخوارج الذين خرجوا من ولاية اللّه و دخلوا فى ولاية الشيطان ۲۰۹].

الآية التّالية فيها إشارة إجمالية لما مضى من بحث بشأن التوحيد و مجابهة الشرك كما جاء فى لسان إبراهيم: فتقول: وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ

صحيح أنّ تلك الاستدلالات كانت منطقية توصّل إليها إبراهيم بقوّة العقل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۰

و الإلهام الفطرى غير أن قوة العقل و الإلهام الفطرى من اللّه، لذلك فإنّ اللّه ينسبها إلى نفسه و يوقعها فى القلوب المستعدة كقلب إبراهيم عليه السّلام.

و من الجدير بالملاحظة أنّ «تلك» اسم إشارة للبعيد، غير أنّها تستعمل أحيانا للقريب للدلالة على أهمية المشار إليه و علو مقامه، مثل ذلك ما جاء فى أوّل سورة البقرة: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ

ثمّ تقول الآية: نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ[۲۱۰] و لكيلا يخامر بعضهم الشك فى أنّ اللّه يحابى فى إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إن اللّه متصف بالحكمة و بالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجة من لا يستحق ذلك: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۱

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۸۴ الی ۸۷]

اشارة

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ کُلًّا هَدَیْنا وَ نُوحاً هَدَیْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ وَ أَیُّوبَ وَ یُوسُفَ وَ مُوسی وَ هارُونَ وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۸۴) وَ زَکَرِیَّا وَ یَحْیی وَ عِیسی وَ إِلْیاسَ کُلٌّ مِنَ الصَّالِحِینَ (۸۵) وَ إِسْماعِیلَ وَ الْیَسَعَ وَ یُونُسَ وَ لُوطاً وَ کلاًّ فَضَّلْنا عَلَی الْعالَمِینَ (۸۶) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّیَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَیْناهُمْ وَ هَدَیْناهُمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۸۷)

التّفسیر

فی هذه الآیات إشارة إلی النعم التی أسبغها اللّه علی إبراهیم، و هی تتمثل فی أبناء صالحین و ذریة لائقة، و هی من النعم الإلهیة العظیمة.

یقول سبحانه: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ و لم تذکر الآیة ابن إبراهیم الآخر إسماعیل، بل ورد اسمه خلال حدیث آیة تالیة، و لعل السبب یعود إلی أنّ ولادة إسحاق من (سارة) العقیم العجوز تعتبر نعمة عجیبة و غیر متوقعة.

ثمّ یبیّن أنّ مکانة هذین لم تکن لمجرّد کونهما ولدی نبی، بل لإشعاع نور الهدایة فی قلبیهما نتیجة التفکیر السلیم و العمل الصالح: کُلًّا هَدَیْنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۲

ثمّ لکیلا یتصور أحد أنه لم یکن هناک من یحمل لواء التوحید قبل إبراهیم، و أنّ التوحید بدأ بإبراهیم، یقول: وَ نُوحاً هَدَیْنا مِنْ قَبْلُ

إنّنا نعلم أن نوحا هو أوّل أولی العزم من الأنبیاء الذین جاؤوا بدین و بشریعة.

فالإشارة إلی مکانة نوح، و هو من أجداد إبراهیم، و الإشارة إلی فریق من الأنبیاء من أبنائه و قبیلته، إنّما هی توکید لمکانة إبراهیم المتمیزة من حیث «الوراثة و الأصل» و «الذّریة».

و علی أثر ذلک ترد أسماء عدد من الأنبیاء من أسرة إبراهیم: وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ وَ أَیُّوبَ وَ یُوسُفَ وَ مُوسی وَ هارُونَ ثمّ یبیّن أن منزلة هؤلاء ناشئة من أعمالهم الصالحة و هم لذلک ینالون جزاءهم: وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ

هناک کلام کثیر بین المفسّرین بشأن الضمیر فی وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ هل یعود إلی إبراهیم، أم إلی نوح؟ غیر أنّ أغلبهم یرجعه إلی إبراهیم، و الظاهر أنّه لا مجال للشک فی عودة الضمیر إلی إبراهیم، لأنّ الکلام یدور علی ما وهبه اللّه لإبراهیم، لا لنوح علیهما السّلام، کما أنّ الرّوایات التی سوف نذکرها تؤید هذا الرأی.

النقطة الوحیدة التی حدت ببعض المفسّرین إلی إرجاع الضمیر إلی نوح هی ورود ذکر «یونس» و «لوط» فی الآیات التّالیة، إذ المشهور فی التّأریخ أنّ «یونس» لم یکن من أبناء إبراهیم، کما أنّ «لوطا» کان ابن أخی إبراهیم أو ابن أخته.

غیر أنّ المؤرخین لیسوا مجمعین علی نسب «یونس»، فبعضهم یراه من أسرة إبراهیم ۲۱۱] و آخرون یرونه من أنبیاء بنی إسرائیل ۲۱۲].

ثمّ إنّ الجاری عند المؤرخین أن یحفظوا النسب من جهة الأب، و لکن ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۳

الذی یمنع من أن ینتسب «یونس» من جهة أمّه إلی إبراهیم، کما هی الحال بالنسبة إلی عیسی الذین نقرأ اسمه فی الآیات؟

أمّا «لوط» فهو، و إن لم یکن من أبناء إبراهیم، فقد کان من أسرته، فالعرب تطلق لفظة «لأب» علی «العم»، و کذلک تعتبر ابن الأخ أو

ابن الأخت من «ذريـة» المرء. و على هـذا ليس لنا أن نتغاضـى من ظاهر هذه الآيات فنعيد الضـمير إلى نوح، و هو ليس موضوع القول هنا.

فى الآية الثانية يرد ذكر زكريا و يحيى و عيسى و الياس على أنّهم جميعا كانوا من الصالحين، أى أنّ مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإجبارية، بل هى بسبب أعمالهم الصالحة فى سبيل اللّه: وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ

الآيـة الثالثـة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء و القادة الإلهيين، و هم إسـماعيل و اليسع و يونس و لوط الذين رفعهم ربّهم درجات على أهل زمانهم: وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ

لم يتفق المفسّـرون بشأن اسم «اليسع» فقد قال بعض: إنّه اسم عبرى أصله «يوشع» ثمّ أضيفت إليه الألف و للام و أبدلت الشين سينا، و بعض يرى أنّه اسم عربى من الفعل المضارع «يسع» و على كل حال هو اسم أحد الأنبياء من نسل إبراهيم.

و فى الآيـة الأـخيرة إشـارة عامّـة إلى آبـاء الأنبيـاء المـذكورين و أبنائهم و إخوانهم ممن لم ترد أسـماؤهم بالتفصـيل و هم جميعا من الصالحين الذين هداهم اللّه: وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۴

ملاحظات

اشارة

هنا لا بدّ من الإشارة إلى بعض النقاط:

۱- أبناء النّبى:

فى هـذه الآيات اعتبر عيسـى من أبناء إبراهيم (و باحتمال من أبناء نوح) مع انّنا نعلم أنّ اتصاله بهما إنّما هو من جهـة الأم، و هذا دليل على أنّ سلسلة النسب تتقدم من جهة الأب و الأم تقدما متساويا، و لذلك فإنّ الأحفاد من الابن أو البنت هم ذرية المرء و أولاده.

و على هـذا فـإنّ أئمّـة أهـل البيت عليهم السّـلام، و هو جميعا من أحفاد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من ابنته يعتبرون أبناء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

إنّ جاهليـة مـا قبـل الإسـلام لم تكن تعترف للمرأة بأيـة مكانـة أو قيمـة، و كـان النسب عنـدهم مـا اتصل من جهـة الأب فقط، غير أنّ الإسـلام أبطل هـذه العادة الجاهليـة، و من المؤسف أنّ بعض أصـحاب الأقلام الـذين فى نفوسـهم شـىء تجاه أئمـة أهل البيت عليهم السّلام، سعوا إلى إنكار هذا الموضوع، و حاولوا العودة إلى الجاهلية بالامتناع عن نسبة أبناء فاطمة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و رفضوا اطلاق عبارة «ابن رسول اللّه» عليهم إحياء للتقاليد الجاهلية.

هـذا الموضوع نفسه كان قـد عرض للمناقشـة على عهود الأئمّة، فكانوا يجيبونهم بهذه الآية باعتبارها الدليل الدامغ و الردّ الحاسم على ما يفترون.

من ذلك ما

جـاء فى «الكـافى» و فى تفسير العياشـى عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّه قال: «و اللّه لقـد نسب اللّه عيسـى بن مريم فى القرآن إلى إبراهيم عليه السّلام من قبل النساء ثمّ تلا: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ ... إلى آخر الآيتين، و ذكر عيسى.

و فی تفسیر العیاشی عن أبی الأسود قال: أرسل الحجاج إلی یحیی بن معمر قال: بلغنی أنّک تزعم أنّ الحسن و الحسین من ذریة النّبی تجدونه فی کتاب اللّه، و قد قرأت کتاب اللّه من أوّله إلی آخره فلم أجده، قال: ألیس تقرأ سورة الأنعام:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۵

وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ حتی بلغ یَحْیی وَ عِیسی ألیس عیسی من ذریة إبراهیم و لیس له أب؟ قال: صدقت.

و فی (عیون أخبار الرضا) فی باب جمل من أخبار موسی بن جعفر علیه السّلام مع هارون الرشید و مع موسی بن المهدی حدیث طویل بینه و بین هارون و فیه ... ثمّ قال: کیف قلتم: إنّا ذریّة النّبی، و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یعقب، و إنّما العقب للذکر، لا للأنثی و أنتم ولد لابنته، و لا یکون لها عقب، فقلت: «أسألک بحق القرابة و القبر و من فیه إلّا ما اعفیتنی من هذه المسألة» فقال: لا، أو تخبرنی بحجّتکم فیه یا ولد علی، و أنت یا موسی یعسوبهم و إمام زمانهم، کذا أنهی إلی، و لیست أعفیک فی کل ما أسألک عنه حتی تأتینی فیه بحجّة من کتاب اللّه، و أنتم تدعون معشر ولد علی أنّه لا یسقط عنکم منه شیء لا ألف و لا واو، إلّا تأویله عندکم، و احتججتم بقوله عزّ و جلّ: ما فَرَّطْنا فِی الْکِتابِ مِنْ شَیْءٍ و استغنیتم عن رأی العلماء و قیاسهم، فقلت: «تأذن لی فی الجواب؟» قال: هات، فقلت: «أعوذ باللّه من الشیطان الرجیم بسم اللّه الرحمن الرحیم: وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ وَ أَیُّوبَ وَ یُوسُفَ وَ مُوسی وَ هارُونَ وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ وَ زَکَرِیَّا وَ یَحْیی وَ عِیسی من أبو عیسی یا أمیر المؤمنین؟ قال: لیس لعیسی أب، فقلت: «إنّما الحق بذراری الأنبیاء من طریق مریم علیها السّلام، و کذلک ألحقنا بذراری النّبی من قبل أمنا فاطمة علیها السّلام»[۲۱۳].

یلفت النظر أنّ بعض المتعصبین من أهل السنة تطرقوا إلی هذا الموضوع عند تفسیرهم لهذه الآیة، منهم الفخر الرازی فی تفسیره حیث استدل بها أن الحسن و الحسین من ذریة النّبی، لأنّ اللّه ذکر عیسی من ذریة إبراهیم مع أنّه یرتبط به عن طریق الأم فقط[۲۱۴].

و صاحب المنار الذی لا یقل تعصبا عن الفخر الرازی یقول: بعد أن ینقل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۶

کلام الرازی، أنّ فی هذا الباب

حدیثا کره البخاری فی صحیحه عن أبی بکر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال مشیرا إلی الحسن بن علی علیه السّلام: «إنّ ابنی هذا سید»

بینما کانت لفظة (ابن) عند عرب الجاهلیة لا تطلق علی ابن البنت .. ثمّ یضیف، لهذا السبب، اعتبر الناس أولاد فاطمة أولاد رسول اللّه و عترته و أهل بیته.

لا شک أنّ أبناء البنت و أبناء الابن هم أبناء المرء و لا فرق بینهما، و لا هی قضیة اختص بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده، و ما سبب الاعتراض علی هذا إلّا التعصب و إلّا التمسک بالأفکار الجاهلیة، و لهذا نجد جمیع التشریعات الإسلامیة، کالزواج و الإرث، لا تفرق بینهما، إنّ الاستثناء الوحید فی هذا الباب هو فی موضوع الخمس الذی ورد فی کتب الفقه، حیث جعل لمن تحصل فیه عنوان السیادة.

۲- لماذا وردت أسماء الأنبیاء فی ثلاث مجموعات فی ثلاث آیات؟

یحتمل بعض المفسّرین أنّ المجموعة الأولی: داود و سلیمان و أیوب و یوسف و موسی و هارون هؤلاء الستة، کانوا بالإضافة إلی نبوتهم یمسکون بیدهم القیادة و زمان الحکم، و لعل ورود کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ إشارة إلی الأعمال الصالحة التی قاموا بها أثناء حکمهم.

أمّا المجموعة الثّانیة: زکریا و یحیی و عیسی و الیاس، فهم بالإضافة إلی نبوتهم کانوا معروفین بالزهد و اعتزال الدنیا، فجاء تعبیر: کُلٌّ

مِنَ الصَّالِحِینَ بعد ذکر أسمائهم.

و المجموعة الثّالثة: إسماعیل و الیسع و یونس و لوط، فهم یشترکون فی کونهم قاموا برحلات طویلة و هاجروا فی سبیل نشر دعوة اللّه، و عبارة کلًّا فَضَّلْنا عَلَی الْعالَمِینَ (إذ اعتبرنا الإشارة إلی هؤلاء الأربعة، لا لجمیع من ورد ذکرهم فی هذه الآیات الثلاث) تعتبر إشارة إلی هجرة هؤلاء فی أرجاء الأرض و بین الأقوام المختلفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۷

۳- أهمیة الأبناء الصالحین فی تعریف شخصیة الإنسان:

و هذا موضوع آخر یستنتج من هذه الآیات، فلإضفاء الأهمیة علی شخصیة إبراهیم علیه السّلام بطل تحطیم الأصنام، یشیر اللّه إلی شخصیات إنسانیة عظیمة کانوا من ذریّته فی العصور المختلفة، و یصفهم بصفات جلیلة، بحیث نجد من بین مجموع خمسة و عشرین نبیّا ورد ذکرهم فی القرآن، ستة عشر منهم من ذریة إبراهیم، و واحدا من أجداده، و هذا فی الواقع درس کبیر للمسلمین کافة لکی یدرکوا أنّ أبناءهم جزء من کیانهم و شخصیتهم، و أنّ لقضایاهم التربویة و الإنسان أهمیة کبیرة جدا.

۴- جواب علی اعتراض:

لعل الذین یقرءون: وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّیَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَیْناهُمْ وَ هَدَیْناهُمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ یستنتجون أنّ آباء الأنبیاء لم یکونوا جمیعا من المؤمنین و أنّ منهم من لم یکن موحدا، کما یقول بعض المفسّرین من أهل السنة عند تفسیر هذه الآیة، و لکنّنا یجب أن نلاحظ أنّ تعبیر اجْتَبَیْناهُمْ وَ هَدَیْناهُمْ بالقرینة الموجودة فی هذه الآیات تعنی مقام النبوة و حمل الرسالة، و بهذا یتهاوی الاعتراض، أی أنّ معنی هذه الآیة سیکون هکذا: إنّنا قد اخترنا بعضا منهم لمقام النبوة، و هذا لا یعنی أنّ الآخرین لم یکونوا موحدین و فی الآیة (۹۰) من هذه السورة وردت لفظة «الهدایة» بمعنی النبوة[۲۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۸

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۸۸ الی ۹۰]

اشارة

ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَکُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۸۸) أُولئِکَ الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ یَکْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَکَّلْنا بِها قَوْماً لَیْسُوا بِها بِکافِرِینَ (۸۹) أُولئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِکْری لِلْعالَمِینَ (۹۰)

التّفسیر

ثلاثة امتیازات مهمّة:

بعد ذکر مجموعات الأنبیاء فی الآیات السابقة، تتناول هذه الآیات الخطوط العامّة لحیاتهم، و تبدأ القول: ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ

يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ

أی أنّ هؤلاء على الرغم من صـلاحهم و استرشادهم بقوة العقل و الفكر فی سيرهم الحثيث على طريق الهداية، شـملتهم عناية الهداية الإلهية، و أخذت بأيديهم و إلّا فاحتمال انحرافهم و انحراف كل انسان موجود دائما.

و لكيلا يحسب البعض أنّ هؤلاء قد أجبروا على السير فی هذا الطريق، أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۹

يظن أنّ اللّه ينظر إلى هؤلاء نظرة خاصّة و استثنائية دونما سبب، يقول القرآن عنهم: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهی الذی يسرى على غيرهم بغير محاباة.

الآيـة التّاليـة تشـير إلى ثلاثـة امتيـازات مهمّـة هی أساس جميع امتيازات الأنبياء، و هی قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‏۴ ؛ ص۳۶۹

لا يعنی هذا أنّهم جميعا كانوا من أصحاب الكتب السماوية، و لكن الكلام يدور على المجموع، فنسب الكتاب إلى المجموع أيضا، و هذا كقولنا: الكتاب الفلانی ذكر العلماء و كتبهم، أی كتب من له تأليف منهم.

أمّا المقصود من «الحكم» فثمّة احتمالات ثلاثة:

۱- الحكم بمعنى «العقل و الإدراك»، أی: إنّنا فضـلا عن إنزال كتاب سـماوی عليهم فقـد وهبناهم القـدرة على التعقل و الفهم، إذ أن وجود الكتاب بغير وجود القدرة على فهمه فهما كاملا عميقا لا جدوى فيه.

۲- بمعنى «القضـاء» أی أنّهم باسـتنباط القوانين الإلهيـة من تلـك الكتب السـماوية كـانوا قادرين على أن يقضوا بين الناس بامتلاكهم لجميع شروط القاضی العادل.

۳- بمعنى «الحكومـة» و الإمسـاك بزمان الإدارة، بالإضافة إلى مقام النّبوة، إنّ الـدليل على المعانی المـذكورة- بالإضافـة إلى المعنى اللغوی الذی ينطبق عليها- هو أنّ كلمة «الحكم» قد وردت بهذه المعانی نفسها أيضا فی آيات أخرى من القرآن ۲۱۶].

و ليس ثمّـة مـا يمنع من أنّ يشـمل اسـتعمال الكلمـة فی هـذه الآيـة المعانی الثلاثـة مجتمعـة، فالحكم أصـلا- كما يقول «الراغب» فی «مفرداته» هو المنع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۰

و من ذلـك العقـل الـذی يمنع من وقوع الأخطـاء و المخالفات، و كـذلك القضاء الصـحيح يمنع من وقوع الظلم، و الحكومـة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، فهی قد استعملت فی المعانی الثلاثة.

قلنـا من قبـل إنّ جميع الأنبيـاء لم يكونوا يحظون بهـذه الامتيـازات كلهـا، و إسـناد حكم إلى الجمع لا يعنی شـموله جميع أفراد ذلك الجمع، بل قد يكون لبعض أفراده، و من ذلك مسألة إيتاء الكتاب لهؤلاء الأنبياء.

ثمّ يقول: لئن رفضت هـذه الجماعـة (أی المشـركون و أهل مكّـة) تلك الحقائق، فإن دعوتك لن تبقى بغير اسـتجابة، إذ إنّنا قد أمرنا جمعا آخر لا بقبولها فحسب، بل و بالحفاظ عليها فهم لا يسلكون طريق الكفر أبدا، بل يتبعون الحقّ:

فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ

جاء فی تفسير «المنار» و تفسـير «روح المعانی» عن بعض المفسّـرين أنّ المقصود بالقوم هم الفرس، و قد أسـرعوا فی قبول الإسـلام و جاهدوا فی سبيل نشره، و ظهر فيهم العلماء فی شتى العلوم و الفنون الإسلامية و ألفوا الكثير من الكتب ۲۱۷].

الآية الأخيرة تجعل من منهاج هؤلاء الأنبياء العظام قدوة رفيعة للهداية تعرض على رسول لاسـلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول له:

أُولئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ ۲۱۸].

تؤکّد هذه الآیة مرّة أخری علی أن أصول الدعوة التی قام بها الأنبیاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۱

واحدة، بالرغم من وجود بعض الاختلافات الخاصّیة و الخصائص اللازمة التی تقتضیها الحاجة فی کل زمان و مکان، و کل دین تال یکون أکمل من الدین السابق. بحیث تستمر مسیرة الدروس العلمیة و التربویة حتی تصل إلی المرحلة النهایة، أی الإسلام.

و لکن ما المقصود من أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یهتدی أولئک الأنبیاء؟

یقول بعض المفسّرین: إنّ المقصود قد یکون هو الصبر و قوة التحمل و الثبات فی مواجهة المشاکل، و یقول بعض آخر إنّه «التوحید و إبلاغ الرسالة» و لکن یبدو أنّ للهدایة معنی واسعا یشمل التوحید و سائر الأصول العقائدیة، کما یشمل الصبر و الثبات و سائر الأصول الأخلاقیة و التربویة.

یتّضح ممّا سبق أنّ هذه الآیة لا تتعارض مع القول بأنّ الإسلام ناسخ الأدیان و الشرائع السابقة، إذ أنّ النسخ إنّما یشمل جانبا من أحکام تلک الشرائع لا الأصول العامّة للدعوة.

ثمّ یؤمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقول للنّاس إنّه مثل سائر الأنبیاء لا یتقاضی أجرا لقاء عملیة تبلیغ الرسالة: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً.

لیس الاقتداء بالأنبیاء و بسنتهم الخالدة هو وحده الذی یوجب علیّ عدم طلب الأجر، بل أنّ هذه الدین الطاهر الذی جئتکم به ودیعة إلهیة أضعها بین أیدیکم، و طلب الأجر علی ذلک لا معنی له.

ثمّ إنّ هذا القرآن و هذه الرسالة و الهدایة إن هی إلّا إیقاظ و توعیة للناس جمیعا: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِکْری لِلْعالَمِینَ

إنّ النعم العامّة الشاملة مثل نور الشمس و الهواء و الأمطار هی أمور عامّة و عالمیة، لاتباع و لا تشتری، و لا أجر یعطی لقاءها، هذه الهدایة أو الرسالة لیست خاصّة و مقصورة علی بعض دون بعض حتی یمکن طلب الأجر علیها، (ممّا قیل فی تفسیر هذه العبارة یتضح الترابط بینها و بین عبارات الآیة الأخری، و بین ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۲

سبقها من آیات).

کما یتّضح من هذه الآیة الأخیرة أنّ الدین الإسلامی لیس قومیا و لا إقلیمیا، و إنّما هو دین عالمی عام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۳

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۹۱]

اشارة

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلی بَشَرٍ مِنْ شَیْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْکِتابَ الَّذِی جاءَ بِهِ مُوسی نُوراً وَ هُدیً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِیسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ کَثِیراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُکُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ (۹۱)

سبب النّزول

الغافلون عن اللّه:

روی عن ابن عباس أنّ جمعا من الیهود قالوا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا محمّد أ حقا أنزل اللّه علیک کتابا؟ فقال: نعم، فقالوا: قسما باللّه إنّه لم ینزل علیک کتابا من السماء[۲۱۹].

هنالک أقوال أخری فی سبب نزول هذه الآیة، و لکنّنا سنعرف فیما بعد أنّ ما قلناه أقرب و أنسب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۴

التّفسیر

یختلف المفسّرون حول کون هذه الآیة واردة بشأن الیهود أو المشرکین، و لمّا لم تکن لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباحثات مع الیهود فی مکّة، بل بدأت فی المدینة، و هذا السورة مکّیة، لذلک یری بعضهم أنّ هذه الآیة قد نزلت فی المدینة، إلّا أنّها وضعت فی هذه السّورة المکیة بأمر من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لهذا فی القرآن ما یشابهه.

لاتضاح الحقیقة یجب أن نتعرف أوّلا علی تفسیر الآیة الإجمالی، ثمّ نبحث عمن تتحدث عنه الآیة، و عمّا تستهدفه.

فی البدایة تقول الآیة: إنّهم لم یعرفوا اللّه معرفة صحیحة و أنکروا نزول کتاب سماوی علی أحد: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلی بَشَرٍ مِنْ شَیْءٍ.

فیأمر اللّه رسوله أن قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْکِتابَ الَّذِی جاءَ بِهِ مُوسی نُوراً وَ هُدیً لِلنَّاسِ

ذلک الکتاب الذی جعلتموه صحائف متناثرة، تظهرون منه ما ینفعکم و تخفون ما تظنونه یضرّکم: تَجْعَلُونَهُ قَراطِیسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ کَثِیراً.

إنّکم تتعلمون من هذا الکتاب السماوی أمورا کثیرة لم تکونوا أنتم و لا ءاباؤکم تعلمون عنها شیئا: وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُکُمْ

و فی ختام الآیة یؤمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یذکر اللّه و أن یترک أولئک فی أباطیلهم و عنادهم و لعبهم: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ

إذا کانت هذه الآیة قد نزلت فی المدینة و کان الیهود هم المعنیین بها، یکون المعنی أنّ جمعا من الیهود کانوا ینکرون نزول کتاب سماوی علی الأنبیاء.

و لکن هل یمکن أن ینکر الیهود- اتباع التّوراة- نزول کتاب سماوی؟ نعم، و سیزول عجبک إذا علمت المسألة التّالیة: لو أمعنا النظر فی العهد الجدید

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۵

(الإنجیل) و العهد القدیم (التّوراة و الکتب الملحقة بها) نجد أنّ کل هذه الکتب تفتقر إلی المسحة السماویة، أی أنّها لیست خطابا موجها من اللّه إلی البشر، بل إنّها مقولات وردت علی ألسنة تلامذة موسی و المسیح علیهما السّلام و أتباعهما علی شکل سرد لحوادث تاریخیة و سیر، و الظاهر أنّ الیهود و المسیحیین الیوم لا ینکرون ذلک، إذ أنّ حکایة موت موسی و عیسی و حوادث کثیرة أخری وقعت بعدهما وردت فی هذه الکتب، لا باعتبارها تنبؤات عن المستقبل، بل سردا لحوادث ماضیة، فهل یمکن لکتب مثل هذه أن تکون قد نزلت علی موسی و عیسی؟! کل ما فی الأمر أنّ المسیحیین و الیهود یعتقدون أنّ هذه الکتب قد کتبت بأیدی أناس عندهم أخبار عن الوحی، فاعتبروها کتبا مقدسة خالیة من الخطأ و یمکن الاعتماد علیها.

بناء علی هذا یتضح لنا لماذا کان هؤلاء ینتابهم العجب لدی سماعهم أسلوب القرآن بشکل خطاب من اللّه إلی النّبی و إلی عباد اللّه؟ و کما قرأنا فی سبب نزول هذه الآیة فإنّهم قد انتابهم العجب فسألوا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إن کان اللّه قد أنزل علیه- حقا- کتاب، ثمّ أنکروا هذا الأمر کلیا و نفوا أن یکون أی کتاب قد نزل علی أحد، حتی علی موسی.

غير أنّ اللّه يردّ عليهم قائلا: إنّكم- أنفسكم- تعتقدون أن ألواحا و مواضيع قد نزلت على موسى، أى إنّ الكتاب الذى بين أيديكم و ان لم يكن كتابا سماويا إلّا أنّكم تؤمنون- على الأقل- بأنّ شيئا مثل هذا قد نزل من قبل اللّه، و أنتم تظهرون قسما منه و تخفون كثيرا منه: و على ذلك فلا يبقى مجال للشك فى إمكان إنكار اليهود نزول كتاب سماوى.

أمّا إذا كانت الآية كسائر آيات هذه السّورة تخصّ المشركين، فيكون المعنى أنّهم أنكروا نزول أى كتاب سماوى لانكار و نفى دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن اللّه يبيّن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۶

لهم منطقيا أنّهم لا يستطيعون إنكار ذلك كليا بالنظر لنزول التّوراة على موسى، و أنّ المشركين- و إن لم يدينوا بدين اليهود- كانوا يعتبرون الأنبياء السابقين و إبراهيم، و موسى أيضا على أقوى احتمال- أنبياء فى عصورهم و أقاليمهم، لذلك فهم عند ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لجأوا إلى أهل الكتاب يبحثون عندهم فى كتبهم عن أمارات و دلائل تتنبأ بظهور هذا النّبى، فلو لم يكونوا يؤمنون بأنّ تلك الكتب نازلة من السماء، لما لجأوا إليها يطلبون ما طلبوا، لذلك فهم بعد أن سألوا اليهود، أظهروا ما كانت فيه مصلحتهم، و أخفوا ما عداه (كعلامات ظهور النّبى الجديد المذكورة فى تلك الكتب)، و على هذا يمكن تطبيق هذه الآية على أقوال مشركى مكّة أيضا.

لكن التّفسير الأوّل أقرب إلى سياق الآية و سبب النّزول و ما فيها من ضمائر.

ملاحظات:

هنا لا بدّ من الإشارة إلى بضع نقاط:

۱- «قراطيس» جمع «قرطاس» من أصل يونانى حسب قول بعضهم، و هو «ما يكتب فيه» كما يقول «الراغب» فى «مفرداته» و بناء على ذلك فإن الورق العادى و جلود الحيوانات و الأشجار و أمثالها التى كانت تستخدم فى الكتابة قديما، تنضوى تحت هذه الكلمة.

۲- قد يسأل سائل: لماذا تذم الآية اليهود كتابتهم الوحى الإلهى على القراطيس، و هل فى تلك ما يوجب الذم؟

و جوابا على ذلك نقول: إنّ الذم لم يكن لهذا السبب، إنّما السبب هو أنّهم كتبوه على قراطيس متفرقة بحيث يمكنهم أن يظهروا منه ما تقتضيه منافعهم، و أن يخفوا ما يؤدى إلى ضررهم.

۳- إنّ عبارة وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ فى الواقع إشارة إلى أنّ من يعرف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۷

اللّه معرفة صحيحة لا يمكن أن ينكر إرساله الهداة و المرشدين و معهم الكتب السماوية إلى البشر، لأنّ حكمة اللّه توجب:

أوّلا: أن يعين الإنسان فى مسيرته المليئة بالمنعطفات لبلوغ هدفه التكاملى الذى خلق من أجله و إلّا انتقض الهدف من الخلقة، و هذا الهدف لا يمكن تحقيقه بغير الوحى و الكتب السماوية و التعاليم السليمة من كل خطأ و سهو.

ثانيا: كيف يمكن لربوبية اللّه ذات الرحمة العامّة و الخاصّة أن تترك الإنسان وحيدا فى طريق سعادته الملىء بمختلف الموانع و العقبات و المتاهات، فلا يرسل إليه قائدا و مرشدا يحمل التعاليم الشاملة للأخذ بيده و توجيهه، و عليه فإن حكمته و رحمته توجبان إرسال الرسل و إنزال الكتب السماوية.

لا شك أن معرفة حقيقة الذات الالهية المقدسة و كنه صفاته غير ممكنة، و هذه الآية لا تقصد هذا الحدّ من معرفة اللّه، و إنّما تريد أن تقول: لو حصل الإنسان على المقدار الميسور من معرفة اللّه فلا يبقى شك بأن مثل هذا الربّ لا يمكن أن يترك عباده بدون هاد و دليل و كتاب سماوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۸

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۲]

اشارة

وَ هـذا كِتـابٌ أَنْزَلْنـاهُ مُبـارَكٌ مُصَـدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَـدَيْهِ وَ لِتُنْـذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَهـا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْـآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (۹۲)

التّفسير

تعقيبا على البحث الذى دار فى الآيات السابقة حول كتاب اليهود السـماوى، تشير هذه الآية إلى القرآن باعتباره كتابا سـماويا آخر، و الواقع أنّ ذكر التّوراة مقدمة لذكر القرآن لإزالة كل عجب و تخوف من نزول كتاب سـماوى على فرد من البشـر، فتبدأ بالقول: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ و هو كتاب «مبارك» لأنّه مصـدر كل خير و بركـة و صـلاح و تقـدم، ثمّ إنّه يؤكّـد الكتب التى نزلت قبله: مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ و المقصود من أنّ القرآن يصدق الكتب التى بين يديه هو أنّ جميع الإشارات و الإمارات التى وردت فيها تنطبق عليه.
و هكـذا نجـد علامتين على أحقّيـة القرآن وردتـا فى عبارتين: الأولى: وجود علامات فى الكتب السابقـة تخبر عنه، و الثّانيـة: محتوى القرآن نفسه الـذى يضم كـل خير و بركـة و سعادة، و بنـاء على ذلـك فصـدق القرآن يتجلى فى محتواه من جهـة، و فى المسـتندات التّأريخية من جهة أخرى.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۹
ثمّ يبيّن القرآن هدف نزوله و هو توجيه الإنذار و التحذير لأم القرى (مكّة) و الساكنين حولها و تنبيههم إلى مسئولياتهم و واجباتهم: وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها[۲۲۰].
«الإنذار» اخبار فيه تخويف من ترك الواجبات و المسؤوليات و هذا من أهم أهداف القرآن، خاصّة بالنسبة للطغاة المعاندين.
و فى الختام تقرر الآيـة أنّ الـذين يعتقـدون بيوم القيامة، يوم الحساب و الجزاء، سـيصدقون بهذا الكتاب، و يؤدون فريضة الصّـلاة و لا يفرطون فيها: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ

بحوث

اشارة

نلفت الانتباه هنا إلى النقاط التّالية:

۱- الإسلام دين عالمى

تبيّن آيات القرآن المختلفـة بما لا يـدع مجالا للشك أنّ الإسـلام دين عالمى، من ذلك: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ۲۲۱] و إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ ۲۲۲]. و قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً[۲۲۳] و غيرها كثير فى القرآن، و لكلّها تؤكّد هذه الحقيقة، و إنّه لمما يثير الانتباه أنّ معظم هذه الآيات قد نزلت فى مكّة يوم لم يكن الإسلام قد تخطى حدود تلك المدينة.

و لکن فیما یخص الآیة التی نحن بصددها، یظهر لنا السؤال التالی: إنّ الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۰

توجه الإنذار و الهدایة إلی ام القری و من حولها، فکیف ینسجم هذا مع القول بأنّ الإسلام عالمی؟

فی الحقیقة أنّ هذا الاعتراض جاء أیضا علی لسان الیهود و غیرهم من أتباع الأدیان الأخری ظانین أنّهم قد أصابوا من عالمیة الإسلام مقتلا، باعتبار أنّ الآیة تحدد مکانه بمنطقة خاصّة هی مکّة و أطرافها[۲۲۴].

الجواب:

یتّضح الجواب من هذا الاعتراض بالانتباه إلی نقطتین، بحیث ندرک أنّ هذه الآیة، فضلا عن کونها لا تتعارض مع عالمیة الإسلام، هی واحد من أدلة عالمیته أیضا:

القریة بلغة القرآن اسم لکل موضع یجتمع فیه الناس، سواء کان مدینة کبیرة أم قریة صغیرة، ففی سورة یوسف- مثلا- جاء علی لسان اخوة یوسف یخاطبون أباهم: وَ سْئَلِ الْقَرْیَةَ الَّتِی کُنَّا فِیها[۲۲۵] و نحن نعلم أنّهم کانوا قد رجعوا لتوهم من عاصمة مصر حیث حجز عزیز مصر أخاهم (بنیامین) کذلک نقرأ: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُری آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَیْهِمْ بَرَکاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ ۲۲۶]. بدیهی أنّ المقصود هنا لیس القری فی الأریاف، بل هو کل منطقة مسکونة فی العالم.

و من جهة أخری هناک روایات عدیدة تقول: إنّ الیابسة قد انتشرت من تحت الکعبة، و هو ما أطلق علیه اسم «دحو الأرض».

کما أنّنا نعلم أنّه فی البدایة هطلت أمطار غزیرة فغطّی الماء الکرة الأرضیة برمتها، ثمّ غاض الماء شیئا فشیئا و استقر فی المنخفضات، و ظهرت الیابسة من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۱

تحت الماء، و کانت مکّة أوّل نقطة یابسة ظهرت من تحت الماء، حسب الأحادیث الإسلامیة.

و کون مکّة لیست أعلی مکان علی الکرة الأرضیة فی الوقت الحاضر، لا یتعارض أبدا مع هذا القول، لأن مئات الملایین من السنین تفصلنا الیوم عن ذاک الزمان، و قد حدثت خلال ذلک تغیرات جغرافیة بدلت وجه الأرض کلیا، فبعض الجبال هبطت إلی أعماق البحار، و بعض أعماق البحار ارتفع فصار جبلا، و هذا ثابت فی علم التضاریس الأرضیة و الجغرافیة الطبیعیة.

أمّا کلمة «أم» فتعنی- کما سبق أن قلنا- الأصل و الأساس و المبدأ لکل شیء.

من کل هذا یتبیّن أنه إذا أطلق مکّة اسم «أم القری» فذلک یستند إلی أنّها کانت مبدأ ظهور الیابسة علی الأرض، «و من حولها» أی جمیع الناس الذین یسکنون الأرض برمتها.

و هذا ما تؤیده الآیات الأخری التی تؤکّد عالمیة الإسلام، و کذلک الرسائل الکثیرة التی بعث بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی رؤساء العالم، مثل کسری و قیصر، و قد جاء شرح ذلک فی المجلد الثانی من هذا التّفسیر.

۲- العلاقة بین الإیمان بالقرآن و الإیمان بالآخرة

تبیّن هذه الآیة: إنّ الذین یؤمنون بالآخرة یؤمنون أیضا بالقرآن، أی أنّهم یعلمون أن هذه الدنیا ما هی إلّا مقدمة لعالم الآخرة، و إنّها أشبه بالمزرعة أو المدرسة أو المتجر، و الوصول إلی ذلک الهدف الرفیع و الاستعداد لذلک الیوم لا یکون إلّا عن طریق مجموعة من القوانین و المناهج و الدساتیر و إرسال الأنبیاء.

بعبارة أخری، إنّ اللّه قد أرسل الإنسان إلی هذه الحیاة لیطوی مسیرته التکاملیة و لیصل إلی مستقره الأصلی فی العالم الآخر، و هذا الغرض ینتقض إذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۲

لم یرسل إلیه الأنبیاء و الکتب السماویة، من هنا یمکن أن نستنتج من الإیمان باللّه و المعاد، الإیمان بنبوة الأنبیاء و الکتب السماویة (تأمل بدقّة).

۳- أهمیة الصّلاة

نلاحظ فی هذه الآیة أنّها تشیر إلی الصّلاة من بین جمیع الفرائض الدینیة، و نعلم أنّ الصّلاة هی مظهر الارتباط باللّه، و لذلک کانت أرفع من جمیع العبادات منزلة، و یری بعضهم أنّه عند نزول هذه الآیة کانت العبادة الوحیدة المفروضة حتی ذلک الوقت هی الصّلاة[۲۲۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۳

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۹۳]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَوْ قالَ أُوحِیَ إِلَیَّ وَ لَمْ یُوحَ إِلَیْهِ شَیْءٌ وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَوْ تَری إِذِ الظَّالِمُونَ فِی غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِکَةُ باسِطُوا أَیْدِیهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما کُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ غَیْرَ الْحَقِّ وَ کُنْتُمْ عَنْ آیاتِهِ تَسْتَکْبِرُونَ (۹۳)

سبب النّزول

ثمّة روایات متعددة فی سبب نزول هذه الآیة وردت فی کتب الحدیث و التّفسیر، من ذلک أنّ الآیة نزلت بشأن شخص یسمی «عبد اللّه بن سعد» من کتاب الوحی، ثمّ خان فطرده رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فراح یزعم أنّه قادر علی قول مثل آیات القرآن، یقول جمع آخر من المفسّرین أنّ الآیة، أو قسما منها، نزلت بحق «مسیلمة الکذاب» الذی ادعی النبوّة، و لکن بالنظر لأنّ مسیلمة الکذاب ظهر فی أواخر حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هذه السورة مکّیة، فإنّ مؤیدی هذا التّفسیر یقولون: إنّ هذه الآیة نزلت فی المدینة، ثمّ أدخلت ضمن هذه السورة بأمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۴

علی کل حال هذه الآیة، مثل سائر آیات القرآن، نزلت فی ظروف خاصّة، و هی ذات محتوی عام یشمل کل من ادعی النبوة و أمثالهم.

التّفسیر

فی الآیات السابقة مرّت الإشارة إلی مزاعم الیهود الذین أنکروا نزول أی کتاب سماوی علی أحد، و فی هذه الآیة یدور الکلام علی اشخاص آخرین یقفون علی الطرف المعاکس تماما لأولئک، فیزعمون کذبا أن الوحی ینزل علیهم.

و تتناول الآیة ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففی البدایة تقول: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً.

و الجماعة الثّانية هم الذين يدعون النّبوة و نزول الوحى عليهم، فلا هم أنبياء، و لا نزل عليهم وحى: أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ.

و الجماعة الثّالثة هم الذين أنكروا نبوة نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أو زعموا ساخرين أنّهم يستطيعون أنّ يأتوا بمثل آيات القرآن، و هم فى ذلك كاذبون و لا قدرة لهم على ذلك: وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ

نعم، هؤلاء كلّهم ظالمون، بل أظلم الظالمين، لأنّهم يغلقون طريق الحق بوجه عباد اللّه و يضلونهم فى متاهات الضلال حائرين، و يحاربون قادة الحق، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن يدعى لنفسه القيادة الإلهية و ليست لديه صلاحية مثل هذا المقام.

على الرغم من أنّ الآية تخصّ أدعياء النبوة و الوحى، إلّا أنّ روحها تشمل كل من يدعى كذبا لنفسه مكانة ليس أهلا لها.

ثمّ تبيّن العقاب الأليم الذى ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: وَ لَوْ تَرى إِذِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۵

الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ۲۲۸] أى لو أنك- أيّها النّبى- رأيت هؤلاء الظالمين و هم يمرون بشدائد الموت و النزع الأخير، و ملائكة قبض الأرواح ما دين أيديهم نحوهم و يقولون لهم: هيا أخرجوا أرواحكم، لأدركت العذاب الذى ينزل بهم.

عندئذ تخبرهم ملائكة العذاب بأنّهم سينالون اليوم عذابا مذلا لأمرين:

الأوّل: إنّهم كذبوا على اللّه، و الآخر، إنّهم لم ينصاعوا لآياته: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ

ملاحظات:

ينبغى هنا ملاحظة النقاط التّالية:

۱- تعتبر الآية أدعياء النبوة و القادة المزيفين من أشد الظالمين، بل لا ظلم أشدّ من ظلمهم، لأنّهم يسرقون أفكار الناس و يهدمون عقائدهم و يغلقون بوجوههم أبواب السعادة و يحيلونهم إلى مستعمرين فكريا لهم.

۲- جملة باسِطُوا أَيْدِيهِمْ قد تعنى أنّ ملائكة قبض الأرواح تبسط أيديها إليهم استعدادا لقبض أرواحهم، و قد تعنى بسط أيديهم للبدء بتعذيبهم.

۳- أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ تعنى فى الواقع ضربا من التحقير تبديه الملائكة نحو هؤلاء الظالمين، و إلّا فإنّ إخراج الروح ليس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائكة، مثل ما يقال للمجرم عند إعدامه: مت! و لعل هذا التحقير يقابل تحقيرهم لآيات اللّه و أنبيائه و عباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۶

و فى الوقت نفسه تعتبر هذه الآية دليلا آخر على استقلال الروح و انفصالها عن الجسد، كما يستفاد من الآية أنّ تعذيب هؤلاء يبدأ منذ لحظة قبض أرواحهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۴]

اشارة

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۹۴)

سبب النّزول

جاء فی تفسير مجمع البيان و تفسير الطبری و تفسير الآلوسی إنّ مشركا اسمه النضر بن الحارث قال: إنّ اللاّت و العزى (و هما من أصنام العرب المشهورة) سوف يشفعان لی يوم القيامة، فنزلت هذه الآية جوابا له و لأمثاله.

التّفسير

الضّالون:

أشارت الآية السابقة إلى أحوال الظالمين و هم على شفا الموت، هنا فی هذه الآية تعتبر عن خطاب اللّه لهم عند الموت أو عند الورود إلى ساحة يوم القيامة.

فيبدأ بالقول بأنّهم يأتون يوم القيامة منفردين كنا خلقوا منفردين: وَ لَقَدْ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۸

جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

و الأموال التی وهبناها لكم و كنتم تستندون إليها فی حياتكم، قد خلفتموها وراءكم، و جئتم صفر الأيدى: وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ ۲۲۹].

و لا نرى معكم تلك الأصنام التی قلتم إنّها سوف تشفع لكم و ظننتم أنّها شريكة فی تعيين مصائركم وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ.

و لكن الواقع أنّ جمعكم قد تبدد، و تقطعت جميع الروابط بينكم: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ

و كل ما ظننتموه و ما كنتم تستندون إليه قد تلاشى و ضاع: وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

كان المشركون العرب يستندون فی حياتهم إلى أشياء ثلاثة: القبيلة أو العشيرة التی كانوا ينتمون إليها، و الأموال التی جمعوها لأنفسهم، و الأصنام التی اعتبروها شريكة للّه فی تقرير مصير الإنسان و شفيعة لهم عند اللّه، و الآية فی كل جملة من جملها الثلاث تشير إلى واحدة من هذه الأمور، و إلى أنّها عند الموت تودعه و تتركه وحيدا فريدا.

هنا ينبغی الالتفات إلى نقطتين:

۱- نظرا لمجیء هذه الآية فی أعقاب الآية السابقة التی تحدثت عن قيام الملائكة بقبض الأرواح عند الموت، و كذلك بالنظر إلى عبارة: وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ نفهم أنّ هذا الكلام يقال لهم عند الموت أيضا، و لكن من جانب اللّه، غير أنّ بعض الرّوايات تقول: إنّ هذا الخطاب يوجه إليهم يوم القيامة، على أی حال فإنّ الهدف لا يختلف فی الحالين.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۹

۲- على الرغم من نزول هذه الآية بشأن مشركی العرب، فهی ليست بالطبع مقصورة عليهم.

ففی ذلک الیوم تنفصم العری و تنفصل عن البشر کل الانشدادات المادیة و المعبودات الخیالیة المصطنعة و جمیع ما اصطنعوه لأنفسهم فی الحیاة الدنیا لیکون سندا لهم یستعینون به فی یوم بؤسهم لا یبقی سوی الشخص و عمله، و یزول کل ما عدا ذلک، أو یضل عنهم بحسب تعبیر القرآن و هو تعبیر جمیل یوحی بأنّ الشرکاء سیکونون إلی درجة من الصغر و الحقارة و الضیاع أنّهم لا یروا بالعین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۰

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۹۵ الی ۹۶]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوی یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَیِّتِ مِنَ الْحَیِّ ذلِکُمُ اللَّهُ فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ (۹۵) فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّیْلَ سَکَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ (۹۶)

التّفسیر

فالق الإصباح:

مرّة أخری یوجه القرآن الخطاب إلی المشرکین، و یشرح لهم دلائل التوحید فی عبارات جذابة و فی نماذج حیة من أسرار الکون و نظام الخلق و عجائبه.

فی الآیة الأولی یشیر إلی ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، و فی الآیة الثّانیة یشیر إلی ثلاثة من الظّواهر السماویة.

یقول القرآن الکریم أوّلا: إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوی

«الفلق» شقّ الشیء و إبانة بعضه عن بعض ۲۳۰].

و «الحب» و «الحبة» تقال لانواع الحبوب الغذائیة کالحنطة و الشعیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۱

و نحوهما من المطعومات التی تحصد، کما یقال ذلک لبروز الریاحین أیضا[۲۳۱].

و «النوی» من النّواة، قیل إنّه یخص نوی التمر، و لعل هذا یرجع إلی کثرة التمر فی بیئة العرب حتی کان العربی ینصرف ذهنه إلی نوی التمر إذا سمع هذه الکلمة.

و لننظر الآن إلی ما یمکن فی هذا التعبیر:

ینبغی أن نعلم أنّ أهم لحظة فی حیاة الحبّة و النّوی هی لحظة الفلق، و هی أشبه بلحظة ولادة الطفل و انتقاله من عالم إلی عالم آخر، إذ فی هذه اللحظة یحصل أهم تحول فی حیاته.

و ممّا یلفت الانتباه أنّ الحبّة و النّواة غالبا ما تکونان صلبتین، فنظرة إلی نوی التمر و الخوخ و أمثالهما، و إلی بعض الحبوب الصلبة، تکشف لنا أنّ تلک النطفة الحیاتیة التی هی فی الواقع صغیرة، محصنة بقلعة مستحکمة تحیط بها من کل جانب، و انّ ید الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصیة علی الاختراق خاصیة التسلیم و اللیونة أمام اختراق نطفة النبات، کما منحت النطفة قوة اندفاع تمکنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبتة بقامتها المدیدة، هذه حقّا حادثة عجیبة فی عالم النبات لذلک یشیر إلیها القرآن علی أنّها من دلائل التوحید.

ثمّ یقول: یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَیِّتِ مِنَ الْحَی

یتکرر هذا التعبیر کثیرا فی القرآن مشیرا إلی نظام الموت و الحیاة و تبدیل هذا بذاک، فمرّة تری الحیاة تنبعث من مواد جامدة لا روح فیها فی أعماق المحیطات و مجاهل الغابات و الصحاری، فیخلق من ترکیب مواد کل واحدة منها سم قاتل مواد حیویة، و أحیانا تری العکس، فبإجراء تغییر بسیط علی کائنات حیة قویة مفعمة بالحیاة تراها قد تحولت إلی کائن لا حیاة فیه.

إنّ موضوع الحیاة و الموت بالنسبة للکائنات الحیة من أعقد المسائل التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۲

لم تستطیع العلوم البشریة الوصول إلی کنه حقیقتها و رفع الستار عن أسرارها لتخطو إلی أعماق مجهولاتها، و لتعرف کیف یمکن لعناصر الطبیعة و موادها الجامدة أن تطفر طفرة عظیمة فتتحول إلی کائنات حیة.

قد یأتی ذلک الیوم الذی یستطیع فیه الإنسان أن یصنع کائنا حیا باستخدام الترکیبات الطبیعیة المختلفة و تحت ظروف معقدة خاصّة، و بطریقة ترکیب أجزاء مصنعة، کما یفعلون بالمکائن و الأجهزة، غیر أن قدرة البشر «المحتملة» فی المستقبل لا تستطیع أن تقلل من أهمیة مسألة الحیاة و تعقیداتها التی تبدأ من المبدع القادر.

لذلک نجد القرآن- و فی معرض إثبات وجود اللّه- کثیرا ما یکرر هذا الموضوع، کما یستدل أنبیاء عظام کإبراهیم و موسی- علی وجود مبدأ قادر حکیم بمسألة الحیاة و الموت لإقناع جبابرة طغاة مثل نمرود و فرعون.

یقول إبراهیم لنمرود: رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ ۲۳۲]، و یقول موسی لفرعون:

وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّی ۲۳۳].

ینبغی ألّا ننسی أنّ ظهور الحی من المیت لا یختص فی بدایة ظهور الحیاة علی الأرض فقط، بل یحدث هذا فی کل وقت بانجذاب الماء و المواد الأخری إلی خلایا الکائنات الحیة، فتکتسی کائنات غیر حیة بلباس الحیاة، و علیه فإنّ القانون الطبیعی السائد الیوم و القائل بأنّه لا یمکن فی الظروف الحالیة التی تسود الأرض لأی کائن غیر حی أن یتحول إلی کائن حی، و حیثما وجد کائن حی فثمّة بذرة حیة وجد منها هو قانون لا یتعارض مع ما قلناه، (فتأمل بدقّة)! و یستفاد من روایات أئمّة أهل البیت علیهم السّلام فی تفسیر هذه الآیة و الآیات المشابهة لها، أنّ ذلک یشمل الحیاة و الموت المادیین کما یشمل الحیاة و الموت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۳

المعنویین أیضا[۲۳۴] فثمّة مؤمنون ولدوا لآباء غیر مؤمنین، و آخرون مفسدون و أشرار ولدوا لآباء من المتقین الأخیار، ناقضین قانون الوراثة بإرادتهم و اختیارهم.

و هذا بذاته دلیل آخر علی عظمة الخلاق الذی أعطی الإنسان هذه القدرة و الإرادة.

النقطة الأخری التی ینبغی الالتفات إلیها هی أنّ «یخرج» الفعل المضارع و «مخرج» اسم الفاعل، یدلان علی الاستمرار، أی أنّ نظام ظهور الحی من المیت و ظهور المیت من الحی نظام دائم و عام فی عالم الخلق.

و فی ختام الآیة توکید للموضوع: ذلِکُمُ اللَّهُ فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ أی هذا هو ربّکم و هذه هی قدرته و علمه اللامتناهی، فکیف بعد هذا تنحرفون عن الحق و تمیلون إلی الباطل؟ ذلِکُمُ اللَّهُ فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ و فی الآیة الثّانیة یشیر القرآن إلی ثلاث نعم سماویة: فیقول أولا: فالِقُ الْإِصْباحِ و ذکرنا، أنّ «الفلق» هو شقّ الشیء و إبانة بعضه عن بعض، و «الإصباح» و «الصبح» بمعنی واحد.

إنّه تعبیر رائع، فظلام اللیل قد شبه بالستارة السمیکة التی یشقها نور الصباح شقا، و هذه الحالة تنطق علی الصبح الصادق و الصبح الکاذب کلیهما، لأنّ الصبح الکاذب هو الضوء الخفیف الذی یظهر فی آخر اللیل عند المشرق علی هیئة عمود، و کأنّه شق یبدأ من الشرق نحو الغرب فی قبة السماء المظلمة، و الصبح الصادق هو الذی یلی ذلک علی هیئة شریط أبیض لامع جمیل یظهر عند امتداد الأفق الشرقی، و کأنّه یشق عباب اللیل الأسود من الأسفل ممتدا من الجنوب إلی الشمال، متقدما فی کل الأطراف حتی یغطی السماء

کلها شیئا فشیئا.

کثیرا ما یشیر القرآن إلی نعمتی النّور و الظلام و اللیل و النهار، و لکنّه هنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۴

یتناول «طلوع الصبح» کنعمة من نعم اللّه الکبری، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جو الأرض، ذلک الغلاف الضخم من الهواء الذی یحیط بالأرض، فلو کانت الأرض- مثل القمر- عدیمة الجو، لما کان هناک «طلوعان» و لا «فلق» و لا «إصباح»، و لا «غسق» و لا «شفق» بل کانت الشمس تبزغ فجأة، بدون أیة مقدمات و لسطع نورها فی العیون التی اعتادت علی ظلام اللیل و لم تکد تفارقه، و عند الغروب تختفی فجأة، و تعم الظلمة الموحشة فی لحظة واحدة کل الأرجاء، غیر أنّ الجو الموجود حول الأرض و المؤدی إلی حصول فترة فاصلة بین ظلام اللیل و ضیاء النهار عند طلوع الشمس و غروبها یهیئ الإنسان تدریجیا لتقبل هذین الاختلافین المتضادین و الانتقال من الظلمة إلی النّور، و من النّور إلی الظلمة، شیئا فشیئا، بحیث إنّه یستطیع أن یتحمل کل منهما، فنحن نشعر بالانزعاج إذا کنّا فی غرفة مضاءة و انطفأت الأنوار فجأة و عم الظلام، ثمّ إذا استمر الظلام ساعة، و عاد النّور مرّة أخری فجأة، عادت معها حالة الانزعاج بسبب سطوع الضوء المفاجئ الذی یؤلم العین و یجعلها غیر قادرة علی رؤیة الأشیاء، و إذا ما تکرر هذا الأمر فإنّه لا شک سیؤذی العین، غیر أنّ فالِقُ الْإِصْباحِ قد جنب الإنسان هذا الأذی بطریقة رائعة[۲۳۵].

و لکیلا یظن أحد أنّ فلق الصبح دلیل علی أنّ ظلال اللیل أمر غیر مطلوب و أنّه عقاب أو سلب نعمة، یبادر القرآن إلی القول: وَ جَعَلَ اللَّیْلَ سَکَناً.

من الأمور المسلم بها أنّ الإنسان یمیل خلال انتشار النّور و الضیاء إلی العمل و بذل الجهد، و یتجه الدم نحو سطح الجسم و تتهیأ العضلات للفعالیة و النشاط، و لذلک لا یکون النوم فی الضوء مریحا، بل یکون أعمق و أکثر راحة کلما کان الظلام أشد، حیث یتجه الدم فیه نحو الداخل، و تدخل الخلایا عموما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۵

فی نوع من السکون و الراحة، لذلک نجد فی الطبیعة أنّ النوم فی اللیل لا یقتصر علی الحیوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام فی اللیل أیضا، و عند بزوغ خیوط الصباح الأولی تشرع بفعالیتها و نشاطها، بعکس الإنسان فی هذا العصر الآلی، فهو یبقی مستیقظا إلی ما بعد منتصف اللیل، ثمّ یظل نائما حتی بعد ساعات من طلوع الشمس، فیفقد بذلک نشاطه و سلامته.

فی الأحادیث الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام نجد التأکید علی ما ینسجم مع هذا التنظیم، من ذلک ما

جاء فی نهج البلاغة عن الإمام علی علیه السّلام أنّه قال یوصی أحد قواده «... و لا تسر أوّل اللیل فإنّ اللّه جعله سکنا و قدره مقاما لا ضعنا، فارح فیه بدنک و روح ظهرک»[۲۳۶].

و

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «تزوج باللیل فإنّه جعل اللیل سکنا»[۲۳۷].

و

فی کتاب الکافی عن الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام أنّه کان یأمر بعدم ذبح الذبائح فی اللیل و قبل طلوع الفجر، و کان یقول: «إنّ اللّه جعل اللیل سکنا لکل شیء»[۲۳۸].

ثمّ یشیر اللّه تعالی إلی الثالثة من نعمه و دلائل عظمته بجعل الشمس و القمر وسیلة للحساب: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً.

«الحسبان» بمعنی الحساب، و لعل القصد منه أنّ الدوران المنظم لهاتین الکرتین السماویتین و سیرهما الدائب (المقصود طبعا حرکتها فی أنظارنا و هی الناشئة عن حرکة الأرض) عون لنا علی وضع مناهجنا الحیاتیة المختلفة وفق مواعید محسوبة، کما ذکرنا فی التّفسیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۶

يرى بعض المفسّرين أنّ الآية تريد أن تقول إن هاتين الكرتين السماويتين تتحركان فى السماء وفق حساب و برنامج و نظام.

و عليه فهى فى الحالة الأولى إشارة إلى إحدى نعم اللّه على الإنسان، و فى الحالة الثّانية إشارة إلى واحد من أدلة التوحيد و إثبات وجود الخالق، و لعلها إشارة إلى كلتيهما.

على كل حال، إنّه لموضوع مهم جدّا أن تكون الأرض منذ ملايين السنين تدور حول الشمس و القمر يدور حول الأرض، و بذلك تنتقل الشمس فى أنظارنا من برج إلى برج بين الأبراج الفلكية الاثنتى عشرة، و القمر يدور فى حركته المنتظمة من الهلال حتى المحاق، أنّ حساب هذا الدوران من الدقة و الضبط بحيث إنّه لا يتقدم و لا يتأخر لحظة واحدة، و لو لاحظنا أنّ الأرض تدور حول الشمس فى مدار بيضوى معدل شعاعه ۱۵۰- مليون كيلومتر ضمن جاذبية الشمس العظيمة، و القمر الذى يدور كل شهر حول الأرض فى مدار شبه دائرة شعاعه نحو ۳۷۴ ألف كيلومتر و لا يخرج من جاذبية الأرض العظيمة، فهو دائم الانجذاب نحوها، عندئذ يمكن أن ندرك مدى التعادل الدقيق بين قوة الجذب بين هذه الأجرام السماوية من جهة، و القوة الطاردة عن مراكزها (القوة المركزية) من جهة أخرى، بحيث لا يمكن أنّ تتوقف لحظة واحدة أو تختلف قيد شعرة.

و هذا ما لا يمكن أن يكون إلّا فى ظل علم و قدرة لا نهائيتين يضعان تخطيطه و ينفذانه بدقّة، لذلك تنتهى الآية بقولها: ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۷]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۹۷)

التّفسير

بعد شرح نظام دوران الشمس و القمر فى الآية السابقة، تشير هذه الآية إلى نعمة أخرى من نعم اللّه على البشر، فجعل النجوم ليهتدى بها الإنسان فى ليالى البر و البحر: وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ.

و تختتم الآية بالقول بأنّ اللّه قد بين آياته لأهل الفكر و الفهم و الإدراك: و قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

منذ آلاف السنين و الإنسان يعرف النجوم فى السماء و نظامها، و على الرغم من تقدم البشر فى هذا المضمار تقدما كبيرا، فإنّه ما يزال يتابع وضع النجوم قليلا أو كثيرا، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الاتجاه فى الأسفار البرية و البحرية، و على الأخص فى المحيطات الواسعة التى كانت تخلو من كل إمارة تشير إلى الاتجاه قبل اختراع الأسطرلاب.

إنّ النجوم هى التى هدت ملايين البشر و أنقذتهم من الغرق و أوصلتهم إلى بر السلامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۸

لو تطلعنا إلى السماء عدّة ليال متوالية لانكشف لنا أنّ مواضع النجوم فى السماء متناسقة فى كل مكان، و كأنّها حبات لؤلؤ خيطت على قماش أسود، و إنّ هذا القماش يسحب باستمرار من الشرق إلى الغرب، و كلها تتحرك معه و تدور حول محور الأرض دون أن تتغير الفواصل بينها، إنّ الاستثناء الوحيد فى هذا النظام هو عدد من الكواكب التى تسمى بالكواكب السيارة لها حركات مستقلة و خاصّة، و عددها ثمانية: خمسة منها ترى بالعين المجرّدة، و هى (عطارد و الزهرة، و زحل، و المريخ و المشترى) و ثلاثة لا ترى إلّا بالتلسكوب و هى (أورانوس و نبتون و پلوتو) بالإضافة إلى كوكب الأرض التى تجعل المجموع تسعة.

و لعل إنسان ما قبل التّأريخ كان يعرف شيئا عن «الثوابت» و «السيارات» لأنّه لم يكن هناك ما يمكن أن يجلب انتباهه أكثر من السماء المرصعة بالنجوم فى ليلة ظلماء، فلا يستبعد أن يكون هو أيضا قد استخدم النجوم فى الاستهداء و معرفة الاتجاه.

يستفاد من بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ لهذه الآية تفسيرا آخر، و هو أنّ المقصود بالنجوم القادة الإلهيين و الهداة إلى طريق السعادة، أى الأئمّة الذين يهتدى بهم الناس فى ظلام الحياة فينجون من الضياع، و سبق أن قلنا أنّ هذه التفاسير المعنوية لا تتنافى مع التفاسير الظاهرية، و من الممكن أن تقصد الآية كلا التفسيرين ۲۳۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۹۸ الى ۹۹]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (۹۸) وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِی ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۹۹)

التّفسير

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد و معرفة اللّه، و الوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان و يسيح به فى آفاق العالم البعيدة و قد يسير به فى داخل ذاته و يبيّن له آثار اللّه فى جسمه و روحه، فيتيح له أن يرى اللّه فى كل مكان.

فيبدأ بالقول: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ.

أى أنّكم، على اختلاف ملامحكم و أذواقكم و أفكاركم و التباين الكبير فى مختلف جوانب حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، و هذا دليل على منتهى عظمة الخالق و قدرته التى أوجدت من المثال الأوّل كل هذه الوجوه المتباينة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۰

و جدير بالملاحظة أنّ هذه الآية تعبر عن خلق الإنسان بالإنشاء، و الكلمة لغويا تعنى الإيجاد و الإبداع مع التربية، أى أنّ اللّه قد خلقكم و تعهد بتربيتكم، و من الواضح أنّ الخالق الذى يخلق شيئا ثمّ يهمله لا يكون قد أبدى قدرة فائقة، و لكنّه إذا استمر فى العناية بمخلوقاته و حمايتها، و لم يغفل عن تربيتها لحظة واحدة، عندئذ يكون قد أظهر حقّا عظمته وسعة رحمته.

بهذه المناسبة ينبغى ألا نتوهّم من قراءة هذه الآية، أنّ أمّنا الأولى حواء قد خلقت من آدم (كما جاء فى الفصل الثّانى من سفر التكوين من التّوراة)، و لكن آدم و حواء خلقا من تراب واحد، و كلاهما من جنس واحد و نوع واحد، لذلك قال: إنّهما خلقا من نفس واحدة، و قد بحثنا هذا الموضوع فى بداية تفسير سورة النساء.

ثمّ يقول: إنّ فريقا من البشر «مستقر» و فريقا آخر «مستودع» فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ

«المستقر» أصله من «القر» (بضم القاف) بمعنى البرد، و يقتضى السكون و التوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و «مستودع» من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر و الوديعة هى التى يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضح من هذا الكلام أنّ الآية تعنى أنّ الناس بعض «مستقر» أى ثابت، و بعض «مستودع» أى غير ثابت، أمّا المقصود من هذين التعبيرين، فالكلام كثير بين المفسّرين، و بعض التفاسير تبدو أقرب إلى الآية كما أنّها لا تتعارض فيما بينها.

من هذه التفاسير القول بأنّ «مستقر» صفة الذين كمل خلقهم و دخلوا «مستقر الرحم» أم مستقر وجه الأرض، و «المستودع» صفة الذين لم يكتمل خلقهم بعد و إنّما هو ما يزالون نطفا فى أصلاب آبائهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۱

تفسير آخر يقول: إنّ «مستقر» إشارة إلى روح الإنسان الثابتة و المستقرة، و «مستودع» إشارة إلى جسم الإنسان الفانى غير الثابت.

و قد جاء فى بعض الرّوايات تفسير معنوى بهذين التعبيرين، و هو أنّ «مستقر» تعنى الذين لهم إيمان ثابت «و مستودع» تعنى من لم يستقر إيمانه ۲۴۰].

و ثمّة احتمال أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الجزئين الأولين فى تركيب نطفة الإنسان، إنّ النطفة- كما نعلم- تتركب من جزئين: الأوّل هو «البويضة» من الأنثى، و الثانى هو «الحيمن» أو «المنى» من الذكر، أنّ البويضة فى رحم الأنثى تكان تكون مستقر، و لكن حيمن الذكر حيوان حى يتحرك بسرعة نحوها، و ما أن يصل أوّل حيمن إلى البويضة حتى يمتزج بها و «يخصبها» و يصد (الحيامن) الأخرى، و من هذين الجزئين تتكون بذرة الإنسان الأولى.

و فى ختام الآية يعود فيقول: قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ

عند الرجوع إلى كتب اللغة يتبيّن لنا أنّ «الفقه» ليس كل معرفة أو فهم، بل هو التوصل إلى علم غائب بعلم حاضر[۲۴۱]، و بناء على ذلك فالهدف من التمعن فى خلق الإنسان و اختلاف أشكاله و ألوانه، هو أن يتوصل المرء المدقق من معرفة الخلق إلى معرفة الخالق.

الآية الثانية هى آخر آية فى هذه المجموعة التى تكشف لنا عن عجائب عالم الخلق و تهدينا إلى معرفة اللّه بمعرفة مخلوقاته.

فى البداية تشير الآية إلى واحدة من أهم نعم اللّه التى يمكن أن تعتبر النعمة الأم و أصل النعم الأخرى، و هى ظهور النباتات و نموها بفضل النعمة التى نزلت من السماء: وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً.

و إنّما قال (من السماء) لأنّ سماء كل شىء أعلاه، فكل ما فى الأرض من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۲

مياه العيون و الآبار و الأنهار و القنوات و غيرها منشؤها الأمطار من السماء، و قلّة الأمطار تؤثر فى كمية المياه فى تلك المصادر كلها، و إذا استمر الجفاف جفّت تلك المنابع، أيضا.

ثمّ تشير إلى أثر نزول الأمطار البارز: فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَیْءٍ.

يرى المفسّرون احتمالين فى المقصود من نَباتَ كُلِّ شَیْءٍ.

الأوّل: إنّ المقصود من ذلك كل أنواع النباتات و أصنافها التى تسقى من ماء واحد، و تنبت فى أرض واحدة و تتغذى من تربة واحدة، و هذه واحدة من عجائب الخلق، كيف تخرج كل هذه الأصناف من النباتات بأشكالها و ألوانها و أثمارها المختلفة و المتباينة أحيانا من أرض واحدة و ماء واحد! و الاحتمال الثّانى: هو أنّ النباتات يحتاج إليها كل مخلوق آخر من حشرات و طيور و حيوانات فى البحر و البر، و انّه لمن العجيب أنّ اللّه تعالى يخرج من أرض واحدة و ماء واحد الغذاء الذى يحتاجه كل هؤلاء، و هذا من روائع الأعمال المعجزة كأنّ يستطيع أحد أن يصنع من مادة معينة فى المطبخ آلاف الأنواع من الأطعمة لآلاف الأذواق و الأمزجة.

و الأعجب من كل هذا أنّ نباتات الصحراء و اليابسة ليست وحدها التى تنمو ببركة ماء المطر، بل إنّ النباتات المائية الصغيرة التى تطفو على سطح البحر و تكون غذاء للأسماك تنمو بأشعة الشمس و قطرات المطر.

و لا أنسى ما قاله أحد سكّان المدن الساحلية و هو يشكو قلّة الصيد فى البحر، و يذكر سبب ذلك بأنّه الجفاف و قلّة نزول المطر، فكان يعتقد أنّ قطرات المطر فى البحار أشد تأثيرا منها فى اليابسة.

ثمّ تشرح الآية ذلك و تضرب مثلا- ببعض النباتات التى تنمو بفضل الماء، فتذكر أنّ اللّه يخرج بالماء سيقان النباتات الخضر من الأرض، و من تلك الحبّة الصلبة يخلق الساق الأخضر الطرى اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۳

فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً[۲۴۲].

و من ذلک الساق الأخضر أخرجنا الحبّ متراصفا منظما: نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراکِباً[۲۴۳].

و کـذلک بالماء نخرج من النخل طلعا مغلقا، ثمّ یتشـقق فتخرج الاعذاق بخیوطها الرفیعة الجمیلة تحمل حبات التمر، فتتدلی من ثقلها: وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِیَةٌ.

«الطلع» هو عذق التمر قبل أن ینفتح غلافه الأخضر، و إذ ینفتح الطلع تخرج منه أغصان العذق الرفیعة، و هی القنوان و مفردها قنو.

و «دانیة» أی قریبة، و قد یکون ذلک إشارة إلی قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلی أنّها تمیل نحو الأرض لثقلها.

و کذلک بساتین فیها أنواع الأثمار و الفواکه: وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّیْتُونَ وَ الرُّمَّانَ

ثمّ تشیر الآیة إلی واحدة أخری من روائع الخلق فی هذه الأشجار و الأثمار، فتقول: مُشْتَبِهاً وَ غَیْرَ مُتَشابِهٍ

انظر تفسیر الآیة (۱۴۱) من هذه السورة فی شرح المتشابه و غیر المتشابه للزّیتون و الرّمان ۲۴۴].

إنّ شـجرتی الرمان و الزیتون متشابهتان من حیث الشـکل الخارجی و تکوین الأغصان و هیئة الأوراق تشابها کبیرا، مع أنّهما من حیث الثمر و طعمه و فوائـده مختلفتـان، ففی الزیتون مادة زیتیـة قویـة الأثر، و فی الرمان مادة حامضـیة أو سـکریة، فهما متباینان تماما، و مع ذلک فقد تزرع الشجرتان فی أرض واحدة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۴

و تشربان من ماء واحد، فهما متشابهان و غیر متشابهین فی آن واحد.

و من المحتمل أنّ تکون الإشارة إلی أنواع مختلفة من أشـجار الفاکهة التی یتشابه بعضـها فی الشـجر و فی الثمر، و یختلف بعضها عن الآخر فی ذلـک، (أی أنّ کـل واحـدة من هـاتین الصـفتین تختص بمجموعـة من الأشـجار و الأثمـار، أمّا حسب التّفسـیر الأوّل، فإنّ الصفتین لشیء واحد).

ثمّ ترکز الآیة من بین مجموع اجزاء شجرة علی ثمرة الشجرة و علی ترکیب الثمرة إذا أثمرت، و کذلک علی نضج الثمرة إذا نضجت، ففیها دلائل واضحة علی قدرة اللّه و حکمته للمؤمنین من الناس: انْظُرُوا إِلی ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ یَنْعِهِ إِنَّ فِی ذلِکُمْ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ

ما نقرؤه الیوم فی علم النبات عن کیفیـة طلوع الثمرة و نضـجها یکشف لنا عن الأهمیة الخاصّة التی یولیها القرآن للأثمار، إذ إنّ ظهور الثمرة فی عالم النبات أشـبه بولادة الأبناء فی عالم الحیوان، فنطفة الذکر فی النبات تخرج من أکیاس خاصّة بطرق مختلفة (کالریاح أو الحیوانات) و تحط علی القسم الأنثوی فی النبات، و بعـد التلقیـح و الترکیب تتشـکل البیضـة الملقحـة الأولی، و تحیط بها مواد غذائیة مشابهـة لترکیبها، أنّ هـذه المواد الغذائیة تختلف من حیث الترکیب و کذلک من حیث الطعم و الخواص الغذائیة و الطبیة. فقد تکون ثمرة (مثل العنب و الرمان) فیها مئات من الحبّ، کل حبّة منها تعتبر جنینا و بذرة لشجرة أخری، و لها ترکیب معقد عجیب.

إنّ شـرح بنیـة الأثمار و المواد الغذائیة و الطبیة خارج عن نطاق هذا البحث، و لکن من الحسن أنّ نضـرب مثلا بثمرة الرمان التی أشار إلیها القرآن علی وجه الخصوص فی هذه الآیة.

إذا شـققنا رمانة و أخذنا إحدی حباتها نظرنا خلالها باتجاه الشمس أو مصدر ضوء آخر نجدها تتألف من أقسام أصغر، و کأنّها قواریر صغیرة مملوءة بماء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۵

الرّمان قد رصـفت الواحدة إلی جنب الأخری. ففی حبّة الرمان الواحدة قد تکون المئات من هذه القواریر الصغیرة جدا، یجمع أطرافها غشـاء رقیق هو غشاء حبّـة الرمان الشـفاف، ثمّ لکی یکون هـذا التغلیف أکمل و أمتن و أبعـد عن الخطر رکّب عـدد من الحبات علی قاعـدة فی نظام معین، و لفت فی غلاف أبیض سـمیک بعض الشـیء، و بعـد ذلک یأتی القشـر الخارجی للرمانة، یلف الجمیع لیحول

دون نفوذ الهواء و الجراثیم، و لمقاومة الضربات و لتقلیل تبخر ماء الرمان فی الحبات إلی أقل حدّ ممکن.

إنّ هذا الترتیب فی التغلیف لا یقتصر علی الرمان، فهناک فواکه أخری- مثل البرتقال و اللیمون- لها تغلیف مماثل، أمّا فی الأعناب و الرمان فالتغلیف أدق و ألطف.

و لعل الإنسان حذا حذو هذا التغلیف عند ما أراد نقل السوائل من مکان إلی مکان، فهو یصف القنانی الصغیرة فی علبة و یضع بینها مادة لینة، ثمّ یضع العلب الصغیرة فی علب أکبر و یحمل مجموعها إلی حیث یرید.

و أعجب من ذلک استقرار حبات الرمان علی قواعدها الداخلیة و أخذ کل منها حصتها من الماء و الغذاء و هذا کله ممّا نراه بالعین، و لو وضعنا ذرات هذه الثمرة تحت المجهر لرأینا عالما صاخبا و تراکیب عجیبة مدهشة محسوبة بأدق حساب.

فکیف یمکن لعین باحثة عن الحقیقة أن تنظر إلی هذه الثمرة ثمّ تقول: إنّ صانعها لا- یملک علما و لا معرفة!! إنّ القرآن إذ یقول انْظُرُوا إنّما یرید هذه النظرة الدقیقة إلی هذا القسم من الثمرة للوصول إلی هذه الحقائق.

هذا من جهة، و من جهة أخری فإن المراحل المتعددة التی تمر بها الثمرة منذ تولّدها حتی نضجها تثیر الانتباه، لأنّ «المختبرات» الداخلیة فی الثمرة لا تنفک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۶

عن العمل فی تغییر ترکیبها الکیمیاوی إلی أن تصل إلی المرحلة النهائیة و یثبت ترکیبها الکیمیاوی النهائی، أنّ کل مرحلة من هذه المراحل دلیل علی عظمة الخالق و قدرته.

و لکن لا- بدّ من القول- بحسب تعبیر القرآن- إنّ المؤمنین الذین یمعنون النظر فی هذه الأمور هم الذین یرون هذه الحقائق، و إلّا فعین العناد و المکابرة و الإهمال و التساهل لا یمکن أن تری أدنی حقیقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۷

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۰۰ الی ۱۰۳]

اشارة

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَکاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِینَ وَ بَناتٍ بِغَیْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یَصِفُونَ (۱۰۰) بَدِیعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّی یَکُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۰۱) ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (۱۰۲) لا تُدْرِکُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ یُدْرِکُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ (۱۰۳)

التّفسیر

خالق کل شیء:

هذه الآیات تشیر إلی جانب من العقائد السقیمة و الخرافات التی یؤمن بها المشرکون و أصحاب المذاهب الباطلة، و ترد علیهم بالمنطق.

فأوّلا: قالوا: إنّ للّه شرکاء من الجن وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَکاءَ الْجِنَ

فیما یتعلق بالجن، هل المقصود بهم هو المعنی اللغوی الذی یفید کل کائن غیر مرئی و مخفی عن حس الإنسان، أم هم طائفة الجن التی یرد ذکرها مرارا فی القرآن و التی سنشیر إلیها قریبا؟ للمفسرین فی هذا احتمالان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۸

علی الاحتمال الأوّل قد تکون الآیة إشارة إلی الذین کانوا یعبدون الملائکة أو مخلوقات غیر مرئیة.

و علی الاحتمال الثّانی قد تکون الإشارة إلی الذین کانوا یعتبرون الجن شرکاء للّه أو زوجات له.

یقول الکلبی فی کتاب «الأصنام»: إنّ إحدی الطوائف العربیة، و تدعی «بنو ملیح» و هی إحدی أفخاذ قبیلة «خزاعة» کانت تعبد الجن ۲۴۵]، کما یقال إنّ عبادة الجن و الاعتقاد بالوهیتها کانت منتشرة بین مذاهب الیونان الخرافیة و فی الهند[۲۴۶].

و یستدل من الآیة (۱۵۸) من سورة الصافات: وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً علی أنّه کان بین العرب من یری بین اللّه و الجن نسبا و قرابة، و یذکر بعض المفسّرین أنّ قریشا کانت تعتقد أنّ اللّه قد تزوج الجن، فکان الملائکة ثمرة ذلک الزواج ۲۴۷].

فینکر الإسلام علیهم ذلک، إذ کیف یمکن ذلک و هو الذی خلق الجن:

وَ خَلَقَهُمْ أی کیف یمکن أن یکون المخلوق شریکا للخالق، لأنّ الشرکة دلیل التماثل و التساوی، مع أنّ المخلوق لا یمکن أن یکون فی مصاف خالقه أبدا! الخرافة الأخری هی قولهم جهلا- إنّ للّه بنین و بنات: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِینَ وَ بَناتٍ بِغَیْرِ عِلْمٍ

أفضل دلیل علی أنّ هذه العقائد لیست سوی خرافة، هو أنّها تصدر عنهم بِغَیْرِ عِلْمٍ أی أنّهم لا یملکون أی دلیل علی هذه الأوهام.

من الملاحظ أنّ القرآن استعمل لفظة «خرقوا» من الخرق، و هو تمزیق الشیء بغیر رویة و لا حساب، و هی فی النقطة المقابلة تماما «للخلق» القائم علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۹

الحساب، هاتان اللفظتان: «الخلق و الخرق» قد تستعملان فی حالات الکذب و الاختلاق، مع اختلاف بینهما هو أن (الخلق و الاختلاق) تستعمل فی الأکاذیب المدروسة و (الخرق و الاختراق) فیما لا حساب فیه من الکذب.

أی أنّهم اختلقوا تلک الأکاذیب دون أن یدرسوا جوانب الموضوع و بدون أن یعدوا له ما یلزم من الأمور.

أمّا الطوائف التی کانت تنسب للّه البنین، فإنّ القرآن یذکر فی آیات أخری اسم طائفتین من هؤلاء:

الأولی: هم المسیحیون الذین قالوا: إنّ عیسی ابن اللّه.

و الأخری: هم الیهود الذین قالوا: عزیر ابن اللّه.

یستفاد من الآیة (۳۰) من سورة التوبة، و ممّا توصل إلیه المحققون عن دراسة الجذور المشترکة بین المسیحیة و البوذیة، و علی الأخص فی موضوع التثلیث، أنّ المسیحیین و الیهود لیسوا وحدهم الذین نسبوا ابنا للّه، بل کان هذا موجودا فی المعتقدات الخرافیة القدیمة.

أمّا بشأن نسبة بنات للّه، فالقرآن نفسه یوضح ذلک فی آیات أخری:

وَ جَعَلُوا الْمَلائِکَةَ الَّذِینَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً[۲۴۸].

و کما سبقت الإشارة إلیه، جاء فی التفاسیر و التواریخ إنّ قریشا کانت تری الملائکة بنات اللّه من زواجه بالجن.

و القرآن یرفض تماما فی نهایة الآیة کل هذه الخرافات التی لا أساس لها، و بعبارة حاسمة قاطعة: سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یَصِفُونَ

و الآیة التّالیة ترد علی تلک العقائد الخرافیة فتؤکّد أنّ اللّه هو ذلک الذی أبدع خلق السموات و الأرض: بَدِیعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

هل هناک غیر اللّه من فعل ذلک أو یستطیع فعله کیما یکون شریکا له فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۰

عبادته؟ کلا، الجمیع مخلوقاته و یطیعون أمره و محتاجون إلیه.

ثمّ کیف یمکن أن یکون له أبناء دون أن تکون له زوجة؟! أَنَّی یَکُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ صاحِبَةٌ.

و ما حاجته إلی زوجة؟ ثمّ من التی تکون زوجته و هم جمیعا مخلوقاته؟

و فضلا عن ذلک کلّه أنّ ذاته القدسیة منزهة عن کل الصفات الجسمانیة، بینما الحاجة إلی زوجة و أبناء من الصفات الجسمانیة المادیة.

و مرّة أخری تؤکّد الآیة مقامه باعتباره خالقا لکل شیء، و محیطا بکل شیء:

وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ

الآیة الثّالثة تؤکّد علی سبیل الاستنتاج من کل ما سبق من ذکر خالقیة اللّه لکل شیء، و إبداعه السموات و الأرض و إیجادها، و کونه منزها عن الصفات و العوارض الجسمیة و عن الحاجة إلی الزوجة و الأبناء و إحاطته العلمیة بکل شیء: ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ فَاعْبُدُوهُ فلا یستحق العبودیة غیره.

و لکی ینقطع کل أمل بغیر اللّه، و تنقلع کل جذور الشرک و الاعتماد علی غیر اللّه، تختتم الآیة بالقول: وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ أی أنّ مفتاح حل مشاکلکم بیده وحده، و ما من أحد غیره قادر علی حلها إذ ما من أحد- غیره- إلّا و هو محتاج إلی إحسانه و کرمه، فلا موجب إذن لأن تطرح مشاکلک علی غیره، و تطلب حلّها من غیره.

لاحظ أنّ العبارة تقول: عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ و لم تقل: لکلّ شیء وکیل، و اختلاف المعنی واضح، لأنّ «علی» تفید التسلط و نفوذ الأمر، أمّا «اللام» فتفید التبعیة، أی أن التعبیر الأوّل یدل علی الولایة و الرعایة، و الثّانی یدل علی التمثیل و الوکالة.

الآیة الاخیرة من الآیات مورد البحث، و من أجل إثبات حاکمیة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۱

و إحاطته بکل شیء و حفاظه علی کل شیء، و کذلک لإثبات أنّه یختلف عن کل شیء، تقول: لا تُدْرِکُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ یُدْرِکُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ أی أنّه الخبیر بمصالح عبیده و بحاجاتهم، و یتعامل معهم بمقتضی لطفه.

فی الحقیقة أنّ من یرید أن یکون حافظ کل شیء و مربیه و ملجأه لا بدّ أن یتصف بهذه الصفات.

کما أنّ الآیة تقول: إنّه یختلف عن جمیع الأشیاء فی العالم، لأنّ أشیاء العالم بعضها یری و یری، کالإنسان، و بعضها لا یری و لا یری کصفاتنا الباطنیة، و بعض آخر یری و لا یری، کالجمادات، فالوحید الذی لا یری و لکنّه یری کلّ شیء هو اللّه الواحد الأحد.

بحوث

اشارة

هنا نشیر إلی بضع نقاط:

۱- لا تدرکه الأبصار:

تثبت الأدلة العقلیة أنّ اللّه لا یمکن أن یری بالعین، لأنّ العین لا تستطیع أن تری إلّا الأجسام، أو علی الأصح بعضا من کیفیات الأجسام، فإذا لم یکن الشیء جسما و لا کیفیة من کیفیات الجسم، لا یمکن أن تراه العین، و بتعبیر آخر، إذا أمکنت رؤیة شیء بالعین، فلأن لهذا الشیء حیزا و اتجاها و کتلة، فی حین أنّ اللّه أرفع من أن یتصف بهذه الصفات، فهو وجود غیر محدود و هو أسمی من عالم المادة المحدود فی کل شیء.

فی کثیر من الآیات، و علی الأخص فی الآیات التی تشیر إلی بنی إسرائیل و طلبهم رؤیة اللّه، نجد القرآن ینفی بکل وضوح إمکان

رؤیة اللّه (سوف یأتی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۲

شرح ذلک فی تفسیر الآیة ۱۴۳- من سورة الأعراف إن شاء اللّه).

و من العجیب أنّ کثیرا من أهل السنة یعتقدون أنّ اللّه سیری یوم القیامة، و یعبر صاحب تفسیر المنار عن ذلک بقوله: هذا من مذاهب أهل السنة و العلم بالحدیث ۲۴۹].

و الأعجب من ذلک أنّ بعض المحققین المعاصرین الواعین یمیلون- أیضا- إلی هذا الاتجاه و یصرون علیه! أمّا الواقع فإنّ بطلان هذه الفکرة إلی درجة من الوضوح بحیث لا یستوجب نقاشا، لأنّ الأمر لا یختلف بین الدنیا و الآخرة (إذا قلنا بالمعاد الجسمانی)، إنّ اللّه فوق المادة، و لا یتبدل یوم القیامة إلی وجود مادی، و لا یخرج من لا محدودیته لیصبح محدودا، و لا یتحول فی ذلک الیوم إلی جسم أو إلی کیفیة من کیفیات الجسم! و هل الأدلة العقلیة علی عدم إمکان رؤیة اللّه فی الدنیا هی غیرها فی الآخرة»؟ أم هل یتغیر حکم العقل بهذا الشأن یومذاک؟! و لا یمکن تبریر هذه الفکرة بأنّ من المحتمل أن یصبح للإنسان فی الآخرة نوع آخر من الرؤیة و الإدراک، لأنّ هذه الرؤیة و الإدراک إذا کانت فی الآخرة فکریة و عقلانیة، فإنّنا فی هذه الدنیا أیضا نشاهد اللّه و جماله بعین القلب و قوة العقل، أمّا إذا کانت الرؤیة هی نفسها التی نری بها الأجسام، فإنّ رؤیة اللّه بهذا المعنی مستحیلة فی هذه الدنیا و فی الآخرة علی السواء.

و بناء علی ذلک فإنّ القول بأنّ الإنسان لا یری اللّه فی هذه الدنیا، و لکن المؤمنین یرونه یوم القیامة غیر منطقی و غیر مقبول.

إنّ ما حمل هؤلاء علی الذهاب إلی هذا المذهب و الدفاع عنه هو وجود أحادیث فی کتبهم المعروفة تقول بإمکان رؤیة اللّه یوم القیامة، و لکن ألیس من الأفضل أن نقول ببطلان هذا الرأی بالدلیل العقلی، و نحکم باختلاق أمثال هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۳

الرّوایات و عدم اعتبار الکتب التی أوردت مثل هذه الرّوایات، (اللهم إلّا إذا قلنا أنّ المقصود من هذه الرؤیة هی الرؤیة القلبیة) هل یصح أن نجانب حکم العقل و الحکمة من أجل أمثال هذه الأحادیث؟! أمّا الآیات القرآنیة التی یبدو منها لأوّل وهلة أنّها تدل علی رؤیة، مثل وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلی رَبِّها ناظِرَةٌ[۲۵۰] و یَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ ۲۵۱] فإنّها من باب الکنایة و الرمز، إنّنا نعلم أنّ أیة آیة قرآنیة لا یمکن أن تخالف حکم العقل و منطق الحکمة.

و الملفت للنظر أنّ الأحادیث و الرّوایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام تستنکر هذه العقیدة الخرافیة أشد استنکار، و تنتقد القائلین بها أشد انتقاد، من ذلک أنّ أحد أصحاب الإمام الصّادق علیه السّلام و اسمه (هشام) یقول: کنت عند الإمام الصّادق علیه السّلام فدخل علیه معاویة بن وهب (و هو من أصحاب الإمام أیضا) و سأله قائلا: یا بن رسول اللّه، ما قولک فی ما جاء بشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قد رأی اللّه، فکیف رآه؟ و کذلک

فی الحدیث المروی عنه أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: إنّ المؤمنین فی الجنّة یرون اللّه. فبأی شکل یرونه؟ فتبسم الإمام الصّادق ابتسامه ألم، و قال: «یا معاویة بن وهب! ما أقبح أن یعیش المرء سبعین أو ثمانین سنة فی ملک اللّه، و یتنعم بنعمه، ثمّ لا یعرفه حق المعرفة یا معاویة، إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یر اللّه رأی العین أبدا، إنّ المشاهدة نوعان: المشاهدة القلبیة، و المشاهدة البصریة، فمن قال بالمشاهدة القلبیة فقد صدق، و من قال بالمشاهدة البصریة فقد کذب و کفر باللّه و بآیاته فإنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: من شبه اللّه بالبشر فقد کفر»[۲۵۲].

و

فی (أمالی الصدوق) بإسناده إلی إسماعیل بن الفضل قال: سألت الإمام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۴

الصّادق علیه السّلام عن اللّه تبارک و تعالی، و هل یری فی المعاد؟ فقال: «سبحان اللّه و تعالی عن ذلک علوا کبیرا، یا ابن الفضل، إنّ الأبصار لا تدرک إلّا ما له لون و کیفیة، و اللّه تعالی خالق الألوان و الکیفیة»[۲۵۳].

من الجدیر بالانتباه أنّ هذا الحدیث یؤکّد کلمة «لون» و نحن الیوم نعلم أنّ الجسم بذاته لا یری مطلقا، و إنما الذی نراه هو لونه، فإذا لم یکن للجسم أی لون فلن یری.

(فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر بحث بهذا الشأن فی تفسیر الآیة (۴۶) من سورة البقرة).

۲- اللّه خالق کل شیء

بعض المفسّرین من أهل السنة، ممن یذهب إلی الجبر یتخذ من قوله تعالی خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ دلیلا علی صحة مذهبهم فی الجبر، فیقول: إنّ أعمالنا و أفعالنا من «أشیاء» هذا العالم أیضا، لأنّ کلمة «شیء» تطلق علی کل ذی وجود، مادیا کان أم غیر مادی، و سواء کان من الذوات أم من الصفات، و علیه عند ما نقول: إنّ اللّه خالق کل شیء، لا بدّ لنا أن نقبل أیضا بأنّه خالق أفعالنا، و هذا هو الجبر بعینه.

بید أنّ القائلین بحریة الإرادة و الإختیار یردون بجواب واضح علی أمثال هذه الاستدلالات، و هو أنّ خالقیة اللّه حتی بالنسبة لأفعالنا لا تتعارض مع حریتنا فی الإختیار، إذ أنّ أفعالنا یمکن أن تنسب إلینا و إلی اللّه، فنسبتها إلی اللّه قائمة علی کونه قد وضح جمیع مقدمات ذلک تحت تصرفنا، فهو الذی وهبنا القوة و القدرة و الإراده و الإختیار، فما دامت جمیع المقدمات من خلقه، فیمکن أن تنسب أفعالنا إلیه باعتباره خالقها، و لکن من حیث اتخاذ القرار النهائی فإننا بالاستفادة ممّا وهبه اللّه لنا من القدرة علی الإرادة و الإختیار نتخذ القرار بأداء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۵

الفعل أو ترکه، فمن هنا تنسب هذه الأفعال إلینا و نکون مسئولین عنها.

و بتعبیر الفلاسفة: لا یوجد فی هذا المقام علّتان أو خالقان للفعل فی عرض واحد.

بل هما ممتدتان طولا، لأنّ وجود علّتین تامّتین فی عرض واحد لا معنی له، لکنّهما إذا کانا طولیین فلا مانع من ذلک، و لما کانت أفعالنا تستلزم المقدمات التی وهبها اللّه لنا، فیمکن أن ننسب هذه المستلزمات إلیه أیضا، إضافة إلی نسبتها إلی فاعلها.

هذا الکلام أشبه بالذی یرید أن یختبر عماله فیترک لهم الحریة فی عملهم و اختیاراتهم، و یهیء لهم جمیع ما تطلبه عملهم من مقدمات و وسائل، فطبیعی أن تعتبر أفعالهم منسوبة إلی ربّ العمل، و لکن ذلک لا یسلبهم حریة العمل و الإختیار، بل یکونون مسئولین عن أعمالهم.

و سنبحث فکرة الجبر و الإختیار- إن شاء اللّه- بالتفصیل عند تفسیر الآیات المرتبطة بالموضوع.

۳- ما معنی «بدیع»؟

سبق أن ذکرنا أن «بدیع» تعنی موجد الشیء بغیر سابق وجود، أی أنّ اللّه أوجد السموات و الأرض بغیر أن یسبق ذلک وجود مادة أو خطة سابقة.

هنا یعترض بعضهم بقوله: کیف یمکن إیجاد شیء من عدم و نحن قد بحثنا هذا فی تفسیر الآیة (۱۱۷) من سورة البقرة، و ذکرنا ما ملخصه: إنّنا عند ما نقول إنّ اللّه أوجد الأشیاء من العدم لا نعنی أنّ المادة الأولیة لخلقها هی «العدم» مثلما نقول: إنّ النجار صنع

الكرسی من الخشب، فهذا بالطبع مستحيل، لأنّ «العدم» لا يمكن أن يكون مادة «الوجود».

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۶

إنّما المقصود هو أنّ موجودات هـذا العالم لم تكن موجودة من قبل، ثمّ وجدت، و ليس فی هذا ما يصعب فهمه، و قد ضربنا لذلک أمثلة فی تفسير آية (۱۱۷) من سورة البقرة، و نضيف هنا قائلين: إنّنا قادرون على أن نوجد فی أذهاننا أشياء لم تكن فيها من قبل مطلقا، و لا شک أنّ لهذه الموجودات الذهنية نوعا من الوجود و الكينونة، رغم أنّه ليس وجودا خارجيا، و لكنّها موجودة فی أفق أذهاننا، و إذا كان وجود الشیء بعد العدم مستحيلا، فما الفرق بين الوجود الذهنی و الوجود الخارجی؟

و بناء على ذلک فإنّنا كما نستطيع أن نخلق فی أذهاننا كائنات لم يكن لهم وجود من قبل، كذلک يفعل اللّه ذلک فی العالم الخارجی، انّ قليلا من التأمل فی هذا المثال أو فی الأمثلة التی ضربناها هناک كاف لحل هذه المسألة.

۴- ما معنى «اللطيف»؟

«اللطيف» من مادة «لطف» و قد وردت هذه الصفة فی الآيات السابقة كاحدى الصفات الالهية، و اللطيف ۲۵۴] إذا وصف به الجسم دل على الخفيف المضاد للثقيل، و يعبر باللطافة و اللطف عن الحركة الخفيفة و عن تعاطی الأمور الدقيقة التی قد لا تدركها الحواس، و يصح أن يكون وصف اللّه تعالى باللطف على هذا الوجه لمعرفته بدقائق الأمور، و لخلقه أشياء دقيقة لطيفة غير مرئية، و تتسم أفعاله بالدقة المتناهية الخارجة عن قدرة الإدراک.

يروی (الفتح بن يزيد الجرجانی) حديثا عن الإمام علی بن موسى الرضا عليهما السّلام يعتبر معجزة علمية فی هذا المجال يقول: قال الإمام عليه السّلام: «.. إنّما قلنا اللطيف، للخلق اللطيف و لعلمه بالشیء اللطيف، أو لا ترى- وفقک اللّه و ثبتک- إلى أثر صنعه فی النبات اللطيف و غير اللطيف و من الخلق اللطيف و من الحيوان

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۷

الصغار و من البعوض و الجرجس و ما هو أصغر منها ما لا يكاد تستبينه العيون، بل لا يكاد يستبان لصغره الذكر من الأنثى، و الحدث المولود من القديم، لما رأينا صغر ذلک فی لطفه و اهتداءه للسفاد و الهرب من الموت و الجمع لما يصلحه و ما فی لجج البحار و ما فی لحاء الأشجار و المفاوز و القفار و إفهام بعضها عن بعض منطقها و ما يفهم به أولادها عنها و نقلها الغذاء إليها ثمّ تأليف ألوانها حمرة مع صفرة و بياض مع حمرة و أنّه ما لا تكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها لا تراه عيوننا و لا تلمسه أيدينا، علمنا أنّ خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه بلا علاج و لا أداة و لا آلة و أنّ كل صانع شیء فمن شیء صنعه و اللّه الخالق اللطيف الجليل خلق و صنع لا من شیء».

إنّ هذا الحديث الذی يشير إلى الجراثيم و الكائنات المجهرية قبل أن يولد (پاستور) بقرون يفسر معنى اللطيف.

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود من اللطيف هو أنّ ذاته المقدسة من اللطافة بحيث لا تدرک بالحواس، و عليه فإنّه «اللطيف» لأنّ أحدا لا علم له به، و هو «الخبير» لأنّه عالم بكل شیء.

و قد ورد هذا المعنى فی بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أيضا[۲۵۵] و ليس هناک ما يمنع من إرادة المعنيين من هذه الكلمة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۸

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۷]

اشارة

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۱۰۴) وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۰۵) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۶) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۷)

التّفسیر

لیس من واجبک الإکراه:

تعتبر هذه الآیات نتیجة للآیات السابقة، ففی البدایة تقول: قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ

«بصائر» جمع «بصیرة» من «البصر» بمعنی الرؤیة، و لکنّها فی الغالب رؤیة ذهنیة و عقلانیة، و قد تطلق علی کل ما یؤدی إلی الفهم و الإدراک، و هذه الکلمة فی هذه الآیات تعنی الدلیل و الشاهد، و تشمل جمیع الدلائل التی وردت فی الآیات السابقة، بل إنّها تشمل حتی القرآن نفسه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۹

ثمّ لکی تبیّن أنّ هذه الأدلة و البراهین کافیة لإظهار الحقیقة لأنّها منطقیة، تقول: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها، أی أنّ إبصارهم یعود بالنفع علیهم و عماهم یسبب الإضرار بهم.

و فی نهایة الآیة تقول، علی لسان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ.

للمفسّرین احتمالان فی تفسیر هذا المقطع من الآیة:

الأوّل: إنّی لست أنا المسؤول عن مراقبتکم و المحافظة علیکم و ملاحظة أعمالکم، فاللّه هو الذی یحافظ علی الجمیع، و هو الذی یعاقب و یثیب الجمیع، أنّ واجبی لا یتعدی إبلاغ الرسالة و بذل الجهد لهدایة الناس.

و الآخر: أنا غیر مأمور لأحملکم بالجبر و الإکراه علی قبول الإیمان، إنّما واجبی هو أن أدعوکم إلی ذلک بتبیان الحقائق بالمنطق و الحجّة و أنتم الذین تتخذون قرارکم النهائی.

و لیس ما یمنع من انطواء العبارة علی کلا المعنیین.

الآیة التّالیة تؤکّد أنّ اتخاذ القرار النهائی فی إختیار طریق الحقّ أو الباطل إنّما یرجع للناس أنفسهم، و تقول: وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ۲۵۶] أی کذلک نبیّن الأدلة و البراهین بصور و أشکال متنوعة.

لکن جمعا عارضوا، و قالوا- دونما دلیل و برهان- إنّک تلقیت هذا من الآخرین (أی الیهود و النصاری): وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ ۲۵۷].

إلّا أنّ جمعا آخر ممن لهم الاستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصیرة و فهم و علم، یرون وجه الحقیقة و یقبلونها: وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

إنّ اتهام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّه اقتبس تعالیمه من الیهود و النصاری قد تکرر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۰

من جانب المشرکین، و ما یزال المعارضون المعاندون یتابعونهم فی ذلک، مع أنّ حیاة الجزیرة العربیة لم تکن فیها مدرسة و لا درس لیتعلم منها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شیئا، کما أنّ رحلاته إلی خارج الجزیرة کانت قصیرة لا تدع مجالا لمثل هذا الاحتمال، ثمّ إنّ معلومات الیهود و المسیحیین الذین کانوا یسکنون الحجاز کانت علی درجة من التفاهة و تسطیر الخرافات بحیث لا یمکن- أصلا- مقارنتها بما فی القرآن و لا بتعالیم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و سنشرح هذا الموضوع- إن شاء اللّه- عند

تفسیر الآیة (۱۰۳) من سورة النحل.

ثمّ تبیّن الآیـة واجب رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی قبال معانـدة المعارضـین و حقدهم و اتهاماتهم، فتقول: اتَّبِعْ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ و من واجبک أیضا الإعراض عما یوجهه إلیک المشرکون من افتراءات: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ

هذا- فی الواقع- ضرب من التسلیة و التقویة المعنویة للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لکیلا ینتاب عزمه الراسخ الصلب أی ضعف فی مواجهة أمثال هؤلاء المعارضین.

یتبیّن ممّـا قلنـاه بجلاء أنّ عبـارة وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ لا تتعارض مطلقا مع الأمر بـدعوتهم إلی الإسـلام و لا مع الجهاد ضـدهم، فالمقصود هو أن لا یلقی اهتماما إلی أقوالهم الباطلة و اتهاماتهم الکاذبة، بل یمضی فی طریقه بثبات.

الآیـة الأخیرة یکرر القرآن فیما- مرّة أخری- القول بأنّ اللّه لا یریـد أن یکره المشـرکین و یجبرهم علی الإسـلام، إذ لو أراد ذلک لما کـان هنـاک أی مشـرک: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَکُوا کما یؤکّد القول لرسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: إنّک لست مسـئولا عن أعمـال هؤلاء، لأنّک لم تبعث لإکراههم علی الإیمان: وَ ما جَعَلْناکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً، و لا من واجبک حملهم علی عمل الخیر: وَ ما أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ

«الحفیظ» هو من یراقب أمرا أو شخصا لیحفظه من أن یصاب بضرر، أمّا «الوکیل» فهو من یسعی لإحراز النفع لموکله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۱

لعل من المفید أن نشیر إلی أنّ نفی هاتین الصـفتین «الحفاظ و الوکالة» عن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم یعنی نفی الإجبار علی دفع ضـرر أو اجتلاب نفع، و إلّا فإنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یدعوهم- ضمن تبلیغه الرسالة- إلی عمل الخیر و ترک الشر بصورة طوعیة و اختیاریة.

إنّ الفکرة التی تسود هذه الآیات تستلفت النظر، فهی تقول: إنّ الإیمان باللّه و بتعالیم الإسلام لا یکون عن طریق الإکراه و الإجبار، بل یکون عن طریق المنطق و الاستدلال و النفوذ إلی أفکـار النـاس و أرواحهم، فالإیمـان بالإکرام لا قیمـة له، لأنّ المهم هو أن یـدرک الناس الحقیقة فیتقبلوها بإرادتهم و اختیارهم.

کثیرا مـا یؤکّد القرآن حقیقـة کون الإسـلام بعیـدا عن کـل عنف و خشونـة، کتلـک الأعمال التی کانت ترتکبها الکنیسـة فی القرون الوسطی ۲۵۸]، و محاکم تفتیش العقائد.

أمّا صلابة الإسلام فی مواجهة المشرکین فسوف نبحثها- إن شاء اللّه فی بدایة تفسیر سورة البراءة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۲

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۱۰۸]

اشارة

وَ لا تَسُبُّوا الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَیَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَیْرِ عِلْمٍ کَذلِکَ زَیَّنَّا لِکُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلی رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۰۸)

التّفسیر

اشارة

تناولت الآيات السابقة موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، و قيام دعوته على أساس الاستدلال و الإقناع لا الإكراه، و هذه الآية تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سبب ما يعبد الآخرون- أى المشركون- لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضا- ظلما و عدوانا و جهلا- إلى توجيه السب إلى ذات اللّه المقدسة: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ

يروى أنّ بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عبادة الأصنام، فيشتمون أحيانا الأصنام أمام المشركين، و قد نهى القرآن نهيا قاطعا عن ذلك، و أكّد التزام قواعد الأدب و اللياقة حتى فى التعامل مع أكثر المذاهب بطلانا و خرافة.

إنّ السبب واضح، فالسّب و الشّتم لا يمنعان أحدا من المضى فى طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۳

الخطأ، بل إنّ التعصب الشديد و الجهل المطبق الذى يركب هؤلاء يدفع بهم إلى التمادى فى العناد و اللجاجة و إلى التشبث أكثر بباطلهم، و يستسهلون إطلاق ألسنتهم بسبّ مقام الرّبوبية جل و علا، لأنّ كل أمّة تتعصب عادة لعقائدها و أعمالها كما تقول العبارة التّالية من الآية: كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ

و فى الختام تقول الآية: ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ.

بحوث

هنا ينبغى الانتباه إلى ثلاث نقاط:

۱- هذه الآية نسبت إلى اللّه تزيين الأعمال الحسنة و السيئة لكل شخص، و قد يثير هذا عجب بعضهم، إذ كيف يمكن أن يزين اللّه أعمال المرء السيئة فى نظره؟

سبق أن أجبنا مرات على مثل هذه الأسئلة فأمثال هذه التعبيرات تشير إلى صفة العمل و أثره، أى أنّ الإنسان عند ما يقوم بعمل ما بصورة متكررة، فإنّ قبح عمله يتلاشى فى نظره شيئا فشيئا، و يتخذ شكلا جذابا، و لما كان علّة العلل و سبب الأسباب و خالق كل شيء هو اللّه، و أنّ جميع التأثيرات ترجع إليه، فإنّ هذه الآثار تنسب أحيانا فى القرآن إلى اللّه (تأمل بدقّة).

و بعبارة أوضح، إنّ عبارة زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ تفسر هكذا: لقد أقحمناهم فى نتائج سوء أفعالهم إلى الحد الذى أصبح القبيح جميلا فى نظرهم.

يتضح من هذا أنّ القرآن ينسب- أحيانا- تزيين الأعمال إلى الشيطان، و هذا لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّ الشيطان يوسوس لهم لكى يرتكبوا الأعمال القبيحة، و هم يستسلمون لوسوسة الشيطان، فتكون النتيجة أنّهم يلاقون عاقبة أعمالهم السيئة، و بالتعبير العلمى نقول: إنّ السببية من اللّه، و لكنّ هؤلاء هم الذين يوجدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۴

السبب، مدفوعين بوسوسة الشيطان (تأمل بدقّة)[۲۵۹].

۲- الأحاديث الإسلامية- أيضا- تواصل منطق القرآن فى ترك سبّ الضالين و المنحرفين، فقد أمر كبار قادة الإسلام بضرورة الاستناد إلى المنطق و الاستدلال دائما، و بلزوم تجنب شتم عقائد الآخرين، و قد جاء فى نهج البلاغة أنّ الإمام على عليه السّلام خاطب فريقا من أصحابه الذين كانوا يسبون أتباع معاوية فى حرب صفين،

فقال: «إنى أكره لكم أن تكونوا سبابين، و لكنّكم لو وصفتم أعمالهم و ذكرتم حالهم كان أصوب فى القول و أبلغ فى العذر»[۲۶۰].

۳- قد يعترض بعضهم قائلا: كيف يمكن لعبدة الأصنام أن يسبوا اللّه مع أنّهم فى الغالب يؤمنون باللّه و يعتبرون الأصنام مجرّد شفعاء إلى اللّه.

و لکنّنـا إذا أمعنـا النظر فی حالـة العامّـة المعانـدین المتعصبین أدرکنا أنّ هـذا ممکن و لا عجب فیه، فإنّ أمثال هؤلاء إذا أثیر غضـبهم سعوا للانتقـام و الإثـارة بأی ثمن کان، حتی و إن کان ذلک بالإساءة إلی عقائـد مشترکـة یقول الآلوسـی فی «روح المعانی» إنّ بعض العوام من الجهلة عند ما سمع بعض الشیعة یسب الشّیخین أزعجه ذلک فراح یسب علیا علیه السّلام، و إذا سئل عمّا دعاه إلی سب الإمام علی علیه السّلام الـذی یحترمه، قال: کنت أریـد أن أنتقم من ذلک الشیعی، و لم أجد ما یغضبه و یثیره خیرا من هذا، فحملوه علی أن یتوب عما فعل ۲۶۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۵

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۰۹ الی ۱۱۰]

اشارة

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آیَةٌ لَیُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآیاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ ما یُشْعِرُکُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا یُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ کَما لَمْ یُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِی طُغْیانِهِمْ یَعْمَهُونَ (۱۱۰)

سبب النّزول

قیل فی نزول هـذه الآیـة: إنّ قریش قالت: یا محمّد تخبرنا أنّ موسـی کانت معه عصا یضـرب بها الحجر فینفجر منه اثنتا عشـرة عینا، و تخبرنـا أنّ عیسـی کان یحیی الموتی و تخبرنا أنّ ثمود کانت لهم ناقـة فأتنا بآیـة من الآیات کی نصـدقک، فقال رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أی شیء تحبون أن آتیکم به؟ قالوا: اجعل لنا الصفا ذهبا، و ابعث لنا بعض موتانا، حتی نسألهم عنک أحق ما تقول أم باطل، و أرنا الملائکة یشهدون لک، أو ائتنا باللّه و الملائکة قبیلا!! فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «فإن فعلت بعض ما تقولون، أ تصدقوننی؟» قالوا: نعم و اللّه لئن فعلت لنتبعنک أجمعین، و سأل المسلمون رسول اللّه أن ینزلها علیهم حتی یؤمنوا.

فقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یدعو اللّه تعالی أن یجعل الصفا ذهبا، فجاء جبرئیل علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۶

فقال له: إن شـئت أصـبح الصـفا ذهبا، و لکن إنّ لم یصدقوا عذبتهم، و إن شئت ترکتهم حتی یتوب تائبهم، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «بل یتوب تائبهم» فأنزل اللّه تعالی الآیتین.

التّفسیر

وردت فی الآیات السابقة أدلة کثیرة کافیة علی التوحید، و ردّ الشرک و عبادة الأصنام، و مع ذلک فإنّ فریقا من المشرکین المعاندین المتعصبین لم یرضـخوا للحق، و راحوا یعترضون و ینتقدون، من ذلک أنّهم أخذوا یطلبون من رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم القیام بخوارق عجیبـة و غریبـة یسـتحیل بعضـها أساسا (مثل طلب رؤیـة اللّه)، زاعمین کـذبا أنّ هـدفهم من رؤیـة تلک المعجزات هو الإیمان، فی الآیة الأولی، یقول القرآن: أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آیَةٌ لَیُؤْمِنُنَّ بِها[۲۶۲].

و فی الردّ علیهم یشیر القرآن إلی حقیقتین: یأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أوّلا أن یقول لهم:

قُلْ إِنَّمَا الْآیاتُ عِنْدَ اللَّهِ أی أن تحقیق المعجزة لا یکون وفق مشتهیاتهم، بل إنّها بید اللّه و بأمره.

ثمّ یخاطب المسلمین البسطاء الذین تأثروا بإیمان المشرکین فیقول لهم:

وَ ما یُشْعِرُکُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا یُؤْمِنُونَ ۲۶۳] مؤکدا بذلک أنّ هؤلاء المشرکین کاذبون فی قسمهم.

کما أنّ مختلف المشاهد التی جرت بینهم و بین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تؤکّد حقیقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۷

أنّهم لم یکونوا یبحثون عن الحق، بل کان هدفهم من کل ذلک أن یشغلوا الناس و یبذروا فی نفوسهم الشک و التردد.

الآیة التّالیة تبیّن سبب عنادهم و تعصبهم، فتقول: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ کَما لَمْ یُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أی أنّهم بإصرارهم علی الانحراف و السیر فی طریق ملتو و تعصبهم الناشئ عن الجهل و رفض التسلیم للحق، أضاعوا قدرتهم علی الرؤیة الصحیحة و الإدراک السلیم، فراحوا یعیشون فی متاهات الضلال و الحیرة.

هنا أیضا نسب هذا الفعل إلی اللّه کما سبق من قبل، و هو فی الواقع نتیجة أعمالهم و سوء فعالهم، و ما نسبة ذلک إلی اللّه إلّا لأنّه علّة العلل و مبدأ عالم الوجود، و کل خصیصة فی أی شیء إنّما هی بإرادته، و بعبارة أخری: إنّ اللّه جعل من النتائج الحتمیة للعناد و التعصب الأعمی و الانحراف أن یکون لها مثل هذا الأثر، و هو انحراف الإنسان شیئا فشیئا فی هذا الطریق، فلا یعود یدرک الأمور إدراکا سلیما.

ثمّ تشیر الآیة فی الخاتمة إلی أنّ اللّه، یترک أمثال هؤلاء فی حالتهم تلک لکی یشتد ضلالهم و تزداد حیرتهم: وَ نَذَرُهُمْ فِی طُغْیانِهِمْ یَعْمَهُونَ ۲۶۴].

نسأل اللّه أن یجنبنا الابتلاء بمثل هذا الضلال و الحیرة الناتجة عن أعمالنا السیئة، و أن یمنحنا النظرة السلیمة الکاملة لکی نری الحقیقة ناصعة لا غبش علیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۹

الجزء الثامن من القرآن الکریم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۱

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۱۱۱]

اشارة

وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَیْهِمُ الْمَلائِکَةَ وَ کَلَّمَهُمُ الْمَوْتی وَ حَشَرْنا عَلَیْهِمْ کُلَّ شَیْءٍ قُبُلًا ما کانُوا لِیُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ یَجْهَلُونَ (۱۱۱)

التّفسیر

لماذا لا یرعوی المعاندون؟

هذه الآیة تتبع سابقاتها فی تعقیب الحقیقة نفسها، و هدف هذه الآیات هو بیان کذب أولئک الذین طلبوا تحقیق معجزات عجیبة و غریبة یستحیل تحقق بعضها کما مرّ (مثل رؤیة اللّه جهرة).

فهم یظنون أنّهم بطلبهم تلک المعجزات العجیبة سوف یزعزعون أفکار المؤمنین و یزلزلون عقائد الباحثین عن الحق و یشغلونهم عن ذلک.

فیصرّح القرآن فی الآیة المذکورة قائلا: وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَیْهِمُ الْمَلائِکَةَ وَ کَلَّمَهُمُ الْمَوْتی وَ حَشَرْنا عَلَیْهِمْ کُلَّ شَیْءٍ قُبُلًا ما کانُوا

لِيُؤْمِنُوا[۲۶۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۲

ثمّ يؤكّد ذلك أنّهم لا- يمكن أن يؤمنوا إلّا في حالـة واحـدة و هي أن يجبرهم اللّه بإرادته على الإيمان: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إلّا أنّ إيمانا كهذا لا ينفع في تربيتهم و لا يؤثر في تكاملهم و في النهاية يقول: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ

هناك كلام مختلف بين المفسّرين عمّن يعود إليهم الضـمير «هم» في هـذه العبارة، فقـد يعود إلى المؤمنين الذين أصـروا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحقق للمشركين طلباتهم و يأتيهم بكل معجزة يريدونها.

و ذلـك لأـنّ معظم هؤلاـء المؤمنين كانوا يجهلون زيف الكفار في دعواهم، و لكنّ اللّه كان عالما بأنّهم كاذبون، و لـذلك لم يجبهم إلى طلباتهم، إلّا أنّ دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يمكن أن تخلو- طبعا- من معجزة، فقد حقق اللّه في مواضع خاصّة معجزات مختلفة على يده.

و الاحتمال الآخر هو أنّ الضـمير «هم» يعود إلى الكفار أصحاب الطلبات أنفسهم، أي أنّ أكثرهم يجهل قدرة اللّه على تحقيق كل أمر خارق للعادة، و لعلهم يعتبرون قـدرته محـدودة لـذلك كانوا يصـفون معاجز الرّسول بالسـحر، يقول سبحانه: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ۲۶۶] فهم قوم معانـدون و جـاهلون و ينبغي أن لا يهتم أحد بكلامهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۳

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۳]

اشارة

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (۱۱۲) وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (۱۱۳)

التّفسير

وساوس الشياطين:

تشير هذه الآية إلى أنّ أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصبين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبي الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل إنّ الأنبياء السابقين وقف في وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس و الجن:

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ لا عمل لهم سوى الكلام المنمق الخادع يستغفل به بعضـهم بعضا، يلقونه في غموض أو يهمس به بعض لبعض: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً.

و لكن: لو أراد اللّه لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك و لحال دون وقوف هؤلاء الشياطين و أمثالهم بوجه الأنبياء: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ بيـد أنّ اللّه لم يشأ ذلك، لأنّه أراد أن يكون الناس أحرارا، و ليكون هناك مجال لاختبارهم و تكاملهم و تربيتهم، إنّ سلب الحرية و الإكراه لا يأتلف مع هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۴

الأغراض، ثمّ إنّ وجود أمثال هؤلاء الأعداء المعاندين المتعصبين لا يضر المؤمنين الصادقين، شيئا، بل يؤدي بشكل غير مباشر إلى

تكامل الجماعة المؤمنة، لأنّ التكامل يسير عبر التضاد، و وجود عدو قوى له تأثير على تعبئة الطاقات البشرية و تقوية الإرادة.

لذلک يأمر اللّه نبيّه فى آخر السورة أن لا يلقى بالا إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانية: فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ

ملاحظات:

نسترعى الانتباه إلى النقاط التّالية:

۱- فى هذه الآية ينسب اللّه إلى نفسه وجود شياطين الإنس و الجن فى قبال الأنبياء بقوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا ... و اختلف المفسّرون فى معنى هذه العبارة، و لكن كما سبق أن شرحنا جميع أعمال الناس يمكن أن تنسب إلى اللّه، لأنّ ما يملكه الناس إنّما هو من اللّه، فقدرتهم منه، و كذلک حرية اختيارهم و إرادتهم، لذلک فان أمثال هذه التعبيرات لا يمكن أن تعنى سلب حرية الإنسان و اختياره، و لا أنّ اللّه قد خلق بعض الناس ليتخذوا موقف العداء من الأنبياء، إذ لو كان الأمر كذلک لما توجهت إليهم أية مسئولية بشأن عدائهم للأنبياء، لأنّ عملهم فى هذه الحالة يعتبر تنفيذا لرسالتهم، و الأمر ليس كذلک ... بالطبع.

و لا يمكن إنكار ما لوجود أمثال هؤلاء الأعداء- المختارين طبعا- من أثر بنّاء غير مباشر فى تكامل المؤمنين، و بتعبير آخر: يستطيع المؤمنون الصادقون أن ينتزعوا من وجود الأعداء أثرا إيجابيا متخذين منه وسيلة لرفع مستواهم و وعيهم و إعدادهم للمقاومة، لأنّ وجود العدو يحفز الإنسان لاستجماع قواه.

۲- للشياطين (جمع شيطان) معنى واسع يشمل كل طاغ معاند مؤذ، لذلک يطلق القرآن على الوضيع الخبيث الطاغى من البشر اسم الشيطان، كما نلاحظ فى هذه الآية حيث ذكر شياطين الإنس و غير الإنس الذين لا نراهم، أمّا «إبليس»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۵

فهو اسم خاص للشيطان الذى وقف بوجه آدم عليه السّلام و هو فى الحقيقة رئيس جميع الشياطين، و عليه فالشيطان اسم جنس، و إبليس اسم على خاص ۲۶۷].

۳- زُخْرُفَ الْقَوْلِ يعنى الكلام المعسول الخادع الذى يعجبک ظاهره و هو فى الباطن قبيح ۲۶۸] و «الغرور» هو الغفلة فى اليقظة.

۴- تعبير يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ فيه إشارة لطيفة إلى أنّهم فى أقوالهم و أفعالهم الشيطانية يرسمون خططا غامضة يتبادلونها فيما بينهم سرّا لئلا يعرف الناس شيئا عن أعمالهم حتى ينفذوا خططهم كاملة، أنّ من معانى «الوحى» الهمس فى الأذن.

الآية التّالية تشير إلى نتيجة كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيرا سيستمع الذين لا إيمان لهم- أى الذين لا يؤمنون بيوم القيامة- إلى تلک الأقوال و تميل قلوبهم إليها: وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ[۲۶۹].

«لتصغى» من «الصغو» و هو الميل إلى شىء، و لكنّه فى الأغلب ميل ناشئ عن طريق السمع، فإذا استمع أحد إلى كلام مع الموافقة، فهو «الصغو» و «الإصغاء».

ثمّ يقول: إنّ نهاية هذا الميل هو الرضاع التام- بالمناهج الشيطانية وَ لِيَرْضَوْهُ

و ختام كل ذلک كان ارتكاب أنواع الذنوب و الأعمال القبيحة: وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۶

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۴ الى ۱۱۵]

اشارة

أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ

مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۱۴) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۱۵)

التّفسير

هـذه الآيـة فی الواقع هی نتيجـة الآيات السابقة، إذ تقول: بعد كل تلك الأدلة و الآيات الواضـحة التی تؤكّد التوحيد: أ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِی حَكَماً[۲۷۰]؟ و هو الـذی أنزل هـذا الكتاب السـماوی العظيم الـذی فيه كل احتياجات الإنسان التربوية، و ما يميز بين الحق و الباطل و النّور و الظلمة، و الكفر و الإيمان: وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا.

و ليس الرّسول و المسـلمون وحـدهم يعلمون أنّ هـذا الكتـاب قـد نزل من اللّه، بل إنّ أهل الكتاب (اليهود و النصارى) يعلمون ذلك أيضا، لأنّ علائم هذا الكتاب

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۷

السماوی قرءوها فی كتبهم و يعلمون أنّه نزل من اللّه بالحق: وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ

و على ذلك لم يبق مجال للشك فيه، و كذلك أنت أيّها النّبی لا تشك فيه أبدا، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

هنا يبرز هذا السؤال: هل كان النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يداخله أدنى شك ليخاطب بمثل هذا القول؟

و الجواب: هو ما سـبق أن قلناه فی مثل هـذه الحالات، و هو أن المخاطب فی الحقيقـة هم الناس، و ما مخاطبة النّبی مباشـرة إلّا لتوكيد الموضوع و ترسيخه، و ليكون التحذير للناس أقوى و أبلغ.

الآية التّالية تقول: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

«الكلمـة» بمعنى القول، و تطلق على كل جملـة و كل كلام مطولا كان أم موجزا، و قد تطلق على الوعد، كما فی الآية: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ (الْحُسْنى عَلى بَنِی إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا[۲۷۱]، لأنّ الشخص عند ما يعد يتلفظ ببعض الكلمات المتضمنة لمفهوم الوعد.

و قد يأتی بمعنى الدين و الحكم و الأمر للسبب نفسه.

أمّا بالنسبة لاستعمالها فی هذه الآية فقيل إنّها تعنی القرآن، و قيل إنّها دين اللّه، و قيل: وعد النصر الذی وعد اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و ليس بين هذه تعارض، فقد تكون الآية أرادت هذه المعانی جميعا، و لأنّ الآيات السابقة كانت تشير إلى القرآن، فتفسير الكلمة بالقرآن أقرب.

فيكون معنى الآية إذن: إنّ القرآن ليس موضع شك بأیّ شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات و لا عيب فيه، و كل أخباره و ما فيه من تواريخ صدق،

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۸

و كل أحكامه و قوانينه عدل.

و ربّما يكون معنى «كلمـة» هنا هو الوعـد الـذی جاء فی العبارة التّاليـة لا مُبَـدِّلَ لِكَلِماتِهِ إذ يتكرر هذا التعبير فی القرآن الكريم كقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ۲۷۲] و قوله سبحانه وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۲۷۳]، فی أمثال هذه الآيات تكون الآية التّالية بيانا للوعد الذی ورد من قبل تحت لفظة «كلمة».

و على ذلك يكون معنى الآية: لقد تحقق وعدنا بالصدق و بالعدل، و هو أنّه ليس لأحد القدرة على تبديل أحكام اللّه.

و قد تتضمن الآية كل هذه المعانی.

و إذا كانت الآيـة تعنی القرآن، فـذلك لا يتعارض مع كون القرآن لم يكن قـد اكتمل نزوله حينـذاك، إذ المقصود هو أن ما نزل منه كان متكاملا و لا عيب فيه.

و يستند بعض المفسّـرين إلى هـذه الآية لاثبات عدم تحريف القرآن، لأنّ تعبير لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ تعنی أنّ أحدا لا يسـتطيع أن يحدث

فى القرآن تبديلا أو تغييرا، لا فى لفظه، و لا فى إخباره، و لا فى أحكامه، و أنّ هذا الكتاب السماوى الذى يجب أن يبقى حتى نهاية العالم هاديا للناس سيبقى محفوظا و مصونا من أغراض الخائنين و المحرفين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷]

اشارة

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِی الْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ یَخْرُصُونَ (۱۱۶) إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ یَضِلُّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۱۱۷)

التّفسير

نعلم أنّ آيات هذه السورة نزلت فى مكّة، يوم كان المسلمون قلّة فى العدد، و لعل قلّتهم هذه و كثرة المشركين و عبدة الأصنام كانت مدعاة لتوهم بعضهم أنّه إذا كان دين أولئك باطلا فلم كثر أتباعه؟! و إذا كان دين الإسلام حقّا، فما سبب قلّة معتنقيه؟

و لدفع هذا التوهم يخاطب اللّه نبيّه بعد ذكر أحقيّة القرآن فى الآيات السابقة قائلا: وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِی الْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ

و فى الجملة التّالية يبيّن سبب ذلك، و هو أنّهم لا يتبعون المنطق و التفكير السليم، بل هم يتبعون الظنون التى تخالطها الأهواء و الأكاذيب و يمتزج بها الخداع و التخمين: إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا یَخْرُصُونَ ۲۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۰

فيكون مفهوم الآية الشريفة أنّ الأكثرية لا يمكن أنّ تكون وحدها الدليل على طريق الحق، و من هذا نستنتج أنّه يجب التوجه إلى اللّه وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان السائرون فى هذا الطريق قلّة فى العدد.

و الدليل على ذلك يرد فى الآية التّالية التى تؤكّد على أنّ اللّه عليم بكل شيء و لا مكان للخطأ فى علمه، فهو أعرف بطريق الهداية، كما هو أعرف بالضالين و بالسائرين على طريق الهداية: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ یَضِلُّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ ۲۷۵].

هنا يبرز سؤال: يفهم من الآية أنّ اللّه سبحانه أعلم بطريق الهداية، فهل هناك من يعلم طريق الهداية بدون هدى اللّه حتى كون اللّه هو الأعلم؟! و الجواب: إنّ الإنسان قادر- بلا شك- أن يتوصل بعقله إلى بعض الحقائق، و يدرك طريق الهداية و الضلالة إلى حد ما، غير أنّ مديّات ضوء العقل لها حدود، و قد يظل بعض الحقائق خارج نطاق تلك الحدود، ثمّ إنّ معلومات الإنسان قد يعتورها الخطأ، فيكون لذلك بحاجة إلى مرشدين و هداة إلهيين، لذلك فتعبير «اللّه أعلم» صحيح، و إن يكن قياسا مع الفارق.

لا أهمية للكثرة العددية:

على العكس ممّا يظنّه بعضهم بأنّ الكثرة العددية توافق الصواب دائما فإنّ القرآن ينفى هذا فى كثير من آياته، و لا يقيم للكثرة «العددية» أى وزن، بل يرى- فى الحقيقة- إنّ الكثرة «الكيفية» هى المقياس، لا الكثرة «الكمية» على الرغم من أنّ المجتمعات المعاصرة لم تجد لإدارة الحياة الاجتماعية طريقا سوى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص۴۴۱

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۱

الاستناد إلی الأکثریة، فلا ننس أنّ هذا- کما قلنا- نوع من الاضطرار و الوصول إلی طریق مسدود، إذ لا یمکن العثور فی مجتمع مادی علی وسیلة صحیحة و سلیمة لاتخاذ القرارات و لسن القوانین.

لذلک نجد الکثیر من العلماء مضطرین إلی القبول بفکرة الأکثریة، علی الرغم من اعترافهم بأنّ هذه القاعدة کثیرا ما یصاحبها الخطأ، و ذلک لأنّ عیوب الوسائل الأخری أکثر.

بید أنّ مجتمعا مؤمنا برسالة الأنبیاء لا یجد نفسه مضطرا لاتباع نظر الأکثریة فی سن القوانین، لأنّ مناهج الأنبیاء الصادقة و قوانینهم الإلهیة خالیة من کل عیب و نقص، و لا یمکن مقارنتها بما تستصوبه الأکثریة المعرضة للخطأ.

لو ألقینا نظرة علی وضع العالم الیوم و علی الحکومات القائمة علی أساس رأی الأکثریة، و علی القوانین السقیمة التی تملیها الأهواء ثمّ تقرها الأکثریة، لرأینا أنّ الأکثریة العددیة لم تداو جرحا، بل إنّ معظم الحروب و أکثر المفاسد أقرّتها الأکثریة.

الاستعمار، و الاستغلال، و الحروب، و إراقة الدماء، و حریة تعاطی المسکرات، و القمار، و الإجهاض، و البغاء، و غیر ذلک ممّا یندی له الجبین خجلا، قد أقرّتها الأکثریة فی المجالس النیابیة فی کثیر من البلدان التی تصف نفسها بأنّها متقدمة باعتبارها تعکس رغبة أکثریة عامّة الناس، و هذا دلیل علی حقیقة ما نقول.

و من الناحیة العلمیة نتساءل هل أنّ أکثریة المجتمعات صادقة؟ هل الأکثریة أمینة؟ أ تراها تمنع نفسها من الاعتداء علی حقوق الآخرین، إذا استطاعت؟ هل تنظر الأکثریة إلی منافعها و منافع الآخرین بنظرة واحدة؟

الإجابات ناطقة بلسان الحال لا المقال، لذلک لا بدّ من الاعتراف بأنّ استناد العالم المعاصر إلی الأکثریة نوع من الإکراه تفرضه الأوضاع القائمة، و انّه شر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۲

مفروض علی المجتمعات.

نعم، لو أنّ العقول المفکرة، مصلحی المجتمعات البشریة المخلصین، و العلماء الهادین- و هم أقلیة دائما- شنوا حملة شاملة لتنویر أفکار عامّة الناس بحیث تنال المجتمعات قسطا من الوعی و الرشد الفکری و الاجتماعی، لاقتربت وجهات نظر أکثریة کهذه إلی الحقیقة اقترابا کبیرا، غیر أنّ أکثریة غیر راشدة و غیر واعیة، بل فاسدة و منحرفة و ضالة، لا تستطیع أن تقیل عثرة نفسها أو غیرها! لذلک فالأکثریة وحدها لا تکفی، و إنّها الأکثریة المهتدیة هی القادرة علی حل مشاکل المجتمع إلی الحد الذی یستطیعه بشر.

و إذا کان القرآن فی کثیر من المواضع یذم الأکثریة، فالمقصود هو الأکثریة غیر الرشیدة دون شک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۳

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۱۸ الی ۱۲۰]

اشارة

فَکُلُوا مِمَّا ذُکِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَیْهِ إِنْ کُنْتُمْ بِآیاتِهِ مُؤْمِنِینَ (۱۱۸) وَ ما لَکُمْ أَلَّا تَأْکُلُوا مِمَّا ذُکِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَیْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَکُمْ ما حَرَّمَ عَلَیْکُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَیْهِ وَ إِنَّ کَثِیراً لَیُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِینَ (۱۱۹) وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ إِنَّ الَّذِینَ یَکْسِبُونَ الْإِثْمَ سَیُجْزَوْنَ بِما کانُوا یَقْتَرِفُونَ (۱۲۰)

التّفسیر

لا بدّ من إزالة آثار الشرک:

هـذه الآیات فی الحقیقـة واحدة من نتائج البحوث التی سبقت فی التوحید و الشرک، لذلک تبدأ الآیة الأولی بفاء التفریع التی یؤتی بعدها بالنتیجة.

الآیات السابقة تناولت بأسالیب متنوعة حقیقة التوحید و إثبات بطلان الشرک و عبادة الأصنام.

و من نتائج ذلک أنّ علی المسلمین أن یمتنعوا عن أکل لحوم القرابین التی تذبح باسم الأصنام، بل علیهم أن یأکلوا من لحم ما ذکر اسم اللّه علیه، حیث کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۴

من عادة العرب أن یـذبحوا القرابین لأصـنامهم، و یأکلوا من لحومها للتبرک بها، و کان هـذا جزءا من عبادتهم الأصـنام، لـذلک یبـدأ القرآن بالقول: فَکُلُوا مِمَّا ذُکِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَیْهِ إِنْ کُنْتُمْ بِآیاتِهِ مُؤْمِنِینَ

أی أنّ الإیمان لیس مجرّد قول و ادعاء و عقیـدة و نظریـة، بل لا بدّ أن یظهر علی صـعید العمل أیضا، فالذی یؤمن باللّه یأکل من هذه اللحوم فقط.

بدیهی أنّ الفعل «کلوا» لا یعنی الوجوب، بل یعنی إباحة أکلها و حرمة أکل ما عداها.

و من هـذا یتبیّن أنّ حرمـة الذبائـح التی لم یـذکر اسم اللّه علیها، لیست من وجهة النظر الصـحیحة حتی یقال: ما الفائدة الصّحیحة من ذکر اسم اللّه علی الذبیحة بل لها خلفیة أخلاقیة و معنویة و تستهدف تثبیت قواعد التوحید و عبودیة اللّه الواحد الأحد.

الآیة التّالیة تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغایرة مع مزید من الاستدلال، فتقول: لم لا تأکلون من اللحوم التی ذکر اسم اللّه علیها، فی الوقت الذی بیّن اللّه لکم ما حرم علیکم؟ وَ ما لَکُمْ أَلَّا تَأْکُلُوا مِمَّا ذُکِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَیْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَکُمْ ما حَرَّمَ عَلَیْکُمْ

مرّة أخری نشیر إلی أنّ التوبیـخ و التوکیـد لیسـا من أجل ترک أکل اللحم الحلال، بل الهـدف هو أنّ هـذه هی التی ینبغی أن تأکلوا منها، لا من غیرها، و بعبارة أخری: التوکیـد یکون هنا علی النقطـة المقابلـة لمفهوم العبارة، من هنا اسـتدل علی ذلک بالقول: قَدْ فَصَّلَ لَکُمْ ما حَرَّمَ عَلَیْکُمْ

أمّا موضع هذا التفصیل فقد یتصوّر البعض أنّه فی سورة المائدة، أو فی آیات من هذه السورة (الأنعام، ۱۴۵).

و لما کانت هـذه السورة قـد نزلت فی مکّة، و سورة المائدة نزلت بالمدینة، و الآیات التّالیة من هذه السورة لم تکن قد نزلت بعد فإنّ أیّا من هذین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۵

الاحتمالین غیر صحیح، فالموضوع إمّا أن یکون الآیة (۱۱۵) من سورة النحل التی تـذکر بعض اللحوم المحرم أکلها، و خاصّة التی لم یـذکر علیهـا اسم اللّه، أو أن یکون المراد التعالیم التی کان رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بینها بشأن اللحوم، لأنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن یتحدث إلّا بوحی.

ثمّ یسـتثنی من ذلک حالـة واحـدة: إِلَّا مَا اضْـطُرِرْتُمْ إِلَیْهِ سواء کان هـذا الاضـطرار ناشـئا من وجود الإنسان فی البیـداء و تحت ضـغط الجوع الشدید، أو الوقوع تحت سیطرة المشرکین الذین قد یجبرونه علی أکل لحومهم.

ثمّ تشیر الآیة إلی أنّ کثیرا من الناس یحاولون أن یضلوا الآخرین عن جهل أو عن إتباع الهوی: وَ إِنَّ کَثِیراً لَیُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ

و علی الرغم من أنّ إتباع الهوی مصحوب دائما بالجهل، و لکنّه یکرر ذلک للتوکید فیقول: ... بِأَهْوائِهِمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ

یستفاد من هذا التعبیر أیضا أنّ العلم الصحیح لا یقترن باتّباع الهوی و الانسیاق مع الخیال، و حیثما اقترن فهو الجهل لا العلم.

يلزم القول أنّ الجملة المذكورة ربّما تكون إشارة إلى ما كان سائدا بين المشركين العرب الذين كانوا يسوغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أ يجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التى نقتلها بأنفسنا حلالا، و لحوم الحيوانات التى يقتلها اللّه حراما؟

بديهى أنّ هذا لم يكن سوى سفسطة فارغة، لأنّ الحيوان الميت ليس حيوانا ذبحه اللّه ليمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحة، إذ إنّ الحيوان الميت بؤرة الأمراض، و لحمه فاسد، و لهذا حرم اللّه أكله، و أخيرا يقول: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ الذين يحاولون بهذه الأدلة الواهية تنكّب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآية الثّالثة تذكر قانونا عاما، لاحتمال أن يرتكب بعضهم هذا الإثم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۶

الخفاء، و تقول: وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ

يقال إنّهم فى الجاهلية كانوا يعتقدون أن الزنا إذا ارتكب فى الخفاء فلا بأس به، أما إذ ارتكب علنا فهو الإثم! و اليوم- أيضا- نجد أناسا يسيرون وفق هذا المنطق الجاهلى فيخشون ارتكاب الإثم علانية، و لكنّهم يرتكبون فى الخفاء ما يشاءون من الآثام دون رادع من ضمير.

إنّ هذه الآية لا تدين هذا المنطق فحسب، بل تحمل مفاهيم واسعة، فهى بالإضافة إلى ما قلناه آنفا تتضمن الكثير من التفاسير التى وردت للإثم الظاهر و الباطن، من ذلك مثلا- قولهم: انّ الإثم الظاهر هو ما يرتكب بوساطة أعضاء الجسم، و الإثم الباطن هو ما يرتكب فى القلب و فى النيّة و العزم.

ثمّ من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم و تذكيرهم بذلك، تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ

عبارة يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ تعبير رائع يشير إلى أن الإنسان فى هذه الدنيا أشبه بأصحاب رؤوس الأموال الذين يدخلون سوقا كبيرة، أنّ رؤوس أموالهم الذكاء و العقل و العمر و الشباب و الطاقات المختلفة التى هى مواهب اللّه، فالمسكين ذاك الذى «يكتسب» الإثم بدل أن يكتسب السعادة و الشخصية الإنسانية و التقوى و القرب إلى اللّه.

و «سيجزون» أى ينالون الجزاء فى المستقبل القريب ... قد يشير إلى يوم القيامة، و أنّه و إن بدا فى نظر بعضهم بعيدا، فهو فى الحقيقة قريب جدا، و إن هذا العالم سرعان ما تنطوى أيّامه و يحين المعاد.

و قد يكون إشارة إلى أنّ أغلب أفراد البشر ينالون فى هذه الدنيا بعض ما يستحقونه من نتائج أعمالهم السيئة بشكل ردود فعل فردية و اجتماعية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۲۱]

اشارة

وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (۱۲۱)

التّفسير

دار الكلام فى الآيات السابقة حول الجانب الإيجابى من مسألة اللحوم، أى أكل اللحوم الحلال، و فى هذه الآية تأكيد للجانب السلبى

من المسألة:

وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ثمّ فى جملة واحدة يدين هذا العمل:

وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ و إثم و خروج عن طريق العبودية و إطاعة اللّه.

و لكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسة الشيطان، تخاطبهم الآية: إنّ الشياطين يوسوسون فى الخفاء لأتباعهم لكى يدخلوا معكم فى جدل و نقاش: وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ و لكن كونوا على حذر، و لا تطيعوهم: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ

لعل هذا الجدل و الوسوسة إشارة إلى ما كان سائدا بين المشركين بشأن أكل الميتة (و ذهب البعض إلى أنّ العرب المشركين أخذوه من المجوس) و قولهم: إنّنا نأكل الميتة لأنّ اللّه أماتها، و هى لذلك أفضل ممّا نقتله بأيدينا، معتقدين أن عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۸

أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل اللّه! غافلين أنّ الحيوان الميت موتا طبيعا، إضافة إلى مرضه غالبا، يضم بين لحمه دما قذرا فاسدا يفسد معه اللحم، بسبب عدم انقطاع أوداجه، و لذلك أمر اللّه أن تؤكل- فقط- لحوم الحيوانات المذبوحة بطريقة خاصّة، و المراق دمها خارج بدنها.

و يستفاد من هذه الآية- ضمنيا- حرمة الذبيحة غير الإسلامية، لأنّها إضافة إلى الجهات الأخرى- لم يتقيد ذابحها بذكر اسم اللّه عليها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۲ الى ۱۲۳]

اشارة

أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۲) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۱۲۳)

سبب النّزول

قيل فى نزول الآية الأولى إنّ أبا جهل الذى كان من ألد أعداء الإسلام و الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آذى يوما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إيذاء شديدا، و كان «حمزة» عم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- ذاك الرجل الشجاع- لم يسلم بعد، بل كان ما يزال يقلب الأمر فى ذهنه، و قد خرج فى ذلك اليوم كعادته للصيد فى الصحراء، و عند عودته سمع بما جرى بين أبى جهل و ابن أخيه، فغضب غضبا شديدا و ذهب إلى أبى جهل و صفعه صفعة أسالت الدم من أنفه، و على الرغم من مكانة أبى جهل و نفوذه فى عشيرته، فإنّ لم يرد عليه لما يعرفه عن شجاعة حمزة.

و عاد حمزة إلى الرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعلن إسلامه، و منذ ذلك اليوم أصبح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۰

جنديا من جنود الإسلام، و دافع عنه حتى استشهد بين يدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

هذه الآية نزلت بشأن هذه الحادثة و بيّنت إسلام حمزة، و إصرار أبى جهل على الكفر و الفساد.

و تفيد بعض الرّوايات الأخرى أنّ الآية نزلت بشأن إسلام عمار بن ياسر و إصرار أبى جهل على الكفر.

و مهما يكن، فإنّ هذه الآية- مثل الآيات الأخرى- لا تختص بواقعة نزولها، بل هى ذات مفهوم واسع يصدق على كل مؤمن صادق و

کل معاند لجوج.

التّفسیر

الإیمان و الرّؤیة الواضحة:

ترتبط هذه الآیة بالآیات السابقة من حیث کون الآیات السابقة أشارت إلی طائفتین من الناس: المؤمنین المخلصین، و الکافرین المعاندین الذین لا یکتفون بضلالهم، بل یسعون حثیثا إلی تضلیل الآخرین، هنا أیضا یتجسد وضع هاتین الطائفتین من خلال ضرب مثل واضح.

یشیر المثال إلی طائفة من الناس کانوا من الضّالین، ثمّ غیروا مسیرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالمیت الذی یحییه اللّه بإرادته: أَ وَ مَنْ کانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْناهُ

کثیرا ما یستعمل القرآن «الموت» و «الحیاة» بالمدلول المعنوی لهما لتمثیل الکفر و الإیمان، و هذا یدل علی أنّ الإیمان لیس مجرّد معتقدات جافة و أوراد و طقوس، بل هو بمثابة الروح التی تحل فی النفوس المیتة غیر المؤمنة، فتؤثر علیها فی جمیع شؤونها، و تمنح العیون الرؤیة، و الآذان قدرة السمع، و اللسان قوة البیان، و الأطراف العزم علی أداء النشاطات البناءة ... الإیمان یغیر الأفراد، و یشمل هذا التغییر کل جوانب الحیاة، و تبدو آثاره فی کل الحرکات و السکنات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۱

و تفید جملة فَأَحْیَیْناهُ أنّ الإیمان- و إن استلزم سعی الإنسان لنیله- لا یتم إلّا بهدایة من اللّه! ثمّ تقول الآیة عن أمثال هؤلاء: وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النَّاسِ

علی الرغم من وجود الاختلاف فی تفسیر هذا «النّور» فالظاهر أنّ المقصود لیس القرآن و تعالیم الشرع فحسب، بل أکثر من ذلک، حیث یمنح الإیمان باللّه الإنسان رؤیة و إدراکا جدیدین ... یمنحه رؤیة واضحة و یوسع من آفاق نظرته لتتجاوز إطار حیاته المادیة و جدران عالم المادة الضیق إلی عالم أرحب و أوسع.

و لما کان الإیمان یدعو الإنسان إلی أن یبنی نفسه، فانه یزیح عن عینیه أغشیة الأنانیة و التعصب و المعاندة و الأهواء، و یریه حقائق ما کان قادرا علی إدراکها من قبل.

إنّه فی ضوء هذه النّور یستطیع أن یمیز مسیرة حیاته بین الناس، و أنّ یصون نفسه و یحافظ علیها و یحصنها ضد ما یقع فیه الآخرون من أخطار الطمع و الجشع و الأفکار المادیة المحدودة، و الوقوف بوجه أهوائه و کبح جماحها.

إنّ ما نقرأه فی الأحادیث الإسلامیة من أنّ «المؤمن ینظر بنور اللّه» إشارة إلی هذه الحقیقة، إنّ مجرّد الوصف غیر قادر علی تبیان خصائص هذه الرؤیة الإیمانیة التی یمنحها اللّه للإنسان، بل ینبغی أن یذوق الإنسان طعمها لکی یدرک بنفسه مغزی هذا القول و یحس به.

ثمّ تقارن الآیة بین هذا الإنسان الحی، الفعال، النیر، و المؤثر، بالإنسان العدیم الإیمان و المعاند، فتقول: کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُماتِ لَیْسَ بِخارِجٍ مِنْها.

نلاحظ أنّ الآیة لا تقول: «کمن فی الظّلمات» بل تقول: کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُماتِ یقول بعضهم: إنّ الهدف من هذا التعبیر هو إثبات أنّ هؤلاء الأفراد غارقون فی الظّلمات و التعاسة إلی الحد الذی جعلهم مثلا یعرفه المدرکون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۲

و قد يكون ذلك إشارة إلى معنى أدق هو: أنّه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح و أدمغة معطلة عن العمل.

لا بدّ من القول- أيضا- إنّ «النّور» الذى يهدى المؤمنين جاء بصيغة المفرد، بينما «الظّلمات» التى يعيش فيها الكافرون جاءت بصيغة الجمع، و ذلك لأنّ الإيمان ليس سوى حقيقة واحدة، و هو يرمز إلى الوحدة و التوحيد، بينما الكفر و عدم الإيمان مدعاة للتشتت و التفرقة.

و فى الختام تشير الآية إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

سبق أن قلنا: إنّ من خصائص تكرار العمل القبيح أنّ قبحه يتضاءل فى عين الفاعل حتى يبدو له أخيرا و كأنّه عمل جميل، و يتحول إلى مثل القيد يشد أطرافه، و يمنعه من الخروج من هذا الفخ، إنّ مطالعة بسيطة لحال المجرمين تكشف لنا هذه الحقيقة بجلاء.

و لمّا كان بطل هذه المشاهد فى جانبها السلبى هو «أبو جهل» الذى كان من كبار مشركى قريش و مكّة، فالآية الثّانية تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين و قادة الكفر و الفساد، فتقول: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها.

كررنا القول من قبل: أنّ سبب نسبة أمثال هذه الأفعال إلى اللّه، لكونه تعالى هو علّة العلل و مسبب الأسباب و مصدر كل القدرات، و الإنسان يستخدم ما وهبه اللّه من إمكانات طالحا كان هذا الفعل أم صالحا.

جملة «ليمكروا» تشير إلى عاقبة أعمالهم، و لا تعنى الهدف من خلقهم ۲۷۶] أى أنّه عاقبة عصيانهم و كثرة ذنوبهم أدت بهم إلى أن يصبحوا سدا على طريق الحق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۳

و عاملا على جر الناس نحو الانحراف و الابتعاد عن طريق الحق، فالمكر فى الأصل هو اللف و الدوران، ثمّ أطلق على كل عمل منحرف مقرون بالإخفاء.

و فى الختام تقول الآية: وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ

و أى مكر و خديعة أعظم من أن يقوم هؤلاء باستخدام كل رؤوس أموال وجودهم، بما فى ذلك فكرهم و ذكاؤهم و ابتكاراتهم و أعمارهم و وقتهم و أموالهم، فى صفقة لا تعود عليهم بأى ربح، بل تثقل ظهورهم بأحمال الذنوب و الآثام الثقيلة، ظانين أنّهم قد أحرزوا الربح و الإنتصار! كما يستفاد من هذه الآية أنّ النكبات و التعاسة التى تصيب المجتمع إنّما تنشأ من كباره و قادته، إذ إنّهم هم الذين يتوسلون بالمكر و الحيلة لتغيير معالم الطريق إلى اللّه، و يخفون وجه الحق عن الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۴

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۲۴]

اشارة

وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (۱۲۴)

سبب النّزول

يقول العلّامة الطّبرسى فى «مجمع البيان»: نزلت هذه الآية بشأن «الوليد بن المغيرة» (الذى كان من زعماء عبدة الأصنام دماغهم المفكر) كان هذا يقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا كانت النّبوة حقّا، فأنا أولى منك بها لكبر سنى و لكثرة مالى.

و قیل: إنّها نزلت بشأن «أبی جهل» لأنّه کان یقول: مقام النّبوة یجب أن یکون موضع تنافس، فنحن و بنو عبد مناف (قبیلة رسول اللّه) کنّا نتنافس علی کل شیء، و نجری کفرسی رهان کتفا لکتف، حتی قالوا: إنّ نبیا قام فیهم، و أنّه ینزل علیه الوحی فنحن لا نؤمن به إلّا إذا نزل علینا الوحی کما ینزل علیه.

التّفسیر

اللّه أعلم حیث یجعل رسالته:

تشیر هذه الآیة بإیجاز إلی طریقة تفکیر هؤلاء الأکابر أَکابِرَ مُجْرِمِیها و إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۵

مزاعمهم المضحکة الباطلة، فتقول: وَ إِذا جاءَتْهُمْ آیَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّی نُؤْتی مِثْلَ ما أُوتِیَ رُسُلُ اللَّهِ کأنّ الوصول إلی مقام النبوة و هدایة الناس یعتمد علی سن الشخص و ماله، أو هو میدان للمنافسة الصبیانیة بین القبائل! و کأنّ علی اللّه أن یراعی هذه الأمور المضحکة الباطلة التی لا تدل إلّا علی منتهی الانحطاط الفکری و عدم إدراک معنی النبوة و قیادة الخلیقة! إنّ القرآن یرد علی هؤلاء بوضوح قائلا: اللَّهُ أَعْلَمُ حَیْثُ یَجْعَلُ رِسالَتَهُ

بدیهی أنّ الرسالة لا- علاقة لها بالسن و لا بالمال و لا بمراکز القبائل، لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحی، و طهارة الضمیر، و السجایا الإنسانیة الأصیلة، و الفکر السامی، و الرأی السدید ثمّ التقوی إلی درجة العصمة ... إنّ هذه الصفات، و خصوصا الاستعداد لمقام العصمة لا یعلم بها غیر اللّه، فما أبعد الفرق بین هذه الشروط و ما کان یدور بخلد أولئک.

کما إنّ من یخلف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا بدّ أن تکون له جمیع تلک الصفات عدا الوحی و التشریع، أی أنّه حامی الشرع و الشریعة، و الحارس علی قوانین الإسلام، و القائد المادی و المعنوی للناس، لذلک لا بدّ له أن یکون معصوما عن الخطأ و الإثم، لکی یکون قادرا علی أن یوصل الرسالة إلی أهدافها، و أن یکون قائدا مطاعا و قدوة یعتمد علیها.

و بناء علی ذلک، یکون إختیاره من اللّه أیضا، فهو وحده الذی یعلم أن یضع هذا المقام، فلا- یمکن أن یترک ذلک للناس و لا للانتخابات و الشوری.

و فی النهایة تشیر الآیة إلی المصیر الذی ینتظر أمثال هؤلاء المجرمین و الزّعماء الذین یدعون الباطل، فتقول: سَیُصِیبُ الَّذِینَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما کانُوا یَمْکُرُونَ ۲۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۶

کان هؤلاء الأنانیون بمواقفهم العدائیة یریدون أن یحافظوا علی مراکبهم، و لکنّ اللّه سینزلهم إلی أدنی درجات الصغار و الحقارة بحیث إنّهم سیتعذبون بذلک عذابا روحیا شدیدا، مضافا إلی أنّهم سیلاقون العذاب الشدید فی الآخرة لأنّ سعیهم علی طریق الباطل کان شدیدا أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۷

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۲۵ الی ۱۲۷]

اشارة

فَمَنْ یُرِدِ اللَّهُ أَنْ یَهْدِیَهُ یَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ یُرِدْ أَنْ یُضِلَّهُ یَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَیِّقاً حَرَجاً کَأَنَّما یَصَّعَّدُ فِی السَّماءِ کَذلِکَ یَجْعَلُ اللَّهُ

الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

التّفسير

الإمدادات الإلهية:

تعقيبا على الآيات السابقة التى دارت حول المؤمنين الصادقين و الكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النعم الإلهية الكبيرة التى تنتظر الفريق الأوّل، و الشقاء الذى سيصيب الفريق الثانى، فتقرر أنّ اللّه ينعم بالهداية على من يشاء، و ذلك بأن يفتح صدره لتقبل الإسلام، أمّا الذى لا يريد اللّه أن يوفقه لذلك- لسوء أعماله- يضيق صدره بحيث يجعله و كأنّه يريد أن يصعد إلى السماء. فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۸

و لتوكيد هذه الأمر تضيف الآية: كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فيسلبهم التوفيق و يركسهم فى التعاسة و الشقاء.

ملاحظات

اشارة

هنا يبغى أن نلاحظ النقاط التّالية:

۱- ما المقصود من «الهداية» و «الضلالة»؟

سبق لنا أن قلنا مرات عديدة أن المقصود من لفظى «الهداية» و «الضلالة» الإلهيين هو توفير الظروف و المقدمات المؤدية إلى الهداية بالنسبة للذين لهم الاستعداد لذلك، و سلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك، بالنظر إلى أعمالهم.

إنّ السالكين طريق الحق و الباحثين عن الإيمان المتعطشين إليه، يضع اللّه فى طريقهم مصابيح مضيئة لكيلا يضيعوا فى ظلمات الطريق، و ليصلوا إلى منبع إكسير الحياة، أمّا الذين أثبتوا تماهلهم تجاه هذه الحقائق فهم محرومون من هذه الإمدادات الإلهية، و سوف يتعثرون فى طريقهم بالكثير من المشاكل، و لا يوفّقون لهداية.

و بناء على ذلك، فلا الفريق الأوّل مجبور على السير فى هذا الطريق، و لا الفريق الثانى فى أعمالهم، و فى الواقع أنّ الهداية و الضلال يكملان ما أرادوه هم بأنفسهم و اختاروه.

۲- المقصود من «الصّدر»

هنا هو الروح و الفكر، و هذه الكناية ترد كثيرا، و المقصود من «الشرح» هو بسط الروح و ارتفاع الفكر و اتسّاع أفق العقل البشرى، لأنّ تقبّل الحق يستدعى التنازل عن الكثير من المصالح الشخصية، ممّا لا يقدر عليه إلّا ذوو الأرواح العالية و الأفكار السامية.

۳- «الحرج» بمعنی الضیق الشدید

، و هذه هی حال المعاندین و فاقدی الإیمان، ففکرهم قاصر و روحهم ضیقهٔ صغیرهٔ، و لا یتنازلون فی حیاتهم عن شیء.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۹

۴- معجزهٔ قرآنیهٔ علمیهٔ:

إنّ تشبیه أمثال هؤلاء بالذی یرید أن یصعد إلی السماء، جاء لأنّ الصعود إلی السماء صعب جدّا، فکذلک هو قبول الحق عند هؤلاء.
إنّنا فی کلامنا الیومی نتمثل بهذا التشبیه، فإذا أردنا أن نقول أنّ الوصول إلی الأمر الفلانی صعب نقول: أن تصل إلی السماء أقرب إلیک من ذلک.
بالطّبع لم یکن الطیران فی السماء للبشر آنذاک أکثر من تصور، و لکن علی الرغم من تحقق ذلک الیوم، فهو ما یزال صعبا، و کثیرا ما یصادف رواد الفضاء المشاکل فی طیرانهم.
و یخطر فی الذهن معنی ألطف من ذلک یکمل البحث السابق، و هو أنّه ثبت الیوم علمیا أنّ الهواء المجاور للأرض مضغوط بشکل یصلح لتنفس الإنسان، و لکنّنا کلما ارتفعنا قلت کثافهٔ الهواء و نسبهٔ وجود الأوکسجین فیه، بحیث إنّنا إذا ارتفعنا بضع کیلومترات أصبح من الصعب أن نتنفس بسهولهٔ (بغیر قناع الأوکسجین)، و إذا ما واصلنا صعودنا ازداد ضیق تنفسنا و أصبنا بالإغماء، إن ذکر هذا التشبیه فی ذلک الزمن قبل أن تثبت هذه الحقیقهٔ العملیهٔ یعتبر واحدهٔ من معجزات القرآن العلمیهٔ.

۵- ما هو شرح الصدر؟

فی هذه الآیهٔ یعتبر «شرح الصدر» من نعم اللّه الکبری و «ضیق الصدر» من عقاب اللّه، کما جاء ذکر هذه النعمهٔ فی قوله تعالی: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ ۲۷۸] و یتضح هذا أکثر عند دراسهٔ الأشخاص، فأنت تری بعضهم علی درجهٔ من سعهٔ الصدر بحیث إنّهم قادرون علی استیعاب کل حقیقهٔ مهما کبرت، و علی العکس منهم نری صدر بعضهم من الضیق بحیث لا تکاد تنفذ إلیها أیهٔ حقیقهٔ، فأفق
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۰
رؤیتهم الفکریهٔ محدود جدّا و مقتصر علی الحیاهٔ الیومیهٔ، فلو تهیأ لهم الأکل و النوم فکل شیء علی ما یرام، و إذا اختل ذلک فقد انهارت حیاتهم و انتهی کل شیء.
عند ما نزلت الآیهٔ المذکورهٔ أعلاه،
سئل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن معنی شرح الصدر، فقال: «نور یقذفه اللّه فی قلب من یشاء فینشرح له صدره و ینفسح».
فسألوه: أ لذلک علامهٔ یعرف بها؟
قال: «نعم، الإنابهٔ إلی دار الخلود، و التجافی عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل نزول الموت»[۲۷۹] بالإیمان و العمل الصالح السعی فی سبیل اللّه.
الآیهٔ التّالیهٔ تؤکّد البحث السابق فتقول: إنّ المدد الإلهی الذی یشمل السالکین سبیل اللّه و یسلب عن الذین یتنکبون عن سبیل اللّه، إنّما هو سنهٔ إلهیهٔ مستقیمهٔ ثابتهٔ لا تتبدل وَ هذا صِراطُ رَبِّکَ مُسْتَقِیماً.

كما يحتمل أن يكون «هذا» إشارة إلى الإسلام أو القرآن، إذ إنّ الصراط المستقيم هو الطريق المستقيم المستوى.

و في ختام الآية توكيد آخر: قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أى لمن يملكون قلوبا واعية و آذانا سامعة.

الآية الثّالثة تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التى يهبها اللّه للذين يطلبون الحق، إحداهما: لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ و الثّانية: وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ أى ناصرهم و حافظهم، و كل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحات: بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

فأى فخر أجل و أرفع من أن يتولى اللّه أمور الإنسان و يتكفل بها فيكون حافظه و وليه، و أية نعمة أعظم من أن تكون له دار السلام، دار الأمن و الأمان، حيث لا حرب و لا سفك دماء، و لا نزاع و لا خصام، و لا عنف و لا تنافس قاتل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۱

و مميت، و لا تضارب مصالح، و لا كذب و لا افتراء، و لا اتهام و لا حسد و لا حقد، و لا هم و لا غم، بل الهدوء و الطمأنينة و الهناء؟

و لكن الآية تقول أيضا: إنّ هذه النعم لا تأتى بمجرّد الكلام، بل هى تعطى لقاء العمل ... نعم العمل!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۲

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۸ الى ۱۲۹]

اشارة

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸) وَ كَذلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹)

التّفسير

تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين و المضلين فتكملان ما بحث فى السابق، فتذكّران بيوم يقفون فيه وجها لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم، فيواجه التابعون و المتبوعون سؤالا- لا جواب لديهم عليه، و لا ينالون سوى التحسر و الحزن، إنّها تحذيرات للإنسان كيلا ينظر فقط إلى أيّامه المعدودات على الأرض، بل عليه أن يفكر بالعاقبة.

تذكر الآية فى البداية بذلك اليوم الذى يجتمع فيه الجن و الإنس، ثمّ يقال يا أيّها المضلون من الجن لقد أضللتم كثيرا من الناس: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۳

مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ۲۸۰].

«الجن» هنا هم الشياطين، لأن كلمة الجن- كما سبق أن قلنا- تشمل كل كائن غير مرئى و الآية (۵۰) من سورة الكهف تذكر عن رئيس الشياطين، إبليس إنّه كانَ مِنَ الْجِنِ

الآيات السابقة التى تحدثت عن وسوسة الشياطين الهامسة إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ و كذلك الآية التّالية التى تحدثت عن سيطرة بعض الظالمين على الآخرين، قد تكون إشارة إلى هذا الموضوع.

و يبدو أنّ الشياطين المضلين لا- جواب لديهم على هذا السؤال و يطرقون صامتين، غير أنّ أتباعهم من البشر يقولون: ربّنا، هؤلاء استفادوا منّا كما إنّنا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنا.

أى كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا و كنّا نتبعهم مستسلمين، أمّا نحن فكنّا مستمتعين بمباهج الحياة و لذائذها غير متقيدين بشىء

و لا ملتفتین إلى سرعة زوالها، لما کان الشیاطین یوسوسون به فی آذاننا و یظهرونه فی صور جمیلة جذابة.

هنـا تختلف آراء المفسّـرین بشأن المقصود من کلمـة «أجل»، هل هی نهایـة عمر الإنسان، أم یوم القیامـة؟ و لکن الظاهر أنّ المقصود نهایة العمر لأنّ «الأجل» کثیرا ما استعمل فی القرآن بهذا المعنى.

غیر أنّ اللّه یخاطب التابعین و المتبوعین الفاسدین و المفسدین جمیعا: قالَ النَّارُ مَثْواکُمْ خالِدِینَ فِیها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ

إنّ الجملة الاسـتثنائیة إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إمّا أن تکون إشارة إلى أن خلودهم فی العذاب و العقاب، و فی هذه الحالات لا یسلب القدرة من اللّه على تغییر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۴

الحکم، فهو قادر فی أی وقت یشاء أن یغیر ذلک، و إن أبقاه خالدا لجمع منهم.

و إمّـا أن تکون إشـارة إلى الـذین لا یسـتحقون الخلود فی العـذاب، أو الجـدیرون بنیل العفو الإلهی، فیجب اسـتثناؤهم من الخلود فی العذاب.

و فی الختام تقول الآیة: إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ فعقابه مبنی على حساب دقیق، و کذلک عفوه، لأنّه عالم بمن یستحقهما.

الآیة التّالیة تشـیر إلى سـنّة إلهیة ثابتة بشأن هؤلاء الأشـخاص، و تقرر أنّ هؤلاء الطغاة و الظالمین سیکون وضعهم فی الآخرة کما کانوا علیه فی الدنیا یجر بعضـهم بعضا نحو التهلکة و سوء المصـیر و الانحراف: کَذلِکَ نُوَلِّی بَعْضَ الظَّالِمِینَ بَعْضاً بِما کانُوا یَکْسِبُونَ و کما ذکرنا فی البحوث الخاصّـة بالمعاد فان یوم القیامـة مشـهد ردود الفعل فی صور مکبرة، و ما یوجد هناک انعکاس عن أعمالنا فی هذه الدنیا.

جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم القمی عن الإمام علیه السّـلام فی معنى هذه الآیة قال: «أی نولی کل من تولى أولیاءهم فیکونون معهم یوم القیامة».

و من الجـدیر بالملاحظـة أنّ جمیع هؤلاء قد وصـفوا بالظلم فی هذه الآیة، و لا شک أنّ الظلم بمعناه الواسع یشـملهم جمیعا، فأی ظلم أکبر من أن یخرج الإنسان نفسه من ولایة اللّه لیداخل فی ولایة المستکبرین و یتّبعهم فیکون فی العالم الآخر تحت ولایتهم أیضا.

ثمّ إنّ هذا التعبیر، و کذلک تعبیر بِما کانُوا یَکْسِـبُونَ یشـیران إلى أنّ هذا المصـیر السـیء إنّما هو بسـبب أعمالهم، و هذه سـنة إلهیة و قانون الخلیقة القاضی بأنّ السائرین فی الظلام لا بدّ أن یسقطوا فی هوة التعاسة و الشقاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۵

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۳۰ الى ۱۳۲]

اشارة

یـا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ یَأْتِکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیاتِی وَ یُنْـذِرُونَکُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هـذا قالُوا شَـهِدْنا عَلى أَنْفُسِـنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ کانُوا کافِرِینَ (۱۳۰) ذلِکَ أَنْ لَمْ یَکُنْ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ (۱۳۱) وَ لِکُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّکَ بِغافِلٍ عَمَّا یَعْمَلُونَ (۱۳۲)

التّفسیر

إتمام الحجة:

ورد وصف مصیر الظالمین من أتباع الشیاطین یوم القیامة فی الآیات السابقة و لکیلا یظن أحد أنّهم فی حالة من الغفلة ارتکبوا ما ارتکبوه من إثم، تبیّن هذه الآیات أن تحذیرهم قد تمّ بما فیه الکفایة و تمّت علیهم الحجة، لذلک یقال لهم یوم القیامة: یا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ یَأْتِکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیاتِی وَ یُنْذِرُونَکُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هذا.

«معشر» من العدد «عشرة»، و بما أن العشرة تعتبر عددا کاملا، فالمعشر هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۶

الجماعة الکاملة التی تضم مختلف الطوائف و الأصناف، أمّا بشأن الرسل الذین بعثوا إلی الجن هل کانوا منهم، أم من البشر؟ فهناک کلام بین المفسّرین، و لکن الذی یستفاد من آیات سورة الجن یدل بجلاء علی أنّ الإسلام و القرآن للجمیع بما فیهم الجن، و أنّ نبی الإسلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی الجمیع، و لکن هذا لا یمنع أن یکون لهم رسل و ممثلون من جنسهم عهد إلیهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بدعوتهم إلی الإسلام (سیأتی شرح ذلک بالتفصیل، و کذلک المعنی العلمی للجن فی تفسیر سورة الجن فی الجزء ۲۹ من القرآن الکریم).

و لکن ینبغی أن نعلم أنّ «منکم» لا تعنی أن أنبیاء کل جنس یکونون من الجنس نفسه، لأنّنا عند ما نقول: «نفر منکم ...» یمکن أن یکون هؤلاء من طائفة واحدة أو من عدّة طوائف.

ثمّ تقول الآیة: قالُوا شَهِدْنا عَلی أَنْفُسِنا لأنّ یوم القیامة لیس یوم الکتمان، بل إنّ دلائل کل شیء تکون بادیة للعیان، و ما من أحد یستطیع أن یخفی شیئا، فالجمیع یعترفون أمام هذا السؤال الإلهی قائلین: إنّنا نشهد ضد أنفسنا و نعترف أنّ الرسل قد جاؤونا و أبلغونا رسالاتک و لکنّنا خالفناها.

نعم ... لقد کانت أمامهم آیات و دلائل کثیرة من اللّه، و کان یمیزون الخطأ من الصواب، إلّا أنّ الحیاة الدنیا ببریقها و مظاهرها قد خدعتهم و أضلتهم: وَ غَرَّتْهُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا.

هذه الآیة تدل بوضوح علی أنّ العقبة الکبری فی طریق سعادة البشر هی الحبّ اللامحدود لعالم المادة و الخضوع له بلا قید و لا شرط، ذلک الحبّ الذی کبل الإنسان بقیود الأسر و دفعه إلی ارتکاب کل ألوان الظلم و العدوان و الإجحاف و الأنانیة و الطغیان.

مرّة أخری یؤکّد القرآن أنّهم شهدوا علی أنفسهم بألسنتهم بأنّهم قد ساروا فی طریق الکفر و وقفوا إلی جانب منکری اللّه: وَ شَهِدُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ کانُوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۷

کافِرِینَ

الآیة التّالیة تعید المضمون السابق بصورة قانون عام و سنة ثابتة، و هی: أنّ اللّه لا یأخذ الناس فی المدن و المناطق المسکونة بظلمهم إذا کانوا غافلین، إلّا بعد أن یرسل إلیهم الرسل لینبهوهم إلی قبیح أعمالهم، و یحذروهم من مغبة أفعالهم:

ذلِکَ أَنْ لَمْ یَکُنْ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُری بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ

قد تعنی «بظلم» أنّ اللّه لا یعاقب أحدا بسبب ظلمه و هو غافل عنه، و قبل أن یرسل الرسل، و قد تکون بمعنی أنّ اللّه لا یظلم أحدا بأن یعاقبه عمّا فعل و هو غافل، لأنّ معاقبتهم بهذه الصورة تعتبر ظلما، و اللّه أرفع من أن یظلم أحدا[۲۸۱].

و تذکر الآیة الثالثة خلاصة ما ینتظر هؤلاء من مصیر و تقرر أنّ لکل من هؤلاء- الأخیار و الأشرار، المطیعین و العصاة، طالبی العدالة و الظالمین- درجات و مراتب یوم القیامة تبعا لأعمالهم، و إن ربک لا یغفل عن أعمالهم، بل یعلمها جمیعا، و یجزی کلا بقدر ما یستحق: وَ لِکُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّکَ بِغافِلٍ عَمَّا یَعْمَلُونَ

هذه الآیة تؤکّد مرّة أخری الحقیقة القائلة بأنّ جمیع «الدّرجات» و «الدّرکات» التی یستحقها الإنسان إنّما هی ولیدة أعماله، لا غیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۸

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۳۳ الی ۱۳۵]

اشارة

وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ ما یَشاءُ کَما أَنْشَأَکُمْ مِنْ ذُرِّیَّةِ قَوْمٍ آخَرِینَ (۱۳۳) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۱۳۴) قُلْ یا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلی مَکانَتِکُمْ إِنِّی عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۱۳۵)

التّفسیر

الآیة الأولی تستدل علی ما سبق فی الآیات التی مرّت بشأن عدم ظلم اللّه تعالی، و یؤکّد أنّ اللّه لا حاجة له بشیء و هو عطوف و رحیم، و علیه لا دافع له علی أن یظلم أحدا أبدا، لأن من یظلم لا بدّ أن یکون محتاجا، أو أن یکون قاسی القلب فظا: وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَةِ کما أنّه لا حاجة له بطاعة البشر، و لا یخشی من ذنوبهم، بل إنّه قادر علی إزالة کل جماعة بشریة و وضع آخرین مکانها کما فعل بمن سبق تلک الجماعة: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ ما یَشاءُ کَما أَنْشَأَکُمْ مِنْ ذُرِّیَّةِ قَوْمٍ آخَرِینَ

بناء علی ذلک فهو غنی لا حاجة به إلی شیء، و رحیم، و قادر علی کل شیء، فلا یمکن إذن أن نتصوره ظالما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۹

و إذا أدرکنا قدرته التی لا حدود لها یتّضح لنا أنّ ما وعده بشأن یوم القیامة و الجزاء سوف یتحقق فی موعده بدون أی تخلف: إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ

کما أنّکم لا تستطیعون أن تخرجوا عن نطاق حکمه و لا أن تهربوا من قبضته العادلة: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ ۲۸۲].

ثمّ یؤمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یهددهم: قُلْ یا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلی مَکانَتِکُمْ إِنِّی عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

هنا أیضا نلاحظ أنّ کلمة «الکفر» استعیض عنها بکلمة «ظلم»، و هذا یعنی أنّ الکفر و إنکار اللّه نوع من الظلم الصریح، فهو ظلم بحق النفس، و ظلم بحق المجتمع، و لما کان الظلم یناقض العدالة العامّة فی عالم الوجود، فهو محکوم بالإخفاق و الهزیمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۰

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۱۳۶]

اشارة

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِیباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَکائِنا فَما کانَ لِشُرَکائِهِمْ فَلا یَصِلُ إِلَی اللَّهِ وَ ما کانَ لِلَّهِ فَهُوَ یَصِلُ إِلی شُرَکائِهِمْ ساءَ ما یَحْکُمُونَ (۱۳۶)

التّفسیر

لاقتلاع جذور الشرک و عبادة الأصنام من الأذهان یعود القرآن إلی ذکر العادات و التقالید و العبادات الخرافیة السائدة بین المشرکین، و یثبت فی بیان واضح أنّها خرافیة و لا أساس لها، فقد کان کفّار مکّة و سائر المشرکین یخصصون للّه سهما من مزارعهم

و أنعامهم، کما کانوا یخصصون سهما منها لأصنامهم أیضا، قائلین: هذا القسم یخص اللّه، و هذا القسم یخص شرکاءنا أی الأصنام: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِیباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَکائِنا.

علی الرغم من أنّ الآیة تشیر إلی نصیب اللّه فقط، و لکن العبارات التّالیة تدل علی أنّهم کانوا یخصصون نصیبا للأصنام أیضا، جاء فی بعض الرّوایات: أنّهم کانوا یصرفون ما یخصصونه للّه علی الأطفال و الضیوف، و النصیب المخصص للأصنام من الزرع و الأنعام کانوا یصرفونه علی خدم الأصنام و القائمین علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۱

معابدها و الأضاحی و علی أنفسهم أیضا[۲۸۳].

سبب اعتبارهم الأصنام شرکاءهم یعود إلی کونهم یرونها شریکة لهم فی أموالهم و حیاتهم.

و تعبیر مِمَّا ذَرَأَ أی ممّا خلق، یشیر إلی بطلان مزاعمهم، إذ إنّ کل أموالهم و ما یملکون هو ممّا خلق اللّه فکیف یجعلون نصیبا منه للّه و نصیبا منه للأصنام؟! ثمّ تشیر الآیة إلی واحد من أحکامهم العجیبة و هو الحکم بأنّ ما خصصوه لشرکائهم لا یصل إلی اللّه، و لکن ما خصصوه للّه یصل إلی شرکائهم فَما کانَ لِشُرَکائِهِمْ فَلا یَصِلُ إِلَی اللَّهِ وَ ما کانَ لِلَّهِ فَهُوَ یَصِلُ إِلی شُرَکائِهِمْ

اختلف المفسّرون بشأن المقصود من هذه الآیة، و لکن آراءهم کلها تدور حول حقیقة واحدة، هی أنّه إذا أصاب نصیب اللّه ضرر علی أثر حادثة قالوا: هذا لا أهمیة له لأنّ اللّه لا حاجة به إلیه، و لکن إذا أصاب الضرر نصیب أصنامهم عوضوا عنه من نصیب اللّه، قائلین: إنّ الأصنام أشد حاجة إلیه.

کما أنّهم إذا نفذ الماء المار بمزرعة اللّه إلی مزرعة الأصنام قالوا: لا مانع من ذلک، فاللّه لیس محتاجا، و لکن إذا حدث العکس منعوا الماء المتسرب إلی مزرعة اللّه، قائلین: إنّ الأصنام أحوج! و فی الختام تدین الآیة هذه الخرافات فتقول: ساءَ ما یَحْکُمُونَ

إنّ قبح عملهم- فضلا عن قبح عبادة الأصنام- یتبیّن فی الأمور التّالیة.

۱- علی الرغم من أنّ کل شیء هو من خلق اللّه، و ملک له دون منازع، و أنّه هو الحاکم علی کل الکائنات و هو مدبرها و حافظها فإنّهم إنّما کانوا یخصصون جانبا من ذلک کله للّه، و کأنّهم هم المالکون الأصلیون، و کأنّ حق التقسیم بیدهم، (إنّ جملة مِمَّا ذَرَأَ تشیر إلی هذا کما قلنا).

۲- لقد کانوا فی هذا التقسیم یلزمون جانب الأصنام و یفضلون ما لها علی ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۲

للّه، لذلک لم یکونوا یهتمون بما یصیب نصیب اللّه من ضرر، و لکنّهم کانوا یجبرون کل ضرر یصیب نصیب الأصنام من نصیب اللّه، فکان هذا تحیزا إلی جانب الأصنام ضد اللّه! ۳- یتبیّن من بعض الرّوایات أنّهم کانوا یهتمون اهتماما کبیرا بحصة الأصنام، فقد کان خدم الأصنام و القائمون علی معابدها و کذلک المشرکون یأکلون من حصة الأوثان، بینما کانوا یخصصون حصة اللّه للأطفال و للضیوف، و تدل القرائن علی أنّ الأغنام السمینة و المحاصیل الزارعیة الجیدة کانت من نصیب الأصنام، أی لمصلحة السدنة الخاصّة.

کل هذا دل علی أنّهم فی هذا التقسیم لم یکونوا یعترفون للّه حتی بمنزلة مساویة لمنزلة الأصنام.

فأی حکم أقبح و أدعی إلی العار من أن یعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذی لا قیمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل هناک هبوط فکریّ أحط من هذا؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۳

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۱۳۷]

اشارة

وَ کَذلِکَ زَیَّنَ لِکَثِیرٍ مِنَ الْمُشْرِکِینَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَکاؤُهُمْ لِیُرْدُوهُمْ وَ لِیَلْبِسُوا عَلَیْهِمْ دِینَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما یَفْتَرُونَ (۱۳۷)

التّفسیر

یشیر القرآن فی هذه الآیة إلی عمل قبیح آخر من أعمال عبدة الأصنام القبیحة و جرائمهم الشائنة، و یذکر أنّه کما ظهر لهم أنّ تقسیمهم الحصص بین اللّه و الأصنام عمل حسن بحیث إنه اعتبروا هذا العمل القبیح و الخرافی، بل و المضحک، عملا محمودا، کذلک زین الشرکاء قتل الأبناء فی أعین الکثیرین من المشرکین بحیث إنّهم راحوا یعدون قتل الأولاد نوعا من «الفخر» و «العبادة»:

وَ کَذلِکَ زَیَّنَ لِکَثِیرٍ مِنَ الْمُشْرِکِینَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَکاؤُهُمْ

«الشّرکاء» هنا هم الأصنام، فقد کانوا أحیانا یقدمون أبناءهم قرابین لها، أو کانوا ینذرون أنّهم إذا وهبوا ابنا یذبحونه قربانا لأصنامهم، کما جاء فی تاریخ عبدة الأصنام القدامی و علیه فان نسبة «التزیین» للأصنام تعود إلی أن شدة تعلقهم بأصنامهم و حبهم لها کان یحدو بهم إلی ارتکاب هذه الجریمة النکراء و استنادا إلی هذا التّفسیر، فإنّ قتل الأولاد هذا لا علاقة له بوأد البنات أو قتل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۴

الأولاد خشیة الإملاق.

یحتمل أیضا أن یکون المقصود بتزیین الأصنام هذه الجریمة، هو أن القائمین علی أمر الأصنام و المعابد هم الذین کانوا یحرضونهم علی هذا العمل و یزینونه لهم، باعتبارهم الألسنة الداعیة باسم الأصنام، فقد جاء فی التّأریخ أنّ العرب کانوا إذا عزموا علی السفر أو الأعمال المهمّة، طلبوا الإذن من «هبل» کبیر أصنامهم، و ذلک بأن یضربوا بالقداح، أی بأسهم المیسر، فقد کان هناک کیس معلق بجانب هبل فیه سهام کتب علی مقابضها «افعل» أو «لا تفعل»، فکانوا یخلطون السهام ثمّ یسحبون واحدا منها، فما کتب علیه یکون هو الأمر الصادر من هبل، و بهذه الطریقة کانوا یتصورون أنّهم یکتشفون آراء أصنامهم، فلا یستبعد أنّهم فی مسألة قتل أولادهم قرابین للأصنام کانوا یلجأون إلی أولیاء المعابد لیأتوهم بما تأمر به الأصنام.

هنالک أیضا الاحتمال القائل بأن وأد البنات- الذی کان سائدا، کما یقول التّأریخ بین قبائل بنی تمیم لرفع العار- کان أمرا صادرا عن الأصنام، فقد جاء فی التّأریخ أنّ «النعمان بن المنذر» هاجم بعض العرب و أسر نساءهم و فیهن ابنة «قیس بن عاصم» ثمّ أقرّ الصلح بینهم و عادت کل امرأة إلی عشیرتها، عدا ابنة قیس التی فضلت البقاء عند العدو لعلها تتزوج أحد شبانهم، فکان وقع هذا شدیدا علی قیس، فاقسم بالأصنام انّه إذا رزق بابنة أخری فانه سوف یئدها حیة، ثمّ لم یمض زمن طویل حتی أصبح هذا العمل الشائن سنّة بینهم، و باسم الدفاع عن العرض راحوا یرتکبون أفظع جریمة بقتلهم أولادهم الأبریاء[۲۸۴].

و علیه، فإنّ وأد البنات یمکن أن یکون مشمولا بمفهوم هذه الآیة.

هنالک أیضا احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیة و ان لم یتطرق إلیه المفسّرون،

.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۵

و هو أنّ عرب الجاهلیة کانوا علی درجة من التقدیر و الاحترام لأصنامهم بحیث إنّهم کانوا یصرفون أموالهم الثمینة علی تلک الأصنام و علی خدامها المتنفذین الأثریاء، و یبقون هم فی فقر مدقع إلی الحد الذی کان یحملهم هذا الفقر و الجوع علی قتل بناتهم.

فهذا التعلق الشدید بالأصنام کان یزین لهم عملهم الشنیع ذاک.

و لکن التّفسیر الأوّل، أی التضحیة بأولادهم قربانا للأصنام، أقرب إلی نص الآیة.

ثمّ يوضح القرآن أنّ نتيجة تلك الأفعال القبيحة هى أنّ الأصنام و خدامها ألقوا بالمشركين فى مهاوى الهلاك، و شككوهم فى دين اللّه، و حرموهم من الوصول إلى الدين الحق: لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ

و مع ذلك كله، فإنّ اللّه قادر على أن يوقفهم عند حدهم بالإكراه، و لكن الإكراه خلاف سنة اللّه، إنّ اللّه يريد أن يكون عباده أحرارا لكى يمهد أمامهم طريق التربية و التكامل، و ليس فى الإكراه تربية و لا تكامل: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ

و ما دام هؤلاء منغمسين فى أباطيلهم و خرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنّهم ينسبونها أحيانا إلى اللّه، إذن فاتركهم و اتهاماتهم و التفت إلى تربية القلوب المستعدة: فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۶

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۸ الى ۱۳۹]

اشارة

وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳۸) وَ قالُوا ما فِى بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۳۹)

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبدة الأوثان، و التى تدل على قصر نظرتهم و ضيق تفكيرهم، و تكمل ما مر فى الآيات السابقة.

تذكر فى البداية أقوال المشركين بشأن من لهم الحق فى نصيب الأصنام من زرع و أنعام، و تبيّن أنّهم كانوا يرون أنّها محرمة إلّا على طائفة معينة: وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ

و مرادهم المتولّون أمور الأصنام و المعابد، و المشركون كانوا يذهبون إلى أنّ لهؤلاء وحدهم الحق فى نصيب الأصنام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۷

يتّضح من هذا أنّ القسم الأوّل من الآية يشير إلى كيفية تصرفهم فيما يخصصونه للأصنام من الزرع و الأنعام.

«الحجر» هو المنع، و لعلها مأخوذة كما يقول الراغب الأصفهانى فى «المفردات» من الحجر، و هو أنّ يبنى حول المكان بالحجارة ليمنع عما وراءه، و حجر إسماعيل سمى بذلك لأنّه مفصول عن سائر أقسام المسجد الحرام بجدار من حجر، و على هذا الاعتبار يطلق على «العقل» اسم «الحجر»، أحيانا، لكونه يمنع المرء من ارتكاب الأعمال القبيحة، و إذا ما وضع أحد تحت رعاية أحد و حمايته قيل: إنّه فى حجره، و المحجور هو الممنوع من التصرف فى ماله ۲۸۵].

ثمّ تشير الآية إلى واحدة أخرى من خرافاتهم تقضى بمنع ركوب بعض الدواب: وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها.

الظاهر أنّها هى الحيوانات التى مرّ ذكرها فى تفسير الآية (۱۰۳) من سورة المائدة، و هى «السائبة» و «البحيرة» و «الحام» (انظر التفسير المذكور لمزيد من التوضيح).

ثمّ تشير إلى القسم الثّالث من الأحكام الباطلة فتقول: وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا.

و لعلها إشارة إلى الحيوانات التى كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هى المطايا التى كانوا يحرمون ركوبها للذهاب إلى الحج، كما جاء ذلك فى تفسير «مجمع البيان» و «التّفسير الكبير» و «المنار» و «القرطبى» نقلا عن بعض المفسّرين، و فى

كلتا الحالتين كان الحكم خرافيا لا أساس له.

و الأعجب من ذلك أنّهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغة، بل راحوا ينسبون إلى اللّه كل ما يخطر لهم من كذب: افْتِراءً عَلَيْهِ

و فى ختام الآية، و بعد ذكر تلك الأحكام المصطنعة، تقول إنّ اللّه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۸

سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ

نعم، إذا أراد الإنسان- بفكره الناقص القاصر- أن يضع القوانين و الأحكام، فلا شك أنّ كل طائفة سوف تضع من القوانين ما ينسجم و أهواءهم و مطامعهم، فيحرمون على أنفسهم أنعم اللّه دون سبب، أو يحللون على أنفسهم أفعالهم القبيحة، و هذا هو سبب قولنا إنّ اللّه وحده هو الذى يسنّ القوانين لأنّه يعلم كل شيء و يعرف دقائق الأمور، و هو سبحانه بمعزل عن الأهواء.

الآية التّالية تشير إلى حكم خرافى آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضى بأنّ حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، و هو حرام على الزوجات، أمّا إذا خرج ما فى بطونها ميتا، فكلهم شركاء فيه: وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ.

و لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذِهِ الْأَنْعامِ هى الحيوانات التى ذكرناها من قبل.

يرى بعض المفسّرين أنّ عبارة ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ تشمل لبن هذه الأنعام، و لكن عبارة وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً تبيّن أنّ المقصود هو الجنين الذى إذا ولد حيّا فهو للذكور، و إنّ ولد ميتا- و هو ما لم يكن مرغوبا عندهم- فهم جميعا شركاء فيه بالتساوى.

هذا الحكم لا- يقوم- أوّلا- على أى دليل، و هو- ثانيا- قبيح و بشع فيما يتعلق بالجنين الميت، لأنّ لحم الحيوان الميت يكون فى الغالب فاسدا و مضرا، ثمّ هو- ثالثا- نوع من التمييز بين الرجل و المرأة، بجعل الطيب للرجال فقط، و بجعل المرأة شريكة فى الفاسد فقط.

ينهى القرآن هذا الحكم الجاهلى، و يقرر أنّ اللّه سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ

«الوصف» هنا يشير إلى ما كانوا ينسبونه إلى اللّه، كأنّ ينسبون إليه تحريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۹

هذه اللحوم بالرغم من أنّ المقصود هو الصفة أو الحالة التى تستولى على المذنب على أثر تكرار، الإثم و تجعله مستحقا للعقاب، و ختاما تقول: إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

فهو عليم بأعمالهم و أقوالهم و اتهاماتهم الكاذبة، كما أنّه يعاقبهم وفق حساب و حكمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۰

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۰]

اشارة

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (۱۴۰)

التّفسير

تعقيبا على الآيات السابقة التى تحدثت عن بعض الأحكام التافهة و التقاليد القبيحة فى عصر الجاهلية الشائن، كقتل الأبناء قربانا للأصنام، و وأد البنات خشية العار، و تحريم بعض نعم اللّه الحلال، تدين هذه الآية كل تلك الأعمال بشدة، فى سبعة تعبيرات و فى

جمل قصيرة نافذة توضح حالهم.

ففى البداية تقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ فعملهم وصف هنا بأنّه خسران بالمنظار الإنسانى و الأخلاقى، و بالمناظر العاطفى و الاجتماعى، و الخسارة الكبرى هى الخسارة المعنويـة فى العالم الآخر. فهـذه الآية تعتبر عملهم أولا «خسـرانا» ثمّ «سـفاهة» و خفـة عقل، ثمّ «جهلا» و كل صـفة من هذه الصـفات الثلاث كافية لإظهار قبح أعمالهم، فأى عقل يجيز للأب أن يقتل أولاده بيده؟ أو ليس هذا من السـفاهة و خفة العقل أن يفعل هذا ثمّ لا يخجل من فعلته، بل يعتبرها نوعا من الفخر و العبادة؟ أى علم يجيز للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانونا اجتماعيا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۱

من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضرورة قراءة سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلف الأقوام الجاهليين.

ثمّ يذكر القرآن أنّ هؤلاء قد حرموا على أنفسـهم ما رزقهم اللّه و أحله لهم و كذبوا على اللّه و نسـبوا هذه الحرمة له سبحانه: وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ

فى هـذه العبـارة إدانـة أخرى لأعمـالهم، فهم- أوّلا- حرموا على أنفسـهم النعمـة التى «رزقهم» إيّاهـا و أباحهـا لهم و كانت ضـرورية لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون اللّه.

و هم- ثانيا- «افتروا» على اللّه قائلين إنّه هو الذى أمر بذلك.

فى ختام الآية و فى جملتين قصيرتين إدانة أخرى لهم، فهم: قَدْ ضَلُّوا، ثمّ إنّهم لم يسلكوا يوما الطريق المستقيم: وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۱]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (۱۴۱)

التّفسير

درس عظيم على درب التوحيد:

لقد جاءت الإشارة فى هذه الآية إلى عدّة مواضيع، كل واحد منها متفرع عن الآخر، و نتيجة عنه.

فهو تعالى يقول أوّلا: إنّ اللّه تعالى هو الـذى خلق أنواع البساتين و المزارع الحاويـة على أنواع الأشـجار و النباتات، فمنها ما يعتمد فى موقفه على الأعمـدة و العروش حيث تحمل ما لـذّ و طاب من الفواكه و الثمار، و تخلب بمنظرها الساحر العيون و الألباب، و منها ما لا يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقى بظلاله الوارفـة على رؤوس الآدميّين، و يسـدّ بثماره المتنوعة حاجة الإنسان إلى الغذاء: وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۳

لقد ذهب المفسّرون فى تفسير كلمة «معروش» و «غير معروش» إلى ثلاثة احتمالات:

۱- ما أشـرنا إليه قبل قليل، فالمعروش هو الأشـجار و النباتات التى لا تقوم على سوقها بل تحتاج إلى عروش و سقف، و غير المعروش

هو الأشجار و النباتات التی تقوم علی سوقها و لا تحتاج إلی عروش و سقف، (لأنّ العرش یدلّ علی ارتفاع فی شیء، و لهذا یقال لسقف البیت عرش، و یقال للسریر المرتفع عرش).

۲- إنّ المراد من «المعروش» هو الأشجار المنزلیة و ما یزرعه الناس و یحفظ بواسطة الحیطان فی البساتین، و من «غیر المعروش» الأشجار البرّیة و النباتات الصحراویة و الجبلیة و ما ینبت فی الغابات.

۳- «المعروش» هو ما یقوم علی ساقه من الأشجار أو یرتفع علی الأرض، و «غیر المعروش» هو الأشجار التی تمتد علی الأرض.

و لکن یبدو أنّ المعنی الأوّل أنسب، هنا، و لعلّ ذکر «المعروشات» فی مطلع الحدیث إنّما هو لأجل بنیان هذا النوع من الأشجار و ترکیبها العجیب، فإنّ نظرة عابرة إلی شجرة الکرم و قضبان العنب و سیقانها الملتویة العجیبة، و المزوّدة بکلالیب و مقابض خاصّة، و کیفیة التفافها بکل شیء حتی تستطیع أن تنمو، و تثمر، خیر شاهد علی هذا الزعم.

ثمّ إنّ الآیة تشیر إلی نوعین من البساتین و المزارع إذ تقول: وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ

و ذکر هذین النوعین بالخصوص إنّما هو لأهمیتهما الخاصّة فی حیاة البشر، و دورهما فی نظامه الغذائی (و لا بدّ أن تعرف أن الجنّة کما تطلق علی البستان، کذلک تطلق علی الأرض التی غطّاها الزرع).

ثمّ إنّه تعالی یضیف قائلا: إنّ هذه الأشجار مختلفة و متنوعة من حیث الثمر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۴

و الطعم. فمع أنّ جمیعها ینبت من أرض واحدة و یسقی بماء واحد فإن لکل واحدة منها رائحة خاصّة، و نکهة معینة، و خاصیة تختص بها، و لا توجد فی غیرها: مُخْتَلِفاً أُکُلُهُ ۲۸۶].

ثمّ یشیر سبحانه إلی قسمین آخرین من الثمار عظیمی الفائدة، جلیلی النفع فی مجال التغذیة البشریة إذ یقول: وَ الزَّیْتُونَ وَ الرُّمَّانَ

إن إختیار هاتین بالذکر من بین أشجار کثیرة إنّما هو لأجل أن هاتین الشجرتین: (شجرة الزیتون و شجرة الرمان) رغم تشابههما من حیث الظاهر و المظهر تختلفان اختلافا شاسعا من حیث الثمرة، و من حیث الخاصیة الغذائیة، و لهذا عقّب علی قوله ذلک بهاتین الکلمتین: مُتَشابِهاً، وَ غَیْرَ مُتَشابِهٍ ۲۸۷].

و بعد ذکر کلّ هذه النعم المتنوّعة یقول سبحانه: کُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ، وَ آتُوا حَقَّهُ یَوْمَ حَصادِهِ

ثمّ ینهی فی نهایة المطاف عن الإسراف إذ یقول تعالی: وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْمُسْرِفِینَ

«الإسراف» تجاوز حدّ الاعتدال فی کل فعل یفعله الإنسان. و هذه الجملة یمکن أن تکون إشارة إلی عدم الإسراف فی الأکل، أو عدم الإسراف فی الإنفاق و البذل، لأنّ البعض قد یسرف فی البذل و الإنفاق إلی درجة أنّه یهب کل ما عنده إلی هذا و ذاک، فیقع هو و أبناؤه و أهله فی عسر و فقر و حرمان!!

بحوث

۱- ارتباط هذه الآیة بالآیات السابقة

فی الآیات السابقة من هذه السورة جری حدیث عن الأحکام الخرافیة التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۵

کانت سائدة بین الوثنیین، الذین کانوا یجعلون نصیبا من الزرع و الأنعام للّه، و کانوا یعتقدون بأنّ ذلک النصیب یجب أن یصرف علی نحو خاص، کانوا یحرّمون رکوب بعض الأنعام، و یقدّمون أولادهم قرابین إلی بعض الأصنام و الأوثان!! إنّ الآیة الحاضرة، و الآیة

اللاحقـة تحملاـن ردّا على جمیع هـذه الأحكام و المقررات الخرافیّـة الجاهلیـة إذ تقولان بصـراحة، إنّ اللّه تعالى هو خالق جمیع هـذه النعم، فهو الـذی أنشأ جمیع هـذه الأشـجار و الأنعام و الزروع، كما أنّه هو الـذی أمر بالانتفاع بها، و عـدم الإسـراف فیها، و على هـذا الأساس فلیس لغیره أی حق لا فی «التحریم»، و لا فی «التحلیل».

۲- ماذا تعنی جملة

إذا أَثْمَرَ مع ذكر «ثمره» قبل ذلك؟ فقد وقع فیه كلام بین المفسّرین، و لكن الظاهر أن هذه الجملة تهدف إلى تقریر و بیان أنّ بمجرد ظهور الثمار على هذه الأشـجار، و ظهور سنابل القمح، و الحبوب فی الزرع یجوز الانتفاع بها حتى إذا لم یعط منها حقوق الفقراء بعد، و إنما یجب إیتاء هذا الحق لأهله حین حصاد الزرع، و قطاف الثمر (یوم الحصاد) كما یقول تعالى: وَ آتُوا حَقَّهُ یَوْمَ حَصادِهِ

۳- ما هو المراد من الحقّ الذی یجب إعطاؤه؟

یرى البعض أنّها هی الزّكاة الواجبة المفروضة، أی عشر أو نصف عشر المحصول البالغ حدّ النصاب الشرعی.
بیـد أنه مع الالتفات إلى أنّ هذه السورة قد نزلت فی مكّة، و أن حكم الزّكاة نزل فی السـنة الثانیة من الهجرة أو بعد ذلك فی المدینة المنورة، یبدو مثل هذا الاحتمال بعیدا.
الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۶
و قد عرّف هذا الحق فی روایات عدیدة وصلتنا من أهل البیت علیهم السّـلام، و كذا فی روایات عدیدة وردت فی مصادر أهل السـنة بغیر الزّكاة.
و جاء فیها أنّ المراد منه هو یعطى من المحصول إلى الفقیر عند حضوره عملیة الحصاد أو القطاف، و لیس له حدّ معین ثابت [۲۸۸].
و فی هذه الحالة، هل هذا الحكم وجوبی أم استحبابی؟
یرى البعض أنه حكم وجوبی، أی أنّ إعطاء هذا الحق كان واجبا على المسـلمین قبل تشـریع حكم «الزّكاة» و لكنّه نسخ بعد نزول آیة الزّكاة، فحلّت الزّكاة بحدودها الخاصّة محل ذلك الحق.
و لكن یستفاد من أحادیث أهل البیت علیهم السّلام أن هذا الحكم لم ینسخ، بل هو باق فی صورة الحكم الاستحبابی، و هذا یعنی أنه یستحبّ الآن إعطاء شیء من المحاصیل الزراعیة إلى من یحضر عند حصادها و قطافها من الفقراء.
۴- یمكن أن یكون التعبیر بكلمـة «یوم» إشـارة إلى أنه یحبّـذ أن یوقع حصـاد الزرع، و قطـاف الثمر فی النهـار حتى إذا حضـر الفقراء یعطى إلیهم شیء منها، لا فی اللیل كما یفعل بعض البخلاء لكیلا یعرف أحد بهم.
و قد أكّدت الرّوایات الواصلة إلینا من أهل البیت علیهم السّلام على هذا الأمر أیضا[۲۸۹].
الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۷

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۴۲ الى ۱۴۴]

اشارة

وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّیْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ (۱۴۲) ثَمانِیَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَیْنِ وَ

مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۴۳) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۴۴)

التّفسير

إنّ هذه الآيات- كما أشرنا إلى ذلك- بصدد إبطال أحكام خرافيّة جاهليّة كان المشركون يدينون بها في مجال الزراعة و الأنعام.

ففي الآية المتقدمة جرى الحديث حول أنواع المزروعات و الثمار التى

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۸

أنشأها اللّه، و في هذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحلّلة اللحم، و ما تؤديه من خدمات، و ما يأتي منها من منافع.

يقول أوّلا: إنّ اللّه هو الذي خلق لكم حيوانات كبيرة للحمل و النقل، و أخرى صغيرة: وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً[۲۹۰].

و «حمولة» جمع و ليس لها مفرد- كما قال علماء اللغة- و تعني الحيوانات الكبيرة التي تستخدم للحمل و النقل كالابل و الفرس و نظائرها.

و «فرش» هو بنفس المعنى المتعارف، و لكن فسّر هنا بالغنم و ما يشابهه من الحيوانات الصغيرة، و الظاهر أنّ العلة في ذلك هو أنّ هذا النوع من الأنعام لصغرها و اقترابها من الأرض كالفراش في مقابل الأنعام و الحيوانات الكبيرة الجثة- التي تقوم بعملية الحمل و النقل، كالإبل- فعند ما نشاهد قطعيا من الأغنام و هي مشغولة بالرعي في الصحاري و المراعي بدت لنا و كأنّها فرش ممدودة على الأرض، في حين أن قطيع الإبل لا يكون له مثل هذا المنظر.

ثمّ إنّ تقابل «الحمولة» «الفرش» أيضا يؤيد هذا المعنى.

و قد ذهب بعض المفسّرين إلى احتمال آخر أيضا، و هو أن المراد من هذه الكلمة هي الفرش التي يتخذها الناس من هذه الأنعام و الحيوانات، يعني أن الكثير من هذه الحيوانات تستخدم للحمل و النقل، كما يستفاد منها في صنع الفرش. و لكن الاحتمال الأوّل أقرب إلى معنى الآية.

ثمّ إنّ الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنه لمّا كانت جميع هذه الانعام قد خلقها اللّه تعالى و حكمها بيده، فإنّه يأمركم قائلا: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ

أمّا أنّه لماذا لا يقول: كلوا من هذه الأنعام و الحيوانات، بل يقول: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ فلأن الحيوانات المحلّلة اللحم لا تنحصر في ما ذكر في هذه الآيات، بل هناك حيوانات أخرى محلّلة اللحم أيضا و لكنّها لم تذكر في الآيات

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۹

السابقة.

و لتأكيد هذا الكلام و إبطال أحكام المشركين الخرافية يقول: وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فهو الذي أعلن الحرب على آدم منذ بداية الخلق.

و هذه العبارة إشارة إلى أن هذه الأحكام و المقررات العارية عن الدليل، و التي تنبع فقط من الهوى و الجهل، ما هي إلّا وساوس شيطانية من شأنها أن تبعدكم عن الحق خطوة فخطوة، و تؤدي بكم إلى متاهات الحيرة و الضلالة.

هذا و قد مرّ توضيح أكثر لهذه العبارة عند تفسير الآية (۱۶۸) من سورة البقرة.

الآية الثانية تبيّن قسما من الحيوانات المحلّلة اللحم، و بعض الأنعام التي يستفاد منها في النقل، كما يستفاد منها في تغذية البشر و طعامهم أيضا فيقول: إنّ اللّه خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام: زوجين من الغنم (ذكر و أنثى)، و زوجين من المعز: ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ

۲۹۱] مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ

و بعد ذكر هذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نبيّه فورا بأن يسألهم بصراحة:

هل أن اللّه حرّم الذكور منها أم الإناث: قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ! أم أنّه حرّم عليهم ما فى بطون الإناث من الأغنام، أم ما فى بطون الإناث من المعز؟:

أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ ! ثمّ يضيف قائلا: إذا كنتم صادقين فى أنّ اللّه حرّم شيئا ممّا تدعونه، و كان لديكم ما يدلّ على تحريم أى واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۰

نَبِّئُونِی بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

ثمّ فى الآية اللاحقة يبيّن الأزواج الأربعة الأخرى من الأنعام التى خلقها اللّه للبشر، إذ يقول: و خلق من الإبل ذكرا و أنثى، و من البقر ذكرا و أنثى، فأى واحد من هذه الأزواج حرّم اللّه عليكم: الذكور منها أم الإناث؟ أم ما فى بطون الإناث من الإبل و البقر: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ، أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ ! و حيث أن الحكم بتحليل هذه الأنعام و تحريمها إنّما هو بيد اللّه خالقها و خالق البشر و خالق العالم كله، من هنا يتوجّب على كلّ من يدّعى تحليل أو تحريم شىء منها، إمّا أن يثبت ذلك عن طريق شهادة العقل، و إمّا أن يكون قد أوحى له بذلك، أو يكون حاضرا عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند صدور هذا الحكم منه.

و لقد صرّح فى الآية السابقة بأنّه لم يكن لدى المشركين أى دليل علمىّ أو عقلىّ على تحريم هذه الأنعام، و حيث أنّهم لو يدّعوا أيضا نزول الوحى عليهم، أو النبوة، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، و هو أن يدّعوا أنّهم حضروا عند أنبياء اللّه و رسله يوم أصدروا هذه الأحكام، و لهذا يقوم اللّه لهم فى مقام الإحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء و شهدتم أمر اللّه لهم بتحليل أو تحريم شىء من هذه الأنعام: أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا؟! و حيث إنّ الجواب على هذا السؤال هو الآخر بالنفى و السلب، يثبت أنّهم ما كانوا يمتلكون فى هذا المجال إلّا الافتراء، و لا يستندون إلّا إلى الكذب.

و لهذا يضيف فى نهاية الآية قائلا: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۲۹۲].

فيستفاد من هذه الآية أن الافتراء على اللّه من أكبر الذنوب و الآثام، إنّه ظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۱

للّه تعالى و لمقامه الربوىّ العظيم، و ظلم لعباد اللّه، و ظلم النفس، و للتعبير ب «أظلم» فى مثل هذه الموارد كما قلنا سابقا، جانب نسبىّ، و على هذا فلا مانع من استعمال نفس هذا التعبير بالنسبة إلى بعض الذنوب الكبيرة الأخرى.

كما و يستفاد من هذه الآية أيضا أن الهداية و الإضلال الإلهيين لا يكونان بالجبر، بل إن لهما مقدمات و عللا تبدأ من الإنسان نفسه و تتحقق بفعله هو، فعند ما يعمد أحد باختياره إلى ممارسة الظلم و الجور يحرمه اللّه حينئذ من عنايته و حمايته، و يتركه يضيع فى متاهات الحيرة و الضلالة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۵]

اشارة

قُلْ لا أَجِدُ فِی ما أُوحِیَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ

بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴۵)

التّفسير

بعض الحيوانات المحرّمة:

ثمّ إنّه تعالى- بهدف تمييز المحرمات الإلهية عن البدع التى أحدثها المشركون و أدخلوها فى الدين الحق- أمر نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذه الآية بأن يقول لهم بكل صراحة، و من دون إجمال أو إبهام: لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَ من الشريعة أى شىء من الأطعمة يكون مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ من ذكر أو أنثى، و صغير أو كبير.

اللّهم إِلَّا عدّة أشياء، الأوّل: أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً.

أو يكون دَماً مَسْفُوحاً و هو ما خرج من الذبيحة عند التزكية بالقدر المتعارف (لا الدّماء التى تبقى فى جسم الذبيحة فى عروقها الشعرية الدقيقة، بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۳

خروج قدر كبير منها بعد الذبح).

أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ.

لأنّ جميع هذه الأشياء رجس و منشأ لمختلف الأضرار فَإِنَّهُ رِجْسٌ

إنّ الضمير فى «فإنّه» و إن كان ضمير الإفراد، إلّا أنّه يرجع- حسب ما يذهب إليه أكثر المفسّرين- إلى الأقسام الثلاثة المذكورة فى الآية (الميتة، الدم، لحم الخنزير) فيكون معنى الجملة الأخيرة هى: فإنّ كل ما ذكر رجس ۲۹۳]. و هذا هو المناسب لظاهر الآية و هو عودة الضمير إلى جميع تلك الأقسام، إذ لا شك فى أن الميتة و الدم هما أيضا رجس كلحم الخنزير.

ثمّ أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۲۹۴] أى التى لم يذكر اسم اللّه عليها عند ذبحها.

و الجدير بالتأمل أنّه ذكرت لفظة «فسقا» بدلا عن كلمة «الحيوان».

و «الفسق» كما أسلفنا يعنى الخروج عن طاعة اللّه و عن رسم العبودية، و لهذا يطلق على كل معصية عنوان الفسق.

و أمّا ذكر هذه اللفظة فى هذا المورد فى مقابل الرجس الذى أطلق على الموارد الثلاثة المذكورة سابقا، فيمكن أن يكون إشارة إلى أنّ اللحوم المحرمة على نوعين:

اللحوم المحرّمة لخباثتها بحيث تنفر منها الطباع، و توجب أضرارا جسدية، و يطلق عليها وصف الرجس (أى النجس).

اللحوم التى لا تعدّ من الخبائث، و لا تستتبع أضرارا جسميّة و صحيّة، و لكنّها- من الناحية الأخلاقية و المعنوية- تدلّ على الابتعاد عن اللّه و عن جادة التوحيد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۴

و لهذا حرّمت أيضا.

و على هذا الأساس لا يجب أن نتوقع أن تنطوى اللحوم المحرمة دائما على أضرار صحيّة، بل ربّما حرّمت لأجل أضرارها المعنوية و الأخلاقية، و من هنا يتضح أنّ الشروط الإسلامية المقرّرة فى الذبح على نوعين أيضا:

بعضها- مثل قطع الأوداج الأربعة، و خروج القدر المتعارف من دم الذبيحة- لها جانب صحّى.

و بعضها الآخر- مثل توجيه مقاديم الذبيحة نحو القبلة عند الذبح، و ذكر اسم اللّه عنده، و كون الذابح مسلما- لها جانب معنوىّ.

ثمّ إنّه سبحانه استثنی- فی آخر الآیة- من اضطر إلی تناول شیء ممّا ذکر من اللحوم المحرّمة، کما لو لم یجد أیّ طعام آخر و توقفت حیاته علی تناول شیء من تلک اللحوم، إذ قال: فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ ۲۹۵] یعنی أنّ من اضطرّ إلی أکل شیء ممّ‌ا ذکر من المنهیّات فلا- إثم علیه، بشرط أن یکون للحفاظ علی حیاته، لا للذة، و لا مستحلّا لما حرّمه اللّه، أو متجاوزا حدّ الضرورة، ففی هذه الصورة فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

و إنّما اشترط هذان الشرطان لکی لا یتذرع المضطرون بهذه الإباحة فیتعدّوا حدود ما قرّره اللّه بحجة الاضطرار، و یتخذوا من ذلک ذریعة لتجاهل حمی القوانین الإلهیة.

و لکنّنا نقرأ فی بعض الأحادیث الواردة عن آل البیت علیهم السّلام، مثل

الحدیث المنقول عن الإمام الصادق علیه السّلام: «الباغی: الظالم، و العادی: الغاصب»[۲۹۶].

کما نقرأ

فی حدیث آخر منقول عن الإمام علیه السّلام أنّه قال: «الباغی: الخارج علی

الإمام، و العادی: اللص»[۲۹۷].

هذه الرّوایات و نظائرها تشیر إلی أنّ الاضطرار إلی تناول اللحوم المحرمة یتفق عادة فی الأسفار، فإذا أقدم أحد علی السفر فی سبیل الظلم أو الغصب أو السرقة ثمّ فقد الطعام الحلال فی خلال السفر لم یجز له تناول اللحوم المحرّمة، و إن کانت وظیفته- للحفاظ علی حیاته من التلف- هو التناول من تلک اللحوم، و لکنّه یعاقب علی إثمه هذا، لأنّه أوجد بنفسه المقدمات لمثل هذا السفر الحرام، و علی کل حال فإنّ هذه الرّوایات تنسجم مع المفهوم الکلیّ للآیة انسجاما کاملا.

جواب علی سؤال:

و هنا و یطرح سؤال هو: کیف حصرت جمیع المحرمات الإلهیة- فی مجال الأطعمة- فی أربعة أشیاء، مع أنّنا نعلم بأنّ الأطعمة المحرمة لا تنحصر فی هذه الأشیاء، مثل لحوم الحیوانات المفترسة، و لحوم الحیوانات البحریة (إلّا ما کان له فلس من الأسماک) و ما شابه، فهذه کلّها حرام، فی حین لم یجیء فی الآیة أی ذکر عن تلک اللحوم، بل حصرت المحرمات فی هذه الأشیاء الأربعة؟! قال البعض فی مقام الإجابة علی هذا السؤال، بأنّ هذه الآیات نزلت فی مکّة و حکم الأطعمة المحرمة الأخری لم ینزل بعد.

غیر أنّ هذه الإجابة تبدو غیر صحیحة، و الشاهد علی ذلک أنّ نفس هذا التعبیر أو نظیره قد ورد فی السور المدنیة مثل الآیة (۱۷۳) من سورة البقرة.

و الظاهر أنّ هذه الآیة ناظرة- فقط- إلی نفی الأحکام الخرافیة التی کانت شائعة و سائدة فی أوساط المشرکین، فالحصر «حصر إضافی» لا حقیقیّ.

و بعبارة أخری: کأنّ الآیة تقول: المحرمات الإلهیة هذه، و لیس ما نسجته أوهامکم.

و لکی تتضح هذه الحقیقة لا بأس بأنّ نضرب لذلک مثلا.

یسألنا أحد: لها جاء الحسن و الحسین کلاهما، فنجیب: کلا بل جاء الحسن فقط، لا شک أننا هنا نرید نفی مجیء الشخص الثانی (أی الحسین) و لکن لا- مانع من أن یکون آخرون- ممن لم یکونوا محور حوارنا أصلا- قد جاؤوا أیضا، و هذا هو ما یسمی بالحصر

الإضافى (أو النسبىّ).

نعم، لا بدّ من الانتباه إلى نقطة مهمّة، و هى أنّ ظاهر الحصر عادة- الحصر الحقيقى إلّا فى الموارد التى يوجد فيها قرائن صارفة عن مدلول الظاهر مثل ما نحن فيه الآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۷

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷]

اشارة

وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذى ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۱۴۶) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۴۷)

التّفسير

ما حرّم على اليهود:

فى الآيات السابقة حصرت المحرمات من الحيوان فى أربعة، غير أنّ هاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرم على اليهود ليتبيّن أن أحكام الوثنيين الخرافية و المجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام، و لا على دين اليهود (بل و لا على دين المسيح الذى يتبع فى أكثر أحكامه الدين اليهودى).

ثمّ إنّه قد صرح فى هذه الآيات أن هذا النوع من المحرمات على اليهود كان له طابع المعاقبة و صفة المجازاة، و لو أنّ اليهود لم يرتكبوا الجنايات و المخالفات لما حرّم عليهم هذه الأمور، و على هذا الأساس لسائل أن يسأل الوثنيين: من أين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۸

أتيتم بهذه الأحكام المصطنعة؟

و لهذا يقول سبحانه فى البداية: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ.

و «الظفر» هو فى الأصل المخلب، و لكنّه يطلق أيضا على ظلف الحيوانات من ذوات الأظلاف (من الحيوانات التى لها أظلاف غير منفرجة الأصابع كالحصان لا كالغنم و البقر التى لها أظلاف منفرجة) لأنّ أظلافها تشبه الظفر، كما أنّه يطلق على خف البعير الذى يكون منتهاه مثل الظفر، و لا يكون فيه انشقاق و انفراج مثل انفراج الأصابع.

و على هذا الأساس فإنّ المستفاد من الآية المبحوثة هو أنّ جميع الحيوانات التى لا تكون ذات أظلاف- دوابا كانت أو طيورا- كانت محرّمة على اليهود.

و يستفاد هذا المعنى- على نحو الإجمال أيضا- من سفر اللاويين من التّوراة الحاضرة الإصحاح ۱۱ حيث يقول:

«و أمر الربّ موسى و هارون: أوصيا بنى إسرائيل: هذه هى الحيوانات التى تأكلونها من جميع بهائم الأرض: تأكلون كل حيوان مشقوق الظّلف و مجتر، أمّا الحيوانات المجترة فقط ذو المشقوقة الظلف فقط، فلا تأكلوا منها، فالجمل غير طاهر لكم لأنّه مجتر و لكنّه غير مشقوق الظلف»[۲۹۸].

كما أنّه يمكن أن يستفاد من العبارة التّالية فى الآية المبحوثة التى تحدثت عن خصوص البقر و الغنم فقط حرمة لحم البعير على اليهود بصورة كلية أيضا.

(تأمل بدقّة).

ثمّ يقول سبحانه: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما.

ثمّ يستثنى بعد هذا ثلاثة موارد: أوّلها الشحوم الموجودة فی موضوع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۹

و ثانيا: الشّحوم الموجودة على جنبيها، أو بين أمعائها: أَوِ الْحَوايا[۲۹۹].

و ثالثا: الشحوم التى امتزجت بالعظم و التصقت به أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ

و لكنّه صرّح فى آخر الآية بأنّ هذه الأمور لم تكن محرّمة على اليهود- فى الحقيقة- و لكنّهم بسبب ظلمهم و بغيهم حرموا- بحكم اللّه و أمره- من هذه اللحوم و لشحوم التى كانوا يحبّونها ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ

و يضيف- لتأكيد هذه الحقيقة- قوله: وَ إِنَّا لَصادِقُونَ و إن ما نقوله هو عين الحقيقة.

بحثان

۱- ماذا كان يقترف بنو إسرائيل؟

لا- بدّ أن نرى هنا أى ظلم كان يقترفه بنو إسرائيل أوجب أن يحرّم اللّه تعالى عليهم هذه النعم التى كانوا يحبّونها؟! هناك مذاهب متباينة للمفسّرين فى هذا الصعيد، و لكن ما يستفاد من الآية (۱۶۰ و ۱۶۱) من سورة النساء، هو أنّ علّة التحريم المذكور كان عدة أمور:

ظلمهم للضعفاء، و معارضتهم للأنبياء، و منعهم من هداية الناس، و أكل الربا، و أكل أموال الناس بالباطل، إذ يقول:

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ، وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا، وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ

۲- ما معنى «إنّا لصادقون»؟

إنّ عبارة وَ إِنَّا لَصادِقُونَ التى جاءت فى آخر الآية يمكن أن تكون إشارة إلى هذه النقطة و هى: أنّ الصدق و الحق فى مسألة تحريم هذه الأطعمة هو ما قلناه لا ما قاله اليهود فى بعض كلامهم، و هو أنّ تحريم هذه الأطعمة و اللحوم إنّما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۰

كان من جانب إسرائيل (يعقوب)، لأن يعقوب- كما جاء فى الآية (۹۳) من سورة آل عمران- لم يحكم بحرمة هذه الأشياء أبدا، و ليس هذا سوى تهمة ألصقتها اليهود به.

و لما كان عناد اليهود المشركين أمرا بيّنا، و كان من المحتمل أن يتصلّبوا و يتمادوا فى تكذيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أمر اللّه تعالى نبيّه فى الآية الاخرى أنّهم إن كذّبوه يقول لهم: إنّ ربّكم ذو رحمة واسعة فهو لا- يسارع إلى عقوبتكم و مجازاتكم، بل يمهلكم لعلكم تؤوبون إليه، و ترجعون عن معصيتكم، و تندمون من أفعالهم و تعودون إلى اللّه، فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ.

و لكن إذا أساؤوا فهم أو استخدام هذا الإمهال الإلهى، و استمروا فى كيل التهم فيجب أن يعلموا أنّ عقاب اللّه إيّاهم حتمىّ لا مناص

منه، و سوف يصيبهم غضبه فى المال: وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

إنّ هذه الآية تكشف- بوضوح- عن عظمة التعاليم القرآنية، فإنّه بعد شرح و بيان كل هذه المخالفات التى ارتكبها اليهود و المشركون لا يعمد إلى التهديد بالعذاب فورا، بل يترك طريق الرجعة مفتوحا، و ذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله: «ربّكم» «ذو رحمة» «واسعة» أوّلا. حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع و الإنابة فى نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفية على العودة إلى لطريق المستقيم.

و لكن حتى لا تبعث سعة الرحمة الإلهية هذه على التمادى فى غيهم، و تتسبّب فى تزايد جرأتهم و طغيانهم، و حتى يكفوا على العناد و اللجاج هدّدهم فى آخر جملة من الآية بالعقوبة الحتمية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۱

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۸ الى ۱۵۰]

اشارة

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (۱۴۸) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۴۹) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱۵۰)

التّفسير

التملّص من المسؤولية بحجة «الجبر»:

عقيب الكلام المتقدم عن المشركين فى الآيات السابقة، أشار فى هذه الآيات إلى طائفة من استدلالاتهم الواهية، مع ذكر الأجوبة عنها.

فيقول أوّلا: إنّ المشركين سيقولون فى معرض الإجابة عن اعتراضاتك عليهم فى مجال الإشراك باللّه، و تحريم الأطعمة الحلال: إنّ اللّه لو أراد أن لا نكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۲

مشركين، و أن لا يكون آباؤنا و ثنيين، و أن لا نحرّم ما حرّمنا لفعل: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ.

و يلاحظ نظير هذه العبارة فى آيتين أخريين من الكتاب العزيز، فى سورة النحل الآية ۳۵: وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ و فى سورة الزخرف الآية (۲۰): وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ

و هذه الآيات تفيد أن المشركين- مثل كثير من العصاة الذين يريدون التملص من مسئولية العصيان تحت ستار الجبر- كانوا يعتقدون بالجبر، و كانوا يقولون: كلّ ما نفعله فإنّما هو بإرادة اللّه و مشيئته و إلّا لما صدرت منّا مثل هذه الأعمال.

و فى الحقيقة أرادوا تبرئة أنفسهم من جميع هذه المعاصى، و إلّا فإنّ ضمير كل إنسان عاقل يشهد بأن الإنسان حرّ فى أفعاله و غير مجبور، و لهذا إذا ظلمه أحد انزعج منه، و أخذه و وبّخه، بل و عاقبه إذا قدر.

و کـل ردود الفعل هـذه تفیـد أنّه یری المجرم حرّا فی عمله و مختار، فهو لیس علی اسـتعداد لأنّ یغض الطرف عن ردود الفعل هـذه بحجّة أنّ الظلم الواقع علیه من قبل ذلک الشخص مطابق لإرادة اللّه و مشیئته (تأمل بدقة).

نعم هناک احتمال فی هذه الآیة، و هو أنّهم کانوا یدّعون أنّ سکوت اللّه علی عبادتهم للأصنام و تحریمهم لطائفة من الحیوانات دلیل علی رضاه، لأنّه إذا لم یکن راضیا بها وجب أن یمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

و کـانوا یریـدون- بـذکر عبارة وَ لا آباؤُنا- أن یسـبغوا علی عقائـدهم الفارغـة لون القـدم و الـدوام، و یقولون: إنّ هـذه الأمور لیسـت بجدیدة ندعیها نحن بل کان ذلک دائما.

و لکن القرآن تصدّی لجوابهم و ناقشهم بشکل قاطع، فهو یقول أوّلا: لیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۳

هؤلاء وحـدهم یفترون علی اللّه مثل هـذه الأکاذیب: کَـذلِکَ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۳۰۰] و لکنّهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: حَتَّی ذاقُوا بَأْسَنا.

فهؤلاء- فی الحقیقـة- کـانوا یکـذبون فی کلامهم هـذا، کما أنّهم یکـذّبون الأنبیاء، لأنّ الأنبیاء الإلهیین نهوا البشـریة- بصـراحة- عن الوثنیة و الشـرک و تحریم ما أحلّه اللّه، فلا آباؤهم سـمعوا ذلک و لا هؤلاء، مع ذلک کیف یمکن أن نعتبر اللّه راضیا بهذه الأعمال؟ .. و لو کان سـبحانه راضیا بهذه الأمور فکیف بعث أنبیاءه للدعوة إلی التوحید؟! إنّ دعوة الأنبیاء- فی الأساس- أقوی دلیل علی حریة الإرادة الإنسانیة، و إختیار البشر.

ثمّ یقول سبحانه: قل لهم یا محمّد: هل لکم برهان قاطع و مسلّم علی ما تدّعونه؟ هاتوه إن کان قُلْ هَلْ عِنْدَکُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا.

ثمّ یضیف فی النهایة: إنّکم ما تتبعونه لیس سوی أوهام و خیالات فجة: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ

و فی الآیـة اللاحقـة یـذکر دلیلا آخر لإبطال ادعاء المشـرکین، و یقول: قل: إنّ اللّه أقام براهین جلیة و دلائل واضـحة و صـحیحة علی وحـدانیته، و هکـذا أقام أحکام الحلال و الحرام سواء بواسـطة أنبیائه أو بواسـطة العقل، بحیث لم یبق أی عذر لمعتذر: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ.

و علی هذا الأساس لا یمکن أن یدعی أحد أبدا أنّ اللّه أمضی- بسکوته- عقائدهم و أعمالهم الباطلة، و کذلک یسعهم قط أن یدّعوا أنّهم کانوا مجبورین، لأنّهم لو کانوا مجبورین لکان إقامـة الدلیل و البرهان، و إرسال الأنبیاء و تبلیغهم و دعوتهم لغوا، إنّ إقامة الدلیل دلیل علی حریة الإرادة.

علی أنّه یجب الانتباه إلی أنّ «الحجة» الذی هو من «حجّ» یعنی القصد،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۴

و تطلق «الحجـة» علی الطریق الـذی یقصـده الإنسـان، و یطلق علی البرهـان و الـدلیل «الحجـة» أیضـا، لأنّ القائل یقصـد إثبات مـدعاه للآخرین عن طریقه.

و مع ملاحظـة لفظـة «بالغـة» یتّضـح أنّ الأدلة التی أقامها اللّه للبشـر عن طریق العقل و النقل و بواسـطة العلم و الفکر، و کذا عن طریق إرسال الأنبیاء واضـحة لا لبس فیها من جمیع الجهات، بحیث لا یبقی أی مجال للتردید و الشک لأحد، و لهذا السـبب نفسه عصم اللّه سبحانه أنبیاءه من کل خطأ لیبعدهم عن أی نوع من أنواع التردد و الشک فی الدعوة و الإبلاغ.

ثمّ یقول فی ختام الآیة: و لو شاء اللّه أن یهدیکم جمیعا بالجبر لفعل: فَلَوْ شاءَ لَهَداکُمْ أَجْمَعِینَ

و فی الحقیقـة فإنّ هـذه الجملـة إشارة إلی أنّ فی مقدور اللّه تعالی أن یجبر جمیع أبناء آدم علی الهدایة، بحیث لا یکون لأحد القدرة علی مخالفته، و لکن فی مثل هـذه الصورة لم یکن لمثل هـذا الإیمان و لا للأعمال التی تصـدر فی ضوء هذا الإیمان الجبری القسـری أیة قیمة، إنّما فضیلة الإنسان و تکامله فی أن یسلک طریق الهدایة و التقوی بقدمیه و بإرادته و إختیاره.

و على هذا الأساس لا منافاة أصلا بين هذه الجملة و الآية السابقة التى ورد فيها نفى الجبر.

إنّ هذه الجملة تقول: إنّ إجبار الناس الذى تدّعونه أمر ممكن و مقدور للّه تعالى، و لكنّه لن يفعله قط، لأنّه يخالف الحكمة و ينافى المصلحة الإنسانية.

و كان المشركون قد تذرّعوا بالقدرة و المشيئة الإلهيتين لاختيار مذهب الجبر، على حين أن القدرة و المشيئة الآلهيتين حق لا شبهة فيهما، بيد أنّ نتيجتهما ليست هى الجبر و القسر، بل إنّ اللّه تعالى أراد أن نكون أحرارا، و أن نسلك طريق الحق باختيارنا و بمحض إرادتنا.

جاء فى كتاب الكافى عن الإمام الكاظم عليه السّلام أنّه قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۵

«إنّ للّه على الناس حجّتين حجّة ظاهرة و حجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل و الأنبياء و الأئمّة، و أمّا الباطنة فالعقول»[۳۰۱].

و

جاء فى أمالى الصّدوق عن الإمام الصّادق عليه السّلام لمّا سئل عن تفسير قوله تعالى: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ أنه قال:

«إنّ اللّه تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبدى أ كنت عالما، فإن قال: نعم، قال له: أ فلا عملت بما علمت؟ و إن قال: كنت جاهلا، قال له: أ فلا تعلّمت حتى تعمل؟

فيخصمه، فتلك الحجّة البالغة»[۳۰۲].

إنّ من البديهى أنّ المقصود من الحديث المذكور ليس هو أنّ الحجّة البالغة منحصرة فى حوار اللّه تعالى مع عباده يوم القيامة، بل إنّ للّه حججا بالغة عديدة من مصاديقها ما جاء فى الحديث المذكور من الحوار بين اللّه و بين عباده، لأن نطاق الحجج الإلهية البالغة واسع يشمل الدنيا و الآخرة.

و فى الآية التّالية- و لكى يتضح بطلان أقوالهم، و مراعاة لأسس القضاء و الحكم الصحيح- دعا المشركين ليأتوا بشهدائهم المعتبرين لو كان لهم، لكى يشهدوا لهم بأنّ اللّه هو الذى حرّم الحيوانات و الزروع التى ادّعوا تحريمها، لهذا يقول: قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا.

ثمّ يضيف قائلا: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهداء المعتبرين (و لا يملكون حتما) بل يكتفون بشهادتهم و ادّعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم و لا تؤيدهم فى دعاويهم: فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ

اتضح ممّا قيل إنّه لا تناقض قطّ فى الآية لو لوحظت مجموعة، و أمّا مطالبتهم بالشاهد فى البداية ثمّ أمره تعالى بعدم قبول شهاداتهم، فلا يستتبع إشكالا، لأنّ المقصود هو الإشعار بأنّهم عاجزون عن إقامة الشهود المعتبرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۶

على القطع و اليقين، لأنّهم لا يمتلكون أىّ دليل من الأنبياء الإلهيين و الكتب السماوية يسند تحريم هذه الأمور، و لهذا فإنّهم وحدهم الذين يدّعون هذه الأمور سيشهدون، و من المعلوم أنّ مثل هذه الشهادة مرفوضة.

هذا مضافا إلى أنّ جميع القرائن تشهد بأنّ هذه الأحكام ما هى إلّا أحكام مصطنعة مختلقة نابعة عن محض الهوى و التقليد الأعمى، و لا اعتبار لها مطلقا.

و لذلك قال فى العبارة اللاحقة: وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۳۰۳].

يعنى أنّ وثنيتهم، و إنكارهم للقيامة و البعث، و الخرافات، و إتباعهم للهوى، شواهد حيّة على أنّ أحكامهم هذه مختلقة أيضا، و أنّ ادّعاهم فى مسألة تحريم هذه الموضوعات من جانب اللّه لا قيمة له، و لا أساس له من الصحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۱ الى ۱۵۳]

اشارة

قُـلْ تَعـالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْـرِكُوا بِهِ شَـيْئاً وَ بِالْوالِـدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۵۱) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّـ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُـدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْـلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْـعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْـدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْـدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ (۱۵۲) وَ أَنَّ هـذا صِـراطِي مُسْـتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۵۳)

التّفسير

الأوامر العشرة:

بعد نفی أحكام المشركين المختلفهٔ التی مرّت فی الآيات المتقدمهٔ، أشارت

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۸

هذه الآيات الثلاثهٔ إلى أصول المحرمات فی الإسلام، و ذكرت الذنوب الرئيسيهٔ الكبيرهٔ فی عشرهٔ أقسام ببيان مقتضب، عميق و فريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النّبی و يستمعوا إلى ما يتلی عليهم من المحرمات الإلهيهٔ الواقعيهٔ، و يتركوا المحرمات المختلقهٔ جانبا.

يقول أوّلا: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ

۱- أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

۲- وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ۳- وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ أی بسبب الفقر و الحرمان لأنّنا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ

۴- وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ أی لا تقربوها فضلا عن أن لا ترتكبوها.

۵- وَ لاـ تَقْتُلُـوا النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِـالْحَقِ فلاـ تسـفكوا الـدّماء البريئـهٔ، و لاـ تقتلوا النفوس الـتی حرم اللّه قتلهـا إلّـا ضـمن قوانين العقوبات الإلهيهٔ، فيجوز أن تقتلوا من أذن اللّه لكم بقتله.

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسهٔ يقول لمزيد من التأكيد: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فلا ترتكبوها.

۶- وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ فلا تقربوا مال اليتيم إلّا بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشده و يستوی.

۷- وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ فلا تطففوا و لا تبخسوا.

و حيث أن الإنسان- مهما دقق فی الكيل و الوزن- قـد يزيـد أو ينقص بما لا يمكن أن تضـبطه الموازين و المكاييل المتعارفـهٔ لقلته و خفائه، لهذا عقب على ما قال بقوله: لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

۸- وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى فلا تنحرفوا عن جادهٔ الحق عند

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۹

الشهادهٔ أو القضاء أو أمر آخر حتى و لو كان على القريب، فاشهدوا بالحق، و اقضوا بالعدل.

۹- وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا و لا تنقضوه.

و أمّا ما هو المراد من العهد الالهی المذكور فی هذه الآية؟ فقد ذهب المفسّرون إلی احتمالات عديدة فيه، و لكن مفهوم الآية يشمل جميع العهود الالهيّة «التكوينية» و «التشريعية» و التكاليف الالهية و كل عهد و نذر و يمين.

ثمّ إنّه سبحانه يقول فی ختام هذه الأقسام الأربعة- للتأكيد: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

۱۰- وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ إن طريقی هذا هو طريق التوحيد، طريق الحق و العدل، طريق الطهر و التقوی فامشوا فيه، و اتبعوه، و اسلكوه و لا تسلكوا الطرق المنحرفة و المتفرقة، فتؤدی بكم إلی الانحراف عن اللّه و إلی الاختلاف، و التشرذم، و التفرق، و تزرع فيكم بذور الفرقة و النفاق.

ثمّ يختم جميع هذه الأقسام و للمرّة الثّالثة- لغرض التأكيد بقوله: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

بحوث

اشارة

إنّ هاهنا عدّة نقاط يجب أن نقف عندها، و هی:

۱- الشروع بالتوحيد و الختم بنبذ الاختلاف

إنّ الملاحظ فی هذه الآيات أنّ هذه التعاليم و الأوامر العشرة بدأت بتحريم الشرك الذی هو فی الواقع المنشأ الأصلی لجميع المفاسد الاجتماعية و المحرمات الالهية، و انتهت- أيضا- بالدّعوة إلی نبذ التفرق و الاختلاف الذی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۰

يعدّ هو الآخر نوعا من الشرك العملی.

إنّ هذا الموضوع يكشف عن أهمية مسألة التوحيد فی جميع الأصول و الفروع الإسلامية، و بالتالی يكشف عن أن التوحيد ليس مجرّد أصل عقائدی بحت، بل يمثّل روح التعاليم الإسلامية برمتها.

۲- التأكيدات المتتابعة

لقد تكرّرت عبارة ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ للتأكيد عند ختام كل آية من الآيات الثلاث، مع فوارق فی الفواصل طبعا، فقد ختمت العبارة فی الآية الأولی بجملة:

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و فی الآية الثّانية بجملة: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ و فی الآية الثّالثة بجملة: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

و يبدو أنّ هذه التعابير المختلفة إشارة إلی النقطة التّالية و هی: أنّ المرحلة الأولی عند تلقّی أیّ حكم من الأحكام هو مرحلة «التعقل» أی فهم ذلك الحكم و إدراكه.

و المرحلة الثّانية هی: مرحلة «التذكر» و هضم ذلك الحكم و امتصاص مفاده و استيعاب محتواه.

و المرحلة الثّالثة هی: المرحلة النهائية، و هی مرحلة العمل و التطبيق، و قد أسماها القرآن بمرحلة «التقوی».

صحيح أنّ كل واحدة من هذه العبارات (و المراحل) جاءت بعد ذكر عدّة تعاليم من التعاليم العشرة، إلّا أنّه من الواضح أنّ هذه

المراحل لا- تختص بأحكام معيّنة، لأنّ كل حكم من الأحكام، و كل تعليم من التعاليم بحاجة إلى «التعقل» و «التذكر» و «التقوى و العمل»، إنّما هى رعاية جهات الفصاحة و البلاغة، التى اقتضت توزيع هذه التأكيدات (و المراحل) فى أثناء تلك التعاليم العشرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۱

۳- التعاليم و الأوامر الخالدة

لعلّنا فى غنىّ عن التذكير بأنّ هذه التعاليم و الأوامر العشرة لا تختص بالدين الإسلامى، بل كان نظيرها فى جميع الشرائع المتقدمة عليه و إن كانت قد حظيت فى الإسلام بعناية أكبر و أوسع.

و فى الحقيقة أنّ هذه التعاليم ممّا يدركه العقل السوىّ و الضمير السليم بوضوح و جلاء و بعبارة أخرى: هى من «المستقلات العقلية» و لهذا فإنّها كما ذكرت فى القرآن الكريم، تلاحظ بشكل أو بآخر فى شرائع الأنبياء الآخرين ۳۰۴].

۴- أهمية الإحسان إلى الوالدين

إنّ ذكر مسألة الإحسان للوالدين- بعد مكافحة الشرك مباشرة، و قبل ذكر تعاليم مهمّة مثل حرمة قتل النفس و الأمر بالعدل- يدلّ على الأهمية القصوى التى يحظى بها حق الوالدين فى التعاليم الإسلامية.

و يتّضح هذا الأمر أكثر عند ما نرى أن القرآن الكريم ذكر بدل تحريم أذى الوالدين الذى يلائم سياق هذه الآية فى استعراضها للمحرمات، مسألة الإحسان إليهما، يعنى أنّه ليس إزعاج الوالدين و إيذاؤهما محرّما فقط، بل يجب الإحسان إليهما.

و الأجمل من هذا كلّه أنّ كلمة «الإحسان» عدّيت بحرف «الباء» فقال:

وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً و نحن نعلم أن الإحسان قد يعدّى بإلى و قد يعدّى بالباء، فإذا عدّ بإلى كان معناه: الإحسان إلى الآخر سواء كان بصورة مباشرة، أو مع الواسطة. و لكنّه عند ما يعدّى بالباء يكون معناه: الإحسان بصورة مباشرة و من دون واسطة.

و على هذه الأساس فإنّ هذه الآية تؤكّد أنّ موضوع الإحسان إلى الوالدين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۲

من الأهمية البالغة بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الإحسان بنفسه إلى الوالدين ۳۰۵].

۵- قتل الأولاد من الإملاق و الجوع

يستفاد من هذه الآيات أنّ العرب فى العهد الجاهلى لم يقتصروا على قتل البنات و وأدهن بسبب بعض العصبيات الخاطئة فحسب، بل كانوا يقتلون أولادهم الذين كانوا يعدّون ثروة كبرى فى المجتمع يومذاك، و ذلك بسبب الفقر و خشيتهم من الفاقة، أيضا. و اللّه تعالى يلفت نظرهم إلى مائدة النعم الإلهيّة الواسعة التى يستفيد منها حتى أضعف الموجودات، و نهاهم سبحانه عن ذلك.

و لكن هذا العمل الجاهلى- و للأسف البالغ- يتكّرر الآن فى عصرنا فى صورة أخرى، إذ نلاحظ كيف يعمد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء و هم أجنّة عن طريق «الكور تاج» و الإجهاض بحجة النقصان الاحتمالى فى المواد الغذائية.

إنّ إسقاط الجنين و إن كان يبرّر الآن بأدلة و حجج أخرى أيضا، إلّا أنّ مسألة الفقر و مسألة نقصان المواد الغذائية، هى من أدلتها الأصليّة.

هذه المسألة و المسائل المشابهة الأخرى تشير إلى أنّ العهد الجاهلی يتكّرر فی شكل آخر، و أنّ «جاهلية القرن العشرين» أكثر وحشية من جاهلية ما قبل الإسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۴ ؛ ص۵۱۲

۶- ما هو المقصود من الفواحش؟

«الفواحش» جمع «فاحشة» يعنی ما عظم قبحه من الذنوب. و على هذا الأساس فإنّ نقض العهد، و التطفيف و الشرك و ما شابه ذلك و إن كانت من الذنوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۴، ص: ۵۱۳

الكبار، إلّا أنّ ذكرها فی مقابل الفواحش إنّما هو لأجل التفاوت المفهومی بينها.

۷- لا تقربوا هذه الذّنوب

فی الآيات الحاضرة ورد التعبير بجملة لا تقربوا فی موضعين، و قد تكرر هذا الموضوع (و هذا النهی) فی القرآن لبعض الذنوب الأخر أيضا، و يبدو أنّ هذا التعبير قد ورد فی مجال الذنوب المثيرة كالزنا، و أموال اليتامى و ما شابهها، لهذا يحذّر الناس من الاقتراب إليها لكی لا يقعوا تحت إثارتها.

۸- الذّنوب الظاهرة و الباطنة

لا شك فی أنّ جملة ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ تشمل كل الذنوب القبيحة الظاهرة، و الخفية، و لكن
جاء فی بعض الأحاديث عن الإمام الباقر عليه السّلام «ما ظهر هو الزنا و ما بطن هو المخالّة»
(أی اتخاذ الخليلات و الصديقات سرّا و خفيّة) و لكنّه واضح أنّ ذكر هذه الموارد إنّما هو بيان المصداق الواضح، لا أنّه يعنی انحصارها فيها.

۹- الوصايا العشر عند اليهود

نلاحظ فی التّوراة فی الفصل ۲۰- سفر الخروج أحكاما عشرة تعرف عند اليهود بالوصايا، و هی تبدأ من الجملة الثانية و تنتهی عند السابعة عشرة من ذلك الفصل.

و لكن بالمقارنة بين الوصايا العشر، و بين ما جاء فی الآيات الحاضرة يتضح أنّ فرقا واسعا و بونا شاسعا بين هذين البرنامجين، و على أنّه لا- يمكن الاطمئنان إلى أنّ التّوراة الحاضرة لم تنحرف فی هذا المجال، كما تعرضت للتحريف فی الأقسام الأخرى. و لكنّ ما هو مسلّم هو أنّ الوصايا العشر الموجودة فی التّوراة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۴، ص: ۵۱۴

و إن كانت مشتملة على المسائل اللازمة، إلّا أنّها أقل مستوى بكثير- من حيث السعة و الأبعاد الأخلاقية، و الاجتماعية و العقيدية- من مفاد الآيات الحاضرة.

۱۰- كيف غيّرت هذه الآيات وجه المدينة المنورة؟

لقد وردت فى بحار الأنوار، و كذا فى كتاب أعلام الورى قصّة جميلة تحكى عن تأثير هذه الآيات البالغ فى نفوس المستمعين، و ها نحن ندرج هنا القصة المذكورة باختصار وفقا لما جاء فى بحار الأنوار برواية على بن إبراهيم.

قدم أسعد بن زرارة، و ذكوان بن عبد قيس مكّة فى موسم من مواسم العرب و هما من الخزرج، و كان بين الأوس و الخزرج حرب قد بقوا فيها دهرا طويلا، و كانوا لا يضعون السلاح لا بالليل و لا بالنهار، و كان آخر حرب بينهم يوم بعاث، و كانت الغلبة فيها للأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة و ذكوان إلى مكّة يسألون الحلف على الأوس و كان أسعد بن زرارة صديقا لعتبة بن ربيعة فنزل عليه، و قصّ عليه ما جاء من أجله فقال عتبة بن ربيعة فى جواب أسعد: بعدت دارنا من داركم، و لنا شغل لا نتفرغ لشىء، قال أسعد: و ما شغلكم و أنتم فى حرمكم و أمنكم؟ قال عتبة: خرج فينا رجل يدّعى أنّه رسول اللّه، سفّه أحلامنا، و سبّ آلهتنا، و أفسد شبابنا، و فرق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد اللّه بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفا، و أعظمنا بيتا.

فلمّا سمع أسعد و ذكوان ذلك، أخذا يفكّران فيه، و وقع فى قلبهما ما كانا يسمعانه من اليهود، أنّ هذا أوان نبى يخرج بمكّة يكون مهاجره بالمدينة.

فقال أسعد: أين هو؟

قال عتبة: جالس فى الحجر (حجر إسماعيل) و أنّهم (أى المسلمون) لا- يخرجون من شعبهم إلّا فى المواسم، فلا- تسمع منه، و لا تكلّمه، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه، و كان هذا فى وقت محاصرة بنى هاشم فى الشعب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۵

فقال أسعد لعتبة: فكيف أصنع، و أنا محرم للعمرة لا بدّ لى أن أطوف بالبيت؟

قال: ضع فى أذنيك القطن.

فدخل أسعد المسجد، و قد حشا أذنيه بالقطن فطاف بالبيت و رسول اللّه جالس فى الحجر مع قوم من بنى هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه.

فلمّا كان فى الشّوط الثّانى قال فى نفسه: ما أجد أجهل منّى. أ يكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا- أتعرّفه حتى أرجع إلى قومى فأخبرهم؟ فأخذ القطن من أذنيه و رمى به، و

قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أنعم صباحا. فرفع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأسه إليه، و قال: قد أبدلنا اللّه به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنّة، السلام عليكم.

فقال له أسعد: إلى م تدعو يا محمّد؟

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إلى شهادة أن لا إله إلّا اللّه، و أنّى رسول اللّه، و أدعوكم إلى ...

(ثمّ تلا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الآيات الثلاثة المبحوثة هنا و التى تتضمن التعاليم العشرة).

فلمّا سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلّا اللّه، و أنّك رسول اللّه، يا رسول اللّه بأبى أنت و أمى أنا من أهل يثرب من الخزرج، و بيننا و بين إخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها اللّه بك، و لا أجد أعزّ منك، و معى رجل من قومى، فإن دخل فى هذا الأمر

رجوت أن يتمّم اللّه لنا أمرنا فيك.

و اللّه يا رسول اللّه، لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، و يبشروننا بمخرجك، و يخبروننا بصفتك، و أرجو أن تكون دارنا دار هجرتك عندنا فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد للّه الذى ساقنى إليك، و اللّه ما جئت إلّا لنطلب الحلف على قومنا، و قد آتانا اللّه بأفضل ممّا أتيت له.

ثمّ أسلم رفيق أسعد- ذكوان- أيضا- ثمّ طلبا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبعث معهم رجلا يعلمهم القرآن، و يدعو الناس إلى أمره، و يطفئ الحروب، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معهما إلى المدينة «مصعب بن عمير» و منذئذ أسست قواعد الإسلام فى المدينة و تغير وجه يثرب ۳۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۶

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۴ الى ۱۵۷]

اشارة

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۱۵۴) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (۱۵۶) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (۱۵۷)

التّفسير

رد حاسم على المتحججين و المتعلّلين:

فى الآيات السابقة دار الحديث عن عشرة من أحكام الإسلام الأساسية التى تشكّل- فى الحقيقة- أساسا و قاعدة للكثير من الأحكام الإسلامية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۷

و يستفاد من قوله تعالى: أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ و نظائره، أنّ هذه الأحكام لم تكن مختصّة بدين معنين أو شريعة خاصّة، خاصّة و أنّها من الأصول و المبادئ التى يحكم بها العقل و يؤيّدها من دون تلكؤ أو تأخير، و بهذا يكون مضمون الآيات السابقة هو بيان الأحكام التى لم تكن مختصّة بالإسلام، بل هى موجودة و مقررة فى جميع الأديان.

ثمّ قال عقيب ذلك فى هذه الآيات: ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ فقد أتممنا نعمتنا على المحسنين و الذين سلّموا لأمره و اتبعوه.

و ممّا قيل يتّضح معنى كلمة «ثمّ» تستعمل فى اللغة العربية عادة فى «العطف مع التراخى» و يكون معنى الآية هو: أنّنا آتينا هذه التعاليم و الوصايا العامّة للأنبياء السابقين أوّلا ثمّ آتينا موسى كتابا سماويا و بيّنا فيه هذه التعاليم و البرامج و غيرها من التعاليم و البرامج اللازمة.

و بهذا لا حاجة إلى ما ذهب إليه بعض المفسّرين من التوجيهات المختلفة، و الضعيفة أحيانا فى هذا المجال.

كما تتّضح هذه النقطة أيضا، و هى أنّ عبارة: الَّذِي أَحْسَنَ إشارة إلى جميع المحسنين، و الذين يستجيبون للحق، و يقبلون بالأوامر

الإلهية.

وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فإن فيه كلّ شيء ممّا يحتاج إليه المجتمع، و ممّا له أثر فى تكامل الإنسان وتر شيده.

وَ هُدىً وَ رَحْمَةً أى أنّ فى هذا الكتاب الذى نزل على موسى مضافا إلى ما سبق: هدى و رحمة.

إنّ جميع هـذه البرامج، ما هى إلّا لكى يؤمنوا بيوم القيامة، و بلقاء اللّه، و لكى يطهّروا عن طريق الإيمان بالمعاد أفكارهم، و أقوالهم، و أعمالهم و يزكوها:

لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

هذا، و يمكن أن يقال: إذا كانت شريعة موسى شريعة كاملة (كما يستفاد من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۸

كلمة «تماما») فما الحاجة إلى شريعة عيسى، و إلى الشريعة الإسلامية؟

و لكن يجب أن يعلم أنّ كلّ شريعة من الشرائع إنّما تكون شريعة جامعة و كاملة بالنسبة لعصرها، و من المستحيل أن تنزل شريعة ناقصة من جانب اللّه تعالى.

بيد أنّ هذه الشريعة التى تكون كاملة بالنسبة إلى عصر معيّن يمكن أن تكون ناقصة غير كاملة بالنسبة إلى العصور اللاحقة، كما أنّ البرنامج الكامل الجامع المعدّ لمرحلة الدراسة الابتدائية، يكون برنامجا ناقصا بالنسبة إلى مرحلة الدراسة المتوّسطة، و هذا هو السرّ فى إرسال الأنبياء المتعددين بالكتب السماويّة المختلفة المتنوعة حتى ينتهى الأمر إلى آخر الأنبياء و آخر التعاليم.

نعم إذ تهيّأ البشر لتلقّى التعاليم النهائيـة، و صـدرت إليهم تلك التعاليم و الأوامر، لم يبق حاجـة- بعـد ذلك- إلى دين جديد، و كان شأنهم حينئذ شأن المتخّرجين الذين يمكنهم بما عندهم من معلومات الحصول على نجاحات علمية عن طريق المطالعة و التأمل.

إن أتباع مثل هذه الشريعة، و مثل هذا الدين (النهائى) لن يحتاجوا إلى دين جديد، و إنّما يكتسبون طاقة حركتهم و تقدمهم من نفس ذلك الدين الإلهى.

كما أنّه يستفاد من هذه الآية أيضا أنّ القضايا المرتبطة بالقيامة قد وردت فى التّوراة الأصلية بالقدر الكافى. و إذا لم نلاحظ اشارة إلى قضايا الحشر و المعاد فى التّوراة الفعلية و الكتب الحاضرة المرتبطة بها إلّا نادرا، فالظاهر أنّ ذلك بسبب تحريف اليهود و أصحاب الدنيا الذين كانوا يرغبون فى قلّة التحدّث فى القيامة و قلّة السماع عنها.

على أنّه قـد وردت فى التّوراة الفعليـة مع ذلك إشارات عابرة و مختصـرة إلى مسألـة القيامة، و لكنّها قليلة إلى درجة دفع بالبعض إلى القول: إنّ اليهود لا يعتقدون بالمعاد و القيامة أساسا، و لكن هذا الكلام أشبه بالمبالغة من الواقع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۹

و الحقيقة.

كمـا أنّه يجب أيضـا أن نلفت نظر القـارئ إلى أنّ المراد من إلقـاء اللّه الـذى ورد فى الآيات القرآنيـة ليس هو اللقاء الحسى و الرؤية البصرية، بـل المراد هو نوع من الشـهود البـاطنى، و اللقـاء الروحانى، الـذى يتحقق فى يوم القيامـة على أثر التكامل الإنسانى الحاصـل للأشخاص، أو المقصود منه هو: مشاهدة الثواب و العقاب فى العالم الآخر.

الآيـة اللاحقـة تشير إلى نزول القرآن و تعليماته القيمـة، و بذلك أكملت البحث المطروح فى الآية السابقة، يقول تعالى: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فهذا الكتاب الذى أنزلناه كتاب عظيم الفائدة، عظيم البركة، و هو المنبع لكلّ أنواع الخير و البركة.

و لمّا كان الأمر كذلك وجب اتباعه بصورة كاملة، و وجب التزود بالتقوى، و التجنب عن مخالفته، لتشملكم رحمة اللّه و لطفه فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

و فى الآية الثالثة أبطل سبحانه جميع المعاذير و التحججات و سدّ جميع طرق التملّص و الفرار فى وجه المشركين، فقال لهم أوّلا: لقد

أنزلنا هـذا الكتاب مع هذه المميزات لكى لا تقولوا: لقد نزلت الكتب السـماوية على الطائفتين السابقتين (اليهود و النصارى) و كنّا عن دراسـتها غافلين، و ليس تمرّدنا على أوامر اللّه لكونها موجودة عنـد غيرنا من الأمم، و لم يبلغنا منها شـىء: أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا، وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ ۳۰۷].

ثمّ إنّه سـبحانه ينقل عنهم- فى الآيـة اللاحقـة- نفس ذلك التحجـج و لكن بصورة أوسع، و مقرونا هـذه المرّة بنوع أشدّ من الغرور و الصّلف و هو: أنّ القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكان من الممكن أن يدّعوا أنّهم كانوا أكثر استعدادا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۰

أية أمّة أخرى لقبول الأمر الإلهى: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ

و الآيـة المتقدّمـة كانت تعكس- فى الحقيقـة- هذا التحجج و هو: أنّ عدم اهتدائنا إنّما هو بسـبب غفلتنا و جهلنا بالكتب السـماوية، و هذه الغفلة و هذا الجهل ناشئ عن أنّ هذه الكتب نزلت على الآخرين، و لم تنزل علينا.

أمّا هذه الآية فتعكس صفة الإحساس بالتفوق و الادّعاء الفارغ الذى كانوا يدّعونه عن تفوّق العنصر العربىّ على غيرهم.

و قـد نقل نظير هذا المعنى فى سورة فاطر فى الآية (۴۲) عن مقالة المشـركين فى شكل مسألة قاطعة و ليس من باب القضية الشرطية و ذلك عند ما يقول:

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً.

و على أيـة حال فإنّ القرآن يقول فى معرض الرّد على هـذه الادعاءات أن اللّه سـبحانه سدّ عليكم كل سـبل التملص و الفرار، و أبطل جميع الـذرائع و المعاذير، لأنّ اللّه آتاكم كل الآيات، و أقام كل الحجـج المقرونة بالهداية الإلهية و بالرحمة الربانية لكم: فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ.

و الملفت للنظر أنّه اسـتعمل لفظ «البينة» بدل الكتاب السـماوى، و هو إشارة إلى أنّ هذا الكتاب السـماوى واضح المعالم، بيّن الحقائق من جميع الجهات، و مقرون بالدلائل القاطعة، و البراهين الساطعة اللامعة.

و مع ذلك فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها.

و «صـدف» من «الصـدف» و يعنى الإعراض الشديـد- من دون تفكير- عن شـىء، و هو إشارة إلى أنّهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات اللّه فحسب، بـل كـانوا يبتعـدون عنهـا- أيضا- من دون أن يفكروا فيها أدنى تفكير. ربّما اسـتعملت هـذه اللفظة بمعنى آخر و هو منع الآخرين أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۱

و فى خاتمـة هـذه الآيـة بيّن اللّه تعالى العقاب الأليم الـذى أعـدّ لهؤلاء المخاصـمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق و ينكرونها من دون أن يفكروا فيهـا و يـدرسوها و لو قليلاـ بـل و لاـ يكتفون برفضهـا إنمـا يعمـدون إلى صـدّ الآـخرين عنها، و يحولون بينهم و بين سماعها و استيعابها، بيّن كلّ ذلك فى قوله الموجز و البليغ: سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ

و «سوء العـذاب» و إن كان بمعنى العـذاب السـىء، و لكن حيث أن العذاب السـيّء عقاب شديد و موجع للغاية فى حدّ نفسه، لذلك فسّره بعض المفسّرين بالعقاب الشديد.

ثمّ إنّ تكرار لفظة «يصدفون» عند بيان جزاء الصادفين عن آيات اللّه لأجل توضيـح هذه الحقيقة، و هى أنّ جميع البلايا و المحن التى تصيب هـذا الفريـق ناشـئة من كـونهم يعرضـون عن الحقـائق من دون أدنى تفكير و دراسـة، و لـو أنّهم سـمحوا لأنفسهم بـالتفكير و الدراسة- كباحث عن الحقيقة و شاك يطلب اليقين- لما أصيبوا بمثل هذه العواقب الأليمة و المصير المؤلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۵۸]

اشارة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۵۸)

التّفسير

توقعات باطلة و مطاليب مستحيلة:

فى الآيات السابقة تبيّنت هذه الحقيقة و هى: أنّنا أتممنا الحجّة على المشركين، و آتيناهم الكتاب السماوى (أى القرآن) لهدايتهم جميعا، لكى لا يبقى لديهم أى عذر يبرّرون به مخالفتهم للرسالة و معارضتهم للدعوة.

و هذه الآية تقول: و لكن هؤلاء الأشخاص المخاصمين المعاندين بلغوا فى لجاجهم و عنادهم حدّا لا يؤثّر فيهم حتى هذا البرنامج الواضح البيّن، و كأنّهم يتوقعون و ينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصة، أو ينتظرون أمورا مستحيلة.

فيقول أولا: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ لتقبض أرواحهم.

أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ إليهم فيرونه، حتى يؤمنوا به.

و يراد من هذا الكلام فى الحقيقة أنّهم ينتظرون أمورا مستحيلة، لا أنّ مجىء اللّه سبحانه و تعالى أو رؤيته أمور ممكنة.

و هذا النوع من البيان و الكلام أشبه ما يكون بمن يقول لشخص مجرم معاند، بعد أن يريه ما لديه من وثائق كافية دامغة و هو مع كل هذا ينكر جنايته: إذا كنت لا تقبل بكل هذه الوثائق، فلعلك تنتظر أن يعود المقتول إلى الحياة، و يحضر فى المحكمة ليشهد عليك بأنّك الذى قتلته؟

ثمّ يقول: أو أنّكم تنتظرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهية و العلامات الخاصّة بيوم القيامة و نهاية العالم يوم تنسدّ كل أبواب التوبة: أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ

و على هذا الأساس فإنّ عبارة آياتِ رَبِّكَ و إن جاءت بصورة كليّة و على نحو الإجمال، و لكنّها يمكن أن تكون بقرينة العبارات اللاحقة التى سيأتى تفسيرها، بمعنى علامات القيامة، مثل الزلازل المخيفة، و فقدان الشمس و القمر و الكواكب لأنوارها و أضوائها، و ما أشبه ذلك.

أو يكون المراد من ذلك المطاليب غير المعقولة التى يطلبونها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و من جملتها أنّهم لا يؤمنون به إلّا أن تمطر عليهم السماء حجارة، أو تمتلئ صحارى الحجاز القفراء اليابسة بالينابيع و النخيل!! ثمّ يضيف عقيب ذلك قائلا: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً فأبواب التوبة حينذاك مغلقة فى وجوه الذين لم يؤمنوا إلى تلك الساعة، لأنّ التوبة ساعتئذ تكون ذات صبغة اضطرارية إجبارية، و فاقدة لمعطيات الإيمان الاختيارى و قيمة التوبة النصوح.

هذا، و يتضح ممّا قيل أن عبارة أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً تعنى أنّ الإيمان وحده لا ينفع فى ذلك اليوم، بل حتى أولئك الذين آمنوا من قبل، و لكنّهم لم

یعملوا عملا- صالحا، لم ینفعهم فی ذلک الیوم أن یعملوا عملا- صالحا، لأنّ أوضاعا کتلک تسلب من الإنسان القدرة علی ارتکاب الذنب، و تقوده نحو العمل الصالح بصورة جبریة لا مفرّ منها، فلا یکون لمثل هذا العمل أیة قیمة ذاتیة.

ثمّ إنّه فی المقطع الأخیر من الآیة یوجه تهدیدا شدیدا إلی هؤلاء الأشخاص المعاندین، إذ یقول بنبرة شدیدة: قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ

لا فائدة للإیمان بدون عمل:

إنّ من النقاط الهامّة التی نستفیدها من الآیة الحاضرة هو أنّ الآیة تعتبر طریق النجاة منحصرة فی الإیمان، ذلک الإیمان الذی یکتسب المرء فیه خیرا و یعمل فی ظلّه عملا صالحا.

و یمکن أن ینطرح هذا السؤال و هو: هل الإیمان وحده غیر کاف و لو خلّی من جمیع الأعمال الصالحة؟

و نجیب: صحیح أنّ المؤمن یمکن أن یزلّ أحیانا و یرتکب بعض الذنوب المعاصی ثمّ یندم علی فعله و یعمد إلی إصلاح نفسه، و لکن من لم یعمل أیّ عمل صالح طوال حیاته، و لم یستغل الفرص الکثیرة و الکافیة لذلک، بل علی العکس من ذلک صدر منه کل قبیح و وقعت منه کل معصیة، و اقترف کل إثم، فإنّه یبدو من المستبعد جدا أن یکون من أهل النجاة، و من الذین ینفعهم إیمانهم، لأنّه لا یمکن أن نصدّق بأنّ شخصا ینتمی إلی دین من الأدیان، و لکنّه لا یعمل بأی شیء من تعالیم ذلک الدین و لا مرّة واحدة فی حیاته، بل کان یرتکب خلافها دائما، إذ أنّ حالته و موقفه هذا دلیل قاطع و بیّن علی عدم إیمانه، و عدم اعتقاده.

و علی هذا الأساس یجب أن یقترن الإیمان و لو بالحدّ الأدنی من العمل الصالح، لیدلّ ذلک علی وجود الإیمان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۵

الآیتان [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۵۹ الی ۱۶۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کانُوا شِیَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِی شَیْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَی اللَّهِ ثُمَّ یُنَبِّئُهُمْ بِما کانُوا یَفْعَلُونَ (۱۵۹) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّیِّئَةِ فَلا یُجْزی إِلاَّ مِثْلَها وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۱۶۰)

التّفسیر

رفض المفرّقین للصّفوف و نفیهم:

تعقیبا علی التعالیم و الأوامر العشر التی مرّت فی الآیات السابقة، و التی أمر فی آخرها بإتباع الصراط الإلهی المستقیم، و بمکافحة أی نوع من أنواع النفاق و التفرقة، جاءت هذه الآیة تتضمن تأکیدا علی هذه الحقیقة، و تفسیرا و شرحا لها.

فیقول تعالی أوّلا: إِنَّ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کانُوا شِیَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِی شَیْءٍ[۳۰۸] أی أنّ الذین اختلفوا فی الدین و تفرقوا فرقا و طوائف لا یمتون إلیک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۶

بصلة أبدا، کما لا یرتبطون بالدین أبدا، لأنّ دینک هو دین التوحید، و دین الصراط المستقیم، و الصراط المستقیم ما هو إلّا واحد لا أکثر.

ثمّ قال تعالى- مهدّدا موبّخا أولئك المفرّقين- إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ أى أنّ اللّه هو الذى سيؤاخذهم بأعمالهم و هو عليم بها، لا يغيب شىء منها.

بحثان

اشارة

و هاهنا نقطتان يجب الالتفات إليهما:

۱- من هم المقصودون فى الآية؟

يعتقد جماعة من المفسّرين أنّ هذه الآية نزلت فى اليهود و النصارى الذين اختلفوا و تفرّقوا إلى فرق و طوائف مذهبية مختلفة، و تباغضوا و تشاحنوا و تنازعوا فيما بينهم.

و لكن يرى آخرون أنّ هذه الآية إشارة إلى الذين يفرّقون صفوف هذه الأمّة (الإسلامية) بدافع التعصب و حبّ الاستعلاء، و حب المنصب و الجاه.

و لكن محتوى هذه الآية يمثل حكما عاما يشمل كل من يفرّق الصفوف، و كل من يبذر بذور النفاق و الاختلاف بين عباد اللّه بابتداع البدع، من دون فرق بين من كان يفعل هذا فى الأمم السابقة أو فى هذه الأمة.

و ما نلاحظه من الرّوايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السّلام و هكذا روايات أهل السّنّة التى تصرّح بأن هذه الآية إشارة إلى مفرّقى الصفوف و أهل البدع فى هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۷

الأمّة، فهو من باب بيان المصداق [۳۰۹]، لأنّه لو لم يذكر هذا المصداق لظن البعض أنّ المقصود بالآية هم الآخرون خاصّة، و أنّ الضمير عائد إلى غيرهم فيبرّءوا بذلك ساحتهم.

ففى رواية منقولة عن الإمام الباقر عليه السّلام فى ذيل هذه الآية- على ما فى تفسير على بن إبراهيم- قال فى تفسيرها: «فارقوا أمير المؤمنين عليه السّلام و صاروا أحزابا» [۳۱۰].

و هناك أحاديث أخر رويت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حول افتراق هذه الأمّة و تشتتها و تشرذمها إلى فرق ذكرها على سبيل التنبؤ، جميعها تؤيّد هذه الحقيقة أيضا.

۲- بشاعة التفرقة و زرع الاختلاف

هذه الآية تكرّر مرّة أخرى- و بمزيد من التأكيد- هذه الحقيقة، و هى أنّ الإسلام دين الوحدة و الاتحاد، و أنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقة و إلقاء الاختلاف فى صفوف الأمة، و تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّ عملك و برنامجك لا يشابه عمل المفرقين للصفوف، ناشرى الخلاف فيها مطلقا، و انهم بالتالى لا يمتون إليك و لا تمت إليهم بصلة أبدا، و إنّ اللّه المنتقم الجبار سوف ينتقم منهم، و يريهم عاقبة أعمالهم الشريرة.

إنّ التوحيد الحقيقى ليس واحدا من أصول الإسلام و قواعده فحسب، بل إنّ جميع أصول الإسلام و فروعه، و جميع برامجه المتنوعة، تدور حول محور التوحيد، و تنطلق منه و تنتهى إليه التوحيد روح سارية فى كيان التعاليم الإسلامية برمتها، و التوحيد هو الأساس الحضارى الذى تقوم عليه مبادئ الإسلام عامته.

و لكن هذا الدين الذى يتألف من أقصاه إلى أقصاه من عنصر الوحدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۸

و الاتحاد قد وقع اليوم- مع شدة الأسف- فريسة بأيدى مفرّقى الصفوف، و مثيرى الاختلاف بحيث فقد وجهه الحقيقى.

فبيّن يوم و آخر ينعق ناعق، و يثير نغمة جديدة خبيثة، و يقوم معقّد أو معتوه أو غبىّ و يخالف حكما من أحكام الإسلام، و برنامجا من برامجه، فيلتف حوله فريق من الجهلة و البسطاء، فيفرز تمزقا جديدا.

على أنّ للجهل الذى يعانى منه فريق من العامّة دورا مؤثرا فى هذه التفرقة و الاختلافات، لا يقل عن تأثير ذكاء الأعداء و فطنتهم و يقظتهم فى إذكاء التمزّق الداخلى.

فربّما طرح البعض أمورا أكل عليه الدهر و شرب، من جديد، و أحدثوا حولها ضجّة غبيّة ليشغلوا بها بال الناس، و لكن الإسلام- كما صرحت الآية غريب عن أعمالهم، و أعمالهم غريبة عن الإسلام، و ستفشل فى المآل كل محاولات المفرقين للصفوف، تذهب أدراج الرياح، و لن يحصدوا منها سوى الخيبة و الخسران.

حملات كاتب «المنار» الظالمة على الشّيعة:

يعانى كاتب تفسير المنار من سوء ظن بالغ الشدّة بالنسبة إلى الشيعة، و بنفس القدر يعانى من الجهل بعقائد الشيعة و تاريخهم.

ففى ذيل هذه الآية يعقد فصلا حول الشيعة تحت غطاء الدعوة إلى الاتحاد، و يصفهم بأنّهم يفرقون الصفوف و يخالفون الإسلام، و أنهم ممن يعملون ضدّ الإسلام و يقومون بنشاطات سياسية تخريبية تحت غطاء المذهب و العقيدة الدّينية، و كأنّ وجود كلمة «شيعا» فى الآية الحاضرة و التى ليس لها أى ارتباط بقضية التشيع و الشيعة ذكّره بهذه الأمور التافهة، فاندفع يتّهم هذه الجماعة المؤمنة من دون تورّع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۹

إنّ كتاباته أفضل جواب على أقواله، و خير شاهد على عدم معرفته بعقائد الشيعة، و تأريخهم، و ذلك لأنّه:

۱- يربط بين الشّيعة و «عبد اللّه بن سبأ» اليهودى المشكوك فى أصل وجوده من وجهة نظر التّأريخ، و الذى ليس له- على فرض وجوده- أدنى دور فى تاريخ التشيع و الشيعة! بينما نجده من جانب آخر يربط بين الشيعة و «الباطنية» بل حتى بين الشيعة و الفرقة البهائية التى هى أعدى أعداء الشيعة. على حين تكشف أدنى معرفة بتاريخ الشيعة أنّ هذه الأحاديث و المزاعم ليست سوى مزاعم و أحاديث خيالية وهمية، بل محض افتراء و اتهام و اختلاق.

و الأعجب من كل ذلك هو أنّ هذا الكاتب يربط بين جماعة «الغلاة» (و هم الذين يرفعون عليا عليه السّلام إلى درجة الألوهية غلوّا) و بين الشيعة فى حين أن الفقه الشيعى أفرز فصلا للغلاة تحت عنوان إحدى الفرق و الطوائف المقطوع بكفرها، و يتهم الشيعة بأنّهم يعبدون أهل البيت، و غير ذلك من النسب الباطلة الرخيصة.

إن من المسلّم أن كاتب «المنار» لو لم يكن قد تأثر بالأحكام المتسرّعة و العصبيات العمياء و سمح لنفسه بأن يسمع عقائد الشيعة من أفواههم أنفسهم، و يأخذها منهم، و يستقرئها من كتبهم لا من كتب أعدائهم لعرف جيدا بأنّ ما نسبه إلى الشيعة ليس مجرّد افتراءات و أكاذيب، بل هو مهازل مضحكة.

و الأعجب من ذلك كلّه أنّه عزا نشأة التشيع إلى الإيرانيين، على أنّ التشيع كان فاشيا فى العراق و الحجاز و مصر قبل أن يتشيع الإيرانيون بقرون مديدة، و الوثائق التّأريخية شواهد حيّة على هذه الحقيقة.

۲- إنّ ذنب الشيعة هو أنّهم عملوا بما صدر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قطعا، و الذى ورد- كذلك- فى أوثق المصادر السنّية و هو

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّى تارك فيكم الثقلين

ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى»[۳۱۱].

إنّ ذنب الشيعة هو أنّهم يعتبرون أهل البيت النبوى أدرى و أعرف من غيرهم بدين النّبى و رسالته، فجعلوهم الملجأ و المرجع فى المشاكل الدينية، و أخذوا عنهم حقائق الإسلام.

أنّ ذنب الشيعة هو أنّهم فتحوا باب «الاجتهاد» أخذا بحكم المنطق و العقل، و القرآن و السنة و بذلك منحوا الفقه الإسلامى فاعلية متحركة، و لم يحصروه ب «أربعة أشخاص» و يجبروا الناس على إتباعهم.

أ ليست خطابات القرآن و السنة و موجّهة إلى عموم المؤمنين فى جميع الدهور و العصور؟

أم هل كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتّبعون فى فهم الكتاب و السنة أشخاصا معينين، فلما ذا نحصر الإسلام فى حصار قديم من الجمود باسم «المذاهب الأربعة» الحنفى، الحنبلى، المالكى، الشّافعى؟! إن ذنب الشيعة هو أنّهم يقولون: إنّ صحابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مثل سائر المسلمين يجب أن يقيّموا بمقياس إيمانهم و فى ضوء أعمالهم، فمن وافق عمله الكتاب و السنة كان صالحا، و من خالف عمله الكتاب و السنة- سواء أ كان فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو جاء بعده- رفض و طرد، و لا تكفى مجرّد الصحبة ليتستر بها المجرمون و الجناة، فلا يجوز أن يقدّس و يحترم رجال كمعاوية الذى داس كل القيم و تجاهل جميع الضوابط الإسلامية، و خرج على إمام زمانه الذى رضيت به الأمّة الإسلامية، و على الأقل فى ذلك العصر (و نعنى عليا عليه السّلام)، و أراق تلك الدّماء الكثيرة! ... لا يجوز تقديس هذا الشخص و أمثاله لمجرّد صحبته لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لا بعض الصحابة المرتزقة ممن مالأه و سار فى ركابه.

نعم هذه هى ذنوب الشيعة و هم يعترفون بها، و لكن هل وجدتم فى عالمنا هذا من هو أشدّ مظلوميّة من الشيعة، بحيث تعتبر أفضل نقاط القوّة فى تاريخها و عقائدها نقاط ضعف، و يكيلون لها سيلا من الاتهامات و الأكاذيب، بل و لا يسمحون لها بأن تنشر معتقداتها فى أوساط المسلمين و تعرضها عليهم بحرية، كما يفعل غيرها من الطوائف، بل يأخذون عقائدها من غيرها.

ترى إذا عملت جماعة بأمر نبيّهم فى حين لا يعمل الآخرون به، فهل يعتبر عمل تلكم الجماعة تفريقا للصفوف، و شقا لعصى الأمّة؟ و هل يجب صرف هذه الجماعة عن مسارها ليتحقق الاتحاد، أو تقويم من يسلك غير سبيل المؤمنين؟

۳- إنّ تاريخ العلوم الإسلاميّة يشهد أنّ الشيعة كانوا السبّاقين فى أكثر هذه العلوم و المعارف إلى درجة أنه اعتبر الشيعة، البناة المؤسسين لعلوم الإسلام.[۳۱۲] إنّ الكتب التى ألّفها علماء الشيعة فى مجال التّفسير و التّأريخ، و الحديث و الفقه، و الأصول، و الرجال و الفلسفة الإسلامية، ليست أمورا يمكن تجاهلها و إنكارها أو إخفاؤها، فهى موجودة فى جميع المكتبات (اللّهم إلّا اكثر مكتبات أهل السنة الذين لا يسمحون عادة بدخول هذه المؤلّفات و الكتب إلى مكتباتهم، فى حين أننا نسمح بدخول مؤلفاتهم فى مكتباتنا منذ قرون مديدة) و هذه الكتب شواهد حيّة على ما ذكرناه.

فهل هؤلاء الذين صنّفوا و ألّفوا كل هذه الكتب حول الإسلام و تعاليمه، فى سبيل نشرها و بثّها و تعميقها، كانوا أعداء للإسلام؟

و هل عرفتم عدوّا يحبّ الإسلام بهذه الدرجة؟! أم هل يستطيع أحد أن يخدم الإسلام الحنيف بمثل هذه الخدمة الكبيرة، إذا كان

محبّا مخلصا، و عاشقا متيما؟! هذا و نقول فى ختام حديثنا: إذا أردتم أن نزيل كل هذا الاختلاف و الفرقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۲

تعالوا نعمل شيئا آخر بدل التراشق بالاتهامات، و ذلك أن يتعرف بعضنا على بعض و يفهم بعضنا بعضا، لأنّ مثل هذه النسب و الافتراءات الباطلة ليس من شأنها أن تحقق الوحدة الإسلامية، بل توجه ضربة قاضية إلى أسس الوحدة الإسلامية.

ثواب أكثر، عقاب أقلّ:

فى الآية اللاحقة إشارة إلى الرحمة الإلهية الواسعة، و إلى الثواب الإلهى الواسع الّذى ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين، و قد كمّلت التهديدات المذكورة فى الآية بهذه التشجيعات و يقول: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.

ثمّ قال: وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها.

و للتأكيد يضيف هذه الجملة أيضا فيقول: وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ و إنما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

و أمّا ما هو المراد من «الحسنة» و «السّيئة» فى الآية الحاضرة و هل هما خصوص «التوحيد» و «الشرك» أو معنى أوسع؟ فبين المفسّرين خلاف مذكور فى محلّه، و لكن ظاهر الآية يشمل كل عمل صالح و فكر صالح و عقيدة صالحة أو سيئة، إذ لا دليل على تحديد أو حصر الحسنة و السيئة.

بحوث

اشارة

و هاهنا نكات يجب التوجّه إليها و التوقف عندها:

-۱

إنّ المقصود من قوله: «جاء به»

كما يستفاد من مفهوم الجملة هو أن يجىء بالعمل الصالح أو السىء معه، يعنى إذا مثل الإنسان أمام المحكمة الإلهية العادلة يوم القيامة فإنّه لا يحضر بيد فارغة خالية من العقيدة و العمل الصالحين، أو عقيدة أو أعمال طالحة، بل هى معه دائما، و لا تنفصل عنه أبدا، فهى قرينته فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۳

الحياة الأبديّة و تحشر معه.

لقد استعمل مثل هذا التعبير فى الآيات القرآنية الأخرى بهذا المعنى أيضا ..

ففى الآية (۳۳) من سورة (ق) نقرأ قوله تعالى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ إنّ الجنّة لمن آمن باللّه عن طريق الإيمان بالغيب، و خافه و أتى إلى ساحة القيامة بقلب تائب مملوء بالإحساس بالمسؤولية.

۲- أجر الحسنة، عشرة أضعاف

نقرأ فی الآیة الحاضرة أن الحسنة یثاب علیها بعشرة أضعافها، بینما یستفاد من بعض الآیات القرآنیة أنه اقتصر علی عبارة أَضْعافاً کَثِیرَةً من دون ذکر عدد الأضعاف (کما فی الآیة ۲۴۵ من سورة البقرة) و فی بعض الآیات بلغ ثواب بعض الأعمال مثل الإنفاق إلی سبعمائة ضعف (کما فی الآیة ۲۶۱ من سورة البقرة) بل ربّما إلی أکثر من ذلک مثل قوله: إِنَّما یُوَفَّی الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسابٍ ۳۱۳].

إنّ من الواضح أنه لا تناقض بین هذه الآیات أبدا، إذ إنّ أقل ما یعطی للمحسنین هو عشرة أضعاف الحسنة، و هکذا یتصاعد حجم الثواب مع تعاظم أهمیة العمل و الحسنة، و مع تعاظم درجة الإخلاص، و مع ازدیاد مقدار السعی و الجهد و المبذول فی سبیل العمل الصالح، حتی یصل الأمر إلی أن تتحطم الحدود و المقادیر، و لا یعلم حدّ الثواب و مقداره إلّا اللّه تعالی.

فمثلا الإنفاق الذی یحظی بأهمیة بالغة فی الإسلام یتجاوز مقدار ثوابه الحدّ المتعارف للعمل الصالح الذی هو عشرة أضعاف الحسنة، و یصل إلی «الأضعاف الکثیرة» أو «سبعمائة ضعف» و ربّما أکثر من ذلک.

و الاستقامة التی هی أساس جمیع النجاحات و السعادات، و لا تبقی عقیدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۴

أو عمل صالح و لا یستمر بدونها قد ذکر القرآن لها ثوابا خارجا عن حدّ الإحصاء و الحساب.

و من هنا أیضا یتضح عدم المنافاة بین هذه الآیة و بین الرّوایات التی تذکر لبعض الأعمال الحسنة مثوبة أکثر من عشرة أضعاف.

کما أنّ ما نقرؤه فی الآیة (۸۴) من سورة القصص فی قوله تعالی: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْها لا ینافی الآیة الحاضرة حتی نحتاج إلی القول بنسخ الآیة، لأنّ للخیر معنی واسعا یتلاءم مع عشرة أضعاف أیضا.

۳- لماذا کفارة یوم واحد ستین یوما؟

ربّما یتصور البعض: أنّ وجوب صوم «ستین یوما» من باب الکفارة فی مقابل إفطار یوم من شهر رمضان، و العقوبات الأخری فی الدنیا و الآخرة من هذا القبیل، لا تتلاءم مع الآیة الحاضرة التی تقول: السیئة تجازی بمثلها فقط.

و لکن مع الالتفات إلی نقطة واحدة یتضح جواب هذا الاعتراض أیضا و هی أنّ المراد من المساواة بین «المعصیة و العقوبة» لیس هو المساواة العددیة، بل لا بدّ من أخذ کیفیة العمل أیضا بنظر الاعتبار.

إنّ إفطار یوم واحد من أیّام شهر رمضان المبارک مع ماله من الأهمیة، لیست عقوبته صوم یوم واحد بدله من باب الکفارة، بل علیه أن یصوم أیّاما عدیدة حتی تساوی مبلغ احترام ذلک الیوم من شهر رمضان المبارک، و لهذا نقرأ فی بعض الرّوایات أنّ عقوبة الذنوب فی شهر رمضان أشد و أکبر من عقوبة الذنوب فی الأیّام و الأشهر الأخری. کما أنّ ثواب الأعمال الصالحة فی تلک الأیام أکثر و أزید، إلی درجة أنّ ثواب ختمة واحدة للقرآن فی هذا الشهر یعادل ثواب سبعین ختمة للقرآن فی الأشهر الأخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۵

۴- منتهی اللّطف الرّبانی

إنّ النقطة الأجمل فی المقام هی أنّ الآیة الحاضرة جسّدت منتهی اللطف و الرحمة الإلهیة فی حق الإنسان.

فهل عرفت أحدا بیده کل أزمة الإنسان و شؤونه، کما أنّه محیط بجمیع أعماله و شؤونه، یبعث قادة و مرشدین معصومین لهدایته و

إرشاده، ليوفق إلى الإتيان بالعمل الصالح فى هدى رسله، مستفيدا من الطاقة الإلهية الممنوحة له، مع ذلك يثيبه على حسناته بعشر أمثالها، و لكنّه لا يجازيه على السيئة إلّا بمثلها، ثمّ يجعل باب التوبة و نيل العفو مفتوحا فى وجهه؟!

يقول أبو ذر: قال الصادق المصدّق [أى رسول اللّه] : «إنّ اللّه قال الحسنة عشر أو أزيد، و السيئة واحدة أو أغفر، فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره»[۳۱۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۶

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۳]

اشارة

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلي صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۶۱) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶۲) لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (۱۶۳)

التّفسير

هذا هو طريقى المستقيم

هذه الآية و الآيات الأخر التى سنقرؤها فيما بعد و التى ختمت بها سورة الأنعام، تعتبر خلاصة الأبحاث المطروحة فى هذه السورة التى بدأت و انتهت بمكافحة الشرك و الوثنية، و تركزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. فقد بدأت هذه السورة بالدعوة إلى التوحيد و مكافحة الشرك، و ختمت بنفس ذلك البحث أيضا.

ففى البداية أمرت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يقول فى مواجهة معتقدات المشركين و الوثنيين و مزاعمهم الجوفاء و العارية عن المنطق السليم: قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلي صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى طريق التوحيد، و رفض كل أشكال الشرك و الوثنية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۷

و الجدير بالذكر أنّ هذه الآية و طائفة كبيرة من الآيات السابقة و اللاحقة لها تبدأ بجملة: «قل» و لعلّه لا توجد فى القرآن الكريم سورة كررت فيها هذه الجملة بهذا القدر مثل هذه السورة، و هذا يعكس فى الواقع مدى شدّة المواجهة بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين منطق المشركين.

كما أنّه يسدّ كل أبواب العذر فى وجوههم، لأنّ تكرار كلمة «قل» علامة على أنّ كل ما يقوله لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما هو بأمر اللّه، بل هو عين كلام اللّه، لا أنّها آراء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أفكاره و قناعاته الشخصية.

و من الواضح أن ذكر كلمة «قل» فى هذه الآيات و أمثالها فى نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصالة القرآن، و للدلالة على أن ما يأتى بعدها هو عين الكلمات التى أوحيت إلى رسول اللّه.

و بعبارة أخرى: الهدف منها هو الدلالة على أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يحدث فيها أىّ تغيير فى الألفاظ التى أوحيت إليه، و حتى كلمة «قل» التى هى خطاب إليه قد ذكرها عينا.

ثمّ إنّه تعالى يوضح «الصراط المستقيم» فى هذه الآية و الآيتين اللاحقتين.

فهو يقول أوّلا: إنّه الدين المستقيم الذى هو فى نهاية الصحة و الاستقامة، و هو الأبدى الخالد القائم المتكفل لأمور الدين و الدنيا و الجسد و الروح: دِيناً قِيَماً[۳۱۵].

و حيث أنّ العرب كانوا يكنّون لإبراهيم عليه السّلام محبّة خاصّة، بل كانوا يصفون عقيدتهم و دينهم بأنّه دين إبراهيم هو هذا الذى أدعو أنا إليه لا ما تزعمونه: مِلَّةَ إِبْراهِيمَ

إبراهيم عليه السّلام الذى أعرض عن العقائد الخرافية التى كانت سائدة فى عصره و بيئته، و أقبل على التوحيد حَنِيفاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۸

و «الحنيف» يعنى الشخص أو الشىء الذى يميل إلى جهة ما، و أمّا فى المصطلح القرآنى فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدة عصره الباطلة و يولى وجهه نحو الدين الحق و العقيدة الحقّة.

و كأنّ هذا التعبير جواب و ردّ على مقالة المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مخالفته للعقيدة الوثنية التى كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النّبى فى معرض الردّ على مقالتهم هذه، بأنّ نقض السنن الجاهلية و الإعراض عن العقائد الخرافية السائدة فى البيئة ليس هو من فعلى فقط، بل كان إبراهيم- الذى نحترمه جميعا- كذلك أيضا.

ثمّ يضيف للتأكيد قائلا: وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بل هو بطل الكفاح ضد الوثنية، و حامل الحرب ضد الشرك، الذى لم يفتأ لحظة واحدة عن محاربته و كفاحه.

إنّ تكرار جملة حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فى عدّة موارد من آيات القرآن الكريم مع قوله: «مسلما» أو بدونها، إنّما هو للتأكيد على هذه المسألة و هى أنّ إبراهيم الذى يفتخر به العرب الجاهليون مبرّأ و منزه عن كل هذه العقائد و الأعمال الخاطئة[۳۱۶].

الآية اللاحقة تشير إلى أنّه على النّبى أن يقول: إنّى لست موحدا من حيث العقيدة فحسب، بل إنى أعمل كل عمل صالح: قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ فأنا أحيى للّه، و له أموت، و أفدى بكل شىء لأجله، و كل هدفى و كل حبّى بل كل وجودى له.

و «النسك» يعنى فى الأصل العبادة، و لذا يقال: للعابد: ناسك، و لكن هذه الكلمة تطلق فى الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

و قد احتمل البعض أن يكون الموارد من «النسك» هنا هو «الأضحيّة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۹

و لكن الظاهر أنّه يشمل كل عبادة، و هو إشارة أوّلا إلى الصّلاة كأهم عبادة، ثمّ إلى سائر العبادات بشكل كلّى، يعنى صلاتى و كل عباداتى، بل و حتى موتى و حياتى كلها له تعالى.

ثمّ فى الآية الثالثة يضيف للتأكيد، و إبطالا لأى نوع من أنواع الشرك و الوثنية قائلا: لا شَرِيكَ لَهُ

ثمّ يقول فى ختام الآية: وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ

كيف كان النّبىّ أوّل مسلم؟

فى الآية الحاضرة وصف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنه أوّل المسلمين.

و قد وقع بين المفسّرين كلام حول هذه المسألة، لأنّنا نعلم أنّه إذا كان المقصود من «الإسلام» هو المعنى الواسع لهذه الكلمة فإنه يشمل جميع الأديان السماويّة، و لهذا يطلق وصف المسلم على الأنبياء الآخرين أيضا، فاننا نقرأ حول نوح عليه السّلام: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۳۱۷].

و نقرأ حول إبراهيم الخليل عليه السّلام و ابنه إسماعيل أيضا: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ۳۱۸].

و جاء فى شأن يوسف عليه السّلام: تَوَفَّنِي مُسْلِماً[۳۱۹].

على أن «المسلم» يعنى الذى يسلّم و يخضع أمام أمر اللّه، و هذا المعنى يصدق على جميع الأنبياء الإلهيين و أممهم المؤمنة، و مع ذلك فإن كون رسول الإسلام أوّل المسلمين، إمّا من جهة كيفية إسلامه و أهميته، لأنّ درجة إسلامه و تسليمه أعلى و أفضل من الجميع، و إمّا لأنّه كان أوّل فرد من هذه الأمّة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۰

قبلت بالإسلام و القرآن.

و قد ورد فى بعض الرّوايات- أيضا- أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوّل من أجاب فى الميثاق فى عالم الذّر، فإسلامه متقدم على إسلام الخلائق أجمعين ۳۲۰].

و على أى حال فإنّ الآيات الحاضرة توضح روح الإسلام، و تعكس حقيقة التعاليم القرآنية و هى: الدعوة إلى الصراط المستقيم، و الدعوة إلى دين محطم الأصنام إبراهيم الخالص، و الدعوة إلى رفض أى نوع من أنواع الشّرك و الثنوية ...

هذا من جهة العقيدة و الإيمان.

و أمّا من جهة العمل: الدّعوة إلى الإخلاص، و إلى تصفية النيّة، و الإتيان بكل شىء للّه تعالى، الحياة لأجله، و الموت فى سبيله، و طلب كل شىء منه، و محبّته، و الانقطاع إليه، و عن غيره، و التولى له، و التبرؤ من غيره.

فما أكبر الفرق بين ما جاء فى الدعوة الإسلامية الواضحة، و بين أعمال بعض المتظاهرين بالإسلام الذين لا يفهمون من الإسلام سوى التظاهر بالدين، و لا يفكرون فى جميع الموارد إلّا فى الظاهر، و لا يعتنون بالباطن و الحقيقة، و لهذا فليس حياتهم و مماتهم و اجتماعهم و مفاخرهم و حريتهم سوى قشور خاوية لا غير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۱

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۶۴]

اشارة

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۱۶۴)

التّفسير

إنّ التأكيدات المتتابعة المتوالية و الاستدلال المتنوع فى هذه السورة فى صعيد التوحيد و مكافحة الشرك تنبئ عن أهمية كبرى للموضوع.

و هذه الآية شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبيّه:

قل لهم و اسألهم: هل من الصحيح أن أطلب ربّا غير اللّه الواحد فى حين أنّه هو المالك و المربّى، و هو رب كل شىء و بيده أزمة جميع الكائنات، و حكمه جار فى جميع ذرّات الوجود بلا استثناء: قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ.

ثمّ إنّه يردّ على جماعة من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: اتّبعنا و علينا وزرك إن كان خطأ، قائلا: وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها، وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى فلا يعمل أحد إلّا لنفسه، و لا يحمل أحد وزر أحد.

ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فمآلكم إليه و هو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۲

بحثان

إنّ هاهنا نقطتين يجب أن نقف عندهما و نلتفت إليهما:

۱- ربّما حملنا وزر غيرنا

قد يتوهمّ أنّ الآية الحاضرة التى تبيّن أصلين من الأصول المنطقية المسلّمة لدى جميع الأديان و الشرائع (أى مبدأ: لا يعمل أحد إلّا لنفسه، و لا- يعاقب أحد بذنب غيره) تتنافى مع الآيات القرآنية الأخرى، كما لا توافق جملة من الرّوايات فى هذه المجال، لأنّ اللّه تعالى يقول فى سورة النحل الآية ۲۵: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ
فإذا لم يحمل أحد وزر أحد فكيف يحمل هؤلاء المضلّون وزر الضالّين أيضا.
كما أنّ الأحاديث المرتبطة ب «السنّة الحسنة» و «السنّة السيئة» المروية بطرق الشيعة و السنّة. تتنافى مع مفهوم الآية الحاضرة
كقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من سنّ سنّة حسنة كان له أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء، و من سنّ سنّة سيئة كان عليه وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».
و لكن الإجابة على هذا السؤال واضحة، فإنّ الآية المبحوثة هنا تقول: إنّه لا يحمل أحد وزر أحد من دون سبب، و لكنّ الآيات و الرّوايات المشار إليها سلفا تقول: إذا كان الإنسان مؤسّسا لعمل صالح أو سيّ‌ء يعمل وفقه الآخرون، أى كان له «التسبيب» و الدلالة فى قيام الآخرين بعمل معيّن، و كانت له بالتالى دخالة فى وقوعه، فإنّه- و لا شك- يشترك معهم فى نتائجه و عواقبه، لأنّه يعتبر- فى الحقيقة عمله و فعله، فلا مناص من أن يتحمل تبعاته إنّ خيرا فخير، و إن شرا فشرّ، لأنّه هو الذى وضع بيده أساسه الذى قام عليه صرح العمل، و ارتفع بنيانه.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۳

۲- هل أن أعمال الآخرين الصالحة تنفعنا؟

إنّ التوّهم الآخر الذى يمكن أن يخالج الأذهان حول هذه الآية هو: أنّ الآية تقول: إن عمل كل إنسان لا ينفع إلّا نفسه، و على هذا فإن الأعمال الصالحة التى تهدى إلى الأموات، بل و حتى الأحياء أحيانا، لا يمكن أن تنفعهم، فى حين نقرأ فى روايات كثيرة مروية عن طريق الشيعة و السنة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام أن مثل هذه الأعمال قد تنفع الآخرين، و إن هذا ينطبق على الجميع، فلا ينحصر بعمل الولد لوالديه، بل يشمل كل من يعمل عملا و يهدى ثوابه للآخرين.
هنا مضافا إلى أنّنا نعلم أن الثواب يرتبط بتأثير العمل الصالح المأتى به على روح الإنسان و دوره فى تكامل الإنسان و رقيه، و لكنّ الذى لم يعمل عملا صالحا قط، بل و لم يكن له أية دخالة فى مقدماته كذلك، فكيف يمكن أن ينشأ منه أثر روحى و معنوى؟؟
و لقد واصل البعض طرح هذا الإشكال بصورة مسهبة، و لم يكن الأفراد العاديون وحدهم هم الذين طرحوه، بل تأثر به بعض المفسّرين و الكتاب، مثل كاتب «المنار» إلى درجة أنّهم تناسوا كثيرا من الأحاديث و الرّوايات المسلّمة، و لكن مع الالتفات إلى نقطتين يتضح الجواب على هذا الإشكال.
۱- صحيح أن عمل كل إنسان سبب لتكامله بالخصوص، و أنّ نتائج الأعمال الصالحة و آثارها الواقعية عائدة إلى القائم بالعمل الصالح، تماما كما تكون «الرّياضة»، و «التّعليم و التّربية» من كل أحد سببا لتقوية جسم فاعلها و روحه و نفسه، و تكاملهما.
و لكن عند ما يعمل أحد عملا صالحا لشخص آخر، فإنّه إنّما يفعله حتما لأجل أن ذلك الشخص يمتلك امتيازا على غيره و صفة

حسنة، أو لأنّه كان مربيّا صالحا، أو تلميذا صالحا، أو صديقا طيبا أو جارا وفيا له، أو كان عالما خدوما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۴

للمجتمع، أو مؤمنا مخلصا، أو يمتلك أدنى حد من الصلاح في حياته، يوجب جلب أنظار الآخرين، و يسبب في أن يعملوا أعمالا صالحة و يهدونها إليه.

و على هذا فذلك العمل- في الحقيقة- إنّما يكون نتيجة لذلك الامتياز، و نتيجة للصفة الحسنة المذكورة، و للنقطة المضيئة في شخصيته و حياته، و لهذا يكون قيام الآخرين بالأعمال الصالحة له إنما هو أشعة من ضوء علمه الطيب أو نيّته الصالحة، و نتيجة لتلك الخصلة الحسنة التي يتّصف بها.

٢- المثوبات التي يعطيها اللّه تعالى للأشخاص على نوعين: مثوبات تتناسب مع وضع تكاملهم الروحي و صلاحيتهم، يعني أن أرواحهم و نفوسهم قد تسمو بسبب قيامهم بالأعمال الصالحة سموا كبيرا، و ترتقي في سلّم الكمال رقيا عظيما إلى درجة يصلحون للعيش في عوالم أعلى و أفضل، و يرتفعون بما صنعوه على أجنحة العقيدة و العمل الصالح.

و لكن حيث أنّ أيّ عمل صالح هو إطاعة لأمر اللّه سبحانه، و يستحق المطيع لإطاعته أجرا و مثوبة، فإنّه يمكنه أن يهدي ذلك الثواب و الأجر إلى غيره بإرادته و رغبته، تماما، مثل أستاذ متخصّص في شعبة مهمّة من العلوم يدرّس في جامعة من الجامعات، فإنّه لا ريب في أنّه يصل بتدريسه إلى نتيجتين:

فهو من جهة يصل- في ضوء تدريسه- إلى درجات علمية أكمل و أقوى، و هو في نفس الوقت يحصل على أموال لقاء خدمته، و لا ريب في أنّه لا يستطيع أن يهدي النتيجة الأولى لأحد لأنّها خاصّة به، و لكنّه يمكنه أن يقدم (أو يهدي) النتيجة الثانية إلى من يرغب و يحب.

إنّ إهداء (ثواب) الأعمال الصالحة من جانب العاملين بها إلى الأموات، بل و إلى الأحياء أحيانا، إنّما هو من هذا النمط و من هذا القبيل.

و بهذا يرتفع و ينتفي أي إبهام يحوم حول هذه الأحاديث.

و لكن يجب أن نعلم بأنّ المثوبات التي تصل إلى الآخرين عن هذا الطريق لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۵

يمكن أن تضمن سعادتهم، بل تصيبهم منها آثار قليلة و الأصل و الأساس في نجاتهم إنّما هو إيمانهم و عملهم أنفسهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۶

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۶۵]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۵)

التّفسير

اشارة

فی هذه الآیة التی هی آخر الآیات من سورة الأنعام إشارة إلی أهمیة مقام الإنسان و مکانته فی عالم الوجود لتکمیل الأبحاث الماضیة فی مجال تقویة دعائم التوحید، و مکافحة الشرک، یعنی أن یعرف الإنسان قیمة نفسه، کأرقی و أفضل کائن فی عالم الخلق، و لا یسجد للخشب و الحجر، و لا یرکع أمام الأصنام المختلفة الأخری، و لا یقع فی أسرها، بل یکون أمیرا و حاکما علیها بدل أن یکون أسیرا و محکوما لها.

لهذا قال تعالی فی مطلع کلامه: هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ ۳۲۱].

إن الإنسان الذی هو خلیفة اللّه فی أرضه، و الذی سخرت له کل منابع هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۷

العالم و صدر الأمر بحکومته علی جمیع الموجودات من جانب اللّه تعالی، لا یجوز أن یسمح لنفسه بالسقوط إلی درجة السجود للجمادات.

ثمّ أشار سبحانه إلی اختلاف المواهب و الاستعدادات فی المواهب البدنیة و الروحیة لدی البشر، و الهدف من هذا الاختلاف و التفاوت، فیقول: وَ رَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِیَبْلُوَکُمْ فِی ما آتاکُمْ من المواهب المتنوعة و المتفاوتة و یختبرکم بها.

ثمّ تشیر فی خاتمة الآیة الحاضرة إلی حریة الإنسان فی إختیار طریق السعادة و طریق الشقاء نتیجة هذه الاختبارات و الابتلاءات، إذ یقول: إِنَّ رَبَّکَ سَرِیعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ فإنّ ربّک سریع العقاب مع الذین یفشلون فی هذا الاختبار، و غفور رحیم للذین ینجحون فیه و یسعون لإصلاح أخطائهم.

التفاوت بین أفراد البشر و مبدأ العدالة:

لا شک أنّ بین أفراد البشر طائفة من الاختلافات و الفوارق المصطنعة، التی هی نتیجة المظالم التی یمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرین، فهناک مثلا- جماعة یمتلکون ثروات هائلة، و جماعات أخری تعانی من الفقر المدقع، جماعة یعانون من الجهل و الأمیة بسبب عدم توفّر مستلزمات الدراسة، و جماعة أخری تبلغ المراتب العلیا فی الثقافة و العلم بسبب توفّر کلّ الوسائل اللازمة للتحصیل و الدراسة.

جماعة یعانون من المرض و العلّة بسبب سوء التغذیة و ندرة الوسائل الصحیّة، فی حین یحظی أفراد معدودون بقدر کبیر من السلامة و العافیة، بسبب توفر جمیع الإمکانیات.

إنّ مثل هذه الفوارق و الاختلافات: الثروة و الفقر، و العلم و الجهل، و السلامة المرض، هی فی الأغلب ولیدة الاستعمار و الاستثمار، و هی مظاهر مختلفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۸

للعبودیة و المظالم الظاهرة و الخفیة.

إنّ من المسلّم أنه لا یمکن أن تعتبر هذه الأمور من فعل المشیئة الإلهیة، و لیس من الصحیح مطلقا الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غیر المبرّرة أساسا.

و لکن فی نفس الوقت لا- یمکن إنکار أنّه حتی لو روعیت جمیع أصول العدالة فی المجتمع الإنسانی- أیضا- فإنّه لا یتساوی الناس جمیعا من حیث القابلیات و من حیث الفکر، و الذوق، و فی الذکاء، و السلیقة و حتی من جهة الترکیب البدنیّ.

و لکن هل وجود هذه الاختلافات و الفوارق مخالف لمبدأ العدالة، أو أنّه علی العکس یکون هو العدل بمعناه الواقعی، یعنی أنّ مبدأ وضع کل شیء فی محلّه یوجب أن یکون الأفراد غیر متساوین.

إذا كان جميع الأفراد فی المجتمع الإسلامی متساوين و متشابهين فی المواهب و القابليات كالقماش أو الأوانی التی تخرج من مصنع واحد، كان المجتمع الإنسانی- حينئذ- مجتمعا ميتا ساكنا جامدا عاريا عن التحرك و التكامل.

انظروا إلى نبتة الورد، فهناك جذور قوية متينة، و سوق رقيقة، و لكنّها متينة نوعا مّا، و فروع ألطف، ثمّ أوراق و أوراد بعضها ألطف من بعض، و هذه المجموعة المتنوعة فی تراكيبها و المختلفة فی متانتها و لطافتها تشكل نبتة وردة جميلة تختلف فيها الخلايا بحسب اختلافها فی وظائفها، و تختلف فيها القابليات و الاستعدادات بحسب اختلافها و وظائفها.

إن نفس هذا الموضوع يلحظ فی العالم البشری، فأفراد البشر يشكلون من حيث المجموع شجرة كبيرة واحدة يقوم كل فرد برسالة خاصّة فی هذا الصرح العظيم، و له بنيان مخصوص يتلاءم مع وظائفه.

و لهذا يقول القرآن الكريم: إنّ هذه الفوارق و هذا التفاوت وسيلة لاختباركم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۹

و امتحانكم، لأن الاختبار و الامتحان الإلهی- كما قلنا سابقا- يعنی «التربية».

و بهذا يجاب على كل اعتراض و إشكال يورد فی المقام على أثر الفهم الخاطئ لمفهوم الآية.

خلافة الإنسان فی الأرض:

إنّ النقطة الأخرى الجديرة بالاهتمام، هی أن القرآن الكريم وصف الإنسان مرارا بالخلافة، و أنّه خليفة اللّه فی أرضه، أن هذا الوصف، و هذا التعبير ضمن بيانه لمكانة الإنسان يبين هذه الحقيقة أيضا، و هی: أن اللّه تبارك و تعالى هو المالك الأصلی و الحقيقی للأموال و الثروات و القابليات، و جميع المواهب الإلهية الممنوحة للإنسان، و ما الإنسان- فی الحقيقة- إلّا خليفة اللّه وكيل من جانبه، و مأذون من قبله.

و من البديهی أن الوكيل- مهما كان- فهو غير مستقل فی تصرفاته، بل يجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلی، و تقع ضمن إجازته.

و من هنا يتضح أن الإسلام- مثلا- يختلف عن النظام الشيوعی، و كذا عن النظام الرأسمالی فی مسألة المالكية، لأنّ الفريق الأوّل يخصّص الملكية بالجماعة، و الفريق الثانی يخصصها بالفرد، بينما يقول الإسلام: الملكية لا هی للفرد و لا هی للمجتمع، بل هی فی الحقيقة للّه تعالى، و الناس و كلاء اللّه، و خلفاؤه.

و بهذا الدليل نفسه يراقب الإسلام طريقة تصرّف الأفراد فی الأموال كسبا و صرفا، و يضع لكل ذلك قيودا و شروطا تجعل الاقتصاد الإسلامی نظاما متميّزا فی مقابل الأنظمة الأخرى.

«ختام سورة الانعام»

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۱

سورة الأعراف

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائتان و ستّ آيات

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۳

سورة الأعراف هذه السورة من السور المكية إلّا قوله تعالى: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ- إلى- بِما كانُوا يَفْسُقُونَ الذى نزل فى المدينة.

عدد آيات هذه السورة (۲۰۶) آية أو (۲۰۵) كما عليه البعض.

لمحة سريعة عن محتويات هذه السّورة:

إن أكثر السور القرآنية (۸۰ إلى ۹۰ سورة)- كما نعلم- نزلت فى مكّة، و نظرا إلى الأوضاع التى كانت سائدة فى المحيط المكّى، و حالة المسلمين خلال ۱۳ عاما، و كذا بالإمعان فى صفحات التّأريخ الإسلامى بعد الهجرة، يتضح بجلاء أن هناك فرقا بين لحن السور المكية و السور المدنية.

ففى السّور المكية يدور الحديث- غالبا- حول المبدأ و المعاد، و حول إثبات التوحيد، و يوم القيامة، و مكافحة الشرك و الوثنية، و تقوية مكانة الإنسان و دعم موقعه فى عالم الخلق، لأنّ الفترة المكّية كانت تشكل فترة بناء المسلمين من حيث العقيدة، و تقوية أسس الإيمان كأسس و قواعد ل «نهضة متجذرة».

ففى الفترة المكية كان على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يطهّر العقول و الأذهان من جميع الأفكار الوثنية الخرافية، و يغرس محلّها روح التوحيد، و العبودية للّه تعالى، و الإحساس بالمسؤولية لأفراد الطبقة المسحوقة و المحقّرة فى اطار العهد الوثنى بشخصيتهم الحضارية و هويتهم و كرامتهم الإنسانية، و حقيقة موقعهم فى نظام الوجود، و عالم الخلق، ليصنع- بالتالى- من ذلك الشعب الوضيع المشحون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۴

بالخرافة، أمة ذات شخصية قوية، و ذات إرادة صلبة، و إيمان فاعل، و قد كان هذا البناء العقائدى القوى الذى تم على يد رسول الإسلام فى هدى القرآن فى مكّة، هو السبب فى تقدم الإسلام المطّرد فى المدينة.

إن آيات السور المكية كذلك تتناسب جميعها مع هذا الهدف الخاص.

أمّا الفترة المدينة، فقد كانت فترة تشكيل و تأسيس الحكومة الإسلامية، فترة الجهاد فى مقابل الأعداء، فترة تأسيس و بناء مجتمع سليم على أساس القيم الإنسانية، و العدالة الاجتماعية.

و لهذا تهتم السور المدنية فى كثير من آياتها بتفاصيل القضايا الحقوقية، و الأخلاقية و الاقتصادية، و الجزائية، و غير ذلك من الحاجات الفردية و الاجتماعية.

و إذا أراد المسلمون اليوم أن يستعيدوا عظمتهم الغابرة، و مجدهم القديم، وجب عليهم أن ينفّذوا هذا البرنامج بالذات، و أن يطووا هاتين الفترتين بصورة كاملة، فإنّه ما لم تتوطد الأسس العقائدية، و ما لم يتم بناؤها بشكل محكم لم تحظ اللّبنات الفوقية و البناء الحضارى للمجتمع بالمتانة و القوة اللازمة.

و على كل حال فحيث أن سورة الأعراف من السور المكية، لذلك تجلّت فيها جميع خصائص السورة المكية و لهذا نرى:

كيف أنّها أشارت فى البدء إلى مسألة «المبدأ و المعاد».

ثمّ بهدف إحياء شخصية الإنسان شرحت- باهتمام و عناية كبيرة- قصّة خلق آدم.

ثمّ عدّدت- بعد ذلك- المواثيق التى أخذها اللّه تعالى من أبناء آدم فى مسير الهداية و الصلاح، واحدا واحدا.

ثمّ للتدليل على هزيمة و خسران الجماعات التى تحيد عن سبيل التوحيد و العدالة و التقوى. و كذا للتدليل على نجاح المؤمنين الصادقين و انتصارهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۵

ذكرت قصص كثير من الأقوام الغابرة و الأنبياء السابقين مثل «نوح» و «لوط» و «شعيب» و ختمت ذلك ببيان قصة بنى إسرائيل، و

جهاد «موسى» ضدّ فرعون، بصورة مفصّلة.

و فی آخر السورة عادت مرّة أخرى إلى مسألة المبدأ و المعاد، بهذا تتناغم البداية و الخاتمة.

أهمية هذه السّورة:

جاء فی تفسير العياشی عن الإمام الصادق أنّه قال: «من قرأ سورة الأعراف فی كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون ... فإن قرأها فی كل جمعة كان ممن لا يحاسب يوم القيامة (و كذا قال:) أمّا أن يكون فيها محكما فلا تدعوا قراءتها و القيام بها فإنّها تشهد يوم القيامة لمن قرأها»[۳۲۲].

إن ما يستفاد من الحديث الحاضر بوضوح هو أن هذه الرّوايات و الأحاديث الواردة فی فضل السور لا تعنی أن مجرّد قراءتها تنطوی على كل تلك النتائج، و الثمرات الكبرى، بل إنّ ما يعطی هذه القراءة القيمة النهائية هو الإيمان بمضامين السورة، ثمّ العمل على طبقها.

و لهذا جاء فی الرواية الحاضرة: قراءتها و تلاوتها و القيام بها. كما أنّنا نقرأ

فی هذه الرواية أنّه عليه السّلام قال: «من قرأ هذه السورة كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون».

و فی الحقيقة فإنّ هذه إشارة لطيفة إلى الآية (۳۵) من هذه السورة، التی يقول فيها سبحانه: فَمَنِ اتَّقی وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

فهذه المنزلة- كما يلاحظ القارئ الكريم- مخصوصة بالذين اتقوا، و سلكوا سبيل الصلاح، هذا مضافا إلى أنّ القرآن الكريم كتاب «عقيدة» و «عمل»

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۶

و القراءة و التلاوة تعتبران مقدمة لهذا الموضوع.

قال الراغب فی كتاب «المفردات» فی مادة: تلاوة: قوله: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ۳۲۳]، إتباع القرآن بالعلم و العمل.

و هذا يعنی أنّ للتلاوة مفهوما أعلى من مفهوم القراءة، فهی مقرونة بنوع من التدبر و التفكر و العمل.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم
المص (۱) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِی صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْری لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (۳)

التّفسير

فی مطلع هذه السّورة نواجه مرّة أخرى «الحروف المقطّعة» و هی هنا عبارة عن: الألف و اللام و الميم، و الصاد.

و قد سبقت منّا أبحاث مفصّلة عند تفسير هذه الحروف فی مطلع سورة «البقرة» و كذا: «آل عمران».

و هنا نلفت النظر إلى تفسير آخر من التفاسير المطروحة فی هذا الصعيد استكمالا للبحث و هو: أنّه يمكن أن يكون أحد الأهداف

لهذه الحروف هو جلب انتباه المستمعين، و دعوتهم إلى السكوت و الإصغاء، لأنّ وجود هذه الحروف فى مطلع الكلام موضوع عجيب لم يسبق له مثيل فى نظر العرب، و من شأنها أن تثير فى العربى حبّ الاستطلاع، و تدعوه إلى متابعة الكلام إلى نهايته.

و من الاتفاق أنّ غالب السور المبدوءة بالحروف المقطّعة هى السور التى نزلت فى مكّة، و نحن نعلم أن المسلمين فى مكّة كانوا أقليّة، و كان أعداؤهم و خصومهم خصوما ألدّاء اشتد عنادهم إلى درجة أنّهم ما كانوا على استعداد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۸

حتى لاستماع كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل ربّما أثاروا ضجيجا، و رفعوا الأصوات فى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند قراءته للآيات القرآنية ليضيع فى زحمتها و خضمّها نداؤه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو ما أشارت إليه بعض الآيات (مثل الآية ۲۶ سورة فصلت السجدة).

كما أننا نقرأ فى بعض الرّوايات و الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ هذه الحروف رموز و إشارة إلى أسماء اللّه، ف «المص» فى السورة المبحوثة مثلا إشارة إلى جملة: أنا اللّه المقتدر الصادق.

و بهذا الطريق يكون كل واحد من الحروف الأربعة صورة مختصرة عن أحد أسماء اللّه تعالى.

ثمّ إنّ موضوع إحلال الصياغات المختصرة محلّ الصياغات المفصّلة للكلمات كان أمرا رائجا من قديم الزمان، و إن حصل مثل هذا فى عصرنا أيضا بشكل أوسع، حيث اختصرت الكثير من العبارات الطويلة، و كذا أسامى المؤسسات أو الهيئات فى كلمة قصيرة أو أحرف معدودة.

على أن ثمّة نقطة تستحق التنويه بها هنا، و هى أنّ التفاسير و التحاليل المختلفة عن «الحروف المقطعّة» لا تتنافى و لا تتناقض فيما بينها، و يمكن أن تكون جميع التفاسير بطونا مختلفة من بطون القرآن.

ثمّ يقول تعالى فى الآية اللاحقة: كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْکَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ

و «الحرج» فى اللغة يعنى الشعور بالضيق و أى نوع من أنواع المعاناة، و الحرج فى الأصل يعنى مجتمع الشجر الملتفّ أوّلا ثمّ المنتشر، و هو يطلق على كل نوع من أنواع الضيق.

إنّ العبارة الحاضرة تسلّى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تطمئن خاطره بأنّ هذه الآيات نازلة من جانب اللّه تعالى فيجب أن لا يشعر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأىّ ضيق و حرج، لا من ناحية ثقل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۹

الرسالة الملقاة على عاتقه، و لا من ناحية ردود فعل المعارضين و الأعداء الألدّاء تجاه دعوته، و لا من ناحية النتيجة المتوقعة من تبليغه و دعوته.

هذا و يمكن إدراك المشكلات التى كانت تعرقل حركة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إدراكا كاملا إذا عرفنا أن هذه السورة من السور المكّية، و نحن و إن كنّا نعجز عن تصوّر جميع الجزئيات و التفاصيل المرتبطة بحياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صحبه فى المحيط المكى، و فى مطلع الدّعوة الإسلامية، و لكن مع الالتفات إلى حقيقة أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان عليه أن يقوم بنهضة ثورية فى جميع المجالات و الأصعدة فى تلك البيئة المتخلفة جدا و فى مدّة قصيرة، يمكن أن نتصور على نحو الإجمال أبعاد و أنواع الصعاب التى كانت تنتظره.

و على هذا الأساس يكون من الطبيعى أن يعمد اللّه سبحانه إلى تسلية النّبى و تطمينه بأن لا يشعر بالضيق و الحرج، و أن يطمئنّ إلى نتيجة جهوده.

ثمّ يضيف تعالى فى الجملة اللاحقة أن الهدف من نزول هذا الكتاب العزيز هو إنذار الناس و تحذيرهم من عواقب نواياهم و أعمالهم الشريرة، و تذكير المؤمنين الصادقين، إذا يقول: لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ ۳۲۴].

هـذا و مجیء قضیـة «الإنـذار» فی صورة الأمر العام الموجّه للجمیع، و اختصاص «التـذکیر» بالمؤمنین خاصّة، إنّما هو لأجل أنّ الدعوة إلی الحق، و مکافحـة الانحرافات یجب أن تتمّ بصورة عامّـة و شاملة، و لکن من الواضح أنّ المؤمنین هم وحدهم الذین ینتفعون بهذه الدعوة، أولئک الذین تتوفر لدیهم أرضیات مستعدّة لقبول الحق، و قد أبعدوا عن أنفسهم روح العناد و اللجاج و سلّموا أمام الحقائق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۰

و قـد جاءت هـذه العبارة بعینها فی مطلع سورة البقرة إذا یقول تعالی: ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ هُـدیً لِلْمُتَّقِینَ (و للمزید من التوضـیح راجع تفسیر الآیة ۲ من سورة الحمد).

ثمّ إنّه سبحانه یوجه خطابه إلی عامّـة الناس یقول: اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ و بهـذا الطریق یکون قد بدأ الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و مهمّته و رسالته، و انتهی بوظیفة الناس و واجبهم تجاه الرسالة.

و للتأکید یضیف سبحانه قائلا: وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیاءَ فلا تتبعوا غیر أوامر اللّه، و لا تختاروا ولیا غیر اللّه.

و حیث إنّ الخاضعین للحق و المذکرین قلیلون، لذا قال فی ختام الآیة:

قَلِیلًا ما تَذَکَّرُونَ

و من هـذه الآیة یسـتفاد أنّ الإنسان یواجه طریقین (أو خیارین) إمّا القبول بولایة اللّه و قیادته، و إمّا الدخول تحت ولایة الآخرین، فإذا سلک الطریق الأوّل کان اللّه ولیّه، و أمّا إذا دخل تحت ولایـة الآخرین فإن علیه- حینئذ- أن یخضع فی کل یوم لواحد من الأرباب، و أن یختار ربّا جدیدا.

و کلمة «الأولیاء» التی هی جمیع «ولی» إشارة إلی هذا المعنی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۱

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۴ الی ۵]

اشارة

وَ کَمْ مِنْ قَرْیَةٍ أَهْلَکْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَیاتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (۴) فَما کانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ (۵)

التّفسیر

الأقوام التی هلکت و بادت:

هاتـان الآیتـان تشیـران إلی العواقب المؤلمـة التی تترتب علی مخالفـة الأوامر التی تمّ بیانها فی الآیات السابقـة، کما أنّهما تعـدّان- فی الواقع- فهرستا إجمالیا عن قصص الأقوام المتعددة أمثال نوح، و قوم فرعون، و قوم عاد و ثمود، و قوم لوط التی ستأتی فیما بعد.

إنّ القرآن الکریم یحـذر و ینـذر بشـدّة فی هـذه الآیـة کل أولئک الذین یتمردون علی تعالیم الأنبیاء و یقومون بزرع الفجور و الفساد بـدل إصـلاح أنفسـهم و إصـلاح الآخرین، بأن یتـدبروا قلیلا فی حیاة الأقوام السالفـة و ینظروا کم من قریة عامرة أبادها اللّه، و أهلک سکانها الفاسقین: وَ کَمْ مِنْ قَرْیَةٍ أَهْلَکْناها.

ثمّ یبیّن کیفیـة هلاکهم بأنّ العـذاب الألیم جاءهم فی منتصف اللیل و هم یقضون ساعات الراحة و السکون، أو فی وسط النهار و هم یمضون لحظات الاستراحة و الاسترخاء بعد رحلة من العمل و النشاط الیومی الدّائب: فَجاءَها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۲

بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ

ثمّ يواصل الحديث فى الآية اللاحقة هكذا: فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فعند ما يتورّطون فى البلاء، و تتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم و نخوتهم و ينادون معترفين بظلمهم: إنّا كنّا ظالمين.

بحوث

إنّ هاهنا نقاطا عديدة ينبغى الالتفات إليها:

۱- «القرية» مأخوذة أصلا من «قرى» (على وزن نهى) و هى تعنى الاجتماع، و حيث إنّ القرية مركز لاجتماع أفراد البشر أطلق عليها هذا الاسم.

من هنا يتّضح أن القرية لا تعنى الرستاق فقط، بل تشمل كل موضع عامر اجتمع فيه أفراد البشر، و قد أطلقت هذه اللفظة- فى كثير من آيات القرآن الكريم- على المدينة، أو أية منطقة عامرة مدينة كانت أو رستاقا.

و «قائلون» اسم فاعل من «القيلولة» يعنى النوم فى نصف النهار، و أصله الراحة، و لهذا يقال الإقالة فى البيع لأنّه الإراحة منه بالإعفاء من عقده.

و «البيات» أى عند الليل.

۲- إنّ ما نقرؤه فى هذه الآيات من أنّ عقاب اللّه تعالى و عذابه يصيب الظالمين ليلا، أو عند منتصف النهار، لأجل أن يذوقوا طعم العذاب و الجزاء، و ذلك عند ما تنهدم راحتهم و سكونهم به انهداما كاملا، كما سبق لهم أن هدموا راحة الآخرين و سكونهم و عكروا صفوهم، و بهذا يكون جزاؤهم مناسبا لذنبهم و من جنسه.

۳- يستفاد من الآية الحاضرة- أيضا- أن جميع الأقوام العاصية الجانية عند ما تواجه العقاب، و تنكشف عن عيونها أغطية الغفلة و الغرور، و تعترف- برمتها-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۳

بذنوبها، و لكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنّه نوع من الاعتراف «الجبرى و الاضطرارى» الذى يضطرّ إليه حتى أشد الناس غرورا.

و بعبارة أخرى، إنّ هذه اليقظة نوع من اليقظة الكاذبة و العابرة و غير المؤثرة التى لا تحمل أية علامة من علامات الانقلاب و التحوّل الروحى، بهذا لا يكون لها أية نتيجة ... نعم، إذا كانوا يظهرون هذه الحقيقة فى حالة الإختيار و الحرية كان ذلك دليلا على انقلابهم الروحى و سببا لنجاتهم.

۴- من المباحث المطروحة عند المفسّرين فى مجال الآية الحاضرة هو:

لماذا قال القرآن أوّلا: أَهْلَكْناها ثمّ أعقب هذه الجملة بجملة أخرى مبدوءة بفاء التفريع التى هى عادة للترتيب الزمانى فقال: فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً فى حين أن مثل هذا العقاب (أى مجىّ البأس بياتا) كان قبل الهلاك لا بعد الهلاك.

و لكن يجب أن نعلم أنّ الجملة المبدوءة بالفاء قد تكون شرحا و تفصيلا للجملة السابقة لا لبيان حادثة أخرى، و فى المقام أشار أوّلا إلى موضوع الإهلاك على نحو الإجمال، ثمّ عمد إلى شرح هذا الموضوع المجمل بقوله:

فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ و لهذا فى الأدب العربى نظائر كثيرة.

۵- إنّ هذا النوع من الآيات يجب أن لا تعتبر شرحا لقصص الأمم الغابرة، و بالتالى ممّا يرتبط بالزمن الغابر و الأمم الماضية فقط.

إنّ هذه الآيات تحذيرات صاعقة لهذا العصر و ما يليه من العصور، لنا و للأمم و الأقوام القادمة، لأنّه لا معنى للتبعيض فى السنة الإلهية.

و الإنسان المسلح بالتكنولوجيا المتقدمة مع كلّ ما أوتى من قوّة هو الآخر عاجز أمام الزلازل و العواصف، و أمام السيول و الأمطار الغريزة، تماما مثل عجز الأمم ما قبل التّأريخ و ضعفها.

و علی هذا فلیست مثل تلک العواقب السیئة و الألیمة التی أصابت ظلمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۴

الأمم الغابرة، و جباریها، و حلّت بالمغرورین و الفسقة و المتمردین لیلا و حطمتهم، ببعیدة عن الإنسان الحاضر. بل إنّ قوة الإنسان المعاصر و قدراته الکبری یمکن أن تکون مصدر بلاء عظیم له، و تجرّه إلی أحضان حروب مدمّرة لا تنتج سوی فناء جیله، ألا یجب أن نعتبر بهذه الحوادث و نستیقظ من نوم الغفلة!؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۵

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۶ الی ۹]

اشارة

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِینَ أُرْسِلَ إِلَیْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِینَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَیْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما کُنَّا غائِبِینَ (۷) وَ الْوَزْنُ یَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ فَأُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما کانُوا بِآیاتِنا یَظْلِمُونَ (۹)

التّفسیر

التّحقیق الشّامل:

لقد تضمنت الآیات السابقة إشارة إلی معرفة اللّه و نزول القرآن الکریم، و أمّا الآیات أعلاه فانها تتحدث عن المعاد فهی مکملة للآیات السالفة، مضافا إلی أنّ الآیة المتقدمة تحدثت عن الجزاء الدنیوی للظالمین، و هذا الآیات تبحث فی الجزاء و العقاب الأخروی لهم، و بهذا یتضح الارتباط بینها.

یقول تعالی أوّلا و هو یقرر سنّة عامّة: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِینَ أُرْسِلَ إِلَیْهِمْ أی أنّنا سنسأل فی یوم القیامة کل من أرسلنا لهدایته رسولا، حتما و دون ریب.

بل و نسأل کذلک الأنبیاء أیضا: ماذا فعلوا فی مجال تبلیغ رسالتهم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۶

وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِینَ

و علی هذا الأساس فالجمیع مسئولون، قادة و أتباعا، رسلا و مرسلا إلیهم، غایة ما فی الأمر أنّه یختلف السؤال و المسؤولیات من طائفة إلی أخری.

و ثمّة

حدیث مروی عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام فی هذا الصعید یؤید هذا المعنی أیضا، إذا یقول: «فیقام الرسل فیسألون عن تأدیة الرسالات التی حملوها إلی أممهم، فأخبروا أنّهم قد أدّوا ذلک إلی أممهم»[۳۲۵].

هذا و قد صرّح فی حدیث آخر فی تفسیر علی بن إبراهیم بهذا المعنی أیضا[۳۲۶].

فی الآیة اللاحقة- و لکی لا یتصور أحد بأنّ سؤال اللّه للأنبیاء یعنی أن الأمر قد خفی علی اللّه و غاب عن علمه قال تعالی بصراحة مزیجة بالقسم، بأننا سوف نشرح لهم کل أعمالهم بعلمنا، لأنّه ما غاب عنّا شیء من أفعالهم، و ما غابوا هم عنّا، فقد کنا معهم فی کل حین و مکان: فَلَنَقُصَّنَّ عَلَیْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما کُنَّا غائِبِینَ

«لنقصنّ» مأخوذة من «القصة» و هى فى الأصل تعنى ما يتلو بعضه بعضا، و حيث أن القضايا عند شرحها يتلو بعضها بعضا أطلق عليها لفظ القصة، و هكذا أطلق على العقوبة التى تتلو الجناية لفظ «القصاص»، و منه «المقصّ» لأنّه يقطع الشعر بالتوالى، و يقال عمن يبحث عن شيء أنّه «قصّ» لأنّه يبحث الحوادث واحدا بعد واحد.

و حيث إنّ فى هذه الجملة أربعة أنواع من التأكيد (لام القسم، و نون التأكيد، و كلمة علم، التى جاءت بصورة النكرة، و المراد من ذلك بيان عظمته، و جملة ما كان غائبين) لذلك يستفاد منها أنّ المقصود هو: إنّنا نشرح لهم تفاصيل أعمالهم جميعها القذة بالقذة و تباعا، ليعلموا أنّه لا يخفى عنّا شيء من نيّة أو عمل قط[۳۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۷

المساءلة لماذا؟

إنّ أوّل ما يطرح نفسه هنا هو: نحن نعلم أنّ اللّه سبحانه يعلم بكل شيء، فهو الحاضر فى كل زمان و مكان، الناظر لكل شيء من نيّة أو عمل، فما الحاجة إلى مساءلة الرسل و الأمم عامّة و بدون استثناء؟! الجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ السؤال لو كان للاستعلام و الاستفهام، و بهدف الوقوف على الحقيقة لم يصح أن يقع من العالم العارف.

و أمّا إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله، أو إتمام الحجّة عليه، أو ما أشبه ذلك، لم يكن فى ذلك بأس و لا ضير، إذ يشبه ذلك تماما ما لو أسدينا إلى أحد خدمات كثيرة و قابلنا بالإساءة و الخيانة، و كان كل ذلك معلوما معروفا عندنا، و مع ذلك فإننا نسائله و نقول: ألسنا قد أسدينا إليک كذا و كذا من الخدمة؟ فهل كان هذا جزاء الإحسان إليک؟؟

إنّ مثل هذه المساءلة ليست لاكتساب العلم، و اكتشاف الحقيقة المجهولة، بل هى لتفهيم الطرف الآخر و إيقافه على الحقيقة، أو أنّه لتثمين خدمة قام بها أحد المسؤولين و تشجيعه، فنسأله: ماذا فعلت فى هذه السفرة التى كلّفت فيها بمهمّة؟

مع أنّنا نعرف من قبل بتفاصيل عمله.

التّوفيق بين آيات المساءلة فى القرآن:

قد يظنّ أن الآيات المطروحة هنا على بساط البحث، و التى تصرح بكل تأكيد بأن اللّه يسأل الجميع عمّا فعلوه و ارتكبوه، تنافى بعض الآيات القرآنية الأخرى فى هذا الصعيد مثلما ما جاء فى سورة الرحمان: فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ ... يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ ...[۳۲۸].

و كذا الآيات الأخرى التى تنفى السؤال؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۸

فكيف يمكن التوفيق و الجمع بين تلك الآيات و الآيات الحاضرة التى تثبت قضية المساءلة يوم القيامة؟! إن الإمعان فى هذه الآيات كفيل بأن يكشف كل إبهام عنها، فإنه يستفاد من مجموع الآيات الواردة فى مجال المساءلة فى يوم القيامة أن الناس يمرون فى ذلك اليوم بمراحل مختلفة متنوعة، ففى بعض المراحل لا- يسألون عن أى شيء مطلقا، بل يختم على أفواههم، و تتكلم أعضاؤهم و جوارحهم التى تحتفظ بآثار أعمالهم فى نفسها، كشاهد حىّ لا يردّ يروى أعمالهم بدقة متناهية.

و فى المرحلة الأخرى يرفع الختم عن أفواههم فيتحدثون و يسألون فيعترفون عند ذلك- بعد مشاهدة الحقائق التى انكشفت فى ضوء شهادة الجوارح- بأعمالهم، تماما كالمجرم الذى لا يرى بدّا من الاعتراف بجرمه عند مشاهدة الأدلة العينية.

و قد احتمل بعض المفسّرين أيضا فى تفسير هذه الآيات، أنّ الآيات النافية للسؤال إشارة إلى نفى المساءلة الشفاهية، و الآيات المثبتة إشارة إلى السؤال من الجوارح و هى تجيب بلسان الحال- مثل حمرة وجه الإنسان خجلا من انكشاف جرمه- بالحقائق.

و فى هذه الصورة يرتفع التنافى بين هاتين الطائفتين من الآيات.

فى الآية اللاحقة- تكميلا لمبحث المعاد- يشير تعالى إلى قضية «وزن الأعمال» الذى جاء ذكره فى السور القرآنية الأخرى مثل ما جاء فى سورة «المؤمنون» فى الآية (١٠٢ و ١٠٣) و سورة القارعة الآية (۶ و ٨).

فيقول أوّلا: إنّ وزن الأعمال يوم القيامة أمر واقع لا ريب فيه: وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ٣٢٩].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۹

ما هو ميزان الأعمال يوم القيامة؟

لقد وقع كلام كثير بين المفسّرين و المتكلمين حول كيفية وزن الأعمال يوم القيامة، و حيث أنّ البعض تصور أنّ وزن الأعمال و ميزانها فى يوم القيامة يشبه الوزن و الميزان المتعارف فى هذه الحياة، و من جانب آخر لم يكن للأعمال البشرية وزن، و خفة و ثقل يمكن أن يعرف بالميزان، لهذا لا بدّ من حلّ هذه المشكلة عن طريق فكرة تجسم الأعمال، أو عن طريق أن الأشخاص أنفسهم يوزنون بدل أعمالهم فى ذلك اليوم.

حتى أنّه روى عن «عبيد بن عمير» أنه قال: «يؤتى بالرجل الطويل العظيم فلا يزن جناح بعوضة» إشارة إلى أن أولئك الأشخاص كانوا فى الظاهر أصحاب شخصيات كبيرة، و أمّا فى الباطن فلم يكونوا بشيء[٣٣٠].

و لكن لو تركنا مسألة المقارنة و المقايسة بين الحياة فى ذلك العالم و الحياة فى هذا العالم، و علمنا بأن كل شيء فى تلك الحياة يختلف عمّا عليه فى حياتنا هذه، تماما مثلما تختلف أوضاع الفترة الجنينية عن أوضاع الحياة الدنيا، و علمنا- أيضا- أنّه ليس من الصحيح أن نبحث- فى فهم معانى الألفاظ- عن المصاديق الحاضرة و المعينة دائما، بل لا بدّ أن ندرس المفاهيم من حيث النتائج، اتضحت و انحلت مشكلة «وزن الأعمال فى يوم القيامة».

و توضيح الأمر هو: أننا لو كنا نتلفظ فيما مضى من الزمن بلفظ المصباح كان يتبادر إلى ذهننا صورة و وعاء خاص فيه شيء من الزيت، و نصب فيه فتيل من القطن. و ربّما أيضا تصوّرنا زجاجة وضعت على النّار لتحفظها من الانطفاء بسبب الرياح، على حين يتبادر من لفظ المصباح إلى ذهننا اليوم جهاز خاص لا مكان فيه للزيت، و لا للفتيل أمّا ما يجمع بين مصباح الأمس و مصباح اليوم، هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۰

الهدف من المصباح و النتيجة المتوخاة أو المتحصلة منه، يعنى الأداة التى نزيل الظلمة.

و الأمر فى قضيّة «الميزان» على هذا الغرار، بل و فى هذه الحياة ذاتها نرى كيف أن الموازين تطوّرت مع مرور الزمن تطورا كبيرا، حتى أنه بات يطلق لفظ الميزان على وسائل التوزين الأخرى، مثل مقياس الحرارة، و مقياس سرعة الهواء و أمثال ذلك.

اذن، فالمسلّم هو أن أعمال الإنسان توزن فى يوم القيامة بأداة خاصّة لا بواسطة موازين مثل موازين الدنيا، و يمكن أن تكون تلك الأداة نفس وجود الأنبياء و الأئمّة و الصالحين، و هذا ما يستفاد- أيضا- من الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السّلام.

ففى بحار الأنوار ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ أنه قال: «و الموازين الأنبياء، و الأوصياء، و من الخلق من يدخل الجنّة بغير حساب»[٣٣١].

و

جاء فى رواية أخرى: إنّ أمير المؤمنين و الأئمّة من ذريته عليهم السّلام هم الموازين ٣٣٢].

و نقرأ في إحدى زيارات الإمام أمير المؤمنين المطلقة:

السلام على ميزان الأعمال.

و في الحقيقة أن الرجال و النساء النموذجيين في العالم هم مقاييس لتقييم أعمال العباد، فكل من شابههم كان له وزن بمقدار مشابهته لهم، و من بعد عنهم كان خفيف الوزن، أو فاقد الوزن من الأساس.

بل إنّ أولياء اللّه في هذا العالم هم أيضا مقاييس للوزن و التقييم، و لكن حيث

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۱

أنّ أكثر الحقائق في هذا العالم تبقى خلف حجب الإبهام و الغموض. تبرز في يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ[۳۳۳] و تنكشف هذه الحقائق و تنجلي للعيان.

و من هنا يتّضح لماذا جاء لفظ الميزان في الآية بصيغة الجمع: «الموازين» لأنّ أولياء اللّه الذين يوزن بهم الأعمال متعددون.

ثمّ إن هناك احتمالا آخر أيضا، و هو أن كل واحد منهم كان متميزا في صفة معينة، و على هذا يكون كل واحد منهم ميزانا للتقييم في إحدى الصفات و الأعمال البشرية، و حيث أن أعمال البشر و صفاتهم مختلفة، لهذا يجب أن تكون المعايير و المقاييس متعددة.

و من هنا أيضا يتّضح أنّ ما جاء في بعض الرّوايات و الأخبار، مثل ما ورد

عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث سألوه: ما معنى الميزان؟ قال: «العدل»

لا ينافي ما ذكرناه، لأنّ أولياء اللّه، و الرجال و النساء النموذجيين في هذا العالم هم مظاهر للعدل من حيث الفكر، و العدل من حيث العقيدة، و العدل من حيث الصفات و الأعمال (تأملوا)[۳۳۴].

ثمّ إنه تعالى يقول في المقطع الآخر من الآية: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ

إنّ من البديهي أنّ المراد من الخفّة و الثقل في الموازين ليس هو خفة و ثقل نفس الميزان، بل قيمة و وزن الأشياء التي توزن بواسطة تلك الموازين، و تقاس بتلك المقاييس.

ثمّ إنّ في التعبير بجملة «خسروا أنفسهم» إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۲

و هي أن هؤلاء قد أصيبوا بأكبر الخسارات، لأنّ الإنسان قد يخسر ماله، أو منصبه، و لكنّه قد يخسر أصل وجوده من دون أن يحصل على شيء في مقابل ذلك، و تلك هي الخسارة الكبرى، و الضرر الأعظم.

إنّ في التعبير ب «كانوا بآياتنا يظلمون» في آخر الآية إشارة إلى أن مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل ظلموا- كذا- البرامج الإلهية الهادية، لأنّ هذه البرامج كان ينبغي أن تكون سبلا للهداية و وسائل للنجاة، و لو أنّ أحدا تجاهلها، و لم يكترث بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالما لها.

و قد جاء في بعض الرّوايات و الأخبار أنّ المراد من الآيات هنا هم أئمّة الهدى عليهم السّلام، على أن هذا النمط من التّفسير- كما أسلفنا مرارا- لا يعني حصر مفهوم الآية فيهم، بل هم المصاديق الأتمّ و الأظهر للآيات الالهية.

هذا، و فسّر بعض المفسّرين الظلم في الآية بالكفر و الإنكار، و هذا المعنى ليس بعيدا عن مفهوم الظلم، إذ قد ورد الظلم في بعض الآيات القرآنية الأخرى بهذا المعنى.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۳

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۰]

اشارة

وَ لَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (۱۰)

التّفسير

مكانة الإنسان و عظمته فی عالم الوجود:

عقیب الآیات التی أشارت إلی المبدأ و المعاد، یدور البحث فی هذه الآیة و الآیات اللاحقة حول عظمة الإنسان و أهمیة مقامه، و کیفیة خلق هذا الکائن و المفاخر التی وهبها اللّه له، و المواثیق التی أخذها اللّه منه لقاء هذه المواهب و النعم، کل ذلک لتقویة قواعد و أسس تربیته و تکامله.

و فی البدایة اختصر جمیع هذه الأمور فی هذه الآیة، ثمّ شرحها و فصّلها فی الآیات اللاحقة.

فهو یقول البدایة: نحن الذین منحناکم الملکیة و الحاکمیة و سلطناکم علی الأرض: وَ لَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فِي الْأَرْضِ

و أعطیناکم وسائل العیش بجمیع أنواعها: وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ

و لکن مع ذلک لم تشکروا هذه النعم إلّا قلیلا قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ

و «التمکین» هنا لیس بمعنی أن یوضع شخص فی مکان مّا، بل معناه أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۴

یعطی و یوفّر له کل ما یستطیع بواسطته علی تنفیذ مآربه، و تهیئة أدوات العمل له، و رفع الموانع و إزالتها عن طریقه، و یطلق علی مجموع هذا لفظ «التمکین»، فإننا نقرأ فی القرآن الکریم حول یوسف: وَ كَذلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ۳۳۵] أی أننا جعلنا جمیع الإمکانیات تحت تصرّفه.

إنّ هذه الآیة- مثل بعض الآیات القرآنیة الأخری- تدعو الناس- بعد ذکر و تعداد النعم الإلهیة و المواهب الربانیّة- إلی شکرها، و تذم کفران النعم.

إن من البدیهی أن بعث روح الشکر و التقدیر لدی الناس فی مقابل النعم الإلهیة، إنّما هو لأجل أن یخضعوا لواهب النعم تمشیا و استجابة لنداء الفطرة، و لکی یعرفوه و یطیعوه عن قناعة فیهتدوا و یتکاملوا بهذه الطریقة، لا أن الشاکر یؤثر بشکره فی مقام الرّبوبیة العظیم، بل الأثر الحاصل من الشکر- مثل سائر آثار العبادات و الأوامر الإلهیة- جمیعا- یعود إلی الإنسان لا غیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۱ الى ۱۸]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ (۱۱) قالَ ما مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (۱۲) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ (۱۳) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۴) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۱۵)

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۶) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ

أَکْثَرَهُمْ شاکِرِینَ (۱۷) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکُمْ أَجْمَعِینَ (۱۸)

التّفسیر

قصّة عصیان إبلیس

لقد أشیر إلی مسألة خلق الإنسان و کیفیة إیجاده فی سبع سور من سور

القرآن الکریم، و الهدف من ذکر هذا الموضوع- کما سبق أن أشرنا فی الآیة السابقة- هو بیان شخصیة الإنسان، و مقامه، و منزلته بین کائنات العالم، و بعث روح الشکر و الحمد فیه.

لقد جاء ذکر خلق الإنسان من التراب، و سجود الملائکة له، و تمرّد الشیطان و عصیانه، ثمّ موقفه تجاه النوع الإنسانی فی هذه السور بتعابیر مختلفة.

و فی الآیة المبحوثة الآن یقول اللّه تعالی: وَ لَقَدْ خَلَقْناکُمْ ثُمَّ صَوَّرْناکُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ جدّکم الأوّل، و من المأمورین بالسجود إبلیس الذین کان موجودا فی صفوفهم و إن لم یکن منهم، فامتثلوا لهذا الأمر جمیعا و سجدوا لآدم إلّا إبلیس: فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ لَمْ یَکُنْ مِنَ السَّاجِدِینَ

و یمکن أن یکون ذکر «الخلق» فی الآیة الحاضرة قبل «التصویر» إشارة إلی:

أنّنا أوجدنا المادة الأصلیة للإنسان أوّلا، ثمّ أفضنا علیها الصورة الإنسانیة.

بحثان

۱- سجود الملائکة لم یکن سجود عبادة

کما قلنا فی ذیل الآیة (۳۴) من سورة البقرة: إنّ سجود الملائکة لآدم لم یکن سجود عبادة، لأن العبادة مخصوصة اللّه سبحانه، بل السجدة هنا بمعنی التواضع (أی الخضوع أمام عظمة آدم و سموّ منزلته فی عالم الخلیقة) أو بمعنی السجود للّه الذی خلق مثل هذا المخلوق المتعادل المتوازن.

۲- إبلیس لم یکن من الملائکة

إنّ «إبلیس»- کما قلنا فی ذیل تلک الآیة- لم یکن من الملائکة، بل هو حسب صریح الآیات القرآنیة من قسم آخر من الکائنات یدعی «الجنّ» (و للمزید من التوضیح راجع المجلد الأوّل من هذا التّفسیر فی الحدیث عن

سجود الملائکة لآدم).

فی الآیة اللاحقة یقول تعالی: أنه أخذ إبلیس علی عصیانه و طغیانه، و قالَ ما مَنَعَکَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ فتذرع- فی مقام الجواب- بعذر غیر وجیه إذ:

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

و كأن إبليس كان يتصوّر أنّ النّار أفضل من التراب، و هذه هى أكبر غلطاته و أخطائه، و لعلّه لم يقل ذلك عن خطأ و التباس، بل كذب عن وعى و فهم، لأنّنا نعلم أنّ التراب مصدر أنواع البركات، و منبع جميع المواد الحياتية، و أهم وسيلة لمواصلة الموجودات الحيةٔ حياتها، على حين أن الأمر بالنسبة إلى النّار ليس على هذا الشكل.

صحيح أنّ النّار أحد عوامل التجزئة و التركيب فى الكائنات الموجودة فى هذا الكون، و لكن الدور الأصلى و الأساسى هو للمواد الموجودة فى التراب، و تعدّ النّار وسيلة لتكميلها فقط.

و صحيح- أيضا- أنّ الكرة الأرضية انفصلت- فى بداية أمرها- عن الشمس، و كانت على هيئة كرة نارية فبردت تدريجا، و لكن يجب أن نعلم أن الأرض ما دامت مشتعلة، و حارة لم يكن عليها أى كائن حىّ، و إنّما ظهرت الحياة على سطح هذا الكرة عند ما حلّ التراب و الطين محل النّار.

هذا مضافا إلى أنّ أية نار ظهرت على سطح الأرض كان مصدرها مواد مستفادة من التراب، ثمّ إنّ التراب مصدر نموّ الأشجار، و الأشجار مصدر ظهور النّار، و حتى المواد النفطية أو الدهون القابلة للاشتعال و الاحتراق تعود- أيضا- إلى التراب أو إلى الحيوانات التى تتغذى من المواد النباتية.

على أنّ ميزة الإنسان- بغض النظر عن كل هذه الأمور- لم تكن فى كونه من التراب، بل إنّ ميزته الأصلية تكمن فى «الروح الإنسانية» و فى خلافته للّه تعالى.

و على فرض أنّ مادة الشيطان الأصلية كانت أفضل من مادة الإنسان، فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۸

ذلك لا يعنى تسويغ عدم السجود للإنسان الذى خلق بتلك الروح، و وهبه اللّه تلك العظمة، و جعله خليفة له على الأرض.

و الظاهر أنّ الشيطان كان يعرف بكل هذه الأمور، و لكن التكبر، و الأنانية هما اللذان منعاه عن امتثال أمر اللّه، و كان ما أتى به من العذر حجة داحضة، و محض تحجج و تعلّل.

أوّل قياس هو قياس الشيطان:

القياس فى الأحكام و الحقائق الدينية مرفوض بشكل قاطع فى أحاديث عديدة وردت عن أهل البيت عليهم السّلام، و نقرأ فى هذه الأحاديث أنّ أوّل من قاس هو الشيطان.

قال الإمام الصادق عليه السّلام لأبى حنيفة: «لا تقس، فإن أوّل من قاس إبليس»[۳۳۶].

و قد روى هذا المطلب فى تفاسير أهل السنة قديما و حديثا مثل تفسير «الطبرى» عن «ابن عباس» و تفسير المنار و «ابن سيرين» و «الحسن البصرى»[۳۳۷].

و المراد من القياس هو أن نقيس موضوع على آخر يتشابهان من بعض الجهات، و نحكم للثّانى بنفس الحكم الموجود للموضوع الأوّل من دون أن نعرف فلسفة الحكم و أسراره كاملا، كأن نقيس «بول» الإنسان المحكوم بالنجاسة، و وجوب الاجتناب عنه بعرق الإنسان، و نقول: بما أنّ هذين الشيئين يتشابهان من بعض الجهات و فى بعض الأجزاء، لهذا يسرى حكم الأوّل إلى الثانى فيكون كلاهما نجسين، فى حين أنّهما حتى لو تشابها من جهات فهما متفاوتان مختلفان من جهات أخرى أيضا، فأحدهما أرق و الآخر أغلظ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۹

و الاجتناب من أحدهما سهل، و من الآخر صعب و شاق جدّا، هذا مضافا إلى أنه ليست فلسفة الحكم الأوّل معلومة لنا بالكامل، فمثل

هذا القياس ليس سوى قياس تخمينى لا أكثر.

و لهذا السبب منع أئمّتنا عليهم السّلام من القياس بشدّة، استلهاما من كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبطلوه، لأنّ فتح باب القياس يتسبب فى أن يعمد كل أحد بالاعتماد على دراسته المحدودة و فكره القاصر و بمجرّد أن يعتبر موضوعين متساويين من بعض الجهات ... أن يعمد إلى إجراء حكم الأوّل على الثانى، و بهذا تتعرض قوانين الشرع و أحكام الدين إلى الهرج و المرج.

إنّ بطلان القياس عقلا ليس مقصورا على القوانين الدينية فحسب، فالأطباء هم أيضا يؤكّدون فى توصياتهم على أن لا تعطى و صفة أىّ مريض لمريض آخر مهما تشابها من بعض النواحى، و فلسفة هذا النهى واضحة، لأنّه قد يتشابه المريضان فى نظرنا من بعض النواحى، و لكن مع ذلك يتفاوتان من جهات عديدة، مثلا من جهة القدرة على تحمّل الدواء، و فئة الدم، و مقدار السكر فى الدم، و لا يستطيع الأشخاص العادّيون من الناس أن يشخّصوا هذه الأمور، بل تشخيصها يختص بالأطباء و ذوى الاختصاص فى الطب، فلو أعطيت أدوية مريض لآخر دون ملاحظة هذه الخصوصيات، فمضافا إلى احتمال عدم الانتفاع بها، فإنّها ربّما تكون منشأ لسلسلة من الأخطار غير القابلة للجبران.

و الأحكام الإلهية أدقّ من هذه الجهة، و لهذا جاء فى الأحاديث و الأخبار أنه لو عمل بالقياس لمحق الدين، أو كان فساده أكثر من صلاحه [۳۳۸].

أضف إلى ذلك أنّ اللجوء إلى القياس لاكتشاف الأحكام و معرفتها دليل على قصور الدين، لأنّه إذا كان لكل موضوع حكم فى الدين لم يكن أية حاجة إلى القياس، و لهذا فإنّ الشيعة حيث أنّهم أخذوا جميع احتياجاتهم من الأحكام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۰

الدينية من مدرسة أهل البيت ورثة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يروا حاجة إلى اللجوء إلى القياس، و لكن فقهاء السنة حيث أنّهم تجاهلوا مدرسة أهل البيت الذين هم حسب نص النّبى الملجأ الثّانى للمسلمين بعد القرآن الكريم لذلك واجهوا نقصا فى مصادر الأحكام الإسلامية و أدلتها، و لم يروا مناصا من اللجوء إلى القياس.

و أمّا فى مورد الشيطان، فنحن نقرأ فى النصوص و الرّوايات أنّه كان أوّل من قاس، و النكتة فيها أنّه قاس خلقته- من الناحية المادية- بخلقة آدم، و تمسك بأفضلية النّار على التراب فى بعض الجهات، و اعتبر ذلك دليلا على أفضلية النّار من جميع النواحى، من دون أن يلتفت إلى امتيازات التراب، بل و من دون أن يلتفت إلى امتيازات آدم الروحانية و المعنوية، فحكم على طريق ما يسمّى بقياس الأولوية، و لكن قياسا على أساس التخمين و الظن و الدراسة السطحية و المحدودة، بأفضليته على آدم، بل و دفعه هذا القياس الباطل إلى تجاهل الأمر الإلهى.

و الملفت للنظر أنّه

ورد فى بعض الرّوايات المروية عن الإمام الصادق عليه السّلام فى مؤلفات الشيعة و السنة معا أنه قال: «من قاس أمر الدين برأيه قرنه اللّه تعالى يوم القيامة بإبليس»[۳۳۹].

و باختصار، إنّ قياس موضوع بموضوع آخر من دون علم بجميع أسراره و فلسفته، لا يصح أن يكون دليلا على اتحاد حكمهما، و لو أنّ القياس تطرق إلى مسائل الدين و قضايا الشريعة لم تبق للأحكام ضابطة ثابتة، إذ يمكن حينئذ أن يقيس شخص ما موضوعا بنحو، و يصدر حكما بحرمته، و يقيس شخص آخر الموضوع نفسه بنحو آخر و يصدر حكما بحليّته.

و المورد الوحيد الذى يمكن استثناؤه من هذا الأمر هو ما إذا ذكر المقنّن أو الطبيب نفسه دليل حكمه و فلسفة قانونه، ففى هذه الحالة يجوز لنا إذا رأينا هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۱

الدليل و هذه الفلسفة فى موضوع آخر أن نجرى الحكم فيه و نعدّيه إليه أيضا، و هذا هو ما اصطلح عليه بالقياس «المنصوص العلّة»

مثلا: إذا قال الطبيب للمريض: يجب أن تتجنب تناول الفاكهة الفلانية لأنّها حامضة، علم المريض بأنّ الحموضة تضرّه، و أنّه يجب أن يتجنب الحموضة و إن كان فى فاكهة أخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص۵۸۱

هكذا إذا صرّح القرآن الكريم أو صرّحت السنّة الشريفة بأن: تجنّبوا الخمر لأنّه مسكر، علمنا أنّ كل مسكر حرام (و إن لم يكن خمرا) و يجب اجتنابه.

إنّ هذا القياس ليس باطلا- و لا- ممنوعا، لأنّه معلوم الدليل و منصوص العلّة مقطوع بها و القياس الممنوع هو فيما إذا لم نعلم بدليل الحكم و فلسفته بصورة القطع و من جميع الجهات.

على أن مبحث القياس مبحث واسع الأطراف، و ما مضى من البحث ما إلّا هو عصارة منه، و لمزيد التوضيح و الاطلاع راجعوا كتب أصول الفقه و كتب الأخبار، باب القياس، و نحن نختم البحث الحاضر بذكر حديث فى هذا المجال.

جاء فى كتاب «علل الشرائع» دخل أبو حنيفة على الإمام الصادق عليه السّلام فقال له: «يا أبا حنيفة، بلغنى أنّك تقيس؟ قال: نعم، أنا أقيس. قال: لا- تقس فإنّ أوّل من قاس إبليس حين قال: خلقتنى من نار و خلقته من طين فقاس ما بين النّار و الطين، و لو قاس نورية آدم بنورية النّار عرف فضل من بين النّورين و صفاء أحدهما على الآخر»[۳۴۰].

جواب على سؤال:

بقى هنا سؤال و هو: كيف كان يتحدث الشيطان مع اللّه، فهل كان ينزل عليه الوحى؟

الجواب هو: أنّ كلام اللّه لا يكون بالوحى دائما، فالوحى عبارة عن رسالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۲

النبوّة، فلا- مانع من أن يكلّم اللّه أحدا لا- بعنوان الوحى و الرسالة، بل عن طريق الباطنى أو بواسطة بعض الملائكة، سواء كان من يحادثه اللّه من الصالحين الأبرار مثل مريم و أمّ موسى، أو من غير الصالحين مثل الشيطان! و لنعد الآن إلى تفسير بقية الآيات:

حيث أن امتناع الشيطان من السجود لآدم عليه السّلام لم يكن امتناعا بسيطا و عاديا و لم يكن معصية عادّية، بل كان تمرّدا مقرونا بالاعتراض و الإنكار للمقام الربوبى، لأنّه قال: أنا أفضل منه، و هذه الجملة تعنى فى حقيقة الأمر أن أمرك بالسجود لآدم أمر مخالف للحكمة و العدالة و موجب لتقديم «المرجوح» على «الراجح» لهذا فإنّ مخالفته كانت تعنى الكفر و إنكار العلم و الحكمة الإلهيين، فوجب أن يخسر جميع مراتبه و درجاته، و بالتالى كل ما له من مكانة عند اللّه، و لهذا أخرجه اللّه من ذلك المقام الكريم، و جرّده من تلك المنزلة السامقة التى كان يتمتع بها فى صفوف الملائكة، فقال له: فَاهْبِطْ مِنْها.

و قد ذهب جمع من المفسّرين فى ضمير «منها» إلى إرجاعه إلى «السماء» أو «الجنّة» و ذهب آخرون إلى إرجاعها إلى «المنزلة الدرجة»، و هما لا يختلفان كثيرا من حيث النتيجة.

ثمّ إنّه تعالى شرح له منشأ هذا السقوط و التنزّل بالعبارة التّالية: فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها.

و أضاف للتأكيد قائلا: فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ يعنى إنّك بعملك و موقفك هذا لم تصبح كبيرا، بل على العكس من ذلك أصبته بالصغار و الذلة.

إنّ هذه الجملة توضح بجلاء أن شقاء الشيطان كله كان وليد تكبره، و إن أنانيته هذه التى جعلته يرى نفسه أفضل ممّا هو، هى التى تسببت فى أن لا- يكتفى بعدم السجود لأدم، بل و ينكر علم اللّه و حكمته، و يعترض على أمر اللّه، و ينتقده، فخسر على أثر ذلك منزلته و مكانته، و لم يحصد من موقفه إلّا الذلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۳

و الصغار بدل العظمة و هذه يعنى أنّه لم يصل إلى هدفه فحسب، بل بات على العكس من ذلك.

و نحن نقرأ فى نهج البلاغة «الخطبة القاصعة» فى كلام أمير المؤمنين عليه السّلام عند ذمّه للتكبر و العجب ما يلى:

«فاعتبروا بما فعل اللّه بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، و جهده الجهيد، و كان قد عبد اللّه ستة آلاف سنة ... عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته؟ كلا، ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إنّ حكمه فى أهل السماء و أهل الأرض الواحد»[۳۴۱].

و

قد جاء أيضا عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: «إنّ للمعاصى شعبا فأوّل ما عصى اللّه به الكبر، و هى معصية إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين، و الحرص و هى معصية آدم و حواء ... ثمّ الحسد و هى معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله»[۳۴۲].

و كذا

نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه قال: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص و الاستكبار و الحسد، فأمّا الحرص فإن آدم حين نهى عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، و أمّا الاستكبار فإبليس حيث أمر بالسجود لآدم فأبى، و أمّا الحسد فإبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه»[۳۴۳].

و لكن قصّة الشيطان لم تنته إلى هذا الحدّ، فهو عند ما عرف بأنه صار مطرودا من حضرة ذى الجلال زاد من طغيانه و لجاجته، و بدل أن يتوب و يثوب إلى اللّه و يعترف بخطئه فإنّ الشيء الوحيد الذى طلبه من اللّه تعالى هو أن يمهله و يؤجّل موته إلى يوم القيامة: قالَ أَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ

و لقد استجاب اللّه لهذا الطلب، ف قالَ إِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۴

إنّ هذه الآيات و ان لم تصرّح بالمقدار الذى استجيب من طلب الشيطان من حيث الزمن، إلّا أننا نقرأ فى الآية (۳) من سورة الحجر أنه تعالى قال له: فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ إِلی یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ و هذا يعنى أن مطلب الشيطان لم يستجب له بتمامه و كماله، بل استجيب إلى الوقت الذى يعلمه اللّه تعالى (و سوف نبحث عند تفسير الآية (۳) من سورة الحجر حول معنى قوله إِلی یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ إن شاء اللّه).

غير أنّ الشيطان لم يبغ من مطلبه هذا (أى الإمهال الطويل) الحصول على فرصة لجبران ما فات منه أو ليعمّر طويلا، إنّما كان هدفه من ذلك هو إغواء بنى البشر و قالَ فَبِما أَغْوَیْتَنِی لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَکَ الْمُسْتَقِیمَ أى لأغوينهم كما غويت، و لأضلنّهم كما ضللت.

إبليس أوّل القائلين بالجبر:

يستفاد من الآية الحاضرة أن الشيطان لتبرئة نفسه نسب إلى اللّه الجبر إذ قال:

فَبِما أَغْوَیْتَنِی لأغوينهم.

بعض المفسّرين أصرّ على تفسير جملة فَبِما أَغْوَیْتَنِی بنحو لا يفهم منه الجبر، إلّا أن الظاهر هو أنه لا موجب لمثل هذا الإصرار. و شاهد هذا القول هو ما

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «كان أمير المؤمنين جالسا بالكوفة بعد منصرفه من صفّين إذا أقبل شيخ فجثا بين يديه ثمّ قال له: يا أمير المؤمنين: أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أ بقضاء اللّه و قدره؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السّلام: «أجل مه يا شيخ ما علوتم

تلعة و لا هبطتم بطن واد إلّا بقضاء من اللّه و قدر».

فقال له الشّيخ: عند اللّه أحتسب عنائى يا أمير المؤمنين.

فقال له عليه السّلام: «يا شيخ فو اللّه لقد عظم اللّه تعالى لكم الأجر فى مسيرتكم و أنتم سائرون و فى مقامكم و أنتم مقيمون و فى منصرفكم و أنتم منصرفون و لم تكونوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۵

فى شىء من حالاتكم مكرهين و لا إليه مضطرين».

فقال له الشيخ: و كيف لم نكن فى شىء من حالاتنا مكرهين و لا إليه مضطرين و كان بالقضاء و القدر مسيرنا و منقلبنا و منصرفنا. (فاستفاد السائل من هذه الإجابة الجبرية).

فقال له عليه السّلام: «أو تظن أنّه كان قضاء حتما و قدرا لازما أنّه لو كان كذلك لبطل الثواب و العقاب و الأمر و النهى و الزجر من اللّه تعالى و سقط معنى الوعد و الوعيد فلم تكن لائمة للمذنب و لا محمدة للمحسن و لكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب تلك مقالة اخوان عبدة الأوثان و خصماء الرحمن و حزب الشيطان و قدرية هذه الأمّة و مجوسها ...»[۳۴۴].

و من هذا يتّضح أنّ أوّل من وقع فى ورطة الاعتقاد بالجبر هو الشيطان.

ثمّ إنّ الشيطان أضاف- تأكيدا لقوله- بأنّه لن يكتفى بالقعود بالمرصاد لهم، بل سيأتيهم من كل حدب و صوب، و يسدّ عليهم الطريق من كل جانب ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ

و يمكن أن يكون هذا التعبير كناية عن أنّ الشيطان يحاصر الإنسان من كل الجهات و يتوسل إلى إغوائه بكل وسيلة ممكنة، و يسعى فى إضلاله، و هذا التعبير دارج فى المحاورات اليومية أيضا، فنقول: فلان حاصرته الديون أو الأمراض من الجهات الأربع.

و عدم ذكر الفوق و التحت إنّما هو لأجل أنّ الإنسان يتحرك عادة فى الجهات الأربع المذكورة، و يكون له نشاط فى هذه الأنحاء غالبا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۶

و

لقد نقل فى حديث مروى عن الإمام الباقر عليه السّلام تفسير أعمق لهذه الجهات الأربع حيث قال: «ثمّ قال: لآتينّهم من بين أيديهم، معناه أهوّن عليهم أمر الآخرة، و من خلفهم، آمرهم بجمع الأموال و البخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم. و عن أيمانهم، أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة و تحسين الشبهة. و عن شمائلهم، بتحبيب اللذّات إليهم و تغليب الشّهوات على قلوبهم»[۳۴۵].

و فى آخر آية من الآيات المبحوثة هنا يصدر مرّة أخرى الأمر بخروج الشيطان من حريم القرب الإلهى و المقام الرفيع، بفارق واحد هو أن الأمر بطرده هنا اتّخذ صورة أكثر ازدراء و تحقيرا، و أشدّ عنفا و وقعا، و لعلّ هذا كان لأجل العناد و اللجاج الذى أبداه الشيطان بالإلحاح على الوسوسة للإنسان و إغوائه و إغرائه، يعنى أن موقفه الأثيم فى البداية كان منحصرا فى التمرد على أمر اللّه و عدم امتثاله، و لهذا صدر الأمر بخروجه فقط، و لكن عند ما أضاف معصية أكبر إلى معصيته بالعزم على إضلال الآخرين جاء الأمر المشدّد: قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً.

ثمّ حلف على أن يملأ جهنم منه و من اتباعه لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ

فلسفة خلق الشيطان و حكمة إمهاله:

فى مثل هذه الأبحاث تتبادر إلى الأذهان- عادة أسئلة متنوعة و مختلفة أهمها سؤالان:

۱- لماذا خلق اللّه الشيطان، مع أنّه علم بأنّه سيكون منشأ للكثير من الوساوس و الضلالات؟

۲- بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصية الكبيرة، لماذا قبل اللّه طلبه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۷

الإمهال، و تأخير الأجل؟

و قد أجبنا على السؤال الأوّل فى المجلد الأوّل من تفسيرنا هذا (الأمثل) و قلنا:

أوّلا: إنّ خلق الشيطان كان فى بداية الأمر خلقا جيدا، لا عيب فيه، و لهذا احتل موقعا فى صفوف المقرّبين إلى اللّه، و بين ملائكته العظام، و إن لم يكن من جنسهم ثمّ إنّه بسوء تصرّفه فى حريته بنى على الطغيان و التمرد، فطرد من ساحة القرب الإلهى، و اختصّ باسم الشيطان.

ثانيا: إنّ وجود الشيطان ليس غير مضرّ بالنسبة سالكى طريق الحقّ فحسب، بل يعدّ رمزا لتكاملهم أيضا، لأنّ وجود مثل هذا العدوّ القوىّ فى مقابل الإنسان يوجب تربية الإنسان و تكامله و حنكته، و أساسا ينبثق كل تكامل من بين ثنايا التناقضات و التدافعات، و لا يسلك أى كائن طريق كماله و رشده إلّا إذا واجه ضدا قويا، و نقيضا معاندا.

فتكون النتيجة أنّ الشيطان و إن كان بحكم إرادته الحرّة مسئولا تجاه أعماله المخالفة، و لكن وساوسه لن تضرّ عباد اللّه الذين يريدون سلوك طريق الحقّ، بل يكون مفيدا لهم بصورة غير مباشرة.

و الجواب على السؤال الثانى يتضح ممّا قلناه فى الجواب على الاعتراض الأوّل، لأنّ مواصلة الشيطان لحياته كقضية سلبية يكون وجودها ضروريا لتقوية نقاط إيجابية، لا يكون غير مضرّ فحسب، بل هو مؤثّر و مفيد أيضا، فإنّه مع غضّ النظر عن الشيطان، هناك مجموعة من الغرائز المختلفة فى داخلنا، و هى بوقوفها فى الطرف الآخر من قوانا العقلية و الروحية تشكّلان ساحة صراح و تناقض قويّين، و فى مثل هذه الساحة يتحقق تقدم الإنسان و تكامله، و تربيته و رشده.

و استمرار حياة الشيطان- هو الآخر- لتقوية عوامل هذا التناقض المثمر المفيد.

و بعبارة أخرى: إنّ الطريق المستقيم يتميّز دائما بالالتفات إلى الطرق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۸

المنحرفة حوله و لو لا هذه المقايسة و المقارنة لما أمكن تمييز الطريق المستقيم عن الطريق المنحرف.

كلّ هذا بغض النظر عن أنّنا نقرأ فى بعض الأحاديث أنّ الشيطان بعد قيامه بذلك الذنب، عرّض سعادته و نجاته فى العالم الآخر للخطر بصورة كلّية، و لهذا فإنّه طلب من اللّه تعالى أن يعطيه عمرا طويلا فى هذه الدنيا فى مقابل عباداته التى كان قد أتى بها قبل ذلك، و كانت العدالة الإلهية تقتضى قبول مثل هذا الطلب.

إنّ النقطة المهمّة الأخرى التى يجب الانتباه إليها- أيضا- هى أنّ اللّه تعالى و إن كان ترك الشيطان حرّا فى القيام بوساوسه، و لكنّه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرّدا من الدفاع عن نفسه.

لأنّه أوّلا: وهبه قوّة العقل التى يمكن أن توجد سدّا قويا منيعا فى وجه الوساوس الشيطانية خاصّة إذا لقيت تربية صالحة.

و ثانيا: جعل الفطرة النقيّة و حبّ التكامل فى باطن الإنسان كعامل فعال من عوامل السعادة.

و ثالثا: يبعث الملائكة التى تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوساوس الشيطانية، كما يصرّح القرآن الكريم بذلك إذ يقول: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ[۳۴۶] إنّها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات و التطمينات لهم.

و نقرأ فى موضوع آخر: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا[۳۴۷] و سدّدوا خطاهم فى طريق الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۹

فرضية تطور الأنواع و خلقة آدم:

هل هناك تلاؤم بين ما يقوله القرآن الكريم فى خلقة آدم، مع ما هو مطروح فى فرضية الأنواع فى أبحاث العلوم الطبيعية، أو لا؟ و أساسا هل بلغت فرضية التطور و التكامل مرحلة القطعية و اليقين من وجهة نظر العلماء، أو لا؟ ...

كل هذه الأمور بحاجة إلى أبحاث مفصلة سوف نخوضها بمشيئة اللّه فى ذيل آيات أكثر تناسبا، مثل الآيات (۲۶) إلى (۳۳) من سورة الحجر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۰

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹ الى ۲۲]

اشارة

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۹) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (۲۰) وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (۲۱) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۲)

التّفسير

وساوس شيطانيّة فى حلل خلّابة:

تبيّن هذه الآيات و تستعرض فصلا آخر من قصّة آدم، فتقول أوّلا: إنّ اللّه سبحانه أمر آدم و زوجته حواء بأن يسكنا الجنّة: يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ.

و يستفاد من هذه العبارة أنّ آدم و حواء لم يكونا فى بدء الخلقة فى الجنّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۱

إنّما خلقا أوّلا ثمّ هديا إلى السكنى فى الجنّة و أنّ القرائن تفيد- كما أسلفنا فى ذيل الآيات المتعلقة بقصة خلق آدم فى سورة البقرة- أن تلك الجنّة لم تكن جنّة القيامة، بل هى- كما ورد فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام أيضا جنّة الدنيا، أى أنّها كانت بستانا جميلا أخضر من بساتين هذا العالم، وفّر اللّه سبحانه فيها جميع أنواع النعم و الخيرات.

و فى هذه الأثناء صدر أوّل تكليف و أمر و نهى إلى آدم و حواء من جانب اللّه تعالى، بهذه الصورة: فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ أى أنّ الأكل من جميع أشجار هذه الجنّة مباح لكما، إلّا شجرة خاصّة لا تقرباها، و إلّا كنتما من الظالمين.

ثمّ إنّ الشيطان الذى طرد من رحمة اللّه تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم، و كان قد صمّم على أن ينتقم لنفسه من آدم و بنيه ما أمكن، و يسعى فى إضلالهم ما استطاع، و كان يعلم جيدا أنّ الأكل من الشجرة الممنوعة تعرّض آدم للإخراج من الجنّة، عمد إلى الوسوسة لآدم و زوجته، و بغية الوصول إلى هذا الهدف نشر شباكا متنوعة على طريقهما.

ففى البدايـة- و كـان يقول القرآن الكريـم- بـدأ بنزع لباس الطاعـة و العبوديـة للّه، عنهما، فأبـدى عورتهما التى كانت مخبأة مسـتورة: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما.

و للوصول إلى هـذا الهـدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يستغلّ حبّ الإنسان و رغبته الذاتيـة فى التكامل و الرقى و الحياة الخالـدة، و ليوفّر لهما عـذرا يعتـذران و يتوسـلان به لتبرير مخالفتهما لأمر اللّه و نهيه، و لهـذا قال لآدم و زوجته: ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ

و بهذه الطريقة صوّر الأمر الإلهى فى نظرهما بشكل آخر، و صوّر المسألة و كأنّ الأكل من «الشجرة الممنوعة» ليس غير مضرّ فحسب، بل يورث عمرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۲

خالدا أو نيل درجة الملائكة.

و الشاهد على هذا الكلام هو العبارة التى قالها إبليس فى سورة طه الآية ۱۲۰: يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى

فقد جاء فى رواية رويت فى تفسير القمى عن الإمام الصادق عليه السّـلام، و فى «عيون أخبار الرضا» عن الإمام على بن موسـى الرضـا عليه السّلام: فجاء إبليس فقال:

«إنّكما إن أكلتما من هـذه الشـجرة التى نهاكما اللّه عنها صـرتما ملكين، و بقيتما فى الجنّـة أبدا، و إن لم تأكلا منها أخرجكما اللّه من الجنّة»[۳۴۸].

و لمـا سـمع آدم هـذا الكلاـم غرق فى التفكير، و لكنّ الشـيطان- من أجـل أن يحكم قبضـته و يعمّق وسوسـته فى روح آدم و حواء- توسّل بالأيمان المغلّظة للتدليل على أنه يريد لهما الخير! وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، و لم يكن قد وقع فى حبائل الشـيطان و خدعه بعد، و لم يعرف بكذبه و تضليله قبل هذا، كما أنّه لم يكن فى مقدوره أن يصدّق بأن يأتى بمثل هذه الايمان المغلّظة كذبا، و ينشر مثل هذا الحبائل و الشباك على طريقه.

و لهذا وقع فى حبال الشـيطان، و انخدع بوسوسته فى المآل، و نزل بحبل خداعه المهترئ فى بئر الوساوس الشيطانية للحصول على ماء الحياة الخالـدة و الملك الذى لا يبلى، و لكنّه ليس فقط لم يظفر بماء الحياة كما ظنّ، بل سـقط فى ورطة المخالفة و العصـيان للأوامر الإلهية، كما يعبّر القرآن عن ذلك و يلخصه فى عبارة موجزة إذ يقول: فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ[۳۴۹].

و مع أن آدم- نظرا لسابقة عداء الشيطان له، و مع علمه بحكمة اللّه و رحمته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۳

الواسعة، و محبته و لطفه- كان من اللازم أن يبدّد كل الوساوس و يقاومها، و لا يسلّم للشيطان، إلّا أنه قد وقع ما وقع على كل حال.

و بمجرّد أن ذاق آدم و زوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس و انكشفت سوءاتهما فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما.

و يستفاد من العبارة أعلاه أنّهما بمجرّد أن ذاقا من ثمرة الشـجرة الممنوعة أصـيبا بهذه العاقبة المشؤومة، و فى الحقيقة جرّدا من لباس الجنّة الذى هو لباس الكرامة الإلهية لهما.

و يستفاد من هذه الآية جيدا أنّهما قبل ارتكابهما لهذه المخالفة لم يكونا عاريين، بل كانا مستورين بلباس لم يرد فى القرآن ذكر عن حقيقـة ذلك اللباس و كيفيته، و لكنّه على اىّ حال كان يعـدّ علامة لشخصـية آدم و حواء و مكانتهما و احترامهما، و قد تساقط عنهما بمخالفتهما لأمر اللّه، و تجاهلهما لنهيه.

على حين تقول التّوراة المحرفـة: إنّ آدم و حواء كانا فى ذلك الوقت عاريين بالكامل، و لكنّهما لم يكونا يـدركان قبح العرى، و عند ما ذاقا و أكلا من الشجرة الممنوعة التى كانت شجرة العلم و المعرفة، انفتحت أبصار عقولهما، فرأيا عريهما، و عرفا بقبح هذه الحالة.

إنّ آدم الذی تصفه التّوراة لم یکن فی الواقع إنسانا، بل کان بعیدا من العلم و المعرفة جدا، إلی درجة أنّه لم یکن یعرف حتی عریه.
و لکن آدم الـذی یصـفه القرآن الکریم، لم یکن عارفا بوضـعه فحسب، بل کان واقفا علی أسـرار الخلقة أیضا (علم الأسـماء)، و کان یعدّ معلّم الملائکة، و إذا ما استطاع الشیطان أن ینفذ فیه فإنّ ذلک لم یکن بسبب جهله، بل استغلّ الشیطان صفاء نیّته، و طیب نفسه.
و یشـهد بهذا القول الآیة (۲۷) من نفس هـذه السورة، و التی تقول: یـا بَنِی آدَمَ لا ـ یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیْطانُ کَما أَخْرَجَ أَبَوَیْکُمْ مِنَ الْجَنَّةِ یَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۴

و ما کتبه بعض الکتّاب المسلمین من أن آدم کان عاریا منذ البدایة، فهو خطأ بیّن نشأ ممّا ورد فی التّوراة المحرفة.
و علی کـل حـال فـإنّ القرآن یقول: إن آدم و حواء لمـّا وجـدا نفسـیهما عـاریین عمـدا فورا إلی ستر نفسـیهما بـأوراق الجنّـة: وَ طَفِقا یَخْصِفانِ عَلَیْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ[۳۵۰].
و فی هـذا الوقت بالذات جاءهما نداء من اللّه یقول: ألم أحذّرکما من الاقتراب و الأکل من هذه الشـجرة؟ ألم أقل لکما: إنّ الشـیطان عـدوّ لکما؟ فلما ذا تناسـیتم أمری و وقعتم فی مثل هذه الأزمة: وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَکُما عَنْ تِلْکُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَکُما إِنَّ الشَّیْطانَ لَکُما عَدُوٌّ مُبِینٌ
من المقایسة بین تعبیر هذه الآیة و الآیة الاولی التی أجاز اللّه فیها لآدم و حواء أن یسکنا الجنّة، یستفاد بوضوح أنّهما بعد هذه المعصیة ابتعـدا عن مقام القرب الإلهی إلی درجـة أنّ أشـجار الجنّـة أیضا اضـحت بعیدة عنهما. لأنّه فی الآیة السابقة تمت الإشارة إلی الشـجرة بأداة الإشارة القریبـة (هـذه الشـجرة) و أمّا فی هـذه الآیة فقد اسـتعملت مضافا إلی کلمة (نادی) التی هی للخطاب من بعید، اسـتعملت (تلکما) التی هی للإشارة إلی البعید.

بحوث

اشارة

إنّ فی هذه الآیة نقاطا لا بدّ من التوقف عندها:

۱- کیفیة وسوسة الشیطان

یستفاد من عبارة (وسوس له) نظرا إلی حرف اللام (التی تأتی فی العادة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۵

للفائـدة و النفع) أنّ الشـیطان کان یتخذ صـفة الناصح، و المحبّ لآدم، فی حین أن (وسوس إلیه) لا ینطوی علی هذا المعنی، بل یعنی فقط مجرّد النفوذ و التسلّل الخفیّ إلی قلب أحد.
و علی کـل حـال یجب أن لا ـ یتصور أن الوسـاوس الشـیطانیة مهمـا بلغت من القوة تسـلب الإرادة و الإختیـار من الإنسـان، بل یمکن للإنسان- رغم ذلک- و بقوّة العقل و الإیمان أن یقف فی وجه تلک الوساوس و یقاومها.
و بعبـارة أخری: إن الوسـاوس الشـیطانیة لا تجبر الإنسان علی المعصـیة، بل قوّة الإرادة و حـالـة الإختیار باقیـة حتی مع الوساوس، و إنّ مقاومتهـا تحتـاج إلی الاسـتقامة و الصـمود الأـکثر و ربّمـا إلی تحمّـل الألـم و العـذاب و کـذلک فـإنّ الوسـاوس الشـیطانیة لا تسـلب

المسؤولیة عن أحد و لا تجرّده عنها، کما نلاحظ ذلک فی آدم.
و لهذا نری أنه رغم جمیع العوامل التی حفت بآدم، و دعته إلی مخالفة أمر اللّه و نهیه، و شجعته علیها، و التی أقامها الشیطان فی طریقه، فإنّ اللّه سبحانه اعتبره مسئولا عن عمله، و لهذا عاقبه علی النحو الذی سیأتی بیانه.

۲- ماذا کانت الشّجرة الممنوعة؟

جاءت الإشارة إلی الشجرة الممنوعة فی ست مواضع من القرآن الکریم، من دون أن یجری حدیث عن طبیعة أو کیفیة أو اسم هذه الشجرة، و أنها ماذا کانت؟ و ماذا کان ثمرها؟ بید أنّه ورد فی المصادر الإسلامیة تفسیران لها، أحدهما «مادیّ» و هو أنّها کانت «الحنطة»[۳۵۱] کما هو المعروف فی الرّوایات.
و یجب الانتباه إلی نقطة، و هی أن العرب تطلق لفظة «الشجرة» حتی علی النبتة، و لهذا أطلقت- فی القرآن الکریم- لفظة الشجرة علی نبتة الیقطین، إذ قال
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۶
سبحانه: وَ أَنْبَتْنا عَلَیْهِ شَجَرَةً مِنْ یَقْطِینٍ ۳۵۲].
و التّفسیر الآخر «معنوی» و هو أنّ المقصود من تلک الشجرة- کما فی الرّوایات- هو ما عبّر عنها ب «شجرة الحسد» لأنّ آدم طبقا لهذه الرّوایات- بعد ملاحظة مکانته و مقامه- تصوّر أنّه لا یوجد فوق مقامه مقام، و لا فوق مکانته مکانة، و لکن اللّه تعال أطلعه علی مقام ثلة من الأولیاء من ذریته و أبنائه (رسول الإسلام و أهل بیته)، فحصل عند ما یشبه الحسد، و کانت هذه هی الشجرة الممنوعة التی أمر آدم بأن لا یقربها.
و فی الحقیقة تناول آدم- طبقا لهذه الرّوایات- من شجرتین، کانت إحداهما أقلّ منه مرتبة و أدنی منه منزلة، و قد قادته إلی العالم المادی، و کانت هی «الحنطة». و الأخری هی الشجرة المعنویة التی کانت تمثل مقام ثلة من أولیاء اللّه، و الذی کان أعلی و أسمی من مقامه و مرتبته، و حیث أنّه تعدّی حدّه فی کلا الصعیدین ابتلی بذلک المصیر المؤلم.
و لکن یجب أن نعلم أن هذا الحسد لم یکن من النوع الحرام منه، بل کان مجرّد إحساس نفسانی من دون أن تتبعه أیة خطوة عملیة علی طبقه.
و حیث إنّ للآیات القرآنیة- کما أسلفنا مرارا- معان متعدّدة، فلا مانع من أن یکون کلا المعنیین مرادین من الآیة.
و من حسن الاتفاق أنّ کلمة «الشجرة» قد استعملت فی القرآن الکریم فی کلا المعنیین، فحینا استعملت فی المعنی المادی التعارف للشجرة مثل: وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَیْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ۳۵۳] التی هی إشارة إلی شجرة الزیتون، و تارة استعملت فی الشجرة المعنویة مثل وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ التی یکون المراد منها إمّا طائفة من المشرکین، أو الیهود، أو الأقوام الطاغیة الأخری مثل
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۷
بنی أمیة.
علی أنّ المفسّرین أبدوا احتمالات متعددة أخری حول الشجرة الممنوعة، و لکن ما قلناه هو الأبین و الأظهر من الجمیع.
و لکن النقطة التی یجب أن نذکّر بها هنا، هی أنه وصفت الشجرة الممنوعة فی التّوراة المختلفة- المعترف بها الیوم من قبل جمیع مسیحیی العالم و یهودییه- بشجرة العلم و المعرفة و شجرة الحیاة[۳۵۴] تقول التّوراة: إن آدم لم یکن عالما و لا عارفا قبل أکله من شجرة العلم و المعرفة، حتی أنّه لا یعرف و لم یمیّز عریه، و عند ما أکل من تلک الشجرة، و صار إنسانا بمعنی الکلمة طرد من الجنّة خشیة أن یأکل من شجرة الحیاة أیضا فیخلد کما الآلهة.

و هذا من أوضح القرائن الشاهدة على أنّ التّوراة الرائجة ليست كتابا سماويا، بل هى من نسيج العقل البشرى القاصر المحدود، الذى يعتبر العلم و المعرفة عيبا و شينا للإنسان، و يعتبر آدم بسبب ارتكابه معصية تحصيل العلم و المعرفة مستحقا للطرد من جنة اللّه، و كأنّ الجنّة لم تكن مكان العقلاء الفاهمين و منزل العلماء العارفين!! و لملفت للنظر أنّ الدّكتور «ويليم ميلر» الذى يعدّ من مفسرى الإنجيل القديرين و البارزين بل من مفسّرى العهدين (التّوراة و الإنجيل معا) يقول فى كتابه المسمى «ما هى المسيحية»: «إنّ الشيطان تسلّل إلى الجنّة فى صورة حيّة، و أقنع حواء بأن تأكل من ثمرة تلك الشجرة، ثمّ أعطت حواء من تلك الثمرة إلى آدم، فأكل منها آدم أيضا، و لم يكن فعل أبوينا الأولين مجرّد خطأ عادى، أو غلطة ناشئة من عدم التفكير، بل كان معصية متعمّدة ضدّ الخالق، و بعبارة أخرى: إنّ آدم و حواء كانا يريدان بهذا الصنيع أن يصيرا آلهة، إنّهما لم يرغبا فى أن يطيعا اللّه، بل كانا يريدان أن يعملا وفق رغباتهما و ميولهما الشخصية، فما ذا كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۸

النتيجة؟ لقد وبّخهما اللّه تعالى بشدّة، و أخرجهما من الجنّة، ليعيشا فى عالم مليء بالعذاب و الألم و المحنة».

لقد أراد مفسّر التّوراة و الإنجيل هذا أن يبرر شجرة التّوراة الممنوعة، و لكنّه نسب أعظم الذنوب و هو مضادة اللّه و محاربته- إلى آدم ... أمّا كان من الأفضل أن يعترف- بدل إعطاء مثل هذه التّفسيرات- بتطرّق التحريف و التلاعب إلى هذه الكتب المسماة بالكتب المقدّسة؟!

۳- هل ارتكب آدم معصية؟

يستفاد ممّا نقلناه من الكتب المقدّسة- لدى اليهود و النصارى- أنّهم يعتقدون بأن آدم ارتكب معصية، بل ترى كتبهم أن معصيته لم تكن معصية عادية، و إنما كانت معصية كبيرة و إثما عظيما، بل إن الذى صدر عن آدم هو مضادة اللّه و الطموح فى الألوهية و الربوبيّة، و لكن المصادر الإسلامية- عقلا و نقلا- تقول لنا: إنّ الأنبياء لا يرتكبون إثما، و إنّ منصب إمامة الناس و هدايتهم لا يعطى لمن يرتكب ذنبا و يقترف معصية. و نحن نعلم أن آدم كان من الأنبياء الإلهيين، و على هذا الأساس فإنّ كل ما ورد فى هذه الآيات مثل غيرها من التعابير التى جاءت فى القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعنى «العصيان النسبى» و «ترك الأولى» لا العصيان المطلق.

و توضيح ذلك: أن المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و «المعصية النسبية»، و المعصية المطلقة هى مخالفة النهى التحريمى، و تجاهل الأمر الإلهىّ القطعىّ، و هى تشمل كلّ نوع من أنواع ترك الواجب و إتيان الحرام.

و لكن المعصية النسبية هى أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا- يناسب شأنه و لا يليق بمقامه، و ربّما يكون إتيان عمل مباح- بل و مستحب- لا يليق بشأن الشخصيات الكبيرة، و فى هذه الصورة يعدّ إتيان ذلك العمل «معصية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۹

نسبية»، كما لو ساعد مؤمن واسع الثراء فقيرا لإنقاذه من مخالب الفقر بمبلغ تافه، فإنّه ليس من شك فى أنّ هذه المعونة المالية مهما كانت صغيرة و حقيرة لا تكون فعلا حراما، بل هى أمر مستحب، و لكن كل من يسمع بها يذم ذلك الغنى حتى كأنّه ارتكب معصية و اقترف ذنبا، و ذلك لأنّه يتوقّع من مثل هذا الغنى المؤمن أن يقوم بمساعدة أكبر.

و انطلاقا من هذه القاعدة و على هذا الأساس تقاس الأعمال التى تصدر من الشخصيات الكبيرة بمكانتهم و شأنهم الممتاز، و ربّما يطلق على ذلك العمل- مع مقايسته بذلك- لفظ «العصيان» و «الذنب».

فالصّلاة التى يقوم بها فرد عادى قد تعتبر صلاة ممتازة، و لكنّها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء اللّه، لأن لحظة واحدة من الغفلة

فی حـال العبـادة لا تناسب مقامهم و لا تليق بشأنهم. بل نظرا لعلمهم و تقواهم و منزلتهم القريبـة يجب أن يكونوا حال عبادة اللّه تعالى مستغرقين فی صفات اللّه الجمالية و الجلالية، و غارقين فی التوجه إلى عظمته و حضرته.

و هكـذا الحال فی سائر أعمالهم، فإنّها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم و شؤونهم، و لهـذا إذا صدر منهم «ترک الأولى» عوتبوا من جانب اللّه، و المراد من ترک الأولى، هو أن يترک الإنسان فعل ما هو الأفضل، و يعمد إلى عمل جيد أو مستحبّ أدنى منه فی الفضل.

فإنّنـا نقرأ فی الأحاديث الإسـلامية أن ما أصـيب به يعقوب من محنـة فراق ولـده يوسف، كان لأجل غفلته عن إطعام فقير صائم وقف على باب بيته عند غروب الشمس يطلب طعاما، فغفل يعقوب عن إطعامه، فعاد ذلک الفقير جائعا منكسرا خائبا.

فلو أنّ هـذا الصـنيع صـدر من إنسان عادی من عامّـة الناس لما حظی بمثل هـذه الأهمية و الخطورة، و لكن يعدّ صدوره من نبیّ إلهیّ كبير، و من قائد أمّة أمرا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۰

مهمّا و خطيرا استتبع عقوبة شديدة من جانب اللّه تعالى ۳۵۵].

إنّ نهی آدم عن الشـجرة الممنوعة لم يكن نهيا تحريميا، بل كان ترک أولى، و لكن نظرا إلى مكانة آدم و مقامه و مرتبته عدّ صدوره أمرا مهما و خطيرا، و استوجب مخالفة هذا النهی (و إن كان نهيا كراهيا و تنزيهيا) تلک العقوبة و المؤاخذة من جانب اللّه تعالى.

هذا و قد احتمل بعض المفسّـرين- أيضا- أنّ نهی آدم عن الشجرة الممنوعة كان «نهيا إرشاديا» لا نهيا مولويا، و توضيح ذلک: أنه قد ينهى اللّه تعالى عن شـیء من منطلق كونه مالک الإنسان و صاحب أمره و مولاه، و طاعة هذا النوع من النهی واجبة على كل أحد من الناس، و هذا النوع من النهی يسمى نهيا مولويا.

و لكنّه قـد ينهی عن شـیء لمجرّد أن ينبه الإنسان على أن ارتكاب هـذا النهی ينطوی على أثر غير محمود تماما، مثل نهی الطبيب عن الأطعمـة المضـرة، و لا- شـک فی أنّ المريض لو خالف الطبيب لا يكون قـد أهان الطبيب، و لا أنّه خالف شـخصه، بل يكون بتجاهله نهی الطبيب قد تجاهل إرشاده، و جرّ إلى نفسه التعب و النصب.

و فی قصـة آدم أيضا قال اللّه تعالى له: إنّ نتيجـة الأكل من الشـجرة الممنوعـة هی الخروج من الجنّة، و الوقوع فی التعب و النصب، و كان هذا مجرّد إرشاد و ليس أمرا، و بهذا فإنّ آدم خالف نهيا إرشاديا فقط، لا أنّه أتى عصيانا و ذنبا واقعيا.

و لكن التّفسير الأوّل أصحّ، لأنّ النهی الإرشادیّ لا يحتاج إلى مغفرة، فی حين أنّ آدم- ما سنقرأ فی الآيـة اللاحقـة- يطلب من اللّه تعالى الغفران، هـذا مضافا إلى أنّ فترة الجنّة كانت تعدّ فترة تدريبية و تعليمية بالنسبة لآدم ...، فترة الوقوف على التكاليف و الأوامر و النواهی الإلهية ... فترة معرفة الصّديق و العدو ... فترة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۱

الوقوف على نتائـج العصـيان و ثمرة مخالفـة الأـمر الإلـهی و اتبـاع الشـيطان و قبول وساوسه، و نحن نعلم أنّ النهی الإرشادی ليس فی حقيقته تكليفا، و لا ينطوی على تعهّد، و لا يورث مسئولية.

و فی خاتمـة هـذا البحث نـذكّر القارئ بأنّ كلمـة «النهی» و «العصـيان» و «الغفران» و «الظلم» تبـدو فی بادئ النظر و كأنها تعطی معنى المعصـية المطلقة و الذنب الحقيقی و آثاره، و لكن نظرا لمسألة عصـمة الأنبياء الثابتة بالدليل العقلی و النقلی تحمل جميع هذه التعابير على «العصيان النسبیّ» و هذا الأمر لا يبدو بعيدا عن ظاهر اللفظ بالنظر إلى منزلة آدم و سائر الأنبياء العظيمة و سموّ مقامه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۲

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۲۳) قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (۲۴) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ (۲۵)

التّفسير

رجوع آدم إلى اللّه و توبته:

و فی المآل عند ما عرف آدم و حواء بكيد إبليس، و خطّته و مكره الشيطانی، و رأيا نتيجة مخالفتهم فكرا فی تلافی ما فات، و جبران ما صدر منهما، فكانت أوّل خطوة خطياها هی: الاعتراف بظلمهما لنفسيهما أمام اللّه: قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و الخطوة الأولى فی سبيل التوبة و الإنابة إلى اللّه و إصلاح المفاسد هی: أن ينزل الإنسان عن غروره و لجاجه، و يعترف بخطئه اعترافا بنّاء واقعا فی سبيل التكامل.

و الملفت للنظر أن آدم و حواء يظهران أدبا كبيرا مع اللّه فی توبتهما و طلبهما العفو و الغفران منه تعالى فلم يقولا: ربنا اغفر لنا، بل يقولان: إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۳

وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و لا شك أنّ مخالفة أوامر اللّه و نواهيه ظلم يورده الإنسان على نفسه، لأنّ جميع البرامج و الأوامر الإلهية تهدف إلى خير الإنسان، و تتكفل سعادته و تقدمه، و على هذا الأساس فإنّ أية مخالفة من جانب الإنسان تكون مخالفة لتكامل نفسه، و سببا لتأخرها و سقوطها، و آدم و حواء و إن لم يذنبا و لم يرتكبا معصية، و لكن نفس هذا الترك للأولى أنزلهما من مقامهما الرفيع، و استوجب حطّ منزلتهما.

إنّ توبة آدم و حواء الخالصة و إن قبلت من جانب اللّه تعالى- كما نقرأ ذلك فی الآية (۳۷) من سورة البقرة فَتابَ و لكنّهما لم يستطيعا على كل حال التخلص من الأثر الوضعی و النتيجة الطبيعة لعملهما، فقد أمرا بمغادرة الجنّة، و شمل هذا الأمر الشيطان أيضا: قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ

كما ذكر الجميع بأنّهم سيتعرضون فی الأرض للموت بعد الحياة، ثمّ يخرجون من الأرض مرّة أخرى للحساب قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ

و الظاهر أن المخاطبين فی هذه الآية: قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ هم آدم و حواء و إبليس جميعا، و لكن لا يبعد أن يكون المخاطبين فی الآية اللاحقة هم آدم و حواء فقط لأنّهما هما اللذان يخرجان من الأرض.

قصّة آدم و مستقبل هذا العالم:

إن ببعض المفسّرين الذين تأثروا بموجة الأفكار الغربية الإلحادية عادة، و حاولوا أن يضفوا على قصّة آدم و حواء من بدايتها إلى نهايتها طابع التشبيه و الكناية و المجازية، أو ما يسمّى الآن بالرمزية، و يحملوا جميع الألفاظ المتعلقة بهذه الحادثة- على خلاف الظاهر- على الكناية عن المسائل المعنوية.

و لکن الـذی لا شک فیه أن ظاهر هـذه الآیات یحکی عن حادثهٔ واقعیهٔ عینیهٔ وقعت لأبینا و أمنا الأوّلین: آدم و حواء، و حیث أن هذه القصّهٔ لا تتضمن أیهٔ نکتهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۴

غیر قابلـهٔ للتفسـیر حسب الظاهر، کما لیس فیها ما یخالف الموازین العقلیـهٔ (لیکون قرینـهٔ علی حملها علی المعنی الکنائی) لهـذا لیس هناک أی دلیل علی أن نعرض عن ظاهر الآیات، و لا نحملها علی معناها الحقیقی.

و لکن مع ذلک یمکن أن تحمل هذه الحادثهٔ الواقعیهٔ الحسیهٔ إشارات إلی حیاهٔ النوع البشری فی مستقبل هذه العالم.

یعنی أنّ الإنسان المرکب من قوّهٔ «العقل» و من «الغرائز الجامحهٔ» و التی تجرّه کل واحدهٔ منهما إلی جههٔ و ناحیهٔ یواجه فی خضم هذه الحیاهٔ الصاخبهٔ دعاهٔ کذّابین أصـحاب سوابق سیـئهٔ مثل الشیطان، یحاولون بوساوسهم المتواصلهٔ إلقاء الستار و الحجاب علی عقله بغیهٔ عزله عنه، و بغیهٔ خداعه و إضلاله و ترکه حائرا فی متاهات الحیاهٔ یبحث عن سراب.

إنّ أوّل نتیجهٔ للاستسلام أمام الوساوس هو انهیار حاجز التقوی، و سقوط لباسه، و انکشاف مساوئه و سوءاته.

و الأخری هی الابتعاد عن مقام القرب إلی اللّه، و سـقوط الإنسان عن مقام الإنسانیـهٔ الکریم، و الإخراج من جنـهٔ الأمن و الطمأنینـهٔ، و الوقوع فی دوامهٔ الحیاهٔ المادیهٔ المضنیهٔ.

و فی هـذه الحالـهٔ یمکن لقوّهٔ العقل- أیضا- أن تساعد الإنسان و تعینه علی النهوض من کبوته، فیفکر فورا فی تلافی ما فاته، و جبران ما بـدر منه، فیبعثه العقل و التفکیر إلی أن یعود إلی اللّه کی یعترف بکل شـجاعهٔ و صـراحهٔ بذنوبه، اعترافا بناء واعیا مفیدا یعدّ منعطفا فی حیاته.

و فی هذا الوقت تمتد إلیه ید الرحمهٔ الإلهیهٔ مرّهٔ أخری، و تنقذه و تخلصه من السقوط الأبدیّ، و إن کان لا یستطیع مع ذلک التخلص من آثار معصیته الوضعیهٔ و نتائجها الطبیعیهٔ مهما کانت قلیلهٔ و محدودهٔ. و لکن هذه الحادثهٔ ستکون له درسا و عبرهٔ، و سیمکنه ذلک من أن یتخـذ من هـذه الهزیمـهٔ قاعدهٔ صـلبهٔ لانتصاره فی مسـتقبل الحیاهٔ، و یسـتفید من هذا الضـرر نفعا کبیرا فی المراحل القادمهٔ من حیاته.

---

[۱] (۱)- ذکرت الرّوایات التی جاء بها(البیهقی) فی الجزء الثامن من سـننه، ص ۲۶۶ أن علماء الیهود حین قـدموا إلی النّبی کانوا قد جلبوا معهم الرجل و المرأهٔ الزانیین.

[۲] (۱)- المنار، ج ۶، ص ۳۸۸.

[۳] (۱)- فی التّفسیر الأوّل تکون اللاء فی عبارهٔ(للکذب) لام التعلیل بینما فی التّفسیر الثّانی فهی لام التعدیهٔ.

[۴] (۲)- تحدثنا عن أسالیب التحریف التی اتبعها الیهود فی تفسیر الآیهٔ(۱۳) من نفس هذه السورهٔ.

[۵] (۱)- تعنی کلمـهٔ(سـحت) فی الأصـل نزع القشـرهٔ، أو شـدّهٔ الجوع، ثمّ أطلقت علی کل مال غیر مشـروع، أی محرم، و بالأخص الرشوهٔ، لأن مثل هذه الأموال تنزع الصـفاء و المودهٔ عن المجتمع و تزیل عنه البرکهٔ و الرخاء مثلما یؤدی نزع قشر الشجرهٔ إلی ذبولها و جفافهـا و علی هـذا الأسـاس فإن لکلمـهٔ(سـحت) معنی واسـعا، و إذا ورد فی بعض الرّوایات مصـداق خاص لها فلا یـدل ذلک علی اختصاص الکلمهٔ بذلک.

[۶] (۱)- لقـد تطرقنا إلی معنی کلمـهٔ(ربانی) و مصدرها لدی تفسـیر الآیهٔ(۸۰) من سورهٔ آل عمران، أمّا کلمـهٔ(أحبار) فهی صـیغهٔ

جمع من(حبر) على وزن(فكر) فهى تعنى كل أثر خير، أطلقت على المفكرين الـذين يخلفون أثارا خيرة فى مجتمعهم، و يطلق أيضـا على حبر الدواة الذى يستعمل للكتابة لما فيه من أثر خير.

[۷] (۱)- تفسير القرطبى، الجزء الثّالث، ص ۲۱۸۸.

[۸] (۱)- لقد أورد الكثير من المفسّرين احتمالا آخر، و هو أن الضـمير الوارد فى كلمة« له» يعود على شـخص الجانى، بحيث يصبح المعنى أن الـذى يتنـازل عن حقه يرفع بـذلك القصـاص عن الجـانى و يكون ذلك كفارة لعمل الجانى، إلّا أن ظاهر الآيـة يـدل على التفسير الذى أشرنا إليه أعلاه.

[۹] (۲)- نور الثقلين، الجزء الأول، ص ۶۳۷.

[۱۰] (۱)- المائدة، ۴۴.

[۱۱] (۲)- المائدة، ۱۵.

[۱۲] (۳)- راجع كتـابى« الهـدى إلى دين المصـطفى» و« أنيس الأعلام» لمعرفـة تفاصـيل التحريـف الـوارد فى الإنجيـل و الـدلائل التأريخية على ذلك.

[۱۳] (۱)- إنّ الحقيقـة التى أكّـدها الكثير من المفسّرين هى أنّ جملة« قلنا» تكون مقدرة هنا فى هذه الآية حيث يصبح مفهوم الآية كما يلى:« قلنا ليحكم أهل الإنجيل ...».

[۱۴] (۱)- يعتقـد البعض من كبار المفسّرين بوجود فرق بين« الـدّين» و« الشـريعة» و يقولون بأنّ الـدين هو مبـدأ التوحيـد و المبادئ الأخرى المشتركـة بين جميع الـديانات، لـذلك يكون الـدين واحـدا فى كل الأحوال و الأزمنـة، و الشـريعة هى القوانين و الأحكام و التعاليم التى تختلف أحيانا بين ديانة و أخرى لكنّنا لا نمتلك- أيضا- دليلا واضحا يؤيد هذا القول، لأن هاتين الكلمتين استخدمتا فى الكثير من الموارد للدلالة على معنى واحد.

[۱۵] (۱)- تفسير المنار، ج ۶، ص ۴۲۱.

[۱۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۱، ص ۶۴۰.

[۱۷] (۱)- إنّ كلمة(دائرة) مشتقة من المصدر(دور) أى الشىء الذى يكون فى حالة دوران، و بما أن القدرات المادية و الحكومات هى فى حالـة دوران دائم على طول التّأريخ، لـذلك يقال لها(دائرة) كما تطلق هذه الكلمة- أيضا- على أحداث الحياة المختلفة التى تدور حول الأشخاص.

[۱۸] (۱)- فى هذه الآية تكون كلمة« هؤلاء» مبتدأ و خبرها جملة« الذين أقسموا باللّه» أمّا جملة« جهد إيمانهم» فهى مفعول مطلق.

[۱۹] (۱)- و قـد ورد فى تفسير(البرهـان) و(نور الثقلين) العديـد من الرّوايـات، منقولـة عن أئمّـة أهل البيت عليهم السّـلام فى هـذا المجال، كما نقل(الثعلبى) و هو أحد علماء السنة هذه الرّوايات(راجع كتاب إحقاق الحق، ج ۳، ص ۲۰۰).

[۲۰] (۲)-

\i\i مجمع البيان، ج ۳، ص ۲۰۸- نور الثقلين، ج ۱، ص ۶۴۲- أبو نعيم الأصفهانى فى الحلية، ج ۶، ص ۶۴ نقلوا هذا الحديث على الوجه التالى:\E« لو كان العلم منوطا بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس»\E

أمّا

\i\i ابن عبـد البر فقـد نقل الحديث على الصورة التّالية:\E« لو كان الدين عند الثريا لناله سـلمان» ...\i و ذلـك فى الإستيعاب، ج ۲، ص ۵۷۷.\E\E

[۲۱] (۱)- تفسير الطبرى، ج ۶، ص ۱۸۴- إلّا أنّ بعض الرّوايات ذكرت فقط« قوم أبى موسى» للإشارة إلى أهل اليمن الـذين هبوا لنصـرة الإسـلام فى أحرج اللحظات، و استثنى أبو موسى تلميحا إلى قومه، بينما تصرح الرّوايات الأخرى بأن(سلمان الفارسى) و قومه

هم المشمولون بهذه الآية.

[۲۲] (۱)- تفسير مجمع البيان: ج ۲، ص ۲۱۰، فى ذيل الآية البحوثة.

[۲۳] (۱)- راجع كتاب إحقاق الحق، ج ۲، ص ۳۰۹- ۴۱۰.

[۲۴] (۲)- راجع كتاب(المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين، ص ۱۵۵.

[۲۵] (۳)- منهاج البراعة، ج ۲، ص ۳۵۰.

[۲۶] (۴)- راجع كتاب إحقاق الحق، ج ۲، و كتاب(الغدير) ج ۲، و كتاب المراجعات للاطلاع على تفاصيل أكثر بهذا الشأن.

[۲۷] (۱)- مريم، ۵.

[۲۸] (۲)- الغدير، ج ۱، ص ۱۹۶.

[۲۹] (۱)- عن كتاب(منهاج البراعة)، ج ۲، ص ۳۶۳.

[۳۰] (۱)- جاءت هذه الرواية مرسلة فى تفسير البرهان، ج ۱، ص ۴۸۵.

[۳۱] (۱)- اختلف المفّسرون فى الضمير الوارد فى كلمة(اتّخذوها) هل يعود إلى الصّلاة أو إلى النداء و تفيد أسباب النّزول- التى أشير إليها سابقا- صحة الاحتمالين، لأنّ المنافقين و الكفار كانوا يستهزئون بالآذان و الصّلاة معا، لكن ظاهر الآية يعزز الاحتمال الأوّل، أى أن الضمير يعود على الصّلاة.

[۳۲] (۱)- الوسائل: ج ۵، ص ۳۷۶، باب ۲، ح ۲۱.

[۳۳] (۲)- صاحب هذا القول« كلودستون» الذى يعتبر من السياسيين المتفوقين فى عصره.

[۳۴] (۱)- تفسير القرطبى.

[۳۵] (۲)- الوسائل، ج ۴، ص ۶۱۲.

[۳۶] (۱)- إنّ كلمة« تنقمون» مشتقة من المصدر« نقمة» و تعنى فى الأصل إنكار شىء معين نطقا أو فعلا كما تأتى بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

[۳۷] (۱)- إن كلمة(مثوبة) و كذلك كلمة(ثواب) تعنيان- فى الأصل- الرجوع أو العودة إلى الحالة الأولى، كما تطلقان- أيضا- لتعنيا المصير و الجزاء(الأجر أو العقاب) لكنهما فى الغالب تستخدمان فى مجال الجزاء الحسن، و أحيانا تستخدم كلمة(الثواب) بمعنى العقاب و فى الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

[۳۸] (۱)- إنّ كلمة(سواء) تعنى فى اللغة(المساواة و الاعتدال و التساوى) و ان وجه تسمية الصراط المستقيم فى الآية\:i سَواءِ السَّبِيلِ E لأنّ جميع أجزاء هذا الطريق مستوية و لأن طرفيه متساويان و ممهدان، كما تطلق هذه التسمية على كل طريقة تتسم بالاعتدال و تخلو من الانحراف، و يجب الانتباه هنا- أيضا- إلى أن عبارة\i عَبَدَ الطَّاغُوتَ E عطف على جملة\i مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ E و كلمة(عبد) فعل ماض و ليست صيغة جمع لعبد مثلما احتمله البعض من المفسّرين و إطلاق تسمية\i عَبَدَ الطَّاغُوتَ E على أهل الكتاب، إمّا أن يكون إشارة إلى عبادة العجل من قبل اليهود، أو إشارة إلى انقياد أهل الكتاب الأعمى لزعمائهم و كبارهم المنحرفين.

[۳۹] (۱)- لقد بيّنا معنى(السحت) فى تفسير الآية(۴۲) من هذه السورة، و شرحنا معنى(يسارعون) فى تفسير الآية(۴۱) من هذه السورة أيضا، فى هذا الجزء.

أمّا كلمة(إثم) فقد شرحنا معانيها فى تفسير الآية(۲۱۹) من سورة البقرة، فى المجلد الأوّل.

[۴۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۱، ص ۶۴۹.

[۴۱] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۶۴۹، تفسير البرهان، ج ۱، ص ۴۸۶.

[۴۲] (۱)- عبارة« بلّغ» كما يقول الراغب فى« المفردات» أكثر توكيدا من« أبلغ».

[۴۳] (۱)- قيل أنّ عددهم ۹۰ ألفا، و قيل ۱۲۰ ألفا، و قيل ۱۲۴ ألفا.

[۴۴] (۱)- نقل هذه الأبيات جمع من كبار علماء أهل السنة، منهم: الحافظ أبو نعيم الأصفهانى، و الحافظ أبو سعيد السجستانى، و الخوارزمى المالكى، و الحافظ أبو عبد اللّه المرزبانى، و الكنجى الشافعى، و جلال الدين السيوطى، و سبط بن الجوزى، و صدر الدين الحموى، و غيرهم.

[۴۵] (۱)- وردت هذه العبارة فى روايات كثيرة.

[۴۶] (۲)- هذا القسم من الحديث يعرف بحديث« التهنئة» و قد أورده كثير من كبار علماء الحديث و التّفسير و التّأريخ من أهل السنة، عن طريق عدد من الصحابة، مثل: ابن عباس، و أبى هريرة، و البراء بن عازب، و زيد بن أرقم. و قد نقل العلّامة الأمينى رحمه اللّه هذا الحديث فى المجلد الأوّل من كتابه« الغدير» عن ستين عالما من علماء أهل السنة!.

[۴۷] (۳)-« حديث الثقلين» من الأحاديث المتواترة التى وردت فى كتب أهل السنة عن جمع من الصحابة، منهم: أبو سعيد الخدرى، و زيد بن أرقم، و زيد بن ثابت، و أبو هريرة، و حذيفة بن أسيد، و جابر بن عبد اللّه الأنصارى، و عبد اللّه بن حنطب، و عبد بن حميد، و جبير بن مطعم و ضمرة الأسلمى، و أبو ذر الغفارى، و أبو رافع، و أم سلمة، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[۴۸] (۱)- المجلد الأوّل، ص ۵۵ و ۵۸.

[۴۹] (۲)- مسند أحمد، المجلد الأول، الصفحات ۸۴ و ۸۸ و ۱۱۸ و ۱۱۹ و ۱۵۲ و ۳۳۱ و ۲۸۱ و ۳۷۰.

[۵۰] (۱)-« المناقب»، ص ۲۱۷.

[۵۱] (۱)-« فلا تأس» من الأسى، بمعنى الغم و الحزن.

[۵۲] (۲)- الصابئون هم أتباع يحيى أو نوح أو إبراهيم، و قد ذكرناهم بتفصيل أكثر فى المجلد الأول.

[۵۳] (۱)- فى الواقع و كما جاء فى تفسير« مجمع البيان» و فى غيره إنّ عبارة،« فريقا كذبوا و فريقا يقتلون» فى الأصل« كذبوا و قتلوا» و« يكذبون و يقتلون».

[۵۴] (۱)- للمزيد من توضيح التثليث و الوحدة فى التثليث أنظر المجلد الثالث من هذا التّفسير.

[۵۵] (۲)-« الأقنوم» بمعنى الأصل و الذات، جمعها« أقانيم».

[۵۶] (۱)- ورد فى بعض الرّوايات، و كذلك بعض التواريخ أنّ بين المسيحيين أقلية لا تؤمن بالتثليث، بل يعتقدون اتحاد عيسى باللّه، و لكننا لا نرى لهؤلاء فى هذا العصر اسم و لا رسم.

[۵۷] (۱)- الإفك: كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه، و المأفوك: المصروف عن الحقّ، و إن كان عن تقصيره، و من هنا يسمّى إفكا، لأنّه يصد الإنسان عن الحقّ.

[۵۸] (۱)-« لا- تغلو» من مادة« الغلو» و هى بمعنى تجاوز الحدّ، إلّا أنّها تستعمل للإشارة تجاوز الحدّ بالنسبة لمقام شخص من الأشخاص و منزلته، و بالنسبة للأسعار و تستعمل كلمة« الغلاء» و« غلو» السهم على وزنه« دلو» ارتفاعه و تجاوزه مداه، و فى الماء يقال« غليان» و« الغلواء» جموح فى الحيوان، و هى جميعا من أصل واحد، و يرى بعضهم أن الغلو يعنى الإفراط و التفريط معا، و يحصر بعضهم معناه بالتفريط فقط، و يقابله التقصير.

[۵۹] (۱)- تفسير(مجمع البيان) لهذه الآية، و فى تفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۲۵۰ حديث مشابه منقول عن الترمذى.

[۶۰] (۲)- تفسير البرهان: ج ۱، ص ۴۹۲، و تفسير نور الثقلين: ج ۱، ص ۶۶۱.

[۶۱] (۱)-(مجمع البيان) فى تفسير الآية المذكورة.

[۶۲] (۱)-« القسيس» تعريب لكلمة سريانية تعنى الزعيم و الموجه الدينى عند المسيحيين.

[۶۳] (۱)-« أثابهم» من الثواب، و هى فى الأصل بمعنى العودة و ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله.

[۶۴] (۱)- ما ذکر أعلاه فی سبب النّزول، قسم منه مأخوذ من تفسیر علی بن إبراهیم، و قسم من تفسیر مجمع البیان و تفاسیر أخری.

[۶۵] (۱)- فی معنی« الحلال» و« الطیب» أنظر المجلد الأول من هذا التفسیر.

[۶۶] (۱)-« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۶۶۶ و تفسیر« البرهان»، ج ۱، ص ۴۹۶.

[۶۷] (۲)- ثمّة حدیث بهذا الشأن عن الإمام الباقر علیه السّلام أو الإمام الصادق علیه السّلام أنظر تفسیر« البرهان»، ج ۱، ص ۴۹۶.

[۶۸] (۱)- تفسیر« المنار»، ج ۷، ص ۵۰.

[۶۹] (۲)- نفس المصدر، ج ۷، ص ۵۱.

[۷۰] (۱)- انظر المجلد الثّالث، من هذا التّفسیر بشأن الأنصاب و النصیب.

[۷۱] (۲)- هامش تفسیر الطبری، ج ۷، ص ۳۱، و قد جاء هذا الحدیث فی تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۶۹ عن الإمام الصادق علیه السّلام.

[۷۲] (۳)- انظر شرح کیفیة الأزلام فی المجلد الثالث من هذا التّفسیر.

[۷۳] (۱)- کتاب« ندوة الکحول»، ص ۶۵.

[۷۴] (۲)- کتاب« ندوة الکحول»، ۶۵.

[۷۵] (۳)- تفسیر الطنطاوی، ج؟، ۱۶۵.

[۷۶] (۴)- دائرة المعارف فرید و جدی، ج ۳، ص ۷۹۰.

[۷۷] (۵)- الآفات الاجتماعیة فی قرننا، ص ۲۰۵.

[۷۸] (۶)- مجموعة منشورات الجیل الجدید.

[۷۹] (۷)- ندوة الکحول، ص ۶۶.

[۸۰] (۱)- ندوة الکحول، ص ۶۶.

[۸۱] (۱)- تطلق کلمة عام« الطعام» علی المأکولات غالبا، و لکنّها قد تطلق علی المشروبات أیضا، کما جاء فی الآیة(۲۴۹) من سورة البقرة\:i فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَیْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ یَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی E.

[۸۲] (۱)- فی« مفردات الراغب» أنّ« وبال» من« الوبل و الوابل» و هو المطر الغزیر، ثمّ أطلق علی العمل الشاق الجسیم، و لمّا کان العقاب شدیدا و ثقیلا عادة، فقد وصف بأنّه« و بال».

[۸۳] (۱)-« وسائل الشیعة» ج ۵، ص ۷۵.

[۸۴] (۱)- مرّ ذکر الأشهر الحرم فی تفسیر الآیة(۱۹۴) من سورة البقرة، ارجع إلی المجلد الثّانی من هذا التّفسیر.

[۸۵] (۱)-« سفینة البحار»، ج ۲، ص ۴۸۲.

[۸۶] (۲)-« نهج البلاغة»، الخطبة القاصعة، رقم ۱۹۲.

[۸۷] (۱)- تفسیر« مجمع البیان» و تفسیر« الدر المنثور» و« المنار» فی ذیل الآیة المذکورة مع بعض الاختلاف.

[۸۸] (۲)- النحل، ۴۳.

[۸۹] (۱)-« مجمع البیان»، ذیل الآیة المذکورة.

[۹۰] (۱)- تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۶۸۴.

[۹۱] (۱)- تفسیر« المیزان»، ج ۶، ص ۱۷۲.

[۹۲] (۱)- تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۶۸۴.

[۹۳] (۱)- العنکبوت، ۴۵.

[۹۴] (۱)- على هذا يكون إعراب« آخران» مبتدأ، و جملة« يقومان مقامهما» خبر، و« أوليان» فاعل« استحقا» و« من الذين» أى من ورثة الميت الذين وقع عليهم الظلم، و الجار و المجرور صفة« آخران»« تأمل بدقّة».

[۹۵] (۱)- يتّضح من هذا أن i يَوْمَ\ ...E مفعول به لفعل محذوف تفسيره الآية السابقة و تقدير« اتقوا يوم».

[۹۶] (۱\)-i وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ\ ...E.

[۹۷] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۴۲۸.

[۹۸] (۱)-« الهدى إلى دين المصطفى»، ج ۲، ص ۲۳۹.

[۹۹] (۲)- نفس المصدر.

[۱۰۰] (۱)- إطلاق كلمة« نفس» على اللّه لا يعنى الروح، فمن معانى النفس الذات.

[۱۰۱] (۲)- فى معنى« توفى» و كونها لا تعنى موت المسيح عليه السّلام أنظر ذيل الآية(۵۵) من سورة آل عمران فى المجلد الثّانى.

[۱۰۲] (۱)- تفسير« المنار»، ج ۷، ص ۲۶۳.

[۱۰۳] (۱)-« يعدلون» من« عدل» على وزن« حفظ» بمعنى التساوى، و هى هنا بمعنى(العديل) أى الشريك و الشبيه و المثيل.

[۱۰۴] (۱)- تفسير« نور الثقلين» ج ۱، ص ۷۰۱.

[۱۰۵] (۱)- الأعراف، ۳۴.

[۱۰۶] (۲)- تفسير« نور الثقلين»، ج ۱، ص ۵۰۴.

[۱۰۷] (۱)- ثمّة اختلاف بين المفسّرين حول إعراب هذه العبارة القرآنية و الظاهر أنّ« هو» مبتدأ و« اللّه» خبر. و\i فِي السَّماواتِ\ ...E جار و مجرور متعلقان بفعل تدل عليه كلمة« اللّه» و التقدير:(هو المتفرد فى السموات و الأرض بالألوهية).

[۱۰۸] (۱)- كلمة« آية» نكرة، و وردت فى سياق النفى، فيكون المعنى: إنّهم يعرضون عن كل آية و لا يفكرون فيها.

[۱۰۹] (۱)-« المدرار» فى الأصل من« در» اللبن، ثم انتقل إلى ما يشبهه فى النزول كالمطر و الكلمة صيغة مبالغة، و جملة« أرسلنا السماء» للزيادة فى المبالغة.

[۱۱۰] (۱)- العلق، ۶ و ۷.

[۱۱۱] (۱)- الضمير« جعلناه» يمكن أن يعود على الرّسول، أو على من يرسل معه لإعانته على تثبيت النبوة و على الاحتمال الثّانى يكون اقتراحهم قد تحقق، و على الأوّل قد تحقق أكثر ممّا طلبوه.

[۱۱۲] (۲)-« حاق» بمعنى أحاط به و حل به، و\i« ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ\»E أى ما كانوا يستهزئون به من تهديد و إنذار يسمعونه من أنبياء اللّه مثل إنذار نوح و قومه بوقوع الطوفان، فكان قومه من عبدة الأصنام يسخرون من ذلك. و عليه فلا ضرورة لتقدير كلمة« جزاء» كما يقول بعضهم، إذ يكون المعنى: العقوبات التى كانوا يستهزئون بها حلت بهم.

[۱۱۳] (۱)- تفسير أبى الفتوح الرازى و تفسير« مجمع البيان» فى ذيل تفسير الآية.

[۱۱۴] (۱)- جملة\i إِنِّي أُمِرْتُ\ ..E من قبيل الخطاب غير المباشر، و جملة« و لا تكونن» خطاب مباشر، و لعل هذا الانتقال يقصد به القول بأنّ الابتعاد عن الشرك و استنكاره أهم بكثير من أن يكون المرء أول المسلمين، و لذا جاء موضوع تجنب الشرك فى خطاب مباشر و مؤكد بنون التوكيد الثقيلة.

[۱۱۵] (۱)- يلاحظ أنّ تركيب عبارة الآية يقتضى أن تأتى جملة« أخاف» بعد جملة« إن عصيت ربى» لأنّها جواب الشرط، غير أنّ تقديمها يفيد التأكيد على عظم إحساس رسول اللّه بالمسؤولية أمام أوامر اللّه تعالى.

[۱۱۶] (۱)-« الضر» هو كل نقيصة يتعرض لها الإنسان إمّا فى الجسم مثل نقص عضو و المرض، و إمّا فى النفس مثل الجهل و السفاهة و الجنون، و إمّا فى أمور أخرى مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

[۱۱۷] (۱)- تفسیر« المیزان» ج ۷، ص ۳۴.

[۱۱۸] (۲)- الأعراف، ۱۲۷.

[۱۱۹] (۱)- تفسیر« البرهان»، و تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۷۰۷ ذیل الآیة.

[۱۲۰] (۲)- تفسیر« المنار»، ج ۷، ص ۳۴۱.

[۱۲۱] (۱)- البقرة، ۱۱۴.

[۱۲۲] (۲)- البقرة، ۱۴۰.

[۱۲۳] (۱)- إذا أخذناها علی إنّها بمعنی الاعتذار و الجواب، فلا حاجة فیهما للتقدیر، أمّا إذا أخذت بمعنی الشرک، فینبغی أن نقدر کلمة« نتیجة» أی أنّ نتیجة شرکهم کانت أن یقسموا إنّهم لم یکونوا مشرکین.

[۱۲۴] (۱)- النساء، ۴۲.

[۱۲۵] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۰۸.

[۱۲۶] (۲)- تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۷۰۸.

[۱۲۷] (۱)-« أکنة» جمع« کنان» و هو کل ستار أو حاجز، و« الوقر» بمعنی ثقل السمع.

[۱۲۸] (۱)-« ینأون» من« نأی» بمعنی ابتعد.

[۱۲۹] (۱)- ملخص ما ورد فی سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۱۹۱، و سیرة الحلبی، ج ۱، ص ۱۳۱، و کتب أخری.

[۱۳۰] (۱)-« الغدیر»، ج ۷، ص ۳۴۶.

[۱۳۱] (۱)- هاتان القطعتان وردتا فی« خزانة الأدب» و« و تاریخ ابن کثیر» و« شرح ابن أبی الحدید» و« فتح الباری» و« بلوغ الارب» و« تاریخ أبی الفداء» و« السیرة النبویة» و غیرها نقلا عن« الغدیر»، ج ۸.

[۱۳۲] (۲)-« شیخ الأباطح» نقلا عن« أبو طالب مؤمن قریش».

[۱۳۳] (۳)- الطبری، نقلا عن« أبو طالب مؤمن قریش».

[۱۳۴] (۱)- کتاب« الحجة» و« الدرجات الرفیعة» نقلا عن« الغدیر» ج ۸، ص ۳۸۰.

[۱۳۵] (۱)- الغدیر، ج ۷، ص ۳۵۷- ۳۵۸ بتصرف.

[۱۳۶] (۲)- الغدیر، ص ۸۶.

[۱۳۷] (۱)-« لو» شرطیة، و قد حذف الجواب لوضوحه.

[۱۳۸] (۱)- ینبغی الانتباه إلی نقطة مهمّة فی الآیة: فی القراءة المشهورة التی بین أیدینا« نردّ» مرفوعة و« و لا نکذب» و« نکون» منصوبتان، مع أنّ الظاهر یدل علی أنّهما معطوفتان علی« نردّ» و خیر تعلیل لذلک هو القول بأنّ« نردّ» جزء من التمنی، و« و لا نکذب» جواب التمنی، و« الواو» هنا بمنزلة« الفاء» و معلوم أن جواب التمنی إذا وقع بعد الفاء کان منصوبا، إن مفسرین کالفخر الرازی و المرحوم الطبرسی و أبی الفتوح الرازی أوردوا تعلیلات أخری، و لکن الذی قلناه أوضح الوجوه، و علیه فهذه الآیة تکون شبیهة بالآیة(۵۸) من سورة الزمر\:i لَوْ أَنَّ لِی کَرَّةً فَأَکُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ E.

[۱۳۹] (۱)- یونس، ۲۲.

[۱۴۰] (۱)- بحسب هذا الاحتمال« و قالوا» معطوفة علی« عادوا» و هذا ما یقول به صاحب تفسیر« المنار».

[۱۴۱] (۱)- تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۷۱۱.

[۱۴۲] (۱)- الرّوایات المذکورة مستفادة من تفسیر« المنار» و« مجمع البیان» فی ذیل الآیة المذکورة.

[۱۴۳] (۱)- جملة\i فَإِنِ اسْتَطَعْتَ\ ...E جملة شرطیة جوابها محذوف، تقدیره« إن استطعت .. فافعل و لکنّهم لا یؤمنون».

[۱۴۴] (۱)- من حیث الاعراب« الموتی» مبتدأ، و« یبعثهم اللّه» خبر، و معنی ذلک هو أنّ هؤلاء لا یطرأ علی حالهم أی تغییر حتی یبعثهم اللّه یوم القیامهٔ فیرون الحقائق.

[۱۴۵] (۱)- نقل هذا الاحتمال صاحب المنار عن ابن عباس.

[۱۴۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان، و نور الثقلین فی تفسیر الآیهٔ المذکورهٔ.

[۱۴۷] (۲)- تفسیر المنار، ذیل الآیهٔ، و الجماء عکس القرناء: الحیوان الفاقد للقرن.

[۱۴۸] (۱)-« المیزان» ج ۷، ص ۸۴.

[۱۴۹] (۱)- یقول علماء العربیهٔ: إنّ« ک» فی« أ رأیتک» و« کم» فی« أ رأیتکم» لیستا اسما و لا ضمیرا، و لکنّهما حرفا خطاب یفیدان التوکید، و الفعل فی مثل هذه الحالات یکون مفردا إنّما الافراد و التثنیهٔ و الجمع تظهر علی حرف الخطاب هذا، ففی« أ رأیتکم» المخاطبون جماعهٔ و لکن الفعل« رأیت» مفرد، و« کم» هو الذی یدل علی أنّ المخاطبین جماعهٔ، و قیل: أنّ هذا التعبیر من حیث المعنی یساوی قولک:(أخبرنی) أو(أخبرونی)، و لکن الحقّ أنّ الجملهٔ تحتفظ بمعناها الاستفهامی، و(أخبرونی) ملازم للمعنی، لا المعنی نفسه، و المعنی یساوی« أعلمتم»؟

[۱۵۰] (۱)-« البأساء» الشدهٔ و المکروه، و تطلق علی الحرب أیضا، و کذلک القحط و الجفاف و الفقر، أما« الضراء» فأکثر ما تعنی العذاب الروحی، کالهم و الغم و الاکتئاب و الجهل، أو الآلام الناشئهٔ عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام.

و لعل الاختلاف بین معنیی اللفظتین ناشئ عن أن« البأساء» تشیر إلی المکروه الخارجی و« الضراء» تشیر إلی المکروه الداخلی، النفسی أو الروحی، و علی هذا تکون« البأساء» من عوامل إیجاد« الضراء» فتأمل بدقهٔ!

[۱۵۱] (۱)-« الإبلاس» الحزن المعترض من شدهٔ التألم بسبب کثرهٔ المنغصات المؤلمهٔ، و منها اشتقت کلمهٔ« إبلیس»، و هی هنا تدل علی شدهٔ الغم و الهم اللذین یصیبان المذنبین یومئذ.

[۱۵۲] (۱)- یشیر الفخر الرازی فی تفسیره إلی هذه الاختلاف فی ج ۱۲، ص ۲۲۴.

[۱۵۳] (۲)- تفسیر مجمع البیان و تفسیر نور الثقلین، ذیل الآیهٔ.

[۱۵۴] (۳)- نهج البلاغهٔ، الکلمهٔ ۲۵.

[۱۵۵] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۱۸.

[۱۵۶] (۱)- شرحنا معنی« أ رأیتکم» عند تفسیر الآیهٔ ۴۰ من هذه السورهٔ و قلنا: لیس هناک ما یدعو إلی اعتبار المعنی« أخبرونی» بل المعنی هو« أعلمتم»؟

[۱۵۷] (۲)- لقمان، ۱۳.

[۱۵۸] (۱)- الحجر، ۲۱.

[۱۵۹] (۱)- البقرهٔ، ۲۵۵.

[۱۶۰] (۱)- معنی« الوجه» فی اللغهٔ معروف، و لکن الکلمهٔ قد تعنی« الذات» کما فی هذه الآیهٔ، و هناک شرح أوفی لذلک فی المجلد الثانی من هذا التفسیر.

[۱۶۱] (۱)- هود، ۲۷.

[۱۶۲] (۱)- الشعراء، الآیات ۱۱۱- ۱۱۴.

[۱۶۳] (۱)- لمزید من الشرح انظر المجلد الثّانی فی تفسیر الآیتین ۱۹۱ و ۱۹۳ من سورهٔ البقرهٔ.

[۱۶۴] (۲)- أشرنا فی تفسیر الآیهٔ ۱۶۴ من سورهٔ آل عمران إلی أنّ« المنهٔ» تعنی فی الأصل النعمهٔ یهبها اللّه.

[۱۶۵] (۱)- المجلد الثّالث من هذا التّفسیر.

[۱۶۶] (۲)- جملهٔ« و لتستبین» معطوفهٔ فی الواقع علی جملهٔ محذوفهٔ تدرک بالقرینهٔ، فیکون المعنی لتستبین سبیل المؤمنین المطیعین و لتستبین سبیل المجرمین.

[۱۶۷] (۱)- استعمال« الذین» التی هی للجمع المذکر العاقل، لا للإشارهٔ إلی الأصنام، یدل علی أنّ الکلام یجری وفق وجههٔ نظر المشرکین.

[۱۶۸] (۱)- هود، ۳۲.

[۱۶۹] (۲)- الأعراف، ۷۷.

[۱۷۰] (۳)- الأعراف، ۷۰.

[۱۷۱] (۴)- الإسراء، ۹۱.

[۱۷۲] (۱)- النساء، ۳۵.

[۱۷۳] (۱)-i ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَهِٔ أُولِی الْقُوَّهِٔ\E(القصص، ۷۶) و\i أَوْ ما مَلَکْتُمْ مَفاتِحَهُ E(النّور، ۶۱).

[۱۷۴] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۵۲۸.

[۱۷۵] (۲)- هناک شرح أو فی لهذا فی المجلد الثانی.

[۱۷۶] (۱)- الضمیر فی« فیه» یعود علی« النهار» و« یبعثکم» بمعنی یوقظکم و ینهضکم، و« أجل مسمی» هو العمر المحدد لکل فرد.

[۱۷۷] (۲)- تفسیر المیزان، ج ۷، ص ۱۳۴.

[۱۷۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۳۱۳.

[۱۷۹] (۱)- المصدر نفسه، ج ۱، ص ۲۹۸.

[۱۸۰] (۱)- تفسیر مجمع البیان و نور الثقلین فی تفسیر الآیهٔ.

[۱۸۱] (۱)-« شیعا» جمع« شیعهٔ» بمعنی الجماعهٔ.

[۱۸۲] (۱)- الضمیر فی« به» یرجعه بعضهم إلی القرآن، و یرجعه آخرون إلی العذاب الذی ورد فی الآیات السابقهٔ، و لکنّ الظاهر إنّه یرجع إلی کل هذه و إلی تعالیم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم التی کذبوا بها، و تؤکّد ذلک الآیهٔ التّالیهٔ.

[۱۸۳] (۱)- قد یکون« المستقر» المصدر المیمی بمعنی« الاستقرار» أو اسما لمکان و زمان بمعنی مکان الاستقرار، بالمعنی الأوّل یکون إخبارا عن تحقیق وعد اللّه، و بالمعنی الثانی الإخبار عن مکان تحققه و زمانه.

[۱۸۴] (۱)-« الخوض» کما یقول الراغب الأصفهانی فی« مفرداته» هو الدخول فی الماء و المرور فیه، ثمّ استعیر للورود فی أمور أخری، و أکثر ما ترد فی القرآن بشأن الدخول فی موضوع باطل ما أساس له.

[۱۸۵] (۲)- غنی عن القول بأن(لا تقعد) لا تعنی النهی عن مجرّد الجلوس مع هؤلاء، بل تعنی النهی عن معاشرتهم فی جمیع حالات الجلوس و الوقوف أو المسیر.

[۱۸۶] (۱)-« البسل» هو حفظ الشیء و منعه بالقوهٔ و القهر، و الإبسال حمل المرء علی التسلیم، کما تطلق الکلمهٔ علی الحرمان من الثواب، أو أخذ الرهائن، و الجیش الباسل بمعنی القاهر الذی یحمل العدو علی التسلیم، و المعنی فی الآیهٔ هو تسلیم المرء و خضوعه لأعماله السیئهٔ.

[۱۸۷] (۱)-« العدل» بمعنی« المعادل» و هو ما یدفع جزاء و غرامهٔ لقاء التحرر، و هو أشبه فی الواقع بما یفتدی به.

[۱۸۸] (۱)-« أعقاب» جمع« عقب» و هو مؤخر الرجل، و رجع علی عقبه بمعنی انثنی راجعا، و هو هنا کنایهٔ عن الانحراف عن الهدف، و هو ما یطلق علیه الیوم اسم« الرجعیهٔ».

[۱۸۹] (۲)-« استهوته» من« الهوی» و هو میل النفس إلی الشهوهٔ، و استهوته بمعنی حملته علی إتباع الهوی، و« الحیرهٔ» هی التردد فی

الأمر، و فی الأصل: الجیئة و الذهاب، فالآیة تشیر إلی الذین یذهبون من الإیمان إلی الشرک مستلهمین تحرکاتهم من الشیطان.

[۱۹۰] (۱)- یختلف المفسرون فی متعلق الظرف« یوم»، فبعض یعلقه بجملة« خلق» و بعض یعلقه بجملة« اذکروا» المحذوفة، و لکن لا یستبعد أن یکون متعلقا بجملة« یکون»، فیصبح المعنی: یکون یوم القیامة یوم یقول له کن.

[۱۹۱] (۱)- غافر، ۱۶.

[۱۹۲] (۱)- التوبة، ۱۱۳ و ۱۱۴.

[۱۹۳] (۲)- مریم، ۴۷.

[۱۹۴] (۳)- إبراهیم، الآیتان ۳۹ و ۴۱.

[۱۹۵] (۱)- یورد هذا الحدیث کثیرون من مفسّری الشیعة و السنة، کالمرحوم الطبرسی فی« مجمع البیان» و النیسابوری فی تفسیر« غرائب القرآن» و الفخر الرازی فی« التّفسیر الکبیر» و الآلوسی فی تفسیر« روح المعانی».

[۱۹۶] (۲)- التوبة، ۲۸.

[۱۹۷] (۳)-« جامع البیان»، ج ۷، ص ۱۵۸.

[۱۹۸] (۴)- تفسیر« روح المعانی»، ج ۷، ص ۱۶۹.

[۱۹۹] (۱)-« مسالک الحنفاء»، ص ۱۷ کما جاء فی هامش« بحار الأنوار»، ۱۵، ۱۸ أو بعدها، الطبعة الجدیدة.

[۲۰۰] (۱)- و علی هذا، هناک محذوف مقدار فی الآیة یدل علیه ما فی الآیات السابقة، فیکون مضمون الآیة: کما أرینا إبراهیم قبح ما کان علیه قومه من عبادة الأصنام کذلک نری إبراهیم ملکوت السموات و الأرض(تأمل بدقة).

[۲۰۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین: ج ۱، ص ۷۳۸.

[۲۰۲] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۳۵ و ۷۳۷.

[۲۰۳] (۲)- تفسیر أبی الفتوح، ج ۴، ص ۴۶۷- الهامش.

[۲۰۴] (۱)- هذا أشبه بالاستثناء المنقطع، فقد نفی عن الأصنام کلّ قدرة علی النفع و الضرر، و أثبتها للّه، و للمفسّرین آراء أخری فی تفسیر هذه الآیة، غیر أن ما قلناه أقرب.

[۲۰۵] (۱)-« السلطان» بمعنی التفوق و الإنتصار، و لما کان الدلیل و البرهان من أسباب الفوز و الإنتصار، فقد یوصفان بالسلطان أیضا، کما هو الحال هنا، أی لا وجود لأی دلیل علی السماح بعبادتها و هذا ما لم یستطع إنکاره عباد صنم، لأنّ أمرا کهذا ینبغی أن یصدر عن طریق العقل و المنطق، أو عن طریق الوحی و النبوة، و عبادة الأصنام مفتقرة إلی کلیهما.

[۲۰۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۲۰۷] (۲)- المصدر السابق.

[۲۰۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۴۰.

[۲۰۹] (۲)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۵۳۸.

[۲۱۰] (۱)- أنظر المجلد الثّالث، تفسیر الآیة(۱۴۵) من سورة النساء لمعرفة الفرق بین« الدرجة» و« الدرک».

[۲۱۱] (۱)- تفسیر الآلوسی، ج ۷، ص ۱۸۴.

[۲۱۲] (۲)- دائرة المعارف فرید وجدی، ج ۱۰، ص ۱۰۵۵- فی مادة« یونس».

[۲۱۳] (۱)- تفسیر(نور الثقلین)، ج ۱، ص ۷۴۳.

[۲۱۴] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۱۳، ص ۶۶.

[۲۱۵] (۱)-« من آبائهم» جار و مجرور متعلقان أمّا بجملة« فضلنا» الواردة فی الآیة السابقة أو بمحذوف تفسره الجملة التّالیة فیکون

الأصل« اجتبينا من آبائهم» ينبغى الالتفات إلى أن« من» فى الآية تبعيضية حسب الظاهر.

[۲۱۶] (۱)- جاءت فى الآيـة(۱۲) من سورة لقمـان بمعنى العلم و الفهم، و فى الآيـة(۲۲) من سورة ص بمعنى القضاء، و فى الآيـة(۲۶) من سورة الكهف بمعنى الحكومة.

[۲۱۷] (۱)- يحتمـل أيضا أن يكون المراد من« هؤلاء» هم الأنبياء أنفسـهم، أى إذا افترضـنا المسـتحيل، و قلنا أنّ هؤلاء الأنبياء العظام تخلوا عن أداء الرسالـة الإلهيـة، فإنّ الرسالـة كانت تواصل سـيرها على أيدى قوم آخرين، هنالك تعبيرات مماثلة فى القرآن، كما جاء فى الآيةَ(۶۵) من سورة الزمر\i لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ E.

[۲۱۸] (۲)- الهاء فى« اقتده» ليست ضـميرا، بل هى هاء السكت التى تلحق الكلمة المتحركة عند الوقف، مثل همزة الوصل التى يؤتى بها إذا كان حرف الابتداء فى الكلمة ساكنا، و هى تسقط عند الوصل، مثل هاء السكت غير أنّ هذه الهاء بقيت فى الكتابة القرآنية من باب الاحتياط و ارتوى الوقف هنا لكى تظهر هاء السكت.

[۲۱۹] (۱)- تفاسير مجمع البيان و أبى الفتوح الرازى و المنار فى تفسير الآية.

[۲۲۰] (۱)- يختلف المفسّـِرون فى الجملـة التى يمكن أن نعطف عليها جملـة« و لتنـذر» و لعلها معطوفـة على جملـة محذوفة بمعنى« لتبشر» أو مثلها.

[۲۲۱] (۲)- الأنعام، ۱۹.

[۲۲۲] (۳)- الأنعام، ۹۰.

[۲۲۳] (۴)- الأعراف، ۱۵۸.

[۲۲۴] (۱)- ورد اعتراض بعض المستشرقين بهذا الشأن ذكره صاحب المنار، ج ۷، ص ۶۲۱، و فى تفسير فى ظلال القرآن، ج ۳، ص ۳۰۵.

[۲۲۵] (۲)- يوسف، ۸۲.

[۲۲۶] (۳)- الأعراف، ۹۶.

[۲۲۷] (۱)- تفسير المنار، ج ۷، ص ۶۲۲.

[۲۲۸] (۱)-« الغمرات» جمع غمرة(على وزن ضـربة)، و أصل الغمر إزالة أثر الشيء، ثمّ استعملت للماء الكثير الذى ليستروجه الشيء تماما، كما تطلق على الشدائد و الصعاب التى تغمر المرء.

[۲۲۹] (۱)-« خولناكم» من« الخول» و هو إعطاء ما يحتاج إلى التعهد و التدبير و الإدارة، و هو النعم التى يسبغها اللّه تعالى على عباده.

[۲۳۰] (۱)- الراغب الأصفهانى(المفردات)، ص ۳۸۵.

[۲۳۱] (۱)- المصدر نفسه، ص ۱۰۵.

[۲۳۲] (۱)- البقرة، ۲۵۸.

[۲۳۳] (۲)- طه، ۵۳.

[۲۳۴] (۱)- أصول الكافى، ج ۲، باب(طينة المؤمن الكفار)، تفسير البرهان، ج ۱، ص ۵۴۳.

[۲۳۵] (۱)- يقول علماء الفلك: يبدأ طلوع الصبح عند ما تصل الشمس إلى ۱۸- درجة قبل الأفق الشرقى، و يعم الظلام كل شيء و يختفى الشفق عند ما تصل إلى ۱۸- درجة تحت الأفق الغربى.

[۲۳۶] (۱)- تفسير الصافى فى تفسير الآية.

[۲۳۷] (۲)- المصدر السابق.

[۲۳۸] (۳)- المصدر السّابق.

[۲۳۹] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۵۰.

[۲۴۰] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۵۰.

[۲۴۱] (۲)- مفردات الراغب، ص ۳۸۵.

[۲۴۲] (۱)- كلمة« أخضر» تشمل كل أخضر فى النبات، حتى براعم الأشجار، و لكن بما إنّها متبوعة مباشرة بالحب المتراكب فالمقصود فى الآية هو زراعة الحبوب.

[۲۴۳] (۲)-« المتراكب» من الركوب و ما ركب بعضه بعضا، و أكثر الحبوب بهذا الشكل.

[۲۴۴] (۳)- يقول الراغب فى مفرداته: إنّ« مشتبها» و« متشابها» بمعنى يكاد يكون واحدا.

[۲۴۵] (۱)- تفسير فى ظلال القرآن، ج ۳، ص ۳۲۶- الهامش.

[۲۴۶] (۲)- تفسير المنار، ج ۸، ص ۶۴۸.

[۲۴۷] (۳)- تفسير معجم البيان و تفاسير أخرى.

[۲۴۸] (۱)- الزخرف، ۱۹.

[۲۴۹] (۱)- تفسير المنار، ج ۷، ص ۶۵۳.

[۲۵۰] (۱)- القيامة، ۲۳ و ۲۴.

[۲۵۱] (۲)- الفتح، ۱۰.

[۲۵۲] (۳)- معانى الأخبار، نقلا عن« الميزان»، ج ۸، ص ۲۶۸.

[۲۵۳] (۱)- نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۵۳.

[۲۵۴] (۱)- أصول الكافى، ج ۱، ص ۹۳.

[۲۵۵] (۱)- تفسير البرهان، ج ۱، ص ۵۴۸.

[۲۵۶] (۱)-« نصرف» من« التصرف» و هو بمعنى رد الشيء من حالة أو إبداله بغيره، أى أنّ الآيات تنزل فى صور و أشكال متنوعة و لمختلف المستويات العقلية و العقائدية و الاجتماعية.

[۲۵۷] (۲)-« اللام» فى ليقولوا هى« لام العاقبة» لبيان العاقبة التى وصل إليها الأمر دون أن تكون هى الهدف المقصود، لقد كانت هذه تهمة يوجهها المشركون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[۲۵۸] (۱)-« القرون الوسطى» هى فترة الألف سنة التى امتدت بين القرن السادس الميلادى حتى نهاية القرن الخامس عشر، كما يطلق عليها اسم« الفترة المظلمة» التى مرت على أوروبا و المسيحية، و الجدير بالذكر أنّ« العصر الذهبى الإسلامى» يقع فى منتصف القرون الوسطى.

[۲۵۹] (۱)- فى ثمانية مواضع من القرآن نسب تزيين الأعمال إلى الشيطان، و فى عشرة مواضع جاء التعبير بصيغة- المبنى للمجهول« زين»، و فى موضعين إثنين نسب إلى اللّه، و ممّا سبق أن قلناه يتضح معنى هذه الحالات الثلاث.

[۲۶۰] (۲)- نهج البلاغة، الكلام ۲۰۶.

[۲۶۱] (۳)- الآلوسى،« تفسير روح المعانى»، ج ۷، ص ۲۱۸.

[۲۶۲] (۱)-« الجهد» بمعنى السعى و بذل الطاقة، و المقصود هنا الجهد فى توكيد القسم.

[۲۶۳] (۲)- المفسّرون غير متفقين على« ما»، أ هى استفهامية أم نافية؟ و كذلك فيما يتعلق بتركيب الجملة، بعضهم يقول إنّ« ما» استفهامية استنكارية، و لو كانت كذلك لكان معنى الآية: أنّى لكم أن تعلموا إنّهم لا يؤمنون إن رأوا معجزة، أى إنّه قد يؤمنون، و هذا خلاف ما تريده الآية، لذلك اعتبر بعضهم« ما» نافية، و هو الأقرب إلى الذهن، فيكون معنى الآية: أنتم لا تعلمون إنّهم حتى إذا

تحققت لهم المعجزات لا يؤمنون، و على ذلك يكون فاعل« يشعر» مقدر بمعنى« شىء» و للفعل« يشعر» مفعولان« كم» و\ أَنَّها \...E) تأمل بدقّة).

[۲۶۴] (۱)-« يعمهون» من« عمه» بمعنى الحيرة و الشك.

[۲۶۵] (۱\)- حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ\E تعنى: حققنا لهم كل طلباتهم، فالحشر بمعنى الجمع، و قبلا بمعنى أمامهم و قبالتهم، و قد تكون« قبل» جمع« قبيل» بمعنى تجميع الملائكة و الأموات أمامهم جماعات.

[۲۶۶] (۱)- الحجر، ۱۴ و ۱۵.

[۲۶۷] (۱)- انظر المجلد الأوّل بهذا الشأن.

[۲۶۸] (۲)-« زخرف» تعنى أصلا الزينة و الذهب الذى يستخدم للزينة، ثمّ أطلقت على الكلام ذى الظاهر الجميل المزين.

[۲۶۹] (۳)- يختلف المفسّرون فى إعراب هذه الآية، و فى ما عطفت عليه جملة« و لتصغى» أمّا الأقرب إلى مفهوم الآية فهو أن الجملة معطوفة على« يوحى» و لامها« لام العاقبة» أى إنّ عاقبة أمر الشياطين ستكون أنّهم يوحى بعضهم إلى بعض كلاما خادعا فيميل إليه الذين لا إيمان لهم، و قد تكون معطوفة على محل« غرورا» و هى مفعول لأجله(إذ أنّ الإنسان ينخدع أوّلا ثمّ يميل إلى ما انخدع به) فتأمل بدقّة.

[۲۷۰] (۱)-« الحكم» القاضى و الحاكم، و بعضهم يراه مساويا للحاكم من حيث المعنى، و لكن يرى بعضهم، و منهم الشيخ الطوسى رحمه اللّه، أنّ الحكم من لا يحكم بغير الحق، أمّا الحاكم فقد يحكم بكليهما، و يرى آخرون، و منهم صاحب المنار أنّ الحكم من يختاره الطرفان للحكم، و ليس الحاكم كذلك.

[۲۷۱] (۱)- الأعراف، ۱۳۶.

[۲۷۲] (۱)- هود، ۱۱۹.

[۲۷۳] (۲)- الصافات، ۱۷۱ و ۱۷۲.

[۲۷۴] (۱)-« الخرص» هو كل قول أطلق عن ظن و تخمين، و أصله من تخمين كمية الثمر على الأشجار عند استئجار البستان، و أمثال ذلك، ثمّ أطلق على كل ظن و تخمين قد يطابق الواقع و قد لا يطابقه، و الكلمة تستعمل فى الكذب أيضا، و قد تكون فى الآية بكلا المعنيين.

[۲۷۵] (۱)- صيغة التفضيل تتعدى عادة بالباء، فكان المفروض أن يقال« أعلم بمن يضل» و لكن الباء حذفت هنا و« من يضل» منصوبة بنزع الخافض.

[۲۷۶] (۱)-« اللام» هنا هى لام« العاقبة» و ليست اللام الغائية، و قد وردت فى القرآن كثيرا.

[۲۷۷] (۱)-« الإجرام» من« جرم» و أصله القطع، و المجرم هو الذى يقطع العهود و ارتباطه باللّه بعدم إطاعته، و لذلك أطلقت كلمة« الجرم» على الإثم و الذنب، فى هذا إشارة لطيفة إلى أنّ هناك فى ذات الإنسان اتفاق مع الحق و الطهارة و العدالة، و الإجرام هو قطع هذه الاتفاق الفطرى الإلهى.

[۲۷۸] (۱)- الإنشراح، ۱.

[۲۷۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۳۶۳.

[۲۸۰] (۱)-« يوم» ظرف متعلق بجملة« يقول» المحذوفة فيكون أصل الجملة\: يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ E.

[۲۸۱] (۱)- فى الحالة الأولى فاعل« ظلم» هم الكافرون، و فى الحالة الثانية يكون نفى الظلم عن اللّه تعالى.

[۲۸۲] (۱)-« معجزين» من« أعجز» أى جعله عاجزا، فالآية تقول: إنّكم لا تستطيعون أن تجعلوا اللّه عاجزا عن بعث الناس و تحقيق العدالة، و بعبارة أخرى: أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة اللّه.

[۲۸۳] (۱)- تفسير المنار، ج ۸، ص ۱۲۲.

[۲۸۴] (۱)- يتصور بعض أنّ كلمة« أولاد» فى الآية لا تنسجم مع هذا التّفسير، غير أنّ لهذه الكلمة معنى واسعا يشمل الأبناء و البنات، و كما جاء فى الآية(۲۲۳) من سورة البقرة\:i وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ E

[۲۸۵] (۱)-« حجر» فى هذه الآية وصفية، بمعنى محجور، و يستوى فيها المذكر و المؤنث.

[۲۸۶] (۱)- الأكل: بضم الألف و ضم أو سكون الكاف يعنى ما يؤكل.

[۲۸۷] (۲)- تقدم لنا توضيح فى هذا المجال عند تفسير الآية(۹۹) من نفس هذه السورة.

[۲۸۸] (۱)- الأحاديث المـذكورة ذكرها صاحب الوسائل فى كتاب الزّكاة فى أبواب زكاة الغلات فى الباب ۱۳، و البيهقى فى كتاب السنن، ج ۴، ص ۱۳۲.

[۲۸۹] (۲)- راجع بهذا الصدد كتاب وسائل الشيعة كتاب الزّكاة، أبواب زكاة الغلات، باب كراهة الحصاد و الجذاذ بالليل، ج ۶، ص ۱۳۶.

[۲۹۰] (۱)- الواو فى صدر الآية هى واو العاطفة و ما بعدها عطف على الجنات فى الآية السابقة.

[۲۹۱] (۱)- أزواج جمع« زوج» تعنى فى اللغة مـا يقابـل الفرد، و لكن يجب الانتبـاه إلى أنّه ربّما يراد منه مجموع الـذكر و الأنثى، و ربّما يطلق على كل واحـد من الزوجين، و لهذا يطلق على الذكر و الأنثى معا: زوجين، و اسـتعمال لفظ الأزواج الثمانية فى الآية إشارة إلى الذكور الأربعة من الأصناف الأربعة، و الإناث الأربع من تلك الأصناف.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد من الأزواج الثمانية فى الآية: الأليف من تلك الأصـناف الأربعة و ما يقابلها من الوحشـى، أى الذكر و الأنثى من الغنم الأليف، و الذكر و الأنثى من الغنم الوحشى، و هكذا ... فتكون الأزواج حينئذ ثمانية.

[۲۹۲] (۱)- ثمّـة احتمالات عديـدة حول مـا هو متعلق بالجار و المجرور فى قوله:« بغير علم»، و لكن لا يبعـد أن يكون هـذا الظرف متعلقا بفعل:« يضل» يعنى أنّهم بسبب جهلهم يضلون الناس.

[۲۹۳] (۱)- و فى الحقيقة يكون معنى كلمة« فإنّه» هو« فإن ما ذكر».

[۲۹۴] (۲)-« أهـلّ» أصـله« الإهلال»، و هو مأخوذ فى الأصل من الهلال، و الإهلال يعنى رفع الصوت عنـد رؤيـة الهلال، ثمّ اسـتعمل لكل صوت رفيع، كما أنّه يطلق على بكاء الصبى عند الولادة الاستهلال، و حيث أنّهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عال عند ذبح الأنعام عبرّ عن فعلهم هذا بالإهلال.

[۲۹۵] (۱)-« الباغى» من« البغى» و هو يعنى الطلب،« و العادى» من« العدو» و هو يعنى التجاوز.

[۲۹۶] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶۵، ص ۱۳۶ و ۱۳۷.

[۲۹۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۵، ص ۱۳۶ و ۱۳۷.

[۲۹۸] (۱)- الكتاب المقدس، سفر اللّاويين، الاصحاح ۱۱، ص ۱۴۲.

[۲۹۹] (۱)-« الحوايا» جمع« حاوية» و هى مجموعة ما يوجد فى بطن الحيوان و التى تكون على هيئة كرة تتضمّن الأمعاء.

[۳۰۰] (۱)-« كذب» فى اللغة تأتى بمعنيين تكذيب الغير، و كذلك فعل الكذب.

[۳۰۱] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۷۴.

[۳۰۲] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۷۶.

[۳۰۳] (۱)-« يعدلون» مشتق من مادة« عدل» بمعنى الشريك و التشبيه، و على هذا الأساس فإنّ مفهوم جملة« و هم بربّهم يعدلون» هم أنّهم كانوا يعتقدون بشريك و شبيه اللّه سبحانه.

[۳۰۴] (۱)- راجع الآية(۱۳) من سورة الشورى.

[۳۰۵] (۱)- تفسیر المنار، ج ۸ ص ۱۸۵.

[۳۰۶] (۱)- بحار الأنوار، الطبعة الجدیدة، ج ۱۹، ص ۸ و ۹ و ۱۰.

[۳۰۷] (۱)-« أن تقولوا» معناه« لئلّا تقولوا» و نظیر ذلک کثیر فی لغة العرب.

[۳۰۸] (۱)-« الشیع» من حیث اللغة تعنی الفرق و الطوائف المختلفة و أتباع الأشخاص المختلفین، و علی هذا فإنّ مفرد کلمة یعنی من یتبع مدرسة أو شخصا معینا، هذا هو المعنی اللغوی لکلمة الشیعة. و لکن للفظة الشیعة معنی آخر فی الاصطلاح، فهو یطلق علی من یتبع أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام و یشایعه، و لا یصح أن نخلط بین المعنیین اللغوی و الاصطلاحی.

[۳۰۹] (۱)- نور الثقلین، المجلد الاوّل، ص ۷۸۳.

[۳۱۰] (۲)- نور الثقلین، المجلد الاوّل، ص ۷۸۳.

[۳۱۱] (۱)- راجع صحیح الترمذی مجلد ۳ الصفحة ۱۰۰، و سنن البیهقی المجلد الأوّل الصفحة ۱۳ و المجلد الثّانی الصفحة: ۴۳۱، و کنز العمال المجلد الأوّل الصفحة ۱۵۴ و ۱۵۹، و الطبقات الکبری لابن سعد المجلد الثانی، الصفحة ۲ و کتبا أخری.

[۳۱۲] (۱)- للوقوف علی أدلة هذا الموضوع راجع کتاب« تأسیس الشیعة لعلوم الإسلام»، و کتاب« أصل الشیعة و أصولها».

[۳۱۳] (۱)- الزمر، ۱۰.

[۳۱۴] (۱)- مجمع البیان، المجلد الرابع، ص ۳۹۰.

[۳۱۵] (۱)-« قیما» قد تأتی أیضا بمعنی الاستقامة، و قد تأتی بمعنی الثبات و الدوام و کذلک تأتی بمعنی القائم بأمور الدین و الدنیا.

[۳۱۶] (۱)- البقرة، ۱۳۵، آل عمران، ۴۷ و ۹۵.

[۳۱۷] (۱)- یونس، ۷۲.

[۳۱۸] (۲)- البقرة، ۱۲۸.

[۳۱۹] (۳)- یوسف، ۱۰۱.

[۳۲۰] (۱)- تفسیر الصافی، ذیل هذه الآیة.

[۳۲۱] (۱)-« الخلائف» کما فی المفردات للراغب- جمع خلیفة« و خلفاء» جمع« خلیف» و هما بمعنی من یقوم مقام أحد بعده، و التاء المضافة إلی الکلمة تفید المبالغة، و قال جمع آخر من أهل اللغة: الخلائف جمع خلیف و خلیفة.

[۳۲۲] (۱)- تفسیر البرهان، المجلد الثانی، الصفحة ۲ و نور الثقلین، المجلد الثانی، الصفحة ۲.

[۳۲۳] (۱)- البقرة، ۱۲۱.

[۳۲۴] (۱)- و علی هذا الأساس فإن جملة« لتنذر» تتعلق ب« أنزل» و لیس بجملة« فلا یکن» و لعل جعل هذه الجملة(أی جملة لتنذر) بعد جملة« فلا یکن فی صدرک حرج» لأجل أنّه یجب أوّلا إعداد النّبی فی طریق الدعوة، ثمّ اقتراح الهدف و هو الإنذار علیه(تأمل جیدا).

[۳۲۵] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثانی، الصفحة ۴.

[۳۲۶] (۲)- المصدر السابق.

[۳۲۷] (۳)- تفسیر« مجمع البیان»، و تفسیر« التبیان» عن معنی القصة فی ذیل الآیة الحاضرة ورد البحث أعلاه فی.

[۳۲۸] (۱)- الرحمان، ۳۹ و ۴۱.

[۳۲۹] (۱)- بناء علی هذا یکون الوزن هنا بمعناه المصدری و هو مبتدأ و« الحق» خبره، و إن أعطیت احتمالات فی ترکیب الجملة الحاضرة و لکن ما قلناه أقرب من الجمیع.

[۳۳۰] (۱)- رویت هذه الروایة من عبید بن عمیر فی تفسیر« مجمع البیان» و تفسیر« الطبری» و ظاهر العبارة یوحی بأن الکلام هو لعبید

و لیس لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

[۳۳۱] (۱)- بحار الأنوار، الطبعة الجدیدة، ج ۷، ص ۲۵۲ و ۲۵۱.

[۳۳۲] (۲)- المصدر السابق.

[۳۳۳] (۱)- إبراهیم، ۴۸.

[۳۳۴] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۵.

[۳۳۵] (۱)- تفسیر یوسف، ۵۶.

[۳۳۶] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثانی، الصفحة ۶.

[۳۳۷] (۲)- تفسیر المنار، المجلد ۸ الصفحة ۳۲۱، و تفسیر الطبری، الجزء ۸ و ۹، و تفسیر القرطبی، ج ۴ الصفحة ۲۰۶۷.

[۳۳۸] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۸، باب القیاس.

[۳۳۹] (۱)- تفسیر المنار، ج ۸، ص ۳۳۱ و نور الثقلین، ج ۲، ص ۷.

[۳۴۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۲، ص ۶، و علل الشرائع، ص ۸۶.

[۳۴۱] (۱)- إطلاق« الملک» علی الشیطان إنما هو لأجل أنّه کان له مکان فی صفوف الملائکة، و کان ردیفا لهم لا أنّه کان منهم و من جنسهم کما قلنا سابقا.

[۳۴۲] (۲)- سفینة البحار، مادة کبر.

[۳۴۳] (۳)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۲۱۹، باب أصول الکفر.

[۳۴۴] (۱)- حق الیقین فی معرفة اصول الدین، ج ۱، ص ۷۲.

[۳۴۵] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۴، ص ۴۰۴.

[۳۴۶] (۱)- فصّلت، ۳۰.

[۳۴۷] (۲)- الأنفال، ۱۲.

[۳۴۸] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثانی، ص ۱۳.

[۳۴۹] (۲)- دلّی من مادة التدلیة و تعنی إرسال الدلو فی البئر بحبل تدریجا، و هذه- فی حقیقتها- کنایة لطیفة عن أنّ الشیطان أنزل بحبل مکره و خداعه آدم و زوجته من مقامهما الرفیع، و أرسلهما إلی قعر بئر المشکلات و الابتعاد عن الرحمة الإلهیة.

[۳۵۰] (۱)-« یخصفان» من مادة« الخصف» و تعنی فی الأصل ضم شیء إلی شیء آخر، و الجمع، ثمّ أطلق علی ترفیع النعل أو الثواب المتمزق و خیاطته فقیل: خصف النعل أو الثوب، أی جمع الأجزاء المتفرقة و ضم بعضها إلی الآخر.

[۳۵۱] (۱)- و للاطلاع علی هذه الرّوایات یراجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الأوّل، الصفحة ۵۹ و ۶۰ و المجلد الثانی، الصفحة ۱۱، فی تفسیر آیات سورة البقرة و سورة الأعراف.

[۳۵۲] (۱)- الصافات، ۱۴۶.

[۳۵۳] (۲)- المؤمنون، ۲۰.

[۳۵۴] (۱)- التّوراة، سفر التکوین الإصحاح الثانی الفقرة رقم ۱۷.

[۳۵۵] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثانی ص ۴۱۱، نقلا عن کتاب علل الشرائع.

الجزء الخامس

[تتمة سورة الأعراف]

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

يـا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنـا عَلَيْكُم لِباساً يُوارِى سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۲۶) يا بَنِى آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (۲۷) وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قـالُوا وَجَدْنا عَلَيْهـا آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۲۸)

التّفسير

إنذار إلى كل أبناء آدم:

إنّ قصة آدم و مشكلته مع الشيطان- كما أسلفنا فى آخر بحث فى الآيات السابقة- عكست تصويرا واقعيا عن حياة جميع أفراد البشر على الأرض، و لهذا بيّن اللّه تعالى فى الآيات الحاضرة و ما بعدها سلسلة من التعاليم و البرامج البنّاءة لجميع أبناء آدم، و هى تعتبر فى الحقيقة استمرارا لبرامج آدم فى الجنّة.

ففى البداية يشير إلى مسألة اللباس و ستر سوءات البدن التى كان لها دور

مهم فى قصّة آدم، إذ يقول: يا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِى سَوْآتِكُمْ

و لكن فائدة اللباس الذى أرسلناه لكم لا تقتصر على ستر البدن و إخفاء العيوب و السوءات، بل للتجمل و الزينة أيضا حيث يجعل أجسامكم أجمل ممّا هى عليه. وَ رِيشاً.

و كلمة «ريش» فى الأصل هو ما يستر أجسام الطيور، و حيث أنّ ريش الطيور هو اللباس الطبيعى فى أجسامها، لهذا أطلق على نوع من أنواع الألبسة، و لكن حيث أنّ ريش الطير فى الأغلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضمّن هذه الكلمة مفهوم الزينة و الجمال، هذا مضافا إلى أنّه تطلق كلمة الريش على الأقمشة التى تلقى على سرج الفرس أو جهاز البعير.

و قد أطلق بعض المفسّرين و أهل اللغة هذه اللفظة على معنى أوسع أيضا، و هو كل نوع من أنواع الأثاث و الحاجيات التى يحتاج إليها الإنسان، و لكن الأنسب فى الآية الحاضرة هو الألبسة الجميلة و ثياب الزينة.

ثمّ تحدث القرآن عقيب هذه الجملة التى كانت حول اللباس الظاهرى، عن حدّ اللباس المعنوى تبعا لسيرته فى الكثير من الموارد التى تمزج بين الجانبين المادى و المعنوى، الظاهرى و الباطنى إذ قال: وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ.

و تشبيه التقوى باللباس تشبيه قوى الدلالة، معبّر جدّا، لأنّه كما أنّ اللباس يحفظ البدن من الحرّ و القرّ، يقى الجسم عن الكثير من الأخطار، و يستر العيوب الجسمانية، و هو بالإضافة الى هذا و ذاك زينة للإنسان، و وقايته من الكثير من الأخطار الفردية و الاجتماعية، تعدّ زينة كبرى له ... زينة ملفتة للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة و سمّوا، و تزيدها جلالا و بهاء.

ثمّ إنّ هناك مذاهب متعددة للمفسّرين فى تحديد المراد من لباس التقوى،

و أنّه ما هو؟

فبعض فسّره ب «العمل الصالح» و بعض ب «الحياء» و بعض ب «لباس العبادة»، و بعض ب «لباس الحرب» مثل الدرع و الخوذة، و حتى الترس، لأنّ لفظة التقوى مشتقّة من مادة «الوقاية» بمعنى الحفظ و الحماية، و بهذا المعنى جاء فى القرآن الكريم أيضا، كما نقرأ فى سورة النحل الآية (۸۱): وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ....

و لكن للآيات القرآنية- كما قلنا مرارا- معنى واسعا فى الغالب، و لها مصاديق متعددة و مختلفة، و فى الآية الحاضرة- أيضا- يمكن استفادة جميع هذه المعانى منها.

و حيث أنّ لباس التقوى فى هذه الآية موضوع فى مقابل اللباس الساتر للبدن، لهذا يبدو للنظر أنّ المراد منه هو «روح التقوى» التى تحفظ الإنسان، و تنطوى تحتها معانى «الحياء» و «العمل الصالح» و أمثالهما.

ثمّ إنّ اللّه تعالى يقول فى ختام الآية: ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أى إنّ هذه الألبسة التى جعلها اللّه لكم، سواء الألبسة المادية أو المعنوية، اللباس الجسمانى أو لباس التقوى، كلّها من آيات اللّه ليتذكر الناس نعم الربّ تعالى.

نزول اللباس!

نلاحظ فى آيات متعددة من القرآن الكريم أنّ اللّه سبحانه يقول فى صعيد توفير اللباس للبشر: «و أنزلنا» و هو بمعنى الإرسال من مكان عال إلى الأسفل، إذ يقول: قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً فى حين أنّ اللباس كما هو المعلوم أمّا أنّه يتّخذ من الصوف، أو يتّخذ من مواد نباتيّة و ما شاكل ذلك من أشياء الأرض.

كما أننا نقرأ فى الآية (۶) من سورة الزمر وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ و فى سورة الحديد الآية (۳۵) وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ. فما ذا يعنى هذا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸

يصرّ كثير من المفسّرين على تفسير مثل هذه الآيات بالنّزول المكانى أى من فوق إلى تحت، مثلا يقولون: إنّ ماء المطر ينزل من السماء إلى الأرض فتروى منه النباتات و الحيوانات، من هنا تكون مواد اللباس قد نزلت- بهذا المعنى- من السماء إلى الأرض.

و فى مجال الحديد أيضا يقولون: إنّ الأحجار و الصخور السماوية العظيمة التى تحتوى على عناصر الحديد قد انجذبت إلى الأرض.

و لكن النّزول ربّما استعمل بمعنى النّزول المقامى، و قد استعملت هذه اللفظة فى المحاورات اليومية بهذا الشكل كثيرا، فيقال مثلا: أصدر الحاكم أمره إلى أمرائه و معاونيه، أو يقال: رفعت شكواى إلى القاضى، لهذا لا داعى إلى الإصرار على تفسير هذه الآيات بالنّزول المكانى.

فحيث أنّ النعم الإلهية قد صدرت من المقام الرّبوبى الرفيع إلى البشر، لهذا عبّر عن هذا المفهوم بهذا اللفظ، و هو تعبير يدركه الإنسان بدون إشكال أو صعوبة.

و يشبه هذا الموضوع ما نلاحظه فى ألفاظ الإشارة القريبة و البعيدة أيضا، فقد يكون شىء ما ذا بال أو موضوع مهمّ فى متناول أيدينا، و لكنّه- لما كان من حيث الشأن- يتمتّع بمقام مهمّ رفيع، فإنّنا نشير إليه باسم الإشارة البعيد، فنقول فى محاوراتنا مثلا: تلك الشّخصية، و نحن نقصد رجلا حاضرا قريبا، و قد جاء فى القرآن الكريم: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ و المقصود من الكتاب المشار إليه بالإشارة البعيدة القرآن الحاضر، و لكن تعظيما له أستعيض فى الإشارة إليه عن أداة الإشارة القريبة بأداة الإشارة البعيدة.

اللباس فى الماضى و الحاضر:

لم یزل الإنسان فیما مضی- کما یشهد به التاریخ- یلبس الثیاب، و لکن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹

الألبسة قد تغیرت و تنوعت تنوعا بالغا عبر الزمن، فقد کانت الثیاب تلبس فیما سبق- و فی الأغلب- لأجل حفظ الجسم من الحرّ و القرّ و کذا للزینة و التجمل، و الجانب الوقائی کان یأتی فی الدرجة اللاحقة، و لکن فی ظل الحیاة الصناعیة الحاضرة أصبح الجانب الوقائی فی المرتبة الأولی من الأهمیة فی کثیر من الحقول، فرجال الفضاء و رجال الإطفاء، و عمال المعادن و المناجم و الغواصون، و غیرهم کثیرون، یستخدمون ألبسة خاصّة لوقایة أنفسهم من مختلف الأخطار.

لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسة و الثیاب فی عصرنا الراهن تطورا هائلا، و اتسع نطاقها اتساعا کبیرا، بحیث أصبح لا یقاس بما مضی.

یقول کاتب تفسیر المنار فی المجلد الثّامن عند تفسیر الآیة المبحوثة هنا:

«لقد بلغ من إتقان صناعات اللباس أنّ عاهل ألمانیة الأخیر (قیصرها) دخل مرّة أحد معامل الثیاب لیشاهد ما وصلت إلیه من الإتقان، فجزوا أمامه عند دخوله صوف بعض کباش الغنم، و لما انتهی من التجوال فی المعمل و مشاهدة أنواع العمل فیه، و أراد الخروج قدّموا له معطفا لیلبسه تذکارا لهذه الزیارة، و أخبروه أنّه صنع من الصوف الذی جزوه أمامه عند دخوله، فهم قد نظفوه فی الآلات المنظّفة، فغزلوه بآلات الغزل، فنسجوه بآلات النسج، ففصّلوه فخاطوه فی تلک الفترة القصیرة، فانتقل فی ساعة أو ساعتین من ظهر الخروف إلی ظهر الإمبراطور».[۱] و لکن- للأسف- قد اتسعت الجوانب الفرعیة، بل و غیر المحمودة و الفاضحة للثیاب و الألبسة و تعددت کثیرا إلی درجة أنّها غطت علی الفلسفة الأصلیة للباس.

لقد أصبح اللباس- الیوم- وسیلة لأنواع التظاهر، و إشاعة الفساد، و تحریک الشهوات، و التکبر و الإسراف و التبذیر، و ما شابه ذلک.

حتی أنّنا ربّما نشاهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰

ألبسة یرتدیها جماعات من الناس- و بخاصّة الشباب المتغرب- یفوق طابعها الجنونی علی الطابع العقلانی، و تکون أشبه بکل شیء إلّا باللباس و الثوب.

و الذی تقود إلیه الدراسة الموضوعیة لهذه الظاهرة، هو أنّ للعقد النفسیة دورا مهمّا فی ارتداء مثل هذه الألبسة العجیبة الغریبة، فالأفراد الذین لا یتمکنون من القیام بعمل مهم و ملفت للنظر لتوکید وجودهم فی المجتمع یلجأون إلی هذا الأسلوب و یحاولون بارتداء هذه الألبسة غیر المأنوسة و العجیبة إثبات وجودهم و حضورهم، و لهذا نلاحظ أنّ أصحاب الشخصیات المحترمة، أو الذین لا یعانون من عقد نفسیّة ینفرون من ارتداء مثل هذه الثیاب.

و علی کل حال فإنّ مبالغ طائلة و ثروات عظیمة جدّا تهدر و تبدّد- الیوم- فی سبیل اقتناء و تعاطی الألبسة المتنوعة و الموضات المختلفة و لو منع من تبذیرها و تبدیدها و الإسراف فیها لأمکن حل الکثیر من المشکلات الاجتماعیة بها، و لتحولت إلی بلاسم و ضمادات ناجعة لکثیر من جراحات الطبقات المحرومة و الفئات البائسة الفقیرة فی المجتمعات البشریة.

هذا و یستفاد من تاریخ حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر الأئمّة العظام أنّهم کانوا یعارضون بشدّة مسألة التفاخر بالألبسة و الإفراط فی التجمل بها، إلی درجة أنّنا نقرأ فی الرّوایات أنّ وفدا من النصاری قدم علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المدینة، و هم یلبسون الألبسة الحریریة الجمیلة جدا، و التی لم یرها العرب إلی ذلک الیوم و لم یعهد أن لبسوها، فلما حضروا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سلموا علیه، لم یردّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی سلامهم، بل أحجم حتی عن التحدث معهم و لو بکلمة، و أعرض عنهم،

فلمّا سألوا علیّا علیه السلام عن سبب إعراض النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عنهم، قال علیه السلام لهم: أری أن تضعوا حللکم هذه و خواتیمکن ثمّ تعودون إلیه.

ففعل النصاری ما قاله لهم الإمام علیه السلام، ثمّ دخلوا علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فسلّموا علیه فردّ علیهم و تحدث معهم. ثمّ قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «و الذی بعثنی بالحق لقد أتونی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱

المرّة الأولی و إنّ إبلیس لمعهم».[۲]

الآیـة اللاحقـة یحذّر فیها اللّه سبحانه جمیع أبناء البشـر من ذریة آدم من کید الشـیطان و مکره، و یدعو إلی مراقبته، و الحذر منه، لأنّ الشّیطان أبدی عداءه لأبیهم آدم، فکما أنّه نزع عنه لباس الجنّة بوساوسه یمکن أن ینزع عنهم لباس التقوی، و لهذا یقول تعالی: یا بَنِی آدَمَ لا یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیطانُ کَما أَخْرَجَ أَبَوَیْکُمْ مِنَ الْجَنَّةِ یَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِیُرِیَهُما سَوْآتِهِما.

و فی الحقیقـة إنّ الأمر الـذی یربط الآیـة الحاضـرة بالآیـة السابقـة هو أنّ الآیة السابقة تحدثت عن اللباس الظاهری و المعنوی للإنسان (لباس التقوی)، و هذه الآیة تضمنت تحذیرا و دعوة له لمراقبة الشیطان و الحذر من نزعه لباس التقوی عنکم.

علی أنّ ظـاهر عبـارة لاـ یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیطـانُ هو نهی الشیطان عن هـذا العمـل، و لکن أمثـال هـذه العبـارات تعتبر کنایـات لطیفـة لنهی المخاطب، و تشبه ما إذا خاطبنا صدیقا نحبه قائلین: لا یصح أن یوجه إلیک فلان ضربة، أی راقبه حتی لا تتعرض لضربته و أذاه.

ثمّ إنّ اللّه تعالی یؤکّـد علی أنّ الشـیطان و أعوانه یختلفون عن غیرهم من الأعـداء إِنَّهُ یَراکُمْ هُوَ وَ قَبِیلُهُ مِنْ حَیْثُ لا تَرَوْنَهُمْ فلا بدّ من شدّة الحذر من مثل هذا العدوّ.

و فی الحقیقـة عنـد ما تظن أنک و حید، فإنّه من الممکن أن یکون حاضـرا معک، فیجب علیک الحذر من هذا العدوّ الخفیّ الذی لا یمکن معرفة لحظات هجومه و عدوانه المباغت، و لا بدّ من اتخاذ حالة الدفاع الدائم أمامه.

و فی خاتمة الآیة یأتی سبحانه بجملة هی فی الحقیقة إجابة علی سؤال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲

مهم، فقـد یتساءل أحـد: کیف سـلّط اللّه العادل الرحیم عـدوّا بهـذه القوة علی الإنسان ... عدوّا لا یمکن مقایسة قواه بقوی الإنسان ... عـدوا یـذهب حیث یشاء دون أن یحس أحـد بتحرکاته، بل إنّه- حسـبما جاء فی بعض الأحـادیث- یجری من الإنسان مجری الدم فی عروقه، فهل تنسجم هذه الحقیقة مع عدالة اللّه سبحانه؟! الآیة الشریفة- فی خاتمتها- ترد علی هذا السؤال الاحتمالی إذ تقول: إِنَّا جَعَلْنَا الشَّیاطِینَ أَوْلِیاءَ لِلَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ

أی إنّ الشـیاطین لا یسـمح لهم قط بأن یتسلّلوا و ینفذوا إلی قلوب و أرواح المؤمنین الذین لم یکونوا علی اسـتعداد لقبول الشـیطان و التعامل معه.

و بعبارة أخری: إنّ الخطوات الأولی نحو الشیطان إنّما یخطوها الإنسان نفسه، و هو الذی یسمح للشیطان بأن یتسلل إلی مملکة جسمه. فالشـیطان لا یسـتطیع اجتیاز حـدود الروح و یعبرها إلّا بعـد موافقـة من الإنسان نفسه، فإذا أغلق الإنسان نوافذ قلبه فی وجه الشـیاطین و الأبالسة، فسوف لا تتمکن من النفوذ إلی باطنه.

إن الآیات القرآنیـة الأخری شاهـدة أیضا علی هـذه الحقیقـة، ففی سورة النحل فی الآیة (۱۰۰) نقرأ إِنَّمـا سُـلْطانُهُ عَلَی الَّذِینَ یَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِینَ هُمْ بِهِ مُشْرِکُونَ فالذین یتعشقون الشیطان و یسلمون إلیه زمام أمرهم و یعبدونه هم الذین یتعرضون لسیطرته و وساوسه.

و فی الآیة (۴۷) من سورة الحجر نقرأ إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ

و بعبارة أخری: صـحیح أنّنا لا نری الشـیطان و جنوده و أعوانه، إلّا أننا نسـتطیع أن نری آثار أقـدامهم، ففی کل مجلس معصـیة، و فی کـل مکـان تهیّأت فیه وسائل الـذنب، و فی کل مکان توفرت فیه زبارج الـدنیا و بهارجها، و عنـد طغیان الغرائز، و عنـد اشـتعال لهیب الغضب، یکون حضور الشیطان حتمیا و مسلّما، و کأنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳

الإنسان يسمع فى هذه المواقع صوت وساوس الشيطان بآذان قلبه، و يرى آثار قدمه بأمّ عينيه.

و

قـد روى- فى هـذا الصـعيد- حـديث رائع عن الإمام الباقر عليه السـلام إذ يقول: «لما دعا نوح ربّه عز و جل على قومه أتاه إبليس لعنة اللّه فقال: يا نوح إنّ لك عندى يدا! أريد أن أكافئك عليها.

فقال نوح: إنّه ليبغض إلىّ أن يكون لك عندى يد، فما هى؟

قال: بلى دعوت اللّه على قومك فأغرقتهم، فلم يبق أحد أغويه، فأنا مستريح حتى ينشأ قرن آخر و أغويهم.

فقال نوح: ما الذى تريد أن تكافينى به؟

قال: أذكرنى فى ثلاثة مواطن، فإنّى أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان فى أحدهن:

أذكرنى إذا غضبت؟

و اذكرنى إذا حكمت بين اثنين! و اذكرنى إذا كنت مع امرأة خاليا ليس معكما أحد!»[۳].

النقطة الأخرى التى يجب الانتباه إليها هنا، هى أنّ ثلّة من المفسّـرين استنبطوا من هذه الآية أنّ الشيطان غير قابل للرؤية للإنسان مطلقا، فى حين يستفاد من بعض الرّوايات أنّ هذا الأمر ممكن أحيانا.

و لكن الظـاهر أنّ هـذين الاتجـاهين غير متعارضـين، لأنّ القاعـدة الأوليـة و الأصـلية هى أن لا يرى، و لكن لهـذه القاعـدة- كغيرها- استثناءات، فلا تناف فى الآية التالية يشير تعالى إلى واحدة من وساوس الشيطان المهمّة و التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴

تجرى على ألسنة بعض الشياطين من الإنس أيضا، و هى أنّه عند ما يسأل الشخص لدى ارتكابه عملا قبيحا، عن دليله يجيب قائلا: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا.

ثمّ يضيفون إلى هذه الحجّة حجّة كاذبة أخرى قائلين: وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها.

إنّ مسألـة التقليد الأعمى للآباء، بالإضافة إلى الافتراء على اللّه، عذران مختلفان، و حجّتان داحضـتان يتشبث بهما العصاة المتشـيطنون لتبرير أعمالهم القبيحة غالبا.

و الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يعبأ بالـدليل الأوّل (يعنى التقليـد الأعمى للآباء و الأسـلاف) و لم يعتن به، و كأنّه وجد نفسه فى غنى عن الرّدّ عليه و إبطاله، لأنّ العقل السـليم يـدرك بطلانه، هـذا مضافا إلى أنّه قـد ردّ عليه فى مواضع عديدة من القرآن الكريم. و إنّما اكتفى بالردّ على الحجّة الثّانية، أو بالأحرى (التبرير الثّانى) حيث قال: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ.

إنّ الأمر بالفحشاء حسب تصـريح الآيات القرآنية عمل الشـيطان لا عمل اللّه، فإنّه تعالى لا يأمر إلّا بالمعروف و الخير[۴] ثمّ يختم الآية بهذه العبارة: أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

و رغم أنّ الأنسب أن يقول: لماذا تنسبون ما هو كذب و ليس له واقع إلى اللّه؟

لكنّه قال بـدل ذلك: لماذا تقولون ما لا تعلمون على اللّه؟ و هـذا فى الحقيقـة اسـتنادا الى الحـدّ الأدنى من موضع قبول الطرف الآخر، فيقـال: إذا كنتم لاـ تتيقنون كـذب هـذا الكلاـم، فعلى الأقل ليس لـديكم دليل على إثباته، فلما ذا تتهمون اللّه و تقولون على اللّه ما لا تعلمون؟!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵

ما هو المقصود من الفحشاء؟

ما هو المراد من الفحشاء هنا؟ قالت طائفة كبيرة من المفسّرين: إنّها إشارة إلى تقليد كان سائدا بين جماعة من العرب فى العهد الجاهلى، و هو الطواف حول بيت اللّه المعظم عريانا «رجالا و نساء» ظنا منهم بأنّ الثياب التى ارتكبت فيها الذنوب لا تليق بأن يطاف بها حول الكعبة المعظمة.

على أنّ هذا التّفسير يتناسب مع الآيات السابقة التى دار الحديث فيها عن الثّياب و الألبسة.

و لكنّنا نقرأ فى روايات متعددة أنّ المراد من الفحشاء هنا هو كلام حكّام الجور الذين يدعون الناس إلى أنفسهم، و يعتقدون بأنّ اللّه فرض طاعتهم على الناس.

و لكن بعض المفسّرين- مثل كاتب «المنار» و «الميزان»- أخذوا للآية مفهوما واسعا إذ قالوا: إنّ الفحشاء تشمل كل عمل قبيح منكر، و بملاحظة سعة مفهوم لفظة الفاحشة، فإنّ الأنسب هو أنّ للآية معنى واسعا سعة معنى الكلمة، و مسألة «الطواف بالبيت عريانا» و «اتباع القادة و الزعماء الظلمة» تعدّ من المصاديق الواضحة لذلك، فلا منافاة بين الطائفتين من الرّوايات.

هذا و قد أعطينا توضيحا كافيا حول التسليم المطلق لتقاليد الأسلاف و أعرافهم عند تفسير الآية (۱۷۰) من سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۹ الى ۳۰]

اشارة

قُلْ أَمَرَ رَبِّی بِالْقِسْطِ وَ أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ کَما بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ (۲۹) فَرِیقاً هَدی وَ فَرِیقاً حَقَّ عَلَیْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّیاطِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۰)

التفسير

حيث أنّ الحديث فى الآية السابقة دار حول الفحشاء التى يشمل مفهوما كلّ أنواع الفعل القبيح، و تأكّد أنّ اللّه يأمر بالفحشاء إطلاقا لهذا أشير فى هذه الآية إلى أصول و مبادئ التعاليم الإلهية فى مجال الوظائف و الواجبات العملية فى جملة قصيرة، ثمّ تبعه بيان أصول العقائد الدينية، أى المبدأ و المعاد، بصورة مختصرة موجزة.

يقول أوّلا: أيّها النّبى قُلْ أَمَرَ رَبِّی بِالْقِسْطِ و العدل.

و نحن نعلم أنّ للعدل مفهوما واسعا يشمل جميع الأعمال الصالحة، لأنّ حقيقة العدل هى استخدام كل شىء فى مجاله، و وضع كل شىء فى محلّه.

ثمّ إنّه و إن كان بين «العدالة» و «القسط» تفاوتا، إذ تطلق «العدالة» و يراد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷

منها إعطاء كل ذى حق حقه، و يقابلها «الظلم» و هو منع ذوى الحقوق من حقوقهم، بينما يعنى «القسط» أن لا تعطى حق أحد لغيره.

و بعبارة أخرى: أن لا يرضى بالتبعيض، و يقابله أن يعطى حقّ أحد لغيره.

و لكن المفهوم الواسع لهاتين الكلمتين اللتين قد تستعملان منفصلتين، متساو تقريبا، و هما يعنيان رعاية الاعتدال و التوازن فى كل شيء و فى كل عمل، و بالتالى وضع كل شيء فى مكانه.

ثمّ إنّه سبحانه أمر بالتوحيد فى العبادة و محاربة كلّ ألوان الشرك و أنواعه، إذ قال: وَ أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ أى وجهوا قلوبكم نحو اللّه الواحد دون سواه، وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ

و بعد تحکیم و إرساء قاعدة التوحید، وجه الأنظار نحو مسألة المعاد و البعث یوم القیامة، إذ قال: کَما بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ

بحثان

اشارة

هنا نقطتان یجب الالتفات إلیهما و الوقوف عندهما:

۱- ما المقصود من «أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ ...»

ذکر المفسّرون فی تفسیر أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ تفاسیر متنوعة، فتارة قالوا: المراد هو التوجه صوب القبلة.
و أخری: إنّ المراد هو المشارکة فی المساجد أثناء الصلوات الیومیة.
و ثالثة احتملوا أیضا أن یکون الهدف منه هو حضور القلب و النیة الخالصة عند العبادة.
و لکن التّفسیر الذی ذکرناه أعلاه (أی التوجه إلی اللّه، و محاربة کل ألوان
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸
الشرک و التوجه إلی غیر اللّه) یبدو للنظر أنّه أنسب مع ما سبق و ما یلحق هذه الجملة، و إن لم تکن إرادة کل هذه المعانی بعیدة عن مفهوم الآیة أیضا.

۲- أقصر الأدلة علی المعاد

لقد بحث أمر المعاد و البعث فی یوم القیامة کثیرا، و یستفاد من آیات القرآن الکریم أنّ هضم هذه المسألة کان أمرا صعبا و عسیرا بالنسبة إلی کثیر من الناس فی العصور الغابرة، إلی درجة أنّهم کانوا یتخذون أحیانا من طرح مسألة القیامة و المعاد من قبل الأنبیاء دلیلا علی عدم صحة دعوتهم، و بل حتی (و العیاذ باللّه) دلیلا علی الجنون و یقولون: أَفْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ[۵].
و لکن یجب الانتباه إلی أنّ ما کان یدعو لمزید من تعجبهم و دهشتهم، هو مسألة المعاد الجسمانی، لأنّهم ما کانوا یصدّقون بأنّ الأبدان بعد صیرورتها ترابا، و تبعثر ذراتها بفعل الریاح و الأعاصیر و تناثرها فی أرجاء الأرض. أن تجتمع هذه الذرات المتبعثرة من بین أکوام التراب. و أمواج البحار، و من بین ثنایا ذرات الهواء، و یلبس ذلک الإنسان لباس الوجود و الحیاة مرّة أخری.
إن القرآن الکریم أجاب فی آیات متنوعة علی هذا الظن الخاطئ، و الآیة الحاضرة تعکس إحدی أقصر و أجمل التعابیر فی هذا المجال، إذ تقول: أنظروا إلی بدایة الخلق، انظروا إلی جسمکم الذی یتکون من مقدار کبیر من الماء، و مقدار أقل من المواد المعدنیة و شبه المعدنیة المختلفة المتنوعة أین کان فی السابق؟ فالمیاه المستخدمة فی جسمکم یحتمل أنّ کل قطرة منها کانت سادرة فی محیط من محیطات الأرض ثمّ تبخّرت و تبدلت إلی السّحب، ثمّ نزلت فی شکل قطرات المطر علی الأراضی، و الذرات التی استخدمت فی نسیج جسمکم من مواد الأرض الجامدة کانت ذات یوم فی هیئة حبّة قمح أو ثمرة شجرة، أو خضروات مختلفة جمعت من مختلف نقاط الأرض.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹

و علی هذا فلا مکان للتعجب و الدهشة إذا سمعنا أنّه بعد تلاشی بدن الإنسان و رجوعه إلی حالته الأولی تجتمع تلک الذرّات ثانیة، و تتواصل و تترابط و یتشکل الجسم الأوّل، فلو کان هذا الأمر محالا فلما ذا وقع فی مبدأ الخلقة.

إذا «کما بدأکم» اللّه «تعودون» أی یعیدکم فی الآخرة، و هذا هو الموضوع الذی تضمنته العبارة القصیرة.

فی الآیـة اللاحقـة یصف سبحانه ردود الفعل التی أظهرها الناس قبال هذه الدعوة (الدعوة إلی التوحید و الخیر و المعاد) فیقول: فَرِیقاً هَدی وَ فَرِیقاً حَقَّ عَلَیْهِمُ الضَّلالَةُ.[۶] و لأجل أن لا یتصور أحد أنّ اللّه یهدی فریقا أو یضلّ فریقا من دون سبب، أضاف فی الجملة ما یلی: إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّیاطِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أی إنّ الضالین هم الذین اختاروا الشیاطین أولیاء لهم بدل أن یدخلوا تحت ولایة اللّه، فضلوا.

و العجب أنّه رغم کل ما أصابهم من ضلال و انحراف یحسبون أنّهم المهتدون الحقیقون وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ

إنّ هـذه الحالة تختص بالذین غرقوا فی الطغیان و المعصـیة، و کان انغماسـهم فی الفساد، و الضـلال و الانحراف، و الوثنیة، کبیرا إلی درجة أنّه انقلبت حاسة تمییزهم رأسا علی عقب، فحسـبوا القبیح حسـنا، و الضلالات هدایة، و فی هذه الحالة أغلقت فی وجوههم کل أبواب الهدایة، و هذا هو ما أوجدوه و جلبوه لأنفسهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۳۱ الی ۳۲]

اشارة

یا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ کُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْمُسْرِفِینَ (۳۱) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَةَ اللَّهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّیِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا خالِصَةً یَوْمَ الْقِیامَةِ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۳۲)

التّفسیر

اشارة

الحـدیث فی هاتین الآیتین یتناسب مع قصّـة آدم فی الجنّـة، و کـذلک یتناول مسألـة اللباس و سائر مواهب الحیاة، و کیفیـة الاسـتفادة الصحیحة منها.

فی البدایـة یـأمر جمیع أبنـاء آدم ضـمن دسـتور عـام أبـدی، یشـمل جمیع الأعصار و القرون، أن یتخـذوا زینتهم عنـد ما یـذهبون إلی المساجد یا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ.

هذه الجملة یمکن أن تکون إشارة إلی کل «زینة جسـمانیة» ممّا یشـمل لبس الثیاب المرتبة الطاهرة الجمیلة، و مشط الشعر، و استعمال الطیب و العطر و ما شابه ذلک کما یمکن أیضا أن تکون إشارة إلی کل «زینة معنویة» یعنی الصفات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱

الإنسانیة و الملکات الأخلاقیة، و صدق النیة و طهارتها و إخلاصها.

و إذا رأینا أنّ بعض الرّوایات الإسـلامیة تشیر- فقط- إلی اللباس الجیّـد أو مشط الشـعر، أو إذا رأینا أنّ بعضـها الآخر یتحدث- فقط- عن مراسـیم صلاة العید و صلاة الجمعة، فإنّ ذلک لا یدل علی الانحصار، بل الهدف هو بیان مصادیقها الواضحة[۷] و هکذا إذا رأینا أنّ طائفـة أخری من الرّوایات تفسـر الزینـة بالقادة الصالحین ۸]، فإنّ کل ذلک یـدل علی سعة مفهوم الآیـة الذی یشـمل جمیع أنواع

الزینة الظاهریة و الباطنیة.

و هـذا الحکم و إن کان یتعلق بجمیع أبناء آدم فی کل زمان و مکان، إلّا أنّه ینطوی ضـمنا علی ذم عمل قبیح کان یقوم به جماعة من الأعراب فی العهـد الجاهلی عنـد دخولهم فی المسـجد الحرام و الطواف بالکعبة المعظمة، حیث کانوا یطوفون بالبیت المعظم عراة من دون ساتر یستر عوراتهم، کما أنّه یتضـمن- أیضا- نصـیحة لأولئک الـذین یرتـدون عنـد إقامـة الصـلاة أو الـدخول إلی المساجد ثیابا وسـخة خلقـة أو ألبسـة تخصّ المنزل، و یشـترکون فی مراسـیم عبـادة و هم علی تلـک الهیئـة المزریـة، الأـمر الـذی نشاهـده الیوم- و للأسف- بین بعض الغفلة السذج من المسـلمین، فی حین أننا مکلّفون- طبقا للآیة الحاضـرة، و الرّوایات الواردة فی هذا الصـعید- بأن نرتدی لدی ارتیادنا للمساجد أفضل ثیابنا و ألبستنا.

ثمّ فی العبارة اللاحقة یشیر سبحانه إلی مواهب أخری، یعنی الأطعمة و الأشربة الطاهرة الطیبة، و یقول: وَ کُلُوا وَ اشْرَبُوا.

و لکن حیث أنّ الإنسان حریص بحکم طبیعته البشریة، یمکن أن یسیء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲

اسـتخدام هذین التعلیمین، و بدل أن یسـتفید من نعمة اللباس و الغذاء الصـحیح بالشـکل المعقول و المعتدل، یسلک سبیل الإسراف و التبذیر و البذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلا: وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْمُسْرِفِینَ

و کلمـة «الإسـراف» کلمة جامعة جدّا بحیث تشـمل کل إفراط فی الکم و الکیف، و کذا الأعمال العابثة و الإتلاف و ما شابه ذلک، و هـذا هو أسـلوب القرآن خاصّـة، فهو عند الحث علی الاسـتفادة من مواهب الحیاة و الطبیعة یحذّر فورا من سوء اسـتخدامها، و یوصـی برعایة الاعتدال.

و فی الآیـة اللاحقـة یعمـد إلی الرّد- بلهجـة أکثر حـدّة- علی من یظن أنّ تحریم أنواع الزینـة و التزین و الاجتناب من الأطعمـة الطیبة الحلال علامة الزهد، و سببا للتقرب إلی اللّه فیقول: أیّها النّبی قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَةَ اللَّهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّیِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ

إذا کانت هـذه الأمور قبیحة فإنّ اللّه تعالی لا یخلق القبیح، و إذا خلقها اللّه لیتمتع بها عباده فکیف یمکن أن یحرّمها؟ و هل یمکن أن یکون هنـاک تنـاقض بین جهـاز الخلق، و بین التعـالیم الدینیـة؟! ثمّ أضاف للتأکیـد: قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الـدُّنْیا خالِصَـةً یَوْمَ الْقِیامَةِ أی أنّ هـذه النعم و المـواهب قـد خلقت للمؤمنین فی هـذه الحیـاة، و إن کـان الآـخرون- أیضـا- یسـتفیدون منهـا رغم عـدم صلاحیتهم لـذلک، و لکن فی یوم القیامـة حیث الحیاة الأعلی و الأفضل، و حیث یتمیز الخبیث عن الطیب، فإنّ هـذه المواهب و النّعم ستوضع تحت تصرف المؤمنین الصالحین فقط، و یحرم منها الآخرون حرمانا کلیّا.

و علی هـذا الأساس فإنّ ما هو للمؤمنین فی الـدنیا و الآخرة، و خاص بهم فی العالم الآخر کیف یمکن أن یحرّم علیهم؟ أنّ الحرام هو ما یورث مفسدة، لا ما هو نعمة و موهبة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳

هذا و قد احتمل أیضا فی تفسیر هذه العبارة من الآیة أنّ هذه المواهب و إن کانت فی هذه الدنیا ممزوجة بالآلام و المصائب و البلایا، إلّا أنّها توضع تحت تصرف المؤمنین و هی خالصة من کل ذلک فی العالم الآخر (و لکن التّفسیر الأوّل یبدو أنّه أنسب).

و فی ختام الآیة یقول من باب التأکید: کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ

الزّینة و التّجمل من وجهة نظر الإسلام:

لقد اختار الإسـلام- کسائر الموارد- حدّ التوسط و الاعتدال فی مجال الانتفاع و الاسـتفادة من أنواع الزینة، لا کما یظن البعض من أنّ التمتع و الاسـتفادة من الزینة و التجمل- مهما کان بصورة معتدلة- أمر مخالف للزّهد، و لا کما یتصور المفرطون فی اسـتعمال الزینة و

التجمل الذین یجوّزون لأنفسهم فعل کل عمل شائن بغیهٔ الوصول إلی هذا الهدف الرخیص.

و لو أننا أخذنا بناء الجسم و الروح بنظر الإعتبار، لرأینا أنّ تعالیم الإسلام فی هذا الصعید تنسجم تماما مع خصائص الروح الإنسانیهٔ و بناء الجسم البشری و متطلباتهما، و احتیاجاتهما الذاتیهٔ.

توضیح ذلک: إنّ غریزهٔ حبّ الجمال- باعتراف علماء النفس- هی إحدی أبعاد الروح الإنسانیهٔ الأربعهٔ، و التی تشکل مضافا إلی غریزهٔ حب الخیر، و غریزهٔ حب الاستطلاع، و غریزهٔ التّدین، الأبعاد الأصلیهٔ فی النفس الإنسانیهٔ.

و یعتقدون بأنّ جمیع الظواهر الجمالیهٔ الأدبیهٔ و الشعریهٔ، و الصناعات الجمیلهٔ، و الفن بمعناه الواقعی، إنّما هو نتیجهٔ هذه الغریزهٔ و هذا الإحساس.

و مع هذا کیف یمکن أن یعمد قانون صحیح إلی خنق هذا الحس المتأصل و المتجذر فی أعماق الروح الإنسانیهٔ، و یتجاهل العواقب السیئهٔ فی حال عدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴

إشباعه بصورهٔ صحیحهٔ.

و لهذا لم یکتف فی الإسلام بتجویز التمتع بجمال الطبیعهٔ و الاستفادهٔ من الألبسهٔ الجمیلهٔ و المناسبهٔ، و استعمال کل أنواع العطور، و ما شابه ذلک، بل أوصی بذلک و حثّ علیه أیضا، و رویت فی هذا المجال أحادیث کثیرهٔ عن أئمّهٔ الدین فی المصادر و الکتب الموثوقهٔ.

فإننا نقرأ- مثلا- فی تاریخ حیاهٔ الإمام الحسن المجتبی علیه السلام أنّه عند ما کان ینهض إلی الصلاهٔ کان یرتدی أحسن ثیابه، و لما سئل: لماذا یلبس أحسن ثیابه؟

قال: «إنّ اللّه جمیل یحبّ الجمال، فأتجمل لربّی و هو یقول: خذوا زینتکم عند کل مسجد»[۹].

و

فی الحدیث أنّ أحد الزهاد، و یدعی عباد بن کثیر البصری، رأی الإمام الصادق علیه السلام و هو یلبس ثیابا غالیهٔ الثمن فقال معترضا علیه: یا أبا عبد اللّه، إنّک من أهل بیت نبوهٔ و کان أبوک و کان، فما لهذه الثیاب المزینهٔ علیک؟ فلو لبست دون هذه الثیاب. فقال له أبو عبد اللّه علیه السلام: «ویلک- یا عباد- من حرّم زینهٔ اللّه التی أخرج لعباده و الطّیبات من الرّزق؟»[۱۰].

و أحادیث أخری.

إنّ هذا التعبیر، أی أنّ اللّه جمیل یحب الجمال، أو أنّ اللّه مصدر الجمال إشارهٔ إلی هذه الحقیقهٔ، و هی: أنّ الاستفادهٔ من کل نوع من أنواع الزینهٔ و الجمال لو کان ممنوعا لما خلق اللّه تلک الزینهٔ أبدا، إنّ خلق الأشیاء الجمیلهٔ فی عالم الوجود دلیل علی أنّ خالقها یحبّ الجمال.

و لکن المهم هنا أنّ الناس یسلکون- غالبا- فی مثل هذه المواضیع طریق الإفراط و المبالغهٔ، و یعمدون إلی الترف بمختلف الحجج و المعاذیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵

و لهذا یعمد القرآن الکریم فورا و بعد ذکر هذا الحکم الإسلامی- کما أسلفنا- إلی تحذیر المسلمین من الإسراف و الإفراط و المبالغهٔ فی الاستفادهٔ من هذه الأمور، ففی أکثر من عشرین موضعا من القرآن الکریم یشیر إلی مسألهٔ الإسراف و یذمّه بشدّهٔ (و قد تحدثنا بإسهاب حول الإسراف فی تفسیر الآیات المناسبهٔ) و علی کل حال، فإنّ أسلوب القرآن الکریم و الإسلام فی هذا الصعید أسلوب یتسم بالتوازن و الاعتدال، فلا جمود فیه یقمع الرغبات المودعهٔ فی الروح الإنسانیهٔ إلی الجمال، و لا هو یؤید مسلک المسرفین المتطرفین و ذوی البطنهٔ و الجشع فی التمتع بالزینهٔ و الجمال.

بل هو ینهی حتی عن التزین و التجمل المعتدل فی المجتمعات التی یعیش فیها محرومین مساكین، و لهذا نلاحظ فی بعض الرّوایات و الأحادیث أنّه عند ما یسأل أحد الأئمّة: لماذا یلبس ثیابا فاخرة، و قد كان جدّه لا یلبس مثل هذه الثیاب؟ فیجیب الإمام علیه السلام قائلا:

«إنّ علی بن أبی طالب علیه السلام كان فی زمان ضیق فإذا اتّسع الزمان فأبرار الزّمان أولی به»[۱۱].

توصیة صحیة هامّة:

إنّ عبارة کُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا التی جاءت فی الآیة الحاضرة، و إن كانت تبدو للنظر أمرا بسیطا جدّا، إلّا أنّه ثبت الیوم أنّه واحد من أهم الأوامر و التعالیم الصحیحة، و ذلك لأنّ تحقیقات العلماء توصلت إلی أنّ منبع الكثیر من الأمراض و الآلام هو الأطعمة الإضافیة الزائدة التی تبقی فی بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافیة تشكل من جانب عبئا ثقیلا علی القلب و غیره من أجهزة الجسم، و هی من جانب آخر منبع مهیّأ لمختلف أنواع العفونات و الأمراض، و لهذا فإنّ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶

الخطوة الأولی لعلاج الكثیر من الأمراض هو أن تحترق هذه المواد الزائدة التی تمثل- فی الحقیقة- فضلات الجسم، و تتم عملیة تطهیر الجسم منها عملیا.

إنّ العامل الأصل فی وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، و الإفراط فی الأكل و البطنة، و الطریق إلی تجنب هذه الحالة لیس إلّا رعایة الاعتدال فی الأكل، و خاصّة فی عصرنا هذا الذی كثرت فیه أمراض مختلفة مثل السكری، و تصلب الشرایین، و أنواع السكتة، و ما شابه ذلك من الأمراض التی یعدّ الإفراط فی الأكل مع عدم الحركة البدنیة بالمقدار الكافی أحد العوامل الاساسیة لها، و لیس هناك من سبیل لإزالة هذه الأمراض و تجنبها إلّا الحركة البدنیة الكافیة، و الاعتدال فی المأكل و المشرب.

و قد نقل المفسّر الكبیر العلامة «الطبرسی» فی «مجمع البیان» قصة رائعة فی هذا المجال و هی أنّه:

حكی أنّ هارون الرشید كان له طبیب نصرانی حاذق، فقال ذات یوم لعلی بن الحسین بن واقد: لیس فی كتابكم من علم الطب شیء، و العلم علمان: علم الأدیان، و علم الأبدان.

فقال له علی: قد جمع اللّه الطب كلّه فی نصف آیة من كتابه و هو قوله: کُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا و جمع نبیّنا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الطب فی قوله: «المعدة بیت الداء و الحمیة رأس كل دواء، و أعط كل بدن ما عودته».

فقال الطبیب: ما ترك كتابكم و لا نبیّكم لجالینوس طبّا[۱۲].

فمن كان یظن أنّ هذه التوصیة سطحیة، فما علیه إلّا أن یجرّبها فی حیاته كما یدرك أهمیتها و یسبر غورها، و یشاهد المعجزة فی سلامة الجسم برعایة هذا الدّستور الصحی.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷

الآیة [سورة الأعراف (۷): آیة ۳۳]

اشارة

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَی اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۳۳)

التّفسیر

المحرمات الإلهیة:

لقد شاهدنا مرارا أنّ القرآن الکریم کلّما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فورا عن ما یقابله، من الأمور القبیحة و المحرمات، لیکمّل کلّ واحد منهما الآخر.

و هنا أیضا تحدّث- عقیب السماح بالتمتع و الاستفادة من المواهب الإلهیة و إباحة کل ما هو زینة و جمال- عن المحرمات علی نحو العموم، ثمّ أشار بصورة خاصّة إلی عدة نقاط مهمّة.

ففی البدایة تحدث عن تحریم الفواحش و قال: یا أیّها النّبی قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ

و «الفواحش» جمع «فاحشة» و تعنی الأعمال القبیحة البالغة فی القبح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸

و السوء لا جمیع الذنوب، و لعلّ التأکید علی هذا المطلب (ما ظهر منها و ما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهلیین کانوا لا یستقبحون عمل الزنا إذا أتی به سرّا، و یحرّمونه إذا کان ظاهرا مکشوفا.

ثمّ إنّه عمّم الموضوع، و أشار إلی جمیع الذنوب و قال «و الإثم» أی کل إثم.

و الإثمّ فی الأصل یعنی کل عمل مضرّ، و کل ما یوجب انحطاط مقام الإنسان و تردّی منزلته، و یمنعه و یحرمه من نیل الثواب و الأجر الحسن. و علی هذا یدخل کل نوع من أنواع الذنوب فی المفهوم الواسع للإثم.

و لکن بعض المفسّرین أخذوا الإثمّ هنا فقط بمعنی «الخمر» و استدلوا لذلک بالشعر المعروف.

شربت الإثمّ حتی ضلّ عقلی کذاک الإثمّ یصنع بالعقول [۱۳]

و لکنّ الظاهر أنّ هذا المعنی لیس هو تمام مفهوم الکلمة، بل أحد مصادیقه.

و مرّة أخری یشیر بصورة خاصّیة إلی عدد من کبریات المعاصی و الآثام، فیقول: وَ الْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِ أی کل نوع من أنواع الظلم، و التجاوز علی حقوق الآخرین.

و «البغی» یعنی السعی و المحاولة لتحصیل شیء، و لکن یراد منه غالبا الجهود المبذولة لغصب حقوق الآخرین، و لهذا یکون مفهومه- فی الغالب- مساویا لمفهوم الظلم.

و من الواضح أنّ وصف «البغی» فی الآیة المبحوثة بوصف «غیر الحق» من قبیل التوضیح و التأکید علی معنی «البغی».

ثمّ أشار تعالی إلی مسألة الشرک و قال: وَ أَنْ تُشْرِکُوا بِاللَّهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً فهو أیضا محرّم علیکم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹

و من الواضح أنّ جملة ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً للتأکید، و لإلفات النظر إلی حقیقة أنّ المشرکین لا یملکون أی دلیل منطقی و أی برهان معقول، و کلمة «السلطان» تعنی کل دلیل و برهان یوجب تسلّط الإنسان و انتصاره علی من یخالفه.

و آخر ما یؤکّد علیه من المحرمات هو نسبة شیء لم یستند إلی علم اللّه وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَی اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

و لقد بحثنا حول القول علی اللّه بغیر علم عند تفسیر الآیة (۲۸) من نفس هذه السورة أیضا.

و لقد أکّد فی الآیات القرآنیة و الأحادیث الإسلامیة علی هذه المسألة کثیرا، و منع المسلمون بشدة عن قول ما لا یعلمون إلی درجة أنّه

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من أفتی بغیر علم لعنته ملائکة السماوات و الأرض».[۱۴]

و لو أنّنـا أمعنـا النظر و دققنا جيـدا فى أوضاع المجتمعات البشـرية، و المصائب و المتاعب التى تعانى منها تلكم المجتمعات، لعرفنا أنّ القسط الأكبر من هذا الشقاء ناشئ من بث الشائعات، و القول بغير علم، و الشهادة بغير الحق، و إبداء و جهات نظر لا تستند إلى برهان أو دليل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۳۴]

اشارة

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۳۴)

التّفسير

لكلّ أمّة أجل:

فى هـذه الآيـة يشـير اللّه تعـالى إلى واحـدة من سـنن الكون و الحيـاة، يعنى فنـاء الأمم و زوالها، و يلقى ضوءا أكثر على الأبحاث التى تتعلق بحياة أبناء البشر على وجه الأرض و مصير العصاة، التى سبق الحديث عنها فى الآيات السابقة.

فيقول أوّلا: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ثمّ يشير إلى أنّ هذا الأجل لا يتقدم و لا يتأخر إن جاء فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ أى أنّ الأمم و الشعوب مثـل الأفراد، لهـا موت و حيـاة، و أنّ الأمم تنـدثر و ينمحى أثرها من على وجه الأرض، و تحل مكانها أمم أخرى، و إنّ سـنّة الموت و قانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات و الأقوام و الأمم أيضا، مع فارق و هو أنّ موت الشعوب و الأمم يكون- فى الغالب- على أثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱

انحرافها عن جادة الحق و العدل، و الإقبال على الظلم و الجور، و الانغماس فى بحار الشـهوات، و الغرق فى أمواج الإفراط فى التجمل و الرفاهية.

فعند ما تسلك الأمم فى العالم هذه المسالك و تنحرف عن سـنن الكون و قوانين الخلقة، تفقد مصادرها الحيوية الواحد تلو الآخر، و تسـقط فى النهايـة إنّ دراسـة زوال مدنيات كبرى، مثل حضارة بابل، و فراعنة مصـر، و قوم سـبأ، و الكلدانيين و الآشوريين، و مسـلمى الأنـدلس و أمثالها، توضح الحقيقة التالية، و هى أنّه لدى صدور الأمر بزوال هذه المدنيات و الحضارات الكبرى إثر بلوغ الفساد أوجه فيها لم تستطع حكوماتها أن تحفظ أسسها المتزعزعة حتى ساعة واحدة.

و يجب الالتفات إلى أنّ «الساعة» فى اللغة تعنى أصغر وحدة زمنية، فربّما تكون بمعنى لحظة، و ربّما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن، و إن كانت الساعة تعنى فى عرفنا الحاضر اليوم مدة واحد من أربع و عشرين ساعة فى اليوم.

الرد على خطأ:

رأت بعض المـذاهب المختلفـة التى ظهرت فى القرون الأـخيرة بغيـة الوصول إلى أهـدافها، أن تزعزع- بظنهـا- قبـل أى شـىء أسـس خاتميـة رسول الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و لهـذا تمسـكت ببعض الآيات القرآنيـة التى لا تـدل على هـدفها، و بمعونة من

تفسیرها بالرأی، و شیء من المغالطة و السفسطة للتدلیل علی مقصودها.

و من تلک الآیات الآیـة المبحوثة هنا. فقالوا: إنّ القرآن یصـرّح بأنّ لکل أمّة أجلا و نهایة، و المراد من الأمّة الدین و الشـریعة، و لهذا فإنّ للدّین الإسلامی أمدا و نهایة أیضا!.

إنّ أفضل الطرق لتقییم هذا الاستدلال هو أن ندرس المعنی الواقعی للفظة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲

الأمّة فی اللغة، ثمّ فی القرآن الکریم.

یستفاده من کتب اللغـة، و کـذا من موارد اسـتعمال هـذه اللفظة فی القرآن الکریم، و التی تبلغ ۶۴ موضـعا، إنّ الأمّة فی الأصل تعنی الجماعة.

فمثلا فی قصـة موسـی نقرأ هکـذا: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْیَنَ وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ یَسْقُونَ ۱۵] أی یمتحون المـاء من البئر لأنفسـهم و لأنعامهم.

و کذا نقرأ فی مجال الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر: وَ لْتَکُنْ مِنْکُمْ أُمَّةٌ یَدْعُونَ إِلَی الْخَیْرِ[۱۶].

کما نقرأ أیضا: وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ ۱۷].

و المعنیون بالأمّة هم أهالی مدینة إیلة من بنی إسرائیل.

و نقرأ حول بنی إسـرائیل: وَ قَطَّعْنـاهُمُ اثْنَتَیْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً[۱۸] من هـذه الآیات یتّضـح جیـدا أنّ الأمّـة تعنی الجماعـة، و لا تعنی الدین، و لا أتباع الدین، و لو أنّنا لا حظنا استعمالها فی أتباع الدین، فإنّما هو بلحاظ أنّهم جماعة.

و علی هـذا الأسـاس یکون معنی الآیـة المبحوثـة هنـا هو أنّ لکل جماعـة من الجماعات البشـریة نهایـة، فلیس آحاد الناس هم الـذین یموتون، و تکون لأعمارهم آجال و آماد فحسب، بل الأمم هی الأخری تموت، و تتلاشی و تنقرض.

و أساسا لم تستعمل لفظة الأمّة فی الدین أبدا، و لهذا فإنّ الآیة لا ترتبط بمسألة الخاتمیة مطلقا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۳۵ الی ۳۶]

اشارة

یـا بَنِی آدَمَ إِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیـاتِی فَمَنِ اتَّقی وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۳۵) وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ اسْتَکْبَرُوا عَنْها أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۳۶)

التفسیر

تعلیم آخر لأبناء آدم:

مرّة أخری یخـاطب اللّه سـبحانه أبنـاء آدم و ذریّته، إذ یقـول: یـا بَنِی آدَمَ إِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیـاتِی فَمَنِ اتَّقی وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ ۱۹] أی إذا أتاکم رسلی یتلون علیکم آیاتی فاتّبعوهم، لأنّ من اتّقی منکم و اتبعهم و أصلح نفسه و الآخرین کان فی أمن من عذاب اللّه الألیم، فلا یخاف و لا یحزن.

و فی الآیة اللاحقة یضیف سبحانه و تعالی قائلا: وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ اسْتَکْبَرُوا عَنْها أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۳۴

فتلک عاقبة المؤمنین، و هذه عاقبة المکذبین لهم.

رد علی سفسطة أخری:

أقدم جماعة من مختلقی الأدیان و المذاهب فی العصور الأخیرة- علی غرار ما قلنا فی تفسیر الآیات السابقة- علی التمسک بطائفة من الآیات القرآنیة بغیة تعبید الطریق لأهدافهم و التمهید لتحقیقها، و ادعوا کونها دلیلا علی نفی خاتمیة رسول الإسلام، علی حین لا ترتبط هذه الآیات بتلک المسألة قط.

و من تلکم الآیات الآیة الحاضرة، فهم من دون أن یلاحظوا ما یسبقها و ما یلحقها من الآیات قالوا: إن «یأتینّکم» فعل مضارع، و یدلّ علی أنّه من الممکن أن یبعث اللّه رسلا آخرین فی المستقبل.

و لکن لو رجعنا إلی الوراء قلیلا، و استعرضنا الآیات التی تتحدث عن خلقة آدم و سکونته فی الجنّة، ثمّ إخراجه منها هو و زوجته. و لاحظنا أنّ المخاطبین فی هذه الآیات لیسوا المسلمین، بل مجموع البشر و جمیع أبناء آدم، لا تضح جواب هذه الشّبهة و ردّ هذا الاستدلال، لأنّه لا شک أنّه قد بعث لمجموع أبناء آدم رسل کثیرون، جاء ذکر أسماء طائفة معتد بها فی القرآن الکریم، و جاء ذکر آخرین فی کتب التواریخ.

غایة ما فی الأمر أنّ هذا الفریق من مختلقی المذاهب و الأدیان، تجاهلوا الآیات السابقة بغیة إضلال الناس و خداعهم، و قالوا: إنّ المخاطبین فی هذه الآیة هم خصوص المسلمین، و استنتجوا من ذلک إمکان وجود رسل آخرین.

إنّ لأمثال هذه السفسطات نظائر کثیرة فی السابق، و بخاصّة فی حالة الفصل بین آیة و أخری و جملة و أخری، و التغافل عن سوابق الآیة و لواحقها، فینتزعون منها مفهوما یوافق رغباتهم و إن کان یقابل المفهوم الواقعی للآیة فی الحقیقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۳۵

الآیة [سورة الأعراف (۷): آیة ۳۷]

اشارة

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیاتِهِ أُولئِکَ یَنالُهُمْ نَصِیبُهُمْ مِنَ الْکِتابِ حَتَّی إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا یَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَیْنَ ما کُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ کانُوا کافِرِینَ (۳۷)

التفسیر

من هذه الآیة فما بعد تتضمّن الآیات بیان أقسام مختلفة من المصیر السیء الذی ینتظر المفترین و المکذبین لآیات اللّه تعالی، و فی البدایة تشیر إلی کیفیة حالهم عند الموت، إذ تقول: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیاتِهِ

و کما أسلفنا- فی سورة الأنعام فی ذیل الآیة ۲۱- لقد عرف «أظلم الناس» فی عدّة آیات من القرآن الکریم بتعابیر مختلفة، و لکن الصفات التی ذکرت لهم تعود کلّهم إلی جذر واحد، و هو الشرک و عبادة الأصنام و تکذیب آیات اللّه سبحانه. و فی الآیة المبحوثة هنا ذکرت مسألة الافتراء علی اللّه سبحانه کصفة بارزة من صفاتهم، مضافا إلی صفة التکذیب بالآیات الإلهیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۳۶

و نظرا إلى أنّ منشأ جميع أنواع الشقاء فى نظر القرآن هو الشرك، و رأس مال جميع السعادات هو التوحيد، يتّضح لماذا يكون هؤلاء الضالون المضلون أظلم الناس. إنّ هؤلاء ظلموا أنفسهم كما ظلموا المجتمع الذى يقيمون فيه، إنّهم يغرسون النفاق و التفرقة فى كل مكان، و يشكّلون سدّا و مانعا كبيرا فى طريق وحدة الصفوف و التقدم و الإصلاحات الواقعية[۲۰].

ثمّ إنّه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ أى أنّ هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم و ما هو مقدر مكتوب لهم من النعم المختلفة، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، و انتهوا إلى آجالهم النهائية، حينئذ تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

و المراد من «الكتاب» هى المقدرات من النعم المختلفة التى قدرها اللّه تعالى لعباده فى هذا العالم، و إن احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الكتاب هو العذاب الإلهى، أو ما هو أعمّ من المعنيين.

و لكن بالنظر إلى كلمة (حتى) التى تشير عادة إلى انتهاء الشىء، يتّضح أنّ المراد هو فقط نعم الدنيا المتنوعة المختلفة التى لكل أحد فيها حظ و نصيب، سواء المؤمن أو الكافر، الصالح و الطالح، و التى تؤخذ عند الموت، لا ـ العقوبات الإلهية التى لا تنتهى بحلول الموت، و التعبير بالكتاب عن هذه النعم و المقدرات إنّما هو لأجل شبهها بالأمور التى تخضع للتقسيم و الأسهم و تكتب.

و على كل حال، فإنّ عقوباتهم تبدأ منذ لحظة حلول الموت، ففى البداية يواجهون التوبيخ و عتاب الملائكة المكلّفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم الّتى اتخذتموها من دون اللّه و التى طالما تحدثتم عنها، و كنتم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷

تسوقون إليها ثرواتكم سفها. قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كلّ شىء، و يرون كيف تبددت جميع أوهامهم و تصوراتهم الخاطئة حول آلهتهم و ذهبت أدراج الرياح، قائلين: لا نرى منها أثرا و إنّها لا تملك أن تدافع عنّا، و أنّ جميع ما فعلناه من العبادة لها كان عبثا و باطلا قالُوا ضَلُّوا عَنَّا.

و هكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر و الضلال وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ

إنّ ظاهر المسألة و إن كان يوحى بأنّ الملائكة تسأل و أنّهم يجيبون، و لكنّه فى الحقيقة نوع من العقوبة النفسية لهم يلفتون بها نظرهم إلى الوضع المأساوى الذى يصيبهم من جراء أعمالهم، و يرونهم كيف ضلوا و تاهوا فى المتاهات و الضلالات مدة طويلة من العمر، و ضيّعوا كل رؤوس أموالهم الثمينة دون جدوى دون أن يحصدوا منها حصيلة مسرّة مشرّفة فى حين أغلق فى وجههم طريق العودة، و هذا هو أوّل سوط جهنّمى من سياط العقوبة الإلهية التى تتعرض لها أرواحهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۳۸ الى ۳۹]

اشارة

قالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ (۳۸) وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۳۹)

التفسير

تنازع القادة و الاتباع فی جهنم!

فی هذه الآیة یواصل القرآن الکریم بیان المصیر المشؤوم للمکذبین بآیات اللّه.

ففی الآیات السابقة صور لنا وضعهم عند حلول الموت، و سؤال الملائکة القابضة للأرواح لهم، و هنا یرسم لنا ما یجری بین الجماعات المظلّة و الغاویة، و بین من تعرضوا للإغواء فی یوم القیامة.

ففی یوم القیامة یقول اللّه لهم: التحقوا بمن یشابهکم من الجن و الإنس ممن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹

سبقوکم، و ذوقوا نفس مصیرهم النّار قالَ ادْخُلُوا فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِکُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِی النَّارِ.

إنّ هذا الأمر یمکن أن یکون بشکل أمر تکوینی، یعنی أن یجعلهم جمیعا فی مکان واحد، أو یکون شبیها بأمر تشریعی یصدر إلیهم یسمعونه بآذانهم، و یکونون مجبورین علی إطاعته.

و عند ما یدخل الجمیع فی النّار تبدأ مصادماتهم مع زملائهم و أشباههم فی المسلک، و هی مصادمات عجیبة، فکلّما دخلت جماعة منهم فی النّار لعنت الأخری و اعتبرتها سببا لشقائها و مسئولة عن بلائها و محنتها کُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها.[۲۱] و لعلنا قلنا مرارا: إنّ ساحة القیامة و ما یجری فیها انعکاس واسع و کبیر لمجریات هذه الدنیا. فلطالما رأینا فی هذا العالم الجماعات و الفرق و الأحزاب المنحرفة تلعن إحداها الأخری، و تبدی تنفرها منها. علی العکس من أنبیاء اللّه، و المؤمنین الصالحین، و المصلحین الخیّرین، فإنّ کل واحد منهم یؤیّد برنامج الآخر، و یعلن عن ارتباطه به و اتحاده معه فی الأهداف و الغایات.

إلّا أنّ الأمر لا ینتهی إلی هذا الحدّ، بل عند ما یستقر الجمیع- بمنتهی الذلّة و الصغار- فی الجحیم و العذاب الألیم، تبدأ کل واحدة منها برفع شکایتها إلی اللّه من الأخری.

ففی البدایة یبدأ المخدوعون المغرّر بهم بعرض شکایتهم، و حیث أنّهم لا یجدون مناصا ممّا هم فیه یقولون: ربّنا إنّ هؤلاء المغوین هم الذین أضلونا و خدعونا، فضاعف یا ربّ عذابهم، عذابا لضلالهم و عذابا لإضلالهم إیّانا. و هذا هو ما یتضمّنه قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰

حَتَّی إِذَا ادَّارَکُوا فِیها جَمِیعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ.

و لا شک أنّ هذا الطلب منطقی و معقول جدّا، بل إنّ المضلین سینالون ضعفا من العذاب حتی من دون هذا الطلب، لأنّهم یتحملون مسئولیة انحراف من أضلوا أیضا دون أن ینقص من عذابهم شیء، و لکن العجیب هو أن یقال لهم فی معرض الإجابة علی طلبهم: سیکون لکلتا الطائفتین ضعفان من العذاب و لیس للمضلین فقط قالَ لِکُلٍّ ضِعْفٌ وَ لکِنْ لا تَعْلَمُونَ

و مع الإمعان و الدقة یتّضح لماذا ینال المخدوعون المضللون ضعفا من العذاب أیضا، لأنّه لا یستطیع أئمّة الظلم و الجور و رؤوس الانحراف و الضلال أن ینفذوا لوحدهم برامجهم، بل هؤلاء الأتباع المعاندون المتعصبون لأسیادهم هم الذین یمدون قادة الضلال و رؤوس الانحراف بالقوّة و المدّد الذی یوصلهم إلی أهدافهم الشریرة، و علی هذا الأتباع یجب أن ینالوا ضعفا من العذاب أیضا، عذابا لضلالهم هم، و عذابا لمساعدتهم للظالمین و إعانتهم قادة الانحراف.

و لهذا نقرأ

فی حدیث معروف عن الإمام الکاظم علیه السلام حول أحد شیعته یدعی صفوان، حیث نهاه عن التعاون مع هارون الرشید قائلا: «یا صفوان کلّ شیء منک حسن جمیل ما خلا شیئا واحدا».

قلت: جعلت فداک أی شیء؟

قال علیه السلام إکراؤک جمالک من هذا الرجل (هارون الرشید العباسی).

قلت: و اللّه ما أكريته أشرا و لا بطرا و لا للصيد و لا للهو، و لكنّى أكريته لهذا الطريق (يعنى طريق مكّة) ...

فقال لى عليه السلام: يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك.

فقال لى: أ تحبّ بقاءهم حتى يخرج كراؤك. قلت: نعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۴۱

قال عليه السلام: «من أحبّ بقاءهم فهو منهم، و من كان منهم كان ورد النّار».[۲۲]

و فى الآيـة اللاحقـة ينقل القرآن الكريم جواب قادة الضـلال و الانحراف بأنّه ليس بيننا و بينكم أى تفاوت، فإذا قلنا فقد أيدتم، و إذا خطونـا فقـد ساعـدتم، و إذا ظلمنا فقـد عاونتم، و إذن فـذوقوا بإزاء أعمالكم عـذاب اللّه الأليم، وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

و المقصود من «الأولى» الطائفة الأولى أى القادة (قادة الضلال الانحراف) و المقصود من «الأخرى» الأتباع، و الأنصار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۴۲

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۰ الى ۴۱]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ (۴۰) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (۴۱)

التفسير

مرّة أخرى يتناول القرآن بالحـديث مصـير المتكبرين و المعانـدين، يعنى أولئك الذين لا يخضـعون لآيات اللّه و لا يستسـلمون للحق، فيقول: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ.

و

قـد جاء فى حـديث عن الإمام الباقر عليه السـلام: «أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم و أرواحهم إلى السـماء فتفتـح لهم أبوابها، و أمّا الكافر فيصعد بعمله و روحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد: اهبطوا به إلى سجّين».[۲۳]

و قـد رويت بهـذا المضـمون أحـاديث عن النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى تفسـير الطبرى و سائر التفاسـير، فى ذيل الآيـة المبحوثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۴۳

من الممكن أن يكون المقصود من السـماء هنا معناه الظاهر، و كـذا يمكن أن تكون كنايـة عن مقام القرب الإلهى، كما نقرأ فى الآية (۹) من سورة فاطر: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

ثمّ أضاف قائلا: وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِياطِ، أى حتى يدخل البعير فى ثقب الإبرة.

إنّ هـذا التعبير كنايـة لطيفـة عن اسـتحالة هـذا الأمر، و قـد اختير هـذا المثال و التصوير الحسّـى للإخبار عن عـدم إمكان دخول هؤلاء الأشـخاص فى الجنّـة، فكما لا يتردد أحـد فى اسـتحالة عبور الجمل بجثته الكبيرة من خلال ثقب الإبرة، فكـذلك لا ينبغى الشك فى عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنّة مطلقا.

و «الجمل» فى اللغـة يعنى البعير الذى خرجت أسـنانه حديثا، و لكن أحد معانى الجمل هو الحبل القوى و المتين الذى تربط به السـفن

أیضا[۲۴].

و حیث إنّ بین الحبل و الإبرة تناسبا أقوى و أکثر، لهذا ذهب بعضهم إلى هذا المعنى عند تفسیر الآیة، و لکن أکثر المفسّرین الإسلامیین رجّح المعنى الأوّل، و هم على حق فی هذا الاتجاه لأمور:

أوّلا: إنّ فی أحادیث أئمّة الإسلام کذلک تعابیر تناسب التّفسیر الأوّل.

ثانیا: إنّه یلاحظ نظیر هذا التّفسیر حول الأثریاء (المتکبرین الأنانیین) فی الإنجیل أیضا، ففی إنجیل لوقا الباب ۱۸ الجملة ۲۴ و ۲۵ نقرأ هکذا: إنّ عیسى قال: «ما أعسر دخول ذوی الأموال إلى ملکوت اللّه. لأنّ دخول الجمل من ثقب إبرة أیسر من أن یدخل غنی إلى ملکوت اللّه».

و لا أقل یستفاد من هذه العبارة أنّ هذه الکنایة کانت متداولة بین الشعوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۴۴

منذ قدیم الزمان.

و قد نستعمل هذا المثل أیضا، فی محاوراتنا الیومیة الآن، فیقال عن الأشخاص المتشدّدین جدّا أحیانا، و المتساهلین جدّا أحیانا أخرى: (إنّ فلانا تارة لا یدخل من باب المدینة، و تارة یدخل من ثقب إبرة).

ثالثا: بالنظر إلى أنّ استعمال لفظة الجمل فی المعنى الأوّل (أی البعیر) أکثر، بینما استعمالها فی الحبل الغلیظ قلیل جدا، لهذا یبدو أنّ التّفسیر الأوّل أنسب.

و فی خاتمة الآیة یضیف تعالى للمزید من التأکید و التوضیح قائلا: وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُجْرِمِینَ

و فی الآیة اللاحقة یشیر إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلفة إذ یقول: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ [۲۵].

ثمّ یضیف للتأکید وَ کَذلِکَ نَجْزِی الظَّالِمِینَ

و الملفت للنظر و الطریف: أنّه یعبّر عنهم مرّة ب «المجرم» و مرّة ب «الظالم» و ثالثة ب «المکذبین» لآیات اللّه، و رابعة ب «المستکبرین»، و ترجع جمیعها إلى حقیقة واحدة فی الواقع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۴۵

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۴۲ الى ۴۳]

اشارة

وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُکَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أُولئِکَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۴۲) وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی هَدانا لِهذا وَ ما کُنَّا لِنَهْتَدِیَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْکُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳)

التّفسیر

الطّمأنینة الکاملة و السّعادة الخالدة:

إنّ أسلوب القرآن- کما أشرنا إلى ذلک سابقا- هو عرض الطوائف المختلفة و بیان مصائرها جنبا إلى جنب لتأکید الموضوع، و شرح أوضاعها عن طریق المقارنة و المقایسة بینها.

و لقد كان البحث فى الآيات السابقة حول المكذبين لآيات اللّه، و المستكبرين و الظالمين، و هنا يشرح و يبيّن المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... أُولئِکَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶

و قد أتى بين المبتدأ و الخبر بجملة معترضة[۲۶]. توضّح الكثير من الإبهامات إذ يقول: لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

و هذه الجملة تؤكّد بأنّه لا ينبغى لأحد أن يتصور بأن الايمان باللّه، و الإتيان بالعمل الصالح و سلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلّا لأفراد معدودين، لأنّ التكاليف الإلهية فى حدود الطاقة البشرية و ليست أكثر منها، و بهذا فتح الطريق فى وجه كل أحد عالما كان أو جاهلا، صغيرا كان أو كبيرا، و دعا الجميع إلى اللحاق بهذا الصف، فالمطلوب من كل أحد العمل بمقدار قابليته الفكرية و البدنية و إمكانياته.

إنّ هذه الآية- مثل سائر الآيات القرآنية- تحصر وسيلة النجاة و السعادة الأبدية فى الإيمان و العمل الصالح، و هكذا تفنّد العقيدة النّصرانية المحرفة الذين يعتبرون صلب المسيح فى مقابل ذنوب البشر وسيلة للنجاة، و يقولون: إنّه قربان لخطايا الإنسانية.

إنّ إصرار القرآن الكريم على مسألة الإيمان و العمل الصالح، فى الآيات المختلفة لتفنيد هذه المقولة و أمثالها.

و فى الآية اللاحقة أشار تعالى إلى واحدة من أهم النعم التى أعطاها اللّه سبحانه لأهل الجنّة، و التى تكون سببا لطمأنينتهم النفسية و سكنتهم الروحية، إذ قال وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ

و (الغل) فى الأصل بمعنى نفوذ الشىء خفية و سرّا، و لهذا يقال للحسد و الحقد و العداوة، الذى يتسلّل إلى النفس الإنسانية بصورة خفية (الغل)، و إنّما يطلق «الغلول» على الرشوة بهذه المناسبة لأنّها تؤخذ خفيّة و سرّا لارتكاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷

خيانة.[۲۷] و فى الحقيقة إنّ من أكبر عوامل الشقاء التى يعانى منها الناس فى هذه الحياة، و مصدر الكثير من الصراعات الإجماعية الواسعة التى تؤدى- مضافا إلى الخسائر الفادحة فى المال و النفس- الى زعزعة الاستقرار الروحى، هو الحسد و الحقد.

فنحن نعرف الكثير ممن لا ينقصهم شىء فى الحياة، و لكنّهم يعانون من الحسد و الحقد للآخرين، و هو عذابهم الوحيد الذى يعكر صفو حياتهم و يضيق عليهم رحبها، و يترك معيشة هؤلاء المرفهين ساحة تجوال عساكر الحزن و الغم، و تدفعهم إلى سلوكيات مرهقة و غير منطقية.

إنّ أهل الجنّة معافون من هذه الشقاوات و المحن بالكلية، لأنّهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحة، فلا حسد و لا حقد فى قلوبهم، و لهذا لا يتعرضون لعواقبها النكرة. إنّهم يعيشون معا فى منتهى التواد و التحابب و الصفاء و السكينة.

إنّهم راضون عن وضعهم الذى هم فيه، حتى الذين يعيشون فى مراتب أدنى من الجنّة لا يحسدون من فوقهم أبدا، و لهذا تنحل أعظم مشكلة تعترض طريق التعايش السلمى.

و لقد نقل بعض المفسّرين حديثا فى المقام عن السدّى قال: «إنّ أهل الجنّة إذا سيقوا إلى الجنّة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فيشربون من إحداهما فينزع ما فى صدورهم من غلّ، فهو الشراب الطهور، و اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم، فلن يشعثوا و لن يشحبوا بعدها أبدا»[۲۸] إن هذا الحديث و إن لم ينته سنده إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة عليهما السلام و إنّما رواه أحد المفسّرين و هو «السّدى» و لكنّه لا يبعد أن يكون قد روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸

الأصل، لأنّ هذه الأمور ليست من المسائل و القضايا التى يستطيع السدّى و أمثاله الاطلاع عليها.

و على كل فهى إشارة لطيفة إلى الحقيقة التالية، و هى أنّ أهل الجنّة قد تطهروا باطنا و ظاهرا، جسما و روحا، فهم يتحلون بالجمال الجسمانى، و الجمال الروحانى معا، و لهذا فهم لا يعانون،- مطلقا- من الحسد و الحقد.

فما أسعد من يبنى لنفسه فى هذه الدنيا جنّة أخرى، بتطهير صدره من الحقد و الحسد ليتخلّص من افرازاتهما المؤلمة.

و بعد ذكر هذه النعمة الروحانية، يشير القرآن الكريم إلى نعمهم المادية الجسدية، فيقول: تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ.

ثمّ بعكس رضى أهل الجنّة الكامل الشامل الذى يعبرون عنه بالحمد و الشكر للّه و حده على ما هداهم إليه من النعم وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِیَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ

و هنا يأتيهم النداء بأن ما ورثتموه من النعم إنّما هو بسبب أعمالكم وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و مرّة أخرى نصل إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ النجاة رهن بالعمل الصالح، و ليسن بالأمانى و الظنون الخاوية.

و «الإرث» فى الأصل بمعنى انتقال مال أو ثروة من شخص إلى آخر من دون أن يكون بينهما عقد (أى الانتقال عبر مسير طبيعى تلقائى، لا عن طريق البيع و الشراء) و لهذا يطلق الإرث على انتقال أموال الميت إلى خلفه.

لماذا عبّر بالإرث؟

و هنا ينقدح سؤال و هو: كيف يقال لأهل الجنّة: هذه النعم أورثتموها لقاء أعمالكم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹

و الجواب أوضحه

حديث روى بطرق الشيعة و السنّة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «ما من أحد إلّا و له منزل فى الجنّة، و منزل فى النّار، فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار، و المؤمن يرث الكافر منزله من الجنّة، فذلك قوله أورثتموها بما كنتم تعملون».[۲۹]

فهذا الحديث يشير إلى أنّ أبواب السعادة و الشقاء مفتوحة أمام جميع الناس قاطبة، و إنّه لم يخلق أحد يوم خلق و هو من أهل الجنّة، أو من أهل النّار، بل يمتلك الجميع قابلية الوصول إلى كلا هذين المنزلين، و إنّما إرادتهم هى التى تحدد و تقرّر مصيرهم.

و من البديهى أنّه عند ما يستقر المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحة فى الجنّة، و يستقر الكفار و الأشرار فى النّار ينتقل مكان و منزل كل واحد منهما الى الآخر بصورة طبيعية.

و على كل حال، فإن هذه الآية و هذا الحديث هما من البراهين و الدلائل الواضحة على نفى الجبر، و ثبوت الإختيار و حرية الإرادة فى الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۴ الى ۴۵]

اشارة

وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۴۴) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (۴۵)

التّفسير

اشارة

بعـد البحث فی الآیات السابقـة حول مصیر أهل الجنّة و أهل النّار، أشار هنا إلی حوار هذین الفریقین فی ذلک العالم، و یسـتفاد من ذلک أنّ أهل الجنّة و أهل النّار یتحادثون بینهم و هم فی مواقعهم فی الجنّة أو النّار.

فیقول أوّلا: وَ نادی أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا.

فیجیبهم أهل النّار قائلین: نعم وجدنا کل ذلک. عین الحقیقة قالُوا: نَعَمْ

و یجب الالتفـات إلی أن (نادی) و إن کان فعلا ماضـیا، إلّا أنّه هنا یعطی معنی المضارع، و مثل هـذه التعابیر کثیرة فی القرآن الکریم، حیث یذکر الحوادث التی تقع فی المستقبل حتما بصیغة الفعل الماضی، و هذا یعدّ نوعا من التأکید، یعنی أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱

المستقبل واضح جدّا، و کأنّه قد حدث فی الماضی و تحقق.

علی أنّ التعبیر ب «نادی» الذی یکون عادة للمسافة البعیدة، یصوّر بعد المسافة المقامیة أو المکانیة بین هذین الفریقین.

و هنا یمکن أن یطرح سؤال و هو: و ما فائدة حوار هذین الفریقین مع أنّهما یعلمان بالجواب؟

و جواب هـذا السؤال معلوم، لأنّ السؤال لیس دائما للحصول علی المزیـد من المعلومات، بل قـد یتّخذ أحیانا صـفة العتاب و التوبیخ و الملامـة، و هو هنا من هـذا القبیل. و هـذه هی واحـدة من عقوبات العصاة و الظالمین الـذین عنـد ما کانوا یتمتعون بلذائذ الدنیا، حیث کـانوا یؤذون المؤمنین بالعتابـات المرّة، و الملامـات المزعجـة، فلاـ بـدّ- فی الآـخرة- أن ینـالوا عقابـا من جنس عملهم کنتیجـة طبیعة لفعلهم، و لهذا الموضوع نظائر فی سور القرآن المختلفة، منها ما فی آخر سورة المطففین.

ثمّ یضیف تعالی بأنّه فی هذا الوقت بالذات ینادی مناد بنداء یسمعه الجمیع:

أن لعنة اللّه علی الظالمین فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ

ثمّ یعرّف الظـالمین و یصـفهم بقوله: الَّذِینَ یَصُـدُّونَ عَنْ سَبِیـلِ اللَّهِ وَ یَبْغُونَهـا عِوَجـاً وَ هُمْ بِالْـآخِرَةِ کافِرُونَ [۳۰] و من الآیة الحاضـرة یسـتفاد مرّة أخری أنّ جمیع الانحرافات و المفاسد قد اجتمعت فی مفهوم «الظلم» و للظالم مفهوم واسع یشمل جمیع مرتکبی الذنوب، و الآثام، و خصوصا الضالون المضلّون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲

من هو المؤذّن! و المنادی؟

من هو هذا المؤذن الذی یسمعه الجمیع؟ و فی الحقیقة له سیطرة و تفوق علی جمیع الفرقاء و الطوائف؟

لا یستفاد من الآیـة شـیء فی هـذا المجال، و لکن جاء فی الأحادیث الإسـلامیة المفسّـرة و الموضّـحة لهذه الآیة، تفسـیر المؤذّن بأمیر المؤمنین علی علیه السلام.

روی الحاکم أبو القاسم الحسـکانی- الـذی هو من علماء أهل السنّة بسـنده عن «محمّد بن الحنفیة» عن علی علیه السـلام أنّه قال: «أنا ذلک المؤذّن».

و هکذا روی بسـنده عن «ابن عباس» أنّ لعلّی علیه السـلام أسماء فی القرآن الکریم لا یعرفها الناس، منها «المؤذّن» فی قول اللّه تعالی: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ فهو الـذی ینادی بین الفریقین أهل الجنّة و أهل النّار، و یقول: «ألا لعنـة اللّه علی الـذین کـذبوا بولایتی و اسـتخفّوا بحقّی»[۳۱].

و لقد رویت روایات و أحادیث متعددة مماثلة بطرق الشیعة، منها ما

رواه الصّدوق رحمه اللّه بسـنده عن الإمام الباقر علیه السلام أنّ أمیر المؤمنین علیه السلام خطب بالکوفة منصرفه فی نهروان، و بلغه أنّ

معاویة یسبّه و یعیبه و یقتل أصحابه، فقام خطیبا (إلی أن قال): «و أنا المؤذن فی الدنیا و الآخرة، قال اللّه عزّ و جلّ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ أنا ذلک المؤذن، و قال: وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أنا ذلک الأذان»[۳۲].

و نحن نری أنّ السبب فی انتخاب أمیر المؤمنین علی علیه السلام مؤذنا و منادیا فی ذلک الوقت هو:

أوّلا: لأنّه کان له مثل هذا المنصب من قبل اللّه و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الدنیا أیضا، فهو بعد فتح مکّة کلّف من جانب اللّه بأن یتلو الآیات الأولی من سورة البراءة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳

علی مسامع الناس بصوت عال فی موسم الحج، تلک الآیات التی تبدأ بقوله:

وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی النَّاسِ یَوْمَ الْحَجِّ الْأَکْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِیءٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ وَ رَسُولُهُ ۳۳] ثانیا: إنّ موقف الإمام علی علیه السلام طوال حیاته الشریفة کان موقف المکافحة للظلم، و النضال ضد الظالمین، حتی أنّ دفاعه عن المظلوم و عداءه للظالم و خاصّة مع ملاحظة ظروف عصره لتسطع فی الصفحات البارزة من تأریخه.

أ فلیست الحیاة فی العالم الآخر هی نوع من تجسم کبیر و واسع و متکامل لحیاة البشر فی هذا العالم؟ و کلاهما بالتالی و جهان لعملة واحدة.

فإذا کانت هذه حقیقة من الحقائق، لم یبق أی مجال لاستغراب أن یکون مؤذن ذلک الیوم، و الذی یلعن الظالمین فی مکان بین الجنّة و النّار، بأمر من اللّه و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو علی علیه السلام.

من هذا یتّضح الجواب و الردّ علی ما کتبه کاتب «المنار» الذی شکک فی کون هذا المقام لعلی علیه السلام فضیلة، إذ یقول: و لو کنّا نعقل لإسناد هذا التأذین إلیه کرم اللّه وجهه معنی یعدّ به فضیلة أو مثوبة عند اللّه تعالی لقبلنا الرّوایة بما دون السند الصحیح.[۳۴] إذ یجب أن نقول له: کما أنّ النیابة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی إبلاغ سورة البراءة فی موسم الحج تعتبر من أکبر فضائله علیه السلام، و کما أنّ مکافحته للظالمین و الجائرین تعتبر من أبرز فضائله، یکون حمله لهذه المهمّة فی القیامة و الذی یعد استمرارا لنفس ذلک البرنامج فضیلة طاهرة له أیضا.

کما یتّضح ممّا قلناه- أیضا- الردّ علی ما کتبه «الآلوسی» کاتب تفسیر «روح المعانی» الذی قال: و روایة الإمامیة عن الرضا و ابن عباس أنّه علی کرم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴

اللّه تعالی وجهه ما لم یثبت من طریق أهل السنّة[۳۵].

لأن هذا الحدیث- کما أسلفنا- نقله علماء الفریقین السنة و الشیعة کلاهما فی کتبهم و مصنفاتهم، فلا مجال للتشکیک فی صدوره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۴۶ الی ۴۹]

اشارة

وَ بَیْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَی الْأَعْرافِ رِجالٌ یَعْرِفُونَ کُلًّا بِسِیماهُمْ وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَیْکُمْ لَمْ یَدْخُلُوها وَ هُمْ یَطْمَعُونَ (۴۶) وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۴۷) وَ نادی أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً یَعْرِفُونَهُمْ بِسِیماهُمْ قالُوا ما أَغْنی عَنْکُمْ جَمْعُکُمْ وَ ما کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ (۴۸) أَ هؤُلاءِ الَّذِینَ أَقْسَمْتُمْ لا یَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَیْکُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۴۹)

التّفسیر

الأعراف معبر مهم إلى الجنّة:

عقیب الآیات السابقة التی بیّنت جانبا من قصّة أهل الجنّة و أهل النّار، تحدث فی هذه الآیات حول «الأعراف» التی هی منطقة فی الحد الفاصل بین الجنّة و النّار مع خصوصیاتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶

و فی البدایة یشیر إلى الحجاب الذی أقیم بین أهل الجنّة و أهل النّار، إذ یقول: وَ بَیْنَهُما حِجابٌ

و یستفاد من الآیات اللاحقة أنّ الحجاب المذکور هو «الأعراف» و هو مکان مرتفع بین الفریقین یمنع من رؤیة کل فریق الفریق الآخر، و لکن وجود مثل هذا الحجاب لا یمنع من أن یسمع کل منهما صوت الآخر و نداءه، کما مرّ فی الآیات السابقة.

فلطالما رأینا جیرة یتحادثون من وراء الجدار، و یستجلی أحدهما حال الآخر دون أن یراه، على أنّ الذین یقفون على الأعراف، أی على الأقسام المرتفعة من هذا المکان المرتفع، یرون کلا الفریقین (تأملوا جیدا).

و یستفاد من بعض آیات القرآن الکریم، مثل الآیة (۵۵) من سورة الصافات، أن أهل الجنّة ربّما تطّلعوا من أماکنهم و شاهدوا أهل النّار، و لکن مثل هذه الموارد الاستثنائیة لا تنافی ما علیه وضع الجنّة و النّار أساسا، و أنّ ما قلناه آنفا یعکس و یصور الکیفیة لهذین المکانین، و إن کان لهذا القانون- أیضا- بعض الاستثناءات، فیمکن أن یشاهد بعض أهل الجنّة أهل النّار فی شرائط خاصّة.

إنّ ما یجب أن نذکر به مؤکدین قبل الخوض فی بیان کیفیة الأعراف هو أن التعابیر الواردة حول القیامة و الحیاة الأخرى لا تستطیع- بحال- أن تکشف القناع عن جمیع خصوصیات تلکم الحیاة، بل للتعابیر- أحیانا- صفة التشبیه و التمثیل.

و أحیانا تکشف بعض تلک التعابیر عن مجرّد شبح فی هذا المجال، لأنّ الحیاة فی ذلک العالم تکون فی آفاق أعلى، و هی أوسع بمراتب کثیرة من الحیاة فی هذا العالم، تماما مثل سعة الحیاة الدنیا هذه بالقیاس إلى عالم الرحم و الجنین.

و على هذا فلا عجب إذا کانت الألفاظ و المفاهیم المتداولة فی هذا العالم لا تستطیع أن تعکس بصورة کاملة و معبّرة تلک المفاهیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷

ثمّ إنّ القرآن الکریم یقول: وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ یَعْرِفُونَ کُلًّا بِسِیماهُمْ یرون کلّا من أهل الجنّة و أهل النّار و یعرفونهم بملامح وجوههم.

و «الأعراف» فی اللغة جمع «عرف» بمعنى المحل و الموضع المرتفع، و لهذا یطلق على شعر ناصیة الفرس، و الریش الموجود على عنق الدیک لفظ العرف، فیقال «عرف الفرس» أو «عرف الدیک»، و من هذا المنطلق یطلق على المکان المرتفع من البدن لفظ العرف أیضا (و سوف نتحدث بتفصیل حول خصوصیات منطقة الأعراف التی جاء ذکرها فی هذه الآیة بعد الفراغ من تفسیر الآیات).

ثمّ یقول: أنّ هؤلاء الرجال ینادون أهل الجنّة و یسلّمون علیهم، و لکنّهم لا یدخلون الجنّة و إن کانوا یرغبون فی ذلک وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَیْکُمْ. لَمْ یَدْخُلُوها وَ هُمْ یَطْمَعُونَ

و لکن عند ما ینظرون إلى الطرف الآخر و یشاهدون أهل النّار یصطلون فیها، یتضرعون إلى اللّه طالبین أن لا یجعلهم مع الظالمین وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ ۳۶].

و الجدیر بالذکر أنّه استخدم فی رؤیة أهل النّار فی الآیة لفظة وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ یعنی عند ما تعطف أبصارهم نحو جهنم لمشاهدة أهلها، و هذه أشارة إلى أنّهم یکرهون مشاهدة أهل النّار، و کأنّ نظرهم إلیهم مقرون بالإکراه و الإجبار.

و فی الآیة اللاحقة یضیف: إنّ أصحاب الأعراف ینادون فریقا من الجهنمیین الذین یعرفونهم بملامح وجوههم و یلومونهم قائلین: أمّا

ترون أنّ جمعكم للأموال و الأفراد و التجبّر و التكبّر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئا، فأين تلك الأموال و أولئك الأعوان؟ و ماذا حصدتم من تلك المواقف و الصفات السيّئة؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸

وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ، وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

و مرّة أخرى يقولون موبخين و معاتبين، و هم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ.

و فی المآل تشمل الرحمة الإلهية هذه الطائفة من ضعفاء المؤمنين، و يقال لهم ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

من كل ما قلنا اتضح أنّ المراد من ضعفاء المؤمنين هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و لكنّهم بسبب تورطهم فی بعض الذنوب كانوا موضع ازدراء من قبل أعداء الحق فی الدنيا، و كانوا يركزون على هؤلاء و يقولون: كيف يمكن لمثل هؤلاء أن تشملهم الرحمة الإلهية؟ و كيف يمكن لمثل هؤلاء أن يسعدوا؟ و لكن روح الإيمان و الحسنات التی كانت عندهم فعلت فعلتها- فی المآل- و فی ظلّ اللطف الرّبانی و الرحمة الإلهية، فسعدوا و دخلوا الجنّة.

من هم أصحاب الأعراب:

«الأعراف» فی الأصل- و كما أسلفنا- منطقة مرتفعة، و يتّضح فی ضوء القرائن التی وردت فی آيات القرآن و أحاديث أئمّة الإسلام، أنّه مكان خاص بين قطبی السعادة و الشقاء، أی الجنّة و النّار. و هو كحجاب حائل بين هذين، أو كأرض مرتفعة فصلت بين هذين الموضعين بحيث يشرف من يقف عليها على الجنّة و النّار، و يشاهد كلا الفريقين، و يعرفهم بوجوههم المبيضة أو المسودة، المشرقة أو المظلمة المكفهرة.

و الآن لنرى من هم الواقفون على الأعراف؟ و من هم أصحاب الأعراف؟

إنّ دراسة الآيات الأربع المبحوثة هنا تفيد أنّه ذكر لهؤلاء الأشخاص نوعين متناقضين مختلفين من الصفات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۹

ففی الآية الأولى و الثّانية وصف الواقفون على الأعراف بأنّهم يتمنون أن يدخلوا الجنّة، و لكنّ ثمّة موانع تحول دون ذلك، و عند ما ينظرون إلى أهل الجنّة يحيونهم و يسلمون عليهم و يودون لو يكونون معهم، و لكنّهم لا يستطيعون فعلا أن يكونوا معهم، و عند ما ينظرون إلى أهل النّار يستوحشون ممّا آلوا إليه من المصير، و يتعوذون بأنّه من ذلك المصير، و من أن يكونوا منهم.

و لكن يستفاد من الآية الثّالثة و الرّابعة بأنّهم أفراد ذوو نفوذ و قدرة، يوبخون أهل النّار و يعاتبونهم، و يساعدون الضعفاء فی الأعراف على العبور إلى منزل السعادة.

و قد قسمت الرّوايات الواردة فی هذا المجال أهل الأعراف الى هذين الفريقين المختلفين أيضا.

ففی بعض الأحاديث الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام نقرأ: «نحن الأعراف»[۳۷] أو عبارة: «آل محمّد هم الأعراف»[۳۸] و ما شابه هذه التعابير.

و نقرأ فی طائفة أخرى عبارة:

«هم أكرم الخلق على اللّه تبارك و تعالى»[۳۹]

أو

«هم الشهداء على الناس و النّبيون شهداؤهم»[۴۰]

و روايات أخرى تحكى أنّهم الأنبياء و الأئمّة و الصلحاء و الأولياء.

و لكن طائفة أخرى مثلما

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «هم قوم استوت حسناتهم و سيئاتهم، فإن أدخلهم النّار فبذنوبهم، و إن أدخلهم الجنّة فبرحمته».[۴۱]

و ثمّة روايات متعددة أخرى فى تفاسير أهل السنة قد رويت عن «حذيفة» و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۰

«عبد اللّه بن عباس» و «سعيد بن جبير» و أمثالهم بهذا المضمون ۴۲].

و نرى فى هذه التفاسير أيضا مصادر تفيد أنّ أهل الأعراف هم الصلحاء و الفقهاء و العلماء أو الملائكة.

و بالرغم من أنّ ظاهر الآيات و ظاهر هذه الرّوايات تبدو متناقضة فى بدون النظر، و لعله لهذا السبب أبدى المفسّرون فى هذا المجال آراء مختلفة، و لكن مع التدقيق و الإمعان يتّضح أنّه لا يوجد أى تناقض و منافاة، لا بين الآيات و لا بين الأحاديث، بل جميعها تشير إلى حقيقة واحدة.

و توضيح ذلك: أنّه يستفاد من مجموع الآيات و الرّوايات- كما أسلفنا- الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنّة و السعادة الأبدية.

و من الطبيعى أنّ الأقوياء الصالحين و الطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعة، أمّا الضعفاء الذى خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا فيعجزون عن العبور.

كما أنّه من الطبيعى أيضا أن تقف قيادات المجموع و سادة القوم عند هذه المعابر الصعبة مثل القادة العسكريين الذين يمشون فى مثل هذه الحالات فى مؤخرة جيوشهم ليعبر الجميع. يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان، فينجو من يصلح للنجاة ببركة مساعدتهم و معونتهم و نجدتهم.

و على هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فريقان: ضعفاء الإيمان و المتورطون فى الذنوب الذين هم بحاجة إلى الرحمة، و الأئمّة السادة الذين يساعدون الضعفاء فى جميع الأحوال.

و على هذا فإن الطائفة الأولى من الآيات و الأحاديث تشير إلى الفريق الأوّل من الواقفين على الأعراف، و هم الضعفاء، و الطائفة الثّانية منها تشير إلى الفريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۱

الثّانى من أصحاب الأعراف، و هم السادة و الأنبياء و الأئمّة و الصلحاء.

و نرى فى بعض الرّوايات- أيضا- شاهدا واضحا و جليا على هذا الجمع مثل

الحديث المنقول عن الإمام الصّادق عليه السلام الذى قال فيه: «الأعراف كثبان بين الجنّة و النّار، و الرجال الأئمّة يقفون على الأعراف مع شيعتهم و قد سبق المؤمنون إلى الجنّة بلا حساب».

و يقصد من الشيعة الذى يقفون مع الأئمّة على الأعراف العصاة منهم.

ثمّ يضيف قائلا:

«فيقول الأئمّة لشيعتهم من أصحاب الذنوب: انظروا إلى إخوانكم فى الجنّة قد سبقوا إليها بلا حساب، و هو قوله تبارك و تعالى: سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ ثمّ يقال: انظروا إلى أعدائكم فى النّار، و هو قوله تعالى: وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ثمّ يقولون لمن فى النّار من أعدائهم: هؤلاء شيعتى و إخوانى الذين كنتم أنتم تختلفون (تحلفون) فى الدنيا أن لا ينالهم اللّه برحمة، ثمّ تقول الأئمّة لشيعتهم: ادخلوا الجنّة لا خوف عليكم و أنتم تحزنون ۴۳].

و نظير هذا المضمون روى فى تفاسير أهل السنة عن حذيفة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۴۴].
و نكرر مرّة أخرى هنا أنّ الحديث حول تفاصيل و جزئيات القيامة و خصوصيات الحياة فى العالم الآخر أشبه بما لو أننا أردنا أن نصف شبحا من بعيد، فى حين أنّ بين ذلك الشبح و بين حياتنا تفاوتا واسعا و اختلافا كبيرا، فما نفعله فى هذه الصورة هو أنّنا نستطيع بألفاظنا المحدودة و القاصرة أن نشير إليه إشارة ناقصة قصيرة.
هذا، و النقطة الجديرة بالالتفات هى أنّ الحياة فى العالم الآخر مبتنية على
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۲
أساس النماذج و العيّنات الموجودة فى هذه الدنيا، فهكذا الحال بالنسبة إلى الأعراف، لأنّ الناس فى هذه الدنيا ثلاث فرق: المؤمنون الصادقون الذين وصلوا إلى الطمأنينة الكاملة فى ضوء الإيمان، و لم يدخروا وسعا فى طريق المجاهدة.
و المعاندون و أعداء الحق المتصلبون المتمادون فى لجاجهم الذين لا يهتدون بأية وسيلة. و الفريق الثّالث هم الذين يقفون فى هذا الممر الصّعب عبوره- فى الوسط بين الفريقين، و أكثر عناية القادة الصادقين و أئمّة الحق موجهة إلى هؤلاء، فهم يبقون إلى جانب هؤلاء، و يأخذون بأيديهم لإنقاذهم و تخليصهم من مرحلة الأعراف ليستقروا فى صف المؤمنين الحقيقيين.
و من هنا يتّضح أن تدخّل الأنبياء و الأئمّة فى انقاذ هذا الفريق فى الآخرة كتدخلهم لذلك فى الدنيا لا ينافى أبدا قدرة اللّه و حاكميته على كل شىء، بل كل ما يفعلونه إنّما هو بإذن اللّه تعالى و أمره.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۳

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۰ الى ۵۱]

اشارة

وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (۵۰) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۵۱)

التّفسير

نعم الجنّة حرام على أهل النّار:

بعد أن استقر كل من أهل الجنّة و أهل النّار فى أماكنهم و منازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجتها العقوبة الروحية و المعنوية لأهل النّار.
و فى البداية يبدأ الكلام من جانب أهل النّار: وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشىء من الماء أو من نعم الجنّة.
و لكن أهل الجنّة يبادرون إلى رفض هذا المطلب قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۴

بحوث

هنا عدّة نقاط يجب أن نتوقف عندها و نلتفت إليها:

۱- يبدأ القرآن الكريم بأحاديث أهل النّار مع أهل الجنّة بلفظة (و نادى) التى تستعمل عادة للتخاطب من مكان بعيد، و هذا يفيد بأنّ بين الفريقين فاصلة كبيرة و مع ذلك يتمّ هذا الحوار و يسمع كل منهما حديث الآخر، و هذا ليس بعجيب، فلو أن المسافه بلغت ملايين الفراسخ لأمكن أن يسمع كل واحد منهما كلام الآخر، بل و يرى- فى بعض الأحيان- الطرف الآخر.

و لو كان القبول بهذا أمرا متعذرا أو متعسرا فى الماضى، و كانت تشكل مشكلة بالنسبة إلى السامعين، فإنّه مع انتقال الصوت و الصورة فى عصرنا الحاضر من مسافات بعيدة جدا انحلّت هذه المشكلة، و لم تعد الآية موضع تعجب و غرابة.

۲- إنّ أوّل طلب يطلبه أهل النّار هو الماء، و هذا أمر طبيعى، لأنّ الشخص الذى يحترق فى النّار المستعرة يطلب الماء قبل أى شىء حتى يبرد غليلة و يرفع به عطشه.

۳- إنّ عبارة مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ التى هى عبارة مجملة، و تتسم بالإبهام، تفيد أنّه حتى أهل النّار لا يمكنهم أن يعرفوا بشىء من حقيقة النعم الموجودة فى الجنّة و أنواعها. و هذا الموضوع يتفق و ينسجم مع بعض الأحاديث التى تقول:

(إنّ فى الجنّة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر).

ثمّ إنّ عطف الجملة ب «أو» يشير الى أنّ النعم الاخروية الأخرى و خاصّة الفواكه يمكنها أن تحلّ محل الماء و تطفئ عطش الإنسان.

۴- إنّ عبارة إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ إشارة إلى أهل الجنّة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شىء من هذه النعم لأهل النّار، لأنّه لا يقلّ منها شىء بسبب الإعطاء، و لا أنّهم يحملون حقدا أو ضغينة على أحد فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۵

صدورهم، حتى بالنسبة إلى أعدائهم، و لكن وضع أهل النّار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنّة.

إنّ هذا الحرمان- فى الحقيقة- نوع من «الحرمان التكوينى» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمة اللذيذة المتنوعة.

فى الآية اللاحقة يبيّن سبب حرمانهم، و يوضح بذكر صفات أهل النّار أهل هذا المصير الأسود قد هيّئوه هم لأنفسهم، فيقول أوّلا: إنّ هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعبا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً.

و هذا إلى جانب أنّهم خدعتهم الدنيا و اغتروا بها وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا.

إنّ هذه الأمور سببت فى أن يغرقوا فى و حل الشهوات، و ينسوا كل شىء حتى الآخرة، و ينكروا أقوال الأنبياء، و يكذبوا بالآيات الإلهية، و لهذا أضاف قائلا: فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا، وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ

و من البديهى أنّ المراد من «النسيان» الذى نسب هنا إلى اللّه هو بمعنى أنّنا نعاملهم معاملة الناسى تماما، مثل أن يقول شخص لصديقه: (كما أنّك نسيتنى فسوف أنساك أن أيضا) أى أننى سوف أعاملك معاملة المتناسى لشىء.

كما أنّه يستفاد من هذه الآية أنّ أوّل مرحلة من مراحل الانحراف و الضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياه المصيرية بمأخذ الجدّ، بل يتعامل معها معاملة المتسلّى و الهازل، فتؤدى به هذه الحالة إلى الكفر المطلق، و إنكار جميع الحقائق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۲ الى ۵۳]

اشارة

وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۵۳)

التّفسير

هذه الآية إشارة- في الدرجة الأولى- إلى أنّ حرمان الكفار و مصيرهم المشؤوم إنّما هو نتيجة تقصيراتهم أنفسهم، و إلّا فليس هناك من جانب اللّه أى تقصير في هدايتهم و قيادتهم و إبلاغ الآيات إليهم و بيان الدروس التربوية لهم، لهذا يقول تعالى: إنّنا لم نال جهدا و لم ندخر شيئا في مجال الهداية و الإرشاد، بل أرسلنا لهم كتابا شرحنا فيه كل شىء بحكمة و دراية وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ

و هو كتاب فيه رحمة و هداية، لا للمعاندين الأنانيين، بل للمؤمنين هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۷

الآية اللاحقة تشير إلى الطريقة الخاطئة في تفكير العصاة و المنحرفين في صعيد الهداية الإلهية فيقول: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ أى كأنّ هؤلاء يتوقعون أن يروا نتيجة الوعد و الوعيد الإلهي بعيونهم (أى يروا أهل الجنّة و هم فيها، و أهل النّار و هم فيها) حتى يؤمنوا.

و لكنّه توقّع سخيف، لأنّه عند ما تترجم الوعود الإلهية على صعيد الواقع ينتهي الأمر، و لم يعد هناك مجال للرجوع و لا طريق للعودة، و هناك سيعترفون بأنّهم قد تناسوا كتاب اللّه و تجاهلوا التعاليم الإلهية التي أنزلها على رسله بالحق، و كان قولهم حقّا أيضا: يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ

سيغرقون في هذا الوقت في قلق و اضطراب، و يفكرون في مخلص ينقذهم من هذه المشكلة و يقولون فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا.

و إذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو إنّنا لا نصلح أساسا للشّفاعة، أ فلا يمكن أن نرجع إلى الدنيا و نقوم بأعمال غير ما عملناه سابقا، و نسلّم للحق و الحقيقة أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

و لكن هذا التنبيه جاء- و للأسف- متأخرا جدا، فلا طريق للعودة و لا صلاحية لهم للشفاعة، لأنّهم قد خسروا كلّ رؤوس أموالهم، و تورطوا في خسران جميع وجودهم قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

و سوف يثبت لهم أنّ أصنامهم و معبوداتهم ليس لها أى دور هناك، و في الحقيقة ضاعت- في نظرهم- جميعا وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

و كأنّ الجملتين الأخيرتين ردّ على طلبهم، يعني إذا كانوا يريدون شفعاء يشفعون فإنّ عليهم حتما أن يتوسّلوا بأصنامهم التي كانوا يسجدون لها، في حين أنّ تلك الأصنام و لأوثان لا تكون مؤثرة هناك مطلقا.

و أمّا عودتهم إلى الدنيا فإنّها ممكنة في ما لو بقي لديهم رأس مال، و لكنّهم

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۸

قد خسروا كل رؤوس أموالهم و فقدوا كل وجودهم.

من هذه الآية يستفاد أوّلا أنّ الإنسان حرّ مختار في أعماله، و إلّا لما طلب العودة و الرجوع إلى الدنيا لملافاة ما فات، و ثانيا: إنّ العالم الآخر ليس مكان العمل و اكتساب الفضائل و النجاة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۹

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۵۴]

اشارة

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ

النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۵۴)

التّفسير

اشارة

فى الآيات السابقة قرأنا أنّ المشركين يقفون يوم القيامة على خطأهم الكبير فى صعيد انتخاب المعبود، و الآية الحاضرة تصف المعبود الحقيقى مع ذكر صفاته الخاصّة حتى يستطيع الذين يطلبون الحقيقة و ينشدونها أن يعرفوه بوضوح فى هذا العالم و قبل حلول يوم القيامة، و يبدأ حديثه هذا بقوله: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ أى أنّ المعبود لا يمكن أن يكون إلّا من كان خالقا.

هل خلق العالم فى ستّة أيّام؟

لقد ورد البحث عن خلق العالم و تكوينه فى ستّة أيّام، فى سبعة موارد من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۰

آيات القرآن الكريم ۴۵]، و لكنّه فى ثلاثة موارد أضيف إلى السماوات و الأرض لفظة «و ما بينهما» أيضا. و التى هى فى الحقيقة توضيح للجملة السابقة، لأنّ جميع هذه الأشياء تدخل فى معنى السماوات و الأرض، لأنّنا نعلم أنّ السماء تشمل جميع الأشياء التى توجد فى الأعلى، و الأرض هى النقطة المقابلة للسماء.

و هنا يتبادر هذا السؤال فورا و هو: قبل أن تخلق السماوات و الأرض لم يكن ليل و لا نهار ليقال: خلقت السماوات و الأرض فيهما، لأنّ الليل و النهار ناشئان من دوران الأرض حول نفسها فى مقابل الشمس.

هذا مضافا إلى أنّ ظهور المجموعة الكونية فى ستّة أيام- يعنى أقل من أسبوع- يخالف العلم، لأنّ العلم يقول: لقد استغرق تكوّن الأرض و السماء حتى وصل الى الواضع الحالى ملياردات من السنوات و الأعوام.

و لكن نظرا إلى المفهوم الواسع للفظة «يوم» و ما يعادلها فى مختلف اللغات، يكون جواب هذا السؤال واضحا، لأنّه كثيرا ما يستعمل اليوم بمعنى الدورة، سواء استغرقت مدة سنة، أو مائة سنة، أو مليون سنة أو ملياردات السنين، و الشواهد التى تثبت هذه الحقيقة، و تفيد أنّ أحد معانى اليوم هو الدورة، كثيرة:

۱- لقد استعملت لفظة اليوم و الأيّام فى القرآن الكريم مئات المرات، و فى كثير من الموارد لم تكن بمعنى الليل و النهار، مثلا يعبر عن عالم البعث بيوم القيامة، و هذا يشهد بأنّ مجموع عملية القيامة التى هى دورة طويلة الأمد و المدّة، تسمى يوم القيامة.

و يستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ يوم القيامة و محاسبة أعمال الناس يستغرق خمسين ألف سنة (سورة المعارج الآية ۴).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۱

۲- نقرأ فى كتب اللغة أيضا أنّ اليوم ربّما يطلق على الزمن بين طلوع الشمس و غروبها، و ربّما على مقدار من الزمان مهما كان قدره، قال الراغب فى المفردات: «اليوم يعبّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، و قد يعبّر عن مدة من الزمان أى مدّة كانت».

۳- جاء فى روايات أئمّة الدين و أحاديثهم- كذلك- استعمال اليوم بمعنى الدهر، كما

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى نهج البلاغة أنّه قال: «الدّهر يومان: يوم لك، و يوم عليك».

و نقرأ فی تفسير البرهان فی تفسير هذه الآية

، عن تفسير علی بن إبراهيم الإمام عليه السّلام قال: «فی ستة أيّام، أی فی ستة أوقات»،

أی فی ست دورات.

۴- كثيرا ما نشاهد فی المحاورات اليومية، و أشعار الشعراء فی اللغات المختلفة، أنّ كلمة اليوم و ما يعادلها قد استعملت بمعنى الدورة و العهد، مثلا نقول يوم كانت الكرة الأرضية حارة و مشتعلة، و يوم صارت باردة و ظهرت فيها آثار الحياة، فی حين أنّ فترة سخونة الأرض و اشتعالها استغرقت ملياردات من الأعوام.

أو عند ما نقول غصب آل أمية الخلافة الإسلامية يوما، و غصبها بنو العباس يوما آخر. فی حين أنّ فترة اغتصاب الأمويين للخلافة استغرقت عشرات السنين و فترة اغتصاب العباسيين لها استغرقت المئات.

من مجموع الحديث السابق نستنتج أنّ اللّه سبحانه و تعالى خلق السماوات و الأرض فی ست دورات متوالية، و إن استغرقت كل دورة من هذه الدورات ملايين أو ملياردات السنين، و العلم الحديث لم يبيّن أی أمر يخالف هذا الموضوع.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۵ ؛ ص۷۱

و هذه الدورات- احتمالا- هی على الترتيب:

۱- يوم كان الكون فی شكل كتلة غازية الشكل، فانفصلت منها أجزاء

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۷۲

بسبب دورانها حول نفسها، و تشكلت من المواد المنفصلة الكرات و الأنجم.

۲- هذه الكرات قد تحولت تدريجا إلى هيئة كتلة من المواد الذائبة المشعة أم الباردة القابلة للسكنى.

۳- فی دورة أخرى تألفت المنظومة الشمسية و انفصلت الأرض عن الشمس.

۴- فی الدورة الرّابعة بردت الأرض و أصبحت قابلة للحياة.

۵- ثمّ ظهرت النباتات و الأشجار على الأرض.

۶- و بالتالی ظهرت الحيوانات و الإنسان فوق سطح الأرض.

و كل ما ذكرناه أعلاه من الأدوار الستة لعملية خلق و تكوين السماوات و الأرض تنطبق على الآيات (۸) إلى (۱۱) من سورة فصلت التی سيأتی تفسيرها فی المستقبل إن شاء اللّه.

لماذا لم يخلق اللّه العالم فی لحظة واحدة؟

و هنا يطرح سؤال آخر نفسه و هو: لماذا خلق اللّه السماوات و الأرض فی دورات عديدة و طويلة، و هو القادر على خلقها فی لحظة واحدة؟

إنّ جواب هذا السؤال يمكن الوقوف عليه بالالتفات إلى نقطة واحدة، و هی أنّ الخلق لو تمّ فی لحظة واحدة، لكان ذلك أقل دلالة على عظمة الخالق و قدرته و علمه، و لكن لما تمّت عملية الخلق و التكوين فی مراحل مختلفة و أشكال متنوعة، وفق برنامج منظم محسوب، كان لذلك دلالة أوضح على معرفة الخالق.

ففی المثل لو کانت النّطفة البشریة تتبدل فی لحظة واحدة إلی ولید کامل، لمّا کان ذلک یحکی عظمة الخلق و التکوین، و لکن عند ما ظهر الولید خلال ۹ أشهر، و ضمن برنامج دقیق و اتخذ فی کل یوم و شهر شکلا خاصا و صورة خاصّة، استطاعت کل واحدة من هذه المراحل أن تقدّم آیة جدیدة من آیات العظمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۳

الإلهیة، و تکون دلیلا جدیدا علی قدرة الخالق.

ثمّ یقول القرآن الکریم: إنّ اللّه تعالی بعد خلق السماوات و الأرض أخذ زمام إدارتها بیده (أی لیس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة و التدبیر أیضا) فقال تعالی:

ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ

و هذا جواب لمن یعتقد أنّ الکون محتاج إلی اللّه تعالی فی الخلق و الإیجاد دون البقاء.

ما هو العرش؟

«العرش» فی اللغة هو ما له سقف، و قد یطلق العرش علی نفس السقف، مثل قوله تعالی: أَوْ کَالَّذِی مَرَّ عَلی قَرْیَةٍ وَ هِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها[۴۶] و ربّما یأتی بمعنی الأسرة الکبیرة المرتفعة، مثل أسرة الملوک و السلاطین، کما جاء فی قصة سلیمان: أَیُّکُمْ یَأْتِینِی بِعَرْشِها[۴۷] و هکذا یطلق لفظ العرش علی الأسقف التی یقیمها المزارعون لحفظ بعض الأشجار، و بخاصّة المتسلقة منها، کما نقرأ فی القرآن الکریم: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَیْرَ مَعْرُوشاتٍ ۴۸] و لکن عند ما ینسب الی اللّه سبحانه و تعالی و یقال: عرش اللّه، یراد منه مجموعة عالم الوجود، الذی یعدّ فی الحقیقة سریر حکومة اللّه تعالی.

و أساسا فإنّ عبارة اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ کنایة عن سیطرة حاکم من الحکام علی أمور بلده، کما أنّ المراد من جملة «ثلّ عرشه» هو خروج زمام الأمر من یده و فقدان السیطرة علیه، و قد استعملت هذه الکنایة فی اللغة بکثرة إذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۴

یقال: إنّ جماعة من الناس ثارت فی البلد الفلانی، و أنزلت حاکمه من سریره و عرشه، فی حین من الممکن أن لا یکون لذلک الزعیم و الحاکم تخت أصلا.

أو یقال: إنّ جماعة من الناس أیدوا فلانا، و أجلسوه علی العرش، فکل هذه کنایة عن امتلاک السلطة أو فقدانها.

و علی هذا تکون عبارة اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ کنایة عن الإحاطة الکاملة للّه تعالی و سیطرته علی تدبیر أمور الکون- سماء و أرضا- بعد خلقها.

و من هنا یتّضح أنّ الذین أخذوا هذه الجملة دلیلا علی «جسمانیّة اللّه» کأنّهم لم یلتفتوا إلی موارد استعمال هذه الجملة العدیدة فی هذا المعنی الکنائی.

و هناک معنی آخر للعرش، و هو أنّه قد ورد أحیانا فی قبال «الکرسی» و فی مثل هذه الموارد یمکن أن یکون الکرسی (الذی یطلق عادة علی المقعد القصیر القوائم) کنایة عن العالم المادی، و العرش کنایة عن عالم ما فوق المادة (أی عالم الأرواح و الملائکة) کما جاء فی تفسیر آیة وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ التی مرّت فی سورة البقرة.

ثمّ یقول بأنّه تعالی هو الذی یلقی باللیل- کغشاء- علی النهار، و یستر ضوء النهار بالأستار المظلمة یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهارَ.

و الملفت للنظر أنّ العبارة المذکورة ذکرت فی مجال اللیل فقط، و لم یقل (و یغشی النهار اللیل) لأنّ الغطاء و الغشاء یناسب الظلمة فقط و لا یناسب النور و الضوء.

ثمّ یضیف بعد ذلک قائلا: إنّ اللیل یطلب النهار طلبا حثیثا (یطلبه حثیثا).

إنّ هـذا التعبیر- نظرا لوضع اللیل و النهار فی الکرة الأرضیـة- تعبیر فی غایـة الروعة و الجمال، لأنّه لو نظر أحد إلی کیفیة حرکة الکرة الأرضیـة من الخارج، و کیفیة دورانها حول نفسها و وقوع ظلها المخروطی الشکل علی نفسها، مع العلم أنّ الکرة الأرضیة تدور بسرعة فائقة حول نفسها (أی فی حدود ۳۰ کیلومترا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۵

الدقیقة) لأحس أنّ غول الظلّ المخروطی الأسود یجری بسرعة کبیرة علی هذه الکرة خلف ضوء النهار.

و لکن هـذا الأـمر غیر صادق بالنسبـة إلی ضوء النهار، لأنّ ضوء الشـمس منتشـر فی نصف الکرة الأرضیـة و فی جمیع الفضاء المحیط بأطراف الأرض، و لا یتخذ لنفسه شکلا خاصا، و إنّما ظلمة اللیل فقط هی التی تدور مثل شبح غامض الأسرار حول الأرض.

ثمّ یضـیف تعـالی أنّه هـو الـذی خلـق الشـمس و القمر و النجوم، و هی خاضـعة لأـمره بعـد خلقهـا: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ و هی مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ

(و سوف نبحث حول تسخیر الشمس و القمر و النجوم و معانی ذلک فی ذیل الآیات المناسبة بإذن اللّه تعالی).

ثمّ بعـد ذکر خلق العالم و نظام اللیل و النهار، و خلق الشـمس و القمر و النجوم، قال مؤکّـدا: اعلموا أنّ خلق الکون و تدبیر أموره کلّه بیده سبحانه دون سواه، أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ.

ما هو «الخلق» و «الأمر»؟

هناک کلام کثیر بین المفسّرین حول المراد من «الخلق» و «الأمر» أنّه ما هو؟

و لکن بالنظر إلی القرائن الموجودة فی هـذه الآیة- و الآیات القرآنیة الأخری یسـتفاد أنّ المراد من «الخلق» هو الخلق و الإیجاد الأوّل.

و المراد من «الأمر» هو السنن و القوانین الحاکمة علی عالم الوجود بأسره بأمر اللّه تعالی، و التی تقود الکون فی مسیره المرسوم له.

إن هـذا التعبیر- فی الحقیقـة- ردّ علی الـذین یتصورون أنّ اللّه خلق الکون ثمّ ترکه لحـاله و أهله، و جلس جانبا. أی إنّ العالم بحاجة إلی اللّه فی وجوده

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۶

و حدوثه، دون بقائه و استمراره.

إنّ هذه الجملة تقول: کلّا، بل إنّ العالم کما یحتاج إلی حدوثه إلی اللّه، کذلک یحتاج إلیه فی تدبیره و استمرار حیاته و إدارة شؤونه إلی اللّه، و لو أنّ اللّه صرف عنایته و لطفه عن الکون لحظة واحدة لتبدد النظام و انهار و انهدم بصورة کاملة.

و قد مال بعض الفلاسـفة إلی أن یفسّر عالم «الخلق» بعالم «المادة» و عالم «الأمر» بعالم «ما وراء المادة» لأنّ لعالم الخلق جانبا تدریجیا، و هـذه هی خاصـیة المادة. و لعالم الأمر جانبا دفعیا و فوریا، و هذه هی خاصـیة عالم ما وراء المادة، کما نقرأ فی قوله تعالی: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ ۴۹] و لکن بـالنظر إلی موارد اسـتعمال لفظـة الأـمر فی آیات القرآن، و حتی عبارة وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ الواردة فی الآیـة المبحوثـة یسـتفاد الأـمر یعنی کـل أمر إلهی سواء فی عالم المادة أو فی عالم ما وراء المادة (تأملوا رجاء).

ثمّ فی ختام الآیة یقول: تَبارَکَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ

فی الحقیقة إنّ هذه الجملة- بعد ذکر خلق السـماوات و الأرض و اللیل و النهار و الشمس و القمر و النجوم و تدبیر عالم الوجود- نوع من الثناء علی الذات الربوبیة المقدسة، و قد سیق لتعلیم العباد.

و «تبارک» من مادة البرکة و أصلها «برک» و معناها صدر البعیر، حیث أنّ الإبل عند ما تستقر فی مکان ما تلصق صدورها علی الأرض، لهذا اتخذت هذه الکلمة تدریجیا معنی الثبوت و الاستقرار و الاستتباب، ثمّ وصفت و سمّیت کل نعمة مستقرة و دائمة، و کل کائن طویل العمر، و مستمر الآثار و الخیرات، بأنّه موجود مبارک، و یقال أیضا للمکان الذی یتجمع فیه الماء «برکة» لبقائه فی ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۷

المکان مدة طویلة.

من هنا یتّضح أنّ رأس المال «المبارک» هو الذی یتصف بالدوام، و الکائن «المبارک» هو الموجود المستدیم الآثار، و من البدیهی أنّ ألیق وجود لهذه الصفة هو وجود اللّه تعالی، فهو وجود مبارک أزلی أبدی، و هو بالتالی منشأ جمیع البرکات و الخیرات، و منبع الخیر المستمر تَبارَکَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (و سوف نتحدث فی هذا المجال فی تفسیر الآیة (۹۲) من سورة الأنعام أیضا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۸

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۵۵ الی ۵۶]

اشارة

ادْعُوا رَبَّکُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْیَةً إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ (۵۵) وَ لا تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِیبٌ مِنَ الْمُحْسِنِینَ (۵۶)

التّفسیر

شروط استجابة الدعاء:

لقد أثبتت الآیة السابقة- فی ضوء ما أقیم من برهان واضح- هذه الحقیقة، و هی أنّ الذی یستحق للعبادة فقط هو اللّه، و فی عقیب ذلک ورد الأمر هنا بالدعاء، الذی هو مخ العبادة و روحها، یقول أوّلا: ادْعُوا رَبَّکُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْیَةً.

و «التضرع» فی الأصل من مادة «ضرع» بمعنی الثدی، و علی هذا یکون فعل التضرع بمعنی حلب اللبن من الضرع، و حیث إنّه عند حلب اللبن تتحرک الأصابع علی حلمة الثدی من جهاتها المختلفة استدارا للحلیب، لهذا استعملت هذه الکلمة فی من یظهر حرکات خاصّة إظهارا للخضوع و التواضع.

و علی هذا فإنّ الآیة المبحوثة، و عبارة ادْعُوا رَبَّکُمْ تَضَرُّعاً تحثّنا علی أن نقبل علی اللّه بمنتهی الخضوع و الخشوع و التواضع، بل یجب أن تنعکس روح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۹

الدعاء فی أعماق روحه، و علی جمیع أبعاد وجوده، و یکون اللسان مجرّد ترجمانها، و یتحدث نیابة عن جمیع أعضائه.

و أمره تعالی- فی الآیة الحاضرة- بأن یدعی اللّه «خفیة» و فی السّر، لأنّه أبعد عن الریاء، و أقرب إلی الإخلاص، و لأجل أن یکون الدعاء مقرونا بتمرکز الفکر و حضور القلب.

و نحن نقرأ

فی حدیث أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لما کان فی إحدی غزواته، و وصل جنود الإسلام إلی واد رفعوا أصواتهم بالتهلیل و التکبیر قائلین: «لا إله إلّا اللّه» و «اللّه أکبر» فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یا أیّها الناس اربعوا علی أنفسکم، أمّا

إنّكم لا تدعون أصمّ و لا غائبا، إنّكم تدعون سميعا قريبا، إنّه معكم»[۵۰].

كما و يحتمل فى هذه الآية أيضا أن يكون المراد من «التضرع» هو الدعاء الظاهر العلنى، و المراد من «الخفية» الدعاء الخفى السّرى، لأنّ لكل مقام اقتضاء خاصا، فقد يقتضى أن يكون الدعاء علنا، و ربّما يقتضى خفية و سرا، و هناك رواية وردت فى ذيل هذه الآية تؤيد هذا الموضوع.

ثمّ قال تعالى فى ختام الآية: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أى أنّ اللّه لا يحب المعتدين.

و لهذه العبارة معنى وسيع يشمل كل نوع من أنواع العدوان و التجاوز، سواء الصراخ و رفع الصوت عاليا جدا حين الدعاء، أو التظاهر و ممارسة الرياء، أو التوجه إلى غير اللّه حين الدعاء.

و فى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى حكم هو فى الحقيقة شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها.

و من المسلم أنّ الأدعية إنّما تكون عند اللّه أقرب إلى الإجابة إذا تحققت فيها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۰

الشرائط اللازمة، و من جملة ذلك أن يكون الدعاء مقترنا بالجوانب البناءة و العملية فى حدود المستطاع، و أن تراعى حقوق الناس، و أن تلقى حقيقة الدعاء بأنوارها و ظلالها على وجود الإنسان الداعى بأسره، و لهذا فلا تستجاب أدعية المفسدين و العصاة، و لا تنتهى إلى أية نتيجة مرجوّة.

و المراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما،

جاء فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام: (إنّ الأرض كانت فاسدة فأصلحها نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم»[۵۱].

و مرّة أخرى يعود إلى مسألة الدعاء و يذكر شرطا آخر من شرائطه فيقول:

وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً.

أى لا تكونوا راضيين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنّه لا توجد فى حياتكم أية نقطة سوداء، إذ أنّ هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر و السقوط، كما لا تكونوا يائسين إلى درجة أنّكم لا ترون أنفسكم لائقين للعفو الإلهى، و لإجابة الدعاء، إذ أنّ هذا اليأس و القنوط هو الآخر سبب لانطفاء شعلة السعى و الاجتهاد، بل لا بد أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحى (الخوف) و (الأمل) الخوف من المسؤوليات و العثرات، و الأمل برحمته و لطفه.

و فى خاتمة الآية يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمة الإلهية إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

و يمكن أن تكون هذه العبارة إحدى شرائط إجابة الدعاء، يعنى إذا كنتم تريدون أن لا تكون أدعيتكم خاوية، و مجرّد لقلقة لسان، فيجب أن تقرنوها بعمل الخير و الإحسان، لتشملكم الرحمة الإلهية بمعونة ذلك و تثمر دعواتكم، و بهذا تكون الآية قد تضمنت الإشارة إلى خمسة من شرائط قبول الدعاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۱

و إجابته، و هى باختصار كالتالى:

۱- أن يكون الدعاء عن تضرّع و خفية.

۲- أن لا يتجاوز حدّ الاعتدال.

۳- أن لا يكون مقرونا بالإفساد و المعصية.

۴- أن يكون مقرونا بالخوف و الأصل المعتدلين.

۵- أن يكون مقرونا بالبرّ و الإحسان، و فعل الخيرات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۲

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۷ الى ۵۸]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۵۷) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (۵۸)

التّفسير

لا بد من المربى و القابليّة:

فى الآيات الماضية مرّت إشارات عديدة إلى مسألة «المبدأ» أى التوحيد و معرفة اللّه، من خلال الوقوف على أسرار الكون، و فى هذه الآيات ضمن بيان طائفة من النعم الإلهية وردت الإشارة إلى مسألة «المعاد» و البعث، ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

و هذه هى سيرة القرآن الكريم و دأبه فى كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و «المعاد»، و الملفت للنظر أنّه يستعين لمعرفة اللّه، و كذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معا بالاستدلال بالأسرار الكامنة فى خلق موجودات هذا العالم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۳

فيقول تعالى أولا: وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

ثمّ يقول: إنّ هذه الرياح التى تهب من المحيطات تحمل معها سحبا ثقيلة مشبّعة بالماء حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا.

ثمّ يسوق تلك السحب إلى الأراضى الظامئة اليابسة، و يكلفها بأن تروى تلك العطاشى سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ

و بذلك ينهمر ماء الحياة فى كل مكان فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ.

و بمعونة هذا الماء نخرج للبشر أنواعا متنوعة من الثمار و الفواكة فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ

نعم، إنّ الشمس تسطع على المحيطات و البحار، فيتبخر الماء و يتصاعد البخار إلى الأعلى، و هناك فى الطبقات العالية الباردة من الجو يتراكم البخار و يشكل كتلا ثقيلة من السحب، ثمّ تحمل الرياح كتل السحاب العظيمة على ظهرها، و تتوجه إلى الأراضى التى كلفت بسقيها، فتجرى بعض هذه الرياح قدام كتل السحاب، و تكون مزيجة بشىء. من الرطوبة الخفيفة، فتحدث نسيما مريحا تستشم منه رائحة المطر اللذيذة الباعثة للحياة و النشاط.

إنّها- فى الحقيقة- المبشرات بنزول المطر، ثمّ ترسل كتل الغيم العظيمة حبات المطر من بين ثناياها، لكنّها ليست بالكبيرة جدّا فتتلف الزروع و الأراضى، و لا بالصغيرة جدّا فتضيع فى الفضاء و لا تصل إلى الأرض، ثمّ تحط هذه الحبات على الأرض برفق و هدوء، و تنفذ فى ترابها شيئا فشيئا، فتنبت البذور و الحبات. و تبدل الأرض المحترقة بالجفاف، و التى كانت أشبه شىء بمقبرة مظلمة و ساكنة و هامدة، إلى مركز فعّال نابض بالحياة و الحركة، و تنشأ الجنائن الخضراء الغنية بالأزاهير و الثمار.

ثمّ عقيب ذلك يضيف فورا كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى و نلبسهم حلّة الوجود و الحياة مرّة أخرى.

و لقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم أنموذجا من المعاد فى هذه الدنيا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۴

الذى يتكرر أمام عيونكم كل يوم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

و فی الآیة اللاحقة- و حتی لا یظن أحد أن نزول المطر علی نمط واحد یدل علی أنّ جمیع الأراضی تصیر حیّة علی نمط واحدا أیضا، و حتی یتّضح أنّ القابلیات و الاستعدادات متفاوته تسبّبت فی أن تتفاوت حالات الاستفادة و الانتفاع بالمواهب الإلهیة یقول: وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ أی أنّ الأرض الصالحة هی التی تستفید من المطر، و تثمر خیر إثمار بإذن ربّها.

أمّا الأراضی السبخة و الخبیثة فلا تثمر إلّا بعض الأعشاب غیر النافعة وَ الَّذِی خَبُثَ لا یَخْرُجُ إِلَّا نَکِداً.[۵۲] هکذا یکون الأمر بالبعث، و إن کان سببا لعودة الحیاة إلی جمیع افراد البشر، إلّا أنّ جمیع الناس لا- یحشرون علی نمط واحد و هیئة واحدة، إنّهم مختلفون متفاوتون فی ذلک مثل تفاوت الأرض الحلوة، و الأرض المالحة، نعم یتفاوتون، و یکون هذا التفاوت ناشئا من الأعمال و العقائد و النیات.

ثمّ فی ختام الآیة یقول تعالی: إنّ هذه الآیات نبیّنها لمن یشکرونها، و یستفیدون من عبرها و مدالیلها، و یسلکون فی ضوئها سبیل الهدایة کَذلِکَ نُصَرِّفُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَشْکُرُونَ

إن الآیة الحاضرة- فی الحقیقة- إشارة إلی مسألة مهمّة تتجلی فی هذه الحیاة و فی الحیاة الأخری فی کل مکان، و هی أنّ فاعلیة الفاعل وحدها لا تکفی للإثمار و الإنتاج الصحیح المطلوب، بل لا بدّ من «قابلیة القابل» فهی شرط للتأثیر و الإثمار. فإنّه لیس هناک شیء ألطف و أکثر بعثا للحیاة و النشاط من حبات المطر، و لکن هذا المطر نفسه الذی لا شک فی لطافة طبعه، یورق و یورد فی مکان، و ینبت الشوک و الحنظل فی مکان آخر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۵

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۵۹ الی ۶۴]

اشارة

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ فَقالَ یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۵۹) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۶۰) قالَ یا قَوْمِ لَیْسَ بِی ضَلالَةٌ وَ لکِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ (۶۱) أُبَلِّغُکُمْ رِسالاتِ رَبِّی وَ أَنْصَحُ لَکُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَکُمْ ذِکْرٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَلی رَجُلٍ مِنْکُمْ لِیُنْذِرَکُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳) فَکَذَّبُوهُ فَأَنْجَیْناهُ وَ الَّذِینَ مَعَهُ فِی الْفُلْکِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً عَمِینَ (۶۴)

التّفسیر

رسالة نوح أوّل الرّسل من أولی العزم:

تقدم أنّ هذه السورة- بعد ذکر سلسلة من القضایا الجوهریة و العامّة فی صعید معرفة اللّه و المعاد و الهدایة الإلهیة للبشر، و مسألة الشعور بالمسؤولیة-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۶

تشیر إلی قصص ثلة من الأنبیاء الکرام و الرسل العظام مثل «نوح» و «هود» و «صالح» و «شعیب» و بالتالی «موسی بن عمران» علیهم السلام أجمعین، کی تقدم أمثلة حیة لهذه الأبحاث و بصورة عملیة فی ثنایا تاریخهم الحافل بالحوادث و العبر.

فیبدأ سبحانه من قصة نوح النّبی، و یستعرض قسما من حواراته مع قومه الوثنیین المعاندین.

و قد وردت قصة نوح فی سور قرآنیة متعددة، مثل سورة هود، الأنبیاء، و المؤمنون، الشعراء، کما أنّ هناک سورة قصیرة فی القرآن

الكريم باسم «سورة نوح» و هى السورة الحادية و السبعون من سور الكتاب العزيز.

و سوف يأتى شرح و دراسة جهود هذا النّبى العظيم، و كيفية صنعه للسفينة، و الطوفان الرهيب، و غرق قومه الأنانيين الفاسدين و الوثنيين بإسهاب فى السور المذكورة، و هنا أكتفى- فقط- بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هى:

يقول أوّلا: لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ

إنّ أوّل شىء ذكّرهم به هو إلفات نظرهم إلى حقيقة التوحيد، و نفى أى نوع من أنواع الوثنية فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

إنّ شعار التوحيد ليس شعار نوح وحده، بل هو أوّل شعار عند جميع الأنبياء و المرسلين الإلهين، و لهذا يشاهد فى آيات متعددة من هذه السورة- و غيرها من السور القرآنية- أنّ أوّل ما يفتتح أكثر الأنبياء دعواتهم به هو هذا الشعار: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ (راجع الآيات ۶۵، و ۷۳ و ۸۵ من نفس هذه السورة).

من هذه العبارات يستفاد جيدا أنّ الوثنية كانت أسوأ مانع فى طريق سعادة البشرية جمعاء، و أنّ حملة غصون التوحيد هؤلاء كانوا أوّل ما يفعلونه لغرس هذه الغصون فى مزرعة الحياة البشرية و تربية أنواع الورود الزاهية و الأشجار المثمرة فيها، هو أنّهم يشمرون عن ساعد الجدّ ليطهروا الحياة البشرية بمنجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۷

تعاليمهم البناءة من الأشواك، أشواك الوثنية و الشرك و العبودية لغير اللّه تعالى.

و يستفاد من الآية (۲۳) فى سورة نوح خاصّة أنّ الناس فى زمن النّبى نوح عليه السلام كانوا يعبدون أصناما متعددة تدعى «ودّ» و «سواع» و «يغوث» و «يعوق» و «نسر»، التى سيأتى الحديث عنها عند تفسير تلك الآية بإذن اللّه.

و بعد أن أيقظ نوح ضمائرهم و فطرتهم الغافية، حذّرهم من مغبة الوثنية و عاقبتها المؤلمة إذ قال: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و المراد من عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، الذى قلّما شوهد مثله فى العقوبات فى العظمة و السعة، كما و يمكن أن يكون إشارة إلى العقوبة الإلهية فى يوم القيامة، لأنّ هذا التعبير قد ورد فى معنيين من القرآن الكريم. فإنّنا نقرأ فى سورة الشعراء الآية (۱۸۹): فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ الآية وردت حول العقوبة التى نزلت بقوم شعيب فى هذه الدنيا بسبب ذنوبهم و معاصيهم، و نقرأ فى سورة المطففين الآية (۵): أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۵۳].

إنّ عبارة «أخاف» (أى أخشى أن تصيبكم هذه العقوبة، بعد ذكر مسألة الشرك فى الآية المبحوثة، يمكن أن تكون لأجل أن نوحا يريد أن يقول لهم: إذا لم تتيقنوا وقوع هذه العقوبة، فعلى الأقل ينبغى أن تخافوا منها، و لهذا لا يجيز العقل أن تسلكوا- مع هذا الاحتمال- هذا السبيل الوعر، و تستقبلوا عذابا عظيما أليما كهذا.

و لكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوة هذا النّبى العظيم الإصلاحية، المقرونة بقصد الخير و النفع لهم، فينضوون تحت راية التوحيد و يكفون عن الظلم و الفساد، قال جماعة من الأعيان و الأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۸

مصالحهم بسبب يقظة الناس و انتباههم، و يرون الدين مانعا من عبثهم و مجونهم و شهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحة و قحة: نحن نراك فى ضلال واضح قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و «الملأ» تطلق عادة على الجماعة التى تختار عقيدة و فكرة واحدة، و يملأ اجتماعها و جلالها الظاهرى عيون الناظرين، لأن مادة «الملأ» أصلا من «الملء»، و قد استعملها القرآن على الأغلب فى الجماعات الأنانية المستبدة ذات المظهر الأنيق و الباطن الفاسد الملوث بالأوضاد و الشرور، و الذين يملأون ساحات المجتمع المختلفة بوجودهم.

و لقد جابه نوح عليه السلام تعنتهم و خشونتهم بلحن هادئ و لهجة متينة تطفح بالمحبّة و الرحمة، فقال فى معرض الردّ عليهم: أنا

لست بضال، بل ليست فى أية علامة للضلال، و لكنّى مرسل من اللّه قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ

و هذه إشارة إلى أنّ الأرباب التى تعبدوها و تفترضون لكل واحد منها مجالا للسيادة و الحاكمية، مثل إله البحر، إله السماء، إله السلام و الحرب، و ما شاكل ذلك، كله لا- أساس لها من الصحة، و رب العالمين ما هو إلّا اللّه الواحد الذى خلقها جميعا و أوجدها من العدم.

ثمّ إنّ هدفى إنّما هو إبلاغ ما حمّلت من رسالة أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي

و لن آلو جهدا فى تقديم النصح لكم، و قصد نفعكم، و إيصال الخير إليكم وَ أَنْصَحُ لَكُمْ

«أنصح» من مادة «نصح» يعنى الخلوص و الغلو عن الغش و عن الشىء الدخيل، لهذا يقال للعسل الخالص: ناصح العسل، ثمّ أطلقت هذه اللفظة على الكلام الصادر عن سلامة نية، و بقصد الخير، و من دون خداع و مكر.

ثمّ أضاف تعالى وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۹

إنّ هذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد فى مقابل معارضاتهم و مخالفتهم، و كأنّه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهية أليمة تنتظر العصاة لا- تعلمون شيئا عنها، أو تكون إشارة إلى لطف اللّه و رحمته، و تعنى أنّكم إذا أطعتم اللّه، و كففتم عن تعنتكم، فإنّى أعلم مثوبات عظيمة لكم لا تعلمونها و لم تقفوا لحدّ الآن على سعتها. أو تكون إشارة إلى أنّنى إذا كنت قد كلفت بهدايتكم فإنّنى أعلم أمورا عن اللّه العظيم و عن أوامره لا- تعرفونها، و لهذا يجب أن تطيعونى و تتبعونى. و لا- مانع من أن تكون كل هذه المعانى مقصودة و مجتمعة فى مفهوم الجملة الحاضرة.

و فى الآية اللاحقة نقرأ لنوح كلاما آخر قاله فى مقابل استغراب قومه من أنّه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملا- لمسؤولية إبلاغ الرسالة الإلهية، إذ قال: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ، وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

يعنى: أىّ شىء فى هذه القضية يدعو إلى الاستغراب و التعجب، لأنّ الإنسان الصالح هو الذى يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة أحسن من أى كائن آخر. هذا مضافا إلى أنّ الإنسان هو القادر على قيادة البشر، لا الملائكة و لا غيرهم.

و لكن بدل أن يقبلوا بدعوة مثل هذا القائد المخلص الواعى كذبه الجميع، فأرسل اللّه عليهم طوفانا فغرق المكذبون و نجا فى السفينة نوح و من آمن فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا.

و فى خاتمة الآية بين دليل هذه العقوبة الصعبة، و أنّه عمى القلب الذى منعهم عن رؤية الحق، و أتباعه إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ ۵۴].

و هذا العمى القلبى كان نتيجة أعمالهم السيئة و عنادهم المستمر، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۰

التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا بقى فى الظلام مدة طويلة، أو أغمض عينيه لسبب من الأسباب و امتنع عن النظر مدة من الزمن، فإنّه سيفقد قدرته على الرؤية تدريجا و سيصاب بالعمى فى النهاية.

و هكذا سائر أعضاء البدن إذا تركت الفعالية و العمل مدّة من الزمن يبست و تعطلت عن العمل نهائيا.

و بصيرة الإنسان هى الأخرى غير مستثناة عن هذا القانون، فالتغاضى المستمر عن الحقائق، و عدم استخدام العقل و التفكير فى فهم الحقائق و الواقعيات بصورة مستمرة، يضعف بصيرة الإنسان تدريجا إلى أن تعمى عين القلب و العقل فى النهاية تماما.

هذه لمحة عن قصة نوح، و أمّا بقية هذه القصّة و كيفية وقوع الطوفان و تفاصيلها الأخرى، فسوف نشير إليها فى السور التى أشرنا إليها فى مطلع هذا البحث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۱

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۶۵ الى ۷۲]

اشارة

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۶۵) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۶۶) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۷) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (۶۸) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۶۹)

قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷۰) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۷۱) فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ (۷۲)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۲

التّفسير

لمحة عن قصّة قوم هود:

عقيب ذكر رسالة نوح و الدروس الغنية بالعبر الكامنة فيها، عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحة سريعة عن قصّة نبى آخر من الأنبياء العظام، و هو النّبى هود عليه السلام، و ذكر ما جرى بينه و بين قومه.

و هذه القصّة ذكرت فى سور أخرى من القرآن الكريم مثل سورة «الشعراء» و سورة «هود» التى تناولت هذه القصّة بشيء من التفصيل، و أمّا فى الآيات الحاضرة فقد ذكر شيء مختصر عمّا دار بين هود و المعارضين له و نهايتهم.

يقول تعالى أوّلا: و لقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هودا وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً.

و قوم «عاد» كانوا أمّة تعيش فى أرض «اليمن» و كانت أمّة قوية من حيث المقدرة البدنية و الثروة الوافرة التى كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة و الرعى، و لكنّها كانت متخمة بالانحرافات الاعتقادية و بخاصّة الوثنية و المفاسد الأخلاقية المتفشية بينهم.

و قد كلّف «هود» الذى كان منهم- و كان يرتبط بهم بوشيجة القربى- من جانب اللّه بأن يدعوهم إلى الحق و مكافحة الفساد، و لعل التعبير ب «أخاهم» إشارة إلى هذه الوشيجة النسبية بين هود و قوم عاد.

ثمّ إنّه يحمل أيضا أن يكون التعبير ب «الأخ» فى شأن النّبى هود، و كذا فى شأن عدّة أشخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح عليه السلام (سورة الشعراء الآية ۱۰۶) و صالح (سورة الشعراء الآية ۱۴۲) و لوط (سورة الشعراء الآية ۱۶۱) و شعيب (سورة الأعراف الآية ۸۵) إنّما هو لأجل أنّهم كانوا يتعاملون مع قومهم فى منتهى الرحمة، و المحبّة مثل أخ حميم، و لا يألون جهدا فى إرشادهم و هدايتهم و دعوتهم إلى الخير و الصلاح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۳

إنّ هذه الكلمة تستعمل فى من يعطف على أحد أو جماعة غاية العطف، و يتحرق لهم غاية التحرق، مضافا إلى أنّها تحكى عن نوع من التساوى و نفى أى رغبة فى التفوق و الزعامة، يعنى أن رسل اللّه لا يحملون فى نفوسهم أية دوافع شخصية فى صعيد هدايتهم، إنما يجاهدون فقط لانقاد شعوبهم و أقوامهم من ورطة الشقاء.

و على كل حال، فإنّ من الواضح و البيّن أنّ التعبير ب «أخاهم» ليس إشارة إلى الأخوة الدينية مطلقا، لأنّ هؤلاء الأقوام لم تستجب-

فی الأغلب- لدعوة أنبیائها الإصلاحیة.

ثمّ یذکر تعالى أنّ هود شرع فی دعوته فی مسألة التوحید و مکافحة الشرک و الوثنیة: قالَ یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ

و لکن هذه الجماعة الأنانیة المستکبرة، و بخاصّة أغنیاؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، و الذین یعبّر عنهم القرآن بلفظة «الملأ» باعتبار أنّ ظاهرهم یملأ العیون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح لنوح علیه السلام قالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراکَ فِی سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّکَ مِنَ الْکاذِبِینَ

«السفاهة» و خفة العقل کانت تعنی فی نظرهم أن ینهض أحد ضد تقالید بیئته مهما کانت تلکم التقالید خاویة باطلة، و یخاطر حتى بحیاته فی هذا السبیل.

لقد کانت السفاهة فی نظرهم و منطقهم هی أن لا یوافق المرء على تقالید مجتمعه و سننه البالیة، بل یثور على تلک السنن و التقالید، و یستقبل برحابة صدر کل ما تخبئه له تلک الثورة و المجابهة.

و لکن هودا- و هو یتحلى بالوقار و المتانة التی یتحلى بها الأنبیاء و الهداة الصادقون الطاهرون- من دون أن ینتابه غضب، أو تعتریه حالة یأس قالَ یا قَوْمِ لَیْسَ بِی سَفاهَةٌ وَ لکِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ

ثمّ إنّ هودا أضاف: إنّ مهمته هی إبلاغ رسالات اللّه إلیهم، و إرشادهم إلى ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۴

فیه سعادتهم و خیرهم، و انقادهم من ورطة الشرک و الفساد، کل ذلک مع کامل الإخلاص و النصح و الأمانة و الصدق أُبَلِّغُکُمْ رِسالاتِ رَبِّی وَ أَنَا لَکُمْ ناصِحٌ أَمِینٌ

ثمّ إنّ هودا أشار- فی معرض الرّد على من تعجب من أن یبعث اللّه بشرا رسولا- إلى نفس مقولة نوح النّبی لقومه: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَکُمْ ذِکْرٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْکُمْ لِیُنْذِرَکُمْ أی هل تعجبون من أن یرسل اللّه رجلا من البشر نبیّا، لیحذرکم من مغبة أعمالکم، و ما ینتظرکم من العقوبات فی مستقبلکم؟

ثمّ إنّه استثارة لعواطفهم الغافیة، و إثارة لروح الشکر فی نفوسهم، ذکر قسما من النعم التی أنعم اللّه تعالى بها علیهم، فقال: وَ اذْکُرُوا إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ فقد ورثتم الأرض بکل ما فیها من خیرات عظیمة بعد أن هلک قوم نوح بالطوفان بسبب طغیانهم و بادوا.

و لم تکن هذه هی النعمة الوحیدة، بل وهب لکم قوة جسدیة عظیمة وَ زادَکُمْ فِی الْخَلْقِ بَصْطَةً.

إنّ جملة زادَکُمْ فِی الْخَلْقِ بَصْطَةً یمکن أن تکون- کما ذکرنا- إشارة إلى قوة قوم عاد الجسدیة المتفوقة، لأنّه یستفاد من آیات قرآنیة عدیدة، و کذا من التواریخ، أنّهم کانوا ذوی هیاکل عظیمة قویة و کبیرة، کما نقرأ ذلک من قولهم فی سورة «فصلت» الآیة ۱۵ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً و فی الآیة (۷) من سورة الحاقة نقرأ- عند ذکر ما نزل بهم من البلاء بذنوبهم- فَتَرَى الْقَوْمَ فِیها صَرْعى کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِیَةٍ حیث شبه جسومهم بجذوع النخل الساقطة على الأرض.

و یمکن أن تکون إشارة- أیضا- إلى تعاظم ثروتهم و إمکانیاتهم المالیة، و مدنیتهم الظاهریة المتقدمة، کما یستفاد من آیات قرآنیة و شواهد تاریخیة أخرى، و لکن الاحتمال الأوّل أنسب مع ظاهر الآیة.

و فی خاتمة الآیة یذکّر تلک الجماعة الأنانیّة بأن یتذکروا نعم اللّه لتستیقظ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۵

فیهم روح الشکر فیخضعوا لأوامره، علّهم یفلحون فَاذْکُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ

و لکن فی مقابل جمیع المواعظ و الإرشادات المنطقیة، و التذکیر بنعم اللّه و مواهبه، انبرت تلک الثلة من الناس الذین کانوا یرون

مکاسبهم المادیة فی خطر، و قبول دعوة النّبی تصدّهم عن التمادی فی أهوائهم و شهواتهم، انبرت إلی المعارضة، و قالوا بصراحة: إنّک جئت تدعونا إلی عبادة اللّه وحده و ترک ما کان أسلافنا یعبدون دهرا طویلا، کلّا، لا یمکن هذا بحال قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما کانَ یَعْبُدُ آباؤُنا؟

لقد کان مستوی تفکیر هذه الثّلة منحطا جدّا- کما تلاحظ- إلی درجة أنّهم کانوا یستوحشون من عبادة اللّه وحده، بینما یعتبرون تعدّد الآلهة و المعبودات مفخرة من مفاخرهم.

و الجدیر بالتأمل أنّ دلیلهم فی هذا المجال لم یکن إلّا التقلید الأعمی لما کان علیه الآباء و الأسلاف، و إلّا فکیف یمکن أن یبرروا خضوعهم لقطعات من الصخور و الأخشاب؟! و فی النهایة، و لأجل أن یقطعوا أمل هود فیهم تماما، و یقولوا کلمتهم الأخیرة قالوا: إذا کان حقا و واقعا ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أی أنّنا لا نخشی تهدیداتک أبدا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ

و عند ما بلغ الحوار إلی هذه النقطة، و أطلق أولئک المتعنتون کلمتهم الأخیرة الکاشفة عن رفضهم الکامل لدعوة هود، و أیس هود- هو الآخر- من هدایتهم تماما، قال: إذن ما دام الأمر هکذا فسیحلّ علیکم عذاب ربّکم قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ

و «الرّجس» فی الأصل بمعنی الشیء غیر الطاهر، و یری بعض المفسّرین أنّ لأصل هذه اللفظة معنی أوسع، فهو یعنی کل شیء یبعث علی النفور و التقزز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۶

و القرف، و لهذا یطلق علی جمیع أنواع الخبائث و النجاسات و العقوبات لفظ «الرجس» لأنّ جمیع هذه الأمور توجب نفور الإنسان، و ابتعاده.

و علی کل حال فإنّ هذه الکلمة فی الآیة المبحوثة یمکن أن تکون بمعنی العقوبات الإلهیة، و یکون ذکرها مع جملة «قد وقع» التی هی بصیغة الفعل الماضی إشارة إلی أنّکم قد أصبحتم مستوجبین للعقوبة حتما و قطعا، و أن العذاب سیحل بکم لا محالة.

کما یمکن أن یکون بمعنی النجاسة و تلوث الروح، یعنی أنّکم قد غرقتم فی دوّامة الانحراف و الفساد إلی درجة أنّ روحکم قد دفنت تحت أوزار کثیفة من النجاسات، و بذلک استوجبتم غضب اللّه، و شملکم سخطه.

ثمّ لأجل أن لا یبقی منطق عبادة الأوثان من دون ردّ أضاف قائلا:

أَ تُجادِلُونَنِی فِی أَسْماءٍ سَمَّیْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فهذه براء، و جئتم تجادلوننی فی عبادتها فی حین لم ینزل بذلک أی دلیل من جانب اللّه.

و فی الحقیقة، أنّ هذه الأصنام لا تملک من الألوهیة إلّا أسماء من دون مسمّیات، و هی أسماء من نسج خیالکم و خیال أسلافکم، و إلّا فهی کومة أحجار و أخشاب لا تختلف عن غیرها من أحجار البراری و أخشاب الغابات.

ثمّ قال: فإذا کان الأمر هکذا فلننتظر جمیعا، انتظروا أنتم أن تنفعکم أصنامکم و معبوداتکم و تنصرکم، و أنتظر أنا أن یحلّ بکم غضب اللّه و عذابه الألیم جزاء تعنتکم، و سیکشف المستقبل أی واحد من هذین الانتظارین هو الأقرب إلی الحقیقة و الواقع فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ

و فی نهایة الآیة بیّن القرآن مصیر هؤلاء القوم المتعنتین فی عبارة قصیرة موجزة: فَأَنْجَیْناهُ وَ الَّذِینَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ ما کانُوا مُؤْمِنِینَ أجل، لقد أنجی اللّه هودا و من اتبعه من القوم بلطفه و رحمته، و أمّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۷

الذین کذبوا بآیات اللّه، و رفضوا الانضواء تحت لواء دعوته، و الانصیاع للحق، فقد أبیدوا نهائیا.

و «دابر» فی اللغة بمعنی آخر الشیء و مؤخرته، و بناء علی هذا المفهوم یکون معنی الآیة: أنّنا أبدنا هؤلاء القوم إبادة کاملة و استأصلنا شأفتهم.

(و سوف نبحث بالتفصيل حول قوم عاد و بقية خصوصيات حياتهم و كيفية عقوبة اللّه لهم و العذاب الذى نزل و حلّ بهم عند تفسير سورة هود بإذن اللّه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۸

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۷۳ الى ۷۹]

اشارة

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۷۴) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۷۵) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۷۶) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷۷)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (۷۸) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (۷۹)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۹

التّفسير

قصة قوم صالح و ما فيها من عبر

فى هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النّبى الإلهى العظيم فى قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون فى منطقة جبلية بين الحجاز و الشام، و بهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنية بالعبر حول قوم نوح و هود.

و قد أشير إلى هذا القصة أيضا فى سورة: «هود» و «الشعراء» و «القمر» و «الشمس» و جاءت بصورة أكثر تفصيلا فى سورة «هود» أمّا هذه الآيات فقد أوردت ما دار بين صالح عليه السلام و قومه قوم ثمود، و عن مصيرهم، و عاقبة أمرهم بصورة مختصرة.

فيقول تعالى فى البداية: وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً.

و قد مر بيان العلة فى إطلاق لفظة «الأخ» على الأنبياء عند تفسير الآية (۶۵) من نفس هذه السورة فى قصة هود.

و لقد كانت أوّل خطوة خطاها نبيّهم صالح فى سبيل هدايتهم، هى الدعوة إلى التوحيد، و عبادة اللّه الواحد قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

ثمّ أضاف: إنّه لا يقول شيئا من دون حجة أو دليل، بل قد جاء إليهم ببيّنة من ربّهم قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً.

و «النّاقة» أنثى الإبل، و قد أشير إلى ناقة صالح فى سبعة مواضع من القرآن الكريم ۵۵] و أمّا حقيقة هذه الناقة، و كيف كانت معجزة صالح الساطعة، و آيته المفحمة لقومه، فذلك ما سنبحثه فى سورة هود، فى ذيل الآيات المرتبطة بقوم ثمود بإذن اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۰

على أنّه ينبغى الالتفات إلى أنّ إضافة «الناقة» إلى «اللّه» فى الآيات الحاضرة من قبيل الإضافة التشريفية- كما هو المصطلح- فهى إشارة إلى أنّ هذه الناقة المذكورة لم تكن ناقة عادية، بل كانت لها ميزات خاصّة.

ثمّ إنّه يقول لهم: اتركوا الناقة تأكل فى أرض اللّه و لا تمنعوها فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ و إضافة الأرض إلى «اللّه» إشارة إلى أنّ هذه الناقة لا تزاحم أحدا، فهى تعلف من علف الصحراء فقط، و لهذا يجب أن لا يزاحموها.

ثمّ يقول فى الآية اللاحقة وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أى من جانب لا تنسوا نعم اللّه الكثيرة، و من جانب آخر انتبهوا إلى أنّه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب اللّه بذنوبهم و هلكوا.

ثمّ ركز على بعض النعم الإلهية كالأرض فقال: تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً، وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً، فالأرض قد خلقت بنحو تكون سهولها المستوية و المزودة بالتربة الصالحة لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة لفصل الشتاء و الظروف الجوية القاسية.

و يبدو للنظر من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يغيرون مكان سكناهم فى الصيف و الشتاء، ففى فصل الربيع و الصيف كانوا يعمدون إلى الزراعة و الرعى فى السهول الواسعة و الخصبة، و لهذا كانت عندهم قصور جميلة فى السهول، و عند حلول فصل البرد و الانتهاء من الحصاد يسكنون فى بيوت قوية منحوتة فى قلب الصخور، و فى أماكن آمنة تحفظهم من خطر السيول و العواصف و الاخطار.

و فى ختام الآية يقول تعالى: فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ ۵۶].

ثمّ إنّنا نلاحظ أيضا أنّ جماعة الأغنياء و المترفين ذوى الظاهر الحسن، و الباطن القبيح الخبيث، الذين عبر عنهم بالملإ أخذوا بزمام المعارضة لهذا النّبى الإلهىّ العظيم، و حيث أنّ عددا كبيرا من أصحاب القلوب الطيبة و الأفكار السليمة كانت ترزح فى أسر الأغنياء و المترفين، قد قبلت دعوة النّبى صالح و اتبعته، لهذا بدأ الملأ بمخالفتهم لهؤلاء المؤمنين.

فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: هل تعلمون يقينا أنّ صالحا مرسل من قبل اللّه قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ

على أنّ الهدف من هذا السؤال لم يكن هو تحرى الحق، بل كانوا يريدون بإلقاء هذه الشبهات زعزعة الإيمان فى نفوس من آمن، و إضعاف معنوياتهم، و ظنا منهم بأن هذه الجماهير ستطيعهم و تكف عن متابعة صالح و حمايته، كما كانت مطيعة لهم يوم كانت تحت سيطرتهم و نفوذهم.

و لكن سرعان ما واجهوا ردّ تلك الجموع المؤمنة القاطع، الكاشف عن إرادتها القوية و عزمها على مواصلة طريقها، حيث قالوا: إنّنا لسنا نعتقد بأنّ صالحا رسول من قبل اللّه فحسب، بل نحن مؤمنون أيضا بما جاء به قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ

و لكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم، بل عادوا مرّة أخرى إلى إضعاف معنوية المؤمنين قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ و كانت هذه محاولة منهم لجرّ هؤلاء المستضعفين الى صفوفهم مرّة

أخرى.

كانوا المقدّمين فى المجتمع و الأسوة للآخرين على الدوام بما كانوا يتمتّعون به من قوة و ثراء، لهذا كانوا يظنون أنّهم بإظهار الكفر سيكونون أسوة للآخرين أيضا، و أن الناس سوف يتبعونهم كما كانوا يفعلون ذلك من قبل، و لكنّهم سرعان ما وقفوا على خطأهم، و علموا أنّ الناس قد اكتسبوا بالإيمان باللّه على شخصيّة حضارية جديدة و استقلال فكرى، و قوة إرادة.

و الجدير بالانتباه أنّ الأغنياء و الملأ وصفوا فى الآيات الحاضرة بالمستكبرين، و وصفت الجماهير الكادحة المؤمنة بالمستضعفين، و هذا يفيد الفريق الأوّل قد وصلوا بشعورهم بالتفوق، و غصب حقوق الناس و استغلالهم إلى مرتبة ما يسمى فى لغة العصر ب «الطبقة المستغلّة»، و الفريق الآخر بالطبقة المستغلّة.

عند ما يئس الملأ و الأغنياء المستكبرون من زعزعة الإيمان فی نفوس الجماهير المؤمنة بصالح عليه السلام، و من جانب آخر رأوا أنّ وساوسهم و شائعاتهم لا تجدی نفعا مع وجود «الناقة» التی كانت تعدّ معجزة صالح عليه السلام، لهذا قرّروا قتل الناقة، مخالفين بذلک أمر ربّهم فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ۵۷].

و لم يكتفوا بهذا أيضا، بل أتوا إلى صالح نفسه و بصراحة قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

يعنی أنّنا لا نخاف تهديداتک مطلقا، و أن هذه التهديدات جميعها لا أساس لها ... و الحقيقة أنّ هذا الكلام نوع من الحرب النفسية ضد صالح عليه السلام، بهدف إضعاف روحيته و روحية المؤمنين به.

و عند ما وصل المعارضون بطغيانهم و تمرّدهم إلى آخر درجة، و أطفأوا فی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۳

نفوسهم آخر بارقة أمل فی الإيمان، حلّت بهم العقوبة الإلهية طبقا لقانون انتخاب الأصلح، و إهلاک و محو الكائنات الفاسدة و المفسدة فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ

إنّها كانت زلزلة و رجفة عظيمة تهاوت على أثرها قصورهم و بيوتهم القوية، و اندثرت حياتهم الجميلة، حتى أنّه لم يبق منهم إلّا أجساد ميتة ... هكذا أصبحوا.

و «جاثم» فی الأصل مشتق من مادة «جثم» بمعنى القعود على الركب، و التوقف فی مكان واحد، و لا يبعد أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّ الزلزلة و الرجفة جاءتهم و هم فی حالة نوع هنيئة، فجلسوا على أثرها فجأة، و بينما كانوا قاعدين على ركبهم لم تمهلهم الرجفة، بل ماتوا و هم على هذه الهيئة، إمّا خوفا، و إمّا بسبب انهيار الجدران عليهم، و إمّا بفعل الصاعقة التی رافقت الزلزال!!

بأیّ شیء أهلک قوم ثمود:

و هنا يطرح سؤال و هو: يستفاد من الآية الحاضرة أنّ الشیء الذی أهلک هؤلاء المتمردون كان هو الزلزال، و لكن يظهر من الآية (۱۳) من سورة فصلت أنّه كان الصاعقة، بينما نقرأ فی الآية (۱۵) من سورة الحاقة فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ يعنی أنّ قوم ثمود اهلكوا بشیء مدمّر، فهل هناک تناقض بين هذه التعابير؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص فی جملة واحدة، و هی جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنّه يلازم بعضها بعضا، فكثيرا ما تحدث الرجة الأرضية فی منطقة ما بفعل صاعقة عظيمة، أی أنّه تحدث صاعقة أوّلا، ثمّ تحدث على أثرها رجة أرضية.

و أمّا «الطاغية» فهی بمعنى كائن تجاوز عن حدّه، و هذا ينسجم مع الزلزلة و كذا مع الصاعقة، و لهذا فلا يوجد أی تناقض بين الآيات.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۴

و فی آخر آية من الآيات المبحوثة يقول: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ

أی بعد هذه القضية تولى صالح و هو يقول: لقد أديت رسالتی إليكم، و نصحت لكم و لكنّكم لا تحبّون من ينصحكم.

و هنا يطرح سؤال آخر، و هو: هل كلام صالح هذا كان بعد هلاک المتمردين من قومه، أو أنّ هذا الكلام هو الحوار الأخير الذی جرى بينه و بين قومه قبيل هلاک القوم و موتهم، أی بعد إتمام الحجّة عليهم ... و لكن ذكر فی عبارة القرآن بعد قضية هلاكهم و موتهم بالرجفة؟

هناک احتمالان: و الحقيقة أنّ الاحتمال الثّانی أنسب مع ظاهر الخطاب، لأنّ الحديث مع قوم ثمود يفيد أنّهم كانوا أحياء. و لكن الاحتمال الأوّل هو أيضا غير بعيد، لأنّه كثيرا ما تتم محادثة أرواح الموتى بمثل هذا الكلام ليعتبر الباقون الحاضرون، تماما كما نقرأ

نظير ذلك فى تاريخ الإمام على عليه السلام فإنّه عليه السلام وقف- بعد معركة الجمل- عند جسد طلحة و قال: «ويل أمّك، طلحة! لقد كان لك قدم لو نفعك، و لكن الشيطان أضلك فأزلك، فعجلك إلى النّار».[۵۸]

كما نقرأ- أيضا- فى أواخر نهج البلاغة أنّ الإمام عليا عليه السلام عند ما عاد من معركة صفّين وقف عند مدخل الكوفة و التفت إلى مقابر الموتى، فسلّم على أرواح الماضين أوّلا، ثمّ قال: «أنتم السابقون و نحن اللاحقون».

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۰ الى ۸۴]

اشارة

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۸۰) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۸۴)

التّفسير

مصير قوم لوط المؤلم:

فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلا آخر غنيا بالعبر من قصص الأنبياء، و بذلك يواصل هدف الآيات السابقة و يكمله، و القصة هذه المرّة هى قصة النّبى الإلهى العظيم «لوط».

و لقد ذكرت هذه القصة فى عدّة سور من القرآن الكريم، منها سورة «هود» و «الحجر» و «الشعراء» و «الأنبياء» و «النمل» و «العنكبوت».

و هنا يشير القرآن الكريم- ضمن آيات خمس- إلى خلاصة سريعة عن

الحوار الذى دار بين لوط، و قومه.

و يظهر أنّ الهدف الوحيد فى هذه السورة (الأعراف) هو تقديم عصارات و خلاصات من مواجهات الأنبياء و حواراتهم مع الجماعات المتمردة من أقوامهم، و لكن الشرح الكامل لقصصهم موكول إلى السور القرآنية الأخرى (و سوف نأتى بقصّة هذه الجماعة بصورة مفصلة فى سورة هود و الحجر إن شاء اللّه).

الآية الأولى تقول فى البدء: اذكروا و إذ قال لوط لقومه: أ ترتكبون فعلا قبيحا لم يفعله أحد قبلكم من الناس؟ وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ ! فهذه المعصية مضافا إلى كونها عملا قبيحا جدّا- لم يفعلها أحد قبلكم من الأقوام- و بذلك يكون قبح هذا العمل الشنيع مضاعفا، لأنّه أصبح أساسا لسنّة سيئة، و سببا لوقوع الآخرين فى المعصية عاجلا أو آجلا.

و يستفاد من الآية الحاضرة أنّ هذا العمل القبيح ينتهى- من الناحية التأريخية- إلى قوم لوط، و كانوا قوما أثرياء مترفين شهوانيين، سنذكر أحوالهم بالتفصيل فى السور التى أشرنا إليها إن شاء اللّه تعالى.

و فى الآية اللاحقة يشرح المعصية التى ذكرت فى الآية السابقة و يقول:

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ.

و أى انحراف أسوأ و أقبح من أن يترك الإنسان وسيلة توليد النسل و إنجاب الأولاد، و هو مقاربة الرجل للمرأة، و الذى أودعه اللّه فى كيان كل إنسان بصورة غريزية طبيعية، و يعمد إلى «الجنس الموافق»، و يفعل بالتالى ما يخالف- أساسا- الفطرة، و التركيب الطبيعى للجسم و الروح الإنسانيين، و الغريزة السوية الصحيحة، و تكون نتيجة عقم الهدف المتوخى من المقاربة الجنسية.

و بعبارة أخرى: يكون أثره الوحيد، هو الإشباع الكاذب و المنحرف للحاجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۷

الجنسية، و القضاء على الهدف الأصلى، و هو استمرار النسل البشرى.

ثمّ يقول تعالى فى نهاية الآية: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أى تجاوزتم حدود اللّه، و وقعتم فى متاهة الانحراف و التجاوز عن حدود الفطرة.

و يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى أنّهم لم يسلكوا سبيل الإسراف فى مجال الغريزة الجنسية فحسب، بل تورطوا فى مثل هذا الانحراف و الإسراف فى كل شى، و فى كل عمل.

و الجدير بالذكر أنّ الآية الأولى ذكرت الموضوع بصورة مجملة، و لكن الآية الثّانية ذكرته بصورة مبيّنة و واضحة، و هذا هو أحد فنون البلاغة عند بيان القضايا الهامة، فإذا فعل أحد عملا شيئا قال له مرشده و وليه الواعى الحكيم، لبيان أهمية الموضوع: أنت ارتكبت ذنبا عظيما، فإذا قال له الشخص، ماذا فعلت؟ يقول له مرّة أخرى: أنت ارتكبت ذنبا عظيما، و فى المآل يكشف القناع عن فعله و يشرحه.

إنّ هذا النوع من البيان يهيء فكر الطرف الآخر و نفسه للوقوف تدريجا على شناعة عمله القبيح و خطورته، و هو أبلغ فى التأثير.

و فى الآية اللاحقة أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت و غير المنطقى لقوم لوط، و قال: إنّهم لم يكن لديهم أى جواب فى مقابل دعوة هذا النّبى الناصح المصلح، إلّا أن قالوا: أخرجوا لوطا و أتباعه من مدينتكم. و لكن ما كان ذنبهم؟ إنّ ذنبهم هو أنّهم كانوا جماعة طاهرين لم يلوثوا أنفسهم بأدران المعصية وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ

و هذا ليس موضع تعجب و استغراب أن يطرد جماعة من العصاة الفسقة أشخاصا طاهرين لا لشيء إلّا لأنّهم أنقياء الجيب، يجتنبون المنكرات، و ذلك لأنّ هؤلاء القوم يعتبرون هؤلاء مزاحمين لشهواتهم، فكانت نقاط القوة لدى أولئك الأطهار نقاط ضعف و عيب فى نظرهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۸

و يحتمل أيضا فى تفسير جملة إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ أنّ قوم لوط كانوا يريدون بهذه العبارة أن يتهموا ذلك النّبى العظيم و أتباعه الأتقياء بالرياء و التظاهر بالتطهر، كما سمعنا و قرأنا فى الأشعار كثيرا حيث يتهم الخمارون الأشخاص الطيبين النزيهين بالرياء و التظاهر، و يعتبرون (خرفتهم الملوثة بالخمر) أفضل من (سجادة الزاهد) و هذا نوع من التزكية الكاذبة للنفس التى يتذرع بها هؤلاء العصاة الأشقياء.

مع ملاحظة كل ما قيل فى الآيات الثلاثة أعلاه، يستطيع كل قاض منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات و الأقوام الذين يتوسلون- فى مقابل إصلاح المصلحين و نصيحة الناصحين، و دعوة نبى إلهىّ عظيم- بالتهديد و الاتهام، و لا يعرفون إلّا لغة القوة و القهر، و لهذا قال اللّه تعالى فى الآية اللاحقة:

فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ ۵۹] أى لما بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطا و أتباعه الواقعين و أهله الطيبين، إلّا زوجته التى كانت على عقيدة قومه المنحرفين فتركناها.

قال البعض: إنّ كلمة «أهل» و إن كان المتعارف إطلاقها على العائلة، و لكن فى الآية الحاضرة استعملت فى الأتباع الصادقين- أيضا- يعنى أنّهم كانوا معدودين جزءا من أهله و عائلته أيضا، و لكن يستفاد من الآية (۳۶) من سورة الذاريات أنّه لم يؤمن بلوط و دعوته أحد من قومه قط إلّا عائلته و أقرباؤه، و على هذا الأساس يكون لفظ الأهل هنا مستعملا فى معناه الأصلى، أى أقرباؤه.

من الآیة (۱۰) من سورة التحریم إجمالا أنّ زوجة لوط کانت فی البدایة امرأة صالحة، و لکنّها سلکت سبیل الخیانة فیما بعد، و جرأت أعداء لوط علیه.

و فی آخر آیة من الآیات إشارة قصیرة جدا- و لکن ذات مغزی و معنی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۹

عمیق- إلی العقوبة الشدیدة و الرهیبة التی حلّت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالی:

وَ أَمْطَرْنا عَلَیْهِمْ مَطَراً أیّ مطر ... إنّه کان مطرا عجیبا حیث انهالت علیهم الشهب و النیازک کالمطر و أبادتهم عن آخرهم!! إنّ هذه الآیة و إن لم تبیّن نوع المطر الذی نزل علی القوم، و لکن من ذکر لفظة «المطر» بصورة مجملة اتضح أنّ ذلک المطر لم یکن مطرا عادیا، بل کان مطرا من الحجارة، کما سیأتی فی سورة هود الآیة (۸۳).

فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِینَ

إنّ هذا الخطاب و إن کان موجها إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکنّه من الواضح أنّ الهدف هو اعتبار جمیع المؤمنین به.

هذا و سیأتی تفصیل قصّة هذه الجماعة، و کذا مضار اللواط المتعددة، و حکمه فی الشریعة الإسلامیة، عند تفسیر آیات سورة «هود» و «الحجر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۰

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۸۵ الی ۸۷]

اشارة

وَ إِلی مَدْیَنَ أَخاهُمْ شُعَیْباً قالَ یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ قَدْ جاءَتْکُمْ بَیِّنَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَوْفُوا الْکَیْلَ وَ الْمِیزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیاءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۸۵) وَ لا تَقْعُدُوا بِکُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْکُرُوا إِذْ کُنْتُمْ قَلِیلاً فَکَثَّرَکُمْ وَ انْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ (۸۶) وَ إِنْ کانَ طائِفَةٌ مِنْکُمْ آمَنُوا بِالَّذِی أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ یُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّی یَحْکُمَ اللَّهُ بَیْنَنا وَ هُوَ خَیْرُ الْحاکِمِینَ (۸۷)

التّفسیر

رسالة شعیب فی مدین:

فی هذه الآیات یستعرض القرآن الکریم فصلا خامسا من قصص الأقوام الماضین، و مواجهة الأنبیاء العظام معهم، و هذا الفصل یتناول قوم شعیب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۱

بعث شعیب علیه السلام الذی ینتهی نسبه- حسب کتب التاریخ- إلی إبراهیم عبر خمس طبقات، إلی أهل مدین. و هی مدینة من مدن الشام، کان أهلها أهل تجارة و ترف قد سادت فیهم الوثنیة، و کذا الحیلة، و التطفیف فی المکیال و المیزان، و البخس فی المعاملة.

و قد جاء تفصیل هذه المواجهة بین هذا النّبی العظیم و بین أهل مدین، فی سور متعددة من القرآن الکریم، و بخاصّة فی سورة «هود» و «الشعراء»، و نحن تبعا للقرآن الکریم سنبحث بتفصیل هذه القصّة فی ذیل آیات سورة هود إن شاء اللّه. أمّا هنا فنذکر شیئا عن هذه

القصّة باختصار طبقا للآيات المطروحة هنا.

فی البداية يقول سبحانه: و لقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً.

روى جماعة من المفسّرين، مثل العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان، و الفخر الرازى فى تفسيره المعروف، أن «مدين» فى الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، و حيث أنّ أبناءه و أحفاده سكنوا فى أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض «مدين».

هذا و قد أوضحنا السرّ فى استعمال لفظة «أخاهم» فى الآية (۶۵) من هذه السورة.

ثمّ إنّه تعالى أضاف: إنّ شعيبا مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسألة التوحيد و قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

و قال: إنّ هذا الحكم مضافا إلى كونه من وحى العقل، ثابت بواسطة الأدلة الواضحة التى جاءتهم من جانب اللّه أيضا: قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

أمّا أنّ هذه «البيّنة» ما هى؟ فإنّه لم يرد كلام حولها فى الآيات الحاضرة، و لكن الظاهر أنّها إشارة إلى معجزات شعيب عليه السلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۲

ثمّ أنّه عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ فى محاربة المفاسد الاجتماعية و الأخلاقية و الاقتصادية السائدة فيهم، و فى البدء منعهم من ممارسة التطفيف، و الغش فى المعاملة، يقول: فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ۶۰] و واضح أن تسرّب أىّ نوع من أنواع الخيانة و الغش فى المعاملات يزعزع بل و يهدم أسس الطمأنينة و الثقة العامّة التى هى أهم دعامة لاقتصاد الشعوب و تلحق بالمجتمع خسائر غير قابلة للجبران. و لهذا السبب كان أحد الموضوعات الهامّة التى ركز عليها شعيب هو هذا الموضوع بالذات.

ثمّ يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، و هو الإفساد فى الأرض بعد أن أصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، و فى ضوء الإيمان فقال: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها.

و من المسلّم أنّه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد و من الإفساد، سواء كان فسادا أخلاقيا، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف فى آخر الآية قائلا: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

و كأنّ إضافة عبارة: «إن كنتم مؤمنين» إشارة إلى أنّ هذه التعاليم الاجتماعية و الأخلاقية إنما تكون متجذرة و مثمرة إذا كانت نابعة من الإيمان و مستمدة من نوره. أمّا لو كانت قائمة على أساس سلسلة من ملاحظة المصالح المادية، لم يكن لها بقاء و دوام.

و فى الآية اللاحقة يشير إلى رابع نصيحة لشعيب، و هى منعهم عن الجلوس على الطرقات و تهديد الناس، و صدّهم عن سبيل اللّه، و تضليل الناس بإلقاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۳

الشبهات و تزييف طريق الحق المستقيم فى نظرهم، فقال: وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ، وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَ تَبْغُونَها عِوَجاً.

و أمّا أنّه كيف كانوا يهدّدون الراغبين فى الإيمان، فقد ذكر المفسّرون فى هذا المجال احتمالات متعددة، فالبعض احتمل أنّه كان ذلك عن طريق التهديد بالقتل، و بعض آخر احتمل أنّه كان عن طريق قطع الطريق و نهب أموال المؤمنين، و لكن المناسب مع بقية العبارات الأخرى فى الآية هو المعنى الأوّل.

و فى ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التى ذكّر فيها قومه بالنعم الإلهية لتفعيل حسّ الشكر فيهم، فيقول: تذكّروا عند ما كنتم أفرادا قلائل فزادكم اللّه فى الأفراد و ضاعف من قوتكم: وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ

ثمّ يلفت نظرهم إلى عاقبة المفسدين و نهاية أمرهم و مصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم فى السلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

و یستفاد من الجملة الأخیرة أنّه علی العکس من الدعایات غیر المدروسة لتحدید النسل فی هذه الأیّام فإنّ کثرة أفراد المجتمع، یمکن أن تکون منشأ القوّة و عظمة و تقدم المجتمع فی أکثر الموارد، طبعا شریطة أن تضمن معیشتهم وفقا لبرامج منظمة، من الناحیة المادیة و المعنویة.

إنّ آخر آیة من الآیات المبحوثة هنا بمثابة إجابة علی بعض استفهامات المؤمنین و الکفار من قومه، لأنّ المؤمنین- علی أثر الضغوط التی کانت تتوجه إلیهم من جانب الکفار- کان من الطبیعی أن یطرحوا هذا السؤال علی نبیّهم: إلی متی نبقی فی العذاب و نتحمل الأذی؟

و کان معارضوهم- أیضا- و الذین تجرأوا لأنّهم لم تصبهم العقوبة الإلهیة فورا یقولون: إذا کنت من جانب اللّه حقّا فلما ذا لا یصیبنا شیء رغم کل ما نقوم به

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۴

من إیذاء و معارضة؟ فیقول لهم شعیب: إن کانت طائفة منکم آمنت بما بعثت به، و أعرض أخری فلا ینبغی أن یکون ذلک سببا لغرور الکفار، و یأس المؤمنین، اصبروا حتی یحکم اللّه بیننا و بینهم. فالمستقبل سوف یکشف عمن یکون علی حق، و من یکون علی باطل وَ إِنْ کانَ طائِفَةٌ مِنْکُمْ آمَنُوا بِالَّذِی أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ یُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّی یَحْکُمَ اللَّهُ بَیْنَنا وَ هُوَ خَیْرُ الْحاکِمِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۵

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۸۸ الی ۸۹]

اشارة

قالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّکَ یا شُعَیْبُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَکَ مِنْ قَرْیَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ کُنَّا کارِهِینَ (۸۸) قَدِ افْتَرَیْنا عَلَی اللَّهِ کَذِباً إِنْ عُدْنا فِی مِلَّتِکُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما یَکُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِیها إِلاَّ أَنْ یَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً عَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَیْرُ الْفاتِحِینَ (۸۹)

التّفسیر

هذه الآیات تستعرض ردّ فعل قوم شعیب مقابل کلمات هذا النّبی العظیم المنطقیة، و حیث أنّ الملا و الأثریاء المتکبرین فی عصره کانوا أقویاء فی الظاهر، کان رد فعلهم أقوی من رد فعل الآخرین.

إنّهم کانوا- مثل کل المتکبرین المغرورین یهددون شعیبا معتمدین علی قوتهم و قدرتهم، کما یقول القرآن الکریم: قالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّکَ یا شُعَیْبُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَکَ مِنْ قَرْیَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنا.

قد یتصور البعض من ظاهر هذا التعبیر «لتعودن إلی ملتنا» أنّ شعیبا کان قبل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۶

ذلک فی صفوف الوثنیین، و الحال لیس کذلک، بل حیث أنّ شعیبا لم یکن مکلّفا بالتبلیغ، لذلک کان یسکت علی أعمالهم، و کانوا یظنون أنّه کان علی دین الوثنیة فی حین أنّ أحدا من النّبیین لم یکن وثنیا حتی قبل زمان النّبوة، و إنّ عقول الأنبیاء و درایتهم کانت أسمی من أن یرتکبوا مثل هذا العمل غیر المعقول و السخیف، هذا مضافا إلی أنّ هذا الخطاب لم یکن موجها إلی شعیب وحده، بل یشمل المؤمنین من أتباعه- أیضا- و یمکن أن یکون هذا الخطاب لهم.

علی أن تهدید المعارضین لم یقتصر علی هذا، بل کانت هناک تهدیدات أخری سنبحثها فی سائر الآیات المرتبطة بشعیب.

و قد أجابهم شعيب فى مقابل كل تهديداتهم و خشونتهم تلك بكلمات فى غاية البساطة و الرفق و الموضوعية، إذ قال لهم: و هل فى إمكانكم أن تعيدونا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين فى ذلك: قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ ۶۱]؟

و فى الحقيقة يريد شعيب أن يقول لهم: هل من العدل أن تفرضوا عقيدتكم علينا، و تكرهوننا على أن نعتنق دينا ظهر لنا بطلانه و فساده؟ هذا مضافا إلى أنّه ما جدوى عقيدة مفروضة، و دين جبريّ؟! و فى الآية اللاحقة يواصل شعيب قوله: قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها.

إن هذه الجملة فى الحقيقة توضيح للجملة السابقة المجملة، و مفهوم هذه الجملة هو: نحن لم نترك الوثنية بدافع الهوى و الهوس، بل أدركنا بطلان هذه العقيدة بجلاء، و سمعنا الأمر الإلهى فى التوحيد بأذن القلب، فإذا عدنا من عقيدة التوحيد إلى الشرك- و الحال هذه- نكون حينئذ قد افترينا على اللّه عن وعى و شعور، و من المسلّم أنّ اللّه سيعاقبنا على ذلك بشدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۷

ثمّ يضيف شعيب قائلا: وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ

و مراد شعيب من هذا الكلام هو أنّنا تابعون لأمر اللّه، و لا نعصيه قيد شعرة، فعودتنا غير ممكنة إلّا إذا أمر اللّه بذلك.

ثمّ من دون إبطاء يضيف: إنّ اللّه يأمر بمثل هذا، لأنّ اللّه يعلم بكل شيء و يحط علما بجميع الأمور وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً و على هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنّه لا يعود و لا يرجع عن أمر أعطاه إلّا من كان علمه محدودا، و اشتبه ثمّ ندم على أمره، أمّا الذى يعلم بكل شيء و يحيط بجميع الأمور علما فيستحيل أن يعيد النظر.

ثمّ لأجل أن يفهمهم بأنّه لا يخاف تهديداتهم، و أنّه ثابت فى موقفه، قال:

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا.

و أخيرا لأجل أن يثبت حسن نيّته، و يظهر رغبته فى طلب الحقيقة و السلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب و الفوضوية و الإخلال بالأمن يقول: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ

أى: يا ربّ أنت أحكم بيننا و بين هؤلاء بالحق، و ارفع المشاكل التى بيننا و بين هؤلاء، و افتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

و قد روى عن ابن عباس أنّه قال: ما كنت أعرف ماذا يعنى الفتح فى الآية حتى سمعت امرأة تقول لزوجها: أفاتحك عند القاضى، يعنى أطلبك عند القاضى للفصل بيننا، فعرفت معنى الفتح فى مثل هذه الموارد، و أنّه بمعنى القضاء و الحكم (لأن القاضى يفتح العقدة فى مشكلة الطرفين)[۶۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۸

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۹۰ الى ۹۳]

اشارة

وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (۹۰) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (۹۱) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (۹۲) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (۹۳)

التّفسير

تتحدث الآية الأولى عند الدعايات التى كان يبثّها معارضو شعيب ضدّ من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ

و المقصود من الخسارة- هنا- الخسارات المادية التى تصيب المؤمنين بدعوة شعيب، إذ من المسلّم عدم عودتهم إلى عقيدة الوثنية، و على هذا الأساس كان يجب يخرجوا من بلدهم و ديارهم بالقهر، و يتركوا بيوتهم و أملاكهم.

و هناك احتمال آخر فى تفسير الآية، و هو أنّ مرادهم هو الأضرار المعنوية

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۹

بالإضافة إلى الأضرار المادية، لأنّهم كانوا يتصورون أنّ طريق النجاة يتمثل فى الوثنية لا فى دين شعيب.

و عند ما وصل أمرهم إلى الإصرار على ضلالتهم، و على إضلال غيرهم أيضا، و لم يبق أى أمل فى إيمانهم و هدايتهم، حلّت بهم العقوبة الإلهية بحكم قانون حسم مادة الفساد، فأصابهم زلزال رهيب شديد بحيث تهاوى الجميع أجسادا ميّتة، فى داخل بيوتهم و منازلهم فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ

و قد مرّ فى ذيل الآية (۷۸) من هذه السورة- تفسير لفظة «جاثمين» و قلنا هناك أنّه قد استعملت عبارات و ألفاظ مختلفة للتعبير عن عامل هلاك هذه الجماعة لا منافاة بينها.

فمثلا: جاء فى شأن قوم شعيب- فى الآية الحاضرة- أنّ عامل هلاكهم كان هو: «الزلزال» و فى الآية (۹۴) من سورة هود أنّه «صيحة سماوية» و فى الآية (۱۸۹) من سورة الشعراء: أنّه «ظلة من السحاب القاتل» و تعود كلها إلى موضوع واحد، و هو أنّ العذاب المهلك كان صاعقة سماوية مخيفة، اندلعت من قلب السحب الكثيفة المظلمة، و استهدفت مدينتهم، و على أثرها حدث زلزال شديد (هو خاصية الصواعق العظيمة) و دمّر كل شيء.

فى الآية اللاحقة شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب بالعبارة التالية: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا[۶۳]. أى أنّ الذين كذبوا شعيبا أبيدوا إبادة عجيبة، و كأنّهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

و فى ختام الآية يقول: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ

و كأنّ هاتين الجملتين جوابا لأقوال معارضى شعيب، لأنّهم كانوا قد هدّدوا بأن يخرجوه هو و أتباعه فى حالة عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۰

السابق، فقال القرآن: إنّهم أبيدوا كاملة، و كأنّهم لم يسكنوا فى تلك المنازل، فضلا عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

و فى مقابل قولهم: إنّ أتباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إنّ نتيجة الأمر أثبتت أنّ مخالفة شعيب هى العامل الأصلى فى الخسران.

و فى آخر آية- من الآيات المبحوثة- نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال: لقد بلّغت رسالات ربّى، و نصحتكم بالمقدار الكافى، و لم آل جهدا فى إرشادكم: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّی وَ نَصَحْتُ لَكُمْ

ثمّ قال فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ أى لست متأسّفا على مصير الكافرين، لأننى قد بذلت كل ما فى وسعى لهدايتهم و إرشادهم، و لكنّهم لم يخضعوا للحق و لم يسلّموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

أمّا أنّه هل قال شعيب هذا الكلام بعد هلاكهم، أم قبل ذلك؟ هناك احتمالان، فيمكن أن يكون قبل هلاكهم، و لكن عند شرح القصة جاء ذكره بعد ذلك.

و لكن مع الالتفات إلى آخر عبارة، و التى يقول فيها: إنّ مصير هؤلاء الكافرين المؤلم لا يدعو إلى الأسف أبدا، يترجح للنظر أنّ هذه الجملة قيلت بعد نزول العذاب، و أنّ هذه التعابير- كما أشرنا فى ذيل الآية (۷۹) من هذه السورة قيلت و تقال للأموات كثيرا (و قد

أشرنا إلى شواهد ذلک).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۱

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۹۴ الی ۹۵]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَبِیٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ یَضَّرَّعُونَ (۹۴) ثُمَّ بَدَّلْنا مَکانَ السَّیِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّی عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ (۹۵)

التّفسیر

إذ لم تنفع المواعظ:

إنّ هـذه الآیات- التی ذکرت بعـد اسـتعراض قصـص مجموعة من الأنبیاء العظام، مثل نوح و هود و صالح و لوط و شـعیب، و قبل أن یعمد القرآن الکریم إلى استعراض قصّة موسى بن عمران- إشارة إلى عدّة أصول و قواعد عامّة تحکم فی جمیع القصص و الحوادث، و هی قواعد و أصول إذا فکّرنا فیها کشفت القناع عن حقائق قیمة ترتبط بحیاتنا- جمیعا- ارتباطا وثیقا.

فی البدایة یقول: وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَبِیٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ یَضَّرَّعُونَ فالصعاب و المشاق و البلایا التی تصیب الأفراد إنّما یفعلها اللّه بهم عسى أن ینتبهوا، و یترکوا طغیانهم، و یرجعوا إلى اللّه و یتوبوا إلیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۲

و ذلک لأنّ الناس ما داموا فی الرخاء و الرفاه فهم فی غفلـة و لما یکون لـدیهم اسـتعداد و قابلیـة لقبول الحق. أمّا عند ما یتورّطون فی المحنة و البلاء، یشرق نور فطرتهم و توحیدهم و یتذکرون اللّه قهرا بلا اختیار، و تستعد قلوبهم لقبول الحق.

و لکن هـذه الیقظـة و النهضة لیست عند الجمیع على حدّ سواء، فهی فی کثیر من الناس سـریعة و عابرة و غیر ثابتة، و بمجرّد أن تزول المشـکلات یعودون إلى غفلتهم و غفوتهم، و لکن هذه المشکلات تعتبر بالنسبة إلى جماعة آخرین نقطة تحول فی الحیاة، و یعودون إلى الحق إلى الأبد.

و الأقوام الذین جرى الحدیث- فی الآیات السابقة- حولهم کانوا من النمط الأوّل.

و لهذا قال تعالى فی الآیة اللاحقة: عند ما لم تغیّر تلک الجماعات سـلوکها و مسیرها تحت ضغط المشکلات و الحوادث، بل بقوا فی الضـلال، رفعنا عنهم المشـکلات و جعلنا مکانها النعم و الرخاء فازدهرت حیاتهم و کثر عددهم و زادت أموالهم ثُمَّ بَدَّلْنا مَکانَ السَّیِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا.

و «عفوا» من مـادة «عفو» التی تکون أحیانـا بمعنى الکثرة، و أحیانا بمعنى الترک و الإعراض، و تارة تکون بمعنى محو آثار الشـیء. و لکن لا یبعـد أن یکون أصل جمیع تلک الأمور هو الترک، غایـة ما هنالک قـد یترک شـیء لحاله حتى یتجـذر، و یتوالـد و یتناسل و یزداد، و ربّما یترک حتى یهلک و ینهدم تدریجا و شیئا فشیئا. و لهذا جاء بمعنى الزیادة و الهلاک معا.

و قد احتمل المفسّرون فی الآیة المبحوثة ثلاثة احتمالات أیضا:

الأوّل: أنّنا أعطیناهم إمکانیات حتى یزدادوا فیستعیدوا کل ما فقدوه- فی فترة الشدّة و الضراء- من الأفراد و الأموال.

الآخر: أنّنا أعطیناهم نعما کثیرة جدا بحیث غرتهم، فنسوا اللّه، و ترکوا شکره.

الثّالث: أنّنا أعطيناهم نعما كى يستطيعوا بها أن يزيلوا آثار فترة النكبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۳

و يمحوها.

إنّ هذه التفاسير و إن كانت متفاوتة من حيث المفهوم، و لكنّها من حيث النتيجة متقاربة فيما بينها.

ثمّ أضاف: أنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة و هى «النعمة» و «النقمة» بيد اللّه، و أنّهم راجعون إلى اللّه، يتذرعون- لخداع أنفسهم- بهذا المنطق، و هو إذا تعرضنا للمصائب و البلايا، فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء و السراء، و كانت لهم حالات رخاء و حالات بلاء، فالحياة لها صعود و نزول، و الصعاب أمواج غير ثابتة و سريعة الزوال وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ. فهى إذن قضية طبيعية، و مسألة اعتيادية.

فيقول القرآن الكريم فى الختام: إنّ الأمر عند ما بلغ إلى هذا الحد، و لم يستفيدوا من عوامل التربية- أبدا- بل ازدادوا غرورا و عنجهيّة و تكبرا أهلكناهم فجأة و من غير سابق إنذار، لأنّ ذلك أشد إيلاما و نكالا لهم، و عبرة لغيرهم:

فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۴

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۹۶ الى ۱۰۰]

اشارة

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۹۶) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (۹۷) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (۹۸) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (۹۹) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (۱۰۰)

التّفسير

التّقدم و العمران فى ظل الإيمان و التقوى:

فى الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود و صالح و شعيب و نوح و لوط على نحو الإجمال، و إن كانت تلك الآيات كافية لبيان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۵

النتائج المشحونة بالعبر فى هذه القصص، و لكن الآيات الحاضرة تبيّن النتائج بصورة أكثر وضوحا فتقول: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أى لو أنّهم سلكوا سبيل الإيمان و التقوى، بدل الطغيان و التمرد و تكذيب آيات اللّه و الظلم و الفساد، لم يتخلصوا من غضب اللّه و عقوبته فسحب، بل لفتحت عليهم أبواب السماء و الأرض.

و لكن للأسف- تركوا الصراط المستقيم الذى هو طريق السعادة و الرفاه و الأمن، و كذبوا الأنبياء، و تجاهلوا برامجهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أعمالهم وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

بحوث

اشارة

و هنا مواضیع ینبغی الوقوف عندها:

۱- برکات الأرض و السماء

لقد وقع حدیث بین المفسّرین فی ما هو المراد من «برکات» الأرض و السماء؟ فقال البعض: إنّها المطر، و النباتات التی تنبت من الأرض.

و فسّرها البعض بإجابة الدعاء، و حل مشاکل الحیاة.

و لکن هناک احتمال آخر- أیضا- هو أنّ المراد من البرکات السماویة هی البرکات المعنویة، و المراد من البرکات الأرضیة هی البرکات المادیة.

و لکن مع ملاحظة الآیات السابقة یکون التّفسیر الأوّل أنسب من الجمیع، لأنّه فی الآیات السابقة التی شرحت العقوبات الشدیدة التی حلّت بالمجرمین و الطغاة، فأشارت تارة إلی نزول السیول من السماء و طغیان الینابیع و العیون من الأرض (مثل طوفان نوح) و أخری إلی الصواعق و الصیحات السماویة، و ثالثة إلی الزلازل الأرضیة الرهیبة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۶

و فی الآیة المطروحة هنا طرحت هذه الحقیقة علی بسط البحث، و هی: أنّ العقوبات ما هی إلّا لأفعالهم هم، و إلّا فلو کان الإنسان طاهرا مؤمنا، فإنّه بدل أن یحل العذاب السماوی أو الأرضی بساحته، تتواتر علیه البرکات الإلهیة من السماء و الأرض ... أجل، إنّ الإنسان هو الذی یبدل البرکات بالبلایا.

۲- معنی «البرکات»

«البرکات» جمع «برکة» و هذه الکلمة- کما أسلفنا- تعنی فی الأصل «الثبات» و الاستقرار، و یطلق علی کل نعمة و موهبة تبقی و لا تزول، فی مقابل الموجودات العاریة عن البرکة، و السریعة الفناء و الزوال، و الخالیة عن الأثر.

و الملفت للنظر أنّ فائدة التقوی و الإیمان لا- تقتصر علی نزول البرکات الإلهیة، بل هما سبب فی أن یصرف الإنسان ما لدیه فی المصارف اللازمة الصحیحة.

ففی المثل نلاحظ الیوم أنّ قسما کبیرا من الطاقات الإنسانیة، و المصادر الاقتصادیة تصرف فی سبیل سباق التسلح و صنع الأسلحة المدمّرة. و بذلک تنعدم البرکة فیها، و لا تثمر سوی الدمار و الخراب، و لکن المجتمعات البشریة إذا تحلّت بالتقوی و الإیمان، فإنّ هذه المواهب الإلهیة سیکون لها وضع آخر، و من الطبیعی أن تبقی آثارها و تخلد، و تکون مصداقا لکلمة البرکات.

۳- ماذا یعنی «الأخذ»؟

فی الآیة أعلاه استعملت کلمة «أخذ» فی مفهوم المجازاة و العقوبة، و هذا فی الحقیقة لأجل أنّ الشخص الذی یراد عقوبته یؤخذ أوّلا فی العادة، ثمّ یوثق بوسائل خاصّة حتی لا تبقی له قدرة علی الفرار، ثمّ یعاقب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۷

۴- المفهوم الواسع للآیة

إنّ الآیة الحاضرة و إن کانت ناظرة إلی وضع الأقوام الغابرة، و لکنّه من المسلّم أن مفهومها مفهوم واسع و عام و دائم، و لا تنحصر فی شعب معین أو قوم خاص، فإنّها سنة إلهیة أن یبتلی غیر المؤمنین، و المتورطین فی المعاصی و الذنوب بأنواع مختلفة و متنوعة من البلایا فی هذه الدنیا، فربّما ینزل علیهم البلاء السماوی و الأرضی، و ربّما تشتعل نیران الحروب العالمیة أو المحلیة فتبتلغ أموالهم و تبیدها و ربّما یفارقهم الأمن و الاستقرار، فتسحق المخاوف و الهواجس بأظلافها أبدانهم و نفوسهم، و حسب تعبیر القرآن یکون کل ذلک بما کسبت أیدیهم ورد فعل لأعمالهم.

إن فیض اللّه لیس محدودا و لا ممنوعا، کما أنّ عقوباته لا تختص بقوم أو شعب.

لماذا تعیش الأمم الکافرة فی الرخاء؟

اشارة

من کل ما قلناه یتّضح الجواب علی سؤال یدور کثیرا بین جماعة من الناس، و هو: إذا کان الإیمان و التقوی یبعثان علی نزول أنواع البرکات الإلهیة، و یکون العکس موجبا لسلب البرکات، فلما ذا نشاهد الشعوب غیر المؤمنة ترفل فی الرخاء و الرفاه، فی حین یعیش جماعة من أهل الإیمان بعسر و مشقّة؟

إنّ الإجابة علی هذا السؤال تتّضح بملاحظة نقطتین:

۱- إنّ تصوّر أنّ الشعوب غیر المؤمنة الفاقدة للتقوی ترفل فی النعمة و الرخاء و تغرق فی السعادة هو تصور خاطئ ینبع من اشتباه أکبر، و هو اعتبار الثروة دلیلا علی السعادة.

إنّ الناس یتصورون- عادة- أنّ کل شعب امتلک صناعة أکثر تقدما، و ثروة أکبر، کان أسعد من غیره، فی حین لو تسنی لنا أن ننفذ إلی أعماق هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۸

المجتمعات و نلاحظ الآلام الممضة التی تحطم روح هذه الشعوب و جسمها عن کثب، فسوف نسلّم أن أکثر تلک الشعوب هی من أشقی سکان الأرض.

هذا بغض النظر عن أنّ هذا التقدم النسبیّ إنّما هو نتیجة استخدامهم لأصول و مبادئ مثل السعی و الاجتهاد، و النظم و الشعور بالمسؤولیة التی هی جزء من تعالیم الأنبیاء، و من صلب توجیهاتهم.

فی هذه الأیّام- التی نکتب فیها هذا القسم من التّفسیر- نشرت الجرائد و الصحف أنّه حدث فی نیویورک- التی هی واحدة من أکبر نقاط العالم المادی ثروة و أکثرها تقدما- حادث جدّ عجیب علی أثر انقطاع فجائی للتیار الکهربائی، و ذلک الحادث هو أنّ کثیرا من الناس هاجموا المحلات و المخازن و سرقوا کل ما فیها بحیث أن ثلاثة آلاف من المغیرین علی المحلات اعتقلوا بواسطة البولیس.

إنّ من المسلّم أن عدد المغیرین- فی الواقع- أکثر بأضعاف من هذا العدد، و هذا العدد هم الذین لم یمکنهم الفرار و الهرب و النجاة

من قبضـة البوليس، كما أنّه من المسلّم أن المغيرين لم يكونوا سـراقا محترفين هيّئوا أنفسـهم من قبل لمثل هـذه الإغارة العمومية، لأنّ الحادثة المذكورة كانت حادثة فجائية.

من هـذا نسـتنتج أنّه مع حالـة انقطـاع عـابر للتيـار الكهربـائى يتحول عشـرات الآلاف من سـكان مدينـة ثريـة و متقدمـة- كما يشاءون تسـميتها- إلى لصوص و سـراق، إن هـذا لا يـدل على الانحطاط الخلقى لـدى شـعب من الشـعوب فحسب، بل يدل على فقدان الأمن الاجتماعى الشديد أيضا.

و الخبر الآخر الذى نقلته الصحف، و يكمل- فى الحقيقة- هذا الخبر، و هو أن أحد الشخصيات المعروفة كان يقيم فى تلك الأيّام فى نيويورك، فى أحد الفنادق الشـهيرة ذات العشـرات من الطوابق، قال: إنّ انقطاع التيار الكهربائى تسـبب فى أن يمسى التجول فى معابر وصالات ذلك الفندق عملا بالغ الخطورة، بحيث أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۹

مسئولى الفندق ما كانوا يسـمحون لأحد بأن يغادر مكانه إلى غرفته منعا من أن يتعرض للمغيرين داخل صالات الفندق، و لهذا نظموا المسافرين و النزلاء فى جماعات مكونة من عشرة أو أكثر، و تولى موظفون مسلحون إيصالهم إلى غرفهم تحت حراسة مشددة.

ثمّ يضيف ذلك الشخص المذكور: أنّه ما لم يعان من الجوع الشديد لم يجرأ على الخروج من غرفته.

و لكن انقطاع التيار الكهربائى هـذا يقع فى البلاد المتأخرة الشـرقية كثيرا، و لكن لا تحـدث مثل هذه المشاكل، و هذا يفيد أن سـكان البلدان المتقدمة رغم كونهم يمتلكون ثروة عظيمة، و صنائع عظيمة، لا يملكون أدنى قدر من الأمن فى بيئتهم.

هذا مضافا إلى أنّ شهود عيان يقولون: إنّ القتل و الاغتيال فى تلك البيئات كشرب الماء من حيث السهولة و اليسر.

و نحن نعلم أنّنا أعطينا الدنيا كلها لأحد و كان يعيش فى مثل هذه الظروف، كان من أشـقى أهل الأرض ... على أنّ مشكلة الأمن هى واحـدة من مشـكلاتهم، و إلّا فهناك مفاسد اجتماعية أخرى كل واحد منها بدوره حالة مؤلمة جدا ... و مع الالتفات إلى هذه الحقائق فلا معنى لتوهّم أنّ الثروة سعادة.

۲- أمّا مـا يقـال عن سـبب تخلّف المجتمعـات المتحليـة بالإيمـان و التقوى، فـإذا كـان المقصود من الإيمان و التقوى هو مجرّد ادعاء الإسلام و ادعاء أتباع مبادئ الأنبياء و تعاليمهم، فالاعتراض وجيه. و لكننا لا نعتبر حقيقة الإيمان و التقوى إلّا نفوذهما فى جميع أعمال الإنسان، و جميع شؤون الحياة، و هذا أمر لا يتحقق بمجرّد الادعاء و الزعم.

إنّ من المؤسف جـدّا أن نجـد التعاليم الإسـلامية و مبادئ الأنبياء متروكة أو شـبه متروكة فى كثير من المجتمعات الإسـلامية، فملامح هذه المجتمعات ليست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۰

ملامح مجتمعات المسلمين الصادقين الحقيقيين.

لقد دعا الإسلام إلى الطهارة و الاستقامة و الأمانة و الاجتهاد و الجد، فأين تلك الأمانة و الاجتهاد؟

إنّ الإسـلام يـدعو إلى العلم و المعرفـة و اليقظـة و الـوعى، فـأين ذلـك العلم و الوعى و اليقظـة؟! و إن الإسـلام يـدعو إلى الاتحـاد و التضامن و وحدة الصفوف و التفانى، فهل سادت هذه الأصول و المبادئ فى المجتمعات الإسلامية الحاضرة بصورة كاملة، و مع ذلك بقيت متخلّفة؟! لهذا يجب أن نعترف بأنّ الإسلام شىء، و المسلمون اليوم شىء آخر.

فى الآيات اللاحقـة و المزيـد من التأكيد على عمومية هذا الحكم، و أن القانون أعلاه ليس خاصا بالأقوام الغابرة بل يشـمل الحاضـر و المستقبل أيضا- يقول: هل أنّ المجرمين الذين يعيشون فى نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم فى أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهية، فتنزل بهم صاعقة أو يصبهم زلزال فى الليل و هم نائمون أ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ

و هل هم فى أمان من ذلك العـذاب فى النهار و هم غارقون فى أنواع اللهو و اللعب أ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ

یَلْعَبُونَ

یعنی أنّهم فی قبضة القدرة الإلهیة فی جمیع الأحوال و الأوقات، لیلا و نهارا، فی الیقظة و النوم، فی ساعات الفرح و الترح، و بإشارة واحدة و أمر واحد یقضی علیهم جمیعا، و یطوی صفحة حیاتهم نهائیا، دون الحاجة الی مقدمات و أسباب قبلیة، أو لمرور الزمان لهذا العمل.

أجل فی لحظة واحدة، و من دون أیة مقدمات یمکن أن تحل أنواع المصائب و النوائب بهذا الإنسان الغافل.

و العجیب أنّ البشریة الحاضرة، رغم کل ما أحرزته من تقدم ورقی فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۱

الصنائع و فی التکنولوجیا، و مع أنّها سخرت طاقات الکون و الطبیعة المختلفة لخدمة نفسها، فإنّها ضعیفة و عاجزة تجاه هذه الحوادث، بنفس المقدار من العجز و الضعف الذی کان علیه إنسان العصور السابقة. یعنی أن الإنسان لم یتغیر حاله تجاه الزلازل و الصواعق و ما شابهها، حتی بالنسبة إلی إنسان ما قبل التاریخ.

و هذه علامة قویة علی نهایة عجز الإنسان و شدة ضعفه رغم قدرته و قوته ...

و هذه حقیقة یجب أن یجعلها الإنسان نصب عینیه دائما و أبدا.

و فی الآیة اللاحقة یعود القرآن الکریم إلی ذکر و تأکید هذه الحقیقة بشکل آخر فیقول: أ فأمن المجرمون من المکر الإلهی، فی حین لا یأمن مکره إلّا الخاسرون أ فَأَمِنُوا مَکْرَ اللَّهِ فَلا یَأْمَنُ مَکْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ

و «المکر»- کما قلنا فی ذیل الآیة ۹۴ من سورة آل عمران- یعنی فی اللغة العربیة کل حیلة و وسیلة لصرف الشخص عن الهدف الذی یمضی إلیه، سواء کان حقا أو باطلا، و قد أخذ فی مفهوم هذه اللغة نوع من التدرج و النفوذ التدریجی.

و علی هذا فالمراد من المکر الإلهی، هو أنّ اللّه تعالی یصرفهم بخططه القویة التی لا تقهر عن حیاة الرفاه و اللذة دون اختیارهم و یقطعها علیهم. و هذه إشارة إلی العقوبات الإلهیة الفجائیة و المهلکة.

جواب علی سؤال:

إنّ الجملة التی وردت فی ختام الآیة الحاضرة تقول: لا یأمن أحد- إلّا الخاسرون- من المکر الإلهی و العقوبة الإلهیة، و هنا یطرح هذا السؤال، و هو: هل تشمل هذه العبارة الأنبیاء و الأئمّة العظام و الصالحین؟

لقد تصوّر البعض أنّهم خارجون من هذا الحکم، و أنّ الآیة تختص بالمجرمین. و لکن الظاهر أن هذا الحکم عام یشمل الجمیع، لأنّه حتی الأنبیاء و الأئمّة کانوا مراقبین لأعمالهم دائما کی لا تصدر منهم أدنی زلة أو عثرة، لأنّنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۲

نعلم أن مقام العصمة لیس مفهومه أن المعصیة مستحیلة علیهم، بل یعنی أنّهم مصونون عن الإثّم و المعصیة بفعل إرادتهم و إیمانهم و حسن اختیارهم، إلی جانب العنایات الربانیة.

إنّهم کانوا یخافون من ترک الأولی و یتجنبونه، و یخشون أن لا یتمکنوا من القیام بمسؤولیاتهم الثقیلة. و لهذا نقرأ فی الآیة (۱۵) من سورة الأنعام حول الرّسول الأعظم قُلْ إِنِّی أَخافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ

و لقد رویت فی تفسیر الآیة الحاضرة- أیضا- أحادیث تؤید ما قلناه:

«صلیت خلف أبی عبد اللّه (الصادق) علیه السلام، فسمعته یقول: «اللّهم لا تؤمنی مکرک.

ثمّ جهر فقال: فَلا یَأْمَنُ مَکْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ

و نقرأ

فی نهج البلاغة أیضا: «لا تأمنن علی خیر هذه الأمّة عذاب اللّه، لقول اللّه سبحانه: فَلا یَأْمَنُ مَکْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ ۶۴].

إنّ عدم الأمن من المکر الإلهی- فی الحقیقة- یعنی الخوف من المسؤولیات و الخوف من التقصیر فیها، و من المعلوم أن الخوف یجب أن یکون فی قلوب المؤمنین دائما إلی جانب الأمل بالرحمة الإلهیة بشکل متساو، و أن التوازن بین هذین هو منشأ کلّ حرکة و نشاط، و هو الذی یعبّر عنه فی الرّوایات بالخوف و الرجاء.

و قد جاء التصریح فی هذه الرّوایات بوجوب أن یکون المؤمنون دائما بین الخوف و الرجاء، و لکن المجرمین الخاسرین نسوا العقوبات الإلهیة بحیث صاروا یرون أنفسهم فی منتهی الأمن المکر الإلهی.

و فی الآیة اللاحقة یقول القرآن الکریم- بهدف إیقاظ عقول الشعوب الغافیة و إلفات نظرهم إلی العبر التی کانت فی حیاة الماضیین: ألا یتنبه الذین ورثوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۳

السیادة علی الأرض- من الأقوام الماضیة- إلی ما فی حیاة الماضیین و قصصهم من عبر، فلو أنّنا أردنا أن نهلکهم بذنوبهم لفعلنا أ وَ لَمْ یَهْدِ لِلَّذِینَ یَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ

و یمکننا أیضا أن نترکهم أحیاء و نسلب منهم الشعور و حس التشخیص و التمییز بالمرّة بسبب توغّلهم فی الذنوب، بحیث لا یسمعون معها حقیقة، و لا یقبلون نصیحة، و یعیشون بقیة حیاتهم حیری وَ نَطْبَعُ عَلی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا یَسْمَعُونَ

أمّا کیف یسلب اللّه تعالی من هذا الفریق من المجرمین حس التمییز و التشخیص، فیمکنک الوقوف علی مزید التوضیح فی هذا المجال فی تفسیر الآیة (۷) من سورة البقرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۴

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۰۱ الی ۱۰۲]

اشارة

تِلْکَ الْقُری نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَما کانُوا لِیُؤْمِنُوا بِما کَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلی قُلُوبِ الْکافِرِینَ (۱۰۱) وَ ما وَجَدْنا لِأَکْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَکْثَرَهُمْ لَفاسِقِینَ (۱۰۲)

التّفسیر

فی هاتین الآیتین رکّز القرآن الکریم علی العبر المستفادة من بیان قصص الماضین، و الخطاب متوجه هنا إلی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا أن الهدف هو الجمیع، یقول القرآن الکریم أوّلا: هذه هی القری و الأقوام التی نقص علیک قصصهم: تِلْکَ الْقُری نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْبائِها[۶۵] ثمّ یقول: لم یکن إهلاکهم قبل إتمام الحجة علیهم، بل لقد جاءهم الأنبیاء أوّلا بالبراهین الجلیة و بذلوا قصاری جهدهم فی إیقاظهم و إرشادهم وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ

و لکنّهم قاوموا الأنبیاء و خالفوا دعوتهم، و أصروا و لجّوا فی عنادهم، و لم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۵

یکونوا علی استعداد لأن یؤمنوا بما کذبوا به من قبل، بل استمروا علی تکذیبهم حتی مع مشاهدتهم البینات: فَما کانُوا لِیُؤْمِنُوا بِما کَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ

من هذه الجملة یستفاد أنّ الأنبیاء الإلهیین قاموا بدعوتهم و إرشادهم مرارا و تکرارا، و لکن المشرکین لجوا فی عنادهم، و بقوا

متصلبين فی مواقفهم المتعنتة الرافضة، و أعرضوا عن قبول دعوة الأنبياء حتى بعد وضوح الكثير من الحقائق.

و فی العبارة اللاحقة يبيّن تعالى علّة هذا التعنت و اللجاج: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ

يعنی أنّ الـذين يسيرون فی درب خاطئ، و يستمرون فی السير فی ذلك الطريق، ينتقش الانحراف و الكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيء.

و يتجذر الفساد فی نفوسهم، كما يثبت النقش على السكة (و الطبع فی اللغة نقش صورة على شیء كالسكة) و هذا فی الحقيقة هو أثر العمل و خاصيته.

و قـد نسب إلى اللّه هو تعالى مسبب الأسباب، و هو منشأ تـأثير كل مؤثر، فهو يهب الفعل هـذه الخاصيـة عنـد تكراره، حيث يجعله «ملكة» فی نفس الشخص.

و لكن من الواضح و البيّن أن مثل الضلال ليس له أی صفة جبرية و قهرية، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان و إن كان التأثير بأمر اللّه تعالى (فتأمل).

و فی الآية اللاحقة بيّن تعالى قسمين آخرين من نقاط الضعف الأخلاقی لدى هذه الجماعات، و التی تسببت فی ضلالها و هلاكها.

فی البداية يقول: إنّهم كانوا لا يحترمون العهود و المواثيق بل ينقضونها وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ.

و هـذا العهـد يمكن أن يكون إشارة إلى «العهد الفطرى» الذى أخذه اللّه على جميع عباده بحكم الجبلة و الفطرة، لأنّه عند ما أعطاهم العقل و الـذكاء و القابليـة، كان مفهوم ذلك هو أخـذ العهد الميثاق منهم بأن يفتحوا عيونهم و آذانهم، و يروا الحقائق و يسـمعوها، و هذا هو ما أشارت إليه الآيات الأخيرة من هذه السورة (أی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۶

الآية ۱۷۳) و هو المعروف ب «عالم الذّر» الذی سنشرحه بإذن اللّه فی ذيل تلك الآيات.

كما أنّه يمكن أن يكون إشارة إلى العهد الذی كان الأنبياء الإلهيون يأخذونه من الناس، و كان أكثر الناس يقبلونه، و لكنّهم ينقضونه.

أو يكون إشارة إلى جميع المواثيق «الفطرية» و «التشريعية».

و على كـل حـال فـإنّ روح نقض الميثـاق كـان من أسـباب معارضـة الأنبيـاء و الإصـرار على سـلوك طريق الكفر و النفاق، و الابتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى عامل آخر إذ يقول: وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ

يعنی أن روح التمرد و التجاوز على القانون، و الخروج عن نظام الخلقـة و القوانين الإلهية، كان عاملا آخر من عوامل اسـتمرارهم على الكفر، و إصرارهم على مخالفة الدعوة الإلهية.

و يجب الانتباه إلى أن الضمير فی «أكثرهم» يرجع إلى جميع الأقوام و الجماعات السالفة.

و ما ورد فی الآيـة من أن أكثرهم ينقضون العهد إنّما هو من باب رعاية حال الأقليات التی آمنت بالأنبياء السابقين، و بقيت و فيّه لهم، و هـذه الجماعات المؤمنة و إن كانت قليلة و ضـئيلة العدد جدّا بحيث أنّها ما كانت تتجاوز أحيانا أسرة واحدة. و لكن روح الواقعية و تحرى الحق المتجلّيـة فی كل آيات القرآن أوجبت أن لا يتجاهل القرآن الكريم حق هـذه الجماعات القليلة أو الأفراد المعدودين، بل يراعيها فلا يصف جميع الأفراد فی المجتمعات السالفة بالانحراف و الضلال و نقض العهد و الفسق.

و هذا موضوع جميل جدّا، و جدير بالاهتمام، و هو ما نشاهده و نلحظه فی آيات القرآن كثيرا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۸]

اشارة

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسی بِآیاتِنا إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ (۱۰۳) وَ قالَ مُوسی یا فِرْعَوْنُ إِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۰۴) حَقِیقٌ عَلی أَنْ لا أَقُولَ عَلَی اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُکُمْ بِبَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَرْسِلْ مَعِیَ بَنِی إِسْرائِیلَ (۱۰۵) قالَ إِنْ کُنْتَ جِئْتَ بِآیَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۱۰۶) فَأَلْقی عَصاهُ فَإِذا هِیَ ثُعْبانٌ مُبِینٌ (۱۰۷)
وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذا هِیَ بَیْضاءُ لِلنَّاظِرِینَ (۱۰۸)

التّفسیر

المواجهة بین موسی و فرعون:

بعد ذکر قصص ثلة من الأنبیاء العظام باختصار فی الآیات السابقة بیّن تعالی فی هذه الآیات و الآیات الکثیرة اللاحقة قصّة موسی بن عمران، و ما جری بینه و بین فرعون و ملئه و عاقبة أمره.

و علّة بیان هذه القصّة بصورة أکثر تفصیلا من قصص الأنبیاء الآخرین فی هذه السورة قد تکون لأجل أنّ الیهود أتباع موسی بن عمران کانوا أکثر من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۸

غیرهم فی بیئة نزول القرآن، و کان إرشادهم إلی الإسلام أوجب.[۶۶] و ثانیا: لأنّ قیام النّبی الأکرم کان أشبه بقیام موسی بن عمران من غیره من الأنبیاء.

و علی کل حال فإنّ هذه القصة الزاخرة بالعبر قد أشیر إلی فصول أخری منها أیضا فی سور أخری، مثل: سورة البقرة، طه، الشعراء، النمل، القصص، و سور أخری، و لو أنّنا درسنا آیات کل سورة علی حدة، ثمّ وضعناها جنبا إلی جنب لم نلحظ فیها جانب التکرار علی خلاف ما یتصوره البعض، بل ذکر من هذه الملحمة التاریخیة فی کل سورة ما یناسبها من البحث للاستشهاد به. و حیث أنّ مصر کانت أوسع، و کان لشعبها حضارة أکثر تقدما من قوم نوح و هود و شعیب و ما شابههم، و کانت مقاومة الجهاز الفرعونی- بنفس النسبة- أکثر و أکبر، و لهذا تمتع قیام موسی بن عمران بأهمیة أکبر، و حوی عبرا و نکات أکثر، و قد رکّز القرآن الکریم علی النقاط البارزة المختلفة من حیاة موسی و بنی إسرائیل بمناسبات مختلفة.

و علی العموم یمکن حصر و تلخیص حیاة هذا النّبی الإلهی العظیم فی خمس دورات و مراحل:

۱- مرحلة الولادة، و ما جری علیه من الحوادث حتی ترعرعه فی البلاط الفرعون.

۲- مرحلة فراره من مصر، و حیاته فی أرض «مدین» فی کنف النّبی شعیب علیه السلام.

۳- مرحلة بعثته، ثمّ المواجهات الکثیرة بینه و بین فرعون و جهازه.

۴- مرحلة نجاته و نجاة بنی إسرائیل من مخالب فرعون، و الحوادث التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۹

جرت علیه فی الطریق، و عند وروده إلی بیت المقدس.

۵- مرحلة مشاکله مع بنی إسرائیل.

و یجب الانتباه إلی أن القرآن الکریم تناول فی کل سورة من سور قسما- أو عدّة أقسام- من هذه المراحل الخمس.

و من تلک الآیات التی تناولت جوانب من قصّة موسی علیه السلام هذه الآیات، و عشرات الآیات الأخر من هذه السورة، و هی تشیر

إلی مراحل ما بعد بعثة موسی بن عمران بالنبوة. و لهذا فإنّنا نوکل الأبحاث المتعلقة بالمراحل السابقة علی هذه المرحلة إلی حین تفسیر الآیات المرتبطة بتلک الأقسام فی السور الأخری، و بخاصّة سورة القصص.

فی الآیة الأولی من الآیات الحاضرة یقول تعالی: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسی بِآیاتِنا إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أی من بعد قوم نوح و هود و صالح.

و یجب الالتفات إلی أنّ «فرعون» اسم عام، و هو یطلق علی کل ملوک مصر، کما یطلق علی ملوک الروم «قیصر» و ملوک فارس «کسری».

و لفظة «الملأ»- کما أشرنا إلی ذلک فیما سبق- تعنی الأعیان و الأشراف الذین یملأون ببریقهم و ظواهرهم الباذخة العیون، و لهم حضور ملفت للنظر فی جمیع میادین المجتمع.

و السر فی إرسال موسی فی بدایة الدعوة إلی فرعون و ملأه هو أنّه علاوة علی أنّ إحدی برامج موسی کان هو نجاة بنی إسرائیل من براثن استعمار الفراعنة و تخلیصهم من أرض مصر- و هذا لا یمکن أن یتم من دون الحوار مع فرعون- إنّما هو لأجل أن المفاسد الاجتماعیة و انحراف البیئة لا تعالج بمجرّد الإصلاحات الفردیة و الموضعیة فقط، بل یجب أن یبدأ بإصلاح رؤوس المجتمع و قادته الذین یمسکون بأزمة السیاسة و الإقتصاد و الثقافة، حتی تتهیأ الأرضیة لإصلاح البقیة، کما یقال عرفا: إنّ تصفیة الماء یجب أن تکون من المنبع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۰

و هذا هو الدرس الذی یعطیه القرآن الکریم لجمیع المسلمین، لإصلاح المجتمعات الإسلامیة.

ثمّ یقول تعالی: فَظَلَمُوا بِها.

و نحن نعلم أنّ لفظ الظلم بالمعنی الواسع للکلمة هو: وضع الشیء فی غیر محلّه، و لا شک فی أن الآیات الإلهیة توجب أن یسلّم الجمیع لها، و بقبولها یصلح الإنسان نفسه و مجتمعه، و لکن فرعون و ملأه بإنکارهم لهذه الآیات ظلموا هذه الآیات.

ثمّ یقول تعالی فی ختام الآیة: فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ

و هذه العبارة إشارة إجمالیة إلی هلاک فرعون و قومه الطغاة المتمردین، الذی سیأتی شرحه فیما بعد.

و هذه الآیة تشیر إشارة مقتضبة إلی مجموع برنامج رسالة موسی، و ما وقع بینه و بین فرعون من المواجهة و عاقبة أمرهم.

أمّا الآیات اللاحقة فتسلّط الاضواء بصورة أکثر علی هذا الموضوع.

فیقول أوّلا: وَ قالَ مُوسی یا فِرْعَوْنُ إِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ

و هذه هی أوّل مواجهة بین موسی و بین فرعون، و هی صورة حیة و عملیة من الصراع بین «الحق» و «الباطل».

و الطریف أنّ فرعون کأنّه کان ینادی لأوّل مرّة ب «یا فرعون» و هو خطاب رغم کونه مقرونا برعایة الأدب، خال عن أی نوع من أنواع التملق و التزلف و إظهار العبودیة و الخضوع، لأنّ الآخرین کانوا یخاطبونه عادة بألفاظ فیها الکثیر من التعظم مثل: یا مالکنا، یا سیدنا، یا ربنا، و ما شابه ذلک.

و تعبیر موسی هذا، کان یمثل بالنسبة إلی فرعون جرس إنذار و ناقوس خطر. هذا مضافا إلی أن عبارة موسی إِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ کانت- فی الحقیقة- نوعا من إعلان الحرب علی جمیع تشکیلات فرعون، لأنّ هذا التعبیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۱

یثبت أن فرعون و نظراءه من أدعیاء الرّبوبیة یکذبون جمیعا فی ادعائهم، و أن ربّ العالمین هو اللّه فقط، لا فرعون و لا غیره من البشر.

و فی الآیة اللاحقة نقرأ أنّ موسی عقیب دعوی الرسالة من جانب اللّه قال:

فالآن إذ أنا رسول ربّ العالمین ینبغی ألا أقول عن اللّه إلّا الحق، لأنّ المرسل من قبل اللّه المنزّه عن جمیع العیوب لا یمکن أن یکون

كاذبا حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ

ثمّ لأجل توثيق دعواه للنّبوة، أضاف: أنا لا أدعى ما أدّعيه من دون دليل، بل إنّ معى أدلـة واضـحة من جانب اللّه قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

فإذا كان الأمر هكذا فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ

و كان هذا فى الحقيقة قسما من رسالة موسى بن عمران الذى حرّر بنى إسرائيل من قبضة الاستعمار الفرعونى، و وضع عنهم إصرهم و أغلال العبودية التى كانت تكبّل أيديهم و أرجلهم، لأنّ بنى إسـرائيل كانوا فى ذلك الزمان عبيدا أذلّاء بأيدى القبطيين (أهالى مصـر) فكانوا يستفيدون منهم فى القيام بالأعمال السافلة و الصعبة و الثقلية.

و يسـتفاد من الآيات القادمـة- و كـذا الآيات القرآنيـة الأخرى بوضوح و جلاء أنّ موسـى كان مكلفا بدعوة فرعون و غيره من سـكان أرض مصر إلى دينه، يعنى أن رسالته لم تكن منحصرة فى بنى إسرائيل.

فقال فرعون بمجرّد سـماع هذه العبارة- (أى قوله: قد جئتكم ببيّنة)- هات الآية التى معك من جانب اللّه إن كنت صادقا قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

و بهذه العبارة اتّخذ فرعون- ضمن إظهار التشكيك فى صدق موسى- هيئة الطالب للحق المتحرى للحقيقة ظاهرا، كما يفعل أى متحر للحقيقة باحث عن الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۲

و من دون تـأخير أخرج موسـى معجزتيه العظيمتين التى كانت إحـداهما مظهر «الخوف» و الأخرى مظهر «الأمل» و كانتا تكملان مقام إنذاره و مقام تبشيره، و ألقى فى البداية عصاه: فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ ۶۷].

و التعبير ب «المبين» إشارة إلى أنّ تلك العصا التى تبـدلت إلى ثعبان حقّا، و لم يكن سـحرا و شـعبذة و ما شاكل ذلك، على العكس من فعل السـحرة لأنّه يقول فى شأنهم: إنّهم مارسوا الشـعبذة و السحر، و عملوا ما تصوره الناس حيات تتحرك، و ما هى بحيات حقيقة و واقعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۱۴۲

ّ ذكر هـذه النقطـة أمر ضـرورى، و هى أنّنا نقرأ فى الآيـة (۱۰) من سورة النمـل، و الآيـة (۳۱) من سورة القصـص، أن العصـا تحركت كالجانّ، و «الجانّ» هى الحيات الصغيرة السريعة السير، و إنّ هذا التعبير لا ينسجم مع عبارة «ثعبان» التى تعنى الحية العظيمة ظاهرا.

و لكن مع الالتفـات إلى أنّ تينـك الآـيتين ترتبطـان ببدايـة بعثـة موسـى، و الآيـة المبحوثـة هنـا ترتبـط بحين مواجهته لفرعون، تنحل المشـكلة، و كأن اللّه أراد أن يوقف موسى على هذه المعجزة العظيمة تدريجا فهى تظهر فى البداية أصغر، و فى الموقف اللاحق تظهر أعظم.

هل يمكن قلب العصا إلى حية عظيمة؟!

على كل حال لا شك فى أنّ تبـديل «العصا» إلى حيـة عظيمـة معجزة، و لا يمكن تفسـيرها بالتحليلات الماديـة المتعارفـة، بل هى من وجهـة نظر الإلهى الموحـد- الـذى يعتبر جميع قوانين المادة محكومـة للمشـيئة الربانية- ليس فيها ما يدعو للعجب فلا عجب أن تتبدل قطعة من الخشب إلى حيوان بقوة ما فوق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۳

الطبیعة.

و یجب أن لا ننسی أن جمیع الحیوانات فی عالم الطبیعة توجد من التراب، و الأخشاب و النباتات هی الأخری من التراب، غایة ما هنالک أن تبدیل التراب إلی حیة عظیمة یحتاج عادة إلی ملایین السنین، و لکن فی ضوء الإعجاز تقصر هذه المدّة إلی درجة تتحقق کل تلک التحولات و التکاملات فی لحظة واحدة و بسرعة، فتتخذ القطعة من الخشب- التی تستطیع وفق الموازین الطبیعیة أن تغیر بهذه الصورة بعد مضی ملایین السنین- تتخذ مثل هذه الصورة فی عدّة لحظات.

و الذین یحاولون أن یجدوا لمعاجز الأنبیاء تفسیرات طبیعیة و مادیة- و ینفوا طابعها الإعجازی، و یظهروها فی صورة سلسلة من المسائل العادیة مهما کانت هذه التفاسیر مخالفة لصریح الکتب السماویة. إنّ هؤلاء یجب أن یوضحوا موقفهم: هل یؤمنون باللّه و قدرته و یعتبرونه حاکما علی قوانین الطبیعة، أم لا؟

فإذا کانوا لا یؤمنون به و بقدرته، لم یکن کلام الأنبیاء و معجزاتهم إلّا لغوا لدیهم.

و إذا کانوا مؤمنین بذلک، فما الداعی لنحت، مثل هذه التّفسیرات و التبریرات المقرونة بالتکلف و المخالفة لصریح الآیات القرآنیة.

(و إن لم نر أحدا من المفسّرین- علی ما بینهم من اختلاف السلیقة- عمد إلی هذا التّفسیر المادی، و لکن ما قلناه قاعدة کلیة).

ثمّ إنّ الآیة اللاحقة تشیر إلی المعجزة الثّانیة للنّبی موسی علیه السلام التی لها طابع الرجاء و البشارة، یقول تعالی: وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذا هِیَ بَیْضاءُ لِلنَّاظِرِینَ

«نزع» تعنی فی الأصل أخذ شیء من مکان، مثلا أخذ العباءة من الکتف و اللباس عن البدن یعبر عنه فی اللغة العربیة بالنزع فیقال: نزع ثوبه و نزع عباءته، و هکذا أخذ الروح من البدن یطلق علیه النزع. و بهذه المناسبة قد یستعمل فی الاستخراج، و قد جاءت هذه اللفظة فی الآیة الحاضرة بهذا المعنی.

و مع أنّ هذه الآیة لم یرد فیها أی حدیث عن محل إخراج الید، و لکن من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۴

الآیة (۳۲) من سورة القصص اسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ یستفاد أنّ موسی کان یدخل یده فی جیبه ثمّ یخرجها و لها بیاض خاص، ثمّ تعود إلی سیرتها و حالتها الأولی.

و نقرأ فی بعض الأحادیث و الرّوایات و التفاسیر أنّ ید موسی کانت مضافا إلی بیاضها تشعّ بشدّة، و لکن الآیات القرآنیة ساکتة عن هذا الموضوع، مع عدم تناف بینهما.

إنّ هذه المعجزة و المعجزة السابقة حول العصا- کما قلنا سابقا- لیس لها جانب طبیعی و عادی، بل هی من صنف خوارق العادة التی کان یقوم بها الأنبیاء، و هی غیر ممکنة من دون تدخل قوة فوق طبیعیة فی الأمر.

و هکذا أراد موسی بإظهار هذه المعجزة أن یوضح هذه الحقیقة، و هی أن برامجه لیس لها جانب الترهیب و التهدید، بل الترهیب و التهدید للمخالفین و المعارضین، و التشویق و الإصلاح و البناء و النورانیة للمؤمنین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۵

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۰۹ الی ۱۱۲]

اشارة

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِیمٌ (۱۰۹) یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (۱۱۰) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِی الْمَدائِنِ حاشِرِینَ (۱۱۱) یَأْتُوکَ بِکُلِّ ساحِرٍ عَلِیمٍ (۱۱۲)

التّفسير

بدء المواجهة:

فى هذه الآيات جاء الحديث عن أوّل ردّ فعل لفرعون و جهازه فى مقابل دعوة موسى عليه السلام و معجزاته.

الآيـة الأولى تـذكر عن ملأ فرعون أنّهم بمجرّد مشاهدتهم لأعمال موسـى الخارقة للعادة اتهموه بالسـحر، و قالوا: هذا ساحر عليم ماهر فى سحره: قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ

و لكن يستفاد من آيات سورة الشعراء الآية (۳۴) أن هذا الكلام قاله فرعون حول موسى: قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ

و لكن لا منافاة بين هاتين الآيتين، لأنّه لا يبعد أن يكون فرعون قال هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۶

الكلام فى البداية، و حيث أن عيون الملأ كانت متوجهة إليه، و لم يكن لهذا الملأ المتملق المتزلف هدف إلّا رضـى رئيسه و سيده، و ما ينعكس على محياه، و ما توحى به إشارته، كرّر هو أيضا ما قاله الرّئيس، فقالوا: أجل، إن هذا لساحر عليم.

و هذا السلوك لا يختص بفرعون و حواشيه، بل هو دأب جميع الجبارين فى العالم و حواشيهم.

ثمّ أضافوا: إنّ هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ

يعنى أنّه لا يهدف إلّا اسـتعماركم و استثماركم، و إنّ الحكومة على الناس، و غصب أراضى الآخرين، و هذه الأعمال الخارقة للعادة و ادعاء النّبوة كلّها لأجل الوصول إلى هذا الهدف.

ثمّ قالوا بعد ذلك: مع ملاحظة هذه الأوضاع فما هو رأيكم: فَما ذا تَأْمُرُونَ

يعنى أنّهم جلسوا يتشـاورون فى أمر موسـى، و يتبادلون الرأى فيما يجب عليهم اتّخاذه تجاهه، لأنّ مادة «أمر» لا تعنى دائما الإيجاب و الفرض، بل تأتى- أيضا- بمعنى التشاور.

و هنا لا بدّ من الالتفات إلى أنّ هذه الجملة وردت فى سورة الشعراء الآية (۳۵) أيضا، و ذلك عن لسان فرعون، حيث قال لملائه: فما ذا تأمرون. و قد قلنا:

إنّه لا منافاة بين هذين.

و قد احتمل بعض المفسّـرين- أيضا- أن تكون جملة «فما ذا تأمرون» فى الآية الحاضرة خطابا وجهه ملأ فرعون و حاشيته إلى فرعون، و صـيغة الجمع إنما هى لرعاية التعظيم، و لكن الاحتمال الأوّل- و هو كون هذا الخطاب موجها من ملأ فرعون إلى الناس- أقرب إلى النظر.

و على كل حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل فى أمر موسى و هارون، و أجلّ قرارك بشأنهما إلى ما بعد، و لكن ابعث من يجمع لك السحرة من جميع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۷

أنحاء البلاد قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر فى حرفته عليم فى سحره يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ

فهل هذا الاقتراح من جانب حاشية فرعون كان لأجل أنّهم كانوا يحتملون صدق ادعاء موسى للنّبوة، و كانوا يريدون اختباره؟

أو أنّهم على العكس كـانوا يعتبرونه كاذبـا فى دعواه، و يريـدون افتعال ذريعـة سياسـية لأى موقف سـيتخذونه ضـد موسـى كما كانوا يفعلون ذلك فى بقية مواقفهم و نشاطاتهم الشخصية؟ و لهذا اقترحوا ارجاء أمر قتل موسى و أخيه نظرا لمعجزتيه اللتين أورثتا رغبة فى

مجموعـة كبيرة من الناس فى دعوته و انحيازهم إليه، و مزجت صورة «نبوته» بصورة «المظلومية و الشـهادة» و أضـفت بضم الثّانية إلى الأولى- مسحة من القداسة و الجاذبية عليه و على دعوته.

و لهذا فكروا فى بداية الأمر فى إجهاض عمله بأعمال خارقة للعادة مماثلة، و يسقطوا اعتباره بهذه الطريقة، ثمّ يأمرون بقتله لتنسى قصة موسى و هارون و تمحى عن الأذهان إلى الأبد.

يبدو أن الاحتمال الثّانى بالنظر إلى القرائن الموجودة فى الآيات- أقرب إلى النظر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۸

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۱۳ الى ۱۲۲]

اشارة

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (۱۱۳) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۱۱۴) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (۱۱۵) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (۱۱۶) وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۱۱۷)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (۱۱۹) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۱۲۰) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (۱۲۲)

التّفسير

كيف انتصر الحقّ فى النهاية؟

فى هـذه الآيات جرى الحديث حول المواجهة بين النّبى موسـى عليه السـلام، و بين السـحرة، و ما آل إليه أمرهم فى هذه المواجهة، و فى البداية تقول الآية: إنّ السحرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۹

بـادروا إلى فرعون بـدعوته، و كان أوّل ما دار بينهم و بين فرعون هو: هل لنا من أجر إذا غلبنا العـدوّ وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ ! و كلمـة «الأـجر» و إن كـانت تعنى أى نـوع من أنـواع الثـواب، و لكن نظرا إلى ورودهـا هنـا فى صـورة «النكرة»، و «النكرة» فى هـذه الموارد إنّمـا تكون لتعظيم الموضوع و إبراز أهميته بسـبب إخفـاء ماهيته و نوعيته، لهـذا يكون الأجر هنا بمعنى الأـجر المهم و العظيم و بخاصّـة أنّه لم يكن ثمّـة نزاع فى أصـل اسـتحقاقهم للأـجر و المثوبـة، فـالمطلوب من فرعون هو الوعد بإعطائهم أجرا عظيما و عوضا مهمّا.

فوعدهم فرعون- فورا- وعدا جيدا و قال: إنّكم لن تحصـلوا على الأجر السخى فقط، بل ستكونون من المقرّبين عندى قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ

و بهـذه الطريقـة أعطاهم وعـدا بالمال و وعـدا بمنصب كبير لديه، و يسـتفاد من هذه الآيـة أنّ التقرب إلى فرعون فى ذلك المحيط، و تلك البيئـة كان أعلى و أسـمى و أهم من المال و الثروة، لأنّه كان يعنى منزلة معنوية كان من الممكن أن تصـبح منشأ لأموال كثيرة و ثروات كبيرة.

و فى المآل حدّد موعد معين لمواجهة السحرة لموسى، و كما جاء فى سورة «طه» و «الشعراء» دعى جميع الناس لمشاهدة هذا النزال، و

هذا يدل على أنّ فرعون كان مؤمنا بانتصاره على موسى عليه السلام.

و حلّ اليوم الموعود، و هيّأ السحرة كل مقدمات العمل ... حفنة من العصيّ و الحبال التى يبدو أنّها كانت معبأة بمواد كيمياوية خاصّة، تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنّها تتحول إلى غازات خفيفة تحرّك تلك العصى و الحبال المجوفة.

و كانت واقعة عجيبة، فموسى وحده (ليس معه إلّا أخوه) يواجه تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۰

المجموعة الهائلة من السحرة، و ذلک الحشد الهائل من الناس المتفرجين الذين كانوا على الأغلب من أنصار السحرة و مؤيديهم.

فالتفت السحرة فى غرور خاص و كبير إلى موسى عليه السلام و قالوا: إمّا أن تشرع فتلقى عصاك، و إمّا أن نشرع نحن فنلقى عصيّنا؟ قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ

فقال موسى عليه السلام بمنتهى الثقة و الاطمئنان: بل اشرعوا أنتم قالَ أَلْقُوا.

و عند ما ألقى السحرة بحبالهم و عصيّهم فى وسط الميدان سحروا أعين الناس، و أوجدوا بأعمالهم و أقاويلهم المهرجة و مبالغاتهم و هرطقاتهم خوفا فى قلوب المتفرجين، و أظهروا سحرا كبيرا رهيبا: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيم

و كلمة «السحر»- كما مرّ فى المجلد الأوّل من هذه الموسوعة التفسيرية، عند تفسير الآية (۱۰۲) من سورة البقرة- تعنى فى الأساس الخداع و الشعبذية، و قد يطلق أيضا على كل عامل غامض، و دافع غير مرئى.

و على هذا الأساس، فإن هذه الجماعة كانت توجد أفعالا عجيبة بالاعتماد على سرعة حركة الأيدى، و المهارة الفائقة فى تحريك الأشياء لتبدو و كأنّها أمور خارقة للعادة و كذلک الأشخاص الذين يستفيدون من الخواص الكيمياوية و الفيزياوية الغامضة الموجودة فى الأشياء و المواد، فيظهرون أعمالا مختلفة خارقة للعادة. كل هؤلاء يدخلون تحت عنوان «الساحر».

هذا علاوة على أن السحرة يستفيدون- عادة- من سلسلة من الإيحاءات المؤثرة فى مستمعيهم، و من العبارات و الجمل المبالغة، و ربّما الرهيبة المخوفة لتكميل عملهم، و التى تترک آثارا جدّ عجيبة فى مستمعيهم و متفرجيهم و جمهورهم.

و يستفاد من آيات مختلفة فى هذه السورة و من سور قرآنية أخرى حول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۱

قصة سحرة فرعون، أنّهم استخدموا كل هذه العوامل و الأدوات، و عبارة «سحروا أعين الناس» و جملة «استرهبوهم» أو تعبيرات أخرى فى سور «طه» و «الشعراء» جميعها شواهد على هذه الحقيقة

بحوث

اشارة

و هنا لا بدّ من الإشارة إلى نقطتين:

۱- المشهد العجيب لسحر السّاحرين

لقد أشار القرآن الكريم إشارة إجمالية من خلال عبارة وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيم إلى الحقيقة التالية و هى: أنّ المشهد الذى أوجده السحرة كان عظيما و مهما، و مدروسا و مهيبا، و إلّا لما استعمل القرآن الكريم لفظة «عظيم» هنا.

و یستفاد من کتب التاریخ و من روایات و أحادیث المفسّرین فی ذیل هذه الآیة، و کذا من آیات مشابهة- بوضوح- سعة أبعاد ذلک المشهد.

فبناء علی ما قاله بعض المفسّرین کان عدد السحرة یبلغ عشرات الألوف، و کانت الأجهزة و الوسائل المستعملة کذلک تبلغ عشرات الآلاف، و نظرا إلی أن السحرة المهرة و المحترفین لهذا الفن فی مصر کانوا فی ذلک العصر کثیرین جدّا، لهذا لا یکون هذا الکلام موضع استغراب و تعجب. خاصّة أنّ القرآن الکریم فی سورة «طه» الآیة (۶۷) یقول: فَأَوْجَسَ فِی نَفْسِهِ خِیفَةً مُوسی أی أنّ المشهد کان عظیما جدّا و رهیبا إلی درجة أن موسی شعر بالخوف قلیلا، و إن کان ذلک الخوف- حسب تصریح نهج البلاغة-[۶۸] لأجل أنّه خشی أن من الممکن أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۲

یتأثر الناس بذلک المشهد العظیم، فیکون إرجاعهم إلی الحق صعبا، و علی أی حال فإنّ ذلک یکشف عن عظمة ذلک المشهد و رهبته.

۲- الاستفادة من السلاح المشابه

من هذا البحث یستفاد- بجلاء و وضوح- أنّ فرعون بالنظر إلی حکومته العریضة فی أرض مصر، کانت له سیاسات شیطانیة مدروسة، فهو لم یستخدم لمواجهة موسی و أخیه هارون من سلاح التهدید و الإرعاب، بل سعی للاستفادة من أسلحة مشابهة- کما یظن- فی مواجهة موسی، و من المسلّم أنّه لو نجح فی خطّته لما بقی من موسی و دینه أی أثر أو خبر، و لکان قتل موسی علیه السلام فی تلک الصورة أمرا سهلا جدا، بل و موافقا للرأی العام، جهلا منه بأنّ موسی لا یعتمد علی قوة إنسانیة یمکن معارضتها و مقاومتها، بل یعتمد علی قوّة أزلیة إلهیة مطلقة، تحطّم کلّ مقاومة، و تقضی علی کل معارضة.

و علی أیة حال، فإنّ الاستفادة من السلاح المشابه أفضل طریق الإنتصار علی العدو المتصلّب، و تحطیم القوی المادیة.

فی هذه اللحظة التی اعترت الناس فیها حالة من النشاط و الفرح، و تعالت صیحات الابتهاج من کل صوب، و علت وجوه فرعون و ملائه ابتسامة الرضی، و لمع فی عیونهم بریق الفرح، أدرک الوحی الإلهی موسی علیه السلام و أمره بإلقاء العصی، و فجأة انقلب المشهد و تغیر، و بدت الدهشة علی الوجوه، و تزعزت مفاصل فرعون و أصحابه کما یقول القرآن الکریم: وَ أَوْحَیْنا إِلی مُوسی أَنْ أَلْقِ عَصاکَ فَإِذا هِیَ تَلْقَفُ ما یَأْفِکُونَ

و «تلقف» مشتقة من مادة «لقف» (علی وزن سقف) بمعنی أخذ شیء بقوة و سرعة، سواء بواسطة الفم، و الأسنان، أو بواسطة الأیدی، و لکن تأتی فی بعض الموارد بمعنی البلع و الابتلاع أیضا، و الظاهر أنّها جاءت فی الآیة الحاضرة بهذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۳

المعنی.

و «یأفکون» مشقّة من مادة «إفک» علی وزن «مسک» و هی تعنی فی الأصل الانصراف: عن الشیء، و حیث أن الکذب یصرف الإنسان من الحق أطلق علی الکذب لفظ «الإفک».

و هناک احتمال آخر فی معنی الآیة ذهب إلیه بعض المفسّرین، و هو أن عصا موسی بعد أن تحولت إلی حیّة عظیمة لم تبتلع أدوات سحر السحرة، بل عطّلها عن العمل و الحرکة و أعادها إلی حالتها الأولی. و بذلک أوصد هذا العمل طریق الخطأ علی الناس، فی حین أن الابتلاع لا یمکنه أن یقنع الناس بأنّ موسی لم یکن ساحرا أقوی منهم.

و لکن هذا الاحتمال لا یناسب جملة «تلقف» کما لا یناسب مطالب الآیة، لأنّ «تلقف»- کما أسلفنا- تعنی أخذ شیء بدقة و سرعة لا

قلب الشیء و تغییره.

هذا مضافا إلی أنّه لو کان المقرر أن یظهر إعجاز موسی علیه السلام عن طریق إبطال سحر السحرة، لم تکن حاجة إلی أن تتحول العصی إلی حیّة عظیمة، کما قال القرآن الکریم فی بدایة هذه القصّة.

و بغض النظر عن کل هذا، لو کان المطلوب هو إیجاد الشک و الوسوسة فی نفوس المتفرجین، لکانت عودة وسائل السحرة و أدواتهم إلی هیئتها الأولی- أیضا- قابلة للشک و الترديد، لأنّه من الممکن أن یحتمل أن موسی بارع فی السحر براعة کبری بحیث أنّه استطاع إبطال سحر الآخرین و إعادتها إلی هیئتها الأولی.

بل إن الذی تسبب فی أن یعلم الناس بأن عمل موسی أمر خارق للعادة، و أنّه عمل إلهی تحقق بالاعتماد علی القدرة و الإلهیة المطلقة، هو أنّه کان فی مصر آنذاک مجموعة کبیرة من السحرة الماهرین جدّا، و کان أساتذه هذا الفن وجوها معروفة فی تلک البیئة، فی حین أن موسی الذی لم یکن متصفا بأی واحدة من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۴

هذه الصفات، و کان- فی الظاهر- رجلا مغمورا، نهض من بین بنی إسرائیل، و أقدم علی مثل ذلک العمل الذی عجز أمامه الجمیع. و من هنا علم أن هناک قوة غیّبة تدخلت فی عمل موسی، و أن موسی لیس رجلا عادیا.

و فی هذا الوقت ظهر الحق، و بطلت أعمالهم المزّیفة فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما کانُوا یَعْمَلُونَ لأنّ عمل موسی کان عملا واقعیا، و کانت أعمالهم حفنة من الحیل و من أعمال الشعبذة، و لا شک أنّه لا یستطیع أی باطل أن یقاوم الحق دائما.

و هذه هی أوّل ضربة توجهت إلی أساس السلطان الفرعونی الجبّار.

ثمّ یقول تعالی فی الآیة اللاحقة: و بهذه الطریقة ظهرت آثار الهزیمة فیهم، و صاروا جمیعا أذلاء: فَغُلِبُوا هُنالِکَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِینَ

و بالرغم من أنّ المؤرخین ذکروا فی کتب التاریخ قضایا کثیرة حول هذه الواقعة، و لکن حتّی من دون نقل ما جاء فی التواریخ یمکن الحدس أیضا بما حدث فی هذه الساعة من اضطراب فی الجماهیر المتفرجة ... فجماعة خالفوا بشدّة بحیث أنّهم فرّوا و هربوا، و أخذ آخرون یصیحون من شدّة الفزع، و بعض أغمی علیه.

و أخذ فرعون و ملأه ینظرون إلی ذلک المشهد مبهوتین مستوحشین، و قد تحدّرت علی وجوههم قطرات العرق من الخجل و الفشل، فأجمعوا یفکرون فی مستقبلهم الغامض المبهم، و لم یدر فی خلدهم أنّهم سیواجهون مثل هذا المشهد الرهیب الذی لا یجدون له حلّا.

و الضربة الأقوی کانت عند ما تغیر مشهد مواجهة السحرة لموسی علیه السلام تغییرا کلّیا، و ذلک عند ما وقع السحرة فجأة علی الأرض ساجدین لعظمة اللّه وَ أُلْقِیَ السَّحَرَةُ ساجِدِینَ

ثمّ نادوا بأعلی صوتهم و قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِینَ رَبِّ مُوسی وَ هارُونَ

و بذکر هذه الجملة بینوا- بصراحة- الحقیقة التالیة و هی: أنّنا آمنا بربّ هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۵

غیر الربّ المختلق، المصطنع، إنّه الربّ الحقیقی.

بل لم یکتفوا بلفظة «ربّ العالمین» أیضا، لأنّ فرعون کان یدعی أنّه ربّ العالمین، لهذا أضافوا: «ربّ موسی و هارون» حتی یقطعوا الطریق علی کل استغلال.

و لم یکن فرعون و الملأ یتوقعون هذا الأمر مطلقا، یعنی أنّ الجماعة التی کان یعلّق الجمیع آمالهم علیها للقضاء علی موسی و دعوته، أصبحت فی الطلیعة من المؤمنین بموسی و دعوته، و وقعوا ساجدین للّه أمام أعین الناس عامّة، و أعلنوا عن تسلیمهم المطلق و غیر المشروط لدعوة موسی علیه السلام.

على أنّ هـذا الموضوع الـذى غيّر أناسا بمثل هـذه الصورة، يجب أن لا يكون موضوع اسـتغراب و تعجب، لأنّ نور الإيمان و التوحيد موجـود فى جميـع القلوب، و يمكن أن تخفيه بعض الموانع و الحجب الاجتماعيـة مـدّة طويلـة أو قصـيرة، و لكن عنـد مـا تهب بعض العواصف بين حين و آخر تنزاح تلك الحجب، و يتجلّى ذلك النور و يأخذ بالأبصار.

و بخاصّـيـة أن السـحرة المـذكورين كانوا أساتـذة مهرة فى صـناعتهم، و كانوا أعرف من غيرهـم بفنون عملهم و رموز سـحرهم، فكانوا يعرفون- جيدا- الفرق بين «المعجزة» و «السحر» فالأمر الذى يحتاج الآخرون لمعرفته إلى المطالعة الطويلة و الدقة الكبيرة، كان واضحا عند السحرة و بينا، بل أوضح و أبين من الشمس فى رابعة النهار.

إنّهم مع معرفتهم بفنون و رموز السـحر الذى تعلموه طوال سـنوات، عرفوا و أدركوا أن عمل موسى لم يكن يشبه- أبدا- السحر، و أنّه لم يكن نابعا من قـدرة البشـر، بل كان نابعا من قـدرة فوق الطبيعـة و فوق البشـر، و بذلك لا مجال للاسـتغراب و التعجب فى اعلانهم إيمانهم بموسى بمثل تلك السرعة و الصراحة و الشجاعة و عدم الخوف من المستقبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۶

و جملة «ألقى السـحرة» التى جاءت فى صـيغة الفعل المبنى للمجهول، شاهد ناطق على الاسـتقبال البالغ لدعوة موسـى و تسليم السحرة المطلق له عليه السـلام. يعنى أنّ جاذبيـة موسـى كان لها من الأثر القوى البالغ فى قلوب و نفوس أولئك السـحرة، بحيث أنّهم سـقطوا على الأرض من دون اختيار، و دفعهم ذلك إلى الإقرار و الاعتراف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۶]

اشارة

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هـذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۲۴) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (۱۲۶)

التّفسير

التّهديدات الفرعونية الجوفاء:

عند ما توجهت ضـربة جديدة- بانتصار موسـى على السـحرة و إيمانهم به- إلى أركان السـلطة الفرعونية، استوحش فرعون و اضطرب بشـدّة و رأى أنّه إذا لم يظهر أى ردّ فعـل فى مقابـل هـذا المشـهد، فسـيؤمن بموسـى كـل الناس أو أكثرهم، و سـتكون السـيطرة على الأوضاع غير ممكنة، لهذا عمد فورا إلى عملين مبتكرين:

فى البداية وجه اتهاما (لعلّه مرغوب عند السواد من الناس) إلى السحرة، ثمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۸

هـددهم بأشـدّ التهديـدات، و لكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السـحرة مقاومـة عجيبة تجاه هذين الموقفين، مقاومة أغرقت فرعون و جهازه فى تعجب شديد، و أفشلت جميع خططه. و بهذه الطريقة وجهوا ضربة ثالثة إلى أركان السلطان الفرعونى المتزلزل، و قد رسمت الآيات اللاحقة هذا المشهد بصورة رائعة.

فی البدایة یقول: إنّ فرعونا قال للسحرة: هل آمنتم بموسی قبل أن آذن لکم قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ ! و کأنّ التغییر ب «به» لأجل تحقیر موسی و الازدراء به، و کأنّه بجملة «قبل أن آذن لکم» أراد أن یظهر أنّه یتحری الحقیقة و یطلب الحق، فلو کان عمل موسی علیه السلام یتسم بالحقیقة و الواقعیة لأذنت أنا للناس بأن یؤمنوا به، و لکن استعجالکم کشفت عن زیفکم، و أنّ هناک مؤامرة مبیّنة ضد شعب مصر.

و علی أیة حال، أفادت الجملة أعلاه أنّ فرعون الجبار الغارق فی جنون السلطة کان یدعی أن لا یحق للشعب أن یتصرف أو یعمل أو یقول شیئا من دون إجازته و إذنه، بل لا یحق لهم أن یفکروا و یؤمنوا بدون أمره و إذنه أیضا!! و هذه هی أعلی درجات الاستعباد و الاستحمار، أن یکون شعب من الشعوب أسیرا و عبدا بحیث لا یحق له حتی التفکیر و الإیمان القلبی بأحد أو بعقیدة.

و هذا هو البرنامج الذی یواصله «الاستعمار الجدید»، یعنی أنّ المستعمرین لا یکتفون بالاستعمار الاقتصادی و السیاسی و الاجتماعی، بل یسعون إلی تقویة جذورهم عن طریق الاستعمار الفکری.

و تتجلی مظاهر هذا الاستعباد الفکری فی البلاد الشیوعیة أکثر فأکثر، بالحدود المغلقة، و الأسوار الحدیدیة و الرقابة الشدیدة المفروضة علی کل شیء، و بخاصّة علی الأجهزة الثقافیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۹

و لکن فی البلاد الرأسمالیة الغربیة التی یظن البعض أنّه لا یوجد استعباد فکری و ثقافی علی الأقل و أن لکل أحد أن یفکر و یختار بحریة، یمارس الاستعباد بنحو آخر، لأنّ الرأسمالیین الکبار بتسلّطهم الکامل علی الصحف المهمّة، و الإذاعات، و محطات التلفزیون، و جمیع سبل الارتباط الجمعی و وسائل الإعلام، یفرضون علی المجتمع أفکارهم و آراءهم فی لباس الحریة الفکریة، و یوجهون المجتمع- عن طریق عملیة غسیل دماغ واسعة و مستمرة- إلی الوجهة التی یریدون، و هذا بلاء عظیم یعانی منه عصرنا الحاضر.

ثمّ یضیف فرعون قائلا إِنَّ هذا لَمَکْرٌ مَکَرْتُمُوهُ فِی الْمَدِینَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها.

و نظرا إلی الآیة (۷۱) من سورة «طه» التی تقول إِنَّهُ لَکَبِیرُکُمُ الَّذِی عَلَّمَکُمُ السِّحْرَ یتّضح أنّ مراد فرعون هو أنّ هناک مؤامرة مدروسة و تواطؤا مبیّنا قد دبرتموه قبل مدّة للسیطرة علی أوضاع مصر و استلام زمام السلطة، لا أنّکم دبرتموه للتو و قبل قلیل فی لقاء محتمل بینکم و بین موسی.

و من هنا یتّضح أنّ المراد من «المدینة» هو مجموع القطر المصری، و الألف و اللام ألف و لام الجنس، و المراد من «لتخرجوا منها أهلها» هو تسلط موسی علیه السلام و بنی إسرائیل علی أوضاع مصر، و إقصاء حاشیة فرعون و أعوانه عن جمیع المناصب الحساسة، أو إبعاد بعضهم إلی النقاط البعیدة من البلاد، و الآیة (۱۱۰) فی هذه السورة شاهدة علی ذلک أیضا.

و علی کل حال، فإنّ هذه التهمة کانت خاویة و مفضوحة، إلی درجة أنّه لم یکن یقتنع بها إلّا العوام و الجهلة من الناس، لأنّ موسی علیه السلام لم یکن حاضرا فی مصر، و لم یلتق بأحد من السحرة من قبل، و لو کان أستاذهم و کبیرهم الذی علمهم السحر، لوجب أن یکون معروفا و مشهورا فی جمیع الأماکن، و أن یعرفه أکثر الناس، و هذه لم تکن أمورا یمکن إخفاؤها و کتمانها، لأنّ التواطؤ مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۰

أشخاص المنتشرین فی شتی مناطق مصر علی أمر بهذا القدر من الاهمیة غیر ممکن عملا.

ثمّ إنّ فرعون هدّدهم بتهدید غامض و لکنّه شدید و محکم، إذ قال: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ! و فی الآیة اللاحقة بیّن تفاصیل ذلک التهدید الذی هدّد به السحرة فاقسم بأن یقطع أیدیهم و أرجلهم و یصلبهم، إذ قال: لَأُقَطِّعَنَّ أَیْدِیَکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّکُمْ أَجْمَعِینَ

و فی الحقیقة کان مراده أن یقتلهم بالتعذیب و التنکیل، و یجعل من هذا المشهد الرهیب درسا للآخرین، لأن قطع الأیدی و الأرجل، ثمّ الصلب علی الشجر أمام الناس، و منظر تدفق الدم من أجسامهم و ما یرافق هذا من حالات النزع فوق المشانق إلی أن یموتوا،

سیکون عبرة لمن یعتبر (و لا بدّ من ملاحظة أن الصلب فی ذلک الزمان لم یکن یتمّ علی النحو الذی یتمّ به الآن، و هو تعلیق المشنوق بوضع الحبل فی عنقه، بل کان الحبل یوضع تحت کتفیه حتی لا یموت بسرعة).

و لعل قطع الید و الرجل من خلاف، کان لأجل أن هذا العمل یتسبب فی أن یموتوا بصورة أبطأ، و یتحملوا قدرا أکثر من الألم و العذاب.

و الجدیر بالتأمل أن البرامج التی انتهجها فرعون لمکافحة السحرة الذین آمنوا بموسی، کانت برامج عامّة فی مکافحة الجبارین و تعاملهم الوحشی الرخیص مع أنصار الحق و المنادین به، فهم من جانب یستخدمون حربة التهمة حتی یزعزعوا مکانة أنصار الحق فی نفوس الجماهیر، و من جانب آخر یتوسلون بسلاح القوة و القهر و التهدید لتحطیم إرادتهم، و لکن- کما نقرأ فی ذیل قصّة موسی- لم یستطع هذان السلاحان أن یفعلا شیئا فی نفوس أنصار الحق، و لن یفعلا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۱

لقد قاوم السحرة کلتا حربتی فرعون، و أجابوه جواب رجل واحد: إنّنا نرجع إلی ربّنا إذن قالُوا إِنَّا إِلی رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ

یعنی إذا تحقق تهدیدک الثّانی (و هو القتل) فمعناه أنّنا سننال الشهادة فی سبیل الدفاع عن الحق، و هذا لا یوجب ضررا علینا، و لا ینقصنا شیئا، بل یعدّ سعادة و فخرا عظیما لنا.

ثمّ إنّهم للردّ علی تهمة فرعون، و لإیضاح الحقیقة لجماهیر المتفرجین علی هذا المشهد، و اثبات براءتهم من أی ذنب، قالوا: إنّ الإشکال الوحید الذی تورده علینا هو أنّنا آمنا بآیات اللّه و قد جاءتنا وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآیاتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا.

یعنی أنّنا لسنا مشاغبین، و لا متآمرین، و لا متواطئین ضدک، و لیس إیماننا بموسی یعنی أنّنا نرید استلام أزمة الحکم، و لا أن نخرج أهل هذه البلاد من دیارهم، و أنت نفسک تعلم أننا لسنا بهذا الصدد، بل نحن عند ما رأینا الحق و شاهدنا علائمه بوضوح أجبنا داعی اللّه و لبینا نداءه و آمنا به، و هذا هو ذنبنا الوحید فی نظرک لیس غیر.

و هکذا أظهروا لفرعون بالجملة الأولی أنّهم لا یخافون أی تهدید، و أنّهم یستقبلون جمیع الحوادث و التبعات حتی الشهادة بمنتهی الشهامة. و بالجملة الثّانیة ردّوا بصراحة علی الاتهامات التی وجهها فرعون إلیهم.

إن جملة «تنقم» مشتقة من مادة «نقمة» علی وزن «نعمة» و هی فی الأصل تعنی رفض شیء باللسان أو بالعمل و العقوبة. و علی هذا فإنّ الآیة أعلاه یمکن أن تکون بمعنی إنّ العمل الوحید الذی تنکره علینا هو أنّنا آمنا، أو یعنی أنّ العقوبة التی ترید أن تعاقبنا بها إنما هو لأجل إیماننا.

ثمّ إنّهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون و توجهوا إلی اللّه سبحانه، و طلبوا منه الصبر و الاستقامة، لأنّهم کانوا یعلمون أنّهم لا یستطیعون أن یقاوموا تلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۲

العقوبات الثقیلة من دون نصره و تأییده و عونه، لهذا قالوا: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِینَ

و الملفت للنظر أنّهم بعبارة أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً أظهروا أن الخطر المحدق بهم بلغ الدرجة القصوی، فأعطنا یا ربّ أنت- أیضا- آخر درجات الصبر و الاستقامة، لأنّ «أفرغ» من مادة «الإفراغ» بمعنی صبّ السائل من وعاء حتی یفرغ.

الاستقامة الواعیة:

یمکن أن یتملک الإنسان عجب شدید عند أوّل اطلاعة علی قصّة السحرة فی زمان موسی علیه السلام الذین صاروا من المؤمنین الصادقین، هل یمکن أن یحدث مثل هذا الانقلاب و التحول العمیق فی الروح الإنسانیة فی مثل هذه المدّة القصیرة، بحیث یقطع

الشخص كل علاقاته مع الصف المخالف، و يصير فى صف الموافق، ثمّ يدافع عن عقيدته الجديدة بإصرار و عناد عجيبين إلى درجة أنّه يتجاهل مكانته و مصالحه و حياته جميعا، و يستقبل الشهادة بشجاعة منقطعة النظير، و بوجه مستبشر؟

و لكن هذا الاستغراب يتبدد إذا التفتنا إلى هذه النقطة، و هى أنّ هؤلاء- نظرا إلى سوابقهم الكثيرة فى علم السحر- وقفوا جيدا على عظمة معجزة النّبى موسى عليه السلام و حقانيته، و سلكوا هذا السبيل عن وعى كامل ... و هذا الوعى صار منشأ لعشق ملتهب سر بل كل وجودهم و كيانهم، و هو عشق لا يعرف حدّا و سدّا، و فوق جميع النوازع و الرغبات البشرية.

إنّهم كانوا يعلمون جيدا أى طريق يسلكونه؟ و لماذا يجاهدون؟ و من يكافحون؟ و أى مستقبل مشرق ينتظر هذا الجهاد العظيم؟

أجل، إذا كان الإيمان مقرونا بالوعى الكامل فإنّه ينتهى إلى مثل هذا العشق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۳

الملتهب الذى لا يكون هذا التفانى فى سبيله مثار للعجب.

و لهذا نرى كيف أن السحرة قالوا بصراحة و شجاعة (كما فى سورة طه الآية (۷۲): قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِى فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِى هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا.

و أخيرا- و كما جاء فى الرّوايات و كتب التأريخ- استقام أولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفّذ فرعون تهديداته، و مثّل بأجسامهم تمثيلا مروعا، و صلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل. و هكذا كتبت أسماؤهم مع أحرار التاريخ بأحرف من نور، و كانوا كما وصفهم المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى: كانوا أوّل النهار كفارا سحرة، و آخر النهار شهداء و بررة.

و لكن مع الالتفات إلى أنّ مثل هذا الانقلاب و التحول و الاستقامة ليس ممكنا إلّا فى ظلّ الإمدادات الإلهية، و من المسلّم أن كلّ من اختار سلوك طريق الحق، شملته هذه العنايات الرّبانية، و الإمدادات الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۴

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۲۷ الى ۱۲۹]

اشارة

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِى نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (۱۲۷) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۱۲۸) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۲۹)

التّفسير

اشارة

فى هذه الآيات يبيّن لنا القرآن الكريم مشهدا آخر من الحوار الذى دار بين فرعون و بين ملائه حول وضع موسى عليه السّلام، و يستفاد من القرائن الموجودة فى نفس الآية أنّ محتوى هذه الآيات يرتبط بفترة ما بعد المواجهة بين موسى و بين السحرة.

تقول الآية فى البداية: وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۵

يستفاد من هذا التعبير- جيدا- أنّ فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السّلام ترك موسى و بنى إسرائيل أحرارا (طبعا الحرية النسبية)

مدّة من الزمن، و لم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصة من دون أن يشتغلوا بالدعوة و التبليغ لصالح دين موسى عليه السّلام إلى درجة أن قوم فرعون قلقوا من انتشاره و نفوذ دعوتهم، فحضروا عند فرعون و حرضوه على اتّخاذ موقف مشدد تجاه موسى و بنى إسرائيل.

فهل فترة الحرية النسبية هذه كانت لأجل الخوف و الرعب الذى أصاب فرعون بسبب ما رأى من معجزة موسى عليه السّلام القوية، أو للاختلاف الذى برز فى شعب مصر (و حتى القبطيين منهم) حول موسى و دينه، حيث أنّ جماعة رغبوا فى دينه، و كان فرعون شاهدا لهذه الحالة فلم يمكنه أن يتخذ فى مثل هذه الأجواء و الظروف موقفا متشددا من موسى و دينه.

كلا الاحتمالين قريبان إلى ذهن فرعون، و يمكن أن يكون كلاهما معا قد تركا أثرا فى نفسه و فكره.

و على كل حال فإنّ فرعون- بسبب تحذيرات أعوانه و حاشيته- صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بنى إسرائيل، فقال لحاشيته فى معرض الجواب على تحريضهم و تحذيرهم: سأقتل أبناءهم و استخدام نساءهم و نحن متفوقون عليهم على كل حال: قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ

و قد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من لفظة «آلهتك» و الظاهر من الآية هو أنّ فرعون كانت له معبودات و أصنام، و إن كان يفهم من الآية (۴) من سورة النازعات أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى و من الآية (۳۸) من سورة القصص ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي إنّ فرعون كان أعظم إله لشعب مصر، أو على الأقل كان فرعون يعتبر نفسه أعظم معبود لشعب مصر و لكن مع ذلك كان قد اختار آلهة لنفسه و كان يعبدها.

و النقطة الأخرى أن فرعون عمد هنا إلى مكافحة جذرية و عميقة، و قرر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۶

تحطيم قوة بنى إسرائيل تحطيما كاملا، و ذلك بالقضاء على المقاتلين و رجال الحرب بقتل أبناء بنى إسرائيل و استئصالهم، و يستبقى نساءهم و بناتهم لاسترقاقهن و استخدامهن، و هذا هو نهج كل مستعمر قديم و جديد، فهو يقضى على الرجال العالمين و القوى المؤثرة فى المواجهة، أو يقتل فيهم روح الرجولة و الشهامة و الغيرة و الحمية بالوسائل المختلفة، و يستبقى غير المؤثرين فى هذا المجال.

على أنّه يحتمل- أيضا- أن فرعون كان يريد أن يبلغ هذا الكلام إلى مسامع بنى إسرائيل، فتتحطم معنوياتهم من جهتين: أوّلاهما من جهة قتل أبنائهم و رجال مستقبلهم، و الأخرى: من جهة وقوع نسائهم و أعراضهم فى أيدى العدو.

و على كل حال أراد بعبارة إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ أن يزيل الخوف و القلق من قلوب حاشيته و أعوانه، و يخبرهم بأنّه مسيطر على الأوضاع سيطرة كاملة.

سؤال:

و هنا يطرح سؤال، و هو: لماذا لم يقرر فرعون قتل موسى، و إنّما قرر- فقط- القضاء على أبناء بنى إسرائيل؟

جواب:

يستفاد من آيات سورة المؤمن- جيدا- أنّ فرعون كان عازما فى البداية على قتل موسى، و لكن نصائح مؤمن آل فرعون المقترنة بالتهديد، فى أنّ قتل موسى يمكن أن يقترن بالخطر فيحتمل أن يكون مرسلا من اللّه حقيقة و واقعا، و أن كل ما يقوله من العقوبات

الإلهیة یتحقق بمقتله، أثرت فی روح فرعون و فکره.

هذا مضافا إلی أنّ خبر انتصار موسی علی السحرة انتشر فی کل مکان،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۷

و وقع بسببه خلاف بین شعب مصر فی مخالفة أو تأیید موسی. و لعل فرعون خاف إن هو اتّخذ من موسی علیه السّلام موقفا حادا واجه ردّ فعل قوی من جانب الناس الذین تأثروا بهذه المسألة، و لهذا انصرف عن فکرة قتل موسی علیه السّلام.

و الآیة اللاحقة بیّنت- فی الحقیقة- خطّة موسی التی اقترحها علی بنی إسرائیل لمواجهة تهدیدات فرعون، و شرح فیها شروط الغلبة علی العدو، و ذکرهم بأنّهم إذا عملوا بثلاث مبادئ انتصروا علی العدو حتما:

أوّلها: الاتکال علی اللّه فقط قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ اسْتَعِینُوا بِاللَّهِ

و الآخر: أن یثبتوا و لا یخافوا من تهدیدات العدو: وَ اصْبِرُوا.

و للتأکید علی هذا المطلب، و من باب ذکر الدلیل، ذکّرهم بأنّ الأرض کلّها ملک اللّه، و هو الحاکم علیها و المالک المطلق لها، فهو یعطیها لمن یشاء إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ یُورِثُها مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ

و آخر هذه المبادئ هو أن یعتمدوا التقوی لأنّ العاقبة لمن اتّقی وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِینَ

هذه المبادئ و الشروط الثلاثة- أحدها فی العقیدة (الاستعانة باللّه) و الثّانی فی الأخلاق (الصبر و الثبات) و الأخیر فی العمل (التقوی)- لیست شرائط انتصار قوم بنی إسرائیل وحدهم علی العدو، بل کل شعب أراد الغلبة علی أعدائه لا بدّ له من تحقیق هذه البرامج الثلاثة فالأشخاص غیر المؤمنین و الجبناء الضعفاء الإرادة، و الشعوب الفاسقة الغارقة فی الفساد، إذا ما انتصرت فإنّ انتصارها یکون لا محالة مؤقتا غیر باق.

و الملفت للنظر أنّ هذه الشروط الثلاثة کل واحد منها متفرع علی الآخر، فالتقوی لا تتوفر من دون الثبات و الصبر فی مواجهة الشهوات، و أمام بهارج العالم المادّی، کما أنّ الصبر و الثبات لا یکون لهما أی بقاء و دوام من دون الإیمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۸

باللّه.

و فی آخر آیة من الآیات الحاضرة یعکس القرآن الکریم شکایات بنی إسرائیل و عتابهم من المشکلات التی ابتلوا بها بعد قیام موسی علیه السّلام فیقول: قالُوا أُوذِینا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِیَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا فإذا متی یحصل الفرج؟! و کأنّ بنی إسرائیل مثل کثیر منّا کانوا یتوقعون أن تصلح جمیع الأمور بقیام موسی علیه السّلام فی لیلة واحدة ... أن یزول فرعون و یسقط، و یهلک الجهاز الفرعونی برمته، و تصبح مصر بجمیع ثرواتها تحت تصرف بنی إسرائیل، و یتحقق کل ذلک عن طریق الإعجاز، من دون أن یتحمل بنو إسرائیل أیّ عناء.

و لکن موسی علیهم السّلام أفهمهم بأنّهم سینتصرون فی المآل، و لکن أمامهم طریقا طویلا، و إنّ هذا الإنتصار- طبقا للسنة الإلهیة- یتحقق فی ظل الاستقامة و الثبات و السعی و الاجتهاد، کما جاء ذلک فی الآیة الحاضرة قالَ عَسی رَبُّکُمْ أَنْ یُهْلِکَ عَدُوَّکُمْ وَ یَسْتَخْلِفَکُمْ فِی الْأَرْضِ

و ذکر کلمة «عسی» مثل کلمة «لعلّ» التی وردت فی کثیر من الآیات القرآنیة إشارة- فی الحقیقة- إلی أنّ لهذا التوفیق و الإنتصار شرائط، من دونها لا یصلون إلیه، (للوقوف علی المزید فی هذا المجال راجع ما کتبناه فی تفسیر الآیة ۸۴ من سورة النساء).

ثمّ یقول فی ختام الآیة: إنّ اللّه أعطاکم هذه النعمة، و أعاد إلیکم حریتکم المسلوبة کی ینظر کیف تتصرفون أنتم فَیَنْظُرَ کَیْفَ تَعْمَلُونَ یعنی ستبدأ- بعد الإنتصار- مرحلة امتحانکم و اختبارکم، اختبار شعب کان فاقدا لکل شیء ثمّ حصل علی کل شیء فی ضوء الهدایة الإلهیة.

إنّ هذا التعبير- هو ضمنا- إشعار بأنّكم سوف لا تخرجون من هذا الاختبار- فى المستقبل- بنجاح، و ستفسدون و تظلمون كما فعل من كان قبلكم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۹

و نقرأ

فى رواية وردت فى كتاب الكافى مروية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «وجدنا فى كتاب على صلوات اللّه عليه: إنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين، أنا و أهل بيتى الذين أورثنا اللّه الأرض و نحن المتقون»[۶۹]

و هذه إشارة إلى أن الحكم المذكور فى هذه الآية حكم شامل، و قانون عام، و الأرض هى الآن- فى الحقيقة- للمتقين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۰

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۱]

اشارة

وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳۱)

التّفسير

العقوبات التنبيهية:

لقد كان القانون الإلهى العام فى دعوة الأنبياء- كما قلنا فى تفسير الآية (۹۴) من نفس هذه السورة- هو أنّهم كلّما واجهوا معارضة كان اللّه تعالى يبتلى الأقوام المعاندين بأنواع المشاكل و البلايا، حتى يحسّوا بالحاجة فى ضمائرهم و أعماق نفوسهم، و تستيقظ فيهم فطرة التوحيد المتكسّلة تحت حجاب الغفلة عند الرفاه و الرخاء، فيعودوا إلى الإحساس بضعفهم و عجزهم، و يتوجهوا إلى المبدأ القادر مصدر جميع النعم.

و فى أوّل آية من الآيتين الحاضرتين إشارة إلى نفس هذا المطلب فى قصّة فرعون، إذ يقول تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۱

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

و «السنين» جمع «سنة» بمعنى العام، و لكنّها إذا قرنت بلفظة «أخذ» أعطت معنى الابتلاء بالقحط و الجدب، و على هذا يكون معنى أخذته السنة هو: أصيب بالقحط و الجدب، و لعل علّة ذلك هى أن أعوام القحط و الجدب قليلة بالقياس إلى أعوام الخصب و الخير، و على هذا إذا كان المراد من السنة السنين العادية لم يكن ذلك موضوعا جديدا، و يتبيّن من ذلك أنّ المراد من السنين هى السنين الاستثنائية، أى سنوات القحط و أعوام الجدب.

و كلمة «آل» كانت فى الأصل «أهل» ثمّ قلبت فصارت هكذا، و الأهل بمعنى أقرباء الإنسان و خاصته، سواء أقرباؤه أو زملاؤه و نظراؤه فى المسلك و التفكير و أعوانه.

و مع أنّ القحط و الجدب أصابا حاشية فرعون و مؤيديه أجمع، و لكن الخطاب فى الآية موجه إلى خصوص أقربائه و خاصته، و هو

إشارة إلى أن المهم هو أن يستيقظ هؤلاء، لأنّ بيدهم أزمة الناس ... أن يضلوا الناس، أو يهدونهم، و لهذا توجه الخطاب إليهم فقط، و إن كان البلاء قد أصاب الآخرين أيضا.

و يجب أن لا نستبعد هذه النقطة، و هی أن الجدب كان يعدّ بلاء عظيما لمصر، لأنّ مصر كانت بلدا زراعيا، فكان الجدب مؤذيا لجميع الطبقات، و لكن من المسلّم أنّ آل فرعون- و هم الأصحاب الأصليين للأراضی الزراعية و إنتاجها- كانوا أكثر تضررا بهذا البلاء.

ثمّ إنّه يعلم من الآية الحاضرة أنّ الجدب استمر عدّة سنوات، لأنّ كلمة «سنين» صيغة جمع، و خاصّة أنّه أضيف إليها عبارة نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لأنّ الجدب المؤقت و العابر يمكن أن يترك شيئا من الأثر فی الأشجار و لكن عند ما يكون الجدب طويلا فإنّه يبيد الأشجار أيضا. و يحتمل أيضا أنّه علاوة على الجدب فانّ الفواكه و الثمار أصيبت بآفات قاتلة كذلك.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۲

و كأنّ جملة لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ إشارة إلى هذه النقطة، و هی: أنّ التوجه إلى حقيقة التوحيد موجودة من البداية فی الروح الآدمية، و لكنّه على أثر التربية غير الصحيحة أو بطر النعمة ينساها الإنسان، و عند حلول البلايا و الأزمات يتذكر ذلك مجددا، و مادة «تذكر» تناسب هذا المعنى.

هذا و الجدير بالانتباه أنّ جملة لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ جاءت فی ذيل الآية (۹۴) و هی مقدمة أخرى- فی الحقيقة- لأنّ الإنسان يتذكر أوّلا، ثمّ يخضع و يسلّم، أو يطلب من اللّه الصفح و المغفرة.

و لكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلهية، و يستيقظوا من غفلتهم و غفوتهم العميقة، أساءوا استخدام هذا الظرف و الحالة، و فسّروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتية و مطابقة لرغبتهم، و كانوا يعيشون فی راحة و استقرار قالوا: إنّ الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا، و صلاحنا فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ

و لكن عند ما تنزل بهم النوائب فإنّهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السّلام و جماعته فورا و يقولون هذا من شومهم: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ

و «يطّيروا» مشتقة من مادة «تطيّر» بمعنى التشاؤم، و أصلها من الطير، فقد كان العرب غالبا ما يتشاءمون بواسطة الطيور. و ربّما تشاءموا بصوت الغراب، أو بطيران الطير، فإذا طار من ناحية اليسار اعتبروا ذلك علامة الشقاء و الفشل، و كلمة التطير تعنی مطلق التشاؤم.

و لكن القرآن الكريم قال فی معرض الردّ عليهم: اعلموا أنّ منشأ كل شؤم و بلاء أصابكم انّما هو من قبل اللّه، و أنّ الله تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومة، و لكن أكثرهم لا يعلمون أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

و الجدير بالتأمل أن هذا النمط من التفكير لم يكن خاصا بالفرعونيين، بل

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۳

هو أمر نلاحظه بوضوح الآن بين الشعوب المصابة بالأنانية و الضلال، فهی- بغية قلب الحقائق، و خداع ضميرها أو ضمائر الآخرين- كلما أصابها نجاح و تقدم اعتبرت ذلك ناشئا من جدارتها و كفاءتها، و إن لم يكن فی ذلك النجاح و التقدم أدنى شیء من تلك الكفاءة و الجدارة، و بالعكس إذا أصابها أی إخفاق و شقاء نسبت ذلك فورا إلى الأجانب و إلى أيادی العدو الخفيّة أو المكشوفة، و إن كانوا هم بأنفسهم سبب ذلك الشقاء و الإخفاق.

يقول القرآن الكريم: إنّ أعداء الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يتوسلون بمثل هذا المنطق أيضا فی مقابل رسول اللّه (كما نقرأ فی الآية ۷۸ من سورة النساء).

و فی مكان آخر يقول: إنّ المنحرفين هم هكذا (كما فی سورة فصلت الآية ۵۰) و هذا فی الحقيقة هو أحد مظاهر الأنانية و اللجاج البارز.[۷۰]

التفاؤل و التشاؤم (الفأل و الطيرة):

مسألة التطيّر و التفاؤل و التشاؤم قد تكون منتشرة في مختلف المجتمعات البشرية، فيتفاءلون بأمور و أشياء و يعتبرونها دليل النجاح، و يتشاءمون بأمور و أشياء و يعتبرونها آية الهزيمة و الفشل. في حين لا توجد أية علاقة منطقية بين النجاح و الإخفاق و بين هذه الأمور، و بخاصّة في مجال التشاؤم حيث كان له غالبا جانب خرافي غير معقول.

إنّ هذين الأمرين و إن لم يكن لهما أي أثر طبيعي إلّا أنّه يمكن أن يكون لهما أثر نفسي لا ينكر، و إنّ التفاؤل غالبا يوجب الأمل و التحرك، و التشاؤم يوجب اليأس و الوهن و التراجع.

و لعله لأجل هذا لم ينه في الرّوايات و الأحاديث الإسلامية عن التفاؤل،

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۴

بينما نهى عن التشاؤم بشدّة،

ففي حديث معروف مروي عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه»

و قد شوهد في أحوال النّبي الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الهداة عليهم السلام- أنفسهم- أنّهم ربّما تفاءلوا بأشياء، مثلا عند ما كان المسلمون في «الحديبية» و قد منعهم الكفار من الدخول إلى مكّة جاءهم «سهيل بن عمرو» مندوب من قريش، فلمّا علم النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باسمه قال متفائلا باسمه:

«قد سهل عليكم أمركم»[۷۱]

و قد أشار العالم المعروف «الدميري» و هو من كتّاب القرن الثامن الهجري، في إحدى كتاباته إلى نفس هذا الموضوع، و قال: إنّما أحب النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الفأل لأنّ الإنسان إذا أمل فضل اللّه كان على خير، و إن قطع رجاءه من اللّه كان على شر، و الطيرة فيها سوء ظن و توقع للبلاء[۷۲] و لكن في مجال التشاؤم الذي يسمّيه العرب «التطير» و «الطيرة» ورد في الأحاديث الإسلامية- كما أسلفنا- ذم شديد، كما أشير إليه في القرآن الكريم مرارا و تكرارا أيضا، و شجب بشدّة[۷۳].

و من جملة ذلك ما

روي عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «الطيرة شرك»[۷۴]

و ذلك لأن من يعتقد بالطيرة كأنّه يشركها في مصير الإنسان و تشير بعض الأحاديث أنّه إذا كان للطيرة أثر سيء فهو الأثر النفسي،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «الطيرة على ما تجعلها، إن هونتها تهونت، و إن شددتها تشدّدت، و إن لم تجعلها شيئا لم تكن شيئا»[۷۵]

و ورد أنّ طريقة مكافحة الطيرة تتمثل في عدم الاعتناء بها،

فقد روي عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ثلاث لا يسلّم منها أحد: الطيرة و الحسد و الظن. قيل: فما

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۵

نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامض (أي لا تعتن بها) و إذا حسدت فلا تبغ (أي لا تعمل بوحي منه شيئا) و إذا ظننت فلا تحقق».

و العجيب أنّ مسألة الفأل و الطيرة كانت و لا تزال موجودة حتى في البلاد الصناعية المتقدمة، و في أوساط من يسمّون بالمثقفين، بل و حتى النوابغ المعروفين، و من جملتها: يعتبر المرور من تحت السلّم عند الغربيين- و سقوط المملحة، و إهداء سكين، أمورا يتشاءم بها بشدّة.

على أنّ وجود الفأل الجيد- كما قلنا- ليس مسألة مهمّة، بل لها غالبا آثار حسنة طيبة، و لكن يجب مكافحة عوامل التشاؤم و فكرة الطيرة، و نبذها من الأذهان، و أفضل وسيلة لمكافحتها هى تقوية روح التوكل، و الثقة باللّه و الاعتماد عليه كما أشير إلى ذلك فى الأحاديث الإسلامية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۲ الى ۱۳۳]

اشارة

وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳)

التّفسير

النّوائب المتنوعة:

فى هاتين الآيتين أشير إلى مرحلة أخرى من الدروس المنبهة التى لقّنها اللّه لقوم فرعون، فعند ما لم تنفع المرحلة الأولى، يعنى أخذهم بالجدب و السنين و ما ترتب عليه من الأضرار المالية فى إيقاظهم و تنبيههم، جاء دور المرحلة الثّانية و تمثلت فى عقوبات أشدّ، فأنزل اللّه عليهم نوائب متتابعة مدمرة، و لكنّهم- و للأسف- لم ينتبهوا مع ذلك.

و فى الآية الأولى من الآيات المبحوثة يقول القرآن الكريم من باب المقدمة لنزول النّوائب: إنّهم بقوا يلجّون فى إنكار دعوة موسى، و قالوا: مهما تأتنا من آية و تريد أن تسحرنا بها فإننا لن نؤمن بك: وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۷

فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

إنّ التعبير ب «الآية» لعلّه من باب الاستهزاء و السخرية، لأنّ موسى عليه السلام وصف معاجزه بأنّها آيات اللّه، و لكنّهم كانوا يفسرونها بالسحر.

إنّ لحن الآيات و القرائن يفيد أنّ الجهاز الإعلامى الفرعونى الذى كان- تبعا لذلك العصر- أقوى جهاز إعلامى، و كان النظام الحاكم فى مصر يستخدمه كامل الاستخدام ... إنّ هذا الجهاز الإعلامى قد عبّأ قواه فى توكيد تهمة السحر فى كل مكان، و جعلها شعارا عاما ضد موسى عليه السلام، لأنّه لم يكن هناك تهمة منها أنسب بالنسبة إلى معجزات موسى عليه السلام للحيلولة دون انتشار الدعوة الموسوية و نفوذها المتزايد فى الأوساط المصرية.

و لكن حيث أن اللّه سبحانه لا يعاقب أمّة أو قوما من دون أن يتمّ عليهم الحجّة قال فى الآية اللاحقة: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيرة و متعددة لعلهم يتنبهون ... فقال أولا: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ

و كلمة «الطوفان» مشتقّة من مادة «الطوف» على وزن «خوف» و تعنى الشىء الذى يطوف و يدور، ثمّ أطلقت هذه اللفظة على الحادثة التى تحيط بالإنسان، و لكنّها أطلقت- فى اللغة- على السيول و الأمواج المدمرة التى تأتى على كل شىء فى الأغلب، و بالتالى تدمر البيوت، و تقتلع الأشجار من جذورها.

ثمّ سلط الجراد على زروعهم و أشجارهم (و الجراد).

و قد جاء فی الأحادیث أن هجوم أسراب الجراد کان عظیما جدّا إلی درجة أنّها وقعت فی أشجارهم و زروعهم أکلا و قضما و إتلافا، حتی أنّها أفرغتها من جمیع الغصون و الأوراق، و حتی أنّها أخذت تؤذی أبدانهم، بحیث تعالت صیحاتهم و استغاثاتهم.

و کلّما کان یصیبهم بلاء کانوا یلجأون إلی موسی علیه السلام و یسألونه أن یطلب من اللّه أن یرفع عنهم ذلک البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان و الجراد أیضا، و قبل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۸

موسی علیه السلام، و ارتفع عنهم البلاء و لکنّهم مع ذلک لم یکفّوا عن لجاجهم و تعنتهم.

و فی المرّة الثّالثة سلط علیهم القمل وَ الْقُمَّلَ

و أمّا ما هو المراد من «القمل» فقد وقع فیه کلام بین المفسّرین، و لکن الظاهر أنّه نوع من الآفات الزراعیة التی تصیب الغلات، و تفسدها و تتلفها.

و عند ما خفت أمواج هذا البلاء، و استمرّوا فی عنادهم سلط اللّه علیهم فی المرحلة الرّابعة، الضفادع، فقد تزاید نسل الضفادع تزایدا شدیدا حتی أنّه تحول إلی بلاء عظیم عکّر علیهم صفو حیاتهم: وَ الضَّفادِعَ ۷۶].

ففی کل مکان کانت الضفادع الصغیرة و الکبیرة تزاحمهم، حتی فی البیوت و الغرف و الموائد و أوانی الطعام، بحیث ضاقت علیهم الحیاة بما رحبت، و لکنّهم مع ذلک لم یخضعوا للحق، و لم یسلّموا.

و فی هذا الوقت بالذات سلّط اللّه علیهم الدم.

قال البعض: إنّ داء الرعاف (و هو نزیف الدم من الأنف) شاع بینهم کداء عام، و أصیب الجمیع بذلک. و لکن أکثر الرّواة و المفسّرین ذهبوا إلی أن نهر النیل العظیم تغیر و صار لونه کلون الدم، بحیث صار تعافه الطباع، و لم یعد قابلا للانتفاع.

و قال تعالی فی ختام ذلک: إنّ هذه الآیات و المعاجز الباهرة- رغم أنّها أظهرت لهم حقانیة موسی- و لکنّهم استکبروا عن قبول الحق و کانوا مجرمین.

آیاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَکْبَرُوا وَ کانُوا قَوْماً مُجْرِمِینَ

و فی بعض الرّوایات نقرأ أن کل واحدة من هذه البلایا کانت تقع فی سنة واحدة، یعنی أنّه أصابهم الطوفان فی سنة، و الجراد فی سنة أخری، و الآفات الزراعیة فی سنة ثالثة، و هکذا. و لکن نقرأ فی بعض الرّوایات أنّه کان یفصل بین کل بلاء و آخر شهر واحد لا أکثر و علی أی حال، لا شک أنّها کانت تقع بصورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۹

منفصلة، و فی فواصل زمنیة مختلفة (کما یقول القرآن: مفصلات) کی تکون هناک فرصة للتفکر و التنبه و الیقظة.

هذا و الجدیر بالانتباه أنّنا نقرأ فی الرّوایات أن هذه البلایا کانت تصیب آل فرعون و قومه خاصّة، و کان بنو إسرائیل فی معزل عن ذلک، و لا شک أنّ هذا نوع من الإعجاز، و لکن یمکن أن نبرر قسما من ذلک بتبریر علمی معقول، لأنّنا نعلم أنّ أجمل نقطة فی بلد مثل مصر هی شاطئا النیل و ضفتاه، و کانت هذه الشواطئ و الضفاف برمتها تحت تصرف الفرعونیین و القبطیین و محل سکناهم، فقصورهم الجمیلة الشامخة، و مزارعهم الخضراء و بساتینهم العامرة، کانت فی هذه الضفاف.

و بطبیعة الحال کان نصیب بنی إسرائیل الذین کانوا عبیدا للفرعونیین و القبطیین هی النقاط النائیة و الصحاری البعیدة الشحیحة الماء.

و من الطبیعی أنّ الطوفان عند ما یحدث یکون الأقرب إلی الخطر ضفتا النیل و شاطئاه و من یسکنها، و کذا عند ما کانت الضفادع تخرج من الماء، و کذا انقلاب الماء إلی هیئة الدم کان یظهر فی میاه الفرعونیین الذین کانوا یسکنون إلی جانب النیل دون بنی إسرائیل، و أمّا الجراد و الآفات النباتیة فقد کانت تتعرض لها المناطق الزراعیة و البساتین الخضراء الوفیرة المحصول فی الدرجة الأولی.

کل ما قیل فی الآیات السابقـة جاء فی التوراة أیضا، و لکن ثمّـة فروق واضـحة بین محتویات القرآن الکریم و ما جاء فی التوراة راجع سفر الخروج الفصل السابع إلی العاشر من التوراة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۰

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۳۴ الی ۱۳۶]

اشارة

وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَیْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا یا مُوسَی ادْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ لَئِنْ کَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِی إِسْرائِیلَ (۱۳۴) فَلَمَّا کَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلی أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِی الْیَمِّ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ کانُوا عَنْها غافِلِینَ (۱۳۶)

التّفسیر

نقض العهد المتکرر:

فی هـذه الآیات نلاحظ رد فعل الفرعونیین فی مقابل النوائب و البلایا المتبهة الإلهیّة، و یستفاد من مجموعها أنّهم عند ما کانوا یقعون فی مخالب البلاء ینتبهون من غفوتهم بصورة مؤقتـة شأنهم شأن جمیع العصاة، و کانوا یبحثون عن حیلـة للتخلص منها، و یطلبون من موسی علیه السلام أن یدعو لهم، و یسأل اللّه فی خلاصهم، و لکن بمجرّد أن یزول عنهم طوفان البلاء و تهدأ أمواج الحوادث، ینسون کل شیء و یعودون إلی سیرتهم الأولی.

و فی الآیة الأولی نقرأ: وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَیْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا یا مُوسَی ادْعُ لَنا رَبَّکَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۱

بِما عَهِدَ عِنْدَکَ

إنّهم عند نزول البلاء یلجأون إلی موسی و یطلبون منه أن یدعو لرفع العذاب عنهم، و أن یفی اللّه بما وعده له من استجابة دعائه: بِما عَهِدَ عِنْدَکَ

ثمّ یقولون: إذا دعوت فرفع عنّا البلاء فإنّنا نحلف لک بأن نؤمن بک، و نرفع طوق العبودیـة عن بنی إسرائیل: لَئِنْ کَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِی إِسْرائِیلَ

و لفظة «الرجز» استعملت فی معانی کثیرة: البلایا الصعبة، الطاعون، الوثن و الوثنیة، وسوسة الشیطان، و الثلج أو البرد الصلب.

و لکن جمیع ذلـک مصـادیق مختلفـة لمفهوم یشـکّل الجـذر الأصـلی لتلـک المعـانی، لأن أصـل هـذه اللفظـة کما قال «الراغب» فی «المفردات» هو الاضطراب.

و حسب ما قال «الطبرسی» فی «مجمع البیان» مفهومه الأصلی هو الانحراف عن الحق.

و علی هذا الأساس إطلاق لفظ «الرجز» علی العقوبة و البلاء، لأنّها تصیب الإنسان لانحرافه عن الحق، و ارتکاب الذنب، و کذا یکون الرجز نوعـا من الانحراف عن الحق، و الاضـطراب فی العقیـدة، و لهـذا أیضا یطلق العرب هـذا اللفظ علی داء یصـیب الإبل، و یسـبب اضـطراب أرجلهـا حتی أنّهـا تلجأ للمشـی بخطوات قصـیرة، أو تمشـی تارة و تتوقف تارة أخری، فیقال لهـذا الـداء «الرجز» علی وزن «المرض».

و السبب فی إطلاق الرجز علی الأشعار الحربیّة، لأنّها ذات مقاطع قصیرة و متقاربة.

و علی کل حال، فإنّ المقصود من «الرجز» فی الآیات الحاضرة هو العقوبات المنبهة الخمسة التی أشیر إلیها فی الآیات السابقة، و إن احتمل بعض المفسّرین أن یکون إشارة إلی البلایا الأخری التی أنزلها اللّه علیهم و لم یرد ذکرها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۲

فی الآیات السابقة، و منها الطاعون أو الثلج و البرد القاتل، الذی وردت الإشارة إلیها فی التوراة.

هذا، و قد وقع کلام بین المفسّرین فی المراد من عبارة بِما عَهِدَ عِنْدَکَ و أنّه ما هو المقصود من ذلک العهد الإلهی الذی أعطاه سبحانه لموسی؟

إنّ ما هو الأقرب إلی النظر هو أن المقصود من ذلک الوعد الإلهی هو أن یستجیب دعاءه إذا دعاه، و لکن یحتمل أیضا أن یکون المقصود هو عهد «النبوة» و تکون «الباء» باء القسم، یعنی نقسم علیک بحق مقام نبوتک إلّا ما دعوت اللّه لیرفع عنّا هذا البلاء.

و فی الآیة اللاحقة یشیر إلی نقضهم للعهد و یقول: فَلَمَّا کَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلی أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ ۷۷].

إنّ جملة إِلی أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إشارة إلی أنّ موسی حدّد لهم وقتا و عیّن أمدا، فکان یقول لهم: فی الوقت الفلانی سیرفع هذا البلاء عنکم، حتی یتّضح لهم أنّ ارتفاع ذلک البلاء عنهم لیس أمرا اتفاقیا و صدفة، بل هو بفضل دعائه و طلبه من اللّه تعالی.

إنّ جملة إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ و بالنظر إلی أن «ینکثون» فعل مضارع یدلّ علی الاستمراریة یفید أنّه قد تکرر تعهّدهم لموسی علیه السلام ثمّ نقضهم للعهد، حتی أصبح نقض العهد جزءا من برنامجهم و سلوکهم الدائم.

و آخر هذه الآیات تبیّن- من خلال جملتین قصیرتین- عاقبة کلّ هذا التعنت، و نقض العهد، فتقول بصورة مجملة فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ ثمّ تشرح هذا الانتقام و تذکر تفصیله فَأَغْرَقْناهُمْ فِی الْیَمِّ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ کانُوا عَنْها غافِلِینَ ۷۸]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۳

إنّهم لم یکونوا غافلین واقعا، لأنّ موسی علیه السلام ذکّرهم مرارا و بالوسائل المختلفة المتعددة و نبههم، بل أنّهم تصرّفوا عملیا کما یفعل الغافلون، فلم یعتنوا بآیات اللّه أبدا.

و لا شک أن المقصود من الانتقام الإلهی لیس هو أنّ اللّه کان یقوم بردّ الفعل فی مقابل أعمالهم، کما یفعل الأشخاص الحاقدون الذین ینطلقون فی ردود أفعالهم من مواقع الحقد و الانتقام، بل المقصود من الانتقام الإلهی هو أن الجماعة الفاسدة و غیر القابلة للإصلاح لا یحق لها الحیاة فی نظام الخلق، و لا بدّ أن تمحی من صفحة الوجود.

و الانتقام فی اللغة العربیة- کما أسلفنا- یعنی العقوبة و المجازاة، لا ما هو شائع فی عرف الناس الیوم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۴

الآیة [سورة الأعراف (۷): آیة ۱۳۷]

اشارة

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِی بارَکْنا فِیها وَ تَمَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ الْحُسْنی عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما کانَ یَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما کانُوا یَعْرِشُونَ (۱۳۷)

التّفسیر

قوم فرعون و المصیر المؤلم:

بعد هلاک قوم فرعون، و تحطّم قدرتهم، و زوال شوکتهم، ورث بنو إسرائیل الذین طال رزوحهم فی أغلال الأسر و العبودیة أراضی الفراعنة الشاسعة و الآیة الحاضرة تشیر إلی هذا الأمر وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِی بارَکْنا فِیها.

و «الإرث» کما أسلفنا یعنی فی اللغة المال الذی ینتقل من شخص إلی آخر من دون تجارة و معاملة، سواء کان المنتقل منه حیا أو میّتا.

و «یستضعفون» مشتقّة من مادة «الاستضعاف» و تطابق کلمة «الاستعمار» التی تستعمل الیوم فی عصرنا الحاضر، و مفهومها هو أن یقوم جماعة بإضعاف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۵

جماعة أخری حتی یمکن للجماعة الأولی أن تستغل الجماعة الضعیفة فی سبیل مآربها و مصالحها، غایة ما هنالک أن هناک تفاوتا بین هذه اللفظة و لفظة الاستعمار، و هو: أن الاستعمار ظاهره تعمیر الأرض، و باطنه الإبادة و التدمیر، و لکن الاستضعاف ظاهره و باطنه واحد.

و التعبیر ب کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ إشارة إلی الفرعونیین کانوا یستبقون بنی إسرائیل فی حالة ضعف دائمیة: ضعف فکری، و ضعف أخلاقی، و ضعف اقتصادی، و من جمیع الجهات و فی جمیع النواحی.

و التعبیر ب مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا إشارة إلی الأراضی الواسعة العریضة التی کانت تحت تصرّف الفرعونیین، لأنّ الأراضی الصغیرة لیس لها مشارق و مغارب مختلفة، و بعبارة أخری «لیس لها آفاق متعددة» و لکن الأراضی الواسعة جدا من الطبیعی أن یکون مشارق و مغارب بسبب کرویة الأرض فیکون التعبیر بمشارق الأرض و مغاربها کنایة عن أراضی الفرعونیین الواسعة العریضة جدّا.

و جملة بارَکْنا فِیها إشارة إلی الخصب العظیم الذی کانت تتمتع به هذه المنطقة- یعنی مصر و الشام- التی کانت تعدّ آنذاک، و فی هذا الزمان أیضا، من مناطق العالم الخصبة الکثیرة الخیرات. حتی أن بعض المفسّرین کتب: إن بلاد الفراعنة فی ذلک العصر کانت واسعة جدّا بحیث کانت تشمل بلاد الشام أیضا.

و علی هذا الأساس لم یکن المقصود من العبارة هو الحکومة علی کل الکرة الأرضیة، لأنّ هذا یخالف التاریخ حتما. بل المقصود هو حکومة بنی إسرائیل علی کل أراضی الفراعنة و بلادهم.

ثمّ یقول: وَ تَمَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ الْحُسْنی عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ بِما صَبَرُوا أی تحقق الوعد الإلهی لبنی إسرائیل بانتصارهم علی الفرعونیین، بسبب صبرهم و ثباتهم.

و هذا هو الوعد الذی أشیر إلیه فی الآیات السابقة (الآیة ۱۲۸ و ۱۲۹ من نفس هذه السورة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۶

صحیح أنّ هذه الآیة تحدّثت عن بنی إسرائیل و نتیجة ثباتهم فی وجه الفرعونیین فقط، إلّا أنّه یستفاد من الآیات القرآنیة الأخری أن هذا الموضوع لا یختص بقوم أو شعب خاص، بل إن کان شعب مستضعف نهض و حاول تخلیص نفسه من مخالب الأسر و الاستعمار، استعان فی هذا السبیل بالثبات و الاستقامة، سوف ینتصر آخر المطاف و یحرر الأراضی التی احتلها الظلمة الجائرون.

ثمّ یضیف فی آخر الآیة: نحن الذین دمرنا قصور فرعون و قومه العظیمة، و أبنیتهم الجمیلة الشامخة، و کذا بساتینهم و مزارعهم العظیمة وَ دَمَّرْنا ما کانَ یَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما کانُوا یَعْرِشُونَ

و «صنع» کما یقول «الراغب» فی «المفردات» یعنی الأعمال الجمیلة، و قد وردت هذه اللفظة فی الآیة الحاضرة بمعنی الهندسة الجملیة الرائعة التی کان یستخدمها الفرعونیین فی أبنیتهم.

و «ما یعرشون» فی الأصل تعنی الأشجار و البساتین التی تنصب بواسطة العروش و السقف، و لها جمال عظیم و روعة باهرة.

و «دمرنا» من مادة «التدمير» بمعنى الإهلاك و الإبادة.

و هنا يطرح السؤال التالى و هو: كيف أبيدت هذه القصور و البساتين، و لماذا؟

و نقول فى الجواب: لا يبعد أن ذلك حدث بسبب زلازل و طوفانات جديدة و أمّا الضرورة التى قضت بهذا الفعل فهى أن جميع الفرعونيين لم يغرقوا فى النيل، بل غرق فرعون و جماعة من خواصّه و عسكره الذين كانوا يلاحقون موسى عليه السلام، و من المسلّم أنّه لو بقيت تلك الثروات العظيمة، و الإمكانيات الاقتصادية الهائلة بيد من بقى من الفراعنة الذين كان عدد نفوسهم فى شتى نواحى مصر كثيرا جدا لاستعادوا بها شوكتهم، و لقدروا على تحطيم بنى إسرائيل، أو الحاق الأذى بهم على الأقل. أمّا الإمكانيات و الوسائل فإن من شأنه أن يجردهم من أسباب الطغيان إلى الأبد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۸ الى ۱۴۱]

اشارة

وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۱۳۸) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۹) قالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۴۰) وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۱۴۱)

التّفسير

الاقتراح على موسى بصنع الوثن:

فى هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصّة بنى إسرائيل التى بدأت فى أعقاب الإنتصار على الفرعونيين، و ذلك هو مسألة توجه بنى إسرائيل إلى الوثنية التى بحثت بداياتها فى هذه الآيات، و جاءت نتيجتها النهائية بصورة مفصّلة فى سورة طه من الآية (۸۶) إلى (۹۷)، و بصورة مختصرة فى الآية (۱۴۸) فما بعد من هذه السورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۸

و فى الحقيقة فإنّه مع انتهاء قصة فرعون بدأت مشكلة موسى الداخلية الكبرى، يعنى مشكلته مع جهلة بنى إسرائيل، و الأشخاص المتعنتين و المعاندين.

و كانت هذه المشكلة أشدّ على موسى عليه السلام و أثقل بمراتب كثيرة- كما سيتّضح من قضية مواجهته لفرعون و الملأ و هذه هى خاصية المشاكل و المجابهات الداخلية.

فى الآية الأولى: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ أى النيل العظيم.

و لكن فى مسيرهم مرّوا على قوم يخضعون للأصنام فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ

و «عاكف» مشتقّة من مادة «العكوف» بمعنى التوجه إلى شيء و ملازمته المقارنة لاحترامه و تبجيله.

فتأثّر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدّة إلى درجة قالوا لموسى من دون إبطاء: يا موسى اتّخذ لنا معبودا على غرار معبودات هؤلاء قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ.

فانزعج موسى عليه السلام من هذا الافتراح الأحمق بشدّة، و قال لهم: قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

بحوث

اشارة

و هنا لا بدّ من الانتباه إلى نقاط:

١- الجهل منشأ الوثنية

يستفاد من هذه الآية بوضوح أنّ منشأ الوثنية هو جهل البشر باللّه تعالى من جانب، و عدم معرفته بذاته المقدسة و أنّه لا يتصور له شبيه أو نظير أو مثيل.

و من جانب آخر جهل الإنسان بالعلل الأصلية لحوادث العالم الذى يتسبب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۹

أحيانا فى أن ينسب الحوادث إلى سلسلة من العلل الخرافية و الخيالية و منها الأصنام.

و من جانب ثالث جهل الإنسان بما وراء الطبيعة، و قصور فكره إلى درجة أنّه لا يرى و لا يؤمن إلّا بالقضايا الحسية.

إن هـذه الجهالات تضافرت و تعاضدت، و صارت على مدار التأريخ منشأ للوثنية و عبادة الأصـنام، و إلّا فكيف يمكن أن يأخذ إنسان واع فاهم عارف باللّه و صـفاته، عارف بعلل الحوادث، عارف بعالم الطبيعة و عالم بما بعد الطّبيعة. قطعة من الصخر منفصلة من الجبل مثلا، فيستعمل قسما منها فى بناء بيته، أو صنع سلالم منزله، و يتخذ قسما آخر معبودا يسجد أمامه، و يسلّم مقدراته بيده.

و الجدير بالذكر أنّنا نقرأ فى كلام موسى عليه السلام فى الآية الحاضرة كيف يقول لهم: أنتم غارقون فى الجهل دائما، (لأنّ تجهلون فعل مضارع و يدل غالبا على الاستمرارية) و بخاصّة أن متعلق الجهل لم يبيّن فى الآية، و هذا يدل على عمومية المجهول و شموليته.

و الاغرب من كل ذلك أنّ بنى إسرائيل بقولهم اجْعَلْ لَنا إِلهاً أظهروا أن من الممكن أن يصير الشىء التافه ثمينا- بمجرّد اختيارهم و جعلهم و وضع اسم الصنم و المعبود عليه- و توجب عبادته التقرب إلى اللّه، و عدم عبادته البعد عنه تعالى، و تكون عبادته منشأ للخير و البركة، و احتقاره منشأ للضرر و الخسارة، و هذه هى نهاية الجهل و الغفلة.

صحيح أنّ مقصود بنى إسرائيل لم يكن إيجاد معبود يكون خالق العالم، بل كان مقصودهم هو: اجعل لنا معبودا نتقرب بعبادته إلى اللّه، و يكون مصدرا للخير و البركة، و لكن هل يمكن أن يصير شىء فاقدا للروح و التأثير مصدرا للخيرات و التأثيرات بمجرّد تسمّيته معبودا و إلها؟ هل الدافع لذلك العمل شىء سوى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۰

الجهل و الخرافة، و الخيال الواهى و التصور الخاوى؟![٧٩]

٢- أرضية الوثنية عند بنى إسرائيل

لا شك أنّه كانت لـدى بنى إسرائيل- قبل مشاهدة هذا الفريق من الوثنيين- أرضـية فكرية مساعدة لهذا الموضوع، بسبب معاشـرتهم الدائمة للمصريين الوثنيين، و لكن مشاهدة هذا المشهد الجديد كان بمثابة شرارة كشفت عن دفائن جبلّتهم، و على كل حال فإنّ هذه

القضـیة تکشف لنا أنّ الإنسان إلی أیّ مدی یتأثر بعامل البیئة، فإنّ البیئة هی التی تسـتطیع أن تسوق الإنسان إلی اللّه، کما أنّ البیئة هی التی تسوقه إلی الوثنیة، و أنّ البیئة یمکن أن تصـیر سببا لأنواع المفاسد و الشقاء، أو منشأ للصلاح و الطهر. (و إن کان انتخاب الإنسان نفسه هو العامل النهائی) و لهذا اهتم الإسلام بإصلاح البیئة اهتماما بالغا.

۳- الکفرة بالنعم فی بنی إسرائیل

الموضوع الآخر الذی یستفاد من الآیة بوضوح، أنّه کان بین بنی إسرائیل أشخاص کثیرون ممن یکفرون النعمة و لا یشکرونها، فمع أنّهم رأوا کل تلک المعاجز التی أتی بها موسی علیه السلام، و مع أنّهم تمتعوا بکل تلک المواهب الإلهیة التی خصّهم اللّه بها، فإنّه لم ینقص عن هلاک عدوهم فرعون و نجاتهم من الغرق برهة من الزمن حتی نسوا کل هذه الأمور دفعة واحدة، و طلبوا من موسی أن یصنع لهم أصناما لیعبدوها!! و نقرأ فی نهج البلاغة أنّ أحد الیهود اعترض علی المسلمین عند أمیر المؤمنین علیه السلام قائلا: ما دفنتم نبیّکم حتی اختلفتم فیه. فردّ علیه الإمام صلوات اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۱

علیه قائلا:

«إنّما اختلفنا عنه لا فیه، و لکنّکم ما جفّت أرجلکم من البحر حتی قلتم لنبیّکم اجعل لنا إلها کما لهم آلهة، فقال إنّکم قوم تجهلون».

أی أنّنا اختلفنا فی الأحادیث و الأوامر التی وصلت إلینا عن نبیّنا، لا أنّنا اختلفنا حول النّبی و نبوته، (فکیف بألوهیة اللّه) و لکنّکم ما إن خرجتم من میاه البحر إلّا و اقترحتم علی نبیّکم أن اجعل لنا آلهة کما للوثنیین آلهة، و قال موسی:

إنّکم قوم تجهلون.

و فی الآیة اللاحقة نقرأ أنّ موسی علیه السلام- لتکمیل حدیثه لبنی إسرائیل- قال: إنّ هذه الجماعة الوثنیة التی ترونها سینتهی أمرها إلی الهلاک، و إن عملهم هذا باطل لا أساس له إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِیهِ وَ باطِلٌ ما کانُوا یَعْمَلُونَ

فعمل هـذه الجماعـة باطل، و جهودهم غیر منتجـة، کما أن مصـیر مثل هؤلاء القوم و کل قوم وثنیین و مشـرکین هو الهلاک و الدمار. (لأنّ «متبر» مشتقّة من التبار أی الهلاک).

ثمّ تضیف الآیة التوکید: إنّ موسی علیه السلام قالَ أَ غَیْرَ اللَّهِ أَبْغِیکُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَکُمْ عَلَی الْعالَمِینَ

یعنی إذا کان الدافع إلی عبادة اللّه هو حسّ الشکر، فجمیع النعم التی ترفلون فیها هی من اللّه، و إذا کان الدافع للعبادة و العبودیة کون هـذه العبـادة منشأ لأثر مـا، فإنّ ذلک أیضا یرتبط باللّه سبحانه، و علی هـذا الأساس مهما یکن الـدافع، فلیس سوی اللّه القادر المنّان یصلح للعبادة و مستحقا لها.

و فی الآیـة اللاحقـة یـذکر القرآن الکریم إحدی النعم الإلهیة الکبری التی وهبها اللّه سبحانه لبنی إسرائیل، لیبعث بالالتفات إلی هذه النعمـة الکبری حسّ الشکر فیهم، و لیعلموا أن اللائق بالخضوع و العبادة هو الـذات الإلهیـة المقدسـة فحسب، و لیس هناک أی دلیل یسوّغ لهم الخضوع أمام أصنام لا تضر و لا تنفع شیئا أبدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۲

یقول فی البدایـة: تـذکّروا یوم أنجیناکم من مخالب آل فرعون الـذین کانوا یعـذبونکم دائما وَ إِذْ أَنْجَیْناکُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَسُومُونَکُمْ سُوءَ الْعَذابِ

و «یسومون» مشـتقّة من مـادة «سوم» و تعنی فی الأصل- کما قال «الراغب» فی «المفردات»- الـذهاب فی طلب شـیء، کما یسـتفاد من القاموس تضـمنه لمعنی الاستمرار و المضّی أیضا، و علی هـذا یکون معنی یَسُومُونَکُمْ سُوءَ الْعَذابِ أنّهم کانوا یعـذبونکم بتعذیبات

قاسية باستمرار.

ثمّ تمشيا مع أسلوب القرآن فى بيان الأمور بتفصيل بعد إحمال شرح هذا العذاب المستمر، و هو: قتل الأبناء، و استبقاء النساء للخدمة و الاسترقاق يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ، وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ

و قد كان فى هذا اختبار عظيم من اللّه لكم وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

و سياق الآية يكشف عن أن هذه العبارة قالها موسى عليه السلام عن اللّه لنبى إسرائيل عند ما رغبوا بعد عبورهم بحر النيل فى الوثنية و عبادة الأصنام.

صحيح أنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون المخاطبون فى هذه الآية هم يهود عصر الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ التّفسير الأوّل يحتاج إلى تقدير شيء بأن يقال: إن الآية كانت فى الأصل هكذا: قال موسى: قال ربّكم ... و هذا خلاف الظاهر.

و لكن مع الالتفات إلى أنّه لو كان المخاطبون فى هذه الآية هم يهود عصر النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لانقطع ارتباط الآية بما يسبقها و ما يلحقها بصورة كاملة، و كانت هذه الآية كالجملة المعترضة، يبدو للنظر أن التّفسير الأوّل أصح.

هذا و لا بدّ- ضمنا- من الالتفات إلى أن نظير هذه الآية مرّ فى سورة البقرة الآية (۴۹) مع فارق جدا بسيط، و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۴۹) من سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۱۹۳

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۴۲]

اشارة

وَ واعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (۱۴۲)

التّفسير

الميعاد الكبير:

فى هذا الآية إشارة إلى مشهد من مشاهد حياة بنى إسرائيل، و مشكلة موسى عليه السلام معهم، و ذلك هو قصّة ذهاب موسى إلى ميقات ربّه، و تلقى أحكام التّوراة عن طريق الوحى و كلامه مع اللّه، و اصطحاب جماعة من كبار بنى إسرائيل و شخصياتهم إلى الميقات لمشاهدة هذه الحادثة و إثبات أنّ اللّه لا يمكن أن يدرك بالأبصار، و التى ذكرت بعد قصّة عبادة بنى إسرائيل للعجل و انحرافهم عن مسير التوحيد، و ضجّة السامرىّ العجيبة.

يقول تعالى أوّلا: وَ واعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

و كلمة «الميقات» مشتقّة من مادة «الوقت» بمعنى الموعد المضروب للقيام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۱۹۴

بعمل ما، و يطلق عادة على الزمان، و لكنّه قد يطلق على المكان الذى يجب أن يتمّ العمل فيه، مثل «ميقات الحج» يعنى المكان الذى لا يجوز أن يجتازه أحد إلّا محرما.

ثمّ ذكرت الآية أنّ موسى استخلف هارون و أمره بالإصلاح فى قومه، و أن لا يتبع سبيل المفسدين: وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي

فِی قَوْمِی وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ

بحوث

اشارة

و هنا عدّة نقاط ینبغی التوقف عندها و الالتفات إلیها:

۱- لماذا التفکیک بین الثلاثین و العشر؟

إنّ أوّل سؤال یطرح نفسه فی مجال الآیة الحاضرة، هو: لماذا لم یبیّن مقدار المیقات بلفظ واحد هو الأربعین، بل ذکر أنّه واعده ثلاثین لیلة ثمّ أتمّه بعشر، فی حین أنّه تعالی ذکر ذلک الموعد فی لفظ واحد هو أربعین فی الآیة (۱۵۱) من سورة البقرة.
ذکر المفسّرون تفسیرات عدیدة لهذا التفکیک، و الذی یبدو أقرب إلی النظر و أکثر انسجاما مع أحادیث أهل البیت علیهم السلام هو أنّه و إن کان الواقع هو أربعین یوما، إلّا أنّه فی الحقیقة وعد اللّه موسی فی البدایة ثلاثین یوما ثمّ مدّده عشرة أیّام أخری، اختبارا لبنی إسرائیل کی یعرف المنافقون فی صفوف بنی إسرائیل.
فقد روی عن الإمام محمّد الباقر علیه السلام أنّه قال: إنّ موسی علیه السلام لما خرج وافدا إلی ربّه واعدهم ثلاثین یوما، فلمّا زاده اللّه علی الثلاثین عشرا قال قومه، قد أخلفنا

موسی فصنعوا ما صنعوا (من عبادة العجل)[۸۰].
و أمّا أن هذه الأیّام الأربعین صادفت أیّام أی شهر من الشهور الإسلامیة، فیستفاد من بعض الرّوایات أنّها بدأت من أوّل شهر ذی القعدة و ختمت بالیوم العاشر من شهر ذی الحجة (عید الأضحی). و قد جاء التعبیر بلفظ أربعین لیلة فی القرآن الکریم لا أربعین یوما، فالظاهر أنّه لأجل أن مناجاة موسی لربّه کانت تتمّ غالبا فی اللیالی.

۲- کیف نصب موسی علیه السلام هارون قائدا و إماما؟

السؤال الثّانی الذی یطرح نفسه هنا، هو: إنّ هارون کان نبیّا، فکیف نصبه موسی علیه السلام خلیفة له و إماما و قائد لبنی إسرائیل؟
و الجواب علی هذا السؤال یتّضح بعد الالتفات إلی أنّ مقام النّبوة شیء و مقام الإمام شیء آخر، و لقد کان هارون نبیّا، و لکن لم یکن قد أنیط به مقام الإمامة العامّة لبنی إسرائیل، بل کان مقام الإمامة و منصب القیادة العامّة خاصا بموسی علیه السلام، و لکنّه عند ما قصد أن یفارق قومه إلی میقات ربّه اختار هارون إماما و قائدا.

۳- لماذا طلب موسی علیه السلام من أخیه الإصلاح و عدم اتّباع المفسدین؟

السؤال الثّالث الذی یطرح نفسه هنا، هو: لماذا قال موسی علیه السلام لأخیه: أصلح و لا تتبع سبیل المفسدین، مع أن هارون نبی

معصوم من المستحیل أن یتبع طریق المفسدین و ینهج نهجهم الفاسد؟

نقول فی الجواب: إنّ هذا- فی الحقیقة- نوع من التوکید لإلفات نظر أخیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۶

إلی أهمیة مکانته فی بنی إسرائیل. و لعله أراد بهذا الموضوع أن یوضح لبنی إسرائیل و یفهمهم أن علیهم أن یمتثلوا لتعالیم هارون و نصائحه و مواعظه الحکیمة، و لا یستثقلوا أوامره و نواهیه، و لا یعتبروا تلک الأوامر و النواهی و کذلک قیادة هارون لهم دلیلا علی قصرهم و صغرهم ... بل یفعلون کما یفعل هارون حیث کان رغم منزلته البارزة و مقام نبوته تابعا و مطیعا لنصائح موسی علیه السلام.

۴- میقات واحد أو مواقیت متعددة؟

السؤال الرّابع الذی یطرح نفسه هنا، هو: هل ذهب موسی إلی میقات ربّه مرّة واحدة، و هی هذه الأربعون یوما، و تلقی أحکام التوراة و شریعته السماویة عن طریق الوحی فی هذه الأربعین یوما، کما اصطحب معه جماعة من شخصیات بنی إسرائیل معه کممثلین عن قومه، لیشهدوا نزول أحکام التوراة علیه، و لیفهمهم أن اللّه لا یدرک بالأبصار أبدا، فی هذه الأربعین یوما نفسها؟

أم أنّه کانت له مع اللّه أربعینات متعددة، أحدها لأخذ الأحکام، و فی الأخری اصطحب کبار قومه، و له- احتمالا- أربعون ثالثة لمقاصد و مآرب أخری غیر هذه، (کما یستفاد من سفر الخروج من التوراة الفعلیة الفصل ۱۹ إلی ۲۴).

و هنا أیضا وقع کلام بین المفسّرین، و لکن الذی یبدو أنّه أقرب إلی الذهن- بملاحظة الآیة المبحوثة و الآیات السابقة علیها و اللاحقة لها- أن جمیع هذه الأمور ترتبط بحادثة واحدة لا متعددة، لأنّه بغض النظر عن أن عبارة الآیة اللاحقة وَ لَمَّا جاءَ مُوسی لِمِیقاتِنا تناسب تماما وحدة هاتین القصّتین، فإنّ الآیة (۱۴۵) من نفس هذه السورة تفید- بجلاء- أن قصّة ألواح التوراة، و استلام أحکام هذه الشریعة قد تمّت جمیعها فی نفس هذا السفر أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۷

۵- حدیث المنزلة

اشارة

أشار کثیر من المفسّرین الشیعة و السنة- فی ذیل الآیة المبحوثة- إلی حدیث «المنزلة» المعروف، بفارق واحد هو: أنّ الشیعة اعتبروا هذا الحدیث من الأدلة الحیّة و الصریحة علی خلافة علی علیه السلام لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباشرة و بلا فصل.

و لکی یتّضح هذا البحث ندرج هنا أوّلا أسانید و نص هذا الحدیث باختصار، ثمّ نبحث فی دلالته، ثمّ نتکلم حول الحملات التی وجهها بعض المفسّرین إلی الشیعة.

أسانید حدیث المنزلة:

۱-

روی جمع کبیر من صحابة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول غزوة تبوک: أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خرج إلی تبوک و استخلف علیا فقال: أ تخلفنی فی الصبیان و النساء؟

قال: «ألا ترضی أن تکون منی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لیس نبیّ بعدی».

و هذا النص ورد فی أوثق الکتب الحدیثیة لدی أهل السنّة، یعنی صحیح البخاری و عن سعد بن أبی وقاص.[۸۱]

و

قد روی هذا الحدیث- أیضا- فی صحیح مسلم الذی یعدّ من المصادر الرئیسیة عن أهل السنّة، فی باب «فضائل الصحابة» عن سعد أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السلام: «أنت منی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبیّ بعدی»[۸۲].

فی هذا الحدیث الذی نقله صحیح مسلم أعلن عن الموضوع بصورة کلیّة، و لم یرد فیه ذکر عن غزوة تبوک.

و هکذا نقل حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذا فی سیاق ذکر غزوة تبوک بعد ذکر الحدیث بصورة کلّیة، بصورة مستقلة کما جاء فی صحیح البخاری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۱۹۸

و قد ورد عین هذا الموضوع فی سنن ابن ماجه أیضا[۸۳].

و قد أضیف فی سنن الترمذی مطلب آخر، و هو أنّ معاویة قال لسعد ذات یوم: ما یمنعک أن تسبّ أبا تراب؟! قال: أمّا ما ذکرت ثلاثا قالهنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلن أسبّه، لئن تکون لی واحدة منهن أحبّ إلیّ من حمر النعم. ثمّ عدد الأمور الثلاثة فکان أحدها ما قاله رسول اللّه لعلی فی تبوک و هو

قوله: «أمّا ترضی أن تکون منی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبوة بعدی»[۸۴].

و قد أشیر إلی هذا الحدیث فی عشرة موارد من مسند أحمد بن حنبل، تارة ذکرت فیه غزوة تبوک، و تارة من دون ذکر غزوة تبوک بل بصورة کلّیة[۸۵].

و قد روی فی أحد هذه المواضع أنّه أتی ابن عباس- بینما هو جالس- تسعة رهط، فقالوا: یا ابن عباس، إمّا أن تقوم معنا، و إمّا أن تخلونا هؤلاء، فقال ابن عباس: بل أقوم معکم (إلی أن قال) و خرج بالناس (أی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم) فی غزوة تبوک ثمّ نقل کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی علیه السلام و أضاف:

«إنّه لا ینبغی أن أذهب إلّا و أنت خلیفتی»[۸۶].

و جاء نفس هذا الحدیث فی «خصائص النسائی»[۸۷] و هکذا فی مستدرک الحاکم ۸۸]، و فی تاریخ الخلفاء للسیوطی ۸۹] و فی الصواعق المحرقة لابن حجر[۹۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۱۹۹

و سیرة ابن هشام ۹۱] و السیرة الحلبیة[۹۲] و کتب کثیرة أخری.

و نحن نعلم أن هذه الکتب من الکتب المعروفة، و المصادر الأولی لأهل السنة.

و الجدیر بالذکر أن هذا الحدیث لم یروه «سعد بن أبی وقاص» عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده، بل رواه- أیضا- مجموعة کبیرة من الصحابة الذین یتجاوز عددهم عشرین شخصا منهم: «جابر بن عبد اللّه» و «أبو سعید الخدری» و «أسماء بنت عمیس» و «ابن عباس» و «أم سلمة» و «عبد اللّه بن مسعود» و «أنس بن مالک» و «زید بن أرقم» و «أبو أیوب» و الأجدر بالذکر أنّ هذا الحدیث رواه عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «معاویة بن أبی سفیان» و «عمر بن الخطاب» أیضا.

و

ینقل «محب الدین الطبری» فی «ذخائر العقبی» أنّه جاء رجل إلی معاویة فسأله عن مسألة فقال: سل عنها علی بن أبی طالب فهو أعلم. قال: یا أمیر المؤمنین (و یقصد به معاویة) جوابک فیها أحبّ إلیّ من جواب علیّ.

قال: بئسما قلت، لقد کرهت رجلا کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یغره بالعلم غرا، و قد قال له: أنت منّی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبیّ بعدی، و کان عمر إذا أشکل علیه أخذ منه ۹۳].

و
روی أبو بکر البغدادی فی «تأریخ بغداد» بسنده عن عمر بن الخطّاب أنّه رأی رجلا یسبّ علیّا علیه السلام فقال: إنّی أظنّک منافقا، سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:

«إنّما علیّ منّی بمنزلهٔ هارون من موسی، إلّا أنّه لا نبی بعدی»[۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۰

حدیث المنزلهٔ فی سبعهٔ مواضع:

النقطهٔ الأخری، إنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- و خلافا لما یتصّوره البعض- لم یقل هذا البحث فی علی علیه السلام فی غزوهٔ تبوک فقط، بل قال هذه العبارهٔ فی عدّهٔ مواضع منها:

۱- فی المؤاخاهٔ الأولی: یعنی فی المرّهٔ الأولی التی آخی فیها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین المهاجرین و اختار علیّا علیه السلام فی هذه المؤاخاهٔ لنفسه و

قال: «أنت منی بمنزلهٔ هارون من موسی إلّا أنّه لا نبیّ بعدی»[۹۵].

۲- فی یوم المؤاخاهٔ الثّانیهٔ: و کانت فی المدینهٔ بعد الهجرهٔ بخمسهٔ أشهر، حیث آخی بین المهاجرین و الأنصار، و اصطفی لنفسه منهم علیّا و اتخذه من دونهم أخاه، و

قال له: «أنت منّی بمنزلهٔ هارون من موسی إلّا أنّه لا نبیّ بعدی و أنت أخی و وارثی»[۹۶].

۳- أم سلیم- التی کانت علی جانب من الفضل و العقل، و کانت تعدّ من أهل السوابق، و هی من الدعاهٔ إلی الإسلام، و استشهد أبوها و أخوها بین یدی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فارقت زوجها لأنّه أبی أن یعتنق الإسلام، و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یزورها فی بیتها بین الحین و الآخر و یسلّیها- تروی أم سلیم هذه

أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لها ذات یوم: «إنّ علیّا لحمه من لحمی و دمه من دمی، و هو منّی بمنزلهٔ هارون من موسی»[۹۷].

۴-

قال ابن عباس: سمعت عمر بن الخطاب یقول: کفّوا عن ذکر علی بن أبی طالب فقد رأیت من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیه خصالا لئن تکون لی واحدهٔ منهن فی آل الخطّاب أحبّ إلی ممّا طلعت علیه الشمس، کنت أنا و أبو بکر و أبو عبیدهٔ فی نفر من أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فانتهینا إلی باب أمّ سلمهٔ و علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۱

قائم علی الباب، فقلنا: أردنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: یخرج إلیکم، فخرج رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فسرنا إلیه، فاتکأ علی علی بن أبی طالب ثمّ ضرب بیده منکبهٔ ثمّ قال:

«أنت (یا علی) أوّل المؤمنین إیمانا، و أوّلهم إسلاما، و أنت منّی بمنزلهٔ هارون من موسی»[۹۸].

۵-

روی النسائی فی کتاب «الخصائص» أن علیا و زیدا و جعفر اختصموا فی من یکفل ابنهٔ حمزهٔ، و کان کل واحد منهم یرید أن یکفلها هو دون غیره فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی: «أنت منّی بمنزلهٔ هارون من موسی»[۹۹].

۶-

روی جابر بن عبد اللّه أنّه عند ما أمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بسدّ جمیع أبواب المنازل التی کانت مشرعة إلی المسجد إلّا باب بیت علی علیه السلام، قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّه یحلّ لک فی المسجد ما یحلّ لی، و إنّک بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبی بعدی»[۱۰۰].

هذه الموارد الستّة النّبی هی غیر غزوة تبوک، أخذناها برمتها من المصادر المعروفة لأهل السنّة، و إلّا فإن هناک فی الرّوایات المرویّة عن طریق الشیعة موارد أخری قال فیها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذه العبارة فی شأن علی علیه السلام أیضا.

من مجموع ذلک یستفاد- بوضوح و جلاء- أنّ حدیث المنزلة لم یکن مختصا بغزوة تبوک، بل هو أمر عام و دائم فی شأن علی علیه السلام.

و من هنا یتّضح أیضا- أنّ ما تصوره بعض علماء السنّة مثل «الآمدی» من أن هذا الحدیث یتکفل حکما خاصا فی مجال خلافة علی علیه السلام و أنّه یرتبط بظرف غزوة تبوک خاصّة، و لا یرتبط بغیره من الظروف و الأوقات، تصوّر باطل أساسا، لأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کرّر هذه العبارة فی مناسبات متنوعة ممّا یفید أنّه کان حکما عاما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۲

محتوی حدیث المنزلة:

لو درسنا- بموضوعیة و تجرّد- هذا الحدیث، و تجنّبنا الأحکام المسبّقة و التحججات الناشئة من العصبیة، لاستفدنا من هذا الحدیث أنّ علیّا علیه السلام کان له- بموجب هذا الحدیث- جمیع المنازل التی کانت لهارون فی بنی إسرائیل- إلّا النّبوة- لأنّ لفظ الحدیث عام، و الاستثناء (إلّا أنّه لا نبیّ بعدی) یؤکّد هو الآخر هذه العمومیّة، و لا یوجد أیّ قید أو شرط فی هذا الحدیث یخصصه و یقیّده.

و علی هذا الأساس یمکن أن یستفاد من هذا الحدیث الأمور التالیة:

۱- إنّ الإمام علیا علیه السلام أفضل الأئمّة بعد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما کان لهارون مثل هذا المقام.

۲- إنّ علیا وزیر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و معاونه الخاص و عضده، و شریکه فی قیادته، لأنّ القرآن أثبت جمیع هذه المناصب لهارون عند ما یقول حاکیا عن موسی قوله: وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی هارُونَ أَخِی، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی [۱۰۱].

۳- إنّه کان لعلی علیه السلام- مضافا إلی الأخوة الإسلامیة العامّة مقام الأخوة الخاصّة و المعنویة للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۴- إنّ علیّا علیه السلام کان خلیفة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و مع وجوده لم یکن أی شخص آخر یصلح لهذا المنصب.

أسئلة حول حدیث المنزلة:

لقد أورد بعض المتعصبین إشکالات و اعتراضات علی هذا الحدیث و التمسک به لإثبات خلافة علی لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بلا فصل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۳

بعض الإشکالات و الاعتراضات واهیة جدا إلی درجة لا تصلح للطرح علی بساط المناقشة، بل لا یملک المرء عند السماع بها إلّا إن یتأسف علی حال البعض کیف صدّتهم الأحکام المسبقة غیر المدروسة عن قبول الحقائق الواضحة؟

أمّا البعض الآخر من الإشکالات القابلة للمناقشة و الدراسة فنطرحها علی بساط البحث تکمیلا لهذه الدراسة:

الإشکال الأوّل: إن هذا الحدیث یبین- فقط- حکما خاصا محدودا، لأنّه ورد فی غزوة تبوک، و ذلک عند ما انزعج علی علیه السلام من استبقائه فی المدینة بین النساء و الصبیان، فسلّاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذه العبارة:

و على هذا الأساس كان المقصود هو: إنّك وحدك الحاكم و القائد لهذه النسوة و الصبيان دون غيرك.

و قد اتضح الجواب على هذا الإشكال من الأبحاث السابقة- بجلاء- و تبيّن أنّه- على خلاف تصور المعترضين- لم يرد هذا الحديث فى واقعة واحدة، و لم يصدر فى واقعة تبوك فقط، بل صدر فى موارد عديدة على أساس كونه يتكفل حكما كليّا، و قد أشرنا إلى سبعة موارد و مواضع منها مع ذكر أسانيدها من مؤلفات علماء أهل السنة.

هذا مضافا إلى أنّ بقاء علىّ عليه السلام فى المدينة لم يكن أمرا بسيطا يهدف المحافظة على النساء و الصبيان فقط، بل لو كان الهدف هو هذا، لتيسر للآخرين القيام به، و إنّ النّبى لم يكن ليترك بطل جيشه البارز فى المدينة لهدف صغير، و هو يتوجه إلى قتال امبراطورية كبرى (هى إمبراطورية الروم الشرقية).

إنّ من الواضح أنّ الهدف كان هو منع أعداء الرسالة الكثيرين الساكنين فى أطراف المدينة و المنافقين القاطنين فى نفس المدينة، الذين كانوا يفكرون فى استغلال غيبة النّبى الطويلة لاجتياح المدينة قاعدة الإسلام، و لهذا عمد رسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۴

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن يخلف فى غيبته شخصيّة قويّة يمكنه أن يحفظ هذا المركز الحساس، و لم تكن هذه الشخصية سوى على عليه السلام.

الإشكال الثّانى: نحن نعلم- كما اشتهر فى كتب التاريخ أيضا- أنّ هارون توفى فى عصر موسى عليه السلام نفسه، و لهذا لا يثبت التشبيه بهارون أن عليّا عليه السلام خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد وفاته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لعل هذا هو أهم إشكال أورد على هذا البحث و التمسك به، و لكن جملة

«إلّا أنّه لا نبى بعدى»

تجيب على هذا الإشكال بوضوح، لأنّه إذا كان كلام

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يقول: أنت منّى بمنزلة هارون من موسى،

خاصا بزمان حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما كانت هناك ضرورة إلى جملة

«إلّا أنّه لا نبى بعدى»

لأنّه إذا اختص هذا الكلام بزمان حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكان التحدث حول من يأتى بعده غير مناسب أبدا (إذ يكون لهذا الاستثناء- كما اصطلح فى العربية- طابع الاستثناء المنقطع الذى هو خلاف الظاهر).

و على هذا الأساس يكشف وجود هذا الاستثناء- بجلاء- أنّ كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ناظر إلى مرحلة ما بعد وفاته، غاية ما هنالك و لكى لا يلتبس الأمر، و لا يعتبر أحد عليّا عليه السلام نبيّا بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: إنّ لك جميع هذه المنازل و لكنّك لن تكون نبيّا بعدى.

فيكون مفهوم كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أن لك جميع ما لهارون من المناصب و المنازل، لا فى حياتى فقط، بل أنّ هذه المنازل تظلّ مستمرة و باقية لك إلّا مقام النّبوة.

و بهذه الطريقة يتّضح أن تشبيه على عليه السلام بهارون، إنّما هو من حيث المنازل و المناصب، لا من حيث مدّة استمرار هذه المنازل و المناصب، و لو أنّ هارون كان يبقى حيا لكان يتمتع بمقام الخلافة لموسى و مقام النّبوة معا.

و مع ملاحظة أنّ هارون كان له- حسب صريح القرآن- مقام الوزارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۵

و المعاونة لموسى، و كذا مقام الشركة فى أمر القيادة (تحت إشراف موسى) كما أنّه كان نبيّا، تثبت جميع هذه المنازل لعلى عليه السلام إلّا النّبوة، حتى بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشهادة عبارة

(إلّا أنّه لا نبی بعدی).

الإشکال الثّالث: إنّ الاستدلال بهذا الحدیث یستلزم أنّه کان لعلی علیه السلام منصب الولایة و القیادة حتی فی زمن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حین لا یمکن أن یکون هناک إمامان و قائدان فی عصر واحد.

و لکن مع الالتفات إلی النقطة التالیة یتّضح الجواب علی هذا الإشکال أیضا، و هی أنّ هارون کان له- من دون شک- مقام قیادة بنی إسرائیل حتی فی عصر موسی علیه السلام، و لکن لا بقیادة مستقلة، بل کان قائدا یقوم بممارسة وظائفه تحت إشراف موسی. و قد کان علی علیه السلام فی زمان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم معاونا للنّبی فی قیادة الأمّة أیضا، و علی هذا الأساس یصیر قائدا مستقلا بعد وفاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و علی کل حال، فإنّ حدیث المنزلة الذی هو من حیث الأسانید من أقوی الأحادیث و الرّوایات الإسلامیة التی وردت فی مؤلفات جمیع الفرق الإسلامیة بلا استثناء، إنّ هذا الحدیث یوضح لأهل الإنصاف من حیث الدلالة أفضلیة علی علیه السلام علی الأمّة جمعاء، و أیضا خلافته المباشرة (و بلا فصل) بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و لکن مع العجب العجاب أنّ البعض لم یکتف برفض دلالة الحدیث علی الخلافة، بل قال: إنّه لا یتضمّن و لا یثبت أدنی فضیلة لعلیّ علیه السلام ... و هذا حقّا أمر محیّر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۰۶

الآیة [سورة الأعراف (۷): آیة ۱۴۳]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَ مُوسی لِمِیقاتِنا وَ کَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَیْکَ قالَ لَنْ تَرانِی وَ لکِنِ انْظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَکانَهُ فَسَوْفَ تَرانِی فَلَمَّا تَجَلَّی رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَکًّا وَ خَرَّ مُوسی صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَکَ تُبْتُ إِلَیْکَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِینَ (۱۴۳)

التّفسیر

المطالبة برؤیة اللّه:

فی هذه الآیات و الآیات اللاحقة یشیر سبحانه إلی مشهد مثیر آخر من مشاهد حیاة بنی إسرائیل، و ذلک عند ما طلب جماعة من بنی إسرائیل من موسی علیه السلام- بإلحاح و إصرار- أن یروا اللّه سبحانه، و أنّهم لن یؤمنوا به إذا لم یشاهدوه، فاختار موسی سبعین رجلا من قومه و اصطحبهم معه إلی میقات ربّه، و هناک رفع طلبهم إلی اللّه سبحانه، فسمع جوابا أوضح لبنی إسرائیل کل شیء فی هذا الصعید.

و قد جاء قسم من هذه القصّة فی سورة البقرة الآیة (۵۵) و (۵۶)، و قسم آخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۰۷

منه فی سورة النساء الآیة (۱۵۳)، و قسم ثالث فی الآیات المبحوثة هنا فی الآیة (۱۵۵) من هذه السورة.

ففی الآیات الحاضرة یقول أوّلا: وَ لَمَّا جاءَ مُوسی لِمِیقاتِنا وَ کَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَیْکَ

و لکن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الرّبوبی: کلا، لن ترانی أبدا قالَ لَنْ تَرانِی وَ لکِنِ انْظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَکانَهُ فَسَوْفَ تَرانِی فَلَمَّا تَجَلَّی رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَکًّا.[۱۰۲] فلمّا رأی موسی هذا المشهد الرهیب تملکه الرعب إلی درجة أنّه سقط علی

الأرض مغمى عليه وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً.

و عند ما أفاق قال: ربّاه سبحانك، أنبت إليك، و أنا أوّل من آمن بك فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ

بحوث

اشارة

و فی هذه الآیة نقاط ینبغی التوقف عندها و الالتفات إلیها:

۱– لماذا طلب موسی رؤیة اللّه؟

إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه هنا هو: كيف طلب موسى عليه السلام- و هو النّبى العظيم و من أولى العزم- رؤية اللّه و هو يعلم جيدا أن اللّه ليس بجسم، و ليس له مكان، و لا هو قابل للمشاهدة و الرؤية، و الحال أن مثل هذا الطلب لا يليق حتى بالأفراد العاديّين من الناس؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۸

صحيح أنّ المفسّرين ذكروا أجوبة مختلفة على هذا السؤال، و لكن أوضح الأجوبة هو أن موسى عليه السلام طرح مطلب قومه، لأنّ جماعة من جهلة بنى إسرائيل أصرّوا على أن يروا اللّه حتى يؤمنوا (و الآية ۱۵۳ من سورة النساء خير شاهد على هذا الأمر) و قد أمر موسى عليه السلام من جانب اللّه أن يطرح مطلب قومه هذا على اللّه سبحانه حتى يسمع الجميع الجواب الكافى، و قد صرّح بهذا فى رواية مرويّة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى كتاب عيون أخبار الرضا أيضا[۱۰۳].

و من القرائن الواضحة التى تؤيد هذا التّفسير ما نقرأه فى الآية (۱۵۵) من نفس هذه السورة، من أنّ موسى عليه السلام قال بعد ما حدث ما حدث: أ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا.

فيتّضح من هذه الجملة أنّ موسى عليه السلام لم يطلب لنفسه مثل هذا الطلب إطلاقا، بل لعلّ الرجال السبعين الذين صعدوا معه إلى الميقات هم أيضا لم يطلبوا مثل هذا الطلب غير المعقول و غير المنطقى، إنّهم كانوا مجرّد علماء، و مندوبين من جانب بنى إسرائيل خرجوا مع موسى عليه السلام لينقلوا فيما بعد مشاهداتهم لجماعات الجهلة و الغافلين الذين طلبوا رؤية اللّه سبحانه و تعالى و مشاهدته.

۲– هل یمکن رؤیة اللّه أساسا؟

نقرأ فى الآية الحاضرة أنّ اللّه سبحانه قال لموسى عليه السلام: انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فهل مفهوم هذا الكلام هو أنّ اللّه قابل للرؤية أساسا؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۵ ؛ ص۲۰۸

جواب هو أن هذا التعبير هو كناية عن استحالة مثل هذا الموضوع، مثل جملة (حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط) و حيث أنّه كان من المعلوم أنّ الجبل يستحيل أن يستقر فى مكانه عند تجلّى اللّه له، لهذا ذكر هذا التعبير.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۹

۳- ما هو المراد من تجلّی اللّه؟

لقـد وقع کلام کثیر بین المفسّرین فی هـذا الصـعید، و لکن ما یبـدو للنظر من مجموع الآیات أنّ اللّه أظهر إشـعاعة من أحد مخلوقاته علی الجبـل (و تجلّی آثـاره بمنزلـة تجلیه نفسه) و لکن ماذا کان ذلک المخلوق؟ هل کان إحـدی الآیات الإلهیـة العظیمـة التی بقیت مجهولـة لنا إلی الآن، أو أنّه نموذج من قوة الـذرّة العظیمـة، أو الأمواج الغامضـة العظیمة التأثیر و الدفع، أو الصاعقة العظیمة الموحشـة التی ضـربت الجبل و أوجـدت برقا خاطفا للأبصار و صوتا مهیبا رهیبا و قوّة عظیمـة جـدا، بحیث حطّمت الجبل و دکّته دکّا[۱۰۴]؟! و کأنّ اللّه تعالی أراد أن یری- بهذا العمل- شیئین لموسی علیه السلام و بنی إسرائیل:

الأوّل: أنّهم غیر قادرین علی رؤیة ظاهرة جد صغیرة من الظواهر الکونیة العظیمة، و مع ذلک کیف یطلبون رؤیة اللّه الخالق.

الثانی: کما أن هـذه الآیـة الإلهیـة العظیمـة مع أنّها مخلوق من المخلوقات لا أکثر، لیست قابله للرؤیة بذاتها، بل المرئی هو آثارها، أی الرجة العظیمة، و المسـموع هو صوتها المهیب. أمّا أصل هذه الأشیاء أی تلک الأمواج الغامضة أو القوة العظیمة فلا هی تری بالعین، و لا هی قابلة للإدراک بواسطة الحواس الأخری، و مع ذلک هل یستطیع أحد أن یشک فی وجود مثل هذه الآیة، و یقول:

حیث أنّنا لا نری ذاتها، بل ندرک فقط آثارها فلا یمکن أن نؤمن بها.

فـإذا یصـح الحکم هـذا حول مخلوق من المخلوقـات، فکیف یصـح أن یقـال عن اللّه تعـالی: بمـا أنّه غیر قابـل للرؤیـة، إذن لا یمکننا الإیمان به، مع أنّه ملأت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۰

آثاره کل مکان؟

و هنـاک احتمـال آخر فی تفسـیر هـذه الآیـة و هـو أنّ موسـی علیه السـلام طلب لنفسه هـذا المطلب حقیقـة، و لکن لم یکن مقصوده مشاهدته بالعین التی تسـتلزم جسـمانیته تعالی، و تنافی نبوة موسـی علیه السلام، بل المقصود هو نوع من الإدراک الباطنی و المشاهدة الباطنیة، نوع من الشـهود الکامل الروحیّ و الفکری، لأنّه کثیرا ما تسـتعمل الرؤیة فی هذا المعنی مثلما نقول: «أنا أری فی نفسـی قدرة علی القیام بهذا العمل» فی حین أنّ القدرة لیست شیئا قابلا للرؤیة، بل المقصود هو أنّنی أجد هذه الحالة فی نفسی بوضوح.

کان موسـی علیه السـلام یرید أن یصل إلی هذه المرحلة من الشـهود و المعرفة، فی حین أن الوصول إلی هذه المرحلة لم یکن ممکنا فی الدنیا، و إن کان ممکنا فی عالم الآخرة الذی هو عالم الشهود.

و لکن اللّه تعـالی أجاب موسـی علیه السـلام قائلا: إنّ مثل هـذه الرؤیـة غیر ممکنـة لک، و لإثبات هـذا المطلب تجلّی للجبل، فتحطّم الجبل و تلاشی، و بالتالی تاب موسی من هذا الطلب ۱۰۵].

و لکن هذا التّفسیر مخالف لظاهر الآیة المبحوثة هنا، و یتطلب ارتکاب التجوّز من جهات عدیدة[۱۰۶] هذا مضافا إلی أنّه ینافی بعض الرّوایات الواردة فی تفسیر الآیة أیضا، فالحق هو التّفسیر الأول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۱

۴- مم تاب موسی علیه السلام؟

إنّ آخر سؤال یطرح نفسه هنا هو: أن موسـی علیه السلام بعد أن أفاق قال: تُبْتُ إِلَیْکَ فی حین أنّه لم یرتکب إثما أو معصیة، لأن هذا

الطلب کـان من جـانب بنی إسـرائيل، و کـان طرحه بتکليف من اللّه، فهو أدی واجبه إذن، ثمّ إذا کان هـذا الطلب لنفسه و کان مراده الشهود الباطنی لم يحسب هذا العمل إثما؟؟

و لکن يمکن الجواب علی هذا السؤال من جانبين:

الأوّل: أن موسی طلب مثل هذا الطلب بالنيابة عن بنی إسرائيل، و مع ذلک طلب من اللّه أن يتوب عليه، و أظهر الإيمان.

الآخر: أنّ موسـی عليه السـلام و إن کان مکلّفا بأن يطرح طلب بنی إسـرائيل، و لکنّه عند ما تجلی ربّه للجبل و اتّضـحت حقيقة الأمر، انتهت مـدّة هـذا التکليف، و فی هـذا الوقت لا بدّ من العودة إلی الحالة الأولی يعنی الرجوع إلی ما قبل التکليف، و إظهار إيمانه حتی لا تبقی شبهة لأحد، و قد بيّن ذلک بجملة، إنی تُبْتُ إِلَيْکَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ

۵- اللّه غير قابل للرؤية مطلقا

إنّ هـذه الآيـة من الآيات التی تشـهد بقوة و جلاء أنّ اللّه غير قابل للرؤيـة و المشاهدة مطلقا، لأنّ کلمة «لن» حسب ما هو مشـهور بين اللغويين للنفی الأبدی، و علی هذا الأساس يکون مفهوم جملة لَنْ تَرانِی إنّک لا ترانی لا فی هذا العالم و لا فی العالم الآخر.

و لو أنّ أحدا شکّک- افتراضا- فی أن يکون «لن» للنفی التأبيدی يدل إطلاق الآية، و کون نفی الرؤية ذکر من دون قيد أو شرط علی أن اللّه غير قابل للرؤية فی مطلق الزمان و جميع الظروف.

إنّ الأدلة العقلية هی الأخری تهدينا إلی هذه الحقيقة، لأنّ الرؤية تختص

الامثل فی تفسير کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۲

بالأجسام.

و علی هـذا الأسـاس، إذا جـاء فی الأحاديث و الأخبار الإسـلامية أو الآيات القرآنيـة عبارة «لقاء اللّه» فإن المقصود هو المشاهـدة بعين القلب و العقل، لأنّ القرينـة العقلية و النقلية أفضل شاهد علی هذا الموضوع و قد کان لنا أبحاث أخری فی ذيل الآية (۱۰۲) من سورة الأنعام فی هذا الصعيد.

الامثل فی تفسير کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۳

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۴ الی ۱۴۵]

اشارة

قالَ يا مُوسی إِنِّی اصْطَفَيْتُکَ عَلَی النَّاسِ بِرِسالاتِی وَ بِکَلامِی فَخُذْ ما آتَيْتُکَ وَ کُنْ مِنَ الشَّاکِرِينَ (۱۴۴) وَ کَتَبْنا لَهُ فِی الْأَلْواحِ مِنْ کُلِّ شَیْ‌ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِکُلِّ شَیْ‌ءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَکَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيکُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (۱۴۵)

التّفسير

ألواح التوراة:

و فی النهاية أنزل اللّه شرائع و قوانين دينه علی موسی عليه السلام.

ففی البداية: قالَ يا مُوسی إِنِّی اصْطَفَيْتُکَ عَلَی النَّاسِ بِرِسالاتِی وَ بِکَلامِی

فإذا كان الأمر كذلك فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ

فهل يستفاد من هذه الآية أن التكلم مع اللّه كان من امتيازات موسى الخاصّة به دون بقية الأنبياء، يعنى اصطفيتك لمثل هذا الأمر من بين الأنبياء؟

الحق أنّ هذه الآية ليست بصدد إثبات مثل هذا الأمر، بل إن هدف الآية- بقرينة ذكر الرسالات التى كانت لجميع الأنبياء- هو بيان امتيازين كبيرين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۴

لموسى على الناس: أحدهما تلقى رسالات اللّه و تحمّلها، و الآخر التكلّم مع اللّه، و كلا هذين الأمرين من شأنهما تقوية مقام قيادته بين أمته.

ثمّ أضاف تعالى واصفا محتويات الألواح التى أنزلها على موسى عليه السلام بقوله:

وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ.

ثمّ أمره بأن يأخذ هذه التعاليم و الأوامر مأخذ الجد، و يحرص عليها بقوة فَخُذْها بِقُوَّةٍ.

و أن يأمر قومه أيضا بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها.

كما يحذرهم بأن مخالفة هذه الأوامر و التعاليم و الفرار من المسؤوليات و الوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، و أن عاقبتها هى جهنم و سوف يرى الفاسقون مكانهم سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ

بحوث

اشارة

ثمّ إن هاهنا نقاط عديدة ينبغى التوقف عندها و الالتفات إليها:

۱- نزول الألواح على موسى

إنّ ظاهر الآية الحاضرة يفيد أن اللّه تعالى أنزل ألواحا على موسى عليه السلام قد كتب فيها شرائع التوراة و قوانينها، لا أنّه كانت فى يدى موسى عليه السلام ألواح ثمّ انتقشت فيها هذه التعاليم بأمر اللّه.

و لكن ماذا كانت تلك الألواح، و من أى مادة؟ إنّ القرآن لم يتعرض لذكر هذا الأمر، و إنما أشار إليها بصورة الإجمال و بلفظة «الألواح» فقط، و هذه الكلمة جمع «لوح»، و هى مشتّقة من مادة «لاح يلوح» بمعنى الظهور و السطوع، و حيث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۵

أنّ المواضيع تتّضح و تظهر بكتابتها على صفحة، تسمى الصفحة لوحا[۱۰۷].

و لكن ثمّة احتمالات مختلفة فى الرّوايات و أقوال المفسّرين حول كيفية و جنس هذه الألواح، و حيث إنّها ليست قطعية أعرضنا عن ذكرها و التعرض لها.

۲- كيف كلّم اللّه موسى؟

یستفاد من الآیات القرآنیة المتنوعة أنّ اللّه تعالی کلّم موسی علیه السلام، و کان تکلیم اللّه لموسی عن طریق خلق أمواج صوتیة فی الفضاء أو فی الأجسام، و ربّما انبعثت هذه الأمواج الصوتیة من خلال «شجرة الوادی الأیمن» و ربّما من «جبل طور» و تبلغ مسمع موسی فما ذهب الیه البعض من أن هذه الآیات تدلّ علی جسمانیة اللّه تعالی جمودا علی الألفاظ تصوّر خاطئ بعید عن الصواب.
علی أنّه لا شک فی أن ذلک التکلّم کان من جانب اللّه تعالی بحیث أن موسی علیه السلام کان لا یشک عند سماعه له فی أنّه من جانب اللّه، و کان هذا العلم حاصلا لموسی، إمّا عن طریق الوحی و الإلهام أو من قرائن أخری.

۳- عدم وجوب جمیع تعالیم الألواح

یستفاد من عبارة مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَةً أنّه لم تکن جمیع المواعظ و المسائل موجودة فی ألواح موسی علیه السلام لأنّ اللّه یقول: وَ کَتَبْنا لَهُ فِی الْأَلْواحِ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَةً و هذا لأجل أن دین موسی علیه السلام لم یکن آخر دین، و لم یکن موسی علیه السلام خاتم الأنبیاء، و من المسلّم أن الأحکام الإلهیة التی نزلت کانت فی حدود ما یحتاجه الناس فی ذلک الزمان، و لکن عند ما وصلت البشریة إلی آخر مرحلة حضاریة للشرایع السماویة نزل آخر دستور إلهی یشمل جمیع حاجات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۶

الناس المادیة و المعنویة.
و تتّضح من هذا أیضا علة تفضیل مقام علی علیه السلام علی مقام موسی علیه السلام فی بعض الرّوایات ۱۰۸]، و هی أن علیا علیه السلام کان عارفا بجمیع القرآن، الذی فیه تبیان کل شیء نَزَّلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ فی حین أنّ التوراة لم یرد فیها إلّا بعض المسائل.

۴- هل فی الألواح تعالیم حسنة و أخری غیر حسنة؟

إنّ ما نقرؤه فی الآیة وَ أْمُرْ قَوْمَکَ یَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها لا یعنی أنّه کانت فی ألواح موسی تعالیم «حسنة» و أخری «سیئة» و أنّهم کانوا مکلّفین بأن یأخذوا بالحسنة و یترکوا السیئة، أو کان فیها الحسن و الأحسن، و کانوا مکلّفین بالأخذ بالأحسن فقط، بل ربّما تأتی کلمة «أفعل التفضیل» بمعنی الصفة المشبهة، و الآیة المبحوثة من هذا القبیل ظاهرا، یعنی أن «الأحسن» هنا بمعنی «الحسن» و هذا إشارة إلی أن جمیع تلک التعالیم کانت حسنة و جیدة.
ثمّ إنّ هناک احتمالا- آخر فی الآیة الحاضرة- أیضا- و هو أن الأحسن بمعنی أفعل التفضیل، و هو إشارة إلی أنّه کان بین تلک التعالیم أمور مباحة (مثل القصاص) و أمور أخری و صفت بأنّها أحسن منها (مثل العفو) یعنی: قل لقومک و من اتبعک لیختاروا ما هو أحسن ما استطاعوا، و للمثال یرجحوا العفو علی القصاص (إلّا فی موارد خاصّة)[۱۰۹].
۵- فی مجال قوله: سَأُرِیکُمْ دارَ الْفاسِقِینَ الظاهر أن المقصود منها هو جهنم، و هی مستقرّ کل أولئک الذین یخرجون من طاعة اللّه، و لا یقومون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۷

بوظائفهم الإلهیة.
ثمّ إنّ بعض المفسّرین احتمل أیضا أن یکون المقصود هو أنّکم إذا خالفتم هذه التعالیم فإنکم سوف تصابون بنفس المصیر الذی أصیب به قوم فرعون و الفسقة الآخرون، و تتبدل أرضکم إلی دار الفاسقین ۱۱۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۸

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۴۶ الی ۱۴۷]

اشارة

سَأَصْرِفُ عَنْ آیاتِیَ الَّذِینَ یَتَکَبَّرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ یَرَوْا کُلَّ آیَةٍ لا یُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ الرُّشْدِ لا یَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ الْغَیِّ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ کانُوا عَنْها غافِلِینَ (۱۴۶) وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ یُجْزَوْنَ إِلَّا ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۴۷)

التّفسیر

مصیر المتکبرین:

البحث فی هاتین الآیتین هو فی الحقیقة نوع من عملیة استنتاج من الآیات الماضیة عن مصیر فرعون و ملئه و العصاة من بنی إسرائیل، فقد بیّن اللّه فی هذه الآیات الحقیقة التالیة و هی: إذا کان الفراعنة أو متمرّدو بنی إسرائیل لم یخضعوا للحق مع مشاهدة کل تلک المعاجز و البینات، و سماع کل تلکم الحجج و الآیات الإلهیة، فذلک بسبب أنّنا نصرف المتکبرین و المعاندین للحق- بسبب أعمالهم- عن قبول الحق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۹

و بعبارة أخری: إنّ الإصرار علی تکذیب الآیات الإلهیة قد ترک فی نفوسهم و أرواحهم أثرا عجیبا، بحیث خلق منهم أفرادا متصلبین منغلقین دون الحق، لا یستطیع نور الهدی من النفوذ إلی قلوبهم.

و لهذا یقول أوّلا: سَأَصْرِفُ عَنْ آیاتِیَ الَّذِینَ یَتَکَبَّرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِ

و من هنا یتّضح أنّ الآیة الحاضرة لا تنافی أبدا الأدلة العقلیة حتی یقال بتأویلها کما فعل کثیر من المفسّرین- إنّها سنة إلهیة أن یسلب اللّه من المعاندین الألدّاء توفیق الهدایة بکل أشکاله و أنواعه فهذه هی خاصیة أعمالهم القبیحة أنفسهم، و نظرا لانتساب جمیع الأسباب إلی اللّه الذی هو علّة العلل و مسبب الأسباب فی المآل نسبت إلیه.

و هذا الموضوع لا هو موجب للجبر، و لا مستلزم لأی محذور آخر، حتی نعمد إلی توجیه الآیة بشکل من الأشکال.

هذا، و لا بدّ من الالتفات- ضمنیا- إلی أنّ ذکر عبارة بِغَیْرِ الْحَقِ بعد لفظة:

التکبر إنّما هو لأجل التأکید، لأنّ التکبر و الشعور بالاستعلاء علی الآخرین و احتقار عباد اللّه یکون دائما بغیر حق، و هذا التعبیر یشبه الآیة (۶۱) من سورة البقرة، عند ما یقول سبحانه: وَ یَقْتُلُونَ النَّبِیِّینَ بِغَیْرِ الْحَقِ فقید بغیر الحق هنا قید توضیحی، و توکیدی لأنّ قتل الأنبیاء هو دائما بغیر حق.

خاصّیة أنّها أردفت بکلمة «فی الأرض» الذی یأتی بمعنی التکبر و الطغیان فوق الأرض، و لا شک أنّ مثل هذا العمل یکون دائما بغیر حق.

ثمّ أشار تعالی إلی ثلاثة أقسام من صفات هذا الفریق «المتکبر المتعنت» و کیفیة سلب توفیق قبول الحق عنهم.

الأولی قوله تعالی: وَ إِنْ یَرَوْا کُلَّ آیَةٍ لا یُؤْمِنُوا بِها إنّهم لا یؤمنون حتی و لو رأوا جمیع المعاجز و الآیات و الثّانیة، وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ الرُّشْدِ لا یَتَّخِذُوهُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۰

سَبِيلًا و الثّالثة إنّهم على العكس وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا.

بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكية برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها و أسبابها، فقال: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ

و لا شك أنّ التكذيب لآيات اللّه مرّة- أو بضع مرات- لا يستوجب مثل هذه العاقبة، فباب التوبة مفتوح فى وجه مثل هذا الإنسان، و إنّما الإصرار فى هذا الطريق هو الذى يوصل الإنسان إلى نقطة لا يعود معها يميّز بين الحسن و القبيح، و المستقيم و المعوج، أى يسلب القدرة على التمييز بين «الرشد» و «الغى».

ثمّ تبيّن الآية اللاحقة عقوبة مثل هؤلاء الأشخاص و تقول: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ

و «الحبط» يعنى بطلان العمل و فقدانه للأثر و الخاصية، يعنى أنّ مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيرا فإنّ عملهم لن يعود عليهم بنتيجة (و للمزيد من التوضيح حول هذا الموضوع راجع ما كتبناه عند تفسير الآية ۲۱۷ من سورة البقرة).

و فى ختام الآية أضاف بأن هذا المصير ليس من باب الانتقام منهم، إنما هو نتيجة أعمالهم هم، بل هو عين أعمالهم ذاتها و قد تجسمت أمامهم هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ ! إنّ هذه الآية نموذج آخر من الآيات القرآنية الدالة على تجسّم الأعمال، و حضور أعمال الإنسان خيرها و شرها يوم القيامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۱

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۸ الى ۱۴۹]

اشارة

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ (۱۴۸)
وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۱۴۹)

التّفسير

اليهود و عبادتهم للعجل:

فى هذه الآيات يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، و فى نفس الوقت العجيبة التى وقعت فى بنى إسرائيل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه، و هى قصّة عبادتهم للعجل التى تمّت على يد شخص يدعى «السامرى» مستعينا بحلى بنى إسرائيل و ما كان عندهم من آلات الزّينة.

إنّ هذه القصّة مهمّة جدّا بحيث إنّ اللّه تعالى أشار إليها فى أربع سور، فى سورة البقرة الآية (۵۱) و (۵۴) و (۹۲) و (۹۳)، و فى سورة النساء الآية (۱۵۳)، و الأعراف الآيات المبحوثة هنا، و فى سورة طه الآية (۸۸) فما بعد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۲

على أنّ هذه الحادثة مثل بقية الظواهر الاجتماعية لم تكن لتحدث من دون مقدمة و أرضيّة، فبنوا إسرائيل من جهة قضوا سنين مديدة فى مصر و شاهدوا كيف يعبد المصريون الأبقار أو العجول. و من جانب آخر عند ما عبروا النيل شاهدوا فى الضفة الأخرى مشهدا من الوثنية، حيث وجدوا قوما يعبدون البقر، و كما مرّ عليك فى الآيات السابقة طلبوا من موسى عليه السلام صنما كتلك الأصنام، و لكن

موسى عليه السلام وبّخهم و ردّهم، و لا مهم بشدّة.

و ثالث، تمديد مدّة ميقات موسى عليه السلام من ثلاثين إلى أربعين، الذى تسبب فى أن تشيع فى بنى إسرائيل شائعة وفاة موسى عليه السلام بواسطة بعض المنافقين، كما جاء فى بعض التفاسير.

و الأمر الرابع، جهل كثير من بنى إسرائيل بمهارة السامرىّ فى تنفيذ خطته المشئومة، كل هذه الأمور ساعدت على أن تقبل أكثرية بنى إسرائيل فى مدّة قصيرة على الوثنية، و يلتفوا حول العجل الذى أوجده لهم السامرىّ للعبادة.

و فى الآيـة الحاضـرة يقول القرآن الكريم أوّلا: إنّ قوم موسـى عليه السـلام بعـد ذهابه إلى ميقات ربّه صـنعوا من حليّهم عجلا، و كان مجرّد تمثـال لاـ روح فيه، و لكنّه كـان له صـوت كصوت البقر، و اختـاروه معبودا لهم: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسـى مِنْ بَعْـدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ و مع أنّ هذا العمل (أى صنع العجل من الحلىّ) صدر من السامرىّ (كما تشهد بذلك آيات سورة طه) إلّا أنّه مع ذلك نسب هذا العمل إلى بنى إسـرائيل لأنّ كثيرا منهم ساعد السامرىّ فى هذا العمل و عاضده، و بذلك كانوا شركاء فى جريمته، فى حين رضى بفعله جماعة أكبر منهم.

و ظاهر هذه الآية و إن كان يفيد- فى بدء النظر- أنّ جميع قوم موسـى شاركوا فى هذا العمل، إلّا أنّه بالتوجه إلى الآية (۱۵۹) من هذه السورة، التى تقول: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ يستفاد أنّ المراد من الآية المبحوثة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۳

هنا ليس كلّهم، بل أكثريـة عظيمـة منهم سـلكوا هـذا السبيل، و ذلك بشـهادة الآيات القادمة التى تعكس عجز هارون عن مواجهتها و صرفها عن ذلك.

كيف كان للعجل الذهبى خوار؟

و «الخوار» هو الصوت الخاص الـذى يصـدر من البقر أو العجل، و قد ذهب بعض المفسّـرين إلى أنّ السامرى بسـبب ما كان عنده من معلومات وضع أنابيب خاصّة فى باطن صدر العجل الذهبى، كان يخرج منها هواء مضـغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبىّ شبيه بصوت البقر.

و يقول آخرون: كان العجل قـد وضع فى مسـير الريـح بحيث كان يسـمع منه صوت على أثر مرور الريح على فمه الذى كان مصـنوعا بهيئة هندسية خاصّة.

أمّا ما ذهب إليه جماعة من المفسّرين من أن السامرىّ أخذ شـيئا من تراب من موضع قدم جبرئيل و صبّه فى العجل فصار كائنا حيا، و أخذ يخور خوارا طبيعيا فلا شاهد عليه فى آيات القرآن الكريم، كما سيأتى بإذن اللّه فى تفسير آيات سورة طه.

و كلمـة «جسدا» شاهد على أن ذلك العجل لم يكن حيوانا حيا، لأنّ القرآن يسـتعمل هذه اللفظة فى جميع الموارد فى القرآن الكريم بمعنى الجسم المجرّد من الحياة و الروح ١١١] و بغض النظر عن جميع هذه الأمور يبعد أن يكون اللّه سبحانه قد أعطى الرجل المنافق (مثل السامرىّ) مثل تلك القـدرة التى يسـتطيع بها أن يأتى بشـىء يشـبه معجزة النّبى موسـى عليه السـلام، و يحيى جسـما ميتا، و يأتى بعمل يوجب ضلال الناس حتما و لا يعرفون وجه بطلانه و فساده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۴

أمّا لو كان العجل بصورة تمثال ذهبى كانت أدلـة بطلانه واضـحة عنـدهم، و كان من الممكن أن يكون وسـيلة لاختبار الأشـخاص لا شىء آخر.

و النقطـة الأخرى التى يجب الانتباه إليها، هى أنّ السامرى كان يعرف أن قوم موسـى عليه السـلام قد عانوا سـنين عديدة من الحرمان،

مضافا إلى أنّهم كـانت تغلب عليهم روح الماديـة- كمـا هو الحال فى أجيالهم فى العصـر الحاضـر- و يولون الحليّ و الـذهب احتراما خاصّا، لهذا صنع عجلا من ذهب حتى يستقطب إليه اهتمام بنى إسرائيل من عبيد الثروة.

أمّا أن هذا الشعب الفقير المحروم من أين كان له كل ذلك الذهب و الفضة؟

فقـد جـاء فى الرّوايـات أن نسـاء بنى إسـرائيل كنّ قـد اسـتعرن من الفرعونيين كميـة كبيرة من الحليّ و الـذهب و الفضّـة لإقامـة أحد أعيادهن، ثمّ حدثت مسألة الغرق و هلاك آل فرعون، فبقيت تلك الحلى عند بنى إسرائيل ١١٢].

ثمّ يقول القرآن الكريم معاقبا و موبّخا: ألم ير بنو إسرائيل أن هذا العجل لا يتكلم معهم و لا يهديهم لشىء، فكيف يعبدونه؟ أ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا.

يعنى أن المعبود الحقيقى هو من يعرف- على الأقل- الحسن و القبيـح، و تكون له القـدرة على هدايـة أتباعه، و يتحـدث إلى عبدته و يهديهم سواء السبيل، و يعرّفهم على طريقة العبادة.

و أساسا كيف يسـمح العقل البشرى بأن يعبد الإنسان شيئا ميتا صنعه و سوّاه بيده، حتى لو استطاع- افتراضا- أن يبدّل الحلّى إلى عجل واقعى فإنّه لا يليق به أن يعبده، لأنّه عجل يضرب ببلادته المثل.

إنّهم فى الحقيقة ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا يقول فى ختام الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ٢٢٥

اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ

بيد أنّه برجوع موسى عليه السلام إليهم، و اتضاح الأمر عرف بنو إسرائيل خطأهم، و ندموا على فعلهم، و طلبوا من اللّه أن يغفر لهم، و قالوا: إذا لم يرحمنا اللّه و لم يغفر لنا فإنّنا لا شك خاسرون وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و جملـة سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ أى عنـد ما عثروا على الحقيقـة، أو عنـد ما وقعت نتيجـة عملهم المشؤومة بأيديهم، أو عند ما سـقطت كل الحيل من أيديهم و لم يبق بأيديهم شىء فى الأدب العربى كناية عن الندامة، لأنّه عند ما يقف الإنسان على الحقائق، و يطلع عليها، أو يصل إلى نتائج غير مرغوب فيها، أو تغلق فى وجهه أبواب الحيلـة، فإنّه ينـدم بطبيعـة الحال، و لهـذا يكون الندم من لوازم مفهوم هذه الجملة.

و على كل حال، فقد ندم بنو إسرائيل من عملهم، و لكن الأمر لم ينته إلى هذا الحدّ، كما نقرأ فى الآيات اللاحقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ٢٢٦

الآيتان [سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٠ الى ١٥١]

اشارة

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)

التّفسير

ردة فعل شديدة تجاه عبادة العجل:

فی هاتین الآیتین بیّن تعالی بالتفصیل ما جری بین موسی علیه السلام و بین عبدة العجل عند عودته من میقاته المشار الیه فی الآیة السابقة. فهاتان الآیتان تعکسان ردة فعل موسی علیه السلام الشدیدة التی أدت إلی یقظة هذه الجماعة.

یقول فی البدء: و لما عاد موسی علیه السلام إلی قومه غضبان ممّا صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضیعتم دینی و أسأتم الخلافة وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسی إِلی قَوْمِهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۷

غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِی مِنْ بَعْدِی ۱۱۳].

إنّ هذه الآیة تفید بوضوح أن موسی عند رجوعه إلی قومه من المیقات و قبل أن یلتقی ببنی إسرائیل کان غضبان أسفا، و هذا لأجل أن اللّه تعالی کان قد أخبر موسی علیه السلام بأنّه اختبر قومه من بعده و قد أضلّهم السامریّ قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِیُّ ۱۱۴].

ثمّ إنّ موسی علیه السلام قال لهم: أ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّکُمْ

للمفسّرین کلام کثیر فی تفسیر هذه الجملة، و قد ذکروا احتمالات عدیدة مختلفة، إلّا أن ظاهر الآیات یفید أن المراد هو أنّکم تعجلتم فی الحکم بالنسبة إلی أمر اللّه تعالی فی قضیة تمدید مدّة المیقات من ثلاثین إلی أربعین، فاعتبرتم عدم مجیئی فی المدة المقررة- أوّلا- دلیلا علی موتی، فی حین کان یتعین علیکم أن تتریثوا و تنتظروا قلیلا ریثما تمرّ أیّام ثمّ تتّضح الحقیقة.

و فی هذا الوقت بالذات، أی عند ما واجه موسی علیه السلام هذه الأزمة الخطیرة من حیاة بنی إسرائیل، و کان الغضب الشدید یسر بل کل کیانه، و یثقل روحه حزن عمیق، و قلق شدید علی مستقبل بنی إسرائیل، لأنّ التخریب و الإفساد أمر سهل، و ربّما استطاع شخص واحد تخریب کیان عظیم و لکن الإصلاح و التعمیر أمر صعب و عسیر جدّا. خاصّة أنّه إذا سرت فی شعب جاهل متعنت نغمة مخالفة شاذة، وافقت هوی و رغبة، فإنّ محوها لا شک لن یکون أمرا ممکنا و سهلا.

فهنا لا بدّ أن یظهر موسی علیه السلام غضبه الشدید و یقوم بالحدّ الأعلی من ردّ الفعل و السخط، کی یوقظ الأفکار المخدّرة لدی بنی إسرائیل، و یوجد انقلابا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۸

ذلک المجتمع الذی انحرف عن الحق، إذ العودة إلی الحق و الصواب عسیرة فی غیر هذه الصورة.

إنّ القرآن یستعرض ردّة فعل موسی الشدیدة فی قبال ذلک المشهد و فی تلک الأزمة، إذ یقول: إنّ موسی ألقی ألواح التوراة التی کانت بیده، و عمد إلی أخیه هارون و أخذ برأسه و لحیته و جرهما إلی ناحیته ساخطا غاضبا.

و کما یستفاد من آیات قرآنیة أخری، و بخاصّة فی سورة طه، أنّه علاوة علی ذلک لام هارون بشدّة، و صاح به، لماذا قصّرت فی المحافظة علی عقائد بنی إسرائیل و خالفت أمری ۱۱۵].

و فی الحقیقة کان هذا الموقف یعکس- من جانب- حالة موسی علیه السلام النفسیة، و انزعاجه الشدید تجاه و ثنیة بنی إسرائیل و انحرافهم، و من جانب آخر کان ذلک وسیلة مؤثرة لهزّ عقول بنی إسرائیل الغافیة، و الفاتهم إلی بشاعة عملهم.

و بناء علی هذا إذا کان إلقاء ألواح التوراة فی هذا الموقف قبیحا- فرضا- و کان الهجوم علی أخیه لا یبدو کونه عملا صحیحا، و لکن مع ملاحظة الحقیقة التالیة، و هی أنّه من دون إظهار هذا الموقف الانزعاجی الشدید لم یکن من الممکن إلفات نظر بنی إسرائیل إلی بشاعة خطئهم ... و لکان من الممکن أن تبقی رواسب الوثنیة فی أعماق نفوسهم و أفکارهم ... إنّ هذا العمل لم یکن فقط غیر مذموم فحسب، بل کان یعد عملا واجبا و ضروریا.

و من هنا یتّضح أنّنا نحتاج أبدا إلی التبریرات و التوجیهات التی ذهب إلیها بعض المفسّرین، للتوفیق بین عمل موسی علیه السلام هذا

و بین مقام العصمة التی یتحلی بها الأنبیاء، لأنّه یمکن أن یقال هنا: إنّ موسی علیه السلام انزعج فی هذه اللحظة من تأریخ بنی إسرائیل انزعاجا شدیدا لم یسبق له مثیل، لأنّه وجد نفسه أمام أسوأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۹

المشاهد ألا و هو الانحراف عن التوحید إلی عبادة العجل، و کان یری جمیع آثارها و أخطارها المتوقعة.

و علی هذا فإنّ إلقاء الألواح و مؤاخذة أخیه بشدّة فی مثل هذه اللحظة مسألة طبیعیة تماما.

إنّ ردة الفعل الشدیدة هذه و إظهار الغضب هذا، کان له أثر تربوی بالغ فی بنی إسرائیل، فقد قلب المشهد رأسا علی عقب فی حین أنّ موسی لو کان یرید أن ینصحهم بالکلمات اللینة و المواعظ الهادئة، لکان قبولهم لکلامه و نصحه أقلّ بکثیر.

ثمّ إنّ القرآن الکریم ذکر أنّ هارون قال- و هو یحاول استعطاف موسی و إثبات براءته فی هذه المسألة-: یا ابن أمّ هذه الجماعة الجاهلة جعلونی ضعیفا إلی درجة أنّهم کادوا یقتلوننی، فإذن أنا بریء، فلا تفعل بی ما سیکون موجبا لشماتة الأعداء بی و لا تجعلنی فی صف هؤلاء الظالمین قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ کادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلا تُشْمِتْ بِیَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ

إن التعبیر ب: «ابن أمّ» فی الآیة الحاضرة أو «یا ابن أمّ» (کما فی الآیة ۹۴ من سورة طه) مع أن موسی و هارون کانا من أب و أم واحدة، إنّما هو لأجل تحریک مشاعر الرحمة و العطف لدی موسی علیه السلام فی هذه الحالة الساخنة.

و فی المآل ترکت هذه القصّة أثرها، و سرعان ما التفت بنو إسرائیل إلی قبح أعمالهم، فاستغفروا اللّه و طلبوا العفو منه.

لقد هدأ غضب موسی علیه السلام بعض الشیء، و توجه إلی اللّه قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ

إنّ طلب موسی علیه السلام العفو و المغفرة من اللّه تعالی لنفسه و لأخیه، لم یکن لذنب اقترفاه، بل کان نوعا من الخضوع للّه، و العودة إلیه، و إظهار النفرة من أعمال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۰

الوثنیین القبیحة، و کذا لإعطاء درس عملی للجمیع حتی یفکروا و یروا إذا کان موسی و أخوه- و هما لم یقترفا انحرافا- یطلبان من اللّه العفو و المغفرة هکذا، فالأجدر بالآخرین أن ینتبهوا و یحاسبوا أنفسهم، و یتوجهوا إلی اللّه و یسألوه العفو و المغفرة لذنوبهم. و قد فعل بنو إسرائیل هذا فعلا- کما تفید الآیتان السابقتان.

مقاربة بین تواریخ القرآن و التوراة الحاضرة:

یستفاد من الآیات الحاضرة، و آیات سورة طه أن بنی إسرائیل هم الذین صنعوا العجل لا هارون، و أنّ شخصا خاصا فی بنی إسرائیل یدعی السامریّ هو الذی أقدم علی مثل هذا العمل، و لکن هارون- أخا موسی و وزیره و مساعده- لم یکن یتفرج علی هذا الأمر بل عارضه، و لم یأل جهدا فی هذا السبیل، حتی أنّهم کادوا أن یقتلوه لمعارضته لهم.

و لکن العجیب أنّ التوراة الفعلیة تنسب صنع العجل و الدعوة إلی عبادته إلی هارون خلیفة موسی علیه السلام و وزیره و أخیه، إذ نقرأ فی الفصل ۳۲ من سفر الخروج من التوراة، ما یلی:

«لما رأی الشعب أن موسی أبطأ فی النّزول من الجبل، اجتمع الشعب علی هارون و قالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسیر أمامنا. لأنّ هذا موسی الرجل الذی أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التی فی آذان نسائکم و بنیکم و بناتکم و أتونی بها، فنزع کل الشعب أقراط الذهب التی فی آذانهم و أتوا بها إلی هارون، فأخذ ذلک من أیدیهم و صوّره بالإزمیل و صنعه عجلا مسبوکا، فقالوا: هذه آلهتک یا إسرائیل التی أصعدتک من أرض مصر.

فلمّا نظر هارون بنی مذبحا أمامه و نادی هارون و قال: غدا عید للربّ (ثمّ بین مراسیم تقدیم القرابین لهذا العمل».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۱

ثمّ تشرح التوراة قصّة رجوع موسی علیه السلام غاضبا إلی بنی إسرائیل و إلقاء التوراة، ثمّ تقول:

«و قال موسی لهارون: ماذا صنع بک هذا الشعب حتی جلبت علیه خطیّة عظیمة؟! فقال هارون: لا یحم غضب سیدی. أنت تعرف الشعب إنّه فی شرّ».

إنّ ما ذکر هو قسم من قصة عبادة بنی إسرائیل للعجل بروایة التوراة الحاضرة بالنص، فی حین أن التوراة نفسها تشیر فی فصول أخری إلی سمّو مقام هارون و علو منزلته، و من ذلک التصریح بأنّ بعض معاجز موسی قد ظهرت و تحققت علی یدی هارون (الإصحاح الثامن من سفر الخروج من التوراة).

کما أنّها تصف هارون بأنّه نبی قد أعلن عن نبوته موسی (الإصحاح الثامن من سفر الخروج أیضا).

و علی کل حال، تعترف التوراة لهارون- الذی کان خلیفة لموسی علیه السلام و عارفا بتعالیم شریعته- بمنزلة سامیة ... و لکن انظروا إلی الخرافة التی تصف بأنّه کان صانع العجل، و من عوامل حصول الوثنیة فی بنی إسرائیل، و حتی أنّه اعتذر لموسی علیه السلام علیه بما هو أقبح من الذنب حیث قال: إنّهم کانوا یمیلون إلی الشرّ أساسا و قد شجعتهم علیه.

فی حین أنّ القرآن الکریم ینزه هذین القائدین من کل ألوان التلوّث بأدران الشرک و الوثنیة.

علی أنّه لیس هذا المورد هو المورد الوحید الذی ینزّه فیه القرآن الکریم ساحة الأنبیاء و الرسل، و تنسب التوراة الحاضرة أنواع الإهانات و الخرافات إلی الأنبیاء المطهرین. و فی اعتقادنا أنّ أحد الطرق لمعرفة أصالة القرآن و تحریف التوراة و الإنجیل الفعلیین، هو هذه المقارنة بین القضایا التأریخیة التی وردت فی هذه الکتب حول الأنبیاء و الرسل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۲

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۵۲ الی ۱۵۴]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَیَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ (۱۵۲) وَ الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۵۳) وَ لَمَّا سَکَتَ عَنْ مُوسَی الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِی نُسْخَتِها هُدیً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِینَ هُمْ لِرَبِّهِمْ یَرْهَبُونَ (۱۵۴)

التّفسیر

اشارة

لقد فعلت ردة فعل موسی علیه السلام الشدیدة فعلتها فی المآل فقد ندم عبدة العجل الإسرائیلیون- و هم أکثریة القوم- علی فعلهم، و قد طرح هذا الندم فی عدّة آیات قبل هذه الآیة أیضا (الآیة ۱۴۹) و من أجل أن لا یتصور أن مجرّد الندم من مثل هذه المعصیة العظیمة یکفی للتوبة، یضیف القرآن الکریم قائلا: إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَیَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا.

و هکذا لأجل أن لا یتصور أنّ هذا القانون یختص بهم أضاف قائلا: وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۳

إن التعبير ب «اتّخذوا» إشارة إلى أنّ الوثن ليس له أية واقعية، و لكن انتخاب عبدة الأوثان هو الذى أعطاه تلك الشخصية و القيمة الوهمية، و لهذا أتى بكلمة «العجل» وراء هذه الجملة فورا، يعنى أنّ ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتّى بعد انتخابه للعبادة.

أمّا أنّ هذا الغضب ما هو؟ و هذه الذّلة ما هى؟ فالقرآن لم يصرح بشىء عنهما فى هذه الآية، و إنّما اكتفى بإشارة مجملة، و لكن يمكن أن تكون إشارة إلى الشقاء و المصائب و المشكلات التى ابتلوا بها بعد هذه الحادثة و قبل دخولهم الأرض المقدسة.

أو أنّه إشارة إلى مهمّة قتل بعضهم بعضا العجيبة التى كلّفوا بها كجزاء و عقوبة لمثل ذلك الذنب العظيم.

و هنا قد يطرح هذا السؤال، و هو أنّ من المرتكزات الفكرية هو أنّ حقيقة التوبة تتحقق بالندامة، فكيف لم يشمل العفو الإلهى بنى إسرائيل مع أنّهم ندموا على فعلهم؟

و الجواب هو أنّه ليس لدينا أى دليل على أنّ مجرّد الندامة لوحدها تنفع فى جميع الأحوال و المواضع. صحيح أنّ الندامة هى أحد أركان التوبة، و لكنّها ليست كل شىء.

إنّ معصية عبادة الأوثان السجود للعجل فى ذلك النطاق الواسع و فى تلك المدّة القصيرة، و بالنسبة إلى ذلك الشعب الذى شاهد بأم عينيه كل تلكم المعاجز و الآيات، لم تكن معصية يمكن التغاضى عنها بمثل هذه السهولة، و كفاية يقول مرتكبها: «أستغفر اللّه» و ينتهى كلّ شىء.

بل لا بدّ أن يرى هذا الشعب غضب اللّه و يذوق طعم المذلة فى هذه الحياة، و يساط الذين افتروا على اللّه الكذب بسوط البلاء حتى لا يفكروا مرّة أخرى فى ارتكاب مثل هذا الذنب العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۴

و فى الآية اللاحقة يكمّل القرآن الكريم هذا الموضوع و يقول فى صورة قانون عام: وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ فالذين يتوبون من بعد السيئة و تتوفر كل شروط التوبة لديهم يغفر اللّه لهم و يعفو عنهم.

جواب على سؤالين:

۱- هل الآيتان الحاضرتان جملة معترضة وقعت وسط قصّة بنى إسرائيل كتذكير لرسول اللّه و المسلمين؟ أو أنّه خطاب اللّه لموسى عليه السلام بعد قصّة عبادة بنى إسرائيل للعجل؟

ذهب بعض المفسّرين إلى الاحتمال الأوّل، و ارتضى بعض آخر الاحتمال الثّانى.

و الذين ارتضوا الاحتمال الأوّل استدلوا بجملة إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لأنّ الجملة فى صورة خطاب إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الذين ارتضوا الاحتمال الثّانى استدلوا بجملة سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ الذى جاء فى صورة الفعل المضارع.

و لكن ظاهر الآيات يفيد أنّ هذه الجملة قسم من خطاب اللّه إلى موسى عليه السلام فى تعقيب قصّة العجل، و فعل المضارع (سينالهم) شاهد جيد على هذا الموضوع، و ليس هناك ما يمنع أن يكون «إنّ ربّك» خطاب موجه إلى موسى عليه السلام ۱۱۶].

۲- لماذا جاء الإيمان فى الآية الحاضرة بعد ذكر التوبة و الحال أنّه ما لم يكن هناك إيمان لا تتحقق توبة؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح من أن قواعد الإيمان تتزلزل عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۵

ارتكاب المعصية، و يصيبها نوع من الوهن، إلى درجة أنّنا نقرأ فى الأحاديث الإسلامية:

«لا يشرب الخمر و هو مؤمن، و لا يزنى و هو مؤمن» أى أن الإيمان يتضاءل ضوؤه، و يفقد أثره.

و لكن عند ما تتحقق التوبة يعود الإيمان إلى ضوئه و أثره الأوّل، و كأنّ الإيمان تجدّد مرّة أخرى.

ثمّ إنّ الآيات الحاضرة ركزت- فقط- على الذلة فى الحياة الدنيا، و يستفاد من ذلك أن توبة بنى إسرائيل من هذه المعصية بعد الندامة من قضية الوثنية و تذوق العقوبة فى هذه الدنيا، قد قبلت بحيث أنّها أزالت عقوبتهم فى الآخرة، و إن بقيت أعباء الذنوب الأخرى التى لم يتوبوا منها فى أعناقهم.

الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة تقول: و لما سكن غضب موسى عليه السلام، و حصل على النتيجة التى كان يتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلك الألواح التى كانت تحتوى- من أوّلها إلى آخرها- على الرحمة و الهداية، رحمة و هداية للذين يشعرون بالمسؤولية، و الذين يخافون اللّه، و يخضعون لأوامره و تعاليمه وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۵ الى ۱۵۶]

اشارة

وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (۱۵۵) وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (۱۵۶)

التّفسير

مندوبو بنى إسرائيل فى الميقات:

فى الآيتين الحاضرتين يعود القرآن الكريم مرّة أخرى إلى قصة ذهاب موسى إلى الميقات «الطور» فى صحبة جماعة، و يقص قسما آخر من تلك الحادثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۷

هذا و قد وقع بين المفسّرين كلام فى أنّه هل كان لموسى عليه السلام ميقات واحد مع ربّه، أو أكثر من ميقات واحد؟ و قد أقام كل واحد منهم شواهد لإثبات مقصوده من القرآن الكريم، و لكنّه كما قلنا سابقا- فى ذيل الآية (۱۴۲) من هذه السورة- أنّه يظهر من مجموع القرائن فى القرآن الكريم و الرّوايات أن موسى عليه السلام كان له ميقات واحد، و ذلك برفقة جماعة من بنى إسرائيل.

و فى هذا الميقات بالذات أنزل اللّه الألواح على موسى و كلمه عليه السلام، و فى نفس هذا الميقات اقترح بنو إسرائيل على موسى عليه السلام أن يطلب من اللّه أن يريهم نفسه جهرة. فى هذا الوقت نفسه نزلت الصاعقة أو حدث الزلزال و غشى على موسى عليه السلام و سقط بنو إسرائيل على الأرض مغشيا عليهم، و قد ورد هذا الموضوع فى حديث مرويّ عن على بن إبراهيم فى تفسيره.

إنّ كيفية وضع آيات هذه السورة و إن كان يحدث- فى بادئ النظر- إشكالا، و هو: كيف أشار اللّه تعالى أولا إلى ميقات موسى عليه السلام ثمّ ذكر قصّة عبادة العجل، ثمّ عاد مرّة أخرى إلى مسألة الميقات؟

هل هذا النظم و هذا الطراز من الكلام يناسب الفصاحة و البلاغة التى يتسم بها القرآن الكريم؟

و لکن مع الالتفات إلی أنّ القرآن لیس کتاب تأریخ یسجل الحوادث حسب تسلسلها، بل هو کتاب هدایة و تربیة و بناء إنسانی، و فی مثل هـذا الکتاب توجب أهمیـة الموضوع أن یترک متابعـة حادثـة مؤقتا، و یعمـد إلی بحث ضـروری آخر، ثمّ یعود مرّة أخری لنفس الحادثة الأولی.

بناء علی هـذا لا توجد أیة ضـرورة إلی أن نعتبر الآیة المذکورة هنا إشارة إلی بقیة قصة عبادة العجل، و نقول: إنّ موسـی علیه السـلام ذهب مرّة أخری بصـحبة بنی إسـرائیل إلی جبل الطور بعد قضیة عبادة العجل للاعتذار إلی اللّه و التوبة، کما قال بعض المفسّرین، لأنّ هذا الاحتمال بغض النظر عن جهات أخری یبدو بعیدا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۸

النظر من جهـة أنّه آل إلی هلاک جماعة ذهبت إلی المیقات للاعتذار و التوبة، فهل من الممکن أن یهلک اللّه تعالی جماعة أتوا إلی المیقات للاعتذار إلی اللّه بالنیابة عن قومهم؟! و علی کل حال، فقد قال القرآن الکریم فی الآیتین الحاضرتین أوّلا:

وَ اخْتارَ مُوسی قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلًا لِمِیقاتِنا.

و لکن بنی إسـرائیل حیث إنّهم سـمعوا کلام اللّه طلبوا من موسـی علیه السّلام أن یطلب من اللّه تعالی أن یریهم نفسه- لبنی إسرائیل- جهرة، و فی هـذا الوقت بالـذات أخـذهم زلزال عظیم و هلک الجماعة، و وقع موسـی علیه السّـلام علی الأرض مغشـیا علیه، و عند ما أفـاق قال: ربّاه لو شـئت لأهلکتنا جمیعا، یعنی بماذا أجیب قومی لو هلک هؤلاء فَلَمَّا أَخَـذَتْهُمُ الرَّجْفَـةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِـئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیَّایَ

ثمّ قال: ربّاه إنّ هذا المطلب التافة إنّما هو فعل جماعة من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم: أَ تُهْلِکُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا؟

و لقـد اعتبر بعض المفسّـرین- وجود کلمـة «الرجفـة» فی هـذه الآیة، و کلمة «الصاعقة» فی الآیة (۵۵) من سورة البقرة المتعلقـة بطلب رؤیـة اللّه جهرة- دلیلا علی التفاوت بین المیقاتین. و لکن- کما قلنا سابقا- إن الصاعقـة فی کثیر من الأوقات ترافق الرجفـة الشدیـدة، لأنّه علی أثر التصادم بین الشـحنات الکهربائیـة الموجبـة فی السـحب و السالبـة فی الأرض تبرق شـرارة عظیمة تهزّ الجبال و الأراضـی بشـدّة، و ربّمـا تحطمها و تبعثرها کما جاء فی قصّـة البلاء الـذی نزل علی قوم صالـح العصاة، حیث یعبر فیه عنه بالصاعقـة تارة (سورة فصلت الآیة ۱۷) و تارة بالرجفة (سورة الأعراف الآیة ۷۸).

و قد اسـتدل بعض المفسّرین بعبارة بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا علی أنّ العقوبة هنا کانت لأجل الفعل الذی صدر من بنی إسرائیل (مثل عبادة العجل) لا لأجل الکلام الذی قالوه فی مجال طلب رؤیة اللّه جهرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۹

و الجواب علی هـذا الکلاـم واضـح أیضا، لأنّ الکلام فعل من أفعال الإنسان أیضا، و إطلاق «الفعل» علی «الکلام» لیس أمرا جدیـدا و غیر متعارف، مثلا عند ما نقول: إنّ اللّه یثیبنا یوم القیامة علی أعمالنا، فإنّ من المسلّم أنّ لفظة أعمالنا تشمل کلماتنا أیضا.

ثمّ إنّ موسـی علیه السّـلام قال فی عقیب هذا التضـرع و الطلب من اللّه: ربّاه إنّی أعلم أن هذا کان اختبارک و امتحانک، فأنت تضـلّ من تشاء (و کان مستحقا لذلک) و تهدی من تشاء (و کان لائقا لذلک) إِنْ هِیَ إِلَّا فِتْنَتُکَ و اختبارک.

و هنا أیضا تکلّم المفسّـرون فی معنی «الفتنـة» کثیرا و ذهبوا مذاهب شتی، و لکن بالنظر إلی أن لفظة «الفتنة» جاءت فی القرآن الکریم بمعنی الاختبـار و الامتحـان مرارا کما فی الآیـة (۲۸) من سورة الأنفـال: أَنَّمـا أَمْوالُکُمْ وَ أَوْلادُکُمْ فِتْنَـةٌ و کـذا فی الآیـة (۲) من سورة العنکبوت، و الآیـة (۱۲۶) من سورة التوبـة) لاـ یکون مفهوم الآیـة الحاضـرة غامضا. لأنّه لا شک فی أن بنی إسـرائیل واجهوا فی هـذا المشهد اختبارا شدیدا، فأراهم اللّه تعالی أن هذا الطلب (طلب رؤیة اللّه) طلب تافة و مستحیل الوقوع.

و فی ختام الآیة یقول موسی علیه السّلام: رباه: أَنْتَ وَلِیُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَیْرُ الْغافِرِینَ

من مجموع الآیات و الرّوایات یستفاد أنّ الهالکین قد استعادوا حیاتهم فی المآل و عادوا برفقة موسی علیه السّلام إلی بنی إسرائیل، و

قصّوا عليهم كلّ ما سمعوه و شاهدوه، و أخذوا فى إرشاد الغافلين الجاهلين و هدايتهم.

و فى الآيـة اللاحقة يشير إلى طلب موسـى عليه السّلام من ربّه و تكميل مسألة التوبة التى ذكرت فى الآيات السابقة، يقول موسـى: وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۰

و «الحسنة» تعنى كل خير و جمال، و على هذا الأساس تشمل جميع النعم، و كذا التوفيق للعمل الصالح، و المغفرة، و الجنّة، و كل نوع من أنواع السعادة، و لا دليل على حصرها بنوع خاص من هذه المواهب، كما ذهب إليه بعض المفسّرين.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم دليل هذا الطلب هكذا: إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ أى عدنا إليك و اعتذرنا عمّا فعله سـفهاؤنا، حيث طلبوا ما لا يليق بمقام عظمتك.

و «هـدنا» مشتقة من مـادة «هود» بمعنى العودة المقترنـة بالرفق و الهـدوء، و كما قال بعض اللغويين: تشـمل العودة من الخير إلى الشر أيضا، و كذا من الشر إلى الخير[۱۱۷]، و لكن جاءت فى كثير من الموارد بمعنى التوبة و العودة إلى طاعة اللّه.

يقول الراغب فى «المفردات» نقلا عن بعض: «يهود فى الأصل من قولهم:

هدنا إليك، و كان اسم مدح، ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازما لهم، و إن لم يكن فيه معنى المدح».

و لكن بما أن بعض اللغويين ذكر أن معنى هـذه اللفظـة هو الرجوع من الشـر إلى الخير، أو من الخير إلى الشر، يمكن القول بأن هـذه الكلمة ليست متضمنة للمدح بحال، بل هى حاكية عن الاضطراب الروحى و القلق الأخلاقى الذى كانت تعانى منه تلك الجماعة.

و قال بعض آخر من المفسّرين أنّ علّة تسمية هؤلاء القوم ب «اليهود» لا يرتبط مطلقا بهذه اللفظة، بل لفظة يهود متخذة أصلا من مادة «يهوذا» الـذى هو اسم لأحـد أبناء يعقوب عليه السّلام ثمّ تبـدلت الـذال إلى الدال، و صارت يهودا، فيطلق على المنسوب إليه يهودى [۱۱۸].

و لقد أجاب اللّه- فى النهاية- دعاء موسى عليه السّلام و قبل توبته، و لكن لا بصورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۱

مطلقة، بل جاء ذلك فى ختام الآية مشروطا بشروط، إذ يقول: قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ و كان مستحقا.

و قد قلنا مرارا، إنّ «المشـيئة» فى هذه الموارد، بل فى جميع الموارد، ليس بمعنى الإرادة المطلقة و من غير قيد أو شـرط، بل هى إرادة مقترنة بالحكمة و الصلاحيات و اللياقات، و بهذا يتّضح الجواب على كل إشكال فى هذا الصعيد.

ثمّ يضيف تعالى قائلا وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

إنّ هـذه الرحمـة الواسـعة يمكن أن تكون إشـارة إلى النعم و المواهب الدنيويـة التى تشـمل الجميع و يسـتفيد منها الكل، برا و فاجرا، صالحا و طالحا.

كمـا يمكن أن تكون إشارة إلى أنواع الرحمـة الماديـة و المعنويـة، لأنّ النعم المعنويـة لا تختص بقوم دون قوم، و إن كان لها شـرائط تتوفر لدى الجميع.

و بعبـارة أخرى: إن أبواب الرحمـة الإلهيـة مفتوحـة للجميع، و إنّ النـاس هم الـذين عليهم أن يقرروا دخول هـذه الأبواب فلو لم تتوفر شرائط الورود فى بعض الناس فإنّ ذلك دليل على تقصيرهم هم، لا محدودية الرحمة الإلهية (و التّفسير الثّانى أنسب مع مفهوم الآية و الجملة التى ستأتى).

و لكن حتى لا يظن أحـد أنّ قبول التوبة، أو سـعة الرحمة الإلهية و شـموليتها، غير مقيدة و غير مشـروطة، و من دون حساب أو كتاب، يضيف فى ختام الآية:

سرعـان مـا أكتب رحمتى للّـذين تتوفر فيهم ثلاثـة أمور: اتقوا، و آتوا الزكـاة، و آمنوا بآيـاتى فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ

الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ و «التقوى» إشارة إلى اجتناب كل معصية و إثم.

و «الزكاة» مرادة هنا بمعناها الواسع، و حسب الحديث المعروف «لكل شيء زكاة» يشمل جميع الأعمال الصالحة و الطيبة.

و جملة وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ تشمل الإيمان بالمقدسات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۴۲

و بهذه الطريقة تتضمّن الآية برنامجا كاملا و جامعا.

و إذا فسرنا الزكـاة بمعنى خاص (أي المعنى المتعارف و المصـطلح للزكاة) كان ذكرها من بين سائر الوظائف الإلهيـة، لأجل أهميتها في صعيد العدالة الاجتماعية.

و

قد روي في حديث عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قام في الصلاة فقال أعرابي و هو في الصلاة: اللّهم ارحمني و محمّدا و لا ترحم معنا أحدا، فلمّا سلّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال للأعرابي: لقد تحجرت واسعا، أي جعلت شيئا واسعا، أمرا ضيقا محدودا فالرحمة الإلهية لا تنحصر في أحد من الناس ۱۱۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۴۳

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۵۷]

اشارة

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۵۷)

التّفسير

اتبعوا هذا النّبي:

هذه الآية في الحقيقة تكمل الآية السابقة التي تحدثت عن صـفات الذين تشـملهم الرحمة الإلهية الواسـعة، أي من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، و أداء الزكاة، و الإيمان بآيات اللّه. و في هـذه الآيـة يـذكر صـفات أخرى لهم من باب التوضـيح، و هي اتّباع الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ الإيمان باللّه غير قابل للفصل عن الإيمان بالنّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اتباع دينه، و هكذا التقوى و الزكاة لا يتمان و لا يكملان من دون اتباع القيادة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۴۴

لهذا يقول تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ

ثمّ يبيّن ست صفات لهذا الرّسول مضافا إلى مقام الرسالة:

۱- أنّه نبيّ اللّه النَّبِيَ

و النّبي يطلق على كـل من يبيّن رسالـة اللّه إلى النـاس، و يوحى إليه و إن لم يكن مكلّفـا بالـدعوة و التبليغ، و لكن الرّسول مضافا إلى كونه نبيّا- مكلّف بالدعوة إلى دين اللّه، و تبليغه و الاستقامة في هذا السبيل.

و علی هـذا یکون مقام الرسالـة أعلی من مقام النّبوة، و بناء علی هـذا یکون معنی النّبوة مأخوذا فی مفهوم الرسالـة أیضا، و لکن حیث أنّ الآیة بصدد توضیح و تفصیل خصوصیات النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهذا ذکرهما علی نحو الاستقلال، و فی الحقیقة إنّ ما أخذ فی مفهوم الرّسول مجملا، ذکر فی الآیة بصورة مستقلة من باب توضیح و تحلیل صفاته.

۲- أنّه نبیّ أمّی لم یتعلم القراءة و الکتابة، و قد نهض من بین جماهیر الناس من أرض مکّة أم القری قاعدة التوحید الأصلیة: (الأمی).

و حول مفهوم «الأمیّ» المشتقة من مادة «أمّ» بمعنی الوالدة، أو من «الأمّة» بمعنی الجماعة، دار کلام کثیر بین المفسّرین، فبعض فسّره بأنّه لم یتعلم و لم یدرس، یعنی أنّه باق علی الحالة التی ولد بها من أمّه أوّل یوم، و لم یتتلمذ علی أحد، و بعض فسّره بمن نهض من بین جماهیر الأمّة، لا من بین طبقة الأعیان و المترفین و الجبارین، و فسّرته جماعة ثالثة بأنّه ظهر من مکّة «أمّ القری» لأنّ هذه الکلمة مرادفة ل «المکی».

و الأحادیث الإسلامیة الواردة فی مصادر مختلفة هی أیضا تفسّر هذه الکلمة تارة بأنّه: لم یدرس و أخری: بأنّه مکّی ۱۲۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۵

و لکن لا مانع أبدا من أن تکون کلمة «الأمّی» إشارة إلی کل المفاهیم و المعانی الثلاثة، و قد قلنا مرارا: إنّه لا مانع من استعمال لفظة واحدة فی عدة معان، و لهذا الموضوع شواهد کثیرة فی الأدب العربی. (و سنبحث بتفصیل حول أمیّة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد الفراغ من تفسیر هذه الآیة).

۳- ثمّ إنّ هذا النّبی هو الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ

و فی صعید وجود البشارات المختلفة فی کتب العهدین (التوراة و الإنجیل) حتی التوراة و الإنجیل المحرفین الحاضرین أیضا، سیکون لنا بحث تفصیلی بعد الفراغ من تفسیر هذه الآیة.

۴- و من سمات هذا النّبی أنّ دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقة کاملة، فهو یدعو إلی کل الخیرات و ینهی عن کل الشرور و الممنوعات العقلیة: یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ.

۵- کما أنّ محتوی دعوته منسجم مع الفطرة الإنسانیة السلیمة، فهو یحل ما ترغب فیه الطباع السلیمة و یحرم ما تنفر منه وَ یُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّباتِ وَ یُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ الْخَبائِثَ

۶- أنّه لیس کأدعیاء النّبوة و الرسالة الذین یهدفون إلی توثیق الناس بأغلال الاستعمار و الاستثمار و الاستغلال، بل هو علی العکس من ذلک، إنّه یرفع عنهم إصرهم و الأغلال التی تکبّل عقولهم و أفکارهم و تثقل کاهلهم وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ ۱۲۱].

و حیث أنّ هذه الصفات الست بالإضافة إلی الصفة السابعة و هی مقام الرسالة تشکّل من حیث المجموع علامة واضحة و دلیل قاطع علی صدق دعواه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۶

فیضیف القرآن الکریم: فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ، وَ نَصَرُوهُ، وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

و «عزروه» المشتقّة من مادة «تعزیر» تعنی الحمایة و النصرة المقترنة بالاحترام و التبجیل، و یقول البعض إن هذه اللفظة تعنی- فی الأصل- المنع، فإذا کان المنع من العدوّ، کان مفهومه النصرة، و إذا کان المنع من الذنب کان مفهومه العقوبة و التنبیه، و لهذا یقال للعقوبات الخفیفة «تعزیر».

و الجدیر بالانتباه استعمال کلمة أُنْزِلَ مَعَهُ بدل «أنزل إلیه» فی حین أننا نعلم أنّه لم یکن لشخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نزول من السماء، و لکن حیث أن النبوة و الرسالة نزلا مع القرآن من جانب اللّه، لهذا عبر ب «أنزل معه».

بحوث

اشارة

و هنا لا بد من الوقوف عند نقاط هامة هی:

۱- خمسة أدلة علی النّبوة فی آية واحدة

لم ترد فی آية من آيات القرآن أدلة عديدة علی حقانية دعوة الرّسول الأكرم صلّی اللّه عليه و آله و سلّم كما جاء فی هذه الآية ... فلو أننا أمعنا النظر بدقة فی الصـفات السـبع التی ذكرها اللّه تعالی فی هذه الآية لنبيه محمّد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لوجدنا أنّها تحتوی علی سبعة أدلة واضحة لإثبات نبوته:

الأوّل: أنّه «أمّی» لم يدرس، و لكنّه مع ذلك أتی بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطة تحول هام فی التأريخ البشری، حتی أنّ الذين لم يقبلوا بنبوته لم يشكوا فی عظمة كتابه و تعاليمه.

فهل يتفق و الحسابات الطبيعية أن يقوم بهذا العمل شخص نشأ فی بيئة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۷

جاهلية و لم يتتلمذ علی أحد؟

الثّانی: أنّ دلائل نبوته قـد وردت بتعابير مختلفة فی الكتب السـماوية السابقة علی نحو توجد علما لدی المرء بحقانيته ... فإنّ البشارات التی جاءت فی تلك الكتب لا تنطبق إلّا عليه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فقط.

الثّالث: أن محتويات دعوته تنسـجم انسـجاما كاملا مع العقل، لأنّه يدعو إلی المعروف، و النهی عن المنكر و القبائح، و هذا الموضوع يتّضح بجلاء بمطالعة تعاليمه.

الرّابع: أنّ محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم و الفطرة السويّة.

الخـامس: لو لم يكن من جـانب اللّه لكـان عليه أن يقوم بمـا يضـمن مصالحه الخاصّـة، و فی هـذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال و السـلاسل عن الناس، بل عليه أن يبقيهم فی حالة الجهل و الغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل، فی حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيلة.

أغلال الجهل و الغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلی العلم و المعرفة.

أغلال الوثنية و الخلافة عن طريق الدعوة إلی التوحيد.

أغلال التمييز بكل أنواعه، و الحياة الطبقية بجميع أصنافها، عن طريق الدعوة إلی الأخوة الدينية و الإسلامية، و المساواة أمام القانون.

و هكذا سائر الأغلال الأخری.

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل علی حقانية دعوته، كما أنّ مجموعها دليل أوضح و أقوی.

۲- كيف كان النّبی أميّا؟

هناك احتمالات ثلاثة معروفة حول مفهوم «الأمّی» كما قلنا سابقا:

أوّلها: أن معناه: الذی لم یدرس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۸

الثّانی: أنّ معناه: المولود فی أرض مکّهٔ، و الناهض منها.

الثّالث: أنّ معناه الذی قام من بین صفوف الجماهیر.

و لکن الرأی الأشهر هو التّفسیر الأوّل، و هو أکثر انسجاما مع موارد استعمال هذه اللفظهٔ، و یمکن أن تکون المعانی الثلاثهٔ مرادهٔ برمتها أیضا، کما قلنا.

ثمّ إنّه لا نقاش بین المؤرخین بأنّ الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یدرس، و لم یکتب شیئا، و قد قال القرآن الکریم- أیضا- فی الآیهٔ (۴۸) من سورهٔ العنکبوت حول وضع النّبی قبل البعثهٔ: وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ

و أساسا کان عدد العارفین بالکتابهٔ و القراءهٔ فی المحیط الحجازی قلیلا جدّا، حیث کان الجهل هو الحالهٔ السائدهٔ علی الناس بحیث أن هؤلاء العارفین بالکتابهٔ و القراءهٔ کانوا معروفین بأعیانهم و أشخاصهم، فقد کان عددهم فی مکّهٔ من الرجال لا یتجاوز (۱۷) شخصا، و من النساء امرأهٔ واحدهٔ[۱۲۲].

من المسلّم أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لو کان قد تعلّم القراءهٔ و الکتابهٔ- فی مثل هذه البیئهٔ- لدی أستاذ لشاع ذلک و صار أمرا معروفا للجمیع، و علی فرض أنّنا لم نقبل بنبوته، و لکن کیف یمکنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن ینفی- فی کتابه- بصراحهٔ هذا الموضوع؟ ألا یعترض علیه الناس و یقولون: إن دراستک و تعلّمک للقراءهٔ و الکتابهٔ أمر مسلّم معروف لنا، فکیف تنفی ذلک؟ إنّ هذه قرینهٔ واضحهٔ علی أمیّهٔ النّبی.

و علی کل حال، فإنّ وجود هذه الصفهٔ فی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان تأکیدا علی نبوته حتی ینتفی أی احتمال فی ارتباطه إلّا باللّه و بعالم ما وراء الطبیعهٔ فی صعید دعوته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۹

هذا بالنسبهٔ إلی فترهٔ ما قبل النّبوهٔ، و أمّا بعد البعثهٔ فلم ینقل أحد المورّخین أنّه تلقی القراءهٔ أو الکتابهٔ من أحد، و علی هذا بقی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی أمیّته حتی نهایهٔ عمره.

و لکن من الخطأ الکبیر أن تتصوّر أنّ عدم التعلّم عند أحد یعنی عدم المعرفهٔ بالکتابهٔ و القراءهٔ، و الذین فسّروا «الأمّیهٔ» بعدم المعرفهٔ بالکتابهٔ و القراءهٔ کأنّهم لم یلتفتوا إلی هذا التفاوت.

و لا مانع أبدا من أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان عارفا بالقراءهٔ و الکتابهٔ بتعلیم اللّه، و من دون أن یتتلمذ علی ید أحد من البشر، لأنّ مثل هذه المعرفهٔ هی بلا شک من الکمالات الإنسانیهٔ، و مکملهٔ لمقام النّبوهٔ.

و یشهد بذلک ما ورد فی الأحادیث المرویهٔ عن أهل البیت علیهم السّلام ۱۲۳] أن نص الروایهٔ و لکنّه لأجل أن لا یبقی أی مجال لأدنی تشکیک فی دعوته لم یکن صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یستفید من هذه المقدرهٔ.

و قول البعض: إنّ القدرهٔ علی الکتابهٔ و القراءهٔ لا تعدّ کمالا، فهما وسیلهٔ للوصول إلی الکمالات العلمیّهٔ، و لیسا بحدّ ذاتها علما حقیقیا و لا کمالا واقعیا فإن جوابه کامن فی نفسه، لأنّ العلم بطریق الکمال کمال أیضا.

قد یقال: إنّه نفی فی روایتین عن أئمّهٔ أهل البیت علیهم السّلام بصراحهٔ تفسیر «الأمّی» بعدم القراءهٔ و الکتابهٔ، بل بالمنسوب إلی «أم القری» (مکّهٔ).

و نقول فی الردّ: إنّ إحدی هاتین الروایتین «مرفوعهٔ» حسب اصطلاح علم الحدیث فلا قیمهٔ لها من حیث السند، و الروایهٔ الأخری منقولهٔ عن «جعفر بن محمّد الصوفی» و هو مجهول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۰

و أمّا ما تصوّره البعض من أن الآیة الثّانیة من سورة الجمعة یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ و آیات أخری دلیل علی أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یتلو القرآن علی الناس من شیء مکتوب، فهو خطأ بالغ، لأنّ التلاوة تطلق علی التلاوة من مکتوب علی شیء، کما تطلق علی القراءة حفظا و من ظهر القلب، و استعمال لفظة التلاوة فی حق الذین یقرءون الأشعار أو الأدعیة حفظا و من علی ظهر القلب کثیر.

من مجموع ما قلناه نستنتج:

۱- أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یتلق القراءة و الکتابة من أحد حتما، و بهذا تکون إحدی صفاته أنّه لم یدرس عند أستاذ.

۲- أنّنا لا نملک أی دلیل معتبر علی أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قرأ أو کتب شیئا قبل النبوة، أو بعدها.

۳- إنّ هذا الموضوع لا یتنافی مع تعلیم اللّه تعالی القراءة أو الکتابة لنبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۳- البشارات بظهور النّبی فی العهدین:

إنّ الشواهد التأریخیة القطعیة، و کذا محتویات کتب الیهود و النصاری المقدسة (التوراة و الإنجیل) تفید أن هذه الکتب لیست هی الکتب السماویة التی نزلت علی موسی و عیسی علیهما السّلام و أن ید التحریف قد طالتهما، بل إنّ بعضها اندرس و اندثر، و أن ما هو موجود الآن باسم الکتب المقدسة بینهم ما هی إلّا خلیط من نسائج الأفکار و الأدمغة البشریة و شیء من التعالیم التی نزلت علی موسی و عیسی علیهما السّلام ممّا بقی فی أیدی تلامذتهم.

و علی هذا الأساس لا غرور و لا عجب إذا لم نقف علی عبارات صریحة حول البشارة بظهور النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۱

و لکن مع هذا فإنّه یلحظ فی ثنایا هذه الکتب المحرفة عبارات تتضمّن إشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النّبی العظیم، و قد جمعها ثلّة من علمائنا فی کتب و مؤلفات مستقلة، أو مقالات تتحدث فی هذا المجال. و حیث أن ذکر کل تلک البشائر و ما حولها من حدیث و کلام ممّا یطول به المقام، فإنّنا نکتفی بذکر بعض منها علی سبیل المثال لا الحصر.

۱- جاء فی سفر التکوین الاصطلاح ۱۷ العبارة ۱۷ إلی ۲۰: «و قال إبراهیم للّه لیت إسماعیل یعیش أمامک، فقال اللّه ... و أمّا إسماعیل فقد سمعت لک فیه (أی دعاءک فی حقه) ها أنا أبارکه و أثمره و أکثره کثیرا جیدا. اثنی عشر رئیسا یلد و أجعله أمّة کبیرة».

۲- «لا یزول قضیب من یهوذا و مشترع من بین رجلیه حتی یأتی شیلون و له یکون خضوع شعوب».

و الجدیر بالانتباه أن أحد معانی شیلون- حسب تصریح المستر هاکس فی کتاب قاموس الکتاب المقدس- هو الإرسال، و هو یوافق کلمة «رسول» أو «رسول اللّه».

۳- و فی إنجیل یوحنا الباب ۱۵ العبارة رقم ۱۶ جاء ما یلی: «و أمّا المعزی الروح القدس الذی سیرسله الأب باسمی فهو یعلّمکم کل شیء و یذکرکم بکل ما قلته لکم».

۴- و کذا جاء فی إنجیل یوحنا ذاته الاصطلاح ۱۶ العبارة رقم ۷: «لکنّی أقول لکم الحق: إنّه خیر لکم أن أنطلق. لأنّه إن لم أنطلق لا یأتیکم المعزّی. و لکن إن ذهبت أرسله إلیکم، و متی جاء ذاک هو یرشدکم إلی جمیع الحق، لأنّه لا یتکلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۲

من نفسه بل کل ما یسمع یتکلم به و یخبرکم بأمور آتیة».[۱۲۴] و النقطة الجدیرة بالاهتمام أنّه جاءت الکلمة فی إنجیل یوحنا باللغة

الفارسية «المسلّى» و لكنّها فى الإنجيل العربى طبعة لندن (مطبعة وليام وطس عام ۱۸۵۷) جاء مكانها: «فارقليطا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۳

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۵۸]

اشارة

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۸)

التّفسير

دعوة النّبى العالميّة:

جاء فى حديث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السّلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: يا محمّد، أنت الذى تزعم أنّك رسول اللّه، و أنّك الذى يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النّبى ساعة ثمّ قال: «نعم أنا سيد ولد آدم و لا فخر، و أنا خاتم النّبيين، و إمام المتقين، و رسول ربّ العالمين.» قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم، أم إلينا؟ فأنزل اللّه هذه الآية التى صرّحت بأنّ رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رسالة عالمية[۱۲۵].

و لكن مع ذلك لا يمكن إنكار ارتباط هذه الآية بالآية السابقة المتعلقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۴

بصفات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الدعوة إلى اتباع دينه و شريعته.

و فى البداية يأمر اللّه تعالى رسول اللّه قائلا: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً.

إنّ هذه الآية مثل آيات كثيرة أخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالمية دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى الآية (۲۸) من سورة «سبأ» أيضا نقرأ: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ

و فى الآية (۱۹) من سورة الأنعام أيضا نقرأ: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أى بلغه القرآن.

و فى مطلع سورة الفرقان نقرأ: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً فهو أرسل إلى الناس كافة ليحذرهم من المسؤوليات.

هذه نماذج من الآيات التى تشهد بعالمية دعوة الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و سوف نبحث حول هذه المسألة أيضا فى ذيل الآية (۷) من سورة الشورى، و قد مر لنا فى ذيل الآية (۹۲) من سورة الأنعام- أيضا- بحث مبسوط نوعا ما فى هذا الصعيد.

ثمّ إنّه وصف الإله الذى يدعو إليه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بثلاث صفات:

۱- الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فله الحاكمية المطلقة.

۲- لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فلا معبود يليق للعبادة سواه.

۳- يُحيِي وَ يُمِيتُ بيده نظام الحياة و الموت.

و بهذه الطريقة تنفى هذه الآية ألوهية غير خالق السماوات و الأرض، و ألوهيّة كل صنم، و كذا تنفى التثليث المسيحى، كما و تؤكّد على رسالة النّبى العالمية و قدرة اللّه تعالى على أمر المعاد.

و فی الختام تدعو جمیع أهل العالم إلی الإیمان باللّه و برسوله الذی لم یتعلّم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۵۵

القراءة و الکتابة و القائم من بین الناس فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِیِّ الْأُمِّیِ

النّبی الذی لا یکتفی بدعوة الآخرین إلی هذه الحقائق فحسب، بل یؤمن هو فی الدرجة الأولی- بما یقول، یعنی الإیمان باللّه و کلماته الَّذِی یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ کَلِماتِهِ

إنّه لا یؤمن فقط بالآیات التی نزلت علیه، بل یؤمن بجمیع الکتب الحقیقة للأنبیاء السابقین.

إنّ إیمانه بدینه و الذی یتجلی من خلال أعماله و تصرّفاته دلیل واضح علی حقانیته، لأن عمل الآمر بشیء یعکس مدی إیمانه بما یأمر به و یدعو إلیه. و إیمانه بقوله أحد الأدلة علی صدقه. إنّ تأریخ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم برمّته یشهد بهذه الحقیقة و هی أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان أکثر من غیره التزاما بالتعالیم التی جاء بها.

أجل، لا بدّ لکم من اتّباع مثل هذا النّبی حتی تسطع أنوار الهدایة علی قلوبکم، لتهتدوا إلی طریق السعادة وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ

و هذا إشارة إلی أنّه لا یکفی مجرّد الإیمان، و إنما یفید الإیمان إذا اقترن بالاتباع العملیّ.

و الجدیر بالالتفات إلی أن الآیة الحاضرة نزلت فی مکّة یوم کان المسلمون یشکلون أقلیة صغیرة جدّا بحیث إنّه قلّما کان هناک من یحتمل أن یسیطر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی مکّة فضلا عن جزیرة العرب، أو قسم کبیر من العالم.

و علی هذا الأساس، فإنّ الذین یتصورون أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ادعی فی البدایة تبلیغ الرسالة لأهل مکّة فقط، و عند ما انتشر دینه و علا أمره فکر فی السیطرة علی الحجاز، ثمّ فکر فی البلاد الأخری، و راسل ملوک العالم و أمراءه و قادته، و أعلن عن رسالته العالمیة. تجیب الآیة الحاضرة التی نزلت فی مکّة علی کل تصوراتهم هذه، فهی تصرح فی غیر إبهام و لا غموض بأنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أعلن عن دعوته العالمیة منذ البدایة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۵۶

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۵۹ الی ۱۶۰]

اشارة

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسی أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ (۱۵۹) وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَیْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَیْنا إِلی مُوسی إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاکَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَیْناً قَدْ عَلِمَ کُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَیْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَیْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوی کُلُوا مِنْ طَیِّباتِ ما رَزَقْناکُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۱۶۰)

التّفسیر

جانب من نعم اللّه علی بنی إسرائیل:

فی الآیات الحاضرة إشارة إلی حقیقة رأینا نظیرها فی القرآن الکریم، و هذه الحقیقة هی تحری القرآن للحق، و احترامه لمکانة الأقلیات الدینیة الصالحة، یعنی أنّه لم یکن لیصف جمیع بنی إسرائیل بأسرهم بالفساد و الإفساد، و بأنّ هذا العزق القومی برمته ضالّ متمرد من دون استثناء، بل اعترف بأن منهم أقلیة صالحة غیر موافقة علی أعمال الأکثریة، و قد أولی القرآن الکریم اهتماما خاصا بهؤلاء فیقول: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسی أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۷

إنّ هـذه الآيـة قـد تشير إلى فريق صـغير لم يسـلّموا للسامرىّ و دعوته، و كانوا يـدافعون عن دين موسـى دائما و أبدا، أو إلى الفرق و الطوائف الصالحة الأخرى التى جاءت بعد موسى عليه السّلام.

و لكن هـذا المعنى يبـدو غير منسـجم مع ظاهر الآيـة، لأن «يهدون» و «يعدلون» فعل مضارع، و هو على الأقل يحكى عن زمان الحال، يعنى عصـر نزول القرآن، و يثبت وجود مثـل هـذا الفريق فى ذلـك الزمـان، إلّـا أن نقـدّر فعـل «كـان» فتكون الآيـة إشـارة إلى الزمان الماضى، و نعلم أن التقدير من دون قرينة خلاف الظاهر.

و كـذلك يمكن أن يكون ناظرا إلى الأقليـة اليهوديـة الـذين كانوا يعيشون فى عصـر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و الذين اعتنقوا الإسـلام تدريجا و بعد مطالعة دعوة النّبى و محتوى رسالته، و انضـموا إلى صـفوف المسـلمين الصادقين. و هذا التّفسير ينسجم أكثر مع ظاهر الفعلين المضارعين المستعملين فيها.

و ما جاء فى بعض روايات الشيعة و السـنة من أنّ هـذه الآية إشارة إلى فريق صـغير من بنى إسـرائيل يعيشون فيما وراء الصـين، عيشـة عـدل و تقوى و توحيد و عبودية اللّه تعالى فغير مقبول، لأنّه مضافا إلى عدم موافقته لما نعلمه من جغرافيا العالم اليوم، و مضافا إلى أن التواريـخ الحاضـرة الموجودة لا تؤيـد هذا الموضوع، فإنّ الأحاديث المذكورة غير معتبرة من حيث السـند، و لا يمكن أن يعتمد عليها كأحاديث صحيحة حسب قواعد علم الرجال.

و فى الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى عدّة أقسام من نعم اللّه على بنى إسرائيل.

فيقول أوّلا: وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْـرَةَ أَسْـباطاً أُمَماً و هـذا التقطيع و التقسـيم إنّما هو لأجل أن يسودهم نظام عادل، بعيد عن المصادمات الخشنة.

و واضح أنّه عند ما يكون فى شعب من الشعوب تقسيمات إدارية صحيحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۸

و منظمـة، و يخضع كل قسم من تلك الأقسام لقيادة قائـد قدير، فإنّ إدارتهم و رعاية العدالة بينهم تكون أسـهل، و لنفس هذا السـبب عمدت جميع الدول إلى مثل هذا العمل و أخذت بهذه القاعدة.

و «أسـباط» جمع سـبط (بفتح السـين و بكسرها) تعنى فى الأصل الانبساط فى سهولة، ثمّ يطلق السبط و الأسباط على الأولاد و بخاصّة الأحفاد لأنّهم امتداد العائلة.

و المراد من الأسـباط- هنا- هو قبائل بنى إسـرائيل و فروعها، الـذين كان كل واحد منها منشعبا و منحدرا من أحد أولاد يعقوب عليه السّلام.

و النّعمة الأخرى هى: أنّه عند ما كان بنو إسـرائيل متوجهين إلى بيت المقدس و أصابهم العطش الشديد الخطير فى الصـحراء، و طلبوا من موسـى عليه السّـلام الماء، أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر ... ففعل فنبع الماء فشربوا و نجوا من الهلاك وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً.

و قد كانت الينابيع هذه مقسمة بين أسباط بنى إسرائيل بحيث عرف كل سبط منهم نبعه الذى يشرب منه قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ

و يستفاد من هـذه الجملة أنّ هذه الينابيع الاثنى عشـر التى نبعت من تلك الصـخرة العظيمة كانت معلّمة بعلامات و متميز بعضـها عن بعض بفوارق، بحيث كان يعرف كل فريق من فرق بنى إسـرائيل نبعه المختص به و المقرّر له، لا يقع بينهم أى خلاف و يسود النظم و الانضباط فى جماعتهم، و يتمّ الشرب بصورة أسهل و أفضل.

و النّعمـة الثالثـة هى: أن اللّه تعالى أرسل لهم- فى تلك الصـحارى الملتهبـة حيث لا سـقف و لا ضـلال- سـحبا ظلّلتهم وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ

و النّعمة الرّابعة إنزال المنّ و السلوى عليهم كغذائين لذيذين و مقويين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۹

وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى

ثمّ إنّ المفسّرين أعطوا تفسيرات متنوعة لهذين الغذاءين «المنّ» و «السلوى» اللذين أنزلهما اللّه على بنى إسرائيل فى تلك الصحراء القاحلة (و قد ذكرنا هذه التفاسير عند دراسة الآية ۵۷ من سورة البقرة) و قلنا بأنّه لا يبعد أنّ «المن» كان نوعا من العسل الطبيعى الذى كان فى بطون الجبال المجاورة، أو عصارات و إفرازات نباتية كانت تظهر على أشجار كانت نابتة هنا و هناك فى تلك الصحراء، و «السلوى» نوع من الطير الحلال اللحم شبيه بالحمام.

ثمّ يقول اللّه تعالى: و قلنا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ

و لكنّهم أكلوا و كفروا النعمة و لم يشكروها و بذلك ظلموا فى الحقيقة أنفسهم وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

و يجب الانتباه إلى أن مضمون هذه الآية جاء فى الآيات (۵۷) و (۶۰) من سورة البقرة مع فارق بسيط، غاية ما فى الأمر أنّه عبر عن نبوع الماء من الصخر هنا ب «انبجست» و هناك ب «انفجرت»، و حسب اعتقاد جماعة من المفسّرين أنّ التفاوت بين هاتين العبارتين هو أن «انفجرت» تعنى «خروج الماء بدفع، و كثرة» و «انبجست» تعنى «خروج الماء بقلّة» و لعل هذا التفاوت لأجل الإشارة إلى أنّ عيون الماء المذكورة لم تنبع من الصخرة العظيمة دفعة حتى يصير ذلك سببا لاستيحاشهم و خوفهم و قلقهم، و لا تكون لهم قدرة على تنظيم المياه المندفقة و حصرها، بل خرجت ابتداء بهدوء و قلة، ثمّ توسعت المجارى و كثرت المياه النابعة.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هاتين الكلمتين ترجعان إلى مفهوم واحد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۰

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۲]

اشارة

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (۱۶۱) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (۱۶۲)

التّفسير

اشارة

فى تعقيب الآيات السابقة تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهية لبنى إسرائيل و طغيانهم تجاه تلك النعم، و كفرانهم بها.

يقول تعالى: (و) اذكروا إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ

و قلنا لهم اطلبوا من اللّه حطّ الذنوب عنكم و عفوه عن خطاياكم، و ادخلوا من باب بيت المقدس بخضوع وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً.

فإذا قمتم بهذه الأمور غفرنا لكم خطاياكم، و أعطينا للمحسنين ثوابا أكبر و نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۱

و بالرغم من أن اللّه فتح أمامهم أبواب الرحمة، و لو أردوا اغتنام الفرصة لاستطاعوا حتما إصلاح ماضيهم و حاضرهم، و لكن لم يغتنم الظالمين من بنى إسرائيل هذه الفرصة فحسب، بل بدّلوا أمر اللّه، و قالوا خلاف ما أمروا أن يقولوه:

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ

و فى المآل نزل عليهم بسبب هذا الطغيان و الظلم للنفس و للآخرين عذاب من السماء فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ

و يجب الانتباه إلى أنّ مضمون هاتين الآيتين جاء أيضا- مع فارق بسيط- فى سورة البقرة الآية (۵۸) و (۵۹) و قد أوردنا تفسيرا أكثرا تفصيلا هناك.

و الفرق الوحيد بين هذه الآيات المبحوثة هنا، و آيات سورة البقرة هو أنّه يقول هنا: بِما كانُوا يَظْلِمُونَ و قال هناك: بما كانُوا يَفْسُقُونَ و لعل الفارق بين هذين إنما هو لأجل أن الذنوب لها جانبان: أحدهما الجانب المرتبط باللّه، و الجانب الآخر مرتبط بنفس الإنسان. و قد أشار القرآن إلى الجانب الأوّل فى آية سورة البقرة بعبارة «الفسق» الذى مفهومه الخروج عن طاعة اللّه، و إلى الثّانى فى الآية الحاضرة بعبارة «الظلم».

ما هى «حطّة» و ماذا تعنى؟

الجدير بالذكر أن بنى إسرائيل كانوا مكلّفين بأن يطهروا قلوبهم و أرواحهم عند دخولهم بيت المقدس من أدران الذنوب بتوبة خالصة و واقعية تتلخص فى كلمة «حطّة» و أن يطلبوا من اللّه المغفرة لكل تلك الجرائم التى ارتكبوها، و بخاصّة ما آذوا به نبيّهم العظيم موسى بن عمران قبل ورودهم بيت المقدس.

و كلمة «حطّة» التى كانت- فى الحقيقة- شعارهم عند دخولهم بيت المقدس، هى صورة اختصارية لعبارة «مسألتنا حطّة» يعنى نطلب منك يا ربّ أن تحطّ عنّا ذنوبنا بإنزال شآبيب الرحمة و العفو علينا، لأنّ «حطّة» معناها إنزال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۲

الشىء من علو و هذا الشعار شأنه شأن جميع الشعارات الأخرى لا يكفى فيه أن يكون مجرّد لقلقة لسان، بل يجب أن يكون اللسان ترجمان الروح و مرآة الوجدان، و لكنّهم- كما سيأتى فى الآية اللاحقة- مسخوا كثيرا من تلك الشعارات حتى هذا الشعار التربوى، و جعلوه وسيلة للّهو و الاستهزاء و السخرية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۳

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۳ الى ۱۶۶]

اشارة

وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۱۶۳) وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۱۶۴) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۱۶۵) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (۱۶۶)

التّفسير

قصّة فيها عبرة:

فى هـذه الآيات يسـتعرض مشـهدا آخر من تاريخ بنى إسـرائيل الزاخر بالحوادث، و هو مشـهد يرتبط بجماعة منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غاية ما فى الأمر أن الخطاب موجه فيها إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فيقول له: اسأل يهود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۴

عصرك حول تلك الجماعـة، يعنى جـدّد هـذه الخاطرة فى أذهانهم عن طريق السؤال ليعتبروا بها، و يجتنبوا المصير و العقاب الـذى ينتظرهم بسبب طغيانهم و تعنتهم.

إنّ هـذه القصّـة- كما أشير إليها فى الأحاديث الإسـلامية- ترتبط بجماعـة من بنى إسـرائيل كانوا يعيشون عنـد ساحل أحـد البحار (و الظاهر أنّه ساحل البحر الأحمر المجاور لفلسطين) فى ميناء يسـمى بميناء «أيلـة» (و الـذى يسـمى الآن بميناء ايلات) و قـد أمرهم اللّه تعالى على سبيل الاختبار و الامتحان أن يعطّلوا صيد الأسـماك فى يوم السبت، و لكنّهم خالفوا هـذا التعليم، فأصيبوا بعقوبـة موجعة مؤلمة نقرأ شرحها فى هذه الآيات.

فى البدايـة تقول الآيـة: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ. أى اسأل يهود عصـرك عن قضـية القرية التى كانت تعيش على ساحل البحر.

ثمّ تقول: و ذكّرهم كيف أنّهم تجاوزوا- فى يوم السبت- القانون الإلهى إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ لأنّ يوم السبت كان يوم عطلتهم، و كان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، و عن صيد السمك و يشتغلوا بالعبادة، و لكنّهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثمّ يشرح القرآن العدوان المذكور بالعبادة التالية: إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء فى يوم السبت، بينما كانت تختفى فى غيره من الأيّام.

و «السبت» فى اللغة تعنى تعطيل العمل للاستراحة، و ما نقرؤه فى سورة النبأ وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً أشارة- كذلك- إلى هذا الموضوع، و سمّى «يوم السبت» بهذا الاسم لأنّ الأعمال العادية و المشاغل كانت تتعطل فى هذا اليوم، ثمّ بقى هذا الاسم لهذا اليوم علما له.

و من البديهى أنّ صيد الأسماك يشكّل لدى سكنة ساحل البحر مورد كسبهم و تغذيتهم، و كأنّ الأسماك بسبب تعطيل عملية الصيد فى يوم السبت صارت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۵

تحس بنوع من الأمن من ناحيـة الصيادين، فكـانت تظهر على سطح الماء أفواجا أفواجا، بينما كانت تتوغل بعيـدا فى البحر فى الأيّام الأخرى التى كان الصيّادون فيها يخرجون للصيد.

إنّ هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعى عادى أم كان له جانب اسـتثنائى و إلهى، كان وسيلة لامتحان و اختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم:

و هكذا اختبرناهم بشىء يخالفونه و يعصون الأمر فيه كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

و جملـة بِما كانُوا يَفْسُقُونَ إشارة إلى أنّ اختبارهم كان بما من شأنه أن يجـذبهم و يدعوهم إلى نفسه، و إلى المعصـية و المخالفة، و جميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبيّن مدى مقاومة الأشخاص أمام جاذبية المعاصى و الذنوب.

عنـد ما واجهت هـذه الجماعـة من بنى إسـرائيل هذا الامتحان الكبير الذى كان متداخلا مع حياتهم تداخلا كاملا، انقسـموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأوّل» و كانوا يشكّلون الأكثرية، و هم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهى.

«الفریق الثّانی» و کانوا علی القاعدة یشکلون الأقلیة، و هم الذین قاموا- تجاه الفریق الأوّل بوظیفة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

«الفریق الثّالث» و هم الساکتون المحایدون الذین لم یوافقوا العصاة، و لا قاموا بوظیفة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

و فی الآیـة الثّانیة من الآیات المبحوثة هنا یشـرح الحوار الذی دار بین العصاة، و بین الذین نهوهم عن ارتکاب هذه المخالفة فیقول: وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۶

مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِیداً[۱۲۶].

فأجـابهم الآـمرون بـالمعروف النـاهون عن المنکر: بأنّنـا ننهی عن المنکر لأنّنـا نؤدی واجبنـا تجاه اللّه تعالی، و حتی لا نکون مسـئولین تجاهه، هذا مضافا إلی أنّنا نأمل أن یؤثر کلامنا فی قلوبهم، و یکفوا عن طغیانهم و تعنتهم قالُوا مَعْذِرَةً إِلی رَبِّکُمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ

و یستفاد من الجملة الحاضرة أنّ هؤلاء الواعظین کانوا یفعلون ذلک بهدفین:

الأوّل: أنّهم کانوا یعظون العصاة حتی یکونوا معذورین عند اللّه.

و الآـخر: عسـی أن یؤثروا فی نفوس العصـاة، و یفهم من هـذا الکلاـم أنّهم حتی مع عـدم احتمـال التأثیر، فإنّهم کانوا لا یحجمون عن الوعظ و النصیحة فی حین أن المعروف هو أن وجوب الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر مشروطین باحتمال التأثیر.

و لکن لاـ بـدّ من الانتباه إلی أنّه ربّما یجب بیان الحقائق و الوظائف الإلهیـة حتی مع عـدم احتمال التأثیر، و ذلک عنـد ما یکون عـدم بیان الأحکام الإلهیـة، و عـدم إنکار المنکر سـببا لتناسـی و تنامی البـدع، و حینما یعـدّ السـکوت دلیلا علی الرضا و الموافقة. ففی هذه الموارد یجب إظهار الحکم الإلهی فی مکان حتی مع عدم تأثیره فی العصاة و المذنبین.

إنّ هذه النقطة جدیرة بالالتفات، و هی أنّ الناهین عن المنکر کانوا یقولون:

نحن نرید أن نکون معذورین عند (ربّکم) و کأنّ هذا إشارة إلی أنّکم أیضا مسئولون أمام اللّه، و إنّ هذه الوظیفة لیست وظیفتنا فقط، بل هی وظیفتکم تجاه ربّکم فی الوقت ذاته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۷

ثمّ إنّ الآیـة اللاحقـة تقول: و فی المآل غلبت عبادة الـدنیا علیهم، و تناسوا الأمر الإلهی، و فی هـذا الوقت نجینا الذین کانوا ینهون عن المنکر، و عاقبنـا الظـالمین بعقـاب ألیم منهم بسـبب فسـقهم و عصـیانهم فَلَمَّا نَسُوا مـا ذُکِّرُوا بِهِ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ یَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَـذْنَا الَّذِینَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِیسٍ بِما کانُوا یَفْسُقُونَ ۱۲۷].

و لاـ شک أنّ هـذا النسـیان لیس نسـیانا حقیقیا غیر موجب للعـذر، بل هو نوع من عـدم الاکتراث و الاعتناء بأمر اللّه، و کأنّه قـد نسـی بالمرّة.

ثمّ یشرح العقوبات هکذا: فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خاسِئِینَ ۱۲۸].

و واضح أن أمر «کونوا» هنا أمر تکوینی مثل: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ ۱۲۹].

بحوث

اشارة

و هنا نقاط عدیدة یجب الالتفات إلیها:

۱- کیف ارتکبوا هذه المعصیة؟

و أمّا کیف بدأت هذه الجماعة عملیة التجاوز علی هذا القانون الإلهی؟ فقد وقع فیه کلام بین المفسّرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۸

و یستفاد من بعض الرّوایات أنّهم عمدوا فی البدایة إلی ما یسمی بالحیلة الشرعیة، فقد أحدثوا أحواضا إلی جانب البحر، و فتحوا لها أبوابا إلی البحر، فکانوا یفتحون هذه الأبواب فی یوم السبت فتقع فیها أسماک کثیرة مع ورود الماء إلیها، و عند الغروب حینما کانت الأسماک ترید العودة إلی البحر یوصدون تلک فتحبس الأسماک فی تلک الأحواض، ثمّ یعمدون فی یوم الأحد إلی صیدها، و أخذها من الأحواض، و کانوا یقولون: إنّ اللّه أمرنا أن لا نصید السمک، و نحن لم نصد الأسماک إنّما حاصرناها فقط[۱۳۰].

و یقول بعض المفسّرین: إنّهم کانوا یرسلون کلالیبهم و صناراتهم و شباکهم فی البحر یوم السبت، ثمّ یسحبونها یوم الأحد و قد علقت بها الأسماک، و هکذا کانوا یصیدون السمک حتی فی یوم السبت و لکن بصورة ما کرة.

و یظهر من بعض الرّوایات الأخری أنّهم کانوا یصیدون السمک یوم السبت من دون مبالاة بالنهی الإلهی، و لیس بواسطة أیة حیلة.

و لکن من الممکن أن تکون هذه الرّوایات صحیحة بأجمعها و ذلک أنّهم فی البدایة استخدموا ما یسمی بالحیلة الشرعیة، و ذلک بواسطة حفر أحواض إلی جانب البحر، أو إلقاء الکلالیب و الصنارات، ثمّ لما صغرت هذه المعصیة فی نظرهم، جرأهم ذلک علی کسر احترام یوم السب و حرمته، فأخذوا یصیدون السمک فی یوم السبت تدریجا و علنا، و اکتسبوا من هذا الطریق ثروة کبیرة جدا.

۲- من هم الذین نجوا؟

الظاهر من الآیات الحاضرة أنّ فریقا واحدا من الفرق الثلاثة (العصاة، المتفرجون، الناصحون) هو الذی نجی من العذاب الإلهی و هم افراد الفریق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۹

الثّالث.

و کما جاء فی الرّوایات، فإنّه عند ما رأی هذا الفریق أن عظاته و نصائحه لا تجدی مع العصاة انزعجوا و قالوا: سنخرج من المدینة، فخرجوا إلی الصحراء لیلا، و اتفق أن أصاب العذاب الإلهی کلا الفریقین الآخرین.

و أمّا ما احتمله بعض المفسّرین من أنّ العصاة هم الذین أصیبوا بالعذاب فقط، و نجی الساکتون أیضا، فهو لا یتناسب مع ظاهر الآیات الحاضرة.

۳- هل أنّ کلا الفریقین عوقبوا بعقاب واحد

یظهر من الآیات الحاضرة أنّ عقوبة المسخ کانت مقتصرة علی العصاة، لأنّه تعالی یقول: فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ ... و لکن من جانب آخر یستفاد من الآیات الحاضرة- أیضا- أنّ الناصحین الواعظین فقط هم الذین نجوا من العقاب، لأنّه تعالی یقول: أَنْجَیْنَا الَّذِینَ یَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ.

من مجموع هاتین الآیتین یتبیّن أنّ العقوبة نالت کلا الفریقین، و لکن عقوبة المسخ اختصت بالعصاة فقط، و أمّا عقوبة الآخرین فمن المحتمل أنّها کانت الهلاک و الفناء، بالرغم من أن العصاة أیضا هلکوا بعد مدّة من المسخ حسب ما جاء فی هذا الصدد من

الرّوايات.[۱۳۱]

۴- هل المسخ كان جسمانيا أو روحانيا؟

«المسخ» أو بتعبير آخر «تغيير الشكل الإنسانى إلى الصورة الحيوانية» و من المسلّم أنّه حدث على خلاف العادة و الطبيعة.

على أنّه قد شوهدت حالات جزئية من (موتاسيون) و القفزة، و تغيير الشكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۰

و الصورة فى الحيوانات إلى أشكال و صور أخرى، و قد شكّلت أسس فرضية التكامل فى العلوم الطبيعية الحاضرة.

و لكنّ الموارد التى شوهدت فيها ال «موتاسيون» و القفزة إنّما هى فى صفات الحيوانات الجزئية، لا الصفات الكليّة، يعنى أنّه لم يشاهد إلى الآن نوعا من أنواع الحيوان تغيّر على أثر ال «موتاسيون» إلى نوع آخر، بل يمكن أن تتغير خصوصيات معينة من الحيوان، ناهيك عن أنّ هذه التغييرات إنّما تظهر فى الأجيال التى توجد فى المستقبل، لا أن يحصل هذا التغيير فى الحيوان يتولد من أمّه.

و على هذا الأساس، يكون تغير صورة إنسان أو حيوان إلى صورة نوع آخر أمرا خارقا للعادة.

و لكن تقدم أنّ هناك أمورا تحدث على خلاف العادة و الطبيعة، و هذه الأمور ربّما تقع فى صورة المعاجز التى يأتى بها الأنبياء، و أحيانا تكون فى صورة الأعمال الخارقة للعادة التى تصدر من بعض الأشخاص، و إن لم يكونوا أنبياء (و هى تختلف عن معاجز الأنبياء طبعا).

و بناء على هذا، و بعد القبول بإمكان وقوع المعاجز و خوارق العادة، لا مانع من مسخ صورة إنسان إلى إنسان آخر. و لا يكون ذلك مستحيلا تأباه العقول.

و وجود مثل هذه الخوارق للعادة- كما قلنا فى مبحث إعجاز الأنبياء- لا هو استثناء و خرق لقانون العلية، و لا هو خلاف العقل، بل هو مجرّد كسر قضية «عاديّة طبيعيّة» فى مثل هذه الموارد، و لها نظائر رأيناها فى الأشخاص غير العاديين ۱۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۱

بناء على هذا لا مانع من قبول «المسخ» على ما هو عليه فى معناه الظاهرى الوارد فى الآية الحاضرة و بعض الآيات القرآنية الأخرى، و أكثر المفسّرين قبلوا هذا التّفسير أيضا.

و لكن بعض المفسّرين- و هم الأقليّة- قالوا: إنّ المسخ هو «المسخ الروحانى» و الانقلاب فى الصفات الأخلاقية، بمعنى ظهور صفات مثل صفات القرود أو الخنازير فى الطغاة و المتعنتين، مثل الإقبال على التقليد الأعمى و التوجه الشديد إلى البطنة و الشهوة، التى هى صفات بارزة لهذين الحيوانين.

و هذا الاحتمال نقل عن أحد المفسّرين القدامى و هو مجاهد.

و ما أخذه البعض على مسألة المسخ، و أنّه خلاف التكامل، و أنّه يوجب العودة و الرجوع و التقهقر فى الخلقة غير صحيح، لأنّ قانون التكامل يرتبط بالذين يسيرون فى طريق التكامل، لا أولئك الذين انحرفوا عن مسيرة التكامل، و خرجوا عن دائره هذا القانون.

فعلى سبيل المثال: الإنسان السليم ينمو نموا منتظما فى أعوام الطفولة، و لكنّه إذا حصلت فى وجوده بعض النقائص، فيمكن أن لا يتوقف الرشد و النمو فحسب، بل يتقهقر و يفقد نموه الفكرى و الجسمانى تدريجا.

و لكن يجب الانتباه على كل حال إلى أنّ المسخ و التبدل و التحول الجسمانى يتناسب مع الأعمال التى قام بها الشخص، يعنى أنّ بعض العصاة يسلكون سبيل الطغيان تحت ضغط من دوافع الهوى و الشهوة، و جماعة أخرى تتلوث حياتهم بأدران الذنوب أثر التقليد الأعمى، و لهذا يظهر المسخ فى كل فريق من هذه الفرق بصورة متناسبة مع كيفية أعمالهم.

على أنّه قد جرى الحديث فى الآيات الحاضرة فقط عن «القردة» و لم يجر أى حديث عن «الخنازير» و لكن فى الآية (۶۰) من سورة المائدة يدور الحديث حول جماعة مسخ بعضهم فى صورتين (بعض قردة و بعض خنازير) و هذه الآية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۲

حسبما قال بعض المفسّرين: نزلت حول أصحاب السبت، فالكبار منهم الذين أطاعوا أمر الشهوة و البطن مسخوا خنازير، و الشباب المقلد لهم تقليدا أعمى و كانوا يشكلون الأكثرية مسخوا قردة.

و لكن على كل حال يجب الالتفات إلى أنّ الممسوخين- حسب الرّوايات- بقوا على هذه الحالة عدة أيّام ثمّ هلكوا، و لم يتولد منهم نسل أبدا.

۵- المخالفة تحت غطاء الحيلة الشّرعية

إنّ الآيات الحاضرة و إن كانت لا تتضمّن الإشارة إلى تحايل أصحاب السبت فى صعيد المعصية، و لكن- كما أسلفنا- أشار كثير من المفسّرين فى شرح هذه الآيات إلى قصّة حفر الأحواض، أو نصب الصنارات فى البحر فى يوم السبت، و يشاهد هذا الموضوع نفسه فى الرّوايات الإسلامية، و بناء على هذا تكون العقوبة الإلهية التى جرت على هذا الفريق- بشدة- تكشف عن أن الوجه الحقيقى للذنب لا يتغير أبدا بانقلاب ظاهره، و باستخدام ما يسمى بالحيلة الشرعية، فالحرام حرام سواء أتى به صريحا، أو تحت لفافات كاذبة، و معاذير واهية.

إنّ الذين تصوروا أنّه يمكن بالتغيير الصورى تبديل عمل حرام إلى حلال يخدعون أنفسهم فى الحقيقة، و من سوء الحظ أن هذا العمل رائج بين بعض الغفلة الذين ينسبون أنفسهم إلى الدين و هذا هو الذى يشوّه وجه الدين فى نظر الغرباء عن الدين، و يكرّهه إليهم بشدّة.

إن العيب الأكبر الذى يتسم به هذا العمل- مضافا إلى تشويه صورة الدين- هو أن هذا العمل التحايلى يصغر الذنب فى الأنظار و يقلّل من أهميته و خطورته و قبحه، و يجرّئ الإنسان فى مجال الذنب إلى درجة أنّه يتهيأ شيئا فشيئا لارتكاب الذنوب و المعاصى بصورة صريحة و علينة. فنحن

نقرأ فى نهج البلاغة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۳

أنّ الإمام عليّا عليه السّلام قال: «إنّ القوم سيفتنون بأموالهم، و يمنون بدينهم على ربّهم، و يتمنون رحمته، و يأمنون سطوته، و يستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة و الأهواء الساهية، فيستحلّون الخمر بالنّبيذ[۱۳۳] و السحت بالهدية، و الربا بالبيع» (الخطبة ۱۵۶).

و يجب الانتباه إلى الدافع وراء أمثال هذه الحيل، إمّا إلباس الباطن القبيح بلباس قشيب و إظهاره بمظهر حسن أمام الناس، و إمّا خداع الضمير، و اكتساب طمأنينة نفسية كاذبة.

۶- أنواع الابتلاء الإلهى المختلفة

صحيح أنّ صيد السمك من البحر لسكان السواحل لم يكن مخالفة، و لكن قد ينهى اللّه جماعة من الناس و بصورة مؤقّتة، و بهدف الاختبار و الامتحان عن مثل هذا العمل، ليرى مدى تفانيهم، و يختبر مدى إخلاصهم، و هذا هو أحد أشكال الامتحان الإلهى.

هذا مضافا إلى أنّ يوم السبت كان عند اليهود يوما مقدسا، و كانوا قد كلّفوا- احتراما لهذا اليوم بالتفرغ للعبادة و ممارسة البرامج

الدينيۀ- و الكف- عن الكسب و الإشـتغال بالأعمال اليوميۀ، و لكن سكان ميناء «أيلۀ» تجاهلوا كلّ هذه الاعتبارات و المسائل، فعوقبوا معاقبۀ شديدۀ جعلت منهم و من حياتهم المأساويۀ و مصيرهم المشؤوم درس و عبرۀ للأجيال اللاحقۀ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۴

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۷ الى ۱۶۸]

اشارة

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۷) وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِکَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۱۶۸)

التّفسير

تفرق اليهود و تشتتهم:

هـذه الآيـات إشارة إلى قسم من العقوبات الدنيويـة التى أصابت جماعـة من اليهود خالفت أمر اللّه تعالى، و سـحقت الحق و العـدل و الصدق.

فيقول فى البداية: و اذكروا يوم أخبركم اللّه بأنّه سيسلّط على هذه الجماعة العاصيـة المتمردة فريقا يجعلها حليفة العذاب و الأذى إلى يوم القيامة وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ

و «تـأذّن» و «أذّن» كلاهمـا بمعنى الإخبـار و الإعلام، و كـذا جاء بمعنى الحلف و القسم، و فى هـذه الصورة يكون معنى الآيـة أنّ اللّه تعالى أقسم بأن يكون مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۵

هؤلاء الأشخاص فى العذاب إلى يوم القيامة.

و يستفاد من هذه الآية أنّ هذه الجماعة المتمردة الطاغية لن ترى وجه الاستقرار و الطمأنينة أبدا، و إن أسّست لنفسها حكومة و شيّدت دولة، فإنّها مع ذلك ستعيش حالة اضطراب دائم و قلق مستمر، إلّا أن تغيّر- بصدق- سلوكها، و تكفّ عن الظلم و الفساد.

و فى ختام الآية يضـيف تعالى قائلا: إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ فبالنسـبة إلى الكفار سـريع العقاب، و بالنسبة للمذنبين التائبين التائبين غفور رحيم.

و هـذه الجملـة تكشف عن أنّ اللّه قـد ترک البـاب مفتوحـا أمـامهم حتى لا يظن أحـد أنّه قـد كتب عليهم المصـير المحتوم و الشـقاء الابدى الذى لا خلاص منه.

و فى الآيـة اللاحقـة يشـير تعالى إلى تفرق اليهود فى العالم فيقول: وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِکَ فهم متفرقون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، و لهذا عند ما سمعوا بنداء الإسلام و عرفوا دعوة النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آمنـوا به، و بعضـهم لم يكونوا كـذلک بـل ألقوا الحق وراءهم ظهريـا، و لم يرتـدعوا عن معصـية فى سبيـل ضـمان مصـالحهم و حياتهم المادية.

و مرّة أخرى تتجلى هذه الحقيقة فى هذه الآية و هى أنّ الإسـلام لا يعادى العنصـر اليهودى، و لا يشجبهم لكونهم أتباع دين معيّن، أو منتمين إلى عنصر و عرق معيّن، بل يجعل أعمالهم هى مقياس تقييمهم.

ثمّ یضیف تعالى قائلا: وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّیِّئاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ

أی ربّما نکرمهم و نجعلهم فی رفاه و نعمة حتى نثیر فیهم روح الشکر، و یعودوا إلى طریق الحق. و ربّما نغرقهم فی الشدائد و المصاعب و المصائب حتى ینزلوا عن مرکب الغرور و الأنانیة و التکبر، و یقفوا على عجزهم، لعلهم یستیقظون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۶

و یعودون إلى اللّه، و الهدف فی کلتا الحالتین هو التربیة و الهدایة و العودة إلى الحق.

و على هذا الأساس تشمل «الحسنات» کل نعمة و رفاه و استقرار، کما تشمل «السیئات» کل نقمة و شدة، و حصر هذین المفهومین فی دائر ضیّقة معیّنة لا دلیل علیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۷

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۶۹ الى ۱۷۰]

اشارة

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْکِتابَ یَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَ یَقُولُونَ سَیُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ یَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ یَأْخُذُوهُ أَ لَمْ یُؤْخَذْ عَلَیْهِمْ مِیثاقُ الْکِتابِ أَنْ لا یَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِیهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۶۹) وَ الَّذِینَ یُمَسِّکُونَ بِالْکِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِیعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِینَ (۱۷۰)

التّفسیر

فی الآیات الماضیة دار الحدیث حول أسلاف الیهود، و لکن فی الآیة الحاضرة دار الکلام حول أبنائهم و أخلافهم.

و فی البدایة یقول تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْکِتابَ یَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى إنّهم ورثوا التوراة عن أسلافهم، و کان علیهم أن ینتفعوا بها و یهتدوا، و لکنّهم رغم ذلک فتنوا بمتاع هذه الدنیا و حطامها الرخیص التافه، و استبدلوا الحق و الهدى بمنافعهم المادیّة.

و «خلف» على وزن «حرف» یأتی غالبا فی الأولاد غیر الصالحین- کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۸

ذهب إلى ذلک بعض المفسّرین، فی حین أنّ «الخلف» على وزن «شرف» یأتی بمعنى الولد الصالح ۱۳۴].

ثمّ یضیف قائلا: و عند ما وقعوا بین مفترق طریقین: بین ضغط الوجدان من جهة، و الرغبات و المنافع المادیة من جهة أخرى عمدوا إلى الأمانی و الآمال الکاذبة و قالوا: لنأخذ المنافع الدنیویة فعلا سواء من حلال أو حرام، و اللّه سیرحمنا و یغفر لنا وَ یَقُولُونَ سَیُغْفَرُ لَنا.

إنّ هذه الجملة تکشف عن أنّهم کانوا بعد القیام بمثل هذا العمل یتخذون حالة من الندم العابر و التوبة الظاهریة، و لکن هذه الندامة- کما یقول القرآن الکریم- لم تکن لها أیة جذور فی أعماق نفوسهم، و لهذا یقول تعالى: وَ إِنْ یَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ یَأْخُذُوهُ

و «عرض» على وزن «غرض» یعنی الشیء الذی لاثبات له و لا دوام، و من هذا المنطق یطلق على متاع العالم المادی اسم العرض، لکونه زائلا غیر ثابت فی الغالب، فهو یقصد الإنسان یوما و یقبل علیه بوفرة بحیث یضیع الإنسان حسابه و لا یعود قادرا على عده و إحصائه و یبتعد عنه و جمعه و حصره، یوما آخر بالکلیة بحیث لا یملک منه إلّا الحسرة و التذکر المؤلم، هذا مضافا إلى أن جمیع نعم هذه الدنیا هی أساسا غیر دائمة، و غیر ثابته ۱۳۵].

و على کل حال، فإنّ هذه الجملة إشارة إلى عملیات الارتشاء التی کان یقوم بها بعض الیهود لتحریف الآیات السماویة، و نسیان

أحكام اللّه لمضادتها لمصالحهم و منافعهم المادية.

و لهذا قال تعالى فى عقيب ذلك:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۹

أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ أى أنّهم أخذ عليهم الميثاق- بواسطة كتابهم السماوى التوراة- أن لا يفتروا على اللّه كذبا، و لا يحرفوا كلماته، و لا يقولوا إلّا الحق.

ثمّ يقول: لو كان هؤلاء الذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهية، لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أعذارا، و لكن المشكلة هى أنّهم رأوا التوراة مرارا و فهموا محتواها و مع ذلك ضيعوا أحكامها، و نبذوا أمرها وراء ظهورهم وَ دَرَسُوا ما فِيهِ و «الدرس» فى اللغة يعنى تكرار شيء، و حيث أن الإنسان عند المطالعة، و تلقى العلم من الأستاذ و المعلم يكرّر المواضيع، لهذا أطلق عليه لفظ «الدرس» و إذا ما رأينا أنّهم يستعملون لفظة «درس و اندراس» على انمحاء أثر الشيء فإنّما هو لهذا السبب و بهذه العناية، و لأنّ الأمطار و الرياح و الحوادث الأخرى تتوالى على الأبنية القديمة و تبليها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۲۷۹

فى ختام الآية يقول: إنّ هؤلاء يخطئون فى تقديرهم للأمور، و إنّ هذه الأعمال لن تجديهم نفعا وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحة أَ فَلا تَعْقِلُونَ ؟

و فى مقابل الفريق المشار إليه سابقا يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقتراف جريمة تحريف الآيات الإلهية و كتمانها فحسب، بل تمسكوا بحذافيرها و طبقوها فى حياتهم حرفا بحرف، و القرآن يصف هذه الجماعة بأنّهم مصلحو العالم، و يعترف لهم بأجر جزيل و ثواب عظيم، و يقول عنهم: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ

و قد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من «الكتاب» و هل أنّه التوراة أو القرآن الكريم؟ بعض ذهب إلى الأوّل، و بعض إلى الثّانى. و الظاهر أنّه إشارة إلى فريق من بنى إسرائيل الذين انفصلوا عن الضالين الظالمين، و عاكسوهم فى سلوكهم و موقفهم. و لا شك أن التمسك بالتوراة و الإنجيل و ما فيهما من بشائر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۰

بظهور نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لا ينفصل عن الإيمان بهذا النّبى.

إنّ فى التعبير ب «يمسّكون» الذى هو بمعنى الاعتصام و التمسك بشيء نكتة ملفتة للنظر، لأنّ التمسك بمعنى الأخذ و الالتصاق بشيء لحفظه و صيانته، و هذه هى الصورة الحسيّة للكلمة، و أمّا الصورة المعنوية لها فهى أن يلتزم الإنسان بالعقيدة بمنتهى الجدية و الحرص، و يسعى فى حفظها و حراستها.

إنّ التمسك بالكتاب الإلهى ليس هو أن يمسك الإنسان بيده أوراقا من القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو أى كتاب آخر و يشدّها عليه بقوة، و يجتهد فى حفظ غلافه و ورقه من التلف، بل التمسك الواقعى هو أن لا يسمح لنفسه بأن يرتكب أدنى مخالفة لتعاليم ذلك الكتاب، و أن يجتهد فى تحقيق و تطبيق مفاهيمه من الصميم.

إنّ الآيات الحاضرة تكشف لنا بوضوح عن أنّ الإصلاح الواقعى فى الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السماوية، و من دون تطبيق الأوامر و التعاليم الإلهية، و هذا التعبير يؤكّد- مرّة أخرى- هذه الحقيقة، و هى أنّ الدين ليس مجرّد برنامج يرتبط بعالم ما وراء الطبيعة، و بدار الآخرة، بل هو برنامج للحياة البشرية، و يهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، و إجراء مبادئ العدل و السلام و الرفاه و الاستقرار، و بالتالى كل مفهوم تشمله كلمة «الإصلاح» الواسعة المعنى.

و ما نراه من التركيز على خصوص «الصلاة» من بين الأوامر و التعاليم الإلهية، فإنّما هو لأجل أن الصلاة الواقعية تقوّى علاقة الإنسان

باللّه الـذى يراه حاضـرا و ناظرا لجميع أعماله و برامجه، و مراقبا لجميع أفعاله و أقواله، و هـذا هو الـذى عبر عنه فى آيات أخرى بتأثير الصلاة فى الدعوة إلى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و ارتباط هذا الموضوع بإصلاح المجتمع الإنسانى أوضح من أن يحتاج إلى بيان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۱

من كل ما قيل يتّضـح أنّ هذا المبدأ و المرتكز الفكرى لا يختص باليهود، بل هو أصل فى حياة الأمم و الشـعوب. و على هذا الأساس فإنّ الذين يجمعون متاعا زائلا بواسـطة كتمان الحقائق و تحريفها، ثمّ يرون نتائجه المشؤومة يتّخذون لأنفسهم حالة من التوبة الكاذبة، توبـة سـرعان ما تزول و تـذوب أمام ابتسامه من منفعـة ماديـة متجـدّدة، كما يذوب الثلج فى حرّ القيظ فهؤلاء هم المخالفون لإصـلاح المجتمعات البشـرية، و هم الـذين يضـحون بمصالـح الجماعة فى سبيل مصالح الفرد، سواء صدر هذا الفعل من يهودىّ أو مسـيحى أو مسلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۲

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۷۱]

اشارة

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۱)

التّفسير

آخر كلام حول اليهود:

«نتقنا» من مادة «نتق» على وزن «قلع» تعنى فى الأصل قلع و انتزاع شـىء من مكانه، و إلقاءه فى جانب آخر، و يطلق على النساء اللواتى يلدن كثيرا أيضا «ناتق» لأنّهن يفصلن الأولاد من أرحامهن و يخرجنهم بسهولة.

و هـذه الآيـة آخر آية فى هذه السورة تتحدث حول حياة بنى إسـرائيل، و هى تتضـمّن تذكير قصّة أخرى ليهود عصـر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، قصّيـة فيهـا عبرة، كما أنّها دليل على إعطاء ميثاق و عهـد، إذ يقول: و اذكروا إذ قلعنا الجبل من مكانه و جعلناه فوق رؤوسهم كأنّه مظلّة وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ.

و قد ظنوا أنّه سيسقط على رؤوسهم، فإنتابهم اضطراب شديد و فزع:

وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ

و فى تلك الحالة قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوة و جديّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۳

خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ و اذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، و خافوا من العقاب الإلهى و اعملوا بما أخـذناه فيه منكم من المواثيق وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

إنّ هـذه الآيـة نفسـها جاءت- بفارق بسيط فى الآية (۶۳) من سورة البقرة، و كمـا قلنـا هنـاك فإنّ هـذه القصـة وقعت- حسب ما قال المفسّر المعروف العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان عن ابن زيد- عند ما عاد موسى عليه السلام من جبل الطور، و اصطحب معه أحكام التوراة ... فعند ما عرض على قومه الواجبات و الوظائف و أحكام الحلال و الحرام تصوروا أنّ العمل بكل هذه الوظائف أمر مشكل، و

لهذا بنوا على المخالفة و العصيان ... فى هذا الوقت نفسه، رفعت قطعة عظيمة من الجبل فوق رؤوسهم، بحيث وقعوا فى اضطراب عظيم، فالتجأوا إلى موسى عليه السلام و طلبوا منه رفع هذا الخطر و الخوف عنهم، فقال لهم موسى عليه السلام فى تلك الحالة: لو تعهدتم بأن تكونوا أوفياء لهذه الأحكام لزال عنكم هذا الخطر ... فسلّموا و تعهّدوا و سجدوا للّه تعالى فزال عنهم الخطر، و أزيحت الصخرة من فوق رؤوسهم.

أسئلة و أجوبة:

و هنا سؤالان أشرنا إليهما فى سورة البقرة و إلى جوابيهما، و نذكر مختصرا عنهما هنا بالمناسبة.

السّؤال الأوّل: ألم يكن لأخذ الميثاق فى هذه الحالة صفة الإجبار؟

و الجواب: لا شك أنه كانت تحكم فى ذلك الظرف حالة من الإجبار و الاضطرار، و لكن من المسلّم أنّه لمّا ارتفع و زال الخطر فيما بعد كان بإمكانهم مواصلة هذا السلوك باختيارهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۴

هذا مضافا إلى أنّه لا معنى للإجبار فى مجال الإعتقاد، أمّا فى مجال العمل فلا مانع من أن يجبر الناس على أمور تربوية تضمن خيرهم و سعادتهم و صلاحهم. فهل من العيب لو أنّنا أجبرنا شخصا على ترك عادة شريرة، أو سلوك طريق آمن من الخطر، و عدم سلوك طريق محفوف بالأخطار؟

السّؤال الثّانى: كيف رفع الجبل فوق رؤوسهم:

الجواب: ذهب بعض المفسّرين إلى أن الجبل قلع من مكانه بأمر اللّه، و استقر فو رؤوسهم كمظلّة.

و ذهب آخرون إلى أنّه اهتز الجبل اهتزازا شديدا بفعل زلزال شديد بحيث شاهد الناس الذين كانوا يسكنون فى سفح الجبل ظلّ قسم منه فوق رؤوسهم.

و يحتمل أيضا أن قطعة من الجبل انتزعت من مكانها و استقرت فوق رؤوسهم لحظة واحدة، ثمّ مرّت و سقطت فى جانب آخر.

و لا شك فى أنّ هذا الأمر كان أمرا خارقا للعادة و ليس حدثا طبيعيا عاديا.

و الموضوع الآخر الذى يجب الانتباه إليه هو أنّ القرآن لا يقول: إنّ الجبل صار مظلّة فوق رؤوسهم بل قال: (كأنّه ظلّة).

و هذا التعبير إنّما هو لأجل أنّ المظلّة تنصب على رؤوس الأشخاص لإظهار الحب، و الحال أنّ هذه العملية- المذكورة فى الآية الحاضرة- كانت من باب التهديد، أو لأجل أنّ المظلة شىء مستقر و ثابت، و لكن رفع الجبل فوق رؤوسهم كان يتسم بعدم الثبات و الدوام.

قلنا: مع هذه الآية تختم الآيات المتعلقة بقصة بنى إسرائيل و الحوادث المختلفة، و الذكريات الحلوة و المرّة التى وقعت فى حياتهم.

و هذه القصّة هى آخر قصص الأنبياء التى جاءت فى هذه السورة. و ذكر هذه القصّة فى نهاية قصصهم- مع أنّها ليست آخر حدث من الحوادث المرتبطة بهذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۵

الجماعة- لعله لأجل أنّ الهدف من جميع هذه القصص هو التمسك بآيات اللّه و العمل بالمواثيق، و لأجل الوصول إلى التقوى الذى جاء بيانه فى هذه الآية و الآية السابقة.

يعنى أنّ رسالة موسى عليه السلام و سائر الأنبياء و أعمالهم مواجهاتهم المستمرة و الصعبة و ما لقوا من صعاب و متاعب و شدائد مضنية كانت لأجل تطبيق أوامر اللّه، و تنفيذ مبادئ الحق و العدالة و الطهر و التقوى فى المجتمعات البشرية بشكل كامل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۶

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۴]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلی أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قالُوا بَلی شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ الْقِیامَةِ إِنَّا کُنَّا عَنْ هذا غافِلِینَ (۱۷۲) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَکَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ کُنَّا ذُرِّیَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِکُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (۱۷۳) وَ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ وَ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۱۷۴)

التّفسیر

العهد الأوّل و عالم الذّر:

الآیات المذکورة أعلاه، تشیر إلی «التوحید الفطری» و وجود الإیمان فی أعماق روح الإنسان ... و لذلک فإنّ هذه الآیات تکمل الأبحاث الواردة فی الآیات المتقدمة من هذه السورة فی شأن «التوحید الاستدلالی»! و بالرغم من کثرة الأقوال و الکلام بین المفسّرین فی شأن عالم الذّر، إلّا أنّنا نحاول أن نبیّن التّفسیر الإجمالی لهذه الآیات الکریمة، ثمّ نختار الأهم من أبحاث المفسّرین، و نبیّن وجهة نظرنا بصورة استدلالیة موجزة! یقول اللّه سبحانه مخاطبا نبیّه فی هذه الآیة وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۷

ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلی أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قالُوا بَلی شَهِدْنا! ....

«الذریّة» کما یقول أهل اللغة و علماؤها، معناها فی الأصل الأبناء الصغار الیافعون، إلّا أنّها تطلق فی الغالب علی عموم الأبناء، و قد تستعمل هذه الکلمة فی معنی المفرد، کما قد تستعمل فی معنی الجمع، إلّا أنّها فی الأصل تحمل معنی الجمع! و الجذر اللغوی لهذه الکلمة مختلف فیه، إذ احتملوا له أوجها متعددة.

فقال بعضهم: إنّ جذر هذه الکلمة مأخوذ من «ذرأ» علی زنة «زرع» و معناه الخلق، فعلی هذا الوجه یکون معنی الذریة مساویا «للمخلوق».

و قال بعضهم: بل الجذر مأخوذ من «ذرّ» علی وزن «شرّ» و یعنی الموجودات الصغیرة جدّا کذرّات الغبار مثلا و النمل الصغیر، و من هنا فإنّ أبناء الإنسان تبدأ حیاتهم من نطفة صغیرة جدا.

و الاحتمال الثّالث أنّه مأخوذ من مادة ذرو و معناه النثر و التفریق و التنقیة [و منه ذرو الحنطة[۱۳۶]] و إنما سمی أبناء الإنسان بالذریة لأنّهم یتفرقون فی أنحاء الأرض بعد التکاثر! ثمّ یشیر اللّه سبحانه إلی الهدف النهائی من هذا السؤال و الجواب، و أخذ العهد من ذریة آدم فی مسألة التوحید، فیقول: أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ الْقِیامَةِ إِنَّا کُنَّا عَنْ هذا غافِلِینَ

الآیة التّالیة تشیر إلی هدف آخر من أخذ هذا العهد، و هو أنّه إنّما أخذ ربّک هذا العهد من ذریة بنی آدم لئلا تعتذروا أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَکَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ کُنَّا ذُرِّیَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِکُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ

أجل ... وَ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ وَ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۸

إیضاح لما ورد عن عالم الذّر.

رأينا أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن أخذ العهد من ذريّة آدم، لكن كيف أخذ هذا العهد؟! لم يرد فى النص إيضاح فى جزئيات هذا الموضوع، إلّا أنّ للمفسّرين آراء متعددة تعويلا منهم على الرّوايات الإسلامية «الواردة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام» و من أهم هذه الآراء رأيان.

۱- حين خلق آدم ظهر أبناؤه على صورة الذّر إلى آخر نسل له من البشر «و طبقا لبعض الرّوايات ظهر هذا الذّر أو الذرّات من طينة آدم نفسه» و كان لهذا الذرّ عقل و شعور كاف للاستماع و الخطاب و الجواب، فخاطب اللّه سبحانه الذرّ قائلا أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ ! ...

فأجاب الذرّ جميعا: بَلى شَهِدْنا ثمّ عاد هذا الذرّ «أو هذه الذرات» جميعا إلى صلب آدم «أو إلى طينته» و من هنا فقد سمى بهذا العالم بعالم الذرّ ... و هذا العهد بعهد «أ لست»؟

فبناء على ذلك، فإنّ هذا العهد المشار إليه آنفا هو عهد تشريعى، و يقوم على أساس «الوعى الذاتى» بين اللّه و الناس.

۲- إنّ المراد من هذا العالم و هذا العهد هو عالم الاستعداد «و الكفاءات»، و «عهد الفطرة» و التكوين و الخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأمهات، و هم نطف لا تعدو الذرات الصغار، و هبهم اللّه الاستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، و أودع ذلك السرّ الإلهى فى ذاتهم و فطرتهم بصورة إحساس داخلى ... كما أودعه فى عقولهم و أفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها.

فبناء على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، و ما أخذه اللّه من عهد منهم أو سؤاله إيّاهم: أ لست بربكم؟ كان بلسان التكوين و الخلق، و ما أجابوه كان باللسان ذاته!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۹

و مثل هذه التعابير غير قليلة فى أحاديثنا اليوميّة، إذ نقول مثلا: لون الوجه يخبر عن سره الباطنى «سيماهم فى وجوهم»، أو نقول: إنّ عينى فلان المجهدتين تنبئان أنّه لم ينم الليلة الماضية.

و قد روى عن بعض أدباء العرب و خطبائهم أنّه قال فى بعض كلامه: سل الأرض من شق أنهارك و غرس أشجارك و أينع ثمارك؟ فإنّ لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا! ...

كما ورد فى القرآن الكريم التعبير على لسان الحال، كالآية (۱۱) من سورة فصلت، إذ جاء فيها فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ

هذا باختصار هو خلاصة الرأيين أو النظرتين المعروفتين فى تفسير الآيات آنفة الذكر ...

إلّا أنّ التّفسير الأوّل فيه بعض الإشكالات، و نعرضها فى ما يلى:

۱- ورد التعبير فى نصّ الآيات المتقدمة عن خروج الذريّة من بنى آدم من ظهورهم، إذ قال تعالى ... مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ مع أنّ التّفسير الأوّل يتكلم عن آدم نفسه أو عن طينة آدم.

۲- إذا كان هذا العهد قد أخذ عن وعى ذاتى و عن عقل و شعور، فكيف نسيه الجميع؟! و لا يتذكر أحد مع أنّ الفاصلة الزمانية بين زماننا ليست بأبعد مدى من الفاصلة بين هذا العالم و العالم الآخر «أو القيامة»؟ و نحن نقرأ فى آيات عديدة من القرآن الكريم أنّ الناس سواء كانوا من أهل الجنّة أو من أهل النّار لا ينسون أعمالهم الدنيوية فى يوم القيامة، و يتذكرون ما اكتسبوه بصورة جيدة، فلا يمكن أن يوجّه هذا النسيان العمومى فى شأن عالم الذر أبدا «و لا مجال لتأويله!».

۳- أىّ هدف كان من وراء مثل هذا العهد؟! فإذا كان الهدف أن يسير المعاهدون، فى طريق الحق عند تذكرهم مثل هذا العهد، و ألّا يسلكوا إلّا طريق معرفة اللّه، فينبغى القول بأنّ مثل هذا الهدف لا يتحقق أبدا و بأى وجه كان، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۰

الجميع نسوه!! ...

و بدون هذا الهدف يعدّ هذا العهد لغوا و لا فائدة فيه.

۴- إنّ الإعتقاد بمثل هذا العالم يستلزم- فی الواقع- القبول بنوع من التناسخ، لأنّه ينبغی- طبقا لهذا التّفسير- أن تكون روح الإنسان قد خلقت فی هذا العالم قبل ولادته الفعلية، و بعد فترة طويلة أو قصيرة جاء إلی هذا العالم ثانية، و علی هذا فسوف تحوم حوله كثيرا من الإشكالات فی شأن التناسخ! غير أنّنا إذا أخذنا بالتّفسير الثّانی، فلا يرد عليه أیّ إشكال ممّا سبق، لأنّ السؤال و الجواب، أو العهد المذكور- عهد فطری، و ما يزال كلّ منّا يحس بآثاره فی أعماق روحه، و كما يعبر عنه علماء النفس ب «الشعور الدينی» الذی هو من الإحساسات الأصيلة فی العقل الباطنی للإنسان. و هذا الإحساس يقود الإنسان علی امتداد التأريخ البشری إلی «طريق» معرفة اللّه ... و مع وجود هذا الإحساس أو الفطرة لا يمكن التذرّع بأنّ أباءنا كانوا عبدة للأصنام و نحن علی آثارهم مقتدون!! ...

فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها[۱۳۷].

و الإشكال الوحيد الذی يرد علی التّفسير الثّانی هو أنّ هذا السؤال و الجواب يتخذ شكلا «كنائيّا» و يتسم بلغة الحوار. إلّا أنّه مع الالتفات إلی ما بيّناه آنفا بأن مثل هذه التعابير كثير فی لغة العرب و جميع اللغات، فلا يبقی أیّ إشكال فی هذا المجال.

و يبدو أن هذا التّفسير أقرب من سواه!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۹۱

عالم الذر فی الرّوايات الإسلاميّة:

وردت روايات كثيرة فی مختلف المصادر الإسلاميّة من كتب الشيعة و أهل السنة حول عالم الذّر ... بحيث تتصور لأوّل وهلة و كأنّها رواية متواترة ... فمثلا فی تفسير البرهان وردت ۳۷ رواية، و فی تفسير نور الثقلين وردت ذيل الآيات الآنفة ۳۰ رواية بعضها مشترك و الآخر مختلف، و بملاحظة الاختلاف فيها فقد يصل مجموع ما ورد من الرّوايات إلی أربعين رواية ...

إلّا أنّنا سنجد- بعد التدقيق فی مضامينها و محتواها و تقسيمها إلی مجاميع، و فحصها- أنّه لا يمكن أن نعثر رواية واحدة معتبرة منها، فكيف يمكن الإعتقاد بتواترها؟! إنّ أكثر تلك الرّوايات منقول عن زرارة، و بعضها عن صالح بن سهل، و بعضها عن أبی بصير، و بعضها عن جابر، و بعضها عن عبد اللّه بن سنان، و من ذلك يظهر لنا أنّه لو روی شخص واحد روايات كثيرة لكنّها متحدة المضمون فهی تعد بحكم الرواية الواحدة، و بناء علی ذلك فسيقلّ عدد تلك الرّوايات الكثيرة و تتضاءل نسبتها و تبلغ ما بين ۱۰ إلی ۲۰ رواية، هذا من ناحية السند.

أمّا من ناحية المضمون و الدليل فإنّ مضامينها تختلف بعضها عن بعض، فمنها ما يوافق التّفسير الأوّل، و منها ما يوافق التّفسير الثّانی، و بعضها لا يوافق التّفسيرين ...

فالرّوايات المرقمة (۳) و (۴) و (۸) و (۱۱) و (۲۸) و (۲۹) و المروية عن زرارة فی تفسير البرهان- ذيل الآيات محل البحث- تتفق و التّفسير الأوّل. و ما روی عن عبد اللّه بن سنان فی الروايتين (۷) و (۱۲) فی تفسير البرهان نفسه، يتفق و التّفسير الثانی ...

أی أنّ بعض هذه الرّوايات مبهم، و بعضها يمثّل رموزا و عبارات مجازية، كما فی الروايتين (۱۸) و (۲۳) المرويتين عن أبی سعيد الخدری و عبد اللّه الكلبی،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۲۹۲

الواردتين فی التّفسير آنف الذكر.

و بعض الرّوايات يذكر «أرواح بنی آدم» كما فی الرواية (۲۰) المرويّة عن المفضّل! ...

ثمّ إن الرّوايات- المذكورة آنفا- بعضها ذو سند معتبر، و بعضها فاقد للسند أو مرسل.

فبناء علی ذلك- و بملاحظة التعارض بين الرّوايات- لا يمكننا التعويل عليها علی أنّها وثيقة معتبرة ... و كما عبّر أكابر علمائنا فی مثل

هذه الموارد فإنّه ینبغی أن نتجنّب الحکم علی مثل هذه الرّوایات، و أن نکلها إلی أصحابها و رواتها.

و فی هذه الصورة نبقی متمسّکین بالنص القرآنی، و کما ذکرنا أنفا فإن التّفسیر الثّانی أکثر انسجاما مع الآیات.

و لو کان أسلوبنا فی البحث التفسیری یسمح لنا أن نذکر جمیع طوائف الرّوایات، و التحقیق فیها- کنا أشرنا آنفا- لفعلنا ذلک لیکون البحث أکثر وضوحا.

إلّا أنّ الراغبین یمکنهم الرجوع إلی التّفسیر «نور الثقلین، و تفسیر البرهان، و بحار الأنوار»، و لیبحثوا فی مجامیعها و یصنفوها، و ینظروا فی أسانیدها و مضامینها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۳

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۷۵ الی ۱۷۸]

اشارة

وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْناهُ آیاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّیْطانُ فَکانَ مِنَ الْغاوِینَ (۱۷۵) وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ ذلِکَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (۱۷۶) ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ کانُوا یَظْلِمُونَ (۱۷۷) مَنْ یَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِی وَ مَنْ یُضْلِلْ فَأُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۷۸)

التّفسیر

اشارة

فی هذه الآیات إشارة لقصّة أخری من قصص بنی إسرائیل، و هی تعد مثلا و أنموذجا لجمیع أولئک الذین یتصفون بمثل هذه الصفات.

و کما سنلاحظ خلال تفسیر الآیات- محل البحث- فإنّ للمفسّرین احتمالات متعددة فی الذی تتحدث عنه أو (علیه) الآیات ... إلّا أنّه ممّا لا ریب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۴

فیه أن مفهوم الآیات- کسائر الآیات النازلة فی ظروف خاصّة- عام و شامل.

و الآیة الأولی من هذه الآیات یخاطب بها النّبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث یقول القرآن الکریم وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْناهُ آیاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّیْطانُ فَکانَ مِنَ الْغاوِینَ

فهذه الآیة واضحة أنّها تحکی قصّة رجل کان فی البدایة فی صف المؤمنین، و حاملا للعلوم الإلهیة و الآیات، إلّا أنّه انحراف عن هذا النهج، فوسوس له الشیطان، فکانت عاقبة أمره أن انجرّ إلی الضلال و الشقاء! ...

و التعبیر ب «انسلخ» و هو من مادة «الانسلاخ» معناه فی الأصل الخروج من الجلد ... یدلّ علی أن الآیات و العلوم الإلهیة کانت تحیط به إحاطة الجلد بالبدن، إلّا أنّه خرج منها علی حین غرّة و استدار إلی الوراء و غیّر مسیره بسرعة! کما أنّ التعبیر القرآنی «فأتبعه الشیطان» یستفاد منه أنّ الشیطان کان أوّل الأمر آیسا منه تقریبا، لأنّه کان یسلک سبیل الحق تماما، و بعد أن انحرف لحقه الشیطان و تربص له و أخذ یوسوس له حتی انتهی أمره إلی أن یکون من الضالین المنحرفین الأشقیاء[۱۳۸].

و الآية التّالية تكمل هذا الموضوع على النحو التّالى وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها.

إلّا أن من المسلّم أنّ إكراه الناس و إجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم و السنن الإلهية و حرية الإرادة، و لا يكون ذلك دليلا على عظمة الشخص، لهذا فإنّ الآية تضيف مباشرة. إنّنا تركناه و هواه، و بدلا من أن ينتفع من معارفه فإنّه هوى و انحطّ وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ

و كلمة (أخلد) من (الإخلاد) و هى تعنى السكن الدائم فى مكان واحد مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۵

حرية الإرادة، فجملة (أخلد إلى الأرض) تعنى اللصوق الدائم بالأرض، و هى كناية عن عالم المادة و بهارجها، و اللذائذ غير المشروعة للحياة المادية.

ثمّ تشبّه الآية هذا الفرد بالكلب الذى يخرج لسانه لاهثا دائما كالحيوانات العطاشى فتقول فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ

فهو لفرط اتّباعه الهوى و تعلقه بعالم المادة انتابته حالة من التعطش الشديد غير المحدود وراء لذائذ الدنيا، و كل ذلك لم يكن لحاجة، بل لحالة مرضيّة، فهو كالكلب المسعور الذى يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن ارواؤها و هى حالة عبيد الذين لا يهمهم غير جمع المال و اكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع أبدا.

ثمّ تضيف الآية: إنّ هذا المثال الخاص لا يتعلق بفرد معين، بل: ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

العالم المنحرف «بلعم بن باعوراء»:

كما لاحظنا أنّ الآيات السالفة لم تذكر اسم أحد بعينه، بل تحدثت عن عالم كان يسير فى طريق الحق ابتداء و بشكل لا يفكر معه أحد بأنّه سينحرف يوما، إلّا أنّه نتيجة لاتّباعه لهوى النفس و بهارج الدنيا انتهى إلى السقوط فى جماعة الضالين و أتباع الشياطين.

غير أنّنا نستفيد من أغلب الرّوايات و أحاديث المفسّرين أن هذا الشخص يسمّى (بعلم بن باعوراء) الذى عاصر النّبى موسى عليه السلام و كان من مشاهير علماء بنى إسرائيل، حتى أن موسى عليه السلام كان يعوّل عليه على أنّه داعية مقتدر، و بلغ أمره أن دعاءه كان مستجابا لدى البارى جل و علا، لكنّه مال نحو فرعون و إغراءاته فانحرف عن الصواب، و فقد مناصبه المعنوية تلك حتى صار بعدئذ فى جبهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۶

أعداء موسى عليه السلام ۱۳۹].

إلّا أننا نستبعد ما يحتمله بعضهم من أن المقصود هو (أمية بن الصلت) الشاعر المعروف فى زمان الجاهلية، الذى كان بادئ أمره و نتيجة لاطلاعه على الكتب السماوية ينتظر نبى آخر الزمان، ثمّ حصل له هاجس أن النّبى قد يكون هو نفسه، و لذلك بعد أن بعث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصابه الحسد له و عاداه.

و بعيد كذلك ما احتمله بعضهم من أنّه كان (أبا عامر) الراهب المعروف فى الجاهلية، الذى كان يبشر الناس بظهور رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكنّه بعد ظهوره صار من أعدائه. لأنّ جملة (و اتل) و كلمة (نبأ) و جملة (فاقصص القصص) تدل على أنّ تلك الأمور لا تتعلق بأشخاص عاصروا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. بل بأقوام سابقين، مضافا إلى تلك فإنّ سورة الأعراف من السور المكية و قضيتا [أبى عامر الراهب و [أمية بن الصلت تتعلقان بحوادث المدينة.

و لكن بما أن أشخاصا على غرار «بلعم» كانوا موجودين فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ك (أبى عامر) و (أمية بن الصلت)

فإنّ الآيات محل البحث تنطبق على هذه الموارد في كل عصر و زمان، و إلّا فإنّ مورد القصّة هو «بلعم بن باعوراء» لا غير.

و قد نقل تفسير (المنار) عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن مثل بلعم بن باعوراء فی بنی إسرائیل کأمیة بن أبی الصلت فی هذه الأمّة.

و

ورد عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «الأصل من ذلک بلعم، ثمّ ضربه اللّه مثلا لکل مؤثر هواه علی هوی اللّه من أهل القبلة».

و من هذا یتبیّن أن الخطر الأکید الذی یهدد المجتمعات الإنسانیة هو خطر المثقفین و العلماء الذین یسخّرون معارفهم للفراعنة و الجبارین لأجل أهوائهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۷

و میولهم الدنیویة (و الإخلاد إلی الأرض) و یضعون کل طاقاتهم الفکریة فی سبیل الطاغوت الذی یعمل ما فی وسعه لاستغلال مثل هذه الشخصیات لإغفال و إضلال عامّة الناس.

و لا یختص الأمر بزمن النّبی موسی علیه السلام أو غیره من الأنبیاء، بل حتی بعد عصر النّبی الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی یومنا هذا نجد أمثال بلعم بن باعوراء و أبی عامر الراهب و أمیة بن الصلت، یضعون علومهم و معارفهم و نفوذهم الاجتماعی من أجل الدرهم و الدینار، أو المقام، أو لأجل الحسد، تحت إختیار المنافقین و أعداء الحق و الفراعنة أمثال بنی أمیة و بنی العباس و سائر الطواغیت.

و یمکن معرفة أولئک العلماء من خلال أوصاف أشارت إلیها الآیات محل البحث، فإنّهم ممن نسی ربّه و اتبع هواه، و هم ذوو نزوات سخروها للرذیلة بدل التوجه نحو اللّه و خدمة خلقه، و بسبب هذا التسافل فقدوا کل شیء و وقعوا تحت سلطة الشیطان و وساوسه، فسهل بیعهم و شراؤهم، و هم کالکلاب المسعورة التی لا ترتوی أبدا، و لهذه الأمور ترک هؤلاء سبیل الحقیقة و ضلوا عن الطریق حتی غدوا أئمّة الضلال.

و یجب علی المؤمنین معرفة مثل هؤلاء الأشخاص و الحذر منهم و اجتنابهم.

و الآیتان التالیتان- کنتیجة عامّة و شاملة لقضیة- (بلعم) و العلماء الدنیویین فتقول أولاهما ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ کانُوا یَظْلِمُونَ

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه و هو یسخّر ملکاته المعنویة و علومه النافعة التی بإمکانها أن تعود علیه و علی مجتمعه بالخیر- و یضعها تحت إختیار المستکبرین و أصحاب القدرة الدنیویة و یبیعها بثمن بخس فیؤدی ذلک إلی سقوطه و سقوط المجتمع و الآیة الاخیرة تحذّر الإنسان و تؤکّد له أن الخلاص من مثل هذا الانحراف و ما یکیده الشیاطین لا یمکن إلّا بتوفیق و تسدید من اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۸

عز و جل مَنْ یَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِی وَ مَنْ یُضْلِلْ فَأُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ

و تقدم کرّات بأنّ (الهدایة) و (الإضلال) الإلهیین لا یعدان إجبارا و لا بدون حساب أو دلیل، و یقصد بهما إعداد الأرضیة للهدایة و فتح سبلها أو إیصادها، و ذلک بسبب الأعمال الصالحة أو الطالحة التی صدرت من الإنسان من قبل، و علی أیة حال فالتصمیم النهائی بید الإنسان نفسه ...

فبناء علی هذا فإنّ الآیة محل البحث تنسجم مع الآیات المتقدمة التی تذهب إلی أصل حریة الإرادة ... و لا منافاة بین هذه الآیة و تلکم الآیات بتاتا ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۹

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۷۹ الی ۱۸۱]

اشارة

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (۱۷۹) وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۸۰) وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (۱۸۱)

التّفسير

علائم أهل النّار:

هذه الآيات تكمل الموضوع الذی تناولته الآيات المتقدمة حول العلماء الذين ركنوا إلى الدنيا، و عوامل الهداية و الضلال. و الآيات- محل البحث- تقسم الناس إلى مجموعتين ... و تحكی عن صفاتهما و هما أهل النّار، و أهل الجنّة.

فتتحدث عن المجموعة الأولى- أهل النّار أوّلا، فتأتی بالقسم و التوكيد فتقول وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ

و كلمة «ذرأنا» مشتقّة من «ذرأ»، و تعنی هنا الإيجاد و الخلق، غير أنّها فی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۳۰۰

أصل اللغة تعنی نشر الشی‌ء و تفريقه، و قد وردت بهذا المعنى «الثّانی» فی القرآن أيضا، كما فی عبارة تَذْرُوهُ الرِّياحُ ۱۴۰].

و لأنّ خلق الكائنات يستلزم تفريقها و توزيعها و انتشارها على وجه الأرض، فقد جاءت هذه الكلمة بمعنى خلق «المخلوق» أيضا:

و على كل حال، فإنّ الإشكال المهم فی هذا التعبير هو كيف قال اللّه سبحانه وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فی حين قال فی مكان آخر وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۱۴۱] و طبقا لمعنى هذه الآية فإنّ الجن و الإنس لم يخلقوا لغير عبادة اللّه و الرقی و التكامل و السعادة، أضف إلى ذلك أنّ هذا التعبير تشمّ منه رائحة الجبر فی الخلق، و من هنا فقد استدل بعض مؤيدی مدرسة الجبر من أمثال الفخر الرازی بهذه الآية لإثبات مذهبه.

لكنّنا لو ضممنا آيات القرآن بعضها إلى بعض و بحثناها موضوعيّا دون أن نبتلی بالسطحيّة، لوجدنا الجواب على هذا السؤال كامنا فی الآية محل البحث ذاتها، كما هو بيّن فی آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا ... بحيث لا يدع مجالا لأنّ تستغل الآية ليسا فهمها لدى بعض الأفراد. مثل هذا التعبير كمثل قول النجار إذ يقول مثلا: إنّ قسما كبيرا من هذا الخشب و قد هيأته لكی أصنع منه أبوابا جميلة، و القسم الآخر هو للإحراق و الإضرام ... فالخشب الرائق الجيّد المناسب سأستعمله للقسم الأوّل، و أمّا الخشب الردی‌ء غير المناسب فسأدعه للقسم الثّانی.

ففی الحقيقة أنّ للنجار هدفين: هدفا «أصيلا» و هدفا (تبعيّا).

فالهدف الأصيل هو صنع الأبواب و الأطر الخشبيّة الجيّدة و ما إلى ذلك، و هو يبذل قصارى جهده و سعيه فی هذا المضمار ...

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۳۰۱

إلّا أنّه حين يجد أنّ بعض الخشب لا ينفعه شيئا، فسيكون مضطرا إلى نبذه ليكون حطبا للحرق و الإشعال، فهذا الهدف «تبعیّ» لا أصلی.

و الفرق الوحيد بين هذا المثال و ما نحن فيه، أنّ الاختلاف بين أجزاء الخشب ليس اختيارا، و اختلاف الناس له صلة وثيقة بأعمالهم أنفسهم، و هم مختارون و إرادتهم حرّة بإزاء أعمالهم.

و خير شاهد على هذا الكلام ما جاء من صفات لأهل النّار و صفات لأهل الجنّة فى الآيات محل البحث، التى تدل على أنّ الأعمال هى نفسها أساس هذا التقسيم، إذ كان فريق منهم فى الجنّة، و فريق فى السعير.

و تعبير آخر فإنّ اللّه سبحانه- و وفقا لصريح آيات القرآن المختلفة- خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين، و وفّر لهم أسباب السعادة و التكامل، إلّا أنّ قسما منهم اختاروا بأعمالهم جهنم فكانوا من أهلها فكان عاقبة أمرهم خسرا ... و أن قسما منهم اختاروا بأعمالهم الجنّة و كان عاقبة أمرهم السعادة ...

ثمّ يلخّص القرآن صفات أهل النّار فى ثلاث جمل، إذ تقول الآية: لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ...

و قد قلنا مرارا: إنّ التعبير ب «القلب» فى مصطلح القرآن يعنى الفكر و الروح و قوّة العقل، أى أنّهم بالرّغم ممّا لديهم من استعداد للتفكير، و أنّهم ليسوا كالبهائم فاقدى الشعور و الإدراك، إلّا أنّهم فى الوقت ذاته لا يفكرون فى عاقبتهم و لا يستغلون تفكيرهم ليبلغوا السعادة.

و الصفة الثّانية التى ذكرتها الآية لأهل النّار وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها و الصفة الثّالثة الواردة فى حقهم وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُ

لأنّ البهائم و الأنعام لا تملك هذه الاستعدادات و الإمكانات، إلّا أنّهم بما لديهم من عقل سالم و عين باصرة و أذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۲

الرقى و التكامل، إلّا أنّهم نتيجة لاتباعهم هواهم و رغبتهم- بكل هذه التوافه من الأمور تركوا هذه الاستعدادات جانبا ... و كان شقاؤهم كبيرا لهذا السبب:

أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ

فالمعين الذى يحييهم و يروى ظمأهم موجود إلى جانبهم و هم على مقربة منه، إلّا أنّهم يتصارخون من الظمأ. و أبواب السعادة مفتحة أمامهم لكنّهم لا يلتفتون إليها.

و يتّضح ممّا ذكرناه أنفا أنّهم اختاروا بأنفسهم سبل شقائهم و هدروا النعم الكبرى «العقل و العين و الأذن ...» لا أنّ اللّه أجبرهم على أن يكونوا من أهل النّار.

لماذا هم كالأنعام؟

لقد شبّه القرآن الكريم الجاهلين الغافلين عديمى الشعور بالأنعام و البهائم مرارا، إلّا أن تشبيه القرآن هؤلاء بالأنعام لعلّه بسبب انهماكهم باللذائذ و الشهوات الجنسية و النوم فحسب، فهم كالأمم التى تحلم فى الوصول إلى حياة مادية مرفهة تحت شعارات برّاقة تخدع الإنسان بأنّ آخر هدف للعدالة الاجتماعية و القوانين البشرية هو الحصول على الخبز و الماء ...

و كما يشبهها

الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة قائلا: «كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها»[۱۴۲].

و بتعبير آخر: إنّ جماعة منهم تنعم بالرفاه كالأغنام المربوطة التى تدجن لتسمن، و جماعة آخرين كالغنم السائمة الباحثة عن العلف و الماء فى الصحراء، إلّا أن هدف كل منهما هو ما يشبع البطن ليس إلّا!.

و هذا الذى ذكرناه أنفا قد يصدق على شخص معين كما قد يصدق أمّة كاملة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۳

برمّتها، فالأمم التى لا تفكر بنفسها و تتلهى بالأمور التافهة غير الصائبة، و لا تعالج جذور شقائها و لا تطمح لأسباب الرقّى، ليس لها آذان سامعة و لا أعين باصرة، فهى من أهل النّار أيضا، لا نار القيامة فحسب، بل هى مبتلاة بنار الدنيا و شقائها كذلك.

و فى الآية التّالية إشارة إلى حال أهل الجنّة و بيان لصفاتهم، فتبدأ الآية بدعوة الناس إلى التدبّر و التوجّه إلى أسماء اللّه الحسنى كمقدمة للخروج من صف أهل النّار، فتقول: وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها.

و المرد من «أسماء اللّه الحسنى» هى صفات اللّه المختلفة التى هى حسنى جميعا، فنحن نعرف أنّ اللّه عالم قادر رازق عادل جواد كريم رحيم، كما أنّ له صفات أخرى حسنى من هذا القبيل أيضا.

فالمراد من دعاء اللّه بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ و جريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلا: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين. بل ينبغى أن نتمثّل هذه الصفات فى وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، و أن يشع إشراق من علمه و شعاع من قدرته و جانب من رحمته الواسعة فينا و فى مجتمعنا.

و بتعبير آخر: ينبغى أن نتّصف بصفاته و نتخلّق بأخلاقه، لنستطيع بهذا الشعاع، شعاع العلم و القدرة و الرحمة و العدل أن نخرج أنفسنا و مجتمعنا الذى نعيش فيه من سلك أهل النّار ...

ثمّ تحذر الآية من هذا الأمر، و هو أن لا تحرّف أسماؤه فتقول: وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و الإلحاد- فى الأصل- مأخوذ من مادة «اللّحد» على زنة «المهد» التى تعنى الحفرة التى تقع فى طرف واحد، و على هذا الأساس فقد سمّيت الحفرة التى تكون فى جانب القبر «لحدا».

ثمّ أطلق هذا الاستعمال «الإلحاد» على كل عمل ينحرف عن الحدّ الوسط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۴

نحو الإفراط أو التفريط، و لذلك فقد سمّى الشرك و عبادة الأوثان إلحادا أيضا.

و المقصود من الإلحاد فى أسماء اللّه هو أن نحرف ألفاظها أو مفاهيمها.

بحيث نصفه بصفات لا تليق بساحته المقدسة، كما يصفه المسيحيون بالتثليث «اللّه و الابن و روح القدس» أو أن نطبّق صفاته على المخلوقين كما فعل ذلك المشركون و عبدة الأوثان إذ اشتقوا لأصنامهم أسماء من أسماء اللّه فسمّوها ...

اللات و العزّى و مناة ... (و غيرها) فهذه الأسماء مشتقّة من اللّه و العزيز و المنان «على التوالى».

أو أنّهم حرفوا صفاته حتى شبّهوه بالمخلوقات، أو عطلوا صفاته، و ما إلى ذلك.

أو أنّهم اكتفوا بذكر الاسم فحسب دون أن يتمثلوه و يعرفوا آثاره فى أنفسهم و فى مجتمعاتهم.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنّة، إذ تقول الآية: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ

و فى الواقع، إنّ لأهل الجنّة منهجين ممتازين فأفكارهم و أهدافهم و دعواتهم و ثقافاتهم حقّة، و هى فى اتجاه الحق أيضا، كما أنّ أعمالهم و خططهم و حكوماتهم قائمة على أساس الحق و الحقيقة.

بحوث

۱- ما هى الأسماء الحسنى؟

فى كتب الأحاديث «لأهل السنة و الشيعة» أبحاث كثيرة عن أسماء اللّه الحسنى، نورد خلاصتها فى هذا المجال مضافا إليها ما نعتقده

نحن فی هذا الصدد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۵

لا شک أنّ الأسماء الحسنی تعنی الأسماء الکریمة، و نحن نعرف أن أسماء اللّه کلّها تحمل مفاهیم حسنی، و لذلک فجمیع أسمائه أسماء حسنی، سواء کانت صفات لذاته المقدّسة الثبوتیة کالعلم و القادر، أم کانت صفات سلبیة کالقدّوس مثلا، أو صفات تحکی فعلا من أفعاله کالخالق أو الغفور أو الرحمان أو الرحیم إلخ ...

و من ناحیة أخری، لا شک أنّ صفات اللّه لا یمکن إحصاؤها، لأنّ کمالاته غیر متناهیة، و یمکن أن یذکر لکل صفة من صفاته أو کمال من کمالاته اسم ...

إلّا أن ما نستفیده من الأحادیث أنّ لبعض صفاته أهمیة أکثر من سواها، و لعل «الأسماء الحسنی» الواردة من الآیة فی الآیة محل البحث إشارة إلی هذه الطائفة من الأسماء المتمیّزة، إذ ورد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام من أهل بیته روایات کثیرة بهذا المعنی کالروایة الواردة فی کتاب التوحید «للصّدوق»

عن أبی عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق، عن آبائه علیهم السّلام، عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه قال: «قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ للّه تبارک و تعالی تسعة و تسعین اسما- مائة إلّا واحدة- من أحصاها دخل الجنّة»[۱۴۳].

کما

ورد فی کتاب التوحید عن الإمام علی بن موسی الرّضا علیه السّلام عن آبائه عن علی علیه السّلام أنّه قال: «إنّ للّه عز و جل تسعة و تسعین اسما من دعا اللّه بها استجاب له و من أحصاها دخل الجنّة»[۱۴۴].

و قد جاء فی کتب أحادیث (أهل السّنّة)

«کما فی کتاب صحیح البخاری و صحیح مسلم ... و الترمذی و کتب أخری» هذا المضمون ذاته: إنّ للّه تسعة و تسعین اسما فمن دعاء بها استجاب دعاءه، و من أحصاها فهو من أهل الجنّة[۱۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۶

و یستفاد من بعض الأحادیث أن هذه الأسماء التسعة و التسعین کلها فی القرآن، کالرّوایة الواردة

عن ابن عباس أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «للّه تسعة و تسعون اسما من أحصاها دخل الجنّة، و هی فی القرآن»[۱۴۶].

و لذلک فقد سعی جماعة من العلماء إلی أن یستخرجوا أسماء اللّه الحسنی من القرآن، إلّا أن ما جاء فی القرآن من أسماء و صفات للّه سبحانه تزید علی تسعة و تسعین اسما، فبناء علی ذلک لعل الأسماء الحسنی من بین تلک الأسماء، لا أنّه لا یوجد فی القرآن غیر تسعة و تسعین اسما للّه المشار إلیها آنفا (فی بعض الأحادیث) ...

و قد صرّحت بعض هذه الرّوایات بالأسماء الحسنی «التسعة و التسعین» ...

و نحن نوردها هنا، إلّا أنّه ینبغی الالتفات إلی أن بعض هذه الأسماء الواردة فی هذه الروایة لم ترد فی القرآن بالصیغة الواردة فی الروایة ذاتها و إنّما ورد مضمونها أو مفهومها فی القرآن.

فقد جاء فی الرّوایة المنقولة فی کتاب «التوحید» للصّدوق

عن الإمام الصادق عن آبائه عن علی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فبعد أن أشار علیه السّلام إلی أنّ للّه تسعة و تسعین اسما قال و هی: «اللّه، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول، الآخر، السمیع، البصیر، القدیر، القادر، العلی، الأعلی، الباقی، البدیع، الباری، الأکرم، الباطن، الحی، الحکیم، العلیم، الحلیم، الحفیظ، الحق، الحسیب، الحمید، الحفی، الرب، الرحمن، الرحیم، الذارئ، الرازق، الرقیب، الرؤوف، الرائی، السّلام، المؤمن، المهیمن، العزیز، الجبار، المتکبر، السید، السبّوح، الشهید، الصادق، الصانع، الظاهر، العدل، العفو، الغفور، الغنی، الغیاث، الفاطر، الفرد، الفتاح، الفالق، القدیم، الملک، القدوس، القوی، القریب، القیّوم، القابض، الباسط، قاضی

الحاجات،

المجید، المولی، المنان، المحیط، المبین، المغیث، المصوّر، الکریم، الکبیر، الکافی، کاشف الضر، الوتر، النور، الوهّاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادی، الوفی، الوکیل، الوارث، البرّ، الباعث، التواب، الجلیل، الجواد، الخبیر، الخالق، خیر الناصرین، الدیان، الشکور، العظیم، اللطیف، الشافی»[۱۴۷].

لکن الأهم- هنا- و ینبغی ملاحظته و الالتفات إلیه، هو أنّ المراد من دعاء اللّه بأسمائه الحسنی هل یعنی أن نعدّ هذه الأسماء أو أن نجریها علی الألسنة فحسب، بحیث أن من ذکر هذه التسعة و التسعین اسما دون أن یتمثل محتواها و یفهمها کان من السعداء، أو أنّه ستجاب دعوته. بل الهدف هو أن یؤمن الإنسان بهذه الأسماء و الصفات، ثمّ یسعی- ما استطاع إلی ذلک سبیلا- لأنّ یعکس فی وجوده إشراقا من مفاهیم تلک الأسماء، أی للعالم، القادر، الرحمان، الرحیم، الغفور، القوی، الغنی، الرازق، و أمثالها. فإنّ کان کذلک کان من أهل الجنّة، و کان دعاؤه مستجابا و نال کل خیر قطعا.

و یستفاد ضمنا ممّا ذکرناه آنفا أنّه لو وردت فی بعض الرّوایات الأخری و الأدعیة أسماء غیر هذه الأسماء للّه سبحانه، حتی لو وصلت إلی الألف- مثلا- فلا منافاة بینها و بین ما نقلناه هنا أبدا، لأنّ أسماء اللّه لا حد لها و لا حصر، و هی- کذاته و کمالاته- لا نهایة لها. و إن کان لبعض هذه الأسماء أو الصفات میزات خاصّة.

من ذلک الروایة الواردة

فی أصول الکافی عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة، إذ یقول: «نحن و اللّه الأسماء الحسنی»[۱۴۸]

فهی إشار إلی أن إشعاعا من صفاته قد انعکس فینا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسة ...

أو أنّه لو ورد مثلا فی بعض الأحادیث أنّ جمیع الأسماء الحسنی تتلخص فی

التوحید الخالص، فإنّما هو لأن جمیع صفاته ترجع إلی ذاته المقدسة.

و یشیر الفخر الرازی فی تفسیره إلی أمر قابل للملاحظة، و هو أنّ جمیع صفات اللّه تعالی یعود إلی إحدی حقیقتین «استغناء ذاته عن کل شیء» أو «احتیاج الآخرین إلی ذاته المقدسة ...»[۱۴۹].

۲- الأمّة الهداة!

قرأنا فی الآیات محل البحث أنّ طائفة من عباد اللّه یدعون نحو الحق و یحکمون به وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ هناک تعبیرات مختلفة فی الرّوایات الواردة فی کتب الأحادیث الإسلامیة، فی المراد من هذه الأمّة. و من جملة هذه الرّوایات ما ورد عن أمیر المؤمنین أنّه قال علیه السّلام. المراد من الآیة هو «أمّة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم»[۱۵۰].

و یعنی الإمام بهم أتباع النّبی الصادقین المنزّهین عن کل بدعة و انحراف و تغییر أو حیاد من تعالیمه الکریمة ...

و لهذا

فقد ورد فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «و الذی نفسی بیده لتفرقن هذه الأمة علی ثلاث و سبعین فرقة کلّها فی النّار إلّا فرقة وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ و هذه التی تنجو من هذه الأمّة».

و لعل العدد- ۷۳- للکثرة، و هو إشارة إلی الطوائف المختلفة التی ظهرت فی طول تاریخ الإسلام فی عقائد عجیبة غریبة، و لحسن

الحظ قد انقرض أغلبها فلم يبق منها إلّا أسماؤها فى كتب «تاريخ العقائد».

و

فى حديث آخر ورد فى كتب أهل السنة عن الإمام على عليه السّلام ضمن إشارته لاختلاف الأمم التى تظهر بعدئذ فى الأمّة الإسلامية، أن قال عليه السّلام «الفرقة الناجية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۹

أنا و شيعتى و أتباع مذهبى»[۱۵۱]

و جاء فى بعض الرّوايات الأخرى أنّ المراد من قول تعالى: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِ هم الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام»[۱۵۲].

و واضح أنّ الرّوايات المذكورة أنفا كلّها تعالج حقيقة واحدة، و هى بيان للمصاديق المختلفة لهذه الحقيقة، و هى أن الآية تشير إلى أمّة تدعو إلى الحق و تعمل بالحق و تحكم به، و تسير فى مسير الإسلام الصحيح. غاية ما فى الأمر أنّ بعضهم فى قمة هذه الأمّة و رأسها و بعضهم فى مراحل أخر ...

و ممّا يسترعى النظر أنّ هؤلاء الذين عبّرت عنهم الآية بقولها وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ على اختلاف لغاتهم و قوميّاتهم و مراحلهم العلمية و أمثالها، هم أمّة واحدة لا غير، و لذلك فإنّ القرآن قال عنهم: أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ و لم يعبر عنهم ب «أمم يهدون إلخ ...».

۳- اسم اللّه الأعظم

جاء فى بعض الرّوايات عن قصة بلعم بن باعورا الذى ورد ذكره- آنفا- أنّه كان يعرف الاسم الأعظم، و لا بأس أن نشير إلى هذا الموضوع لمناسبة ورود الأسماء الحسنى فى الآيات محل البحث ...

فقد وردت روايات مختلفة فى شأن الاسم الأعظم، و يستفاد منها أن من يعرف الاسم الأعظم لا يكون مستجاب الدعاء فحسب، بل تكون له القدرة على أن يتصرف فى عالم الطبيعة و أن يقوم بأعمال مهمّة ...

و الاسم الأعظم، أىّ اسم هو من أسماء اللّه؟! بحث علماء الإسلام كثيرا فى هذا الشأن، و أغلب أبحاثهم تدور فى أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۰

يعثروا على اسم من بين أسماء اللّه له هذه الخصوصيّة العجيبة و الأثر الكبير.

إلّا أن الأهم فى البحث أن نعثر على اسم أو صفة من صفاته تعالى بتطبيقها على وجودنا نحصل على تكامل روحى تترتب عليه تلك الآثار.

و بتعبير آخر: إنّ المسألة المهمّة هى التخلق بصفات اللّه و الاتصاف بها و وجودها فى الإنسان، و إلّا كيف يمكن أن يكون الشخص الردىء الوضيع مستجاب الدعوة بمجرّد معرفته الاسم الأعظم؟! و إذا ما سمعنا أنّ بلعم بن باعوراء كان لديه هذا الاسم الأعظم إلّا أنّه فقده، فمفهوم هذا الكلام أنّه كان قد بلغ- بسبب بناء شخصيته و إيمانه و علمه و تقواه- إلى مثل هذه المرحلة من التكامل المعنوى، بحيث كان مستجاب الدعوة عند اللّه، إلّا أنّه سقط أخيرا فى الوحل، فقد تلك الروحية بسبب اتباعه لهوى النفس و انقياده لفراعنة زمانه، و لعل المراد من نسيان الاسم الأعظم هو هذه الحالة أو هذا المعنى.

كما أنّنا لو قرأنا- أيضا- أن الأنبياء و الأئمّة الكرام كانوا يعرفون الاسم الأعظم، فمفهوم هذا الكلام هو أنّهم جسّدوا اسم اللّه الأعظم

فى وجودهم، و استضاءوا بشعاعه، فأولاهم اللّه- بهذه الحال- مثل هذه المقام العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۱

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۸۲ الى ۱۸۳]

اشارة

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (۱۸۲) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۱۸۳)

التّفسير

الاستدراج! ...

تعقيبا على البحث السابق الـذى عالجته الآيات المتقدمـة- و الذى يبيّن حال أهل النّار، تبيّن هاتان الآيتان واحدة من سـنن اللّه فى شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، و هى ما عبّر عنها القرآن «بعذاب الاستدراج».

و الاسـتدراج جـاء فى موطنين من القرآن: أحـدهما فى الآيتين محل البحث، و الآخر فى الآيـة (۴۴) من سورة القلم، و كلا الموطنين يتعلقان بمكذّبى آيات اللّه و منكر بها.

و كما يقول أهل اللغة، فإنّ للاستدراج معنيين:

أحدهما: أخذ الشـيء تدريجا، لأنّ أصل الاسـتدراج مشـتق من (الدرجة) فكما أنّ الإنسان ينزل من أعلى العمارة إلى أسفلها بالسلالم درجة درجة، أو يصعد من الأسفل إلى الأعلى درجة درجة و مرحلة مرحلة، فقد سمى هذا الأمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۲

استدراجا.

و المعنى الثّانى للاستدراج هو، اللّف و الطّى، كطّى السّـجل أو «الطومار» و لفّه. و هـذان المعنيان أوردهما الراغب فى مفرداته، إلّا أنّ التأمل بدقّة فى المعنيين يكشف أنّهما يرجعان إلى مفهوم كلى جامع واحد: و هو العمل التدريجى.

و بعد أن عرفنا معنى الاستدراج نعود إلى تفسير الآية محل البحث.

يقول سبحانه فى الآية الأولى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ

أى سنعذبهم بالاستدراج شيئا فشيئا، و نطوى حياتهم.

و الآيـة الثّانية تؤكّد الموضوع ذاته، و تشير بأنّ اللّه لا يتعجل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون و يتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب اللّه، فتقول الآية وَ أُمْلِي لَهُمْ

لأنّ الاستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، و اللّه قوى و لا يفلت من قبضته أحد إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

و «المتين» معناه القوى المحكم الشديد، و أصله مأخوذ من المتن، و هو العضلة المحكمة التى تقع فى جانب الكتف (فى الظهر).

و «الكيـد» و المكر متساويان فى المعنى، و كما ذكرنا فى ذيل الآية (۵۴) من سورة آل عمران، أنّ المكر يعنى فى أصل اللغة الاحتيال و منع الآخر من الوصول إلى قصده.

و يسـتفاد من الآية- آنفة الذكر و آيات أخرى و بعض الأحاديث الشـريفة الواردة- فى شأن الاسـتدراج، أو العذاب الاسـتدراجى، أنّ اللّه لا يتعجل بالعذاب على الطغاة و العاصـين المتجرئين وفقا لسـنته فى عباده، بل يفتح عليهم أبواب النعم. فكلّما ازدادوا طغيانا زادهم

نعما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۳

و هذا الأمر لا یخلو من إحدی حالتین، فإمّا أن تکون هذه النعم مدعاة للتنبیه و الإیقاظ فتکون الهدایة الإلهیة فی هذه الحال عملیة. أو أنّ هـذه النعم تزیدهم غرورا و جهلا، فعندئذ یکون عقاب اللّه لهم فی آخر مرحلة أوجع، لأنّهم حین یغرقون فی نعم اللّه و ملذاتهم و یبطرون، فإنّ اللّه سبحانه یسلب عندئذ هذه النعم منهم، و یطوی سجل حیاتهم، فیکون هذا العقاب صارما و شدیدا جدّا ...

و هذا المعنی بجمیع خصوصیاته لا یحمله لفظ الاستدراج وحده، بل یستفاد هذا المعنی یفید مِنْ حَیْثُ لا یَعْلَمُونَ أیضا.

و علی کل حال، فهـذه الآیـة تنـذر جمیع المجرمین و المـذنبین بأنّ تأخیر الجزاء من قبل اللّه لا یعنی صـحة أعمالهم أو طهارتهم، و لا عجزا و ضـعفا من اللّه، و أن لا ـ یحسـبوا أنّ النعم الـتی غرقوا فیهـا هی دلیـل علی قربهم من اللّه، فمـا أقرب من أن تکون هـذه النعم و الانتصارات مقدمة لعقاب الاسـتدراج. فاللّه سـبحانه یغشّیهم بالنعم و یمهلهم و یرفعهم عالیا، إلّا أنّه یکبسهم علی الأرض فجأة حتی لا یبقی منهم أثر، و یطوی بذلک وجودهم و تأریخ حیاتهم کله.

یقول الإمام علی علیه السّلام فی نهج البلاغة أنّه «من وسّع علیه فی ذات یده فلم یر ذلک استدراجا فقد أمن مخوفا»[۱۵۳]. کما

جاء عنه علیه السّـلام فی روضة الکافی أنّه قال: «ثمّ إنّه سیأتی علیکم من بعدی زمان لیس فی ذلک الزمان شیء أخفی من الحق، و لا أظهر من الباطل، و لا أکثر من الکذب علی اللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- إلی أن قال- یدخل الداخل لما یسمع من حکم القرآن فلا یطمئن جالسا حتی یخرج من الـدین، ینتقل من دین ملک إلی دین ملک، و من ولایـة إلی ولایـة ملک، و من طاعـة ملک إلی طاعة ملک، و من عهود ملک إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۴

عهود ملک، فاستدرجهم اللّه تعالی من حیث لا یعلمون»[۱۵۴].

و

یقول الإمام الصادق علیه السّـلام: «کم من مغرور بما قد أنعم اللّه علیه، و کم من مسـتدرج یستر اللّه علیه، و کم من مفتون بثناء الناس علیه»[۱۵۵].

و

جاء عنه علیه السّـلام فی تفسیر الآیـة المشار إلیها آنفا أنّه قال: «هو العبـد یـذنب الـذنب فتجـدد له النعمـة معه، تلهیه تلک النعمـة عن الاستغفار عن ذلک الذنب»[۱۵۶].

و

ورد عنه علیه السّـلام فی کتاب الکافی أیضا: «إنّ اللّه إذا أراد بعبد خیرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمة و یذکره الاستغفار، و إذا أراد بعبد شرّا فـأذنب ذنبـا أتبعـه بنعمـة لینسـیه الاسـتغفار، و یتمـادی بهـا، و هـو قـوله عزّ و جـل: سَنَسْـتَدْرِجُهُمْ مِـنْ حَیْـثُ لا ـ یَعْلَمُـونَ بـالنعم عند المعاصی»[۱۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۵

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۸۴ الی ۱۸۶]

اشارة

أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۸۴) أ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۱۸۵) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۸۶)

سبب النّزول

روى المفسّرون أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين كان بمكّة، صعد ذات ليلة على جبل الصفا و دعا الناس إلى توحيد اللّه، و خاصّة قبائل قريش، و حذرهم من عذاب اللّه، و

قال: «إنّى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، قولوا، لا إله إلّا اللّه تفلحوا»

فقال المشركون: إنّ صاحبهم قد جنّ، بات ليلا يصوت حتى الصباح، فنزلت الآيات و ألجمتهم وردت قولهم.

و رغم أنّ الآية لها شأن خاص، إلّا أنّها فى الوقت ذاته لمّا كانت تدعو إلى معرفة النّبى و هدف الخلق و التهيؤ للعالم الآخر، ففيها ارتباط وثيق بالمواضيع التى سبق بيانها فى شأن أهل الجنّة و أهل النّار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۶

التّفسير

التهم و الأباطيل:

فى الآية الأولى من الآيات- محل البحث- يردّ اللّه سبحانه على كلام المشركين الذى لا أساس له بزعمهم أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد جنّ، فيقول سبحانه: أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ[۱۵۸].

و هذا التعبير يشير إلى أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن شخصا مجهولا بينهم، و تعبيرهم ب «الصاحب» يعنى المحب و المسامر و الصديق و ما إلى ذلك. و كان النّبى معهم أكثر من أربعين عاما يرون ذهابه و إيابه و تفكيره و تدبيره دائما و آثار النبوغ كانت بادية عليه، فمثل هذا الإنسان الذى كان يعدّ من أبرز الوجوه و العقلاء قبل الدعوة إلى اللّه، كيف تلصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أمّا كان الأفضل أن يتفكروا- بدلا من إلصاق التهم به- أن يكون صادقا فى دعواه و هو مرسل من قبل اللّه سبحانه؟! كما عقب القرآن الكريم و بيّن ذلك بعد قوله أو لم يتفكروا؟

فقال: إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ...

و فى الآية التّالية- استكمالا للموضوع آنف الذكر- دعاهم القرآن إلى النظر فى عالم الملكوت، عالم السموات و الأرض، إذ تقول الآية: أ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ.

ليعلموا أنّ هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السموات و الأرض، بنظامه الدقيق المحيّر المذهل لم يخلق عبثا، و إنّما هناك هدف وراء خلقه. و دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحقيقة، هى من أجل ذلك الهدف، و هو تكامل الإنسان و تربيته و ارتقاؤه.

و «الملكوت» فى الأصل مأخوذ من «الملك» و يعنى الحكومة و المالكية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۷

و الواو و التاء المزيدتان المردفتان به هما للتأكيد و المبالغة. و يطلق هذا الاستعمال على حكومة اللّه المطلقة التى لا حدّ لها و لا نهاية ...

فالنظر إلى عالم الملكوت و نظامه الكبير الواسع المملوك للّه سبحانه يقوّى الإيمان باللّه و الإيمان بالحق، كما أنّه يكشف عن وجود هدف مهم فى هذا العالم الكبير المنتظم أيضا. و فى الحالين يدعو الإنسان إلى البحث عن ممثل اللّه و رسول رحمته الذى يستطيع أن يطبق الهدف من الخلق فى الأرض.

ثمّ تقول الآية معقبة ... لتنبّههم من نومة الغافلين وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ

أى: أوّلا: ليس الأمر كما يتصورون، فأعمارهم لا تخلد و الفرص تمر مرّ السحاب، و لا يدرى أحد أهو باق إلى غد أم لا؟! فمع هذه الحال ليس من العقل التسويف و تأجيل عمل اليوم إلى غد.

ثانيا: إذ لم يكونوا ليؤمنوا بهذا القرآن العظيم الذى فيه ما فيه من الدلائل الواضحة و البراهين اللائحة الهادية إلى الإيمان باللّه، فأى كتاب ينتظرونه خير من القرآن ليؤمنوا به؟ و هل يمكن أن يؤمنوا بكلام آخر و دعوة أخرى غير هذه؟! و كما نلاحظ فإنّ الآيات محل البحث توصد جميع سبل الفرار بوجه المشركين، فمن ناحية تدعوهم إلى أن يتفكروا فى شخصيّة النّبى و عقله و سابق أعماله فيهم لئلا يتملّصوا من دعوته باتهامهم إيّاه بالجنون.

و من ناحية أخرى تدعوهم إلى أن ينظروا فى ملكوت السماوات و الأرض، و الهدف من خلقهما، و أنّهما لم يخلقا عبثا.

و من ناحية ثالثة تقول: وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ لئلا يسوّفوا قائلين اليوم و غدا و بعد غد إلخ ...

و من ناحية رابعة تقول: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنّهم لن يؤمنوا بأى حديث آخر و أى كتاب آخر، إذ ليس فوق القرآن كتاب أبدا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۸

و أخيرا فإنّ الآية التالية، و هى آخر آية من الآيات محل البحث، تختتم الكلام بالقول مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ

و كما ذكرنا مرارا فإن مثل هذه التعابير لا تشمل جميع الكفار و المجرمين، بل تختص بأولئك الذين يقفون بوجه الحقائق معاندين ألدّاء، حتى كأنّما على أبصارهم غشاوة و فى سمعهم صمم و على قلوبهم طبع، فلا يجدون إلّا أسدالا من الظلمات تحجب طريقهم. و كل ذلك هو نتيجة أعمالهم أنفسهم، و هو المقصود بالإضلال الإلهى مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۹

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۸۷]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۱۸۷)

سبب النّزول

أيّان يوم القيامة؟!

وفقا لمّا ورد فى بعض الرّوايات ۱۵۹] فإنّ قريشا أرسلت عدّة أنفار إلى نجران ليسألوا اليهود الساكنين فيها- إضافة إلى المسيحيين هناك- مسائل ملتوية ثمّ يلقوها على النّبى عند رجوعهم إليه، ظنّا منهم أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سيعجز عن إجابتهم، و من

جملة هذه الأسئلة كان هذا السؤال: متى تقوم الساعة؟! فلما سألوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك السؤال نزلت الآية محل البحث و أفحمتهم![۱۶۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۰

التّفسير

مع أنّ هذه الآية ذات سبب خاص فى النّزول- كما ذكروا- إلّا أنّها فى الوقت ذاته لها علاقة وثيقة بالآيات المتقدمة أيضا، لأنّه قد وردت الإشارة إلى يوم القيامة و لزوم الاستعداد لمثل ذلك اليوم فى الآيات السابقة. و بالطبع فإنّ موضوعا كهذا يستدعى السؤال عن موعده و قيامه، و يستثير كثيرا من الناس أن يسألوه: أيّان يوم القيامة؟ لهذا فإنّ القرآن يقول: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها؟! و بالرغم من أنّ «الساعة» تعنى زمان نهاية الدنيا، إلّا أنّها فى الغالب- أو دائما كما ذهب البعض- تأتى بمعنى القيامة فى القرآن الكريم، و خاصّة من بعض القرائن التى تكتنف الآية- محل البحث- إذ تؤكّد هذا الموضوع كجملة: متى تقوم الساعة؟ الواردة فى شأن نزول الآية:

و كلمة «أيّان» تساوى «متى» و هما للسّؤال عن الزمان، و المرسى مصدر ميمى من الإرساء، و هما بمعنى واحد، و هو ثبات الشيء أو وقوعه، لذلك يطلق على الجبل وصف «الراسى» فيقال: جبال راسيات، فبناء على ذلك فإنّ «أيّان مرساها» تعنى: فى أى وقت تقع القيامة و تكون ثابتة؟! ثمّ تضيف الآية مخاطبة النّبى أن يردهم بصراحة قائلة: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ.

إلّا أنّ الآية تذكر علامتين مجملتين، فتقول أوّلا: ثَقُلَتْ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

أية حادثة يمكن أن تكون أثقل من هذه، إذ تضطرب لهولها جميع الأجرام السماوية «قبيل القيامة» فتخمد الشمس و يظلم القمر و تندثر النجوم، و يتكون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۱

من بقاياها عالم جديد بثوب آخر![۱۶۱] ثمّ إنّ قيام الساعة يكون على حين غرّة، و بدون مقدمات تدريجية، بل على شكل مفاجئ و انقلاب سريع.

ثمّ تقول الآية مرّة أخرى: يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها[۱۶۲].

و تضيف الآية مخاطبة النّبى الكريم: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

و ربّما يسأل- أو يتساءل- بعض الناس: لم كان علم الساعة خاصّا باللّه و ذاته المقدسة، و لا يعلم بها حتى الأنبياء؟! و الجواب على ذلك: إن عدم معرفة الناس بوقوع يوم القيامة و زمانها «بضميمة كون القيامة لا تأتى إلّا بغتة» و مع الالتفات إلى هول يوم القيامة و عظمتها، هذا الأمر يبعث على أن يتوقّع الناس وقوع يوم القيامة فى أى وقت و يترقبوها باستمرار، و يكونوا على أهبة الاستعداد و التهيؤ، لكى ينجوا من أهوالها. فعدم المعرفة هذا له أثر مثبت جلى فى تربية النفوس و الالتفات إلى المسؤولية و اتقاء الذنوب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۲

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۸۸]

اشارة

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۸۸)

سبب النّزول

روی بعض المفسّرین «كالعلّامة الطبرسی فی مجمع البیان» أن أهل مكّة قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم: إذا كان لك ارتباط باللّه، أ فلا یطلعك اللّه على غلاء السلع أو زهادتها فی المستقبل، لتهیئ عن هذا الطریق ما فیه النفع و الخیر و تدفع عنك ما فیه الضرر و السوء، أو یطلعك اللّه على السّنة الممحلة «القحط» أو العام المخصب العشب، فینتقل إلى الأرض الخصیبة؟ فنزلت عندئذ الآیة- محل البحث- و كانت جواب سؤالهم.

التّفسیر

لا یعلم الغیب إلّا اللّه:

بالرّغم من أنّ هذه الآیة لها شأن خاص فی نزولها، إلّا أنّ ارتباطها بالآیة

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۳

السابقة واضح، لأنّ الكلام كان فی الآیة السابقة على عدم علم أحد بقیام الساعة إلّا اللّه، و الكلام فی هذه الآیة على نفی علم الغیب عن العباد بصورة كلیة.

ففی الجملة الأولى من هذه الآیة خطاب للنّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم یقول: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ

و لا شك أنّ كل إنسان یستطیع أن ینفع نفسه، أو یدفع عنها الشر، و لكن على الرغم من هذه الحال فإنّ الآیة- محل البحث، كما نلاحظ- تنفی هذه القدرة عن البشر نفیا مطلقا. و ذلك لأنّ الإنسان فی أعماله لیس له قوّة من نفسه، بل القوّة و القدرة و الاستطاعة كلّها من اللّه، و هو سبحانه الذی أودع فیه كل تلك القوّة و القدرة و ما شاكلهما.

و بتعبیر آخر: إنّ مالك جمیع القوى و القدرات و ذو الإختیار المستقل- و بالذات- فی عالم الوجود هو اللّه عزّ و جلّ فحسب، و الآخرون حتى الأنبیاء و الملائكة یكتسبون منه القدرة و یستمدون منه القوّة، و ملكهم و قدرتهم هی بالغیر لا بالذات ...

و جملة «إلّا ما یشاء اللّه» شاهد على هذا الموضوع أیضا.

و فی كثیر من آیات القرآن الأخرى نرى نفی المالكیة و النفع و الضرر عن غیر اللّه، و لذلك فقد نهت الآیات عن عبادة الأصنام و ما سوى اللّه سبحانه ...

و نقرأ فی الآیتین (۳) و (۴) من سورة الفرقان وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ وَ لا یَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً فكیف یملكون لغیرهم؟! و هذه هی عقیدة المسلم، إذ لا یرى أحدا «بالذات» رازقا و مالكا و خالقا و ذا نفع أو ضرر إلّا اللّه، و لذا فحین یتوجه المسلم إلى أحد طالبا منه شیئا فهو یطلبه مع التفاته إلى هذه الحقیقة، و هی أنّ ما عند ذلك الشخص فهو من اللّه (فتأمل بدقّة).

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۴

و یتّضح من هذا إنّ الذین یتذرعون بمثل هذه الآیات لنفی كل توسل بالأنبیاء و الأئمّة، و یعدون ذلك شركا، فی خطأ فاضح، حیث تصوروا بأنّ التوسل بالنّبی أو الإمام مفهومه أن نعدّ النّبی أو الإمام مستقلا بنفسه فی قبال اللّه- و العیاذ باللّه- و أنّه یملك النفع و الضرر أیضا.

و لكن من یتوسل بالنّبی أو الإمام مع الإعتقاد بأنّه لا یملك شیئا من نفسه، بل یطلبه من اللّه، أو أنّه یستشفع به إلى اللّه، فهذا الإعتقاد

هو التوحيد عينه و الإخلاص ذاته. و هو ما أشار إليه القرآن فى الآية محل البحث بقوله: إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ أو بقوله: إِلَّا بِإِذْنِهِ فى الآية مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ

فبناء على ذلك فإنّ فريقين من الناس على خطأ فى مسألة التوسل بالنّبى و الأئمّة الطاهرين ...

الفريق الأوّل: من يزعم أنّ النّبى أو الإمام له قدرة و قوة مستقلة بالذات فى قبال اللّه، فهذا الإعتقاد شرك باللّه.

و الفريق الآخر: من ينفى القدرة- بالغير- عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام، فهذا الإعتقاد انحراف عن مفاد آيات القرآن الصريحة.

إذن: الحق هو أنّ النّبى و الأئمّة يشفعون للمتوسل بهم بإذن اللّه و أمره، و يطلبون حل معضلته من اللّه.

و بعد بيان هذا الموضوع تشير الآية إلى مسألة مهمّة أخرى ردّا على سؤال جماعة منهم فتقول: وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ[۱۶۳].

لأنّ الذى يعرف أسرار الغيب يستطيع أن يختار ما هو فى صالحه، و أن يجتنب عمّا يضرّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۵

ثمّ تحكى الآية عن مقام النّبى الواقعى و رسالته، فى جملة موجزة صريحة، فتقول على لسانه: إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

ملاحظة

ألم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعلم الغيب؟!

يحكم بعض السطحيين لدى قراءتهم لهذه الآية- و بدون الأخذ بنظر الإعتبار الآيات القرآنية الأخرى، بل حتى القرائن الموجودة فى هذه الآية أيضا- أنّ الآية آنفة الذكر دليل على نفى علم الغيب عن الأنبياء نفيا مطلقا ...

مع أنّ الآية- محل البحث- تنفى علم الغيب المستقل و بالذات عن النّبى، كما أنّها تنفى القدرة على كل نفع و ضرّ بصورة مستقلة. و نعرف أنّ كل إنسان يملك لنفسه و للآخرين النفع أو الضر.

فبناء على ذلك فإنّ هذه الجملة المتقدمة شاهد واضح على أنّ الهدف ليس هو نفى مالكية النفع و الضر أو نفى علم الغيب بصورة مطلقة، بل الهدف نفى الاستقلال، و بتعبير آخر: إنّ النّبى لا يعرف شيئا من نفسه، بل يعرف ما أطلعه اللّه عليه من أسرار غيبه، كما تقول الآيتان (۲۶) و (۲۷) من سورة الجن عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً.

و أساسا، فإنّ كمال مقام القيادة لا سيما إذا كان الهدف قيادة العالم بأسره، و فى جميع المجالات الماديّة و المعنوية، هو الاحاطة الواسعة بالكثير من المسائل الخفية عن سائر الناس، لا المعرفة بأحكام اللّه و قوانينه فحسب، بل المعرفة بأسرار عالم الوجود، و البناء البشرى، و قسم من حوادث المستقبل و الماضى، فهذا القسم من العلم يطلعه اللّه على رسله، و إذا لم يطلعهم عليه لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۶

تكمل قيادتهم! ...

و بتعبير آخر: إنّ أحاديث الأنبياء و الرسل و سيرتهم ستكون محدودة بظروف عصرهم و محيطهم، لكن عند ما يكونون عارفين بهذا القسم من أسرار الغيب فسيقومون ببناء حضارة على مستوى الأجيال القادمة، فتكون مناهجهم صالحة لمختلف الظروف و المتغيّرات ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۷

الآيات [سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٩ الى ١٩٣]

اشارة

هُوَ الَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣)

التّفسير

جحد نعمة عظمى:

فی هذه الآيات إشارة إلى جانب آخر من حالات المشركين و أسلوب تفكيرهم، و الردّ على تصوّراتهم الخاطئة. لما كانت الآية السابقة تجعل جميع ألوان النفع و الضرّ و علم الغيب منحصرا باللّه، و كانت فی الحقيقة إشارة إلى توحيد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۸

أفعال اللّه. فالآيات محل البحث تعدّ مكملة لها لأنّ هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال اللّه أيضا.

تقول الآية الأولى من هذه الآيات هُوَ الَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فجعل الحياة و السكن جنبا إلى جنب فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ١۶۴].

و بمرور الأيّام و الليالی ثقل الحمل فَلَمَّا أَثْقَلَتْ كان كل من الزوجين ينتظر الطفل، و يتمنّى أن يهبه اللّه ولدا صالحا، فلذلك دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ و عند ما استجاب اللّه دعاءهما، و رزقهما الولد الصالح أشركا باللّه فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

الجواب على سؤال مهم!

هناك بين المفسّرين كلام فی المراد من الزوجين الذين تكلمت عنهما الآيتان الأوليان من الآيات محل البحث ...

هل أنّ المراد من «النفس الواحدة» و زوجها آدم و حواء؟ مع أنّ آدم من الأنبياء و حواء امرأة مؤمنة كريمة، فكيف ينحرفان عن مسير التوحيد و يسلكان مسير الشرك؟! و إذا كان المراد من النفس الواحدة غير آدم و تشمل الآية جميع أفراد البشر، فكيف ينسجم التعبير إذا و قوله تعالى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ؟! ثمّ بعد هذا ما المراد من الشرك، و أی عمل أو تفكير قام به الزوجان فجعلا للّه شركاء؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۹

و فی الجواب على مثل هذه الأسئلة نقول:

يوجد طريقان لتفسير الآيتين هاتين «و ما بعدهما»، و لعل جميع ما قاله المفسّرون على اختلاف آرائهم يرجع إلى هذين الطريقين ...

الأوّل: إنّ المراد من نفس «واحدة». هو الواحد الشخصی كما ورد هذا المعنى فی آيات أخرى من القرآن أيضا، و منها أوّل آية من

سورة النساء.

و التعبیر بالنفس الواحدة- أساسا- جاء فی خمسة مواطن فی القرآن المجید، واحدة منها فی الآیة- محل البحث- و الأربعة الأخرى هی فی سورة النساء (الآیة الأولى) و سورة الأنعام، الآیة (۹۸)، و سورة لقمان، الآیة (۲۸)، و سورة الزمر، الآیة (۶)، و بعض هذه الآیات لا علاقة لها ببحثنا هذا، و بعضها یشبه الآیة محل البحث. فبناء على ذلک فالآیات- محل البحث- تشیر إلى آدم و زوجه حوّاء فحسب! و على هذا فالمراد بالشرک لیس هو عبادة غیر اللّه أو الإعتقاد بألوهیة غیره، بل لعل المراد شی آخر من قبیل میل الإنسان لطفله، المیل الذی ربّما یجعله غافلا عن اللّه أحیانا.

و التّفسیر الثانی: هو أنّ المراد من النفس الواحدة هو الواحد النوعی، أی أن اللّه خلقکم جمیعا من نوع واحد کما خلق أزواجکم من جنسکم أیضا.

و بذلک فإنّ الآیتین و ما بعدهما من الآیات- محل البحث- تشیر إلى نوع الناس، فهم یدعون اللّه و ینتظرون الوالد الصالح فی کمال الإخلاص للّه و الانقطاع إلیه، کمن یحدق بهم الخطر فیلتجئوا إلى اللّه، و یعاهدون اللّه على شکره بعد حلّ معضلاتهم. و لکن عند ما یرزقهم اللّه الولد الصالح، أو یحلّ مشاکلهم ینسون جمیع عهودهم فإنّ کان الولد جمیلا قالوا: إنّه اکتسب جماله من أبیه أو أمّه، و هذا هو قانون الوارثة. و تارة یقولون: إنّ غذاؤه و الظروف الصحیة تسببت فی نموّه و سلامته. و تارة یعتقدون بتأثیر الأصنام و یقولون: إنّ ولدنا کان من برکة الأصنام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۰

و عطائها! و أمثال هذا الکلام ...

و هکذا یهملون التأثیر الرّبانی بشکل عام، و یرون العلّة الأصلیة هی العوامل الطبیعیة أو المعبودات الخرافیة[۱۶۵].

و القرائن فی الآیات- محل البحث- تدل على أن التّفسیر الثّانی أکثر انسجاما و أکثر تفهما لغرض الآیة، لأنّه:

أوّلا: إن تعبیرات الآی تحکی عن حال زوجین کانا یعیشان فی مجتمع ما من قبل، و رأیا الأبناء الصالحین و غیر الصالحین فیه، و لهذا طلبا من اللّه و سألاه أن یرزقهما الولد الصالح. و لو کانت الآیات تتکلم على آدم و حواء فهو خلاف الواقع، لأنّه لم یکن یؤمئذ ولد صالح و غیر صالح حتى یسألا اللّه الولد الصالح.

ثانیا: الضمائر الواردة فی آخر الآیة الثّانیة و الآیات التی تلیها، کلها ضمائر «جمع» و یستفاد من هذا أنّ المراد من ضمیر التثنیة هو إشارة إلى الفریقین لا إلى الشخصین.

ثالثا: أنّ الآیات التی تلت الآیتین الأوّلیین تکشف عن أنّ المقصود بالشرک هو عبادة الأصنام، لا محبّة الأولاد و الغفلة عن اللّه، و هذا الأمر لا ینسجم و النّبی آدم و زوجه! فبملاحظة هذه القرائن یتّضح أنّ الآیات- محل البحث- تتکلم عن نوع الإنسان و زوجه لیس إلّا.

و کما ذکرنا فی الجزء الثّانی من التّفسیر الأمثل أن خلق زوج الإنسان من الإنسان لیس معناه أن جزءا من بدنه انفصل عنه و تبدل إلى زوج له یسکن إلیه «کما ورد فی روایة إسرائیلیة أن حواء خلقت من ضلع آدم الأیسر!».

بل المراد أن زوج الإنسان من نوعه و جنسه، کما نقرأ فی الآیة (۲۱) من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۱

سورة مریم! قوله تعالى: أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها.

روایة مجعولة:

جاء فی بعض المصادر الحدیثیة لأهل السنّة، و بعض کتب الحدیث الشیعیة غیر المعتبرة، فی تفسیر الآیات محل البحث، حدیث لا

ینسجم مع العقائد الإسلامیة، و لا یلیق بشأن الأنبیاء أبدا. و هذا الحدیث کما جاء فی مسند أحمد هو:

أنّ سمرة بن جندب روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: لمّا ولدت حواء طاف بها إبلیس و کان لا یعیش لها ولد فقال: سمیّه: عبد الحارث، فعاش و کان ذلک من وحی الشّیطان و أمره ۱۶۶]

«الحارث اسم من أسماء الشیطان».

و جاء فی بعض الرّوایات الوارد فیها هذا المضمون ذاته أن آدم رضی بهذا الأمر!! و سواء أ کان راوی هذه الروایة سمرة بن جندب- الکذاب المشهور- أم غیره أمثال کعب الأحبار أو وهب بن منبه اللذین کانا من علماء الیهود ثمّ أسلما، و یعتقد بعضهم أنّهما أدخلا فی الثقافة الإسلامیة خرافات التوراة و بنی إسرائیل.

و مهما یکن الأمر فالروایة بنفسها خیر دلیل علی فسادها و بطلانها، لأنّ آدم الذی هو خلیفة اللّه «فی أرضه» و نبیّه الکبیر، و کان یعلم الأسماء، بالرغم من کونه بترک الأولی هبط إلی الأرض، إلّا أنّه لم یکن إنسانا یختار سبیل الشرک و یسمّی ولده عبد الشیطان، فهذا الأمر یصدق فی مشرک جاهل فحسب لا فی آدم ...

و الأعجب من ذلک أنّ الحدی أنف الذکر یتضمن معجزة للشیطان أو کرامة له، إذ بتسمیته الولد باسمه عاش الولد خلافا للأبناء الآخرین. و إنّه لمدعاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۲

للأسف الشدید أن ینساق کثیر من المفسّرین تحت وطأة هذا الحدیث المختلق و أضرابه، فیجعلون مثل هذه الأباطیل تفسیرا للآی. و علی کل حال، فإنّ مثل هذا الکلام لما کان مخالفا للقرآن، و مخالفا للعقل أیضا، فینبغی أن ینبذ فی سلة المهملات.

و تعقیبا علی هذا الأمر یردّ القرآن- بأسلوب بیّن متین- عقیدة المشرکین و أفکارهم مرة أخری، فیقول: أَ یُشْرِکُونَ ما لا یَخْلُقُ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ

و لیس هذا فحسب، فهم ضعاف وَ لا یَسْتَطِیعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ

و الأوثان و الأصنام فی حالة لو نادیتموها لما استجابت لکم وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَی الْهُدی لا یَتَّبِعُوکُمْ

فمن کان بهذه المنزلة و بهذا المستوی أنّی له بهدایة الآخرین! و یحتمل بعض المفسّرین احتمالا آخر فی تفسیر الآیة، و هو أنّ الضمیر «هم» یرجع إلی المشرکین لا- إلی الأصنام، أی أنّهم إلی درجة من الإصرار و العناد بحیث لا- یسمعونکم و لا- یذعنون لکم و لا یسلمون.

کما و یحتمل أنّ المراد هو أنّکم لو طلبتم منهم الهدایة، فلن یتحقق دعاؤکم و طلبکم علی کل حال سَواءٌ عَلَیْکُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ

و طبقا للاحتمال الثّانی یکون معنی الجملة علی النحو التالی: سواء علیکم أ طلبتم من الأصنام شیئا، أو لم تطلبوا ففی الحالین لا أثر لها، لأنّ لا تقدر علی أداء أی شیء أو التأثیر فی شیء.

یقول الفخر الرازی فی تفسیره: إذا المشرکین إذا ابتلوا بمشکلة تضرعوا إلی الأصنام و دعوها، و إذا لم یصبهم أذی أو سوء کانوا یسکتون عنها، فالقرآن یخاطبهم بالقول سَواءٌ عَلَیْکُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۳

الآیتان [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۹۴ الی ۱۹۵]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۹۴) أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (۱۹۵)

التّفسير

هاتان الآيتان- محل البحث- تواصلان الكلام على التوحيد و مكافحة الشرك، و تكملان ما عالجته الآيات السابقة، فتعدّان كل شرك فى العبادة عملا سفيها و بعيدا عن المنطق و العقل! و التدفيق فى مضمون هاتين الآيتين يكشف أنّهما تبطلان منطق المشركين بأربعة أدلة، و السرّ فى كون القرآن يعالج إبطال الشرك باستدلالات مختلفة، و كل حين يأتى ببرهان مبين، لأن الشرك ألدّ أعداء الإيمان، و أكبر عدوّ لسعادة الفرد و المجتمع.

و لما كانت للشرك جذور مختلفة و أفانين متعددة فى أفكار البشر، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۴

القرآن يستغل كل فرصة لقطع جذوره الخبيثة ... و أفانينه التى تهدد المجتمع الإنسانى.

فتقول الآية الأولى من هاتين الآيتين: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ

فبناء على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشىء مثله، و أن يمدّ يد الضراعة و الحاجة إليه، و أن يجعل مقدّراته و مصيره تحت يده!

و بتعبير آخر: إنّ مفهوم هذه الآية هو أنّكم- أيها المشركون- لو أمعنتم النظر لرأيتم معبوداتكم ذات أجسام و أسيرة المكان و الزمان، و تحكمها قوانين الطبيعة، و هى محدودة من حيث الحياة و العمر و الإمكانات الأخرى. و خلاصة الأمر: ليس لها امتياز عليكم، و إنّما جعلتم لها امتيازا عليكم بتصوراتكم و تخيلاتكم! ثمّ إنّ كلمة «عباد» جمع «عبد» و يطلق هذا اللفظ على الموجود الحى، مع أن الآية استعملته فى الأصنام، فكانت لذلك تفاسير متعددة ...

التّفسير الأوّل: أنّه من المحتمل أن تشير الآية إلى المعبودين من جنس الإنسان أو المخلوقات الأخرى، كالمسيح إذ عبده النصارى، و الملائكة إذ عبدتها جماعة من المشركين العرب.

و التّفسير الثانى: أنّ الآية تنزلت و حكت ما توهمه المشركين فى الأصنام بأنّ لها القدرة، فكانوا يكلمونها و يتضرعون إليها، فالآية- محل البحث- تخاطبهم بأنّه على فرض أنّ للأصنام عقلا و شعورا، فهى لا تعدو أن تكون عبادا أمثالكم.

التّفسير الثّالث: أنّ العبد فى اللغة يطلق أحيانا على الموجود الذى يرزح تحت نيز الآخر و يخضع له، حتى لو لم يكن له عقل و شعور، و من هذا القبيل أنّ العرب يطلقون على الطريق المطرّق بالذهاب و الإياب أنّه «معبّد».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۵

ثمّ تضيف الآية: أنّكم لو تزعمون بأنّ لهم عقلا و شعورا فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و هذا هو الدليل الثّانى على إبطال منطق المشركين، و هو كون الأصنام لا تستطيع أن تعمل شيئا، و هى ساكتة عاجزة عن الإجابة و الردّ ...

و فى البيان الثّالث تبرهن الآية على أنّ الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين، فتساءل مستنكرة: أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ ۱۶۷] بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها.

و هكذا فإنّ الأصنام من الضعة بمكان حتى أنّها بحاجة إلى من يدافع عنها و يحامى عنها، فليس لها أعين تبصر بها، و لا آذان تسمع بها، و لا أرجل تمشى بها، و لا أى إحساس آخر. و أخيرا فإنّ الآية تبيّن ضمن تعبير هو فى حكم الدليل الرّابع مخاطبة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ

أى إذا كنت كاذبا، و أنّ الأصنام مقربات عند اللّه، و قد تجرأت عليها فلم لا تعضب علىّ؟ و ليس لها و لا لكم و لمكائدكم أى تأثير

علی. فبناء علی ذلک فاعلموا أنّ هذه الأصنام موجودات غیر مؤثرة، و إنّما تصوراتکم هی التی أضفت علیها ذلک التوهّم!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۶

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۹۶ الی ۱۹۸]

اشارة

إِنَّ وَلِیِّیَ اللَّهُ الَّذِی نَزَّلَ الْکِتابَ وَ هُوَ یَتَوَلَّی الصَّالِحِینَ (۱۹۶) وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَکُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ (۱۹۷) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَی الْهُدی لا یَسْمَعُوا وَ تَراهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ وَ هُمْ لا یُبْصِرُونَ (۱۹۸)

التّفسیر

المعبودات التی لا قیمة لها:

تعقیبا علی الآیة المتقدمة التی کانت تخاطب المشرکین بالقول (علی لسان النّبی): ادْعُوا شُرَکاءَکُمْ ثُمَّ کِیدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ منبهة إیاهم أنّهم لا یستطیعون أن یصیبوا النّبی بأدنی ضرر، فإنّ الآیة الأولی- من الآیات- محل البحث- تذکر الدلیل علی ذلک فتقول: إِنَّ وَلِیِّیَ اللَّهُ الَّذِی نَزَّلَ الْکِتابَ

و لیس ولیی وحدی فحسب، بل هو ولی جمیع الصالحین وَ هُوَ یَتَوَلَّی الصَّالِحِینَ

ثمّ یؤکّد القرآن بالآیة التّالیة علی بطلان عبادة الأوثان مرّة أخری فیقول:

وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَکُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۷

بل أبعد من ذلک وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَی الْهُدی لا یَسْمَعُوا و بالغرم من العیون المصنوعة لهم التی یخیل إلی الرائی أنّها تنظر: وَ تَراهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ وَ هُمْ لا یُبْصِرُونَ

و کما أشرنا سابقا أیضا، فالآیة- محل البحث- یحتمل أن تشیر إلی الأصنام کما یحتمل أن تشیر إلی المشرکین. ففی الصورة الأولی مفهومها- کما قدمنا بیانه- أمّا فی الصورة الثّانیة فیکون مفهومها: أنّه لو دعا المسلمون هؤلاء المشرکین المعاندین إلی طریق التوحید الصحیح ما قبلوا ذلک منهم، و هم ینظرون إلیک و یرون دلائل الصدق و الحق فیک، إلّا أنّهم لا یبصرون الحقائق! و مضمون الآیتین الأخیرتین ورد فی الآیات السابقة أیضا، و هذا التکرار إنّما هو لمزید التأکید علی مکافحة الشرک و قلع جذوره التی نفذت فی أفکار المشرکین و أرواحهم عن طریق التلقین و التقریر المتکرر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۸

الآیات [سورة الأعراف (۷): الآیات ۱۹۹ الی ۲۰۳]

اشارة

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِینَ (۱۹۹) وَ إِمَّا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۲۰۰) إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّیْطانِ تَذَکَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (۲۰۱) وَ إِخْوانُهُمْ یَمُدُّونَهُمْ فِی الغَیِّ ثُمَّ لا یُقْصِرُونَ (۲۰۲) وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ

بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۰۳)

التّفسير

وساوس الشّيطان:

فی هذه الآيات يبيّن القرآن شروط التبليغ و قيادة الناس و إمامتهم بأسلوب أخّاذ رائق وجيز، و هی فی الوقت ذاته تتناسب و الآيات المتقدمة التی كانت تشير إلى مسألة تبليغ المشركين أيضا.

ففی الآية الأولى- من الآيات محل البحث- إشارة إلى ثلاث من وظائف القادة و المبلغين، فتوجه الخطاب للنّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول فی البداية خُذِ الْعَفْوَ.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۹

العفو: قد يأتی بمعنى الزيادة فی الشیء أحيانا، كما قد يأتی بمعنى الحدّ الوسط، كما يأتی بمعنى قبول العذر و الصفح عن المخطئين و المسيئين، و تأتی أحيانا بمعنى استسهال الأمور.

و القرائن الموجودة فی الآية تدلّ على أنّ الآية محل البحث لا علاقة لها بالمسائل المالية و أخذ المقدار الإضافی من أموال الناس، كما ذهب إليه بعض المفسّرين، بل مفهومها المناسب هو استسهال الأمور، و الصفح، و اختيار الحدّ الوسط[۱۶۸].

و من البديهی أنّه لو كان القائد أو المبلغ شخصا فظا صعبا، فإنّه سيفقد نفوذه فی قلوب الناس و يتفرقون عنه، كما قال القرآن الكريم: وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۱۶۹].

ثمّ تعقيب الآية بذكر الوظيفة الثّانية للنبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التی يرتضيها العقل و يدعو إليها اللّه عزّ و جل قائلة: وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ

و هی تشير إلى أنّ ترك الشدّة لا يعنی المجاملة، بل هو أن يقول القائد أو المبلغ الحق، و يدعو الناس إلى الحق و لا يخفی شيئا.

أمّا الوظيفة الثّالثة للنّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهی أن يتحمل الجاهلين، فتقول: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ

فالقادة و المبلغون يواجهون فی مسيرهم أفرادا متعصّبين جهلة يعانون من انحطاط فكری و ثقافی و غير متخلقين بالأخلاق الكريمة، فيرشقونهم بالتهم، و يسيئون الظن بهم و يحاربونهم.

فطريق معالجة هذه المعضلة لا يكون بمواجهة المشركين بالمثل، بل

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۰

الطريق السليم هو التحمل و الجلد و عدم الاكثرات بمثل هذه الأمور. و التجربة خير دليل على أنّ هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل لمعالجة الجهلة، و إطفاء النائرة، و القضاء على الحسد و التعصب، و ما إلى ذلك.

و فی الآية التّالية دستور آخر، و هو فی الحقيقة يمثل الوظيفة الرّابعة التی ينبغی على القادة و المبلغين أن يتحملوها، و هی أن لا يدعوا سبيلا للشيطان إليهم، سواء كان متمثلا بالمال أم الجاه أم المقام و ما إلى ذلك، و أن يردعوا الشياطين أو المتشيطنين و وساوسهم، لئلا ينحرفوا عن أهدافهم.

فالقرآن يقول: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۱۷۰].

أجمع آية أخلاقية ...:

روی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «لا آیة فی القرآن أجمع فی «المسائل» الأخلاقیة من هذه الآیة»[۱۷۱]

«أی الآیة الأولی من الآیات محل البحث».

قال بعض الحکماء فی تفسیر هذا الحدیث: إنّ أصول الفضائل الأخلاقیة وفقا لأصول القوی الإنسانیة «العقل» و «الغضب» و «الشّهوة» تتلخص فی ثلاثة أقسام:

۱- الفضائل العقلیة: و تدعی بالحکمة، و تتلخص بقوله تعالی: وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ

۲- و الفضائل النّفسیة فی مواجهة الطغیان و الشهوة، و تدعی بالعفة، و تتلخص ب «خذ العفو».

۳- و التسلط علی القوة الغضبیة، و تدعی بالشجاعة، و تتلخص فی قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۱

تعالی وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِینَ

و سواء کان الحدیث الشریف یدلّ علی ما فسّره المفسّرون و أشرنا إلیه آنفا، أو کما عبرنا عنه بشروط القائد أو المبلغ، فهو یبیّن هذه الحقیقة، و هی أنّ هذه الآیة القصیرة الوجیزة تتضمّن منهجا جامعا واسعا کلیّا فی المجالات الأخلاقیة و الاجتماعیة، بحیث یمکننا أن نجد فیها جمیع المناهج الإیجابیة البناءة و الفضائل الإنسانیة. و کما یقول بعض المفسّرین: إنّ إعجاز القرآن بالنسبة إلی الإیجاز فی المبنی، و السعة فی المعنی، یتجلی فی الآیة محل البحث تماما.

و ینبغی الالتفات إلی أنّ الآیة و إن کانت تخاطب النّبی نفسه إلّا أنّها تشمل جمیع الأمّة و المبلغین و القادة.

کما ینبغی الالتفات إلی أنّ الآیات محل البحث لیس فیها ما یخالف مقام العصمة أیضا، لأنّ الأنبیاء و المعصومین ینبغی أن یستعیذوا باللّه من وساوس الشیطان، کما أنّ أیّ أحد لا یستغنی عن لطف اللّه و رعایته و الاستعاذة به من وساوس الشیاطین، حتی المعصومین.

و

جاء فی بعض الرّوایات أنّه لما نزلت الآیة خُذِ الْعَفْوَ ... سأل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جبرئیل عن ذلک فقال جبرئیل: لا أدری، حتی أسأل العالم ثم أتاه فقال:

«یا محمّد، إنّ اللّه یأمرک أن تعفو عمن ظلمک، و تعطی من حرمک، و تصل من قطعک»[۱۷۲].

و

جاء فی حدیث آخر أنّه لما نزلت آیة خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِینَ قال النّبی: کیف یا ربّ و الغضب؟ فنزل قوله وَ إِمَّا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ ۱۷۳].

و ینبغی الإشارة إلی أنّ الآیة الثّانیة هنا جاءت فی سورة فصلت الآیة (۳۶)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۲

بتفاوت یسیر بین الآیتین، إذ ورد التعبیر مکان قوله تعالی: إِنَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ و فی الآیة التّالیة بیان للانتصار علی وساوس الشیطان بهذا النحو إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّیْطانِ تَذَکَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ أی یتذکرون ما أنعم اللّه علیهم، و یفکرون فی سوء عاقبة الذنب و عذاب الآخرة فیتّضح لهم بذلک طریق الحق.

و الطّائف: هو الذی یطوف و یدور حول الشیء، فکأن وساوس الشیطان تدور حول فکر الإنسان و روحه کالطائف حول الشیء لیجد منفذا إلیه، فإذا تذکر الإنسان فی مثل هذه الحالة ربّه، و استعاذ من وساوس الشیطان و عاقبة أمره، أبعدها عنه. و إلّا أذعن لها و انقاد وراء الشیطان.

و أساسا فإنّ کل إنسان فی آیة مرحلة من الإیمان، أو أی عمر کان، یبتلی بوساوس الشیاطین. و ربّما أحس أحیانا أن فی داخله قوة مهیمنة تدفعه نحو الذنب و تدعوه إلیه، و لا شک أن مثل هذه الحالة من الوساوس فی مرحلة الشباب أکثر منها فی أیة مرحلة أخری،

و لا سیما إذا کانت البیئهٔ أو المحیط کما هو فی العصر الحاضر من التحلّل و الحرّیهٔ، لا الحریهٔ بمعناها الحقیقی، بل بما یذهب إلیه الحمقی «من الانسلاخ من کل قید و التزام أخلاقی أو اجتماعی أو دینی» فتزداد الوساوس الشیطانیهٔ عند الشباب.

و طریق النجاهٔ الوحید من هذا التلوّث و التحلل فی مثل هذه الظروف، هو تقویهٔ رصید التقوی أولا، کما أشارت إلیه الآیهٔ إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا ... ثمّ المراقبهٔ و التوجه نحو النفس، و الالتجاء إلی اللّه و تذکر ألطافه و نعمه و عقابه الصارم للمذنب ...

و هناک إشارات کثیرهٔ فی الرّوایات الإسلامیّهٔ إلی أثر ذکر اللّه العمیق فی معالجهٔ الوساوس الشیطانیهٔ. حتی أن الکثیر من المؤمنین و العلماء و ذوی المنزلهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۳

کانوا یحسون بالخطر عند مواجهة وساوس الشیطان، و کانوا یحاربونها «بالمراقبهٔ» المذکورهٔ فی کتب علم الأخلاق بالتفصیل.

و الوساوس الشیطانیهٔ مثلها مثل الجراثیم الضارهٔ التی تبحث عن البنیهٔ الضعیفهٔ لتنفذ فیها. إلّا أنّ الأجسام القویهٔ تطرد هذه الجرائم فلا تؤثر فیها.

و جملهٔ فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ إشارهٔ إلی حقیقهٔ أن الوساوس الشیطانیهٔ تلقی حجابا علی البصیرهٔ «الباطنیهٔ» للإنسان، حتی أنّه لا یعرف العدوّ من الصدیق، و لا الخیر من الشر. إلّا أن ذکر اللّه یکشف الحجب و یزید الإنسان بصیرهٔ و هدی، و یمنحه القدرهٔ علی معرفهٔ الحقائق و الواقعیات، المعرفهٔ التی تخلّصه من مخالب الوساوس الشیطانیهٔ.

و ملخص القول: أننا لا حظنا فی الآیهٔ السابقهٔ کیف ینجو المتقون من نزغ الشیطان و وسوسته بذکر اللّه، إلّا أن الآثمین إخوهٔ الشیاطین یبتلون بمزید الوساوس فلا ینسلخون عنها، کما تعبّر الآیهٔ التالیهٔ عن ذلک قائلهٔ: وَ إِخْوانُهُمْ یَمُدُّونَهُمْ فِی الغَیِّ ثُمَّ لا یُقْصِرُونَ

«الإخوان» کنایهٔ عن الشیاطین، و الضمیر «هم» یعود علی المشرکین و الآثمین، کما نقرأ هذا المصطلح فی الآیهٔ (۲۷) من سورهٔ الإسراء إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کانُوا إِخْوانَ الشَّیاطِینِ

و «یمدونهم» فعل مأخوذ من الإمداد و معناه الإعانهٔ و الإدامهٔ، أی أنّهم یسوقونهم فی هذا الطریق دائما.

و جملهٔ ثُمَّ لا یُقْصِرُونَ تعنی أنّ الشیاطین لا یألون جهدا فی إضلال المشرکین و الآثمین.

ثمّ تذکر الآیهٔ التّالیهٔ حال جماعهٔ من المشرکین و المذنبین البعیدین عن المنطق، فتقول: إنّهم یکذبونک- یا رسول اللّه- عند ما تتلوا علیهم آیات القرآن، و لکن عند ما لا تأتیهم بآیهٔ، أو یتأخر الوحی یتساءلون عن سبب ذلک: وَ إِذا لَمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۴

تَأْتِهِمْ بِآیَهٍٔ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَیْتَها[۱۷۴] و لکن قل لهم اننی لا اعمل و لا أقول إلّا بما یوحی اللّه الیّ قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما یُوحی إِلَیَّ مِنْ رَبِّی هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌٔ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ

و یتّضح من هذه الآیهٔ- ضمنا- أنّ جمیع أقوال النّبی و أفعاليه مصدرها وحی السماء، و من قال بغیر ذلک فهو بعید عن القرآن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۵

الآیات [سورهٔ الأعراف (۷): الآیات ۲۰۴ الی ۲۰۶]

اشارهٔ

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۲۰۴) وَ اذْکُرْ رَبَّکَ فِی نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِیفَهًٔ وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَکُنْ مِنَ الْغافِلِینَ (۲۰۵) إِنَّ الَّذِینَ عِنْدَ رَبِّکَ لا یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ یُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ یَسْجُدُونَ (۲۰۶)

التّفسیر

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا:

لقد بدأت هذه السورة (سورة الأعراف) ببیان عظمة القرآن، و تنتهی بالآیات- محل البحث- التی تتکلم عن القرآن أیضا.
و بالرغم من أنّ المفسّرین ذکروا أسبابا لنزول الآیة الأولی- من هذه الآیات محل البحث- منها مثلا ما روی عن ابن عباس و جماعة آخرین، أنّ المسلمین فی بادئ أمرهم کانوا یتکلمون فی الصلاة، و ربّما ورد شخص (جدید) أثناء الصلاة فیسأل المصلین و هم مشغولون بصلاتهم: کم رکعة صلیتم؟ فیجیبونه: کذا رکعة. فنزلت الآیة و منعتهم أو نهتهم عن ذلک.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۶
کما نقل الزّهری سببا آخر لنزول الآیة، و هو أنّه لما کان النّبی یقرأ القرآن، کان شاب من الأنصار یقرأ معه القرآن بصورت مرتفع، فالآیة نزلت و نهت عن ذلک.
و أیّا کان شأن نزول هذه الآیة، فهی تقول: وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ و الفعل «انصتوا» مأخوذ من مادة «الإنصات» و معناه: السکوت المشفوع بالإصغاء و الاستماع.
و قد اختلف المفسّرون فی أن الإنصات و السکوت هنا فی الآیة، هل هو عند قراءة القرآن فی جمیع الموارد؟ أم هو منحصر وقت الصلاة و عند قراءة إمام الجماعة؟ أم هو عند ما یقرأ إمام الجمعة- فی خطبة الصلاة- القرآن؟
کما أنّ هناک أحادیث شتی فی هذا الصدد فی کتب الفریقین فی تفسیر هذه الآیة. و الذی یستفاد من ظاهر الآیة أن هذا الحکم عام غیر مختص بحال ما و لا وقت معیّن. إلّا أنّ الرّوایات المتعددة الواردة عن الأئمّة الطاهرین، بالإضافة إلی إجماع العلماء و اتفاقهم علی عدم وجوب الاستماع عند قراءة القرآن فی أیة حال، یستدل من ذلک علی أن هذا الحکم بصورة کلیّة حکم استحبابی، أی ینبغی إن قرئ القرآن- حیثما کان، و کیف کان- أن یستمع الآخرون و ینصتوا احتراما للقرآن، لأنّ القرآن لیس کتاب قراءة فحسب، بل هو کتاب فهم و إدراک، ثمّ هو کتاب عمل أیضا.
و هذا الحکم المستحب ورد علیه التأکید إلی درجة أنّ بعض الرّوایات عبّرت عنه بالوجوب.
إذ
ورد عن الإمام الصادق علیه السلام قوله: «یجب الإنصات للقرآن فی الصّلاة و فی
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۷
غیرها و إذا قرئ عندک القرآن وجب علیک الإنصات و الاستماع»[۱۷۵].
حتی أنّه یستفاد من بعض الرّوایات أنّ لو کان إمام الجماعة مشغولا بالقراءة فی الصلاة، و قرأ شخص آخر آیة من القرآن فیستحب للإمام السکوت حتی ینهی قراءة الآیة، ثمّ یکمل الإمام قراءته. حیث
ورد عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّ أمیر المؤمنین علیّا علیه السلام کان مشغولا بصلاة الصبح، و کان ابن الکوّا- ذلک المنافق الفظّ القلب- خلف الإمام مشغولا بالصلاة، فقرأ فجأة وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ و کان هدفه من قراءة الآیة أن یعترض علی الإمام علیّ مکنّیا عن قبول الحکم فی صفین- کما احتملوا ذلک- لکن الإمام سکت احتراما للقرآن حتی ینتهی ابن الکوّا من قراءة الآیة، ثمّ رجع الإمام إلی قراءته فأعاد ابن الکوا عمله مرّة ثانیة، فسکت الإمام أیضا، فکرر ابن الکوّا القراءة ثالثة فسکت علی علیه السلام أیضا، ثمّ تلا قوله تعالی: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا یَسْتَخِفَّنَّکَ الَّذِینَ لا یُوقِنُونَ
و هو یشیر إلی أن عذاب اللّه و عقابه الألیم فی انتظار المنافقین و غیر المؤمنین، و ینبغی أن یتحمل الإنسان أذاهم، ثمّ أن الإمام أکمل

السورة و هوى إلى الركوع ۱۷۶].

و يستفاد من مجمع ما تقدّم، و لا سيما من البحث آنف الذكر، أن الاستماع و السكوت عند قراءة آيات القرآن أمر حسن جدّا إلّا أنّه بشكل عام غير واجب ... و لعلّ جملة لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ إضافة إلى الرّوايات و الإجماع، تشير إلى استحباب هذا الحكم أيضا.

و المورد الوحيد الذى يجب فيه السكوت أو يكون حكم السكوت فيه واجبا، هو فى صلاة الجماعة، إذ على المأموم أن يسكت و يستمع لقراءة الإمام، حتى أنّ جمعا من الفقهاء قالوا: إنّ هذه الآية تدل على سقوط الحمد و السورة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۸

قبل المأموم «عند صلاة الجماعة».

و من جملة الرّوايات الدالة على هذا الحكم ما

روى من حديث عن الإمام الباقر عليه السلام «و إذا قرئ القرآن فى الفريضة خلف الإمام فاستمعوا له و انصتوا لعلّكم ترحمون»[۱۷۷].

و أمّا استعمال «لعل» فى هذه الجملة، فهو- كما أشرنا سابقا- لغرض أن تشملكم رحمة اللّه، فمجرّد السكوت غير كاف، بل توجد أمور أخرى منها العمل بالآى أيضا.

و لا بأس أن نذكر الملاحظة التى بيّنها الفقيه المعروف الفاضل المقداد السيورى فى كتابه «كنز العرفان» إذ فسّر الآية تفسيرا آخر فقال: إنّ المراد من الآية هو الإصغاء للآيات و إدراك مفاهيمها و الإذعان لإعجازها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۵ ؛ ص۳۴۸

لعل هذا التّفسير كان بسبب أنّ الآية السابقة كانت تتكلم عن المشركين، إذ كانوا يتذرعون بحجج واهية فى شأن نزول القرآن، فالقرآن يقول لهم: فاستمعوا و انصتوا لعلكم تعرفون الحق ۱۷۸].

و ليس هناك مانع من أن نعتبر مفهوم الآية واسعا بحيث يشمل جميع الكفار و المسلمين، فغير المسلمين عليه أن يستمع و ينصت للقرآن و يكفر فيه حتى يؤمن فينال رحمة ربّه، و المسلم عليه أن يستمع و يدرك مفهوم الآى و يعمل به لينال رحمة ربّه، لأنّ القرآن كتاب إيمان و علم و عمل لجميع، لا لطائفة خاصّة أو فريق معين.

و فى الآية التّالية إكمالا- للأمر السابق يخاطب القرآن النّبى الكريم- و هذا الحكم كلى و عام أيضا و إن كان الخطاب موجها للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما هو الحال فى سائر آيات القرآن الأخرى و أحكامها- إذ يقول سبحانه فى كتابه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۹

وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً[۱۷۹].

ثمّ يضيف قائلا: وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ

[و الآصال: جمع الأصيل، و معناه قبيل المغرب أو عند الغروب.] وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ

فذكر اللّه فى كل حال و فى كل وقت، صباحا و مساء، مدعاة لإيقاظ القلوب و جلائها من الدرن، و إبعاد الغفلة عن الإنسان. و مثله مثل مزنة الربيع، إذا نزلت أمرعت القلوب بأزهار التوجه و الإحساس بالمسؤولية و البصيرة، و كل عمل إيجابى بنّاء! ...

ثمّ تختتم هذه الآية سورة الأعراف بهذه العبارة، و هى أنّكم لستم المكلّفون بذكر اللّه من يذكر اللّه ليس هو أنتم فحسب، بل إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ

و التعبير ب عِنْدَ رَبِّكَ لا- يعنى القرب المكانى، لأنّ اللّه ليس له مكان خاص، بل هو إشارة إلى القرب المقامى، أى أنّ الملائكة و غيرهم من المقربين على رغم مقامهم و منزلتهم عند اللّه، فهم لا يقصرون فى التسبيح و الذكر للّه و السجود له.

و السجدة عند تلاوة هذه الآية مستحبة، إلّا أنّ بعض أهل السنة كأصحاب أبى حنيفة و أتباعه يقولون بوجوبها.

ربّنا نور قلوبنا بنور ذكرك، ذلك النور الذى يفتح لنا طريقنا نحو الحقيقة، و نستمد منه المدد فى نصرة راية الحق و مكافحة الظالمين و أن تدرك مسئولينا و نؤدى رسالتنا- آمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۱

سورة الأنفال

اشارة

و هى مدينة و عدد آياتها خمس و سبعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۳

«سورة الأنفال»

نظرة خاطفة إلى محتويات هذه السورة

فى الآيات الخمس و السبعين التى تتكون منها سورة الأنفال أثيرت مباحث مهمّة جدّا.

ففى مستهلها إشارة إلى قسم مهم من المسائل المالية من جملتها الأنفال و الغنائم التى يعدّ كلّ منهما دعامة لبيت المال. كما تضمّنت هذه السورة مباحث أخرى منها:

صفات المؤمنين الصادقين و ما يمتازون به، قصّة معركة بدر، و هى أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين و أعدائهم، و ما تضمّنت من أحداث عجيبة تلهم العبر.

بعض أحكام الجهاد و وظائف المسلمين إزاء هجوم العدوّ المتواصل.

ما جرى للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ليلته التاريخية «ليلة المبيت».

حال المشركين قبل الإسلام و خرافاتهم.

ضعف المسلمين و عجزهم بادئ الأمر ثمّ تقويتهم ببركة الإسلام.

حكم الخمس و كيفية تقسيمه.

وجوب الاستعداد «العسكرى و السياسى و الاجتماعى» للجهاد فى كل زمان و مكان.

رجحان قوى المسلمين و المعنوية على عدوهم بالرغم من قلّة عددهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۴

ظاهرا.

حكم أسرى الحرب و كيفية معاملتهم.

المهاجرون و الذين لم يهاجروا.

مواجهة المنافقين و طريقة التعرّف عليهم. و أخيرا نجد فى هذه السورة سلسلة مسائل أخرى أخلاقية و اجتماعية بنّاءة.

فلا غرابة أن نقرأ بعض الرّوايات الواردة فى شأن هذه السورة و فضيلتها، كالرّواية الواردة

عن الإمام الصادق إذ تقول مثلا: «من قرأ سورة الأنفال و براءة فى كل شهر لم يدخله نفاق أبدا، و كان من شيعة أمير المؤمنين حقّا، و يأكل يوم القيامة من موائد الجنّة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب»[۱۸۰].

و كما أشرنا من قبل فإنّ فضائل سور القرآن و الثواب العظيم الذى وعد به من يتلو هذه السور، كل ذلك لا يتأتى بمجرّد قراءة

الألفاظ، بل القراءة مقدمة للتفكّر، و التفكّر وسيلة للفهم، و الفهم مقدّمة للعمل. و بما أنّ سورة الأنفال شرحت كيفية البراءة من صفات المنافقين، و كذلك ذكرت صفات المؤمنين الصادقين حقّا، فمن قرأها و تمثلها فى حياته لم يدخله نفاق أبدا.

و كذلك من قرأ صفات المجاهدين فى هاتين السورتين، و جوانب من التّضحيات الواردة عن أمير المجاهدين على عليه السلام و تمثلها، كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۵

الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱)

سبب النّزول

ورد عن ابن عباس أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عيّن فى يوم معركة بدر جوائز للمقاتلين المسلمين ترغيبا، كأنّ يقول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مثلا: من جاءنى بفلان من الأعداء أسيرا فله عندى كذا «جائزة».

و كان هذا الترغيب- إضافة إلى ايقاده روح الإيمان و الجهاد فى وجودهم- مدعاة أن يثب المقاتلون الفتية فى تسابق «افتخارى» نحو الهدف.

إلّا أنّ الكهول و الشيوخ ظلّوا ثابتين تحت ظلال الرايات، فلمّا انتهت معركة بدر أسرع المقاتلون الفتيان لأخذ الجوائز من النّبى، إلّا أنّ الشيوخ و كبار السنّ قالوا: إنّ لنا نصيبا أيضا، لأنّنا كنّا سندا و ظهيرا لكم، و لو اشتدّ بكم الأمر لرجعتم إلينا حتما. و احتدم النقاش حينئذ بين رجلين من الأنصار فى شأن غنائم المعركة.

فنزلت الآية- محل البحث- و قالت بصراحة: إنّ الغنائم هى للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۶

أن يتصرّف فيها ما يشاء. فقسّمها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين المسلمين بالتساوى، و أمر أن يصطلح الإخوة المسلمون فيما بينهم.

التّفسير

اشارة

إنّ الآية- محل البحث- كما قرأنا فى سبب النّزول، نزلت بعد معركة بدر و تتكلم على غنائم الحرب و تبيّن حكما إسلاميا واسعا بشكل عام، فتخاطب النّبى بالقول: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ!.

فبناء على ذلك فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى أنّ الإيمان ليس بالكلام فحسب، بل هو الطاعة للّه و الرّسول دون قيد أو شرط و فى جميع مسائل الحياة لا فى غنائم الحرب وحدها.

ما هی الأنفال؟

الأنفال فی الأصل مأخوذة من مادة «نفل» علی زنة «نفع» و معناها الزیادة، و إنما سمّیت الصلوات المستحبة نافلة لأنّها زیادة علی الصلوات الواجبة، و کذلک یطلق علی الحفید نافلة لأنّه زیادة فی الأبناء.

و یطلق لفظ «نوفل» علی من یهب المزید من العطاء.

و إنّما سمّیت غنائم الحرب أنفالا أیضا لأنّها کمیة من الأموال الإضافیة التی تبقی دون صاحب، و تقع فی أیدی المقاتلین دون أن یکون لها مالک خاص. أو لأنّ المقاتلین إنّما یحاربون للانتصار علی العدو لا للغنائم، فالغنیمة أو الغنائم موضوع إضافی یقع فی أیدیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۷

ملاحظات

۱- بالرّغم من أنّ الآیة محل البحث نازلة فی شأن غنائم الحرب، إلّا أنّ لمفهومها حکما کلّیا و عامّا، و هی تشمل جمیع الأموال الإضافیة التی لیس لها مالک خاص. لهذا ورد فی الرّوایات عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ الأنفال لها مفهوم واسع، إذ نقرأ فی بعض الرّوایات المعتبرة

عن الإمامین «الباقر و الصادق علیهما السّلام» ما یلی: «إنّها ما أخذ من دار الحرب من غیر قتال، کالذی انجلی عنها أهلها و هو المسمّی فیئا، و میراث من لا وارث له، و قطائع الملوک إذا لم تکن مغصوبة و الآجام و بطون الأدویة و الموات، فإنّها للّه و لرسوله، و بعده لمن قام مقامه یصرفه حیث یشاء من مصالحه و مصالح عیاله»[۱۸۱]

و بالرّغم من أنّ الحدیث- أنف الذکر- لم یتحدّث عن جمیع غنائم الحرب، إلّا أنّنا نقرأ حدیثا آخر

عن الإمام الصادق علیه السلام یقول فیه: «إنّ غنائم بدر کانت للنّبی خاصّة فقسمها بینهم تفضلا منه»[۱۸۲].

و نستنتج ممّا ذکر آنفا أنّ مفهوم الأنفال أساسا لا یقتصر علی غنائم الحرب فحسب، بل یشمل جمیع الأموال التی لیس لها مالک خاص، و هذه الأموال جمیعها للّه و للرسول و لمن یلی أمره و یخلفه، و بتعبیر آخر: إنّ هذه الأموال للحکومة الإسلامیّة، و تصرف فی منافع المسلمین العامّة.

غایة ما فی الأمر أنّ قانون الإسلام فی غنائم الحرب و الأموال المنقولة التی تقع فی أیدی المقاتلین المسلمین عند القتال- کما سنفصل ذلک فی هذه السورة- مبنیّ علی أن یعطی أربعة أخماسها- ترغیبا- للمقاتلین المسلمین و تعویضا عن أتعابهم، و یصرف خمسها فی المصارف التی أشارت إلیها الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۸

(۴۱) من هذه السورة.

و علی هذا الأساس فإنّ الغنائم داخلة فی مفهوم الأنفال العام، و هی فی الأصل ملک الحکومة الإسلامیة، و إعطاء أربعة أخماسها للمقاتلین عطیة و تفضل منها.

۲- قد یتصور أنّ الآیة محل البحث «بناء علی شمولها غنائم الحرب أیضا» تتنافی و الآیة ۴۱ من هذه السورة التی تقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ و سائر المصارف. لأنّ مفهومها أنّ أربعة الأخماس الباقیة هی للمقاتلین المسلمین.

إلّا أنّه مع ملاحظة ما ذکرناه آنفا یتّضح أنّ غنائم الحرب فی الأصل کلها للّه و للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إعطاء أربعة

أخماسها للمقاتلين نوع من التفضل و الهديّة، و بتعبير آخر: إنّ الحكومة الإسلامية تهب أربعة الأخماس من حقها إلى المجاهدين، فلا يبقى عندئذ أى تناف بين الآيتين.

و يتّضح أيضا أن آية الخمس لا تنسخ أية الأنفال،- كما تصوّر ذلك بعض المفسّرين- بل كلّ منهما باق على قوّته! ٣- كما قرأنا فى شأن النّزول آنفا، أنّ مشاجرة وقعت بين بعض الأنصار فى شأن غنائم الحرب، و قطعا لهذه المشاجرة فقد نفت الآية أن تكون الغنائم لغير اللّه و الرّسول ثمّ أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

و أساسا فإنّ إصلاح ذات البين و إيجاد التفاهم و قلع الكدر و البغضاء من صدور المسلمين، و تبديل كل ذلك بالمحبّة، يعدّ من أهم الأغراض الإسلامية.

و كلمة «ذات» تعنى الخلقة و البنية و أساس الشيء، و البين يعنى حالة الارتباط و العلاقة بين شخصين أو شيئين. فبناء على هذا فإنّ إصلاح ذات البين يعنى إصلاح أساس الارتباطات، و تقوية العلاقات و تحكيمها، و إزالة عوامل التفرقة و النفاق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۹

و قد أولت التعاليم الإسلامية عناية فائقة لهذا الموضوع حتى عدته من أفضل العبادات.

يقول أمير المؤمنين على عليه السلام فى آخر وصاياه- عند ما عممه ابن ملجم بالسيف- لولديه «إنّى سمعت جدّكما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة و الصيام»[١٨٣].

و

جاء عن الإمام الصادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كتاب الكافى أنّه قال: «صدقة يحبّها اللّه إصلاح بين النّاس إذا تفاسدوا، و تقارب بينهم إذا تباعدوا»[١٨۴].

كما

ورد عنه عليه السلام فى الكتاب آنف الذكر ذاته أنّه قال للمفصل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدها من مالى»[١٨۵].

و لهذا نقرأ فى بعض الرّوايات عن أبى حنيفة سابق الحاجّ قال: مرّ بنا المفضّل و أنا و ختنى نتشاجر فى ميراث، فوقف علينا ساعة ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده حتّى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه، قال أمّا إنّها ليست من مالى و لكن أبو عبد اللّه عليه السلام أمرنى إذا تنازع رجلان من أصحابنا فى شيء أن أصلح بينهما و أفتديها من ماله، فهذا من مال أبى عبد اللّه عليه السلام ١٨۶].

و السبب فى كل هذا التأكيد فى المسائل الاجتماعية يتجلى بقليل من التأمل، لأنّ عظمة الأمّة و قدرتها و عزّتها لا يمكن تحقيقه إلّا فى ظل التفاهم و التعاون. فإذا لم يتمّ إصلاح ذات البين، و لم تطو الخلافات الصغيرة و المشاجرات، تنفذ جذور العداوة و البغضاء فى القلوب تدريجا، و تتحول الأمّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۰

القوية المتحدة إلى جماعات متفرقة متناحرة، و تضعف أمام الأعداء و الحوادث، كما يحدق الخطر بالمسائل العبادية فى مثل هذه الأمّة من صلاة و صيام، و حتى بحيثية القرآن و (موجوديته).

و لذلك فقد أوجبت الشريعة الإسلامية إصلاح ذات البين فى بعض مراحله، و جازت الإنفاق من بيت المال لتحقق هذا الأمر، و ندبت إلى ذلك فى مراحله الأخرى التى لا تتعلق بمصير المسلمين مباشرة، و عدت ذلك مستحبا مؤكّدا ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۱

الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٢ الى ۴]

اشارة

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیـاتُهُ زادَتْهُمْ إِیماناً وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۲) الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ (۳) أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۴)

التّفسیر

خمس صفات خاصّة بالمؤمنین:

کان الکلام فی الآیة السابقة عن تقوی اللّه و طاعته و طاعة رسوله بعد المشاجرة اللفظیة بین بعض المسلمین فی شأن الغنائم.

و إکمالا لهذا الموضوع فالآیات- محل البحث- تذکر صفات المؤمنین بحق فی عبارات موجزة غزیرة المعنی.

فیشیر الذکر الحکیم فی هذه الآیات إلی خمس صفات بارزة فی المؤمنین:

ثلاث منها ذات جانب معنوی و روحانی و باطنی، و اثنتین منها لها جانب عملی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۲

و خارجی ...

فالثلاث الأولی عبارة عن «الإحساس بالمسؤولیة» و «الإیمان» و «التوکل».

و الاثنتان الأخریان هما الارتباط باللّه، و الارتباط بخلق اللّه سبحانه.

فتقول الآیات أوّلا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

و «الوجل» حالة الخوف التی تنتاب الإنسان، و هو ناشئ عن أحد أمرین:

فقـد ینشـأ عنـد إدراک المسؤولیـة و احتمال عـدم القیام بالوظائف اللازمـة التی ینبغی علی الإنسان أداؤها بأکمل وجه امتثالا لأمر اللّه تعالی.

و قد ینشأ عند إدراک عظمة مقام اللّه، و التوجه إلی وجوده المطلق الذی لا نهایة له، و مهابته التی لا حدّ لها.

و توضیح ذلک: قد یتفق للإنسان أن یمضی لرؤیة شخص عظیم هو- بحق- جدیر بالعظمة من جمیع الجوانب، فالإنسان الذی یمضی لرؤیته قـد یقع تحت تأثیر ذلک المقام و تلک العظمة، بحیث یحس بنوع من الرهبة فی داخله و یضـطرب قلبه حتی أنّه لو أراد الکلام لتعلثم، و قـد ینسـی ما أراد أن یقوله، حتی لو کان ذلک الشـخص یحب هذا الإنسان و یحب الآخرین جمیعا و لم یصدر عنه ما یدعو إلی القلق.

فهـذا الخوف و الاضـطراب أو المهابـة مصدرها عظمة ذلک الشـخص، یقول القرآن الکریم فی هذا الصدد: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلی جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ [۱۸۷].

کما نقرأ فی آیة أخری من قوله تعالی: إِنَّما یَخْشَی اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ[۱۸۸].

و هکذا فإن العلاقة قائمة بین العلم و الخوف أیضا، و بناء علی ذلک فمن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۳

الخطأ أن نعدّ أساس الخوف و الخشیة عدم أداء الوظائف المطلوبة فحسب.

ثمّ تبیّن الآیة الصفة الثّانیة للمؤمنین فتقول: وَ إِذا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیاتُهُ زادَتْهُمْ إِیماناً.

إنّ النمو و التکامـل من خصـائص جمیع الموجودات الحیـة، فـالموجودات الفاقـد للنمو و التکامـل إمّا أن یکون میتا أو فی طریقه إلی

الموت. و المؤمنون حقّا لهم إيمان حيّ ينمو غرسه يوما بعد يوم بسقيه من آيات اللّه، و تفتح أزهاره و براعمه، و يؤتى ثماره أكثر فأكثر، فهم ليسوا كالموتى من الجمود و عدم التحرك، ففى كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد و تكون صفاتهم مشرقة جديدة ...

و هذه الدّرجات مبهمة لم يعين مقدارها و ميزانها، و هذا الإبهام يشير إلى أنّها درجات كريمة عالية.

و للمؤمنين إضافة لدرجاتهم رحمة من اللّه و مغفرة و رزق كريم.

و الحق أنّنا- نحن المسلمين- الذين ندّعى الإسلام و قد نرى أنفسنا أولى فضل على الإسلام و القرآن، نتهم القرآن و الإسلام جهلا بأنّهما سبب التأخر و الانحطاط، و ترى لو أنّنا طبقنا فقط مضامين هذه الآيات محل البحث على أنفسنا و التى تمثل صفات المؤمنين بحق، و لم نتكل على هذا و ذاك، و أن نطوى كل يوم مرحلة جديدة من الإيمان و المعرفة، و أن نحس دائما بالمسؤولية لتقوية علاقتنا باللّه و بعباده فننفق ما رزقنا اللّه فى سبيل تقدم المجتمع، أ نكون بمثل ما نحن عليه اليوم؟! و ينبغى ذكر هذا الموضوع أيضا، و هو أنّ الإيمان ذو مراحل و درجات، فقد يكون ضعيفا فى بعض مراحله حتى أنّه لا يبدو منه أى شىء عملى مؤثر، أو يكون ملوّثا بكثير من السيّئات. إلّا أنّ الإيمان المتين الراسخ من المحال أن يكون غير بناء أو غير مؤثر و ما يراه البعض من أن العمل ليس جزءا من الإيمان، فلاقتصارهم على أدنى مراحل الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۴

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (۵) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۶)

التّفسير

قرأنا فى الآية الأولى من هذه السورة أنّ بعض المسلمين من جديدى العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حد ما).

ففى الآيتين محل البحث يقول اللّه سبحانه لأولئك: هذه ليست أوّل مرّة تكرهون شيئا مع أنّه فيه صلاحكم كما كان الأمر فى أساس غزوة بدر و كانوا غير راضين بادئ الأمر، إلّا أنّهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام و المسلمين.

فإذن لا ينبغى أن تقوّم أحكام اللّه بالنظرات الضيقة المحدودة، بل ينبغى الانصياع و التسليم لها ليستفاد من نتائجها النهائية.

تقول الآية الأولى من الآيتين محل البحث: إنّ عدم رضا بعض المسلمين فى شأن تقسيم الغنائم يشبه عملية إخراجك من مكّة و عدم رضى بعض المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۵

بذلك: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ

و التعبير بالحق إشارة إلى أنّ أمر الخروج كان طبقا لوحى الإلهى و دستور سماوى، و كانت نتيجته الوصول إلى الحق و استقرار المجتمع الإسلامى، إلّا أنّ هؤلاء الأفراد لا يرون إلّا ظواهر الأمور، و لهذا: يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ

إلّا أنّ الحوادث التالية كشفت لهم عن خطئهم فى حساباتهم، و أنّ خوفهم و قلقهم دونما أساس، و أنّ هذه المعركة (معركة بدر)

حققت للمسلمين انتصارات مشرقة، فمع رؤية مثل هذه النتائج علام يجادلون فى الحق و تمتد ألسنتهم بالاعتراض؟! و التعبير ب فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يكشف ضمنا- أوّلا- أن هذا التشاجر أو المحاورة لم تكن عن نفاق أو عدم إيمان، بل عن ضعف الإيمان و عدم امتلاك النظرة الثاقبة فى المسائل الإسلامية.

و ثانيا: إنّ الذين جادلوا فى شأن الغنائم كانوا قلّة و فريقا من المؤمنين، غير أنّ بقيتهم و غالبيتهم أذعنوا لأمر رسول اللّه و استجابوا له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۶

الآيتان [سورة الأنفال (٨): الآيات ٧ الى ٨]

اشارة

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)

غزوة بدر أوّل مواجهة مسلحة بين الإسلام و الكفر ...

لما كانت الآيات السابقة قد أشارت إلى معركة بدر، فإنّ الآيتين أعلاه و ما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمّة و حساسة فى تلك المعركة ليستلهم المسلمون من هذه الآيات الحقائق التى مرّت بهم فى الماضى القريب، و يجعلوها أمام أعينهم للعبرة و الاتعاظ.

و لإيضاح الآيتين محل البحث و الآيات التّالية، من المناسب أن نلقى الضوء على ما جرى فى هذه المعركة الحاسمة، و كيف كانت هذه المواجهة المسلحة الأولى و هذا الجهاد الإسلامى بوجه العدوّ اللدود؟ لتتجلى لنا دقائق الأمور و لطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة فى شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر- طبقا لما يقول المؤرخون و المحدّثون و المفسّرون- حين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۷

كان أبو سفيان كبير مكّة عائدا بقافلة تجارية مهمّة مؤلفة من أربعين شخصا، و تحوى على ثروة تجارية تقدّر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصحابه أن يتعبأوا و يتهيئوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التى تحمل جل رأس مال العدوّ معها، و بمصادرة أموال القافلة لتوجيه ضربة اقتصادية نحو العدوّ و تعقبها ضربة عسكرية قاصمة.

و كان للنّبى و أصحابه الحق فى مثل هذه الحملة أو الهجوم، لأنّه- أوّلا- عند ما هاجر المسلمون من مكّة نحو المدينة استولى أهل مكّة على كثير من أموالهم، و نزلت بهم خسارة كبيرة. فكان لهم الحق أن يجبروا مثل هذه الخسارة.

ثمّ بعد هذا كلّه برهن أهل مكّة طيلة الثلاثة عشر عاما التى أقام النّبى و أصحابه بمكّة خلالها أنّهم لا يألون جهدا فى إيذاء النّبى و أصحابه، بل أرادوا به الوقيعة و المكيدة، فإنّ عدوّا كهذا لن يسكت عن النّبى و دعوته بمجرّد هجرته إلى المدينة، و من المسلم به أنّه سيعبئ قواه فى المستقبل لمواجهة النّبى و الإيقاع به.

إذن فالعقل و المنطق يوجبان أن يسارع المسلمون بمبادرة عاجلة لمصادرة أموال أهل مكّة لتدمير دعامتهم الاقتصادية، و ليوفروا على أنفسهم إمكانية التهيؤ العسكرى و الاقتصادى لمواجهة العدو مستقبلا.

و هذه المبادرة كانت و لا تزال فى جميع الخطط العسكرية قديمها و حديثها و أمّا من يرى أن توجّه النّبى نحو قافلة أبى سفيان- و

دون الأخذ بنظر الإعتبار هذه الجهات المشار إليها آنفا- نوعا من الإغارة، فإمّا أن يكون جاهلا لا يعرف جذور المسائل التأريخية فی الإسلام أو أنّه مغرض يريد تحوير الواقعيات و الثوابت التاريخية.

و على كل حال، فإنّ أبا سفيان عرف عن طريق أتباعه و أصدقائه تصميم النّبی على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبا سفيان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۸

أرسل من يمضی إلى مكّة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضی رسول أبی سفيان بحالة مثيرة كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره و بتر أذنيه و الدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، و قد شقّ ثوبه- أو طمريه- و ركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبة البعير و وجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكّة أخذ يصرخ قائلا: أيّها الناس الأعزة، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم و أسرعوا و تعجلوا إليها، و إن كنت لا أعتقد أنّكم ستدركونها فی الوقت المناسب، فإنّ محمّدا و رجالا مارقين من دينكم قد خرجوا من المدينة ليتعرضوا لقافلتكم.

و كانت عاتكة بنت عبد المطلب عمّة النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آنئذ قد رأت رؤيا موحشة عجيبة، و قد تناقلت الأفواه رؤياها فيزداد الناس هيجانا.

و كانت عاتكة قد رأت قبل ثلاثة أيّام من مجیء رسول أبی سفيان إلى مكّة، أنّ شخصا يصرخ: أيّها الناس تعجّلوا إلى قتلاكم، ثمّ صعد هذا المنادی إلى أعلى جبل أبی قيس و أخذ حجرا كبيرا فرماه فتلاشى الحجر فی الهواء، و لم يبق بيت فی مكّة لقريش إلّا نزل فيه منه شیء، كما أن وادی مكّة يجری دما عبيطا.

فلمّا استيقظت فزعة مرعوبة من نومها و قصّت رؤياها على أخيها العباس، ذهل الناس لهول هذه الرؤيا.

لكن أبا جهل لما بلغه ذلك قال: ما رأت عاتكة رؤيا، هذه نبيّة ثانية فی بنی عبد المطلب، و باللات و العزّى لننظرن ثلاثة أيّام، فإن كان ما رأت حقّا فهو كما رأت، و إن كان غير ذلك لنكتبنّ بيننا كتابا: أنّه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالا و نساء من بنی هاشم.

و لكن لم يكد يمضی اليوم الثّالث حتى كان ما من أمر ذلك الرجل الذی هزّ مكّة و أهلها.

و لما كان أكثر أهل مكّة شركاء فی هذه القافلة فقد تعبئوا بسرعة و تحركوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۹

نحو القافلة بحوالی ۹۵۰ مقاتلا و ۷۰۰ بعير و مائة فرس، و كان أبو جهل يقود هذا الجيش. و من جهة أخرى و لكی يسلم أبو سفيان من تعرض النّبی و أصحابه لقافلته، فقد غير مسيره و اتجه نحو مكّة بسرعة.

و كان النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد قارب بدرا فی نحو من ثلاثمائة و ثلاث عشر رجلا كانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذ «و بدر منطقة ما بين مكّة و المدينة» و قد بلغه خبر تهيؤ أبی جهل و من معه لمواجهته.

فتشاور النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه: هل يلحقون القافلة و يصادرون أموالها، أو أن عليهم أن يتهيئوا لمواجهة جيش العدوّ؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدوّنا، و كرهت طائفة أخرى ذلك و قالت: إنما خرجنا لمصادرة أموال القافلة.

و دليلها معها، إذ أنّها لم تخرج إلّا لهذا السبب (من المدينة) و لم يكن النّبی و أصحابه عازمين على مواجهة جيش أبی جهل و لم يتعبأوا لذلك، فی حين أن أبا جهل قد تعبأ لهم و يريد قتالهم.

و قد ازداد هذا التردد بين الطائفتين، خاصّة بعد أن عرف أصحاب النّبی أنّ جيش العدوّ ثلاثة أضعافهم و تجهيزاته أضعاف تجهيزاتهم، إلّا أنّ النّبی بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأوّل «أی قتال العدوّ» فلما التقى الجيشان لم يصدق العدوّ أن المسلمين قد

وردوا الميدان بهذه القلّة، بل ظن العدوّ أنّهم مختبئون و أنّهم سيحدقون به عند المواجهة، لذلك فقد أرسل شخصا ليرصد الأمور فرجع و أخبرهم بأنّ المسلمين ليسوا أكثر ممّا رأوهم.

و من جهة أخرى- كما أشرنا آنفا- فإنّ طائفة من المسلمين كانت فى قلق و اضطراب و كانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النّبى و أصحاب أبى جهل! لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم طمأنهم بوعد اللّه و قال: «إنّ اللّه وعدنى إحدى الطائفتين و لن يخلف اللّه الميعاد»

قافلة قريش أو جيش قريش، و لن يخلف اللّه وعده، فواللّه لكأنّى أرى مصرع أبى جهل و جماعة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۰

أصحابه بعينىّ.

ثمّ أمر النّبى أن ينزل أصحابه إلى بئر بدر «و بدر فى الأصل اسم رجل من قبيلة جهينة حفر بئرا فى ذلك الموضوع فسمّيت باسمه، و سمّيت الأرض بأرض بدر أيضا».

و فى هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، و اتّجه نحو مكّة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، و أرسل رسولا إلى قريش: إنّ اللّه نجىّ قافلتكم، و لا أظن أنّ مواجهة محمّد فى هذا الظرف مناسبة، لأنّ له أعداء يكفونكم أمره. إلّا أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبى سفيان و أقسم باللات و العزّى أنّه سيواجه محمّدا، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه أو؟؟؟ سيأسرهم جميعا و يمضى بهم لمكّة، حتى يبلغ خبر هذا الإنتصار آذان العرب.

و أخيرا ورد جيش قريش أرض بدر و أرسلوا غلمانهم للاستقاء من ماء بدر،

فأسرهم أصحاب النّبى و أخذوهم للتحقيق إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسألهم النّبى: من أنتم؟ فقالوا: يا محمّد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟! فقالوا: لا علم لنا بعددهم، قال: كم ينحرون فى كل يوم جزورا؟ فقالوا: تسعة إلى عشرة.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: القوم تسعمائة الى ألف

(كل مائة يأكلون بعيرا واحدا).

كان الجوّ مكفهرا بالرعب و الوحشة، إذ كان جيش قريش معبّأ مدججا بالسلاح، ولديه المؤونة و العدّد، حتى النساء اللائى ينشدن الأشعار و المغنيات اللائى يثرن الحماسة. و كان جيش أبى جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، و لا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

فلمّا رأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن أصحابه قلقون و ربّما لا ينامون الليل من الخوف فيواجهون العدو غدا بمعنويات مهزورة قال لهم كما وعده اللّه: لا تحزنوا فإنّ كان عددكم قليلا فإنّ اللّه سيمدكم بالملائكة، و سرّى عن قلوبهم حتى ناموا ليلتهم مطمئنين راجين النصر على عدوّهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۱

المشكلة الأخرى التى كان أصحاب النّبى يواجهونها، هى أن أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النّبى فاغتسلوا منه و توضأوا و أصبحت الأرض صلبة صالحة للنزال، العجيب فى ذلك أنّ المطر كان فى جهة العدوّ شديدا بحيث أربكهم و أزعجهم.

و الخبر الجديد الذى حصل عليه أصحاب النّبى من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلا- حالة العدو أنّ جيش قريش مع كل تلك الإمكانات العسكرية فى حالة من الرعب بمكانة لا توصف، فكأنّ اللّه أنزل عليها جيشا من الرعب و الوحشة.

و عند الصباح اصطفّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوّهم، و لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- إتماما للحجّة و لئلا- يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية- أرسل إلى قريش ممثلا عنه ليقول لهم: إنّ النّبى لا يرغب فى قتالكم لا يحبّ أن

تکونوا أوّل جماعة تحاربه. فوافق بعض قادة قریش علی هذا الاقتراح و رغبوا فی الصلح، إلّا أنّ أبا جهل امتنع و أبی بشدّة.

و أخیرا اشتعلت نار الحرب، فالتقی أبطال الإسلام بجیش الشرک و الکفر، و وقف حمزة عمّ النّبی و علی ابن عمّ النّبی الذی کان أصغر المقاتلین سنّا وجها لوجه مع صنادید قریش و قتلوا من بارزهم فانهار ما تبقی من معنویات العدوّ، فأصدر أبو جهل أمرا عاما بالحملة، و کان قد أمر بقتل أصحاب النّبی من أهل المدینة «الأنصار» و أن یؤسر المهاجرون من أهل مکّة. فقال النّبی لأصحابه: «غضّوا أبصارکم و عضو علی نواجذ و لا تستلوا سیفا حتی آذان لکم».

ثمّ

مدّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یدیه إلی الدعاء، و رفع بهما نحو السماء فقال: «یا ربّ إن تهلک هذه العصابة لم تعبد و إن شئت أن لا تعبد لا تعبد ...»

فهبت ریح عاصف الی العدوّ، و کان المسلمون یحملون علی عدوّهم و الریاح تهب من خلفهم بوجه العدوّ، و أثبت المسلمون جدارة فائقة و صمدوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۲

للقتال حتی قتلوا منهم سبعین «و أبو جهل من القتلی» و أسروا سبعین، و انهزم الجمع و ولّوا الدبر، و لم یقتل من المسلمین إلّا نفر قلیل، و کانت هذه المعرکة أوّل مواجهة مسلحة بین المسلمین و عدوّهم من قریش، و انتهت بالنصر الساحق للمسلمین علی عدوّهم ۱۸۹].

التّفسیر

و الآن و بعد أن عرفنا باختصار کیف کانت غزوة بدر، نعود ثانیة إلی تفسیر الآیتین.

فی الآیة الأولی- من الآی محل البحث- إشارة إلی وعد اللّه بالنصر فی معرکة بدر إجمالا، إذ تقول الآیة: وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللَّهُ إِحْدَی الطَّائِفَتَیْنِ أَنَّها لَکُمْ

لکنکم لخوفکم من الخسائر و اخطار و بلایا الحرب لم تکونوا راغبین فیها وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَیْرَ ذاتِ الشَّوْکَةِ تَکُونُ لَکُمْ

و قد جاء فی بعض الرّوایات الإسلامیة

أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لهم: «إحدی الطائفتین لکم، إمّا العیر و إمّا النفیر».

و کلمة العیر تعنی القافلة، و النفیر یعنی الجیش.

إلّا أنّه- کما یلاحظ فی الآیة الکریمة، أنّ التعبیر جاء بذات الشکوکة مکان الجیش و النفیر، و بغیر ذات الشوکة مکان القافلة أو العیر.

و هذا التعبیر یحمل فی نفسه معنی لطیفا، لأنّ الشوکة ترمز إلی القدرة و تعنی الشدّة، و أصلها مأخوذ من الشوک، ثمّ استعملت هذه الکلمة «الشوکة» فی نصول الرماح، ثمّ أطلق هذا الاستعمال توسعا علی کل نوح من الأسلحة، و لما کان السلاح یمثل القوّة و القدرة، و الشدّة فقد عبر عنه بالشوکة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۳

فبناء علی هذا فإنّ ذات الشوکة تعنی الجماعة المسلحة، و غیر ذات الشوکة تعنی الجماعة غیر المسلحة، و لو اتفق أن یوجد فیها رجال مسلحون فهم معدودون لا- یکترث بهم. أی أن فیکم من یرغب فی مواجهة العدو غیر مسلحة، و ذلک بمصادرة أموال تجارته، و ذلک ابتغاء الراحة أو حبّا منه للمنافع المادیة، فی حین أن الحرب أثبتت بعد تمامها أن الصلاح یکمن فی تحطیم قوی العدو العسکریة، لتکون الطریق لا حبة لانتصارات کبیرة فی المستقبل، و لهذا فإنّ الآیة تعقب بالقول وَ یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُحِقَّ الْحَقَّ بِکَلِماتِهِ وَ یَقْطَعَ دابِرَ الْکافِرِینَ ۱۹۰].

فعلی هذا، کانت واقعة بدر درسا کبیر للمسلمین للإفادة منه فی الحوادث الآتیة، و یؤکّد لهم أن یتدبروا عواقب الأمور، و لا یکونوا

سطحيين يأخذون بالمصالح الآنية، و بالرغم من أنّ بعد النظر يقترن بالمصاعب عادة، و قصر النظر على العكس من ذلك يقترن بالمنافع المادية و الراحة المؤقتة، إلّا أنّ النصر فى الحالة الأولى يكون شاملا و متجذّرا، أمّا فى الحالة الثّانية فهو انتصار سطحى موقت.

و لم يكن هذا درسا لمسلمى ذلك اليوم فحسب، بل ينبغى لمسلمى اليوم أن يستلهموا من ذلك التعليم السماوى، فعليهم ألّا يغضوا أبصارهم عن المناهج الأصولية بسبب المشاكل و الأتعاب و يستبدلوها بمناهج غير الأصولية قليلة الأتعاب.

و فى آخر آية يماط اللثام عن الأمر بصورة أجلى، إذ تقول الآية الكريمة لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

ترى هل الآية هذه تأكيد لما ورد فى الآية السابقة، كما يبدو لأوّل وهلة، أم هو موضوع جديد تتضمنه الآية؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۴

قال بعض المفسّرين، كالفخر الرّازى فى تفسيره الكبير، و صاحب المنار: إنّ الحقّ فى الآية المتقدمة إشارة لانتصار المسلمين فى معركة بدر، إن الحقّ فى الآية محل البحث، «الثّانية» إشارة لانتصار الإسلام و القرآن الذى كان نتيجة الإنتصار العسكرى فى معركة بدر، و هكذا فإنّ الإنتصار العسكرى- فى تلك الظروف الخاصّة- مقدمة لانتصار الإسلام و المسلمين.

كما يرد هذا الاحتمال، و هو أن الآية السابقة تشير إلى إرادة اللّه «الإرادة التشريعية» التى كانت جلية فى أوامر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الآية الثّانية تشير إلى نتيجة هذا الحكم و الأمر (فلاحظوا بدقة!) ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۵

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۹ الى ۱۴]

اشارة

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّی مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (۹) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۱۰) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (۱۱) إِذْ يُوحِی رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّی مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (۱۲) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۳)

ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (۱۴)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۶

التّفسير

دروس مفيدة من ساحة المعركة:

إنّ هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، و الألطاف الإلهية الكثيرة التى شملت المسلمين لتثير فى نفوسهم الإحساس بالطاعة و الشكر، و لتعبيد الدرب نحو انتصارات المستقبل.

و تشير ابتداء لإمداد الملائكة فتقول: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

جاء فى بعض الرّوايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يستغيث و يدعو ربّه مع بقية المسلمين، و قد رفع يديه نحو السماء قائلا:

«اللّهم أنجز لی ما وعدتنی، اللّهم إنّ تهلک هذه العصابة لا تعبد فی الأرض)[۱۹۱].

و عند ذلک فَاسْتَجابَ لَکُمْ أَنِّی مُمِدُّکُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِکَةِ مُرْدِفِینَ

و کلمة (مردفین) من (الإرداف) بمعنی اتّخاذ محل خلف الشیء فیکون مفهومها أنّ الملائکة کانت تتابع بعضها بعضا فی النّزول لنصرة المسلمین.

و احتمل معنی آخر فی الآیة، و هو أنّ مجموعة الألف من الملائکة کانت تتبعها مجموعات أخری، لیتطابق هذا المعنی و الآیة (۱۲۴) من سورة آل عمران، و التی تقول عن لسان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِینَ أَ لَنْ یَکْفِیَکُمْ أَنْ یُمِدَّکُمْ رَبُّکُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِکَةِ مُنْزَلِینَ

إلّا أنّ الظاهر أنّ عدد الملائکة فی بدر هو الألف، و کلمة مردفین صفة هذا الألف. و آیة سورة آل عمران کانت وعدا للمسلمین فی أنزال ملائکة أکثر لنصرة المسلمین إذا ما اقتضی الأمر.

و لئلا یعتقد بعض بأنّ النصر کان بید الملائکة فحسب، فإنّ الآیة تقول: وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْری وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُکُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۷

. لأنّ اللّه عزیز و مقتدر لا یستطیع أحد الوقوف مقابل إرادته، و حکیم لا ینزل نصرته إلّا للأفراد الصالحین و المستحقین لذلک.

هل قاتلت الملائکة؟

لقد جری البحث فی هذه المسألة کثیرا بین المفسّرین، فبعضهم یری أنّ الملائکة دخلت ساحة القتال و هاجمت الأعداء بأسلحتها الخاصّة، و قتلت بعضهم. و نقلت بعض الرّوایات فی تأیید ذلک.

إلّا أنّ القرائن تؤید الرأی الذی یقول: إنّ الملائکة نزلت لتطمئن قلوب المؤمنین، و یزداد عزمهم، و هذا الرأی أقرب إلی الواقع لعدّة أدلة:

أوّلا: لقد قرأنا فی الآیة قوله تعالی: وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُکُمْ فإذا ما علم المسلمون بهذا المدد فإنّهم یقاتلون بصورة أفضل، لا أن الملائکة شارکت فی الحرب.

ثانیا: إذا کانت الملائکة هی التی قتلت جنود الأعداء، فأیّة فضیلة للمجاهدین فی معرکة بدر و ما ورد عن مقامهم و منزلتهم من روایات کثیرة؟

ثالثا: کان عدد المقتولین فی بدر هو (۷۰ نفرا) و قد کان الکثیر منهم قد سقط بسیف علی علیه السّلام، و القسم الآخر بید المقاتلین الآخرین، و هؤلاء معروفون بأسمائهم فی التاریخ، فبناء علی ذلک- من الذی- بقی لتقتله الملائکة؟! ثمّ تذکر الآیة النعمة الثّانیة التی اکتنفت المؤمنین فتقول: إِذْ یُغَشِّیکُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ

و (یغشی) من مادة (الغشیان) بمعنی تغطیة الشیء و إحاطته. فکأنّ النوم کالغطاء الذی وضع علیهم فغطّاهم.

و (النعاس) یطلق علی بدایة النوم، أو النوم القلیل أو الخفیف الناعم و لعلها إشارة إلی أنّه بالرغم من هدوئکم النفس لم یأتکم نوم عمیق یمکّن الأعداء من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۸

استغلاله و الهجوم علیکم. و هکذا استفاد المسلمون من هذه النعمة العظیمة من تلک اللیلة.

و الرحمة الثّالثة التی وصلتکم هی: وَ یُنَزِّلُ عَلَیْکُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِیُطَهِّرَکُمْ بِهِ وَ یُذْهِبَ عَنْکُمْ رِجْزَ الشَّیْطانِ

و هذا الرّجز قد يكون وساوس الشيطان، أو رجزا بدنيا كجنابة بعضهم، أو الأمرين معا. و على أية حال، فإنّ الماء ملأ الوديان من أطراف بدر بعد أن استولى الأعداء على آبار بدر و كان المسلمون بحاجة ماسة للغسل و رفع العطش، فإذا هذا الماء قد ذهب بكل تلك الأرجاس.

ثمّ أنّ اللّه تعالى أراد بذلك تقوية معنويات المسلمين و كذلك تثبيت الرمال المتحركة تحت أقدامهم بواسط المطر: وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ ... و يمكن أن يكون المراد من تثبيت الأقدام هو رفع المعنويات و زيادة الثبات و الاستقامة ببركة تلك النعمة، أو إشارة إلى هذين الأمرين.

و النعمة الأخرى التى أنعمها اللّه على المجاهدين فى بدر، هى الرعب الذى أصاب به اللّه قلوب أعدائهم، فزلزل معنوياتهم بشدة، فيقول تعالى إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا.

سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

و إنّه لمن العجب و الغرابة أن ينهار جيش قريش القوى أمام جيش المسلمين القليل، و أن تذهب معنوياتهم- كما ينقل التاريخ- بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، و حتى أنّهم كانوا يفكرون بأنّ المسلمين ليسوا أشخاصا مألوفين، و كانوا يقولون بأنّ المسلمين قد جاؤكم من قرب يثرب (المدينة) بهدايا يحملونها على إبلهم هى الموت.

و لا شك أنّ هذا الرعب الذى أصاب قلوب المشركين، و الذى كان من عوامل النصر، لم يكن جزافا، فلقد أثبت المسلمون شجاعتهم و أقاموا صلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۹

الجماعة، و كانت شعارتهم قوية. فإظهار المؤمنون الصادقين وفاءهم و خطبة بعضهم مثل

سعد بن معاذ نيابة عن الأنصار أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا: «بأبى أنت و أمّى، يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّنا قد آمنا بك و صدقناك و شهدنا أنّ ما جئت به حق من عند اللّه فمرنا بما شئت و خذ من أموالنا ما شئت، و اترك منه ما شئت و الذى أخذت منه أحبّ إلىّ من الذى تركت منه، و اللّه لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضنا معك ... إنّنا لنرجوا أن يقرّ اللّه عزّ و جلّ عينيك بنا ....».

مثل هذا الحديث سرعان ما انتشر بين الأعداء و الأصدقاء، أضف إلى ذلك ما رآه المشركون من ثبات راسخ عند المسلمين يوم كانوا فى مكّة رجالا و نساء.

اجتمعت كل هذه الأمور لترسم صورة الخوف عند المشركين.

ثمّ الريح العاتية التى كانت تهب على المشركين و المطر الشديد عليهم و الخواطر المخفية لرؤيا (عاتكة) فى مكّة، و غيرها من العوامل التى كانت تبعث فيهم الخوف و الهلع الشديد.

ثمّ آن القرآن يذكّر المسلمين بالأمر الذى أصدره النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للمسلمين بأنّ عليهم اجتناب الضرب غير المؤثر فى المشركين، حال القتال لئلا تضيع قوتهم فيه، بل عليهم توجيه ضربات مؤثرة و قاطعة فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ و (البنان) جمع (البنانة) بمعنى رؤوس أصابع الأيدى أو الأرجل، أو الأصابع نفسها، و فى هذه الآية يمكن أن تكون كناية عن الأيدى و الأرجل أو بالمعنى الأصلى نفسه، فإنّ قطع الأصابع من الأيدى يمنع من حمل السلاح، و قطعها من الأرجل يمنع الحركة، و يحتمل أن يكون المعنى هو إذا كان العدو مترجلا، فيجب أن تكون الأهداف رؤوسهم، و إذ كان راكبا فالأهداف أيديهم و أرجلهم.

كما أنّ بعضا يرى أنّ هذه الجملة هى خطاب للملائكة، إلّا أنّ القرائن تدل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۰

على أنّ المخاطبين هم المسلمون، و إذا كان الملائكة هم المخاطبين فيها فيمكن أن يكون الهدف من الضرب على الرؤوس و الأيدى

و الأرجل، هو إيجاد الرعب فيهم لترتبك أيديهم و أرجلهم فتسقط و تنحنى رؤوسهم. (و بالطبع فإنّ هذا التّفسير يخالف الظاهر من العبارة، و يجب إثباته بالقرائن تحدثنا عنها سابقا من مسألة عدم قتال الملائكة).

و بعد كل تلك الأحاديث، و لكيلا يقول شخص بأنّ هذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة و الشفقة و أخلاق الرجولة، فإنّ الآية تقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

و (شاقوا) من مادة (الشقاق) و هى فى الأصل بمعنى الإنفطار و الانفصال، و بما أنّ المخالف أو العدوّ و يبتعد عن الآخرين فقد سمى عمله شقاقا: وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

ثمّ يؤكّد هذا الموضوع: و يقول: ذوقوا العذاب الدنيوى من القتل فى ميدان الحرب و الأسر و الهزيمة السافرة، و مع ذلك انتظروا عذاب الآخرة أيضا: ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۱

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۱۵ الى ۱۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (۱۵) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۷) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (۱۸)

التّفسير

الفرار من الجهاد ممنوع!

كما ذكرنا فى تفسير الآيات السابقة، فإنّ الحديث عن قصّة معركة بدر و ألطاف اللّه الكثيرة على المسلمين الأوائل من أجل أن يتّخذ منه المسلمين العبرة و الدرس فى المستقبل، لذلك فإنّ هذه الآيات توجه خطابها للمؤمنين و تأمرهم أمرا عاما بالقتال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۲

و (لقيتم) من مادة (اللقاء) بمعنى الاجتماع و المواجهة، و تأتى فى أكثر أحيان بمعنى المواجهة فى ميدان الحرب.

و (الزّحف) فى الأصل بمعنى الحركة إلى أمر ما بحيث تسحب الأقدام على الأرض كحركة الطفل قبل قدرته على المشى، أو الإبل المرهقة التى تخط أقدامها على الأرض أثناء سيرها، و يطلق على الجيش الجرار الذى يشاهد من بعيد و كأنّه يحفر الأرض أثناء مسيره.

و استخدام كلمة (زحف)- فى الآية آنفا- تشير إلى أنّه بالرغم من أنّ عدوكم قوى و كثير، و أنتم قليلون، فلا ينبغى لكم الفرار من ساحة الحرب، و كما كان عدوكم كثيرا فى ميدان بدر فثبتّم و انتصرتم.

فالفرار من الحرب يعدّ فى الإسلام من كبائر الذنوب، إلّا أنّ ذلك مرتبط- كما نبيّن بعض الآيات- بكون الأعداء ضعفى عدد المسلمين، و سنبحث هذا الأمر بعون اللّه فى الآيتين (۶۵) و (۶۶) من هذه السورة. و لذلك تذكر الآية بعدها جزاء من يفر من ميدان الحرب مع الإشارة لمن يستثنون منهم فتقول: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ

و كما نرى فقد استثنت الآية صورتين من مسألة الفرار، ظاهرهما أنّهما من صورة الفرار، غير أنّهما فى الحقيقة و الواقع صورتان للقتال و الجهاد.

الصورة الأولى: عبّر عنها ب «مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ» و «متحرف» من مادة (التحرّف) أى الابتعاد جانبا من الوسط نحو الأطراف و الجوانب، و المقصود بهذه الجملة هو أنّ المقاتلين يقومون بتكتيك قتالى إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء: ثمّ يغافلوهم فى توجيه ضربة قوية إليهم و استخدام فن الهجوم و الانسحاب المتتابع و كما يقول العرب: (الحرب كرّ و فرّ).

الصورة الثّانية: أن يرى المقاتل نفسه وحيدا فى ساحة القتال، فينسحب للالتحاق بإخوانه المقاتلين و ليهجم معهم من جديد على الأعداء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۳

و على كل حال، فلا ينبغى تفسير هذا التحريم بشكل جاف يتنافى و أساليب الحروب و خدعها، و التى هى أساس كثير من الانتصارات.

و تختتم الآية محل البحث بالقول: إنّ جزاء من يفرّ مضافا إلى استحقاقه لغضب اللّه فانّ مصيره إلى النّار: وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

و الفعل «باء» مشتق من «البواء» و معناه الرجوع و اتّخاذ المنزل، جذره فى الأصل يعنى تصفية محل ما و تسطيحه، و حيث إنّ الإنسان إذا نزل فى محل عدله و سطحه، فقد جاءت هذه الكلمة هنا بهذا المعنى. و فى الآية إشارة إلى أنّ غضب اللّه مستمر و دائم عليهم، فكأنّهم قد اتّخذوا منزلا عند غضب اللّه.

و كلمة «المأوى» فى الأصل معناها «الملجأ» و ما نقرؤه فى الآية، محل البحث وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ فهو إشارة إلى أنّ الفارين يطلبون ملجأ و مأوى من فرارهم لينقذوا أنفسهم من الهلكة، إلّا أنّ ما يحصل هو خلاف ما يطلبون، إذ ستكون جهنم مأواهم، و ليس ذلك فى العالم الآخر فحسب، بل هو فى هذا العالم إذ سيحترقون فى جهنم الذلة و الانكسار و الضياع.

و لذا

فقد جاء فى «عيون الأخبار» عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى جواب أحد أصحابه حين سأله عن فلسفة تحريم الفرار من الجهاد فقال: «و حرم اللّه الفرار من الزحف لما فيه من الوهن فى الدين، و الاستخفاف بالرسل و الأئمّة العادلة عليهم السّلام، و ترك نصرتهم على الأعداء، و العقوبة على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالرّبوبية و إظهار العدل و ترك الجور و إماتة الفساد، لما فى ذلك من جرأة العدوّ على المسلمين، و ما يكون من السبى و القتل و إبطال دين اللّه عزّ و جلّ و غيره من الفساد»[۱۹۲]

و من ضمن الامتيازات الكثيرة التى كانت عند الإمام على عليه السّلام، و ربّما يشير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۴

إلى نفسه أحيانا ليكون نبراسا للآخرين

قوله «إنّى لم أفر من الزحف قطّ، و لم يبارزنى أحد إلّا سقيت الأرض من دمه»[۱۹۳]

و العجيب أنّ بعض المفسّرين من أهل السنة يصرّ على أنّ حكم الآية السابقة يختص بمعركة بدر، و أنّ التهديد و الوعيد من الفرار من الجهاد يتعلق بالمقاتلين فى بدر فحسب، مع أنّه لا يوجد دليل فى الآية على هذا التخصيص، بل لها مفهوم عام يشمل كل المقاتلين و المجاهدين.

و فى الرّوايات و الآيات كثير من القرائن الذى يؤيد هذا المعنى «و لهذا الحكم شروط طبعا سنتناولها نعالجها فى الآيات المقبلة من هذه السورة إن شاء اللّه».

و لئلا يصاب المسلمون بالغرور فى انتصارهم، و لئلا يعتمدوا على قواهم الجسمية فحسب، و ليذكروا اللّه فى قلوبهم دائما، و ليتعلقوا به طلبا لألطافه، فإنّ الآية التّالية تقول: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى

لقد ورد فى الرّوايات و التفاسير أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى يوم بدر: أعطنى حفنة من تراب الأرض و حصاها، فناوله على ذلك، فرمى النّبى جهة المشركين بذلك التراب و قال: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى [۱۹۴]

قالوا: كان لهذا الفعل أثر معجز إذ وقع ذلك التراب على وجوه المشركين و عيونهم فملأهم رعبا.

لا شك أنّ الظاهر يشير إلى أنّ النّبى و أصحابه هم الذين أدّوا هذا الدور فى معركة بدر، لكن القرآن يقول: إنكم لم تفعلوا ذلك أوّلا، لأنّ القدرات الروحية و الجسمية و الإيمانية التى هى أصل تلك النتائج كلها من عطاء اللّه و قد تحركتم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۵

بقوة اللّه و فى سبيل اللّه. و ثانيا قد حصلت فى ساحة بدر معاجز كثيرة أشرنا إليها سابقا، و قد بعثت فى نفوس المجاهدين القوّة، و انهارت بها قوى المشركين و معنوياتهم، و كان كل ذلك بألطاف اللّه سبحانه.

و فى الحقيقة فإنّ الآية محل البحث تشير إلى لطيفة فى مذهب

«لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين»

لأنّها فى الوقت الذى تخبر عن قتل المسلمين للكافرين، و تقول إنّ النّبى رمى التراب بوجوه المشركين تسلب منهم كل هذه الأمور (فتأمل بدقّة).

و لا شك فى عدم وجود تناقض فى مثل هذه العبارة، بل الهدف هو القول بأنّ هذا الفعل كان منكم و من اللّه أيضا، لأنّه كان بإرادتكم و اللّه منحكم القوة و المدد.

و بناء على ذلك فإنّ الذين اعتقدوا بمذهب الجبر مستدلين بهذه الآية فإنّ الردّ عليهم موجود فى الآية ذاتها.

و الذين قالوا بوحدة الوجود مستدلين بهذه الآية فإنّ الردّ عليهم موجود فى الآية بأسلوب لطيف، لأنّه إذا كان المراد بأنّ الخالق و المخلوق واحد، فلا ينبغى أن ينسب الفعل إليهم تارة و ينفى عنهم تارة أخرى، لأنّ النسبة و نفيها دليل على التعدد، و إذا تجردت الأفكار عن الحكم المسبق و التعصب المقيت لرأينا أن الآية لا ترتبط بأىّ من المذاهب الضّالة، بل هى تشير إلى المذهب الوسط «أمر بين أمرين» فحسب.

و هذه الإشارة لأجل هدف تربوى، و هو إزالة الغرور و آثاره، إذ يقع ذلك عادة فى الأفراد بعد الانتصارات.

و تشير الآية فى ختامها إلى لطيفة مهمّة أخرى، و هى أنّ ساحة بدر كانت ساحة امتحان و اختبار، إذ تقول: وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً.

و البلاء معناه الاختبار فى الأصل، غاية ما فى الأمر تارة يكون بالنعم فيسمى بلاء حسنا، و تارة بالمصائب و العقاب فيسمّى بلاء سيئا، كما تشير إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۶

ذلك الآية (۱۶۸) من سورة الأعراف فى شأن بنى إسرائيل وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ

لقد شاء اللّه أن يذيق المؤمنين فى أوّل مواجهة مسلحة بينهم و بين أعدائهم طعم النصر، و أن يجعلهم متفائلين للمستقبل، و هذه الموهبة الإلهية كانت اختبارا لهم جميعا، و إلّا أنّه لا ينبغى لهم أن يغتروا بهذا الإنتصار أبدا، فتكون النتيجة سلبية، و ذلك بأن يروا عدوهم حقيرا و ينسوا بناء ذواتهم و يغفلوا عن الاعتماد على اللّه.

لهذا فإنّ الآية تختتم بهذه الجملة إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

أى أنّ اللّه سمع صوت استغاثة النّبى و المؤمنين، و اطلع على صدق نياتهم، فأنزل ألطافه عليهم جميعا و نصرهم على عدوّهم، و أنّ اللّه يعامل عباده بهده المعاملة حتى فى المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم و إخلاصهم و استقامتهم، فالمؤمنون المخلصون

ينتصرون أخيرا، و المراؤن المدعون ينهزمون و يفشلون.

و فى الآيةِ التالية يقول سبحانه تعميما لهذا الموضوع و أنّ مصير المؤمنين و الكفار هو ما سمعتم، فيقول: ذٰلِكُمْ ۱۹۵] ثمّ يعقب القرآن مبينا العلّة وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۷

الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۱۹]

اشارة

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۹)

التّفسير

لقد جرى بحث كثير بين المفسّرين حول الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنّهم المشركين، لأنّهم قبل خروجهم من مكّة إلى بدر اجتمعوا حول الكعبة و ضربوا على ستائرها (لغرورهم و اعتقادهم بأنّهم على الحق). و قالوا: «اللّهم أنصر أعلى الجندين و أهدى الفئتين و أكرم الحزبين»[۱۹۶].

و روى أنّ أبا جهل دعا فقال: (اللهم ربّنا ديننا القديم و دين محمّد الحديث، فأى الدينين كان أحب إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم)[۱۹۷] ... و لذلك فقد نزلت هذه الآية لتقول لهم: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۸

و الذى يبعد هذا التّفسير أن الحديث فى الآيات السابقة و اللاحقة لهذه الآية موجه للمؤمنين، فيستبعد أن تكون بينها آية واحدة تتحدث مع المشركين، و يضاف لذلك الارتباط المعنوى الموجود بين مضامين كل هذه الآيات- و لذلك اعتبر بعض المفسّرين أنّ المخاطبين فى الآية هم المؤمنون، و أحسن صورة لتفسير الآية على هذا الوجه هى:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعة بدر- كما رأينا- و نزلت آيات توبخهم و تضع الغنائم تحت تصرف شخص الرّسول كاملا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقام بتقسيمها بينهم بالتساوى، بغية تربيتهم و تعليمهم، ثمّ ذكّرهم بحوادث بدر و كيف نصرهم اللّه على عدوّهم القوى.

و هذه الآية تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين و تقول لهم: إنّكم إذا سألتم اللّه الفتح و النصر فسوف يستجيب لكم و ينصركم، و إذ تركتم الاعتراض و الجدال عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبذلك مصلحتكم، و إذا عدتم لنفس الأسلوب من الاعتراض فسنعود نحن أيضا، و نترككم وحيدين فى قبضة الأعداء و حتى إذا كان عددكم كثيرا فبدون نصرة اللّه لن تقدروا أن تعملوا أى شيء، و إنّ اللّه مع المؤمنين المخلصين و الطائعين لأوامره و أوامر نبيّه.

و هكذا يستفاد من الآيات و خاصّة من إلقاء اللوم على المسلمين لبعض مخالفتهم، و كذلك سياق الآيات السابقة و ما فيها من أواصر و روابط معنوية واضحة، فإن التّفسير الثّانى يكون أقرب إلى النظر ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۹

الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

التّفسير

الذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون!

تتابع هذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسلمين إلى الطاعة التامة لأوامر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى السلم أو الحرب أو فى أى أمر آخر، و أسلوب الآيات فيه دلالة على تقصير بعض المؤمنين فى التنفيذ و الطاعة، فتبدأ بالقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

و تضيف لتؤكّد الأمر من جديد: وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ

لا شك فى أنّ إطاعة أوامر اللّه تعالى واجبة على الجميع، المؤمنين و غير المؤمنين، و لكن بما أنّ المخاطبين و المعنيين بهذا الحديث التربوى هم المؤمنون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۰

فلهذا كان الكلام فى هذه الآية الشريفة موجها إليهم.

الآية الثّانية: تؤكّد هذا المعنى أيضا فتقول: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ

إنّ هذا التعبير الطريف يشير للذين يعلمون و لا يعملون، و يسمعون و لا يتأثرون، و فى ظاهرهم أنّهم من المؤمنين، و لكنّهم لا يطيعون أوامر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهؤلاء لهم آذان سامعة لكل الأحاديث و يعون مفاهيمها، و بما أنّهم لا يعملون بها و لا يطبقونها فكأنّهم صمّ لا يسمعون، لأنّ الكلام مقدمة للعمل فلو عدم العمل فلا فائدة من أية مقدمة.

و أمّا المراد من هؤلاء الأشخاص الذين يحذّر القرآن المسلمين لكيلا يصيروا مثلهم، فيرى بعض أنّهم المنافقون الذين اتخذوا لأنفسهم مواقع فى صفوف المسلمين، و قال آخرون: إنّما تشير إلى طائفة من اليهود، و ذهب بعض بأنّهم المشركون من العرب. و لا مانع من انطباق الآية على هذه الطوائف الثلاث، و كل ذى قول بلا عمل.

و لما كان القول بلا عمل، و الاستماع بلا تأثر، أحد الأمراض التى تصّاب بها المجتمعات، و أساس الكثير من التخلفات، فقد جاءت الآية الأخرى لتؤكّد على هذه المسألة بأسلوب آخر، فقالت: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ١٩٨].

و لمّا كان القرآن كتاب عمل فإنّه ينظر إلى النتائج دائما، فيعتبر كل موجود لا فائده فيه كالمعدوم، و كل حى عديم الحركة و التأثير كالميت، و كل حاسّة من حواس الإنسان مفقود إذا لم تؤثر فيه تأثيرا ايجابيا فى مسيرة الهداية و السعادة، و هذه الآية اعتبرت الذين لهم آذن سالمة لكنّهم لا يستمعون لآيات اللّه و دعوة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۱

الحق و نداء السعادة، كمن لا أذن له و لا سمع لديه، و الذين لهم ألسنة سالمة لكنّها ساكتة عن الدعوة إلى الحق و مكافحة الظلم و الفساد، فلا يأمرون بمعروف و لا ينهون عن منكر، بل يضيعون هذه النعمة فى التملق و التذلل أمام الطواغيت أو تحريف الحق و تقوية

الباطل، فهؤلاء كمن هو أبكم لا يقـدر على الكلام، و كـذلك الـذين يتمتعون بنعمـة الفكر و العقل و لكنّهم لا يصـححون تفكيرهم، فهؤلاء فى عداد المجانين.

و تقول الآيـة بعـدها إن اللّه لاـ يمتنع من دعوة هؤلاـء إن كانوا صادقين فى طلبهم و على اسـتعداد لتقبل الحق: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ

و قد ورد فى الرّوايات أنّ بعض عبدة الأصـنام جاءوا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و قالوا: إذا أخرجت لنا جدنا الأكبر (قصـى بن كلاـب) حيّا من قبره، و شـهد لـك بـالنبوة، فسوف نسـلّم جميعـا! فنزلت الآيـة لتقول: إنّه لو كان حـديثهم صادقا لفعل اللّه ذلك لهم بواسطة المعجزة، لكنّهم يكذبون و يأتون بأعذار واهية، بهدف التخلص من الإذعان لدعوة الحق ...

و يقول تعالى: وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ

فالـذين سـمعوا دعوة الحق كثيرا، و بلغت آذانهم آيـات القرآن، و فهموا مضامينها العاليـة، لكنّهم أنكروها بسـبب عتوهم و عصبيّتهم، فهم غير مؤهلين للهداية لما اقترفت أيديهم، و لا شأن بعدئذ للّه و رسوله بهم، فهم فى ظلام دامس و ضلال بهيم.

كما أنّ هـذه الآيـة تعد جوابا قاطعا للقائلين بمدرسة الجبر، لأنّها تقرر بأن يكمن فى الإنسان نفسه و أنّ اللّه يعامل الناس بما يبدونه من أنفسهم من استعداد و قابلية فى طريق الهداية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۲

ملاحظتان

۱- «و لو علم اللّه فيهم خيرا لأسمعهم»

لقـد حاول بعض الناشـئة عمل قياس منطقى من هـذه الآيـة و الخروج منه بنتيجـة لصالحهم، فقالوا، إنّ القرآن يقول فى الآية: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْـمَعَهُمْ و قال أيضا: وَ لَوْ أَسْـمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ فيمكن الاسـتنتاج من هاتين الجملتين الجملـة التّالية و هى: لو علم اللّه فيهم خيرا فهم سيعرضون.

و هذا الاستنتاج خطأ محض.

و قـد أخطأ هؤلاـء لأـنّ معنى جملـة: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْـمَعَهُمْ فى قسـمها الأـوّل هـو: لو كـان لهؤلاـء قابليـة فسـيوصل الحق لأسماعهم، و لكن القسم الثّانى معناه أن هؤلاء إذا لم تتهيأ لهم القابلية للهداية فسوف لن يستجيبوا و سوف يعرضون ...

و النتيجة أن الجملة المذكورة آنفا وردت فى الآية بمعنيين مختلفين، و على هذا لا يمكن تأليف قياس منطقى منهما ...[۱۹۹] (فتأمل).

و هـذه المسألة تشـبه من يقول: إنّنى لو كنت أعتقد بأنّ فلانا يسـتجيب لدعوتى لدعوته، لكنّه فى الحال الحاضـر إذا دعوته فسوف لن يستجيب، و لذلك فسوف لن أدعوه ...

۲- لاستماع الحق مراحل

إنّ الإنسان قد يسمع أحيانا ألفاظا و عبارات دون التفكير فى مضامينها، إلّا أنّ بعضا لفرط لجاجتهم، كانوا يرفضون حتى هذا القدر من السمع، كما يقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۳

عنهم القرآن وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَغْلِبُونَ ۲۰۰].

و تارة یقبل الإنسان باستماع الأحادیث، لکنّه لا یقرر أبدا العمل بها، کالمنافقین الذین ورد ذکرهم فی الآیة (۱۶) من سورة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ حَتَّی إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِکَ قالُوا لِلَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً.

و قد یصل وضع هؤلاء أعلی مراحل الخطر، إذ یسلبون القدرة علی معرفة الخبیث و الطیب، و حتی إذا استمعوا الحدیث الحق لا یکون بإمکانهم استیعابه و هضمه.

و القرآن یقول عن هذه الطوائف الثلاث، إنّ هؤلاء فی واقعهم صم بکم، لإنّ الذی یسمع فی الحقیقة یجب علیه الإدراک و التفکیر و العزم علی العمل بإخلاص.

و کم من أناس فی عصرنا و زمننا الحاضر عند ما یسمعون آیات القرآن یتفاعلون معها بشکل ملفت للنظر، لکنّهم فی العمل لا یتطابقون بأی شکل مع مضمون القرآن الکریم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۴

الآیات [سورة الأنفال (۸): الآیات ۲۴ الی ۲۶]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاکُمْ لِما یُحْیِیکُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِیبَنَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ (۲۵) وَ اذْکُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِیلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِی الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ النَّاسُ فَآواکُمْ وَ أَیَّدَکُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَکُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۲۶)

التّفسیر

دعوة للحیاة:

تتابع هذه الآیات دعوة المسلمین المتقدمة للعلم و العمل و الطاعة و التسلیم لکنّها تتابع الهدف ذاته عن طریق آخر، فتقول ابتداء: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاکُمْ لِما یُحْیِیکُمْ

فهذه الآیة تقول بصراحة: إنّ دعوة الإسلام هی دعوة للعیش و الحیاة، الحیاة المعنویة، الحیاة المادیة، الحیاة الثقافیة، الحیاة الاقتصادیة، الحیاة السیاسیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۵

الحیاة الأخلاقیة و الاجتماعیة، و أخیرا الحیاة و العیش بالمعنی الصحیح علی جمیع الأصعدة، و هذه أقصر و أجمع عبارة عن الإسلام و رسالته الخالدة، إذا سأل أحد عن أهداف الإسلام، و ما یمکن أن یقدمه، فنقول جملة قصیرة: إنّ هدفه هو الحیاة علی جمیع الأصعدة، هذا ما یقدمه لنا الإسلام.

تری هل کان الناس موتی قبل بزوغ الإسلام و نزول القرآن لیدعوهم القرآن إلی الحیاة ...؟

و جواب هذا التساؤل: نعم، فقد کانوا موتی و فاقدی الحیاة بمعناها القرآنی، لأنّ الحیاة ذات مراحل مختلفة أشار إلی جمیعها القرآن الکریم.

فتارة تأتی بمعنی (الحیاة النباتیة) کما یقول القرآن: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها[۲۰۱].

و تارة تأتى بمعنى (الحياة الحيوانية) مثل: إِنَّ الَّذِى أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى ۲۰۲].

و تارة بمعنى (الحياة الفكرية و العقلية) مثل: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ ۲۰۳] و تارة بمعنى «الحياة الخالدة فى العالم الآخر) مثل: يا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَياتِى ۲۰۴].

و تارة بمعنى (العالم و القادر بلا حد و لا نهاية) كما نقول عن اللّه: الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ

و بالنظر إلى هذه الأقسام التى ذكرناها نعرف أنّ الناس فى الجاهلية كانوا يعيشون الحياة الحيوانية و المادية، و كانوا بعيدين عن الحياة الإنسانية و المعنوية و العقلية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۶

و من هنا نعلم أنّ من يضع الدين فى قوالب جامدة لا روح فيها بعيدا عن مجالات الحياة، و يختزله فى مسائل فكرية و اجتماعية صرفة فقد جانب الصواب كثيرا، لأنّ الدين الصحيح هو الذى يبعث الحركة فى كل جوانب الحياة، و يحيى الفكر و الثقافة و الإحساس بالمسؤولية، و يوجد التكامل و الرّقى و الوحدة و التألف، فهو إذا يبعث الحياة فى البشرية بكل معنى الكلمة.

و بذلك تتّضح هذه الحقيقة أيضا و هى أن الذين فسّروا الآية بمعنى واحد هو الجهاد أو الإيمان أو القرآن أو الجنّة، و اعتبروا كل واحد من هذه الأمور هو العامل الوحيد للحياة فى الآية المباركة، هؤلاء فى الحقيقة حددوا مفهوم الآية، لأنّه يشتمل على كل ذلك و أكثر حيث يندرج،- ضمن مفهوم الآية- كل شىء، و كل فكر، و كل قانون يبعث الروح فى جانب من جوانب الحياة.

ثمّ يقول تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

إنّ المقصود بالقلب هنا- كما ذكرنا سابقا- الروح و العقل، أمّا كيف يحول اللّه بين المرء و قلبه؟ فقد ذكروا لذلك احتمالات مختلفة ...

فتارة قيل: إنّه إشارة لشدّة قرب اللّه من عباده، فكأنّ اللّه فى داخل روح العبد و جسمه، و كما يقول القرآن الكريم: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.

و قيل: إشارة إلى أنّ تقلب القلوب و الأفكار هو بيد اللّه، كما نقرأ فى الدعاء:

(يا مقلب القلوب و الأبصار).

و قيل: إنّ المقصود هو أنّ الإنسان لولا اللطف الإلهى غير قادر على معرفة الحق من الباطل.

و قيل أيضا: إنّ المقصود هو أنّه ما دام للناس فرصة فينبغى عليهم أداء الطاعات و أعمال الخير، لأنّ اللّه قد يحول بواسطة الموت بين المرء و قلبه.

و يمكن بنظرة شاملة جمع كل التفاسير فى تفسير واحد، هو أنّ اللّه عزّ و جلّ حاضر و ناظر و مهيمن على كل المخلوقات. فإنّ الموت و الحياة و العلم و القدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۷

و الأمن و السكينة و التوفيق و السعادة، كلّها بيديه و تحت قدرته، فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمرا بدون توفيقه، و ليس من اللائق التوجه لغيره و سؤال من سواه. لأنّه مالك كل شىء و المحيط بجميع وجود الإنسان. و ارتباط هذه الجمل مع سابقتها من جهة أنّه لو دعا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الناس إلى الحياة، فذلك لأنّ الذى أرسله هو مالك الحياة و الموت و العقل و الهداية و مالك كل شى.

و للتأكيد على هذا الموضوع فإنّ الآية تريد أن تقول: إنّكم لستم اليوم فى دائرة قدرته فحسب، بل ستذهبون إليه فى العالم الآخر، فأنتم فى محضره و تحت قدرته هنا و هناك.

ثمّ تشير إلى عاقبة السوء لمن يرفض دعوة اللّه و رسوله إلى الحياة فتقول:

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً.

و كلمـة (فتنة) اسـتعملت فى القرآن المجيد بمعان مختلفة، فقد جاءت تارة بمعنى الإختيار و الامتحان، و تارة بمعنى البلاء و العذاب و المصيبة، و هى فى الأصل بمعنى إدخال الـذهب فى بوتقـة النّار ليتميز جيده من رديئه، ثمّ اسـتعملت بمعنى الإختبارات التى تكشـف الصفات الباطنية للإنسان، و استحدثت فى الابتلاء و الجزاء الذى يبعث الصفاء فى روح الإنسان و يطهّره من شوائب الذنوب، و أمّا فى هذه الآية فإنّ كلمة (فتنة) بمعنى البلاء و المصائب الاجتماعية التى يصاب بها الجميع فيحترق فيها الأخضر مع اليابس.

و فى الحقيقـة فشأن الحوادث الاجتماعية هو هكذا، فإذا ما توانى مجتمع ما عن أداء رسالته، و انهارت القوانين على أثر ذلك، و انعدم الأمن، فإنّ نار الفتنة ستحرق الأبرار مع الأشرار، و هذا هو الخطر الذى يحذر اللّه تبارك و تعالى منه و يحذر فى هذه الآية المجتمعات البشرية كلّها.

و مفهوم الآية هنا هو أنّ أفراد المجتمع مسئولين عن أداء وظائفهم، و كذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۸

فهم مسئولون عن حثّ الآخرين لأداء وظائفهم أيضا، لأنّ الاختلاف و التشتت فى قضايا المجتمع يؤدى إلى انهياره، و يتضـرر بذلك الجميع، فلا يصحّ أن يقول أحد بأنّنى أؤدى رسالتى الاجتماعية و لا علاقة لى بالآثار السلبية الناجمة عن عدم أداء الآخرين لواجباتهم، لأنّ آثار القضايا الاجتماعية ليست فردية و لا شخصية.

و هـذا الموضوع يشبه تماما ما لو احتجنا لصد هجوم الأعـداء إلى مائـة ألف مقاتل، فإذا قام خمسون ألف مقاتل بأداء وظائفهم فمن اليقين أنّهم سيخسرون عند منازلتهم العدو، و هـذا الانكسار سيشـمل الـذين أدوا وظائفهم و الـذين تقاعسوا عن أدائها و هـذه هى خصوصية المسائل الاجتماعية.

و يمكن إيضـاح هـذه الحقيقـة بصـورة أجلى و هى: أنّ الأخيـار من أبنـاء المجتمع مسـئولون فى التصـدّى للأشـرار لأنّهم لو اختـاروا السكوت فسيشاركون أولئك مصيرهم عند اللّه كما

ورد ذلك فى حـديث مشـهور عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم حيث قال: (إنّ اللّه عزّ و جلّ لا يعذب العامّة بعمل الخاصّة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم و هم قادرون على أن ينكرون، فإذا فعلوا ذلك عذب اللّه الخاصّة و العامّة)[۲۰۵].

و يتّضـح ممّا قلناه أنّ هـذا الحكم يصـدق فى مجـال الجزاء الإلـهى فى الـدنيا و الآخرة، و كـذلك فى مجال النتائج و آثار الأعمال الجماعية[۲۰۶].

و تختتم الآيـة بلغـة التهديـد فتقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيـدُ الْعِقابِ لئلا يصاب هؤلاء بالغفلـة بسـبب الألطاف و الرحمة الإلهية و ينسوا شدّة الجزاء الإلهى، فتأكلهم الفتن و تحيط بهم من كل جانب، كما أحاطت المجتمع الإسلامى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۹

و أرجعته القهقرى بسبب نسيانه السنن و القوانين الإلهية.

فنظرة قصـيرة إلى مجتمعنـا الإسـلامى فى زماننـا الحاضـر و الانكسـارات الـتى أصـابته أمـام أعـدائه، و الفتـن الكـثيرة، كالاسـتعمار و الصهيونية، و الإلحاد و المادية، و الفساد الخلقى و تشتت العوائل و سقوط شبابه فى وديان الفساد، و التخلف العلمى، كل ذلك يجسد مضـمون الآية، و كيف أنّ تلك الفتن أصابت كل صـغير و كبير، و كل عالم و جاهل، و سيسـتمر كل ذلك حتى اليوم الذى تتحرك فيه الروح الاجتماعية للمسلمين، و يهتم الجميع بصلاح المجتمع و لا يتخلفوا عن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و يأخـذ القرآن الكريم مرّة أخرى بأيـدى المسلمين ليعيـدهم نحو تـاريخهم، فكم كانوا فى بدايـة الأمر ضـعفاء و كيف صاروا لعلهم يدركون الدرس البليغ الذى علّمهم إيّاه فى الآيات السابقة فيقول: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ

و هذه عبارة لطيفة تشير إلى الضعف و قلّة العدد التى كان عليها المسلمون فى ذلك الزمن، و كأنّهم كانوا شيئا صغيرا معلقا فى الهواء بحيث يمكن للأعداء أخذه متى أرادوا، و هى إشارة لحال المسلمين فى مكّة قبل الهجرة قبال المشركين الأقوياء. أو إشارة لحال المسلمين فى المدينة بعد الهجرة فى مقابل القوى الكبرى كالفرس و الروم: فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۰

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲۷ الى ۲۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۷) وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۸)

سبب النّزول

لقد وردت عدّة روايات فى سبب نزول هاتين الآيتين، منها ما ورد عن الإمامين الباقر و الصّادق عليهما السلام من أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر بمحاصرة يهود (بنى قريضة) و استمرت هذه المحاصرة واحدا و عشرين يوما، حتى أجبروا على المطالبة بالصلح، كما جرى ذلك مع اليهود من (بنى النضير) و ذلك بأن يرحلوا عن أرض المدينة إلى أرض الشام، لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رفض ذلك العرض (لعلّه كان يشك فى صدق نيّاتهم) و قال: يجب القبول بحكم (سعد بن معاذ) لكنّهم طلبوا من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يرسل إليهم (أبا لبابة) و هو من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينة، و كانت له معهم صداقة قديمة، و كانت عائلته و أبناؤه و أمواله عندهم.

فقبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك الطلب و أرسل (أبا لبابة) إليهم فاستشاروه: هل من مصلحتهم القبول بتحكيم (سعد بن معاذ)؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه، بمعنى أنّكم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۱

لو قبلتم فسوف تقتلون فلا ترضوا بهذا العرض، فهبط أمين الوحى جبرائيل عليه السلام إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخبره بذلك.

يقول أبو لبابة: فو اللّه ما زالت قدماى حتى عرفت إنّى خنت اللّه و رسوله، و عند ذاك نزلت هذه الآيات فى أبى لبابة. و قد عاد أبو لبابة معلنا ندمه الشديد و أتى بحبل و ربط نفسه به إلى أحد أعمدة مسجد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و قال: و اللّه لا أذوق طعاما و لا شرابا حتى يموت أو يقبل اللّه توبته. و استمر على هذه الحال دون أكل و شرب إلى سبعة أيّام، حتى فقد وعيه و سقط على الأرض مغشيا عليه، فقبل اللّه توبته، و قام المؤمنون بإبلاغه الخبر، لكنّه أقسم أن لا يفكّ نفسه من العمد حتى يأتيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يفك عنه الحبل، فجاءه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فكّ حبله، و قال (أبو لبابة):

إنّ من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها بالذنب و أن انخلع من مالى،

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له: «يجزيك الثلث أن تصدّق به»[۲۰۷].

و قد جاء هذا المضمون نفسه فى كتب أهل السنة حول سبب النّزول، إلّا أنّ بعضهم استبعد النّزول فى شأن (بنى قريضة)، لأنّ سابقاتها من الآيات تتعلق بحادثة بدر، و لأنّ هذه القضية لم تقع إلّا بعد مدّة طويلة من واقعة بدر، لهذا قالوا:

إنّ المقصود فی الرّوایات هو أنّ حادثة بنی قریضة من مصادیق الآیة، لا أنّها نزلت فیها، و إنّ هذه العبارة یوردها الکثیرون فی أسباب النّزول. فعلی سبیل المثال فقد جاء فی بعض الکتب نقلاـ عن بعض الصحابة أنّ الآیة الفلانیة قد نزلت فی قتل عثمان، غیر أنّ من المعلوم أنّ قتل عثمان حدث بعد سنین طویلة من وفاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و یحتمل أیضا أن الآیة قد نزلت فی بنی قریضة، و لکن بما أنّها کانت تتناسب و الآیات النازلة فی قضیة بدر، فقد أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإلحاقها بتلک الآیات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۲

التّفسیر

الخیانة و أساسها:

یوجه اللّه سبحانه فی الآیة الأولی من الآی محل البحث الخطاب إلی المؤمنین فیقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ

إنّ الخیانة للّه و رسوله، هی وضع الأسرار العسکریة للمسلمین فی تصرف أعدائهم، أو تقویة الأعداء أثناء محاربتهم، أو بصورة عامّة ترک الواجبات و المحرمات و الأوامر الإلهیة، و لذلک فقد ورد عن (ابن عباس): إنّ من ترک شیئا من الأوامر الإسلامیة فقد ارتکب خیانة بحق اللّه و رسوله.

ثمّ تقول الآیة: وَ تَخُونُوا أَماناتِکُمْ ۲۰۸].

و (الخیانة) فی الأصل معناها: الامتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، و هی ضد (الأمانة) و الأمانة و إن کانت تطلق علی الأمانة المالیة غالبا، لکنّها فی منطق القرآن ذات مفهوم أوسع یشمل شؤون الحیاة الاجتماعیة و السیاسیة و الأخلاقیة کافة، و لذلک جاء فی الأحادیث: «المجالس بالأمانة».

و نقرأ

فی حدیث آخر: «إذا حدث الرجل بحدیث ثمّ التفت فهو أمانة.

و من ذلک تکون أرض الإسلام أمانة إلهیة بأیدی المسلمین و أبنائهم أیضا. و فوق کل ذلک فإنّ القرآن المجید و تعالیمه کل ذلک یعد أمانة إلهیة کبری، و قد قال بعضهم:

إنّ أمانة اللّه هی أوامره، و أمانة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سنته، و أمانة المؤمنین أموالهم و أسرارهم، و لکن الأمانة فی الآیة- آنفا- تشتمل علی کل ذلک.

علی کل حال، فإنّ الخیانة فی الأمانة من أقبح الأعمال و شرّ الذنوب. فإنّ من یخون الأمانة منافق فی الحقیقة، کما ورد فی الحدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. حیث قال: «آیة المنافق ثلاث: إذا حدث کذب، و إذا وعد أخلف، و إذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۳

ائتمن خان، و إن صام و صلی و زعم أنّه مسلم».

کما أن ترک الخیانة فی الأمانة یعدّ من الحقوق و الواجبات الإنسانیة، حتی إذا کان صاحب الأمانة غیر مسلم فلا تجوز خیانة أمانته.

و یقول القرآن فی آخر الآیة: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أی أنّه قد یصدر منکم علی نحو الخطأ ما هو خیانة، و لکن تقدموا علی الخیانة و أنتم

تعلمون، فإنّ عملا کعمل (أبی لبابة) لم یکن لجهل أو خطأ، بل بسبب الحب المفرط للمال و البنین و حفظ المصالح الشخصیة الذی قد یسد فی لحظة حساسة کل شیء بوجه الإنسان، فکأنّه لا یری بعینه و لا یسمع بأذنیه ... فیخون اللّه و رسوله، و هذه فی الحقیقة خیانة مع العلم، و المهم أن یستیقظ الإنسان بسرعة کما فعل (أبو لبابة) لیصلح ما قام بتخریبه.

و الآیة بعدها تحذر المسلمین لیجتنبوا المادیات و المنافع العابرة، لئلا تلقی علی عیونهم و آذانهم غشاء فیرتکبون خیانة تعرّض المجتمع إلی الخطر فتقول:

وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُکُمْ وَ أَوْلادُکُمْ فِتْنَةٌ.

و کلمة «فتنة»- کما ذکرنا- تأتی فی مثل هذه الموارد بمعنی وسیلة الامتحان، و الحقیقة أنّ أهم وسیلة لامتحان الإیمان و الکفر و الشخصیة و فقدانها، و میزان القیم الإنسانیة للأفراد هو هذان الموضوعان (المال و الأولاد).

فکیفیة جمع المال و کیفیة إنفاقه، و المحافظة علیه و میزان التعلق به، کل تلک میادین لامتحان البشر، فکم من أناس یلتزمون بظاهر العبادة و شعائر الدین، حتی المستحبات یلتزمون بشدّة فی أدائها، لکنّهم إذا ما ابتلوا بقضیة مالیة، تراهم ینسون کل شیء و یدعون الأوامر الإلهیة و مسائل الحق و العدل و الإنسانیة جانبا.

أمّا عن الأبناء فهم ثمار قلب الإنسان و براعم حیاته المتفتحة، و لهذا نجد الکثیر من الناس المتمسکین بالدین و المسائل الأخلاقیة و الإنسانیة، لا یراعوا الحق و الدین بالنسبة للمسائل المتعلقة بمصلحة أبنائهم، فکأنّ ستارا یلقی علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۴

أفکارهم فینسون کل الأمور، و یصیر حبّهم لأبنائهم سببا لیحلّوا الحرام و یحرموا الحلال، و من أجل توفیر المستقبل لأبنائهم یستحقون کل حق و یقدمون علی کل منکر، فیجب علینا الاعتصام باللّه العظیم فی هذین المیدانین العظیمین للامتحان، و أن نحذر بشدّة، فکم من الناس زلت أقدامهم و سقطوا فیهما، و ظلت لعنة التأریخ تلاحقهم أبدا بذلک. فإذا زلت لنا قدم یوما، فیجب علینا الإسراع فی تصحیح المسیر ک (أبی لبابة) و إذا کان المال هو السبب فی الانحراف، فعلینا بذله و إنفاقه فی سبیل اللّه.

و فی نهایة الآیة بشارة کبری لمن یخرج من هذین الامتحانین منتصرا، فتقول: وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ

فمهما کان حبّ الأبناء کبیرا، و مهما کانت الأموال محبوبة و کثیرة، فإنّ جزاء اللّه و ثوابه أعلی و أعظم من کل ذلک.

و هنا تثار أسئلة کثیرة، منها: لماذا یمتحن اللّه الناس مع إحاطته العلمیة بکل شیء؟ و لماذا یکون الامتحان شاملا للجمیع حتی الأنبیاء؟ و ما هی مواد الامتحان الإلهی و ما هی السبل للتغلب علیها؟ و قد أجبنا علی کل تلک الأسئلة فی المجلد الأولی من التّفسیر الأمثل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۵

الآیة [سورة الأنفال (۸): آیة ۲۹]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً وَ یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ (۲۹)

التّفسیر

الإیمان و وضوح الرّؤیة:

تناولت الآیات السابقة أوامر حیاتیة تتضمّن السعادة المادیة و المعنویة للإنسان، لکن العمل بها غیر ممکن إلّا فی ظلال التقوی، لذلک

جاءت هذه الآیة المبارکة لتؤکّد أهمیة التقوی و آثارها فی مصیر الإنسان، و قد بیّنت الآیة أربعة ثمار و نتائج للتقوی.

فقالت ابتداء: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً ....

و کلمة «فرقان» صیغة مبالغة من مادة (فرق) و هی هنا بمعنی الشیء الذی یفصل بین الحق و الباطل تماما.

إنّ هـذه الجملـة الموجزة و الکبیرة فی معناهـا قـد بیّنت إحـدی أهم المسائـل المؤثره فی مصـیر الإنسـان، و هی أنّ درب الإنسان نحو النصر محفوف دائما بالمصاعب و الحفر فإذا لم یبصرها جیدا و یحسن معرفتها و اتقاءها فسیسقط فیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۶

لا محالـة، فأهم مسألـة فی هـذا الطریق هی معرفـة الحق و الباطل، معرفـة الحسن و القبیـح، معرفـة الصـدیق و العـدو، معرفـة الفوائـد و الأضرار، معرفة عوامل السعادة و الضیاع، فإذا استطاع الإنسان معرفة هذه الحقائق جیدا فسیسهل علیه الوصول إلی الهدف.

إنّ المشـکلة التی تعترض الإنسـان غالبـا هی خطـأه فی تشـخیص الباطل و اختیاره علی الحق، و انتخاب العـدوّ بـدل الصـدیق، و طریق الضـلال بدل طریق الهدایة، و هنا یحتاج الإنسان إلی بصر و بصیرة قویّة، و وضوح رؤیة. إنّ هذه الآیة المبارکة تقول: إنّ هذه البصیرة ثمرة لشـجرة التقوی. أمّا کیف تعطی هـذه التقوی البصـیرة للإنسان؟ فقـد یکون الأمر مبهما لدی البعض، لکن قلیلا من الدقّة و التأمل کافیة لتوضیح العلاقة الوثیقة بین هذین الإثنین، و لإیضاح ذلک نقول:

أوّلا: إنّ قوّة عقل الإنسان تسـتطیع إدراک الحقائق بقدر کاف، و لکن سـتائر من الحرص و الطمع و الشهوة و حبّ النفس و الحسد، و الحبّ المفرط للمـال و الأزواج و الأولاـد و الجاه و المنصب کل ذلک یغـدوّ کالـدخان الأسود أمام بصـیرة العقل، أو کالغبار الغلیظ الذی یملأ الآفاق، و هنا لا یمکن للإنسان معرفة الحق و الباطل فی أجواء مظلمة، أمّا إذا غسل تلک الغشاوة بماء التقوی و انقشع ذلک الدخان الأسود، عند ذاک تسهل علیه رؤیة نور الحق.

ثانیـا: أنّنـا نعلم أنّ کـل کمـال فی أی مکـان إنّمـا هو قبس من کمـال الحق، و کلّمـا اقـترب الإنسـان من اللّه فـإنّ نور الکمـال المطلق سینعکس فی وجوده أکثر، و علی ذلک فإنّ أی علم و معرفـة فهو نبع من علمه و معرفته تعالی، و کلّما تقدّم الإنسان فی ظلال التقوی و ترک المعاصی من اللّه، ذابت قطرة وجوده فی بحر وجود العظیم أکثر، و سیحصل علی مقدار أکثر من العلم و المعرفة.

و بعبارة أخری فإنّ قلب الإنسان کالمرآة، و وجود اللّه کالشمس الساطعة علی الوجود، فإذا تلوثت مرآة قلبه من الأهواء حتی اسودت، فسوف لا تعکس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۷

النور، فإذا تمّ جلاؤها بالتقوی و زال الدرن عنها، فإنّ تلک الشمس الوضاءة الساطعة ستنعکس فیها و تنیر کل مکان.

و لـذلک فإنّنا نری علی مدی التأریخ بعض النساء و الرجال المتّقین یملکون وضوحا من الرؤیة لا یمکن بلوغه بوسائل العلم و المعرفة أبـدا، فهم یرون أسـباب الکثیر من الحوادث التی تعصف بالمجتمع غیر المرئیة، و یرون وجود أعداء الحق و إن حجبتها آلاف السـتائر الخادعة.

و هـذا الأـثر العجیب للتقوی فی معرفـة الواقع، جـاء ذکره فی الکثیر من الرّوایات و الآیات الأخری، ففی سورة البقرة تقول الآیـة ۲۸۲: اتَّقُوا اللَّهَ وَ یُعَلِّمُکُمُ اللَّهُ و جاء فی الحدیث المعروف: «المؤمن ینظر بنور اللّه».

و فی نهج البلاغة فی قصار الکلم: «أکثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

ثالثـا: بالتحلیـل العقلی یمکن فهم العلاقـة الوثیقـة بین التقوی و إدراک الحقـائق أیضا، لأنّ المجتمعات التی تسیر فی دروب الفساد و الرذیلة و أجهزة الإعلام فیها تطبل لذلک المیسر، و الصحافة و الرادیو و التلفزیون کلها تدعو للتلوث و الانحراف و خدمة الفساد، فمن البـدیهی أن یصـعب علی الناس تمییز الحق من الباطل، الجیـد من الردیء، و نتیجة الأمر، فإنّ انعدام التقوی یکون سـببا لفقدان القدرة علی هذه المعرفة أو سوء المعرفة.

و مثال آخر: فإنّ عائلة غیر متقیّة، و صغارها یشبون فی محیط ملوث بالفساد و الرّذیلة، فمن العسیر علی هؤلاء فی المستقبل تمییز الجید من الردیء، و إهدار القوی و الطاقات فی الذنوب یتسبب بقاء الناس علی مستوی دان من البصیرة و المعرفة و انحطاط فی التفکیر حتی و إن کانوا متقدمین فی الصناعة و الحیاة المادیة.

و بناء علی ما تقدم فإنّنا نری أنّ ادنی انحراف عن التقوی یسبب نوعا من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۸

العمی و سوء المعرفة، لذلک نری فی العالم الصناعی الیوم مجتمعات متقدمة جدّا فی العلم و الصناعة، و لکنّها فی حیاتها الیومیة مصابة بأمراض و مشاکل شدیدة تبعث علی الاستغراب و التعجب، و هنا تتجلی عظمة ما قاله القرآن الکریم.

و نظرا إلی أنّ التقوی لا- تنحصر بالتقوی فی العمل، بل تشمل التقوی فی الفکر و العقل، فإنّ هذه الحقیقة تتّضح بصورة أجلی. فالتقوی فی الفکر تعنی مواجهة التسیّب و عدم الانضباط فی التفکیر، بمعنی أن نبحث فی دراساتنا و تحقیقاتنا عن أصح الأدلة و أوثق البراهین، و أن لا نلتزم بعقیدة دون التحقیق الکافی و الدقة اللازمة.

و الذین یراعون التقوی و یلتزمونها فی تفکیرهم سیبلغون النتائج الصحیحة أسرع بکثیر ممن لا یلتزم بها، کما أنّ الخلط و الخطأ یکثر عند من لا یتقی اللّه فی استدلالاته و أسلوب تفکیره.

و هناک أمر آخر یجب الانتباه إلیه، لأنّ الکثیر من مفاهیمنا الإسلامیة قد تعرضت للتشویه بین المسلمین، و هو أنّ الکثیر من الناس یتصور أنّ الإنسان المتقی هو الذی یکثر من غسل بدنه و لباسه و یعتبر کل فرد و کل شیء نجسا و مشکوکا فیه، و ینزوی جانبا متجنبا الخوض فی الأمور الاجتماعیة، و یسکت أمام کل واقعة، فهذه النظرات المغلوطة عن التقوی و المتقین فی الحقیقة إحدی عوامل انحطاط المجتمعات الإسلامیة، لأنّ هذه التقوی لا تنتج معرفة و لا وضوح رؤیة و لا تکون فرقانا بین الحق و الباطل.

و علی کل حال، و بعد أن اتّضح أوّل ثواب للمتقین نعود لتفسیر بقیة الآیة و سائر الثمار الأربعة لها.

یقول القرآن الکریم: إنّه إضافة إلی معرفة الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوی أن یغطی علی ذنوبکم و یمحوا آثارها من وجودکم وَ یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۹

مضافا إلی ذلک، فإنّه تعالی سیشملکم بمغفرته وَ یَغْفِرْ لَکُمْ

و ثمار کثیرة أخری تنتظرکم لا یعلمها إلّا اللّه: وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ

فهذه الآثار الأربعة هی ثمرات فی شجرة التقوی، و وجود روابط طبیعیة بین التقوی و قسم من هذه الآثار لا یمنع من نسبة کل ذلک إلی اللّه تبارک و تعالی، لأنّنا و کما قلنا مرارا فی هذا التّفسیر فإنّ أی موجود ذی آثار إنّما تحصل بمشیئة اللّه و قدرته، فیمکن نسبة تلک الآثار إلی اللّه عزّ و جلّ، و إلی ذلک الموجود أیضا.

و أمّا الفرق بین (تکفیر السیئات) و (الغفران). فقد قال بعض المفسّرین بأنّ الأولی إشارة إلی الحجب من الدنیا، و الثّانیة إلی النجاة من الجزاء الأخروی، و یرد احتمال آخر هنا و هو أن (تکفیر السیئات) تشیر للآثار النفسیة و الاجتماعیة للذنوب و التی تزول بفعل التقوی، و لکن (الغفران) إشارة إلی مسألة العفو الإلهی و الخلاص من الجزاء ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۰

الآیة [سورة الأنفال (۸): آیة ۳۰]

اشارة

وَ إِذْ یَمْکَرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخْرِجُوکَ وَ یَمْکَرُونَ وَ یَمْکَرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ (۳۰)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون و المحدثون أن الآیة- محل البحث- تشیر إلی الحوادث التی أدت إلی هجرة الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مکّة إلی المدینة.

هذه الحوادث و إن رویت بعبارات مختلفة إلّا أنّها تتفق جمیعا علی حقیقة أنّ اللّه عزّ و جلّ قد أنقذ نبیّه الکریم عن طریق الإعجاز من خطر محدق به، و نروی هذه الحادثة وفقا لمّا ورت فی الدّر المنثور و مجمع البیان ذیل الآیة آنفا ...

قال المفسّرون: إنّها نزلت فی شأن «دار النّدوة» و ذلک أنّ نفرا من قریش اجتمعوا فیها و هی دار قصیّ بن کلاب، و تآمروا فی أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال عروة بن هشام: نتربص به ریب المنون، و قال أبو البختری: أخرجوه عنکم تستریحوا من أذاه، و قال أبو جهل: ما هذا برأی، و لکن اقتلوه بأن یجتمع علیه من کل بطن رجل فیضربوه بأسیافهم ضربة رجل واحد ... فیرضی بنو هاشم حینئذ بالدیّة، فصوّب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۱

إبلیس هذا الرأی، و کان قد جاءهم فی صورة شیخ کبیر من أهل نجد، و خطّأ الأولّین.

فاتفقوا علی هذا الرأی و أعدّو الرجال و السلاح و جاء جبرئیل علیه السلام فأخبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فخرج إلی الغار و أمر علیّا فبات علی فراشه، فلمّا أصبحوا و فتشوا عن الفراش، و جدوا علیّا علیه السلام و قد ردّ اللّه مکرهم فقالوا: أین محمّد؟ فقال: لا أدری، فاقتصّوا أثره و أرسلوا فی طلبه، فلمّا بلغوا الجبل و مرّوا بالغار رأوا علی بابه نسج العنکبوت، فقالوا: لو کان هاهنا لم یکن نسج العنکبوت علی بابه فمکث فیه ثلاثا ثمّ قدم المدینة»[۲۰۹].

التّفسیر

سرّ بدایة الهجرة:

یعتقد بعض المفسّرین أنّ هذه الآیة، و خمس آیات تلیها، نزلت فی مکّة لأنّها تشیر إلی هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لکن سیاقها یدل علی نزولها بعد الهجرة، إذ تتکلم علی حادثة سابقة.

فبناء علی ذلک تکون هذه الآیة قد نزلت فی المدینة بالرغم من حدیثها عن هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتحدث عن الذکری الکبری و النعمة العظمی التی منّ اللّه بها علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین، فتقول فی بدایتها وَ إِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخْرِجُوکَ

کلمة «المکر» کما ذکرنا سلفا تعنی فی اللغة التدبیر و التخطیط و الحیلة.

ثمّ تضیف الآیة قائلة: وَ یَمْکُرُونَ وَ یَمْکُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ

فإذا أمعنّا النظر فی موضوع هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فإنّنا سنجد أنّ المشرکین قد بذلوا کل ما فی وسعهم و جهدهم من طاقات فکریة و جسدیة للقضاء علی نبیّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۲

الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، حتی أنّهم أعدّوا جائزة لهذا الغرض و هی مائة ناقة، و هذا العدد من الإبل کان یعدّ ثروة کبری

یومئذ «هذه الجائزة لکلّ من یقبض علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتی بعد أن خرج عن قبضتهم» و قد طفق الکثیر یجوبون الفیافی و الجبال لیبحثوا عنه طلبا لتلک الجائزة الکبری حتی بلغوا الغار، و لکن اللّه سبحانه أذهب بأتعابهم أدراج الریاح بواسطة نسیج العنکبوت! و نظرا إلی أنّ هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تمثل مرحلة جدیدة فی التأریخ الإسلامی، بل التأریخ الإنسانی، فإنّنا نستنتج أنّ اللّه قد غیر مسیرة التأریخ البشری بما نسجته العنکبوت من خیوط! ...

و هذا الأمر لا ینحصر بهجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل فی جمیع تأریخ الأنبیاء، فإنّ اللّه سبحانه أذل أعداءهم و دمرهم و أباد قوی الضلال بأسباب هیّنة کالریح- مثلا- أو کثرة البعوض، أو الطیر الصغیرة التی تسمّی بالأبابیل، لیبیّن حالة الضعف البشری و العجز إزاء قدرته اللامتناهیة و لیردع الإنسان عن التفکیر بالطغیان و العناد.

و ممّا یسترعی النظر أنّ الالتجاء إلی هذه الأسالیب الثّلاثة: السجن و النفی و القتل، لم یکن منحصرا بالمشرکین فی مواجهة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فحسب، فإنّ الطغاة یلجأون إلی هذه الأسالیب الثّلاثة دائما للقضاء علی المصلحین و إسکاتهم، و الحیلولة دون بسط نفوذهم بین المستضعفین، إلّا أنّه کما کانت النتیجة خلاف ما أراده مشرکو مکّة فی شأن النّبی و أضحت مقدمة لتحرک إسلامی جدید، فکذلک مثل هذه الموجهات الشدیدة قد باءت نتائجها فی مواطن أخری بعکس ما کان متوقعا[۲۱۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‏۵، ص: ۴۱۳

الآیات [سورة الأنفال (۸): الآیات ۳۱ الی ۳۵]

اشارة

وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۳۱) وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِیمٍ (۳۲) وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ وَ ما کانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ (۳۳) وَ ما لَهُمْ أَلَّا یُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ یَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما کانُوا أَوْلِیاءَهُ إِنْ أَوْلِیاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۳۴) وَ ما کانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَیْتِ إِلَّا مُکاءً وَ تَصْدِیَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۳۵)

التّفسیر

القائلون شططا:

ذکر فی الآیة السابقة مثل خرافی من منطق المشرکین العملی، و فی هذه الآیات مثل آخر من منطقهم الفکری، لیتّضح أنّ هؤلاء لم یمتلکوا سلامة فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‏۵، ص: ۴۱۴

الفکر و لا صحة فی العمل، فجمیع أسالیبهم خاویة بغیر أساس.

تقول الآیة الأولی من الآیات محل البحث: وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ

کانوا یقولون مثل هذا الکلام عند ما یعجزون عن مواجهة القرآن و معارضته، و کانوا یعرفون جیدا أنّهم غیر قادرین علی معارضة القرآن، إلّا أنّهم و لحقدهم و عصبیتهم، أو لأنّهم یریدون إضلال الناس، کانوا یقولون: إنّ الإتیان بمثل هذه الآیات غیر عسیر و لو نشاء لقلنا مثلها، و لکنّهم لم یستطیعوا أن یأتوا بمثلها أبدا، و ما هذا القول منهم سوی ادعاء فارغ یهدفون بذلک إلی إبقاء کیانهم الاجتماعی- کسائر الجبابرة فی التأریخ- إلی أمر معدود.

و الآیـة التّالیة تتحدث عن منطق عجیب آخر فتقول: وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِیمٍ

لقـد کـانوا یقولون ذلـک لشـدّة تعصـبهم و عنادهم، و کانوا یتصورون أنّ الـدین الإسـلامی لا أساس له أبـدا، و إلّا فإنّ أحـدا یحتمل حقانیة الإسلام کیف یمکنه أن یدعو علی نفسه بمثل هذا الدعاء؟

کما و یحتمل أیضا أنّ شـیوخ المشـرکین و سادتهم یقولون ذلک الکلام لتضـلیل الناس و لیثبتوا لبسـطائهم أنّ رسالـة النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم باطلة تماما، فی حین أنّهم لا یعتقدون بما یقولون. و کأنّهم- أی المشـرکین- یریدون أن یقولوا للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنّک تتکلم عن الأنبیاء السابقین، و إنّ اللّه قد أهلک أعداءهم بحجارة أمطرها علیهم «کما هی الحال فی شأن قوم لوط» فإن کنت صادقا فیما تقول فأمطر علینا حجارة من السماء! و

قـد ورد عن الإمـام الصـادق علیه السّـلام (فی مجمع البیان) أنّه لما نصب رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم علیا علیه السّـلام یوم غـدیر خم فقـال: من کنت مولاـه فعلی مولاـه، طـار ذلک فی البلاد، فقـدم علی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم النعمان بن الحارث الفهری، فقال: أمرتنا من اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۵

أن نشـهد أن لاـ إله إلّا اللّه و أنّک رسول اللّه، و أمرتنا بالجهاد و الحـج و الصوم و الصـلاة و الزکاة فقبلناها، ثمّ لم ترض حتی نصبت هذا الغلام فقلت: من کنت مولاه فعلی مولاه، فهذا شیء منک أو أمر من عند اللّه؟

فقال صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: «و اللّه الذی لا إله إلّا هو، إن هذا من اللّه». فولّی النعمان بن الحارث و هو یقول: اللّهم إن کان هذا هو الحق من عندک فأمطر علینا حجارة من السماء، فرماه اللّه بحجر علی رأسه فقتله [۲۱۱].

و هـذا الحـدیث لا ینافی نزول الآیـة فی قصّة الغدیر، لأنّ سـبب النّزول لم یکن موضوع النعمان، بل إن النعمان قد اقتبس من الآیة فی الدعاء علی نفسه، و هذا یشـبه قولنا فی الدعاء مقتبسـین ذلک من القرآن رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ حَسَنَةً «و سیأتی تفصیل هـذا الموضوع و ما ذکرته کتب أهل السـنة من أسانیـد کثیرة له فی ذیل الآیـة الأولی من سورة المعارج سَأَلَ سائِلٌ بِعَـذابٍ واقِعٍ بإذن اللّه».

و فی ما تقدم من الآیات نلاحظ أنّ المشرکین وجّهوا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إشکالین.

الأوّل منهما: واضـح البطلان، و هو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هـذا. فلم یردّ علیه القرآن. بدیهی أن هذا الادعاء أجوف کاذب، لأنّهم لو استطاعوا لما توانوا عنه أبدا و لجاءوا به، فلا حاجة إذن للردّ علیه.

و الإشـکال الثّانی: لو کانت هـذه الآیات نازلـة من قبل اللّه فأنزل علینا العقاب و البلاء، فیرد علیهم القرآن فی الآیـة الثّالثـة، من الآیات محل البحث، بقوله: وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ

و فی الحقیقة أنّ وجودک- یا رسول اللّه- الذی هو رحمة للعالمین، یمنع من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۶

نزول البلاء بسبب هذه الذنوب، فیهلک قومک کما هلکت الأمم السابقة جماعات أو متفرقین.

ثمّ تعقیب الآیة بالقول: وَ ما کانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ

و للمفسّـرین احتمالات متعـددة فی تفسـیر الجملـة آنفـة الـذکر، منها أنّ بعض المشـرکین نـدموا علی قولهم الـذی ذکرته الآیة فقالوا: غفرانک ربّنا، و کان ذلک سببا لأن لا ینزل علیهم العذاب حتی بعد خروج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مکّة.

و قال بعضهم: إنّ الآیة تشیر إلی من بقی من المؤمنین فی مکّة، لأنّ بعضا ممن لم یستطع الهجرة بقی فیها بعد خروج النّبی، فوجودهم الذی هو شعاع من وجود النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم منع من نزول العذاب.

كما يحتمل أن تكون هذه الجملة التى ذكرتها الآية تتضمّن مفهوم جملة شرطية، أى أنّهم لو ندموا على فعلهم توجهوا إلى اللّه و استغفروه فسيرتفع عنهم عقاب اللّه.

كما لا يبعد- فى الوقت ذاته- الجمع بين هذه الاحتمالات كلّها فى تفسير الآية، أى يمكن أن تكون الآية إشارة إلى جميع هذه الاحتمالات.

و على أية حال، فإنّ مفهوم الآية لا يختصّ بمعاصرى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل هو قانون عام كلىّ يشمل جميع الناس. لهذا فقد روى فى مصادرنا عن الإمام على، و

فى مصادر أهل السنة عن تلميذ الإمام على «ابن عباس» أنّه قال عليه السّلام: «كان فى الأرض أمانان من عذاب اللّه، و قد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. و قرأ هذه الآية»[۲۱۲].

و يتّضح من الآية- محل البحث، و الحديث آنف الذكر- أنّ وجود الأنبياء عليهم السّلام مدعاة لأمن الناس من عذاب اللّه و بلائه الشديد، ثمّ الاستغفار و التوبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۷

و التوجه و الضراعة نحو اللّه، إذ يعدّ الاستغفار و التوبة ممّا يدفع به العذاب.

فإذا انعدم الاستغفار فإنّ المجتمعات البشرية ستفقد الأمن من عذاب اللّه لما اقترفته من الذنوب و المعاصى.

و هذا العذاب أو العقاب قد يأتى فى صورة الحوادث الطبيعية المؤلمة، كالسيل مثلا، أو الحروب المدمّرة، أو فى صور أخرى، و قد جاء فى دعاء كميل بن زياد عن الإمام على عليه السّلام قوله «اللهم اغفر لى الذنوب التى تنزل البلاء».

فهذا التّعبير يدل على أنّه لو لا الاستغفار فإنّ كثيرا من الذنوب قد تكون سببا فى البلاء و الكوارث.

و ينبغى التذكير بهذه اللطيفة، و هى أنّ الاستغفار لا يعنى تكرار ألفاظ معينة، كأن يقول المرء «اللهم اغفر لى» بل المراد منه روح الاستغفار الذى هو حالة العودة نحو الحق و التهيؤ لتلافى ما مضى من العبد قبال ربّه.

و الآية التّالية: تقول: إنّ هؤلاء حقيقون بعذاب اللّه وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ

و هذا التعبير فى الآية يشير إلى يوم كان المسلمون فى مكّة، و لم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاة الجماعة بتمام الحرية، و الاطمئنان عند المسجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء و التعذيب.

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى منع المشركين المسلمين و صدهم إياهم بعد أدائهم مناسك الحج و العمرة، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

و العجيب أنّ هؤلاء المشركين كانوا يتصورون أنّ لهم حق التصرف كيفما شاءوا فى المسجد الحرام، و أنّهم أولياؤه. إلّا أنّ القرآن يضيف فى هذه الآية قائلا:

وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ و بالرغم من زعمهم أنّهم أولياؤه ف إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۵ ؛ ص۴۱۷

مع أنّ هذا الحكم ورد فى شأن المسجد الحرام، إلّا أنّه يشمل جميع المراكز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۸

الدينية و المساجد فإنّ سدنتها ينبغى أن يكونوا من أطهر الناس و أتقاهم و أورعهم و أكثرهم اهتماما بالمحافظة على مراكز العبادة، ليجعلوها منطلقا للتعليم و بثّ الوعى و الإيقاظ. إذ لا يصلح لإدارة هذه المراكز حفنة من الحمقى أو باعة الضمائر الملوّثين و المرتبطين بالأجانب، الذين يسعون إلى تحويل المساجد و مراكز العبادة إلى محال تجارية، أو جعلها مكانا لتخدير الأفكار، و الابتعاد

عن الحقّ. و فى اعتقادنـا أنّ المسـلمين لو كانوا ملتزمين بتعاليم القرآن فى شأن المساجـد، لكانت المجتمعات الإسـلامية اليوم لها وجه آخر و صورة مشـرقة! و الأعجب فى هذا الشأن أنّ المشـركين كانوا يدّعون أنّهم يصلّون و يعبدون اللّه بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحة كالصفير و التصدية عند البيت، و لهذا فقد قالت الآية التالية عنهم: وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً.

و نقرأ فى التأريـخ أنّ طائفـة من الأـعراب فى زمـان الجاهليـة عنـد مـا كانوا يطوفون بالبيت العتيق، كانوا يخلعون ثيابهم و يصـفرون و يصـفقون و يسـمّون أعمـالهم هـذه عبـادة، و ورد أيضـا أنّ النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عنـد ما كان يقف بجانب الحجر الأسود و يتجه بوجهه نحو الشـمال ليكون فى مقابل الكعبة و بيت المقدس، و يشرع بالصلاة، كان يقف إلى يمينه و يساره رجلان من بنى سهم فيأخذ أحدهم بالصياح و الآخر بالتصفيق ليؤذياه فى صلاته.

تعقب الآية على ما تقدم لتقول: إنّ أعمالكم- بل حتى صلاتكم- مدعاة للخجل و السفاهة و لذلك فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ إنّ الإنسان حين يقلّب صـفحات التأريـخ و يتوغّل فيه باحثا عن جوانب من تاريـخ عرب الجاهلية التى وردت الإشارة إليها فى القرآن، يرى- و يـا للعجب العجـاب!- فى عصـرنا الحاضـر الـذى عرف بعصـر الفضـاء و الـذرة من يعيـد تلـك الأعمـال التى كـانت فى زمان الجاهلية، و يتصوّر نفسه فى عبادة، فيقرءون الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۹

القرآنية أو الأشعار فى مدح النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الامام على عليه السّلام بالألحان الموسيقية ذات الإيقاع المثير، و تهتزّ أيديهم و رؤوسـهم بما يشبه حالة الرقص، و يسمّون ذلك ذكرا و مدائح، و يقيمونها فى التكايا و غيرها. مع إنّ الإسلام يبرأ من جميع هذه الأعمال، و هى مثل آخر من أمثلة أعمال «الجاهلية».

و يبقى هنا سؤال واحـد، و هو أنّ الآيـة الثّالثـة من الآيات محل البحث قـد نفت نزول العذاب بتوفر شـرطين طبعا، و الآية الرّابعة أثبتت ترى ألا يقع التضاد بين الآيتين؟

و الجواب: إنّ الآيـة السابقـة إلى العقـاب الـدنيوى، و الآيـة اللاحقـة لعلهـا إشـارة إلى العقـاب الأـخروى، أو أنّهـا إشارة إلى أنّ هؤلاء يسـتحقون العقاب فى الدنيا و هو محدق بهم، فإذا مضى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يتوبوا و يستغفروا ربّهم فإنّه سينزل بهم لا محالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۰

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (۳۶) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۳۷)

سبب النّزول

جاء فى تفسير على بن إبراهيم و كثير من التفاسير الأخرى، أنّ الآيـة- محل البحث- نزلت فى معركة بدر، و ما بذله أهل مكّة للصدّ عن سبيل اللّه، لأنّهم لما عرفوا ما حصل- إذ جاءهم مبعوث أبى سفيان- قاموا بجمع الأموال الكثيرة ليعينوا بها مقاتليهم، إلّا أنّهم خابوا و قتلوا و آبوا إلى جهنم و ساءت مصـيرا، و كان ما أنفقوه فى هذا الصدد وبالا و حسـرة عليهم. و الآية الأولى تشير إلى سائر معوناتهم التى قدموها فى سبيل مواجهة الإسلام و محاربته، و قد طرحت الموضوع فى صياغة كلّية.

و قال بعضهم: إنّ الآية نزلت فى ما بذله أبو سفيان لألفى مقاتل «مرتزق» فى

معركة أحد.

إلّا أنّه لما كانت الآية محل البحث واقعة فى سياق الآيات النازلة فى معركة بدر، فإنّ الرأى الأوّل فى شأن نزولها يبدو أقرب للصحة.

التّفسير

مهما يكن شأن نزول الآية، فمفهومها مفهوم جامع يحمل فى معناه كلّ ما بذله أعداء الحق و العدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومة، إذ تقول فى مستهلها: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

إلّا أنّ هذا الإنفاق و البذل لن يحقق لهم نصرا فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ

و لا يبتلون بالحسرة و الهزيمة فى الدنيا فحسب، بل هم كذلك فى الآخرة أيضا وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ

ملاحظات

۱- يستفاد من الآية محل البحث أنّ «هؤلاء» يحسّون بعدم جدوى أعمالهم حتى قبل غلبهم و انهزامهم، و حيث إنّهم لا يرون نتيجة مثمرة لما أنفقوه من الأموال، فسيبتلون بالألم و الحسرة، و هذا الأمر هو نوع من جزائهم الدنيوى و أحد عقوباتهم فيها.

أمّا الجزاء الآخر الذى ينالونه، فهو فشل خططهم و مناهجهم، لأنّ الذين يقاتلون و هم متعلقون بالأموال و الثروة لا يستطيعون مواجهة المقاتلين من أجل المبدأ و الأهداف المقدسة.

و قد برهنت الحوادث فى عصرنا هذا على أن الدول القوية التى تغرى

مقاتليها بالمال و الرغبات المادية، كثيرا ما تصاب بالخزى و الافتضاح و الهزيمة بوجه الأمم المستضعفة التى تقاتل عن إيمان و عقيدة راسخة! ...

و بالإضافة إلى هذين الجزاءين فهناك جزاء ثالث ينتظرهم يوم القيامة، و هو «الغضب الإلهى».

۲- ما ذكرته الآية محل البحث، نجد له أمثلة فى عصرنا الحاضر، كقوى الاستكبار، و اتباع الظلم و الفساد، و دعاة المذاهب الخرافية الباطلة، و باذلى الأموال الطائلة لتحقيق أهدافهم و تضليل الناس و صدهم عن سبيل الحق، و هم يظهرون بأزياء متعددة، فتارة فى صورة المساعدات المالية- ظاهرا- كبناء المستشفيات، و أخرى فى صورة التعاون الثقافى، و مرّة فى ثوب المقاتلين المرتزقة.

لكن الهدف النهائى واحد و الماهية واحدة، فكل همّهم التوسعة الاستعمارية و الظلم و الجور، و لو وقف المؤمنون حقّا صفا بوجه هذه المحاولات كما وقف أصحاب بدر لأحبطوا جميع هذه المحاولات و لباءت بالفشل، و لجعلوا هذا الإنفاق وبالا و حسرة على المستكبرين، و لساقوهم إلى جهنم و ساءت مصيرا.

۳- قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية واحدة من دلائل صدق دعوة النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّها تخبر عن حوادث لم تكن وقعت بعد، و قد غلب بها أعداء الإسلام، و مع أن أولئك بذلوا أموالا طائلة لانتصارهم!! و إذا لم نعتبر الآية من الأخبار بالمغيبات التى تتعلق بالحوادث المقبلة، فإنّها على الأقل تكشف عن محتوى القرآن الدقيق فى شأن المواجهة بين الحق و الباطل، كما أنّها تكشف عن عظمة القرآن و التعاليم الإسلامية.

و بعد أن تكلمت الآية السابقة على ثلاث نتائج مشؤومة لإنفاق أعداء الإسلام، فإنّ الآية التى تليها تقول: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

هذه سنة إلّهية دائمة أن يعرف المخلص من غير المخلص، و الطاهر من غير

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۳

الطاهر، و المجاهد الصادق من الكاذب، و الأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أي من ذلك مجهولا أبدا، بل لا بدّ في النهاية من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض و يسفر الحق عن وجهه. و هذا الأمر يتحقق- طبعا- عند ما يكون أتباع الحق- كأولئك المسلمين الأوائل يوم بدر- في مستوى كاف من التضحية و الوعي.

ثمّ تضيف الآية وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ

فالخبيث من أية طائفة و في أي شكل كان سيؤول في النهاية إلى الخسران، كما تقول الآية في نهاية المطاف أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۴

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (۳۸) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳۹) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (۴۰)

التّفسير

اشارة

من المعلوم في أسلوب القرآن هو الجمع بين البشارة و النذارة، أي أنّه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب و العذاب، فإنّه يفتح لهم في الوقت نفسه طريق العودة أمامهم.

و الآية الأولى: من الآيات محل البحث تتبع هذا الأسلوب ذاته، فتأمر النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ

و يستفاد من الآية المباركة أنّ قبول الإسلام يوجب محو كل سابقة و هو ما ورد في الرّوايات على أنّه أصل عام، كما في عبارة «الإسلام يجبّ ما قبله» أو ما جاء عن أهل السنة في تعبير آخر

عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن «الإسلام يهدم ما كان قبله،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۵

و إن الهجرة تهدم ما كان قبلها، و إن الحج يهدم ما كان قبله»[۲۱۳]

و المقصود من الحديث آنفا هو أنّ كل ما عمله الإنسان من سيئات و حتى تركه للفرائض و الواجبات قبل إسلامه فسوف يمحى عنه بقبوله الإسلام، و لا يكون قبوله للإسلام أثر رجعي لما سبق، لهذا ورد في كتب الفقه عدم وجوب قضاء ما فات من العبادات على من أسلّم.

و تضيف الآية قائلة: إنّهم إن لم يصححوا أسلوبهم وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ

و المقصود من هذه السنة هو ما آل إليه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبياء، و ما أصاب المشركين عند ما واجهوا النّبي الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في معركة بدر.

فنحن نقرأ فی سورة غافر، الآیة: (۵۱): إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ.

و نقرأ فی سورة الاسراء، الآیة (۷۷): بعد بیان سحق أعداء الإسلام قوله تعالی: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِیلًا.

و لمّا کانت الآیة السابقة قد دعت الأعداء للعودة إلی الحق، و إن هذه الدعوة قد تولد هذه الفکرة لدی المسلمین و هی أنّه قد انتهت فترة الجهاد و لا بدّ بعد الآن من اللین و التساهل، ترفع هذه الشبهة الآیة التالیة و تقول: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّی لا تَکُونَ فِتْنَةٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ کُلُّهُ لِلَّهِ

و کلمة «الفتنة»- کما بیناها فی تفسیر الآیة (۱۹۳) من سورة البقرة- ذات معنی واسع تشمل کل أنواع الضغوط، فتارة یستعملها القرآن بمعنی عبادة الأصنام و الشرک الذی یشمل کل أنواع التحجر و الجمود و اضطهاد أفراد المجتمع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۶

و تطلق الفتنة أیضا علی الضغوط التی یفرضها الأعداء، للوقوف بوجه اتساع دعوة الإسلام، و لإسکات صوت أهل الحق، بل حتی إرجاع المؤمنین نحو الکفر.

و فی الآیة محل البحث فسر الفتنة بعضهم بمعنی الشرک، و فسّرها آخرون بأنّها تعنی سعی الأعداء لسلب الحریات الفکریة و الاجتماعیة من المسلمین.

و لکن الحقّ أنّ مفهومها واسع یشمل الشرک، بقرینة قوله: وَ یَکُونَ الدِّینُ لِلَّهِ و سائر ضغوط الأعداء علی المسلمین.

الهدف من الجهاد و بشری کریمة:

تشیر الآیة آنفة الذکر إلی قسمین من أهداف الجهاد المقدسة و هما:

۱- القضاء علی عبادة الأصنام و تطهیر الأرض من معابدها و نحو ذلک و کما ذکرنا فی بحثنا عن أهداف الجهاد فإنّ الحریّة الدینیة تتعلق بمن یتّبع أحد الأدیان السماویة فلا یجوز إکراه هؤلاء من أجل تغییر عقیدتهم، و لکن عبادة الأصنام لیست دینا و لا فکرا، بل هی خرافة و جهل و انحراف، و علی الحکومة الإسلامیة إزالتها و تطهیر البلاد منها عن طریق الإعلام و التبلیغ الإسلامی- أوّلا- و إذا لم یؤدّ ذلک إلی نتیجة فیجب اللجوء إلی القوة لتدمیر معابد الأوثان.

۲- نیل الحریة فی نشر الإسلام و التبلیغ له، و فی هذا القسم أجاز الإسلام استخدام القوّة فی مواجهة من یمنع المسلمین من نشر عقیدتهم لفتح الطریق بوجه الحوار المنطقی السلیم.

و قد ورد فی تفاسیر أهل السنة کتفسیر «روح البیان» للآلوسی، و تفاسیر شیعیة أخری،

عن الإمام الصادق علیه السّلام «لم یجیء تأویل هذه الآیة، و لو قام قائمنا بعد، سیری من یدرکه ما یکون من تأویل هذه الآیة، و لیبلغن دین محمّد ما بلغ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۷

اللیل حتی لا یکون شرک علی ظهر الأرض کما قال تعالی»[۲۱۴].

و لقد أنکر صاحب تفسیر المنار- لتعصبه- هذا الحدیث الوارد فی شأن مسألة قیام المهدی علیه السّلام، و ذلک لحکمه المسبق المخطئ فی هذه القضیة، و العجیب أن له میلا خاصا فی تفسیره إلی الفکر الوهابی، مع أنّ الوهابیین بالرغم من تعصّبهم یصرحون بأنّ ظهور الإمام المهدی علیه السّلام من الأمور المسلّم بها، و یعتبرون الرّوایات فیه من المتواترات.

و سنورد الأدلة و المصادر فی هذا الصدد فی ذیل الآیة (۳۳) من سورة التوبة، کما سنشیر إلی النقطة الأساسیة فی خطأ هذا المفسّر و

الرد علیها، و لقد فصلنا الأمر فی کتابنا «المصلح العالمی الکبیر».

و إذا کانت بعض الرّوایات المتعلقـة بظهور المهـدی غیر صـحیحة و فیها بعض الخرافات، فلا ینبغی أن یؤدّی ذلک إلی الإعراض عن بقیة الرّوایات الصـحیحة و المتواترة! و أخیرا فإنّ الآیة فی نهایتها، و تزامنا مع الشدة فی العمل، تمدّ ید المحبّة و الرأفه إلی الأعداء مرّة أخری فتقول: فـإن انتهوا فـإن الله بمـا یعملون خبیر و لکن إذا تمـادوا فی عنـادهم و طغیـانهم و لم یستسـلموا للحقّ، فاعملوا أنّ النصـر حلیفکم و الهزیمة من نصیب أعدائکم، لانّ اللّه مولاکم و هو خیر ناصر و معین:

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاکُمْ نِعْمَ الْمَوْلی وَ نِعْمَ النَّصِیرُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۹

بدایة الجزء العاشر القرآن الکریم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۱

الآیة [سورة الأنفال (۸): آیة ۴۱]

اشارة

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلی عَبْدِنا یَوْمَ الْفُرْقانِ یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعانِ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴۱)

التّفسیر

الخمس فرض إسلامی مهم:

وجـدنا فی بدایـة هـذه السورة کیف أنّ بعض المسـلمین تشاجروا فی شأن تقسـیم الغنائم بعـد غزوة بـدر، و قد أمر اللّه سـبحانه- درءا لأصول الخلاف- أن توضع الغنائم تحت تصـرف النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم لینفقها بما یراه صالحا، فقام بتقسمها بالتساوی بین المقاتلین المسلمین.

و فی هـذه الآیـة عود إلی مسألـة الغنـائم، لتناسب الآیات التی سـبقتها، و التی کانت تتکلم علی الجهاد، إذ وجـدنا فی بعضـها إشارات مختلفـة لموضوع الجهـاد، و لمـا کـان الجهاد یرتبط بمسألـة الغنائم غالبا، فکان فی المقام تناسب بین الجهاد و بین ذکر أحکام الغنائم «بل سنلاحظ أن القرآن تعدی فی حکمه إلی أبعد من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۲

مسألة الغنائم، و نظر إلی جمیع الموارد».

یقول الحق سبحانه: وَ اعْلَمُوا أَنَّمـا غَنِمْتُمْ مِنْ شَـیْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِـذِی الْقُرْبی (الأئمـة من أهـل الـبیت علیهم السـلام) وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ من ذریـة الرسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أیضا. و یضـیف مؤکّدا إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلی عَبْدِنا یَوْمَ الْفُرْقانِ أی یوم بدر- یَوْمَ الْتَقَی الْجَمْعانِ

و ینبغی الالتفـات إلی أنّه علی الرغم من أنّ الخطاب فی الآیـة موجه إلی المؤمنین، لأنّها تبحث فی غنائم الجهاد الإسـلامی، و بـدیهی أنّ المجاهد مؤمن، لکنّها مع ذلک تقول: إِنْ کُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ و فی ذلک إشارة إلی أنّ ادعاء الإیمان وحده لا یعدّ دلیلا علی الإیمان، بـل حتی المشارکـة فی سوح الجهـاد قـد لاـ تکون دلیلاـ علی الإیمان، فقـد تکون وراء ذلک أمور أخری. فالمؤمن الکامل هو الـذی

يـذعن لأوامر اللّه كافـة و ينقاد لها، و خاصّـة الأوامر و الأحكام الماليـة، و لا يأخـذ ببعض و يترك بعضا، و تشـير الآيـة فى نهايتها إلى قدرة اللّه غير المحدودة، فتقول:

وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أى بالرغم من قلتكم يوم بدر و كثرة عدوّكم فى الظاهر، لكن اللّه القادر خذلهم و أيدكم فانتصرتم عليهم.

ملاحظات

۱- يوم الفرقان بين الحق و الباطل

سمّى يوم معركة بدر بيوم الفرقان بين الحق و الباطل، و يوم الالتقاء بين جماعة الكفر و جماعة الإيمان، و فى ذلك إشارة إلى ما يلى: أوّلا: إنّ يوم بدر ظهرت فيه الأدلة على صدق النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّه وعد المسلمين بالنصـر قبل ذلك، مع أنّ القرائن فى الظاهر لم تكن دالة على ذلك، و لقد اتّحدت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۳

تلك الأسباب بشكل غير متوقع فكان النصر، و هو ما لا يمكن حمله على المصادفة و الاتفاق فبناء على ذلك فإن صدق الآيات التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذلك اليوم كان كامنا فى الآيات نفسها.

ثانيا: إنّ المعركة فى بدر: «يوم التقى الجمعان» كانت فى الواقع إحدى النعم الإلهية الكبرى على المسلمين، لإنّ بعضـهم كان يخشاها فى البداية، لكن تلك المواجهة و النصـر دفعا بهم خطوات كبيرة نحو الأمام، إذ بلغ صداهم و اشـتهارهم بذلك أنحاء الجزيرة العربية، و دعا الجميع للتفكّر فى هـذا الـدين الجديـد و قـدرته المذهلـة و كان ذلك اليوم يوما شديدا على الأمّة الإسـلامية القليلة آنئذ، حيث امتاز به المؤمنون الصادقون عن المدعين الكاذبين، فكان ذلك اليوم بكل جوانبه يوم الفرقان بين الحق و الباطل.

[۲- عدم وجود تضادّ بين آية الأنفال و هذه الآية]

۲- ذكرنا فى بداية السورة عدم وجود تضادّ بين آية الأنفال و هذه الآية، و لا موجب الإعتبار إحداهما ناسـخة للأخرى، لأنّه بمقتضـى آية الأنفال فإنّ الغنائم الحربية هى للنّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّه وهب أربعة أخماسها للمقاتلين المسلمين، و ادخر الخمس المتبقى للموارد التى ذكرتها الآية «و لمزيد الإيضاح راجع بحثنا فى تفسير الآية الأولى من هذه السورة».

۳- ما هو المراد من ذى القربى؟

ليس المراد فى هذه الآية الأقرباء كلّهم و لا أقرباء النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم جميعا، بل هم الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام، و الـدليل على هـذا الأمر هو الرّوايات المتواترة التى وردت عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عن طرق أهل البيت ۲۱۵]، و توجد أدلة أخرى على ذلك فى كتب أهل السنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۴

فبناء على ذلك فإنّ من يرى أنّ سـهما من الخمس يتعلق بكل أقرباء النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم يواجه هذا السؤال و هو: ما هذا

امتیاز الذی أولاه الإسلام لأقرباء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قومه، مع أنّ الإسلام بعید عن القبلیة و القومیة و العرقیة؟! لکنّنا إذا خصصنا «بذی القربی» الأئمّة من أهل البیت علیهم السّلام مع ملاحظة أنّهم خلفاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قادة الحکومة الإسلامیة، یتّضح السبب فی إعطائهم هذا السهم من الخمس.

و بعبارة أخری: إنّ السهام الثّلاثة «سهم اللّه و سهم النّبی و سهم ذی القربی» ترجع جمیعها إلی قائد الحکومة الإسلامیة، فیصرف منها فی شؤون حیاته البسیطة، و ینفق الباقی منها فی ما یوجبه مقام القیادة، أی أنّه یصرفها فی الحقیقة فی حاجات الناس و المجتمع!.

و حیث أن بعض المفسّرین من أهل السنة «کصاحب المنار» یری أنّ ذا القربی هو جمیع الأقارب، فقد تخبط فی الإجابة علی السؤال آنف الذکر و ظلّ فی حیرة من أمره، حتی جعل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أشبه بالملوک و السلاطین، فأوجب علیه أن یجذب قومه و قبیلته الیه بالأموال التی عنده! و من الواضح بطلان هذا المنطق، إذ یتنافی و منطق الحکومة العالمیة الإنسانیة التی لا تعترف بالامتیازات القبلیّة «و سیأتی إیضاح هذا الموضوع بصورة أکثر فی البحوث المقبلة، إن شاء اللّه».

۴- ما هو المراد من الیتامی و المساکین و ابن السبیل

إنّ المقصود بالیتامی و المساکین و ابن السبیل- فی الآیة- هم هذه الطوائف الثلاث من بنی هاشم بالرغم من أنّ ظاهر الآیة مطلق غیر مقید، و دلیلنا علی التقیید هو الرّوایات الکثیرة الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام، و نعلم بأنّ کثیرا من الأحکام المطلقة فی النصوص القرآنیة قیدتها السنة النبویة و جعلت لها شروطا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۵

و هذا الأمر غیر منحصر بالآیة محل البحث حتی تکون مثارا للغرابة و التعجب.

أضف إلی ذلک أنّ الزکاة محرمة علی المحتاجین من بنی هاشم، فیلزم توفیر مصدر آخر لهم، و هذه قرینة علی أنّ الآیة تخصّ المحتاجین من بنی هاشم.

لذا نقرأ

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «إنّ اللّه تعالی لما حرّم علینا الصدقة أنزل لنا الخمس، فالصدقة علینا حرام و الخمس لنا حلال»[۲۱۶]

۵- هل الغنائم منحصرة فی غنائم الحرب

اشارة

الموضوع المهم الآخر الذی یجب أن یبحث فی الآیة، و هو فی الحقیقة بمثابة العمدة فیها، هو: هل لفظ الغنیمة المذکور فیها یطلق علی الغنائم الحربیة فحسب، أو الموضوع أوسع من ذلک فیشمل کل زیادة فی المال؟! ففی الصورة الأولی فإنّ الآیة تبیّن الخمس فی غنائم الحرب فحسب، و أمّا الخمس فی سائر الموارد فینبغی معرفته من السنة و الأخبار المتواترة و صحیح الرّوایات، و لا مانع أن یشیر القرآن إلی قسم من أحکام الخمس بما یناسب مسائل الجهاد، و أن تتناول السنة الشریفة بیان أقسامه الباقیة.

فمثلا قد وردت الصلوات الخمس الیومیة صریحة فی القرآن، کما أشیر إلی صلاة الطواف التی هی من الصلوات الواجبة أیضا، و لم ترد أیّة إشارة فی القرآن إلی صلاة الآیات المتفق علی وجوبها من قبل الفرق الإسلامیة من أهل السنة و الشیعة کافة، و لا نجد قائلا یقول بأنّه لا یجب الإتیان بصلاة الآیات لأنّها لم تذکر فی القرآن أو أن القرآن أشار إلی بعض الأغسال و لم یذکر غیرها، فیجب

ترک ما لم یشر إلیه القرآن! فهذا المنطق لا یقره أی مسلم أبدا.

فبناء علی ذلک، لا إشکال فی أن یبیّن القرآن قسما واحدا من أقسام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۶

الخمس فحسب، و یکلّ توضیح الباقی إلی السنّة، و فی الفقه الإسلامی نظائر کثیرة لهذه المسألة.

إلّا أنّه مع هذه الحال ینبغی أن ننظر إلی معنی «الغنیمة» فی اللغة و العرف! فهل هی منحصرة فی غنائم الحرب؟! أم تشمل کل أنواع الأرباح و الزیادة فی المال؟! الذی یستفاد من کتب اللغة هو أنّ جذرها اللغوی لم یرد فی ما یؤخذ من العدوّ فی الحرب، بل تشمل کل أنواع الزیادة المالیة و غیرها.

و نشیر هنا إلی بعض کتب اللغة المشهورة التی یعتمد علیها علماء العربیة و أدباؤها علی سبیل المثال و الشاهد. إذ نقرأ فی کتاب «لسان العرب» الجزء الثّانی عشر قوله «الغنم الفوز بالشیء من غیر مشقّة، و الغنم و الغنیمة، و المغنم:

الفیء، و

فی الحدیث: الرهن لمن رهنه له غنمه و علیه غرمه، غنمه زیادته و نماؤه و فاضل قیمته ... و غنم الشیء غنما فاز به ...».

و نقرأ فی الجزء التاسع من «تاج العروس»: و الغنم: الفوز بالشیء بلا مشقّة».

و فی کتاب «القاموس» هذا المعنی نفسه للغنیمة أیضا.

و جاء فی کتاب «المفردات» للراغب أنّ أصل الغنیمة من الغنم، ثمّ یقول: ثمّ استعملوه فی کل مظفور به من العدی و غیره.

و حتی من ذکر أنّ معناها هو غنائم الحرب، لم ینکر أنّ معناها فی الأصل واسع و شامل لکل خیر یقع بید الإنسان بدون عناء و مشقة.

و ترد الغنیمة فی العرف فی مقابل الغرامة، فکما أن معنی الغرامة واسع شامل لکل أنواع الغرامات، فإنّ معنی الغنیمة واسع شامل لکل أنواع الغنائم.

و قد وردت هذه الکلمة فی نهج البلاغة کثیرا بالمعنی المذکور نفسه، إذ نقرأ

فی الخطبة (۷۶) قوله علیه السّلام: «اغتنم المهل».

و

فی الخطبة (۱۲۰) یقول علیه السّلام: «من أخذها لحق و غنم».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۷

و

یقول فی کتابه (۵۳) إلی مالک الأشتر: «و لا تکوننّ علیهم سبعا ضاریا تغتنم أکلهم».

و

یقول فی کتابه (۴۵) إلی عثمان بن حنیف: «فو اللّه ما کنزت من دنیاکم تبرا و لا ادخرت من غنائمها و فرا».

و

یقول فی بعض کلماته القصار برقم (۳۳۱): «إنّ اللّه جعل الطاعة غنیمة الأکیاس».

و

یقول فی کتابه (۴۱): «و اغتنم من استقرضک فی حال غناک».

و نظیر هذه التعابیر و الکلمات التی تدل علی عدم انحصار معنی الغنیمة فی غنائم الحرب کثیر.

و أمّا ما قاله المفسّرون:

إنّ أكثر المفسّرين الذين تناولوا هذه الآية بالبحث صرّحوا بأنّ للغنيمة معنى واسعا فى اللغة يشمل غنائم الحرب و غيرها ممّا يحصل عليه الإنسان من دون مشقّة، و حتى الذين قالوا بأنّها تختص بغنائم الحرب «لفتوى فقهاء السنة» يعترفون بأنّ معناها فى اللغة غير مقيد، بل قيّدوه بدليل آخر.

«القرطبى» مفسّر أهل السنة المعروف، كتب فى ذيل الآية: «إنّ الغنيمة فى اللغة هو الخير الذى يناله الفرد أو الجماعة بالسعى و الجد»[۲۱۷].

و ينبغى أن يعلم أن علماء أهل السنة متفقون على أنّ المراد من الغنيمة المذكورة فى آية وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ هى الأموال التى يحصل عليها الناس بالقوّة فى الحرب، و ينبغى ملاحظة أنّ هذا القيد غير وارد فى اللغة، لكنّه ورد فى العرف الشرعى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۸

و يقول «الفخر الرازى» فى تفسيره: الغنم الفوز بالشىء يقول بعد هذا: إنّ المعنى الشرعى للغنيمة فى اعتقاد فقهاء أهل السنة هو غنائم الحرب ۲۱۸].

كما أنّ «صاحب المنار» قد ذكرها بمعناها الواسع و لم يخصصها بغنائم الحرب، بالرغم من اعتقاده بلزوم تقييد المعنى الواسع بالقيد الشرعى، و تخصيص الآية بغنائم الحرب ۲۱۹].

و قال «الآلوسى» فى تفسيره روح المعانى: «إن الغنم فى الأصل معناه كل ربح و منفعة»[۲۲۰].

و قال صاحب «مجمع البيان» فى بداية كلامه: إنّ الغنيمة بمعنى غنائم الحرب، إلّا أنّه لما بين معنى الآية قال: «قال أصحابنا: إنّ الخمس واجب فى كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب و أرباح التجارات، و فى الكنوز و المعادن و الفوضى، و غير ذلك ما هو مذكور فى الكتب، و يمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإنّ فى عرف اللغة يطلق على جميع ذلك اسم الغنم و الغنيمة»[۲۲۱].

و العجيب أنّ بعض المغرضين- و كأنّهم مأمورون ببث السّموم فى الأفكار- حرّفوا ما ذكره صاحب مجمع البيان فى كتاب ألفوه فى شأن الخمس، حيث ذكروا عبارته الأولى فى تفسير الغنيمة بأنّ المراد منه غنائم الحرب، و لكنّهم لم يشيروا إلى إيضاحاته حول عموميّة المعنى اللغوى و معنى الآية الذى أورده أخيرا، و قد كذبوا بما لفقوا على هذا المفسّر الإسلامى الكبير، و كأنّهم يتصورون أن كتاب مجمع البيان فى أيديهم و لن يقرأه غيرهم. و الأعجب من ذلك أنّهم لم يرتكبوا هذه الخيانة الفكرية فحسب، بل تصرفوا فى كتب أخرى فأخذوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۹

بما ينفعهم و تركوا ما يضرّهم.

و فى تفسير «الميزان» ورد بصراحة- استنادا إلى علماء اللغة- أنّ الغنيمة هى كل فائدة تستحصل عن طريق التجارة و الكسب أو الحرب، و مع أن سبب نزول الآية هو غنائم الحرب، إلّا أنّ ذلك لا يخصص مفهوم الآية و عموميتها[۲۲۲].

و نستنتج ممّا ذكرناه آنفا ما يلى:

إنّ آية الغنائم ذات معنى واسع يشمل كل فائدة و ربح، لإنّ معنى الغنيمة اللغوى عام و لا دليل على تخصيص الآية.

و الشىء الوحيد الذى استند إليه جماعة من مفسّرى أهل السنة، هو أنّ الآيات السابقة و الآيات اللاحقة لهذه الآية تتعلق بالجهاد، و هذا الأمر يكون قرينة على أنّ آية أَنَّما غَنِمْتُمْ تتعلق بغنائم الحرب.

فى حين أنّ أسباب النّزول و سياق الآيات لا يخصص عمومية الآية كما هو معلوم، و بعبارة أجلى: لا مانع من كون مفهوم الآية ذا معنى عام، و أن يكون سبب نزولها هو غنائم الحرب فى الوقت ذاته، فهى من مصاديق هذا المفهوم أو الحكم.

و نظير هذه الأحكام كثير فى القرآن الكريم و السنة المطهرة، بأن يكون حكمها عاما و مصداقها جزئيا «خاصّا».

فمثلا فى الآية (۷) من سورة الحشر نقرأ قوله تعالى: ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا فهذه الآية ذات حكم كلى فى

وجوب الالتزام بأوامر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع أن سبب نزولها هو الأموال التی تقع بأیدی المسلمین من دون حرب، و یطلق علی ذلک اصطلاحا «الفیء».

و کذلک نجد فی الآیة (۲۳۳) من سورة البقرة حکما کلیا فی قوله: لا تُکَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها مع أنّه یتعلق بالنساء المرضعات و الأمر موجه لآباء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۰

الأطفال الرضّع أن یعطوا المرضعات أجورهن حسب وسعهم. و کون الآیة واردة فی هذا الأمر الخاص لا یمنع من عمومیة القانون الذی جاءت به و هو عدم التکلیف.

الخلاصة، أنّ الآیة محل البحث جاءت فی سیاق آیات الجهاد، إلّا أنّها تقول:

«إنّ أیة فائدة أو ربح تحصلون علیه- و منه غنائم الحرب- فعلیکم أن تعطوا خمسه».

و خاصّة أنّ «ما» الموصولة «و من شیء» لفظان عامان لیس فیهما قید و لا شرط و هما یؤکّدان هذا الموضوع.

۶- ألا یعد تخصیص نصف الخمس لبنی هاشم تبعیضا بین المسلمین؟!

اشارة

یتصوّر بعض أن هذه الضریبة الإسلامیة الشاملة لخمس الکثیر من الأموال، أی نسبة (عشرین المائة) حیث یعطی نصفها للسادة من أبناء الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، نوع من التمییز العنصری أو ملاحظة العلاقات العائلیة، و أنّ هذا الأمر لا ینسجم و روح العدالة الاجتماعیة للإسلام و کونها شاملة لجمیع العالم.

الجواب:

إنّ هؤلاء لم یدر سوا ظروف هذا الحکم و خصوصیاته بدقة کافیة، فالإجابة علی هذا السؤال کامنة فی تلک الخصوصیات.

و توضیح ذلک: أوّلا: إن نصف الخمس المتعلق ببنی هاشم إنّما یعطی للمحتاجین و الفقراء منهم فحسب، و لما یکفیهم لسنة واحدة لا أکثر، فبناء علی ذلک تصرف هذه الأموال علی المقعدین عن العمل و المرضی و الیتامی من الصغار، أو من یکون فی ضیق و حرج. لسبب من الأسباب و لهذا فإنّ القادرین علی العمل «بالفعل أو بالقوّة» و الذین بإمکانهم أن یدیروا حیاتهم المعاشیة، لیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۱

لهم بأی وجه أن یأخذوا شیئا من الخمس.

أمّا ما یقوله بعض السواد بأنّ السّادة یمکنهم أخذ الخمس حتی و لو کان میزاب بیتهم من ذهب فهو کلام ساذج و لا أساس له أبدا.

ثانیا: إنّ المحتاجین و الضعفاء من سادات بنی هاشم لا یحق لهم أخذ شیء من الزکاة، فلهذا جاز لهم أن یأخذوا من هذا القسم من الخمس فحسب.[۲۲۳] ثالثا: إذا زاد القسم المختص لبنی هاشم عن احتیاجاتهم فإنّه یرجع إلی بیت المال حتی ینفق فی مصارف أخری، کما أنّه إذ نقص هذا السهم عن حاجتهم یدفع الباقی من بیت المال إلیهم أو من سهم الزکاة.

و بملاحظة تلک النقاط الثلاث یتّضح لنا عدم وجود فرق- فی الواقع- من النّاحیة المادیّة بین السادة و غیرهم.

فالمحتاجون من غیرهم یمکنهم سدّ حاجتهم من الزّکاة و یحرمون من الخمس، و المحتاجون من السادة یسدّون حاجتهم من الخمس و یحرمون من الزّکاة.

فیوجد فی الحقیقة صندوقان، هما صندوق الخمس و صندوق الزکاة، فیحق لکل من القسمین الأخذ من أحد الصندوقین و بصورة

التساوی فیما بینهما، أی ما یحتاجه کلّ لعام واحد (فتأمل).

فالذین لم یمعنوا النظر فی هذه الشروط و الخصوصیات تصوّروا من بیت المال أکثر من غیرهم أو أنّهم یتمتعون بامتیاز خاص.

و السؤال الوحیـد الذی یطرح نفسه هنا هو: إذا قلنا بعدم الفرق بین الإثنین آخر الإمر، فما جدوی هذه الخطة إذا؟! و یمکن أن ندرک جواب هذا التساؤل بملاحظة شیء واحد، و هو أنّ بین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۲

الزکـاة و الخمس بونـا شاسـعا، إذ أنّ الزکـاة من ضـرائب الأـموال العامّـة للمجتمع الإسـلامی فتصـرف عموما فی هـذه الجهـة، و لکن الخمس من ضرائب الحکومة الإسلامیة فیصرف علی القیادة و الحکومة الإسلامیة و تؤمن حاجتها منه.

فالتحریم علی السادة من مـدّ أیـدیهم للأموال العامّـة، «الزّکاة» کان فی الحقیقـة لیجتنبوا عن هذا المال باعتبارهم أقارب النّبی، و لکیلا تکون ذریعة بید الأعداء بأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سلط أقرباءه علی الأموال العامّة.

إلّا أنّه- من جانب آخر- ینبغی سـدّ حاجـة الضـعفاء و الفقراء من السادة، لـذلک جعلت هذه الخطة لسدّ حاجتهم من میزانیة الحکومة الإسـلامیة لا من المیزانیـة العامّـة ففی الحقیقة أنّ الخمس لیس امتیازا لبنی هاشم، بل هو لإبعادهم من أجل الصالح العام و لئلا ینبعث سوء الظن بهم ۲۲۴].

و الذی یسترعی النظر أنّ هذا الإمر أشارت إلیه أحادیث الشیعة و السنة،

ففی حـدیث عن الإمـام الصـادق نقرأ: «أنّ أناسـا من بنی هاشم أتوا رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فسألوه أن یسـتعملهم علی صدقات المواشـی، و قالوا: یکون لنا هذا السـهم الذی جعل اللّه عزّ و جلّ للعاملین علیها فنحن أولی به، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا بنی عبد المطلب (هاشم) إن الصدقة لا تحل لی و لا لکم، و لکنّی وعدت الشفاعة، إلی أن قال: «أ ترونی مؤثرا علیکم غیرکم»[۲۲۵].

و یـدل هـذا الحـدیث علی أن بنی هاشم کانوا یرون فی ذلک الأمر حرمانا، و قد وعدهم النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أن یشـفع لهم.

و نقرأ حـدیثا فی صـحیح مسـلم الذی یعد من أهم مصادر الحدیث عند أهل السـنة، خلاصـته أنّ العباس و ربیعة بن الحارث جاء إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبا منه أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۳

یـأمر ابنیهما- و کانا فتیین و هما عبـد المطلب بن ربیعـة و الفضل بن العباس- بجمع الزکاة لیتمکنا أن یأخـذا سـهما منه کشأن الآخرین، لیؤمّنـا لنفسـیهما المال الکافی لزواجهما، فامتنع النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و أمر بسـد حاجتهما عن طریق آخر و هو الخمس.

و یستفاد من هذا الحدیث الذی یطول شرحه أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان مصرّا علی أبعاد أقاربه عن الحصول علی الزکاة التی هی من أموال عامّة الناس.

من مجموع ما قلناه یتّضح أنّ الخمس لیس امتیازا للسّادة، بل هو نوع من الحرمان لحفظ المصالح العامّة ...

۷- ما هو المراد من سهم اللّه؟

إنّ ذکر سهم علی أنّه سهم اللّه، للتأکید علی أهمیة مسألة الخمس و إثباتها، و لتأکید ولایة الرّسول و القیادة الإسلامیة و حاکمیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا.

أى كما أنّ اللّه جعل سهما باسمه و هو أحق بالتصرف فيه، فقد أعطى النّبى و الإمام حق الولاية و التصرف فيه كذلك، إلّا فإنّ سهم اللّه يجعل تحت تصرف النّبى أو الإمام يصرفه فى المكان المناسب، و ليس للّه حاجة فى سهم معين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۴

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۲ الى ۴۴]

اشارة

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (۴۲) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴۴)

التّفسير

الأمر الذى لا بدّ منه:

يعود القرآن فى هذه الآيات الكريمة- و لمناسبة الكلام فى الآيات السابقة إلى يوم الفرقان يوم معركة بدر و انتصار المسلمين لمؤزر فى ذلك الموقف الخطير- يعود ليعرب عن أجزاء من فصول تلك المعركة، ليطلع المسلمون على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۵

أهمية ذلك النصر العظيم.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى

«العدوة» مأخوذة من «العدو» على زنة «السّرو» و معناها فى الأصل التجاوز، و لكنّها تطلق على أطراف كل شىء، و حواشيه، لأنّها تتجاوز الحدّ الوسط إلى إحدى الجوانب، و جاءت هذه الكلمة فى هذه الآية بهذا المعنى أى «الطرف، و الجانب».

«و الدنيا» مأخوذة من الدنّو، على وزن العلوّ و تعنى الأقرب، و يقابل هذا اللفظ الأقصى و القصوى.

و كان المسلمون فى الجانب الشمالى من ميدان الحرب الذى هو أقرب إلى جهة المدينة، و كان الأعداء فى الجانب الجنوبى و هو الأبعد.

و يحتمل أن يكون المعنى هو أنّ المسلمين لاضطرارهم كانوا فى القسم الأسفل فى الميدان، و كان الأعداء فى القسم الأعلى منه و هو يعدّ ميزة لهم.

ثمّ تعقّب الآية قائلة: وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ

و كما رأينا من قبل فإنّ أبا سفيان حين علم بتحرّك المسلمين غيّر مسير قافلته إلى جهة أخرى على جانب البحر الأحمر حتى صار قريبا من مكّة، و لو أنّ المسلمين لم يضلّوا أثر القافلة فلعلهم كانوا يتبعونها، و لا يوفقون لمواجهة الأعداء و منازلتهم فى معركة بدر التى تحقق فيها النصر العظيم و الفتح المبين.

و بغض النظر عن كل ذلك فإنّ عدد قوات المسلمين و إمكاناتهم كان أقلّ من قوات الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإنّ الآية الكريمة تقول: وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ.

لأنّ الكثير منكم سيدركون ضعفهم الظاهرى قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم، و لكن اللّه جعلكم إزاء أمر مقدر، و كما تقول الآية: لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ

مَفْعُولًا.

و ليعرف الحق من الباطل فى ظلال ذلك النصر غير المتوقع و المعجزة الباهرة و لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ.

و المراد من «الحياة» و «الهلكة» هنا هو الهداية و الضلال، لأنّ يوم بدر الذى سمّى يوم الفرقان تجلّى فيه الإمداد الإلهى لنصرة المسلمين، و ثبت فيه أن لهؤلاء علاقة باللّه و أنّ الحق معهم.

و تعقبّ الآية قائلة: وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ

فقد سمع نداء استغاثاتكم، و كان مطلعا على نيّاتكم، و لذلك أيّدكم بنصره على أعدائكم.

إنّ القرائن تدلّ عن أنّ بعض المسلمين لو كانوا يعرفون حجم قوّة أعدائهم لامتنعوا عن مواجهتهم، مع أنّ طائفة أخرى من المسلمين كانوا مطيعين للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مواجهة جميع الشدائد، لهذا فإنّ اللّه جعل الأمور تسير بشكل يلتقى فيه المسلمون- شاءوا أم أبوا- مع أعدائهم، فكانت المواجهة المصيرية.

و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد رأى فيه منامه من قبل أن قلّة المشركين تقاتل المسلمين، و كانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر و بشارة به، فقد رواه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للمسلمين فازدادت العزائم فى الزحف نحو معركة بدر.

و بالطبع فإنّ رؤيا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فى منامه كانت صحيحة، لأنّ قوّة الأعداء و عددهم بالرغم من كثرتهم الظاهرية، إلّا أنّهم كانوا قلّة فى الباطن ضعفاء غير قادرين على مواجهة المسلمين، و نحن نعرف أنّ الرؤيا ذات تعبير و إشارة، و أن الرؤيا الصحيحة هى التى تكشف الوجه الباطنى للأمور.

و الآية الثّانية: من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، و النعمة التى أولاها سبحانه و تعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ و لهبطت معنوياتكم، و لم يقف الأمر

عند هذا الحدّ، بل لأدّى ذلك إلى التنازع و اختلاف الكلمة وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ و أنقذ الأمر بواسطة الرؤيا التى أظهرت الوجه الباطنى لجيش الأعداء، و لأنّ اللّه يعرف باطنكم إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

و تذكّر الآية الأخرى بمرحلة من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففى هذه المرحلة و فى ظل خطاب النّبى المؤثر فيهم و البشائر الرّبانية، و رؤية حوادث حال التهيؤ للقتال- كنزول المطر لرفع العطش و لتكون الرمال الرخوة صالحة لساحة المعركة- تجددت بذلك المعنويات و كبر الأمل بالنصر و قويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادى و كأنّه صغير ضعيف لا حول و لا قوة له، فتقول الآية المباركة: وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا.

أمّا العدوّ فإنّه لما كان يجهل معنويات المسلمين و ظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلا جدّا، بل رآهم أقل ممّا هم عليه، إذ تقول الآية فى الصدد وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ

حتى روى عن أبى جهل أنّه قال: إنّما أصحاب محمّد أكلة جزور، و فى ذلك كناية عن منتهى القلّة. أو أنّهم سيحسمون الأمر معهم فى يوم واحد من الغداة حتى العشية، و قد جاء فى الأخبار أنّهم كانوا ينحرون كل يوم عشرة من الإبل لطعامهم، لأنّ عدد جيش قريش كان حوالى ألف مقاتل.

و على كل حال: فقد كان تأثير هذين الأمرين كبيرا فى نصر المسلمين، لأنّهم من جهة رأوا جيش العدو قليلا فنزال كل خوف و رعب من نفوسهم، و من جهة أخرى ظهر عدد المسلمين قليلا فى عين العدو، كيلا يترددوا فى قتال المسلمين و ينصرفوا عن الحرب التى

أدت فی النهایة إلی هزیمتهم.

لهذا فإنّ الآیة تعقب علی ما سبق قائلة: لِیَقْضِیَ اللَّهُ أَمْراً کانَ مَفْعُولًا.

فلم تنته هذه المعرکة وحدها وفق سنة اللّه فحسب، بل إن إرادته نافذة فی کل شیء وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۸

و فی الآیة (۱۳) من سورة آل عمران إشارة إلی المرحلة الثّالثة من قتال یوم بدر، إذ تشیر إلی أنّ الأعداء لمّا اشتعل أوار الحرب و رأوا الضربات الشدیدة لجیش الإسلام تنزل علی رؤوسهم کالصواعق، أصابهم الذعر و الخوف الشدید، فأحسوا عندئذ و کأنّ جیش الإسلام قد ازداد عدده و تضاعف أضعاف ما کان علیه، فانهارت معنویاتهم و أدّی هذا الأمر إلی هزیمتهم و تمزقهم.

و ممّا ذکرناه آنفا یتّضح أنّه لا یوجد أی تناقض، لا بین الآیات محل البحث، و لا بینها و بین الآیة (۱۳) من سورة آل عمران، لإنّ کلّا من هذه الآیات تبیّن مرحلة من مراحل المعرکة.

فالمرحلة الأولی: هی ما قبل القتال، و هی ما ورد فیها عن رؤیا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی منامه و رؤیته جیش المشرکین قلیلا.

و المرحلة الثّانیة: هی نزولهم فی أرض بدر و معرفة بعض المسلمین بعدد الأعداء و عدده و خوف بعضهم و خشیته من قتالهم.

و المرحلة الثّالثة: هی حصول المواجهة المسلحة و ما أنعمه اللّه علیهم، و ما رأوه من مشاهد قلّلت عدد أعدائهم فی أعینهم «فتأملوا بدقّة!».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۹

الآیات [سورة الأنفال (۸): الآیات ۴۵ الی ۴۷]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا لَقِیتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْکُرُوا اللَّهَ کَثِیراً لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِیحُکُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِینَ (۴۶) وَ لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِما یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ (۴۷)

التّفسیر

ستة أوامر أخری فی شأن الجهاد:

قال المفسّرون: إنّ أبا سفیان بعد ما استطاع النجاة بقافلة قریش التجاریة من مواجهة المسلمین، أرسل مبعوثا إلی قریش الذاهبین إلی ساحة بدر و دعاهم إلی العودة، لأنّه رأی أن لا حاجة إلی القتال، لکن أبا جهل هذا المغرور و المتعصب و المتکبر أقسم أن لا یرجعوا حتی یبلغوا أرض بدر «و کانت بدر قبل هذه المعرکة من مراکز اجتماع العرب، و تقام فیها سوق تجاریة کل عام» و یمکثوا فیها ثلاثة أیّام، و ینحروا الإبل و یأکلون ما یشتهون و یشربون الخمر، و تغنی لهم المغنیّات، حتی یسمع جمیع العرب بهم و تثبت بذلک قوتهم و قدرتهم! ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۰

لکن أمرهم آل إلی الهزیمة فشربوا کؤوس المنایا المترعة بدلا من کؤوس الخمر، و جلست المغنیات ینحن علی جنائزهم!! و الآیات

محل البحث تشير إلى هذا الموضوع، و تنهى المسلمين عن مثل هذه الأعمال، و تضع لهم تعاليم جديدة فى شأن الجهاد إضافة إلى ما سبق من هذه الأمور.

و بصورة عاملة فإنّ فى الآيات محل البحث ستة أوامر للمسلمين هى:

۱- أنّها تقول أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا أى أن إحدى علائم الإيمان هى ثبات القدم فى جميع الأحوال، و خاصّة فى مواجهة الأعداء.

۲- وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

و لا ـ ريب أنّ المراد من ذكر اللّه هنا ليس هو الذكر اللفظى فحسب، بل حضور القلب، و ذكر علمه تعالى و قدرته غير المحدودة و رحمته الواسعة، فهذا التوجه إلى اللّه يقوّى من عزيمة الجنود المجاهدين، و يشعر الجندى بأنّ سندا قويّا لا تستطيع أية قدرة فى الوجود أن تتغلب عليه يدعمه فى ساحة القتال، و إذا قتل فسينال السعادة الكبرى و يبلغ الشهادة العظمى، و جوار رحمة اللّه، فذكر اللّه يبعث على الاطمئنان و القوّة و القدرة و الثبات فى نفسه.

بالإضافة إلى ذلك، فذكر اللّه و حبّه يخرجان حبّ الزوجة و المال، و الأولاد من قلبه، فإنّ التوجه إلى اللّه يزيل من القلب كل ما يضعفه و يزلزله، كما

يقول الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام فى دعائه المعروف- فى الصحيفة السجادية- بدعاء أهل الثغور: «و أنسهم عند لقائهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعة، و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون، و اجعل الجنّة نصب أعينهم».

۳- كما أنّ من أهم أسس المبارزة و المواجهة هو الالتفات للقيادة و إطاعة أوامر القائد و الآمر، الآمر الذى لولاه لما تحقق النصر فى معركة بدر، لذلك فإنّ الآية بعدها تقول: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

۴- وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا لأنّ النزاع و الفرقة امام الأعداء يؤدى إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۱

الضعف و خور العزيمة، و نتيجة هذا الضعف و الفتور هى ذهاب هيبة المسلمين و قوتهم و عظمتهم وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ

«و الريح» فى اللغة، هى الهواء. فالنزاع يولد الضعف و الوهن.

و أمّا ذهاب الريح، فهو إشارة لطيفة إلى زوال القوّة و العظمة، و عدم سير الأمور كما يرام، و عدم تحقق المقصود، لأنّ حركة الريح فيما يرام توصل السفن إلى مقاصدها، و لما كانت الريح فى ذلك العصر أهم قوّة لتحريك السفن فقد كانت ذات أهمية قصوى يؤمئذ.

و حركة الرّيح فى الرّوايات و البيارق تدل على ارتفاع الرّاية التى هى رمز القدرة و الحكومة، و التعبير آنف الذكر كناية لطيفة عن هذا المعنى.

۵- ثمّ تأمر الآية بالاستقامة بوجه العدوّ، و فى قبال الحوادث الصعبة، فتقول: وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

و الفرق بين ثبات القدم فى الأمر الأوّل، و الاستقامة و الصبر فى الأمر الخامس، هو من جهة أن ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية، «الجسمية» أمّا الاستقامة و الصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان و معنويان.

۶- و تدعو الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجة البلهاء، و رفع الأصوات الفارغة، و تشير إلى قضية أبى سفيان و أسلوب تفكيره هو و أصحابه، فتقول: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

فأهدافهم غير مقدسة، و كذلك أساليبهم فى الوصول إليها، و لقد رأينا كيف أبيدوا و تلاشى كلّ ما جاءوا به من قوّة و عدّة، و سقط بعضهم مضرجا بدمائه فى التراب، و أسبل الآخرون عليهم الدّموع و العبرات فى مأتمهم، بدل أن يشربوا الخمر فى حفل ابتهاجهم، و

تختتم الآیة بالقول: وَ اللَّهُ بِما یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۴۵۲

الآیات [سورة الأنفال (۸): الآیات ۴۸ الی ۵۱]

اشارة

وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّی جارٌ لَکُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَکَصَ عَلی عَقِبَیْهِ وَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ إِنِّی أَری ما لا تَرَوْنَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ (۴۸) إِذْ یَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِینُهُمْ وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۴۹) وَ لَوْ تَری إِذْ یَتَوَفَّی الَّذِینَ کَفَرُوا الْمَلائِکَةُ یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِیقِ (۵۰) ذلِکَ بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَیْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ (۵۱)

التّفسیر

المشرکون و المنافقون و وساوس الشّیطان:

مرّة أخری نلاحظ فی هذه الآیات تجسید جانب آخر من معرکة بدر بما یتناسب و الآیات السابقة فی هذا الشأن، أو بما یتناسب و الآیة الأخیرة التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۴۵۳

تکلمت عن أعمال المشرکین الشیطانیّة فی یوم بدر.

فکما أنّ دعاة الحق مؤیدون باللّه و ملائکة فی نهجهم الذی سلکوه، فإنّ أتباع الباطل و الضالین متأثرون بوساوس الشیاطین و إغواءاتهم.

و قد مرّ فی بعض الآیات السابقة کیف أن الملائکة دافعت عن المقاتلین المسلمین فی بدر (و مرّ تفسیر ذلک). فإنّ أوّل آیة من الآیات محل البحث تتکلم عن دفاع الشیاطین عن المشرکین، فتبدأ بالقول: وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ

إنّ تزیین الشیطان للعمل یکون عن طریق تحریک الأهواء و الشهوات و الرّذائل، فیتزین للإنسان عمله حتی ینظر إلیه باعجاب و یعده عملا عقلائیا من جمیع الجهات، و یراه منطقیا نبیلا.

ثمّ تقول الآیة: وَ قالَ لا غالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّی جارٌ لَکُمْ

و لن آلو جهدا فی الدفاع عنکم، کما یدافع الجار عن جاره و یظهر له وفاءه و إخلاصه، و ألازمکم ملازمة الظل للشاخص.

کما و یحتمل فی تفسیر الجار هنا أنّه لیس المراد من الجار جار الدّار، بل هو من یؤوی غیره و یؤمنه و یلجأ إلیه، لأنّ من عادة العرب و خاصّیة القبائل أو الطوائف القویّة منها أن تضمّن من یلجأ إلیها من أصدقائها و أصحابها و تؤمنهم و تدافع عنهم بکل ما أوتیت من قوّة.

فالشیطان یمنح أصحابه المشرکین الأمان و ورقة اللجوء إلیه.

ثمّ تقول الآیة: فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَکَصَ عَلی عَقِبَیْهِ وَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ

و استدل علی نکوصه و تراجعه القهقری بدلیلین هما:

أوّلا قوله: إِنِّی أَری ما لا تَرَوْنَ

فإنّه یرى آثار النصر جیدا فی وجوه المسلمین الغاضبة و یشاهد علیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۴

سمات اللطف الإلهی و الإمداد الغیبی و تأیید الملائکة لهم، فمن الطبیعی أن یتراجع عند ما یرى کل ذلک الدعم الرّبانی و القوى الغیبة.

و الثّانی قوله: إِنِّی أَخافُ اللَّهَ

فإنّ الجزاء الإلهی لیس أمرا یسیرا یمکنه أن یقف بوجهه، بل إنّه هو العذاب الألیم وَ اللَّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ

هل جاء الشیطان عن طریق الوسوسة أو ظهر متجسدا لهم؟

جرى الکلام بین المفسّرین حول مسألة نفوذ الشیطان إلى قلوب المشرکین، و قوله لهم فی ساحة معرکة بدر، و کیفیة حصول ذلک، و تتلخص جمیع الآراء القدیمة و الحدیثة فی عقیدتین:

۱- یعتقد بعضهم أنّ هذا الأمر حصل على صورة وساوس باطنیة، فقد زین لهم بوساوس أعمالهم فی عیونهم و صوّر لهم أنّهم یملکون قوّة لا تقهر، و أغراهم و صوّر لهم أنّه هو ملجؤهم، إلّا أنّهم بعد قتالهم الشدید للمسلمین، و الحوادث الإعجازیة التی حققت النصر للمسلمین و محت الوساوس عن قلوبهم، أحسوا بالانکسار و أنّه لا ملجأ لهم أبدا سوى ما ینتظرهم من الجزاء الإلهی و العذاب الشدید.

۲- و یرى بعضهم الآخر أنّ الشیطان تجسد لهم فی صورة الإنسان، ففی روایة أوردتها کتب الحدیث کثیرا: إنّ قریشا عند ما قررت التحرک و المسیر نحو بدر، کانت تخشى الهجوم من طائفة بنی کنانة لتشاجر کان بینها و بینهم، و عند ذاک جاءهم إبلیس فی صورة «سراقة بن مالک» الذی کان من رؤوس بنی کنانة و طمأنهم بأنّهم یوافقونهم على هذا الأمر، و أنّهم سینتصرون، لکنّه تراجع لما رأى نزول الملائکة، و لاذ بالفرار و انهزم الجیش عند ما رأى ضربات المسلمین الشدیدة و انهزام إبلیس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۵

و قالت قریش بعد عودتها لمکّة: إنّ سراقة السبب فی انهزام الجیش، فوصل الخبر إلى سراقة فأقسم أنّه لا علم له بذلک، و عند ما قصّ علیه بعضهم ما کان منه فی یوم بدر أنکر کل ذلک و أقسم أنّه لم یخرج من مکّة و لم یحصل من تلک الأمور شیء أبدا، فعلم أنّ ذلک لم یکن سراقة بن مالک ۲۲۶].

و دلیل الطائفة الأولى أنّ إبلیس لا یستطیع أن یتمثل فی سورة إنسان.

بینما ترى الطائفة الثّانیة عدم وجود دلیل على استحالة هذا الأمر أبدا، و خاصّة أنّه نقل ما یشبه هذه القصّة فی هجرة النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم مجیء، رجل کبیر على هیئة شیخ نجدی إلى دار الندوة، و إضافة إلى أن سیاق الآیة و ظاهر المحادثة یتلاءم مع تجسید الشیطان.

و على أیة حال، فإنّ الآیة تدل على أنّ الناس إذا ساروا فی نهج الحق أو الباطل فی الأمور و القضایا الجماعیة، فإنّ سلسلة من الإمدادات و القوى الغیبیة أو القوى الشیطانیة ستتحرک معهم، و هی تظهر فی مختلف الصور، فعلى السائرین فی سبیل الحق و منهاج اللّه الحذر من هذا الأمر.

و تشیر الآیة بعدها إلى روحیّة جماعة ممن یمیلون إلى الشرک فی ساحة بدر، فتقول: إِذْ یَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِینُهُمْ حین تصوروا أنّهم سینتصرون مع قلّة العدد و العدّة، أو أنّهم سینالون الشهادة و الحیاة الابدیة فی هذا المسار.

لکن هؤلاء لعدم إیمانهم و عدم معرفتهم بالإمداد الإلهی أنکروا تلک الحقائق البینة، لأنّه کما تقول الآیة المبارکة: وَ مَنْ یَتَوَکَّلْ عَلَى

اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

و قد اختلف المفسّرون فى المراد من المنافقين و الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و لا يستبعد أن تكون العبارتان تشير ان إلى المنافقين فى المدينة، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۶

القرآن الكريم عند ما يتعرض لموضوع المنافقين فى أوّل سورة البقرة يقول: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً[۲۲۷] فهؤلاء الذين ذكرتهم الآية- محل البحث- إمّا أنّهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، و كانوا يظهرون الإسلام و الإيمان و لم يكونوا فى حقيقتهم كذلك، أو أنّهم من الذين تظاهروا بالإيمان فى مكّة لكنّهم لم يهاجروا إلى المدينة و انضموا فى معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلمّا رأوا قلّة المسلمين فى معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إنّ هؤلاء أصابهم الغرور فى دينهم الجديد و جاءوا إلى هذه الساحة.

و على أية حال فإنّ اللّه سبحانه يخبر عن نيّات هؤلاء الباطنية، و يوضح الخطأ فى تفكير هؤلاء و أمثالهم.

و تجسّد الآية بعدها كيفية موت الكفار و نهاية حياتهم، فتتوجه بالخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ

و مع أنّ الفعل «ترى» فعل مضارع، لكنّه مع وجود «لو» يدل على الماضى، فتكون الآية إشارة إلى حالة المشركين السابقة و موتهم الأليم، و لهذا السبب يعتقد بعض المفسّرين أن ذلك إشارة إلى قتل هؤلاء على أيدى الملائكة فى بدر، و أوردوا فى هذا الصدد بعض الرّوايات غير المؤكّدة. إلّا أنّ القرائن- كما أشرنا سابقا- تدل على عدم تدخل الملائكة مباشرة فى الحرب أو المعركة، فبناء على هذا فإنّ الآية محل البحث تتكلم عن ملائكة الموت و كيفية قبض الأرواح و الجزاء الأليم الذى يمنى به أعداء الحق فى تلك اللحظة.

و عَذابَ الْحَرِيقِ إشارة إلى جزاء يوم القيامة و عقابه، و قد جاء هذا التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۷

فى آيات أخرى من القرآن كالآية (۲۲) من سورة الحج، و الآية (۱۰) من سورة المعارج بالمعنى ذاته ...

ثمّ يقال لأولئك: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ

و التعبير ب «أيديكم» إنّما جاء لأنّ أكثر أعمال الإنسان يجريها بالاستعانة باليّد، و إلّا فإنّ الآية تشمل جميع الأعمال البدنية و الروحية.

و تضيف الآية الأخيرة معقبة بالقول: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

و مصطلح «الظلّام» صيغة مبالغة، و معناها شديد الظلم، و قد أوضحنا السبب فى اختيار هذه الكلمة و أمثالها فى بحوث حول الظلم فى المجلد الثّالث من التّفسير الأمثل فليراجع هناك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۸

الآيات: [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵۲ الى ۵۴]

اشارة

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (۵۲) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۵۳) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (۵۴)

التّفسير

سنّة اللّه تقبل التغيير و التبديل:

فى هذه الآيات إشارة إلى «سنة إلهية دائمة» تتعلق بالشعوب و الأمم و المجتمعات، لئلا يتصور بعض أنّ ما أصاب المشركين يوم بدر من عاقبة سيئة كان أمرا استثنائيا، فإنّ من جاء بمثل تلك الأعمال فى السابق، أو سيقوم بها مستقبلا سينال العاقبة ذاتها.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۹

فبناء على هذه فإنّ قريشا و المشركين و عبدة الأصنام فى مكّة، الذين أنكروا آيات اللّه و تعنتوا بوجه الحق و حاربوا قادة الإنسانية، ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما اقترفوه، بل أنّ ذلك قانون دائم، و سنة إلهية تشمل من هم أقوى منهم- كآل فرعون- كما تشمل الشعوب الضعيفة كذلك، ثمّ توضح الآية التالية أصل هذا الموضوع فتقول: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ

و بعبارة أخرى: إنّ الرحمة الرّبانيّة عامّة تسع جميع الخلق، لكنّها تبلغ الناس و تصل إليهم بما يناسب كفاءتهم و شأنهم، فإنّ اللّه سبحانه يغدق مبتدئا بنعمه الماديّة و المعنويّة على جميع الأمم، فإذا استفادوا من تلك النعم فى السير نحو الكمال و الاستمداد منها فى سبيل الحق تعالى و الشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادة صحيحة، فإنّ اللّه سبحانه سيثبّت نعماءه و يزيدها. أمّا إذا استغلت تلك المواهب فى سبيل الطغيان و الانحراف و العنصرية، و كفران النعمة و الغرور و الفساد، فإنّ اللّه سيسلبهم تلك النعم أو يبدلها إلى بلاء و مصيبة، بناء على ذلك فإنّ التغيير يكون من قبلنا دائما، و إلّا فإنّ النعماء الإلهية لا تزول! ...

و تعقيبا على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاة- كفرعون و أقوام آخرين- فيقول: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ ظلموا أنفسهم و ظلموا سواهم أيضا.

الجواب على سؤال:

قد يرد هنا سؤال و هو: لم تكررت عبارة كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ فى الآى بفاصلة قليلة مرّتين، و مع اختلاف يسير فى التعبير؟! و للإجابة على هذا التساؤل ينبغى الالتفات إلى لطيفة، و هى أنّه بالرغم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۰

أنّ التكرار أو التأكيد على المسائل الحساسة من أصول البلاغة، و يلاحظ فى أقوال البلغاء و الفصحاء، لكنّ فى الآيات- آنفة الذكر- فرقا مهما يخرج تلك العبارة عن صورة التكرار. و هو أنّ الآية الأولى تشير إلى الجزاء الإلهى فى مقابل إنكار آيات الحق و التكذيب بها، ثمّ تمثل حال هؤلاء بقوم فرعون و الأقوام السابقين.

إلّا أنّ الآية الثّانية تشير إلى تبدل النعم فى الدنيا و ذهاب المواهب الرّبانية، مثل الانتصارات و الأمن و القدرات و ما يفتخر به. ثمّ مثّلت الآية بحال فرعون و الأقوام السابقين.

ففى الحقيقة أنّ جانبا من الكلام كان عن سلب النعم و ما ينتج عن ذلك من الجزاء، و يقع الكلام فى جانب آخر منه على تبدل النعم و تحوّلها.

ملاحظتان

۱- أسباب حياة الشعوب و موتها

يعرض التأريخ لنا شعوبا و أممّا كثيرة، فطائفة اجتازت سلّم الرقى بسرعة، و وصلت طائفة ثانية إلى أسفل مراحل الانحطاط، و طائفة ثالثة عاشت يوما فى تشتت و ضياع و تناحر و تفرقة، ثمّ قويت فى يوم آخر، و طائفة رابعة على العكس منها إذ سقطت من أعلى مراتب الفخر إلى قعر و ديان الذلة و الضياع.

و الكثير من الناس يمرّون مرور الكرام على حوادث التأريخ المختلفة دون أى تفكر فيها، و الكثير منهم بدلا من البحث فى العلل أو الأسباب الواقعية لحياة الشعوب و موتها يرجعون ذلك إلى أسباب وهمية و خيالية.

و يرجعوها آخرون إلى حركة الأفلاك و دورانها إيجابا و سلبا.

و أخيرا فإنّ بعضهم لجأ إلى مسألة القضاء و القدر بمفهومها المحرّف، أو إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۱

مسائل حسن الطالع و الحظ و عدمهما، و ما شابه ذلك، فيرجعون كل الحوادث الحسنة أو المرّة إلى هذه الأمور. و كل ذلك بسبب الخوف من الأسباب الحقيقة لتلك الأمور.

و القرآن الكريم فى الآيات المتقدمة يضع أصبع التحقيق على الأصل و المنبع، و يبيّن أنواع العلاج و أسباب النصر و الهزيمة فيقول: لأجل معرفة الأسباب الأصيلة لا يلزم البحث عنها فى السماوات و لا فى الأرضين، و لا وراء الأوهام و الخيال، بل ينبغى البحث عنها فى وجودكم و فكركم و أرواحكم و أخلاقكم، و فى نظمكم و الاجتماعية، فإنّ كل ذلك كامن فيها.

فالشعوب التى فكّرت مليّا و حركت عقولها و وحدّت جموعها و تآخت فيما بينها، و كانت قوية العزم و الإرادة، و قامت بالتضحية و الفداء عند لزوم ذلك، هذه الشعوب منتصرة حتما.

أمّا إذا حلّ الضعف و التخاذل و الركود مكان العمل و السعى الحثيث، و حلّ التراجع مكان الجرأة و النفاق و التفرقة مكان الاتحاد، و حبّ النفس مكان الفداء، و حل التظاهر و الرياء محل الإخلاص و الإيمان، فيبدأ عند ذلك السقوط و البلاء.

و فى الحقيقة أنّ جملة: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ تبيّن أسمى قانون فى حياة الإنسانية، و توضح أنّ مدرسة القرآن الكريم هى أكرم مدرسة فكرية لحياة المجتمعات الإنسانية، و أوضحها حتى لأولئك الذين نسوا فى عصر الفضاء و الذرّة قيمة الإنسان، و جعلوا حركة التأريخ مرتبطة بالمصانع و المعامل و قضايا الإقتصاد.

فهى تقول لهؤلاء: إنّكم فى خطأ كبير إذا أخذتم بالمعلول و تركتم العلة الأصلية أو نسيتموها، و تمسكتم بغصن واحد من شجرة كبيرة و تركتم أصولها.

و لئلا نمضى بعيدا، فإنّ تأريخ الإسلام، أو تأريخ حياة المسلمين- بتعبير أصح- قد شهد انتصارات باهرة فى بداياته، و انكسارات و هزائم مرّة صعبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۲

بعدها.

ففى القرون الأولى كان الإسلام يتقدم فى العالم بسرعة، و يبث فى كل مكان منه أنوار العلم و الحريّة، و يبسط ظلاله على أقوام جدد بالثقافة و العلوم، فكان ذا قدرة متحركة و محركة و بنّاءة معا، و جاء بمدينة زاهرة لم يشهد التاريخ مثلها، و لم تمر بضعة قرون حتى أخذ الخمول يعطل تلك الحركة، و أخذت الفرقة و التشتت و الضعف و الخور و التخلف مكان ذلك الرقى، حتى بدأ المسلمون

يمدون أيديهم إلى الآخرين طلبا لوسائل الحياة الابتدائية، و يبعثون بأبنائهم إلى ديار الأجانب لأخذ الثقافة و العلم، بينما كانت جامعات المسلمين يومئذ من أرقى جامعات العالم العلمية و المراكز التى تهوى إليها أفئدة الأصدقاء و الأعداء ابتغاء المعرفة.

لكن الأمور بلغت حدا بحيث أنّهم لم يصدروا علما و صناعة، بل استوردوا ما يحتاجونه من خارج بلدانهم.

و أرض فلسطين التى كانت يوما مركز مجد المسلمين و عظمتهم و لم يتمكن الصليبيون- لمدّة مائتى عام- برغم تقديمهم ملايين القتلى و الجرحى من ابتزازها من أيدى المقاتلين المسلمين. إلّا أنّهم أسلموها «اليوم» خلال ستة أيّام ببساطة، فى وقت كان عليهم أن يعقدوا المؤتمرات أشهرا و سنين لإرجاع شبر منها. و لا يعرف بعد هذا إلى أية نتيجة سيصلون؟

ألم يعد اللّه عباده بالقول: وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۲۲۸] أو قوله: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۲۲۹].

أو قوله: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ ۲۳۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۳

فهل اللّه عاجز- و العياذ باللّه- من تحقيق و عوده؟! أو قد نسيها! أو غيّرها؟

و إذا لم يكن كذلك، فلم ذهب كل ذلك المجد و العظمة و العزّة؟

إنّ القرآن الكريم يجيب- فى آية قصيرة- على كل تلك التساؤلات، و يدعو إلى العودة إلى أعماق الوجدان، و النظر فى ثنايا المجتمع، فسترون أن التغيير يبدأ من أنفسكم، و أنّ الألطاف و الرحمة الإلهية تعم الجميع، فأنتم الذين أذهبتم قدراتكم و طاقاتكم هدرا فصرتم إلى هذا الحال.

و لا تتكلم الآية عن الماضى فحسب ليقال: إنّ ما مضى قد مضى بما فيه من مرارة و حلاوة، و انتهى و لن يعود، و الكلام عنه غير مجد و غير نافع. بل تتكلم الآية عن الحاضر و المستقبل أيضا، فإنّكم إذا عدتم إلى اللّه و أحكمتم أسس إيمانكم، و وعت عقولكم، و ذكرتم عهودكم و مسئولياتكم، و تصافحت الأيدى بعضها مع بعض و تعالت الصرخات المدوّية للنهضة، و بدأتم بالجهاد و الفداء و السعى و العمل على كل صعيد، فسوف تعود المياه إلى مجاريها، و ستنقضى الأيّام السود و ترون أفقا مشرقا و ضاء، و ستعود أمجادكم العظيمة، فى صورة أجلى و أكبر! تعالوا لتبديل أحوالكم، و ليكتب علماؤكم، و يجاهد مقاتلوكم، و يسعى التجار و العمال، و يقرأ شبابكم أكثر فأكثر و يطهروا أنفسهم و تزداد معارفهم، ليتحرك دم جديد فى عروق مجتمعكم فتتجلّى قدراتكم بشكل يعيد له أعداؤكم الأرض المحتلة التى لم يعد منه شبر واحد بالرغم من كل أنواع التذلل و الرجاء و الاستعطاف!! ...

و من الضرورى أن نذكر هذه اللطيفة، و هى أنّ القيادة ذات تأثير مهم فى مصير الشعوب، و لا ننسى أن الشعوب الواعية تختار لنفسها القيادة الحكيمة اللائقة، أمّا القادة الضعاف أو المتكبرون أو الظالمون فيسحقهم غضب الشعوب و إرادتهم القوية، و لا ينبغى أن ننسى أنّ ما وراء الأسباب و العوامل الظاهرية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۴

سلسلة من الإمدادات الغيبية تنتظر المؤمنين و المخلصين، لكنّها لا ينالها كل أحد جزافا، بل لا بدّ من الاستعداد و الجدارة! و نختتم هذا الموضوع بذكر روايتين.

الأولى: ما

ورد عن الإمام الصّادق فى هذا الشأن إذ قال عليه السّلام «ما أنعم اللّه على عبد بنعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنبا يستحقق بذلك السلب»[۲۳۱].

و الثّانية: ما نقرؤه

فى حديث آخر له عليه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ بعث نبيا من أنبيائه إلى قومه و أوحى إليه أن قل لقومك: إنّه ليس من أهل قرية و لا ناس كانوا على طاعتى فأصابهم فيها سراء، فتحولوا عمّا أحبّ إلى ما أكره إلّا تحولت لهم عمّا يحبّون إلى ما يكرهون. و ليس من

أهـل قريـة و لاـ أهل بيت كانوا على معصـيتى فأصابهم فيها ضـراء فتحولوا عمّا أكره إلى ما أحبّ إلّا تحولت لهم عمّا يكرهون إلى ما يحبّون».

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

۲- لا جبر فى العاقبة و لا جبر فى التأريخ، و لا فى سائر الأمور ...

و الموضوع المهم الآخر الذى يستفاد من هذه الآيات بوضوح، هو أنّه ليس للإنسان مصير خاص قد تعين من قبل، و لا يقع تحت تأثير ما يسـمى ب «جبر التأريـخ» و «جبر الزمان» بل إنّ الـذى يصـنع التأريخ و حياة الإنسانية، و يجعل التحوّلات فى الأسـلوب و الأخلاق و الأفكار و غيرها، و هو إرادة الإنسان نفسه! فبناء على ذلك فالـذين يعتقدون بالقضاء و القدر الجبرى، و يقولون: إنّ الأمور و الحوادث جميعها تجرى بمشيئة اللّه الإجبارية، تردّهم هذه الآية.

و كذلك الجبر المادى الذى يجعل من الإنسان ألعوبة بيد الغرائز التى لا تتغير

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۵

و أصول الوارثة.

أو جبر المحيط بحيث يرون أنّه تتحكم فيه الأوضاع الاقتصادية و المعامل و المصانع.

فكل ما تقدم من «الجبر» ترفضه المدرسة الإسلامية، و يرفضه القرآن، فالإنسان حرّ و هو الذى يقرر مصيره بنفسه.

إنّ الإنسـان- بملاحظـة مـا قرأنـاه فى الآيات من قانون- يمسك بزمام مصـيره و تأريخه بنفسه، فيصـنع لها الفخر و النصـر، و هو الـذى يسوق نفسه إلى الابتلاء و المذلـة، فـداؤه منه و دواؤه بيـده، فإذا لم يغير نفسه و لم يسع فى بناء شخصـيته لن يكون له دور فى صـياغة مصيره و شأنه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۶

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵۵ الى ۵۹]

اشارة

إِنَّ شَرَّ الـدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۵۵) الَّذِينَ عاهَـدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْـدَهُمْ فِى كُـلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَـذَّكَّرُونَ (۵۷) وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَـةً فَانْبِـذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (۵۸) وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (۵۹)

التّفسير

مواجهة من ينقض العهد بشدّة!

فى هذه الآيات المباركة إشارة إلى طائفة أخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا ضربات مؤلمة للمسلمين فى حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم المليئـة بالأحداث، إلّا أنّهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مرّا و كانت عاقبة أمرهم خسـرا. و هؤلاء هم يهود المدينة الذين عاهدوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عدّة مرات.

و هذه الآيات تبيّن الأسلوب الشديد الذى ينبغى أن يتخذه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحقّهم، الأسلوب الذى فيه عبرة للآخرين، كما فيه درء لخطر هذه الطائفة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۷

و تبدأ الآيات فتعرف هذه الطائفة بأنّها شر الأحياء الموجودة فى هذه الدنيا فتقول: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ و لعل التعبير ب الَّذِينَ كَفَرُوا يشير إلى أنّ كثيرا من يهود المدينة كانوا يعلنون حبّهم للنبى و إيمانهم به قبل أن يظهر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وفقا لما وجدوه مكتوبا عنه فى كتبهم، حتى أنّهم كانوا يدعون الناس و يمهدون الأمور لظهوره. و لكنّهم و بعد أن ظهر وجدوا أنّ مصالحهم الماديـة مهددة بالخطر، فكفروا به و أظهروا عنادا شديدا فى هذا الأمر حتى لم تبق بارقة أمل بإيمانهم، و كما يقول القرآن الكريم: فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

و تقول الآيـة الأخرى: الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ[۲۳۲]. و المفروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الإضرار بالمسلمين و إعانة الأعداء عليهم.

فلا هم يخافون اللّه تعالى، و لا يحذرون من مخالفة أوامره، و لا يراعون القواعد و الأصول الانسانية: وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ

و التعبير ب «ينقضون» و «لا- يتقون» و هما فعلان مضارعان، هذا التعبير بهما يدلّ على الاستمرار، كما أنّه يدل على أنّهم قد نقضوا عهودهم مرارا.[۲۳۳].

و الآية بعدها توضح كيفية أسلوب مواجهة هؤلاء فتقول: فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أى قاتلهم بشكل مد مرّ بحيث أن الطوائف القابعة خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك و يتفرقوا عنهم.

و كلمة «تثقفنهم» مأخوذة من مادة «الثقف» على زنة «السقف» بمعنى بلوغ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۸

الشيء بدقة و سرعة، و هى إشارة إلى وجوب التنبه و الاطلاع السريع و الدقيق على قراراتهم، و الاستعداد لإنزال ضربة قاصمة لها وقع الصاعقة عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

و كلمة «شرّد» مأخوذة من مادة «التشريد» و هى بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغى أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الأخرى من الأعداء و ناقضى العهود، و لا يفكروا بالهجوم عليكم.

و هذا الأمر إنّما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء فى المستقبل أيضا و يتجنبوا الحرب مع المسلمين، و ليتجنب نقض العهد- كذلك- الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلا لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ و لا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ

و بالرغم من أنّ الآيـة قد منحت النّبى صلاحية نقض العهد إذا أحس بخيانتهم أو نقضهم عهودهم، إلّا أن من الواضح أن الخوف من نقضهم العهد لا يكون جزافا و دون سبب بل عند ما يرتكبون ما يدلّ على تفكيرهم بالنقض و يتفقون مع العدوّ على الهجوم، فهذا القدر من القرائن و الأمارات يجيز للنّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبلغهم إلغاء العهد.

و جملة «فانبذ إليهم» من «الإنباذ» و هى بمعنى «الإلقاء» أو «الإعلام» و «الرّد» أى: ردّ عليهم عهودهم و أعلن عن إلغائها جهرا.

و التعبير ب «على سواء» إمّا بمعنى أنّه كما أنّهم نقضوا العهد بأعمالهم التى اقترفوها، فألغه أنت من جهتك أيضا، فهذا حكم عادل، يتساوى و ما فعلوه. أو بمعنى الإعلان عن ذلك بأسلوب واضح صريح لا لبس فيه و لا خدعة.

و على كل حال، فإنّ الآيـة- محل البحث- فى الوقت الذى تنذر فيه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۹

المسلمين من نقض العهد، و تحذرهم أن يكونوا هدفا و غرضا لهجوم العدوّ، فهى تدعوهم إلى رعاية مبادئ الإنسانية فى حفظ العهود

أو إلغائها.

و فی آخر آیة- من الآیات محل البحث- یوجه تعالی الخطاب إلی ناقضی العهد، فیحذرهم من عاقبة ذلک فیقول: وَ لا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا یُعْجِزُونَ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۰

الآیات [سورة الأنفال (۸): الآیات ۶۰ الی ۶۴]

اشارة

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَیْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِینَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ یَعْلَمُهُمْ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فِی سَبِیلِ اللَّهِ یُوَفَّ إِلَیْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (۶۰) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَی اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۶۱) وَ إِنْ یُرِیدُوا أَنْ یَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِی أَیَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۶۲) وَ أَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً ما أَلَّفْتَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَیْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِیزٌ حَكِیمٌ (۶۳) یا أَیُّهَا النَّبِیُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۶۴)

التّفسیر

المزید من التعبئة العسكریة و الهدف منها:

تشیر أوّل آیة هنا- لتناسب الكلام فی الآیات المتقدمة عن الجهاد- إلی أصل مهم یجب علی المسلمین التمسک به فی كل عصر و مصر، و هو لزوم

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۱

الاستعداد العسكری لمواجهة الأعداء، فتقول: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ.

أی لا تنتظروا حتی یهجم العدوّ فتستعدوا عندئذ لمواجهته، بل یجب أن تكون لدیكم القدرة و الاستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة.

و تضیف الآیة قائلة: وَ مِنْ رِباطِ الْخَیْلِ

«الرّباط» بمعنی شدّ الشیء، و یرد هذا الاستعمال كثیرا بمعنی ربط الحیوان فی مكان ما لرعایته و المحافظة علیه، و قد جاء هذا اللفظ هنا بما یناسب ذلک بمعنی الحفظ و المراقبة بصورة عامّة.

و «المرابطة» تعنی حفظ الحدود، و تأتی كذلک بمعنی الرقابة علی شیء آخر، و یطلق علی مكان شدّ وثاق الحیوان ب «الرباط» و لذلک سمّت العرب أماكن نزول المجاهدین رباطا أیضا.

ملاحظات

اشارة

۱- فی الجملة القصیرة- آنفة الذكر- بیان لأصل مهم فی الجهاد و حفظ وجود المسلمین و ما لدیهم من مجد و عظمة و فخر، و

التعبير فى الآية واسع إلى درجة أنّه ينطبق على كل عصر مصر تماما.

و كلمة «قوّة» و إن قصرت لفظا، إلّا أنّها ذات معنى وسيع و مغزى عميق، فهى لا تختص بأجهزة الحرب و الأسلحة الحديثة لكل عصر فحسب، بل تتسع لتشمل كلّ أنواع القوى و القدرات التى يكون لها أثرا ما فى الإنتصار على الأعداء، سواء من الناحية المادية أو الناحية المعنوية.

فالذين يرون أنّ السبيل الوحيد للانتصار على الأعداء هو كمية السلاح، هم على خطأ كبير، لأنّنا شاهدنا فى عصرنا الحاضر شعوبا قليلة العدد و أسلحتها غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۲

متطورة انتصرت على شعوب أقوى و ذات أسلحة حديثة متطورة، كما حصل للشعب الجزائرى المسلم فى مواجهة الدولة الفرنسية القوية! فبناء على ذلك، و مضافا إلى ضرورة تحصيل الاسلحة المتطورة فى كل زمان بعنوان وظيفة إسلامية حتمية- تجب تقوية عزائم الجنود و معنوياتهم للحصول على قوّة أكبر و أهمّ.

و لا ينبغى الغفلة عن بقية القوى و القدرات الاقتصادية و الثقافية و السياسية، و التى تندرج تحت عنوان «القوّة» و لها تأثير بالغ على الأعداء.

و ممّا يسترعى النظر أنّ الرّوايات الإسلامية ذكرت لنا تفاسير مختلفة فى شأن «القوّة» و معناها، و ذلك يكشف عن مفهومها الواسع، ففى بعض الرّوايات نجد أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بيّن أنّ المراد من القوّة هو «النّبل»[۲۳۴].

و نقرأ فى رواية أخرى- وردت فى تفسير على بن إبراهيم- أن المقصود من القوة هو كل أنواع السلاح ۲۳۵].

كما نقرأ فى تفسير العياشى أن المراد منه السيف و الدرع ۲۳۶].

و نجد رواية أخرى فى كتاب من لا يحضره الفقيه تقول: «منه الخضاب بالسواد»[۲۳۷].

فترى أنّ الإسلام قد أولى لون شعر المقاتلين من كبار السن اهتماما ليستعملوا الخضاب، فيراهم العدوّ فى عمر الشباب فيصاب بالرعب منهم، و يكشف هذا الأمر عن مدى سعة مفهوم القوّة.

و بناء على ذلك، فمن فسّر القوّة بمصداق واحد محدود قد جانب الصواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۳

جدّا.

و لكن مع الأسف، فإنّ المسلمين على الرغم ممّا لديهم من مثل هذا التعليم الصريح، لا نجد فيهم أثرا لتقوية العزائم و المعنويات بين صفوفهم، كأنّهم قد نسوا كل شيء. و لا هم يستغلّون قواهم الاقتصادية و الثقافية و العسكرية و السياسية لمواجهة عدوّهم.

و الأعجب من ذلك أنّنا مع إهمالنا هذا الأمر العظيم و تركه وراء ظهورنا نزعم أنّنا ما زلنا مسلمين!! و نلقى تبعة تأخرنا و انحطاطنا على رقبة الإسلام، و نقول: إذا كان الإسلام داعية ترقّ و تقدم، فلم نحن المسلمون فى تأخر و تخلف؟! و نحن نعتقد أنّ هذا الشعار الإسلامى الكبير: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ إذا أضحى شعارا شاملا فى كل مكان، ينادى، به الصغير و الكبير، و العالم و غير العالم، و المؤلف و الخطيب، و الجندى و الضابط، و الفلاح و التاجر، و التزموا به فى حياتهم و طبقوه، كان كافيا لجبران التخلفّ و التأخر.

إنّ سيرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم العملية و أئمّة الإسلام تدل على أنّهم لم يدخروا وسعا، و استغلوا كل فرصة لمواجهة العدوّ، كإعداد الجنود و تهيئة السلاح، و شد الأزر و رفع المعنويات، و بناء معسكرات التدريب، و إختيار الزمان المناسب للهجوم، و العمل على استعمال مختلف الأساليب الحربية، و لم يتركوا أية صغيرة و لا كبيرة فى ذلك.

و المعروف أنّ النّبى بلغه أن سلاحا جديدا مؤثرا صنع فى اليمن أيّام معركة حنين، فأرسل النّبى جماعة إلى اليمن لشرائه فورا.

و نقرأ فی أخبار معرکة أحد أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ردّ علی شعار المشرکین «أعل هبل، اعل هبل» بشعار أقوی منه و هو «اللّه أعلی و أجل» ورد علی شعارهم: «إنّ لنا العزی و العزی لکم»، بقوله: «اللّه مولانا و لا مولی لکم»، و هذا الأمر یدلّ علی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین- کذلک- لم یغفلوا عن اختیار أقوی الشعارات فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۴

مواجهة الأعداء و الردّ علی عقائدهم و شعاراتهم.

و من التعالیم الإسلامیة المهمّة فی هذا الصدد موضوع سباق الخیل و الرمایة، و ما جوّزه الفقه فیهما من الربح و الخسارة، فهو مثل آخر علی تفکیر الإسلام العمیق إلی جانب الاستعداد لمواجهة الأعداء و حثّ المسلمین علی ذلک.

۲- و اللطیفة المهمّة الأخری التی نستنتجها من الآیة آنفة الذکر هو عالمیة و خلود هذا الدین الالهی. لأنّ مفاهیم هذا الدین و مضامینه ذات أبعاد واسعة لا تخلق علی مرور الزمان و لا تغدو بالیة أو منسوخة برغم القدم، فجملة وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ کان لها مفهوم حی قبل أکثر من ألف عام، کما هی الحال الیوم، و سیبقی مفهومها حیا إلی عشرات الآلاف من السنین الأخری لأنّ أی سلاح یظهر فی المستقبل فهو کامن فی کلمة «القوّة» الجامعة، إذ أن جملة «ما استطعتم» عامّة، و کلمة «قوّة» نکرة تؤید عمومیة تلک الجملة لتشمل کل قوّة.

۳- و یرد هنا سؤال و هو: لماذا وردت عبارة «رباط الخیل» بعد کلمة «قوّة» بمالها من المفهوم الواسع.

و جواب هذا السؤال هو أنّ الآیة بالرغم من أنّها تتضمن قانونا شاملا لکل عصر و زمان، فهی فی الوقت ذاته تحمل تعلیما مهما خاصا بعصر النّبی، الذی هو عصر نزول القرآن. و فی الحقیقة إن هذا المفهوم العام جاء بمثال واضح لذلک العصر، لأنّ الخیل کانت فی ذلک الزمن من أهم وسائل الحرب، فهی وسیلة مهمّة عند المقاتلین الشجعان و الأبطال فی هجومهم و قتالهم السریع، و أهمیتها تشبه أهمیة الطائرات و الدبابات فی العصر الحاضر.

الهدف من تهیئة السلاح و زیادة التعبئة العسکریة:

ثمّ ینتقل القرآن بعد ذلک التعلیم المهم إلی الهدف المنطقی و الإنسانی من وراء هذا الموضوع، فیقول: إنّ الهدف منه لیس تزوید الناس فی العالم أو فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۵

مجتمعکم بأنواع الأسلحة المدمرة التی تهدم المدن و تحرق الأخضر و الیابس و لیس الهدف منه استغلال أراضی الآخرین و ممتلکاتهم، و لیس الهدف هو توسعة الاستعباد و الاستعمار فی العالم، بل الهدف من ذلک هو تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّکُمْ لأنّ أکثر الأعداء لا یستمعون لکلمة الحق و لا یستجیبون لنداء المنطق و المبادی الإنسانیة، و لا یفهمون غیر منطق القوّة! فإذا کان المسلمون ضعافا، فسوف یفرض علیهم الأعداء کل ما یریدون، أمّا إذا اکتسبوا القوّة الکافیة، فإنّ أعداء الحق و العدل و الاستقلال و الحریة سیشعرون بالخوف و لا یفکرون بالتجاوز و العدوان.

و الیوم- و نحن فی تفسیر هذه الآیة- فإنّ قسما من الأراضی الإسلامیة فی فلسطین و غیرها من الدول المجاورة تسحقها أحذیة الجنود الصهاینة، و قد أغاروا بهجومهم الأخیر علی لبنان فشرّدوا الآلاف من العوائل، و قتلوا المئات من الأبریاء، و هدموا الکثیر من الأحیاء و الدور السکنیة، و أحالوها إلی انقاض، فأضافوا- بهذه المأساة المروعة جریمة أخری إلی سجلهم الأسود ... فی وقت استنکر الرأی العام العالمی هذا العمل الوحشی حتی أصدقاء إسرائیل، و أصدرت الأمم المتحدة بیانا دعت فیه إلی إخلاء هذه الأرض، لکن هذا الشعب الذی لا یتجاوز بضعة ملایین لا یرید الاستماع لأیة کلمة حق و أی منطق إنسانی، و ذلک لما لدیه من قوّة و أسلحة و استعداد

کاف للحرب أعدّه منذ سنین طویلة لمثل هذا العدوان.

فالمنطق الوحید الذی یمکن به الردّ علی هؤلاء هو منطق وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ فکأنّ هذه الآیة نزلت فی عصرنا الحاضر و من أجلنا، لتقول لنا: جهزوا أنفسکم و کونوا من القوة بحیث یصاب عدوّکم بالذعر و الخوف کیما یغادر أرضکم و ینسحب إلی مکانه الأوّل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۶

و ممّا یثیر النظر و یسترعیه أنّ الآیة هنا جمعت التعبیر ب «عدوّ اللّه» و «عدوّکم» و ذلک إشارة إلی عدم وجود منافع و أغراض شخصیة فی الجهاد و الدفاع عن الإسلام، بل الهدف هو حفظ رسالة الإسلام الإنسانیة، فالذین یعادونکم إنّما هم أعداء اللّه و أعداء الحق و العدل و الإیمان و التوحید و الأخلاق الإنسانیة، فینبغی الردّ علیهم انطلاقا من هذا المجال.

و فی الحقیقة إنّ هذا التعبیر شبیه بالتعبیر «فی سبیل اللّه» أو «الجهاد فی سبیل اللّه» الذی یدلّ علی أنّ الجهاد أو الدفاع الإسلامی لا یشبه فتح البلدان فی ما مضی من التأریخ، و لا غزو الاستعمار التوسعی الیوم، و لا فی صورة إغارات القبائل العربیة فی زمن الجاهلیة، بل کل ذلک من أجل اللّه و فی سبیل اللّه، و فی مسیر إحیاء الحق و العدل.

ثمّ تضیف الآیة بأنّ المزید من استعداداتکم العسکریة یخیف أعداء آخرین لا تعرفونهم فتقول: وَ آخَرِینَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ

ملاحظتان

۱- من هم المقصودون فی الآیة «الذین لا تعلمونهم»

بالرّغم من أنّ المفسّرین احتملوا فی هذه الطائفة: الذین لا تعلمونهم احتمالات کثیرة، فقال بعضهم: إنّهم یهود المدینة الذین کانوا یضمرون عداءهم، و قال آخرون: إنّها إشارة إلی الأعداء مستقبلا، کدولة الروم و الفرس اللتین لم یحتمل المسلمون یومئذ أنّهم سیکونون فی حرب معهما أو یقع القتال بینهما و بینهم.

إلّا أنّ الأصح- کما نراه- هو أن المراد منها هم المنافقون الذین دخلوا فی صفوف المسلمین دون أن یعلموهم، فإذا قوی جیش الإسلام فإنّ أولئک سیقعون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۷

فی حیرة و اضطراب و یرحلون، و الشاهد علی هذه الموضوع هو الآیة (۱۰۱) من سورة التّوبة إذ تقول: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِینَةِ مَرَدُوا عَلَی النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ

و یحتمل أن مفهوم الآیة یشمل جمیع أعداء الإسلام غیر المعروفین أعم من المنافقین و غیرهم.

۲- الاستعداد فی کل مکان و زمان

و تتضمن الآیة تعلیما لمسلمی الیوم أیضا، و هو أنّه لا ینبغی الاکتفاء بالاستعداد لأعداء الإسلام الذین تعرفونهم، بل علیکم أن تنتبهوا للأعداء الاحتمالیین أو «بالقوّة» و أن تتهیأوا حتی تکونوا فی أعلی حدّ من القوّة و القدرة، و فی الحقیقة فإنّ المسلمین لو تنبهوا لهذه القضیة المهمّة لما منوا بهجمات الأعداء المفاجئة.

و فی نهایة الآیة إشارة إلی موضوع مهم آخر، و هو أنّ الاستعداد العسکری و جمع الأسلحة و الأجهزة الحربیة و وسائل الدفاع

المختلفة، كل ذلك يحتاج إلى بالدعم المالى اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعى لتهيئة ذلك المال، و أن ما يبذلونه فى هذا الأمر فهو عطاء فى سبيل اللّه، و لن ينقص منه شىء أبدا وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ‌ءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ فيرجع إليكم جميعه، بل أكثر ممّا أنفقتم وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ و ستنالون ثواب ذلك فى هذه الدنيا فى انتصار الإسلام و قوته و عظمته، لأنّ الشعب الضعيف ستتعرض أمواله للخطر و سيفقد أمنه و حريته و استقلاله أيضا، فبناء على ذلك فإنّ ما تنفقونه فى هذا السبيل سيعود إليكم عن طريق آخر و فى مستوى أفضل و أسمى.

كما أنّ ثوابا أعظم ينتظركم فى العالم الآخر فى جوار رحمة اللّه، فمع هذه الحال لا تظلمون، بل ستنالون خيرا كثيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۸

و ممّا يسترعى النظر أنّ الجملة آنفة الذكر جاء فيها لفظ «شىء» و هى ذات مفهوم واسع، أى لا يخفى على اللّه ما تبذلونه من جميع الأشياء، مالا كان أو نفسا أو فكرا أو منطقا أو قوة أو أى مال آخر ينفق فى تقوية بنية المسلمين الدفاعية و العسكرية، فإنّ اللّه سيدخره و يعيده إليكم فى حينه.

و قد احتمل بعض المفسّرين أن جملة «و أنتم لا تظلمون» معطوفة على جملة «ترهبون» أى أنّكم إذا ما أعددتم القوة اللازمة لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، و لن يقدروا على ظلمكم و إيذائكم، و بناء على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبدا.

أهداف الجهاد فى الإسلام و أركانه:

و اللطيفة الأخرى التى تستفاد من هذه الآية، و تكون جوابا على كثير من أسئلة الجهلاء و إشكالاتهم، هى بيان شكل الجهاد و هدفه و منهجه، فالآية تقول بوضوح: إنّ الهدف منه ليس قتل الناس أو الاعتداء على حقوق الآخرين، بل الهدف- كما ذكرنا- هو إرهابكم الأعداء لكيلا يعتدوا عليكم و ليخافوكم، فينبغى أن تكون جميع جهودكم و سعيكم منصبّا فى سبيل قطع شر أعداء اللّه و الحق و العدل.

فهل يملك الجهلة فى أذهانهم مثل هذا التصوّر عن الجهاد فى القرآن الكريم، و ما صرّح به فى هذه الآية- محل البحث- ليسوغ لهم أن يحملوا كل هذه الحملات المسعورة المتتالية على هذا القانون الإسلامى. فتارة يدّعون بأنّ الإسلام هو دين السيف، و تارة يقولون بأنّ الإسلام يفرض على الناس أفكاره بالحديد، و يقيسون النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بسائر محتلى البلدان فى التاريخ.

و فى عقيدتنا أنّ جواب كل هؤلاء هو أن يعود إلى القرآن، و يفكروا فى الهدف الأصيل لهذا الموضوع، لتتّضح لهم كل تلك الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۹

الاستعداد للصّلح:

مع أنّ الآية السابقة أوضحت هدف الجهاد فى الإسلام بقدر كاف، فإنّ الآية التالية التى تتحدّث على الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصورة أجلى فتقول وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها.

و يحتمل فى تفسير هذه الجملة المتقدمة أنّهم إذا بسطوا أجنحتهم للسلم فابسط جناحيك أنت للسلم أيضا، لأنّ «جنحوا» فعل مصدره «الجنوح» و هو الميل، و يطلق على كل طائر أنّه «جناح» أيضا، لأنّ كل جناح فى الطائر يميل إلى جهة، لذلك يمكن الاستناد فى تفسير هذه الآية إلى جذر اللغة تارة، و إلى مفهومها الثّانوى تارة أخرى.

و لمّا كان الناس يتردّدون أغلب الأحيان عند ما يراد التوقيع على معاهدة الصلح، فإنّ الآية تأمر النّبى بعدم التردد فى الأمر إذا كانت

الشروط عادلة و منسجمة مع المنطق السلیم و العقل، فتقول: وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ

و مع ذلک فهی تحذر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین من احتمال الاحتیال و الخداع فی دعوة الأعداء، إلی الصلح، فقد تکون دعوة للتمویه و الرّغبة فی توجیه ضربة مفاجئة، أو یکون هدفهم هو تأخیر الحرب لیتمکنوا من إعداد قوات أکثر، إلّا أنّ الآیة تطمئن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یخشی هذا الأمر أیضا، لأنّ اللّه عزّ و جلّ سیکفیه أمرهم و سینصره فی جمیع الأحوال، إذ تقول: وَ إِنْ یُرِیدُوا أَنْ یَخْدَعُوکَ فَإِنَّ حَسْبَکَ اللَّهُ

و سیرتک أیّها النّبی- السابقة- شاهدة علی هذه الحقیقة، لأنّ اللّه هُوَ الَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِینَ

فکم أرادوا بک کیدا، و کم مهدوا و أعدّوا لک من خطط مدمّرة بحیث لم تکن الغلبة علیها بالوسائل المألوفة ممکنة، لکنّه عزّ و جلّ حفظک و رعاک فی مواجهة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۰

کل ذلک.

أضف إلی ذلک أنّ المؤمنین المخلصین قد أحاطوا بک من کل جانب و لم یدخروا وسعا فی الدفاع عنک، فقد کانوا قبل ذلک متشتتین متعادین، و لکنّ اللّه شرح صدورهم بأنوار الهدایة وَ أَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ

و قد کانت الحرب لسنوات طویلة قائمة علی قدم و ساق بین طائفتی الأوس و الخزرج و کانت صدورهم تغلی غیظا و حقدا بعضهم علی بعض بشکل لم یکن أی أحد یتصور أنّهم سیعیشون بعضهم مع بعض بالحب و الصفاء فی یوم ما، و سیکونون صفا واحدا متراصا، و لکن اللّه القادر المتعادل فعل ذلک ببرکة الإسلام و فی ظلال القرآن، و لم یکن هذا الإمر مقتصرا علی الأوس و الخزرج الذین هم من الأنصار، بل کان ذلک بین المهاجرین أیضا الذین جاءوا من مکّة، إذ لم یکن بینهم- قبل الإسلام- حب و مودّة، بل کانت صدورهم ملیئة بالبغضاء و الشحناء أیضا، لکن اللّه عزّ و جلّ غسل کل تلک الأحقاد و أزالها بحیث تمکن معها ثلاثمائة و ثلاثة عشر من أبطال بدر، منهم حوالی ثمانین نفرا من المهاجرین و الباقی من الأنصار، فکانوا جیشا صغیرا، لکنّه متحدّ قوی استطاع أن یکسر شوکة العدوّ و یحطم قوته.

ثمّ تضیف الآیة أن اتّحاد تلک القلوب، أو إیجاد تلک الألفة، لم یکن بوسائل مألوفة أو مادیة لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً ما أَلَّفْتَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لکِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَیْنَهُمْ

إنّ الذین یعرفون حالة نفوس المتعصبین و الحاقدین، کأولئک الذین کانوا فی العصر الجاهلی، یعرفون کذلک أن تلک الأحقاد و الضغائن لم یکن بالإمکان إزالتها، لا بالمال و لا بالجاه و المقام، لأنّها کانت لا تزول عندهم إلّا بالانتقام الذی یتکرر بصورة متسلسلة فیما بینهم، و فی کل مرّة یکون فی صورة أبشع و أکثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۱

وحشیة و إجراما، و الأمر الوحید الذی أمکن بسببه قلع تلک الجذور الفاسدة من أصولها، هو إحداث ثورة عارمة و تغییر شامل فی الأفکار و الأرواح و العقائد، ثورة تصنع تحوّلا فی شخصیاتهم و تبدل أسالیب تفکیرهم، و ترفعهم عن الحضیض الذی کانوا فیه، لتتجلی لهم أعمالهم السابقة فی وجهها الکالح القبیح، فیطهروا بذلک أنفسهم، و یدرءوا عنها الأحقاد و الأوساخ و العصبیة القبلیة العمیاء و هذه أمور لا یمکن إیجادها بالثروة و لا بالمال، بل فی ظلال الإیمان و التوحید الخالص فحسب.

و تضیف الآیة معقبة فی الختام إِنَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ

فعزته تقتضی عجز الآخرین من الوقوف فی مواجهته، و حکمته تقتضی أن تکون کل أموره جاریة وفق حساب دقیق و نظام صحیح، و لهذا فإنّ الخطة الدقیقة وحدت القلوب المتنافرة المتفرقة و جعلتها تنصاع للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لینشروا أنوار الهدایة فی کل أرجاء العالم.

ملاحظتان

۱- قال بعض المفسّرين: إنّ الآيـة محل البحث تشير إلى الخلافات بين الأوس و الخزرج، الذين هم من الأنصار فحسب، و لكن نظرا إلى أنّ المهاجرين و الأنصار نهضوا جميعا لنصرة النّبيّ فيتّضح اتساع مفهوم الآية.

و لعل أولئك كانوا يتصورون أنّ الخلافات كانت قائمة بين الأوس و الخزرج دون غيرهم، مع أنّه كانت اختلافات كثيرة فی المستويات الطبقية و الاجتماعية بين الفقراء و الأغنياء، و الكبار و الصغار، بين هذه القبيلة و تلك، تلك الخلافات و «الانشقاقات» أذهبها الإسلام و محا آثارها، كما يقول القرآن الكريم فی مكان

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۲

آخر: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً[۲۳۸].

۲- إنّ هذا القانون لا يختص بالمسلمين الأوائل فحسب، فاليوم حيث يبسط الإسلام ظلاله على ثمانمائة مليون مسلم فی أنحاء العالم، و هم من مختلف العناصر و الأقوام المتباعدة و المجتمعات المتنوعة. إذ لا يمكن إيجاد أية حلقة اتصال بين كل هؤلاء سوى حلقة الإيمان و التوحيد، فإنّ الأموال و الثروات و المؤتمرات لا يمكنها أن تفعل شيئا مهما فی هذا المجال، بل ما يمكن أن يوحدهم هو إيقاد شعلة الإيمان أكثر فی قلوب هؤلاء كما حصل عند المسلمين الأوائل، لأنّ النصر لا يتحقق إلّا عن هذا الطريق، و هو طريق الأخوة الإسلامية بين جميع الناس.

و تخاطب الآية الأخيرة من الآيات محل البحث النّبی بالقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

و نقل بعض المفسّرين أنّ هذه الآية الكريمة نزلت عند ما قال جماعة من يهود بنی قريظة و بنی النضير لما قالوا للنّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نحن نسلم و نتبعك، يعنی إنّنا مستعدون لاتباعك و نصرتك، فنزلت هذه الآية محذرة النّبی لئلا يعتمد على هؤلاء، بل المعول عليه هو اللّه و المؤمنون ۲۳۹].

و قد أورد الحافظ أبو نعيم- و هو من أكابر علماء السنة- فی كتابه فضائل الصحابة، بسنده، أنّ هذه الآية نزلت فی حق علی أمير المؤمنين، فالمقصود بالمؤمنين هو علی عليه السّلام ۲۴۰].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۳

و قد قلنا مرارا: إنّ مثل هذه التفاسير و أسباب النّزول لا تجعل الآيات محدودة و منحصرة، بل المقصود فيها هو أنّ شخصا كعلی بن أبی طالب عليه السّلام الذی كان فی أوّل صفوف المؤمنين هو السند الأوّل للنبی بعد اللّه من بين المسلمين، مع أنّ بقية المؤمنين هم أنصار النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعوانه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۴

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۶۵ الی ۶۶]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۶۵) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (۶۶)

التّفسير

لا ترتقبوا تساوى القوى:

فى هاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكرية و أحكام الجهاد أيضا.

فالآية الأولى منهما تخاطب الرّسول فتقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ

إنّ الجنود و المقاتلين مهما كانوا عليه من استعداد ينبغى قبل بدء الحرب أن ترفع معنوياتهم و تشحذ هممهم، و هذا الأمر معروف فى جميع النظم العسكرية فى العالم، إذ يقوم قادة الجيوش و أمراؤهم قبل التحرك نحو سوح القتال أو عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۵

ساحة القتال، فيلقون خطبا تثيرهم و تقوّى من معنوياتهم و تحذرهم من الهزيمة و الجبن.

غاية ما فى الأمر أنّ مثل مسألة الترغيب و التشويق إلى القتال محدودة فى المدارس الماديّة، و لكنّها واسعة فى الأديان السماوية، نظرا للتعاليم الربانية، و تأثير الإيمان باللّه، و التذكير بمنزلة الشهداء عند ربّهم و مقامهم عنده، و ما ينتظرهم من الثواب الجزيل البعيد المدى، و ما سينالونه من العزة و الفخر عند انتصارهم، فكل ذلك يحرك روح البطولة و الثبات فى نفوس الجنود، فتلاوة بعض آيات القرآن فى الحروب الإسلاميّة تشحذ الجندى عزما و قوّة و إقداما لا حدود له، و يتقد فيه الشوق و العشق للتضحية و الفداء.

و على كل حال، فإنّ الآية توضح أهمية الإعلام و التبليغ و شحذ همم المقاتلين و الجنود و معنوياتهم باعتبار ذلك تعليما إسلاميا مهما.

و تعقب الآية بالتعليم الثّانى فتقول: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

و بالرغم من أنّ الآية فى صورة إخبار عن غلبة الرجل على عشرة، لكن بقرينة الآية بعدها الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ يتّضح أنّ المراد من ذلك هو تعيين الحكم أو الوظيفة و الخطة و المنهج، لا أنّه مجرّد خبر و هكذا فينبغى للمسلمين أن لا ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقدارا يكافئ قوة العدو و أفراده، ليتحركوا إلى ساحة القتال و الجهاد، بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوّهم عشرة أضعافهم.

ثمّ تشير الآية إلى علّة هذا الحكم فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ و هذا التعليل يبدو عجيبا لأوّل وهلة، إذ ما هى العلاقة بين المعرفة و الفقاهة و بين النصر أو بين عدم المعرفة و الهزيمة؟! لكن الواقع هو أنّ العلاقة بينهما قريبة و متينة، لأنّ المؤمنين يعرفون نهجهم الذى سلكوه و يدركون الهدف من خلقهم و إيجادهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۶

و يؤمنون بنتائجه الإيجابية فى هذا العالم، و الثواب الجزيل الذى ينتظرهم فى العالم الآخر، فهم يعلمون، لم يقاتلون؟ و من أجل من يجاهدون؟ و فى سبيل أى هدف مقدس يضحون؟ و على من سيكون حسابهم إذا ما ضحوا و استشهدوا فى هذا المضمار؟

فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفة يمنحهم الثبات و الصبر و الاستقامة.

أمّا الذين لا يؤمنون باللّه و اليوم الآخر، كعبدة الأصنام، فلا يعرفون لأى أمر يقاتلون؟ و لأجل من يجاهدون؟ و إذا قتلوا فمن يؤدّى دية دمهم؟ فهم لتقليدهم الأعمى و لعاداتهم الجاهلية ساروا رواء هذه الأفكار، و هكذا تبعث ظلمات الطريق و عدم معرفتهم الهدف و نتائج أعمالهم على انهيار أعصابهم و تفت فى عضدهم و ثباتهم، و تجعل منهم كائنات ضعيفة.

و بعد ذلك الحكم الثقيل بجهاد الأعداء و ان كانوا عشرة اضعاف يخفف اللّه عن المؤمنين و يتنزل فى الحكم الذى يرهقهم فيقول: الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً.

ثمّ يقول: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ

و لكن على كل حال ينبغى أن لا تنسوا تسديد اللّه وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ

بحوث

اشارة

و هنا لا بدّ من الالتفات الى عدّة أمور:

۱- هل نسخت الآية الأولى

كما لا حظنا فإنّ الآيـة الأولى تأمر المسـلمين أن لا يتقاعسوا عن مواجهـة الأعـداء حتى إذا كانوا عشـرة أضـعافهم، غير أنّ الآيـة الثّانية تخفض هذا العدد إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۷

ضعفين فحسب.

و هـذا الاختلاف الظاهر بين الآيتين جعل بعضـهم يقول: إن الآيـة الأولى- من الآيتين محل البحث- نسـختها الآيـة الثّانية، أو أنّه حمل الآيـة الأولى على الاسـتحباب و الثّانيـة على الوجوب، أى إذا كان عـدد الأعداء ضـعف عدد المسـلمين فيجب عليهم عدم التراجع عن ساحة الجهاد و القتال، أمّا إذا زاد عددهم عن الضعف حتى بلغ عشرة أضعافهم فلهم عندئذ أن لا يقاتلوهم، و إن كان الأفضل لهم أن لا ينسحبوا عن جهادهم العدوّ.

إلّا أنّ بعض المفسّـِرين يرون أن الاختلاف الظاهرى الموجود بين الآيتين لا يـدل على النسـخ، و لا يدل على الاسـتحباب، بل إن لكل واحـدة من الآيتين حكما معينا، فعند ما يبتلى المسـلمون بالضـعف و الخور و يكثر فيهم المقاتلون غير المحنّكين أو غير المدرّبين و لا المتهيئين للقتال، فعندئـذ يكون معيار العـدد هو نسـبة الضـعف. أمّا إذا كان المقاتلون على اسـتعداد تام، أشداء فى إيمانهم و عزائمهم كالكثير من أبطال بدر، فالنسبة عندئذ ترتقى إلى عشرة أضعاف.

فبناء على ذلك فإنّ الحكمين فى الآيتين محل البحث يرتبطان بالطائفتين المختلفتين و فى ظرفين متفاوتين.

و بهـذا لاـ يوجـد نسـخ فى الآـى هنـا، و إذا وجـد فى الرّوايات التعبير بالنسـخ فينبغى الالتفات إلى أن النسـخ ذو معنى واسع و يشـمل التخصيص فى بعض الموارد.

۲- أسطورة توازن القوى

إنّ الآـيتين- محـل البحث- تتضـمنان هـذا الحكم المسلّم به، و هو أنّ على المسـلمين ألّا ينتظروا موازنـة القوى الظاهريـة بينهم و بين العدو، بل عليهم أن ينهضوا لمواجهته و إن كان ضعف عددهم، بل حتى لو كان عشرة أضعاف عددهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۸

أحيانا، و أن لا يفروا من العدوّ بسبب قلّة العدد أبدا.

و ممّـا يسـتجلب النظر أنّ أغلب المعـارك التى كـانت تجرى بين المسـلمين و أعـدائهم كـان فيها ميزان القوى لصالـح العـدو، و كان المسـلمون قلّة غالبا، و لم يكن هذا الأمر قد وقع فى حروب الإسلام فى عصر النّبى فحسب- كبدر و أحد و الأحزاب أو كمعركة مؤتة التى رووا أن جيش المسـلمين كان لا يتجاوز ثلاثـة آلاف مقاتل، أمّا جيش العـدو فأقل ما ذكروا عنه أنّه كان حوالى مائـة و خمسـين

ألفا، بل حتى الحروب بعد عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد ذكروا أن فرقا مذهلا كان بين جيش الإسلام الذى حرر فارس و جيش الساسانيين، فقد قيل مثلا: إنّ الجيش الإسلامى كان لا يتجاوز خمسين ألف مقاتل، بينما كان جيش خسرو پرويز خمسمائة ألف مقاتل! و أمّا فى معركة اليرموك التى وقعت بين المسلمين و الروم، فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الذى جمعه هرقل كان حوالى مائتى ألف مقاتل، بينما كان جيش الإسلام لا يتجاوز أربعة و عشرين ألفا! و الأعجب من ذلك أن المؤرخين يذكرون أنّ قتلى جيش الروم فى معركة اليرموك كانوا يزيدون على سبعين ألفا!! و ما من شك أن الموازنة بين القوى أو التفوق العسكرى أحد أسباب النصر بحسب الظاهر، و لكن ما هو السبب الذى كان وراء انتصار المسلمين القلة فى مثل هذه المعارك؟

و الإجابة على هذا السؤال المهم ذكرها القرآن فى الآيتين محل البحث فى ثلاثة تعابير:

التّعبير الأوّل: يقول فيه: عِشْرُونَ صابِرُونَ ثمّ قوله فى الآية بعدها: مِائَةٌ صابِرَةٌ أى ذوو استقامة و ثبات.

و المراد هنا أنّ روح الاستقامة و الثبات، التى هى ثمرة شجرة الإيمان، كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۹

سببا فى أن يغلب الرجل المسلم عشرة أمثاله من الكفار.

التّعبير الثّانى: و فى مكان آخر يقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ أى أنّ عدم معرفة العدو هدفه، و معرفتكم هدفكم المقدس، يستعاض عن موضوع قلتكم إزاء كثرة العدو.

التّعبير الثّالث: هو قوله سبحانه فى الآى محل البحث: بِإِذْنِ اللَّهِ أى أن الإمدادات الغيبية و لطف اللّه و رحمته تشمل مثل هؤلاء المجاهدين الصابرين فتنصرهم على عدوّهم.

و فى عصرنا يواجه المسلمون أعداء ألدّاء أقوياء أيضا، لكن العجيب أن جيش المسلمين فى كثير من المعارك أكثر من جيش العدوّ، و لكن مع ذلك لا أثر لانتصار المسلمين، و كأنّهم يسيرون باتجاه مخالف عمّا كان يسير عليه المسلمون الأوائل.

و السّبب هو أنّ المسلمين اليوم لا يتمتعون بمعرفة كافية و يا للأسف، و قد فقدوا روح الصبر و الاستقامة بسبب ركونهم إلى عوامل الفساد و زخرف الحياة المادية و زبرجها، كما أنّ الإمداد الغيبى و رعاية اللّه قد سلبا منهم بسبب تلوّثهم بالذنوب، فابتلوا بمثل هذه العاقبة! إلّا أنّ طريق العودة ما يزال مفتوحا، و تأمل أن يأتى اليوم الذى يعى المسلمون مرّة أخرى مفهوم هاتين الآيتين و أمثالهما ليخلعوا عن أنفسهم حالة الذل و التقهقر.

۳- ما هو المراد من الآيتين؟

ممّا يستجلب النظر أنّ الكلام فى الآية الأولى- من الآيتين محل البحث- كان على نسبة الواحد إلى العشرة، فمثلت الآية ب إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۰

إلّا أن الكلام فى الآية الثّانية كان عن نسبة الضعف مثل المائة فى قبال المائتين، و الألف فى قبال الألفين: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ ... إلخ.

و كأن هذا المثال البليغ يريد أن يبيّن هذا الحقيقة، و هى أنّ الرجال الأشداء من ذوى العزيمة و الإيمان يمكنهم أن يشكّلوا جيشا مقتدرا حتى لو كانوا عشرين رجلا، إلّا أنّهم لو كانوا ضعفاء، فليس بإمكانهم أن يصنعوا جيشا من عشرين، بل لا بدّ أن يكونوا أضعاف هذا العدد لتشكيل جيش، «فلاحظوا بدقة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۱

الآيات [سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٧١]

اشارة

ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

التّفسير

أسرى الحرب:

بيّنت الآيات السابقة بعض أحكام الجهاد المهمّة و مواجهة الأعداء، و في هذه الآيات استكمال لما سبق في عرض قسم من أحكام أسرى الحرب، لأنّ أغلب الحروب تقترن بتأسير جماعة من المتقاتلين من قبل الطرف الآخر، و قد

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏5 ؛ ص492

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج‏5، ص: 492

أولى الإسلام أهمية قصوى لمسألة أسرى الحرب، من حيث أسلوب التعامل معهم، و من حيث بعض النواحي الإنسانية و أهداف الجهاد أيضا.

و أوّل موضوع مهم يثار في هذا الشأن، هو ما قالته الآية الكريمة من أن كل نبي ليس له الحق في أسرار افراد العدو الّا بعد أن يثبت اقدامه في الأرض و يكيل الضربات القاضية للأعداء: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى‏ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ

و الفعل «يثخن» مأخوذ من «الثخن» على زنة «المحن» و معناه في الأصل الضخامة و الغلظة و الثقل، ثمّ استعمل هذا اللفظ بمعنى الفوز و القوّة و النصر و القدرة، للسبب المذكور آنفا.

و قال بعض المفسّرين: إنّ معنى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ يدل على المبالغة و الشدّة في قتل الأعداء، و قالوا: إنّ معنى ذلك أن أخذ الأسرى ينبغي أن يكون بعد مقتلة عظيمة في الأعداء و لكن مع ملاحظة كلمة «في الأرض» و الالتفات إلى جذر هذه الكلمة الذي يعني الشدّة و الغلظة، يتّضح أن معنى الآية ليس هو ما ذكروه، بل القصد هو التفوق على العدو تماما و إظهار القوّة و القدرة و إحكام السيطرة على المنطقة.

إلّا أنّه لمّا كان في قتل الأعداء و إبادتهم دليل على السيطرة و إحكام مواقع المسلمين أحيانا، فإنّ من مصاديق هذه الجملة في بعض الشروط قتل الأعداء، و ليس هو مفهوم الجملة الأصيل.

على أية حال، فإنّ الآية تنبه المسلمين إلى نقطة مهمّة في الحرب، و هي أنّ عليهم عدم التفكير و الانشغال بأخذ الأسرى قبل اندحار العدوّ بالكامل، لأنّ بعض المسلمين المقاتلين- كما يستفاد من بعض الرّوايات- كان جلّ سعيهم هو الحصول على أكبر عدد من الأسرى في ساحة بدر مهما أمكنهم، لأنّ العادة كانت أن يدفع عن الأسير مبلغ من المال على شكل فدية ليتم الإفراج عنه بعد نهاية

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج‏5، ص: 493

الحرب.

و یعدّ هذا الأمر عملا حسنا فی بعض المواقع، إلّا أنّه عمل خطیر قبل أن یطمأن من اندحار العدو کاملا، لأنّ الانشغال بأسر العدو و شدّ وثاقهم و نقلهم إلی مکان آمن، کل ذلک یبعد المقاتلین غالبا عن أصل الهدف الذی من أجله کانت الحرب، و ربّما یمنح العدو الجریح فرصة لجمع قواه و إعادة هجومه، کما حدث فی غزوة أحد، حیث شغل بعض المسلمین أنفسهم بجمع الغنائم، فاستغل العدوّ هذه الفرصة فأنزل ضربته الأخیرة بالمسلمین.

و بناء علی ذلک فإنّ تأسیر الأعداء یجوز فی صورة ما لو حصل الیقین بالنصر الساحق علیه، أمّا فی غیر هذه الصورة فیجب توجیه الضربات الشدیدة و المتتالیة لهدم قوات العدو و شلّها فإذا حصل الاطمئنان بذلک فإنّ الأهداف الإنسانیة توجب إیقاف القتل و الاکتفاء بأسرهم.

و قد أوضحت الآیة هاتین النقطتین المهمتین: العسکریة، و الإنسانیة، فی عبارة موجزة:

ثمّ ألقت باللوم علی أولئک الذین خالفوا هذا الأمر فتقول: تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیا وَ اللَّهُ یُرِیدُ الْآخِرَةَ.

«و العرض» یعنی الأمور غیر الثابتة، و لما کانت الذخائر المادیة غیر ثابتة فی هذه الدنیا فقد عبّر عنها بالعرض.

و کما قلنا آنفا فإن الاهتمام بالجانب المادی فیما یتعلق بالأسری و الغفلة عن الهدف النهائی، أی الإنتصار علی العدو، لا أنّه یحبط الثواب الأخروی فحسب، بل یسیء إلی الإنسان فی حیاته الدنیا و إلی عزّته و رفعته و استقراره، ففی الحقیقة، هذه الأهداف المذکورة للفرد فی الحیاة الدنیا تعدّ من أمور الدنیا الثابتة، فلا ینبغی أن نترک المنافع الطویلة الأمد و المستقبلیة رهن الخطر من أجل أن نحصل علی منافع مادیة عابرة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۴

و تختتم الآیة بالقول أن التعلیم آنف الذکر- فی الواقع- مزیج من العزة و النصر و الحکمة و التدبیر، لأنّه صادر من قبل اللّه تعالی وَ اللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ

الآیة التالیة توجّه اللوم و التعنیف ثانیة لأولئک الذین یعرضون المنفعة العامّة و المصلحة الاجتماعیة للخطر من أجل الحصول علی المنافع المادیة العابرة، فتقول الآیة: لَوْ لا کِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ

و قد أورد المفسّرون فی شأن قوله تعالی: لَوْ لا کِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ احتمالات مختلفة کثیرة، إلّا أنّ أقربها و أکثرها ملاءمة و مناسبة هو «إذا لم یکن اللّه قد قرر من قبل أن لا یعذب عباده ما لم یبیّن نبیّه حکمه لهم، لأخذکم أخذا شدیدا بسبب تأسیرکم عدوکم رغبة فی المنافع المادیة و إیقاعکم جیش الإسلام و انتصاره النهائی فی الخطر، إلّا أنّه- کما صرحت الآیات الکریمة فی القرآن- فإنّ سنة اللّه اقتضت أن تبین أحکامه ثمّ یجازی الذی یخالفون عن أمره»، إذ قال سبحانه: وَ ما کُنَّا مُعَذِّبِینَ حَتَّی نَبْعَثَ رَسُولًا[۲۴۱].

ملاحظات

اشارة

۱- إنّ ظاهر الآیات- کما قلنا آنفا- یعالج موضوع أخذ الأسری فی الحرب لا- أخذ «الفدیة» بعدها، و بذلک ینحل کثیر من الإشکالات التی أثارها جماعة من المفسّرون بشأن مفهوم الآیة.

کما أنّ اللوم و التعنیف یختص بجماعة انشغلت- قبل أن یتمّ النصر النهائی- بأسر العدو لأهداف دنیویة، و لا علاقة لها بشخص النّبی و أصحابه المؤمنین الذین کان هدفهم الجهاد فی سبیل اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۵

و بذلك تنتفى جميع البحوث التى أوردوها، كالقول بأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد ارتكب ذنبا! و كيف ينسجم هذا العمل و عصمته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فهذا الأمر غير صحيح.

كما يثبت بطلان الأحاديث المختلفة التى نقلتها بعض مصادر أهل السنة و كذبها فى تفسير هذه الآية، و التى تزعم أن الآية[۲۴۲] نزلت فى شأن أخذ النّبى و بعض المسلمين الفدية مقابل أسرى الحرب بعد معركة بدر، و قبل أن يأذن اللّه بذلك. و أنّ الذى خالف هذا الأمر و طالب بقتل الأسرى هو عمر فحسب- أو سعد بن معاذ- و

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فى حق عمر: لو نزل العذاب علينا لما نجا منه إلّا عمر- أو سعد بن معاذ-

فإنّ جميع ذلك عار من الصحة و لا أساس له، و إنّ تلك الرّوايات بعيدة كل البعد عن تفسير الآية، و خاصّة أن أمارات الوضع ظاهرة على هذه الأحاديث تماما.

۲- إنّ الآيات محل البحث لا تخالف أخذ الفداء و إطلاق سراح الأسرى إذا اقتضت مصلحة المجتمع الإسلامى ذلك، بل تقول هذه الآيات: إنّه لا ينبغى على المجاهدين أن يكون همهم الأسر من أجل الفداء، فبناء على ذلك فهى تنسجم و تتفق و الآية (۴) من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جميع الوجوه، إذ تقول تلك الآية فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً.

إلّا أنّه يجب الالتفات إلى مسألة مهمّة هنا، و هى: إذا كان بين الأسرى من يثير إطلاق سراحهم فتنة نشوب نار الحرب، و يعرض انتصار المسلمين للخطر، فيحق للمسلمين أن يقتلوا مثل هؤلاء الأشخاص، و دليل هذا الموضوع كامن فى الآية محل البحث ذاتها، بقرينة «يثخن» و التعبير فى الآية (۴) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۶

محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ب «أثخنتموهم».

و لهذا فقد جاء فى بعض الرّوايات الإسلاميّة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر بقتل اثنين من أسرى معركة بدر، و هما «عقبة بن أبى معيط» و «النضر بن الحارث» و لم يرض بأن يفتديا أنفسهما أبدا[۲۴۳].

۳- و فى الآيات محل البحث تأكيد على موضوع حرية إرادة الإنسان مرّة أخرى، و نفى مذهب الجبر، لأنّها تقول: إنّ اللّه يريد لكم الآخرة، و لكن بعضكم أغرته المنافع الماديّة العابرة و ركن إليها.

و فى الآية التالية إشارة إلى حكم آخر من أحكام أسرى الحرب، و هو حكم أخذ الفداء.

و قد جاء فى بعض الرّوايات ۲۴۴] الواردة فى شأن نزول هذه الآيات أنّه بعد انتهاء معركة بدر و أخذ الأسرى، و بعد ما أمر النّبى أن تضرب عنقا الأسيرين الخطرين «عقبة بن أبى معيط» و «النضر بن الحارث» خافت الأنصار أن ينفذ هذا الحكم فى بقية الأسرى فيحرموا من أخذ الفداء، فقالوا: يا رسول اللّه إنّا قتلنا سبعين رجلا و أسرنا سبعين، و كلّهم من قبيلتك فهدب لنا هؤلاء الأسرى لنأخذ الفداء منهم. و كان النّبى يترقب نزول الوحى، فنزلت هذه الآيات فأجازت أخذ الفداء فى قبال إطلاق سراح الأسرى.

و روى أنّ أكثر ما عين فداء على الأسرى من المال هو أربعة آلاف درهم، و أقلّة ألف درهم، فلمّا سمعت قريش أرسلت فداء الواحد تلو الآخر حتى حررت أسراها.

و العجيب أن صهر النّبى على ابنته زينب «أبا العاص» كان من بين أسرى معركة بدر، فأرسلت زوجته زينب قلادتها التى أهدتها أمّها خديجة عليهما السّلام إليها فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۷

زفافها، لتفتدى بها زوجها، فلمّا وقعت عينا النّبى على تلك القلادة و تذكر تضحية خديجة و جهادها، و تجسّدت مواقفها أمام عينيه،

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «رحم اللّه خديجة، فهذه قلادة جعلتها خديجة فى جهاز بنتى زينب.

و وفقا لبعض الرّوايات فإنّه امتنع عن قبول القلادة احتراما لخديجة و إكراما، و استجاز المسلمين فى إرجاع القلادة، فأذنوا له أن يرجع القلادة إلى زينب، ثمّ أطلق ۲۴۵] النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سراح أبى العاص، شريطة أن يرسل ابنته زينب- التى كانت قد تزوجت من أبى العاص قبل الإسلام- إلى المدينة، فوافق أبو العاص على هذا الشرط و وفى به بعدئذ[۲۴۶].

و على أية حال، فإنّ الآية محل البحث أجازت للمسلمين التصرف فى غنائم المعركة، و المبلغ الذى يأخذونه فداء من الأسير، فقالت: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً.

و يمكن أن تكون هذه الجملة ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الأخرى غير الفداء.

ثمّ تأمرهم الآية بالتقوى فتقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ و هذا إشارة إلى أنّ جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغى أن يجعل هدف المجاهدين فى المعركة هو جميع الغنائم و أن يأسروا العدوّ حتى يأخذوا فداءه. و إذا كان فى القلوب مثل هذه النيات السيئة فعليهم أن يطهروا قلوبهم منها، و يعدهم اللّه بالعفو عمّا مضى فتقول الآية:

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۸

هل أن أخذ «الفداء» أمر منطقىّ عادل؟!

قد ينقدح هنا سؤال مهم و هو: كيف ينسجم الفداء قبال إطلاق سراح الأسير و أصول العدالة؟ أن ليس هذا نوعا من بيع الإنسان؟

و الجواب على هذا السؤال يتجلى واضحا حين نعرف أنّ الفداء هو نوع من الضرائب العسكرية، أو الغرامة الحربية، إذ أن كل حرب سبب فى إهدار كثير من الطاقات الاقتصادية و القوى الإنسانية، فالجماعة التى تقاتل من أجل الحق يحق لها أنّ تعوض عن خسائرها بعد الحرب، و أحد طرق التعويض هو «الفداء». و مع ملاحظة أن الفداء كان يومئذ يتراوح بين أربعة آلاف درهم عن الأسير الغنى، و ألف درهم عن الأسير الفقير، يتّضح أنّ الأموال التى أخذت من قريش فى هذا الصدد لم تكن كثيرة، بل لم تكن كافية لسد خسائر المسلمين المالية و الإنسانية فى تلك المعركة! ثمّ بعد هذا كلّه، فقد ترك المسلمون أموالا كثيرة- فى مكّة- عند هجرتهم اضطرارا إلى المدينة، فكانت هذه الأموال عند أعدائهم من قريش، و كان للمسلمين الحق أن يعوضوا عن خسائرهم و أموالهم فى يوم بدر بالفداء.

كما ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة التى أشارت إليها الآية ۴ من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هى أنّ مسألة الفداء ليست إلزامية، فللحكومة الإسلامية أن تبادل الأسرى متى ما رأت فى ذلك مصلحة، أو أن تمن عليهم فتطلق سراحهم دون تعويض.

و المسألة المهمّة الأخرى فى شأن أسرى الحرب هى موضوع إصلاحهم و تربيتهم و هدايتهم، و لعل هذا الأمر غير موجود فى المذاهب الماديّة، لكنّه مثار عناية و اهتمام أكيد فى الجهاد من أجل تحرير الإنسان و إصلاحه و تعميم الحق و العدل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۹

و لهذا فإنّ الآية الرّابعة من الآيات محل البحث تخاطب النّبى أن يدعو الأسرى إلى الإيمان باللّه و إصلاح أنفسهم، و يرغبهم فى كل ذلك، فتقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ

و المراد من كلمة «خيرا» فى الجملة آنفة الذكر إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً هو الإيمان و قبول الإسلام أمّا المراد من كلمة «خير» فى الجملة الأخرى «يؤتكم خيرا» فهو الثواب أو الأجر المادى و المعنوى الذى ينالونه ببركة الإسلام، و هو أعظم عند اللّه من الفداء بمراتب كثيرة! ثمّ إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف اللّه و يعفو عن سيئاتكم وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و حيث إنّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسيء إلى الإسلام و يخون النّبى و ينتقم من المسلمين، فإنّ الآية التالية تنذر النّبى و المسلمين و تنذر أولئك من الخيانة فتقول: وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ و أى خيانة أعظم من عدم الاستجابة لنداء الفطرة و العزوف عن نداء الحق و العقل، و الشرك باللّه و عبادة الأصنام بدلا من الإيمان باللّه و توحيده؟ ثمّ إنّ عليهم أن لا ينسوا نصرة اللّه لك فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ و إذا أرادوا الخيانة فى المستقبل فلن يفلحوا و سوف ينالون الخزى و الخسران و الهزيمة مرّة أخرى. لأنّ اللّه مطلع على نيّاتهم، و جميع تعاليم الإسلام فى شأن الأسرى وفق حكمته وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ و قد جاء فى كتب الفريقين- الشيعة و أهل السنة- فى ذيل الآيتين محل البحث أن العباس عم النّبى كان بين أسرى بدر، فطلبت جماعة من الأنصار أن لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۰

يؤخذ عنه فداء إكراما لرسول اللّه،

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و اللّه لا تذرون منه درهما»،

(أى إذا كان الفداء قانونا إسلاميا عامّا، فلا ينبغى أن يفرق بين عمى و بين أى أسير آخر).

و

قال لعمّه العباس: «ادفع عنك و عن ابن أخيك- عقيل- الفداء».

فقال له العباس «و كان شغوفا بالمال». يا محمّد أ تريد أن تجعلنى فقيرا حتى أمد يدى إلى قريش؟! فقال له النّبى: أعط فداءك من المال الذى أودعته عند أم الفضل- زوجتك- و قلت لها: إذا قتلت فى ساحة المعركة فأنفقيه على نفسك و على أبنائك.

فتعجب العباس من هذا الإمر و قال: من أخبرك بهذا؟ «و لم يطلع عليه أحد أبدا» فقال رسول اللّه: أخبرنى بذلك جبرائيل.

فقال العباس: أحلف بمن يحلف به محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يعلم بذلك إلّا أنا و زوجتى، ثمّ قال: أشهد أنك رسول اللّه، و أعلن إسلامه.

و عاد جميع أسرى بدر إلى مكّة إلّا العباس و عقيلا و نوفلا، إذ أسلموا و بقوا فى المدينة، و الآيات محل البحث تشير إلى حال أولئك [۲۴۷].

و جاء فى شأن إسلام العباس فى بعض التواريخ أنّه عاد إلى مكّة بعد إسلامه، و كان يكتب إلى النّبى عن مؤامرات المشركين ثمّ هاجر إلى المدينة قبل السنة الثّامنة من الهجرة «عام فتح مكّة».

و

فى كتاب قرب الإسناد عن الإمام الباقر عن أبيه الإمام زين العابدين، أنّه جيء إلى رسول اللّه ذات يوم بأموال كثيرة، فالتفت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى العباس و قال له: ابسط عباءتك أو «رداءك» و خذ من هذا المال، ففعل العباس و أخذ من ذلك المال، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هذا ما قاله اللّه سبحانه و تلا قوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۱

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى [۲۴۸].

و هو إشارة إلى أن وعد اللّه قد تحقق عمليا فى إتيان العباس خيرا ممّا أخذ منه.

و يعرف من هذا الحديث أنّ النّبى كان فى صدد أن يعوض الأسرى الذين أسلموا عمّا أخذ منهم، ترغيبا و تشويقا، و أن يعيد إليهم أموالهم المأخوذة منهم بصورة أحسن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۲

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۷۲ الى ۷۵]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یُهاجِرُوا ما لَکُمْ مِنْ وَلایَتِهِمْ مِنْ شَیْءٍ حَتَّی یُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوکُمْ فِی الدِّینِ فَعَلَیْکُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلی قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثاقٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۷۲) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَکُنْ فِتْنَةٌ فِی الْأَرْضِ وَ فَسادٌ کَبِیرٌ (۷۳) وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۷۴) وَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَکُمْ فَأُولئِکَ مِنْکُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۷۵)
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۳

التّفسیر

أربع طوائف مختلفة:

تبحث هـذه الآیات التی تختتم بها سورة الأنفال- و تعـدّ آخر فصل من فصولها- عن طوائف المهاجرین و الأنصار و الطوائف الأخری من المسلمین و بیان قیمة هؤلاء جمیعا، فتعطی کل طائفة قیمة، و تستکمل ما تناولته الآیات السابقة فی شأن الجهاد و المجاهدین.
و بتعبیر آخر: إنّ هـذه الآیـات عـالجت نظـام المجتمع الإسـلامی من حیث العلائق المختلفـة، لأنّ خطـة الحرب و خطـة الصـلح کسائر الخطط و المناهج العامّة، لا یمکن أن یتمّ أیّ منها دون تکوین علاقة اجتماعیة صحیحة، و أخذها بنظر الإعتبار.
و قد تناولت هذه الآیات خمس طوائف، أربع منها من المسلمین، و واحدة من غیر المسلمین، و الطوائف الأربع هی:
۱- المهاجرون السابقون.
۲- الأنصار فی المدینة.
۳- المؤمنون الذین لم یهاجروا.
۴- الذین آمنوا من بعد و هاجروا.
فتقول الآیة الأولی من الآیات محل البحث إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ
فقـد أشیر فی هذا القسم من الآیة إلی الطائفتین، الأولی و الثّانیة [المهاجرون، و الأنصار] أی الذین آمنوا فی مکّة ثمّ هاجروا منها إلی المدینة، و الذین آمنوا فی المدینة ثمّ آزروا النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و نصـروه و دافعوا عنه و عن المهاجرین، و قد وصفتهم الآیة بأنّهم بعضهم أولیاء بعض، و بعضهم حماة بعض.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۴
و الذی یسترعی النظر أنّ الآیة وصفت الطائفة الأولی بأربع صفات هی:
الإیمـان، و الهجرة و الجهـاد المـالی و الاقتصـادی «و ذلـک عن طریق الإعراض عن أموالهم فی مکّـة، و ما بـذلوه من أموال فی غزوة بدر»، و الصفة الرّابعة جهادهم بأنفسهم و دمائهم و أرواحهم.
أمّا الأنصار فقد وصفتهم الآیة بصفتین هما: الإیواء، و النصرة.
و قد جعلت هذه الآیة الجمیع مسئولین بعضهم عن بعض، و یتعهد کلّ بصاحبه بقولها بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ

فهاتـان الطائفتـان- فى الحقيقـة- كانتا تمثلان مجموعتين متلازمتين لا يمكن لأحـدهما الاسـتغناء عن الأخرى، إذ منهما يتكون نسـيج المجتمع الإسلامى، فهما بمثابة «المغزل و الخيط».

ثمّ تشير الآية إلى الطائفة الثّالثة فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا.

ثمّ اسـتثنت فى الجملـة التى بعدها مسـئولية واحدة فحسب، و أثبتتها فى شأن هذه الطائفة، فقالت: وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ... إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ

و بتعبير آخر: يلزم الـدفاع عن أولـئك فى صورة ما لو أصـبحوا قبال عـدوّ مشترك، أمّا إذا واجهوا كفارا بينكم و بينهم عهـد و ميثاق، فإنّه يجب الوفاء بالعهد و الميثاق، و هى مقدمة على الدفاع فى هذه الصورة.

و حضّت الآيـة على رعايـة العهـود و المواثيق و الدقـة فى أداء هـذه المسؤوليـة، و منبهـة إلى علم اللّه بكـل الأـمور، فقـالت: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

فهو يرى جميع أعمالكم و يطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفة الملقاة على عاتقكم، أو إحساس بالمسؤولية، كما يعلم بمن لم يعتن بالأمر، و كذلك بالوهن و الضعف و عدم الإحساس بالمسؤولية إزاء هذه الوظائف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۵

الكبيرة.

أمّا الآية الثّانية فتشـير إلى النقطة المقابلة للمجتمع الإسـلامى، أى مجتمع الكفر و أعداء الإسـلام، فتقول: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

أى أنّ علاقاتهم منحصـرة فيما بينهم، و لا يحق لكم أن تتعاهدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصرة لأنفسكم، أو تلجؤوهم و تؤووهم إليكم، أو تأووا و تلتجئوا إليهم.

و بعبارة موجزة: لا يحق للكفار أن يدخلوا فى نسيج المجتمع الإسلامى، و لا يحق للمسلمين أن يدخلوا فى نسيج الكفار.

ثمّ تنبه الآية المسلمين و تحذرهم من مخالفة هذا التعليم، فتقول: إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ.

و أى فتنة و فساد أكبر من تهميش انتصاركم، و سريان دسائس الأعداء فى مجتمعكم، و تخطيطهم لهدم دينكم دين الحق و العدل.

أمّا فى الآيـة التاليـة فنجـد تأكيـدا على مقـام المهـاجرين و الأنصـار مرّة أخرى، و مـا لهمـا من موقع و أثر فى تحقق أهـداف المجتمع الإسلامى، فتثنى عليهم الآية بقولها: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا.

لأنّهم هبوا لنصـرة الإسـلام فى الأيام الصـعبة الشديـدة و فى الغربـة و المحنة و قد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصـرة للّه و لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

فهم فائزون بثواب اللّه و النعمة الأخروية، كما أنّهم يتمتعون فى هذه الدنيا بالعزة و رفعة الرأس و الكرامة.

أمّا الآيـة الأخيرة فتشـير إلى الطائفـة الرّابعـة من المسـلمين، أى أولئك الـذين آمنوا و هاجروا من بعد، فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۶

مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ

أى أنّ المجتمع الإسـلامى ليس مجتمعا منغلقا و محصورا على نفسه، بل أبوابه مفتوحـة لجميع المؤمنين و المهاجرين و المجاهدين، و إن كان للمهاجرين الأوائل مقام خاص و منزلـة كريمـة، إلّا أنّ ذلك لا يعنى أن المؤمنين الجدد و المهاجرين فى المسـتقبل لا يعدّون جزاء من المجتمع الإسلامى و لا يكونون من نسيجه.

و تشـير الآية فى ختامها إلى ولاية الأرحام بعضهم لبعض، و أوليتها فيما جعله اللّه فى عبادة من أحكام، فتقول: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ

أَوْلى بِبَعْضٍ فِی كِتابِ اللَّهِ

و فی الحقیقة فإنّ الآیات السابقة تتكلم عن ولایة المؤمنین و المسلمین العامّة «بعضهم إلی بعض» أمّا هذه الآیة محل البحث فتؤكّد هذا الموضوع فی شأن الأرحام و الأقارب، فهم إضافة إلی ولایة الإیمان و الهجرة یتمتعون بولایة الأرحام أیضا، و من هنا فهم یرثون و یورثون بعضهم بعضا، إلّا أنّه لا إرث بین غیرهم من المؤمنین الذین لا علاقة قربی بینهم.

فبناء علی ذلك فإنّ الآیة الأخیرة لا تتكلم عن الإرث، بل تتكلم عن موضوع واسع من ضمنه موضوع الإرث.

و إذا وجدنا فی الرّوایات الإسلامیة، و فی الكتب الفقهیة، استدلالا بهذه الآیة و الآیة المشابهة لها فی سورة الأحزاب علی الإرث، فلا یعنی ذلك أن الآی الذی استدل به علی الإرث منحصر بهذا الشأن فحسب، بل توضح قانونا كلیّا، و الإرث جزء منه. و لهذا نجد أنّه استدل بهذه الآیة محل البحث علی موضوع خلافة النّبی مع أنّها غیر داخلة فی موضوع الإرث المالی.

و استدل بها علی أولویة غسل المیت، كما صرّحت به الرّوایات الإسلامیة.

و بملاحظة ما ذكرناه آنفا یتّضح أنّه لا دلیل علی ما أصر علیه جماعة من

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۷

المفسّرین علی انحصار هذه الآیة بمسألة الإرث، و إذا أردنا أن نختار مثل هذه التّفسیر فإنّ السبیل الوحید له أن نعده مستثنیا الإرث من الولایة المطلقة، التی بیّنتها الآیات السابقة لعامّة المهاجرین و الأنصار، فنقول: إنّ الآیة الأخیرة تقول بأنّ ولایة المسلمین العامّة بعضهم لبعض لا تشمل الإرث.

و أمّا الاحتمال بأنّ الآیات السابقة تشمل الإرث أیضا ثمّ نسخت الآیة الأخیرة هذا الحكم منها، فیبدو بعیدا جدّا، لأنّ الترابط فی المفهوم بین هذه الآیات جمیعا من الناحیة المعنویة، بل حتی التشابه اللفظی، كل ذلك یدل علی أنّ الآیات نزلت معا فی وقت واحد.

و بهذا لا یمكن القول بالتناسخ بین هذه الآیات.

و علی كل حال فإنّ التّفسیر الأكثر تناسبا لهذه الآیات هو ما بیناه آنفا.

و فی آخر جملة من هذه الآیة- التی هی آخر جملة من سورة الأنفال أیضا- یقول اللّه سبحانه: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ فما نزل فی هذه السّورة من أحكام تتعلق بالأنفال و غنائم الحرب، و تعالیم الجهاد و الصلح، و أحكام الأسری و الحرب، و ما یتعلق بالهجرة و غیرها، كل ذلك كان وفق حساب دقیق یتلاءم و روح المجتمع الإنسانی، و العواطف و البشریة، و المصالح العامّیة فی جمیع جوانبها المختلفة.

ملاحظات

۱- الهجرة و الجهاد

إنّ دراسة التاریخ الإسلامی تدلّ علی أن هذین الموضوعین كانا من عوامل انتصار المسلمین الرئیسیة قبال عدوّهم، فلولا الهجرة لتمّ دفن الإسلام فی مكّة، و لولا الجهاد لما اتسعت رقعة الإسلام، فالهجرة أخرجت الإسلام من منطقة

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۸

خاصّیة إلی مداه الرحب و صیرته عالمیّا، و الجهاد علّم المسلمین أنّهم إذا لم یعتمدوا علی قدراتهم فإنّ عدوّهم الذی لا یلتزم بأیّة مقررات سوف لا یعترف لهم بأدنی حقّ. سوف لا یعطیهم حقوقهم المشروعة، و لا یصیخ لهم سمعا أبدا.

و الیوم إذا أردنا انقاذ الإسلام من الطرق المسدودة، و إزاحة الموانع التی جعلها الأعداء فی طریقه من كل جهة، فلا سبیل إلی ذلك

إلّا باحياء هذين الأصلين: الهجرة و الجهاد.

فالهجرة توصل صوت المسلمين إلى أسماع العالم كله، و تروى ظمأ القلوب المتعطشة للحق و العدل و من هو فى شوق إلى معرفة الحقيقة.

و الجهاد يهب المسلمين التحرك و الحياة، و يبعد أعداءهم الذين لا ينفعهم إلّا منطق القوة عن قارعة الطريق و يبيدهم.

و قد حدثت الهجرة فى الإسلام مرارا. فكانت هجرة المسلمين من مكّة إلى الحبشة حيث غرسوا بها الإسلام خارج الجزيرة العربية و بنوا فيها حصنا للمسلمين الأوائل قبال ضغوط أعدائهم.

ثمّ هجرة النّبى و المسلمين الأولى إلى المدينة، و لهؤلاء المهاجرين الذين يطلق عليهم (مهاجرو بدر) أهمية قصوى فى تأريخ الإسلام، لأنّهم اتّجهوا ظاهرا نحو مستقبل مجهول مظلم، و غضوا ابصارهم عن جميع ما ملكوه فى سبيل اللّه، و أعرضوا عن حطام الدنيا.

هؤلاء المهاجرين أى: «المهاجرون الأوّلون» مثلوا فى الحقيقة الحجر الأساس لصرح الإسلام العظيم، و القرآن يثنى عليهم بالتكريم و التعظيم، و لوليهم عناية خاصّة، لأنّهم كانوا من أشد المسلمين تضحية.

«الهجرة الثّانية» أطلقت على هجرة طائفة أخرى من المسلمين إلى المدينة، و ذلك بعد صلح الحديبية و الحصول على محيط آمن نسبيا بعد هذا الصلح، و قد تطلق الهجرة على كل مهاجر من مكّة إلى المدينة حتى بعد واقعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۹

بدر، و إلى زمان فتح مكّة.

أمّا بعد فتح مكّة فقد انتفت الهجرة من مكّة إلى المدينة، لأنّ مكّة أصبحت مدينة إسلامية أيضا، و الحديث النبوى المشهور «لا هجرة بعد الفتح» يشير إلى هذا المعنى.

لكن هذا الكلام لا يعنى أن مفهوم الهجرة زاك من قاموس مبادئ الإسلام كليّا كما يتصور بعضهم، بل الهجرة من مكّة إلى المدينة انتفى موضوعها، و إلّا فمتى ما حدثت ظروف كظروف المسلمين الأوائل فقانون الهجرة باق على قوته، و سوف يبقى ما دام الإسلام يتسع حتى يستوعب العالم أجمع.

و مع الأسف الشديد فإنّ أغلب المسلمين لنسيانهم هذا الأصل الإسلامى المهم انغلقوا على أنفسهم، بينما نرى المبشرين المسيحيين و الفرق الضالة و الاستعمار يهاجرون إلى أنحاء المعمورة كلها، و يذهبون حتى إلى القبائل أو الطوائف المتوحشة ممن يأكلون لحوم البشر فى مجاهيل أفريقيا، و يجوبون القطبين المتجمدين الشمالى و الجنوبى فى سبيل تحقيق أهدافهم، مع أن هذه مهمّة المسلمين فى الواقع، إلّا أن العمل أضحى من الآخرين! و الأعجب من ذلك وجود الكثير من القرى فى جوار المدن الإسلامية الكبرى، و بمسافة لا تبعد كثيرا عنها، إلّا أن أهلها لا يعرفون عن الإسلام شيئا، و لا يعرفون أحكامه، و ربّما لم يروا وجه مبلغ إسلامى هناك أبدا. لهذا فإنّ محيطهم مستعد لنشوء جراثيم الفساد و المذاهب المختلقة و البدع التى يفتعلها «الاستعمار» و لا ندرى بماذا يجيب المسلمون ربّهم يوم القيامة- و هم ورثة المهاجرين الأوائل- إزاء هذه الحال المزرية؟! و بالرغم من مشاهدة تحرك فى هذا الصدد أخيرا، إلّا أنّه محدود و غير كاف ابدا.

و على أية حال، فإن موضوع الهجرة و أثرها فى تاريخ الإسلام و مصير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۰

المسلمين أكبر من أن نأتى على جميع جوانبه بهذا الاختصار (و لنا كلام بهذا الشأن لدى تفسير الآيات التى تتناول هذا الموضوع إن شاء اللّه ...).

۲- المبالغة و الإغراق فى تنزيه الصحابة

حاول بعض إخواننا أهل السنة أن يستنتج من ما أولاه القرآن للمهاجرين السابقين «الأوائل» من اهتمام و احترام، أنّهم لن يرتكبوا ذنبا إلى آخر عمرهم و حياتهم. و ذهبوا إلى إكرامهم و احترامهم جميعا دون استثناء، و دون الاعتراض على هذا و ذاك، و كيف ذلك؟! ثمّ عمموا هذا القول على جميع الصحابة- فضلا عن المهاجرين- و ذلك لثناء القرآن عليهم فی بيعة الرضوان و غيرها، و ذهبوا عملا إلى أنّ الصحابة- دون النظر إلى اعمالهم- أفراد متميزون. فلا يحق لأیّ شخص توجيه النقد لهم و التحقيق فی سلوكهم. يجوز بأیّ وجه أن يوجه النقد إليهم.

و من جملة هؤلاء المفسّر المعروف صاحب المنار، إذ حمل فی ذيل الآيات محل البحث حملة شعواء على الشيعة، لأنّهم ينتقدون المهاجرين الأولين، و لم يلتفت إلى أن مثل هذا الإعتقاد لا يتضاد و روح الإسلام و تاريخه!! فلا ريب أنّ للصحابة- و على الخصوص المهاجرين منهم- حرمة خاصّة، إلّا أنّ هذه الحرمة كانت قائمة ما داموا فی طريق الحق و يضحّون من أجل الحق، لكن من المقطوع به أن نظرة القرآن إلى بعضهم أو حكمه قد تغير منذ انحرف عن النهج القويم و الصراط المستقيم.

فمثلا، كيف يمكننا أن نبرئ طلحة و الزبير من نقضهما بيعة إمامهما الذی انتخبه المسلمون «بغض النظر عن تصريح النّبی بمقامه و شأنه» و كانا من ضمن المسلمين الذين بايعوه؟ و كيف يمكن تبرأتهما من دماء سبعة عشر ألف مسلم قتلوا فی حرب الجمل، مع أنّه لا عذر لمن يسفك دم إنسان واحد أمام اللّه مهما

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۱

كان، فكيف بهذا العدد الهائل الذين سفكت دماؤهم؟

ترى هل يمكن أن نعدّ عليّا عليه السلام و أصحابه فی حرب الجمل على الحق كما نعدّ أعداءه فيها على الحق أيضا؟! و نعد طلحة و الزبير و من معهما من الصحابة على الحق كذلك؟! و هل يقبل العقل و المنطق هذا التضاد الفاضح؟

و هل يمكننا أن نغض النظر من أجل عنوان «تنزيه الصحابة» و لا نلتفت إلى التأريخ و ننسى كل ما حدث بعد النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نضرب عرض الجدار قاعدة إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ

مالكم كيف تحكمون؟! و ما يمنع أن يكون الإنسان من أهل الجنّة و مؤيدا للحق يوما، و يكون من أهل النّار و مؤيدا للباطل و من أعداء الحق يوما آخر؟ ... فهل الجميع معصومون؟

ألسنا نرى التغييرات فی أحوال الأشخاص بأم أعيننا؟! قصة «اصحاب الردّة» و ارتداد جمع من المسلمين بعد رحلة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مذكورة فی كتب أهل السنّة و الشّيعة، و أن الخليفة الأوّل تصدى لهم و قاتلهم، فهل يعقل أنّ أحدا من «اصحاب الردّة» لم ير النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يكونوا فی عدّة الصحابة؟

و الأعجب من ذلك أنّ بعضا تشبث بالاجتهاد للتخلص من الطريق المسدود و التناقض فی ذلك، و قالوا: إن أمثال طلحة و الزبير و معاوية و من لفّ لفهم قد اجتهدوا فأخطأوا و ليسوا مذنبين، بل هم مثابون مأجورون بأعمالهم من قبل اللّه! فما أفضح هذا المنطق؟! فهل الثورة على خليفة النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نقض البيعة و هدر دماء الآلاف من الأبرياء من أجل رئاسات دنيوية و حب المال، موضوع معقد و مبهم و لا يعرف أحد ما فيه من سوء؟! ترى هل فی سفك كل تلك الدماء البريئة أجر و ثواب عند اللّه؟!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۲

فإذا أردنا تبرئة جماعة من الصحابة ممّا ارتكبوه من جرائم، فسوف لا نرى مجرما أو مذنبا فی الدنيا، و سنبرئ بهذا المنطق جميع القتلة و المجرمين و الجبابرة.

إنّ مثل هذا الدّفاع غير المنطقی- عن الصحابة- سيسبب النظرة السيئة إلى أصل الإسلام.

و الخلاصة، أنّنا لا سبيل لنا إلّا احترام الجميع خاصّة أصحاب النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما داموا لم ينحرفوا عن مسير الحق و

العدل و مناهج الإسلام، و إلّا فلا.

۳- الإرث فی قوانین الإسلام

كما أشرنا سابقا فی تفسیر سورة النساء، فإنّ الناس فی زمان الجاهلیة كانوا یتوارثون عن ثلاث طرق:

۱- عن طریق النسب «و كان منحصرا بالأولاد الذكور، أمّا الأطفال و النساء فهؤلاء محرومون من الإرث».

۲- و عن طریق «التبنی» بأن یجعل ولد غیره ولده.

۳- و عن طریق العهد الذی یعبر عنه بالولاء[۲۴۹].

و فی بدایة الإسلام كان العمل جاریا بهذه الطرق قبل نزول قانون الإرث، إلّا أنّه سرعان ما حلّت الأخوة الإسلامیة مكان ذلك، و ورث المهاجرون الأنصار فحسب، و هم الذین تآخوا و عقدوا عهد الأخوة الإسلامیة، و بعد أن اتسع الإسلام أكثر فأكثر شرّع حكم الإرث النسبی و السببی، و نسخ حكم الأخوة الإسلامیة فی الإرث.

و قد أشارت إلیه الآیات- محل البحث- و الآیة (۶) من سورة الأحزاب، إذ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۳

تقول: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی كِتابِ اللَّهِ

كل هذا مقطوع به من حیث التاریخ، إلّا أنّه- كما قلنا من قبل- فإن جملة وَ أُولُوا الْأَرْحامِ الواردة فی الآیات محل البحث لا تختص بمسألة الإرث، بل هی ذات معنی واسع، و الإرث جزء منه.

۴- ما المراد من الفتنة و الفساد الكبیر

احتمل المفسّرون فی تفسیر هاتین الكلمتین الواردتین فی الآیات محل البحث احتمالات كثیرة، إلّا أنّ ما ینسجم أكثر مع مفهوم هذه الآیة هو أنّ المراد من «الفتنة» هو الاختلاف و التفرق و تزلزل مبانی العقیدة الإسلامیة علی أثر وسوسة الأعداء، و «الفساد» یشمل كل إخلال و تخریب للنظم الاجتماعیة المختلفة و خاصّة سفك الدماء البریئة و الإرهاب و أمثال ذلك.

و فی الحقیقة فإنّ القرآن المجید ینذر المسلمین إذا لم یحكموا علائق الأخوة و التعاون فیها بینهم، و لم یقطعوا ارتباطهم بالعدوّ، فإنّ جماعتهم تزداد تشتتا یوما بعد یوم، و بنفوذ الأعداء داخل المجتمع الإسلامی و وساوس إغواءاتهم تزلزل أسس الإیمان و قواعده، و یبتلی المسلمون عن هذا الطریق بفتنة عظیمة.

و كذلك إذا لم تكن علائق اجتماعیة قویة، فإنّ العدو سرعان ما ینفذ إلی المجتمع و تحدث أنواع المفاسد من إرهاب و سفك الدماء، و تضیع الأموال و إغواء الأولاد، و یبدو الضعف و النقص واضحا فی المجتمع، و یعم الفساد الكبیر كل مكان.

ربّنا، أیقظ مجتمعنا الإسلامی بلطفك. و نبّهنا إلی أخطار التعاون مع الأعداء و تكوین العلاقة و إیاهم. و نزّه مجتمعنا من الفتنة و الفساد الكبیر بنور المعرفة و وحدة الكلمة، برحمتك یا أرحم الراحمین.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۵

سورة التّوبة

اشارة

و هی مدنیّة و عدد آیاتها مائة و تسع و عشرون آیة فحسب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۷

سورة التّوبة ینبغی الالتفات إلی الأمور التالیة قبل الشروع فی تفسیر السورة

۱- أسماء هذه السّورة ...

ذکر المفسّرون لهذه السّورة أسماء عدیدة تبلغ العشرة، غیر أنّ المشهور منها هو ما یلی: سورة البراءة، و سورة التوبة، و السورة الفاضحة. و لکلّ من التسمیات سبب جلی.

فالبراءة، لأنّها تبتدأ بإعلان براءة اللّه من المشرکین، و الذین ینقضون عهدهم.

و التوبة، لما ورد من مزید الکلام عن التوبة فی هذه السورة.

و الفاضحة، لما فیها من الآیات التی تکشف النقاب عن أعمال المنافقین لتعریتهم و خزیهم و فضیحتهم.

۲- متی نزلت هذه السورة

هذه السورة هی آخر سورة نزلت علی النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو من أواخر السور النازلة علیه فی المدینة، و هی کما قلنا ذات ۱۲۹ آیة فحسب.

و المعروف أن بدایة نزول هذه السورة کانت فی السنة التاسعة للهجرة، و یدلّ تتبع آیاتها علی أنّ قسما منها نزل قبل معرکة تبوک، و قسما منها نزل عند الاستعداد للمعرکة أو «الغزوة»، و قسما منها نزل بعد الرجوع من المعرکة و الفراغ منها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۸

و من بدایة السورة حتی الآیة (۲۸) نزل قبیل موسم الحج، کما سنبیّن ذلک بعون اللّه، و الآیات الأولی- هذه- و التی تتعلق بمن بقی من المشرکین بلّغها أمیر المؤمنین علیه السلام فی موسم الحج.

۳- محتوی السّورة

لمّا کان نزول هذه السورة إبّان انتشار الإسلام فی الجزیرة العربیة، و تحطیم آخر مقاومة للمشرکین فقد کان لما حوته من مفاهیم أهمیة بالغة و مواضیع حساسة. إذ یتعلق قسم منها بالبقیة الباقیة من عبدة الأوثان و المشرکین، و قطع العلاقات معهم، و إلغاء المعاهدات و المواثیق التی کانت بینهم و بین المسلمین، لنقضهم لها مرارا، لیتم تطهیر المحیط الإسلامی من رجس الوثنیة إلی الأبد.

و حیث إن بعض الأعداء عند انتشار رقعة الإسلام و تحطیم قوی الشرک غیّر مظهره بغیة النفوذ بین المسلمین، و لتوجیه ضربة قاضیة للإسلام من قبل المنافقین فإنّ قسما مهما من آیات هذه السورة تتحدّث عن المنافقین و عاقبهم، و تحذر المسلمین منهم.

و بعض آیات هذه السورة تتحدّث عن الجهاد فی سبیل اللّه و أهمیته، لأنّ الغفلة عن هذا الأمر الحیاتی فی ذلک الظرف الحساس تبعث علی ضعف المسلمین و تقهقرهم أو انکسارهم.

کما أنّ قسما منه یکمل البحوث السابقة التی تناولت انحراف أهل الکتاب «الیهود و النصاری» عن حقیقة التوحید، و تتکلم عن انصراف علمائهم عن واجبهم فی التبلیغ و قیادة المجتمع.

و فی بعض آیات هذه السورة حثّ للمسلمین علی الاتحاد و رص الصفوف- تعقیبا علی ما جاء آنفا فی الحث علی الجهاد- و توبیخ للمتخاذلین المتحرّفین أو الضعاف الذین یتذرعون بذرائع واهیة للتخلص من هذا الواجب، ثمّ إنّ فیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۹

ثناء على المهاجرين السابقين إلى الهجرة، و الصفوة من المؤمنين الصادقين.

و حيث سبّب انتشار الإسلام و اتساع رقعة مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفة ينبغى توفيرها، فقد عرضت بقية الآيات من هذه السورة موضوع الزكاة و تحريم تراكم الثروات و اكتنازها، و وجوب طلب العلم أو التعلّم و تعليم الجهلة، و تناولت بحوثا متنوعة أخرى كقصة هجرة النّبى، و الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال، و أخذ الجزية من الأقليات الدينية غير الإسلامية كاليهود و النصارى، و ما إلى ذلك.

۴- لم لم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟

يجيب استهلال السورة على السؤال آنف الذكر فقد بدئت بالبراءة- من قبل اللّه- من المشركين، و إعلان الحرب عليهم، و اتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، و بيان غضب اللّه عليهم، و كل ذلك لا يتناسب و البسملة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الدالة على الصفاء و الصدق و السلام و الحب، و الكاشفة عن صفة الرحمة و اللطف الإلهى.

و قد ورد هذا التعليل عن على عليه السلام ۲۵۰].

و يعتقد بعض المفسّرين أن سورة براءة- فى الحقيقة- تتمة لسورة الأنفال، لأنّ الأنفال تتحدث عن العهود، و براءة تتحدث عن نقض تلك العهود، فلم تذكر البسملة بين هاتين السورتين لارتباط بعضهما ببعض. و قد ورد عن الإمام الصادق هذا المعنى أيضا[۲۵۱].

و لا مانع أن يكون السبب فى عدم ذكر البسملة مجموع الأمرين آنفى الذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۰

- معا- فالأوّل ناظر إلى الرواية الأولى «رواية الإمام على» و الثّانى يشير إلى رواية الإمام الصادق عليه السلام.

۵- فضيلة هذه السورة و آثارها

أولت الرّوايات الإسلامية أهميّة خاصّة لتلاوة سورتى براءة و الأنفال، و ممّا جاء فى شأنهما

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «من قرأ براءة و الأنفال فى كل شهر لم يدخله نفاق أبدا، و كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقّا».

و قد قلنا مرارا: إنّ ما ورد من أهمية قصوى فى الرّوايات الإسلامية فى قراءة مختلف السور لا يعنى ظهور آثار تلك القراءة من دون تفكّر و تطبيق لمضامينها، فنقول مثلا: من قرأ سورتى براءة و الأنفال دون إدراك لمعانيهما فسيدرأ عنه النفاق، و يكون من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، بل المراد فى الحقيقة أن يكون مضمون السورة مؤثّرا فى بناء شخصية الفرد و المجتمع، و لا يتحقق ذلك إلّا بإدراك مغزى السورة و استيعاب معناها، و الاستعداد و التهيؤ لتطبيقها.

و حيث أن السورتين قد أوضحتا الخطوط العريضة العامّة فى حياة المؤمنين الصادقين و من فى قبالهم من المنافقين، و أنارتا الطريق للعاملين لا للمدّعين فحسب، فستكون ثمرة تلاوتهما و الإعتبار بمضمونيهما هو ما ذكرته الرواية و بهذا تكون التلاوة مؤثرة بنّاءة.

و أمّا من ينظر إلى القرآن و آياته الشريفة بشكل آخر، فهو أبعد ما يكون عن روح هذا الكتاب التربوى الذى جاء لبناء الإنسانية و هدايتها.

و

قد ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بيان الأهمية القصوى لما نوهنا عنه من لطائف، أنّه قال «نزلت علىّ براءة و التوحيد فى سبعين ألف صف من صفوف الملائكة، و كان كل صف منهم يوصينى بأهمية هاتين السورتين».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۱

۶- حقيقة تأريخية يسعى بعضهم إلى طمس معالمها

من المتفق عليه بين جميع المؤرخين و المفسّرين تقريبا أنّه لما نزلت الآيات الأولى من سورة براءة، و ألغيت العهود التى كانت بين المشركين و المسلمين، أمر النّبى أبا بكر أن يبلغ هذه الآيات فى موسم الحج، ثمّ أخذها منه و أعطاها عليا عليه السلام ليقوم بتبليغها، فقرأها على الناس فى موسم الحج. و بالرغم من اختلاف الرّوايات فى جزئيات هذه القصة و جوانبها المتفرقة، إلّا أن ذكر النقاط التالية يمكن أن يجلو لنا حقيقة ناصعة:

۱- يروى أحمد بن حنبل- إمام أهل السنة المعروف- فى مسنده عن ابن عباس، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أرسل فلانا «المقصود بفلان هو أبو بكر كما سيتّضح ذلك بعدئذ» و أعطاه سورة التوبة ليبلغها الناس فى موسم الحج، ثمّ أرسل عليّا خلفه و أخذها منه و

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «لا يذهب بها إلّا رجل منّى و أنا منه»[۲۵۲].

۲- كما جاء فى المسند ذاته عن أنس بن مالك، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أرسل سورة براءة مع أبى بكر ليبلغها، فلمّا وصل أبو بكر إلى ذى الحليفة- و يدعى بمسجد الشجرة أيضا- و هو و على بعد مسافة فرسخ عن المدينة تقريبا،

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يبلغها إلّا أنا أو رجل من أهل بيتى»

فبعث بها مع على عليه السلام ۲۵۳].

۳- و

ورد أيضا فى المسند نفسه- بإسناد آخر- عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه لما بعثه النّبى و معه براءة قال: يا رسول اللّه لست خطيبا، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا محيص عن ذلك، فإمّا أن أذهب بها أو تذهب بها، فقال على: إذا كان و لا بدّ فأنا أذهب بها. فقال له النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «انطلق بها فإنّ اللّه يثبت لسانك و يهدى قلبك»[۲۵۴].

۴- و ينقل النسائى- أحد كبار علماء السنة- فى خصائصه،

عن زيد بن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۲

سبيع، عن على عليه السلام، أن النّبى أرسل أبا بكر بسورة براءة إلى أهل مكّة، ثمّ بعث عليّا خلفه ليأخذ الكتاب منه «يعنى السورة» فلحقه فى الطريق و أخذ الكتاب منه، فعاد أبو بكر حزينا أسيفا، و قال: يا رسول اللّه أنزل فىّ شىء؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا، إلّا أنّى أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتى»[۲۵۵].

۵- و

فى سند آخر أيضا، عن عبد اللّه بن أرقم، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعث أبا بكر بسورة براءة، فلمّا سار و بلغ بعض الطريق بعث النّبى عليا فلحقه و أخذ منه السورة، فذهب بها على إلى مكّة، فرجع أبو بكر إلى النّبى متأثرا فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«لا يؤدى عنّى إلّا أنا أو رجل منّى»[۲۵۶].

۶- و أورد ابن كثير- المفسّر المعروف-

عن أحمد بن حنبل، عن حنش، عن أمير المؤمنين على عليه السلام، أنّه عند ما نزلت عشر آيات من سورة براءة على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعا أبا بكر و أعطاه إيّاها ليبلغها أهل مكّة، ثمّ بعث خلفى و أمرنى بالذهاب خلفه و أخذ الكتاب منه، فعاد أبو بكر

إلى النّبى و قال: أنزل فىّ شىء؟

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا، و لكنّ جبرئيل جاءنى و قال: لن يؤدى عنك إلّا أنت أو رجل منك»[۲۵۷].

۷- و نقل ابن كثير هذا المضمون عينه عن زيد بن سبيع ۲۵۸].

۸- كما أنّه روى هذا الحديث عن أبى جعفر محمّد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (محمّد الباقر عليه السلام) فى تفسيره ۲۵۹].

۹- و

روى العلّامة ابن الأثير و هو- الآخر- من علماء السنة الكبار، فى «جامع الأصول» عن الترمذى عن أنس بن مالك، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أرسل سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۵۲۳

براءة مع أبى بكر ثمّ دعاه، و قال: «لا ينبغى لأحد أن يبلغ هذه إلّا رجل من أهلى» فدعا عليا فأعطاه إيّاها[۲۶۰].

۱۰- و

روى محب الدين الطبرى، فى كتابه ذخائر العقبى، عن أبو سعيد أو أبى هريرة، أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر أبا بكر أن يتولى أمر الحج، فلمّا مضى و بلغ ضجنان سمع أبو بكر صوت بعير على فعرفه، فجاء إلى على و قال: فيم جئت؟

فقال عليه السلام: أرسل النّبى معى سورة براءة. فلمّا رجع أبو بكر إلى النّبى و أظهر تأثره من تغيير «الرسالة» قال له النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يبلغ عنّى غيرى أو رجل منى» يعنى عليا[۲۶۱].

و قد صرحت روايات أخرى أنّ النّبى أعطى ناقته عليا ليركبها و يأتى بها أهل مكّة فيبلغهم، فلمّا وصل منتصف الطريق سمع أبو بكر صوت ناقة رسول اللّه فعرفها.

و هذا النص- مع ما ورد آنفا- يدل على أنّ الناقة كانت ناقة النّبى و قد أعطاها عليّا، لأهمية ما أمر به.

و قد روى هذا الحديث كثير من كتب أهل السنة مسندا تارة، و مرسلا تارة أخرى، و هو من الأحاديث المتفق عليها، و لا يطعن فيه أبدا.

و طبقا لبعض الرّوايات الواردة عن أهل السنة أنّ أبا بكر لما صرف عن إبلاغ سورة براءة، جعل أميرا على الحاج بمكّة.

توضيح و تحقيق:

هذا الحديث يثبت- بجلاء- فضيلة للإمام على عليه السلام، إلّا أنّنا- و يا للأسف- نجد مثل هذه الأحاديث لا ينظر إليها بعين الإنصاف و الحق، إذ يسعى بعضهم إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۵۲۴

محوها و نسيانها كليّا، أو إلى التقليل من أهميتها و قيمتها بأساليب شتى ملتوية:

۱- فمثلا يتناول صاحب تفسير المنار تارة- من الحديث آنف الذكر- المقطع الذى يتعلق بجعل أبى بكر أميرا على الحاج، و يختار الصمت و السكوت فى بقية الحديث الذى يدور حول أخذ سورة من أبى بكر ليبلغها على عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد قال فيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يبلغها إلّا أنا أو رجل منّى» يعنى عليّا عليه السلام.

مع أنّ سكوت قسم من الأحاديث عن هذا الموضوع لا- يكون دليلا- على أن نهمل جميع تلك الأحاديث الواردة فى شأن على عليه السلام و لا نأخذها بنظر الإعتبار!! فأسلوب التحقيق يقتضى تسليط الضوء على الأحاديث الواردة فى هذا الشأن كافة، حتى و لو كانت

على خلاف ما يجنح إليه الكاتب و تميل نفسه، و أن لا يصدر عليها حكما مسبقا.

۲- و يقوم بعض المفسّرين تارة بتضعيف سند الحديث، كما فى بعض الأحاديث الواردة عن حنش و السمّاك «كما فعله المفسّر آنف الذكر».

مع أنّ هذا الحديث ليس له طريق واحد أو طريقان، بل له طرق شتى فى كتبهم المعتبرة.

۳- و من العجيب الغريب أن يوجهوا مثل الحديث آنف الذكر توجيها مثيرا، فيقولون: إنّما أعطى النّبى سورة براءة عليّا، لأنّ العرب اعتادت عند إلغاء المواثيق أو العهود أن يمضى الشخص بنفسه أو يرسل أحدا من أهله.

مع أنّه ورد التصريح عن النّبى:

أوّلا: من طرق متعددة، أنّ جبرئيل أمره بأن يبلغ على سورة براءة أو هكذا أمرت! ...

ثانيا: إنّنا نقرأ فى بعض الأحاديث الواردة عن طرقهم

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السلام: ينبغى أن تبلغ سورة براءة، و إن لم تفعل فينبغى أن أبلغها أنا (مؤدى الحديث).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۵

ترى ألم يكن العباس عمّ النّبى أو أحد من أقارب النّبى موجودا يومئذ بين المسلمين! حتى يقول النّبى لعلى: إن لم تذهب فينبغى أن أذهب، لأنّه لا يبلغها عنى إلّا أنا أو رجل منّى؟! ثالثا: لم يذكروا دليلا لأصل هذا الموضوع، و هو أنّه كان من عادة العرب (كذا و كذا) و أكبر الظن أنّهم وجّهوا الحديث آنف الذكر وفق ميولهم و نزعاتهم! ...

رابعا:

جاء فى بعض الرّوايات المعتبرة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لا يذهب بها إلّا رجل منّى و أنا منه»

أو ما شابه ذلك.

و هذا التعبير يدل على أنّ النّبى كان يعدّ عليّا كنفسه، و يعد نفسه كعلى أيضا.

و هذا المضمون تناولته آية المباهلة.

و نستنتج ممّا ذكرناه آنفا أنّنا لو تركنا التعصب الأعمى و الأحكام المسبقة جانبا، وجدنا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بفعله هذا أبان أفضلية على عليه السلام على جميع الصحابة إنه هذا إلا بلاغ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۶

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (۲)

التّفسير

إلغاء عهود المشركين:

کانت فی المجتمع الإسلامی و محیطه طوائف شتی، و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتخذ منها موقفا خاصّا یتناسب و موقفها منه.
فطائفهٔ منها مثلا لم یکن لها أیّ عهد مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کذلک لم یکن له أیّ عهد معها.
و طوائف أخری عاهدت النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الحدیبیهٔ- و أمثالها- علی ترک المخاصمهٔ و المنازعهٔ، و کانت عهود بعضهم ذات أجل مسمی، و بعض العهود لم تکن ذات أجل مسمی.
و قد نقضت بعض تلک الطوائف عهودها من جانب واحد، و بدون أی سبب یجیز النقض و ذلک بمظاهرتها أعداء الإسلام. أو حاولت اغتیال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۷
کما هو الحال فی یهود بنی النضیر و بنی قریظهٔ، فواجههم النّبی بشدهٔ و طردهم من المدینهٔ، لکن بعض المعاهدات بقیت ساریهٔ المفعول، سواء کانت ذات أجل مسمی أو لم تکن.
الآیهٔ الأولی من الآیتین محل البحث تعلن للمشرکین کافهٔ بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی الَّذِینَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ
ثمّ أمهلتهم مدّهٔ أربعهٔ أشهر لیفکروا فیها و یحدّدوا موقفهم من الإسلام، فإمّا أن یترکوا عبادتهم للأصنام، أو یتهیئوا للمواجهة و القتال، فقالت: فَسِیحُوا فِی الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ[۲۶۲] وَ اعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِی الْکافِرِینَ

ملاحظتان

۱- هل یصحّ إلغاء المعاهدهٔ من جانب واحد؟!

نحن نعرف أنّ الإسلام أولی أهمیهٔ قصوی للوفاء بالعهد و الالتزام بالمواثیق حتی مع الکفار و المشرکین، و هنا ینقدح سؤال و هو: کیف أمر القرآن بإلغاء العهود التی کانت بین المسلمین و المشرکین من جانب واحد؟! و یتّضح الجواب بملاحظهٔ الأمور التالیهٔ:
أوّلا: کما صرّح فی الآیتین (۷) و (۸) من هذه السورهٔ فإنّ إلغاء هذا العهد لم یکن دون أیهٔ مقدمهٔ، بل هناک قرائن و دلائل ظهرت من جانب المشرکین تدلّ علی نقضهم عهدهم، و أنّهم کانوا علی استعداد- فی ما لو استطاعوا- أن یوجهوا ضربهٔ قاضیهٔ للمسلمین دون أدنی اعتناء بعهودهم التی عاهدوها، و من المنطقی
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۸
أنّه إذا رأی الإنسان عدوّه یتربص به و یستعد لنقض عهده، ولدیه قرائن علی ذلک و علائم واضحهٔ أن ینهض لمواجهته قبل أن یستغفله و یعلن إلغاء عهده و یردّ علیه بما یستحق.
ثانیا: ما المانع من إلغاء العهود و المواثیق التی تفرض فی ظروف استثنائیهٔ علی بعض الأمم و الشعوب- فیضطرون مکرهین علی قبولهم و الرضا بها- من جانب واحد إذا حصلوا علی القدرهٔ الکافیهٔ لإلغائها.
و عبادهٔ الأصنام لیست عقیدهٔ و لا فکرا، بل هی خرافهٔ و وهم باطل خطر، فیجب القضاء علیها و إزالتها من المجتمع الإنسانی، فإذا کانت قوهٔ عبدهٔ الأصنام و قدرتهم بالغهٔ فی الجزیرهٔ العربیهٔ، و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مجبورا علی معاهدتهم و مصالحتهم، فإنّ ذلک لا یعنی أنّه لا یحق له إلغاء- معاهدته إذا ما قویت شوکته- و أن یبقی علی عهده الذی یخالف العقل و المنطق و الدرایهٔ.

و هـذا يشـبه تماما ظهور مصلح كبير- مثلا- بين عبدة البقر، فيقوم بعمل إعلامى كبير، و حين يواجه ضـغوطا شديدة يضـطر إلى عقد هدنة بينهم و عند ما يجتمع له أتباع بقدر كاف ينتفض لإزالة هذه الخرافة، و الأفكار المنحطة، و يلغى معاهدته.

و لهذا نلحظ أنّ هذا الحكم مختص بالمشـركين، أمّا أهل الكتاب و سائر الأقوام الذين كانوا فى أطراف الجزيرة العربية من الذين كان بينهم و بين النّبى نوع من المواثيق و المعاهدات، فقد بقيت على حالها و لم يلغ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مواثيقهم و عهودهم حتى وفاته.

أضف إلى ذلك أن إلغاء عهود المشـركين لم يكن قد حدث بصورة مفاجئة، بل أمهلوا مدّة أربعة أشـهر، و أعلن هذا القرار فى الملأ العـام، و فى اجتمـاع الحـاج يـوم عيـد الأضـحى، و فى الـبيت الحرام، لتكـون لهم الفرصـة الكافيـة للتفكير، و لتحديـد الموقف، لعلهم يرجعون عن تلك الخرافة التى كانت أساس تفرقتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۹

و تشتتهم و جهلهم، و يرتدعون عن خيانتهم. و اللّه سبحانه لم يرض لهم أن يكونوا غافلين عن هذا القرار، فلم يسـلبهم فرصة التفكّر، فإنّ لم يسلموا فقد كانت لهم الفرصة الكافية للاستعداد للمواجهة القتالية و الحرب، لئلا تكون المواجهة غير متكافئة الطرفين.

فلو لم يكن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ليرعى الأصول الإنسانية و الأخلاقية لما كان أمهلهم مدّة أربعة أشـهر، و الفرصة الكافية لأن توقظهم من نومتهم؛ أو يستعدوا لتهيئة القوّة القتالية المناسبة لمواجهة المسلمين و محاربتهم إيّاهم بها.

أجل، لو لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كذلك لما أمهلهم و لحاربهم من يوم إلغاء المعاهدة! و من هنا فإنّنا نجد الكثير من أولئك المشركين- عبدة الأصنام- راجعوا أنفسهم و فكروا مليّا فى التعاليم الإسلامية حتى ثابوا إلى رشدهم و اعتنقوا الإسلام.

۲- متى بدأت الأشهر الأربعة؟

هناك بين المفسّرين كلام كثير فى الجواب على هذا السؤال، إلّا أنّ ظاهر الآى يدل على أن المدّة بدأت منذ إعلان البلاغ المهم على المشركين، أى من يوم عيد الأضحى، و هو العاشر من شهر ذى الحجة، و انتهت فى العاشر من شهر ربيع الثانى من السنة التالية.

و يؤيد ذلك ما ورد من حديث مروى عن الإمام الصّادق عليه السلام فى هذا الشأن «راجع تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۰۳».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۳ الى ۴]

اشارة

وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۳) إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۴)

التّفسير

العهود المحترمة:

نلحظ فی هاتین الآیتین البیّنتین مزید تأکید علی موضوع إلغاء المعاهدات التی کانت بین النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المشرکین، حتی أنّ تاریخ الإلغاء قد أعلن فی هذه الآیة إذ نقول: وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَی النَّاسِ یَوْمَ الْحَجِّ الْأَکْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِیءٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ وَ رَسُولُهُ ۲۶۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۱

و فی الحقیقة، أنّ اللّه سبحانه یرید فی هذا الإعلان العام فی مکّة المکرمة، و فی ذلک الیوم العظیم، أن یوصد کل ذریعة یتذرع بها المشرکون و الأعداء، و یقطع ألسنة المفسدین، لئلا یقولوا: إنّهم استغفلوا فی الحملة أو الهجوم علیهم، و إن ذلک لیس من الشّهامة و الرجولة.

کما أنّ التّعبیر ب «إلی الناس» مکان أن یقال «إلی المشرکین» یدل علی وجوب إبلاغ هذا «الأذان» و الإعلام لجمیع الناس الحاضرین فی مکّة ذلک الیوم، لیکون غیر المشرکین شاهدا علی هذا الأمر أیضا.

ثمّ یتوجه الخطاب فی الآیة إلی المشرکین أنفسهم ترغیبا و ترهیبا، لعلهم یهتدون، إذ تقول الآیة: فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ

أی أنّ الاستجابة لرسالة التوحید فیها صلاحکم و فیها خیر لکم و لمجتمعکم و دنیاکم و آخرتکم، فلو تدبّرتم بجد و صدق لرأیتم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافی لکلّ جراحاتکم و لیس فی الأمر منفعة للّه أو لرسوله.

ثمّ إنّ الآیة تحذر المخالفین المعاندین المتعصبین فتقول: وَ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اللَّهِ فلا یمکنکم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال.

و أخیرا فإنّ الآیة أنذرت المعاندین المتعصبین قائلة: وَ بَشِّرِ الَّذِینَ کَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِیمٍ

و کما أشرنا من قبل فإنّ إلغاء هذه العهود من جانب واحد- و رفض عهد المشرکین- یختص بأولئک الذین دلّت القرائن علی استعدادهم لنقض عهدهم و بدت بوادره، لذلک فإنّ الآیة استثنت قسما منهم لوفائهم بالعهد، فقالت إِلَّا الَّذِینَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ثُمَّ لَمْ یَنْقُصُوکُمْ شَیْئاً وَ لَمْ یُظاهِرُوا عَلَیْکُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَیْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلی مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُتَّقِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۲

ملاحظات

۱- الحج الأکبر!

اختلف المفسّرون فی المراد من قوله تعالی: یَوْمَ الْحَجِّ الْأَکْبَرِ و الذی نستفیده من کثیر من الرّوایات الواردة عن الفریقین، روایات أهل البیت علیهم السّلام و أهل السنة، أنّه یوم العاشر من ذی الحجة «عید الأضحی» و بتعبیر آخر «یوم النحر».

و انتهاء المدة بالیوم العاشر من شهر ربیع الثّانی «للسنة العاشرة»، وفقا لما جاء فی المصادر الإسلامیة، دلیل آخر علی هذا الموضوع: أضف إلی ذلک کله فإنّ یوم النحر فی الواقع ینتهی فیه القسم الأساس من أعمال الحج، و من هنا فیمکن أن یدعی ذلک الیوم بیوم الحج الأکبر[۲۶۴] و أمّا سبب تسمیته بالحج الأکبر، فلأنّه اجتمع فی ذلک العام جمیع الطوائف من المسلمین و عبدة الأوثان و المشرکین، [کما اعتادوا علیه فی موسم الحج إلّا أنّ هذا الأمر لم یتحقق فی السنین التالیة «لمنع غیر المسلمین من الحج».

و هناک تفسیر آخر مضافا إلی التّفسیر المذکور آنفا و هو أن المراد منه مراسم الحج فی قبال مراسم العمرة التی یعبر عنها بالحج الأصغر.

و هذا التّفسیر جاء فی بعض الرّوایات الإسلامیة، و لا یمنع أن تکون کلتا العلّتین مدعاة لهذه التسمیة[۲۶۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۳

۲- المواد الأربع التی أعلنت ذلک الیوم

و إن کـان القرآن الکریم أعلن براءة اللّه من المشـرکین بشـکل مطلق، إلّـا أنّ الـذی یسـتفاد من الرّوایات أنّ علیّا علیه السـلام قـد أمر بإبلاغ أربع مواد إلی الناس، و هی:

۱- إلغاء عهد المشرکین.

۲- لا یحق للمشرکین أن یحجّوا فی المواسم المقبلة.

۳- منع العراة و الحفاة من الطواف الذی کان شائعا و مألوفا حتی ذلک الوقت.

۴- منع المشرکین من دخول البیت الحرام.

و

قـد جـاء فی تفسـیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السـلام أنّ الإمام علیا خطب فی موسم الحـج ذلک العام فقال: «لا یطوفن بالبیت عریان، و لا یحجن البیت مشرک، و من کان له مدة فهو إلی مدته، و من لم تکن له مدة فمدته أربعة أشهر».

و فی بعض الروایات إشارة إلی المادة الرّابعة، و هی عدم دخول المشرکین و عبدة الأصنام البیت الحرام ۲۶۶].

۳- من هم الذین کانت لهم عهود «إلی مدّة»

یظهر من أقـوال المؤرخین و بعض المفسّـرین أنّ الـذین کـانت لعهـدهم مـدة، هم جماعـة من بنی کنـانه و بنی ضـمرة، فقـد بقی من عهـدهم فی ترک المنازعـة تسعة أشـهر، و قـد بقی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم علی عهده وفیّا، لأنّهم بقوا أوفیاء لعهدهم و لم یظاهروا المشرکین فی مواجهة الإسلام حیث انتهت مدّتهم ۲۶۷].

و قد عدّ بعضهم طائفة بنی خزاعة من هؤلاء الذین کان لعهدهم مدّة.[۲۶۸]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۴

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۵ الی ۶]

اشارة

فَإِذَا انْسَـلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّکـاةَ فَخَلُّوا سَـبِیلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْـرِکِینَ اسْـتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتَّی یَسْـمَعَ کَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَعْلَمُونَ (۶)

التّفسیر

الشدّة المقرونة بالرّفق:

نقرأ فی الآیتین أعلاه بیان وظیفة المسلمین بعد انتهاء مدّة إمهال المشرکین «الأشهر الأربعة» و قد أصدر القرآن أوامره الصارمة فی هذا الصدد فقال: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۲۶۹].

ثمّ یقول: وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ[۲۷۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۵

و یلاحظ فی هذه الآیة أربعة أوامر صارمة صادرة فی شأن المشرکین «إیصاد الطرق بوجههم، محاصرتهم، أسرهم، ثمّ قتلهم». و ظاهر النص أنّ الأمور الأربعة لیست علی نحو التخییر، بل ینبغی ملاحظة الظروف و المحیط و الزمان و المکان و الأشخاص، و العمل بما یناسب هذه الأمور، فلو کان فی الأسر و المحاصرة و إیصاد السبیل بوجه المشرکین الکفایة فیها، و إلّا فلا محیص عن قتالهم.

و هذه الشدّة متناغمة و متوائمة مع منهج الإسلام و خطته فی إزالة الوثنیة و قلعها من جذورها، و کما أشرنا إلی ذلک سلفا، فإنّ حریة الإعتقاد «أی عدم إکراه أهل الأدیان الأخری علی قبول الإسلام» تنحصر فی أهل الکتاب من الیهود و النصاری، و لا تشمل عبدة الأوثان، لأنّ الوثنیة لیست عقیدة صحیحة، و لا دینا کی تلحظ بعین الاحترام، بل هی تخلّف و خرافة و انحراف و جهل، و لا بدّ من استئصال جذورها بأی ثمن کان و کیف ما کان.

و هذه الشدّة و القوّة و الصرامة لا تعنی سدّ الطریق،- طریق الرجوع نحو التوبة- بوجههم، بل لهم أن یثوبوا إلی رشدهم و یعودوا إلی سبیل الحق، و لذلک فإنّ الآیة عقبت بالقول: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّکاةَ فَخَلُّوا سَبِیلَهُمْ

و فی هذه الحال، أی عند رجوعهم نحو الإسلام، لن یکون هناک فرق بینهم و بین سائر المسلمین، و سیکونون سواء و إیاهم فی الحقوق و الأحکام.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ یتوب علی عباده المنیبین إلیه.

و تستکمل الآیة التالیة هذا الموضوع بأمر آخر، کما یتّضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنّما هو نشر التوحید و الحق و العدالة، و لیس هو الاستثمار أو الاستعمار و امتصاص المال، أو الاستیلاء علی أراضی الآخرین، إذ تقول الآیة: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتَّی یَسْمَعَ کَلامَ اللَّهِ

أی علیک أن تعامل من یلجأ إلیک من المشرکین برفق و لطف، و امنحه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۶

المجال للتفکیر حتی یبیّن له محتوی دعوتک فی کمال الإرادة و الحریة، فإذا أشرقت أنوار الهدایة فی قلوبهم فسیؤمنون بدعوتک.

ثمّ تضیف الآیة قائلة: ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ و أوصله إلی مکان آمن حتی لا یعترضه أحد فی طریقه.

و أخیرا فإنّ الآیة تبین علة هذا الحکم، فتقول: ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَعْلَمُونَ

فبناء علی ذلک لو فتحت أبواب اکتساب المعرفة بوجوههم، فإنّه یؤمّل فیهم خروجهم من الوثنیة التی هی ولیدة الجهل- و التحاقهم برکب التوحید الذی هو ولید العلم و المعرفة.

و قد ورد فی کتب السنة و الشیعة أنّ أحد المشرکین (عبدة الأصنام) سأل علیّا علیه السلام بعد إلغاء المعاهدة فقال: یا ابن أبی طالب، لو أراد أحد أن یواجه النّبی بعد هذه المدّة «الأشهر الأربعة» و یسأله أو یسمع کلام اللّه منه، أهو آمن؟! فقال علی علیه السلام: أجل، إنّ اللّه یقول: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ ۲۷۱].

و هکذا تتوازن و تتساوی کفتا الشدّة المستفادة من الآیة الأولی- محل البحث- و اللین المستفاد من الآیة التی تلیها، فإنّ سبیل التربیة قائم علی الشدة المشفوعة باللین، لیکون منهما الدواء الناجع.

ملاحظات

۱- ما المراد من الأشهر الحرم؟

بالرّغم من أنّ المفسّرين قد بحثوا كثيرا فى هذا الشأن، إلّا أنّه- مع ملاحظة ما جاء فى الآيات المتقدمة- يظهر أنّ المراد منها هى أربعة الأشهر التى كانت مدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۷

الإمهال للمشركين، و التى بدأت من عاشر ذى الحجة للسنة التاسعة و انتهت بالعاشر من شهر ربيع الثّانى من السنة العاشرة الهجرية.

و هذا التّفسير يعتقد به أغلب المحققين، و الأهم من ذلك أنّ كثيرا من الرّوايات صرّحت بهذا المضمون أيضا[۲۷۲].

۲- هل الصّلاة و الزّكاة شرط فى قبول الإسلام؟

يستفاد من الآيتين محل البحث أنّه لا بدّ من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة لقبول توبة المشركين، و لهذا فقد استدل بعض فقهاء أهل السنة على أن ترك الصلاة و الزكاة دليل على الكفر.

إلّا أنّ الحق هو أنّ المراد من هذين الحكمين الإسلاميين هو متى ما شك فى إسلام شخص ما، كما هى الحال فى المشركين يومئذ، فعلامة إسلامه أن يؤدى هاتين الوظيفتين «الصلاة، و الزكاة».

أو أنّ المراد هو أن يقرّوا بالصلاة و الزكاة على أنّهما أمران إلهيان و يلتزموا بهما، و يعترفوا بهما على أنّهما فرضان واجبان و إن قصّروا فى أدائهما، لأن هناك أدلة وافرة تقضى بأنّ تارك الصلاة أو الزكاة ليس كافرا، بل يعدّ إسلامه ناقصا.

و بالطبع إن كان ترك الزكاة له دلالة على تحدّى الحكومة الاسلامية و الثورة عليها فهو سبب للكفر، إلّا أن هذا بحث آخر لا علاقة له بموضوعنا هذا.

۳- الإيمان وليد العلم

يستفاد من الآيات محل البحث أنّ الباعث على عدم الإيمان هو الجهل، و أساس الإيمان الأصيل هو العلم، لهذا فينبغى توفير الإمكانات اللازمة لإرشاد الناس و هدايتهم ليعرفوا طريق الحقّ، و لا يقبلوا الإسلام بواسطة التقليد إلا عميق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۸

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (۸) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (۱۰)

التّفسیر

المعتدون النّاقضون العهد:

كما لاحظنا فی الآیات السابقة الإسلام ألغی جمیع العهود التی كانت بینه و بین المشركین و عبدة الأوثان- إلّا جماعة خاصّة- و أمهلهم مدّة أربعة أشهر لیقرروا موقفهم منه.

و فالآیات- محل البحث- بیان لعلة إلغاء العهود من قبل الإسلام، فتقول الآیة الأولی من هذه الآیات مستفهمة استفهاما إنكاریا: كَیْفَ یَكُونُ لِلْمُشْرِكِینَ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۹

عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ ! أی أنّهم لا ینبغی لهم أن یتوقعوا أو ینتظروا الوفاء بالعهد من قبل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من جانب واحد، فی وقت تصدر منهم المخالفات و عدم الوفاء بالعهد.

ثمّ استثنت الآیة مباشرة أولئك الذین لم ینقضوا عهدهم، بل بقوا أوفیاء له، فقالت: إِلَّا الَّذِینَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِیمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُتَّقِینَ

و فی الآیة التالیة یثار هذا الموضوع بمزید الصراحة و التأكید، و یستفهم عنه استفهاما إنكاریا أیضا، إذ تقول الآیة: كَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْكُمْ لا یَرْقُبُوا فِیكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً.

و كلمة «الإلّ» معناها القرابة، و قال بعضهم: إنّها تعنی هنا العهد و المیثاق.

فعلی المعنی الأوّل أی «القرابة» یكون المراد من ظاهر الآیة أنّه بالرغم من أنّ قریشا تربطها برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعض المسلمین علاقة قربی، إلّا أنّها لا ترقب هذه القرابة أو الرحم و لا ترعی حرمتها، فكیف إذن تتوقع من النّبی و المسلمین احترام علاقتهم بها.

و علی المعنی الثّانی تكون كلمة «إلّ» مؤكّدة بكلمة (ذمّة) و تعنی العهد و المیثاق أیضا، قال الراغب فی المفردات: إن «الإل» كل حالة ظاهرة من عهد حلف و قرابة تئل (أی تلمع) فلا یمكن إنكاره [۲۷۳].

و تضیف الآیة معقبة بأن هؤلاء یریدون أن یخدعوكم بألفاظهم المزوّقة فقالت: یُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبی قُلُوبُهُمْ

لأن قلوبهم ملیئة بالحقد و القسوة و طلب الانتقام و عدم الاعتناء بالعهد و علاقة القربی، و إن أظهروا المحبّة بألسنتهم.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۰

و فی نهایة الآیة إشارة إلی جذر هذا الموضوع و أساسه و هو فسقهم، فتقول:

وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ

و فی الآیة التالیة بیان لبعض علائم فسقهم و عصیانهم، إذ أعربت الآیة عن ذلك علی النحو التالی اشْتَرَوْا بِآیاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِیلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِهِ

و قد جاء فی بعض الرّوایات أن أبا سفیان أقام مأدبة و دعا إلیها جماعة من الناس، لیثیر حفیظتهم و عداوتهم بوجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن هذا الطریق.

و یعتقد بعض المفسّرین أنّ الآیة محل البحث تشیر إلی هذه القصة، إلّا أن الظاهر أن الآیة ذات مفهوم واسع یشمل هذه القصّة و ما شاكلها حیث أغمضوا أعینهم و صدوا عن سبیل اللّه و آیاته من أجل منافعهم المادیة التی لا تدوم طویلا.

ثمّ تعقب الآیة بالقول: إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا یَعْمَلُونَ فقد خسروا طریق السعادة و ضیعوها، و حرّموا الهدایة، و هم فی الوقت ذاته أو صدوا

الطریق بوجه الآخرین، و أی عمل أسوأ من أن یحمل الإنسان وزره و وزر سواه! أمّا فی آخر آیة من الآیات- محل البحث- فهی تأکید آخر علی ما ورد فی الآیات المتقدمة، إذ تقول الآیة: لا یَرْقُبُونَ فِی مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً.

و هذه الخصلة فیهم لم یبتل بها المؤمنون فحسب بل یعتدون علی کل من تناله أیدیهم وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ

و بالرغم من أنّ مضمون هذه الآیة تأکید لما سبق من الآیات المتقدمة، إلّا أنّ هناک فرقا بینهما، حیث کان الکلام فی ما سبق علی عدم رعایة المشرکین حرمة لخصوص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه المتقّین حوله کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لا یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً أمّا الآیة محل البحث فالکلام فیها عن عدم رعایتهم حرمة لکل مؤمن لا یَرْقُبُونَ فِی مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً.

أی إن المشرکین لا ینظرون إلیکم (النّبی و الخواص من الصحابة) نظرة تمتاز عن سواکم بل هذه النظرة- نظرة العداء و البغضاء- ینظر بها المشرکون إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۱

کلّ مؤمن، و لا یکترثون بکل شیء و لا یرعون حرمة و لا عهدا، فهم فی الحقیقة أعداء الإیمان و الحقّ، و هم مصداق ما ذکره القرآن فی شأن أقوام سابقین أیضا حیث یقول: وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ یُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ[۲۷۴].

ملاحظتان

۱- من هم المستثنون فی هذه الآیة؟

جری الکلام بین المفسّرین فی الطائفة المستثناة من الحکم: إِلَّا الَّذِینَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فمن هؤلاء المستثنون فی هذه الآیة؟! إلّا أنّه بملاحظة الآیات السابقة، یظهر أن المراد من هذه الجملة هم أولئک الذین بقوا علی عهدهم و وفائهم، أی القبائل التی هی من بنی ضمرة و بنی کنانة و بنی خزیمة و أضرابهم.

و فی الحقیقة فإنّ هذه الجملة بمنزلة التأکید للآیات السابقة، فإنّ علی المسلمین أن یکونوا حذرین واعین، و أن یعرفوا هؤلاء الأوفیاء بالعهد و یمیزوهم عن سواهم الناکثین للعهد.

و ما قوله تعالی: عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فلعل هذا التعبیر یشیر إلی ما کان من معاهدة بین المسلمین و المشرکین فی السنة السادسة للهجرة، عند صلح الحدیبیة علی بعد خمسة عشر میلا عن مکّة، فقد التحق جماعة آخرون من مشرکی العرب کالقبائل المشار إلیها آنفا بهذه المعاهدة حیث عاهدوا المسلمین عن ترک الخصام، إلّا أن مشرکی قریش نقضوا عهدهم، ثمّ أسلموا فی السنة الثامنة عند فتح مکّة، أمّا الجماعة التی التحقت حینئذ من المشرکین بمن عاهد المسلمین، فلم یسلموا و لم ینقضوا عهدهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۲

و لمّا کانت أرض مکّة تستوعب منطقة واسعة «حولی ۴۸ میلا» فقد عدّت المنطقة کلها جزءا من المسجد الحرام، کما نقرأ عن ذلک فی الآیة (۱۹۶) من سورة البقرة، إذ تذکر موضوع حج التمتع و أحکامه فتقول: ذلِکَ لِمَنْ لَمْ یَکُنْ أَهْلُهُ حاضِرِی الْمَسْجِدِ الْحَرامِ و المعروف عند الفقهاء و فتاواهم أن أحکام حج التمتع إنما تجب علی من تبعد داره «أو دار أهله» أکثر من ۴۸ میلا عن مکّة.

فبناء علی ذلک لا مانع أبدا من أن یطلق علی الحدیبیة، التی تبعد ۱۵ میلا عن مکّة، تعبیر: عند المسجد الحرام.

و أمّا قول بعضهم: إن الاستثناء الوارد فی الآیة إنما هو فی شأن مشرکی قریش، الذین عدّ القرآن الکریم عهدهم الذی عقدوه فی صلح الحدیبیة محترما، فهذا القول یبدو بعیدا، بل هو غیر صحیحی، لأنّه.

أوّلا: من المعلوم أنّ مشرکی قریش نقضوا العهد، فنقضهم مقطوع به، و لا مراء فیه، فإن لم یکونوا قد نقضوا العهد، فمن الذین لم

ینقضوا عهدهم إذا؟! ثانیا: إن صلح الحدیبیة إنّما کان فی السنة السادسة للهجرة، بینما أسلم مشرکو قریش فی السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مکّة، فبناء علی ذلک فالآیات هذه النازلة فی السنة التاسعة للهجرة، لا یمکن أن تکون ناظرة إلیهم.

۲- متی یجوز الغاء المعاهدة؟

کما قلنا ذیل الآیات المتقدمة، فإنّ المراد من الآیات محل البحث لا یعنی جواز الغاء العهد بمجرّد تصمیم المشرکین و عزمهم علی نقض العهد عند بلوغهم القدرة، بل إنّهم أبدوا هذا الأسلوب و طریقة تفکیرهم عملیّا مرارا، فمتی استطاعوا أن یوجهوا ضربتهم إلی الإسلام دون الالتفات إلی المعاهدة وجهوها.

و هذا المقدار من عملهم کاف لإلغاء عهدهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۳

الآیات [سورة التوبة (۹): الآیات ۱۱ الی ۱۵]

اشارة

فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّکاةَ فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ وَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۱۱) وَ إِنْ نَکَثُوا أَیْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِی دِینِکُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْکُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَیْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ یَنْتَهُونَ (۱۲) أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَکَثُوا أَیْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۳) قاتِلُوهُمْ یُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَیْدِیکُمْ وَ یُخْزِهِمْ وَ یَنْصُرْکُمْ عَلَیْهِمْ وَ یَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِینَ (۱۴) وَ یُذْهِبْ غَیْظَ قُلُوبِهِمْ وَ یَتُوبُ اللَّهُ عَلی مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۱۵)

التّفسیر

لم تخشون مقاتلة العدوّ؟!

إنّ أحد أسالیب الفصاحة و البلاغة أن یکرر المتحدّث المطلب المهم بتعابیر مختلفة للتأکید علی أهمیة، و لیکون له أثر فی النفوس. و لما کانت مسألة تطهیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۴

المحیط الإسلامی من الوثنیة و عبادة الأصنام و إزالة آثارها، من المسائل ذات الأهمیّة القصوی، فإنّ القرآن یکرر هذه المطالب بعبارات جدیدة- فی الآیات محل البحث- و یورد القرآن کذلک لطائف تخرج المطلب- عن صورة التکرار، و لو التکرار المجازی.

فتقول الآیة الأولی من هذا الآیات محل البحث: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّکاةَ فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ

و تضیف معقبة وَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ

و کان التعبیر فی الآیات المتقدمة أنّهم إذا أدّوا وظیفتهم الإسلامیة، أی تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزّکاة فَخَلُّوا سَبِیلَهُمْ أمّا التعبیر فی هذه الآیة فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ أی لا فارق بینهم و بین أحد من المسلمین من حیث الاحترام و المحبّة، کما لا فارق بین الإخوان.

و هذه التعابیر تؤثر من الناحیة النفسیة فی أفکار المشرکین و عواطفهم لتقبل الإسلام، إذ تقول فی حقّهم تارة فَخَلُّوا سَبِیلَهُمْ و تارة فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ إلخ ...

و لكن لو استمر المشركون فى نقض العهود، فتقول الآية التالية: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ

صحيح أنّهم عاهدوكم على عدم المخاصمة و المقاتلة، إلّا أن هذه المعاهدة- بنقضها مرارا، و كونها قابلة للنقض فى المستقبل- لا اعتبار لها أصلا و لا قيمة لها.

و تعقّب الآية مضيفة لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ و فى الآية الأخرى خطاب للمسلمين لإثارة هممهم، و إبعاد روح الضعف و الخوف و التردد عنهم فى هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآية: أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ

فعلام تقلقون و أنتم لم تبدأوهم بالقتال و إلغاء العهد من قبلكم وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۵

أَوَّلَ مَرَّةٍ؟

و إذا كان بعضكم يتردد فى مقاتلتهم خشية، منهم، فإنّ هذه الخشية لا محل لها أ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

و فى الآية التالية وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

و ليس ذلك فحسب، بل، وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

و بهذا يشعر المؤمنون بالراحة و الطمأنينة بعد أن كانوا يقاسون الألم و العذاب تحت وطأة هؤلاء المجرمين، و يزيل اللّه تعالى عن قلوبهم آلام المحنة بهذا النصر وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ هم جماعة المؤمنين من بنى خزاعة، و قد استغفلهم عبدة الأوثان من بنى بكر فهجموا عليهم غدرا.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من هذا التعبير هم جماعة من أهل اليمن استجابوا لدعوة الإسلام، و لما وصلوا مكّة عذّبوا و أوذوا من قبل عبدة الأصنام.

إلّا أنّه لا يبعد أن تشمل هذه العبارة جميع أولئك الذين تعرّضوا لأذى المشركين و عبدة الأصنام و تعذيبهم فكانت قلوبهم تغلى دما منهم.

أمّا الآية التالية فتضيف: إنّ فى انتصار المؤمنين و هزيمة الكافرين سرورا للمؤمنين، و إنّ اللّه يسدّدهم وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ

و يحتمل أن تكون هذه الجملة تأكيدا للجملة السابقة وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ كما يحتمل أن تكون مستقلة عنها. و أن تكون الجملة السابقة إشارة إلى أنّ القلوب التى مرضت و تألمت سنين طوالا من أجل الإسلام و النّبى الكريم، شفيت بانتصار الإسلام.

و أمّا الجملة الثّانية وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ فهى إشارة أن أولئك الذين فقدوا أعزّتهم و أحبّتهم بما لا قوه من تعذيب وحشى من قبل المشركين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۶

فأغاظوهم، سيقّر اللّه عيونهم بهلاك المشركين وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ

و تختتم الآية بالقول: وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

كما تشير العبارة الأخيرة ضمنا إلى امكانية أن يلج بعضهم باب التوبة، فينبغى على المسلمين أن يعرفوا أن اللّه يقبل توبتهم، فلا يعاملوهم بشدة و قسوة فلا يجوز ذلك. كما أن الجمل بنفسها تحمل البشرى بأنّ مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام و يشملهم توفيق اللّه، لما لديهم من التهيؤ الروحى و القابليّة.

و قد ذهب بعض المفسّرين أنّ الآيات الأخيرة- بصورة عامّة من قبيل الإخبار القرانى بالمغيبات، و هى من دلائل صدق دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ ما أخبر عنه القرآن قد تحقق فعلا.

ملاحظات

۱- هناك كلام بين المفسّرين فى الجماعة الذين عنتهم الآية قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ من هم؟! قال بعضهم: إنّ الآية تشير إلى اليهود، و إلى بعض الأقوام الذين نازلوا المسلمين و قاتلوهم بعد حين كالفرس و الرّوم.

و قال بعضهم: هى إشارة إلى كفّار قريش.

و قال بعضهم: بل هى إشارة إلى المرتدين بعد إسلامهم.

إلّا أنّ ظاهر الآيات يدلّ- بوضوح- على أن موضوعها هو جماعة المشركين و عبدة الأصنام الذين عاهدوا المسلمين على عدم القتال و المخاصمة، إلّا أنّهم نقضوا عهدهم.

و كان هؤلاء المشركون فى أطراف مكّة أو سائر نقاط الحجاز.

كما أنّه لا يمكن القبول بأنّ الآية ناظرة إلى قريش، لأنّ قريشا

و رئيسها- أبا سفيان- أعلنوا إسلامهم- ظاهرا- فى السنة الثامنة بعد فتح مكّة، و السورة محل البحث نزلت فى السنة التاسعة للهجرة.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد من الآية هو الفرس أو الروم بعيد جدّا عن مفهوم الآية، لأنّ الآية- أو الآيات محل البحث- تتكلم عن مواجهة فعلية، لا على مواجهات مستقبلية أضف إلى ذلك فإنّ الفرس أو الروم لم يهمّوا بإخراج الرّسول من وطنه.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد هم المرتدون بعد الإسلام، بعيد غاية البعد، لإن التأريخ لم يتحدث عن مرتدين أقوياء واجهوا الرّسول ذلك الحين ليقاتلهم بمن معه من المسلمين.

ثمّ إنّ كلمة «أيمان» جمع «يمين» و كلمة «عهد» يشيران إلى المعاهدة بين المشركين و الرّسول على عدم المخاصمة، لا إلى قبول الإسلام. فلاحظوا بدقة.

و إذا وجدنا فى بعض الرّوايات الإسلامية أنّ هذه الآية طبّقت على «النّاكثين» فى «معركة الجمل» و أمثالها، فلا يعنى ذلك أن الآيات نزلت فى شأنهم فحسب، بل الهدف من ذلك أنّ روح الآية و حكمها يصدقان فى شأن الناكثين و من هم على شاكلتهم ممن سيأتون فى المستقبل.

و السؤال الوحيد الذى يفرض نفسه و يطلب الإجابة، هو: إذا كان المراد جماعة المشركين الذين نقضوا عهودهم، و قد جرى الكلام عليهم فى الآيات المتقدمة، فعلام تعبّر الآية هنا عنهم بالقول: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مع أنّهم قد نكثوها فعلا.

و الجواب: إنّ المراد من هذه الجملة- المذكورة آنفا- أنّهم لو واصلوا نقضهم أو نكثهم للأيمان، و لم يثوبوا إلى رشدهم، فينبغى مقاتلتهم. و نظير ذلك ما جاء فى قوله تعالى: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ و مفهومها أنّنا نطلب من اللّه أن يوفقنا لأنّ نسير على الصراط المستقيم و أن تستمرّ هدايته إيانا.

و الشاهد على هذا الكلام أنّ جملة وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ جاءت فى مقابل فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أى لا يخلو الأمر من أحد وجهين، فإمّا أن يتوبوا و يعرضوا عن الشرك و يتجهوا نحو اللّه، و إمّا أن يستمرا على طريقهم و نكث أيمانهم. ففى الصورة الأولى هم إخوانكم فى الدين، و فى الصورة الثّانية ينبغى مقاتلتهم.

۲- ممّا يسترعى الانتباه أنّ الآيات محل البحث لا- تقول: قاتلوا الكفار، بل تقول: فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ و هى إشارة إلى أن (القاعدة الجماهيرية) و عامّة الناس تبع لزعمائهم و رؤسائهم، فينبغى أن يكون الهدف القضاء على رؤسائهم و أئمتهم، لأنّهم أساس الضلال و التضليل و الظلم و الفساد، فاستأصلوا شجرة الكفر من جذورها و أحرقوها. فمواجهة الكفار لا تجدى نفعا ما دام أئمتهم فى الوجود،

أضف إلى ذلك فإنّ هـذا التعبير يعـدّ ضـربا من ضـروب النظرة البعيدة المدى و علو الهمة و تشـجيع المسـلمين، إذ عدّ أئمّة الكفر فى مقابل المسلمين، فليواجهوهم فذلك أجدر من مواجهة من دونهم من الكفّار.

و العجيب أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ هذا التعبير يعنى أبا سفيان و أمثاله من زعماء قريش، مع أنّ جماعة منهم قتلوا فى معركة بدر، و أسلم الباقى منهم كأبى سفيان بعد فتح مكّة- بحسب الظاهر- و كانوا عند نزول الآية فى صفوف المسلمين، فمقاتلتهم لا مفهوم لها.

و اليوم ما يزال هذا الدسـتور القرآنى المهم باقيا على قوته «سارى المفعول» فالكى نزيل الاسـتعمار و الفساد و الظلم، لا بدّ من مواجهة رؤوساء و الأكابر و أئمّة المنحرفين، و إلّا فلا جدوى من مواجهة من دونهم من الأفراد، فلاحظوا بدقة.

۳- إنّ التّعبير ب فَإِخْوانُكُمْ فِى الـدِّينِ الوارد فى الآيات المتقدمة، من ألطف التعابير التى يمكن أن يعبّر بها فى شأن المساواة بين أفراد المجتمع، و بيان أوثق العلائق العاطفية، لأنّ أجلى العلائق العاطفية و أقربها فى الناس التى تمثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۹

المساواة الكاملة هى العلاقة ما بين الأخوين.

إلّا أنّ من المؤسف أن الانقسامات الطبقية و النداءات القومية سـحقت هذه الأخوة الإسـلامية التى كان الأعداء يغبطوننا عليها، و وقف الإخوان فى مواجهة إخوانهم متراصين بشكل لا يصدق، و قد يقاتل كلّ منهما الآخر قتالا لا يقاتل العدوّ عدوه بمثل هذا القتال، و هذا واحد من أسرار تأخرنا فى عصرنا هذا.

۴- يسـتفاد- إجمالاـ- من جملـة «أ تخشونهم» أنّه كـان بين المسـلمين جماعـة يخافون من الاسـتجابة للأمر بالجهاد، إمّا لقوّة العـدوّ و قدرته، أو لأنّهم كانوا يعدو نقض العهد ذنبا.

فالقرآن يخاطبهم بصـراحة أن لا تخافوا من هؤلاء الضعاف، بل ينبغى أن تخافوا من عصيان أمر اللّه. ثمّ إن خشيتكم من نكث الإيمان و نقض العهـد ليست فى محلها، فهم الـذين نكثوا أيمانهم و هم بدأوكم أوّل مرّة! ۵- يبـدو أنّ جملة هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ إشارة إلى مسألـة عزمهم على إخراج الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة (عنـد هجرته إلى المدينة) بادئ الأمر، إلّا أن نياتهم تغيرت و تبدلت إلى الإقدام على قتله، إلّا أنّ النّبى غادر مكّة فى تلك الليلة بأمر اللّه.

و على كـل حال، فإنّ ذكر هـذا الموضوع ليس على سبيل أنّهم نقضوا عهـدهم، بل هو بيان ذكرى مؤلمـة من جنايات عبـدة الأصـنام، حيث اشتركت قريش و القبائل الأخرى فى هذا الأمر. أمّا نقض العهد من قبل عبدة الأصنام المشركين فكان واضحا من طرق أخرى.

۶- ممّا يثير الدهشـة و التعجب أنّ بعض أتباع مـذهب الجبر يسـتدل على مـذهبه بالآيـة قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ مع أنّنا لو تجردنا عن التعصب لما وجدنا فى الآية أدنى دليل على مرادهم، و هذا يشبه تماما لو أردنا أن ننجز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۰

عملا- مثلا- فنمضـى إلى بعض أصـدقائنا و نقول له: نأمل أن يصـلح اللّه هـذا الأمر على يـدك، فإنّ مفهوم كلامنا هذا لا يعنى بأنّك مجبور على أداء هذا الأمر، بل المراد أنّ اللّه منحك قدرة و نية طاهرة، و بالإفادة منهما اسـتطعت أن تؤدى عملك باختيارك و بحرية تامّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۱

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۶]

اشارة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما

تَعْمَلُونَ (۱۶)

التّفسیر

فی هذه الآیة ترغیب للمسلمین فی الجهاد عن طریق آخر، حیث تحمّل الآیة المسلمین مسئولیة ذات عبء کبیر، و هی أنّه لا ینبغی أن تتصوروا أن کلّ شیء سیکون تامّیا بادعائکم الإیمان فحسب، بل یتجلی صدق النیّة و صدق القول و الإیمان الواقعی فی قتالکم الأعداء قتالا خالصا من أی نوع من أنواع النفاق.

فتقول الآیة أوّلا: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَکُوا وَ لَمَّا یَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِینَ جاهَدُوا مِنْکُمْ وَ لَمْ یَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِینَ وَلِیجَةً[۲۷۵].

و «الولیجة» مشتقة من «الولوج» و معناه الدخول، و تطلق الولیجة علی من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۲

یعتمد علیه فی الأسرار و معناها یشبه معنی البطانة تقریبا.

و فی الحقیقة فإنّ الجملة المتقدمة تنبه المسلمین إلی أنّ الأعمال لا تکمل بإظهار الإیمان فحسب، و لا تتجلی شخصیة الأشخاص بذلک، بل یعرف الناس باختبارهم عن طریقین:

الأوّل: الجهاد فی سبیل اللّه لغرض محو آثار الشرک و الوثنیة.

الثانی: ترک أیة علاقة أو أی تعاون مع المنافقین و الأعداء.

فالأوّل لدفع العدو الخارجی، و الثّانی یحصّن المجتمع من خطر العدو الداخلی.

و جملة لَمَّا یَعْلَمِ اللَّهُ التی قد یلاحظ نظیرها فی بعض آیات القرآن الأخر، تعنی أن أمرکم لم یتحقق بعد، و بتعبیر آخر: إنّ نفی العلم هنا معناه نفی المعلوم، و یستعمل مثل هذا التعبیر فی مواطن التأکید. و إلّا فإنّ اللّه- طبقا للأدلة العقلیة و صحیح آیات القرآن الکثیرة- کان عالما بکل شیء، و سیبقی عالما بکل شیء.

و هذه الآیة تشبه الآیة الأولی من سورة العنکبوت، إذ تقول: الم* أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا یُفْتَنُونَ

و کما ذکرنا آنفا فی تفسیرنا لسورة آل عمران أنّ اختبار اللّه لعباده لیس لکشف أمر مجهول عنده، بل هو لتربیتهم و لأجل إنّما الاستعدادات و تجلّی الأسرار الداخلیة فی الناس.

و تختتم الآیة بما یدلّ علی الإخطار و التأکید وَ اللَّهُ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ

فلا ینبغی أن یتصور أحدّ أنّ اللّه لا یعرف العلائق السرّیة بین بعض الأفراد و بین المنافقین، بل یعرف کل شیء جیدا و هو خبیر بالأعمال کلها.

و یستفاد من سیاق الآیة أن بین المسلمین یؤمئذ من کان حدیث العهد بالإسلام و لم یکن علی استعداد للجهاد، فیشمله هذا الکلام أمّا المجاهدون الصادقون فقد بیّنوا مواقفهم فی سوح الجهاد مرارا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۳

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۱۷ الی ۱۸]

اشارة

ما کانَ لِلْمُشْرِکِینَ أَنْ یَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِینَ عَلی أَنْفُسِهِمْ بِالْکُفْرِ أُولئِکَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَ فِی النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (۱۷) إِنَّما یَعْمُرُ

مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (۱۸)

التّفسير

من يعمر مساجد اللّه؟

من جملة المسائل التى يمكن أن تخالط أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين و حكم الجهاد، هو: لم نبعد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أنّ مساهمتهم فى هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه «المادية و المعنوية» إذ يستفاد من إعاناتهم المهمّة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوى فى زيادة الحاجّ و الطائفين حول الكعبة المشرفة و بيت اللّه.

فالآيتان- محل البحث- تردّان على مثل هذه الأفكار الواهية التى لا أساس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۴

لها، و تصرّح الآية الأولى منهما بالقول: ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ.

و شهادتهم على كفرهم جلية من خلال أحاديثهم و و أعمالهم، بل هى واضحة فى طريقة عبادتهم و مراسم حجّهم.

ثمّ تشير الآية إلى فلسفة هذا الحكم فتقول: أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ

و لذلك فهى لا تجديهم نفعا: وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ

فمع هذه الحال لا خير فى مساعيهم لعمارة المسجد الحرام و بنائه و ما إلى ذلك، كما لا فائدة من كثرتهم و احتشادهم حول الكعبة.

فاللّه طاهر منزّه، و ينبغى أن يكون بيته طاهرا منزّها كذلك، فلا يصح أن تمسه الأيدى الملوثة بالشرك.

أمّا الآية التّالية فتذكر شروط عمارة المسجد الحرام- إكمالا للحديث آنف الذكر- فتبيّن خمسة شروط مهمّة فى هذا الصدد، فتقول، إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

و هذا النص إشارة إلى الشرطين الأوّل و الثّانى، اللذين يمثلان الأساس العقائدى، فما لم يتوفر هذان الشرطان لا يصدر من الإنسان أى عمل خالص نزيه، بل لو كان عمله فى الظاهر سليما فهو فى الباطن ملّوث بأنواع الأغراض غير المشروعة.

ثمّ تشير الآية إلى الشرطين الثّالث و الرّابع فتقول: وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ.

أى أن الإيمان باللّه و اليوم الآخر لا يكفى أن يكون مجرّد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان باللّه ينبغى أن تكون قوية محكمة، و أن يؤدى صلاته بإخلاص، كما ينبغى أن تكون علاقته بعباد اللّه و خلقه قوية، فيؤدى الزكاة إليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۵

و تشير الآية إلى الشرط الخامس و الأخير فتقول: وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ

فقلبه ملىء بعشق اللّه، و لا يحسّ إلّا بالمسؤولية فى امتثال أمره و لا يرى لأحد من عبيده أثرا فى مصيره و مصير مجتمعه و تقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر فى عمارة محل للعبادة.

ثمّ تضيف الآية معقبة بالقول: فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فيبلغون أهدافهم و يسعون لعمارة المسجد.

ملاحظات

١- ما المراد من العمارة

هل تعنی عمارة المسجد بناءه و تأسیسه و ترمیمه، أو تعنی الاجتماع فیه و المساهمة فی الحضور عنده؟! اختار بعض المفسّرین أحد هذین المعنیین فی تفسیر «عمارة المسجد» فی الآیة- محل البحث- غیر أنّ الآیة ذات مفهوم واسع یشمل هذه الأمور و ما شاکلّها جمیعا. فلیس للمشرکین أن یحضروا فی المساجد، و لیس لهم أن یبنوا مسجدا- و ما إلی ذلک- بل علی المسلمین أن یقوموا بکل ذلک.

و یستفاد من الآیة- ضمنا- أنّه لا ینبغی للمسلمین أن یقبلوا من المشرکین- بل جمیع الفرق غیر الإسلامیة- هدایا أو إعانات للمساجد و بنائها، لأنّ الآیة الأولی و إن کانت تتکلم علی المشرکین، لکنّ الآیة الثّانیة بدأت بکلمة «إنما» لتدل علی أن عمارة مساجد اللّه خاصّة بالمسلمین.

و من هنا یتّضح أیضا أنّ متولی المساجد و مسئولیها ینبغی أن یکونوا من أنزه الناس، و لا ینتخب لهذه المهمّة من لا حریجة له فی الدین طمعا فی ماله و ثروته، أو مقامه الاجتماعی کما هو الحال فی کثیر من البلاد، إذ تولّی مساجدها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۶

من لیس لها أهلا.

بل یجب ابعاد جمیع الأیدی الملوثة عن هذه الأماکن المقدسة.

و منذ أن تدخل فی أمور المساجد و المراکز الإسلامیة أو أشرف علیها حکام الجور، أو الأثریاء المذنبون، فقدت تلک المساجد و المراکز الإسلامیة «حیثیتها» و مکانتها و مسخت مناهجها البنّاءة، و لذا فنحن نری کثیرا من هذه المساجد علی شاکلة مسجد ضرار.

۲- العمل الخالص ینبع من الإیمان فحسب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۵۵۶

یتساءل بعضنا قائلا: ما یمنع أن نستعین بأموال غیر المسلمین لبناء المساجد و عمارتها؟! لکن من یسأل مثل هذا السؤال لم یلتفت إلی أنّ الإسلام یعد العمل الصالح ثمرة شجرة الإیمان فی کل مکان، فالعمل ثمرة نیّة الإنسان و عقیدته دائما و هو انعکاس لها و یتخذ شکلهما و لونهما دائما، فالنیات غیر الخالصة لا تنتج عملا خالصا.

۳- الحماة الشجعان

تدل عبارة وَ لَمْ یَخْشَ إِلَّا اللَّهَ علی أنّ عمارة المسجد المحافظة علیها لا تکون إلّا فی ظل الشهامة و الشجاعة، فلا تکون هذه المراکز المقدسة مراکز لبناء شخصیة الإنسان و ذات منهج تربوی عال إلّا إذا کان بانوها و حماتها رجالا شجعانا لا یخشون أحدا سوی اللّه، و لا یتأثرون بأی مقام، و لا یطبقون منهجا غیر المنهج الإلهی.

۴- هل المراد من الآیة هو المسجد الحرام فحسب؟!

یعتقد بعض المفسّرین أنّ الآیة محل البحث تختص بالمسجد الحرام، مع أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۷

ألفاظ الآیـهٔ عامّیهٔ، و لا دلیل علی هـذا التخصـیص، و إن کان المسـجد الحرام الذی هو أعظم المساجد الإسـلامیهٔ فی مقدمتها، و یوم نزول الآیهٔ کان المسجد الحرام هو محل إشارهٔ الآیهٔ، إلّا أنّ ذلک لا یدلّ علی تخصیص مفهوم الآیهٔ.

۵- أهمیهٔ بناء المساجد

وردت أحادیث کثیرهٔ فی أهمیهٔ بناء المساجد عن طرق أهل البیت و أهل السنهٔ، تدلّ علی ما لهذا العمل من الشأن الکبیر.

فقد ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من بنی مسجدا و لو کمفحص قطاهٔ بنی اللّه له بیتا فی الجنّهٔ»[۲۷۶].

کما

ورد عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «من أسرج فی مسجد سراجا لم تزل الملائکهٔ و حملهٔ العرش یستغفرون له ما دام فی ذلک المسجد ضوؤه»[۲۷۷].

إلّا أنّ ما هو أکثر أهمیهٔ هذا الیوم هو عمارهٔ المسـجد المعنویهٔ، و بتعبیر آخر ینبغی أن نهتم بعمارهٔ شخصـیهٔ الذین یرتادون المسـجد و أهله و حفظته اهتمامنا بعمارهٔ المسجد ذاته.

فالمسجد ینبغی أن یکون مرکزا لکل تحرک إسلامی فاعل یؤدی إلی إیقاظ الناس، و تطهیر البیئهٔ و المحیط، و حثّ المسلمین للدفاع عن میراث الإسلام.

و ینبغی الالتفـات إلی أن المسـجد جـدیر بأن یکون مرکزا للشـباب المؤمن، لا محلا للعجزهٔ و الکسالی و المقعـدین، فالمسـجد مجال للنشاط الاجتماعی الفعال، لا مجال العاطلین و البطّالین و المرضی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۸

الآیات [سورهٔ التوبهٔ (۹): الآیات ۱۹ الی ۲۲]

اشارهٔ

أَ جَعَلْتُمْ سِـقایَهَ الْحاجِّ وَ عِمارَهَ الْمَسْـجِدِ الْحَرامِ کَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ لا یَسْـتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ (۱۹) الَّذِینَ آمَنُوا وَ هـاجَرُوا وَ جاهَـدُوا فِی سَبِیـلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِـهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَـهً عِنْـدَ اللَّهِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰) یُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَهٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِیها نَعِیمٌ مُقِیمٌ (۲۱) خالِدِینَ فِیها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۲۲)

سبب النّزول

هناک روایات مختلفهٔ فی سبب نزول الآیات- محل البحث- منقولهٔ فی کتب أهل السنهٔ و الشیعهٔ، و نورد هنا ما یبدو أکثر صحهٔ.

یروی «أبو القاسم الحسـکانی» عالم أهل السـنهٔ المعروف، عن بریدهٔ، أن «شـیبهٔ» و «العباس» کان یفتخر کلّ منهما علی صاحبه، و بینما هما یتفاخران إذ مرّ علیهما علی بن أبی طالب علیه السلام فقال: فیم تتفاخران؟

فقال العباس: حبیت بما لم یحب به أحد و هو سقایهٔ الحاج.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۹

فقال شیبهٔ: إنی أعمر المسجد الحرام، و أنا سادن الکعبهٔ.

فقال علی علیه السلام: علی أنّی مستحی منکما، فلی مع صغر سنی ما لیس عندکما.

فقالا: و ما ذاک؟! فقال: جاهدت بسیفی حتی آمنتما باللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فخرج العباس مغضبا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شاکیا علیّا فقال: ألا تری ما یقول؟

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أدعو لی علیّا فلمّا جاءه علی قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لم کلّمت عمّک العباس بمثل هذا الکلام؟ فقال علیه السلام: إذا کنت أغضبته، فلما بیّنت من الحق، فمن شاء فلیرض بالقول الحق و من شاء فلیغضب.

فنزل جبرئیل علیه السلام و قال: یا محمّد، إنّ ربّک یقرؤک السلام و یقول: اتل هذه الآیات: أَ جَعَلْتُمْ سِقایَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ کَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ ۲۷۸].

و قد وردت هذه الروایة بالمضمون ذاته مع اختلاف یسیر فی التعابیر فی کتب کثیرة لأهل السنة، کتفسیر الطبری و الثعلبی، و أسباب النّزول للواحدی و تفسیر الخازن البغدادی، و معالم التنزیل للعلّامة البغوی، و المناقب لابن المغازلی، و جامع الأصول لابن الأثیر، و تفسیر الفخر الرازی، و کتب أخری.[۲۷۹] و علی کل حال، فالحدیث آنف الذکر من الأحادیث المعروفة و المشهورة، التی یقرّبها حتی المتعصبون، و سنتکلم عنه مرّة أخری بعد تفسیر الآیات.

التّفسیر

مقیاس الفخر و الفضل:

مع أنّ للآیات- محل البحث- شأنا فی نزولها، إلّا أنّها فی الوقت ذاته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۰

تستکمل البحث الذی تناولته الآیات المتقدمة، و نظیر ذلک کثیر فی القرآن.

فالآیة الأولی من هذه الآیات تقول: أَ جَعَلْتُمْ سِقایَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ کَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ لا یَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ

«السقایة» لها معنی مصدری و هو إیصال الماء للآخرین، و کما تعنی المکیال، کما جاء فی الآیة ۷۰ من سورة یوسف فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقایَةَ فِی رَحْلِ أَخِیهِ و تعنی الإناء الکبیر أو الحوض الذی یصب فیه الماء.

و کان فی المسجد الحرام بین بئر زمزم و الکعبة محل یوضع فیه الماء یدعی ب «سقایة العباس» و کان معروفا آنئذ، و یبدو أنّ هناک إناء کبیرا فیه ماء یستقی منه الحاج یومئذ.

و یحدثنا التأریخ أنّ منصب «سقایة الحاج» قبل الإسلام کان من أهل المناصب، و کان یضاهی منصب سدانة الکعبة، و کانت حاجة الحاج الماسة فی أیّام الحج إلی الماء فی تلک الأرض القاحلة الیابسة المرمضة[۲۸۰] التی یقل فیها الماء، و جوّها حار أغلب أیّام السنة، و کانت هذه الحاجة الماسة تولی موضوع «سقایة الحاج» أهمیّة خاصّة، و من کان مشرفا علی السقایة کان یتمتع بمنزلة اجتماعیة نادرة، لأنّه کان یقدم للحاج خدمة حیاتیة.

و کذلک «عمارة المسجد الحرام» أو سدانته و رعایته، کان لها أهمیته الخاصّة، لأنّ المسجد الحرام حتی فی زمن الجاهلیة کان یعدّ مرکزا دینیا، فکان المتصدی لعمارة المسجد أو سدانته محترما.

و مع کل ذلک فإنّ القرآن یصّرح بأنّ الإیمان باللّه و بالیوم الآخر و الجهاد فی سبیل اللّه أفضل من جمیع تلک الأعمال و أشرف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۱

أمّا الآية التالية فتوضح ما أجملته الآية السابقة و تؤكّده بالقول: الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ

و أمّا الآية الثّالثة- من الآيات محل البحث- فتقول: إنّ اللّه أنعم على المؤمنين و المهاجرون و المجاهدين فى سبيله ثلاث مواهب هى:

۱- يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ

۲- وَ رِضْوانٍ

۲۳- وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ

و تعقب الآية الأخيرة لمزيد التوكيد بالقول خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

ملاحظتان

۱- تحريف التاريخ

كما قرأنا آنفا فى شأن نزول الآيات محل البحث، و طبقا لرواية وردت فى كثير من كتب الآيات أهل السنة الشهيرة، أنّها نزلت فى على عليه السلام و بيان فضائله، على أنّ مفهوم الآيات عام واسع «و قد قلنا مرارا بأن أسباب النّزول لا تحدّد مفاهيم الآى».

إلّا أنّ بعض مفسّرى أهل السنة لم يرغب فى أن تثبت للإمام على عليه السلام فضائل بارزة مع اعتقادهم بأنّه رابع خلفاء المسلمين! و كأنّهم خافوا إن أذعنوا لما يجدونه عند على عليه السلام من الفضائل أن يقف الشيعة أمامهم متسائلين: لم قدّمتم على غيره؟

فلذلك أغمضوا النظر عن كثير من مناقبه و فضائله، و سعوا جاهدين لأن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۲

يقدحوا فى سند الرواية التى تذكر فضل على عليه السلام على غيره أو فى دلالتها.

و يا للأسف ما زال هذا التعصب المقيت ممتدا إلى عصرنا الحاضر، حتى أنّ بعض علمائهم المثقفين لم يسلموا من هذا الداء الوبيل و التعصب دون دليل! و لا- أنسى المحاورة التى جرت بينى و بين بعض علماء أهل السنة، إذ أظهر كلاما عجيبا عند ذكرنا لمثل هذه الأحاديث، فقال: فى عقيدتى أنّ الشيعة يستطيعون أن يثبتوا جميع معتقدات مذهبهم «أصولها و فروعها» من مصادرنا و كتبنا، لأنّ فى كتبنا أحاديث كافية لصالح آراء الشيعة و صحة مذهبهم.

إلّا أنّه من أجل أن يريح نفسه من جميع هذه الكتب، قال: أعتقد أن أسلافنا كانوا حسنى الظن، و قد أوردوا كل ما سمعوه فى كتبهم، فليس لنا أن نأخذ كل ما أوردوه ببساطة!! «طبعا كان حديثه يشمل الكتب الصحاح و المسانيد المعتبرة و ما هو عندهم فى المرتبة الأولى».

فقلت له: ليس هذا هو الأسلوب فى التحقيق، حيث يعتقد إنسان ما بمذهب معين، لأنّ آباءه كانوا عليه و ورثه عن سلفه، فما وجده من حديث ينسجم و مذهبه قال: إنّه صحيح، و ما لم ينسجم حكم عليه بعدم الصحة، لأنّ السلف الصالح كان حسن الظن، حتى لو كان الحديث معتبرا.

فما أحسن أن نختار أسلوبا آخر للتحقيق بدل ذلك، و هو أن نتجرّد من عقيدتنا الموروثة ثمّ ننتخب الأحاديث الصحيحة دون تعصب.

و نسأل الآن: لماذا سكتوا عن الأحاديث الشهيرة التى تذكر فضل على و علو مقامه، بل نسوها و ربّما طعنوا فيها، فكأن مثل هذه الأحاديث لا وجود لها أصلا؟

و مع الالتفات إلى ما ذكرناه آنفا، ننقل كلاما لصاحب تفسير «المنار» المعروف، إذ أهمل شأن نزول الآيات محل البحث المذكور

آنفا، و نقل روایة لا تنطبق و محتوى الآيات أصلا، و ينبغى أن نعدّها حديثا مخالفا للقرآن، فقال عنها:

إنّها معتبرة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۳

و هى مـا نقل عن النعمان بن بشـير إذ يقول: كنت جالسا فى عـدة من أصـحاب النّبى إلى جوار منبره، فقال بعضـهم: لا أرى عملا بعد الإسـلام أفضـل من سـقاية الحـاج و إروائهم، و قـال الآخر: إنّ عمارة المسـجد الحرام أفضل من كل عمل، فقال الثالث، فى سبيل اللّه أفضل ممّا قلتما.

فنهاهم عمر عن الكلام و قال: لا ترفعوا أصواتكم عنـد منبر رسول اللّه- و كان ذلك اليوم يوم الجمعة- و لكنّى سأسأل رسول اللّه بعد الفراغ من الصلاة- صلاة الجمعة- فى ما اختلفتم فيه.

و بعد أن أتمّ صلاته جاء إلى رسول اللّه فسأله عن ذلك، فنزلت الآيات محل البحث [۲۸۱].

إلّا أنّ هذه الرّواية لا تنسجم و الآيات محل البحث من عدّة جهات، و نحن نعرف أن كلّ رواية مخالفة للقرآن ينبغى أن تطرح جانبا و يعرض عنها؛ لأنّه:

أوّلاـ لم يكن فى الآيات محل البحث قياس ما بين الجهاد و سـقاية الحاج و عمارة المسـجد الحرام، بل القياس ما بين سـقاية الحاج و عمارة المسـجد الحرام من جهة، و الإيمان باللّه و اليوم الآخر و الجهاد من جهة أخرى، و هذا يدل على أن من كان يقوم بمثل السقاية و العمارة فى زمان الجاهلية كان يقيس عمله بالإيمان و الجهاد. فالقرآن يصـرّح بأنّ سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام لا يستويان- كل منهما- مع الإيمان باللّه و الجهاد فى سبيله و ليس القياس بين الجهاد و عمران المسجد و سقاية الحاج (لاحظ بدقة).

ثانيا: إنّ جملـة وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تدل على أن أعمال الطائفة الأولى كانت معروفة بالظلم، و إنما يفهم ذلك فيما لو كانت هذه الأعمال صادرة فى حال الشرك، لإنّ القرآن يقول إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [۲۸۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۴

و لو كـان القيـاس بين الإيمان و سـقاية الحاج المقرونـة بالإيمان و الجهاد، لكانت جملـة وَ اللَّهُ لا يَهْـدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لغوا- و العياذ باللّه- لأنّها حينئذ لا مفهوم لها هنا.

ثالثا: إنّ الآيـة الثّانية- محل البحث- التى تقول الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِـهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً مفهومها أن أولئك أفضل و أعظم درجـة ممن لم يؤمنوا و لم يهاجروا و لم يجاهـدوا فى سبيل اللّه، و هـذا المعنى لا ينسـجم و كلام النعمان- آنف الـذكر- لأنّ المتكلمين وفقا لحـديثه كلهم مؤمنون و لعلهم أسـهموا فى الهجرة و الجهاد رابعا: كان الكلام فى الآيات المتقـدمة عن إقـدام المشـركين على عمارة المساجد و عدم جواز ذلك: ما كانَ لِلْمُشْـرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ و الآيات محل البحث تعقب على الموضوع ذاته، و يدل هذا الأمر على أن موضوع الآيات هو عمارة المسـجد الحرام و سقاية الحاج حال الشرك، و هذا لا ينسجم و رواية النعمان.

و الشيء الوحيد الذى يمكن أن يستدل عليه هو التعبير ب أَعْظَمُ دَرَجَةً حيث يدل على أن الطرفين المقيسين كل منهما حسن بنفسه، و إن كان أحدهما أعظم من الآخر.

إلّا أنّ الجواب على ذلك واضح، لأنّ أفعل التفضـيل غالبا تسـتعمل فى الموازنة بين أمرين، أحدهما واجد للفضيلة و الآخر غير واجد، كأن يقال مثلا:

الوصول متأخرا خير من عدم الوصول، فمفهوم هذا الكلام لا يعنى أن عدم الوصول شيء حسن، لكن الوصول بتأخير أحسن.

أو أننا نقرأ فى القرآن وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ أى من الحرب [سورة النساء الآية ۲۸] فهذا لا يعنى أنّ الحرب شيء حسن.

أو نقرأ مثلا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ [سورة البقرة الآية ۲۲۱] ترى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۵۶۵

هل المشرک حسن و فیه خیر؟! أو نقرأ فی سورة التوبة ذاتها (الآیة ۱۰۸) لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَی التَّقْوی مِنْ أَوَّلِ یَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِیهِ أی أحق من مسجد ضرار الذی بناه المنافقون للعبادة، مع أننا نعرف أن العبادة فی مسجد ضرار لیست بحق أبداً، فنظیر هذه التعابیر فی القرآن و اللغة العربیة، بل فی سائر اللغات کثیر.

من مجموع ما ذکرناه نستنتج أن روایة النعمان بن بشیر لأنّها مخالفة لمحتوی القرآن ینبغی أن تطرح و تنبذ جانبا، و أن نأخذ بما ینسجم و ظاهر الآی، و هو ما قدمناه بین یدی تفسیر هذه الآیات، علی أنّه سبب لنزولها، و أنّه لفضیلة کبری لإمام الإسلام العظیم علی علیه السلام.

نسأل اللّه أن یثبت أقدامنا علی متابعة الحق و أهله من الأئمّة الصالحین، و أن یجنبنا التعصب، و یفتح أبصارنا و أسماعنا و أفکارنا لقبول الحق.

۲- ما هو مقام الرضوان؟

یستفاد من الآیات- محل البحث- أنّ مقام الرضوان الذی هو من أعظم المواهب التی یهبها اللّه المؤمنین و المجاهدین فی سبیله، هو شی‌ء غیر الجنات و النعیم المقیم و غیر رحمته الواسعة.

و سنتناول بیان هذا الموضوع ذیل الآیة (۷۲) من هذه السورة، فی تفسیر جملة وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَکْبَرُ إن شاء اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۵۶۶

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۲۳ الی ۲۴]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَکُمْ وَ إِخْوانَکُمْ أَوْلِیاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْکُفْرَ عَلَی الْإِیمانِ وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۳) قُلْ إِنْ کانَ آباؤُکُمْ وَ أَبْناؤُکُمْ وَ إِخْوانُکُمْ وَ أَزْواجُکُمْ وَ عَشِیرَتُکُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ کَسادَها وَ مَساکِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَیْکُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِی سَبِیلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ (۲۴)

التّفسیر

کلّ شی‌ء فداء للهدف:

إنّ آخر وسوسة أو ذریعة یمکن أن یتذرع بها جماعة من المسلمین للامتناع عن جهاد المشرکین (و فعلا فقد تذرع بعضهم وفقا لما ورد فی قسم من التفاسیر) بأن من بین المشرکین و عبدة الأوثان أقارب لهم، فقد یسلم الأب و یبقی ولده فی الشرک علی حاله، و قد یقع العکس إذ یخطو الابن نحو توحید اللّه و یبقی أبوه مشرکا، و هذه الحالة ربّما کانت موجودة بین الأخ و أخیه، و الزوج

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۵، ص: ۵۶۷

و زوجه، و الفرد و عشیرته أو قبیلته، و هکذا.

فإذا کان القرار أن یجاهد الجمیع المشرکین فلا بدّ أن یغمضوا أعینهم عن أرحامهم و أقاربهم و عشیرتهم إلخ. هذا کلّه من جهة.

ثمّ و من جهـة أخرى كانت رؤوس الأموال و القـدرة التجاريـة بيـد المشـركين تقريبا، و لهذا يسـبب تردد المشـركين إلى مكّة ازدهار التجارة.

و من جهة ثالثة كان للمسـلمين فى مكّة بيوت عامرة نسبيا، فإذا قاتلوا المشـركين فمن المحتمل أن يهدمها المشـركون، أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج و مناسكه بمكّة.

فالآيتان- محل البحث- ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشـخاص، و تردّان عليهم ببيان صـريح، فتقول الآية الأولى منهما: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ

ثمّ تعقب- على وجه التأكيد- مضيفة: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و أى ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسـان نفسه بتعلقه بأعـداء الحق و المشـركين، و يظلم مجتمعه، و يظلم نبيّه أيضا؟! أمّا الآيـة التاليـة فهى تتناول هذا الموضوع بنحو من التفصيـل و التأكيد و التهديد و التقريع، فتخاطب النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعنف أولئك الذين لا- يرغبون فى جهـاد المشـركين لمـا ذكرنـاه آنفـا، فتقول قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

و لما كان ترجيح مثل هذه الأمور على رضا اللّه و الجهاد فى سبيله، يعدّ نوعا من العصيان و الفسق البيّن، و إن من تشبث قلبه بالدنيا و زخرفها و زبرجها غير جدير بهداية اللّه، فإنّ الآية تعقب فى الختام قائلة وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۸

الْفاسِقِينَ

و قـد جاء فى تفسير على بن إبراهيم القمى فى شأن الآيتين ما يلى: «لما أذّن أمير المؤمنين أن لا يـدخل المسـجد الحرام مشـرك بعد ذلك، جزعت قريش جزعا شديدا، و قالوا: ذهبت تجارتنا و ضاعت علينا و خربت دورنا، فأنزل اللّه فى ذلك قل (يا محمّد) إلخ ...

و الآيتان- محل البحث- ترسمان خطوط الإيمان الأصيل و تميزانها عن الإيمان المبطن بالشرك و النفاق.

كما أنّهما تضـعان حـدا فاصـلا بين المؤمنين الواقعيين و بين ضـعاف الإيمان، و تقول إحداهما بصـراحة: إن كانت هذه الأمور الثمانية «فى الحياة المادية» التى يتعلق أربعة منها بالأرحام و الأقارب آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ

و يتعلق قسم منها بالمجتمع و «العشيرة».

و القسم السّادس يرتبط بالمال.

و السابع بالتجارة و الاكتساب.

و أمّا الثامن- و هو الأخير- فيتعلق بالمساكن ذات الأناقة «و مساكن ترضونها».

فإذا كانت هـذه الأمور الثمانية- المذكورة آنفا- أغلى و أعزّ و أحب عند الإنسان من اللّه و رسوله، و الجهاد فى سبيله و امتثال أوامره، حتى أن الإنسان لا يكون مستعدا بالتضـحية بتلك الأمور الثمانية من أجل اللّه و الرّسول و الجهاد، فيتّضح أن إيمانه الواقعى لم يكمل بعد! فحقيقة الإيمان و روحه و جوهره، كل ذلك يتجلّى بالتضحية بمثل هذه الأمور من دون تردد.

أضف إلى ذلك، فإن من لم يكن مستعدا للتضحية بمثل تلك الأمور، فقد ظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۹

نفسه و مجتمعه فى الواقع، كمـا أنّه سـيقع فى مـا كـان يخـاف من الوقوع فيه لأنّ الأمّـة التى تتلكأ فى اللحظات الحساسـة من تأريخها المصـيرى، و فى المآزق الحاسمة، فلا يضحى أبناؤها بمثل ذلك، فستواجه الهزيمة عاجلا أو آجلا، و سيتعرض كلّ ما تعلقت القلوب به فلم تجاهد من أجله الى خطر الضياع و التلف بيد الأعداء.

ملاحظات

اشارة

۱- ما قرأناه فی الآیتین- محل البحث- لیس مفهومه قطع علائق المحبة بالأرحام، و إهمال رؤوس الأموال الاقتصادیة، و الانسیاق إلی تجاوز العواطف الإنسانیة و إلغائها، بل المراد من ذلک أنّه ینبغی أن لا ننحرف عند مفترق الطرق إلی الأموال و الأزواج و الأولاد و الدور و المقام الدنیوی، بحیث لا نطبّق فی تلک الحالة حکم اللّه، أو لا نرغب فی الجهاد، و یحول عشقنا المادی دون تحقیق الهدف المقدس.

لهذا یلزم علی الإنسان إذا لم یکن علی مفترق الطرق أن یرعی الجانبین «العلاقة باللّه و العلاقة بالرحم».

فنحن نقرأ فی الآیة (۱۵) من سورة لقمان، قوله تعالی فی شأن الأبوین المشرکین وَ إِنْ جاهَداکَ عَلی أَنْ تُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِی الدُّنْیا مَعْرُوفاً.

۲- إنّ أحد تفاسیر جملة فَتَرَبَّصُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ما أشرنا إلیه آنفا، و هو التهدید من قبل اللّه لأولئک الذین یقدّمون منافعهم المادیة و یفضلونها علی رضا اللّه، و لما کان هذا التهدید مجملا کان أثره أشدّ وحشة و إشفاقا، و هذا التعبیر یشبه قول من یکلم صاحبه الذی دونه و تحت أمره، فیقول له: إذا لم تفعل ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۰

أمرتک، فسأقوم بما ینبغی أیضا.

و هناک احتمال آخر لتفسیر الجملة- محل البحث- و هو أنّ اللّه سبحانه یقول: إذا لم تکونوا مستعدین للتضحیة، فإنّ اللّه یفتح لنبیّه عن طریق آخر. و کیف شاء، إذ لیس ذلک بعسیر علیه. و نظیر هذا المعنی ما جاء فی الآیة (۵۴) من سورة المائدة، إذ نقرأ فیها یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللَّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ

الماضی و الحاضر مرهونان بهذا الأمر:

۳- قد یتصور بعضهم بأنّ ما جاء فی الآیتین یخص صدر الإسلام و التاریخ الماضی، إلّا أنّ ذلک خطأ کبیر، فالآیتان تستوعبان حاضر المسلمین و مستقبلهم أیضا.

فإذا قدّر للمسلمین أن لا یضحوا بأموالهم و أنفسهم و أولادهم و دورهم إلخ ... فی سبیل اللّه، و لا یکون لهم إیمان متین، و یفضلون الأمور المادیة علی رضا اللّه، و تبقی قلوبهم متعلقة بالمال و الأولاد و زبارج الدنیا، فیکون مستقبلهم مظلما، لا مستقبلهم فحسب، بل حتی یومهم هذا، ففی مثل هذا الحال سیحدق بهم الخطر و سیفقدون موروثهم الحضاری، و تکون مصادر حیاتهم بأیدی الأجانب و یفقدون معنی الحیاة، لأن الحیاة هی حیاة الإیمان و الجهاد فی ظل الإیمان.

فعلینا أن نغرس مدلول هاتین الآیتین فی قلوب أطفال المسلمین و شبابهم و نجعله شعارا لنا، و نحیی فی نفوس المسلمین روح التضحیة و الجهاد، لیحافظوا علی ثقافتهم و موروثهم المعرفی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۱

الآیات [سورة التوبة (۹): الآیات ۲۵ الی ۲۷]

اشارة

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (۲۵) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (۲۶) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۷)

التّفسير

الكثرة وحدها لا تجدى نفعا:

فى الآيات المتقدمة رأينا أنّ اللّه سبحانه يدعوا المسلمين إلى التضيحة و الجهاد على جميع الصعد فى سبيل اللّه و قلع جذور الشرك و عبادة الأوثان، و يهدد بشدّة من يتقاعس منهم عن الجهاد و التضحية بسبب التعلق بالأزواج و الأولاد و الأرحام و العشيرة و المال و الثروة.

أمّا الآيات محل البحث فتشير إلى مسألة مهمّة، و هى أنّ على كل قائد أن ينّبه أتباعه فى اللحظات الحساسة بأنّه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۲

الايمان و الذين يحجبهم التعلّق بالمال و الولد و الأزواج و ما إلى ذلك عن الجهاد فى سبيل اللّه، فلا ينبغى أن يقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، و عليهم أن يواصلوا طريقهم، لأنّ اللّه لم يتخلّ عنهم يوم كانوا قلة، كما هو الحال فى معركة بدر، و لا يوم كانوا كثرة- ملء العين (كما فى معركة حنين) و قد أعجبتهم الكثرة فلم تغن عنهم شيئا، لكن اللّه سبحانه أنزل جنودا لم تروها، و عذب الذين كفروا، فاللّه فى الحالين ينصر المؤمنين و يرسل إليهم مدده ...

لهذا فإن الآية الأولى من الآيات محل البحث تقول لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ.

و المواطن جمع الموطن، و معناه المحل الذين يختاره الإنسان للسكن الدائم، أو المؤقت، إلّا أن من معانيه أيضا ساحة الحرب و المعركة، و ذلك لأنّ المقاتلين يقيمون فى مكان الحرب مدّة قصيرة أو طويلة أحيانا.

ثمّ تضيف الآية معقبة وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ و كان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثنى عشر ألفا، و قال بعض المؤرخين: كانوا عشرة آلاف أو ثمانية آلاف، غير أنّ الرّوايات المشهورة تؤيد ما ذكرناه آنفا، إذ تقول:

إنّهم كانوا اثنى عشر ألفا، و هذا الرقم لم يسبق له مثيل فى الحروب الإسلامية قبل ذلك الحين، حتى اغترّ بعض المسلمين و قالوا: «لن نغلب اليوم».

إلّا أنّه- كما سنبيّن الموضوع فى الحديث على غزوة حنين- قد فرّ كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدى عهد بالإسلام و لم يتوغل الإيمان فى قلوبهم فانكسر جيش المسلمين فى البداية و كاد العدوّ أن يغلبهم لولا أن اللّه أنزل بلطفه مدده و جنوده فنجّاهم.

و يصور القرآن هذه الهزيمة بقوله وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۳

و فى هذه اللحظات الحساسة حيث تفرق جيش الإسلام هنا و هناك، و لم يبق مع النبى إلّا القلة، و كان النّبى مضطربا و متألّما جدّا لهذه الحالة نزل التأييد الإلهى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها.

و كما قلنا فى حديثنا عن غزوة بدر فى ذيل الآيات الخاصّة بها، أن نزول هذه الجنود غير المرئية كان لشدّ أزر المسلمين و تقوية

معنویـاتهم، و إیجـاد روح الثبـات و الاسـتقامة فی نفوسـهم و قلـوبهم، و لاـ یعنی ذلـک اشـتراک الملائکـة و القـوی الغیبیـة فی المعرکة[۲۸۳].

و یذکر القرآن النتیجة النهائیة لمعرکة حنین الحاسمة فیقول وَ عَذَّبَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ذلِکَ جَزاءُ الْکافِرِینَ

و کان هذا العذاب و الجزاء أن قتل بعض الکافرین، و أسر بعضهم، و فرّ بعضهم إلی مناطق بعیدة عن متناول الجیش الاسلامی.

و مع هـذا الحال فإنّ اللّه یفتـح أبواب توبته للأسـری و الفارین من الکفّار الـذین یرغبون فی قبول مبدأ الحق «الإسـلام» لهذا فإنّ الآیة الأخیرة من الآیات محل البحث تقول: ثُمَّ یَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ عَلی مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ

و جملـة «یتوب» التی وردت بصـیغة الفعل المضارع، و التی تـدل علی الاسـتمرار، مفهومها أن أبواب التوبة و الرجوع نحو اللّه مفتوحة دائما بوجه التائبین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۴

ملاحظات

۱- غزوة حنین ذات العبرة

«حنین» منطقة قریبة من الطائف، و بما أنّ الغزوة وقعت هناک فقد سمیّت باسم المنطقة ذاتها، و قد عبّر عنها فی القرآن ب «یوم حنین» و لها من الأسماء- غزوة أوطاس، و غزوة هوازن أیضا.

أمّا تسـمیتها بأوطاس، فلأن «أوطاس» أرض قریبـة من مکان الغزوة- و أمّا تسـمیتها بهوازن، فلأن إحدی القبائل التی شارکت فی غزوة حنین تدعی بهوازن.

أمّا کیف حدثت هذه الغزوة، فبناء علی ما ذهب إلیه ابن الأثیر فی الکامل، أن هوازن لمّا علمت بفتح مکّة، جمع القبیلة رئیسـها مالک بن عوف و قال لمن حوله: من الممکن أن یغزونا محمّد بعد فتح مکّة، فقالوا: من الأحسن أن نبدأه قبل أن یغزونا.

فلما بلغ ذلک النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر المسلمین أن یتوجهوا إلی أرض هوازن ۲۸۴].

و بـالرغم من عـدم الاختلاـف بین المؤرخین فی شـأن هـذه الغزوة و المسائـل العامّـِة فیها، إلّا أنّ فی جزئیاتها روایات متعـددة لا یکاد بعضـها ینسـجم مع الآخر، و ما ننقله هنا فقد اقتضبناه عن مجمع البیان للعلامة الطبرسی، بناء علی روایته القائلة: إنّ رؤساء طائفة هوازن جاءوا إلی مالک بن عوف و اجتمعوا عنـده فی أخریات شـهر رمضان أو شوال فی السـنة الثامنـة للهجرة، و کانوا قـد جاءوا بأموالهم و أبنائهم و أزواجهم لئلا یفکر أحدهم بالفرار حال المعرکة، و هکذا فقد وردوا منطقة أوطاس.

فعقـد النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لواءه، و سـلمّه علیّا علیه السـلام و أمر حملـة الرایات الـذین ساهموا فی فتـح مکّة أن یتوجهوا برایاتهم ذاتها مع علی بن أبی طالب إلی حنین، و اطّلع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۵

النّبی أن صـفوان بن أمیة لدیه دروع کثیرة، فأرسل النّبی إلیه أن أعرنا مائة درع، فقال صـفوان: أ تریدونها عاریة أم غصـبا؟ فقال النّبی: بل عاریة نضمنها و نعیدها سالمه إلیک، فأعطی صفوان النّبی مائة درع علی أنّها عاریة، و تحرک مع النّبی بنفسه إلی حنین.

و کان ألفا شـخص قد أسـلم فی فتح مکّة، فأضـیف عددهم إلی العشـرة آلاف الذین ساهموا فی فتح مکّة، و صاروا حوالی اثنی عشر ألفا، و تحرکوا نحو حنین.

فقـال مالـک بن عوف- و کـان رجلاـ جریئـا شـهما- لقبیلته: اکسـروا أغمـاد سـیوفکم، و اختبئوا فی کهوف الجبـال و الودیـان و بین

الأشجار، و اکمنوا لجیش الإسلام، فإذا جاءوکم الغداة «عتمة» فاحملوا علیهم و أبیدوهم.

ثمّ أضاف مالک بن عوف قائلا: إن محمّدا لم یواجه حتی الآن رجال حرب شجعانا، لیذوق مرارة الهزیمة!! فلما صلّی النّبی صلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ینزلوا إلی حنین، ففوجئوا بهجوم هوازن علیهم من کل جانب وصوب، و أصبح المسلمون مرمی لسهامهم، ففرّت طائفة من المقاتلین جدیدی الإسلام (بمکّة) من مقدمة الجیش، فکان أن ذهل المسلمون و اضطروا و فرّ الکثیر منهم. فخلّی اللّه بین جیش المسلمین و جیش العدو، و ترک الجیشین علی حالهما، و لم یحم المسلمین لغرورهم- مؤقتا- حتی ظهرت آثار الهزیمة فیهم.

إلّا أنّ علیا حامل لواء النّبی بقی یقاتل فی عدّة قلیلة معه، و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی (قلب) الجیش و حوله بنو هاشم، و فیهم عمه العباس، و کانوا لا یتجاوزون تسعة أشخاص عاشرهم أیمن ابن أم أیمن.

فمرّت مقدمة الجیش فی فرارها من المعرکة علی النّبی فأمر النّبی عمّه العباس- و کان جهیر الصوت- أن یصعد علی تل قریب و ینادی فورا: یا معشر المهاجرین و الأنصار، یا أصحاب سورة البقرة، یا أهل بیعة الشجرة، إلی أین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۶

تفرّون؟ هذا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فلمّا سمع المسلمون صوت العباس رجعوا و قالوا: لبّیک لبّیک، و لا سیما الأنصار إذ عادوا مسرعین و حملوا علی العدوّ من کل جانب حملة شدیدة، و تقدّموا بأذن اللّه و نصره، بحیث تفرقت هوازن شذر مذر مذعورة، و المسلمون ما زالوا یحملون علیها. فقتل حوالی مائة شخص من هوازن، و غنم المسلمون أموالهم کما أسروا عدّة منهم ۲۸۵].

و نقرأ فی نهایة هذه الحادثة التأریخیة أن ممثلی هوازن جاءوا النّبی و أعلنوا إسلامهم، و أبدی لهم النّبی صفحه و حبّه، کما أسلم مالک بن عوف رئیس القبیلة، فردّ النّبی علیه أموال قبیلته و أسراه، و صیره رئیس المسلمین فی قبیلته أیضا.

و الحقیقة أنّ السبب المهم فی هزیمة المسلمین بادئ الأمر- بالإضافة إلی غرورهم لکثرتهم- هو وجود ألفی شخص ممن أسلم حدیثا و کان فیهم جماعة من المنافقین طبعا، و آخرون کانوا قد جاءوا مع النّبی لأخذ الغنائم، و جماعة منهم کانوا بلا هدف، فأثر فرار هؤلاء فی بقیة الجیش.

أمّا السرّ فی انتصارهم النهائی فهو وقوف النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و علی علیه السّلام و جماعة قلیلة من الأصحاب، و تذکرهم عهودهم السابقة و إیمانهم باللّه و الرکون إلی لطفه الخاص و نصره.

۲- من هم الفارّین

ممّا لا شک فیه أنّ الأکثریة الساحقة فرّت بادئ الأمر من ساحة المعرکة، و ما تبقی منهم کانوا عشرة فحسب، و قیل أربعة عشر شخصا، و أقصی ما أوصل عددهم المؤرخون لم یتجاوزوا مائة شخص.

و لما کانت الرّوایات المشهورة تصّرح بأن من بین الفارین الخلفاء الثلاثة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۷

فإنّ بعض المفسّرین سعی لأن یعدّ هذا الفرار أمرا طبیعیا.

یقول صاحب تفسیر المنار ما ملخصه: لما رشق العدوّ المسلمین بسهامه، کان جماعة قد التحقوا بالمسلمین من مکّة، و فیهم المنافقون و ضعاف الإیمان و الطامعون «للغنائم» ففرّ هؤلاء جمیعا و تقهقروا إلی الخلف، فاضطرب باقی الجیش طبعا، و حسب العادة- لا خوفا- فقد فرّوا أیضا، و هذا أمر طبیعی عند فرار طائفة فإنّه یتزلزل الباقی منهم فیفر أیضا- ففرارهم لا یعنی ترک النّبی و عدم نصرته أو

تسليمه بيد عدوه، حتى يستحقوا غضب اللّه!![۲۸۶] و نحن لا نعلّق على هذا الكلام، لكن نتركه للقراء ليحكموا فيه حكمهم.

كما ينبغى أن نذكر هذه المسألهٔ و هى أنّ «صحيح البخارى» حين يتكلم عن الهزيمهٔ و فرار المسلمين ينقل ما يلى:

فإذا عمر بن الخطاب فى الناس، و قلت: (الراوى): ما شأن الناس؟ قال: أمر اللّه، ثمّ تراجع الناس إلى رسول اللّه ۲۸۷].

غير أننا تجرّدنا من الأحكام المسبقهٔ، و التفتنا إلى القرآن الكريم، وجدناه لا يذم جماعهٔ بعينها، بل يذم جميع الفارين.

و لا ندرى ما الفرق بين قوله تعالى ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ حيث قرأنا هذه العبارهٔ فى الآيات محل البحث، و بين عبارهٔ أخرى وردت فى الآيهٔ (۱۶) من سورهٔ الأنفال إذ تقول وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ! فبناء على ذلك لو ضممنا الآيتين بعضهما إلى بعض لعرفنا أنّ المسلمين ارتكبوا خطأ كبيرا يومئذ إلّا القليل منهم، غايهٔ ما فى الأمر أنّهم تابوا بعدئذ و رجعوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۸

۳- الإيمان و السكينة

السكينهٔ فى الأصل مأخوذهٔ من السكون، و تعنى نوعا من الهدوء أو الاطمئنان الذى يبعد كل نوع من أنواع الشك و الخوف و القلق و الاستيحاش عن الإنسان، و يجعله راسخ القدم بوجه الحوادث الصعبهٔ و الملتويهٔ. و السكينهٔ لها علاقهٔ قربى بالإيمان، أى أنّ السكينهٔ وليدهٔ الإيمان، فالمؤمنون حين يتذكرون قدرهٔ اللّه التى لا غايهٔ لها، و يتصورون لطفه و رحمته يملأ قلوبهم موج الأمل و يغمرهم الرجاء.

و ما نراه من تفسير السكينهٔ بالإيمان فى بعض الرّوايات ۲۸۸]، أو بنسيم الجنّهٔ متمثلا فى صورهٔ إنسان ۲۸۹] كل ذلك ناظر إلى هذا المعنى.

و نقرأ فى القرآن فى الآيهٔ (۴) من سورهٔ الفتح قوله تعالى: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ

و على كل حال فهذه الحالهٔ نفسيهٔ خارقهٔ للعادهٔ، و موهبهٔ إلهيهٔ بحيث يستطيع الإنسان أن يهضم الحوادث الصعبهٔ، و أن يحس فى نفسه عالما من الدعهٔ و الاطمئنان برغم كلّ ما يراه.

و ممّا يسترعى النظر أن القرآن- فى الآيات محل البحث- لا يقول: ثمّ أنزل اللّه سكينته على رسوله و عليكم، مع أنّ جميع الجمل فى الآيهٔ تحتوى على ضمير الخطاب (كم)، بل تقول الآيهٔ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ و هى إشارهٔ إلى أن المنافقين و أهل الدنيا و الذين كانوا مع النّبى فى المعركهٔ لم ينالوا سهما من السكينهٔ و الاطمئنان، بل كانت السكينهٔ من نصيب المؤمنين فحسب.

و نقرأ فى بعض الرّوايات أن نسيم الجنّهٔ هذا كان مع أنبياء اللّه و رسله ۲۹۰]،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۹

فلذلك كانوا- فى الحوادث الصعبهٔ التى يفقد فيها كل إنسان توازنه إزاءها- أصحاب عزم راسخ و سكينهٔ و اطمئنان، و إرادهٔ حديديهٔ لا تقبل التزلزل.

و كان نزول السكينهٔ على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى معركهٔ حنين- كما ذكرنا آنفا- لرفع الاضطراب الناشئ من فرار أصحابه من المعركهٔ، و إلّا فهو كالجبل الشامخ الركين، و كذلك ابن عمّه على عليه السلام و قلهٔ من أصحابه (المسلمين).

۴- فى الآيات محل البحث إشارهٔ إلى أنّ اللّه نصر المسلمين فى مواطن كثيرهٔ! هناك كلام كثير بين المؤرخين حول عدد مغازى النّبى و حروبه، التى أسهم فيها صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شخصيّا، و قاتل الأعداء، أو حضرها دون أن يقاتل بنفسه، أو الحروب التى وقف فيها المسلمون بوجه أعدائهم و لم يكن الرّسول حاضرا فى المعركهٔ.

إلّا أنّه يستفاد من بعض الرّوايات التى وصلتنا عن طرق أهل البيت عليهم السّلام أنّها تبلغ الثمانين غزوة.

و قد ورد فى كتاب (الكافى) أن أحد خلفاء بنى العباس كان قد نذر مالا كثيرا إن هو عوفى من مرضه «و يقال أنّه قد سمّ»، فلما عوفى جمع الفقهاء الذين كانوا عنده، فسألهم عن المال الذى يجب أداؤه لإيفاء نذره، فلم يعرفوا للمسألة جوابا. و أخيرا سأل الخليفة العباسى الإمام التاسع محمّد بن على الجواد عليه السلام

فقال: «الكثير ثمانون».

فلمّا سألوه عن دليله فى ذلك استشهد الإمام بالآية لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ ثمّ قال: عددنا حروب النّبى التى انتصر فيها المسلمون على أعدائهم فكانت ثمانين [۲۹۱].

۵- إن ما ينبغى على المسلمين أن يعتبروا به و يلزمهم أن يأخذوا منه درسا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۰

بليغا، هو أن ينظروا إلى الحوادث التى هى على شاكلة حادثة حنين، فلا يغتروا بكثرة العدد أو العدد، فالكثرة وحدها لا تغنى شيئا، بل المهم فى الأمر وجود المؤمنين الراسخين فى الإيمان، ذوى الإرادة و التصميم، حتى لو كانوا قلة.

كما أنّ طائفة قليلة استطاعت أن تغير هزيمة حنين إلى انتصار على العدو و كانت الكثيرة بادئ الأمر سبب الهزيمة، لأنّها لم تنصهر بالإيمان تماما.

فالمهم أن يتوفر فى مثل هذه الحوادث أناس مؤمنون ذوو استقامة و تضحية، لتكون قلوبهم مركزا للسكينة الإلهية، و ليكونوا كالجبال الراسخة بوجه الأعاصير المدمرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۱

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۲۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۸)

التّفسير

لا يحقّ للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام:

قلنا: إن واحدا من الأمور الأربعة التى بلّغها الإمام على عليه السلام فى موسم الحج فى السنة التاسعة للهجرة، هو أنّه لا يحق لأحد من المشركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآية محل البحث تشير إلى هذا الموضوع و حكمته، فتقول أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا.

و هل الآية هذه دليل على نجاسة المشرك بالمفهوم الفقهى، أو لا؟! هناك كلام بين الفقهاء و المفسّرين، و من أجل تحقيق معنى الآية يلزمنا التحقيق فى كلمة «نجس» قبل كل شىء ...

«النجس» على زنة «الهوس» كلمة ذات معنى مصدرى، و تأتى للتأكيد و المبالغة و الوصف.

يقول الراغب فى مفرداته: إنّ النجاسة و النجس يطلقان على كل قذارة، و هى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۲

علی نوعین: قذارة حسیة، و قذارة باطنیة.

و یقول الطبرسی فی مجمع البیان: کل ما ینفر منه الإنسان یقال عنه: إنّه نجس.

فلذلک فإنّ کلمة نجس تستعمل فی موارد کثیرة- حتی فی ما لا مفهوم للنجاسة الظاهریة فیه- فمثلا یسمّی العرب الأمراض الصعبة المزمنة أو التی لا علاج لها ب «النجس» کما یطلق علی الشخص الشّریر، أو الساقط خلقیا، أو الشیخ الهرم، أنّه نجس.

و من هنا یتّضح أنّه مع ملاحظة ما جاء فی الآیة- محل البحث- لا یمکن الحکم بأنّ إطلاق کلمة نجس علی المشرکین تعنی أن أجسامهم قذرة کقذارة البول و الدم و الخمر و ما إلی ذلک أو لعقیدتهم «الوثنیة» فهی قذارة باطنیة، و من هنا لا یمکن الاستدلال بهذه الآیة علی نجاسة الکفار، بل ینبغی البحث عن أدلة أخری.

ثمّ تعقب الآیة علی ذوی النظرة السطحیة الذین کانوا یزعمون بأن المشرکین إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم و غدوا فقراء معوزین فتقول وَ إِنْ خِفْتُمْ عَیْلَةً فَسَوْفَ یُغْنِیکُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ.

کما فعل ذلک سبحانه علی خیر وجه، فباتساع رقعة الإسلام فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أخذ سیل الزائرین یتجه نحو بیت اللّه فی مکّة، و ما زال هذا الأمر مستمرا حتی عصرنا الحاضر حیث أصبحت مکّة فی أحسن الظروف فهی بین سلسلة جبال صخریة لا ماء فیها و لا زرع، لکنّها مدینة عامرة، و قد صارت بإذن اللّه مرکزا مهما للبیع و الشراء التجارة.

و یضیف القرآن فی نهایة الآیة قائلا: إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ فکل ما یأمرکم به اللّه فهو وفق حکمته، و هو علیم بما سیؤول إلیه أمره من نتائج مستقبلیة، و هو خبیر بذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۳

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۲۹]

اشارة

قاتِلُوا الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ لا یُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا یَدِینُونَ دِینَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ حَتَّی یُعْطُوا الْجِزْیَةَ عَنْ یَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ (۲۹)

التّفسیر

مسئولیتنا إزاء أهل الکتاب:

کان الکلام فی الآیات السابقة عن وظیفة المسلمین إزاء المشرکین، أمّا الآیة- محل البحث (و ما یلیها من الآی)- فتبیّن تکلیف المسلمین و وظیفتهم إزاء أهل الکتاب.

و فی هذه الآیات جعل الإسلام لأهل الکتاب سلسلة من الأحکام تعدّ حدّا وسطا بین المسلمین و الکفار، لأنّ أهل الکتاب من حیث اتّباعهم لدینهم السماوی لهم شبه بالمسلمین، إلّا أنّهم من جهة أخری لهم شبه بالمشرکین أیضا.

و لهذا فإنّ الإسلام لا یجیز قتلهم، مع أنّه یجیز قتل المشرکین الذین یقفون بوجه المسلمین، لأنّ الخطة تقضی بقلع جذور الشرک و الوثنیة من لکرة الأرضیة، غیر أنّ الإسلام یسمح بالعیش مع أهل الکتاب فی صورة ما لو احترم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۴

أهل الكتاب الإسلام، و لم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

و العلامة الأخرى لموافقتهم على الحياة المشتركة السلمية مع المسلمين هى أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومة الاسلامية مبلغا قليلا من المال بحدود و شروط معينة سنتناولها فى البحوث المقبلة إن شاء اللّه.

و فى غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، و يوضح القرآن دليل شدة هذا الحكم فى جمل ثلاث فى الآية محل البحث: إذ تقول الآية أوّلا: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

لكن كيف لا يؤمن أهل الكتاب- كاليهود و النصارى- باللّه و باليوم الآخر، مع أننا نراهم فى الظاهر يؤمنون باللّه و يقرون بالمعاد أيضا؟

و الجواب: لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات و الأوهام، أمّا فى مسألة الإيمان بالمبدأ و حقيقة التوحيد، فلأنّه:

أوّلا: يعتقد طائفة من اليهود- كما سنرى ذلك فى الآيات المقبلة- أن عزيرا ابن اللّه، كما يتعقد المسيحيون عامّة بألوهية المسيح و التثليث [اللّه و الابن و روح القدس .

و ثانيا: كما يشار إليه فى الآيات المقبلة، فانّ كلّا من اليهود و النصارى مشركون فى عبادتهم، و يعبدون أحبارهم- عمليّا- و يطلبون منهم العفو و الصفح عن الذنب، و هذا ممّا يختصّ به اللّه، مضافا إلى تحريف الأحكام الإلهية بصورة رسمية.

و أمّا إيمانهم بالمعاد فإيمان محرّف، لأنّ المعاد كما يستفاد من كلامهم منحصر بالمعاد الروحانى، فبناء على ذلك فإنّ إيمانهم بالمبدأ مخدوش، و إيمانهم بالمعاد كذلك.

ثمّ تشير الآية إلى الصفة الثّانية لأهل الكتاب، فتقول: وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۵

اللَّهُ وَ رَسُولُهُ

و من الممكن أن يكون المراد من كلمة «رسوله» نبيّهم موسى أو عيسى عليهما السّلام، لأنّهم لم يكونوا أوفياء لأحكام دينهم، و كانوا يرتكبون كثيرا من المحرمات الموجودة فى دين موسى أو عيسى، و لا يقتصرون على ذلك فحسب، بل كانوا يحكمون بحليتها أحيانا.

و يمكن أن يكون المراد من «رسوله» نبيّ الإسلام محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أى إنّما أمر المسلمون بمقاتلة اليهود و النصارى و جهادهم إيّاهم، لأنّهم لم يذعنوا لما حرّمه اللّه على يد نبيّه، و ارتكبوا جميع أنواع الذنوب.

و هذا الاحتمال يبدو أقرب للنظر، و الشاهد عليه الآية (۳۳) من هذه السورة ذاتها، و سنقف على تفسيرها قريبا، إذ تقول: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِ

أضف إلى ذلك حين ترد كلمة (رسوله) فى القرآن مطلقة فالمراد منها النّبى (محمّد) صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لو سلّمنا بأنّ المراد من (رسوله) هنا نبيّهم، فكان ينبغى أن تكون الكلمة (تثنية) أو جمعا، كما جاء فى الآية (۱۳) من سورة يونس وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ و نظير هذا التعبير فى القرآن ملحوظ و يمكن أن يقال: إنّ الآية فى هذه الصورة ستكون من باب تحصيل الحاصل أو توضيح الواضح، لأن من البديهى أن غير المسلمين لا يحرمون ما حرمه الإسلام.

لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ المراد من هذه الصفات هو بيان علة جواز جهاد المسلمين اليهود و مقاتلتهم إيّاهم. أى يجوز أن تجاهدوا اليهود و النصارى- لأنّهم لا يحرمون ما حرم الإسلام ارتكبوا كثيرا من الآثام- إذا واجهوكم و خرجوا عن كونهم أقلية مسالمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۶

و تذكر الآية الصفة الثّالثة التى كانوا يتصفون بها فتقول: وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ

و يوجد احتمالان فى هذه الجملة أيضا، إلّا أنّ الظاهر أنّ المراد من دين الحق هو دين الإسلام المشار إليه بعد بضع آيات.

و ذكر هذه الجملة بعد عدم اعتقادهم بالمحرمات الإسلامية، هو من قبيل ذكر العام بعد الخاص، أى أن الآية أشارت أوّلا إلى

ارتکابهم لمحرمات کثیرة، و هی محرّمات تلفت النظر کشرب الخمر و الربا و أکل لحم الخنزیر، و ارتکاب کثیر من الکبائر التی کانت تتسع یوما بعد یوم.

ثمّ تقول الآیة: إن هؤلاء لا یدینون بدین الحق أساسا، أی أن أدیانهم منحرفة عن مسیرها الأصیل، فنسوا کثیرا من الحقائق و التزموا بکثیر من الخرافات مکانها، فعلیهم أن یتقبلوا الإسلام، و أن یعیدوا بناء أفکارهم من جدید علی ضوء الإسلام و هداه، أو یکونوا مسالمین- علی الأقل- فیعیشوا مع المسلمین، و أن یقبلوا شروط الحیاة السلمیة مع المسلمین.

و بعد ذکر هذه الأوصاف الثلاثة، التی هی فی الحقیقة المسوغ لجهاد المسلمین لأهل الکتاب، تقول الآیة مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ

و کلمة «من» فی الآیة بیانیة لا تبعیضیة، و بتعبیر آخر: إنّ القرآن یرید أن یقول: إن أهل الکتاب السابقین- و للأسف- لا یدینون بدین الحق و انحرفوا عن المعتقدات الصحیحة، و هذا الحکم یشملهم جمیعا.

ثمّ تبیّن الآیة الفرق بین أهل الکتاب و المشرکین فی مقاتلتهم، بالجملة التالیة حَتَّی یُعْطُوا الْجِزْیَةَ عَنْ یَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ

«و الجزیة» مأخوذة من مادة الجزاء، و معناها المال المأخوذة من غیر المسلمین الذین یعیشون فی ظلّ الحکومة الإسلامیة، و هذه التسمیة لأنّها جزاء حفظ أموالهم و أرواحهم (هذا ما یستفاد من کلام الراغب فی مفرداته فلا بأس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۷

بمراجعتها).

«و الصاغر» مأخوذ من «الصغر» علی زنة «الکبر» و خلاف معناه، و معناه الراضی بالذلة. و المراد من الآیة أن الجزیة ینبغی أن تدفع فی حال من الخضوع للإسلام و القرآن.

و بتعبیر آخر: هی علامة الحیاة السلمیة، و قبول کون الدافع للجزیة من الأقلیة المحفوظة و المحترمة بین الأکثریة الحاکمة.

و ما ذهب إلیه بعض المفسّرین من أنّ المراد من الجزیة فی الآیة هو تحقیر أهل الکتاب و إهانتهم و السخر منهم، فلا یستفاد ذلک من المفهوم اللغوی لکلمة الآیة، و لا ینسجم و روح تعالیم الإسلام السمحة، و لا ینطبق مع سائر التعالیم أو الدستور الذی وصلنا فی شأن معاملة الأقلیات.

و ما ینبغی التنویه به هنا هو أنّ الآیة و إن ذکرت شرط «الجزیة» من بین شروط الذمة فحسب، إلّا أن التعبیر ب هُمْ صاغِرُونَ إشارة إجمالیة إلی سائر شروط الذمّیة، لأنّه یستفاد من هذه الجملة بأنّهم- مثلا- یعیشون فی محیط إسلامی، فلیس لهم أن یظاهروا أعداء الإسلام، و لا یکون لهم إعلام مضاد للإسلام، و لا یقفوا حجر عثرة فی رقیه و تقدمه، و ما إلی ذلک، لأنّ هذه الأمور تتنافی و روح الخضوع و التسلیم للإسلام و التعاون مع المسلمین.

ما هی الجزیة؟!

تعدّ الجزیة ضریبة مالیة «إسلامیة» و هی تتعلق بالأفراد لا بالأموال و لا بالأراضی، أو بتعبیر آخر: هی ضریبة مالیة سنویة علی الرؤوس.

و یعتقد بعضهم أنّها لیست من أصل عربی، بل هی فارسیة قدیمة و أصلها «کزیت» و معناها الأموال التی تؤخذ للدعم العسکری، أو ما یصطلح علیه فی عصرنا ب «المجهود الحربی». لکن الکثیر یعتقدون أن هذه الکلمة «الجزیة»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۸

عربیة خالصة.

و کما ذکرنا آنفا فهی مأخوذة من الجزاء، لأنّ الضریبة التی تدفع، إنّما هی جزاء الأمن الذی توفره الحکومة الإسلامیة للأقلیات المذهبیة.

و الجزية، كانت قبل الإسلام، و يعتقد بعضهم أن أوّل من أخذ الجزية هو كسرى أنوشروان الملك الساساني، و لو لم نسلّم بأنّه الأوّل فلا أقل من أن أنوشروان كان يأخذ من أبناء وطنه الجزية، و كان يأخذ ممن لم يكن موظفا في الدولة و عمره أكثر من عشرين عاما و أقل من خميس عاما، مبلغا سنويا يتراوح بين ۱۲ و ۸ و ۶ و ۴ درهم، على أنّه ضريبة سنوية على كل فرد.

و ذكروا أن فلسفة هذه الضرائب أو حكمتها هي الدفاع عن موجودية الوطن و استقلاله و أمنه، و هي وظيفة عامّة على جميع الناس، فبناء على ذلك متى ما قام جماعة فعلا بالمحافظة على الوطن و لم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم يكتسبون و يتّجرون- مثلا- فإن على الجماعة الثّانية أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنوية للدولة.

و ما لدينا من القرائن يؤيد فلسفة الجزية ... سواء قبل الإسلام أو بعده.

فمسألة السنّ في من يعطي الجزية في عصر أنوشروان الذي ذكرناه آنفا «و هي أنّ الجزية تقع على من عمره عشرون عاما إلى خميس عاما» دليل واضح على هذا المطلب، لأنّ أصحاب هذه المرحلة، من العمر كانوا قادرين على حمل السلاح و المساهمة في الحفاظ على أمن البلاد، إلّا أنّهم كانوا يدفعون الجزية لأعمالهم و كسبهم.

و الشاهد الآخر على ذلك أنّه لا تجب الجزية «في الإسلام» على المسلمين، لأنّ الجهاد واجب عليهم جميعا، و عند الضرورة يجب على الجميع أن يتجهوا نحو ساحات القتال ليقفوا بوجه العدوّ، إلّا أنّه لما كانت الأقليات المذهبية في حلّ من أمر الجهاد، فعليها أن تدفع المال مكان الجهاد، ليكون لهم نصيب في

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۹

الحفاظ على أمن الوطن الذي يتمتعون بالحياة فيه.

ثمّ إن سقوط الجزية عن الأطفال و الشيوخ و المقعدين و النساء و العمى، دليل آخر على هذا الموضوع.

ممّا ذكرناه يتّضح أن الجزية إعانة مالية فحسب، يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحمله المسلمون من مسئولية في الحفاظ عليهم و على أموالهم.

فبناء على ذلك فإنّ من يزعم أنّ الجزية نوع من أنواع حق التسخير، لم يلتفت إلى روحها و حكمتها و فلسفتها، و هي أن أهل الكتاب متى دخلوا في أهل الذمة فإنّ الحكومة الإسلامية يجب عليها أن ترعاهم و تحافظ عليهم و تمنعهم من كل أذى أو سوء. و هكذا فإنّ أهل الذمة عند دفعهم الجزية، بالإضافة إلى التمتع بالحياة مع المسلمين في راحة و أمان فليس عليهم أي تعهد من المساهمة في القتال مع المسلمين و في جميع الأمور الدفاعية- و يتّضح أن مسئوليتهم إزاء الحكومة الإسلامية أقل من المسلمين بمراتب.

أي أنّهم يتمتعون بجميع المزايا في الحكومة الإسلامية بدفعهم مبلغا ضئيلا، و يكونون سواء هم و المسلمون. في حين أنّهم لا يواجهون الأخطار و مشاكل الحرب.

و من الادلة التي تؤيد فلسفة هذا الموضوع، أنّه في المعاهدات التي كانت- في صدر الإسلام بين المسلمين و أهل الكتاب في شأن الجزية، تصريح بأنّ على أهل الكتاب أن يدفعوا الجزية، و في قبال ذلك على المسلمين أن يمنعوهم (أي يحفظوهم) و أن يدافعوا عنهم إذا داهمهم العدو الخارجي.

و هذه المعاهدات كثيرة، و نورد مثلا منها، و هي المعاهدة التي تمت بين خالد بن الوليد مع المسيحيين الذين كانوا يقطنون حول «الفرات»:

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۹۰

نص كتاب المعاهدة:

«هـذا کتاب من خالد بن الولید لصـلوبا بن نسـطونا و قومه، إنی عاهدتکم علی الجزیة و المنعة، فلک الذّمة و المنعة، و ما منعناکم فلنا الجزیة و إلّا فلا، کتب سنة اثنتی عشرة فی صفر»[۲۹۲].

و الـذی یسترعی النظر هو أننا نقرأ فی هـذه المعاهدة و أمثالها أنّه متی ما قصّـر المسـلمون فی الحفاظ علی أهل الذمة أو لم یمنعوهم، فالجزیة تعاد إلیهم أو لا تؤخذ منهم عندئذ أصلا.

و ینبغی الالتفـات إلی أنّ الجزیـة لیس لها مقـدار معین و میزانها بحسب اسـتطاعة من تجب علیهم، غیر أنّ المسـتفاد من التواریـخ أنّها عبارة عن مبلغ ضئل قد لا یتجاوز الدینار[۲۹۳] فی السـنة، و ربّما قید فی المعاهدة أن علی دافعی الجزیة أن یدفعوا بمقدار استطاعتهم جزیة.

و من جمیع ما تقـدم ذکره یتّضـح أنّ جمیع ما أثیر من شـبهات أو إشـکالات فی هذا الصدد، باطل لا اعتبار له، و یثبت أن هذا الحکم الإسلامی حکم عادل و منصف.

---

[۱] (۱) المنار، ج ۸، ص ۳۵۹.

[۲] (۱)- سفینة البحار، المجلد الثانی، ص ۴- ۵، مادة لبس.

[۳] (۱)- بحار الأنوار، الطبعة الجدیدة، الجزء ۱۱، الصفحة ۳۱۸.

[۴] (۱)- راجع سورة البقرة، ۲۶۸ و ۲۶۹.

[۵] (۱)- سورة سبأ، ۸.

[۶] (۱) جملـة« فریقـا هـدی» من حیث الإعراب و الترکیب تکون کالتالی: فریقا مفعول هـدی فعل و فاعل مؤخرین، و فریقا(الثّانیـة) مفعول مقدم.

و أضل فعل و فاعل مؤخران مقدران دل علیهما جملة« حق علیهم الضلالة».

[۷] (۱) للاطلاع علی هذه الرّوایات راجع تفسیر البرهان المجلد ۲، الصفحة الثّانیة ۹ و ۱۰ و تفسیر نور الثقلین المجلد الثّانی الصفحة ۱۸ و ۱۹.

[۸] (۲) المصدر السابق.

[۹] (۱) الوسائل، المجلد الثالث، أبواب أحکام الملابس.

[۱۰] (۲) الوسائل، أبواب أحکام الملابس الباب ۷، ح ۳.

[۱۱] (۱) الوسائل، ج ۳، أبواب الملابس الباب ۷، ح ۱۱.

[۱۲] (۱) مجمع البیان، المجلد ۴، ص ۴۱۳.

[۱۳] (۱) التبیان عند تفسیر الآیة المبحوثة، و تاج العروس مادة« إثم».

[۱۴] (۱) عیون أخبار الرضا علیه السلام، طبقا لروایة تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۲۶.

[۱۵] (۱) القصص، ۲۳.

[۱۶] (۲) آل عمران، ۱۰۴.

[۱۷] (۳) الأعراف، ۱۶۴.

[۱۸] (۴) الأعراف، ۱۶۰.

[۱۹] (۱)« أمّا» مركبة فى الأصل من« أن»، و« ما» و« إن» حرف شرط و« ما» حرف للتأكيد.

[۲۰] (۱) لمزيد من التوضيح راجع تفسير الآية(۲۱) من سورة الأنعام.

[۲۱] (۱) التعبير بالأخت كناية عن الارتباط الفكرى و الصلة الروحية بين هذه الفرق المنحرفة، و حيث أن الأمة مؤنث لفظى، لهذا عبر عنها بالأخت، لا الأخ.

[۲۲] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۷، ص ۱۸۲، ۱۷

[۲۳] (۱) مجمع البيان فى ذيل الآية المبحوثة.

[۲۴] (۱) راجع« تاج العروس»، و« القاموس» مادة الجمل.

[۲۵] (۱) المهاد جمع مهد و زان عهد أى الفرش، و الغواش فى الأصل غواشى جمع غاشية بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء، كما أنّه يطلق على الخيمة أيضا، و فى الآية الحاضرة يمكن أن يكون بمعنى الخيمة أو بمعنى الغطاء.

[۲۶] (۱) ينبغى أن لا- يتصور أحد بأنّ معنى الجملة المعترضة هو أنّ مفادها أجنبى و غريب من الموضوع المعترض، بل لا بدّ أنّ هناك ارتباطا ما بينها و بين ما قبلها و ما بعدها، و إن كانت من حيث التركيب توسطت كلاما متصلا، و على هذا الأساس فإنّ الجملة المعترضة معترضة من حيث التركيب اللفظى، لا من حيث المعنى.

[۲۷] (۱) للمزيد من التوضيح راجع الآية(۱۶۱) من سورة آل عمران.

[۲۸] (۲) تفسير المنار، المجلد ۸، الصفحة ۴۲۱.

[۲۹] (۱) نور الثقلين، المجلد الثّانى، الصفحة ۳۱، و تفسير القرطبى، المجلد الرّابع، الصفحة ۲۶۴۵، و تفاسير أخرى.

[۳۰] (۱) يبغونها عوجا بمعنى يطلبونها عوجا، أى أنّهم يرغبون و يجتهدون فى أن يضلوا الناس بإلقاء الشبهات و الدعايات المسمومة عن الطريق المستقيم. كما أنّ الراغب قال فى« المفردات» عوج(بفتح العين) يعنى الاعوجاج الحسى، و عوج بكسر العين يطلق على الاعوجاجات التى تدرك بالفكر و العقل، و لكن هذا التفصيل لا ينسجم مع ظاهر طائفة من الآيات القرآنية مثل الآية(۱۰۷) من سورة طه(فتأمل بدقّة).

[۳۱] (۱) مجمع البيان عند الآية المطروحة هنا.

[۳۲] (۲) تفسير البرهان، المجلد الثّانى، الصفحة ۱۷.

[۳۳] (۱) التوبة، ۳.

[۳۴] (۲) تفسير المنار، ج ۸، ص ۴۲۶.

[۳۵] (۱) روح المعانى، ج ۸، ص ۱۲۳.

[۳۶] (۱)« تلقاء» فى الأصل- حسب قول بعض المفسّرين و أهل الأدب- مصدر، و هو بمعنى المقابلة، و لكن استعمل فيما بعد فى معنى ظرف المكان، أى فى المكان المقابل و المحاذى.

[۳۷] (۱) تفسير البرهان، المجلد الثانى، الصفحة ۱۷ و ۱۸ و ۱۹.

[۳۸] (۲) المصدر السابق.

[۳۹] (۳) المصدر السابق.

[۴۰] (۴) نور الثقلين، المجلد الثّانى، الصفحة ۳۳ و ۳۴.

[۴۱] (۵) تفسير البرهان، المجلد الثّانى، الصفحة ۱۷.

[۴۲] (۱) تفسير الطبرى، المجلد ۷، الصفحة ۱۳۷ و ۱۳۸ عند تفسير الآية.

[۴۳] (۱) تفسير البرهان، المجلد الثّانى، الصفحة ۱۹ و ۲۰.

[۴۴] (۲) تفسير الطبرى، ج ۸ الصفحة، ۱۴۲ و ۱۴۳.

[۴۵] (۱) و هى: الآية المبحوثة هنا، و ۳ يونس، و ۷ هود، و ۵۹ الفرقان و ۴ السجدة و ۳۸ ق، و ۴ الحديد.

[۴۶] (۱) البقرة، ۲۵۹.

[۴۷] (۲) النمل، ۲۸

[۴۸] (۳) الأنعام، ۱۴۱.

[۴۹] (۱) سورة يس، ۸۲.

[۵۰] (۱) مجمع البيان، المجلد الرابع، الصفحة ۴۲۹.

[۵۱] (۱) مجمع البيان، المجلد الرابع، الصفحة ۴۲۹.

[۵۲] (۱) النّكد: هو البخيل الممسك الذى يتعذر أخذ شىء منه بسهولة، و لو أنّه أعطى لأعطى الشىء اليسير الحقير. و لقد شبهت الأراضى المالحة السبخة غير المساعدة للزرع بمثل هذا الشخص.

[۵۳] (۱) كلمة عظيم فى الآية أعلاه صفة« ليوم» لا للعذاب.

[۵۴] (۱)« عمين» جمع عمى، و هو يطلق عادة على من تعطلت بصيرته الباطنية، و لكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهرى، و كذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضا(و عمى حينما يدخل عليها الإعراب تتبدل إلى عم).

[۵۵] (۱) قال الطبرسى فى المجمع: الناقة أصلها من التوطئة و التذليل بعير منوق أى مذلل موطأ، و لعل إطلاقها على أثنى الإبل لكونها أكثر ذلولا للامتطاء و الركوب.

[۵۶] (۱)« تعثوا» مشتقة من مادة« عثى» معنى إيجاد الفساد، غاية ما هنالك أنّ هذه المادة تستعمل فى الأغلب فى المفاسد الأخلاقية و المعنوية، فى حين تطلق مادة« عبث» على المفاسد الحسية، و بناء على هذا يكون كلمة« المفسدين» بعد جملة« لا تعثوا» لغرض التأكيد، لأنّ كليهما يعطيان معنى واحدا.

[۵۷] (۱) المراد من العقر هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حركتها، فإذا قطع سقط الحيوان، و فقد القدرة على الحركة، و التنقل.

[۵۸] (۱) شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد، ج ۱، ص ۲۴۸.

[۵۹] (۱) يقال« الغابر» لمن ذهب أهله و فنوا و بقى وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، و بقيت زوجته وحدها معه، و أصيبت بما أصيب به العصاة.

[۶۰] (۱) البخس يعنى نقص حقوق الأشخاص، و النّزول عن الحد بصورة توجب الظلم و الحيف.

[۶۱] (۱) إنّ فى هذه الجملة حذفا و تقديرا، فالكلام فى الأصل على هذه الصورة:« أ تردوننا فى ملتكم و لو كنّا كارهين».

[۶۲] (۱) تفسير منهج الصادقين.

[۶۳] (۱)« يغنوا» مشتقة من مادة« غنى» بمعنى« الإقامة فى المكان» يقول الطبرسى فى مجمع البيان: لا يبعد أن يكون المفهوم الأصلى للغنى هو عدم الحاجة، لأنّ من كان عنده منزل حاضر، فهو مستغن عن منزل آخر.

[۶۴] (۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الجملة ۳۷۷.

[۶۵] (۱)« نقصّ» من مادة« قص» و قد مر شرحها فى ذيل الآية ۷.

[۶۶] (۱) صحيح أنّ هذه السورة نزلت فى مكّة، و لم تكن مكّة مركز تجمع اليهود، و لكن من دون شك كان لحضور فى المدينة و سائر نقاط الحجاز أثر واسع فى المجتمع المكّى.

[۶۷] (۱) احتمل« الراغب» في« المفردات» أن تكون كلمة ثعبان متخذة من مادة« ثعب» بمعنى جريان الماء، لأنّ حركة هذا الحيوان تشبه الأنهر التي تجرى بصورة ملتوية.

[۶۸] (۱) الخطبة، ۴.

[۶۹] (۱) التّفسير نور الثقلين، المجلد الثاني، الصفحة ۵۶.

[۷۰] (۱) ذكر« حسنة» محلاة بالألف و اللام و« إذا» و ذكر« سيئة» مع(إن) بصورة النكرة إشارة إلى النعم كانت تنزل عليهم بصورة متتابعة، بينما كانت البلايا تنزل أحيانا.

[۷۱] (۱) الميزان، المجلد ۱۹، الصحفة ۸۶.

[۷۲] (۲) سفينة البحار، المجلد الثاني، الصفحة ۱۰۲.

[۷۳] (۳) مثل سورة« يس» الآية(۱۹)، و سورة النمل الآية(۴۷)، و الآية المطروحة على بساط البحث هنا.

[۷۴] (۴) الميزان في ذيل الآية المبحوثة هنا.

[۷۵] (۵) الميزان، في ذيل الآية المبحوثة هنا.

[۷۶] (۱) الضّفادع جمع ضفدعة و قد جاء ذكر هذا البلاء في الآية بصورة الجمع، و لكن البلايا السابقة جاءت في صورة المفرد. و لعل هذا يفيد أن اللّه سلّط عليهم أنواعا مختلفة من الضفادع.

[۷۷] (۱) النكث على وزن مكث، يعني فل الحبل المفتول، ثمّ أطلق على نقض الميثاق و العهد.

[۷۸] (۲) يستفاد من مصادر اللغة، و كتب الأحاديث أن المراد من اليم هو« البحر»، و هو يطلق على نهر النيل أيضا، أمّا أن لفظة اليم هل هي عربية أو سريانية أو هيرغلوفية، فقد وقع في ذلك كلام بين العلماء، يقول صاحب تفسير المنار و هو أحد علماء مصر المعروفين و الذي جمع وجوه اشتراك اللغات الهيروغلوفية و العربية و ألف كتاب المعجم الكبير في هذا المجال نقل: أنه وجد بعد التحقيق أن لفظة اليم كانت في اللغة المصرية تعني البحر، و على هذا الأساس حيث أن هذه القصة تتعلق بمصر لهذا استفاد القرآن من لغات المصريين في بيان هذه الحادثة.

[۷۹] (۱) مرّت أبحاث أخرى حول تاريخ الوثنية في تفسير الآية(۲۵۸) سورة البقرة.

[۸۰] (۱) تفسير البرهان، المجلد الثّاني، الصفحة ۳۳- نور الثقلين، المجلد الثّاني، الصفحة ۶۱.

[۸۱] (۱) صحيح البخاري، الجزء السّادس، الصفحة ۳، طبعة دار إحياء التراث العربي.

[۸۲] (۲) صحيح مسلم، المجلد الرّابع، الصفحة ۱۸۷، طبعة دار إحياء التراث العربي.

[۸۳] (۱) المجلد الأوّل، الصفحة ۴۳، طبعة دار إحياء الكتب العربية.

[۸۴] (۲) المجلد الخامس، الصفحة ۶۳۸، طبعة المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ.

[۸۵] (۳) مسند أحمد بن حنبل، المجلد الأول، الصفحة ۱۷۳ و ۱۷۵ و ۱۷۷ و ۱۷۹ و ۱۸۳ و ۱۸۵ و ۲۳۱، و المجلد السّادس، الصفحة ۳۶۹ و ۴۳۸.

[۸۶] (۴) مسند أحمد، المجلد الأوّل، الصفحة ۲۳۱.

[۸۷] (۵) خصائص النسائي، ص ۴ و ۱۴.

[۸۸] (۶) المجلد الثالث، الصفحة ۱۰۸ و ۱۰۹.

[۸۹] (۷) المجلد الأوّل، الصفحة ۶۵.

[۹۰] (۸) الصفحة ۱۷۷.

[۹۱] (۱) السيرة النبوية، المجلد الثّالث، الصفحة ۱۶۳ طبعة مصر.

[۹۲] (۲) السیرة الحلبیة، المجلد الثّالث، الصفحة ۱۵۱ طبعة مصر.

[۹۳] (۳) ذخائر العقبی، الصفحة ۷۹، طبعة مکتبة القدس، الصواعق المحرقة، ص ۱۷۷، طبعة مکتبة القاهرة.

[۹۴] (۴) تاریخ بغداد، المجلد السابع، الصفحة ۴۵۲ طبعة السعادة.

[۹۵] (۱) کنز العمال، الحدیث ۹۱۸، المجلد الخامس، الصفحة ۴۰، و المجلد السّادس، الصفحة ۳۹۰.

[۹۶] (۲) منتخب کنز العمال،(فی حاشیة مسند أحمد)، المجلد الخامس، من مسند أحمد، الصفحة ۳۱.

[۹۷] (۳) کنز العمال، المجلد السّادس، الصفحة ۱۶۴.

[۹۸] (۱) کنز العمال، المجلد السّادس، الصفحة ۳۹۵.

[۹۹] (۲) خصائص النسائی، الصفحة ۱۹.

[۱۰۰] (۳) ینابیع المودة، آخر باب ۱۷، الصفحة ۸۸ الطبعة الثّانیة دار الکتب العراقیة.

[۱۰۱] (۱) سورة طه، ۲۹ الی ۳۲.

[۱۰۲] (۱)« دک» فی الأصل بمعنی سوّی الأرض، و علی هـذا فالمقصود من عبارة« جعله دکّا» هو أنّه حطم الجبال و سواها کالأرض و جاء فی بعض الرّوایات أنّ الجبل تناثر أقساما، سقط کلّ قسم منه فی جانب أو غار فی الأرض نهائیا.

[۱۰۳] (۱) تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۶۵.

[۱۰۴] (۱) الصاعقة عبارة عن التبادل الکهربائی بین قطع الغیوم و الکرة الأرضـیة، فالسـحب ذات الکهربیة الموجبة عند ما تقترب إلی الأرض ذات الکهربیة السـلبیة تندلع شـرارة من بینهما یعنی السـطح المجاور من الکرة الأرضیة، و هی خطرة مدمرة فی الغالب، و لکن البرق و الرعد ینشآن من التبادل الکهربائی بین قطعتین من السـحاب أحدهما موجب، و الآخر سـلبی، و حیث أنّهما یحدثان فی السماء لذلک لا یشکلان خطرا فی العادة إلّا للطائرات. و السفن الفضائیة.

[۱۰۵] (۱) ملخص من تفسیر المیزان، المجلد الثامن، الصفحة ۲۴۹ إلی ۲۵۴.

[۱۰۶] (۲) فهو مخالف لمفهوم الرؤیة، و لإطلاق جملة« لن ترانی» و جملة« أ تهلکنا بما فعل السفهاء منّا» هذا بغض النظر عن أن طلب الشهود الباطنی لیس أمرا سیئا لیتوب منه موسی، فقد طلب إبراهیم من اللّه مثل هذا المطلب فی مجال المعاد أیضا و لبی اللّه طلبه. و لو أن الجواب فی مجال الشهود الباطنی للّه بالنفی لما کان دلیلا علی المؤاخذة و العقاب.

[۱۰۷] (۱) تفسیر التبیان، المجلد الرّابع، الصفحة ۵۳۹.

[۱۰۸] (۱) للوقوف علی هذه الرّوایات یراجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۶۸.

[۱۰۹] (۲) و یحتمل أیضا أن الضـمیر فی« أحسنها» یرجع إلی« القوة» أو« الأخذ بقوة» و هو إشارة إلی أن علیهم أن یأخذوا بها بأفضل أنواع الجدیة و القوة و الحرص.

[۱۱۰] (۱) تفسیر المنار المجلد التاسع الصفحة ۱۹۳.

[۱۱۱] (۱) راجع الآیات(۸) من سورة الأنبیاء، و(۳۴) من سورة ص.

[۱۱۲] (۱) راجع تفسیر مجمع البیان، ذیل الآیة المبحوثة هنا.

[۱۱۳] (۱)« الأسف» کما یقول الراغب فی« المفردات» بمعنی الحزن المقرون بالغضب، و هـذه الکلمـة قد تسـتعمل فی أحد المعنیین أیضـا. و تعنی فی الأصل أن ینزعـج الإنسان من شـیء بشـدة، و من الطبیعی أن هـذا الانزعاج إذا کان بسـبب من هو دونه ظهر مقرونا بالغضب، و بردة فعل غاضبة، و إذا کان ممن هو فوقه ممن لا یسـتطیع مقاومته ظهر من صورة الحزن المجرّد، و قد نقل عن ابن عباس أیضا أن للحزن و الغضب أصل واحد و إن اختلفا لفظا.

[۱۱۴] (۲) سورة طه، ۸۵.

[۱۱۵] (۱) سورة طه: ۹۲- ۹۳.

[۱۱۶] (۱) فیکون التقدیر فی الآیة الحقیقة هکذا:« قال اللّه لموسی أن الذین ...».

[۱۱۷] (۱) تفسیر المنار، المجلد التاسع، الصفحة ۲۲۱، و قد نقل هذا المعنی عن ابن الأعرابی.

[۱۱۸] (۲) تفسیر أبو الفتوح، المجلد الخامس، الصفحة ۳۰۰، فی تفسیر الآیة الحاضرة.

[۱۱۹] (۱) مجمع البیان فی تفسیر هذه الآیة.

[۱۲۰] (۱) للاطلاع علی هذه الرّوایات راجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۷۸ و ۷۹، و تفسیر روح المعانی، المجلد التّاسع، الصفحة ۷۰، فی تفسیر الآیة الحاضرة.

[۱۲۱] (۱)« الإصر» یعنی فی الأصل عقد الشیء و حبسه، و یطلق علی کل عمل یمنع الإنسان من الفعالیة و الحرکة، و یطلق علی العهد و المیثاق أو العقوبات، لفظ الإصر، لأنّ هذه الأمور تحدّ من حرکة الإنسان.

[۱۲۲] (۱) فتوح البلدان، للبلاذری، ط مصر، الصفحة ۴۵۹.

[۱۲۳] (۱) تفسیر البرهان المجلد الخامس، الصفحة ۳۷۳ ذیل آیات سورة الجمعة.

[۱۲۴] (۱) کل النصوص المنقولة هنا مقتبسة من کتاب العهد القدیم و الجدید طباعة و إصدار دار الکتاب المقدس فی العالم العربی عام ۱۹۷۹.

[۱۲۵] (۱) عن المجالس حسب نقل تفسیر الصافی، ج ۱، فی ذیل هذه الآیة.

[۱۲۶] (۱) التعبیر ب« أمّة منهم» یکشف عن أن الفریق الثّانی کانوا أقلّ من العصاة، لأنّه عبّر عنهم بلفظة« قوما» بدون کلمة منهم) و تقرأ فی بعض الآیات أنّ عدد نفوس هذه المدینة کان ثمانین ألف و بضعة آلاف، و قد ارتکب ۷۰ ألفا منهم هذه المعصیة(راجع تفسیر البرهان، المجلد الثّانی، الصفحة ۴۲).

[۱۲۷] (۱) بئیس مشتقة من مادة« بأس» یعنی الشدید.

[۱۲۸] (۲)« عتوا» من مادة عتّو علی وزن« غلوّ» بمعنی الامتناع عن طاعة أمر، و ما ذکره بعض المفسّرین من تفسیره بمعنی الامتناع فقط یخالف ما قاله أرباب اللغة.

[۱۲۹] (۳) سورة یس، ۲۸.

[۱۳۰] (۱) تفسیر البرهان، المجلد ۲، الصفحة ۲۲، و قد روی هذا الکلام عن ابن عباس فی تفسیر مجمع البیان فی ذیل الآیة.

[۱۳۱] (۱) و إذا کان یستفاد من بعض الرّوایات خلاف هذا الموضوع، فإنّه مضافا إلی أنّه لا یمکن الاعتماد علیه فی مقابل ظاهر الآیات فإنّما ضعیفة من حیث السند أیضا، و یحتمل أن یکون الراوی قد أخطأ فی نقل الروایة.

[۱۳۲] (۱) لقد جمع أحد الکتّاب المعاصرین نماذج کثیرة- من مصادر موثوقة- لأشخاص من البشر أو حیوانات استثنائیّة، ملفتة للنظر و مثیرة للعجب، و من جملة ذلک: إنسان یستطیع قراءة السطور بأصابعه، أو امرأة وضعت مرتین فی خلال شهرین، و فی کل مرة ولدت ولدا، أو طفلا کان قلبه خارج صدره، أو امرأة لم تکن تعرف أنّها حامل حتی لحظة وضعها لولیدها، و ما شابه ذلک.

[۱۳۳] (۱) کان النبیذ عبارة عن وضع مقدار من التمر أو الشعیر أو الزبیب فی الماء، عدّة أیّام، ثمّ شربه و هذا و إن لم یکن حراما شرعا، و لکنّه علی أثر سخونة الهواء تتبدل المواد السکریة فیه إلی مواد کحولیة خفیفة.

[۱۳۴] (۱) مجمع البیان، و تفسیر ابن الفتوح الرازی، فی ذیل الآیة الحاضرة.

[۱۳۵] (۲) یجب الانتباه، إلی أن« عرض» علی وزن« غرض» یختلف عن« عرض» علی وزن(فرض) فالأول بمعنی کل رأس مال دنیوی، و الثانی بمعنی المال النقدی.

[۱۳۶] (۱) یقال ذرأ فلان الحنطة ذروأ أو ذرّاها تذریة، أی نقّاها من الشوائب.

[۱۳۷] (۱) الروم، ۳۰.

[۱۳۸] (۱) تبع و اتبع بمعنی لحق أو أدرک.

[۱۳۹] (۱) فی التوراة الحالیة نجد ورود قضیة« بلعم بن باعوراء» أیضا، إلّا أنّ التوراة تبرئه فی النهایة من الانحراف، یراجع بذلک سفر الأعداد الباب ۲۲.

[۱۴۰] (۱) الکهف، ۴۵.

[۱۴۱] (۲) سورة الذاریات: ۵۶.

[۱۴۲] (۱) نهج البلاغة، من کتاب له و ۲۴ رقم ۴۵.

[۱۴۳] (۱) تفسیر المیزان، و مجمع البیان، و نور الثقلین، ذیل الآیة.

[۱۴۴] (۲) تفسیر المیزان، و مجمع البیان، و نور الثقلین.

[۱۴۵] (۳) المصدر السابق.

[۱۴۶] (۱) المصدر السابق.

[۱۴۷] (۱) المیزان، ج ۸، ص ۳۷۶، نقلا عن التوحید للصدوق.

[۱۴۸] (۲) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۳.

[۱۴۹] (۱) تفسیر الفخر الرازی، ج ۱۵، ص ۶۶.

[۱۵۰] (۲) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۵.

[۱۵۱] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۳.

[۱۵۲] (۲) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۴- ۱۰۵.

[۱۵۳] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۶.

[۱۵۴] (۱) المصدر السابق.

[۱۵۵] (۲) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۶.

[۱۵۶] (۳) المصدر السابق.

[۱۵۷] (۴) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۳.

[۱۵۸] (۱)« الجنّة» کما یذهب إلیه أصحاب اللغة معناها الجنون، و معناها فی الأصل: الحائل و المانع فکأنما یلقی علی العقل حائل عند الجنون.

[۱۵۹] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۴.

[۱۶۰] (۲) یری بعض المفسّرین کالمرحوم الطبرسی أن سبب النّزول هو فی جماعة من الیهود الذین جاءوا النّبی و سألوه عن یوم القیامة، إلّا أنّه لمّا کانت السورة نازلة فی مکّة، و لم یکن بین النّبی و الیهود فیها خصام و جدال، فهذا الموضوع مستبعد جدّا.

[۱۶۱] (۱) قال بعض المفسّرین أنّ المراد من هذه الجملة هو أن معرفة القیامة أو علمها ثقیل علی أهل الأرض و السماوات، إلّا أنّ الحقّ هو التّفسیر المذکور آنفا« فی المتن» لأنّ القول بحذف کلمتی العلم و الأهل خلاف ظاهر الآیة.

[۱۶۲] (۲) الحفی فی الأصل هو من یسأل عن الشیء بتتابع و إصرار، و لما کان الإصرار فی السؤال باعثا علی زیادة العلم، فقد تستعمل هذه اللفظة علی العالم کما هی هنا أیضا.

[۱۶۳] (۱) فی الحقیقة أن هناک حذفا فی الآیة تقدیره« لا أعلم الغیب» و الجملة التی بعدها شاهدة علی ذلک.

[۱۶۴] (۱) تغشاها فعل یلیه ضمیر التأنیث و هو غشی، و معناه غطّی، و هذه الجملة کنایة لطیفة عن المقاربة الجنسیة و المضاجعة.

[۱۶۵] (۱) یری بعض المفسّرین أن بدایة الآیة یتعلق بآدم و حواء، و ذیل الآیة تتعلق بأبناء آدم و حواء، و هذا تکلّف، لأنّه یحتاج إلی حذف و تقدیر، و هو لا ینسجم و ظاهر الآیة.

[۱۶۶] (۱) مسند بن حنبل، وفقا لما وراه تفسیر المنار، ج ۹، ص ۵۲۲.

[۱۶۷] (۱) یبطشون فعل مشتق من« البطش» علی زنة« العرش» و معناه الاستیلاء بالشدّة و الصولة و القدرة! ...

[۱۶۸] (۱) لمزید من التوضیح یراجع الجزء الثّانی من التّفسیر الأمثل فی هذا الصدد.

[۱۶۹] (۲) آل عمران، ۱۵۹.

[۱۷۰] (۱) ینزغ مأخوذ من مادة« النزغ» علی زنة« النزع» و معناه الدخول فی الأمر لإفساده أو الإثارة ضده! ...

[۱۷۱] (۲) مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۱۷۲] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة محل البحث.

[۱۷۳] (۲) روی ذلک صاحب المنار قائلا: روی عن جدنا الإمام الصادق رضی اللّه عنه فی ج ۹، ص ۵۳۸.

[۱۷۴] (۱) الاجتباء مأخوذ من الجبایة، و أصلها جمع الماء فی الحوض و نحوه، و لذلک یسمّی حوض الماء ب« الجابیة، و جمع الخراج یسمّی جبایة أیضا. ثمّ توسعوا فی الاستعمال فأطلقوا علی جمع الأشیاء و انتخابها و اختیار ما یراد منها اجتباء. فجملة« لولا اجتبیتها» تعنی لو لا اخترتها.

[۱۷۵] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۷.

[۱۷۶] (۲) تفسیر البرهان.

[۱۷۷] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۷.

[۱۷۸] (۲) کنز العرفان، ج ۱، ص ۱۹۵.

[۱۷۹] (۱) التضرّع مأخوذ من الضرع و هو الثدی، و الفعل تضرع یطلق علی من یتحلب اللبن بأصابعه، ثمّ توسع فی هذا الاستعمال فأطلق علی إظهار الخضوع و التواضع.

[۱۸۰] (۱) تفسیر مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۱۸۱] (۱) کنز العرفان، ج ۱، ص ۲۵۴.

[۱۸۲] (۲) المصدر السابق.

[۱۸۳] (۱) نهج البلاغة.

[۱۸۴] (۲) الحدیثان ۱ و ۲ من أصول الکافی باب إصلاح بین الناس.

[۱۸۵] (۳) المصدر السابق.

[۱۸۶] (۴) المصدر السابق.

[۱۸۷] (۱) الحشر، ۲۱.

[۱۸۸] (۲) فاطر، ۲۸.

[۱۸۹] (۱) لمزید من الإیضاح یراجع تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۲۱ إلی ۱۳۶ و مجمع البیان ج ۴، ص ۵۲۱، ۵۲۳، و ما ذکرناه بتصرف و اختصار.

[۱۹۰] (۱) الدابر بمعنی ذیل الشیء و عقبه، فبناء علی هذا یکون معنی« و یقطع دابر الکافرین» هو استئصال جذورهم.

[۱۹۱] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۱۹۲] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۳۸.

[۱۹۳] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۳۹.

[۱۹۴] (۲) راجع نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۴۰.

[۱۹۵] (۱) فى الحقيقة أن هذا الكلمة إشارة إلى جملة مقدرة هى« ذلكم الذى سمعتم هو حال المؤمنين و الكافرين ...».

[۱۹۶] (۱) هذه الجملة فى الحقيقة« ذلكم الذى سمعتم هو حال المؤمنين و الكافرين».

[۱۹۷] (۲) مجمع البيان و تفاسير أخرى.

[۱۹۸] (۱)« ... صم» جمع« الأصم» و هو الذى لا يسمع و« البكم» جمع« الأبكم» و هو فاقد النطق.

[۱۹۹] (۱) و بحسب اصطلاح المنطق أنّ الحدّ الوسط غير موجود فى القياس آنفا، لأنّ الجملة الأولى هى(لأسمعهم حال كونهم يعلم فيهم خيرا). و الجملة الثّانية(لأسمعهم حال كونه لا- يعلم فيهم فهما) و النتيجة أنّ الحدّ الوسط المشترك غير موجود بين الجملتين لتمكين تأليف القياس منهما، لأنّ الجملتين مختلفتان و منفصلتان(فتأمل).

[۲۰۰] (۱) سورة فصلت، الآية ۲۶.

[۲۰۱] (۱) الحديد، ۱۷.

[۲۰۲] (۲) فصلت، ۳۹.

[۲۰۳] (۳) الأنعام، ۲۲.

[۲۰۴] (۴) الفجر، ۲۴.

[۲۰۵] (۱) تفسير المنار، الجزء ۹، ص ۶۳۸.

[۲۰۶] (۲) فقد جرى الحديث بين المفسّرين حول كلمة« لا تصيبنّ» فى أنّها هل هى صيغة نفى أو نهى، فالذين قالوا بالنهى و فسّروها بمعنى اتّقوا الفتن لأنّها لا تصيب الظالمين وحدهم، و قال بعض: إنّها صيغة نفى و لكن لما يعتقده علماء العربية بأنّ نون التوكيد لا تظهر فى النهى و جواب القسم، فقد اعتبروا الجملة جوابا لقسم مقدر.

[۲۰۷] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۴۳.

[۲۰۸] (۱)« تخونوا) فى الأصل(لا تخونوا) و قد حذفت(لا) بقرينة الجملة السابقة.

[۲۰۹] (۱) الدر المنثور وفقا لما نقل عنه صاحب المنار، و مجمع البيان ذيل الآية.

[۲۱۰] (۱) الملاحظة اللطيفة هنا هو أنّ كتابة هذا التّفسير كانت فى الاجزاء السابقة تسير مسيرا بطيئا، و لكن بما أن راقم هذه السّطور حين كتابة هذا الجزء من التّفسير كان قد نفى من قبل حكومة الطاغوت إلى مدينة« مهاباد» و« أنارك» فإنّ كتابة هذا التّفسير قد سارعت الخطى بحيث إنّنى أكملت تمام هذا الجزء فى ذلك المنفى.

[۲۱۱] (۱) راجع مجمع البيان، ج ۵، ص ۳۵۲ و تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۵۱.

[۲۱۲] (۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار.

[۲۱۳] (۱) صحيح مسلم وفقا لما نقله صاحب المنار فى تفسيره، ج ۹، ص ۶۶۵.

[۲۱۴] (۱) راجع مجمع البيان، ذيل الآية، و تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۵۵، تفاسير أخرى.

[۲۱۵] (۱) يراجع كتاب وسائل الشيعة، ج ۶، باب الخمس.

[۲۱۶] (۱) وسائل الشيعة، ج ۶، باب الخمس، و مجمع البيان ذيل الآية ...

[۲۱۷] (۱) راجع تفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۸۰.

[۲۱۸] (۱) الفخر الرازى، ج ۱۵، ص ۱۶۴.

[۲۱۹] (۲) تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۷۰۳.

[۲۲۰] (۳) تفسير روح المعانى: ج ۱۰، ص ۲.

[۲۲۱] (۴) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۵۴۳.

[۲۲۲] (۱) الميزان، ج ۹، ص ۸۹.

[۲۲۳] (۱) إنّ حرمة أخذ بنى هاشم الزكاة مسلم بها و قد وردت فى أكثر كتب الحديث و فتاوى العلماء و كتبهم الفقهية، فهل يعقل بأنّ الإسلام قد فكّر فى شأن الفقراء و المحتاجين من غير بنى هاشم و لم يعالج قضية المحتاجين من بنى هاشم؟ فتركهم لحالهم.

[۲۲۴] (۱) و إذا لاحظنا أنّ فى بعض الرّوايات التعبير ب« كرامة لهم من أوساخ الناس» فهو ليقنع بنى هاشم من هذه الحرمة من جانب، و ليفهم الناس أن يؤدوا الزّكاة إلى المحتاجين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

[۲۲۵] (۲) وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۱۸۶.

[۲۲۶] (۱) نقل باختصار عن مجمع البيان و نور الثقلين، و سائر التفاسير، ذيل الآية.

[۲۲۷] (۱) البقرة، ۱۰.

[۲۲۸] (۱) الروم، ۴۷.

[۲۲۹] (۲) المنافقون، ۸.

[۲۳۰] (۳) الأنبياء، ۱۰۵.

[۲۳۱] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۹۳.

[۲۳۲] (۱)« من» فى جملة« عاهدت منهم» إمّا للتبعيض فتعنى أنّك عاهدت سادتهم أو البارزين من يهود المدينة، أو أنها للصلة فتكون معناها عاهدتهم ...

كما يرد هذا الاحتمال و هو أن معنى« عاهدت منهم» هو أخذت العهد منهم.

[۲۳۳] (۲) بالإضافة إلى ما ذكرنا فى المتن فهناك قرينة لفظية تدل على هذا المعنى أيضا و هى« فى كل مرّة» ...

[۲۳۴] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۶۴- ۱۶۵.

[۲۳۵] (۲) المصدر السابق.

[۲۳۶] (۳) المصدر السابق.

[۲۳۷] (۴) المصدر السّابق.

[۲۳۸] (۱) آل عمران، ۱۰۳.

[۲۳۹] (۲) تفسير التبيان، ج ۵، ص ۱۵۲.

[۲۴۰] (۳) موسوعة الغدير، ج ۲، ص ۵۱.

[۲۴۱] (۱) الإسراء، ۱۵.

[۲۴۲] (۱) تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۹۰- تفسير روح المعانى، ج ۱۰، ص ۳۲- و تفسير الفخر الرازى، ج ۱۵، ص ۱۹۸.

[۲۴۳] (۱) راجع تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۳۵.

[۲۴۴] (۲) راجع تفسير على بن إبراهيم وفقا لما جاء فى نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۳۶.

[۲۴۵] (۱) ورد فى الكامل لابن الأثير، ج ۲، ص ۱۳۴ أنّه« فلمّا رآها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رقّ لها رقة شديدة و قال:« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها؟ و تردوا عليها الذى لها فافعلوا»، فأطلقوا لها أسيرها و ردوا القلادة.

[۲۴۶] (۲) تفسير الميزان، ج ۹، ص ۱۴۱.

[۲۴۷] (۱)- يراجع تفسير نور الثقلين، و روضة الكافى، و تفسير القرطبى، و تفسير المنار، ذيل الآية محل البحث.

[۲۴۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۶۸.

[۲۴۹] (۱) بحثنا موضوع الإرث بالولاء فى الجزء الثّالث بصورة مفصلة.

[۲۵۰] (۱)

\i\i جاء فى مجمع البيان عن الشيخ الطبرسى عن على عليه السلام أنّه قال E« لم تنزل i بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ E على رأس سورة« براءة» لأنّ بسم اللّه للأمان و الرحمة و نزلت براءة لرفع الأمان و السيف فيه\!».E

[۲۵۱] (۲)- قال الطبرى نقلا عن الإمام الصادق عليه السلام« الأنفال و براءة واحدة!».

[۲۵۲] (۱) مسند أحمد بن حنبل، ج ۱، ص ۳۳۱، ط مصر.!

[۲۵۳] (۲) مسند أحمد بن حنبل، ج ۳، ص ۲۱۲.

[۲۵۴] (۳) مسند أحمد بن حنبل، ج ۱، ص ۱۵۰.

[۲۵۵] (۱) الخصائص ... للنسائى، ص ۲۸.

[۲۵۶] (۲) المصدر السّابق.

[۲۵۷] (۳) تفسير ابن كثير، ج ۲، ص ۳۲۲.

[۲۵۸] (۴) المصدر السابق.

[۲۵۹] (۵) المصدر السابق.

[۲۶۰] (۱) جامع الأصول، ج ۹، ص ۴۷۵.

[۲۶۱] (۲) ذخائر العقبى، ص ۶۹.

[۲۶۲] (۱)« سيحوا» فعل أمر مشتق من« السياحة» و معناها الجولة الهادفة.

[۲۶۳] (۱) جملة و أذان إلخ. معطوفة على جملة: براءة من اللّه. و هناك احتمالات أخرى فى تركيب الجملة« و نظمها»، غير أن ما ذكرناه أكثر ظهورا كما يبدوا.

[۲۶۴] (۱)

\i\i جاء فى تفسير نور الثقلين، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:\E« إنّما سمّى الأكبر لأنّها كانت سنة حج المسلمون و المشركون و لم يحج المشركون بعد تلك السنة.(ج ۲، ص ۱۸۴\)E

[۲۶۵] (۲) و

\i\i جاء فى التّفسير المذكور آنفا عن الإمام الصّادق عليه السلام فى جوابه لبعض أصحابه:\E الأكبر هو يوم النحر و الأصغر العمرة(ج E

۲، ص ۱۸۶)

[۲۶۶] (۱) جاء فى بعض الرّوايات منع المشركين من دخول المسجد.

[۲۶۷] (۲) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ذيل الآية محل البحث.

[۲۶۸] (۳) تفسير المنار، ج ۱۰، ذيل الآية محل البحث.

[۲۶۹] (۱) الفعل« انسلخ» مأخوذ من الانسلاخ و معناه الخروج، و أصله من« سلخ الشاة» أى إخراج الشاة من جلدها عند الذبح.

[۲۷۰] (۲) المرصد مأخوذ من الرّصد و يعنى الطريق أو الكمين.

[۲۷۱] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۰۶ و تفسير الفخر الرازى، ص ۲۲۶.

[۲۷۲] (۱) ورد فى تفسير نور الثقلين، الجزء الثّانى منه ذيل الآية محل البحث حديث بهذا الشأن(فراجع إن شئت).

[۲۷۳] (۱) المفردات، ص ۲۰.

[۲۷۴] (۱) سورة البروج، الآية ۸.

[۲۷۵] (۱)« أم» حرف عطف و يعطف بها جملة استفهامية على جملة استفهامية أخرى، و لهذا فهى تعطى معنى الاستفهام، غاية ما فى الأمر أنّها تأتى بعد جملة استفهامية دائما، و فى الآية محل البحث عطفت على الجملة« ألا تقاتلون» التى بدئت بها الآية(۱۳).

[۲۷۶] (۱) ورد هذا الحديث فى كتاب وسائل الشيعة، الباب ۸ من أبواب أحكام المساجد كما ورد عن ابن عباس فى تفسير المنار، ج ۱، ص ۲۱۳.

[۲۷۷] (۲) كتاب المحاسن، ص ۵۷ حسب نقل كنز العرفان، ج ۱، ص ۱۰۸.

[۲۷۸] (۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات محل البحث.

[۲۷۹] (۲) لمزيد الإيضاح يراجع كتاب إحقاق الحق، ج ۳، ص ۱۲۲- ۱۲۷.

[۲۸۰] (۱)« المرمضة» مشتقة من« الإرماض» أى شديدة الحر، و الأرض الرمضاء كذلك: شديدة الحر.

[۲۸۱] (۱) تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۲۱۵.

[۲۸۲] (۲) سورة لقمان: الآية ۱۳.

[۲۸۳] (۱) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير الآيات ۹- ۱۲ من هذا الجزء نفسه.

[۲۸۴] (۱) راجع الكامل لابن الأثير، ج ۲، ص ۲۶۱، نقلنا القصة بشىء من الاختصار.

[۲۸۵] (۱) مجمع البيان، ج ۵، ص ۱۷- ۱۹.

[۲۸۶] (۱) راجع تفسير المنار، و إقرار التفصيل فيه، ج ۱، الصفحات ۲۶۲ و ۲۶۳ و ۲۶۵.

[۲۸۷] (۲) المصدر السابق.

[۲۸۸] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۱۴.

[۲۸۹] (۲) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۰۱.

[۲۹۰] (۳) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۱۲.

[۲۹۱] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۹۷.

[۲۹۲] (۱) نقلا عن تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۲۹۴.

[۲۹۳] (۲) من المناسب أن أشير إلى أن المقصود بالدينار ليس هو الدينار المتعارف بينا كالدينار العراقى أو الدينار الأردنى أو الدينار الكويتى و هلّم جرا، بل هو الدينار الذهبى الذى يعادل مثقالا و نصف أو أدنى من ذلك بقليل.

الجزء السادس

[تتمة سورة التوبة]

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

اشارة

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۳۰) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ

عَمَّا يُشْرِكُونَ (۳۱) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۳۲) هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (۳۳)

التّفسير

شرک أهل الكتاب:

كان الكلام فی الآيات المتقدمة بعد الحديث عن المشركين و إلغاء عهودهم و ضرورة إزالة دينهم و معتقداتهم الوثنية يشير بعد ذلک إلى أهل الكتاب و قد حدد الإسلام لهم شروطا ليعيشوا بسلام مع المسلمين، فإنّ لم يفوا بها كان على المسلمين أن يقاتلوهم.

و فی الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب و المشركين، و لا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶

سيما اليهود و النصارى منهم، ليتّضح أنّه لو كان بعض التشدد فی معاملتهم، فإنّما هو لانحرافهم عن التوحيد، و ميلهم إلى نوع من الشرک فی العقيدة، و نوع من الشرک فی العبادة.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِکَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ

بحوث

۱- من هو عزير؟!

«عزير» فی لغة العرب هو «عزرا» فی لغة اليهود، و لمّا كانت العرب تغيّر فی بعض الكلمات التی تردها من لغات أجنبية و تجری على لسانها، و ذلک كما هی الحال فی إظهار المحبّة خاصّة فتصغر الكلمة، فصغرت عزرا إلى عزير، كما بدلت كلمة يسوع العبرية إلى عيسى فی العربية، و يوحنا إلى يحيى.[۱] و على كان حال، فإن عزيرا- أو عزرا- له مكانة خاصّة فی تاريخ اليهود، حتى أن بعضهم زعم أنّه واضع حجر الأساس لأمّة اليهود بانی مجدهم و فی الواقع فإنّ له خدمة كبرى لدينهم، لأنّ بخت نصر ملک بابل دمر اليهود تدميرا فی واقعته المشهورة، و جعل مدنهم، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، و هدموا معابدهم، و أحرقوا توراتهم، و قتلوا رجالهم، و سبوا نساءهم، و أسروا أطفالهم، و جیء بهم إلى بابل فمكثوا هناک حوالی قرن.

و لما فتح كورش ملک فارس بابل جاءه عزرا، و كان من أكابر اليهود، فاستشفعه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷

فی اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم و كتب لهم التّوراة- ممّا بقی فی ذهنه من أسلافه اليهود و ما كانوا قد حدّثوا به- من جديد.

و لذلک فهم يحترمونه أيما احترام، و يعدّونه منقذهم و محيی شريعتهم.[۲] و كان هذا الأمر سببا أن تلقبه جماعة منهم ب «ابن اللّه» غير أنّه يستفاد من بعض الرّوايات- كما فی الإحتجاج للطبرسی- أنّهم أطلقوا هذا اللقب احتراما له لا على نحو الحقيقة.

و لكنّنا نقرأ فی الرّواية ذاتها أنّ النّبی سألهم بما مؤدّاه (إذا كنتم تجلّون عزيرا و تكرمونه لخدماته العظمى و تطلقون عليه هذا الاسم، فعلام لا تسمّون موسى و هو أعظم عندكم من عزير بهذا الاسم؟ فلم يجدوا للمسألة جوابا و أطرقوا برؤوسهم)[۳].

و مهما یکن من أمر فهذه التسمیة کانت أکبر من موضوع الإجلال و الاحترام فی أذهان جماعة منهم، و ما هو مألوف عند العامّة أنّهم یحملون هذا المفهوم علی حقیقته، و یزعمون أنّه ابن اللّه حقّا، لأنّه خلصهم من الدمار و الضیاع و رفع رؤوسهم بکتابة التوراة من جدید.

و بالطبع فهذا الإعتقاد لم یکن سائدا عند جمیع الیهود، إلّا أنّه یستفاد أنّ هذا التصّور أو الإعتقاد کان سائدا عند جماعة منهم، و لا سیما فی عصر النّبی محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و الدلیل علی ذلک أنّ أحدا من کتب التاریخ، لم یذکر بأنّهم عند ما سمعوا الآیة آنفة الذکر احتجوا علی النّبی أو أنکروا هذا القول «و لو کان لبان».

و ممّا قلناه یمکن الإجابة علی السؤال التّالی: أنّه لیس بین الیهود فی عصرنا الحاضر من یدعی أنّ عزیرا ابن اللّه و لا من یعتقد بهذا الإعتقاد، فعلام نسب القرآن هذا القول إلیهم؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸

و توضیح ذلک، أنّه لا یلزم أن یکون لجمیع الیهود مثل هذا الإعتقاد، إذ یکفی هذا القدر المسلم به، و هو أنّه فی عصر نزول الآیات علی النّبی محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان فی الیهود من یعتقد بهذا الإعتقاد، و الدلیل علی ذلک کما نوّهنا، هو أنّه لم ینکر أیّ منهم ذلک علی النّبی و الشیء الوحید الذی صدر منهم- وفقا لبعض الرّوایات- أنّهم قالوا: إنّ هذا اللقب «ابن اللّه» إنّما هو لاحترام عزیر، و قد عجزوا عن جواب لمّا سألهم و أشکل علیهم: لم لا تجعلون هذا اللقب إذا لنبیّکم موسی علیه السّلام؟! و علی کل حال فمتی ما نسب قول أو اعتقاد إلی قوم ما، فلا یلزم أن یکون الجمیع قد اتّفقوا علی ذلک، بل یکفی أن یکون فیهم جماعة ملحوظة تذهب إلی ذلک.

۲- لم یکن المسیح ابن اللّه

لا ریب أن المسیحیین یعتقدون أن عیسی هو الابن الحقیقی للّه، و لا یطلقون هذا الاسم إکراما و تشریفا له، بل علی نحو المعنی الواقعی له، و هم یصرّحون فی کتبهم أن إطلاق هذا الاسم علی غیر المسیح بالمعنی الواقعی غیر جائز، و لا شک أنّ هذا من بدع النصاری، و المسیح لم یدّع مثل هذا الادعاء أبدا، و إنّما کان یقول:

بأنّه عبدّ للّه، و لا معنی أساسا لأن ننسب علاقة الأبوة و البنوة الخاصّة بعالم المادة و عالم الممکنات بین اللّه و عباده أبدا.

۳- اقتباس هذه الخرافات

یقول القرآن المجید فی الآیة محل البحث: أنّهم- أی الیهود و النصاری- یضاهئون- أی یشبهون بانحرافاتهم- الذین کفروا و المشرکین.

و هذا التعبیر یشیر إلی أنّهم مقلّدون إذ کانوا یعتقدون بأنّ بعض الآلهة هو إله الأب، و بعضها إله الابن، و حتی أنّ بعضهم کان یعتقد بأنّ هناک إله الأم، و إله الزوج،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹

و قد لوحظت مثل هذه الأفکار فی جذور عقائد المشرکین فی الهند أو الصین أو مصر القدیمة ثمّ تسرّبت إلی الیهود و النصاری.

و فی العصر الحاضر خطر عند بعض المحقّقین أن یوازن و یقارن بین ما فی العهدین «التوراة و الإنجیل و ما یرتبط بهما» و بین عقائد البوذیین و البرهمائیین، فاستنتجوا أن کثیرا من معارف الإنجیل و التوراة تتطابق مع خرافات البوذیین و البرهمائیین تطابقا ملحوظا، حتی

أنّ بعض الحكايات و القصص الموجودة فى الإنجيل هى الحكايات و القصص ذاتها الموجودة فى الديانة البوذائية و البرهمائية.

و إذا كان المفكرون توصّلوا اليوم إلى مثل هذه الحقيقة، فإنّ القرآن أشار إليها قبل أربعة عشر قرنا فى الآية محل البحث.

۴- ما هو معنى قاتَلَهُمُ اللَّهُ

جملة و إن كـان معناها فى الأصل أنّ اللّه مقاتل إيّاهم و ما إلى ذلك، لكن كما يقول الطبرسـى فى مجمع البيان نقلا عن ابن عباس، إن هذه الجملة كناية عن اللعنة أى أنّ اللّه أبعدهم عن رحمته، فهو دعاء عليهم.

و فى الآية التالية إشارة إلى شـركهم العملى فى قبال الشـرك الاعتقادى، أو بعبارة أخرى إشارة إلى شركهم فى العبادة، إذ تقول الآية: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ

«الأحبار» جمع حبر، و معناه العالم، و «الرهبان» جمع راهب و تطلق على من ترك دنياه و سكن الدير و أكبّ على العبادة.

و ممّا لا شك فيه أنّ اليهود و النصارى لم يسـجدوا لأحبارهم و رهبانهم، و لم يصـلوا و لم يصوموا لهم، و لم يعبـدوهم أبدا، لكن لما كانوا منقادين لهم بالطاعة دون قيد أو شرط، بحيث كانوا يعتقدون بوجوب تنفيذ حتى الأحكام المخالفة لحكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰

اللّه من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقليد الأعمى بالعبادة.

و هذا المعنى وارد

فى روايـة عن الإمـامين الباقر و الصادق عليهما السّـلام إذا قالا: «أمّا و اللّه ما صاموا لهم و لا صـلّوا، و لكنّهم أحلّوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا، فاتبعوهم و عبدوهم من حيث لا يشعرون».[۴]

و

فى حديث آخر، أنّ عدىّ بن حاتم قال: وفدت على رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و كان فى رقبتى صليب من الذّهب، فقال لى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم: يا عدى ألق هذا الصـنم عن رقبتك، ففعلت ذلك، ثمّ دنوت منه فسمعته يتلو الآية اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً فلمّا أتم الآيـة قلت له: نحن لا نتّخذ أئمتنا أربابا أبدا، فقال: «ألم يحرموا حلال اللّه و يحلّوا حرامه فتتبعوهم؟ فقلت: بلى، فقال: فهذه عبادتهم».[۵]

و الـدليل على هـذا الموضوع واضـح، لأنّ التقنين خـاص باللّه، و ليس لأحـد سواه أن يحل أو يحرم للناس، أو يجعل قانونا، و الشـىء الوحيد الذى يستطيع الإنسان أن يفعله هو اكتشاف قوانين اللّه و تطبيقها على مصاديقها.

فبناء على ذلك لو أقـدم أحد على وضع قانون يخالف قانون اللّه، و قبله إنسان آخر دون قيد أو اعتراض او اسـتفسار فقد عبد غير اللّه، و هذا بنفسه نوع من أنواع الشرك العملى، و بتعبير آخر: هو عبادة غير اللّه.

و يظهر من القرائن أنّ اليهود و النصـارى يرون مثـل هـذا الإختيار لزعمائهم، بحيث لهم أن يغيّروا ما يرونه صالحا بحسب نظرهم، و ما يزال بعض المسيحيين يطلب العفو من القسيس فيقول له القسّ، عفوت عنك! و كان- منذ زمن- موضوع صكوك الغفران رائجا.

و هنـاك لطيفـة أخرى ينبغى الالتفـات إليهـا، و هى أنّه لمـا كـانت عبـادة المسـيحيين لرهبـانهم تختلـف عن عبـادة اليهود لأحبـارهم، فالمسيحيون يرون المسيح ابن اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱

واقعا و اليهود يطيعون أحبارهم دون قيد أو شرط، لذا فإنّ الآية أشارت إلى عبادة كل منهما، فقالت: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ

ثمّ فصلت المسيح على حدة فقالت: وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ

و هذا التعبير يدلّ على منتهى الدقة فى القرآن.

و فى ختام الآية تأكيد على هذه المسألة، و هى أن جميع هذه العبادات للبشر بدعة، و هى من العبادات الموضوعة وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

درس تعليمى:

إنّ القرآن المجيد يعلّم أتباعه فى الآية- محل البحث- درسا قيّما جدّا، و يبيّن واحدا من أبرز مفاهيم التوحيد فيها، إذ يقول: لا يحقّ لأىّ مسلم طاعة إنسان آخر دون قيد أو شرط، لأنّ هذا الأمر مساو لعبادته، و جميع الطاعات يحب أن تكون فى إطار طاعة اللّه، و إنّما يصح اتباع الإنسان نظيره متى كانت قوانينه غير مخالفة لقوانين اللّه، أيّا كان ذلك الإنسان و فى أية مكانة أو منزلة. لأنّ الطاعة بلا قيد أو شرط مساوية للعبادة، أو هى شكل من أشكال الشرك و العبودية، إلّا أنّه يا للأسف- بلى المسلمون- لبعد المسافة الزمنية- بالابتعاد عن تعاليم هذا الدستور الإسلامى المهم، و إقامه الأصنام البشرية، فتفرقوا و تغلب عليهم المستعمرون و المستثمرون، و إذا لم تتكسر هذه الأصنام البشرية فلا ينبغى أن ننتظر زوال هذه البلايا و سدّ الثغرات.

و أساسا فإنّ هذا النوع من الشرك أو العبادة الوثنية أخطر بكثير من عبادة الأصنام و الأحجار فى زمان الجاهلية، و السجود لها، لأنّ تلك الأصنام و الأحجار ليس فيها روح حتى تستعمر عبدتها، إلّا أنّ الأصنام البشرية و بسبب غرورهم و عدوانهم يجرّون أتباعهم إلى الوبال و الذلة و الشقاء و الانحطاط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲

و فى الآية الثّالثة من الآيات محل البحث تشبيه طريف لسعى اليهود و النصارى، أو سعى جميع مخالفى الإسلام حتى المشركين، و جدّهم و اجتهادهم المستمر «العقيم» الذى لا يعود عليهم بالنفع أبدا، إذ تقول الآية: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ

ملاحظات

اشارة

۱- شبّه الدين- دين اللّه- فى هذه الآية و فى القرآن و تعاليم الإسلام بالنور، و نحن نعرف أن النّور أساس الحياة و الحركة و النمو و العمران على الأرض و منشأ كل جمال.

و الإسلام دين يحرّك كل مجتمع إنسانى نحو التكامل، و هو أساس كل خير و بركة.

كما شبّه اجتهاد الكافر بالنفخ بالأفواه و كم هو مثير للضحك أن يحاول الإنسان إطفاء نور عظيم كنور الشمس بنفخة؟ و لا تعبير أبلغ من تعبير القرآن لتجسيد هذه المحاولات اليائسة، و فى الواقع فإنّ محاولات مخلوق ضعيف إزاء قدرة اللّه التى لا نهاية لها، لا تكون أحسن حالا ممّا ذكرته الآية.

۲- ورد موضوع محاولة إطفاء نور اللّه فى القرآن فى موردين: أحدهما فى الآية محل البحث، و الآخر فى الآية (۸) من سورة الصف، و فى الآيتين انتقاد للكفار و محاولات أعداء اللّه اليائسة، إلّا أن بين تعبيرى الآيتين تفاوتا يسيرا، إذ جاء التعبير فى الآية محل البحث

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا إلّا أن الآية (۸) من سورة الصف جاء فيها التعبير يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا.

و ممّا لا شك فيه أن هذا التفاوت أو الاختلاف اليسير فى التعبير القرآنى لغاية بلاغية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳

يقول الراغب فى مفرداته موضحا الفرق بين أَنْ يُطْفِؤُا و لِيُطْفِؤُا: إنّ الآية الأولى تشير إلى محاولة إطفاء نور اللّه بدون مقدمات، أمّا الآية الأخرى فتشير إلى محاولة إطفائه بالتوسل بالأسباب و المقدمات، فالقرآن يريد أن يقول:

سواء توسّلوا بالأسباب أم لم يتوسلوا فلن يفلحوا أبدا، و عاقبتهم الهزيمة و الخسران.

۳- كلمة «يأبى» مأخوذة من الإباء، و معناه شدة الامتناع و عدم المطاوعة، و هذا التعبير يثبت إرادة اللّه و مشيئته الحتمية لإكمال دينه و ازدهاره كما أنّ التعبير مدعاة لاطمئنان جميع المسلمين، إن كانوا مسلمين حقّا! أنّ مستقبل دينهم لا بأس عليه، بل هو مؤيد بأمر اللّه.

المستقبل للإسلام:

الآية الأخيرة من الآيات- محل البحث- فى نهاية المطاف تزف البشرى للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، و تكمل ما أشارت إليه- آنفا- أن أعداء الإسلام لن يفلحوا فى محاولاتهم و مناوآتهم بوجه الإسلام أبدا، و تقول بصراحة:

هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ و المقصود من الهدى هو الدلائل الواضحة، و البراهين اللائحة الجليّة التى وجدت فى الدين الإسلامى.

و أمّا المراد من دين الحق، فهو هذا الدين الذى أصوله حقّة و فروعه حقّة أيضا، و كل ما فيه من تاريخ و براهين و نتائج حق، و لا شك أن الدين الذى محتواه حق، و دلائله و براهينه حقّة، و تأريخه حق جلى، لا بدّ أن يظهر على جميع الأديان.

و بمرور الزمان و تقدم العلم و سهولة الارتباطات، فإن الواقع سيكشف وجهه و يطلعه من وراء سدل الإعلام المضللة، و ستزول كل العقبات و الموانع و السدود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴

التى وضعت فى طريق انتشار الإسلام.

و هكذا فإنّ دين الحق سيستوعب كل مكان، و لا يحول بينه و بين تقدمه شيء أبدا، لأنّ الحركات المضادة للإسلام حركات مخالفة لسير التأريخ و سنن الخلق.

بحوث

۱- المراد «الهدى و دين الحقّ»

هذا التعبير الوارد فى الآية محل البحث: أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِ بمثابة الدليل على انتصار الإسلام و ظهوره على جميع الأديان، لأنّه لمّا كان محتوى دعوة النّبى الهداية، و العقل يدل على ذلك فى كل موطن، و لما كانت أصوله و فروعه موافقة للحق، و مع الحق، و تسير فى مسير الحق، و لأجل الحق.

فهذا الدين سينتصر على جميع الأديان طبعا.

و قد جاء عن أحد علماء الهند أنّه سبر فكره فى مطالعة مختلف الأديان فترة من الزمن، و انتهى أمره إلى اختيار الدين الإسلامى من

بین جمیع أدیان العالم، ثمّ نشر کتابا بالإنجلیزیهٔ اسمه «لم أسلمت؟» و بیّن فیه مزایا الدین الإسلامی علی غیره من الأدیان.
و من أهم المسائل التی أثارت انتباهه- کما یقول- أنّ الإسلام هو الدین الوحید الذی له تأریخ ثابت محفوظ و یتعجّب کیف اختارت أوربا لها دینا تری إنّ من جاء به أجلّ من الإنسان و تعدّه ربّها، مع أن هذا الدین لیس له تاریخ دقیق.[۶] إنّ مطالعهٔ آراء الذین اعتنقوا الإسلام دینا جدیدا و عزفوا عن دینهم السابق، تکشف أنّهم کانوا فی منتهی البساطهٔ و الغفلهٔ و التضلیل، بینما دلّتهم أصول الإسلام
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵
و فروعه ذات الأدلّهٔ المحکمهٔ إلی الدین الإلهی البعید عن الخرافات کلّها، و الذی یتجلی فیه نور الحق و الهدایهٔ.

۲- انتصار المنطق أم انتصر القوّهٔ؟

هناک کلام بین المفسّرین فی کیفیهٔ ظهور الدین الإسلامی علی سائر الأدیان، و هذا الظهور أو الإنتصار فی أیّ شکل هو؟
قال بعض المفسّرین: هذا الإنتصار انتصار منطقی استدلالی فحسب، و یقولون بأن هذا الموضوع حاصل فعلا، لأنّ الإسلام من حیث منطقه و دلائله لا یقاس به دین آخر.
غیر أنّ التحقیق فی موارد استعمال مادهٔ «الإظهار» فی قوله تعالی: لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ یکشف أنّ هذه المادهٔ غالبا ما تستعمل فی القدرهٔ الظاهریهٔ و الغلبهٔ المادیهٔ، کما جاء فی قصّهٔ أصحاب الکهف: إِنَّهُمْ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ یَرْجُمُوکُمْ ۷] و کما نقرأ فی شأن المشرکین کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لا یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّهً[۸].
فمن البدیهی أنّ الغلبهٔ فی مثل هذه الموارد لیست غلبهٔ منطقیهٔ، بل هی غلبهٔ عینیهٔ و فعلیهٔ، و علی کل حال فمن الأفضل و الأکثر صحهٔ أن نعتقد بأنّ هذا الظهور و الغلب ظهور مطلق- من جمیع الجوانب- لأنّه ینسجم و مفهوم الآیهٔ التی هی مطلقهٔ من جمیع الجهات أیضا، فیکون المعنی أنّه سیأتی یوم ینتصر فیه الإسلام انتصارا منطقیا و انتصارا ظاهریا، فی امتداد سیطرته و نفوذه المطلق، و حکومته العامّهٔ علی جمیع الأدیان، و سیجعل جمیع الأدیان تحت شعاعه.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶

۳- القرآن و ظهور المهدی

إنّ الآیهٔ- محل البحث- عینها و بالألفاظ ذاتها، وردت فی سورهٔ الصف، کما وردت فی أخریات سورهٔ الفتح باختلاف یسیر.
و الآیهٔ تخبر عن حدث مهمّ کبیر استدعت أهمیته هذه أن تتکرر الآیهٔ فی القرآن، و هذا الحدث الذی أخبرت عنه الآیهٔ هو استیعاب الإسلام للعالم بأسره.
و بالرغم من أن بعض المفسّرین فسر الإنتصار- فی الآیهٔ محل البحث- انتصارا فی منطقهٔ معینهٔ و محدودهٔ، و قد حدث ذلک فعلا فی عصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أو ما بعده من العصور للإسلام و المسلمین، إلّا أنّه مع ملاحظهٔ أن الآیهٔ مطلقهٔ لا قید فیها لا شرط، فلا دلیل علی تحدید المعنی، فمفهوم الآیهٔ انتصار الإسلام کلیّا- و من جمیع الجهات- علی جمیع الأدیان، و معنی هذا الکلام أنّ الإسلام سیهیمن علی الکرهٔ الأرضیهٔ عامّهٔ، و سینتصر علی جمیع العالم.
و لا شک أن هذا الأمر لم یتحقّق فی الوقت الحاضر، لکنّنا ندری أن هذا وعد من قبل اللّه حتمی و أنّه سیتحقق تدریجا، فسرعهٔ انتشار الإسلام و تقدمه فی العالم، و الاعتراف الرسمی به من قبل الدول الأوروبیهٔ المختلفهٔ و نفوذه السریع فی أفریقیا و أمریکا، و إعلان کثیر من العلماء و المفکرین اعتناقهم الإسلام، کل ذلک یشیر إلی أنّ الإسلام أخذ باستیعاب العالم.

إلّا أنّه طبقا للرّوايات المختلفة الواردة فى المصادر الإسلامية، فإنّ هذا الموضوع إنّما يتحقق عند ظهور المهدى عليه السّلام فيجعل الإسلام عالميا.

ينقل العلامة الشيخ الطبرسى فى تفسيره (مجمع البيان) الآية محل البحث

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «إنّ ذلك يكون عند خروج المهدى، فلا يبقى أحد إلّا أقرّ بمحمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم».

كما

ورد فى التّفسير ذاته عن النّبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر و لا بر إلّا أدخله اللّه كلمة الإسلام».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷

كما أن الشيخ الصدوق رضوان اللّه عليه

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية- فى كتابه إكمال الدين- أنّه قال: «و اللّه ما نزل تأويلها بعد، و لا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر باللّه العظيم».

قدس سره ۹] و هناك أحاديث أخرى بهذا المضمون وردت عن أئمة المسلمين عليهم السّلام.

كما أنّ جماعة من المفسّرين ذكروا هذا التّفسير فى ذيل الآية أيضا.

إلّا أنّ المدهش أن كاتب «المنار» هنا لم يكتف برفض هذا التّفسير المذكور آنفا، بل ناقش الأحاديث فى المهدى عليه السّلام، و حاول أن ينكر بتعصبه الخاص جميع الأحاديث الواردة فى شأنه، و لم يأل جهدا فى التذرع بما لديه من الحجج الواهية ليقول: إنّ هذه الأحاديث لا يمكن قبولها بحال، و يزعم أنّ الإعتقاد بوجود المهدى من أفكار الشيعة، و معتقداتهم، أو معتقدات من يميل إلى التشيّع.

ثمّ بعد هذا كلّه يرى صاحب «المنار» أنّ الإعتقاد بوجود المهدى مدعاة للتخلف و الرّكود! و من هنا نرى أنّه لا بدّ أن نعالج- و لو باقتضاب- الرّوايات الواردة فى شأن المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» و آثار هذا الإعتقاد فى تقدم المجتمع الإسلامى، و مواجهة الظلم و الفساد، ليعلم أن التعصب إذا دخل من باب خرج العلم و المعرفة من باب آخر.

و مع أنّ صاحب المنار له باع طويلة فى العلوم و المعارف الإسلامية، إلّا أنّه لنقطة الضعف التى ابتلى بها «التعصب الشديد» يقلب بعض الحقائق الجليّة و ينكرها تماما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸

الرّوايات الإسلامية فى المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف»

بالرّغم من كثرة الكتب المؤلفة من قبل علماء أهل السنة و علماء الشيعة، فى شأن الأحاديث الواردة فى المهدى عليه السّلام و نهضته الإصلاحية، إلّا أنّنا نعتقد أنّ كل ذلك ليس بأبلغ و لا أوجز فى الوقت ذاته ممّا كتبه علماء الحجاز من رسائل ردّا على السائلين فى هذا المجال، لذلك نرى من المناسب أن ننقل مضامين تلك الإجابات و مؤداها للقراء الكرام.

لكنّنا نذكر قبلا، أنّ الرّوايات الواردة فى المهدى «عجل اللّه فرجه الشريف» من الكثرة بحيث لا يستطيع أى محقق اسلامى- من أى مذهب كان- أن ينكر تواترها.

و قد كتبت حتى الآن كتب كثيرة فى هذا الصدد، و قد اتفق مؤلّفوها على صحة الأخبار الواردة فى المصلح المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف»، إلّا أنّ أفرادا معدودين- كأحمد أمين المصرى و ابن خلدون- و من تبعهما، يشككون فى صدور هذه الأحاديث عن نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و القرائن المتوفرة فى أيدينا تدل على أن الباعث على ترددهم لم يكن لضعف فى الأخبار، بل

كانوا يرون أن الرّوايات الواردة في المهدى عليه السّلام مشتملة على مسائل لا تكاد تصدّق بسهولة أو أنّهم لم يستطيعوا أن يميّزوا الأحاديث الصحيحة عن غيرها. او لم يجدوا تفسيرا لها.

و على كل حال يلزمنا قبل كلّ شيء أن نضع بين يدى القراء الكرام نص السّؤال و الجواب الذى نشرته رابطة العالم الإسلامى و التى يقوم عليها أشدّ المتزمتين إفراطا- فى المذاهب الإسلامية- أى الوهابيين، ليتّضح أنّ مسألة ظهور المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» بين المسلمين تعتقد بها الأغلبية الساحقة منهم، و نعتقد أن هذه الرسالة على و جازتها جمعت فى طيّها الدلائل على ذلك بما ليس لكل أحد أن يتوفر له هذا الجمع، و إذا كان الوهابيون المتعصبون قد أذعنوا لهذا الأمر، فللسبب ذاته المشار إليه آنفا فى الرسالة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹

فقبل بضعة أعوام وجّه شخص من كينيا- يدعى أبا محمّد- سؤالا إلى رابطة العالم الإسلامى فى شأن المهدى المنتظر «عجّل اللّه فرجه الشّريف».

فأجابه مدير الرّابطة، محمّد صالح القزاز، بردّ يتضمّن تصريحا بأنّ ابن تيميّة يؤمن بالأحاديث الواردة فى شأن المهدىّ أيضا، و قد كتب هذه الرسالة خمسة علماء معروفين من أهل الحجاز جوابا على سؤال أبى محمّد الكينى.

و قد ورد فى هذه الرسالة بعد ذكر اسم المهدى عليه السّلام و محل ظهوره «مكّة» ما يلى:

«عند ظهوره يكون العالم مليئا بالفساد و الكفر و الجور، فيملأ اللّه به «المهدى» العالم عدلا كما ملىء ظلما و جورا، و هو آخر الخلفاء الراشدين الاثنى عشر الذين أخبر عندهم النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى كتب الصحاح.

و الأحاديث المتعلقة بالمهدىّ نقلها عدّة من أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم منهم: عثمان بن عفان، على بن أبى طالب، طلحة بن عبيد اللّه، عبد الرحمن بن عوف، قرة بن أساس المزنى، عبد اللّه بن الحارث، أبو هريرة، حذيفة بن اليمان، جابر بن عبد اللّه، أبو أمامة، جابر بن ماجد، عبد اللّه بن عمر، أنس بن مالك، عمران بن الحصين، و أم سلمة.

فهؤلاء عشرون راويا صحابيا رووا عن النّبى فى المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» و غيرهم كثير أيضا، و هناك أحاديث كثيرة عن الصحابة أنفسهم ورد فيها الكلام عن ظهور المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» و يمكن أن تضاف هذه الرّوايات إلى الرّوايات الواردة عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ ذلك «أى الكلام فى المهدى» لم يكن مسألة اجتهادية ليمكن الاجتهاد فيها، فبناء على ذلك فإنّ الصحابة قد سمعوا هذا الموضوع من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ تضيف الرسالة:

إن الأحاديث آنفة الذكر المرويّة عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مذكورة فى كتب الحديث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰

و الكتب الإسلامية الأخرى سواء منها السنن أو المعاجم أو المسانيد، و كذلك شهادات الصحابة و أقوالهم التى هى بمثابة الحديث أيضا، و من الكتب التى وردت فيها الأحاديث فى المهدى أو أقوال الصحابة هى: سنن أبى داود، و سنن الترمذى، و ابن ماجه، و ابن عمرو الدانى، و مسند أحمد، و ابو يعلى، و البزاز، و صحيح الحاكم، و معجما الطبرانى «الكبير و المتوسط» و الرويانى، و الدار قطنى، و أبو نعيم فى أخبار المهدى، و الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد، و ابن عساكر فى تأريخ دمشق، و غيرها.

و تضيف الرسالة: إنّ بعض العلماء المسلمين كتبوا فى هذا الشأن كتبا خاصّة، منهم: أبو نعيم فى أخبار المهدى، و ابن حجر الهيثمى فى «القول المختصر فى علامات المهدى المنتظر»، و الشوكانى، فى «التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر و الدجال و المسيح» و إدريس العراقى المغربى فى كتاب المهدى، و أبو العباس بن عبد المؤمن المغربى فى كتاب «الوهم المكنون فى الردّ على ابن

خلدون».

و آخر من کتب فی هذا الشأن بحثا مطوّلا، و هو مدیر الجامعة الإسلامیة فی المدینة المنورة «فی حلقات متعدّدة فی مجلة الجامعة المذکورة».

ثمّ تضیف الرسالة أیضا، إن جماعة من علماء الإسلام قدیما و حدیثا صرّحوا فی کتبهم أن الأحادیث الواردة فی المهدی تقرب من التواتر و لا یمکن إنکارها بأیّ وجه، و منهم.

السخاوی فی «فتح المغیث» و محمّد بن الحسن السفاوینی فی «شرح العقیدة» و أبو الحسن الأبری فی «مناقب الشافعی» و ابن تیمیة فی «فتاواه» و السیوطی فی «الحاوی» و إدریس العراقی فی کتابه «المهدی» و الشوکانی فی کتاب «التوضیح فی تواتر ما جاء فی المنتظر» و محمّد جعفر الکنانی فی «نظم التناثر» و أبو العباس بن عبد المؤمن فی «الوهم المکنون ...».

و تختم الرسالة بالقول بأن ابن خلدون وحده أنکر الأحادیث فی المهدی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱

و عدّها واهیة لا أساس لها، و أنّها عاریة من الصحة، إذ قال: لا مهدیّ إلّا عیسی، إلّا أنّ علماء الإسلام و رجاله ردّوا علی مقالته، و خاصّة أبو العباس بن عبد المؤمن فی کتابه «الوهم المکنون فی الردّ علی ابن خلدون» الذی خصّص فی کتابه بحثا مسهبا فی هذا الشأن، و قد نشر الکتاب منذ أکثر من ثلاثین سنة.

و یقول حفاظ الأحادیث و العلماء الکبار بصراحة، إن الأحادیث فی المهدی تشتمل علی الصحیح و الحسن، و مجموعها متواتر، فبناء علی ذلک فالاعتقاد بظهور المهدی واجب علی کل مسلم، و یعدّ هذا من عقائد أهل السنة و الجماعة و لا ینکرها إلّا الجهلة أو المبتدعون ... إلخ.

مدیر إدارة مجمع الفقه الإسلامی محمّد المنتصر الکنائی

الانتظار و آثاره البنّاءة:

کان الکلام فی البحث السابق أن هذا الإعتقاد لم یکن ممّا طرا علی التعالیم الإسلامیة، بل هو من أکثر المباحث القطعیة المأخوذة عن مؤسس دعائم الإسلام صلوات اللّه علیه، و یتفق علی ذلک عموم الفرق الإسلامیة، و الأحادیث فی هذا الشأن متواترة أیضا.

و الآن لنقف علی آثار الانتظار فی المجتمعات الإسلامیة و ما هی علیه من أحوال، لنری هل أن الإیمان بظهور الإمام المهدی علیه السّلام یجعل الإنسان عارفا فی الوهم و الخیال ثمّ لیستسلم لجمیع الظروف، أو هو نوع من الدّعوة إلی النهوض و بناء الإنسان و المجتمع؟! هل یدعو إلی التحرک، أم إلی الرکود؟

هل یبعث فی الإنسان روح المسؤولیة، أم هو مدعاة للفرار منها؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲

و أخیرا: أهو مخدّر، أم موقظ؟

إلّا أنّه قبل أن نوضح الإجابة علی هذه الأسئلة- لا بدّ من الالتفات إلی هذه الملاحظة و هی أن أسمی المفاهیم و أکرم الدساتیر متی ما وقعت فی أیدی أناس جهلة أو غیر جدیرین بها، فمن الممکن أن تمسخ بسوء استفادتهم فتکون النتیجة خلافا للهدف الأصلی تماما و تتعاکس فی المسار، و مثل هذا واقع بکثرة، و سنری أن مسألة انتظار المهدی علیه السّلام من هذه المسائل أیضا.

و من أجل تحاشی و الأخطاء و الاشتباهات فی مثل هذه المباحث، ینبغی- کما قیل- أن ننهل الماء من معینه العذب، لئلا نجد فیه کدر الأنهار أو السواقی المشوبة.

أی علینا أن نراجع النصوص الإسلامیة الأصیلة مباشرة و أن نفهم الانتظار من لسان روایاتها المختلفة، حتی نطّلع علی الهدف الأصلیّ منها!

الرّوایات الشّریفة:

۱- سأل بعضهم الإمام الصّادق علیه السّلام: ما تقول فی رجل موال للأئمّة علیهم السّلام و ینتظر ظهور حکومة الحق، ثمّ یموت و هو علی هذه الحال؟!

فقال الإمام الصادق علیه السّلام: هو بمنزلة من کان مع القائم فی فسطاطه. ثمّ سکت هنیئة، ثمّ قال: هو کمن کان مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم ۱۰].

و هذا المضمون نفسه ورد فی روایات متعددة بتعابیر مختلفة:

۲- إذ جاء فی بعضها: بمنزلة الضارب بسیفه فی سبیل اللّه.

۳- و فی بعضها: کمن قارع مع رسول اللّه بسیفه.

۴- و فی بعضها: بمنزلة من کان قاعدا تحت لواء القائم.

۵- و فی بعضها: بمنزلة المجاهدین بین یدی رسول اللّه.

۶- و فی بعضها: بمنزلة من استشهد مع رسول اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳

فهذه التشبیهات السبعة فی الرّوایات الست المذکورة، آنفا فی شأن المهدی علیه السّلام، تبیّن هذه الواقعیة و هی أنّ هناک علاقة و ارتباط بین مسألة الانتظار من جانب، و جهاد العدوّ فی أشدّ أشکاله من جانب آخر «فتأملوا بدقّة».

۷- کما ورد فی روایات متعددة أن انتظار مثل هذه الحکومة الحقة من أفضل العبادات، و هذا المضمون ورد فی بعض أحادیث النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کلام الإمام أمیر المؤمنین علی علیه السّلام.

فقد ورد عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أفضل أعمال أمّتی انتظار الفرج من اللّه عزّ و جلّ».[۱۱]

و

قال صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی حدیث آخر: «أفضل العبادة انتظار الفرج».[۱۲]

و هذان الحدیثان یشیران إلی انتظار الفرج، سواء الفرج بمفهومه الواسع العام أو بمفهومه الخاص أی انتظار ظهور المصلح و یبیّنان أهمیة الانتظار بجلاء أیضا.

و مثل هذه التعابیر تعنی أنّ الانتظار معناه الثوریة المقرونة بالتهیؤ للجهاد، فلا بدّ أن نتصوّر هذا المعنی لنفهم المراد من الانتظار، ثمّ نحصل علی النتیجة المتوخاة.

مفهوم الانتظار!

الانتظار: یطلق عادة علی من یکون فی حالة غیر مریحة و هو یسعی لإیجاد وضع أحسن.

فمثلا المریض ینتظر الشفاء من سقمه، أو الأب ینتظر عودة ولده من السفر، فهما أی المریض و الأب مشفقان، هذا من مرضه و ذاک من غیاب ولده، فینتظران الحال الأحسن و یسعیان من أجل ذلک بما فی وسعهما.

و كذلك- مثلا- حال التّاجر الذى يعانى الأزمة السوقية و ينتظر النشاط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴

الاقتصادى. فهاتان الحالتان أى: الاحساس بالأزمة، و السعى نحو الأحسن هما من الانتظار.

فبناء على ذلك، فإنّ مسألة انتظار حكومة الحق و العدل، أى حكومة «المهدى عليه السّلام» و ظهور المصلح العالمى، مركبة فى الواقع من عنصرين: عنصر نفى، و عنصر إثبات، فعنصر النفى هو الإحساس بغرابة الوضع الذى يعانيه المنتظر، و عنصر الإثبات هو طلب الحال الأحسن! و إذا قدّر لهذين العنصرين أن يحلّا فى روح الإنسان فإنّهما يكونان مدعاة لنوعين من الأعمال و هذان النوعان هما:

۱- ترك كل شكل من أشكال التعاون مع أسباب الظلم و الفساد، بل عليه أن يقاومها، هذا من جهة.

۲- و بناء الشخصية و التحرك الذاتى و تهيئة الاستعدادات الجسمية و الروحية و المادية و المعنوية لظهور تلك الحكومة العالمية الإنسانية، من جهة أخرى.

و لو أمعنّا النظر لوجدنا أنّ هذين النوعين من الأعمال هما سبب فى اليقظة و الوعى و البناء الذاتى.

و مع الالتفات إلى مفهوم الانتظار الأصيل، ندرك بصورة جيدة معنى الرّوايات الواردة فى ثواب المنتظرين و عاقبة أمرهم، و عندها نعرف لم سمّت الرّوايات المنتظرين بحقّ بأنّهم بمنزلة من كان مع القائم تحت فسطاطه «عجل اللّه فرجه» أو أنّهم تحت لوائه، أو أنّهم كمن يقاتل فى سبيل اللّه بين يديه كالمستشهد بين يديه، أو كالمتشحط بدمه! ... إلخ ...

ترى أ ليست هذه التعابير تشير إلى المراحل المختلفة و درجات الجهاد فى سبيل الحق و العدل، التى تتناسب و مقدار الاستعداد و درجة انتظار الناس؟

كما أنّ ميزان التضحية و معيارها ليسن فى درجة واحدة، إذا أردنا أن نزن تضحية المجاهدين، فى سبيل اللّه و درجاتهم و آثار تضحياتهم، فكذلك الانتظار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵

و بناء الشخصيّة و الاستعداد، كل ذلك ليس فى درجة واحدة، و إن كان كلّ من هذه «العناوين» من حيث المقدمات و النتائج يشبه العناوين آنفة الذكر. فكلّ منهما جهاد و كل منهما استعداد و تهيؤ لبناء الذات، فمن هو تحت خيمة القائد و فى فسطاطه يعنى أنّه مستقر فى مركز القيادة، و عند آمرية الحكومة الاسلامية! فلا يمكن أن يكون إنسانا غافلا جاهلا، فذلك المكان ليس مكانا لكل أحد و إنّما هو مكان من يستحقه بجدارة! فكذلك الأمر عند ما يقاتل المقاتل بين يدى هدا القائد أعداء حكومة العدل و الصلاح، فعليه أن يكون مستعدا بشكل كامل روحيا و فكريا و قتاليا.

و لمزيد التعرف على الآثار الواقعية لانتظار ظهور المهدى عليه السّلام لاحظوا التوضيح التّالى:

الانتظار يعنى الاستعداد الكامل:

إذا كنت ظالما مجرما، فكيف يتسنى لى أن أنتظر من سيفه متعطش لدماء الظالمين؟! و إذا كنت ملوّثا غير نقى فكيف أنتظر ثورة يحرق لهبها الملوّثين؟! و الجيش الذى ينتظر الجهاد الكبير يقوم برفع معنويات جنوده و يلهمهم روح الثورة، و يصلح نقاط الضعف فيهم إن وجدت، لأنّ كيفية الانتظار تتناسب دائما و الهدف الذى نحن فى انتظاره.

۱- انتظار قدوم أحد المسافرين من سفره.

۲- انتظار عودة حبيب عزيز جدا.

۳- انتظار حلول فصل اقتطاف الثمار و جنى المحاصيل.

کل من هـذه الأنواع من الانتظار مقرون بنوع من الاسـتعداد، ففی أحـدها ینبغی تهیئهٔ البیت و وسائل التکریم، و فی الآخر ما ینبغی أن یقتطف به من الأدوات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶

و السـلال و هکذا ... و الآن سنتصوّر کیف یکون انتظار ظهور مصلح عالمی کبیر و کیف نکون فی انتظار ثورهٔ و تغییر و تحول واسع لم یشهد تأریخ الإنسانیهٔ مثیلا له؟

الثورهٔ التی لیست کسائر الثورات السابقهٔ، إذ هی غیر محدودهٔ بمنطقهٔ ما، بل هی عامّهٔ و للجمیع، و تشمل جمیع شؤون الحیاهٔ و الناس، فهی ثورهٔ سیاسیهٔ، ثقافیهٔ، اقتصادیهٔ، أخلاقیهٔ.

الحکمهٔ الأولی، بناء الشّخصیهٔ الفردیّهٔ:

إنّ بناء الشّخصیهٔ- قبل کل شیء- بحاجهٔ إلی عناصر معدّهٔ ذات قیم إنسانیهٔ، لیمکن للفرد أن یتحمل العبء الثقیل الإصلاحی للعالم، و هذا الأمر بحاجهٔ- أوّلا- إلی الارتقاء الفکری و العلمی و الاستعداد الروحی، لتطبیق ذلک المنهج العظیم.

فالتحجر، و ضیق النظر و الحسد، و الاختلافات الصبیانیهٔ، و کل نفاق بشکل عام أو تفرقهٔ لا تنسجم و مکانهٔ المنتظرین الواقعیین.

و المسألهٔ المهمّهٔ- هنا- أنّ المنتظر الواقعی لا یمکنه أن یقف موقف المتفرج ممّا أشرنا إلیه آنفا، بل لا بدّ أن یقف فی الصف الآخر، أی صف الثائرین المصلحین، فالإیمان بالنتائج و ما یؤول إلیه هذا التحول، لا یسمح له أبدا أن یکون فی صف «المثبطین» المتقاعسین، بل یکون فی صف المخلصین المصلحین، و یکون عمله خالصا و روحه أکثر نقاء، و أن یکون شهما عارفا معرفهٔ کافیهٔ بالأمور.

فإذا کنت فاسدا معوجّا فکیف یمکننی أن أنتظر نظاما لا مکان فیه للفاسدین؟

ألیس مثل هـذا الانتظار کافیا لأن أطهّر نفسی و فکری، و أغسل جسـمی و روحی من التلوّث؟! و الجیش الذی ینتظر جهادا تحرریا لا بدّ له أن یکون فی حالهٔ من الاستعداد الکامل، و أن یهیئ السلاح الجدیر بالمعرکهٔ، و أن یصنع الملاجئ و المواضع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷

العسکریهٔ اللازمهٔ و أن یرفع المعنویات القتالیهٔ فی صفوف أفراده، و یقوی روحیّاتهم، یسرج فی قلوبهم شعلهٔ العشق للمواجههٔ فإنّ جیشا لیس فیه مثل هـذه الاستعدادات لا یکون جیشا (منتظرا) و إذا ادعی الانتظار فهو «کاذب»! إنّ انتظار المصلح، «العالمی» معناه الاستعداد الکامل فکریا، و أخلاقیا، مادیا و معنویا، الاستعداد لإصلاح العالم کلّه. فتصوّروا أنّ مثل هـذا الاستعدادکم یکون بنّاء؟! فإصلاح المعمورهٔ کلّها، و إنهاء الظلم و الفساد و النواقص لیس عملا بسیطا، و لا هو بالمزاح أو الهزل، بل الاستعداد لمثل هذا الهدف الکبیر ینبغی أن یتناسب معه، و أن یکون بسعته و عمقه! فلا بدّ من وجود رجال کبار مصممین ذوی إرادهٔ أقویاء لا ینکصون و لا ینهزمون أبدا، ذوی نظرهٔ واسعهٔ و استعداد تام و تفکیر عمیق، حتی تتحقق مثل هذه الثورهٔ الإصلاحیهٔ العالمیهٔ.

و بناء الشخصیهٔ لمثل هـذا الهدف یستلزم الارتباط بأشـد المناهج الأخلاقیهٔ، و الفکریهٔ و الاجتماعیهٔ أصالهٔ و عمقا، فهذا هو معنی الانتظار الواقعی! تری هل یستطیع أن ینکر أحد فیقول: إن مثل هذا الانتظار لا یکون فاعلا.

الحکمهٔ الثّانیهٔ، التعاون الاجتماعی:

إنّ المنتظرین بحق فی الوقت الذی ینبغی علیهم أن یهتمّوا ببناء «شخصیتهم» علیهم، أن یراقبوا أحوال الآخرین، و أن یجدّوا فی إصلاحهم جدّهم فی إصلاح ذاتهم ... لأنّ المنهج العظیم الذی ینتظرونه لیس منهجا فردیّا، بل هو منهج ینبغی أن تشترک فیه جمیع

العناصر الثوریة، و أن یکون العمل جماعیا عاما، و أن تتسق المساعی و الجهود بشکل یتناسب و تلک الثورة العالمیة هم فی انتظارها.
ففی ساحة معرکة واسعة یقاتل فیها مجموعة جنبا إلی جنب، لا یمکن لأحد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸

منهم أن یغفل عن الآخرین بل علیه أن یشدّ أزرهم و أن یسدّ الثغرة و یصلح نقطة الضعف إن وجدت و یرمم المواضع المتداعیة و یدعم ما ضعف منها، لأنّه لا یمکن تطبیق مثل هذا المنهج دون مساهمة جماعیة نشیطة فعّالة متسقة متناسقة! فبناء علی ذلک فالمنتظرون بحقّ علیهم أن یصلحوا حال الآخرین بالإضافة إلی إصلاح حالهم.

فهذا هو الأثر الآخر البنّاء، الذی یورثه الانتظار لقیام مصلح عالمی، و هذه حکمة الفضائل التی ینالها، المنتظرون بحق.

الحکمة الثّالثة، المنتظرون بحق لا یذوبون فی المحیط الفاسد:

إنّ الأثر المهم الآخر للانتظار هو عدم ذوبان المنتظرین فی المحیط الفاسد، و عدم الانقیاد وراء المغریات و التلوّث بها أبدا.

و توضیح ذلک: أنّه حین یعم الفساد المجتمع، أو تکون الأغلبیة الساحقة منه فاسدة، فقد یقع الإنسان النقی الطاهر فی مأزق نفسی، أو بتعبیر آخر: فی طریق مسدود «للیأس من الإصلاحات التی یتوخّاها».

و ربّما یتصور «المنتظرون» أنّه لا مجال للإصلاح، و أن السعی و الجدّ من أجل البقاء علی «النقاء» و الطهارة و عدم التلوّث، کل ذلک لا- طائل تحته، أو لا جدوی منه، فهذا الیأس أو الفشل قد یجرّ الإنسان نحو الفساد و الاصطباغ بصبغة المجتمع الفساد، فلا یستطیع المنتظرون عندئذ أن یحافظوا علی أنفسهم باعتبارهم أقلیّة صالحة بین أکثریة طالحة، و أنّهم سیفتضحون إن أصروا علی مواصلة طریقهم و ینکشفون لأنّهم لیسوا علی شاکلة الجماعة.

و الشیء الوحید الذی ینعش فیهم الأمل و یدعوهم الی المقاومة و التجلد و عدم الذّوبان و الانحلال فی المحیط الفاسد، هو رجاؤهم بالإصلاح النهائی، فهم فی هذه الحال- فحسب- لا یسأمون عن الجد و المثابرة، بل یواصلون طریقهم فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹

سبیل المحافظة علی الذات و حفظ الآخرین و إصلاحهم أیضا.

و حین نجد- فی التعالیم الإسلامیة- أن الیأس من رحمة اللّه و ثوابه من أعظم الذنوب و الکبائر، فقد یتعجب بعض الجهّال: کیف یکون الیأس من رحمة اللّه من الکبائر و الی هذه الدرجة من الأهمیة، حتی أنّه أشدّ من سائر الذنوب الأخری، فإنّ حکمته و «فلسفته» فی الحقیقة هو ما أشرنا إلیه آنفا، لأنّ العاصی الآیس من رحمة اللّه لا یری شیئا ینقذه و یخلصه من عذاب اللّه، فلا یفکر بإصلاح الخلل، أو- یکفّ عن الذنب علی الأقل لأنّه یقول فی نفسه: أنا الغریق فهل أحشی من البلل؟

و النهایة الحتمیة جهنّم، و قد اشتریتها، فما عسی أن أفعل؟ ... و ما الی ذلک.

إلّا أنّه حین تنفتح له نافذة الأمل، فإنّه سیرجو عفو ربّه، و یتجه نحو تغییر نفسه و حاله، و یحصل له منعطف جدید فی حیاته یدعوه الی التوقف عن مواصلة الذنوب و العودة نحو الطهارة و النقاء و الإصلاح.

و من هنا یمکننا أن نعتبر أنّ الأمل عامل تربوی مهم و مؤثر فی المنحرفین أو الفاسدین، کما أنّ الصالحین لا یستطیعون أن یواصلوا مسیرهم فی المحیط الفاسد إذا لم یکن لهم أمل بالانتصار علی المفاسد.

و النتیجة أنّ معنی انتظار ظهور المصلح، هو أنّ الدنیا مهما مالت نحو الفساد أکثر کان الأمل بالظهور أکثر، و الانتظار یکون له أثر نفسی کبیر، فیضمن للنفوس القوّة فی مواجهة الأمواج و التیارات الشدیدة کیلا- یجرفها الفساد، فهم لیسوا أربط جأشا فحسب، بل بمقتضی قول الشاعر:

عند ما یأزف میعاد الوصالفلظی العشّاق فی أیّ اشتعال

إذن فهم یسعون أکثر للوصول الی الهدف المنشود، و تنشد همتهم لمواجهة الفساد و مکافحته بشوق لا مزید علیه.

و ممّا ذکرناه- آنفا- نستنتج أن الأثر السلبی للانتظار إنّما یکون فی صوره ما لو مسخ مفهومه أو حرّف عن واقعه، کما حرفه المخالفون و الأعداء، و مسخه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰

الموافقون، غیر أنّه لو أخذ بمفهومه الواقعی لکان عاملا تربویّا مهمّا بنّاء محرّکا باعثا علی الأمل و الرجاء.

و ممّا یؤید هذا الکلام ما ورد عن الأئمّة الطّاهرین علیهم السّلام فی تفسیر هذه الآیة:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ إذ جاء أنّ المراد من الآیة هو «القائم و أصحابه».[۱۳] کما جاء فی حدیث آخر أنّها، أی هذه الآیة نزلت فی المهدی علیه السّلام.

و قد عبّرت هذه الآیة عن الإمام المهدی و أصحابه ب الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ

فبناء علی ذلک فإنّ تحقّق هذه الثورة الإصلاحیة بدون إیمان مستحکم یقضی علی کل أنواع الضعف و التحلّل و بدون عمل صالح یفتح الطریق لإصلاح العالم، فإن هذا التحقّق مستبعد جدّا.

و الطالبون لهذا التحقّق علیهم أن یزدادوا إیمانا و معرفة، و أن یجدّوا فی العمل الصالح و إصلاح ذاتهم.

و هؤلاء هم طلیعة تلک الحکومة العالمیة و أملها المشرق، لا من رکن الی الظلم و الجور ....

و لیس المنتظر لتلک الحکومة الأشخاص الضعاف الهمة و الجبناء الذین یخافون حتی من ظلّهم.

و لا البطّالون الساکتون عن الحق التّارکون للآمر بالمعروف و النهی عن المنکر فی محیطهم الفاسد. أجل ... هذا هو الأثر الإیجابی البناء لانتظار قیام المهدی علیه السّلام فی المجتمع الإسلامی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۳۴ الی ۳۵]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَیَأْکُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا یُنْفِقُونَها فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِیمٍ (۳۴) یَوْمَ یُحْمی عَلَیْها فِی نارِ جَهَنَّمَ فَتُکْوی بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذا ما کَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ فَذُوقُوا ما کُنْتُمْ تَکْنِزُونَ (۳۵)

التّفسیر

کنز الأموال:

کان الکلام فی الآیات المتقدمة عن أعمال الیهود و النصاری المشوبة بالشرک، إذ کانوا یعبدون الأحبار و الرهبان من دون اللّه.

الآیة الأولی محل البحث تقول: إنّ أولئک مضافا إلی کونهم غیر جدیرین بالألوهیة فهم غیر جدیرین بقیادة الناس أیضا، و خیر دلیل علی ذلک أعمالهم المتناقضة المضطربة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲

فالآیـة هنـا تلتفت نحو المسـلمین فتخـاطبهم بـالقول: یـا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَیَأْکُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ

الطریف هنـا أنّنا نواجه الأسـلوب نفسه فی القرآن علی ما عهـدناه فی أمکنـهٔ أخری من آیاته، فالآیـهٔ هنا لم تقل: إنّ الأحبار و الرهبان جمیعهم لیـأکلون، بل قالت: إِنَّ کَثِیراً فهی تسـتثنی الأقلیـهٔ الصالحـهٔ منهم، و هـذا النوع من الدقـهٔ ملحوظ فی سائر آیات القرآن، و قد أشرنا الی ذلک سابقا.

لکن کیف یـأکلون أموال النـاس دون مسوّغ أو مجوّز، أو کمـا عبّر القرآن «بالباطل» فقـد أشـرنا سابقا الی ذلک فی آیات أخری کما ورد فی التأریخ شیء منه أیضا، و ذلک:

أوّلا: إنّهم کتموا حقائق التعالیم التی جاء بها موسـی علیه السّـلام فی توراته و عیسی علیه السّلام فی إنجیله، لئلا یمیل الناس الی الدین الجدیـد، «الدین الإسـلامی» فتنقطع هدایاهم و تغدو منافعهم فی خطر، کما أشارت الی ذلک الآیات (۴۱) و (۷۹) و (۱۷۴) من سورهٔ البقرهٔ.

و الثّانی: إنّهم بأخـذهم «الرّشوهٔ» کانوا یقلبون الحق باطلا و الباطل حقّا، و کانوا یحکمون لصالح الأقویاء، کما أشارت الی ذلک الآیهٔ (۴۱) من سورهٔ المائدهٔ.

و من أسالیبهم غیر المشـروعهٔ فی أخذ المال هو ما یسمّی ب «صکوک الغفران و بیع الجنّهٔ» فکانوا یتسلمون أموالا باهظهٔ من الناس، و یبیعون الجنّهٔ ب «صـکوک الغفران» و الغفران و دخول الجنّهٔ منحصـران بإرادهٔ اللّه و أمره، و هـذا الموضوع- أی صـکوک الغفران- یضجّ به تأریخ المسیحیّهٔ! کما أثار نقاشات و جدالا عندهم.

و أمّـا صـدّهم عن سبیـل اللّه فهو واضـح، لأـنّهم کـانوا یحرفون آیات اللّه، أو أنّهم کانوا یکتمونها رعایـهٔ لمنافعهم الخاصّـهٔ، بل کانوا یتهمون کل من یرونه مخالفا لمقامهم و منافعهم، و یحاکمونه- فی محاکم تدعی بمحاکم التفتیش الدینی بأسوأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳

وجه، و یصدرون علیه أحکاما جائرهٔ قاسیهٔ جدّا.

و لو لم یقوموا بمثل هذه الأعمال و لم یقدموا علی صدّ أتباعهم عن سبیل اللّه، لکان آلاف الآلاف من أتباعهم ملتفین الیوم حول رایهٔ الإسـلام و دین الحق من صـمیم أرواحهم و قلوبهم، فبنـاء علی ذلـک یمکن أن یقـال- بکل جرأهٔ و دون تحفظ- أن آثام الآلاف من الجماعات فی رقاب أولئک «الرهبان و الأحبار» لأنّهم کانوا سببا فی بقائهم فی الظلمات، ظلمات الکفر و الضلال ...

و ما زالت الکنیسهٔ لحدّ الآن تبذل قصاری وسعها- و لا یقصر فی ذلک الیهود أیضا- لتغییر أفکار عامّهٔ الناس، و إلفاتهم عن الإسلام، کما وجه الیهود تهما کثیرهٔ عجیبهٔ إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و هـذا الموضوع من الوضوح و الشـمول أنّ جماعـهٔ من علماء المسـیحیهٔ المثقفین اعترفوا بأنّ أسـلوب الکنیسـهٔ فی مواجههٔ الإسـلام و محاربته أحد أسباب جهل الغربیین بالإسلام و عدم اطلاعهم علی هذا الدین الطاهر.

و تعقیبا علی موضوع حب الیهود و النصاری لدنیاهم و أکل المال بالباطل، فإنّ القرآن یتحدث عن قانون کلّی فی شأن أصحاب المال و ذوی الثراء، الذین یکنزون أموالهم، فیقول: وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ وَ لا یُنْفِقُونَها فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِیمٍ

و الفعل «یکنزون» مأخوذ من مادهٔ «الکنز» و هو المال المـدفون فی الأرض، و هو فی الأصل جمع أجزاء الشـیء، و من هنا فقـد سـمّی البعیر ذو اللحم الکثیر بأنّه «کناز اللحم» ثمّ استعمل الکنز فی جمع المال و ادخاره و دفنه، أو فی الأشیاء القیمهٔ غالیهٔ الثمن.

فبناء علی ذلک فإنّ الکنز ملحوظ فیه الجمع و الإخفاء و المحافظهٔ.

«الذهب و الفضهٔ» معدنان مشهوران، و کان النقد أو العملهٔ سابقا بالدینار الذهبی و الدرهم الفضیّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴

و لبعض العلماء تعريف طريف فى شأن هذين المعدنين و لغتيهما «كما ذكر ذلك العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان» فقال: إنّما سمّى الذهب ذهبا لذهابه عن اليد عاجلا، و إنّما سمّيت الفضة لانفضاضها أى لتفرّقها، و لمعرفة مآل و حقيقة هذه الثروة فإنّ هذه التسمّية كافية (لكلّ من المالين- الذهب و الفضة).

و منذ كانت المجتمعات البشرية كانت مسألة المبادلة- سلعة بسلعة- رائجة بين الناس، فكان كلّ يبيع ما يجده زائدا على حاجته من المحاصيل الزراعية أو الدواجن بجنس آخر، أو بضاعة أخرى، لأنّ النقد «الدينار أو الدرهم» لم يكن آنئذ، لكن لما كانت المبادلة- أعنى مبادلة الأجناس أو البضائع- تحدث بعض المشاكل أو المصاعب، لعدم وجود ما يحتاجه البائع، دائما فقد يكون هناك شيء آخر- مثلا- يراد تبديله، فقد دعت الحاجة الى اختراع النقد.

و قد كان وجود الفضة، بل الأهم منه وجود الذهب، مدعاة الى تحقق هذه الفكرة، و هى أن تمثل الفضة القيمة الدانية، و أن يمثل الذهب القيمة الغالية، و بهما اتّخذت المعاملات رونقا جديدا بارزا.

فبناء على ذلك فإنّ الحكمة الأصيلة من النقد- الذهب و الفضة- هى سرعة تحرك عجلة المبادلات الاقتصادية.

أمّا الذين يكنزون الذهب و الفضة، فهم لا يكونون سببا لركود الوضع الاقتصادى و الضرر بالمجتمع فحسب، بل إنّ عملهم هذا مخالف لفلسفة ابتداع النقد و اختراعه.

فالآية محل البحث تحرم الكنز و جمع المال، و الثروة بصراحة، و تأمر المسلمين أن ينفقوا أموالهم فى سبيل اللّه و ما فيه نفع عباد اللّه، و أن يتجنبوا كنزها و دفنها و إبعادها عن تحرك السوق، و إلّا فلينتظروا «العذاب الأليم».

و هذا العذاب الأليم ليس جزاءهم فى يوم القيامة فحسب، بل يشملهم فى الدنيا- لإرباكهم الحالة الاقتصادية و لإيجاد الطبقية بين الناس «الفقير و الغنى» أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵

و إذا لم يكن أهل الدنيا يعرفون أهمية هذا الدّستور الإسلامى بالأمس، فنحن نستطيع أن ندركه جيدا، لأنّ الأزمات الاقتصادية التى أبتلى بها البشر نتيجة احتكار الثروة من قبل جماعة «أنانية»، و ظهورها على صورة حروب و ثورات و سفك دماء، غير خاف على أحد أبدا.

حتى يعدّ جمع الثروة كنزا؟

هناك كلام بين المفسّرين فى شأن الآية- محل البحث- فهل كلّ جمع للمال أو ادخار له يعدّ كنزا، لأنّه زائد على حاجة الإنسان، فهو حرام وفق مفهوم الآية ...

أو أنّ الحكم خاصّ ببداية الإسلام و قبل نزول حكم الزّكاة ثمّ ارتفع حكم الكنز بنزول حكم الزّكاة ...

أو أنّه يجب على الإنسان دفع زكاته سنويا لا غير، فإذا دفع الإنسان زكاة سنته فلا يكون مشمولا بحكم الكنز و إن جمع المال؟

فى كثير من الرّوايات الصادرة عن أهل البيت عليهم السّلام و روايات أهل السّنة، يلوح لنا التّفسير الثّالث،

ففى حديث عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «أى مال أدّيت زكاته فليس بكنز».[۱۴]

كما نقرأ فى بعض الرّوايات أنّه

لمّا نزلت آية الكنز ثقل على المسلمين الأمر، فقالوا: ليس لنا أن ندخر شيئا لأبنائنا إذا، ثمّ سألوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «إن اللّه لم يفرض الزكاة إلّا ليطيب بها ما بقى من أموالكم، و إنّما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم».[۱۵]

أى أن جمع المال لو كان- بشكل عام ممنوعا- لما وجدنا لقانون الإرث موضوعا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶

و

فی کتاب الأمالی للشیخ الطوسی قدس سرّه ورد هذا المضمون ذاته عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «من أدی زکاة مال فما تبقّی منه لیس بکنز».[۱۶]

إلّا أنّنا نقرأ روایات أخری فی المصادر الإسلامیة لا ینسجم ظاهرا- و لأوّل وهلة- و التّفسیر الآنف الذکر، و منها ما ورد عن الإمام علی علیه السّلام فی مجمع البیان أنّه قال: «ما زاد علی أربعة آلاف ۱۷] فهو کنز أدّی زکاته أو لم یؤدّها، و ما دونها فهی نفقة، فبشرهم بعذاب ألیم».[۱۸]

و

قد ورد فی الکافی عن معاذ بن کثیر، أنّه سمع عن الصادق علیه السّلام یقول: «لشیعتنا أن ینفقوا ممّا فی أیدیهم فی الخیرات، و ما بقی فهو حلال لهم، إلّا أنّه إذا ظهر القائم حرم جمیع الکنوز و الأموال المدخرة حتی یؤتی بها إلیه و یستعین بها علی عدوه، و ذلک معنی قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ.[۱۹]

و نقرأ فی سیرة أبی ذر رضوان اللّه علیه فی کثیر من الکتب أنه لما کان فی الشام، کان یقرأ الآیة- محل البحث- فی شأن معاویة، و یقول بصوت عال صباح مساء:

«بشر أهل الکنوز بکیّ فی الجباه وکیّ بالجنوب وکیّ بالظهور أبدا حتی یتردّد الحرّ فی أجوافهم».[۲۰]

کما یظهر من استدلال أبی ذر رضی اللّه عنه بالآیة فی وجه عثمان، أنّه کان یعتقد أنّ الآیة لا تختص بمانعی الزّکاة، بل تشمل غیرهم أیضا.

و یمکن الاستنتاج من مجموع الأحادیث- آنفة الذکر- منضمة إلیها الآیة محل البحث، أنّه فی الظروف الاعتیادیة المألوفة، حیث یری الناس آمنین، أو غیر محدق بهم الخطر، و المجتمع فی حال مستقر، فیکفی عندئذ دفع الزکاة و ما تبقی لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷

یعد کنزا. و ینبغی الالتفات بطبیعة الحال الی أنّه مع رعایة الموازین الإسلامیة، و ما هو مقرر فی شأن رؤوس الأموال و الأرباح، فإنّ الأموال لا تتراکم بشکل غیر مألوف فوق العادة، لأنّ الإسلام وضع قیودا و شروطا للمال لا یتسنی للإنسان معها جمع الأموال و ادّخارها.

و أمّا فی الحالات غیر الطبیعیة و غیر الاعتیادیة، و عند ما یقتضی حفظ مصالح المجتمع الإسلامی ذلک، فإنّ الحکومة الإسلامیة، تحدّد لجمع المال مقدارا، کما مرّ فی حدیث الإمام علی علیه السّلام أو تطالب الناس بالکنوز و ما جمعوه من المال کلیّا، کما هو الحال فی قیام المهدی، إذ مرّت روایة الإمام الصادق علیه السّلام مع ذکر العلّة ...

«فیستعین به (أی المال) علی عدوّه».

إلّا أنّنا نکرر القول بأنّ هذا الموضوع یختص بالحکومة الإسلامیة، و هی التی لها حق البتّ و التصمیم فی مواطن الضرورة و الاقتضاء «فلاحظوا بدقّة».

و أمّا قصّة أبی ذر رضی اللّه عنه فلعلّها ناظرة الی هذا الموضوع ذاته، إذا کان المجتمع الإسلامی فی حاجة ماسة و شدیدة للمال، و کان جمع المال و کنزه مخالفا لمنافع المجتمع و حفظ وجوده.

و مع أن أبا ذر رضی اللّه عنه کان ناظرا الی أموال «بیت المال» التی کانت عند عثمان و معاویة، و نحن نعرف أنّه مع وجود المستحقین لا یجوز تأخیر دفع المال عنهم لحظة واحدة، بل یجب دفعه الی أصحابه فورا، و لا علاقة لمسألة الزکاة بهذا الموضوع أبدا.

على أنّ التواريخ الإسلامية- سنّية و شيعية- مجمعة و شاهدة على أنّ عثمان وزّع أموال بيت المال الضخمة الطائلة على أقاربه، و أن معاوية بنى من بيت مال المسلمين قصرا ضخما أحيا به أساطير قصور الساسانيين، و كان لأبى ذر رضوان اللّه عليه الحق فى أن يحتج بالآية محل البحث أمامها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸

أبو ذر و الاشتراكية!!

من المؤاخذات على الخليفة الثّالث مسألة إبعاد أبى ذر رضى اللّه عنه المصحوب بالقسوة و الخشونة الى الرّبذه، تلك المنطقة التى كان يبغضها أبو ذر و التى كانت غير صالحة من حيث الماء و الهواء، حتى انتهى الأمر الى موت هذا الصحابى الجليل و المجاهد المضحى فى سبيل الإسلام، و هو الذى

قال فيه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما أظلّت الخضراء و لا أقلّت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذرّ».

و نعرف أنّ الاختلاف بين أبى ذر و عثمان لم يكن لأنّ أبا ذر كان يتمنى المال أو المقام، بل على العكس فقد كان أبو ذر زاهدا عابدا ورعا من جميع الوجوه، بل منشأ الخلاف و أساسه، هو أن عثمان فرّق مال بيت مال المسلمين على ذوى قرباه و أصحابه و أنفقه بلا حساب.

و كان أبو ذر رضى اللّه عنه متشددا فى الأمور المالية، و لا سيّما ما كان منها متعلقا ببيت مال المسلمين، و كان يرغب فى أن يسير جميع المسلمين على سنة النّبى فى هذا المجال، و التصرف بالمال، لكننا نعرف أنّ الأمور أخذت طابعا آخر فى عصر الخليفة الثّالث عثمان.

و على كل حال، فإنّ أبا ذرّ رضى اللّه عنه لما واجه الخليفة الثّالث بشدّة، و عنّفه فى إنفاق المال، أرسله عثمان الى الشام بادئ الأمر، فواجه أبو ذر معاوية هناك بصورة أشدّ نقدا و أكثر صراحة، حتى أنّ ابن عباس قال: لقد برم معاوية من كلام أبى ذر و كتب الى عثمان: إنّه إن كانت لك حاجة فى الشام فخذ أبا ذر، فإنّه إن بقى فيها فسوف يصرف أهلها عنك.

فكتب عثمان كتابا و أحضر أبا ذرّ الى المدينة، و كما يقول بعض المؤرّخين:

كتب عثمان الى معاوية، أن ابعث أبا ذرّ فى جماعة من شرطتك و لا ترفّه عليه، و ليجدّوا به السير ليل نهار، و لا يدعوه يستريح لحظة، حتى أن أبا ذر لما وصل المدينة مرض هناك و لما لم يكن وجوده فى المدينة هيّنا على عثمان و أتباعه، فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹

نفوه الى «الرّبذة» حتى مات رحمه اللّه فيها.

و هناك من يحاول الدفاع عن الخليفة الثّالث و يتّهم أبا ذر أحيانا بأنّه اشتراكى، إذ كان يرى أنّ جميع الأموال عائدة الى اللّه، و كان ينكر الملكية الفردية!! و هذا الاتهام فى منتهى الغرابة، فمع أنّ القرآن يحترم الملكية الفردية بصراحة- وفق شروط معينة- و كان أبو ذر رضى اللّه عنه من المقرّبين الى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تربّى فى حضن الإسلام و القرآن، و ما أظلت الخضراء أصدق منه، فكيف يتهم أبو ذر بمثل هذا الاتهام؟! إنّ قاطنى الصحراء البعيدين يعرفون هذا الحكم الإسلامى، و كانوا قد سمعوا الآيات التى تتعلق بالتجارة و الإرث، فكيف يمكن أن يصدق بأن أقرب تلامذة رسول اللّه كان جاهلا بهذا الحكم؟

أليس ذلك لأنّ المتعصبين الألداء من أجل تبرئة الخليفة الثّالث و الأعجب من ذلك تبرئة معاوية و حكومته- اتهموا أبا ذرّ بمثل هذا الاتهام، و ما يزال بعض من عمى العيون صمّ الآذان يقلدون أسلافهم؟! أجل إن أبا ذر رضى اللّه عنه- بوحى و استلهام من آيات القرآن و خاصّة آية الكنز- كان يعتقد و يصرّح بعقيدته أن بيت المال لا ينبغى أن يتحول الى ملكية فردية بيد الأشخاص، و يجب ألّا

یحرم المستضعفون و المحتاجون منه، و ینبغی أن ینفق فی سبیل تقویة الإسلام و مصالح المسلمین، فلا یجوز تبذیر الأموال، و أن بیت المال لیس ملکا لمعاویة و أضرابه کی یشید بهذه الأموال القصور علی شاکلة قصور الأکاسرة و القیاصرة! ثمّ إنّ أبا ذرّ کان یعتقد یومئذ أنّه بإمکان الأغنیاء أن یقنعوا بما دون الإسراف، لیواسوا إخوانهم الفقراء، و ینفقوا أموالهم فی سبیل اللّه.

فإذا کان أبو ذر رحمه اللّه ذا وزر فوزره ما ذکرناه إلّا أن المؤرّخین المتملقین، أو الذین یؤرخون للارتزاق و یبیعون دینهم بدنیاهم، غیرّوا صورة هذا الصحابی المجاهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰

الناصع فجعلوه اشتراکیا!! و ما یؤخذ علی أبی ذر من وزر أیضا هو حبّه الشدید للإمام علی علیه السّلام، فقد کان هذا کافیا لأن یقوم بنو أمیة بأسالیبهم و أراجیفهم الخبیثة الجهنمیة بإسقاط حیثیة أبی ذر، إلّا أن نقاءه و طهارته و معرفته بالأحکام الإسلامیة کانت ناصعة الی درجة أنّهم افتضحوا و لم یفلحوا فی مرامهم.

و من جملة الأکاذیب العجیبة التی ألصقوها بأبی ذر لتبرئة الخلیفة الثّالث، ما ذکره ابن سعد فی «الطبقات»: إنّ جماعة من أهل الکوفة جاؤوا أبا ذرّ عند ما نفاه عثمان الی الرّبذه فقالوا: إن هذا الرجل (أی عثمان) فعل ما فعل بک، فهل مستعد أن ترفع رایة تقاتل بها عثمان، و نحن نقاتله تحت رایتک؟ فقال أبو ذر: کلّا، لو أرسلنی عثمان من المشرق الی المغرب لکنت مطیعا لأمره.[۲۱] و لم یلتفت هؤلاء الوضّاعون الی أنّه لو کان مطیعا لأمره، لما کان عثمان یضیق ذرعا به فیکون علیه- فی المدینة- عبئا ثقیلا لا یستطیع حمله أبدا.

و الأعجب من ذلک ما ذکره صاحب المنار- ذیل الآیة محل البحث- مشیرا الی قصّة أبی ذر و ما جری بینه و بین عثمان، فیقول: إنّ قصّة أبی ذر تدل علی أن عصر الصحابة- و لا سیما عصر عثمان- کان إظهار العقیدة فیه مألوفا، و کان العلماء محترمین، و الخلفاء ذوی ولاء، حتی أن معاویة لم یجرأ أن یقول شیئا لأبی ذر، بل کتب کتابا الی من هو فوقه مرتبة- أی عثمان- و طلب منه أن یری فیه رأیه!! و الحق أنّ التعصّب قد یصنع الأعاجیب، فهل کان- التبعید و النفی الی الأرض الیابسة الحارة المحرقة «الرّبذة» أرض الموت و النّار تعبیر عن احترام حریة الفکر و محبّة العلماء!! هل أنّ تسلیم هذا الصحابی الجلیل «بید الموت» یعدّ دلیلا علی حریة العقیدة!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱

و إذا کان معاویة لم یستطیع أن یجرأ علی قتل أبی ذر أو التآمر علیه- خوفا من إنکار عامّة الناس- فهل یعدّ ذلک احتراما لأبی ذر من قبل معاویة؟! و من عجائب هذه القصّة- أیضا- أن المدافعین عن الخلیفة الثّالث یقولون: إن تبعید أبی ذر کان بحکم قانون [تقدیم دفع المفسدة علی جلب المصلحة؟] لأنّه و إن کان لوجود أبی ذر فی المدینة مصلحة کبیرة، و کان الناس یستفیدون من علمه، إلّا أنّ عثمان کان یری أن بقاءه فی المدینة یجر المفسدة- لطریقة تفکیره- و یحدث انعطافا شدیدا لا یمکن تحمله، فلأجل ذلک أغضی عثمان عن المصلحة فی وجوده و أخرجه الی الرّبذة دفعا للمفسدة و لما کان کل من أبی ذر و عثمان مجتهدا، فلا یمکن توجیه النقد أو الإشکال أو أی شیء آخر إلیه.[۲۲] و نحن بدورنا نتساءل: آیة مفسدة کانت تترتب علی وجود أبی ذر فی المدینة؟! تری هل فی إعادة الناس الی سنة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مفسدة؟! و لم لا یشکل أبو ذر رضی اللّه عنه علی الخلیفة الأوّل و لا الثّانی اللذین لم یفعلا- ما فعله عثمان فی أموال المسلمین «و بیت المال»؟! و هل فی إعادة الناس الی المناهج المالیة التی کانت فی صدر الإسلام مفسدة؟! و هل فی نفی أبی ذر و قطع لسان الحق مصلحة؟! ألم تؤد أعمال عثمان و استمراره بإنفاق بیت المال الی أن أصبح ضحیة لکل ذلک؟! ألم یکن ذلک مفسدة و ترکه مصلحة؟! و لکن ما عسی أن نفعل، فإذا دخل التعصب من باب فرّ المنطق من باب آخر!! و علی کل حال، فإنّ سیرة هذا الصحابی الجلیل لا تخفی علی أی محقق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲

منصف، و لا مجال لتبرئة الخلیفة الثّالث ممّا نال من أبی ذر من الأذی أبدا، و المنطق الحق یدین أعمال عثمان.

جزاء من یکنز!

فی الآیـة التّالیـة إشارة الی واحـد ممّا یحیق بمثل هؤلاء ممّن یکنز المال فی العالم الآخر، إذ تقول الآیة: یَوْمَ یُحْمی عَلَیْها فِی نارِ جَهَنَّمَ فَتُکْوی بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ

و یخاطبهم ملائکة العذاب و هم فی هذا الحال: هذا ما کَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ فَذُوقُوا ما کُنْتُمْ تَکْنِزُونَ

و هذه الآیة توکّد مرّة أخری هذه الحقیقة، و هی أنّ أعمال الإنسان لا تمضـی سدی، بل تبقی و تتجسّد له یوم القیامة، و تکون مدعاة سروره أو مدعاة شقائه.

و هناک کلام بین المفسّرین فی سبب ذکر الجباه و الظهور و الجنوب وحدها من بین سائر أعضاء الجسم.

غیر أنّه

روی عن أبی ذرّ رضی اللّه عنه أنّه کان یقول: «حتی یتردد الحرّ فی أجوافهم»

أی أن الحرارة المحرقة التی تمس هذه الأعضاء الثلاثة تنفذ الی سائر الجسم و تستوعبه کلّه.

کما قیل: إنّ الوجه فی ذکر هذه الأعضاء الثلاثة دون غیرها، هو أنّ أصـحاب المال حین کان یأتیهم المحروم أو الفقیر، کان ردّ فعلهم یظهر علی جباههم أحیانا، فیظهرون عدم الاعتناء بهم، و تارة ینحرفون عنهم، و تارة یدیرون ظهورهم لهم، فهذه الأعضاء الثلاثة تکوی فی نار جهنم، بما حمی علیه من الذهب أو الفضة و ما کنزوه دون أن ینفقوه فی سبیل اللّه.

و من نافلـة القول أن نشیر الی لطیفة بلاغیة، فی الآیة محل البحث و هی التعبیر ب «یوم یحمی علیها» أی یحمی علی الذهب و الفضة، و التعبیر المطّرد أن یقال: یوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳

تحمی الفضة أو یحمی الذهب، لا أنّه یحمی علیه، کما یقال مثلا: یحمی الحدید فی النّار.

و لعل هـذا العبیر یشـیر الی إحراق الذهب و الفضة الی درجة قصوی بحیث توضع النّار علیها. إذ أن جعل الفضة و الذهب علی النّار لا یکفی لأن تکون محرقة «للغایة».

فـالقرآن لاـ یقول: یوم تحمی فی نار جهنم، بل یقول: یحمی علیها، أی توضع النّار علیها لتکون فی أسـفل النّار کیما تشـتد حرارتها و هذا التعبیر الحیّ یجسّد شدة عذاب أولی الثروة الذین یکنزونها فی یوم القیامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۳۶ الی ۳۷]

اشارة

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِی کِتابِ اللَّهِ یَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِکِینَ کَافَّةً کَما یُقاتِلُونَکُمْ کَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ (۳۶) إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیادَةٌ فِی الْکُفْرِ یُضَلُّ بِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا یُحِلُّونَهُ عاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عاماً لِیُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَیُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُیِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکافِرِینَ (۳۷)

التّفسیر

وقف القتال «الإجباری»:

لما کانت هذه السورة تتناول أبحاثا مفصلة حول قتال المشرکین، فالآیتان- محل البحث- تشیران الی أحد مقرّرات الحرب و الجهاد فی الإسلام، و هو احترام الأشهر الحرم.

فتقول الأولی: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِی کِتابِ اللَّهِ یَوْمَ خَلَقَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵

السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ

و التعبیر ب «کتاب اللّه» یمکن أن یکون إشارة الی القرآن المجید أو سائر الکتب السماویة، إلّا أنّه بملاحظة جملة یَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ یبدو أنّ المعنی الأکثر مناسبة هو کتاب الخلق و عالم الوجود.

و علی کل حال، فمنذ ذلک الیوم الذی استقرت علیه المجموعة الشمسیة بنظامها الخاص حدثت السنین و الأشهر، فالسنة عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دورة کاملة و الشهر دوران القمر حول الأرض دورة کاملة.

و هذا فی الحقیقة تقویم طبیعی قیّم غیر قابل للتغییر حیث یمنح حیاة الناس جمیعا نظاما طبیعیا، و ینظّم علی وجه الدقة حسابهم التأریخی، و تلک نعمة عظمی من نعم اللّه للبشر کما بیّنا تفصیل ذلک فی ذیل الآیة (۱۸۹) من سورة البقرة:

یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِیَ مَواقِیتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَج

ثمّ تضیف الآیة- آنفة الذکر- معقّبة: مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ

یری بعض المفسّرین أنّ تحریم القتال فی هذه الأشهر الأربعة کان من عهد «إبراهیم الخلیل علیه السّلام»، و کان نافذ حتی فی زمان الجاهلیة علی أنّه سنة متّبعة إلّا أنّ عرب الجاهلیة کانوا یغیرون هذا الأشهر أحیانا تبعا لمیولهم و أهوائهم، إلّا أن الإسلام أقرّ حرمتها علی حالها و لم یغیّرها، و ثلاثة من الأشهر متوالیة و تسمی بالأشهر السرد و هی: ذو القعدة، و ذو الحجة، و المحرم. و شهر منها منفصل عنها، و هو رجب و یسمی بالشهر الفرد.

و ینبغی التنویه علی أنّ تحریم هذه الأشهر إنّما یکون نافذ المفعول إذا لم یبدأ العدو بقتال المسلمین فیها، أمّا لو فعل فلا شک فی وجوب قتاله علی المسلمین لأنّ احترام الشهر الحرام لم ینتقض من قبلهم، بل انتقض من قبل العدوّ «و قد بیّنا تفصیل ذلک ذیل الآیة (۱۹۴) من سورة البقرة».

ثمّ تضیف الآیة مؤکّدة: ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶

و یستفاد من بعض الرّوایات أن تحریم القتال فی هذه الأشهر الحرم، کان مشرّعا فی الدیانة الیهودیة و المسیحیة و سائر الشرائع السماویة، إضافة الی شریعة إبراهیم الخلیل علیه السّلام. و لعلّ التعبیر ب ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ إشارة الی هذه اللّطیفة، أی أنّ هذا التحریم کان فی أوّل الأمر علی شکل قانون ثابت:

ثمّ تقول الآیة: فَلا تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ

إلّا أنّه لمّا کان تحریم هذه الأشهر قد یتخذ ذریعة من قبل العدو لمهاجمة المسلمین فیها، فقد عقبت الآیة بالقول: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِکِینَ کَافَّةً کَما یُقاتِلُونَکُمْ کَافَّةً فبالرغم من أنّ هؤلاء مشرکین و الشرک أساس التشتت و التفرقة، إلّا أنّهم یقاتلونکم فی صف واحد، «کافة» فینبغی علیکم أن تقاتلوهم کافة، فذلک منکم أجدر لأنّکم موحّدون فلا بدّ من توحید کلمتکم أمام عدوکم و لتکونوا کالبنیان المرصوص.

و تختتم الآیة بالقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ

و فی الآیة الثّانیة- من الآیتین محل البحث- إشارة الی إحدی السنن الخاطئة فی الجاهلیة، و هی سنة النسیء «تغییر الأشهر الحرم» إذ تقول الآیة: إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیادَةٌ فِی الْکُفْرِ یُضَلُّ بِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا ففی أحد الأعوام یقرّرون حلیّة الشهر الحرام و یحرمون أحد الأشهر الحلال للمحافظة علی العدد أربعة یُحِلُّونَهُ عاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عاماً لِیُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فهؤلاء یضیعون بتصرفهم هذا فلسفة تحریم الأشهر، و یتلاعبون بحکم اللّه بحسب ما تملیه علیهم أهواؤهم، و العجیب أنّهم یرضون عن عملهم، و فعلهم هذا کما تقول الآیة: زُیِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ

فهم یغیرون الأشهر الحرم و یبدلونها، و یعدّون ذلک تدبیرا لحیاتهم و معاشهم، أو یتصوّرون أنّ طول فترة إیقاف القتال یقلل من حماس المقاتلین فلا بدّ من إثارة الحرب ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷

فاللّه سبحانه إذا علم أن فی عباده من لیس أهلا للهدایة و التوفیق، خلاه و نفسه:

وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکافِرِینَ

بحوث

۱- فلسفة الأشهر الحرم!

کان تحریم القتال فی هذه الأشهر الأربعة أحد الطرق لإیقاف الحروب الطویلة الأمد و وسیلة للدعوة نحو الصلح و الدعة، لأنّ المحاربین إذا وضعوا أسلحتهم فی هذه الأشهر الأربعة، و أخمدت نیران الحرب و وجدت الفرصة للتفکیر، فمن غیر المستبعد أن تنتهی الحرب و یحل السّلام محلّه، لأنّ الشروع المجدد بعد إیقاف القتال و انطفاء نار الحرب فی غایة الصعوبة، و لا ننسی أن المقاتلین فی حرب فیتنام خلال العشرین سنة من الحرب کانوا یواجهون صعوبة کبیرة لإیقاف القتال خلال أربع و عشرین ساعة لبدایة العام المیلادی الجدید، إلّا أنّ الإسلام جعل لأتباعه قرارا بإیقاف القتال خلال أربعة أشهر، و هذا الأمر بنفسه یدل علی روح السّلام فی الإسلام و المطالبة بالصلح.

إلّا أنّ العدو إذا أراد أن یستغلّ هذا القانون الإسلامی، و أن ینتهک حرمة هذه الأشهر فعلی المسلمین أن یواجهوه بالمثل.

۲- مفهوم النسیء و فلسفته فی الجاهلیّة

«النسیء» علی وزن «الکثیر» من مادة «نسأ» و معناها التأخیر و یمکن أن تکون هذه الکلمة اسم مصدر أو مصدرا، و تطلق علی ما یؤجل من إعطاء المال أو قبضه.

و کان عرب الجاهلیة یؤخرون بعض الأشهر الحرم، فمثلا کانوا ینتخبون شهر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸

«صفر» بدل شهر محرم فی عام فیحرمونه، کما حدث لأحد زعماء قبیلة بنی کنانة، إذ خطب فی اجتماع کبیر نسبیّا فی موسم الحج بمنی و قال: إنّنی أخرت المحرم هذا العام و انتخبت شهر صفر مکانه.

و قد روی عن ابن عباس: إنّ أوّل من سنّ هذه السنّة هو عمرو بن لحی، و قال بعضهم: بل هو قلمس «من بنی کنانة».

و فلسفة هذا العمل «التأخیر و النسیء» فی عقیدتهم أن توالی ثلاثة أشهر حرم تباعا کذی القعدة و ذی الحجة و المحرم یسبب

إضعاف معنويات المحاربين، لأنّ عرب الجاهلية كانوا يتوقون الى الإغارة و سفك الدماء و الحرب، و أساسا فإنّ الحرب و الإغارة و ما شاكلهما كان يمثل جزءا من حياتهم، و كان من الصعب عليهم أن يتحملوا ثلاثة أشهر حرم (يتوقف فيها القتال) لذا فقد كانوا يسعون لفصل شهر المحرم عن هذه الأشهر (أو يؤخروه)! كما يرد هذا الاحتمال أيضا، و هو أنّ ذا الحجة قد يقع فى الصيف أحيانا، ممّا يسبب عليهم، حرجا فى موضوع الحج، و نعرف أن الحج لم يكن مسألة عبادية عند العرب فحسب، بل كان موسما كبيرا منذ زمن إبراهيم الخليل عليه السّلام يجتمع فيه خلق كبير، و تقام فيه الأسواق التجارية و الاقتصادية و المحافل الشعرية و الخطابية، و يفيدون منها فوائد عامّة، لذلك كانوا يبدلون شهر ذى الحجة حسب ميولهم و يجعلون مكانه شهرا آخر طيب الأجواء لطيف الهواء.

و ربّما كانت كلا الغايتين صحيحتين.

و على كل حال، كان هذا العمل باعثا على إشعال نار الحرب أكثر فأكثر، و أن تسحق الغاية من الأشهر الحرم، و أن يتلاعب بمواسم الحج حسب الأهواء ابتغاء المنافع المادية.

و قد عدّ القرآن هذا العمل زيادة فى الكفر، لأنّهم إضافة إلى شركهم و كفرهم الاعتقادى فإنّهم بسحقهم هذا الدستور كانوا يرتكبون كفرا عمليا، و لا سيما أنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹

كانوا يرتكبون مخالفتين فى آن واحد إذ كانوا يحرّمون ما أحل اللّه و يحلّون ما حرّم اللّه.

۳- وحدة الكلمة مقابل العدو

إنّ القرآن يعلمنا فى الآيتين آنفتى الذكر أن نقف صفا واحدا بوجه العدو عند الحرب، و يستفاد من هذا النص القرآنى أنّه ينبغى التنسيق حتى فى المواجهات السياسية و الثقافية، و الاقتصادية و العسكرية فنحن نكتسب القوة فى ظل هذه الوحدة التى تنتهل من روح الإسلام و هذا الأمر قد جعل فى طى النسيان و كان مدعاة الى انحطاط المسلمين و تأخرهم.

۴- كيف يزيّن للناس سوء أعمالهم؟!

إنّ فطرة الإنسان إذا كانت نقيّة تميز الصالح من الطالح بصورة جيدة، إلّا أنّه حين يذنب الإنسان و يخطو فى طريق الآثام فإنّه يفقد هذا الإحساس «بتمييز الصالح من الطالح» تدريجا.

و متى ما واصل الإقدام على السيئات، تبدو له سيئاته و كأنّها أمر حسن و تتزين له، و هذ ما أشارت إليه آيات القرآن- فى هذا المورد- و فى موارد أخرى.

و قد ينسب تزيين الأعمال السيئة للشيطان، كما فى الآية (۶۳) من سورة النحل فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ و قد يسند الفعل الى ما لم يسمّ فاعله و يبنى للمجهول كما فى الآى محل بحثنا، و قد يكون الفاعل وسوسة الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء. و قد ينسب الى الشركاء أى الأصنام، كما فى الآية (۱۳۷) من سورة الأنعام، و قد ينسب تزيين الأعمال السيئة الى اللّه، كما فى الآية (۴) من سورة النمل إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ

و قد قلنا مرارا: إنّ نسبة مثل هذه الأمور الى اللّه مع أنّها تخصّ عمل الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰

نفسه لأن خواص الأشياء بيد اللّه، فهو مسبب الأسباب. و قلنا بأن مثل هذه النسبة لا تنافى مسألة الإختيار و حرية إرادة الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۳۸ الی ۳۹]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا ما لَکُمْ إِذا قِیلَ لَکُمُ انْفِرُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَی الْأَرْضِ أَ رَضِیتُمْ بِالْحَیاةِ الدُّنْیا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا فِی الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِیلٌ (۳۸) إِلَّا تَنْفِرُوا یُعَذِّبْکُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ یَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَیْرَکُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَیْئاً وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۳۹)

سبب النّزول

جاء عن ابن عباس و آخرین أنّ الآیتین- محل البحث- نزلتا فی معرکة تبوک حین کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عائدا من الطائف الی المدینة، و هو یهیئ الناس و یعبؤهم لمواجهة الروم.

و قد ورد فی الرّوایات الإسلامیّة أنّ النّبی لم یکن یبیّن أهدافه و إقدامه علی المعارک للمسلمین قبل المعرکة لئلا تقع الأسرار العسکریة بید أعداء الإسلام، أنّه فی معرکة تبوک، لما کانت المسألة لها شکل آخر، فقد بیّن کل شیء للمسلمین بصراحة، و أنّهم سیواجهون الروم، لأنّ مواجهة امبراطوریة الروم لم تکن مواجهة بسیطة کمواجهة مشرکی مکّة أو یهود خیبر، و ینبغی علی المسلمین أن یکونوا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲

منتهی الاستعداد و بناء الشخصیة أضف الی کل ذلک أنّ المسافة بین المدینة و أرض الروم کانت بعیدة غایة البعد، و کان الوقت صیفا قائظا، و هو أوان اقتطاف الثمار و حصد الحبوب و الغلات.

هذه الأمور اجتمعت بعضها الی بعض فصعب علی المسلمین الخروج للقتال.

حتی أنّ بعضهم تردد فی استجابته لدعوة الرّسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

فالآیتان- محل البحث- نزلتا فی هذا الظرف، و أنذرتا المسلمین بلهجة صارمة لمواجهة هذه المعرکة الحاسمة.[۲۳]

التّفسیر

التّحرک نحو سوح الجهاد مرّة أخری

کما أشرنا آنفا فی شأن نزول الآتین، فإنّهما نزلتا فی غزوة «تبوک».

و تبوک منطقة بین المدینة و الشام، و تعدّ الآن من حدود الحجاز، و کانت آنئذ علی مقربة من أرض الروم الشرقیة المتسلطة علی الشامات.[۲۴] و قد حدثت هذه الواقعة فی السنة التاسعة للهجرة، أی بعد سنة من فتح مکّة تقریبا.

و بما أن المواجهة فی هذا المیدان کانت مواجهة لإحدی الدول الکبری فی ذلک العصر، لا مواجهة لإحدی القبائل العربیة، فقد کان جماعة من المسلمین قلقین مشفقین من المساهمة و الحضور فی هذه المواجهة، و لذلک فقد کانت الأرضیة مهیأة لوساوس المنافقین و بذر السموم، فلم یألوا جهدا فی إضعاف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳

المعنويات و إحباط المؤمنين أبدا. فقد كان الموسم موسم اقتطاف الثمار و جمع المحاصيل الزراعية، و كان هذا الموسم للمزارعين يعدّ فصلا مصيريا، إذ فيه رفاه سنتهم هذا من جهة.

و من جهة أخرى، فإنّ بعد المسافة و حرارة الجوّ- كما أشرنا آنفا- كلّ ذلك كان من العوامل المثبطة للمسلمين فى حركتهم نحو مواجهة الأعداء.

فنزل الوحى ليشدّ من أزر الناس، و الآيات تترى الواحدة بعد الأخرى لإزالة الموانع و الأسباب المثبطة.

ففى الآية الأولى- من الآيتين محل البحث- يدعو القرآن المسلمين الى الجهاد بلسان الترغيب تارة و بالعتاب تارة أخرى و بالتهديد ثالثة فهو يدعوهم و يهيؤهم الى الجهاد، و يدخل إليهم من كل باب.

إذ تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ

«اثّاقلتم» فعل مشتق من الثقل، و معناه واضح إذ هو خلاف «الخفيف» و جملة «اثاقلتم» كناية عن الرغبة فى البقاء فى الوطن و عدم التحرك نحو سوح الجهاد، أو الرغبة فى عالم المادة و اللصوق بزخارفها و الانشداد نحو الدنيا، و على كل حال فالآية تخاطب من كان كذلك من المسلمين- ضعاف الإيمان- لا جميعهم، و لا المسلمين الصادقين و عاشقى الجهاد فى سبيل اللّه.

ثمّ تقول الآية مخاطبة إيّاهم بلهجة الملامة: أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ

فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخسران، و كيف يعوّض متاعا غاليا لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئا؟! ثمّ تتجاوز الآية مرحلة الملامة و العتاب الى لهجة أشدّ و أسلوب تهديدىّ جديد، فتقول: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴

فإذا كنتم تتصورون أنّكم إذا توليتم و أعرضتم عن الذهاب الى سوح الجهاد، فإنّ عجلة الإسلام ستتوقف و ينطفئ نور الإسلام، فأنتم فى غاية الخطأ و اللّه غنى عنكم وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ قوما أفضل منكم من كل جهة، لا من حيث الشخصيّة فحسب، بل من حيث الإيمان و الإرادة و الشهامة و الاستجابة و الطاعة وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً.

و هذه حقيقة و ليست ضربا من الخيال أو أمنية بعيدة المدى، فاللّه عزيز حكيم وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ملاحظات

۱- فى الآيتين آنفتى الذكر تأكيد على الجهاد من سبعة وجوه:

الأوّل: أنّها تخاطب المؤمنين يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.

الثّانى: أنّها تأمر بالتحرك نحو ميدان الجهاد انْفِرُوا.

الثّالث: أنّها عبرت عن الجهاد ب فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الرّابع: الاستفهام الإنكارى فى تبديل الدنيا بالآخرة أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ؟

الخامس: التهديد بالعذاب الأليم.

السّادس: الاستبدال بالمخاطبين قَوْماً غيرهم.

السّابع: أنّ اللّه على كل شىء قدير و لا يضره شيئا و إنّما يعود الضرر على المتخلفين.

۲- يستفاد من الآيتين- آنفتى الذكر- أن تعلق قلوب المجاهدين بالحياة الدنيا يضعف همتهم فى أمر الجهاد، فالمجاهدون ينبغى أن يكونوا معرضين عن الدنيا، زهّادا غير مكترثين بزخارفها و زبارجها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵

و نقرأ

دعاء للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام لأهل الثغور و حماة الحدود، إذ تقول: «و أنسهم عند لقائهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعة و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون».

و لو عرفنا قيمة الدنيا و حالها شأن الآخرة و دوامها معرفة حقّة، لوجدنا أنّ الدنيا زهيدة بالمقارنة و الموازنة مع الآخرة الى درجة أنّها لا تحسب شيئا و نقرأ

حديثا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الصدد يقول فيه: «و اللّه ما الدنيا فى الآخرة إلّا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ثمّ يرفعا فينظر بم ترجع»!

٣- هناك كلام بين المفسّرين فى المراد من قوله تعالى: يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ الوارد فى الآى محل البحث فمن هم هؤلاء؟! قال بعضهم: هم الفرس و قال آخرون: بل هم أهل اليمن. و لكلّ منهم أثره فى تقدم الإسلام. و قال آخرون: إنّ المراد بالنص السابق هم أولئك القوم الذين ضحوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل اللّه و تقبلوا الإسلام، بعد أن نزلت الآيتان آنفتا الذكر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۴۰]

اشارة

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۰)

التّفسير

المدد الإلهى للرّسول فى أشد اللحظات:

كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن موضوع الجهاد و مواجهة العدوّ، و كما أشرنا فقد جاء الكلام عن الجهاد مؤكّدا بعدّة طرق، من ضمنها أنّه لا ينبغى أن تتصوروا أنّكم إذا تقاعستم من الجهاد و نصرة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فستذهب دعوته و الإسلام أدراج الرياح.

فالآية محل البحث تعقّب على ما سبق لتقول: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ [۲۵]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷

و كان ذلك عند ما تآمر مشركو مكّة على اغتيال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قتله، و قد مرّ بيان ذلك فى ذيل الآية (۳۰) من سورة الأنفال بالتفصيل، حيث قرّروا بعد مداولات كثيرة أن يختاروا من كل قبيلة من قبائل العرب رجلا مسلّحا و يحاصروا دار النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليلا، و أن يهجموا عليه الغداة و يحملوا عليه حملة رجل واحد فيقطعوه بسيوفهم.

و لكن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم اطّلع- بأمر اللّه- على هذه المكيدة، فتهيأ للخروج من (مكّة) و الهجرة إلى (المدينة) إلّا أنّه توجه نحو (غار ثور) الذى يقع جنوب مكّة و فى الجهة المخالفة لجادة المدينة و اختبأ فيه، و كان معه (أبو بكر) فى هجرته هذه.

و قد سعى الأعداء سعيا حثيثا للعثور على النّبى، إلّا أنّهم عادوا آيسين، و بعد ثلاثة أيّام من اختباء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و صاحبه فى الغار و اطمئنانه من رجوع العدوّ توجه ليلا نحو المدينة (فى غير الطريق المطرّق) و بعد بضعة أيّام وصل صلى اللّه عليه و آله و سلّم المدينة سالما، و بدأت مرحلة جديدة من تأريخ الإسلام هناك.

فالآیـة آنفـة الـذکر تشیر إلى أشـدّ اللحظات حرجا فی هـذا السـفر التاریخی، فتقول: إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِینَ کَفَرُوا و بالطبع فإنّهم لم یریدوا إخراجه بل أرادوا قتله، لکن لما کانت نتیجة المؤامرة خروج النّبی من مکّة فرارا منهم، فقد نسبت الآیة إخراجه إلیهم.

ثمّ تقول: کان ذلک فی حال هو ثانِیَ اثْنَیْنِ

و هذا التعبیر إشارة إلى أنّه لم یکن معه فی هذا السـفر الشاق إلّا رجل واحد، و هو أبو بکر إِذْ هُما فِی الْغارِ أی غار ثور، فاضطرب أبو بکر و حزن فأخـذ النّبی صـلى اللّه علیه و آله و سـلّم یسـرّی عنه، و کمـا تقول الآیـة: إِذْ یَقُولُ لِصـاحِبِهِ لا ـ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ وَ أَیَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸

و لعـل هـذه الجنود الغیبیّـة هی الملائکـة التی حفظت النّبی صـلى اللّه علیه و آله و سـلّم فی سـفره الشـاق المخیف، أو الملائکـة التی نصرته فی معرکتی بدر و حنین و أضرابهما.

وَ جَعَلَ کَلِمَةَ الَّذِینَ کَفَرُوا السُّفْلى وَ کَلِمَةُ اللَّهِ هِیَ الْعُلْیا.

و هی إشـارة إلى أنّ مؤامراتهم قـد بـاءت بالخیبـة و الفشل و حبطت أعمالهم و آراؤهم، و شعّ نور اللّه فی کل مکان، و کان الإنتصار فی کل موطن حلیف محمّد صلى اللّه علیه و آله و سلّم، و لم لا یکون الأمر کذلک وَ اللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ

فبعزته و قدرته نصر نبیّه، و بحکمته أرشده سبل الخیر و التوفیق و النجاح.

قصّة صاحب النّبی فی الغار:

هناک کلام طویل بین مفسّـِری الشـیعة و أهل السنة فی شأن صحبة أبی بکر النّبی صلى اللّه علیه و آله و سلّم فی سفره و هجرته، و ما جاءت من إشارات مغلقة فی شأنه فی الآیة آنفا. فمنهم من أفرط، و منهم من فرّط.

فالفخر الرازی فی تفسـیره سـعى بتعصـبه الخاص أن یسـتنبط من هذه الآیة اثنتی عشرة فضیلة! لأبی بکر، و من أجل تکثیر عدد فضائله أخذ یفصّل و یسهّب بشکل یطول البحث فیه ممّا یتلف علینا الوقت الکثیر.

و على العکس من الفخر الرازی هناک من یصرّ على استنباط صفات ذمیمة لأبی بکر من سیاق الآیة.

و ینبغی أن نعرف- أوّلا- هـل تـدل کلمـة «الصاحب» على الفضـیلة؟ و الظاهر أنّها لیست کـذلک، لأنّ الصاحب فی اللغـة تـدلّ على الجلیس أو الملازم للمسافر بشـکل مطلق، سواء کان صالحا أم طالحا، کما نقرأ فی الآیـة (۳۷) من سورة الکهف عن محـاورة رجلین فیما بینهما، أحدهما مؤمن و الآخر کافر قالَ لَهُ صاحِبُهُ ... أَ کَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرابٍ ! کما یصرّ بعضـهم على أنّ مرجع الضمیر من «علیه» فی قوله تعالى فَأَنْزَلَ اللَّهُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۹

سَکِینَتَهُ عَلَیْهِ یعود على أبی بکر، لأـنّ النّبی صـلى اللّه علیه و آله و سـلّم لم یکن بحاجـة إلى السـکینة، فنزول السـکینة إذن کـان على صاحبه، أی أبی بکر.

إلّا أنّه مع الالتفات إلى الجملة التی تلیها وَ أَیَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها و مع ملاحظة اتحاد المرجع فی الضـمائر، یتّضح أن الضـمیر فی «علیه» یعود على النّبی صـلى اللّه علیه و آله و سـلّم أیضا، و من الخطأ أن نتصور بأنّ السـکینة إنّما هی خاصّة فی مواطن الحزن و الأسـى، بل ورد فی القرآن- کثیرا- التعبیر بنزول السـکینة على النّبی صـلى اللّه علیه و آله و سـلّم و ذلـک حین یواجه الشدائـد و الصـعاب، و من ذلک ما جاء فی الآیة (۲۶) من هذه السورة أیضا فی شأن معرکة حنین ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَکِینَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِینَ

کمـا نقرأ فی الآیـة (۲۶) من سـورة الفتـح أیضـا فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَـکِینَتَهُ عَلى رَسُـولِهِ وَ عَلَى الْمُـؤْمِنِینَ مع أنّه لم یرد فی الجمـل و التعـابیر

المتقدمة على هاتين الجملتين أى شىء من الحزن و ما إلى ذلك، و إنّما ورد التعبير عن مواجهة الصعاب و التواء الحوادث ...
و على كل حال، فإنّ القرآن يدلّ أن نزول السكينة إنّما يكون عند الشدائد، و ممّا لا ريب فيه أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يواجه اللحظات الصعبة و هو فى (غار ثور)! و الأعجب من كل ما تقدم أن بعضا قال: بأنّ التعبير وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها يعود على أبى بكر. مع أنّ جميع المحاور فى هذه الآية تدور حول نصرة اللّه نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و القرآن يريد أن يكشف أنّ النّبى ليس وحده، و إذا لم ينصره أحد من أصحابه و جماعته، فإنّ اللّه سينصره. فكيف يمكن لأحد أن يترك الشخص الذى تدور حوله بحوث الآية، و يتّجه نحو شخص ثانوى و تبعى فى منظور الآية؟! و هذا يدلّ على أن التعصب بلغ حدّا بأصحابه، بحيث منعهم حتى من الالتفات إلى معنى الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

اشارة

انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالاً وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۱) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۴۲)

التّفسير

الكسالى الطّامعون:

قلنا: إنّ معركة تبوك كانت لها حالة استثنائية، و كانت مقترنة بمقدمات معقّدة و غامضة تماما، و من هنا فإن عددا من ضعاف الإيمان أو المنافقين أخذ «يتعلّل» فى الاعتذار عن المساهمة فى هذه المعركة. و قد وردت فى الآيات المتقدمات ملامة للمؤمنين من قبل اللّه سبحانه لتباطؤهم فى نصرة نبيّهم عند صدور الأمر بالجهاد، و عدم الإسراع إلى ساحة الحرب و أكّدت بأنّ الأمر بالجهاد لصالحكم، و إلّا فإنّ بإمكان اللّه أن يهيئ جنودا مؤمنين شجعانا مكان الكسالى الذين لاحظ لهم فى الثبات و الإرادة، بل حتى مع عدمهم فهو قادر على أن يحفظ نبيّه، كما حفظه «ليلة المبيت»، و فى «غار ثور».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۱

و العجيب أنّ عددا من «خيوط العنكبوت» المنسوجة على مدخل الغار كانت سببا لانحراف فكر الأعداء الألداء، و أن يعودوا قافلين آيسين بعد وصولهم إلى هذا الغار، و أن يسلم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من كيدهم.
فحيث أنّ بإمكان اللّه أن يغيّر مسير التأريخ، ببضعة خيوط من نسيج العنكبوت، فأية حاجة بهذا أو ذاك ليبدى كلّ معاذيره!! و فى الحقيقة فإنّ جميع هذه الأوامر هى لتكامل المسلمين أنفسهم، لا لرفع الحاجة لدى اللّه سبحانه ... و تعقيبا على هذا الكلام يدعو المؤمنين جميعا مرّة أخرى- دعوة عامّة- نحو الجهاد و يعنف المتسامحين فيقول سبحانه: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا.
«الخفاف» جمع الخفيف، «الثقال» جمع الثقيل، و لهاتين الكلمتين مفهوم شامل يستوعب جميع حالات الإنسان. أى انفروا فى أية حالة كنتم شبابا أم شيوخا، متزوجين أم غير متزوجين، تعولون أحدا أم لا- تعولون، أغنياء أم فقراء، مبتلين بشىء أم غير مبتلين، أصحاب تجارة أو زراعة أم لستم من أولئك! فكيف ما كنتم فعليكم أن تستجيبوا لدعوة الداعى إلى الجهاد، و أن تنصرفوا عن أىّ عمل شغلتم به، و تنهضوا مسرعين إلى ساحات القتال، و فى أيديكم السلاح.

و ما قاله بعض المفسّرين من أنّ هاتين الكلمتين تعنيان مثلا واحدا ممّا ذكرنا آنفا، لا دليل عليه أبدا، بل إنّ كل واحد ممّا ذكرناه مصداق جلی لمفهومها الوسيع.

ثمّ تضيف الآية قائلة: وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ أی جهادا مطلقا عاما من جميع الجهات، لأنّهم كانوا يواجهون عدوّا قويّا مستكبرا، و لا يتحقق النصر إلّا بأن يجاهدوا بكل ما وسعهم من المال و الأنفس.

و لئلا يتوهّم أحد أنّ هذه التضحية يريدها اللّه لنفسه و لا تنفع أصحابها، فإنّ الآية تضيف قائلة: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۲

أی إن كنتم تعلمون بأنّ الجهاد مفتاح عزتكم و رفعتكم و منعتكم.

و لو كنتم تعلمون بأنّ أية أمّة فی العالم لن تصل بدون الجهاد إلی الحرية الواقعية و العدالة.

و لو كنتم تعلمون بأنّ سبيل الوصول إلی مرضاة اللّه و السعادة الأبدية و أنواع النعم و المواهب الإلهية، كل ذلك إنّما هو فی هذه النهضة المقدسة العامّة و التضحية المطلقة.

ثمّ يتناول القرآن ضعاف الإيمان الكسالی الذين يتشبثون بالحجج الواهية للفرار من ساحة القتال، فيخاطب النّبی مبيّنا واقعهم فيقول: لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ ۲۶] وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ[۲۷] و العجيب أنهم لا يكتفون بالأعذار الواهية، بل وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ فعدم ذهابنا إلی ساحات القتال إنّما هو لضعفنا و عدم اقتدارنا و ابتلائنا!! يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

فهم قادرون علی الذهاب إلی ساحات القتال، لكن حيث أن السفر ذو مشقة، و يواجهون صعوبة و حرجا، فإنّهم يتشبثون بالكذب و الباطل.

و لم يكن هذا الأمر منحصرا بغزوة تبوك و عصر النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم فحسب، ففی كل مجتمع فئة من الكسالی و المنافقين و الطامعين و الانتهازيين الذين ينتظرون لحظات الإنتصار ليقحموا أنفسهم فی الصفوف الأولی، و يصرخوا بعالی الصوت أنّهم المجاهدون الأوائل و المخلصون البواسل، لينالوا ثمرات جهود الآخرين فی انتصارهم دون أن يبذلوا أیّ جهد! غير أنّ هؤلاء «المجاهدين» المخلصين!! كما يزعمون، حين يواجهون

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۳

الشدائد و الأزمات يلوذون بالفرار و يتشبثون بالأعذار الباطلة و الحجج الواهية.

كأن يقول أحدهم: إنّی مريض، و يقول الآخر: إنی مبتلی بطفلی، و يقول الثّالث:

زوجی مقرب و علی و شك الولادة، و يقول الرّابع: يا ليتنی كنت معكم لو لا ضعف فی عينیّ لا أبصر بهما، و يقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر و أنا علی أثركم، و هكذا ...

إلّا أنّ علی القادة و الصفوة من النّاس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، و إذا لم يكونوا أهلا للإصلاح فينبغی إخراجهم و طردهم من صفوف المجاهدين.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۴

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۳ الی ۴۵]

اشارة

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّی يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (۴۳) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ

يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۴۴) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (۴۵)

التّفسير

التعرّف على المنافقين!

يستفاد من الآيات- محل البحث- أنّ جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بعد أن تذرعوا بحجج واهية مختلفة- حتى أنّهم أقسموا على صدق مدعاهم- استأذنوا النّبى أن ينصرفوا عن المساهمة فى معركة تبوك، فأذن لهم النّبى بالانصراف.

فاللّه سبحانه يعتّب على النّبى فى الآية الأولى من الآيات محل البحث فيقول:

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ

و هناك كلام طويل بين المفسّرين فى المراد من عتاب اللّه نبيّه المشفوع بالعفو عنه، أهو دليل على أن إذن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان مخالفة، أم هو من باب ترك الأولى، أم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۵

لا هذا و لا ذاك؟! و قد جنح البعض إلى الإفراط إلى درجة أنّهم أساؤوا إلى مقام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ساحته المقدّسة، و زعموا أن الآيات المذكورة أنفا دليل على إمكان صدور العصيان و الذنب من قبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لم يراعوا- على الأقل- الأدب الذى رعاه اللّه العظيم فى تعبيره عن نبيّه الكريم، إذ بدأ بالعفو ثمّ ثنى بالعتاب و المؤاخذة، فوقعوا فى ضلال عجيب.

و الإنصاف أنّه لا دليل فى الآية على صدور أى ذنب أو معصية من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حتى ظاهر الآية لا يدلّ على ذلك، لأنّ جميع القرائن تثبت أن النّبى سواء أذن لهم أم لم يأذن، فإنّهم لم يكونوا ليساهموا فى معركة تبوك، و على فرض مساهمتهم فيها لم يحلّوا مشكلة من أمر المسلمين، بل يزيدون الطين بلة، كما سنقرأ فى الآيات التالية قوله تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا.

فبناء على ذلك فإنّ المسلمين لم يفقدوا أيّة مصلحة بإذن النّبى لأولئك بالانصراف، غاية الأمر أنّه لو لم يأذن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لهم فسرعان ما ينكشف أمرهم و يعرفهم المسلمون، غير أنّ هذا الموضوع لم يكن من الأهمية بحيث أنّ ذهابهم و فقدانهم موجبا لارتكاب ذنب أو عصيان.

و ربّما يمكن أن يسمى ذلك تركا للأولى فحسب، بمعنى أنّ إذن النّبى لهم فى تلك الظروف، و بما أظهره أولئك المنافقون من الأعذار بأيمانهم، و إن لم يكن أمرا سيئا، إلّا أن ترك الإذن كان أفضل منه، لتعرف هذه الجماعة بسرعة.

كما يحتمل فى تفسير الآية هو أنّ العتاب أو الخطاب المذكور آنفا إنّما هو على سبيل الكناية، و لم يكن فى الأمر حتى «ترك الأولى» بل المراد بيان روح النفاق فى المنافقين ببيان لطيف و كناية فى المقام.

و يمكن أن يتّضح هذا الموضوع بذكر مثال فلنفرض أن ظالما يريد أن يلطم وجه ابنك، إلّا أن أحد أصدقائك يحول بينه و بين مراده فيمسك يده فقد تكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۶

راضيا عن سلوكه هذا، بل و تشعر بالسرور الباطنى، إلّا أنّك و لإثبات القبح الباطنى للطرف المقابل تقول لصديقك: لم لا تركته يضربه على وجهه و يلطمه؟

و هدفك من هذا البيان إنّما هو إثبات قساوة قلب هذا الظالم و نفاقه، الذى ورد فى ثوب عتاب الصديق و ملامته من قبلك؟

و هناك شبهة أخرى فى تفسير الآية، و هى أنّه: ألم يكن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يعرف المنافقين حتى يقول له اللّه سبحانه: لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَکَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ

و الجواب على هذا السؤال، هو:

أوّلا: أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن يعرف المنافقين و يعلم حالهم عن طريق العلم الظاهرى، و لا يكفى علم الغيب للحكم فى الموضوعات، بل ينبغى أن ينكشف أمرهم عن طريق الأدلة المألوفة و (المعتادة).

ثانيا: لم يكن الهدف الوحيد أن يعلم النّبى حالهم فحسب، بل لعل الهدف كان أن يعلم المسلمون جميعا حالهم، و إن كان الخطاب موجّها للنّبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يتناول القرآن أحد علامات المؤمنين و المنافقين، فيقول: لا يَسْتَأْذِنُکَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ

بل ينهضون مسرعين دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد و يدعوهم الإيمان باللّه و اليوم الآخر و مسئولياتهم و إيمانهم بمحكمة القيامة، كلّ ذلك يدعوهم إلى هذا الطريق و يوصد بوجوههم الأعذار و الحجج الواهية وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ

ثمّ يضيف القرآن: إِنَّما يَسْتَأْذِنُکَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

و يعقّب مؤكّدا عدم إيمانهم بالقول: وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِی رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ

و بالرّغم من أنّ الصفات الواردة فى الآيات آنفا جاءت بصيغة الفعل المضارع،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۷

إلّا أنّ المراد منها بيان صفات المؤمنين و صفات المنافقين و أحوالهم، و لا فرق بين الماضى و الحال و الاستقبال فى ذلك.

و على كل حال فإن المؤمنين- بسبب إيمانهم- لديهم إرادة ثابتة و تصميم أكيد لا يقبل التهاون و الرجوع حيث يرون طريقهم بجلاء و وضوح، فمقصدهم معلوم و هدفهم واضح، و لذلك فهم يمضون بخطى واثقة نحو الأمام و لا يترددون أبدا.

أمّا المنافقون فلأن هدفهم مظلم و غير معلوم، فهم مترددون حائرون ذاهلون، و يبحثون دائما عن الأعذار و الحجج الواهية للتخلص و الفرار من تحمل المسؤولية الملقاة على عواتقهم.

و هاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنين و المنافقين فى صدر الإسلام و معركة تبوك فحسب، بل يمكن فى عصرنا الحاضر أن نميز المؤمنين الصادقين من المدّعين الكاذبين بهاتين الصفتين.

فالمؤمن شجاع ذو إرادة و تصميم و خطى واثقة، و المنافق جبان و خائف و متردد و حائر و يبحث عن المعاذير دائما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۸

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۶ الى ۴۸]

اشارة

وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۴۷) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَکَ الْأُمُورَ

حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ (۴۸)

التّفسير

عدم وجودهم أفضل:

فى الآيـة الأولى- من الآيات أعلاه- بيان لعلامـة أخرى من علائم كذبهم، و هى فى الحقيقة تكمل البحث الوارد فى الآيات المتقدمة آنفا، إذ جاء فيها وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فالآية محل البحث تقول: وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً.

و لم ينتظروا الإذن لهم، وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ۲۸] وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۹

و هناك كلام بين المفسّرين فى المراد ب «قيل اقعدوا» فمن هو القائل؟! أهو اللّه سبحانه، أم النّبى، أم باطنهم؟! الظاهر أنّه أمر تكوينى نهض من باطنهم المظلم، و إنّه مقتضـى عقيدتهم الفاسدة و أعمالهم القبيحة، و كثيرا ما يرى أن مقتضـى الحال يظهرونه فى هيئة الأمر أو النهى. و يستفاد من الآية محل البحث أنّ لكلّ عمل ونيّة اقتضاء يبتلى به الإنسان شاء أم أبى، و ليس لكلّ أحد قابلية السير فى سبيل اللّه و تحمّل الأعباء الكبرى، بل هو توفيق من قبل اللّه يوليه من يجد فيه طهارة النيّة و الاستعداد و الإخلاص.

و فى الآيـة التاليـة إشارة إلى هـذه الحقيقـة، و هى أن عـدم مساهمـة مثل هؤلاء الأفراد فى ساحـة الجهاد ليس مـدعاة للتأثر و الأسـف فحسب، بل لعله مـدعاة للسـرور، لأنّهم لا ينفعونكم فحسب، بل سـيكونون بنفاقهم و معنوياتهم المتزلزلة و انحرافهم الأخلاقى مصدرا لمشاكل أخرى جديدة.

و الآيـة فى الحقيقة تعطى درسا للمسـلمين أن لا يكترثوا بكثرة المقاتلين أو قلّتهم و كميتهم و عددهم، بل عليهم أن يفكروا فى اختيار المخلصين المؤمنين و إن كانوا قلّة، فهذا درس لمسلمى الماضى و الحاضر و المستقبل.

و تقول الآية: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ أى إلى تبوك للقتال ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا.

«الخبال» بمعنى الاضطراب و التردد.

و الخبل على زنة «الأجل» معناه الجنون.

و الخبل على زنة «الطبل» معناه فساد الأعضاء.

فبنـاء على ذلك فإنّ حضورهم بتلك الروحيّـة الفاسـدة المقرونـة بالتردد و النفاق لا أثر له سوى إيجاد الشك و التردد و تثبيط العزائم بين جنود الإسلام.

و تضيف الآية قائلة: وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ[۲۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۰

ثمّ تنذر المسلمين من المتأثرين بهم فى صفوف المسلمين وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ

«السمّاع» تطلق على من يسمع كثيرا دون تروّ أو تدقيق، فيصدّق كل كلام يسمعه.

فبناء على ذلك فإنّ وظيفة المسلمين الراسخين فى الإيمان مراقبت مثل هؤلاء الضعفاء لئلا يقعوا فريسة المنافقين الذئاب. كما يرد هذا الاحتمال، و هو أنّ المراد من السمّاع فى الآية هو الجاسوس الذى يتجسّس بين المسلمين و يجمع الأخبار للمنافقين.

و تختتم الآية بالقول: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إنذار للنّبىّ صـلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ هؤلاء المنافقين لم يبادروا لأوّل مرّة إلى التخريب و

التفرقة و بذر السموم، بل ینبغی أن تتذکر- یا رسول اللّه- أنّ هؤلاء ارتکبوا من قبل مثل هذه الأمور و هم یتربصون الفرص الآن لینالوا مناهم لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ

و هذه الآیة تشیر إلی ما جری فی معرکة أحد حیث رجع عبد اللّه بن أبی و أصحابه و انسحبوا و هم فی منتصف الطریق، أو أنّها تشیر إلی مؤامرات المنافقین عامّة التی کانوا یکیدونها للنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أو للمسلمین، و لم یغفل التاریخ أن یسجلها علی صفحاته! وَ قَلَّبُوا لَکَ الْأُمُورَ و خطّطوا للإیقاع بالمسلمین، أو لمنعهم من الجهاد بین یدیک، إلّا أن کل تلک المؤامرات لم تفلح، و إنما رقموا علی الماء و رشقوا سهامهم علی الحجر حَتَّی جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ کارِهُونَ

غیر أن مشیئة العباد و إرادتهم لا أثر لها إزاء مشیئة اللّه و إرادته، فقد شاء اللّه أن ینصرک و أن یبلغ رسالتک إلی أصقاع المعمورة، و یزیل العراقیل و الموانع عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۱

منهاجک، و قد فعل.

إلّا أنّ ما یهمنا هنا أن نعرف أنّ مدلول الآیات آنفة الذکر لا یختص بعصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و زمانه، ففی کل جیل و کل عصر جماعة من المنافقین تحاول أن تنثر سموم التفرقة فی اللحظات الحسّاسة و المصیریة، لیحبطوا روح الوحدة و یثیروا الشکوک و التردد فی أفکار الناس، غیر أنّ المجتمع إذا کان واعیا فهو منتصر بأمر اللّه و وعده الذی وعد أولیاءه، و هو- سبحانه- الذی یذر ما یرقم المنافقون و مخططاتهم سدی، شریطة أن یجاهد أولیاؤه فی سبیله مخلصین، و أن یراقبوا بحذر أعداءهم المتوغلین بینهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۷۲

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۲

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۴۹]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ ائْذَنْ لِی وَ لا تَفْتِنِّی أَلا فِی الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ (۴۹)

سبب النزول

قال جماعة من المفسّرین: إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یعبّئ المسلمین و یهیؤهم لمعرکة تبوک و یدعوهم للتحرک نحوها، فبینا هو علی مثل هذه الحال إذا برجل من رؤساء طائفة «بنی سلمة» یدعی «جدّ بن قیس» و کان فی صفوف المنافقین، فجاء إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مستأذنا أن لا یشهد المعرکة، متذرعا بأنّ فیه شبقا إلی النساء، و إذا ما وقعت عیناه علی بنات الروم فربّما سیهیم ولها بهنّ و ینسحب من المعرکة!! فأذن له النّبی بالانصراف.

فنزلت الآیة أعلاه معنفة ذلک الشخص!

فالتفت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی بنی سلمة و قال: من کبیرکم؟ فقالوا: جدّ بن قیس، إلّا أنّه رجل بخیل و جبان، فقال: و أی شیء أبشع من البخل؟ ثمّ قال: إن کبیرکم ذلک الشاب الوضیء الوجه بشر بن براء «و کان رجلا سخیا سمحا بشوشا».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۳

التّفسير

المنافقون المتذرّعون:

يكشف شأن النزول المـذكور أن الإنسان متى أراد أن يتنصل من تحمل المسؤوليـة يسـعى للتذرّع بشتى الحيل، كما تذرع المنافق جد بن قيس لعـدم المشاركـة فى المعركـة و ميـدان الجهـاد، بأنّه ربّما تأسـره الوجوه النضـرة من بنات الروم و تختطف قلبه، فينسـحب من المعركة و يقع فى إشكال شرعى!! ...

و يـذكرنى قول جـد بن قيس بكلاـم بعض الضـالعين فى ركاب الطاغوت، إذ كان يقول: إذا لم نضـغط على الناس فإنّ ما نتسـلمه من الراتب و الحقوق المالية مشكل شرعا. فمن أجل التخلص من هذا الإشكال الشرعى لا بدّ من إيذاء الناس و ظلمهم!.

و على كل حال فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم ليردّ على مثل هـذه الـذرائع المفضوحة قائلا: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي بالنساء و الفتيات الروميات الجميلات.

كمـا و يحتمـل فى شـأن نزول الآيـة أن جـد بن قيس كـان يتـذرع ببقاء امرأته و أطفاله و أمواله بلا حام و لا كفيل بعـده ليتخلّص من الجهاد.

و لكن القرآن يقول مجيبا عليه و أمثاله: أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ

أى أنّ أمثال أولئك الذين تذرّعوا بحجّة الخوف من الذنب- هم الآن واقعون فيه فعلا، و أن جهنم محيطة بهم، لأنّهم تركوا ما أمرهم اللّه و رسوله به وراء ظهورهم و انصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهة الشرعية!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۴

ملاحظتان

۱- إن أحد طرق معرفة جماعة المنافقين فى كل مجتمع، هو التدقيق فى أسلوب استدلالهم و أعذارهم التى يذكرونها ليتركوا ما عليهم من الوظائف، فهـذه الأعـذار تكشف- بجلاء- ما يدور فى خلدهم و باطنهم. فهم غالبا ما يتشـبثون بسلسـلة من الموضوعات الجزئية و المضـحكة أحيانـا بـدلا من الاهتمـام بالمواضـيع المهمّـة، و يسـتعملون المصـطلحات الشـرعية لإغفـال المؤمنين و يتـذرّعون بالاحكام الشرعية و أوامر اللّه و رسوله، فى حين غارقون فى دوّامة الخطايا، جادّون فى عداوتهم للرسول و دينه القويم.

۲- للمفسّـرين أقوال مختلف فى تفسير جملة وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ فقال بعضهم: هذه العبارة كناية عن إحاطة عوامل ورودهم إلى جهنم بهم، أى أن ذنوبهم تحيط بهم! و قال بعضـهم: إنّ هذا التعبير من قبيل الحوادث الحتمية المسـتقبلية التى تذكر بصـيغة الفعل الماضى أو الحال، أى أن جهنم ستحيط بهم بشكل قاطع.

كمـا و يحتمل أن نفسـر الجملـة بمعناها الحقيقى، و هو أن جهنم موجودة فعلا، و هى عبارة عن باطن هـذه الـدنيا، فالكفار قابعون فى وسط جهنّم فى حياتهم الدنيويـة و إن لم يصـدر الأمر بتأثيرها، كما أن الجنّة موجودة فى هذه الدنيا أيضا و تحيط بالجميع، غاية ما فى الأمر لما كان أهل الجنّة جديرين بها فسيكونون مرتبطين بها؛ و أهل النّار جديرون بالنّار فهم من أهلها أيضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۵

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۰ الى ۵۲]

اشارة

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)

التّفسير

فى الآيات- آنفة الذكر- إشارة إلى إحدى صفات المنافقين و علاماتهم و بهذا تتابع البحث الذى يتناول صفات المنافقين فى ذيل الآيات المتقدمة و الآيات اللاحقة.

تقول الآيات أوّلا: إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ

سواء كانت هذه الحسنة انتصارا على العدوّ، أو الغنائم التى تنالونها فى المعارك أو أىّ تقدّم آخر.

و هذه المساءة دليل على العداوة الباطنيّة و فقدان الإيمان. فكيف يمكن لمن له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ٧۶

أدنى إيمان أن يسوءه انتصار النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو أى مؤمن آخر؟! و لكنّهم على خلاف هذه الحال عند الشدّة و الخطب: وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ

هؤلاء المنافقون عمى القلوب ينتهزون أيّة فرصة لصالحهم و منافعهم، و يزعمون أن ما نالوه كان بتدبيرهم و عقلهم، إذ لم نساهم فى المعركة الفلانية و لم نقع فى أىّ مأزق!! كما أبتلى به الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل و التدبر، و بهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم و هم يكادون أن يطيروا فرحا.

و لكنك- يا رسول اللّه- عليك أن تردّ عليهم بجواب منطقىّ متين و ذلك:

أوّلا: قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا أجل فلا يريد بنا إلّا الخير و الصلاح: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

فهم يعشقون اللّه فحسب، و منه يطلبون المدد و العون، و يتوكلون عليه و يلتجئون إليه عند الخطوب.

و هذا خطأ كبير أبتلى به المنافقون، إذ يتخيّلون أنّهم بعقولهم القاصرة و فكرهم المحدود يستطيعون أن يواجهوا جميع المشكلات و الحوادث، و أن يكونوا فى غنىّ عن رحمة اللّه و لطفه!! ... إنّهم لا يعلمون أن جميع وجودهم لا يعدو ورقة يابسة فى مهبّ العاصفة. أو كقطرة ماء فى صحراء محرقة فى يوم قائظ فلو لا لطف اللّه و مدده فما عسى أن يفعل الإنسان الضعيف أمام الشدائد و الخطوب؟!

ثانيا: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ! فإمّا أن نبير الأعداء فى ساحة الحرب و نبيدهم و نعود منتصرين، أو نقتل فننهل ورد الشهادة العذب، فكلاهما محبّب لنا و مصدر افتخارنا.

و هكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إمّا أن تصيبكم سهام البلايا و المصائب و العقوبات الإلهية سواء فى الدنيا أو الآخرة، أو يكون هلاككم على أيدينا: وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ٧٧

بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ تربصوا غبطتنا و سعادتنا و نحن نتربص شقاءكم و سوء عاقبتكم.

بحوث

١- المقادير و سعى الإنسان

ممّا لا شک فیه أن مآلنا و عاقبة أمرنا- بأیدینا- ما دام الأمر یدور فی دائرة سعینا وجدّنا، و القرآن الکریم یصرّح بهذا الشأن أیضا، کقوله تعالی: وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی ۳۰]، و کقوله تعالی: کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ رَهِینَةٌ[۳۱] و فی آیات أخر. بالرغم من أنّ الجد و السعی هما من السنن الإلهیّة و بأمره تعالی أیضا.

إلّا أنّه عند خروج الأمر عن دائرة سعینا وجدّنا، فإنّ ید القدر هی التی تتحکم بمآلنا و عاقبة أمرنا، و ما هو جار بمقتضی قانون العلیّة الذی ینتهی إلی مشیئة اللّه و علمه و حکمته و هو مقدّر علینا، فهو ما سیکون و یقع حینئذ. غایة ما فی الأمر أن المؤمنین باللّه و علمه و حکمته و لطفه و رحمته، یفسّرون هذه المقادیر بأنّها جاریة وفقا «للنظام الأحسن» و ما فیه مصلحة العباد، و کلّ یبتلی بمقادیر تناسبه حسب جدارته التی اکتسبها.

فالجماعة إذا کانوا من المنافقین الجبناء و الکسالی و المتفرقین فهی محکومة بالفناء حتما. إلّا أنّ الجماعة المؤمنة الواعیة المتّحدة المصمّمة، لیس لها إلّا النصر و التوفیق مآلا.

فبناء علی ذلک یتّضح أنّ الآیات آنفة الذکر لا تنافی أصل الحریة [حریة الإرادة و الإختیار] و لیست دلیلا علی العاقبة الجبریة للإنسان أو أن سعی الإنسان لا أثر له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۸

۲- لا وجود للهزیمة فی قاموس المؤمنین

نواجه فی آخر آیة- من الآیات محل البحث- منطقا محکما متینا یستبطن السّر الأساس لانتصارات المسلمین الأوائل جمیعا، و لو لم یکن للنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من تعلیم و دستور إلّا ما نجده فی هذه الآیة لکان کافیا لانتصار أتباعه و مقتفی منهاجه، و هو أنّه لا مفهوم للهزیمة فی صفحات أرواحهم فقد أثبتت الحوادث أنّهم منتصرون علی کل حال، منتصرون إن استشهدتم!... منتصرون إن قتلتم أعداءکم! و إنّ للمؤمنین مسلکین لا ثالث لهما، فی أیّ منهما ساروا و سلکوا و صلوا إلی هدفهم و غایتهم.

أحدها هو طریق الشهادة التی تمثل أوج الفخر للمؤمنین، و أعظم موهبة یمکن أن تتصور للإنسان أن یبیع اللّه نفسه، و یشتری الحیاة الأبدیة الخالدة و جوار اللّه، و التنعم بما لا یمکن وصفه من النعم.

و الآخر هو الإنتصار علی العدوّ و تدمیر قواه الشیطانیة، و تطهیر البیئة و المحیط الإنسانی من لوث الظالمین و المنحرفین الضالین، و هذا بنفسه فیض و لطف کبیر و فخر مسلّم به.

فالجندی الذی یدخل ساحة المعرکة بهذه الروحیة و المعنویة لا یفکر بالفرار و الإدبار أبدا، و لا یخاف من أی أحد و لا من أی شیء، فالخوف و الاستیحاش و الاضطراب و التردد لیس لها طریق إلی قلبه و وجوده. و الجیش الذی یتألف من جنود بهذه الروحیة لا یعرف الهزیمة إطلاقا.

و لا یحصل الإنسان علی هذه المعنویات العالیة إلّا عن طریق اعتماد التعلیمات الاسلامیة، فلو أنّ هذه التعلیمات تجلّت مرّة أخری فی نفوس المسلمین بالتربیة السلیمة و التعلیم الصحیح لأمکن جبران کل اشکال التخلف الذی أصاب المسلمین.

أولئک الذین یطالعون و یدرسون أسباب تقدّم المسلمین الأوائل و انتصارهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۹

و أسباب تأخرهم فی الوقت الحاضر، و یعدّون الأمر أحجیة و لغزا لا ینحلّ، من الأفضل لهم أن یأتوا و یفکروا فی هذه الآیة لیتّضح لهم الجواب علی ما یرد فی خواطرهم.

ممّا ینبغی الالتفات إلیه آنفة الذکر عند ما تتحدث عن هزیمتی المنافقین و اندحارهم، تبیّن ذلک بتفصیل وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِکُمْ أَنْ یُصِیبَکُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَیْدِینا إلّا أنّها تمرّ علی بیان انتصار المؤمنین بإجمال، فکأنّ المسألة من الوضوح بمکان حتی أنّها لا تحتاج إلی بیان و شرح، و هذه لطیفة بلاغیّة تناولتها الآیة الکریمة.

۳- صفات المنافقین

نؤکّد مرّة أخری علی أنّه لا ینبغی أن نقرأ هذه الآیات و نعدّ موضوعها مسألة تاریخیة ترتبط بما سبق، بل علینا أن نعتبرها درسا لیومنا و أمسنا و غدنا، و لجمیع الناس. فلیس من مجتمع یخلو من مجموعة منافقین، قلّت أو کثرت، و صفاتهم علی شاکلة واحدة تقریبا.

فالمنافقون عادة أناس جهلة أنانیون متکبرون، یزعمون بأنّهم یتمتّعون بقسط وافر واف من العقل و الدرایة! إنّهم فی عذاب و حسرة ما دام الناس فی راحة و سرور و یفرحون عند ما تحلّ بهم کارثة!.

إنّهم یتخبطون فی دوامة من الوهم و الشک و الحیرة، و لذلک فهم یخطون تارة نحو الأمام، و أخری إلی الوراء!! و علی خلافهم المؤمنون، فهم یشارکون الناس فی السراء و الضرّاء، و لا یزعمون أنّهم أولو علم و درایة، و لا یستغنون عن رحمة اللّه و لطفه، و قلوبهم تعشق اللّه و لا تخاف فی سبیله من سواه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۰

الآیات [سورة التوبة (۹): الآیات ۵۳ الی ۵۵]

اشارة

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً لَنْ یُتَقَبَّلَ مِنْکُمْ إِنَّکُمْ کُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِینَ (۵۳) وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لا یَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَ هُمْ کُسالی وَ لا یُنْفِقُونَ إِلاَّ وَ هُمْ کارِهُونَ (۵۴) فَلا تُعْجِبْکَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ لِیُعَذِّبَهُمْ بِها فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ کافِرُونَ (۵۵)

التّفسیر

تشیر هذه الآیات إلی قسم آخر من علامات المنافقین و عواقب أعمالهم و نتائجها، و تبیّن بوضوح کیف أن أعمالهم لا أثر لها و لا قیمة، و لا تعود علیهم بأیّ نفع.

و لما کان- من بین الأعمال الصالحة- الإنفاق فی سبیل اللّه «الزکاة بمعناها الواسع» و الصلاة «و هی العلاقة بین الخلق و الخالق»- لهما موقع خاص، فقد اهتمّت الآیات بهذین القسمین اهتماما خاصا! تخاطب الآیات النّبی الکریم فتقول: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً لَنْ یُتَقَبَّلَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۱

مِنْکُمْ ۳۲].

ثمّ تشیر الآیة إلی سبب ذلک فتقول: إِنَّکُمْ کُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِینَ

فنیّاتکم غیر خالصة، و أعمالکم غیر طاهرة، و قلوبکم مظلمة، و إنّما یتقبل اللّه العمل الطاهر من الورع التقی.

و واضح أنّ المراد من الفسق هنا لیس هو الذنب البسیط و المألوف، لأنّه قد یرتکب الإنسان ذنبا و هو فی الوقت ذاته قد یکون مخلصا فی أعماله، بل المراد منه الکفر و النفاق، أو تلوّث الإنفاق بالریاء و التظاهر.

كما لا يمنع أن يكون الفسق- فى التعبير آنفا- فى مفهومه الواسع شاملا للمعنيين، كما ستوضح الآية التالية ذلك.

و فى الآية التالية يوضح القرآن مرّة أخرى السبب فى عدم قبول نفقاتهم فيقول: وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ

و القرآن يعوّل كثيرا على أنّ قبول الأعمال الصالحة مشروط بالإيمان، حتى أنّه لو قام الإنسان بعمل صالح و هو مؤمن، ثمّ كفر بعد ذلك فإنّ الكفر يحبط عمله و لا يكون له أى أثر «بحثنا فى هذا المجال فى المجلد الثّانى من التّفسير الأمثل».

و بعد أن أشار القرآن إلى عدم قبول نفقاتهم، يشير إلى حالهم فى العبادات فيقول: وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى كما أنّهم وَ لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ

و فى الحقيقة أنّ نفقاتهم لا تقبل لسببين:

الأوّل: هو أنّهم كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ

و الثّانى: أنّهم إنما ينفقون عن كره و إجبار.

كما أن صلواتهم لا تقبل لسببين أيضا:

الأوّل: لأنّهم كَفَرُوا بِاللَّهِ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۲

و الثّانى: أنّهم لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى ...

العبارات المتقدمة فى الوقت الذى تبيّن حال المنافقين فى عدم النفع من أعمالهم، فهى فى الحقيقة تبيّن علامة أخرى من علائمهم فى الوقت ذاته، و هى أن المؤمنين الواقعيين يمكن معرفتهم من نشاطهم عند أداء العبادة، و رغبتهم فى الأعمال الصالحة التى تتجلى فيهم بإخلاصهم.

كما يمكن معرفة حال المنافقين عن طريق كيفية أعمالهم، لأنّهم يؤدّون أعمالهم عادة دون رغبة و مكرهين، فكأنّما يساقون إلى عمل الخير سوقا.

و بديهى أنّ أعمال الطائفة الأولى (المؤمنين) لما كانت تصدر عن قلوب تعشق اللّه مقرونة بالتحرق و اللهفة، فإنّ جميع الآداب و مقرراتها مرعية فيها. إلّا أنّ الطائفة الثّانية لما كانت أعمالها تصدر عن إكراه و عدم رغبة، فهى ناقصة لا روح فيها، و هكذا تكون البواعث المختلفة فى أعمال الطائفتين تظفى على الأعمال شكلين مختلفين.

و فى آخر الآية- من الآيات محل البحث- يتوجه الخطاب نحو النّبى قائلا: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ

فهى و إن كانت نعمة بحسب الظاهر، إلّا أنّه إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ

و فى الواقع فإنّهم يعذبون عن طريقين بسبب هذه الأموال و الأولاد، أى القوة الاقتصادية و الإنسانية:

فالأوّل: إنّ مثل هؤلاء الأبناء لا يكونون صالحين عادة، و مثل هذه الأموال لا بركة فيها، فيكونان مدعاة قلقهم و ألمهم فى الحياة الدنيا، إذ عليهم أن يسعوا ليل نهار من أجل أبنائهم الذين هم مدعاة أذاهم و قلقهم، و أن يجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التى اكتسبوها عن طريق الإثم و الحرام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۳

و الثّانى: لما كانوا بهذه الأموال و الأولاد متعلقين، و لا يؤمنون بالحياة بعد الموت و لا بالدار الآخرة الواسعة و لا بنعيمها الخالد فليس من الهيّن أن يغمضوا عن هذه الأموال و الذّرية، و يخرجون من هذه الدنيا- بحال مزرية و فى حال الكفر.

فالمال و البنون قد يكونان موهبة و سعادة و مدعاة للرفاه و الهدوء و الاطمئنان و الدعة إذا كانا طاهرين طيبين و إلّا فهما مدعاة العذاب و الشقاء و الألم.

ملاحظتان

۱- يسأل بعضهم: إنّ الآية الأولى- من الآيات محل البحث- تقول: أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ مع أن الآية الأخرى تقول بصراحة: وَ لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ

ترى ألا توجد منافاة بين هذين التعبيرين؟! لكن مع قليل من الدقة يتّضح الجواب على هذا السؤال، و هو أن بداية الآية الأولى في صورة القضية الشرطية، أي لو أنفقتم طوعا أو كرها فعلى آية حال لن تتقبل منكم. و نعرف أن القضية الشرطية لا تدل على وجود الشرط، أي على فرض أن ينفقوا طوعا و اختيارا فإنفاقهم لا فائدة فيه، لأنّهم غير مؤمنين.

إلّا أنّ ذيل الآية الأخرى بيان قضية خارجيّة، و هي أنّهم ينفقون عن إكراه دائما.

۲- و الدرس الذي نستفيده من الآيات الآنفة، هو أنّه لا ينبغي الانخداع بصلاة الناس و صيامهم، لأنّ المنافقين يؤدون ذلك أيضا، كما أنّهم ينفقون بحسب الظاهر في سبيل اللّه. بل ينبغي تمييز الصلاة و الإنفاق بدافع النفاق من غيرهما عن أعمال

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۴

المؤمنين البنّاءة و الهادفة، و يمكن معرفة ذلك بالتدقيق و الإمعان في النظر، و نقرأ

في الحديث: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده، فإنّ ذلك شيء اعتاده، و لو تركه استوحش و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته».

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۵

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۶ الى ۵۷]

اشارة

وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (۵۶) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (۵۷)

التّفسير

علامة أخرى للمنافقين:

ترسم الآيتان أعلاه حالة أخرى من أعمال المنافقين بجلاء، إذ تقول الآية الأولى: وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ و من شدّة خوفهم و فرقهم يخفون كفرهم و يظهرون الإيمان.

و «يفرقون» من مادة «الفرق» على زنة «الشفق» و معناه شدّة الخوف.

يقول «الراغب» في «المفردات» إن الفرق في الأصل معناه التفرّق و التشتت، فكأنّهم لشدّة خوفهم تكاد قلوبهم أن تتفرق و تتلاشى.

و في الواقع أنّ مثل هؤلاء لما فقدوا ما يركنون إليه في أعماقهم، فهم في هلع و اضطراب عظيم دائم، و لا يمكنهم أن يكشفوا عمّا في باطنهم لما هم عليه من الهلع و الفزع، و حيث أنّهم لا يخافون اللّه «لعدم إيمانهم به»، فهم يخافون من كل شيء غيره، و يعيشون في استيحاش دائم، غير أنّ المؤمنين الصادقين ينعمون في

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۶

ظل الإيمان بالهدوء و الاطمئنان.

و الآية التالية تصوّر شدّة عداوة المنافقين للمؤمنين و نفورهم منهم، فى عبارة موجزة إلّا أنّها فى غاية المتانة و البلاغة، إذ تقول: لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ

«الملجأ» معناه معروف، و هو ما يأوى إليه الخائف عادة، كالقلاع و الكهوف و أضرابهما.

و «المغارات» جمع مغارة.

و «المدّخل» هو الطريق الخفى تحت الأرض، كالنقب مثلا.

و «يجمحون» مأخوذ من الجماح، و معناه الحركة السريعة و الشديدة التى لا يتأتى لأىّ شىء أن يصدها، كحركة الخيول المسرعة الجامحة التى لا تطاوع أصحابها، و لذلك سمّى الجواد الذى لا يطاوع صاحبه جموحا أو جامحا.

و على كل حال، فهذه الآية واحدة من أبلغ الآيات و التعابير التى يسوقها القرآن فى وصف المنافقين، و بيان هلعهم و خوفهم و بغضهم إخوانهم المؤمنين، بحيث لو كان لهم سبيل للفرار من المؤمنين، و لو على قمم الجبال أو تحت الأرض، لولّوا إليه و هم يجمحون، و لكن ما عسى أن يفعلوا مع الروابط التى تربطهم معكم من القبيلة و الأموال و الثروة، كل ذلك يضطرهم إلى البقاء على رغم أنوفهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۷

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۸ الى ۵۹]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵۸) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (۵۹)

سبب النّزول

جاء فى تفسير «الدر المنثور» عن «صحيح البخارى» و «النسائى» و جماعة آخرين، أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان مشغولا بتقسيم الأموال (من الغنائم أو ما شاكلها)، و إذا برجل من بنى تميم يدعى ذو الخويصرة- و هو حرقوص بن زهير- يأتى فيقول له: يا رسول اللّه، اعدل. فقال رسول اللّه: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل!» فصاح عمر: يا رسول اللّه ائذن لى أضرب عنقه. فقال رسول اللّه: «دعه فإنّ له أصحابا يحتقر أحدكم صلاته مع صلواتهم و صومهم مع صومه، يمرقون من دين كما يمرق السهم من الرميّة ...».[۳۳]

فنزلت الآيتان عندئذ و نصحت مثل هؤلاء الناس و وعظتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۸

التّفسير

الأنانيون السفهاء:

فى الآية الأولى أعلاه إشارة إلى حالة أخرى من حالات المنافقين، و هى أنّهم لا يرضون أبدا بنصيبهم، و يرجون أن ينالوا من بيت

المال أو المنافع العامّة ما استطاعوا إلى ذلک سبيلا، سواء كانوا مستحقين أم غير مستحقين، فصداقتهم و عداوتهم تدوران حول محور المنافع سلبا و إيجابا.

فمتى ملئت جيوبهم رضوا (عن صاحبهم) و متى ما أعطوا حقّهم و روعى العدل فى إيتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه، فهم لا يعرفون للحق و العدالة مفهوما «فى قاموسهم» و إذا كان فى قاموسهم مفهوم للحق أو العدل، فهو على أساس أن من يعطيهم أكثر فهو عادل، و من يأخذ حق الآخرين منهم فهو ظالم!! و بتعبير آخر: إنّهم يفقدون الشخصية الاجتماعية، و يتمسكون بالشخصية الفردية و المنافع الخاصّة، و ينظرون للأشياء جميعا من هذه الزّاوية (المشار إليها آنفا).

لذا فإنّ الآية تقول: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ لكنّهم فى الحقيقة ينظرون إلى منافعهم الخاصّة فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ

فهؤلاء يرون أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم غير منصف و لا عادل!! و يتهمونه فى تقسيمه المال!.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ

ترى ألا يوجد أمثال هؤلاء فى مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة؟! و هل الناس جميعا قانعون بحقّهم المشروع! فمن أعطاهم حقهم حسبوه عادلا؟! ممّا لا ريب فيه أنّ الجواب على السؤال الآنف بالنفى، و مع كل الأسف فما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۹

يزال الكثيرون يقيسون العدل و يزنون الحق بمعيار المنافع الشخصيّة و لا يقنعون بحقوقهم!! و لو قدّر لأحد أن يوصل إلى جميع الناس حقوقهم المشروعة و لا سيما المحرومين منهم- لتعالى صراخهم و عويلهم!! فبناء على ذلک، لا داعى لأن نقلب و نتصفح سجل التاريخ لمعرفة المنافقين.

فبنظرة واحدة إلى من حولنا، بل بنظرة إلى أنفسنا، نستطيع أن نميز حالنا من حال الآخرين! اللهم، أحى فينا روح الإيمان، و أمت فى أنفسنا النفاق و أفكار الشيطان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۰

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۶۰]

اشارة

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰)

التّفسير

موارد صرف الزكاة و دقائقها:

فى تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتهما بوضوح، إحداهما فى مكّة، حيث كان هدف النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين فيها تعليم الأفراد و تربيتهم و نشر التعاليم الإسلامية. و الثّانية فى المدينة، حيث أقدم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم على تشكيل حكومة إسلاميّة أجرى من خلالها الأحكام و التعاليم الإسلامية.

و ممّا لا شک فيه أنّ أوّل و أهم مسألة واجهت تشكيل الحكومة هى إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تؤمّن حاجات الدولة الاقتصادية،

و هی حاجات طبیعیة توجد فی کل دولة بدون استثناء، و من هنا کان إیجاد بیت المال من أوائل أعمال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی المدینة، و تشکل الزکاة أحد موارده، و علی المشهور فإنّ هذا الحکم شرّع فی السنة الثّانیة للهجرة النبویة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۱

و کما سنشیر- بعد حین- إلی إرادة اللّه و حکمه، فإنّ حکم الزکاة قد نزل من قبل فی مکّة، لکن لا علی نحو وجوب جمعها فی بیت المال، بل کان الناس یؤدونها ذاتیا، أمّا فی المدینة فإنّ قانون جبایة الزکاة و جمعها فی بیت المال قد صدر من اللّه تعالی فی الآیة (۱۰۳) من سورة التوبة.

إنّ الآیة التی نبحثها، و التی نزلت یقینا بعد آیة وجوب الزکاة- و إن لم یسبق لها ذکر فی القرآن الکریم- تبیّن الموارد المختلفة التی تصرف فیها الزکاة. و ممّا یلفت النظر أن الآیة بدأت بکلمة (إنّما) الدالّة علی الحصر، و هی توحی بأنّ بعض الأفراد الأنانیین أو المغفلین کانوا یطمعون فی أن یحصلوا علی نصیب من الزکاة بدون أی وجه لاستحقاقهم لها، لکن کلمة (إنّما) ردّت أیدیهم فی أفواهم. و هذا المعنی تبیّنه الآیتان اللتان سبقت هذه الآیة، حیث ذکرت أنّ هؤلاء کانوا یعترضون علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی عدم إعطائهم شیئا من الزکاة، و یرضون عنه إذا أعطاهم شیئا منها.

و علی أی حال، فإنّ الآیة قد بیّنت- بوضوح- الموارد الحقیقة التی تصرف فیها الزّکاة، و أنهت التوقعات غیر المنطقیة و حددت موارد صرف الزّکاة فی ثمانیة أصناف:

۱- الفقراء.

۲- المساکین: و سیأتی البحث فی نهایة تفسیر الآیة عن الفرق بین الفقیر و المسکین.

۳- العاملین علیها: و هم الذین یسعون فی جبایة الزکاة، و إدارة بیت المال، و ما یعطی لهم هو فی الواقع بمنزلة أجرة عملهم، و لهذا لا یشترط فیهم الفقر علی أی حال.

۴- المؤلفة قلوبهم: و هم الذین لا یوجد لدیهم الحافز و الدافع المعنوی القوی من أجل النهوض بالأهداف الإسلامیة و تحقیقها، و لکن و یمکن استمالتهم بواسطة بذل المال لهم، و الاستفادة منهم فی الدفاع عن الإسلام و تحکیم دولته، و إعلاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۲

کلمته. و سیأتی توضیح أوسع حول هذا القسم.

۵- فی الرقاب: و هذا یعنی أن قسما من الزکاة یخصّص لمحاربة العبودیة و الرق و إنهاء هذه الحالة غیر الإنسانیة، و کما قلنا فی محله فإنّ برنامج الإسلام فی معالجة مسألة الرقیق هو اتباع نظام (التحریر التدریجی) الذی ینتهی إلی تحریر جمیع العبید بدون مواجهة ردود فعل اجتماعیة غیر متوقعة، و یشکّل تخصیص قسم من الزکاة لهذا الموضوع جانبا من هذا البرنامج المتکامل.

۶- الغارمون: و هم الذین عجزوا عن أداء دیونهم، و لم یکن هذا العجز نتیجة لتقصیرهم.

۷- فی سبیل اللّه: و المراد منه- کما سنشیر إلیه فی آخر تفسیر الآیة- جمیع السبل التی تؤدی إلی تقویة و نشر الدین الإلهی، و هی أعم من مسألة الجهاد و التبلیغ و أمثالها.

۸- ابن السبیل: و هم الذین تخلفوا فی الطریق لعلة ما، و لیس معهم من الزاد و الراحلة ما یوصلهم إلی بلدانهم أو إلی الجهة التی یقصدونها، حتی و لو لم یکونوا فقراء فی واقعهم، لکنّهم افتقروا الآن نتیجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو قلّة أموالهم أو لأسباب أخر، و مثل هؤلاء یجب أن یعطوا من الزکاة ما یوصلهم إلی مقصدهم أو بلدهم.

و فی خاتمة الآیة نلاحظ التأکید علی صرفها فی الجهات السابقة، و لذلک قال سبحانه: فَرِیضَةً مِنَ اللَّهِ و لا شک أنّ هذه الفریضة قد حسبت بصورة دقیقة جدّا، و بصورة تحفظ مصالح الفرد و المجتمع، لأنّ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۳

بحوث

اشارة

و هنا أمور ينبغى ملاحظتها:

١- الفرق بين الفقير و المسكين

هنـاك بحث بين المفسّـرين فى مفهومى الفقير و المسـكين، هـل أنّ مفهومهمـا واحـد، و تكرار اللفظين معا فى الآيـة من باب التأكيد فتصبح موارد صرف الزكاة سبعة لا ثمانية، أم أنّهما لهما معنيان مختلفان؟

أغلب المفسّـرين و الفقهـاء قالوا بالثّانى، لكن وقع البحث حتى بين أنصار هـذا القول فى تفسـير و تحديـد مفهوم كل من الكلمتين، و الـذى يبـدو أقرب للنظر، أنّ الْفَقِيرَ هو الشـخص الـذى يعانى من حاجـة مالية فى حياته و معاشه مع أنّه يعمل و يكتسب، لكنّه لا يسأل أحـدا مطلقا رغم حاجته لعفته و عزّة نفسه، أمّا المسـكين فهو أشـد حاجة من الفقير، و هو العاجز عن العمل، فهو مضـطر لأنّ يسـتعطى الناس و يسألهم. و الدليل على ذلك أنّ الأصل اللغوى لكلمة مسـكين مأخوذ من مادة السكون، لأنّ المسكين لشدة فقره كأنّه سكن و أخلد إلى الأرض.

ثمّ إنّ ملاحظـة اسـتعمال الكلمتين فى مواضع متعددة من القرآن يؤيد هذا الرأى، فمثلا: نقرأ فى الآية (١۶) من سورة البلد: أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ و فى الآية (٨) من سورة النسـاء: وَ إِذا حَضَـرَ الْقِسْـمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ و يفهم من هـذا التعبير أنّ المراد بالمساكين هم الذين يسألون و يستعطون إذا حضروا مثل هذه المواضع.

و فى الآية (٢۴) من سورة القلم نقرأ: أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ و هى إشارة إلى السائلين.

و كذلك التعبير ب (إطعام مسـكين) أو (طعام مسكين)، فإنّه يوحى بأنّ المساكين هم الجياع الذين يحتاجون إلى الطعام، فى حين أنّنا نستطيع أن نفهم بوضوح- من خلال بعض الآيات القرآنية التى وردت فيها كلمة الفقير- أنّ المراد من الفقراء هم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ٩۴

أفراد محتـاجون للمـال لكنّهم لحفـظ مـاء الوجه و لعزة أنفسـهم لا يسألون الناس مطلقا، كما تبين ذلك الآيـة (٢٧٣) من سـورة البقرة: لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ

و بعد كل هذا

ففى رواية رواها محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليهما السّلام، أنّه سأله عن الفقير و المسكين فقال: «الفقير الذى لا يسأل، و المسكين الذى هو أجهد منه الذى يسأل»[٣۴].

و بهذا المضمون وردت رواية عن أبى بصير عن الصادق عليه السّلام، و كلتاهما صريحتان فى المعنى السابق.

و نذكّر هنا بأنّ قسما من القرائن قد يظهر منه أحيانا خلاف ما قلناه، إلّا أنّنا إذا نظرنا إلى مجموع القرائن اتّضح أن الحق ما قلناه.

٢- هل يجب تقسيم الزّكاة إلى ثمانية أجزاء متساوية؟

يعتقد بعض المفسّـرين و الفقهاء أنّ ظاهر الآية يدلّ على وجوب تقسيم الزكاة إلى ثمانية أجزاء متساوية، و صرف كل جزء فى مورده

الخاص إلّا أن یکون مقدار الزکاة من القلّة بحیث لا یمکن تقسیمه إلی ثمانیة أقسام.

أمّا الأکثریـة الساحقـة من الفقهاء فقـد ذهبوا إلی أن ذکر الأصـناف الثمانیـة فی الآیة یبیّن جواز صـرف الزکاة فی هذه الموارد، لا أنّه یجب تقسیم الزکاة إلی ثمانیـة أجزاء. و السـیرة الثابتـة للنّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و أئمّـة أهل البیت علیهم السّـلام تؤیّـد هـذا المعنی، إضافـة إلی أنّ الزکاة إحـدی الضـرائب الإسـلامیة، و الحکومـة الإسـلامیة هی المسؤولـة عن جبایتها من الناس، و الهدف من تشریعها هو تأمین الحاجات المختلفة للمجتمع الإسلامی.

أمّا کیفیة صـرف الزکاة فی هذه الموارد الثمانیة، فإنّه یرتبط بالضـرورات الاجتماعیة من وجه، و برأی و وجهة نظر الحکومة الإسلامیة من جهة أخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۵

۳- متی شرعت الزّکاة؟

یسـتفاد من الآیات القرآنیة المختلفة- و من جملتها الآیة (۱۵۶) من سورة الأعراف، و الآیة (۳) من سورة النمل، و الآیة (۴) من سورة لقمان، و الآیـة (۷) من سـورة فصـلت، و کلهـا سور مکّیـة- أن حکم وجوب الزکـاة نزل فی مکّة، و کـان المسـلمون ملزمین بـأدائها کواجب شرعی، لکن لما قـدم النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم إلی المدینـة و أسـس الدولة الإسـلامیة، و کان لا بدّ من إیجاد بیت المـال، أمره اللّه سـبحانه بأن یأخـذ الزکاة من الناس بنفسه- لا أنهم یصـرفون الزکاة بأنفسـهم حسب ما یرونه- فنزلت الآیـة (۱۰۳) من سورة التوبة: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً ....

و المشـهور أنّ ذلک انّ فی السـنة الثّانیـة للهجرة، ثمّ بیّنت الآیة التی نبحثها- الآیة (۶۰) من سورة التوبة- موارد صـرف الزکاة بصورة دقیقـة. و لا ینبغی التعجب من أن تشـریع أخـذ الزکاة فی الآیـة (۱۰۳)، و بیان موارد صـرفها- و الـذی یقال أنّه نزل فی السـنة التاسـعة للهجرة- فی الآیة (۶۰)، لأنـا نعلم أن آیات القرآن لم تجمع و ترتب حسب تأریـخ نزولها، بل بأمر النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم، حیث أمر بوضع کل آیة فی مکانها المناسب.

۴- من هم المقصودون ب الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

الـذی یفهم من تعبیر الْمُؤَلَّفَـةِ قُلُوبُهُمْ أن أحـد موارد صـرف الزکاة هم الأفراد الذین یراد اسـتمالتهم و جلب محبّتهم بالزکاة، لکن هل المراد منهم الکفار الذین یمکن الاستعانة بهم فی أمر الجهاد ببذل الزکاة لهم، أم یدخل معهم المسلمون ضعیفو الإیمان؟

و کما قلنا فی المباحث الفقهیـة، فإنّ لهـذه الآیة، و کذلک للروایات الواردة فی هذا الموضوع مفهوما واسـعا، و لهذا فإنّها تشـمل کل من یمکن استمالته من أجل نفع و تحکیم الإسلام، و لا دلیل علی تخصیصها بالکفار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۶

۵- دور الزّکاة فی الإسلام

إذا علمنـا أنّ الإسـلام یظهر علی أنّه مـذهب أخلاقی أو فلسـفی أو عقائـدی بحت، بل ظهر إلی الوجود کـدین و قانون کامل و شامل عولجت فیه کل الحاجات المادیـة و المعنویـة فی الحیاة، و کـذلک إذا علمنا أن تشـکیل و تأسـیس الدولـة الإسـلامیة قـد لازم ظهور

الإسلام منذ عصر النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و إذا علمنا أن الإسلام يهتم اهتماما خاصّا بنصرة المحرومين و مكافحة الطبقية في المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال و الزكاة التى تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا- شك أن في كل مجتمع أفرادا عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، و أمثالهم، و هؤلاء يحتاجون حتما إلى من يحميهم و يرعاهم و يقوم بشؤونهم.

و كذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده و كيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود و نفقاتهم فإنّ الدولة هي التي تلتزم بتأمينها و دفعها إليهم.

و كذلك العاملون في الدولة الإسلامية، الحكام و القضاة، وسائل الإعلام و المراكز الدينية و غيرها، فكل قسم من هذه الأقسام يحتاج إلى ميزانية خاصّة و مبالغ طائلة لا يمكن تهيئتها دون أن يكون هناك نظام مالى محكم منظم.

و على هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة- التى تعتبر في الحقيقة نوعا من الضرائب على الإنتاج و الأرباح، و على الأموال الراكدة- اهتماما خاصا، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، و قد ذكرت- جنبا إلى جنب- مع الصلاة في كثير من الموارد، بل إنّه اعتبرها شرطا لقبول الصلاة.

و أكثر من هذا أننا نقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الدولة الإسلامية إذا طلبت الزكاة من شخص أو أشخاص و امتنع هؤلاء من ذلك فسوف يحكم بارتدادهم، و إذا لم تنفع النصيحة معهم و لم يؤثر الموعظة فيهم، فإنّ الاستعانة بالقوّة العسكرية لمقابلتهم أمر جائز.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۷

و

في رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من منع قيراطا من الزكاة فليس هو بمؤمن، و لا مسلم، و لا كرامة».[۳۵]

و ممّا يلفت النظر أنّ الرّوايات قد أظهرت أن تعين الزكاة بهذا المقدار يبيّن دقة حسابات الإسلام، فإنّ المسلمين جميعا لو أدّوا زكاة أموالهم بصورة دقيقة و كاملة فسوف لن يبقى فقير أو محروم في كافة أنحاء البلاد الإسلامية.

ففي رواية عن الصادق عليه السّلام: «و لو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا ...

و إن الناس ما افتقروا، و لا احتاجوا، و لا جاعوا، و لا عروا إلّا بذنوب الأغنياء»[۳۶].

و كذلك يفهم من الرّوايات أنّ أداء الزكاة سبب لحفظ أصل الملك و الأموال و تحكيم أسسها، بحيث أنّ الناس إذا أهملوا تطبيق هذا الأصل الإسلامي المهم فإنّ الفاصلة و التفاوت بين الطبقات سيصل إلى حد يعرض أموال الأغنياء إلى الخطر.

في حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام: «حصّنوا أموالكم بالزكاة»[۳۷].

و بهذا المضمون نقلت روايات أخرى عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين عليه السّلام.

و لمزيد الاطلاع على هذه الأحاديث راجع الأبواب: الأوّل و الثّالث و الرّابع و الخامس من أبواب الزكاة من المجلد السّادس من وسائل الشيعة.

۶- ما الفرق بين العطف ب «اللام أو في»؟

النقطة الأخيرة التى ينبغى الالتفات إليها، هى أنّ في الآية التى نبحثها أربعة أقسام ذكرت معطوفة على حرف اللام:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۸

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ و هذا التعبير عادة يفيد الملكية. أمّا الأقسام الأربعة الأخرى فقد سبقها حرف (في): وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ و هذا التعبير عادة يستعمل لبيان مورد الصرف [۳۸].

هناك بحث و نقاش بين المفسّرين فى سبب اختلاف التعبير، فالبعض يعتقد أن الأصناف الأربعة الأولى يملكون الزكاة، أمّا الأصناف الأربعة الأخرى فإنّهم لا يملكونها، بل إن الزكاة يجوز أن تصرف فيهم.

و البعض الآخر يعتقد أن الاختلاف فى التعبير يشير إلى مسألة أخرى، و هى أنّ الطائفة الثّانية أكثر استحقاقا للزكاة، لأن كلمة (فى) لبيان الظرفية، لهذا فإن هذه المجموعة الرباعية تمثل محتوى و مصرف الزكاة، و الزكاة و وعاء لها، فى حين أن المجموعة الأولى ليست كذلك.

لكننا نحتمل و نرجح احتمالا آخر، و هو أن الستة أقسام- و هم: الفقراء و المساكين و العاملون عليها و المؤلفة قلوبهم و الغارمون و ابن السبيل- التى لم تذكر قبلها (فى) متساوون و قد عطفت على بعضها البعض، أمّا القسمان الآخران- و هما فى الرقاب و فى سبيل اللّه- اللذان بيّنتهما (فى) فإنّ لهما وضعا خاصا، و ربّما كان السبب فى اختلاف التعبير من جهة إمكان تملك الزكاة من قبل الأصناف الستة، و يمكن أداء الزكاة إليهم (حتى المدينين و العاجزين عن أداء ديونهم، لكن بشرط الاطمئنان إلى أنّ هؤلاء يصرفونها فى سداد ديونهم).

أمّا الصنفان الآخران فلا يملكون الزكاة، و لا يمكن دفع الزكاة إليهم، بل تصرف فى جهتهم، فمثلا يجب الشراء العبيد و تحريرهم عن طريق الزكاة، و من الواضح أنّهم لا يملكون الزكاة فى هذه الحالة، بل صرفت الزكاة فى جهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۹

تحريرهم. و كذلك الحال بالنسبة إلى الموارد التى تندرج تحت عنوان (فى سبيل اللّه) كنفقات الجهاد، و إعداد الأسلحة، أو بناء المساجد و المراكز الدينية، و أمثال هذه المفردات لا تملك الزكاة بل أنّها مورد لصرف الزكاة.

و على أى حال، فإنّ التفاوت الاختلاف فى التعبير يوضح الدقة المتناهية فى التعبيرات القرآنية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۰

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۶۱]

اشارة

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۱)

سبب النّزول

هذا حسن لا قبيح!

ذكرت عدّة أسباب متباينة لنزول الآية المذكورة و منها أنّ الآية نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يذكرون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بسوء، فنهاهم أحدهم و قال: لا تتحدثوا بهذا الحديث لئلا يصل إلى سمع محمّد فيذكرنا بسوء و يؤلب الناس علينا.

فقال له أحدهم- و اسمه جلاس-: لا يهمنا ذلك، فنحن نقول ما نريد، و إذا بلغه ما نقول سنحضر عنده و ننكر ما قلناه، و سيقبل ذلك منا فإنّه سريع التصديق لما يقال له، و يقبل كل ما يقال من كل أحد، فهو أذن، فنزلت الآية و أجابتهم.

التّفسير

تتحدّث الآية- كما يفهم من مضمونها- عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بكلامهم و يقولون أنّه أذن و يصدّق كل ما يقال له سريعا وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۱

يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ

«الأذن» فى الأصل تطلق على الجزء الظاهر من الحاسة السامعة (الصيوان)، لكنّها تطلق على الأفراد الذين يصغون كثيرا لكلام الناس أو كما يقال: سمّاع.

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفة- و التى هى سمة ايجابية للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و التى يجب توفرها فى أى قائد كامل- نقطة ضعف فى سيرته و معاملته صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و كأنّهم غفلوا عن أن القائد إذا أراد أن يحبه الناس لا بدّ أن يظهر لهم كل محبّة و لطف، و أن يقبل عذر المعتذر ما أمكن، و يستر على عيوبهم، (إلّا أن تكون هذه الصفة الحميدة سببا لاستغلالها من قبل البعض).

من هنا نلاحظ أنّ القرآن قد ردّهم مباشرة، و أمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهم بأنّه إذا كان يصغى لكلامكم، و يقبل أعذاركم، أو كما تظنون بأنّه أذن، فإنّ ذلك فى مصلحتكم و لمنفعتكم قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ فإنّه بذلك يحفظ ماء وجوهكم و شخصيتكم، و لا يجرح شعوركم و عواطفكم، و بذلك- أيضا- يسعى لحفظ وحدتكم و اتحادكم و مودتكم، و لو أراد أن يرفع الستار عن أفعالكم القبيحة، و يفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضرّكم ذلك و شق عليكم، و افتضح عدّة منكم، و عندها سيغلق أمامهم باب التوبة ممّا يؤدى إلى توغلهم فى الكفر و الابتعاد عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد أن كان من المحتمل هدايتهم.

إن القائد الرحيم و المحنّك يجب أن يكون مطّلعا على كل شيء، لكن لا ينبغى له أن يجابه أفراده بأمورهم الخاصّة و المجهولة عند الآخرين حتى يتربى من لهم الاستعداد و القابلية و تبقى اسرار الناس فى طى الكتمان.

و يحتمل فى تفسير الآية أن يراد معنى آخر، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى يقول فى جواب هؤلاء الذين يعيبون على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إصغاءه للآخرين: ليس الأمر كما تظنون بأنّه يسمع كل ما يقال له، بل إنّه يصغى إلى الكلام الذى فيه نفعكم، أى أنّه يسمع الوحى الإلهى، و الاقتراح المفيد، و يقبل اعتذار الأفراد إذا كان هذا القبول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۲

فى صالح المعتذرين و المجتمع ۳۹].

و من أجل أن لا يستغل المتتبعون لعيوب الناس ذلك، و لا يجعلون هذه الصفة وسيلة لتأكيد كلامهم، أضاف اللّه تعالى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يؤمن باللّه و يطيع أوامره، و يصغى إلى كلام المؤمنين المخلصين، و يقبله و يرتب عليه الأثر، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ و هذا يعنى أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان له طريقان و أسلوبان فى عمله:

أحدهما: الحفاظ على الظاهر و الحيلولة دون هتك الأستار و فضح أسرار الناس.

و الثّانى: فى مرحلة العمل، فقد كان صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى البداية يسمع من كل أحد، و لا ينكر على أحد ظاهرا، أمّا فى الواقع العملى فإنّه لا يعتنى و لا يقبل إلّا أوامر اللّه و اقتراحات و كلام المؤمنين المخلصين، و القائد الواقعى يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلّا عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنّه رحمة للمؤمنين وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

و يمكن أن يطرح هنا سؤال، و هو أننا نلاحظ فى بعض الآيات التعبير عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ [۴۰] لكننا نقرأ هنا أنّه رحمة للمؤمنين، فهل يتطابق ذلك العموم مع هذا التخصيص؟

إلّا أنّنا إذا لا حظنا نقطة دقيقة سيتّضح جواب هذا السؤال، و هى أنّ للرحمة درجات و مراتب متعددة، فإحداها مرتبة (القابلية و الاستعداد)، و الأخرى (الفعلية).

فمثلا: المطر رحمـة إلهيـة، أى أنّ هـذه القابلية و اللياقة موجودة فى كل قطرات المطر، فهى منشأ الخير و البركة و النمو و الحياة، لكن من المسلّم أنّ آثار هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۳

الرحمـة لاـ تظهر إلّا فى الأراضـى المسـتعدّة، و على هـذا فـإنّه يصـح قولنـا: إنّ جميع قطرات المطر رحمـة، كما يصـح قولنا: إنّ هـذه القطرات أساس الرحمـة فى الأراضـى التى لها القابليـة و الاسـتعداد لتقبل هـذه الرحمـة، فالجملـة الأولى إشارة إلى مرحلة (الاقتضاء و القابليـة)، و الجملـة الثّانيـة إشارة إلى مرحلـة (الوجود و الفعل)، و على هذا فإنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أساس الرحمة لكل العالمين بالقوة، أمّا بالفعل فهو مختص بالمؤمنين.

بقى هنـا شـىء واحـد، و هو أنّ هؤلاـء الـذين يؤذون النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم بكلامهم و يتتبعون أحواله لعلهم يجـدون عيبا يشـهّرون به يجب أن لا يتصوروا أنّهم سوف يبقون بـدون جزاء و عقاب، فصـحيح أن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم مأمور، و من واجبه- كقائـد- أن يقابل هؤلاء برحابـة صـدر و لا يفضـحهم، لكن هـذا لا يعنى أنّهم سوف يبقون بـدون جزاء، و لهذا قال تعالى فى نهاية الآية: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۴

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۶۲ الى ۶۳]

اشارة

يَحْلِفُونَ بِـاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كـانُوا مُؤْمِنِينَ (۶۲) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحـادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (۶۳)

سبب النّزول

يستفاد من أقوال بعض المفسّـرين أنّ الآيتين المـذكورتين مكملتان للآيـة السابقة، و من الطبيعى أن يكون سـبب نزولها نفس السـبب السـابق، إلّا أن جمعا آخر من المفسّـرين ذكر سـببا آخر لنزول هاتين الآيتين، و هو أنّه لما نزلت الآيات التى ذمت المتخلفين عن غزوة تبوك و وبختهم قـال أحـد المنـافقين: أقسم بـاللّه أنّ هؤلاـء أشـرافنا و أعياننـا، فإن كان ما يقوله محمّـد حقّا فإنّ هؤلاء أسوا حالا من الـدواب، فسـمعه أحـد المسـلمين و قال: و اللّه إن ما يقوله لحق، و إنّك أسوأ من الدابة. فبلغ ذلك رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سلّم فبعث إلى ذلك المنافق فأحضر، فسأله عن سبب قوله ذلك الكلام، فحلف أنّه لم يقل ذلك، فقال الرجل المؤمن الذى كان طرفا فى خصومة الرجل و أبلغ كلامه لرسول اللّه: اللّهم صدّق الصادق و كذّب الكاذب. فنزلت الآيتين أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۵

التّفسير

المنافقون و التظاهر بالحق:

إن إحـدى علامـات المنـافقين و أعمـالهم القبيحـة و التى أشـار إليها القرآن مرارا هى إنكارهم الأعمال القبيحـة و المخالفـة للـدين و

العرف، و هم إنّما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السىء و إخفاء الصورة الحقيقية لهم، و لما كان المجتمع يعرفهم و يعرف كذبهم فی هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذبة من أجل مخادعة الناس و إرضائهم.

و فی الآيات السابقة الذكر نرى أنّ القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهة، و يحذّر المسلمين من تصديق الإيمان الكاذبة من جهة أخرى.

فی البداية يخاطب القرآن الكريم المسلمين و ينبههم إلى أنّ هدف هؤلاء من القسم هو إرضاؤكم يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ و من الواضح إذن أن هدف هؤلاء من هذه الأيمان لم يكن بيان الحقيقة، بل إنّهم يسعون عن طريق المكر و الخديعة إلى أن يصوروا لكم الأشياء و الواقع على غير صورته الحقيقة، و يصلون عن هذا الطريق إلى مقاصدهم، و إلّا فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإنّ إرضاء اللّه و رسوله أهم من إرضاء المؤمنين، غير أنا نرى أنّهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا اللّه و رسوله، و لذا عقبت الآية فقالت: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ

ممّا يلفت النظر أن الجملة المذكورة لما كانت تتحدث عن اللّه و رسوله، فعلى القاعدة النحوية ينبغى أن يكون الضمير فی «يرضوه» ضمير التثنية غير أن المستعمل هنا هو ضمير المفرد، و هذا الاستعمال و التعبير يشير إلى أن رضا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من رضا اللّه. بل أنّه لا يرتضى من الأعمال إلّا ما يرتضيه اللّه سبحانه، و بعبارة أخرى: فإنّ هذا التعبير يشير إلى حقيقة (توحيد الأفعال)، لأنّ النّبى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۶

الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يملك استقلالية العمل فی مقابل اللّه، بل إن غضبه و رضاه و كل أعماله تنتهى إلى اللّه، فكل شىء من أجل اللّه و فی سبيله.

روى أنّ رجلا فی زمن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال ضمن كلامه: من أطاع اللّه و رسوله فقد فاز، و من عصاهما فقد غوى. فلما سمع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كلامه غضب- حيث أن الرجل ذكر اللّه و رسوله بضمير التثنية فكأنّه جعل اللّه و رسوله فی درجة واحدة- و قال: «بئس الخطيب أنت، هلا قلت: و من عصى اللّه و رسوله»[۴۱]؟!

و فی الآية الثّانية نرى أنّ القرآن يهدد المنافقين تهديدا شديدا، فقال: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها و من أجل أن يؤكّد ذلك أضاف تعالى ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

(يحادد) مأخوذ من (المحادّة) و أصلها (حدّ)، و معناها نهاية الشىء و طرفه، و لما كان الأعداء و المخالفون يقفون فی الطرف الآخر المقابل، لذا فإن مادة (المحادّة) قد وردت بمعنى العداوة أيضا، كما نستعمل كلمة (طرف) فی حياتنا اليومية و نريد منها المخالفة و العداوة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۷

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۶۴ الى ۶۶]

اشارة

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِی قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (۶۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (۶۵) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۶۶)

سبب النّزول

ذكرت عـدّة أسباب لنزول هذه الآيات، و كلّها ترتبط بأعمال المنافقين بعد غزوة تبوك. فمن جملتها: إنّ جمعا من المنافقين كانوا قد اجتمعوا فى مكان خفى و قرّروا قتل النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم عند رجوعه من غزوة تبوك، و كانت خطتهم أن ينصـبوا كمينا فى إحـدى عقبـات الجبال الصـعبة، و عنـد ما يمر النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم من تلك العقبـة ينفرون بعيره، فأطلع اللّه نبيّه على ذلك، فأمر جماعـة من المسـلمين بمراقبة الطريق و الحذر، فلمّا وصل النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم إلى العقبة- و كان عمار يقود الدابـة و حذيفـة يسوقهـا- اقترب المنافقون متلثّمين لتنفيـذ مؤامرتهم فأمر النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم حذيفـة أن يضـرب وجوه دوابهم و يدفعهم، ففعل حذيفة ذلك.

فلمّا جاوز النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم العقبة- و قد زال الخطر- قال لحذيفة: هل عرفتهم؟ فقال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۸

لم أعرف أحدا منهم، فعرّفه رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سلّم بهم، فقال حذيفة: ألا ترسل إليهم من يقتلهم؟ فقال: «إنى أكره أن تقول العرب: إنّ محمّدا لما انقضت الحرب بينه و بين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه».

و قد نقل سبب النزول هذا عن الإمام الباقر عليه السّلام، و جاء أيضا فى العديد من كتب التّفسير و الحديث.

و ذكر سـبب آخر للنزول و هو: أنّ مجموعـة من المنافقين لما رأوا النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و قـد تهيّأ للقتال و اصـطف أمام الأعداء، قال هؤلاء بسخرية: أ يظن هذا الرجل أنّه سيفتح حصون الشام الحصينة و يسكن قصورها، إن هذا الشيء محال، فأطلع اللّه نبيّه على ذلـك، فـأمر رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يسـدوا عليهم المنافـذ و الطرق، ثمّ نـاداهم و لا ـ مهم و أخبرهم بما قالوا، فاعتذروا بأنّهم إنّما كانوا يمزحون و أقسموا على ذلك.

التّفسير

مؤامرة أخرى للمنافقين:

لا حظنا فى الآيات السابقة كيف أنّ المنافقين اعتبروا نقاط القوّة فى سـلوك النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم نقاط ضـعف، و كيف حاولوا استغلال هذه المسألة من أجل بثّ التفرقة بين المسلمين. و فى هذه الآيات إشارة إلى نوع آخر من برامجهم و طرقهم.

فمن الآية الأولى يسـتفاد أنّ اللّه سـبحانه و تعالى يكشف السـتار عن أسـرار المنافقين أحيانا، و ذلك لدفع خطرهم عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سـلّم و فضـحهم أمام الناس ليعرفوا حقيقتهم، و يحذروهم و ليعرف المنافقون موقع اقدامهم و يكفّوا عن تآمرهم، و يشير القرآن إلى خوفهم من نزول سورة تفضحهم و تكشف خبيئة أسرارهم فقال:

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ

إلّا أنّ العجيب فى الأمر أن هؤلاء و لشـدة حقـدهم و عنادهم لم يكفّوا عن اسـتهزائهم و سـخريتهم، لـذلك تضـيف الآيـة: بأنّهم مهما سخروا من أعمال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۹

فإن اللّه لهم بالمرصاد و سوف يظهر خبيث أسرارهم و يكشف عن دنىء نيّاتهم، فقال: قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ

تجدر الإشارة إلى أنّ جملة (اسـتهزءوا) من قبيل الأمر لأجل التهديد كما يقول الإنسان لعدوّه: اعمل كل ما تسـتطيع من أذى و إضرار لترى عاقبة أمرك، و مثل هذه الأساليب و التعبيرات تستعمل فى مقام التهديد.

كما يجب الالتفات إلى أنّنا نفهم من الآيـة بصورة ضـمنية أنّ هؤلاء المنافقين يعلمون بأحقية دعوة النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و

صدقها، و يعلمون فى ضميرهم و وجدانهم ارتباط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم باللّه سبحانه و تعالى، إلّا أنهم لعنادهم و إصرارهم بـدل أن يؤمنوا به و يسلموا بين يديه، فإنّهم بدأوا بمحاربته و إضـعاف دعوته المباركهٔ، و لذلک قال القرآن الكريم: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِى قُلُوبِهِمْ

و ينبغى الالتفـات إلى أنّ جملـهٔ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ لا تعنى أن أمثال هـذه الآيات كانت تنزل على المنافقين، بل المقصود أنّها كانت تنزل فى شأن المنافقين و تبيّن أحوالهم.

أمّا الآيهٔ الثّانيهٔ فإنّها أشارت إلى أسلوب آخر من أساليب المنافقين، و قالت:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ ۴۲]. أى إذا سألتهم عن الدافع لهم على هذه الأعمال المشينهٔ قالوا: نحن نمزح و بذلک ضمنوا طريق العودهٔ، فهم من جهـهٔ كانوا يخططون المؤامرات، و يبثون السـموم، فإذا تحقق هـدفهم فقد وصلوا إلى مآربهم الخبيثهٔ أمّا إذا افتضـح أمرهم فإنّهم سيتذرعون و يعتـذرون بأنّهم كانوا يمزحون، و عن هذا الطريق سيتخلصون من معاقبهٔ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و الناس لهم.

إن المنافقين فى أى زمان، تجمعهم وحدهٔ الخطط، و الضرب على نفس الوتر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۰

لـذا فلهم نغمـهٔ واحـدهٔ، و هم كثيرا ما يستفيدون و يتبعون هـذا الطرق، بل إنّهم فى بعض الأحيان يطرحون أكثر المسائل جديـهٔ لكن بلباس المزاح الساذج البسيط، فإن وصلوا إلى هدفهم و حققوه فهو، و إلّا فإنّهم يفلتون من قبضهٔ العدالهٔ بحجّهٔ المزاح.

غير أنّ القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامهٔ، و جابههم بجواب لا مفرّ معه من الإذعان للواقع، فأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يخـاطبهم قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ أى إنّه يسألهم: هـل يمكن المزاح و السـخريهٔ حتى بـاللّه و رسوله و آيـات القرآن؟! هل إنّ هـذه المسائل التى هى أدق الأمور و أكثرها جديـهٔ قابلـهٔ للمزاح؟! هل يمكن إخفاء قضـيهٔ تنفير البعير و سـقوط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من تلـک العقبـهٔ الخطيرهٔ، و التى تعنى الموت، تحت عنوان و نقـاب المزاح؟ أم أنّ السـخريهٔ و الاسـتهزاء بالآيات الإلهيـهٔ و إخبار النّبى بالانتصارات المستقبليهٔ من الأمور التى يمكن أن يشـملها عنوان اللعب؟ كل هـذه الشواهد تدل على أنّ هؤلاء كان لديهم أهداف خطيرهٔ مستترهٔ خلف هذه الأستار و العناوين.

ثمّ يـأمر القرآن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يقول للمنـافقين بصـراحهٔ: لا تَعْتَذِرُوا، و السبب فى ذلک أنّكم قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فهـذا التعبير يشـعر أن هـذه الفئـهٔ لم تكن منـذ البدايـهٔ فى صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنّهم ضـعيفو الإيمان، بعـد هذه الحوادث الآنفهٔ الذكر سلكوا طريق الكفر.

و يحتمل أيضا فى تفسير العبارهٔ أعلاه أن هؤلاء كانوا منافقين من قبل، إلّا أنّهم لم يظهروا عملا مخالفا، فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين كانوا مكلّفين أن يعاملوهم كأفراد مؤمنين، لكن لما رفع النقاب بعد أحداث غزوهٔ تبوک، و ظهر كفرهم و نفاقهم أعلم هؤلاء بأنّهم لم يعودوا من المؤمنين.

و اختتمت الآيهٔ بهذه العبارهٔ: إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۱

كانُوا مُجْرِمِينَ فهى تبيّن أنّ طائفـهٔ قـد اسـتحقت العـذاب نتيجـهٔ الـذنوب و المعاصـى، و هـذا دليل على أن أفراد الطائفـهٔ الأخرى إنّما شملهم العفو الإلهى لأنّهم غسلوا ذنوبهم و معاصيهم بماء التوبهٔ من أعماق وجودهم.

و فى الآيات القادمهٔ- كالآيهٔ ۷۴- قرينهٔ على هذا المبحث.

و قـد وردت روايات عديـدهٔ فى ذيل الآيهٔ، تبيّن أن بعض هؤلاء المنافقين الذين مرّ ذكرهم فى هذه الآيات قد ندموا على ما بدر منهم من أعمال منافيهٔ للدين و الأخلاق فتابوا، غير أن البعض الآخر قد بقى على مسيرته حتى النهايهٔ.

و لمزید التوضیح و الاطلاع راجع: تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۳۹.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۲

الآیات [سورة التوبة (۹): الآیات ۶۷ الی ۷۰]

اشارة

الْمُنـافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُـهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۶۷) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنـافِقِينَ وَ الْمُنافِقـاتِ وَ الْكُفَّارَ نـارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيهـا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كـانُوا أَشَـدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الـدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۶۹) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عـادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۷۰)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۳

التّفسیر

علامات المنافقین:

البحث فی هذه الآیات یدور کالسابق حول سلوک المنافقین و علاماتهم و صفاتهم، «فالآیة الأولی من هذه الآیات تشیر إلی أمر کلّی، و هو أن روح النفاق یمکن أن تتجلّی بأشکال مختلفة و تبدو فی صور متفاوتة بحیث لا تلفت النظر فی أوّل الأمر، خصوصا أن روح النفاق هذه یمکن أن تختلف بین الرجل و المرأة، لکن یجب أن لا یخدع الناس بتغییر صور النفاق بین المنافقین، المنافقین یشترکون فی مجموعة من الصفات تعتبر العامل المشترک فیما بینهم، لذلک یقول اللّه سبحانه: الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ

و بعد ذلک یشرع القرآن الکریم فی ذکر خمس صفات لهؤلاء:

الأولی و الثّانیة: إنّهم یدعون الناس إلی فعل المنکرات و یرغبونهم فیها من جهة، و یبعدونهم و ینهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من جهة أخری يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ أی أنّهم یسلکون طریقا و یتّبعون منهاجا هو عکس طریق المؤمنین تماما، فإنّ المؤمنین یسعون دائما- عن طریق الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر- إلی أن یصلحوا المجتمع و ینقوه من الشوائب و الفساد، بینما یسعی المنافقون إلی إفساد کل زاویة فی المجتمع و اقتلاع جذور الخیر و الأعمال الصالحة من بین الناس من أجل الوصول إلی أهدافهم المشؤومة، و لا شک أنّ وجود مثل هذا المحیط الفاسد و البیئة الملوّثة ستساعدهم کثیرا فی تحقیق أهدافهم.

الثّالثة: إنّ هؤلاء بخلاء لا یتمتعون بروح الخیر للناس فلا ینفقون فی سبیل اللّه، و لا یعینون محروما، و لا یستفید أقوامهم و معارفهم من أموالهم، فعبّر عنهم القرآن:

وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ و لا شک أنّ هؤلاء إنّما یبخلون بأموالهم لأنّهم لا یؤمنون بالآخرة و الثواب و الجزاء المضاعف لمن أنفق فی سبیل اللّه، بالرغم من أنّهم کانوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۴

یبذلون الأموال الطائلة من أجل الوصول إلی أغراضهم و آمالهم الشریرة الدنیئة، و ربّما بذلوها ریاء و سمعة، لکنّهم لا یقدمون علی

البذل على أساس الإخلاص للّه سبحانه و تعالى.

الرّابعة: إنّ كل أعمالهم و أقوالهم و سلوكهم يوضح أن هؤلاء قد نسوا اللّه، و الوضع الذى يعيشونه يبيّن أن اللّه قد نسيهم فى المقابل، و بالتالى فإنّهم قـد حرموا من توفيق اللّه و تسديده و مواهبه السـنية، أى أنّه سـبحانه قد عاملهم معاملة المنسـيين، و آثار و علامات هذا النسيان المتقابل واضحة فى كل مراحل حياتهم، و إلى هذا تشير الآية: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ

و هنـا نودّ الإشارة إلى أن نسبة النسـيان إلى اللّه جلّ و علا ليست نسـبة واقعيـة و حقيقيـة- كما هو المعلوم بديهـة- بل هى كنايـة عن معاملة لهؤلاء معاملة الناسى، أى إنّه لا يشـملهم برحمته و توفيقه لأنّهم نسوه فى البدايـة، و مثل هـذا التعبير متـداول حتى فى الحياة اليومية بين الناس، فقد نقول لشـخص مثلا: إنّنا سوف ننساك عند إعطاء الأجرة أو الجائزة لأنّك قد نسيت واجبك، و هذا تعبير يعنى أنّنا سوف لا نعطيه أجره و مكافأته. و هذا المعنى ورد كثيرا فى روايات أهل البيت عليهم السّلام ۴۳].

و ممّـا ينبغى الالتفـات إليه أنّ موضوع نسـيان اللّه تعالى قـد عطف بفاء التفريع على نسـيان هؤلاء القوم، و هـذا يعنى أنّ نتيجـة نسـيان هؤلاء لأوامر اللّه تعالى و طغيانهم و عصيانهم هى حرمانهم من مواهب اللّه و رحمته و عنايته.

الخامسة: إنّ المنافقين فاسقون و خارجون من دائرة طاعة أوامر اللّه سبحانه و تعالى، و قالت الآية: إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ

و نلاحظ أنّ هذه الصفات المشتركة متوفرة فى المنافقين فى كل الاعصار.

فمنـافقو عصـرنا الحاضـر و إن تلبسوا بصور و أشـكال جديـدة، إلّـا أنّهم يتحـدون فى الصـفات و الأصول المـذكورة أعلاه مع منافقى العصور الغابرة، فإنّهم كسابقيهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۵

يـدعون الناس إلى الفساد و يرغبونهم فيه، و ينهون الناس عن فعل الخير و يمنعونهم إن اسـتطاعوا، و كـذلك فى بخلهم و إمساكهم و عـدم إنفاقهم، و بعـد كل ذلك فإنّهم يشتركون فى الأصل الأهم، و هو أنّهم قد نسوا اللّه سـبحانه و تعالى فى جميع مراحل حياتهم، و تعديهم على قوانينه و فسـقهم. و ممّا يثير العجب أنّ هؤلاء بالرغم من كل هذه الصـفات القبيحة السـيئة يدّعون الإيمان باللّه و الإعتقاد الرصـين بأحكام الدين الإسـلامى و أصوله و مناهجه! فى الآية التى تليها نلاحظ الوعيد الشديد و الإنذار بالعذاب الأليم و الجزاء الذى ينتظر هؤلاء حيث تقول: وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ و أنّهم سيخلدون فى هذه النّار المحرقة خالِدِينَ فِيها و أن هذه المجازاة التى تشـمل كل أنواع العذاب و العقوبات تكفى هؤلاء، إذ هِيَ حَسْبُهُمْ و بعبارة أخرى: إنّ هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبة أخرى غير النّار، حيث يوجد فى نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسمية منها و الروحية.

و تضيف الآية فى خاتمتها أن اللّه تعالى قد أبعد هؤلاء عن ساحة رحمته و جازاهم بالعذاب الأبدى وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ بل إن البعد عن اللّه تعالى يعتبر بحد ذاته أعظم و أشد عقوبة و آلمها.

تكرر التأريخ و الإعتبار به:

من أجـل توعيـة هؤلاء المنـافقين، وضـعت الآيـة الآتيـة مرآة التاريـخ أمـامهم، و دعتهم إلى ملاحظـة حيـاتهم و سـلوكهم و مقـارنتها بالمنـافقين و العتـاة المردة الـذين تمردوا على أوامر اللّه سـبحانه و تعـالى، و أعطتهم أوضـح الـدروس و أكثرهـا عبرة، فـذكّرهم بأنّهم كالمنافقين الماضين و يتبعون نفس المسير و سيلقون نفس المصير:

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ علما أنّ هؤلاء كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً.

و كما أنّ هؤلاء قد تمتعوا بنصيبهم فى هذه الحياة الدنيا، و صرفوا أعمارهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۶

طريق قضاء الشهوات و المعصية و الفساد و الانحراف، فإنّكم قد تمتعتم بنصيبكم كهؤلاء: فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ و الخلاق فى اللغة بمعنى النصيب و الحصة، يقول الراغب فى مفرداته:

أنّها مأخوذة من مادة (خلق)، و يحتمل- على هذا- أن الإنسان قد يستفيد و يتمتع بنصيبه فى هذه الحياة الدنيا بما يناسب خلقه و خصاله.

ثمّ تقول بعد ذلك: إنّكم كمن مضى من أمثالكم قد أوغلتم و سلكتم مسلك الاستهزاء و السخرية، تماما كهؤلاء: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا[۴۴].

ثمّ تبيّن الآية عاقبة أعمال المنافقين الماضين لتحذر المنافقين المعاصرين للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كل منافقى العالم فى جملتين:

الأولى: إن كل أعمال المنافقين قد ذهبت أدراج الرياح، فى الدنيا و الآخرة، و لم يحصلوا على أى نتيجة حسنة، فقالت: حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ.

الثّانية: إنّ هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئة:

وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

إن هؤلاء المنافقين يمكن أن يستفيدوا و يحققوا بعض المكاسب و الامتيازات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت و محدود، فإنّنا إذا أمعنا النظر فسنرى أن هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئا، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، كما يعكس التاريخ هذه الحقيقة، و يبيّن كيف أنّ المنافقين على مرّ الدهور و الأيّام قد توالت عليهم النكبات و أزرت بهم و حكمت عليهم بالفناء و الزوال، كما أن ممّا لا شك فيها أنّ هذه العاقبة الدنيوية تبيّن المصير الذى ينتظرهم فى الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۷

إن الآية الكريمة تنبه المنافقين المعاصرين للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول لهم: إنّكم ترون أنّ هؤلاء السابقين رغم تلك الإمكانات و القدرات و الأموال و الأولاد لم يصلوا إلى نتيجة، و أنّ أعمالهم قد أصبحت هباء منثورا لأنّها لم تستند إلى أساس محكم، بل كانت أعمال نفاق و مراوغة، فإنّكم ستواجهون ذلك المصير بطريق أولى، لأنّكم أقل من هؤلاء قدرة و قوة و امكانات.

و بعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين و يتوجه إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يتبع أسلوب الاستفهام الإنكارى، فتقول الآية: أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ ۴۵] فإنّ هذه الأقوام كانت فى الأزمان السالفة تسيطر على مناطق مهمّة من العالم، إلّا أن كل فئة قد ابتليت بنوع من العقاب الإلهى نتيجة لانحرافها و طغيانها و إجرامها، و فرارها من الحق و العدالة، و إقدامها على الظلم و الاستبداد و الفساد.

فقوم نوح عوقبوا بالطوفان و الغرق، و قوم عاد (قوم هود) بالرياح العاصفة و الرعب، و قوم ثمود (قوم صالح) بالزلازل و الهدم و الدمار، و قوم إبراهيم بسلب النعم، و أصحاب مدين (قوم شعيب) بالصواعق المحرقة، و قوم لوط بخسف المدن و فنائهم جميعا. و لم يبق من هؤلاء إلّا الجثث الهامدة، و العظام النخرة تحت التراب أو فى أعماق البحار.

إنّ هذه الحوادث المرعبة تهز وجدان و أحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس و شعور عند مطالعتها و تحقيقها.

و رغم طغيان هؤلاء و تمردهم فانّ اللّه الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته و عطفه لحظة، و قد أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات لهدايتهم و إنقاذهم من الضلالة إذ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ إلّا أن هؤلاء لم يصغوا إلى آية موعظة و لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۸

يقبلوا نصيحة من أنبياء اللّه و أوليائه، و لم يقيموا وزنا لجهاد و متاعب هؤلاء الأبرار و تحملهم كل المصاعب فى سبيل هداية خلق اللّه، و إذا كان العقاب قد نالهم فلا يعنى أن اللّه عزّ و جلّ قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجرموا فاستحقوا العذاب فَما كانَ اللَّهُ

لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۹

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۷۱ الى ۷۲]

اشارة

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۷۱) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۷۲)

التّفسير

صفات المؤمنين الحقيقيين:

مرّ فى الآيات السابقة ذكر بعض الصفات المشتركة بين المنافقين، الرجال منهم و النساء، و تلخصت فى خمس صفات: الأمر بالمنكر، و النهى عن المعروف، و البخل و عدم الإنفاق، و نسيان اللّه سبحانه و تعالى، و مخالفة و عصيان أوامر اللّه.

و تذكر هذه الآيات صفات و علامات المؤمنين و المؤمنات، و تتخلص فى خمس صفات أيضا، فتقابل كل صفة منها صفة من صفات المنافقين، واحدة بواحدة، لكنّها فى الاتجاه المعاكس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۰

و تشرع الآية بذكر صفات المؤمنين و المؤمنات، و تبدأ ببيان أنّ بعضهم لبعض ولى و صديق وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

إنّ أوّل ما يلفت النظر أن كلمة (أولياء) لم تذكر أثناء الكلام عن المنافقين، بل ورد (بعضهم من بعض) التى توحى بوحدة الأهداف و الصفات و الأعمال، و لكنّها تشير ضمنا إلى أن هؤلاء المنافقين و إن كانوا فى صف واحد ظاهرا و يشتركون فى البرامج و الصفات، إلّا أنهم يفتقدون روح المودة و الولاية لبعضهم البعض، بل إنّهم إذا شعروا فى أى وقت بأنّ منافعهم و مصالحهم الشخصية قد تعرضت للخطر فلا مانع لديهم من خيانة حتى أصدقائهم فضلا عن الغرباء، و إلى هذه الحالة تشير الآية (۱۴) من سورة الحشر: تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى

و بعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

۱- ففى البداية تبيّن أن هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

۲- إنّهم ينهون الناس عن الرذائل و المنكرات وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

۳- إنّهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا اللّه، فإنّهم يقيمون الصلاة، و يذكرون اللّه فتحيا قلوبهم و تشرف عقولهم وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ.

۴- إنّهم- على عكس المنافقين و الذين كانوا يبخلون بأموالهم- ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه و فى مساعدة عباد اللّه و بناء المجتمع و إصلاح شؤونه، و يؤدون زكاة أموالهم وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ.

۵- إنّ المنافقين فسّاق و متمردون، و خارجون من دائرة الطاعة لأوامر اللّه، أمّا المؤمنون فهم على عكسهم تماما، إذ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ

رَسُولَهُ

أمّا ختام الآيـة فإنّه يتحـدث عن امتيازات المؤمنين، و المكافأة و الثواب الذى ينتظرهم، و أوّل ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهية التى تنتظرهم ف أُولئِکَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۱

إنّ كلمة (الرحمة) التى ذكرت هنا لها مفهوم واسع، و يدخل ضمنه كل خير و بركة و سعادة، سواء فى هذه الحياة أو فى العالم الآخر، و هذه الجملة فى الواقع جاءت مقابلة لحال المنافقين الذين لعنهم اللّه و أبعدهم عن رحمته.

و لا شك أنّ وعد اللّه للمؤمنين قطعى و يقينى لأنّ اللّه قادر و حكيم، و لا يمكن للحكيم أن يعد بدون سبب، و ليس اللّه القادر بعاجز عن الوفاء بوعده حين وعد إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَکِيمٌ

الآيـة الثّانيـة شـرحت جانبا من هـذه الرحمـة الإلهية الواسـعة التى تعم المؤمنين فى بعديها المادى و المعنوى. فهى أوّلا تقول: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ، و من خصائص هـذه النعمـة الكبيرة أنّها لا زوال لها و لا فناء، بل الخلود الأبـدى، لذا فإن المؤمنين و المؤمنات سيكونون خالِدِينَ فِيها.

و من المواهب الإلهيـة الأـخرى التى سوف ينعمون بهـا هى المساكن الجميلـة، و المنازل المرفهـة التى أعـدها اللّه لهم وسط الجنان وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ

(عدن) فى اللغة تعنى الإقامة و البقاء فى مكان ما، و لهذا يطلق على المكان الذى توجد فيه مواد خاصّة اصـطلاح (معدن)، و على هذا المعنى فإنّ هناك شـبها بين الخلود و عـدن، لكن لما أشارت الجملـة السابقـة إلى مسألة الخلود، يفهم من هذه الجملة أن جنات عدن محل خاص فى الجنّة يمتاز على سائر حدائق الجنّة.

لقد وردت هذه الموهبة الإلهية بأشكال و تفسيرات مختلفة فى الرّوايات و كلمات المفسّرين، فنطالع

فى حـديث عن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم: «عـدن دار اللّه التى لم ترها عين، و لم يخطر على قلب بشـر، لا يسـكنها غير ثلاثـة: النّبيين، و الصدّيقين، و الشّهداء»[۴۶].

و

فى كتـاب الخصـال نقـل عن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم قوله: «من سـرّه أن يحيـا حياتى، و يموت مماتى، و يسـكن جنتى التى واعدنى اللّه ربّى، جنات عدن ... فليوال على بن أبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۲

طالب عليه السّلام و ذريته عليهم السّلام من بعده».[۴۷]

و يتّضـح من هـذا الحديث أن جنات عدن حدائق خاصّة فى الجنّة سيسـتقر فيها النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و جماعة من خلّص أصحابه و أتباعه.

و هذا المضـمون قد ورد فى حديث آخر عن على عليه السّلام، و يدل على أن جنات عدن مقر إقامة نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

بعد ذلك تشير الآية إلى الجزاء المعنوى المعد لهؤلاء، و هو رضـى اللّه تعالى عنهم المختص بالمؤمنين الحقيقيين، و هو أهم و أعظم جزاء، و يفوق كل النعم و العطايا الأخرى وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَکْبَرُ.

إنّ اللذة المعنوية و الإحساس الروحى الذى يحس و يلتذ به الإنسان عند شـعوره برضى اللّه سبحانه و تعالى عنه لا يمكن أن يصفه أى بشـر، و على قول بعض المفسـرين فإنّ نسـمة و لحظـة من هـذه اللـذة الروحيـة تفوق نعم الجنّـة كلها و مواهبها المختلفـة و المتنوعة و

اللامتناهیة.

من الطبیعی أنّنا لا نستطیع أن نجسم و نرسم صورة فی أفکارنا عن أی نعمة من نعم الحیاة الأخری و نحن فی قفص الحیاة الدنیا و حیاتها المحدودة، فکیف سنصل إلی إدراک هذه النعمة المعنویة و الروحیة الکبری؟! نعم، یمکن إیجاد تصور ضعیف عن الاختلافات المادیة و المعنویة التی نعیشها فی هذه الدنیا، فمثلا یمکن إدراک الاختلاف فی اللذة بین اللقاء بصدیق عزیز جدا بعد فراق طویل و لذّة الإحساس الروحی الخاص الذی یعتری الإنسان عند إدراکه أو حلّه لمسألة علمیة معقدة صرف فی تحصیلها و الوصول إلی دقائقها الشهور، بل السنین، أو الانشداد الروحی الذی یبعث علی النشاط و الجد فی لحظات خلوص العبادة، أو النشوة عند توجه القلب و حضوره فی مناجاة تمتزج بهذا الحضور، و بین اللذة التی نحس بها من تناول طعام لذیذ و أمثالها من اللذائذ، و من الطبیعی أن هذه اللذائذ المادیة لا یمکن مقارنتها باللذائذ المعنویة، و لا یمکن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۳

أن تصل إلی مصافها.

من هنا یتّضح التصور الخاطئ لمن یقول بأن القرآن الکریم عند ما یتحدث عن الجزاء و العطاء الإلهی الذی سیناله المؤمنون الصالحون یؤکّد علی النعم المادیة، و لا یتطرق إلی النواحی المعنویة، لأن الجملة أعلاه- أی: رضوان من اللّه أکبر- ذکرت أن رضوان اللّه أکبر من کل النعم، خاصّة و أنّها وردت بصیغة النکرة، و هی تدل علی أن قسما من رضوان اللّه أفضل من کل النعم المادیة الموجودة فی الجنّة، و هذا یبیّن القیمة السامیة لهذا العطاء المعنوی.

إن الدلیل علی أفضلیة الجزاء المعنوی واضح أیضا، لأنّ الروح فی الواقع بمثابة (الجوهر) و الجسم بمکان (الصدف)، فالروح کالآمر و القائد، و الجسم کالجندی المطیع و المنفذ، فالتکامل الروحی هو الهدف، و الجسم وسیلة و لهذا السبب فإن إشعاعات الروح و آفاقها أوسع من الجسم و اللذائذ الروحیة لا یمکن قیاسها و مقارنتها باللذائذ المادیة و الجسمیة، کما أن الآلام الروحیة أشدّ ألما من الآلام الجسمیة.

و فی نهایة أشارت الآیة إلی جمیع هذه النّعم المادیة و المعنویة، و عبرت عنها بأنّ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۴

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۷۳]

اشارة

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ جاهِدِ الْکُفَّارَ وَ الْمُنافِقِینَ وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ (۷۳)

التّفسیر

جهاد الکفار و المنافقین:

و أخیرا، صدر القرار الإلهی للنّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی وجوب جهاد الکفار و المنافقین بکل قوّة و حزم یا أَیُّهَا النَّبِیُّ جاهِدِ الْکُفَّارَ وَ الْمُنافِقِینَ و لا تأخذک بهم رأفة و رحمة، بل شدد وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ و هذا العقاب هو العقاب الدنیوی، أمّا فی الآخرة فإن محلهم وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ.

إن طریقة جهاد الکفار واضحة و معلومة، فإنّ جهادهم یعنی التوسل بکل الطرق و الوسائل فی سبیل القضاء علیهم، و بالذات الجهاد

المسلح و العمل العسکری، لکن البحث فی أسلوب جهاد المنافقین، فمن المسلم أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یجاهدهم عسکریا و لم یقابلهم بحد السیف، لأنّ المنافق هو الذی أظهر الإسلام، فهو یتمتع بکل حقوق المسلمین و حمایهٔ القانون الإسلامی بالرغم من أنّه یسعی لهدم الإسلام فی الباطن فکم من الأفراد لا حظّ لهم من الإیمان، و لا یؤمنون حقیقهٔ بالإسلام، غیر أنّنا لا نستطیع أن نعاملهم معاملهٔ غیر المسلمین.

اذن، فالمستفاد من الرّوایات و أقوال المفسّرین هو أنّ المقصود من جهاد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۵

المنافقین هو الاشکال و الطرق الأخری للجهاد غیر الجهاد الحربی و العسکری، کالذم و التوبیخ و التهدید و الفضیحهٔ، و ربّما تشیر جملهٔ وَ اغْلُظْ عَلَیْهِمْ إلی هذا المعنی.

و یحتمل فی تفسیر هذه الآیهٔ: أنّ المنافقین یتمتعون بأحکام الإسلام و حقوقه و حمایته ما دامت أسرارهم مجهولهٔ، و لم یتّضح وضعهم علی حقیقته، أمّا إذا تبیّن وضعهم و انکشفت خبیئهٔ أسرارهم فسوف یحکمون بأنّهم کفار حربیون، و فی هذه الحالهٔ یمکن جهادهم حتی بالسیف.

لکن الذی یضعف هذا الاحتمال أنّ إطلاق کلمهٔ المنافقین علی هؤلاء لا یصح فی مثل هذه الحالهٔ، بل إنّهم یعتبرون من جملهٔ الکفار الحربیین، لأنّ المنافق- کما قلنا سابقا- هو الذی یظهر الإسلام و یبطن الکفر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۶

الآیهٔ [سورهٔ التوبهٔ (۹): آیهٔ ۷۴]

اشارهٔ

یَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا کَلِمَهَ الْکُفْرِ وَ کَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ یَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ یَتُوبُوا یَکُ خَیْراً لَهُمْ وَ إِنْ یَتَوَلَّوْا یُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِیماً فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ وَ ما لَهُمْ فِی الْأَرْضِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ (۷۴)

سبب النّزول

ذکرت فی سبب نزول هذه الآیات أقوال و آراء مختلفهٔ، و کلّها تتفق علی أن بعض المنافقین قد تحدثوا بأحادیث سیئهٔ و غیر مقبولهٔ حول الإسلام و النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و بعد أن فشا أمرهم و انتشرت أسرارهم أقسموا کذبا بأنّهم لم یتفوهوا بشیء، و کذلک فإنّهم قد دبروا مؤامرهٔ ضد النّبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم، غیر أنّها قد أحبطت.

و من جملتها: أنّ أحد المنافقین- و اسمه جلاس- سمع بعضا من خطب الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم أیّام غزوهٔ تبوک، و أنکرها بشدّهٔ و کذبها، و بعد رجوع المسلمین إلی المدینهٔ حضر رجل یقال له: عامر بن قیس- کان قد سمع جلاس- عند النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أبلغه کلام جلاس، فلما حضر جلاس و سأله النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عن ذلک أنکر، فأمرهما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۷

النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقسما باللّه- فی المسجد عند المنبر- أنّهما لا یکذبان، فاقتربا من المنبر فی المسجد و أقسما، إلّا أن عامرا دعا بعد القسم و قال: اللّهم أنزل علی نبیّک آیهٔ تعرّف الصادق، فأمّن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمون علی دعائه. فنزل جبرئیل بهذه الآیهٔ، فلمّا بلغ قوله تعالی: فَإِنْ یَتُوبُوا یَکُ خَیْراً لَهُمْ قال جلاس: یا رسول اللّه، إنّ اللّه اقترح علیّ التوبهٔ، و إنّی قد ندمت علی ما کان منّی، و أتوب منه، فقبل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم توبته.

و کما أشرنا سابقا فقد ذکر أن جماعة من المنافقین صمموا علی قتل النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی طریق عودته من غزوة تبوک، فلمّا وصل إلی العقبة نفروا بعیره لیسقط فی الوادی، إلّا أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد أطلع بنور الوحی علی هذه النّیة الخبیثة، فرد کیدهم فی نحورهم و أبطل مکرهم. و کان زمام الناقة بید عمار یقودها، و کان حذیفة یسوقها لتکون الناقة فی مأمن تام، و أمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم المسلمین أن یسلکوا طریقا آخر حتی لا یخفی المنافقون أنفسهم بین المسلمین و ینفّذوا خطتهم.

و لما وصل إلی سمع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم وقع أقدام هؤلاء أو حوافر خیولهم أمر بعض أصحابه أن یدفعوهم و یبعدوهم، و کان عدد هؤلاء المنافقین اثنی عشر أو خمسة عشر رجلا، و کان بعضهم قد أخفی وجهه، فلمّا رأوا أن الوضع لا یساعدهم علی تنفیذ ما اتفقوا تواروا عن الأنظار، إلّا أن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عرفهم و ذکر أسماءهم واحدا واحدا لبعض أصحابه ۴۸].

لکن الآیة- کما سنری- تشیر إلی خطتین و برنامجین للمنافقین: إحداهما:

أقوال هؤلاء السیئة. و الأخری: المؤامرة و الخطة التی أحبطت، و علی هذا الأساس فإنا نعتقد أن کلا سببی النزول صحیحان معا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۸

التّفسیر

مؤامرة خطرة:

إنّ ارتباط هذه الآیة بالآیات السابقة واضح جدّا، لأنّ الکلام کان یدور حول المنافقین، غایة ما فی الأمر أنّ هذه الآیة تزیح الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقین، و هو أن هؤلاء عند ما رأوا أن أمرهم قد انکشف، أنکروا ما نسب إلیهم بل أقسموا بالیمین الکاذبة علی مدّعاهم.

فی البدایة تذکر الآیة أن هؤلاء المنافقین لا یرتدعون عن الیمین الکاذبة فی تأیید إنکارهم، و لدفع التهمة فإنّهم یَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا فی الوقت الذی یعلمون أنّهم ارتکبوا ما نسب إلیهم من الکفر وَ لَقَدْ قالُوا کَلِمَةَ الْکُفْرِ و علی هذا فإنّهم قد اختاروا طریق الکفر بعد إعلانهم الإسلام وَ کَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ.. و من البدیهی أن هؤلاء لم یکونوا مسلمین منذ البدایة، بل إنّهم أظهروا الإسلام فقط، و علی هذا فإنّهم بإظهارهم الکفر قد هتکوا و مزّقوا حتی هذا الحجاب المزیف الذی کانوا یتسترون به.

و فوق کل ذلک فقد صمّموا علی أمر خطیر لم یوفقوا لتحقیقه وَ هَمُّوا بِما لَمْ یَنالُوا و یمکن أن یکون هذا إشارة إلی تلک المؤامرة لقتل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی لیلة العقبة، و التی مرّ ذکرها آنفا، أو أنّه إشارة إلی کل أعمال المنافقین التی یسعون من خلالها إلی تحطیم المجتمع الإسلامی و بثّ بذور الفرقة و الفساد و النفاق بین أوساطه، لکنّهم لن یصلوا إلی أهدافهم مطلقا.

ممّا یستحق الانتباه أن یقظة المسلمین تجاه الحوادث المختلفة کانت سببا فی معرفة المنافقین و کشفهم، فقد کان المسلمون- دائما- یرصدون هؤلاء، فإذا سمعوا منهم کلاما منافیا فإنّهم یخبرون النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم به من أجل منعهم و تلقی الأوامر فیما یجب عمله تجاه هؤلاء. إنّ هذا الوعی و العمل المضاد المؤیّد بنزول الآیات أدی إلی فضح المنافقین و إحباط مؤامراتهم و خططهم الخبیثة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۹

الجملة الأخری تبیّن واقع المنافقین القبیح و نکرانهم للجمیل فتقول الآیة: إنّ هؤلاء لم یروا من النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أی خلاف أو أذی، و لم یتضرروا بأی شیء نتیجة للتشریع الإسلامی، بل علی العکس، فإنّهم قد تمتعوا فی ظل حکم الإسلام بمختلف

النعم المادیة و المعنویة وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۴۹] و هذه قمة اللؤم.

و لا شک أنّ إغناءهم و تأمین حاجاتهم فی ظل رحمة اللّه و فضله و کذلک بجهود النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لا یستحق أن ینقم من جرائه هؤلاء المنافقون، بل إنّ حقّه الشکر و الثناء، إلّا أنّ هؤلاء اللؤماء المنکرین للجمیل و المنحرفی السیرة و السلوک قابلوا الإحسان بالإساءة.

و مثل هذا التعبیر الجمیل یستعمل کثیرا فی المحادثات و المقالات، فمثلا نقول للذی أنعمنا علیه سنین طویلة و قابل إحساننا بالخیانة: إنّ ذنبنا و تقصیرنا الوحید أنّنا آویناک و دافعنا عنک و قدّمنا لک منتهی المحبّة علی طبق الإخلاص.

غیر أنّ القرآن- کعادته- رغم هذه الأعمال لم یغلق الأبواب بوجه هؤلاء، بل فتح باب التوبة و الرجوع إلی الحق علی مصراعیه إن أرادوا ذلک، فقال: فَإِنْ یَتُوبُوا یَکُ خَیْراً لَهُمْ و هذه علامة واقعیة الإسلام و اهتمامه بمسألة التربیة، و معارضته لاستخدام الشدّة فی غیر محلّها و هکذا فتح باب التوبة حتی بوجه المنافقین الذین طالما کادوا للإسلام و تآمروا علی نبیّه و حاکوا الدسائس و التهم ضده، بل إنّه دعاهم إلی التوبة أیضا.

هذه فی الحقیقة هی الصورة الواقعیة للإسلام، فما أظلم هؤلاء الذین یرمون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۰

الإلام بأنّه دین القوة و الإرهاب و الخشونة! هل توجد فی عالمنا المعاصر دولة مستعدة لمعاملة من یسعی لإسقاطها و تحطیمها کما رأینا فی تعامل الإسلام السامی مع مناوئیه، مهما ادّعت أنّها من أنصار المحبة و السلام؟! و کما مرّ علینا فی سبب نزول الآیة، فإنّ أحد رؤوس النفاق و المخططین له لما سمع هذا الکلام تاب ممّا عمل، و قبل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم توبته.

و فی نفس الوقت و من أجل أن لا یتصور هؤلاء أن هذا التسامح الإسلامی صادر من منطق الضعف، حذّرهم بأنّهم إن استمروا فی غیهم و تنکّروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشدید سینالهم فی الدّارین وَ إِنْ یَتَوَلَّوْا یُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِیماً فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ و إذا کانوا یظنون أنّ أحدا یستطیع أن یمدّ لهم ید العون مقابل العذاب ا لإلهی فإنّهم فی خطأ کبیر، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فساء صباح المنذرین: وَ ما لَهُمْ فِی الْأَرْضِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ.

من الواضح بدیهة أنّ عذاب هؤلاء فی الآخرة معلوم، و هو نار جهنم، أمّا عذابهم فی الدنیا فهو فضیحتهم و مهانتهم و تعاستهم و أمثال ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۱

الآیات [سورة التوبة (۹): الآیات ۷۵ الی ۷۸]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَکُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِینَ (۷۵) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۷۶) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما کانُوا یَکْذِبُونَ (۷۷) أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُیُوبِ (۷۸)

سبب النّزول

المعروف بین المفسّرین أنّ هذه الآیات نزلت فی رجل من الأنصار یدی ثعلبة بن حاطب، و کان رجلا فقیرا یختلف إلی المسجد دائما، و کان یصر علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یدعو له بأن یرزقه اللّه مالا وفیرا،

فقال له النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «قلیل تؤدی شکره خیر من کثیر لا تطیقه»

أو لیس الأولی لک أن تتأسی بنبیّ اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و تحیا حیاة بسیطة و تقنع بها؟ لکن ثعلبة لم یکف و لم یصرف النظر عن أمله، و أخیرا قال للنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: و الّذی بعثک بالحق نبیّا، لئن رزقنی اللّه لأعطین کل الحقوق و أؤدی کل الواجبات، فدعا له النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

فلم یمض زمان- و علی روایة- حتی توفی ابن عم له، و کان غنیّا جدّا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۲

فوصلت إلیه ثروة عظیمة، و علی روایة أخری أنّه اشتری غنما، فلم تزل تتوالد حتی أصبح حفظها و رعایتها فی المدینة أمرا غیر ممکن، فاضطر أن یخرج إلی أطراف المدینة، فألهته أمواله عن حضور الجماعة، بل و حتی الجمعة.

و بعد مدّة أرسل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عاملا إلی ثعلبة لیأخذ الزکاة منه، غیر أن هذا الرجل البخیل الذی عاش لتوّه حیاة الرفاه امتنع من أداء حقوق اللّه تعالی، و لم یکتف بذلک، بل اعترض علی حکم الزّکاة و قال: إنّ حکم الزکاة کالجزیة، أی أنّنا أسلمنا حتی لا نؤدی الجزیة، فإذا وجبت علینا الزکاة فأی فرق بیننا و بین غیر المسلمین؟

قال هذا فی الوقت الذی لم یفهم معنی الجزیة و لا معنی الزکاة، أو أنّه فهمه، إلّا أن حبّ الدنیا و تعلقه بها لم یسمح له ببیان الحقیقة و إظهار الحق، فلمّا بلغ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم ما قاله

قال: «یا ویح ثعلبة! یا ویح ثعلبة»

، فنزلت هذه الآیات.

و قد ذکرت أسباب أخر لنزول هذه الآیات تشابه قصّة ثعلبة مع اختلاف یسیر.

و یفهم من أسباب النزول المذکورة و من مضمون الآیات أنّ هذا الشخص- أو الأشخاص المذکورین- لم یکونوا من المنافقین فی بدایة الأمر، لکنّهم لهذه الأعمال ساروا فی رکابهم.

التّفسیر

المنافقون و قلّة الاستیعاب:

هذه الآیات فی الحقیقة تضع إصبعها علی صفة أخری من صفات المنافقین السیّئة، و هی أنّ هؤلاء إذا مسّهم البؤس و الفقر و المسکنة عزفوا علی وتر الإسلام بشکل لا یصدق معه أحد أنّ هؤلاء یمکن أن یکونوا یوما من جملة المنافقین، بل ربّما ذمّوا و لاموا الذین یمتلکون الثروات و القدرات الواسعة علی عدم استثمارها فی خدمة المحرومین و مساعدة المحتاجین!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۳

إلّا أنّ هؤلاء أنفسهم، إذا تحسّن وضعهم المادی فإنّهم سینسون کل عهودهم و مواثیقهم مع اللّه و الناس، و یغرقون فی حبّ الدنیا، و ربّما تغیّرت کل معالم شخصیاتهم، و یبدؤون بالتفکیر بصورة أخری و بمنظار مختلف تماما، و هکذا یؤدی ضعف النفس هذا إلی حبّ الدنیا و البخل و عدم الإنفاق و بالتالی یکرّس روح النفاق فیهم بشکل یوصد أمامهم أبواب الرجوع إلی الحق.

فالآیة الأولی تتحدث عن بعض المنافقین الذین عاهدون اللّه علی البذل و العطاء لخدمة عباده إذا ما أعطاهم اللّه المال الوفیر وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَکُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِینَ

إلّا أنّهم یؤکّدون هذه الکلمات و الوعود ما دامت أیدیهم خالیة من الأموال فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ غیر

أن عملهم هـذا و مخـالفتهم للعهود التی قطعوهـا علی أنفسـهم بـذرت روح النفـاق فی قلوبهم و سـیبقی إلی یوم القیامـة متمکنـا منهم فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ و إنّما استحقوا هذه العاقبة السیئة غیر المحمودة بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما کانُوا یَکْذِبُونَ و فی النهایة و بّخت الآیة هؤلاء النفر و لامتهم علی النوایا السـیئة التی یضـمرونها، و علی انحرافهم عن الصـراط المستقیم، و استفهمت بأنّهم أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُیُوبِ

ملاحظات

و هنا یجب الانتباه إلی عدّة ملاحظات:

۱- یمکن أن نری بوضوح تام من خلال جملـة فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِی قُلُوبِهِمْ أنّ النسـبة و العلاقة بین الکثیر من الذنوب و الصـفات السـیئة، بل و حتی بین الکفر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۴

و النفاق، هی نسـبة و علاقـة العلـة و المعلول، لأنّ الجملـة الآنفة الذکر تبیّن و تقول بصـراحة: إنّ سـبب النفاق الذی نبت فی قلوبهم و حرفهم عن الجادة هو بخلهم و نقضـهم لعهودهم، و کـذلک الـذنوب و المخالفات الأخری التی ارتکبوها، و لهـذا فإنّنا نقرأ فی بعض العبارات أن الکبائر فی بعض الأحیان تکون سببا فی أن یموت الإنسان و هو غیر مؤمن، إذ ینسلخ منه روح الإیمان بسببها.

۲- إنّ المقصود من یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ و الـذی یعود ضـمیره إلی اللّه سـبحانه و تعـالی هو یوم القیامـة، لأـن تعبیر لِقـاءَ رَبِّهِ و أمثاله فی القرآن یستعمل عـادة فی موضوع القیامـة. صـحیح أن فترة العمـل- التی هی الحیـاة الـدنیا- تنتهی بموت الإنسـان، و بموته یغلق ملف أعماله الصالحة و الطالحة، إلّا أن آثار تلک الأعمال تبقی تؤثر فی روح الإنسان إلی یوم القیامة.

و قـد احتمل جماعـة أنّ ضـمیر (یلقونه) یعود إلی البخل، فیکون المعنی: حتی یلاقوا جزاء بخلهم و عقابه. و یحتمل کذلک أن یکون المراد من لقاء اللّه: لحظة الموت. إلّا أن جمیع هذه خلاف ظاهر الآیة، و الظاهر ما قلناه.

و لنا بحث فی أنّه ما هو المقصود من لقاء اللّه فی ذیل الآیة (۶۴) من سورة البقرة.

۳- و یسـتفاد أیضا- من الآیات أعلاه- أنّ نقض العهود و الکذب من صفات المنافقین، فهؤلاء سحقوا جمیع العهود المؤکدة مع ربّهم و لم یعیروها أیة أهمیة، فإنّهم یکذبون حتی علی ربّهم، و الحدیث المعروف المنقول عن النبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم یؤکّد هذه الحقیقة، حیث

یقول صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «للمنافق ثلاث علامات: إذا حدث کذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان»[۵۰].

و من الملفت للنظر وجود هـذه العلامات الثلاث مجتمعـة فی القصّ ة المـذکورة- قصّة ثعلبة- فإنّه کذب، و أخلف وعده، و خان أمانة اللّه، و هی الأموال التی رزقه اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۵

إیّاها، و هی فی الحقیقة أمانة اللّه عنده.

و

قـد ورد الحـدیث المذکور فی الکافی بصورة أشد تأکیدا عن الإمام الصادق علیه السّ لام عن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم حیث یقـول: «ثلاـث مـن کـن فیـه کـان منافقـا، و إن صـام و صـلی و زعـم أنّـه مسـلم: من إذا ائتمن خـان، و إذا حـدث کـذب، و إذا وعد أخلف»[۵۱].

نـذکر هنا أن من الممکن أن تصـدر الـذنوب المـذکورة من المؤمنین، إلّا أنّها نادرة، أمّا اسـتمرار صدورها فهو علامة روح النفاق فی ذلک الشخص.

۴- و هنا ملاحظة أخرى ينبغى أن ننبه عليها، و هى أن ما قرأناه فى هـذه الآيات ليس بحثا تاريخيا مختصا بحقبة مضت من الزمان، بل هو بيان واقع أخلاقى و اجتماعى يوجد فى كل عصر و زمان، و فى كل مجتمع- بدون استثناء- توجد نماذج كثيرة تمثل هذا الواقع.

إذا لا حظنا واقعنا الذى نعيشه و دققنا فيه- و ربّما إذا نظرنا إلى أنفسنا- فسنكتشف نماذج من أعمال ثعلبة بن حاطب، و طريقة تفكيره فى صور متعددة و أشخاص مختلفين، فإنّ الكثيرين فى الأوضاع العادية أو عند إعسارهم و فقرهم يكونون من المؤمنين المتحرقين على دينهم و الثابتين على عهدهم حيث يحضرون فى الحلقات الدينية، و ينضوون تحت كل لواء يدعو إلى الإصلاح و إنقاذ المجتمع، و يضمون أصواتهم إلى كل مناد الحق و العدالة، و لا يألون جهدا فى سبيل أعمال الخير، و يصرخون و يقفون بوجه كل فساد.

أمّا إذا فتحت أمامهم أبواب الدنيا و نالوا بعض العناوين و المراكز القيادية أو تسلطوا على رقاب الناس، فستتغير صورهم و سلوكهم، و الأدهى من كل ذلك أن تتبدل ماهيتهم، و عندئذ سيخمد لهيب عشقهم للّه، و يهدأ ذلك الهيجان و التحرق على دين اللّه، و تفتقدهم تلك الحلقات و الجلسات الدينية، فلا يساهمون فى أية خطة إصلاحية و لا يسعون من أجل ذلك الحق، و لا تثبت لهم قدم فى مواجهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۶

الباطل.

هؤلاء و قبل أن يصلوا الى مآربهم لم يكن لهم محل من الإعراب، أو أثر فى المجتمع، لذا سيعاهدون اللّه و عباده بألف عهد و ميثاق بأنّهم إن تمكنوا من الأمر، أو امتلأت أياديهم من القدرات و الأموال فسيفعلون كذا و كذا، و يتوسلون للوصول الى أهدافهم بطرح آلاف الإشكالات و الانتقادات فى حق المتصدين و يتهمونهم بعدم معرفتهم بإدارة الأمور، و عدم إحاطتهم بوظائفهم و واجباتهم، أمّا إذا وصلوا الى ما يرومونه و تمكنوا من الأمر، فسينسون كل تلك الوعود و العهود و يتنكرون لها، و ستتبخر كل تلك الإيرادات و الانتقادات و تذوب كما يذوب الجليد فى حرارة الصيف.

نعم، إنّ ضعف النفس هذا واحدة من العلامات البارزة و الواضحة للمنافقين، و هل النفاق إلّا كون صاحبه ذا وجهين، و بتعبير آخر: هل هو إلّا ازدواج الشخصية؟ إن سيرة هكذا أفراد و تأريخهم نموذج للشخصية المزدوجة، لأن الإنسان الأصيل ذو الشخصية المتينة لا يكون مزدوج الشخصية.

و لا شك أنّ للنفاق درجات مختلفة، كالإيمان، تماما، فالبعض قد ترسخت فيهم هذه الخصلة الخبيثة الى درجة اقتلعت كل زهور الإيمان باللّه من قلوبهم، و لم تبق لها أثرا، بالرغم من أنّهم ألصقوا أنفسهم بالمؤمنين و ادعوا أنّهم منهم.

لكن البعض الآخر مع أنّهم يملكون إيمانا ضعيفا، و هم مسلمون بالفعل، إلّا أنّهم يرتكبون أعمالا تتفق مع سلوك المنافقين، و تفوح منها رائحة الازدواجية، فهؤلاء ديدنهم الكذب، إلّا أن ظاهرهم الصدق و الصلاح، و مثل هؤلاء يصدق عليهم أيضا أنّهم منافقون و ذوو وجهين.

أليس الذى عرف بالأمانة لظاهره الصالح، و استطاع بذلك أن يكسب ثقة و اطمئنان الناس فأودعوه أماناتهم، إلّا أنّه يخونهم فى أماناتهم، هو فى واقع الحال مزدوج الشخصية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۷

و كذلك الذين يقطعون العهود و المواثيق، لكنّهم لا يفون بها مطلقا، ألا يعتبر عملهم عمل المنافقين؟

إن من أكبر الأمراض الاجتماعية، و من أهم عوامل تخلف المجتمع وجود أمثال هؤلاء المنافقين فى المجتمعات البشرية و نحن نستطيع أن نحصى الكثير منهم فى مجتمعاتنا الاسلامية إذا كنّا واقعيين و لم نكذب على أنفسنا. و العجب أنّنا رغم كل هذه العيوب و المخازى و البعد عن روح التعليمات و القوانين الإسلامية، فإننا نحمّل الإسلام تبعة تخلفنا عن الركب الحضارى الأصيل!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۸

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۷۹ الى ۸۰]

اشارة

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۹) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۸۰)

سبب النّزول

وردت عدّة روايات فى سبب نزول هذه الآيات فى كتب التّفسير و الحديث، يستفاد من مجموعها أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو- و ربّما كان ذلك فى غزوة تبوك- و كان محتاجا لمعونة الناس فى هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو الإنفاق، و وضعوا هذه الأموال تحت تصرف النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

أمّا الفقراء، كأبى عقيل الأنصارى أو سالم بن عمير الأنصارى، لما لم يجدوا ما ينفقونه لمساعدة جنود الإسلام، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، و استقاء الماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۹

ليلا، فحصلوا على صاعين من التمر، فادخروا منه صاعا لمعيشتهم و معيشة أهليهم، و أتوا بالآخر إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قدموه، و شاركوا بهذا الشيء اليسير- الذى لا قيمة له ظاهرا- فى هذا المشروع الإسلامى الكبير.

غير أنّ المنافقين الذين لا همّ لهم إلّا تتبع ما يمكن التشهير به بدلا من التفكير بالمساهمة الجدية فإنّهم عابوا كلا الفريقين، أمّا الأغنياء فاتهموهم بأنّهم إنّما ينفقون رياء و سمعة، و أمّا الفقراء الذين لا يستطيعون إلّا جهدهم، و الذين قدموا اليسير و هو عند اللّه كثير، فإنهم سخروا منهم بأن جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات، و هددتهم تهديدا شديدا و حذرتهم من عذاب اللّه.

التّفسير

خبث المنافقين:

فى هذه الآيات إشارة إلى صفة أخرى من الصفات العامّة للمنافقين، و هى أنّهم أشخاص لجوجون معاندون وهمهم التماس نقاط ضعف فى أعمال الآخرين و احتقار كل عمل مفيد يخدم المجتمع و محاولة إجهاضه بأساليب شيطانية خبيثة من أجل صرف الناس عن عمل الخير و بذلك يزرعون بذور النفاق و سوء ظن فى أذهان المجتمع، و بالتالى إيقاف عجلة الإبداع و تطور المجتمع و خمول الناس و موت الفكر الخلّاق.

لكن القرآن المجيد ذم هذه الطريقة غير الإنسانية التى يتبعها هؤلاء، و عرّفها للمسلمين لكى لا يقعوا فى حبائل مكر المنافقين و من ناحية أخرى أراد أن يفهم المنافقون أن سهمهم لا يصيب الهدف فى المجتمع الإسلامى.

ففى البداية يقول: إنّ هؤلاء الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ

اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۰

أَلِيمٌ

«يلمزون» مأخوذة من مادة (لمز) بمعنى تتبع العيوب و العثرات، و «المطوّعين» مأخوذة من مادة (طوع) على وزن (موج) بمعنى الطاعة، لكن هذه الكلمة تطلق عادة على الأفراد الذين دأبهم عمل الخيرات، و هم يعملون بالمستحبات علاوة على الواجبات.

و يستفاد من الآية أعلاه أنّ المنافقين كانوا يعيبون جماعة، و يسخرون من الأخرى، و من المعلوم أن السخرية كانت تنال الذين يقدمون الشيء القليل، و الذين لا يجدون غيره ليبذلوه فى سبيل الإسلام، و على هذا لا بدّ أن يكون لمزهم و طعنهم مرتبطا بأولئك الذين قدموا الأموال الطائلة فى سبيل خدمة الإسلام العزيز، فكانوا يرمون الأغنياء بالرياء، و يسخرون من الفقراء لقلّة ما يقدمونه.

و نلاحظ فى الآية التى تليها تأكيدا أشد على مجازاة هؤلاء المنافقين، و تذكر آخر تهديد بتوجيه الكلام و تحويله من الغيبة إلى الخطاب، و المخاطب هذه المرّة هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

و إنّما لن يغفر اللّه لهم لأنّهم قد أنكروا اللّه و رسالة رسوله، و اختاروا طريق الكفر، و هذا الإختيار هو الذى أرداهم فى هاوية النفاق و عواقبه المشؤومة ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و من الواضح أن هداية اللّه تشمل السائرون فى طريق الحق و طلب الحقيقة، أمّا الفساق و المجرمون و المنافقون فإنّ الآية تقول: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۱

ملاحظات

و هنا نلفت الأنظار إلى عدّة ملاحظات:

۱- إنّ نوع العمل هو المهم لا مقداره، و هذه الحقيقة فى القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند فى أى مورد إلى كثرة العمل و مقداره، بل هو يؤكّد دائما- و فى كل الموارد- على أن الأساس هو نوع العمل و كيفيته، و هو يولى الإخلاص فى العمل أهمية خاصّة، و الآيات المذكورة نموذج واضح لهذا المنطق القرآنى.

و كما رأينا- أنّ القرآن الكريم مجّد عملا مختصرا لعامل مسلم بقى يعمل إلى الصباح فى استقاء الماء بقلب يغمره عشق اللّه و محبته، و ينبض بالمسؤولية تجاه مشاكل المجتمع الإسلامى ليحصل على صاع من تمر و يقدّمه لمقاتلى الإسلام فى لحظات حساسة و فى مقابل ذلك نرى القرآن قد ذمّ الذين حقّروا هذا العمل الصغير ظاهرا، الكبير واقعا، و هدّدهم و أوعدهم بالعذاب الأليم الذى ينتظرهم.

و من هذه الواقعة تتّضح حقيقة أخرى، و هى أنّ المسلمين فى المجتمع الإسلامى الواقعى السالم يجب أن يحسوا جميعا بالمسؤولية تجاه المشاكل التى تعترض المجتمع و تظهر فيه، و لا- يجب أن ينتظروا الأغنياء و المتمكنين يقوموا وحدهم بحل هذه المشاكل و المصاعب، بل على الضعفاء أيضا أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر و قل ما يقدمونه، لأنّ الإسلام يتعلق بالجميع لا بفئة منهم، و على هذا، فعلى الجميع أن يسعوا فى حفظ الإسلام و لو ببذل النفوس و الدماء، و يعملوا بكل وجودهم من أجل حياته و صيانته. المهم أن كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، و لا- يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثرة العطاء و قلته، بل الإحساس بالمسؤولية و الإخلاص فى العمل.

و من المناسب فى هذا المقام أن نطالع حديثا نقل

عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث سئل:

أی الصدقة أفضل؟ فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «جهد المقل».

۲- إنّ الصفة التی ذکرتها الآیات السابقة کسائر صفات المنافقین الأخری لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۲

تختص بمنافقی عصر النبوة، بل هی مشترکة بین منافقی کل العصور و الأزمنة، فإنّ هؤلاء یسعون بسوء ظنهم و دناءة سریرتهم أن یقللوا من أهمیة أعمال الخیر بأسالیب مختلفة، و إماتة الحوافز الخیّرة فی الناس و السخریة و الاستهزاء، و الاستهانة بأعمال الفقراء المخلصة و الخالیة من کل شائبة، و تحطیم شخصیة هؤلاء، کل ذلک من أجل إطفاء جذوة الخیر فی المجتمع لینالوا ما یطمحون إلیه من الشر و الفساد.

إلّا أنّ الواجب علی المسلمین الواعین فی کل عصر و زمن أن ینتبهوا إلی أهداف المنافقین و خططهم، و أن یشمروا الساعد و یحثوا السیر فی الاتجاه المضاد لعمل هؤلاء، فیدعون الناس إلی عمل الخیر، و یوقرون و یعظمون العمل الصغیر إذا صدر من الفقراء، و یکبرون فیهم تلک النفوس التی لم تقصّر عن خدمة الإسلام حسب طاقتهم، و عن هذا الطریق سیشجعون الصغیر و الکبیر علی الاستمرار فی هذه الأعمال، بل و یکثرون منها إذا قدروا، و کذلک علیهم أن یبینوا لهم خطط المنافقین الهدامة فی سبیل تحطیمهم، فإذا عرفها المجتمع فسوف لا تؤثر فیه دعایاهم و سمومهم، و عندها سیستمر فی طریق الخیر و خدمة الدین الحنیف و تثبیت هذه العقیدة التی اختارها.

۳- لیس المراد من جملة سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ أنّ اللّه سیعمل أعمالا تشابه أعمالهم، بل المراد- کما قاله المفسّرون- أنّ اللّه سبحانه تعالی سیجازیهم علی ما عملوا من الأعمال السیئة، أو أنّه تعالی سیحقرهم کما حقروا عباده و سخروا منهم.

۴- لا شک أنّ عدد السبعین الوارد فی الآیة یدل علی الکثرة لا علی نفس العدد، و بعبارة أخری: إن معنی الآیة، أنّک مهما استغفرت لهؤلاء فلن یغفر اللّه لهم، تماما کما یقول شخص لآخر: إذا أصررت و کررت قولک مائة مرّة فلن أقبل منک، و لا یعنی هذا أنّه لو کرر قوله مائة مرّة و زاد واحدة فسوف یقبل قوله، بل المراد أن قوله سوف لن یقبل مطلقا مهما کرره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۳

إنّ مثل هذا التعبیر یفید تأکید المراد، و لهذا فقد ذکر هذا الموضوع بنفسه فی الآیة (۶) من سورة المنافقین، و قد نفی نفیا مطلقا، حیث تقول الآیة: سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

و الدلیل الآخر علی هذا الکلام، العلة التی ذکرت فی آخر الآیة، و هی: ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ و هی توضح أنّ الاستغفار لأمثال هؤلاء مهما کثر و عظم فإنّه سوف لا ینجیهم، و لا یمکن أن یکون سببا فی خلاصهم ممّا ینتظرهم.

العجیب فی الأمر أنّ عدّة روایات نقلت من مصادر أهل السنة،

ورد فیها أن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال بعد أن نزلت هذه الآیة: «لأزیدن فی الاستغفار لهم علی سبعین مرّة»!

رجاء منه أن یغفر اللّه لهم، فنزلت: سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ [۵۲].

و هذه الرّوایات تعنی أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد فهم من هذه الآیة أنّ المراد من السبعین هو العدد بالذات، و لهذا قال: «لأزیدن فی الاستغفار لهم علی سبعین مرّة»

فی الوقت الذی ترید الآیة- کما قلنا- أن تقول لنا: إن العدد المذکور ذکر علی وجه الکثرة و المبالغة، و کنایة عن النفی المطلق المقترن بالتأکید، خصوصا مع ملاحظة العلة التی ذکرت فی ذیل الآیة التی توضح ما ذکرناه.

و علی هذا الأساس فإنّ هذه الرّوایات لا یمکن قبولها لأنّها تخالف القرآن، خاصّة و أن أسانیدها غیر معتبرة عندنا.

التوجیه الوحید الممکن لهذه الرّوایات- بالرغم من أنّه خلاف الظاهر- هو أن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یقول ذلک قبل

نزول الآيات المذكورة، و لما نزلت هذه الآيات كف النّبي صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن الاستغفار لهؤلاء.

و نقلت رواية أخرى في هذا الموضوع، قد تكون هي الأصل للرّوايات

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۴

الأخرى المذكورة، و إنّما اختلفت الرّوايات لأنّها نقلت بالمعنى لا بالنص، و هي

أن النّبي صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لو علمت إنّني لو زدت على السبعين مرّة غفر لهم لفعلت»،

و معنى هـذا الكلام- خاصه مع ملاحظة (لو) الدالـة على الامتناع- أنّي أعلم أن اللّه سبحانه لا يغفر لهؤلاء، غير أن قلبي يحرص على هداية عباد اللّه و نجاتهم، بحيث لو عملت- فرضا- أن الزيادة في الاستغفار عن السبعين مرّة ستنجيهم لفعلت ذلك.

و على كل حال، فإن معنى الآيات المذكورة واضح، و كل حديث يخالفها فإمّا أن يوجه بحيث يوافقها أو يطرح جانبا.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۵

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۸۱ الى ۸۳]

اشارة

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (۸۱) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (۸۳)

التّفسير

إعاقة المنافقين مرّة أخرى:

يستمر الحديث في هـذه الآيات حول تعريف المنافقين و أساليب عملهم و سلوكهم و أفكارهم ليعرفهم المسلمون جيدا، و لا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم و خططهم الخبيثة و سمومهم.

في البداية تتحدث الآية عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك،

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۶

و تعـذروا بأعـذار واهية كبيت العنكبوت، و فرحوا بالسـلامة و الجلوس في البيت بدل المخاطرة بأنفسـهم و الاشتراك في الحرب رغم أنّها مخالفـة لأوامر اللّه و رسوله: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ و بدل أن يضـعوا كل وجودهم و إمكاناتهم في سبيل اللّه لينالوا افتخار الجهاد و عنوان المجاهدين، فإنّهم امتنعوا وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

إلّا أنّ هؤلاء النفر لم يكتفوا بتخلفهم و تركهم لهذا الواجب المهم، بل إنّهم سعوا في تخذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشّيطانية و محاولة إخماد جذوة الحماسة الملتهبة في صدور المسلمين و تشبث المنافقون بكل عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى و لو كان العذر الحرّ!! وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ. و في الحقيقة إنّ هؤلاء كانوا يطمعون في أضـعاف إرادة المسـلمين، و من جهة أخرى كانوا يحاولون سحب أكبر عدد ممكن إلى مستنقع رذيلتهم، حتى لا ينفردوا بالجرم.

ثمّ تتغير وجهة الخطاب إلى النّبي صـلى اللّه عليه و آله و سلّم، فيأمره اللّه سبحانه و تعالى أن يجيبهم بلهجة شديدة و أسلوب قاطع: قُلْ نـارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كـانُوا يَفْقَهُونَ لكنّهم للأسـف لضـعف إيمانهم، و عـدم الإدراك الكافي لا يعلمون آيـة نار تنتظرهم، فشـرارة

واحدة من تلك النّار أشدّ حرارة من جميع نيران الدّنيا و أشدّ حرقة و ألما.

و تشير الآية الثّانية إلى أنّ هؤلاء قد ظنوا بأنّهم قد حققوا نصرا بتخلفهم و تخذيلهم المسلمين و صرف أنظارهم عن مسألة الجهاد، و ضحكوا لذلك و قهقهوا بملء أفواههم، و هذا هو حال المنافقين في كل عصر و زمن، إلّا أنّ القرآن حذّرهم من مغبة أعمالهم فقال: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً.

نعم، ليبكوا على مستقبلهم المظلم ليبكوا على العذاب الأليم الذى ينتظرهم ليبكوا على أنّهم أغلقوا كل أبواب العودة بوجوههم، و أخيرا ليبكوا على ما أنفقوا من قوتهم و قدراتهم و عمرهم الثّمين، و اشتروا به الخزى و الفضيحة و سوء العاقبة و تعاسة الحظ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۷

و في نهاية الآية يبيّن اللّه تعالى أنّ هذه العاقبة التى تنتظرهم هى جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

ممّا قلناه يتّضح أنّ المقصود هو: إنّ هذه الجماعة يجب أن يضحكوا قليلا- في هذه الدنيا و يبكوا كثيرا، لأنّهم لو اطلعوا على ما ينتظرهم من العذاب الأليم لبكوا كثيرا و لضحكوا قليلا بالفعل.

إلّا أنّ بعض المفسّرين يذكر رأيا آخر في تفسير هذه الآية، و هو أنّهم مهما ضحكوا فإنّ ضحكهم قليل لقصر عمر الدنيا، و سيبكون في الآخرة بكاء بحيث أن كل بكاء الدنيا لا يعادل شيئا من ذلك البكاء.

غير أن التّفسير الأوّل أنسب و أوفق لظاهر الآية، و للتعبيرات المشابهة لها سواء وردت في الأقوال أم الكتابات، خاصّة إذا علمنا أن اللازم من التّفسير الثّانى أن يكون معنى الأمر في الآية هو الإخبار لا الأمر، و هذا خلاف الظاهر.

و يشهد للمعنى الأوّل

الحديث المعروف عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و الذى ذكره كثير من المفسّرين، حيث قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا».

(فتأمل جيدا).

و في آخر آية- من الآيات محل البحث- إشارة إلى طريقة أخرى دقيقة و خطرة من طرق المنافقين، و هى أنّهم حينما يفعلون ما يخالف القانون الإسلامى، فإنّهم يظهرون أعمالا يحاولون بها جبران ما صدر منهم، و محاولة تبرئة ساحتهم ممّا يستحقون من العقوبة، و بهذه الأعمال المناقضة لأعمالهم المخالفة للقانون فإنّهم يخفون وجوههم الحقيقة، أو يسعون إلى ذلك.

إنّ الآية الكريمة تقول: فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا أى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يجب أن يزرع اليأس في نفوس هؤلاء، و يعلمهم أن هذا التلون سوف لا- ينطلى على أحد، و لن يخدع بهم أحد، و الأولى لهم أن يحزموا أمتعتهم و يرحلوا من هذا المكان إلى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۸

مكان آخر، فإنّ أحدا سوف لا يقع في مكائدهم و حبائلهم في هذه المدينة.

و توجد هنا مسألة ينبغى التنبيه إليها، و هى أنّ جملة طائِفَةٍ مِنْهُمْ توحى أن هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا و يطلبوا من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم السماح لهم في الخروج إلى الجهاد، ربّما لأن بعضهم كانوا مفضوحين إلى حد يخجلون معه من الحضور في مجلس النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلب الخروج معه.

ثمّ تبيّن الآية أن سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء و طلبهم ب إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ

ملاحظات

۱- لا شك أنّ هذه المجموعة من المنافقين لو كانوا قد ندموا على تخلفهم و تابوا منه، و أرادوا الجهاد في ميدان آخر من أجل غسل

ذنبهم السابق، لقبل اللّه تعالى منهم ذلك، و لم يردهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فعلى هذا يتبيّن لنا أن طلبهم هذا بنفسه نوع من المراوغة و الشيطنة و عمل نفاقى، أو قل: إنّه كان تكتيكا من أجل إخفاء الوجه القبيح لهم، و الاستمرار فى أعمالهم السابقة.

۲- إنّ كلمة (خالف) تأتى بمعنى المتخلف، و هى إشارة إلى المتخلفين عن الحضور فى ساحات القتال، سواء كان تخلفهم لعذر أو بدون عذر.

و ذهب البعض قال: إنّ خالف بمعنى مخالف، أى اذهبوا أيّها المخالفون و ضموا أصواتكم إلى المنافقين لتكونوا جميعا صوتا واحدا.

و فسّرها البعض بأنّ معناها (فاسد) لأنّ الخلوف بمعنى الفساد، و خالف: جاء فى اللغة بمعنى فاسد.

و يوجد احتمال آخر، و هو أنّه قد يراد من الكلمة جميع المعانى المذكورة، لأنّ المنافقين و أنصارهم توجد فيهم كل هذه الصفات الرذيلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۹

۳- و كذا ينبغى أن نذكر بأنّ المسلمين يجب أن يستفيدوا من طرق مجابهة المنافقين فى الأعصار الماضية، و يطبقوها فى مواجهة منافقى محيطهم و مجتمعهم، كما يجب اتباع نفس أسلوب النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم معهم، و يجب الحذر من السقوط فى شباكهم و أن لا ينخدع المسلم بهم، و لا يرق قلبه لدموع التماسيح التى يذرفونها، «فإنّ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۸۴ الى ۸۵]

اشارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۶ ؛ ص۱۵۰

وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (۸۴) وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (۸۵)

التّفسير

أسلوب أشدّ فى مواجهة المنافقين:

بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم فى ميدان القتال، و علم الناس تخلفهم الصريح، و فشا سرّهم، أمر اللّه سبحانه و تعالى نبيّه بأن يتبع أسلوبا أشدّ و أكثر صراحة ليقتلع و إلى الأبد- جذور النفاق و الأفكار الشيطانية، و ليعلم المنافقون بأنّهم لا محل لهم فى المجتمع الإسلامى، و كخطوة عملية فى مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهى وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ

إن هذا الأسلوب- فى الواقع- هو نوع من الكفاح السلبى الفاعل فى مواجهة المنافقين، لأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يستطع- للأسباب التى ذكرناها آنفا- أن يأمر بقتل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۱

هؤلاء صراحة لتطهير المجتمع الإسلامى منهم، أمّا هذا الأسلوب السلبى فهو مؤثر فى احتقار هؤلاء و تحجيم دورهم، و تقزيمهم و

طردهم من المجتمع الإسلامی.

من المعلوم أنّ المؤمن الحقیقی محترم فی الشرع الإسلامی حیّا و میتا، و لهذا نری الدین الإسلامی الحنیف قد أصدر ضمن تشریعاته الأمر بتغسیل المیت و تکفینه و الصلاة علیه و دفنه، و أوجب أن یولی احتراما کبیرا، و أن یودع التراب بمراسم خاصّة، و حتی بعد دفنه فإنّ من حقوقه أن یزور المؤمنون قبره، و یستغفروا له، و یطلبوا الرحمة له.

إنّ عدم إجراء هذه المراسم لفرد معین یعنی طرده من المجتمع الإسلامی، و إذا کان الطارد له هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه، فإنّ الصدمة و الأثر النفسی علی نفسیته و وجوده سیکون شدیدا جدا.

إن هذا البرنامج و الأسلوب الدقیق- فی الواقع- کان قد أعد لمقابلة منافقی ذلک العصر، و یجب أن یستفید المسلمون من هذه الأسالیب، أی أنّ هؤلاء المنافقین ما داموا یظهرون الإسلام، فمن الواجب علیهم أن یعاملوهم کمسلمین و إن کان باطنهم شیئا آخر، أمّا إذ أظهروا نفاقهم، و کشفوا اللثام عن وجوههم الحقیقیة، فعندئذ یجب أن یعاملوهم کأجانب عن الإسلام.

و فی آخر الآیة یتّضح سبب هذا الأمر الإلهی ب إِنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و رغم ذلک فإنّهم لم یفکروا بالتوبة و لم یندموا علی أفعالهم لیغسلوها بالتوبة، بل إنّهم بقوا علی أفعالهم وَ ماتُوا وَ هُمْ کافِرُونَ

و هنا یمکن أن یسأل أحدکم: إنّ المنافقین إذا کانوا- حقیقة- بهذا البعد عن رحمة اللّه، و علی المسلمین أن لا یظهروا أی ود أو محبّة تجاههم، فلما ذا فضّلهم اللّه تعالی و منحهم کل هذه القوی الاقتصادیة من الأموال و الأولاد؟

فی الآیة الأخری یوجه اللّه سبحانه و تعالی الخطاب إلی النّبی وَ لا تُعْجِبْکَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ فإنّها لیست منحة و محبة من اللّه تعالی لهؤلاء المنافقین، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۲

علی العکس تماما، فإنّ هذه الأموال و الأولاد لیست لسعادتهم، بل إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُعَذِّبَهُمْ بِها فِی الدُّنْیا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ کافِرُونَ

إنّ هذه الآیة- کنظیرتها التی مرّت فی هذه السورة، و هی الآیة ۵۵- تشیر إلی حقیقة، و هی أن هذه الإمکانیات و القدرات الاقتصادیة و القوی الإنسانیة للاشخاص الفاسدین لیست غیر نافعة لهم فحسب، بل هی- غالبا- سبب لابتلائهم و تعاستهم، لأنّ أشخاصا کهؤلاء لا- هم یصرفون أموالهم فی مواردها الصحیحة لیستفیدوا منها الفائدة البناءة، و لا یتمتعون بأبناء صالحین کی یکونوا قرة عین لهم و معتمدهم فی حیاتهم. بل إنّ أموالهم تصرف غالبا فی طریق الشهوات و المعاصی و نشر الفساد و تحکیم أعمدة الظلم و الطغیان، و هی السبب فی غفلتهم عن اللّه سبحانه و تعالی، و کذلک أولادهم فی خدمة الظلمة و الفاسدین، و مبتلین بمختلف الانحرافات الأخلاقیة، و بذلک سیکونون سببا فی تراکم البلایا و المصائب.

غایة الأمر إنّ الذین یظنون أن الأصل فی سعادة الإنسان هو الثروة و القوة البشریة فقط، أمّا کیفیة صرف هذه الثروة و القوّة فلیس بذلک الأمر المهم، تکون لوحة حیاتهم مفرحة و مبهجة ظاهرا، إلّا أنّنا لو اقتربنا منها و اطلعنا علی دقائقها، و علمنا أنّ الأساس فی سعادة الإنسان هو کیفیة الاستفادة من هذه الإمکانیات و القدرات لعلمنا أنّ هؤلاء لیسوا سعداء مطلقا.

و هنا یجب الانتباه لمسألتین:

۱- لقد وردت فی سبب نزول الآیة الأولی روایات متعددة لا تخلو من الاختلاف.

فیستفاد من بعض الرّوایات، أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لما مات عبد اللّه بن أبی- المنافق المشهور- صلی علیه، و وقف علی قبره و دعا له، بل لفّه بقمیصه لیکون کفنا له،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۳

فنزلت الآیة و نهت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عن تکرار هذا الفعل.

فی الوقت الـذی یفهم من روایات أخری أن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم کان قد صـمّم أن یصـلی علیه، فنزل جبرئیل و تلا هذه الآیة، و منعه من هذا العمل.

و تقول عـدة روایات أخری أنّ النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یصل علیه، و لم یکن عزم علی هـذا العمل، غایـة ما فی الأمر أن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أرسل قمیصه لیکفن به لترغیب قبیلة عبد اللّه بن أبی فی الإسـلام، و لما سـئل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سـلّم عن سـبب فعله هذا أجاب صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم بأنّ قمیصه سوف لن ینجیه من العذاب، لکنّه یأمل أن یسـلم الکثیر بسبب هذا العمل، و بالفعل قد حدث هذا، فإنّ الکثیر من قبیلة الخزرج قد أسلموا بعد هذه الحادثة.

و بـالنظر إلی اختلاـف هـذه الرّوایات اختلافا کثیر، فإنّا قـد صـرفنا النظر عن ذکرها کسب للنزول، خصوصا علی قول بعض المفسّـرین الکبار بأنّ وفاة عبد اللّه بن أبی کانت سـنة (۹) هجریة، أمّا هذه الآیات فقد نزلت فی حدود السـنة الثّامنة.[۵۳] غیر أن الذی لا یمکن إنکاره، أنّ الظاهر من أسـلوب الآیة و نبرتها أن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یصلی علی المنافقین، و کان یقف علی قبورهم قبل نزول هذه الآیات، لأنّ هؤلاء کانوا مسلمین ظاهرا[۵۴]، لکنّه امتنع من هذه الأعمال بعد نزول هذه الآیة.

۲- و کذلک یستفاد من الآیة المذکورة جواز الوقوف علی قبور المؤمنین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۴

و الـدعاء لهم و الترحم علیهم، لأنّ النهی الوارد فی الآیـة مختص بالمنافقین، و علی هذا فإنّ هذه الآیة تعنی بمفهومها جواز زیارة قبور المؤمنین، أی: الوقوف علی قبورهم و الدعاء لهم. إلّا أن الآیة قد سکتت عن مسألة إمکان التوسل بقبور هؤلاء المؤمنین، و طلب قضاء الحاجات ببرکتهم من اللّه تعالی، رغم جواز ذلک من وجهة نظر الرّوایات الإسلامیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۵

الآیات [سورة التوبة (۹): الآیات ۸۶ الی ۸۹]

اشارة

وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَکَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَکُنْ مَعَ الْقاعِدِینَ (۸۶) رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا یَفْقَهُونَ (۸۷) لکِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِکَ لَهُمُ الْخَیْراتُ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸۸) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۸۹)

التّفسیر

دناءة الهمّة

الکلام فی هـذه الآیـات یـدور کـذلک حول المنـافقین، إلّـا أنّ هـذه الآیـات تقارن بین الأعمال القبیحـة للمنافقین و أعمال المؤمنین الحقیقیین الحسنة، و توضح من خلال هذه المقارنة انحراف هؤلاء المنافقین و دناءتهم.

فالآیة الأولی تتحدث عن حال المنافقین إذا ما دعا الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم الناس إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۶

الثبات على الإيمان و الجهاد فى سبيل اللّه، فإنّهم- أى المنافقون- رغم قدرتهم الجسمية و المالية سيطلبون العذر و السماح لهم بعدم المشاركة و البقاء مع ذوى الأعذار: وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَکَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَکُنْ مَعَ الْقاعِدِینَ

كلمة «الطول» على وزن فعل- جاءت بمعنى القدرة و الاستطاعة المالية، و على هذا فإنّ أُولُوا الطَّوْلِ بمعنى المستطيعين و القادرين ماليا و جسميا على الحضور فى ميدان الحرب، و رغم ذلك فهم يميلون إلى التخلف مع أولئك الذين لا قدرة لديهم- ماديا أو بدنيا- على الحضور و المشاركة فى الجهاد.

و أصل هذه الكلمة مأخوذ من «الطول» ضد العرض، و الاشتراك و الارتباط بين هذين المعنيين واضح، لأنّ القدرة المالية و الجسمية يعطى معنى الاستمرارية و الدوام و طول القدرة.

و فى الآية التى تليها و بخ القرآن هؤلاء و ذمّهم و قبّحهم بأنّهم رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ و كما أشرنا سابقا، فإنّ خوالف جمع خالفة، و أصلها من (خلف)، و لذلك يقال للمرأة إذا خرج الرجل من المنزل، و بقيت فى المنزل: إنّها خالفة. و المقصود من الخوالف فى هذه الآية كل الذين عذروا عن المشاركة فى الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مسنّين أو مرضى أو صبيان. و قد أشارت بعض الأحاديث الواردة فى تفسير الآية إلى هذا الموضوع.

ثمّ أضافت الآية: بأن هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب و النفاق و صلوا إلى مرحلة وَ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ و قد بحثنا فى بداية سورة البقرة معنى الطبع على القلب.[۵۵] ثمّ تحدثت الآية التى تليها فى الجانب المقابل عن صفات و روحيات الفئة التى تقابل المنافقين، و هم المؤمنون المخلصون، و عن أعمالهم الحسنة، و بالتالى عاقبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۷

أعمالهم المعاكسة تماما لعاقبة أولئك. فهى تقول: لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فكانت عاقبتهم أن يتمتعوا بكل الخيرات و السعادة و اللذائذ المادية و المعنوية فى الدنيا و الآخرة وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

كلمة (الخيرات) صيغة جمع محلّى بالألف و اللام، و من ذلك يستفاد عموميتها، فهى تعبير جامع لكل توفيق و خير و نصر و موهبة، و هى تشمل المادية منها و المعنوية.

كما أن تعبير هاتين الجملتين- حسب القواعد التى قررت فى المعانى و البيان- يدل على الحصر، أى أن هذا التعبير يدل على أن (المخلصين) وحدهم يمثلون هذا الجانب المقابل، و يدل على أنّ هؤلاء وحدهم الذين يستحقون كل خير و سعادة، هؤلاء الذين يجاهدون بكل وجودهم و بكل ما يمتلكون.

و يستفاد بوضوح من هذه الآية أن «الإيمان» و «الجهاد» إذا اتحدا فى شخص، فسيصحبهما كل خير و بركة، و لا سبيل إلى الفلاح و الإخلاص، أو إلى شىء من الخيرات و البركات المادية و المعنوية إلّا فى ظل هذين العاملين.

و هناك نقطة أخرى تستحق التنبيه لها، و هى أنّنا نستفيد من خلال مقارنة صفات هاتين المجموعتين أنّ المنافقين- لفقدانهم الإيمان، و تلوثهم المضاعف بالمعاصى و الذنوب- أفراد جاهلون، لذلك فهم محرومون من (علو الهمة) التى هى وليدة الفهم و الشعور و الوعى، فهم يرضون أن يكونوا مع القاعدين من المرضى و الصبيان، و يأبون الحضور فى سوح الجهاد رغم افتخاراته و امتيازاته.

أمّا فى المقابل، فإنّ المؤمنين قد اتضحت لهم الأمور و أدركوا عواقبها فعلت همتهم بحيث رأوا أن الجهاد هو الطريق الوحيد للانتصار على المشاكل التى تعترضهم، فسعوا إليه بكل وجودهم و قدراتهم.

إن هذا الدرس الكبير هو الذى علمنا القرآن إياه فى كثير من آياته، و مع ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۸

فنحن غافلون عنه.

و فی آخر آیـة من الآیات التی نبحثها إشارة إلی قسم من الجزاء الأخروی المعـد لهؤلاء المؤمنین، فهی تبشـرهم بأنّهم قد أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و توکّد لهم بأنّ هـذه المواهب و النعم سوف لا تفنی و لا تنفـد، بل سیبقون خالِدِینَ فِیها، ثمّ تبیّن أن ذلِکَ هو الْفَوْزُ الْعَظِیمُ

إنّ تعبیر أَعَدَّ اللَّهُ علّامة جلیة علی مدی الاحترام الذی أولی اللّه هؤلاء المؤمنین به، حیث أعدلهم من قبل کل هذه المواهب و النعم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۹

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۹۰]

اشارة

وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِیُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِینَ کَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَیُصِیبُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۹۰)

التّفسیر

فی هذه الآیة- و لمناسبة البحث هنا للأبحاث السابقة حول المنافقین الذین یتعذرون بکل عذر و یتمسکون بأتفه الحجج- إشارة إلی وضع و واقع مجموعتین من المتخلفین عن الجهاد:

الأولی: و هم المعذورون فعلا فی عدم مشارکتهم فی القتال.

و الثّانیة: و هم المتخلفون عن أداء هذا الواجب الکبیر تمردا و عصیانا، و لیس لهم أی عذر فی تخلفهم هذا.

ففی البدایة تقول الآیة أنّ هؤلاء الأعراب رغم أنّهم کانوا معذورین فی عدم الاشتراک فی الجهاد، فإنّهم حضـروا بین یدی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبوا منه أن یأذن لهم فی الجهاد: وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِیُؤْذَنَ لَهُمْ و فی مقابل ذلک فإن الفئة الأخری التی کذبت علی اللّه و رسوله قد تخلف أفرادها دون أی عذر، وَ قَعَدَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۰

الَّذِینَ کَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ و فی النهایة هددت الآیة المجموعة الثّانیة تهدیدا شدیدا و أنذرتهم بأنّه سَیُصِیبُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ

إن ما قلناه فی تفسیر الآیـة المذکورة هو الأنسب للقرائن الموجودة، فإننا نری من جهة أن هاتین الفئتین تقابل إحداهما الأخری، و من جهـة أخری فإنّ کلمـة (منهم) تـدل علی أن أفراد المجموعتین لم یکونوا کفارا بأجمعهم، و من هاتین القرینتین یفهم أن (المعـذرین) هم المعذورون حقیقة.

إلّا أنّه قیل فی مقابل هذا التّفسیر تفسیران آخران:

الأوّل: إنّ المقصود من (المعـذرین) هم الذین کانوا یتمسکون بالأعذار الواهیة و الکاذبة للفرار من الجهاد. و المقصود من المجموعة الثّانیة هم الذین لا یکلفون أنفسهم حتی مشقّة الاعتذار، بل إنّهم یمتنعون علنا و بکل صراحة عن إطاعة أوامر اللّه عزّ و جلّ.

الثّانی: إنّ کلمـة (المعـذرین) تشـمل کـل الفئـات التی تعتـذر بأعـذار ما عن الـذهاب إلی میادین الحرب و الجهاد، سواء کانت هـذه الأعذار صادقة أم کاذبة.

إلّا أنّ القرائن تدل علی أنّ (المعذرین) هم المعذورون الحقیقیون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۱

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۱ الى ۹۳]

اشارة

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۱) وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (۹۲) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۹۳)

سبب النّزول

نقل فى سبب نزول الآية الأولى أن أحد أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم المخلصين قال للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: يا رسول اللّه، إني شيخ كبير أعمى و عاجز، و ليس لى حتى من يأخذ بيدى ليذهب بى إلى ميدان القتال، فهل أعذر إذا لم أحضر و أشارك فى الجهاد؟ فسكت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فنزلت الآية و عذرت مثل هؤلاء الأفراد.

و يستفاد من سبب النزول هذا أن المسلمين- حتى الأعمى منهم- لم يكونوا

ليسمحوا لأنفسهم أن يمتنعوا عن الحضور فى ميدان الجهاد، و ربّما كان ذلك لأنّهم كانوا يحتملون أن وجودهم بهذه الحالة قد يرغّب المجاهدين فى الانضمام إلى جيوش المسلمين و مشاركتهم فى أمر الجهاد، أو أنّهم يكثرون السواد على أقل التقادير.

و بالنسبة للآية الثّانية ورد فى الرّوايات أنّ سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه وسيلة للمشاركة فى الجهاد، و لما لم يكن لدى الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم شيء من ذلك خرجوا من عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أعينهم تفيض من الدمع، ثمّ عرفوا بعد ذلك ب «البكّائين».

التّفسير

العشق للجهاد و دموع الحسرة:

هذه الآيات قسمت المسلمين فى مجال المشاركة فى الجهاد لتوضيح حال سائر المجاميع من ناحية القدرة على الجهاد، أو العجز عنه، و أشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذورة حقيقة و واقعا، و الخامسة هم المنافقون.

الآية الأولى تقول: إنّ الضعفاء، و العاجزين لكبر أو عمى أو نقص فى الأعضاء، و الذين لا وسيلة لهم يتنقلون بها و يستفيدون منها فى المشاركة فى الجهاد، لا حرج عليهم إذا تخلفوا عن هذا الواجب الإسلامى المهم: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ هذه الأقسام الثلاث تعذر فى كل قانون إذا لم تشارك، و العقل و المنطق يمضى هذا التسامح، و من المسلم أنّ القوانين الإسلامية لا تنفصل عن المنطق و العقل فى أى مورد.

كلمة «الحرج» فى الأصل تعنى مركز اجتماع الشيء، و لما كان اجتماع الناس و كثرتهم فى مكان و مركز ما ملازم لضيق ذلك المكان، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الضيق و الإزعاج و المسؤولية و التكليف، و يكون معناها فى هذه الآية هو

المعنی الأخیر، أی المسؤولیة و التکلیف.

ثمّ بیّنت الآیة شرطا مهما فی السماح لهؤلاء بالانصراف، و هو إخلاصهم و حبّهم للّه و رسوله، و رجاؤهم و عملهم کل خیر لهذا الدین الحنیف، لذا قالت: إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ أی إنّ هؤلاء إذا لم یکونوا قادرین علی حمل السلاح و المشارکة فی القتال، فإنّهم قادرون علی استعمال سلاح الکلمة و السلوک الإسلامی الأمثل، و بهذا یستطیعون ترغیب المجاهدین، و یثیرون الحماس فی نفوس المقاتلین، و یرفعون معنویاتهم بذکرهم الثمرات المترتبة علی الجهاد و ثوابه العظیم.

و کذلک یجب أن لا یقصروا فی هدم و تضعیف معنویات العدو، و تهیئة أرضیة الهزیمة فی نفوس أفراده قدر المستطاع لأنّ کلمة (نصح) فی الأصل بمعنی (الإخلاص) و هی کلمة جامعة شاملة لکل شکل من أشکال طلب الخیر و الإقدام المخلص فی هذا السبیل، و لما کان الکلام عن الجهاد، فإنّها تنظر إلی کل جهد و سعی یبذل فی هذا المجال.

ثمّ تذکر الآیة الدلیل علی هذا الموضوع، فتذکر أن مثل هؤلاء الأفراد الذین لا یألون جهدا فی عمل الخیر، لا یمکن أن یعاتبوا أو یوبّخوا أو یعاقبوا، إذ ما عَلَی الْمُحْسِنِینَ مِنْ سَبِیلٍ

بعد ذلک اختتمت الآیة بذکر صفتین عظیمتین من صفات اللّه عزّ و جلّ- و کل صفاته عظیمة- کدلیل آخر علی جواز تخلف هؤلاء المندرجین ضمن المجموعات الثلاث فقالت: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ

(غفور) مأخوذة من مادة الغفران، أی الستر و الإخفاء، أی إن اللّه سبحانه و تعالی سیلقی الستار علی أعمال هؤلاء المعذورین و یقبل أعذارهم، و کون اللّه «رحیما» یقتضی أن لا یکلف أحدا فوق طاقته، بل یعفیه من ذلک، و إذا أجبر هؤلاء علی الحضور فی میدان القتال، فإنّ ذلک لا یناسب غفران اللّه و رحمته، و هذا یعنی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۴

أنّ اللّه الغفور الرحیم سیعفی هؤلاء عن الحضور حتما، و یعفو عنهم.

و یستفاد من جملة من الرّوایات التی نقلها المفسّرون فی ذیل هذه الآیة، أنّ هذه المجموعات المعذورة لا یقتصر الأمر فیهم علی السماح لهم فی التخلف و عدم مؤاخذتهم فحسب، بل إنّ أفرادها لهم من الجزاء و الثواب کثواب المجاهدین الذین حضروا و قاتلوا، کل علی قدر اشتیاقه و تحرقه للمشارکة، فنحن نقف علی

حدیث عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و نقرأ: إنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لما قفل من غزوة تبوک فأشرف علی المدینة قال: «لقد ترکتم بالمدینة رجالا ما سرتم فی مسیر، و لا أنفقتم من نفقة، و لا قطعتم وادیا إلّا کانوا معکم فیه قالوا: «و کیف یکونون معنا و هم بالمدینة؟ قال:

حبسهم العذر»[۵۶].

ثمّ تشیر الآیة إلی الفئة الرّابعة من المعفو عنهم و هؤلاء هم الذین حضروا- بشوق- عند النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبوا منه أن یحملهم علی الدواب للمشارکة فی الجهاد، فاعتذر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّه لا یملک ما یحملهم علیه، فخرجوا من عنده و عیونهم تفیض من الدمع حزنا و أسفا علی ما فاتهم، و علی أنّهم لا یملکون ما ینفقونه فی سبیل اللّه: وَ لا عَلَی الَّذِینَ إِذا ما أَتَوْکَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُکُمْ عَلَیْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْیُنُهُمْ تَفِیضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا یَجِدُوا ما یُنْفِقُونَ

«تفیض» من مادة الفیضان، أی الانسکاب و التساقط بعد الامتلاء، فإنّ الإنسان إذا أهمه أمر أو دهمته مصیبة، فإذا لم تکن شدیدة اغرورقت عیناه بالدموع و امتلأت دون أن تجری، أمّا إذا وصلت إلی مرحلة یضعف الإنسان عن تحملها سالت دموعه.

إنّ فی هذه دلالة علی أنّ هؤلاء النفر من أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم کانوا عشاقا و مولهین بالجهاد إلی درجة أنّهم لما رخص لهم فی البقاء لم یکتفوا بالتأسف و الهمّ لهذه الرخصة، بل إنّهم جرت دموعهم کما لو فقد إنسان أعز أصدقائه و أحبائه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۵

و بکوا بکاء مرّا لهذا الحرمان.

لا شک أن الفئة الرّابعة لا تفترق عن الفئة الثّالثة المذکورة فی الآیة و لکنّهم لهذه الحالة الخاصّة من العشق، و لامتیازهم بها عن السابقین، و لتکریمهم جسمت الآیة وضعهم بصورة مستقلة ضمن نفس الآیة، و کانت خصائصهم هی:

أوّلا: إنّهم لم یقتنعوا بعدم ملکهم لمستلزمات الجهاد، فحضروا عند النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم طمعا فی الحصول علیها، و أصروا علیه إصرارا شدیدا فی تهیئتها إنّ أمکنه ذلک.

ثانیا: إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لما اعتذر عن تلبیة طلبهم لم یکتفوا بعدم الفرحة بذلک، بل انقلبوا بهمّ و حزن فاضت دموعهم بسببه، و لهاتین الخصلتین ذکرهم اللّه سبحانه و تعالی مستقلا فی الآیة.

أمّا آخر الآیة فتبین وضع الفئة الخامسة، و هم الذین لم یعذروا، و لن یعذروا عند اللّه تعالی، فإنّهم قد توفرت فیهم کل الشروط، و یملکون کل مستلزمات الجهاد، فوجب علیهم حتما، لکنّهم رغم ذلک یحاولون التملّص من أداء هذا الواجب الإلهی الخطیر، فجاءوا إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یطلبون الإذن فی الانصراف عن الحرب، فبیّنت الآیة أنّهم سیؤاخذون بتهربهم و یعاقبون علیه: إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَسْتَأْذِنُونَکَ وَ هُمْ أَغْنِیاءُ.

و تضیف الآیة بأنّ هؤلاء یکفیهم عارا و خزیا أن یرضوا بالبقاء مع العاجزین و المرضی رغم سلامتهم و قدرتهم، و لم یهتموا بأنّهم سیحرمون من فخر الاشتراک فی الجهاد: رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ و کفی به عقابا أن یسلبهم اللّه القدرة علی التفکر و الإدراک نتیجة أعمالهم السیئة هذه، و لذلک أبغضهم اللّه وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا یَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۶

ملاحظات

۱- تتّضح من هذه الآیات- بصورة جلیة و واضحة- المعنویات القویة العالیة لجنود الإسلام، و کیف أن قلوبهم کانت تتطلع بشوق، و تتحرق عشقا للجهاد و الشهادة، و هذا الفخر و الوسام مقدم علی جمیع الأوسمة و الصفات الأخری التی کانوا یمتلکونها، و من هنا یتّضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السریع للإسلام و تطوره و انتشاره فی ذلک الیوم، و تخلفنا فی الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

کیف یمکننا أن نجعل من یبکی ألما و حسرة لحرمانه من الجهاد، و إن کان لعذر، و من یحاول التذرع بألف عذر و عذر من أجل الفرار من صف المجاهدین، فی صف واحد و مرتبة واحدة؟

إذا رجعت إلینا روح الإیمان و حبّ الجهاد و عشقه، و الافتخار بالشهادة فی سبیل اللّه، و دبت فی واقعنا المیت، فإنّنا سنحصل علی نفس الامتیازات و الانتصارات التی حققها و حصل علیها مسلمو الصدر الأوّل.

إنّ تعاستنا و تخلفنا یکمن فی أننا التزمنا بالإسلام ظاهرا، و اتخذناه ردءا دون أن ینفذ إلی أعماقنا و وجودنا، و رغم ذلک فإننا نتوقع أن نصل بهذا الواقع إلی مستوی المسلمین الأوائل! ۲- و نستفید من الآیات السابقة أیضا، أنّه لا یستثنی أحد- بصورة عامّة- من المشارکة فی أمر الجهاد، من دعم المجاهدین، و إسنادهم فی جهادهم، حتی المرضی و العاجزین عن حمل الأسلحة و المشارکة فی میدان الحرب، فإنّهم إن عجزوا عن ذلک فهم قادرون أن یرغّبوا المجاهدین و یثیروا حماسهم بکلامهم و بیانهم و سلوکهم، و أن یدعموا جهادهم بذلک، و فی الحقیقة فإنّ للجهاد مراحل متعددة، فإذا عذر الإنسان عن احدی مراحله فإنّ ذلک لا یعنی سقوط بقیة المراحل عن ذمته.

۳- إنّ جملة ما عَلَی الْمُحْسِنِینَ مِنْ سَبِیلٍ أصبحت منبعا قانونیا واسعا فی

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۷

المباحث الفقهية حيث استفاد الفقهاء منها أحكاما كثيرة، فمثلا: إذ تلفت الوديعة فى يد الأمين بدون أى افراط أو تفريط منه، فإنّه لا يكون ضامنا، و من جملة الأدلّة على هذه المسألة هى الآية المذكورة، لأنّه محسن، و لم يرتكب مخالفة، فإذا اعتبرناه مسئولا و ضامنا، فإنّ هذا يعنى أنّ المحسن مؤاخذ.

ليس هناك شك فى أنّ الآية المذكورة قد وردت فى المجاهدين، إلّا أنا نعلم أن مورد الآية لا ينقص من عموميتها، و بعبارة أخرى، فإن مورد الآية لا يخصص الحكم مطلقا.

نهاية الجزء العاشر من القرآن المجيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۹

بداية الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۱

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۴ الى ۹۶]

اشارة

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۴) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۹۵) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۹۶)

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين: إنّ هذه الآيات نزلت فى جماعة من المنافقين يبلغ عددهم ثمانين رجلا، لأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لما رجع من غزوة تبوك أمر أن لا يجالسهم أحد و لا يكلمهم، فلمّا رأى هؤلاء هذه المقاطعة الاجتماعية الشديدة بدأوا يعتذرون عمّا بدر منهم، فنزلت هذه الآيات لتبيّن حال هؤلاء و حقيقتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۲

التّفسير

لا تصغوا إلى أعذارهم و أيمانهم الكاذبة:

تستمر هذه السلسلة من الآيات فى الحديث عن الأعمال الشيطانية للمنافقين، و تزيح الستار عنها الواحد تلو الآخر، و تحذر المسلمين من الانخداع بريائهم أو الوقوع تحت تأثير كلماتهم المعسولة.

الآية الأولى تبيّن للمسلمين أن هؤلاء إذا علموا بقدومكم فسيأتون يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ إن التعبير ب (يعتذرون) بصيغة المضارع، يظهر منه أن اللّه تعالى قد أطلع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل على كذب المنافقين، و أنّهم سيأتونهم ليعتذروا إليهم، و لذلك فإنّه تعالى علمهم كيفية جواب هؤلاء إذا قدموا إليهم ليعتذروا منهم.

ثمّ يتوجه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- باعتباره قائد المسلمين- بأن يواجه المنافقين قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ لأنا على علم بأهدافكم الشيطانية و ما تضمرون و ما تعلنون، إذ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ إلّا أنّه فى الوقت نفسه سيبقى باب التوبة و الرجوع إلى الصواب مفتوحا أمامكم وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ

و احتمل البعض فى تفسير هذه الآية أنّ التوبة ليست هى المقصودة من هذه الجملة، بل المقصود أن اللّه و رسوله سيطلعان على أعمالكم و يريانها فى المستقبل كما رأياها الآن، و سيحبطان كل مؤامراتكم، و على هذا فلا يمكن أن تصنعوا شيئا، لا اليوم و لا غدا، و لنا بحث مفصّل حول هذه الجملة، و مسألة عرض أعمال الأمة على نبيّها صلى اللّه عليه و آله و سلّم سيأتى فى ذيل الآية (۱۰۵) من هذه السورة.

ثمّ قالت الآية: إنّ كل أعمالكم و نياتكم ستثبت اليوم فى كتبكم ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و فى الآية التالية إشارة أخرى إلى أيمان المنافقين الكاذبين، و تنبيه للمسلمين على أنّ هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبة لتغفروا لهم خطيئاتهم و تصفحوا عنهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۳

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ

فى الحقيقة، إنّ هؤلاء يطرقون كل باب ليردّوا منه، فتارة يريدون إثبات براءتهم و عدم تقصيرهم بالاعتذار، و تارة يعترفون بالتقصير ثمّ يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربّما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا تتأثروا بأى أسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ

إنّ هؤلاء يطلبون منكم أن تعرضوا عن أفعالهم، أى أن تصفحوا عنهم، لكنكم يجب أن تعرضوا عنهم، لكن لا- بالصفح و العفو، بل بالتكذيب و الإنكار عليهم، و هذان التعبيران المتشابهان لفظا لهما معنيان متضادان تماما، و لهما هنا من جمال التعبير و جزالته و بيانه ما لا يخفى على أهل الذوق و البلاغة.

و لتأكيد المطلب و توضيحه و بيان دليلة عقّبت الآية بأن السبب فى الاعراض هؤلاء إِنَّهُمْ رِجْسٌ و لأنّهم كذلك فإنّ مصيرهم وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ لأنّ الجنّة أعدت للمتقين الذين يعملون الصالحات، و ليس فيها موضع للأرجاس الملوّثين بالمعاصى. إن كل العواقب السيئة التى سيلقونها إنما يرونها جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

فى الآية الأخيرة التى نبحثها هنا إشارة إلى يمين أخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ الفرق بين اليمين فى هذه الآية و اليمين فى الآية السابقة، أنّ المنافقين فى الآية السابقة أرادوا تهدئة خواطر المؤمنين فى الواقع العملى أمّا اليمين التى فى هذه فإنّها تشير إلى أنّ المنافقين أرادوا من المؤمنين مضافا إلى سكوتهم العملى إظهار الرضا القلبى عنهم.

الملفت للنظر هنا أن اللّه تعالى لم يقل: لا ترضوا عنهم، بل عبّر سبحانه بتعبير تشم منه رائحة التهديد، إذ تقول عزّ و جلّ: فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۴

الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ

لا- شك أن هؤلاء من الناحية الدينية و الأخلاقية لا يعيرون اهتماما لرضى المسلمين، بل إن الهدف من عملهم هذا هو رفع النظرة السلبية و الغضب عليهم من أفكار و قلوب المسلمين، ليكونوا فى المستقبل فى مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافية، إلّا أن اللّه تعالى لما عبر بقوله: لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ نبّه المسلمين على أن هؤلاء فاسقون، و لا معنى لرضاكم عنهم، فإنّ هؤلاء دأبهم يضحكوا على الأذقان، فانتبهوا وعوا أمر هؤلاء و لا تقعوا فى شراكهم.

كم هو مهم و جيدّ أن يراقب المسلمون فى كل زمان خطط المنافقين الشيطانية و يعرفوهم، حتى لا- يستفيدوا من الخطط السابقة

للوصول إلى أهدافهم المشؤومة عبر هذه الوسائل و الخطط الخبيثة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۵

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۷ الى ۹۹]

اشارة

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۹۷) وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۹۸) وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۹)

التّفسير

الأعراب القساة و المؤمنون:

فی هذه الآيات الثّلاث- استمرارا للبحث المتقدم حول منافقی المدينة- حديث و بحث حول وضع منافقی الأعراب- و هم سكان البوادی- و علاماتهم و أفكارهم، و كذلك قد تحدثت حول المؤمنين الخلص منهم.

و ربّما كان السبب فی تحذير المسلمين من هؤلاء، هو أن لا يتصور المسلمون أن المنافقين هم- فقط- هؤلاء المتواجدون فی المدينة، بل إنّ المنافقين من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۶

الأعراب أشدّ و أقسى، و شواهد التأريخ الإسلامی تدل على المسلمين قد تعرضوا عدّة مرات لهجوم منافقی البادية، و لعل الانتصارات المتلاحقة لجيش الإسلام هی التی جعلت المسلمين فی غفلة عن خطر هؤلاء.

على كل حال، فالآية الأولى تقول: إنّ الأعراب، بحكم بعدهم عن التعليم و التربية، و عدم سماعهم الآيات الرّبانية و كلام النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أشدّ كفرا و نفاقا من مشابهيهم فی المدينة: الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً و لهذا البعد و الجهل فمن الطبيعی، بل الأولى أن يجهلوا الحدود و الأحكام الإلهية التی نزلت على النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ

كلمة «الأعراب» من الكلمات التی تعطی معنى الجمع، و لا مفرد لها فی لغة العرب، و على ما قاله أئمّة اللغة- كمؤلف القاموس و الصحاح و تاج العروس و آخرون- فإن هذه الكلمة تطلق على سكان البادية فقط، و مختصة بهم، و إذا أرادوا إطلاقهم على شخص واحد فإنّهم يستعملون نفس هذه الكلمة و يلحقون بها ياء النسب، فيقولون: أعرابی. و على هذا فإنّ أعراب ليست جمع عرب كما يظن البعض.

أمّا «أجدر» فهی مأخوذة من الجدار، و من ثمّ أطلقت على كل شیء مرتفع و مناسب، و لهذا فإنّ (أجدر) تستعمل- عادة- بمعنى الأنسب و الأليق.

و تقول الآية أخيرا: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أی إنّه تعالى عند ما يحكم على الأعراب بمثل هذا الحكم، فلأنّه يناسب الوضع الخاص لهم، لأنّ محيطهم يتصف بمثل هذه الصفات.

لكن و من أجل لا يتوهم بأنّ كل الأعراب أو سكان البوادی يتصفون بهذه الصفات، فقد أشارت الآية التالية إلى مجموعتين من

الاعراب.

ففی البدایـة تتحـدث عن أن قسـما من هؤلاء الأعراب- لنفاقهم أو ضـعف إیمانهم- عنـد ما ینفقون شـیئا فی سبیل اللّه، فإنّهم یعتبرون ذلک ضررا و خسارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۷

لحقت بهم، لا أنّه توفیق و نصر و تجارة رابحة: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ یَتَّخِذُ ما یُنْفِقُ مَغْرَماً[۵۷].

و من الصـفات الأـخری لهؤلاء أنّهم دائما ینتظرون أن تحیط بکم المصائب و النوائب و المشاکل، و یرمیکم الـدهر بسـهمه: وَ یَتَرَبَّصُ بِکُمُ الدَّوائِرَ.

«الدوائر» جمع دائرة، و معناها معروف، و لکن العرب یقولون للحادثة الصعبة و الألیمة التی تحل بالإنسان: دائرة، و جمعها (دوائر).

فی الواقع أنّ هؤلاـء أفراد ضـیقو النظر، و بخلاـء و حسودون، و بسـبب بخلهم فـإنّهم یرون کـل إنفـاق فی سبیـل اللّه خسارة، و بسـبب حسـدهم فإنهم ینتظرون دائما ظهور المشاکل و المشاغل و المصائب عنـد الآخرین. ثمّ تقول الآیـة- بعد ذلک- إن هؤلاء ینبغی أن لا یتربصوا بکم، و ینتظروا حلول المصائب و الدوائر بکم، لأنّها فی النهایة ستحل بهم فقط: عَلَیْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ[۵۸].

ثمّ تختم الآیة الحدیث بقولها: وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ فهو تعالی یسمع کلامهم، و یعلم بنیاتهم و مکنون ضمائرهم.

أمّا الآیـة الأخیرة فقـد أشارت إلی الفئـة الثّانیة من الأعراب، و هم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ و لهذا السبب فإنّهم لا یعتبرون الإنفاق فی سبیل اللّه خسارة أبدا، بل وسیلة للتقرب إلی اللّه و دعاء الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم، لإیمانهم بالجزاء الحسن و العطاء الجزیل الذی ینتظر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۸

المنفقین فی سبیل اللّه: وَ یَتَّخِذُ ما یُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ

هنا یؤیّـد اللّه تعالی و یصـدّق هـذا النوع من التفکیر، و یؤکّـد علی أنّ هـذا الإنفاق یقرب هؤلاء من اللّه قطعا: أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ و لهذا سَیُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِی رَحْمَتِهِ و إذا ما صـدرت من هؤلاء هفوات و عثرات، فإنّ اللّه سـیغفرها لهم لإیمانهم و أعمالهم الحسـنة، ف إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

إنّ التأکیـدات المتوالیـة و المکررة التی تلاحظ فی هـذه الآیة تجلب الانتباه حقّا، فإنّ (ألا) و (إن) یدل کلاهما علی التأکید، ثمّ جملة سَیُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِی رَحْمَتِهِ خصوصا مع ملاحظـة (فی) التی تعنی الدخول و الغوص فی الرحمة الإلهیة، و بعد ذلک الجملة الأخیرة التی تبدأ ب (إنّ) و تذکر صفتین من صفات الرحمة و هما غَفُورٌ رَحِیمٌ کل هذه التأکیدات تبیّن منتهی اللطف و الرحمة الإلهیة بهذه الفئة.

و ربّمـا کان هـذا الاهتمام بهؤلاء لأنّهم رغم حرمانهم من التعلیم و التربیـة، و عـدم الفهم الکافی لآیات اللّه و أحادیث النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم، فـإنّهم قبلوا الإسـلام و آمنوا به بکل وجودهم، و رغم قلّـة إمکانیاتهم المالیـة- التی یحتمها وضع البادیـة- فإنّهم لم یمتنعوا عن البذل و الإنفاق فی سبیل اللّه، و لذلک استحقوا کل تقدیر و احترام، و أکثر ممّا یستحقه سکان المدینة المتمکنون.

و یجب الالتفات إلی أنّ القرآن قـد اسـتعمل عَلَیْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ فی حق الأعراب المنافقین، التی تدل علی إحاطة التعاسة و سوء العاقبة بهم، أمّـا فی حق المؤمنین فقـد ذکرت عبارة فِی رَحْمَتِهِ لتبیّن إحاطـة الرحمـة الإلهیـة بهؤلاء، فقسم تحیط به الرحمـة الإلهیـة، و الآخر تحیط به الدوائر و المصائب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۹

بحوث

اشارة

و هنا ملاحظات تسترعی الانتباه:

۱- التّجمعات الکبیرة

یبدو بوضوح- من الآیات المذکورة- مدی الأهمیة التی یولیها الإسلام للمجتمعات الکبیرة، و الأماکن المزدحمة بالسکان، و الجمیل فی الأمر أنّ الإسلام قد نهض و بزغ نوره من محیط متخلف، محیط لا تشم منه رائحة التمدن و التطور، إلّا أنّه فی الوقت نفسه یهتم اهتماما خاصّا بالعوامل البناءة التی تنهض بالمجتمع، و تحلّق به فی أجواء التطور و الرقی، فنراه یقرر أنّ هؤلاء الذین یعیشون فی مناطق نائیة عن المدینة أکثر تخلفا من أهل المدن، لأنّهم لا یملکون الوسائل الکافیة للتعلیم و التربیة فتخلفوا، و لهذا نقرأ

فی نهج البلاغة قول أمیر المؤمنین علیه السّلام: «الزموا السواد الأعظم، فإنّ ید اللّه مع الجماعة»[۵۹].

إلّا أنّ هذا الکلام لا یعنی أن یتجه کل الناس إلی المدن، و یترکوا القری- التی هی أساس عمران المدن- تعبث بها ید الخراب، بل یجب السّعی فی إیصال علم و تقدم المدینة إلی القریة، و تقویة أسس التربیة و التعلیم و أصول الدین و الوعی و نشرها بین صفوف القرویین.

و لا شک أنّ سکان القری إذا ترکوا علی حالتهم و لم تفتح علیهم نافذة من العلوم المدنیة و آیات الکتب السماویة، و تعلیمات و توجیهات النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الهداة الکرام، فسیحل بهم الکفر و النفاق سریعا و یأخذ منهم مأخذا عظیما. إنّ هؤلاء لهم استعداد أکبر لقبول التربیة السلیمة و التعلیم الصحیح لصفاء قلوبهم، و بساطة أفکارهم، و قلّة انتشار المکر و المراوغة التی تعم المدن بینهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۰

۲- الأعراب من سکان المدن

إنّ کلمة (الأعرابی) و إن کانت تعنی ساکن البادیة، إلّا أنّها استعملت بمعنی أوسع فی الأخبار و الرّوایات الإسلامیة، و بتعبیر آخر: فإنّ مفهومها الإسلامی لا یرتبط أو یتحدد بالمنطقة الجغرافیة التی یشغلها الأعراب، بل تعبر عن منهجیة فی التفکیر، فإنّ من کان فی منأی عن الآداب و السنن و التربیة الإسلامیة فهو من الاعراب و إن کان سکان المدن، أمّا سکّان البادیة الملتزمون بالآداب و السنن الإسلامیة فلیسوا بأعراب.

الحدیث المشهور المنقول عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من لم یتفقه منکم فی الدین فهو أعرابی»[۶۰]

دلیل قوی و شاهد واضح علی الکلام أعلاه.

و فی خبر آخر نقرأ: «من الکفر التعرب بعد الهجرة».

و نقل أیضا

عن علی علیه السّلام فی نهج البلاغة أنّه خاطب جماعة من أصحابه العاصین لأمره فقال: «و اعلموه أنّکم صرتم بعد الهجرة أعرابا»[۶۱]

فی الحدیثین أعلاه جعل «التعرب» مقابل «الهجرة»، و إذا لا حظنا أنّ للهجرة أیضا مفهوما واسعا لا یتحدد بالجانب المکانی، بل إنّ أساسها انتقال الفکر من محور الکفر إلی محور الإیمان، اتّضح معنی کون الفرد أعرابیا، أی أنّه یعنی الرجوع عن الآداب و السنن

الإسلامیة إلی الآداب و العادات الجاهلیة.

۳- نطالع فی الآیة المذکورة أعلاه الواردة فی حق المؤمنین من الأعراب، أنّ هؤلاء یعتبرون إنفاقهم أساس القرب من اللّه تعالی، خاصّة و أنّ هذه الکلمة قد وردت بصیغة الجمع (قربات)، و هی توحی أنّ هؤلاء لا یبتغون من إنفاقهم قربة واحدة، بل قربات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۱

و ممّا لا شک فیه أنّ القرب و القربة بالنسبة إلی اللّه سبحانه و تعالی لا تعنی القرب المکانی، بل القرب المقامی، أی السیر إلی الذات المقدسة و الکمال المطلق و التعرض لأنوار صفات جماله و جلاله و فی دائرة الفکر و الروح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۲

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۱۰۰]

اشارة

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِینَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۱۰۰)

التّفسیر

السّابقون إلی الإسلام:

بالرغم من أن المفسّرین قد نقلوا أسبابا عدیدة للنزول، إلّا أنّ أیّا منها- کما سنری- لیس سببا للنزول، بل إنّها فی الواقع بیان المصداق و الوجود الخارجی لها.

علی کل حال، فإنّ هذه الآیة- التی وردت بعد الآیات المتحدثة عن حال الکفار و المنافقین- تشیر إلی مجموعات و فئات مختلفة من المسلمین المخلصین، و قسمتهم إلی ثلاثة أقسام:

الأوّل: السابقون فی الإسلام و الهجرة: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِینَ

الثّانی: السابقون فی نصرة و حمایة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه المهاجرین:

وَ الْأَنْصارِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۳

الثّالث: الذین جاؤوا بعد هذین القسمین و اتبعوا خطواتهم و مناهجهم، و قبولهم الإسلام و الهجرة، و نصرتهم للدین الإسلامی، فإنّهم ارتبطوا بهؤلاء السابقین:

وَ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ ۶۲].

ممّا قلناه یتبیّن أنّ المقصود من «بإحسان» فی الحقیقة هو بیان الأعمال و المعتقدات لهؤلاء السابقین إلی الإسلام التی ینبغی اتباعها، و بتعبیر آخر فإنّ (إحسان) وصف لبرامجهم التی تتّبع.

و قد احتمل أیضا فی معنی الآیة أنّ (إحسان) بیان لکیفیة المتابعة، أی أن هؤلاء یتبعونهم بالصورة اللائقة و المناسبة. ففی الصورة الأولی الباء فی (بإحسان) بمعنی (فی)، و فی الصورة الثّانیة بمعنی (مع). إلّا أنّ ظاهر الآیة مطابق للتفسیر الأوّل.

و بعد ذکر هذه الأقسام الثّلاثة قالت الآیة: رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ

إن رضـى اللّه سبحانه و تعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم و أعمالهم الصالحة التى عملوها، و رضاهم عن اللّه لما أعد لهم من الجزاء و العطايا المختلفة التى لا تدركها عقول البشر. و بتعبير آخر، فإنّ هؤلاء قد نفذوا كل ما أراده اللّه منهم، و فى المقابل أعطاهم اللّه كل ما أرادوا، و على هذا فكما أنّ اللّه سبحانه راض عنهم، فإنّهم راضون عن اللّه تعالى.

و مع أنّ الجملة السابقة قد تضـمنت كل المواهب و النعم الإلهية، المادية منها و المعنوية، الجسـمية و الروحية، لكن الآية أضافت من باب التأكيد، و بيان التفصيل بعد الإجمال: وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهارُ و من امتيازات هذه النعمة أنّها خالدة، و سيبقى هؤلاء خالِدِينَ فِيها و إذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب المادية و المعنوية أيقنا أن ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۴

أيّ فوز أعلى و أكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه و معبوده و مولاه قد رضى عنه، و قد وقّع على قبول أعماله؟ و أى فوز أعلى من أن يحصل الإنسان على مواهب خالدة نتيجة أعمال محدودة يعملها فى أيّام هذا العمر الفانى؟

بحوث

۱- موقع السّابقين

فى كل ثورة اجتماعيـة جبارة تقوم ضـد أوضاع المجتمع الفاسـدة، فإنّ طلائع الثورة هم أعمدتها، و على عاتقهم يقع حملها و ثقلها، و هؤلاـء فى الحقيقـة هم أوفى عناصـر الثورة، لأـنّهم نصـروا قائـدهم و قـدوتهم فى أحلك الظروف و التفوا حوله فى ساعات المحنـة و الوحـدة رغم أنّهم محاصـرون و تحيـط بهم أنواع الأخطار إلّا أنّهم لم يتخلوا عن دعمهم و نصـرتهم و تضـحيتهم. خاصّـة و إن مطالعة تاريخ صدر الإسـلام تعطى صورة واضحة عن مدى ضخامة المشاكل التى واجهها السابقون و الرعيل الأوّل من المسلمين! كيف كانوا يؤذونهم و يعذبونهم لكنّهم لم يصـرخوا و لم يتأوهوا رغم شدة آلامهم، كانوا يتهمونهم، يسـحبونهم بالسـلاسل، و بالتالى يقتلونهم. و رغم كـل ذلـك، فـإنّ هؤلاء قـد وضـعوا قـدما فى هـذا السبيل بإرادة حديديـة، و عشق ملتهب، و عزم راسـخ، و إيمان عميق، و وطنوا أنفسهم على تحمل أنواع المخاطر و المصاعب.

و من بين هؤلاء كان سـهم المهاجرين الأوّلين هو الأرجـح، و من بعدهم الأنصار الأوائل، أى الذين دعوا النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينـة و اسـتقبلوه برحابـة و أسـكنوا أصـحابه و اعتبروهم كـإخوانهم، و دافعوا عنهم بكل وجودهم، بل قـدموهم حتى على قومهم. و إذا كانت الآية أعلاه قد أولت هذين القسمين اهتماما خاصا، فلهذه العوامل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۵

إلّا أنّ القرآن الكريم فى الوقت نفسه- كمـا هى طريقته دائمـا- لم يبخس حقّ الآـخرين، و ذكر كـل الأقسام و الفئات الأخرى الـذين التحقوا فى عصـر النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أو الأعصار التاليـة، و الـذين هاجروا، أو آووا المهاجرين و نصـروهم تحت عنوان التابعين بإحسان، و بشر الجميع بالأجر و الجزاء الحسن.

۲- من هم التابعون؟

اصـطلح جماعـة من العلماء على أنّ كلمـة «التابعين» تعنى تلامـذة الصـحابة، و جعلوها من مختصاتهم، أى أولئك الذين لم يروا النّبى الأـكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، لكنّهم تصـدوا لاكتسـاب العلوم الإسـلامية و وسـعوها، و بعبـارة أخرى: إنّهم اكتسـبوا علـومهم

الإسلامیة من صحابة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و لکن مفهوم الآیة- کما قلنا قبل قلیل- من الناحیة اللغویة و إلّا ینحصر بهذه المجموعة و لا یختص بها، بل یشمل کل الفئات و المجموعات التی اتبعت برامج و أهداف الطلائع الإسلامیة و السابقون إلی الإسلام فی کل عصر و زمان.

و توضیح ذلک أنّه علی خلاف ما یعتقده البعض من أن الهجرة و النصرة- اللتین هما من المفاهیم الإسلامیة البناءة- مختصتان بعصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فإنّهما توجدان فی کل عصر- و حتی فی عصرنا الحاضر- و لکن بأشکال أخری، و علی هذا فإنّ کل الأفراد الذین یسیرون فی هذا المسیر- مسیر الهجرة و النصرة- یدخلون تحت هذین المفهومین.

إذن، المهم أن نعلم أن القرآن الکریم بذکره کلمة (إحسان) یؤکّد علی أن اتباع خط السابقین إلی الإسلام، و السیر فی طریقهم یجب أن لا یبقی فی حدود الکلام و الادعاء، بل و حتی مجرّد الإیمان الخالی من العمل، بل یجب أن تکون هذه المتابعة أو الاتباع اتباعا فکریا و عملیا و فی کل الجوانب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۶

۳- من هو أوّل من أسلم؟

إنّ أکثر المفسّرین یطرح هنا سؤالا- لمناسبة بحث الآیة- و هو: من هو أوّل من أسلم، و ثبت هذا الافتخار العظیم باسمه فی التاریخ؟ و فی جواب هذا السؤال، فقد قالوا بالإجماع، إنّ أوّل من أسلم من النساء خدیجة زوجة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الوفیة المضحیة. و أمّا من الرجال فکل علماء الشیعة و مفسریهم، و فریق کبیر من أهل السنة قالوا: إنّ علیّا علیه السّلام أوّل من أسلم و لبّی دعوة النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

إنّ اشتهار هذا الموضوع بین علماء أهل السنة بلغ حدا ادّعی جماعة منهم الإجماع علیه و اتفقوا علی ذلک. و من جملة هؤلاء الحاکم النیسابوری فی (المستدرک علی الصحیحین) و فی کتاب (المعرفة)، فإنّه یقول فی ص ۲۲: لا أعلم خلافا بین أصحاب التواریخ أنّ علی بن أبی طالب رضی اللّه عنه أوّلهم إسلاما، و إنّما اختلفوا فی بلوغه [۶۳].

و کتب ابن عبد البر فی (الاستیعاب) ج ۲، ص ۴۵۷: اتفقوا علی أنّ خدیجة أوّل من آمن باللّه و رسوله و صدقه فیما جاء به، من علی بعدها[۶۴].

و کتب أبو جعفر الإسکافی: قد روی الناس کافة افتخار علی بالسبق إلی الإسلام.[۶۵] و بعد هذا، فإنّ الرّوایات الکثیرة التی نقلت عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و عن علی علیه السّلام نفسه، و الصحابة- فی هذا الباب بلغت حد التواتر، و کنموذج لها نورد هنا بعض الأحادیث:

-۱

قال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «أوّلکم ورودا علی الحوض أوّلکم إسلاما، علی بن أبی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۷

طالب علیه السّلام».[۶۶]

-۲

نقل جماعة من علماء أهل السنة عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه أخذ بید علی علیه السّلام و قال:

«إنّ هذا أوّل من آمن بی، و هذا أوّل من یصافحنی، و هذا الصدیق الأکبر».[۶۷]

-۳

نقل أبو سعيد الخدرى عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه وضع يده بين كتفى على عليه السّلام و قال:

«يا على، لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة: أنت أوّل المؤمنين باللّه إيمانا، و أوفاهم بعهد اللّه، و أقومهم بأمر اللّه ...»[۶۸]

و كما أشرنا سابقا، فإنّ عشرات الرّوايات فى مختلف كتب التأريخ و التّفسير و الحديث قد نقلت عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و آخرين فى هذا الباب، و من أراد مزيد الاطلاع فليراجع الجزء الثّالث من الغدير ص ۲۲۰- ۲۴۰، و كتاب إحقاق الحق الجزء ۳ ص ۱۱۴- ۱۲۰.

و هنا التفاتة لطيفة، و هى أنّ جماعة لما لم يستطيعوا إنكار سبق على عليه السّلام فى الإيمان و الإسلام سعوا إلى إنكار ذلك بأساليب أخر، أو التقليل من أهمية هذا الموضوع، و البعض يحاول أن يجعل أبا بكر مكان على عليه السّلام، و يدعى أنّه أول من أسلم.

فهم يقولون تارة إنّ عليّا عليه السّلام فى ذلك الوقت كان فى العاشرة من عمره، و هو غير بالغ طبعا، و على هذا فإن إسلامه يعنى إسلام صبى، و مثل هذا الإسلام لم يكن له تأثير فى تقوية جبهة المسلمين و زيادة اقتدارهم فى مقابل الأعداء (هذا القول ذكره الفخر الرازى فى تفسيره فى ذيل الآية).

و هذا عجيب حقّا، و هو فى الحقيقة إيراد و اعتراض على شخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۸

لأنا نعلم أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد عرض الإسلام على عشيرته و قومه يوم الدار، و لم يقبله إلّا علىّ عليه السّلام حين قام و أعلن إسلامه، فقبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إسلامه، بل و خاطبه بأنّك:

أخى و وصى و خليفتى.

إنّ هذا الحديث الذى نقله جماعة من حفاظ الحديث، من الشيعة و السنة، فى كتب الصحاح و المسانيد، و كذلك جمع من مؤرخى الإسلام، و استندوا عليه، يبيّن أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مضافا إلى قبوله إسلام على عليه السّلام فى ذلك السن الصغير، فإنّه عرفه للحاضرين- و للناس فيما بعد- بأنّه أخوه و وصيه و خليفته ۶۹].

و يعبرون تارة أخرى بأنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة، و من الرجال أبو بكر، و من الصبيان على عليه السّلام، و أرادوا بهذا التعبير أن يقللوا من أهمية إسلام على عليه السّلام. (ذكر هذا التعبير المفسّر المعروف و المتعصّب صاحب المنار فى ذيل الآية المبحوثة).

إلّا أنّ أوّلا: كما قلنا، إنّ سن على عليه السّلام الصغير فى ذلك اليوم لا يقدح فى أهمية الأمر بأى وجه، و لا يقلل من شأنه، خاصّة و أن القرآن الكريم قال فى شأن يحيى:

وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا[۷۰]، و كذلك نقرأ ما قاله فى شأن عيسى عليه السّلام من أنّه تكلم و هو فى المهد، و خاطب أولئك الذين وقعوا فى حيرة و شك من أمره و قال: إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِی نَبِيًّا[۷۱].

إنّنا إذا ما ضممنا مثل هذه الآيات إلى الحديث الذى نقلناه آنفا من أنّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم جعل عليّا عليه السّلام وصيه و خليفته اتّضح أن كلام صاحب المنار لم يصدر إلّا عن تعصب مقيت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۹

ثانيا: إنّ من غير المسلم تاريخيا أنّ أبا بكر هو ثالث من أسلم، بل ذكروا فى كثير من كتب التاريخ و الحديث جماعة أخرى أسلمت قبله.

و ننهى هذا البحث بذكر هذا المطلب، و هو أنّ عليا عليه السّلام أشار مرارا و تكرارا فى خطبه إلى أنّه أوّل من أسلم، و أوّل من آمن، و أوّل من صلّى مع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و بيّن موقعه من الإسلام، و هذه المسألة قد نقلت عنه فى كثير من الكتب.

إضافة إلى أنّ ابن أبى الحديد نقل عن العالم المعروف أبى جعفر الإسكافى المعتزلى، أن البعض يقول: إذا كان أبو بكر قد سبق إلى الإسلام، فلما ذا لم يستدل لنفسه بذلك فى أى موقف؟ بل و لم يدّع ذلك أى أحد من مواليه من الصحابة.[۷۲]

۴- هل كان الصحابة كلهم صالحين؟

لقد أشرنا سابقا إلى هذا الموضوع، و إلى أنّ علماء أهل السنة يعتقدون- عادة- بأن جميع أصحاب النّبى فاضلون و صالحون و من أهل الجنّة. و لمناسبة الآية لهذا البحث، و التى جعلها البعض دليلا قاطعا على هذا المدعى، فإنّنا هنا نحلّل و نفصل هذا الموضوع المهم الذى يعتبر أساسا و منبعا لاختلاف كثيرة أخرى فى المسائل الإسلامية.

إنّ كثيرا من مفسّرى أهل السنة نقلوا حديثا فى ذيل هذه الآية، و هو أن حميد بن زياد قال: ذهبت إلى محمّد بن كعب القرظى و قلت له: ما تقول فى أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فقال: جميع أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى الجنّة، محسنهم و مسيئهم! فقلت: من أين قلت هذا؟ فقال: اقرأ هذه الآية: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ إلى قوله تعالى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ثمّ قال: لكن قد اشترط فى التابعين أن يتبعوا الصحابة فى أعمال الخير (ففى هذه الصورة فقط هم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۰

الناجين، أمّا الصحابة فلم يشترط عليهم هذا الشرط)[۷۳].

إلّا أنّ هذا الادعاء لا يمكن قبوله، و هو مردود بأدلة كثيرة:

أوّلا: إن الحكم المذكور فى الآية يشمل التابعين أيضا، و المقصود من التابعين- كما أشرنا سابقا- كل الذين يتبعون المهاجرين و الأنصار السابقين فى معتقداتهم و أهدافهم و برامجهم، و على هذا فإنّ كل الأمّة بدون استثناء ناجية.

و أمّا ما ورد فى حديث محمّد بن كعب، من أنّ اللّه سبحانه و تعالى قد ذكر قيد الإحسان فى التابعين، أى أتباع الصحابة فى أعمالهم الحسنة، لا فى ذنوبهم، فهو أعجب البحوث و أغربها، لأنّ مفهوم ذلك إضافة الفرع إلى الأصل، فعند ما يكون شرط نجاة التابعين أن يتبعوا الصحابة فى أعمالهم الحسنة، فاشتراط هذا الشرط على الصحابة أنفسهم يكون بطريق أولى.

و بتعبير آخر فإنّ اللّه تعالى يبيّن فى الآية أن رضاه يشمل كل المهاجرين و الأنصار السابقين الذين كانت لهم برامج و أهداف صالحة، و كل التابعين لهم، لا أنّه قد رضى عن المهاجرين و الأنصار، الصالح منهم و الطالح، أمّا التابعون فإنّه يرضى عنهم بشرط.

ثانيا: إنّ هذا الموضوع لا يناسب الدليل العقلى بأى وجه من الوجوه، لأنّ العقل لا يعطى أى امتياز لأصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فما الفرق بين أبى جهل و أمثاله، و بين من آمنوا أوّلا ثمّ انحرفوا عن الدين؟

و لماذا لا تشمل رحمة البارى و الرضوان الإلهى الأشخاص الذين جاؤوا بعد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بسنوات و قرون، و لم تكن تضحياتهم و جهادهم أقل ممّا عمله أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بل قد امتازوا بأنهم لم يروا نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لكنّهم عرفوه و آمنوا به؟

إنّ القرآن الذى يقول: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ كيف يرضى هذا التبعيض و التفرقة غير المنطقية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۱

إنّ القرآن الذى يلعن الظالمين و الفاسقين فى آياته المختلفة، و يعدهم ممّن استوجب العقاب و العذاب الإلهى، كيف يوافق و يقرّ هذه الصيانة غير المنطقية للصحابة فى مقابل الجزاء الإلهى؟! هل إنّ مثل هذه اللعنات و التهديدات القرآنية قابلة للاستثناء، و أن يخرج من دائرتها قوم معينون؟ لماذا و لأجل أى شى؟! و إذا تجاوزنا عن كل ذلك، ألا يعتبر مثل هذا الحكم بمثابة إعطاء الضوء الأخضر للصحابة ليرتكبوا من الذنب و الجريمة ما يحلو لهم؟

ثالثا: إنّ هذا الحکم لا یناسب المتون التأریخیة الإسلامیة، لأنّ کثیرا ممّن کان فی صفوف المهاجرین و الأنصار قد انحرف عن طریق الحق، و تعرض لغضب الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم الملازم لغضب اللّه عزّ و جلّ. ألم نقرأ فی الآیات السابقة قصّة ثعلبة بن حاطب الأنصاری، و کیف انحرف و أصبح مورد لعنة و غضب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم؟! و نقول بصورة أوضح: إذا کان مقصود هؤلاء أنّ أصحاب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یرتکبوا أی معصیة، و کانوا معصومین، فهذا من قبیل إنکار البدیهیات.

و إن کان مقصودهم أنّ هؤلاء قد ارتکبوا المعاصی، و عملوا المخالفات، إلّا أنّ اللّه تعالی راض عنهم رغم ذلک، فإنّ معنی ذلک أن اللّه سبحانه قد رضی بالمعصیة! من یستطیع أن یبرئ ساحة طلحة و الزبیر اللذین کانا فی البدایة من خواص أصحاب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و کذلک عائشة زوجة النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم من دماء سبعة عشر ألف مسلم أریقت دماؤهم فی حرب الجمل؟ هل أنّ اللّه عزّ و جلّ کان راضیا عن إراقة هذه الدماء؟! هل إنّ مخالفة علی علیه السّلام خلیفة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم- الذی إذا لم نقبل النّص علی خلافته فرضا، فعلی الأقل کان قد انتخب بإجماع الأمّة- و شهر السلاح بوجهه و بوجه أصحابه الأوفیاء شیء یرضی اللّه عنه؟

فی الحقیقة، إنّ أنصار نظریة (تنزیه الصحابة) بإصرارهم علی هذا المطلب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۲

و المبحث قد شوهوا صورة الإسلام الطاهر الذی جعل الإیمان و العمل الصالح هو المعیار و الأساس الذی یستند علیه فی تقییم الأشخاص فی کل المجالات و علی أی الأحوال.

و آخر الکلام إن رضی اللّه سبحانه و تعالی فی الآیة التی نبحثها قد اتخذ عنوانا کلیا، و هو الهجرة و النصرة و الإیمان و العمل الصالح، و کل الصحابة و التابعین تشملهم رحمة اللّه و رضاه ما داموا داخلین تحت هذه العناوین، فإذا خرجوا منها خرجوا بذلک عن رضی اللّه تعالی.

ممّا قلنا یتّضح بصورة جلیة أنّ قول المفسّر العالم- لکنّه متعصب- أی صاحب المنار، الذی یشن هنا هجوما عنیفا و تقریعا لاذعا علی الشیعة لعدم اعتقادهم بنزاهة الصحابة جمیعا، لا قیمة له، إذ الشیعة لا ذنب لهم إلّا أنّهم قبلوا حکم العقل و شهادة التاریخ، و شواهد القرآن و أدلّته التی وردت فی هذه المسألة، و لم یعتبروا الامتیازات الواهیة، و الأوسمة التی أعطاها المتعصبون للصحابة بدون استحقاق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۳

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۱۰۱]

اشارة

وَ مِمَّنْ حَوْلَکُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِینَةِ مَرَدُوا عَلَی النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَیْنِ ثُمَّ یُرَدُّونَ إِلی عَذابٍ عَظِیمٍ (۱۰۱)

التّفسیر

مرّة أخری یدیر القرآن المجید دفة البحث إلی أعمال المنافقین و فئاتهم، فیقول: وَ مِمَّنْ حَوْلَکُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ أی یجب أن لا ترکزوا اهتمامکم علی المنافقین الموجودین داخل المدینة، بل ینبغی أن تأخذوا بنظر الإعتبار المنافقین المتواجدین فی أطراف

المدینة، و تحذروهم، و تراقبوا أعمالهم و نشاطاتهم الخطرة. و کلمة (أعراب) کما أشرنا تقال عادة لسکان البادیة.

ثمّ تضیف الآیة بأنّ فی المدینة نفسها قسما من أهلها قد وصلوا فی النفاق إلی أقصی درجاته، و ثبتوا علیه، و أصبحوا ذوی خبرة فی النفاق: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِینَةِ مَرَدُوا عَلَی النِّفاقِ

(مردوا) مأخوذة من مادة (مرد) بمعنی الطغیان و العصیان و التمرد المطلق، و هی فی الأصل بمعنی التعری و التجرّد، و لهذا یقال لمن لم ینبت الشعر فی وجهه:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۴

(أمرد)، و شجرة مرداء، أی خالیة من أی ورقة، و المارد هو الشخص العاصی الذی خرج علی القانون و عصاه کلیة.

و قال بعض المفسّرین و أهل اللغة: إنّ هذه المادة تأتی بمعنی (التمرین) أیضا.

(ذکر فی تاج العروس و القاموس أن التمرین واحد من معانی هذه الکلمة). و ربّما کان ذلک، لأنّ التجرد المطلق من الشیء، و الخروج الکامل من هیمنته لا یمکن تحققه بدون تمرین و ممارسة.

علی کل حال، فإنّ هؤلاء المنافقین قد انسلخوا من الحق و الحقیقة، و تسلطوا علی أعمال النفاق إلی درجة أنّهم کانوا یستطیعون أن یظهروا فی مصاف المؤمنین الحقیقین، دون أن ینتبه أحد إلی حقیقتهم و مراوغتهم.

إنّ هذا التفاوت فی التعبیر عن المنافقین الداخلیین و الخارجیین فی الآیة یلاحظ جلیا، و ربّما کان ذلک إشارة إلی أنّ المنافقین الداخلیین أکثر تسلطا علی النفاق، و بالتالی فهم أشد خطرا، فعلی المسلمین أن یراقبوا هؤلاء بدقّة، لکن یجب أن لا یغفلوا عن المنافقین الخارجین، بل یراقبونهم أیضا. لذلک تقول الآیة مباشرة بعد ذلک لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ و من الطبیعی أنّ هذا إشارة العلم الطبیعی للنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و لکن هذا لا ینافی أن یقف کاملا علی أسرارهم عن طریق الوحی و التعلیم الإلهی.

و فی النهایة تبیّن الآیة صورة العذاب الذی سیصب هؤلاء: سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَیْنِ ثُمَّ یُرَدُّونَ إِلی عَذابٍ عَظِیمٍ

لا شک أنّ العذاب العظیم إشارة إلی عذاب یوم القیامة، إلّا أنّ بین المفسّرین نقاشا و احتمالات عدیدة فی نوعیة العذابین الآخرین و ماهیتهما. إلّا أنّ الذی یرجحه النظر أن واحدا من هذین العذابین هو العقاب الاجتماعی لهؤلاء، و المتمثل فی فضیحتهم و هتک أسرارهم، و الکشف عمّا فی ضمائرهم من خبیث النوایا، و هذا یستتبع خسرانهم لکل وجودهم الاجتماعی، و الدلیل علی ذلک ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۵

قرأناه فی الآیات السابقة، و قد ورد فی بعض الأحادیث أنّ أعمال هؤلاء عند ما کانت تبلغ حد الخطر، کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یعرف هؤلاء الناس بأسمائهم و صفاتهم، بل و ربّما طردهم من المسجد.

و العذاب الثّانی هو ما أشارت إلیه الآیة (۵۰) من سورة الأنفال، حیث تقول هناک: وَ لَوْ تَری إِذْ یَتَوَفَّی الَّذِینَ کَفَرُوا الْمَلائِکَةُ یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ

و یحتمل أیضا أن یکون العذاب الثّانی إشارة إلی المعاناة النفسیة و العذاب الروحی الذی کان یعیشه هؤلاء نتیجة انتصارات المسلمین فی کل الجوانب و الأبعاد و المجالات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۶

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۱۰۲]

اشارة

وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اللَّهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۰۲)

سبب النّزول

نقلت روايات عديدة فى سبب نزول هذه الآية، و نواجه فى أكثرها اسم (أبى لبابة الأنصارى) فهو- حسب رواية- قد امتنع مع اثنين- أو أكثر- من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم من الاشتراك فى غزوة تبوك، لكنّهم لما سمعوا الآيات التى نزلت فى ذم المتخلفين ندموا أشدّ الندم، فجاءوا إلى مسجد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ربطوا أنفسهم بأعمدته، فلمّا رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بلغه أمرهم قالوا بأنّهم أقسموا أن لا يفكوا رباطهم حتى يفكّه رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فأجابهم رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه يقسم أيضا أن لا يفعل ذلك حتى يأذن له اللّه، فنزلت الآية، و قبل اللّه توبتهم، ففكّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم رباطهم.

فأراد هؤلاء أن يشكروا ذلك، فقدموا كل أموالهم بين يدى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: إنّ هذه الأموال هى التى صرفتنا و منعتنا عن الجهاد، فاقبلها منّا، و أنفقها فى سبيل اللّه، فأخبرهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه لم ينزل عليه شىء فى هذا. فلم تمض مدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۷

حتى نزلت الآية التى تلى هذه الآية، و أمرت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأخذ قسما من أموال هؤلاء، و حسب بعض الرّوايات فإنّه قبل ثلثها.

و نقرأ فى بعض الرّوايات، أن هذه الآية قد نزلت فى قصّة بنى قريظة مع أبى لبابة، فإن بنى قريظة قد استشاروا أبا لبابة فى أن يسلّموا لحكم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أوامره، فأشار إليهم بأنّهم إن سلّموا له فسيقتلهم جميعا، ثمّ ندم على ما صدر، فتاب و شدّ نفسه بعمود المسجد، فنزلت الآية، و قبل اللّه تعالى توبته ۷۴].

التّفسير

التّوابون:

بعد أن أشارت الآية السابقة إلى وضع المنافقين فى داخل المدينة و خارجها، أشارت هذه الآية هنا إلى وضع جمع من المسلمين العاصين الذين أقدموا على التوبة لجبران الأعمال السيئة التى صدرت منهم، و رجاء لمحوها: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ و يشملهم برحمته الواسعة ف إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

إنّ التعبير ب (عسى) فى الآية، و التى تستعمل فى الموارد التى يتساوى فيها احتمال الفوز و عدمه، أو تحقق الأمل و عدمه، ربّما كان ذلك كيما يعيش هؤلاء حالة الخوف و الرجاء، و هما وسيلتان مهمتان للتكامل و التربية.

و يحتمل أيضا أنّ التعبير ب (عسى) إشارة إلى وجوب الالتزام بشروط أخرى فى المستقبل، مضافا إلى الندم على ما مضى و التوبة منه و عدم الاكتفاء بذلك بل يجب أن تجبر الأعمال السيئة التى ارتكبت فيما مضى بالأعمال الصالحة مستقبلا.

إلّا أنّنا إذا لا حظنا أن الآية تختم ببيان المغفرة و الرحمة الإلهية، فإن جانب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۸

الأمل و الرجاء هو الذى يرجح.

و هناك ملاحظة واضحة أيضا، و هى أن نزول الآية فى أبى لبابة، أو سائر المتخلفين عن غزوة تبوك لا يخصص المفهوم الواسع لهذه الآية، بل إنّها تشمل كل الأفراد الذين خلطوا الأعمال الصالحة الحسنة بالسيئة، و ندموا على أعمالهم السيئة.

و لهذا نقل عن بعض العلماء قولهم: إنّ هذه الآية أرجى آيات القرآن الكريم، لأنّها فتحت الأبواب أمام المذنبين العاصين، و دعت التّوابين إلى اللّه الغفور الرحيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۹

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۵]

اشارة

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۰۳) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۰۴) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵)

التّفسير

الزّكاة مطهرة للفرد و المجتمع:

فى الآية الأولى من هذه الآيات إشارة إلى أحد الأحكام الإسلامية المهمّة، و هى مسألة الزكاة، حيث تأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشكل عام أن خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً.

إنّ كلمة (من) التبعيضية توضح أنّ الزكاة تشكل- دائما- جزءا من الأموال، لا أنّها تستوعب جميع الأموال، أو الجزء الأكبر منها.

ثمّ تشير إلى قسمين من الفلسفة الأخلاقية و الاجتماعية للزكاة، حيث تقول:

تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها فهى تطهرهم من الرّذائل الأخلاقية، و من حبّ الدنيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۰

و عبادتها، و من البخل و غيره من مساوئ الأخلاق، و تزرع مكانها خلال الحب و السخاء و رعاية حقوق الآخرين فى نفوسهم. و فوق كل ذلك فإنّ المفاسد الاجتماعية و الانحطاط الخلقى و الاجتماعى المتولّد من الفقر و التفاوت الطبقى و الذى يؤدى إلى وجود طبقة محرومة، كل هذه الأمور ستقتلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهية و أدائها، و هى التى تطهر المجتمع من التلوث الذى يعيشه و يحيط به، و كذلك سيفعّل التكافل الاجتماعى، و ينمو و يتطور الإقتصاد فى ظل مثل هذه البرامج.

و على هذا فإنّ حكم الزكاة مطهر للفرد و المجتمع من جهة و يكرّس الفضيلة فى النفوس من جهة أخرى، و هو سبب فى تقدم المجتمع أيضا، و يمكن القول بأنّ هذا التعبير أبلغ ما يمكن قوله فى الزكاة، فهى تزيل الشوائب من جهة، و وسيلة للتكامل من جانب آخر.

و يحتمل أيضا فى معنى هذه الآية أن يكون فاعل (تطهّرهم) هو الزكاة، و فاعل (تزكيهم) (النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم)، و على هذا سيكون معنى هذه الآية هو: إنّ الزكاة تطهرهم، و إن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى يربيهم و يزكيهم.

إلّا أنّ الأظهر أنّ الفاعل فى كلا الفعلين هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، كما شرحنا و بيّنا ذلك فى البداية، رغم أنّه ليس هناك فرق كبير فى النتيجة.

ثمّ تضيف الآية فى خطابها للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّك حينما تأخذ الزكاة منهم فادع لهم وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إنّ هذا يدل على وجوب شكر الناس و تقديرهم، حتى إذا كان ما يؤدونه واجبا عليهم و حكما شرعيا يقومون به، و ترغيبهم بكل الطرق، و خاصّة

المعنوية و النفسية، و لهذا

ورد فى الرّوايات أنّ الناس عند ما كانوا يأتون بالزكاة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يدعو لهم يقول: «اللهم صل عليهم».

ثمّ تقول الآية: إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ لأنّ من بركات هذا الدعاء أن تنزل الرحمة الإلهية عليهم، و تغمر قلوبهم و نفوسهم الى درجة أنّهم كانوا يحسون بها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۱

مضافا إلى ثناء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أو من يقوم مقامه فى جمع زكاة أموال الناس بحدّ ذاته يبعث على خلق نوع من الراحة النفسية و الفكرية لهم، بحيث يشعرون بأنّهم إن فقدوا شيئا بحسب الظاهر، فإنّهم قد حصلوا- قطعا- على ما هو أفضل منه.

اللطيف فى الأمر، أنّنا لم نسمع لحد الآن أن المأمورين بجمع الضرائب مأمورين بشكر الناس و تقديرهم، إلّا أنّ هذا الحكم الذى شرع كحكم مستحب فى الأوامر و الأحكام الإسلامية يعكس عمق الجانب الإنسانى فى هذه الأحكام.

و فى نهاية الآية نقرأ: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ و هذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث فى الآية، إذ أن اللّه سبحانه يسمع دعاء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و مطلع على نيّات المؤدين للزّكاة.

ملاحظات

اشارة

۱- يتّضح من سبب النزول المذكور لهذه الآية، أنّ هذه الآية ترتبط بالآية التى سبقتها فى موضوع توبة أبى لبابة و رفاقه، لأنّهم- و كشكر منهم لقبول توبتهم- أتوا بأموالهم و وضعوها بين يدى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليصرفها فى سبيل اللّه، إلّا أنّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم اكتفى بأخذ قسم منها فقط.

إلّا أنّ سبب النزول هذا لا ينافى- مطلقا- أن هذه الآية بيّنت حكما كليا عاما فى الزكاة، و لا يصحّ ما طرحه بعض المفسّرين من التضاد بين سبب نزولها و ما بينته من حكم كلى، كما قلنا ذلك مكررا فى سائر آيات القرآن و أسباب نزولها.

السؤال الوحيد الذى يبقى هنا، هو أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- حسب رواية- قد قبل ثلث أموال أبى لبابة و أصحابه، فى الوقت الذى لا يبلغ مقدار الزكاة الثلث فى أى مورد، ففى الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب العشر أحيانا، و أحيانا جزء من عشرين جزءا، و فى الذهب و الفضة (۵، ۲٪)، و فى الأنعام (البقر و الغنم و الإبل) لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۲

يصل إلى الثلث مطلقا.

لكن يمكن الإجابة على هذا السؤال بأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد أخذ قسما من أموالهم بعنوان الزكاة، و المقدار الإضافى الذى يكمل الثلث بعنوان الكفّارة عن ذنوبهم، و على هذا فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد أخذ الزكاة الواجبة عليهم، و مقدارا آخر لتطهيرهم من ذنوبهم و تكفيرها فكان المجموع هو الثلث.

۲- إنّ حكم (خذ) دليل واضح على أنّ رئيس الحكومة الإسلامية يستطيع أن يأخذ الزكاة من الناس، لا أنّه ينتظر الناس فإن شاؤوا أدّوا الزكاة، و إلّا فلا.

۳- إنّ جملة صَلِّ عَلَيْهِمْ و إن كانت خطابا للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّه من المسلّم أنّها فى معرض بيان حكم كلّى- لأنّ القانون الكلّى يعنى أن الأحكام الإسلامية تجرى على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و باقى المسلمين على السواء، و مختصات النّبى

من جانب الأحکام یجب أن تثبت بدلیل خاصّ- و علی هذا فإنّ المسؤولین عن بیت المال فی کلّ عصر و زمان یستطیعون أن یدعوا لمؤدی الزکاة بجملة: «اللّهم صلّ علیهم».

و ممّا یثیر العجب أنّ بعض المتعصبین من العامّة لم یجوز الصلاة مستقلة علی آل الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم، أی أنّ شخصا لو قال: (اللّهمّ صلّ علی علیّ أمیر المؤمنین) أو:

(صلّ علی فاطمة الزّهراء) فإنّهم اعتبروا ذلک ممنوعا و حراما! فی الوقت الذی نعلم أنّ منع مثل هذا الدعاء هو الذی یحتاج إلی دلیل، لا جوازه! إضافة إلی أنّ القرآن الکریم- کما قلنا سابقا- قد أجاز بصراحة مثل هذا الدعاء فی حق أفراد عادیین، فکیف بأهل بیت رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و خلفائه؟! لکن، ماذا یمکن عمله؟ فإنّ التعصبات قد تقف أحیانا مانعة حتی من فهم آیات القرآن.

و لمّا کان بعض المذنبین- کالمتخلفین عن غزوة تبوک- یصرّون علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی قبول توبتهم، أشارت الآیة الثّانیة من الآیات التی بین یدینا إلی أنّ قبول التوبة لیس مرتبطا بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، بل باللّه الغفور الرحیم، لذا قالت: أَ لَمْ یَعْلَمُوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۳

أَنَّ اللَّهَ هُوَ یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ و لا ینحصر الأمر بتوقّف قبول التوبة علی قبول اللّه لها، بل إنّه تعالی هو الّذی یأخذ الزکاة و الصدقات الأخری التی یعطیها العباد تقربا إلیه، أو تکفیرا لذنوبهم: وَ یَأْخُذُ الصَّدَقاتِ

لا شکّ فی أنّ الذی یأخذ الزکاة هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أو الإمام المعصوم علیه السّلام أو خلیفة المسلمین و قائدهم، أو الأفراد المستحقون، و فی کلّ هذه الأحوال فإنّ اللّه تبارک و تعالی لا یأخذ الصدقات ظاهرا، و لکن لمّا کانت ید النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و النّواب الحقیقیین ید اللّه سبحانه- لأنّهم خلفاء اللّه و وکلاؤه- قالت الآیة: إنّ اللّه یأخذ الصدقات. و کذلک العباد المحتاجون، فإنّهم بأمر اللّه یأخذون مثل هذه المساعدات، و هم فی الحقیقة وکلاء اللّه، و علی هذا فإنّ یدهم ید اللّه أیضا.

إنّ هذا التعبیر من ألطف التعبیرات التی تجسّد عظمة هذا الحکم الإسلامی- أی الزکاة- فبالرغم من ترغیب کلّ المسلمین و دعوتهم إلی القیام بهذه الوظیفة الإلهیة الکبیرة، فإنّها تحذرهم بشدّة و تأمرهم بأن یراعوا الآداب الإسلامیة و یتقیّدوا باحترام من یؤدونها إلیه، لأنّ من یأخذها هو اللّه عزّ و جلّ، و إنّما حذرتهم حتی لا یتصور بعض الجهال، أنّه لا مانع من تحقیر المحتاجین، أو إعطائه الزکاة بشکل یؤدی إلی تحطیم شخصیة آخذ الزکاة، بل بالعکس علیهم أن یؤدوها بکلّ أدب و خضوع، کما یوصل العبد شیئا إلی مولاه.

ففی روایة عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ الصدقة تقع فی ید اللّه قبل أن تصل إلی ید السائل»[۷۵]!

و

فی حدیث آخر عن الإمام السّجاد علیه السّلام: «إنّ الصدقة لا تقع فی ید العبد حتی تقع فی ید الرّب»[۷۶].

بل إنّ روایة صرّحت بأنّ کلّ أعمال ابن آدم تتلقاها الملائکة إلّا الصدقة، فإنّها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۴

تصل مباشرة إلی ید اللّه سبحانه ۷۷].

هذا المضمون قد ورد فی روایات أهل البیت علیهم السّلام بعبارات مختلفة، و

نقل أیضا عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عن طریق العامّة، فقد جاء فی صحیح مسلم و البخاری: «ما تصدق أحدکم بصدقة من کسب حلال طیب- و لا یقبل اللّه إلّا الطیب- إلّا أخذها الرحمن بیمینه، و إن کانت تمرة، فتربو فی کف الرحمن حتی تکون أعظم من الجبل»[۷۸].

إنّ هذا الحدیث المشحون بالتشبیهات و الکنایات، و العظیم المعنی، مؤشر و دلیل علی الأهمیة الخاصّة للخدمات الإنسانیة و مساعدة

المحتاجين و المحرومين فى الأحكام الإسلامية.

لقد وردت عبارات حديثية أخرى فى هذا المجال، و هى مهمّة و ملفتة للنظر إلى درجة أن اتباع هذا الدين يرون أنفسهم خاضعين لمن يأخذ منهم صدقاتهم، و كأنّ ذلك المحتاج يمن على المتصدّق و يتفضل عليه بقبول صدقته.

فمثلا نجد فى بعض الأحاديث، أن الأئمّة المعصومين عليهم السّلام كانوا أحيانا يقبلون الصّدقة احتراما و تعظيما للصدقة، ثمّ يعطونها الفقراء، أو إنّهم كانوا يعطونها للفقير ثمّ يأخذونها منه يقبّلونها و يشمّونها ثمّ يعيدونها إليه، لماذا؟ لأنّهم وضعوها فى يد اللّه سبحانه! و بهذا ندرك عظيم الفاصلة بين الآداب الإسلامية و بين الأشخاص الذين يحقرون المحتاجين فيما إذا أرادوا أن يعطوا الشيء اليسير، أو يعاملونهم بخشونة و قسوة، بل و يرمون مساعدتهم أحيانا بلا أدب و خلق؟! و كما قلنا فى محلّة، فإنّ الإسلام يسعى بكلّ جدّ على أن لا يبقى فقير واحد فى المجتمع الإسلامى، إلّا أنّه ممّا لا شك فيه أنّ فى كلّ مجتمع أفرادا عاجزين أطفال،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۵

يتامى، مرضى ... و أمثال هؤلاء ممّن لا قدرة له على العمل، و هؤلاء يجب تأمين احتياجاتهم عن طريق بيت المال و الأغنياء، لكن هذا التأمين يجب أن يرافقه احترامهم و صيانة شخصياتهم.

ثمّ قالت الآية فى النهاية من باب التأكيد: وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

التّوبة و الجبران:

يستفاد من عدّة آيات فى القرآن الكريم أنّ التوبة لا تعنى الندم على المعصية فحسب، بل يجب أن يرافقها ما يجبر و يكفر عن الذنب، و يمكن أن يتمثل جبران هذا الخطأ بمساعدة المحتاجين ببذل ما يحتاجونه، كما هو فى هذه الآيات، و كما مرّ فى قصّة أبى لبابة.

و لا فرق فى كون الذنب المقترف ذنبا ماليا، أو أى ذنب آخر، كما هو الحال فى قضية المتخلفين عن غزوة تبوك، فإنّ الهدف فى الواقع هو تطهير الروح التى تلوّثت بالمعصية من آثار هذه المعصية، و ذلك بالعمل الصالح، و هذا هو الذى يرجع الروح إلى طهارتها الأولى التى كانت عليها قبل الذنب.

و توكّد الآية التى تليها البحوث التى مرّت بصورة جديدة، و تأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبلغ الناس: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ فهى تشير إلى أن لا يتصور أحد أنّه إذا عمل عملا، سواء فى خلوته أو بين الناس فإنّه سيخفى على علم اللّه سبحانه، بل إنّ الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين يعلمون به إضافة إلى علم اللّه عزّ و جلّ.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة و الإيمان بها له أعمق الأثر فى تطهير الأعمال و النيات، فإنّ الإنسان- عادة- إذا أحسّ بأنّ أحدا ما يراقبه و يتابع حركاته و سكناته، فإنّه يحاول أن يتصرّف تصرفا لا نقص فيه حتى لا يؤاخذه عليه من يراقبه، فكيف إذا أحسّ و آمن بأنّ اللّه و رسوله و المؤمنين يطلعون على أعماله؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۶

إنّ هذا الاطلاع هو مقدمة للثواب أو العقاب الذى ينتظره فى العالم الآخر، لذا فإنّ الآية الكريمة تعقب على ذلك مباشرة و تقول: وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

ملاحظات

۱- مسألة عرض الأعمال

إنّ بين أتباع مـذهب أهل البيت عليهم السّـلام، و نتيجـة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمّة عليهم السّـلام، عقيدة معروفة و مشـهورة، و هى أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و الأئمّة عليهم السّلام يطلعون على أعمال كل الأمّة، أى أنّ اللّه تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصّة عليهم.

إنّ الرّوايات الواردة فى هذا الباب كثيرة جدّا، و ربّما بلغت حدّ التواتر، و ننقل هنا أقساما منها كنماذج:

روى عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّه قال: «تعرض الأعمال على رسول اللّه أعمال العباد كل صباح، أبرارها و فجارها، فاحذروها، و هو قول اللّه عزّ و جلّ: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ و سكت ۷۹].

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّـلام: «إنّ الأعمال تعرض على نبيّكم كل عشـية الخميس، فليستح أحدكم أن يعرض على نبيّه العمل القبيح»[۸۰].

و

فى رواية أخرى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام، أنّ شخصا قال له: ادع اللّه لى و لأهل بيتى، فقال: «أ و لست أفعل؟ و اللّه أنّ أعمالكم لتعرض علىّ فى كل يوم و ليلة». يقول الراوى، فاستعظمت ذلک، فقال لى، «أمّا تقرأ كتاب اللّه عزّ و جلّ:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۷

وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ هو و اللّه على بن أبى طالب»[۸۱].

إنّ بعض هذه الأخبار ورد فيها ذكر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقط، و فى بعضها على عليه السّلام، و فى بعضها الآخر ذكر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سـلّم و الأئمّة عليهم السّـلام، كما أنّ بعضـها قد خص وقت عرض الأعمال بعصـر الخميس، و بعضها جعله كل يوم، و بعضها فى الأسبوع مرّتين، و بعضها فى أوّل كل شهر، و بعضها عند الموت و الوضع فى القبر.

و من الواضـح أنّ لاـ منافـاة بين هـذه الرّوايـات، و يمكن أن تكون كلّهـا صـحيحة، تمامـا كما هو الحال فى دسـتور عمل المؤسـسات الخيرية، فالمحصـلة اليومية تعرض فى نهاية كل يوم، و الأسـبوعية منها فى نهاية كل أسـبوع، و الشـهرية أو السـنوية فى نهاية الشهر أو السنة على المسؤولين فى المراتب العليا.

و هنا يطرح سؤال، و هو: هل يمكن اسـتفادة هذا الموضوع من نفس الآية مع غضّ النظر عن الرّوايات التى وردت فى تفسيرها؟ أم أنّ الأـمر كمـا قـاله مفسّـر و العامّـة، و هو أنّ الآيـة تشـير إلى أمر طبيعى، و هو أنّ الإنسان إذا عمل أى عمل، فإنّه سـيظهر، شاء أم أبى، و مضافا إلى علم اللّه سبحانه، فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين سيطلعون على ذلک العمل بالطرق الطبيعة؟

و فى الجواب عن هذا السؤال يجب أن يقال: الحق أنّ لدنيا شواهد على هذا الموضوع من نفس الآية، و ذلک:

أوّلا: إنّ الآيـة مطلقة، و هى تشـمل جميع الأعمال، فإنّا نعلم أن جميع الأعمال لا يمكن أن تتّضح للنّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و المؤمنين بالطرق العادية الطبيعية، لأنّ أكثر المعاصى ترتكب فى السر، و تبقى مستترة عن الأنظار و العلم غالبا، بل إنّ الكثير من أعمال الخير أيضـا تعمـل فى السـرّ، و يلفهـا الكتمان. و دعوى أن كل الأعمال، الصالحـة منها و الطالحـة، أو أغلبها تتّضـح للجميع واضـحة و البطلان و بعيدة كل البعد عن المنطق و الحكمة. و على هذا فإنّ علم النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين بأعمال الناس يجب أن يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۸

عن طريق غير طبيعى، بل عن طريق التعليم الإلهى.

ثانيا: إنّ آخر الآية يقول: فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و لا شک أنّ هذه الجملة تشـمل كل أعمال البشـر- العلنية منها و المخفية- و ظاهر

تعبیر الآیـة أنّ المقصود من العمل الوارد فی أولها و آخرها واحد، و علی هذا فإن أول الآیة یشـمل أیضا کل الأعمال- الظاهرة منها و الباطنة- و لا شک أنّ الوقوف علیها کاملا لا یمکن بالطرق المعروفة الطبیعیة.

و بتعبیر آخر، فإنّ نهایة الآیة تتحدث عن جزاء جمیع الأعمال، و کذلک تبحث بدایة الآیة علم اللّه و رسوله و المؤمنین بکل الأعمال، فهنا مرحلتان: إحداهما:

مرحلة الاطلاع و العلم، و الأخری: مرحلة الجزاء، و الموضوع واحد فی المرحلتین.

ثالثا: إنّ ضـمیمة المؤمنین فی الآیـة إلی اللّه و رسوله یصح فی صورة یکون المقصود فیها کل الأعمال و بطرق غیر الطبیعیة، و إلّا فإنّ الأعمـال العلنیـة یراهـا المؤمنـون و غیر المـؤمنین علی السواء، و من هنـا تتّضـح مسألـة أخری بصـورة ضـمنیة، و هی أنّ المقصود من المؤمنین فی الآیـة- کما ورد فی الرّوایات الکثیرة أیضا- لیس جمیع المؤمنین، بل فئـة خاصّـِة منهم، و هم الذین یطلعون علی الأسـرار الغیبیة بإذن اللّه تعالی، و نعنی بهم خلفاء النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الحقیقیین.

و المسألة الأخری التی یجب الانتباه لها هنا، و هی- کما أشـرنا سابقا- أنّ مسألة عرض الأعمال لها أثر عظیم علی المعتقدین بها، فإنّی إذا علمت أنّ اللّه الموجود فی کـل مکـان معی، و بالإضافـة إلی ذلـک فـإنّ نـبیی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و أئمّتی علیهم السّـِلام یطلعون علی کل أعمالی، الحسنة و السیئة فی یوم کل یوم، أو فی کل أسبوع، فلا شک أنّی سأکون أکثر مراقبة و رعایة لما یبدر منّی من أعمـال، و أحـاول تجنب السـیئة منهـا مـا أمکن، تماما کما لو علم العاملون فی مؤسـسة ما بأنّ تقریرا یومیا أو أسـبوعیا، تسـجل فیه جزئیات أعمالهم، یرفع إلی المسؤولین لیطلعوا علی دقائق أعمالهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۹

۲- هل الرّؤیة هنا تعنی النظر؟

المعروف بین جمیع من المفسّـِرین أنّ الرؤیـة الواردة فی قوله تعالی: فَسَیَرَی اللَّهُ عَمَلَکُمْ ... تعنی المعرفة، لا العلم، لأنّها لم تأخذ أکثر من مفعول واحد و لو کانت الرؤیة بمعنی العلم لأخذت مفعولین.

لکن لاـ مـانع أن تکون الرؤیـة بمعناهـا الأصـلی، و هو مشاهـدة المحسوسات، لا بمعنی العلم، و لا بمعنی المعرفـة، فإنّ هـذا الموضوع بالنسبة إلی اللّه سبحانه و تعالی الموجود فی کل مکان، و المحیط بکل المحسوسات لا مناقشة فیه.

و أمّا بالنسبـة للنّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و الأئمّـة علیهم السّـِلام، فلا مانع من ذلک أیضا، حیث أنّهم یرون نفس الأعمال عند عرضها، لأنّا نعلم أنّ أعمال الإنسان لا تفنی، بل تبقی إلی یوم القیامة.

۳- لا شک أنّ اللّه عزّ و جلّ یعلم بالأعمال قبل وقوعها، و الذی فی جملة:

فَسَیَرَی اللَّهُ إشارة إلی تلک الأعمال بعد تحققها فی عالم الوجود.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۰

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۱۰۶]

اشارة

وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا یُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا یَتُوبُ عَلَیْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۱۰۶)

سبب النّزول

قال جماعة من المفسّرین: إنّ هذه الآیة نزلت فی ثلاثة من المتخلفین عن غزوة تبوک، و هم: «هلال بن أمیة» و «مرارة بن ربیع» و «کعب بن مالک»، و سیأتی بیان ندمهم علی ذلک و کیفیة توبتهم فی ذیل الآیة (۱۱۸) من هذه السورة، إن شاء اللّه تعالی.
و یستفاده من بعض الرّوایات الأخری أنّ هذه الآیة نزلت فی بعض الکفار الذین قتلوا الشخصیات الإسلامیة الکبری- کحمزة سید الشهداء- فی ساحات الحروب، ثمّ اهتدوا و دخلوا فی دین الإسلام.

التّفسیر

اشارة

فی هذه الآیة إشارة إلی مجموعة من المذنبین الذین لم تتّضح جیدا عاقبة أمرهم، فلا هم مستحقون حتما للرحمة الإلهیة، و لا من المغضوب علیهم حتما، لذا فإنّ القرآن الکریم یقول فی حقّهم: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا یُعَذِّبُهُمْ وَ
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۱
إِمَّا یَتُوبُ عَلَیْهِمْ
«مرجون» مأخوذ من مادة (إرجاء) بمعنی التأخیر و التوقیف، و فی الأصل أخذت من (رجاء) بمعنی الأمل، و لما کان الإنسان قد یؤخر شیئا ما أحیانا رجاء تحقق هدف من هذا التأخیر، فإنّ هذه الکلمة قد جاءت بمعنی التأخیر، إلّا أنّه تأخیر ممزوج بنوع من الأمل.
إنّ هؤلاء فی الحقیقة لیس لهم من الإیمان الخالص و العمل الصالح بحیث یمکن عدهم من أهل السعادة و النجاة، و لیسوا ملوّثین بالمعاصی و منحرفین عن الجادة بحیث یکتبون من الأشقیاء، بل یوکل أمرهم إلی اللطف الإلهی کیف سیعامل هؤلاء، و هذا طبعا حسب أوضاعهم الروحیة و مواقعهم.
و تضیف الآیة- بعد ذلک- أنّ اللّه سبحانه سوف لا یحکم علی هؤلاء بدون حساب، بل یقتضی بعلمه و حکمته: وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ

سؤال:

و هنا یطرح سؤال مهم قلّما بحثه المفسّرون بصورة وافیة، و هو ما الفرق بین هذه الفئة، و الفئة التی مرّ بیان حالتها فی الآیة (۱۰۲) من هذه السورة؟ فإنّ کلا الجماعتین کانوا من المذنبین، و کلا المجموعتین تابوا، لأنّ المجموعة الأولی اعترفوا بذنوبهم، و أظهروا الندم علیها، و المجموعة الثّانیة تستفاد توبتهم من قوله تعالی: وَ إِمَّا یَتُوبُ عَلَیْهِمْ و کذلک فإنّ کلا الفئتین ینتظر أفرادها الرحمة الإلهیة و یعیشون حالة الخوف و الرجاء.
و للجواب علی هذا السؤال نقول: إنّه یمکن التفرقة بین هاتین الطائفتین عن طریقین:
۱- إنّ الطائفة الأولی تابوا بسرعة، و أظهروا ندمهم بصورة واضحة، فمثلا نری أبا لبابة قد أوثق نفسه بعمود المسجد، و بعبارة موجزة: إنّ هؤلاء أعلنوا ندمهم
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۲
صریحا، و أظهروا استعدادهم لتحمل الکفارة البدنیة و المالیة مهما کانت.
أمّا أفراد الطائفة الثّانیة فإنّهم لم یظهروا ندمهم فی البدایة، و لو أنّهم ندموا فی أنفسهم و وجدانهم، و لم یظهروا استعدادهم لتحمل ما یترتب علی ذنبهم و معصیتهم، فهم فی الواقع کانوا یطمحون إلی العفو عن ذنوبهم الکبیرة بکل بساطة و یسر.

إنّ هؤلاء- و مثالهم الواضح هو الثلاثة الذين أشير إليهم، و سيأتى بيان وضعهم- بقوا فى حالة الخوف و الرجاء، و لهذا نرى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمر الناس أن يقاطعوهم و يبتعدوا عنهم، و بهذا فقد عاشوا محاصرة اجتماعية شديدة اضطروا نتيجتها أن يسلكوا فى النهاية نفس الطريق الذى سلكه أتباع الفريق الأوّل، و لما كان قبول توبة هؤلاء فى ذلك الوقت يظهر بنزول آية، فقد بقى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى انتظار الوحى، حتى قبلت توبتهم بعد خمسين يوما أو أقل.

و لهذا فإنّا نرى الآية نزلت فى حق الطائفة الأولى قد ختمت بقوله: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و هو دليل على قبول توبتهم، أمّا الطائفة الثّانية فما داموا لم يغيروا مسيرهم فقد جاءت جملة: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ التى لا تدل من قريب أو بعيد على قبول توبتهم.

و لا مجال للتعجب من أنّ الندم لوحده لم يكن كافيا لقبول التوبة من المعاصى الكبيرة، خاصّة فى عصر نزول الآيات، بل يشترط مع ذلك الإقدام على الاعتراف الصريح بالذنب، و الاستعداد لتحمل كفارته و عقوبته، و بعد ذلك نزول الآية التى تبشر بقبول التوبة.

۲- الفرق الثّانى بين هاتين الطائفتين، هو أنّ الطائفة الأولى بالرغم من أنّهم عصوا بتخلفهم عن أداء واجب إسلامى كبير، أو لتسريبهم بعض الأسرار العسكرية إلى الأعداء، إلّا أنّهم لم يرتكبوا الكبائر العظيمة كقتل حمزة سيد الشهداء، و لهذا فإنّهم بمجرّد أن تابوا و استعدوا للجزاء قبل اللّه توبتهم. غير أن قتل حمزة و أمثاله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۳

لم يكن بالشيء الذى يمكن جبرانه، و لهذا فإنّ نجاة هذا الفريق مرتبطة بأمر اللّه و إرادته، إمّا يعفو عنهم أو يعاقبهم.

و على أى حال، فإنّ الجواب الأوّل يناسب تلك المجموعة من الرّوايات الواردة فى سبب النزول، و التى تربط الآية بالثلاثة المتخلفين عن غزوة تبوك، أمّا الجواب الثّانى فإنّه يوافق الرّوايات العديدة الواردة من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، و التى تقول إنّ هذه الآية تشير إلى قاتلى حمزة و جعفر و أمثالهما[۸۲].

و لو دققنا النظر حقا لرأينا أن لا منافاة بين الجوابين، و يمكن أن يكون كل منهما مقصودا فى تفسير الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۴

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۰۷ الى ۱۱۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۰۷) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (۱۰۸) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰۹) لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۱۰)

سبب النّزول

تتحدث الآيات أعلاه عن جماعة أخرى من المنافقين الذين أقدموا- من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومة- على بناء مسجد فى المدينة، عرف فيما بعد ب (مسجد الضرار).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۵

و قد ذكر هذا الموضوع كل المفسّرين الإسلاميين، و كثير من كتب التاريخ و الحديث، مع وجود اختلافات فى جزئياته.

و خلاصة القضية- كما تستفاد من التفاسير و الأحاديث المختلفة- أنّ جماعة من المنافقين أتوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه أن يسمح لهم ببناء مسجد فى حى بنى سليم- قرب مسجد قبا- حتى يصلى فيه العاجزون و المرضى و الشيوخ، و كذلك ليصلى فيه جماعة من الناس الذين لا يستطيعون أن يحضروا مسجد قبا فى الأيّام الممطرة، و يؤدوا فرائضهم الإسلامية، و كان ذلك فى الوقت الذى كان فيه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عازما على التوجه إلى تبوك.

فأذن لهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّهم لم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن يصلى فيه، فأخبرهم بأنّه عازم على السفر الآن، و عند عودته بإذن اللّه فسوف يأتى مسجدهم و يصلى فيه.

فلمّا رجع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من تبوك حضروا عنده و طلبوا منه الحضور فى مسجدهم و الصلاة فيه، و أن يدعوا اللّه لهم بالبركة، و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يدخل بعد أبواب المدينة، فنزل الوحى و تلا عليه هذه الآيات، و كشف الستار عن الأعمال هؤلاء، فأمر النّبى بحرق المسجد المذكور، و بهدم بقاياه، و أن يجعل مكانه محلا لرمى القاذورات و الأوساخ.

إذا نظرنا إلى الوجه الظاهرى لهذا العمل، فسوف نتحير فى البداية، فهل أن بناء مسجد لحماية المرضى و الطاعنين فى السنن من الظروف الطارئة، و الذى هو فى حقيقته عمل دينى و خدمة إنسانية، يعدّ عملا مضرا و سيئا حتى يصدر فى حقّه هذا الحكم؟ إلّا أنّنا إذا دققنا النظر فى الواقع الباطنى و حققناه رأينا أنّ هذا الأمر بهدمه فى منتهى الدقة.

و توضيح ذلك، أنّ رجلا فى زمن الجاهلية يقال له: أبو عامر، كان قد اعتنق النصرانية، و سلك مسلك الرهبانية، و كان يعد من الزهاد و العباد و له نفوذ واسع فى

طائفة الخزرج.

و عند ما هاجر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة و احتضنه المسلمون و نصروه و بعد انتصار المسلمين على المشركين فى معركة بدر، رأى أبو عامر- الذى كان يوما من المبشرين بظهور النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- أنّ الناس قد انفضوا من حوله، و بقى وحيدا، و عند ذلك قرر محاربة الإسلام، فهرب من المدينة إلى كفار مكّة، و استمد منهم القوّة لمحاربة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و دعا قبائل العرب لذلك فكان ينفذ و يقود جزءا من مخططات معركة أحد، و هو الذى أمر بحفر الحفر بين الصفين و التى سقط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى أحدها فجرحت جبهته و كسرت رباعيته.

فلمّا انتهت غزوة أحد بكل ما واجه المسلمون فيها من مشاكل و نوائب، دوى صوت الإسلام أكثر من ذى قبل، و عمّ كل الأرجاء، فهرب أبو عامر من المدينة و ذهب إلى هرقل ملك الروم ليستعين به قتال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و ليرجع إلى المسلمين و يقاتلهم فى جحفل لجب و جيش عظيم.

و يلزم هنا أن نذكر هذه النقطة، و هى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لما رأى صدر منه من التحريض و الدعوة لقتال المسلمين و نبيّهم سمّاه (فاسقا).

يقول البعض: إنّ الموت لم يمهله حتى يطلع هرقل على نواياه و مشاريعه، إلّا أنّ البعض الآخر يقول: إنّه اتصل بهرقل و تحمس لوعوده! على كل حال، فإنّه قبل أن يموت أرسل رسالة إلى منافقى المدينة يبشرهم فيها بالجيش الذى سيصل لمساعدتهم، و أكّد عليهم بالخصوص على أن يبنوا له مركزا و مقرّا فى المدينة ليكون منطلقا لنشاطات المستقبل.

و لما كان بناء مثل هذا المقر، و باسم أعداء الإسلام غير ممكن عمليا، رأى المنافقون أن يبنوا هذا المقر تحت غطاء المسجد، و بعنوان مساعدة المرضى و العاجزين.

و أخيرا تمّ بناء المسجد، و يقال أنّهم اختاروا شابا عارفا بالقرآن من بين

المسلمين يقال له: «مجمع بن حارثة» أو «مجمع بن جارية» و أوكلوا له إمامة المسجد.

إلّا أنّ الوحی الإلهی أزاح الستار عن عمل هؤلاء، و ربّما لم يأمر النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشیء قبل ذهابه إلی تبوك ليواجه هؤلاء بكل شدّة، من أجل أن يتّضح أمرهم أكثر من جهة، و لئلا ينشغل فكريا و هو فی مسيرة إلی تبوك بما يمكن أن يحدث فيما لو أصدر الأمر.

و كيف كان، فإنّ النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكتف بعدم الصلاة فی المسجد و حسب، بل إنّه- كما قلنا- أمر بعض المسلمين- و هم مالك بن دخشم، و معنی بن عدی، و عامر بن سكر أو عاصم بن عدی- أن يحرقوا المسجد و يهدموه، فنفذ هؤلاء ما أمروا به، فعمدوا إلی سقف المسجد فحرّقوه، ثمّ هدموا الجدران، و أخيرا حولوه إلی محل لجمع الفضلات و القاذورات [۸۳].

التّفسير

معبد و ثنی فی صورة مسجد!

أشارت الآيات السابقة إلی وضع مجاميع مختلفة من المخالفين، و تعرّف الآيات التی نبحثها مجموعة أخری منهم، المجموعة التی دخلت حلبة الصراع بخطة دقيقة و ذكية، إلّا أن اللطف الإلهی أدرك المسلمين، و بدد أحلام المنافقين بإبطال مكرهم و إحباط خطتهم.

فالآية الأولی تقول: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً[۸۴] و أخفوا أهدافهم الشريرة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۸

تحت هذا الإسلام المقدس، ثمّ لخصت أهدافهم فی أربعة أهداف:

۱- إنّ هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم (ضرارا).

«الضرار» تعنی الإضرار العمدی، و هؤلاء فی الواقع بعكس ما كانوا يدّعونه من أنّ هدفهم تأمين مصالح المسلمين و مساعدة المرضی و العاجزين عن العمل، كانوا يسعون من خلال هذه المقدمات إلی المكيدة بالنّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم و رسالته، و سحق المسلمين، بل إذا استطاعوا أن يقتلعوا الدين الإسلامی و جذوره من صفحة الوجود فإنّهم سوف لا يقصرون فی هذا السبيل.

۲- تقوية أسس الكفر، و محاولة إرجاع الناس إلی الحالة التی كانوا يعيشونها قبل الإسلام: (و كفرا).

۳- إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأنّ اجتماع فئة من المسلمين فی هذا المسجد سيقلل من عظمة التجمع فی مسجد قبا الذی كان قريبا منه، أو مسجد النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذی كان يبعد عنه، وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ

و يظهر من هذه الجملة- و كذلك فهم بعض المفسّرين- أنّ المسافة بين المساجد يجب أن لا تكون قليلة بحيث يؤثر الاجتماع فی مسجد علی جماعة المسجد الآخر، و علی هذا فإنّ الذين يبنون المساجد أحدها إلی جانب الآخر بدافع من التعصب القومی، أو الأغراض الشخصية و يفرقون جماعات المسلمين بحيث تبقی صفوف الجماعة خالية لا روح فيها و لا جاذبية، يرتكبون ما يخالف الأهداف الإسلامية.

۴- و الهدف الأخير لهؤلاء هو تأسيس مقر و مركز لإيواء المخالفين للدين و أصحاب السوابق، السيئة، و الانطلاق من هذا المقر فی سبيل تنفيذ خططهم و مؤامراتهم: وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

إلّا أنّ ممّا يثير العجب أنّ هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريرة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۹

و الأهداف المشؤومة فى لباس جميل و مظهر خداع، و أنّهم لا يريدون إلّا الخير:

وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى و هذا هو دين المنافقين و ديدنهم فى كل العصور، فإنّهم إضافة إلى تلبسهم بلباس حسن، فإنّهم يتوسلون عند الضرورة بأنواع الأيمان الكاذبة من أجل تضليل الرأى العام، و انحراف الأفكار.

إلّا أنّ القرآن الكريم يبيّن أن اللّه تعالى الذى يعلم السرائر و ما فى مكنون الضمائر، و الذى تساوى لديه الظاهر و الباطن، و الغيب و الشهادة يشهد على كذب هؤلاء: وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

فى هذه الجملة نلاحظ عدة تأكيدات لتكذيب هؤلاء، فهى جملة اسمية أوّلا، ثمّ إنّ كلمة (إن) للتأكيد، و أيضا اللام فى (لكاذبون)، و التى تسمى لام الابتداء تفيد التأكيد، و كذلك فإنّ مجىء كلمة (كاذبون) مكان الفعل الماضى دليل على استمرارية كذب هؤلاء، و بهذه التأكيدات فإنّ اللّه سبحانه و تعالى قد كذّب أيمان هؤلاء المغلظة و المؤكدة أشد تكذيب.

يؤكّد اللّه سبحانه و تعالى فى الآية التالية تأكيدا شديدا على مسألة حياتية مهمّة، و يأمر نبيّه بصراحة أن لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً بل لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ لا المسجد الذى أسس من أوّل يوم على الكفر و النفاق و تقويض أركان الدين.

إنّ كلمة (أحق) و إن كانت أفعل التفضيل، إلّا أنّها لم تأت هنا بمعنى المقارنة بين شيئين فى التناسى و الملاءمة، بل هى تقارن بين التناسب و عدمه، و الملاءمة و عدمها، و مثل هذا التعبير يستعمل كثيرا فى آيات القرآن الكريم و الأحاديث، بل و فى محادثاتنا اليومية، و له نماذج عديدة.

فمثلا نقول للشخص المجرم و السارق: إنّ الاستقامة و العمل الصالح الصحيح خير لك، فإنّ هذا الكلام لا يعنى أنّ السرقة و التلوث بالجريمة شىء حسن، و أن الاستقامة و الطهارة أحسن، بل معناه أن الاستقامة و حسن السيرة شىء حسن،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۰

و أنّ السرقة عمل سيء و غير مناسب.

و قال المفسّرون: إنّ المسجد الذى أشارت الآية إلى أنّه يستحق أن يصلى فيه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو «مسجد قبا» حيث بنى المنافقون مسجد ضرار على مقربة منه.

و احتمل أيضا أن يكون المقصود منه مسجد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أو كل المساجد التى بنيت على أساس التقوى، إلّا أنّنا لا حظنا تعبير أَوَّلِ يَوْمٍ و أن مسجد قبا هو أوّل مسجد بنى فى المدينة[۸۵]، علمنا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب و الأرجح، و لو أنّ هذه الكلمة تناسب أيضا مساجد أخرى كمسجد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّه بالإضافة إلى أنّ هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى، فإنّ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ

و لكن هل المراد من الطهارة فى هذه الآية هى الطهارة الظاهرية و الجسمية، أم المعنوية؟

هناك بحث بين المفسّرين فى الرّواية التى نقلت فى تفسير (التبيان) و (مجمع البيان) فى ذيل هذه الآية

عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال لأهل قبا: «ماذا تفعلون فى طهركم، فإنّ اللّه تعالى قد أحسن عليكم الثناء؟» قالوا: نغسل أثر الغائط.

و قد نقلت روايات أخرى بهذا المضمون عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام، لكن- كما قلنا سابقا و أشرنا مرارا- مثل هذه الرّوايات لا تدل على انحصار مفهوم الآية فى هذا المصداق، بل- و كما يشير ظاهر إطلاق الآية- أنّ للطهارة هنا معنى واسعا يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحى من آثار الشرك و الذنوب، أو التطهير الجسمى من الأوساخ و النجاسات.

و فى الآية الثّالثة من الآيات مقارنة بين فريقين و فئتين: المؤمنين الذين بنوا مساجد كمسجد قبا على أساس التقوى، و المنافقين الذين بنوه على أساس الكفر و النفاق و التفرقة و الفساد. فهى تقول أوّلا:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۱

أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ

«بنیان» مصدر بمعنی اسم مفعول، و یعنی المبنی، و (شفا) بمعنی حافة الشیء و طرفه، و (جرف) بمعنی حافة النهر أو حافة البئر التی جرف الماء ما تحتها. و (هار) بمعنی الشخص أو البناء المتصدع المشرف علی السقوط، أو هو فی حال السقوط.

إن التشبیه الوارد أعلاه یعطی صورة فی منتهی الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقین و تزلزلها، و فی المقابل استحکام و دوام أعمال المؤمنین و نشاطاتهم و برامجهم، فهو یشبه المؤمنین بمن أراد أن یبنی بناء، فإنّه ینتخب الأرض الجیدة القویة التی تتحمل البناء، و مختار من مواد البناء الأولیة ما کان جیدا.

أمّا المنافقون فإنّه یشبّههم بمن یبنی بیته علی حافة النهر- و مثل هذه الأرض جوفاء- لأن جریان الماء قد نخرها، و بالتالی فهی عرضة للسقوط فی أی لحظة، و کذلک النفاق، فإنّ ظاهره حسن لکنّه عدیم المحتوی کالبنایة الجمیلة ذات الأساس النخر.

إنّ هذه البنایة یمکن أن تنهار فی آیة لحظة، و مذهب أهل النفاق أیضا یمکن أن یظهر واقع أتباعه و باطنهم، و بالتالی فضیحتهم و خزیهم.

إنّ التقوی و السعی فی مرضاة اللّه تبارک و تعالی یعنی التعامل مع الواقع، و السیر وفقا لقوانین الخلقة و هی بدون شک عامل البقاء و الثبات.

أمّا النفاق فإنّه یعنی الانفصال عن الواقع و الابتعاد عن قوانین الوجود، و هذا بلا شک هو عامل الزوال و الفناء.

و من هنا، فإنّ المنافقین یظلمون أنفسهم و یظلمون المجتمع أیضا و لذلک فإنّ الآیة اختتمت بقوله: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ و کما قلنا مرارا، فإنّ الهدایة الإلهیة تعنی تهیئة المقدمات للوصول إلی الغایة، و هی تشمل- فقط- أولئک الذین لدیهم الاستعداد لتقبل هذه الهدایة و یستحقونها، أمّا الظالمون الفاقدون لمثل هذا الاستعداد فسوف لا یشملهم هذا اللطف مطلقا، لأنّ اللّه حکیم، و مشیئته و إرادته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۲

وفق حساب دقیق.

و فی آخر آیة إشارة إصرار المنافقین و عنادهم، فهی تعبّر عن تعصبهم و إصرارهم فی أعمالهم، و عنادهم فی نفاقهم، و حیرتهم فی ظلمة کفرهم، فهم فی شک من بنیانهم الذی بنوه، أو فی النتیجة المرجوة منه، و سیبقون فی هذه الحال حتی موتهم: لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ

إنّ هؤلاء یعیشون حالة دائمة من الحیرة و الاضطراب، و إن مقر النفاق الذی أقاموه، و المسجد الضرار الذی بنوه، سیبقی عامل تردد و لجاجة فی أرواح هؤلاء، فبالرغم من أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد أحرق هذا البناء و هدمه، إلّا أن أثره و أهدافه قد لا تزول من القلوب.

و تقول الآیة أخیرا: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فإنّه تعالی إنّما أمر نبیّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم بهدم هذا البناء الذی یحمل صفة الحق ظاهرا، حتی تتبیّن نیّات السوء التی انطوی علیها هؤلاء، و تنکشف حقائقهم و بواطنهم و هذا الحکم الإلهی هو عین الحکمة، و حسب صلاح المجتمع الإسلامی، و قد صدر علی هذا الأساس، لا أنّه حکم عجول صدر نتیجة انفعال أو فی لحظة غضب.

بحوث

۱- درس کبیر

إنّ قصّة مسجد الضرار درس لكل المسلمين من جميع الجهات، فإنّ قول اللّه سبحانه و عمل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يوضحان تماما بأنّ المسلمين يجب أن لا يكونوا سطحيين فى الرؤية مطلقا، و أن لا يكتفوا بالنظر إلى الجوانب التى تصطبغ بصبغة الحق، و يغفلون عن الأهداف الأصلية المراد تحقيقها، و المستترة بهذا الظاهر البراق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۳

المسلم هو الذى يعرف المنافق و أساليب النفاق فى كل زمان، و فى كل مكان، و بأى لباس تلبس، و بأى صورة يظهر بها، حتى و لو كانت صورة الدين و المذهب، أو لباس مناصرة الحق و القرآن و المساجد.

إنّ الاستفادة من مذهب ضد مذهب آخر ليس شيئا جديدا، بل هو طريق الاستعمار و أسلوبه على الدوام، فإنّ وسيلة الجبارين و المنافقين و أسلوبهم فى العمل هو الوقوف على رغبة الناس فى مسألة ما، و استغلال تلك الرغبة فى سبيل إغفالهم و بالتالى استعمارهم، و يستعينون بقدرات مذهب ما فى ضرب و هدم مذهب آخر إن استدعى الأمر ذلك.

و أساسا فإنّ جعل الأنبياء المزورين و المذاهب الباطلة، هو تحوير الميول المذهبية للناس عن هذا الطريق و صبّها فى القنوات التى يريدونها و يديرونها.

و من البديهى أنّ محاربة الإسلام بصورة علنية فى محيط كمحيط المدينة، و ذلك فى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و مع ذلك النفوذ الخارق للإسلام و القرآن، أمر غير ممكن، بل يجب إلباس الكفر لباس الدين، و تغليف الباطل بغلاف الحق لجذب البسطاء و السذج من الناس.

إلّا أنّ المسلم الحقيقى ليس سطحيا إلى تلك الدرجة بحيث يخدع بهذه الظواهر، بل إنّه يدقق فى العوامل و الأيادى التى وضعت هذه البرامج، و يحقق القرائن الأخرى التى لها علاقة البرامج و ماهيتها، و بذلك سيرى الصورة الباطنية للأفراد المختبئة خلف الصورة الظاهرية.

المسلم ليس بذلك الفرد الذى يقبل كل دعوة تصدر من أى فم بمجرّد موافقتها الظاهرية للحق، و يلبى تلك الدعوة.

المسلم ليس ذلك الشخص الذى يصافح كل يد تمد إليه، و يؤيد و يدعم كل حركة يشاهدها بمجرّد رفعها شعارا دينيا، أو يتعهد بالانضمام تحت أى لواء يرفع باسم المذاهب و الدين، أو ينجذب إلى كل بناء يشيد باسم الدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۴

المسلم يجب أن يكون حذرا، واعيا، واقعيا، بعيد النظر، و من أهل التحليل و التحقيق فى كل المسائل الاجتماعية.

المسلم يعرف المتمردين العصاة فى لباس الملائكة و الوداعة، و يميز الذئاب المتلبسة بلباس الحراس و الرعاة، و يعد نفسه لمحاربة الأعداء الظاهرين بصورة الأصدقاء.

هناك قاعدة أساسية فى الإسلام، و هى أنّه يجب معرفة النيات قبل كل شىء، و أنّ قيمة كل عمل ترتبط بنيّته، لا بظاهره، فبالرغم من أنّ النية أمر باطنى، إلّا أن أحدا لا يمكنه إضمار نيّته دون أن يظهر أثرها على جوانب عمله و فلتاته، حتى و لو كان ماهرا و مقتدرا فى اخفائها.

و من هذا سيتّضح الجواب عن هذا السؤال، و هو: لماذا أصدر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمرا بحرق المسجد الذى هو بيت اللّه، و يأمر بهدم المسجد الذى لا يجوز شرعا إخراج حصاة واحدة من حصاة، و يجعل المكان الذى يجب تطهيره فورا إذا ما تنجس محلا لجمع الفضلات و القاذورات!! و جواب كل هذه الأسئلة موضوع واحد، و هو أنّ مسجد الضرار لم يكن مسجدا بل معبدا للأصنام ... لم يكن مكانا مقدسا، بل مقرا للفرقة و النفاق ... لم يكن بيت اللّه، بل بيت الشيطان ... و لا يمكن أن تبدل الأسماء و العناوين و الأقنعة من واقع الأشياء شيئا مطلقا.

كان هذا هو الدرس الكبير الذى أعطته قصّة مسجد الضرار لكل المسلمين، و فى كل الأزمنة و الأعصار.

و تّتضح من هذا البحث- أيضا- أهمية الوحدة بين صفوف المسلمين من وجهة نظر الإسلام، و التى تبلغ حدا بحيث إذا كان بناء مسجد جنب مسجد يؤدى إلى التفرقة و الاختلاف بين صفوف المسلمين فلا قدسية لذلك المسجد إطلاقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۵

۲- النفى لا يكفى لوحده!

الدرس الثّانى الذى يمكن أخذه من هذه الآيات، هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى أمر نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذه الآيات أن لا يصلى فى مسجد الضرار، بل يصلى فى المسجد التى وضعت قواعده و أسسه على أساس التقوى.

إنّ النفى و الإثبات يتجلى فى الإسلام من شعاره الأصلى (لا إله إلّا اللّه) إلى أموره الصغيرة و الكبيرة الأخرى، يبيّن هذه الحقيقة، و هى ضرورة وجود الإثبات إلى جانب النفى دائما على أرض الواقع العملى، فإنّا إذا نهينا الناس عن الذهاب إلى مراكز الفساد، فيجب أن نبنى و نوفر لهم المقابل المراكز النقية الصالحة لإشباع روح الحياة الجماعية فى الفرد و إرضائها ... إذا منعنا وسائل اللهو المنحرفة، فيجب توفير وسائل لهو سالمة و هادفة ... إذا حاربنا الثقافة الاستعمارية، فيجب أن تهيئ الثقافة الصحيحة و المراكز السليمة و المدارس الصالحة للتربية و التعليم ... إذا شجبنا الانحلال الخلقى و السقوط الاجتماعى، فيجب أن نوفر وسائل الزواج البسيطة و نضعها تحت تصرف الشباب.

الأشخاص الذين صبّوا كل اهتماماتهم فى جانب النفى، دون الاهتمام بالجانب الإيجابى و الإثباتى، عليهم أن يتيقنوا بأن نفيهم لوحده لا يثمر شيئا، لأنّ سنّة الحياة أن تشبع كل الغرائز و الأحاسيس عن الطريق الصحيح، و لأنّ قانون الإسلام المسلّم به أن كل (لا) يجب أن تصحبها (إلا) ليتولد منها التوحيد الذى يهب الحياة.

و هذا هو الدرس الذى نساه الكثير من المسلمين مع الأسف رغم تقصيرهم هذا يشكون من عدم تقدم و تطور البرامج الإسلامية! هذا فى الوقت الذى لا ينحصر برنامج الإسلام بالنفى كما يتخيل هؤلاء، فإنهم إذا قرنوا النفى بالإثبات فإنّ تقدمهم سيكون حتميا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۶

۳- شرطان أساسيان

الدرس القيم الثّالث الذى يمكن استنباطه من الآيات محل البحث هو أن المقر و المركز النشط و الإيجابى دينيا و اجتماعيا، هو الذى يتشكل من عنصرين.

الأوّل: أن يكون الأساس الذى يستند إليه، و الهدف الذى يطمح إلى تحقيقه، طاهرين من البداية: أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

الثّانى: أن يكون رواد هذا المركز و حماته أناسا طاهرين و مخلصين و مؤمنين:

فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا.

إنّ فقدان أحد هذين الركنين الأساسيين يعنى انهيار البناء و عدم وصوله إلى الهدف المنشود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۷

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

التّفسير

تجارة لا نظير لها:

لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن المتخلفين عن الجهاد، فإنّ هاتين الآيتين قد بيّنتا المقام الرفيع للمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع.

لقد عرّف اللّه سبحانه و تعالى نفسه فى هذا المثال بأنّه مشتر، و المؤمنين بأنّهم بائعون، و قال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۸

و لما كانت كل معاملة تتكون فى الحقيقة من خمسة أركان أساسية، و هى عبارة عن: المشترى، و البائع، و المتاع، و الثمن، و سند المعاملة أو وثيقتها، فقد أشار اللّه سبحانه إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشتريا، و المؤمنين بائعين، و أموالهم و أنفسهم متاعا و بضاعة، و الجنّة ثمنا لهذه المعاملة. غاية ما فى الأمر أنّه بيّن طريقة تسليم البضاعة بتعبير لطيف، فقال: يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ و فى الواقع فإنّ يد اللّه سبحانه حاضرة فى ميدان الجهاد لتقبل هذه البضاعة، سواء كانت روحا أم مالا يبذل فى أمر الجهاد.

ثمّ يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، و الذى يشكل الركن الخامس فيها، فقال: وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ

إذا أمعنا النظر فى قوله: فِي سَبِيلِ اللَّهِ يتّضح جليا أنّ اللّه تعالى يشترى الأرواح و الجهود و المساعى التى تبذل و تصرف فى سبيله، أى سبيل إحقاق الحق و العدالة، و الحريّة و الخلاص لجميع البشر من قبضة الكفر و الظلم و الفساد.

ثم، و من أجل التأكيد على هذه المعاملة، تضيف الآية: وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ أى أنّ ثمن هذه المعاملة و إن كان مؤجلا، إلّا أنّه مضمون، و لا وجود لأخطار النسيئة، لأنّ اللّه تعالى لقدرته و استغنائه عن الجميع أوفى من الكل بعهده، فلا هو ينسى، و لا يعجز عن الأداء، و لا يفعل ما يخالف الحكمة ليندم عليه و يرجع عنه، و لا يخلف وعده و العياذ باللّه، و على هذا فلا يبقى أى مجال للشك فى وفائه بعهده، و أدائه الثمن فى رأس الموعد المقرر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۲۲۸

الأروع من كل شىء أنّه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، و يتمنى لهم أن تكون صفقة و فيرة الربح، تماما كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عزّ و جلّ:

فَاسْتَبْشِرُوا[۸۶] بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۹

و قد جاء نظير هذا المبحث بعبارات أخرى، ففى الآيتين (١٠) و (١١) من سورة الصف يقول اللّه عزّ و جلّ: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

إنّ الإنسان ليقع فى حيرة هنا من كل هذا اللطف و الرحمة الإلهية، فإنّ اللّه المالك لكل عالم الوجود، و الحاكم المطلق على جميع عالم الخلقة، و كل ما يملكه أىّ موجود فانما هو من فيضه و منحته، يبدو فى مقام المشترى لنفس هذه المواهب التى وهبها لعباده، و يشترى ما أعطاه بمئات الأضعاف.

و الأعجب من ذلك، أنّ الجهاد الذى هو السبب فى عزّة الإنسان و افتخار الامّة، و ثمراته تعود فى النهاية عليها، قد اعتبر دفعا و تسلميا لهذه البضاعة.

و مع أنّ المتعارف أنّ الثمن يجب أن يعادل المثمن أو البضاعة، إلّا أن هذا التعادل لم يلاحظ فى هذه المعاملة، و جعلت السعادة الأبدية فى مقابل بضاعة متزلزلة يمكن أن تفنى فى أية لحظة، (سواء كان على فراش المرض أو ساحة القتال).

و الأهم من هذا أنّ اللّه سبحانه و تعالى مع أنّه أصدق الصادقين، و لا يحتاج إلى سند و ضمان، فإنّه تعهد بأهم الوثائق و الضمانات أمام عبيده.

و فى نهاية هذه المعاملة العظيمة، و الصفقة الكبيرة، فإنّه قد بارك لهم و بشّرهم، فهل تتصور رحمة و محبّة أعلى من هذه؟! و هل يوجد معاملة أكثر ربحا من هذه؟! و لهذا

ورد فى حديث عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أنّه لما نزلت هذه الآية كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى المسجد، فتلا هذه الآية بصوت عال، فكبر الناس، فتقدم رجل من الأنصار و سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: يا رسول اللّه، أنزلت هذه الآية؟ فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۰

«نعم». فقال الأنصارى: بيع ربيح لا نقيل و لا نستقيل [۸۷].

كما هى طريقة القرآن المجيد، حيث أنّه يجمل الكلام فى آية، ثمّ يعمد إلى التفصيل فى الآية التى تليها، فقد بيّن سبحانه فى الآية الثّانية حال البائعين للروح و المال لربّهم عزّ و جلّ، فذكر تسع صفات مميزة لهم:

۱- فهم يغسلون قلوبهم و أرواحهم من رين الذنوب بماء التوبة: التَّائِبُونَ

۲- و هم يطهرون أنفسهم فى نفحات الدعاء و المناجاة مع ربّهم: الْعابِدُونَ

۳- و هم يحمدون و يشكرون كل نعم اللّه المادية و المعنوية: الْحامِدُونَ

۴- و هم يتنقلون من مكان عبادة إلى آخر: السَّائِحُونَ

و بهذا الترتيب فإنّ برامج تربية النفس عند هؤلاء لا تنحصر فى العبادة، أو فى إطار محدود، بل إن كان مكان هو محل عبدة للّه و جهاد للنفس و تربية لها بالنسبة لهؤلاء، و كل مكان يوجد فيه درس و عبرة لهؤلاء فإنّهم سيقصدونه.

(سائح) فى الأصل مأخوذ من (سيح)، و (سياحة) و التى تعنى الجريان و الاستمرار.

و هناك بحث بين المفسّرين فيما هو المقصود من السائح فى الآية، و أى نوع من الجريان و الاستمرار و السياحة هو؟ فالبعض يرى- كما قلنا أعلاه- إن السير فى تربية النفس و جهادها إنّما يكون فى أماكن العبادة،

ففى حديث عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «سياحة أمّتى فى المساجد»[۸۸].

و البعض الآخر يقول: إنّ السائح يعنى الصائم، لأنّ الصوم عمل مستمر طوال اليوم، و

فى حديث آخر عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن السّائحين هم الصّائمون»[۸۹].

و البعض الآخر من المفسّرين يرى أن السياحة تعنى التنقل و التجوال فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۱

الأرض لمشاهدة آثار عظمة اللّه، و معرفة المجتمعات البشرية، و التعرف على عادات و تقاليد و علوم الأقوام التى تحيى فكر الإنسان و

تنمیه و تطوره.

و فریق آخر من المفسّرین یری أن السیاحة تعنی التوجه إلی میدان الجهاد و محاربة الأعداء، و یستشهدون بالحدیث النبوی: «إنّ سیاحة أمّتی الجهاد فی سبیل اللّه».[۹۰]

و أخیرا فإنّ البعض یری أنّها سیر العقل و الفکر فی المسائل العلمیة المختلفة المرتبطة بعالم الوجود و التفکر فیها، و معرفة عوامل السعادة و الإنتصار، و أسباب الهزیمة و الفشل.

إلّا أنّ أخذ الأوصاف- التی ذکرت قبل السیاحة و بعدها- بنظر الإعتبار یرجح المعنی الأوّل، و یجعله الأنسب من بین المعانی الأخری، و إن کانت کل هذه المعانی ممکنة فی هذه الکلمة، لأنّها جمعت فی مفهوم السیر و السیاحة.

۵- و هم یرکعون مقابل عظمة اللّه: الرَّاکِعُونَ

۶- و یضعون جباههم علی التراب أمام خالقهم و یسجدون له: السَّاجِدُونَ

۷- و هم یدعون الناس لعمل الخیر: الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

۸- و لم یقتنعوا بهذه الدّعوة للخیر، بل حاربوا کل منکر و فساد: وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْکَرِ.

۹- و بعد أدائهم وظیفة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، یقومون بأداء آخر و أهم واجب اجتماعی، أی حفظ الحدود الإلهیة و إجراء قوانین اللّه، و إقامة الحق و العدالة: وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ

و بعد ذکر هذه الصفات التسع فإنّ اللّه یرغّب- مرّة أخری- أمثال هؤلاء المؤمنین المخلصین الذین هم ثمرة منهج الإیمان و العمل، و یقول للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم:

وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۲

و لما لم یذکر متعلق البشارة، و بتعبیر آخر: إنّ البشارة لما جاءت مطلقة فإنّها تعطی مفهوما أوسع یدخل ضمنه کل خیر و سعادة، أی بشر هؤلاء بکل خیر سعادة و فخر.

و ینبغی الالتفات إلی أن الصفات الست الأولی ترتبط بجانب جهاد النفس و تربیتها، و الصفة السّابعة و الثّامنة ترتبطان بالواجبات الاجتماعیة الحساسة، و تشیران إلی تطهیر محیط المجتمع من السلبیات، و الصفة الأخیرة تتحدث عن المسؤولیات المختلفة المتعددة المرتبطة بتشکیل الحکومة الصالحة، و المشارکة الجدیة فی المسائل السیاسیة الإیجابیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۳

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۱۱۳ الی ۱۱۴]

اشارة

ما کانَ لِلنَّبِیِّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا أَنْ یَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِکِینَ وَ لَوْ کانُوا أُولِی قُرْبی مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِیمِ (۱۱۳) وَ ما کانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِیَّاهُ فَلَمَّا تَبَیَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِیمَ لَأَوَّاهٌ حَلِیمٌ (۱۱۴)

سبب النّزول

جاء فی مجمع البیان فی سبب نزول الآیات أعلاه، أنّ جماعة من المسلمین کانوا یقولون للنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: ألا تستغفر لآبائنا الذین ماتوا فی الجاهلیة؟ فنزلت هذه الآیات تنذرهم بأنّ لا حقّ لأحد أن یستغفر للمشرکین.

و قد ذكرت فى سبب نزول هذه الآيات أمور أخرى، سنوردها فى نهاية تفسير هذه الآية.

التّفسير

ضرورة قطع العلاقات مع الأعداء:

نهت الآية الأولى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجة قاطعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۴

و حادة، فهى تقول: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ و لكى توكّد ذلك قالت: وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى

ثمّ أنّ القرآن الكريم بيّن سبب و دليل هذا الحكم فقال: مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ فإنّ هذا العمل- أى الاستغفار للمشركين- عمل لا معنى له و فى غير محله، لأنّ المشرك لا يمكن العفو عنه بأى وجه، و لا سبيل لنجاة من سار فى طريق الشرك، إضافة إلى أن طلب المغفرة نوع من إظهار المحبة و الارتباط بالمشركين، و هذا هو الأمر الذى نهى عنه القرآن مرارا و تكرارا.

و لما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرءوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، و لذا فمن الممكن جدّا أن يتبادر الى أذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركا؟ و إذا كان هذا العمل منهيا عنه فكيف يفعله هذا النّبى الكبير؟

لهذا نرى أن الآية الثّانية تتطرق لهذا السؤال و تجيب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ

و فى آخر الآية توضيح بأنّ إبراهيم كان إنسانا خاضعا بين يدى اللّه عزّ و جلّ، و خائفا من غضبه، و حليما واسع الصدر، فقالت: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ

إنّ هذه الجملة قد تكون بيانا لسبب الوعد الذى قطعه إبراهيم لآزر بالاستغفار له، لأنّ حلمه و صبره من جهة، و كونه أوّاها- و الذى يعنى كونه رحيما طبقا لبعض التفاسير- من جهة أخرى، كانا يوجبان أن يبذل قصارى جهده فى سبيل هداية آزر، حتى و إن كان بوعده بالاستغفار له، و طلب المغفرة عن أعماله السابقة.

و يحتمل أيضا أن تكون هذه الجملة دليلا على أنّ إبراهيم لخضوعه و خشوعه و خوفه من مخالفة أوامر اللّه سبحانه لم يكن مستعدا لأن يستغفر للمشركين أبدا، بل إنّ هذا العمل كان مختصا بزمان كان أمل هداية آزر يعيش فى قلبه، و لهذا فإنّه بمجرّد أن اتّضح أمر عداوته ترك هذا العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۵

فإن قيل: من أين علم المسلمون أنّ إبراهيم قد استغفر لآزر؟

قلنا: إن آيات سورة التوبة هذه- كما أشرنا فى البداية- قد نزلت فى أواخر حياة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد قرأ المسلمون من قبل فى سورة مريم، الآية (۴۷) أن إبراهيم بقوله: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي كان قد وعد آزر بالاستغفار، و من المسلّم أن نبى اللّه إبراهيم عليه السّلام لا يعد كذبا، و كلما وعد و فى بوعده.

و كذلك كانوا قد قرءوا فى الآية (۴) من سورة الممتحنة أنّ إبراهيم قد قال له:

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ و كذلك فى الآية (۸۶) من سورة الشعراء، و هى من السور المكية، حيث ورد الاستغفار صريحا بقوله: وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ

ملاحظات

۱- رواية موضوعة!

إنّ الكثير من مفسّرى العامّة نقلوا حديثا موضوعا

عن صحيح البخارى و مسلم و كتب أخرى عن سعيد بن المسيب عن أبيه، أنّه لما حضرت أبا طالب الوفاة أتى إليه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان عنده أبو جهل و عبد اللّه بن أبى أمية، فقال له النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم:

«يا عم، قل لا إله إلّا اللّه أحاج لك بها عند اللّه»، فالتفت أبو جهل و عبد اللّه بن أبى أمية إلى أبى طالب و قالوا: أ تريد أن تصبو عن دين أبيك عبد المطلب؟! و كرر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله، إلّا أنّ أبا جهل و عبد اللّه منعاه من ذلك. و كان آخر ما قاله أبو طالب: على دين عبد المطلب، و امتنع عن قول: لا إله إلّا اللّه، فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عندئذ: «سأستغفر لك حتى أنهى عنه» فنزلت الآية: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا ...[۹۱].

إلّا أنّ الأدلة و القرائن على كذب و وضع هذا الحديث واضحة، لما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۶

أوّلا: المعروف و المشهور بين المفسّرين و المحدثين أنّ سورة براءة نزلت فى السنة التاسعة للهجرة، بل يعتقد البعض أنّها آخر سورة نزلت على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فى حين أن المؤرخين ذكروا أن وفاة أبى طالب كانت فى مكّة، و قبل هجرة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لهذا نرى التخبط و التناقض الصريح الذى وقع فيه بعض المتعصبين كصاحب تفسير المنار، فإنّهم قالوا تارة: إنّ هذه الآية نزلت مرّتين! مرّة فى مكّة، و مرّة فى المدينة فى السنة التاسعة للهجرة و ظنوا أنّهم لما ادّعوا هذا الدليل رفعوا التناقض الذى سقطوا فيه.

و قالوا تارة أخرى: إنّ من الممكن أن تكون هذه الآية نزلت حين وفاة أبى طالب، ثمّ أمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بوضعها فى سورة التوبة. إلّا أنّ هذا الادعاء كسابقه السابق عار من الدليل.

ألم يكن من الأجدر بهم بدل أن يتخطبوا فى هذه التوجيهات التى لا أساس لها، أن يترددوا و يشككوا فى صحة الرّواية السابقة؟!

ثانيا: لا شك فى أنّ اللّه سبحانه و تعالى قد نهى المسلمين فى آيات من القرآن عن محبّة المشركين قبل موت أبى طالب، و نحن نعلم أن الاستغفار من أظهر مصاديق إبراز المحبّة و الصداقة، فكيف يمكن و الحال هذه أن يرحل أبو طالب من الدنيا و يقسم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه سيستغفر له حتى ينهاه اللّه؟! العجيب أنّ الفخر الرازى، الذى عرف بتعصبه فى أمثال هذه المسائل، لما لم يستطع إنكار أنّ هذه الآية قد نزلت- كبقية سورة التوبة- فى أواخر عمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عمد إلى توجيه محير و عجيب، و هو أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم استمر بعد وفاة أبى طالب فى الاستغفار له حتى نزلت هذه الآية و نهته عن الاستغفار! ثمّ يقول: ما المانع من أن يكون هذا الأمر- أى الاستغفار- مجازا للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين إلى ذلك الوقت؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۷

إنّ الفخر الرازى إذا حرر نفسه من قيود التعصب، سيلتفت إلى عدم إمكان أن يستغفر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لفرد مشرك طوال هذه المدّة، فى الوقت الذى كانت آيات كثيرة من القرآن الكريم قد نزلت إلى ذلك الزمان تدين و تشجب أى نوع من مودة المشركين و محبتهم ۹۲].

ثالثا: إنّ الشخص الوحيد الذى روى هذه الرّواية هو «سعيد بن المسيب»، و بعضه و عداوه لأمير المؤمنين على عليه السّلام أشهر من نار على علم، و على هذا لا يمكن الاعتماد على روايته فى شأن على عليه السّلام أو أبيه أو أبنائه مطلقا.

لقد نقل «العلّامة الأمينى قدس سرّه»- بعد أن أشار إلى الموضوع أعلاه- كلاما عن «الواقدى» يستحق التوقف عنده، حيث يقول: إن سعيد بن المسيب مر بجنازة الإمام السجاد على بن الحسين عليه السّلام و لم يصل عليها، و اعتذر بعذر واه، إلّا أنّه على قول ابن حزم- لما سئل: أ تصلى خلف الحجاج أم لا؟ قال: نحن نصلّى خلف من هو أسوأ من الحجاج! رابعا: كما قلنا فى الجزء الخامس من هذا التّفسير، فإنّ ممّا لا شك فيه أنّ أبا طالب قد آمن بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و بيّنا الأدلة الواضحة على ذلك، و أثبتنا بأنّ ما قيل فى عدم إيمان أبى طالب هو تهمة كبيرة. و قد صرّح بذلك كل علماء الشيعة، و جماعة من علماء السنة كابن أبى الحديد فى (شرح نهج البلاغة) و القسطلانى فى (إرشاد السارى) و زينى دحلان فى (حاشية السيرة الحلبية).

و قلنا أن المحقق المدقق إذا لا حظ المد السياسى المغرض الذى تزعمه حكام بنى أمية ضد على عليه السّلام، استطاع أن يقدر بأن كل من ارتبط بأمير المؤمنين عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۸

السّلام لم يبق بمنأى عن التعرض المغرض.

فى الحقيقة، أنّ أبا طالب لم يكن له ذنب سوى أنّه أبو على بن أبى طالب عليه السّلام إمام المسلمين، و قائدهم العظيم! أ لم يتهموا أبا ذرّ، ذلك المجاهد الإسلامى الكبير لحبّه و عشقه لعلى عليه السّلام، و جهاده ضد مذهب عثمان؟! (لمزيد الاطلاع على إيمان أبى طالب الذى كان حاميا لرسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى جميع مراحل حياته، و مدافعا عنه، و مطيعا لأوامره، راجع الآية (۲۵) و (۲۶) من سورة الانعام فى المجلد الرّابع من تفسيرنا هذا)

۲- لماذا وعد إبراهيم آزر بالاستغفار؟

و هنا يطرح سؤال آخر، و هو: كيف وعد إبراهيم عمّه آزر بالاستغفار، و حسب ظاهر هذه الآية و آيات القرآن الأخرى، فإنّه قد وفى بوعده، مع العلم أنّه لم يؤمن أبدا، و كان من المشركين و عبدة الأصنام الى آخر حياته، و الاستغفار لمثل هؤلاء ممنوع؟

و للإجابة على هذا السؤال ينبغى الانتباه أوّلا إلى أنّه يستفاد من الآية- بوضوح- أنّ إبراهيم كان يأمل أن يجذب آزر إلى الإيمان و التوحيد عن هذا الطريق، و كان استغفاره فى الحقيقة هو: اللّهم اهده، و تجاوز عن ذنوبه السابقة.

لكن لما ارتحل آزر من هذه الدنيا و هو مشرك- و أصبح من المحتم عند إبراهيم أنّه مات و هو معاد للّه، و لم يبق سبيل لهدايته- ترك استغفاره لآزر. و على هذا فإنّ المسلمين أيضا يستطيعون أن يستغفروا لأصدقائهم و أقربائهم المشركين ما داموا على قيد الحياة، و كان هناك أمل فى هدايتهم، بمعنى طلب الهداية و المغفرة من اللّه سبحانه لهؤلاء، إلّا أنّهم إذا ماتوا و هم كفار فلا مجال للاستغفار بعد ذلك.

أمّا ما ورد فى بعض الرّوايات من أنّ الإمام الصادق عليه السّلام ذكر أنّ إبراهيم عليه السّلام كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۹

قد وعد آزر بالاستغفار ان هو أسلم- لا أنّه يستغفر له قبل إسلامه، فلمّا تبيّن له أنّه عدو للّه تنفر منه و ابتعد عنه، و على هذا فإنّ وعد إبراهيم كان مشروطا، فلمّا لم يتحقق الشرط لم يستغفر له أبدا، فإنّ هذه الرّواية إضافة إلى أنّها مرسلة و ضعيفة، فإنّها تخالف ظاهر أو صريح الآيات القرآنية، لأنّ ظاهر الآية التى نبحثها أن إبراهيم قد استغفر، و صريح الآية (۸۶) من سورة الشعراء أن إبراهيم قد طلب المغفرة له، حيث يقول: وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ

و الشاهد الآخر ما ورد عن ابن عباس أنّه قال: إن إبراهيم قد استغفر مرارا لآزر ما دام حيا، فلمّا مات على كفره و تبيّن عداوه لدين الحق، امتنع عن هذا العمل.

و لما كان فريق من المسلمين راغبين فی أن يستغفروا للمحسنين الذين ماتوا و هم مشركون، فقد نهاهم القرآن بصراحة عن ذلك، و صرّح بأن وضع إبراهيم يختلف تماما عن وضعهم، فإنّه كان يستغفر لآزر فی حياته رجاء هدايته و إيمانه، لا بعد موته.

۳- ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء

إنّ هذه الآية ليست الوحيدة التی تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدّة آيات فی القرآن الكريم أن كل ارتباط و تضامن و علاقة، العائلية منها و غيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائدية، و يجب أن يحكم الانتماء الی اللّه و محاربة كل أشكال الشرك و الوثنية كل اشكاليات الترابط بين المسلمين. لأنّ هذا الارتباط هو الأساس و الحاكم علی كل مقدراتهم الاجتماعية، و لا تستطيع العلاقات و الروابط السطحية و الفوقية أن تنفيه.

إنّ هذا درس كبير للأمس و اليوم، و كل الأعصار و القرون.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۵ الی ۱۱۶]

اشارة

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۱۵) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۱۱۶)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ فريقا من المسلمين ماتوا قبل نزول الفرائض و الواجبات و تشريعها، فجاء جماعة إلی النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و أظهروا قلقهم علی مصير هؤلاء- و كانوا يظنون أن هؤلاء ربّما سينالهم العقاب الإلهی لعدم أدائهم الفرائض، فنزلت الآية و نفت هذا التصور[۹۳].

و قال بعض الآخر من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت فی مسألة استغفار المسلمين للمشركين، و إظهارهم محبّتهم لهم قبل النهی الصريح الوارد فی الآيات السابقة، لأنّ هذه المسألة كانت باعثا لقلق المسلمين، فنزلت الآية و طمأنتهم إلی أنّ استغفارهم قبل النی لا يوجب حسابهم و معاقبتهم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۱

التّفسير

العقاب بعد البيان:

إن الآية الأولی تشير إلی قانون كلّی و عام، يؤيده العقل أيضا، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالی ما دام لم يبيّن حكما، و لم يصل شیء من الشرع حوله، فإنّه تعالی سوف لا يحاسب عليه أحدا، و بتعبير آخر: فإنّ التكليف و المسؤولية تقع دائما بعد بيان الأحكام، و هذا هو

الذی یعبر عنه فی علم الأصول بقاعدة (قبح العقاب بلا بیان).

و لذلک فأوّل ما تطالعنا به الآیة قوله: وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّی یُبَیِّنَ لَهُمْ ما یَتَّقُونَ

إنّ المقصود من (یضل)- فی الأصل الإضـلال و التضـییع، أو الحکم بالإضـلال- کما احتمله بعض المفسّرین (کما یقال فی التعدیل و التفسیق، أی الحکم بعدالة الشخص و فسقه)[۹۴] أو بمعنی الإضلال من طریق الثواب یوم القیامة، و هو فی الواقع بمعنی العقاب.

أو أنّ المقصود من «الإضـلال» ما قلناه سابقا، و هو سلب نعمة التوفیق، و إیکال الإنسان إلی نفسه، و نتیجة ذلک هو الضیاع و الحیرة و الانحراف عن طریق الهدایـة لا محالـة، و هـذا التعبیر إشارة خفیـة و لطیفة إلی حقیقة ثابتة، و هی أنّ الذّنوب دائما هی مصدر و سـبب الضلال و الضیاع و الابتعاد عن طریق الرشاد[۹۵].

و أخیرا تقول الآیـة: إِنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَـیْءٍ عَلِیمٌ أی إن علم اللّه یحتم و یؤکّـد علی أنّ اللّه سـبحانه ما دام لم یبیّن الحکم الشـرعی لعباده، فإنّه سوف لا یؤاخذهم أو یسألهم عنه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۲

جواب سؤال

یتصور بعض المفسّـِرین و المحـدّثین أنّ الآیة دلیل علی أن «المسـتقلات العقلیة»- (و هی الأمور التی یدرکها الإنسان عن طریق العقل لا عن طریق حکم الشـرع، کإدراک قبـح الظلم و حسن العـدل، أو سوء الکـذب و السـرقة و الاعتداء و قتل النفس و أمثال ذلک)- ما دام الشـرع لم یبیّنها، فإن أحدا غیر مسـئول عنها. و بتعبیر آخر فإنّ کل الأحکام العقلیة یجب أن تؤید من قبل الشرع لإیجاد التکلیف و المسؤولیة علی الناس، و علی هذا فإنّ الناس قبل نزول الشرع غیر مسئولین مطلقا، حتی فی مقابل المستقلات العقلیة.

إلّا أنّ بطلان هـذا التصور واضـح، فإنّ جملـة حَتَّی یُبَیِّنَ لَهُمْ تجیبهم و تبیّن لهم أنّ هـذه الآیـة و أمثالها خاصّة بالمسائل التی بقیت فی حیز الإبهام و تحتاج إلی التّبیین و الإیضاح، و من المسـلّم أنّها لا تشـمل المسـتقلات العقلیـة، لأنّ قبـح الظلم و حسن العـدل لیس أمرا مبهما حتی یحتاج إلی توضیح.

الـذین یـذهبون إلی هذا القول غفلوا عن أن هذا القول- إن صحّ- فلا وجه لوجوب تلبیة دعوة الأنبیاء، و لا مبرر لأن یطالعوا و یحققوا دعوی مـدعی النّبوة و معجزاته حتی یتبیّن لهم صـدقه أو کذبه، لأنّ صدق النّبی و الحکم الإلهی لم یبیّن لحد الآن لهؤلاء، و علی هذا فلا داعی للتحقق من دعواه.

و علی هذا فکما یجب التثبت من دعوی من یدعی النّبوة بحکم العقل، و هو من المستقلات العقلیة، فکذلک یجب اتباع سائر المسائل التی یدرکها العقل بوضوح.

و الدلیل علی هذا الکلام التعبیر المستفاد من بعض الأحادیث الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام،

ففی کتاب التوحید، عن الصادق علیه السّلام أنّه قال فی تفسیر هذه الآیة: «حتی یعرّفهم ما یرضیه و ما یسخطه»[۹۶].

و علی کل حال، فإنّ هذه الآیة و أمثالها تعتبر أساسا لقانون کلّی أصولی، و هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۳

أننا ما دمنا لا نملک الدلیل علی وجوب أو حرمة شـیء، فإنّنا غیر مسـئولین عنه، و بتعبیر آخر فإنّ کل شیء مباح لنا، إلّا أن یقوم دلیل علی وجوبه أو تحریمه، و هو ما یسمونه ب (أصل البراءة).

و تسـتند الآیة التالیة علی هذه المسألة و توکّد: إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و أن نظام الحیاة و الموت أیضا بید قدرته، فإنّه هو الـذی یُحْیِی وَ یُمِیتُ و علی هـذا: وَ ما لَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ، و هو إشارة إلی أنّه لما کانت کل القدرات و الحکومات

فى عالم الوجود بيده، و خاضعة لأمره، فلا ينبغى لكم أن تتكلوا على غيره، و تلتجئوا إلى البعيدين عن اللّه و إلى أعدائه و توادوهم، و توثقوا علاقتكم بهم عن طريق الاستغفار و غيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۴

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۷ الى ۱۱۸]

اشارة

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۱۸)

سبب النّزول

درس كبير!

قال المفسّرون: إنّ الآية الأولى نزلت فى غزوة تبوك، و ما واجهه المسلمون من المشاكل و المصاعب العظيمة، هذه المشاكل التى كانت من الكثرة و الصعوبة بمكان بحيث صمّم جماعة على الرجوع، إلّا أنّ اللطف الإلهى و التوفيق الرّبانى شملهم، فثبتوا فى مكانهم. و من جملة من قيل أن الآية نزلت فيهم أبو خيثمة، و كان من أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لا- من المنافقين، إلّا أنّه لضعفه امتنع عن التوجه إلى معركة تبوك مع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۵

مرّت عشرة أيّام على هذه الواقعة، و كان الهواء حارا محرقا، فحضر يوما عند زوجتيه، و كنّ قد هيأن خيمته، و أحضرن الطعام اللذيذ و الماء البارد، فتذكر فجأة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و غاص فى تفكير عميق، و قال فى نفسه: إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر، و ضمن له آخرته، قد حمل سلاحه على عاتقه و سار فى الصحارى المحرقة، و تحمل مشقّة هذا السفر، أمّا أبو خيثمة- يعنى نفسه- فهو فى ظل بارد، يتمتع بأنواع الأطعمة، و النساء الجميلات!! إنّ هذا ليس من الإنصاف.

فالتفت إلى زوجاته و قال: أقسم باللّه أن لا أكلم إحداكن كلمة، و لا أستظل بهذه الخيمة حتى ألتحق بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم. قال ذلك و حمل زاده و جرابه و ركب بعيره و سار، و جهدت زوجتاه أن يكلمنه فلم يعبأ بهما و لم ينبس ببنت شفة، و واصل سيره حتى اقترب من تبوك.

فقال المسلمون بعضهم لبعض: من هذا الراكب على الطريق؟،

فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «كن أبا خيثمة»

فلمّا اقترب و عرفه الناس، قالوا: نعم، هو أبو خيثمة، فأناخ راحلته و سلّم على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و حدثه بما جرى له، فرحبّ به النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و دعا له.

و بذلك فإنّه كان من جملة الذين مال قلبهم إلى الباطل، إلّا أنّ اللّه سبحانه و تعالى لما رأى استعداده الروحى أرجعه إلى الحق و ثبّت قدمه.

و قد نقل سبب آخر لنزول الآیة الثّانیة، خلاصته:

إنّ ثلاثة من المسلمین و هم: «کعب بن مالک» و «مرارة بن ربیع» و «و هلال بن أمیة»، امتنعوا من المسیر مع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الاشتراک فی غزوة تبوک، إلّا أن ذلک لیس لکونهم جزءا من المنافقین، بل لکسلهم و تثاقلهم، فلم یمض زمان حتی ندموا.

فلمّا رجع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من غزوة تبوک حضروا عنده و طلبوا منه العفو عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۶

تقصیرهم، إلّا أن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکلمهم حتی بکلمة واحدة، و أمر المسلمین أیضا أن لا یکلموهم.

لقد عاش هؤلاء محاصرة اجتماعیة عجیبة و شدیدة، حتی أنّ أطفالهم و نساءهم أتوا إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و طلبوا الإذن منه فی أن یفارقوا هؤلاء إلّا أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یأذن لهم بالمفارقة، لکنّه أمرهم أن لا یقتربوا منهم.

إنّ فضاء المدینة بوسعته قد ضاق علی هؤلاء النفر، و اضطروا للتخلص من هذا الذل و الفضیحة الکبیرة إلی ترک المدینة و الالتجاء إلی قمم الجبال.

و من المسائل التی أثرت تأثیرا روحیا شدیدا، و أوجدت صدمة نفسیة عنیفة لدی هؤلاء ما رواه کعب بن مالک قال: کنت یوما جالسا فی سوق المدینة و أنا مغموم، فتوجه نحوی رجل مسیحی شامی، فلمّا عرفنی سلمنی رسالة من ملک الغساسنة کتب فیها: إذا کان صاحبک قد طردک و أبعدک فالتحق بنا، فتغیر حالی و قلت: الویل لی، لقد وصل أمری إلی أن یطمع بی العدو! خلاصة الأمر: إنّ عوائل هؤلاء و أصدقاءهم کانوا یأتونهم بالطعام، إلّا أنّهم لا یکلمونهم قط، و مضت مدّة علی هذه الحال و هم یتجرعون ألم الانتظار و الترقب فی أن تنزل آیة تبشرهم بقبول توبتهم، لکن دون جدوی فی هذه الأثناء خطرت علی ذهن أحدهم فکرة و قال: إذا کان الناس قد قطعوا علاقتهم بنا و اعتزلونا، فلما ذا لا یعتزل کل منا صاحبه، صحیح أنّنا مذنبون جمیعا، لکن یحب أن لا یفرح أحدنا لذنب الآخر. و بالفعل اعتزل بعضهم بعضا، و لم بتکلموا بکلمة واحدة، و لم یجتمع اثنان منهم فی مکان. و أخیرا ... و بعد خمسین یوما من التوبة و التضرع إلی اللّه سبحانه و تعالی قبلت توبتهم و نزلت الآیة فی ذلک ۹۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۷

التّفسیر

الحصار الاجتماعی للمذنبین:

تتحدّث هذه الآیات أیضا عن غزوة تبوک، و المسائل و الأحداث التی ترتبط بهذا الحدث الکبیر، و ما جری خلاله.

فتشیر الآیة الأولی إلی رحمة اللّه اللامتناهیة التی شملت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المهاجرین و الأنصار فی اللحظات الحساسة، و تقول: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَی النَّبِیِّ وَ الْمُهاجِرِینَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُ فِی ساعَةِ الْعُسْرَةِ.

ثمّ تبیّن أن شمول هذه الرحمة الإلهیة لهم کان فی وقت اشتدت فیه الحوادث و الضغوط و الاضطرابات إلی الحد الذی أوشکت أن تزل فیه أقدام بعض المسلمین عن جادة الصواب، (و صمموا علی الرجوع من تبوک) فتقول: مِنْ بَعْدِ ما کادَ یَزِیغُ قُلُوبُ فَرِیقٍ مِنْهُمْ ثمّ توکّد مرّة أخری علی أن اللّه سبحانه قد تاب علیهم، فتقول: ثُمَّ تابَ عَلَیْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِیمٌ

و لم تشمل الرحمة الإلهیة هذا القسم الکبیر الذی شارک فی الجهاد فقط، بل شملت حتی الثلاثة الذین تخلفوا عن القتال و مشارکة المجاهدین فی ساحة الجهاد: وَ عَلَی الثَّلاثَةِ الَّذِینَ خُلِّفُوا.

إلّا أنّ اللطف الإلهی لم یشمل هؤلاء المتخلفین بهذه السهولة، بل عند ما عاش هؤلاء- و هم کعب بن مالک و مرارة بن ربیع و هلال

بن أمیة، الـذین مر شـرح حالهم فی سـبب النزول- مقاطعة اجتماعیة شدیدة، و قاطعهم کل الناس بالصورة التی تصورها الآیة، فتقول: حَتَّی إِذا ضاقَتْ عَلَیْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ

بـل إنّ صـدور هؤلاء امتلأت همّا و غمّا بحیث ظنوا أن لا مکان لهم فی الوجود، فکأنّه ضاق علیهم وَ ضاقَتْ عَلَیْهِمْ أَنْفُسُهُمْ فابتعد أحدهم عن الآخر و قطعوا العلاقة فیما بینهم.

عند ذلک رأوا کل الأبواب مغلقة بوجوههم. فأیقنوا وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۸

إِلَّا إِلَیْهِ فأدرکتهم رحمة اللّه مرّة أخری، و سهلت و یسرت علیهم أمر التوبة الحقیقیة، و الرجوع إلی طریق الصواب لیتوبوا: ثُمَّ تابَ عَلَیْهِمْ لِیَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ

بحوث

اشارة

و هنا بحوث نلفت النظر إلیها:

۱- المراد من توبة اللّه علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم

قرأنا فی الآیة الأولی أن اللّه سبحانه قد تاب علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المهاجرین و الأنصار، و قبل توبتهم. و لا شک أنّ النّبی معصوم من الـذنوب، و لم یرتکب معصیة لیتوب فیقبل اللّه توبته، و إن کان بعض مفسّری العامّة قد اعتبروا التعبیر فی هذه الآیة دلیلا علی صدور السهو و المعصیة من النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی أحداث تبوک.

إلّا أنّ التدقیق فی نفس هذه الآیة و سائر آیات القرآن سیرشدنا إلی عدم صحة هذا التّفسیر، لأن:

أوّلا: إن معنی توبة اللّه سبحانه رجوعه بالرحمة و الرعایة علی عباده، و لا یوجد فی هذا المعنی أثر للزلل أو المعصیة، کما قال فی سورة النساء بعد ذکر قسم من الأحکام: یُرِیدُ اللَّهُ لِیُبَیِّنَ لَکُمْ وَ یَهْدِیَکُمْ سُنَنَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ یَتُوبَ عَلَیْکُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ ففی هذه الآیة و التی قبلها لم یرد حدیث عن الزلل و المعصیة، بل الکلام- عن تبیین الأحکام و الإرشاد إلی سنن الماضین القیمة المفیدة، و هذا بنفسه یوضح أن التوبة هنا بمعنی شمول رحمة اللّه سبحانه لعباده.

ثانیا: لقد ورد فی کتب اللغة أن أحد معانی التوبة هو ما ذکرناه، ففی کتاب (القاموس) المعروف ورد فی أن هذا هو أحد معانی التوبة ما لفظة: رجع علیه بفضله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۹

و قبوله:

ثالثا: إنّ الآیة تحصر الانحراف عن طریق الحق و التخلف عنه بجماعة من المؤمنین، مع أنّها تصرح بأنّ الرحمة الإلهیة تعم الجمیع، و هو بنفسه یبیّن أنّ توبة اللّه هنا لیست بمعنی قبول عذر العباد، بل هی الرحمة الإلهیة الخاصّة التی أدرکت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کل المؤمنین بدون استثناء فی اللحظات الحساسة، و ثبّتت أقدامهم فی أمر الجهاد.

۲- غزوة تبوك و ساعة العسرة

«السّاعة» من الناحية اللغوية بمعنى مقطع زمنى، سواء كان قصيرا أم طويلا، و لا يقال للزمن الطويل جدا: ساعة. «و العسرة» بمعنى المشقة و الصعوبة.

إن تاريخ الإسلام يبيّن أنّ المسلمين لم يعانوا مثل ما عانوه فى غزوة تبوك من الضغوط و المشقة، لأنّ المسير إلى تبوك كان فى وقت اشتداد حر الصيف من جهة.

و من جهة أخرى فإنّ القحط قد أثّر فى الناس و أنهك قواهم.

و كذلك فإنّ الفصل كان فصل اقتطاف الثمار، و لا بدّ من جمع ما على الأشجار و النخيل لتأمين قوت سنتهم.

و إذا تجاوزنا جميع ذلك، فإنّ المسافة بين المدينة و تبوك طويلة جدا.

و العدو الذى كانوا يريدون مواجهته هو إمبراطورية الروم الشرقية، التى كانت يومها من أقوى الامبراطوريات العالمية.

إضافة إلى ما مرّ، فإنّ وسائل النقل بين المسلمين كانت قليلة إلى الحد الذى قد يضطر أحيانا عشرة أشخاص إلى أن يتناوبوا ركوب وسيلة واحدة، و بعض المشاة لم يكونوا يمتلكون حتى النعل، و كانوا مضطرين إلى العبور على رمال الصحراء الحارقة بأقدام عارية ...

أمّا من ناحية الطعام و الشراب، فإنّهم كانوا يعانون من قلّة المواد الغذائية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۰

بحيث أنّ عدّة أشخاص يشتركون فى تمرة واحدة أحيانا، فيمص كل منهم التمرة و يعطيها لصاحبه حتى لا يبقى منها إلى النواة ... و كان عدّة أفراد يشتركون فى جرعة ماء!! لكن، و رغم كل هذه الأوضاع، فإنّ المسلمين كانوا يتمتعون بمعنويات عالية و راسخة، و بالرغم من كل المشكلات، فإنّهم توجهوا برفقة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم نحو العدو، و بهذه الاستقامة و الرجولة فإنّهم سجلوا للمسلمين. و فى كل العصور و القرون، درسا كبيرا خالدا فى ذاكرة الزمن ... درسا كافيا لكل الأجيال، و طريقا للانتصار على أكبر الأعداء و أخطرهم و أكثرهم عدّة ...

و لا شك أنّ بين المسلمين من كان يمتلك معنويات أضعف، و هم الذين دارت فى رؤوسهم فكرة الرجوع و الذين عبّر عنهم القرآن الكريم ب مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لأنّ (يزيغ) مأخوذة من (زيغ) بمعنى الميل و الانحراف عن الحق نحو الباطل.

لكن، و كما رأينا، فإنّ المعنويات العالية للأكثرية من المسلمين، و لطف اللّه سبحانه بهم، هو الذى صرف هؤلاء عن هذه الفكرة، ليلتحقوا بجماعة المجاهدين فى طريق الحق.

۳- ما هو معنى خُلِّفُوا؟

لقد عبرت الآيات عن هؤلاء الثلاثة المقصرين المهملين ب (خلّفوا) بمعنى الذين تركهم الجيش وراء ظهره، و ذلك لأن المسلمين عند ما كانوا يصادفون من يتخاذل و يكسل عن الجهاد، فإنّهم لا- يعبؤون به، بل يتركونه وراء ظهورهم و يتوجهون إلى جبهات الجهاد.

أو لأنّ هؤلاء عند ما حضروا عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليعتذروا و يطلبوا الصفح عن ذنبهم لم يقبل عذرهم، و أخّر قبول توبتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۱

۴- درس كبير دائمى

من المسائل المهمّة التى تستفاد من هذه الآيات، مسألة مجازاة المجرمين و الفاسدين عن طريق الحصار الاجتماعى و قطع الروابط و العلاقات، فنحن نرى أن قطع الروابط هذا قد وضع هؤلاء الثلاثة فى شدة كانت أصعب عليهم من كل السجون بحيث ضاقت عليهم الدنيا تحت وطأت الحصار الاجتماعى و قطعوا الأمل من كل شيء.

إنّ هذا الأسلوب قد أثر فى المجتمع الإسلامى آنذاك تأثيرا قويا جدّا، بحيث قلّ بعد هذه الحادثة من يجرءوا أن يرتكبوا مثل هذه المعاصى.

إنّ هذا النوع من العقاب لا يحتاج إلى متاعب و ميزانية السجون، و ليس فيه خاصية تربية الكسالى و الأشرار كما هو حال السجون، إلّا أنّ أثره أكبر و أشدّ من تأثير أى سجن، فهو نوع من الإضراب و الجهاد السلبى للمجتمع مقابل الأفراد الفاسدين، فإنّ المسلمين إذا أقدموا على مثل هذه المجابهة فى مقابل المتخلفين عن أداء الواجبات الاجتماعية الحساسة، فإنّ النصر سيكون حليفهم قطعا، و سيكون بامكانهم تطهير مجتمعهم بكل سهولة.

أمّا روح المجاملة و المساومة و الاستسلام التى سرت اليوم- مع الأسف- فى كثير من المجتمعات الإسلامية كمرض عضال، فإنّها لا تمنع و لا تقف أمام أمثال هؤلاء المتخلفين، بل و تشجعهم على أعمالهم القبيحة.

۵- غزوة تبوك و نتائجها

منطقة «تبوك» هى أبعد نقطة وصل إليها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى غزواته، و هذه الكلمة فى الأصل اسم قلعة محكمة و عالية كانت فى الشريط الحدودى بين الحجاز و الشام، و لذلك سمّيت تلك المنطقة بأرض تبوك.

إنّ انتشار الإسلام السريع فى جزيرة العرب كان سببا فى أن يدوى صوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۲

الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و نداؤه فى جميع الدول المجاورة للجزيرة العربية، و لم يكن أحد يعير للحجاز أهمية لغاية ذلك اليوم، فلما بزغ فجر الإسلام، و ظهرت قوّة جيش النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى وحّد الحجاز تحت راية واحدة، خاف هؤلاء من عاقبة الأمر.

إنّ دولة الروم الشرقية المتاخمة للحجاز، كانت تحتمل أن تكون من أوائل ضحايا تقدم الإسلام السريع، لذلك فقد جهزت جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل، و كان مجهزا بالأسلحة الكافية التى كانت تمتلكها قوّة عظمى كإمبراطورية الروم، و استقر الجيش فى حدود الحجاز، فوصل الخبر إلى مسامع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن طريق المسافرين، فأراد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يلقن الروم و باقى جيرانه درسا يكون لهم عبرة.

فلم يتأخر عن إصدار أمره بالتهيؤ و الاستعداد للجهاد، و بعث الرسل الى المناطق الأخرى يبلّغون المسلمين بأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فلم يمض زمن حتى اجتمع لديه ثلاثون ألفا لقتال الروميين، و كان من بينهم عشرة آلاف راكب و عشرون ألف راجل.

كان الهواء شديد الحرّ، و قد فرغت المخازن من المواد الغذائية، و المحصولات الزراعية لتلك السنة لم تحصد و تجمع بعد، فكانت الحركة فى مثل هذه الأوضاع بالنسبة للمسلمين صعبة جدّا، إلّا أنّ أمر اللّه و رسوله يقضى بالمسير فى ظل أصعب الظروف و طى الصحارى الواسعة و المليئة بالمخاطر بين المدينة و تبوك.

إنّ هذا الجيش نتيجة للمشاكل الكثيرة التى واجهها من الناحية الاقتصادية، و المسير الطويل، و الرياح السموم المحرقة، و عواصف

الرمال الكاسحة، و عدم امتلاك الوسائل الكافية للنقل، قد عرف ب (جيش العسرة)، و لكنّه تحمل جميع هذه المشاكل، و وصل إلى أرض تبوك فى غرة شعبان من السنة التاسعة للهجرة، و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد خلف عليا عليه السّلام مكانه، و هى الغزوة الوحيدة التى لم يشارك فيها أمير المؤمنين عليه السّلام.

إن قيام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بإقامة على عليه السّلام مكانه كان عملا ضروريا و فى محله، فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۳

كان من المحتمل جدا أن يستفيد المتخلفون من المشركين أو المنافقين- الذى امتنعوا بحجج مختلفة عن الاشتراك فى الجهاد- من غيبة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الطويلة، و يجمعوا أفرادهم و يحملوا على المدينة و يقتلوا النساء و الأطفال و يهدموا المدينة، إلّا أنّ وجود على عليه السّلام كان سدّا منيعا فى وجه مؤامراتهم و خططهم.

و على كل حال، فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حينما وصل إلى تبوك لم ير أثرا لجيوش الروم، و ربّما كان ذلك لأنّهم سمعوا بخبر توجه هذا الجيش الإسلامى العظيم، و قد سمعوا من قبل بشجاعة و استبسال المسلمين العجيبة، و ما أبدوه من بلاء حسن فى الحروب، فرأوا أنّ الأصلح سحب قواتهم إلى داخل بلادهم، و ليبيّنوا أنّ خبر تجمع جيش الروم على الحدود، و نيّته بالقيام بهجوم على المدينة، شائعة لا أساس لها، لأنّهم خافوا من التورط بمثل هذه الحرب الطاحنة دون مبررات منطقية، فخافوا من ذلك.

إلّا أنّ حضور جنود الإسلام إلى ساحة تبوك بهذه السرعة قد أعطى لأعدائه عدة دروس:

أولا: إنّ هذا الموضوع أثبت أنّ المعنويات العالية و الروح الجهادية لجنود الإسلام، كانت قوية إلى الدرجة التى لا يخافون معها من الاشتباك مع أقوى جيش فى ذلك الزمان.

ثانيا: إنّ الكثير من القبائل و أمراء أطراف تبوك أتوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أمضوا عهودا بعدم التعرض للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و محاربته، و بذلك فقد اطمأن المسلمون من هذه الناحية، و أمنوا خطرهم.

ثالثا: إنّ إشعاع الإسلام و أمواجه قد نفذت إلى داخل حدود إمبراطورية الروم، و دوّى صدى الإسلام فى كل الأرجاء باعتباره أهم حوادث ذلك اليوم، و هذا قد هيأ الأرضية الجيدة لتوجه الروميين نحو الإسلام و الإيمان به.

رابعا: إنّ المسلمين بقطعهم هذا الطريق، و تحملهم لهذه الصعاب، قد عبّدوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۴

الطريق لفتح الشام فى المستقبل، و قد اتضح للجميع بأن هذا الطريق سيقطع فى النهاية.

و هكذا، فإنّ هذه المعطيات الكبيرة تستحق كل هذه المشاق و التعبئة و الزحف.

و على كل حال، فإنّ النّبى على عادته- قد استشار جيشه فى الاستمرار فى التقدم أو الرجوع، و كان رأى الأكثر بأنّ الرجوع هو الأفضل و الأنسب لروح التعليمات الإسلامية، خاصّة و أن جيوش المسلمين كانت قد تعبت نتيجة المعاناة الكبيرة فى الطريق، و ضعفت مقاومتهم الجسمية، فأقر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هذا الرأى ورد جيوش المسلمين إلى المدينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۵

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۱۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (۱۱۹)

التّفسير

كونوا مع الصّادقين:

فی الآیات السابقة کان الحدیث حول جماعة من المتخلفین الذین نقضوا عهدهم مع اللّه و رسوله، و أظهروا عملیا تکذیبهم للإیمان باللّه و الیوم الآخر، و رأینا کیف أنّ المسلمین قد أرجعوهم إلی حظیرة الإیمان بمقاطعتهم، و نبّهوهم علی خطئهم.

أمّا هذه الآیة فقد أشارت إلی النقطة المقابلة لهؤلاء، فهی تأمر بتحکیم الروابط مع الصادقین الذین حافظوا علی عهدهم و ثبتوا علیه.

فی البدایة تقول الآیة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ و لأجل أن یستطیعوا سلوک طریق التقوی الملیء بالمنعطفات و الاخطار بدون اشتباه و انحراف أضافت: وَ کُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ

و قد احتمل المفسّرون احتمالات مختلفة فی المقصود من الصادقین، و من هم؟

إلّا أنّنا إذا أردنا اختصار الطریق، یجب أن نرجع إلی القرآن الکریم نفسه الذی فسّر معنی الصادقین فی آیات متعددة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۶

فنقرأ فی سورة البقرة، الآیة (۱۷۷): لَیْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَکُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِکَةِ وَ الْکِتابِ وَ النَّبِیِّینَ وَ آتَی الْمالَ عَلی حُبِّهِ ذَوِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ السَّائِلِینَ وَ فِی الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَی الزَّکاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِینَ فِی الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِینَ الْبَأْسِ أُولئِکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

فنحن نری فی هذه الآیة أنّها بعد نهی المسلمین عن البحث و المناقشة حول مسألة تغییر القبلة، تفسر لهم حقیقة العمل الصالح و البر بأنّه الإیمان باللّه و یوم القیامة و الملائکة و الکتب السماویة و الأنبیاء، ثمّ الإنفاق فی سبیل اللّه و مساعدة المحتاجین و المحرومین، و إقامة الصلاة، و إیتاء الزکاة، و الوفاء بالعهد، و الاستقامة و الصمود أمام المشاکل حین الجهاد، و بعد ذکر کل هذه الصفات تقول: إنّ الذین یمتلکون هذه الصفات هم الصادقون و هم المتقون.

و علی هذا، فإنّ الصادق هو الذی یؤمن بکل المقدسات، ثمّ یعمل بموجبها فی جمیع النواحی، و فی الآیة (۱۵) من سورة الحجرات نقرا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ یَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ أُولئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ فإنّ هذه الآیة أیضا تعرّف الصدق بأنّه مجموع الإیمان و العمل الذی لا تشوبه أیة شائبة من التردد أو المخالفة.

و نقرا فی الآیة (۸) من سورة الحشر: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِینَ الَّذِینَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ یَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ فهذه الآیة عرّفت الصادقین بأنّهم المؤمنون المحرومون الذین استقاموا و ثبتوا رغم کل المشاکل، و أخرجوا من دیارهم و أموالهم، و لم یکن لهم هدف و غایة سوی رضی اللّه و نصرة رسوله صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

من مجموع هذه الآیات نحصل علی نتیجة، و هی أنّ الصادقین هم الذین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۷

یؤدون تعهداتهم أمام الإیمان باللّه علی أحسن وجه دون أی تردد أو تماهل و لا یخافون سیل المصاعب و العقبات، بل یثبتون صدق إیمانهم بأنواع الفداء و التضحیة.

و لا شک أنّ لهذه الصفات درجات، فقد یکون البعض فی قمتها، و هم الذین نسمّیهم بالمعصومین، و البعض فی درجات أقل و أدنی منها.

هل المراد من الصّادقين هم المعصومون فقط؟

بـالرغم من أنّ مفهوم الصـادقین- کما ذکرنا سابقا- مفهوم واسع، إلّا أنّ المسـتفاد من الرّوایات الکثیرة أنّ المراد من هـذا المفهوم هنا هم المعصومون فقط.

یروی سلیم بن قیس الهلالی: إنّ أمیر المؤمنین علیه السّلام کان له یوما کلام مع جمع من المسلمین، و من جملة ما قال: «فأنشدکم اللّه أ تعلمون أن اللّه أنزل: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ کُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ فقال سلمان: یا رسول اللّه أ عامّة هی أم خاصّة؟

قال: أمّا المأمورون فالعامّـة من المؤمنین أمروا بذلک، و أمّا الصادقون فخاصّة لأخی علی و الأوصـیاء من بعده إلی یوم القیامة»؟ قالوا: اللّهم نعم ۹۸].

و یروی نافع عن عبد اللّه بن عمر: إنّ اللّه سـبحانه أمر أوّلا المسـلمین أن یخافوا اللّه ثمّ قال: کُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ یعنی مع محمّد و أهل بیته ۹۹].

و بـالرغم من أنّ بعض مفسّـری أهـل السـنة- کصـاحب المنـار- قـد نقلوا ذیل الرّوایـة أعلاه هکـذا: مع محمّـد و أصـحابه، و لکن مع ملاحظـة أن مفهوم الآیة عام و شامل لکل زمان، و صـحابة النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم کانوا فی زمن خاص، تبیّن لنا أنّ العبارة التی وردت فی کتب الشیعة عن عبد اللّه بن عمر هی الأصح.

و نقل صاحب تفسیر البرهان نظیر هذا المضمون عن طرق العامّة، و قال: إنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۸

موفق بن أحمـد بإسـناده عن ابن عبـاس، یروی فی ذیل هـذه الآیـة: هو علی بن أبی طالب. ثمّ یقول: أورد ذلک أیضا عبـد الرزاق فی کتاب رموز الکنوز[۱۰۰].

أمّـا المطلب الأهـم، فهو أنّ الآیـة تـأمر أوّلاـ بـالتقوی، ثمّ بـالکون مع الصـادقین، فلو أنّ مفهوم الصـادقین فی الآیـة عامّـا و شاملا لکل المؤمنین الحقیقیین المستقیمین، لکان اللازم أن یقال: و کونوا من الصادقین، لا مع الصادقین. (فتأمل جیدا).

إنّ هذه بذاتها قرینة واضحة علی أنّ (الصّادقین) فی الآیة هم فئة خاصّة.

و من جهـة أخری، فلیس المراد من الکـون معهم أن یکـون الإنسـان مجالسـا و معاشـرا لهم، بـل المراد قطعـا هـو اتبـاعهم و السیر فی خطاهم.

إذا کان الشـخص غیر معصوم هل یمکن صدور أمر بدون قید أو شـرط باتباعه و السیر فی رکابه؟ ألیس هذا بنفسه دلیلا علی أن هذه الفئة و المجموعة هم المعصومون؟

و علی هذا، فإنّ ما استفدناه من الرّوایات یمکن استفادته من الآیة إذا دققنا النظر فیها.

إن الملفت للنظر هنا، أنّ المفسّـر المعروف الفخر الرازی، المعروف بتعصبه و تشکیکه، قد قبل هذه الحقیقة- و إن کان أغلب مفسّری السنـة سـکتوا عنها عنـد مرورهم بهـذه الآیة- و یقول: إنّ اللّه قد أمر المؤمنین بأن یکونوا مع الصادقین، و علی هذا فإنّ الآیة تدل علی أن من یجوز الخطأ علیهم یجب علیهم الاقتداء بالمعصوم حتی یبقوا مصونین عن الخطأ فی ظلّه و عصمته، و سیکون هذا الأمر فی کل زمان، و لا نملک أی دلیل علی اختصاص ذلک بعصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

إلّا أنّه یضـیف بعـد ذلک: إنّنا نقبل أنّ مفهوم الآیـة هو هـذا، و یجب أن یوجد معصوم فی کل وقت، إلّا أنّنا نری أن هذا المعصوم هو جمیع الأمّة، لا أنّه فرد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۹

واحد! و بتعبیر آخر: إنّ هذه الآیة دلیل علی حجیة إجماع المؤمنین، و عدم خطأ مجموع الأمّة[۱۰۱].

و بهـذا الترتیب، فإنّ الرازی قـد طوی نصف الطریق جیدا، إلّا أنّه زاغ فی النصف الثّانی، و لو أنّه التفت إلی النکتة التی وردت فی متن

الآیة لأکمل النصف الثّانی أیضا بسلامة، و هی أنّه لو کان المقصود من الصادقین مجموع الأمّة، فإنّ الأتباع سیکونون جزء من ذلک المجموع و هو فی الواقع اتباع الجزء للقدوة و الإمام، و سیعنی ذلک اتحاد التابع و المتبوع، فی حین نری أنّ ظاهر الآیة هو أن القدوة غیر المقتدی، و التابعین غیر المتبوعین، بل یفترقون عنهم. (دققوا ذلک).

و نتیجة ذلک: إنّ هذه الآیة من الآیات التی تدل علی وجود المعصوم فی کل عصر و زمان.

و یبقی سؤال أخیر، و هو أنّ الصادقین جمع، و هل یجب علی هذا الأساس أن یکون فی کل زمان معصومون متعددون؟

و الجواب علی هذا السؤال واضح أیضا، و هو أنّ الخطاب لیس مختصا بأهل زمن و عصر معین، بل إنّ الآیة تخاطب کل العصور و القرون، و من البدیهی أن المخاطبین علی مر العصور لا بد و أن سیکونوا مع جمع من الصادقین. و بتعبیر آخر، فإنّه لما کان فی کل زمان معصوم، فإنّنا إذا أخذنا کل القرون و العصور بنظر الإعتبار، فإنّ الکلام سیکون عن جمع المعصومین لا عن شخص واحد.

و الشاهد الناطق علی هذا الموضوع هو أنّه لا یوجد فی زمن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أحد تجب طاعته غیر شخص النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و فی الوقت نفسه فإنّ من المسلّم أنّ الآیة تشمل المؤمنین فی زمانه، و علی هذا الأساس سنفهم أن الجمع الوارد فی الآیة لا یراد منه الجمع فی زمان واحد، بل هو فی مجموعة الأزمنة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۰

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۱۲۰ الی ۱۲۱]

اشارة

ما کانَ لِأَهْلِ الْمَدِینَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ یَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لا یَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ لا یُصِیبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ لا یَطَؤُنَ مَوْطِئاً یَغِیظُ الْکُفَّارَ وَ لا یَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَیْلاً إِلاَّ کُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا یُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ (۱۲۰) وَ لا یُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً وَ لا یَقْطَعُونَ وادِیاً إِلاَّ کُتِبَ لَهُمْ لِیَجْزِیَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۲۱)

التّفسیر

معاناة المجاهدین لا تبقی بدون ثواب:

کان البحث فی الآیات السابقة حول توبیخ و ملامة الممتنعین عن الاشتراک فی غزوة تبوک، و تبحث هاتان الآیتان البحث النهائی لهذا الموضوع کقانون کلّی.

فالآیة الأولی تقول: ما کانَ لِأَهْلِ الْمَدِینَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ یَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لا یَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ لأنّه قائد الأمّة، و رسول اللّه، و رمز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۱

بقاء و حیاة الأمّة الإسلامیة، و إن ترکه وحیدا لا یعرض حیاة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم للخطر فحسب، بل یعرّض دین اللّه، و کذلک وجود و حیاة المؤمنین أیضا أمام الخطر الجدی.

إنّ القرآن- فی الواقع- یرغّب کل المؤمنین بملازمة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و حمایته و الدفاع عنه فی مقابل کل الأخطار و العقبات باستعمال نوع من البیان و التعبیر العاطفی، فهو یقول: إنّ أرواحکم لیست بأعزّ من روح النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و حیاتکم لیست بأفضل من حیاته، فهل یسمح لکم إیمانکم أن تدعو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یواجه الخطر و هو أفضل و أعز

موجود إنسانی، و قد بعث لنجاتكم و قيادتكم نحو الهدى و تستثقلون التضحية فى سبيله حفاظا على أرواحكم و سلامتكم؟! من البديهی أنّ التأكيد على أهل المدينة و أطرافها إنّما هو لأنّ المدينة كانت مقرّ الإسلام يومئذ و مركزه المشع، و إلّا فإنّ هذا الحكم غير مختص بالمدينة و أطرافها، و غير مختص بالنّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فإنّ واجب كل المسلمين، و فی جميع العصور أن يحترموا و يكرموا قادتهم كأنفسهم، بل أكثر، و يبذلون قصارى جهدهم فی سبيل الحفاظ عليهم، و لا يتركوهم يواجهون الصعاب و الأخطار وحدهم، لأنّ الخطر الذی يحدق بهؤلاء يحدق بالأمّة جميعا.

ثمّ تشير الآية إلى مكافآت المجاهدين المعدة مقابل كل صعوبة يلاقونها فی طريق الجهاد، و تذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل و الصعاب و ثوابها، فتقول:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ و من المحتم أنّهم سيقبضون جوائزهم من اللّه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۲

سبحانه، واحدة بواحدة، ف إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ و كذلک فإنّهم لا يبذلون شيئا فی امر الجهاد:

وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً و لا يقطعون أرضا فی ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلّا ثبت كل ذلک فی كتبهم:

وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ و إنّما يثبت ذلک لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و هنا يجب الانتباه لمسائل:

۱- إنّ جملة لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا قد فسّرها أغلب المفسّرين كما ذكر أعلاه، و قالوا: إنّ المقصود هو أن المجاهدين فی سبيل اللّه لا يتلقون ضربة من قبل العدو، سواء جرحوا بها أو قتلوا أو أسروا و أمثال ذلک، إلّا و تسجّل فی صحائف أعمالهم ليجزوا عليها، و مقابل كل تعب و صعوبة ما يناسبها من الأجر، و من الطبيعی أننا إذا لاحظنا أنّ الآية فی مقام ذكر المصاعب و حسابها، فإن ذلک ممّا يناسب هذا المعنى.

إلّا أنّنا إذا أردنا أن نفسر هذه العبارة بملاحظة ترتيب الفقرات و موقع هذه الجملة منها، و ما يناسبها لغويا، فإنّ معنى الجملة يكون: إنّهم لا ينزلون بالعدو ضربة إلّا كتبت لهم، لأنّ معنى نال من عدوه فی اللغة: ضربه، إلّا أن النظر إلى مجموع الآية يرجح التّفسير الأوّل.

۲- ذكر المفسّرون تفسيرين لجملة: أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أحدهما على أساس أن كلمة (أحسن) وصف لأفعالهم، و الآخر على أنّها وصف لجزائهم.

فعلى التّفسير الأوّل و هو ما اخترناه، و هو الأوفق لظاهر الآية- فأنّ أعمال المجاهدين هذه قد اعتبرت و عرّفت بأنّها أحسن أعمالهم فی حياتهم، و أنّ اللّه سبحانه سيعطيهم من الجزاء ما يناسب أعمالهم.

و على التّفسير الثّانی الذی يحتاج إلى تقدير كلمة (من) بعد كلمة (أحسن) فإنّها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۳

تعنی إن جزاء اللّه أفضل و أثمن من أعمالهم، و تقدير الجملة: ليجزيهم اللّه أحسن ممّا كانوا يعملون، أی سيعطيهم اللّه أفضل ممّا أعطوا.

۳- إنّ الآيات المذكورة لا تختص بمسلمی الأمس، بل هی للأمس و اليوم و لكل القرون و الأزمنة.

و لا شک أنّ الاشتراک فی أی نوع من الجهاد، صغيرا كان أم كبيرا، يستبطن مواجهة المصاعب و المشاكل المختلفة، الجسمية منها و الروحية و المالية و أمثالها، إلّا أن المجاهدين أناروا قلوبهم و أرواحهم بالإيمان باللّه و وعوده الكبيرة. و علموا أن كل نفس و كلمة و خطوة يخطونها فی هذا السبيل لا تذهب سدى، بل إنّها محفوظة بكل دقة دون زيادة أو نقصان، و إنّ اللّه سبحانه سيعطيهم فی مقابل

هذه الأعمال- باعتبارها أفضل الأعمال- من بحر لطفه اللامتناهى أنسب المكافئات و أليقها ...

إنّهم إذا عاشوا هذا الإحساس فسوف لا يمتنعون مطلقا من تحمل هذه المصاعب مهما عظمت و ثقلت، و سوف لا يدعون للضعف طريقا إلى أنفسهم مهما كان الجهاد مريرا و مليئا بالحوادث و العقبات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۴

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۲۲]

اشارة

وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (۱۲۲)

سبب النّزول

روى الطبرسى رحمه اللّه فى مجمع البيان عن ابن عباس، أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لما سار إلى ميدان القتال، كان جميع المسلمين يسيرون بين يديه باستثناء المنافقين و المعذورين، إلّا أنّه بعد نزول الآيات التى ذمت المنافقين، و خاصّة المتخلفين عن غزوة تبوك، فإنّ المؤمنين صمموا أكثر من قبل على المسارعة إلى ميادين الحرب، بل و حتى فى الحروب التى لم يشارك فيها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بنفسه، فإنّ جميع السرايا كانت تتوجه الى الجهاد، و يدعون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم وحده، فنزلت الآية و أعلنت أنّه لا ينبغى فى غير الضرورة أن يذهب جميع المسلمين إلى الجهاد، بل يجب أن يبقى جماعة منهم ليتعلموا العلوم الإسلامية و أحكام الدين من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يعلموا أصحابهم المجاهدين عند رجوعهم من القتال.

و قد نقل هذا المفسّر الكبير سببا آخر للنّزول بهذا المضمون أيضا، و هو أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۵

جماعة من أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم انتشروا بين القبائل يدعونهم إلى الإسلام، فرحّبوا بهم و أحسنوا إليهم، إلّا أنّ بعضهم قد لا مهم على تركهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و التوجه إليهم، و قد تأثر هؤلاء لذلك و رجعوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فنزلت الآية تؤيد عمل هؤلاء فى الدعوة إلى الإسلام، و أزالت قلقهم.

و روى سبب ثالث للنزول فى تفسير «التبيان»، و هو أنّ الأعراب لما أسلموا توجّهوا جميعا نحو المدينة لتعلم الأحكام الإسلامية، فسبّب ذلك ارتفاع قيمة البضائع و المواد الغذائية، و إيجاد مشاكل و مشاغل أخرى لمسلمى المدينة، فنزلت الآية و عرّفتهم بأنّه لا يجب توجههم جميعا إلى المدينة و ترك ديارهم و أخلاؤها، بل يكفى أن يقوم بهذا العمل طائفة منهم.

التّفسير

محاربة الجهل و جهاد العدو:

إنّ لهذه الآية ارتباطا بالآيات السابقة حول موضوع الجهاد، و تشير إلى حقيقة حياتية بالنسبة للمسلمين، و هى: أنّ الجهاد و إن كان عظيم الأهمية، و التخلف عنه ذنب و عار، إلّا أنّه فى غير الحالات الضرورية لا لزوم لتوجه المؤمنون كافة إلى ساحات الجهاد، خاصّة

فى الموارد التى يبقى فيها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينة، بل يبقى منهم جماعة لتعلم أحكام الدين و يتوجه الباقون إلى الجهاد: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد يقومون بتعليمهم هذه الأحكام و المعارف الإسلامية، و يحذرونهم من مخالفتها: وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ و الهدف من ذلك أن يحذر هؤلاء عن مخالفة أوامر اللّه سبحانه بإنذارهم لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۶

ملاحظات

و هنا ملاحظات ينبغى التوقف عندها:

۱- إنّ ما قيل فى تفسير هذه الآية إضافة إلى أنّه يناسب سبب نزولها المعروف، فإنّه الأوفق مع ظاهر جمل الآية من أى تفسير آخر، إلّا أنّ الشيء الوحيد هنا هو أنّنا يجب أن نقدر جملة «لتبقى طائفة» بعد «من كل طائفة» أى: لتذهب طائفة من كل فرقة، و تبقى طائفة أخرى، و هذا الموضوع بالطبع مع ملاحظة القرائن الموجودة فى الآية لا يستوجب إشكالا. (فتأمل بدقة).

إلّا أنّ بعض المفسّرين احتمل عدم وجود أىّ تقدير فى الآية، و المقصود أن جماعة من المسلمين يذهبون إلى الجهاد تحت عنوان الواجب الكفائى، و يعرفون فى ساحات الجهاد أحكام الإسلام و تعاليمه، و يرون بأنفسهم انتصار المسلمين على الأعداء، الذى هو بذاته نموذج من آثار عظمة و أحقية هذا الدين، و إذا ما رجعوا يكونون أوّل من يشرح لإخوانهم ما جرى ۱۰۲].

و الاحتمال الثّالث الذى احتمله بعض المفسّرين. و هو أنّ الآية تبيّن حكما مستقلا عن مباحث الجهاد، و هو أنّه يجب على المسلمين واجبا كفائيا أن ينهض من كل قوم عدّة أفراد بمسؤولية تعلم الأحكام و العلوم الإسلامية، و يذهبوا إلى معاهد العلم الإسلامية الكبيرة، و بعد تعلمهم العلوم يرجعون إلى أوطانهم و يبدؤون بتعليم الآخرين ۱۰۳].

و لكن التّفسير الأوّل كما تقدم- أقرب إلى مفهوم الآية، و إن كانت إرادة كل هذه المعانى ليس ببعيد[۱۰۴].

۲- لقد تصور البعض وجود نوع من المنافاة بين هذه الآية و الآيات السابقة، إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۷

الآيات السابقة أمرت الجميع بالتوجه إلى ساحات الجهاد، و وبخت المتخلفين بشدة، أمّا هذه الآية فتقول. أنّه لا ينبغى للجميع ان يتوجهوا إلى ميدان الحرب.

و لكن من الواضح أنّ هذين الأمرين قد صدرا فى ظروف مختلفة، فمثلا فى غزوة تبوك لم يكن هناك بد من توجه كل المسلمين إلى الجهاد لمواجهة الجيش القوى الذى أعدته إمبراطورية الروم لمحاربة الإسلام و القضاء عليه. أمّا فى حالة مقابلة جيوش و مجاميع أصغر و أقل فليست هناك ضرورة لتوجه الجميع إلى الحرب، خاصّة فى الحالات التى يبقى فيها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بنفسه، فإنّه يجب عليهم أن لا يخلوا المدينة مع احتمالات الخطر المتوقعة، و أن لا يغفلوا عن التفرغ لتعلم المعارف و الأحكام الإسلامية.

و على هذا فلا يوجد أى نوع من التنافى بين هذه الآيات، و ما تصوره البعض من التنافى هو اشتباه محض.

۳- لا شك أنّ المقصود من التفقه فى الدين هو تحصيل جميع المعارف و الأحكام الإسلامية، و هى أعم من الأصول و الفروع، لأنّ كل هذه الأمور قد جمعت فى مفهوم التفقه، و على هذا، فإنّ هذه الآية دليل واضح على وجوب توجه فئة من المسلمين وجوبا كفائيا على الدوام لتحصيل العلوم فى مختلف المجالات الإسلامية، و بعد الفراغ من التحصيل العلمى يرجعون إلى مختلف البلدان، و خصوصا بلدانهم و أقوامهم، و يعلمونهم مختلف المسائل الإسلامية.

و بناء على ذلك، فإنّ الآية دليل واضح على وجوب تعلم و تعليم المسائل الإسلامية، و بتعبير آخر فإنّها أوجبت التعلم و التعليم معا، و

إذا كانت الـدنيا فى يومنا الحاضـر تفتخر بسنّها التعليم الإجبارى، فإنّ القرآن قد فرض قبل أربعة عشـر قرنا هذا الواجب على المعلمين علاوة على المتعلمين.

۴- اسـتدل جماعة من علماء الإسـلام بهذه الآية على مسألة جواز التقليد، لأنّ التقليد إنّما هو تعلم العلوم الإسـلامية و إيصالها للآخرين فى مسائل فروع الدين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۸

و وجوب اتباع المتعلمين لمعلمين.

و كما قلنا سابقا، فإنّ البحث فى هـذه الآية لا ينحصـر فى فروع الدين، بل تشـمل حتى المسائل الأصولية، و تتضـمن الفروع أيضا على كل حال.

الإشكال الوحيد الذى يثار هنا، هو أنّ الاجتهاد و التقليد لم يكن موجودا فى ذلك اليوم، و الأشخاص الذين كانوا يتعلّمون المسائل و يوصـلونها للآخرين حكمهم كحكم البريـد و الإرسال فى يومنا هـذا، لا حكم المجتهـدين، أى إنهم كانوا يأخـذون المسألـة من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يبلغونها للآخرين كما هى من دون إبداء أى رأى أو وجهة نظر.

و لكن مع الأخذ بنظر الاعتبار المفهوم الواسع للاجتهاد و التقليد يتّضح الجواب عن هذا الإشكال.

و توضـيح ذلـك: إن ممّـا لا ـ شـك فيه أن علم الفقه على سـعته التى نراها اليوم لم يكن له وجود ذلك اليوم، و كان من السـهل على المسـلمين أن يتعلّموا المسائل من النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، لكن هذا لا يعنى أنّ علماء الإسـلام كان عملهم هو بيان المسائل فقط، لأن الكثير من هؤلاء كانوا يـذهبون إلى الأماكن المختلفـة كقضاة و أمراء، و من البديهى أن يواجهوا من المسائل ما لم يسـمعوا حكمهـا بالـذات من النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، إلّـا أنّهـا كانت موجودة فى عمومات و إطلاقات آيات القرآن المجيـد. فكان هؤلاء قطعا يقومون بتطبيق الكليات على الجزئيات- و فى الاصطلاح العلمى: رد الفروع إلى الأصول ورد الأصول على الفروع- لمعرفة حكم هذه المسائل، و كان هذا بحد ذاته نوعا من الاجتهاد البسيط.

إنّ هـذا العمل و أمثاله كان موجودا فى زمن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم حتما، فعلى هـذا فإنّ الجـذور الأصـلية للاجتهاد كانت موجودة بين أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لو أنّ الصحابة لم يكونوا جميعا بهذه الدرجة.

و لما كان لهذه الآية مفهوما عاما، فإنّها تشمل قبول أقوال موضحى و ناقلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۹

الأحكام، كما تشمل قبول قول المجتهدين، و على هذا، فيمكن الاستدلال بعموم الآية على جواز التقليد.

۵- المسألـة المهمّـة الأخرى التى يمكن استخلاصـها من الآيـة، هى الأهميـة الخاصّـة التى أولاها الإسـلام لمسألـة التعليم و التعلم، إلى الدرجـة التى ألزم فيهـا المسـلمين بـأن لا ـ يـذهبوا جميعـا إلى ميـدان الحرب، بـل يجب أن يبقى قسم منهم لتعلم الأحكـام و المعارف الإسلامية.

إنّ هذا يعنى أن محاربة الجهل واجب كمحاربة الأعداء، و لا تقل أهمية أحد الجهادين عن الآخر. بل إن المسـلمين ما لم ينتصروا فى محاربتهم للجهل و اقتلاع جذوره من المجتمع، فإنّهم سوف لا ينتصرون على الأعداء، (لأنّ الأمّة الجاهلة محكومة بالهزيمة دائما).

أحد المفسّـرين المعاصـرين ذكر فى ذيل هذه الآية بحثا جميلا، و قال: كنت أطلب العلم فى طرابلس و كان حاكمها الإدارى من أهل العلم و الفقه فى مـذهب الشافعية- فقال لى مرّة: لماذا تسـتثنى الدولة العلماء و طلاب العلوم الدينية من الخدمة العسـكرية و هى واجبة شرعا و هم أولى الناس بالقيام بهذا الواجب؟

يعرّض بى- أليس هـذا خطأ لا ـ أصـل له فى الشـرع؟ فقلت له على البداهـة: بل لهـذا أصل فى نص القرآن الكريم، و تلوت عليه الآية فاستكثر الجواب على مبتدئ مثلى لم يقرأ التّفسير و أثنى ورعا[۱۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۰

الآیة [سورة التوبة (۹): آیة ۱۲۳]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِینَ یَلُونَکُمْ مِنَ الْکُفَّارِ وَ لْیَجِدُوا فِیکُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ (۱۲۳)

التّفسیر

قتال الأقرب فالأقرب:

أشارت الآیـة فی سیاق احکام الجهاد التی ذکرت لحـد الآن فی هذه السورة- إلی أمرین آخرین فی هذا الموضوع الإسـلامی المهم، فوجهت الخطاب أوّلا إلی المؤمنین و قالت: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِینَ یَلُونَکُمْ مِنَ الْکُفَّارِ.

صحیـح أنّه تجب محاربـة الکفـار جمیعـا، و لا فرق بینهم فی ذلک، إلّا أنّه من الوجهـة التکتیکیـة و طریقـة القتال یجب البـدء بالعـدو الأقرب، لأنّ خطر العـدوّ القریب أکبر، کما أنّ الدعوة للإسـلام و هدایة الناس إلی دین الحق یجب أن تبدأ من الأقرب، و النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم قد بدأ بأمر اللّه سبحانه بدعوة أقاربه و عشیرته، ثمّ دعا أهل مکّة. ثمّ جزیرة العرب و قام بإرسال الرسل إلیها، و بعدها کتب الرسائل إلی ملوک العالم، و لا شک أن هذا الأسلوب هو الأقرب للنجاح و الوصول إلی الهدف.

و من الطبیعی أن لکل قانون استثناء، فقد یکون العدو الأبعد- فی بعض الأحیان- أشد خطرا من العدو القریب، و عندها تجب المبادرة إلی دفعه أوّلا، لکن، کما قلنا، فإن هذا استثناء لا قانون ثابت و دائم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۱

و أمّا ما قلناه من أنّ المبادرة إلی مجابهة العدو الأقرب هی الأهم و الأوجب.

فإنّ أسبابه واضحة، و ذلک:

أوّلا: إنّ خطر العدو القریب أکبر و أشد من العدو البعید.

ثانیا: إنّ اطلاعنا و علمنا بالعدو القریب أکثر، و هذا من العوامل المساعدة و المقربة للنصر.

ثالثا: إنّ التوجه لمحاربـة العـدو البعید لا یخلو من خطورة اضافیة، فالعدو القریب قد یستغل الفرصة و یحمل علی الجیش من الخلف، أو یستغل خلو المقر الأصلی للإسلام فیهجم علیه.

رابعا: إنّ الوسائل اللازمة و نفقات محاربة العدوّ القریب أقل و أبسط، و التسلط علی ساحة الحرب فی ظل ذلک أسهل.

لهذه الأسباب و أسباب أخری، فإنّ دفع العدو الأقرب هو الأوجب و الأهم.

و الجـدیر بالـذکر أنّ هذه الآیة لما نزلت کان الإسـلام قد اسـتولی علی کل جزیرة العرب تقریبا، و علی هذا فإن أقرب عدو فی ذلک الیوم ربّما کان أمبراطوریة الروم الشرقیة التی توجه المسلمون إلی تبوک لمحاربتها.

و کـذلک یجب أن لا ننسـی أنّ هـذه الآیـة بالرغم من أنّها تتحدث عن العمل المسـلح و البعد المکانی، إلّا أنّه لیس من المسـتبعد أن روح الآیـة حاکمـة فی الأعمال المنطقیـة و الفواصل المعنویـة، أی إنّ المسـلمین عنـد ما یعزمون علی المجابهة المنطقیة و الإعلامیة و التبلیغیة یجب أن یبدؤوا بمن یکون أقرب إلی المجتمع الإسـلامی و أشدّ خطرا علیه، فمثلا فی عصـرنا الحاضر نری أن خطر الإلحاد و المادیة یهدد کل المجتمعات، فیجب تقدیم التصدّی لها علی مواجهة المذاهب الباطلة الأخری، و هذا لا یعنی نسـیان هؤلاء، بل یجب

إعطاء الأهميـة القصوى للهجوم نحو الفئة الأخطر، و هكذا فى مواجهة الاسـتعمار الفكرى و السياسـى و الاقتصادى التى تحوز الدرجة الأولى من الأهمية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۲

و الأـمر الثّـانى فيما يتعلق بالجهاد فى الآيـة، هو أسـلوب الحزم و الشـدّة، فهى تقول: إن العـدو يجب أن يلمس فى المسـلمين نوعا من الخشونة و الشدّة:

وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً و هى تشير إلى أنّ الشجاعة و الشهامة الداخلية و الاستعداد النفسى لمقابلة العدو و محاربته ليست كافية بمفردها، بل يجب اظهار هـذا الحزم و الصـلابة للعـدو ليعلم أنّكم على درجـة عاليـة من المعنويات، و هذا بنفسه سيؤدى إلى هزيمتهم و انهيار معنوياتهم.

و بعبارة أخرى فإنّ امتلاك القدرة ليس كافيا، بل يجب استعراض هذه القوّة أمام العدو. و لهذا نقرأ فى تأريخ الإسـلام أنّ المسـلمين عنـد ما أتوا إلى مكّـة لزيارة بيت اللّه، أمرهم رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يسـرعوا فى طوافهم، بل أن يعـدوا و يركضوا ليرى العدو- الذى كان يراقبهم عن كثب- قوتهم و سرعتهم و لياقتهم البدنية.

و كذلك نقرأ فى قصّة فتح مكّة أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم أمر المسلمين فى الليل أن يشعلوا نيرانا فى الصحراء ليعرف أهل مكّة عظمة جيش الإسلام، و قد أثر هذا العمل فى معنوياتهم. و كذلك أمر أن يجعل أبو سفيان كبير مكّة فى زاوية و يستعرض جيش الإسلام العظيم قواته أمامه.

و فى النهايـة تبشـر الآيـة المسـلمين بالنصـر من خلال هذه العبارة: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ و يمكن أن يشـير هذا التعبير- إضافة لما قيل- إلى أن استعمال الشدّة و الخشونة يجب أن يقترن بالتقوى، و لا يتعدى الحدود الإنسانية فى أى حال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۳

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۴ الى ۱۲۵]

اشارة

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هـذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۱۲۴) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ (۱۲۵)

التّفسير

تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب:

تشير هاتان الآيتان إلى واحدة من علامات المؤمنين و المنافقين البارزة، تكملة لما مرّ من البحوث حولهما.

فتقول أوّلاـ وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هـذِهِ إِيماناً[۱۰۶] و هم يريـدون بكلامهم هـذا أن يبينوا عدم تأثير سور القرآن فيهم، و عـدم اعتنـائهم بها، و يقولون: إنّ هـذه الآيات لا تحتوى على الشـىء المهم و المحتوى الغنى، بل هى كلمات عاديـة و معروفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۴

و لكن القرآن يجيبهم بلهجة قاطعة، و يقول ضمن تقسيم الناس الى طائفتين:

فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِیماناً وَ هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ

و هذا علی خلاف المنافقین و مرضی القلوب من الجهل و الحسد و العناد وَ أَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَی رِجْسِهِمْ و فی النهایة، فإنّ هؤلاء بعنادهم یغادرون الدنیا علی الکفر: وَ ماتُوا وَ هُمْ کافِرُونَ

ملاحظات

و هنا ملاحظات ینبغی التنبه لها:

۱- إنّ القرآن الکریم یؤکّد من خلال هاتین الآیتین علی حقیقة، و هی أنّ وجود البرامج و القوانین الحیاتیة لا تکفی بمفردها لسعادة فرد أو جماعة، بل یجب أن یؤخذ بنظر الإعتبار وجود الأرضیة المهیئة و الاستعداد للتلقی کشرط أساسی.

إنّ آیات القرآن کقطرات المطر تصیب الحدیقة الغناء و الأرض السبخة، فالذین ینظرون إلی الحقائق بروح التسلیم و الإیمان و العشق، یتعلمون من کل سورة- بل من کل آیة- درسا یزید فی إیمانهم، و یفعّل سمات الإنسانیة لدیهم.

أمّا الذین ینظرون إلی هذه الآیات من خلف حجب العناد و الکبر و النفاق، فإنّهم لا یستفیدون منها، بل و تزید فی کفرهم و رجسهم. و بتعبیر أخر فإنّهم یعصون کل أمر فیها لیرتکبوا بذلک معصیة جدیدة تضاف إلی معاصیهم، و یواجهون کل قانون بالتمرد علیه، و یصرون علی رفض کل حقیقة، و هذا هو سبب تراکم المعاصی و الآثام فی وجودهم، و بالتالی تتجذّر هذه الصفات الرذیلة فی کیانهم، و فی النهایة إغلاق کل طرق الرجوع بوجوههم و موتهم علی الکفر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۵

و بتعبیر آخر فإنّ (فاعلیة الفاعل) فی کل برنامج تربوی لا تکفی لوحدها، بل إنّ روح التقبل و (قابلیة القابل) شرط اساسی أیضا.

۲- «الرجس» فی اللغة بمعنی الخبیث النجس السیء، و علی قول الراغب فی کتاب المفردات، فإنّ هذا الخبث و التلوث أربعة أنواع: فتارة ینظر إلیه من جهة الغریزة و الطبع، و أخری من جهة الفکر و العقل، و ثالثة من جهة الشرع، و رابعة من کل الجهات.

و لا شک أنّ السوء و الخبث الناشئ من النفاق و اللجاجة و التعنت أمام الحق سیولد نوعا من الشر و الخبث الباطنی و المعنوی بحیث یبدو أثره بوضوح فی النهایة علی الإنسان و کلامه و سلوکه.

۳- إنّ جملة وَ هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ مع ملاحظة أنّ أصل کلمة (بشارة) تعنی السرور و الفرح الذی تظهر آثاره علی وجه الإنسان، تبیّن مدی تأثیر الآیات القرآنیة التربوی فی المؤمنین، و وضوح هذا التأثیر بحیث تبدو علاماته فورا علی وجوههم.

۴- لقد اعتبرت هذه الآیات «المرض القلبی» نتیجة حتمیة و ملازمة للنفاق و الصفات القبیحة. و کما قلنا سابقا فإنّ القلب فی مثل هذه الموارد یعنی الروح و العقل، و مرض القلب فی هذه المواضع بمعنی الرذائل الأخلاقیة و الانحرافات النفسیة، و هذا التعبیر یوضح أنّ الإنسان إذا کان یتمتع بروح سالمة و طاهرة فلا أثر فی وجوده لهذه الصفات الذمیمة، و مثل هذه الأخلاق السیئة کالمرض الجسمی خلاف طبیعة الإنسان، و علی هذا فإنّ التلوّث بهذه الصفات دلیل علی الانحراف عن المسیر الأصلی و الطبیعی، و دلیل علی المرض الروحی و النفسی ۱۰۷].

۵- إنّ هذه الآیات تعطی درسا کبیرا لکل المسلمین، لأنّها تبیّن هذه الحقیقة، و هی أنّ المسلمین الأوائل کانوا یشعرون بروح جدیدة مع نزول کل سورة من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۶

القرآن، و یتربون تربیة جدیدة تصل إلی درجة بحیث تبدو آثارها بسرعة علی محیاهم، بینما نری الیوم أشخاصا، ظاهرهم أنّهم مسلمون، لا تؤثر فیهم السورة إذا قرءوها، بل إن ختم القرآن کله لا یترک أدنی أثر علیهم! هل أنّ سور القرآن فقدت تأثیرها؟ أم أن تسمم الأفکار، و مرض القلوب، و وجود الحجب المتراکمة من أعمالنا السیئة هی التی أدت إلی خلق حالة عدم الاهتمام، و جعلت

على القلوب أكنة لا يمكن اختراقها؟

يجب علينا أن نلتجئ إلى اللّه من حالنا هذا، و نسأله أن يمن علينا بقلوب كقلوب المسلمين الأوائل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۷

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۶ الى ۱۲۷]

اشارة

أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۱۲۷)

التّفسير

يستمر الكلام فى هذه الآيات حول المنافقين، و هى توبّخهم و تذمهم فتقول:

أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ و العجيب أنّهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقة لا يعتبرون ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ

و هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه ما هو المراد من هذا الاختبار السنوى الذى يجرى مرّة أو مرّتين؟

فالبعض يقول: إنّه الأمراض، و البعض الآخر يقول: إنّه الجوع و الشدائد الأخرى، و ثالث يقول: إنّه مشاهدة آثار عظمة الإسلام و أحقية النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى ساحات الجهاد التى كان يحضرها هؤلاء المنافقون بحكم الضغط الاجتماعى و ظروف البيئة التى يعيشونها، و رابع يعتقد أنّه رفع الستار عن أسرارهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۸

و فضيحتهم.

غير أنا إذا قرأنا آخر الآية حيث تذكر أنّ هؤلاء لم يتذكروا رغم كل ذلك، سيتّضح أنّ هذا الاختبار من الاختبارات التى ينبغى أن تكون سببا فى توعية هذه المجموعة.

و يظهر أيضا من تعبير الآية أنّ هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذى يواجهه كل الناس فى حياتهم. و إذا أخذنا هذا الموضوع بنظر الإعتبار فسيظهر أن التّفسير الرّابع- أى إزاحة الستار عن أعمال هؤلاء السيئة و ظهور باطنهم و حقيقتهم- أقرب إلى مفهوم الآية.

و يحتمل أيضا أن يكون للامتحان و الابتلاء فى هذه الآية مفهوم جامع بحيث يشمل كل هذه المواضيع.

ثمّ تشير الآية إلى الموقف الإنكارى لهؤلاء فى مقابل الآيات الإلهية، فتقول:

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ

إنّ خوف هؤلاء و قلقهم ناشى، من أنّ تلك السورة تتضمن فضيحة جديدة لهم، أو لأنّهم لا يفهمون منها شيئا لعمى قلوبهم، و الإنسان عدو ما يجهل.

و على كل حال، فإنّهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوا هذه الأنغام الإلهية، إلّا أنّهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، و لذلك كان أحدهم يهمس فى أذن صاحبه و يسأله: هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ و إذا ما اطمأنوا إلى أن الناس منشغلون بسماع كلام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و غير ملتفتين إليهم خرجوا: ثُمَّ انْصَرَفُوا.

إنّ جملة هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ، كانوا يقولونها إمّا بألسنتهم، أو بإشارة العيون، فى حين أن الجملة الثّانية نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ تبيّن أمرا

واحدا هو نفس ما عينته الجملة الأولى، و فى الحقيقة فإنّ هل يراكم أحد تفسير لنظر بعضهم إلى البعض الآخر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۹

و تطرقت الآية فى الختام إلى ذكر علة هذا الموضوع فقالت: إنّ هؤلاء إنّما لا يريدون سماع كلمات اللّه سبحانه و لا يرتاحون لذلك لأنّ قلوبهم قد حاقت بها الظلمات لعنادهم و معاصيهم فصرفها اللّه سبحانه عن الحق، و أصبحوا أعداء للحق لأنّهم أناس جاهلون لا فكر لهم: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ

و قد ذكر المفسّرون لقوله تعالى: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ احتمالين:

الأوّل: إنّها جملة خبرية. كما فسرناها قبل قليل.

الثّانى: إنّها جملة إنشائية، و يكون معناها اللعنة، أى إنّ اللّه سبحانه يصرف قلوب هؤلاء عن الحق. إلّا أن الاحتمال الأوّل هو الأقرب كما يبدو.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۸ الى ۱۲۹]

اشارة

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۲۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۱۲۹)

التّفسير

آخر آيات القرآن المجيد:

إنّ هذه الآيات برأى بعض المفسّرين، هى آخر الآيات التى نزلت على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و بها تنتهى سورة براءة، فهى فى الواقع إشارة إلى كل المسائل التى مرّت فى هذه السورة، لأنّها تبيّن من جهة لجميع الناس، سواء المؤمنون منهم أم الكافرون و المنافقون، أنّ جميع الضغوط و التكاليف التى فرضها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن الكريم، و التى ذكرت نماذج منها فى هذه السورة، كانت كلها بسبب عشق النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لهداية الناس و تربيتهم و تكاملهم.

و من جهة أخرى فإنّها تخبر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يقلق و لا يتحرق لعصيان و تمرد الناس، و الذى ذكرت منه- أيضا- نماذج كثيرة فى هذه السورة، و ليعلم أنّ اللّه سبحانه حافظه و معينه على كل حال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۱

و من هنا فإنّ خطاب الآية الأولى موجه للناس، فهى تقول: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خاصّة و أنّه قد وردت لفظة مِنْ أَنْفُسِكُمْ بدل منكم، و هى تشير إلى شدة ارتباط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالناس، حتى كأنّ قطعة من روح الناس و المجتمع قد ظهرت بشكل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لهذا السبب فإنّه يعلم كل آلامهم، و مطلع على مشاكلهم، و شريكهم فى غمومهم و همومهم، و بالتالى لا يمكن أن يتصور صدور كلام منه إلّا فى مصلحتهم، و لا يخطو خطوة إلّا فى سبيلهم، و هذا فى الواقع أوّل وصف للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ذكر فى هذه الآية.

و من العجيب أنّ جماعة من المفسّرين الذين وقعوا تحت تأثير العصبية القومية و العربية قالوا: إنّ المخاطب فى هذه الآية هم العرب!

أى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد جاءكم من هذا الأصل!.

إنّنا نعتقد أن هذا هو أسوأ تفسير ذكر لهذه الآية، لأنا نعلم أنّ الشىء الذى لم يجر له ذكر فى القرآن الكريم هو مسألة الأصل و العرق، ففى كل مكان تبدأ خطابات القرآن ب يا أَيُّهَا النَّاسُ و يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا و أمثالها، و لا يوجد فى أى مورد «يا أيّها العرب» و «يا قريش» و أمثال ذلك.

إضافة الى أنّ ذيل الآية الذى يقول: بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ينفى هذا التّفسير بوضوح، لأنّ الكلام فيه عن كل المؤمنين، من أى قومية أو عرق كانوا.

و ممّا يثير الأسف أنّ بعض العلماء المتعصبين قد حجّموا عالمية القرآن و عموميته لكل البشر، و حاولوا حصره فى حدود القومية و العرق المحدودة.

و على كل حال، فبعد ذكر هذه الصفة مِنْ أَنْفُسِكُمْ أشارت الآية إلى أربع صفات أخرى من صفات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم السامية، و التى لها الأثر العميق فى إثارة عواطف الناس و جلب انتباههم و تحريك أحاسيسهم.

ففى البداية تقول: عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ أى أن الأمر لا- ينتهى فى أنّه لا- يفرح لأذاكم و مصاعبكم، بل إنّه لا يقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذى، فهو يتألم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۲

لألمكم، و إذا كان يصرّ على هدايتكم و يتحمل الحروب المضنية الرهيبة، فإنّ ذلك لنجاتكم أيضا، و لتخليصكم من قبضة الظلم و الاستبداد و المعاصى و التعاسة.

ثمّ تضيف أنّه حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ و يتحمس لهدايتكم.

«الحرص» فى اللغة بمعنى قوة و شدة العلاقة بالشىء، و اللطيف هنا أن الآية أطلقت القول و قالت: حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ فلم يرد حديث عن الهداية، و لا- عن أى شىء آخر، و هى تشير إلى عشقه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لكل خير و سعادة ورقى لكم. و كما يقال: إن حذف المتعلق دليل على العموم.

و على هذا، فإنّه إذا دعاكم و سار بكم إلى ساحات الجهاد المريرة، و إذا شدّد النكير على المنافقين، فإنّ كل ذلك من أجل عشقه لحريتكم و شرفكم و عزتكم.

و هدايتكم و تطهير مجتمعكم.

ثمّ تشير إلى الصفتين الثّالثة و الرّابعة و تقول: بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ و على هذا فإنّ كل الأوامر الصعبة التى يصدرها، (حتى المسير عبر الصحارى المحرقة فى فصل الصيف المقرون بالجوع و العطش لمواجهة عدو قوى فى غزوة تبوك) فإنّ ذلك نوع من محبته و لطفه.

و هناك بحث بين المفسّرين فى الفرق بين «الرؤوف» و «الرحيم»، إلّا أنّ الذى يبدو أن أفضل تفسير لهما هو أنّ الرؤوف إشارة إلى محبّة خاصّة فى حقّ المطيعين، فى حين أنّ الرحيم إشارة إلى الرحمة تجاه العاصين، إلّا أنّه يجب أن لا يغفل عن أن هاتين الكلمتين عند ما تفصلان يمكن أن تستعملا فى معنى واحد، أمّا إذا اجتمعتا فتعطيان معنى مختلفا أحيانا.

و فى الآية التى تليها، و هى آخر آية فى هذه السورة، وصف للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه شجاع و صلب فى طريق الحق، و لا ييأس بسبب عصيان الناس و تمردهم، بل يستمر فى دعوتهم إلى دين الحق: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فهو حصنه الوحيد .. أجل لا حصن لى إلّا اللّه، فإليه استندت و عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۳

رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

إنّ الـذی بیـده العرش و العـالم العلوی و ما وراء الطبیعـة بکل عظمتها، و هی تحت حمایته و رعایته، کیف یترکنی وحیـدا و لا یعیننی علی الأعداء؟ فهل توجد قدرة لها قابلیة مقاومة قدرته؟ أم یمکن تصور رحمة و عطف أشد من رحمته و عطفه؟

إلهنا، الآن و قد أنهینا تفسیر هذه السورة، و نحن نکتب هذه الأسـطر، فإن أعداءنا قد أحاطوا بنا، و قد ثارت أمتنا الرشـیدة لقلع جذور الظلم و الفساد و الاسـتبداد، بوحدة لا نظیر لها، و اتحاد بین کل الصـفوف و الطبقات بدون اسـتثناء حتی الأطفال و الرضع ساهموا فی هذا الجهاد و المقارعة، و لم یتوان أی فرد عن القیام بأی نوع من التضحیة و الفداء.

ربّاه، إنّک تعلم کل ذلک و تراه، و أنت منبع الرحمـة و الحنان، و قـد وعـدت المجاهـدین بالنصـر، فعجل النصر و أنزله علینا، و ارو هؤلاء العطاشی و العشاق من زلال الإیمان و العدل و الحریة، إنّک علی کل شیء قدیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۵

سورة یونس

اشارة

مکیة و عدد آیاتها مائة و تسع آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۷

«سورة یونس علیه السّلام»

محتوی و فضیلة هذه السورة

هذه السورة من السور المکیة، و علی قول بعض المفسّـرین فإنّها نزلت بعد سورة الإسـراء و قبل سورة هود، و توکّد- ککثیر من السور المکیة- علی عدة مسائل أساسیة و أصولیة، و أهمها مسألة المبدأ و المعاد.

غایـة ما فی الأمر أنّها تتحدث أوّلا عن مسألة الوحی و مقام النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم، ثمّ تتطرق إلی نماذج و علامات الخلقة العظیمة التی تدل علی عظمة اللّه عز و جل، و بعد ذلک تدعو الناس إلی الالتفات إلی عدم بقاء الحیاة المادیة فی هذه الدنیا، و حتمیة زوالها، و وجوب التوجه إلی الآخرة و التهیؤ لها عن طریق الإیمان و العمل الصالح.

و قـد ذکرت السورة- کدلائل و شواهد علی هذه المسائل- أقساما مختلفة من حیاة کبار الأنبیاء، و من جملتهم نوح و موسـی و یونس علیهم السّلام و لهذا سمّیت بسورة یونس.

و قـد ذکرت کـذلک، لتأیید هذه المباحث، کلاما عن عناد و تصـلب عبدة الأوثان، و ترسم و توضح لهم حضور اللّه سبحانه فی کل مکان و شهادته، و تستعین لإثبات هذه المسألة بأعماق فطرة هؤلاء التی تتعلق بالواحد الأحد عند ما یقعون فی المشاکل و المعضلات، حیث یتّضح هذا التعلق الفطری باللّه سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۸

و أخیرا فإنّها تسـتغل کل فرصـة للبشارة و الإنـذار، البشارة بالنعم الإلهیـة التی لا حـدود لها للصالحین، و الإنـذار و الإرعاب للطاغین و العاصین، لتکملة البحوث أعلاه.

و لهذا فإنّنا نقرأ

فی روایـة عن الإمام الصّادق علیه السّـلام: «من قرأ سورة یونس فی کل شـهرین أو ثلاثة مرّة، لم یخف علیه أن یکون من الجاهلین، و کان یوم القیامة من المقربین»[۱۰۸]،

و ذلک لأنّ آیات التحذیر و الوعید و آیات التوعیهٔ کثیرهٔ فی هذه السورهٔ، و إذا ما قرئت بدقهٔ و تأمل، فإنّها ستکشف ظلمهٔ الجهل عن روح ابن آدم، و سیبقی أثرها عدّهٔ أشهر علی الأقل، و إذا ما أدرک الإنسان محتوی السورهٔ و عمل بها، فإنّه سیکون- یقینا- یوم القیامهٔ من المقربین.

ربّما لا نحتاج أن نذکّر بأنّ فضائل السور- کما قلنا سابقا- لا یمکن تحصیله بمجرّد تلاوهٔ الآیات من دون إدراک معناها، و من دون العمل بمحتواها، لأن التلاوهٔ مقدمهٔ للفهم، و الفهم مقدمهٔ للعمل!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۹

الآیتان [سورهٔ یونس (۱۰): الآیات ۱ الی ۲]

اشارهٔ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الر تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْحَکِیمِ (۱) أَ کانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَیْنا إِلی رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِینَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْکافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِینٌ (۲)

التّفسیر

رسالهٔ النّبی:

فی هذه السورهٔ نواجه- مرّهٔ أخری- الحروف المقطعهٔ فی القرآن، و التی ذکرت بصورهٔ (ألف و لام وراء) و قد تحدثنا فی بدایهٔ سورهٔ البقرهٔ و آل عمران و الأعراف فی تفسیر هذه الحروف بالقدر الکافی، و سنبحثها فی المستقبل- إن شاء اللّه تعالی- فی الموارد المناسبهٔ، و سنضیف إلیها مباحث و مطالب جدیدهٔ.

بعد هذه الحروف تشیر الآیهٔ أوّلا إلی عظمهٔ آیات القرآن و تقول: تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْحَکِیمِ

إنّ التعبیر ب (تلک) و هی اسم إشارهٔ للبعید، بدل (هذه) التی تشیر للقریب، و الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۰

جاء نظیره فی بدایهٔ سورهٔ البقرهٔ، یعتبر من التعبیرات الجمیلهٔ و اللطیفهٔ فی القرآن، و هو کنایهٔ عن عظمهٔ و رفعهٔ مفاهیم القرآن، لأنّ المطالب الیسیرهٔ و البسیطهٔ یشار لها غالبا باسم الإشارهٔ القریب، أمّا المطالب المهمّهٔ العالیهٔ المستوی، و التی تعانق السحاب فی علو أفقها، فإنّها تبیّن باسم الإشارهٔ البعید.

إنّ توصیف الکتاب السماوی- أی القرآن- بأنّه (حکیم) هو إشارهٔ إلی أن آیات القرآن محکمهٔ و منظمهٔ و دقیقهٔ، بحیث لا یمکن أن یأتیها أو یخالطها أی شکل من أشکال الباطل و الخرافهٔ، فهی لا تقول إلّا الحق، و لا تدعو إلّا إلی طریق الحق.

أمّا الآیهٔ الثّانیهٔ فإنّها تبیّن- و لمناسبهٔ تلک الإشارهٔ التی مرّت إلی القرآن و الوحی الإلهی فی الآیهٔ السابقهٔ- واحدا من إشکالات المشرکین علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و هو نفس الإشکال الذی جاء فی القرآن بصورهٔ متکررهٔ. و هذا التکرار یبیّن أن هذا الإشکال من إشکالات المشرکین المتکررهٔ، و هو: لماذا نزل الوحی الإلهی من اللّه علی إنسان مثلهم؟ و لماذا لم تتعهد الملائکهٔ بمسؤولیهٔ هذه الرسالهٔ الکبیرهٔ؟ فیجیب القرآن عن هذه الأسئلهٔ فیقول: أَ کانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَیْنا إِلی رَجُلٍ مِنْهُمْ

الواقع أنّ کلمهٔ «منهم» تضمنت الجواب علی سؤالهم، أی إنّ القائد و المرشد إذا کان من جنس أتباعه، و یعلم أمراضهم، و مطلع علی

احتیاجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن یکون القائد من غیر جنسهم، بحیث یعجز عن قیادتهم نتیجة عدم اطلاعه علی وضعهم.

ثمّ تشیر إلی محتوی الوحی الإلهی. و تلخصه فی أمرین:

الأوّل: إنّ الوحی الذی أرسلناه، مهمته إنذار الناس و تحذیرهم من عواقب الکفر و المعاصی: أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ

و الثّانی: هو وَ بَشِّرِ الَّذِینَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و فی الوقت الذی یوجد بحث بین المفسّرین فی المقصود من «قدم الصدق»، إلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۱

أنّ أحد التفاسیر الثلاثة المذکورة هنا- أوکل الثلاثة- قابل للقبول بصورة علمیة.

فالتّفسیر الأوّل: إن «قدم الصدق» هذا إشارة إلی أن الإیمان له ب «سابقة فطریة»، و إنّ المؤمنین عند ما یظهرون إیمانهم فهم فی الحقیقة یصدقون فطرتهم- لأنّ أحد معانی القدم هو السابقة- کما یقولون: لفلان قدم فی الإسلام، أو قدم فی الحرب، أی إنّ له سبقا فی الإسلام أو الحرب.

و الثّانی: إنّه إشارة إلی مسألة المعاد و نعیم الآخرة، لأنّ أحد معانی القدم هو المقام و المنزلة، و هو یناسب کون الإنسان یرد إلی منزله و مقامه برجله، و هذا التّفسیر یعنی أنّ للمؤمنین مقاما و منزلة ثابتة و حتمیة عند اللّه سبحانه، و أن أی قوّة لا تستطیع تغییرها و جعلها فی شکل آخر.

أمّا التّفسیر الثّالث فهو أن القدم بمعنی القدوة و الزعیم و القائد، أی إننا أرسلنا للمؤمنین قائدا و مرشدا صادقا.

لقد وردت عدّة روایات عن طریق الشیعة و السنة لهذه الآیة تفسر قدم الصدق بأنّه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أو ولایة علی علیه السّلام و تؤید هذا المعنی [۱۰۹].

و کما قلنا فإنّ من الممکن أن تکون البشارة بکل هذه الأمور هی المرادة من التعبیر أعلاه.

و تنهی الآیة حدیثها بذکر اتهام طالما کرّره المشرکون و اتهموا به النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فقالت: قالَ الْکافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِینٌ

إنّ کلمة (إن) و «لام» التأکید و صفة «المبین»، کلها دلائل علی مدی تأکید أولئک الکفار علی هذه التهمة، و عبروا ب (هذا) لتصغیر مقام النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و التقلیل من أهمیته.

أمّا لماذا اتهموا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالسحر؟ فجوابه واضح، ذلک أنّهم لم یکونوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۲

یمتلکون الجواب المقنع مقابل إعجاز کلامه و شریعته و قوانینه العادلة الرفیعة. فلم یکن لهم سبیل إلّا أن یفسروا هذه الظواهر الخارقة للعادة بأنّها سحر، و بهذا فقط یمکنهم إبقاء البسطاء تحت سیطرة الجهل و عدم الاطلاع علی الواقع.

إنّ أمثال هذه التعبیرات التی کانت تصدر من ناحیة الأعداء ضد النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم دلیل بنفسها علی أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یقوم بأعمال خارقة للعادة، بحیث تجذب القلوب و الأفکار نحوها، خاصّة و أن التأکید علی السحر فی شأن القرآن المجید هو بنفسه دلیل قاطع و قوی علی الجاذبیة الخارقة الموجودة فی هذا الکتاب السماوی، و لأجل خداع الناس فإنّهم کانوا یجعلونه فی إطار السحر.

و سنتحدث عن هذا الموضوع فی الآیات المناسبة إن شاء اللّه تعالی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۳

الآیتان [سورة یونس (۱۰): الآیات ۳ الی ۴]

اشارة

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّام ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ یُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِیعِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَکَّرُونَ (۳) إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِیمٍ وَ عَذابٌ أَلِیمٌ بِما کانُوا یَکْفُرُونَ (۴)

التّفسیر

معرفة اللّه و المعاد:

بعد أن أشار القرآن الکریم إلی مسألة الوحی و النّبوة فی بدایة هذه السورة، انتقل فی حدیثه إلی أصلین أساسیین فی تعلیمات و تشریعات جمیع الأنبیاء، ألا و هما المبدأ و المعاد، و بیّن هذین الأصلین ضمن عبارات قصیرة فی هاتین الآیتین.

فیقول أوّلا: إِنَّ رَبَّکُمُ اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ و کما أشرنا سابقا، فإنّ کلمة (یوم) فی لغة العرب، و ما یعادلها فی سائر اللغات، تستعمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۴

فی کثیر من الموارد بمعنی المرحلة، کما نقول: فی یوم ما کان الاستبداد یحکم بلادنا، أمّا الیوم فهی فی ظل الثورة الاسلامیة تنعم الحریة، و یعنی أن مرحلة الاستبداد قد انتهت و جاءت مرحلة استقلال الشعب و حریته ۱۱۰].

و علی هذا فإنّ مفهوم الجملة أعلاه یکون: إنّ اللّه سبحانه قد خلق السماء و الأرض فی ستة مراحل، و لما کنّا قد تحدثنا عن هذه المراحل الستة سابقا، فإنّنا لا نکرر الکلام هنا[۱۱۱].

ثمّ تضیف الآیة: ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ یُدَبِّرُ الْأَمْرَ. کلمة «العرش» تأتی أحیانا بمعنی السقف، و أحیانا بمعنی الشیء الذی له سقف، و تارة بمعنی الأسرّة المرتفعة، هذا هو المعنی الأصلی لها، أمّا معناها المجازی فهو القدرة، کما نقول:

فلان تربع علی العرش، أو تحطمت قوائم عرشه، أو أنزلوه من العرش، فکلها کنایة عن تسلم القدرة أو فقدانها، فی الوقت الذی یمکن أن لا یکون للعرش أو الکرسی وجود فی الواقع أصلا، و لهذا فإنّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ تعنی أنّ اللّه سبحانه قد أمسک بزمام أمور العالم ۱۱۲].

«التدبر» من مادة (التدبیر) و فی الأصل من (دبر) بمعنی الخلف و عاقبة الشیء، و علی هذا فإنّ معنی التدبیر هو التحقق من عواقب الأعمال، و تقییم المنافع، ثمّ العمل طبق ذلک التقییم. إذن، و بعد أن تبیّن أنّ الخالق و الموجد هو اللّه سبحانه، اتّضح أنّ الأصنام،- هذه الموجودات المیتة و العاجزة- لا یمکن أن یکون لها أی تأثیر فی مصیر البشر، و لهذا قالت الآیة فی الجملة التالیة: ما مِنْ شَفِیعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۱۱۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۵

و تتحدث الآیة التالیة- کما أشرنا- عن المعاد، و تبیّن فی جمل قصار أصل مسألة المعاد، و الدلیل علیها، و الهدف منها!

فتقول أوّلا: إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً و بعد الاستناد إلی هذه المسألة المهمّة و التأکید علیها تضیف: وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ثمّ تشیر إلی الدلیل علی ذلک بقولها: إِنَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ أی إنّ هؤلاء الذی یشکّون فی المعاد یجب علیهم أن ینظروا إلی بدء الخلق، فإنّ من أوجد العالم فی البدایة یستطیع أن یعیده من جدید. و قد مر بیان هذا الاستدلال بصورة أخری فی الآیة (۲۹) من سورة الأعراف ضمن جملة قصیرة تقول: کَما بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ و قد سبق شرح ذلک فی تفسیر سورة الأعراف.

إنّ الآيات المرتبطة بالمعاد فى القرآن توضح أنّ العلة الأساسية فى تشكيك و تردد المشركين و المخالفين، هى أنّهم كانوا يشكون فى إمكان حدوث مثل هذا الشيء، و كانوا يسألون بتعجب بأنّ هذه العظام النخرة التى تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياة و ترجع إلى حالتها الأولى؟ و لهذا نرى أنّ القرآن قد وضع إصبعه على مسألة الإمكان هذه و يقول: لا تنسوا أن الذى يبعث الوجود من جديد، و يحيى الموتى هو نفسه الذى أوجد الخلق فى البداية.

ثمّ تبيّن الهدف من المعاد بأنّه لمكافأة المؤمنين على جميع أعمالهم الصالحة حيث لا تخفى على اللّه سبحانه مهما صغرت: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ أمّا أولئك الذين اختاروا طريق الكفر و الإنكار، و لم تكن لديهم أعمال صالحة- لأنّ الإعتقاد الصالح أساس العمل الصالح- فإنّ العذاب الأليم و أنواع العقوبات بانتظارهم: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ

و هنا نقطتان تسترعيان الانتباه:

١- لما لم يكن للّه سبحانه و تعالى مكان خاص، و خاصّة إذا علمنا أنّه موجود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۶

فى كل مكان فى جميع العوالم، و أنّه أقرب إلينا منّا، فإنّ هذه الحقيقة قد جعلت المفسّرين يفسرون إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فى هذه الآية، و الآيات الأخرى فى القرآن، تفاسير مختلفة:

فقيل تارة أن المقصود هو أنّكم ترجعون إلى جزاء اللّه سبحانه.

و ربّما اعتبر بعض الجاهلين هذا التعبير دليلا على تجسم اللّه سبحانه فى يوم القيامة، و بطلان هذه العقيدة أوضح من أن يحتاج إلى بيان و إثبات.

إلّا أنّ الذى يبدو بدقة من خلال آيات القرآن الكريم، إنّ عالم الحياة كقافلة تحركت من عالم العدم و تستمر فى مسيرتها اللانهائية نحو اللانهاية التى هى ذات اللّه المقدسة، بالرغم من أنّ المخلوقات محدودة، و المحدود لا يمكن أن يكون لا نهائيا قط، غير أنّ سيره إلى التكامل لا يتوقف أيضا، و حتى بعد قيام القيامة فإنّ السير التكاملى سيستمر، كما أوضحنا ذلك فى بحث المعاد.

يقول القرآن الكريم: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً.

و يقول: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ

و لما كان بداية الحركة من جهة الخالق، حيث شعت منه أوّل بارقة للحياة، و أن هذه الحركة التكاملية- أيضا- تسير نحوه، فقد عبّرت الآية بالرجوع. و بعبارة مختصرة فإنّ هذه التعبيرات إضافة إلى أنّها تشير إلى أن بداية حركة عامّة الموجودات من اللّه سبحانه، فإنّها تبيّن أيضا أنّ هدف هذه الحركة و غايتها، هى ذات اللّه المقدسة. و إذا لا حظنا أن تقديم كلمة «إليه» يدل على الحصر، سيتّضح أن اى وجود غير ذات اللّه المقدسة لا يمكن أن يكون هدفا و غاية لهذه الحركة التكاملية لا الأصنام و لا أى مخلوق آخر، لأنّ كل هذه الوجودات محدودة، و مسير الإنسان مسير لا نهائى.

٢- إنّ كلمة «القسط» تعنى فى اللغة إعطاء سهم آخر، و لذلك فقد أخفى فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۷

مفهوم العدل و الإنصاف. و اللطيف أنّ الآية قد استعملت هذه الكلمة فى حق ذوى الأعمال الصالحة فقط، و لم تذكرها فى جزاء الكافرين و السيئى الأعمال، و ذلك لأنّ العذاب ليس على شكل الحصص و الأرباح، و بتعبير أخر فإنّ كلمة القسط تناسب الجزاء الحسن فقط، لا العقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۸

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِکَ إِلَّا بِالْحَقِّ یُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِی اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ (۶)

التّفسیر

جانب من آیات عظمة اللّه:

لقد مرّت فی الآیات السابقة إشارة عابر إلی مسألة المبدأ و المعاد، إلّا أن هذه الآیات و ما بعدها تبحث بصورة مفصلة هذین الأصلین الأساسیین اللذین یمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبیاء، و بتعبیر آخر فإنّ الآیات اللاحقة بالنسبة للسابقة بمثابة التفصیل للإجمال.

لقد أشارت الآیة الأولی التی نبحثها إلی جوانب من آیات عظمة اللّه سبحانه فی عالم الخلقة فقالت: هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً.

إنّ الشمس التی تعم العالم بنورها لا- تعطی النور الحرارة للموجودات فحسب، بل هی العامل الأساس فی نمو النباتات و تربیة الحیوانات، و إذا دقّقنا النظر رأینا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۹

أنّ کل حرکة علی وجه الکرة الأرضیة، حتی حرکة الریاح و أمواج البحار و جریان الأنهار و الشلالات، هی من برکات نور الشمس، و إذا ما انقطعت هذه الأشعة الحیاتیة عن کرتنا الأرضیة یوما فإنّ السکون و الظلمة و الموت سیخیّم علی کل شیء فی فاصلة زمنیة قصیرة.

و القمر بنوره الجمیل هو مصباح لیالینا المظلمة، و لا تقتصر مهمّته علی هدایة المسافرین لیلا و إرشادهم إلی مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب یبعث الهدوء و النشاط لکل سکان الأرض.

ثمّ أشارت الآیة إلی فائدة أخری لوجود القمر فقالت: وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ أی إنّکم لو نظرتم إلی القمر، و أنّه فی أوّل لیلة هلال رفیع، ثمّ یکبر حتی یکون بدرا فی لیلة النصف من الشهر، و بعدها یبدأ بالنقصان التدریجی حتی الیوم أو الیومین الأخیرین حیث یغیب فی المحاق، ثمّ یظهر علی شکل هلال من جدید و یدور إلی تلک المنازل السابقة، لعلمتم أن هذا الاختلاف لیس عبثا، بل إنّه تقویم طبیعی دقیق جدّا یستطیع الجاهل و العالم قراءته، و یقرأ فیه تاریخ أعماله و أمور حیاته ۱۱۴].

ثمّ تضیف الآیة: إن هذا الخلق و الدوران لیس عملا غیر هادف، أو هو من باب اللعب، بل ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِکَ إِلَّا بِالْحَقِ

و فی النهایة تؤکّد الآیة: یُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ إلّا أنّ هؤلاء الغافلین و فاقدی البصیرة بالرغم من أنهم یمرون کثیرا علی هذه الآیات و الدلائل، إلّا أنّهم لا یدرکون أدنی شیء منها.

و تتطرق الآیة الثّانیة إلی قسم آخر من العلامات و الدلائل السماویة و الأرضیة الدالّة علی وجوده سبحانه، فتقول: إِنَّ فِی اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۰

فلیست السماء و الأرض بذاتهما من آیات اللّه و حسب، بل إن کل واحدة من الموجودات التی توجد فیهما تعتبر آیة بحد ذاتها، إلّا أنّ الذین یدرکون تلک الآیات هم الذین سمت أرواحهم و صفت نتیجة لتقواهم و بعدهم عن المعاصی، و هم الذین یقدرون علی

رؤیة وجه الحقیقة و جمال المعشوق.

ملاحظات

و هنا ملاحظات ینبغی الانتباه لها:

۱- هنـاک نقـاش طویل بین المفسّـرین فی الفرق بین کلمتی الضـیاء و النور، فالبعض منهم اعتبرهما مترادفتین و أن معناهما واحـدا، و البعض الأخر قالوا: إنّ الضـیاء استعمل فی ضوء الشمس فالمراد به النور القوی، أمّا کلمهٔ النور التی استعملت فی ضوء القمر فإنّها تدل علی النور الأضعف.

الرأی الثّالث فی هذا الموضوع هو أنّ الضـیاء بمعنی النور الذاتی، أمّا النور فإنّه أعم من الضـیاء و یشمل الذاتی و العرضی، و علی هذا فإنّ اختلاف تعبیر الآیهٔ یشیر إلی هذه النقطهٔ. و هی أنّ اللّه سبحانه قد جعل الشمس منبعا فوّارا للنور، فی الوقت الذی جعل للقمر صفهٔ الاکتساب، فهو یکتسب نوره من الشمس.

و الـذی یبـدو أنّ هذا التفاوت مع ملاحظهٔ آیات القرآن، هو الأصح، لأنا نقرا فی الآیهٔ (۱۶) من سورهٔ نوح: وَ جَعَـلَ الْقَمَرَ فِیهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً و فی الآیهٔ (۶۱) من سورهٔ الفرقان، وَ جَعَلَ فِیها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِیراً فإذا لا حظنا أنّ نور السراج ینبع من ذاته، و هو منبع و عین للنور، و أن الشمس قد شبهت فی الآیتین بالسراج، سیتّضح أنّ هذا التفاوت مناسب جدا فی الآیات مورد البحث.

۲- هناک اختلاف بین أهل الکتاب و کتّاب اللغهٔ فی أن (ضیاء) جمع أم مفرد،

فـالبعض، کصـاحب کتـاب «القاموس»، اعتبرها مفردا، إلّا أن البعض الآخر کالزجّاج اعتبر الضـیاء جمعا للضوء، و قـد قبل هـذا المعنی صاحبا تفسیر «المنار» و تفسیر «القرطبی»، و خاصّهٔ صاحب المنار، حیث اسـتفاد علی أساس هذا المعنی اسـتفادهٔ خاصّهٔ من الآیهٔ، فهو یقول: إن ذکر الضیاء بصیغهٔ الجمع فی شأن نور الشـمس إشارهٔ إلی الشـیء الـذی أثبته العلم الیوم بعـد قرون، و هو أنّ نور الشـمس مکون من سبعهٔ أنوار، و بتعبیر آخر سبعهٔ ألوان، هی الألوان التی تظهر فی قوس قزح، و تلاحظ عند مرور النور عبر المناشیر البلوریهٔ.

و لکن یبقی هنا سؤال، و هو: هل أن نور القمر، رغم أنّه أضعف، غیر متکون من الألوان المختلفهٔ؟

۳- هناک بحث و نقاش بین المفسّـرین فی أنّ ضـمیر قَدَّرَهُ مَنازِلَ یعود إلی القمر فقط، أم یرجع إلی الشـمس و القمر؟ فالبعض یعتقد أن الضمیر و إن کان مفردا، إلّا أنّه یعود إلی الإثنین معا، و نظیر ذلک فی الأدب العربی غیر قلیل.

اختیار هـذا الرأی من أجل أن القمر لیس الوحیـد الذی له منازل، بل إنّ للشـمس أیضا منازل، ففی کل وقت تکون فی برج خاص، و الاختلاف فی الأبراج هذا هو مبدأ التاریخ و الأشهر الشمسیهٔ.

و الحق أنّ ظاهر الآیهٔ یوحی بأنّ هذا الضمیر المفرد یعود للقمر فقط، لقربه منه، و هذا بنفسه یحتوی علی نکتهٔ، ذلک:

أوّلا: إنّ الأشهر التی عرفت فی الإسلام و القرآن رسمیا هی الأشهر القمریهٔ.

ثانیـا: إنّ القمر کرهٔ متحرکـهٔ و لهـا منازل، أمّا الشـمس فإنّها تقع فی وسط المنظومـهٔ الشمسـیهٔ، و لیس لها حرکـهٔ ضـمن مجموع هـذه المنظومـهٔ، و إنّ اختلاف الأبراج و مسیر الشـمس فی المـدار الفلکی ذی الإثنی عشـر برجا، و الذی یبدأ من الحمل و ینتهی بالحوت، لیس بسـبب حرکهٔ الشـمس، بل بسـبب حرکهٔ الأرض حول الشـمس، و دوران الأرض هذا هو السـبب فی أن نری الشـمس تقابل کل شهر

واحدا من البروج الفلكية الإثنى عشر، و على هذا فليس للشمس منازل مختلفة خلافا للقمر. (دققوا جيدا).

إنّ هذه الآية فى الحقيقة تشير إلى إحدى المسائل العلمية المرتبطة بالأجرام السماوية كانت خافية على البشر فى ذلك الزمان حيث ما يدركوا هذا الفرق بين حركة الشمس و القمر.

۴- لقد عدت الآيات أعلاه اختلاف الليل و النهار من آيات اللّه سبحانه، و ذلك لأنّ نور الشمس إذا استمر فى إشعاعه على الأرض، فإنّ من المسلّم أن درجة الحرارة سترتفع إلى الحد الذى تستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

و كذلك الليل إذا استمر فإنّ كل شيء سينجمد لشدّة البرودة.

إلّا أنّ اللّه سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئة أسباب الحياة و المعيشة على وجه الكرة الأرضية[۱۱۵].

إنّ أثر العدد و الحساب و التاريخ و السنة و الشهر فى نظام حياة البشر و الروابط الاجتماعية و المكاسب و الأعمال لا يخفى على أحد.

۵- إنّ مسألة العدد و الحساب التى أشير إليها فى الآيات أعلاه، هى فى الواقع واحدة من أهم مسائل حياة البشر فى جميع النواحى و المجالات.

نعلم إنّ أهمية أية نعمة تتّضح أكثر عند ما نلاحظ الحياة بدون تلك النعمة، و على هذا فلو أن حساب التاريخ و امتياز الأيّام و الأشهر و السنين رفع من حياة البشر، مثلا لا توجد أيام واضحة و محددة للأسبوع، و لا أيّام الشهر، و لا عدد الشهور و السنين، ففى هذه الحالة ستتعرض كل المسائل التجارية و الاقتصادية و السياسية و كل الاتفاقيات و البرامج الزمنية المعدة للخلل و عندها سوف لا يثبت حجر على حجر و ستنفرط عقده النظم فى الأعمال، و حتى وضع الزراعة و تربية الحيوانات و الصناعات الإنتاجية ستعمها الفوضى و الاضطراب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۳

لكن لما كان اللّه سبحانه قد خلق الإنسان ليحيا حياة سعيدة مقرونة بالنظام، فإنّه قد وضع وسائلها تحت تصرفه.

صحيح أن الإنسان يمكنه تنظيم أعماله إلى حدّ ما بالأمور الاعتبارية، إلّا أنّه إذا لم يستند إلى الميزان الطبيعى فإنّ مقياسه الجعلى لا يكون عاما و شاملا، و ليس قابلا للاعتماد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۳۰۳

دوران الشمس و القمر- و بتعبير أصح دوران الأرض حول الشمس- و المنازل التى لهما، يشكل تقويما طبيعيا واضح الأساس و يستفيد منه الجميع فى كل مكان، و يعتمدون عليه، فكما أن مقدار اليوم و الليلة يعتبر مقياسا تاريخيا صغيرا ينشأ نتيجة عالم طبيعى، أى حركة الأرض حول نفسها، فإنّ الشهر و السنة يجب أن تستند إلى دوران طبيعى، و على هذا المنوال فإنّ حركة القمر حول الأرض يشكل مقياسا أكبر، فإنّ الشهر يساوى ثلاثين يوما تقريبا، و حركة الأرض حول الشمس ينتج منها مقياس أعظم، و هو السنة.

قلنا: إنّ التقويم الإسلامى يستند إلى التقويم القمرى و دوران القمر، و رغم أنّ دوران الشمس فى الأبراج الإثنى عشر طريقة جيدة لتعيين الأشهر الشمسية، أنّ هذا التقويم مع أنّه طبيعى، إلّا أنّه لا ينفع الجميع، و إنّما يستطيع علماء النجوم فقط عبر رصد النجوم من تحديد كون الشمس فى البرج الفلانى، و لهذا السبب فإنّ الآخرين مجبورون على مراجعة التقاويم التى نظمت من قبل هؤلاء المنجمين. أن دوران القمر المنتظم حول الأرض يعطى تقويما واضحا يستطيع قراءة خطوطه و خرائطه حتى الأميون و سكّان البوادى.

و توضيح ذلك إن هيئة القمر تختلف فى كل ليلة فى السماء عن الليلة السابقة و اللاحقة، بحيث لا توجد ليلتان فى طول الشهر تتحد فيها هيئة القمر فى السماء، و إذا دققنا قليلا فى وضع القمر كل ليلة فإنّنا سنعتاد رويدا رويدا على تعيين تلك الليلة من ليالى الشهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۴

و قد يتصور البعض أن نصف الشهر الثّانى تتكرر فى صور النصف الأوّل بعينها، و أنّ صورة القمر فى ليلة الإحدى و العشرين مثلا هى

بعینها صورته فی اللیلة السابقة، إلّا أن هذا اشتباه کبیر، لأنّ جانب النقص فی القمر فی النصف الأوّل هو الطرف الأعلی، فی حین أنّ جانب نقصه فی النصف الثّانی من الطرف الأسفل، و بتعبیر آخر فإنّ أطراف الهلال الدقیقة تکون إلی الشرق فی البدایة، بینما هی فی الجانب الغربی عند أواخر الشهر، إضافة إلی أنّ القمر یری فی الغرب أوائل الشهر، أمّا فی أواخره فإنّه یری فی الشرق، و یتأخر کثیرا فی طلوعه. و علی هذا فإنّه یمکن الاستفادة من شکل القمر مع تغییراته التدریجیة کعداد یومی، و لتحدید أیّام الشهر بدقة من خلال شکل القمر.

علی کل حال، فإنّنا فی هذه الموهبة التی نسمیها «النظام التأریخی»، مدینون لهذا الخلق الإلهی، و لو لا حرکات القمر و الشمس (و الأرض) لکان لنا وضع مضطرب و فوضوی فی الحیاة لم یکن فی الحسبان تصوره.

إنّ السجناء فی الزنزانات الانفرادیة المظلمة، و الذین أضاعوا الزمان و الأوقات و لم یهتدوا إلیها، قد أحسوا بهذه الحیرة و عدم الهدفیة و التکلیف.

یقول أحد السجناء فی عصرنا الحاضر الذی قضی شهرا فی زنزانة انفرادیة مظلمة لعملاء الظالمین: لم تکن لی أیّة وسیلة أو طریقة لتحدید أوقات الصلاة، إلّا أنّهم عند ما کانوا یأتوننی بالغداء کنت أصلی الظهر و العصر، و إذا ما أتوا بالعشاء أصلی المغرب و العشاء، و صلاة الصبح عادة مع الفطور! و لکی أحسب الأیّام فإنّی کنت آخذ وجبات الطعام بنظر الإعتبار، فکل ثلاث وجبات أعدها یوما، غیر أنی لا أعلم ماذا حدث عند ما خرجت من السجن، فقد رأیت اختلافا بین حسابی و حساب الناس!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۵

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۷ الی ۱۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَیاةِ الدُّنْیا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِینَ هُمْ عَنْ آیاتِنا غافِلُونَ (۷) أُولئِکَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ یَهْدِیهِمْ رَبُّهُمْ بِإِیمانِهِمْ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِی جَنَّاتِ النَّعِیمِ (۹) دَعْواهُمْ فِیها سُبْحانَکَ اللَّهُمَّ وَ تَحِیَّتُهُمْ فِیها سَلامٌ وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۰)

التّفسیر

أهل الجنّة و النّار:

کما مرت الإشارة، فإنّ القرآن قد عرض فی بدایة هذه السورة بحثا إجمالیا عن موضوع المبدأ و المعاد، ثمّ بدأ بشرح هذه المسألة، ففی الآیات السابقة کان هناک شرح و بحث حول مسألة المعاد، و یلاحظ فی هذه الآیات تفصیل حول المعاد و مصیر الناس فی العالم الآخر.

ففی البدایة یقول: إِنَّ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَیاةِ الدُّنْیا وَ اطْمَأَنُّوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۶

بِها فهم لا یعتقدون بالمعاد و تجاهلوا الآیات البینات فلم یتدبروا فیها کیما تستیقظ قلوبهم و یتحرک فیهم روح الاحساس بالمسؤولیة وَ الَّذِینَ هُمْ عَنْ آیاتِنا غافِلُونَ فکلا هاتین الطائفتین مصیرهم الی النّار: أُولئِکَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ

إنّ النتیجة الطبیعیة و الحتمیة لعدم الإیمان بالمعاد هی الارتباط بهذه الحیاة المحدودة و العلائق المادیة، و الاطمئنان بها و الاعتماد

عليها، و نتيجة ذلك- أيضا- هو تلوّث الأعمال و فساد السلوك فى أنماط الحياة المختلفة، و لا تكون عاقبة ذلك إلّا النّار.

و كذلك فإنّ الغفلة عن الآيات الإلهية هى أساس البعد عن اللّه سبحانه، و الابتعاد عن اللّه هو العلّة لعدم الإحساس بالمسؤولية و التلوّث بالظلم و الفساد و المعصية، و عاقبة ذلك لا تكون إلّا النّار.

بناء على هذا، فإنّ كلا الفريقين أعلاه- أى الذين لا يؤمنون بالمبدأ، أو لا يؤمنون بالمعاد- سيكونان ملوّثين حتما بالأعمال الذميمة، و مستقبل كلا الفريقين مظلم.

إنّ هاتين الآيتين تؤكّدان مرّة أخرى هذه الحقيقة، و هى أنّ إصلاح مجتمع ما و إنقاذه من نار الظلم و الفساد، يتطلب تقوية ركنى الإيمان باللّه و المعاد اللذين هما شرطان ضروريان و أساسيان، فإنّ عدم الإيمان باللّه سبحانه سيقتلع الإحساس بالمسؤولية من وجود الإنسان، و الغفلة عن المعاد يذهب بالخوف من العقاب، و على هذا فإنّ هذين الأساسين العقائديين هما أساس كل الإصلاحات الاجتماعية.

ثمّ يشير القرآن إلى وضع فئة أخرى فى مقابل هذه الفئة، فيقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ فإنّ نور الهداية الإلهية الذى ينبعث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۷

من نور إيمانهم يضىء كل آفاق حياتهم، و قد اتّضحت لهم الحقائق باشراقات هذا النور بحيث لم تعد شراك المذاهب المادية و زبارجها، و لا الوساوس الشيطانية و بريق المطامع الدنيوية قادرة على التعتيم على افكارهم و دفعهم فى طريق الانحراف عن الصواب و الحق.

إنّ وضع هؤلاء فى الحياة الأخرى أنّهم تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ

إنّ هؤلاء يرفلون فى محيط مملوء بالصلح و الصفاء و عشق اللّه و أنواع النعم، ففى كل وقت تنير وجودهم نفحة و رشحة من ذات اللّه و صفاته، فإنّ دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَ و كلما التقى بعضهم بالآخر فإنّهم يتحدثون عن الصفاء و السّلام وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ و أخيرا فإنّهم كلّما التذوا بنعم اللّه المختلفة شكروا ذلك وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

ملاحظات

۱- المقصود من لقاء اللّه الذى جاء فى الآية الأولى ليس هو اللقاء الحسى قطعا، بل المقصود أنّ الإنسان إضافة إلى الحصول على الثواب و عطايا اللّه، فإنّه يشعر يوم القيامة بنوع من الحضور القلبى بالنسبة للذات المقدسة، لأنّه حينئذ سيرى آيات اللّه و علاماته بصورة أوضح فى كل مكان، و سيحصل على رؤية و إدراك جديد لمعرفته ۱۱۶].

۲- إنّ الحديث فى قوله تعالى: يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ عن هداية الإنسان فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۸

ظل الإيمان، و هذه الهداية لا تختص بعالم الآخرة، بل إنّ الإنسان ينجو بنور إيمانه فى هذه الدنيا من كثير من الاشتباهات و الخدع و الأخطاء و المعاصى المتولّدة من الطمع و الأنانية و الأهواء، و سوف يحدد طريقه إلى الجنّة فى الآخرة فى ظلّ إشعاع هذا الإيمان كما يقول القرآن: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ ۱۱۷].

و

فى حديث عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة حسنة فيقول له: أنا عملك، فيكون له نورا و قائدا إلى الجنّة»[۱۱۸].

۳- ورد فى هذه الآيات: تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فى الوقت الذى عبرت آيات أخرى من القرآن ب تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ، و بتعبير

آخر، فإنّنا نقرأ فى مواضع أخرى أنّ الأنهار تجرى من تحت أشجار الجنّة، أمّا هنا فإنّ الأنهار تجرى من تحت أهل الجنّة!.

إنّ هذا التعبير يمكن أن يشير إلى أنّ قصور أهل الجنّة قد تكون مبنيّة على الأنهار، و هذا يضفى عليها جمالا خارقا.

و قد يشير إلى أنّ أنهار الجنّة مسخرّة لأوامرهم و فى قبضتهم، كما نقرأ فى قصّة فرعون أنّه كان يقول: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۱۱۹].

و قد احتمل كذلك أن تكون «تحت» بمعنى «بين أيدى» أى أن أنهار الماء تجرى مقابلهم.

۴- ممّا يلفت النظر أن آخر آية من الآيات قيد البحث تشير إلى ثلاث حالات، أو ثلاث نعم كبيرة لأهل الجنّة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۹

الحالة الأولى: هى حالة التوجه إلى ذات اللّه المقدسة، و البهجة التى تحصل لهم نتيجة هذا التوجه لا يمكن مقارنتها بأية لذّة أخرى.

الحالة الثّانية: اللّذة التى تحصل نتيجة الارتباط بالمؤمنين الآخرين فى ذلك المحيط المفعم بالودّ و التفاهم، و هذه اللّذة هى أحلى لذّة بعد لذة التوجه إلى اللّه سبحانه.

الحالة الثّالثة: اللّذة التى تحصل من التمتع بأنواع نعم الجنّة، و هى تدفعهم إلى التوجه إلى اللّه أيضا، و بالتالى حمده و شكره. (فتأمل بدقة)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۰

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۱ الى ۱۲]

اشارة

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱) وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲)

التّفسير

الهمج الرّعاع:

الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الأولى بأنّ اللّه سبحانه إذا جازى المسيئين على أعمالهم بنفس العجلة التى يجب بها هؤلاء تحصيل النعم و الخير، فستنتهى أعمار الجميع و لا يبقى لهم أثر: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ إلّا أنّ لطف اللّه سبحانه لما كان شاملا لجميع العباد، حتى المسيئين و الكافرين و المشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم و جزائهم لعلهم يعون و يتوبون، و يرجعون عن الضلال إلى الحق و الهدى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۱

هذا إضافة إلى أنّ الجزاء إذا ما تمّ بهذه السرعة فإنّه يعنى زوال حالة الاختبار التى هى أساس التكليف تقريبا، و ستتصف طاعة المطيعين بالجبر و الاضطرار، لأنّهم بمجرّد أن يعصوا فسيلاقون جزاءهم الأليم فورا.

و احتمل أيضا فى تفسير هذه الآية أنّ جماعة من الكفار العنودين، الذين تحدث القرآن عنهم مرارا، كانوا يقولون للأنبياء: إذا كان ما تقولونه حقّا، فادعوا اللّه أن ينزل علينا البلاء، فإذا استجاب اللّه تعالى دعوة هؤلاء ما كان ليبقى من هؤلاء أحد.

لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل هو الأقرب.

و فى الختام تقول الآية: يكفى عقابا لهؤلاء أن نتركهم و شأنهم ليبقوا فى حيرتهم، فلا هم يميزون الحق من الباطل، و لا هم يجدون سبيل النجاة من متاهاتهم: فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ

عند ذلك تشير الآية إلى وجود نور التوحيد فى فطرة الإنسان و أعماق روحه و تقول: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً.

نعم ... إنّ خاصية المشاكل و الشدائد الخطيرة، أنّها تزيل الحجب عن فطرة الإنسان الطاهرة، و تحرق فى فرن الحوادث كل الطبقات السوداء التى غطت هذه الفطرة، و يسطع عندها- و لو لمدّة قصيرة- نور التوحيد.

ثمّ تقول الآية: إنّ هؤلاء الأفراد الى درجة من الجهل و ضيق الأفق بحيث أنّهم يعرضون بمجرّد كشف الضرّ عنهم، حتى كأنّهم لم يدعونا و لم نساعدهم: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

أمّا من الذى يزين لهم أعمالهم؟ فقد بحثنا ذلك فى ذيل الآية (۱۲۲) من سورة الأنعام، و مجمل الكلام هو:

إنّ اللّه سبحانه هو الذى يزين الأعمال، و ذلك بجعل هذه الخاصية فى الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۲

القبيحة و المحرّمة، بحيث أن الإنسان كلما تلوّث بها أكثر، فإنّه سيتطبع عليها، و بمرور الزمن يزول قبحها تدريجيا، بل و تصل الحال إلى أن يراها حسنة و جميلة.

و أمّا لماذا سمّت الآية أمثال هؤلاء «مسرفين» فلأنّه لا إسراف أكثر من أن يهدر الإنسان أهم رأس مال فى وجوده، إلّا و هو العمر و السلامة و الشباب و القوى، و يصرفه فى طريق الفساد و المعصية، أو فى طريق تحصيل متاع الدنيا التافه الفانى، و لا يربح من ذلك شيئا.

ألا يعد هذا العمل إسرافا، و أمثال هؤلاء مسرفين؟

و هنا يجب الالتفات إلى نقطة مهمّة:

الإنسان فى القرآن الكريم:

لقد وردت حول الإنسان تعبيرات مختلفة فى القرآن الكريم:

فعبّرت عنه آيات كثيرة أنّه «بشر» و عبّرت عنه آيات متعددة بالإنسان، و فى آيات أخرى «بنى آدم»، و العجيب أنّ فى كثير من الآيات التى عبّرت عنه بالإنسان، ذكرت صفاته المذمومة و غير الحميدة.

فقد عرفته هذه الآيات بأنّه موجود كثير النسيان و ناكر للجميل، و فى آية أخرى بأنّه موجود ضعيف: وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً[۱۲۰]، و فى آية أخرى بأنّه ظالم و كافر: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[۱۲۱]، و فى موضع آخر أنّه بخيل: وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً[۱۲۲]، و فى موضع آخر أنّه عجول: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا[۱۲۳] و فى مكان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۳

آخر أنّه كفور: وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً[۱۲۴]، و فى مورد آخر أنّه موجود كثير الجدل:

وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا[۱۲۵].

و فى موضع آخر أنّه ظلوم جهول: إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا[۱۲۶]، و فى مكان آخر أنّه كفور مبين: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۱۲۷]، و فى مكان آخر أنّه موجود قليل التحمل و الصبر، يبخل عند النعمة، و يجزع عند البلاء: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا

مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً[۱۲۸]، و فی مورد آخر مغرور: يـا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۱۲۹]، و فی موضع آخر أنّه موجود يطغی عند الغنی:

إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى ۱۳۰].

و بناء علی هذا فإنّا نری القرآن المجيد قد عرّف الإنسان بأنّه موجود يتضمّن جوانب و صفات سلبية كثيرة، و نقاط ضعف متعددة.

فهل أنّ هذا هو نفس ذلک الإنسان الذی خلقه اللّه فی أحسن تقويم و أفضل تكوين: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۱۳۱]؟

و هل أن هذا هو نفس الإنسان الذی علمه اللّه ما لم يعلم: عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ۱۳۲]؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۴

و هل هو نفس الإنسان الذی علمه اللّه البيان: خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ ۱۳۳].

و أخيرا، فهل أنّ هذا هو الإنسان الذی حثّه اللّه علی السعی و الكدح فی المسير إلی اللّه: يـا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً[۱۳۴].

يجب أن نری من هم الذين تتكرّس فيهم كل نقاط الضعف هذه، بالرغم من كل هذه الكرامة و المحبة الإلهية؟

الظاهر أنّ هذه المباحث تتعلق بمن لم ينشأ فی حجر القادة الإلهيين، بل نشأ و نما كما تنمو الأعشاب، فلا معلم و لا دليل، و قد اطلق العنان لشهواته و غاص وسط الأهواء و الميول.

من الطبيعی أنّ مثل هذا الإنسان لا يستفيد من إمكاناته و ثرواته العظيمة، و يسخرها فی طريق الانحرافات و الأخطاء، و عند ذلک سيظهر كموجود خطر، و فی النهاية عاجز و بائس. و إلّا فالإنسان الذی يستفيد من وجود القادة الإلهيين، و يستغل فكره فی مسير الحركة التكاملية و الحق و العدل، فإنّه يخطو نحو مرتبة الآدمية، و يستحق اسم «بنی آدم» و يصل إلی درجة لا يری فيها إلّا اللّه سبحانه، كما يقول القرآن: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا[۱۳۵].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۵

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۳ الی ۱۴]

اشارة

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (۱۳) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِی الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۴)

التّفسير

الإعتبار بالظّالمين السابقين:

تشير هذه الآيات أيضا إلی معاقبة الأفراد الظالمين و المجرمين فی هذه الدنيا، و قد نبّهت المسلمين- بعد أن أطلعتهم علی تاريخ من قبلهم- إلی أنّهم إذا سلكوا نفس طريق هؤلاء، فسينتظرهم نفس المصير.

فالآية الأولی تقول: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا ثمّ تضيف: كَذلِكَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

ثمّ تبيّن الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة، و تقول: ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۶

ملاحظات

۱- إنّ كلمة «قرون»- جمع قرن- تستعمل عادة بمعنى الزمان الطويل، و لكن حسب ما قاله علماء اللغة فإنّها جاءت أيضا بمعنى القوم و الجماعة الذين يعيشون فى عصر واحد، لأنّ مادتها الأصلية بمعنى الاقتران و القرب، و المراد هنا فى هذه الآية هو المعنى الأخير، أى: الجماعات و الأقوام الذين يعيشون فى عصر واحد.

۲- لقد ذكرت الآيات- أعلاه- أنّ سبب فناء و هلاك الأقوام السابقة هو الظلم، و ذلك لأنّ للفظ الظلم من المفهوم و المعنى الجامع ما يدخل ضمنه كل نوع من الذنب و الفساد.

۳- يستفاد من جملة: وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أنّ اللّه سبحانه يهلك فقط أولئك الذين لا أمل فى إيمانهم حتى فى المستقبل، و على هذا فإنّ الأقوام التى يمكن أن تؤمن فى المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب، لأنّ الفرق كبير بين أن يقال: لم يؤمنوا، و بين أن يقال: لم يكونوا يؤمنون (فتدبّر).

۴- إنّ جملة لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ لا تعنى النظر بالعين الباصرة قطعا، و لا تعنى التفكر و النظر القلبى، لأنّ اللّه سبحانه منزّه عن كليهما، بل المراد منها أنّها حالة شبيهة بالانتظار، أى إنّنا سنترككم و أنفسكم ثمّ ننتظر ماذا تعملون؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۷

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشارة

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۶) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (۱۷)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآيات نزلت فى عدّة نفر من عبدة الأوثان، ذلك أنّهم أتوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا له: إنّ ما ورد فى هذا القرآن من الأمر بترك عبادة أصنامنا الكبيرة، اللات و العزّى و مناة و هبل، و ذم هذه الآلهة، ممّا لا يمكن أن نتحمله، فإذا أردت أن نتبعك فأت بقرآن آخر لا يوجد فيه هذا الذم و التوبيخ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۸

لآلهتنا، أو غيّر على الأقل هذه الأمور التى وردت فى هذا القرآن! فنزلت هذه الآيات و أجابتهم.

التّفسير

كتعقيب للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن المبدأ و المعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع و المسائل المتعلقة به.

فی البدایهٔ تشیر إلی واحد من الاشتباهات الکبیرهٔ لعباد الأصنام، و تقول:

وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ قالَ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَیْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ

إنّ هؤلاء الجهلهٔ العاجزین لم یرضوا بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قائدا و مرشدا لهم، بل کانوا یدعون لاتباع خرافاتهم و أباطیلهم و یطلبون منه قرآنا یوافق انحرافاتهم و یؤیدها، لا أنّه یصلح مجتمعهم، فبالاضافهٔ الی أنّهم لم یؤمنوا بالقیامهٔ، و لم یشعروا بالاثمّ فی مقابل أعمالهم کان قولهم هذا یدل علی أنّهم لم یفهموا معنی النّبوهٔ، أو أنّهم کانوا یتخذونها هزوا.

إنّ القرآن الکریم یلفت نظر هؤلاء الی هذا الاشتباه الکبیر، و یأمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقول لهم: قُلْ ما یَکُونُ لِی أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِی ۱۳۶] ثمّ یضیف للتأکید: إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما یُوحی إِلَیَ و لست عاجزا عن تغییر أو تبدیل هذا الوحی الإلهی- فحسب- بل: إِنِّی أَخافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ

ثمّ تتطرق الآیهٔ التالیهٔ إلی دلیل هذا الموضوع و تقول: قل لهم بأنّی لست مختارا فی هذا الکتاب السماوی: قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَیْکُمْ وَ لا أَدْراکُمْ بِهِ و الدلیل علی ذلک فَقَدْ لَبِثْتُ فِیکُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ لکنّکم لم تسمعوا منّی مثل هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۹

الکلام مطلقا، و لو کانت هذه الآیات من عندی لتحدثت بها لکم خلال هذه الأربعین سنهٔ، فهل لا تدرکون أمرا بهذه الدرجهٔ من الوضوح: أَ فَلا تَعْقِلُونَ

و کذلک، و من أجل التأکید یضیف: بأنّی أعلم أنّ أقبح أنواع الظلم هو أن یفتری الإنسان علی اللّه الکذب: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً و علی هذا فکیف یمکن أن أرتکب مثل هذا الذنب الکبیر؟!.

و کذلک فإنّ التکذیب بآیات اللّه سبحانه من أشدّ الکبائر و أعظمها: أَوْ کَذَّبَ بِآیاتِهِ فإذا کنتم جاهلین بعظمته ما ترتکبونه من الإثم فی تکذیب و إنکار آیات الحق، فإنّی لست بجاهل بها، و علی کل حال فإنّ عملکم هذا جرم کبیر، و إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

ملاحظات

۱- إنّ المشرکین کانوا یطلبون من النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إمّا أن یستبدل القرآن بکتاب آخر، أو یبدله، و الفرق واضح بین الاثنین، ففی الطلب الأوّل کان هدفهم هو اقتلاع وجود هذا الکتاب تماما لیحل محله کتاب آخر من طرف النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، أمّا فی الطلب الثّانی فکانوا یریدون علی الأقل أن تبدل الآیات التی تخالف أصنامهم حتی لا یشعروا بأی ضیق و انزعاج من هذه الناحیهٔ.

و نحن نری کیف أنّ القرآن الکریم أجابهم بلهجهٔ قاطعهٔ بأنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لیس له أی اختیار و تصرف فی التبدیل، و لا التغییر، و لا تسریع نزول الوحی أو تأخره.

و ندرک من ذلک حماقهٔ و غباء هؤلاء فهم یقبلون بالنّبی الذی یتبع خرافاتهم و أهواءهم، لا القدوهٔ و المربی و القائد و الدلیل!.

۲- ممّا یستحق الانتباه، أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی الإجابهٔ عن الطلبین اکتفی بذکر عدم القدرهٔ بتنفیذ الطلب الثّانی و قال: إنّی لا أستطیع أن أغیره من تلقاء نفسی، و بهذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۰

البیان یکون قد نفی الطلب الأوّل بطریق أولی، لأنّ تغییر بعض الآیات إذا کان خارجا عن حدود صلاحیهٔ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فهل بامکانه تبدیل کل هذا الکتاب السماوی؟

إنّ هذا نوع من الفصاحهٔ فی التعبیر، حیث أنّ القرآن الکریم یعید و یکرر کل المسائل فی غایهٔ الضغط و الاختصار فی العبارهٔ، بدون جملهٔ أو کلمهٔ زائدهٔ إضافیهٔ.

۳- يمكن أن يقال: إنّ الدليل المذكور فى الآيات- أعلاه- على أنّ القرآن ليس من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و أنّه حتما من اللّه سبحانه، ليس مقنعا. فما هو وجه الملازمة فى أنّ هذا الكتاب إذا كان من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فلا بدّ أن يكون قد سمعت منه نماذج و مقاطع من قبل؟

إلّا أنّ جواب هذا السؤال واضح بأدنى دقة و تأمل، لأنّ النبوغ الفكرى و قدرة و الاكتشاف و الإبداع فى الإنسان- حسب ما قاله علماء النفس- يبدأ من سن العشرين و يصل كحد أقصى إلى سن الخامسة و الثلاثين أو الأربعين، أى إن الإنسان إذا لم يقدم حتى ذلك الوقت على إبداع و ابتكار عمل جديد، فلا يمكنه بعد هذا السن غالبا.

إنّ هذا الموضوع الذى يعتبر اليوم كشفا نفسيا لم يكن فى الماضى واضحا إلى هذا الحدّ، إلّا أنّ أغلب الناس يعلمون هذا الموضوع بهداية الفطرة، بأن من غير الممكن أن يكون للإنسان معتقد و يعيش بين قوم، و لا يظهر ذلك مطلقا. و القرآن الكريم قد استند أيضا إلى هذا الأساس و هو: كيف يستطيع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى هذا العمر أن يمتلك مثل هذه الأفكار و يكتمها الى ذلك الوقت؟

۴- كما أشرنا فى ذيل الآية (۲۱) من سورة الأنعام، فإنّ القرآن قد عرّف فى موارد كثيرة جماعة من الناس بأنّهم «أظلم» و ربّما يبدو لأوّل وهلة أن هناك تناقضا، فإنّا إذا وصفنا جماعة بأنّهم أظلم، فكيف يمكن أن تتقبل مجموعة أخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۱

هذه الصفة؟

و قد قلنا فى جواب هذا السؤال: إنّ كل هذه العناوين ترجع إلى عنوان واحد، و هو مسألة الشرك و الكفر و العناد و الافتراء و التكذيب بالآيات الإلهية، و فى الآيات التى نبحثها، تنحدر من هذا الأصل أيضا. (لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۲۱) من سورة الأنعام).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۲

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۱۸]

اشارة

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱۸)

التّفسير

آلهة بدون خاصية!

واصلت الآية الحديث عن التوحيد أيضا، و ذلك عن طريق نفى ألوهية الأصنام، و ذكرت عدم أهلية الأصنام للعبادة و انتفاء قيمتها و أهميتها: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ

من البديهى أن الأصنام- حتى لو فرضنا أنّها منشأ الضر و النفع و الربح و الخسارة- ليست لها لياقة أن تكون معبودة، إلّا أنّ القرآن الكريم يريد بهذا التعبير أن يوضح هذه النقطة، و هى أنّ عبدة الأصنام لا يمتلكون أدنى دليل على صحة هذا العمل، و يعبدون موجودات لا خاصية لها مطلقا، و هذه أقبح و أسوأ عبادة.

ثمّ تتطرق إلى ادعاءات عبدة الأوثان الواهية، وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۳

اللَّهِ أی إنّ هذه الأصنام و الآلهة تستطیع بشفاعتها أن تکون سببا للضر و النفع رغم عجزها عن أی عمل بصورة مستقلة.

لقد کان الإعتقاد بشفاعة الأصنام أحد أسباب عبادتها، و کما جاء فی التواریخ، فإنّ عمرو بن لحی کبیر العرب عند ما ذهب إلی المیاه المعدنیة فی الشام لمعالجة نفسه بها، جلب انتباهه وضع عبدة الأصنام، و لما سأل منهم عن الباعث علی هذا العمل و العبادة، قالوا له: إنّ هذه الأصنام هی سبب نزول الأمطار، و حل المشاکل، و لها الشفاعة بین یدی اللّه، و لما کان رجلا خرافیا وقع تحت تأثیر هذه الأجوبة، و طلب منهم بعض الأصنام لیأخذها إلی الحجاز، و عن هذا الطریق راجت عبادة الأصنام بین أهل الحجاز.

إنّ القرآن یقول فی دفع هذا الوهم: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا یَعْلَمُ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ و هو کنایة عن أن اللّه سبحانه لو کان له مثل هؤلاء الشفعاء. فإنّه یعلم بوجودهم فی أی نقطة کانوا من السماء و الأرض، لأنّ سعة علم اللّه لا تدع أصغر ذرة فی السماء و الأرض إلّا و تحیط بها علما.

و بتعبیر آخر، إن ذلک یشبه تماما ما لو قیل لشخص: أ عندک مثل هذا الوکیل؟

و هو فی الجواب یقول: لا علم لی بوجود هذا الوکیل، و هذا أفضل دلیل علی نفیه حیث لا یمکن أن لا یعلم الإنسان بوکیله.

و فی آخر الآیة تأکید لهذا الموضوع حیث تقول: سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ

لقد بحث موضوع الشفاعة بصورة مفصلة فی المجلد الأوّل ذیل الآیة (۴۶) من سورة البقرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۴

الآیة [سورة یونس (۱۰): آیة ۱۹]

اشارة

وَ ما کانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ فِیما فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۱۹)

التّفسیر

إنّ هذه الآیة- تتمّة للبحث الذی مرّ فی الآیة السابقة حول نفی الشرک و عبادة الأصنام- تشیر إلی فطرة التوحید لکل البشر، و تقول: وَ ما کانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً.

إنّ فطرة التوحید هذه، و التی کانت سالمة فی البدایة، إلّا أنّها قد اختلفت و تلوّثت بمرور الزمن نتیجة الأفکار الضیقة، و المیول الشیطانیة و الضعف، فانحرف جماعة عن جادة التوحید و توجهوا إلی الشرک، و قد انقسم المجتمع الإنسانی إلی قسمین مختلفین: قسم موحّد، و قسم مشرک: فَاخْتَلَفُوا. بناء علی هذا فإنّ الشرک فی الواقع نوع من البدعة و الانحراف عن الفطرة، الانحراف المترشح من الأوهام و الخرافات التی لا أساس لها.

و قد یطرح هنا هذا السؤال، و هو: لماذا لا یرفع اللّه هذا الاختلاف بواسطة عقاب المشرکین السریع، لیرجع المجتمع الإنسانی جمیعه موحّدا؟

و یجیب القرآن الکریم مباشرة عن هذا السؤال بأنّ الحکمة الإلهیة تقتضی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۵

حریة البشر فی مسیر الهدایة، فهی رمز التکامل و الرقی، و لو لم یکن أمره کذلک فإنّ اللّه سبحانه کان سیقضی بینهم فی اختلافاتهم:

وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

بناء على هذا فإنّ كَلِمَةٌ فى الآية إشارة إلى السنّة و قانون الخلقة الذى يقتضى حرية البشر، لأنّ المنحرفين و المشركين لو كانوا يعاقبون سريعا و مباشرة، فإنّ إيمان الموحّدين سيكون اجباريا و نتيجة للخوف و الرهبة، و مثل هذا الإيمان لا يعدّ فخرا. و لا دليلا على التكامل، و اللّه سبحانه قد أجّل العقاب و الجزاء لعالم الآخرة لينتخب الصالحون و الطاهرون طريقهم بحرية تامّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۶

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۲۰]

اشارة

وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۲۰)

التّفسير

المعجزات المقترحة!

مرّة أخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان و الإسلام وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

من الطبيعى، و بدليل القرائن التى سنشير إليها بعد حين، أنّ هؤلاء لم يقصدوا أى معجزة، لأنّ من المسلّم أنّه كان للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إضافة إلى القرآن معاجر أخرى، و تاريخ الإسلام و بعض الآيات القرآنية شاهدة على هذه الحقيقة.

إنّ هؤلاء كانوا يظنون أنّ الإعجاز أمر بيد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو يستطيع أن يقوم به فى أى وقت و بأية كيفية يريد، مضافا الى أنّه مأمور أن يستفيد من هذه القوّة مقابل كل مدّع لجوج معاند و العمل حسب ميله لإقناعه و إقامة الحجة عليه، و لهذا فإنّ القرآن الكريم يأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مباشرة: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ و بناء على هذا، فإنّ المعجزة ليست بيدى لآتيكم كل يوم بمعجزة جديدة إرضاء لأهوائكم و حسب ميولكم و رغباتكم، ثمّ لا تؤمنون بعد ذلك بأعذار واهية و حجج ضعيفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۷

و فى النهاية تقول الآية بلهجة التهديد: فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فانتظروا العقاب الإلهى، و أنا أنتظر النصر! أو كونوا بانتظار ظهور مثل هذه المعجزات، و أكون بانتظار عقابكم أيّها المعاندون!.

ملاحظتان

و هنا ملاحظتان ينبغى الالتفات إليهما:

۱- كما أشرنا أعلاه فإنّ كلمة (آية) أى المعجزة- و إن كانت مطلقة و تشمل كل أنواع المعاجز- إلّا أنّ القرائن تبيّن أنّ هؤلاء لم يطلبوا المعجزة لمعرفة صدق النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بل كانوا طلاب معاجز اقتراحية، أى إنّهم كانوا كل يوم يقترحون على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم معجزة جديدة و يأملون أن يطيعهم فى ذلك، فكأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إنسان لا عمل

له سوى صنع المعجزات، و هو منتظر لكل من هبّ و دبّ ليقترح عليه شيئا فيحقق له اقتراحه، غافلين عن أن المعجزة هى من فعل اللّه سبحانه أوّلا، و لا تتم إلّا بأمره و إرادته، و هى- ثانيا- معجزة لمعرفة أحقّية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الاهتداء به، و وقوعها مرّة واحدة كاف لهذا الغرض، و علاوة على ذلك فإنّ نبىّ الإسلام قد أظهر من المعجزات القدر الكافى، فطلب المزيد لا يكون إلّا بدافع الاقتراحات الأهوائية و الشهوانية.

و الشاهد على أنّ المقصود من (الآية) هنا المعجزات الاقتراحية، هو:

أوّلا: إنّ نهاية الآية تهدد هؤلاء، و لو كانوا يطلبون المعجزة لاكتشاف الحقيقة، فلا وجه لهذا التهديد.

ثانيا: رأينا قبل عدّة آيات أن هؤلاء كانوا عنودين و لجوجين إلى الحد الذى اقترحوا فيه على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبدل كتابه السماوى، أو يغير على الأقل الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۸

التى تشير إلى نفى عبادة الأصنام.

ثالثا: حسب القاعدة المسلمة لدينا بأنّ «القرآن يفسر بعضه بعضا» فإنّا نستطيع أن نفهم جيدا من خلال بعض الآيات- كالآيات (۹۰) و (۹۴) من سورة الإسراء- أن عبدة الأصنام اللجوجين هؤلاء، لم يكونوا طلاب معجزة لأجل الهداية، و لهذا نراهم كانوا يقولون أحيانا: نحن لن نؤمن لك حتى تفجر العيون من هذه الأرض اليابسة، و يقول الآخر: إنّ هذا ليس بكاف، بل يجب أن يكون لك بيت من ذهب، و ثالث يقول: و هذا أيضا لا يقنعنا حتى ترقى فى السماء أمام أعيننا، و يضيف رابع أنّ هذا الرقى فى السماء ليس كافيا أيضا إلّا إذا أتيتنا بكتاب من اللّه لنا!! و أمثال ذلك من السفاسف و الخزعبلات.

إذن، فقد اتّضح ممّا قلنا أعلاه أنّ الاستدلال بهذه الآية على نفى أية معجزة، أو كل المعجزات غير القرآن الكريم زيف يجانب الحقيقة، (و ستطالعون- إن شاء اللّه مزيدا من التوضيح حول هذا الموضوع فى ذيل الاية (۵۹) من سورة الإسراء).

۲- يمكن أن تكون كلمة «الغيب» فى جملة: إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ إشارة إلى أنّ المعجزة أمر مربوط بعالم الغيب، و ليست من اختيارات الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بل هى مختصة باللّه تعالى.

أو أن تكون إشارة إلى أن مصالح الأمور و الوقت المناسب لنزول المعجزة هى جزء من أسرار الغيب و مختصات اللّه سبحانه، فمتى رأى أن الوقت مناسب لنزول المعجزة، و أنّ طالب المعجزة باحث عن الحقيقة، أنزل المعجزة، لأنّ الغيب و الأسرار الخفية من مختصات ذاته المقدسة.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب للصواب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۹

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۱ الى ۲۳]

اشارة

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (۲۱) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۲۲) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۳)

التّفسير

یدور الکلام فی هذه الآیات- أیضا- حول عقائد و أعمال المشرکین، ثمّ دعوتهم إلی التوحید و نفی کل أنواع الشرک.

فالآیة الأولی تشیر إلی بعض سلوکیات المشرکین الحمقاء، و تقول: أنّنا عند ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۰

نبتلی النـاس بالمشاکـل و النکبـات من أجل إیقاظهم و تنبیههم، ثمّ نرفع هـذا البلاء عنهم و نـذیقهم طعم الراحـة و الهـدوء بعـد تلک الضـرّاء، فـإنّهم بـدلا من أن ینتبهـوا لهـذه الآیـات و یرجعوا إلی الصواب، یسـخرون بهـا، أو یفسـرونها بتفسـیرات غیر صـحیحة، فمثلا یفسـرون الابتلاءات و المشاکل بأنّها نتیجة غضب الأصـنام، و النعم و الطمأنینة بأنّها دلیل علی شفقتها، أو أنّهم یعدون کل هذه الأمور صدفة محضة:

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَکْرٌ فِی آیاتِنا.

إنّ کلمـة «مکر» فی الآیـة أعلاه، و التی تعنی بشـکل عـام إعمـال الفکر، تشیر إلی التوجیهات الخاطئـة و طرق التهرّب التی یفکر بها المشرکون عند مواجهة الآیات الإلهیة، و ظهور أنواع البلایا و النعم.

إلّا أنّ اللّه سبحانه حذر هؤلاء بواسطة نبیّه، و أمره أن قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَکْراً.

و کما أشـرنا مرارا، الی أنّ المکر فی الأصل هو کل نوع من التخطیط المقترن بالعمل المخفی، لا المعنی الـذی یفهم من هـذه الکلمة الیوم، و هو الاقتران بنوع من الشیطنة، و علی هذا فإنّه یصدق علی اللّه سبحانه کما یصدق علی العباد[۱۳۷]. لکن ما هو مصداق المکر الإلهی فی هذه الآیة؟

الظـاهر أنّها إشارة إلی نفس تلک العقوبات الإلهیـة التی یحلّ بعضـها فی نهایـة الخفاء و بـدون أیـة مقدمـة و بأسـرع ما یکون، بل إنّه یعاقب و یعـذب بعض المجرمین بأیـدیهم أحیانا. و من البـدیهی أن من هو أقدر من الکل و أقوی من الجمیع علی دفع الموانع و تهیئة الأسـباب، سـتکون خططه- أیضا- هی الأسرع. و بتعبیر آخر فإنّ اللّه سبحانه فی أی وقت یرید أنزال العقاب بأحد العباد أو تنبیهه، فإنّ هذا العقاب سیتحقق مباشرة، فی حین أن الآخرین لیسوا کذلک.

ثمّ یهـدد هؤلاـء بـأن لاـ تظنوا أنّ هـذه المؤامرات و الخطط ستنسـی، بل إنّ رسـلنا- أی الملائکـة- یکتبون کل هـذه المخططات التی تهدف إلی إطفاء نور الحق:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۱

إِنَّ رُسُلَنا یَکْتُبُونَ ما تَمْکُرُونَ و لذلک یجب أن تهیئوا أنفسکم للجواب و العقاب فی الحیاة الأخری.

و سنبحث کتابة الأعمال و الملائکة المأمورین بها فی الآیات المناسبة.

و تغوص الآیـة التالیـة فی أعمـاق فطرة البشـر، و توضـح لهؤلاـء حقیقـة التوحیـد الفطری، و کیف أن الإنسـان عنـد ما تلّم به المشاکل الکبیرة و فی أوقـات الخطر، ینسـی کـل شـیء إلّـا اللّه تبـارک و تعـالی و یتعلق به، لکنّه بمجرّد أن یرتفع البلاء و تزول الشـدّة و تحل المشکلة، فإنّه سیسلک طریق الظلم و یبتعد عن اللّه سبحانه.

تقول الآیـة: هُوَ الَّذِی یُسَـیِّرُکُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّی إِذا کُنْتُمْ فِی الْفُلْکِ وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیـحٍ طَیِّبَـةٍ وَ فَرِحُوا بِهـا جاءَتْها رِیـحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ کُلِّ مَکانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِیطَ بِهِمْ فی هـذا الحال بالضـبط تـذکروا اللّه و دعوه بکل إخلاص و بـدون أیـة شائبـة من الشـرک، و دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِـینَ لَهُ الـدِّینَ فیرفعون أیـدیهم فی هـذا الوقت للـدعاء: لَئِنْ أَنْجَیْتَنا مِنْ هـذِهِ لَنَکُونَنَّ مِنَ الشَّاکِرِینَ فلا نظلم أحدا و لا نشرک بعبادتک غیرک.

و لکن ما أن أنجاهم اللّه و أوصلهم إلی شاطئ النجاة بدؤوا بالظّلم و الجور:

فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِ لکن یجب أن تعلموا- أیّها الناس- إنّ نتیجة ظلمکم ستصـیبکم أنتم یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّما

بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ و آخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلا فى هذه الدنيا: مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا[۱۳۸] ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۲

ملاحظات

و هنا يجب الالتفات إلى عدّة ملاحظات:

۱- إنّ ما قرأناه فى الآيات أعلاه غير مختص بعبدة الأوثان، بل هو قانون كلى ينطبق على كل الأفراد الملوّثين من عبيد الدنيا المشغوفين بها فعند ما تحيط بهم أمواج البلايا و المحن و تقصر أياديهم عن كل شيء، و لا يرون لهم ناصرا و لا معينا، فإنّهم سيمدون أيديهم بالدعاء بين يدى اللّه سبحانه و يعاهدونه بألف عهد و ميثاق، و ينذرون و يقطعون العهود بأنّهم إن تخلصوا من هذه البلايا و الأخطار سيفعلون كذا و كذا.

إلّا أنّ هذه اليقظة و الوعى التى هى انعكاس لروح التوحيد الفطرى، لا تستمر طويلا عند أمثال هؤلاء، فبمجرّد أن يهدأ الطوفان و تنقشع سحب البلاء، فإنّ حجب الغفلة ستغشى قلوبهم، تلك الحجب الكثيفة التى لا تنقشع عن تلك القلوب إلّا بالطوفان.

و رغم أنّ هذه اليقظة مؤقتة، و ليس لها أثر تربوى فى الأفراد الملوّثين جدّا، أنّها تقيم الحجّة عليهم، و ستكون دليلا على محكوميتهم. أمّا الذين تلوثوا بالمعاصى قليلا، فإنّهم سيتنبهون فى هذه الحوادث و يصلحون مسارهم. و أمّا عباد اللّه الصالحون فأمرهم واضح، فإنّ توجههم إلى اللّه سبحانه فى السراء بنفس قدر توجههم إليه فى الضراء، لأنّهم يعلمون أن كل خير و بركة تصل إليهم، و تبدو ظاهرا أنّها نتيجة للعوامل الطبيعية، فإنّها فى الواقع من اللّه تعالى.

و على كل حال، فإنّ هذا التذكير و التذكر قد جاء كثيرا فى آيات القرآن المجيد.

۲- لقد ذكرت «الرحمة» فى الآيات أعلاه مقابل «الضراء»، و لم تذكر السراء، و هى إشارة إلى أنّ أى حسن و نعمة تصل إلى الإنسان فهى من اللّه سبحانه و رحمته اللامتناهية. فى حين أنّ السوء و النقمات إذا لم تكن للعبرة، فإنّها من آثار أعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۳

الإنسان نفسه.

۳- إنّ الضمائر فى بداية الآية الثّانية من الآيات التى نبحثها وردت بصيغة المخاطب، إلّا أنّها فى الأثناء بصيغة الغائب، و من المسلم أن لذلك نكتة ما:

قال بعض المفسّرين: إنّ تغيير أسلوب الآية من أجل أنّها تبيّن حال المشركين و تعرضهم فى الحال ابتلائهم بالطوفان و البلاء درسا و عبرة للآخرين، و لهذا فإنّها فرضتهم غائبين و فرضت الباقين حضورا.

و قال البعض الآخر: إنّ النكتة هى عدم الاعتناء بهؤلاء و تحقيرهم، حيث أن اللّه سبحانه قد قبل حضور هؤلاء و خاطبهم. ثمّ أبعدهم عنه و تركهم.

و يحتمل أيضا أن تكون الآية بمثابة تجسيم طبيعى عن وضع الناس، فما داموا جالسين فى السفينة و لم يبتعدوا عن الساحل فإنّهم فى إطار المجتمع، و على هذا يمكن أن يكونوا مخاطبين، أمّا عند ما تبعدهم السفينة عن الساحل، و يختفون عن الأنظار تدريجيا، فإنّهم يعتبرون كالغائبين، و هذا فى الواقع تجسيم حى لحالتين مختلفتين عند هؤلاء.

۴- إنّ جملة أُحِيطَ بِهِمْ تعنى أنّ هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمة من كل جانب، إلّا أنّها هنا كناية عن الهلاك و الفناء

الحتمی لهؤلاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۴

الآیتان [سورة یونس (۱۰): الآیات ۲۴ الی ۲۵]

اشارة

إِنَّما مَثَلُ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا یَأْکُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّی إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّیَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَیْها أَتاها أَمْرُنا لَیْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۲۴) وَ اللَّهُ یَدْعُوا إِلی دارِ السَّلامِ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲۵)

التّفسیر

لوحة الحیاة الدّنیا:

مرّت الإشارة فی الآیات السابقة إلی عدم استقرار و دوام الحیاة الدنیا، ففی الآیة الأولی من الآیات التی نبحثها تفصیل لهذه الحقیقة ضمن مثال لطیف و جمیل لرفع حجب الغرور و الغفلة من أمام نواظر الغافلین و الطغاة إِنَّما مَثَلُ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ.

إنّ قطرات المطر هذه تسقط علی الأراضی التی لها قابلیة الحیاة. و بهذه القطرات ستنمو مختلف النباتات التی یستفید من بعضها الإنسان، و من بعضها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۵

الآخر الحیوانات فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا یَأْکُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ

إنّ هذه النباتات علاوة علی أنّها تحتوی علی الخواص الغذائیة المهمّة للکائنات الحیّة الأخری، فإنّها تغطی سطح الأرض و تضفی علیها طابعا من الجمال حَتَّی إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّیَّنَتْ فی هذه الأثناء حیث تتفتح الجنابذ و تورق أعالی الأشجار و تعطی ذلک المنظر الزاهی و تبتسم الأزهار و تتلألأ الأعشاب تحت أشعة الشمس، و تتمایل الأغصان طربا مع النسیم، و تظهر حبات الغذاء و الأثمار أنفسها شیئا فشیئا و تجسم جانبا دائب الحرکة من الحیاة بکل معنی الکلمة، و تملأ القلوب بالأمل، و العیون بالسرور و الفرح، بحیث وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَیْها .. فی هذه الحال و بصورة غیر مرتقبة یصدر أمرنا بتدمیرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج کثیرة، أو إعصار مدمّر، و نجعلها کأنّ لم تکن شیئا مذکورا أَتاها أَمْرُنا لَیْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

لَمْ تَغْنَ مأخوذة من مادة (غنا) بمعنی الإقامة فی مکان معین، و علی هذا فإنّ جملة لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ تعنی أنّها لم تکن بالأمس هنا، و هذا کنایة عن فناء الشیء بالکلیة بصورة کأنّه لم یکن له وجود مطلقا!.

و للتأکید تقول الآیة فی النهایة: کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ

إنّ ما ذکر أعلاه تجسیم واضح و صریح عن الحیاة الدنیویة السریعة الانقضاء و الخداعة، و الملیئة بالتزاویق و الزخارف، فلا دوام لثرواتها و نعیمها، و لا هی مکان أ من و سلامة. و لهذا فإنّ الآیة التالیة أشارت بجملة قصیرة إلی الحیاة المقابلة لهذه الحیاة، و قالت: وَ اللَّهُ یَدْعُوا إِلی دارِ السَّلامِ

فلا وجود و لا خبر هناک عن مطاحنات و اعتداءات المتکالبین علی الحیاة المادیة، و لا حرب و لا إراقة دماء و لا استعمار و لا استثمار، و کل هذه المفاهیم قد جمعت فی کلمة دار السّلام.

و إذا تلبّست الحیاة فی هذه الدنیا بعقیدة التوحید و الایمان بالمبدأ و المعاد،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۶

فإنّها ستتبدل أیضا إلی دار السّلام، و لا تکون حینئذ کالمزرعة التی أتلفها البلاء و الوباء.

ثمّ تضیف الآیة: إنّ اللّه سبحانه یهدی من یشاء- إذا کان لائقا لهذه الهدایة- إلی صراطه المستقیم، ذلک الصراط التی ینتهی إلی دار السّلام و مرکز الأمن و الأمان وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ

ملاحظات

۱- لما کان القرآن کتاب تربیة و تکامل للإنسان، فإنّه یستعین بالأمثلة لتوضیح الحقائق العقلیة فی کثیر من الموارد، و قد یجسّد المواضیع التی لها امتداد زمنی طویل فی مسرحیة و تمثیلیة قصیرة و قابلة للمطالعة أمام أعین الناس.

إنّ متابعة تأریخ ملیء بالحوادث یتعلق بإنسان ما، أو جیل ما، و الذی قد یطول لمائة سنة أحیانا لیس بالأمر الهین بالنسبة للأفراد العادیین، أمّا عند ما تتلخص هذه الساحة و الحیاة فی عدّة أشهر، کما هو الحال فی حیاة کثیر من النباتات، من الولادة إلی الرشد و النمو و الجمال، ثمّ الهلاک و الموت، و تظهر أمام الإنسان، فإنّه یستطیع أن یری ببساطة مراحل حیاته و کیفیتها فی هذه المرآة الشفافة.

جسموا هذه اللقطات أمام أعینکم تماما: حدیقة ملیئة بالأشجار و الخضرة و النباتات الدائمة الثمر، و صخب الحیاة یعم کل أرجائها ... و فجأة فی لیلة مظلمة، أو یوم صحو تغطی السحب السوداء وجه السماء، و ترعد و تبرق ثمّ تهب الأعاصیر العاتیة و تنهمر الأمطار الشدیدة من کل جانب و تدمرها.

غدا نأتی لرؤیة تلک الحدیقة ... الأشجار متکسرة ... النباتات و الأعشاب مبعثرة و میتة، و کل شیء أمامنا ملقی علی الأرض بصورة لا نصدق معها أنّ هذه هی تلک الحدیقة الغنّاء الجمیلة التی کانت تبتسم فی وجوهنا بالأمس!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۷

نعم، هکذا هی الحوادث فی حیاة البشر، خصوصا فی عصرنا الحاضر حیث تدمّر زلزلة أو حرب لا تطور إلّا ساعات قلیلة مدینة عامرة و جمیلة، و لا تبقی منها إلّا الأنقاض. و أجساد متناثرة هنا و هناک.

آه ... ما أشد غفلة الذین یفرحون بمثل هذه الحیاة الزائلة الفانیة؟! ۲- فی جملة فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ ینبغی الالتفات إلی أنّ الاختلاط فی الأصل- کما قال الراغب فی المفردات- هو الجمع بین شیئین أو أکثر، سواء کانت سائلة أو جامدة. و الاختلاط أعم من الامتزاج، لأن الامتزاج یطلق عادة علی السوائل، و علی هذا یکون معنی الجملة أنّ النباتات یختلط بعضها بالبعض الآخر بواسطة ماء المطر، سواء النباتات التی تنفع الإنسان، أو الحیوان ۱۳۹].

و تشیر الجملة أعلاه- أیضا- إشارة ضمنیة إلی هذه الحقیقة، و هی أنّ اللّه سبحانه ینبت من ماء المطر، الذی هو نوع واحد و لیس له إلّا حقیقة واحدة، أنواع النباتات المختلفة التی تؤمن مختلف حاجات الإنسان و الحیوان من المواد الغذائیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۸

الآیتان [سورة یونس (۱۰): الآیات ۲۶ الی ۲۷]

اشارة

لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنی وَ زِیادَةٌ وَ لا یَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِکَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۲۶) وَ الَّذِینَ کَسَبُوا السَّیِّئاتِ

جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧)

التّفسير

بيض الوجوه و سود الوجوه:

مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عالم الآخرة و يوم القيامة، و لهذه المناسبة فإنّ هذه الآيات تبيّن مصير الصالحين و عاقبة المذنبين فتقول فى البداية:

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ[١۴٠].

و مع أن هناك بحث بين المفسّرين فى المقصود من الزيادة فى هذه الجملة، إلّا أنّنا إذا علمنا أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا، رأينا أنّ المراد هو الإشارة إلى الثواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ٣٣٩

المضاعف الكثير، الذى يتضاعف أحيانا عشر مرات، و أخرى آلاف المرات حسب نسبة الإخلاص و الطهارة و التقوى و قيمة العمل، فنقرأ فى الآية (١۶٠) من سورة الأنعام. مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.

و فى الآية (١٢٧) من سورة النساء: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

و فى الآيات المرتبطة بالإنفاق فى سورة البقرة آية (٢۶١) يدور الحديث أيضا عن مكافأة الصالحين و مضاعفة عملهم إلى سبعمائة ضعف، أو مضاعفته أضعافا كثيرة من قبل اللّه سبحانه.

و النقطة الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هنا، هى أن من الممكن أن تستمر هذه الزيادة و الإضافة حتى فى عالم الآخرة، أى أنّه فى كل يوم سيمنحهم اللّه سبحانه موهبة و لطفا جديدا، و هذا يبيّن أن حياة العالم الآخر ليست على وتيرة واحدة، بل تستمر فى حركتها نحو التكامل الى ما لا نهاية.

و الرّوايات التى وردت عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الآية، و التى تبيّن أن المراد من «الزيادة» هو التوجه إلى نور الذات الإلهية المقدسة و الاستفادة من هذه الموهبة المعنوية الكبيرة قد تكون إشارة إلى هذه النكتة.

و فى بعض الرّوايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السّلام، فسّرت «الزيادة» بزيادة النعم الدّنيوية التى يتفضل بها اللّه على الصالحين علاوة على ثواب الآخرة، و لكن لا مانع من أن تكون الزيادة فى الآية أعلاه إشارة إلى كل هذه المواهب.

ثمّ تضيف الآية: وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ. «يرهق» مأخوذة من مادة «رهق»، و هى بمعنى التغطية القهرية و الجبرية، «و القتر» بمعنى «الغبار» و الدخان.

و فى النهاية تقول: أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ التعبير بالأصحاب إشارة إلى التناسب الموجود بين روحية هذه المجموعة و محيط الجنّة.

ثمّ يأتى الحديث فى الآية التالية عن أصحاب النّار الذين يشكلون الطرف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ٣۴٠

المقابل للمجموعة الأولى، فتقول: وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها و هنا لا يوجد كلام عن الزيادة، لأنّ الزيادة فى الثواب فضل و رحمة، أمّا فى العقاب فإنّ العدالة توجب أن يكون بقدر الذنب و لا يزيد ذرة واحدة. إلّا أن هؤلاء عكس الفريق الأوّل مسودة

وجوهم وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ[۱۴۱].

و یمکن أن یقول قائل: إنّ هؤلاء یجب أن لا یروا من العقاب إلّا بقدر ذنوبهم، و أنّ اسوداد الوجه هذا، و غبار الذل الذی یغطیهم شیء إضافی. لکن ینبغی الانتباه إلی أن هذه هی خاصیة و أثر العمل الذی ینعکس من داخل روح الإنسان إلی الخارج، تماما کما نقول: إنّ الأفراد المعتادین علی شرب الخمر یجب أن یجلدوا.

و فی الوقت نفسه فإنّ الخمر تولد مختلف أمراض المعدة و القلب و الکبد و الأعصاب.

و علی کل حال، فقد یظن المسیئون أنّهم سوف یکون لهم طریق للهرب أو النجاة، أو أنّ الأصنام و أمثالها تستطیع أن تشفع لهم، إلّا أن الجملة التالیة تقول بصراحة: ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِم

إنّ وجوه هؤلاء مظلمة و مسودة إلی الحد الذی کَأَنَّما أُغْشِیَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّیْلِ مُظْلِماً أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۱

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۲۸ الی ۳۰]

اشارة

وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکاؤُکُمْ فَزَیَّلْنا بَیْنَهُمْ وَ قالَ شُرَکاؤُهُمْ ما کُنْتُمْ إِیَّانا تَعْبُدُونَ (۲۸) فَکَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ إِنْ کُنَّا عَنْ عِبادَتِکُمْ لَغافِلِینَ (۲۹) هُنالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَی اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۳۰)

التّفسیر

مشهد من قیامة عبدة الأوثان:

تتابع هذه الآیات أیضا البحوث السابقة حول المبدأ و المعاد و وضع المشرکین، و تجسم حیرة و انقطاع هؤلاء عند حضورهم فی محکمة العدل الإلهی، و وقوفهم بین یدی اللّه لمحاسبتهم.

فتقول أوّلا: وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکاؤُکُمْ ۱۴۲]. و اللطیف أنّ الآیة أعلاه قد عبّرت عن الأصنام بشرکائکم، فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۲

حین أنّ المشرکین کانوا قد جعلوا الأصنام شریکة للّه، لا شریکة أنفسهم.

إنّ هذا التعبیر فی الحقیقة إشارة لطیفة إلی أن الأصنام لم تکن شریکة للّه، و أن أوهام و تخیلات عبدة الأوثان هی التی أعطتها هذا المقام، و هذا یشبه تماما ما لو عیّن المشرف علی التعلیم معلما أو مدیرا غیر صالح لمدرسة ما، صدرت و منهما أعمال قبیحة و غیر لائقة. فتقول للمشرف: تعال و انظر، هذا معلمک و هذا مدیرک یرتکبان مثل هذه الأعمال، فی حین أنّه لیس معلمه و لا مدیره، بل معلم المدرسة و مدیرها الذی اختارهما.

ثمّ تضیف: أنّنا سوف نعزل هاتین الفئتین- أی العابدون و المعبودون- عن بعضهم البعض، و نسأل کلا منهما علی انفراد، تماما کما هو المتداول فی کل المحاکم حیث یسأل کل واحد علی انفراد، فنسأل العابدین: بأی دلیل جعلتم هذه الأصنام شریکة للّه و عبدتموها؟ و نسأل المعبودین: لماذا أصبحتم معبودین؟ أو لماذا رضیتم بهذا العمل؟ فَزَیَّلْنا بَیْنَهُمْ ۱۴۳].

فی هذه الأثناء ینطق الشرکاء الذین صنعتهم أوهام هؤلاء: وَ قالَ شُرَکاؤُهُمْ ما کُنْتُمْ إِیَّانا تَعْبُدُونَ فأنتم فی الواقع کنتم تعبدون أهواءکم و میولکم و أوهامکم، لا- أنّکم کنتم تعبدوننا، و لو سلمّنا ذلک فإنّ عبادتکم لنا لم تکن بأمرنا و لا برضانا، و العبادة کهذه لیست بعبادة فی الحقیقة.

ثمّ، و من أجل التأکید الأشد، یقولون: فَکَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ إِنْ کُنَّا عَنْ عِبادَتِکُمْ لَغافِلِینَ ۱۴۴].

هناک بحث بین المفسّرین فی المراد من الأصنام و الشرکاء، أی معبودات هی؟

و کیف أنّها تتکلم بهذا الکلام؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۳

فالبعض احتمل أن یکون المراد منها المعبودات الإنسانیة و الشیطانیة، أو من الملائکة التی لها عقل و شعور و إدراک، إلّا أنّهم رغم ذلک لا یعلمون بأنّ فئة تعبدهم، أمّا لأنّهم یعبدونهم حال غیابهم، أو بعد موتهم، و علی هذا فإنّ تکلم هؤلاء سیکون أمرا طبیعیا جدّا، و هذه الآیة نظیرة الآیة (۴۱) من سورة سبأ، التی تقول: وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ یَقُولُ لِلْمَلائِکَةِ أَ هؤُلاءِ إِیَّاکُمْ کانُوا یَعْبُدُونَ

و الاحتمال الآخر الذی ذکره کثیر من المفسّرین، هو أن اللّه سبحانه یبعث الحیاة و الشعور فی الأصنام فی ذلک الیوم بحیث تستطیع إعادة الحقائق و ذکرها، و الجملة أعلاه للأصنام التی دعاها اللّه سبحانه للشهادة، و أنّهم کانوا غافلین عن عبادة من یعبدهم، و بذلک تکون أکثر تناسبا مع هذا المعنی، لأنّ الأصنام الحجریة و الخشبیة لا تفهم شیئا أصلا.

و یمکن أن نحتمل فی تفسیر هذه الآیة أنّها تشمل کل المعبودات، غایة ما فی الأمر أن المعبودات التی لها عقل و شعور تعید الحقائق و تذکرها بلسانها، أمّا المعبودات التی لا عقل لها و لا شعور فإنّ الکلام عن لسان حالها، و تتحدث عن طریق انعکاس آثار العمل، تماما کما نقول: إنّ سیماءک تخبر عن سرک، و القرآن الکریم یبیّن أیضا فی الآیة (۲۱) من من سورة فصلت أن جلود الإنسان ستنطق یوم القیامة، و کذلک فی سورة الزلزلة یبیّن أنّ الأرض التی کان یسکنها الإنسان ستذکر الحقائق.

إنّ هذه المسألة لیست صعبة التصور فی زماننا الحاضر، فإذا کان شریط أصم یسجل کل کلامنا و یعیده عند الحاجة، فلا عجب أن تعکس الأصنام أیضا واقع أعمال عابدیها!.

علی کل حال، ففی ذلک الیوم و ذلک المکان و ذلک الحال- کما یتحدث القرآن فی آخر آیة من آیات البحث- فإنّ کل إنسان سیختبر کل أعماله التی عملها سابقا و یری نتیجتها، بل نفس أعماله، سواء العابدون و المعبودون المضلون الذین کانوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۴

یدعون الناس إلی عبادتهم، و سواء المشرکون و المؤمنون، من أی قوم و من أی قبیل: هُنالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ و فی ذلک الیوم سیرجع الجمیع إلی اللّه مولاهم الحقیقی، و محکمة المحشر تبیّن أن الحکم لا یتم إلّا بأمره وَ رُدُّوا إِلَی اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ

و أخیرا فإنّ جمیع هذه الأصنام و المعبودات المختلقة التی جعلها هؤلاء شریکة للّه کذبا ستفنی و تمحی: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ فإنّ القیامة ساحة ظهور کل الأسرار الخفیة للعباد، و لا تبقی آیة حقیقة إلّا و تظهر نفسها. و من الطبیعی أنّ هناک مواقف و مقامات لا تحتاج إلی سؤال أو جدال و بحث، بل إنّ الحال یحکی عن کل شیء، و لا حاجة للمقال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۵

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۳۱ الی ۳۳]

اشارة

قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ یَمْلِکُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ وَ مَنْ یُدَبِّرُ

الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۳۱) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۳)

التّفسیر

الحدیث فی هذه الآیات عن علامات و دلائل وجود اللّه سبحانه و أهلیته للعبادة، و تعقب أبحاث الآیات السابقة حول هذا الموضوع.

ففی البدایة تقول: قل لهؤلاء المشرکین و عبدة الأوثان الحائرین التائهین عن طریق الحق: من یرزقکم من السماء و الأرض؟ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

«الرزق» یعنی العطاء و البذل المستمر، و لما کان الواهب لکل المواهب فی الحقیقة هو اللّه سبحانه، فإنّ «الرازق» و «الرزّاق» بمعناهما الحقیقی لا یستعملان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۶

إلّا فیه فقط، و إذا استعملت هذه الکلمة فی حق غیره فلا شک أنّها من باب المجاز، کالآیة (۲۳۳) من سورة البقرة التی تقول فی شأن النساء المرضعات: وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

و ینبغی- أیضا- أن نذکّر بهذه النقطة، و هی أنّ أکثر أرزاق الإنسان من السماء، فالمطر المحیی للنبات من السماء، الذی تحتاجه کل الکائنات الحیة مستقر فی فضاء الأرض، و الأهم من ذلک کله أشعة الشمس التی لا یبقی بدونها أی کائن حی، و لا تنبعث بدونها أیة حرکة فی أنحاء الکرة الأرضیة فإنّها تأتی من السماء، و حتی الحیوانات التی تعیش فی أعماق البحار فإنّها حیة بنور الشمس، لأنا نعلم أن غذاء الکثیر منها أعشاب صغیرة جدّا تنمو فی طیات الأمواج علی سطح المحیط مقابل أشعة الشمس، و القسم الآخر من هذه الحیوانات تتغذی علی لحوم الحیوانات البحریة الأخری التی تتغذی علی تلک النباتات.

و الأرض وحدها هی التی تغذی جذور النباتات بواسطة موادها الغذائیة، و ربّما کان هذا هو السبب فی أن تتحدث الآیة أوّلا عن أرزاق السماء، ثمّ عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجة الأهمیة.

ثمّ تشیر الآیة إلی حاستین من أهم حواس الإنسان، و اللتان لا یمکن کسب العلم و تحصیله بدونهما، فقالت: أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ. و فی الواقع فإنّ هذه الآیة أشارت إلی النعم المادیة أوّلا، ثمّ إلی المواهب و الأرزاق المعنویة التی تصبح النعم المادیة بدونها فاقدة للهدف و المحتوی.

إن کلمة (سمع) مفردة، و هی بمعنی الأذن، و «الأبصار» و جمع بصر بمعنی العین، و هنا یأتی هذا السؤال، و هو: لماذا ذکرت کلمة السمع فی کل القرآن بصیغة المفرد، و أمّا البصر فإنّها جاءت تارة بصیغة المفرد، و تارة أخری بصیغة الجمع جواب هذا السؤال مذکور فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر ذیل الآیة (۷) من سوره البقرة.

ثمّ تطرقت الآیة إلی ظاهرتی الموت و الحیاة اللتین هما أعجب ظواهر عالم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۷

الخلقة، فتقول: وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ و هذا هو نفس الموضوع الذی حیّر عقول علماء الطبیعیة و علماء الاحیاء، و هو کیف أتی الموجود الحی إلی الوجود من موجود میت؟ فهل إنّ مثل هذه المسألة- التی لم تفلح جهود و مساعی العلماء الحثیثة إلی الآن فی کشف أسرارها- أمرا بسیطا و مرتبطا بالصدفة و بدون برنامج و هدف؟ لا شک أنّ من وراء ظاهرة الحیاة المعقدة و الظریفة و الملیئة بالأسرار علم و قدرة خارقة و عقل کلی.

إنّه لم یخلق الکائن الحی فی البدایة من الموجودات الأرضیة المیتة و حسب، بل إنّه قرر عدم خلود الحیاة، و لهذا خلق الموت فی قلب الحیاة لیفسح المجال عن هذا الطریق لتغیر الأحوال و التکامل.

و يحتمل- أيضا- فی تفسير هذه الآية أنّها تشمل الموت و الحياة المعنويين إضافة إلی الموت و الحياة الماديين، لأنّنا نری أناسا عقلاء طاهرين و رعين مؤمنين يولدون أحيانا من أبوين ملوثين منحرفين لا إيمان لهما، و يلاحظ أيضا عكس ذلک حيث يأتی إلی الوجود إناسا تافهون لا قيمة لهم من أبوين فاضلين ۱۴۵].

خلافا لقانون الوراثة.

طبعا، لا يوجد مانع من أن تكون الآية أعلاه إلی كلا القسمين، لأنّ كليهما من عجائب الخلقة و من الظواهر العجيبة فی العالم، و هما موضحان لهذه الحقيقة، و هی أن لقدرة الخالق العالم الحكيم دخلا فی هذه الأمور إضافة إلی الأمور الطبيعية.

و قد أعطينا توضيحات أخری حول هذا الموضوع فی المجلد الخامس ذيل الآية (۹۵) من سورة الأنعام.

ثمّ تضيف الآية: وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، و الكلام فی الواقع بدأ عن خلق المواهب، ثمّ عن حافظها و حارسها و مدبرها. و بعد أن يطرح القرآن الكريم هذه الأسئلة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۸

الثلاثة يقول مباشرة بأنّ هؤلاء سيجيبون بسرعة: فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ

يستفاد من هذه الجملة جيدا أنّه حتی مشركی و عبدة الأصنام فی الجاهلة كانوا يعلمون أنّ الخالق و الرازق و المحيی و مدبر أمور عالم الوجود هو اللّه سبحانه، و قد علموا هذه الحقيقة عن طريق العقل، و كذلک عن طريق الفطرة، و هی أنّ هذا النظام الدقيق للعالم لا يمكن أن يكون وليد الصدفة و الفوضی، أو مخلوقا من قبل هذه الأصنام.

و فی آخر الآية يأمر اللّه نبيّه فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ فإنّ الوحيد الذی له أهلية العبادة هو الذی بيده الخلق و تدبير أمره، و إذا كانت العبادة لأجل أهلية و عظمة ذات المعبود، فإنّ هذه الأهلية و العظمة منحصرة فی اللّه تعالی، و إذا كانت من أجل أنّه مصدر الضر و النفع، فإنّ ذلک مختص باللّه أيضا.

و بعد أن عرضت الآية السابقة نماذج من آثار عظمة و تدبير اللّه فی السماء و الأرض، و أيقظت وجدان و عقل المخالفين و دعتهم للحكم فی أمر الخالق، و اعترف هؤلاء بذلک، خاطبتهم الآية التالية بلهجة قاطعة و قالت: فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ لا الأصنام، و لا سائر الموجودات التی جعلتموها شريكة للباری عزّ و جلّ، و التی تسجدون أمامها و تعظمونها.

كيف يمكن أن يكون هؤلاء أهلا للعبودية فی حين أنّهم ليسوا فقط غير قادرين علی المشاركة فی خلق العالم و تدبيره فحسب، بل منغمسون فی الفقر و الاحتياج من الرأس حتی أخمص القدم.

ثمّ تنتهی إلی ذكر النتيجة: فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّی تُصْرَفُونَ و أنّی تولوا وجوهكم عن عبادة اللّه و أنتم تعلمون ألا خالق و لا معبود حقّا سواه؟

إنّ هذه الآية فی الواقع تطرح طريقا منطقيا واضحا لمعرفة الباطل و تركه، و هو أن يخطو الإنسان أوّلا فی سبيل معرفة الحق بآليات الوجدان و العقل، فإذا عرف الحق فإنّ كل ما خالفه باطل و ضلال، و يجب أن يضرب عرض الحائط.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۹

و تقول آخر آية فی بيان العلة فی عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر و ظهور الحق: كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَی الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۱۴۶] و فی الواقع فإنّ هذه خاصية الأعمال السيئة المستمرة لهؤلاء بحيث تظلم قلوبهم و تلوث أرواحهم إلی درجة لا يرون معها الحق رغم وضوحه و تجلّيه، و يسلكون نتيجة لذلک طريق الضلال.

بناء علی ذلک، فإنّ الآية أعلاه لا دلالة لها مطلقا علی مسألة الجبر، بل هی إشارة إلی آثار أعمال نفس الإنسان، لكن لا شک أنّ هذه الأعمال لها تلک الخاصية بأمر اللّه، تماما كما نقول لشخص: لقد قلنا لک مائة مرّة أن لا تحوم حول المواد المخدرة و المشروبات المسكرة و لا تتناولها، لكنّک لم تصغ لنا، فأصبحت الآن من المدمنين عليها و محكوما بأن تبقی تعيسا لمدّة طويلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۰

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۴ الى ۳۶]

اشارة

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۵) وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (۳۶)

التّفسير

واحدة من علامات الحق و الباطل:

تعقب هـذه الآيات أيضا الاسـتدلالات المرتبطـة بالمبدأ و المعاد، و تأمر الآيـة الأولى النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أنّ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثمّ تضيف:

قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ و لماذا تصرفون وجوهكم عن الحق و تتجهون نحو الضلال؟

و هنا سؤالان:

الأوّل: إنّ مشركى العرب غالبا لا يعتقدون بالمعاد، خاصّة بالصورة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۱

يذكرها القرآن، و إذا كان هذا حالهم فكيف يطلب القرآن منهم الاعتراف به؟

الثّانى: فى الآية السابقة كان الكلام عن اعتراف المشـركين و إقرارهم، إلّا أنّ هذه الآية تأمر النّبى أن يقرّ هو بهذه الحقيقة، فلما ذا هذا الاختلاف فى التعبير؟

إلّا أنّ الانتباه إلى مسأله يوضـح جواب كلا السؤالين، و هى: إنّ المشـركين بالرغم من عـدم اعتقادهم بالمعاد الجسـمانى، إلّا أنّ ذلك القـدر الـذى آمنوا به من أن بدايـة الخلق كـانت من اللّه كاف لتقبل المعاد و الإعتقاد به، لأنّ كل من عمل عملا فى البدايـة قادر على إعادته، و بناء على هذا فإنّ الإعتقاد بالمبدإ إذا ما اقترن بشـىء من الدقة كاف لإثبات المعاد. و من هنا يتّضح لماذا أقر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه الحقيقة بدلا من المشركين، فإنّه بالرغم من كون الإيمان بالمعاد من لوازم الإيمان بالمبدأ، إلّا أنّ هؤلاء لما لم يتوجهوا إلى هذه الملازمة، اختلف طراز التعبير و أقر النّبى مكانهم.

ثمّ تـأمر الآيـة الأخرى النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم مرّة أخرى: قُلْ هَلْ مِنْ شُـرَكائِكُمْ مَنْ يَهْـدِي إِلَى الْحَقِ لأنّ المعبود يجب أن يكون هاديا و مرشـدا لعبادة، خاصّة و أنّها هداية نحو الحق، فى حين أنّ آلهة المشـركين، أعمّ من الجمادات أو الاحياء، غير قادرة أن تهـدى أحـدا إلى الحق بدون الهداية الإلهية، لأنّ الهداية إلى الحق تحتاج إلى منزلة العصـمة و الصيانة من الخطأ و الاشـتباه، و هذا لا يمكن من دون هداية اللّه سبحانه و تسديده، و لذلك فإنّها تضيف مباشرة: قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِ و إذا كان الحال كذلك أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى ۱۴۷].

و تقول الآية فى النهاية بلهجة التوبيخ و التقريع و الملامة: فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

و فى آخر آيـة إشارة إلى المصـدر الأساس و العامل الأصل لهـذه الانحرافات و هو الأوهام و الظنون وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ

لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً و فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۲

النهایة تخاطب الآیة- بأسلوب التهدد- مثل هؤلاء الأفراد الذین لا یتبعون أی منطق سلیم و تقول: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ

ملاحظات

۱- قرأنا فی الآیات أعلاه أنّ اللّه سبحانه وحده الذی یهدی إلی الحق، و هذا الحصر إمّا لأنّ المقصود من الهدایة لیس. هو إراءة الطریق و حسب، بل هو الإیصال إلی المقصد، و هذا الأمر بید اللّه فقط، أو لأنّ إراءة الطریق و الدلالة علیه هو أیضا من عمل اللّه فی الدرجة الأولی، و أمّا غیره من الأنبیاء و المرشدین و المصلحین الإلهیین فإنّهم یطلعون علی طریق الهدایة عن طریقه و هدایته، و یصبحون علماء بتعلیمه.

۲- إنّ ما نقرؤه فی الآیات أعلاه من أنّ آلهة المشرکین لا تستطیع أن تهدی أحدا، بل هی بذاتها محتاجة إلی الهدایة الإلهیة، و إن کان لا یصدق علی الأصنام الحجریة و الخشبیة، لأنّها لا تملک العقل و الشعور مطلقا، إلّا أنّه یصدق تماما فی حق الآلهة التی لها شعور کالملائکة و البشر الذین أصبحوا معبودین.

و یحتمل أیضا أن تکون الجملة المذکورة بمعنی القضیة الشرطیة، أی علی فرض أنّ للأصنام عقلا و شعورا، فإنّها لا تستطیع أن تجد الطریق بدون الهدایة الإلهیة لنفسها، فکیف ستقدر علی هدایة الآخرین؟

و علی کل حال، فإنّ الآیات أعلاه تبیّن- بوضوح- أنّ من برامج اللّه الأصلیة لعباده أن یهدیهم إلی الحق، و یتمّ ذلک عن طریق منح العقل، و إعطاء الدروس المختلفة عن طریق الفطرة، و إرادة و إظهار آیاته فی عالم الخلقة، و کذلک عن طریق إرسال الأنبیاء و الکتب السماویة.

۳- طالعنا فی آخر آیة من هذه الآیات أنّ أکثر المشرکین و عبدة الأصنام یتبعون ظنونهم و أوهامهم، و هنا یأتی سؤال، و هو: لماذا لم یقل اللّه سبحانه: و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۳

یتبع کلّهم بدل أکثرهم، لأنّا نعلم أنّ جمیع المشرکین شرکاء فی هذا الظن الباطل، حیث یعتقدون أنّ الأصنام آلهة بحق و تملک النفع و الضرر و تشفع عند اللّه، و لهذا فإنّ البعض اضطر إلی تفسیر کلمة «أکثرهم» بأنّها تعنی «جمیعهم»، و ذهب أن هذه الکلمة جاءت أحیانا بهذا المعنی.

إلّا أنّ هذا الجواب غیر وجیه، و الأفضل أن نقول: إن المشرکین صنفان: صنف یشکل الأکثریة، و هم الأفراد الخرافیون الجهلاء الذین وقعوا تحت تأثیر الأفکار الخاطئة، و اختاروا الأصنام لعبادتها.

أمّا القسم الثّانی، و هم الأقلیة، فهم الزعماء و أئمّة الکفر الواعون لحقیقة الأمر و المطّلعون علی عدم صحة عبادة الأصنام و أنّها لا أساس لها، و إلّا أنّهم یدعون الناس لعبادتها حفظا لمصالحهم، و لهذا السبب فإنّ اللّه یجیب الصنف الأوّل فقط لأنّهم مؤهلین للهدایة، أمّا الصنف الثّانی فلم یعبأ بهم مطلقا لأنّهم سلکوا هذا الطریق عن علم و وعی.

۴- یعتبر جماعة من علماء الأصول هذه الآیة و أمثالها دلیلا علی أن الظن لا یمکن أن یکون حجة و سندا بأی وجه من الوجوه، و أن الأدلة القطعیة هی الوحیدة التی یمکن الاعتماد علیها.

إلّا أنّ جماعة أخری یقولون: إنّنا نلاحظ بین الادلة الفقهیة أدلّة ظنیة کثیرة، کحجیة ظواهر الألفاظ، و شهادة الشاهدین العدلین، أو خبر الواحد الثقة و أمثال ذلک، و لذلک فإنّ الآیة المذکورة دلیل علی أنّ القاعدة الأصلیة فی مسألة الظن هی عدم حجیته، إلّا أنّ تثبت حجیته بالدلیل القطعی کالأمثلة أعلاه.

إلّا أنّ الحق هو أنّ الآيـة أعلاه تتحدث عن الظنون و الأوهام التى لا أساس لها، كظنون و أوهام عبـدة الأصـنام فقط، و لا علاقـة لها بالظن الـذى يمكن الاعتماد عليه و الموجود بين العقلاء، و بناء على هـذا فإنّ هـذه الآية و أمثالها لا يمكن الاسـتناد إليها بأى وجه فى مسألة عدم حجية الظن. فتدبر جيدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۴

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ ما كانَ هـذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْـدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَـدَيْهِ وَ تَفْصِـيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۳۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۸) بَلْ كَـذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَـذلِكَ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۳۹) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُـؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا ـ يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (۴۰)

التّفسير

عظمة دعوة القرآن و حقانيته:

تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمة، فإنّ هؤلاء لم يجانبوا الصواب فى معرفة المبدأ و حسب، بل كانوا يفترون على نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه هو الذى اختلق القرآن و نسبه إلى اللّه، و رأينا فى الآيات السابقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۵

أنّهم طلبوا من النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يـأتى بغير هـذا القرآن، أو يغيره على الأقـل، و هـذا بنفسه دليـل على أنّهم كـانوا يظنون أن القرآن من تـأليف النّبى! فالآيـة الأولى تقول: وَ ما كانَ هـذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ و اللطيف هنا أنّها بـدل أن تنفى هـذا الأمر نفيا بسيطا، نفته نفيا شأنيا، و هـذا يشبه تماما أن يقول شـخص ما فى مقام الـدفاع عن نفسه: ليس من شأنى الكـذب، و هذا التعبير اعمق و أكثر معنى من أن يقول: إنّى لا أكذب.

ثمّ تتطرق الآية إلى ذكر الدليل على أصالة القرآن و كونه و حيا سـماويا: فتقول وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ أى إنّ كل البشارات و الـدلالات الحقّة التى جاءت فى الكتب السـماوية السابقة تنطبق على القرآن و من جاء به تماما، و هذا بنفسه يثبت أنّه ليس افتراء على اللّه بل هو حق، و أساسا فإنّ القرآن شاهد على صدق محتواه من باب أنّ طلوع الشمس دليل على الشمس.

و من هنـا يتّضـح زيف الـذين اسـتدلوا بمثـل هـذه الآيات على عـدم تحريف التّوراة و الإنجيل، لأنّ القرآن الكريم لم يصـدق ما كان موجودا فى هذه الكتب فى عصر النزول، بل إنّه أيّد العلامات الواردة فى هذه الكتب حول النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن. و قد بيّنّا توضيحات أكثر فى هذا الباب فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير فى ذيل الآية (۴۱) من سورة البقرة.

ثمّ تـذكر الآيـة دليلا ـ آخر على أصالـة هـذا الوحى السـماوى و هو: إنّ فى هـذا القرآن شـرح كتب الأنبيـاء السـابقين الأصـيلة، و بيان أحكـامهم الأساسـية و عقائـدهم الأصوليـة، و لهـذا فلا ـ شـك فى كونه من اللّه تعـالى، فتقول: وَ تَفْصِـيلَ الْكِتـابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعـالَمِينَ و بتعبير آخر: لا يوجـد فيه أى تضاد و تناقض مع برامـج و أهـداف الأنبياء السابقين، بل يلاحظ فيه تكامل تلك التعليمات و البرامج، و إذا كان هذا القرآن مختلقا فلا بدّ أن يخالفها و يناقضها.

و من هنا نعلم أنّه لا يوجد أى اختلاف بين الكتب السماوية فى أصول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۶

المسائل، سواء كانت فى العقائـد الدينيـة، أو البرامج الاجتماعية، أو حفظ الحقوق، أو محاربة الجهل، أو الدعوة إلى الحق و العدالة، و كـذلك إحيـاء القيم الأخلاقيـة و أمثـال ذلـك، سوى أن الكتـاب الـذى ينزل متـأخرا يكون أرفع مسـتوى و أكمـل من السـابق، تماما كاختلاف مراحل التعليم فى الابتدائيـة و الإعداديـة و الجامعة، حتى انتهت المراحل بالكتاب الأخير الخاص بالمرحلة النهائية لتحصـيل الأمم الدينى، ألا و هو القرآن.

و لا شك فى وجود الاختلاف فى جزئيات الأحكام بين الأديان و المـذاهب السـماوية، إلّا أنّ الكلام عن أصولها الأساسـية المتحدة و المشتركة فى كل مكان.

و ذكر فى الآيـة التاليـة دليل ثالث على أصالـة القرآن، و خاطبت الـذين يـدعون أن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم قـد افترى هـذا القرآن على اللّه، بـأنّكم إن كنتـم صـادقين فى دعـواكم فـأتوا بسـورة مـن مثله، و اسـتعينوا فى ذلـك بمن شـئتم غير اللّه، و لكنّكم لا تسـتطيعون فعل ذلك أبـدا، و بهذا الدليل يثبت أن القرآن من وحى السـماء أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

إنّ هذه الآيات من جملة الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بصراحة، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السورة الواحدة، و قد خاطبت كل العالمين- بدون استثناء- بأنّكم إن كنتم معتقدين بأنّ هذه الآيات ليست من اللّه فأتوا بمثله، أو بسورة منه على الأقل.

و كما بيّنا فى المجلـد الأوّل فى ذيل الآية (۲۳) من سورة البقرة، فـإنّ آيات القرآن تتحـدى أحيانا أن يؤتى بمثل كل القرآن، و أحيانا بعشـر سور، و أحيانا بسورة واحـدة، و هـذا يوضح أنّ جزء القرآن و كلّه معجز. و لمّا لم تعين الآية سورة معينة فإنّها تشـمل كل سورة من القرآن.

طبعا لا شك أنّ إعجاز القرآن لا ينحصـر فى جوانب الفصاحـة و البلاغـة و حلاوة البيان و كمال التعبيرات كما ظن ذلك جماعـة من قدماء المفسّرين، بل إن جانب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۷

الإعجاز يتمثل أيضا إضافة لما مر فى بيان المعارف الدينية، و العلوم التى لم تكن معروفة حتى ذلك اليوم، و بيان الأحكام و القوانين، و ذكر تأريخ السابقين من دون أى خطأ أو تلبس بخرافة، و عدم وجود الاختلاف و التضادّ فيه ۱۴۸].

مظاهر و تجليات جديدة من إعجاز القرآن:

ممّـا يلفت النظر أنّ مظاهر جديـدة من إعجاز القرآن تتّضـح مع مرور الزمن، حيث لم تكن تجلب الانتباه- سابقا- و لا يهتم بها، و من جملتها المحاسـبات الكثيرة التى أجريت على كلمات القرآن بواسـطة العقول الألكترونية، و التى أثبتت أن لكلمات و فقرات القرآن و علاقتها بزمن النزول خصوصيات جديدة، و ما تقرؤونه أدناه نموذج منها:

إنّ تحقيقـات بعض العلمـاء و المحققين أدت إلى كشف روابـط معقـدة و معادلاـت حسابيـة دقيقـة جـدّا فى آيـات القرآن حـتى أنّها جمعت بين الحيرة و اليقين فى وجود مثل هذا النظام العلمى فى بناء القرآن، و ذلك عن طريق التحقيق الإحصائى و الرّياضـى لكشف القواعد الدقيقة و المعادلات الرياضية للآيات الشريفة و التى تذكرنا من ناحية الأهمية و المعرفة باكتشاف نيوتن للجاذبية.

أحد علماء القرآن بدأ عمله من هذه المسألة البسيطة، و هى أنّ الآيات النازلة فى مكّة قصيرة، و الآيات التى نزلت فى المدينة طويلة، و هـذه مسألـة طبيعيـة، فـإنّ كـل كـاتب أو خطيب بليغ يغير من طول جمله و نغمات كلماته حسب موضوع الحـديث، فمثلا تكون جمل

التوصـیف قصـیرة، أمّـا مسائـل التحلیـل و الاسـتدلال فهی طویلـة ... و إذا کـان الکلام لغرض تحریـک العواطف أو للانتقـاد او لبیان الأصول العقائدیة العامّة، فإنّ العبارة تکون قصـیرة و بأسـلوب الشـعارات، أمّا إذا کان بدایة قصّة أو لبیان الکلام فی اسـتخلاص النتائج الأخلاقیة و ... فإنّ الأسلوب یکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۸

هادئا و العبارات طویلة.

إنّ المسائـل التی طرحت فی مکّـة هی من النوع الأوّل، بینما المسائل التی طرحت فی المدینـة من النوع الثّانی، فما نزل فی مکّـة کان بدایـة ثورة و بیان للمبادئ العامّـة، الاعتقادیـة و الانتقادیـة، و الذی نزل فی المدینة کان لبناء مجتمع و بیان مسائل حقوقیة و أخلاقیة و قصص تاریخیة و استخلاص النتائج الفکریة و العلمیة.

و بما أنّ القرآن نزل بلغة البشـر فلا بدّ من أن یتبع السـبک الجمیل و البلیغ فی کلام البشر، و فی النتیجة مراعاة قصر و طول الآیات بما یناسب المفاهیم، و بالتالی یجب أن لا یکون القصـر و الطول اعتباطیا و عشوائیا، بل یبدأ حسب قاعدة علمیة دقیقة من الآیات القصیرة، و یسیر علی وتیرة تصاعدیـة واحـدة نحو الآیات الطویلـة، و علی هـذا الأساس یجب أن تکون کل آیة أقصـر من الآیة التی نزلت بعد سنـة، و أطول من الآیة التی نزلت قبلها بسـنة، و أن یکون مقدار الزیادة محسوبا و دقیقا، و علی هذا فلمّا کان الوحی قد نزل خلال ۲۳ سنـة، فیجب أن یکون لدینا ۲۳ طولا فی الآیات کمعـدل، و بناء علی هـذه القاعـدة یمکن أن یکون لدینا ۲۳ عمودا بحیث تقسم کل الآیات حسب الطول فی هذه الأعمدة، و الآن من أین نستطیع أن نعلم أن هذا التقسیم صحیح؟

نحن نعلم سـبب نزول بعض الآیات بواسـطة الرّوایات الشـریفة التی ذکرت- بصـراحة- فی أیة سـنة نزلت هذه الآیات، و البعض الآخر یمکن تعیینه من خلال مفـاهیمه، فمثلاـ الآیات التی تبیّن بعض الأحکام کتغییر القبلـة، و تحریم الخمر، و تشـریع الحجاب و الزکاة و الخمس، أو الآیات التی تتحدث عن الهجرة، فإنّ سنّی تعیین هذه الأحکام معلومة.

و بتعجب مثیر للدهشـة نری أن هذه الآیات التی یعلم عام نزولها، قد اجتمعت فی نفس الأعمدة التی فرضت أنّها أخذت حسب الطول فی هذا الجدول. «فتدبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۹

جیـدا» و الأعجب هو ملاحظة بعض الاسـتثناءات فی موردین أو ثلاثة، بمعنی أن سورة المائدة مثلا آخر السور الکبار النّازلة، فی حین أن عدّة آیات منها یجب أن تکون حسب المعادلة- قد نزلت فی السـنین الأولی! و بعد التحقیق فی متون التفاسیر و الرّوایات الإسلامیة و أقوال المفسّرین المعتبرین، لوحظ أنّهم قالوا: إنّ هذه الآیات القلیلة نزلت فی البدایة، لکن وضعت فی سورة المائدة حسب أمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و بهذه الطریقة یمکن تعیین سـنة نزول کل آیة حسب هذا الحساب الریاضـی، و کتابة القرآن حسب سنة النزول أیضا.

أی أدیب و بلیغ فی العالم یستطیع أن یعین سنة کتابة کل جملة من خلال طول العبارة؟ خاصّة و أنّه لیس نصا کتابیا کأی أثر علمی أو أدبی جلس کـاتبه مـدّة معینـة و کتبه و لیس کتابـا ألفه کـاتبه فی موضوع مـا، بل یحتوی علی مسائل مختلفـة نزلت بالتدریـج حسب احتیاج المجتمع، أو هی جواب لمسائل مطروحـة من الحوادث و المسائل طرحت علی مدی مسیرة الدعوة و إبلاغ الرسالة، و قد بیّنت من قبل القائد، ثمّ جمعت و نظمت.

بل إنّ موسـیقی و لحن لغات و کلمات القرآن الخاصّـة- أیضا- معجزة نادرة فی نوعها کما ذکر ذلک بعض المفسّـرین. و قـد ذکروا شواهد مختلفة جمیلة علی هذا الموضوع، و من جملتها الحادثة أدناه التی وقعت لسید قطب المفسّر المعروف:

یقول فی ذیل الآیة محل البحث:

«و لن أذکر نماذج ممّا وقع لغیری و لکنّی أذکر حادثا وقع لی و کان معی شـهود ستة، و ذلک منذ حوالی خمسة عشر عاما .. کنّا ستة

نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسى إلى نيويورك، من بين عشرين و مائة راكب و راكبة أجانب ليس فيهم مسلم .. و خطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة فى المحيط على ظهر السفينة! و اللّه يعلم- أنّه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۰

ذاتها أكثر ممّا كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة، حاول أن يزاول تبشيره معنا! ... و قد يسر لنا قائد السفينة- و كان إنجليزيا- أن نقيم صلاتنا، و سمح لبحارة السفينة طهاتها و خدمها- و كلّهم نوبيون مسلمون- أن يصلى منهم معنا من لا يكون فى «الخدمة» وقت الصلاة! و قد فرحوا بهذا فرحا شديدا، إذ كانت المرّة الاولى التى تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة ..

و قمت بخطبة الجمعة و إمامة الصلاة، و الركاب الأجانب- معظمهم- متحلقون يرقبون صلاتنا! .. و بعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح «القدّاس»!!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! و لكن سيدة من هذا الحشد- عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم «تيتو» و شيوعيته!- كانت شديدة التأثر و الانفعال، تفيض عيناها بالدمع و لا تتمالك مشاعرها، جاءت تشدّ على أيدينا بحرارة؛ و تقول:- فى إنجليزية ضعيفة- إنّها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه و ما فيها من خشوع و نظام و روح! ..

و ليس هذا موضع الشاهد فى القصّة .. و لكن ذلك مان فى قولها: أى لغة هذه التى كان يتحدث بها «قسيسكم»! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم «الصلاة» إلّا قسيس- أو رجل الدين- كما هو الحال عندها فى مسيحية الكنيسة! و قد صححنا لها هذا الفهم!. و أجبناها .. فقالت: إنّ اللغة التى يتحدث بها ذات إيقاع موسيقى عجيب، و إنّ كنت لم أفهم منها حرفا .. ثمّ كانت المفاجأة الحقيقة لنا و هى تقول: و لكن هذا ليس الموضوع الذى أريد أت أسأل عنه .. إنّ الموضوع الذى لفت حسى، هو أن «الإمام» كانت ترد فى أثناء كلامه- بهذا اللغة الموسيقية- فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية كما لو كان- الإمام- مملوءا من الروح القدس!- حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! تفكرنا قليلا، ثمّ أدركنا أنّها تعنى الآيات القرآنية التى وردت فى أثناء خطبة الجمعة و فى أثناء الصلاة! و كانت- مع ذلك- مفاجأة تدعو إلى الدهشة، من سيدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۱

لا تفهم ممّا نقول شيئا![۱۴۹].

و فى الآية التالية إشارة إلى واحدة من العلل الأساسية لمخالفة المشركين، فتقول: إنّ هؤلاء لم ينكروا القرآن بسبب الإشكالات و الإيرادات، بل إن تكذيبهم و إنكارهم إنّما كان بسبب عدم اطلاعهم و علمهم به: بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ

فى الواقع، إنّ سبب إنكارهم هو جهلهم و عدم اطلاعهم، لكن المفسّرين احتملوا احتمالات متعددة فيما هو المقصود من هذه الجملة و أن الجهل بأى الأمور كان، و كان تلك الاحتمالات يمكن أن تكون مقصودة من الجملة:

الجهل بالمعارف الدينية و المبدإ و المعاد، كما ينقل القرآن قول المشركين فى شأن المعبود الحقيقى (اللّه)، حيث كانوا يقولون: أ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ ۱۵۰]. أو أنّهم كانوا يقولون فى مسألة المعاد: أ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً[۱۵۱]، هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ[۱۵۲].

فى الحقيقة لم يكن لهؤلاء أى دليل على نفى المبدأ و المعاد، و كان الجهل و التخلف الناشئ من الخرافات و التعود على مذهب الأجداد هو السد الوحيد فى طريقهم.

أو الجهل بأسرار الأحكام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآيات المتشابهة.

أو الجهل بمعنی الحروف المقطعة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۲

أو الجهل بالدروس و العبر التی هی الهدف النهائی من ذکر تاریخ الماضین.

إن مجموع هذه الجهالات و الضلالات کانت تحملهم علی الإنکار و التکذیب، فی حین أن تأویل و تفسیر و تحقق المسائل المجهولة بالنسبة لهؤلاء لم یبیّن بعد وَ لَمَّا یَأْتِهِمْ تَأْوِیلُهُ

«التأویل» فی أصل اللغة بمعنی إرجاع الشیء و علی هذا فإنّ کل عمل أو قول یصل إلی هدفه النهائی نقول عنه: إن تأویله قد حان وقته، و لهذا یطلق علی بیان الهدف الأصلی من إقدام معین، أو التّفسیر الواقعی لکلمة ما، أو تفسیر و إعطاء نتیجة الرؤیا، أو تحقق فرضیة فی ارض الواقع، اسم التأویل. و قد تحدثنا بصورة مفصلة حول هذا الموضوع فی المجلد الثّانی ذیل الآیة (۷) من سورة آل عمران.

ثمّ یضیف القرآن مبینا أن هذا المنهج الزائف لا ینحصر بمشرکی عصر الجاهلیة، بل إنّ الأقوام السابقین کانوا مبتلین أیضا بهذه المسألة، فإنّهم کانوا یکذبون الحقائق و ینکرونها دون السعی لمعرفة الواقع، أو انتظار تحققه: کَذلِکَ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ و قد مرت الإشارة أیضا فی الآیات (۱۱۳) و (۱۱۸) من سورة البقرة إلی وضع الأمم السابقة من هذه الناحیة.

الواقع، إنّ عذر هؤلاء جمیعا کان جهلهم و رغبتهم عن التحقیق و البحث فی الحقائق الواقعیة، فی حین أن العقل و المنطق یحکمان بأنّه لا ینبغی للإنسان انکار ما یجهله مطلقا، بل یبدأ بالبحث و التحقیق.

و فی النهایة و جهت الآیة الخطاب إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قالت: فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِینَ أی إنّ هؤلاء سیلاقون أیضا نفس المصیر.

و أشارت الآیة الأخیرة من آیات البحث إلی فئتین عظیمتین من المشرکین، فتقول: إنّ هؤلاء لا یبقون جمیعا علی هذا الحال، بل إنّ جماعة منهم لم تخمد فیهم روح البحث عن الحق و طلبه و سیؤمنون بالقرآن فی النهایة. فی حین أن الفئة الأخری ستبقی فی عنادها و إصرارها و جهلها، و سوف لا تؤمن أبدا: وَ مِنْهُمْ مَنْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۳

یُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا یُؤْمِنُ بِهِ

و من الواضح أنّ أفراد الفئة الثّانیة فاسدون و مفسدون، و لذلک قالت الآیة فی النهایة: وَ رَبُّکَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِینَ و هی إشارة إلی أن الذین لا یذعنون للحق، هم أفراد یسعون لحل عری المجتمع، و لهم دور مهم فی إفساده.

الجهل و الإنکار:

کما یستفاد من الآیات أعلاه أنّ قسما مهمّا من مخالفة الحق و محاربته تنبع عادة من الجهل، و لهذا السبب قالوا: عاقبة الجهل الکفر! إنّ أوّل مهمّة تقع علی عاتق کل إنسان یطلب الحق أن یتریث فی مقابل ما یجهل، یتحرک صوب البحث ثمّ و تحقیق کل جوانب المطلب الذی یجهله، و ما لم یحصل علی الدلیل القاطع علی بطلانه فلا ینبغی له رفضه، کما أنّه لا ینبغی له قبوله و الاعتقاد به إذا لم یحصل لدیه دلیل قاطع علی صحته نقل العلّامة الطبرسی

فی مجمع البیان حدیثا رائعا عن الإمام الصادق علیه السّلام فی هذا الباب، حیث یقول «إنّ اللّه خص هذه الأمّة بآیتین من کتابه: أن لا یقولوا إلّا ما یعلمون، و أن لا یردوا ما لا یعلمون، ثمّ قرأ: أَ لَمْ یُؤْخَذْ عَلَیْهِمْ مِیثاقُ الْکِتابِ أَنْ لا یَقُولُوا عَلَی اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ و قرأ: بَلْ کَذَّبُوا بِما لَمْ یُحِیطُوا بِعِلْمِهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۴

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۴۱ الی ۴۴]

اشارة

وَ إِنْ کَذَّبُوکَ فَقُلْ لِی عَمَلِی وَ لَکُمْ عَمَلُکُمْ أَنْتُمْ بَرِیئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۴۱) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُونَ إِلَیْکَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ کانُوا لا یَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْظُرُ إِلَیْکَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ لَوْ کانُوا لا یُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اللَّهَ لا یَظْلِمُ النَّاسَ شَیْئاً وَ لکِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۴۴)

التّفسیر

العمی و الصمّ:

تتابع هذه الآیات البحث الذی مرّ فی الآیات السابقة حول إنکار و تکذیب المشرکین، و إصرارهم علی ذلک، فقد علّمت الآیة الأولی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم طریقة جدیدة فی المواجهة، فقالت: وَ إِنْ کَذَّبُوکَ فَقُلْ لِی عَمَلِی وَ لَکُمْ عَمَلُکُمْ أَنْتُمْ بَرِیئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

إنّ لإعلان الترفع و عدم الاهتمام هذا، و المقترن بالاعتماد و الإیمان القاطع بالمذهب، أثرا نفسیا خاصا، و بالذات علی المنکرین المعاندین، فهو یفهمهم بعدم وجود أی إجبار و إصرار علی قبولهم الدعوة الإسلامیة. بل إنّهم بعدم تسلیمهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۵

أمام الحق سیحرمون أنفسهم، و لا یضرون إلّا أنفسهم.

و قد ورد نظیر هذا التعبیر فی آیات أخری من القرآن، کما نقرأ فی سورة الکافرون: لَکُمْ دِینُکُمْ وَ لِیَ دِینِ

و من هذا البیان یتّضح أن محتوی مثل هذه الآیات لا ینافی مطلقا الأمر بالتبلیغ أو الجهاد فی مقابل المشرکین کیما تعتبر مثل هذه الآیات منسوخة. بل إنّ هذا نوع من المواجهة المنطقیة عن طریق عدم الاکتراث لهؤلاء الأشخاص المعاندین.

و تشیر الآیتان التالیتان إلی سبب انحراف هؤلاء و عدم إذعانهم للحق، و تبیّن أنّ التعلیمات الصحیحة، و الآیات المعجزة التی تهزّ الوجدان و الدلالات الأخری الواضحة لا تکفی بمفردها لهدایة الإنسان، بل إنّ استعداد التقبل و لیاقة قبول الحق لازمة أیضا، کما أنّ البذر لوحده لیس کافیا لإنبات النبات و الأوراد، بل إنّ الأرض بدورها یجب أن تکون مستعدة. و لهذا قالت الآیة: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُونَ إِلَیْکَ ۱۵۳] أ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ کانُوا لا یَعْقِلُونَ

و هناک فئة ثانیة یشخصون بأبصارهم إلیک، و ینظرون إلی أعمالک المتضمنة أحقیتک و صدق قولک، إلّا أنّهم عمی لا یبصرون: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْظُرُ إِلَیْکَ ۱۵۴] أ فَأَنْتَ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ لَوْ کانُوا لا یُبْصِرُونَ

و لکن اعلم و لیعلم هؤلاء أنّ قصور الفکر هذا، و عدم البصیرة و العمی عن رؤیة وجه الحق، و الصمم عن سماع کلام اللّه لیس شیئا ذاتیا لهم نشؤوا علیه منذ ولادتهم، و إنّ اللّه تعالی قد ظلمهم، بل إنّهم هم الذین ظلموا أنفسهم بأعمالهم السیئة و عدائهم و عصیانهم للحق، و عطلوا بذلک عین بصیرتهم و أذن أفئدتهم عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۶

سماع الحق و اتباعه، ف إِنَّ اللَّهَ لا یَظْلِمُ النَّاسَ شَیْئاً وَ لکِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ

ملاحظتان

و هنا ینبغی الالتفات لملاحظتین:

۱- ما نقرؤه فی الآیهٔ الثّانیهٔ من أنّهم یستمعون إلیک، و فی الآیهٔ الثّالثهٔ من أنهم ینظرن إلیک، إشارهٔ إلی أنّ جماعهٔ من هؤلاء یسمعون هـذا الکلام المعجز، و جماعهٔ أخری ینظرون إلی معجزاتک التی تدل کلها بوضوح علی صدق کلامک و أحقیهٔ دعوتک، إلّا أنّ أحدا من هاتین الفئتین لم ینتفع من استماعه أو نظره، لأنّ نظرهم لم یکن نظر فهم و إدراک، بل نظر انتقاد و تتبع عثرات و مخالفهٔ.

و کذلک لا یستفیدون من استماعهم، لأنّهم لا یستمعون لإدراک محتوی الکلام، بل للعثور علی ثغرات فیه لتکذیبه و إنکاره، و من المعلوم أن نیّهٔ الإنسان ترسم شکل العمل و تغیّر من آثاره.

۲- جاءت فی آخر الآیهٔ الثّانیهٔ جملهٔ: وَ لَوْ کانُوا لا یَعْقِلُونَ و فی آخر الآیهٔ الثّالثهٔ جملهٔ: وَ لَوْ کانُوا لا یُبْصِرُونَ و هی إشارهٔ إلی أنّ الاستماع- أی إدراک الألفاظ- لیس کافیا بمفرده، بل إنّ التفکر و التدبر فیها لازم أیضا لینتفع الإنسان من محتواها. و کذلک لا أثر للنظر بمفرده، بل إنّ البصیرهٔ- و هی إدراک مفهوم ما یبصره الإنسان- لازمهٔ أیضا لیصل إلی عمقها و یهتدی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۷

الآیات [سورهٔ یونس (۱۰): الآیات ۴۵ الی ۴۷]

اشارهٔ

وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ کَأَنْ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ یَتَعارَفُونَ بَیْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما کانُوا مُهْتَدِینَ (۴۵) وَ إِمَّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِیدٌ عَلی ما یَفْعَلُونَ (۴۶) وَ لِکُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۴۷)

التّفسیر

بعد بیان بعض صفات المشرکین فی الآیات السابقهٔ، أشیر هنا إلی وضعهم المؤلم فی القیامهٔ. تقول الآیهٔ: وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ کَأَنْ لَمْ یَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ یَتَعارَفُونَ بَیْنَهُمْ

الإحساس بقلهٔ مقدار الإقامهٔ فی دار الدنیا و قصره، إمّا لأنّه بالنسبهٔ للحیاهٔ الاخروی لا یبلغ سوی ساعهٔ واحدهٔ. أو لأنّ هذه الدنیا الفانیهٔ انقضت بسرعهٔ بحیث کأنّها لم تکن أکثر من ساعهٔ، أو لأنّهم لما لم یستفیدوا من عمرهم الاستفادهٔ الصحیحهٔ، فیتصورون أنّها لا تساوی أکثر من قیمهٔ ساعهٔ!.

بناء علی ما قلناه فی التّفسیر أعلاه، فإنّ جملهٔ یَتَعارَفُونَ بَیْنَهُمْ إشارهٔ إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۸

مقدار بقائهم فی الدنیا، أی إنّهم یحسون أنّ أعمارهم کانت قصیرهٔ إلی الحد الذی یکفی لالتقاء شخصین و تعارفهما ثمّ تفرقهما!.

و قد احتمل أیضا- فی تفسیر هذه الآیهٔ- أنّ المقصود هو الإحساس بقصر الزمان بالنسبهٔ لحیاهٔ البرزخ، أی إنّ هؤلاء یعیشون فی فترهٔ البرزخ حالهٔ شبیهٔ بالنوم بحیث لا یشعرون بمرور السنین و القرون و الأعصار، و یظنون فی القیامهٔ أن مرحلهٔ برزخهم التی استغرقت

آلاف أو عشرات الآلاف من السنين، لم تكن إلّا ساعة. و الشاهد على هذا التّفسير الآيتان (۵۵)- (۵۶) من سورة الروم، اللتان تقولان: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ. وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

يستفاد من هاتين الآيتين أنّ مجموعة من المجرمين يقسمون فى القيامة أن فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلّا أنّ المؤمنين يقولون لهم: إنّ المدّة كانت طويلة، و الآن قد قامت القيامة و أنتم لا تعلمون. و نحن نعلم أن البرزخ ليس متساويا بالنسبة للجميع، و سنذكر تفصيل ذلك فى ذيل الآيات المناسبة.

و بناء على هذا التّفسير، فإنّ معنى جملة يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ سيكون: إنّ هؤلاء يحسون بأنّ زمان البرزخ كان قصيرا بحيث أنّهم لم ينسوا أى أمر من أمور الدنيا، و يعرف بعضهم البعض الآخر جيدا. أو أنّ كلا منهم يرى أعمال الآخرين القبيحة هناك، و يطّلع كل منهم على باطن الآخر، و هذا بحد ذاته فضيحة كبرى بالنسبة لهؤلاء.

ثمّ تضيف الآية أنّه سيثبت لكل هؤلاء فى ذلك اليوم: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ و أنفقوا كل ملكاتهم و طاقاتهم الحيوية دون جدوى وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ بسبب هذا التكذيب و الإنكار و الإصرار على الذنب، و لأنّ قلوبهم و أرواحهم كانت مظلمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۹

و تقول الآية التالية تهديدا للكفار، و تسلية لخاطر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ

و تبيّن الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث قانونا كليا فى شأن كل الأنبياء، و من جملتهم نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و كل الأمم و من جملتها الأمّة التى كانت تحيا فى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فإذا جاء رسولها و بلغ رسالته، و آمن قسم منهم و كفر آخرون، فإنّ اللّه سبحانه يقضى بينهم بعدله، و لا يظلم ربّك أحدا، فيبقى المؤمنون و الصالحون يتمتعون بالحياة، أمّا الكافرون فإنّهم فمصيرهم الفناء او الهزيمة: فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

و هذا ما حصل لنبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أمته المعاصرة له، فإنّ أعداءه هلكوا فى الحروب، أو انهزموا فى النهاية و طردوا من ساحة المجتمع و أخذ المؤمنون زمام الأمور بأيديهم. و بناء على هذا فإنّ القضاء و الحكم الذى ورد فى هذه الآية هو القضاء التكوينى فى هذه الدنيا، و أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّه إشارة إلى حكم اللّه يوم القيامة. فهو خلاف الظاهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۰

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۸ الى ۵۲]

اشارة

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۴۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۵۲)

التّفسير

العذاب الإلهى و اختيارات الرّسول:

بعد التهديدات التى ذكرت فى الآيات السابقة المتعلقة بعذاب و عقاب منكرى الحق، فإنّ هذه الآيات تنقل أوّلا استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهى و سخريتهم و انكارهم. فتقول: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

هذا الكلام كان كلام مشركى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حتما، لأنّ الآيات التالية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۱

تتضمن جواب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم شاهدة على هذا المطلب.

على كل حال، فإنّ هؤلاء أرادوا بهذه الكلمات أن يظهروا عدم اهتمامهم بتهديدات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة، و تقوية قلوب الذين خافوا من هذه التهديدات و تهدئة خواطرهم ليرجعوا إلى صفوفهم.

و فى مقابل هذا السؤال، فإنّ اللّه سبحانه أمر نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم بعدّة طرق:

فيقول أوّلا: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ فإنّى لست إلّا رسوله و نبيّه، و إنّ تعيين موعد نزول العذاب بيده فقط، و إذا كنت لا أملك لنفسى نفعا و لا ضرا، فمن باب الأولى أن لا أملكهما لكم.

إنّ هذه الجملة فى الحقيقة إشارة إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شىء فى هذا العالم باللّه سبحانه، و كل الحركات و الأفعال معلولة لإرادته و مشيئته، فهو الذى ينصر المؤمنين بحكمته، و هو الذى يجازى المنحرفين بعدالته.

من البديهى أنّ ذلك لا ينافى أنّ اللّه قد أعطانا قوى و طاقات نملك بواسطتها جلب النفع و دفع الضرر، و نستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا، و بتعبير آخر فإنّ هذه الآية تنفى الملكية بالذات لا بالغير، و جملة إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ قرينة واضحة على هذا الموضوع.

و من هنا يعلم أنّ استدلال بعض المتعصبين- ككاتب تفسير المنار- بهذه الآية على نفى جواز التوسل بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ضعيف جدّا، لأنّه إذا كان المقصود من التوسل أن نعتبر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ذا قدرة ذاتية و مالكا للنفع و الضر، فإنّ هذا شرك قطعا، و لا يمكن أن يؤمن بهذا أى مسلم، أمّا إذا كانت هذه الملكية من اللّه سبحانه و هى داخلة تحت عنوان: إلّا ما شاء اللّه، فما المانع من ذلك؟ و هذا هو عين الإيمان و التوحيد. إلّا أنّه نتيجة الغفلة عن هذه النكتة أتلف وقته و وقت قرّاء تفسيره بالبحوث الطويلة، و هو مع الأسف (رغم كل الامتيازات الموجودة فى تفسيره) قد ارتكب كثيرا من هذه الأخطاء، و التى يمكن اعتبار التعصب منبعها جميعا!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۲

ثمّ يتطرق القرآن إلى جواب آخر و يقول: لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ و بتعبير آخر فإنّ أى أمّة إذا انحرفت عن مسير الحق، فسوف لا تكون مصونة من العذاب الإلهى الذى هو نتيجة أعمالها، فعند ما ينحرف الناس عن قوانين الخلقة و الطبيعة فسيبددون طاقاتهم و ملكاتهم فى فراغ و يسقطوا فى النهاية فى هاوية الانحطاط و يحتفظ تاريخ العالم فى ذاكرته بنماذج كثيرة من ذلك.

فى الواقع إنّ القرآن الكريم يحذر المشركين الذين كانوا يتعجلون العذاب الإلهى بأن لا يعجلوا، فعند ما يحل موعدهم فإنّ هذا العذاب سوف لن يتأخر أو يتقدم لحظة.

و يجب الالتفات إلى أنّ الساعة قد تعنى أحيانا لحظة، و أحيانا المقدار القليل من الزمن، بالرغم من أنّ معناها المعروف اليوم هو الأربع و العشرون ساعة التى تشكل الليل و النهار.

و تطرح الآية الأخرى الجواب الثّالث، فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً فهل تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم هذا العذاب المفاجئ غير المرتقب؟ و إذا كان الحال كذلك ف ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ

و بتعبير آخر، فإنّ هؤلاء المجرمين الجريئين إن لم يتيقنوا نزول العذاب فليحتملوا على الأقل أن يأتيهم فجأة، فما الذى يضمن لهؤلاء أنّ تهديدات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم سوف لن تقع أبدا؟ إنّ الإنسان العاقل يجب أن يراعى الاحتياط على الأقل فى مقابل

مثل هذا الضرر المحتمل و یکون منه علی حذر.

و ورد نظیر هذا المعنی فی آیات أخری من القرآن، و بتعبیرات أخری، مثل:

أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ یَخْسِفَ بِکُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ یُرْسِلَ عَلَیْکُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَکُمْ وَکِیلًا سورة الإسراء، الآیة (۶۸). و هذا هو الذی یعبر عنه فی علم الکلام و الأصول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۳

بقاعدة «لزوم دفع الضرر المحتمل»[۱۵۵].

و فی الآیة التالیة ورد جواب رابع لهؤلاء، فهی تقول: إذا کنتم تفکرون أن تؤمنوا حین نزول العذاب، و أنّ إیمانکم سیقبل منکم، فإنّ ظنّکم هذا باطل لا صحّة له: أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ لأنّ أبواب التوبة ستغلق بوجوهکم بعد نزول العذاب، و لیس للإیمان حینئذ أدنی أثر، بل یقال لکم: آلْآنَ وَ قَدْ کُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

هذا بالنسبة لعقاب هؤلاء الدنیوی، و فی الآخرة: ثُمَّ قِیلَ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما کُنْتُمْ تَکْسِبُونَ فإنّ أعمالکم فی الواقع هی التی أخذت بأطرافکم، و هی التی تتجسد أمامکم و تؤذیکم علی الدوام.

ملاحظات

۱- کما قلنا فی ذیل الآیة (۳۴) من سورة الأعراف، فإنّ بعض أهل البدع و الأدیان المختلقة فی عصرنا استدلوا بآیات. مثل: لِکُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ التی وردت مرّتین فی القرآن، علی نفی خاتمیة نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و توصلوا إلی أن کل دین و مذهب ینتهی فی النهایة و یخلی مکانه لمذهب آخر. فی حین أن الأمّة تعنی القوم و الجماعة. لا المذهب.

إنّ هدف هذه الآیات هو أنّ قانون الحیاة و الموت لا یختص بالأفراد، بل إنّه یشمل الأقوام و الأمم أیضا، فإذا سلکوا طریق الظلم و الفساد فإنّهم سینقرضون لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۴

محالة، خاصّة إذا لا حظنا فی هذا البحث الآیة التی قبلها و التی بعدها، فستثبت هذه الحقیقة بوضوح، و هی أنّ الکلام لیس عن نسخ المذهب، بل عن نزول العذاب و فناء قوم أو أمّة، لأنّ الآیة السابقة و اللاحقة تتحدثان عن نزول العذاب و العقاب الدنیوی.

۲- إذا لا حظنا الآیات أعلاه سیأتی هذا السؤال، و هو: هل ستبتلی المجتمعات الإسلامیة أیضا بهذا العقاب و العذاب فی هذا العالم؟

و الجواب عن هذا السؤال بالإیجاب، إذ لا دلیل لدینا علی أنّ هذه الأمّة مستثناة، بل إنّ هذا القانون فی حق کل الأمم و الملل، و ما قرأناه فی بعض آیات القرآن- الأنفال/ ۳۳- من أنّ اللّه سبحانه سوف لا یعذب هذه الأمّة، فهو مشروط بواحد من شرطین: إمّا وجود النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بین أولئک، أو الاستغفار و التوبة من الذنوب، لا أنّه بدون قید أو شرط.

۳- تؤکّد الآیات أعلاه مرّة أخری علی هذه الحقیقة، و هی أنّ أبواب التوبة تغلق حین نزول العذاب فلا ینفع الندم حینئذ، و سبب ذلک واضح، لأنّ التوبة فی مثل هذه الأحوال تکون عن إکراه و إجبار، و مثل هذه التوبة لا قیمة لها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۵

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۵۳ الی ۵۶]

اشارة

وَ یَسْتَنْبِئُونَکَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِی وَ رَبِّی إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۵۳) وَ لَوْ أَنَّ لِکُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِی الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا

النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۵۴) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۵۵) هُوَ یُحیِی وَ یُمِیتُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۵۶)

التّفسیر

لا معنى للشک فى العذاب الإلهى:

کان البحث فی الآیات السابقة عن جزاء و عقاب المجرمین فی هذه الدنیا و العالم الآخر، و تکمل هذه الآیات هذا البحث أیضا.

فالآیة الأولى تقول: إنّ هؤلاء یسألونک بتعجب و استفهام عن حقیقة هذا الوعید بالعذاب الإلهی فی هذا العالم و العالم الآخر: وَ یَسْتَنْبِئُونَکَ أَ حَقٌّ هُوَ و من المعلوم أنّ «الحق» هنا لیس فی مقابل الباطل، بل المراد منه هو: هل إنّ لهذه العقوبة حقیقة و واقعا و أنّها ستتحقق؟ لأنّ الحق و التحقق مشتقان من مادة واحدة، و من البدیهی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۶

أنّ الحق فی مقابل الباطل بهذا المعنى الواسع سیشمل کل واقع موجود، و ستکون النقطة المقابلة له کل معدوم و باطل.

و یأمر اللّه سبحانه نبیّه أن یجیبهم على هذا السؤال بما أوتی من التأکید: قُلْ إِی وَ رَبِّی إِنَّهُ لَحَقٌّ و إذا ظننتم أنّکم تستطیعون أن تفلتوا من قبضة العقاب الإلهی فأنتم على خطأ کبیر: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ

الواقع إنّ هذه الجملة مع الجملة السابقة من قبیل بیان المقتضی و المانع، ففی الجملة الأولى یقول: إن عذاب المجرمین امر واقعی، و یضیف فی الجملة الثّانیة أن أیة قدرة لا تستطیع أن تقف أمامه، تماما کالآیات (۸)- (۹) من سورة الطور: إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ

إنّ التأکیدات التی تلاحظ فی الآیة تستحق الانتباه، فمن جهة القسم، و من جهة أخرى إنّ و لام التأکید، و من جهة ثالثة جملة وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ و کل هذه توکّد على أنّ العقاب الإلهی حتمی عند ارتکاب الکبائر.

و توکّد الآیة الأخرى على عظمة هذه العقوبة، و خاصّة فی القیامة، فتقول: وَ لَوْ أَنَّ لِکُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِی الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۱۵۶].

فی الواقع، إنّ هؤلاء مستعدون لأن یدفعوا أکبر رشوة یمکن تصورها من أجل الخلاص من قبضة العذاب الإلهی، لکن لا أحد یقبل من هؤلاء شیئا، و لا ینقص من عذابهم مقدار رأس ابرة، خاصّة و أنّ لبعض هذه العقوبات صبغة معنویة، و هی أنّهم: یرون العذاب و الفضیحة فی مقابل أتباعهم ممّا یوجب لهم اظهار الندم مزیدا من الخزی و العذاب النفسی فلذلک یحاولون عدم إبراز الندم: وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ

ثمّ توکّد الآیة على أنّه بالرغم من کل ذلک، فإنّ الحکم بین هؤلاء یجری بالعدل، و لا یظلم أحد منهم: وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ إنّ هذه الجملة تأکید على طریقة القرآن دائما فی مسأله العقوبة و العدالة، لأنّ تأکیدات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۷

الآیة السابقة فی عقاب المذنبین یمکن أن توجد لدى الأفراد الغافلین توهّم أنّ المسألة مسألة انتقام، و لذا فإنّ القرآن یقول أوّلا إنّ الحکم بین هؤلاء یجری بالقسط، ثمّ یؤکّد على أنّ أی أحد من هؤلاء سوف لا یظلم.

ثم، و من أجل أن لا یأخذ الناس هذه الوعود و التهدیدات الإلهیة مأخذ الهزل، و لکی لا یظنوا أنّ اللّه عاجز عن تنفیذ هذه الوعود، تضیف الآیة: أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ لأنّ جهلهم قد حجب بصیرتهم و جعل علیها غشاوة فلم یعوا الحقیقة.

و توكّد آخر آية على هذه المسألة الحياتية مرّة أخرى، حيث تقول: هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ و بناء على ذلك فإن له القدرة على إماتة العباد، كما أن له القدرة على إحيائهم لمحكمة الآخرة، و فى النهاية: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و ستلاقون جزاء كل أعمالكم هناك.

ملاحظتان

۱- من جملة الأسئلة التى تطرح فى مورد الآيات أعلاه: هل أنّ لسؤال المشركين عن واقعية العقاب الإلهى صفة الاستهزاء، أم أنّه كان سؤالا حقيقيا؟

ذهب البعض الى أنّ السؤال الحقيقى علامة الشك، و هو لا يناسب وضع المشركين، إلّا أنّه بملاحظة أنّ كثيرا من المشركين كانوا فى حالة تردد، و جماعة منهم أيضا كانوا على علم بأحقية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد وقفوا ضده نتيجة التعصب و العناد و أمثال ذلك، فسيبدو واضحا أن كون سؤال هؤلاء حقيقيا ليس بعيدا أبدا.

۲- إن حقيقة الندامة هى الندم على ارتكاب عمل اتّضحت آثاره السلبية سواء استطاع الإنسان أن يجبر ذلك أم لا، و ندم المجرمين فى القيامة من النوع الثّانى، و إنّما كتموه لأنّ إظهاره سيزيد من فضيحتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۸

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۷ الى ۵۸]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۵۷) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۵۸)

التّفسير

القرآن رحمة إلهية كبرى:

لقد جاءت فى بعض الآيات السابقة بحوث فى شأن القرآن عكست جوانب من مخالفات المشركين. و فى هذه الآيات تجدد الكلام عن القرآن بهذه المناسبة أيضا، ففى البداية تخاطب جميع البشرية خطابا عالميا و شموليا و تقول:

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

لقد بيّنت هذه الآية أربع صفات للقرآن، و لإدراك مدلولاتها و محتواها لا بدّ أن نعتمد أوّلا على لغاتها و معناها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۹

«الوعظ» و «الموعظة»، كما جاء فى المفردات: هو النهى الممتزج بالتهديد، أنّ معنى الموعظة أوسع من هذا ظاهرا، كما نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدى فى نفس كتاب المفردات، أنّ الموعظة عبارة عن التذكير بالنعم و الطيبات المقترن برقة القلب. و فى الحقيقة فإنّ كل نصح و إرشاد يترك أثرا فى المخاطب، و يخوفه من السيئات و يرغّبه فى الصالحات يسمى وعظا و موعظة. و طبعا ليس معنى هذا أن كل موعظة يجب أن يكون لها تأثير، بل المراد أنّها تؤثر فى القلوب المستعدة.

و المقصود من شفاء أمراض القلوب، و بتعبير القرآن شفاء ما فى الصدور، هى تلك التلوّثات المعنوية و الروحية، كالبخل و الحقد و

الحسد و الجبن و الشرک و النفاق و أمثال ذلک، و کلها من الأمراض الروحیة و المعنویة.

و المقصود من «الهدایة» هو الهدایة نحو المقصود، أی تکامل ورقی الإنسان فی کافة الجوانب الإیجابیة.

و المراد من «الرحمة» هی النعم المادیة و المعنویة الإلهیة التی تشمل حال الأفراد اللائقین، کما نقرا فی کتاب المفردات أنّ الرحمة متی ما نسبت إلی اللّه فإنّها تعنی بذله و هبته للنعم، و إذا ما نسبت إلی البشر فإنّها تعنی العطف ورقة القلب.

فی الواقع، إنّ الآیة أعلاه تشرح و تبیّن أربع مراحل من مراحل تربیة و تکامل الإنسان فی ظل القرآن.

المرحلة الأولی: مرحلة الموعظة و النصیحة.

المرحلة الثّانیة: مرحلة تطهیر روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقیة.

المرحلة الثّالثة: مرحلة الهدایة التی تجری بعد مرحلة التطهیر.

المرحلة الرّابعة: هی المرحلة التی یصل فیها الإنسان إلی أن یکون لائقا لأن تشمله رحمة اللّه و نعمته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۰

و کل مرحلة من هذه المراحل تأتی بعد المرحلة السابقة لها، و الجمیل فی الأمر أنّها تتمّ جمیعا فی ظل نور القرآن و توجیهاته.

القرآن هو الذی یعظ البشر، و القرآن هو الذی یغسل قلوبهم من تبعات الذنوب و الصفات القبیحة، و القرآن هو الذی یوقد نور الهدایة فی القلوب لیضیئها، و القرآن أیضا هو الذی ینزل النعم الإلهیة علی الفرد و المجتمع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۳۸۰

یوضح أمیر المؤمنین علی علیه السّلام

فی کلامه الجامع فی نهج البلاغة هذه الحقیقة بأبلغ تعبیر، حیث یقول: «فاستشفوه من أدوائکم، و استعینوا به علی ولائکم، فإنّ فیه شفاء من أکبر الداء، و هو الکفر و النفاق، و الغی و الضلال»[۱۵۷].

و هذا بنفسه یبیّن أنّ القرآن و صفة لتحسین حال الفرد و المجتمع، و صیانتهم من أنواع الأمراض الأخلاقیة و الاجتماعیة، و هذه الحقیقة أودعها المسلمون فی کف النسیان، و بدل أن یستفیدوا من هذا الدواء الشافی، فإنّهم یبحثون عن دوائهم و علاجهم فی المذاهب الأخری، و جعلوا هذا الکتاب السماوی الکبیر کتاب قراءة فقط، لا- کتاب تفکر و عمل! و تقول الآیة الأخری من أجل تکمیل هذا البحث و التأکید علی هذه النعمة الإلهیة الکبری- أی القرآن المجید-: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِکَ فَلْیَفْرَحُوا و لا یفرحوا بمقدار الثروات، و عظم المراکز، و عزة القوم و القبیلة، لأنّ رأس المال الحقیقی و الأساس للسعادة الحقیقیة هو هذا القرآن، فهو أفضل من کل ما جمعوه، و لا یمکن قیاسه بذلک المجموع، إذا هُوَ خَیْرٌ مِمَّا یَجْمَعُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۱

ملاحظتان

۱- هل أنّ القلب هو مرکز الإحساسات؟

ظاهر الآیة الأولی من هذه الآیات، کما هو ظاهر بعض آیات أخری من القرآن، أنّ مرکز الأمراض الأخلاقیة هو القلب.

إنّ هذا الکلام یمکن أن یعارضه فی البدایة هذا الإشکال، و هو أنّنا نعلم أن کل الأوصاف الأخلاقیة و المسائل الفکریة و العاطفیة ترجع إلی روح الإنسان، و لیس القلب إلّا مضخة أتوماتیکیة لنقل الدم و تغذیة خلایا البدن.

هـذا حقّ طبعـا، فإنّ القلب له وظيفـة إدارة جسم الإنسان، و المسائل النفسيـة مرتبطـة بروح الإنسان، لكن توجـد هنا نكتـة دقيقـة إذا ما لوحظت سيتّضح رمز هذا التعبير القرآنی، و هی أنّ فی جسم الإنسان مركزين كل منهما مظهر لبعض الأعمال النفسية للإنسان، أی أنّ كلا من هذين المركزين إذا تأثر بالانفعالات النفسية فإنّه سيظهر رد الفعل مباشرة: أحدهما المخ، و الآخر القلب.

عنـد ما نبحث المسائل الفكرية فی محيط الروح، فإنّ انعكاس ذلك التفكير سيتّضح فورا فی المخ، و بتعبير آخر فإنّ المخ آلة تساعد الروح فی مسألـة التفكر، و لذلك فإنّ الدم يدور بصورة أسـرع فی المخ فی حالة التفكير، و تتفاعل خلايا المخ بصورة أكبر، و بالتالی سوف تمتص كمية أكبر من الغذاء و ترسل أمواجا أكثر.

أمّا عنـد ما يكون الكلام و البحث حول المسائل العاطفية كالعشق و المحبّة، و التصـميم و الإرادة و الغضب و الحقد و الحسد، و العفو و الصـفح، فإنّ نشاطا عجيبا يبدأ فی قلب الإنسان، فأحيانا تشتد ضرباته، و أحيانا تقل إلی الحد الذی يظن معه أنّه سيتوقف عن العمل، و نشعر أحيانا أن قلبنا يريد أن ينفجر. كل ذلك نتيجة للارتباط الوثيق للقلب مع هذه المسائل.

لهذه الجهة ينسب القرآن المجيد الإيمان إلی القلب، فيقول: وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۲

فِی قُلُوبِكُمْ ۱۵۸]. و يعبر عن الجهل و العناد و عدم الإذعان للحق بأنّه عمی القلب:

وَ لكِنْ تَعْمَی الْقُلُوبُ الَّتِی فِی الصُّدُورِ[۱۵۹].

و من نافلـة القول، فإن مثل هـذه التعبيرات ليست مختصـة بالقرآن، بل تلاحظ فی أدب اللغات المختلفـة فی الأزمنـة الغابرة، و تلاحظ اليوم أيضـا مظاهر هـذه المسألـة بأشـكال مختلفـة. فغالبا ما نقول للشـخص الـذی نحترمه و نحبّه: إنّ لک مكانا فی قلوبنا، أو أنّ قلوبنا منشدة إليک، و الأدباء يجسدون هذا المعنی و يجعلون سنبلة العشق نابعة من القلب دائما.

كـل ذلـک لأنّ الإنسـان يحس دائمـا بتأثير خاص فی قلبه فی حالـة العشق و الغرام، أو الحقـد و الحسـد، أی أنّ أوّل قدحـة فی هـذه المسائل النفسية عند انتقالها إلی الجسم تتجلّی فی القلب.

إضافة إلی كل هـذا، فقـد أشـرنا سابقا إلی أن أحد معانی القلب فی اللغة هو عقل و روح الإنسان، و معنی ذلک أن القلب لا ينحصـر بهـذا العضو الخـاص الموجود داخـل الصـدر، و هـذا بنفسه يمكن أن يكون تفسـيرا آخر لآيـات القلب، لكن لا ـ جميعها، لأن بعضـها صرحت بأنّها القلوب التی فی الصدور- دققوا ذلک-.

۲- ما هو الفرق بين الفضل و الرحمة؟

هناک بحث مفصّل بين المفسّرين فی الفرق بين الفضل و الرحمة اللذين أشير إليهما فی الآية الثّانية.

أ- فالبعض اعتبر الفضل الإلهی إلی النعم الظاهرية. و الرحمة إشارة إلی النعم الباطنية، و بتعبير آخر إنّ إحداها النعم المادية، و الأخری النعم المعنوية. و قد جاءت مرارا فی آيات القرآن جملة: وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أو لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۳

بمعنی تحصيل الرزق و الموارد المادية.

ب- و قال البعض الآخر: إنّ الفضل الإلهی بداية النعمة، و رحمته دوام النعمة.

و إذا ما لا حظنا أنّ الفضل هو بـذل النعمـة و هبتها، و أن ذكر الرحمـة بعـد ذلک يجب أن يكون شـيئا مضافا علی ذلک يتّضح المراد من هـذا التّفسير. و مـا نقرؤه فی روايـات متعـددة من أنّ المراد من الفضل الإلهی هو وجود النّبی صـلی اللّه عليه و آله و سـلّم و نعمة النّبوة، و أنّ المراد من رحمـة اللّه وجود علی عليه السّـلام و نعمـة الولاية ربّما كان إشارة إلی هذا التّفسير، لأنّ النّبی صـلی اللّه عليه و

آله و سلّم کان بدایة الإسلام، و الإمام علی علیه السّلام سبب بقائه و استمراره فأحدهما علّة محدثة و موجدة، و الآخر علّة مبقیة[۱۶۰].

و احتمل البعض الآخر أن یکون الفضل إشارة إلی نعم الجنّة، و الرحمة إشارة إلی العفو عن الذنب و غفرانه.

ج- و یحتمل أیضا أن الفضل إشارة إلی نعمة اللّه العامّة التی تعم العدو و الصدیق، و الرحمة- بملاحظة کلمة (للمؤمنین) التی ذکرت کقید للرحمة فی الآیة السابقة- إشارة إلی رحمته الخاصّة بالمؤمنین.

التّفسیر الآخر الذی ذکر لهاتین الکلمتین، هو أنّ فضل اللّه إشارة إلی مسألة الإیمان، و الرحمة إشارة إلی القرآن المجید الذی سبق الکلام عنه فی الآیة السابقة.

طبعا، إنّ أغلب هذه المعانی لا تضاد بینها، و یمکن أن تجمع جمیعها فی المفهوم الجامع للفضل و الرحمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۴

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۵۹ الی ۶۱]

اشارة

قُلْ أَ رَأَیْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَکُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اللَّهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ ما ظَنُّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ یَوْمَ الْقِیامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَشْکُرُونَ (۶۰) وَ ما تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ کُنَّا عَلَیْکُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِیضُونَ فِیهِ وَ ما یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِکَ وَ لا أَکْبَرَ إِلاَّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ (۶۱)

التّفسیر

هو الشاهد فی کل مکان!

کان الحدیث فی الآیات السابقة عن القرآن، و الموعظة الإلهیة و الهدایة و الرحمة فی هذا الکتاب السماوی، و تتحدث هذه الآیات عن قوانین المشرکین المبتدعة و الخرافیة و أحکامهم الکاذبة، لأنّ الذی یؤمن باللّه و یعلم أن کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۵

المواهب و الأرزاق منه، یجب أن یقبل هذه الحقیقة أیضا، و هی أنّ بیان حکم هذه المواهب من حیث الحلیة و الحرمة بیده، و إنّ التدخل فی هذا العمل بدون إذنه عمل غیر صحیح.

الآیة الأولی و جهت الخطاب إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قالت: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَکُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالًا إذا أنّهم طبقا لسننهم الخرافیة حرموا قسما من الدواب باسم «السائبة» و «البحیرة» و «الوصیلة[۱۶۱]»، و کذلک حرّموا جزءا من محاصیلهم الزراعیة، و حرموا أنفسهم من هذه النعم الطاهرة المحلّلة، إضافة إلی ذلک فإن کون الشیء حراما أو حلالا لیس مرتبطا بکم، بل هو مختص بأمر اللّه خالق تلک الموجودات.

ثمّ تقول: قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اللَّهِ تَفْتَرُونَ أی إنّ لهذا العمل صورتین لا ثالث لهما: فأمّا أن یکون بإذن اللّه، أو أنّه تهمة و افتراء، و لما کان الاحتمال الأوّل منتفیا، فلم یبق إلّا الثّانی.

الآن و قد أصبح من المسلم أنّ هؤلاء بهذه الأحکام الخرافیة المبتدعة، إضافة إلی أنّهم حرموا من النعم الإلهیة، فإنّهم قد افتروا علی الساحة الإلهیة المقدسة، و لذلک تضیف الآیة: وَ ما ظَنُّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ یَوْمَ الْقِیامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ و

لذلک فإنّه لسعة رحمته لا يعاقب هؤلاء فورا على أعمالهم القبيحة.

إلّا أنّ هؤلاء بدل أن يستغلوا هذه الفرصة الإلهية و يشكروا اللّه على ذلک و ينيبوا إليه، فإنّ أكثرهم غافلون: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ

و يحتمل فى تفسير هذه الآية أيضا، أن كون كل هذه المواهب و الأرزاق- عدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۶

الأشياء المضرة و الخبيثة المستثناة- محللة هو بنفسه نعمة إلهية كبرى، و إنّ كثيرا من الناس بدل أن يؤدوا شكر هذه النعمة، فإنّهم يكفرون بها، و يحرّمون أنفسهم من هذه النعمة بأحكامهم الخرافية و ممنوعاتها.

و حتى لا يتصور أحد أنّ هذه المهلة الإلهية دليل على عدم إحاطة علم اللّه سبحانه بكل أعمال هؤلاء، فإنّ آخر آية من آيات البحث تبيّن هذه الحقيقة بأبلغ عبارة و توضح أن اللّه مطلع على كل ذرات الموجودات فى خفايا السماء و الأرض، و مطلع على دقائق أعمال العباد، فتقول: وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۱۶۲].

«الشهود» جمع شاهد، و هو فى الأصل بمعنى الحضور المقترن بالمشاهدة بالعين أو القلب أو الفكر، و التعبير بالجمع إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه ليس وحده المراقب لأعمال البشر، بل إنّ الملائكة المطيعين لأمره مطلعون أيضا على كل هذه الأعمال و ناظرون إليها.

و كما أشرنا سابقا، فإنّ التعبير بصيغة الجمع فى حق اللّه سبحانه مع أنّ ذاته المقدسة أوحدية من جميع الجهات، إشارة إلى عظمة مقامه، و أن له دائما مأمورين مطيعين مستعدين لتنفيذ أمره و الواقع فإن الكلام ليس عن اللّه وحده، بل عنه و عن كل هؤلاء المأمورين المطيعين.

ثمّ تعقب الآية على مسألة اطلاع اللّه على كل شيء بتأكيد أكبر، فتقول: وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ

«يعزب» مأخوذة من العزوب، و هو فى الأصل بمعنى الابتعاد عن البيت و الأهل فى سبيل إيجاد و تهيئة المراتع للأغنام و الحيوانات، ثمّ استعملت بمعنى الغيبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۷

و الاختفاء بصورة مطلقة.

«و الذّرة» بمعنى الجسم الصغير جدّا، و لذلک يقال للنمل الصغير: ذرة. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۴۰) من سورة النساء.

«الكتاب المبين» إشارة إلى علم اللّه الواسع، و الذى يعبر عنه أحيانا باللوح المحفوظ، و قد تحدثنا عن هذا الموضوع فى تفسير الآية (۵۹) من سورة الأنعام.

ملاحظات

۱- إنّ الآيات أعلاه قد أثبتت ضمن عبارات قصيرة هذه الحقيقة، و هى أنّ حق التشريع مختص باللّه، و كل من يقدم على مثل هذا العمل بدون إذنه و أمره، فإنّه يكون قد افترى على اللّه، لأنّ كل الهبات و الأرزاق تنزل من عنده، و إنّ اللّه سبحانه هو المالک الأصلى لها فى الحقيقة، و بناء على هذا فإنّ له الحق فى أن يجعل بعضها مباحا و البعض الآخر غير مباح.

و مع أنّ أوامره فى هذا المجال تهدف الى نفع العباد و تكاملهم و ليس له أدنى حاجة لهذا العمل، إلّا أنّه على كل حال هو صاحب الإختيار و التشريع، و قد يرى أنّ من المصلحة إعطاء أحد العباد كالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حق هذا العمل فى حدود معينة. كما يستفاد من روايات متعددة- أيضا- أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد حرم بعض الأمور أو أوجبها، و الذى عبرت عنه الرّوايات ب (فرض النّبى). و من الطبيعى أنّ كل أوامره و نواهيه فى حدود ما خوله اللّه سبحانه من الصلاحيات، و حسب أمر اللّه.

إنّ جملة آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ دليل أيضا على أن من الممكن أن يجيز اللّه أحدا بمثل هذه الإجازة.

إنّ هذا البحث مرتبط بمسألة «الولاية التشريعية»، و التى سنبيّنها بصورة أكثر تفصيلا فى محل آخر إن شاء اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۸

۲- إنّ تعبير الآيات أعلاه عن الرزق بالنزول- مع أنّنا نعلم أنّ المطر هو الوحيد الذى ينزل من السماء- إمّا لأنّ هذه القطرات المباركة تشكل الأساس لكل الأرزاق، أو لأنّ المراد هو «النزول المقامى» الذى أشرنا إليه سابقا، و مثل هذا التعبير يلاحظ فى المكالمات اليومية، فمثلا إذا صدر أمر من شخص كبير، أو هبة ما إلى شخص صغير، فيقولون: إنّ هذا الأمر صدر من الأعلى، أو أنّه وصلنا من فوق.

۳- لقد أثبت علماء الأصول بجملة آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ قاعدة عدم حجية الظن، و قالوا: إنّ هذا التعبير يوضح أنّه لا يمكن إثبات أى حكم من الأحكام الإلهية بدون القطع و اليقين، و إلّا فإنّه افتراء على اللّه و حرام. (لنا بحوث فى هذا الاستدلال ذكرناها فى مباحث علم الأصول).

۴- إنّ الآيات أعلاه تعطينا درسا آخر، و هو أنّ التشريع مقابل شريعة اللّه دين الجاهلية، حيث كانوا يعطون لأنفسهم الحق فى وضع الأحكام مع ضيق أفكارهم و ضحالتها، و لكن لا يمكن أن يكون المؤمن الحقيقى كذلك مطلقا. و ما نراه فى عصرنا الحاضر من أن جماعة يتحدثون عن اللّه و الإسلام، و فى الوقت نفسه يمدون يد الاستجداء نحو قوانين الآخرين غير الإسلامية، أو يسمحون لأنفسهم بأن يطرحوا جانبا قوانين الإسلام باعتبارها غير قابلة للتطبيق و يشرّعون بأنفسهم القوانين، فإنّ هؤلاء من أتباع سنن الجاهلية أيضا.

إنّ الإسلام الواقعى لا يقبل التجزئة، فعند ما قلنا: إنّنا مسلمون، فيجب أن نعترف بكل قوانينه فما يقال من أن قوانين الإسلام غير قابلة بأجمعها للتنفيذ و هم باطل لا أساس له، و هو ناشئ من التغريب و انهيار الشخصية.

طبعا، إنّ الإسلام- نظرا لشموليته- قد أطلق لنا فى بعض المسائل اتخاذ مقررات و قوانين مناسبة مع ذكر الأصول العامّة حتى نستطيع أن ننظم احتياجات كل عصر و زمان حسب تلك الأصول بالاستشارة و التشاور، ثمّ نضعها فى حيز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۹

التنفيذ.

۵- أكّدت الآية الأخيرة حين الإشارة إلى سعة علم اللّه على ثلاث مسائل و قالت: إنّك لا تكون فى حالة نفسية معينة، و لا تتلو أية آية، و لا تقوم بأى عمل إلّا و نحن شاهدون عليك و ناظرون إليك.

إنّ هذه التعبيرات الثلاثة إشارة إلى أفكار و أقوال و أعمال البشر، أى إنّ اللّه تعالى كما ينظر إلى أعمالنا، فإنّه يسمع كلامنا، و هو مطلع على أفكارنا و نيّاتنا، و لا يخرج عن إحاطة علم اللّه شىء منها.

و لا شك أنّ النية و الحالات الروحية تقع فى المرحلة الأولى، و القول يأتى بعدها، ثمّ يتبعهما العمل و التنفيذ، و لهذا قد ورد نفس الترتيب فى الآية.

ثمّ إنّنا نرى أنّ القسم الأوّل و الثّانى قد ذكرا بصيغة المفرد، و الخطاب موجه إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أمّا القسم الثّالث فإنّه ورد بصيغة الجمع و الخطاب موجه لعامّة المسلمين، و يمكن أن يكون ذلك باعتبار أن اتّخاذ القرار فى البرامج الإسلامية مرتبط بقائد الأمّة و هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، كما أن تلقى آيات القرآن من اللّه و تلاوتها يتمّ عن طريقه، إلّا أنّ العمل بهذه البرامج و الأوامر متعلق بكل الأمّة، و لا يستثنى من ذلك أحد.

۶- لقد بيّنت آخر هذه الآيات درسا كبيرا لكل المسلمين ... درس يستطيع أن يسلك بهم طريق الحق و يصرفهم عن الانحرافات و الطرق الملتوية .. درس فيه صلاح المجتمع مع التوجّه اليه، و هو: إنّنا يجب أن نعى هذه الحقيقة، و هى أن كل خطوة نخطوها، و كل كلام نقوله، و كل فكرة تخطر فى أذهاننا، و لأى جهة ننظر، و على أى حال نكون، فليس اللّه سبحانه وحده يراقبنا و نحن على هذه

الأحوال و الأفعال، بل إنّ ملائكته تراقبنا أيضا، و ينظرون إلينا بكل دقة و انتباه.

إنّ أدنى حركة فی خفايا السماء و الأرض لا تخفی علی علمه و نظره، بل إنّها تثبت كلّها فی ذلک اللوح المحفوظ الذی لا طريق للغلط و الاشتباه و الاختلاف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۰

إليه .. فی صفحة علم اللّه اللامتناهی .. فی فكر الملائكة المقربين و كتّاب أعمال الآدميين .. فی ملفنا و صحيفة أعمالنا كلنا.

و لم يكن ذلک بدون مبرر و علة حيث

يقول الإمام الصادق: «كان رسول اللّه إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديدا»[۱۶۳] ...

فإذا كان رسول اللّه صلی اللّه عليه و آله و سلّم مع كل ذلک الإخلاص و العبودية، و مع كل تلک الخدمة للخلق و العبادة للخالق خائفا من عمله فی مقابل علم اللّه، فإنّ حالنا و حال الآخرين معلوم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۱

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۲ الی ۶۵]

اشارة

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۶۳) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۴) وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۵)

التّفسير

طمأنينة الروح فی ظل الإيمان:

لما شرحت الآيات السابقة بعضا من حالات المشركين و الأفراد غير المؤمنين، بيّنت هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون فی الطرف المقابل لأولئک تماما، حتی يعرف النور من الظلمة، و السعادة من الشقاء من خلال المقارنة بينهم كما هو شأن القرآن و طريقته دائما.

تقول الآية أوّلا: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و من أجل فهم دقيق لمحتوى هذا الكلام لا بدّ أن نعرف معنى الأولياء جيدا.

«الأولياء» جمع ولی، و قد أخذت فی الأصل من مادة: ولی، يلی، بمعنى عدم وجود واسطة بين شيئين، و تقاربهما و تتابعهما، و لهذا يطلق على كل شیء له نسبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۲

القرابة و القرب من شیء آخر سواء كان من جهة المكان أو الزمان أو النسب أو المقام، بأنّه ولی، و من هنا استعملت هذه الكلمة بمعنى الرئيس و الصديق و أمثال ذلک.

بناء على هذا، فإنّ أولياء اللّه هم الذين لا يوجد حاجب و حائل بينهم و بين اللّه، فقد زالت الحجب عن قلوبهم و يتقلبون فی نور المعرفة و الإيمان و العمل الخالص، و يرون اللّه بعيون قلوبهم بحيث لا يجد الشک أی طريق إلى تلک القلوب الوالهة، و بالنظر لهذه المعرفة باللّه الأزلی و القدرة اللامحدودة و الكمال المطلق، فإنّ كل شیء سوى اللّه حقير فی نظرهم و لا قيمة له، و فان لا أهمية له.

إنّ من یری المحیط یزهد فی القطرة، و من ینظر الی نور الشمس لا یهتم بنور الشمعة.

و من هنا یتّضح أنّ هؤلاء لماذا لا یخافون، لأنّ الخوف ینشأ عادة من احتمال فقدان النعم التی یمتلکها الإنسان، أو من الأخطار التی یمکن أن تهدده فی المستقبل، کما إنّ الغم و الهم یرتبط عادة بما یتعلق بالماضی، و یستولی علی الإنسان نتیجة فقدانه لإمکانیات و ثروات کانت تحت یده.

إنّ أولیاء و أحباء اللّه الحقیقیین متحررون من کل أشکال الارتباط و التعلق بعالم المادة، و یحکم «الزهد» بمعناه الحقیقی وجودهم، فهم لا یجزعون من فقدان الممتلکات المادیة و لا یخافون من المستقبل، و لا یشغلون أفکارهم بمثل هذه المسائل. و بناء علی ذلک فإن الغموم و الأخاویف التی ترتبط بالماضی و المستقبل، و التی تجعل الآخرین فی حال اضطراب و قلق دائم، لا سبیل لها إلی وجود هؤلاء.

إنّ الماء فی الإناء الصغیر قد یهتز من نفخة إنسان، لکن المحیط الکبیر لا یتأثر حتی بالعاصفة، و لذلک سمّوه المحیط الهادی: لِکَیْلا تَأْسَوْا عَلی ما فاتَکُمْ وَ لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۳

تَفْرَحُوا بِما آتاکُمْ ۱۶۴]. فلم یکن لهم تعلّق بما کان فی أیدیهم سابقا، و لا- یصیبهم الغم و الحزن فی الیوم الذی سیفارقونه، فإنّ روحهم أکبر، و فکرهم أسمی من أن تؤثر فیهم مثل هذه الحوادث فی الماضی و المستقبل.

علی هذا الأساس فإنّ الأمن و الطمأنینة الواقعیة هی الحاکمة علی وجودهم، و علی حدّ قول القرآن: أُولئِکَ لَهُمُ الْأَمْنُ ۱۶۵]، و بتعبیر آخر: أَلا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۱۶۶].

و الخلاصة هی أنّ الحزن و الخوف عند البشر یتولّدان عادة من حبّ الدنیا، فمن الطبیعی أن لا یصیب هؤلاء الذین نفضوا أیدیهم و قلوبهم من حبها خوف، أو حزن.

کان هذا هو البیان الاستدلالی للمسألة، و قد یعرض هذا الموضوع أحیانا ببیان آخر یتخذ شکلا عرفانیا بهذه الصورة:

إنّ أولیاء اللّه غارقون فی صفات جماله و جلاله، و ذائبون فی مشاهدة ذاته المقدسة إلی الحد نسوا کل شیء غیره، و معلوم أنّ الغم و الحزن و الخوف و الوحشة تحتاج حتما إلی تصور فقدان و خسارة شیء ما، أو مواجهة عدو أو موجود خطر، فمن لم یجعل لغیر اللّه مکانا فی قلبه و لا طریقا الی فکره، و لا یقبل فی روحه إله غیره، کیف یمکن أن یغتم و یخاف و یستوحش؟

لقد اتّضحت ممّا قلناه هذه الحقیقة أیضا، و هی أنّ المقصود من الغموم هی الغموم المادیة و الأخاویف الدنیویة، و إلّا فإنّ وجود أولیاء اللّه مملوء بالخوف و الخشیة .. الخوف من عدم أداء الواجبات و المسؤولیة. و الأسف و الحسرة علی أن یکون قد فاتهم شیء من الموفقیة، و لهذا الخوف و الحسرة صفة معنویة، فهما أساس تکامل وجود الإنسان و رقیّه، بعکس الخوف و الحزن الدنیویین فهما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۴

أساس الانحطاط و التسافل.

یقول أمیر المؤمنین علیه السّلام فی خطبته المعروفة مع همام، حیث یجسد فیها حالات أولیاء اللّه فی أرقی وصف:

«قلوبهم محزونة، و شرورهم مأمونة»

، ثمّ یقول:

«و لو لا الأجل الذی کتب اللّه علیهم لم تستقر أرواحهم فی أجسادهم طرفة عین، شوقا إلی الثواب، و خوفا من العقاب»[۱۶۷].

و یقول القرآن المجید- أیضا- فی شأن المؤمنین: الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۱۶۸]. و بناء علی ذلک فإنّ لهؤلاء خوفا آخر.

هناک بحث بین المفسّرین فیمن هم المقصودون من أولیاء اللّه، إلّا أنّ الآیة الثّانیة وضحت المطلب و أنهت النقاش، فهی تقول: الَّذِینَ

آمَنُوا وَ کانُوا یَتَّقُونَ

الملفت للنظر أنّها ذکرت الإیمان بصیغة الفعل الماضی المطلق، و التقوی بصیغة الماضی الاستمراری، و هذا إشارة إلی أنّ إیمان هؤلاء قد بلغ حد الکمال، إلّا أن التقوی التی تنعکس فی العمل الیومی، و تتطلب کل یوم و کل ساعة عملا جدیدا، و لها صفة تدریجیة، فإنّها قد ظهرت علی هؤلاء بصورة برنامج دائمی و مسئولیة متواصلة.

نعم .. إنّ الذین یرتکزون علی هذین الرکنین الأساسیین: الدین و الشخصیة، یحسون بدرجة من الطمأنینة داخل أرواحهم بحیث لا تهزهم أیة عاصفة من عواصف الحیاة. بل یقفون أمامها کالجبل، کما وصفهم

الحدیث: «المؤمن کالجبل الراسخ لا تحرکه العواصف».

و تؤکّد الآیة الثّالثة علی مسألة عدم وجود الخوف و الغم و الوحشة فی شخصیة و قلوب أولیاء الحق بهذه العبارة: لَهُمُ الْبُشْری فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَةِ و علی هذا فهم لیسوا خالین من الخوف و الغم و حسب، بل إنّ البشارة و الفرحة و السرور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۵

بالنعم الکثیرة و المواهب الإلهیة الا محدودة فی هذه الدنیا و الآخرة من نصیبهم.

(ینبغی الانتباه إلی أن البشری قد ذکرت مع ألف و لام الجنس بصورة مطلقة، فهی تشمل أنواع البشارات).

ثمّ تضیف من أجل التأکید أیضا: لا تَبْدِیلَ لِکَلِماتِ اللَّهِ بل هی ثابتة حقّة، و أن اللّه سبحانه سیفی بما وعد به أولیاءه، و ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ

و حولت الآیة الخطاب إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یمثل رأس سلسلة أولیاء اللّه و أحبائه مخاطبة له بلحن المواساة و تسلیة الخاطر: وَ لا یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِیعاً و لا یمکن أن یقوم العدو بعمل مقابل إرادة الحق، فإنّه تعالی عالم بکل خططهم و دسائسهم. ف هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ

ملاحظتان

اشارة

و هنا ملاحظتان ینبغی التوقف عندهما:

۱- ما هو المراد من البشارة فی الآیة؟

هناک بحث و جدال بین المفسّرین فی المراد من البشارة التی أعطاها اللّه فی الآیات أعلاه لأولیائه فی الدنیا و الآخرة، فالبعض اعتبرها مختصة بالبشارة التی تقدمها الملائکة للمؤمنین عند الاحتضار و الموت، وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۱۶۹].

و البعض الآخر یعتبرها إشارة إلی وعود اللّه بالنصر و التغلب علی الأعداء، و الحکم فی الأرض ما داموا مؤمنین و صالحین.

و قد فسّرت هذه البشارة فی بعض الرّوایات بأنّها المنامات الجیدة التی یراها المؤمنون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۶

إلّا أنّه، و کما قلنا، فإنّ إطلاق هذه الکلمة، و ألف لام الجنس فی البشری قد أخفیا فیها مفهوما واسعا بحیث أنّها تشمل کل نوع من البشارة و فرحة الإنتصار و الموفقیة، و یندرج فیها کل ما ذکر أعلاه، و فی الواقع فإنّ کلا منها إشارة إلی زاویة من هذه البشارة الإلهیة

الواسعة.

و ربّما كان ما فسّرت به البشرى فى بعض الرّوايات بأنّها المنامات الحسنة و الرؤيا الصالحة إشارة إلى أن كل البشارات حتى الصغيرة منها، تدخل أيضا فى مفهوم البشرى، لا أنّها منحصرة بها.

الواقع. و كما قيل سابقا أيضا، فإنّ هذا هو الأثر التكوينى و الطبيعى للإيمان و التقوى حيث تبتعد عن روح الإنسان أشكال الاضطراب و القلق المتولدة من الشك و التردد، و كذلك المتولدة من الذنب و التلوّث و الفجور، فكيف يمكن أن يشعر بالراحة و الاطمئنان من لا إيمان له، و من ليس له متكأ معنوى يعتمد عليه فى أعماق روحه؟! إنّه يبقى فى سفينة وسط بحر هائج متلاطم الأمواج تقذف به الأمواج العظيمة فى كل جانب وصوب و قد فتحت دوامات البحر أفواهها لابتلاعه!! كيف يمكن أن يهدأ بال و يطمئن خاطر من تلطخت يداه بالظلم و الجور و إراقة دماء الناس و غصب أموال و حقوق الآخرين؟ إنّه- و بخلاف المؤمنين- لا يتمتع حتى بالنوم الهادىء، و غالبا ما يرى المنامات المرعبة التى يرى نفسه فيها مشتبكا مع العدو، و هذا بنفسه دليل على اضطراب روح هؤلاء.

من الطبيعى أنّ الشخص الجانى- خاصّة إذا كان مطاردا- يرى فى عالم الرؤيا أشباحا مرعبة قد أحكمت الطوق لإلقاء القبض عليه، أو أنّ روح ذلك المقتول المظلوم تصرخ فى أعماق ضميره و تعذبه، و لهذا فإنّه عند ما يستيقظ يقول كيزيد:

مالى و للحسين؟ أو يقول ما قاله الحجاج: مالى و لسعيد بن جبير؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۷

۲- الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام

لقد وردت فى تفسير الآيات أعلاه روايات رائعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، نشير إلى بعض منها:

تلا أمير المؤمنين على عليه السّلام الآية: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ ... ثمّ سأل أصحابه:

أ تعلمون من هم أولياء اللّه؟ فقالوا: أخبرنا بهم يا أمير المؤمنين، فقال: «هم نحن و أتباعنا، فمن تبعنا من بعدنا طوبى لنا، و طوبى لهم أفضل من طوبى لنا»، قالوا: يا أمير المؤمنين، ما شأن طوبى لهم أفضل من طوبى لنا؟ ألسنا نحن و هم على أمر؟

قال: «لا، إنّهم حملوا ما لم تحملوا عليه، و أطاقوا ما لم تطيقوا»[۱۷۰].

و

فى كتاب كمال الدين: روى عن أبى بصير عن الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره فى غيبته، و المطيعين له فى ظهوره، أولئك أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون»[۱۷۱].

و

يروى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: إنّ أتباع هذا المذهب يرون فى أواخر لحظات عمرهم ما تقّر به أعينهم، قال الراوى: فقلت له بضع عشرة مرّة:

أى شىء؟ فقال فى كلّها: «يرى» لا يزيد عليها، ثمّ جلس فى آخرها فقال: «أبيت إلّا أن تعلم»؟ فقلت: نعم يا ابن رسول اللّه ... ثمّ بكيت، فرق لى، فقال: «يراهما و اللّه» فقلت: بأبى و أمى من هما؟ فقال: «ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و على عليه السّلام لن تموت نفس مؤمنة أبدا حتى تراهما». ثمّ قال: «إن هذا فى كتاب اللّه» فقلت: أين، جعلنى اللّه فداك؟ قال: «فى يونس، قول اللّه ها هنا: الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ»[۱۷۲].

و لدينا روايات أخرى بمضمون هذه الرّواية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۸

و من الواضح أنّ هذه الرّواية إشارة إلى قسم من بشارات المؤمنين المتقين، لا جميعها، و واضح- أيضا- أن هذه المشاهدة ليست مشاهدة جسم مادى. بل مشاهدة الجسم البرزخى بالنظر البرزخى، لأنّا نعلم أنّ روح الإنسان تبقى على جسمها البرزخى فى عالم البرزخ الذى يمثل الفاصل بين هذه الدنيا و عالم الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۹

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۶ الى ۶۷]

اشارة

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۷)

التّفسير

جانب من آيات عظمته:

تعود الآيات أعلاه مرّة أخرى إلى مسألة التوحيد و الشرك و التى تعتبر واحدة من أهم مباحث الإسلام، و بحوث هذه السورة، و تجرّ المشركين إلى المحاكمة و تثبت عجزهم.

فتقول أولا: أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ و إذا كان الأشخاص ملكه و منه، فمن الأولى أن تكون الأشياء الموجودة فى هذا العالم ملكه و منه، و بناء على هذه فإنّه مالك كل عالم الوجود، و مع هذا الحال كيف يمكن أن يكون مماليكه شركاءه؟

ثمّ تضيف الآية: وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۰

إِلَّا الظَّنَ إذ لا دليل و لا برهان لهم على كلامهم وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ

كلمة «الخرص» وردت فى اللغة بمعنى الكذب، و كذلك وردت بمعنى الحدس و التخمين، و فى الأصل- كما قاله الراغب فى مفرداته- بمعنى حزر الفواكه، ثمّ تخمينها على الأشجار، و لما كان الحدس و التخمين قد يخطئ أحيانا، فإنّ هذه المادة قد جاءت بمعنى الكذب أيضا.

و أساسا، فإنّ إتباع الظن و الحدس الذى لا يستند إلى أساس ثابت يجرّ الإنسان فى النهاية إلى وادى الكذب عادة. و الأشخاص الذين جعلوا الأصنام شريكة للّه سبحانه لم يكن لهم مستند فى ذلك إلّا الأوهام .. الأوهام التى يصعب علينا اليوم حتى تصورها، إذ كيف يمكن أن يصنع الإنسان تماثيل و مجسمات لا روح لها، ثمّ يعتبر ما صنعه و خلقه ربّا له و أنّه هو صاحب إرادته، و أن أمره بيده؟! يضع مقدراته فى يده و تحت تصرفه و يطلب منه حل مشاكله؟! أ ليست هذه الدعوى من أوضح مصاديق الزيف و الكذب؟

بل يمكن استفادة هذا من الآية كقانون كلى عام- بدقة قليلة- و هو أنّ كل من يتبع الظن و الأوهام الباطلة فإنّه سينجرّ فى النهاية إلى الكذب .. إنّ الحق و الصدق قائم على أساس القطع و اليقين، أمّا الكذب فإنّه يقوم على أساس التخمينات و الظنون و الشائعات! ثمّ و من أجل إكمال هذا البحث، و تبيّن طرق معرفة اللّه، و الابتعاد عن الشرك و عبادة الأوثان، أشارت الآية الثّانية إلى جانب من المواهب الإلهية التى أودعت فى نظام الخلقة و الدالّة على عظمة و قدرة و حكمة اللّه عزّ و جلّ، فقالت: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً.

إنّ نظام النور و الظلمة الذی أکدت علیه آیات القرآن مرارا، نظام عجیب و غزیر الفائدة، فهو من جهة یضیء عرصة حیاة البشر بإفاضة النور فی مدّة معینة و یحرکها و یبعثها علی السعی و الجد، و من جهة أخری فإنّه بإرخاء سدول اللیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۱

المظلم و هدوئه یهیء الروح و الجسد المتعبین للعمل و الحرکة من جدید.

نعم إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ أولئک الذین یسمعون و یدرکون، و بعد إدراک الحقیقة یتبعونها و یسیرون علی نهجها.

ملاحظات

۱- إنّ الهدوء و السکون النفسی الذی هو الهدف من خلق اللیل بات من المسلمات العلمیة بعد أن أثبته العلم الیوم، فإنّ حجب الظلام لیست وسیلة إجباریة لإیقاف النشاطات الیومیة و حسب، بل لها أثر مباشر علی السلسلة العصبیة و عضلات الإنسان و سائر الحیوانات فتجعلهم فی حالة استراحة و نوم و سکون، و ما أجهل بعض الناس الذین یحیون اللیل بالملذات و الرغبات، و یقضون النهار- و خاصّة الفجر المنشط- فی النوم، و لهذا السبب فإنّ أعصابهم متوترة و غیر متزنة دائما.

۲- إذا علمنا أنّ الإبصار بمعنی النظر، فإنّ معنی جملة: وَ النَّهارَ مُبْصِراً سیصبح: إنّ اللّه قد جعل النهار ناظرا، فی حین أنّ النهار مبصر لا مبصر! إن هذا تشبیه و مجاز من قبیل توصیف السبب بأوصاف المسبب، کما یقولون فی شأن اللیل: لیل نائم، فی حین أنّ اللیل لا ینام، بل هو سبب لأنّ ینام الناس.

۳- إنّ الآیات أعلاه تدین الظن و الوهم مرّة أخری و تردّه، لکن لما کان الکلام عن أوهام عبدة الأوثان الخرافیة التی لا أساس لها، فإنّ الظّن هنا لا یعنی الظّن العقلائی المدروس الذی یعتبر حجة فی بعض الموارد، مثل شهادة الشهود و ظاهر الألفاظ و الإقرارات و المکاتبات، و بناء علی هذه فإنّ الآیات أعلاه لا یمکن أن تکون دلیلا علی عدم حجیة الظن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۲

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۶۸ الی ۷۰]

اشارة

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِیُّ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَکُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ لا یُفْلِحُونَ (۶۹) مَتاعٌ فِی الدُّنْیا ثُمَّ إِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِیقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِیدَ بِما کانُوا یَکْفُرُونَ (۷۰)

التّفسیر

تستمر هذه الآیات- أیضا- فی بحثها مع المشرکین، و تذکر واحدة من أکاذیب و اتهامات هؤلاء لساحة اللّه المقدسة، فتقول أوّلا: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً.

إنّ هذا الکلام قاله المسیحیون فی حق المسیح علیه السّلام، ثمّ عبدة الأوثان فی عصر الجاهلیة فی حق الملائکة، حیث کانوا یظنون أنّها بنات اللّه، و قاله الیهود فی شأن عزیر. و یجیبهم القرآن بطریقین:

الأوّل: إنّ اللّه سبحانه منزّه عن کل عیب و نقص، و هو مستغن عن کل شیء:

سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ و هـذا إشارة إلی أنّ الحاجـة إلی الولـد، إمّا للحاجـة الجسـمیة إلی قوته و مساعدته، أو للحاجة الروحیة و العاطفیة، و لما کان اللّه سبحانه منزّه عن کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۳

عیب و نقص و حاجة، فلا یمکن أن یتخذ لنفسه ولدا.

لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ و مع هذا الحال فأی معنی لأن یتخذ لنفسه ولدا لیطمئنه و یهدئه، أو یعینه و یساعده.

ممّا یلفت النظر أنّ الآیـة عبّرت هنا ب (اتخـذ) و هذا یوحی أنّ هؤلاء کانوا یعتقدون أنّ اللّه تعالی لم یلد ذلک الولد، بل یقولون: إنّ اللّه قد اختار بعض الموجودات کولد له، تماما مثل أولئک الذین لا یولد لهم ولد، و یتبنون طفلا من دور الحضانة و أمثالها.

علی کل حال، فإنّ هؤلاء الجاهلین و قصیری النظر وقعوا فی اشتباه المقارنة بین الخالق و المخلوق، و کانوا یقیسون ذات اللّه الصمدیة علی وجودهم المحدود المحتاج.

و الجواب الثّانی الذی یذکره القرآن لهؤلاء هو: إنّ من یدعی شیئا یجب علیه أن یقیم دلیلا علی مدعاه: إِنْ عِنْدَکُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أی إنّکم علی فرض عـدم قبولکم للدلیل الأوّل الواضح، فإنّکم لا تسـتطیعون أن تنکروا هذه الحقیقة، و هی أن ادعاءکم و قولکم تهمة و قول بغیر علم.

و تعید الآیة التّالیة عاقبة الافتراء علی اللّه المشؤومة. فتوجه الخطاب إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و تقول: قُلْ إِنَّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ لا یُفْلِحُونَ

و علی فرض أن هؤلاء یستطیعون بافتراءاتهم و أکاذیبهم أن ینالوا المال و المقام لعـدّة أیّام، فإنّ ذلک مَتاعٌ فِی الدُّنْیا ثُمَّ إِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِیقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِیدَ بِما کانُوا یَکْفُرُونَ

الواقع أنّ هذه الآیة و التی قبلها ذکرتا نوعین من العقاب لهؤلاء الکذابین الذین نسبوا إلی اللّه تهمة اتّخاذ الولد:

الأوّل: إنّ هـذا الکـذب و الافتراء لا یمکن أن یکون أساسا لفلاح و نجاح هؤلاء أبـدا، و لا یوصـلهم إلی هـدفهم مطلقا، بل إنّهم یصبحون حیاری تائهین تحیط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۴

التعاسة و الشقاء و الهزیمة بأطرافهم.

الثّانی: علی فرض أنّهم استطاعوا أن یستغفلوا الناس و یخدعوهم بهذه الکلمات لعدة أیّام، و یصلوا عن طریق الدیانة الوثنیة إلی رفاه و عیش رغید، إلّا أنّ هذا التمتع لا دوام و لا بقاء له، و العذاب الإلهی الخالد فی انتظارهم.

ملاحظات

۱- إنّ کلمـة «سـلطان» تعنی هنا الـدلیل، و هذه الکلمة أعمق و أبلغ من کلمة الدلیل، لأنّ الدلیل بمعنی الدلالة و الإرشاد أمّا السـلطان فهو الشیء الذی یسلط الإنسان علی الطرف المقابل، و یناسب موارد البحث و الجدال و النقاش، و هو إشارة إلی الدلیل القاطع القوی.

۲- «المتاع» یعنی الشیء الذی یستفید منه الإنسان و یتمتع به، و مفهومه واسع جدا یشمل کل لوازم و وسائل الحیاة و المواهب المادیة. یقول الراغب فی المفردات: کلما ینتفع به علی وجه ما، فهو متاع و متعة.

۳- إنّ التعبیر ب (نـذیقهم) الـذی ورد فی شأن العـذاب الإلهی یشـیر إلی أنّ هـذا العذاب الذی سـینال هؤلاء بدرجة من الشدّة بحیث کأنّهم یذوقونه بألسنتهم و أفواههم، و هذا التعبیر أبلغ جدا من المشاهدة، بل و حتی من لمس العذاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۵

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۱ الى ۷۳]

اشارة

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ (۷۱) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۷۲) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳)

التّفسير

جانب من جهاد نوح:

الآيات أعلاه بداية لبيان قسم من تأريخ الأنبياء و قصص و حوادث الأمم الماضية لتوعية و إيقاظ المشركين و الفئات المخالفة، فيأمر اللّه نبيّه أن يتابع حديثه السابق مع المشركين بشرح تأريخ الماضين ليكون عبرة لهم.

فى البداية تطرقت إلى قصّة نوح، فقالت: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۶

قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ و لهذا فإنّى لا أخاف غيره. ثمّ تضيف: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ أى ادعوا أصنامكم أيضا لتعينكم فى المشورة، حتى لا يبقى شىء خافيا على أحد و لا يتعرض منكم الى الهم و الغم أحد ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً بل اتّخذوا قراركم فى شأنى بكل وضوح.

«غمّة» من مادة غم، و هى تعنى خفاء الشىء و تغطيته، و إنّما يقولون للحزن: غمّ أيضا لأنّه يغطى قلب الإنسان.

ثمّ يقول: ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ ۱۷۳].

إنّ نوحا رسول اللّه الكبير صمد مقابل أعدائه الأقوياء المعاندين و واجههم بقاطعية و حزم و فى منتهى الشجاعة و الشهامة مع أصحابه القليلين الذين كانوا معه، و كان يستهزئ بقواهم و يريهم عدم اهتمامه بخططهم و أفكارهم و أصنامهم، و بهذه الطريقة كان يوجه ضربة نفسية عنيفة إلى أفكارهم.

و إذا علمنا أنّ هذه الآيات نزلت فى مكّة فى الوقت الذى كان يعيش فيه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ظروفا تشبه ظروف نوح، و كان المؤمنون قلّة، سيتّضح أنّ القرآن يريد أن يعطى للنّبى- أيضا- نفس هذا الدرس بأنّ لا يهتم بقدرة العدو، بل يسير و يتقدم بكل حزم و جرأة و شجاعة، لأنّ اللّه يسنده و ينصره، و لا تستطيع أية قوّة أن تقف فى مقابل قدرته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۷

و مع أنّ بعض المفسّرين اعتبر تعبير نوح هذا أو أمثاله فى تاريخ سائر الأنبياء نوعا من الإعجاز، لأنّهم مع عدم امتلاكهم الإمكانيات الظاهرية فإنّهم كانوا يهدّدون العدو بالهزيمة، و أعلنوا خبر انتصارهم النهائى، و هذا لا يمكن قبوله إلّا عن طريق الإعجاز، إلّا أنّ هذا على كل حال درس كبير لكل القادة الإسلاميين بأن لا يخافوا و لا ينهاروا أمام عظمة الأعداء و كثرتهم، بل إنّهم باتكالهم على اللّه كانوا يدعون هؤلاء إلى الميدان بكل حزم و اقتدار و يستصغرون قوتهم، فكان هذا عاملا مهمّا فى تقوية معنويات الأتباع و المؤيدين، و تدمير معنويات العدو و انهيارها.

و ذكرت الآيـة التّالية بيانا آخر عن نوح من أجل إثبات أحقيته، هناك حيث تقول: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكَمْ مِنْ أَجْرٍ[۱۷۴] إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فإنّی أعمل له، و لا أريد الأجر إلّا منه وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

إنّ مقولـة نوح هذه درس آخر للقادة الإلهيين بأن لا يتوقعوا أی جزاء مادی و معنوی من الناس لقاء دعوتهم و تبليغهم، لأنّ هذا التوقع يوجد نوعا من التعلق النفسـی الذی يؤدی الی عرقلة أساليب الدعوة الصريحة و النشاطات الحرة، و من الطبيعی عن ذلک أن يقلّ تأثير دعـوتهم و إبلاـغهم، و لهـذا السـبب فـإنّ الطريـق الصـحيح فی الـدعوة إلی الإسـلام أن يعتمـد المبلّغون و الـداعون فی إدارة أمورهم المعاشـية علی بيت المال فقط، لا بالاحتجاج إلی الناس! و تبيّن الآيـة الأخيرة عاقبـة و مصـير أعـداء نوح، و صدق توقعه و قوله السابق بهذه الصورة: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ۱۷۵] و لم ننقذهم و حسب، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۸

وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا.

و فی النهاية توجه الخطاب إلی النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و تقول: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۹

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۷۴]

اشارة

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (۷۴)

التّفسير

الرّسل بعد نوح:

بعـد انتهاء البحث الإجمالی حول قصّة نوح، أشارت هذه الآية إلی الأنبياء الآخرين الذين جاؤوا بعد نوح و قبل موسـی عليهما السّـلام لهداية الناس كإبراهيم و هود و صالح و لوط و يوسف عليهم السّـلام، فقالت: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فقد كانوا مسلّحين كنوح بسلاح المنطق و الإعجاز و البرامج البناءة، إلّا أنّ الذين سلكوا طريق العناد و كذّبوا الأنبياء السابقين، كذّبوا هؤلاء الأنبياء أيضا و لم يؤمنوا بهم فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ و كان ذلك نتيجـة للعصـيان و التمرد و عـداء الحق الـذی أوصـد تلك القلوب كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۰

ملاحظتان

۱- جملة: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ تشير إلی أنّ فئة من بين الأمم كانوا لا يسلمون أمام دعوة أی نبی و مصلح، و استمروا فی الثبات علی موقفهم، و لم تكن تؤثر فيهم دعوة الأنبياء المتكررة أدنی أثر، و بناء علی هـذا فإن الجملـة المـذكورة تشـير إلی طائفة وقفت فی وجه دعوة أنبياء متعددين فی زمانين (و هذا هو ظاهر الجملة حيث أن مرجع كل الضمائر واحد).

و قـد احتمل أيضا فی معنی هذه الآية أنّها تشـير إلی جماعتين مختلفتين، إحداهما كانت فی زمن نوح و كذّبت دعوته، و الأخری هم

الـذين جاؤوا بعـد أولئك و سـلكوا طريقهم فى إنكار و تكذيب الأنبياء، و بناء على هذا، فإنّ معنى الجملة يصـبح: إنّ المعتدين أقوام آخرين امتنعوا عن الإيمان بالشىء الذى امتنع الماضون عن الإيمان به.

طبعا، بملاحظة أنّ مخالفى دعوة نوح قد هلكوا أثناء الطوفان، سيقوى هذا الاحتمال فى تفسير هذه الآية، إلّا أنّ ذلك يستلزم على كل حال أن نفرق بين مرجع الضمائر فى الجملة، و هى واو الجمع فى كانوا، و ليؤمنوا، و كذبوا.

۲- من الواضـح أنّ جملـة: كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ لا تـدل على الجبر، و قد أخفى تفسـير ذلك فيها، لأنّها تقول: إنّنا نطبع على قلوب المعتـدين حتى لا يـدركوا شـيئا، و بناء على هـذا فإنّ الاعتداءات المتكررة المتلاحقة على حدود الأحكام الإلهية و الحق و الحقيقـة كانت تصـدر من هؤلاء، و كانت تترك أثرها على قلوبهم تدريجيا حتى سـلبت منهم قدرة تشـخيص و تعيين الحق، و وصـل الأمر بهم إلى أن يصبح التمرد و العصيان و المعصية طبيعة ثانية لديهم، بحيث لا يذعنون و لا يسلّمون أمام أية حقيقة[۱۷۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۱

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۵ الى ۷۸]

اشارة

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۷۵) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (۷۶) قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (۷۷) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (۷۸)

التّفسير

جانب من جهاد موسى و هارون:

لقد جرى ذكر قصـص الأنبياء و الأمم السابقة كنماذج حيّة، و بدأ الحديث أوّلا عن نوح عليه السّلام، ثمّ عن الأنبياء بعد نوح، و وصل الـدور فى هذه الآيات إلى موسـى و هارون عليهما السّـلام و مواجهاتهم المسـتمرة مع فرعون و أتباعه، فتقول الآية الأولى: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآياتِنا[۱۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۲

«الملأ» كما أشـرنا إلى ذلك سابقا تطلق على الأشـرف الأثرياء اللامعين الذين يملأ ظاهرهم العيون و يلاحظ حضورهم فى كل مكان من المجتمع. و تأتى عادة فى مثل هذه الآيات محل البحث بمعنى المناصرين و المشاورين و الملتفين حول شخص ما.

و نرى الكلام فى هذه الآيات يدور حول بعثة موسـى إلى فرعون و ملئه فقط، فى حين أنّ موسـى مبعوث لكل الفراعنة و بنى إسرائيل، و علّة ذلك أنّ مقـدرات المجتمع فى يد الهيئة الحاكمة، و بناء على هذا فإنّ أى برنامج إصـلاحى و ثورى يجب أن يسـتهدف هؤلاء أوّلا، كما تقول ذلك الآية (۱۲) من سورة التوبة:

فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ.

إلّا أنّ فرعـون و أتبـاعه امتنعوا عن قبـول دعوة موسـى، و عن التسـليم فى مقابـل الحق: فَاسْتَكْبَرُوا و نظرا للتكـبر و الاسـتعلاء و عـدم امتلاكهم لروح التواضع فإنّهم لم يلتفتوا إلى الحقائق الواضحة فى دعوة موسى، و أصرّوا و استمروا فى إجرامهم:

وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ

و تتحدث الآية التّالية عن مراحل مواجهة الفراعنة لموسى و أخيه هارون، و أوّل تلك المراحل هى مرحلة الإنكار و التكذيب و الافتراء و اتهامهما بسوء النية، و ابطال سنن الأجداد، و الإخلال بالنظام الاجتماعى، كما يقول القرآن: فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ

إنّ جاذبية دعوة موسى الخارقة من جهة، و معجزاته الباهرة من جهة أخرى، و تزايد نفوذه بصورة محيرة من جهة ثالثة، دفعت الفراعنة إلى التفكير فى حل لهذه المسألة، فلم يجدوا وسيلة أفضل من رميه بالسحر، فأعلنوا أنّه ساحر و أنّ عمله سحر ليس إلّا، و هذه التهمة سائدة فى جميع مراحل الأنبياء و على طول تاريخهم، خاصّة نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

إلّا أنّ موسى عليه السّلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار و أوضح كذب هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۳

و أبطل تهمتهم، ففى البداية: قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا[۱۷۸].

صحيح أنّ لكلّ من السحر و المعجزة نفوذا و تأثيرا، و أن من الممكن أن يؤثر الحق و الباطل على إدراكات الناس و نفسياتهم، إلّا أن السحر الذى هو أمر باطل يتميز تماما عن المعجزة التى هى حق، إذا لا يمكن المقارنة بين نفوذ الأنبياء و نفوذ السحرة، فإنّ أعمال السحرة تفتقد الى الهدفية و محدودة و لا قيمة لها، و معجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحية و تغييرية و تربوية واضحة، و تعرض بشكل واسع و غير محدود.

إضافة إلى أنّه: وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ و هذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر. ففى الدليل السابق أثبت اختلاف السحر و المعجزة و وجه و هدف الإثنين و افتراق أحدهما عن الآخر، أمّا هنا فإنّ الدليل يستعين لإثبات المطلب باختلاف حالات السحرة و أصحاب المعاجز.

إنّ السحرة، و بحكم عملهم و فنهم الذى له صفة الانحراف و الإغفال، أفراد انتهازيون يفكرون فى الربح، يستغفلون الناس و يخادعونهم، و يمكن معرفتهم من خلال أعمالهم. أمّا الأنبياء فهم رجال يطلبون الحق، حريصون على هداية الناس، مطهرون، لهم هدف و غاية، و لا يهتمون بالأمور المادية.

إن السحرة لا يرون وجه الفلاح مطلقا، و لا يعملون إلّا من أجل المال و الثروة و المنصب و المنافع الشخصية، فى حين أن هدف الأنبياء هداية خلق اللّه و إصلاح المجتمع الإنسانى من جميع جوانبه المادية و المعنوية.

ثمّ يستمر فرعون و ملؤه فى رمى موسى عليه السّلام بسيل الاتهامات الصريحة، حيث قالُوا: أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا. الواقع، أنهم قدموا صنم «سنة الآباء» و عظمتهم الخيالية و الأسطورية حتى يوجهوا الرأى العام ضد موسى و هارون،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۴

بأنّهما يريدان أن يعبثا بمقدسات مجتمعكم و بلادكم.

ثمّ استمروا فى هذا التشويه، و قالوا بأن دعوتكم إلى دين اللّه ما هى إلّا كذب محض، و كل هذه مصائد و خطط خيانية بهدف التسلط على الناس: وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ

فى الحقيقة، إنّ هؤلاء لما كانوا يسعون دائما من أجل الحكم الظالم على الناس كانوا يظنون أنّ الآخرين مثلهم، و هكذا كانوا يفسرون مساعى المصلحين و الأنبياء.

وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ لأنا على علم بنواياكم و خططكم الهدامة.

و كانت هذه هى المرحلة الأولى من المواجهة السلبية مع موسى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۵

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۹ الى ۸۲]

اشارة

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِی بِکُلِّ ساحِرٍ عَلِیمٍ (۷۹) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسی أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۸۰) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسی ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَیُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا یُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِینَ (۸۱) وَ یُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِکَلِماتِهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸۲)

التّفسیر

المرحلة الثّانیة:

تفصل هذه الآیات مرحلة أخری من المجابهة، و تتحدث عن إجراءات فرعون العملیة ضد موسی و أخیه هارون.

فعند ما لا حظ فرعون قسما من معجزات موسی، کالید البیضاء و الحیة العظیمة، و رأی أنّ ادعاء موسی لیس واهیا بدون دلیل و برهان، و أنّ هذا الدلیل سیؤثر فی جمیع أنصاره أو الآخرین قلیلا أو کثیرا، فکّر بجواب عملی کما یقول القرآن:

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِی بِکُلِّ ساحِرٍ عَلِیمٍ فقد کان یعلم أنّ کل عمل یجب أن یؤتی من طریقة و یجب أن یستعین بالخبراء بذلک الفن.

هل إنّ فرعون کان حقیقة فی شکٍ من أحقّیة دعوة موسی، و کان یرید أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۶

یحاربه و یواجهه عن هذا الطریق؟ أم أنّه کان یعلم أنّه مرسل من اللّه، إلّا أنّه کان یظن أنّه یستطیع بواسطة ضجّة السحرة و غوغائهم أن یهدئ الناس، و یمنع مؤقتا خطر نفوذ موسی فی الأفکار العامّة، و یقول للناس بأنّه إن جاء بعمل خارق للعادة فإنّنا غیر عاجزین عن القیام بمثله، و إذا شاءت إرادتنا الملوکیة ذلک، فإنّ مثل هذا الشیء سهل یسیر بالنسبة لنا! و یبدو أنّ الاحتمال الثّانی أقرب، و یؤید ذلک سائر الآیات المرتبطة بقصّة موسی التی وردت فی سورة طه و أمثالها، و أنّه هبّ لمجابهة موسی عن وعی و درایة.

علی کل حال: فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسی أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ

جملة أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ تعنی فی الأصل: ألقوا کل ما تستطیعون إلقاءه، و هذا إشارة إلی الحبال و العصی الخاصّة التی کان جوفها خالیا، وصبت فیه مواد کیماویة خاصّة بحیث أنّها تتحرک و تتقلب إذا ما قابلت نور الشمس. و الشاهد علی هذا الکلام الآیات التی وردت فی سورة الأعراف و الشعراء، ففی الآیة (۴۳)- (۴۴) من سورة الشعراء نقرأ: قالَ لَهُمْ مُوسی أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِیَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ و لکن من الطبیعی أنّها تتضمن هذا المعنی أیضا بأنّ أظهروا کل ما تملکون من القدرة فی المیدان.

علی کل حال، فإنّ هؤلاء قد عبؤوا کل ما یملکون من قدرة، و ألقوا کل ما أتوا به- معهم فی وسط الحلبة: فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسی ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَیُبْطِلُهُ فأنتم أفراد فاسدون و مفسدون لأنّکم تخدمون حکومة جبارة و ظالمة و تعملون علی تقویة دعائم هذه الحکومة الغاشمة الدکتاتوریة و هذا بنفسه أقوی دلیل علی کونکم مفسدین، و إِنَّ اللَّهَ لا یُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِینَ

فی الواقع، إنّ کل إنسان ذی عقل و علم یستطیع أن یدرک هذه الحقیقة حتی قبل انتصار موسی علی السحرة، و هی أنّ عمل السحرة لا یقوم علی أساس من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۷

الحق. لأنّه یصب فی طریق تقویة دعائم الظلم و الجور، فأی شخص لم یکن یعلم أنّ فرعون غاصب و ظالم و مفسد؟ و معه ألا تعتبر خدمة مثل هذا الجهاز الحاکم مشارکة فی ظلمه و فساده؟ و هل یمکن أن یکون عمل هؤلاء صحیحا و إلهیا؟ کلّا مطلقا، و بناء علی

هذا كان من الواضح أنّ اللّه سيبطل هذه المساعى المفسدة.

هل أنّ التعبير ب «سيبطله» دليل على أنّ السحر حقيقة واقعية، إلّا أنّ اللّه يبطله؟

أم أنّ المقصود من الجملة هو أنّ اللّه يكشف كون السحر باطلا؟

إنّ الآية (۱۱۶) من سورة الأعراف تقول: إنّ سحر السحرة قد أثر فى أعين الناس فخوفوهم به: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ و هذا التعبير لا ينافى أن يكون هؤلاء قد أوجدوا نوعا من الحركات الواقعية فى تلك الحبال و العصى بواسطة سلسلة من الوسائل المرموزة كما وقع ذلك فى المفهوم و المعنى اللغوى للسحر، و خاصّة بالاستفادة من الخواص الفيزيائية و الكيميائية للأجسام المختلفة، إلّا أنّ من المسلّم به أنّ هذه الحبال و العصى لم تكن موجودات حيّة كما ظهرت أمام أعين الناس، كما قال القرآن فى سورة طه الآية (۶۶): فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى بناء على هذا، فإنّ بعض تأثير السحر واقعى، و البعض الآخر و هم و خيال.

و فى الآية الأخيرة، إنّ موسى قال لهؤلاء: إنّ النصر و الغلب لنا فى هذه المبارزة حتما. لأنّ اللّه سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطة المنطق القاطع، و معجزات أنبيائه القاهرة، و يفضح و يخزى المفسدين و أهل الباطل و إن كره المجرمون ذلك:

وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

و المراد من «كلماته» إمّا وعد اللّه بنصرة الرسل و إحقاق الحق، أو معجزاته القاهرة القوية[۱۷۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۸

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۸۳ الى ۸۶]

اشارة

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِى الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (۸۳) وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (۸۴) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۸۵) وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۸۶)

التّفسير

المرحلة الثّالثة:

عكست هذه الآيات مرحلة أخرى من المواجهة الثورية بين موسى و فرعون، ففى البداية تبيّن وضع المؤمنين فتقول: فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ

إنّ هذه المجموعة الصغيرة القليلة، و التى كان الشباب و الأشبال يشكلون أكثريتها بمقتضى ظاهر كلمة ذرية، كانت تواجه ضغوطا شديدة من فرعون و أتباعه الى درجة أنّهم خافوا أن يصل بهم الأمر الى ترك دين موسى نتيجة هذه الضغوط الشديدة: عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۹

الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ

و هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه من كانت هذه الذريّة التى آمنت بموسى؟

و إلى من يعود ضمير مِنْ قَوْمِهِ إلى موسى أم فرعون؟

فذهب البعض الى أنّ هؤلاء كانوا نفرا قليلا من قوم فرعون و الأقباط كمؤمن آل فرعون، و زوجة فرعون و ماشطتها و وصيفتها، و الظاهر أنّ الدليل على اختيار هذا الرأى أن أغلب بنى إسرائيل قد آمنوا. و هذا لا يناسب التعبير ب ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ لأنّه يدل على صغر هذه المجموعة.

إلّا أنّ البعض الآخر يرى أنّهم جماعة من بنى إسرائيل، و الضمير يعود إلى موسى، لأنّ اسم موسى قد ذكر قبله، و حسب قواعد اللغة و النحو فإنّ الضمير يجب أن يرجع إليه.

و لا شك أنّ المعنى الثّانى أوفق لظاهر الآية، و الدليل الآخر الذى يؤيد ذلك هو الآية التالية التى تقول: وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ ... أى إنّه خاطب المؤمنين ب «قومى».

الإشكال الوحيد الذى يبقى على هذا التّفسير، هو أنّ جميع بنى إسرائيل قد آمنوا بموسى، لا جماعة منهم.

إلّا أنّ هذا الإيراد يمكن دفعه بملاحظة هذه النقطة، و هى أنّنا نعلم أنّ الشباب فى كل ثورة هم أوّل مجموعة تنجذب إليها، فإضافة إلى قلوبهم الطاهرة و أفكارهم السليمة، فإنّ الحماس و الهيجان الثورى لديهم أكبر و أقوى، علاوة على أنّهم غير متعلقين بالأمور المادية التى تدعو الكبار إلى المحافظة عليها و غيرها الملاحظات المختلفة الأخرى، فليس لهم مال و ثروة يخافون ضياعها، و لا منصب و لا مقام يخشون فقدانه.

بناء على هذا، فمن الطبيعى أن تنجذب هذه الفئة إلى موسى، و تعبير «الذريّة» يناسب هذا المعنى جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۰

هذا إضافة إلى أنّ كبار السن الذين التحقوا فيما بعد بهذه الفئة لم يكن لهم دور مهم فى المجتمع آنذاك، و كانوا ضعفاء و عاجزين، و هذا التعبير- كما نقل عن ابن عباس- فى حقهم ليس ببعيد كما أنّنا حينما ندعو بعض أصدقائنا نقول: اذهب وادع الأولاد، بالرغم من أنهم قد يكونون كبارا، و إذا لم نتفق و هذا المعنى للآية، فإنّ الاحتمال الأوّل يبقى على قوته.

إضافة إلى أن الذرية و إن كانت تطلق عادة على الأولاد، إلّا أنها من ناحية الأصل اللغوى- كما يقول الراغب فى المفردات- تشمل الصغير و الكبير.

و الملاحظة الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هنا، هى أنّ المراد من الفتنة التى تستفاد من جملة أَنْ يَفْتِنَهُمْ هو صرف هؤلاء عن دين موسى بالتهديد و الإرعاب و التعذيب، أو بمعنى آخر إيجاد مختلف المصاعب و العراقيل امامهم سواء كانت دينية أو غير دينية.

على كل حال، فقد حدّث موسى هؤلاء بلسان المحبّة و المودة من أجل تهدئة خواطرهم و تسكين قلوبهم: وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ

إنّ حقيقة التوكل هى إلقاء العمل و التصرف فى الأمور على كاهل الوكيل، و ليس معنى التوكل أن يترك الإنسان الجد و السعى و ينزوى فى زاوية و يقول: إنّ اللّه معتمدى و كفى، بل معناه أن يبذل قصارى جهده، فإذا لم يستطع أن يحل المشكلة و يرفع الموانع من طريقه، فلا يدع للخوف طريقا إلى نفسه، بل يصمد أمامها بالتوكل و الاعتماد على لطف اللّه و الاستعانة بذاته المقدسة و قدرته اللامتناهية، و يستمر فى جهاده المتواصل، و حتى فى حالات القدرة و الاستطاعة فإنّه لا يرى نفسه مستغنيا عن اللّه، لأنّ كل قدرة يتمتع بها هى من اللّه فى النهاية.

هذا هو مفهوم التوكل الذى لا ينفك عن الإيمان و الإسلام، لأنّ الفرد المؤمن و المذعن لأوامر اللّه يعتقد أنّه قادر على كل شىء، و كل عسير مقابل إرادته سهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۱

يسير. و يعتقد بوعد اللّه تعالى للمؤمنين بالنصر.

إنّ هؤلاء المؤمنين المخلصين أجابوا دعوة موسى بالتوكل: فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا. ثمّ رجوا من اللّه سبحانه أن ينجيهم من شر الأعداء و وساوسهم و ضغوطهم و يؤمّنهم: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِکَ مِنَ الْقَوْمِ الْکافِرِينَ و الجميل فى الأمر أنّ فرعون قد وصف فى الآية الأولى بأنّه من الْمُسْرِفِينَ و فى الآية الثّالثة سمّى هو و أعوانه باسم الظَّالِمِينَ و فى آخر آية بأنّهم من الْکافِرِينَ

إنّ هذا التفاوت فى التعبيرات ربّما لأنّ الإنسان يشرع فى مسير الذنب و الخطأ من الإسراف أوّلا، أى التعدى على الحدود، ثمّ الظلم، و ينتهى عمله أخيرا إلى الكفر و الإلحاد!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۲

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۸۷ الى ۸۹]

اشارة

وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِکُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَکُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۸۷) وَ قالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّکَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِکَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۸۸) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُکُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸۹)

التّفسير

المرحلة الرّابعة: مرحلة البناء من أجل الثّورة:

شرحت هذه الآيات مرحلة أخرى من نهضة و ثورة بنى إسرائيل ضد الفراعنة.

فتقول أولا: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِکُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَکُمْ قِبْلَةً فالأمر الالهى يقرر اختيار البيوت لبنى إسرائيل بمصر و ان تكون هذه البيوت متقاربة و متقابلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۳

ثمّ تطرقت إلى مسألة تربية النفس معنويا و روحيا، فقالت: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ و من أجل أن تطرد آثار الخوف و الرعب من قلوب هؤلاء و تعيد و تزيد من قدرتهم المعنوية و الثّورية قالت: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

يستفاد من مجموع هذه الآية أنّ بنى إسرائيل كانوا فى تلك الفترة بصورة جماعة متشتتة مهزومة و متطفلة و ملوّثة و خائفة، فلا مأوى لهم و لا اجتماع مركزى، و لا برنامجا معنويا بنّاء، و لا يمتلكون الشجاعة و الجرأة اللازمة للقيام بثورة حقيقية.

لذلك فإنّ موسى و أخاه هارون قد تلقوا مهمّة وضع برنامج فى عدّة نقاط من أجل تطهير مجتمع بنى إسرائيل، و خاصّة فى الجانب الروحى:

۱- الاهتمام أوّلا بمسألة بناء المساكن، و عزل مساكنهم عن الفراعنة، و كان لهذا العمل عدّة فوائد:

إحداها: أنّهم بتملّكهم المساكن فى بلاد مصر سيشعرون برابطة أقوى تدفعهم للدفاع عن أنفسهم و عن ذلك الماء و التراب.

و الأخرى: أنّهم سينتقلون من الحياة الطفيلية فى بيوت الأقباط إلى حياة مستقلة.

و الثّالثة: أنّ أسرار أعمالهم و خططهم سوف لا تقع فى أيدى الأعداء.

۲- أن يبنوا بيوتهم متقاربة و يقابل بعضها الآخر. لأنّ القبلة فى الأصل بمعنى حالة التقابل، و إطلاق كلمة القبلة على ما هو معروف

الیوم إنّما هو معنی ثانوی لهذه الکلمة[۱۸۰].

و أدّی هذا العمل الی تجمع و تمرکز بنی إسرائیل بشکل فاعل، و استطاعوا بذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۴

وضع المسائل الاجتماعیة بعامّة قید البحث و التحقیق، و أن یجتمعوا مع بعضهم لأداء المراسم الدینیة و الشعائر المذهبیة، و أن یرسموا الخطط اللازمة من أجل حریتهم.

۳- التوجه إلی العبادة، و خاصّیة الصلاة التی تحرر الإنسان من عبودیة العباد، و تربطه بخالق کل القوی و القدرات، و تغسل قلبه و روحه من لوث الذنوب، و تحیی فیه الشعور بالاعتماد علی النفس و علی قدرة اللّه حیث ستدب و تنبعث روح جدیدة فی الإنسان.

۴- إنّ هذه المهمّة و جهت الأمر لموسی- باعتباره قائدا- بأن یطهّر روح بنی إسرائیل من اشکال الخوف و الرعب التی کانت من افرازات سنین العبودیة و الذلة الطویلة. و أن یربی و ینمی فیهم الإرادة و الشهامة و الشجاعة و ذلک عن طریق بشارة المؤمنین بالفتح و النصر النهائی، و لطف اللّه و رحمته.

الملفت للنظر أنّ بنی إسرائیل من أولاد یعقوب، و جماعة منهم من أولاد یوسف طبعا، و قد حکم هو و اخوته مصر سنین طویلة، و سعوا فی عمران هذا الوطن، إلّا أنّه نتیجة لترکهم طاعة اللّه و الغفلة و الخلافات الداخلیة و صلوا إلی مثل هذا الوضع المأساوی. إنّ هذا المجتمع المسحوق المصاب یجب أن یبنی من جدید، و یمحو نقاط ضعفه و یستبدلها بالخصال الروحیة البناءة لیعید عظمة الماضی.

ثمّ أشارت إلی إحدی علل طغیان فرعون و أزلامه، فتقول علی لسان موسی:

وَ قالَ مُوسی رَبَّنا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَةً وَ أَمْوالًا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا رَبَّنا لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِکَ

إنّ اللام فی «لیضلوا» لام العاقبة، أی إنّ جماعة الأشراف الأثریاء المترفین سیسعون من أجل إضلال الناس شاؤوا أم أبوا، و سوف لا تکون عاقبة أمرهم شیئا غیر هذا، لأنّ دعوة الأنبیاء و الأطروحات الإلهیة توقظ الناس و توحدهم و بذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۵

لا یبقی مجال لتسلط الظالمین و کید المعتدین و ستضیق الدنیا علیهم، فلا یجدوا بدّا من معارضة الأنبیاء.

ثمّ یطلب موسی علیه السّلام من اللّه طلبا فیقول: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلی أَمْوالِهِمْ

«الطمس» فی اللغة بمعنی المحو و سلب خواص الشیء، و اللطیف فی الأمر أن ما ورد فی بعض الرّوایات من أنّ أموال الفراعنة قد أصبحت خزفا و حجرا بعد هذه اللعنة، ربّما کان کنایة عن أنّ التدهور الاقتصادی قد بلغ بهم أن سقطت فیه قیمة ثرواتهم تماما و أصبحت کالخزف لا قیمة لها! ثمّ أضافت وَ اشْدُدْ عَلی قُلُوبِهِمْ ای: اسلبهم قدرة التفکیر و التدبّر أیضا لأنّهم بفقدانهم هاتین الدعامتین (المال و الفکر) سیکونون علی حافة الزوال و الفناء، و سینفتح أمامنا طریق الثورة، و توجیه الضربة النهائیة لهؤلاء.

اللّهم إن کنت قد طلبت ذلک منک فی حق الفراعنة فلیس ذلک نابعا من روح الانتقام و الحقد، بل لأنّ هؤلاء قد فقدوا أرضیة الإیمان أبدا: فَلا یُؤْمِنُوا حَتَّی یَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِیمَ و من الطبیعی أنّ الإیمان بعد مشاهدة العذاب- کما سیأتی قریبا- لا ینفع هؤلاء أیضا.

ثمّ خاطب اللّه سبحانه و تعالی موسی و أخاه بأنّه: الآن و قد أصبحتما مستعدین لتربیة و بناء قوم بنی إسرائیل قالَ قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُما فَاسْتَقِیما فی سبیل اللّه و لا- تخافا سیل المشاکل، و کونا حازمین فی أعمالکما و لا تستسلما أمام اقتراحات الجاهلین، بل استمرا فی برنامجکما الثوری وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِیلَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۶

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۹۰ الی ۹۳]

اشارة

وَ جاوَزْنا بِبَنِی إِسْرائِیلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْیاً وَ عَدْواً حَتَّی إِذا أَدْرَکَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ (۹۱) فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَةً وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آیاتِنا لَغافِلُونَ (۹۲) وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِی إِسْرائِیلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّی جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۹۳)

التّفسیر

الفصل الأخیر من المجابهة مع الظّالمین:

هذه الآیات جسّدت آخر مرحلة من المواجهة بین بنی إسرائیل و الفراعنة و بیّنت مصیر هؤلاء فی عبارات قصیرة، لکنّها دقیقة و واضحة- کما هو دأب القرآن- و ترکت المطالب الأخری تفهم من الجمل السابقة و اللاحقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۷

فتقول أوّلا: إنّنا جاوزنا ببنی إسرائیل البحر- و هو نهر النیل العظیم أطلق علیه اسم البحر لعظمته- أثناء مواجهتهم للفراعنة، و عند ما کانوا تحت ضغط و مطاردة هؤلاء: وَ جاوَزْنا بِبَنِی إِسْرائِیلَ الْبَحْرَ إلّا أنّ فرعون و جنوده طاردوا هؤلاء من أجل القضاء علی بنی إسرائیل: فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْیاً وَ عَدْواً.

«البغی» یعنی الظلم، «و العدو» بمعنی التعدی، أی إنّ هؤلاء إنّما طاردوهم و تعقبوهم لغرض الظلم و التعدی علیهم، أی علی بنی إسرائیل.

جملة «فأتبعهم» توحی بأنّ فرعون و جنوده قد تتبعوا بنی إسرائیل طوعا، و تؤید بعض الرّوایات هذا المعنی، و البعض الآخر تخالف هذا المعنی، إلّا أن ما یفهم و یستفاد من ظاهر الآیة هو الحجة علی کل حال.

أمّا کیفیة عبور بنی إسرائیل للبحر، و أی إعجاز وقع فی ذلک الحین، فإنّ شرح ذلک سیأتی فی ذیل الآیة (۶۳) من سورة الشعراء، إن شاء اللّه تعالی.

علی کل حال، فإنّ هذه الأحداث قد استمرت حتی أوشک فرعون علی الغرق، و أصبح کالقشة تتقاذفه الأمواج و تلهو به، فعنداک زالت حجب الغرور و الجهل من أمام عینه، و سطع نور التوحید الفطری و صدع بالإیمان: حَتَّی إِذا أَدْرَکَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ فلست مؤمنا بقلبی فقط، بل إنّی من المسلمین عملیا: وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ

و لما تحققت تنبؤات موسی علیه السّلام الواحدة تلو الأخری و أدرک فرعون صدق هذا النّبی الکبیر أکثر فأکثر و شاهد قدرته و قوته، اضطر إلی إظهار الإیمان علی أمل أن ینقذه ربّ بنی إسرائیل کما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة و لذلک یقول: آمنت أنّه لا إله إلّا الذی آمنت به بنو إسرائیل! إلّا أنّ من البدیهی أنّ مثل هذا الإیمان الذی یتجلّی عند نزول البلاء و نشوب أظفار الموت، إیمان اضطراری یتشبث به کل جان و مجرم و مذنب و لیست له أیة قیمة، أو یکون دلیلا علی حسن نیته أو صدق قوله، و لهذا فإنّ اللّه سبحانه خاطبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۸

فقال: آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ

و قد قرأنا سابقا فی الآیة (۱۸) من سورة النساء: وَ لَیْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئاتِ حَتَّی إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ

و لهـذا فـإنّ كثير من الناس ما أن تسـتقر بهم الحال و ينجون من الموت يعودون إلى أوضاعهم و أعمالهم السابقـة. و نظير هـذا التعبير الذى ورد أعلاه جاء أيضا فى اشعار و كلمات الأدباء العرب و العجم، مثل:

أتت و حياض الموت بينى و بينهاو جادت بوصل حين لا ينفع الوصل

لكن فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً آية للحكام المستكبرين و لكل الظالمين و المفسدين، و آية للفئات المستضعفة.

هناك بحث بين المفسّـرين المراد من البـدن هنا، فأكثرهم يرى بأنّ المراد هو جسـد فرعون الـذى فارقته الروح، لأنّ عظمـة فرعون فى أفكار الناس فى ذلك المحيط بلغت حـدّا بحيث أنّ الكثير لو لا ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، و كان من الممكن أن تنسج الأساطير و الخرافات الكاذبة حول نجاة و حياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى اللّه سبحانه جسده خارج الماء.

اللطيف هنـا، أنّ البـدن فى اللغـة- كما قال الراغب فى مفرداته- يعنى الجسـد العظيم- و هـذا يـدلنا على أن فرعون كان عظيم الهيكل ممتلئ الجسم كما هو الحال فى الكثير من أهل الترف و الرفاه الـدنيوى! إلّا أنّ البعض الآخر قالوا: إنّ أحـد معانى البـدن هو الـدرع، و هـذا إشارة إلى أن اللّه سـبحانه قـد أخرج فرعون من الماء بـدرعه الذهبى الذى كان على بدنه ليعرف عن طريقه، و لا يبقى أى مجال للشك فى أنّه فرعون.

هـذه النقطـة أيضا تسـتحق الانتباه، و هى أنهم اسـتفادوا من جملـة «ننجيك» أنّ اللّه سـبحانه قـد أمر الأمواج أن تلقى بـدنه على مكان مرتفع عن الساحل لأنّ مادة «النجوة» تعنى المكان المرتفع و الأرض العالية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۹

و النقطـة الأخرى التى تلاحظ فى الآيـة أنّ جملـة: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ قـد بـدأت بفاء التفريع، و من الممكن أن يكون ذلك إشارة إلى أن إيمان فرعون الباهت فى هـذه اللحظـة اليائسـة و فى ساعـة الاحتضار كان كالجسـد بـدون روح و لذلك أثر بالمقدار الذى أنجى اللّه جسـد فرعون من الماء بعـد أن فارقته الروح، حتى لا يكون طعمـة للأسـماك و ليكون عبره للأجيال القادمة! و يوجد الآن فى متاحف مصـر و بريطانيـا جثـة أو جثتين من جثث الفراعنـة التى بقيت محنّطـة بالموميـاء، فهل أنّ بـدن فرعون المعاصـر لموسـى من بينها حيث حفظوه فيما بعد بالمومياء، أم لا؟

لا يمكننا اثبات ذلك، إلّا أنّ تعبير لِمَنْ خَلْفَكَ يقوى هـذا الاحتمال فى أن بدن ذلك الفرعون من بين هذه الأبدان، ليكون عبرة لكل الأجيال القادمة، لأنّ تعبير الآية مطلق و يشمل كل الأجيال فى المستقبل (فتدبر جيدا).

و يقول فى نهايـة الآية: إنّه و بالرغم من كل هذه الآيات و الدلالات على قدرة اللّه، و مع كل الدروس و العبر التى ملأت تاريخ البشـر فإنّ الكثير معرضون عنها وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ

و تبيّن آخر آية من هذه الآيات النصـر النهائى لبنى إسرائيل، و الرجوع إلى الأرض المقدسة بعد الخلاص من قبضة الفراعنة، فتقول: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ

إنّ التعبير ب مُبَوَّأَ صِدْقٍ يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه قد وفى بما وعد به بنى إسرائيل و أرجعهم إلى الوطن الموعود، أو أنّ مُبَوَّأَ صِدْقٍ إشارة إلى طهارة و قدسية هذه الأرض، و بذلك تناسب أرض الشام و فلسطين التى كانت محط الأنبياء و الرسل.

و قد احتمل جماعة أن يكون المراد أرض مصر، كما يقول القرآن فى سورة الدخان/ الآية (۲۵)- (۲۸): كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۰

و قد جاء هذا المضمون فى الآية (۵۷)- (۵۹) من سورة الشعراء، و نقرأ فى آخرها: وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ

من هذه الآيات نخرج بأنّ بنى إسرائيل قد بقوا فترة فى مصر قبل الهجرة إلى الشام، و تنعّموا ببركات تلك الأرض المعطاء.

ثمّ يضـيف القرآن الكريم: وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ و لا مانع بالطبع من أن تكون أرض مصـر هى المقصودة، و كذلك أراضى الشام و

فلسطين. إلّا أنّ هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمة فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ و بعد مشاهدة كل تلك المعجزات التى جاء بها موسى، و أدلة صدق دعوته، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و إذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غدا.

و قد احتمل- أيضا- فى تفسير هذه الآية، أن يكن المراد من الاختلاف هو الاختلاف بين بنى إسرائيل و اليهود المعاصرين للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى قبول دعوته، أى إنّ هؤلاء رغم معرفتهم صدق دعوته حسب بشارات و علامات كتبهم السماوية، فإنّهم اختلفوا، فآمن بعضهم، و امتنع القسم الأكبر عن قبول دعوته، و إنّ اللّه سبحانه سيقضى بين هؤلاء يوم القيامة.

إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب لظاهر الآية.

كان هذا الحديث عن قسم من ماضى بنى إسرائيل الملىء بالعبر، و الذى بيّن ضمن آيات فى هذه السورة، و ما أشبه حال أولئك بمسلمى اليوم، فإنّ اللّه قد نصر المسلمين بفضله مرّات كثيرة. و قهر أعداءهم الأقوياء بصورة إعجازية، و نصر بفضله و رحمته هذه الأمة المستضعفة على أولئك المتجبرين، إلّا أنّهم و للأسف الشديد، بدل أن يجعلوا هذا النصر وسيلة لنشر دين الإسلام فى جميع أرجاء العالم، فإنّهم قد اتّخذوه ذريعة للتفرقة و إيجاد النفاق و الاختلاف بحيث عرّضوا كل انتصاراتهم للخطر! اللّهم نجّنا من كفران النعمة هذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۱

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۹۴ الى ۹۷]

اشارة

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۹۴) وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (۹۵) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (۹۶) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۹۷)

التّفسير

لا تدع للشک طريقا إلى نفسک!

لمّا كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضى الأنبياء و الأمم السابقة، و كان من الممكن أن يشكك بعض المشركين و منكرى دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى صحة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد و العلم بصحة هذه الأقوال، و ليسألوهم عن ذلك، لأنّ كثيرا من هذه المسائل قد ورد فى كتب هؤلاء.

إلّا أنّه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ليثبت عن هذا الطريق بأنه لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۲

و يحتمل أيضا أنّ الآية أعلاه تطرح بحثا جديدا و مستقلا فى صدق دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و تعلم المخالفين أنّهم إن كانوا فى شك من أحقيته فليسألوا أهل الكتاب عن علاماته التى نزلت فى الكتب السابقة كالتّوراة و الإنجيل.

و نقل سبب آخر للنزول فى بعض التفاسير[۱۸۱] يؤيد هذا المعنى، و هو أن جمعا من كفار قريش كانوا يقولون: إنّ هذا القرآن لم

ينزل من اللّه، بل إنّ الشيطان يلقيه على محمّد!! و قد سبب هذا الكلام أن يقع عدّة أشخاص فى وادى الشك و التردد، فأجابهم بهذه الآية.

هل كان النّبى شاكّا؟!

يمكن أن يتراءى للنظر فى البداية أنّ هذه الآيات تحكى عن أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان شاكّا فى صدق الآيات التى كانت تنزل عليه، و أنّ اللّه سبحانه قد أزال شكّه عن الطريق أعلاه.

و لكن واقع الأمر أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يتلقى مسألة الوحى مع الشهود و المشاهدة- كما تحكى آيات القرآن هذا المعنى- و معه لا يبقى أى معنى للشك فى هذا المورد. إضافة إلى أنّ هذا الأسلوب من خطاب القريب من أجل تنبيه البعيد رائج فى العرف، و هذا هو المراد من المثل المعروف: إيّاك أعنى و اسمعى يا جارة، و تأثير مثل هذا الكلام أكبر من الخطاب الصريح فى كثير من الموارد.

إضافة إلى أن ذكر الجملة الشرطية لا يدل دائما على احتمال وجود الشرط، بل هو للتأكيد على مسأله ما أحيانا، أو لبيان قانون كلى عام، فنقرأ مثلا فى الآية (۲۳) من سورة الإسراء: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ و ينبغى الانتباه إلى أنّ المخاطب فى الآية هو النّبى ظاهرا، إلّا أنّه لما كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقد أباه قبل ولادته و أمّه فى

طفولته، فإنّ من الواضح أنّ احترام الوالدين طرح هنا كقانون عام بالرغم من أن المخاطب ظاهرا هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و كذلك نقرأ فى سورة الطلاق: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ و هذا التعبير لا يدل على أن النّبى قد طلق امرأة فى حياته، بل هو بيان قانون عام، و البديع فى هذا التعبير أنّ المخاطب فى بداية الجملة هو النّبى، و فى نهايتها كل الناس.

و من جملة القرائن التى تؤيد أنّ المقصود الأساس فى الآية هم المشركون و الكافرون، الآيات التى تتلو هذه الآية و التى تتحدث عن كفر و جحود هؤلاء.

و يلاحظ نظير هذا الموضوع فى الآيات المرتبطة بالمسيح، عند ما يسأله اللّه يوم القيامة: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فإنّه ينكر هذه المسألة بصراحة، و يضيف: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ سورة المائدة من الآية (۱۱۶).

ثمّ تضيف الآية التّالية: وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ من بعد ما اتّضحت لك آيات اللّه و صدق هذه الدعوة.

إنّ الآية السابقة تقول بأنّك إن كنت فى شك فاسأل أولئك المطلعين العالمين، و تقول هذه الآية بأنّك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، و إلّا فإنّ مخالفة الحق لا عاقبة لها إلّا الخسران.

إنّ هذه الآية قرينة واضحة على أنّ المقصود من الآية السابقة هم عموم الناس بالرغم من أن الخطاب موجه إلى شخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ من البديهى أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن يكذب الآيات الإلهية مطلقا، بل كان المدافع المستميت الصلب عن دينه.

ثمّ أنّها تخبر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ من بين مخالفيك جماعة متعصبين عنودين لا فائدة من انتظار إيمانهم، فإنّهم قد مسخوا من الناحية الفكرية، و توغلوا فى طريق الباطل إلى الحد الذى فقدوا معه الضمير الإنسانى الحى تماما، و تحولوا إلى

موجودات لا يمكن اختراقها، غايـة ما فى الأمر أنّ القرآن الكريم يبيّن هـذا الموضوع بهذا التعبير: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ

و حتى إذا جاءتهم كل الآيات و الـدلالات فإنّهم لا يؤمنون: وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ و لا أثر لإيمانهم فى ذلك الوقت.

إنّ الآيات الأولى من الآيات مورد البحث تدعو عامّة الناس إلى المطالعة و التحقيق و السؤال من أهل العلم، ثمّ طلبت منهم أن ينصروا الحق و يـدافعوا عنه بعـد أن اتّضـح لهم. إلّا أنّ الآيات الأخيرة تقول: لا تتوقّع أن يؤمن كل هؤلاء، لأنّ البعض قـد فسـد قلبه بحيث لا يمكن إصـلاحه، فلا يثبطك عـدم ايمانهم عن مواصلة الطريق. و لا تتعب نفسك فى سبيل هدايتهم، بل توجه إلى الأكثرية من الناس ممّن لهم أهلية الهداية.

و كمـا كررنا مرارا، فإنّ التعبيرات التى تشابه هـذه الآيـة السابقـة ليست دليلا على الجبر أبـدا، بل هى من قبيل ذكر آثار عمل الإنسان، لكن لما كان أثر كل شيء بأمر اللّه، فإنّ هذه الأمور تنسب إلى اللّه أحيانا.

و يبدو أنّ ذكر هذه النقطة مهم أيضا، و هى أنّنا قرأنا فى بعض الآيات السابقة فى شأن فرعون أنّه قد أظهر الإيمان بعد نزول العذاب و الوقوع فى قبضة الطوفان، إلّا أن مثل هذا الإيمان لما كان يتصف بالاضطرار لم ينفعه. إلّا أنّ هذه الآيات تقول إنّ هذا لم يكن أسلوب و طريق فرعون وحـده، بل هو طريق كل العنودين الأنانيين المسـتكبرين المسودّه قلوبهم الـذين وصـلوا إلى قمة الطغيان و لديهم نفس هذه الحالة، فإنّ هؤلاء أيضا لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ذلك الإيمان العديم الأثر بالنسبة لهؤلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۵

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۹۸]

اشارة

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (۹۸)

التّفسير

الامّة التى آمنت فى الوقت المناسب!

تحـدثت الآيات السابقـة عن فرعون خاصّـة، و الأقوام السابقة بصورة عامّة، و هى أنّ هؤلاء امتنعوا من الإيمان باللّه فى وقت الإختيار و السلامة، إلّا أنّهم لما أشرفوا على الموت و العذاب الإلهى أظهروا الإيمان الذى لم يكن نافعا لهم آنذاك.

و تطرح الآية التى نبحثها هذه المسألة كقانون عام، فتقول: فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها. ثمّ استثنت قوم يونس فقالت: إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ أى إلى آخر عمرهم.

إنّ كلمـة «لو لا» تعنى هنا النفى على رأى بعض المفسّـرين، و لـذلك تمّ الاسـتثناء منها بواسـطة «إلّا» و على هذا الأساس يصـبح معنى الجملة: لم يؤمن أى من الأقوام و الأمم التى عاشت فى الماضى فى المدن و الأماكن المعمورة أمام أنبياء اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۶

بصورة جماعية إلّا قوم يونس.

إلّا أنّ البعض الآخر معتقـد بأنّ كلمـة «لو لا» لم تأت بمعنى النفى، بل أتت دائما بمعنى التحضـيض- و يقال للسؤال المقترن بالتوبيخ و

التحريك تحضيض- إلّا أن لازم مفهومها فى مثل هذه الموارد يكون نفيا، و لهذا يمكن أن يستثنى منها ب «إلّا».

و على كل حال، فلا شك فى أنّ جماعات كثيرة من الأقوام السالفة آمنوا أيضا، إلّا أنّ الذى يميز قوم يونس هو أنّهم آمنوا بأجمعهم دفعة واحدة، و كان ذلك قبل حلول العقاب الإلهى الحتمى، فى حين أنّ جماعة كبيرة من بين الأقوام الأخرى بقوا على مخالفتهم و عنادهم حتى صدر القرار الإلهى بالعذاب الحتمى، فلمّا رأى هؤلاء العذاب الأليم أظهر أغلبهم الإيمان، إلّا أنّ إيمانهم- و للسبب الذى قلناه سابقا- لم يكن له أثر و لا نفع.

قصّة إيمان قوم يونس:

كانت قصّة هؤلاء على ما جاء فى التواريخ، أنّه عند ما يئس يونس من إيمان قومه القاطنين أرض نينوى فى العراق، دعا على قومه باقتراح من عابد كان يعيش بينهم، فى حين أنّ عالما كان معهم أيضا اقترح على يونس أن يدعو لهؤلاء لا عليهم، و أن يستمر فى إرشاده أكثر من قبل و لا ييأس.

يونس اعتزل قومه بعد الدعاء عليهم، فاجتمع قومه الذين كانوا قد جربوا صدق أقواله حول ذلك الرجل العالم، و لم يكن أمر العذاب القطعى قد صدر بعد، إلّا أنّ علاماته قد شرعت فى الظهور، فاغتنم هؤلاء الفرصة و عملوا بنصيحة العالم و خرجوا معه خارج المدينة. للتضرع و الدعاء، و أظهروا الإيمان و التوبة، و من أجل أن يزداد توجههم الروحى فرقوا بين الأمهات و الأولاد، و لبسوا اللباس الخشن البالى و هبّوا للبحث عن نبيّهم فلم يعثروا له على أثر.

إلّا أنّ هذه التوبة و الإيمان و الرجوع إلى اللّه، الذى تمّ فى الوقت المناسب و عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۷

و عى مقترن بالإخلاص قد أثر أثره، و ارتفعت علامات العذاب و عادت المياه الى مجاريها. و لمّا رجع يونس إلى قومه بعد احداث و وقائع كثيرة وقعت له قبلوه بأرواحهم و قلوبهم.

و سنبيّن تفصيل حياة يونس نفسه فى ذيل الآيات (۱۳۴- ۱۴۸) من سورة الصافات، إن شاء اللّه تعالى.

و الجدير بالذكر، إنّ قوم يونس لم يستحقوا العذاب الإلهى، الحتمى، و إلّا لم تقبل توبتهم، بل كانت تأتيهم الإنذارات و التحذيرات التى تظهر عادة قبل العذاب النهائى، و قد كان مقدارها كافيا للتوعية، فى حين أنّ الفراعنة مثلا كانوا قد رأوا هذه الإنذارات مرارا- كحادثة الطوفان و الجراد و اختلاف ماء النيل الشديد و أمثالها- إلّا أنّهم لم يعبئوا بها مطلقا و لم يأخذوها بمنظار جدى. و اكتفوا بالطلب من موسى أن يدعوا اللّه ليرفع عنهم هذه الابتلاءات ليؤمنوا، لكنّهم لم يؤمنوا مطلقا.

ثمّ إنّ القصّة أعلاه تبيّن بصورة ضمنية مدى تأثير القائد الواعى الرشيد الحريص فى القوم أو الأمّة، فى حين أن العابد الذى لا يمتلك الوعى الكافى يعتمد على الخشونة أكثر، و هكذا يفهم من هذه الرّواية منطق الإسلام فى المقارنة بين العبادة الجاهلة. و العلم الممتزج بالإحساس بالمسؤولية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۸

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۹۹ الى ۱۰۰]

اشارة

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۹۹) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (۱۰۰)

التّفسير

لا خير فى الإيمان الإجبارى:

لقد طالعنا فى الآيات السابقة أنّ الإيمان الاضطرارى لا يجدى نفعا أبدا، و لهذا فإنّ الآية الأولى من هذه الآيات تقول: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً و بناء على هذا فلا يعتصر قلبك ألما لعدم إيمان جماعة من هؤلاء، فإنّ من مستلزمات أصل حرية الإرادة و الإختيار أن يؤمن جماعة و يكفر آخرون، و إذا كان الأمر كذلك أ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ
إنّ هذه الآية تنفى بصراحة مرّة أخرى التهمة الباطلة التى قالها و يقولها أعداء الإسلام بصورة مكررة، حيث يقولون: إنّ الإسلام دين السيف، و قد فرض بالقوّة و الإجبار على شعوب العالم، فتجيب الآية- ككثير من آيات القرآن الأخرى- بأنّ الإيمان الإجبارى لا قيمة له، و الدين و الإيمان شيء ينبع عادة من أعماق

الروح، لا من الخارج و بواسطة السيف، خاصّة و أنّها حذرت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من إكراه و إجبار الناس على الإيمان و الإسلام.
الآية التّالية قد ذكرت هذه الحقيقة أيضا، و هى أنّ البشر و إن كانوا أحرارا فى اختيارهم، إلّا أنّه وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ و لهذا فإنّ هؤلاء قد ساروا فى طريق الجهل و عدم التعقل، و لم يكونوا مستعدين للاستفادة من رأس مال فكرهم و عقلهم، و سوف لا يوفقون للإيمان و هم على هذا الحال، إذ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ

ملاحظتان

۱- من الممكن أن يتصور فى البداية أنّ هناك تنافيا و تضادا بين الآية الأولى و الثّانية، إذ أنّ الآية الأولى تقول: إنّ اللّه لا يجبر أحدا على الإيمان، فى حين أن الآية الثّانية تقول: إنّ أحدا لا يمكن أن يؤمن حتى يأذن اللّه! إلّا أنّ التنبه إلى نكتة واحدة يرفع هذا التضاد الظاهرى، و هى أنّنا نعتقد بأنّ الجبر غير صحيح، كما أنّ التفويض غير صحيح أيضا، أى أن الناس ليسوا مجبورين تماما على أعمالهم، و لا هم متروكون و أنفسهم يعملون ما يشاءون، بل إنّهم فى الوقت الذى يكونون فيه أحرارا فى الإرادة، فإنّهم فى حاجة للمعونة الالهية، لأنّ اللّه سبحانه هو الذى يعطيهم حرية الإرادة، فالعقل و الوجدان الطاهر هما من مواهبه و عطاياه، و إرشاد الأنبياء و هداية الكتب السماوية من جانبه أيضا، و بناء على هذا ففى عين حرية الإرادة و الإختيار، فإنّ منبع هذه الهبة و ما ينتج عنها من جانب اللّه سبحانه. دققوا ذلك.
۲- إنّ آخر جملة من الآية الأخيرة، أى وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ لا ينبغى أن تفسر بمعنى الجبر مطلقا، لأنّ جملة لا يَعْقِلُونَ دليل على

اختيار هؤلاء، أى أنّ هؤلاء الأفراد قد امتنعوا من التفكير و التدبر أوّلا. فاتلوا فى النهاية بهذا العقاب، الذى هو الرجس و قذارة الشك و التردد و ظلمة القلب و الخطأ فى التفكير الذى سلط على هؤلاء حتى سلبت منهم القدرة على الإيمان، إلّا أنّه ينبغى الانتباه إلى أنّ مقدمات العذاب قد هيأها هؤلاء بأنفسهم، و فى مثل هذه الأحوال فإنّ اللّه تعالى لا يأذن فى إيمان هؤلاء.

و بتعبیر آخر، فإنّ هذه الجملة تشیر إلی أنّ إذن اللّه و أمره لیس أمرا اعتباطیا غیر مدروس و محسوب، بل إنّه یشمل أولئک الذین لهم أهلیة الإیمان، أمّا غیر اللائقین فإنّهم سیحرمون منه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۱

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۱۰۱ الی ۱۰۳]

اشارة

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِی الْآیاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ (۱۰۱) فَهَلْ یَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَیَّامِ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ (۱۰۲) ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا کَذلِکَ حَقًّا عَلَیْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ (۱۰۳)

التّفسیر

الموعظة و النصیحة:

کان الکلام فی الآیات السابقة عن أنّ الإیمان یجب أن یکون اختیاریا لا بالجبر و الإکراه، و لهذا فإن الآیة الأولی هنا ترشد الناس إلی الإیمان الاختیاری، و تخاطب النّبی فتقول: قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

إن کل هذه النجوم اللامعة و الکواکب السماویة المختلفة التی یدور کل منها فی مداره، و هذه المنظومات الکبیرة و المجرات العملاقة، و هذا النظام الدقیق الحاکم علی کل تلک الکواکب، و کذلک هذه الکرة الأرضیة بکل عجائبها و اسرارها، و کل هذه الکائنات الحیة المتنوعة المختلفة .. تدل بالتمعن فی دقائق صنعها و التدبّر فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۲

نظامها علی المبدأ الأزلی للعالم. و ستتعرفون أکثر علی خالق هذه الکائنات.

إنّ هذه الجملة تنفی بوضوح مسألة الجبر و سلب حریة الإرادة، فهی تقول: إنّ الإیمان هو نتیجة التدبر فی عالم الخلقة، أی إنّ هذا الأمر فی اختیارکم.

ثمّ تضیف أنّه رغم کل هذه الآیات و العلامات الدالّة علی الحق، فلا داعی للعجب من عدم إیمان البعض، لأنّ الآیات و الدلالات و الإنذارات تنفع الذین لهم الاستعداد لتقبل الحق، أمّا هؤلاء فإنّه وَ ما تُغْنِی الْآیاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ ۱۸۲].

إنّ هذه الجملة إشارة إلی الحقیقة التی قرأناها مرارا فی القرآن، و هی أن الدلائل و کلمات الحقّ و المواعظ لا تکفی لوحدها، بل إنّ الأرضیة المستعدة شرط أیضا فی حصول النتیجة.

ثمّ تقول- بنبرة التهدید المتلبسة بلباس السؤال و الاستفهام-: هل ینتظر هؤلاء المعاندون الکافرون إلّا أن یروا مصیرا کمصیر الأقوام الطغاة و المتمردین السابقین الذین عمهم العقاب الإلهی. مصیر کمصیر الفراعنة و النماردة و شدّاد و أعوانهم و أنصارهم؟! فَهَلْ یَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَیَّامِ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ

و تحذرهم الآیة أخیرا فتقول: یا أیّها النّبی قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ فأنتم بانتظار هزیمة دعوة الحق، و نحن بانتظار المصیر المشؤوم الذی ستلاقونه، مصیر المتکبرین الماضین.

و ینبغی الالتفات إلی أنّ الاستفهام فی جملة فَهَلْ یَنْتَظِرُونَ استفهام إنکاری، أی إنّ هؤلاء بطبیعة سلوکهم هذا لا یمکن أن ینتظروا إلّا حلول مصیر مشؤوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۳

مظلم.

کلمة (أیّام) و إن کانت فی اللغة جمع یوم، إلّا أنّها هنا تعنی الحوادث المهلکة التی وقعت للأقوام و الأمم السالفة.

و من أجل أن لا یتوهم متوهم أنّ اللّه سبحانه یصیب بعذابه الصالح و الطالح، تضیف الآیة: إننا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب علی الأمم السابقة، نقوم بانقاذ عبادنا الصالحین: ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا.

ثمّ تقول فی النهایة: إنّ هذا لیس مختصا بالأمم السالفة و الرسل و المؤمنین الماضین، بل کَذلِکَ حَقًّا عَلَیْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ ۱۸۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۴

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۱۰۴ الی ۱۰۷]

اشارة

قُلْ یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی شَکٍّ مِنْ دِینِی فَلا أَعْبُدُ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لکِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِی یَتَوَفَّاکُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً وَ لا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۱۰۵) وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَنْفَعُکَ وَ لا یَضُرُّکَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّکَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِینَ (۱۰۶) وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا کاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَ إِنْ یُرِدْکَ بِخَیْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ یُصِیبُ بِهِ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (۱۰۷)

التّفسیر

الحزم فی التّعامل مع المشرکین:

هذه الآیات و الآیات التی تلیها، هی آخر آیات هذه السورة، و تتحدث جمیعا حول مسألة التوحید و محاربة الشرک و الدعوة إلی الحق، و هی فی الحقیقة فهرست أو خلاصة لبحوث التوحید و تأکید علی محاربة و مجابهة عبادة الأصنام التی بیّنت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۵

مرارا فی هذه السورة.

إنّ سیاق الآیة یوحی بأنّ المشرکین کانوا یتوهمون أحیانا أن من الممکن أن یلین النّبی و یتسامح فی عقیدته فی شأن الأصنام و یعترف و یقرّ لهم عبادة الأصنام و لو جزئیا إلی جانب الإعتقاد باللّه بنحو من الأنحاء.

إلّا أنّ القرآن ینسف هذا التوهم الواهی بصورة قاطعة و حاسمة و یقطع علیهم أحلامهم هذه إلی الأبد، فلا معنی لأی نوع من المساومة و اللین فی مقابل الأصنام، و لا معبود إلّا اللّه، لا تزید کلمة و لا تنقص أخری.

ففی البدایة یأمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یخاطب جمیع الناس: قُلْ یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی شَکٍّ مِنْ دِینِی فَلا أَعْبُدُ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و لا تکتفی الآیة بنفی آلهة أولئک، بل تثبت کل العبادة للّه سبحانه زیادة فی التأکید فتقول: وَ لکِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِی یَتَوَفَّاکُمْ و من أجل تأکید أکبر تضیف: أنّ هذه لیست إرادتی فقط، بل وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

إنّ التأکید هنا علی مسألة قبض الروح فقط من بین صفات اللّه، أمّا لأنّ الإنسان إذا کان یشک فی کل شیء فإنّه لا یستطیع أن یشک فی الموت، أو لأنّ هذه الآیة أرادت أن تنبه هؤلاء إلی مسألة العذاب و العقوبات المهلکة التی أشیر إلیها فی الآیات السابقة، و لوحت بالتهدید بالغضب الإلهی.

و بعد أن بيّنت الآية العقيدة الحقة في نفي الشرك و عبادة الأوثان بكل صراحة و قوة، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطرة. و دليل من العقل:

وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً و هنا أيضا لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفى الطرف المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآية: وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

«الحنيف»- كما قلنا سابقا- تعني: الشخص الذي يميل و يتحول عن طريق الانحراف إلى جادة الصواب و الاستقامة، و بتعبير آخر: يغض الطرف عن المذاهب و الأفكار المنحرفة، و يتوجه إلى دين اللّه المستقيم، ذلك الدين الموافق

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۶

للفطرة موافقة كاملة و مستقيمة. و بناء على هذا فإنّ هذا التعبير يستبطن الإشارة إلى كون التوحيد فطريا في الأعماق، لأنّ الانحراف شيء خلاف الفطرة، (فتدبّر).

و بعد الإشارة إلى بطلان الشريك بالدليل الفطري، تشير إلى دليل عقلي واضح، فتقول: وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ إذ تكون قد ظلمت نفسك و مجتمعك الذي تعيش فيه.

أي عقل يسمح أن يتوجه الإنسان لعبادة أشياء و موجودات لا- تضر و لا- تنفع أبدا، و لا- يمكن أن يكون لها أدنى أثر في مصير الإنسان؟

و هنا أيضا لم تكتف الآية بجانب النفي، بل إنّها تؤكد إضافة إلى النفي على جانب الإثبات فتقول: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، و كذلك وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لأنّ عفوه و رحمته وسعت كل شيء وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۷

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۰۸ الى ۱۰۹]

اشارة

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۸) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (۱۰۹)

التّفسير

الكلمة الأخيرة:

هاتين الآيتين تضمّنت إحداهما موعظة و نصيحة لعامّة الناس، و اختصت الثّانية بالنّبي صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد كملتا الأوامر و التعليمات التي بيّنها اللّه سبحانه على مدى هذه السورة و مواضعها المختلفة. و بذلك تنتهي سورة يونس.

فتقول أوّلا، و كقانون عام: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ هذه التعليمات، و هذا الكتاب السماوي، و هذا الدين، و هذا النّبي كلها حق، و الأدلّة على كونها حقّا واضحة، و بملاحظة هذه الحقيقة: فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ

أي إنّي لست مأمورا بإجباركم على قبول الحق، لأن الإجبار على قبول

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۸

الإيمان لا معنى له، و لا أستطيع إذا لم تقبلوا الحق و لم تؤمنوا أن أدفع عنكم العذاب الإلهی، بل إنّ واجبی و مسئوليتی هی الدعوة و الإبلاغ و الإرشاد و الهداية و القيادة، أمّا الباقی فيتعلق بكم، و عليكم انتخاب طريقكم.

إنّ هذه الآية إضافة إلى أنّها تؤكّد مرّة أخرى مسألة الإختيار و حرية الإرادة، فإنّها دليل على أن قبول الحق سيعود بالنفع على الإنسان نفسه بالدرجة الأولى، كما أن مخالفته ستكون فی ضرره.

إنّ توجيهات القادة الإلهيين و الكتب السماوية ما هی فی الواقع إلّا دروس لتربية و تكامل البشر، فلا يزيد الالتزام بها شيئا على عظمة اللّه، و لا تنقص مخالفتها من جلاله شيئا.

ثمّ تبيّن وظيفة و واجب النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم فی جملتين: الأولى وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ فإنّ اللّه قد حدّد مسيرك من خلال الوحی، و لا يجوز لك أن تنحرف عنه قيد أنملة.

و الثّانية: إنّه ستعترضك فی هذا الطريق مشاكل مضنية و مصاعب جمة، فلا تدع للخوف من سيل المشاكل إلى نفسك طريقا، بل وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ فإنّ أمره حق، و حكمه عدل، و وعده متحقق لا محالة.

إلهنا و مولانا: إنّك وعدت عبادك الذين يجاهدون فی سبيلك بإخلاص، و الذين يصبرون و يستقيمون فی سبيلك بالنصر.

اللّهم و قد أحاطت بالمسلمين مشاكل لا تحصى، و نحن عبيدك الذين لا نتوقف عن الجهاد و الاستقامة بمنك و توفيقك، فاكشف عنا سحب المشاكل المظلمة بلطفك، و أنر أبصارنا بنور الحق و العدالة ... آمين يا رب العالمين.

نهاية سورة يونس

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۹

سورة هود

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائة و ثلاث و عشرون آيات

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۱

«سورة هود عليه السّلام»

محتوى هذه السّورة و فضيلتها!

المشهور بين المفسّرين أنّ هذه السورة بأكملها نزلت بمكّة .. و طبقا لما ورد فی «تاريخ القرآن» أنّها السورة التاسعة و الأربعون فی ترتيب السور النازلة على المرسل صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و طبقا لما صرّح به بعض المفسّرين- أيضا- فإنّ هذه السورة نزلت فی السنوات الأخيرة التی قضاها النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم بمكّة، أی بعد وفاة عمّه «أبی طالب عليه السّلام» و زوجته «خديجة عليها السّلام» ... و بطبيعة الحال فإنّ هذه السورة جاءت فی فترة من أشد الفترات صعوبة فی حياة النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم حيث كان يعانی فيها من ضغوط الأعداء و أراجيفهم الإعلامية الحاقدة المسمومة أكثر ممّا عاناه فی السنوات السابقة.

و لذلك يلاحظ فی بداية السورة تعابير فيها جانب من التسلية للنّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم و للمؤمنين.

و يشكل القسم المهم و العمدة من آيات هذه السورة قصص الأنبياء الماضين و خاصّة قصّة نوح النّبی عليه السّلام الذی انتصر بالفئة

القليلة التى معه على الأعداء الكثيرين.

إنّ سرد هذه القصص فيه تسلية لخاطر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين معه و هم أمام الكم الهائل من الأعداء، كما أنّ فيه درسا لمخالفيهم من الأعداء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۲

و على كل حال. فإنّ آيات هذه السورة- كسائر السور المكية- تتناول أصول «المعارف الإسلامية» و لا سيّما المواجهة مع الشرك و عبادة الأصنام، و مسألة المعاد و العالم بعد الموت، و صدق دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، كما يبدو فيها تهديدا ضمنيا للأعداء، و أمرا بالاستقامة للمؤمنين.

فى هذه السورة- إضافة إلى قصّة نوح النّبى و جهاده العنيف التى ذكرت بتفصيل- إشارة إلى قصص الأنبياء هود و صالح و إبراهيم و لوط و موسى و مواقفهم الشجاعة بوجه الشرك و الكفر و الانحراف و الظلم ..

شيبتنى سورة هود!

إنّ آيات هذه السورة تقرر أن على المسلمين أن لا يتركوا السوح و الميادين- فى الحرب و السلم- لكثرة الأعداء و مواجهاتهم الحادة .. بل عليهم أن يواصلوا مسيرتهم و يستقيموا أكثر فأكثر و يوما بعد يوم ..

و على هذا فإنّنا نقرا

فى حديث معروف عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «شيبتنى سورة هود»[۱۸۴]

و

فى حديث آخر أنّه حين لاحظ أصحاب النّبى آثار الشيب قبل أوانه على محيّاه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قالوا: يا رسول اللّه، تعجّل الشيب عليك. فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم «شيبتنى سورة هود و الواقعة»[۱۸۵].

و فى روايات أخرى أضيف أيضا سورة المرسلات و سورة النبأ عَمَّ يَتَساءَلُونَ و سورة التكوير و غيرها إلى هاتين السورتين.

و نقل عن ابن عباس فى تفسير الحديث الشريف- آنف الذكر- أنّه ما نزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم آية كان أشدّ عليه و لا أشق من آية فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۳

. كما نقل عن بعض المفسّرين أنّ أحد العلماء رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام فسأله عن سبب ما نقل عنه من قوله: «شيبتنى سورة هود»

أهو ما سلف من الأمم السابقة و هلاكها؟ فبيّن له صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن سببه آية فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ۱۸۶] و على كل حال فإنّ هذه السورة- بالإضافة إلى هذه الآية- فيها آيات مؤثّرة أخرى تتعلق بيوم القيامة و المحاسبة فى محكمة العدل الإلهى، و آيات تتعلق بما ناله الأقوام السابقون من جزاء، و ما جاء مع بعضها من أوامر فى الوقوف بوجه الفساد بحيث يحمل جميعها طابع المسؤولية ... فلا عجب إذا أن يشيب الإنسان عند ما يفكر فى مثل هذه المسؤوليات ...

مسألة دقيقة أخرى ينبغى الالتفات إليها فى هذا المجال، و هى أنّ كثيرا من هذه الآيات توكّد ما ورد فى السورة السابقة- أى سورة يونس- و أوائلها بوجه خاص يشبه أوائل تلك السورة و مضامينها توكّد تلك المضامين.

التّأثير المعنوى لهذه السّورة:

أمّا بالنسبة لفضيلة هذه السورة،

فقد ورد فی حدیث شریف عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ هذه السورة أعطی من الأجر و الثواب بعدد من صدّق هودا و الأنبیاء علیهم السّلام و من کذب بهم و کان یوم القیامة فی درجة الشهداء و حوسب حسابا یسیرا»[۱۸۷].

و من الوضوح بمکان أنّ مجرّد التلاوة لا یعطی هذا الأثر، و إنّما یکون هذا الأثر إذا کانت تلاوة هذه السورة مقرونة بالتفکر و العمل بعدها. و هذا هو الذی یقرّب الإنسان إلی المؤمنین السالفین و یبعده عن الذین أنکروا علی الأنبیاء و جحدوا دعواتهم، و علی هذا الأساس یثاب بعددهم و یعطی أجر کل واحد منهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۴

و یکون هدفه کهدف شهداء تلک الأمم السالفة .. فلا مجال للتعجب من أن ینال درجاتهم و یحاسب حسابا یسیرا ...

و ینقل عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من کتب هذه السورة علی رق ظبی و یأخذها معه أعطاه اللّه قوّة، و من یحارب معه لنصر علیهم و غلبهم و کلّ من رآه یخاف منه»[۱۸۸].

و لعل بعضا ممن یطلب الراحة و ینظر الی الأمور بسطحیّة یتصوّر فی قراءته لمثل هذه الأحادیث أنّ الإنسان یمکن أن یصل إلی مثل هذه الأهداف بمجرّد وجود الکتابة أو الرسم القرآنی معه، و لکنّه جلی و واضح أنّ المقصود بذلک العمل علی طبق ما فی السورة، و أن یتخذها منهجا لحیاته و أن یقرأها دائما و یمضی علی العمل بها بحذافیرها .. و لا شک أنّ مثل هذا العمل تتحقق فیه مثل هذه الآثار أیضا، لأنّ هذه السورة تأمر بالاستقامة و الوقوف بوجه الفساد و الانسجام مع الأهداف، و تحتوی علی التجارب السابقة من تأریخ الأمم السالفة التی یوجد فی کلّ واحد منها درس من الإنتصار علی العدوّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۵

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الر کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ (۱) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ (۲) وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ یُمَتِّعْکُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی وَ یُؤْتِ کُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ کَبِیرٍ (۳) إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴)

التّفسیر

الأصول الاربعة فی دعوة الأنبیاء:

تبدأ هذه السورة- کما فی بدایة السورة السابقة و سائر سور القرآن- ببیان أهمیة الکتاب العزیز المنزل من السماء، لیلتفت الناس إلی محتویاته أکثر و یتفکروا فیه بنظرة أدق.

و ذکر الحروف المقطعة الر- نفسه- دلیل علی أهمیة هذا الکتاب السماوی العزیز الذی یتشکل من حروف بسیطة معروفة للجمیع مثل الألف و اللام و الراء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۶

الر[۱۸۹] مع ما فیه من عظمة و إعجاز بالغین، ثمّ یبیّن بعد هذه الحروف المقطعة واحدة من خصائص القرآن الکریم فی جملتین.

أوّلا: إنّ جميع آياته متقنة و محكمة كِتابٌ أَحْكِمَتْ آياتُهُ

و ثانيا: إنّ تفصيل حاجات الإنسان فى حياته الفردية و الاجتماعية- مادية كانت أو معنوية- مبيّن فيها أيضا ثُمَّ فُصِّلَتْ

هذا الكتاب العظيم مع هذه الخصيصة، من أين أنزل، و كيف؟! أنزل من عند ربّ حكيم و خبير مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.

فبمقتضى حكمته أحكمت آيات القرآن، و بمقتضى أنّه خبير مطلع بيّن آيات القرآن فى مجالات مختلفة طبقا لحاجات الإنسان، لأنّ من لم يطلع على تمام جزئيات الحاجات الروحية و الجسمية للإنسان لا يستطيع أن يصدر احكاما جديرة بالتكامل.

الواقع، إنّ كل واحدة من صفات القرآن التى جاءت فى هذه الآية تسترفد من واحدة من صفات اللّه .. فاستحكام القرآن من حكمته، و شرحه و تفصيله من خبرته.

و فى بيان ما هو الفرق بين أُحْكِمَتْ و فُصِّلَتْ بحث المفسّرون كثيرا و أبدوا احتمالات عديدة .. و أقرب هذه الاحتمالات- بحسب مفهوم الآية آنفة الذكر- هو أنّ الجملة الأولى تعنى أنّ القرآن مجموعة واحدة مترابطة كالبنيان المرصوص الثابت، كما تدل على أنّه نازل من إله فرد، و لهذا فلا يوجد أى تضادّ فى آياته، و لا يرى بينها أى اختلاف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۶ ؛ ص۴۵۶

الجملة الثّانية إشارة إلى أنّ هذا الكتاب فى عين وحدته فيه شعب و فروع متعددة تستوفى جميع حاجات الإنسان الرّوحيّة و المادية، فهو فى عين وحدته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۶، ص: ۴۵۷

كثير، و فى عين كثرته واحدا! ..

و فى الآية التالية يبيّن أهم ما يحتويه القرآن و ما هو أساسه و هو التوحيد و الوقوف بوجه الشرك أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۱۹۰] و هذا أوّل تفصيل لمحتوى هذا الكتاب العظيم.

و الثّانى من محتويات الدعوة السماوية: إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ .. نذير لكم من الظلم و الفساد و الشرك و الكفر، و أحذركم من عنادكم و عقاب اللّه لكم! و ثالث ما فى منهج دعوتى إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم و تطهروا أنفسكم من الأدران: وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ

و رابعها هو أن تعودوا إلى اللّه بالتوبة، و أن تتصفوا- بعد غسل الذنوب و التطهر فى ظل الاستغفار- بصفات اللّه، فإنّ العودة إليه تعالى لا تعنى إلّا الاقتباس من صفاته ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

فى الواقع إنّ أربع مراحل من مراحل الدعوة المهمّة نحو الحق سبحانه بيّنت فى أربع جمل و فى أربعة أقسام، فقسمان يتضمنان الجانب «العقيدى» و الأساسى.

و قسمان يتضمنان الجانب «العملى» و الفوقانى.

فقبول أصل التوحيد و محاربة الشرك، و قبول رسالة النّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم أصلان اعتقاديان، و التطهّر من الذنوب و التخلّق بالصفات الإلهية- اللذان يحملان معنى البناء بتمام معناه- أمران عمليان حضّ عليهما القرآن، و إذا تأملنا بدقّة فى الآيات الكريمة وجدنا أن جميع محتوى القرآن يتلخص فى هذه الأصول الأربعة ..

هذا هو الفهرس لجميع محتوى القرآن، و لجميع محتوى هذه السورة أيضا.

ثمّ تبيّن الآيات النتائج العملية لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۶، ص: ۴۵۸

التالى يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً فإذا عملنا بهذه الأصول فإنّ اللّه سبحانه يهبنا حياة سعيدة إلى نهاية العمر، و فوق كل ذلك فإنّ كلا يعطى

بمقـدار عمله و لاـ يهمل التفاوت و التفاضل بين الناس فى كيفيـة العمل بهـذه الأصول ... وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْـلَهُ و أمّا فى صورة المخالفة و العناد فتقول الآية: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ حين تمثلون للوقوف فى محكمة العدل الإلهى.

و اعلمـوا أنّ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُـمْ كائنـا من كنتم، و فى أى محـل و مقـام أنتم، و هـذه الجملـة تشـير إلى الأصـل الخـامس من الأـصول التفصـيليّة للقرآن و هى مسألـة «المعاد و البعث» و لكن لا تتصوروا- أبـدا- أن قـدرتكم تعـدّ شـيئا تجاه قدرة اللّه، أو أنّكم تسـتطيعون الفرار من أمره و محكمـة عدله .. و لا تتصوروا- أيضا- أنّه لا يسـتطيع أن يجمع عظامكم النخرة بعد الموت و يكسوها ثوبا جديدا من الحياة .. وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

علاقة الدين بالدنيا:

ما يزال الكثير يظنون أن التدين هو العمل لعمارة الآخرة و السعادة بعد الموت، و أنّ الأعمال الصالحة هى الزاد و المتاع للدار الآخرة .. و لا يكترثون أبـدا بأثر الـدين الأصـيل فى الحياة الـدنيا على حين أن الـدين الصـحيح فى الوقت الـذى يعمر الدار الآخرة يعمر «الدنيا» أيضا .. و طبيعى إذا لم يكن للدين أى تأثير على هذه الحياة الدنيا فلا تأثير له فى الحياة الأخرى أيضا.

و القرآن الكريم يتعرض لهـذا الموضوع بصـراحة فى آيات كثيرة، و ربّما يتناول أحيانا الجزئيات من هذه المسائل، كما ورد فى سورة نوح عليه السّـلام على لسان هذا النّبى العظيم مخاطبا قومه فَقُلْتُ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً[۱۹۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۹

و يفهم البعض أنّ صـلة هـذه المواهب الماديـة فى الدنيا مع الاسـتغفار و التطهر من الذنوب معنوية و غير معروفة، فى حين أنّه لا دليل على ذلك، بل الصلة بينهما ظاهرة معروفة.

فأى أحد لا يعلم أن الكذب و السرقة و الفساد تهدم العلاقات الاجتماعية؟

و أى أحـد لا يعلم أن الظلم و التبعيض و الإجحاف تجعل من حياة الناس جحيما و تكـدر صـفوهم؟! و أىّ أحـد يشك فى حقيقة أن قبـول أصـل التوحيـد و تكـوين مجتمـع توحيـدى على أسـاس قيـادة الأنبيـاء، و تطهير المجتمع من الـذنوب و الآثـام، و التحلّى بـالقيم الإنسانية- و هى الأصول الأربعة ذاتها التى أشـير إليها فى الآيات المتقدّمة- يسير بالمجتمع البشرى نحو هدف تكاملى أفضل، و يخلق محيطا آمنا عامرا بالصفاء و الحرية و الصلاح؟

و على هذا الأساس نقرأ بعد هذه الأصول الأربعة فى الآيات المتقدمة قوله تعالى: يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۰

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۵]

اشارة

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۵)

التّفسير

اختلف بعض المفسِّـرين فى شأن نزول الآية، فقيل أنّها نزلت فى أحد المنافقين و اسـمه «الأخنس بن شـريق» الذى كان ذا لسان ذلق و

مظهر جميل، و كان يبدى للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الحب ظاهرا لكنّه كان يخفى العداوة و البغضاء فى الباطن.

كما

نقل عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام أنّها نزلت فى جماعة من المشركين، حيث كانوا حين يمرون بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يطأطئون برؤوسهم و يستغشون ثيابهم لئلا يراهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لكن الآية تشير- على العموم- إلى أحد الأساليب الحمقاء التى كان يتبعها أعداء الإسلام و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك بالاستفادة من طريقة النفاق و الابتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم و ماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعوا قول الحق.

لذلك فإنّ الآية تقول: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۱

و من أجل أن نفهم الآية فهما دقيقا ينبغى أن تتضح لنا كلمة «يثنون» بجلاء فهى من مادة «ثنى» و هى فى الأصل تعنى ضم أقسام الشيء بعضها إلى بعض، فمثلا فى طى قطعة القماش و الثوب يقال «ثنى ثوبه» و إنّما يقال للشخصين على سبيل المثال: اثنان، فلأجل أن انضمّ واحد إلى جانب الآخر، و يقال للمادحين «مثنون» كذلك، لأنّهم يعدون الصفات البارزة واحدة بعد الأخرى.

و تعنى الانحناء أيضا، لأنّ الإنسان بعمله هذا و هو الانحناء يقرّب أجزاء من جسمه بعضها إلى بعض.

و تأتى هذه المادة بمعنى أن تجد العداوة و البغضاء و الحقد طريقها إلى القلب أيضا .. لأنّ الإنسان بهذا العمل يقرب عداء الشخص- أو أيّ شيء آخر- إلى القلب، و مثل هذا التعبير موجود فى الأدب العربى إذ يقال: «اثنونى صدره على البغضاء»[۱۹۲].

و مع الأخذ بنظر الإعتبار بما ورد آنفا من معان لمادة «ثنى» فلا يبعد أن تكون كلمة «يثنون» مشيرة إلى كل عمل خفى- ظاهرى و باطنىّ- قام به أعداء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فمن جهة يضمرون العداوة و البغضاء فى القلوب و يبدون المحبّة فى لسان ذلق جميل! و من جهة أخرى يقربون رؤوسهم بعضها إلى بعض عند التحدث، و يثنون الصدور و يستغشون الثياب، لئلا تنكشف مؤامراتهم و أقوالهم السيئة و يطّلع أحد على نياتهم.

لذلك فإنّ القرآن يعقّب مباشرة: أن أحذروهم، فإنّهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإنّ اللّه يعلم ما يخفون و ما يعلنون .. أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۲

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۶]

اشارة

وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۶)

التّفسير

جميع الاحياء ضيوف مأدبته:

الآية السابقة أشارت إلى سعة علم اللّه و إحاطته بالسر و ما يخفون و ما يعلنون، و الآية محل البحث تعدّ دليلا على تلك الآية المتقدمة، فإنّها تتحدث عن الرازق لجميع الموجودات و لا يمكن يتمّ ذلك إلّا بالإحاطة الكاملة بجميع العالم و ما فيه ..

تقول الآية وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها و يعلم تقلّبها و تنقلها من مكان لآخر، و حيثما

كانت فإنّ الرزق يصل إليها منه.

و هذه الحقائق مع جميع حدودها ثابتة فى كتاب مبين و لوح محفوظ فى علم اللّه كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۳

ملاحظات

اشارة

۱- بالرغم من أنّ كلمـة «دابّـة» مشـتقة من مادة «دبيب» التى تعنى السير ببطء و بخطى قصيرة، و لكنّها من الناحيـة اللغوية تشـمل كل حيوان يتحرك فى سيرة ببطء أو بسرعة، فنرى كلمـة الدابـة تطلق على الفرس و على كل حيوان يركب عليه، و واضح أنّ الكلمة فى هذه الآية- محل البحث- تشمل جميع الحيوانات الموجودة على سطح الأرض بما فيها الحيوانات التى تدبّ فى سيرها ..

۲- «الرزق»: هو العطاء المستمر، و من هنا كان عطاء اللّه المستمر للموجودات رزقا. و ينبغى الالتفات إلى أن مفهوم الرزق غير منحصر فى الحاجـات الماديـة، بـل يشـمل كـل عطاء مادىّ أو معنوى. و لـذلك نقول مثلا: «اللّهم ارزقنى علما كاملا» أو نقول: «اللّهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك».

و الظاهر أنّ المراد من الرزق فى هذه الآية الرزق المادى، و لكن إرادة المفهوم العام الذى يندرج تحته الرزق المعنوى غير بعيد ..

۳- «المسـتقر»- فى الأصل- تعنى المقّر، لأن جـذر هـذه الكلمة فى اللغة مأخوذ من «قرّ» على وزن «حرّ» و تعنى كلمة القرّ البرد الشديد الذى يجعل الإنسان و الموجودات الأخرى يركنون إلى بيوتهم، و من هنا جاءت بمعنى التوقف و السكون أيضا.

و «المسـتودع» و «الوديعـة» من مادة واحدة، و هاتان الكلمتان فى الأصل تعنيان «اطلاق الشـىء و تركه» و لذلك تطلق عليه الأمور غير الثابتة التى ترجع إلى حالتها الطبيعية، فيطلق على كل أمر غير ثابت «مستودع» و بسبب رجوع الشىء إلى صاحبه الأصلى و تركه محله الذى هو فيه يسمى ذلك الشىء «وديعة» أيضا.

فالآية أنفة الذكر تقول: لا ينبغى التصور أن اللّه سبحانه يرزق الدواب التى تستقر فى أماكنها فحسب، بل هى حيث ما كانت و فى أى ظرف من الظروف تكون فإنّه تعالى يوصل إليها أرزاقها، لأنّه يعلم أماكن استقرارها، و كذلك يعلم جميع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۴

المنـاطق التى تنتقـل إليهـا و ترحل عنها من حيوانات بحريـة مهولـة الحجم، الى أصـغر الكائنات المجهريـة، فإنّه تعالى يرزق كلا منها بحسب حاجته و حاله.

و هذا الرزق ملحوظ بحيث يناسب حال الموجودات من حيث الكمية و الكيفية، و هو مطابق تماما لمقدار الحاجة و الرغبة، حتى غذاء الجنين الذى فى رحم أمّه يتفاوت كل شهر عن الشهر السابق فى النوعية و الكمية، بل كل يوم عن اليوم السابق بالرغم ممّا يبدو من أن الـدم نوع واحـد لا أكثر. و كـذلك الطفل فى مرحلـة الرضاعـة حيث يبـدو أن غـذاءه من نوع واحد، لكن تركيب هذا الغذاء أو اللبن يختلف من يوم لآخر.

۴- «الكتاب المبين» معناه المكتوب الواضح البيّن، و يشير إلى علم اللّه الواسع، و قد يعبر عنه أحيانا باللوح المحفوظ أيضا.

و يحتمل أن يكون هذا التعبير اشارة إلى أنّه لا ينبغى لأحد أن يهتم لرزقه أقلّ اهتمام، أو يحتمل سـقطوا اسـمه و سـهمه من القلم، لأنّ أسماء الجميع مثبتة فى كِتابٍ مُبِينٍ كتاب أحصى الجميع بجلاء و وضوح!

تقسیم الأرزاق و السعی من أجل الحیاة!

هناک أبحاث مهمّة فی مسألة «الرزق»، و نأخذ بنظر الإعتبار- هنا- قسما منها:

۱- «الرزق»- کما قلنا آنفا- یعنی فی اللغة العطاء المستمر و الدائم، و هو أعم من أن یکون رزقا مادّیا أو معنویا .. فعلی هذا کل ما یکون فیه نصیب للعباد من قبل اللّه و ینتفعون منه- من مواد غذائیة و مسکن و ملبس أو علم و عقل و فهم و إیمان و إخلاص- یسمی رزقا، و من ظنّ أن مفهوم الرزق خاص بالجوانب المادّیة لم یلتفت إلی موارد استعماله فی القرآن الکریم بدقة .. فالقرآن یتحدث عن الشهداء فی سبیل اللّه بأنّهم .. أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ ۱۹۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۵

و واضح أن رزق الشهداء- فی عالم البرزخ- لیس نعمّا مادیة، بل هو عبارة عن المواهب المعنویة التی یصعب علینا تصوّرها فی هذه الحیاة المادیة.

۲- مسأله تأمین الحاجات بالنسبة للموجودات الحیة- و بتعبیر آخر تأمین رزقها- من المسائل المثیرة التی تنکشف أسرارها بمرور الزمان و تقدّم العلم ..

و تظهر کل یوم میادین جدیدة تدعو للتعجب و الدهشة.

کان العلماء فی الماضی یتساءلون فیما لو کان فی أعماق البحار موجودات حیّة، فمن أین یتم تأمین غذائها؟! إذ أنّ أصل الغذاء یعود إلی النباتات و الحشائش، و هی تحتاج إلی نور الشمس، و لکن علی عمق ۷۰۰ متر فصاعدا لا وجود لنور الشمس أبدا، بل لیل أبدی مظلم یلقی ظلاله و یبسط أسداله هناک.

و لکن اتّضح بتقدم العلم أن نور الشمس یغذّی النباتات المجهریة فی سطح الماء و بین الأمواج، و حین تبلغ مرحلة النضج تهبط إلی أعماق البحر کالفاکهة الناضجة، و تنظم إلی الأرزاق الإلهیة للأحیاء فی تلک الاعماق، مائدة نعمة اللّه للموجودات الحیة تحت الماء!

و من جهة أخری فهناک طیور کثیرة تتغذی من أسماک البحر، منها طیور تطیر فی اللیل و تهبط الی البحر کالغواص الماهر و عن طریق أمواج راداریة خاصّة تخرج من آنافها تعرف صیدها و تصطاده بمنقارها.

و رزق بعض أنواع الطیور یکون مدّخرا بین ثنایا أسنان حیوانات بحریة کبیرة هذا النوع من الحیوانات بعد أن یتغذی من حیوانات البحر، تحتاج أسنانه إلی «منظف طبیعی» فیأتی إلی ساحل البحر و یفتح فمه الواسع فتدخل هذه الطیور التی أدّخر رزقها فی فم هذا الحیوان الضخم- دون وحشة و لا اضطراب- و تبحث عن رزقها بین ثنایا أسنان هذا الحیوان الکبیر، فتملأ بطونها من جهة، و تریح الحیوان الذی تزدحم بین أسنانه «هذه الفضلات» من جهة أخری .. و حین تخرج الطیور و تطیر فی الفضاء یطبق هذا الحیوان البحری فمه بکل هدوء و یعود إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۶

أعماق البحر.

طریقة إیصال الرزق من اللّه تعالی إلی الموجودات المختلفة مذهلة و محیرة حقّا. من الجنین الذی یعیش فی بطن أمّه و لا یعلم أحد أسراره شیئا، إلی الحشرات المختلفة التی تعیش فی طیّات الأرض، و فی الأشجار و علی قمم الجبال أو فی أعماق البحر، و فی الأصداف .. جمیع هذه الموجودات یتکفل اللّه برزقها و لا تخفی علی علمه، و کما یقول القرآن ... عَلَی اللَّهِ رِزْقُها وَ یَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها.

الطریف فی الآیات آنفة الذکر أنّها تعّبر عن الموجودات التی تطلب الرزق ب «الدّابّة» و فیها إشارة لطیفة إلی العلاقة بین موضوع «الطاقة» و «الحرکة». و نعلم أنّه حیثما تکن حرکة فلا بدّ لها من طاقة، أی ما یکون منشأ للحرکة، و القرآن الکریم یبیّن- فی الآیات

محل البحث- أنّ اللّه یرزق جمیع الموجودات المتحرکـة، و إذا ما توسـعنا فی معنی الحرکـة فإنّ النباتات تنـدرج فی هـذا الأمر أیضا، لأنّ للنباتات حرکة دقیقة و ظریفة فی نموها، و لهذا عدّوا فی الفلسفة الاسلامیة موضوع «النمو» واحدا من أقسام الحرکة ...

۳- هل أنّ رزق کلّ أحد مقدر و معین من أوّل عمره إلی آخره، و هل أنّه یصل إلیه شاء أم أبی؟! أم أنّ علیه یسعی فی طلبه؟

یظنّ بعض الأفراد السـذّج استنادا إلی الآیـة آنفة الذکر، و إلی بعض الرّوایات التی تذکر أنّ الرزق مقدر و معین، أنّه لا داعی للسـعی من أجل الرزق و المعاش، فإنّه لا بدّ من وصول الرزق، و یقول بکل بساطة: إنّ من خلق الأشداق قدّر لها الأرزاق.

إنّ سلوک مثل هؤلاء الأفراد الذین لا حظّ لهم من المعرفة الدینیة یعطی ذریعة الی الأعداء حیث یدّعون أن الدین أحد عوامل الرکود الاقتصادی و تقبل الحرمان و إماتة النشاطات الإیجابیّة فی الحیاة، فیقول مثلا: إذا لم تکن الموهبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۷

الفلانیـة من نصـیبی فإنّها لم تکن من رزقی قطعا .. فلو کانت من نصـیبی لوصـلتنی حتما من دون تکلف عناء الکسب. و بهذا یسـتغل المسـتعمرون هـذه الفرصـة لیحرموا الکثیر من الخلق التمتع بأسـباب الحیـاة ... فی حین أن أقـل معرفـة بـالقرآن و الأحادیث الإسـلامیة تکفی فی بیان أنّ الإسـلام یعدّ أساس أی استفادة مادیة و معنویة للإنسان هو السعی و الجد و المثابرة، حتی أنّنا نجد فی القرآن جملة بمثابة الشعار لهذا الموضوع، و هی الآیة الکریمة لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی

و کان أئمّة المسلمین- و من أجل أن یسنّوا للآخرین نهجا یسیرون علیه- یعملون فی کثیر من المواقع أعمالا صعبة و مجهدة.

و الأنبیاء السابقون- أیضا- لم یسـتثنوا من هـذا القانون، فکانوا یعملون علی الاکتساب، من رعی الأغنام إلی الخیاطـة إلی نسج الدروع إلی الزراعـة. فـإذا کـان مفهوم الرزق من اللّه أن نجلس فی البیت و ننتظر الرزق، فمـا کـان ینبغی للأنبیاء و الأئمّـة- الـذین هم أعرف بالمفاهیم الدینیة- أن یسـعوا هذا السعی إلی الرزق! و علی هذا نقول: إنّ رزق کل أحد مقدّر و ثابت، إلّا أنّه مشروط بالسعی و الجد، و إذا لم یتوفر الشـرط لم یحصـل المشـروط. و هـذا کمـا نقول: إن لکـلّ فرد أجلا و مـدة من العمر. و لکن من المسـلم و الطبیعیّ أن مفهوم هـذا الکلاـم لا یعنی أنّ الإنسان حتی لو أقـدم علی الانتحار أو أضـرب عن الطعام فإنّه سـیبقی حیّا إلی أجل معیّن!! إنّما مفهوم هـذا الکلام أن للبـدن اسـتعدادا للبقاء إلی مـدّة معینـة و لکن بشـرط أن یراعی الظروف الصـحیّة و أن یبتعد عن الأخطار، و أن یجنّب نفسه عمّا یکون سببا فی تعجیل الموت.

المسألـة المهمّـة فی هذا المجال أنّ الآیات و الرّوایات المتعلقة بتقدیر الرزق- فی الواقع- بمثابة الکابح للاشـخاص الحریصـین و عبّاد الدنیا الذین یلجون کل باب، و یرتکبون أنواع الظلم و الجنایات، و یتصورون أنّهم إذا لم یفعلوا ذلک لم یؤمنوا حیاتهم!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۸

إنّ آیات القرآن و الأحادیث الإسـلامیة تحـذر هـذا النمط من الناس ألّا یمدّوا أیدیهم و أرجلهم عبثا، و ألّا یطلبوا الرزق من طرق غیر مشـروعة و لا معقولة، بل یکفی أن یسـعوا لتحصـیل الرزق عن طریق مشروع، و اللّه سبحانه یضمن لهم الرزق فاللّه الذی لم ینسهم فی ظلمة الرحم.

اللّه الـذی تکفّل رزقهم أیّام الطفولـة حیث هیأ لهم أثداء الأمّهات اللّه الذی جعل الأب یسـعی من الصـباح إلی اللیل لیهیّئ لهم الغذاء بکل عطف و شفقة- بعد أن أنهوا مرحلة الرضاعة- و هو مسرور بالتعب من أجلهم ...

أجل، هذا الرّب الرحیم کیف یمکن أن ینسی الإنسان إذا ما کبر و وجد القدرة علی العمل و الکسب.

تری هـل یجیز الإیمـان و العقـل أن یلجـأ الإنسـان إلی الظلـم و الإـثم و التجـاوز علی حقـوق الآـخرین و یحرص علی غصـب حقـوق المستضعفین بمجرّد أنّه یظن عدم توفر رزقه؟

و بـالطبع لاـ یمکن أن ننکر أن بعض الأرزاق تصل إلی الإنسان سـعی لها أم لم یسع. فهل یمکن أن ننکر أن نور الشـمس یضـیء فی بیتنا من دون سعینا، و أن المطر و الهواء یصلان إلینا دون سعی منّا؟

و هل یمکن أن ننکر أنّ العقل و الفکر و الاستعداد المذخور فینا من أوّل یوم وجودنا لم یکن بسعینا؟! و لکن هذه المواهب التی تنقلها إلینا الریح- کما یقال- أو بتعبیر أصحّ هذه المواهب التی وصلتنا بلطف اللّه و من دون سعینا، إذا لم نحافظ علیها بالجد و السعی بطریقة صحیحة فستضیع من أیدینا، أو أنّها ستبقی بلا أثر! هناک کلام معروف منقول

عن الإمام علی علیه السّلام فی شأن الرزق فیقول «و اعلم یا بنی أن الرزق رزقان، رزق تطلبه و رزق یطلبک»[۱۹۴]

و فی هذا الکلام إشارة إلی هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۹

الحقیقة.

کما لا ینکر أن بعض موارد الرزق لا یأتی تبعا لشیء ظاهر و ملموس، بل یصلنا علی أثر سلسلة من الاتفاقات و المصادفات، هذه الحوادث و إن کانت فی نظرنا مصادفات، إلّا أنّها فی الواقع و فی نظام الخلق قائمة علی حساب دقیق.

و لا شک أن حساب هذا النوع من الرزق منفصل عن الأرزاق التی تأتی تبعا للجد و السعی، و الکلام آنف الذکر یمکن أن یشیر إلی هذا المطلب أیضا.

و لکن علی کل حال- فإن النقطة الأساسیة هنا أنّ جمیع التعالیم الإسلامیة تأمرنا أن نسعی أکثر فأکثر لتأمین نواحی الحیاة المادیة و المعنویة، و أن الفرار من العمل- بزعم أن الرزق مقسوم و أنّه آت لا محالة- غیر صحیح! ..

۴- فی الآیات المتقدمة- التی هی محل البحث- إشارة إلی «الرزق» فحسب، و بعدها ببضعة آیات یأتی التعبیر عن التائبین و المؤمنین و یشار فیها إلی «المتاع الحسن».

و بالموازنة و المقارنة بین هذین الأمرین یدلنا هذا الموضوع علی أن الرزق معدّ لکل دابة من إنس و حشرات و حیوانات مفترسة ... إلخ. و للمحسنین و المسیئین جمیعا! ... إلّا أن «المتاع الحسن» و المواهب الجدیرة و الثمینة خاصّة بالمؤمنین الذین یطهرون أنفسهم من کل ذنب و تلوّث بماء التوبة، و یتمتعون بنعم اللّه فی مسیر طاعته، لا فی طریق الهوی و الهوس!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۰

الآیة [سورة هود (۱۱): آیة ۷]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیّامٍ وَ کانَ عَرْشُهُ عَلَی الْماءِ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّکُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَیَقُولَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِینٌ (۷)

التّفسیر

الهدف من الخلق:

فی هذه الآیة بحثت ثلاث نقاط أساسیة:

المطلب الأوّل: یبحث عن خلق عالم الوجود- و خصوصا بدایة الخلق- الذی یدل علی قدرة اللّه و عظمته سبحانه وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیّامٍ ....

و لا حاجة لبیان أنّ المقصود من کلمة «الیوم» فی هذه الآیة لیس هو الیوم العادی الذی هو مجموع أربع و عشرین ساعة، لأنّ الأرض

و السماء لم تکونا موجودتین حینئذ .. فلا الکرة الأرضیة کانت موجودة، و لا حرکتها حول نفسها التی تنتج أربعا و عشرین ساعة .. بل المقصود منه- کما بینا سابقا- هو الزمان،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۱

سواء کان قصیرا أو مدیدا جدا بحیث یبلغ ملیارات السنوات مثلا، و قد نبهنا علی هذا المعنی- فی ذیل الآیة (۵۴) من سورة الأعراف- بشرح واف فی هذا المجال، فلا حاجة للتکرار و الإعادة.

و ذکرنا هناک أن خلق العالم کان فی ستة أزمنة متوالیة و متتابعة، مع أنّ اللّه قادر علی أن یخلق العالم کلّه فی لحظة واحدة، و ذلک لأنّ الخلق التدریجی یعطی صورة جدیدة و لونا جدیدا و شکلا بدیعا و تتبیّن قدرة اللّه و عظمته أکثر و أحسن.

فهو یرید أن یبیّن قدرته فی آلاف الصور لا بصورة واحدة، و حکمته فی آلاف الثیاب لا بثوب واحد، لتتیسر معرفته و کذلک معرفة حکمته و قدرته للناس، و لنجد الدلائل- من خلال عدد الأیّام و السنوات و القرون و الأعصار التی مرّت علی العالم- علی معرفة اللّه!

.. ثمّ یضیف سبحانه أن عرشه کان علی الماء وَ کانَ عَرْشُهُ عَلَی الْماءِ.

و من أجل أن نفهم تفسیر هذه الجملة ینبغی أن نفهم المراد من کلمتی «العرش» و «الماء».

«فالعرش» فی الأصل یعنی السقف أو ما یکون له سقف، کما یطلق علی الأسرّة العالیة کأسرّة الملوک و السلاطین الماضین، و یطلق أیضا علی خشب بعض الأشجار، و غیر ذلک.

و لکن هذه الکلمة استعملت بمعنی القدرة أیضا و یقال «استوی فلان علی عرشه» کنایة عن بلوغه القدرة کما یقال «ثلّ عرش فلان» کنایة عن ذهاب قدرته ۱۹۵].

کما ینبغی الالتفات إلی هذه الدقیقة، و هی أن العرش یطلق أحیانا علی عالم الوجود، لأنّ عرش قدرة اللّه یستوعب جمیع هذا العالم.

و أمّا «الماء» فمعناه معروف، و هو السائل المستعمل للشرب و التطهیر، إلّا أنّه قد یطلق علی کل سائل مائع کالفلزّات المائعة و ما أشبه ذلک، و بضمیمة ما قلناه فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۲

تفسیر هاتین الکلمتین یستفاد أنّه فی بدایة الخلق کان الکون بصورة مواد ذائبة «مع غازات مضغوطة للغایة، بحیث کانت علی صورة مواد ذائبة أو مائعة».

و بعدئذ حدثت اهتزازات شدیدة و انفجارات عظیمة فی هذه المواد المتراکمة الذائبة، و أخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلی الخارج، و أخذ هذا الوجود المترابط بالانفصال. ثمّ تشکلت بعد ذلک الکواکب السیّارة و المنظومات الشمسیة و الأجرام السماویة.

فعلی هذا نقول: إنّ عالم الوجود و مرتکزات قدرة اللّه کانت مستقرة بادئ الأمر علی المواد المتراکمة الذائبة، و هذا الأمر هو نفسه الذی أشیر إلیه فی الآیة (۳۰) من سورة الأنبیاء.

أَ وَ لَمْ یَرَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ کانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ کُلَّ شَیْءٍ حَیٍّ ....

و فی الخطبة الأولی من نهج البلاغة إشارات واضحة إلی هذا المعنی ..

و المطلب الثّانی: الذی تشیر إلیه الآیة- آنفة الذکر- هو الهدف من خلق الکون، و القسم الأساس من ذلک الهدف یعود للإنسان نفسه الذی یمثل ذروة الخلائق ..

هذا الإنسان الذی کتب علیه أن یسیر فی طریق التعلیم و التربیة و یشقّ طریق التکامل نحو اللّه تعالی یقول اللّه سبحانه: لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أی لیختبرکم و یمتحنکم أیّکم الأفضل و الأحسن عملا بهذه الدار الدنیا.

«لیبلوکم» کلمة مشتقّة من مادة «البلاء» و «الابتلاء» و معناها- کما أشرنا إلیه آنفا- الاختبار و الامتحان ..

و الامتحانات الإلهیة لیست من قبیل معرفة النفس و کشف الحالة التی علیها الإنسان فی محتواه الداخلی و فی فکره و روحه، بل

بمعنى التربية (تقدم شرح هذا الموضوع فى ذيل الآية ۱۵۵ من سورة البقرة) و الطريف فى هذه الآية أنّها تجعل

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۳

قيمة كل إنسان بحسن عمله لا بكثرة عمله، و هذا يعنى أن الإسلام يستند دائما إلى الكيفية فى العمل لا إلى الكثرة و الكمية فيه.

و فى هذا المجال

ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «ليس يعنى أكثركم عملا و لكن أصوبكم عملا، و إنّما الإصابة خشية اللّه و النيّة الصادقة. ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، و العمل الخالص الذى لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا اللّه عزّ و جلّ»[۱۹۶].

و المطلب الثّالث: الذى تشير إليه الآية آنفة الذكر- هو مسألة المعاد الذى لا ينفصل و لا يتجزأ عن مسألة خلق العالم، و فيها بيان الهدف من الخلق و هو تكامل الإنسان و تكامل الإنسان يعنى التهّيؤ إلى الحياة فى عالم أوسع و أكمل، و لذلك يقول سبحانه: وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

و كلمة «هذا» التى وردت- فى الآية آنفة الذكر- على لسان الكفار، إشارة إلى كلام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى شأن المعاد .. أى إنّ ما تدّعيه أيّها النّبى فى شأن المعاد سحر مكشوف و واضح، فعلى هذا تكون كلمة السحر هنا بمعنى الكلام العارى عن الحقيقة، و القول الذى لا أساس له، و بتعبير بسيط: الخدعة و السخرية!! لأنّ السحرة يظهرون للناظرين بأعمالهم أمورا لا واقع لها، و لهذا قد تطلق كلمة السحر على كل أمر عار عن الحقيقة ..

أمّا من يرى بأنّ «هذا» إشارة إلى القرآن المجيد، لأنّ القرآن أخّاذ و فيه جاذبية السحر فإنّه يجانب الصواب، لأنّ الآية تتكلم عن المعاد و لا تتكلم عن القرآن، و إن كنّا لا ننكر أنّ القرآن فيه جاذبية و أنّه أخّاذ للغاية.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸ الى ۱۱]

اشارة

وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۸) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (۹) وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (۱۰) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۱)

التّفسير

استيعاب المؤمنين و عدم استيعاب غيرهم:

فى هذه الآيات- و بمناسبة البحث السابق عن غير المؤمنين- بيان لزوايا الحالات النفسية و نقاط الضعف فى أخلاق هؤلاء الأفراد و التى تجبر الإنسان إلى هاوية الظلام و الفساد.

و أوّل صفة تذكر لهؤلاء هى السخرية من الحقائق و عدم الاكتراث بها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۵

و بالمسائل المصيرية، فهؤلاء بسبب جهلهم و عدم معرفتهم و غرورهم- حين يسمعون تهديد الأنبياء فى مؤاخذة المسيئين و معاقبتهم، ثمّ تمرّ عليهم عدّة أيّام يؤخر اللّه تعالى بلطفه فيها العذاب عنهم، نراهم يقولون باستهزاء مبطن: ما السبب فى تأخرّ العذاب الالهى، و

أین عقاب اللّه: وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ

و «الأمّة» مشتقّة من مادة «أمّ» و هی بمعنی الوالدة، و معناها فی الأصل انضمام الأشياء بعضها إلی بعض، و لذلک يقال لكل مجموعة علی هدف معين، أو زمان أو مكان واحد «أمة».

و قد جاءت هذه الكلمة بمعنی الوقت و الزمان أيضا، لأنّ أجزاء الزمان مرتبطة بعضها ببعض، أو لأنّ المجموعة أو الجماعة تعيش فی عصر و زمان معين، فنحن نقرأ فی سورة يوسف عليه السّلام الآية (۴۵) مثلا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ..

ففی الآية- محل البحث- كلمة «الأمّة» جاءت بهذا المعنی، و لذلک و صفت بكلمة «معدودة» فمعنی الآية هو: إذا أخرنا عن هؤلاء العذاب و المجازاة لمدّة قصيرة قالوا: أی شیء يمنعه؟! ..

و علی كل حال، فهذه عادة الجاهلين و المغترين، فكلّما و جدوا شيئا لا ينسجم مع ميولهم و طباعهم عدّوه سخرية، لذلک يتخذون التهديدات و النذر التی توقظ أصحاب الحق و تهزهم .. يتخذونها هزوا و يسخرون منها شأنهم شأن من يلعب بالنّار.

لكن القرآن يحذرهم و ينذرهم بصراحة فی ردّه علی كلامهم، و يبين لهم أن لا دافع لعذاب اللّه إذا جاءهم أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ و أن الذين يسخرون منه واقع بهم و مدمّرهم وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

أجل، ستصعد صرخاتهم إلی السماء فی ذلک الحين، و يندمون علی كلماتهم المخجلة، لكن لا صرخاتهم تغنيهم و تنقذهم، و لا هذا الندم ينفعهم، و لات حين

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۶

مندم.

و من نقاط الضعف عند هؤلاء قلّة الصبر بوجه المشاكل و الصعاب و انحسار البركات الإلهية. حيث نجد فی الآية التالية قوله تعالی عنهم: وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ.

و بالرغم من أنّ هذا التعبير يتناول الإنسان بشكل عام، لكن- كما أشرنا إليه سابقا- المراد من الإنسان فی مثل هذه الآيات هو الافراد الذين لم يتلقوا تربية سليمة و المنحرفون عن جادة الحق، لذلک يتطابق هذا البحث مع البحث السابق عن الأفراد غير المؤمنين.

و نقطة الضعف الثّالثة عند هؤلاء أنّهم حين يتنعمون بنعمة و يشعرون بالترف و الرفاه يبلغ بهم الفرح و التكبر و الغرور درجة ينسون معها كل شیء، و لذلک يشير القرآن الكريم إلی هذه الظاهرة بقوله تعالی: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّی إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ.

و هناک احتمال آخر فی تفسير هذه الجملة لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّی و هو أن مثل هؤلاء الأشخاص حين يصابون بالشدائد ثمّ يبدل اللّه بلطفه هذه الشدائد نعمّا من عنده يقول هؤلاء: إنّ الشدائد السابقة كانت كفارة عن ذنوبنا و قد غسلت جميع معاصينا، لذلک أصبحنا من المقربين إلی اللّه، فلا حاجة للتوبة و العودة إلی ساحة اللّه و حضرته.

ثمّ يستثنی اللّه سبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد و المصاعب بصبر، و لا يتركون الأعمال الصالحة علی كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور و التكبر و ضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ

هؤلاء لا يغترّون عند وفور النعمة فينسون اللّه، و لا ييأسون عند الشدائد و المصائب فيكفرون باللّه، بل إن أرواحهم الكبيرة و افكارهم السليمة جعلتهم يهضمون النعم و البلايا فی أنفسهم دون الغفلة عن ذكر اللّه و أداء مسئولياتهم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۷

و لذلک فإنّ لهؤلاء ثوابا و مغفرة من اللّه أُولئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

بحوث

۱- الأمّة المعدودة و أصحاب المهدی علیه السّلام:

فی روایات عدیدة وصلتنا عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ الأمّة المعدودة تعنی النفر القلیل، و فیها إشارة إلی أصحاب المهدی علیه السّلام و أنصاره، و علی هذا یکون معنی الآیة: إذا ما أخرنا العذاب عن الظالمین و المسیئین إلی ظهور المهدی و أصحابه، فإنّ أولئک الظالمین یقولون: أی شیء یقف أمام عذاب اللّه فیحبسه عنّا! و لکن کما قلنا أن ظاهر الآیة من الأمّة المعدودة هو الزمان المعدود و المعین، و قد وردت روایة عن الإمام علی علیه السّلام فی تفسیر الأمّة المعدودة تشیر إلی ما بیّناه، و هو الزمان المعین، فیمکن أن تکون الرّوایات الآنفة تشیر إلی المعنی الثّانی من الآیة، و هو ما اصطلح علیه ب «بطن الآیة» و طبیعی أنّه بمثابة البیان عن القانون الکلی فی شأن الظالمین، لا أنّه موضوع خاص بالمشرکین الذین عاصروا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و نحن نعلم أنّ آیات القرآن تحمل معانی کثیرة مختلفة، فالمعنی الأوّل و الظاهر یمکن أن یکون فی مسألة خاصّة أو جماعة معینة، و المعنی الآخر یکون عاما مجرّدا عن الزمان و غیر مخصوص بفئة معینة.

۲- أربع ظواهر لضیق الأفق الفکری

رسمت الآیات المتقدمة ثلاث حالات مختلفة من حالات المشرکین و المسیئین، و قد ورد فی ضمنها أربعة أوصاف لهم:

الأوّل: إنّ المشرک یؤوس عند قطع النعمة عنه، أی لا یبقی له أمل أبدا.

و الآخر: إنّه کفور، أی غیر شاکر أبدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۸

و الثّالث: إنّه إذا غرق بالنعمة أو نال أقلّ نعمة، فهو- علی العکس من الحالة السابقة- ینسی نفسه و ینسی کل شیء و یغفل بما ناله من اللّذة و النشاط، فیغدو ثملا مغرورا و ینجر إلی الفساد و التجاوز علی حدود اللّه.

و الوصف الرّابع: إنّ حاله عند وفور النعمة حالة الفخر، أی یبلغ درجة کبیرة من التکبر.

و علی کل حال، هذه الأوصاف الأربعة هی ظواهر من ضیق الأفق و قلّة الإستیعاب و الرؤیة .. و هی لا تختص بجماعة معینة من غیر المؤمنین و ملوّثی الفکر، بل هی سلسلة من الأوصاف العامّة لجمیع هؤلاء ..

أمّا المؤمنون الذین یمتعون بروح کبیرة و فکر عال و صدر رحب و رؤیة بعیدة المدی، فلا یهزّهم تبدل الدنیا و الزمان، و لا ییأسوا لسلب النعمة عنهم، و لا یغرّهم إقبال النعمة فیکونوا من الغافلین، لذا ینبغی الدقة و الملاحظة فی آخر الآیة التی تستثنی المؤمنین، إذ ورد التعبیر فیها عن الإیمان بالصبر و الاستقامة إِلَّا الَّذِینَ صَبَرُوا.

۳- معیار الضعف النفسی

و المسألة الدقیقة الأخری التی ینبغی الالتفات إلیها، هی أنّه فی الموردین (مورد سلب النعمة بعد إسباغها و مورد إسباغ النعمة بعد سلبها) أشیر بکلمة «أذقنا» المشتقّة من «الإذاقة» و یراد بها أن نفوس هؤلاء المشرکین ضعیفة إلی درجة أنّهم لو أعطوا نعمة قلیلة ثمّ سلبت منهم یضجرون و ییأسون، کما أنّهم إذا ذاقوا نعمة بعد شدة یفرحون و یغترّون بها.

۴- النعم جمیعها مواهب:

الطریف أنّه فی الآیة الأولی عبّر عن النعمة بالرحمة وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۹

رَحْمَةً و فی الآیة الثّانیة ورد کلمة «النعمة» نفسها، و یمکن أن تکون إشارة إلی أنّ نعم اللّه جمیعها تصل إلی الإنسان عن طریق التفضل و الرحمة لا عن طریق الاستحقاق، و إذا کان الأصل أن تکون النعمة علی حسب الاستحقاق، فإنّ جماعة قلیلة ستنالها، أو أن أیة جماعة لن تنالها أبدا.

۵- أثران للأعمال الحسنة

فی آخر آیة- من الآیات محل البحث- وعد بالمغفرة- للأفراد المؤمنین الذین یتمتعون بالاستقامة- و وعد بالأجر الکبیر أیضا جزاء لأعمالهم الصالحة، فهی إشارة إلی أنّ الأعمال الصالحة لها أثران:

الأوّل: غسل الذنوب.

و الثّانی: کسب الثواب العظیم و الأجر الکبیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۰

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۱۲ الی ۱۴]

اشارة

فَلَعَلَّکَ تارِکٌ بَعْضَ ما یُوحی إِلَیْکَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ أَنْ یَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَکٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِیرٌ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ (۱۲) أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۱۳) فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۴)

سبب النّزول

وردت فی شأن نزول الآیات المتقدمة روایتان، و یحتمل أن تکون کلیهما صحیحتین جمیعا.

الأولی: إنّ جماعة من رؤوساء مکّة جاؤوا إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و قالوا: إذا کنت صادقا فی دعواک بأنّک نبی فصیر جبال مکّة ذهبا أو ائتنا بملائکة من السماء تصدّق نبوتک، فنزلت هذه الآیات.

و الثّانیة: إنّه

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السّلام: «یا علی إنّی سألت ربّی یوالی بینی و بینک ففعل، و سألت ربّی أن یؤاخی بینی و بینک ففعل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۱

و سألت ربّی أن یجعلک وصیی ففعل»

فقال رجلان من قریش- من المخالفین-: و اللّه لصاع تمر فی شن بال أحب إلینا ممّا سئل محمّد ربّه، فهلا سئل ربّه ملکا یعضده علی عدوه، أو کنزا یستغنی به عن فاقته؟ ... فنزلت الآیات السابقة لتکون جوابا لأولئک ..[۱۹۷]

التّفسیر

القرآن المعجزة الخالدة:

یبدو من هذه الآیات أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یوکل إبلاغ الآیات- نظرا للجاجة الأعداء و مخالفتهم- لآخر فرصة، لذا فـإنّ اللّه سبحانه ینهی نبیّه فی أوّل آیـة نبحثهـا عن ذلـک بقوله: فَلَعَلَّکَ تارِکٌ بَعْضَ ما یُوحی إِلَیْکَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ لئلا یطلبوا منک معاجز مقترحة کنزول کنز من السماء، أو مجیء الملائکة لتصدیقه أَنْ یَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَکٌ

و کمـا یسـتفاد من آیات القرآن الأخری کما فی سورة الإسـراء (الآیات ۹۰- ۹۳)- إنّ هؤلاء لا یطلبون هـذه المعاجز لیصـدقوا دعوی النّبی و یتبعوا الحق، بل هـدفهم اللجاجة و العناد و التّحجج الواهی، فلـذلک تأتی الآیة معقبة إِنَّما أَنْتَ نَذِیرٌ سواء قبلوا دعواک أم لم یقبلوا، و سـخروا منـک أم لم یسـخروا، فـاللّه هو الحافظ و الناظر علی کل شـیء وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ أی لا تکترث بکفرهم و إیمانهم فإنّ ذلک لا یعنیک، و إنّما وظیفتک أن تبلغهم، و اللّه سبحانه هو الذی یعرف کیف یحاسبهم، و کیف یعاملهم.

و بما أنّ الـذین یتـذرعون بالحجج و یشـکلون علی النّبی کانوا أساسا منکرین لوحی اللّه، و یقولون: إنّ هذه الآیة لیست نازلة من قبل اللّه، و إنّ هذا الکلام افتراه محمّد- و حاشاه من ذلک- علی اللّه کذبا، لذلک تأتی الآیة التالیة لتبیّن بصراحة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۲

تامة: أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ

فقـل لهم یـا رسول اللّه- إن کـانوا صـادقین فی دعواهم أنّ مـا تقوله لیس من اللّه و أنّه من صـنع الإنسـان- فیأتوا بعشـر سور مثل هـذا الکلام مفتریات، و لیدعوا- سوی اللّه- ما شاؤوا قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ أمّـا إذا لم یسـتجیبوا لـدعوتک و لاـ للمسـلمین، و لم یلبوا طلبـک علی الإتیـان بعشـر سور مفتریـات کسور القرآن، فـاعلموا أن ذلک الضعف و عدم القدرة دلیل علی أن هذه الآیات نزلت من خزانة علم اللّه، و لو کانت من صنع بشر، فهم بشر أیضا ..

فلما ذا لا یقـدرون علی ذلک فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ و اعلموا أیضا أنّه لا معبود سوی اللّه، و نزول هذه الآیات دلیل علی هذه الحقیقة وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فهل یسلم المخالفون مع هذه الحالة فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

أی بعد ما دعوناکم للإتیان بمثل هذه السور، و ظهر عجزکم و عدم قدرتکم علی ذلک، فهل یبقی شک فی أن هذه الآیات منزلة من قبل اللّه، و مع هذه المعجزة البینة أمّا زلتم منکرین، أم أنّکم تسلمون و تقرّون حقا؟!

بحوث

اشارة

۱- من المعلوم أنّ کلمـة «لعـلّ» تأتی لإظهار الرجاء لعمل شـیء ما و تحققه، و لکن «لعل» هنا جاءت بمعنی النهی، و هی تماما مثل ما یرید الأب مثلا أن ینهی ولده فیقول له: لعلک ترافق فلانا فأنت حینئذ غیر مهتم للعاقبة، فمعنی الکلام هنا:

لا ترافق فلانا لأن صحبته تضرک.

إذا فعلی الرغم من أن «لعل» تفید الرجاء، إلّا أن المفهوم الالتزامی منها النهی عن عمل أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۳

فی الآیات- محل البحث- یؤکّد اللّه سبحانه علی النّبی ألّا یؤخر إبلاغه الوحی خوفا من تکذیب المخالفین أو طلبهم معجزات مقترحة من قبلهم.

۲- یرد هنا سؤال هو: کیف یمکن للنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یؤخر إبلاغه الوحی، أولا یبلغه أساسا؟ مع أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم معصوم و لا یصدر منه الخطأ و الذنب! الجواب: إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم متی ما امر بتبلیغ حکم فوری فمن المسلّم أنّه یبلغه فورا و دون إبطاء، و لکن یتفق- أحیانا أن یکون وقت التبلیغ موسعا .. و النّبی یؤخر البلاغ تبعا لأمور ... هذه الأمور لیس لها جانب شخصی بحیث تعود للنبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه، بل لها جانب عام و دفاع عن الدین، و هذا التأخیر لیس ذنبا قطعا، مثل ما ورد- فی سورة المائدة فی الآیة ۶۷- من أمر اللّه للرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالتبلیغ، و أن لا یخاف من تهدیدات الناس لأنّ اللّه سیحفظه حیث یقول عزّ و جلّ: یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ

و علی هذا فلم یکن تأخیر البلاغ هنا ممنوعا علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و لکن «الإسراع» فیه دلیل علی قاطعیته .. فالإسراع بالتبلیغ یعدّ أولی من التأخیر .. فاللّه سبحانه یرید أن یشدّ من معنویة نبیّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و یثبت فؤاده و یجعله صلدا أمام المخالفین بحیث یبلغ «بضرس قاطع» و لا یلتفت إلی طلبات المخالفین و حجج المستهزئین، و لا یستوحش من صخبهم و ضجیجهم!

۳- احتمل المفسّرون فی معنی «أم» التی فی أوّل الآیة الأخری أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ احتمالین:

الأوّل: إنّه بمعنی «أو».

و الثّانی: بأنّه بمعنی «بل».

ففی الصورة الأولی یکون المعنی علی النحو التالی:

لعلک لم تتل آیاتنا خوفا من حجج المخالفین، أو أنّک تلوتها و لکنّهم کذبوک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۴

و قالوا افتریتها علی اللّه سبحانه.

و فی الصورة الثّانیة یکون المعنی علی النحو التالی:

لا تؤخر إبلاغ آیاتنا لحجج المخالفین [ثمّ یضیف سبحانه بل هم أساسا منکرون للوحی و للنّبوة، و یزعمون أن الرّسول یکذب علی اللّه.

و فی الحقیقة. إنّ اللّه یخبر نبیّه مع هذا البیان أن ما یطلبه هؤلاء من المعاجز المقترحة فلیس لطلب «الحق»، بل لأنّهم أساسا منکرون للنّبوة. و إنّما هی حجج و تعالیل یتذرعون بها! و علی کل حال، فعند التأمل فی الآیات آنفة الذکر- و خاصّة إذا دققنا النظر فی کلماتها من الناحیة الأدبیة- نجد أن المعنی الثّانی أقرب إلی مضاد الآیات، فتأمّلوا! ۴- لا شکّ أنّ علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یری معاجزه للذین یطلبون الحق لتکون سندا لحقانیة نبوته، و لا یستطیع أی نبی من الأنبیاء أن یستند إلی ادعائه فحسب.

و لکن لا ریب و لا شک أن المخالفین الذین تحدثت عنهم الآیات لم یکونوا یطلبون الحقیقة و یبحثون عنها «و ما کانوا یطلبونه من معاجز کانت معاجز اقتراحیة علی حسب میولهم و أهوائهم و لا یقتنعون بأیة معجزة أخری».

و من المسلّم أنّ هؤلاء محتالون و لیسوا بطلّاب حقیقة. فهل کان یجب علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن تکون لدیه کنوز عظیمة کما کان یریده منه مشرکو مکّة؟! أو أن یکون معه ملک یصدق دعوته و بلاغه؟! و بعد هذا کلّه ألم یکن القرآن نفسه أعظم و أکبر من کل معجزة .. و إذا لم یکن أولئک فی صدد التحجّج و التّحیّل، فلما ذا لم یذعنوا لآیات القرآن الذی کان یتحدّاهم و یقول لهم: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ

۵- إنّ الآیات- المذکورة- توکّد إعجاز القرآن مرّة أخری و تقول: لیس هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۵

كلاما عاديا يترشح من الفكر البشرى، بل هو وحى السماء الذى ينزل بعلم اللّه اللامحدود و قدرته الواسعة، و على هذا فإنّه يتحدّى جميع البشر أن يواجهوه بمثله- مع ملاحظة أنّ المخالفين من معاصرى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و من بعدهم إلى يومنا هذا عجزوا عن ذلك، و فضلوا مواجهة الكثير من المشاكل على معارضة القرآن، و هكذا يتّضح أن مثل هذا العمل لم يكن من صنع البشر و لا يكون، فهل المعجزة شيء غير هذا؟! هذا نداء القرآن ما زال فى أسماعنا، و هذه المعجزة الخالدة تدعو العالمين إليها و تتحدى جميع المحافل البشرية، لا من حيث الفصاحة و البلاغة و جمال العبارات و جاذبيتها و وضوح المفاهيم فحسب. بل من حيث المحتوى و العلوم التى فيه و التى لم تكن موجودة فى ذلك الزمان، و القوانين التى تتكفل بسعادة البشرية و نجاتها، و البيان الخالى من التناقض، و القصص التاريخية الخالية من الخرافات، و أمثالها. و قد بيّنا ذلك و شرحناه فى تفسير الآيتين (۲۳ و ۲۴) من سورة البقرة فى إعجاز القرآن.

جميع القرآن أو عشر سور منه أو سورة واحدة!

۶- نحن نعلم أنّ القرآن دعا فى بعض آياته المنكرين لنبوة محمّد و المخالفين له إلى الإتيان بمثل القرآن، كما فى سورة الإسراء الآية (۸۸). و فى مكان آخر إلى الإتيان بعشر سور، كما هو فى الآيات التى بين أيدينا- محل البحث- و فى مكان آخر دعا المخالفين إلى سورة مثل سور القرآن، كما فى سورة البقرة الآية (۲۳).

و لهذا السبب بحث جماعة من المفسّرين هذا «السرّ» فى التفاوت فى التحدّى و الدعوة إلى المواجهة، فما هو؟! و لم فى مكان من القرآن يطلب الإتيان بمثله.

و فى مكان بعشر سور، و فى مكان يطلب الإتيان بسورة واحدة؟! و قد اتبعوا طرقا مختلفة فى الإجابة على هذا السؤال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۶

ألف- يعتقد البعض أنّ هذا التفاوت من قبيل التنازل من مرحلة عليا إلى مرحلة أقل على سبيل المثال، أن يقول قائل لآخر: إذا كنت ماهرا مثلى فى فن الكتابة و الشعر فاكتب كتابا ككتابى و هات ديوان شعر كديوانى، ثمّ يتنازل و يقول فهات فصلا مثل فصول كتابى، إلى أن يتحدّاه بأن يأتى بصفحة مثل صفحاته.

و لكن هذا الجواب يكون صحيحا فى صورة ما لو كانت سور الإسراء و هود و يونس و البقرة قد نزلت بهذا الترتيب، كما هو منقول فى كتاب «تأريخ القرآن» عن الفهرست لابن النديم، لأنّه يقول إنّ سورة الإسراء رقمها فى السور (۴۸)، و سورة هود (۴۹)، و سورة يونس (۵۱)، و البقرة هى السورة التسعون النازلة على محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لكن هذا الكلام لا ينسجم مع ترتيب السور فى التفاسير الإسلامية.

ب- يرى البعض أن ترتيب السور الآنفة رغم عدم توافقها مع ترتيب التحدى من الأعلى الى الأدنى، و لكن نعلم أنّ جميع آيات السورة الواحدة لم تنزل مجموعة فى آن واحد، فبعض الآيات كانت تتأخر فى النزول مدة ثمّ يلحقها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالسورة الفلانية بحسب تناسبها معها، و فى محل كلامنا هذا يمكن أن يكون الأمر كذلك، و على هذا فإنّ تاريخ السور لا يتنافى مع التنزّل، أو التنازل من مرحلة عليا إلى مرحلة دنيا.

ج- هناك احتمال آخر لحل هذا الإشكال هو أنّ أجزاء «القرآن» أجزاء تطلق على الكل و على البعض منه، فنحن نقرأ فى الآية الأولى من سورة الجن إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً و واضح أنّهم سمعوا بعض القرآن لا أنّهم سمعوا القرآن كلّه، و لفظ القرآن فى الأساس مشتق من القراءة، و من المعلوم أنّ القراءة و التلاوة تصدق على جميع القرآن و على جزء منه أيضا، فعلى هذا يكون التحدى ب «مثل

القرآن» غیر مقصود به التحدی بالإتیان بمثل جمیع القرآن، و هو ینسجم بهذا المعنی مع التحدی بعشر سور منه أو حتی بسورة واحدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۷

و من جهة أخری فإنّ السورة فی الأصل تعنی «المجموعة المحدودة»، فیکون إطلاقها علی مجموعة آیات صحیحا و إن لم یکن ذلک غیر جار فی الاصطلاح العرفی.

و بتعبیر آخر فإنّ السورة تطلق علی معنیین:

الأول: یراد به مجموعة الآیات التی تبحث عن هدف معین.

و الثّانی: یراد به ما بدئ ببسم الله الرحمن الرحیم و ینتهی قبل بسم الله الرحمن الرحیم.

و الشاهد علی هذا قوله تعالی فی سورة التوبة الآیة (۸۶): وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ فالواضح من هذه الآیة أن المراد بالسورة من قوله: وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ لیس إلّا الآیات التی تحمل الهدف الآنف، و هو الإیمان باللّه و الجهاد مع الرّسول، و إن کانت الآیات بعضا من سورة! ..

أمّا «الراغب الأصبهانی» فیقول فی مفرداته فی تفسیر أوّل سورة النّور سُورَةٌ أَنْزَلْناها أی جملة من الأحکام و الحکم. فکما نلاحظ هنا أن الراغب فسّر السورة بمجموعة من الأحکام و الحکم، فلا یبقی فارق مهم بین ألفاظ «القرآن» و «عشر سور» و «سورة» من حیث المفهوم اللغوی.

و النتیجة أنّ تحدی القرآن لیس من قبیل التحدی بکلمة واحدة أو بجملة واحدة، حتی یدعی مدع أنّه قادر علی الإتیان بآیة مثل آیة وَ الضُّحی أو آیة مُدْهامَّتانِ أو أنّه یستطیع أن یأتی بجمل بسیطة کما فی القرآن، بل التحدی فی کل مکان بمجموعة من الآیات التی تحمل هدفا معینا «فتأمل».

۷- من هو المخاطب بقوله تعالی: فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ هناک أقوال بین المفسّرین، فبعض یری أنّ المخاطب بالآیة هم «المسلمون»، أی إذا لم یستجب المنکرون لکم أیّها المسلمون فیأتوا بعشر سور مفتریات فاعلموا أنّ القرآن منزل من اللّه سبحانه، و هذا کاف فی الدلالة علی إعجاز القرآن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۸

و قال بعض المفسّرین: المخاطب بالآیة هو. «المنکرون» أی: أیّها المنکرون إذا لم یستجب الناس لکم و کل ما دعوتم من دون اللّه، و لم یقدروا علی الإتیان بعشر سور فاعلموا أنّ القرآن نازل من قبل اللّه.

و لکن من حیث النتیجة لا یوجد تفاوت مهم بین التّفسیرین، و إنّ الاحتمال الأوّل أقرب حسب الظاهر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۹

الآیتان [سورة هود (۱۱): الآیات ۱۵ الی ۱۶]

اشارة

مَنْ کانَ یُرِیدُ الْحَیاةَ الدُّنْیا وَ زِینَتَها نُوَفِّ إِلَیْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِیها وَ هُمْ فِیها لا یُبْخَسُونَ (۱۵) أُولئِکَ الَّذِینَ لَیْسَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِیها وَ باطِلٌ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۶)

التّفسیر

الآیات أعلاه أکملت الحجة مع «دلائل إعجاز القرآن» علی المشرکین و المنکرین، و لکن جماعة منهم امتنعوا عن القبول- لحفظ

منافعهم الشخصيّة- بالرّغم من وضوح الحق، فالآيات هذه تشير إلى مصير هؤلاء فتقول: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها من رزق مادى و شهرة و تلذذ بالنعم نُوَفِّ إِلَيْهِمْ نتيجة أَعْمالَهُمْ فِيها فى هذه الدنيا وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أى لا ينقص من حقهم شيء فى الدنيا! «البخس» فى اللغة نقصان الحق، و جملة وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ إشارة إلى أنّهم سينالون نتيجة أعمالهم بدون أقل نقصان من حقوقهم. هذه الآية سنة إلهية دائمة، و هى أنّ الأعمال «الإيجابية» و المؤثرة لا تضيع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۰

نتائجها، مع فارق و هو أنّه إذا كان الهدف الأصلى منها هو الوصول إلى الحياة المادية فى هذه الدنيا فإنّ ثمراتها فى الدنيا فحسب، و أمّا إذا كان الهدف هو «اللّه» و كسب رضاه فإنّ تأثيرها و نتائجها ستكون فى الدنيا و فى الآخرة أيضا حيث تكون النتائج كثيرة الثمار. الواقع إنّ القسم الأوّل من هذه الأعمال كالبناية المؤقتة و القصيرة العمر، فلا يستفاد منها إلّا قليلا، ثمّ مصيرها الى الزوال و الفناء.

أمّا القسم الثّانى منها فإنّها تشبه البناء المرصوص المحكم الذى يدوم قرونا و ينتفع به مدّة مديدة.

و هذا من قبيل ما نراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربى فتح أسرارا كثيرة من العلم بسعيه المتواصل و المنسّق، و أصبح متسلطا على قوى الطبيعة و حصل على مواهب كثيرة لتصديه الدائب لمشاكل الحياة الدنيوية بصبر و استقامة وجد. فلا كلام فى نيل العالم الغربى جزاء أعماله و تحقيقه انتصارات مشرقة، و لكن لأنّ هدفه الحياة الماديّة فحسب، فإنّ أعماله لا تثمر غير توفر الإمكانات الماديـة، حتى الأعمال الإنسانية كبناء المستشفيات و المراكز الصحية و المراكز الثقافية و إعانة بعض الأمم الفقيرة و أمثال ذلك، «مصيدة» لاستعمارهم و استثمارهم للآخرين .. فلأنّها تحمل هدفا ماديا فقط و من أجل حفظ المنافع المادية فإنّ أثرها يكون ماديّا فحسب. كذلك الحال بالنسبة لمن يعمل رياء.

فلذلك يقول سبحانه عنهم فى الآية التالية: أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ليزول كل أثر أخروى لما عملوا فى هذه الدنيا و لا ينالون عليه أى ثواب وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها و كل ما كان لغير اللّه فسيزول أثره وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

«الحبط» فى الأصل يطلق على حالة خاصّة من أكل الحيوانات للعلف بشكل غير طبيعى، فتنتفخ بطونها و يتعطل الجهاز الهضمى عندها فتبدو و كأنّها قد سمنت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۱

و لكنّها فى الباطن و فى الحقيقة مريضة.

هذا التعبير الطريف يقال للأعمال التى تبدو فى الظاهر مفيدة و إنسانية، إلّا أنّها فى الباطن مقرونة بنية ذميمة و خبيثة!

ملاحظات

۱- من الممكن أن يتصور فى البداية أنّ الآيتين محل البحث متعارضتان، فالآية الأولى تقول: إن من كان هدفه الحياة الدنيا فإنّه سينال جزاءه فيها كاملا غير منقوص مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أمّا الآية الثّانية فتقول إن أعماله تكون بلا أثر و باطلة: وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و لكن مع الالتفات إلى أن إحدى الآيتين تشير إلى ما يجرى فى الدنيا و الثّانية تشير إلى الدار الآخرة، يتّضح الجواب على هذا الإشكال، و هو أنّهم ينالون جزاء أعمالهم فى هذه الدنيا، و لكن لا قيمة لهذا العمل حتى و لو كان من أهم الأعمال- إذا لم يكن لها فى الآخرة أيّ أثر. لأنّ هدفهم لم يكن نقيّا و نيّتهم غير خالصة، حيث كانوا يسعون لتحصيل سلسلة من المنافع المادية، و قد تحققت لهم فى الدنيا.

۲- ذكر كلمة «الزينة» بعد «الحياة الدنيا» تدلّ ذم عبادة الدنيا و زخرفها و زبرجها، و ليس المقصود من ذلك الاستفادة باعتدال من مواهب هذا العالم! فكلمة «الزينة» التى جاءت هنا ببيان مغلق، إلّا أنّها فى آيات أخرى فسرت بالنساء الجميلات و الكنوز و المراكب و

الزخارف .. إلخ.

زُیِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِینَ وَ الْقَناطِیرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَیْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ۱۹۸[۱۹۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۲

۳- ذکر کلمة «الباطل» بعد کلمة «الحبط» یمکن أن تکون إشارة إلی أن أعمالهم لها ظاهر بدون محتوی، و لذلک تذهب نتیجتها أدراج الریاح.

ثمّ یضیف أن أعمالهم أساسا باطلة من البدایة و لا خاصیة لها، غایة ما فی الأمر إنّ کثیرا من حقائق الأمور لما کانت فی الدنیا غیر معروفة فإنّها تنکشف فی الدار الآخرة التی هی محل کشف الأسرار، فیتّضح أنّ هذه الأعمال لم یکن لها قیمة منذ البدایة!.

۴- فی کتاب «الدر المنثور»

حدیث منقول عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر هذه الآیات یبیّن مفاد هذه الآیات بجلاء «قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إذا کان یوم القیامة صارت أمتی علی ثلاث فرق: فرقة یعبدون اللّه خالصا، و فرقة یعبدون اللّه ریاء. فرقة یعبدون اللّه یصیبون به دنیا».

فیقول للذی کان یعبد اللّه للدنیا: بعزّتی و جلالی، ما أردت بعبادتی؟ فیقول: الدنیا، فیقول: لا جرم لا ینفعک ما جمعت و لا ترجع إلیه. انطلقوا به إلی النّار.

و یقول للذی یعبد اللّه ریاء: بعزّتی و جلالی، ما أردت بعبادتی؟ قال: الریاء، فیقول: إنّما کانت عبادتک التی کنت ترائی بها لا یصعد إلی منها شیء و لا ینفعک الیوم، انطلقوا به إلی النّار.

و یقول للذی کان یعبد اللّه خالصا: بعزّتی و جلالی، ما أردت بعبادتی؟ فیقول: بعزّتک و جلالک لأنت أعلم منّی، کنت أعبدک لوجهک و لدارک، قال: صدق عبدی، انطلقوا به إلی الجنّة»[۲۰۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۳

الآیة [سورة هود (۱۱): آیة ۱۷]

اشارة

أَ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتابُ مُوسی إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یُؤْمِنُونَ (۱۷)

التّفسیر

هناک أقوال کثیرة- فی تفسیر الآیة أعلاه- بین المفسّرین، و لهم نظرات مختلفة فی جزئیات الآیة و کلماتها و ضمائرها و الأسماء الموصولة فیها و أسماء الإشارة، و ما نقل عنهم یخالف طریقتنا فی هذا التّفسیر، و لکنّ تفسیرین منها أشد وضوحا من غیرهما ننقلهما هنا علی حسب الأهمیّة:

۱- فی بدایة الآیة یقول الحق سبحانه:

أَ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ أی من اللّه تعالی وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتابُ مُوسی إِماماً وَ رَحْمَةً .... أی التوراة التی تؤیّد صدقه و عظمته، مثل هذا الشخص هل یستوی و من لا یتمتع بهذه الخصال و الدلائل البینة.

هذا الشخص هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، «البیّنة» و دلیله الواضح هو القرآن المجید،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۴

و الشاهد المصدق بنبوّته کلّ مؤمن حق أمثال علی علیه السّلام، و من قبل وردت صفاته و علائمه فی التوراة، فعلی هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثة حقّة واضحة.

الأوّل: القرآن الکریم الذی هو بیّنة و دلیل واضح فی یده.

الثّانی: الکتب السماویة التی سبقت نبوّته و أشارت إلی صفاته بدقّة، و أتباع هذه الکتب السماویة فی عصر النّبی کانوا یعرفونه حقا، و لهذا السبب کانوا ینتظرونه.

و الثّالث: أتباعه و أنصاره المؤمنون المضحّون الذین کانوا یبیّنون دعوته و یتحدثون عنه، لأن واحدا من علائم حقانیّة مذهب ما هو إخلاص اتباعه و تضحیتهم و درایتهم و إیمانهم و عقلهم، إذ أن کلّ مذهب یعرف بأتباعه و أنصاره.

و مع وجود هذه الدلائل الحیّة، هل یمکن أن یقاس مع غیره من المدعین، أم هل ینبغی التردّد فی صدق دعوته؟![۲۰۱].

ثمّ یشیر بعد هذا الکلام إلی طلاب الحقّ و الباحثین عن الحقیقة، یدعوهم إلی الإیمان دعوة ضمنیة فیقول: أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ أی النّبی الذی لدیه هذه الدلائل الواضحة.

و بالرغم من أنّ مثل هؤلاء الذین أشیر إلیهم بکلمة «أولئک» فی الآیة لم یذکروا فی الآیة نفسها، و لکن مع ملاحظة الآیات السابقة یمکن استحضارهم فی جوّ هذه الآیة و الإشارة إلیهم.

ثمّ یعقب بعد ذلک ببیان عاقبة المنکرین و مصیرهم بقوله تعالی: وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۵

و فی ختام الآیة- کما هی الحال فی کثیر من آیات القرآن- یوجه الخطاب إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و یبیّن درسا عاما لجمیع الناس، و یقول: بعد هذا کلّه من وجود الشاهد و البیّنة و المصدق بدعوتک، فلا تتردد فی الطریق ذاته فَلا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِنْهُ لأنّه من قبل اللّه سبحانه إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ و لکن کثیرا من الناس و نتیجة لجهلهم و أنانیتهم لا یؤمنون وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یُؤْمِنُونَ

۲- التّفسیر الثّانی لهذه الآیة هو أنّ هدفها الأصل بیان حال المؤمنین الصادقین الذین یؤمنون بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مع وجود الدلائل الواضحة و الشواهد علی صدق دعوة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و ما جاء فی الکتب السماویة السابقة فی شأنه، فأولئک هم المؤمنون، و استنادا إلی هذه الدلائل جمیعا یؤمنون به صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فعلی هذا یکون المقصود من قوله: أ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ جمیع الذین لدیهم دلائل مقنعة، حیث سارعوا إلی الإیمان بالقرآن و من جاء به، و لیس المقصود بکلمة «من» فی الآیة هو النّبی.

و الذی یرجع هذا التّفسیر علی التّفسیر السابق هو وجود الخبر فی الآیة صریحا و لیس محذوفا، و المشار إلیه «أولئک» مذکور فی الآیة نفسها، و القسم الأوّل من الآیة یبدأ بقوله: أ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ إلی قوله: أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ و یشکل جملة کاملة من دون أی حذف و تقدیر .. و لکن من دون شک فإنّ التعبیرات الأخری فی هذه الآیة لا تنسجم مع هذا التّفسیر کثیرا، و لهذا جعلنا هذا التفسیر فی المرحلة الثّانیة «فتأمل»! و علی کل حال، فالآیة تشیر إلی امتیازات الإسلام و المسلمین الصادقین و استنادهم إلی الدلائل المحکمة فی اختیار مذهبهم هذا .. و فی قبال ذلک تذکر ما بصیر إلیه المنکرون و المستکبرون من مآل مشؤوم أیضا ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۶

بحوث

۱- ما المقصود «بالشاهد» فی الآیة؟!

قال بعض المفسّرين: إن المقصود بالشاهد هو جبرئيل عليه السّلام أمين وحى اللّه، و منهم من فسّره بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و منهم من قال: إنّ معناه لسان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى حالة فهم معنى «يتلو» من التلاوة أى القراءة، لا بمعنى التلو الذى معناه مجىء شخص بعد آخر.

و لكن كثيرا من كبار المفسّرين فسروا «شاهد» بالإمام على عليه السّلام، ففى روايات كثيرة وصلتنا عن الأئمّة المعصومين، و فى بعض كتب تفسير أهل السنة- أيضا- هناك تأكيد على أنّ المقصود من «الشاهد» فى الآية هو الإمام على عليه السّلام أوّل من آمن بالنّبى و القرآن الكريم، و كان معه فى جميع المراحل و لم يقصر لحظة فى التضحية دونه و حمايته إلى آخر نفس [۲۰۲].

و

فى حديث منقول عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «ما من رجل من قريش إلّا و قد أنزل فيه آية أو آيتان من كتاب اللّه، فقال له رجل من القوم: و ماذا أنزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما تقرا الآية التى فى هود أ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم على بيّنة من ربّه و كنت أنا الشاهد»[۲۰۳].

و فى آخر سورة الرعد عبارة تؤيد هذا المعنى، حيث يقول سبحانه: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ

هناك روايات كثيرة عن طرق الشيعة و أهل السنة تبيّن أنّ المراد بقوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ هو الإمام على عليه السّلام.

و ممّا يجدر ذكره- كما أشرنا سابقا- أن واحدا من أفضل طرق حقانية أىّ مذهب هو مطالعة شخصية أتباعه و المدافعين عنه و حماته. فحين نلاحظ جماعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۷

أتقياء، أذكياء، مؤمنين مخلصين اجتمعوا حول أحد القادة، أو مذهب معين فسيتّضح جيدا أنّ هذا القائد و هذا المذهب على درجة عالية من الحق و الصدق.

و لكن حين نرى جماعة انتهازيين محتالين غير مؤمنين و لا متقين تجمعوا حول مذهب مّا أو قائد مّا، فقلّ أن نصدّق أن ذلك المذهب أو القائد على حق.

و ينبغى الإشارة إلى هذا الأمر، و هو أنّه لا منافاة بين تفسير كلمة الشاهد بالإمام على، و بين شمولها لجميع المؤمنين من أمثال أبى ذرّ و سلمان و عمّار و اضرابهم، لأنّ هذه التفاسير تشير إلى الشخص البارز و الشاخص فى هؤلاء المؤمنين، أى إنّ المقصود هو جماعة المؤمنين الذين فى طليعتهم الإمام على عليه السّلام.

و الدليل على هذا الكلام

رواية منقولة عن الإمام الباقر عليه السّلام: قال: «الذى على بيّنة من ربّه رسول اللّه الذى تلاه من بعده الشاهد منه أمير المؤمنين ثمّ أوصياؤه واحد بعد واحد»[۲۰۴].

و على الرغم من أنّ هذه الرّواية تذكر المعصومين فحسب، و لكنّها تدل على أن الرّوايات التى تفسر الشاهد بالإمام على لا تعنى شخصه فحسب، بل كونه مصداقا و شاخصا للمؤمنين! ...

۲- لماذا أشير إلى التوراة فحسب؟!

إن واحدا من دلائل حقانية النّبى كما ذكر فى الآية الآنفة- الكتب السابقة على نبوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن لم تذكر الآية من بينها سوى التوراة، و نحن نعرف أن الإنجيل بشّر بظهور نبى الإسلام أيضا.

و یمکن أن یکون السبب هو أنّ المحیط الذی نزل فیه القرآن و ظهر الإسلام فیه (أی مکّة و المدینة) متشبعا بأفکار الیهود أکثر من غیرهم من أهل الکتاب، و کان المسیحیون یعیشون فی أماکن أبعد من الیهود کالیمن و الشامات و نجران و الجبال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۸

الشمالیة فی الیمن التی تقع علی فاصلة عشرة منازل من صنعاء! أو لأن أوصاف النّبی وردت فی التوراة بشکل أوسع و أجمع.

و علی کل حال، فالتعبیر عن التوراة ب «إماما» قد یکون لأجل أحکام شریعة موسی علیه السّلام کانت موجودة فیه بشکل أکمل، حتی أنّ المسیحیین یرجعون إلی تعلیمات التوراة!

۳- من هو المخاطب فی قوله: فَلا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِنْهُ

هناک احتمالان فی من هو المخاطب بهذه الآیة:

الاحتمال الأوّل: النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه، أی: یا رسول اللّه لا تتردد فی حقانیّة القرآن و شریعة الإسلام أقلّ ترددا! و بالطبع فإنّ النّبی بحکم کونه یدرک الوحی شهودا، و یدرک بالحواس أنّ القرآن نازل من قبل اللّه، بل کان فی درجة أعلی من الإحساس، فلم یکن لدیة تردد فی حقانیة هذه الدعوة، و لکن لیس هذه أوّل خطاب یوجه إلی النّبی و یکون المقصود به عموم الناس، و کما یقول المثل العربی «إیّاک أعنی و اسمعی یا جارة».

و هذا التعبیر أساسا هو ضرب من البلاغة، حیث یوضع المخاطب غیر الحقیقی مکان المخاطب الحقیقی لأهمیته و لأغراض أخری.

و الاحتمال الثّانی: إنّه المخاطب بهذه الآیة کل مکلّف عاقل، أی «فلا تک أیّها المکلف العاقل فی مریة و تردد». و هذا وارد إذا لم یکن المقصود بالآیة أ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، بل جمیع المؤمنین الصادقین (فتدبّر).

و لکن التّفسیر الأوّل أکثر انسجاما مع ظاهر الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۹

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۱۸ الی ۲۲]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أُولئِکَ یُعْرَضُونَ عَلی رَبِّهِمْ وَ یَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِینَ کَذَبُوا عَلی رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ (۱۸) الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ کافِرُونَ (۱۹) أُولئِکَ لَمْ یَکُونُوا مُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ وَ ما کانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِیاءَ یُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما کانُوا یَسْتَطِیعُونَ السَّمْعَ وَ ما کانُوا یُبْصِرُونَ (۲۰) أُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۲۱) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۲۲)

التّفسیر

أخسر النّاس أعمالا:

بعد الآیة المتقدمة التی کانت تتحدث عن القرآن و رسالة النّبی محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم تأتی آیات أخر تشرح عاقبة المنکرین و علاماتهم و مآل أعمالهم.

ففی أوّل آیة من هذه الآیات یقول سبحانه: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۰

کَذِباً و یعنی أن تکـذیب دعوة النّبی الصادق صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی الواقع هو تکـذیب لکلام اللّه و افتراء علیه بالکـذب و تکذیب من لا یتحدث عن أحد سوی اللّه یعدّ تکذیبا للّه ۲۰۵].

و کما تقدم فی عدّة مواضع، فالقرآن المجید یعبر فی عدید من الآیات عن جماعة من الناس بقوله: «أظلم» فی حین أنّ أعمالهم- کما یبدو- مختلفة، و لا یمکن أن نعدّ جماعات کثیرة مع وجود أعمال مختلفة بأنّهم أظلم الناس! بل ینبغی أن یعدّ البعض ظالمین، و البعض الآخر أظلم منهم، و سواهما أشدّ ظلما منهما جمیعا ..

و لکن- کما أجبنا عن هذا السؤال عدّة مرات- جذر جمیع هذه الأعمال یعود لشیء واحد، و هو الشرک و تکذیب الآیات الإلهیة، و هو أعظم البهتان «و لمزید من الإیضاح یراجع ذیل الآیة (۳۱) من سورة الأنعام».

ثمّ یبیّن ما ینتظرهم من مستقبل مشؤوم یوم القیامة حین یعرضون علی محکمة العدل الإلهی أُولئِکَ یُعْرَضُونَ عَلی رَبِّهِمْ حینئذ یشهد «الأشهاد» علی أعمالهم و أنّ هؤلاء هم الذین کذبوا علی اللّه العظیم الرحیم و ولی النعمة ..

وَ یَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِینَ کَذَبُوا عَلی رَبِّهِمْ ثمّ ینادون بصوت عال أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ

و لکن من هم الأشهاد؟ أهم الملائکة، أم الحفظة علی الأعمال، أم الأنبیاء؟

للمفسّرین احتمالات و آراء، و لکن مع ملاحظة أن آیات أخری من القرآن تشیر إلی أنّ الأنبیاء هم الأشهاد، فالظاهر أنّ المراد بالأشهاد هنا هم الأنبیاء أیضا .. أو المفهوم الأوسع و هو أنّ الأنبیاء و سائر الأشهاد یشهدون علی «الأعمال» یوم القیامة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۱

و فی الآیة (۴۱) من سورة النساء نقرأ قوله تعالی: فَکَیْفَ إِذا جِئْنا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِیدٍ وَ جِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً.

و فی شأن السّید المسیح علیه السّلام نقرأ فی الآیة (۱۱۷) من سورة المائدة: وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً ما دُمْتُ فِیهِمْ

بعد هذا من القائل: أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ أهو اللّه سبحانه، أم الأشهاد علی الأعمال؟! هناک أقوال بین المفسّرین، لکن الظاهر أنّ هذا الکلام تتمة لقول الأشهاد ..

و الآیة التی بعدها تبیّن صفات الظالمین فی ثلاث جمل:

الأولی تقول: إنّهم یمنعون الناس بمختلف الأسالیب عن سبیل اللّه الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ فمرّة عن طریق إلقاء الشبهة، و مرّة بالتهدید، و أحیانا عن طریق الإغراء و الطمع، و جمیع هذه الأسالیب ترجع إلی أمر واحد، و هو الصدّ عن سبیل اللّه.

الثّانیة تقول: إنّهم یسعون فی أن یظهروا سبیل اللّه و طریقه المستقیم عوجا وَ یَبْغُونَها عِوَجاً[۲۰۶].

أی بأنواع التحریف من قبیل الزیادة أو النقصان أو التّفسیر بالرأی و إخفاء الحقائق حتی لا تتجلی الصورة الحقیقیة للصراط المستقیم. و لا یستطیع الناس و طلاب الحق السیر فی هذا الطریق.

و الثّالثة تقول: إنّهم لا یؤمنون بیوم النشور و القیامة وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ کافِرُونَ

و عدم إیمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات، لأنّ الإیمان بتلک المحکمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۲

الکبری و العالم الوسیع بعد الموت یفعل الطاقات الایجابیة الکامنة فی النفس و الروح.

و من الطّریف أنّ جمیع هذه المسائل تجتمع فی مفهوم «الظلم» لأنّ المفهوم الواسع لهذه الکلمة یشمل کل انحراف و تغییر للموضع الواقعی للأشیاء و الأعمال و الصفات و العقائد.

فی الآیة التالیة یبیّن أنّ هؤلاء لا یستطیعون الهرب من عقاب اللّه فی الأرض و لا أن یخرجوا من سلطانه أُولئِکَ لَمْ یَکُونُوا مُعْجِزِینَ فِی

الْأَرْضِ كما أنّهم لا يجدون وليّا و حاميا لهم غير اللّه وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ.

و أخيرا يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديدة حيث تكون مضاعفة يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ

لماذا؟! لأنّهم كانوا ضالين و مخطئين و منحرفين، و فى الوقت ذاته كانوا يجرّون الآخرين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم و أوزار الآخرين، دون التخفيف عن الآخرين من أوزارهم وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ ۲۰۷].

و هناك أخبار كثيرة فى أن «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها، و من سنّ سنة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها».

و فى ختام الآية يبيّن اللّه سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ

فهم فى الحقيقة بإهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين [وسيلتى السمع و البصر] لدرك الحقائق، ضلّوا السبيل و أضلّوا سواهم أيضا .. لأنّ الحق و الحقيقة لا يدركان إلّا بالسمع و البصر النافذ.

و من الطريف هنا أنّنا نقرأ فى الآية أنّهم ما كانوا يستطيعون السمع، أى استماع الحق، فهذا التعبير يشير إلى الحالة الواقعية التى هم فيها، و هى أنّ استماع الحق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۳

كان عليهم صعبا و ثقيلا إلى درجة يتصور فيها أنّهم فقدوا حاسة السمع، فلا قدرة لهم على السمع، و هذا التعبير ينسجم تماما مع قولنا مثلا: إنّ الشخص العاشق لا يستطيع أن يسمع كلاما عن عيوب معشوقه! ..

و بديهى أنّ عدم استطاعة دركهم الحقائق كانت نتيجة لجاجتهم الشديدة و عدائهم للحق و الحقيقة، و هذا لا يسلب عنهم المسؤولية، لأنّهم هم السبب فى ذلك، و هم الذى مهّدوا له، و كان بإمكانهم أن يبعدوا عنهم هذه الحالة، لأنّ القدرة على السبب قدرة على المسبّب.

و الآية التى بعدها تبيّن فى جملة واحدة حصيلة سعيهم وجدهم فى طريق الباطل، فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ و هذه أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنسانى .. ثمّ تضيف الآية: أنّهم اتخذوا آلهة و معبودين مصطنعين «مزيفين» و لكن تلاشت هذه الآلهة المصنوعة و المزيفة أخيرا .. وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

و فى نهاية الآية بيان الحكم النهائى لمآلهم و عاقبتهم بهذا التعبير لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ

و السبب واضح؛ لأنّهم حرموا من نعمة السمع الحاد و البصر النافذ، و خسروا كلّ إنسانيتهم و وجودهم، و مع هذه الحال فقد حملوا أثقال مسئوليتهم و أثقال الآخرين مع أثقالهم.

و المعنى الأصلى لكلمة «لا- جرم» مأخوذ من «جرم» على وزن «حرم» و هو قطف الثمار من الأشجار، كما نقل ذلك الراغب فى مفرداته، ثمّ توسع هذا المعنى فشمل كلّ نوع من الكسب و التحصيل، و لكثرة استعمال الكلمة فى الكسب غير المرغوب فيه شاعت فى هذا المعنى، و لذلك يطلق على الذنب أنّه جرم.

و لكن حين تبدأ هذه الكلمة جملة و هى مسبوقة ب «لا» فيكون معناها حينئذ:

أنّه لا شىء يمكنه أن يمنع أو يقطع هذا الموضوع، فهى قريبة من معنى «لا بدّ» أو «من المسلّم به» و اللّه العالم «فتدبر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۴

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۲۳ الى ۲۴]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ

الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۴)

التّفسير

تعقيبا على الآيات المتقدمة التى أوضحت حال منكرى الوحى، تأتى الآيتان هنا لتوضحا من فى قبالهم، و هم المؤمنون حقّا.

فالآيـة الأولى تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أى: استسلموا و انقادوا خاضعين لأمر اللّه و وعده الحق، أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

ملاحظتان

۱- بيان هذه الأوصاف الثلاثة و هى «الإيمان» و «العمل الصالح» و «التسليم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۵

و الخضوع و الإخبات إلى دعوة الحق» إنّما هو بيان أمور واقعية ترتبط بعضها ببعض، لأنّ العمل الصالح ثمرة من شجرة الإيمان، فالإيمان الذى ليس فيه مثل هذه الثمرة إيمان ضعيف و لا قيمة له و لا يحسب له حساب، و كذلك التسليم و الانقياد و الخضوع و الاطمئنان لما وعد اللّه سبحانه، كل ذلك من آثار الإيمان و العمل الصالح .. لأنّ الإعتقاد الصحيح و العمل النقى أساس وجود هذه الصفات و الملكات العالية فى المحتوى الداخلى للإنسان.

۲- كلمة «أخبتوا» مشتقة من «الإخبات» و جذرها اللغوى «خبت» على وزن «ثبت» و معناها الأصلى الأرض المنبسطة الواسعة التى يمكن للإنسان أن يخطو عليها باطمئنان و ارتياح، فلذلك استعملت هذه المادة «الخبت و الإخبات» فى الاطمئنان أيضا .. كما استعملت فى الخضوع و التسليم، لأنّ الأرض التى تبعث على الاطمئنان فى السير هى خاضعة و مستسلمة للسائرين، فعلى هذا يمكن أن يكون معنى الإخبات واحدا من المعانى الثلاثة الآتية، كما و يحتمل شموله لجميع هذه المعانى، إذ لا منافاة بينها:

۱- إنّ المؤمنين حقا خاضعون للّه.

۲- إنّهم مسلّمون لأمر اللّه.

۳- إنّهم مطمئنون بوعود اللّه.

و فى كل صورة إشارة إلى واحدة من أعلى الصفات الإنسانية فى المؤمنين التى ينعكس أثرها على كامل حياتهم! ..

الطريف هنا أنّنا نقرأ

فى حديث عن أبى أسامة قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: إنّ عندنا رجلا يسمّى «كليبا» لا يجىء عنكم شىء إلّا قال: أنا أسلّم، فسمّيناه: كليب تسليم، قال: فترحم عليه ثمّ قال «أ تدرون ما التسليم»؟ فسكتنا فقال: هو و اللّه الإخبات، قول اللّه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ ۲۰۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۶

و فى الآية الأخرى بيان لحالة هذين الفريقين فى مثال حىّ و واضح .. حال الأعمى و الأصم، و حال السميع و البصير، فتقول الآية: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا ثمّ تعقب الآية أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ! و كما هو معلوم فى علم (المعانى و البيان)، فإنّه من أجل تجسيم الحقائق العقلية و توضيحها و تبيّنها لعامّة الناس تشبه المعقولات بالمحسوسات دائما.

و القرآن الكريم اتبع هذه الطريقة بكثرة، و بيّن كثيرا من المسائل الدقيقة و ذات الأهمية البالغة بأمثلة جليّة و أخّاذة، و بيّن حقائقها فى أحسن صورة! البيان السابق من هذا القبيل، لأنّ أحسن الوسائل التى لها أثرها فى معرفة الحقائق الحسية فى عالم الطبيعة هى «العين و

الأذن» و لذلک لا- یمکن أن یتصور أن أفرادا یولدون صمّا و عمیانا یستطیعون أدراک مواضیع هذا العالم بصورة صحیحة، فهم یعیشون فی عالم غامض و مجهول.

کذلک حال منکری الوحی، فبسبب لجاجتهم و عدائهم للحق و وقوعهم أسری بمخالب التعصب و الأنانیة و عبادة الذات، فقدوا بصرهم و سمعهم للحقیقة البیّنة، فلا یستطیعون ادراک الحقائق المرتبطة بعالم الغیب، و تأثیر الإیمان، و التلذذ بعبادة اللّه، و عظمة التسلیم لأمره.

هؤلاء- الأفراد یعیشون أبدا عمیانا صمّا فی ظلام مطبق و سکوت ممیت .. فی حین أنّ المؤمنین الصادقین یرون کل حرکة بأعین بصیرة، و یسمعون کل صوت بآذان سمیعة، و بالتوجه إلی طریقهم یکون مصیرهم «السعادة».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۷

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۲۵ الی ۲۸]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۲۵) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ أَلِیمٍ (۲۶) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراکَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراکَ اتَّبَعَکَ إِلاَّ الَّذِینَ هُمْ أَراذِلُنا بادِیَ الرَّأْیِ وَ ما نَری لَکُمْ عَلَیْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّکُمْ کاذِبِینَ (۲۷) قالَ یا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ آتانِی رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّیَتْ عَلَیْکُمْ أَ نُلْزِمُکُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها کارِهُونَ (۲۸)

التّفسیر

قصّة نوح المثیرة مع قومه:

تقدم أنّ هذه السورة تحمل بین ثنایاها قصص الأنبیاء السابقین و تأریخهم، و ذلک لإیقاظ أفکار المنحرفین و الالتفات إلی الحقائق و بیان العواقب الوخیمة للمفسدین الفجار. و أخیرا بیان طریق النصر و الموفقیة.

فی البدایة تذکر قصّة نوح علیه السّلام، و هو أحد الأنبیاء أولی العزم، و ضمن (۲۶) آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۸

ترسم النقاط الأساسیة لتأریخه المثیر ..

و لا شک أنّ قصّة جهاد نوح علیه السّلام المتواصل للمستکبرین فی عصره، و عاقبتهم الوخیمة، واحدة من العبر العظیمة فی تاریخ البشریة، و التی تتضمن دروسا هامّة فی کل واقعة منها ..

و الآیات المتقدمة تبیّن بدایة هذه الدعوة العظیمة فتقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ

التأکید علی مسألة الإنذار، مع أنّ الأنبیاء کانوا منذرین و مبشرین فی الوقت ذاته لأنّ الثورة ینبغی أن تبدا ضرباتها بالإنذار و إعلام الخطر، لأنّه أشدّ تأثیرا فی إیقاظ النائمین و الغافلین من البشارة.

و الإنسان عادة إذا لم یشعر بالخطر المحدق به فإنّه یفضل السکون علی الحرکة و تغییر المواقع. و لذلک فقد کان إنذار الأنبیاء و تحذیرهم بمثابة السیاط علی أفکار الضالیّن و نفوسهم، فتؤثر فیمن له القابلیة و الاستعداد للهدایة علی التحرک و الاتجاه الی الحق.

و لهذا السبب ورد الاعتماد علی الإنذار فی آیات کثیرة من القرآن، کما فی الآیة (۴۹) من سورة الحج، و الآیة (۱۱۵) من سورة

الشعراء، و الآية (۵۰) من سورة العنكبوت، و الآية (۴۲) من سورة فاطر، و الآية (۷۰) من سورة ص، و الآية (۹) من سورة الأحقاف، و الآية (۵۰) من سورة الذاريات، و آيات أخرى كلها تعتمد على كلمة «نذير» فی بيان دعوة الأنبياء لأممهم.

و فی الآيـة الأخرى يلخّص محتوى رسالته فی جملـة واحـدة و يقول: رسالتی هی أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ثمّ يعقب دون فاصـلة بالإنذار و التحذير مرّة أخرى إِنِّی أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۲۰۹].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۹

فی الحقيقـة أن مسألة التوحيد و العبودية للّه الواحد الأحد هی أساس دعوة الأنبياء جميعا. فنحن نقرا فی الآية الثّانية من هذه السورة، و الآية (۴۰) من سورة يوسف عليه السّـلام، الآيـة (۲۳) من سورة الإسـراء ... نقرأ فی هـذه الآيـات و أمثالها فی الحـديث عن الأنبياء أن دعوتهم جميعا تتلخص فی توحيد اللّه سبحانه.

فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحـدّون و لا يعبـدون إلّا اللّه، و لا ينقادون للأوثان الوهمية الخارجية منها و الداخلية من قبيل الأنانية و الهوى و الشهوات و المقام و الجاه و النساء و البنين فلا يبقى أثر للسلبيات و الخبائث فی المجتمع البشری.

فإذا لم يصـنع الشـخص الضعيف من ضعفه هذا صنما ليسجد له و يتبع أمره، فلا استكبار حينئذ و لا استعمار، و لا آثارهما الوخيمة من قبيل الذل و الأسـر و التبعية و الميول المنحرفة و أنواع الشـقاء بين أفراد المجتمع، لأنّ كل هذه الأمور وليدة الانحراف عن عبادة اللّه و التوجه نحو الأصـنام و الطواغيت .. فلننظر الآـن أوّل ردّ فعـل من قبـل الطواغيت و اتباع الهوى و المترفين و أمثالهم إزاء إنـذار الأنبياء، كيف كان و ماذا كان؟! لا شك أنّه لم يكن سوى حفنـة من الأعـذار الواهيـة و الحجـج الباطلـة و الأدلة الزائفة التی تعتبر ديدن جميع الجبابرة فی كل عصر و زمان، فقد أجاب أولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأـوّل: إنّ الإشـراف و المترفين من قوم نوح عليه السّـلام قـالوا له أنت مثلنـا و لا فرق بيننا و بينك: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا زعما منهم أن الرسالـة الإلهيـة ينبغی أن تحملها الملائكة إلى البشـر لا أن البشـر يحملها إلى البشـر! و ظنّا منهم أنّ مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكة، أو أنّ الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

نلاحظ هنا كلمة «الملأ» التی تشير إلی أصحاب الثروة و القوة الذين يملأ العين

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۰

ظاهرهم، فی حين أن الواقع أجوف. و يشـكلون أصل الفساد و الانحراف فی كل مجتمع، و يرفعون رايـة العناد و المواجهـة أمام دعوة الأنبياء عليهم السّلام.

و الإشكال الثّانی: إنّهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك و من حولك إلّا حفنة من الأراذل و غير الناضجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ

و «الأراذل» جمع ل «أرذل» و تأتی أيضا جمع ل «رذل» التی تعنی الموجود الحقير، سواء كان إنسانا أم شيئا آخر غيره.

و بـالطبع فـإنّ الملتفين حول نوح عليه السّـلام و المؤمنين به لم يكونوا أراذل و لاـ حقراء، و لكن بمـا أنّ الأنبيـاء ينهضون للـدفاع عن المستضـعفين قبـل كـل شـیء، فـأوّل جماعـة يسـتجيبون لهم و يلبّون دعوتهم هم الجماعـة المحرومـة و الفقيرة، و لكن هؤلاء فی نظر المستكبرين الذين يعدّون معيار الشخصيّة القوة و الثروة فحسب يحسبونهم أراذل و حقراء ..

و إنّما سـمّوهم ب «بادی الرأی» أی الـذين يعتمـدون على الظواهر من دون مطالعة و يعشـقون الشـیء بنظرة واحدة، ففی الحقيقة كان ذلـك بسـبب أنّ اللجاجـة و التعصب لم يكن لها طريق الى قلوب هؤلاء الـذين التفوا حول نوح عليه السّـلام لأنّ معظمهم من الشـباب المطهرة قلوبهم الـذين يحسون بضـياء الحقيقـة فی قلوبهم، و يدركون بعقولهم الباحثة عن الحق دلائل الصدق فی أقوال الأنبياء عليهم السّلام و أعمالهم.

الإشـكال الثّالث: الذی أوردوه على نوح عليه السّـلام أنهم قالوا: بالاضافة الى أنّك إنسان و لست ملكا، و أن الذين آمنوا بك و التفوا

حولک هم من الأراذل، فإنّنا لا نری لکم علینا فضلا وَ ما نَری لَکَمْ عَلَیْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّکَمْ کاذِبِینَ

و الآیات التی تعقبها تبیّن رد نوح علیه السّلام و إجاباته المنطقیة علی هؤلاء حیث تقول: قالَ یا قَوْمِ أ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ آتانِی رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّیَتْ عَلَیْکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۱

و قد اختلف المفسّرون فی جواب نوح علیه السّلام هذا لأی من الإشکالات الثّلاثة هو؟

و لهم فی ذلک أقوال .. و لکن مع التدبر فی الآیة یتّضح أنّ هذا الجواب یمکن أن یکون جوابا للإشکالات الثلاثة بأسرها.

لأنّ أوّل إشکال أوردوه علی نوح هو: لم کنت إنسانا مثلنا و لم تکن ملکا؟

فکان جوابه لهم: صحیح أننی بشر مثلکم، و لکن اللّه آتانی رحمة و بیّنة و دلیلا واضحا من عنده، فلا تمنع بشریتی هذه من أداء هذه الرسالة العظیمة، و لا ضرورة لأن أکون ملکا.

و الإشکال الثّانی هو: إنّ أتباع نوح مخدوعون بالظواهر. فیردّهم بالقول: إنّکم أحق بهذا الاتهام، لأنّکم أنکرتم هذه الحقیقة المشرقة، و عندی أدلّة کافیة و مقنعة لکلّ من یطلب الحقیقة، إلّا أنّها خفیت علیکم لغرورکم و تکبرکم و أنانیتکم! و إشکال الثّالث: أنّهم قالوا: وَ ما نَری لَکُمْ عَلَیْنا مِنْ فَضْلٍ فکان جواب نوح علیه السّلام: أی فضل أعظم من أن یشملنی اللّه برحمته، و أن یجعل الدلائل الواضحة بین یدی، فعلی هذا لا دلیل لکم علی اتهامی بالکذب، فدلائل الصدق عندی واضحة و جلیّة! ..

و فی ختام الآیة یقول النّبی نوح علیه السّلام لهم: هل أستطیع أن ألزمکم الاستجابة لدعوتی و أنتم غیر مستعدّین لها و کارهون لها أ نُلْزِمُکُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها کارِهُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۲

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۲۹ الی ۳۱]

اشارة

وَ یا قَوْمِ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مالاً إِنْ أَجرِیَ إِلاَّ عَلَی اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لکِنِّی أَراکُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹) وَ یا قَوْمِ مَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أ فَلا تَذَکَّرُونَ (۳۰) وَ لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَیْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اللَّهُ خَیْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِی أَنْفُسِهِمْ إِنِّی إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِینَ (۳۱)

التّفسیر

ما أنا بطارد الذین آمنوا:

فی الآیات المتقدمة رأینا أنّ قوم نوح «الأنانیین» کانوا یحتالون بالحجج الواهیة و الإشکالات غیر المنطقیة علی نوح و أجابهم ببیان جلیّ واضح و الآیات محل البحث تتابع ما ردّ به نوح علیه السّلام علی قومه المنکرین. فالآیة الأولی التی تحمل واحدا من دلائل نبوة نوح، و من أجل أن تنیر القلوب المظلمة من قومه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۳

تقول علی لسان نوح: وَ یا قَوْمِ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مالًا فأنا لا أطلب لقاء دعوتی مالا أو ثروة منکم، و إنّما جزائی و ثوابی علی اللّه سبحانه الذی بعثنی بالنّبوة و أمرنی بدعوة خلقه إلیه إِنْ أَجرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ

و هـذا یوضـح بصورة جیـدة و بجلاء أنّنی لاـ أبتغی هـدفا مادیـا من منهجی هـذا، و لا أفکر بغیر الأجر المعنوی من اللّه سبحانه، و لا یستطیع مدّع کاذب أن یتحمل الآلام و المخاطر دون أن یفکر بالربح و النفع.

و هـذا معیـار و میزان لمعرفـة القـادة الصـادقین من غیرهـم الـذین یتحینون الفرص و یهـدفون الی تـأمین المنافع المادیـة فی کل خطوة یخطونها سواء کان بشکل مباشر أو غیر مباشر.

و یعقب نوح علیه السّلام بعد ذلک فی ردّه علی مقولة طرد المؤمنین به من الفقراء و الشباب فیقول بصورة قاطعة: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِینَ آمَنُوا لأنّهم سیلاقون ربّهم و یخاصموننی فی الدار الآخرة إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ ۲۱۰].

ثمّ تختتم الآیـة ببیـان نوح لقومه بـأنّکم جـاهلون وَ لکِنِّی أَراکُمْ قَوْمـاً تَجْهَلُونَ و أی جهل و عـدم معرفـة أعظم من أن تضـیعوا مقیاس الفضـیلة و تبحثون عنها فی الثروة و المال الکثیر و الجاه و المقام الظاهری، و تزعمون أنّ هؤلاء المؤمنین العفاة الحفاة بعیـدون عن اللّه و ساحة قدسه! هذا خطؤکم الکبیر و عدم معرفتکم و دلیل جهلکم.

ثمّ أنتم تتصورون- بجهلکم- أن یکون النّبی من الملائکة، فی حین ینبغی أن یکون قائد الناس من جنسهم لیحسّ بحاجاتهم و یعرف مشاکلهم و آلامهم.

و فی الآیة التی بعدها یقول لهم موضحا: إنّنی لو طردت من حولی فمن ینصرنی من عدل اللّه یوم القیامة و حتی فی هذه الدنیا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۴

وَ یا قَوْمِ مَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ

فطرد المؤمنین الصالحین لیس بالأمر الهیّن، إذ سیکونون خصومی یوم القیامـة بطردی لهم، و لا أحـد هناک یستطیع أن یدافع عنّی و یخلصنی من عدل اللّه، و لربّما أصابتنی عقوبة اللّه فی هذه الدنیا، أم أنّکم لا تفکرون فی أن ما أقوله هو الحقیقة عینها أ فَلا تَذَکَّرُونَ

و الفرق بین «التفکر» و «التذکّر» هو أنّ التفکر فی حقیقته إنّما یکون لمعرفة شـیء لم تکن لنا فیه خبرة من قبل، و أمّا التذکر فیقال فی مورد یکون معروفا للإنسان قبل ذلک، کما فی المعارف الفطریّة.

و المسائل التی کانت بین نوح علیه السّلام و قومه هی أیضا من هـذا القبیل، مسائل یعرفها الإنسان و یـدرکها بفطرته و تـدبّره، و لکن تعصب قومه و غرورهم و غفلتهم و أنانیتهم ألقت علیها حجابا و غشاء فکأنّهم عموا عنها.

و آخر ما یجیب به نوح قومه و یردّ علی إشـکالاتهم الواهیـة .. إنّکم إذا کنتم تتصورون أن لی امتیازا آخر غیر الإعجاز الذی لدیّ عن طریق الوحی فـذلک خطأ، و أقول لکم بصـراحة: لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْـدِی خَزائِنُ اللَّهِ و لا أسـتطیع أن أحقق کل شـیء أریـده و کل عمل أطلبه، حیث تحکی الآیـة عن لسانه وَ لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللَّهِ و لا أقول لکم إنّنی مطلع علی الغیب وَ لا أَعْلَمُ الْغَیْبَ و لا أدعی أنّنی غیرکم کأن أکون من الملائکة مثلا وَ لا أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ فهذه الادّعاءات الفارغة و الکاذبة یتذرع بها المدّعون الکذبة، و هیهات أن یتـذرع بها الأنبیاء الصادقون، لأنّ خزائن اللّه و علم الغیب من خصوصـیات ذات اللّه القدسـیّة وحدها، و لا ینسـجم الملک مع هذه الأحاسیس البشریة أیضا ..

فکل من یدعی واحدا من هذه الأمور الثلاثة المتقدمة- أو جمیعها- فهو کاذب.

و مثل هذا التعبیر ورد فی نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا کما نلاحظ ذلک فی الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۵

(۵۰) من سورة الأنعام حیث تقول الآیة مخاطبة النّبی أن یبلغ قومه بذلک قُلْ لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَیْبَ وَ لا أَقُولُ لَکُمْ إِنِّی مَلَکٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مـا یُوحی إِلَیَ فانحصـار امتیاز نبی الإسـلام فی مسألـة «الوحی» و نفی الأمور الثلاثـة الأخری یـدل علی أنّ الآیات التی تحدثت عن نوح کانت تستبطن هذا المعنی أیضا و إن لم تصرّح بذلک بمثل هذا التصریح!

و فی ذیـل الآیـة یکرر التأکیـد علی المـؤمنین المستضـعفین بـالقول: وَ لاـ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اللَّهُ خَیْراً .. بـل علی

العكس تماما، فخير هذه الدنيا و خير الآخرة لهم و إن كانوا عفاة لخلّو أيديهم من المال و الثروة .. فأنتم الذين تحسبون الخير منحصرا فی المال و المقام و السن و تجهلون الحقيقة و معناها تماما.

و على فرض صحة مدّعاكم أراذل و «أوباش» ف اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِی أَنْفُسِهِمْ

أنا الذی لا أرى منهم شيئا سوى الصدق و الإيمان يجب علیّ قبولهم، لأنّی مأمور بالظاهر، و العارف باسرار العباد هو اللّه سبحانه، فإن عملت غير عملی هذا كنت آثما إِنِّی إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ

و يرد هـذا الاحتمال أيضا فی تفسير الجملـة الأخيرة لأنّها مرتبطـة بجميع محتوى الآية، أی إذا كنت أدعى علم الغيب أو أنّی ملك أو أن عندی خزائن اللّه أو أن اطرد المؤمنين، فسأكون عند اللّه و عند الوجدان فی صفوف الظالمين.

ملاحظات

۱- أولياء اللّه و معرفة الغيب

الاطلاع على الغيب مطلقا- كما أشرنا إليه مرارا- و بدون أی قيد و شرط هو من خصوصيّات اللّه سبحانه، و لكنّه يطلع أنبياءه و أولياءه على الغيب بقدر ما يراه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۶

مصـلحة كما نرى الإشارة إليه فی الآيتين (۲۶ و ۲۷) من سورة الجن عـالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَـداً، إِلَّا مَنِ ارْتَضـى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً.

فعلى هـذا لاـ منافاة و لا تضادّ بين هـذه الآيات- محل البحث- التی تنفی أن يعلم الأنبياء الغيب، و بين الآيات أو الرّوايات التی تنسـب إلى الأنبياء أو الأئمّة العلم ببعض الغيب.

فمعرفـة أسـرار الغيب و الاطلاع عليها من خصوصـيّات اللّه بالـذات، و ما عنـد الآخرين فبالعرض و «بالتعليم الإلهی»، و لذلك فإنّ علم الغيب عند غير اللّه محدود بالحدود التی يريدها اللّه سبحانه [۲۱۱].

۲- مقياس معرفة الفضيلة:

مرّة أخرى نـواجه الواقعيـة فی هـذه الآيـات، و هی أن أصـحاب الـثروة و القوة و عبيـد الـدنيا المـاديّين يرون جميع الأشـياء من خلاـل نافذتهم المادية .. فهم يتصورون أنّ الاحترام و الشخصيّة هما ثمرة وجود الثروة و المقام و الحيثيات فحسب، فلا ينبغی التعجب من أن يكون المؤمنون الصادقون الذين خلت أيديهم من المال و الثروة فی قاموسهم «أراذل» و ينظرون إليهم بعين الاحتقار و الازدراء.

و لم تكن هذه المسألة منحصـرة فی نوح و قومه، إذ كانوا يصـفون المؤمنين المستضـعفين حوله- و لا سـيما الشباب الوعی منهم- بأنّ عقولهم خالية و أفكارهم قاصـرة، و كأنّهم لا قيمة لهم. فالتاريخ يكشف أن هذا المنطق كان موجودا فی عصـر الأنبياء الآخرين و على الأخصّ فی زمن نبی الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الأوائل.

كما نرى الآن مثل هذا المنطق فی عصرنا و زماننا، فالمستكبرون الذين يمثلون فراعنة العصر- اعتمادا على سلطانهم و قدراتهم و قواهم الشيطانية- يتهمون

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۷

«المؤمنين» بمثل هذا الاتهام .. فكأنّما يعيد التاريخ نفسه و صوره على أيدى هؤلاء و مخالفيهم ..

و لكن حين يتطهر المحيط الفاسد بثورة إلهية .. فهذه المعايير التى تقاس بها الشخصيّة و العناوين الموهومة الأخرى تلقى فى مزابل التاريخ، و تحل محلّها المعايير الإنسانية الأصيلة .. المعايير المتولدة من صميم حياة الإنسان و التى تكون لبنات تحتية للبناء الفوقانى للمجتمع السليم الحرّ، حيث يستلهم منها قيمه، كالإيمان و العلم الإيثار و المعرفة و العفو و التسامح و التقوى و الشهامة و الشجاعة و التجربة و الذكاء و الإدارة و النظم و ما أشبهها ..

۳- معنى علم الغيب فى القرآن

هناك بعض المفسّرين كصاحب «المنار» حين يصل إلى هذه الآية يقول لمن يدعى أن علم الغيب لا يختصّ باللّه، أو يطلب حلّ المشاكل من سواه، يقول فى جملة قصيرة: إنّ هذين الأمرين- علم الغيب و خزائن اللّه- قد نفاهما القرآن عن الأنبياء، لكن أصحاب البدع من المسلمين و أهل الكتاب يثبتونهما للأولياء و القديسين [۲۱۲].

إذا كان مقصوده نفى علم الغيب عنهم مطلقا و لو بتعليم اللّه، فهذا مخالف لنصوص القرآن المجيد الصريحة، و إذا كان مقصوده نفى التوسّل بأنبياء اللّه و أوليائه بالصورة التى نطلب من اللّه بشفاعتهم أن يحلّ مشاكلنا، فهذا الكلام مخالف للقرآن و الأحاديث القطعيّة المسلّم بها عن طرق الشيعة و أهل السنّة أيضا.

لمزيد من الإيضاح فى هذا المجال يراجع ذيل الآية (۳۴) من سورة المائدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۸

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۳۲ الى ۳۵]

اشارة

قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۲) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۳۳) وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (۳۵)

التّفسير

كفانا الكلام فأين ما تعدنا به؟!

الآية الأولى من الآيات أعلاه تتحدث عن قوم نوح عليه السّلام أنّهم: قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فأين ما تعدنا به من عذاب اللّه فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ و هذا الأمر يشبه تماما عند ما ندخل فى جدال مع شخص أو أشخاص و نسمع منهم تهديدا ضمنيا حين المجادلة فنقول: كفى هذا الكلام الكثير!! اذهبوا و افعلوا ما شئتم و لا تتأخروا، فمثل هذا الكلام يشير إلى أنّنا لا نكترث بكلامهم و لا نخاف من تهديدهم، و لسنا مستعدين أن نسمع منهم كلاما أكثر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۹

فاختيار هذه الطريقة إزاء كل ذلك اللطف و تلك المحبّة من قبل أنبياء اللّه و نصائحهم التى تجرى كالماء الزلال على القلوب، إنّما

تحكى عن مدى اللجاجة و التعصب الأعمى لدى تلك الأقوام.

فى الوقت ذاته يشعرنا كلام نوح عليه السّلام بأنّه سعى مدّة طويلة لهداية قومه، و لم يترك فرصة للوصول إلى الهدف إلّا انتهزها لإرشادهم، و لكن قومه الضالين أظهروا جزعهم من أقواله و إرشاداته. و هذه المعادلة تتجلى جيدا فى سائر الآيات التى تتحدث عن نوح عليه السّلام و قومه فى القرآن، ففى سورة نوح عليه السّلام بيان لهذه الظاهرة بشكل واف- أيضا- فلنلاحظ الآيات التى تبدا من الآية «۵» و تنتهى بالآية (۱۳) من سورة نوح حيث نقرأ فيها: قالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً وَ إِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهاراً ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً.

فى الآية- محل البحث- وردت جملة «جادلتنا» من مادة «المجادلة» و أصلها مشتق من «الجدل» التى تعنى فتل الحبل و إبرامه، و لذلك يطلق على البازى «أجدل» لأنّه أشد فتلا من جميع الطيور، ثمّ توسعوا فى اللغة فصارت تطلق على الالتواء فى الكلام و ما أشبه.

مع أنّ «الجدال» و «المراء» و «الحجاج» على وزن «اللجاج» متقاربة المعانى و متشابهة فيما بينها، لكن بعض المحققين يرى أنّ «المراء» فيه نوع من المذمّة، لأنّه يستعمل أحيانا فى الاستدلال فى المسائل الباطلة، و لكن ذلك المفهوم لا يدخل فى كلمتى «الجدال و المجادلة»، و الفرق بين الجدال و الحجاج، أن الجدال يستعمل ليلفت الطرف المقابل و يبعده عن عقيدته، أمّا الحجاج فعلى العكس من ذلك بأن يدعى الشخص إلى العقيدة الفلانية بالاستدلال و البرهان.

لقد أجاب نوح عليه السّلام بجملة قصيرة على هذه اللجاجة و الحماقة و عدم الاعتناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۰

بقوله: إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ فذلك خارج من يدى على كل حال و ليس باختيارى، إنّما أنا رسوله و مطيع لأمره، فلا تطلبوا منّى العذاب و العقاب! .. و لكن حين يحل عذابه فاعلموا أنّكم لا تقدرون أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى مأمن آخر وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ

و «المعجز» مشتق من مادة «الإعجاز» و هى بمعنى سلب القدرة من الغير، و تستعمل هذه الكلمة أحيانا فى موارد يكون الإنسان مانعا لعمل الآخر أو لصده عن سبيله فيعجزه عن القيام بأى عمل، و أحيانا تستعمل فى فرار الإنسان من يد الآخر و خروجه من هيمنته فلا يقدر عليه، و أحيانا تستعمل فى تكبيل الآخر بالوثاق، أو بجعله مصونا .. إلخ.

فكل هذه المعانى من أوجه الإعجاز و سلب القدرة من الطرف الآخر.

الآية الآنفة الذكر تحتمل جميع هذه المعانى، لأنّه لا منافاة بين جميع هذه المعانى، فكلها تعنى أنّ لا حيلة تخلصكم و تجعلكم فى أمان من عذابه.

ثمّ يضيف: و إذا كان اللّه يريد أن يضلكم و يغويكم- لما أنتم عليه من الذنوب و التلوّث الفكرى و الجسدى- فلا فائدة من نصحى لكم إذا وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ فهو وليكم و أنتم فى قبضته هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

سؤال: مع مطالعة هذه الآية يثور هذا السؤال فورا- كما أن كثيرا من المفسّرين أشاروا إليه أيضا- و هو: هل يمكن أن يريد اللّه الغواية و الضلال لعباده؟ ثمّ أليس هذا دليلا على الجبر؟ و هل يتوافق هذا المعنى مع أصل حرية الإرادة و الإختيار للإنسان؟

و الجواب: كما اتّضح من ثنايا البحث المتقدم- و ما أشرنا إليه مرات عديدة- أنّه قد تصدر من الإنسان- أحيانا- سلسلة من الأعمال التى تكون نتيجتها الغواية و الانحراف الدائمى و عدم العودة إلى الحق، اللجاجة المستمرة و الإصرار على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۱

الذنوب و العداء الدائم لطلاب الحق و القادة الصادقين .. كل هذه الأمور تلقى على فكر الإنسان حجابا يفقده القدرة على رؤية أقل

شعاع لشمس الحقيقة و الحق، و لأنّ هذه الحالة من نتائج الأعمال التى يقوم بها الإنسان، فلا تكون دليلا على الجبر، بل هى عين الإختيار، و الذى يتعلق باللّه تعالى أنّه جعل فى مثل هذه الأعمال أثرا.

هناك آيات عديدة فى القرآن تشير إلى هذه الحقيقة، و قد أشرنا الى ذلك فى ذيل الآية (۷) من سورة البقرة و آيات أخرى يمكن مراجعتها ..

و فى آخر الآية- محل البحث ورد كلام بمثابة الجملة المعترضة ليؤكّد المواضيع التى بحثت قصّة نوح فى الآيات السابقة و اللاحقة، فتبيّن الآية أن الأعداء يقولون:

إنّ هذا الموضوع صاغه «محمّد» من قبل نفسه و نسبه إلى اللّه أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ

ففى جواب ذلك قل يا رسول اللّه: إن كان ذلك من عندى و نسبته إلى اللّه فذنبه علىّ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي و لكنى برىء من ذنوبكم وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ

ملاحظات

۱- «الإجرام» مأخوذ من مادة «جرم» على وزن «جهل» و كما أشرنا إلى ذلك- سابقا- فإنّ معناه قطف الثمرة غير الناضجة، ثمّ أطلقت على كل ما يحدث من عمل سىء، و تطلق على من يحث الآخر على الذنب أنّه أجرم، و حيث أن الإنسان له ارتباط فى ذاته و فطرته مع العفاف و النقاء، فإنّ الإقدام على الذنوب يفصل هذا الارتباط الإلهى منه.

۲- احتمل بعض المفسّرين أنّ الآية الأخيرة ليست ناظرة الى نبى الإسلام، بل ترتبط بنوح عليه السّلام نفسه، لأنّ جميع هذه الآيات تتحدث عن نوح عليه السّلام، و الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۲

المقبلة تتحدث عنه أيضا، فمن الأنسب أن تكون هذه الآية فى نوح عليه السّلام، و الجملة الاعتراضية خلاف الظاهر، و لكن مع ملاحظة ما يلى:

أوّلا: إنّ شبيه هذا التعبير وارد فى سورة الأحقاف الآية (۸) فى نبى الإسلام.

ثانيا: جميع ما جاء فى نوح عليه السّلام فى هذه الآيات كان بصيغة الغائب، و لكن الآية- محل البحث- جاءت بصيغة المخاطب، و مسألة الالتفات- أى الانتقال من ضمير الغيبة إلى المخاطب- خلاف الظاهر، و إذا أردنا أن تكون الآية فى نوح عليه السّلام فإنّ جملة «يقولون» بصيغة المضارع، و جملة «قل» بصيغة الأمر، يحتاجان كليهما إلى التقدير! ثالثا: هناك حديث فى تفسير البرهان فى ذيل هذه الآية عن الإمامين الصادقين الباقر و الصادق عليهما السّلام يبيّن أنّ الآية المتقدمة نزلت فى كفار مكّة.

من مجموع هذه الدلائل نرى أن الآية تتعلق بنبى الإسلام، و التهم التى و جهت إليه كان من قبل كفار مكّة، و جوابه عليهم.

و ينبغى ذكر هذه المسألة الدقيقة، و هى أنّ الجملة الاعتراضية ليست كلاما لا علاقة له بأصل القول، بل غالبا ما تأتى الجمل الاعتراضية لتؤكّد بمحتواها مفاد الكلام و تؤيده، و إنما ينقطع ارتباط الكلام أحيانا لتخف على المخاطب رتابة الإيقاع و ليبعث الجدة و اللطافة فى روح الكلام، و بالطبع فإنّ الجملة الاعتراضية لا يمكن أن تكون أجنبية عن الكلام بتمام المعنى، و إلّا فتكون على خلاف البلاغة و الفصاحة، فى حين أنّنا نجد دائما فى الكلمات البليغة و الفصيحة جملا اعتراضية.

۳- من الممكن أن يرد هذا الإشكال عند مطالعة الاية الأخيرة، و هو قول النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو نوح عليه السّلام للكفار: إن يكن هذا الكلام افتراء فإثمه علىّ. ترى هل يعنى قبول مسئولية الإثم «الافتراء» أنّ كلام الكفار حقا و مطابقا للواقع، و على الناس أن يتابعوه و يطيعوه!؟

و لكن مع تدقيق النظر فى الآيات السابقة نحصل على جواب هذا الإشكال،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۳

و هو أنّ الأنبياء فی الحقيقة أرادوا القول: إنّ كلامنا يقوم على الاستدلالات العقلية، فعلى فرض المحال أنّنا لم نكن مبعوثين من قبل اللّه فإثم ذلك على أنفسنا، و هذا بغض النظر عن الاستدلالات العقلية، و لكنّكم أيّها الكفار ستبقون بمخالفتكم صرعى الإثم دائما، الإثم المستمر و الباقی «لا حظ كلمة تجرمون التی جاءت بصيغة المضارع و التی تدل على الاستمرار «فتأمل جيدا».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۴

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۳۶ الى ۳۹]

اشارة

وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (۳۹)

التّفسير

بداية النّهاية:

إنّ قصّة نوح عليه السّلام الواردة فی آيات هذه السورة، بيّنت بعدّة عبارات و جمل، كل جملة مرتبطة بالأخرى، و كل منها يمثل سلسلة من مواجهة نوح عليه السّلام فی قبال المستكبرين، ففی الآيات السابقة بيان لمرحلة دعوة نوح عليه السّلام المستمرة و التی كانت فی غاية الجدية، و بالاستعانة بجميع الوسائل المتاحة حيث استمرت سنوات طوالا- آمنت به جماعة قليلة .. قليلة من حيث العدد و كثيرة من حيث الكيفية و الاستقامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۵

و فی الآيات محل البحث إشارة إلى المرحلة الثّالثة من هذه المواجهة، و هی مرحلة انتهاء دورة التبليغ و التهيؤ للتصفية الإلهية.

ففی الآية الأولى نقرأ ما معناه: يا نوح، إنّك لن تجد من يستجيب لدعوتك و يؤمن باللّه غير هؤلاء: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ

و هی إشارة إلى أنّ الصفوف قد امتازت بشكل تام، و الدعوة للإيمان و الإصلاح غير مجدية، فلا بدّ إذا من الاستعداد لتصفية و التحول النهائی.

و فی نهاية الآية تسلية لقلب نوح عليه السّلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل هذه الأعمال فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ و نستفيد من هذه الآية- ضمنا- أنّ اللّه يطلع نبيّه نوحا على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغی، كما نجد أنّ اللّه تعالى يخبره بأنّه لن يؤمن بدعوته فی المستقبل غير أولئك الذين آمنوا به من قبل، و على كل حال لا بدّ من إنزال العقاب بهؤلاء العصاة اللجوجين ليطهر العالم من التلوّث بوجودهم، و ليكون المؤمنون فی منأى عن مخالبهم، و هكذا صدر الأمر بإغراقهم، و لكن لا بدّ لكل شیء من سبب، فعلى نوح أن يصنع السفينة المناسبة لنجاة المؤمنين الصادقين لينشط المؤمنون فی مسيرهم أكثر فأكثر، و لتتم الحجّة على غيرهم بالمقدار الكافی أيضا.

و جاء الأمر لنوح أن ... اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا.

إنّ المقصود من كلمة «أعيننا» إشارة إلى أن جميع ما كنت تعمله و تسعى بجد من أجله فى هذا المجال هو فى مرءاى و مسمع منّا، فواصل عملك مطمئن البال.

و طبيعى أنّ هذا الإحساس بأنّ اللّه حاضر و ناظر و مراقب و محافظ يعطى الإنسان قوة و طاقة، كما أنّه يحسّ بتحمل المسؤولية أكثر.

كما يستفاد من كلمة «وحينا» أيضا أن صنع السفينة كان بتعليم اللّه، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ نوحا عليه السّلام لم يكن بذاته ليعرف مدى الطوفان الذى سيحدث فى المستقبل ليصنع السفينة بما يتناسب معه، و إنّما هو وحى اللّه الذى يعينه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۶

انتخاب أحسن الكيفيات.

و فى نهاية الآية ينذر اللّه نوحا أن لا يشفع فى قومه الظالمين، لأنّهم محكوم عليهم بالعذاب و إن الغرق قد كتب عليهم حتما وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ

هذه الجملة تبين بوضوح أنّ الشفاعة لا تتيسر لكل شخص، بل للشفاعة شروطها، فإذا لم تتوفر فى أحد الأشخاص فلا يحق للنّبى أن يشفع له و يطلب من اللّه العفو لأجله (راجع المجلد الأوّل من هذا التّفسير ذيل الآية ۴۸ من سورة البقرة).

أمّا عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد- و لو لحظة واحدة- فى دعوة النّبى نوح عليه السّلام و يحتملوا على الأقل أن هذا الإصرار و هذه الدعوات المكررة كلها من «وحى اللّه» فتكون مسألة العذاب و الطوفان حتمية!! إلّا أنّهم واصلوا استهزاءهم و سخريتهم مرّة أخرى و هى عادة الأفراد المستكبرين و المغرورين وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ

«الملأ» و الأشراف الراضون عن أنفسهم يسخرون من المستضعفين فى كل مكان، و يعدونهم أذلاء و حقراء لأنّهم لا قوّة لهم و لا ثروة!! و مضافا بل حتى أفكارهم و إن كانت سامية، و مذهبهم و إن كان ثابتا و راسخا، و أعمالهم و إن كانت عظيمة و جليلة .. كل ذلك فى حساب «الملأ» حقير تافه ..! و لذلك لم ينفعهم الإنذار و النصيحة. فلا بدّ أن تنهال أسواط العذاب الأليم على ظهورهم يقال أن الملأ من قوم نوح و الأشراف كانوا جماعات، و كل جماعة تختار نوعا من السخرية و الاستهزاء بنوح ليضحكوا و يفرحوا بذلك الاستهزاء! فمنهم من يقول: يا نوح، يبدو أن دعوى النبوة لم تنفع و صرت نجارا آخر الأمر!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۷

و منهم من يقول: حسنا تصنع السفينة، فينبغى أن تصنع لها بحرا، أ رأيت إنسانا عاقلا يصنع السفينة على اليابسة. و منهم من يقول: واها لهذه السفينة العظيمة، كان بإمكانك أن تصنع أصغر منها ليمكنك سحبها إلى البحر.

كانوا يقولون مثل ذلك و يقهقهون عاليا، و كان هذا الموضوع مثار حديثهم و بحثهم فى البيوت و أماكن عملهم، حيث يتحدثون عن نوح و أصحابه و قلّة عقلهم: تأملوا الرجل العجوز و تفرّجوا عليه كيف انتهى به الأمر، الآن ندرك أن الحق معنا حيث لم نؤمن بكلامه، فهو لا يملك عقلا صحيحا!! و لكن نوحا كان يواصل عمله بجدية فائقة و أناة و استقامة منقطعة النظير لأنّها وليدة الإيمان، و كان لا يكترث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم و عميت قلوبهم، و إنّما يواصل عمله ليكمله بسرعة. و يوما بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل و يتهيأ لذلك اليوم العظيم، و كان نوح عليه السّلام أحيانا يرفع رأسه و يقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ

ذلك اليوم الذى يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ما تصنعون، و لا ملجأ لكم، و تصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة .. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين و من غفلتكم و جهلكم و عدم معرفتكم و يضحكون عليكم.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ إشارة إلى أنّه بالرغم من أنّ مضايقاتكم لنا مؤلمة، و لكننا نتحمل هذه الشدائد و نفتخر بذلك أوّلا، كما أنّ ذلك مهما يكن فهو منقض و زائل، أمّا عذابكم المخزى فهو باق و دائم ثانيا، و هذان الأمران

معا لا يقبلان القياس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۸

ملاحظات

۱- التصفية لا الانتقام

يستفاد من الآيات المتقدمة أنّ عذاب اللّه يفتقد جنبة الانتقام، لأنّه عبارة عن تصفية نوع من البشر و زوالهم لعدم جدارتهم بالحياة، و ليبقى الصالحون من بعدهم .. إنّ مثل هؤلاء المستكبرين الفاسدين و المفسدين لا أمل بإيمانهم، و لا حق لهم فى الحياة فى نظر نظام الخلق، و هكذا كان قوم نوح لأنّ الآيات السابقة تبيّن له أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن، فلا أمل بإيمانهم فتهيأ لصنع «الفلك» وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا.

و هذا الموضوع يبدو جليا فى دعاء هذا النّبى على قومه، فنحن نقرأ فى سورة نوح عليه السّلام وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً.

و أساسا فإنّ لكل موجود هدفا فى نظام الخلقة، و حين ينحرف هذا الموجود عن هدفه و يغلق على نفسه جميع طرق الإصلاح، يكون وجوده و بقاؤه بلا معنى، و لا بد من أن يزول شاء أم أبى، و كا يقول الشاعر:

لا نضرة عندى و لا ورق و لاورد و لا ثمر ففيم بقائى

۲- علائم المستكبرين:

إنّ المستكبرين الأنانيين يحولون المسائل الجدية التى لا تنسجم مع رغابتهم و ميولهم و منافعهم إلى لعب و استهزاء. و لهذا السبب فإنّ الاستهزاء بالحقائق- و لا سيما فيما يتعلق بحياة المستضعفين- يشكل جزءا من حياتهم .. فكثيرا ما نجدهم من أجل أن يعطوا لجلساتهم المليئة بآثامهم رونقا و جمالا يبحثون عن مؤمن خالى اليد ليسخروا منه و يستهزءوا به.

و إذا اتفق أنّ أحد المؤمنين لم يكن فى مجلسهم فسوف يذكرون واحدا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۹

المؤمنين فى غيابه و يسخرون منه و يضحكون! .. إنّهم يتصورون أنفسهم بأنّهم العقل المطلق، و يظنون أنّ الثروة العظيمة- و التى هى من الحرام- دليل على شخصيتهم و عظمتهم و قيمتهم! و أنّ الآخرين فاقدو الشخصية و لا قيمة لهم و غير لائقين! و لكن القرآن المجيد يوجه أشدّ هجومه على مثل هؤلاء الأفراد المغرورين المتكبرين، و لا سيما استهزاؤهم المحكوم عليه بغضب اللّه و سخطه! نقرأ فى التاريخ الإسلامى- على سبيل المثال- أن «أبا عقيل الأنصارى» هذا العامل الفقير و المؤمن كان يسهر الليل فى حمل الماء من آبار «المدينة» إلى البيوت و يستوفى أجره بتميرات، ثمّ يأتى بهذه التميرات إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى عزوة «تبوك» على أنّها مساعدة لجيش الإسلام، فيلتفت المنافقون المستكبرون و يسخرون منه، فتنزل آيات من القرآن لها وقع الصاعقة عليهم الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۶ ؛ ص۵۲۹

۳- سفينة نوح:

لا شكّ أنّ سفينة نوح لم تكن سفينة عاديّة و لم تنته بسهولة مع وسائل ذلك الزمان آلاته، إذ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، و تحمل متاعا و طعاما كثيرا يكفى للمدّة التى يعيشها المؤمنون و الحيوانات فى السفينة حال الطوفان، و مثل هذه السفينة بهذا الحجم و قدرة الاستيعاب لم يسبق لها مثيل فى ذلك الزمان. فهذه السفينة ستجرى فى بحر بسعة العالم، و ينبغى أن تمرّ سالمة عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۰

لذلك تقول بعض روايات المفسّرين: إنّ طول السفينة كان ألفا و مائتى ذراع، و عرضها كان ستمائة ذراع «كل ذراع يعادل نصف متر تقريبا».

و نقرأ فى بعض الرّوايات أنّ النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عامّا بالعقم و عدم الإنجاب، و كان ذلك مقدمة لعذابهم و عقابهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۱

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۴۰ الى ۴۳]

اشارة

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (۴۰) وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (۴۲) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (۴۳)

التّفسير

شروع الطّوفان:

رأينا فى الآيات المتقدمة كيف صنع نوح عليه السّلام و جماعته المؤمنون سفينة النجاة بصدق. و واجهوا جميع المشاكل و استهزاء الأكثرية من غير المؤمنين، و هيأوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذى طهّر سطح الأرض من لوث المستكبرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۲

الكفرة.

و الآيات- محل البحث- تتعرض لموضوع ثالث، و هو كيف كانت النهاية؟

و كيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبيّنه بهذا التعبير حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ.

التنّور: بتشديد النون، هو المكان الذى ينضج الخبز فيه بعد أن كان عجينا.

لكن ما مناسبة فوران الماء فى التنور و اقتراب الطوفان؟

اختلف المفسّرون فكانت لهم أقوال كثيرة فى ذلك ..

قال بعضهم: كان العلامة بين نوح و ربّه لحلول الطوفان أن يفور التّنور، ليلتفت نوح و أصحابه إلى ذلك فيركبوا فى السفينة مع وسائلهم و أسبابهم.

و قال جماعة آخرون: إنّ كلمة «التنور» استعملت هنا مجازا و كناية عن غضب اللّه، و يعنى أن غضب اللّه اشتدّت شعلته و فار، فهو إشارة الى اقتراب حلول العذاب المدمّر، و هذا التعبير مطرّد حيث يشبّهون شدّة الغضب بالفورة و الاشتعال! و لكن يبدو أنّ احتمال أن يكون التنور قد استعمل بمعناه الحقيقى المعروف أقوى، و المراد بالتّنور ليس تنّورا خاصّا، بل المقصود بيان هذه المسألة الدقيقة، و هى أن حين فار التّنور بالماء- و هو محل النّار عادة- التفت نوح عليه السّلام و أصحابه إلى أن الأوضاع بدأت تتبدل بسرعة و أنّه حدثت المفاجأة، فأين «الماء من النّار»؟! و بتعبير آخر: حين رأوا أنّ سطح الماء ارتفع من تحت الأرض و أخذ يفور من داخل التنور الذى يصنع فى مكان يابس و محفوظ، من الرطوبة علموا أن أمرا مهمّا قد حدث و أنّه قد ظهر فى التكوين أمر خطير، و كان ذلك علامة لنوح عليه السّلام و أصحابه أن ينهضوا و يتهيئوا.

و لعلّ قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. و هى فوران التنور بالماء فى بيوتهم و لكن غضوا أجفانهم و صمّوا آذانهم كعادتهم عند مثل العلائم الكبيرة حتى أنّهم لم

يسمحوا لأنفسهم بالتفكير فى هذا الأمر و أن إنذارات نوح حقيقية.

فى هذه الحالة بلغ الأمر الإلهى نوحا قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ

لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ

هذه الآية تشير من جهة إلى امرأة نوح و ابنه كنعان- اللذين ستأتى قصتهما فى الآيات المقبلة- و قد قطعا علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما و تآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق فى ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأنّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

و تشير الآية من جهة أخرى إلى أنّ ثمرة جهاد نوح عليه السّلام بعد هذه السنين الطوال و السعى الحثيث المتواصل فى التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل! بعض الرّوايات تقول أنّه استجاب لنوح خلال هذه الفترة الطويلة ثمانون شخصا فقط، و تشير بعض الرّوايات الأخرى إلى عدد أقل من ذلك، و هذا الأمر يدل على ما كان عليه هذا النّبى العظيم نوح عليه السّلام من الصبر و الاستقامة «فى درجة قصوى بحيث كان معدل ما يبذله من جهد لهداية شخص واحد عشر سنوات تقريبا، هذا التعب الذى لا يبذله الناس حتى لأولادهم!.

جمع نوح عليه السّلام ذويه و أصحابه المؤمنين بسرعة، و حين أزف الوعد و اقترب الطوفان و أو شك أن يحل عذاب اللّه أمرهم أن يركبوا فى السفينة وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها[۲۱۳].

لماذا؟! لكى يعلمهم أنّه ينبغى أن تكونوا فى جميع الحالات فى ذكر اللّه تعالى و تستمدوا العون من اسمه و ذكره إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينة تحت تصرفكم و اختياركم لتنجيكم من

الغرق و بمقتضى عفوه و غفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

و أخيرا حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهى فتلبدت السماء بالغيوم كأنّها قطع الليل المظلم، و تراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، و تتابعت أصوات الرعد و ومضات البرق فى السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة و مرعبة جدّا».

شرع المطر و توالى مسرعا منهمرا أكثر فأكثر، و كما يصفه القرآن فى سورة القمر فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ

عُیُوناً فَالْتَقَی الْماءُ عَلی أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ.

و من جهة أخری ارتفعت المیاه الجوفیة بصورة رهیبة بحیث تفجرت عیون الماء من کل مکان.

و هکذا اتصلت میاه الأرض بمیاه السماء، فلم یبق جبل و لا واد و لا تلعة و لا نجد إلّا استوعبه الماء و صار بحرا محیطا خضمّا .. أمّا الأمواج فکانت علی أثر الریاح الشدیدة تتلاطم و تغدو کالجبال. و سفینة نوح و من معه تمضی فی هذا البحر وَ هِیَ تَجْرِی بِهِمْ فِی مَوْجٍ کَالْجِبالِ وَ نادی نُوحٌ ابْنَهُ وَ کانَ فِی مَعْزِلٍ یا بُنَیَّ ارْکَبْ مَعَنا وَ لا تَکُنْ مَعَ الْکافِرِینَ فإنّ مصیرک الی الفناء إذا لم ترکب معنا.

لم یکن نوح هذا النّبی العظیم أبا فحسب، بل کان مربیّا لا- یعرف التعب و النصب، و متفائلا- بالأمل الکبیر بحیث لم ییأس من ابنه القاسی القلب، فناداه عسی أن یستجیب له، و لکن- للأسف- کان أثر المحیط السیء علیه أکبر من تأثیر قلب أبیه المتحرّق علیه.

لذلک فإنّ هذا الولد اللجوج الأحمق، و ظنّا منه أن ینجو من غضب اللّه أجاب والده نوحا و قالَ سَآوِی إِلی جَبَلٍ یَعْصِمُنِی مِنَ الْماءِ و لکنّ نوحا لم ییأس مرّة أخری فنصحه أن یترک غروره و یرکب معه و قالَ لا عاصِمَ الْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ و لا ینجو من هذا الغرق إلّا من شمله لطف اللّه إِلَّا مَنْ رَحِمَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۵

الجبل أمره سهل و هین، و کرة الأرض أمرها هین کذلک .. الشمس و المجموعة الشمسیة بما فیها من عظمة مذهلة لا تعدل ذرّة إزاء قدرة اللّه الأزلیّة.

ألیس أعلی الجبال بالنسبة لکرة الأرض بمثابة نتوءات صغیرة علی سطح برتقالة؟! أ لیست هذه الأرض التی ینبغی أن یتضاعف حجمها إلی ملیون و مائتی ألف مرّة حتی تبلغ حجم الشمس، و هذه الشمس التی تعدّ نجما متوسطا فی السماء من بین ملایین الملایین من النجوم فی متسع عالم الخلق، فأیّ خیال ساذج و فکر بلید یتوقع من الجبل أن یصنع شیئا؟

و فی هذه الحالة التی کان ینادی نوح ابنه و لا یستجیب الابن له ارتفعت موجة عظیمة و التهمت کنعان بن نوح و فصل الموج بین نوح و ولده وَ حالَ بَیْنَهُمَا الْمَوْجُ فَکانَ مِنَ الْمُغْرَقِینَ

بحوث

۱- هل کان طوفان نوح مستوعبا للعالم؟!

من خلال ظاهر الآیات یبدو لنا أنّ الطوفان لم یکن لمنطقة من الأرض دون أخری، بل غطی کل سطح الأرض، لأنّ کلمة «الأرض» ذکرت بصورة مطلقة، کما فی الآیة (۲۶) من سورة نوح رَبِّ لا- تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیَّاراً کما فی الآیة (۴۴) المقبلة من سورة هود وَ قِیلَ یا أَرْضُ ابْلَعِی ماءَکِ وَ یا سَماءُ أَقْلِعِی و هکذا ذکر کثیر من المؤرخین- أیضا- أنّ طوفان نوح کان عالمیا، و لذلک یرجع نسل جمیع البشر الیوم إلی واحد من أبناء نوح الثلاثة «حام و سام و یافث» الذین بقوا بعده مدة! و فی التاریخ الطبیعی نعثر علی فترة تدعی فترة الأمطار ذات السیول، فلو لم تکن هذه الفترة الزمنیة قبل تولّد الحیوانات، فهی تنطبق علی طوفان نوح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۶

و هذه النظریة موجودة أیضا التاریخ الطبیعی للأرض، و هی أن محور الکرة الأرضیة یتغیر تدریجا، بحیث یکون القطبان الشمالی و الجنوبی مکان خط الإستواء، و یحلّ خط الإستواء محلّهما، و واضح أنّ الحرارة التی تکون فی أعلی درجاتها تذیب الثلوج القطبیة فترتفع میاه البحار حتی تستوعب کثیرا من الیابسة، و مع النفوذ فی ثنایا الأرض و طیاتها تحدث العیون المتفجرة، و کل ذلک یبعث علی کثرة السحب و الأمطار.

كما أنّ مسألة اختيار نوح عليه السّلام من كل نوع من الحيوانات زوجين و حملها معه على السفينة يؤيد كون الطوفان عالميّا أيضا، و إذا عرفنا أنّ نوحا كان يسكن الكوفة- كما تقول الرّوايات- و أن طرف الطوفان و حافته- طبقا للرّوايات الأخرى- كان فى مكّة و بيت اللّه الحرام، فهذا نفسه أيضا مؤيد «لعالميّة الطوفان».

و لكن مع هذه الحال، فلا يبعد أن يكون الطوفان فى منطقة معينة من الأرض، لأنّ إطلاق الأرض على المنطقة الواسعة من العالم تكرر فى عدد من آيات القرآن، كما نقرأ فى قصّة بنى إسرائيل وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا[۲۱۴].

و حمل الحيوانات فى السفينة ربّما كان لئلا ينقطع نسلها فى ذلك القسم من الأرض، خصوصا أن نقل الحيوانات و انتقالها فى ذلك اليوم لم يكن أمرا هيّنا «فتدبر»! و هناك قرائن أخرى تقدم ذكرها يمكن أن يستفاد منها أنّ الطوفان لم يستوعب الكرة الأرضية كلّها.

و هناك مسألة تسترعى الانتباه- أيضا- و هى أنّ طوفان نوح كان بمثابة العقاب لقومه، و ليس لنا دليل على أن دعوة نوح شملت الأرض كلها، و عادة فإنّ وصول دعوة نوح فى مثل زمانه إلى جميع نقاط الأرض أمر بعيد .. و لكن على كل حال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۷

فالهدف القرآنى من بيان هذه القصّة للعبرة و بيان المسائل التى تربى الآخرين، سواء كان الطوفان عالميا أو غير عالمى.

۲- هل تقبل التوبة بعد نزول العذاب؟!

يستفاد من الآيات المتقدمة أنّ نوحا عليه السّلام استمر يدعو ولده حتى بعد شروع الطوفان، و هذا دليل على أنّه لو آمن ابنه «كنعان» لقبل إيمانه.

و يرد هنا سؤال و هو أنّه بالنظر إلى آيات القرآن الأخرى و التى مرّت «نماذج» منها، تنصّ على أنّ أبواب التوبة تغلق بعد نزول العذاب .. لأنّ المجرمين فى هذه الحالة إذ يرون العذاب محدقا بهم فالغالبية منهم يتوبون عن إكراه و اضطرار لرؤية العذاب بأعينهم، فعندئذ تكون توبتهم بلا محتوى و فاقدة للاعتبار.

و لكن بالتدقيق فى الآيات السابقة يمكن الجواب على هذا السؤال، هو أنّ شروع الطوفان و ما جرى فى بداية الأمر، لم يكن علامة واضحة للعذاب، بل كان يتصور أنّه مطر شديد لا مثيل له .. و على هذا فإنّ ابن نوح حين قال لأبيه سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ ظنّا منه أنّ الطوفان و المطر كانا طبيعيين. ففى هذه الحالة لا يبعد أن تكون أبواب التوبة ما تزال مفتوحة، و يمكن أن يرد سؤال آخر فى شأن ابن نوح، و هو أنّه لم نادى نوح ابنه دون سائر الناس فى هذه اللحظة الحرجة؟! و يمكن أن يكون الجواب أنّ نوحا أدّى وظيفته فى الدعوة العامّة للآخرين و بضمنها دعوته لولده، إلّا أنّه كان يتحمل وظيفة أصعب بالنسبة لولده، و هى وظيفة «الابوّة» إلى جانب وظيفة «النّبوة» فلهذا السبب كان يؤكّد على أداء وظيفته بالنسبة لولده إلى آخر لحظة.

و الاحتمال الآخر و كما يقول المفسّرون أنّ ابن نوح لم يكن فى صفّ الكفار و لا فى صف المؤمنين، بل كما يقول القرآن: كانَ فِي مَعْزِلٍ فلأنّه لم يكن مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۸

المؤمنين فإنّه كان يستحق العقاب، و لأنّه لم يكن مع الكافرين فإنّه كان يستحق أن يتوجه إليه التبليغ و اللطف و المحبّة بصورة أكثر ..

أضف إلى ذلك أن ابتعاده عن الكفار و كونه فى معزل، كان يقوى أمل نوح فى أن يندم ولده على الابتعاد عنه.

و هناك احتمال آخر، و هو أنّ ابن نوح لم يكن يخالف أباه بصراحة، بل كان منافقا و كان يوافق أباه فى الظاهر أحيانا، فلذلك طلب نوح من ربّه له النجاة.

و على كل حال فإنّ الآية السابقة لا تنافى مضامين الآيات الأخرى التى تشير إلى انسداد أبواب التوبة حال نزول العذاب.

۳- دروس تربوية من طوفان نوح:

اشارة

إنّ هدف القرآن الأصلى من ذكر قصص الماضين بيان دروس و عبر و مسائل تربوية، و فى هذا القسم من قصّة نوح مسائل مهمّة جدّا نشير إلى قسم منها:

أ- تطهير وجه الأرض:

صحيح أنّ اللّه رحيم ودود، و لكن لا ينبغى أن ننسى أنّه حكيم أيضا، فبمقتضى حكمته أنّه عند ما لا تؤثر دعوة الناصحين و المربّين الإلهيين فى قوم فاسدين، فلا حق لهم بعد ذلك فى الحياة و سينتهون نتيجة للثورات الاجتماعية أو الطبيعية و تحت وطأة التنظيم الحياتى.

و هذا الأمر غير منحصر فى قوم نوح و لا بزمان معين، إنما هو سنة اللّه فى خلقه و عبادة فى جميع العصور و الأزمان حتى فى عصرنا الحاضر، و أى إشكال فى أن تكون كل من الحرب العالمية الأولى و الحرب العالمية الثّانية صورة من صور «تطهير الأرض».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۹

ب- لم كان العقاب أو الطوفان؟!

صحيح أن قوما أو أمّة كانوا فاسدين و ينبغى زوالهم و مهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، و لكن بالتدقيق فى الآيات المتقدمة نستفيد أنّ هناك تناسبا بين الذنوب و عقاب اللّه دائما و أبدا. «فتدبر جيدا».

كان فرعون يرى قدرته و عظمته تتجلى فى «نهر النيل» و مياهه كثير البركات، لكن الطريف أنّ هلاك فرعون و نهايته كان فى النيل.

و كان نمرود يعتمد على «جيشه» العظيم، لكننا نعلم أنّ جيشا- لا يعتد به- من الحشرات هزمه و جنوده أجمعين.

و كان قوم نوح أهل زراعة «و أنعام» و كانوا يجدون كل خيراتهم فى «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضا ..

و من هنا يتّضح جليا أنّ حساب اللّه فى غاية الدقّة، و لو لا حظنا الطغاة العتاة فى عصرنا و فى الحرب العالمية الأولى و الثّانية كيف أبيدوا بأسلحتهم الحديثة و المتطورة لا تضح المعنى اكثر.

فلا ينبغى أن نعجب أنّ هذه الصناعات المتقدمة التى اعتمدوا عليها فى استعمار الشعوب و استثمار خيراتهم و استضعافهم .. أدت إلى زوالهم.

ج- اسم اللّه على كل حال و فى كل مكان

قرأنا فى الآيات المتقدمة أنّ نوحا عليه السّلام يوصى أصحابه أن لا ينسوا ذكر اسم اللّه فى بداية حركة السفينة و عند توقفها، فكل شىء يتقوم باسمه و بذكره، و ينبغى أن نستمد العون من ذاته القدسيّة، كل حركة و كل توقف، حال الهدوء و حال الإعصار و الطوفان، كل هذه الحالات ينبغى أن تبدأ باسمه، لأنّ كل عمل يبدأ دون ذكر اسمه فهو «أبتر و مقطوع»، و كما

ورد عن نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحديث الشريف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۰

«كل أمر ذى بال لم يذكر فيه بسم اللّه فهو أبتر»[۲۱۵]

و لیس ذکر اللّه من باب التشریف، بل هو هدف و غایة، فکل عمل لیس فیه هدف إلهی فهو أبتر، لأنّ الأهداف المادیة تتلاشی و تنتهی إلّا الأهداف الإلهیة فهی غیر قابلة للفناء، و حین تبلغ الأهداف المادیة الذروة تنطفئ و تزول، إلّا أنّ الأهداف الإلهیة خالدة و باقیة کذاته المقدسة.

د- المرتکزات الجوفاء:

من الطبیعی أنّ کل أحد یعتمد فی التغلّب علی الصعاب و مواجهة المشاکل فی حیاته إلی أمر ما، فجماعة یعتمدون علی الثروة و المال، و جماعة علی المقام و المنصب، و جماعة یلجأون إلی القدرة الجسمیة، و آخرون إلی أفکارهم .. و لکن- کما تخبرنا الآیات المتقدمة و یرینا التاریخ- لا- أحد من هؤلاء یستطیع أن یقاوم أدنی مقاومة أمام أمر اللّه و قدرته، حیث یکون مثله کمثل خیط العنکبوت یتلاشی أمام هبوب الریاح الشدیدة.

فابن نوح علیه السّلام لغروره و غفلته کان غارقا فی مثل هذا الوهم، و ظن أنّ الجبل سیعصمه من طوفان غضب اللّه و یحمیه و لکن موجة واحدة من ذلک الطوفان المتلاطم کشفت سراب ظنّه و أنهت حیاته.

من هنا نقرأ فی بعض الأدعیة

«إنّی هارب منک إلیک»[۲۱۶]

أی: لو کان هناک ملجأ أمام طوفان غضبک یا ربّ، فهذا الملجأ هو ذاتک المقدسة و العودة إلیک لا إلی سواک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۱

ه- سفینة النجاة:

لا یمکن الخلاص من أی طوفان دون سفینة النجاة، و لیس شرطا أن تکون هذه السفینة من الخشب و الحدید، بل ما أحسن أن تکون هذه السفینة دینا یقوّم السلوک و یهب الحیاة الطیبة و یقاوم أمام أمواج طوفان الانحراف الفکری، و یوصل أتباعه إلی ساحل النجاة.

و علی هذا الأساس وردت روایات کثیرة عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی مصادر الشیعة و السنة تعبر عن أهل بیته- و هم الأئمّة الطاهرون و حملة الإسلام- بأنّهم «سفینة النجاة».

یقول حنش بن المغیرة و أبو ذرّ آخذ بحلقة باب الکعبة و هو یقول: أنا أبو ذر الغفاری، من لم یعرفنی فأنا جندب صاحب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم

سمعت رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: «مثل أهل بیتی مثل سفینة نوح من رکبها نجا»[۲۱۷].

و فی بعض الرّوایات أضیف إلیها هذا النص

«و من تخلف عنها غرق»[۲۱۸]

أو

«من تخلف عنها هلک»[۲۱۹].

هذا الحدیث الشریف عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یبیّن بصراحة أنّه حین یطغی الطوفان الفکری و العقائدی و الاجتماعی فی المجتمع الإسلامی، فإنّ طریق النجاة الوحید هو الالتجاء إلی مذهب أهل البیت علیهم السّلام دون المذهب التی اصطنعتها السلطات السابقة و التی لا علاقة لها بأهل البیت علیهم السّلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۲

الآیة [سورة هود (۱۱): آیة ۴۴]

اشارة

وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ (۴۴)

التّفسير

نهاية الحادث:

قرأنا فى الآيات السابقـة- إجمالا- أنّ الأمواج المتلاطمـة الصاخبـة من الماء أغرقت كل مكان حيث تصاعد منسوب الماء تدريجا، أمّا المجرمون الجهلـة فظنا منهم أنّه طوفان عادى فصـعدوا إلى أعالى القمم و المرتفعات، لكن الماء تجاوز تلك المرتفعات أيضا و خفى تحت الماء كل شـيء، و أخـذت تلوح للعيون أجساد الطغاة الموتى و ما بقى من البيوت و وسائل المعاش فى ثنايا الأمواج على سـطح الماء.

و كان نوح عليه السّـلام قد أودع زمام السفينة بيد اللّه سبحانه، و كانت الأمواج تتقاذف السفينة فى كل صوب، و فى روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماما (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذى الحجة) و على رواية (من عاشر شهر رجب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۳

حتى عاشـر محرم) و طـافت السـفينة نقاطا متعـددة من الأرض، و طبقا لما جاء فى بعض الرّوايات أنّها سارت على أرض مكّة و حول الكعبة.

و أخيرا صـدر الأـمر الإلهى بانتهاء العقاب و أن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعيـة، و الآيـة- محل البحث- تبيّن هـذا الأمر و جزئياته و نتيجته فى عبارات وجيزة جدّا، و فى الوقت ذاته بليغة و أخّاذة، و قد جاءت الآية فى جمل ست:

۱- وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

۲- وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي و صدر الأمر للسماء أن لا تمطرى.

۳- وَ غِيضَ الْماءُ و نزل الماء فى جوف الأرض.

۴- وَ قُضِيَ الْأَمْرُ انتهى حكم اللّه.

۵- وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ و استقرت السفينة على طرف جبل الجودى.

۶- وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ عندئذ لعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يبتعدوا من رحمة اللّه.

كم هى رائعـة هـذه التعابير التى وردت فى الآيـة المتقدمة، و هى فى الوقت ذاته وجيزة و تفور بالحياة و الجمال الاخّاذ بحيث قال فيها طائفة من علماء العرب: إن هذه الآية تعدّ أفصح آيات القرآن و أبلغها و إن كانت آياته جميعا فى غاية البلاغة و الفصاحة.

الشاهـد على هـذا الكلاـم هو أنّنا نقرا فى روايات التاريـخ الإسـلامى أنّ جماعـة من كفار قريش نهضوا لمواجهـة القرآن و ليأتوا بمثل آيـاته، فهيأ مريـدوهم الطعام و الشـراب لهم لفترة أربعين يوما، مثل لب الحنطـة الخالص و الخمر المعتق و لحم الغنم- لينسـجوا براحة البال على منوال آيات القرآن شبيها لها، و لكنّهم حين بلغوا هـذه الآيـة- محل البعث- هزتهم بحيث نظر بعضـهم إلى بعض و قال كل للآخر: هذا كلام لا يشبهه كلام آخر، و هو أساسا لا يشبه كلام المخلوقين، قالوا ذلك و انصرفوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۴

عمّا اجتمعوا له من محاكاة القرآن آيسين ۲۲۰].

أين يقع الجودى؟

ذهب كثير من المفسّرين أنّ الجودى الذى استقرت عليه السفينة- كما مرّ ذكره فى الآية- جبل معروف قرب الموصل ۲۲۱] و قال آخرون: هو جبل فى حدود الشام أو شمال العراق أو قرب «آمد» و فى كتاب الراغب الأصفهانى (المفردات) أنّه جبل بين الموصل و الجزيرة، و هى (جزيرة ابن عمر فى شمال الموصل).

و لا يبعد أن تكون جميعها بمعنى واحد، «فالموصل» و «الجزيرة» و «آمد» جميعها فى الجزء الشمالى من العراق و قرب الشام.

و قال آخرون: يحتمل أن يكون المقصود من الجودى كل جبل صلب أو أرض صلبة و قوية، و معنى الآية حسب هذا التّفسير أن السفينة استقرت على أرض صلبة غير رخوة لينزل ركابها على الأرض، و لكن المشهور و المعروف هو المعنى الأوّل.

و فى كتاب «أعلام القرآن» تحقيق و تتبع حول جبل الجودى نورده بما يلى:

«الجودى» اسم جبل استقرت سفينة نوح و استوت على قمته، و قد ورد اسمه فى الآية (۴۴) فى سورة هود و هو قريب من المضمون الوارد فى التوراة مع ما يتعلق به من أمور أخرى، و هناك ثلاثة أقوال بالنسبة إلى محل جبل الجودى:

۱- بناء على قول «الاصفهانى» فإنّ جبل الجودى فى الجزيرة العربية، و هو واحد من جبلين واقعين فى منطقة نفوذ قبيلة (طىء).

۲- إنّ الجودى هو سلسلة جبال «كاردين» الواقعة شمال شرقى جزيرة (ابن عمر) فى شرق دجلة قرب الموصل؟ و يسمّيها الأكراد (كاردو) بلهجتهم، و يسميها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۵

اليونانيون (جوردى) و يسمّيها العرب «الجودى».

فى «التركوم» و هى الترجمة الكلدانية ل «التوراة» و كذلك الترجمة السريانية ل «التوراة»: إنّ المكان الذى استقرت عليه سفينة نوح هو قلعة جبل الأكراد، أى «كاردين».

و الجغرافيون العرب يطبقون الجودى المذكور فى القرآن على هذه المنطقة- المشار إليها آنفا- و يقولون إنّ قطع السفينة كان موجودة على قمة هذا الجبل حتى زمان بنى العباس و كان المشركون يزورونها ..

و فى القصص البابلية قصّة شبيهة بطوفان نوح عليه السّلام (ملحمة گيلگامش) و يمكن- إضافة إلى ذلك- احتمال طغيان دجلة فى تلك الفترة، و سكنة تلك المنطقة هم المبتلون بالطوفان.

و فى جبل الجودى كتيبة آشورية موسومة بكتيبة «ميسر» و قد لو حظ فى هذه الكتيبة اسم «آرارتو».

۳- و فى الترجمة الحالية ل «التوراة»: إن محل استقرار سفينة نوح فى جبال «آرارات» و هو جبل «ماسيس» الواقع فى «أرمنستان» و قد ضبط صاحب قاموس الكتاب المقدّس معناه الأولى، فكان المعنى «ملعون» و قال: بناء على ما جاء فى الرّوايات فإنّ سفينة نوح استقرّت على قمة هذا الجبل، و يسمّيه العرب ب «الجودى» و يسمّيه الإيرانيون ب «جبل نوح» و يسميه الأتراك ب «كرداغ» بمعنى الجبل المنحدر، و هو واقع قرب «أرس».

و حتى القرن الخامس لم يعرف الأرامنة جبلا ـ فى أرمنستان باسم جبل «الجودى» و لكن منذ ذلك الوقت تسرب هذا المفهوم الى علماء الأرمن و قد يكون السبب هو اشتباه المترجمين للتوراة الذين ترجموا جبل «الأكراد» إلى «أرارات» ..

و لعل ممّا سوّغ هذا التصوّر أنّ الآشوريين أطلقوا على الجبال الواقعة شمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۶

بحيرة «و ان» و جنوبها اسم «آرارات» أو «آراتو».

يقال أنّ النّبى نوحا بنى مسجدا على قمة جبل الجودى بعد ما غاض الطوفان، و يقول الأرامنة: إنّ فى سفح جبل الجادى «الجودى» قرية تدعى ثمانين أو ثمان، و هى أوّل محل نزل فيه أصحاب نوح عليه السّلام ۲۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشارة

وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (۴۵) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (۴۶) قالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِى وَ تَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (۴۷)

التّفسير

حادثة ابن نوح المؤلمة:

قرأنا فى الآيات المتقدمة أنّ ابن نوح لم يسمع نصيحة والده و موعظته، و لم يترك لجاجته و حماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق فى أمواج الطوفان.

و هذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم آخر من هذه القصّة، و هو أنّه حين رأى نوح ابنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوّة و تذكر وعد اللّه فى نجاة أهله فالتفت إلى ساحة اللّه مناديا فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۸

و هذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (۴۰) من هذه السورة حيث يقول سبحانه:

قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

فكان أن تصوّر نوح أن قوله تعالى: إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ خاص بزوجته المشركة التى لم تؤمن به دون ابنه كنعان، و لذلك خاطب نوح ربّ العزّة بهذا الكلام.

و لكنّه سمع الجواب مباشرة .. جواب يهزّ هزا كما أنّه يكشف عن حقيقة كبيرة ..

حقيقة أنّ الرّباط الدينى أسمى من رباط النسب و القرابة .. قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة اللّه لم يكن صحيحا، و لا ينبغى أن يتصور نجاة ولده ممّا وعد اللّه به فى نجاة أهله، لذلك توجه إلى اللّه معتذرا مستغفرا و قالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِى وَ تَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ

بحوث

۱- لم کان ابن نوح «عملا غیر صالح»؟!

یعتقد بعض المفسّرین أنّ فی الآیة إیجاز حذف، و أصل الآیة هکذا «إنّه ذو عمل غیر صالح».

و لکن مع ملاحظة أنّ الإنسان قد یذوب فی عمله إلی درجة کأنّه یصیر بنفسه العمل ذاته، و فی اللغات المختلفة یأتی مثل هذا التعبیر علی نحو المبالغة کأن یقال:

إنّ فلانا هو کل العدل و السخاء، أو إنّ فلانا هو السرقة و الفساد فکأنّه غاص فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۹

العمل حتی صار هو العمل بذاته.

فابن نوح کان کذلک، فقد جالس رفقاء السوء و غاص فی أعمالهم السیئة و أفکارهم المنحرفة، بحیث کأنّ وجوده تبدل إلی عمل غیر صالح! ..

فعلی هذا .. و إن کان التعبیر المقدم موجزا و مختصرا جدا، إلّا أنّه یعبّر عن حقیقة مهمّة فی ابن نوح!.

أی لو کان هذا الظلم و الانحراف و الفساد فی وجود ابن نوح سطحیّا لکانت الشفاعة فی حقّه ممکنة، و لکنّه أصبح غارقا فی الفساد و الانحراف، فلیس للشفاعة هنا محلّ، فدع الکلام فیه یا نوح! ..

و ما یراه بعض المفسّرین من أن کنعان لم یکن ابن نوح حقیقة، أو أنّه کان ابنا غیر شرعی، أو أنّه ابن شرعی من زوجته عن رجل آخر، بعید عن الصواب لأنّ قوله: إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صالِحٍ فی الواقع علة لقوله: إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ أی إنّما نقول لک إنّه لیس من أهلک فلأنّه انفصل عنک بعمله و إن کان الرباط النسبی لا یزال قائما ..

۲- دائرة الوعد الإلهی

مع ملاحظة ما ورد فی الآیات المتقدمة من خطاب نوح لربّه و ما أجابه اللّه به، ینقدح هذا السؤال و هو: کیف لم یلتفت نوح إلی أنّ ابنه کنعان کان خارج دائرة الوعد الالهی؟

و یمکن الإجابة علی هذا السؤال- کما أشرنا آنفا- أنّ هذا الابن لم تکن له طریقة واحدة معروفة، فتارة تراه مع المؤمنین و أخری مع الکفار، ممّا یوهم أنّه مؤمن. بالإضافة إلی الإحساس بالمسؤولیة الکبری التی کان نوح یجدها فی نفسه بالنسبة إلی ولده، کذلک المحبّة و العلاقة الطبیعیة التی یجدها کل أب بالنسبة لابنه، و الأنبیاء غیر مستثنین من هذا القانون، کل ذلک کان سببا فی أن یطلب نوح من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۰

ربّه هذا الطلب ..

و لکن بمجرّد أن اطّلع علی واقع الأمر، أسف علی طلبه فورا و اعتذر إلی اللّه راجیا عفوه- و إن لم یکن صدر منه ذنب- لأنّ موقع النّبی یقتضی منه أن یراقب کلامه و تصرفاته، فکان الأولی علیه الترک، و من هنا فقد سأل اللّه العفو و المغفرة ..

و من هنا یتّضح الجواب علی سؤال: هل یذنب الأنبیاء حتی یطلبوا العفو و المغفرة؟ ..

۳- هناک حیث تنقطع العلائق

تعكس الآيات الآنفة درسا من أنجع الدروس الإنسانية و التربوية ضمن بيان قصّة نوح .. درسا لا مفهوم له فی المذاهب المادية لكنّه أصل أساس فی المذهب الإلهی و المعنوی.

فالعلائق المادية «النسب، القرابة، الصداقة، المرافقة» تخضع دائما فی المذاهب السماوية إلى العلائق المعنوية.

و فی المذاهب السماوی لا مفهوم للعلاقة النسبية و القرابة مقابل الرابطة المذهبية.

هناك حيث تتحقق العلاقة الدينية، كسلمان الفارسی الذی لا هو من أهل بيت النّبی و لا من قريش و لا من أهل مكّة، بل لم يكن أساسا من العرب، و لكنّه طبقا لما

ورد فی الحديث الشريف المعروف «سلمان منّا أهل البيت»

كان يعدّ من أسرة النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم.

إلّا أنّ الابن الواقعی و المباشر للنبی- كابن نوح- يطرد على أثر قطع علاقته الدينية، و يقال فی شأنه لأبيه نوح: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ

قد تكون هذه المسألة المهمّة عسيرة الفهم لمن يعيش فی دائرة التفكير المادی لكنّها حقيقة من صميم الأديان السماوية جميعا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۱

و على هذا الأساس نجد أحاديث أهل البيت عليهم السّلام تتحدث عن بعض الشيعة الذين يحملون اسم التشيّع إلّا أنّه لا يوجد فيهم علائم من تعليمات أهل البيت عليهم السّلام بنفس الطريقة التی تقدمت فی الآيات الآنفة فی القرآن الكريم حيث نقل عن علی بن موسى عليه السّلام أنّه سأل بعض أصحابه يوما: كيف يفسر الناس هذه الآية إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ .. فأجابه أحد الحاضرين: إنّهم يعتقدون أن كنعان لم يكن الابن الحقيقی لنوح،

فقال الإمام: «كلّا لقد كان ابنه، و لكن لمّا عصى اللّه نفاه عن أبيه، كذا من كان منّا لم يطع اللّه فليس منّا»[۲۲۳].

۴- المسلمون المطرودون

و من المناسب أن نستلهم من الآية فنشير إلى قسم من الأحاديث الإسلامية التی ترى طوائف كثيرة من المسلمين، أو أتباع أهل البيت عليهم السّلام فی الظاهر مطرودين و خارجين عن صف المؤمنين و الشيعة:

۱-

فقد ورد عن الرّسول الأكرم صلی اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «من غش مسلما فليس منّا»[۲۲۴].

۲- كما

روی عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «ليس بولی لی من أكل مال مؤمن حرام»[۲۲۵].

۳- و

يقول النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم: «ألا و من أكرمه النّاس اتقاء شره فليس منّی».

۴- و

روی عن الإمام علی أنّه قال: «ليس من شيعتنا من يظلم الناس».

۵- و

قال الإمام الكاظم عليه السّلام: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه كل يوم»[۲۲۶].

۶- و

يقول النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم: «من سمع رجلا ينادی يا للمسلمين فلم يجبه فليس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۲

بمسلم»[۲۲۷].

۷- و

قـال الإمـام الباقر عليه السّـلام لأحـد أصـحابه و كان يـدعى «جابرا»: «و اعلم يا جابر بأنك لا تكون لنا وليّا حتى لو اجتمع عليك أهل مصـرك و قـالوا: إنّـك رجـل سوء، لم يحزنـك ذلـك، و لو قالوا: إنّك رجل صالـح، لم يسـرك ذلك، و لكن أعرض نفسك على كتاب اللّه»[۲۲۸].

هـذه الأحـاديث تضع علامـة «البطلان» على تصورات من يقنع بالاسم فحسب و لكنّهم لا يعيرون أهميـة للعمل بالتكليف، أو للروابط الايمانيـة، و تثبت بوضوح أنّ الأصـل فى مـذهب القادة الرّبانيين و الأساس هو الإيمان بالعقيـدة و العمل بمناهجهم، و ينبغى أن يقاس كل شخص بهذا المقياس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۳

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۴۸ الى ۴۹]

اشارة

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (۴۸) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (۴۹)

التّفسير

هبوط نوح بسلام:

هاتان الآيتان هما نهاية الآيات التى تتحدث عمّا جاء فى نوح و قصّته المليئة بالدروس و العبر فى سورة هود، و فيهما إشارة إلى هبوط نوح عليه السّلام من سفينته و عودة الحياة و العيش الطبيعى على الأرض.

يقول القرآن فى الآية الأولى من هاتين الآيتين: قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ

لا شك أنّ الطوفان كان قـد دمر كل آثار الحياة .. فالأراضـى العامرة و المراتع الخضـر و الغابات النضـرة كلّها أبيـدت، فالحالـة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح و أصحابه بالنسبة للمعاش و الغذاء، لكن اللّه سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۴

إزاء البركات الإلهية و السلامة و أن كل ذلك سيكون مهيّأ و موفّرا لهم فلا ينبغى الحزن على شيء ..

مضافا إلى ذلك فقـد يأتى الحزن و الخوف من شـيء آخر و هو الخوف على السـلامة و الصـحة بسـبب المسـتنقعات و المياه الآسـنة الباقيـة من آثار الطوفان التى تهـدد حياتهم بالخطر، فاللّه سـبحانه يطمئن نوحا و أصـحابه أيضا أنّه لا خطر يهددهم، و أن الذى أرسـل الطوفان لهلاك الطغاة قادر على أن يوفر محيطا سالما مليئا بالخيرات و البركات للمؤمنين كذلك.

هذه الجملة القصيرة تشعرنا و تفهمنا أن القرآن يهتم بالمسائل الدقيقة للغاية، و يعكسها فى عبارات مضغوطة شائقة و أخّاذة!.

كلمـة «أمم» هى جمع «أمة» و هذا التعبير يدل على أن مع نوح طوائف من عباد اللّه و خلقه، كما يدل هذا التعبير على أنّ الأفراد الذين

هم مع نوح كل منهم سيكون سببا لوجود قبيلة و أمّة كبيرة، أو أنّه فعلا كان مع نوح أفراد من قبائل و أمم متعددة فيشكل مجموعهم أمما أيضا ..

و يرد هذا الاحتمال أيضا، و هو أن الأمم التى كانت مع نوح تشمل مجموعة الحيوانات المتعددة، لأنّ القرآن أطلق لفظ الأمّة عليها أيضا فى مكان آخر من آياته، فنحن نقرأ فى سورة الأنعام الآية (۳۸) وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ فيتّضح بهذا أنّ نوحا و أصحابه هبطوا إلى الأرض بسلام ليجدوا بركات اللّه و ليطمئنوا بالحياة الهانئة، كذلك الحال بالنسبة إلى الحيوانات التى كانت معهم فى السفينة و هبطت إلى الأرض، فإنّ لطف اللّه شملها جميعا كذلك.

ثمّ يضيف القرآن مخاطبا نوحا أنّه ستعقب الأمم التى معك أمم من نسلها، و لكن هذه الأمم ستغتر و تغفل عن نعم اللّه فتنال جزاءها من اللّه وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۵

فعلى هذا ليس انتخاب الأصلح من الناس أو إصلاح الناس عن طريق الطوفان هو آخر الانتخاب و آخر الإصلاح، بل ستبلغ مرحلة جديدة من بنى آدم أيضا يصلون بها الذروة من الرشد و التكامل، و لكن الناس قد يسيئون الاستفادة من حرية الإرادة و يستخدمونها فى طريق الشرّ و الفساد، فينالون جزاءهم فى هذه الدنيا كما ينالون العذاب فى الأخرى.

الطريف فى الآية أنّها تقول سَنُمَتِّعُهُمْ ثمّ تتحدث عن العذاب مباشرة. و فى ذلك إشارة إلى أن الاستمتاع ينبغى أن يكون مدعاة للشكر و الثناء على نعم اللّه و طاعته، و لكن غالبا ما يزيد المتنعمين طغيانا و كفرا و يقطعون العلاقة بينهم و بين اللّه.

و ينقل العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان فى ذيل الآية أنّ بعض المفسّرين يقول فى قوله: «نمتعهم» إلخ: هلك المستمتعون فى الدنيا لأنّ الجهل يغلب عليهم و الغفلة فلا يتفكرون إلّا فى الدنيا و عمارتها و ملذاتها.

هذا الواقع يرى جيدا فى الدول المتنعمة و المتموّلة فى هذا العالم، حيث يغوص أهلوها بالفساد فلا يفكرون فى المستضعفين- فحسب-، بل نراهم يوما بعد آخر يحاولون الكيد بهم و إراقة دمائهم أكثر فأكثر، لذلك كثيرا ما يتفق أن ينزل اللّه عليهم الحروب و الحوادث الأليمة التى تسلب النعم مؤقتا لعلهم يفيقون من غفلتهم.

و فى آخر آية تختم بها قصّة نوح- فى هذه السورة- إشارة كلية عامّة إلى ما حدث فى عهد نوح فتقول: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا.

فالخطاب هنا للنّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم يؤكّد عليه أن يصبر و يستقيم كما صبر و استقام نوح عليه السّلام عند ما واجه المشاكل، و هكذا تكون عاقبة الصبر النصر فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۶

الآية الأخيرة تشير إلى عدّة مسائل:

۱- إنّ بيان قصص الأنبياء عليهم السّلام- بالصورة الواقعية و الخالية من أى نوع من أنواع التحريف الخرافة- ممكن عن طريق الوحى السماوى فحسب، و إلّا فإنّ كتب تاريخ الماضين مليئة بالأساطير و القصص الخياليّة التى بلغت درجة لا يمكن معها معرفة الحق من الباطل، و كلما عدنا إلى الوراء أكثر وجدنا الخلط و التزييف أكثر.

فعلى هذا، يعتبر بيان حال الأنبياء الماضين و الأقوام السالفة بصورة سليمة و خالية من الخرافات و الخز الخزعبلات دليلا على حقانية القرآن و الإسلام و النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

۲- يستفاد من هذه الآية- خلافا لما يتصوره البعض- أنّ الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم اللّه و بالمقدار الذى كان يريده

اللّه لهم، لا- أنّهم يعلمون الغيب من أنفسهم، و إذا وجدنا في بعض الآيات ما ينفى العلم الغيبى عنهم، فهو إشارة إلى أنّ علمهم ليس ذاتيا، بل هو من اللّه.

۳- و هذه الآية توضح حقيقة أخرى، و هى أنّ بيان قصص الأنبياء و الأقوام الماضين في القرآن ليس درسا للمسلمين فحسب، بل هو إضافة إلى ذلك تسلية لخاطر النّبى و طمأنة لقلبه، لأنّه بشر أيضا، و ينبغى أن يتلقى الدروس من الأديان الالهية و يتهيأ لمواجهة الطاغوت في عصره، و أن لا يكترث بهموم المشاكل في طريقه.

أى كما واجه نوح المشاكل بصبر و استقامة لسنين طوال ليهدى قومه إلى الإيمان، فعليك يا نبى الإسلام أن لا تدع الصبر و الاستقامة على كل حال! و الآن نودع قصّة نوح بكل ما تحمل من عبر و أعاجيب، و نتوجه إلى نبى عظيم آخر و هو هود الذى سمّيت هذه السورة باسمه.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۵۰ الى ۵۲]

اشارة

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (۵۰) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۵۱) وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲)

التّفسير

محطّم الأصنام الشّجاع:

كما أشرنا آنفا، فإنّ قصص خمسة أنبياء عظام و ما واجهوه من شدائد و صعاب في دعواتهم و النتائج المترتبة عليها مبين في هذه السورة. و في الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السّلام و أمّا الآن فالحديث عن هود عليه السّلام.

جميع هؤلاء الأنبياء جمعهم هدف واحد و منطق واحد، و جميعهم نهضوا لإنقاذ البشرية من كل أنواع الأسر، و لدعوتهم إلى التوحيد بجميع أبعاده.

و كان شعارهم جميعا الإيمان و الإخلاص و الجد و المثابرة و الاستقامة في سبيل اللّه، و كان رد الفعل من أقوامهم الخشونة و الإرهاب و الضغوط ..

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۸

يقول سبحانه في الآية الأولى من هذه القصّة .. وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً و نلاحظ في الآية أنّها و صفت هودا بكونه «أخاهم».

و هذا التعبير جار في لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد ..

فمثلا يقولون في الأسدى «أخو أسد» و في الرجل من قبيلة مذحج «أخو مذحج».

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبيّا، و هذه الحالة هى صفة الأنبياء جميعا، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة و القيادة أو معاملة أب لأبنائه، بل من منطلق أنّهم إخوة لهم ..

معاملة خالية من أية شائبة و اى امتياز أو استعلاء.

كان أوّل دعوة هود- كما هو الحال فى دعوة الأنبياء جميعا- توحيد اللّه و نفى الشرك عنه قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكَمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ

فهذه الأصنام ليست شركاءه، و لا منشأ الخير أو الشرّ، و لا يصدر منها أى عمل، و أى افتراء أعظم و أكبر من نسبتكم كل هذا المقام و التقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التى لا قيمة لها إطلاقا.

ثمّ يضيف هود قائلا لقومه: لا تتصوروا أن دعوتى لكم من أجل المادة، فأنا لا أريد منكم أى أجر يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً فأجرى وحده على من فطرنى و وهبنى الروح و أنا مدين له بكل شىء، فهو الخالق و الرازق إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى

و أساسا فإنّى فى كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنّما أفعل ذلك طاعة لأمره، و لذلك ينبغى طلب الأجر منه وحده لا منكم، و إضافة إلى ذلك فهل لديكم شىء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه أ فَلا تَعْقِلُونَ

ثمّ شرع هود ببيان الأجر المادى للإيمان لغرض التشويق و الاستفادة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۹

جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق فى قومه الظالين فبيّن أن هذا الأجر المادى مشروط بالايمان فيقول: وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ فإذا فعلتم ذلك فإنّه يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً[۲۲۹] لئلا تصاب مزارعكم بقلة الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائما، و زيادة على ذلك فإنّ اللّه بسبب تقواكم و ابتعادكم عن الذنوب و التوجه إليه يرعاكم وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ

فلا تتصوروا أنّ الإيمان و التقوى يضعفان من قوتكم أبدا، بل إنّ قواكم الجسميّة ستزداد بالاستفادة من القوّة المعنوية .. و بهذا الدعم المهم ستقدرون على عمارة المجتمع و بناء حضارة كبيرة و أمّة مقتدرة تتمتع باقتصاد قوى و شعب حر مستقل، فعلى هذا إيّاكم و الابتعاد عن طريق الحق وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ

بحوث

۱- التوحيد أساس دعوة الأنبياء:

يبين تاريخ الأنبياء أنّهم بدأوا دعوتهم جميعا من التوحيد و نفى الشرك و نفى عبادة الأصنام أيّا كانت، و الواقع فإنّ أى إصلاح فى المجتمعات الإنسانية لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأنّ وحدة المجتمع و التعاون و الإيثار كلها أمور تسترفد من منبع واحد و هو توحيد المعبود.

و أمّا الشرك فهو أساس كل فرقة و تعارض و تضاد و أنانية .. و ما إلى ذلك ..

و ارتباط هذه المفاهيم بالشرك و عبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خاف على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۰

أحد! الشخص الذى يدور حول نفسه- أو يجرّ النّار إلى قرصه- يرى نفسه فحسب، و لهذا فهو مشرك، لأنّ التوحيد يذيب «الانا» و الذات الفردية فى محيط اجتماعى واسع عريض، و الموحّد لا يرى شيئا سوى واحد كبير، أى أن جميع المجتمع الإنسانى عباد اللّه! و الأشخاص الذين يطلبون الاستعلاء مشركون من نوع آخر، فهم فى صراع مع أبناء جلدتهم و يرون منافعهم منفصلة عن منافع الآخرين، فهذا التجزؤ أو «هذه الازدواجية» ليس إلّا شركا فى أوجه مختلفة.

من هنا بدأ الأنبياء فى سبيل إصلاح المجتمع بالدعوة الى توحيد المعبود «اللّه»، ثمّ توحيد الكلمة، و توحيد العمل، و توحيد المجتمع.

۲- قادة الحق لا يطلبون أجرا من أتباعهم.

إنّ الزعيم الواقعى يمكنه أن يكون فى مأمن من أى اتهام و يواصل طريقه فى غاية الحرية فى صورة ما لو لم تكن له حاجة ماديّة، فبذلك يستطيع أن يصحح كل انحراف فى أتباعه، و إلّا فإنّ الحاجة الماديّة بالنسبة لهذا المصلح ستكون غلّا تصفّد به يداه و رجلاه و قفلا على لسانه و فكره.

و من هذا الطريق .. طريق الحاجة الماديّة يدخل المنحرفون لممارسة ضغوطهم عليه عن طريق قطع المساعدات المادية أو عن طريق الإغراء بزيادة المساعدات، و مهما يكن الزعيم و القائد نقيا صافيا و مخلصا فهو انسان- أيضا- و من الممكن أن تزل قدماه و لهذا السبب نقرأ فى الآيات الآنفة- و آيات أخرى من القرآن- أنّ الأنبياء يعلنون بصراحة فى بداية دعوتهم أنّه ليست لهم حاجة مادية و لا ينتظرون من أتباعهم الأجر.

و هذا دستور لجميع القادة و لا سيما القادة الروحانيين و رجال الدين، غاية ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۱

فى الأمر لما كان هؤلاء المصلحون و رجال الدين يقضون أوقاتهم فى خدمة الإسلام و المسلمين، فينبغى أن تؤمن حاجاتهم المادية بطريق صحيح، و أن يقوم صندوق الإعانة و بيت مال المسلمين بتكفّل هذه الجماعة، فإنّ واحدا من أغراض إنشاء بيت المال فى الإسلام هو هذا الغرض، أى ليصرف على رجال الدين المنشغلين بالإصلاح و التبليغ.

۳- الذنب و هلاك المجتمعات

كما نرى أيضا- فى الآيات المتقدمة- أنّ القرآن يقيم رابطة بين المسائل المعنوية و الماديّة، فيعدّ الاستغفار من الذنب و التوبة إلى اللّه أساس العمران و الخصب و الخضرة و النضرة و زيادة فى القوة و الاقتدار.

هذه الحقيقة نلمسها فى كثير من آيات القرآن الكريم، من هذه الآيات ما ورد فى سورة نوح على لسان هذا النّبى العظيم لقومه، حيث تقول الآيات فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً[۲۳۰].

الطريف هنا أنّنا نقرأ فى الرّوايات الإسلامية

أنّ الربيع بن صبيح: قال: كنت عند الحسن بن على عليهما السّلام فجاءه رجل و شكاله من الجدب و القحط، فقال له الحسن عليه السّلام:

استغفر اللّه، فجاءه آخر فشكا له من الفقر، فقال: استغفر اللّه، فجاءه ثالث و قال له:

ادع لى أن يرزقنى اللّه ولدا، فقال الحسن عليه السّلام: استغفر اللّه، يقول الربيع بن صبيح:

فتعجبت و قلت له: ما من أحد يأتيك و يشكو إليك أمره و يطلب النعمة إلّا أمرته بالاستغفار و التوبة إلى اللّه ..

فأجابه: «إنّ ما قلته لم يكن من نفسى، و إنّما استفدت ذلك من كلام اللّه الذى يحكيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۲

عن لسان نبيّه نوح»، ثمّ تلا الآيات المتقدمة.[۲۳۱]

بعض الأشخاص اعتادوا على المرور بهذه المسائل مرور الكرام بأن يقيمون ارتباطا معنويا و علاقة «غير معروفة» بين هذه الأمور و

یریحون أنفسهم من کل تحلیل. و لکن إذا دققنا النظر أکثر نجد بین هذه الأمور علائق متقاربهٔ تشد المسائل المادیهٔ بالمعنویهٔ فی المجتمع کالخیط الذی یربط بین قطع القماش مثلا.

فأیّ مجتمع یکون ملوّثا بالذنب و الخیانهٔ و النفاق و السرقهٔ و الظلم و الکسل و أمثال ذلک، ثمّ یکون هذا المجتمع عامرا کثیرا البرکات!؟

و أی مجتمع ینزع عنه روح التعاون و یلجأ إلی الحرب و النزاع و سفک الدماء، ثمّ تکون أرضه خصبهٔ خضراء، و یکون مرفها فی وضعه الاقتصادی أیضا؟! و أی مجتمع یغرق أفراده فی دوامهٔ الهوی و المیول النفسیّهٔ، ثمّ فی الوقت ذاته یکون قویّا راسخ القدم و یثبت أمام عدوّه؟! ینبغی القول بصراحهٔ أنّه ما من مسألهٔ أخلاقیهٔ إلّا و لها أثر مفید و نافع فی حیاهٔ الناس المادیّهٔ، و لا یوجد اعتقاد و إیمان صحیح إلّا و کان لهما نصیب فی بناء مجتمع عامر حرّ مستقلّ و قوی ..

الافراد الذین یفصلون المسائل الأخلاقیهٔ و الإیمان بالدین و التوحید عن المسائل المادیّهٔ لا یعرفون المسائل المعنویهٔ حقّا و لا المسائل المادیّهٔ.

و إذا کان الدین عبارهٔ عن سلسلهٔ من التشریعات و الآداب الظاهریهٔ و الخالیهٔ من المحتوی بین الناس، فمن البدیهی أن لا یکون له تأثیر فی النظام المادی.

و لکن حین تکون الإعتقادات المعنویهٔ و الروحانیّهٔ نافذهٔ فی روح الإنسان إلی درجهٔ تظهر آثارها علی یده و رجله و لسانه و أذنه و عینه و جمیع ذرات وجوده، فإنّ الآثار البنّاءهٔ لهذه الإعتقادات فی المجتمع لا تخفی علی أحد.

و قد لا نستطیع إدراک علاقهٔ الاستغفار بنزول البرکات المادیهٔ جیدا، و لکن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۳

دون شک فإنّ قسما کبیرا منها یمکن أن ندرکه! لقد شاهدنا فی مواجهات المسلمین الثائرین مع الکفار فی هذا العصر و الزمن- جیدا- أنّ الإعتقادات الإسلامیهٔ و القوی الأخلاقیهٔ و المعنویهٔ استطاعت أن تنتصر علی أحدث الأسلحهٔ المعاصرهٔ و أقوی الجیوش و القدرات الاستعماریهٔ، و إن دلّ ذلک علی شیء فإنّما یدل علی أثر العقائد الدینیهٔ الإیجابیهٔ و المعنویهٔ إلی أقصی حدّ فی المسائل الاجتماعیّهٔ و السیاسیّهٔ.

۴- ما المراد من قوله تعالی: وَ یَزِدْکُمْ قُوَّةً إِلی قُوَّتِکُمْ

إنّ الظاهر من هذه الآیهٔ أنّ اللّه سبحانه یزیدکم من خلال الاستغفار قوهٔ بالإضافهٔ إلی قوتکم، یشیر بعض المفسّرین إلیه أنّ المراد من هذه القوّهٔ هی القوّهٔ الإنسانیّهٔ کما مرّ ذلک فی سورهٔ نوح: وَ یُمْدِدْکُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِینَ و منهم من قال: إنّها القوی المادیهٔ تضاف إلی القوّهٔ المعنویّهٔ. و لکنّ تعبیر الآیهٔ مطلق و هو یشمل أی زیادهٔ فی القوی المادیهٔ و المعنویّهٔ، و لا یعارض أیّا من التفاسیر، بل یحتضنها جمیعا ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۴

الآیات [سورهٔ هود (۱۱): الآیات ۵۳ الی ۵۷]

اشارهٔ

قالُوا یا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَیِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِکِی آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِکَ وَ ما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ (۵۳) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراکَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ

إِنِّی أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مما تُشْرِکُونَ (۵۴) مِنْ دُونِهِ فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَ رَبِّکَمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِیَتِها إِنَّ رَبِّی عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیم (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفُ رَبِّی قَوْماً غَیْرَکُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَیْئاً إِنَّ رَبِّی عَلی کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ (۵۷)

التّفسير

قوّة المنطق:

و الآن لننظر ماذا كان ردّ فعل القوم المعاندين و المغرورين- قوم عاد- مقابل نصائح أخيهم هود و توجيهاته إليهم: قالُوا یا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَیِّنَةٍ أی لم تأتنا بدليل مقنع لنا وَ ما نَحْنُ بِتارِکِی آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِکَ الذی تدعونا به إلی عبادة اللّه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۵

و ترک الأوثان وَ ما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ

و أضافوا إلی هذه الجمل الثّلاث غير المنطقية، أنّک يا هود مجنون و إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراکَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ و لا شکّ أنّ هودا- كأی نبی من الأنبياء- أدّی دوره و وظيفته و أظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل علی حقانيته، و لكنّهم لغرورهم- مثل سائر الأقوام- أنكروا معارجه و عدّوها سحرا و عبارة عن سلسلة من المصادفات و الحوادث الاتفاقية التی لا يمكن أن تكون دليلا علی المطلوب.

و أساسا، فإنّ نفی عبادة الأوثان لا يحتاج إلی دليل، و من يكن له أقل شعور و عقل- و يترک المخاصمة- يدرک هذا الأمر جيدا، و لو فرضنا أنّ ذلک يحتاج إلی دليل، فهل يحتاج إلی معجزة بعد الدلائل العقلية و المنطقية ..؟! و بتعبير آخر فإنّ ما جاء فی دعوة هود- فی الآيات المتقدمة- هو الدعوة إلی اللّه الواحد الأحد، و التوبة إليه و الاستغفار من الذنوب، و نفی أی نوع من أنواع الشرک و عبادة الأوثان، كل هذه المسائل يمكن إثباتها بالدليل العقلی.

فعلی هذا، إنّ كان المقصود من قولهم: ما جِئْتَنا بِبَیِّنَةٍ هو نفی الدليل العقلی، فكلامهم هذا غير صحيح قطعا. و إذا كان المقصود هو نفی المعجزة، فإنّ هذا الادعاء لا يحتاج إلی معجزة. و علی كل حال فإنّ قولهم: وَ ما نَحْنُ بِتارِکِی آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِکَ دليل علی لجاجتهم، لأنّ الإنسان العاقل و الباحث عن الحقيقة يتقبل الكلام الحق من أیّ كان.

و خصوصا هذه الجملة إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراکَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ فإنّهم يتهمونه بالجنون علی أثر غضب آلهتهم! فإنّ هذا الكلام منهم دليل علی خرافة منطقهم، و خرافة عبادة الأصنام! فالحجارة و الأخشاب التی ليس فيها روح و لا شعور و التی تحتاج إلی حماية من الإنسان نفسه، كيف تستطيع أن تسلب العقل و الشعور من الإنسان العاقل؟! أضف إلی ذلک، ما دليلهم علی جنون هود إلّا أنّه كسر طوق «السنة المتبعة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۶

عندهم» و كان معارضا للسنن و الآداب الخرافية فی محيطه، فإذا كان هذا هو الجنون فينبغی أن نعدّ جميع المصلحين و الثائرين علی الأساليب الخاطئة مجانين.

و ليس هذا جديدا، فالتاريخ السالف و المعاصر ملیء بنسبة الجنون إلی الأشخاص الثائرين علی الخرافات و العادات السيئة و المواجهين للاستعمار، و النافضين أثواب الأسر.

علی كل حال، فإنّ علی هود أن يردّ علی هؤلاء الضالّين اللجوجين ردا مقرونا بالمنطق، من منطلق القوّة أيضا .. يقول القرآن فی

جواب هود لهم قالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ

یشیر بـذلک إلی أنّ الأصـنام إذا کانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاکی و موتی لمحاربتی لها علنا فعلام تسکت هذه الأصـنام؟ و ماذا تنتظر بی؟

ثمّ یضیف أنّه لیست الأصـنام وحدها لا تقدر علی شیء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون علی شیء، فإذا کنتم قادرین فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ

فأنا لا ترد عنی کثرتکم و لا أعدها شیئا، و لا أکترث بقوتکم و قدرتکم أبدا، و أنتم المتعطشون لدمی و لدیکم مختلف القدرات، إلّا أننی واثق بقدرة فوق کل القدرات، و إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ

و هـذا دلیل علی أنّنی لا أقول إلّا الحق و الصـدق، و أن قلبی مرتبط بعالم آخر، فلو فکرتم جیـدا لکان هـذا وحده معجزا حیث ینهض إنسان مفرد وحیـد بوجه الخرافات و العقائد الفاسدة فی مجتمع قوی و متعصب، لکنّه فی الوقت ذاته لا یشـعر فی نفسه بالخوف منهم، و لا یستطیع الأعداء أن یقفوا بوجهه! ثمّ یضیف:

لستم وحدکم فی قبضة اللّه، فإنّه ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِیَتِها، فما لم یأذن به اللّه، لا یستطیع أحد أن یفعل شیئا.

و لکن اعلموا أیضا أنّ ربّی القـدیر لیس کالاشـخاص المتقـدرین الذین یسـتخدمون قدرتهم للهوی و اللعب و الأنانیة و فی غیر طریق الحق، بل هو اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۷

الذی لا یفعل إلّا الحکمة و العدل إِنَّ رَبِّی عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ

ملاحظتان

الأولی: إنّ «الناصـیة» فی اللغة معناها الشـعر المسترسل علی الجبهة، و هی مشتقة من «نصا» و معناها الاتصال و الارتباط، و أخذ بناصیة فلان «کنایة عن القهر و التسلط علیه» فما ورد فی الجملة السابقة من الآیة من قول الحق سبحانه:

ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِـذٌ بِناصِـیَتِها إشارة إلی قـدرته القاهرة علی جمیع الأشـیاء بحیث لا شـیء فی الوجود له طاقـة المقاومـة قبال هـذه القدرة، لأنّ من أحکم الإمساک علی شعر مقدم الرأس من الإنسان أو أی حیوان آخر، فإنّه یسلب منه القدرة علی المقاومة عادة.

و الغرض من هـذه العبـارة أنّ المسـتکبرین المغـترین و عبـدة الأوثـان و الظـالمین البـاحثین عن السـلطة لاـ یتصوروا أنّه إذا أخلی لهم المیـدان لعـدّة أیّام فـذلک دلیل علی قـدرتهم علی المقاومـة أمام قدرة اللّه، فعلیهم أن یلتفتوا إلی هذه الحقیقة و أن ینزلوا من مرکب غرورهم.

الثّانیة: إنّ جملة رَبِّی عَلی صِـراطٍ مُسْتَقِیمٍ من أروع التعابیر فی الحکایة عن قدرة اللّه المقترنة بعدله، لأنّ المقتدرین فی الغالب ظالمون و متجاوزون للحـدود، و لکن اللّه سـبحانه مع قدرته التی لا نهایة لهم فهو دائما علی صـراط مسـتقیم، و جادة صافیة و نظم و حساب و دقة!.

کما ینبغی الانتباه الی هذه المسألة الدقیقة، و هی أنّ کلام هود علیه السّـلام للمشـرکین کان یبیّن هذه الحقیقة، و هی أنّ الأعداء مهما لجـوا فی عنـادهم و زادوا من لجـاجتهم فـإنّ القائـد الحق ینبغی أن یزیـد من اسـتقامته! فکمـا أن قوم هود خوّفوه بشـدّة من آلهتهم و «أوثانهم»، فإنّ هودا فی المقابل أنذرهم بنحو أشدّ من قدرة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۸

القاهرة! ثمّ أنّ هود قال لقومه فی آخر کلامه معهم کما تحکیه الآیة فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ

إشارة إلی أن لا یتصوروا أنّ هودا سیتراجع إن لم یستجیبوا لدعوته، فإنّه أدی واجبه و وظیفته، و أداء الواجب انتصار بحدّ ذاته حتی لو

لم تقبل دعوته، و هذا درس لجميع القادة الحقيقيين و أئمة طريق الحق ألّا يحسّوا أبدا بالتعب و القلق من أعمالهم، و إن لم يقبل الناس دعوتهم.

و كما هدد القوم هودا، فإنّه هددهم بأشد من تهديدهم، و قال: إن لم تستجيبوا لدعوتى فإنّ اللّه سيبيدكم فى القريب العاجل وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ

هذه سنة اللّه فى خلقه و قانونه العام، إنّه متى كان قوم غير لائقين لاستجابة الدّعوة و الهداية و النعم الأخرى التى أنعمها عليهم فإنّه سيبعدهم و يستخلف قوما لائقين بمكانهم إِنَّ رَبِّى عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ.

فلا تفوته الفرصة، و لا يهمل أنبياءه و محبيه، و لا يعزب عنه مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شىء و قادر على كل شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۹

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۵۸ الى ۶۰]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۵۹) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

التّفسير

اللعن الأبدى على القوم الظّالمين:

فى آخر الآيات التى تتحدث عن قصّة قوم عاد و نبيّهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ و توكّد أيضا نجاة المؤمنين وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ.

الطريف هنا أنّ الآيات قبل أن تذكر عقاب الظلمة و الكافرين و مجازاتهم، بيّنت نجاة المؤمنين و خلاصهم، لئلا يتصور أنّ العذاب الإلهى إذا نزل يحرق الأخضر و اليابس معا لأنّ اللّه عادل و حكيم و حاشاه أن يعذب و لو رجلا مؤمنا بين جماعة كفرة يستحقون العذاب و العقاب.

لكن رحمة اللّه تنقل هؤلاء الأشخاص قبل نزول العذاب إلى محل آمن كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۰

رأينا من قبل فى قصّة نوح أنّه قبل شروع الطوفان كانت سفينة النجاة قد أعدّت للمؤمنين، و قبل أن ينزل العذاب على قوم لوط و يدمر مدنهم خرج لوط و عدد معدود من أصحابه من المدينة ليلا بأمر اللّه.

و فى قوله تعالى: نَجَّيْنا و تكرار هذه الكلمة فى الآية مرّتين أقوال مختلفة للمفسّرين، ف «نجينا» الأولى تعنى خلاصهم من عذاب الدنيا و «نجّينا» الثّانية تعنى نجاتهم فى المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، و ينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضا.

و يشير بعض المفسرين إلى مسألة لطيفة هنا، و هى أنّ الكلام لما كان على رحمة اللّه فمن غير المناسب أن تتكرر كلمة العذاب مباشرة، فأين الرحمة من العذاب؟ لذلك تكررت كلمة «نجينا» لتفصل بين الرحمة و العذاب دون أن ينقص شىء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغى الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضا، و هى أنّ آيات القرآن وصفت العذاب بالغليظ فى أربعة موارد[۲۳۲].

و بملاحظة تلك الآية بدقّة نستنتج أنّ العذاب الغليظ مرتبط بالدار الأخرى، و خصوصا الآيات التى جاءت فى سورة ابراهيم و ذكر فيها العذاب الغليظ، فإنّها تصف بصراحة حال أهل جهنّم و أهوالها، و هكذا أن يكون، و ذلك لأنّ عذاب الدنيا مهما كان شديدا فإنّه أخفّ من عذاب الآخرة! و هناك تناسب ينبغى ملاحظته أيضا، و هو أن قوم عاد- كما سيأتى بيان حالهم إن شاء اللّه- ورد ذكرهم فى سورة القمر. و الحاقة، و كانوا قوما ذوى أبدان طوال خشنين، فشبّهت أجسامهم بالنخل، و لهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرا فى تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا ينسبون البناءات الضخمة و العالية إلى عاد و يقولون مثلا: «هذا البناء عادى» لذلك كان عذابهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۱

مناسبا لهم لا فى العالم الآخر بل فى هذه الدنيا كان عذابهم خشنا و عقابهم صارما، كما مرّ فى تفسير السور الآنفة الذكر.

ثمّ تلخّص الآيات ذنوب قوم عاد فى ثلاثة مواضيع:

الأوّل: بإنكارهم لآيات اللّه و عنادهم أيضا لم يتركوا دليلا واضحا و سندا بيّنا على صدق نبوة نبيّهم إلّا جحدوه وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ

و الثّانى: إنّهم من الناحية العملية لم يتّبعوا أنبياء اللّه وَ عَصَوْا رُسُلَهُ و إنّما جاءت الرسل بصيغة الجمع، إمّا لأن جميع دعوات الأنبياء هى نحو حقيقة واحدة و هى «التوحيد: و فروعه» فإنكار دعوة نبى واحد يعدّ إنكارا لجميع الأنبياء، أو أن هودا دعاهم للإيمان بنبوة الأنبياء السابقين أيضا،؟ و كانوا ينكرون ذلك.

و الثّالث من الذنوب: إنهم تركوا طاعة اللّه و مالوا لكل جبار عنيد وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

فأىّ ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، و مخالفة الأنبياء، و الخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و «الجبار» يطلق على من يضرب و يقتل و يدمر من منطلق الغضب و لا يتبع أمر العقل، و بتعبير آخر هو من يجبر سواه على أتباعه و يريد أن يغطى نقصه بادعاء العظمة و التكبر الظاهرى.

و «العنيد» هو من يخالف الحق و الحقيقة أكثر ممّا ينبغى، و لا يرضخ للحق أبدا.

هاتان الصفتان تتجلّيان فى الطواغيت و المستكبرين فى كل عصر و زمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبدا و يعمدون الى من يخالفهم بانزال أشد انواع العقاب به بلا رحمة.

هنا يرد سؤال: إذا كان الجبار يعطى هذا المعنى فلما ذا ذكرت هذه الصفة للّه، كما فى سورة الحشر الآية (۲۳) و سائر المصادر الإسلامية.

و الجواب هو أنّ «الجبار»- كما أشرنا آنفا- مشتق إمّا من «الجبر» بمعنى القوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۲

و القهر و الغلبة، أو من مادة «الجبران» و معناه: إزالة النقص من شىء.

و لكن «الجبار» سواء كان بالمعنى الأوّل أو الثّانى فهو يستعمل بشكليه، و قد يراد به الذم إذا حاول الإنسان تجاوز النقص الذى فيه باستعلائه على الغير و تكبره و بالادعاءات الخاطئة، أو أنّه يحاول أن يجبر غيره على أن يكون تحت طاعته و رغبته، فيكون الأخير ذليلا لأمره.

هذا المعنى ورد فى كثير من آيات القرآن الكريم، و أحيانا تقترن معه صفات ذميمة أخرى، كالآية المتقدمة التى اقترنت مع كلمة «عنيد» و فى الآية (۳۲) من سورة مريم نقرأ على لسان عيسى بن مريم رسول اللّه وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا كما نقرأ على لسان بنى إسرائيل فى خطابهم لموسى عليه السّلام فى من سكن بيت المقدس من الظالمين حيث ورد فى الآية (۲۲) من سورة المائدة قالُوا (يا

مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ

و لكن قد تأتى كلمة «الجبار» من هذين الجذرين «الجبر» و «الجبران» و هى بمعنى المدح، و تطلق على من يسدّ حاجات الناس و يرفع نقصانهم و يربط العظام المتكسرة، أو أن تكون له قدرة وافرة بحيث يكون الغير خاضعا لقدرته، دون أن يظلم أحدا أو يستغل قدرته ليسيء الاستفادة منها، و لذلك حين تكون كلمة الجبار بهذا المعنى فقد تقترن بصفات مدح أخرى، كما نقرأ فى سورة الحشر الآية (۲۳) الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ و واضح أن صفات كالقدوس و السّلام و المؤمن لا تنسجم مع «الجبار» بمعنى الظالم أو «المتكبر» بمعنى من يرى نفسه أكبر من غيره، و هذا التعبير يدل على أنّ المراد هنا من «الجبار» هو المعنى الثّانى.

و لكن حيث أنّ البعض فسّروا «الجبار» ببعض معانيه دون الالتفات إلى معانيه المتعددة فى اللغة، تصوّروا أنّ استعمال هذا اللفظ غير صحيح فى شأن اللّه، و كذلك فى ما يخصّ لفظ «المتكبر» و لكن بالرجوع إلى جذورهما اللغوية الأصيلة يرتفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۳

الإشكال ۲۳۳].

و فى الآية الأخيرة التى تنتهى بها قصّة «هود» و قومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة و الباطلة حيث تقول الآية: وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً و بعد الموت لا يبقى إلّا خزيهم و الصيت السيء وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يقال لهم أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ.

و كان يكفى تعريف هذه الجماعة بلفظ «عاد» و لكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضا لتؤكّد عليهم أوّلا، و لتشير الى أنّهم القوم الذين آذوا نبيهم الناصح لهم ثانيا، و لذلك فقد أبعدهم اللّه عن رحمته.

بحثان

۱- قوم عاد من منظار التاريخ

بالرغم من أنّ بعض المؤرّخين الغربيين ك «أسبرينكل» أرادوا أن ينكروا قصّة «عاد» من الناحية التاريخية، و ربّما كان ذلك بسبب عدم توفر ذكر لهم فى غير الآثار الإسلامية، و لم يجدوها فى كتب العهد القديم «التوراة» و لكن هناك وثائق- تشير إلى قصّة عاد- مشهورة إجمالا بين العرب فى زمن الجاهلية، و قد ذكرهم شعراء العرب قبل الإسلام، و حتى فى العصر الجاهلى كانوا يطلقون لفظ «العادىّ» على البناء العالى و القوى نسبة إلى عاد.

و يعتقد بعض المؤرّخين أنّ لفظ «عاد» يطلق على قبيلتين:

إحداهما: قبيلة كانت تقطن الحجاز قبل التاريخ ثمّ زالت و زالت آثارها أيضا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۴

و لم ينقل التاريخ البشرى عنها إلّا أساطير لا يطمأنّ إلى صحتها. و التعبير الوارد فى القرآن «عادا الأولى» إشارة إلى هذه القبيلة.

و لكن فى زمن التاريخ- و من المحتمل أن يكون فى حدود ۷۰۰ سنة قبل ميلاد المسيح- وجد قوم آخرون باسم «عاد» قطنوا الأحقاف أو اليمن أيضا. و كان أولئك طوالا جساما أقوياء مقتدرين، و لذلك كانوا يعدون من مثيرى الحروب.

كما أنّهم كانوا من الناحية الحضارية متمدنين، إذ كانت لهم مدن عامرة و أراضى خصبة خضراء و غابات نضرة، كما وصفوا فى القرآن ... الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ.

و لذلك يقول بعض المؤرّخين «المستشرقين»: إنّ «عادا» كانت تقطن فى حدود «برهوت» إحدى نواحى حضر موت اليمن، و على أثر

البراکین و جبال النّار التی حولها دمرت الکثیر من قراهم و مدنهم و تفرقت بقایاهم.

علی کل حال فإنّ هؤلاء القوم کانوا یعیشون فی نعم و ترف، و لکن کما هی طریقهٔ أغلب المتنعمین الغافلین و السکاری من أثر النعمهٔ استغلّوا قدرتهم لظلم الآخرین و استثمارهم و استعمارهم .. و اتبعوا أمر کل جبار عنید، و أقروا عبادهٔ الأوثان.

و حین دعاهم نبیّهم هود علیه السّلام بکلّ ما أوتی من جهد وجدّ لیضیء أفکارهم بنصحه و مواعظه، و یتمّ الحجّهٔ علیهم، لم یکتفوا بإهمال هذه الدعوهٔ فحسب، بل نهضوا لإسکات هذا الصوت النیّر لهذا النّبی العظیم فمرّهٔ نسبوه إلی السفاههٔ و الجنون، و مرّهٔ هددوه بغضب آلهتهم، و لکنّه وقف صامدا أمامهم کالجبل لا یخشی غضب هؤلاء القوم المغرورین الأقویاء، حتی استطاع أن یکتسب منهم جماعهٔ تقدّر بأربعهٔ آلاف و طهّر قلوبهم و دعاهم إلی منهاجه و عقیدته، لکن بقی الآخرون مصرّین علی عنادهم و لجاجتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۵

و أخیرا- کما سیأتی فی سورهٔ الذاریات و الحاقهٔ و القمر- غمرهم إعصار شدید لمدّهٔ سبعهٔ لیال و ستهٔ أیّام جسوما فأتی علی قصورهم فدمّرها و علی أجسادهم فجعلها کأوراق الخریف و فرقها تفریقا، و لکن هود کان قد أبعد المؤمنین عن هؤلاء و نجّاهم من العذاب، و أصبحت حیاهٔ أولئک القوم و مصیرهم درسا کبیرا و عبرهٔ لکل الجبابرهٔ و الأنانیین ۲۳۴].

۲- اللعن الدائم الأبدی علی «عاد»:

هذا التعبیر و ما شابهه ورد فی آیات متعددهٔ من القرآن الکریم فی شأن أمم مختلفهٔ، حیث یقول اللّه سبحانه بعد ذکر أحوالهم، کما فی سورهٔ هود الآیهٔ ۶۸:

أَلا بُعْداً لِثَمُودَ و فی آیهٔ أخری (۸۹) هود أَلا بُعْداً لِمَدْیَنَ کَما بَعِدَتْ ثَمُودُ و فی سورهٔ المؤمنون، الآیهٔ (۴۱) فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ و فی آیهٔ أخری (۴۴) المؤمنون فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ و کما قرأنا فی قصّهٔ نوح من قبل فی هود الآیهٔ (۴۴) وَ قِیلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ

ففی جمیع هذه الآیات جاء اللعن شعارا لمن أذنبوا ذنبا عظیما، و یدور هذا اللعن مدار بعدهم عن رحمهٔ اللّه.

و غالبا ما یطلق الیوم مثل هذا الشعار علی المستعمرین و المستکبرین و الظالمین، غایهٔ ما فی الأمر أن هذا الشعار القرآنی أخّاذ و طریف إلی درجهٔ أنّه غیر ناظر إلی بعد واحد فحسب. لأنّنا حین نقول مثلا: بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ فإنّ هذا التعبیر یشمل الابتعاد عن رحمهٔ اللّه، و الابتعاد عن السعادهٔ، و عن کل خیر و برکهٔ و نعمهٔ، و عن کونهم عبادا للّه، طبعا ابتعادهم عن الخیر و السعادهٔ هو انعکاس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۶

لابتعادهم فی نفوسهم و أرواحهم و محیط عملهم عن اللّه و خلق اللّه، لأنّ کل فکرهٔ و عمل له أثر فی الدار الآخرهٔ یشابه ذلک العمل تماما و لذلک فإنّ ابتعادهم هذا فی هذه الدنیا أساس ابتعادهم فی الآخرهٔ عن رحمهٔ اللّه و عفوه و مواهبه السنیّهٔ[۲۳۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۷

الآیهٔ [سورهٔ هود (۱۱): آیهٔ ۶۱]

اشارهٔ

وَ إِلی ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ هُوَ أَنْشَأَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِیها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی قَرِیبٌ مُجِیبٌ (۶۱)

التّفسیر

قصّة ثمود:

انتهت قصّة «عاد قوم هود» بجميع دروسها بشكل مضغوط، و جاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» و هم الذين عاشوا فى وادى القرى بين المدينة و الشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

و نرى هنا أيضا أنّ القرآن حين يتحدث عن نبيهم «صالح» يذكره على أنّه أخوهم، و أى تعبير أروع و أجمل منه حيث بيّنا قسما من محتواه فى الآيات المتقدمة، أخ محترق القلب و دود مشفق ليس له هدف إلّا الخير لجماعته وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً.

و نجد أيضا أنّ منهج الأنبياء جميعا يبدأ بمنهج التوحيد و نفى أى نوع من أنواع الشرك و عبادة الأوثان التى هى أساس جميع المتاعب قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۸

لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

و لكى يحرك إحساسهم بمعرفة الحق أشار إلى عدد من نعم اللّه المهمّة التى استوعبت جميع وجودهم فقال: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فأين هذه الأرض و التراب الذى لا قيمة له، و أين هذا الوجود العالى و الخلقة البديعة؟ ترى هل يجيز العقل أن يترك الإنسان خالقه العظيم الذى لديه هذه القدرة العظيمة و هو واهب هذه النعم، ثمّ يمضى إلى عبادة الأوثان التى تثير السخرية.

ثمّ يذكّر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمة الخلقة بنعم أخرى موجودة فى الأرض حيث قال: وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها.

و أصل «الاستعمار» و «الإعمار» فى اللغة يعنى تفويض عمارة الأرض لأى كان، و طبيعى أنّ لازم ذلك يجعل الوسائل و الأسباب فى اختيار من يفوّض إليه ذلك تحت تصرفه! هذا ما قاله أرباب اللغة، كالراغب فى المفردات، و كثير من المفسّرين فى تفسير الآية المتقدمة.

و يرد احتمال آخر، و هو أنّ اللّه منحكم عمرا طويلا فى هذه الأرض، و بديهى أنّ المعنى الأوّل و بملاحظة مصادر اللغة هو الأقرب و الأصح كما يبدو.

و على كل حال فهذا الموضوع يصدق بمعنييه فى ثمود، حيث كانت لديهم أراض خصبة و خضراء و مزارع كثيرة الخيرات و البركات، و كانوا يبذلون فى الزراعة ابتكارات و قدرات واسعة، و إلى ذلك كله كانت أعمارهم مديدة و أجسامهم قويّة و كانوا متطورين فى بناء المساكن و البيوت، كما يقول القرآن الكريم: وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ ۲۳۶].

الطريف هنا أنّ القرآن لم يقل: إنّ اللّه عمر الأرض و جعلها تحت تصرفكم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۹

و إنّما قال: و فوّض إليكم إعمار الأرض وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها و هى إشارة إلى أنّ الوسائل معدّة فيها لكل شيء و عليكم إعمارها بالعمل و السعى المتواصل و السيطرة على مصادر الخيرات فيها. و بدون ذلك لا حظّ لكم فى الحياة الكريمة.

كما يستفاد ضمنا أنّه ينبغى من أجل الإعمار أن يعطى المجال لأمّة معينة فى العمل، و تجعل الأسباب و الوسائل اللازمة تحت تصرفها و فى اختيارها.

فإذا كان الأمر كذلك فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ لدعواتكم.

الاستعمار فى القرآن و فى عصرنا الحاضر:

لا حظنا فى الآيات المتقدمة أنّ نبى اللّه «صالحا» من أجل هداية و تربية قومه الضالين «ثمود» ذكرهم بعظيم خلق اللّه لهم من التراب .. و تفويض إعمار الأرض إليهم إذ قال: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها ....

لكن هذه الكلمة مع جمالها الخاص و جذابيتها التى تعنى العمران و تفويض الإختيارات و إعداد الوسائل اللازمة و تهيأتها، تبدّلت هذه الكلمة فى عصرنا إلى درجة أنّها مسخت و أصبحت تعطى معنى معاكسا لمفهوم القرآن تماما.

و ليست كلمة الاستعمار وحدها انتهت إلى هذا المصير المشؤوم، فهناك كلمات كثيرة فى العربية و فى لغات أخرى مسخت و حرّفت و تبدّلت و انقلبت رأسا على عقب، مثل كلمات «الحضارة» و «الثقافة» و «الحرية» و فى ظلال هذه التحريفات تأخذ هذه الكلمات و أمثالها طريقها إلى التغرّب و البعد عن معناها، و تتحول لعبادة المادة و أسر الناس و إنكار الحقائق و التوغل فى كل أنواع الفساد و ما إلى ذلك.

و على كل حال، فإنّ معنى «الاستعمار» فى عصرنا و مفهومه الواقعى هو «استيلاء الدول العظمى السياسية و الصناعية على الأمم المستضعفة قليلة القدرة، بحيث تكون نتيجة هذا «الاستيلاء» و هذه «الغارة» امتصاص دمائهم و سلب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۰

خيراتهم و مصادرة حياتهم.

هذا الاستعمار الذى له أوجه شؤم مختلفة، يتجسم مرّة بشكل «ثقافى» و أخرى بوجه «فكرى» و ثالثة بوجه «اقتصادى» و رابعة بوجه «سياسى» و قد يبدو بوجه «عسكرى» أيضا، و هو الذى بدل دنيانا و جعلها سوداء مظلمة، فالأقلية فى هذه الدنيا لديهم كل شىء، و الأكثرية العظمى فاقدة لكل شىء هذا الاستعمار هو السبب فى الحروب و الدمار و الانحرافات و الفساد و التسابق التسليحى الذى يقصم الظهر.

القرآن استعمل لهذا المفهوم مفردة «الاستضعاف» التى تنطبق تماما على هذا المعنى أى «جعل الشىء ضعيفا» بالمعنى الواسع و الشامل للكلمة، جعل الفكر ضعيفا، و جعل الإقتصاد ضعيفا، و جعل السياسة ضعيفة .. إلخ ..

و قد اتسع مجال الاستعمار إلى درجة بحيث أصبحت كلمة الاستعمار «استعمارية» أيضا، و ذلك لأنّ مفهومها اللغوى قد انقلب رأسا على عقب تماما.

و على كل حال، فإن الاستعمار من القصص الطويلة المثيرة للحزن و الألم، بحيث يمكن أن يقال أنّه يستوعب تاريخ البشرية أجمع و إن تغيّر وجهه دائما، و لكن من غير المعلوم أنّه متى يزول من المجتمعات الإنسانية، و تقوم حياة البشر على أساس التعاون و الاحترام المتبادل بين الناس و المساعدة ليتقدم الواحد بعد الآخر فى جميع المجالات ...؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۱

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۲ الى ۶۵]

اشارة

قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۶۲) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (۶۳) وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (۶۴) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (۶۵)

التّفسير

اشارة

و الآن لنلاحظ ما الذى كان جواب المخالفين لنبىّ اللّه «صالح عليه السّلام» إزاء منطقه الحى الداعى إلى الحق.

لقد استفادوا من عامل نفسى للتأثير على النّبى «صالح» أو على الأقل للمحاولة فى عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس، و بالتعبير العامىّ الدراج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۲

مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا و كنّا نتوجه إليك لحل مشاكلنا و نستشيرك فى أمورنا و نعتقد بعقلك و ذكائك و درايتك، و لم نشك فى إشفاقك و اهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان و هو منهج أسلافنا و مفخرة قومنا، فأبديت عدم احترامك للأوثان و للكبار و سخرت من عقولنا أ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا و الحقيقة أننا نشكّ فى دعوتك للواحد الأحد وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ

نجد هنا أن القوم الضّالين يلتجؤون تحت غطاء الاسلاف و الآباء الذين تحيط بهم هالة من القدسية لتوجيه أخطائهم و أعمالهم و أفكارهم غير الصحيحة، و هو ذلك المنطق القديم الذى كان يتذرع به المنحرفون و ما زالوا يتذرعون به فى عصر الذّرة و الفضاء أيضا.

لكن هذا النّبى الكبير لم ييأس من هدايتهم و لم تؤثر كلماتهم المخادعة فى روحه الكبيرة فأجابهم قائلا: يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي مِنْهُ رَحْمَةً أ فأسكت عن دعوتى و لا أبلغ رسالة اللّه و لا أواجه المنحرفين فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ .. و لكن اعلموا أن كلامكم هذا و احتجاجكم بمنهج السلف و الآباء لا يزيدنى إلّا إيمانا بضلالتكم و خسرانكم: فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ...

و بعد هذا كلّه و من أجل البرهان على صدق دعوته، و بيان المعاجز الإلهية التى دونها قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التى هى آية من آيات اللّه و قال: وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فاتركوها و ذروها تأكل فى أرض اللّه وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

ناقة صالح:

«النّاقة» فى اللغة هى أنثى الجمل، و هى الآية الآنفة فى آيات أخرى أضيفت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۳

إلى لفظ الجلالة «اللّه»[۲۳۷] و هذه الإضافة تدل على أنّ هذه الناقة لها خصائص معينة، و مع الالتفات إلى ما عبّر عنها فى الآية المتقدمة بأنّها «آية» و علامة إلهية و دليل على الحقانيّة، يتّضح أنّها لم تكن ناقة عادية، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة!.

و لكن لم ترد فى القرآن خصائص هذه الناقة بشكل مفصّل، غاية ما فى الأمر أننا نعرف بأنّها لم تكن ناقة عادية كالنوق الأخريات، و الشيء الوحيد المذكور عنها فى القرآن- و فى موردين فحسب- أن صالحا أخبر قومه أن يتقاسموا ماءهم سهمين: سهم لهم و سهم للناقة، فلهم شرب يوم منه و لها شرب يوم آخر قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۲۳۸] كما جاء فى سورة القمر أيضا وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ[۲۳۹].

و فى سورة الشمس إشارة مختصرة إليها أيضا، حيث يقول سبحانه: فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها[۲۴۰].

و لکن لم یتّضح کیف کان تقسیم الماء خارقا للعادة؟

هناک احتمالان:

الأوّل: إنّ الناقة کانت تشرب ماء کثیرا بحیث تأتی علی ماء «النبع» کله.

و الثانی: إنّه حین کانت ترد الماء لا تجرؤ الحیوانات الأخری علی الورود إلی الماء معها.

أمّا کیف کانت هذه الناقة تستفید من جمیع الماء؟ فیوجه هذا الاحتمال بأنّ ماء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۴

القریة کان قلیلا- کماء القری التی لیس فیها أکثر من عین ماء واحدة، و أهل القریة مجبورون علی أن یدخروا الماء تمام الیوم فی حفرة خاصّة لیجتمع الماء فی العین مرّة أخری.

و لکن فی جزء آخر من سورة الشعراء یتجلّی لنا أنّ ثمود لم یعیشوا فی منطقة قلیلة الماء، بل کانت لهم غابات و عیون و نخیل و مزارع حیث تقول الآیات:

أَ تُتْرَکُونَ فِی ما هاهُنا آمِنِینَ، فِی جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ، وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِیمٌ [۲۴۱] و علی کل حال فإنّ القرآن ذکر قصّة ناقة صالح بشکل مجمل غیر أنّنا نقرأ فی روایات کثیرة عن مصادر الشیعة و أهل السنة أیضا، أنّ هذه الناقة خرجت من قلب الجبل، و لها خصائص أخری لیس هنا مجال سردها.

و علی کل حال. فمع جمیع ما أکّده نبیّهم العظیم «صالح» فی شأن الناقة، فقد صمّموا أخیرا علی القضاء علیها، لأنّ وجودها مع ما فیها من خوارق مدعاة لتیقظ الناس و التفافهم حول النّبی صالح، لذلک فإنّ جماعة من المعاندین لصالح من قومه الذین کانوا یجدون فی دعوة صالح خطرا علی مصالحهم، و لا یرغبون أن یستفیق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائم استعمارهم للتقویض و الانهیار، فتآمروا للقضاء علی الناقة و هیأوا جماعة لهذا الغرض، و أخیرا أقدم أحدهم علی مهاجمتها و ضربها بالسکین فهوت إلی الأرض فَعَقَرُوها.

«عقروها» مشتقة من مادة «العقر» علی وزن «الظلم» و معناه: أصل الشیء و أساسه و جذره، و «عقرت البعیر» معناه نحرته و احتززت رأسه، لأنّ نحر البعیر یستلزم زوال وجوده من الأصل، و أحیانا تستعمل هذه الکلمة لطعن الناقة فی بطنها. أو لتقطیع أطراف الناقة بدل النحر و کل ذلک فی الواقع یرجع إلی معنی واحد «فتأمل»! ...».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۵

العلاقة الدّینیة:

الطریف أنّنا نقرأ فی الرّوایات الإسلامیة أنّ الذی عقر الناقة لم یکن إلّا واحدا، لکن القرآن ینسب هذا العمل إلی جمیع المخالفین من قوم صالح «ثمود» و یقول بصیغة الجمع: فَعَقَرُوها و ذلک لأنّ الإسلام یعدّ الرضا الباطنی فی أمر ما و الارتباط معه ارتباطا عاطفیا بمنزلة الاشتراک فیه، و فی الواقع فإنّ التآمر علی هذا العمل لم یکن له جانب فردی، و حتی ذلک الذی أقدم علی عمله لم یکن معتمدا علی قوته الشخصیّة فجمیعهم کانوا مرتاحین لعمله و کانوا یسندونه، و من المسلّم أنّه لا یمکن أن یعدّ هذا العمل عملا فردیا. بل یعد عملا جماعیا. یقول الإمام علی علیه السّلام: «و إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا»[۲۴۲].

و هناک روایات متعددة فی المضمون ذاته نقلت عن نبی الإسلام و أهل بیته الکرام، و هی تکشف غایة الاهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفیة و المناهج الفکریة المشترکة بجلاء، و نورد هنا علی سبیل المثال- لا الحصر- عددا منها.

قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم «من شهد أمرا فکرهه کمن غاب عنه و من غاب عن أمر فرضیه کمن شهده»[۲۴۳].

و

يقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام «لو أنّ رجلا قتل فى المشرق فرضى بقتله رجل فى المغرب لكان الراضى عند اللّه عزّ و جلّ شريك القاتل»[۲۴۴].

و

نقل عن الإمام على عليه السّلام أيضا أنّه قال: «الراضى بفعل قوم كالداخل معهم فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۶

و على كل داخل فى باطل إثمان إثم العمل به و إثم الرضا به»[۲۴۵].

و من أجل أن نعرف عمق العلاقة الفكرية و العاطفية فى الإسلام و سعتها بحيث لا يعرف لها حد من جهة الزمان و المكان، فيكفى أن نذكر هذا الكلام للإمام على عليه السّلام من نهج البلاغة لنلفت إليه الأنظار:

«حين انتصر الإمام على فى حرب الجمل على المتمردين و مثيرى الفتنة و فرح أصحاب على بهذا الإنتصار الذى يعدّ انتصارا للإسلام على الشرك و الجاهلية، قال له أحد أصحابه: «وددت لو أنّ أخى شهدنا هنا فى الميدان ليرى انتصارك على عدوك».

فالتفت الإمام عليه السّلام إليه قائلا: «أهوى أخيك معنا» فقال: «نعم» فقال الإمام عليه السّلام:

«شهدنا» ثمّ قال: «و لقد شهدنا فى عسكرنا هذا أقوام فى أصلاب الرجال و أرحام النساء سيرعف بهم الزمان و يقوى بهم الإيمان»[۲۴۶].

و لا شك أنّ أولئك الذين يساهمون فى منهج ما و يشتركون فيه و يتحملون كل مشاكله و أتعابه، لهم امتياز خاص، و لكن هذا لا يعنى أن الآخرين لم يشتركوا فى ذلك أبدا، بل سواء كانوا فى عصرهم أو العصور و القرون المقبلة و لهم ارتباط عاطفى و فكرى بهم فهم مشتركون معهم بنحو من الأنحاء.

هذه المسألة التى قد لا نجد لها نظيرا فى أى مذهب من مذاهب العالم، قائمة على أساس من حقيقة اجتماعية هامة، و هى أن المنسجمون فكريا و عقائديا حتى لو لم يشتركوا فى منهج معيّن، إلّا أنّهم سيدخلون قطعا فى مناهج مشابهة له فى محيطهم و زمانهم، لأنّ أعمال الناس منعكسة عن أفكارهم، و لا يمكن أن يرتبط الإنسان بمذهب معين و لا يظهر أثره فى عمله.

و الإسلام منذ الخطوة الأولى يهتم بإيجاد اصلاحات فى روح الإنسان و نفسه لإصلاح عمله تلقائيا و على ضوء الرّوايات المتقدمة فإنّ أى مسلم يبلغه أنّ فلانا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۷

عمل عملا صالحا- أو سيئا- ينبغى أن يتخذ الموقف الصحيح من ذلك العمل فورا و يجعل قلبه و روحه منسجمين مع «الصالحات» و أن ينفر من «السيئات» فهذا السعى و «الجد» الداخلى لا شك سيكون له أثر فى أعماله، و سيتعمق الترابط بين الفكر و العمل.

و فى نهاية الآية نقرأ أنّ النّبى «صالحا» بعد أن رأى تمرّد قومه و عقرهم الناقة أنذرهم فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فهو وعد اللّه الذى لا يتغير و ما أنا من الكاذبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۸

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۶ الى ۶۸]

اشارة

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۶۶) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ

فَأَصْبَحُوا فِی دِیارِهِمْ جاثِمِینَ (۶۷) كَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸)

التّفسير

نهاية ثمود «قوم صالح»:

فى هـذه الآيـات يتـبيّن كيف نزل العـذاب على قوم صالـح المعانـدين بعـد أن أمهلهم و قـال لهـم: تَمَتَّعُوا فِی دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَیَّامٍ فتقول الآيـات: فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّیْنا صالِحاً وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا لا ـ من العـذاب الجسـمانى و المـادى فحسـب، بـل وَ مِنْ خِزْیِ یَوْمِئِذٍ[۲۴۷].

لأنّ اللّه قوى و قادر على كل شـىء، و له السـلطة على كل أمر، و لا يصـعب عليه أى شـىء و لا قـدرة فوق قـدرته إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ.

و على هذا فإنّ نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبتلى بعذاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۹

اللّه ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة اللّه تعالى.

إنّ رحمـة اللّه تسـتوجب ألّـا يحترق الأبريـاء بنـار الأشـقياء المـذنبين، و ألّا يؤاخـذ المؤمنون بجريرة غير المؤمنين وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیارِهِمْ جاثِمِینَ و هكـذا هلكوا و صاروا «شـذر مـذر» و مضت آثارهم مع الريـح كَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ عن لطف اللّه و رحمته.

ملاحظات

۱- نجـد فى هـذه الآيات أن رحمـة اللّه بالنسـبة للمؤمنين واسـعة و شاملة، بحيث تنقلهم جميعا إلى مكان آمن، و لا تحرق الأخضـر و اليابس بالعذاب.

و من الممكن أن تحـدث حوادث مؤلمـة كالسـيول و الأوبئـة و الزلازل التى قـد تـأتى على الصـغير و الكبير، و ليست هـذه الحوادث ترجمة لعذاب اللّه، و إلّا فإنّه محال على اللّه فى منطق عدله أن يعذب حتى واحدا بريئا بجرم ملايين المذنبين.

طبعـا يمكن أن يوجـد أناس ساكتون بين جماعـة مـذنبين فيؤخـذوا بوزرهم، لأنّهم لا يردعونهم عن الظلم و الفساد، فمصيرهم- إذا- سيكون كمصير المجرمين.

و لكنّهم إذا عملوا بواجبهم فمحال أن تنزل عليهم حادثـة أو يحيق بهم العذاب «فصّـلنا هذا الموضوع فى الأبحاث المرتبطة بمعرفة اللّه و نزول البلاء و الحوادث فى كتب معرفة اللّه»[۲۴۸].

۲- و يظهر جيدا من الآيات المتقدمة أنّ عقاب المعاندين و الطغاة لا يختصّ بالجانب المادى فحسب، بل يشمل الجانب المعنوى، لأنّ نتيجـة أعمالهم و مصـيرهم المخزى و حياتهم الملوّثـة تسـجل فصولها فى التاريـخ بما يكون عارا عليهم، فى حين يكتب التاريـخ حياة المؤمنين بسطور من ذهب و صحائف من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۹۰

نور.

۳- ما المراد من الصيحة؟

الصيحة فى اللغة معناها الصوت العظيم الذى يصدر من فم الإنسان أو الحيوان عادة .. و لكن لا تختصّ بهذا المعنى، بل تشمل كل صوت عظيم .. نقرأ فى القرآن الكريم أن عدّة أقوام آثمين أخذتهم الصيحة من السماء عقابا لهم على ذنوبهم، «ثمود» الذين نتحدث عنهم «و قوم لوط» كما نقرأ فى سورة الحجر الآية (۷۳) «قوم شعيب» كما ذكروا فى سورة هود الآية (۹۴).

و يستفاد من بعض الآيات الأخرى من القرآن أنّ قوم صالح «ثمودا» عوقبوا بالصاعقة فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ[۲۴۹] و من هنا يتبيّن أنّ المراد من الصيحة هو صوت الصاعقة الموحش! سؤال: هل يستطيع صوت الصاعقة الموحش أن يبيد قوما أو جماعة بأسرهم؟! و الجواب: نعم، حتما! .. لأنّنا نعرف أن الأمواج الصوتية إذا تجاوزت حدّا معينا تستطيع أن تكسّر الزجاج، و قد تتهدم على أثرها عمارات، و قد تشل أعضاء البدن الداخلية.

الطائرات حين تخترق الجدار الصوتى و تكون سرعتها أكثر من سرعة أمواج الصوت يسقط بعض الأفراد فاقدو الوعى، أو تسقط الحامل جنينها بسبب ذلك و قد يتكسر جميع الزّجاج فى عمارات المنطقة التى تمرّ عليها هذه الطائرات.

و طبيعى أنّه إذا كانت شدّة الأمواج الصوتية أكثر ممّا ذكرنا، فمن السهولة أن تحدث اختلالا قاتلا فى شبكات الاعصاب الدماغ و حركات القلب و تسبب موت الإنسان!.

و من الثابت- طبقا لما فى آيات القرآن- أنّ نهاية هذا العالم تكون بصيحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۹۱

عامّة أيضا .. ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ ۲۵۰]، كما أنّ يوم القيامة يبدأ بصيحة موقظة أيضا إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ

۴- «الجاثم» من مادة «جثم» و معناه المصدرى الجلوس على الركب، كما يأتى بمعنى السقوط للوجه (و لزيادة التوضيح فى هذا المجال يراجع فى التّفسير الأمثل ذيل الآية ۷۹ من سورة الأعراف).

و يستفاد طبعا من التعبير ب «جاثمين» أنّ الصيحة من السماء كانت السبب فى موتهم، إلّا أنّ أجسادهم كانت ملقاة على الأرض، لكن يستفاد من بعض الرّوايات أنّ الصاعقة أحرقتهم بنارها، و لا منافاة بين الأمرين، لأنّ أثر الصوت الموحش للصاعقة يتّضح فورا، و أمّا آثار، حرقها- و خاصّة لمن هم داخل البيوت- فيظهر بعدئذ.

۵- لفظ «لم يغنوا» مشتق من مادة «غنى» و معناه الإقامة فى المكان، و لا يبعد أن يكون مأخوذا من المفهوم الأصلى و هو «الغنى» و معناه عدم الحاجة، لأنّ الغنى غير المحتاج له بيت مهيّأ و معدّ و ليس مجبورا أن ينتقل كل زمان من منزل إلى آخر- و التعبير بجملة كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا وارد فى ثمود، كما هو وارد فى قوم شعيب، و مفهوم هذا التعبير أنّ طومار حياتهم قد طوى حتى تظن أنّهم لم يكونوا من سكنة هذه الأرض.

نهاية المجلد السّادس

---

[۱] (۱)- المراد من التصغير عادة هو بيان كون الشىء صغيرا فى قبال شىء آخر كبير، مثل رجيل المصغر عن رجل، لكن للتصغير أغراضا بلاغية منها إظهار المحبّة و غيرها، كما فى اظهار الرجل محبته لولده فيصغّر اسمه.

[۲] (۱)- يراجع فى هذا الشأن الميزان، ج ۹، ص ۲۵۳، و المنار، ج ۱۰، ص ۳۲۲.

[۳] (۲)- نور الثقلين، ج ۶، ص ۲۰۵، حديث طويل نقلنا خلاصته معنا لا نصا، و إذا أردتم المزيد راجعوا المصدر المذكور.

[۴] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية و نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۰۹.

[۵] (۲)- مجمع البيان، ذيل الآية.

[۶] (۱)- المنار، ج ۱۰، ص ۳۸۹.

[۷] (۱)- الكهف، ۲۰.

[۸] (۲)- التوبة، ۸.

[۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۱.

[۱۰] (۱)- محاسن البرقى، طبقا لما ورد فى البحار، الطبعة القديمة، ج ۱۳، ص ۱۳۶.

[۱۱] (۱)- الكافى، حسب ما جاء فى البحار، ص ۱۳۶ و ۱۳۷.

[۱۲] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۳] (۱) راجع البحار الطبعة القديمة ج ۱۳، ص ۱۴.

[۱۴] (۱)- المنار، ج ۱۰، ص ۴۰۴.

[۱۵] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۳.

[۱۷] (۲)- المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنّها مخارج السنة.

[۱۸] (۳)- مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث، و نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۳.

[۱۹] (۴)- نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۳.

[۲۰] (۵)- نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۴ و تفسير البرهان، ج ۱، ص ۱۲۲.

[۲۱] (۱)- تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۴۰۶.

[۲۲] (۱)- راجع المنار، ج ۱۰، ص ۴۰۷.

[۲۳] (۱)- ذكر شأن النّزول هذا جماعة من المفسّرين كالطبرسى فى مجمع البيان، و الفخر الرازى فى تفسيره الكبير، و الآلوسى فى روح المعانى.

[۲۴] (۲)- الفاصلة بين تبوك و المدينة ۶۱۰ كم و الفاصلة بينها و بين الشام ۶۹۲ كم.

[۲۵] (۱) فى هذه الجملة حذف من الناحية الأدبية، و كانت الجملة فى الأصل: إن لا تنصروه ينصره اللّه. لأنّ الفعل الماضى الذى يدل(مفهومه) على وقوعه فى الماضى أيضا، لا يمكن أن يقع جزاء للشرط إلّا أن يكون الفعل الماضى بمعنى المضارع!

[۲۶] (۱) العرض ما يعرض و يزول عاجلا- و لا- دوام له، و يطلق عادة على مواهب الدنيا المادية، و القاصد معناه السهل. لأنّه فى الأصل من قصد، و الناس يسعون فى قصدهم إلى المسائل السهلة.

[۲۷] (۲) الشقة تعنى الأرض الصخرية أو الطريق الطويل البعيد الذى يجلب على عابره المشقة و النصب.

[۲۸] (۱)- ثبطهم مشتق من التثبيط و يعنى الوقوف بوجه العمل المزمع إجراؤه بوجه من الوجوه.

[۲۹] (۱)- أوضعوا من مادة الإيضاع و معناه، الإسراع فى الحركة، و معناه هنا الإسراع فى النفوذ بين صفوف المقاتلين، و الفتنة هنا بمعنى التفرقة و اختلاف الكلمة.

[۳۰] (۱) سورة النّجم، ۳۹.

[۳۱] (۲) المدثر، ۳۸.

[۳۲] (۱)- جملة« أنفقوا» و إن كانت فى صورة الأمر، إلّا أن فيها مفهوم الشرط، أى لو أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم.

[۳۳] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۲۷.

[۳۴] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۱۴۴، باب ۱ من أبواب مستحقى الزكاة، حديث ۲.

[۳۵] (۱) وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۲۰، باب ۴، حديث ۹.

[۳۶] (۲) وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۴، باب ۱ من أبواب الزكاة حديث ۶.

[۳۷] (۳) وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۶، باب ۱، من أبواب الزكاة، حديث ۱۱.

[۳۸] (۱) ينبغى الانتباه إلى أن(فى) قد ذكرت صريحا فى موردين، و عطف على مجرور(فى) فى موردين، كما أن اللام قد ذكرت فى مورد واحد، و عطف الباقى عليها.

[۳۹] (۱) فى الحقيقة، بناء على التّفسير الأوّل فإنّ i أُذُنُ خَيْرٍ\E التى هى مضاف و مضاف إليه من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، و على التّفسير الثّانى فهى من قبيل إضافة الوصف إلى المفعول، فعلى الاحتمال الأوّل يكون المعنى، إنّه إنسان يقبل الكلام و هو خير لكم، و على الاحتمال الثّانى فالمعنى: إنّه يسمع الكلام المفيد الذى ينفعكم، لا أنّه يسمع كل كلام.

[۴۰] (۲) الأنبياء، ۱۰۷.

[۴۱] (۱) تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآية.

[۴۲] (۱) خوض على وزن حوض، و هو- كما ورد فى كتب اللغة- بمعنى الدخول التدريجى فى الماء، ثمّ أطلقت على الدخول فى مختلف الأعمال من باب الكناية، إلّا أنّها جاءت فى القرآن غالبا بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحة البذيئة.

[۴۳] (۱) راجع تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۳۹- ۲۴۰.

[۴۴] (۱) إن جملة\i كَالَّذِى خاضُوا\E فى الواقع بمعنى: كالذى خاضوا فيه، و بعبارة أخرى، فإنّها تشبيه لفعل منافقى اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبهت الجملة السابقة استفادة هؤلاء من النعم و المواهب الإلهية فى طريق الشهوات كالسابقين منهم، و على هذا فإنّ هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل(الذى) بمعنى(الذين) أى المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

[۴۵] (۱) المؤتفكات مأخوذة من مادة الائتفاك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى و بالعكس، و هى إشارة إلى مدن قوم لوط التى قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزلة.

[۴۶] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية.

[۴۷] (۱) كتاب الخصال، على ما نقل فى نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۴۱.

[۴۸] (۱) ما ذكرناه اقتباس من تفسير مجمع البيان و المنار و روح المعانى و تفاسير أخر.

[۴۹] (۱) ممّا يستحق الانتباه أن الجملة أعلاه بالرغم من أنّها تتحدث عن فضل اللّه و رسوله، إلّا أن الضمير فى i مِنْ فَضْلِهِ E جاء مفردا لا- مثنى، و السبب فى ذلك هو ما ذكرناه قبل عدة آيات من أن أمثال هذه التعبيرات لأجل إثبات حقيقة التوحيد، و أن كل الأعمال بيد اللّه سبحانه، و أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إذا ما عمل عملا فهو بأمر اللّه سبحانه، و لا ينعزل عن إرادته سبحانه.

[۵۰] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية.

[۵۱] (۱) سفينة البحار، ج ۲، ص ۶۰۷.

[۵۲] (۱) لقد وردت روايات كثيرة بهذا المضمون ذكرت فى تفسير الطبرى، ج ۱۰، ص ۱۳۸.

[۵۳] (۱) راجع الميزان، ج ۹، ص ۳۶۷.

[۵۴] (۲) يستفاد من مجموعة من الرّوايات أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يصلى على المنافقين بعد نزول هذه الآية أيضا، إلّا أنّه يكبر أربعا لا أكثر، أى أنّه كان يصرف النظر عن التكبير الخامس الذى هو دعاء للميت. إنّ هذه الرّواية يمكن قبولها فيما لو

كان معنى الصلاة هنا الدعاء، و(لا تصل) فى الآية هو(لا تدع)، أمّا لو كان المراد(لا تصل) فإنّ هذه الرّواية تخالف ظاهر القرآن، و لا- يمكن قبولها. و لا- يمكن إنكار أن جملة(لا- تصل) ظاهرة بالمعنى الثانى، و لذلك فإنّنا لا- نستطيع- من وجهة نظر الحكم الإسلامى- أن نصلى على المنافقين الذين اشتهر نفاقهم بين الناس، و أن نرفع اليد عن ظهور الآية لرواية مبهمة.

[۵۵] (۱) راجع المجلد الأوّل من الأمثل(ذيل آية ۷ من سورة البقرة).

[۵۶] (۱) الدر المنثور، طبقا لنقل الميزان، ج ۹، ص ۳۸۶.

[۵۷] (۱) مغرم- كما ورد فى مجمع البيان- مأخوذة من مادة(غرم) على وزن(جرم)، و هى فى الأصل بمعنى ملازمة الشىء، و لهذه المناسبة قيل للدائن و المدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، و أيضا قيل: غرامة، لنفس هذه المناسبة لأنّها تلازم الإنسان و لا تنقطع عنه إلّا بأدائها. و يقال للعشق الشديد: غرام، لأنّه ينفذ إلى روح الإنسان بصورة لا يمكن تصور الانفصال معها. و مغرم يساوى غرامة من حيث المعنى.

[۵۸] (۲) يستفاد من جملة\i عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ\E الحصر، أى إنّ حوادث السوء ستنال هؤلاء فقط. و استفادة الحصر هذه من أن(عليهم) خبر مقدم على المبتدأ.

[۵۹] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷.

[۶۰] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۵۴.

[۶۱] (۲) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، ص ۱۹۲.

[۶۲] (۱) لقد عدّ الكثير من المفسّرين(من) الواردة فى جملة\i وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ\E تبعيضية، و ظاهر الآية أيضا كذلك، لأن حديث الآية عن طلائع الإسلام و السابقين إليه، لا عن جميع المسلمين. أمّا الباقون فإنّهم يدخلون فى مفهوم الجملة التالية، أى:(التابعون).

[۶۳] (۱) تفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۰۷۵.

[۶۴] (۲)- الغدير، ج ۳، ص ۲۳۸ و ۲۳۷.

[۶۵] (۳) المصدر السّابق.

[۶۶] (۱) الحديث أعلاه- حسب نقل الغدير- جاء فى مستدرك الحاكم، ج ۲، ص ۱۳۶، و الإستيعاب، ج ۲، ص ۴۵۷، و شرح ابن أبى الحديد، ج ۳، ص ۲۵۸.

[۶۷] (۲) فى المصدر السابق إنّ هذا الحديث قد نقل عن الطبرانى، و البيهقى، و الميثمى فى المجتمع، و الحافظ الكنجى فى الكفاية، و الإكمال، و كنز العمال.

[۶۸] (۳) هذا الحديث- حسب نقل الغدير- قد نقل فى كتاب حلية الأولياء، ج ۱، ص ۶۶.

[۶۹] (۱) هذا الحديث نقل بعبارات مختلفة، و ما أوردناه أعلاه هو ما نقله أبو جعفر الإسكافى فى كتاب(نهج العثمانية)، و برهان الدين فى(أنباء نجباء الأبناء)، و ابن الأثير فى(الكامل)، و آخرون. لمزيد الاطلاع و الاستيضاح راجع الجزء الثّانى من الغدير، ص ۲۷۸- ۲۸۶.

[۷۰] (۲) مريم، ۱۲.

[۷۱] (۳) مريم، ۳۰.

[۷۲] (۱) الغدير، ج ۳، ص ۲۴۰.

[۷۳] (۱) تفسير المنار، و تفسير الفخر الرازى فى ذيل الآية أعلاه.

[۷۴] (۱) مجمع البيان فى ذيل الآية، و تفاسير أخرى.

[۷۵] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية.

[۷۶] (۲) تفسير العياشى، على ما نقل فى تفسير الصافى فى ذيل الآية.

[۷۷] (۱) تفسير العياشى، على ما نقل فى تفسير البرهان فى ذيل الآية.

[۷۸] (۲) تفسير المنار، ج ۱۱، ص ۳۳. و قد نقل هذا الحديث عن طريق أهل البيت عليهم السّلام عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضا.

راجع: بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۱۳۴، الطبعة الجديدة.

[۷۹] (۱) أصول الكافى، ج ۱، ص ۱۷۱، باب عرض الأعمال.

[۸۰] (۲) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۵۸.

[۸۱] (۱) أصول الكافى، ج ۱، ص ۱۷۱، باب عرض الأعمال.

[۸۲] (۱) للاطلاع على هذه الرّوايات، راجع تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۶۵، و تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۰۶.

[۸۳] (۱) مجمع البيان، و تفسير أبى الفتوح الرازى، و تفسير المنار، و تفسير الميزان، و تفسير نور الثقلين، و كتب أخرى.

[۸۴] (۲) بالرغم من أنّ المفسّرين قد أبدوا و جهات نظر مختلفة من الناحية الأدبية حول تركيب هذه الجملة، إلّا أنّ الظاهر هو أن هذه الجملة معطوفة على الجمل السابقة التى وردت فى شأن المنافقين، و تقديرها هكذا:« و منهم الذين اتخذوا مسجدا ...».

[۸۵] (۱) الكامل لابن الأثير، ج ۲، ص ۱۰۷.

[۸۶] (۱) فاستبشروا مأخوذة من مادة البشارة، و التى أخذت فى الأصل من البشرة، أى وجه الإنسان، و هى إشارة إلى آثار الفرحة و السرور التى تبدو بوضوح على وجه الإنسان.

[۸۷] (۱) الدّر المنثور، كما ورد فى تفسير الميزان.

[۸۸] (۲) تفسير الميزان، ذيل الآية.

[۸۹] (۳) تفسير نور الثقلين، و كثير من التفاسير الأخرى.

[۹۰] (۱) تفسير الميزان، و تفسير المنار فى ذيل الآية.

[۹۱] (۱) تفسير المنار، و تفاسير أخرى لأهل السنة.

[۹۲] (۱) لقد ورد النهى عن محبّة و موالاة الكافرين صريحا فى الآية(۱۳۹) من سورة النساء، و التى نزلت قبل سورة التوبة مسلما، و كذلك فى الآية(۳۸) من سورة آل عمران، و هى كذلك نزلت قبل سورة براءة، و فى هذه السورة قال اللّه سبحانه لنبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآيات التى سبقت هذه الآية\:i اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ E.

[۹۳] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية.

[۹۴] (۱) يتصور البعض أنّ باب(تفعيل) هو الوحيد الذى يأتى أحيانا بمعنى الحكم، فى حين يلاحظ ذلك فى باب(إفعال) أيضا، كالشعر المعروف المنقول عن الكميت، حيث يقول فى بيان عشقه و حبّه لآل محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم: و طائفة قد أكفرونى بحبّكم.

[۹۵] (۲) لمزيد التوضيح حول معنى الهداية و الضلال فى القرآن، راجع ذيل الآية(۲۶) من سورة البقرة.

[۹۶] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۷۶.

[۹۷] (۱) مجمع البيان، و سفينة البحار، و تفسير أبى الفتوح الرازى.

[۹۸] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۷۰.

[۹۹] (۲) المصدر السّابق.

[۱۰۰] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۷۰.

[۱۰۱] (۱) تفسير الفخر الرازى، ج ۱۶، ص ۲۲۰- ۲۲۱.

[۱۰۲] (۱) اختار الطبرى هذا الرأى، نقل ذلك القرطبى فى تفسيره، و ذكره جماعة من المفسّرين فى ذيل الآية كاحتمال.

[۱۰۳] (۲) هذا التّفسير يناسب سبب النزول الذى أورده المرحوم الشيخ الطوسى فى التبيان.

[۱۰۴] (۳) نلفت انتباهكم إلى أنّنا نعتبر استعمال كلمة واحدة فى عدّة معان أمرا جائزا.

[۱۰۵] (۱) تفسير المنار، ج ۱۱، ص ۷۸.

[۱۰۶] (۱) إنّ(ما) فى جملة\i إِذا ما أُنْزِلَتْ E زائدة فى الحقيقة، و هى للتأكيد. و قال البعض أنّها صلة و هى تسلط أداة الشرط- إى(إذا) على جزائها، و تؤكّد الجملة.

[۱۰۷] (۱) كان لنا بحث آخر عن مرض القلب و مفهومه فى القرآن راجع الآية(۱۶) من سورة البقرة.

[۱۰۸] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۹۰، و تفاسير أخرى.

[۱۰۹] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۷۷، و تفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۱۴۵.

[۱۱۰] (۱) من أجل مزيد التوضيح، و ذكر الأمثلة فى هذا المجال راجع ذيل الآية(۵۴) من سورة الأعراف.

[۱۱۱] (۲) المصدر السّابق.

[۱۱۲] (۳) لمزيد التوضيح و الاطلاع على معانى العرش المختلفة، راجع تفسير الآية(۵۴) من سورة الأعراف و(۲۵۵) من سورة البقرة.

[۱۱۳] (۴) لقد أوضحنا توضيحا كافيا مسألة الشفاعة المهمّة فى المجلد الأوّل فى تفسير الآية(۴۷) من سورة البقرة.

[۱۱۴] (۱) لقد بحثنا فى المجلد الثانى حول كون القمر تقويما طبيعيا يمكن من خلال حالاته المختلفة تعيين أيام الشهر بدقة(راجع تفسير الآية ۱۸۹ من سورة البقرة).

[۱۱۵] (۱) لقد أوردنا توضيحات أخرى حول هذا الموضوع فى المجلد الأوّل(راجع تفسير الآية ۱۶۴ من البقرة).

[۱۱۶] (۱) لمزيد التوضيح راجع المجلد الأوّل من تفسيرنا هذا ذيل الآية(۴۶) من سورة البقرة.

[۱۱۷] (۱) الحديد، ۱۲.

[۱۱۸] (۲) تفسير الفخر الرازى، الجزء ۱۷، ص ۴۰.

[۱۱۹] (۳) الزخرف، ۵۲.

[۱۲۰] (۱) النساء، ۳۸.

[۱۲۱] (۲) إبراهيم، ۳۴.

[۱۲۲] (۳) الإسراء، ۱۰۰.

[۱۲۳] (۴) الإسراء، ۱۱.

[۱۲۴] (۵) الإسراء، ۶۷.

[۱۲۵] (۶) الكهف، ۵۴.

[۱۲۶] (۷) الأحزاب، ۷۲.

[۱۲۷] (۸) الزخرف، ۱۹.

[۱۲۸] (۹) المعارج، ۱۹- ۲۱.

[۱۲۹] (۱۰) الإنفطار، ۶.

[۱۳۰] (۱۱) العلق، ۶.

[۱۳۱] (۱۲) سورة التين، ۴.

[۱۳۲] (۱۳) العلق، ۵.

[۱۳۳] (۱) الرحمن، ۳.

[۱۳۴] (۲) الإنشقاق، ۶.

[۱۳۵] (۳) الإسراء، ۷۰.

[۱۳۶] (۱) کلمـة(تلقاء) مصـدر أو اسم مصـدر و جاءت بمعنى المقابلـة و المحاذاة، و فى الآيـة و أمثالها بمعنى الناحيـة و العندیـة و الجهة، أی إننی لا أستطيع تغيير ذلك من ناحيتى، أو من عندى.

[۱۳۷] (۱) لمزيد التوضيح راجع المجلد الثانى من تفسيرنا هذا، ذيل الآية(۵۴) من سورة آل عمران.

[۱۳۸] (۱) إنّ کلمة(متاع) منصوبة بفعل مقدر، و فى الأصل کانت: تتمتعون متاع الحياة الدنيا.

[۱۳۹] (۱) يتّضـح ممّـا قيـل أعلاـه أنّ البـاء فى(به) سـببية، و لكن قـد احتمل البعض أنّها بمعنى(مع)، أى إنّ ماء ينزل من السـماء و يختلط بالنباتات، و ينميها و ينضـجها. إلّا أنّ هـذا الاحتمال الثّانى لا يناسب آخر الآيـة الذى يقول\:i مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ E لأنّ ظاهر هذه الجملة أنّ المقصود هو الاختلاط بين أنواع الأعشاب، لا اختلاط الماء و النبات.

دققوا ذلک.

[۱۴۰] (۱) ينبغى التنبه إلى أن(الحسـنى) فى هـذه الجملـة مبتـدأ مؤخر، و معنى الآيـة هكذا. الحسـنى للذين أحسـنوا، و لذلك فإنّ(زيادة) المعطوفة عليها مرفوعة، و الحسنى صفة للمثوبة المقدّرة، و قد حلّت محلّ الموصوف.

[۱۴۱] (۱) من الممكن، بقرينـة الآيـة السابقة، أن تكون جملة(ترهقهم ذلة) بتقدير: يرهقهم قتر و ذلة)، و بقرينة المقابلة حذفت(قتر) لأجل الاختصار.

[۱۴۲] (۱) إنّ(مکـانکم) فى الواقع مفعول لفعـل مقـدر، و کـانت فى الأصل(ألزموا مكانكم أنتم و شـرکاؤکم حتى تسألوا) و هـذه الجملة فى الحقيقة تشبه الآية(۲۴) من سورة الصافات، حيث تقول i وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ E.

[۱۴۳] (۱)« زيلنا» من مادة التزييل، بمعنى التفريق، قال بعض أرباب اللغة: إن مادتها الثلاثية، زال يزيل، بمعنى الفرقة، لا أنّها من مادة: زال يزول بمعنى الزوال.

[۱۴۴] (۲)(إن) فى الجملة أعلاه مخففة من الثقيلة، و هى للتأكيد و معنى الجملة هو: إنّنا كنّا عن عبادتكم لغافلين.

[۱۴۵] (۱) لقـد جـاء هـذا المضـمون فى روايات متعـددة فى الجزء الأوّل ص ۵۴۳ من تفسـير البرهـان فى ذيل الآيـة(۵۹) من سورة الأنعام.

[۱۴۶] (۱) كاف التشبيه هنا إشارة إلى المطلب الذى ذکر فى آخر جملة من الآية السابقة، و معنى الآية هكذا: كما أنّه ليس بعد الحق إلّا الضلال، كذلك حقّت كلمة ربّك.

[۱۴۷] (۱) يهدّى كانت فى الأصل يهتدى، فبدلت التاء دالا و أدغمت فشددت.

[۱۴۸] (۱) لمزيد الاطلاع راجع المجلد الأوّل الآية(۲۳) و(۲۴) من سورة البقرة.

[۱۴۹] (۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۴۲۲.

[۱۵۰] (۲) سورة ص، ۵.

[۱۵۱] (۳) الإسراء، ۹۷.

[۱۵۲] (۴) سورة سبأ، ۸.

[۱۵۳] (۱) فى الحقيقة هناك جملة مقدرة فى هذه الآية تقديرها:« كأنّهم صم لا يستمعون».

[۱۵۴] (۲) هنا أيضا جمله مقدرة هى: كأنّهم عمى لا يبصرون.

[۱۵۵] (۱) يتّضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ الآية المذكورة تشتمل على قضية شرطية، ذكر شرطها، إلّا أنّ جزاءها مقدر، و جملة:

\i ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ E جملة مستقلة. و تقدير الآية هكذا: أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا كنتم تقدرون على دفعه أو تعدونه أمرا محالا فإذا كان الأمر كذلك(ماذا يستعجل منه المجرمون). و ما احتمله البعض من أن جملة: ماذا يستعجل .. هى جزاء الشرط بعيدا جدا. دققوا ذلك.

[۱۵۶] (۱) فى الواقع، إن فى الجملة أعلاه جملة مقدرة، و هى:(من هول القيامة و العذاب).

[۱۵۷] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۱۵۸] (۱) الحجرات، ۱۴.

[۱۵۹] (۲) الحج، ۴۶.

[۱۶۰] (۱) للاطلاع على هذه الرّوايات، راجع تفسير نور الثقلين الجزء ۲ ص ۳۰۷- ۳۰۸.

[۱۶۱] (۱)(البحيرة) هى الحيوان الذى يلد عدّة مرّات، و(السائبة) هو البعير الذى أنتج عشرة أو اثنى عشر ولدا، و(الوصيلة) كانت تطلق على الغنم إذا ولدت سبعة بطون. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية(۱۰۳) من سورة المائدة.

[۱۶۲] (۱) لقد أرجع البعض ضمير(منه) إلى اللّه، أى إن الآيات التى تتلوها من اللّه، إلّا أن الضمير يرجع إلى الشأن أو القرآن ظاهرا، كما قاله كثير من المفسّرين، أى الآيات التى تتلوها فى كل عمل مهم، أو الآيات التى تتلوها من القرآن.

[۱۶۳] (۱) مجمع البيان الجزء الخامس ص ۱۱۶ ذيل الآية.

[۱۶۴] (۱) الحديد، ۲۳.

[۱۶۵] (۲) الأنعام، ۸۲.

[۱۶۶] (۳) الرعد، ۲۸.

[۱۶۷] (۱) نهج البلاغة، خطبة ۱۹۳. صبحى الصالح.

[۱۶۸] (۲) الأنبياء، ۴۹.

[۱۶۹] (۱) السجدة، ۳۰.

[۱۷۰] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۰۹.

[۱۷۱] (۲) المصدر السابق.

[۱۷۲] (۳) نور الثقلين، الجزء ۲، ص ۳۱۰(باختصار).

[۱۷۳] (۱) هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه ما هو جزاء شرط جملة\i إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ E؟ و من بين الاحتمالات التى طرحوها يبدو للنظر أن اثنين منها هما الأقرب: الأوّل: إنّ جملة\i فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ E هى جزاء الشرط، و إن جملة:

\i فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ E جملة معترضة فصلت بين الشرط و الجزاء.

الثّانى: إنّ الجزاء محذوف و الجمل التالية تدل على ذلك، و التقدير هكذا: فافعلوا ما تريدون فإنّى متوكل على اللّه. فى الواقع، إنّ جملة\i: فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ E من قبيل العلة حلت محل المعلول، و(شركاءكم) فى الجملة التالية إشارة إلى الأصنام، و الواو قبلها بمعنى مع.(فتدبر جيدا).

[۱۷۴] (۱) جواب هذا الشرط محذوف أيضا، و تقديره: فإن توليتم فلا تضرونى، أو: فإن توليتم فأنتم و شأنكم.

[۱۷۵] (۲)« الفلك» بمعنى السفينة، و الفرق بينها و بين السفينة أن سفينة مفرد و جمعها سفائن أم الفلك فإنّها تطلق على المفرد و

الجمع.

[۱۷۶] (۱) ذكرنا تفصيل هذا المطلب فى المجلد الأوّل ذيل الآية(۷) من سورة البقرة.

[۱۷۷] (۱) المراد من الآيات هى تلك الآيات المتعددة المشهورة التى كانت لموسى فى بداية أمره.

[۱۷۸] (۱) الواقع، أنّ للجملة أعلاه محذوف مقدر يفهم من مجموع الكلام، و كانت فى الأصل هكذا: أ تقولون للحق لما جاءكم سحر، أسحر هذا.

[۱۷۹] (۱) لقد بحثنا مفصلا جزئيات مواجهة موسى لفرعون و الفراعنة، و مسائلها الرائعة فى ذيل الآيات(۱۱۳) و ما بعدها من سورة الأعراف من المجلد الخامس، و بحثنا السحر و حقيقته فى المجلد الأوّل ذيل الآية(۱۰۲) سورة البقرة، فراجع.

[۱۸۰] (۱) بعض المفسّرين لم يأخذوا القبلة فى الآية أعلاه بمعنى المقابل، بل فسروها بنفس معناها، اى قبلة الصلاة، و يعتبرون جملة:(و أقيموا الصلاة) شاهدا على ذلك، إلّا أن المعنى الأوّل أنسب لمفهوم الكلمة اللغوى الأصلى، إضافة إلى أن إرادة كلا المعنيين من هذه الكلمة لا إشكال فيه أيضا، كما مر علينا نظير هذا مرارا.

[۱۸۱] (۱) تفسير أبى الفتوح الرازى، الجزء ۶، ص ۲۲۷ ذيل الآية.

[۱۸۲] (۱) نذر جمع نذير، أى المنذر، و هو كناية عن الأنبياء و القادة الإلهيين، أو هى جمع إنذار، بمعنى تحذير و تهديد الغافلين و المجرمين الذى هو من برامج هؤلاء القادة الإلهيين.

و قد اعتبر البعض(ما) جملة\i ما تُغْنِي الْآياتُ E نافية، و البعض جعلها بمعنى الاستفهام الإنكارى، و هى واحدة من حيث النتيجة، إلّا أنّ الظاهر أن(ما) نافية.

[۱۸۳] (۱) إنّ جملة\i كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ E كانت بهذا المعنى: كذلك ننج المؤمنين و كان ذلك حقّا علينا، أى إنّ جملة(حقا علينا) جملة معترضة بين(كذلك) و(ننج المؤمنين). و يحتمل أيضا أن تكون(كذلك) متعلقة بالجملة السابقة، أى جملة\i نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا\E.

[۱۸۴] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۳۴.

[۱۸۵] (۲) مجمع البيان، ذيل الآية(۱۱۸) من تفسير سورة هود.

[۱۸۶] (۱) روح المعانى، ج ۲، ص ۲۰۶.

[۱۸۷] (۲) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۰۶.

[۱۸۸] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۰۶.

[۱۸۹] (۱) شرحنا هذا المعنى و سائر التفاسير التى ذكرت للحروف المقطعة فى القرآن فى بداية سورة البقرة و آل عمران و الأعراف.

[۱۹۰] (۱) فى جملة\i أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ E احتمالان: الأوّل: إنّه على لسان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- كما أشرنا إليه- و التقدير:

دعوتى و أمرى إلّا تعبدوا إلّا اللّه. و الثّانى: أنّه كلام اللّه، و التقدير: آمركم ألّا تعبدوا إلّا اللّه، و لكن جملة\i إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ\E تنسجم مع المعنى الأوّل.

[۱۹۱] (۱) سورة نوح، ۹- ۱۱.

[۱۹۲] (۱) يراجع« تاج العروس» و« مجمع البيان» و« المنار» و« مفردات الراغب» فى هذا الشأن.

[۱۹۳] (۱) سورة آل عمران، ۱۶۹.

[۱۹۴] (۱) نهج البلاغة، من وصية الإمام على عليه السّلام لولده الحسن عليه السّلام.

[۱۹۵] (۱) قد يطلق« العرش» و يراد به« الكرسى» و له مفهوم آخر و قد بيّناه فى ذيل الآية(۲۲۵) من سورة البقرة.

[۱۹۶] (۱) تفسير البرهان، الجزء الثّانى، ص ۲۰۷.

[۱۹۷] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۴۲، نقلا عن روضة الكافى.

[۱۹۸] (۱) آل عمران، ۱۴.

[۱۹۹] (۲) لمزيد من الإيضاح يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية ۱۴ من سورة آل عمران.

[۲۰۰] (۲) نقلا عن تفسير الميزان، ج ۱۰، ص ۱۸۶.

[۲۰۱] (۱) طبقا لهذا التّفسير يكون المقصود ب« من» هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و البيّنة هى القرآن، و الشاهد و يراد به معنى« الجنس» من كل مؤمن صادق و فى مقدمتهم الإمام على أمير المؤمنين عليه السّلام و يعود الضمير فى كلمة« منه» إلى اللّه سبحانه، و يعود الضمير فى كلمة« من قبله» إلى القرآن أو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و مجموع الجملة مبتدأ و خبره محذوف تقديره: كمن ليس كذلك، أو كمن يريد الحياة الدنيا.

[۲۰۲] (۱) راجع تفسير البرهان، و نور الثقلين، و القرطبى، و مجمع البيان، و سائر التفاسير.

[۲۰۳] (۲) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۱۳، و نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۴۶.

[۲۰۴] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۱۳.

[۲۰۵] (۱) ما يقوله المفسّرون من أنّ المراد من هذه الجملة هو الردّ على من كان يقول: إنّ النّبى يكذب على اللّه، بعيد جدّا، لأنّ الآيات السابقة و اللاحقة لا تناسب هذا التّفسير، بل المناسب أنّها تشير إلى الكفار.

[۲۰۶] (۱) المقصود ب« العوج» أى الملتوى، و قد بيّنا شرح ذلك فى ذيل الآية(۴۵) من سورة الأعراف و ينبغى الالتفات إلى أنّ الضمير فى« يبغونها» يعود على سبيل اللّه فهى مؤنث مجازى، أو بمعنى الجادة و الطريقة، فهى مؤنث لفظى، و نقرأ فى سورة يوسف عليه السّلام الآية(۱۰۸\)i قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ E.

[۲۰۷] (۱) العنكبوت، ۲۳.

[۲۰۸] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، الصفحة ۲۱۶.

[۲۰۹] (۱) مع أنّ الأليم صفة للعذاب عادة، و لكن فى الآية السابقة وقع صفة ل« يوم»، و هذا نوع من الإسناد المجازى اللطيف الذى نجده فى مختلف اللغات فى أدبياتها.

[۲۱۰] (۱) و هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الجملة، و هو أن مراد نوح عليه السلام: إن الذين آمنوا بى إذا كانوا كاذبين فى الباطن فإنهم سيلاقون ربهم يوم القيامة و هو يحاسبهم، و لكن الاحتمال المذكور أقرب للصحة.

[۲۱۱] (۱) لمزيد من الإيضاح يراجع ذيل الآية(۵۰) من سورة الأنعام و ذيل الآية(۱۸۸) من سورة الأعراف.

[۲۱۲] (۱) المنار، ج ۱۲، ص ۶۷.

[۲۱۳] (۱) المجرى و المرسى: اسما زمان، و يعنى الأوّل وقت التحرك، و الثّانى وقت التوقف.

[۲۱۴] (۱) الأعراف، ۱۲۷.

[۲۱۵] (۱) سفينة البحار ص ۶۶۳ الجزء الأول.

[۲۱۶] (۲) دعاء أبى حمزة الثمالى.

[۲۱۷] (۱) عيون الأخبار، ج ۱، ص ۲۱۱.

[۲۱۸] (۲) المعجم الكبير بخط الحافظ الطبرانى، صفحة ۳۰ مخطوط.

[۲۱۹] (۳) المصدر نفسه عن جماعة من أهل السنة كابن المغازلى و الخوارزمى، الجزء التاسع من أحقاف الحق، ص ۲۸۰ لمزيد الإيضاح جديدة.

[۲۲۰] (۱) راجع مجمع البيان، ح ۵، ص ۱۶۵، و روح المعانى، ج ۱۲، صفحة ۵۷.

[۲۲۱] (۲) راجع مجمع البيان، و روح المعانى، و القرطبى، ذيل الآية محل البحث.

[۲۲۲] (۱) أعلام القرآن للغزائلى، ص ۲۸۱.

[۲۲۳] (۱) تفسير الصافى ذيل الآية المتقدمة.

[۲۲۴] (۲) سفينة البحار، ج ۲، ص ۳۱۸.

[۲۲۵] (۳) وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۵۳.

[۲۲۶] (۴) بحار الأنوار، الطبعة القديمة ج ۱۵ قسم الأخلاق.

[۲۲۷] (۱) أصول الكافى، ج ۲، ص ۱۶۴.

[۲۲۸] (۲) سفينة البحار، ج ۲، ص ۶۹۱.

[۲۲۹] (۱)« المدرار» كما وضحنا سابقا مشتق من« درّ» و هو انصباب حليب الأثداء، ثمّ استعمل فى انصباب المطر، و الطريق فى الآية أنّها لا تعبر ب« ينزل المطر من السماء» بل قالت\:i يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً\E بمعنى أنّ المطر يهطل إلى درجة غزيرة حتى كأنّ السماء تهطل، و ملاحظة أنّ مدرارا صيغة مبالغة أيضا فيستفاد غاية التوكيد من هذه الجملة.

[۲۳۰] (۱) سورة نوح، الآيات ۹- ۱۲.

[۲۳۱] (۱) مجمع البيان، ج ۱، ص ۳۶۱.

[۲۳۲] (۱) و هى فى السور التالية: ۱- ابراهيم، الآية ۷؛ ۲- لقمان، الآية ۳۴؛ ۳- فصلت، الآية ۵۰؛ ۴- هود، الآية ۵۶.

[۲۳۳] (۱) يراجع فى هذا الصدد تاج العروس للزبيدى و المفردات للراغب مادة(جبر) و(كبر) و مجمع البيان و تفسير البيان ذيل الآية محل البحث و آيات سورة الحشر الأخيرة.

[۲۳۴] (۱) راجع تفسير الميزان، تفسير مجمع البيان، و كتاب أعلام القرآن.

[۲۳۵] (۱) إنّ كلمة« بعدا» من الناحية النحوية مفعول مطلق للجملة المقدّرة(المحذوفة)« أبعدهم اللّه» و على القاعدة ينبغى أن يكون هذا المفعول المطلق للجملة المقدرة(إبعادا، لا بعدا) لأنّه مصدر« أبعد» لكن قد يأتى المصدر الثّلاثى مكان الرباعى كما فى قوله تعالى\:i وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً\E.

[۲۳۶] (۱) سورة الحجر، ۸۲.

[۲۳۷] (۱) مثل هذه الإضافة يقال لها فى المصطلح الأدبى إضافة تشريفية. بمعنى أنّها إضافة تدل على شرف الشىء و أهميته، و فى الآية المتقدمة يلاحظ نموذجان من هذا النوع ۱- ناقة اللّه. ۲- أرض اللّه. و قد ورد فى موارد أخرى غير هذه الكلمات.

[۲۳۸] (۲) الشعراء، ۱۵۵.

[۲۳۹] (۳) القمر، ۲۸.

[۲۴۰] (۴) الشمس، ۱۳.

[۲۴۱] (۱) الشعراء، الآية ۱۴۶- ۱۴۸.

[۲۴۲] (۱) نهج البلاغة، و من كلام له، رقم ۲۰۱.

[۲۴۳] (۲) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۴۰۹.

[۲۴۴] (۳) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۴۱۰.

[۲۴۵] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۴۱۱.

[۲۴۶] (۲) نهج البلاغة، الكلام رقم ۱۲.

[۲۴۷] (۱) الخزى فى اللغة الانكسار الذى يصيب الإنسان سواء من نفسه أو من سواه، و يشمل كل أنواع الذل أيضا.

[۲۴۸] (۱) فى المجلد الخامس من التّفسير الأمثل وردت توضيحات مفيدة لفهم هذا المقصود.

[۲۴۹] (۱) فصلت، الآية ۱۳.

[۲۵۰] (۱) سورة يس، ۴۹.

الجزء السابع

[تتمة سورة هود]

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۹ الى ۷۳]

اشارة

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (۶۹) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (۷۱) قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (۷۲) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (۷۳)

التّفسير

جانب من حياة محطم الأصنام:

و الآن جاء الدور للحديث عن جانب من حياة «ابراهيم عليه السّلام» هذا البطل العظيم الذى حطم الأصنام، و ما جرى له مع قومه. طبعا كل ذلك مذكور بتفصيل اكثر فى سور اخرى من القرآن غير هذه السورة، كسورة البقرة، و آل عمران، و النساء، و الانعام، و الأنبياء، و غيرها.

و هنا تذكر الآيات قسما من حياته المرتبطة بقصّة «قوم لوط» و عقاب هؤلاء الجماعة الملوّثين بالآثام و العصيان، فتقول فى البداية: وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶

إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى

و هؤلاء الرسل- كما سيتبيّن من خلال الآيات التالية- هم الملائكة الذين أمروا بتدمير مدن قوم لوط، و لكنّهم قبل ذلك جاؤوا الى ابراهيم ليسلموه بلاغا يتضمّن بشرى سارة.

امّا عن ماهية هذه البشرى فهناك احتمالان، و لا مانع من الجمع بينهما.

الاحتمال الاوّل: البشرى بتولّد إسماعيل و إسحاق، لانّ ابراهيم عليه السّلام لم يرزق ولدا بعد عمر طويل، فى حين كان يتمنى ان يرزق ولدا او أولادا يحملون لواء النبوّة، فإبلاغهم له بتولد إسماعيل و إسحاق بعد بشارة عظمى.

و الاحتمال الثّانى: انّ ابراهيم كان مستاء ممّا وجده فى قوم لوط من الفساد و العصيان، فحين اخبروه بأنّهم أمروا بهلاكهم سرّ، و كان هذا الخبر بشرى له.

فحين جاءوا ابراهيم قالُوا سَلاماً فأجابهم ايضا و قالَ سَلامٌ و رحّب بهم فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ.

«العجل» فى اللغة ولد البقر و «الحنيذ» معناه المشوى، و احتمل بعضهم انّ ليس كل لحم مشوى يطلق عليه انّه حنيذ، بل هو اللحم المشوىّ على الصخور الى جنب النّار دون ان تصيبه النّار، و هكذا ينضج شيئا فشيئا.

و يستفاد من هذه الجملة انّ من آداب الضيافة ان يعجل للضيف بالطعام، خاصّة إذا كان الضيف مسافرا، فإنّه غالبا ما يكون متعبا و جائعا و بحاجة الى طعام، فينبغى ان يقدم له الطعام عاجلا ليخلد الى الراحة.

و ربّما يقول بعض المنتقدين: أ ليس هذا العجل كثيرا على نفر معدود من الأضياف، و لكن مع ملاحظة انّ القرآن لم يذكر عدد هؤلاء الأضياف اوّلا، و هناك اقوال فى عددهم، فبعض يقول: كانوا ثلاثة، و بعض يقول: اربعة، و بعض يقول:

كانوا تسعة، و بعض قال: احد عشر، و يحتمل ان يكونوا اكثر من ذلك.

و ثانيا: فإنّ ابراهيم كان له اتباع و عمال و جيران، و هذا الأمر متعارف ان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷

يصنع مثل هذا عند الضيافة و يكون فوق حاجة الأضياف ليأكل منه الجميع ..

و لكن حدث لإبراهيم حادث عجيب مع أضيافه عند تقديم العجل الحنيذ لهم، فقد رآهم لا يمدّون أيديهم الى الطعام، و هذا العمل كان مريبا له و جديدا عليه، فأحسّ بالاستيحاش و استغرب ذلك منهم فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً.

و من السنن و العادات القديمة الّتى لا تزال قائمة بين كثير من الناس الذين لهم التزام بالتقاليد الطيبة للاسلاف. هى انّ الضيف إذا تناول من طعام صاحبه (و بما اصطلح عليه: تناول من ملحه و خبزه) فهو لا يكنّ له قصد سوء، و على هذا فإنّ من له قصد سوء مع احد- واقعا- يحاول الّا يأكل من طعامه «و خبزه و ملحه» و من هذا المنطلق شك ابراهيم فى نيّاتهم، و أساء الظن بهم، و احتمل انّهم يريدون به سوءا.

امّا الرسل فإنّهم لمّا اطلعوا على ما فى نفس ابراهيم، بادروا لرفع ما وقع فى نفسه و قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ.

و فى هذه الحال كانت امرأته «سارة» واقفة هناك فضحكت كما تقول الآية وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ

هذا الضحك من سارة يحتمل ان يكون لانّها كانت مستاءة من قوم لوط و فجائعهم، و اطلاعها على قرب نزول العذاب عليهم كان سببا لسرورها و ضحكها.

و هناك احتمال آخر و هو انّ الضحك كان نتيجة لتعجبها او حتى لاستيحاشها ايضا، لانّ الضحك لا يختص بالحوادث السارّة بل يضحك الإنسان- أحيانا- من الاستياء و شدة الاستيحاش، و من أمثال العرب فى هذا الصدد «شر الشدائد ما يضحك».

او انّ الضحك كان لانّ الأضياف لم يتناولوا الطعام و لم تصل أيديهم اليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸

بالرغم من اعداده و تهيأته لهم.

و يحتمل ايضا انّ ضحكها لسرورها بالبشارة بالولد. و ان كان ظاهر الآية ينفى هذا التّفسير، لانّ البشرى بإسحاق كانت بعد ضحكها، الّا ان يقال: انّهم بشروا ابراهيم اوّلا بالولد، و احتملت سارة ان سيكون الولد منها فتعجبت، و انّه هل يمكن لامرأة عجوز و فى هذه السن ان يكون لها ولد من زوجها؟ لذلك سألتهم بتعجب فأجابوها بالقول: نعم، و هذا الولد سيكون منك. و التأمل فى سورة الذاريات بهذا الشأن يؤكّد ذلك.

و ينبغى الالتفات هنا الى انّ بعض المفسّرين يصرون على انّ «ضحكت» مشتقة من «ضحك» بمعنى العادة النسائية و هى «الحيض» و قالوا: انّ سارة بعد ان بلغت سنّ اليأس أتتها العادة فى هذه اللحظة و حاضت، و العادة الشهرية تدل على إمكان انجاب الولد، و لذلك فحين بشرت بإسحاق أمكنها ان تصدّق ذلك تماما ... و هؤلاء المفسّرون استندوا فى قولهم الى لغة العرب، حيث قالوا فى هذا

الصدد: ضحكت الأرنب، اى حاضت.

و لكن هذا الاحتمال مستبعد من جهات مختلفة:

اوّلا: لانّه لم يسمع انّ هذه «المادة» استعملت فى الإنسان بمعنى الحيض فى اللغة العربية، و لهذا فإنّ الراغب حين يذكر هذا المعنى فى مفرداته يقول بصراحة:

انّ هذا ليس تفسير جملة فضحكت كما تصوّره بعض المفسّرين، بل معناها هو الضحك المألوف، و لكنّها حاضت و هى فى حال الضحك ايضا، و لذلك وقع الخلط بينهما.

ثانيا: إذا كانت هذه الجملة بمعنى حصول العادة النسائية فلا ينبغى لسارة ان تتعجب من البشرى بالولد «إسحاق» لانّه- و الحال هذه- لا غرابة فى الانجاب، فى حين نستفيد من الجمل الاخرى انّها لم تتعجب من الانجاب فحسب، بل صرخت و قالت: يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹

و على كل حال فإنّ هذا الاحتمال فى الآية يبدو بعيدا جدّا.

ثمّ تضيف الآية انّ إسحاق سيعقبه ولد من صلبه اسمه يعقوب: فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ

الواقع انّ الملائكة بشّروها بالولد و بالحفيد، فالاوّل إسحاق و الثّانى يعقوب، و كلاهما من أنبياء اللّه.

و مع التفات «سارة» امراة ابراهيم الى كبر سنّها و سن زوجها فإنّها كانت آيسة من الولد بشدّة، فاستنكرت بصوت عال متعجبة من هذا الأمر و قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ

و كان الحق معها، لانّه طبقا للآية (۲۹) من سورة الذاريات، فإنّها كانت فى شبابها عاقرا، و حين بشرت بالولد كان عمرها- كما يقول المفسّرون و تذكره التوراة فى سفر التكوين- تسعين عاما او اكثر، امّا زوجها ابراهيم عليه السّلام فكان عمره مائة عام او اكثر.

و هنا ينقدح سؤال و هو: لم استدلت سارة على عدم الانجاب بكبر سنّها و كبر سنّ زوجها، فى حين اننا نعلم انّ النساء عادة يصبحن آيسات بعد الخمسين لانقطاع «الحيض» او «العادة» و احتمال الانجاب فى هذه المرحلة بالنسبة لهنّ ضعيف، امّا الرجال فقد أثبتت التجارب الطبيعية انّهم قادرون على الانجاب لسنين أطول ...؟

و الجواب على هذا السؤال واضح: فإنّ الرجال و ان كانوا قادرين على الانجاب، و لكن يضعف احتماله كلما طعنوا فى السنّ و لذا فطبقا للآية (۵۴) من سورة الحجر نجد ابراهيم نفسه متعجبا من هذه البشرى لكبر سنّه، أضف الى ذلك فإنّ سارة من الناحية النفسية لعلها لم تكن فى الانفراد بهذه المشكلة (العقم) و أرادت اقحام زوجها معها.

و على كل حال فإنّ رسل اللّه أزالوا التعجب عنها فورا و ذكّروها بنعم اللّه «الخارقة للعادة» عليها و على أسرتها و نجاتهم من الحوادث الجمة، فالتفتوا إليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰

و قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۱] ....

ذلك الربّ الذى نجّى ابراهيم من مخالب نمرود الظالم، و لم يصبه سوء و هم فى قلب النار، هو ذلك الرّب الذى نصر ابراهيم محطم الأصنام- و هو وحيد- على جميع الطواغيت، و ألهمه القدرة و الاستقامة البصيرة.

و هذه الرحمة الالهية لم تكن خاصّة بذلك اليوم فحسب، بل هى مستمرة فى اهل هذا البيت، و اى بركة أعظم من وجود رسول اللّه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الائمّة الطاهرين عليهم السّلام فى هذه الاسرة و فى هذا البيت بالذات.

و استدل بعض المفسّرين بهذه الآية على انّ الزوجة تعدّ من «أَهْلَ الْبَيْتِ» ايضا، و لا يختص هذا العنوان بالولد و الأب و الام. و هذا الاستدلال صحيح طبعا، و حتى مع غضّ النظر عن الآية هذه، فإنّ كلمة «اهل» من حيث المحتوى تصحّ بهذا المعنى، و لكن لا مانع

ابـدا ان یخرج جماعة من اهل بیت النّبوة من الناحیة المعنویة بسـبب انحرافهم من اهل البیت «و سـیأتی فرید من الإیضاح و الشـرح فی هذا الصدد ان شاء اللّه ذیل الآیة ۳۳ من سورة الأحزاب».

و قال ملائکة اللّه لمزید التأکید علی بشارتهم و کلامهم فی شأن اللّه إِنَّهُ حَمِیدٌ مَجِیدٌ.

الواقع انّ ذکر هاتین الصـفتین للّه تعالی علی الجملة السابقة، لانّ کلمة «حمید» تعنی من له اعمال ممدوحة و تستوجب الثناء و الحمد، و قد جاء صفة للّه لیشیر الی نعمه الکثیرة علی عباده لیحمد علیها، و امّا کلمة «مجید» فتطلق علی من یهب النعم حتی قبل استحقاقها.

تری هل من العجیب علی ربّ له هذه الصفات ان یعطی مثل هذه النعمة العظیمة ... ای الأبناء الصالحین لنبیّه الکریم؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۷۴ الی ۷۶]

اشارة

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِیمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْری یُجادِلُنا فِی قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْراهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوَّاهٌ مُنِیبٌ (۷۵) یا إِبْراهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ (۷۶)

التّفسیر

رأینا فی الآیات السابقـة انّ ابراهیم عرف فورا انّ أضـیافه الجـدد لم یکونوا افرادا خطرین او یخشـی منهم، بل کانوا رسل الله علی حد تعبیرهم، لیؤدوا وظیفتهم التی أمروا بها فی قوم لوط.

و لمّا ذهب الهلع و الخوف عن ابراهیم من أولئک الأضـیاف، و من ناحیة اخری فقد بشـروه بالولید السعید، شرع فورا بالتفکیر فی قوم لوط الـذین أرسـل إلیهم هؤلاـء الرسـل «الملائکـة» فأخـذ یجـادلهم و یتحـدث معهم فی أمرهم فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِیمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْری یُجادِلُنا فِی قَوْمِ لُوطٍ[۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲

و هنا یمکن ان ینقدح هذا السؤال، و هو: لم تباحث ابراهیم علیه السّلام مع رسل اللّه و جادلهم فی قوم آثمین ظالمین- کقوم لوط- و قد أمروا بتدمیرهم، فی حین انّ هذا العمل لا یتناسب مع نبیّ- خاصّة إذا کان ابراهیم علیه السّلام فی عظمته و شأنه؟

لهذا فإنّ القرآن یعقّب مباشرة فی الآیة عن شفقة ابراهیم و توکله علی اللّه فیقول إِنَّ إِبْراهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوَّاهٌ مُنِیبٌ ۳].

فی الواقع هـذه الکلمات الثلاث المجملـة جواب علی السؤال المشار الیه آنفا. و توضـیح ذلک: انّ هـذه الصـفات المـذکورة لإبراهیم تشـیر الی انّ مجادلته کانت ممدوحة، و ذلک لانّ ابراهیم لم یتّضح له انّ امر العذاب صادر من قبل اللّه بصورة قطعیة، بل کان یحتمل انّه لا یزال لهم حظ فی النجاة، و یحتمل انّهم سیرتدون عن غیهم و یتّعظون، و من هنا فما زال هناک مجال للشفاعة لهم ... فکان راغبا فی تأخیر العذاب و العقاب عنهم، لانّه کان حلیما، و مشفقا و اوّاها و منیبا الی اللّه.

فما ذکره البعض من انّ مجادلة ابراهیم إذا کانت مع اللّه فلا معنی لها، و إذا کانت مع رسله فهم ایضا لا یسـتطیعون ان یفعلوا شیئا من أنفسهم، فعلی کل حال فالمجادلة هذه غیر صحیحة- مجانب للصواب.

و الجواب: انّه لاـ کلاـم فی الحکم القطعی، امّا لو کان الحکم غیر قطعی فمع تغییر الظروف و تبـدل الأوضاع یمکن تغییره، لانّ طریق الرجوع لا زال مفتوحا، و بتعبیر آخر: فإنّ الأوامر فی هذه الحالة مشروطة لا مطلقة.

و امّیا من احتمـل انّ المجادلـة کـانت مع الرسل فی شأن نجاة المؤمنین، و استشـهدوا علی هـذا القول بالآیتین (۳۱) و (۳۲) من سورة

العنکبوت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِیمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِکُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْیَةِ إِنَّ أَهْلَها کانُوا ظالِمِینَ، قالَ إِنَّ فِیها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِیها لَنُنَجِّیَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ کانَتْ مِنَ الْغابِرِینَ

فهذا الاحتمال غیر صحیح ایضا، و لا ینسجم مع الآیة التی تأتی بعدها و هی محل و تقول الآیة التالیة: انّ الرسل قالوا لإبراهیم- مباشرة- ان اعرض عن اقتراحک لانّ امر ربّک قد تحقق و العذاب نازل لا محالة.

یا إِبْراهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ.

و التعبیر «ربّک» لا یدل على انّ هذا العذاب خلو من الطابع الانتقامی فحسب، بل یدل ایضا على انّه علامة لتربیة العباد و إصلاح المجتمع الانسانی.

و ما نقرؤه فی بعض الرّوایات انّ ابراهیم علیه السّلام قال لرسل اللّه: إذا کان بین هؤلاء القوم مائة مؤمن فهل یعذب المؤمنون؟ قالوا: لا. فقال: إذا کان بینهم خمسون مؤمنا؟ فقالوا: لا ایضا. قال: فإذا کان بینهم ثلاثون مؤمنا؟ قالوا: لا. قال:

فإذا کان بینهم عشرة؟ قالوا: لا. قال: فإذا کان بینهم خمسة؟ قالوا: لا. قال: فإذا کان بینهم مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: فإنّ فیها لوطا. قالوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِیها لَنُنَجِّیَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ۴] ... إلخ.

فمثل هذه الرّوایة لا تدل بوجه مطلق على انّ المجادلة اقتصرت على هذا الکلام، بل کان ذلک منه بالنسبة الى المؤمنین، و هو شیء آخر غیر مجادلته عن الکفار. و من هنا یتّضح انّ الآیات التی وردت فی سورة العنکبوت لا تنافی هذا التّفسیر ایضا «فتدبّر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۷۷ الى ۸۰]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا یَوْمٌ عَصِیبٌ (۷۷) وَ جاءَهُ قَوْمُهُ یُهْرَعُونَ إِلَیْهِ وَ مِنْ قَبْلُ کانُوا یَعْمَلُونَ السَّیِّئاتِ قالَ یا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ (۷۸) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِی بَناتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ ما نُرِیدُ (۷۹) قالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّةً أَوْ آوِی إِلى رُکْنٍ شَدِیدٍ (۸۰)

التّفسیر

قوم لوط و حیاة الخزی:

مرّت فی آیات من سورة الأعراف اشارة الى شیء من مصیر قوم لوط، و فسّرنا ذلک فی محلّه، و هنا یتناول القرآن الکریم- و بمناسبة ما ذکره من قصص الأنبیاء و اقوامهم و بما ورد فی الآیات المتقدمة عن قصّة لوط و قومه- قسما آخر من حیاة هؤلاء القوم المنحرفین الضالین لیتابع بیان الهدف الاصلی الا و هو سعادة المجتمع الانسانی و نجاته بأسره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵

یبیّن القرآن الکریم فی هذا الصدد اوّلا ... انّه لما جاءت رسلنا لوطا طار هلعا و ضاق بهم ذرعا و أحاط به الهمّ من کل جانب وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً.

و قد ورد فی الرّوایات الاسلامیة انّ لوطا کان فی مزرعته حیث فوجئ بعدد من الشباب الوسیمین الصباح الوجوه قادمون نحوه و راغبون فی النّزول عنده و لرغبته باستضافتهم من جهة، و لعلمه بالواقع المریر الذی سیشهده فی مدینته الملوّثة بالانحراف الجنسی من جهة أخری، کل ذلک أوجب له الهم ...

و مرّت هذه المسائل علی شکل أفکار و صور مرهقة فی فکره، و تحدث مع نفسه وَ قالَ هذا یَوْمٌ عَصِیبٌ

لاحتمال الفضیحة و التورط فی مشاکل عویصة کلمة (سیئ) مشتقّة من ساء، و معناها عدم الارتیاح و سوء الحال، و «الذرع» تعنی «القلب» علی قول، و قال آخرون: معناها «الخلق» فعلی هذا یکون معنی ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً انّ قلبه أصیب بتأثر شدید لهؤلاء الأضیاف غیر المدعوین فی مثل هذه الظروف الصعبة.

و لکن بحسب ما ینقله «الفخر الرازی» فی تفسیره عن «الازهری» انّ الذرع فی هذه الموارد یعنی «الطاقة» و فی الأصل معناه الفاصلة بین اذرع البعیر أثناء سیره.

و طبیعی حین یحمل البعیر اکثر من طاقته فإنّه یضطر الی تقریب خطواته و تقلیل الفاصلة بین خطواته، و بهذه المناسبة و بالتدریج استعمل هذا المعنی فی عدم الارتیاح و الاستثقال من الحوادث.

و یستفاد من بعض کتب اللغة ککتاب (القاموس) انّ هذا التعبیر انّما یستعمل فی شدة الحادثة بحیث یجد الإنسان جمیع الطرق بوجهه موصدة.

و کلمة «عصیب» مشتقّة من «العصب» علی زنة «الکلب» و معناه ربط الشیء بالآخر و شده شدّا محکما، و حیث انّ الحوادث الصعبة تشدّ الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶

و کأنّها تسلبه راحته فیظل مبلبل الأفکار سمّیت «عصیبة» و تطلق العرب علی الایّام شدیدة الحر انّها عصیبة ایضا.

و علی کل حال، فإنّ لوطا لم یجد بدا من ان یأتی بضیوفه الی البیت و یقوم بواجب الضیافة و لکنّه حدّثهم فی الطریق- عدة مرّات- انّ اهل هذه المدینة منحرفون و اشرار لیکونوا علی حذر منهم.

و نقرا فی احدی الرّوایات انّ اللّه سبحانه امر ملائکته ان لا یعذبوا قوم لوط حتی یعترف لوط علیهم ثلاث مرّات، و معنی ذلک انّه حتی فی تنفیذ حکم اللّه بالنسبة لقوم ظالمین لا بدّ من تحقق موازین عادلة فی المحاکمة، و قد سمع رسل اللّه شهادة لوط فی قومه ثلاث مرّات أثناء الطریق ۵].

و ورد فی بعض الرّوایات انّ لوطا اخّر ضیوفه کثیرا حتی حلول اللیل، فلعله یستطیع ان یحفظ ماء وجهه من شرور قومه، و یقوم بواجب الضیافة دون ان یساء الی أضیافه. و لکن ما عسی ان یفعل الإنسان إذا کان عدوه داخل بیته، و کانت امراة لوط امراة کافرة و تساعد قومه الظالمین، و قد اطلعت علی ورود هؤلاء الأضیاف الی بیتها، فصعدت الی أعلی السطح و صفقت بیدیها اوّلا، ثمّ بإشعال النّار و تصاعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأنّ طعمة دسمة قد وقعت فی «الشباک»[۶].

یقول القرآن الکریم فی هذا الصدد وَ جاءَهُ قَوْمُهُ یُهْرَعُونَ إِلَیْهِ ۷] و کانت حیاة هؤلاء القوم مسودّة و ملطخة بالعار وَ مِنْ قَبْلُ کانُوا یَعْمَلُونَ السَّیِّئاتِ فکان من حق لوط ان یضیق ذرعا یصرخ ممّا یری من شدّة استیائه و قالَ یا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فأنا مستعد ان أزوجهن ایّاکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ یصدکم عن هذه الأعمال المخزیة و ینصحکم بالإقلاع عنها.

و لکن هؤلاء القوم المفسدین أجابوا لوطا بکل وقاحة و عدم حیاء و قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِی بَناتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ ما نُرِیدُ.

و هنا وجد لوط هذا النّبی العظیم نفسه محاصرا فی هذه الحادثة المریرة فنادی و قالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّةً او سند من العشیرة و الاتباع و

المعاهدين الأقوياء حتى أتغلّب عليكم أَوْ آوِی إِلی رُكْنٍ شَدِيدٍ.

ملاحظات

۱- العبارة التى قالها لوط عند هجوم القوم على داره و أضيافه- هؤُلاءِ بَناتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فتزوجوهنّ انّ شئتم فهنّ حلال لكم و لا ترتكبوا الإثم و الذنب و قد- أثارت هذه العبارة بين المفسّرين عدّة اسئلة:

اوّلا: هل المراد من هؤُلاءِ بَناتِی بنات لوط على وجه الحقيقة و النسب؟! فى حين انّ عددهن- و طبقا لما ينقل التاريخ- ثلاث او اثنتان فحسب، فكيف يعرض تزويجهن على هذه الجماعة الكثيرة؟! ام انّ المراد من قوله هؤُلاءِ بَناتِی بنات «القبيلة» و المدينة، و عادة ينسب كبير القوم و رئيسهم بنات القبيلة اليه و يطلق عليهنّ «بناتى».

الاحتمال الثّانى يبدو ضعيفا لانّه خلاف الظاهر.

و الصحيح هو الاحتمال الاوّل، لانّ الذين هجموا على داره و أضيافه كانوا ثلّة من اهل القرية لا جميعهم فاقترح عليهم لوط ذلك الاقتراح، أضف الى ذلك انّ لوطا كان يريد ان يبدى منتهى إيثاره و تضحيته لحفظ ماء وجهه و ليقول لهم:

انّى مستعد لتزويجكم من بناتى لتقلعوا عن آثامكم و تتركوا اضيافى فلعل هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸

الإيثار المنقطع النظير يردعهم و يوقظ ضمائرهم الذى غطته السيئات.

ثانيا: هل يجوز تزويج البنات المؤمنات أمثال بنات لوط من الكفار حتى يقترح عليهم لوط ذلك؟! و قد أجيب على هذا السؤال من طريقين.

الاوّل: انّ مثل هذا الزواج فى مذهب لوط- كما كان فى بداية الإسلام- لم يكن محرما، و لذلك فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم زوّج ابنته زينب من أبى العاص قبل ان يسلم، و لكن هذا الحكم نسخ بعدئذ[۸].

الثّانى: انّ المراد من قول لوط عليه السّلام كان زواجا مشروطا بالايمان، اى هؤلاء بناتى فتعالوا و آمنوا لازوجهن ايّاكم.

و يتّضح انّ الاشكال على النّبى لوط- من انّه كيف يزوج بناته المطهرات من جماعة أوباش- غير صحيح، لانّ عرضه عليهم ذلك الزواج كان مشروطا بالايمان و ليثبت منتهى علاقته بهدايتهم.

۲- ينبغى الالتفات الى انّ كلمة «اطهر» لا تعنى بمفهومها انّ عملهم المخزى و السيء كان «طاهرا» و لكن الزواج من البنات «اطهر»، بل هو تعبير شائع فى لسان العرب- و لغات اخرى- فى المفاضلة و المقايسة بين أمرين، مثلا- يقال لمن يسوق بسرعة رعناء «الوصول المتأخّر خير من عدم الوصول ابدا» او «الاعراض من الطعام المشكوك أفضل من إلقاء الإنسان بيده الى التهلكة» و نقرا فى بعض الرّوايات مثلا انّ الامام الصادق عليه السّلام حين يشعر بالخطر الشديد و «التقيّة» من خلفاء بنى العباس

يقول «و اللّه لئن أفطر يوما من شهر رمضان احبّ الىّ من أن تضرب عنقى»[۹].

مع انّه لا القتل محبوب و لا هو امر حسن بنفسه، و لا عدم الوصول ابدا، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹

أمثالهما.

۳- تعبير لوط أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ فى آخر كلامه مع قومه المنحرفين يكشف عن هذه الحقيقة، و هى انّ وجود رجل- و لو رجل واحد رشيد- بين قوم ما و قبيلة ما يكفى لردعهم من اعمالهم المخزية، اى لو كان فيكم رجل عاقل ذو لبّ و رشد لمّا قصدتم بيتى ابتغاء الاعتداء على ضيفى! هذا التعبير يوضح بجلاء اثر «الرّجل الرّشيد» فى قيادة المجتمعات الانسانية، و هو الواقع الذى وجدنا نماذج كثيرة منه على امتداد التاريخ.

۴- من العجيب انّ هؤلاء القوم المنحرفين الضالين قالوا للوط: ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ و هذا التعبير كاشف عن غاية الانحراف فى هذه الجماعة، اى انّ مجتمعا منحرفا ملوثا بلغ حدّا من العمى بحيث يرى الباطل حقّا و الحقّ باطلا!! فالزواج من البنات المؤمنات الطاهرات لا يعدّ حقا عندهم، و على العكس من ذلك يعدّ الانحراف الجنسى عندهم حقّا.

انّ الاعتياد و التطبع على الإثم و الذنب يكون فى مراحله النهائية و الخطرة عند ما يتصور انّ اسوا الأعمال و أخزاها هى «حق عند صاحبها» و انّ أنقى الاستمتاع الجنسى و اطهره امر غير مشروع.

۵- و

نقرا فى حديث للإمام الصّادق عليه السّلام فى تفسير الآيات المتقدمة انّ المقصود بالقوّة هو القائم من آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انّ «الركن الشديد» هم أصحابه الذين عددهم (۳۱۳) شخصا[۱۰].

و قد تبدو هذه الرّواية عجيبة و غريبة إذ كيف يمكن الاعتقاد انّ لوطا كان يتمنّى ظهور مثل هذا الشخص مع أصحابه المشار إليهم آنفا.

و لكن التعرف على الرّوايات الواردة فى تفسير آيات القرآن حتى الآن يعطينا مثل هذا الدرس، و هو انّ قانونا كليا يتجلى غالبا فى مصداقه البارز، ففى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰

الواقع انّ لوطا كان يتمنّى ان يجد قوما و رجالا لديهم تلك القدرة و القوّة الروحيّة و الجسمية الكافية لإقامة حكومة العدل الالهية ... كما هى موجودة فى اصحاب المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» الذين يشكلون حكومة عالمية حال ظهور الامام المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» و قيامه، لينهض بهم و يواجه الانحراف و الفساد فيزيله عن بكرة أبيه و يبير هؤلاء القوم الذين لا حياء لهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸۱ الى ۸۳]

اشارة

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (۸۱) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (۸۳)

التّفسير

عاقبة الجماعة الظّالمة:

و أخيرا حين شاهد الملائكة رسل الله الأضياف ما عليه لوط من العذاب النفس كشفوا «ستارا» عن اسرار عملهم و قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ

الطريف هنا انّ ملائكة اللّه لم يقولوا: لن يصلنا سوء و ضرر، بل قالوا: لن يصلوا إليك يا لوط فيؤذوك و يسيئوا إليك! و هذا التعبير امّا لأنّهم كانوا يحسبون انّهم غير منفصلين عن لوط لانّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲

أضيافه على كل حال، و هتك حرمتهم هتك لحرمة لوط. او لانّهم أرادوا ان يفهموا لوطا بأنّهم رسل اللّه، و انّ عدم وصول قومه إليهم بالاساءة امر مسلّم به، بل حتى لوط نفسه الذى هو رجل من جنس أولئك لن يصلوا اليه بسوء، و ذلك بلطف اللّه و فضله.

نقرا فى الآية (۳۷) من سورة القمر وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ و هذه الآية تدل على ان هؤلاء الجماعة الذين أرادوا السوء بأضياف لوط، فقدوا بصرهم بإذن اللّه، فلم يستطيعوا الهجوم عليهم. و نقرا فى بعض الرّوايات- ايضا- انّ احد الملائكة غشّى وجوههم بحفنة من التراب فعموا جميعا.

و على كل حال، فاطلاع لوط عليه السّلام على حال أضيافه و مأموريتهم نزل كالماء البارد على قلبه المحترق و احسّ بلحظة واحدة ان ثقلا كبيرا من الغمّ و الحيرة قد ازيل عن قلبه، و أشرقت عيناه بالسرور و البهجة، و علم انّ مرحلة الغم و الحيرة أشرفت على الانتهاء، و دنا زمن السرور و النجاة من مخالب هؤلاء القوم المنحرفين المتوحشين.

ثمّ امر الأضياف لوطا- مباشرة- ان يرحل هو و اهله من هذه البلدة و قالوا:

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ۱۱].

و لكن كونوا على حذر وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ الى الوراء إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ لتخلّفها عن امر اللّه و عصيانهم مع العصاة الظلمة.

و فى قوله تعالى: لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ عند المفسّرين احتمالات عديدة.

الاوّل: لا ينظر احد الى ورائه مديرا وجهه الى الخلف.

الثّانى: لا تفكروا بما تركتم خلفكم من الأموال و وسائل المعاش، انّما عليكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳

ان تنجوا أنفسكم من الهلاك.

الثّالث: لا يتخلف منكم احد عن هذه القافلة الصغيرة.

الرّابع: انّ الأرض ستضطرب حال خروجكم و ستبدأ مقدمات العذاب فاهربوا بسرعة و لا تلتفتوا الى الوراء ...

و لكن لا مانع من الجمع بين هذه الاحتمالات كلها فى الآية[۱۲].

و خلاصة الأمر فإنّ آخر ما قاله رسل اللّه- اى الملائكة- للوط عليه السّلام: انّ العذاب سينزل قومه صباحا. و مع اوّل شعاع للشمس سيحين غروب حياة هؤلاء: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ

و نقرا فى بعض الرّوايات انّ الملائكة حين وعدوا لوطا بنزول العذاب صباحا، سأل لوط الملائكة لشدة ما لقيه من قومه ممّا ساءه، و جرح قلبه و ملأه همّا و غمّا ان يعجلوا عليهم بالعذاب فى الحال فإنّ الأفضل الاسراع، و لكن الملائكة طمأنوه و سرّوا عنه بقولهم: أ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ

و أخيرا دنت لحظة العذاب و تصرّمت ساعات انتظار لوط النّبى عليه السّلام، و كما يقول القرآن الكريم فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ.

و كلمة «سجّيل» فارسية الأصل، و هى مركبة من «سنگ» و معناها الحجارة و «گل» و معناها الطين، فعلى هذا هى شيء صلبا كالحجارة و لا رخوا كالزهرة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴

و انّما هى برزخ «وسط» بينهما.

و «المنضود» من مادة «نضد» و معناه كون الشيء مصفوفا و موضوعا بشكل متتابع و متراكم، اى انّ هذا المطر كان متتابعا سريعا الى درجة حتى كأنّ هذه الأحجار تتراكب بعضها فوق بعض فتكون «منضودة».

و لكن هذه الأحجار ليست أحجارا عادية، بل هى أحجار فيها علامات عند اللّه مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ

و لا تتصوروا انّ هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ.

هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم و ظلموا مجتمعهم، لعبوا بمصير أمتهم كما هزئوا بالايمان و الأخلاق الانسانيّة، و كلّما نصحهم نبيّهم بإخلاص و حرقة قلب لم يسمعوا له و سخروا منه، و بلغت صلافتهم و عدم حيائهم حدّا انّهم أرادوا الاعتداء على ضيوف زعيمهم و يهتكوا حرمتهم.

هؤلاء الذين كانوا قد قلبوا كل شيء يجب ان تنقلب مدينتهم عليهم، و لا يكفى ان يغدو عليها سافلها، بل ليمطروا بوابل من الأحجار تدمّر كل شيء من «معالم الحياة» هناك و لا يبقى منهم سوى صحراء موحشة و قبور مظلمة تحت ركام الأحجار الصغيرة.

و هل انّ الذين ينبغى معاقبتهم هم قوم لوط فحسب؟ قطعا لا. فكل جماعة منحرفة و امّة ظالمة ينتظرها مثل هذا المصير، فتارة تكون تحت وابل الأحجار، و أخرى تحت ضربات القنابل المحرقة، و حينا تحت ضغط الاختلافات الاجتماعية القاتلة، و أخيرا فإنّ لكلّ شكلا من العذاب و صورة معينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵

ملاحظات

۱- لم كان العذاب صباحا

؟ ملاحظة الآيات المتقدمة تثير فى ذهن القارئ هذا السؤال، و هو ايّ اثر للصبح فى هذا الأمر، و لم لم ينزل العذاب فى قلب الليل البهيم؟! ترى هل كان ذلك لانّ الجماعة الذين هجموا على دار لوط فعموا و عادوا الى قومهم و حدثوهم بما جرى لهم، فحينئذ فكر أولئك بما حدث! و انّ اللّه امهلهم الى الصباح لعلهم ينتبهون و يتوبون؟

او انّ اللّه لم يرد الاغارة عليهم فى الليل، و لذلك فقد امر الملائكة ان ينتظروا حتى يحين الصباح؟! لم يرد فى كتب التّفسير شيء من هذا، و لكنّ ما ذكرناه آنفا احتمالات تستحق المطالعة.

۲- لم قلب اللّه عاليها سافلها

؟ قلنا: انّ العذاب ينبغى ان يتناسب مع الإثم، و حيث انّ هؤلاء القوم قلبوا كل شيء عن طريق الانحراف الجنسى فإنّ اللّه جعل مدنهم عاليها سافلها ايضا، و حيث كانوا دائما يتقاذفون بالكلمات البذيئة فيما بينهم، فإنّ اللّه امطرهم بحجارة لتتهاوى على رؤوسهم ايضا.

۳- لماذا الوابل من الأحجار

؟! و هل كان امطارهم بالأحجار الصغيرة قبل انقلاب المدن، او كان مقترنا و متزامنا معها، او بعدها؟! هناك اقوال بين المفسّرين، و الآيات القرآنية لم تصرّح بشيء فى هذا الشأن ايضا، لانّ الجملة عطفت بالواو، و هى لمطلق العطف و لا يستفاد منها الترتيب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶

و لكن بعض المفسّرين- كصاحب المنار- يعتقد انّ مطر الأحجار امّا ان يكون قبل ان يقلب عاليها سافلها، او مقترن مع القلب، و

ذلک لینال بعض الافراد الذین التجأوا الی زاویة او معزل و لم یدفنوا تحت الانقاض جزاءهم العادل و لا تبقی لهم فرصة للهروب.

و الرّوایة التی تقول: انّ امراة لوط حین سمعت الصوت و التفتت لتری ما حدث أصابها حجر فی الحال فقتلها، هذه الرّوایة تدل علی انّ الأمرین «القلب و وابل المطر» حدثا مقترنین.

و لکن لو تجاوزنا عن ذلک فما یمنع ان یکون وابل الأحجار- لتشدید العذاب- بعد قلب المدن عالیها سافلها، لتتواری أرضهم و تنمحی آثارها تماما.

۴- لماذا العلامة المتمیّزة

؟! قلنا: انّ جملة مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ تفهمنا هذه المسألة الدقیقة، و هی انّ هذه الأحجار کانت ذوات علائم خاصّة و ممیّزة عند اللّه سبحانه ... و لکن کیف کانت علاماتها؟ هناک اقوال بین المفسّرین ... فقال بعضهم: کان فی هذه الأحجار علامات تدل علی انّها لیست کسائر الأحجار «العادیة» بل هی خاصّة لنزول العذاب الالهی لئلا تختلط مع سقوط الأحجار الاخری، و لذا قال آخرون: انّ هذه الأحجار لم یکن لها شبه مع أحجار الأرض بل تدل مشاهدة وضعها علی انّها أحجار سماویّة نزلت الی الکرة الارضیة من خارجها.

و قال آخرون: هی علامات فی علم اللّه، انّ کل حجر منها یصیب شخصا بعلامته او یستهدف نقطة معینة، و هی اشارة الی دقة الحساب فی عقاب اللّه و جزائه بحیث یعلم ایّ شخص یصیبه ای حجر! و لیس المسألة اعتباطیّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷

۵- تحریم الانحراف الجنسی

اشارة

یعدّ المیل الجنسی الی المماثل «سواء وقع ذلک بین الرجال او بین النساء» من الذنوب الکبیرة فی الإسلام، و قد جعل الإسلام لکل من الحالتین حدا شرعیا.

فالحدّ الشرعی فی «اللواط» هو القتل فاعلا کان الرجل ام مفعولا. و هناک طرق مبیّنة لهذا القتل فی الفقه الاسلامی، و یجب ان یعوّل علی طرق معتبرة و قطعیة لاثبات هذا الذنب وردت فی الفقه الاسلامی و روایات المعصومین فی هذا المجال. فلا یکفی لاقامة الحد الشرعی- و هو القتل هنا- حتی اقرار المذنب علی نفسه ثلاث مرات، بل یجب ان یقرّ علی نفسه اربع مرات علی الأقل.

و امّا الحدّ علی المراة فی عملیة المساحقة فیکون بعد الإقرار بالذنب علی نفسها اربع مرات، او شهادة اربعة شهود «و بالشرائط المذکورة فی الفقه» مائة جلدة، و قال بعض الفقهاء، إذا کانت المراة التی تقوم بهذا العمل الشنیع ذات بعل فحدّها القتل.

و اقامة هذه الحدود لها شرائط دقیقة ذکرت فی کتب الفقه الاسلامی.

و الرّوایات التی تذم المیل الجنسی الی المماثل و المنقولة عن قادة الإسلام کثیرة و مذهلة و المطالع لهذه الرّوایات یحسّ انّ قبح هذا الذنب لیس له مثیل بین الذنوب.

نقرا مثلا من هذه الرّوایات

روایة عن الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انّه قال: «لمّا عمل قوم لوط ما عملوا بکت الأرض الی ربّها حتی بلغت دموعها السّماء، و بکت السّماء حتی بلغت دموعها العرش، فأوحی اللّه الی السّماء ان احصبیهم و اوحی الی الأرض ان اخسفی بهم»[۱۳].

و نقرا

فی حدیث للإمام الصادق انّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من جامع غلاما جاء

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸

یوم القیامهٔ جنبا لا- ینقّیه ماء الدنیا، و غضب اللّه علیه و لعنه و اعدّ له جهنم و ساءت مصیرا. ثمّ قال: ان الذكر یركب الذكر فیهتز العرش لذلک»[۱۴].

و نقرا

فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام «... و العامل علی هذا من الرجال إذا بلغ أربعین سنهٔ لم یتركه، و هم بقیهٔ سدوم. امّا انی لست اعنی بهم انّهم بقیتهم انّهم ولدهم، و لكنّهم من طینتهم، قال: قلت: سدوم التی قلبت، قال: هی اربع مدائن «سدوم و صریم و الدما و غمیرا» ... او [ولدنا و عمورا] إلخ ....[۱۵].

و نقرا

فی روایهٔ اخری عن الامام امیر المؤمنین علیه السّلام انّه قال: «سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: لعن اللّه المتشبهین من الرجال بالنساء و المتشبهات من النساء بالرجال»[۱۶].

فلسفهٔ تحریم المیول الجنسیهٔ لامثالها

بالرغم من انّ العالم الغربی ملیء بالانحرافات الجنسیهٔ، و انّ هذه الأعمال السیئهٔ قد باتت متعارفهٔ بحیث سمع انّ بعض الدول كبریطانیا و طبقا لقانون صدر بكل وقاحهٔ من المجلس النیابی «البرلمان» فیها یجوز هذا الموضوع «اللواط او السحاق» و لكن شیوع هذه المنكرات لا یخفف من قبحها و من مفاسدها الاخلاقیهٔ و الاجتماعیهٔ و النفسیهٔ.

بعض اتباع المذاهب المادّیهٔ الذین تلوّثوا بمثل هذه المنكرات یقولون: نحن لا نجد محذورا طبیّا فی هذا الأمر.

و لكنّهم لم یلتفتوا لی انّ كل انحراف جنسی له اثره السلبی فی روحیهٔ الإنسان و بنائه النفسی یفقده توازنه.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹

توضیح ذلک، انّ الإنسان الطبیعی و السلیم یمیل الی المخالف من جنسه، ای انّ الرجل یمیل الی المراهٔ، و المراهٔ تمیل الی الرجل، و هذا المیل من اشدّ الغرائز المتجذرهٔ فیه، و الضامن لبقاء نسله، فأیّ عمل یؤدّی الی تحویر هذا المیل الطبیعی عن مساره فسیوجد نوعا من المرض و الانحراف النفسی فی الإنسان.

فالرجل الذی یمیل الی نظیره من جنسه، لیس رجلا كاملا، و قد عدّ هذا الانحراف فی كتب الأمور الجنسیهٔ «هموسكو الیسیم» ای المیل الجنسی للمماثل من أهم الانحرافات.

و الاستمرار علی هذا العمل و ادامته یمیت فی الفرد المیل الجنسی الی المخالف. و الشخص الذی یسلّم نفسه لممارسهٔ هذا العمل معه یشعر شیئا فشیئا «باحساسات المراهٔ» و یورث هذا العمل الطرفین «الفاعل و المفعول» ضعفا مفرطا فی الجنس حتی انّه لا یستطیع بعد مدّهٔ علی المعاشرهٔ الطبیعیهٔ مع جنسه المخالف.

و مع ملاحظهٔ انّ الإحساسات الجنسیّه [بالنسبهٔ للرجل و المراهٔ] لها تأثیرها فی أعضاء بدن كل منهما، كما انّ لها تأثیرها علی روحیهٔ كلّ منهما و أخلاقه.

تتّضح انّ فقدان الإحساسات الطبیعیهٔ الی ای درجهٔ سیؤثر علی روح الإنسان و جسمه حتی انه من الممكن ان یبتلی الافراد هؤلاء بالضعف الجنسی الذی یؤدّی الی عدم القدرهٔ علی الانجاب و التولید.

و هؤلاء الأشخاص- غالبا- لیسوا أصحاء من الناحیهٔ النفسیّهٔ، و یحسون فی داخلهم انّهم غرباء عن أنفسهم و غرباء عن مجتمعهم ... و

یفقدون بالتدریج القدرة علی الارادة التی هی أساس لکم نجاح و شرط من شروطه، و یتکرس فی روحهم نوع من الاضطراب و القلق.

و إذا لم یصمموا علی إصلاح أنفسهم فورا، و لم یستعینوا عند الضرورة و الحاجة بالطبیب النفسی او الطبیب الجسمی فسیغدو هذا العمل عندهم عادة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰

یصعب ترکها، فمن و علی کلّ حال، فإنّ ای وقت لترک هذا العمل القبیح لا یعدّ خارجا عن أوانه، بل لا بدّ من التصمیم الجاد.

و لا ریب انّ الحیرة و الاضطراب النفسی قد یجرّ هؤلاء الی استعمال المواد المخدرة و المشروبات الکحولیة، کما یجرّهم الی انحرافات أخلاقیة اخری، و هذا بنفسه شقاء عظیم.

الطریف انّنا نقرا فی الرّوایات الاسلامیة عبارة موجزة و ذات معنی کبیر تشیر الی هذه المفاسد، و من هذه الرّوایات ما نقل عن الامام الصادق علیه السّلام انّ رجلا سأله: لم حرّم اللّه اللواط؟ فقال سلام اللّه علیه: «من اجل انّه لو کان إتیان الغلام حلالا لاستغنی الرجال عن النساء و کان فیه قطع النسل و تعطیل الفروج و کان فی اجازة ذلک فساد کبیر»[۱۷].

و ما یجدر ذکره انّ احد العقوبات الشرعیة لهذا العمل انّ الإسلام حرم الزواج من اخت المفعول و امّه و بنته علی الفاعل، ای إذا تحقق اللواط قبل الزواج فعندئذ یحرم الزواج منهنّ حرمة مؤبدة.

و آخر ما ینبغی التذکیر به هنا من المسائل الدقیقة، ان جرّ الافراد الی مثل هذا الانحراف الجنسی له اسباب و علل مختلفة، حتی من ضمنها أحیانا طریقة التعامل و المعاشرة من قبل الوالدین مع ابنائهما، او الغفلة عنهم و عدم مراقبة من معهم من بنی جنسهم، و طریقة معاشرتهم و منامهم معا فی بیت واحد، کل ذلک له اثره الفاعل فی هذا التلوّث و الانحراف.

نحن نقرا فی احوال قوم لوط انّ سبب انحرافهم و تلوثهم بهذا الذنب انّهم کانوا قوما بخلاء، و لمّا کانت مدنهم علی قارعة الطریق التی تمرّ بها قوافل الشام و لم یکونوا لیرغبوا فی استضافة العابرین من المسافرین، کانوا یوحون إلیهم بدایة الأمر انّهم یریدون ان یعتدوا علیهم جنسیا لیفرّ منهم الضیوف و المسافرون،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱

و لکنّ هذا العمل أصبح بالتدریج مألوفا عندهم و نما عندهم الانحراف الجنسی و بلغ عملهم حدّا انّهم تلوّثوا بالآثام من قرنهم الی قدمهم ۱۸].

و ربّما جرّ المزاح غیر المناسب بین الذکور او بین الإناث الی هذا الانحراف، فعلی کل حال، ینبغی ملاحظة هذه المسائل بدقة انقاذ المنحرفین و الملوّثین بهذا الذنب بسرعة، و یطلب من اللّه التوفیق فی هذا السبیل.

أخلاق قوم لوط:

و نقرا فی الرّوایات و التواریخ الاسلامیة اعمالا سیئة کانت عند قوم لوط سوی الانحراف الجنسی المشار الیه، و من هذه الأعمال ما ورد فی «سفینة البحار» حیث نقرا ما یلی:

... قیل کانت مجالسهم، تشتمل علی انواع المناکیر مثل الشتم و السخف و الصفع و القمار و ضرب المخراق و خذف الأحجار علی من مرّ بهم، و ضرب المعازف و المزامیر و کشف العورات ۱۹].

و واضح انّ الانحراف فی مثل هذه البیئة و اعمال السوء تأخذ ابعادا جدیدة کل یوم، و بغض النظر عن قبح الأعمال السیئة- أساسا- تبلغ الحال درجة لا یری عندها ای عمل فی نظر تلک البیئة سیّئا او منکرا.

و یوجد فی عصر تقدم العلوم من هم أشقی من قوم لوط حیث یسلکون نفس ذلک السبیل و قد تصل اعمال هؤلاء المخزیة الی

درجة ننسى عندها اعمال قوم لوط ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۸۴ الی ۸۶]

اشارة

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (۸۴) وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶)

التّفسیر

مدین بلدة شعیب ...

مع انتهاء قصّة قوم لوط تصل النوبة الى قوم شعیب و اهل مدین، أولئک الذین حادوا عن طریق التوحید و هاموا على وجوههم فی شرکهم و عبادة الأصنام، و لم یعبدوا الأصنام فحسب، بل الدّرهم و الدینار و الثروة و المال، و من اجل ذلک فإنّهم لوثوا تجارتهم الرابحة و کسبهم الوفیر بالغش و البخس و الفساد.

فی بدایة القصّة تقول الآیات وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً و کلمة «أخاهم» کما أشرنا إلیها سابقا تستعمل فی مثل هذا التعبیر لبیان منتهى المحبّة من قبل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳

الأنبیاء لقومهم، لا لأنّهم افراد قبیلته و قومه فحسب، بل اضافة الى ذلک فإنّه یرید الخیر لهم. و یتحرق قلبه علیهم، فمثله مثل الأخ الودود.

و «مدین» على وزن «مریم» اسم لمدینة شعیب و قبیلته، و تقع المدینة شرق خلیج العقبة، و أهلها من أبناء إسماعیل، و کانوا یتاجرون مع اهل مصر و لبنان و فلسطین.

و یطلق الیوم على مدینة «مدین» اسم «معّان» و لکن بعض الجغرافیین أطلقوا اسم مدین على الساکنین بین خلیج العقبة و جبل سیناء.

و ورد فی التوراة ایضا اسم «مدیان» و لکن تسمیة لبعض القبائل، و طبیعی انّ اطلاق الاسم على المدینة و أهلها امر رائج ۲۰].

هذا النّبی و هذا الأخ الودود المشفق على قومه- کأی نبیّ فی أسلوبه و طریقته فی بدایة الدعوة- دعاهم اوّلا الى ما هو الأساس و العماد و المعتقد و هو «التوحید» و قال: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

لانّ الدعوة الى التوحید دعوة الى هزیمة جمیع «الطواغیت» و السنن الجاهلیة و لا یتیسر ایّ إصلاح اجتماعی او اخلاقی بدونه.

ثمّ أشار الى احد المفاسد الاقتصادیة التی هی من افرازات عبادة الأصنام و الشرک، و کانت رائجة عند اهل مدین یومئذ جدّا، و قال: وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ ای حال البیع و الشراء.

و «المکیال» و «المیزان» من أدوات الوزن یعرف بهما وزن المبیع و مقداره، و نقصانه یعنی عدم إیفاء حقوق الناس و البخس فی البیع.

و رواج هذین الأمرین بینهم یدل على عدم النظم و الحساب و المیزان فی اعمالهم و نموذجا للظلم و الجور و الإجحاف فی ذلک المجتمع الثری.

و يشير هذا النّبى العظيم بعد هذا الأمر الى علّتين:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴

العلّة الاولى: هى قوله إِنِّی أَراكُمْ بِخَيْرٍ.

يقول اوّلا: انّ قبول نصحى يكون سببا لتفتح أبواب الخير عليكم و تقديم التجارة و هبوط سطح القيمة و استقرار المجتمع.

و يحتمل ايضا فى تفسير هذه الجملة إِنِّی أَراكُمْ بِخَيْرٍ انّ شعيبا يقول لهم:

انّى أراكم منعمين و فى خير كثير، فعلى هـذا لا ـ مـدعاة لعبـادة الأصـنام و اضاعـة حقوق الناس و الكفر بـدلا من الشـكر على نعم اللّه سبحانه.

و ثانيا: وَ إِنِّی أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ بسبب إصراركم على الشرك و التطفيف فى الوزن و كفران النعمة ... إلخ.

و كلمة «محيط» جاءت صـفة ليوم، اى يوم شامل ذو احاطة، و شمول اليوم يعنى شمول العذاب و العقاب فى ذلك اليوم، و هذا التعبير فيه اشارة الى عذاب الآخرة كما يشير الى عقاب الدنيا الشامل.

فعلى هذا لا أنتم بحاجة الى مثل هذه الأعمال، و لا ربّكم غافل عنكم، فينبغى إصلاح أنفسكم عاجلا.

و الآيـة الاـخرى تؤكّـد على نظامهم الاقتصادى، فإذا كان شـعيب قـد نهى قومه عن قلّة البيع و البخس فى المكيال، فهنا يـدعوهم الى إيفاء الحقوق و العدل و القسط حيث يقول: وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ.

و يجب ان يحكم هذا الأصل «و هو اقامة القسط و العدل، و إعطاء كل ذى حقّ حقه» على مجتمعكم بأسره.

ثمّ يخطو خطوة أوسع و يقول: وَ لاـ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ و «البخس» و معنـاه فى اللغـة التقليل، و جاء هنا بمعنى الظلم ايضا. و يطلق على الاراضـى المزروعة دون سـقى «انّها بخس» لانّ ماءها قليل، حيث تعتمد على ماء المطر فحسب، او انّ هذه الاراضـى قليلة الانتاج بالنسبة الى الاراضى الزراعية الاخرى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵

و إذا توسـعنا فى معنى هـذه الكلمـة و مفهوم الجملـة وجـدناها دعوة الى رعايـة جميع الحقوق الفرديـة و الاجتماعية و لجميع الملل و النحل، و يظهر «بخس الحق» فى كل محيط و عصـر و زمان بشـكل معين حتى بالمساعـدة دون عوض أحيانا، و التعاون و إعطاء قرض معين (كما هى طريقة المستعمرين فى عصرنا).

و نجد فى نهاية الآية انّ شعيبا يخطو خطوة اخرى أوسع و يقول لقومه: وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

فالفسـاد يقـع عن طريق الـبيع و يقع عن طريق غصب حقوق النـاس و الاعتـداء على حقوق الآـخرين، و الفسـاد ايضـا يقع فى الإخلاـل بـالموازين و المقـاييس الاجتماعيّـة، و يقع ايضـا ببخس النـاس أشـياءهم و أموالهم، و أخيرا يقع الفسـاد على الحيثيات بالاعتـداء على حرمتها و على النواميس و أرواح الناس.

و جملة «لا تعثوا» معناها «لا تفسدوا» بدلالة ذكر مفسدين بعدها لمزيد التوكيد على هذا الموضوع.

انّ الآيتين المتقدمتين تعكسان هذه الواقعية بجلاء، و هى انّه بعد الاعتقاد بالتوحيد و النظر الفكرى الصـحيح، ينظر الى الاقتصاد السليم بأهمية خاصّة، كما تدلّان على انّ الإخلال بالنظام الاقتصادى سيكون أساسا للفساد الوسيع فى المجتمع.

ثمّ يخبرهم انّ زيـادة الثروة- التى تصل الى أيـديكم عن طريق الظلم و اسـتثمار الآخرين- ليست هى السـبب فى غناكم، بل ما يغنيكم هو بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

التعبير ب «بَقِيَّتُ اللَّهِ» امّـا لاـنّ الربـح الحلاـل القليل المترشـح عن امر اللّه فهو «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و امّا لانّ الحصول على الرزق الحلال باعث على دوام نعم اللّه و بقـاء البركـات ... و امّا لانّه يشـير الى الجزاء و الثواب المعنوى الـذى يبقى الى الأبـد. فإنّ الـدنيا فانيـة و ما فيها لا محاله فان، و تشير الآية (۴۶) من سورة الكهف: وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا الى هذا المضمون ايضا. و التعبير

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶

بقوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ اشارة الى انّ هذه الواقعية لا يعرفها الّا المؤمنون باللّه و حكمته و فلسفة أوامره.

و نقرا فی روايات متعددة فی تفسير بَقِيَّتُ اللَّهِ انّ المراد بها وجود المهدى عجّل اللّه فرجه الشريف، او بعض الائمّة الآخرين، و من هذه الرّوايات ما

نقل عن الامام الباقر عليه السّلام فی كتاب إكمال الدين: «اوّل ما ينطق به القائم عليه السّلام حين يخرج هذه الآية بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ثمّ يقول: انا بقية اللّه و حجّته و خليفته عليكم، فلا يسلّم عليه مسلم الّا قال: السّلام عليك يا بقية اللّه فی ارضه»[۲۱].

و قد قلنا مرارا انّ آيات القرآن بالرغم من نزولها فی موارد خاصّة، الّا انّها تحمل مفاهيم جامعة و كلية، بحيث يمكن ان تكون اثر مصداقا فی العصور و القرون التالية و تنطبق على مجال أوسع ايضا.

صحيح انّ المخاطبين فی الآية المتقدمة هم قوم شعيب، و المراد من بَقِيَّتُ اللَّهِ هو الربح و راس المال الحلال او الثواب الالهى، الّا انّ كل موجود نافع باق من قبل اللّه للبشرية، و يكون أساس سعادتها و خيرها يعدّ «بَقِيَّتُ اللَّهِ» ايضا.

فجميع أنبياء اللّه و رسله المكرمين هم «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و جميع القادة الحقّ الذين يبقون بعد الجهاد المرير فی وجه الأعداء فوجودهم فی الامّة يعدّ «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و كذلك الجنود المقاتلون إذا عادوا الى ذويهم من ميدان القتال بعد انتصاهم على الأعداء فهم «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و من هنا فإنّ «المهدى الموعود» عليه السّلام آخر امام و أعظم قائد ثورى بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من اجلى مصاديق «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و هو أجدر من سواه بهذا اللقب، خاصّة انّه الوحيد الذى بقى بعد الأنبياء و الائمّة عليهم السّلام.

و فی نهاية الآية- محل البحث- نقرا على لسان شعيب وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ إذ وظيفته هى البلاغ و ليس مسئولا على «إجبار» احد ابدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸۷ الى ۹۰]

اشارة

قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (۸۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۸۸) وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (۸۹) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (۹۰)

التّفسير

المنطق الواهى:

و الآن فلنر ما كان ردّ القوم اللجوجين إزاء نداء هذا المصلح السّماوى «شعيب».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸

فبما انّهم كانوا يتصورون انّ عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، و دلالة على اصالة ثقافتهم، و كانوا لا يرفعون اليد عن الغش فی المعاملة و تحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا و نترك حريتنا فی التصرف

بأموالنا فلا نستطيع الاستفادة منها أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا ان هذا بعيد منك إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ؟! و هنا ينقدح هذا السؤال و هم لم سألوه عن الصلاة و أظهروا اهتمامهم بها؟! قال بعض المفسّرين: كان ذلك لانّ شعيبا كان يكثر من صلاته و يقول للناس: انّ الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء و المنكرات.

و لكن هؤلاء الأغبياء الذين لم يعرفوا السرّ و العلاقة بين الصلاة و ترك المنكرات، كانوا يسخرون من شعيب و كانوا يقولون له: أ هذه الاذكار و الأوراد و الحركات التى تقوم بها تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا و نهمل سنّة السلف و ثقافتنا التقليدية او ان نسلب اختيارنا من التصرف بأموالنا كيف شئنا؟! و احتمل البعض انّ «الصلاة» اشارة الى العقيدة و الدين، لأنّها عبارة عن المظهر البارز للدين.

و على كل حال لو كان أولئك يفكرون جيدا لادركوا هذا الأمر الواقعى و هو انّ الصلاة توقظ فى الإنسان الاحساس بالمسؤولية و التقوى و مخافة اللّه و معرفة الحقوق، و تذكره باللّه و بمحكمة عدل اللّه، و تنفض عن قلبه غبار حبّ الذات و عبادة الذات! و تصرفه عن هذه الدنيا المحدودة و الملوّثة الى عالم ما وراء الطبيعة، الى عالم الصالحات و تزكية النفس، و لذلك فهى تخلّصه من الشرك و عبادة الأصنام و التقليد الأعمى للسلف الجاهل و بخس الناس أشياءهم، و عن انواع الغش و الخداع ... إلخ.

كما ينقدح هنا سؤال آخر، و هو: انّ قولهم لشعيب إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ

الرَّشِيدُ هل كان كلاما واقعيا من منطلق الايمان به، ام هو على سبيل الاستهزاء و السخرية؟! احتمل المفسّرون الوجهين و لكن مع ملاحظة أسلوب سؤالهم أ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ الذى يستبطن الاستهزاء، يظهر انّ هذه الجملة على نحو الاستهزاء، و هى اشارة الى انّ الإنسان الحليم الرشيد هو من لم يتعجل القول او الراى فى امر دون ان يسبر غوره و يعرف كنهه، و الإنسان العاقل الرشيد هو من لم يسحق سنن قومه تحت رجليه و يسلب حريتهم فى التصرف بأموالهم، فيظهر انّك لم تسبر غور الأمور و ليس لديك عقل حصيف و فكر عميق، لانّ الفكر العميق و العقل يوجبان على الإنسان الّا يرفع يده عن طريقة السلف، و لا يسلب من الآخرين الاختيار و حرية العمل.

و لكن شعيبا ردّ على من اتّهمه بالسفه و قلّة العقل بكلام متين و قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً[۲۲].

انّه يريد ان يفهم قومه انّ فى عمله هذا هدفا معنويا و انسانيا و تربويا، و انّه يعرف حقائق لا يعرفها قومه، و الإنسان دائما عدوّ ما جهل.

و من الطريف انّه فى هذه الآيات يكرر عبارة يا قَوْمِ و ذلك ليعبّئ عواطفهم لقبول الحق و ليشعرهم بأنّهم منه و انّه منهم، سواء أ كان المقصود بالقوم القبيلة او الطائفة او الجماعة او الاسرة، ام كان المقصود الجماعة التى كان يعيش وسطهم و يعدّ جزءا منهم.

ثمّ يضيف هذا النّبى العظيم قائلا: وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ فلا تتصوروا اننى أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تنقصوا المكيال، و انا ابخس الناس او انقص المكيال، او أقول لكم لا تعبدوا الأوثان و انا افعل

ذلك كلّه، كلا فإنّنى لا افعل شيئا من ذلك ابدا.

و يستفاد من هذه الجملة انّهم كانوا يتهمون شعيبا بأنّه كان يريد الربح لنفسه، و لهذا فهو ينفى هذا الموضوع صراحة و يقول تعقيبا على ما سبق إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ

و هذا هو هدف الأنبياء جميعا، حيث كانوا يسعون الى إصلاح العقيدة، و إصلاح الأخلاق، و إصلاح العمل، و إصلاح العلائق و الروابط الاجتماعية و انظمتها وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ للوصول الى هذا الهدف.

و على هذا فإننى، و لأجل أداء رسالتى و الوصول الى هذا الهدف الكبير عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ

و أسعى للاستعانة به على حل المشاكل، و أتوكل عليه فى تحمّل الشدائد فى هذا الطريق، و أعود اليه ايضا.

ثمّ ينبههم الى مسألـة أخلاقيـة، و هى انّه كثيرا ما يحدث للإنسان انّه لا يعرف مصالحه و ينسـى مصـيره، و ذلك بسـبب بغضه و عدائه بالنسبة لشخص آخر او التعصب الأعمى و اللجاجة فى شيء ما، فيقول لهم وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِی فتبتلوا بما ابتلى به غيركم و أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ و ما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث امطرهم اللّه بحجارة من سجيل منضود و قلب مـدنهم فجعل عاليها سافلها وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيـدٍ فلا زمانهم بعيد عنكم كثيرا، و لا مكان حياتهم، كما انّ اعمالكم و ذنوبكم لا تقل عن اعمالهم و ذنوبهم ايضا.

و «مـدين» التى كـانت موطن شـعيب لم تكن بعيـدة عن موطن قوم لوط، لانّ الموطنين كلاهمـا كانـا من مناطق «الشامات» و إذا كان بينهمـا فاصـل زمنى، فلم يكن الفاصـل بالمقـدار الـذى يسـتدعى نسـيان تـأريخه، و امّا من الناحيـة العمليـة فالفرق كبير بين الانحراف الجنسى الذى كان عليه قوم لوط و الانحراف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱

الاقتصـادى الـذى كـان عليه قوم شـعيب، لكن كليهمـا يتشابهـان فى توليـد الفسـاد فى المجتمع و الإخلال بالنظـام الاجتماعى و اماتة الفضائل الخلقيـة و اشاعـة الانحراف، و من هنا نجـد فى الرّوايات أحيانا مقارنـة الدرهم الربوى المرتبط- بالطبع- بالمسائل الاقتصادية بالزنا الذى هو تلوّث جنسى [۲۳].

ثمّ يأمر شعيب قومه الضالين بشيئين هما فى الواقع ما كان يؤكّد عليه جميع الأنبياء المتقدمين.

الاوّل: قوله: وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اى لتطهروا من الذنوب و تجتنبوا الشرك و عبادة الأوثان و الخيانة فى المعاملات.

و الثّانى: قوله: ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ اى ارجعوا اليه.

و الواقع انّ الاستغفار توقف فى مسير الذنب و غسل النفس، و التوبة عودة الى اللّه الكمال المطلق.

و اعلموا انّه مهما يكن الذنب عظيما و الوزر ثقيلا فإنّ طريق العودة اليه تعالى مفتوح و ذلك لانّ رَبِّی رَحِيمٌ وَدُودٌ.

و كلمـة «الودود» صـيغة مبالغـة مشـتقّة من الود و معناه المحبّـة، و ذكر هـذه الكلمـة بعـد كلمة «رحيم» اشارة الى انّ اللّه يلتفت بحكم رحمته الى المذنبين التائبين، بل هو اضافة الى ذلك يحبّهم كثيرا لانّ رحمته و محبته هما الدافع لقبول الاستغفار و توبة العباد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۱ الى ۹۳]

اشارة

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (۹۱) قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِی أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّی بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۹۲) وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّی عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّی مَعَكُمْ رَقِيبٌ (۹۳)

التّفسير

التّهديدات المتبادلة بين شعيب و قومه:

انّ شـعيبا هذا النّبى العظيم الذى لقّب بخطيب الأنبياء[۲۴] لخطبة المعروفة و الواضـحة، و التى كانت أفضل دليل أمين للحياة المادّية و المعنويـة لهـذه الجماعـة، و اصـل محـاججته لقومه بـالصبر و الانـاة و القلب المحـترق، و لكن تعـالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاء القوم

الضالون؟! لقد أجابوه بأربع جمل كلّها تحكى عن جهلهم و لجاجتهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳

فأوّلها: انّهم قالوا: يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ... فكلامك أساسا ليس فيه اوّل و لا آخر، و ليس فيه محتوى و لا منطق قيم لنفكر فيه و نتدبره و ليس لديك شىء نجعله ملاكا لعملنا، فلا ترهق نفسك اكثر! و امض الى قوم غيرنا ...

و الثّانية: قولهم وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً فإذا كنت تتصور انّك تستطيع اثبات كلماتك غير المنطقية بالقدرة و القوّة فأنت غارق فى الوهم.

و الثّالثة: هى انّه لا تظنّ انّنا نتردد فى القضاء عليك بأبشع صورة خوفا منك و من بأسك، و لكن احترامنا لعشيرتك هو الذى يمنعنا من ذلك وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ و الطريف انّهم عبّروا عن قبيلة شعيب: ب «الرّهط» و هذه الكلمة تطلق فى لغة العرب على الجماعة التى مجموع أنصارها ثلاثة الى سبعة، او عشرة، او على قول. و هو الحدّ الأكثر- تطلق على أربعين نفرا.

و هم يشيرون بذلك الى انّ قبيلتك تتمتع بالقوة الكافية مقابل قوتنا، و لكن تمنعنا امور اخرى، و هذا يشبه قول القائل: لو لا هؤلاء الاربعة من قومك و أسرتك لأعطيناك جزاءك بيدك. فى حين انّ قومه و أسرته ليسوا بأربعة، بل المراد بيان هذه المسألة، و هى انّهم لا اهمية لقدرتهم فى نظر القائل.

و قولهم الأخير: وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ فمهما كانت منزلتك فى عشيرتك، و مهما كنت كبيرا فى قبيلتك الّا انّه لا منزلة لك عندنا لسلوكك المخالف و المرفوض.

و لكنّ شعيبا دون ان يتأثر بكلماتهم الرخيصة و اتهاماتهم الواهية أجابهم بمنطقه العذب و بيانه الشائق متعجبا و قال: يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ أ فتذرونى من اجل رهطى و قبيلتى التى لا تتجاوز عدّة انفار و لا ينالنى منكم سوء، فلم لا تصغون لكلامى فى اللّه؟ و هل يمكن ان نقارن عدّة افراد بعظمة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴

سبحانه ... و أنتم لم تهابوه و توقّروه وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا[۲۵].

و فى الختام يقول لهم: لا تظنوا انّ اللّه غافل عنكم او انّه لا يرى اعمالكم و لا يسمع كلامكم، بل إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

انّ المتحدّث البليغ هو من يستطيع ان يعرّف موقفه من بين جميع المواقف الى الطرف المقابل و يشخصه من خلال أحاديثه.

فحيث انّ المشركين من قوم شعيب هددوه فى آخر كلامهم بالرجم، و ابرزوا قوتهم امامه، كان موقف شعيب من تهديداتهم على النحو التالى: وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ ۲۶] إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ (وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ) وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۲۷]. اى انتظروا لتنتصروا علىّ بقواكم و جماعتكم و أموالكم، و انا منتظر ايضا ان يصيبكم اللّه بعذابه و يهلككم جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۴ الى ۹۵]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (۹۴) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵)

التّفسير

عاقبة المفسدین فی مدین:

قرانا فی قصص الأقوام السابقین مرارا، انّ الأنبیاء کانوا فی المرحلة الاولی یدعونهم الی اللّه و لم یألوا جهدا فی النصیحة و الإبلاغ و بیان الحجّة، و فی المرحلة التی بعدها حیث لم ینفع النصح للجماعة ینذرها نبیّها و یخوّفها من عذاب اللّه، لیعود الی طریق الحق من فیه الاستعداد و لتتم الحجّة علیهم، و فی المرحلة الثّالثة، و بعد ان لم یغن ای شیء ممّا سبق- تبدا مرحلة التصفیة و تطهیر الأرض، و ینزل العقاب فیزیل الأشواک من الطریق.

و فی شأن قوم شعیب- ای اهل مدین- وصل الأمر الی المرحلة النهائیة ایضا، إذ یقول القرآن الکریم فیهم: وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّیْنا شُعَیْباً وَ الَّذِینَ آمَنُوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶

مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَةُ.

«الصیحة» کما قلنا سابقا معناها فی اللغة کل صوت عظیم، و القرآن الکریم یحکی عن هلاک أقوام متعددین بالصیحة السّماویة، هذه الصیحة یحتمل ان تکون صاعقة من السّماء او ما شابهها، و کما بینا فی قصّة ثمود «قوم هود» قد تبلغ الأمواج الصوتیة حدّا بحیث تکون سببا لهلاک جماعة من الناس.

ثمّ یعقّب القرآن فیقول: فَأَصْبَحُوا فِی دِیارِهِمْ جاثِمِینَ ای: أجسادا هامدة بلا روح، لتبقی أجسادهم هناک عبرة لمن اعتبر ...

و هکذا طوی سجلّ و طومار حیاتهم کَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیها. و انطفأ بریق کل شیء، فلا ثروة و لا قصور و لا ظلم و لا زینة کل ذلک تلاشی و انعدم.

و کما کانت نهایة عاد و ثمود- و قد حکی عنهما القرآن- فهو یقول عن نهایة مدین ایضا أَلا بُعْداً لِمَدْیَنَ کَما بَعِدَتْ ثَمُودُ.

و واضح انّ المقصود من کلمة «مدین» اهل مدین الذین کانوا بعیدین عن رحمة اللّه و کانوا من الهالکین.

دروس تربویة فی قصّة شعیب:

اشارة

انّ أفکار الأنبیاء و الوقائع التی جرت للأقوام السابقة تستلهم منها الأجیال التی بعدها، لانّ تجارب حیاة أولئک الأقوام هی التی تمخضت عن عشرات السنین او مئات السنین ... ثمّ نقلت إلینا فی عدّة صفحات من «التاریخ» و کل فرد منّا یستطیع ان یستلهم العبر فی حیاته.

قصّة هذا النّبی العظیم «شعیب» فیها دروس کثیرة، و من هذه الدروس ما یلی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷

۱- اهمیة المسائل الاقتصادیة

قرانا فی هذه القصّة انّ شعیبا دعا قومه بعد التوحید الی الحق و العدالة فی الأمور المالیة و التجاریة، و هذا نفسه یدل علی انّ المسائل الاقتصادیة فی المجتمع لا یمکن تجاوزها و تهمیشها. کما یدل علی انّ الأنبیاء لم یؤمروا بالمسائل الاخلاقیة فحسب، بل کانت دعوتهم تشکل «الإصلاح» ... إصلاح الوضع الاجتماعی غیر الجید، و إصلاح الوضع الاقتصادی کذلک، حیث کانت هذه الأمور من أهم الأمور- عند الأنبیاء- بعد التوحید.

۲- لا ینبغی التّضحیة بالاصالة من اجل التعصب

کما قرانا فی هذه القصّة فإنّ احد العوامل التی دعت الی سقوط هؤلاء فی احضان الشقاء انّهم نسوا الحقائق لحقدهم و عدائهم الشخصی، فی حین انّ الإنسان العاقل و الواقعی ینبغی ان یتقبل الحق من کل احد حتی و لو کان من عدوّه.

۳- الصلاة تدعو الی التوحید و التطهیر

لقد سأل شعیبا قومه أ صَلاتُکَ تَأْمُرُکَ أَنْ نَتْرُکَ ما یَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِی أَمْوالِنا ما نَشؤُا و ان نترک الغش و عدم إیفاء المیزان حقّه. فلعلهم کانوا یتصورون متسائلین: انّ هذه الاذکار و الادعیة ما عسی ان تؤثر فی هذه الأمور؟

علی حین انّنا نعرف ان أقوی علاقة و رابطة هی العلاقة الموجودة بین الصلاة و هذه الأمور، فإذا کانت الصلاة بمعناها الواقعی ای مع حضور الإنسان بجمیع وجوده امام اللّه فإنّ هذا الحضور معراج التکامل و سلّم الصعود فی تربیة روحه و نفسه، و المطهّر لصدإ ذنوبه و رین قلبه و هذا الحضور یقوّی ارادته و یجعل عزمه راسخا و ینزع عنه غروره و کبریاءه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸

۴- النظرة الذاتیّة (الاناتیّة) رمز للجمود

! لقد کان قوم شعیب- کما عرفنا فی الآیات السابقة- افرادا انانیین و «ذاتیین» إذ کانوا یتصورون أنفسهم ذوی فهم، و انّ شعیبا یجهل الأمور!! و کانوا یسخرون منه و یعدّون کلامه بلا محتوی و یرونه ضعیفا، و هذه النظرة الضیقة و الانانیة صیّرت سماء حیاتهم مظلمة و رمت بهم الی هاویة الهلاک.

لیس الإنسان وحده- بل حتی الحیوان- إذا کان «اناتیّا» ذا نظرة ضیقة فإنّه سیتوقف فی الطریق!! یقال انّ فارسا وصل الی نهر و أراد عبوره و لکنّه لاحظ بتعجب انّ الفرس غیر مستعدّة ان تعبر النهر الصغیر و القلیل العمق، و کلما الحّ علی الفرس لکی تعبر لم یفلح، فمرّ به رجل حکیم، فقال له: حرّک ماء النهر لیذهب فإنّ المشکلة ستنحلّ. ففعل ذلک فعبرت الفرس النهر بکل هدوء!! فسأل الحکیم عن السرّ فی ذلک، فقال: حین کان الماء صافیا کانت صورة الفرس فی الماء فلم یرق للفرس ان تطأ نفسها، و حین اختلط الماء بالطین ذهبت الصورة و نسیت الفرس صورتها فعبرت بکل بساطة!

۵- تلازم الایمان و العمل

لا یزال الکثیرون یتصورون انه یمکن للمسلم ان یکون بالعقیدة وحدها مسلما حتی و ان یقم بأیّ عمل، و ما یزال الکثیرون یریدون من الدین الّا یکون مانعا لرغباتهم و میولهم، و یریدون ان یکونوا أحرارا بوجه مطلق.

قصّة شعیب تدلنا علی انّ قومه کانوا یریدون مثل هذا المنهج، لذلک کانوا یقولون له: نحن غیر مستعدین ان نترک ما کان علیه السلف من عبادة الأصنام، و لا نفقد حریتنا فی التصرف بأموالنا ما نشاء.

لقد نسی أولئک انّ ثمرة شجرة الایمان- أساسا- هی العمل، و کان نهج

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹

الأنبیاء ان یصلحوا الانحرافات العملیّة للإنسان و یسددوا خطواته، و الّا فإنّ شجرة بلا ثمر و ورق و فائدة عملیة لا تستحق الّا ان تحرق!

نحن الیوم- و للأسف- نری بعض المسلمین قد غلب علیهم هذا الطراز من الفکر، و هو انّ الإسلام عبارة عن عقائد جافّة لا تتعدّی حدود المسجد، فما داموا فی المسجد فهی معهم، و إذا خرجوا ودّعوها فیه!! فلا تجد أثرا لاسلامهم فی السوق او الادارات او المحیط.

انّ السير فى كثير من الدول الاسلامية- حتى الدول التى كانت مركزا لانتشار الإسلام- يكشف لنا هذا الواقع المرير، و هو انّ الإسلام منحصر فى حفنة من «الاعتقادات و عدد من العبادات عديمة الروح» لا تجد فيها أثرا عن المعرفة و العدالة الاجتماعية و النمو الثقافى و الأخلاق الاسلاميّة ....

و لكن- لحسن الحظ- نرى فى ضمن هذه الصحوة الاسلامية و لا سيما بين الشباب تحرّك نحو الإسلام الصحيح و الممازجة بين الايمان و العمل، فلا تكاد تسمع فى هذا الوسط مثل هذا الكلام «ما علاقة الإسلام بأعمالنا؟!» او انّ «الإسلام مرتبط بالقلب لا بالحياة و المعاش» و ما الى ذلك.

الاطروحة التى نسمعها من بعض المنحرفين بقولهم: نحن نستوحى عقيدتنا من الإسلام و اقتصادنا من ماركس، هى شبيهة بطريقة تفكير قوم شعيب الضالين و هى محكومة مثلها ايضا، و لكن هذا الانفصال او التفرقة بين العمل و الايمان كان موجودا منذ القدم و لا يزال، و ينبغى ان نكافح مثل هذا التفكير!

۶- الملكية غير المحدودة أساس الفساد

لقد كان قوم شعيب واقعين فى مثل هذا الخطأ حيث كانوا يتصورون انّه من الخطأ القول بتحديد التصرف بالأموال من قبل مالكيها، و لذلك تعجبوا من شعيب و قالوا له: امثلك و أنت الحليم الرشيد يمنعنا من التصرف بأموالنا و يسلب حريتنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰

منها، انّ هذا الكلام سواء كان على نحو الحقيقة و الواقع، ام كان على نحو الاستهزاء، يدلّ على انّهم كانوا يرون تحديد التصرّف بالمال دليلا على عدم العقل و الدارية.

فى حين انّهم كانوا على خطأ كبير فى تصورهم هذا ... إذ لو كان الناس أحرارا فى التصرّف بأموالهم لعمّ المجتمع الفساد و الشقاء، فيجب ان تكون الأمور المالية تحت ضوابط صحيحة و محسوبة كما عرضها الأنبياء على الناس، و الّا فستجرّ الحرية المطلقة المجتمع نحو الانحراف و الفساد.

۷- هدف الأنبياء هو الإصلاح

لم يكن هذا الشعار: إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ شعار شعيب فحسب، بل هو شعار جميع الأنبياء و كل القادة المخلصين، و انّ اعمالهم و أقوالهم شواهد على هذا الهدف. فهم لم يأتوا لاشعار الناس، و لا لغفران الذنوب، و لا لبيع الجنّة، و لا لحماية الأقوياء و تخدير الضعفاء من الناس، بل كان هدفهم الإصلاح بالمعنى المطلق و الوسيع للكلمة ... الإصلاح فى الفكر، الإصلاح فى الأخلاق، الإصلاح فى النظم الثقافية و الاقتصادية و السياسيّة للمجتمع، و الإصلاح فى جميع ابعاد المجتمع.

و كان اعتمادهم و دعامتهم على تحقق هذا الهدف هو اللّه فحسب و لهذا لم يخافوا من التهديدات و المؤامرات كما قال شعيب وَ ما تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۶ الى ۹۹]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ

الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (۹۹)

التّفسير

البطل المبارز لفرعون:

بعد انتهاء قصّة شعيب و اهل مدين، يشير القرآن الكريم الى زاوية من قصّة موسى و مواجهته لفرعون و هذه القصّة هى القصّة السابعة من قصص الأنبياء فى هذه السورة.

تحدث القرآن الكريم عن قصّة موسى عليه السّلام و فرعون و بنى إسرائيل اكثر من مائة مرّة.

و خصوصية قصّة موسى عليه السّلام بالنسبة لقصص الأنبياء- كشعيب و صالح و هود و لوط عليهم السّلام التى قرأناها فى ما سبق- هى انّ أولئك الأنبياء عليهم السّلام واجهوا الأقوام الضالين، لكن موسى عليه السّلام واجه اضافة الى ذلك حكومة «ديكتاتور» طاغ مستبدّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲

هو فرعون الجبار.

و أساسا فإنّ الإصلاح ينبغى ان يبدأ من الأصل و المنبع، و طالما هناك حكومات فاسدة فلن يبصر اى مجتمع وجه السعادة، و على القادة الإلهيين فى مثل هذه المجتمعات ان يدمروا مراكز الفساد قبل كل شيء.

و لكن ينبغى الالتفات الى انّنا نقرا فى هذا القسم من قصّة موسى زاوية صغيرة فحسب و لكنّها فى الوقت ذاته تحمل رسالة كبيرة للناس جميعا.

يقول القرآن الكريم اوّلا: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ

«السلطان» بمعنى التسلّط، يستعمل تارة فى السلطة الظاهرية، و أحيانا فى السلطة المنطقية، السلطة التى تحاصر المخالف فى طريق مسدود بحيث لا يجد طريقا للفرار.

و يبدو فى الآية المتقدمة انّ «السلطان» استعمل فى المعنى الثّانى، و المراد ب «الآيات» هى معاجز موسى الجليلة، و للمفسرين احتمالات اخرى فى هاتين الكلمتين.

و على كل حال فإنّ موسى أرسل بتلك المعجزات القاصمة و ذلك المنطق القوى إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ

و كما قلنا مرارا فإنّ كلمة «الملا» تطلق على الذين يملا مظهرهم العيون بالرّغم من خلوّ المحتوى الداخلى، و فى منطق القرآن تطلق هذه الكلمة غالبا على الوجوه و الاشراف و الأعيان الذين يحيطون بالمستكبرين و بالقوى الظالمة .. الّا انّ جماعة فرعون الذين وجدوا منافعهم مهددة بالخطر بسبب دعوة موسى، فإنّهم لم يكونوا مستعدين للاستجابة .. لمنطقه الحق و معجزاته فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ و لكن فرعون ليس من شأنه هداية الناس الى الحياة السعيدة او ضمان نجاتهم و تكاملهم: وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ.

انّ هذا نجاح فرعون هذا لم يحصل بسهولة، فقد استفاد من كل انواع السحر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳

و الخداع و التآمر و القوى لتقدم اهدافه و تحريك الناس ضد موسى عليه السّلام، و لم يترك فى هذا السبيل ايّ نقطة نفسية بعيدة عن النظر، فتارة كان يقول: انّ موسى يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ [۲۸] و اخرى كان يقول: إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ.[۲۹] فيحرك مشاعرهم و احاسيسهم المذهبيّة.

و أحيانا كان يتهم موسى، و اخرى كان يهدّده، و أحيانا يبرز قوّته و شوكته بوجه الناس فى مصر، او يدعى الدهاء فى قيادته بما يضمن الخير و الصلاح لهم.

و يوم الحشر حين يأتى الناس عرصات القيامة فإنّ زعماؤهم و قادتهم فى الدنيا هم الذين سيقودوهم هناك حين يرى فرعون هناك: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ و بدلا من ان ينقذهم و يخلصهم من حرارة المحشر و عطشه يوصلهم الى جهنم فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ فبدلا من ان يسكن عطش اتباعه هناك يحرق وجودهم و بدلا من الارواء يزيدهم ظمأ الى ظمأ.

مع ملاحظة انّ «الورود» فى الأصل معناه التحرّك نحو الماء و الاقتراب منه، و لكن الكلمة أطلقت لتشمل الدخول على كل شىء و توسّع مفهومها.

و «الورد» هو الماء يرده الإنسان، و قد يأتى بمعنى الورود ايضا.

و «المورود» هو الماء الذى يورد عليه، ف «هم» اسم مفعول، فعلى هذا يكون معنى الجملة بئس الورد و المورود[۳۰] على النحو التالى: النّار بئس ماؤها ماء حين يورد عليه.

و يلزم ذكر هذه المسألة الدقيقة، و هى انّ العالم بعد الموت- كما قلنا سابقا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴

عالم «تتجسم فيه اعمالنا و أفعالنا» الدنيوية بمقياس واسع، فالشقاء و السعادة فى ذلك العالم نتيجة اعمالنا فى هذه الدنيا، فالأشخاص الذين كانوا فى هذه الدنيا قادة الصلاح يقودون الناس الى الجنّة و السعادة فى ذلك العالم، و الذين كانوا قادة للظالمين و الضالين و اهل النّار يسوقونهم الى جهنم يتقدمونهم هناك! ثمّ يقول القرآن: وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ. فأسماؤهم الذليلة تثبت على صفحات التاريخ ابدا على انّهم قوم ضالون و جبابرة، فقد خسروا الدنيا و الآخرة و ساءت النّار لهم عطاء و جزاء و بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ[۳۱].

و «الرفد» فى الأصل معناه الاعانة على القيام بعمل معين، و إذا أرادوا ان يسندوا شيئا الى شىء آخر عبروا عن ذلك بالرفد، ثمّ أطلقت هذه الكلمة على العطاء لانّه اعانة من قبل المعطى الى المعطى له!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۵

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۴]

اشارة

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ (۱۰۰) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (۱۰۱) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (۱۰۲) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (۱۰۳) وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (۱۰۴)

التّفسير

فى آيات هذه السورة تبيان لقصص سبعة أقوام من الأقوام السابقين و لمحات من تأريخ أنبيائهم، و كل واحد منهم يكشف للإنسان قسما جديرا بالنظر من حياته المليئة بالحوادث و يحمل بين جنبيه دروسا من العبرة للإنسان.

و هنا اشارة الى جميع تلك القصص، فيتحدث القرآن عن صورة مستجمعة لما مرّ من الحوادث و الأنباء حيث يقول: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ

الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۶

و کلمة «قائم» تشیر الی المدن و العمارات التی لا تزال باقیة من الأقوام السابقین، کأرض مصر التی کانت مکان الفراعنة و لا تزال آثار أولئک الظالمین باقیة بعد الغرق، فالحدائق و البساتین و کثیر من العمارات المذهلة قائمة بعدهم.

و کلمة «حصید» معناها اللغوی قطع النباتات بالمنجل، و فی هذه الکلمة اشارة الی بعض الاراضی البائرة، کأرض قوم نوح و ارض قوم لوط، حیث انّ واحدة منهما دمرها الغرق و الثانیة أمطرت بالحجارة.

وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حیث رکنوا و لجأوا الی الأصنام و الآلهة «المزعومة» فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بل زادوهم ضررا و خسرانا وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۳۲].

وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ فلا یدعها علی حالها و إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

هذا قانون الهی عام و منهج دائم، فما من قوم او امّة من الناس یتجاوزون حدود اللّه و یمدون أیدیهم للظلم و لا یکترثون لنصائح أنبیائهم و مواعظهم، الّا أخذهم اللّه أخذا شدیدا و اعتصرتهم قبضة العذاب.

هذه الحقیقة تؤکّد انّ المنهاج السابق منهاج عمومی و سنّة دائمة، و تستفاد من آیات القرآن بصورة جیدة، و هی فی الواقع إنذار لأهل العالم جمیعا: ان لا تظنوا انّکم مستثنون من هذا القانون، او انّ هذا الحکم مخصوص بالاقوام السابقین.

و الطبع فإنّ الظلم بمعناه الواسع یشمل جمیع الذنوب، و وصفت القریة او المدینة بأنّها «ظالمة» مع انّ الوصف ینبغی ان یکون لساکنیها، فکأنما هناک مسألة دقیقة و هی انّ اهل هذه المدینة انغمسوا فی الظلم الی درجة حتی کأنّ المدینة لها أصبحت مغموسة فی الظلم ایضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۷

و حیث انّ هذا قانون کلّی و عام فإنّ القرآن یقول مباشرة إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ.

لانّ الدنیا لا تعدّ شیئا إزاء الآخرة، و جمیع ما فی الدنیا حقیر حتی ثوابها و عقابها، و العالم الآخر أوسع- من جمیع النواحی- من هذه الدنیا. فالمؤمنین بیوم القیامة یعتبرون لدی مشاهدة واحد من هذه المثل و النماذج فی الدنیا، و یواصلون طریقهم.

و فی ختام الآیة اشارة الی وصفین من أوصاف یوم القیامة حیث یقول القرآن ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.

هی اشارة الی انّ القوانین و السنن الالهیة کما هی عامّة فی هذا العالم، فإنّ اجتماع الناس فی تلک المحکمة الالهیة ایضا عام، و سیکون فی زمان واحد و یوم مشهود للجمیع یحضره الناس کلّهم و یرونه.

من الطریف هنا انّ الآیة تقول ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ و لم تقل «مجموع فیه الناس» و هذا التعبیر اشارة الی انّ یوم القیامة لیس ظرفا لاجتماع الناس فحسب، بل هو هدف یمضی الیه الناس فی مسیرهم التکاملی.

و نقرا فی الآیة (۹) من سورة التغابن يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ

و بما انّ البعض قد یتوهم انّ الحدیث عن ذلک الیوم لم یحن اجله فهو نسیئة و غیر معلوم وقت حلوله، لهذا فإنّ القرآن یقول مباشرة: وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ.

و ذلک ایضا لمصلحة واضحة جلیّة لیری الناس میادین الاختبار و التعلم، و لیتجلی آخر منهج للأنبیاء و تظهر آخر حلقة للتکامل الذی یمکن لهذا العالم ان یستوعبها ثمّ تکون النهایة.

و التعبیر بکلمة «معدود» اشارة الی قرب یوم القیامة، لانّ کل شیء یقع تحت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۸

العدّ و الحساب فهو محدود و قریب.

و الخلاصة انّ تأخير ذلك اليوم لا ينبغى ان يغترّ به الظالمون، لانّ يوم القيامة و ان تأخر فهو آت لا محالة، و انّ التعبير بتأخره ايضا غير صحيح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۹

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۸]

اشارة

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (۱۰۵) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (۱۰۶) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (۱۰۷) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (۱۰۸)

التّفسير

السّعادة الشّقاوة:

أشير فى الآيات المتقدّمة الى مسألة القيامة و اجتماع الناس كلّهم فى تلك المحكمة العظيمة ... و هذه الآيات- محل البحث- بيّنت زاوية من عواقب الناس و مصيرهم فى ذلك اليوم، إذ تقول الآيات اوّلا: يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ

قد يتصور أحيانا انّ هذه الآية الدالة على تكلّم الناس فى ذلك اليوم بإذن اللّه، تنافى الآيات التى تنفى التكلم هناك مطلقا، كالآية (۶۵) من سورة يس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۰

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ و كالآية (۳۵) من سورة المرسلات حيث نقرا: هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ

و لهذا السبب قال بعض المفسّرين الكبار: انّ التكلم هناك «يوم القيامة» لا مفهوم له أساسا. لانّ التكلم وسيلة لكشف باطن الأشخاص و داخلهم، و لو كان لدينا احساس نستطيع ان نطّلع به على أفكار كل شخص لم يكن حاجة الى التكلم ابدا.

فعلى هذا لمّا كانت الأسرار و جميع الأشياء تنكشف «يوم القيامة» على حالة «الظهور و البروز» فلا معنى للتكلم أصلا.

و ببيان آخر: انّ الدار الآخرة دار مكافأة و جزاء لا- دار عمل، و على هذا فلا- معنى هناك لاختيار الإنسان و تكلمه حسب رغبته و ارادته، بل هو الإنسان و عمله و ما يتعلق به، فلو أراد التكلم فلا يكون كلامه عن اختيار و ارادة و حاكيا عمّا فى ضميره كما فى الدنيا، بل كل ما يتكلم به هناك فهو نوع من الانعكاس عن اعماله التى تظهر جليّة ذلك اليوم. اى انّ الكلام هناك ليس كالكلام فى الدنيا بحيث يستطيع الإنسان على حسب ميله ان يتكلم صادقا او كاذبا.

و على كل حال فإنّ ذلك اليوم هو يوم كشف حقائق الأشياء و عودة الغيب الى الشهود، و لا شبه له بهذه الدنيا.

و لكن هذا الاستنتاج من الآية المتقدّمة لا ينسجم مع ظاهر الآيات الأخرى فى القرآن، لأنّ القرآن يتحدث عن كثير من كلام المؤمنين و المجرمين و القادة و الجبابرة و أتباعهم، و الشيطان و المنخدعين به، و أهل النّار و أهل الجنّة، بحيث يدل على انّ هناك كلاما كالكلام فى هذه الدنيا أيضا.

حتى انّ بعض الآيات يستفاد منها انّ قسما من المجرمين يكذبون فى ردهم على بعض الاسئلة، كما هو مذكور فى سورة الانعام

الآيات (٢٢) الى (٢۴) حيث تقول الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص: ۶١

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ* ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ* انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

فعلى هذا، من المستحسن ان يجاب على السؤال المتعلق بتناقض ظواهر الآيات حول التكلم بما ذكره كثير من المفسّرين، و هو انّ الناس يقطعون فى ذلك اليوم مراحل مختلفة ... و كل مرحلة لها خصوصياتها، ففى قسم من المراحل لا يسألون ابدا حتى انّ أفواههم يختم عليها فلا- يتكلمون، و انّما تنطق أعضاء أجسادهم التى حفظت آثار اعمالها بلغة من دون لسان، و فى المراحل الاخرى يرفع الختم او القفل عن أفواههم و يتكلمون بإذن اللّه فيعترفون بأخطائهم و ذنوبهم و يلوم المخطئون بعضهم بعضا، بل يحاولون ان يلقوا تبعات أوزارهم على غيرهم.

و يشار فى نهاية الآية الى تقسيم الناس جميعا الى طائفتين: طائفة محفوظة، و اخرى بائسة تعيسة فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ.

و «السعيد» مشتق من مادة «السعادة» و معناها توفر اسباب النعمة.

و «الشقى» مشتق من مادة «الشقاء» و معناه توفر اسباب البلاء و المحنة.

فالسعداء- إذا- هم الصالحون الذين يتمتعون بأنواع النعم فى الجنّة و الاشقياءهم المسيئون الذين هم يتقلبون فى انواع العذاب و العقاب فى جهنم.

و ليس هذا الشقاء- على كل حال- و تلك السعادة سوى نتيجة الأعمال و الأقوال و النيّات التى سلفت من الإنسان فى الدنيا.

و العجيب ان بعض المفسّرين يتخذون هذه الآية ذريعة لعقيدتهم الباطلة فى مجال الجبر، فى حين انّ الآية ليس فيها اقلّ دليل على هذا المعنى، بل هى تتحدث عن السعداء و الأشقياء فى يوم القيامة و انهم و صلوا جميعا بأعمالهم الى هذه المرحلة، و لعلهم توهموا هذه النتيجة من هذه الآية بالخلط بينها و بين بعض الأحاديث التى تتكلم عن شقاء الإنسان او سعادته و هو فى بطن امّه قبل الولادة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص: ۶٢

و لكن هذه المسألة ليس هنا مجالها إذ لها قصّة اخرى و حديث طويل.

ثمّ تشرح الآيات حالات السعداء و الأشقياء فى عبارات موجزة و اخّاذة حيث تقول فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ و تضيف حاكية عن حالهم ايضا: خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ.

ملاحظات

١- هل انّ السعادة و الشقاوة ذاتيان

؟ أراد البعض ان يثبت من الآيات المتقدمة- كما قلنا آنفا- كون السعادة و الشقاء ذاتيين، فى حين انّ الآيات المتقدمة لا تدل على هذا الأمر فحسب، بل تثبت بوضوح كون السعادة و الشقاء اكتسابيين، إذ تقول فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا او تقول وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فلو كان كل من الشقاء و السعادة ذاتيين لكان ينبغى ان يقال «امّا الأشقياء و امّا السعداء» و ما أشبه ذلك التعبير، و من هنا يتّضح بطلان ما جاء فى تفسير الفخر الرازى ممّا مؤداه: «انّ هذه الآيات تحكم من الآن انّ جماعة فى القيامة سعداء و جماعة أشقياء، و من حكم اللّه عليه مثل هذا الحكم و يعلم انه فى القيامة امّا شقى أو سعيد، فمحال عليه ان يغير ذلك و الّا للزم- فى الآية- ان يكون ما اخبر اللّه به كذبا

و یکون علمه جهلا!! و هذا محال» .... فکل ذلک لا أساس له.

و هذا هو الاشکال المعروف علی «علم اللّه» فی مسألة الجبر و الاختیار و الذی أجیب علیه قدیما بأنه: إذا لم نرد تحمیل افکارنا و آراؤنا المسبقة علی آیات القرآن الکریم، فإنّ مفاهیمها تبدو واضحة، انّ هذه الآیات تقول: یَوْمَ

یَأْتِ یکون فیه جمع من الناس سعداء من خلال اعمالهم، و جمع آخر أشقیاء بسبب اعمالهم، و اللّه سبحانه یعلم من الذی اختار طریق السعادة باختیاره، و بإرادته، و من الذی خطا خطوات فی مسیر الشقاء بإرادته. و هذا المعنی یعطی نتیجة معاکسة تماما لما ذکره الرازی حیث انّ الناس إذا کانوا مجبورین علی هذا الطریق فإنّ علم اللّه سیکون جهلا (و العیاذ باللّه)، لانّ الجمیع اختاروا طریقهم و انتخبوه بإرادتهم و رغبتهم.

الشاهد فی الکلام انّ الآیات المتقدمة تتحدث عن قصص الأقوام السابقین، حیث عوقبت عقابا جماعة عظیمة منهم- بسبب ظلمهم و انحرافهم عن جادة الحق و العدل، و بسبب التلوث بالمفاسد الاخلاقیة الشدیدة، و الوقوف بوجه الأنبیاء و القادة الإلهیین- ألیما فی هذه الدنیا ... و القرآن یقص علینا هذه القصص من اجل إرشادنا و تربیتنا و بیان طریق الحق من الباطل، و فصل مسیر السعادة عن مسیر الشقاء.

و إذا کنّا- أساسا- کما یتصوّر الفخر الرازی و من علی شاکلته- محکومین بالسعادة و الشقاء الذاتیین، و نؤخذ دون ارادتنا بالسیئات او الصالحات، فإنّ «التعلیم و التربیة» سیکونان لغوا و بلا فائدة ... و مجیء الأنبیاء و نزول الکتب السّماویّة و النصیحة و الموعظة و التوبیخ و الملامة و المؤاخذة و السؤال و المحاکمة و الثواب ... کل ذلک یعدّ غیر ذی فائدة، او یعدّ ظلما.

الأشخاص الذین یرون الناس مجبورین علی عمل الخیر او الشرّ، سواء کان هذا الجبر جبرا الهیا، او جبرا طبیعیا، او جبرا اقتصادیا، او جبرا اجتماعیا متطرفون فی عقیدتهم هذه فی کلامهم فحسب، او فی کتاباتهم، و لکنّهم حتی أنفسهم لا یعتقدون- عند العمل- بهذا الاعتقاد، و لهذا فلو وقع تجاوز علی حقوقهم فانّهم یرون المتجاوز مستحقا للتوبیخ و الملامة و المحاکمة و المجازاة ...

و لیسوا مستعدین ابدا للإغضاء عنه بحجة انه مجبور علی هذا العمل و انّ من

الظلم عقابه و مجازاته، او یقولوا انه لم یستطع ان لا یرتکب هذا العمل لانّ اللّه أراد ذلک، او انّ المحیط أجبره، او الطبیعة ... و هذا بنفسه دلیل آخر علی انّ اصل الاختیار فطری.

و علی کل حال لا نجد للجبر مسلکا فی اعمالنا الیومیة یرتبط بهذه العقیدة، بل اعمال الناس جمیعا تصدر عنهم بصورة حرّة و مختارة و هم مسئولون عنها.

و جمیع الأقوام فی الدنیا یقبلون حریة الارادة، بدلیل تشکیل المحاکم و الادارات القضائیة لمحاکمة المتخلفین.

و جمیع المؤسسات التربویة فی العالم تقبل بهذا الأصل ضمنا، و هو انّ الإنسان یعمل بإرادته و رغبته، و یمکن بإرشاده و تعلیمه و تربیته ان یتجنب الاخطاء و الاشتباهات و الأفکار المنحرفة.

۲- واقع الإنسان بین السعادة و الشقاوة

الطریف انّ لفظ «شقوا» فی الآیات المتقدمة ورد بصیغة المبنی للمعلوم، و لفظ «سعدوا»[۳۳] ورد بصیغة المبنی للمجهول، و لعل فی هذا الاختلاف فی التعبیر اشارة لطیفة الی هذه المسألة الدقیقة، و هی انّ الإنسان یطوی طریق الشقاء بخطاه، و لکن لا بدّ لطیّ طریق السعادة فی الأمداد و العون الالهی، و الّا فإنّه لا یوفّق فی مسیره، و لا شکّ انّ هذا الأمداد و العون یشمل أولئک الذین یخطون

خطواتهم الاولی بإرادتهم و اختیارهم فحسب و کانت فیهم اللیاقة و الجدارة لهذا الأمداد. (فلاحظوا بدقة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۵

۳– مسألة الخلود فی القرآن

اشارة

معنی «الخلود» لغة البقاء الطویل، کما جاء بمعنی الأبد ایضا، فکلمة «الخلود» لا تعنی الأبد وحده لانّه تشمل کل بقاء طویل.

و لکن ذکرت فی کثیر من آیات القرآن مع قیود بفهم منها معنی الأبد، فمثلا فی الآیة (۱۰۰) من سورة التوبة، و الآیة (۱۱) من سورة الطلاق، و الآیة (۹) من سورة التغابن، حین تذکر هذه الآیات اهل الجنّة تأتی بالتعبیر عنهم خالِدِینَ فِیها أَبَداً و مفهومها ابدیّة الجنّة لهؤلاء، ما نقرا فی آیات القرآن الاخری وصف اهل النّار کالآیة (۱۶۹) من سورة النساء، و الآیة (۲۳) من سورة الجن هذا التعبیر ایضا خالِدِینَ فِیها أَبَداً و هو دلیل علی عذابهم الابدی.

و تعبیرات اخری مثل الآیة (۳) من سورة الکهف ماکِثِینَ فِیهِ أَبَداً و الآیة (۱۰۸) من سورة الکهف ایضا لا یَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا و أمثالها تدل بصورة قطعیّة علی انّ طائفة من اهل الجنّة و طائفة من اهل النّار سیبقون فی العذاب او النعمة.

و لم یستطع البعض ان یحل الإشکالات فی الخلود و الجزاء الابدی، فاضطر الی الرجوع الی معناه اللغوی و فسّره بالبقاء الطویل، علی حین انّ تعابیر کالتعابیر الواردة فی الآیات المتقدمة لا تفسّر بمثل هذا التّفسیر.

سؤال مهم:

هنا ترتسم فی ذهن کل سامع علامة استفهام کبیرة، إذ کیف نتصوّر عدم التعادل عند اللّه بین الذنب و العقاب؟! و کیف یمکن القبول بأن یقضی الإنسان کل عمره الذی لا یتجاوز ثمانین سنة– او مائة سنة علی الأکثر بالعمل الصالح او بالإثم، ثمّ یثاب علی ذلک او یعاقب ملایین الملایین من السنین.

و هذا الأمر لیس مهما بالنسبة للثواب لانّ الأجر و الثواب کلما ازداد کان دلیلا علی کرم المثیب و المعطی، فلا مجال للمناقشة فی هذا الأمر.

و لکن السؤال یرد فی العمل السیء و الذنب و الظلم و الکفر، و هو: «هل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۶

ینسجم العذاب الدائم مقابل ذنب محدود مع اصل العدل عند اللّه»؟ فالذی لم تتجاوز مرحلة ظلمه و طغیانه و عناده فی أقصی ما یمکن احتماله مائة سنة، کیف یعذب فی النّار عذابا دائما؟ أ فلا تقتضی العدالة ان یکون هناک نوع من التعادل؟

فمثلا یعاقب مائة سنة بمقدار اعماله السیئة.

الاجوبة غیر المقنعة

انّ تعقید المسألة کان السبب فی توجیه معانی آیات الخلود عند البعض و تفسیرها بما لا یستفاد منه العقاب الدائم الذی هو علی خلاف اصل العدالة فی عقیدتهم ...

۱– ذهب البعض: إنّ المقصود ب «الخلود» هو المعنی المجازی او الکنائی عنه، ای مدة و طویلة نسبیّا، کما یقال مثلا لأولئک الذین یحکم علیهم بالسجن طول عمره «محکوم علیه بالسجن المؤبد» مع انّه من المسلم به لا ابدیّة فی السجن حیث ینتهی السجن، مع انتهاء

و یقال فی العربیة ایضا «یخلّد فی السجن» و هو مأخوذ من الخلود فی هذه الموارد.

۲- و قال آخرون: انّ أمثال هؤلاء الطغاة و المعاندین الذین اکتنفت وجودهم الآثام، فتحوّل وجودهم الی ماهیة الکفر او الإثم، هؤلاء و ان بقوا فی نار جهنم دائمین، الّا انّ جهنّم لا- تبقی علی حالها، فسیأتی یوم تنطفی نارها. کأیة نار اخری، و یعم اهل النّار نوع من الهدوء و الراحة.

۳- و احتمل آخرون انّه مع مرور الزمان و بعد معاناة العذاب الطویل ینسجم اهل النّار مع محیطهم، ای انهم یتطبّعون و یتعوّدون علی هذا المحیط شیئا فشیئا حتی تبلغ بهم الحالة الّا یحسوا بالعذاب و الشقاء.

و بالطبع فإنّ الداعی الی هذه التوجیهات هو عجزهم و عدم استطاعتهم ان یحلّوا مشکلة خلود العذاب و دوامه، و الّا فإن ظهور آیات الخلود فی دیمومة العذاب و بقائه غیر قابلة للإنکار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۷

الحلّ النهائی للإشکال

و من اجل حلّ هذا الاشکال ینبغی ان نعود الی البحوث السالفة و نعالج الاشتباهات الناشئة من قیاس مجازاة یوم القیامة بالمجازاة الاخری، لیعلم انّ مسألة الخلود لا تنافی عدالة اللّه ابدا.

و لتوضیح هذا البحث ینبغی الالتفات الی ثلاثة اصول:

۱- انّ العذاب الدائم- و کما أشرنا الیه من قبل- هو لأولئک الذین اوصدوا أبواب النجاة بوجوههم، و اضحوا غرقی الفساد و الانحراف عامدین، و غشی الظلّ المشؤوم للاثم قلوبهم و أرواحهم فاصطبغوا بلون الکفر، و کما نقرا عنهم فی سورة البقرة الآیة (۸۱) بَلی مَنْ کَسَبَ سَیِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِیئَتُهُ فَأُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ

۲- یخطئ من یتصور انّ مدّة العقاب و زمانه ینبغی ان تکون علی قدر مدّة الإثم و زمانه، لانّ العلاقة بین الإثم و العقاب لیست علاقة زمانیة بل کیفیة، ای ان زمان العقاب یتناسب مع کیفیة الإثم لا مع زمانه.

فمثلا قد یقدم شخص فی لحظة علی قتل نفس محترمة، و طبقا لما فی بعض القوانین یحکم علیه بالحبس الدائم، فهنا نلاحظ انّ زمن الإثم لحظة واحدة، فی حین انّ العقاب قد یبلغ ثمانین سنة.

اذن المهم فی الإثم هو «کیفیته» لا «کمیة زمانه».

۳- قلنا انّ العقاب و المحاسبات فی یوم القیامة لها اثر طبیعی للعمل و خصوصیة الذنب، و بعبارة أوضح: ان ما یجده المذنبون من الم و أذی یوم القیامة هو نتیجة اعمالهم التی أحاطت بهم فی الدنیا.

نقرا فی القرآن کما فی سورة یس الآیة (۵۴): فَالْیَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و نقرا فی الآیة (۳۳) من سورة الجاثیة: وَ بَدا لَهُمْ سَیِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ و فی سورة القصص الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۸

(۸۴): فَلا یُجْزَی الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئاتِ إِلَّا ما کانُوا یَعْمَلُونَ

و الآن و بعد ان اتّضحت مقدمات هذه الأصول، فإنّ الحل النهائی لهذا الاشکال لم یعد بعیدا، و یکفی للوصول الیه ان نجیب علی الاسئلة التالیة.

و لنفرض انّ شخصا یبتلی بالقرحة المعدیة نظرا لادمانه علی المشروبات الکحولیة لمدّة سبعة ایّام تباعا، فیکون مجبورا علی تحمل الألم و الأذی الی آخر عمره، تری هل هذه المعادلة بین هذا العمل السیء و نتیجته مخالفة للعدالة؟! و لو کان عمر هذا الإنسان (مکان الثمانین سنة) الف سنة او ملیون سنة، و لأجل نزوته النفسیة بشرب الخمر أسبوعا یتألم طول عمره، تری هل هذا التألم لملیون سنة-

مثلا- مخالف لاصل العدالة ... فى حين انّه ابلغ حال شرب الخمر بوجود هذا الخطر و اعلم بنتيجته؟

و لنفرض ايضا انّ سائق، سيارة لا يلتزم بأوامر المرور و مقرراته، و الالتزام بها ينفع الجميع قطعا و يقلل من الحوادث المؤسفة، لكنه يتجاهلها و لا يصغى لتحذير اصدقائه ... و فى لحظة قصيرة تقع له حادثة- و كل الحوادث تقع فى لحظه- و يفقد بذلك عينه او يده او رجله فى هذه اللحظة. و نتيجة لما وقع يعانى الألم سنين طويلة لفقده البصر او اليد او الرجل، فهل تتنافى هذه الظاهرة فيه مع اصل عدالة اللّه؟! و نأتى هنا بمثال آخر- و الامثلة تقرب الحقائق العقليّة الى الذهن و تهيّؤ لنيل النتيجة النهائية- فلنفرض اننا نثرنا على الأرض عدة غرامات من بذور الشوك، و بعد عدّة أشهر او عدة سنوات نواجه صحراء مليئة بالشوك الذى يدمى أقدامنا و على العكس ننثر بذور الزهور- مع اطلاعنا- و لا تمرّ فترة حتى نواجه خميلة مليئة بالازهار العطرة، فهى تعطرنا و تنعش قلوبنا، فهل فى هذه الأمور التى هى آثار لأعمالنا منافاة لاصل العدالة فى حين انّه لا مساواة بين كمية هذا العمل و نتيجته؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۹

و من مجموع ما بيناه نستنتج ما يلى:

حين يكون الجزاء و الثواب نتيجة و أثرا لعمل المرء نفسه، فإنّ مسألة المساواة من حيث الكمية و الكيفية لا تؤخذ بنظر الاعتبار. فما اكثر ما يكون العمل صغيرا فى الظاهر، و لكنه يحوّل حياة الإنسان الى جحيم و عذاب و الم طيلة العمر، و كذلك ما اكثر ما يكون العمل صغيرا فى الظاهر، و لكنّه يكون سببا للخيرات و البركات طيلة عمر الإنسان! ينبغى ان لا يتوهم انّ المقصود من صغر العمل (من حيث مقدار الزمان) لانّ الأعمال و الذنوب الداعية الى خلود الإنسان فى العذاب ليست صغيرة من حيث الاهمية و الكيفيّة.

فعلى هذا حين يحيط الذنب و الكفر و الطغيان و العناد بوجود الإنسان و يحرق جميع أجنحته و ريشه و روحه فى نار ظلمه و نفاقه، فأى مكان للعجب ان يحرم فى الدار الآخرة من التحليق فى سماء الجنّة و ان يكون مبتلى هناك بالعذاب و البلاء.

ترى امّا حذّروه و أبلغوه و انذروه من هذا الخطر الكبير؟! اجل فأنبياء اللّه من جهة، و ما يأمره العقل من جهة اخرى ... جميعا حذروه بما يلزم، فهل كان ما اقدم عليه من دون اختياره فلقى هذا المصير، ام كان عن علم و عمد و اختيار؟ الحقيقة هو انّه كان عالما عامدا. و كانت نفسه و نتيجة اعماله المباشرة قد ساقته الى هذا المصير؟! بل انّ كل ما حدث له فهو من آثار اعماله! فلهذا لم يبق مجال للشكوى، و لا إيراد او اشكال مع احد، و لا منافاة مع قانون عدالة اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۰

۴- مفهوم الخلود فى هذه الآيات

هل الخلود فى الآيات- محل البحث- بمعنى البقاء الدائم؟! او هو بالمعنى اللغوى المراد منه المدّة الطويلة؟

قال بعض المفسّرين: بما انّ الخلود مقيد هنا بقوله ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ فإنّ الخلود ليس معناه البقاء الابدى الدائم، لانّ السّماوات و الأرض لا أبدية لهما ... و طبقا لصريح القرآن فإن يوما سيأتى تنطوى فيه السّماوات و تبدل الأرض الى ارض اخرى.[۳۴].

و لكن، مع ملاحظة انّ مثل هذه التعابير فى اللغة العربية يراد بها البقاء الدائم، فالآيات- محل البحث- ايضا تبيّن الدوام.

فمثلا تقول العرب: هذا الأمر قائم ما لاح كوكب، او ما كرّ الجديدان (الليل و النهار) او ما أضاء فجر، او ما اختلف الليل و النهار، و أمثالها ... و هى كناية عن البقاء الدائم، و نقرا عن الامام على عليه السّلام فى نهج البلاغة و ذلك حين أشكل عليه بعض المنتقدين الجهلة على تقسيمه من بيت المال بالسويّة و عدم التمييز بين مقامات الناس لتوطيد دفة الحكم.

فانزعج الامام عليه السّلام و

قال: «أ تأمرنى ان اطلب النصر بالجور فى من وليت عليه؟ و اللّه لا اطور به ما سمر سمير و ما امّ نجم فى السّماء نجما».[۳۵]

و نقرا فى قصيدهٔ دعبل الخزاعى المعروفهٔ التى أنشدها فى حضرهٔ الامام على بن موسى الرضا عليه السّلام هذا البيت:

سأبكيهم ما ذرّ فى الأفق شارقو نادى منادى الخير فى الصلوات ۳۶]

و بالطبع فإنّ هذا الاستعمال ليس مخصوصا بلغهٔ العرب و آدابها، ففى اللغات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۱

الاخرى يوجد مثل هذا الاستعمال ايضا ... على كل حال فإنّ دلالهٔ الآيهٔ على الدوام قطعيهٔ و غير قابلهٔ للنقاش.

۵- ما معنى الاستثناء فى الآيهٔ

؟ الجملهٔ الاستثنائيهٔ إِلَّا ما شاءَ رَبُّکَ التى وردت فى الآيات المتقدمهٔ فى اهل الجنّهٔ و فى اهل النّار ايضا، اضحت ميدانا واسعا للمفسرين و مثارا للبحث، و قد نقل المفسّر الكبير الطبرسى فى تفسير هذا الاستثناء عشرهٔ أوجه عن المفسّرين القدامى، و نعتقد انّ كثيرا من هذه الأوجه ضعيف و لا ينسجم مع الآيات السابقهٔ او اللاحقهٔ، و لذلك نغض النظر عنها، و نورد ما نراه صحيحا هنا، هو وجهان فحسب:

۱- الهدف فى بيان هذا الاستثناء ان لا يتصور انّ الخلود فى النار او فى الجنّه جار على غير مشيئهٔ اللّه و ارادته بما يعطى معنى الإلزام و تحديد قدرهٔ اللّه تعالى و ارادته، بل فى الوقت الذى يكون اهل الجنّهٔ و اهل النار خالدين فيهما، فإنّ قدرهٔ اللّه و ارادته حاكمهٔ على الجميع، و انّ العذاب و الثواب يتحققان بمقتضى حكمته لكلّ من هذين الطرفين.

و الشاهد على هذا الكلام ما ورد فى الجملهٔ الثّانيهٔ بعد الاستثناء و هى قوله تعالى: عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ اى غير منقطع، و هو دليل على انّ الجملهٔ الاستثنائيهٔ لبيان قدرته فحسب.

۲- و حيث تذكر الآيات هذين الطرفين فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ فليس الأشقياء هم الكفار المستحقين للخلود فى النّار فقط بل قد يوجد بينهم مؤمنون من اهل الكبائر فيكون هؤلاء داخلين فى هذا الاستثناء.

و لكن قد ينقدح هذا السؤال ايضا و هو: ما المراد من الاستثناء فى الجملهٔ الثّانيهٔ (التى تتحدث عن الذين سعدوا)؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۲

و فى الجواب على هذا السؤال أجيب- ايضا- بأنّ المؤمنين المذنبين يدخلون النّار اوّلا ليتطهروا من الذنوب، ثمّ يلتحقون بصفوف اهل الجنّهٔ.

فإنّ الاستثناء فى الجملهٔ الاولى هو بالنسبهٔ لآخر الأمر ... و فى الجملهٔ الثّانيهٔ لاوّل مرّهٔ (فلاحظوا بدقّهٔ).

و يحتمل فى الجواب على السؤال الآنف الذكر انّ الاستثناء فى الجملهٔ الاولى اشارهٔ الى المؤمنين المذنبين الذين يعتقون من النّار بعد مدهٔ، و الاستثناء فى الجملهٔ الثّانيهٔ اشارهٔ الى قدرهٔ اللّه سبحانه، و الشاهد على هذا الكلام ورود قوله تعالى إِنَّ رَبَّکَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ فى الجملهٔ الاولى بعد الاستثناء، ليدل على تحقق المشيئهٔ الالهيهٔ، و فى الجملهٔ الثّانيهٔ ورد قوله تعالى: عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ليدل على الابديّهٔ (فتدبّر).

و قد احتمل البعض ان يكون العقاب و الثواب متعلقان بحياهٔ البرزخ «النعيم فى البرزخ او الشقاء فى البرزخ» التى تكون محدودهٔ المدّهٔ و لا بدّ ان تنتهى، و لكنّه احتمال بعيد جدّا، لانّ الآيات المتقدمهٔ تتحدث عن يوم القيامهٔ بصراحهٔ، و علاقهٔ هذه الآيات بتلك الآيات علاقهٔ لا تقبل الانفكاك.

كما انّ احتمال كون الخلود هنا بمعنى المدّهٔ الطويلهٔ- كما هو فى بعض آيات القرآن الاخرى، و ليس هو البقاء الدائم الابدى- لا

ینسجم مع قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۷۲

عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ و لا مع الاستثناء نفسه الذی یدل علی الابدیة فی الجمل السابقة.

۶- تقول الآیات المتقدمة فی شأن اهل النّار: لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ و قد احتمل اهل اللغة و المفسّرون فی معنی هاتین الکلمتین «الزفیر و الشهیق» احتمالات متعددة:

۱- فقال البعض: المراد ب «الزفیر» هو الصراخ المصطحب بإخراج النفس الی الخارج، و امّا «الشهیق» فهو الأنین المقترن بسحب الهواء الی داخل الرئة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۳

۲- و قال آخرون: انّ الزفیر هو بدایة صوت الحمار و الشهیق نهایته، و لعل هذا التّفسیر لا تختلف عن التّفسیر الاوّل کثیرا.

و علی کل حال فإنّ هذین الصوتین یحکیان عن صراخ و عویل اهل النّار الذین یضجون- من الحزن و الغمّ و الحسرة- ضجیجا یملا جمیع وجودهم و یدلّ علی منتهی اذاهم و شدّة عذابهم.

و ینبغی الالتفات الی انّ «الزفیر و الشهیق» کلاهما مصدر، و «الزفیر» فی الأصل حمل العبء الثقیل علی الکتف، و لانّ هذا العمل یؤدی الی التأوه و الضجیج فقد سمیّ زفیرا، و امّا «الشهیق» فمعناه فی الأصل الاطالة و الارتفاع، و من هنا فقد سمی الجبل المرتفع بالجیل الشاهق ایضا، ثمّ أطلقوا هذا اللفظ «الشهیق» علی الأنین.

اسباب السعادة و الشقاء

السعادة ضالّة کل الناس، و کلّ واحد یبحث عنها فی شیء ما و یطلبها فی مکان ما، و هی توفّر اسباب تکامل الفرد فی المجتمع، و النقطة المقابلة لها هی الشقاء الذی یتنفر منه کل احد، و هو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح و التقدم و التکامل.

فعلی هذا، کل من توفرت له اسباب التحرک و التقدم نحو الاهداف السامیة روحیا و جسمیا و عائلیا و بیئیا و ثقافیا، فهو اقرب للسعادة، و بتعبیر آخر هو اکثر سعادة! و لکن ینبغی الالتفات الی انّ أساس السعادة او الشقاء هو ارادة الإنسان نفسه، فهو یستطیع ان یوفر الوسائل لترشید نفسه و حتی مجتمعه، و هو الذی یستطیع ان یواجه عوامل الشقاء و یهزمها او یستسلم لها.

و لیس الشقاء او السعادة فی منطق الوحی و مدرسة الأنبیاء فی داخل ذات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۴

الإنسان شیئا و حتی النواقص فی المحیط و العائلة و الوراثة کل ذلک قابل للتغییر بتصمیم الإنسان و ارادته الّا ان ننکر اصل الارادة فی الإنسان و حریته، و نعدّه محکوما بالظروف الجبریة، و کل من سعادته او شقائه ذاتی او هو نتیجة جبریة لمحیطه، و ما الی ذلک.

و هذا الرای مرفوض فی نظر الأنبیاء و فی نظر المذهب العقلی ایضا.

الطریف انّنا نجد فی الرّوایات المنقولة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اهل البیت علیهم السّلام إشارات الی مسائل مختلفة علی انّها اسباب السعادة، او اسباب الشقاء ... بحیث یتعرف الإنسان خلال مطالعتها علی طریقة التفکیر الاسلامی فی هذه المسألة المهمّة، و سیقف علی الواقعیات العینیة و اسباب السعادة الحقیقیة، بدلا من ان یقف علیها فی المسائل الخرافیة و التصوّرات و السنن الخاطئة الموجودة فی کثیر من المجتمعات.

و نلفت نظر القارئ الکریم علی سبیل المثال الی بعض الأحادیث الشریفة فی هذا الصدد:

۱- ینقل

الامام الصّادق علیه السّلام عن جدّه امیر المؤمنین علیه السّلام انّه قال «حقیقة السعادة ان یختم للرجل عمله بالسعادة و حقیقة الشقاوة ان یختم للرجل بالشقاوة»[۳۷].

فهذه الرّوایة تقول بصراحة: انّ المرحلة النهائیة لعمر الإنسان و اعماله هی المرحلة التی تکشف عن سعادته و شقاوته، و علی هذا فهی تنفی السعادة او الشقاء الذاتیین، و تجعل الإنسان رهین عمله، کما تجعل طریق العودة مفتوحا فی جمیع المراحل حتی نهایة عمره.

۲- و نقرا

فی حدیث آخر عن الامام علی علیه السّلام «السعید من وعظ بغیره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۵

و الشقی من انخدع لهواه و غروره»[۳۸].

و کلام الامام علی علیه السّلام هذا تأکید آخر علی عدم ذاتیة السعادة و الشقاء و بیان بعض أسبابهما.

۳- و

یقول نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ایضا: «اربع من اسباب السعادة و اربع من الشقاوة، فالأربع التی من السعادة المراة الصالحة، و المسکن الواسع، و الجار الصالح، و المرکب البهیّ. و الأربع التی من الشقاوة: الجار السوء، و المراة السوء، و المسکن الضیق، و المرکب السوء»[۳۹].

مع ملاحظة انّ هذه الأمور الاربعة لها تأثیر بالغ فی الحیاة المادیة و المعنویة لکل احد، و یمکن ان تکون من عوامل النجاح او الفشل و تتّضح بهذا سعة مفهوم السعادة و الشقاوة فی منطق الإسلام.

فالمرأة الصالحة ترغّب الإنسان فی انواع «الحسنات»، و البیت الواسع یهب روح الإنسان و فکره الهدوء و الراحة و یهیئه للنشاط و الفعالیة، و الجار الصالح الذی یقدم له عونا مؤثرا فی راحته و استقراره و حتی فی تقدم اهداف الانسانیة، المرکب الجید عامل مؤثر فی الوصول الی الأعمال و الوظائف الاجتماعیة، فی حین انّ المرکب السوء یکون عاملا فی التأخیر و لا یوصل صاحبه الی هدفه.

۴- کما

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذا الحدیث ایضا: «من علامات الشقاء: جمود العینین، و قسوة القلب، و شدّة الحرص فی طلب الرزق، و الإصرار علی الذنب»[۴۰].

هذه الأمور الاربعة التی وردت فی الحدیث المتقدم، هی امور اختیاریة و هی نتیجة اعمال الإنسان و أخلاقه الاکتسابیة نفسه، و علی هذا فإنّ ابعاد اسباب الشقاء هذه تکمن فی اختیار الإنسان نفسه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۶

و إذا لاحظنا اسباب السعادة و الشقاوة فی الأحادیث المتقدمة و حقیقتهما و اثرهما البالغ فی حیاة البشر، و قارنّاهما مع الأسباب و المسائل الخرافیة التی یعتقد بها جمع کثیر- حتی فی عصرنا عصر الذّرة و الفضاء- لوصلنا الی هذا الواقع الذی یؤکّد انّ التعالیم الاسلامیة منطقیّة و مدروسة الی أقصی حد.

و لا یزال الی الیوم من یعتقد انّ نعل الفرس سبب للسعادة، و انّ الیوم الثّالث عشر سبب لسوء الحظّ ... و القفز علی النّار فی بعض لیالی السنة من اسباب السعادة، و صوت بعض الطیور سبب للشقاء و سوء الحظ، و سکب الماء عند خروج المسافر من اسباب السعادة، و العبور من تحت السلم سبب للشقاء!! و حتی تعلیق بعض الأشیاء فی رقبة الفرد او علی وسائل النقل من اسباب السعادة و العطاس علامة علی الفشل إذا کان حین العمل و کثیر من أمثال هذه الخرافات نجدها فی الشرق و الغرب بین الأقوام و الأمم المتعددة.

و كم من أناس تعطلوا عن نشاطهم فى الحياة نتيجة ابتلائهم بمثل هذه الخرافات و أصبحوا رهن المصائب الكثيرة.

لقد شطب الإسلام بقلم احمر على جميع هذه التصوّرات الخرافية، و حدّد- مبيّنا بوضوح- سعادة الإنسان و شقاوته فى الفعاليّات الايجابية و السلبية و نقاط الضعف و القوّة فى الأخلاق و المناهج العملية و طريقة التفكير و العقيدة لكل فرد، من خلال الامثلة التى قدمناها فى الأحاديث الاربعة عن اهل البيت عليهم السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۲]

اشارة

فَلا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِمَّا یَعْبُدُ هؤُلاءِ ما یَعْبُدُونَ إِلاَّ کَما یَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِیبَهُمْ غَیْرَ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ وَ لَوْ لا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ (۱۱۰) وَ إِنَّ کُلاًّ لَمَّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ کَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَکَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۱۱۲)

التّفسير

الاستقامة و الثّبات:

هذه الآيات- فى الحقيقة- بمثابة تسلية لخاطر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما انّها نازلة لبيان وظيفته و مسئوليته، و فى الواقع انّ من أهم النتائج التى يتوصل إليها من القصص السابقة للأمم الماضية هى ان لا يكترث النّبى و من معه من اتباعه المؤمنون حقّا من كثرة الأعداء، و لا- يخافوا منهم، و لا يشكّوا او يتردّدوا فى هزيمة عبدة الأصنام و الظالمين الذى يقفون بوجوههم، و ان يواصلوا طريقهم و يعتمدوا على اللّه واثقين به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۸

لذلک يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد:

فَلا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِمَّا یَعْبُدُ هؤُلاءِ ما یَعْبُدُونَ إِلَّا کَما یَعْبُدُ آباؤُهُمْ ۴۱].

و يقول بعدها مباشرة: وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِیبَهُمْ غَیْرَ مَنْقُوصٍ على انّ جملة موفوهم نصيبهم تعنى أداء الحق كاملا، لكن ذكر كلمة غير منقوص للتأكيد اكثر على هذه المسألة.

و فى الحقيقة انّ هذه الآية تجسّم هذه الحقيقة، و هى انّ ما قرأناه من قصص الأمم السابقة لم يكن اسطورة، كما انّها لا تختص بالماضين، فهى سنّة ابدية و خالدة و هى لجميع الناس ماضيا و حاضرا و مستقبلا.

غاية ما فيه الأمر انّ هذا العقاب فى كثير من الأمم السابقة نزل على شكل بلايا مهولة و عظيمة، لكنّه وجد شكلا آخر فى شأن أعداء نبى الإسلام، و هو انّ اللّه اعطى القدرة و القوة العظيمة لنبيّه و أصحابه المؤمنين بحيث استطاع ان يهزم أعداءه الظالمين اللجوجين الذين أصروا على انحرافهم و غرورهم.

و يسلّى القرآن قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّة اخرى، فيحدّثه عن موسى و قومه قائلا:

وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ ... و يقول إذا ما رأيت انّ اللّه لا يعجل العذاب على قومك، فلانّ مصلحة الهداية و التعليم و التربية لقومك توجب ذلك و الّا فانّ القرار الالهى المسبق يقتضى التعجيل بعملية التحكيم و القضاء و بالتالى إنزال العقاب وَ لَوْ لا

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ و بالرغم من ذلك فهم فى شك من هذا الأمر[۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۹

كلمة «مريب» مشتقّة من «الريب» و معناه الشكّ المقترن بسوء الظن و النظرة السيئة و القرائن المخالفة، و على هذا فيكون مفهوم هذه الكلمة انّ عبدة الأصنام ما كانوا يترددون فى مسألة حقيقة القرآن او نزول العذاب على المفسدين فحسب، بل كانوا يدّعون بأنّ لديهم قرائن تخالف ذلك ايضا.

امّا «الراغب» فيقول فى «مفرداته»: انّ معنى الريب هو الشك الذى يرفع عنه الحجاب بعدئذ و يعود الى اليقين، فعلى هذا يكون مفهوم الآية انّ الحجاب سيكشف عاجلا عن حقانية دعوتك و كذلك عن عقاب المفسدين و تظهر حقيقة الأمر! و يضيف القرآن لمزيد التأكيد وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ و هذا الأمر ليس فيه صعوبة على اللّه و لا حرج إذ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

الطريف انّ القرآن يقول: لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ... أَعْمالَهُمْ ليشير مرّة اخرى الى مسألة تجسّم الأعمال و انّ الجزاء و الثواب هما فى الحقيقة اعمال الإنسان نفسه التى تتخذ شكلا آخر و تصل اليه ثانية.

و بعد ذكر قصص الأنبياء و الأمم السابقة و رمز نجاحهم و نصرهم، و بعد تسلية قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تقوية ارادته، يبيّن القرآن- عن هذا الطريق- اهمّ دستور امر به النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ

«استقم» فى طريق الإرشاد و التبليغ ... استقم فى طريق المواجهة و المواصلة ... استقم فى أداء الوظائف الالهية و نشر التعليمات القرآنية.

و لكن هذه الاستقامة ليست لينال فلان او فلان مستقبلا زاهرا، و ليست للرياء و ما شابه ذلك، و ليست لاكتساب عنوان البطولة، و لا اكتساب «المقام» او «الثروة» او «الموفقية» او «القدرة»، بل هى لمجرّد طاعة اللّه و اتباع امره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۰

كَما أُمِرْتَ

كما انّ هذه الاستقامة ليست عليك وحدك، فعليك ان تستقيم أنت وَ مَنْ تابَ مَعَكَ استقامة خالية من كل زيادة و نقصان و افراط أو تفريط وَ لا تَطْغَوْا إذ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ و لا تخفى عليه حركة و لا قول و لا اى خطّة اخرى ... إلخ.

المسؤولية الكبيرة!!

نقرا فى حديث معروف عن ابن عباس انّه قال: ما نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آية كانت اشدّ عليه و لا اشقّ من هذه الآية. و لذلك قال لأصحابه حين قالوا له:

اسرع إليك الشيب يا رسول اللّه

قال: صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «شيبتنى هود و الواقعة»[۴۳].

و نقرا

فى رواية اخرى انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال حين نزلت هذه الآية: «شمّروا شمّروا ... فما رئى ضاحكا ...»[۴۴].

و الدليل واضح، لانّ اربعة أوامر مهمّة موجودة فى هذه الآية يلقى كل واحد منها عبئا ثقيلا على الكتف.

و أهمها الأمر بالاستقامة ... الاستقامة (المشتقة من مادة القيام) من جهة انّ الإنسان يكون تسلطه و سعيه فى عمله حال القيام اكثر ... الاستقامة التى معناها طلب القيام، اى أوجد حالة فى نفسك بحيث لا تجد طريقا للضعف فيك، فما اصعبه من امر و ما اشدّه؟! غالبا ما يكون النجاح فى العمل امرا هيّنا نسبيا ... لكن المحافظة على النجاح فيها كثير من الصعوبة ... و فى اى مجتمع؟! فى مجتمع متأخر

متخلف ...

فی مجتمع بعید عن العلم و التعقل .. فی مجتمع لجوج و بین اعداء کثیرین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۱

معاندین ... و فی سبیل بناء مجتمع سالم و حضارة انسانیة زاهرة فالاستقامة فی هذا الطریق لیس امرا هیّنا.

و الأمر الآخر: ان تحمل هذه الاستقامة هدفا الهیا فحسب، و ان تکون الوساوس الشیطانیة بعیدة عنها تماما، ای ان تکتسب هذه الاستقامة اکبر القدرات السیاسیة و الاجتماعیّة من اجل اللّه.

و الأمر الثّالث: مسألة قیادة أولئک الذین رجعوا الی طریق الحق و تعویدهم علی الاستقامة ایضا.

و الأمر الرّابع: المواجهة و المبارزة فی مسیر الحق و العدالة و القیادة الصحیحة و صدّ کل انواع التجاوز و الطغیان، فکثیرا ما یبدی بعض الناس منتهی الاستقامة فی سبیل الوصول للهدف، لکن لا یستطیعون ان یراعوا مسألة العدالة، و غالبا ما یبتلون بالطغیان و التجاوز عن الحدّ.

اجل ... مجموع هذه الأمور و توالیها علی النّبی حمّلته مسئولیة کبری، حتی انه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما رئی ضاحکا ... و شیّبته هذه الآیة من الهمّ.

و علی کل حال فإنّ هذا الأمر لم یکن للماضی فحسب، بل هو للماضی و الحاضر و المستقبل، و هو للأمس و الیوم و الغد القریب و الغد البعید ایضا.

و الیوم مسئولیتنا المهمّة- نحن المسلمین ایضا، و بالخصوص قادة الإسلام- تتلخّص فی هذه الکلمات الاربعة. و هی: الاستقامة، و الإخلاص، و قیادة المؤمنین، و عدم الطغیان و التجاوز. و دون ربط هذه الأمور بعضها الی بعض فإنّ النصر علی الأعداء الذین احاطونا من کل جانب من الداخل و الخارج، و استفادوا من جمیع الاسالیب الثقافیة و السیاسیة و الاقتصادیة و الاجتماعیة و العسکریّة ... هذا النصر لا یکون سوی أوهام فی مخیلة المسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۲

الآیة [سورة هود (۱۱): آیة ۱۱۳]

اشارة

وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّکُمُ النَّارُ وَ ما لَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِیاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۱۱۳)

التّفسیر

الرّکون الی الظالمین:

انّ هذه الآیة تبیّن واحدا من أقوی و أهم الاسس و البرامج الاجتماعیة و السیاسیة و العسکریة و العقائدیة، فتخاطب عامة المسلمین لیؤدوا وظیفتهم القطعیة فتقول: وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا و السبب واضح فَتَمَسَّکُمُ النَّارُ وَ ما لَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِیاءَ و معلوم عندئذ حالکم ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ

ملاحظات

۱– ما هو مفهوم الرّكون

؟ مفهوم «الركون» مشتق من مادة «ركن» و معناه العمود الضخم من الحجر او الجدار الذى يربط البناء او الأشياء الاخرى بعضها الى بعض، ثمّ اطلق هذا اللفظ على الاعتماد او الاستناد الى الشيء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۳

و بالرغم من انّ المفسّرين اعطوا معانى كثيرة لهذه الكلمة فى تفسيرهم للآية، و لكنّها فى الغالب تعود الى مفهوم جامع و كلى فمثلا فسّرها البعض بالميل، و فسّرها البعض ب «التعاون»، و فسّرها البعض ب «اظهار الرضا»، و فسّرها آخرون ب «المودّة»، كما فسرها جماعة بالطاعة و طلب الخير، و كل هذه المعانى ترجع الى الاعتماد و الاتكاء كما هو واضح.

۲– فى ایّ الأمور لا ینبغی الرّكون الی الظالمین

؟ بديهى انّه فى الدرجة الاولى لا يصح الاشتراك معهم فى الظلم او طلب الاعانة منهم، و بالدرجة الثّانية الاعتماد عليهم فيما يكون فيه ضعف المجتمع الاسلامى و سلب استقلاله و اعتماده على نفسه و تبديله الى مجتمع تابع و ضعيف لا يستحق الحياة، لانّ هذا الركون ليس فيه نتيجة سوى الهزيمة و التبعية للمجتمع الاسلامى.

و امّا ما نلاحظه أحيانا من مسائل التبادل التجارى و الروابط العلمية بين المسلمين و المجتمعات غير الاسلامية على أساس حفظ منافع المسلمين و استقلال المجتمعات الاسلامية و ثباتها، فهذا ليس داخلا فى مفهوم الركون الى الظالمين و لم يكن شيئا ممنوعا من وجهة نظر الإسلام، و فى عصر النّبى نفسه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الاعصار التى تلته كانت هذه الأمور موجودة و طبيعية ايضا.

۳– فلسفة تحریم الركون الی الظالمین

الرّكون الى الظالمين يورث مفاسد كثيرة لا تخفى على احد بصورتها الاجمالية و لكن كلّما تفحصنا فى هذه المسألة اكثر اكتشفنا مسائل دقيقة جديدة.

فالركون الى الظالمين يبعث على تقويتهم، و تقويتهم مدعاة الى اتساع رقعة الظلم و الفساد فى المجتمعات، و نقرا فى الأوامر الاسلامية انّ الإنسان ما لم يجبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۴

«و فى بعض الأحيان حتى مع الإجبار» لا يحق له ان يراجع القاضى الظالم من اجل اكتساب حقّه، لان مراجعة مثل هذا القاضى الحاكم الجائر من اجل احقاق الحق مفهومها ان يعترف ضمنا برسميته و تقواه، و لعل ضرر هذا العمل اكبر من الخسارة التى تقع نتيجة فقدان الحق.

و الركون الى الظلمة يؤثر تدريجا على الثقافة الفكرية للمجتمع، فيضمحل مفهوم «قبح الظلم» و يؤدى بالناس الى الرغبة فى الظلم.

و أساسا لا نتيجة من الركون الى الغير بصورة التعلق و الارتباط الشديد الّا سوء الحظ و الشقاء، فكيف إذا كان هذا الركون الى الظالمين؟

انّ المجتمع الحضارى المقتدر هو المجتمع الذى يقف على قدميه، كما يعبر القرآن الكريم فى مثل بديع فى الآية (۲۹) من سورة

الفتح إذ یقول: فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ و المجتمع الحرّ المستقلّ هو المجتمع الذی یکتفی ذاتیا، و ارتباطه او تعاونه مع الآخرین هو ارتباط علی أساس المنافع المتبادلة لا علی أساس رکون الضعیف الی القوی، لانّ هذا الرکون- سواء کان من جهة فکریة او ثقافیة او اقتصادیة او عسکریة او سیاسیة- لا یخلّف سوی الأسر و الاستثمار، و لا یثمر سوی المساهمة فی ظلمهم و المشارکة فی خططهم.
و بالطبع فإنّ الآیة المتقدمة لیست خاصّة بالمجتمعات فحسب، بل تشمل العلاقة و الارتباط بین فردین ایضا، فلا یجوز لإنسان مؤمن ان یرکن الی ای ظالم، فإنّه اضافة الی فقدان استقلاله لرکونه الی دائرة ظلمه، فسیؤدی الی تقویته و اتساع الفساد و العدوان کذلک.

۴- من المقصود ب «الَّذِینَ ظَلَمُوا»

؟ ذکر المفسّرون فی هذا المجال احتمالات مختلفة، فقال بعضهم: المقصود ب الَّذِینَ ظَلَمُوا هم المشرکون، و لکن- کما قال آخرون- لا دلیل علی انحصار
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۵
هذا اللفظ بالمشرکین رغم ان مصداق الظالمین فی عصر نزول الآیة هو المشرکین.
کما انّ تفسیر هذه الکلمة فی الرّوایات بالمشرکین لا یدلّ علی الانحصار، لانّنا قلنا مرارا و تکرارا انّ مثل هذه الرّوایات انّما تبیّن المصداق الواضح و الجلی، فعلی هذا الأساس یدخل فی دائرة هذه الآیة جمیع الذین امتدّت أیدیهم الی الظلم و الفساد، او استعبدوا خلق اللّه و عباده، او استغلوا قواهم لمنافعهم، و باختصار کل الذین دخلوا فی المفهوم العام لهذا التعبیر الَّذِینَ ظَلَمُوا.
و لکن من الواضح ان من اخطأوا فی حیاتهم خطأ بسیطا و صاروا من مصادیق الظالم أحیانا غیر داخلین فی مفهوم الآیة قطعا لانّه فی هذه الصور لا یخرج عن شمولیة هذه الآیة الّا النادر، فلا یصح الرّکون و الاعتماد علی ای شخص، اللّهم الّا ان نقول: انّ المراد بالرکون هو الاعتماد علی الظالم من جهة ظلمه و جوره، و فی هذه الحال حتی الذین تلوّثت أیدیهم بالظلم مرّة واحدة لا یجوز الرکون إلیهم.

۵- اشکال

بعض المفسّرین من اهل السنة اشکالا یصعب الجواب علیه من مبناهم و هو ما ورد فی روایاتهم من وجوب الطاعة و التسلیم لسلطان الوقت الذی هو من أولو الأمر ایّا کان، لما نقلوا
حدیثا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی وجوب طاعة السلطان «و ان أخذ مالک و ضرب ظهرک ...»!
و روایات اخری تؤکّد طاعة السلطان بمعناها الواسع.
و من جهة اخری تقول الآیة: وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا فهل یصحّ الجمع بین هذین الأمرین؟! أراد البعض ان یرفع هذا التضاد باستثناء واحد، و هو ان طاعة السلطان
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۶
تکون واجبة ما لم ینحرف الی طریق العصیان و یخطو فی طریق الکفر.
و لکن لحن تلک الرّوایات لا ینسجم مع هذا الاستثناء.
و علی کل حال فنحن نعتقد- و کما ورد فی مذهب اهل البیت علیهم السّلام- بوجوب طاعة ولی الأمر العادل و العالم الذی یصح ان یکون خلیفة عامّا للنّبی و اماما من بعده فحسب.

و إذا کان سلاطین بنی امیّة و بنی العباس قد وضعوا الأحادیث فی هذا المجال لمصلحتهم، فلا تنسجم بأی وجه مع اصول مذهبنا و التعلیمات القرآنیة، و ینبغی ان نعالج هذه الرّوایات، فإن کانت تقبل التخصیص خصّصناها، و الّا طرحناها جانبا، لانّ کل روایة تخالف کتاب اللّه فهی مردودة و باطلة، و القرآن یصرح انّ امام المسلمین لا یجوز ان یکون ظالما، و الآیة المتقدمة تقول بصراحة ایضا: وَ لا تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا ... او نقول: انّ أمثال هذه الرّوایات مخصوصة بالحالات الضروریة و الاضطراریة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۷

الآیتان [سورة هود (۱۱): الآیات ۱۱۴ الی ۱۱۵]

اشارة

وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَیِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ ذلِکَ ذِکْری لِلذَّاکِرِینَ (۱۱۴) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا یُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ (۱۱۵)

التّفسیر

الصلاة و الصبر:

هذه الآیات تشیر الی أمرین من اهمّ الأوامر الاسلامیة، و هما فی الواقع روح الایمان و قاعدة الإسلام، فیأتی الأمر اوّلا بالصلاة وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَیِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ

و ظاهر التعبیر من طَرَفَیِ النَّهارِ هو بیان صلاة الصبح و صلاة المغرب اللتین یقعان طرفی النهار، و «الزلف» جمع «زلفة» التی تعنی القرب، و یشار بها الی اوّل اللیل القریب من النهار فتنطبق علی صلاة العشاء.

و هذا التّفسیر وارد فی روایات اهل البیت علیهم السّلام ایضا، ای انّ الآیة تشیر الی الصلوات الثلاث «الصبح و المغرب و العشاء».

و یرد هنا سؤال و هو: لم ذکرت هذه الصلوات الثلاث من بین الصلوات الخمس؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۸

غموض الاجابة دعا بعض المفسّرین لان یتوسع فی معنی طَرَفَیِ النَّهارِ لیشمل صلاة الصبح و الظهر و العصر و المغرب ایضا. و بالتعبیر ب وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ الذی یشیر الی صلاة العشاء تکون جمیع الصلوات الخمس قد دخلت فی الآیة! و الإنصاف ان تعبیر طَرَفَیِ النَّهارِ لا یتحمل مثل هذا التّفسیر، مع ملاحظة انّ المسلمین فی الصدر الاوّل من الإسلام کانوا مقیدین بأداء صلاة الظهر فی اوّل الوقت و أداء صلاة العصر فی حدود نصف الوقت، ای بین وقت الظهر و وقت المغرب.

الشیء الوحید الذی یمکن ان یقال هنا: انّ آیات القرآن قد تذکر جمیع الصلوات الخمس أحیانا کما فی سورة الاسراء: أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلی غَسَقِ اللَّیْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ[۴۵].

و قد تذکر ثلاث صلوات- کالآیة محل البحث- و قد تذکر صلاة واحدة کما فی سورة البقرة حافِظُوا عَلَی الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطی وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِینَ ۴۶].

فعلی هذا لا یستلزم ذکر جمیع الصلوات الخمس فی کل مورد، و قد توجب المناسبات الاشارة الی صلاة الظهر «الصَّلاةِ الْوُسْطی لاهمیتها او تشیر الی صلاة الصبح او المغرب و العشاء و ذلک لاحتمال ان تقع فی دائرة النسیان للتعب او النوم.

و لاهمیة الصلوات الیومیّة- خاصّة- و جمیع العبادات و الطاعات و الحسنات- عموما- فإنّ القرآن یشیر بهذا التعبیر إِنَّ الْحَسَناتِ

يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ

و الآية آنفة الذكر كسائر آيات القرآن تبيّن تأثير الأعمال الصالحة فى محو

اثر الأعمال السيئة، حيث نقرا فى سورة النساء الآية (۳۱): إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ و نقرا فى سورة العنكبوت الآية (۷): وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ

و بهذا تثبت مقولة ابطال السيئات بالطاعات و الأعمال الحسنة.

و من الناحية النفسية- ايضا- لا ريب فى ان الذنب و العمل السيء يوجد نوعا من الظلمة فى روح الإنسان و نفسه، بحيث لو استمرّ على السيئات تتراكم عليه الآثار فتمسخ الإنسان بصورة موحشة.

و لكن العمل الصالح الصادر من الهدف الالهى يهب روح الإنسان لطافة بإمكانها ان تغسل آثار الذنوب و ان تبدّل ظلمات نفسه الى أنوار.

و بما انّ الجملة الآنفة إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذكرت بعد الأمر بإقامة الصلاة مباشرة، فإنّ واحدة من مصاديقها هى الصلاة اليومية، و إذا ما لاحظنا فى الرّوايات اشارة الى الصلاة اليومية فى التّفسير فحسب فليس ذلك دليلا على الانحصار، بل- كما قلنا مرارا- انّما هو بيان مصداق واضح قطعى.

الاهميّة القصوى للصلاة:

تلاحظ فى الرّوايات المتعددة المنقولة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الائمة الطاهرين عليهم السّلام تعبيرات تكشف عن الاهمية الكبرى للصلاة فى نظر الإسلام.

يقول ابو عثمان: كنت جالسا مع سلمان الفارسى تحت شجرة فأخذ غصنا يابسا و هزّه حتى تساقطت أوراقه جميعا، ثمّ التفت الىّ و قال: ما سألتنى لم فعلت ذلك؟! فقلت: و ما تريد؟! قال: هذا ما كان من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين كنت جالسا معه تحت شجرة ثمّ

سألنى النّبى هذا السؤال و قال: «ما سألتنى لم فعلت ذلك؟».

فقلت له: و لم يا رسول اللّه؟

فقال: «انّ المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثمّ صلّى الصلوات الخمس تحاتّت خطاياه كما تحاتّ هذا الورق» ثمّ قرا الآية «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ ... إلخ».[۴۷]

و نقرا

فى حديث آخر عن احد اصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اسمه ابو امامة انّه قال: «كنت جالسا يوما فى المسجد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فجاءه رجل و قال: يا رسول اللّه، أذنبت ذنبا يستوجب الحدّ فأقم علىّ الحدّ، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أ صليت معنا؟» قال:

نعم يا رسول اللّه، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «فإنّ اللّه غفر ذنبك» ... او «أسقط عنك الحد»[۴۸].

كما

نقل عن على عليه السّلام انه قال: «كنّا مع رسول اللّه ننتظر الصلاة فقام رجل و قال: يا رسول اللّه، أذنبت. فأعرض النّبى بوجهه عنه،

فلما انتهت الصلاة قام ذلك الرجل و أعاد كلامه ثانية، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الم تصلّ معنا و أحسنت لها الوضوء؟ فقال بلى، فقال: هذه كفارة ذنبك»[۴۹].

و

نقل عن على عليه السّلام ايضا انّه قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: انّما منزلة الصلوات الخمس لامتى كنهر جار على باب أحدكم، فما يظن أحدكم لو كان فى جسده درن ثمّ اغتسل فى ذلك النهر خمس مرات، أ كان يبقى فى جسده درن؟ فكذلك و اللّه الصلوات الخمس لامتى»[۵۰].

و على كل حال، لا مجال للشكّ فى انّه متى ما اديت الصلاة بشرائطها فإنّها تنقل الإنسان الى عالم من المعنويّة و الروحانيّة بحيث توثق علائقه الايمانية باللّه، و تغسل عن قلبه و روحه الأدران و آثار الذنوب.

الصلاة تجير الإنسان من الذنب، تجلو صدا القلوب.

الصلاة تجذّر الملكات السامية للإنسان فى اعماق الروح البشرية، و الصلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۱

تقوى الارادة و تطهر القلب و الروح، و بهذا الترتيب فإنّ الصلاة الواعية الفاعلة هى مذهب تربوى عظيم.

أرجى آية فى القرآن:

ينقل فى تفسير الآية- محل البحث- حديث طريف

عن الامام على عليه السّلام بهذا المضمون، و هو انّه التفت مرّة الى الناس و قال: «اى آية فى كتاب اللّه أرجى عندكم»؟! فقال بعضهم: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

فقال عليه السّلام: حسنة ليست ايّاها.

فقال آخرون: هى آية قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

فقال عليه السّلام: حسنة ليست ايّاها.

فقالوا: هى آية وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً.

قال عليه السّلام: حسنة ليست ايّاها.

فقال آخرون: هى آية: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ فقال الامام ايضا: «حسنة ليست ايّاها».

ثمّ أحجم الناس، فقال: ما لكم يا معشر المسلمين، فقالوا: و اللّه ما عندنا شىء قال عليه السّلام: «سمعت حبيبى رسول اللّه يقول: أرجى آية فى كتاب اللّه وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ ۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۲

و بالطبع كما ذكرنا فى شرح الآية (۴۸) من سورة النساء: انه ورد حديث آخر يشير الى ان أرجى آية فى القرآن هى آية إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

و لكن مع ملاحظة انّ كل آية من هذه الآيات تنظر الى زاوية من هذا البحث و تبيّن بعدا من الابعاد، فلا تضادّ بينها.

و فى الواقع انّ الآية محل البحث تتحدّث عن أولئك الذين يؤدّون الصلاة بصورة صحيحة، صلاة مع حضور القلب و الروح، بحيث تغسل آثار الذنوب عن قلوبهم و أرواحهم. امّا الآية الاخرى تتحدّث عن أولئك الذين حرموا من هذه الصلاة، فبإمكانهم من باب

التوبة، فإذن هذه الآية لهؤلاء الجماعة أرجى آية، و تلك الآية لأولئك الجماعة أرجى آية.

و ایّ رجاء أعظم من ان يعلم الإنسان انّه متى زلت قدمه و غلب عليه هواه (دون ان يصرّ على الذنب) و حين يحل وقت الصلاة فيتوضأ و يقف امام معبوده للصلاة، فيحسّ بالخجل عند التوجه الى اللّه لما قدمه من اعمال سيئة و يرفع يديه بالدعاء و طلب العفو فيغفر و تزول عن قلبه الظلمة و سوادها.

و تعقيبا على تأثير الصلاة فی بناء شخصية الإنسان و بيان تأثير الحسنات على محو السيئات، يأتی الأمر بالصبر فی الآية الاخرى بعدها وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

و بالرغم من انّ بعض المفسّرين حاول تحديد معنى الصبر فی هذه الآية فی الصلاة، او إيذاء الأعداء للنبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، الّا انّ من الواضح ان لا دليل على ذلك- بل ان الآية تحمل مفهوما واسعا كليا و جامعا و يشمل كل انواع الصبر امام المشاكل و المخالفات و الأذى و الطغيان و المصائب المختلفة، فالصمود امام جميع هذه الحوادث يندرج تحت مفهوم الصبر.

«الصبر» اصل كلّی و أساس اسلامی، يأتی أحيانا فی القرآن مقرونا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۳

بالصلاة، و لعل ذلك آت من انّ الصلاة تبعث فی الإنسان الحركة، و الأمر بالصبر يوجب المقاومة، و هذان الأمران، ای «الحركة و المقاومة» حين يكونان جنبا الى جنب يثمران كل اشكال النجاح و الموفقية.

و أساسا يتحقق عمل صالح دون صبر و مقاومة ... لانّه لا بدّ من إيصال الأعمال الصالحة الى النهاية، و لذلك فإنّ الآية المتقدمة تعقب على الأمر بالصبر بثواب اللّه و اجره إذ تقول: إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ و معنى ذلك ان العمل الصالح لا يتيسر دون صبر و مقاومة ... لا بأس بذكر هذه المسألة الدقيقة، و هی انّ الناس ينقسمون الى عدّة جماعات إزاء الحوادث العسيرة الصعبة:

۱- فجماعة تفقد شخصيّتها فورا، و كما يعبر القرآن إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.

۲- و جماعة آخرون يصمدون امام الأزمات بكل تحمّل و تجلّد.

۳- و جماعة آخرون بالاضافة الى صمودهم و تحملهم للأزمة، فإنّهم يؤدّون الشكر للّه.

۴- و جماعة آخرون يتجهون الى الأزمات و المصاعب بشوق و عشق، و يفكرون فی كيفية التغلب عليها. و لا يعرفون التعب و النصب فی متابعة الأمور، و لا يهداون حتى تزول المشاكل.

و قد وعد اللّه مثل هؤلاء الصابرين بالنصر المؤزر إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۵۲].

و أنعم عليهم و أثابهم فی الدار الاخرى بالجنّة وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً[۵۳].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۴

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷]

اشارة

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِی الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ (۱۱۷)

التّفسير

عامل الانحراف و الفساد فی المجتمعات:

من اجل إكمال البحوث السابقة ذكر فی هاتين الآيتين اصل اساسی اجتماعی يضمن نجاة المجتمعات من الفساد، و هو انّه ما دام هناك فی كل مجتمع طائفة من العلماء المسؤولين و الملتزمين الذين يحاربون كل اشكال الفساد و الانحراف، و يأخذون على عاتقهم قيادة المجتمع فكريا و ثقافيا و دينيا، فإنّ هذا المجتمع سيكون مصونا من الزيغ و الانحراف.

لكن متى ما سكت عن الحق اهله و حماته، و بقی المجتمع دون مدافع امام عوامل الفساد، فإنّ انتشار الفساد و من ورائه الهلاك امر حتمی.

الآية الاولى اشارت الى القرون و الأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد انواع

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۵

البلاء قائلة: فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ ثمّ تستثنی جماعة فتقول: إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا.

هذه الجماعة القليلة و ان كانت تأمر بالمعروف و تنهی عن المنكر، و لكنّها كحال لوط عليه السّلام و أسرته الصغيرة، و نوح و المعدودين ممن آمن به، و صالح و جماعة من اتباعه، فإنّهم كانوا قلّة لم توفق للإصلاح العام و الكلی فی المجتمع.

و على كل حال فإنّ الظالمين الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من المجتمع اتبعوا لذاتهم و تنعمهم، و كما تقول الآية: وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ

و للتأكيد على هذه الحقيقة، تأتی الآية الثّانية لتقول: انّ هذا الذی ترون من إهلاك اللّه للأمم، إنّما كان لعدم وجود المصلحين فيهم وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ

و أحيانا يسود الظلم و الفساد فی المجتمع، لكن المهم انّ الناس يشعرون بالظلم و الفساد و هم فی طريق الإصلاح، و بهذا الشعور و الاحساس و التحرك بخطوات فی طريق الإصلاح يمهلهم اللّه، و يقرّ لهم قانون الخلق حق الحياة.

و لكن هذا الاحساس متى ما انعدم و أصبح المجتمع صامتا، و أخذ الفساد و الظلم فی الانتشار بكل مكان فإنّ قانون الخلق و الوجود لا يعطيهم الحق فی الحياة، و هذه الحقيقة تتضح بمثال يسير ... فی البدن قوّة و مناعة كريّات الدم البيضاء التی تواجه المكروبات و الجراثيم عند دخولها البدن عن طريق الهواء او الغذاء او الماء او الجروح الجلدية إلخ ...

و هذه الكريّات البيضاء بمثابة الجنود المقاتلة إذ تقف بوجه المكروبات و الجراثيم فتبيدها، او على الأقل تحدّ من انتشارها و نموّها.

و بديهی ان هذه القوة الدفاعية التی تتشكل من ملايين الجنود، لو أضربت يوما عن العمل و بقی البدن دون مدافع، فسيكون ميدانا لهجوم الجراثيم الضارّة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۶

بحيث تسرع انواع الأمراض الى البدن.

و جميع المجتمعات البشرية لها مثل هذه الحالة، فلو ارتفعت هذه القوّة المدافعة عنها و هی ما عبّر عنه القرآن ب أُولُوا بَقِيَّةٍ فإن جراثيم الأمراض الاجتماعية المتوفرة فی كل زاوية من المجتمع سرعان ما تنمو و تتكاثر و يسقط المجتمع صريع الأمراض المختلفة.

ان اثر أُولُوا بَقِيَّةٍ فی بقاء المجتمع حساس للغاية، حتى يمكن القول: انّ المجتمع من دون «اولی بقية» يسلب حق الحياة، و من هنا فقد وردت الاشارة إليهم فی الآية المتقدمة.

من هم أُولُوا بَقِيَّةٍ

؟ كلمة «اولوا» تعنی الاصحاب، و كلمة «بقيّة» معناها واضح ای ما يبقى، و يستعمل هذا التعبير فی لغة العرب بمعنى «أولو الفضل» لانّ

الإنسان يدخر الأشياء النفيسة و الجيّدة لتبقى عنده، فالمصطلح أَولُوا بَقِيَّةٍ يحمل فى نفسه مفهوم الخير و الفضل.

و نظرا لانّ الضعفاء- عادة- يرجّحون الفرار على القرار فى ميدان المواجهة الاجتماعية، او يصيبهم الفناء، و لا يبقى فى ميدان المواجهة إلّا من يتمتع بقوّة فكرية او جسدية، و بذلك يبقى الأقوياء فقط، و من هذا المنطلق ايضا تقول العرب فى أمثالها: فى الزوايا خبايا ... و فى الرجال بقايا.

كما جاءت كلمة «بقيّة» فى القرآن الكريم فى ثلاثة موارد و هى تحمل هذا المفهوم، حيث نقرا فى قصّة طالوت و جالوت إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى ۵۴].

و قرانا ايضا قصّة شعيب (فى هذه السورة) مخاطبا قومه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۷

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۵۵].

و حيث نجد فى قسم من التعبيرات اطلاق بَقِيَّتُ اللَّهِ على «المهدى الموعود» عليه السّلام فهو اشارة الى هذا الموضوع ايضا، لانّه وجود ذو فيض و ذخيرة الهية كبرى، و هو معدّ ليطوى بساط الظلم و الفساد و ليرفع لواء العدل فى العالم كله.

و من هنا نعرف الحق الكبير لهؤلاء الرجال الاجلّاء الافذاذ و المكافحين للفساد، و المصطلح عليهم ب أُولُوا بَقِيَّةٍ على المجتمعات البشرية لانّهم رمز لبقاء الأمم و حياتها و نجاتها من الهلاك.

المسألة الاخرى التى تستجلب النظر فى الآية المتقدمة انّها تقول: وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ

و بملاحظة التفاوت بين كلمتى «مصلح» و «صالح» تتجلى هذه المسألة الدقيقة، و هى انّ الصلاح وحده لا يضمن البقاء، بل إذا كان المجتمع فاسدا و لكن افراده يسيرون باتجاه إصلاح الأمور فالمجتمع يكون له حق البقاء و الحياة ايضا.

فلو انعدم الصالح و المصلح فى المجتمع فإنّ من سنة الخلق ان يحرم ذلك المجتمع حق الحياة و يهلك عاجلا.

و بتعبير آخر: متى كان المجتمع ظالما و لكنه مقبل على إصلاح نفسه، فهذا المجتمع يبقى، و لكن إذا كان المجتمع ظالما و لم يقبل على نفسه فيصلحها او يطهرها فإنّ مصيره الى الفناء و الهلاك.

المسألة الدقيقة الاخرى: انّ واحدا من أسس الظلم و الاجرام- كما تشير اليه الآيات المتقدمة- هو اتباع الهوى و عبادة اللّذة و حبّ الدنيا، و قد عبّر القرآن عن كل ذلك ب «الترف».

فهذا التنعم و التلذذ غير المقيد و غير المشروط أساس الانحرافات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۸

المجتمعات المرفهة، لانّ سكرها من شهواتها يصدها عن إعطاء القيم الانسانية الاصيلة حقّها و درك الواقعيات الاجتماعية، و يغرقها فى العصيان و الآثام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۹

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۱۸ الى ۱۱۹]

اشارة

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۱۹)

التّفسير

فى الآية الاولى محل البحث اشارة الى واحدة من سنن الخلق و الوجود و التى تمثّل اللبنات التحتية لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان ... و هى مسألة الاختلاف و التفاوت فى بناء الإنسان روحا و فكرا و جسما و ذوقا و عشقا، و مسألة حرية الارادة و الاختيار.

تقول الآية وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ

لئلا يتصور احد من الناس انّ تأكيد اللّه و إصراره على طاعة امره دليل على عدم قدرته على ان يجعلهم فى سير واحد و منهج واحد.

نعم، لم يكن- اى مانع- ان يخلق جميع الناس بحكم إلزامه و إجباره على شاكلة واحدة، و يجعلهم مؤمنين بالحق و مجبورين على قبول الايمان به ...

لكن مثل هذا الايمان لا تكون فيه فائدة و لا فى مثل هذا الاتحاد ...

فالإيمان القسرى الذى ينبع من هدف غير ارادى لا يكون علامة على شخصية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۰

الفرد و لا- وسيلة للتكامل، و لا- يوجب الثواب كما هو الحال فى خلق النحل خلقا يدفعها بحكم الغريزة الى ان تجمع الرحيق من الازهار ... و خلق بعوضة الملاريا خلقا يجعلها تستقر فى المستنقعات، و لا يمكن لاىّ منهما ان تتخلى عن طريقتها.

الّا انّ قيمة الإنسان و امتيازه و أهم ما يتفاوت فيه عن سائر الموجودات هى هذه الموهبة، و هى حرية الارادة و الاختيار، و كذلك امتلاك الأذواق و الاطباع و الأفكار المتفاوتة التى يصنع كل واحد منها قسما من المجتمع و يؤمّن بعدا من ابعاده.

و من طرف آخر فإنّ الاختلاف فى انتخاب العقيدة و المذهب امر طبيعى مترتب على حرية الارادة و يكون سببا لانّ تقبل جماعة طريق الحق و تتبع جماعة أخرى الباطل، الّا ان يتربى الناس تربية سليمة فى احضان الرحمة الالهية و يتعلموا المعارف الحقة بالاستفادة من مواهب اللّه تعالى لهم ... ففى هذه الحال، و مع جميع ما لديهم من اختلافات، و مع الاحتفاظ بالحريّة و الاختيار، فإنّهم سيخطون خطوات فى طريق الحق و ان كانوا يتفاوتون فى هذا المسير.

و لهذا يقول القرآن الكريم فى الآية الاخرى: إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ و لكن هذه الرحمة الالهية ليست خاصّة بجماعة معينة، فالجميع يستطيعون «شريطة رغبتهم» ان يستفيدوا منها (وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ).

الأشخاص الذين يريدون ان يستظلوا برحمة اللّه فإنّ الطريق مفتوح لهم ...

الرحمة التى افاضها اللّه لجميع عباده عن طريق تشخيص العقل و هداية الأنبياء.

و متى ما استفادوا من هذه الرحمة و الموهبة، فإنّ أبواب الجنّة و السعادة الدائمة تفتح بوجوههم، و الّا: فلا: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۱

ملاحظات

۱- حرية الارادة هى أساس خلق الإنسان و دعوة جميع الأنبياء، و أساسا لا يستطيع الإنسان بدونها ان يخطو و لو خطوة واحدة فى مسير التكامل «التكامل الانسانى و المعنوى» و لهذا فقد اكّدت آيات متعددة على انّه لو شاء اللّه ان يهدى الناس بإجباره لهم جميعا لفعل، لكنّه لم يشأ.

فيما يتعلق باللّه هو الدعوة الى المسير الحق و تعريف الطريق و وضع العلامات، و التنبيه، على ما ينبغى الحذر منه و تعيين القائد للمسيرة البشرية و المنهج فحسب.

يقول القرآن الكريم: إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى ۵۶] كما يقول ايضا إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ[۵۷] و يقول فى سورة الشمس: فَأَلْهَمَها

فُجُورَها وَ تَقْواها[۵۸] و نقرا ايضا فى سورة الدهر الآية (۴): إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً فعلى هذا فإنّ الآيات محل البحث من أوضح الآيات التى تؤكّد على حرية الارادة و نفى مذهب الجبر، و تدل على انّ التصميم النهائى هو بيد الإنسان.

۲- فى الهدف من الخلق و الوجود، فى آيات القرآن بيانات مختلفة، و فى الحقيقة يشير كل واحد منها الى بعد من ابعاد هذا الهدف، من هذه الآيات وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۵۹] اى ليتكاملوا فى مذهب العبادة و ليبلغوا أعلى مقام للانسانية فى هذا المذهب.

و نقرا فى مكان آخر الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۲

[۶۰].

امّا فى الآية محل البحث فيقول: وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ ... و كما تلاحظون فإنّ جميع هذه الخطوط تنتهى الى نقطة واحدة، و هى تربية الناس و هدايتهم و تقدمهم و تكاملهم، و كل ذلك يعدّ الهدف النهائى للخلق.

و فائدة هذا الهدف تعود للإنسان نفسه لا الى اللّه، لانّ اللّه وجود مطلق لا نهاية له من جميع الجهات، و مثل هذا الوجود لا نقص فيه ليرفعه و يزيله بالخلق.

۳- و فى نهاية الآية الاخيرة تأكيد على الأمر الالهى بملء جنهم من الجن و الانس أجمعين، و بديهى انّ هذا الأمر المحتوم فيه شرط واحد و هو الخروج من دائرة رحمة اللّه، و التقهقر عن هداية الرسل و الادلّاء من قبله، و بهذا الترتيب فإنّ هذه الآية لا يعتبر دليلا على مذهب الإجبار بل هى تأكيد جديد على مذهب الاختيار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۳

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۳]

اشارة

وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۱۲۰) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (۱۲۱) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۲۲) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۲۳)

التّفسير

اربع معطيات لقصص الماضين:

بانتهاء هذه الآيات تنتهى سورة هود، و فى هذه الآيات استنتاج كلى لمجموع بحوث هذه السورة، و بما انّ القسم الاهمّ من هذه السورة يتناول القصص التى تحمل العبر من سيره الأنبياء و الأمم السابقة، فإنّ هذه القصص تعطى نتائج قيّمة ملخّصة فى اربعة مواضيع.

تقول هذه الآيات اوّلا: وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ و كلمة «كلّا» اشارة الى تنوع هذه القصص، و كل نوع منها يشير الى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۴

اتّخاذ جبهة «قبال الأنبياء» و نوع من الانحرافات و نوع من العقاب، و هذا التنوّع يلقى اشعة نيرة على ابعاد حياة الناس.

«تثبيت قلب النّبى» صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تقوية ارادته- التى يشار إليها فى هذه الآية- امر طبيعى، لانّ معارضة الأعداء اللجوجين الشديدة و القاسية- رضينا ام أبينا- تؤثر على قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لانّه انسان و بشر ايضا. و لكن من اجل ان لا ينفذ اليأس الى قلب النّبى المطهّر و تضعف ارادته الفولاذية من هذه المعارضة و المخالفات و المثبطات، فإنّ اللّه يقص عليه قصص الأنبياء و ما واجهوه، و مقاومتهم قبال أممهم المعاندين، و انتصارهم الواحد تلو الآخر ليقوى قلب النّبى و المؤمنين الذى يلتّفون حوله يوما بعد يوم.[۶۱].

ثمّ تشير الآية الى النتيجة الكبرى الثّانية فتقول الآيات: و جاءك فى هذه الحق.

امّا ثالث الآثار و رابعها اللذان يستلفتان النظر هما مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ

الطريف هنا انّ صاحب المنار يقول فى تفسير الآية معقبا: انّ الإيجاز و الاختصار فى هذه الآية المعجزة فى غاية ما يتصور، حتى كأنّ جميع المعاجز السالفة قد جمعت فى الآية نفسها و بيّنت فوائدها جميعا بعدّة جمل قصيرة.

و على اية حال، فإنّ هذه الآية تؤكّد مرّة اخرى انّه لا ينبغى ان نعدّ قصص القرآن ملهاة او يستفاد منها لاشغال السامعين، بل هى مجموعة من احسن الدروس الحياتية فى جميع المجالات، و طريق رحب لجميع الناس فى الحاضر و المستقبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۵

ثمّ تخاطب الآيات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يواجه أعداءه الذين يؤذونه و يظهرون اللجاجة و العناد ان واصل الطريق وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ

فستعلمون من الذى سينتصر، انتظروا هزيمتنا كما تزعمون انتظارا غير مجد، و نحن ننتظر العذاب من اللّه عليكم، و هو ما ستذوقونه من قبلنا او من قبل اللّه مباشرة.

و هذه التهديدات التى تذكر بصيغة الأمر تلاحظ فى أماكن اخرى من القرآن كقوله تعالى: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[۶۲].

و نقرا فى شأن الشيطان ايضا وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ ۶۳].

و بديهى انّه لا يراد بأيّة صيغة من صيغ الأمر هنا طلب الفعل، بل جميعها جاءت للتهديد و التنديد.

و آخر الآيات من هذه السورة تتحدث عن التوحيد «التوحيد المعرفى و التوحيد الافعالى، و توحيد العبادة» كما تحدثت الآيات الاولى من هذه السورة عن التوحيد ايضا.

هذه الآية- فى الحقيقة- تشير الى ثلاث شعب من التوحيد، توحيد علم اللّه اوّلا، فغيب السّماوات و الأرض خاص باللّه و هو المطّلع عليها جميعا وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

امّا سواه فعلمه محدود، و فى الوقت ذاته فإنّ هذا العلم ناشئ من التعليم الإلهى، فعلى هذا فإنّ العلم غير المحدود، و العلم الذاتى بالنسبة ما فى السموات و الأرض مخصوص بذات اللّه المقدسة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۶

و من جهة ثانية فإنّ ازمّة جميع الأفعال مرهونة بقدرته وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ... و هذه مرحلة توحيد الأفعال.

ثمّ تستنتج الآية انّه إذا علمت انّ الاحاطة و العلم غير المحدود و القدرة التى لا تنتهى ... جميعها مخصوص بذات اللّه المقدّسة فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ و هذه مرحلة توحيد العبادة.

فينبغى اجتناب العصيان و العناد و الطغيان وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

ملاحظات

۱- علم الغیب خاص باللّه ...

کما تحدثنا بالتفصیل فی تفسیر الآیة (۱۸۸) من سورة الأعراف، و فی تفسیر الآیة (۵۰) من سورة الانعام، انّه لا مجال للتردد فی انّ الاطلاع علی الأسرار الخفیة او الأسرار الماضیة و الآتیة کله خاص باللّه ... و الآیات المختلفة من القرآن تؤکّد هذه الحقیقة و تؤیدها ایضا ... انّه لیس کمثله شیء و هو متفرد بهذه الصفة.

و إذا وجدنا فی قسم من آیات القرآن بیان انّ الأنبیاء قد یعلمون بعض الأمور الغیبیة، او قرانا فی بعض الآیات او الرّوایات الکثیرة انّ النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الامام علیّا و الائمة المعصومین علیهم السّلام قد یخبرون عمّا یجری فی المستقبل من حوادث و یبیّنون اسرارا خفیّة منها، فینبغی ان نعرف ان کل ذلک بتعلیم اللّه سبحانه.

فهو سبحانه حیث یجد المصلحة یطلع عباده و أولیاءه علی قسم من اسرار الغیب، و لکن هذا العلم لا هو علم ذاتی و لا غیر محدود، بل هو من تعلیم اللّه و هو محدود بمقدار ما یریده اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۷

و بهذا البیان تتّضح الاجابة علی المنتقدین لعقیدة الشیعة فی مجال علی الغیب حیث یرون انّ الأنبیاء و الائمة علیهم السّلام یعلمون الغیب.

و لیس الاطلاع علی علم الغیب من قبل اللّه خاصا بالأنبیاء او الائمّة فقد یطلع اللّه غیر النّبی و الائمّة علی غیبه ایضا ... فنحن نقرا فی قصّة ام موسی فی القرآن انّ اللّه قال لها: وَ لا تَخافِی وَ لا تَحْزَنِی إِنَّا رَادُّوهُ إِلَیْکِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِینَ ۶۴].

و قد یطلع اللّه لضرورة الحیاة- أحیانا- الطیور و الحیوانات علی الأسرار الخفیّة و حتی علی المستقبل البعید نسبیّا ممّا یصعب علینا تصوّره و بهذا الترتیب قد تکون بعض المسائل التی نحسبها غیبا، هذه المسائل نفسها بالنسبة للطیور او الحیوانات لا تعد من الغیب.

۲- العبادة للّه وحده

فی الآیة المتقدمة دلیل لطیف علی انّ العبادة للّه وحده، و هو انّه لو کانت العبادة من اجل العظمة و صفات الجمال، و الجلال فهذه الصفات قبل کل شیء موجودة فی اللّه، و امّا الآخرون فلا شیء بالنسبة الیه. و اکبر دلیل علی عظمة اللّه علمه الواسع غیر المحدود و قدرته اللامتناهیة، و قد اشارت الآیة الآنفة الی انّهما مختصّان باللّه.

و إذا کانت العبادة لأجل الالتجاء- فی حلّ المشاکل- الی المعبود ... فإنّ مثل هذا العمل جدیر بمن هو علیم بجمیع حاجات العباد و اسرارهم الخفیّة. و ما یغیب علیهم، و هو قادر علی اجابة دعوتهم، و بالنتیجة فإنّ توحید الصفات یکون سببا لتوحید العبادة (لاحظوا بدقّة).

۳- قال بعض المفسّرین: انّ سیر الإنسان فی طریق عبودیة اللّه، لخّص کلّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۸

فی جملتین فی هذه الآیة فَاعْبُدْهُ وَ تَوَکَّلْ عَلَیْهِ لانّ العبادة سواء کانت عبادة جسمانیة کالعبادة العامّة، او عبادة روحانیة کالتفکّر فی خلق اللّه و نظام اسرار الوجود، هی بدایة هذا السیر.

و التوکّل الذی یعنی الالتجاء المطلق الی اللّه و إیداع جمیع الأشیاء بیده، بحیث یعدّ نوعا من «الفناء فی اللّه» هو آخر نقطة من هذا السیر.

و فی جمیع هذا المسیر من بدایته حتی نهایته یوجههم الی حقیقة توحید الصفات، و یعین السائرین فی هذا المسیر و یدعوهم الی

البحث المقرون بالعشق لساحته.

اللّهم ألهمنا معرفتك بصفات جلالك و جمالك.

و ألهمنا ان نتحرك إليك بعرفان.

اللّهم وفقنا لان نعبدك مخلصين و نتوكل عليك عاشقين.

اللّهم أنت رجاؤنا و ملاذنا فى حل مشاكلنا، ففى هذه الفترة من الزمن أحاطت بالمسلمين المشاكل من كل جانب، و سعى اعداء اللّه لإطفاء نور هذه الصحوة المباركة، فأنت وليّنا.

اللهم: لم نكن لنصل لهذه المرحلة لو لا- تأييداتك الظاهرة و الخفيّة التى اعانتنا للوصول إليها. نسألك ان لا تحرمنا من مواهبك العظيمة فى ما بقى من الطريق و لا تقطع- ألطافك الخاصّة- عنّا.

و وفقنا برحمتك ان نواصل هذا التّفسير الذى يفتح نافذة جديدة على كتابك السّماوىّ العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۹

سورة يوسف

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائة و احدى عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۱

سورة يوسف

بداية سورة يوسف

اشارة

قبل الدخول فى تفسير آيات هذه السورة ينبغى ذكر عدّة امور:

۱- لا اشكال بين المفسّرين فى انّ هذه السورة نزلت فى مكّة، سوى ما نقل عن ابن عباس انّ اربع آيات مدنية (الآيات الثلاث فى اوّل السورة و الآية السّابعة منها).

و لكن التدقيق فى ارتباط هذه الآيات بعضها مع البعض الآخر فى هذه السورة يجعلنا غير قادرين على التفكيك بينها، فاحتمال نزول هذه الآيات الأربع فى المدينة- على هذا الأساس- بعيد جدّا.

۲- جميع آيات هذه السورة سوى الآيات القليلة التى تقع فى نهاية السورة تبيّن قصّة نبىّ اللّه يوسف عليه السّلام. القصّة الطّريفة و الجميلة و التى تحمل بين طيّاتها العبر. و لذلك سمّيت هذه السورة باسم «يوسف» و بهذه المناسبة- ايضا- ورد ذكر يوسف- من مجموع (۲۷) مرّة فى القرآن- (۲۵) مرّة فى هذه السورة و مرّة واحدة فى سورة غافر الآية (۳۴)- و مرّة أخرى فى سورة الانعام الآية (۸۴).

و محتوى هذه السورة- على خلاف سور القرآن الاخرى- مرتبط بعضه ببعض، و يبيّن جوانب مختلفة من قصّة واحدة وردت فى اكثر من عشرة فصول، مع بيان اخاذ موجز، عميق، و طريف و مثير.

و بالرغم من انّ القصّاصين غير الهادفين، او من لهم أغراض رخيصة سعوا الى ان يحوّلوا هذه القصّة المهذّبة الى قصّة عشق يحرك اهل الهوى و الشهوة!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۲

و ان یمسخوا الوجه الواقعی لیوسف علیه السّلام بحیث بلغت الحال ان یصوروا «فیلما سینمائیا» و ینشروه بصورة مبتذلة ... الّا انّ القرآن- و کلّ ما فیه أسوة و عبرة- عکس فی ثنایا هذه القصّة اسمی دروس العفة و ضبط النفس و التقوی و الایمان، حتی لو انّ إنسانا قراها عدة مرات فإنّه یتأثر- بدون اختیار- بأسلوبها الجذّاب فی کل مرّة.

و لذا فقد عبّر القرآن عنها ب أَحْسَنَ الْقَصَصِ و جعل فیها العبر للمعتبرین أُولِی الْأَلْبابِ

۳- التدقیق فی آیات هذه السورة یکشف هذه الحقیقة للإنسان، و هی انّ القرآن معجز فی جمیع ابعاده، لان الابطال الذین یقدمهم فی قصصه ابطال حقیقیّون لا خیالیّون، و کل واحد فی نفسه منهم منعدم النظیر:

فإبراهیم علیه السّلام: البطل الذی حطّم الأصنام بروحه العالیة التی لا تقبل المساومة مع الطغاة.

و نوح علیه السّلام: بطل الصبر و الاستقامة و الشفقة و القلب المحترق فی ذلک العمر الطویل المبارک.

و موسی علیه السّلام: البطل المربّی لقومه اللجوجین، و الذی وقف بوجه فرعون المتکبر الطاغی.

و یوسف علیه السّلام: بطل الورع و التقوی و الطهارة ... امام امرأة محتالة جمیلة عاشقة.

بعد هذا کلّه تتجلّی القدرة البیانیة للوحی القرآنی بصورة تحیّر الإنسان، لانّ هذه القصّة- کما نعرف- تنتهی فی بعض مواردها الی مسائل العشق و دون ان یمسخها القرآن او یتجاوزها یتعرض الی الاحداث فی مسرحها بدقة بحیث لا یحس السامع شیء غیر مطلوب فیها. و یذکر القضایا بأجمعها فی المتن، و لکن تحفّها اشعة قویة من التقوی و الطهارة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۳

۴- قصّة یوسف قبل الإسلام و بعده

لا شکّ انّ قصّة یوسف کانت مشهورة و معروفة بین الناس قبل الإسلام، لانّها مذکورة فی (۱۴) فصلا من [سفر التکوین فی التوراة بین [الفصل ۳۷- ۵۰] ذکرا مفصلا.

و بطبیعة الحال فإنّ المطالعة الدقیقة فی هذه الفصول الاربعة عشر تکشف مدی الاختلاف بین ما جاء فی التوراة و ما جاء فی القرآن.

و بالمقارنة بین نصّ التوراة و نصّ القرآن نجد انّ نصّ القصّة فی القرآن فی غایة الصدق و تخلو من ای خرافة.

و ما یقوله القرآن للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ إِنْ کُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِینَ یشیر الی قصّة یوسف التی عبّر عنها بأحسن القصص، حیث لم یکن النّبی مطّلعا علی حقیقتها الخالصة.

و یظهر من التوراة انّ یعقوب علیه السّلام لما رای قمیص یوسف ملطخا بالدم قال:

هذا قمیص ولدی و قد اکله الحیوان المفترس، فیوسف ممزق الأحشاء ثمّ خرّق یعقوب ثوبه و شدّ الحزام علی ظهره و جلس ایّاما للبکاء و النواح علی یوسف، و قد عزّاه جمیع ابنائه ذکورا و إناثا الّا انه امتنع ان یقبل تعزیتهم و قال: سأدفن فی القبر حزنا علی ولدی.

بید انّ القرآن یبیّن: انّ یعقوب لم یصدّق ما قاله أولاده، و لم یفزع و لم یجزع لمصیبة ولده یوسف، بل ادّی ما علیه من سنّة الأنبیاء من الصبر و التوکل علی اللّه، و قال لأبنائه: بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِیلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلی ما تَصِفُونَ و ان کان قلبه یحترق علی فراق ولده و عیناه تدمعان من اجله حتی ابیضتا و عمیتا، و لکن- و کما یعبر القرآن- لم یقم بأی عمل من قبیل تخریق الثوب و النواح و شدّ الحزام علی ظهره- و الذی کان علامة للمصیبة و «العزاء»- و انّما قال: «صبر جمیل» و کتم حزنه «فهو کظیم».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۴

و علی کل حال فإنّ هذه القصّة- بعد الإسلام- تناقلتها أقلام مؤرخی الشرق و الغرب ... و أحیانا مع أغصان و أوراق اضافیة.

۵- لم ذكرت قصّة يوسف فی مكان واحد علی خلاف قصص سائر الأنبياء

؟! انّ من خصائص قصّة يوسف البارزة انّ هذه القصّة ذكرت فی مكان واحد من القرآن، علی خلاف قصص الأنبياء التی ذكرت علی شكل فصول مستقلة فی سور متعددة من القرآن.

و الحكمة فی ذلك تعود الی ان تفكيك فصول هذه القصّة مع ملاحظة وضعها الخاص يفقدها ترابطها و انسجامها، فلهذا ينبغی ان تذكر كاملة فی مكان واحد للحصول علی النتيجة المتوخاة و علی سبيل المثال فان الرؤيا و ما ذكره أبوه من تعبير فی اوّل هذه السورة يفقد معناه دون ذكر نهايتها.

لذلك نقرا فی أواخر هذه السورة، حين جاء يعقوب و اخوة يوسف الی مصر و خرّوا له سجّدا قال يوسف ملتفتا الی أبيه: يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا[۶۵].

هذا النموذج يوضح الارتباط الوثيق بين بداية السورة و نهايتها، فی حين انّ قصص الأنبياء الآخرين ليست علی هذه الشاكلة، و يمكن درك كل واحدة من خلال فصولها.

و الخصيصة الاخری خصائص هذه السورة هی انّ قصص الأنبياء التی وردت فی السور الاخری من القرآن تبيّن عادة مواجهة الأنبياء لقومهم المعاندين و الطغاة، ثمّ تنتهی الحالة الی ايمان جماعة بالأنبياء و مخالفة جماعة اخری لهم و استحقاقهم عذاب اللّه و عقابه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۵

امّا فی قصّة يوسف فلا كلام عن هذا الموضوع، بل اكثر ما فيها بيان حياة يوسف نفسه و نجاته من المزالق الخطيرة التی تنتهی أخيرا الی استلامه سدّة الحكم، و هی فی حدّ ذاتها «أنموذج» خاص.

۶- فضيلة سورة يوسف

وردت فی الرّوايات الاسلامية فضائل مختلفة فی تلاوة هذه السورة، و نقرا من ضمنها حديثا

عن الامام الصادق عليه السّلام حيث يقول: «من قرا سورة يوسف فی كل يوم او فی كل ليلة، بعثه اللّه يوم القيامة و جماله مثل جمال يوسف، و لا يصيبه فزع يوم القيامة، و كان من خيار عباد اللّه الصالحين»[۶۶].

انّ الرّوايات التی وردت فی فضائل سور القرآن- كما قلنا مرارا- ليس معناها القراءة السطحيّة دون تفكر و عمل، بل تلاوة تكون مقدمة للتفكر ... التفكر الذی يجر الی العمل، و مع ملاحظة محتوی هذه السورة يتّضح ان من يستلهم خطة حياته من هذه القصّة، و يعفّ نفسه امام طوفان شديد من الشّهوات و المال و الجاه و المقام، الی درجة يری بها خفرة السجن المظلمة مقرونة بطهارة الثوب أفضل من الحياة فی قصور الملوك الملوّثة، فإنّ مثل هذا الشخص فی جمال روحه كجمال يوسف، و ما من خفیّ الّا ظهر يوم القيامة ... و سيجد له جمالا مذهلا و يكون فی صف عباد اللّه الصالحين.

و ممّا يلزم ذكره انّه ورد فی عدد من الأحاديث النهی عن تعليم هذه السورة «للنساء»، و لعلّ السرّ فی ذلك هو ما فی الآيات المرتبطة بامراة عزيز مصر ... فبالرغم من سرد القصّة فی بيان عفيف، الّا انّها سبب لتحريك بعض النساء ايضا ... و قد جاء التأكيد علی تعليم سورة «النّور» المشتملة علی آيات الحجاب للنساء بدلا من سورة يوسف.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۶

و لكن سند هذه الرّوايات بشكل عام لا يعتمد عليه، اضافة الی ذلك فقد ورد فی بعض الرّوايات الاخری خلاف ذلك حيث ترغّب فی تعليم هذه السورة للعائلة. و بعد هذا كلّه فإنّه التدقيق فی آيات هذه السورة يكشف انّ هذه السورة، ليس فيها ايّة نقطة سلبية بالنسبة للنساء، و ليس هذا فحسب، بل ان ما جری لامراة عزيز مصر، درس فيه عبرة لجميع النسوة اللائی يبتلين بالوساوس الشيطانيّة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۷

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۲) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (۳)

التّفسير

احسن القصص بين يديك:

تبدا هذه السورة بالحروف المقطعة «الف. لام. راء» و هى دلالة على عظمة القرآن، و انّ تركيب هذه الآيات ذات المحتوى العميق متكوّن من ابسط الاجزاء، و هى حروف الهجاء «الف- باء .. إلخ» و قد تحدثنا عن الحروف المقطعة فى القرآن- حتى الآن- فى ثلاثة مواضع «بداية سورة البقرة، و آل عمران، و الأعراف» بقدر كاف ... فلا ضرورة للتكرار، و اثبتنا دلالتها على عظمة القرآن.

و ربّما كان لهذا السبب ان تأتى الاشارة- بعد هذه الحروف المقطعة مباشرة- الى بيان عظمة القرآن فى هذه السورة، فتقول: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ

و ممّا يستلفت النظر انّه استفيد من اسم الاشارة «تلك» فى هذه الآية للبعيد، نظير ما جاء فى بداية سورة البقرة و بعض السور القرآنية الاخرى. و قد قلنا: انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۸

مثل هذه التعبيرات جميعا يشار بها الى عظمة هذه الآيات، اى انّها بدرجة من الرفعة و العلوّ كأنّها فى نقطة بعيدة لا يمكن الوصول إليها ببساطة، بل بالسعى و الجدّ المتواصل ... فهى فى أوج السّماوات و فى اعالى الفضاء اللامتناهى، لا انّها مطالب و مفاهيم رخيصة يحصل عليها الإنسان فى كل خطوة.

ثمّ يأتى البيان عن الهدف من نزول الآيات فيقول: إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

فالهدف اذن ليس القراءة او التلاوة او التيمّن او التبرك بتلاوة هذه الآيات فحسب، بل الهدف الاساسى هو الإدراك القوى الذى يدعو الإنسان الى العمل بجميع وجوده.

و امّا سرّ كون القرآن عربيا فهو بالاضافة الى انّ اللغة العربية واسعة كما يشهد بذلك اهل المعرفة باللغات المختلفة من العالم، بحيث تستطيع ان تكون ترجمانا للسان الوحى، و ان تبيّن المفاهيم الدقيقة لكلام اللّه سبحانه، فمن المسلم به- بعد هذا- انّ نور الإسلام بزغ فى جزيرة العرب التى كانت منطلقا للجاهلية و الظلمة و التوحّش و البربرية، و من اجل ان يجمع اهل تلك المنطقة حول نفسه فينبغى ان يكون القرآن واضحا مشرقا، ليعلّم اهل الجزيرة الذين لا حظ لهم من الثقافة و العلم و المعرفة، و يخلق بذلك مركزا محوريا لانتشار هذا الدين الى سائر نقاط العالم.

و بطبيعة الحال فإنّ القرآن بهذه اللغة «العربيّة» لا يتيسّر فهمه لجميع الناس فى العالم (و هذا شأن اية لغة اخرى) لانّنا لا نملك لغة عالمية ليفهمها جميع الناس، و لكن ذلك لا يمنع من ان يستفيد من فى العالم من تراجم القرآن، او ان يطلعوا تدريجا على هذه اللغة

ليتلمسوا الآيات نفسها و يدركوا مفاهيم الوحى فى طيّات هذه الألفاظ.

و على كل حال فالتعبير بكون القرآن عربيا- الذى تكرر فى عشرة موارد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۹

من القرآن- جواب لأولئك الذين يتهمون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه تعلم القرآن من اعجمى، و انّ محتوى القرآن مستورد و ليس وحيا الهيا.

و هـذه التعبيرات المتتابعة تحتم ضـمنا وظيفة مفروضة على جميع المسلـمين، و هى ان يسـعوا جميعا الى معرفة اللغة العربية و ان تكون اللغة الثانية الى جانب لغتهم، لأنّها لغة الوحى و مفتاح فهم حقائق الإسلام.

ثمّ يقول سبحانه: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ

يعتقـد بعض المفسّـرين انّ أَحْسَنَ الْقَصَـصِ اشـارة الى مجموع القرآن، و انّ جملـة بِمـا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هـذَا الْقُرْآنَ قرينـة على ذلك. و القصّة هنا ليست بمعنى سرد الحكاية، بل المراد معناها «الجذرى» فى اللغة و هو البحث عن آثار الشىء.

و بما انّ اى موضوع- حين يشرح و يفصّل- يبيّن بكلمات متتابعة، فلذلك يطلق عليه قصّة ايضا.

و على كل حال فإنّ اللّه سبحانه عبّر ب أَحْسَنَ الْقَصَصِ عن مجموع هذا القرآن الذى جاء فى أجمل البيان و الشرح، و افصح الألفاظ و أبلغها، مقرونة بأسمى المعانى و ادقّها، بحيث يبدو ظاهره عذبا جميلا، و من حيث الباطن فمحتواها عظيم.

و نشاهد فى روايات متعددة انّ هذا التعبير استعمل فى مجموع القرآن، رغم انّ هذه الرّوايات لم ترد فى تفسير هذه الآية- محل بحثنا- .

فمثلا نقرا

حديثا نقله على بن ابراهيم عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «انّ احسن القصص هذا القرآن»[۶۷].

كما نقل فى روضة الكافى عن خطبة لأمير المؤمنين قوله: ان احسن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۰

القصص و ابلغ الموعظة و انفع الذكر كتاب اللّه»[۶۸].

و لكنّ ارتبـاط الآيـات المقبلـة التى تبيّن قصّـة يوسف عليه السّـلام مع هـذه الآيـة- محل البحث- بشـكل يشـدّ ذهن الإنسان الى هـذا المعنى، و هو انّ اللّه عبر عن قصّة يوسف بأحسن القصـص و ربّما لا ينقدح فى أذهان الكثيرين ممن يطالعون بداية آيات هذه السورة غير هذا المعنى.

و قلنا مرارا انّه لا مانع من ان تكون مثل هذه الآيات للمعنيين جميعا ...

فالقرآن هو احسن القصص بصورة عامّة، و قصّة يوسف هى احسن القصص بصورة خاصّة.

و لم لا تكون هذه القصّة احسن القصـص، مع انّها ترسم فى فصولها المثيرة اسمى دروس الحياة؟! فنحن نشاهد حاكمية ارادة اللّه على كل شىء هذه القصّة، و ننظر بأعيننا المصير الأسود الذى انتهى اليه الحسّاد و ما رقموه على الماء من خطط.

كما تتجسم من خلال سـطورها الذلـة فى الابتـذال و عـدم العفـة، و العظمـة فى التقوى و منظر الصبىّ و هو وحيد فى قعر الجبّ، و فى مشـهد آخر نراه يقضـى الليالى و الايّام دون ذنب فى حفرة السجن المظلم، ثمّ انبثاق نور الأمل من خلف حجب اليأس و الظّلمات، ثمّ نشاهد بعد ذلك حكومته العظيمة الواسعة نتيجة دراسته و أمانته. كل هذه المشاهد تتجلّى للقارىء لهذه القصّة بشكل رتيب.

لحظـات و بسـبب رؤيـا يتحول مصـير امّـة ... انقـاذ امّـة و مجتمع بشـرى من الهلكـة على يـد قائـد الهى متيقظ ... و عشـرات الـدروس الاخرى- الكبيرة- التى تلوح فى هـذه القصّة، فلم لا تكون هذه القصّة احسن القصـص؟! غاية ما فى الأمر أنّه لا تكفى أن تكون قصّـة يوسف وحدها هى احسن القصص، بل المهم ان تكون فينا الجدارة لانّ نفهم هذا الدرس العظيم و ان نعرف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۱

مكانه من نفوسنا.

فكثير من النـاس لاـ يزال ينظر الى قصّـة يوسف عليه السّـلام على انهـا حادثـة عشق طريف، و مثله كمثل الدابّـة التى يلوح لها البسـتان النضر الملىء بالازهار، الّا انّها تراه حفنة من «العلف» تسدّ جوعها:

و ما يزال الكثير من الناس يضفى على القصّة افرازات خيالية كاذبة ليحرّف القصّة عن واقعها ... و هذا من عدم اللياقة و فقدان الجدارة و عدم قابلية المحل، و الّا فإنّ اصل القصّة جمع كل انواع القيم الانسانية العليا فى نفسه.

و سنرى فى المستقبل- بإذن اللّه- انّه لا يمكن تجاوز فصول هذه القصّة الجامعة و الجميلة و كما يقول الشاعر فى هذه القصّة:

يسكر من عطر الزهور الفتى حتى يرى مفتقدا ثوبه!

اثر القصّة فى حياة الناس

مع ملاحظة انّ القسم المهمّ من القرآن قد جاء على صورة تأريخ للأمم السابقة و قصـص الماضـين، فقد يتساءل البعض: لم يحمل هذا الكتاب التربوى كل هذا «التأريخ» و القصص؟! و تتضح العلة الحقيقية للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

۱- انّ التاريخ مختبر لنشاطات البشرية المختلفة، و ما رسمه الإنسان فى ذهنه من الأفكار و التصورات يجده بصورة عينية على صفحات التأريخ.

و بملاحظـة انّ اكثر المعلومـات البشـرية توافقـا مع الواقع و الحقيقـة هى التى تحمل جانبا حسـيّا، فإنّ دور التاريـخ فى اظهار الواقعيّات الحياتية يمكن دركه جيدا.

فالإنسان يرى بأم عينيه الهزيمة المردية- لامّة ما- نتيجة اختلافها و تفرقها، كما يرى النجاح المشرق فى قوم آخرين فى ظل اتّحادهم و توافقهم. فالتاريخ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۲

يتحدّث بلغة- من دون لسان- عن النتائج القطعية و غير القابلة للإنكار للتطبيقات العملية للمذاهب و الخطط و البرامج عند كل قوم.

و قصص الماضين مجموعة من اكثر التجارب قيمة. و نعرف انّ خلاصة الحياة و محصولها ليس شيئا سوى التجربة.

و التاريخ مرآة تنعكس عليها جميع ما للمجتمعات الانسانية من محاسن و مساوئ و رقى و انحطاط و العوامل لكلّ منها.

و على هـذا فإنّ مطالعـة تاريـخ الماضـين تجعل عمر الإنسان طويلا بقـدر أعمارهم حقّا، لانّها تضع مجموعـة تجاربهم خلال أعمارهم تحت تصرفه و اختياره.

و لهذا

يقول الامـام على عليه السّـلام فى حـديثه التـاريخى خلاـل وصاياه لولـده الحسن المجتبى فى هـذا الصـدد: «اى بنى انى و ان لم أكن عمّرت عمر من كـان قبلى، فقـد نظرت فى اعمالهم، و فكّرت فى اخبارهم، و سرت فى آثارهم، حتى عـدت كأحـدهم، بل كأنّى بما انتهى الى من أمورهم قد عمرت من اوّلهم الى آخرهم»[۶۹].

و التاريخ الذى نتحدث عنه طبعا هو التاريخ الخالى من الخرافات و الأكاذيب و التملّقات و التحريفات و المسوخات.

و لكن- و للأسف- مثل هذا النوع من التاريخ قليل جدا.

و لا ينبغى ان نبعد عن النظر ما للقرآن من اثر فى بيان «نماذج» من التاريخ الأصيل و اراءتها.

التاريخ الذى ينبغى ان يكون كالمرآة الصافية لا المقعّرة.

التاريخ الذى لا يتحدث عن الوقائع فحسب، بل يصل الى الجذور و يسترشف النتائج.

فمع هذه الحال لم لا يستند القرآن- الذى هو كتاب تربوى عال فى فصوله-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۳

على التاريخ و يأتى بالشواهد و الأمثال من قصص الماضين؟! ۲- ثمّ بعد هذا فإنّ للتاريخ و القصّة جاذبية خاصّة، و الإنسان واقع تحت هذا التأثير الخارق للعادة فى جميع أدوار حياته من سنّ الطفولة حتى الشيخوخة.

و لذلك فإنّ التاريخ و القصّة يشكلان القسم الأكبر من آداب العالم و آثار الكتّاب. و احسن الآثار التى خلّفها الشعراء و الكتاب الكبار سواء كانوا من بلاد العرب او من فارس او من بلاد اخرى هى قصصهم.

فأنت تلاحظ «الكلستان»- لسعدى و «الشاهنامة» لفردوسى و «الخمسة» للنظامى و كذلك آثار «فيجتور هيجو» الفرنسى و «شكسبير» الانجليزى و «غوته» الالمانى جميعها كتبت على هيئة قصص جذابة».

و القصّة سواء كتبت نثرا او شعرا، او عرضت على شاشة المسرح او بواسطة الفيلم السينمائى، فإنّها تترك أثرا فى المشاهد و المستمع دونها اثر الاستدلالات العقلية فى مثل هذا التأثير.

و العلّة فى ذلك قد تكون انّ الإنسان حسى بالطبع قبل ان يكون عقليا و يتخبط فى المسائل المادية قبل ان يتعمق فى المسائل الفكرية.

و كلما ابتعد الإنسان عن ميدان الحسّ فى نفسها جانبا عقليا، كانت هذه المسائل أثقل على الذهن و ابطأ هضما.

و من هنا نلاحظ انّه لأجل بيان الاستدلال العقلى يستمد المفكرين فى المسائل الاجتماعية و الحياتية المختلفة و توغل فى البعد العقلى من الامثلة الحسيّة، و أحيانا يكون للمثال المناسب و المؤثر فى الاستدلال قيمة مضاعفة، و لذلك فإنّ العلماء الناجحين هم أولئك الذين لهم هيمنة على انتخاب احسن الامثلة.

و لم لا يكون الأمر كذلك، و الاستدلالات العقلية هى حصيلة المسائل الحسّية و العينيّة و التجريبيّة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۴

۳- القصّة و التاريخ مفهومان عند كل احد، على خلاف الاستدلالات العقلية، فإنّ الناس فى فهمها ليسوا سواسية ... و على هذا فإنّ الكتاب الشامل الذى يريد ان يستفيد منه البدوى الامّى و المتوحش ... الى الفيلسوف و المفكر الكبير، يجب ان يكون معتمدا على التاريخ و القصص و الامثلة.

و مجموعة هذه الجهات تبيّن انّ القرآن خطا احسن الخطوات فى بيان التواريخ و القصص فى سبيل التعليم و التربية، و لا سيّما إذ التفتنا الى هذه النقطة، و هى انّ القرآن لا يذكر الوقائع التاريخية فى ايّ مجال بشكل عار من الفائدة، بل يذكر معطياتها بشكل ينتفع بها تربويا، كما سنلاحظ «النماذج» و الامثلة فى هذه السورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۵

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (۴) قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۵) وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶)

التّفسير

بارقة الأمل و بداية المشاكل:

بـدا القرآن بـذكر قصّـة يوسف من رؤياه العجيبـة ذات المعنى الكبير، لانّ هذه الرؤيا فى الواقع تعدّ اوّل فصل من فصول حياة يوسـف المتلاطمة.

جاء يوسف فى احـد الايّام صـباحا الى أبيه و هو فى غايـة الشوق ليحدثه عن رؤياه، و ليكشف سـتارا عن حادثة جديدة لم تكن ذات اهمية فى الظاهر، و لكنّها كانت إرهاصا لبداية فصل جديد من حياته إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۶

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى ساجِدِينَ

يقول ابن عباس: (انّ يوسف راى رؤياه ليلة الجمعة التى صادفت ليلة القدر) (ليلة تعيين الأقدار و الآجال).

و لكن كم كان ليوسف من العمر حين راى رؤياه؟! هناك من يقول: كان ابن تسع سنوات، و من يقول: ابن سبع، و منهم من يقول: ابن اثنتى عشرة سنة، و القدر المسلم به انّه كان صبيّا.

و ممّا يسـتلفت الانتباه الى جملـة «رأيت» جاءت مكررة فى الآيـة للتأكيـد و القاطعيـة، و هى اشارة الى ان يوسف عليه السّلام يريد ان يقول: إذا كان كثير من الناس ينسون رؤياهم و يتحدثون عنها بالشك و التردّد، فلست كذلك. بل اقطع بأنّى رأيت احد عشر كوكبا و الشمس و القمر ساجدين لى دون شك.

و اللطيفـة الاخرى هى انّ ضـمير «هم» الـذى يأتى لجمع المـذكر السالم العاقل، قـد اسـتعمل للكواكب و الشّـمس و القمر، و مثل هذا الاسـتعمال «ساجدين» ايضا اشارة الى انّ سجود الكواكب لم يكن من قبيل الصدفة بل كان امرا مدروسا و محسوبا كما يسجد الرجال العقلاء! و واضـح- طبعـا- انّ السـجود المقصود منه هنـا هو الخضوع و التواضع، و الّا فإنّ السـجود المعروف عنـد الناس لا مفهوم له بالنسبة للكواكب و الشمس و القمر.

ان هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزى تركت يعقوب النّبى غارقا فى التفكير ...

فالقمر و الشـمس و الكواكب، و اى الكواكب! انّها احـد عشـر يسـجدون جميعا لولـدى يوسف، كم هى رؤيا ذات مغزى! لا شك انّ الشـمس و القمر «انا و امه او خالته» و الكواكب الأحد عشـر اخوته، هكذا يرتفع قدر ولدى حتى تسـجد له الشمس و القمر و كواكب السّماء.

ان ولدى «يوسف» عزيز عند اللّه إذا راى هذه الرؤيا المثيرة! لذلك توجه الى يوسف بلهجة يشوبها الاضطراب و الخوف المقرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۷

«بالفرحـة» و قـالَ يـا بُنَيَّ لا تَقْصُـصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيـدُوا لَكَ كَيْداً و انا اعرف إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَـدُوٌّ مُبِينٌ و هو منتظر الفرصة ليوسوس لهم و يثير نار الفتنة و الحسد و ليجعل الاخوة يقتتلون فيما بينهم.

الطريف هنـا انّ يعقوب لم يقـل «أخـاف من إخوتـك ان يقصـدوا إليـك بسوء» بـل اكّـد ذلك على انّه امر قطعى، و خصوصا بتكرار «الكيد» لانّه كان يعرف نوازع ابنائه و حساسيّاتهم بالنسبة لأخيهم يوسف، و ربّما كان اخوته يعرفون تأويل الرؤيا، ثمّ انّ هذه الرؤيا لم تكن بشكل يعسر تعبيرها.

و من جهـة اخرى لا يتصور ان تكون هذه الرؤيا شبيهة برؤيا الأطفال، إذ يمكن احتمال رؤية الأطفال للشـمس و القمر و الكواكب فى منامهم، و لكن ان تكون الشـمس و القمر و الكواكب موجودات عاقلـة و تنحنى بالسـجود لهم، فهـذه ليست رؤيا أطفال ... و من هـذا

المنطلق خشی یعقوب علی ولده یوسف نائرة الحسد من اخوته علیه.

و لکن هـذه الرؤیا لم تکن دلیلا علی عظمة یوسف فی المسـتقبل من الوجهة الظاهریة و المادیة فحسب، بل تدل علی مقام النبوّة التی سیصل إلیها یوسف فی المستقبل.

و لذلک فقد أضاف یعقوب- لولده یوسف- قائلا: وَ کَذلِکَ یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ وَ یُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِیلِ ۷۰] الْأَحادِیثِ وَ یُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ عَلی آلِ یَعْقُوبَ کَما أَتَمَّها عَلی أَبَوَیْکَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِیمَ وَ إِسْحاقَ

اجل فإنّ اللّه علی کل شیء قدیر و إِنَّ رَبَّکَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۸

ملاحظات

۱- الرّؤیا و الحلم

اشارة

انّ مسألة الرؤیا فی المنام من المسائل التی تستقطب أفکار الافراد العادیین من الناس و العلماء فی الوقت نفسه.

فما هذه الأحلام التی یراها الإنسان فی منامه من احداث سیئة او حسنة، و میادین موحشة او مؤنسة، و ما یثیر السرور او الغم فی نفسه؟! أ هی مرتبطـة بالماضــی الـذی عشـعش فی اعمـاق روح الإنسـان و برز الی الساحـة بعـد بعض التبـدیلات و التغییرات؟ ام هی مرتبطة بالمسـتقبل الذی تلتقط صوره عدسة الروح برموز خاصّة من الحوادث المستقبلیة؟! او هی انواع مختلفة، منها ما یتعلق بالماضی، و منها ما یتعلق بالمسـتقبل، و منها ناتـج عن المیول النفسـیة و الرغبات و ما الی ذلک ...؟! انّ القرآن یصـرّح فی آیات متعـددة انّ بعض هذه الأحلام- علی الأقل- انعکاسات عن المستقبل القریب او البعید.

و قـد قرانا عن رؤیا یوسف فی الآیات المتقدمـة، کما سـنری قصّة الرؤیا التی حدثت لبعض السـجناء مع یوسف فی الآیة (۳۶) و قصّة رؤیا عزیز مصر فی الآیة (۴۳) و جمیعها تکشف الحجب عن المستقبل.

و بعض هـذه الحوادث- کمـا فی رؤیا یوسف- تحقق فی وقت متأخر نسبیا «یقال انّ رؤیا یوسف تحققت بعـد أربعین سـنة» و بعضـها تحقق فی المستقبل القریب کما فی رؤیا عزیز مصر و لمن فی السجن مع یوسف.

و فی غیر سورة یوسف إشارات الی الرؤیا التی کان لها تعبیر ایضا، کما ورد فی سورة الفتح عن رؤیا النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و ما ورد فی سورة الصافات عن رؤیا إبراهیم الخلیل «و هذه الرؤیا کانت وحیا الهیا بالاضافة لما حملت من تعبیر».

و نقرا

فی الحدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الرؤیا قوله: «الرؤیا ثلاث:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۹

بشری من اللّه، و تحزین من الشیطان، و الذی یحدث به الإنسان نفسه فیراه فی منامه»[۷۱].

و واضـح انّ أحلام الشـیطان لیست شـیئا حتی یکون لها تعبیر، و لکن ما یکون من اللّه فی الرؤیا فهی تحمل بشارة حتما ... و یجب ان تکون رؤیا تکشف الستار عن المستقبل المشرق.

و علی کل حال یلزمنا هنا ان نبیّن النظرات المختلفة فی حقیقة الرؤیا، و نشیر إلیها بأسلوب مکثف مضغوط.

و التفاسیر فی حقیقة الرؤیا کثیرة و یمکن تصنیفها الی قسمین هما:

۱- التّفسیر المادی ۲- التّفسیر المعنوی

۱- التّفسیر المادی:

یقول المادیون: یمکن ان تکون للرؤیا عدّة علل:

الف: قد تکون الرؤیا نتیجة مباشرة للأعمال الیومیة، ای انّ ما یحدث للإنسان فی یومه قد یراه فی منامه.

ب- و قد تکون الرؤیا عبارة عن سلسلة من الامانی، فیراها الإنسان فی النوم کما یری الظمآن فی منامه الماء، او ان إنسانا ینتظر مسافرا فیراه فی منامه قادما من سفره.

ج- و قد یکون الباعث للرؤیا الخوف من شیء ما، و قد کشفت التجارب ان الذین یخافون من لص یرونه فی النوم.

امّا فروید و اتباعه فلدیهم مذهب خاص فی تفسیر الأحلام، إذ انهم بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۰

شرح بعض المقدمات یقولون: انّ الرؤیا عبارة عن إرضاء المیول المکبوتة التی تحاول الظهور علی مسرح الوعی بعد تحویرها و تبدّلها فی عملیة خداع الانا.

و لزیادة الإیضاح یقولون:- بعد قبول ان النفس البشریة مشتملة علی قسمین «الوعی» و هو ما له ارتباط بالأفکار الیومیة و المعلومات الارادیة و الاختیاریة للإنسان، و «اللّاوعی» و هو ما خفی فی باطن الإنسان بصورة رغبة لم تتحقق- فکثیرا ما یحدث ان تکون لنا میول لکننا لم نستطع ارضاءها- لظروف ما- فتأخذ مکانها فی ضمیر الباطن: و عند النوم حین یتعطل جهاز الوعی تمضی فی نوع من إشباع التخیل الی الوعی نفسه، فتنعکس أحیانا دون تغییر [کمثل العاشق الذی یری فی النوم معشوقته و أحیانا تتغیر اشکالها و تنعکس بصور مناسبة، و فی هذه الحالة تحتاج الرؤیا الی تعبیر.

فعلی هذا تکون الأحلام مرتبطة بالماضی دائما و لا تخبر عن المستقبل ابدا، نعم یمکن ان تکون وسیلة جیدة لقراءة «ضمیر اللاوعی!».

و من هنا فهم یستعینون لمعالجة الأمراض النفسیّة المرتبطة بضمیر «اللاوعی» باستدراج أحلام المریض نفسه.

و یعتقد بعض علماء التغذیة انّ هناک علاقة بین الرؤیا و حاجة البدن للغذاء، فمثلا لو رای الإنسان فی نومه دما یقطر من أسنانه، فتعبیر ذلک انّ بدنه یحتاج الی فیتامین (ث) و إذا رأی فی نومه أن شعر رأسه صار أبیضا، فمعناه انّه مبتلی بنقص فیتامین (ب).

۲- التّفسیر المعنوی

و امّا الفلاسفة المیتافیزیقیون فلهم تفسیر آخر للرؤیا، حیث یقولون: انّ الرؤیا و الأحلام علی اقسام:

۱- الرّؤیا المرتبطة بماضی الحیاة حیث تشکل الرغبات و الامنیات قسما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۱

مهما من هذه الأحلام.

۲- الرؤیا غیر المفهومة و المضطربة و أضغاث الأحلام التی تنشأ من التوهم و الخیال (و ان کان من المحتمل ان یکون لها دافع نفسی.

۳- الرّؤیا المرتبطة بالمستقبل و التی تخبر عنه.

و ممّا لا شک فیه انّ الأحلام المتعلقة بالحیاة الماضیة و تجسّد الأمور التی راها الإنسان فی طول حیاته لیس لها تعبیر خاص ... و مثلها الاطیاف المضطربة او ما تسمی بأضغاث أحلام التی هی افرازات الأفکار المضطربة، کالاطیاف التی تمرّ بالإنسان و هو فی حال الهذیان او الحمّی، فهی- ایضا- لا یمکن ان تکون تعبیرا عن مستقبل الحیاة ... و لهذا فإنّ علماء النفس یستفیدون من هذه الأحلام و یتخذونها نوافذ للدخول الی ضمیر اللّاوعی فی البشر، و یعدّونها مفاتیح لعلاج الأمراض النفسیّة، و یکون تعبیر الرؤیا عند هؤلاء

لكشف الأسرار النفسية و أساس الأمراض، لا لكشف حوادث المستقبل فى الحياة! امّا الأحلام المتعلقة بالمستقبل فهى على نحوين: قسم منها أحلام واضحة و صريحة لا تحتاج الى تعبير ... و أحيانا تتحقق بشكل عجيب فى المستقبل القريب او البعيد دون اى تفاوت. و هناك قسم آخر من هذه الأحلام التى تتحدث عن المستقبل، و لكنّها فى الوقت ذاته غير واضحة، و قد تغيّرت نتيجة العوامل الذهنية و الروحيّة الخاصّة فتحتاج الى تعبير.

و لكل من هذه الأحلام نماذج و مصاديق كثيرة، و لا يمكن إنكارها جميعا، لانّها لا فى المصادر المذهبية او الكتب التأريخية- فحسب- بل تتكرر فى حياتنا او حياة من نعرفهم بشكل لا يمكن عدّه من باب المصادفات و الاتفاقات!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۲

و نذكر هنا عدّة نماذج من الأحلام الصادقة التى كشفت بشكل عجيب عن حوادث مستقبلية سمعناها من افراد موثوقين:

۱- المرحوم الآخوند ملا على من علماء همدان الموثوقين و المعروفين ينقل عن المرحوم الميرزا عبد النّبى النورى و هو من علماء طهران الكبار هذه القضية:

عند ما كنت فى سامراء كان يصلنى سنويا من مدينة مازندران مبلغ بمقدار مائة تومان تقريبا، و على أساس هذا الأمر كنت استقرض دائما مقدار حاجتى من المؤونة و عند ما يصلنى هذا المبلغ كنت أقوم بتسديد هذه القروض.

و فى احد الأعوام جاءنى خبر مؤسف، و هو انّ المحصول الزراعى فى مازندران سىء للغاية بسبب القحط، و لهذا فإنّهم يعتذرون عن عدم إرسال المبلغ المقرر فى هذه السنة، و لما سمعت بذلك تألمت بشدّة و نمت و انا فى هذه الحال من الهم و الغم، فرأيت فى عالم الرؤيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يدعونى و يقول: يا فلان، قم و افتح تلك الخزانة (و أشار الى خزانة فى الحائط) و خذ منها مائة تومان موجودة هناك. فانتبهت من النوم، و لم تمض فترة حتى طرقت الباب بعد الظهر، فرأيت رسول الميرزا الشيرازى قدّس سرّه المرجع الكبير للشيعة و قال لى: انّ الميرزا يدعوك: فتعجبت من هذه الدعوة فى هذا الوقت بالذات. فذهبت اليه فرأيته جالسا فى حجرته (و قد نسيت الرؤيا تماما) و فجأة قال لى المرحوم الميرزا الشيرازى: يا ميرزا عبد النّبى افتح باب تلك الخزانة و خذ منها مائة تومان موجودة هناك. فتذكرت الرؤيا فورا و تعجبت كثيرا و أردت ان أقول شيئا، و لكنى شعرت بأنّه لا يرغب فى ذلك، فقمت الى الخزانة فأخذت المبلغ المذكور و خرجت.

۲- و ينقل صديق- و هو محل اعتماد- ان المرحوم التبريزى صاحب كتاب «ريحانة الأدب» كان له ولد يشكو من يده اليمنى (ربّما كان مبتلى بالروماتيزم)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۳

بشكل يصعب عليه ان يمسك القلم بيده، فتقرر ان يسافر الى المانيا للمعالجة و يقول: حين كنت فى السفينة رأيت فى المنام ان امى توفيت ففتحت التقويم السنوى و سجلت الحادثة- مقيدة بالساعة و اليوم- و لم تمض فترة حتى رجعت الى بلدى فاستقبلنى جماعة من الأقارب و الأصدقاء فوجدتهم لبسوا ثياب الحداد فتعجبت، و كنت قد نسيت الرؤيا، و أخيرا أخبرت- بالتدريج- ان امى توفيت، فتذكرت مباشرة رؤياى فى السفينة فأخرجت التقويم و سألت عن اليوم الذى توفيت فيه فكان مطابقا لذلك اليوم تماما.

۳- يقول سيد قطب فى تفسيره «فى ظلال القرآن» فى هامشه على الآيات المتعلقة بسورة يوسف: «إذا كنت أنكر جميع ما قلتم فى الرؤيا فلن أستطيع ان أنكر ما حدث لى يوم كنت فى امريكا ابدا ... رأيت هناك فى المنام انّ ابن أختى قد نزفت عيناه دما و لا يستطيع ان يرى (كان ابن أختى و سائر أعضاء اسرتى بمصر) فاستوحشت ممّا رأيت و كتبت رسالة الى اسرتى بمصر فورا، و سألتهم عن حال ابن أختى بوجه خاص، فلم تمض فترة حتى جاءتنى الجواب الذى يخبرنى بأنّ ابن أختى مبتلى بنزيف داخلى فى عينيه و لا يستطيع ان يرى، و هو مشغول بالمعالجة.

و ممّا يستلفت النظر انّ النزف الداخلى كان بشكل لا يمكن رؤيته الّا بالاجهزة الطبيّة، و قد حرم ابن أختى من النظر و الرؤية على كل

حال. غیر اننی رأیت فی منامی حتی هذه المسألة الدقیقة.

ان الأحلام التی تکشف الحجب عن الأسرار و الحقائق المرتبطة بالمستقبل، او الحقائق الخفیّة المتعلقة بالحاضر، هی اکثر من ان تحصر، و لیس بمقدور بعض الافراد الذی لا یعتقدون بهذه الحقائق إنکارها، او حملها علی المصادفة و الاتفاق! و من خلال التحقیق مع الأصدقاء القریبین یمکن الحصول علی شواهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۴

کثیرة من هذه الأحلام، و هذه الأحلام لا یمکن تعبیرها عن طریق التّفسیر المادی ابدا، و انما الطریق الوحید هو تعبیر فلاسفة الروح و الاعتقاد باستقلال الروح، و من مجموع هذه الأحلام یمکن ان نستفید منها کشاهد علی استقلال الروح.

۲- فی الآیات- محل البحث- نلاحظ ان یعقوب- بالاضافة الی تحذیره لولده یوسف من ان یقصّ رؤیاه علی اخوته- فإنّه عبر عن رؤیاه بصورة اجمالیّة و قال له وَ کَذلِکَ یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ وَ یُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ وَ یُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ عَلی آلِ یَعْقُوبَ

و دلالة رؤیا یوسف علی انّه سیبلغ فی المستقبل مقامات کبیرة معنویة و مادیة یمکن درکها تماما ... و لکن یبرز هذا السؤال، و هو: کیف عرف یعقوب انّ ابنه یوسف سیعلم تأویل الأحادیث فی المستقبل؟ اهو خبر أخبره یعقوب لیوسف مصادفة و لا علاقة له بالرؤیا، ام انّه اکتشف ذلک من رؤیا یوسف؟

الظاهر ان یعقوب فهم ذلک من رؤیا یوسف، و یمکن ان یکون ذلک عن احد طریقین:

الاوّل: انّ یوسف فی حداثة سنّه و قد نقل لأبیه- خاصّة- بعیدا عن أعین اخوته (لانّ أباه أوصاه ان لا یقصّها علی اخوته) و هذا الأمر یدلّ علی ان یوسف نفسه کان له احساس خاص برؤیاه بحیث لم یقصصها بمحضر الجمیع ....

و لانّ مثل هذا الاحساس فی صبیّ- کیوسف علیه السّلام- یدلّ علی انّ له استعدادا روحیّا لتعبیر الرؤیا، و انّ أباه قد احسّ بهذا الاستعداد ... و بالتربیة الصحیحة سیکون له فی المستقبل حظّ زاهر فی هذا المجال.

الثّانی: انّ ارتباط الأنبیاء، بعالم الغیب له عدّة طرق، فمرّة عن طریق «الإلهامات القلبیة» و تارة عن طریق «ملک الوحی» و اخری عن طریق «الرؤیا».

و بالرغم من انّ یوسف لم یکن نبیّا فی ذلک الوقت، لکن رؤیته لهذه الرؤیا ذات المعنی الکبیر یدلّ علی ان سیکون له ارتباط بعالم الغیب فی المستقبل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۵

و لا بدّ أن یعرف تعبیر الرؤیا- طبعا- حتی یکون له مثل هذا الارتباط.

۳- من الدروس التی نستلهمها من هذا القسم من الآیات ان نحفظ الأسرار، و ینبغی ان یطبق هذا الدرس أحیانا حتی امام الاخوة، فدائما تقع فی حیاة الإنسان اسرار لو اذیعت و فشت بات مستقبله او مستقبل مجتمعه معرضا للخطر، و المواظبة علی حفظ هذه الأسرار دلیل علی سعة الروح و تملک الارادة، فکثیر من ضعاف الشخصیّة أوقعوا أنفسهم او مجتمعهم فی الخطر بسبب افشاء الأسرار، و کم یری الإنسان- من مساءة و ضرر لانّه ترک حفظ الأسرار ....

و فی هذا المجال

ورد حدیث عن الامام علی بن موسی الرضا علیه السّلام إذ قال: «لا یکون المؤمن مؤمنا حتی تکون فیه ثلاث خصال: سنّة من ربّه، و سنّة من نبیّه، و سنّة من ولیّه. فأمّا السّنة من ربّه فکتمان السرّ، و امّا السّنة من نبیّه فمداراة الناس، و امّا السّنة من ولیّه فالصبر علی البأساء و الضراء»[۷۲].

و

ورد حدیث عن الامام الصادق علیه السّلام یقول: «سرّک من دمک فلا یجرینّ من غیر أوداجک»[۷۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۶

الآيات [سورة يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ١٠]

اشارة

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (٩) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (١٠)

التّفسير

المؤامرة:

من هنا تبدا قصّة مواجهة اخوة يوسف و اشتباكهم معه:

ففى الآية الاولى- من الآيات محل البحث- اشارة الى الدروس التربوية الكثيرة التى توحيها القصّة، إذ تقول الآية: لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ

و فى انّ المراد بالسائلين، من هم؟ يقول بعض المفسّرين كالقرطبى فى التّفسير الجامع و غيره: انّ هؤلاء السائلين هم جماعة من يهود المدينة، جاؤوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۷

يسألون النّبى اسئلة فى هذا المجال، و لكن ظاهر الآية مطلق، فلا مرجّح لانّ يكون المراد بالسائلين هم اليهود دون غيرهم.

و ایّ درس أعظم من ان يجتمع عدّة افراد لإهلاك فرد ضعيف و وحيد- فى الظاهر- و بخطط اعدّها الحسد، و يبذلون أقصى جهودهم لهذا الأمر، و لكن نفس هذا العمل- و دون شعور و ارادة منهم- بات سببا فى تربّعه على سرير الملك و صيرورته آمرا على البلد الكبير «مصر» ثمّ يأتى اخوته فى النهاية ليطأطئوا برؤوسهم إعظاما له، و هذا يدلّ على ان اللّه إذا أراد امرا فهو قادر على ان يجريه حتى على ايدى من يخالفون ذلك الأمر، ليتجلّى ان الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيدا فى هذا العالم، فلو سعى جميع افراد هذا العالم الى إزهاق روحه و اللّه لا يريد ذلك، فإنهم لا يستطيعون ان يسلبوا منه شعرة واحدة.

كان ليعقوب اثنا عشر ولدا، و اثنان منهم: يوسف و بنيامين و هما من ام واحدة اسمها راحيل، و كان يعقوب يولى هذين الولدين محبّة خاصّة، لا سيما يوسف.

لانّهما اوّلا: أصغر أولاده، و بالطبع فهما يحتاجان الى العناية و الرعاية و المحبة.

و ثانيا: لانّ امّهما ارتحلت من الدنيا- طبقا لبعض الرّوايات- و بعد هذا كلّه كانت بوادر النبوغ و الذكاء و الحادّ ترتسم على يوسف، و هذه الأمور ادّت الى ان أن يولى يعقوب ابنه هذا عناية اكثر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‏۷ ؛ ص۱۳۷

" ان الاخوة الحساد- دون ان يلتفتوا الى هذه الجهات- تألّموا من حبّ أبيهم ليوسف و أخيه، و خاصّة بعد اختلافهم فى الام و المنافسة الطبيعية المترتبة على هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم و تدارسوا الأمر و صمموا على المؤامرة إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا

مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ[۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۸

و حكموا على أبيهم من جانب واحد بقولهم: إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ

ان نار الحسد و الحقد لم تدعهم ليفكروا فى جميع جوانب الأمر ليكتشفوا دلائل علاقة الحبّ التى تربط يعقوب بولديه يوسف و بنيامين، لانّ المنافع الخاصّة لكل فرد تجعل بينه و بين عقله حجابا فيقضى من جانب واحد لتكون النتيجة «الضلال عن جادة الحق و العدل» و بالطبع فإنّ اتهامهم لأبيهم بالضلالة، لم يكن المقصود منها الضلالة الدينية، لانّ الآيات الآتية تكشف عن اعتقادهم بنبوّة أبيهم، و انما استنكروا طريقة معاشرته فحسب.

ثمّ ادّى بهم الحسد الى ان يخططوا لهذا الأمر، فاجتمعوا و قدموا مقترحين و قالوا: اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً- أرسلوه الى منطقة بعيدة- يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ

و من الحق ان تشعروا بالذنب و الخجل فى وجدانكم لانّكم تقدمون على هذه الجناية فى حق أخيكم الصغير، و لكن يمكن أن تتوبوا و تغسلوا الذنب تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ

و هناك احتمال آخر لتفسير هذه الآية هو انّكم إذا أبعدتم أخاكم عن عينى أبيكم يصلح ما بينكم و بين أبيكم و تذهب اتعابكم و يزول اذاكم من هذا الموضوع، و لكن التّفسير الاوّل اقرب للنظر! و على كل حال فإنّ هذه الجملة تدلّ على احساسهم بالذنب من هذا العمل، و كانوا يخافون اللّه فى اعماق قلوبهم، و لذلك قالوا: نتوب و نكون من بعده قوما صالحين.

و لكن المسألة المهمة هنا هى انّ الحديث عن التوبة قبل الجريمة- فى الواقع- هو لأجل خداع «الوجدان» و اغرائه و فتح الباب للدخول الى الذنب، فلا يعدّ دليلا على الندم ابدا.

و بتعبير آخر: انّ التوبة الواقعية هى التى توجد بعد الذنب حالة من الندم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۹

و الخجل للإنسان، و امّا الكلام فى التوبة قبل الذنب فليس توبة.

و توضيح ذلك انّه كثيرا ما يقع أن الإنسان حين يواجه الضمير و «الوجدان» عند الاقدام على الذنب، او حين يكون الاعتقاد الدينى سدّا و حاجزا امامه يمنعه عن الذنب و هو مصمم عليه، فمن اجل ان يجتاز حاجز الوجدان او الشرع بيسر، يقوم الشخص بخداع نفسه و ضميره يأتى سوف اقف مكتوف اليدين بعد الذنب، بل سأتوب و امضى الى بيت اللّه و أؤدى الأعمال الصالحة، و سأغسل جميع آثار الذنوب.

اى انّه فى الوقت الذى يرسم الخطة الشيطانية للاقدام على الذنب، يرسم خطة شيطانية اخرى لمخادعة الضمير و الوجدان ... و للاعتداء على عقيدته! فإلى اىّ درجة تبلغ هذه الخطة من السوء بحيث تمكّن الإنسان من تحقيق الجناية و الذنب و كسر الحاجز الدينى الذى يقف امامه!! انّ اخوة يوسف دخلوا من هذا الطريق ايضا.

المسألة الدقيقة الاخرى فى هذه الآية: انّهم قالوا: يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ و لم يقولون: يخل لكم قلب أبيكم، و ذلك لانّهم لم يطمئنّوا الى انّ أباهم ينسى يوسف بهذه السرعة ... فيكفى ان يتوجه إليهم أبوهم، و لو ظاهرا! و هناك احتمال آخر لهذا التعبير، و هو أنّ الوجه و العينين نافذتان الى القلب، فمتى ما خلا الوجه لهم فإنّ القلب سيخلو و يتوجه إليهم بالتدريج.

و لكن كان من بين الاخوة من هو اكثر ذكاء و ارق عاطفة و وجدانا، لانّه لم يرض بقتل يوسف او إرساله الى البقاع البعيدة التى يخشى عليه من الهلاك فيها ...

فاقترح عليهم اقتراحا ثالثا، و هو ان يلقى فى البئر (بشكل لا يصيبه مكروه) لتمرّ قافلة فتأخذه معها، و يغيب عن وجه أبيه و وجوههم، حيث تقول الآية فى هذا الصدد قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۰

ملاحظات

اشارة

۱- «الجبّ» معناه «البئر» التی لم تنضّد بالطابوق و الصخور، و لعلّ اغلب آبار الصحراء على هذه الشاكلة.

و «الغيابـة» المخبـأ من البئر الغـائب عن النظر و لعـلّ هـذا التعبير يشـير الى ان الآبار الصـحراوية يصـنع فی قعرها مكان قريب من الماء، بحيث لو أراد احـد النزول الى البئر ليسـتفيد من المـاء، فإنّه يسـتطيع ان يجلس هناك و يملا دلوه من ذلك الماء دون ان ينزل هو فی الماء، و بالطبع فإنّ من ينظر البئر من فوقها لا يرى ذلك المكان و لذلك سمی «غيابة»[۷۵].

۲- لا شك انّ اقتراح هـذا القائل أَلْقُوهُ فِی غَيابَتِ الْجُبِ لم يكن الهـدف منه موت يوسف فی البئر، بل بقاءه سالما لتنقـذه القافلـة عند مرورها على البئر للاستسقاء.

۳- يسـتفاد من جملـة إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ انّ القائل لم يكن يرغب- أساسا- حتى بهـذا الاقتراح و لعله كان لا يوافقهم على إيـذاء يوسـف أصلا.

۴- هناك اختلاف بين المفسّـرين فی اسم هذا الأخ القائل لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ فقال بعضهم: اسمه «روبين» و كان اذكاهم، و قال بعضهم: اسمه «يهودا» و قال آخرون: اسمه «لاوی».

۵- اثر الحسد المدمّر فی حياة الناس

الـدرس الآـخر الـذی نتعلّمه من هـذه القصّـة، و هو انّ الحسـد يمكن ان يـدفع الإنسـان حتى الى قتل أخيه، او إيجاد المشاكل له، فنار الحسد إذا لم يمكن إخمادها فإنّها ستحرق صاحبها بالاضافة الى إحراق الآخرين بها.

و أساسا إذا حرم الإنسان من نعمة أنعمها اللّه على عبد سواه، فإنّه سيكون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۱

امام اربع حالات مختلفة.

الاولى: ان يتمنّى ان ينعم اللّه عليه مثل ما أنعم على غيره، و هـذه الحالـة تـدعى «الغبطـة» و هی جـديرة بالثناء و المدح، و ليس لها اثر سیء، لانّها تدعو صاحبها للسعی و الجدّ و المثابرة حتى ينال مثل ما نال المغبوط.

الثّانيـة: ان يتمنّى ان تسـلب هـذه النعمـة عن الآـخرين، و يسـعى من اجـل تحقيق هـذا التمنی، و هـذه هی الحالـة المذمومـة الموسومة «بالحسد» التی تدعو صاحبها الى التخريب و سلب النعمة عن الآخرين، دون ان تدعوه لانّ يطلب من اللّه مثل ما اعطى غيره من النعم.

الثّالثـة: ان يتمنّى ان تكون هذه النعمة له فقط و يحرم الآخرون منها و هذه الحالة تسـمّى «البخل» و الانانية التی تدعو الإنسان ان يطلب شيئا لنفسه، و يلتذّ من حرمان الآخرين.

الرّابعـة: ان يتمنّى و يحب تنعّم الآخرين بهـذه النعمة و ان كان محروما منها، و هو مسـتعدّ ان يقدّم ما عنده من أجلهم ... و بغض النظر عن منافعه الشخصية، و هذه الحالة الرفيعة هی ما يسمّى ب «الإيثار» التی هی من أهم الصفات الانسانية الحميدة.

و على كل حال فإنّ الحسد لا يقتصر على قتل اخوة يوسف لأخيهم فحسب، بل قد يوصل الإنسان الى قتل نفسه.

و لهذا نجد فی الأحادیث الاسلامیهٔ تعابیر مؤثرهٔ تدعو الی مکافحهٔ هذه الرّذیلهٔ، و علی سبیل المثال نورد منها ما یلی:

۱-

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انّه قال: «انّ اللّه نهی موسی عن الحسد و قال له: انّ الحاسد ساخط لنعمی صادّ لقسمی الذی قسمت بین عبادی، و من یک کذلک فلست منه و لیس منّی»[۷۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۲

۲- و نقرا

حدیثا للإمام الصادق علیه السّلام یقول: «آفهٔ الدین الحسد و العجب و المفاخرهٔ»

کما نقرا له

حدیثا یقول: «انّ المؤمن یغبط و لا یحسد، و المنافق یحسد و لا یغبط»[۷۷].

۶- کما نستنتج درسا آخر من هذا المقطع فی القصّهٔ، و هو انّ الوالدین ینبغی ان یلاحظا أبناءها الآخرین عند إبراز عنایتهما و محبّتهما لواحد منهم، فبالرغم من ان یعقوب لم یرتکب خطأ- دون ایّ شک- بالنسبهٔ لإبراز علاقته لولدیه یوسف و بنیامین، و انّما کان کل ذلک وفق حسابات خاصّهٔ. و لکن هذه الحادثهٔ تکشف لنا انّه ینبغی ان یکون الإنسان اکثر إحساسا، فی هذه المسألهٔ- من القدر اللازم. لانّ إبراز العلاقهٔ لبعض الأبناء دون بعض توجد عقدهٔ فی نفوس الآخرین، الی درجهٔ انّها تجرّهم الی کل عمل مخرّب، حیث یجدون شخصیاتهم منهزمهٔ و لا بدّ من تحطیم شخصیهٔ أخیهم للتعویض عن هذه الهزیمهٔ، فیکون الاقدام علی هذا العمل دون لحاظ الرحمیهٔ و وشائج القربی.

و إذا لم یستطع الإنسان ان یقوم بعمل معاکس، فإنّه یظل یلوم نفسه و یحرضها حتی یبتلی بالمرض النفسی.

و ما زلت اذکر انّه کان لی صدیق قد مرض ولده الصغیر، فأوصی ولده الکبیر برعایته، و أخذ الأب یولی ولده الصغیر محبهٔ و شفقهٔ فائضهٔ «لانّه مریض».

فلم تمض فترهٔ حتی مرض هذا الابن الکبیر بمرض نفسی مجهول، قلت لذلک الصدیق العزیز: الا تفکّر انّ أساس المرض هو عدم العدالهٔ بین ولدیک ...

لکنّه لم یصدّق، و أخیرا راجع الطبیب النّفسانی المختصّ فقال: ان ابنک لیس مریضا بمرض خاصّ، و انّما أساس مرضه هو اهتمامک بأخیه و عدم اهتمامک به، و هو یحس بأنّ شخصیته متعطشهٔ للحنان و الحبّ، فی حین انّ أخاه لم یحرم منهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۳

و فی هذا الصدد نقرا

فی الرّوایات الاسلامیهٔ ان الامام الباقر علیه السّلام قال یوما: «و اللّه انّی لأصانع بعض ولدی، و أجلسه علی فخذی، و انکز له المخّ، و اکسر له الکسر، و ان الحقّ لغیره من ولدی، و لکن مخافهٔ علیه منه و من غیره، لا یصنعوا به ما فعل بیوسف اخوته، و ما انزل اللّه سورهٔ الّا أمثالا لکی لا یجد بعضنا بعضا کما حسد یوسف اخوته، و بغوا علیه، فجعلها رحمهٔ علی من تولّانا، و دان بحبّنا و حجّهٔ علی أعدائنا و من نصب لنا الحرب و العداوهٔ»[۷۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۴

الآیات [سورهٔ یوسف (۱۲): الآیات ۱۱ الی ۱۴]

اشارهٔ

قالُوا يا أَبانا ما لَکَ لا تَأْمَنَّا عَلی یُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (۱۱) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۱۲) قالَ إِنِّی لَيَحْزُنُنِی أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (۱۳) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (۱۴)

التّفسير

المؤامرة المشؤومة

! بعد ان صوّب اخوة يوسف اقتراح أخيهم فی عدم قتل يوسف، و القائه فی الجبّ، أخذوا يفكرون فی كيفية فصل يوسف عن أبيه لذلك اقدموا علی تخطيط آخر، فجاءوا الی أبيهم بلسان ليّن يدعو الی الترحم، و فی شكل يتظاهرون به انهم مخلصون له و حدثوا أباهم و قالُوا يا أَبانا ما لَکَ لا تَأْمَنَّا عَلی یُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ

تعال يا أبانا و ارفع اليد عن اتهامنا، فإنّه أخونا و ما يزال صبيا و بحاجة الی اللهو و اللعب، و ليس من الصحيح حبسه عندک فی البيت، فخلّ سبيله أَرْسِلْهُ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۵

مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ ۷۹].

و إذا كنت تخشی عليه من سوء فنحن نواظب علی حمايته وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ

و بهذا الأسلوب خططوا لفصل أخيهم عن أبيه بمهارة، و لعلّهم قالوا هذا الكلام امام يوسف ليطلب من أبيه إرساله معهم.

و هذه الخطة تركت الأب- من جانب- امام طريق مسدود، فإذا لم يرسل يوسف مع اخوته فهو تأكيد علی اتهامه ايّاهم، و حرضت- من جانب آخر- يوسف علی ان يطلب من أبيه الذهاب معهم ليتنزّه كما يتنزه اخوته، و يستفيد من هذه الفرصة لاستنشاق الهواء الطلق خارج المدينة.

اجل، هكذا تكون مؤامرات الذين ينتهزون الفرصة، و غفلة الطرف الآخر، فيستفيدوا من جميع الوسائل العاطفية و النفسيّة، و لكن المؤمنين ينبغی الّا ينخدعوا بحكم

الحديث المأثور «المؤمن كيس»

ای فطن ذكی فلا يركنوا للمظهر المنمّق حتی لو كان ذلک من أخيهم.

و لكن يعقوب- دون ان يتهم اخوة يوسف بسوء القصد- اظهر تردّده فی إرسال يوسف لامرين: الاوّل: انه سيبتعد عنه فيحزن عليه، و الثانی: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و قالَ إِنِّی لَيَحْزُنُنِی أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ

و هذه المسألة طبيعية، حيث قد يبتعد اخوة يوسف عنه فيغفلون عن امره، فيأتی إليه الذئب فيأكله.

و بديهی انّ الاخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الاوّل الذی أشار اليه أبوهم يعقوب، لانّ الحزن و الاغتمام علی فراق يوسف لم يكن شيئا عاديّا حتی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۶

يعوّض عنه، و ربّما كان هذا التعبير مثيرا لنار الحسد فی اخوة يوسف اكثر.

و من جهة اخری فإنّ هذا الموضوع الذی أشار اليه يعقوب، و هو حزنه علی ابتعاد يوسف عنه يمكن ردّه، و هو لا يحتاج الی بيان، لانّ الولد لا بدّ له من الابتعاد عن أبيه من اجل ان ينمو و يرشد، و إذا أريد له ان يكون كنبات «النّورس» بحيث يبقی تحت ظل شجرة

«وجود الأب» فإنّه سوف يبقى عالة عليه فلا- بدّ من هذا الابتعاد و الانفصال حتى يتكامل ولده، فاليوم تنزّه و غدا اجتهاد و مثابرة لتحصيل العلم، و بعد غد عمل و سعى للحياة، و أخيرا فإنّ الانفصال لا بدّ منه.

لذلك فإنّهم لم يجيبوه عن الشقّ الاوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثّانى لانّه كان مهما و اساسيا بالنسبة لهم إذ قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ

اى: أ ترانا موتى فلا نـدافع عن أخينا، بل نتفرج على الـذئب كيف يأكله! ثمّ اضافة الى علاقة الاخوة التى تدفعنا للحفاظ على أخينا، ما عسى ان نقول للناس عنّا؟ هل ننتظر ليقال عنّا: انّ جماعة أقوياء و فتية أشداء جلسوا و تفرجوا على الـذئب و هو يفترس أخاهم! فهل نستطيع العيش بعد هذا مع الناس؟! لقد أجابوا أباهم بما تضمن قوله: أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ و مشغولون بلعبكم، كيف يكون ذلك؟ و المسألة ليست بهذه البساطة ...

انّها الخسارة و ذهاب ماء الوجه و الخزى ... إذ كيف يمكن لواحد منّا ان يشغله اللعب فيغفل عن أخيه يوسف، لانّه فى مثل هذه الحال لا تبقى لنا قيمة و لا نصلح لاى عمل.

و يبرز هنا سؤال مهم ... و هو: لماذا أشار يعقوب الى خطر الذئب من دون الاخطار الاخرى؟! قال البعض: ان صحراء كنعان- كانت- «صحراء مذئبة» و من هنا كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۷

الخوف من الذئب اكثر من غيره.

و قال البعض: كان ذلك للرؤيا التى رآها يعقوب من قبل و هى ان ذئابا هجمت على ولده يوسف.

و هناك احتمال آخر هو ان يعقوب أجابهم بلسان الكناية، و المقصود من الذئاب فى كلامه هم الأناس المتصفون بصفة الذئب اخوة يوسف.

و على كل حال فقد استطاع اخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، و بتحريك احاسيس يوسف النقيّة و ترغيبه الى التنزه خارج المدينة، و ربّما كان الاوّل مرّة يتاح ليوسف ان يحصل على مثل هذه الفرصة ... استطاعوا ان يأخذوا يوسف معهم و ان يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

بحوث

اشارة

و ينبغى هنا الالتفات الى عدة دروس حيّة تستلهم من هذه القصّة:

۱- مؤامرات الأعداء فى ثياب الأصدقاء

من الطبيعى انّ الأعداء لا يدخلون الميادين- عند الهجوم- بصراحة و دون استتار ابدا.

بل انّهم من اجل تفويت الفرصة على الطرف الآخر و استغفاله و سلبه كل وسائل الدفاع يسعون الى إخفاء عملهم تحت قناع جذاب انّ اخوة يوسف اخفوا خطة هلاكه او ابعاده تحت غطاء اسمى الاحاسيس و العواطف الاخوية، هذه الاحاسيس التى كانت تحرك يوسف من جهة لانّ يمضى معهم، و كانت عند أبيهم موضع قبول من جهة اخرى ايضا.

و هذه هى الطريقة التى نواجهها فى حياتنا اليوميّة على المدى الواسع، و ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۸

تلقيناه من ضربات قاسية من أعدائنا المخاتلين بثياب الأبرار فى هذا المضمار غير قليل، و لها مظاهر متعددة، فمرة بمظهر المساعدات الاقتصادية، و اخرى تحت ستار التبادل الثقافى، و ثالثة فى ثوب الدفاع عن حقوق البشر، و رابعة بأسلوب المعاهدات الدفاعية ... كل تلك الأمور كانت نتيجة اسوا القرارات الاستعمارية المذلّة للأمم المستضعفة و التى من ضمنها أمتنا الاسلاميّة.

و لكن و مع هذه التجارب التاريخيّة ينبغى ان نكون حذرين للغاية و ان نعرف أعداءنا جيدا، فلا نحسن الظن بهذه الذئاب البشرية التى تريد ان تمتص دماءنا بما تظهره من عواطف و احاسيس متلبسة بثياب المخلصين المتفانين فما زلنا نتذكر ما فعلته الدول المتسلطة على العالم حيث أرسلت تحت ستار المساعدات الطبيّة الى بعض الدول الافريقية المتضررة بالحرب اسلحة و عتاد أرسلت الى عملائها، كما بعثت اخطر جواسيسها تحت ثياب الدبلوماسية و السفارات و الممثلين لها الى مختلف مناطق العالم.

و تحت ستار الخبراء العسكريين و تدريب الدّول المستضعفة على الاسلحة الحديثة و المتطورة كانوا يأخذون مع عودتهم جميع الأسرار العسكرية لتلك الدولة.

و بإرسال خبراء فنيين!! الى هذه الدول يربطوا عجلة اقتصادها بالمناهج تكرس التبعية ترى، أ ليست كل هذه التجارب التأريخيّة كافية لئلّا ننخدع بهذه الزخارف البرّاقة الكاذبة و ان نعرف وجوه هؤلاء الذئاب المتظاهرين بالانسانيّة.

۲- حاجة الإنسان الفطرية و الطبيعية الى التنزّه و الارتياح

من الطريف ان يعقوب عليه السّلام لم يردّ على كلام اخوة يوسف و استدلالهم على انّه بحاجة الى التنزه و الارتياح، بل وافق على ذلك عمليّا، و هذا دليل كاف على ان ایّ عقل سليم لا يستطيع ان ينكر هذه الحاجة الفطرية و الطبيعيّة ... فالإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۹

ليس آلة تستعمل فى اى وقت كان و كيف كان، بل له روح و نفس ينالهما التعب و النصب كما ينالان الجسم. فكما ان الجسم يحتاج الى الراحة و النوم، كذلك الرّوح و النّفس بحاجة الى التنزّه و الارتياح السليم.

التجربة- ايضا- تدل على ان الإنسان كلّما واصل عمله بشكل رتيب، فإنّ مردود هذا العمل سيقلّ تدريجيا نتيجة ضعف النشاط، و على العكس من ذلك فإنّ الاستراحة لعدة ساعات تبعث فى الجسم نشاطا جديدا بحيث تزداد كمية العمل و كيفيته معا، و لذلك فإنّ الساعات التى تصرف فى الراحة و التنزه تكون عونا على العمل ايضا.

و فى الرّوايات الاسلامية نجد هذه الواقعية بأسلوب طريف جاء بمثابة «القانون» حيث

يقول الامام على عليه السّلام: «للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجى فيها ربّه، و ساعة يرمّ معاشه، و ساعة يخلى بين نفسه و بين لذّتها فيما يحلّ و يجمل»[۸۰].

و ممّا يستجلب النظر انّ فى بعض الرّوايات الاسلامية أضيفت هذه الجملة الى النص المتقدم «و ذلك عون على سائر الساعات».

و على حدّ تعبير البعض فإنّ التنزّه و الارتياح بمثابة تدهين و تنظيف اجهزة السيّارة، فلو توقفت هذه السيارة ساعة عن العمل لمراقبة اجهزتها و تنظيفها، فإنها ستغدو اكثر قوة نشاطا يعوّض عن زمن توقفها اضعاف المرات، كما انه سيزيد من عمر السيارة ايضا.

لكن المهم ان يكون هذا التنزّه صحيحا، و الّا فإنه لا يحل المشكلة، بل سيزيدها، فإنّ كثيرا من حالات التنزّه هذه تدمر الإنسان و تسلب منه نشاطه و قدرته على العمل لفترة ما، او على الأقل تخفف من نشاط عمله.

و هناك نقطة تدعو للالتفات ايضا، و هى ان الإسلام اهتم بمسألة الترويض و الاستراحة النفسية بحيث أجاز المسابقات فى هذا

المضمار .. و یحدثنا التاریخ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۰

انّ قسما من هذه المسابقات جرت بمرأی من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و أحیانا کانت تناط الیه مهمة التحکیم و القضاء فی هذه المسابقة، و ربّما اعطی ناقته الخاصّة- لبعض الصحابة للتسابق علیها.

ففی روایة الامام الصادق علیه السّلام انّه قال: «ان النّبی اجری الإبل مقبلة من تبوک فسبقت العصباء و علیها اسامة، فجعل الناس یقولون: سبق رسول اللّه و رسول اللّه یقول: سبق اسامة[۸۱]»

(اشارة الی ان المهم فی السبق هو الراکب لا المرکب، حتی و ان کان المرکب السابق عند من لا یجیدون السبق).

النقطة الاخری هی انّه کما ان اخوة یوسف استغلّوا علاقة الإنسان- و لا سیما الشاب- بالتنزّه و اللعب من اجل الوصول الی هدفهم الغادر ... ففی حیاتنا المعاصرة- ایضا- نجد اعداء الحق و العدالة یستغلّون مسألة الریاضة و اللعب فی سبیل تلویث أفکار الشباب، فینبغی ان نحذر المستکبرین «الذئاب» الذین یخططون لإضلال الشباب و حرفهم عن رسالتهم تحت اسم الریاضة و المسابقات المحلّیة و العالمیة.

و لا ننسی ما کان یجری فی عصر الطاغوت (الشاه)، فإنّهم و بهدف تنفیذ بعض المؤامرات و نهب ثروات البلاد و تحویلها الی الأجانب لقاء ثمن بخس، کانوا یرتّبون سلسلة من المسابقات الریاضیة الطویلة العریضة لالهاء الناس لئلّا یطلعوا علی المسائل السیاسیّة.

۳- الولد فی ظلّ الوالد

إذا کانت محبّة الأب الشدیدة او الام بالنسبة للولد تستوجب ان یحفظ الی جانبهما، الّا ان من الواضح ان فلسفة هذه المحبة من وجهة نظر قانون الخلقة هی المحافظة التامة علی الولد عند الحاجة إلیها، و علی هذا الأساس ینبغی ان تقل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۱

هذه المحافظة کلّما تقدّمت به السن، و یمنح الولد الاجازة لیخطو فی حیاته نحو الاستقلال، و الّا فسیکون کمثل غرسة النّورس تحت ظل الشجرة القویة دائما لا تنمو کما یلزم.

و ربّما وافق یعقوب علیه السّلام- لهذا السبب- علی اقتراح ابنائه رغم علاقته الشدیدة بیوسف، و أرسله معهم الی خارج المدینة، و مع انّ هذا الأمر کان صعبا علی یعقوب، و لکن مصلحة یوسف و حاجته الی الرشد و النموّ کانت تستوجب ان یجیزه أبوه لیبتعد عنه ساعات و ایّاما! و هذه مسألة تربویة مهمّة غفل عنها کثیر من الآباء و الأمهات، حیث یربّون أولادهم تربیة بحیث لا یستطیعون ان یعیشوا خارج «خیمة الأبوین» و محافظتهما علیهم، و بالتالی یسقطون امام تیارات الحوادث و ضغوطها، کما ان هناک رجالا عظماء فقدوا والدیهم فی دور الطفولة، و لکنّهم صنعوا أنفسهم بأیدیهم و واجهوا المشاکل و تجاوزوها.

فالمهم ان یلتفت الوالدان الی هذه المسألة التربویة، و الّا فستکون محبتهما «الکاذبة» مانعا من استقلال أولادهم.

من الطریف ان هذه المسألة موجودة فی بعض الحیوانات بشکل غریزی، فنحن نری أفراخ الدجاج «الفروج»- مثلا- یبدأ حیاته تحت جناحی امه، و تحافظ الدجاجة الام علیها کما تحافظ علی روحها «العزیزة».

و لکن بعد فترة حیت تکبر هذه الافراخ فإنّ الام لا تترک المحافظة علی هذه الافراخ فحسب، بل تنقر ایّا منها یصل إلیها. و معنی هذا انّها ترید ان تعوّدهم علی ان یتعلموا طریق الحیاة المستقلة! فإلی متی تعیشون غیر مستقلین؟! و لکن هذا الموضوع لا ینافی تقویة الروابط العائلیة و المحافظة علی المودة و المحبّة، بل هی محبّة عمیقة و علاقة محسوبة و نافعة للطرفین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۲

۴- لا قصاص و لا اتهام قبل الجنایة

نشاهد فی هذا الفصل من القصّة انّ یعقوب بالرغم من علمه بما سیقدم علیه اخوة یوسف ... و تحذیره ولده یوسف ألّا یقصص رؤیاه علی اخوته، و ان یکتم الأمر، الّا انّه لم یکن مستعدا لانّ یتّهمهم بقصد الاساءة الی یوسف، بل کان عذره إلیهم انّه یحزنه فراقه، و یخاف ان یأکله الذئب فی الصحراء.

و الأخلاق و المعاییر الانسانیة و الاسس القضائیة العادلة توجب ذلک ایضا، فحیث لم تتوفر لدینا علامة ظاهرة علی مخالفة شخص ما فلا ینبغی اتّهامه، فالأصل البراءة و الصحّة و الطهارة الّا ان یثبت خلافه.

۵- تلقین العدوّ

المسألة الاخری اننا نقرا- فی ذیل الآیات المتقدمة-

روایة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انّه قال: «لا تلقّنوا الکذّاب فیکذب فإنّ بنی یعقوب علیه السّلام لم یعلموا ان الذئب یأکل الإنسان حتی لقّنهم أبوهم»[۸۲].

اشارة الی انه قد یحدث أحیانا ان لا یلتفت الطرف الآخر الی الحیلة و الی طریق الاعتذار و انتخاب طریق الانحراف، فعلیکم ان تحذروا من ذکر الاحتمالات المختلفة التی تبیّن له طرق الانحراف.

و مثل هذا یشبه تماما ما لو قال الإنسان لطفله: لا ترم الکرة باتّجاه المصباح، و لم یکن الطفل یعلم ان الکرة یمکن ان ترمی نحو المصباح، فیلتفت الی ان مثل هذا العمل ممکن، و تتحرک فیه نوازع الفحص ... ماذا سیکون لو رمیت الکرة باتجاه المصباح؟ ثمّ یبدأ «لعبته» لتنتهی بتکسّر المصباح! و لیس هذا موضوعا هینا و لا خاصا بالأطفال، فقد یتفق أحیانا ان الأوامر و النواهی الخاطئة، تسبب ان یتعلم الناس أشیاء لم یعرفوها من قبل، فتوسوس لهم أنفسهم ان یقدموا علیها، فینبغی فی مثل هذه الموارد- قدر المستطاع- ان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۳

تثار المسائل بشکل لا یبعث علی ای تعلّم سیئ! و بالطبع فإنّ یعقوب النّبی علیه السّلام قال کلامه عن صفاء و طهارة قلب، الّا انّ أبناءه الضالین استغلوا کلامه لقصدهم السیئ.

و شبیه هذا الموضوع الأسلوب الذی نجده فی کثیر من المقالات، فمثلا قد یکتب أحدهم مقالة- او یقوم بإخراج فیلما او غیرها- عن ضرر الموادّ المخدرة او الاستمناء، فیتناول هذه المسائل بصورة یتعلمها غیر المطلعین و ینسون المسائل التی تذکر فی هذه المواضیع لذم هذه الأعمال و بیان طرق النجاة منها، و لذلک فغالبا ما یکون ضرر هذه المقالات و الافلام و خسارتها اکثر من فائدتها بمراتب.

۶- و آخر نقطة نشیر إلیها هنا انّ اخوة یوسف قالُوا لَئِنْ أَکَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ و هی اشارة الی انّ الإنسان إذا تحمّل مسئولیة ما- و وافق علیها- فإنّ من الواجب علیه ان یوقف نفسه من أجلها ... و الّا فإنّه سیفقد کل قیمه- قیمة شخصیته، و ماء وجهه، و الموقع الاجتماعی، و وجدانه.

فکیف یعقل ان یکون الشخص ضمیر حیّ و وجدان یقظ و شخصیة کریمة یعتز بحیثیته و ماء وجهه، و مع کل ذلک یتنصل عن مسئولیاته و یقف موقفا سلبیا ازاءها؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۴

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۱۵ الی ۱۸]

اشارة

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۵) وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (۱۶) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ (۱۷) وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (۱۸)

التّفسير

الكذب المفضوح:

و أخيرا انتصر اخوة يوسف و اقنعوا أباهم ان يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئنى البال بانتظار الصبح لتنفيذ خطتهم و ازاحة أخاهم الذى يقف عائقا فى طريقهم ... و كان قلقهم الوحيد ان يندم أبوهم و يسحب كلامه و وعده بإرسال يوسف معهم.

فجاءوا صباحا الى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، و كرر توصياته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۵

فى شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم و ابدوا احترامهم الفائق و محبتهم العميقة، و تحركوا الى خارج المدينة.

يقال: انّ أباهم ودعهم الى بوابة المدينة ثمّ أخذ منهم يوسف و ضمّه الى صدره و دمعت عيناه، ثمّ أودع يوسف عندهم و فارقهم، و لكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، و كان اخوة يوسف لا- يقصرون عن مدارة أخيهم يوسف و اظهار عنايتهم به و محبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، و لكن ما ان غاب عنهم أبوهم و اطمأنوا الى انّه لا يراهم، حتى انفجرت عقدتهم و صبوا «جام غضبهم» و حقدهم و حسدهم المتراكم لعدّة سنوات على راس يوسف، فالتفّوا حوله يضربونه بأيديهم و يلتجئ من واحد لآخر و يستجير بهم فلا يجيره احد منهم.

نقرا فى رواية انّ يوسف كان يبكى تحت وابل اللكمات و الضربات القاسيّة، و لكن حين أرادوا ان يلقوه فى الجبّ شرع بالضحك فجأة ... فتعجب اخوته كثيرا و حسبوا ان أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحا ... و لكنّه رفع الستار عن ضحكه و علّمهم درسا كبيرا إذ قال:- لا انسى اننى نظرت- ايها الاخوة- الى عضلات أيديكم القويّة و قواكم الجسدية الخارقة، فسررت و قلت فى نفسى: ما عسى ان يخشى و يخاف من الحوادث و الملمّات من كان عنده مثل هؤلاء الاخوة، فاعتمدت عليكم و ربطت قلبى بقواكم، و الآن و قد أصبحت أسيرا بين أيديكم و استجير بكم من واحد للآخر فلا أجار، و قد سلطكم اللّه علىّ لا تعلم هذا الدرس، و هو الّا اعتمد و اتوكّل على احد سواه ... حتى و لو كانوا اخوتى.

و على كل حال فالقرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ ۸۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۶

جملة «اجمعوا» تدلّ على انّ جميع الاخوة كانوا متفقين على هذه الخطّة، و ان لم يتفقوا جميعا على قتله.

و أساسا فإنّ كلمة «اجمعوا» مأخوذة من مادة «جمع» و هى فى هذه الموارد اشارة الى جمع الآراء و الأفكار.

ثمّ تبيّن الآية انّ اللّه اوحى الى يوسف و هدا روعه و ألهمه الّا يحزن فالعاقبة له، إذ تقول: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

ذلك اليوم الذى تجلس فيه على العرش و أنت القوى الأمين، فيأتى إخوتك ليمدّوا ايدى الحاجة إليك، و يكونوا كالظامئين الى

النبع العذب فی الصحراء اللاهبة و یسرعون إلیک فی منتهی التواضع، و لکنّک فی حال من العظمة بحیث لا یصدّقون انک أخوهم، و ستقول لهم فی ذلک الیوم: أ لستم الذین فعلتم مع أخیکم الصغیر یوسف کذا و کذا ... و کم سیکونون خجلین من فعلهم هذه فی ذلک الیوم! و هذا الوحی الالهی لم یکن وحی النبوة، بقرینة الآیة (۲۲) من السورة ذاتها، بل کان إلهاما لقلب یوسف لیعلم انه لیس وحیدا، بل له حافظ و رقیب، و هذا الوحی بثّ فی قلب یوسف نور الأمل و أزال عن روحه ظلمات الیأس و الحیرة.

لقد نفّذ اخوة یوسف خطتهم کما أرادوا، و لکن ینبغی ان یفکروا عند العودة ماذا کیف کی یصدّق أبوهم ان یوسف انتهی بصورة طبیعیة لا عن مکیدة لیضمنوا عواطف أبیهم نحوهم.

و کانت الفکرة التی أوصلتهم الی هذا الهدف هی ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه- ظاهرا- عن هذا الطریق مدّعین بأنّ الذئب قد أکل یوسف و جاؤوا الیه بدلائل مزیّفة!! یقول القرآن الکریم: وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً یَبْکُونَ بکاء کاذبا، و هذا یدلّ علی انّ البکاء الکاذب ممکن .. و لا یمکن ان یخدع ببکاء العین وحدها.

امّا الأب الذی کان ینتظر مجیء ولده (یوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۷

و ارتجف حین رای الجمع و لیس بینهم یوسف، و سأل عنه مستفسرا ... فأجابوه و قالُوا یا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَکْنا یُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا لصغر سنه و لانّه لا یعرف التسابق، و انشغلنا عنه فَأَکَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ کُنَّا صادِقِینَ

لأنک أخبرتنا من قبل بهذا الاحتمال، و ستظن ان ادّعاءنا مجرّد احتیال.

لقد کان کلام اخوة یوسف مدروسا بشکل دقیق، و ذلک- اوّلا- لانّهم خاطبوا یعقوب بقولهم بکلمة «یا أَبانا» و فیها ما فیها من الاستعطاف.

و ثانیا: لانّ من الطبیعی ان ینشغل هؤلاء الاخوة الأقویاء بالتسابق، و یترکوا أخاهم الصغیر رقیبا علی متاعهم، و بعد ذلک کله فقد جاؤوا أباهم یبکون لتمریر خطتهم، و قالوا له: وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ کُنَّا صادِقِینَ

و من اجل ان یبرهنوا علی صحة کلامهم فقد جاؤُ عَلی قَمِیصِهِ بِدَمٍ کَذِبٍ إذ لطخوا الثوب بدم الغزال او الخروف او التیس ...

و لکن حیث انّ الکاذب لا یمتلک حافظة قویّة، و حیث ان ایة حقیقة فیها علائق مختلفة و کیفیات و مسائل یقل ان تجتمع منظّمة فی الکذب، فقد غفل اخوة یوسف عن هذه المسألة الدقیقة ... و هی- علی الأقل- ان یخرقوا قمیص یوسف الملطخ بالدم لیدل علی هجوم الذئب ... فقد قدّموا القمیص سالما غیر مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما ان وقعت عیناه علی القمیص حتی فهم کل شیء و قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً.

جاء فی بعض الرّوایات انّ یعقوب أخذ قمیص یوسف و هو یقلّبه و یقول:

«ما أری اثر ناب و لا ظفر انّ هذا السبع رحیم»، و فی روایة انّه أخذ القمیص و ألقاه علی وجهه و بکی حتی خضب وجهه بدم القمیص، و قال: تاللّه ما رأیت کالیوم ذئبا احلم من هذا أکل ابنی و لم یمزق علی قمیصه، و جاء انّه بکی و صاح و خرّ مغشیّا علیه فأفاضوا علی الماء فلم یتحرک و نادوه فلم یجب و وضع یهوذا یده علی مخارج نفسه فلم یحس بنفس و لا تحرک له عرق، فقال: ویل لنا من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۸

دیان یوم الدین ضیعنا أخانا و قتلنا أبانا فلم یفق الّا ببرد السحر[۸۴].

و بالرغم من احتراق قلبه و لهیب روحه لم یجر علی لسانه ما یدل علی عدم الشکر او الیأس او الفزع او الجزع، بل قال: فَصَبْرٌ جَمِیلٌ ۸۵] ثمّ قال: وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلی ما تَصِفُونَ و اسأله ان یبدل مرارة الصبر فی فمی الی «حلاوة» و یرزقنی القوة و القدرة علی التحمّل اکثر امام هذا الطوفان العظیم، لئلا افقد زمامی و یجری علی لسانی کلام غیر لائق.

و لم يقل: اسأله ان يعطينى الصبر على موت يوسف، لانّه كان يعلم ان يوسف لم يقتل ... بل قال: اطلب الصبر على مفارقتى ولدى يوسف ... و على ما تصفون.

ملاحظات

١- حول الترك «الاولى»

ينقل ابو حمزة الثمالى عن الامام السجاد فيقول: كنت يوم الجمعة فى المدينة و صليت الغداة مع الامام السجاد عليه السّلام فلمّا فرغ من صلاته و تسبيحه نهض الى منزله و انا معه، فدعا مولاة له تسمى سكينة فقال لها: «لا يعبر على بابى سائل الّا أطعمتموه فإنّ اليوم يوم الجمعة».

يقول ابو حمزة: فقلت له: ليس كل من يطلب العون مستحقا له، فقال: يا أبا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقّا فلا نطعمه و نردّه فينزل بنا- اهل البيت- ما نزل بيعقوب و آله. أطعموهم ان يعقوب كان يذبح كل يوم كبشا فيتصدق منه و يأكل هو و عياله منه، و ان سائلا مؤمنا صوّاما محقّا له عند اللّه منزلة، و كان مجتازا غريبا اعترّ على باب يعقوب عشية جمعة عند أوان إفطاره

يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم، يهتف بذلك على بابه مرارا و هم يسمعونه، قد جهلوا حقّه و لم يصدقوا قوله: فلما ايس ان يطعموه و غشيه الليل استرجع و استعبر و شكا جوعه الى اللّه باب و طاويا، و أصبح صائما جائعا صابرا حامدا للّه، و بات يعقوب و آل يعقوب شباعا بطانا و أصبحوا و عندهم من فضل طعامهم.

قال: فأوحى اللّه عزّ و جلّ الى يعقوب فى صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت- يا يعقوب- عبدى ذلة استجررت بها غضبى، و استوجبت بها أدبى، و نزول عقوبتى و بلواى عليك و على ولدك يا يعقوب، ان احبّ انبيائى الىّ و أكرمهم على من رحم مساكين عبادى و قرّبهم اليه و أطعمهم و كان لهم مأوى و ملجأ يا يعقوب، ما رحمت «ذميال» عبدى المجتهد فى عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس لمّا عبر ببابك عند أوان إفطاره و يهتف بكم: أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع، فلم تطعموه شيئا. فاسترجع و استعبر و شكا ما به الىّ و بات جائعا و طاويا حامدا، أصبح لى صائما، و أنت- يا يعقوب- و ولدك شباع، و أصبحت و عندكم فضل من طعامكم.

او علمت- يا يعقوب- انّ العقوبة و البلوى أوليائى أسرع منها الى اعدائى ...

إلخ ...[۸۶].

و من الطريف

انّ أبا حمزة يقول: سألت الامام زين العابدين عليه السّلام متى راى يوسف رؤياه؟ فقال الامام: فى تلك الليلة»[۸۷].

يستفاد من هذا الحديث ان زلّة بسيطة او بعبارة أدق: «ترك الاولى» و هو لا يعدّ خطيئة او إثما، لانّ يعقوب له يتّضح له حال السائل ... هذا الترك من قبل الأنبياء و الأولياء يكون سببا لانّ يبتليهم اللّه بلاء شديدا ... و ما ذلك الّا لمقامهم

الكبير الذى يوجب عليهم ان يراقبوا كل حركاتهم و سكناتهم، لانّ «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

فإذا كان يعقوب عليه السّلام قد ابتلى بهذا البلاء و الهمّ لأنّه لم يطلع على حال قلب السائل و آلامه، فكيف الحال فى المجتمعات التى تغرق فيها طائفة بالنعيم و الرفاه و طائفة من الناس جياع، كيف لا يشملهم غضب اللّه! و كيف يسلمون من عذاب اللّه!

۲- دعاء يوسف البليغ الجذّاب

ترد فى روايات اهل البيت عليهم السّلام و روايات اهل السنة، ان يوسف حين استقرّ فى قعر الجبّ انقطع أمله من كل شىء، و صرف كلّ توجهه الى ذات اللّه المقدسة يناجى ربّه، و كانت لديه حوائج ذكرها بتلقين جبرئيل إياه ...

ففى رواية انّه دعا ربّه بهذه المناجاة

«اللّهم يا مؤنس كل غريب، و يا صاحب كل وحيد، يا ملجأ كل خائف، و يا كاشف كل كربة، و يا عالم كل نجوى، و يا منتهى كل شكوى، و يا حاضر كل ملا، يا حىّ يا قيّوم، اسألك ان تقذف رجاءك فى قلبى، حتى لا يكون لى همّ و لا شغل غيرك، و ان تجعل لى من امرى فرجا و مخرجا، انّك على كل شىء قدير».

و من الطريف انّنا نقرا فى ذيل هذه الرواية، انّ الملائكة سمعت صوت يوسف فنادت:

«الهنا نسمع صوتا و دعاء، الصوت صوت صبى و الدعاء دعاء نبىّ»[۸۸].

و هناك نقطة تدعو للالتفات و هى: حين رمى يوسف اخوته فى الجبّ خلعوا عنه قميصه و تركوه عاريا، فنادى: اتركوا لى قميصى- على الأقل- لاغطى به بدنى إذا بقيت حيا، و يكون كفنى إذا متّ. فقال له اخوته: اطلبه من الشمس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۱

و القمر و الكواكب الأحد عشر الذين رايتهم فى منامك، ليكونوا مؤنسيك فى هذه البئر، و يكسوك و يلبسوك ثوبا على بدنك ... فدعا يوسف على اثر اليأس المطلق بالدعاء الآنف الذكر.[۸۹] و

فى رواية عن الامام الصادق عليه السّلام انّه قال: «حين القى يوسف فى الجبّ هبط عليه جبرئيل و قال: ما تصنع هنا ايّها الغلام؟ فقال له: ان اخوتى القونى فى البئر.

فقال له جبرئيل: أ تحبّ ان تخرج من البئر؟ قال: ذلك بمشيئة اللّه، ان شاء اخرجنى.

فقال له: ان اللّه يأمرك ان تدعو بهذا الدعاء لتخرج من البئر: «اللّهم انّى اسألك بأنّ لك الحمد، لا اله الّا أنت المنّان، بديع السماوات و الأرض، ذو الجلال و الإكرام، ان تصلى على محمّد و آل محمّد و ان تجعل لى ممّا انا فيه فرجا و مخرجا»[۹۰].

۳- جملة وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ تدلّ على انّهم لم يرموه فى البئر، أنزلوه على مكان يشبه الرصيف لمن يريد النّزول الى سطح الماء، و قد شدوه بحبل حتى إذا نزل و وصل الى غيابة الجبّ تركوه وحده.

و هناك قسم من الرّوايات التى تفسّر الآيات المتقدمة تؤيد هذا الموضوع.

۴- تسويل النفس

جملة «سوّلت» مشتقّة من «التسويل» و معناه «التزيين» و قد يأتى بمعنى «الترغيب» و قد يأتى بمعنى «الوسوسة» كما فى بعض التفاسير ... جميع هذه المعانى ترجع الى شىء واحد ... اى انّ هوى النفس زيّن لكم هذا العمل.

و هى اشارة الى انّه حين يطغى هوى النفس على الإنسان و يستبدّ به عناده، فإنه يتصور ان اسوا الجنايات لديه امر حسن، كما لو كان ذلك قتل الأخ او ابعاده، و قد يتصور ان ذلك امر مقدّس ... و هذه نافذة على اصل كلى فى المسائل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۲

النفسية، بحيث يجعل الميل المفرط و الرغبة الجامحة لأمر ما- و خاصّة مع اقترانهما بالرذائل الاخلاقية- غشاوة على احساس الإنسان، فتنقلب عنده الحقائق و تتغير صورها.

لذا فإنّ القضاء الصحيح و ادراك الواقعيّات العينيّة، لا يمكن لها ان تتحقق دون تهذيب النفس، و إذا كانت العدالة شرط فى القاضى فإنّ هذا الأمر واحد من أسبابها ... و إذا كان القرآن الكريم يقول فى الآية (۲۸۲) من سورة البقرة وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ فذلك اشارة الى هذه الحقيقة ايضا.

۵- الكذاب عديم الحافظة

قصّة يوسف- و ما جرى له مع اخوته- تثبت مرّة اخرى هذا الأصل المعروف الذى يقول: انّ الكذاب لا يستطيع ان يكتم سرّه دائما، لانّ الواقعيات العينية حين تظهر الى الوجود الخارجى تظهر و معها روابط- اكثر من ان تعدّ- مع موضوعات اخرى تدور حولها، و إذا أراد الكاذب ان يهيئ مناخا لمسألة غير واقعية فإنّه لا يستطيع ان يحفظ هذه الروابط مهما كان دقيقا.

و لنفرض انّه يستطيع ان يؤلف بين عدد من الروابط الكاذبة فى حادثة ما، و لكن المحافظة على هذه الروابط المصطنعة فى ذهنه ليست عملا هيّنا، فإنّ اقل غفلة منه تسبب وقوعه فى التناقض، فتتسبب هذه الغفلة فى فضيحة صاحبها و تكشف الأمر الواقعى ... و هذا درس كبير لمن يريد المحافظة على ماء وجهه و مكانته فى المجتمع ان لا يلجأ الى الكذب فيتعرض موقعه الاجتماعى للخطر و ينزل عليه غضب اللّه.

۶- ما هو الصبر الجميل

؟ الصبر امام الحوادث الصعبة و الأزمات الشديدة يدلّ على قوة شخصية الإنسان، و على سعة روحه بسعة ما تتركه هذه الحوادث فلا يتأثر و لا يهتز لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۳

ربّما يحرك النسيم العليل ماء الحوض الصغير، و لكن المحيطات العظيمة كالمحيط الهادى- مثلا- يستوعب حتى الاعصار الذى يتلاشى امام هدوئه و سعته.

و قد يتصبر الإنسان أحيانا، و لكنّه سرعان ما يتلف هذا الصبر بكلماته النابية التى تدل على عدم الشكر و عدم تحمل الحادثة و نفاد الصبر.

و لكن المؤمنين الذين يتمتعون بإرادة قويّة و استيعاب للحوادث، هم أولئك الذين لا يتأثرون بها و لا يجرى على لسانهم ما يدلّ على عدم الشكر و كفران النعمة او الجزع او الهلع.

صبر هؤلاء هو الصبر الجميل ...

قد يبرز الآن هذا السؤال، و هو اننا نقرا فى الآيات الاخرى- من هذه السورة- انّ يعقوب بكى على يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، أ فلا ينافى ما صدر من يعقوب صبره الجميل؟! و الجواب على هذا السؤال فى جملة واحدة، و هى: ان قلوب عباد اللّه مركز للعواطف، فلا عجب ان ينهلّ دمع عينهم مدرارا، المهم ان يسيطروا على أنفسهم، و لا يفقدوا توازنهم، و لا يقولوا شيئا يسخط اللّه.

و من الطريف ان مثل هذا السؤال وجه الى النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين بكى على موت ولده ابراهيم حيث قالوا له: يا رسول اللّه، أ تنهانا عن البكاء و تبكى؟! فأجابهم النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

«تدمع العين و يحزن القلب، و لا نقول ما يسخط الربّ».

و

فى رواية اخرى انّه قال: «ليس هذا بكاء انّه رحمة»[۹۱].

و هذا اشارة الى انّ ما فى صدر الإنسان هو القلب، و ليس حجر! و طبيعىّ ان يتأثر الإنسان امام المسائل العاطفية، و ابسط هذا التأثر هو انهلال الدمع ... انّ هذا لا يعدّ عيبا، بل هو امر حسن، العيب هو ان يقول الإنسان ما يسخط الربّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۴

الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (۲۰)

التّفسير

نحو ارض مصر:

قضى يوسف فى ظلمة الجب الموحشة و الوحدة القاتلة ساعات مرّة، و لكنّه بإيمانه باللّه و سكينته المنبثقة عن الايمان شع فى قلبه نور الأمل، و ألهمه اللّه تعالى القوة و القدرة على تحمّل الوحدة الموحشة، و ان ينجح فى هذا الامتحان.

و لكنّ ... اللّه اعلم كم يوما قضى يوسف فى هذه الحالة؟

قال بعض المفسّرين: قضى ثلاثة ايام، و قال آخرون: يومين.

و على كل حال تبلج النّور وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ[۹۲].

و انتخبت منزلها على مقربة من الجبّ، و طبيعى انّ اوّل ما تفكر القافلة فيه-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۵

فى منزلها الجديد- هو تأمين الماء و سد حاجتها منه فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ ۹۳].

فانتبه يوسف الى صوت و حركة من أعلى البئر، ثمّ راى الحبل و الدلو يسرعان الى النّزول، فانتهز الفرصة و انتفع من هذا العطاء الالهى و تعلق بالحبل بوثوق.

فأحسّ المأمور بالإتيان بالماء ان الدلو قد ثقل اكثر ممّا ينبغى، فلمّا سحبه بقوة الى الأعلى فوجئ نظره بغلام كأنّه فلقة قمر، فصرخ و قال: يا بُشْرى هذا غُلامٌ

و شيئا فشيئا سرى خبر يوسف بين جماعة من اهل القافلة، و لكن من اجل ان لا يذاع هذا الخبر و ينتشر، و لكى يمكن بيع هذا الغلام الجميل فى مصر، اخفوه وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً[۹۴].

و بالطبع هناك احتمالات اخرى فى تفسير هذه الجملة منها ان الذين عثروا على يوسف اسرّوه و اخفوا خبره، و قالوا: هذا متاع لأصحاب هذا الجبّ أودعوه عندنا لنبيعه فى مصر.

و منها ان احد اخوة يوسف كان بين الحين و الحين يأتى الى الجبّ ليطلع على يوسف و يأتيه بالطعام و حين اطلع اخوة يوسف على ما جرى اخفوا علاقتهم الاخوية بيوسف و قالوا: هذا غلامنا فرّ من أيدينا و اختفى هنا، و هددوا يوسف بالموت إذ كشف الستار عن

الحقيقة.

و لكن التّفسير الاوّل يبدو اقرب للنظر.

و تقول الآيـة فى نهايتهـا: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمـا يَعْمَلُونَ و بالرغم من اختلاف المفسّـرين فى من هم الـذين شـروا يوسف بثمن بخس، و قول بعضهم: هم اخوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۶

يوسف، و لكن ظاهر الآيات هو من كان فى القافلة، و قد تمّ البحث عن اخوته فى نهاية الآية التى سبقت هذه الآيات، و جميع الضمائر فى الجمل فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً تعود على من كان فى القافلة.

هنا يبرز هذا السؤال و هو: لم باعوا يوسف الذى كان يعدّ- على الأقل- غلاما ذا قيمة بثمن قليل، او كما عبّر عنه القرآن وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ...؟

و لكن هذا امر مألوف فإنّ السراق او أولئك الذين تأتيهم بضاعة مهمّة دون اى تعب و نصب يبيعونها سريعا لئلا يطلع الآخرون.

و من الطبيعى انّهم لا يستطيعون بهذه الفورية ان يبيعوه بسعر غال.

و «البخس» فى الأصل معناه تقليل قيمة الشيء ظلما، و لذلك فإنّ القرآن يقول: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ۹۵].

ثمّ انّ هنـاك اختلافـا آخر بين المفسّـرين فى الثمن الـذى بيع به يوسف، و كيف قسّم بينهم؟ فقـال البعض: عشـرون درهمـا، و قـالت طائفـة: اثنان و عشـرون، و مع ملاحظة انّ الباعة كانوا عشـرين يتّضح سـهم كل منهم، و كم هو زهيد! ... و تقول الآية: وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ

و فى الحقيقـة انّ هذه الجملة فى حكم بيان العلة للجملة المتقدمة، و هى اشارة الى انّهم باعوا يوسف بثمن بخس، لانّهم لم يرغبوا فى هذه المعاملة و لم يعتنوا بها.

و هـذا البيع البخس امّـا لاـنّ اهل القافلـة اشتروا يوسف بثمن بخس، و الإنسان إذا اشترى شـيئا رخيصا باعه رخيصا عادة، او انّهم كانوا يخافون ان يفتضـح سرّهم و يجـدون من يـدّعيه، او من جهة انّهم لم يجدوا فى يوسف أثرا للغلام الذى يباع و يشترى، بل وجدوا فيه آثار الحرّية واضحة فى وجهه، و من هنا فلا البائعون كانوا راغبين ببيعه و لا المشترون كانوا راغبين بشرائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۷

الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشارة

وَ قالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۱) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۲۲)

التّفسير

فى قصر عزيز مصر:

انتهت حكايـة يوسف مع اخوته الذين القوه فى غيابة الجبّ و بيّناها تفصـيلا، بدا فصل جديد من حياة هذا الغلام الحدث فى مصر ...

فقد جیء بیوسف الی مصر و عرض للبیع، و لما کان تحفهٔ نفیسهٔ فقد صار من نصیب «عزیز مصر» الذی کان وزیرا لفرعون او رئیسا لوزرائه، لأنّه کان یستطیع ان یدفع قیمهٔ أعلی لغلام ممتاز من جمیع الجهات، و الآن لنر ما الذی حدث له فی بیت عزیز مصر.

یقول القرآن الکریم فی شأن یوسف: وَ قالَ الَّذِی اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۸

أَکْرِمِی مَثْواهُ عَسی أَنْ یَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً[۹۶] فلا ینبغی ان تنظری الیه کما ینظر الی العبید.

یستفاد من سیاق الآیهٔ انّ عزیز مصر لم یرزق ولدا و کان فی غایهٔ الشوق للولد، و حین وقعت عیناه علی هذا الصبیّ الجمیل و السعید تعلّق قلبه به لیکون مکان ولده.

ثمّ یضیف القرآن الکریم وَ کَذلِکَ مَکَّنَّا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ

هـذا «التمکین» فی الأرض امّا ان یکون لمجیء یوسف الی مصـر، و خاصّـهٔ ان خطواته، فی محیط مصر مقدّمـهٔ لما سیکون علیه من الاقتدار و المکانهٔ القصوی، و امّا انّه لا قیاس، بین هذه الحیاهٔ فی مصـر «العزیز» و بین تلک الحیاهٔ فی غیابهٔ الجبّ و الوحدهٔ و الوحشهٔ. فأین تلک الشدّهٔ من هذه النعمهٔ و الرفاه! و یضیف القرآن ایضا وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ

المراد من «تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ»- کما أشـرنا سابقا- هو علم تفسـیر الأحلام و تعبیر الرؤیا حیث کان یوسف قادرا علی ان یطلع علی بعض اسـرار المسـتقبل من خلاله، او المراد منه الوحی لانّ یوسف مع عبوره من المضایق الصـعبهٔ و الشدائد القاسیهٔ و نجاحه فی الاختبارات الالهیهٔ فی قصر عزیز مصر، نال الجدارهٔ بحمل الرسالهٔ و الوحی. و لکن الاحتمال الاوّل اقرب کما یبدو للنظر.

ثمّ یختتم القرآن هذه الآیهٔ بالقول: وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلی أَمْرِهِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ

انّ واحـدهٔ من مظاهر قـدرهٔ اللّه العجیبـهٔ و هیمنته علی الأمور کلها ان یـدع- فی کثیر من الموارد- اسـباب موفقیهٔ الإنسان و نجاحه بید أعـدائه کما حـدث فی مسألـهٔ یوسف علیه السّـلام، فلو لا خطـهٔ اخوته لم یصل الی الجبّ ابـدا، و لو لم یصل الی الجبّ لما وصل الی مصر، و لو لم یصل الی مصر لما ذهب الی السجن و لما کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۹

هناک اثر من رؤیا فرعون التی أصبح یوسف بسببها عزیز مصر! ففی الحقیقهٔ ان اللّه اجلس یوسف علی عرش الاقتدار بواسطهٔ اخوته الذین تصوروا انّهم سیقضون علیه فی ترکهم ایّاه فی غیابهٔ الجبّ.

لقد واجه یوسف فی هذا المحیط الجدید، الذی یعدّ واحدا من المراکز السیاسـیهٔ المهمهٔ فی مصـر مسائل مسـتحدثهٔ ... فمن جههٔ کان یری قصور الطغاهٔ المدهشـهٔ و ثرواتهم و من جهـهٔ اخری کانت تتجسد فی ذهنه صورهٔ أسواق النخاسـین و بیع الممالیک و العبید ... و من خلال الموازنـهٔ بین هاتین الصورتین کان یفکر فی کیفیـهٔ القضاء علی هموم المستضـعفین من الناس لو أصبـح مقتدرا علی ذلک! اجل، لقد تعلم الکثیر من هذه الأشـیاء فی هذا المحیط المفعم بالضوضاء، و کان قلبه یفیض همّا لانّ الظروف لم تتهیأ له بعد. فاشـتغل بتهذیب نفسه و بنائها، یقول القرآن الکریم فی هذا الصدد: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ

کلمهٔ «اشدّ» مشتقّهٔ من مادهٔ «شدّ» و تعنی فتل العقدهٔ باستحکام ... و هی هنا اشارهٔ الی الاستحکام الجسمانی و الروحانی.

قال بعضـهم: انّ هـذه الکلمـهٔ جمع لا مفرد لها ... و لکن البعض الآخر قال: انّها جمع (شدّ) علی وزن (سدّ) و لکن معناها الجمعی غیر قابل للإنکار علی کل حال! المراد من «الحکم» و «العلم» الواردین فی الآیهٔ المتقدمهٔ التی تقول: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً ... امّـا ان یکون مقـام النبوّهٔ کمـا ذهب الی ذلک بعض المفسّـرین، و امّا ان یکون المراد من الحکم العقل و الفهم و القـدرهٔ علی القضاء الصـحیح الخـالی من اتبـاع الهوی و الاشـتباه. و المراد من العلم الاطلاـع الـذی لاـ یقترن معه الجهـل، و مهمـا کان فإنّ الحکم و العلم موهبتان نادرتان وهبهما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۰

اللّه ليوسف لتقواه و صبره و توكله عليه، و جميع هذه الصفات مجتمعة فى كلمة «المحسنين».

قال بعض المفسّرين: هناك ثلاثة احتمالات لمعنى كلمتى (الحكم و العلم) الواردتين فى الآية، و هى:

۱- انّ الحكم اشارة الى مقام النبوة (لانّ النّبى حاكم على الحق) و العلم اشارة الى علم الدين.

۲- ان الحكم يعنى ضبط النفس إزاء الهوى و الميول النفسيّة، و هو هنا اشارة الى الحكمة العملية. و العلم اشارة الى العلم النظرى ... و تقديم الحكم على العلم هنا لانّ الإنسان إذا لم يهذب نفسه و يبنيها بناء صحيحا لا يصل الى العلم الصحيح.

۳- انّ الحكم معناه ان يبلغ الإنسان مقام «النفس المطمئنة» و يتسلّط على نفسه بحيث يستطيع ان يتملك زمام النفس الامّارة و وسوستها ... و المراد من العلم هو الأنوار القدسيّة و اشعة الفيض الالهى الذى تنزل من عالم الملكوت على قلب الإنسان الطاهر[۹۷].

ملاحظات

۱- ما هو اسم «عزيز» مصر

؟ ممّا يستجلب النظر فى الآيات المتقدمة ان اسم عزيز مصر لم يذكر فيها، انّما ورد التعبير عنه ب الَّذِی اشْتَراهُ

لكن من هو هذا العزيز؟! لم تذكره الآية، كما سنرى فى الآيات المقبلة ان عنوانه لم يصرّح به الّا بالتدريج، فمثلا نقرا فى الآية (۲۵) هذا النصّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۱

وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ

و حين نتجاوز هذه الآيات و نصل الى الآية (۳۰) نواجه التعبير عن زوجته ب «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ».

و هذا البيان التدريجى امّا لانّ القرآن يتحدث- حسب طريقته- بالمقدار اللازم، و هذا دليل من ادلة الفصاحة و البلاغة، او لأنّه- كما هو ملاحظ هذا اليوم فى «نصوص الآداب» ايضا- حين يبدأ بالقصّة- يبدأ بها من نقطة غامضة ليتحرك الاحساس فى الباحث، و ليلفت نظره نحو القصّة.

۲- يوسف عليه السّلام و تعبير الأحلام

الملاحظة الاخرى التى تثير السؤال فى الآيات المتقدمة، هى: ما علاقة الاطلاع على تفسير الأحلام و تأويل الأحاديث بمجىء يوسف الى قصر عزيز مصر الذى أشير اليه بلام الغاية فى جملة وَ لِنُعَلِّمَهُ ! لكن مع الالتفات الى انّ هذه النقطة يمكن ان تكون جوابا للسؤال الآنف الذكر، و هى ان كثيرا من المواهب العلمية يهبها اللّه قبال التقوى من الذنوب و مقاومة الأهواء و الميول النفسيّة، او بتعبير آخر: انّ هذه المواهب التى هى ثمرة البصيرة القلبية الثاقبة، هى جائزة الهية يهبها اللّه لمثل هؤلاء الأشخاص.

نقرا فى حالات ابن سيرين مفسر الأحلام المشهور انّه كان رجلا بزازا و كان جميلا للغاية فعشقته امراة و تعلق قلبها به، و استدرجته الى بيتها بأساليب و حيل خاصّة، ثمّ غلّقت الأبواب عليه (لينال منها الحرام) لكنه لم يستسلم لهوى تلك المراة و أخذ ينصحها و يذكر مفاسد هذا الذنب العظيم، و لكن نار الهوى كانت متأججة فى قلبها بحيث لم يطفئها ماء الموعظة، ففكر ابن سيرين فى الخلاص من قبضتها، فلوّث جسده بما كان فى بيتها من اقذار تنفّر الرائى، فلما رأته المراة نفرت منه و أخرجته من البيت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۲

يقال انّ ابن سيرين أصبح ذكيا بعد هذه الحادثة و رزق موهبة عظيمة فى تفسير الأحلام، و ذكروا قصصا عجيبة عنه فى الكتب التى تتناول تفسير الأحلام تدل على عمق اطلاعه فى هذا المجال! فعلى هذا يمكن ان يكون يوسف عليه السّلام قد نال هذه الموهبة الخاصّة (العلم بتأويل الأحاديث) لتسلّطه على نفسه قبال اثارة امراة العزيز لهوى النفس! ثمّ بعد هذا كله فإنّ قصور الملوك فى ذلك الزمان كانت مراكز لمفسرى الأحلام، و انّ شابا- ذكيا كيوسف- كان يستطيع ان يستفيد من تجارب الآخرين، و ان يكون له استعداد روحى لافاضة العلم الالهى فى هذا المجال! و على كل حال فإنّه ليس مستبعدا ان يهب اللّه سبحانه لعباده المخلصين المنتصرين فى ميادين «جهاد النفس للهوى و الشّهوات» مواهب من المعارف و العلوم التى لا تقاس بأىّ معيار مادى، و يمكن ان يكون الحديث المعروف «العلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء» اشارة الى هذه الحقيقة.

هذا العلم ليس ممّا يقرا عند الأستاذ، و لا يعطى لاىّ كان و بدون حساب ...

بل هو جائزة من الجوائز التى تمنح للمتسابقين فى ميادين جهاد النفس!

۳- المراد من قوله تعالى: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

قلنا ان (اشدّ) معناه الاستحكام الجسمانى و الروحانى، و بلوغ الرشد معناه الوصول الى هذه المرحلة، و لكن هذا العنوان قد عبّر عنه القرآن الكريم فى مراحل مختلفة من عمر الإنسان.

فتارة أطلقه على سنّ البلوغ كقوله تعالى: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۹۸].

و تارة يرد هذا المعنى فى وصول الإنسان الى أربعين سنة، كقوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۳

حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً[۹۹].

و تارة يراد به ما قبل مرحلة الشيخوخة و الكبر، كقوله تعالى: ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً[۱۰۰].

و لعل هذا التفاوت فى التعبيرات آت من طىّ الإنسان مراحل مختلفة لاستحكام الروح و الجسم، و لا شكّ ان الوصول الى سنّ البلوغ واحد من هذه المراحل.

و بلوغ الأربعين الذى يكون تواما للنضج الفكرى و العقلى مرحلة ثانية، كما ان المرحلة الثّالثة تكون قبل ان يسير الإنسان نحو قوس النّزول و يبلغ الضعف و الوهن! و على كل حال فإنّ المقصود فى الآية- محل البحث- هو مرحلة البلوغ الجسمى و الروحى الذى ظهر فى يوسف بداية شبابه، يقول الفخر الرازى فى تفسيره فى هذا الصدد: «مدة دور القمر ثمانية و عشرون يوما و كسر، فإذا جعلت هذه الدورة اربعة اقسام كان كل قسم منها سبعة ايام، فلا جرم رتبوا احوال الأبدان على الأسابيع، فالإنسان إذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب الى ان يتم له سبع سنين، ثمّ إذا دخل فى السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم و الذكاء و القوّة، ثمّ لا يزال فى الترقى الى ان يتمّ له اربع عشرة سنة، فإذا دخل فى السنة الخامسة عشرة دخل فى الأسبوع الثّالث و هناك يكمل العقل و يبلغ الى حد التكليف و تتحرك فيه الشهودة، ثمّ لا يزال يرتقى على هذه الحالة الى ان يتم السنة الحادية و العشرين و هناك يتم الأسبوع الثّالث، و يدخل فى السنة الثّانية و العشرين و هذا الأسبوع آخر أسبوع النشوء و النماء، فإذا تمّت السنة الثّامنة و العشرون فقد تمّت مدّة النشوء و النماء و ينتقل الإنسان منه الى زمان الوقوف،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۴

و هو الزمان الذى يبلغ الإنسان فيه اشدّه، و بتمام هذا الأسبوع الخامس- يحصل للإنسان خمسة و ثلاثون سنة ثمّ انّ هذه المراتب مختلفة فى الزيادة و النقصان، فهذا الأسبوع الخامس الذى هو أسبوع الشدّة و الكمال يبتدئ من السنة التّاسعة و العشرين الى الثّالثة و

الثّلاثين، و قد يمتّد الى الخامسة و الثّلاثين، فهذا هو الطريق المعقول فى هذا الباب، و اللّه اعلم بحقائق الأشياء»[۱۰۱].
التقسيم المتقدّم و ان كان مقبولا الى حدّ ما ... لكنّه يبدو غير دقيق، لانّ مرحلة البلوغ اوّلا ليست فى انتهاء العقد الثانى، و كذلك فإن التكامل الجسمانى- طبقا لما يقول علماء اليوم- هو ۲۵ سنة ... و البلوغ الفكرى الكامل أربعون سنة طبقا لبعض الرّوايات، و بعد هذا كله فإنّ ما ورد آنفا لا يصحّ ان يكون قانونا عامّا ليصدق على جميع الأشخاص.
۴- و آخر ما ينبغى الالتفات اليه هنا هو ان القرآن بعد ان يتحدث عن إتيان يوسف الحكم و العلم يعقب بالقول: وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ و معنى ذلك ان مواهب اللّه- حتى للأنبياء- ليست اعتباطا، و كل ينال بمقدار إحسانه و يغرف من بحر اللّه و فيضه اللامحدود كما نال يوسف سهما وافرا من ذلك بصبره و استقامته امام كل تلك المشاكل.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۵

الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۲۳ الى ۲۴]

اشارة

وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۳)
وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (۲۴)

التّفسير

العشق الملتهب:

لم يأسر جمال يوسف الملكوتى عزيز مصر فحسب، بل أسر قلب امراة العزيز كذلك و أصبح متيّما بجماله!.
و امتدّت مخالب العشق الى اعماق قلبها، و بمرور الزمن كان هذا العشق يتجذّر يوما بعد يوم و يزداد اشتعالا ... لكنّ يوسف هذا الشابّ الطاهر التقى، لم يفكّر بغير اللّه، و لم يتعلّق قلبه بغير عشق اللّه سبحانه.
و هناك امور اخرى زادت من عشق امراة العزيز ليوسف .. فمن جهة لم ترزق الولد، و من جهة اخرى انغمارها فى حياة مترفة مفعمة بالبذخ ... و من جهة
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۶
ثالثة عدم ابتلائها بأىّ نوع من البلاء كما هى حال المتنعّمين، و عدم الرقابة الشديدة على هذا القصر من قبل العزيز من جهة رابعة .. كلّ ذلك ترك امراة العزيز- الفارغة من الايمان و التقوى- تهوى فى وساوسها الشيطانية الى الحضيض، بحيث أفضت ليوسف أخيرا عمّا فى قلبها و راودته عن نفسه.
و اتّبعت جميع الاساليب و الطرق للوصول الى هدفها، وسعت لكى تلقى فى قلبه أثرا من هواها و ترغيبها و طلبها، كما يقول عن ذلك القرآن الكريم:
وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها.
و جملة «راودته» مأخوذة من مادّة «المراودة» و أصلها البحث عن المرتع و المرعى، و ما ورد فى المثل المعروف «الرائد لا يكذب اهله» اشارة الى هذا المعنى، كما يطلق «المرود» على وزن (منبر) على قلم الكحل الذى تكحل به العين، ثمّ توسّعوا فى هذا اللفظ فأطلق على كلّ ما يطلب بالمداراة و الملاءمة.

و هـذا التعبير يشـير الى انّ امراة العزيز طلبت من يوسف ان ينـال منهـا بطريق المسالمـة و المساومـة- كمـا يصـطلح عليه- و بـدون اى تهديد، و أبدت محبّتها القصوى له بمنتهى اللين.

و أخيرا فكّرت فى ان تخلـو به و توفّر له جميع مـا يـثير غريزته، من ثيـاب فضـفاضة، و عطور عبقـة شذيّـة، و تجميلات مرغبـة، حتّى تستولى على يوسف و تأسره!.

يقول القرآن الكريم: وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ

«غلّقت» تـدلّ على المبالغـة و انّهـا أحكمت غلق الأبـواب، و هـذا يعنى انّهـا سـحبت يوسف الى مكان من القصـر المتشكّل من غرف متداخلة .. و كما ورد فى بعض الرّوايات كانت سبعة أبواب، فغلقتها عليه جميعا .. لئلّا يجد يوسف اى طريق للفرار .. اضافة الى ذلك أرادت ان تشعر يوسف ان لا يقلق لانتشار الخبر فإنّه سوف لا يفتضح، حيث لا يستطيع احد ان ينفذ الى داخل القصر ابدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۷

و فى هـذه الحـال، حين راى يوسف انّ هـذه الأمور تجرى نحو الإثم، و لم ير طريقا لخلاصه منها، توجّه يوسف الى زليخا و قالَ مَعاذَ اللَّهِ و بهـذا الكلام رفض يوسف طلب امراة العزيز غير المشـروع .. و أعلمهـا انّه لن يستسـلم لارادتهـا. و افهمها ضـمنا- كما افهم كلّ انسـان- انّه فى مثـل هـذه الظروف الصـعبة لا سبيل الى النجاة من وساوس الشـيطان و اغراءاته الّا بالالتجاء الى اللّه .. اللّه الـذى لا فرق عنده بين السرّ و العلن، بين الخلوة و الاجتماع، فهو مطّلع و مهيمن على كلّ شىء، و لا شىء الّا و هو طوع امره و ارادته! و بهذه الجملة اعترف يوسف بوحدانيـة اللّه تعالى من الناحيـة النظريـة، و كـذلك من الناحية العملية ايضا، ثمّ أضاف إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوایَ .. أ ليس التجاوز ظلما و خيانة واضحة إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

المراد من كلمة «ربّى»

هناك اقوال كثيرة بين المفسّـرين فى المراد من قوله: إِنَّهُ رَبِّی فأكثر المفسّـرين، كالعلّامـة الطبرسـى فى مجمع البيان و كاتب المنار فى تفسير المنـار و غيرهمـا، قالوا: انّ كلمـة «ربّ» هنا اسـتعملت فى معناها الواسع، و قالوا: انّ المراد من كلمـة «ربّ» هنا هو «عزيز مصـر» الذى لم يأل جهدا فى إكرام يوسف، و كان يوصى امرأته من البداية بالاهتمام به و قال لها: أَكْرِمِی مَثْواهُ

و من يظنّ انّ هـذه الكلمة لم تسـتعمل بهذا المعنى فهو مخطئ تماما، لانّ كلمة «ربّ» فى هذه السورة أطلقت عدّة مرّات على غير اللّه سبحـانه. و أحيانـا ورد هـذا الاسـتعمال على لسـان يوسف نفسه، و أحيانـا على لسـان غيره! فمثلا فى قصّـة تعبير الرؤيا للسـجناء، طلب يوسف من الذى بشّره بالنجاة ان يذكر حاله عند ملك مصر وَ قالَ لِلَّذِی ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِی عِنْدَ رَبِّكَ (الآية ۴۲).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۸

كما نلاحظ هـذا الاسـتعمال على لسان يوسف- أيضا- حين جاءه مبعوث فرعون مصـر، إذ يقول القرآن الكريم فى هـذا الصـدد: فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِی قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ (الآية ۵۰).

و فى الآية (۴۱) من هذه السورة، و ذيل الآية (۴۲) أطلقت كلمة «ربّ» فى لسان القرآن الكريم بمعنى المالك و صاحب النعمة. فعلى هذا تلاحظون انّ كلمة «ربّ» استعملت ۴ مرّات- سوى الآية محلّ البحث- فى غير اللّه، و إن كانت قد استعملت فى هذه السورة و فى سور اخرى من القرآن فى خصوص ربّ العالمين (اللّه) مرارا.

فالحاصل انّ هذه الكلمة من المشترك اللفظى و هى تستعمل فى المعنيين.

و لكن رجّح بعض المفسّـرين ان تكون كلمـة «ربّ» فى هـذه الآية إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوایَ يقصد بها اللّه .. لانّها جاءت بعد كلمة مَعاذَ اللَّهِ مباشـرة، و كونها الى جنب لفظ الجلالة صار سـببا لعود الضـمير فى إِنَّهُ رَبِّی عليه فيكون معنى الآية: انّنى ألتجئ الى اللّه و أعوذ به

فهو الهی الذی اکرمنی و عظم مقامی و کلّ ما عندی من النعم فهو منه.

و لکن مع ملاحظة وصیة عزیز مصر لامراته أَكْرِمِی مَثْواهُ و تکرارها فی الآیة- محل البحث- یکون المعنی الاوّل اقرب و أقوی.

جاء فی التوراة الفصل ۳۹ رقم ۸ و ۹ و ۱۰ ما مؤدّاه: «و بعد هذا وقعت المقدّمات، انّ امراة سیّده القت نظرتها علی یوسف و قالت: اضطجع معی، لکنّه ابی و قال لامراة سیّده: انّه سیّدی غیر عارف بما معی فی البیت، و کلّ ما یملک مودع عندی، و لا أجد اکبر منّی فی هذا البیت، و لم یزاحمنی شیء سواک لانّک امرأته، فکیف اقدم علی هذا العمل القبیح جدّا، و اتجرّا فی الذنب علی اللّه». فهذه الجمل فی التوراة تؤیّد المعنی الاوّل.

و هنا یبلغ امر یوسف و امراة العزیز الی ادقّ مرحلة و اخطرها، حیث یعبّر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۹

القرآن عنه تعبیرا ذا مغزی کبیر وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ

و فی معنی هذه الجملة اقوال بین المفسّرین یمکن تصنیفها و اجمالها الی ثلاثة تفاسیر:

۱- انّ امراة العزیز کانت ترید ان تقضی وطرا مع یوسف، و بذلت وسعها فی ذلک، و کاد یوسف یستجیب لرغبتها بطبیعة کونه بشرا شابّا لم یتزوّج و یری نفسه إزاء المثیرات الجنسیّة وجها لوجه ... لو لا ان رای برهان اللّه ... ای روح الایمان و التقوی و تربیة النفس، أضف الی کلّ ذلک مقام العصمة الذی کان حائلا دون هذا العمل! فعلی هذا یکون الفرق بین معانی «همّ» ای القصد من امراة العزیز، و القصد من قبل یوسف، هو انّ یوسف کان یتوقّف قصده علی شرط لم یتحقّق، ای (عدم وجود برهان ربّه) و لکن القصد من امراة العزیز کان مطلقا، و لانّها لم یکن لدیها مثل هذا المقام من التقوی و العفّة، فإنّها صمّمت علی هذا القصد حتّی آخر مرحلة، و الی ان اصطدمت جبهتها بالصخرة الصمّاء! و نظیر هذا التعبیر موجود فی الآداب العربیّة و غیرها کما نقول مثلا: انّ جماعة لا ترتبط بقیم أخلاقیة و لا ذمّة صمّمت علی الاغارة علی مزرعة فلان و نهب خیراته، و لولا انّی تربّیت سنین طوالا عند استاذی العارف الزاهد فلان، لاقدمت علی هذا العمل معهم.

فعلی هذا کان تصمیم یوسف مشروطا بشرط لم یتحقّق، و هذا الأمر لا منافاة له مع مقام یوسف من العصمة و التقوی، بل یؤکّد له هذا المقام العظیم کذلک.

و طبقا لهذا التّفسیر لم یبد من یوسف ای شیء یدلّ علی التصمیم علی الذنب، بل لم یکن فی قلبه حتّی هذا التصمیم.

و من هنا فیمکن القول انّ بعض الرّوایات التی تزعم انّ یوسف کان مهیّئا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۰

لینال وطرا من امراة العزیز، و خلع ثیابه عن بدنه، و ذکرت تعبیرات اخری نستحیی من ذکرها، کلّ هذه الأمور عاریة من الصحّة و مختلقة، و هذه اعمال من شأن الافراد و المنحرفین الملوّثین غیر الانقیاء. فکیف یمکن ان یتّهم یوسف مع هذه المنزلة و قداسة روحه و مقام تقواه بمثل هذا الاتّهام.

الطریف انّ التّفسیر الاوّل

نقل عن الامام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی عبارة موجزة جدّا و قصیرة، حیث یسأله المأمون «الخلیفة العبّاسی» قائلا: الا تقولون انّ الأنبیاء معصومون؟ فقال الامام: «بلی». فقال: فما تفسیر هذه الآیة وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ فقال الامام علیه السّلام: «لقد همّت به، و لولا ان رای برهان ربّه لهمّ بها کما همّت، لکنّه کان معصوما و المعصوم لا یهمّ بذنب و لا یأتیه» فقال المأمون: للّه درّک یا أبا الحسن [۱۰۲].

۲- انّ تصمیم کلّ من امراة العزیز و یوسف لا علاقة له بالوطر الجنسی، بل کان تصمیما علی ضرب أحدهما الآخر ..

فتصمیم امراة العزیز علی هذا العمل کان لعدم انتصارها فی عشقها و بروز روح الانتقام فیها ثأرا لهذا العشق.

و تصمیم یوسف کان دفاعا عن نفسه، و عدم التسلیم لطلب تلک المراة.

و من جملة القرائن التی تذکر فی هذا الموضوع:

اوّلا: انّ امراة العزیز کانت قد صـمّمت علی نیل الوطر الجنسی قبل هذه الحالة، و کانت قد هیّأت مقدّمات هذا الأمر، فلا مجال- اذن- لان یقول القرآن:

انّها صمّمت علی هذا العمل الآن، لانّ هذه الساعة لم تکن ساعة تصمیم.

و ثانیا: انّ ظهور حالـة الخشونـة و الانتقام بعـد هـذه الهزیمـة امر طبیعی، لانّها بذلت ما فی وسعها لاقناع یوسف، و لمّا لم توفّق الی ما رغبت فیه توسلّت بطریق آخر، و هو طریق الخشونة و الضرب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۱

و ثالثا: انّنا نقرا فی ذیل هـذه الآیة کَذلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ و المراد بالفحشاء هو التلوّث و عدم العفّة .. و المراد بصـرف السوء، هو نجاته من مخالف امراة العزیز، و علی کلّ حال فحین رای یوسف برهان ربّه ... تجنّب الصـراع مع امراة العزیز و ضربها، لانّه قد یکون دلیلا علی تجاوزه و عدوانه علیها، و لذا رجّح ان یبتعد عن ذلک المکان و یفرّ نحو الباب.

۳- ممّـا لا شکّ فیه انّ یوسف کان شابّا یحمل جمیع الاحاسـیس التی فی الشـباب، و بالرغم من انّ غرائزه کانت طوع عقله و ایمانه .. الّا انّ مثل هـذا الإنسان- بطبیعـة الحال- یهیـج طوفان فی داخله لما یشاهـده من مثیرات فی هـذا المجال، فیصـطرع العقل و الغریزة، و کلّما کانت أمواج المثیرات اشـدّ کانت کفّـة الغرائز أرجـح، حتّی انّها قد تصل فی لحظة خاطفة الی أقصـی مرحلة من القوّة، بحیث لو تجـاوز هـذه المرحلـة خطوة لهوی فی مزلق مهول، و لکنّ قوّة الایمان و العقل ثارت فی نفسه فجأة و تسـلّمت زمام الأمور فی انقلاب عسکری سریع و کبحت جماح الشهوة.

و القرآن یصوّر هـذه اللحظـة الخاطفـة الحسّاسـة و المتأزّمـة التی وقعت بین زمانین هادئین- فی الآیة المتقدّمة- فیکون المراد من قوله تعالی: وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأی بُرْهانَ رَبِّهِ انّ یوسف انجرّ الی حافّة الهاویة فی الصراع بین الغریزة العقل، و لکن فجأة ثارت قوّة الایمان و العقل و هزمت طوفان الغریزة[۱۰۳] .. لئلّا یتصوّر احد انّ یوسف عند ما استطاع ان یخلّص نفسه من هذه الهاویة فلم یقم بعمل مهمّ، لانّ اسباب الذنب و الهیاج الجنسی کانت فیه ضعیفة .. کلّا ابدا .. فهو فی هذه اللحظة الحسّاسة جاهد نفسه اشدّ الجهاد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۲

ما المراد من برهان ربّه

؟ «البرهـان» فی الأصـل مصـدر «بره» و معنـاه «صـیرورة الشـیء ابیضـا» ثمّ اطلق هـذا اللفـظ علی کـلّ دلیل محکم قوی یوجب وضوح المقصود، فعلی هذا یکون برهان اللّه الذی نجّی یوسف نوعا من الادلّة الالهیّة الواضـحة، و قد احتمل فیه المفسّرون احتمالات کثیرة، من جملتها:

۱- العلم و الایمان و التربیة الانسانیة و الصفات البارزة.

۲- معرفته بحکم تحریم الزنا.

۳- مقام النبوّة و عصمته من الذنب.

۴- نوع من الأمداد الالهی الذی تدارکه فی هذه اللحظة الحسّاسة بسبب اعماله الصالحة.

۵- هناک روایة یستفاد منها انّه کان فی قصر امراة عزیز مصر صنم تعبده، و فجأة وقعت عیناها علیه، فکأنّها احسّت بأنّ الصنم ینظر الی حرکاتهـا الخیانیّـة بغضب، فنهضت و القت علیه سترا، فـاهتزّ یوسف لهـذا المنظر، و قـال: أنت تسـتحین من صـنم لاـ یملک عقلا و لا

شعورا و لا إحساسا، فكيف لا استحيى من ربّى الخبير بكلّ شى‏ء، و الذى لا تخفى عليه خافية؟.

فهذا الاحساس منح يوسف قوّة جديدة، و أعانه على الصراع الشديد فى اعماق نفسه بين الغريزة و العقل، ليتمكّن من التغلّب على أمواج الغريزة فى نفسه ۱۰۴].

و فى الوقت ذاته لا- مانع ان تكون جميع هذه المعانى منظورة، لانّ مفهوم البرهان العام يستوعبها جميعا، و قد أطلقت آيات القرآن كلمة «البرهان» على كثير من المعانى المتقدّمة.

امّا الرّوايات التى لا سند لها و التى ينقلها بعض المفسّرين، و التى مؤدّاها انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۳

يوسف صمّم على الذنب، و لكنّه لاحظ فجأة حالة من المكاشفة بين جبرئيل و يعقوب و هو يعضّ على إصبعه، فراى يوسف هذا المنظر و تخلّف عن اقدامه على هذا الذنب .. فهذه الرّوايات ليس لها اى سند معتبر .. و هى روايات إسرائيلية انتجتها الذهنيات البشرية الضيّقة التى لم تدرك مقام النبوّة ابدا.

و الآن لنتوجّه الى تفسير بقيّة الآية إذ يقول القرآن المجيد: كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ و هى اشارة الى انّ هذا الأمداد الغيبى و الاعانة المعنوية لانقاذ يوسف من السوء و الفحشاء من قبل اللّه لم يكن اعتباطا، فقد كان عبدا عارفا مؤمنا ورعا ذا عمل صالح طهّر قلبه من الشرك و ظلماته، فكان جديرا بهذا الأمداد الالهى.

و بيان هذا الأمر يدلّ على انّ مثل هذه الامدادات الغيبية، فى لحظات الشدّة و الازمة التى تدرك الأنبياء- كيوسف مثلا- غير مخصوصة بهم، فإنّ كلّ من كان فى زمرة عباد اللّه الصالحين المخلصين فهو جدير به هذه المواهب ايضا.

ملاحظات

۱- جهاد النفس

نحن نعرف انّ أعظم الجهاد فى الإسلام هو جهاد النفس، الذى عبّر عنه فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ب «الجهاد الأكبر» اى هو جهاد أعظم من جهاد العدوّ الذى عبّر عنه بالجهاد الأصغر .. و إذا لم يتوفّر فى الإنسان الجهاد الأكبر بالمعنى الواقعى- أساسا- فلن ينتصر فى جهاده على أعدائه.

و فى القرآن المجيد ترتسم صور شتّى فى ميادين الجهاد، و تتجلّى فيها علاقة الأنبياء و اولياء اللّه الصالحين. و قصّة يوسف و ما كان من عشق امراة العزيز الملتهب واحدة من هذه الصور، و بالرغم من انّ القرآن لم يوضّح جميع ما فى القصّة من خفايا و زوايا، الّا انّه أجملها بصورة موجزة فى جملة قصيرة هى وَ هَمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۴

بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ و بيّن شدّة هذا الطوفان.

لقد خرج يوسف من هذا الصراع منتصرا بوجه مشرق لثلاثة اسباب:

الاوّل: انّه التجأ الى اللّه و استعاذ به، و قال: مَعاذَ اللَّهِ

الثّانى: التفاته الى الإحسان الذى اسداه اليه عزيز مصر، و ما تناوله فى بيته فأثّر فيه، فلم ينس فضله طيلة حياته، و مع ملاحظة نعم اللّه التى لا تحصى و انقاذه له من غيابة الجبّ الموحشة الى محيط الامان و الهدوء جعلته يفكّر فى ماضيه و مستقبله، و لا يستسلم للتيارات العابرة.

الثّالث: بناء شخصيّته و عبوديّته المقرونة بالإخلاص التى عبّر عنها القرآن إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ يستفاد منها انّها منحته القوّة و القدرة ليخرج من ميادين الوسوسة التى تهجم عليه من الداخل و الخارج بانتصار.

و هذا درس كبير لجميع الناس الأحرار الذين يريدون ان ينتصروا على عدوّهم الخطر فى ميادين جهاد النفس.

يقول الامام على بن أبى طالب «امير المؤمنين» فى دعاء الصباح، بأسلوب جميل رائق: «و ان خذلنى نصرك عند محاربة النفس و الشيطان، فقد وكلنى خذلانك الى حيث النصب و الحرمان».

و نقرا

فى بعض الأحاديث انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعث سرية فلمّا رجعوا قال:

«مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر، و بقى عليهم الجهاد الأكبر» فقيل: يا رسول اللّه، و ما الجهاد الأكبر قال: «جهاد النفس»[۱۰۵].

و

يقول الامام على عليه السّلام ايضا «المجاهد من جاهد نفسه»[۱۰۶].

كما ينقل

عن الامام الصادق عليه السلام انّه قال: «من ملك نفسه إذا رغب و إذا رهب و إذا اشتهى و إذا غضب و إذا رضى حرّم اللّه جسده على النار»[۱۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۵

۲- ثواب الإخلاص

كما أشرنا فى تفسير الآيات المتقدّمة، فإنّ القرآن المجيد عزا نجاة يوسف- من هذه الازمة الخطرة التى أوقعته امراة العزيز فيها- الى اللّه، إذ قال: كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ.

و لكن مع ملاحظة الجملة التى تليها: إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ تتجلّى هذه الحقيقة، و هى انّ اللّه سبحانه لا يترك عباده المخلصين فى اللحظات المتأزّمة وحدهم .. و لا يقطع عنهم امداداته المعنويّة .. بل يحفظ عباده بألطافه الخفيّة.

و هذا الثواب فى الواقع هو ما يمنحه اللّه جلّ جلاله لامثال هؤلاء العباد، و هو ثواب الطهارة و التقوى و الإخلاص.

و هناك مسألة جديرة بالتنويه، و هى انّ يوسف «من عباد اللّه المخلصين» و مفرد الكلمة «مخلص» على وزن «مطلق» و هو اسم مفعول.

و لم تأت الكلمة على وزن اسم الفاعل اى «مخلص» على وزن «محسن».

و الدقّة فى آيات القرآن تكشف عن انّ كلمة «مخلص» (بكسر اللام) غالبا ما تستعمل فى مراحل تكامل الإنسان الاولى و فى حال بناء شخصيته، كقوله تعالى: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۱۰۸].

و كقوله تعالى: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۱۰۹].

غير انّ كلمة «مخلص» بفتح اللام استعملت فى المرحلة العالية .. التى تحصل بعد مدّة مديدة من جهاد النفس، تلك المرحلة التى ييأس الشيطان فيها من نفوذه و وسوسته داخل الإنسان، و فى الحقيقة تكون نفس الإنسان مؤمّنا عليها من قبل اللّه، يقول القرآن فى هذا الصدد:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۶

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۱۱۰].

و كان يوسف قد بلغ هذه المرحلة بحيث وقف كالجبل امام تلك الازمة، فينبغى على كلّ فرد السعى لبلوغ هذه المرحلة.

۳- العفّة و المتانة فى البيان

من عجائب القرآن و واحدة من ادلّة الاعجاز، انّه لا يوجد فى تعبيره ركّة و ابتذال و عدم العفّة و ما الى ذلك، كما انّه لا يتناسب مع أسلوب الفرد العادى الامّى الذى تربّى فى محيط الجاهليّة، مع انّ حديث كلّ احد يتناسب مع محيطه و أفكاره!.

و بين جميع قصص القرآن و احداثه التى ينقلها توجد قصّة غرام و عشق واقعية، و هى قصّة (يوسف و امرأة عزيز مصر).

قصّة تتحدّث عن عشق امرأة جميلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جميل طاهر القلب.

اصحاب المقالات و الكتاب حين يواجهون مثل هذا الأمر .. امّا ان يتحدّثوا عن ابطال القصّة بأن يطلقوا للقلم او اللسان العنان، حتّى تظهر فى (البين) تعابير مثيرة و غير أخلاقية كثيرة.

و امّا ان يحافظوا على العفّة و النزاهة فى القلم و اللسان، فيحوّلوا القصّة الى القرّاء او السامعين بشكل غامض و مبهم.

فالكاتب او صاحب المقال مهما كان ماهرا يبتلى بواحد من هذين الإشكالين، ترى هل يعقل انّ فردا لم يدرس يرسم رسما دقيقا و كاملا لفصول مثل هذا العشق المثير، دون ان يستعمل اقلّ تعبير مهيّج و بعيد عن العفّة؟! و لكنّ القرآن يمزج فى رسم هذه الميادين الحسّاسة من هذه القصّة-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۷

بأسلوب معجب- الدقّة فى البيان مع المتانة و العفّة، دون ان يغضّ الطرف عن ذكر الوقائع، او ان يظهر العجز، و قد استعمل جميع الأصول الاخلاقية و الأمور الخاصّة بالعفّة.

و نعرف انّ اخطر ما فى هذه القصّة ما جرى فى «خلوة العشق» و ما أظهرته امرأة العزيز بابتكارها و هواها.

و القرآن يتناول كلّ ما جرى من حوادث و يتحدّث عنها دون ان يظهر اقلّ انحراف من اصول العفّة حيث يقول: وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (يوسف ۲۳).

و المسائل التى تسترعى الانتباه فى هذه القصّة ما يلى:

۱- كلمة «راود» تستعمل فى مكان يطلب فيه احد من الآخر شيئا بإصرار ممزوجا بالترغيب و اللين، لكن ما الذى ارادته امرأة العزيز من يوسف؟! .. بما انّه كان واضحا فقد اكتفى القرآن بالكناية و التلميح دون التصريح!.

۲- انّ القرآن هنا لم يعبّر عن امرأة العزيز تعبيرا مباشرا، بل قال: الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها ليقترب من بيان العفّة و اسدال الحجاب، كما جسّد معرفة يوسف للحقّ و جسّد مشاكل يوسف ايضا فى عدم التسليم إزاء من كانت حياته فى قبضتها.

۳- غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ التى تدلّ على المبالغة و انّ الأبواب جميعا أوصدت بشدّة، (و هذا تصوير من هذا الميدان المثير).

۴- جملة هَيْتَ لَكَ تشرح آخر كلام امرأة العزيز للبلوغ الى وصال يوسف، و لكنّها فى عبارة متينة ذات مغزى كبير و ليس فيها ما يشير الى تعبير سيئ.

۵- مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ التى قالها يوسف لتلك المرأة الجملية، معناها كما يقول اكثر المفسّرين: انّى ألتجئ الى اللّه فإنّ عزيز مصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۸

صاحبى و سيّدى و هو يجلّنى و يحترمنى و يعتمد علىّ، فكيف اخونه؟! و هذا العمل خيانة و ظلم إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ و بهذا توضّح الآية سعى يوسف الى إيقاظ العواطف الانسانية فى امرأة العزيز.

۶- جملة وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ ترسم- من جهة- تلك الخلوة بدقّة، بحيث لو انّ يوسف لم يكن لديه مقام

العصمة او العقل او الایمان لکان قد وقع فی «الفخّ».

و من جهة أخری ترسم انتصار یوسف أخیرا فی هذه الظروف علی شیطان الشهوة الطاغی .. بأسلوب رائع.

الطریف هنا انّ الآیة استعملت کلمة «همّ» فحسب، «ای انّ امراة العزیز صمّمت من جهتها و لو لم یر یوسف برهان ربّه لصمّم من جهته ایضا، تری هل توجد کلمة اکثر متانة للتعبیر عن (القصد و التصمیم) أفضل من هذه؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۹

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۲۵ الی ۲۹]

اشارة

وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِیصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَیا سَیِّدَها لَدَی الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِکَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ یُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۲۵) قالَ هِیَ راوَدَتْنِی عَنْ نَفْسِی وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ کانَ قَمِیصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْکاذِبِینَ (۲۶) وَ إِنْ کانَ قَمِیصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَکَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۲۷) فَلَمَّا رَأی قَمِیصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ کَیْدِکُنَّ إِنَّ کَیْدَکُنَّ عَظِیمٌ (۲۸) یُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِی لِذَنْبِکِ إِنَّکِ کُنْتِ مِنَ الْخاطِئِینَ (۲۹)

التّفسیر

فضیحة امراة العزیز

!! المقاومة الشدیدة التی أبداها یوسف جعلت امراة العزیز آیسة منه تقریبا ..

و لکن یوسف الذی انتصر فی هذا الدور علی تلک المراة المعاندة احسّ انّ بقاءه فی بیتها- فی هذا المزلق الخطر- غیر صالح، و ینبغی ان یبتعد عنه، و لذلک اسرع نحو باب القصر لیفتحه و یخرج، و لم تقف امراة العزیز مکتوفة الایدی، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۰

أسرعت خلفه لتمنعه من الخروج، و سحبت قمیصه من خلفه فقدّته وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِیصَهُ مِنْ دُبُرٍ.

(الاستباق) فی اللغة هو المسابقة بین شخصین او اکثر.

و (قدّ) بمعنی مزّق طولا، کما انّ «قطّ» بمعنی مزّق عرضا، و لذلک نقرا

فی الحدیث .. «کانت ضربات علی بن أبی طالب علیه السّلام أبکارا، إذا اعتلی قدّ، و إذا اعترض قطّ»[۱۱۱].

و علی کلّ حال فقد أوصل یوسف نفسه نحو الباب و فتحه فرأیا «یوسف و امراة العزیز» عزیز مصر خلف الباب فجأة. یقول القرآن الکریم: وَ أَلْفَیا سَیِّدَها لَدَی الْبابِ

«ألفیا» من مادّة «الالفاء» و معناها العثور المفاجئ .. و التعبیر عن الزوج ب «السیّد» کما یقول بعض المفسّرین کان طبقا للعرف السائد فی مصر، حیث کانت تخاطب المراة زوجها بالسیّد.

فی هذه اللحظة التی رأت امراة العزیز نفسها علی أبواب الفضیحة من جهة، و شعلة الانتقام تتأجّج فی داخلها من جهة اخری، کان اوّل شیء توجّهت الیه ان تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحقّ متّهمة یوسف إذ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِکَ سُوءاً إِلَّا أَنْ یُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِیمٌ

من الطریف هنا انّ هذه المراة الخائنة نسیت نفسها انّها امراة العزیز حینما کانت لوحدها مع یوسف، و لکن عند ما وجدت نفسها

مشرفة على الافتضاح، عبّرت عن نفسها بأنّها اهله لتثير فيه احساس الغيرة! فهى خاصّة به و لا ينبغى لأحد ان يلقى عليها نظرات الطمع!!

و هذا الكلام قريب الشبه بكلام فرعون مصر فى عصر موسى إذ قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۱

أ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ،[۱۱۲] حيث كان جالسا على عرش السلطنة! و لكنّه حين وجد نفسه مشرفا على السقوط، و وجد ملكه و تاجه فى خطر، قال عن موسى و أخيه:

يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۱۱۳].

و الأمر الآخر انّ امراة العزيز لم تقل انّ يوسف كان يريد السوء بى، بل تحدّثت [عن ما يستحقّه من الجزاء] مع عزيز مصر، فكأنّ اصل المسألة مسلّم به!! و الكلام عن كيفية الجزاء.

و هذا التعبير المدروس الذى كان فى لحظة اضطراب و مفاجأة للمراة يدلّ على شدّة احتيالها[۱۱۴].

ثمّ انّ التعبير عن السجن اوّلا، ثمّ عدم قناعتها بالسجن وحده، إذ تتجاوز هذا الحكم الى العذاب الأليم او «الاعدام» مثلا.

و لكن يوسف أدرك انّ السكوت هنا غير جائز .. فأماط اللثام عن عشق امراة العزيز قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي

و طبيعى انّ مثل هذا الحادث من العسير تصديقه فى البداية، اى انّ شابّا يافعا غير متزوّج لا يعدّ آثما، و لكن امراة متزوّجة ذات مكانة اجتماعية- ظاهرا- آثمة! فلذلك كانت أصابع الاتّهام تشير الى يوسف اكثر من امراة العزيز.

و لكن حيث انّ اللّه حامى الصالحين و المخلصين فلا يرضى ان يحترق هذا الشاب المجاهد بشعلة الاتّهام، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ و اى دليل أقوى من هذا الدليل، لانّ طلب المعصية ان كان من طرف امراة العزيز فقد ركضت خلف يوسف و قدّت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۲

قميصه من دبر، لانّه كان يريد الفرار فأمسكت بثوبه فقدّته، و إذا كان يوسف هو الذى هجم عليها و هى تريد الفرار او وقفت امامه للمواجهة و الدفاع، فمن المسلّم ان يقدّ قميص يوسف من قبل! و اىّ شىء اعجب من ان تكون هذه المسألة البسيطة «خرق الثوب» مؤشّرا على تغيير مسير حياة برىء و سندا على طهارته و دليلا على افتضاح المجرم!.

امّا عزيز مصر فقد قبل هذا الحكم الدقيق، و تحيّر فى قميص يوسف ذاهلا:

فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

فى هذه الحال، و لخوف عزيز مصر من انتشار خبر هذا الحادث المؤسف على الملا، فتسقط منزلته و كرامته فى مصر راى انّ من الصلاح كتمان القضيّة، فالتفت الى يوسف و قال: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا اى اكتم هذا الأمر و لا تخبر به أحدا .. ثمّ التفت الى امرأته و قال: وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ ۱۱۵].

و ذهب بعض المفسّرين الى انّ القائل لهذه الجملة ليس عزيز مصر، بل الشاهد نفسه، و لكن لا دليل يؤيّد هذا الاحتمال و خاصّة مع وقوع هذه الجملة بعد قول العزيز.

ملاحظات

۱- من كان الشاهد

؟! هناك اقوال فى الشاهد الذى ختم «ملفّ يوسف و امراة العزيز» بسرعة، و أوضح البرىء من المسىء من هو؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۳

قال بعضـهم: هو احـد أقارب امراة العزیز، و کلمـة «مِنْ أَهْلِها» دلیل علی ذلک .. و علی القاعدة فهو رجل حکیم و عارف ذکی بحیث استطاع ان یستنبط الحکم من قدّ الثوب دون ان یکون لدیه شاهد او بیّنة. بل اکتشف حقیقة الحال .. و یقال:

انّ هذا الرجل کان من مشاوری عزیز مصر و کان معه.

التّفسیر الآخر: انّ الشاهـد کـان طفلا رضـیعا من أقارب امراة العزیز و کان علی مقربـة من الحادث، و کان یوسف قـد طلب من عزیز مصـر ان یحتکم الی هـذا الطفـل، فتعجّب عزیز مصر من هـذا الطلب .. تری هـل یمکن هـذا؟! لکن «الطفـل» حین تکلّم- کمـا تکلّم المسیح علیه السّلام فی المهد- و اعطی هذا المعیار لمعرفة البریء من المسیء، التفت عزیز مصر الی انّ یوسف لیس غلاما (عادیّا) بل هو نبی او متّنبی.

و الرّوایات المنقولة عن طریق اهل البیت علیهم السّلام و اهل السنّة تشیر الی هذا التّفسیر، من جملتها ما

نقله ابن عبّاس عن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: انّه قـال: «اربعـة تکلّموا أطفالا: ابن ماشـطة فرعون، و شاهـد یوسف، و صاحب جریح، و عیسی بن مریم»[۱۱۶].

کما

نقل عن تفسیر علی بن ابراهیم عن الامام الصادق انّ شاهد یوسف کان طفلا فی المهد[۱۱۷].

و لکن ینبغی الالتفات الی انّ ایّا من الحدیثین المتقدّمین لیس له سند قوی، بل هما مرفوعان.

الاحتمال الثالث: انّ الشاهـد هو القدّ فی الثوب الذی تکلّم بلسان الحال، و لکن مع ملاحظة کلمة مِنْ أَهْلِها یضـعّف هذا الاحتمال، بل ینفیه!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۴

۲- الموقف الضعیف لعزیز مصر

من جملـة المسائل التی تسـتجلب الانتباه فی هـذه القصّـ ة انّ فی مثل هـذه المسألـة المهمّة التی طعن فیها بناموس عزیز مصـر و عرضه، کیف یکتفی قانعـا بالقول وَ اسْ‌تَغْفِرِی لِـذَنْبِکِ إِنَّکِ کُنْتِ مِنَ الْخاطِئِینَ و ربّما کانت هـذه المسألـة سـببا لانّ تـدعوا امراة العزیز نساء الاشراف الی مجلسها الخاص، و تکاشفهنّ بقصّة حبّها و غرامها بجلاء.

تری: أ کان هذا خوفا من الافتضاح، فاختصر عزیز مصر هذه المسألة و غضّ النظر عنها!؟

ام انّ هـذه المسألـة- أساسـا- لیست بـذات اهمیّـة للحکّام و مالکی ازمّـة الأمور و الطواغیت، فهم لا یکترثون للغیرة و حفظ الناموس، لانّهم ملوّثون بالذنوب و غارقون فی مثل هذه الرذائل و الفساد حتّی کأنّه لا اهمیّة لهذا الموضوع فی نظرهم.

یبدو انّ الاحتمال الثّانی اقرب للنظر!.

۳- حمایة اللّه فی الأزمات

الـدرس الکبیر الآخر الـذی نتعلّمه من قصّة یوسف، هو حمایة اللّه و رعایته للإنسان الاکیدة فی اشدّ الحالات، و بمقتضـی قوله: یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ فمن جهـة کان یوسف لا یصـدّق ابدا انّ نافذة من الأمل سـتفتح له، و یکون قدّ القمیص سـندا للطهارة و البراءة، ذلک القمیص الـذی یصـنع الحوادث، فیوما یفضـح اخوة یوسف لانّهم جاؤوا أباهم و هو غیر ممزّق، و یوما یفضـح

امراة العزيز لانّه قدّ من دبر، و يوما آخر يهب البصر و النّور ليعقوب، و ريحه المعروف يسافر مع نسيم الصباح من مصر الى ارض كنعان و يبشّر العجوز «الكنعانى» بقدوم موكب البشير!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۵

و على كلّ حال فإنّ للّه الطافا خفيّة لا يسبر غورها احد، و حين يهبّ نسيم هذه الألطاف تتغيّر الأسباب و المسبّبات بشكل لا يمكن حتّى لاذكى الافراد ان يتنبّأ عنها!.

بل قد يتّفق أحيانا انّ خيوط العنكبوت تبدّل مسير الحياة لامّة او قوم بشكل دائم، كما حدث فى قصّة غار ثور و هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۴- خطّة امراة العزيز

فى الآيات المتقدّمة اشارة الى مكر النسوة (طبعا النساء اللائى لا ارتباط لهنّ بشىء الّا هواهنّ كامرأة العزيز) و هذا المكر و التحيّل الموصوف بالعظمة إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يوجد منه فى التاريخ و القصص التأريخيّة امثلة كثيرة، حيث تكشف اجمالا انّ النساء اللائى يسوقهنّ هواهنّ يرسمن خططا لا نظير لها من نوعها.

رأينا فى القصّة المتقدّمة كيف انّ امراة العزيز بعد الهزيمة فى عشقها و افتضاح أمرها، برّات نفسها بمهارة و اتّهمت يوسف و لم تقل انّ يوسف قصد السوء بى، بل افترضت ذلك امرا مسلّما به. و انّما سألت فقط عن جزاء مثل من يعمل هذا العمل!! جزاء لا يتوقّف على السجن فحسب، بل يأخذ ابعادا اخرى غير محدودة.

و نرى ايضا انّ هذه المراة فى مقابل لوم نسوة مصر لها إذ عشقت غلامها- فى الآيات التالية- تستعمل مثل هذا المكر او الخداع، و هذا تأكيد آخر على مكر مثل هؤلاء النسوة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۶

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۳۰ الى ۳۴]

اشارة

وَ قالَ نِسْوَةٌ فِی الْمَدِینَةِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۳۰) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَیْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّیناً وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَیْهِنَّ فَلَمَّا رَأَیْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَیْدِیَهُنَّ وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِیمٌ (۳۱) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِی لُمْتُنَّنِی فِیهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ یَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَیُسْجَنَنَّ وَ لَیَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِینَ (۳۲) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَیَّ مِمَّا یَدْعُونَنِی إِلَیْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّی كَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِینَ (۳۳) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَیْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۳۴)

التّفسير

مؤامرة اخرى:

بالرغم من انّ عشق امراة العزيز المذكور آنفا كان- مسألة خصوصية-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۷

بحیث اکّد حتّی العزیز علی کتمانها، و لکن حیث انّ هذه الأسرار لا تبقی خافیة، و لا سیّما فی قصور الملوک و اصحاب المال و القوّة- التی فی حیطانها آذان صاغیة- فسوف تتسرّب الی خارج القصر کما یقول القرآن فی هذا الشأن: وَ قالَ نِسْوَةٌ فِی الْمَدِینَةِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا ثمّ لمنها و عنّفنها بهذه الجملة إِنَّا لَنَراها فِی ضَلالٍ مُبِینٍ و واضح انّ المتحدّث بمثل هذا الکلام کنّ نساء اشراف مصر حیث کانت اخبار القصور المفعمة بفساد الفراعنة و المستکبرین مثیرة لهنّ و کنّ یستقصینها دائما.

لم یکن فساد هؤلاء النسوة بأقلّ من امراة العزیز و لکنّ ایدیهنّ لم تصل الی یوسف، و کما یقول المثل- «العین بصیرة و الید قصیرة» فکنّ یرین امراة العزیز بسبب هذا العشق فی ضلال مبین.

و یقول بعض المفسّرین: انّ اذاعة هذا السرّ من قبل هذه المجموعة من نساء مصر، کانت خطّة لتحریک امراة العزیز حتّی تدعوهنّ الی قصرها لتکشف لهنّ عن براءتها و تریهن یوسف و جماله! و لعلّهنّ کنّ یتصوّرن انّ یوسف إذا رآهنّ بهره جمالهنّ، و ربّما رآهنّ أجمل من امراة العزیز، و لانّ یوسف کان یحترم امراة العزیز احترام الولد لوالدته- ام مربّیته- فهو لا یطمع فیها، و لهذا السبب یکون احتمال نفوذهنّ الی قلبه أقوی من نفوذ امراة العزیز الیه!.

«الشغف» من مادّة «الشغاف» و معناه أعلی القلب او الغشاء الرقیق المحیط بالقلب، و شغفها حبّا معناه انّها تعلّقت به الی درجة بحیث نفذ حبّه الی قلبها و استقرّ فی أعماقه.

و هذا التعبیر اشارة الی العشق الشدید و الملتهب.

یذکر «الآلوسی» فی تفسیره «روح المعانی» نقلا عن کتاب اسرار البلاغة مراتب الحبّ و العشق و نشیر هنا الی قسم منها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۸

فأوّل مراحل الحبّ «الهوی» و معناه المیل، ثمّ «العلاقة» و هی المحبّة الملازمة للقلب، و بعدها «الکلف» و هو الحبّ الشدید، ثمّ «العشق» و بعده «الشعف» بالعین المهملة ای الحالة التی یحترق القلب فیها من الحبّ و یحسّ باللّذة من هذه الحالة .. و بعدها «اللوعة» ثمّ «الشغف» و هو المرحلة التی ینفذ العشق فیها الی جمیع زوایا القلب، ثمّ «الوله» و هو المرحلة التی تخطف عقل الإنسان من العشق، و آخر المراحل «الهیام» و هو المرحلة التی تذهل العاشق و تجرّه الی کلّ جهة دون اختیاره ۱۱۸].

هناک مسألة جدیرة بالالتفات و هی: من الذی أذاع هذا السرّ؟ هل کان من امراة العزیز التی لم ترغب فی هذه الفضیحة ابدا! او من قبل العزیز نفسه! و کان یؤکّد علی کتمان السرّ، او القاضی الحکیم الذی حکم فی الأمر، و یستبعد منه هذا العمل؟! و علی کلّ حال فإنّ مثل هذه المسائل فی هذه القصور المفعمة بالفساد لا تبقی طیّ الکتمان، و أخیرا فإنّها تنتقل علی السنة الذین یظهرون الحرص علی شرف القصر و تنتشر، و من الطبیعی ان یضیف علیها آخرون اوراقا و اغصانا.

امّا امراة العزیز فقد وصلها ما دار بین النسوة من افتضاحها فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَکْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَیْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّکَأً وَ آتَتْ کُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِکِّیناً[۱۱۹].

هذا العمل دلیل علی انّ امراة العزیز لم تکن تکترث بزوجها، و لم تأخذ الدرس من فضیحتها، ثمّ أمرت یوسف ان یتخطّی فی المجلس وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَیْهِنَ و تعبیر اخْرُجْ عَلَیْهِنَ بدلا من «ادخل» یشیر الی انّها کانت اخفت یوسف داخل البیت، او جعلته مشغولا فی احدی الغرف التی یوضع فیها الغذاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۹

عادة حتّی یکون دخوله الی المجلس مفاجأة للجمیع.

نساء مصر- و طبقا لبعض الرّوایات التی تقول: کنّ عشرا .. او اکثر- فوجئن بظهور یوسف کأنّه البدر او الشمس الطالعة، فتحیّرن من جماله فَلَمَّا رَأَیْنَهُ أَکْبَرْنَهُ و فقدن انفسهنّ وَ قَطَّعْنَ أَیْدِیَهُنَ مکان الفاکهة، و حین وجدن الحیاء و العفّة تشرقان من عینیه و قد احمّر

وجهه خجلا صحن جميعا وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۱۲۰].

و هناك اقوال بين المفسّرين فى انّ النسوة الى اى حدّ قطّعن أيديهن؟ فمنهم من بالغ فى الأمر، و لكن كما يستفاد من القرآن على نحو الإجمال انّهن جرحن ايديهنّ.

و فى هذه الحال التى كانت الدماء تسيل من ايدى النسوة و قد لاحظن ملامح يوسف كلّها و صرن امامه «كالخشب المسنّدة» كشفن عن انّهن لسن بأقل من امراة العزيز عشقا ليوسف، فاستغلّت امراة العزيز هذه الفرصة ف قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ

فكأنّ امراة العزيز أرادت ان تقول لهنّ: لقد رأيتن يوسف مرّة واحدة فحدث لكنّ ما حدث و فقدتنّ صوابكن و قطعتن أيديكن من جماله و عشقه، فكيف الام و انا أراه و اسكن معه ليل نهار؟! و هكذا احسّت امراة العزيز بالغرور لانّها وفّقت فى ما ألقته من فكرة و اعطت لنفسها العذر، و اعترفت بكلّ صراحة بكلّ ما فعلت و قالت: وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ

و بدلا من ان تظهر الندم على كلامها او تتحفّظ على الأقل امام ضيوفها، أردفت القول بكلّ جدّ يحكى عن ارادتها القطعيّة: وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۰

... و لا اكتفى بسجنه، بل وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ

و من الطبيعى انّه إذا اكتفى عزيز مصر إزاء خيانة امرأته بالقول: اسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ فينبغى ان تجرّ امرأته الفضيحة الى هذه المرحلة .. و أساسا فإنّ مثل هذه الأمور و المسائل فى قصور الفراعنة و الملوك ليست أمورا مهمّة.

ينقل البعض روايات عجيبة مؤدّاها انّ بعضا من نسوة مصر أعطين الحقّ لامرأة العزيز و درن حول يوسف ليرغّبنه بأن يستسلم لحبّها و كلّ واحدة تكلّمت بكلام! فقالت واحدة: ايّها الشاب ما هذا الصبر و الدلال، و لم لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، الا ترى هذا الجمال الآسر؟ أ ليس عندك قلب؟! الست شابّا؟

الا تستلذّ بالعشق و الجمال، فهل أنت حجارة او خشب؟! و قالت الثّانية: إذا كنت لا تعرف عن الجمال و العشق شيئا .. لكن الا تدرى انّ امراة العزيز ذات نفوذ و قدرة .. الا تفكّر ان لو ملكت قلبها فستنال كلّ شيء و تبلغ ایّ مقام شئت ...

و قالت الثّالثة: إذا كنت لا ترغب فى جمالها المثير و لا تحتاج الى مقامها و مالها، و لكن الا تعرف انّها ستنتقم لنفسها بما أوتيت من وسائل الانتقام الخطرة، الا تخاف من السجن و وحشته و من الغربة المضاعفة فيه؟! تهديد امراة العزيز من جانبها بالسجن و الاذلال من جهة، و وساوس النسوة الملوّثات اللائى خطّطن ليوسف كما يخطّط الدلّال من جهة اخرى، اوقعا يوسف فى ازمة شديدة، و أحاط به طوفان المشاكل، و لكن حيث انّ يوسف كان قد صنع نفسه، و قد أوجد نور الايمان و العفّة و التقوى فى قلبه هدوءا و سكينة خاصّة، فقد صمّم بعزم و شجاعة و التفت نحو السّماء ليناجى ربّه و هو فى هذه الشدّة قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ

و حيث كان يدرى ان لا مهرب له الّا الى اللّه فى جميع الأحوال و لا سيما فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۱

الساعات الحرجة، فقد أودع نفسه عند اللّه بهذا الكلام وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ

ربّاه ... انّنى أتقبّل السجن الموحش رعاية لأمرك و حفظا لطهارة نفسى ...

هذا السجن تتحرّر فيه روحى و تطهّر نفسى، و انا ارفض هذه الحريّة الظاهرية التى تأسر روحى فى سجن «الشهوة» و تلوّث نفسى.

ربّاه .. اعنّى، و هب لى القوّة، و زدنى قدرة و عقلا و ايمانا و تقوى، حتّى انتصر على هذه الوساوس! و حيث انّ وعد اللّه حقّ، و انّه يعين المجاهد (لنفسه او لعدوّه) فإنّه لم يترك يوسف سدى و تلقفته رحمته و لطفه كما يقول القرآن الكريم: فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

فهو يسمع نجوى عبيده، و هو مطلع على اسرارهم، و يعرف طريق الحلّ لهم.

ملاحظات

۱- كما رأينا من قبل فإنّ امراة العزيز و نسوة مصر، استفدن من امور مختلفة فى سبيل الوصول الى مرادهن، فمرّة بإظهار العشق و العلاقة الشديدة و التسليم المحض، و مرّة بالترغيب و الطمع، ثمّ بالتهديد، او بتعبير آخر: توسلن بالشهوة و المال و القوّة!! و هذه اصول متّحدة المآل يتوسّل بها الطغاة و المتجبرون فى كلّ عصر و زمان، حتّى لقد رأينا كرارا و مرارا انّهم و من اجل ان يجبروا رجال الحقّ على الاستسلام، يظهرون لهم فى مجلس واحد لينا للغاية و يلوّحون بالمساعدات و انواع الأمداد ترغيبا، ثمّ يتوسلون فى نهاية المجلس بالتهديد و الوعيد، و لا يلتفتون الى ما فى هذا من التناقض فى مجلس واحد و ما فيه من دناءة و خسّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۲

و لؤم فاضح.

و السبب واضح .. فهم يريدون الهدف و لا تهمّهم الوسيلة، و بتعبير آخر:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۲۰۲

تسيغون للوصول الى اهدافهم اى أسلوب و ايّة وسيلة كانت.

و فى هذا المحيط يستسلم الافراد الضعاف، سواء فى اوّل المرحلة او وسطها او نهايتها، الّا انّ اولياء الحقّ لا يكترثون بهذه الاساليب بما لديهم من شهامة و شجاعة و نور الايمان و يرفضون التسليم بضرس قاطع حتّى و لو ادّى ذلك الى الموت .. و عاقبتهم الانتصار طبعا، انتصار أنفسهم و انتصار مبادئهم، او على الأقل انتصار مبادئهم.

۲- كثيرون هم مثل نسوة مصر، فطالما هم جالسون حول الحمى يظهرون أنفسهم منزّهين و أتقياء و يلبسون ثياب العفّة و يعدّون الانحراف- كما هو فى امراة العزيز- فى ضلال مبين.

و لكن حين يتعرّضون لأدنى صدمة ينكشف انّ أقوالهم لا تصدّق أفعالهم ..

فإذا كانت امراة العزيز بعد سنين من معاشرة يوسف قد وقعت فى شرك حبّه و عشقه، فإنّهم فى اوّل مجلس يبتلون بمثل هذا المصير و يقطّعون «الايدى» مكان «الأترنج».

۳- هنا قد يرد سؤال و هو: لم وافق يوسف على طلب امراة العزيز و خرج على النسوة فى المجلس؟ المجلس الذى ترتّب من اجل الإثم، او لتبرئة امراة آثمة؟! و لكن مع ملاحظة انّ يوسف كان بحسب الظاهر غلاما مشترى و عليه ان يخدم فى القصر، فلعلّ امراة العزيز استغلّت هذه الفرصة و الحيلة ليأتى بالطعام مثلا دون ان يعرف بهذه الخطّة و مكر النسوة.

و خاصّة انّنا قلنا انّ تعبير القرآن اخْرُجْ عَلَيْهِنَ كما يظهر منه انّه لم يكن خارجا، بل كان فى احدى الغرف المجاورة للمجلس كالمطبخ مثلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۳

۴- جملة يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ و جملة تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَ تدلّان جيّدا على انّ نسوة مصر- ذوات الهوى- بعد ما جرى لهنّ من تقطيع الايدى و الانبهار بجمال يوسف، وردن هذا الميدان ايضا و طلبن من يوسف ان يستسلم لهنّ او لامراة العزيز، و لكن يوسف ابى عليهنّ جميعا، و هذا يعنى انّ امراة العزيز لم تكن وحدها فى الجريمة بل كان لها شريكات فى ذلك.

۵- حين يقع الإنسان أسيرا بقبضة الشدائد و الحوادث و تجرّه الى شفى الهاوية، فعليه ان يتوكّل على اللّه و يلتجئ اليه و يستمدّ منه فقط، فإذا لم يحظ بلطفه و عونه فإنّه لا يستطيع ان يقوم بأى عمل، و هذا درس علّمنا ايّاه يوسف العظيم الطاهر الذيل، فهو القائل: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ فأنت يا ربّ الحافظ لى، و لا اعتمد على قواى و قدرتى و تقواى.

هـذه الحالـة «التعلّق المطلق بلطف اللّه» بالاضافـة الى انّها تمنح عبادة اللّه قدرة و اسـتقامة غير محدودة، فهى تشـملهم بألطافه الخفيّة .. تلك الألطاف التى لا يمكن وصفها و التصديق بها الّا عند رؤيتها و مشاهدتها.

فهؤلاء هم الذين يسكنون فى ظلّ اللّه و رحمته فى الدنيا و الآخرة ...

فقـد ورد حـديث عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى هـذا الشـأن يقول: «سـبعة يظلّهم اللّه فى ظلّ عرشه يوم لا ظلّ الّا ظلّه: امام عادل، و شابّ نشأ فى عبادة اللّه عزّ و جلّ، و رجل قلبه متعلّق بالمسجد إذا خرج منه حتّى يعود اليه، و رجلان كانا على طاعة اللّه عزّ و جـلّ فاجتمعـا على ذلـك و تفرّقـا، و رجـل ذكر اللّه عزّ و جـلّ خاليـا ففـاضت عيناه، و رجل دعته امراة ذات حسن و جمال فقال: انّى أخاف اللّه تعالى، و رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تصدّق بيمينه»[۱۲۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۴

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۳۵ الى ۳۸]

اشارة

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (۳۵) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّى أَرانِى أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۳۶) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (۳۷) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِى إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (۳۸)

التّفسير

السّجن بسبب البراءة:

انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف فى قصر العزيز فى تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۵

الغوغاء و الهياج، و لكنّ خبره- بالطبع- وصل الى سمع العزيز .. و من مجموع هذه المجريات اتّضح انّ يوسف لم يكن شابّا عاديّا، بل كـان طـاهرا لدرجـة لا يمكن لاى قوّة ان تجرّه الى الانحراف و التلوّث، و اتّضـحت علامات هـذه الظاهرة من جهات مختلفـة، فتمزّق قميصه من دبر، و مقاومته امام وساوس نسوة مصـر، و اسـتعداده لـدخول السـجن و عـدم الاستسـلام لتهديدات امراة العزيز بالسـجن و العذاب الأليم، كلّ هذه الأمور ادلّة على طهارته لا يمكن لأحد ان يسدل عليها الستار او ينكرها!.

و لازم هذه الادلّة اثبات عدم طهارة امراة العزيز و انكشاف جريمتها، و على اثر ثبوت هذه الجريمة فإنّ الخوف من فضـيحة جنسية فى اسرة العزيز كان يزداد يوما بعد يوم.

فكان الراى بعد تبادل المشورة بين العزيز و مستشاريه هو ابعاد يوسف عن الانظار لينسى الناس اسمه و شخصه، و احسن السبل لذلك ايداعه قعر السجن المظلم اوّلا، و ليشيع بين الناس انّ المذنب الاصلى هو يوسف ثانيا، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ

التعبير بكلمة «بدا» التى معناها ظهور الراى الجديد، يدلّ على انّ مثل هذا التصميم فى حقّ يوسف لم يكن من قبل. و يحتمل ان تكون

هذه الفكرة اقترحتها امراة العزيز الاوّل مرّة .. و بهذا دخل يوسف النزيه- بسبب طهارة ثوبه- السجن، و ليست هذه اوّل مرّة و لا آخرها ان يدخل الإنسان النزيه «بجريرة نزاهته» السجن!! اجل .. فى المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين الذين يسيرون مع التيار و ليست الحريـة وحدها من نصيبهم فحسب، .. بل أنّ الأفراد النجباء كيوسف الذى لا يتلاءم مع ذلك المحيط و لونه و يتحرّك على خلاف مجرى الماء! ينبغى ان يقبعوا فى زاوية النسيان .. و لكن الى متى؟ هل تستمر هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۶

الحالة؟ .. قطعا لا ..

و من جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ

و حيث انّ من الظروف لم تكن تسمح للإنسان ان يحصل فيها على الاخبار بطريق عادى، فإنّه يأنس لاحاسيس الآخرين ليبحث عن مسير الحوادث و يتوقّع ما سيكون، حتّى انّ الرؤيا و تعبيرها عنده يكون مطلبا مهمّا.

من هـذا المنطلق جاء ليوسف يوما هـذان الفتيان اللـذان يقال: انّ أحـدهما كان ساقيا فى بيت الملك، و الآخر كان مأمورا للطعام و المطبخ، و بسبب وشاية الأعداء و سعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسمّ الملك، و تحدّث كلّ منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة و كانت بالنسبة له امرا عجيبا.

قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ثمّ اضافا نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

و حول معرفة الفتيين و اطلاعهما على انّ يوسف له خبرة بتأويل الأحلام هناك اقوال بين المفسّرين:

قال بعضهم: انّ يوسف نفسه اخبر السجناء بأنّ له اطلاعا واسعا فى تفسير الأحلام، و قال بعضهم: انّ سيماء يوسف الملكوتية كانت تـدلّ على انّه ليس فردا عاديا .. بل هو فرد عارف مطّلع و صاحب فكر و نظر، و لا بدّ ان يكون مثل هـذا الشخص قادرا على حلّ مشاكلهم فى تعبير الرؤيا.

و قال البعض الآخر: انّ يوسف من بداية دخول السجن برهن- بأخلاقه الحسنة و المعاشرة الطيّبة للسجناء و خدمتهم و عيادة مرضاهم- انّه رجل صالح و حلّال المشاكل، لذلك كانوا يلتجئون اليه فى حلّ مشاكلهم و يستعينون به.

و هناك ملاحظة جدير ذكرها، و هى انّ القرآن عبّر ب «الفتى» مكان «العبد» و هو نوع من الاحترام، و عندنا فى الحديث «لا يقولنّ أحدكم عبدى و امتى و لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۷

فتاى و فتاتى»[۱۲۲]

ليكون العبيد فى مراحل الانعتاق و الحريّة التى نظّمها الإسلام فى مأمن من كلّ انواع التحقير.

التعبير ب إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً امّا لانّه راى فى النوم انّه يعصر العنب للشراب او العنب المخمّر الذى فى الدنّ، و هو يعصره ليصفّيه مستخرجا منه الشراب، او انّه يعصر العنب ليقدّم عصيره للملك! .. دون ان يكون خمرا، و حيث انّ العنب يمكن ان يتبدّل خمرا اطلق عليه لفظ الخمر.

و التعبير ب إِنِّي أَرانِي بدلا من «إنّى رأيت» هو بعنوان حكاية الحال، أى إنّه يفرض نفسه فى اللحظة التى يرى فيها الرؤيا «النوم» و هذا الكلام لتصوير تلك الحالة.

و على كلّ حال فقد اغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا- و كان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء و نصحهم- و بحجّة التعبير كان يبيّن حقائق مهمّة تفتح لهم السبل و لجميع الناس ايضا.

فى البدايـة، و من اجل ان يستلفت اهتمامهما و اعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذى كان مثار اهتمامهما و توجّهما قالَ لا

يَأْتِيكَما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكَما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَما.

و بهذا فقد طمأنهما انّهما سيجدان ضالّتهما قبل وصول الطعام إليهما.

و هناک احتمالات کثیرة فی هذه الجملة بین المفسّرین، من جملتها: انّ یوسف قال: انا بأمر اللّه مطّلع علی بعض الأسرار، لا انّی أستطیع تعبیر الأحلام فحسب، بل انا أستطیع حتّی اخبارکم بما سیأتیکم من الطعام و ما نوعه و بأی صورة و ای خصوصیة!.

فعلی هذا یکون التأویل بمعنی ذکر خصوصیات ذلک الطعام، و ان کان التأویل قلیل الاستعمال فی مثل هذا المعنی طبعا، و لا سیّما انّه ورد فی الجملة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۸

السابقة بمعنی تعبیر الرؤیا.

و الاحتمال الآخر من مقصود یوسف هو: انّ ای نوع من الطعام ترونه فی النوم فأنا اعرف ما تأویله (و لکن هذا الاحتمال لا ینسجم مع الجملة السابقة) قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما.

فعلی هذا یکون احسن التفاسیر للجملة المتقدّمة، هو التّفسیر الاوّل الذی ذکرناه فی بدایة الحدیث.

ثمّ انّ یوسف أضاف الی کلامه مقرونا بالایمان باللّه و التوحید الجاری بجمیع ابعاده فی اعماق وجوده، لیبیّن بوضوح ان لا شیء یتحقّق الّا بإرادة اللّه قائلا: ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي و لئلّا یتصوّر انّ اللّه یمنح مثل هذه الأمور دون حساب، قال إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ

و المقصود بهذه الملّة او الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر او عبدة الأصنام من کنعان.

و ینبغی لی ان اترک مثل هذه العقائد لانّها علی خلاف الفطرة الانسانیة النقیّة، ثمّ انّی تربّیت فی اسرة الوحی و النّبوّة وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ

و لعلّ هذه هی اوّل مرّة یعرّف یوسف نفسه للسجناء بهذا التعریف، لیعلموا انّه سلیل الوحی و النّبوّة و قد دخل السجن بریئا .. کبقیّة السجناء الابریاء فی حکومة الطواغیت.

ثمّ یضیف علی نحو التأکید ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لانّ أسرتنا اسرة التوحید ... اسرة ابراهیم محطّم الأصنام ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ

و علی هذا فلا تتصوّروا انّ هذا الفضل و الحبّ شملا أسرتنا اهل النّبوّة فحسب- بل هی الموهبة العامّة التی تشمل جمیع عباد اللّه المودعة فی أرواحهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۹

المسمّاة بالفطرة حیث یتکاملون بقیادة الأنبیاء وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ

جدیر بالذکر و الالتفات انّ «إسحاق» عدّ فی الآیة المتقدّمة فی زمرة «آباء یوسف» فی حین انّنا نعرف انّ یوسف هو ابن یعقوب و یعقوب هو ابن إسحاق، فتکون کلمة أب بهذا مستعملة فی الجدّ ایضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۰

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۳۹ الی ۴۲]

اشارة

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۳۹) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ

بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۴۰) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (۴۱) وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (۴۲)

التّفسير

السّجن او مركز التّربية:

حين هيّأ يوسف فى البحث السابق قلوب السجينين لقبول حقيقة التوحيد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۱

توجّه إليهما و قال: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

فكأنّ يوسف يريد ان يفهم السجينين انّه لم تريان الحرية فى النوم و لا تريانها فى اليقظة؟! أ ليس ذلك من تفرقتكم و شرككم و نفاقكم الذى مصدره عبادة الأوثان و الأرباب المتفرّقين ممّا سبّب ان يتغلّب عليكم الطغاة و الجبابرة؟! فلم لا تجتمعون تحت راية التوحيد، و تعتصموا بحبل الواحد القهّار، لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين و الجبابرة الذين يسوقونكم الى السجن ابرياء دون ذنب؟! ثمّ يضيف قائلا: ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ بل هى صنع عقولكم العاجزة و افكاركم المنحرفة .. إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ فلا ينبغى ان تطأطئوا رؤوسكم لسواه من الطغاة و الفراعنة، ثمّ أضاف زيادة فى التأكيد قائلا: أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

اى انّ التوحيد فى جميع ابعاده- فى العبادة، فى الحكومة، فى المجتمع، فى المسائل الثقافية، و فى كلّ شيء- هو الدين الالهى المستقيم و الثابت. وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ و لذلك خضعوا لحكومة غير (اللّه) فذاقوا الشقاء و السجون فى هذا السبيل.

و بعد ان ارشد يوسف صاحبى سجنه و دلّهما و دعاهما الى حقيقة التوحيد، بدا بتعبير الرؤيا لهما .. لأنّهما من البداية جاءا لهذا الأمر و قد وعدهما بتعبير الرؤيا، و لكنّه اغتنم الفرصة و حدّثهما عن التوحيد الحى و المواجهة مع الشرك، ثمّ التفت إليهما و قال: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ

و بالرغم من تناسب كلّ رؤيا مع ما عبّره يوسف، فكان معلوما اجمالا من الذى يطلق من السجينين؟ و من الذى يصلب منهما؟ الّا انّ يوسف لم يرغب فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۲

ان يبيّن التعبير بصراحة اكثر من هذه .. خاصّة و انّ فيه خبرا غير مريح، لذلك جعل التعبير تحت عنوان «أحدكما».

ثمّ أضاف مؤكدا قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ و هو اشارة الى انّ هذا التعبير ليس تعبيرا ساذجا، بل هو من انباء الغيب التى تعلّمها من اللّه، فلا مجال للترديد و الكلام بعد هذا.

فى كثير من التفاسير ورد فى ذيل الجملة المتقدّمة انّ السجين الثّانى الذى سمع بالخبر المزعج أخذ يكذّب رؤياه و يقول: كنت امزح معك، ظانّا انّ مصيره سيتبدّل بهذا التكذيب، فعقّب عليه يوسف بالجملة المتقدّمة! و يحتمل ايضا انّ يوسف كان قاطعا فى تعبير الرؤيا الى درجة بحيث ذكر الجملة المتقدّمة تأكيدا لما سبق بيانه.

و حين احسّ يوسف انّ السجينين سينفصلان عنه عاجلا، و من اجل ان يجد يوما يطلق فيه و يبرّأ من هذه التهمة، اوصى احد السجينين الذى كان يعلم انّه سيطلق ان يذكره عند الملك وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ لكن هذا الغلام «الناسى» مثله مثل

الافراد قليلى الاستيعاب، ما ان يبلغوا نعمة ما حتّى ينسوا صاحبها، و هكذا نسى يوسف تماما، و لكن القرآن عبّر عن ذلك بقوله: فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ و هكذا أصبح يوسف منسيّا فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

هناك اقوال بين المفسّرين فى انّ الضمير من فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ هل يعود على ساقى الملك، ام على يوسف؟ كثير من المفسّرين يعيدون الضمير على يوسف فيكون المعنى: انّ الشيطان انسى يوسف ذكر اللّه فتوسّل بسواه.

و لكن مع ملاحظة الجملة السابقة التى تذكر انّ يوسف كان يوصى صاحبه ان يذكره عند ربّه، يظهر انّ الضمير يعود على الساقى نفسه.

و كلمتا «الربّ» فى المكانين بمعنى واحد.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۳

كما انّ جملة وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ التى ستأتى فى الآيات التالية، تدلّ على انّ الذى نسى هو الساقى.

و لكن سواء عاد الضمير على يوسف ام على صاحبه، فما من شكّ من انّ يوسف توسّل بالغير فى سبيل نجاة نفسه! و بديهى انّ مثل هذا التوسّل للنجاة من السجن و من سائر المشاكل، ليس امرا غريبا بالنسبة للافراد العاديين، و هو من قبيل التوسّل بالأسباب الطبيعيّة، و لكن بالنسبة للافراد الذين هم قدوة و فى مكانة عالية من الايمان و التوحيد، لا يمكن ان يخلو من إيراد، و لعلّ هذا كان سببا فى بقاء يوسف فى السجن بضع سنين، إذ لم يرض اللّه سبحانه ليوسف «ترك الاولى»!.

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انّه قال: «عجيب من اخى يوسف كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق؟»

و

روى انّه قال: «لو لا كلمته ما لبث فى السجن طول ما لبث» يعنى قوله اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ

و

روى عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام قال: «جاء جبرئيل عليه السّلام فقال: يا يوسف من جعلك احسن الناس؟ قال: ربّى، قال: فمن حبّبك الى أبيك دون إخوانك؟ قال: ربّى، قال: فمن ساق إليك السيارة؟ قال: ربّى، قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربّى، قال: فمن أنقذك من الجبّ؟ قال: ربّى، قال: فمن صرف عنك كيد النسوة؟

قال: ربّى، قال: فإنّ ربّك يقول: ما دعاك الى ان تنزل حاجتك بمخلوق دونى؟ البث بالسجن بما قلت بضع سنين»[۱۲۳].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۴

ملاحظات

۱- السّجن مركز للإرشاد او بؤرة للفساد

للسجن تأريخ مؤلم و مثير للغمّ جدّا فى هذا العالم، فأسوا المجرمين و احسن الناس كلاهما دخل السجن، و لهذا السبب كان مركزا دائما لافضل الدروس البنّاءة او لأسوإ الاختبارات.

و فى الحقيقة انّ السجون التى يجتمع فيها المفسدون تعدّ معهدا عاليا للفساد! ففى هذه السجون تتمّ مبادلة الخطط التخريبيّة و التجارب .. و كلّ منحرف يعلم درسه للآخرين، و لهذا السبب حين يطلقون من السجن يواصلون طريقهم بأسلوب اكثر مهارة من السابق و بتشكيل جديد ... الّا ان يلتفت مسئولو السجن لهذا الموضوع، و يعملوا على تغيير هؤلاء الافراد الذين فيهم الاستعداد و القابلية الى عناصر صالحة و مفيدة و بنّاءة.

و امّا السجون التى تتشكّل من الصالحين و الابرياء و النزيهين و المجاهدين فى طريق الحقّ و الحرية، فهى معاهد و مراكز لتعليم الدروس العقائديّة و الطرق العملية للجهاد و المبارزة و البناء.

و هذه السجون تعطى فرصة طيّبة للمنافحين فى طريق الحقّ ليؤدّوا دورهم، و ينسّقوا جهودهم بعد التحرّر من هذه السجون.

و حين انتصر يوسف على امراة محتالة ماكرة متّبعة لهواها- كامرأة عزيز مصر- و دخل السجن، سعى ان يبدّل محيط السجن الى محيط بنّاء و مركز للتعليم و التربية، حتّى انّه وضع أساس حريته و حرية الآخرين ضمن تخطيطه هناك.

و هذا الماضى يعطينا درسا مهمّا، و هو انّ الإرشاد و التربية ليسا محدودين فى مركز معيّن كالمسجد و المدرسة- مثلا- بل ينبغى ان يستفاد من كلّ فرصة سانحة للوصول الى هذا الهدف، حتّى و لو كانت فى السجن و تحت أثقال القيود.

امّا عدد السنوات التى قضاها يوسف فى السجن، فهناك اقوال بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۵

المفسّرين، و المشهور انّها سبع سنوات، الّا انّ بعضهم قال: انّ يوسف بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة، خمس قبل رؤيا صاحبى سجنه، و سبع بعدها، و كانت سنوات ملأى بالتعب و النصب الّا انّها من جهة الإرشاد كانت سنوات مفعمة بالبركة و الخير[۱۲۴].

۲- حين يصلب المصلحون

! من الطريف انّنا نقرا فى هذه القصّة انّ الذى راى فى منامه انّه يعصر خمرا و يقدّمه للملك قد تحرّر و اطلق من السجن، و انّ الذى راى انّه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه قد صعد عود المشنقة.

أ ليس مفهوم هذا انّ الذين هم على خطى الشّهوات و فى محيط المفسدين و انظمة الطغاة ينالون الحريّة، و امّا الذين يقدّمون خدمة للمجتمع و يعطون الخبز للناس فليس من حقّهم الحياة! و ينبغى ان يموتوا؟ فهذا نسيج المجتمع الذى يحكمه النظام الفاسد .. و هذه نهاية الصالحين فى أمثال هذا المجتمع!.

صحيح انّ يوسف- اعتمادا على الوحى الالهى و علم التعبير- توقّع ما كان، و لكنّ اىّ معبّر لا- يمكن له ان يبعد عن نظره هذه المناسبات! ففى الحقيقة انّ الخدمة فى مثل هذه المجتمعات ذنب عظيم، و الخيانة و الاساءة هى الثواب بعينه!.

۳- اكبر دروس الحرّية

رأينا انّ اكبر درس علّمه يوسف للسجناء هو درس التوحيد و عبادة اللّه الواحد الأحد، ذلك الدرس الذى حصيلته الحريّة و التحرّر.

لقد كان يعرف انّ الأرباب «المتفرّقين» و المعبودين المختلفين و الاهداف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۶

المتفرّقة، كلّها أساس التفرقة فى المجتمعات، و طالما هناك تفرقة فالجبابرة مسلّطون على رقاب الناس، لذلك اعطى يوسف «دستورا» و امرا بقطع جذورهم بسيف التوحيد الباتر، لئلّا يضطرّوا الى رؤية الحريّة فى الأحلام و المنام، بل ينبغى ان يشاهدوا الحريّة فى اليقظة.

ترى، أ ليس الجبابرة المسلّطون على رقاب الناس هم ثلّة من الافراد يستطيع الناس مكافحتهم، الّا انّهم بإيجاد التفرقة و النفاق، و عن طريق «الأرباب المتفرقين» استطاعوا ان يتحكّموا على رقاب الناس و يهدّوا قوى المجتمع!.

و من الطبيعى ان يكون اليوم الذى تجتمع فيه الأمم على كلمة التوحيد و توحيد الكلمة تحت راية «اللّه الواحد القهّار» و يجمعوا قواهم، هو يوم زوال أولئك الجبابرة الظالمين، و هذا درس مهم جدّا ليومنا و غدنا و لجميع الناس فى كلّ المجتمعات البشرية و على

امتداد التاریخ.

و من الضروری ان نلتفت الی هذه المسألة الدقیقة، و هی انّ یوسف یقول:

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ثمّ یؤكّد أنّ العبادة و الخضوع لا تكونان إلّا له أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ و یؤكّد بعد ذلك بالقول: ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ و یعقّب أخیرا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

فعلى هذا لو تعلّم الناس المعارف الصحیحة و عرفوا الحقیقة، و نهضت فیهم حقیقة التوحید، فإنّ المشاكل ستنحلّ لا محالة.

۴- استغلال شعار بنّاء بشكل سیئ

شعار إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ الذی هو شعار قرآنی ایجابی مثبت، ینفی ایّة حكومة كانت سوى حكومة اللّه او ما تنتهی الیه حكومة اللّه، الّا انّه- و للأسف- استغلّ على امتداد التاریخ بشكل عجیب، و من ذلك استغلال الخوارج لهذا الشعار فی واقعة «النهروان» حیث كانوا أناسا جامدین حمقى قشریین منحرفین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۷

جدّا .. فتمسكوا بهذا الشعار لنفی التحكیم فی حرب صفین و قالوا: لا یصحّ الحكم لنهایة الحرب او الخلیفة لانّ اللّه یقول: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

لقد كانوا غافلین او متغافلین عن هذه المسألة البدیهیّة، و هی انّ التحكیم إذا كان قد تعیّن من ائمّة امر اللّه باتّباعهم فحكمهم ایضا حكم اللّه لانّه ینتهی الیه.

صحیح انّ الحكمین فی حرب صفین لم یتمّ تعیینهما من قبل الامام علی علیه السّلام، و لو كان الامام امیر المؤمنین علی علیه السّلام عیّنهما فإنّ حكمهما حكمه، و حكم علی حكم النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و حكم النّبی حكم اللّه.

و هل یا ترى یحكم اللّه او یقضی مباشرة بین المجتمعات! او یتولّى امور الناس اشخاص من جنسهم، غایة ما فی الأمر ینتهی أمرهم الى اللّه؟! و لكن الخوارج و دون ان یتوجّهوا الى هذه الحقیقة الواضحة اشكلوا على اصل قصّة التحكیم على الامام علی علیه السّلام و حتّى عدّوه- و العیاذ باللّه- زیغا منه، یا لهذا الجهل و الجمود و البلادة.

و هكذا فإنّ مثل هذه الأمور البنّاءة حین تقع بأیدی افراد جهّال تتحوّل الى أسوإ الوسائل التخریبیّة.

و فی هذا الیوم نرى مجموعة من الناس من ضعاف النفوس الذین لا یقلّون عن أولئك جهلا و لجاجة، تمسّكوا بالآیة المتقدّمة لنفی التقلید عن المجتهدین، او نفی صلاحیّة حكومتهم، لكن جوابهم جمیعا هو ما ذكرناه آنفا.

۵- التوجّه لغیر اللّه

التوحید لا یتلخّص فی انّ اللّه تعالى احد فرد، بل ینبغی ان یتجسّد فی جمیع شؤون الحیاة، و احد ابرز علائمه انّ الإنسان الموحّد لا یعتمد على غیر اللّه و لا یلتجئ الّا الیه.

نحن لا نقول یجب على الإنسان ان لا یلحظ عالم الأسباب و قانون العلّیة لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۸

یرى الأسباب شیئا، و لا یعتمد على الوسائل و الأسباب، بل نقول: انّ لا یرى تأثیرا واقعیّا فی السبب، بل یرى راس الخیط فی جمیع الأمور بید مسبّب الأسباب. و بتعبیر آخر: لا یرى للأسباب استقلالا، بل یراها تحت هیمنة الذات المقدّسة للّه سبحانه.

و يمكن ان يكون عدم توجّه الافراد العاديين لهذه الحقيقة الكبرى مدعاة للعفو، و لكن عدم الالتفات و لو بمقدار راس الابرة بالنسبة لأولياء اللّه يكون سببا لمجازاتهم، و ان لم يكن اكثر من «ترك الاولى» و رأينا كيف انّ يوسف بسبب عدم توجّهه لهذه المسألة المهمّة امتدّ حبسه سنوات لينضج آخرا فى «موقد» الحوادث، و ليحصل على استعداد اكبر لمواجهة الطغاة، و ليعلم انّه لا- ينبغى الاعتماد الّا على اللّه. و على المظلومين الذين يسيرون فى طريق (اللّه).

و هذا درس كبير لمن يطوى هذه الطريق و للمجاهدين الصادقين بأن لا يخطر ببالهم الاتّفاق مع الشيطان لضرب شيطان آخر! .. و لئلّا يميلوا الى الشرق او الغرب، و لا يغذّون الخطى الّا على الجادّة الوسطى و هى «الصراط المستقيم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۹

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴۳ الى ۴۹]

اشارة

وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّی أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِی فِی رُءْيایَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (۴۳) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (۴۴) وَ قالَ الَّذِی نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِی سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّی أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِی سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (۴۷)

ثُمَّ يَأْتِی مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِی مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۰

التّفسير

رؤيا ملك مصر و ما جرى له:

بقى يوسف سنين فى السجن المظلم كأى انسان منسىّ، و لم يكن لديه من عمل الّا بناء شخصيته، و ارشاد السجناء و عيادة مرضاهم و تسلية الموجعين منهم.

حتّى غيّرت (حظّه و طالعه) حادثة صغيرة بحسب الظاهر .. و لم تغيّر هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ امّة مصر و ما حولها.

لقد راى ملك مصر الذى يقال انّ اسمه هو «الوليد بن الرّيان» و كان «عزيز مصر وزيره» راى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبّرين للرؤيا و من حوله فقصّ عليهم رؤياه وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّی أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ ثمّ التفت إليهم طالبا منهم تعبير رؤياه فقال: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِی فِی رُءْيایَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ

و لكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ

«الأضغاث» جمع «ضغث» على وزن (حرص) و معناه المجموعة من الحطب او العشب اليابس او الأخضر او شىء آخر، و «الأحلام» جمع «حلم» على وزن «رخم» معناه الطيف و الرؤيا، فيكون معنى أَضْغاثُ أَحْلامٍ هو الاطياف المختلطة، فكأنّها متشكّلة من مجموعة مختلفة و متفاوتة من الأشياء، و جاءت كلمة الأحلام فى جملة وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ مسبوقة بالألف و اللام العهدية و هى اشارة الى انّ المعبّرين غير قادرين على تأويل مثل هذه الأحلام.

و من اللازم ذکر هـذه المسألـة الدقیقـة و هی: انّ اظهار عجز أولئک فی الحقیقـة کان من اجل انّ المفهوم الواقعی لهذه الرؤیا عندهم غیر واضح، و لذلک عدّوها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۱

ضمن الأحلام المختلطة و «الأضغاث» حیث قسّموا الأحلام الی قسمین:

أحلام ذات معنی و هی قابلة للتعبیر.

و أحلام مختلطـة لا معنی لها حیث لم یجـدوا لها تعبیرا و تأویلا .. و کانوا یعـدّون هـذا النوع نتیجة قوّة الخیال، علی العکس من النوع الاوّل الذی یعدّونه نتیجة اتّصال الروح بعالم الغیب.

کمـا انّ هناک احتمال آخر، و هو انّهم توقّعوا ان تقع حوادث مزعجـة فی المسـتقبل، و ما اعتاد علیه حاشـیة الملوک و الطغاة هو ذکر المسائل المریحة لهم فحسب، و کما یصـطلح علیه ما فیه طیب الخاطر، و یمتنعون عن ذکر ما یزعجهم، و هذا احد اسـباب سقوط مثل هذه الحکومات المتجبّرة! هنا یرد سؤال، و هو: کیف تجرّا هؤلاء امام السـلطان، بقولهم جوابا لسؤاله عن رؤیاه انّها أَضْـغاثُ أَحْلامٍ فی حین انّ المعروف عند حاشیة السلطان انّ تفلسف کلّ حرکة منه و لو کانت بغیر معنی و یفسّرونها تفسیرا مقبولا.

من الممکن انّهم رأوا الملـک مهموما من هـذه الرؤیا، و کان من حقّه ذلک لانّه رای سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ یَأْکُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ یابِساتٍ

الا یـدلّ ذلک علی أنّ من الممکن انّ افرادا ضـعافا یتسلّمون السـلطة من یده علی حین غرّة!؟! لذلک قالوا له: أَضْـغاثُ أَحْلامٍ لیرفعوا الکدورة عن خاطره، ای: لا تتأثّر فما هنالک امر مهم، و هذه الأحلام لا یمکن ان تکون دلیلا علی ای شیء.

و هناک احتمال آخر ذکره المفسّرون و هو انّ مرادهم من أَضْغاثُ أَحْلامٍ لم یکن انّ هذه الأحلام لا تأویل لها، بل المراد انّ مثل هذه الأحلام ملتویـة و مجموعة من امور مختلفة، و هم غیر قادرین علی تأویل مثل هذه الأحلام، فهم لم ینکروا إمکان وجود أسـتاذ ماهر و قادر علی تأویل هذه الرؤیا، و انّما أظهروا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۲

عجزهم عن التعبیر و التأویل فحسب.

و هنا تـذکّر ساقی الملک ما حـدث له و لصاحبه فی السـجن مع یوسف، و نجا من السـجن کما بشّره یوسف وَ قالَ الَّذِی نَجا مِنْهُما وَ ادَّکَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُکُمْ بِتَأْوِیلِهِ فَأَرْسِلُونِ

اجـل فی زاویـة السـجن یعیش رجـل حیّ الضـمیر طـاهر القلب مؤمن و قلبه مرآة للحوادث المستقبلیة، انّه الـذی یسـتطیع ان یکشـف الحجاب عن هذه الرؤیا المغلقة و یعبّرها.

جملة فَأَرْسِلُونِ تشـیر الی انّ من الممکن ان یکون یوسف ممنوع المواجهة، و کان الساقی یرید ان یأذن الملک و من حوله بمواجهته لهذا الشأن.

و هکذا حرّک کلام الساقی المجلس و شخصت الأبصار نحوه، و طلبوا منه الاسراع بالذهاب الیه و الإتیان بالخبر.

مضـی الساقی الی السـجن لیری صـدیقه القـدیم .. ذلک الصـدیق الـذی لم یف بوعده له، لکنّه ربّما کان یعرف انّ شخصـیة یوسـف الکریمـة تمنعه من فتـح «بـاب العتاب» فالتفت الیه و قال: یُوسُفُ أَیُّهَا الصِّدِّیقُ أَفْتِنا فِی سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ یَأْکُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ یابِساتٍ لَعَلِّی أَرْجِعُ إِلَی النَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَعْلَمُونَ

کلمـة «الناس» تشـیر الی احتمال انّ رؤیا الملک صـیّرها أطرافه المتملّقون و حاشـیته حادثـة مهمّـة لذلک الیوم، فنشـروها بین الناس و عمّموا حالة «القلق» من القصر الی الوسط الاجتماعی العام.

و علی کـلّ حـال فإنّ یوسف دون ان یطلب شـرطا او قیـدا او اجرا لتعبیره عبّر الرؤیا فورا تعبیرا دقیقا لا غموض فیه و لا حجاب مقرونا

بما ينبغى عمله فى المستقبل و قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا

قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ١٢٥].

ثمّ انّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا امطار و لا زراعة كافية، فعليكم بالاستفادة ممّا جمعتم فى سنىّ الرخاء ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَ

و لكن عليكم ان تحذروا من استهلاك الطعام إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ و إذا واظبتم على هذه الخطّة فحينئذ لا خطر يهدّدكم لانّه ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ ..

و يُغاثُ النَّاسُ اى يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، و ليس هذا فحسب، بل فِيهِ يَعْصِرُونَ المحاصيل لاستخراج الدهن و الفاكهة لشراب عصيرها .. إلخ.

ملاحظات

١- كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقا و محسوبا، حيث كانت البقرة فى الأساطير القديمة مظهر «السنة» .. و كون البقرات سمانا دليل على كثرة النعمة، و كونها عجافا دليل على الجفاف و القحط، و هجوم السبع العجاف على السبع السّمان كان دليلا على ان يستفاد من ذخائر السنوات السابقة.

و سبع سنبلات خضر و قد أحاطت بها سبع سنبلات يابسات تأكيد آخر على هاتين الفترتين فترة النعمة و فترة الشدّة.

اضافة الى انّه اكّد له على هذه المسألة الدقيقة، و هى خزن المحاصيل فى

سنابلها لئلّا تفسد بسرعة و ليكون حفظها الى سبع سنوات ممكنا.

و كون عدد البقرات العجاف و السنابل اليابسات لم يتجاوز السبع لكلّ منهما دليل آخر على انتهاء الجفاف و الشدّة مع انتهاء تلك السنوات السبع .. و بالطبع فإنّ سنّة سيأتى بعد هذه السنوات سنة مليئة بالخيرات و الأمطار، فلا بدّ من التفكير للبذر فى تلك السنة و ان يحتفظوا بشىء ممّا يخزن لها.

فى الحقيقة لم يكن يوسف مفسّرا بسيطا للأحلام، بل كان قائدا يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، و قد قدّم مقترحا من عدّة مواد لخمسة عشر عاما على الأقل، و كما سنرى فإنّ هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك و حاشيته و كان سببا لانقاذ اهل مصر من القحط القاتل من جهة، و ان ينجو يوسف من سجنه و تخرج الحكومة من ايدى الطغاة من جهة اخرى.

٢- مرّة اخرى تعلّمنا هذه القصّة هذا الدرس الكبير و هو انّ قدرة اللّه اكبر ممّا نتصوّر، فهو القادر بسبب رؤيا بسيطة يراها جبابرة الزمان أنفسهم ان ينقذ امّة كبيرة من فاجعة عظيمة، و يخلّص عبده الخالص بعد سنين من الشدائد و المصائب ايضا.

فلا بدّ ان يرى الملك هذه الرؤيا، و لا بدّ ان يحضر الساقى عنده يتذكّر رؤياه فى السجن، و ترتبط أخيرا حوادث مهمّة بعضها ببعض، فاللّه تعالى هو الذى يخلق الحوادث العظيمة من توافه الأمور.

اجل، ينبغى لنا توكيد ارتباطنا القلبى مع هذا الربّ القادر ..

٣- الأحلام المتعدّدة فى هذه السورة، من رؤيا يوسف نفسه الى رؤيا السجينين الى رؤيا فرعون مصر، و الاهتمام الكبير الذى كان يوليه اهل ذلك العصر بالنسبة لتعبير الرؤيا أساسا، يدلّ على انّ تعبير الرؤيا فى ذلك العصر كان من العلوم المتقدّمة، و ربّما وجب- لهذا السبب- ان يكون نبى ذلك العصر- اى

(يوسف)- مطّلعا على مثل هذا العلم الى درجة عالية بحيث يعدّ اعجازا منه.

أ ليست معاجز الأنبياء يجب ان تكون من ابرز العلوم فى زمانهم، ليحصل اليقين- عند العجز من قبل علماء العصر- بأنّ مصدر العلم الذى يحمله نبيّهم هو اللّه!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۶

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۵۰ الى ۵۳]

اشارة

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۵۱) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخائِنِينَ (۵۲) وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳)

التّفسير

تبرئة يوسف من كلّ اتّهام

! لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك- كما قلنا- دقيقا و مدروسا و منطقيا الى درجة انّه جذب الملك و حاشيته اليه، إذ كان يرى انّ سجينا مجهولا عبّر رؤياه بأحسن تعبير و تحليل، دون ان ينتظر اىّ اجر او يتوقّع امرا ما .. كما انّه اعطى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۷

للمستقبل خطّة مدروسة ايضا.

لقد فهم الملك اجمالا انّ يوسف لم يكن رجلا يستحقّ السجن، بل هو شخص اسمى مقاما من الإنسان العادى، دخل السجن نتيجة حادث خفىّ، لذلك تشوّق لرؤيته، و لكن لا- ينبغى للملك ان ينسى غروره و يسرع الى زيارته، بل امر ان يؤتى به اليه كما يقول القرآن: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون ان يثبت براءته، فالتفت الى رسول الملك و قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ اذن ..

فيوسف لم يرغب ان يكون كأى مجرم، او على الأقل كأى متّهم يعيش مشمولا ب «عفو الملك» .. لقد كان يرغب اوّلا ان يحقّق فى سبب حبسه، و ان تثبت براءته و طهارة ذيله، و يخرج من السجن مرفوع الراس، كما يثبت ضمنا تلوّث النظام الحكومى و ما يجرى فى قصر وزيره!.

اجل لقد اهتمّ بكرامة شخصيته و شرفه قبل خروجه من السجن، و هذا هو نهج الأحرار.

الطريف هنا انّ يوسف فى عبارته هذه أبدى سموا فى شخصيته الى درجة انّه لم يكن مستعدّا لانّ يصرّح باسم امراة العزيز التى كانت السبب المباشر فى اتّهامه و حبسه، بل اكتفى بالاشارة الى جماعة النسوة اللاتى لهنّ علاقة بهذا الموضوع فحسب.

ثمّ يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجنى شعب مصر و لا جهازه الحكومى و بأى سبب وصلت السجن، فاللّه مطّلع على ذلك إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

عاد المبعوث من قبل الملك الى يوسف مرّة ثانية الى الملك، و أخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إبائه و علوّ همّته، لذا عظم

يوسف فى نفس الملك و بادر مسرعا الى إحضار النسوة اللائى شاركن فى الحادثة، و التفت اليهنّ قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ يجب ان تقلن الحقّ .. هل ارتكب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۸

يوسف خطيئة او ذنبا؟

فتيقّظ فجأة الوجدان النائم فى نفوسهنّ، و أجبنه جميعا بكلام واحد- متّفق على طهارته و قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ.

امّا امراة العزيز التى كانت حاضرة ايضا، و كانت تصغى بدقّة الى حديث الملك و نسوة مصر، فلم تجد فى نفسها القدرة على السكوت، و دون ان تسأل احسّت بأنّ الوقت قد حان لانّ تنزّه يوسف و ان تعوّض عن تبكيت وجدانها و حيائها و ذنبها بشهادتها القاطعة فى حقّه، و خاصّة انّها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته الى الملك، إذ لم يعرّض فيها بالطعن فى شخصيتها و كان كلامه عامّا و مغلقا تحت عنوان «نسوة مصر».

فكأنّما حدث انفجار فى داخلها فجأة و صرخت و قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ

ثمّ واصلت امراة العزيز كلامها ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ لانّى عرفت بعد هذه المدّة الطويلة و ما عندى من التجارب أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِی كَيْدَ الْخائِنِينَ

فى الحقيقة (بناء على انّ الجملة المتقدّمة لامراة العزيز كما يقتضيه ظاهر العبارة) فانّها و من اجل اعترافها الصريح بنزاهة يوسف و ما اخطأته فى حقّه، تقيم دليلين:

الاوّل: انّ وجدانها، و يحتمل بقايا علاقتها بيوسف، لا تسمح لها ان تستر الحقّ اكثر من هذا، و ان تخون هذا الشاب الطاهر فى غيابه.

الثّانى: انّ من مشاهدة الدروس المليئة بالعبر على مرور الزمن تجلّت لها هذه الحقيقة، و هى انّ اللّه يرعى الصالحين و لا يوفّق الخائنين فى مرادهم ابدا.

و بهذا بدأت الحجب تنقشع عن عينيها قليلا قليلا .. و تلمس حقيقة الحياة و لا سيّما فى هزيمة عشقها الذى صنع غرورها و شخصيتها الخياليّة، و انفتحت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۹

عيناها على الواقع اكثر، فلا عجب ان تعترف هذا الاعتراف الصريح.

و تواصل امراة العزيز القول: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِی إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّی و بحفظه و اعانته نبقى مصونين، و انا أرجو ان يغفر لى ربّى هذا الذنب إِنَّ رَبِّی غَفُورٌ رَحِيمٌ

قال بعض المفسّرين: انّ الآيتين الأخيرتين من كلام يوسف، و قالوا: انّهما فى الحقيقة تعقيب لما قاله يوسف لرسول الملك و معنى الكلام يكون هكذا.

«إذا قلت حقّقوا عن شأن النسوة اللائى قطّعن أيديهن، فمن اجل ان يعلم الملك او عزيز مصر الذى هو وزيره، انّى لم اخنه فى غيابه و اللّه لا يهدى كيد الخائنين كما لا أبرئ نفسى لانّ النفس امّارة بالسوء الّا ما رحم ربّى انّ ربّى غفور رحيم».

الظاهر انّ الهدف من هذا التّفسير المخالف لظاهر الآية انّهم صعب عليهم قبول هذا المقدار من العلم و المعرفة لامراة العزيز التى تقول بلحن مخلص و حاك عن التنبّه و التيقّظ.

و الحال انّه لا- يبعد انّ الإنسان حين يرتطم فى حياته بصخرة صمّاء، تظهر فى نفسه حالة من التيقّظ المقرون بالاحساس بالذنب و الخجل، خاصّة انّه لوحظ انّ الهزيمة فى العشق المجازى يجرّ الإنسان الى طريق العشق الحقيقى «عشق اللّه».

و بالتعبير علم النفس المعاصر: انّ تلك الميول النفسية المكبوتة يحصل فيها حالة ال «تصعيد» و بدلا من تلاشيها و زوالها فانّها تتجلّى بشكل عال.

ثمّ انّ قسما من الرّوايات التى تشرح حال امراة العزيز- فى السنين الاخيرة من حياتها- دليل على هذا التيقّظ و الانتباه ايضا.

و بعد هذا كلّه فربط هاتين الآيتين بيوسف- الى درجة ما- بعيد، و هو خلاف الظاهر بحيث لا ينسجم مع اى من المعايير الادبية للأسباب الآتية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۰

اوّلا: كلمة «ذلك» التى ذكرت فى بداية الآية هى بعنوان ذكر العلّة، اى علّة الكلام المتقدّم الذى لم يكن سوى كلام امراة العزيز فحسب، و ربط هذا التذييل بكلام يوسف الوارد فى الآيات السابقة امر عجيب.

ثانيا: إذا كانت هاتان الآيتان بيانا لكلام يوسف فسيبدو بينهما نوع من التناقض و التضادّ، فمن جهة يقول: انّى لم اخنه بالغيب، و مرّة يقول: و ما أبرئ نفسى انّ النفس لامّارة بالسوء. و هذا الكلام لا يقوله الّا من يعثر او يزل و لو يسيرا، فى حين انّ يوسف لم يصدر منه اى زلل.

و ثالثا: إذا كان مقصوده ان يعرف عزيز مصر انّه برىء فهو من البداية «بعد شهادة الشاهد» عرف الواقع، و لذلك قال لامراته: اسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ و إذا كان مقصوده انّه لم يخن الملك، فلا علاقة للملك بهذا الأمر، و التوسّل الى تفسيرهم هذا بحجّة انّ الخيانة لامراة العزيز خيانة للملك الجبّار، فهو حجّة واهية- كما يبدو- خاصّة انّ حاشية القصر لا يكترثون بمثل هذه المسائل.

و خلاصة القول: انّ هذا الارتباط فى الآيات يدلّ على انّ جميع ما ورد فى السياق من كلام امراة العزيز التى انتبهت و تيقّظت و اعترفت بهذه الحقائق.

ملاحظات

۱- هذه عاقبة التقوى

رأينا فى هذا القسم من قصّة يوسف انّ عدوّته المعاندة «زليخا» اعترفت أخيرا بطهارته، كما اعترفت بذنبها و خطئها .. و ببراءته .. و هذه عاقبة التقوى و طهارة الثوب، و هذا معنى قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ

فكن طاهرا و استقم فى طريق «الطهارة» فاللّه حاميك و لا يسمح للملوّثين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۱

ان يسيئوا إليك.

۲- الهزائم التى تكون سببا للتيقّظ

لا تكون الهزائم هزائم دائما، بل- فى كثير من الأحيان- تعدّ الهزيمة هزيمة فى الظاهر الّا انّها فى الباطن نوع من الانتصار المعنوى، و هذه هى الهزائم التى تكون سببا لتيقّظ الإنسان، و تشقّ حجب الغفلة و الغرور عنه، و تعدّ نقطة انعطاف جديدة فى حياته.

فامرأة العزيز التى تدعى «زليخا» او «راعيل» و إن ابتليت فى عملها بأشدّ الهزائم، لكن هذه الهزيمة فى مسير الذنب كانت سببا لأنّ تنتبه و يتيقّظ وجدانها النائم، و ان تندم على ما فات من عملها .. و التفتت الى ساحة اللّه. و ما ينقل من قصتها بعد لقائها ليوسف و هو عزيز مصر- آنئذ- شاهد على هذا المدّعى، إذ قالت:

«الحمد للّه الذى جعل العبيد ملوكا بطاعته و جعل الملوك عبيدا بمعصيته».

و نقرا فى نهاية الحديث انّ يوسف تزوّج منها أخيرا[۱۲۶].

السعداء هم أولئك الذين يصنعون من الهزائم انتصارا، و من سوء الحظّ حظّا حسنا، و من اخطائهم طريقا صحيحا للحياة.

و بالطبع فليس ردّ الفعل من قبل جميع الافراد إزاء الهزائم هكذا ...

فالأشخاص الضعاف حين تصيبهم الهزيمة ييأسون و يكتنف القنوط جميع وجودهم، و قد يؤدّى بهم الى الانتحار و هذه هى الهزيمة الحقيقيّة.

لكن الذين يشعرون بكرامتهم و شخصيّتهم، يسعون لان يجعلوا الهزائم سلّما لصعودهم و ترقّيهم و جسرا لانتصارهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۲

۳- الحفاظ على الشرف خير من الحرية الظاهرية

رأينا انّ يوسف لم يدخل السجن لطهارة ثوبه فحسب، بل لم يكن مستعدّا للخروج من السجن حتّى يعود مبعوث الملك و يجرى التحقيقات حول النسوة اللائى قطّعن أيديهن لتثبت براءته و يخرج من السجن مرفوع الراس ... لا ان يخرج كأى مجرم ملوّث يشمله عفو الملك!! و ذلك ذلّ و اى ذلّ! و هذا درس لكلّ الناس فى الماضى و الحاضر و المستقبل.

۴- النفس الامّارة «المتمرّدة»

يقسّم علماء النفس و الأخلاق النفس «و هى الإحساسات و الغرائز و العواطف الانسانية» الى ثلاثة مراحل، و قد أشار إليها القرآن المجيد:

المرحلة الاولى: «النفس الامّارة» و هى النفس التى تأمر الإنسان بالذنب و تجرّه الى كلّ جانب، و لذا سمّوها «امّارة» و فى هذه المرحلة لا يكون العقل و الايمان قد بلغا مرحلة من القدرة ليكبحا جماحها، بل فى كثير من المواقع يستسلمان للنفس الامّارة، و إذا تصارعت النفس الامّارة مع العقل فى هذه المرحلة فإنّها ستهزمه و تطرحه أرضا.

و هذه المرحلة هى التى أشير إليها فى الآية المتقدّمة، و جرت على لسان امراة العزيز بمصر، و جميع شقاء الإنسان أساسه النفس الامّارة بالسوء.

المرحلة الثّانية: «النفس اللوّامة» و هى التى ترتقى بالإنسان بعد التعلّم و التربية و المجاهدة، و فى هذه المرحلة ربّما يخطئ الإنسان نتيجة طغيان الغرائز، لكن سرعان ما يندم و تلومه هذه النفس، و يصمّم على تجاوز هذا الخطأ و التعويض عنه، و يغسل قلبه و روحه بماء التوبة.

و بعبارة اخرى: فى المواجهة بين النفس و العقل، قد ينتصر العقل أحيانا و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۳

تنتصر النفس، الّا انّ النتيجة و الكفّة الراجحة هى للعقل و الايمان.

و من اجل الوصول الى هذه المرحلة لا بدّ من الجهاد الأكبر، و التمرين الكافى، و التربية فى مدرسة الأستاذ، و الاستلهام من كلام اللّه و سنن الأنبياء و الائمّة عليهم السّلام.

و هذه المرحلة هى التى اقسم اللّه بها فى سورة القيامة قسما يدلّ على عظمتها لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ.

المرحلة الثّالثة: «النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» و هى المرحلة التى توصل الإنسان بعد التصفية و التهذيب الكامل الى ان يسيطر على غرائزه و

يروّضها فلا تجد القدرة للمواجهة مع العقل و الايمان، لانّ العقل و الايمان بلغا درجة من القوّة بحيث لا تقف امامهما الغرائز الحيوانية.

و هذه هى مرحلة الاطمئنان و السكينة ... الاطمئنان الذى يحكم المحيطات و البحار حيث لا يظهر عليها الانهزام امام اشدّ الأعاصير.

و هذا هو مقام الأنبياء و الأولياء و اتباعهم الصادقين، أولئك الذين تدارسوا الايمان و التقوى فى مدرسة رجال اللّه، و هذّبوا أنفسهم سنين طوالا، و واصلوا الجهاد الأكبر الى آخر مرحلة.

و إليهم و الى أمثالهم يشير القرآن الكريم فى سورة الفجر يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبادِى وَ ادْخُلِى جَنَّتِى

اللهمّ اعنّا لنستضىء بنور آياتك، و نصعّد أنفسنا الامّارة الى اللّوامة و منها الى النفس المطمئنة .. و لنجد روحا مطمئنا لا يضطرب و لا يتزلزل امام طوفان الحوادث، و ان نكون أقوياء امام الأعداء، و لا تبهرنا زخارف الدنيا و زبارجها، و ان نصبر على البأساء و الضرّاء.

اللهمّ ارزقنا العقل لننتصر على اهوائنا .. و نوّرنا إذا كنّا على خطأ بالتوفيق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۴

و الهداية.

اللهمّ انّنا لم نبلغ هذه المرحلة بخطانا، بل كنت أنت فى كلّ مرحلة دليلنا و قائدنا، فلا تحبس الطافك عنّا ... و إذا كان عدم شكرنا على جميع هذه النعم مستوجبا لعقابك، فأيقظنا من نومة الغافلين قبل ان نذوق العذاب آمين ربّ العالمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۵

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۵۴ الى ۵۷]

اشارة

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴) قالَ اجْعَلْنِى عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

التّفسير

يوسف أمينا على خزائن مصر:

رأينا انّ يوسف- هذا النّبى العظيم- ثبتت براءته أخيرا للجميع، و حتّى الأعداء شهدوا بطهارته و نزاهته، و ظهر لهم انّ الذنب الوحيد الذى أودع من اجله السجن لم يكن غير التقوى و الامانة التى كان يتحلّى بهما.

اضافة الى هذا فقد ثبت لهم انّ هذا السجين منهل العلم و المعرفة و النّباهة و طاقة فذّة و عالية فى الادارة، حيث انّه حينما فسّر رؤيا الملك (و هو سلطان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۶

مصر) بيّن له الطرق الكفيلة للخلاص من المشكلة الاقتصادية المتفاقمة القادمة.

ثمّ يستمر القرآن بذكر القصّة فيقول: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى و هكذا امر الملك بإحضاره لكى يجعله مستشاره الخاص و نائبه فى المهمّات فيستفيد من علمه و معرفته و خبرته لحلّ المشاكل المستعصية.

ثمّ أرسل الملك مندوبا لزيارته فى السجن، فدخل عليه و أبلغه تحيات الملك و عواطفه القلبية تجاهه ثمّ قال له: انّه قد لبّى طلبك فى البحث و التحقيق عن نساء مصر و اتّهامهنّ ايّاك، حيث شهدنّ جميعهنّ صراحة ببراءتك و نزاهتك فالآن لا مجال للتأخير، قم لنذهب الى الملك.

فدخل يوسف على الملك و تكلّم معه فعند ما سمع من يوسف الاجوبة التى تحكى عن علمه و فراسته و ذكائه الحادّ، ازداد حبّا له و قال: انّ لك اليوم عندنا منزلة رفيعة و سلطات واسعة و انّك فى موضع ثقتنا و اعتمادنا فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ فلا بدّ ان تتصدّى للمناصب الهامّة فى هذا البلد، و تهتمّ بإصلاح الأمور الفاسدة، و انّك تعلم (حينما فسّرت الرؤيا) بأنّ ازمة اقتصادية شديدة سوف تعصف بهذا البلد، و فى تصوّرى انّك الشخص الوحيد القادر على ان يتغلّب على هذه الازمة.

فاختار يوسف منصب الامانة على خزائن مصر، و قال اجعلنى مشرفا على خزائن هذا البلد فإنّى حفيظ عليم و على معرفة تامّة بأسرار المهنة و خصائصها قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ

كان يوسف يعلم انّ جانبا كبيرا من الاضطراب الحاصل فى ذلك المجتمع الكبير المليء بالظلم و الجور يكمن فى القضايا الاقتصادية، و الآن و بعد ان عجزت اجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل و اضطرّوا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له ان يسيطر على اقتصاد مصر حتّى يتمكّن من مساعدة المستضعفين و ان يخفّف عنهم- قدر ما يستطيع- الآلام و المصاعب و يستردّ حقوقهم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۷

الظالمين. و يقوم بترتيب الأوضاع المتردّية فى ذلك البلد الكبير، و يجعل الزراعة و تنظيمها هدفه الاوّل و خاصّة بعد وقوفه على انّ السنين القادمة هى سنوات الوفرة حيث تليها سنوات المجاعة و القحط، فيدعو الناس الى الزراعة و زيادة الانتاج و عدم الإسراف فى استعمال المنتوجات الزراعية و تقنين الحبوب و خزنها و الاستفادة منها فى ايّام القحط و الشدّة.

و هكذا لم ير يوسف بدّا من توليّة منصب الاشراف على خزائن مصر.

و قال البعض: انّ الملك حينما راى فى تلك السنة انّ الأمور قد ضاقت عليه و عجز عن حلّها، كان يبحث عمّن يعتمد عليه و ينجّيه من المصاعب، فمن هنا حينما قابل يوسف و رآه أهلا لذلك أعطاه مقاليد الحكم بأجمعها و استقال هو من منصبه.

و قال آخرون: انّ الملك جعله فى منصب الوزير الاوّل بديلا عن (عزيز مصر).

و الاحتمال الآخر هو انّه بقى مشرفا على خزائن مصر- و هذا ما يستفاد من ظاهر الآية الكريمة، الّا انّ الآيتين (۱۰۰) و (۱۰۱) و اللتين يأتى تفسيرهما بإذن اللّه تدلّان على انّه أخيرا استقلّ بأمور مصر- بدل الملك و صار هو ملكا على مصر.

و برغم انّ الآية رقم (۸۸) تقول: انّ اخوة يوسف حينما دخلوا عليه نادوه باسم يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ و هذا دليل على انّه استقلّ بمنصب عزيز مصر، لكن نقول:

انّه لا مانع من ان يكون يوسف قد ارتقى سلّم المناصب تدريجا حيث كان فى اوّل الأمر مشرفا على الخزائن، ثمّ جعل الوزير الاوّل، و أخيرا صار ملكا على مصر.

ثمّ يقول اللّه سبحانه و تعالى منهيا بذلك قصّة يوسف عليه السّلام: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۸

نعم انّ اللّه سبحانه و تعالى ينزل رحمته و بركاته و نعمه المادية و المعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلا لذلك نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ.

و انّه سبحانه و تعالى لا ينسى ان يجازى المحسنين، و انّه مهما طالت المدّة فإنّه يجازيهم بجزائه الأوفى وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

و لكن لا يقتصر سبحانه و تعالى على مجازاة المحسنين فى الدنيا، بل يجازى المتّقين و المحسنين بأحسن من ذلك فى الآخرة و هو الجزاء الأوفى وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ

بحوث

١- كيف استجاب يوسف لطلب طاغوت زمانه

؟ بالنسبة للآيات المتقدّمة فإنّ اوّل ما يجلب إليها النظر هو انّه كيف لبّى يوسف- هذا النّبى العظيم- طلب طاغوت زمانه و تعاون معه و تحمّل منصب الوزارة او الاشراف على خزينة الدولة؟

جواب هذا السؤال- فى الحقيقة- يكمن فى نفس الآيات السابقة، فإنّه قد تحمّل هذه المسؤولية بعنوان انّه حَفِيظٌ عَلِيمٌ كى يحفظ بيت المال المتضمّن لاموال الشعب و يستثمره فى سبيل منافعهم، و بخاصّة حقوق الطبقة المحرومة و التى غالبا ما يستولى عليها المستكبرون.

اضافة الى هذا فإنّه عن طريق معرفته بتعبير الرؤيا- كما ذكرنا- كان على علم بالأزمة الاقتصادية الشديدة التى سوف تعصف بالشعب المصرى، بحيث لولا التخطيط الدقيق و الاشراف المباشر عليها لماتت جماعات كثيرة من الشعب .. فبناء على هذا فإنّ انقاذ حياة الامّة و الاحتفاظ بأرواح شعب برىء يقتضى ان يستفيد يوسف من هذه الفرصة التى أتيحت له و يستغلّها لأجل خدمة جميع افراد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۹

الشعب، و بخاصّة المحرومين منهم حيث انّهم عادة ما يكونون اوّل ضحايا الازمة الاقتصادية و اكثر المتضرّرين من الغلاء.

و قد ورد كلام مفصّل حول هذا الموضوع فى بحث استجابة طلب الظالم و قبول الولاية فى علم الفقه، و انّ استجابة طلب الظالم و التصدّى لمناصب الحكم لا يكون حراما دائما، بل تارة يكون مستحبّا، و قد يكون فى بعض الأحيان واجبا شرعا، و ذلك إذا كانت منفعة التصدّى و مرجّحاته الدينيّة اكثر من الإضرار الناتجة عن التصدّى من دعم حكم الظالم و غيره.

و نلاحظ فى روايات عديدة انّ ائمّة اهل البيت عليهم السّلام كانوا يجوّزون لبعض خلّص شيعتهم و أصحابهم أمثال على بن يقطين- الذى كان من اصحاب الكاظم عليه السّلام- حيث تصدّى لمنصب الوزارة لفرعون زمانه- هارون الرشيد- و ذلك بأمر من الامام عليه السّلام، غاية ما فى الأمر انّ الاستجابة و التصدّى لمناصب الحكم او ردّها تابعان لقانون «الأهم و المهم».

فلا بدّ من ملاحظة المنافع الدينيّة و الاجتماعية و مقارنتها مع الإضرار الناتجة، إذ لعلّ الذى يتصدّى للمنصب قد يستطيع فى نهاية المطاف ان يزيح الظالم عن الحكم (كما حدث ليوسف بناء على مضمون بعض الرّوايات الواردة) او يكون المعين الذى تنبثق منه الحركات و الثورات، لانّه يقوم بتهيئة مقدّمات الثورة من داخل اجهزة الحكم القائم (و يمكن ان يكون مؤمن آل فرعون من هذا القبيل) او يكون على الأقل ملجأ و ملاذا للمظلومين و المحرومين و مخفّفا عن آلامهم و الضغوط الواردة عليهم من قبل اجهزة النظام.

و كلّ واحد من هذه الأمور يمكن ان يكون مبرّرا للتصدّى للمناصب و قبولها من الحاكم الظالم، و للإمام الصادق عليه السّلام رواية معروفة فى حقّ هؤلاء الأشخاص

يقول عليه السّلام (كفّارة عمل السلطان قضاء حوائج الاخوان)[١٢٧].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۰

لكن هذا الموضوع- التعاون مع الظالم- من الأمور التى يقترب فيها حدود الحلال من الحرام، و كثيرا ما يؤدّى تهاون صغير من الشخص المتصدّى الى وقوعه فى اشراك النظام و ارتكاب جريمة تعدّ من اكبر الجرائم و أفظعها- و هى التعاون مع الظالم- فى حين يتصوّر انّه يقوم بعبادة و خدمة انسانية مشكورة.

و قد يستفيد بعض الانتهازيين من حياة (يوسف) او (على بن يقطين) و يتّخذه ذريعة للتعاون مع الظالم و تغطية لاعمالهم الشريرة، فى حين انّه يوجد بون شاسع بين تصرّفاتهم و تصرّفات يوسف او على بن يقطين ١٢٨].

هنا سؤال آخر یطرح نفسه و هو انّه کیف رضخ سلطان مصر الظالم لهذا الأمر- و استجاب لطلب یوسف- مع علمه بأنّ یوسف لا یسیر بسیرة الظالمین و المستثمرین و المستعمرین، بل یکون علی العکس من ذلک معادیا لهم؟

الاجابة علی هذا السؤال لا- تکون صعبة مع ملاحظة امر واحد و هو انّه تارة تحیط الأزمات الاقتصادیة و الاجتماعیة بالظالم بحیث تزلزل ارکان حکومته الظالمة، فیری الخطر محدقا بحکومته و بکلّ شیء یتعلّق بها ... فی هذه الحالة و تجنّبا من السقوط التامّ لا یمانع، بل یدعم قیام حکومة شعبیة عادلة لکی یحافظ علی حیاته و بجزء من سلطته.

۲- اهمیّة المسائل الاقتصادیة و الاداریة

رغم انّنا لا نتّفق مع الرؤیة التی تنظر الی الأمور بمنظار واحد و تحصر جمیع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۱

الأمور فی القضایا الاقتصادیة دون إعطاء ای دور للإنسان، و لکن برغم ذلک فإنّه لا یمکن غضّ النظر عن اهمیة القضایا الاقتصادیة و دورها فی المجتمعات، و الآیات السابقة تشیر إلی هذه الحقیقة، و الملاحظ انّ یوسف رکّز من بین جمیع مناصب الدولة علی منصب الاشراف علی الخزانة، و ذلک لعلمه انّه إذا نجح فی ترتیب اقتصاد مصر، فإنّه یتمکّن من إصلاح کثیر من المفاسد الاجتماعیة، کما انّ تنفیذه للعدالة الاقتصادیة یؤدّی الی سیطرته علی سائر دوائر الدولة و جعلها تحت امرته.

و قد اهتمّت الرّوایات الاسلامیة بهذا الموضوع اهتماما کبیرا، فمثلا نری فی الرّوایة المعروفة المرویة عن امیر المؤمنین علی علیه السّلام انّه جعل (قوام الدین و الدنیا) فی رکنین: أحدهما القضایا الاقتصادیة و ما یقوم علیه معاش الناس، و الرّکن الآخر هو العلم و المعرفة.

و برغم انّ المسلمین قد أهملوا هذا الجانب من الحیاة الفردیة و الاجتماعیة الذی اهتمّ به الإسلام کثیرا و تأخّروا عن اعداء الإسلام فی هذا الجانب، الّا انّ یقظة المجتمعات الاسلامیة المتزایدة و توجّههم نحو الإسلام یزید الأمل فی النفوس بأن تزید من نشاطها الاقتصادی و تعتبره عبادة اسلامیة کبری، و تقوم ببناء نظام اقتصادی مدروس وفق خطط محکمة لکی تعود إلیهم قوّتهم و نشاطهم.

و هنا نقطة اخری یجب التنبیه علیها، و هی انّنا نلاحظ انّ یوسف علیه السّلام یخاطب الملک و یقول له: إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ و هذه اشارة الی اهمیّة عنصر الادارة الی جانب عنصر الامانة و انّ توفّر عنصر الامانة و التقوی فقط فی شخص لا یؤهّله لان یتصدّی لأحد المناصب الاجتماعیة الحسّاسة، بل لا- بدّ من اجتماع ذلک العامل مع العلم و التخصّص و القدرة علی الادارة، لکونه قرن ال (علیم) مع ال (حفیظ) و کثیرا ما نشاهد الإضرار الناتجة عن سوء الادارة لا تقلّ بل تزید علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۲

الخسائر الناتجة عن الخیانة! فهذه التعلیمات الاسلامیة صریحة فی اهمیّة جانب الادارة و القدرة علیها، و مع ذلک نری تهاون بعض المسلمین بهذا الجانب، فالمهمّ لدیهم هو نصب الأشخاص الذین یطمئنون الی تقواهم و أمانتهم لادارة الأمور، مع انّ السیرة النبویة الشریفة صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کذلک سیرة علی علیه السّلام ترشدان الی انّهما کانا یهتمّان اهتماما کبیرا بالجانب الاداری و القدرة علی الادارة مع اهتمامهم بأمانة الشخص و سلوکه الحسن.

۳- الرّقابة علی الاستهلاک

الملاحظ فی القضایا الاقتصادیة انّه قد لا تکون (زیادة الانتاج) بمکان من الاهمیّة بقدر اهمیّة (الرقابة علی الاستهلاک) و من هنا

نشاهـد انّ يوسف فى ايّام حكومته، حاول- بشدّة- ان يسيطر على الاستهلاك الداخلى فى سنوات الوفرة لكى يتمكّن من الاحتفاظ بجزء كبير من المنتوجات الزراعيـة لسنوات القحط و المجاعـة القادمـة، و فى الحقيقـة انّ زيادة الانتاج و الرقابـة متلازمان لا يفترقان، فالزيادة فى الانتاج لا تثمر الّا إذا أعقبتها رقابة صحيحة، كما انّ الرقابة تكون اكثر فائدة إذا أعقبتها زيادة فى الانتاج.

انّ السياسة الاقتصادية التى انتهجها يوسف عليه السّلام فى مصر أظهرت انّ الخطّة الاقتصادية الصحيحة و المتطورة مع الزمن لا يمكن ان تقتصر على متطلّبات الجيل الحاضر، بل لا بدّ و ان تراعى مصالح الأجيال القادمة، لانّ التفكير بالمصالح المستعجلة للجيل الحاضر و التغاضى عن مصالح الأجيال القادمة- كما لو استهلكنا جميع ثروات الأرض- تعتبر غاية الانانية و حبّ الذات، إذ انّ الأجيال القادمة هم فى الواقع إخوتنا و أبناؤنا فلا بدّ من التفكير فى مصالحهم و عدم التفريط بها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۳

و الملفت للنظر انّه يستفاد من بعض الرّوايات الواردة كما

ورد عن الامـام على بن موسـى الرّضـا عليهمـا السّـلام «و اقبـل يوسـف على جمع الطعـام فجمع فى السبع سـنين المخصـبة فكبسه فى الخزائن، فلمّا مضت تلك السنون و أقبلت المجدبـة اقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم فى السنـة الاولى بالـدراهم و الدنانير حتى لم يبق بمصـر و ما حولها دينار و لا درهم الّا صار فى مملكـة يوسف، و باعهم فى السنـة الثّانية بالحلى و الجواهر حتى لم يبق بمصـر و ما حولها حلى و لا جواهر الا صار فى ملكة يوسف، و باعهم فى السنـة الثّالثة بالدّواب و المواشى حتى لم يبق بمصر و ما حولها دابة و لا ماشـية الّا صار فى ملكيـة يوسف، و باعهم فى السنـة الرّابعـة بالعبيـد و الإماء حتى لم يبق بمصـر و من حولها عبـد و لا امـة الّا صار فى ملكيـة يوسف، و باعهم فى السنـة الخامسـة بالـدّور و العقار حتى لم يبق بمصـر و ما حولها دار و لا عقار الّا صار فى ملكيـة يوسف، و باعهم فى السنـة السّادسة بالمزارع و الأنهار حتى لم يبق بمصـر و ما حولها نهر و لا مزرعة الّا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة السّابعـة برقابهم حتى لم يبق بمصـر و ما حولها عبد و لا حرّ الّا صار عبد يوسف، فملك احرارهم و عبيدهم و أموالهم و قال النّاس: ما رأينا و لا سـمعنا بملك أعطاه اللّه من الملك ما اعطى هـذا الملك حكما و علما و تدبيرا، ثمّ قال يوسف للملك: ايّها الملك ما ترى فيما خولنى ربّى من ملك مصر و أهلها اشر علينا برأيك، فإنّى لم أصلحهم لافسدهم، و لم انجهم من البلاء ليكون وبالا عليهم و لكن اللّه نجاهم على يدى، قال له الملك: الرّاى رأيك، قال يوسف: انّى اشـهد اللّه و أشـهدك ايّها الملك انّى اعتقت اهل مصـر كلّهم، و رددت إليهم أموالهم و عبيـدهم، و رددت إليك ايّها الملك خاتمك و سـريرك و تاجك على ان لا تسـير الّا بسيرتى و لا تحكم الّا بحكمى قال له الملك: انّ ذلك لشـرفى و فخرى لا أسـير الّا بسيرتك و لا احكم الّا بحكمك، و لولاك ما قويت عليه و لا اهتـديت له، و لقد جعلت سلطانى عزيزا ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۴

يرام، و انا اشهد ان لا اله الّا اللّه وحده لا شريك له، و أنت رسوله فأقم على ما وليتك فإنّك لدينا مكين أمين»[۱۲۹].

۴- مدح النفس

لاـ شكّ فى انّ مـدح الإنسان نفسه يعـدّ من الأمور القبيحـة، و لكن ليست هـذه قاعـدة عامّـة، بل قـد تقتضـى الأمور بأن يقوم الإنسان بعرض نفسه على المجتمع و الإعلان عن خبراته و تجاربه، لكى يتعرّف عليه الناس و يستفيدوا من خبراته و لا يبقى كنزا مستورا.

و قـد مرّ علينا فى الآيات السابقـة انّ يوسف حينما تولّى مسئولية الاشـراف على خزائن مصـر وصف نفسه بأنّه: حَفِيظٌ عَلِيمٌ و كان هذا الوصف من يوسف لنفسه ضـروريا و ذلك حتّى يعرف شـعب مصـر و مليكها انّه يمتلك الصـفات اللازمـة التى تؤهله للتصـدّى لهـذا المنصب.

و من هنا نقرا

فی تفسیر العیاشی نقلا عن الامام الصّادق علیه السّلام انّه حینما سئل عن الحکم الشرعی لمدح الإنسان نفسه؟ أجاب علیه السّلام «نعم إذا اضطرّ الیه، امّا سمعت قول یوسف اجعلنی علی خزائن الأرض انّی حفیظ علیم، و قول العبد الصالح: و انا لکم ناصح أمین»[۱۳۰].

و من هنا یتّضح لنا جلیّا فلسفهٔ مدح الامام علی علیه السّلام نفسه فی بعض الخطب، فمثلا

یقول فی خطبهٔ الشقشقیهٔ واصفا نفسه: (... انّ محلی منها محلّ القطب من الرّحی ینحدر عنّی السیل و لا یرقی الیّ الطیر ...)

فمثل هذه الأوصاف هی فی الواقع لأجل إیقاظ الغافلین و إرشادهم الی الاستفادهٔ من هذا المنهل العذب فی سبیل الوصول الی سعادهٔ الفرد و المجتمع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۵

۵- افضلیّهٔ الجزاء المعنوی علی سواه

برغم انّ کثیرا من المؤمنین الخیرین یلقون فی هذه الدنیا جزاء اعمالهم الخیرهٔ، کما هو الحال بالنسبهٔ لیوسف حیث جوزی جزاء حسنا، لعفافه و تقواه و صبره علی البلاء، إذ لو کان آثما لما اعتلی هذا المنصب، و لکن هذا لا یعنی انّ علی الإنسان ان ینتظر الجزاء فی هذه الدنیا و یتوهّم انّ الجزاء یجب ان یکون مادیّا و ملموسا و فی هذه الدنیا و یری تأخیر الجزاء ظلما فی حقّه، لکن هذا التصوّر بعید عن الواقع، لانّ الجزاء الأوفی هو ما یوافی الإنسان فی حیاته القادمهٔ.

و لعلّ لدفع هذا التوهّم الخاطئ و انّ ما جوزی به یوسف هو الجزاء الأوفی، یقول القرآن الکریم وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ

۶- الدفاع عن المسجونین

برغم انّ السجن لم یکن دائما محلا للأخیار، بل یستضیف تارهٔ الابریاء و تارهٔ المجرمین، لکنّ القواعد الانسانیهٔ تستوجب التعامل الحسن مع السجناء، حتّی و لو کانوا مجرمین.

و قد یتصوّر البعض أنّ الدفاع عن المسجونین من مبتکرات العصر الحدیث، لکن المتتبع للتاریخ الاسلامی یری انّه منذ الایّام الاولی لقیام دولهٔ الإسلام کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یؤکّد و یوصی علی التعامل الحسن مع الأسری و المسجونین- کما قرانا جمیعا وصیّهٔ علی علیه السّلام فی حقّ المجرم الذی قام باغتیاله (و هو عبد الرّحمن بن ملجم المرادی) حیث امر ان یرفق به و حتّی انّه علیه السّلام بعث الیه من اللبن الذی کان یشربه و عند ما أرادوا قتله قال: ضربهٔ بضربهٔ.

کما انّ یوسف حینما کان فی السجن کان یعدّ أخا حمیما و صدیقا وفیّا و مستشارا أمینا لجمیع نزلاء السجن، و حینما خرج من السجن- امر ان یکتب-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۶

لجلب انتباه العالمین- علی بابه

«هذا قبور الاحیاء، و بیت الأحزان، و تجربهٔ الأصدقاء، و شماتهٔ الأعداء»[۱۳۱].

و اظهر لهم بهذا الدعاء عطفه و محبّته حیث

قال: «اللهمّ اعطف علیهم بقلوب الأخیار، و لا تعم علیهم الاخبار»[۱۳۲].

و الطريف انّنا نقرا

فی سياق الحديث السابق انّه: «فذلک يكون اصحاب السجن اعرف الناس بالاخبار فی كلّ بلدة».

و قـد مرّت علينا هـذه التجربة فی ايّام السـجن، حيث كانت تصـلنا الاخبار و بصورة منتظمة- الّا فی بعض الحالات النادرة- و عن طرق خفيّة لا يكشـفها السـجّانون، و كثيرا ما كان الذی يدخل الی السـجن يطّلع علی بعض الاخبار التی لم يكن قد سـمعها عند ما كان فی الخارج، و الحديث عن هذا الموضوع طويل و قد يخرجنا عن هدف هذا الكتاب.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۷

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۵۸ الی ۶۲]

اشارة

وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵۸) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِی بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لا تَرَوْنَ أَنِّی أُوفِی الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۵۹) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِی وَ لا تَقْرَبُونِ (۶۰) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ (۶۱) وَ قالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِی رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۶۲)

التّفسير

اقتراح جديد من يوسف لإخوته:

و كما كان متوقّعا، فقد تحسّـنت الزراعة فی مصـر خلال سبع سنوات متتالية و ذلک علی اثر توالی الأمطار و وفرة ماء النيل و كثرته، و يوسف الذی كان مسـئولا عن الشؤون الاقتصادية فی مصـر و مشـرفا علی خزائنها، امر ببناء المخازن الكبيرة و الصـغيرة التی تسـتوعب الكميّات الكبيرة من المواد الغذائية

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۸

و تحفظها عن الفساد، و قد اجبر أبناء الشـعب علی ان يبيعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الانتاج الزراعی، و هكذا امتلأت المخازن بالمنتوجـات الزراعيـة و الاسـتهلاكية و مرّت سـبع سـنوات من الرخـاء و الوفرة، و بـدا القحـط و الجفـاف يظهر وجهه الكريه، و منعت السّماء قطرها، فلم تينع ثمرة، و لم تحمل نخلة.

و هكـذا أصـاب عامّـة الشـعب الضـيق و قلّت منتوجاتهم الزراعيـة، لكنّهم كانوا علی علم بخزائن الدولـة و امتلائها بالمواد الغذائيـة، و ساعدهم يوسف حيث اسـتطاع- بخطّة محكمة و منظّمة مع الأخذ بعين الاعتبار الحاجات المتزايدة، فی السنين القادمة- ان يرفع الضيق عن الشعب بأن باع لهم المنتوجات الزراعية مراعيا فی ذلک العدالة بينهم.

و هذا القحط و الجفاف لم يكن مقتصـرا علی مصـر وحدها، بل شـمل البلدان المحيطة بها ايضا، و منهم شعب فلسطين و ارض كنعان المتاخمـة لمصـر و الواقعة علی حدودها فی الشـمال الشـرقی، و كانت عائلة يوسف تسـكن هناک و قد تأثّرت بالجفاف. و اشـتدّ بهم الضـيق، بحيث اضـطرّ يعقوب ان يرسل جميع أولاده- ما عـدا بنيامين الـذی أبقاه عنده بعد غياب يوسف- الی مصـر، حيث سافروا مع قافلة كانت تسير الی مصر و وصلوا إليها- كما قيل- بعد ۱۸ يوما.

و تذكر المصادر التاريخيّة انّ الأجانب عند دخولهم الی الاراضـی المصرية كانوا ملزمين بتسجيل اسمائهم فی قوائم معيّنة لكی تعرض علی يوسف، و من هنا فحينما عرض الموظفون تقريرا علی يوسف عن القافلة الفلسـطينية و طلبهم للحصول علی المؤن و الحبوب رای

یوسف أسماء اخوته بینهم و عرفهم و امر بإحضارهم الیه، دون ان یتعرّف احد علی حقیقتهم و انّهم اخوته ..

یقول القرآن الکریم: وَ جاءَ إِخْوَةُ یُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَیْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْکِرُونَ و کان طبیعیّا ان لا یتعرّف اخوة یوسف علیه لانّه فی جانب کان قد مضی علی فراقهم ایّاه منذ ان أودعوه الجبّ و خرج منه و دخل الی مصر ما یقرب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۹

من أربعین سنة، و من جهة اخری کان لا- یخطر ببالهم انّ أخوهم صار عزیزا لمصر، و حتّی لو رأوا الشبه بین العزیز و بین أخیهم لحملوه علی الصدفة.

اضافة الی هذا فإنّ ملابس یوسف تختلف عن السابق، و من الصعب علیهم معرفة یوسف و هو فی ملابس اهل مصر، کما انّ احتمال بقاء یوسف علی قید الحیاة بعد هذه المدّة کان ضعیفا عندهم، و علی ایّة حال فإنّ اخوة یوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب و دفعوا ثمنه بالأموال او الکندر او الاحذیة او بسائر ما جلبوه معهم من کنعان الی مصر.

امّا یوسف فإنّه قد رحّب بإخوته و لاطفهم و فتح باب الحدیث معهم، قالوا:

نحن عشرة اخوة من أولاد یعقوب، و یعقوب هو ابن ابراهیم الخلیل نبی اللّه العظیم، و أبونا ایضا من أنبیاء اللّه العظام، و قد کبر سنّه و الّم به حزن عمیق ملک علیه وجوده.

فسألهم یوسف: لماذا هذا الغمّ و الحزن؟

قالوا: کان له ولد أصغر من جمیع اخوته و کان یحبّه کثیرا، فخرج معنا یوما للنزهة و التفرّج و الصید و غفلنا عنه فأکله الذئب، و منذ ذلک الیوم و أبونا یبکی لفراقه.

نقل بعض المفسّرین انّه کان من عادة یوسف ان لا یعطی و لا یبیع لکلّ شخص الّا حمل بعیر واحد، و بما انّ اخوته کانوا عشرة فقد باع لهم ۱۰ أحمال من الحبوب، فقالوا: انّ لنا أبا شیخا کبیرا عاجزا عن السفر و أخا صغیرا یرعی شؤون الأب الکبیر، فطلبوا من العزیز ان یدفع إلیهم حصّتهما، فأمر یوسف ان یضاف الی حصصهم حملان آخران، ثمّ توجّه إلیهم مخاطبا ایّاهم و قال: انّی اری فی وجوهکم النبل و الرفعة کما انّکم تتحلّون بأخلاق طیبة، و قد ذکرتم انّ أباکم یحبّ أخاکم الصغیر کثیرا، فیتّضح انّه یمتلک صفات و مواهب عالیة و فذّة و لهذا احبّ ان أراه اضافة الی هذا، فإنّ الناس هنا قد أساءوا الظنّ بکم و اتهموکم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۰

لانّکم من بلد اجنبی، فأتوا بأخیکم الصغیر فی سفرکم القادم لتثبتوا صدقکم، و تدفعوا التّهمة عن أنفسکم.

و هنا یقول القرآن الکریم: انّه حینما جهّزهم یوسف بجهازهم و أرادوا الرحیل عن مصر وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِی بِأَخٍ لَکُمْ مِنْ أَبِیکُمْ أَ لا- تَرَوْنَ أَنِّی أُوفِی الْکَیْلَ وَ أَنَا خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ لکنّه ختم کلامه بتهدید مبطّن لهم، و هو انّنی سوف امنع عنکم المؤن و الحبوب إذا لم تأتونی بأخیکم فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلا کَیْلَ لَکُمْ عِنْدِی وَ لا تَقْرَبُونِ و کان یوسف یحاول بشتّی الطرق، تارة بالتهدید، و اخری بالتحبّب، ان یلتقی بأخیه بنیامین و یبقیه عنده. و ظهر من سیاق الآیات.

أمران: انّ الحبوب کانت تباع و تشتری فی مصر بالکیل لا بالوزن، و اتّضح ایضا انّ یوسف کان یستقبل الضیوف- و منهم اخوته- الذین کانوا یفدون الی مصر بحفاوة بالغة و یستظیفهم بأحسن وجه.

و أجاب اخوة یوسف علی طلب أخیهم: قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ و یستفاد من قوله إِنَّا لَفاعِلُونَ و اجابتهم الصریحة لعزیز مصر، انّهم کانوا مطمئنین الی قدرتهم علی التأثیر علی أبیهم و أخذ الموافقة منه، و کیف لا یکونون مطمئنین بقدرتهم علی ذلک و هم الذین استطاعوا بإصرارهم و الحاحهم ان یفرّقوا بین یوسف و أبیه؟! و أخیرا امر یوسف رجاله بأن یضعوا الأموال التی اشتروا بها الحبوب فی رحالهم- جلبا لعواطفهم- وَ قالَ لِفِتْیانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِی رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۱

بحوث

۱- لماذا لم یظهر یوسف حقیقته لإخوته

بالنسبة للآیات السابقة فإنّ اوّل ما یتبادر الی الذهن هو انّه لماذا لم یعرّف یوسف نفسه لإخوته، حتّی یقفوا علی حقیقة حاله و یرجعوا الی أبیهم و یخبرونه عن مصیر یوسف، و بذلک تنتهی آلامه لأجل فراق یوسف؟

و یمکن طرح هذا السؤال علی شکل أوسع و بصورة اخری، و هو انّه حینما التقی یوسف بإخوته فی مصر کان قد مرّ ثمان سنوات علی تحریره من السجن، حیث کان فی السنة الاولی من سنوات القحط و الجدب، التی أعقبت سبع سنوات من الوفرة و الرخاء، و قام بخزن المنتوجات الزراعیة- و فی السنة الثامنة او بعدها- جاء اخوة یوسف الی مصر لشراء الحبوب، فلما ذا لم یحاول یوسف خلال هذه السنوات الثمان ان یبعث الی کنعان من یخبر أباه بواقع حاله و یخرجه عن آلامه و ینهی مرارته الطویلة؟

حاول جمع من المفسّرین- کالعلّامة الطبرسی فی مجمع البیان و العلّامة الطباطبائی فی تفسیر المیزان و القرطبی فی تفسیره الجامع لأحکام القرآن- الاجابة علی هذا السؤال، و ذکروا له عدّة اجوبة، و لعلّ أحسنها و أقربها هو انّ یوسف لم یکن مجازا من قبل اللّه سبحانه و تعالی فی اخبار أبیه، لانّ قصّة یوسف مع غضّ النظر عن خصائصه الذاتیة کانت ساحة لاختبار یعقوب و حقلا لامتحانه، فلا بدّ من ان یؤدّی یعقوب امتحانه و یجتاز فترة الاختبار قبل ان یسمح لیوسف بإخباره، و اضافة الی هذا فإنّ اسراع یوسف فی اخبار اخوته قد یؤدّی الی عواقب غیر محمودة، مثلا قد یستولی علیهم الخوف و الهلع من انتقام یوسف منهم لما ارتکبوه سابقا فی حقّه فلا یرجعوا الیه.

۲- لماذا ارجع یوسف الأموال الی اخوته

السؤال الذی یطرح نفسه هو انّه لماذا امر یوسف ان تردّ اموال اخوته التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۲

دفعوها ثمنا للحبوب، و توضع فی رحالهم؟

و قد أجاب المفسّرون عن هذا السؤال بإجابات عدیدة، و منهم الرازی فی تفسیره حیث ذکر عشرة اجوبة، لکن بعضها بعید عن الواقع، و لعلّ ملاحظة الآیات السابقة تکفی فی الاجابة عن السؤال، لانّ الآیة الشریفة تقول: لَعَلَّهُمْ یَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ فإنّ یوسف کان یقصد من وراء هذا العمل، انّ اخوته بعد رجوعهم الی الوطن حینما یجدون أموالهم قد خبّئت فی متاعهم، سوف یقفون علی کرم عزیز مصر (یوسف) و جلالة قدره، اکثر ممّا شاهدوه، و سوف یطمئن یعقوب بنوایا عزیز مصر و یعطی الاذن بسفر بنیامین، و یکون السبب و الدافع فی سفرهم الی مصر مرّة اخری و باطمئنان اکثر مستصحبین معهم أخاهم الصغیر.

۳- کیف وهب یوسف الی اخوته اموال بیت المال

؟ السؤال الآخر الذی یطرح نفسه هنا هو انّه کیف وهب یوسف الأموال من بیت المال لإخوته دون ای تعویض؟

یمکن الاجابة علی هذا السؤال بطریقتین:

الاوّل: انّ بیت المال فی مصر کان یحتوی علی حصّة معیّنة من الأموال تصرف فی شؤون المستضعفین (و مثل هذه الحصّة موجودة

دائما) و بما انّ اخوة يوسف كانوا فى تلك الفترة من المستضعفين، استغلّ يوسف هذه الفرصة و استفاد من هذه الحصّة لمساعدة إخوته: (كما كان يستفيد منها فى مساعدة سائر المستضعفين) و من المعلوم انّ الحدود المصطنعة بين الدولة لم تكن حائلا دون مساعدة مستضعفى سائر البلدان من هذه الحصّة.

الثّانى: انّ المناصب العالية فى الدولة- كمنصب يوسف- تتضمّن عادة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۳

امتيازات و حقوق معيّنة، و من اقلّ هذه الحقوق هو ان يهيئ لنفسه و لعائلته المحتاجة و لمن يقرب اليه كأبيه و اخوته مستلزمات العيش الكريم، و قد استفاد يوسف من هذا الحقّ فى إعطاء الأموال لإخوته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۴

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۶۳ الى ۶۶]

اشارة

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۶۳) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۶۴) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَ نَمِيرُ أَهْلَنا وَ نَحْفَظُ أَخانا وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (۶۵) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (۶۶)

التّفسير

موافقة يعقوب:

رجع اخوة يوسف الى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنّهم كانوا يفكّرون بمصيرهم فى المستقبل و انّه لو رفض الأب و لم يوافق على سفر أخيهم الصغير (بنيامين) فإنّ عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما انّه لا يعطيهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۵

حصّتهم من الحبوب و المؤن.

و من هنا يقول القرآن: فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ و لا سبيل لنا للحصول عليه الّا ان ترسل معنا أخانا فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ و كن على يقين من انّنا سوف نحافظ عليه و نمنعه من الآخرين وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ

امّا الأب الشيخ الكبير الذى لم يمح صورة (يوسف) عن ذاكرته مرّ السنين فإنّه حينما سمع هذا الكلام استولى عليه الخوف و قال لهم معاتبا: هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فكيف تتوقّعون منّى ان اطمئن بكم و البّى طلبكم و اوافق على سفر ولدى و فلذّة كبدى معكم الى بلاد بعيدة، و لا زلت اذكر تخلفّكم فى المرّة السابقة عن عهدكم، ثمّ أضاف فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ هذه العبارة لعلّها اشارة الى ما تحدّثت به نفس يعقوب من انّه يصعب علىّ ان اوافق على سفر بنيامين معكم و قد عرفت سوءكم فى المرّة السابقة، لكن حتّى لو وافقت على ذلك فإنّنى اتّكل على اللّه سبحانه و تعالى الذى هو ارحم الراحمين و اطلب رعايته و حفظه منه لا منكم.

الآية السابقة لا تدلّ على الموافقة القطعيّة و قبوله لطلبهم، و انّما هى مجرّد احتمال منه حيث انّ الآيات القادمة تظهر انّ يعقوب لم

یکن قد وافق على طلبهم الّا بعد ان أخذ منهم العهود و المواثیق، و الاحتمال الآخر هو انّ هذه الآیة لعلّها اشارة الى یوسف، حیث کان یعلم انّه على قید الحیاة (و سوف نقرا فى الآیات القادمة انّه کان على یقین بحیاة یوسف) فدعا له بالحفظ.

ثمّ انّ الاخوة حینما عادوا من مصر وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَیْهِمْ فشاهدوا انّ هذا الأمر هو برهان قاطع على صحّة طلبهم، فجاءوا الى أبیهم و قالُوا یا أَبانا ما نَبْغِی هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَیْنا و هل هناک فضل و کرم اکثر من هذا ان یقوم حاکم اجنبى و فى ظروف القحط و الجفاف،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۶

بمساعدتنا و یبیع لنا الحبوب و المؤن ثمّ یردّ إلینا ما دفعناه ثمنا له؟! ثمّ انّه ردّ بضاعتنا علینا بشکل خفی بحیث لا یستثیر فینا الخجل- أ لیس هذا غایة الجود و الکرم؟! فیا أبانا لیس هناک مجال للتأخیر- ابعث معنا أخانا لکى نسافر و نشترى الطعام وَ نَمِیرُ أَهْلَنا و سوف نکون جادّین فى حفظ أخینا وَ نَحْفَظُ أَخانا، و هکذا نتمکّن من ان نشترى کیل بعیر من الحبوب وَ نَزْدادُ کَیْلَ بَعِیرٍ و انّنا على یقین فى انّ سماحة العزیز و کرمه- سوف یسهّلان حصوله و ذلِکَ کَیْلٌ یَسِیرٌ.

و فى کلّ الأحوال- رفض یعقوب إرسال ابنه بنیامین معهم، و لکنّه کان یواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوى بحیث اضطرّ الى التنازل على مطلبهم و لم یر بدّا من القبول، و لکنّه وافق بشرط: قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَکُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِی بِهِ إِلَّا أَنْ یُحاطَ بِکُمْ و المقصود من قوله مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ هو العهد و الیمین المتضمّن لاسم اللّه سبحانه و تعالى، و امّا جملة إِلَّا أَنْ یُحاطَ بِکُمْ فهى فى الواقع بمعنى- الّا إذا أحاطت بکم و غلبتکم الحوادث، و لعلّها اشارة الى حوادث الموت او غیرها من الحوادث و المصائب التى تسلب قدرة الإنسان و تقصم ظهره و تجعله عاجزا.

و ذکر هذا الاستثناء دلیل بارز على ذکاء نبى اللّه یعقوب و فطنته، فإنّه برغم حبّه الشدید لولده بنیامین لکنّه لم یحمل أولاده بما لا یطیقوا و قال لهم: انّکم مسئولون عن سلامة ولدى العزیز و انّى سوف اطلبه منکم الّا ان تغلبکم الحوادث القاهرة، فحینئذ لا حرج علیکم.

و على کلّ حال فقد وافق اخوة یوسف بدورهم على شرط أبیهم، و حینما أعطوه العهد و المواثیق المغلّظة قال یعقوب: فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَکِیلٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۷

بحوث

۱- بالنسبة للآیات السابقة فإنّ اوّل ما یتبادر الى الذهن، هو انّه کیف وافق یعقوب على سفر بنیامین مع اخوته برغم ما اظهروه فى المرّة السابقة من سوء المعاملة مع یوسف، اضافة الى هذا فإنّنا نعلم انّهم کانوا یبطنون الحقد و الحسد لبنیامین- و ان کان اخفّ من حقدهم و حسدهم على یوسف- حیث وردت فى الآیات الافتتاحیة لهذه السورة قوله تعالى: إِذْ قالُوا لَیُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِینا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ اى انّ یوسف و أخاه احبّ الى أبینا برغم ما نملکه نحن من قوّة و کثرة.

لکن تظهر الاجابة على هذا السؤال إذا لاحظنا انّه قد مضى ثلاثون الى أربعین سنة على حادثة یوسف، و قد صار اخوة یوسف الشبّان کهولا، و من الطبیعى انّهم نضجوا اکثر من السابق، کما وقفوا على الآثار السلبیة و السیّئة لما فعلوه مع یوسف، سواء فى داخل اسرتهم ام فى وجدانهم، حیث أثبتت لهم تجارب السنین السالفة انّ فقد یوسف کان لا یزید حبّ أبیهم لهم، بل ازداد نفوره منهم و خلق لهم مشاکل جدیدة.

اضافة الى هذه الأمور فإنّ یعقوب لم یواجه طلبا للخروج الى التنزّه و الصید، بل کان یواجه مشکلة مستعصیة مستفحلة، و هى اعداد الطعام لعائلة کبیرة و فى سنوات القحط و المجاعة.

فمجموع هـذه الأمور أجبرت يعقوب على الرضوخ لطلب أولاده و الموافقة على سفر بنيامين و لكنّه أخذ منهم العهود و المواثيق على ان يرجعوه سالما.

۲- السؤال الآخر الذى نواجهه هنا هو انّه هل الحلف و أخذ العهد و المواثيق منهم كان كافيا لكى يوافق يعقوب على سفر بنيامين معهم؟

الجواب: انّه من الطبيعى انّ مجرّد الحلف و اليمين لم يكن كافيا لذلك، و لكن فى هـذه المرّة كانت الشواهد و القرائن تدلّ على انّ هناك حقيقة واضحة قد برزت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۸

الى الوجود، و هى خالية عن محاولات الخداع و التضليل (كما هو الحال فى المرّة السابقة) ففى مثل هذه الصورة لا سبيل لتأكيد هذه الحقيقة و جعلها اقرب الى التنفيذ سوى العهد و اليمين، مثل ما نشاهده فى هـذه الايّام من تحليف الزعماء السياسيين كرئيس الجمهورية او نوّاب البرلمان، حيث يحلفون بالوفاء للدستور و العمل على طبقه و ذلك بعد ان انتخبهم الشعب من خلال انتخابات حرّة و نزيهة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۹

الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۶۷ الى ۶۸]

اشارة

وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۶۷) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۶۸)

التّفسير

و أخيرا توجّه اخوة يوسف صوب مصر للمرّة الثانية بعد اذن أبيهم و موافقته على اصطحاب أخيهم الصغير معهم، و حينما أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصيا ايّاهم بقوله: وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ثمّ أضاف: انّه ليس فى مقدورى ان امنع ما قد قدّر لكم فى علم اللّه سبحانه و تعالى وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ و لكن هناك بعض الأمور التى يمكن للإنسان ان يجتنب عنها حيث لم يثبت فى حقّها القدر الالهى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۰

المحتوم، و ما أسديته لكم من النصيحة هو فى الواقع لدفع هذه الأمور الطارئة و التى بإمكان الإنسان ان يدفعها عن نفسه ثمّ قال: أخيرا إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

لا شكّ فى انّ عاصمة مصر فى تلك الايّام شأنها شأن جميع البلدان، كانت تمتلك سورا عاليا و أبوابا متعدّدة و كان يعقوب قد نصح أولاده بأن يتفرّقوا الى جماعات صغيرة، و تدخل كلّ جماعة من باب واحد، لكن الآية السابقة لم تبيّن لنا فلسفة هذه النصيحة.

ذهب جمع من المفسّرين الى انّ سبب هذه النصيحة هو انّ اخوة يوسف كانوا يتمتّعون بقسط وافر من الجمال (و ان لم يكونوا كيوسف لكنّهم فى كلّ الأحوال كانوا اخوته) و بأجسام قويّة رشيقة، و كان الأب الحنون فى قلق شديد من انّ الفات نظر الناس الى هـذه المجموعة المكوّنة من ۱۱ شخصا و يدلّ سيماهم على انّهم غرباء و انّهم ليسوا من اهل مصر، فيصيبهم الحسد من تلك العيون

الفاحصة.

ثمّ بعد هذا التّفسیر- دخل المفسّرون فی بحث طویل و نقاش مستمر حول موضوع تأثیر العین فی حیاة الإنسان و استدلّوا علی ذلک بشواهد عدیدة من الرّوایات و التاریخ. و نحن بحول اللّه و قوّته سوف نبحث عن هذا الموضوع عند حدیثنا عن قوله تعالی: وَ إِنْ یَکادُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَیُزْلِقُونَکَ بِأَبْصارِهِمْ [۱۳۳] و نثبت انّه برغم الخرافات الکثیرة التی لفّها العوام حوله الّا انّ مقدارا من هذا الأمر له حقیقة موضوعیة حیث ثبت علمیا انّ أمواج سیّالة تخرج من العین و تمتلک بعض المواصفات المغناطیسیّة.

و هناک سبب آخر ذکره المفسّرون و هو انّ دخول هذه المجموعة الی مصر بوجوههم المشرقة و أجسامهم الرشیقة القویمة و السیر فی شوارعها، قد یثیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۱

الحسد و البغضاء فی بعض النفوس الضعیفة فیسعون ضدّهم عند السلطان و یظهرونهم کمجموعة اجنبیة تحاول العبث بأمن البلد و نظامه، فحاول یعقوب علیه السّلام ان یجنبهم بنصیحته عن هذه المشاکل.

و أخیرا حاول بعض المفسّرین تأویل الآیة بمعنی قد یعد ذوقیا ... قال: انّ یعقوب بنصیحته تلک أراد ان یعلم أولاده دستورا اجتماعیا هامّا، و هو انّ علی الإنسان ان یبحث عن ضالّته بطرق عدیدة و سبل شتّی بحیث لو سدّ طریق بوجهه لکان بمقدوره البحث عنها من طرق اخری حیث سیکون النصر حلیفه فی النهایة، امّا إذا حاول الوصول الی هدفه بانتهاجه طریقا واحدا فقط، فقد یصطدم فی اوّل الطریق بعائق یمنعه عن الوصول فعند ذلک یستولی علیه الیأس و یترک السعی الیه.

واصل الاخوة سیرهم نحو مصر، و بعد ان قطعوا مسافة طویلة و شاسعة بین کنعان و مصر دخلوا الاراضی المصریة، و عند ذاک وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَیْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما کانَ یُغْنِی عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ فهم برغم تفرّقهم الی جماعات صغیرة- طبقا لما وصّاهم به أبوهم- فإنّ الفائدة و الثمرة الوحیدة التی ترتّبت علی تلک النصیحة لیس (الّا حاجة فی نفس یعقوب قضاها) و هذه اشارة الی انّ اثرها لم یکن سوی الهدوء و الطمأنینة التی استولت علی قلب الأب الحنون الذی بعد عنه أولاده، و بقی ذهنه و فکره مشغولا بهم و بسلامتهم و خائفا علیهم من کید الحاسدین و شرور الطامعین، فما کان یتسلّی به فی تلک الایّام لم یکن سوی یقینه القلبی بأنّ أولاده سوف یعملون بنصیحته.

ثمّ یستمرّ القرآن فی مدح یعقوب و وصفه بقوله: وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ و هذه اشارة الی انّ کثیرا من الناس یتیهون فی الأسباب و ینسون قدرة اللّه سبحانه و تعالی و یتصوّرون انّ ما یصیب الإنسان من الشرور انّما هو من الآثار الملازمة لبعض العیون فیتوسلّون بغیر اللّه سبحانه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۲

و تعالی لدفع هذه الشرور و یغفلون عن التوکّل علی اللّه سبحانه و تعالی و الاعتماد علیه، الّا انّ یعقوب کان عالما بأنّه بدون ارادة اللّه سبحانه و تعالی لا یحدث شیء، فکان یتوکّل فی الدرجة الاولی علی اللّه سبحانه و تعالی و یعتمد علیه، ثمّ یبحث عن عالم الأسباب و من هنا نری فی الآیة (۱۰۲) من سورة البقرة انّ القرآن یصف سحرة بابل و کهنتها بأنّهم وَ ما هُمْ بِضارِّینَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ و هذه اشارة الی انّ القادر الوحید هو اللّه سبحانه و تعالی، فلا بدّ من الاعتماد و الاتّکال علیه لا علی سواه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۳

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۶۹ الی ۷۶]

اشارة

وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۶۹) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (۷۰) قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (۷۱) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (۷۲) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَ ما كُنَّا سارِقِينَ (۷۳)

قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (۷۴) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (۷۵) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (۷۶)

التّفسير

يوسف يخطّط للاحتفاظ بأخيه:

و أخيرا دخل الاخوة على يوسف و اعلموه بأنّهم قد نفّذوا طلبته و اصطحبوا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۴

معهم أخاهم الصغير برغم امتناع الأب فى البداية، و لكنّهم اصرّوا عليه و انتزعوا منه الموافقة لكى يثبتوا لك انّهم قد وفوا بالعهد، امّا يوسف فإنّه قد استقبلهم بحفاوة و كرم بالغين و دعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر ان يجلس كلّ اثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا و جلس كلّ واحد منهم بجنب أخيه على الطعام، و بقى بنيامين وحيدا فتألّم من وحدته و بكى و قال: لو كان اخى يوسف حيّا لعطف علىّ و لاجلسنى الى جنبه على المائدة لانّنا اخوة من أب واحد و امّ واحدة، قال يوسف مخاطبا ايّاهم: إنّ أخاكم بقى وحيدا و انّنى سأجلسه بجنبى على المائدة و نأكل سويّة من الطعام، ثمّ بعد ذلك امر يوسف بأن تهيّأ لهم الغرف ليستريحوا فيها و يناموا، و مرّة اخرى بقى بنيامين وحيدا، فاستدعاه يوسف إلى غرفته و بسط له الفراش الى جنبه، لكنّه لاحظ فى تقاسيم وجهه الحزن و الألم و سمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوّها، عند ذلك نفذ صبر يوسف و كشف عن حقيقة نفسه، و القرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله:

وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

قوله تعالى (فَلا تَبْتَئِسْ) مأخوذ من مادّة (البؤس) و هو اصل بمعنى الضرر و الشدّة، لكن فى الآية الشريفة استعملت بمعنى: لا تسلط الغمّ على نفسك و لا تكن حزينا من معاملتهم لك، و المراد بقوله «يعملون» هو معاملة الاخوة السيّئة لأخيهم بنيامين حيث خطّطوا لإبعاده و طرده من بينهم كما فعلوا بيوسف- فقال يوسف لأخيه: لا تحزن فإنّ المحاولات التى قاموا بها لالحاق الضرر بى قد انقلبت الى خير و سعادة و رفعة لى، إذا لا تحزن و كن على يقين بأنّ محاولاتهم سوف تذهب ادراج الرياح.

و تقول بعض الرّوايات: انّه عند ذاك اقترح يوسف على أخيه بنيامين و قال له: هل تودّ ان تبقى عندى و لا تعود معهم؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۵

قال بنيامين: نعم، و لكن اخوتى لا يوافقون على ذلك، لانّهم قد اعطوا أبى العهود و المواثيق المغلّظة بأن يرجعونى اليه سالما.

قال يوسف: لا تهتمّ بهذا الأمر فإنّى سوف أضع خطّة محكمة بحيث يضطرّون لتركك عندى و الرجوع دونك.

و بدا يوسف بتنفيذ الخطّة، و امر بأن يعطى لكلّ واحد منهم حصّة من الطعام و الحبوب ثمّ عند ذاك فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ

لا شكّ فى أنّ يوسف قام بهذا العمل بسرية تامّة، و لعلّه لم يطّلع على هذه الخطّة سوى موظّف واحد و عند ذاك افتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكى الخاص، و بحث عنه الموظّفون و العمّال كثيرا لكن دون جدوى و حينئذ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ

إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ

و حینما سمع اخوة یوسف هذا النداء ارتعدت فرائصهم و استولی علیهم الخوف، حیث لم یخطر ببالهم ان یتّهموا بالسرقة بعد الحفاوة التی قوبلوا بها من جانب یوسف، فتوجّهوا الی الموظفین و العمال و قالوا لهم: ماذا فقدتم؟ قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَیْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ

قالوا: قد فقدنا صواع الملک و نظنّ انّه عندکم قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِکِ و بما انّ الصواع ثمین و مورد علاقة الملک فانّ لمن یعثر علیه جائزة، و هی حمل بعیر من الطعام وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِیرٍ، ثمّ أضاف المؤذّن و المسؤول عن البحث عن الصواع المفقود: انّنی شخصیّا اضمن هذه الجائزة وَ أَنَا بِهِ زَعِیمٌ

فاشتدّ اضطراب الاخوة لسماعهم هذه الأمور و زادت مخاوفهم، و توجّهوا الی الموظّف مخاطبین ایّاه قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِی الْأَرْضِ وَ ما کُنَّا سارِقِینَ

قولهم (لقد علمتم ما جئنا ... الی آخره) لعلّه اشارة الی ما قصده الاخوة فی خطابهم للموظفین من انّکم قد وقفتم علی حسن نیّتنا فی المرّة السابقة حیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۶

جئناکم و قد وضعتم الأموال التی دفعناها إلیکم ثمنا للطعام فی رحالنا، لکنّنا رجعنا إلیکم مرّة ثانیة، فلا یعقل انّنا و قد قطعنا المسافات البعیدة للوصول الی بلدکم نقوم بعمل قبیح و نسرق الصواع؟

اضافة الی هذا فقد ورد فی بعض المصادر انّ الاخوة حینما دخلوا ارض مصر ألجموا جمالهم لیمنعوها من التطاول و التعدّی علی المزارع و اموال الناس، فمثلنا الحریص علی اموال الناس کیف یعقل ان یقوم بهذا العمل القبیح؟

الّا انّ الموظفین توجّهوا إلیهم و قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ کُنْتُمْ کاذِبِینَ

أجاب الاخوة: إنّه عقاب من وجد الصواع فی رحله هو ان یؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِی رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ و انّ هذا العقاب هو جزاء السارق کَذلِکَ نَجْزِی الظَّالِمِینَ

و حینئذ امر یوسف الموظفین و العمال بأنّ تنزل رحالهم من علی ظهور الجمال و یفتح متاعهم و ان یبحثوا فیها واحدا بعد واحد و دون استثناء، و تجنّبا عن انکشاف الخطّة امر یوسف بأن یبداوا البحث و التفتیش فی امتعة الاخوة اوّلا قبل امتعة أخیه بنیامین، لکنّهم وجدوه أخیرا فی امتعة بنیامین فَبَدَأَ بِأَوْعِیَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِیهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِیهِ

بعد ان عثر علی الصاع فی متاع بنیامین، استولی الارتباک و الدهشة علی الاخوة، و صعقتهم هذه الواقعة و رأوا أنفسهم فی حیرة غریبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبیح و سرق صواع الملک، و هذا یعود علیهم بالخزی و العار، و من جهة اخری انّ هذا العمل سوف یفقدهم اعتبارهم و نفوذهم عند الملک خصوصا مع حاجتهم الشدیدة الی الطعام، و اضافة الی کلّ هذا، کیف یجیبون علی استفسارات أبیهم؟ و کیف یقنعونه بذنب ابنه و عدم تقصیرهم فی ذلک؟

قال بعض المفسّرین: انّه بعد ان عثر علی الصاع توجّه الاخوة الی بنیامین و عاتبوه عتابا شدیدا، فقالوا له: الا تخجل من فعلک القبیح قد فضحتنا و فضحت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۷

أباک یعقوب، و آل یعقوب .. قل لنا کیف سرقت الصاع و وضعته فی رحلک؟

أجابهم بنیامین ببرود، حیث کان عالما بالقضیّة و اسرارها: انّ الذی قام بهذا العمل و وضع الصواع فی رحلی، هو نفسه الذی وضع الأموال فی متاعکم فی المرّة السابقة، لکن الاخوة لم ینتبهوا- لهول الواقعة علیهم- لمغزی کلام بنیامین ۱۳۴].

ثمّ یستمرّ القرآن الکریم و یبیّن کیف استطاع یوسف ان یأخذ أخاه بالخطّة التی رسمها اللّه له دون ان یثیر فی اخوته ای نوع من المقاومة و الرفض کَذلِکَ کِدْنا لِیُوسُفَ

و الأمر المهمّ فى هذه القضيّة هو انّه لو أراد يوسف ان يعاقب أخاه بنيامين، و طبقا للقانون المصرى- لكان عليه ان يضرب أخاه و يودعه السجن لكن مثل هذه المعاملة كانت تخالف رغبات و اهداف يوسف للاحتفاظ بأخيه، و من هنا و قبل القبض على بنيامين، سأل اخوته عن عقوبة السارق عندهم، فاعترفوا عنده بأنّ السنة المتّبعة عندهم فى معاقبة السارق ان يعمل السارق عند المعتدى عليه كالعبد.

لا ريب انّ للعقوبة و الجزاء طرقا عديدة منها ان يعاقب المعتدى على طبق ما يعاقب به فى قومه، و هكذا عامل يوسف أخاه بنيامين، و توضيحا لهذه الحالة و انّ يوسف لم يكن بإمكانه أخذ أخيه طبقا للدستور المصرى يقول القرآن الكريم: ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ لكن اللّه سبحانه و تعالى يستثنى بقوله: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ و هو اشارة إلى أنّ ما فعله يوسف بأخيه لم يكن الّا بأمر منه سبحانه و تعالى و طبقا لإرادته فى الاحتفاظ ببنيامين، و استمرارا لامتحان يعقوب و أولاده.

و أخيرا يضيف القرآن الكريم و يقول: انّ اللّه سبحانه يرفع درجات من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۸

استطاع ان يفوز فى الامتحان و يخرج مرفوع الراس كما حدث ليوسف نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ و لكن فى كلّ الأحوال فانّ اللّه تعالى عليم يهدى الإنسان الى سواء السبيل و هو الذى أوقع هذه الخطّة فى قلب يوسف و ألهمه ايّاها وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

بحوث

اشارة

الآيات السابقة تثير اسئلة كثيرة فلا بدّ من الاجابة عليها:

۱- لماذا لم يعترف يوسف بالحقيقة

لماذا لم يعترف يوسف بالحقيقة لإخوته لينهى- و فى اسرع وقت ممكن- مأساة أبيه و ينجيه من العذاب الذى كان يعيشه؟

الجواب على هذا السؤال: هو ما مرّ علينا خلال البحث، من انّ الهدف كان امتحان يعقوب و أولاده و اختبار مدى تحمّلهم و صبرهم على الشدائد و المصائب، و بتعبير آخر: لم تكن هذه الخطّة امرا عفويا دون تفكير، و انّما نفذت طبقا لاوامر اللّه سبحانه و تعالى و ارادته فى اختبار يعقوب و مدى صبره على مصيبة فقد ثانى اعزّ أولاده، لكى تكمل سلسلة الامتحانات و يفوز بالدرجات العالية التى يستحقّها، كما كانت الخطّة اختبارا لأخوة يوسف فى مدى تحمّلهم للمسؤولية و قدرتهم على حفظ العهد و مراعاة الامانة التى قطعوها مع أبيهم.

۲- لماذا اتّهم يوسف أخاه

؟ هل يجوز شرعا ان يتّهم الإنسان بريئا لم يرتكب ذنبا، و لم تقتصر آثار هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۹

التّهمة على البرىء وحده، بل تشمل الآخرين من قريب او بعيد؟ كما هو الحال فى يوسف حيث شمل اتّهامه الاخوة و سبب لهم

مشاكل عديدة.
يمكن معرفة الجواب بعد وقوفنا على انّ توجيه هذه التّهمة لبنيامين كان باتّفاق مسبق بينه و بين يوسف، و كان عارفا بأنّ هدف الخطّة و توجيه التهمة اليه لأجل بقائه عند يوسف، امّا بالنسبة للآثار السلبية المترتّبة على الاخوة فإنّ اتّهام بنيامين بالسرقة لم يكن فى الواقع اتّهاما مباشرا لإخوته و إنّ سبب لهم بعض التشويش و القلق و لا مانع من ذلك بالنظر الى امتحان مهم.

۳- لماذا اتّهام الجميع بالسرقة

؟ مرّ علينا فى الآية الشريفة قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ و هذه فى الواقع تهمة موجّهة الى الجميع و هى تهمة كاذبة، فما المسوغ و المجوّز الشرعى لمثل هذا الاتّهام الباطل؟
يمكن الاجابة على هذا السؤال فى عدّة نقاط و هى:
اوّلا- انّ قائل هذه الجملة غير معلوم، حيث ورد فى القرآن انّه (قالوا ...) و لعلّ القائلين هم بعض الموظفين من عمّال يوسف و المسؤولين عن حماية خزائن الحبوب، فهم حينما افتقدوا صواع الملك، اطمأنّوا بأنّ السارق هو احد افراد القافلة القادمة من كنعان، فوجّهوا الخطاب إليهم جميعا، و هذا من الأمور الطبيعيّة، فحينما يقوم شخص مجهول فى ضمن مجموعة معيّنة بعمل ما، فإنّ الخطاب يوجّه إليهم جميعا و يقال لهم: إنّكم فعلتم هذا العمل، و المقصود إنّ احد هذا المجموعة او بعضها قد فعل كذا.
ثانيا: الطرف الذى وجّهت اليه التّهمة و هو بنيامين، كان موافقا على توجيه هذه التهمة له، لانّ التهمة كانت مقدّمة للخطّة المرسومة و التى كانت تنتهى ببقائه عند أخيه يوسف، و امّا شمول الاتّهام لجميع الاخوة و دخولهم جميعا فى دائرة
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۰
الظنّ بالسرقة، فإنّ كلّ ذلك كان اتّهاما مؤقتا حيث زالت بمجرّد التفتيش و العثور على الصواع و ظهر المذنب الواقعى.
قال بعض المفسّرين: انّه قصد بالسرقة- فيما نسبوه الى اخوة يوسف- هو ما اقترفوه سابقا من سرقة الاخوة يوسف من أبيه، لكن هذا التوجيه يتمّ إذا كانت التهمة قد وجهت إليهم من قبل يوسف، لانّه كان عالما بالذنب الذى ارتكبوه، و لعلّ ما ورد فى ذيل الآية الشريفة يدلّ على ذلك، حيث قال العمّال انّنا: نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ و مثل هذا الخطاب لا يتضمّن توجيه السرقة إليهم، (و لكن الجواب الاوّل أصح ظاهرا).

۴- عقوبة السرقة فى تلك الازمنة

يستفاد من الآيات السابقة انّ عقوبة السرقة عند المصريين كانت تختلف عنها عند الكنعانيين، فعند اخوة يوسف (آل يعقوب) و لعلّه عند الكنعانيين كانت العقوبة هى عبودية السارق (بصورة دائمة او مؤقتة) لأجل الذنب الذى اقترفه ۱۳۵].
لكن المصريين لم يجازوا السارق بالعبودية الدائمة او المؤقتة، و انّما كانوا يعاقبون المذنب بالضرب المبرح او السجن، و فى كلّ الأحوال لا يستفاد من قوله تعالى: قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ انّ الشرائع السّماوية كانت تحدّد عقوبة السارق بالعبودية، و لعلّها كانت سنّة متّبعة عند بعض المجتمعات فى تلك الازمنة، و قد ذكر المؤرّخون فى تاريخ العبودية انّ بعض المجتمعات التى كانت تدين بالشرائع الخرافية، كانوا يعاقبون المدين العاجز عن سداد دينه بالعبودية للمدين.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۱

۵- السقاية او الصواع

يلاحظ فى الآيات السابقة انّ اللّه سبحانه و تعالى يعبّر عن الكيل تارة ب (الصواع) و اخرى ب (السقاية)، و الظاهر انّهما صفتان لشىء واحد، حيث ورد فى بعض المصادر انّ هذا الصاع كان فى اوّل الأمر كأسا يسقى به الملك، ثمّ حينما عمّ القحط و الغلاء فى مصر و صار الطعام و الحبوب يوزّع على الناس حسب الحصص، استعمل هذا الكأس الثمين لكيل الطعام و توزيعه، و ذلك إظهارا لاهميّة الحبوب و ترغيبا للناس فى القناعة و عدم الإسراف فى الطعام.

ثمّ انّ المفسّرين ذكروا أوصافا عديدة لهذا الصاع، حيث قال بعضهم انّها كانت من الفضّة و قال آخرون: انّها كأس ذهبية، و أضاف آخرون انّ الكأس كان مطعما بالجواهر و الأحجار الكريمة، و قد وردت فى بعض الرّوايات الضعيفة إشارة الى هذه الأمور، لكن ليس لنا دليل قطعى و صريح على صحة كلّ هذه المذكورات، الّا ما قيل من انّ هذا الصاع كان فى يوم من الايّام كأسا يسقى به ملك مصر، ثمّ صار كيلا للطعام، و من البديهى انّه لا بدّ و ان يكون لهذا الصاع صبغة رمزية و اعتبارية للدلالة على اهمية الطعام و تحريض الناس على عدم الإسراف فيه، إذ لا يعقل ان يكون الجهاز الذى يوزن به كلّ ما يحتاجه البلد من الطعام و الحبوب، هو مجرّد كأس كان يستعمله الملك فى يوم من الايّام.

و أخيرا فقد مرّ علينا خلال البحث انّ يوسف قد اختير مشرفا على خزائن الدولة، و من الطبيعى ان يكون الصاع الملكى الثمين فى حوزته، فحينما حكم على بنيامين بالعبودية صار عبدا لمن كان الصاع فى يده (اى يوسف) و هذه هى النتيجة التى كان يوسف قد خطّط لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۲

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۷۷ الى ۷۹]

اشارة

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِی نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (۷۷) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراکَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۷۸) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (۷۹)

التّفسير

موقف اخوة يوسف:

و أخيرا اقتنع اخوة يوسف بأنّ أخاهم (بنيامين) قد ارتكب فعلا شنيعا و قبيحا و إنّه قد شوّه سمعتهم و خذلهم عند عزيز مصر، فأرادوا ان يبرّئوا أنفسهم و يعيدوا ماء وجههم قالوا: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ اى انّه لو قام بالسرقة فهذا ليس بأمر عجيب منه فإنّ أخاه يوسف و هو اخوه لأبويه قد ارتكب مثل هذا العمل القبيح، و نحن نختلف عنهما فى النسب، و هكذا أرادوا ان يفصلوا بينهم و بين بنيامين و يربطوه بأخيه يوسف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۳

و حينما سمع يوسف كلامهم تأثّر بشدّة لكنّه كتم ما فى نفسه فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِی نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ لانّه كان عالما بأنّهم قد افتروا

عليه و اتّهموه كـذبا، الّا انّه لم يرد عليهم و قال لهم باختصار و اقتضاب قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً اى انّكم احقر و اشرّ مكانا ممّن تتّهمونه و تنسبون اليه السرقة، او أنتم احقر الناس عندى.

ثمّ أضاف يوسف: انّ اللّه سبحانه و تعالى اعلم بما تنسبون وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ

الملاحظ هنا انّه برغم انّ اخوة يوسف افتروا عليه زورا و اتّهموه بالسرقة لكى يبرّئوا أنفسهم، لكن لا بدّ و ان تكون لهذه التّهمة ارضية قديمة بحيث تمسّك بها الاخوة فى تلك اللحظة الحرجة.

و من هنا فقد قام المفسّرون بالبحث و التنقيب فى الرّوايات القديمة و المصادر التاريخيّة، و نقلوا ثلاثة نصوص فى هذا المجال:

الاوّل: انّ يوسف بعد ان توفّيت امّه قضى فترة من طفولته عند عمّته، و قد كانت تكنّ له حبّا عميقا، و حينما كبر يوسف و أراد يعقوب ان يفصله عنها، لم تر عمّته حيلة و وسيلة للاحتفاظ بيوسف الّا بحيلة نسائية و ذلك بأن ربطت على خاصرته حزاما او شالا ممّا تركه آل إسحاق، ثمّ ادّعت انّ يوسف أراد سرقتها، فلا بدّ من ان يعاد إليها يوسف- و طبقا للدستور و السنّة المتّبعة عندهم- عبدا قنا جزاء له.

الثّانى: قيل انّ امراة من أرحام يوسف من امّه يوسف كان لها صنم تعبده، فأخذه يوسف و حطمه و رمى به على الطريق، فاتّهموه بالسرقة.

الثّالث: قيل انّ يوسف كان يأخذ- أحيانا بعض الطعام من المائدة و يتصدّق به على الفقراء و المساكين، فعلم الاخوة بذلك و اتّهموه بالسرقة.

لكن مثل هذه الأعمال لا تعدّ سرقة، لانّ النّبيه يعرف انّ ربط الحزام على الشخص دون علمه بأنّه ملك الغير. او كسر الصنم و رميه على الطريق، او أخذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۴

الطعام من المائدة التى بسطها أبوه و يعلم انّه يرضى بالتصدّق ببعضها للفقراء و المساكين، لا يعدّ سرقة و لا يجوز معاقبة من فعله بهذه التّهمة.

و عند ما لاحظ الاخوة أنفسهم محاصرين بين أمرين، فمن جهة و طبقا للسنّة و الدستور المتعيّن عندهما لا بدّ و ان يبقى أخوهم الصغير- بنيامين عند عزيز مصر و يقوم بخدمته كسائر عبيده، و من جهة اخرى فإنّهم قد اعطوا لأبيهم المواثيق و الايمان المغلّظة على ان يحافظوا على أخيهم بنيامين و يعودوا به سالما اليه، حينما وقعوا فى هذه الحالة توجّهوا الى يوسف الذى كان مجهول الهوية عندهم، مخاطبين ايّاه قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ لكى نرجعه الى أبيه و نكون قد وفينا بالوعد الذى قطعناه له، فإنّه شيخ كبير و لا طاقة له بفراق ولده العزيز، فنرجو منك ان تترحّم علينا و على أبيه ف إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

امّا يوسف فإنّه قد واجه هذا الطلب بالإنكار الشديد و قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ فإنّ العدل و الإنصاف يقتضى ان يكون المعاقب هو السارق، و ليس بريئا رضى بأن يتحمّل أوزار عمل غيره، و لو فعلنا لامسينا من الظالمين إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ

و الطريف انّ يوسف لم ينسب لأخيه السرقة و انّما عبّر عنه ب مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ و هذا برهان على السلوك الحسن و السيرة المستقيمة التى كان ينتهجها يوسف فى حياته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۵

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۰ الى ۸۲]

اشارة

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكَمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ ما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (٨١) وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (٨٢)

التّفسير

رجوع الاخوة الى أبيهم خائبين:

حاول الاخوة ان يستنقذوا أخاهم بنيامين بشتّى الطرق، إلّا انّهم فشلوا فى ذلک، و رأوا انّ جميع سبل النجاة قد سدّت فى وجوههم، فبعد ان فشلوا فى تبرئة أخيهم و بعد ان رفض العزيز استعباد أحدهم بدل بنيامين، استولى عليهم اليأس و صمّموا على الرجوع و العودة الى كنعان لكى يخبروا أباهم، يقول القرآن واصفا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۶

ايّاهم فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا اى انّهم بعد ان يئسوا من عزيز مصر او من انقاذ أخيهم، ابتعدوا عن الآخرين و اجتمعوا فى جانب و بداوا بالتشاور و النجوى فيما بينهم.

قوله تعالى (خلصوا) بمعنى الخلوص، و هو كناية عن الابتعاد عن الآخرين و الاجتماع فى جلسة خاصّة، امّا قوله تعالى «نجيّا» فهو من مادّة (المناجاة) و أصله من (نجوة) بمعنى الربوة و الأرض المرتفعة، فباعتبار انّ الربوات منعزلة عن اراضيها المجاورة، سمّيت الجلسات الخاصّة البعيدة عن عيون الغرباء و الحديث فى السرّ قياسا عليها ب (النجوى) فإذا كلمة (النجوى) تطلق على الحديث السرّى و الخاص سواء كانت فى جلسة خصوصية او فى محاورة خاصّة بين اثنين لا يتعدّى سمعهما.

ذهب كثير من المفسّرين الى انّ جملة خَلَصُوا نَجِيًّا تعدّ من افصح العبارات فى القرآن و أجملها حيث انّ اللّه سبحانه و تعالى قد بيّن فى كلمتين أمورا كثيرة يحتاج بيانها الى عدّة جمل.

و فى ذلک الاجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلا: قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ بأن تردّوا اليه بنيامين سالما، فالآن بماذا تجيبونه؟ و قد سوّدنا صفحتنا فى المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ۱۳۶] فالآن و الحالة هكذا- فإنّنى لا اغادر ارض مصر و سوف اعتصم فيها فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ و الظاهر انّ قصده بحكم اللّه، امّا الموت الذى هو حكم الهى، اى لا أبرح من هذه الأرض حتّى أموت فيها، و امّا ان يفتح اللّه سبحانه و تعالى له سبيلا للنجاة، او عذرا مقبولا عند أبيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۷

ثمّ أمرهم الأخ الأكبر ان يرجعوا الى أبيهم و يخبروه بما جرى عليهم ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ و هذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد صواع الملک، ثمّ عثر عليه عند أخينا، و ظهر للجميع انّه قد سرقها وَ ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا و لكن نحن لا نعلم الّا ما شهدناه بأعيننا و هذا غاية معرفتنا وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ

و قد يرد احتمال فى تفسير هذه الآية، فلعلّهم بقولهم: وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ ...

أرادوا ان يخاطبوا أباهم بأنّنا و ان قطعنا عند الايمان و العهود المغلّظة على ان نرجع أخانا سالما، لكنّنا لا نعرف من الأمور الّا ظواهرها و من الحقائق الّا بعضها، فغيب الأمور عند اللّه سبحانه و لم نكن نتصوّر ان يسرق أخونا.

ثمّ أرادوا ان يزيلوا الشکّ و الريبة عن قلب أبيهم فقالوا يمكنک ان تتحقّق و تسأل من المدينة التى كنّا فيها وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا

فِيها[۱۳۷] و من القافلة التى سافرنا معها الى مصر و رجعنا معها، حيث انّ فيها أناسا يعرفونك و تعرفهم، و بمقدورك ان تسألهم عن حقيقة الحال و واقعها وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها[۱۳۸] و فى كلّ الأحوال كن على ثقة بأنّنا صادقون و لم نقص عليك سوى الحقيقة و الواقع وَ إِنَّا لَصادِقُونَ

يستفاد من مجموع هذه الكلمات و الحوار الذى دار بين الأولاد و الأب انّ قضيّة سرقة بنيامين كانت قد شاعت فى مصر، و انّ جميع الناس علموا بأنّ احد افراد العير و القافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفى الملك تمكّنوا بيقظتهم من العثور عليها و القبض على سارقها، و لعلّ قول الاخوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۸

لأبيهم وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ ... اى اسأل ارض مصر، كناية عن انّ القضيّة شاعت بحيث علم بها حتّى أراضى مصر و حيطانها.

بحوث

۱- من هو اكبر الاخوة

؟ ذهب بعض المفسّرين الى انّه كان روبين (روبيل) و قال آخرون: انّه (شمعون) و احتمل البعض ان يكون أكبرهم هو (يهودا).

و حصل نقاش آخر بين المفسّرين فى انّه ما المقصود من الكبر، هل هو فى العمر ام فى العقل؟ لكن المستفاد من ظاهر الآية انّ المقصود به هو اكبر الاخوة فى العمر.

۲- الحكم وفق الدلائل الظاهرة:

و يستفاد من مدلول الآية الشريفة انّه يحقّ للقاضى و الحاكم ان يحكم فى الواقعة المرفوعة اليه على ما يستفيده من القرائن و الشواهد القطعيّة، و ان يقرّ المتّهم او يشهد الشهود عنده، لانّنا لاحظنا فى قضيّة اخوة يوسف انّه بمجرّد ان عثر على الصاع فى متاع بنيامين عدّ مذنبا و حكم عليه بالسرقة من دون شهادة او اقرار، لانّنا حينما نتحرّى عن القضيّة نرى انّ كلّ شخص كان مسئولا عن حمل متاعه من الحبوب بنفسه، او انّه كان حاضرا على الأقل عند تحميل العمال لمتاعه، و من جهة اخرى لم يكن يتصوّر احد انّ هناك خطّة فى البين، و هؤلاء الاخوة لم يعاديهم احد فى مصر، فجميع القرائن و الشواهد تورث اليقين بأنّ هذا الفعل (السرقة) قد صدر عمّن وجد عنده الصاع.

و هذا الموضوع بحاجة الى دراسة عميقة فى الفقه الاسلامى لتأثيره المهمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۹

فى قضايانا المعاصرة لانّ عالم اليوم يعتمد عليه كثيرا فى محاكماته، لكنّنا تركنا هذا المبحث لانّ مجاله كتاب (القضاء).

۳- يستفاد من الآيات السابقة انّ اخوة يوسف كانت طبائعهم مختلفة، امّا الأخ الأكبر فإنّه كان وفيّا بميثاقه و حافظا لوعده الذى واعد به أباه، امّا بقيّة الاخوة فإنّهم بعد ان شاهدوا فشل جميع محاولاتهم فى اقناع العزيز، تراجعوا عن موقفهم و عدّوا أنفسهم معذورين، و من الطبيعى انّ ما قام به الأخ الأكبر كان هو الأسلوب المجدى و الصحيح، لانّه ببقائه فى مصر و الاعتصام بها و على مقربة من بلاط العزيز و قصره كان باعثا للامل فى ان يترحّم العزيز على الاخوة و على أبيهم الشّيخ الكبير، و يعفو عن هذا الغريب و لا يجازيه من اجل صاع سرقه ثمّ عثر عليه العمّال، فعلى هذا و املا فى استجداء عطف العزيز، بقى فى مصر و بعث بإخوته الى أبيهم فى كنعان

ليبلغوه الخبر و يطلبوا منه ان يدلّهم على الطريق الصحيح لانقاذ أخيهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۰

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۳ الى ۸۶]

اشارة

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۸۳) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (۸۴) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (۸۵) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۸۶)

التّفسير

يعقوب و الألطاف الالهية:

و أخيرا غادروا مصر متّجهين الى كنعان فى حين تخلّف أخواهم الكبير و الصغير، و وصلوا الى بيتهم منهوكى القوى و ذهبوا لمقابلة أبيهم، و حينما راى الأب الحزن و الألم مستوليا على وجوههم (خلافا للسفرة السابقة و التى كانوا فيها فى غاية الفرح) علم انّهم يحملون اليه اخبارا محزنة و خاصّة حينما افتقد بينهم بنيامين و أخاه الأكبر، و حينما اخبروه عن الواقعة بالتفصيل، استولى عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۱

الغضب و قال مخاطبا ايّاهم بنفس العبارة التى خاطبهم بها حينما أرادوا ان يشرحوا له خديعتهم مع يوسف قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً اى انّ أهواءكم الشيطانية هى التى استولت عليكم و زيّنت لكم الأمر بهذه الصورة التى أنتم تصفونه.

السؤال الذى يطرح نفسه هنا، هو انّ يعقوب هل اكتفى فى نسبة الكذب و اتّباع الهوى لأولاده استنادا الى ما فعلوه فى المرّة السابقة مع يوسف من سوء الفعل و الحنث باليمين و العهد، مع انّ مثل هذا الظنّ و القول و اتّهام الآخرين لمجرّد تجربة سابقة بعيد عن سيرة عامّة الناس فضلا عن يعقوب الذى هو نبى معصوم، و على الخصوص إذا استند المدّعى فى دعواه على وثائق و مستندات تثبت دعواه، كما انّ طريق الفحص و التحقيق عن واقع الحال كان مفتوحا ليعقوب.

او كان يعقوب يقصد بقوله: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ ... الى آخر) الاشارة الى امور اخرى، منها:

۱- لعلّه عتاب لأولاده لخضوعهم امام الأمر الواقع و تسليمهم لحكم العزيز بمجرّد عثور الصاع عند أخيهم، مع انّ العثور بمفرده لا يعدّ دليلا منطقيّا على السرقة.

۲- و لعلّه عتاب لأولاده لما بيّنوه للعزيز من انّ عقوبة السارق عندهم هو استعباده مع انّ هذه السنّة السائرة فى اهل كنعان سنّة باطلة و لا تعدّ قانونا سماويا (هذا ان قلنا انّ هذه السنّة لم تكن مأخوذة من شريعة يعقوب كما ذهب اليه بعض المفسّرين).

۳- و أخيرا لعلّه عتاب لأولاده على استعجالهم فى الخضوع لأحكام العزيز و خلق المعاذير و المبرّرات و الرجوع مستعجلين الى كنعان دون الاقتداء بأخيهم الكبير فى البقاء بمصر برغم العهود و المواثيق المغلّظة التى قطعوها مع أبيهم ۱۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۲

لكن بعد هذا العتاب الملىء بالحزن و الاسى رجع يعقوب الى قرارة نفسه و قال: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ اى انّنى سوف امسك بزمام نفسى، و لا اسمح لها بأن تطغى علىّ بل اصبر صبرا جميلا على امل بأنّ اللّه سبحانه و تعالى سوف يعيد لى اولادى (يوسف و بنيامين و أخوهم

الأكبر) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً فإنّه هو العالم بواقع الأمور و الخبير بحوادث العالم ما مضى منها و ما سوف يأتى، و لا يفعل الّا عن حكمة و تدبير إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

ثمّ بعد هذه المحاورات بين يعقوب و أولاده، استولى عليه الحزن و الألم، و حينما رأى مكان بنيامين خاليا عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، و تذكّر تلك الايّام الجميلة التى كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة و الصفات الحسنة و الذكاء العالى فيشمّ رائحته الطيّبة و يستعيد نشاطه، امّا اليوم فلم يبق منه اثر و لا عن حياته خبر، كما أنّ خليفته (بنيامين) ايضا قد ابتلى مثل يوسف بحادث مؤلم و ذهب الى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكّر يعقوب هذه الأمور ابتعد عن أولاده و استعبر ليوسف وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ امّا الاخوة فإنّهم حينما سمعوا باسم يوسف، ظهر على جبينهم عرق الندامة و ازداد خجلهم و استولى عليهم الحزن لمصير اخويهم بنيامين و يوسف، و اشتدّ حزن يعقوب و بكاؤه على المصائب المتكرّرة و فقد اعزّ أولاده وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ لكن يعقوب كان- فى جميع الأحوال مسيطرا على حزنه و يخفّف من آلامه و يكظم غيظه و ان لا يتفوّه بما لا يرضى به اللّه سبحان و تعالى فَهُوَ كَظِيمٌ

يفهم من هذه الآيات انّ يعقوب لم يكن فاقدا لبصره، لكنّ المصائب الاخيرة و شدّة حزنه و دوام بكائه افقده بصره، و كما أشرنا سابقا فإنّ هذا الحزن و الألم و العمى كان خارجا عن قدرته و اختياره، فإذا لا يتنافى مع الصبر الجميل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۲۸۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۳

امّا الاخوة فكانوا متألّمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم ممّا أحدثوه ليوسف،- و فى قضيّة بنيامين- شاهدوا أنفسهم فى وضع صعب و امتحان جديد، و من جهة ثالثة كان يصعب عليهم ان يشاهدوا أباهم يتجرّع غصص المرارة و الألم و يواصل بكاؤه الليل بالنهار، توجّهوا الى أبيهم و خاطبوه معاتبين قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ ۱۴۰] اى انّك تردّد ذكر يوسف و تتأسّف عليه حتّى تتمرّض و تشرف على الهلاك و تموت.

لكنّ شيخ كنعان هذا النّبى العظيم و المتيقّظ الضمير ردّ عليهم بقوله: إِنَّما أَشْكُوا بَثِّی وَ حُزْنِی إِلَى اللَّهِ ۱۴۱] لا إليكم، أنتم الذين تخونون الوعد و تنكثون العهد لانّنى وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ فهو اللطيف الكريم الذى لا اطلب سواه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۴

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۷ الى ۹۳]

اشارة

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (۸۷) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِی الْمُتَصَدِّقِينَ (۸۸) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (۸۹) قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۹۰) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (۹۱)

قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۹۲) اذْهَبُوا بِقَمِيصِی هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِی يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِی بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (۹۳)

التّفسير

اليأس علامة الكفر

! كان القحط و الغلاء و شحّة الطعام يشتدّ يوما بعد آخر فى مصر و ما حولها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۵

و منها كنعان، و مرّة اخرى امر يعقوب أولاده بأن يتّجهوا صوب مصر للحصول على الطعام، لكنّه هذه المرّة طلب منهم بالدرجة الاولى ان يبحثوا عن يوسف و أخيه بنيامين، حيث قال لهم: يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ

لكن بما انّ أولاد يعقوب كانوا مطمئنين الى هلاك يوسف و عدم بقاءه، تعجّبوا من توصية أبيهم و تأكيده على ذلك، لكن يعقوب نهاهم عن اليأس و القنوط و وصّاهم بالاعتماد على اللّه سبحانه و الاتّكال عليه بقوله: وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ فإنّه القادر على حلّ الصعاب و إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ

(تحسّس) أصله من (حس) بمعنى البحث عن الشيء المفقود بأحد الحواس، و هنا بحث بين اللغويين و المفسّرين فى الفرق بينه و بين (تجسّس) و قد نقل عن ابن عبّاس انّ التحسّس هو البحث عن الخير، و التجسّس هو البحث عن الشرّ، لكن ذهب آخرون الى انّ التحسّس هو السعى فى معرفة سيرة الأشخاص و الأقوام دون التجسّس الذى هو البحث لمعرفة العيوب.

و هنا رأى ثالث فى انّهما متّحدان فى المعنى، الّا انّ ملاحظة الحديث الوارد بقوله: «لا تجسّسوا و لا تحسّسوا» يثبت لنا انّهما مختلفان و انّ ما ذهب اليه ابن عبّاس فى الفرق بينهما هو الأوفق بسياق الآيات المذكورة، و لعلّ المقصود منهما فى هذا الحديث الشريف: لا تبحثوا عن امور الناس و قضاياهم سواء كانت شرّا ام خيرا.

قوله تعالى «روح» بمعنى الرحمة و الراحة و الفرج و الخلاص من الشدّة.

يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته «الرّوح و الرّوح فى الأصل واحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۶

و جعل الروح اسما للنّفس ... و الرّوح التنفّس و قد أراح الإنسان إذا تنفّس ...).

و أخيرا جمع الاخوة متاعهم و توجّهوا صوب مصر، و هذه هى المرّة الثّالثة التى يدخلون فيها ارض مصر، هذه الأرض التى سبّبت لهم المشاكل و جرّت عليهم الويلات.

لكن فى هذه السفرة- خلافا للسفرتين السابقتين- كانوا يشعرون بشيء من الخجل يعذّب ضمائرهم فإنّ سمعتهم عند اهل مصر او العزيز ملوّثة للوصمة التى لصقت بهم فى المرّة السابقة، و لعلّهم كانوا يرونهم بمثابة (مجموعة من لصوص كنعان) الذين جاؤوا للسرقة. و من جهة اخرى لم يحملوا معهم هذه المرّة من المتاع ما يستحقّ ان يعاوضوه بالطعام و الحبوب، اضافة الى هذه الأمور فإنّ فقد أخيهم بنيامين و الآلام التى المّت بأبيهم كانت تزيد من قلقهم و بتعبير آخر فإنّ السكين قد وصلت الى العظم، كما يقول المثل الّا انّ الذى كان يبعث فى نفوسهم الأمل و يعطيهم القدرة على تحمّل الصعاب هو وصيّة أبيهم لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ

و أخيرا استطاعوا ان يقابلوا يوسف، فخاطبوه- و هم فى غاية الشدّة و الألم- بقولهم: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ اى انّ القحط و الغلاء و الشدّة قد المّت بنا و بعائلتنا و لم نحمل معنا من كنعان إلّا متاعا رخيصا وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ[۱۴۲] لا قيمة لها و لكن- فى كلّ الأحوال- نعتمد على ما تبذل لنا من كرمك و نأمل فى معروفك فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ بمنّك الكريم و صدقاتك الوافرة وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا و لا تطلب منّا الأجر، بل اطلبه من اللّه سبحانه و تعالى حيث إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۷

و الطريف انّ اخوة يوسف لم ينفذوا وصيّة أبيهم فى البحث عن إخوتهم اوّلا بل حاولوا الحصول على الطعام، و لأجل ذلك قابلوا

العزیز و طلبوا منه المؤن و الحبوب، و لعلّ السبب فی ذلک ضعف أملهم فی العثور علی یوسف، او لعلّهم أرادوا ان یظهروا أنفسهم امام العزیز و المصریین و کأنّهم أناس جاؤوا لشراء الطعام و الحبوب فقط، فمن ثمّ یطرحوا مشکلتهم امام العزیز و یطلبوا منه المساعدة، فعند ذاک یکون وقع الطلب أقوی و احتمال تنفیذه اکثر.

قال بعض المفسّرین: انّ مقصود الاخوة من قولهم: تَصَدَّقْ عَلَیْنا کان طلب الإفراج عن أخیهم لأنّهم لم یطلبوا من العزیز الطعام و الحبوب مجّانا دون عوض حتّی یطلبوا منه التصدّق علیهم، فإنّهم یدفعون ثمنه.

و نقرا فی روایات وردت فی هذا المقام، انّ الاخوة کانوا یحملون معهم رسالة من أبیهم الی عزیز مصر، حیث مدح یعقوب فی تلک الرسالة عزیز مصر و اکبر عدالته و صلاحه و شکره علی ما بذله له و لعائلته من الطعام و الحبوب، ثمّ عرّف نفسه و الأنبیاء من اهل بیته و أخبره برزایاه و ما تحمله من المصائب و المصاعب من فقده اعزّ أولاده و احبّهم الی نفسه یوسف و أخیه بنیامین، و ما أصابهم من القحط و الغلاء، و فی ختام الرسالة طلب من العزیز ان یمنّ علیه و یطلق سراح ولده بنیامین، و ذکّره انّ بنیامین سلیل بیت النبوّة و الرسالة و انّه لا یتلوّث بالسرقة و غیرها من الدناءات و المعاصی.

و حینما قدّم الأولاد رسالة أبیهم الی العزیز شاهدوا انّه فضّ الرسالة باحترام و قبلها و وضعها علی عینیه و بدا یبکی بحیث انّ الدموع بلّت ثیابه ۱۴۳] (و هذا ما حیّر الاخوة، و بداوا یفکّرون بعلاقة العزیز مع أبیهم بحیث جعله یبکی شوقا و شغفا حینما فتحها، و لعلّ فعل العزیز اثار عندهم احتمال ان یکون یوسف هو العزیز، و لعلّ هذه الرسالة أثارت عواطف العزیز و شعوره بحیث لم یطق صبرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۸

و عجز عن ان یخفی نفسه بغطاء السلطة و أجبره علی کشف نفسه لإخوته).

و فی تلک اللحظة، و بعد ان مضت ایّام الامتحان الصعب- و کان قد اشتدت محنة الفراق علی یوسف و ظهرت علیه آثار الکآبة و الهمّ، أراد ان یعرّف نفسه لإخوته فابتدرهم بقوله: هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِیُوسُفَ وَ أَخِیهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ

لاحظوا عظمة یوسف و علوّ نفسه حیث یسألهم اوّلا عن ذنبهم لکن بهذه الکنایة اللطیفة یقول: ما فَعَلْتُمْ و ثانیا یبیّن لهم طریقة الاعتذار و انّ ما ارتکبوه فی حقّ إخوتهم انّما صدر عن جهلهم و غرورهم، و انّه قد مضی ایّام الصبی و الطفولة و هم الآن فی دور الکمال و العقل! کما انّه یفهم من الآیة الشریفة انّ یوسف لم یکن وحده الذی ابتلی بإخوته و معاملتهم السیّئة، بل انّ بنیامین ایضا کان یقاسی منهم ألوان العذاب، و لعلّه قد شرح لأخیه یوسف فی الفترة التی قضاها فی مصر، جانبا ممّا عاناه تحت أیدیهم، و یستفاد من بعض الرّوایات انّ یوسف حینما استفسر عمّا فعلوه معه و مع أخیه ختم استفساره بابتسامة عریضة لیدفع عن أذهانهم احتمال انّه سوف ینتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجمیلة و لاحظوا و تذکّروا الشبه بینه و بین أسنان أخیهم یوسف ۱۴۴].

امّا هم، فإنّهم حینما لاحظوا هذه الأمور مجتمعة، و شاهدوا انّ العزیز یتحدّث معهم و یستفسرهم عمّا فعلوه بیوسف، تلک الأعمال التی لم یکن یعلمها احد غیرهم الّا یوسف.

و من جهة اخری ادهشهم یوسف و ما اصابه من الوجد و الهیاج حینما استلم کتاب یعقوب، و احسّوا بعلاقة وثیقة بینه و بین صاحب الرسالة.

و ثالثا کلّما أمعنوا النظر فی وجه العزیز و دقّقوا فی ملامحه، لاحظوا الشبه الکبیر بینه و بین أخیهم یوسف .. لکنّهم فی نفس الوقت لم یدر بخلدهم و لم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۹

یتصوّروا انّه یمکن ان یکون أخوهم یوسف قد ارتقی منصب الوزارة و صار عزیزا لمصر، این یوسف و این الوزارة و العزّة؟! لکنّهم تجرّأوا أخیرا و سألوه مستفسرین منه قالُوا أَ إِنَّکَ لَأَنْتَ یُوسُفُ

کانت هذه الدقائق أصعب اللحظات علی الاخوة، حیث لم یکونوا یعرفون محتوی اجابة العزیز! و انّه هل یرفع الستار و یظهر لهم

حقیقته، ام انّه سوف یعتقد بأنّهم مجانین حیث ظنّوا هذا الظنّ.

کانت اللحظات تمرّ بسرعة و الانتظار الطویل یثقل علی قلوبهم فیزید فی قلقهم، لکن یوسف لم یدع اخوته یطول بهم الانتظار و رفع الحجاب بینه و بینهم و اظهر لهم حقیقة نفسه و قالَ أَنَا یُوسُفُ وَ هذا أَخِی لکن لکی یشکر اللّه سبحانه و تعالی علی ما أنعمه من جمیع هذه المواهب و النعم، و لکی یعلّم اخوته درسا آخر من دروس المعرفة قال: إنّه قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَیْنا إِنَّهُ مَنْ یَتَّقِ وَ یَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا یُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ

لا یعرف احد کیف مرّت هذه اللحظات الحسّاسة علی الاخوة کما لا یعرف احد مدی انفعالهم و ما خامرهم من السرور و الفرح و کیف تعانقوا و احتضنوا أخاهم و الدموع الغزیرة التی ذرفوها و ذلک حینما التقوا بأخیهم و بعد عشرات السنین من الفراق، لکنّهم فی کلّ الأحوال کانوا لا یطیقون النظر إلی وجه أخیهم یوسف لعلمهم بالذنب و الجریمة التی اقترفوها فی حقّه، فترقّبوا اجابة یوسف و انّه هل یغفر لهم إساءتهم الیه و یعفو عن جریمتهم ام لا؟ فابتدءوا مستفسرین بقولهم: قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَکَ اللَّهُ عَلَیْنا[۱۴۵] ای انّ اللّه سبحانه و تعالی قد فضّلک علینا بالعلم و الحلم و الحکومة وَ إِنْ کُنَّا لَخاطِئِینَ ۱۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۰

امّا یوسف الذی کانت نفسه تأبی ان یری اخوته فی حال الخجل و الندامة- خاصّة فی هذه اللحظات الحسّاسة و بعد انتصاره علیهم- او لعلّه أراد ان یدفع عن أذهانهم ما قد یتبادر إلیها من احتمال ان ینتقم منهم، فخاطبهم بقوله: قالَ لا تَثْرِیبَ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ ۱۴۷] ای انّ العتاب و العقاب مرفوع عنکم الیوم، اطمئنوا و کونوا مرتاحی الضمیر و لا تجعلوا للآلام و المصائب السابقة منفذا الی نفوسکم، ثمّ لکی یبیّن لهم انّه لیس وحده الذی أسقط حقّه و عفا عنهم، بل إنّ اللّه سبحانه و تعالی ایضا عفا عنهم حینما أظهروا الندامة و الخجل قال لهم: یَغْفِرُ اللَّهُ لَکُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ ای انّ اللّه سبحانه و تعالی قد قبل توبتکم و عفا عنکم لأنّه ارحم الراحمین.

و هذا دلیل علی علو قدر یوسف و غایة فضله حیث انّه لم یعف عن سیّئات اخوته فحسب، بل رفض حتّی ان یوبّخ و یعاتب اخوته- فضلا عن ان یجازیهم و یعاقبهم- اضافة الی هذا فإنّه طمأنهم علی انّ اللّه سبحانه و تعالی رحیم غفور و انّه تعالی سوف یعفو عن سیّئاتهم، و استدلّ لهم علی ذلک بأنّ اللّه سبحانه و تعالی هو ارحم الراحمین.

و هنا تذکر الاخوة مصیبة اخری قد المّت بعائلتهم و الشاهد الحی علی ما اقترفوه فی حقّ أخیهم الا و هو أبوهم حیث فقد الشیخ الکبیر بصره حزنا و فراقا علی یوسف، امّا یوسف فإنّه قد وجد لهذه المشکلة حلا حیث خاطبهم بقوله:

اذْهَبُوا بِقَمِیصِی هذا فَأَلْقُوهُ عَلی وَجْهِ أَبِی یَأْتِ بَصِیراً ثمّ طلب منهم ان یجمعوا العائلة و یأتوا بهم جمیعا وَ أْتُونِی بِأَهْلِکُمْ أَجْمَعِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۱

بحوث

۱- من الذی حمل قمیص یوسف

؟ ورد فی بعض الرّوایات انّ یوسف قال: انّ الذی یحمل قمیصی المشافی الی أبی لا بدّ و ان یکون هو نفسه الذی حمل قمیصی الملطّخ بالدماء الیه، لکی یدخل السرور علی قلبه بعد ان ملا قلبه حزنا و ألما من قبل! فأعطی ل (یهودا) قمیصه بعد ان اعترف له انّه هو الذی حمل قمیصه الملطّخ بالدماء الی أبیه و أخبره بأنّ الذئب قد أکل یوسف، و هذا التصرّف من یوسف ان لم یدلّ علی شیء فإنّه یدلّ علی انّه برغم اعماله الکثیرة و متاعبه الیومیّة، فإنّه لم یغفل عن صغائر الأمور المتعلّقة بالسلوک الاخلاقی ۱۴۸].

۲- یوسف و جلالة شأنه:

ورد فی بعض الرّوایات انّ اخوة یوسف- بعد هذه القضایا- کانوا یحسّون بالخجل الشدید فأرسلوا الیه من یقول له: یا یوسف انّک تستضیفنا کلّ یوم صباحا و مساء- علی مائدتک فنأکل من زادک و هذا ما یزید فی خجلنا حیث لا نطیق النظر الی وجهک بعد ان نتذکّر اساءتنا إلیک، فأجابهم بکلمة لطیفة لیبعد عنهم الخجل بأنّ الفضل یعود إلیهم، و انّ جلوسهم علی مائدته لهو مکرمة منهم و انّ الشعب المصری کانوا ینظرون الیّ نظرة الحرّ الی العبد و یقولون فیما بینهم (سبحان من بلغ عبدا بیع بعشرین درهما ما بلغ!!) ای انظروا الی فعل اللّه سبحانه و تعالی بهذا العبد فإنّه قد بیع فی السوق بعشرین درهما و هو الآن وصل الی هذه المرتبة السامیة، لکنّهم الآن ینظرون الی مائدتی و أنتم جلوس حولها، فیعرفون قدری و تثبت لهم منزلتی و انّنی لست بعبد ذلیل بیع بعشرین درهما، و انّما انا سلیل بیت النبوّة و الرسالة و من أولاد نبی اللّه ابراهیم الخلیل، و هذا ما أباهی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۲

و افتخر به امام الآخرین ۱۴۹].

۳- الشکر علی الانتصار:

انّ الآیات السابقة تعلّمنا بجلاء و وضوح درسا من دروس الأخلاق الاسلامیة، و هو انّه بعد الانتصار علی العدو و کسر شوکته لا بدّ ان لا ننسی العفو و الرحمة، و ان لا نعامله بقساوة، فإنّ اخوة یوسف قد عاملوه اشدّ المعاملة أشرفت به علی نهایته و أوصلته الی أبواب الموت، و لو لم تشمله عنایة اللّه سبحانه و تعالی، لعجز عن الخلاص ممّا اوقعوه فیه، هذا اضافة الی المصائب و الآلام التی تحملها أبوه، لکنّهم الآن جمیعا واقفون امّام یوسف و هو السیّد المطاع و بیده القوّة و القدرة، لکنّه عاملهم بلطف و احسان.

کما انّه یفهم من خلال حدیثه معهم انّه لم یحقد علیهم قطّ، بل الذی یقلقه هو تذکّر الاخوة ماضیهم الأسود و یحسّوا بالخجل! و لذا حاول جاهدا ان یریحهم من هذا القلق و یزیح هذا الکابوس عن صدورهم، بل اکثر من هذا فإنّه حاول ان یفهمهم انّ لهم علیه فضلا فی مجیئهم الی مصر و التعرّف علیهم، فإنّهم کانوا السبب فی کشف حقیقته امام الشعب فی هذا البلد، حیث عرف اهل مصر انّ عزیزهم هو سلیل بیت النبوّة و الرسالة و لیس عبدا بیع فی السوق بدراهم معدودات، و من هنا فإنّ یوسف کان یری لهم فی ذلک فضلا و منّة! و من حسن الصدف انّنا نری رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یمتحن بمثل هذه المواقف الحرجة، فمثلا حینما فتح رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکّة و اذلّ المشرکین و هزمهم و کسر أصنامهم و داس شوکتهم و کبریاءهم، جاء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (کما رواه ابن عبّاس) الی جوار الکعبة و أخذ بحلقة بابها و کان المشرکون قد التجأوا إلیها هم ینتظرون حکم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیهم، و

قال کلمته المشهورة: «الحمد للّه الذی صدق وعده

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۳

و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده» ثمّ توجّه الی قریش و خاطبهم بقوله: «ماذا تظنّون یا معشر قریش؟ قالوا: خیرا، أخ کریم و ابن أخ کریم، و قد قدرت! قال: و انا أقول کما قال اخی یوسف لا تثریب علیکم الیوم».

ای انّ الیوم لیس یوم ملامة و انتقام و اظهار الحقد و الضغینة

«اذهبوا فأنتم الطلقاء».

فقال عمر بن الخطاب: ففضت عرقا من الحیاء من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذلک انّی قد کنت قلت لهم حین دخلنا مکّة: الیوم ننتقم منکم و نفعل ۱۵۰].

کما انّه وردت فی کثیر من الرّوایات الاسلامیة انّ

«زکاة النصر هو العفو».

یقول علی علیه السّلام: «إذا قدرت علی عدوّک فاجعل العفو عنه شکرا للقدرة علیه»[۱۵۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۴

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۹۴ الی ۹۸]

اشارة

وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِیرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّی لَأَجِدُ رِیحَ یُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (۹۴) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّکَ لَفِی ضَلالِکَ الْقَدِیمِ (۹۵) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِیرُ أَلْقاهُ عَلی وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِیراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۹۶) قالُوا یا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا کُنَّا خاطِئِینَ (۹۷) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (۹۸)

التّفسیر

و أخیرا شملتهم رعایة اللّه و لطفه:

امّا أولاد یعقوب فإنّهم بعد ان واجهوا یوسف و جری لهم ما جری حملوا معهم قمیص یوسف فرحین و مستبشرین و توجّهوا مع القوافل القادمة من مصر، و فیما کان الاخوة یقضون اسعد لحظات حیاتهم، کان هناک بیت فی بلاد الشام و ارض کنعان- الا و هو بیت یعقوب الطاعن فی السنّ حیث کان یقضی هو و عائلته احرج اللحظات و اشدّها حزنا و بؤسا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۵

لکن- مقارنا مع حرکة القافلة من مصر- حدث فی بیت یعقوب حادث غریب بحیث اذهل الجمیع و صار مثارا للعجب و الحیرة، حیث نشط یعقوب و تحرّک من مکانه و تحدّث کالمطمئن و الواثق بکلامه قال: لو لم تتحدّثوا عنّی بسوء و لم تنسبوا کلامی الی السفاهة و الجهل و الکذب لقلت لکم: إِنِّی لَأَجِدُ رِیحَ یُوسُفَ فإنّی احسّ بأنّ ایّام المحنة و الآلام سوف تنصرم فی القریب العاجل، و انّه قد حان وقت النصر و اللقاء مع الحبیب، و اری انّ آل یعقوب قد نزعوا ثوب العزاء و المصیبة و لبسوا لباس الفرح و السرور- لکن لا تصدّقون کلامی وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِیرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّی لَأَجِدُ رِیحَ یُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ ۱۵۲].

و المستفاد من قوله تعالی (فصلت) انّه بمجرّد ان تحرّکت القافلة من مصر احسّ یعقوب بالأمر و تغیّرت أحواله.

امّا الذین کانوا مع یعقوب- و هم عادة أحفاده و ازواج أولاده و غیرهم من الأهل و العشیرة- فقد استولی علیهم العجب و خاطبوه بوقاحة مستنکرین: قالُوا تَاللَّهِ إِنَّکَ لَفِی ضَلالِکَ الْقَدِیمِ أ لیس هذا برهانا واضحا علی ضلالک حیث مضت سنین طویلة علی موت یوسف لکنّک لا- زلت تزعم انّه حی، و أخیرا تقول: انّک تشمّ رائحته من مصر؟! این مصر و این الشام و کنعان؟! و هذا دلیل علی بعدک عن عالم الواقع و انغماسک فی الأوهام و الخیالات لکنّک قد ضللت منذ مدّة طویلة، الم تقل لاولادک قبل فترة اذهبوا الی مصر و تحسّسوا عن احوال یوسف! یظهر من هذه الآیة الشریفة انّ المقصود ب (الضلال) لیس الانحراف فی العقیدة، بل الانحراف فی تشخیص حقیقة حال یوسف و القضایا المتعلّقة به، لکن یستفاد من هذه التعابیر انّهم کانوا یتعاملون مع هذا النّبی الکبیر و الشیخ

المتیقّظ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۶

الضمیر بخشونة و قساوة بالغین بحیث کانوا یقولون له مرّة: إِنَّ أَبانا لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ و هنا قالوا له: إِنَّکَ لَفِی ضَلالِکَ الْقَدِیمِ لکنّهم کانوا غافلین عن الحقیقة التی کان یتحلّی بها یعقوب و عن صفاء قلبه، و یتصوّرون انّ قلب یعقوب کقلوبهم القاسیة المظلمة و انّه لا یطّلع علی حقائق الأمور ماضیها و مستقبلها.

و تمضی اللیالی و الایّام و یعقوب فی حالة الانتظار ... الانتظار القاسی الذی یستبطن السرور و الفرح و الهدوء و الاطمئنان، الّا انّ المحیطین به کانوا مشغولین عن هذه الأمور لاعتقادهم بأنّ قضیّة یوسف مختومة و الی الأبد.

و بعد عدّة ایّام من الانتظار- و التی لا یعلم الّا اللّه کیف قضاها یعقوب- ارتفع صوت المنادی معلنا عن وصول قافلة کنعان من مصر، لکن فی هذه المرّة- و خلافا للمرّات السابقة- دخل أولاد یعقوب الی المدینة فرحین مستبشرین، و توجّهوا مسرعین الی بیت أبیهم، و قد سبقهم ال (بشیر) الذی بشّر یعقوب بحیاة یوسف و القی قمیص یوسف علی وجهه.

امّا یعقوب الذی أضعفت المصائب بصره و لم یکن قادرا علی رؤیة القمیص فبمجرّد ان احسّ بالرائحة المنبعثة من القمیص شعر فی تلک اللحظة الذهبیة بأنّ نورا قد شعّ فی جمیع ذرّات وجوده و انّ السّماء و الأرض مسروران و نسیم الرحمة یدغدغ فؤاده و یزیل عنه الحزن و الألم، شاهد الجدران و کأنّها تضحک معه، و احسّ یعقوب بتغیّر حالته، و فجأة رای النّور فی عینیه و احسّ بأنّهما قد فتحتا و مرّة اخری رای جمال العالم، و القرآن الکریم یصف لنا هذه الحالة بقوله:

فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِیرُ أَلْقاهُ عَلی وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِیراً.

هذه الحالة التی حصلت لیعقوب اسالت دموع الفرح من عیون الاخوة و الأهل، و عند ذلک خاطبهم بقوله: أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

هذه المعجزة الغریبة، جعلت الأولاد یعودون الی أنفسهم و یتساءلون عنها و یفکّرون فی ماضیهم الأسود الملیء بالاخطاء و الذنوب، و ما اعتورهم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۷

الحسد و غیره من الصفات الرذیلة البعیدة عن الانسانیة، لکن ما أجمل التوبة و العودة الی طریق الصواب حینما ینکشف للإنسان خطأ المسیرة التی سار فیها ..

و ما احلی تلک اللحظات التی یحاول المذنب ان یطلب العفو ممّن جنی علیه، لیطهّر به نفسه و یبعدها عن جادّة الخطأ و الانحراف، و هذا ما قام به الاخوة حیث وقعوا نادمین علی ید أبیهم یقبّلونها و یطلبون منه العفو و الاستغفار قالُوا یا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا کُنَّا خاطِئِینَ

امّا یعقوب هذا الرجل العظیم الذی کانت روحه أوسع من المحیطات، فقد أجابهم دون ان یلومهم علی تلک الأفعال التی اقترفوها فی حقّه و حقّ أخیهم ..

أجابهم بقوله: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی و املی معقود بأن یغفر اللّه سبحانه و تعالی ذنوبکم إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ

ملاحظات

۱- کیف احسّ یعقوب برائحة قمیص یوسف

؟! هذا سؤال اثاره كثير من المفسّرين، و اعتبروه معجزة خارقة للعادة من قبل يعقوب او يوسف. الّا انّه- مع الأخذ بنظر الاعتبار سكوت القرآن عن هذا الأمر- و لم يتناوله على انّه امر اعجازى او غير اعجازى فمن الهيّن ان نجد له توجيها علميّا ايضا. إذ انّ حقيقة «التليبائى» او انتقال الفكر من النقاط او الأماكن البعيدة تعدّ مسألة علميّة قطعيّة مسلّما بها ... و انّها تحدث عند من تكون لديهم علاقة قريبة تربط بعضهم ببعض، او تكون لديهم قدرة روحيّة عالية.

و لعلّ كثيرا منّا يواجه مثل هذه المسألة فى حياتنا اليوميّة، و ذلك ان يشعر شخص «من أب، او امّ، او أخ» مثلا بالكآبة و انقباض النفس دون سبب، ثمّ لا يمضى وقت- او فترة- حتّى يبلغه خبر بأنّ أخاه او ولده قد حدث له حادث ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۸

فى نقطة بعيدة عنه.

فالعلماء يوجّهون هذا الاحساس على انّه جرى عن طريق انتقال الفكر.

و ما ورد فى قصّة يعقوب لعلّه من هذا القبيل ايضا، فعلاقته الشديدة بيوسف و عظمة روحه، كلّ ذلك كان سببا لان يشعر بالحالة الحاصلة للاخوة نتيجة حمل قميص يوسف من مسافة بعيدة.

و من الممكن ان يتعلّق هذا الأمر بمسألة سعة دائرة علم الأنبياء ايضا.

و قد وردت اشارة طريفة- فى بعض الرّوايات- الى مسألة انتقال الفكر، و هى انّ بعضهم سأل الامام أبا جعفر الباقر عليه السّلام: فقال: جعلت فداك، ربّما حزنت من دون مصيبة تصيبنى او امر ينزل بى، حتّى يعرف ذلك اهلى فى وجهى و صديقى.

فقال عليه السّلام: «نعم يا جابر، انّ اللّه خلق المؤمنين من طينة الجنان و اجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه و امّه، فإذا أصاب روحا من تلك الأرواح فى بلد من البلدان حزن حزنت هذه لانّها منها»[۱۵۳].

و يستفاد من بعض الرّوايات ايضا انّ هذا القميص لم يكن قميصا مألوفا، بل كان ثوبا من ثياب الجنّة، و قد خلّفه ابراهيم الخليل عليه السّلام فى آل يعقوب و أسرته ليكون ذكرى له، و انّ رجلا كيعقوب عليه السّلام الذى كانت لديه شامّة من «الجنّة» احسّ برائحة هذا الثوب الذى هو من ثياب الجنّة من بعيد[۱۵۴].

۲- اختلاف حالات الأنبياء:

الاشكال المعروف الآخر هنا هو ما اثاره بعضهم فى شأن يعقوب من سؤال و هو:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۹

كيف يمكن ان يكون هذا النّبى العظيم قد احسّ بريح قميص يوسف من مسافة قدّرها بعضهم بثمانين فرسخا، و قال بعضهم: من مسافة عشرة ايّام، مع انّه لم يطّلع على الحوادث القريبة منه التى مرّت على يوسف عند ما القى فى الجبّ فى ارض كنعان؟

و الجواب على هذا السؤال- مع الالتفات الى ما ذكرناه آنفا فى شأن علم الغيب، و حدود علم الأنبياء و الائمّة- يسير لا غبار عليه، لانّ علمهم بالأمور الغيبيّة يستند الى علم اللّه و ارادته، و ما يشاؤه اللّه لهم من العلم «او عدمه» حتّى و لو كان ذلك فى اقرب نقطة من نقاط العالم.

فيمكن تشبيههم من هذا الوجه بالقافلة التى تسير فى ليل مظلم فى صحراء تغشيها الغيوم و بينا هى على هذه الحال و إذا السّماء تومض بالبرق اللامع فتضىء الصحراء الى منتهى أطرافها، فترى القافلة بأمّ أعينها كلّ شىء امامها، الّا انّ البرق ينطفئ ثانية و يستوعب الظلام كلّ مكان فلا يرى احد شيئا.

و لعلّ الحديث الوارد عن الامام الصادق عليه السّلام فى شأن علم الامام عليه السّلام اشارة الى هذا المعنى، إذ

جاء عنه علیه السّلام انّه قال: «جعل اللّه بینه و بین الامام عمودا من نور، ینظر اللّه به الی الامام، و ینظر الامام به الیه، فإذا أراد علم شیء نظر فی ذلک النّور فعرفه»[۱۵۵].

و مع الالتفات الی هذه الحقیقة، فلا مجال للتعجّب بأن تقتضی مشیئة اللّه سبحانه- لابتلاء یعقوب و تمحیصه ان لا یعرف یوما شیئا عن الحوادث فی کنعان و هی تجری قریبا منه، و ان یحسّ برائحة قمیص ولده یوسف و هو فی مصر فی یوم آخر عند ما قدّر له ان تنتهی محنته و بلواه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۰

۳- کیف ردّ علی یعقوب بصره؟!

احتمل بعض المفسّرین انّ یعقوب علیه السّلام لم یفقد بصره بصورة کلیّة، و انّما ضعف بصره، و عند حصول مقدّمات الوصال تبدّل تبدّلا بحیث عاد ذلک البصر الی حالته الطبیعیّة الاولی، الّا انّ ظاهر آیات القرآن یدلّ علی انّه فقد بصره تماما و ابیضّت عیناه من الحزن، و علی ذلک فإنّ بصره عاد الیه عن طریق الاعجاز، حیث یقول القرآن الکریم: فَارْتَدَّ بَصِیراً.

۴- الوعد بالاستغفار:

نقرا فی الآیات- محل البحث- انّ یوسف علیه السّلام قال لإخوته عند ما أظهروا له ندامتهم: یَغْفِرُ اللَّهُ لَکُمْ الّا انّ یعقوب علیه السّلام قال لهم عند ما اعترفوا عنده بالذنب و أظهروا الندامة: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ و کان هدفه- کما تقول الرّوایات- ان یؤخّر استجابة طلبهم الاستغفار الی السحر (من لیلة الجمعة) الذی هو خیر وقت لاستجابة الدعاء و قبول التوبة[۱۵۶].

و الآن ینقدح هذا السؤال و هو: کیف أجابهم یوسف بصورة قطعیّة، و أوکل أبوهم ذلک الی المستقبل؟! و لعلّ هذا الاختلاف ناشئ عن انّ یوسف علیه السّلام کان یتحدّث عن «إمکان المغفرة» و انّ هذا الذنب من الممکن ان یعفو اللّه عنه، و یعقوب کان یتحدّث عن «فعلیّة المغفرة» و انّه ما الذی ینبغی ان یفعل حتّی تتحقّق التوبة و المغفرة «فلاحظوا بدقّة».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۱

۵- التوسّل جائز:

یستفاد من الآیات- آنفة الذکر- انّ طلب الاستغفار من الآخرین غیر مناف للتوحید، بل هو سبیل الی الوصول الی لطف اللّه سبحانه، و الّا فکیف کان یمکن لیعقوب ان یستجیب لطلب ابنائه فی ان یستغفر لهم و ان یجیبهم بالإیجاب علی توسّلهم به.

و هذا الأمر یدلّ علی ان التوسّل بأولیاء اللّه جائز علی الإجمال، و الأشخاص الذین یرون ذلک مخالفا لاصل التوحید غافلون عن نصوص القرآن، او انّ التعصّب المقیت یحجب ابصارهم عن تلک النصوص.

۶- نهایة اللیلة السوداء

انّ الدرس الکبیر الذی نستلهمه من الآیات المتقدّمة هو انّه مهما کانت المشاکل و الحوادث صعبة و عسیرة، و مهما کانت الأسباب و

العلل الظاهرية غير تامّة و محدودة، و مهما كان النصر او الفرج بطيئا (او غير متحقّق فعلا) فإنّ ايّا من أولئك لا يمنع من الرجاء و الأمل بلطف اللّه، فاللّه الذى أعاد البصر برائحة القميص و نقل رائحة ذلك القميص من مسافة بعيدة، و ردّ العزيز المفتقد بعد سنين طويلة، قادر على ان يضمّد القلوب المجروحة من الفراق، و ان يشفى آلام النفوس.

اجل انّنا نجد الدرس التوحيدى الكبير ينطوى فى هذا القصص و التاريخ، و هو انّه لا شىء على اللّه بعزيز و لا عسير، بل يهون كلّ شىء بأمره و ارادته.

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۲

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۹۹ الى ۱۰۱]

اشارة

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (۹۹) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۱۰۰) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (۱۰۱)

التّفسير

عاقبة امر يوسف و أبيه و اخوته:

مع وصول القافلة التى تحمل أعظم بشارة من مصر الى كنعان، و عودة البصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۳

الى يعقوب، ارتفعت اهازيج فى كنعان. فالبيت الذى لم يخلع اهله عنهم ثياب الحزن و الاسى لسنين عديدة، أصبح غارقا فى السرور و الحبور، فلم يكتموا رضاهم عن هذه النعم الالهيّة ابدا.

و الآن ينبغى على اهل هذا البيت- وفقا لوصيّة يوسف- ان يتحرّكوا و يتّجهوا نحو مصر، و تهيّأت مقدّمات السفر من جميع النواحى، و ركب يعقوب راحلته و شفتاه رطبتان بذكر اللّه و تمجيده، و قد منحه عشق يوسف قوّة و عزما الى درجة و كأنّه عاد شابا من جديد.

و هذا السفر على خلاف الاسفار السابقة- التى كانت مقرونة لدى اخوة يوسف بالقلق و الحزن- كان خاليا من ايّة شائبة من شوائب الهمّ و الغمّ. و حتّى لو كان السفر بنفسه متعبا، فهذا التعب لم يكن شيئا ذا بال قبال ما يهدفون اليه فى مسيرهم هذا.

كانوا يطوون الليالى و الايّام ببطء، لانّ الشوق كان يحيل كلّ دقيقة الى يوم او سنة، و لكن انتهى كلّ شىء و لاحت معالم مصر و أبنيتها من بعيد بمزارعها الخضر و أشجارها الباسقة السامقة و عماراتها الجميلة.

الّا انّ القرآن الكريم- كعادته دائما- حذف هذه المقدّمات التى يمكن ان تدرك بأدنى تفكّر و تأمّل، فقال فى هذا الشأن: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ

و كلمة «آوى»- كما يقول الراغب فى مفرداته- تعنى فى الأصل انضمام شىء الى شىء آخر، و ضمّ يوسف أبويه اليه كناية عن احتضانهما و معانقتهما.

و أخیرا تحقّقت احلی سویعات الحیاة لیعقوب، و فی هـذا اللقاء و الوصال الـذی تمّ بین یعقوب و یوسف بعـد سـنین من الفراق، مرّت علی یعقوب و یوسف لحظات لا یعلم اللّه عواطفها فی تلک اللحظات الحلوة، و ایّة دموع انسکبت من عینیهما من الفرح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۴

و عندها التفت یوسف الی اخوته و أبویه و قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ لانّ مصر أصبحت تحت حکم یوسف فی امن و أمان و اطمئنان.

و یستشفّ من هـذه الجملـة انّ یوسف کان قـد خرج الی خارج بوّابـة المدینـة لاسـتقبال والدیه و اخوته، و لعلّ التعبیر ب دَخَلُوا عَلی یُوسُفَ یحتمل ان یکون یوسف قد أمر أن تنصب الخیام هناک «خارج المدینة» و ان تهیأ مقدّمات الاستقبال لأبویه و اخوته.

فلمّا دخلوا القصر أکرمهم یوسف علیه السّلام وَ رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ

و کانت هـذه العظمة من النعمة الالهیّة و اللطف و الموهبة التی منّ اللّه بها علی یوسف قد ادهشت اخوة یوسف و أبویه فذهلوا جمیعا وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً.

و عندها التفت یوسف الی أبیه وَ قالَ یا أَبَتِ هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ مِنْ قَبْلُ

الم یکن انّی رأیت احـد عشـر کوکبا و الشـمس و القمر رایتهم لی ساجـدین؟! فانظر یأبت کما کنت تتوقّع من عاقبـة امری قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا .. وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی إِذْ أَخْرَجَنِی مِنَ السِّجْنِ

الطریف هنا انّ یوسف تکلّم هنا عن سجنه فی مصر من بین جمیع مشاکله و لم یتکلّم علی الجبّ مراعاة لإخوته.

ثمّ أضاف یوسف قائلا: وَ جاءَ بِکُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّیْطانُ بَیْنِی وَ بَیْنَ إِخْوَتِی

و مرّة اخری یظهر هنـا یوسـف مثلاـ آخر من سـعة صـدره و عظمته، و دون ان یقـول: من هو المقصّـِر، و انّـما یقول بصورة مجملـة انّ الشیطان تدخّل فنزغ بینی و بین اخوتی، فهو لا یرید ان یتشکّی من اخطاء اخوته السالفة.

و التعبیر عن ارض کنعان بالبدو تعبیر طریف و کاشف عن مدی الاختلاف بین تمدّن مصر و تخلّف کنعان «حضاریّا».

و أخیر یقول یوسف: انّ جمیع هذه المواهب هی من قبل اللّه، و لم لا تکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۵

کذلک ف إِنَّ رَبِّی لَطِیفٌ لِما یَشاءُ.

فیتولّی امور عباده بالتیسیر و التدبیر .. و هو یعلم من هو المحتاج و من هو الجدیر بالاستجابة إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ

ثمّ یلتفت یوسف نحو مالک الملک الحقیقی و ولی النعمـة الدائمة فیقول شاکرا راجیا: رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ

و هذا العلم البسـیط بحسب الظاهر «تأویل الأحادیث» کم کان له من اثر عظیم فی تغییر حیاتی و حیاة جماعة آخرین من عبادک، و ما أعظم برکة العلم! فأنت یا ربّ: فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و لذلک فقد خضعت و استسلمت قبال قدرتک جمیع الأشیاء.

ربّاه: أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِی مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ

ای انّنی لاـ اطلب دوام الملـک و بقـاء الحکم و الحیـاة المادیّـة منـک یـا ربّ، لاـنّ هـذه الأمور جمیعها فانیـة و لیس فیها سوی البریق الجـذّاب. بل اطلب منک یا ربّ ان تکون عاقبـة امری علی خیر، و ان اقضـی حیاتی و أموت مؤمنا فی سبیلک مسـلّما لارادتک، و ان أکون فی صفوف الصالحین. فهذه الأمور هی المهمّة لدیّ فحسب.

بحوث

۱- هل السجود لغير اللّه جائز

؟! كما بيّنا فى الجزء الاوّل من هذا التّفسير عند بحثنا فى شأن سجود الملائكهٔ لآدم، فقلنا: انّ السجود بمعنى العبادهٔ يختص باللّه تعالى و لا تجوز العبادهٔ لاى احد فى ایّ مذهب الّا للّه سبحانه و هذا هو المراد من توحيد العبادهٔ الذى هو قسم مهمّ من التوحيد الذى دعا اليه جميع الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۶

فبناء على هذا لم يكن يوسف و هو نبیّ اللّه يسمح لأحد ان يسجد له و يعبده من دون اللّه، و لا النّبى العظيم يعقوب كان يقدّم على مثل هذا الأمر، و لا القرآن الكريم كان يعبّر عنه بأنّه عمل جدير او على الأقل عمل مجاز.

فبناء على ذلك فإنّ السجود المشار اليه فى الآيهٔ- محلّ البحث- امّا انّه كان «سجدهٔ الشكر» للّه تعالى الذى اولى يوسف هذه المواهب و المقام العظيم، و فرّج عن آل يعقوب كربهم و أزال عنهم همومهم، و هذا السجود فى الوقت الذى كان للّه، بما انّه كان من اجل عظمهٔ موهبهٔ يوسف، فإنّه كان يعتبر تعظيما و تكريما ليوسف ايضا، و من هذا المنطلق فإنّ الضمير فى (له) الذى يعود على يوسف قطعا ينسجم و هذا المعنى تماما.

او انّ المراد من السجود هو مفهومه الواسع، اى الخضوع و التواضع، لانّ السجدهٔ- او السجود- لا يأتى اى منهما بمعناه المعروف دائما، بل ربّما يرد بمعنى الخضوع و التواضع أحيانا، فلذا قال بعض المفسّرين: انّ التحيّهٔ او التواضع المتداول آنئذ كان الانحناء و التعظيم، و انّ المراد من السجود فى الآيهٔ هو هذا المعنى.

الّا انّه مع الالتفات الى جملهٔ «خرّوا» التى يعنى مفهومها الهویّ نحو الأرض فإنّه لا يستفاد من السجود فى الآيهٔ الانحناء و الخضوع (هنا).

و قال بعض المفسّرين العظام: انّ سجود يعقوب و اخوهٔ يوسف و امّهم كان للّه سبحانه، الّا انّ يوسف كان- بمثابهٔ الكعبهٔ- قبلهٔ لهم، و لهذا جاء فى بعض تعابير العرب قولهم: فلان صلّى للقبلهٔ[۱۵۷].

الّا انّ المعنى الاوّل يبدو اقرب للنظر، و خاصّهٔ

انّ بعض الرّوايات الواردهٔ عن اهل البيت عليهم السّلام تقول: «كان سجودهم للّه، او عبادهٔ للّه»[۱۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۷

كما جاء فى بعض الرّوايات انّ سجودهم كان طاعهٔ للّه و تحيّهٔ ليوسف ۱۵۹].

كما انّ السجود لآدم كان سجودا للّه العظيم الذى خلق مثل هذا الخلق البديع، و هو فى الوقت الذى يعدّ عبادهٔ للّه فهو دليل على احترام آدم و عظمته.

و هذا الأمر يشبه تماما ان يؤدّى رجل- مثلا- عملا مهمّا عظيما، فنسجد نحن للّه الذى خلق مثل هذا الإنسان، فهذا السجود هو للّه كما انّه فى الوقت ذاته يعدّ احتراما و تعظيما للرجل ايضا.

۲- وساوس الشيطان:

انّ جملهٔ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي مع ملاحظهٔ انّ نزغ بمعنى الدخول فى امرّ ما بقصد الفساد او الإفساد تدلّ على انّ لوساوس الشيطان فى مثل هذه الحوادث أثرا مهمّا دائما، الّا انّنا نوّهنا من قبل بأنّ هذه الوساوس لوحدها لا تعمل شيئا، فالمصمّم الأخير هو الإنسان نفسه، بل هو الذى يفتح أبواب قلبه للشيطان و يسمح له بالدخول.

فبناء علی ذلک فلیس فی الآیهٔ- محلّ البحث- امر خلاف اصل حرّیّهٔ الارادهٔ أساسا. غایهٔ ما فی الأمر انّ یوسف علیه السّلام بما لدیه من حلم و سعهٔ صدر لم یرغب ان یحرج اخوته و یزید فی خجلهم، فهم کانوا خجلین الی درجهٔ کافیهٔ، و لهذا لم یشر الی المصمّم النهائی و انّما ذکر وساوس الشیطان التی تعدّ العالم الثانوی فحسب.

۳- الأمن نعمهٔ اللّه الکبری

؟ لقد أشار یوسف الی مسألهٔ الأمن من بین جمیع المواهب و النعم بمصر، و قال لأبویه و اخوته ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ و هذا الأمر یدلّ علی انّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۸

نعمهٔ الأمن أساس جمیع النعم، و الحقّ انّها کذلک، لانّه متی ذهبت نعمهٔ الأمن، فإنّ سائر مسائل الرفاه و المواهب المادیهٔ و المعنویهٔ یحدق بها الخطر.

ففی جوّ او محیط غیر آمن، لیس بالمقدور اطاعهٔ اللّه فیه و لا الحیاهٔ الحرّهٔ الکریمهٔ، کما لیس بمقدور الإنسان ان یفکّر تفکیرا مطمئنا هادئا، و لا السعی و الجدّ و الجهاد نحو تحقّق الاهداف الاجتماعیهٔ ایضا.

و هذه الجملهٔ لعلّها اشارهٔ الی هذه اللطیفهٔ، و هی انّ یوسف یرید ان یقول: انّ ارض مصر فی عهدی و حکومتی لیست هی تلک الأرض فی عهد الفراعنهٔ و حکمهم، فأولئک الظالمون المستکبرون المستثمرون الانانیون ولّوا و مضوا کما مضی ذلک التعذیب و الأذی، فالجوّ جو آمن تماما.

۴- اهمیّهٔ مقام العلم:

و مرّهٔ اخری یعوّل یوسف علیه السّلام فی انتهاء عمله و امره علی مسألهٔ علم تعبیر الرؤیا، و یجعل هذا العلم البسیط- ظاهرا- الی جانب تلک الحکومهٔ العظمی و من دون منازع، و هذا یکشف عن تأکیده علی اهمیّهٔ العلم مهما کان بسیطا، فیقول:

رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ

۵- حسن العاقبهٔ:

قد یتقلّب الإنسان فی طول عمره فی اشکال مختلفهٔ متعدّدهٔ، الّا انّ من المسلّم به انّ الصفحات الاخیرهٔ من حیاته اهمّ من جمیع ما مضی علیه، لانّ سجل عمره ینتهی بانتهائها و یتعلّق الحکم النهائی، لذا فإنّ الرجال المؤمنین یطلبون من اللّه دائما ان تکون هذه الصفحات من العمر مشرقهٔ نیّرهٔ، و ان یختم لهم بالخیر.

و نجد یوسف علیه السّلام یطلب من اللّه- هنا- هذا الأمر نفسه فیقول: تَوَفَّنِی مُسْلِماً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۹

وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ

و لیس معنی هذا الکلام طلب الموت من اللّه، کما تصوّره ابن عبّاس فقال: لم یطلب احد من الأنبیاء الموت من اللّه الّا یوسف، فعند ما توفّرت له اسباب حکومته تأجّج العشق (و التعلّق باللّه) فی نفسه فتمنّی لقاء اللّه.

بل طلب يوسف انّما كان الشرط و الحالة فحسب، اى انّه طلب ان يكون عند الوفاة مؤمنا مسلما، و قد كان ابراهيم و يعقوب يوصيان أبناءهما بهذه الوصيّة ايضا بقولهما لهم: فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [۱۶۰] و قد اختار كثير من المفسّرين هذا المعنى.

۶- هل جاءت امّ يوسف الى مصر

يستفاد من ظاهر الآيات- آنفة الذكر- بصورة جيّدة انّ امّ يوسف كانت يومئذ حيّة، و قد جاءت مع يعقوب و ابنائها الى مصر، و سجدت شاكرة هذه النعمة. الّا انّ بعض المفسّرين يصرّون على انّ امّ يوسف «راحيل» كانت قد انتقلت من الدنيا يومئذ، و انّما التى جاءت الى مصر خالته التى تعدّ بمثابة امّه.

و نقرا فى سفر التكوين من التوراة- الفصل ۳۵ الجملة ۱۸- انّ راحيل بعد ان ولدت بنيامين رحلت عن الدنيا. و جاء فى بعض الرّوايات عن (وهب بن منبه) و (كعب الأحبار) هذا المعنى ذاته ايضا، و يبدو انّه مأخوذ من التوراة.

و على اى حال، فليس بوسعنا ان نغضى عن ظاهر آيات القرآن التى تقول:

انّ امّ يوسف كانت حيّة آنئذ، و نؤول ذلك و نوجّهه دون اى دليل.

۷- عدم ذكر القصّة للأب:

نقرا

فى رواية عن الامام الصادق عليه السّلام انّه قال عليه السّلام: «قال يعقوب ليوسف:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۰

يا بنى حدّثنى كيف صنع بك إخوتك؟! قال: يا أبت دعنى.

فقال: أقسمت عليك الّا اخبرتنى! فقال له: اخذونى و اقعدونى على راس الجبّ، ثمّ قالوا لى: انزع قميصك، فقلت لهم انّى اسألكم بوجه أبى يعقوب ان لا تنزعوا قميصى و لا تبدوا عورتى، فرفع فلان السكّين علىّ، و قال: انزل.

فصاح يعقوب فسقط مغشيّا عليه ثمّ أفاق، فقال له: يا بنى كيف صنعوا بك؟! فقال يوسف: انّى اسألك بإله ابراهيم و إسماعيل و إسحاق الّا اعفيتنى.

قال: فتركه» إلخ [۱۶۱].

و هذا الأمر يدلّ على انّ يوسف لم يرغب بأىّ وجه ابدا ان يعيد فى ذهنه او فى ذهن أبيه الماضى المرير، بالرغم من انّ رغبة يعقوب فى التقصّى عن الأمر لم تدعه يستقرّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۱

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۰۲ الى ۱۰۷]

اشارة

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (۱۰۲) وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

(۱۰۳) وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۱۰۴) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (۱۰۵) وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (۱۰۶)

أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۰۷)

التّفسير

الأدعياء مشركون غالبا

! بعد ما انتهت قصّة يوسف عليه السّلام بكلّ دروسها التربوية و نتائجها الغزيرة و القيّمة و الخالية من جزاف القول و الخرافات التاريخيّة .. انتقل الكلام الى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول القرآن الكريم: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۲

انّ هذه المعلومات الدقيقة لا يعلمها الّا اللّه، او واحد من الذين كانوا حاضرين هناك، و بما انّك لم تكن حاضرا لديهم فالوحى الالهى فقط هو الذى جاءك بهذه الاخبار.

و من هنا يتّضح انّ قصّة يوسف بما انّها وردت فى التوراة فأهل الحجاز عندهم معلومات تقريبيّة عنها، و لكن كلّ هذه الحوادث لم تطرح بهذه الدقّة فى جزئياتها ابدا، و حتّى فى المحافل الخاصّة السابقة لم تكن تعرف بدون اضافة و خرافة.

و على اى حال كان لزاما على الناس ان يؤمنوا بعد مشاهدتهم لعلائم الوحى و سماعهم لهذه النصائح الالهيّة، و ان يتراجعوا عن طريق الغىّ، و لكن يا ايّها النّبى:

وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

انّ الوصف ب (الحرص) هنا دليل على شوق و لهفة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لانّ يؤمن الناس، و لكن ما الفائدة، فإصراره و شوقه لم يكونا كافيين، فمن شرط الايمان الاستعداد و القابلية فى نفس الشخص.

انّ أبناء يعقوب عليه السّلام كانوا يعيشون فى بيت الوحى و النبوّة، و مع ذلك نرى كيف عصفت بهم الأهواء حتّى كادوا ان يقتلوا أخاهم، فكيف نتوقّع من جميع الناس ان يتغلّبوا على أهوائهم و شهواتهم مرّة واحدة و بشكل جماعى و يؤمنوا باللّه؟

و هذه الآية بالاضافة الى ما ذكرنا هى تسلية لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتّى لا ييأس ابدا من إصرارهم على الكفر و الذنوب و لا يستوحش الطريق لقلّة أصحابه، كما نقرا فى آيات اخرى من القرآن الكريم الكهف (۶): فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً و قوله تعالى: وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ فهؤلاء فى الواقع ليس لهم اى عذر او مبرّر لعدم قبول الدعوة بالاضافة الى ما اتّضح من علامات الحقّ انّك لم تسألهم اجرا حتّى يكون مبرّرا لمخالفتك:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۳

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ

و هذه الدعوة عامّة للجميع، و مائدة واسعة للعام و الخاص و كلّ البشرية.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ

فهذه الدلائل يرونها بأعينهم كلّ يوم! تشرق الشمس عند الصباح لتنشر أشعتها الذهبية على الجبال و الوديان و الصحارى و البحار، و تغرب عند المساء و يعمّ الليل بستاره المظلم كلّ مكان.

انّ اسرار هذا النظام العجيب و هذا الشروق و الغروب و حياة النباتات و الحشرات و الإنسان، و هدير المياه، و حركة النسيم، و كلّ هذا الفن العجيب للوجود هو من الوضوح بحيث ان لم يتدبّر احد فيه و فى خالقه سيكون كالخشبة المسنّدة.

كثيرة هى الدلائل التى نعتبرها صغيرة و غير مهمّة، فنحن نمرّ عليها كلّ يوم و لا نعير لها اهميّة، و فجأة يظهر عالم ذو بصيرة فيكتشف بعد دراسة أشهر و سنين اسرار هذه الدلائل و يذهل العالم بها.

المهمّ ان نعلم انّ كلّ ما فى العالم ليس زخرفا و بدون فائدة، لانّها من مخلوقات اللّه الذى لا نهاية لعلمه و لا حدّ لحكمته. و انّما الساذج و الزخرف فهم أولئك الذين يعتقدون بأنّ العالم وجود عبث و ليس له غاية و فائدة. و لهذا فلا تعجب لعدم ايمانهم بالآيات المنزلة عليك، لانّهم لم يؤمنوا بالآيات المحيطة بهم من كلّ مكان وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ

قد يتصوّر هؤلاء انّهم من المؤمنين المخلصين و لكن غالبا ما توجد جذور الشرك فى افكارهم و أقوالهم و ضمائرهم.

ليس الايمان هو الاعتقاد بوجود اللّه فقط، فالمؤمن المخلص هو الذى لا- يعتقد بأىّ معبود سوى اللّه، فتكون أقواله و اعماله و كلّ أفعاله خاضعة له. و لا يعترف بغير قانون اللّه، و لا يضع طوق العبوديّة فى رقبته لغيره، و يمتثل بقلبه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۴

و روحه لكلّ الأوامر الالهيّة و لو كانت مخالفة لهواه، و يقدّم دائما الإله على الهوى، هذا هو الايمان الخالص من الشرك فى العقيدة و القول و العمل، فلو حسبنا حسابا دقيقا فى هذا المجال لوجدنا انّ الموحّدين الصادقين و المخلصين قليلون جدّا.

و لهذا السبب نقرا

فى الرّوايات الاسلامية ما جاء عن الامام الصادق عليه السّلام «الشرك أخفى من دبيب النحل»[۱۶۲].

أو نقرا:

«انّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: و ما الشرك الأصغر يا رسول اللّه؟ قال: الرياء، يقول اللّه تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم:

«اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء»[۱۶۳].

و نقل

عن الامام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية أعلاه حيث يقول «شرك طاعة و ليس شرك عبادة، و المعاصى التى يرتكبون و هى شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا باللّه فى الطاعة لغيره»[۱۶۴].

و فى بعض الرّوايات نقرا انّ المقصود من (شرك النعمة) بهذا المعنى انّ اللّه يهب الإنسان شيئا فيقول: انّ فلانا قد جاءنى به فلو لم يكن فلان لكنت من الهالكين! و كانت حياتى هباء منثورا، فهنا قد اعتبر الشريك مع اللّه الشخص الذى جرت على يده نعمة اللّه!

الخلاصة: انّ ما يفهم من الشرك ليس الكفر و انكار الإله و عبادة الأصنام فقط، كما

جاء فى حديث عن الامام الرضا عليه السّلام «شرك لا يبلغ به الكفر»

و لكن الشرك بمعناه الواسع يشمل جميع هذه الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۵

و فى آخر آية يحذّر القرآن الكريم أولئك الذين لم يؤمنوا بعد و يمرّوا على الآيات الواضحة مرّ الكرام و يشركون فى اعمالهم حيث يقول: أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

«الغاشية»: الغطاء او الستار، و يقال للثوب الكبير الذى يغطّى سرج الجواد.

و معناه هنا البلاء و الجزاء الذى يعمّ المفسدين ۱۶۵].

«و الساعة»: القيامة، و قد وردت بهذا المعنى فى كثير من الآيات.

و يحتمل ان تكون كناية عن الوقائع العظيمة التى تحدث قبل يوم القيامة مثل الزلازل و العواصف و الصواعق، او اشارة الى ساعة الموت، و لكن التّفسير الاوّل اقرب الى المعنى كما نرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۶

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۰۸ الى ۱۱۱]

اشارة

قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِى وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۸) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۰۹) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّىَ مَنْ نَشاءُ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۱۰) لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۱۱)

التّفسير

اصدق الدروس و العبر:

فى الآية الاولى من هذه المجموعة يتلقّى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأوامر لتحديد الطريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۷

و المنهج الذى يتّبعه، فيقول القرآن الكريم: قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ثمّ يضيف: عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِى

و هذه الجملة توضّح انّ كلّ فرد مسلم مقتد بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له نفس الدور فى الدعوة الى الحقّ، و لا بدّ من دعوة الآخرين الى اللّه، من خلال أفعالهم و أقوالهم، و كذلك تؤكّد هذه الجملة على انّ القائد يجب ان تكون له بصيرة و معرفة كافية، و الّا فإنّ دعوته ليست الى الحقّ، و للتأكيد على ذلك يضيف القرآن الكريم:

وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

فهو يؤكّد على نزاهة الخالق الذى يدعو اليه و كماله المطلق الخالى من النقصان و انّه لا يتّخذ معه شريكا.

هذه فى الواقع من خصائص القائد الصادق، ان يعلن بصراحة عن اهدافه و خططه، و ان يسير هو و التابعين له على منهج واضح و سليم، لا ان تسودهم هالة من الإبهام فى الهدف و الطريقة. او ان يسير كلّ واحد منهم فى جهة معيّنة.

فواحدة من الطرق التى نتعرّف بها على القيادات الصادقة من الكاذبة هو انّ القيادة الصادقة تتميّز بصراحة القول و وضوح الطريق امّا الاخرى فهى لكى تحاول التغطية على سلوكها و تلتجئ الى الحديث المبهم و المتعدّد الجوانب.

انّ وقوع هذه الآية بعد الآيات المتعلّقة بيوسف تشير الى انّ طريقة و منهج النّبى لا يختلفان عن طريقة و منهج يوسف النّبى. فهو كان يدعو الى «اللّه الواحد القهّار» حتّى فى زوايا السجن، امّا غيره فكان يدعو الى اسماء انتقلت اليه بسبب التقليد من جاهل الى جاهل آخر. امّا سيرة الأنبياء و الرسل كلّها واحدة.

و بما انّ الأقوام الضالّة و الجاهلة كانت دائما تثير هذا الاعتراض على الأنبياء و هو انّكم بشر؟! و لماذا لا تكلّف الملائكة لهذا الأمر؟ و بما انّ الناس فى الجاهلية كانوا يثيرون نفس الاعتراض بالنسبة الى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته العامّة، فإنّ القرآن

الكريم يجيب مرّة ثانية على هذا الاعتراض فيقول: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۸

قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى

هؤلاء الرّسل هم كباقى الناس يعيشون فى المدن و القرى، و يتجوّلون بين الناس و يشعرون بآلامهم و احتياجاتهم و مشاكلهم.

فالوصف هنا ب مِنْ أَهْلِ الْقُرى بالاضافة الى ما تشمله القرية فى اللغة من معنى المدينة او الرّيف فى مقابل «البدو» التى تطلق على اهل الصحراء، فإنّها قد تشير الى انّ أنبياء اللّه لم ينهضوا من بين سكنة الصحراء- كما صرّح بذلك بعض المفسّرين- لانّ سكّان البادية يتّصفون بالجهل و عدم المعرفة و قلوبهم قاسية و يمتازون بقلّة معلوماتهم عن الحياة و متطلّباتها.

صحيح انّ اكثر سكّان ارض الحجاز كانوا من البدو، و لكن الرّسول من اهل مكّة التى تعتبر مدينة كبيرة نسبيّا، و صحيح ايضا انّ مدينة كنعان لو قيست بأرض مصر التى كان يوسف يحكم فيها لكانت صغيرة و غير مهمّة و لذلك كان يعبّر عنها بالبدو. و لكن نحن نعلم انّ يعقوب و أبناءه لم يكونوا من اهل البادية ابدا، فهم كانوا يعيشون فى هذه المدينة الصغيرة كنعان.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم: إذا ما أراد هؤلاء ان يعلموا عاقبة مخالفتهم لدعوتك التى هى الدعوة الى اللّه فإنّ عليهم ان يسيروا ليروا آثار السابقين: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

انّ السير و التجوال فى الأرض لمشاهدة آثار الماضين و خراب دورهم و مدنهم بسبب العذاب الالهى، أفضل درس لهم، درس حى و ملموس للجميع.

وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ

لماذا؟ لانّ الدنيا دار مليئة بالمصائب و الآلام و غير باقية، امّا الآخرة فدار خالدة و خالية من الآلام و العذاب.

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۹

تشير هذه الآية الى ادقّ و أصعب لحظة فى حياة الأنبياء فنقول: انّ الأنبياء يواجهون دائما مقاومة عنيفة من قبل اقوامهم و طواغيت زمانهم حتّى يصل الحال بالأنبياء الى اليأس الى حدّ يظنّون انّ اتباعهم المؤمنين القليلين قد كذبوا عليهم و تركوهم وحدهم فى مسيرتهم فى الدعوة الى الحقّ، و فى هذه الأثناء حيث انقطع أملهم فى كلّ شىء أتاهم نصرنا. و فى نهايتها تشير الى عاقبة المجرمين وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

فهذه سنّة اللّه فى الذين اصرّوا على اعمالهم و أغلقوا باب الهداية على أنفسهم، فهم و بعد إتمام الحجّة عليهم ينالهم العذاب الالهى فلا تستطيع اى قوّة ان تردّه.

فى تفسير هذه الجملة من الآية: ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا و من المقصود بها، هناك عدّة آراء للمفسّرين:

۱- انّ كثيرا من علماء التّفسير يرون ما قلناه سابقا، و خلاصته: انّ عمل الأنبياء يصل الى درجة يعتقدون فيها انّ كلّ الناس سوف يكذبوهم، حتّى تلك المجموعة التى تظهر ايمانها و لكنّها غير راسخة فى عقيدتها.

۲- و يحتمل فى تفسير الآية انّ فاعل «ظنّوا» هم المؤمنون، و انّ المشاكل و الاضطرابات تصل الى حدّ بأن يسوء ظنّهم بما وعدهم الأنبياء من النصر و يخيل إليهم انّه خلاف الواقع؟ و ليس بعيدا سوء الظنّ هذا من الافراد الذين آمنوا حديثا.

۳- و بعض آخر اعطى تفسيرا ثالثا للآية، و خلاصته: انّ الأنبياء- بدون شكّ- كانوا بشرا، فحين يزلزلوا زلزالا شديدا و تبدوا جميع الأبواب امامهم موصدة ظاهرا، و لا يرى فى الأفق فرج، و الحوادث المتتالية تعصف بهم، و صرخات المؤمنين الذين نفذ صبرهم تصل الى اسماعهم، نعم فى هذه الحالة و بمقتضى الطبع البشرى قد يتبادر الى أذهانهم انّ الوعد بالنصر بعيد عن الصحّة! او انّ النصر الموعود له شروطه التى لم تتحقّق بعد، و لكن سرعان ما يتغلّبون

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۰

على هذه الأفكار و يبعدونها عن أذهانهم و يشع فى قلوبهم بصيص الأمل، و من ثمّ تتّضح لهم بشائر النصر.

و شاهدهم على هذا التّفسير الآية (۲۱۴) سورة البقرة: ... حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ ....

و لكن مجموعة اخرى من المفسّرين أمثال العلّامة «الطبرسى» فى مجمع البيان و «الرّازى» فى تفسيره الكبير، بعد ما ذكروا هذا الاحتمال قالوا ببطلانه لانّه حتّى هذا المقدار من التوهّم ليس من مقام الأنبياء، و على ايّة حال فالأصحّ هو التّفسير الاوّل.

و آخر آية من هذه السورة ذات محتوى شامل و جامع لكلّ الأبحاث التى ذكرناها فى هذه السورة، و هى: لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ

فهى مرآة يستطيعون من خلالها ان يروا عوامل النصر و الهزيمة، الهناء و الحرمان، السعادة و الشقاء، العزّ و الذلّة، و الخلاصة كلّ ما له قيمة فى حياة الإنسان و ما ليس له قيمة. و هى مرآة لكلّ تجارب المجتمعات السابقة و الرّجال العظام. و مرآة نشاهد فيها ذلك العمر القصير للإنسان كيف يطول بمقدار عمر كلّ البشر. و لكن اولى الألباب و ذوى البصائر فقط باستطاعتهم ان يشاهدوا العبر فى صفحة المرآة العجيبة هذه: ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

فهذه الآيات التى أنزلناها عليك و التى أزاحت الستار عن التأريخ الصحيح للأمم السابقة ليست من العلم البشرى الذى يمكن معرفته عن العلماء، بل انّ الكتب السّماوية السابقة تشهد على ذلك و تصدّقه و تؤيّده و بالاضافة الى ذلك ففى هذه الآيات كلّ ما يحتاجه الإنسان فى تأمين سعادته و تكامله: وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ.

و لهذا السبب فهى وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فالظاهر من الآية أعلاه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۱

انّها تريد ان تشير الى هذه النقطة المهمّة و هى: انّ للقصص المصنوعة ذات الاثارة كثيرة فى اوساط الأمم و هى من الأساطير الخيالية، و لكن لا يتوهّم احد بأنّ سيرة يوسف او سير بقيّة الأنبياء التى ذكرها القرآن الكريم من ذلك القبيل.

المهمّ انّ هذه القصص المثيرة و ذات العبر هى عين الواقع و لا تحتوى على ادنى انحراف عن الواقع الموضوعى، و لهذا السبب يكون تأثيرها كبيرا جدّا، لأنّنا نعلم أنّ الأساطير مهما تكن شيّقة و مثيرة فإنّ تأثيرها قليل إذا ما قورنت مع سيرة واقعيّة لانّ:

۱- عند ما يصل القارئ او المستمع للقصّة الى أقصى لحظات الاثارة يتبادر الى ذهنه فجأة انّ هذا وهم و خيال ليس اكثر! ۲- انّ هذه القصص فى الواقع هى من هندسة الإنسان، فهو يحاول ان يجسّم أفكاره فى سلوك بطل القصّة، و لذلك فهى ليست اكثر من فكر الإنسان، و هذه القصّة بالمقارنة مع السير الواقعيّة بينهما فرق شاسع و لا تستطيع القصّة البشرية ان تكون اكثر من موعظة لصاحب المقالة. و لكن التاريخ الواقعى للبشر ليس كذلك، فهو اكثر ثمرا و نفعا و اكثر بركة.

نهاية سورة يوسف اللهمّ! امنحنا البصر فى أعيننا و السمع فى آذاننا و العلم فى قلوبنا، حتّى نستطيع ان نحصل من سيرة السابقين على طرقا للنجاة من المشاكل التى نغوص الآن فيها.

ربّنا! ألهمنا بصرا حادّا حتّى نرى عاقبة الذين اختلفوا و تشتّتوا فيما بينهم فكان عاقبتهم الهزيمة و الخسران، و حتّى لا نسير فى نفس الطريق الذى سلكوه.

اللهمّ! ارزقنا تلك النيّة الخالصة لكى نتغلّب بها على نفوسنا، و تلك المعرفة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۲

حتّى لا يصيبنا الغرور بالنصر، و تلك السّماحة و نكران الذات بحيث إذا رأينا من هو أفضل منّا على انجاز المسؤولية تركناها و تنازلنا عنها اليه.

فإن منحتنا هذا فسوف نستطيع ان نتغلّب على جميع المشاكل، و ان نحفظ نور الإسلام و القرآن فى هذه الدنيا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۳

سورة الرّعد

اشارة

مکّیّة و عدد آیاتها مائة و ثلاث و أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۵

سورة الرّعد

محتوى السّورة

کما قلنا سابقا، بما انّ السور المکیّة کان نزولها فی بدایة دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أثناء محاربته للمشرکین، فإنّها غالبا ما کانت تتحدّث عن المسائل العقائدیة و خصوصا الدعوة الی التوحید و المعاد و محاربة الشرک. فی الوقت الذی نری فیه أنّ السور المدنیة نزلت بعد انتشار الإسلام و قیام الحکومة الاسلامیة، فقد تناولت الأحکام و المسائل المتعلّقة بالنظام الاجتماعی و احتیاجات المجتمع.

فهذه السورة (سورة الرعد) التی هی من السور المکّیة لها نفس الخصائص السابقة، فبعد ما تشیر الی احقّیة القرآن و عظمته، تتطرّق الی آیات التوحید و اسرار الکون التی هی من دلائل ذات اللّه المقدّسة. فتارة تتحدّث عن رفع السّماوات بغیر عمد، و اخری عن تسخیر الشمس و القمر، و مرّة عن مدّ الأرض و خلق الجبال و الأشجار و الثمار، و مرّة عن ستار اللیل المظلم الذی یغشی النهار.

و مرّة اخری تأخذ بأیدی الناس و تنقلهم الی جنّات النخیل و الأعناب و الزروع، و تحصی لهم عجائبها.

ثمّ تتطرّق الی المعاد و بعث الإنسان من جدید و محکمة العدل الالهی، و هذه المجموعة من اصول المبدإ و المعاد تکمل ما أوضح من مسئولیة و وظائف الناس و انّ ای تحوّل فی قضایاهم المصیریّة یجب ان یبدأ من داخل أنفسهم.

ثمّ تعود مرّة اخری الی فکرة التوحید، و تسبیح الرعد و خوف الناس من البرق و الصاعقة، و سجود السّماوات و الأرضین فی مقابل عظمة الربّ. و لأجل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۶

ان تتعقّل القلوب و الأسماع و توقظ الأفکار، و لإیضاح انّ الأوثان لیس لها ای میزة او فائدة، تدعوهم الی التفکّر و التعلّم، و تضرب لهم الأمثال لمعرفة الحقّ من الباطل. الأمثال الحیّة و القابلة للإدراک.

و من هنا فالحصیلة النهائیة للایمان بالتوحید و المعاد هی تلک التطبیقات العملیة و الحیّة لها، فالقرآن فی هذه السورة یدعو الناس الی الوفاء بالعهد و صلة الأرحام و الصبر و الاستقامة و الإنفاق فی السرّ و العلانیة و النهی عن الانتقام.

و یوضّح لهم انّ الدنیا فانیة، و الطمأنینة و الراحة لا تحصلان الّا فی ظلّ الایمان باللّه.

و فی النهایة یأخذ بأیدی الناس و یغور بهم فی اعماق التاریخ، و یریهم العواقب السیّئة للذین طغوا و عصوا و ابعدوا الناس عن الحقّ، و یختم السورة بتهدید الکفّار بعبارات و جمل لاذعة.

اذن فالسورة تبتدئ بالعقائد و الایمان و تنتهی بالبرامج التربویة للإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۷

الآیات [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (۱) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴)

التّفسير

آيات اللّه فى السّماء و الأرض و عالم النّبات:

مرّة اخرى نواجه الحروف المقطّعة فى بداية هذه السورة، و التى وردت فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۸

(۲۹) سورة اخرى، و لكن الحروف المقطّعة المذكورة هنا تتكوّن من الم التى وردت فى بداية عدّة سور، و الر و التى وردت فى بداية سور اخرى، و فى الواقع انّ هذه السورة تنفرد عن غيرها من السور ب المر.

و من المعتقد فى تفسير الحروف المقطّعة انّ لها ارتباطا مباشرا بمعانى نفس السورة، فمن المحتمل انّ هذا التركيب فى بداية سورة الرعد يشير الى جمعها لمحتوى مجموعتين من السور التى تبتدئ ب الم و الر.

و إذا ما امعنا النظر فى محتوى هذه السور نجدها مطابقة لما قلناه، و بخصوص تفسير الحروف المقطّعة كانت لنا شروح مفصّلة عنها فى بداية سورة البقرة و آل عمران و الأعراف فلا ضرورة فى التكرار.

و على ايّة حال فالآية الاولى من هذه السورة تتحدّث عن عظمة القرآن تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ۱۶۶].

و لا يوجد اى شك أو ترديد فى هذه الآيات، لانّها تبيّن عين الحقيقة للكون و نظامه المرتبط بالإنسان. فهو حقّ لا يشوبه باطل، و لهذا السبب فإنّ علائم الحقّ واضحة فيه لا تحتاج الى براهين وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ

لانّ الناس إذا ما تركوا و شأنهم و لم يتّبعوا معلما صادقا يهديهم و يربيهم فى حياتهم و كانوا أحرارا فى اتباع أهوائهم فانّهم سوف يتيهون فى الطريق و يضلّون عن الحقّ.

و امّا إذا كان الرسل و هداة الحقّ هم الائمّة و القادة حيث يضع الفرد نفسه فى تصرّفهم، فإنّ الاكثرية تسير فى طريق الحقّ.

ثمّ تتطرّق السورة الى شرح القسم المهمّ من ادلّة التوحيد و آيات اللّه فى الكون، و تتجوّل بالإنسان فى عرض السّماوات و تريه الكواكب العظيمة و اسرار هذا النظام و حركته، حتّى يؤمن بالقدرة المطلقة و الحكمة اللامتناهية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۹

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها[۱۶۷].

الجملة بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها لها تفسيران:

۱- فكما ترون انّ السّماء مرفوعة بدون عمد (اى انّها فى الأصل بلا عمد كما ترونها فعلا).

۲- و الثانية ان (ترونها) صفة للعمد فيكون المعنى: انّ السّماء مرفوعة بعمد و لكن لا ترونها لانّها غير مرئية! و هذا هو الذى يراه الامام على بن موسى الرضا عليه السّلام،

ففى حديث رواه الحسين بن خالد قال: سألت الامام أبا الحسن الرضا عليه السّلام: ما المقصود فى قوله تعالى: وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ قال: هذه السّماء لها طرق الى الأرض، فقلت له:

كيف تكون لها طرق الى الأرض فى الوقت الذى يقول سبحانه و تعالى: رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ فأجابه الامام: «سبحان اللّه، أ ليس اللّه يقول بغير عمد ترونها؟ قلت بلى، فقال: ثمّ عمد و لكن لا ترونها»[۱۶۸].

انّ هذه الآية بالرغم من وجود هذا الحديث الذى يفسّرها، فإنّها تكشف عن حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لانّه فى ذاك الوقت كانت نظرية «بطليموس» فى الهيئة تتحكّم بكلّ قواها فى المحافل العلمية فى العالم و على أفكار الناس، و طبقا لهذه النظرية فإنّ السّماوات عبارة عن اجرام متداخلة تشبه قشور البصل، و انّها لم تكن معلّقة و بدون عمد، بل كلّ واحدة منها تستند الى الاخرى.

و لكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريبا توصل علم الإنسان الى انّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة انّ الاجرام السّماوية لها مقرّ و مدار ثابت، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۰

تستند الى شىء، فالشىء الوحيد الذى يجعلها مستقرّة و ثابتة فى مكانها هو تعادل قوّة التجاذب و التنافر، فالاولى تربط الاجرام فيما بينها، و الاخرى لها علاقة بحركتها.

هذا التعادل للقوّتين الذى يشكّل اعمدة غير مرئيّة يحفظ الاجرام السّماوية و يجعلها مستقرّة فى مكانها.

و

فى الحديث عن الامام امير المؤمنين عليه السّلام بخصوص هذا الموضوع قال: «هذه النّجوم التى فى السّماء مدائن مثل المدائن التى فى الأرض مربوطة كلّ مدينة الى عمود من نور»[۱۶۹].

و هل نجد أوضح من هذا الوصف «عمود غير مرئى» او «عمود من نور» فى ادب ذلك العصر لبيان أمواج الجاذبية و تعادل قوّتى الجذب و الدفع. و للاطلاع اكثر راجع كتاب [القرآن و آخر الرسل صفحة ۱۶۶ و ما بعدها.

ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ فى خصوص معنى العرش و الاستواء عليه هناك شرح واف عنه فى ذيل الآية ۵۴ من سورة الأعراف.

و بعد ان بيّن خلق السّماوات و هيمنة الخالق عليها، تحدّث عن تسخير الشمس و القمر وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ.

ما أعظم هذا التسخير الذى يقع تحت ارادة و مشيئة الخالق، و فى خدمة الوجود الانسانى و الكائنات الحيّة حيث يشعّ نورهما و تضيئان العالم، و تحافظان على دفء الكائنات و تساعدانها على النمو، و تخلقان ظاهرة الجزر و المدّ فى البحار، و خلاصة القول انّهما منشأ لجميع البركات، و لكن هذا النظام المادّى ليس ابديّا، بل كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

ثمّ يضيف بعد ذلك: انّ هذه الحركات و التغيّرات فى الأحوال ليست بدون حساب و كتاب، و بدون فائدة و نتيجة، بل يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۱

و تعقيبا للآيات السّابقة التى نقلت الإنسان الى السّماء لتريه الآيات الالهيّة هناك، تنقله الآية الثانية من آيات التوحيد الى كتاب الكون اى الأرض و الجبال و الأنهار و انواع الثمار و شروق الشمس و غروبها، حتّى يتفكّر فى محل استقراره فى البداية ماذا كان؟ و كيف أصبح الآن بهذه الصورة؟

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ و بسطها بالشكل الذى تتهيّأ فيه لحياة الإنسان و نمو النباتات و الحيوانات، و ملأ الاودية و

المنحدرات الصعبة بالتراب من خلال تفتّت الصخور الجبليّة، و جعل الأرض مسطّحة و قابلة للسكن، بعد ان كانت التضاريس مانعة من سكن الإنسان عليها.

و قد يحتمل فى تفسير هذه الجملة مَدَّ الْأَرْضَ الاشارة الى ما يقوله علماء الطبيعة من انّ الأرض كانت مغطاة بالماء. ثمّ استقرّت المياه فى الوديان ظهرت اليابسة، و بمرور الوقت اتّسعت حتّى أصبحت على ما نراه اليوم.

ثمّ يشير القرآن الكريم الى ظهور الجبال وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ فهى تلك الجبال التى عبّرت عنها فى آيات اخرى ب (الأوتاد) و لعلّ ذلك اشارة الى انّها متشابكة فيما بينها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقى و تغطّى سطح الأرض، فهى تبطل الضغوط الداخلية فى الأسفل و الضغط الخارجى المتمثّل بجاذبية القمر و المدّ و الجزر. و كذلك تقضى على الاضطرابات و الزلازل، و تجعل الأرض مستقرّة و ساكنة و صالحة لحياة الإنسان.

انّ ذكر القرآن الكريم الجبال بعد مدّ الأرض يحتمل ان يكون المراد منه انّ الأرض ليست منبسطة بشكل تامّ بحيث تنعدم فيها المرتفعات، ففى هذه الصورة لا- تستقرّ فيها الأمطار و المياه، او تتحوّل الى مستنقعات و تجرى فيها السيول و تتعرّض للطوفانات الدائمة، فخلق الجبال لتأمن البشرية من هذين الأمرين.

و ليست الأرض كلّها جبالا و وديانا فتكون غير قابلة للسكن، بل تحتوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۲

على مناطق منبسطة و مناطق جبلية و وديان، و هذه أفضل صيغة لحياة الإنسان و الكائنات الحيّة. ثمّ تضيف الآية بعد ذلك الأنهار وَ أَنْهاراً.

رائع جدّا نظام سقى الأرض بواسطة الجبال، و علاقة الأنهار بالجبال، لانّ كثيرا من الجبال تختزن المياه بشكل ثلوج على قممها و فى شقوق الوديان، ثمّ تذوب تدريجيّا، و طبقا لقانون الجاذبية تأخذ طريقها من المناطق المرتفعة الى المناطق المنخفضة بدون ان تحتاج الى قوّة اخرى لمساعدتها، فهى تقوم بسقى كثير من المناطق و بشكل طبيعى على مدار السنة.

فلو لم يكن للأرض انحدار كاف و لم تختزن الجبال المياه بهذا الشكل، لكان سقى كثير من المناطق اليابسة صعبا، و فى حالة الإمكان كنّا نحتاج الى صرف مبالغ هائلة لإيصال الماء إليها.

ثمّ يذكر القرآن بعد ذلك النّباتات و الأشجار التى تتكوّن من الأرض و المياه و اشعّة الشمس، و التى هى أفضل وسيلة لإمرار الإنسان بالغذاء: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

و الآية تشير هنا الى انّ الفاكهة كائنات حيّة فيها الذكر و الأنثى، و بواسطة التلقيح تتكوّن الثمار.

فإذا كان العالم السّويدى «لينه» المختص بعلم النبات هو الذى توصّل الى هذه الحقيقة فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى و هى انّ التزويج فى عالم النباتات يعتبر قانونا عامّا تقريبا كالحيوانات و لها نطف ذكرية و انثوية و انّ الثمرة تتكوّن من التلقيح. فالقرآن الكريم قبل الف و مائة عام من ذلك كشف لنا عن هذه الحقيقة، و هذه واحدة من معاجز القرآن العلمية التى تبيّن عظمة هذا الكتاب السّماوى الكبير.

و ليس من شكّ انّ ما قبل «لينه» كان كثير من العلماء يعتقدون بوجود الذكور و الإناث فى بعض الأشجار، حتّى الناس العاديين كانوا يعلمون بذلك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۳

و لكن لم يكن يعلم اى واحد انّ هذا القانون عام، حتّى كشفه «لينه» و من قبله القرآن الكريم.

و بما انّ حياة الإنسان و كلّ الكائنات- و خصوصا النباتات- لا يمكن لها الاستمرار الّا بوجود نظام دقيق للّيل و النهار، فإنّ القرآن يشير الى ذلك فى القسم الآخر من الآية يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ.

و لو لا ظلمة اللیل و هدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر کلّ النباتات، و لم تبق فاکهة و لا ای کائن حی علی وجه الأرض، فسطح القمر لیس له نهار دائم و مع هذا نجد ان حتّی هذا المقدار من نهاره الذی یعادل خمسة عشر یوما من ایّام الأرض. نری انّ درجة فیها مرتفعة جدّا بحیث لو وضعنا هناک ماءا او ای سائل آخر فسوف یغلی و یتبخّر، و لا یمکن لای موجود حیّ فی الأرض ان یتحمّل هذه الحرارة.

و تبیّن الآیة فی النهایة إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ أولئک الذین یتفکّرون فی هذا النظام الرائع، فی نظام النّور و الظلام، و حرکة الاجرام السّماویة، و تسخیر الشمس و القمر و جعلها فی خدمة الإنسان، و فی نظام مدّ الأرض و اسرار خلق الجبال و الأنهار و النّباتات، نعم! فهم یرون بوضوح فی هذه الآیات الحکمة المطلقة و القدرة اللامتناهیة للخالق العلّام.

و فی الآیة الاخیرة من هذه المجموعة یشیر القرآن الکریم الی عدّة نقاط حول علم الأرض و علم النّبات، و التی تعبّر عن النظام الدقیق للخلقة، یقول اوّلا وَ فِی الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ۱۷۰] فبالرغم من انّ هذه القطع متصلة مع بعضها البعض، فإنّ لکلّ واحد منها بناءه و ترکیبه الخاص به، فبعضها قوی و الآخر ضعیف، و بعضها مالح و الآخر حلو، و کلّ قطعة لها الاستعداد فی تربیة نوع خاص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۴

من النباتات و أشجار الفاکهة و الزراعة، لانّ احتیاجات الإنسان و الحیوان کثیرة و متفاوتة، و قد تکون لکلّ قطعة من الأرض المسؤولیة فی تلبیة احدی هذه الحاجات. و امّا إذا کانت فی مستوی واحد، او لم تکن استعداداتها مقسّمة بالشکل المطلوب، لکان الإنسان یمرّ بأزمة و نقص فی مواده الغذائیة و الطبیة و سائر الاحتیاجات الاخری، و لکن هذا التقسیم المناسب للمسؤولیة و توزیعها علی القطعات المختلفة للأرض سوف یسدّ الاحتیاجات اللازمة للإنسان.

قوله تعالی: وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِیلٌ ۱۷۱] صِنْوانٌ وَ غَیْرُ صِنْوانٍ ۱۷۲].

«صنوان» جمع «صنو» بمعنی الغصن الخارج من اصل الشجرة، و علیه فالکلمة تعنی الاغصان المختلفة الخارجة من اصل الشجرة.

و الملفت للنظر انّه یمکن ان یکون لکلّ واحد من هذه الاغصان نوع خاصّ من الثمر، و هذه قد تشیر الی قابلیة الأشجار للترکیب. ففی بعض الأحیان یتمّ ترکیب عدّة أغصان مختلفة علی ساق واحدة، و بعد نمو هذه التراکیب تعطی کلّ واحدة منها نوعا خاصا من الثمر، فالتربة واحدة و الساق و الجذر واحد و لکن الثمر مختلف.

و الأعجب من ذلک انّها تسقی بماء واحد یُسْقی بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلی بَعْضٍ فِی الْأُکُلِ

و قد نری کثیرا انّه فی الشجرة الواحدة او فی غصن واحد توجد ثمار من نفس الصنف و لکن لها اطعمة و ألوان مختلفة، و فی العالم نشاهد اورادا کثیرة، و قد یحمل الغصن الواحد اورادا مختلفة الألوان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۵

ای مختبر للأسرار هذا الذی یعمل فی أغصان الأشجار، و الذی ینتج من مواد قلیلة متحدة، ترکیبات مختلفة تؤمّن احتیاجات الإنسان.

أ لیست هذه الأسرار تدلّ علی وجود من یقود هذا النظام بالعلم و الحکمة.

و هنا فی آخر الآیة یقول تعالی: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ

هناک عدّة نقاط:

۱- ما هی وجه العلاقة بین التوحید و المعاد

؟ کان الحدیث فی بدایة الآیة عن التوحید و اسرار الکون، و لکن نقرا فی نهایتها یُفَصِّلُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ بِلِقاءِ رَبِّکُمْ تُوقِنُونَ فما هی وجه العلاقة بین التوحید و المعاد حتّی تکون الواحدة نتیجة للأخری؟

للاجابة علی هذا السؤال لا بدّ من ملاحظة ما یلی:

ا- انّ قدرة اللّه علی إیجاد الکون دلیل علی قدرته فی إعادته کما نقرا فی الآیة (۲۹) من سورة الأعراف کَما بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ او نقرا فی أواخر سورة «یس» قوله تعالی: أ وَ لَیْسَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلی أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

ب- و کما قلنا فی بحثنا عن المعاد، فإنّه لا فائدة من خلق العالم إذا لم تکن الآخرة حقیقة، لانّه لا یمکن ان تکون هذه الحیاة هی الهدف من خلق هذا العالم الواسع. یقول القرآن الکریم ضمن آیاته المتعلّقة بالمعاد من سورة الواقعة آیة (۶۲): وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولی فَلَوْ لا تَذَکَّرُونَ ۱۷۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۶

۲- الاعجاز العلمی للقرآن

هناک آیات کثیرة فی القرآن المجید أزاحت الستار عن مجموعة من الأسرار العلمیة التی کانت خافیة علی العلماء فی ذلک الوقت. و هذه واحدة من دلائل اعجاز و عظمة القرآن، و غالبا ما کان یشیر إلیها کثیر من المحقّقین فی مسألة الاعجاز.

فمن جملة هذه الآیات ما ذکرناه آنفا و هی الآیة التی تذکر الزوجیة فی النباتات، فکما قلنا سابقا: انّ ظاهرة الزوجیة فی النباتات کانت معروفة للناس منذ القدیم و لو بشکلها الجزئی، و لکن لم تکن تعرف بشکل قانون عام حتّی أواسط القرن الثامن عشر حین استطاع العالم «لینه» و الاوّل مرّة ان یکشف عن هذه الحقیقة، و لکن القرآن الکریم اخبر بذلک قبل اکثر من الف عام.

کما أشار القرآن الی هذا الموضوع فی سورة لقمان الآیة ۱۰ قوله تعالی:

وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ

کما اشارت إلیها آیات اخری.

۳- تسخیر الشمس و القمر

قرانا فی الآیات السابقة انّ اللّه سخّر الشمس و القمر، کما نقرا فی آیات کثیرة اخری عن تسخیر السّماء و الأرض و اللیل و النهار للإنسان.

فنقرا فی آیة وَ سَخَّرَ لَکُمُ الْأَنْهارَ[۱۷۴] و فی آیة اخری وَ سَخَّرَ لَکُمُ الْفُلْکَ ۱۷۵] سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ[۱۷۶] وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ[۱۷۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۷

وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْکُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِیًّا[۱۷۸] أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی الْأَرْضِ ۱۷۹] وَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ ۱۸۰].

من مجموع هذه الآیات یمکن ان نستفید ما یلی:

اوّلا- انّ الإنسان أکمل من جمیع الموجودات فی هذا العالم، فمن وجهة اسلامیة نری انّ الشریعة الاسلامیة تعطی للإنسان القیمة الکبیرة بحیث تسخّر له کلّ ما فی الکون، فهو خلیفة اللّه، و قلبه مستودع نوره! ثانیا: و یتّضح انّ التسخیر لیس المقصود منه انّ جمیع هذه الکائنات هی تحت امرة الإنسان، بل هی بقدر معیّن تدخل ضمن منافعه و خدمته، و علی سبیل المثال فإنّ تسخیر الکواکب السّماویة من اجل ان یستفید الإنسان من نورها او لفوائد اخری.

فلا یوجد ای مبدا یقیّم الإنسان بهذا الشکل، و لا یوجد فی ایّة فلسفة هذا المقام لشخصیته، فهذه من خصائص المدرسة الاسلامیة التی ترفع من قیمة الإنسان بهذا الشکل الکبیر، فالمعرفة بها لها اثر عمیق علی تربیته، لانّه حینما یفکر الإنسان بتعظیم اللّه له، و تسخیر

السحاب و الهواء و الشمس و القمر و النّجوم و جعلها فی خدمته، فمثل هذا الإنسان لا تعتریه الغفلة و لا یکون عبدا للشهوات و أسیرا للمال و المقام، بل یحطّم القیود و یتطلّع الی آفاق السّماء.

کیف یمکن القول: انّ الشمس و القمر غیر مسخّرین للإنسان فی الوقت الذی نری انّ فی اشعّتها نور یضیء حیاة الإنسان و یحافظ علی دفئه، و لولا اشعّة الشمس لما وجدت ای حرکة او نشاط علی الکرة الارضیة، و من جهة اخری فإنّ جاذبیتها تنظم حرکة الأرض حول مدارها، و توجد ظاهرة المدّ و الجزر فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۸

البحار بمساعدة القمر و هی بالتالی منبع لکثیر من الفوائد و البرکات.

فالبحار و الأنهار، و اللیل و النهار، و الفلک، کلّ واحدة هی فی خدمة الإنسان و مصالحه. و الدقّة فی هذا التسخیر و النظام دلیل واضح علی عظمة و قدرة و حکمة الخالق المتعال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۹

الآیتان [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۵ الی ۶]

اشارة

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا کُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ أُولئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِکَ الْأَغْلالُ فِی أَعْناقِهِمْ وَ أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۵) وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلی ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَشَدِیدُ الْعِقابِ (۶)

التّفسیر

تعجّب الکفّار من المعاد:

بعد ما انتهینا من البحث السّابق عن عظمة اللّه و دلائله، تتطرّق الآیة الاولی من هذه المجموعة الی مسألة المعاد التی لها علاقة خاصّة بمسألة المبدإ، و یؤکّد القرآن الکریم هذا المعنی حیث یقول: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا کُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ[۱۸۱] ای إذا أردت ان تتعجّب من قولهم هذا فتعجب لقولهم فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۰

المعاد.

هذا التعجّب من المعاد کان موجودا عند جمیع الأقوام الجاهلة، فهم یظنّون انّ الحیاة بعد الموت امر محال، و لکنّنا نری انّ الآیات السابقة و آیات اخری من القرآن الکریم تجیب علی هذا التساؤل، فما هو الفرق بین بدء الخلق و البعث من جدید؟ فالقادر الذی خلقهم اوّل مرّة باستطاعته ان یبعث الروح فیهم مرّة ثانیة، و هل نسی هؤلاء بدایة خلقهم حتّی یجادلوا فی بعثهم!؟

ثمّ یبیّن حالهم الحاضر و مصیرهم فی ثلاث جمل:

یقول اوّلا- أُولئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ لانّهم لو کانوا یعتقدون بربوبیّة اللّه لما کانوا یتردّدون فی قدرة اللّه علی بعث الإنسان من جدید، و علی هذا فسوء ظنّهم بالمعاد هو نتیجة لسوء ظنّهم بالتوحید و ربوبیة اللّه.

و الأمر الآخر انّه بکفرهم و عدم ایمانهم و خروجهم من ساحة التوحید قیّدوا أنفسهم بالاغلال، أغلال عبادة الأصنام و الأهواء و المادة

و الجهل و الخرافة، و جعلوها فى أعناقهم وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ
و مثل هؤلاء الأشخاص ليس لهم عاقبة سوى دخول النّار وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ
و فى الآية الثانية يشير الى دعوى اخرى للمشركين حيث يقول:
وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ بدلا من طلب الرحمة ببركة وجودك بينهم.
لماذا يصرّ هؤلاء القوم على الجهل و العناد؟ لماذا لم يقولوا: لو كنت صادقا لأنزلت علينا رحمة اللّه، او لرفعت العذاب عنّا!؟
و هل يعتقدون بكذب العقوبات الالهيّة؟ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ۱۸۲].
ثمّ تضيف الآية وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۱
. انّ العذاب الشديد غير مخالف لرحمته الواسعة، كما لا يتوهّم أحدا انّ رحمته العامّة هى إعطاء الفرصة للظالمين ان يفعلوا ما يريدون. لانّه فى هذه الموارد يكون شديد العقاب، و الحصول على نتائج هذه الصفتين للربّ يعنى لَذُو مَغْفِرَةٍ و لَشَدِيدُ الْعِقابِ مرهون بسلوك الإنسان نفسه.

ملاحظتان

۱- لماذا التعجّب فى الخلق الجديد

؟ يستفاد من خلال آيات متعدّده فى القرآن الكريم انّ من جملة مشاكل الأنبياء مع المشركين اثبات «المعاد الجسمانى» لأنّهم كانوا يتعجّبون دائما من هذا الموضوع و هو: كيف يبعث الإنسان من جديد بعد ان صار ترابا؟ كما اشارت اليه الآية السابقة أ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ و هناك سبع آيات اخرى تشير الى هذا الموضوع (الآية ۳۵ و ۸۲ من سورة المؤمنون ۷- ۲ النمل ۶- ۱ و ۵۳ الصافات- ۳ ق ۷- ۴ الواقعة).
و من هنا يتّضح انّ هذا التساؤل كان مهمّا بالنسبة إليهم حيث كانوا يكرّرونه فى كلّ فرصة، و لكن القرآن الكريم يجيبهم بعبارات قصيرة و قاطعة، فمثلا الآية (۲۹) من سورة الأعراف: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ تتكوّن من كلمات قليلة و لكنّها مفحمة لهم، و فى مكان آخر يقول تعالى: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ لانّكم فى الخلق الاوّل لم تكونوا شيئا امّا الآن فتوجد على الأقل عظام نخرة مع التراب المتبقّى منكم.
و فى بعض الأحيان يأخذ بأيدى الناس و يدعوهم الى التفكّر و الإمعان فى عظمة و قدرة الخالق أ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۲

۲- هل انّ اللّه يعفو عن الظالمين

؟ قرانا فى الآيات المتقدّمة انّ اللّه يعفو و يغفر للذين ظلموا، و هذا الغفران غير لازم لمن يصرّ على ظلمه، و لكنّه من باب إعطاء الفرصة لهم لان يصلحوا أنفسهم، و الّا فهو تعالى شديد العقاب.
و يمكن ان نستفيد من هذه الآية انّ الذنوب الكبيرة- و من جملتها الظلم- قابلة للغفران (و لكن بتحقّق شروطها)، و هو ردّ على قول

المعتزلة بأنّ الذنوب الکبیرة لا یغفرها اللّه ابدا.

و علی ایّة حال ف «المغفرة الواسعة» و «العقاب الشدید» فی الواقع تجعل کل المعترفین بوجود اللّه بین «الخوف» و «الرجاء» الذی یعتبر من العوامل المهمّة لتربیة الإنسان، فلا ییأس من رحمة اللّه لکثرة الذنوب، و لا یأمن من العذاب لقلّتها.

و لهذا

جاء فی الحدیث عن الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «لو لا عفو اللّه و تجاوزه ما هنئ احد العیش، و لولا وعید اللّه و عقابه لاتّکل کلّ واحد»[۱۸۳].

و من هنا یتّضح انّ الذین یقولون- أثناء ارتکابهم المعاصی- انّ اللّه کریم، یکذبون فی اتّکالهم علی کرم اللّه، فهم فی الواقع یستهزءون بعقاب اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۳

الآیة [سورة الرعد (۱۳): آیة ۷]

اشارة

وَ یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِکُلِّ قَوْمٍ هادٍ (۷)

التّفسیر

ذریعة اخری

! بعد ما أشرنا فی الآیات السّابقة الی مسألة «التوحید» و «المعاد»، تتطرّق هذه الآیة الی واحدة من اعتراضات المشرکین المعاندین حول مسألة النبوّة:

وَ یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَةٌ مِنْ رَبِّهِ

و من الواضح انّ احدی وظائف النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اظهار معاجزه لکی یدلّ علی صدقه و صلته بالوحی الالهی، و الذی یبحث عن الحقیقة له الحقّ فی المطالبة بالمعجزة أثناء شکّه و تردّده فی تصدیق الدعوة، او تتّضح له دلائل النبوّة عن طریق آخر.

و لکن یجب ان نلتفت الی هذه النقطة و هی: انّ اعداء الأنبیاء لم یکن لدیهم حسن نیّة او اتّباع للحقّ عند طلبهم المعجزة، بل لعنادهم و عدم تسلیمهم للأمر الواقع و لذلک کانوا یقترحون بین فترة و اخری معاجز عجیبة و غریبة. و هذه ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۴

یسمّی ب «المعجزات الاخلاقیة».

اقتراحهم للمعاجز لم یکن لکشف الحقیقة، و لهذا لم یستجب الأنبیاء لمطالیبهم، و فی الحقیقة کانت هذه الفئة من الکفّار المعاندین یعتقدون انّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یدّعی القدرة علی انجاز ای عمل خارق للعادة، و ایّ واحد منهم یقترح علیه انجاز عمل ما سوف یلبّی مطالیبه.

و لکن الأنبیاء کانوا یقولون لهم الحقیقة و هی انّ المعاجز بید اللّه، و رسالتنا هدایة الناس.

و لذلک نقرا فی تکملة الآیة قوله تعالی: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِکُلِّ قَوْمٍ هادٍ.

بحثان

هنا يرد سؤالان:

۱- هل الآية «انّما أنت منذر ...» جواب للكفّار؟

كيف يمكن لجملة إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ ان تكون جوابا للكفّار عند طلبهم المعجزة؟

الجواب: بالاضافة الى ما قلناه سابقا فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليست له القدرة الغيبية المطلقة كى يطلبوا منه الاعجاز، لانّ الوظيفة الاولى له هى إنذار أولئك الذين يسيرون فى طريق الضلال، و الدعوة الى الصراط المستقيم، و إذا ما احتاجت هذه الدعوة الى المعجزة فسوف يأتى بها النّبى، و لكن لا يأتى بها للمعاندين البعيدين عن هذه المسيرة.

فمعنى الآية: انّ الكفّار نسوا انّ هدف الأنبياء الإنذار و الدعوة الى اللّه، و اعتقدوا انّ وظيفتهم القيام بالمعاجز.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۵

۲- ما هو المقصود من جملة لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ

؟ قال بعض المفسّرين: انّ هاتين الصفتين (منذر) و (هاد) صفتان للرسول، فأصل الجملة تكون (أنت منذر و هاد لكلّ قوم).

و لكن هذا التّفسير خلاف الظاهر، لانّ الواو فى جملة وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ تفصل بين جملة إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ و لو كانت كلمة «هاد» قبل «لِكُلِّ قَوْمٍ» كان المعنى السّابق صحيحا. و لكن الأمر ليس كذلك.

و الشىء الآخر هو انّ هدف الآية بيان انّ هناك قسمين من الدعوة الى اللّه:

أحدهما ان يكون عمل الداعى هو الإنذار فقط. و الآخر: ان يكون العمل هو الهداية.

و سوف تسألون حتما: ما هو وجه التفاوت بين (الإنذار) و (الهداية)؟ نقول فى جواب هذا السؤال: انّ الإنذار للذين اضلّوا الطريق و دعوتهم تكون الى الصراط المستقيم، و لكن الهداية و الاستقامة للذين آمنوا.

و فى الحقيقة انّ المنذر مثل العلّة المحدثة، امّا الهادى فبمنزلة العلّة الباقية و هذه هى التى تعبّر عنها بالرّسول و الامام، فالرّسول يقوم بتأسيس الشريعة و الامام يقوم بحفظها و حراستها. (ليس من شكّ انّ الهداية فى آيات اخرى مطلقة للرسول، و لكن بقرينة المنذر فى هذه الآية نفهم انّ المقصود من الهادى هو الشخص الحافظ و الحامى للشريعة).

هناك روايات عديدة تؤكّد ما قلناه سابقا، فقد

قال الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «انا المنذر و على الهادى».

و لا بأس ان نشير الى عدّة من هذه الرّوايات:

۱- فى ذيل هذه الآية

من تفسير الفخر الرازى مرفوعا عن ابن عبّاس قال: وضع رسول اللّه يده على صدره فقال: «انا المنذر» ثمّ اومأ الى منكب على عليه السّلام و قال: (أنت الهادى بك يهتدى المهتدون من بعدى)

هذه الرّواية ذكرها العلّامة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۶

«ابن كثير» فى تفسيره، و العلّامة «ابن الصبّاغ المالكى» فى الفصول المهمّة، و «الكنجى» الشافعى فى كفاية الطالب و «الطبرى» فى تفسيره، و «ابو حيّان الاندلسى» فى تفسيره البحر المحيط، و كذلك «العلّامة النيسابورى» فى تفسيره الكشّاف، و عدد آخر من

المفسّرين.

۲- نقـل «الحموينى» و هو من علمـاء اهـل السـنّة المعروفين فى كتـابه فرائـد السـمطين عن ابو هريرة قـال «ان المراد بالهادى على عليه السّلام».

۳- «مير غياث الـدين» مؤلّف كتاب (حبيب السيّد) كتب يقول فى المجلّد الثّانى صـفحة ۱۲: «قـد ثبت بطرق متعـدّدة انّه لمّا نزل قوله تعالى: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ

قال لعلى: «انا المنذر و أنت الهادى بك يا على يهتدى المهتدون من بعدى».

كما نقل هذا الحديث «الآلوسى» فى (روح المعانى) و «الشبلنجى» فى (نور الأبصار) و الشيخ «سليمان القندوزى» فى (ينابيع المودّة).

و بمـا انّ اكثر هـذه الرّوايات مسـنده الى ابن عبّاس فإنّه لم يكن الشـخص الوحيـد الـذى روى ذلك، فأبو هريرة نقل ذلك فيما ذكره الحموينى، و حتّى على نفسه- طبقا لما نقله الثعلبى-

قد قال: «المنذر النّبى و الهادى رجل من بنى هاشم»

يعنى نفسه [۱۸۴].

لا شكّ انّ هذه الأحاديث لا تصـرّح بالخلافة، و لكن بالنظر الى ما تحتويه هذه الكلمة (الهداية) من المعنى الواسع، فإنّها غير منحصرة بعلى عليه السّـلام بل تشمل جميع العلماء و اصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذين كانوا يقومون بنفس المهمّة، فإنّه يتّضح لنا تخصـيص على بن أبى طالب عليه السّـلام فى هـذه الرّوايات بهـذا العنوان يدلّ على انّه المصداق البارز له، و ذلك لما يمتاز به من الخصوصيات، و هذا المطلب لا يكون منفصلا عن خلافة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۷

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (۸) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (۹) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ (۱۰)

التّفسير

علم اللّه المطلق:

نقرا فى هذه الآيات قسـما من صفات الخالق، و التى تكمل بحث التوحيد و المعاد، فالحديث عن علمه الواسع و معرفته بكلّ شىء، هو ذاك العلم الـذى يقوم عليه نظام التكوين و عجائب الخلقة و آيات التوحيد، و هو العلم الذى يكون أساسا للمعاد و العدالة الالهيّة يوم القيامة و هذه الآيات استندت الى هذين القسمين: (العلم بنظام التكوين، و العلم بأعمال العباد).

تقول الآيـة اوّلاـ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى فى رحمها، سواء من أنثى الإنسان او الحيوان وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ اى تنقص قبل موعـدها المقرّر وَ ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۸

تَزْدادُ[۱۸۵] اى يعلم بما تزيد عن موعدها المقرّر.

فى تفسير هذه الجمل الثلاث هناک آراء مختلفة بين المفسّرين:

يعتقد البعض- انّها تشير- كما ذكرنا آنفا- الى وقت الولادة، و هى على ثلاثة انواع: فمرّة يولد المولود قبل موعده. و مرّة فى موعده، و اخرى بعد الموعد المقرّر. فاللّه يعلم كلّ ذلك و يعلم لحظة الولادة بالتحديد، و هذه من الأمور التى لا يستطيع اى احد او جهاز ان يحدّد موعده، و هذا العلم خاص بذات اللّه المنزّهة، و سببه واضح لانّ استعدادات الأرحام و الاجنّة مختلفة، و لا احد يعلم بهذا التفاوت.

و قال بعض آخر: انّها تشير الى ثلاث حالات مختلفة للرحم ايّام الحمل، فالجملة الاولى تشير الى نفس الجنين الذى تحفظه، و الجملة الثانية تشير الى دم الحيض الذى ينصب فى الرحم و يمصّه الجنين، و الجملة الثالثة اشارة الى الدم الاضافى الذى يخرج أثناء الحمل أحيانا، او دم النفاس أثناء الولادة[۱۸۶].

و هناک عدّة احتمالات اخرى فى تفسير هذه الآية دون ان تكون متناقضة فيما بينها، و يمكن ان يكون مراد الآية اشارة الى مجموع هذه التفاسير، و لكن الظاهر انّ التّفسير الاوّل اقرب، بدليل جملة (تحمل) المقصود منها الجنين و الجمل (تغيض) و (تزداد) بقرينة الجملة السابقة تشير الى الزيادة و النقصان فى فترات الحمل.

روى الشيخ الكلينى فى الكافى عن الامام الصادق عليه السّلام او الامام الباقر عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۹

فى تفسير الآية انّ «الغيض كلّ حمل دون تسعة أشهر، و ما تزداد كلّ شىء حمل على تسعة أشهر».

و فى تكملة الحديث

يقول: «كلّما رأت المرأة الدم الخالص فى حملها فإنّها تزداد و بعدد الايّام التى زاد فيها فى حملها من الدم»[۱۸۷].

وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ و لكى لا يتصوّر احد انّ هذه الزيادة و النقصان بدون حساب و دليل، بل انّ كلّ ساعة و ثانية و لحظة لا تمرّ دون حساب، كما انّ للجنين و دم الرحم حساب و كتاب ايضا. فالآية التى بعدها تؤكّد ما قلناه فى الآية السابقة حيث تقول: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فعلمه بالغيب و الشهادة لهذا السبب الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ فهو يحيط بكلّ شىء، و لا يخفى عنه شىء.

و لتكميل هذا البحث و تأكيد علمه المطلق يضيف القرآن الكريم: سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ[۱۸۸] و هذا هو الحقّ فالذى يوجد فى كلّ مكان لا معنى للغيب و الشهادة او الليل و النهار عنده، فهو محيط بها و عالم بأخبارها بشكل متساو.

بحوث

۱- القرآن و علم الاجنّة

أشار القرآن المجيد مرارا الى مسألة الجنين و عجائب تكوينه ليكون احد الادلّة على التوحيد و معرفة اللّه و علمه المطلق، و بالطبع فإنّ علم الاجنّة واحد من العلوم الحديثة و كان سابقا عبارة عن معلومات اوّليّة محدودة ثمّ توسعت فى هذا العصر. و لكن بتقدّم العلم و المعرفة حدثت قفزة فى هذا المجال كشف عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۰

كثير من اسـرار هـذا العالم الساكن و الهادیء و عن كثير من عجائبه بحيث نسـتطيع ان نقول: انّ اكبر درس للتوحيد و معرفهٔ اللّه كامن فی تكوين الجنين و مراحل تكامله.

فمن هـذا الـذی يرعی هـذا الكائن المخفی و بتعبير القرآن واقع «فی ظلمات ثلاث» الـذی يمتاز بالظرافهٔ و دقّهٔ التكوين و ان يوصل له المقدار اللازم من الغذاء و يرشده مراحل حياته؟

و عنـد مـا تقول الآيـهٔ السابقـهٔ: اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثی فليس المقصود من علمه بالـذكر و الأنثی فقط، بل بكلّ خصائصه و الطاقهٔ الكامنـهٔ فيه، هـذه الأشـياء لا يسـتطيع احـد و بأی وسـيلهٔ ان يتعرّف عليها، و علی هـذا فإنّ وجود هـذا النظام الدقيق و المعقّد للجنين و مراحل تكامله لا يمكن ان يكون بدون صانع عالم و قدير.

۲- كلّ شیء له مقدار

نحن نقرا فی آيات مختلفـهٔ من القرآن الكريم انّ كلّ شـیء له حدّ محدود و لا يتجاوزه، ففی الآيهٔ (۳) من سورهٔ الطلاق يقول تعالی: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَـيْءٍ قَدْراً و فی الآيهٔ ۲۱ سورهٔ الحجر يقول تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا عِنْـدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ و الآيهٔ التی نحن بصددها وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ.

كلّ هذه تشير الی انّه ليس هناك شیء فی العالم بدون حساب، حتّی الموجودات فی الطبيعهٔ التی نعتبرها فی بعض الأحيان غير مهمّهٔ، فإنّ وجودها علی أساس حساب دقيق، علمنا بـذلك ام لم نعلم، و أساسا فإنّ معنی حكمـهٔ اللّه هو ان يجعل لكلّ ما فی الكون حـدّا و مقدارا و نظاما.

و كلّ ما حصـلناه اليوم من اسـرار الكون بواسـطهٔ العلوم يؤكّد هذه الحقيقهٔ، فمثلا نری انّ دم الإنسان- الذی هو المادّهٔ الحياتيهٔ لوجود الإنسان و الذی يقوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۱

بنقل المواد الضـروريّهٔ اللازمهٔ لخلايا الجسم- يتركّب من عشرين مادّهٔ او اكثر، و بنسب ثابتهٔ دقيقهٔ بحيث لو تمّ ای تغيير فيها لتعرّضت سلامـهٔ الإنسان للخطر، و لهـذا السبب و لمعرفـهٔ النقص الحاصل فی الجسم يقومون بتحليل الدم و قياس نسـبهٔ السـكر و الدهن و سائر مركّبات الدم الاخری، و يتمّ تشخيص العلّهٔ بواسطهٔ معرفهٔ زيادهٔ او نقصان هذه النسب، و ليس دم الإنسان وحده له هذه الميزهٔ، بل كلّ ما فی الوجود له نفس هذه الدقّهٔ فی النظام.

و لا بـدّ هنا من التنبيه علی انّ ما يظهر لنا فی بعض الأحيان من عـدم النظام فی عالم الوجود هو فی الواقع ناتـج من قصور فی علومنا و معرفتنا، فالإنسان الذی يؤمن باللّه لا يمكن ان يتصوّر ذلك، و بتطوّر العلوم تتأكّد لنا هذه الحقيقهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‏۷ ؛ ص۳۵۱

كی نسـتطيع ان نتعلّم هـذا الـدرس و هو انّ المجتمع الانسانی الذی هو جزء من عالم الوجود إذا أراد له العيش بسـلام، فعليه ان يجعل شعار كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ يسود جميع جوانبه، و يجتنب الإفراط و التفريط فی اعماله و تخضع جميع مؤسـساته الاجتماعيهٔ للحساب و الموازين.

۳- الغيب و الشهادهٔ سواء عند اللّه

استندت هذه الآيات الى انّ الغيب و الشهادة معلومان عند اللّه، فهما مفهومان نسبيان و تستخدمان للكائن الذى علمه و وجوده محدود، و على سبيل المثال نحن نمتلك حواسا ذات مدى نسبى، فمتى ما كان الشىء داخلا فى هذا المدى فهو شاهد بالنسبة لنا، و ما كان خارجا عنه فهو غيب، فلو فرضنا انّ أبصارنا لها قدرة غير محدودة و يمكنها النفوذ فى باطن الأشياء و إدراكها، فإنّ كلّ شىء يعتبر شاهد عندنا.

و بما انّ كلّ شىء له حدّ محدود غير الذات الالهيّة، فإنّ لغير اللّه تعالى غيب و شهادة، و لانّ ذات اللّه غير محدودة و وجوده عام و مطلق فإنّ كلّ شىء بالنسبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۲

اليه شهادة، و لا معنى للغيب بالنسبة اليه، و إذا ما قلنا- انّ اللّه عالم الغيب و الشهادة فهو ما نعتبره نحن غيب و شهادة، امّا هو فهما عنده سواء. لنفترض انّنا ننظر ما فى أيدينا فى النهار، فهل نجهل ما فيها؟! جميع الكون فى مقابل علم اللّه أوضح من هذا و اظهر.

۴- الآثار التربوية فى إدراكنا لعلم اللّه

أثناء قراءتنا للآيات الماضية التى تقول: انّ اللّه يعلم السرّ و الجهر من القول و حركاتكم فى الليل و النهار و كلّها مشهودة عنده، هل نجد فى أنفسنا ايمانا بهذه الحقيقة؟ .. لو كنّا مؤمنين بذلك حقّا و نشعر بأنّ اللّه تعالى مطّلع علينا فإنّ هذا الايمان و الاحساس الباطنى يبعث على تغيير عميق فى روحنا و فكرنا و قولنا و ضمائرنا؟.

نقل عن الامام الصادق عليه السّلام فى جوابه لمن سأله عن طريقتهم فى الحياة قال:

«علمت انّ اللّه مطلع علىّ فاستحييت».

كما نشاهد كثيرا من المواقف من تأريخ المسلمين و حياتهم تتجلّى فيها هذه الحقيقة، يقال: دخل أب و ابنه فى بستان، فتسلّق الأب شجرة ليقطف ثمارها دون اذن صاحبها، بينما بقى الابن أسفل الشجرة لمراقبة الأوضاع. و فجأة صاح الابن الذى كان مؤمنا و متعلّما و نادى أباه بأن ينزل بسرعة، عندها خاف الأب و نزل فورا و سأل من الذى رآنى؟ قال: الذى هو فوقنا، فنظر الأب الى الأعلى فلم يجد أحدا، و سأل من الذى رآنى؟ قال: الذى هو فوقنا، فنظر الأب الى الأعلى فلم يجد أحدا، فقال الابن: كان قصدى هو اللّه المحيط بنا جميعا، كيف يمكن ان تخاف ان يراك الإنسان، و لا تخاف ان يراك اللّه؟! اين الايمان؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۳

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۱]

اشارة

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (۱۱)

التّفسير

المعقّبات الغيبية

! علمنا فى الآيات السابقة انّ اللّه بما انّه عالم الغيب و الشهادة فإنّه يعلم أسرار الناس و خفاياهم، و تضيف هذه الآية انّه مع حفظ و حراسة اللّه لعبادة فإنّ لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۱۸۹].
و لكى لا يتصوّر احد انّ هذا الحفظ بدون شروط و ينغمس فى المزلّات، او يرتكب الذنوب الموجبة للعقاب، و مع كلّ ذلك ينتظر من اللّه او الملائكة ان يحفظوه، يعلّل القرآن ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۴
. و كى لا يتبادر الى الأذهان انّه مع وجود الملائكة الحافظة فأىّ معنى للعذاب او الجزاء؟ هنا تضيف الآية وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ و لهذا السبب فإنّه حين صدور العذاب الالهى على قوم او امّة، فسوف ينتهى دور المعقّبات و يتركون الإنسان عرضة للحوادث

بحوث

۱- ما هى المعقّبات

؟ «المعقّبات» كما جاء فى مجمع البيان للعلّامة الطبرسى و كما قاله بعض المفسّرين جمع (معقبة) و هى بدورها جمع (معقّب) و معناه المجموعة التى تعمل بشكل متناوب و مستمر. و الظاهر من الآية انّ اللّه سبحانه و تعالى امر مجموعة من الملائكة بأن يحفظوا الإنسان فى الليل و النهار و من بين يديه و من خلفه.
انّ الإنسان- بدون شك- معرّض فى حياته الى كثير من الحوادث الروحية و الجسمية، فالامراض و المتغيّرات فى السّماء و الأرض محيطة بالإنسان، و خصوصا فى مرحلة الطفولة التى لا يدرك فيها ما يجرى حوله و يكون هدفا سهلا للإصابة بها، فقد يتعجّب الإنسان كيف ينجو الطفل و ينمو من بين جميع هذه الحوادث، و خصوصا فى العوائل التى لا تدرك هذه المسائل و تعانى من قلّة الامكانيات كأبناء الريف الذين يعانون من الحرمان و الفقر و هم معرضون للامراض اكثر من غيرهم.
و إذا ما امعنّا النظر فى هذه المسائل فسوف نجد انّ هناك قوى محافظة، تحفظ الإنسان فى مقابل هذه الحوادث كالدرع الواقى.
و كثيرا ما يتعرّض الإنسان الى حوادث خطرة و يتخلّص منها بشكل
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۵
اعجازى تجعله يشعر انّ كلّ ذلك ليس صدفة و انّما هناك قوى محافظة تحميه.
و هناك كثير من الأحاديث المنقولة عن ائمّة المسلمين تؤكّد ذلك و من جملتها:
الحديث المروى عن الامام الباقر عليه السّلام فى تفسير هذه الآية يقول: «يحفظ بأمر اللّه من ان يقع فى ركى او يقع عليه حائط او يصيبه شيء، حتّى إذا جاء القدر خلوا بينه و بينه يدفعونه الى المقادير، و هما ملكان يحفظانه بالليل و ملكان من نهار يتعاقبانه».
و
فى حديث آخر عن الامام الصادق عليه السّلام يقول: «ما من عبد الّا و معه ملكان يحفظانه فإذا جاء الأمر من عند اللّه خليا بينه و بين امر اللّه».
و نقرا
فى نهج البلاغة عن امير المؤمنين عليه السّلام «انّ مع كلّ انسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه و بينه».
كما نقرا فى نهج البلاغة فى وصف الملائكة من الخطبة الاولى

«و منهم الحفظة لعباده».

انّ عـدم إدراكنا لوجود المعقّبات عن طريق الحسّ او التجربـة العلمية ليس دليلا على عدم وجودهم، لانّه غير منحصـر فى هذا المجال فقـط، فـالقرآن الكريم و المصادر المعرفيـة الاخرى اشارت الى امور كثيرة وراء الحسّ و التى لا يمكن إثباتها بالطرق العاديـة. و اكثر من ذلـك مـا قلنا سابقا من انّنا نتعرّض فى حياتنا الى كثير من المخاطر و التى لا يمكن النجاة منها الّا بوجود هـذه القوى المحافظة (و رأيت فى حيـاتى بعض من هـذه النماذج المحيّرة، و التى كانت بالنسبة لى كشـخص صـعب التصـديق دليلا على وجود هـذا المعقّب اللامرئى).

۲- التغيير يبدأ من النفس (قانون عام)

تبيّن الجملة إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ و التى جاءت فى موردين متفاوتين فى القرآن الكريم، انّها قانون عام، قانون حاسم و منذرا!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۶

هذا القانون الذى هو واحد من القوانين الاساسيّة لعلم الاجتماع فى الإسلام، يقول لنا: انّ ما يصيبكم هو من عند أنفسكم، و ما أصاب القوم من السـعادة و الشـقاء هو ممّـا عملت أيـديهم، و ما يقال من الحظّ و الصدفـة و ما يحتمله المنجّمون ليس له أساس من الصـحّة، فالأساس و القاعـدة هى ارادة الامّة إذا أرادت العزّة و الافتخار و التقدّم، او العكس ان أرادت هى الذلّة و الهزيمة، حتّى اللطف الالهى او العقاب لا يكون الّا بمقدّمة. فتلك ارادة الأمم فى تغيير ما بأنفسهم حتّى يشملهم اللطف او العذاب الالهى.

و بتعبير آخر: انّ هـذا الأصل القرآنى الـذى يبيّن واحـدا من اهمّ المسائل الاجتماعية فى الإسـلام، يؤكّد لنا ان اى تغيير خارجى للأمم مرتبط بالتغيير الداخلى لها، و اى نجاح او فشل يصـيب الامّة ناشئ من هذا الأمر، و الذين يبحثون عن العوامل الخارجية لتبرير اعمالهم و تصرّفاتهم و يعتبرون القوى المسـتعمرة و المتسلّطة هى السبب فى شقائهم يقعون فى خطأ كبير، لانّ هذه القوى الجهنميّة لا تستطيع ان تفعل شيئا إذا لم تكن لديها قدرة و مركز فى داخل المجتمع.

المهمّ ان نطهّر مجتمعاتنا من هذه المقرّات و المراكز للمسـتعمرين و لا نجعلها تنفذ فى داخل مجتمعنا، فهؤلاء بمنزلة الشياطين، و نحن نعلم انّ الشيطان ليس له سبيل على عباد اللّه المخلصين، فهو يتسلّط على الذى مهّد له السبيل فى داخله.

يقول هذا الأصل القرآنى: انّنا يجب ان نثور من الداخل كى ننهى حالة الشقاء و الحرمان، ثورة فكرية و ثقافية، ثورة ايمانيّة و أخلاقية، و أثناء وقوعنا فى مخالب الشـقاء يجب ان نبحث فورا عن نقاط الضـعف فينا، و نطهّر أنفسـنا منها بالتوبة و الرجوع الى اللّه و نبدأ حياة جديـدة مفعمـة بالنّور و الحركـة، كى نستطيع فى ظلّها ان نبدّل الهزيمة الى نصر، لا ان نخفى نقاط الضـعف و عوامل الهزيمة هذه و نبحث عنها فى خارج المجتمع و نظلّ ندور فى الطرق الملتوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۷

هنـاك كتب و مؤلّفـات كثيرة كتبت عن عوامـل انتصار المسـلمين الأوائل ثمّ تضـعضع سـلطانهم بعـد حين، و كثير من تلك الأبحاث ظلّت تتعثّر فى الطرق الملتويـة، و لكن إذا مـا أردنـا ان نسـتلهم من الأصـل أعلاه و الصادر من منبع الوحى فيجب ان نبحث عن ذاك النصـر او تلـك الهزيمـة و عن عواملهـا الفكريـة و العقائديـة و الاخلاقيـة فى المسـلمين. ففى الثـورات المعاصـرة و من جملتهـا الثورة الاسـلامية فى ايران، او ثورة الجزائر او ثورة المسـلمين الافغان، نشاهـد بوضوح انطباق هـذا الأصل القرآنى عليها. فقبل ان تغيّر الـدول المستعمرة و المستكبرة طريقتها فى التعامل معنا، غيّرنا نحن ما بأنفسنا فتغيّر كلّ شىء.

و على ايّـة حال فهذا درس ليومنا و لغدنا و لمسـتقبلنا و لكلّ المسـلمين و الأجيال القادمة. و نحن نرى انّ القيادات المنتصـرة فقط هى التى استطاعت ان تقود و تغيّر شعوبها على أساس هذا الأصل الخالد، و فى تاريخ المسلمين و الإسلام شواهد على ذلك كثيرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۸

الآیات [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۱۲ الی ۱۵]

اشارة

هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (۱۲) وَ یُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِکَةُ مِنْ خِیفَتِهِ وَ یُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَیُصِیبُ بِها مَنْ یَشاءُ وَ هُمْ یُجادِلُونَ فِی اللَّهِ وَ هُوَ شَدِیدُ الْمِحالِ (۱۳) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَسْتَجِیبُونَ لَهُمْ بِشَیْءٍ إِلاَّ کَباسِطِ کَفَّیْهِ إِلَی الْماءِ لِیَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْکافِرِینَ إِلاَّ فِی ضَلالٍ (۱۴) وَ لِلَّهِ یَسْجُدُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ کَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۱۵)

التّفسیر

قسم آخر من دلائل عظمة اللّه:

یتطرّق القرآن الکریم مرّة ثانیة الی آیات التوحید و علائم العظمة و اسرار الخلقة. فهذه الآیات تحاول ان تقرّب العلاقة بین الإنسان و ربّه من خلال الاشارة الی بعض الظواهر الطبیعیّة بشکل موجز و عمیق المعنی لکی یشعّ نور الایمان فی
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۹
قلوب الناس، فتشیر اوّلا الی البرق هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً فالبرق بشعاعه یبهر العیون من جانب، و یحدث صوتا مخیفا و هو الرعد من جانب آخر، و قد یسبّب أحیانا الحرائق للناس و خصوصا فی المناطق الصحراویة فیبعث علی خوفهم و من جانب آخر فإنّه یسبّب هطول الأمطار و یروی ظمأ الصحراء و یسقی المزروعات فیطمع فیه الناس، و بین هذا الخوف و الرجاء تمرّ علیهم لحظات حسّاسة. ثمّ تضیف الآیة وَ یُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ القادرة علی ارواء ظمأ الاراضی الزراعیة.

برکات الرعد و البرق:

نحن نعلم انّ ظاهرة البرق فی المفهوم العلمی هی اقتراب سحابتین إحداهما من الاخری، و هما تحملان شحنات سالبة و موجبة، فیتمّ تفریغ الشحنات بین السحابتین فتحدث شرارة عظیمة، و یحدث مثل ذلک عند اقتراب سلکین أحدهما سالب و الآخر موجب، و إذا کنّا قریبین منهما فإنّنا نسمع صوتا خفیفا، و لکن لاحتواء الغیوم علی شحنات هائلة من الالکترونات فانّهما تحدثان صوتا شدیدا یسمّی الرعد.

و إذا ما اقتربت سحابة تحمل الشحنة الموجبة من الأرض التی تحتوی علی شحنات سالبة فستحدث شرارة تسمّی بالصاعقة، و خطورتها تکمن فی انّ الأرض و المناطق المرتفعة تعتبر راس السلک السالب، حتّی الإنسان فی الصحراء یمکن ان یمثّل هذا السلک فیحدث تفریغ للشحنات یحوّل الإنسان الی رماد فی لحظة واحدة، و لهذا السبب عند وقوع البرق و الرعد فی الصحراء یجب ان یلجأ الإنسان الی شجرة او حائط او الی الجبال او الی ای مرتفع آخر، او ان یستلقی فی ارض منخفضة.

و علی ایّة حال فإنّ للبرق- الذی یسمّی فی بعض الأحیان مزاح الطبیعة-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۰

فوائد جمّة عرفت من خلال ما كشفه العلم الحديث. و نشير هنا الى ثلاثة منها:

۱- السقى:- من الطبيعى انّ البرق تتولّد منه حرارة عالية جدّا قد تصل بعض الأحيان الى (۱۵) الف درجة مئوية، و هذه الحرارة كافية لان تحرق الهواء المحيط بها، و فى النتيجة يقلّ الضغط الجوى، فيسبّب سقوط الأمطار. و لهذا السبب نرى هطول الأمطار الغزيرة بعد حدوث البرق.

و هذه فى الواقع واحدة من وظائف البرق (السقى).

۲- التعقيم:- و نتيجة للحرارة العالية التى يسبّبها البرق فسوف يزداد مقدار الاوكسجين فى قطرات الماء، و يسمّى هذا الماء بالماء الثقيل او الماء المؤكسد (H_2O_2) و من آثاره قتل المكروبات، و لهذا السبب يستعمل لغسل الجروح، فعند نزول هذه القطرات الى الأرض سوف تبيد بيوض الحشرات و الآفات الزراعية، و لهذا السبب يقال انّ السنة الكثيرة الآفات الزراعية هى السنة القليلة البرق و الرعد.

۳- التغذية و التسميد:- تتفاعل قطرات الماء مع الحرارة العالية للبرق لتنتج حامض الكاربون، و عند نزولها الى الأرض و تركيبها مع محتوياتها تضع نوعا من السّماد النباتى، فتتمّ تغذية النبات من هذا الطريق.

يقول بعض العلماء: انّ مقدار ما ينتجه البرق من الاسمدة فى السنة يصل الى عشرات الملايين من الاطنان، و هذه كميّة كبيرة جدّا.

و على ايّة حال نرى من خلال ظاهرة طبيعيّة صغيرة كلّ هذه المنافع و البركات، فهى تقوم بالسقى و رشّ السموم و التغذية، فيمكن ان تكون دليلا-واضحا لمعرفة اللّه، كلّ ذلك من بركات البرق. كما انّه يمكن ان يكون البرق عاملا مهمّا فى إشعال الحرائق من خلال الصاعقة، و قد تحرق الإنسان او الأشجار، و مع انّها نادرة الحدوث و يمكن الوقاية منها، فهى مع ذلك عامل خوف للناس، فمفهوم الخوف و الطمع للبرق قد يكون اشارة الى جميع هذه الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۱

و يمكن ان تكون الجملة وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ لها علاقة بالبرق الذى يصنع هذه الغيوم المليئة بالمياه.

الآية الاخرى تشير الى صوت الرعد الذى يتزامن مع البرق وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ۱۹۰].

نعم، فهذا الصوت المدوّى فى عالم الطبيعة يضرب به المثل، فهو مع البرق فى خدمة هدف واحد و لهما منافع متعدّدة كما أشرنا إليها، و يقومان بعملية التسبيح، و بعبارة اخرى فالرعد لسان حال البرق يحكى عن عظمة الخالق و عن نظام التكوين. فهو كتاب معنوى، و قصيدة غرّاء، و لوحة جميلة و جذّابة، نظام محكم و منظّم و محسوب بدقّة، و بلسان حاله يتحدّث عن علم و مهارة و ذوق الكاتب و الرسام و المعمار و يحمده و يثنى عليه، كلّ ذرّات هذا العالم لها اسرار و نظام دقيق. و تحكى عن تنزيه اللّه و خلوّه من النقص و العيوب (و هل التسبيح غير ذلك؟!).

و تتحدّث عن قدرته و حكمته (و هل الحمد غير بيان صفات الكمال؟!).

و قد احتمل بعض الفلاسفة انّ لكلّ ذرّات هذا العالم نوعا من العقل و الشعور، فهى من خلال هذا العقل تسبّح اللّه و تقدّسه، ليس بلسان الحال فقط، بل بلسان المقال ايضا.

و ليس الرعد و سائر اجزاء العالم تسبّح بحمده تعالى، بل حتّى الملائكة وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ۱۹۱] فهم يخافون من تقصيرهم فى تنفيذ الأوامر الملقاة على عاتقهم، و بالتالى فهم يخشون العقاب الالهى، و نحن نعلم انّ الخوف يصيب أولئك الذين يحسّون بمسؤولياتهم و وظائفهم .. خوف بنّاء يحثّ الشخص على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۲

السعى و الحركة.

و للتوضيح اكثر فى مجال البرق و الرعد تشير الآية الى الصاعقة وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ و مع كلّ ذلك- و بمشاهدة

آيات العظمة الالهية فى عالم التكوين من السّماء و الأرض و النباتات و الأشجار و البرق و الرعد و أمثالها، و فى قدرة الإنسان الحقيرة تجاه هـذه الحوادث، حتّى فى مقابل واحدة منها مثل شـرارة البرق- نرى انّ هناك جماعة جاهلة تجادل فى اللّه وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ

«المحال» فى الأصل «الحيلة» بمعنى التـدبير السـرّى و غير الظاهر، فالـذى له القـدرة على هذا التدبير يمتلك العلم و الحكمة العالية، و لهذا السبب يستطيع ان ينتصر على أعدائه و لا يمكن الفرار من حكومته.

و ذكر المفسّرون وجوها عديـدة فى تفسير شَدِيدُ الْمِحالِ فتارة بمعنى «شديد القوّة»، او «شديد العذاب»، او «شديد القدرة» او «شديد الأخذ»[۱۹۲].

الآية الاخيرة تشير الى مطلبين:

الاوّل: قوله تعـالى: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ فهو يستجيب لـدعواتنا، و هو عـالم بـدعاء العباد و قادر على قضاء حوائجهم، و لهـذا السـبب يكون دعاؤنا ايّاه و طلبنا منه حقّا، و ليس باطلا.

و لكن دعاء الأصـنام باطل وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ نعم هكـذا فى دعوة الباطل ليست اكثر من وهم، لانّ ما يقولونه من علم و قدرة الأصنام ما هو الّا أوهام و خيال، او ليس الحقّ هو عين الواقع و اصل الخير و البركة؟ و الباطل هو الوهم و اصل الشـرّ و الفسـاد؟ و لتصوير هـذا الموضوع يضـرب لنا القرآن الكريم مثالا حيّا و رائعا يقول: إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۳

. فهل يسـتطيع احد ان يجلس على بئر و يطلب الماء بإشارة يد ليبلغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر الّا من انسان مجنون! و تحتمل الآية تفسيرا آخر، فهى تشبّه المشركين كمن بسط كفّه فى الماء ليتجمع فوقها الماء، و عند خروجها من الماء لم يجد فيها شيئا منه لانّ الماء يتسرّب من بين أصابع الكفّ المفتوحة.

و هنـاك تفسـير ثالث و هو انّ المشـركين- لحلّ مشاكلهم- كانوا يلجأون الى الأصـنام، فمثلهم مثل الـذى يحتفظ بالماء فى يـده، هل يحفظ الماء فى يد؟! و هناك مثل معروف بين العرب لمن يسعى بدون فائدة يقال له: هو كقابض الماء باليد، و يقول الشاعر:

فأصبحت فيما كان بينى و بينهامن الودّ مثل القابض الماء باليد

و لكنّنا نعتقد انّ التّفسـير الاوّل أوضح! و للتأكيد على هذا الحديث يأتى فى نهاية الآية قوله تعالى: وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ و ايّ ضـلال اكبر من ان يسـعى الإنسان و يجتهـد فى السبيل الضالّ ... و لكنّه لا يصل الى مقاصده. و لا يحصل على شـىء نتيجة تعبه و جهده.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة، و لكى تبرهن كيف انّ المشـركين ضـلّوا الطريق تقول: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ

بحوث

۱- ما هو المقصود من سجود الكائنات

؟ السجدة فى هذه الموارد تعنى الخضوع و التسليم، فإنّ جميع الملائكة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۴

و الناس ذوی العقول و الأفکار متواضعین للّه و خاضعین لأوامره، و هناک نوعان من السجود، سجود تکوینی و هو انّ الکلّ خاضعون و مسلّمون للقوانین الطبیعیّة مثل الحیاة و الممات و المرض و .. و ..، و البعض منهم له سجود تشریعی بالاضافة الی السجود التکوینی، فهم بمیلهم و إرادتهم یسجدون للّه.

۲- ما هو معنی طَوْعاً وَ کَرْهاً

؟ عبارة طَوْعاً وَ کَرْهاً یمکن ان تکون اشارة الی انّ المؤمنین خاضعون للّه بمیلهم و إرادتهم، و امّا غیر المؤمنین فهم خاضعون کذلک للقوانین الطبیعیّة التی تسیر بأمر اللّه ان شاؤوا و ان أبوا.

و (الکره) بضمّ الکاف تعنی الکراهیة فی داخل الإنسان، و (کره) بفتح الکاف ما حمل علیه الإنسان من خارج نفسه، و بما انّ الأشخاص غیر المؤمنین مقهورون للعوامل الخارجیة و للقوانین الطبیعیّة، استعمل القرآن (کره) بفتح الکاف.

و یحتمل فی تفسیر طَوْعاً وَ کَرْهاً انّ المقصود من «طوعا» هو التوافق و المیل الفطری و الطبیعی بین الإنسان و الأسباب الطبیعیّة (مثل حبّ ای انسان للحیاة) و المقصود من «کرها» هو ما فرض علی الإنسان من الخارج مثل موت أحد الأشخاص بسبب المرض او ای عامل طبیعی آخر.

۳- ما هو معنی کلمة الظلال

؟ «الظّلال» جمع «ظل» و استعمال هذه الکلمة فی الآیة یشیر الی انّ المقصود فی السجود لیس فقط السجود التشریعی، فظلال الکائنات لیست خاضعة لارادتهم و اختیارهم، بل هو تسلیم لقانون الضوء، و علی هذا یکون سجودهم تکوینی، یعنی التسلیم لقوانین الطبیعیّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۵

و طبیعی لیس المقصود من «الظلال» انّ جمیع ما فی السّماوات و الأرض لها وجود مادّی کی یکون لها ظلال، و لکن الآیة تشیر الی تلک الأشیاء التی لها ظلال، فمثلا یقال: انّ جمعا من العلماء و أبنائهم شارکوا فی المجلس الکذائی، و لیس المقصود هنا انّ لکلّ العلماء أبناء «فتدبّر».

و علی ایّة حال فإنّ الظلّ امر عدمی، و هو لیس اکثر من فقدان النّور، و لکن له آثارا و وجودا بسبب النّور المحیط به، و لعلّ الآیة تشیر الی هذه النقطة، و هی انّه حتّی الظلال خاضعة للّه.

۴- ما هو معنی کلوة الْآصالِ

«الآصال» جمع «اصل» و هی جمع «اصیل» و معناه آخر وقت من النهار، و لذلک یعتبر اوّل اللیل، و الغدو جمع غداة بمعنی اوّل النهار.

و رغم انّ السجود و الخضوع للأشیاء الکونیة فی مقابل الأوامر الالهیّة دائمة و مستمرّة فی کلّ وقت، و لکن ذکرها هنا فی موقعین (الصبح و العشاء) امّا انّه کنایة عن دوام الوقت، فمثلا تقول: انّ فلانا یطلب العلم صباحا و مساء، فالمقصود و هو انّه فی کلّ وقت یطلب العلم، و امّا ان یکون المقصود من الآیة ما جاء فی الکلام عن الظلال و التی تکون واضحة اکثر فی اوّل النهار و آخره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۶

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۶]

اشارة

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُماتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۱۶)

التّفسير

لماذا عبادة الأصنام

؟ كان البيان فى الآيات السابقة عن معرفة اللّه و اثبات وجوده، و هذه الآية تبحث عن ضلال المشركين و الوثنيين و تتناوله من عدّة جهات، حيث تخاطب- اوّلا- النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث تقول: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثمّ تأمر النّبى ان يجيب على السؤال قبل ان ينتظر جوابهم قُلِ اللَّهُ ثمّ انّه يلومهم و يوبّخهم بهذه الجملة قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا.

لقد بيّن- اوّلا- عن طريق ربوبيته انّه المدبّر و المالك لهذا العالم، و لكلّ خير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۷

و نفع من جانبه، و قادر على دفع اى شرّ و ضرّ، و هذا يعنى انّكم بقبولكم لربوبيته يجب ان تطلبوا كلّ شىء من عنده لا من الأصنام العاجزة عن حلّ ايّة مشكلة لكم. ثمّ يذهب الى ابعد من ذلك حيث يقول: انّ هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعا و لا ضرّا فكيف يمكنها ان تنفعكم او تضرّكم؟ و هم و الحال هذه لا يحلّون اى عقدة لكم حتّى لو قمتم بعبادتهم، فهؤلاء لا يستطيعون تدبير أنفسهم فما ذا ينتظر منهم؟

ثمّ يذكر مثالين واضحين و صريحين يحدّد فيها وضع الافراد الموحّدين و المشركين، فيقول اوّلا: قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ فكما لا يستوى الأعمى و البصير لا يستوى المؤمن و الكافر، و لا يصحّ قياس الأصنام على الخالق جلّ و علا.

و يقول ثانيا: أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُماتُ وَ النُّورُ كيف يمكن ان نساوى بين الظلام الذى يعتبر قاعدة الانحراف و الضلال، و بين النّور المرشد و الباعث للحياة، و كيف يمكن ان نجعل الأصنام التى هى الظّلمات المحضة الى جنب اللّه الذى هو النّور المطلق، و ما المناسبة بين الايمان و التوحيد اللذان هما نور القلب و الروح، و بين الشرك اصل الظلام؟! ثمّ يدلل على بطلان عقيدة المشركين عن طريق آخر فيقول: أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ و الحال ليس كذلك، فإنّ المشركين أنفسهم لا يعتقدون بها، فهم يعلمون انّ اللّه خالق كلّ شىء، و عالم الوجود مرتبط به، و لذلك تقول الآية: قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۸

بحوث

۱- الخالقية و الرّبوبية يتطلّبان العبادة

یمکن ان یستفاد من الآیة أعلاه انّ الخالق هو الربّ المدبّر، لانّ الخلقة امر مستمر و دائمی، و لیس من خلق الکائنات یترکهم و شأنهم، بل انّه تعالی یفیض بالوجود علیهم باستمرار و کلّ شیء یأخذ وجوده من ذاته المقدّسة، و علی هذا فنظام الخلقة و تدبیر العالم کلّها بید اللّه، و لهذا السبب یکون هو النافع و الضارّ.

و غیره لا یملک شیء الّا منه، فهل یوجد احد غیر اللّه احقّ بالعبادة؟

۲- کیف یسأل و یجیب بنفسه

؟ بالنظر الی الآیة أعلاه یطرح هذا السؤال: کیف امر اللّه نبیّه ان یسأل المشرکین: من خلق السماوات و الأرض؟ و بعدها بدون ان ینتظر منهم الجواب یأمر النّبی ان یجیب هو علی السؤال ... و بدون فاصلة یوبّخ المشرکین علی عبادتهم الأصنام، ای طراز هذا فی السؤال و الجواب؟

و لکن مع الالتفات الی هذه النقطة یتّضح لنا الجواب و هو انّه فی بعض الأحیان یکون الجواب للسؤال واضح جدّا و لا یحتاج الی الانتظار. فمثلا نسأل أحدا: هل الوقت الآن لیل ام نهار؟ و بلا فاصلة نجیب نحن علی السؤال فنقول:

الوقت بالتأکید لیل. و هذه کنایة لطیفة، حیث انّ الموضوع واضح جدّا و لا یحتاج الی الانتظار للجواب، بالاضافة الی انّ المشرکین یعتقدون بخلق اللّه للعالم و لم یقولوا ابدا انّ الأصنام خالقة السّماء و الأرض، بل کانوا یعتقدون بشفاعتهم و قدرتهم علی نفع الإنسان و دفع الضرر عنه، و لهذا السبب کانوا یعبدوهم. و بما انّ الخالقیة غیر منفصلة عن الرّبوبیة یمکن ان نخاطب المشرکین بهذا الحدیث و نقول: أنتم الذین تقولون بأنّ اللّه خالق، یجب ان تعرفوا انّ الربوبیة للّه کذلک،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۹

و یختصّ بالعبادة ایضا لذلک.

۳- العین المبصرة و نور الشمس شرطان ضروریان

یشیر ظاهر المثالین (الأعمی و البصیر) و (الظّلمات و النّور) الی هذه الحقیقة، و هی انّ النظر یحتاج الی شیئین: العین المبصرة، و شعاع الشمس، بحیث لو انتفی واحد منهما فإنّ الرؤیة لا تتحقّق، و الآن یجب ان نفکّر: کیف حال الافراد المحرومین من البصر و النّور؟ المشرکون المصداق الواقعی لهذا، فقلوبهم عمی و محیطهم ملیء بالکفر و عبادة الأصنام، و لهذا السبب فهم فی تیه و ضیاع. و علی العکس فالمؤمنون بنظرهم الی الحقّ، و استلهامهم من نور الوحی و ارشادات الأنبیاء عرفوا مسیرة حیاتهم بوضوح.

۴- هل انّ خلق اللّه لکلّ شیء دلیل علی الجبر

؟ استدلّ جمع من اتباع مدرسة الجبر انّ جملة اللَّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ فی الآیة أعلاه لها من السعة بحیث تشمل حتّی عمل الافراد، فاللّه خالق اعمالنا و نحن غیر مختارین.

یمکن ان نجیب علی هذا القول بطریقین:

اوّلا: الجمل الاخری للآیة تنفی هذا الکلام، لانّها تلوم المشرکین بشکل اکید فإذا کانت اعمالنا غیر اختیاریة، فلما ذا هذا التوبیخ؟! و إذا کانت ارادة اللّه ان نکون مشرکین فلما ذا یلومنا؟! و لماذا یسعی بالأدلّة العقلیّة لتغییر مسیرتهم من الضلالة الی الهدایة؟ کلّ هذا

دلیل علی أنّ الناس أحرار فی انتخاب طریقهم.

ثانیا: انّ الخالقیة بالذات من مختصّات اللّه تعالی. و لا یتنافی مع اختیارنا فی الأفعال، لانّ ما نمتلکه من القدرة و العقل و الشعور، و حتّی الاختیار و الحریة، کلّها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۰

من عند اللّه، و علی هذا فمن جهة هو الخالق (بالنسبة لکلّ شیء و حتّی أفعالنا) و من جهة اخری نحن نفعل باختیارنا، فهما فی طول واحد و لیس فی عرض و أفق واحد، فهو الخالق لکلّ وسائل الأفعال، و نحن نستفید منها فی طریق الخیر او الشرّ.

فمثلا الذی یؤسّس معملا لتولید الکهرباء او لإنتاج أنابیب المیاه، یصنعها و یضعها تحت تصرّفنا، فلا یمکن ان نستفید من هذه الأشیاء الّا بمساعدته، و لکن بالنتیجة یکون التصمیم النهائی لنا، فیمکن ان نستفید من الکهرباء لامداد غرفة عملیات جراحیة و انقاذ مریض مشرف علی الموت، او نستخدمها فی مجالس اللهو و الفساد، و یمکن ان نروی بالماء عطش انسان و نسقی وردا جمیلا، او نستخدم الماء فی إغراق دور الناس و تخریبها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۱

الآیة [سورة الرعد (۱۳): آیة ۱۷]

اشارة

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِیَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَداً رابِیاً وَ مِمَّا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فِی النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْیَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما یَنْفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (۱۷)

التّفسیر

وصف دقیق لمنظر الحقّ و الباطل:

یستند القرآن الکریم- الذی یعتبر کتاب هدایة و تربیة- فی طریقته الی الوقائع العینیّة لتقریب المفاهیم الصعبة الی أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسّیة الرائعة من حیاة الناس، و هنا- ایضا- لأجل ان یجسّم حقائق الآیات السابقة التی کانت تدور حول التوحید و الشرک، الایمان و الکفر، الحقّ و الباطل، یضرب مثلا واضحا جدّا لذلک ..

یقول اوّلا: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً الماء عماد الحیاة و اصل النمو و الحرکة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۲

فَسالَتْ أَوْدِیَةٌ بِقَدَرِها تتقارب السواقی الصغیرة فیما بینها، و تتکوّن الأنهار و تتّصل مع بعضها البعض، فتسیل المیاه من سفوح الجبال العظیمة و الودیان و تجرف کلّ ما یقف امامها، و فی هذه الأثناء یظهر الزّبد و هو ما یری علی وجه الماء کرغوة الصابون من بین أمواج الماء حیث یقول القرآن الکریم: فَاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَداً رابِیاً.

«الرابی» من «الربو» بمعنی العالی او الطافی، و الربا بمعنی الفائدة مأخوذ من نفس هذا الأصل.

و لیس ظهور الزبد منحصرا بهطول الأمطار، بل وَ مِمَّا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فِی النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْیَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ۱۹۳] ای الفلزات المذابة بالنّار لصناعة أدوات الزینة منها او صناعة الوسائل اللازمة فی الحیاة.

بعد بیان هذا المثال بشکله الواسع لظهور الزبد لیس فقط فی الماء بل حتّی للفلزات و للمتاع، یستنتج القرآن الکریم کَذلِکَ یَضْرِبُ

اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ ثمّ يتطرّق الى شرحه فيقول: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكَثُ فِي الْأَرْضِ
فأمّا الزبد الذى لا فائدة فيه فيذهب جفاء و يصير باطلا متلاشيا، و امّا الماء الصافى النقى المفيد فيمكث فى الأرض او ينفذ الى الاعماق و تتكوّن منه العيون و الآبار تروى العطاش، و تروى الأشجار لتثمر، و الازهار لتتفتّح، و تمنح لكلّ شيء الحياة.
و فى آخر الآية- للمزيد من التأكيد فى مطالعة هذه الأمثال- يقول تعالى:
كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۳

بحوث

اشارة

هذا المثال البليغ الذى عبّر عنه القرآن الكريم بألفاظ موزونة و عبارات منظّمة. و صوّر فيها الحقّ و الباطل بأروع صورة، فيه حقائق مخفيّة كثيرة و نشير هنا الى قسم منها:

۱- ما هى علائم معرفة الحقّ و الباطل

؟ يحتاج الإنسان فى بعض الأحيان لمعرفة الحقّ و الباطل- إذا أشكل عليه الأمر- الى علائم و أمثال حتّى يتعرّف من خلالها على الحقائق و الأوهام. و قد بيّن القرآن الكريم هذه العلامات من خلال المثال أعلاه:
الف:- الحقّ مفيد و نافع دائما، كالماء الصافى الذى هو اصل الحياة. امّا الباطل فلا فائدة فيه و لا نفع، فلا الزبد الطافى على الماء يروى ظمآنا أو يسقى أشجارا، و لا الزبد الظاهر من صهر الفلزات يمكن ان يستفاد منه للزينة او للاستعمالات الحياتية الاخرى، و إذا استخدمت لغرض فيكون استخدامها رديئا و لا يؤخذ بنظر الاعتبار .. كما نستخدم نشارة الخشب للإحراق.
باء:- الباطل هو المستكبر و المرفّه كثير الصوت، كثير الأقوال لكنّه فارغ من المحتوى، امّا الحقّ فمتواضع قليل الصوت، و كبير المعنى، و ثقيل الوزن ۱۹۴].
جيم- الحقّ يعتمد على ذاته دائما، امّا الباطل فيستمدّ اعتباره من الحقّ و يسعى للتلبّس به، كما انّ (الكذب يتلبّس بضياء الصدق) و لو فقد الكلام الصادق من العالم لما كان هناك من يصدق الكذب. و لو فقدت البضاعة السليمة من العالم لما وجد من يخدع ببضاعة مغشوشة. و على هذا فوجود الباطل راجع الى شعاعه الخاطف و اعتباره المؤقّت الذى سرقه من الحقّ، امّا الحقّ فهو مستند الى نفسه و اعتباره منه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۴

۲- ما هو الزّبد

؟ «الزبد» بمعنى الرغوة التى تطفوا على السائل، و الماء الصافى اقلّ رغوة، لانّ الزبد يتكوّن بسبب اختلاط الأجسام الخارجية مع الماء،

و من هنا یتّضح انّ الحقّ لو بقی علی صفائه و نقائه لم یظهر فیه الخبث ابدا، و لکن لامتزاجه بالمحیط الخارجی الملوّث فإنّه یکتسب منه شیئا، فتختلط الحقیقهٔ مع الخرافهٔ، و الحقّ بالباطل، و الصافی بالخابط. فیظهر الزبد الباطل الی جانب الحقّ.

و هذا هو الذی یؤکّده

الامام علی علیه السّلام حیث یقول: لو انّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم یخف علی المرتادین، و لو انّ الحقّ خلص من لبس الباطل انقطعت عنه السن المعاندین».[۱۹۵].

یقول بعض المفسّرین انّ للآیهٔ أعلاه ثلاث امثلهٔ: «نزول آیات القرآن» تشبیه بنزول قطرات المطر للخیر، «قلوب الناس» شبیههٔ بالأرض و الودیان و بقدر وسعها یستفاد منها، «وساوس الشیطان» شبیههٔ بالزبد الطافی علی الماء، فهذا الزبد لیس من الماء، بل نشأ من اختلاط الماء بمواد الأرض الاخری، و لهذا السبب فوساوس النفس و الشیطان لیست من التعالیم الالهیهٔ، بل من تلوّث قلب الإنسان، و علی ایّهٔ حال فهذه الوساوس تزول عن قلوب المؤمنین و یبقی صفاء الوحی الموجب للهدایهٔ و الإرشاد.

۳- الاستفادهٔ تکون بقدر الاستعداد و اللیاقهٔ

! یستفاد من هذه الآیهٔ- ایضا- انّ مبدا الفیض الالهی لا یقوم علی البخل و الحدود الممنوعهٔ، کما انّ السحاب یسقط امطاره فی کلّ مکان بدون قید او

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۵

شرط، و تستفید الأرض و الودیان منها علی قدر وسعها، فالأرض الصغیرهٔ تستفید اقلّ و الأرض الواسعهٔ تستفید اکثر، و هکذا قلوب الناس فی مقابل الفیض الالهی.

۴- الباطل و الأوضاع المضطربهٔ

عند ما یصل الماء الی السهل او الصحراء و یستقرّ فیها، تبدا المواد المختلطهٔ مع الماء بالترشّح و یذهب الزبد فیظهر الماء النقی مرّهٔ ثانیهٔ، و علی هذا النحو فالباطل یبحث عن سوق مضطربهٔ حتّی یستفید منها، و لکن بعد استقرار السوق و جلوس کلّ تاجر فی مکانه المناسب و تحقق الالتزامات و الضوابط فی المجتمع، لا یجد الباطل له مکانا فینسحب بسرعهٔ!

۵- الباطل یتشکّل بأشکال مختلفهٔ

انّ واحدهٔ من خصائص الباطل هی انّه یغیّر لباسه من حین لآخر، حتّی إذا عرفوه بلباسه یستطیع ان یخفی وجهه بلباس آخر، و فی الآیهٔ أعلاه اشارهٔ لطیفهٔ لهذه المسألهٔ، حیث تقول: لا یظهر الزبد فی الماء فقط، بل یظهر حتّی فی الافران المخصوصهٔ لصهر الفلزات بشکل و لباس آخر، و بعبارهٔ اخری فإنّ الحقّ و الباطل موجودان فی کلّ مکان کما یظهر الزبد فی السوائل بالشکل المناسب لها. و علی هذا یجب ان لا نخدع بتنوّع الوجوه و ان نعرف أوجه الباطل و نطرحه جانبا.

۶- ارتباط البقاء بالنفع

تقول الآیـة: وَ أَمَّا ما یَنْفَعُ النّاسَ فَیَمْکَثُ فِی الْأَرْضِ لیس المـاء فقـط یبقی و یـذهب الزبـد الطـافی علیه، بـل حتّی الفلزات تلک التی تستعمل للزینة او للمتاع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۶

یبقی الخالص منها و یـذهب خبثه. و علی هذا النحو فالناس و المدارس و المبادئ لهم حقّ الحیاة علی قدر منفعتهم، و إذا ما رأینا بقاء اصحاب المبادئ الباطلة لفترة فإنّ ذلک بسبب وجود ذلک المقدار من الحقّ الذی اختلط فیه، و بهذا المقدار له حقّ الحیاة.

۷- کیف یطرد الحقّ الباطل

؟ «الجفـاء» بمعنی الإلقـاء و الإخـراج، و لهـذا نکتـة لطیفـة و هی انّ الباطـل یصل الی درجـة لا یمکن فیها ان یحفظ نفسه، و فی هـذه اللحظـة یلقی خارج المجتمع، و هـذه العملیـة تتمّ فی حالـة هیجان الحقّ، فعنـد غلیان الحقّ یظهر الزبـد و یطفو علی سـطح ماء القدر و یقذف الی الخارج، و هذا دلیل علی انّ الحقّ یجب ان یکون فی حالة هیجان و غلیان دائما حتّی یبعد الباطل عنه.

۸- الباطل مدین للحقّ ببقائه

کما قلنا فی تفسیر الآیة، فلو لم یکن الماء لما وجد الزبد، و لا یمکن له ان یستمر، کما انّه لولا وجود الحقّ فإنّ الباطل لا معنی له و لو لم یکن هناک اشـخاص صادقون لما وقع احد تحت تأثیر الافراد الخونة و لما صدّق بمکرهم، فالشعاع الکاذب للباطل مدین فی بقائه لنور الحقّ.

۹- صراع الحقّ و الباطل مستمر

المثال الذی ضـربه لنا القرآن الکریم فی تجسیم الحقّ و الباطل لیس مثالا محدودا فی زمان و مکان معینین، فهذا المنظر یراه الناس فی جمیع مناطق العالـم المختلفة، و هذا یبیّن انّ عمل الحقّ و الباطل لیس مؤقتا و آنیا. و جریان الماء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۷

العـذب و المالـح مسـتمر الی نفـخ الصور، الّا إذا تحوّل المجتمع الی مجتمع مثالی (کمجتمع عصـر الظهور و قیام الامام المهـدی علیه السّلام) فعنده ینتهی هذا الصراع، و ینتصر الحقّ و یطوی بساط الباطل، و تدخل البشریة مرحلة جدیدة من تاریخها، و الی ان نصل الی هذه المرحلة فالصراع مستمر بین الحقّ و الباطل، و یجب ان نحدّد موقفنا فی هذا الصراع.

۱۰- تزامن الحیاة مع السعی و الجهاد

المثال الرائع أعلاه یوضّـح هـذا الأساس لحیاة الناس، و هو انّ الحیاة بدون جهاد غیر ممکنة، و العزّة بدون سـعی غیر ممکنة ایضا، لانّه یقول: یجب ان یـذهب النـاس الی المنـاجم لتهیئـة مسـتلزمات حیـاتهم فی المتـاع و الزینـة ابْتِغاءَ حِلْیَةٍ أَوْ مَتاعٍ و للحصول علی هـذین الشـیئین یجب تنقیة المواد الخام من الشوائب بواسطة نیران الافران للحصول علی الفلز الخالص الصالح للاستعمال، و هذا لا یتمّ الّا من خلال السعی و المجاهدة و العناء.

و هـذه هی طبیعـة الحیاة حیث یوجد الی جانب الورد الشوک، و الی جانب النصـر توجد المصاعب و المشـکلات، و قالوا فی القدیم: (الکنوز فی الخرائب و فوق کلّ کنز یوجد ثعبان نائم)، فإنّ هذه الخربة و الثعبان تمثّلان المشاکل و الصعوبات للحصول علی الموفّقیة فی الحیاة.

و یؤکّـد القرآن الکریم هـذه الحقیقـة و هی انّ التوفیق لاـ یحصل الّا بتحمّل المصاعب و المحن، یقول جلّ و علا فی الآیـة (۲۱۴) من سورة البقرة: أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا یَأْتِکُمْ مَثَلُ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِکُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّی یَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ مَتی نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِیبٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۸

الأمثال فی القرآن:

اشارة

انّ دور المثال فی توضیـح و تفسیر الغایات له اهمیّـة کبیرة غیر قابلة للإنکار، و لهذا السـبب لا یوجد ای علم یسـتغنی عن ذکر المثال لاثبات و توضیـح الحقائق و تقریب معناها الی الأذهان، و تارة ینطبق المثال مع المقصود بشکل یجعل المعانی الصعبة تنزل من السّماء الی الأـرض و تکون مفهومـة للجمیع، فیمکن ان یقـال: انّ المثال له دور مؤثّر فی مختلف الأبحاث العلمیـة و التربویـة و الاجتماعیـة و الاخلاقیة و غیرها، و من جملة تأثیراته:

۱- المثال یجعل المسائل محسوسة:

من المعلوم أنّ الإنسـان یـأنس بالمحسوسـات أکثر، أمّـا الحقائق العلمیـة المعقّـدة فهی بعیـدة المنال. و الأمثال تقرّب هـذه الفواصل و تجعل الحقائق المعنویة محسوسة، و إدراکها یسیر و لذیذ.

۲- المثال یقرّب المعنی:

تارة یحتاج الإنسان لاثبات مسألـة منطقیـة او عقلیـة الی ادلّـة مختلفـة، و مع کلّ هذه الادلّة تبقی هناک نقاط مبهمة محیطة بها، و لکن عند ذکر مثال واضح منسّق مع الغایة یقرّب المعنی و یعزّز الادلّة و یقلّل من کثرتها.

۳- المثال یعمّم المفاهیم

کثیر من البحوث العلمیة بشکلها الاصلی یفهمها الخواص فقط، و لا یستفید منها عامّة الناس، و لکن عند ما یصحبها المثال تکون قابلة للفهم، و یستفید منها الناس علی اختلاف مستویاتهم العلمیة، و لهذا فالمثال وسیلة لتعمیم الفکر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۹

و الثقافة.

۴- المثال، یزید فی درجة التصدیق:

مهما تکن الکلیّات العقلیة منطقیة، فإنّها لا تخلق حالة الیقین الکافیة فی ذهن الإنسان، لانّ الإنسان یبحث عن الیقین فی المحسوسات، فالمثال یجعل من المسألة الذهنیّة واقعا عینیّا، و یوضّحها فی العالم الخارجی، و لهذا السبب فإنّ له اثره فی زیادة درجة تصدیق المسائل و قبولها.

۵- المثال یخرس المعاندین:

کثیرا ما لا تنفع الادلّة العقلیّة و المنطقیّة لاسکات الشخص المعاند حیث یبقی مصرّا علی عناده و لکن عند ما نصب الحدیث فی قالب المثال نوصد الطریق علیه بحیث لا یبقی له مجال للتبریر و لا لاختلاق الاعذار.

و لا بأس ان نطرح هنا بعض الامثلة حتّی نعرف مدی تأثیرها:

نقرا فی القرآن الکریم انّ اللّه سبحانه و تعالی یرد علی الذین اشکلوا علی ولادة السّید المسیح علیه السّلام کیف انّه ولد من امّ بغیر أب إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ [۱۹۶] لاحظوا جیدا، فنحن مهما حاولنا ان نقول للمعاندین: انّ هذا العمل بالنسبة الی قدرة اللّه المطلقة لا شیء، فمن الممکن ان یحتجّوا ایضا، و لکن عند ما نقول لهم هل تعتقدون انّ آدم خلقه اللّه من تراب؟ فإنّ اللّه الذی له هذه القدرة کیف لا یستطیع إیجاد شخص بدون أب؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۰

و بالنسبة الی المنافقین الذین یقضون فی ظلّ نفاقهم ایّاما مریحة ظاهرا، فإنّ القرآن الکریم یضرب مثالا رائعا عن حالهم، فیشبّههم بالمسافرین فی الصحراء فیقول یَکادُ الْبَرْقُ یَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ کُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِیهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَیْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.[۱۹۷].

فهل یوجد أوضح من هذا الوصف للمنافق التائه فی الطریق، لیستفید من نفاقه و عمله کی یستمرّ فی حیاته؟

و عند ما تقول للافراد: انّ الإنفاق یضاعفه لکم اللّه عدّة مرّات قد لا یستطیعون ان یفهموا هذا الحدیث، و لکن یقول القرآن الکریم: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ کَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ[۱۹۸]، و هذا المثال الواضح اقرب للإدراک.

و غالبا ما نقول: انّ الریاء لا ینفع الإنسان، فقد یکون هذا الحدیث ثقیلا علی البعض، کیف یمکن لهذا العمل ان یکون غیر مفید، فبناء مستشفی او مدرسة حتّی لو کان بقصد الریاء .. لماذا لیست له قیمة عند اللّه؟! و لکن یضرب اللّه مثالا رائعا حیث یقول: فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَیْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَکَهُ صَلْداً.[۱۹۹] و لکی لا نبتعد کثیرا فالآیة التی نحن بصدد تفسیرها تبحث فی مجال الحقّ و الباطل و تجسّم هذه المسألة بشکل دقیق، المقدّمات و النتائج، و الصفات و الخصوصیات و الآثار، و تجعلها قابلة الفهم للجمیع و تسکت المعاندین، و اکثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۱

من ذلک تکفینا تعب البحوث المطوّلة.

و

فی مناظرة للإمام الصادق علیه السّلام مع احد الزنادقة حول قوله تعالی: کُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَیْرَها لِیَذُوقُوا الْعَذابَ قال: فما بال الغیر؟

أجابه الامام: «ويحك هى هى و هى غيرها!» قال: فمثّل لى ذلك شيئا من امر الدنيا! قال: «نعم، أ رأيت لو انّ رجلا أخذ لبنة فكسرها ثمّ ردّها فى ملبنها، فهى هى و هى غيرها»[۲۰۰].

و لا بدّ هنا من ملاحظة هذه اللفظة و هى انّ المثال و ما له من تأثير كبير و دور فعّال يجب ان يكون مطابقا و موافقا للمقصود، و الّا يكون ضالا و منحرفا.

و لهذا السبب يستفيد المنافقون من هذه الامثلة المنحرفة ليضلّوا بها الناس البسطاء، فهم يستعينون بشعاع المثال ليصدق الناس اكاذيبهم، فيجب ان نحذر من هذه الامثلة المنحرفة و نلاحظها بدقّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۲

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۸]

اشارة

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۸)

التّفسير

الذين استجابوا لدعوة الحقّ:

بعد ما كشفت الآيات السابقة عن وجهى الحقّ و الباطل من خلال مثال واضح و بليغ، اشارت هذه الآية الى مصير الذين استجابوا لربّهم و الذين لم يستجيبوا لهذه الدعوة و اتّجهوا صوب الباطل. تقول اوّلا: لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى

«الحسنى» فى معناها الواسع تشمل كلّ خير و سعادة، بدءا من الخصال الحسنة و الفضائل الاخلاقية الى الحياة الاجتماعية الطاهرة و النصر على الأعداء و جنّة الخلد.

ثمّ تضيف الآية وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۳

وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ

لا توجد صيغة أوضح من هذه الآية فى بيان شدّة عذابهم و عقابهم، يمتلك الإنسان كلّ ما فى الأرض و ضعفه ايضا و يفتدى به للنجاة و لا يحصل النجاة.

تشير هذه الجملة فى الواقع الى آخر امنية و التى لا- يمكن ان يتصوّر اكثر منها، و هى ان يمتلك الإنسان كلّ ما فى الأرض، و لكن شدّة العذاب للظالمين و مخالفى الحقّ تصل بهم الى درجة ان يفتدوا بكلّ هذه الامنية او أكثر منها لنجاتهم. و لنفرض انّها قبلت منهم فتكون نجاتهم من العذاب فقط، و لكن الثواب العظيم يكون من نصيب الذين استجابوا لدعوة الحقّ.

و من هنا يتّضح انّ العبارة وَ مِثْلَهُ مَعَهُ ليس المقصود منها ان يكون لهم ضعف ما فى الأرض، بل انّهم مهما ملكوا اكثر من ذلك فانّهم مستعدّون للتنازل عنه مقابل نجاتهم من العذاب. و دليله واضح، لانّ الإنسان يطلب كلّ شيء لمنفعته، و لكن عند ما يجد نفسه غارقا فى العذاب فما فائدة تملكه للدنيا كلّها؟

و على اثر هذا الشقاء (عدم قبول ما فى الأرض مقابل نجاتهم) يشير القرآن الكريم الى شقاء آخر أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ

فما هو المقصود من سوء الحساب؟

للمفسّرين آراء مختلفة حيث يعتقد البعض انّه الحساب الدقيق بدون اى عفو او مسامحة، فسوء الحساب ليس بمفهوم الظلم، لانّ اللّه سبحانه و تعالى هو العدل المطلق، و يؤيّد هذا المعنى الحديث الوارد

عن الامام الصادق عليه السّلام انّه قال لرجل: «يا فلان مالك و لأخيك؟» قال: جعلت فداك كان لى عليه حقّ فأستقصيت منه حقّى الى آخره، و عنده سماع الامام لهذا الجواب غضب و جلس ثمّ قال:

«كأنّك إذا استقصيت حقّك لم تسىء اليه! أ رأيت ما حكى اللّه عزّ و جلّ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ أ تراهم يخافون اللّه ان يجور عليهم؟! لا و اللّه ما خافوا الّا الاستقصاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۴

فسمّاه اللّه عزّ و جلّ سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساءه»[۲۰۱].

و قال البعض: المقصود من سوء الحساب، انّه يلازم حسابهم التوبيخ و الملامة و غيرها، فبالاضافة الى خوفهم من العذاب يؤلمهم التوبيخ.

و يقول البعض الآخر: المقصود هو الجزاء الذى يسوؤهم، كما نقول: انّ فلان حسابه نقى، او لآخر: حسابه مظلم، و هذا يعنى نتيجة حسابهم جيدة او سيّئة، او تقول: (ضع حسابه فى يده) يعنى حاسبه طبقا لعمله.

هذه التفاسير الثلاثة غير متضادّة فيما بينها، و يمكن ان يستفاد منها فى تفسير الآية، و هذا يعنى انّ هؤلاء الافراد يحاسبون حسابا دقيقا، و أثناء حسابهم يوبّخون و يلامون و من ثمّ يستقصى منهم.

و فى نهاية الآية اشارة الى الجزاء الثّالث او النتيجة النهائية لجزائهم وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ.

«المهاد» جمع مهد، بمعنى التهيؤ، و يستفاد منها معنى السرير الذى يستخدم لراحة الإنسان، هذا السرير يهيّأ للاستراحة، و قد ذكر القرآن الكريم هذه الكلمة للاشارة الى انّ هؤلاء الطغاة بدلا من ان يستريحوا فى مهادهم يجب ان يحرقوا بلهيب النار.

بحث

يستفاد من الآيات القرآنية انّ الناس فى يوم القيامة ينقسمون الى مجموعتين، فمجموعة يحاسبهم اللّه بيسر و سهولة و بغير تدقيق فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً.[۲۰۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۵

و على العكس من ذلك هناك مجموعة يحاسبون بشدّة حتّى الذرّة و المثقال من الأعمال يحاسبون عليه، كما حدث لبعض البلاد التى كان أهلها من العاصين، فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً[۲۰۳].

انّ هذا الحساب الشديد هو نتيجة لما كان يقوم به هؤلاء فى حياتهم من استقصاء الآخرين حتّى الدينار الأخير، و إذا ما حدث خطأ من احد فإنّهم يعاقبون بأشدّ ما يمكن، و لم يسامحوا أحدا حتّى أبناءهم و إخوانهم و أصدقائهم، و بما انّ الآخرة انعكاس لحياة الدنيا فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يحاسبهم حسابا شديدا على اى عمل عملوه بدون ادنى سماح، و على العكس فهناك اشخاص سهلون و مسامحون و من اهل العفو، خصوصا فى مقابل أصدقائهم و اقربائهم و ذوى الحقوق عليهم او الضعفاء، و يغضّون النظر عنهم و عن كثير من زلّاتهم الشخصيّة، و فى مقابل ذلك فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يشملهم بعفوه و رحمته الواسعة و يحاسبهم حسابا يسيرا.

و هذا درس كبير لكلّ الناس و خصوصا أولئك الذين يتصدّرون الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱۹ الى ۲۴]

اشارة

أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (۱۹) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (۲۰) وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (۲۱) وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (۲۲) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (۲۳)
سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (۲۴)

التّفسير

الأبواب الثّمانية للجنّة و صفات اولى الألباب:

تتحدّث هذه الآيات عن سيرة اولى الألباب و صفاتهم الحسنة، و فيها تكميل
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۷
للبحث السابق.
فى الآية الاولى من هذه المجموعة استفهام انكارى: أ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى
و هـذا وصف رائع، فهو لم يقل: أ فمن يعلم انّ هـذا القرآن على الحقّ كمن لا يعلم؟ بل قال: كمن هو أعمى؟ و هذه اشارة لطيفة الى انّه من المحال ان لا يعلم احد بهذه الحقيقة الّا ان يكون أعمى القلب، فكيف يمكن لإنسان يمتلك عينا سليمة و لا يرى نور الشمس، و هذا القرآن كالشمس. و لذلك يجىء فى نهاية الآية قوله تعالى: إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ
«الألباب» جمع لبّ بمعنى جوهر الشيء، و يقابل اولى الألباب اولوا الجهل و العمى.
انّ هذه الآية- و كما يذهب اليه بعض المفسّرين- تحثّ الناس على طلب العلم و محاربة الجهل، لأنّها تعدّ الفرد الفاقد للعلم كمن هو أعمى. ثمّ بيّن سيرة اولى الألباب من خلال ذكر صفاتهم الحميدة، و اوّل ما أشار القرآن اليه وفاؤهم بالعهد و عدم نقضهم له و الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ
انّ «عهد اللّه» له معنى واسع، و يشمل العهود الفطرية التى عاهدوا بها ربّهم كالفطرة على التوحيد و حبّ الحقّ و العدالة، و المواثيق العقليّة التى يدركها الإنسان من خلال التفكير و التعقّل لعالم الوجود، و المبدإ و المعاد، و تشمل كذلك العهود الشرعيّة، و هى ما عاهدوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليه من الطاعة للأوامر الالهيّة و ترك المعاصى و الذنوب.
و تشمل هذه المجموعة كذلك الوفاء بالعهد بين الافراد، لانّ اللّه سبحانه و تعالى اوصى بها، بل تدخل ضمن الوفاء الشرعى و الميثاق العقلى.
الصفة الثّانية من صفات اولى الألباب هى وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۸
لا- نجد صيغة أوسع من هذه فى هذا المجال، فالإنسان له صلات و روابط كثيرة، صلة مع ربّه، و مع الأنبياء و القادة، و روابطه مع الأصدقاء و الجيران و الأقرباء و مع كلّ الناس، و الآية تأمر ان تحترم هذه الصلات، و تنهى عن اى عمل يؤدّى الى قطع هذه الصلات

و الروابط.

و الإنسان فی الحقیقة لیس منزویا او منفکّا من عالم الوجود، بل تحکم کلّ وجوده الصلات و الروابط، و من جملة هذه الصلات:

۱- صلته باللّه سبحانه و تعالی، و التی إذا ما قطعها الإنسان تؤدّی الی هلاکه کما فی انطفاء نور المصباح فی حالة قطع التیار الکهربائی عنه، و علی هذا فإنّ هذه الصلة التکوینیّة بین الإنسان و ربّه یجب ان تتبعها صلة بأوامره و احکامه من حیث الطاعة و العبودیة.

۲- صلته بالأنبیاء و الائمّة علیهم السّلام علی أساس انّهم قادة للبشریة و قطعها یؤدّی بالإنسان الی الضلال و الانحراف.

۳- صلته بالمجتمع کافّة و خصوصا بذوی الحقوق علیه أمثال الأب و الامّ و الأقرباء.

۴- صلته بنفسه، من حیث انّه مأمور بحفظها و إصلاحها و تکاملها.

انّ اقامة ای صلة من هذه الصلات، هی فی الواقع مصداق للآیة یَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ یُوصَلَ و قطعها قطع لما امر اللّه به ان یوصل، لانّ اللّه سبحانه و تعالی امر بأن توصل و لا تقطع.

و بالاضافة الی ما قلناه، فهناک أحادیث واردة بخصوص هذه الآیة یتّضح منها انّ المراد القرابة مرّة، و مرّة الامامة او آل الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و مرّة اخری کلّ المؤمنین!

فقد جاء عن الامام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الآیة قال: «قرابتک» و عنه ایضا علیه السّلام قال: «نزلت فی رحم آل محمّد و قد یکون فی قرابتک»[۲۰۴]

و من الطریف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۹

انّه علیه السّلام یقول فی نهایة الحدیث: «فلا تکونن ممّن یقول للشیء انّه فی شیء واحد»

و هذه الجملة اشارة واضحة الی المعانی الواسعة للقرآن الکریم.

و

عن الامام الصادق علیه السّلام فی حدیث ثالث یقول: «هو صلة الامام فی کلّ سنة (ای بالمال) بما قلّ او اکثر، ثمّ قال: و ما أرید بذلک الّا تزکیتکم»[۲۰۵].

الصفة الثّالثة و الرّابعة من سیرة اولی الألباب هی قوله تعالی: وَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ یَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ

لمعرفة الفرق بین «الخشیة» و «الخوف» المتقاربان فی المعنی یقول البعض:

«الخشیة» هی حالة الخوف مع احترام الطرف المقابل و مع العلم و الیقین، و لذلک عدّها القرآن الکریم من خصوصیات العلماء حیث یقول: إِنَّما یَخْشَی اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ.

و لکن بالنظر الی استخدام القرآن الکریم لکلمة الخشیة مرّات کثیرة یتّضح لنا انّها تأتی بمعنی الخوف و تستعمل معها بشکل مترادف.

هنا یطرح هذا السؤال: إذا کان الخوف من الخالق هو نفس الخوف من حسابه، فما هو الفرق بین یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ و یَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ

الجواب: انّ الخوف من اللّه سبحانه و تعالی لیس ملزما دائما ان یکون خوفا من حسابه و عقابه، بل انّ العظمة الالهیّة و الاحساس بالعبودیّة له توجد حالة من الخوف فی قلوب المؤمنین (بغضّ النظر عن الجزاء و العقاب)، و الآیة (۲۸) من سورة فاطر قد تشیر الی هذا المعنی.

و هناک سؤال آخر یتعلّق بسوء الحساب، و هو: هل من الصحیح انّ هناک ظلم فی محاسبة الافراد؟

و قد تقدّم الجواب علی هذا السؤال قبل عدّة آیات من هذه الآیة و قلنا انّ المراد هو التدقیق الشدید فی الحساب من دون عفو او

تسامح و ذكرنا ايضا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۰

حديثا فى هذا الصدد.

الصّفة الخامسة من صفات اولى الألباب الاستقامة فى مقابل جميع المشاكل التى يواجهها الإنسان فى مسيرة الطاعة و ترك المعصية، و جهاد الأعداء و محاربة الظلم و الفساد[۲۰۶]، و الصبر فى مرضاة الخالق، و لذلك يقول تعالى: وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ لقد أشرنا مرارا الى مفهوم الاستقامة التى هى المعنى الواسع للصبر.

امّا معنى العبارة وَجْهِ رَبِّهِمْ فقد تشير الى احد معنيين:

اوّلا- كلمة الوجه فى هذه الموارد تعنى العظمة، كما نقول للرأى الصائب و المهمّ «هذا وجه الراى» باعتبار انّ الوجه يمثّل الشكل الظاهر و المهمّ للشى‌ء، كما فى وجه الإنسان الذى يعتبر اهمّ جزء من جسده، و فيه يقع السمع و البصر و النطق.

ثانيا: الوجه هنا بمعنى رضا الخالق، فهم يصبرون على المحن و المشاكل لجلب مرضاة اللّه، فاستعمال الوجه بهذا المعنى بسبب انّ الإنسان عند ما يريد ان يجلب رضا شخص يمعن النظر فى وجهه (و على ذلك فهو يستعمل للكناية عن الشى‌ء). و على ايّة حال فإنّ هذه الجملة تبيّن انّ كلّ صبر و عمل خير تكون له قيمة عند ما يصبح لوجه اللّه، و ايّ عمل آخر يقع تحت تأثير الرياء و الغرور لا قيمة له مطلقا.

يقول بعض المفسّرين: انّ الإنسان يصبر مرّة لكى يقول عنه الناس: انّ هذا كثير الاستقامة. و اخرى لخشيته ان يقولوا عنه انّه قليل الصبر، او يصبر حتّى لا يشمت به الأعداء، او يعلم ان لا فائدة من الجزع .. كلّ هذه الأمور و النيّات لا تدخل ضمن الكمال الانسانى الّا إذا كانت خالصة لوجه اللّه. فهو يصبر و يستقيم لانّه يعلم انّ ايّ فاجعة او مصيبة لها حكمة و دليل، و لا يقول ما يسخط الربّ،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۱

فهذا الصبر هو المعنى بقوله تعالى: ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ

الصفة السّادسة من صفاتهم هى وَ أَقامُوا الصَّلاةَ. رغم انّ اقامة الصلاة هى مصداق للوفاء بعهد اللّه و كذلك المصداق البارز لحفظ ما امر اللّه به ان يوصل، و مصداق للصبر و الاستقامة، و لكن هناك بعض مصاديق تلك المفاهيم الكلّية اكثر اهميّة فى مصير الإنسان، فهذه الجملة و الجمل التى ما بعدها تشير الى ذلك.

اى شى‌ء اهمّ من هذا؟! انّ الإنسان يجدّد عهده و صلته باللّه سبحانه و تعالى صباحا و مساء، و يتفكّر بعظمة الخالق و يدعوه، و يطهّر نفسه من الذنوب، و يرتبط بالحقّ المطلق، نعم .. فإنّ الصلاة لها كلّ هذه الآثار و البركات.

ثمّ يبيّن الصفة السّابعة لدعاة الحقّ حيث يقول تعالى: وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً.

و هذه الآية ليست الوحيدة التى تشير الى مسألة الإنفاق او الزكاة بعد ذكر الصلاة، فكثير من الآيات تشير الى هذا الترادف، فواحدة تحكم الصلة بين العبد و ربّه و الثّانية بين العباد.

و الجملة مِمَّا رَزَقْناهُمْ تشمل كلّ العطايا من الأموال و العلوم و القوّة و الجاه، و الإنفاق كذلك يشمل جميع هذه الابعاد. و العبارة سِرًّا وَ عَلانِيَةً اشارة اخرى الى هذه الحقيقة و هى انّ إنفاقهم يتمّ بشكل مدروس، فتارة يكون سرّا و يترتّب عليه اثر كبير، و ذلك فى الحالات التى توجب ان يحفظ فيها ماء الوجه للطرف الآخر او تصون الطرف المنفق من الرياء، و مرّة يكون الإنفاق العلنى اكثر تأثيرا و ذلك فى الحالات التى تدعو الآخرين لكى يتأسّوا بهذا العمل الخيّر و يقتدوا به، فيكون سببا لكثير من اعمال الخير.

و من هنا يتّضح انّ القرآن الكريم يدقّق فى اعمال الخير بشكل كبير، ليس فقط فى اصل العمل، بل حتّى فى كيفيّة تنفيذه.

الصفة الثّامنة و الاخيرة هى قوله تعالى: وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۲

و معنی هـذه العبارة انّهم لم یکتفوا بالتوبـة و الاسـتغفار فقط عند ارتکابهم الذنوب، بل یدفعونها کذلک بالحسـنات علی مقدار تلک الذنوب، حتّی یطهّروا أنفسهم و المجتمع بماء الحسنات.

«یدرءون» مضارع «درأ» علی وزن «زرع» بمعنی دفع.

و یحتمـل فی تفسـیر الآیـة انّهم لاـ یقـابلون السـیء بالسـیء، بـل یسـعون من خلال إحسانهم للمسـیئین ان یجعلوهم یعیـدون النظر فی مواقفهم، کما نقرا فی الآیة (۳۴) من سورة فصلت قوله تعالی: ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ

و فی نفس الوقت لیس هناک مانع من انّ الآیة تشیر الی هذین المعنیین، کما اشارت إلیها الأحادیث الاسلامیة.

ففی الحدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لمعاذ بن جبل: «إذا عملت سیّئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها»[۲۰۷].

و

عن الامام علی علیه السّلام قال «عاتب أخاک بالإحسان الیه و اردد شرّه بالانعام علیه»[۲۰۸].

و لا بـدّ هنا من الالتفات الی هذه النقطة، و هی انّ هذه الأحکام أخلاقیة تخصّ الحالات التی یحصل فیها تأثیر علی الآخرین، و هناک قوانین و احکام جزائیة واردة فی التشریع الاسلامی لمعاقبة المسیئین.

و بعد ما ذکر القرآن الکریم الصفات الثمانیة لاولی الألباب، أشار فی نهایة الآیة الی عاقبة أمرهم حیث یقول تعالی: أُولئِکَ لَهُمْ عُقْبَی الدَّارِ[۲۰۹].

الآیة الاخری توضّح هذه العاقبة جَنَّاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّیَّاتِهِمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۳

و الشـیء الذی یکمل هذه النعم الکبیرة و اللامتناهیة وَ الْمَلائِکَةُ یَدْخُلُونَ عَلَیْهِمْ مِنْ کُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَیْکُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَی الدَّارِ فهـذه السـلامة جاءت بعـد ما صبرتم علی الشدائـد و تحمّلتم المسؤولیات الجسام و المصائب، و لکم هنا کامل الطمأنینة و الامان، فلا حرب و لا نزاع، و کلّ شیء یبتسم لکم، و الراحة الخالیة من المتاعب- هنا- معدّة لکم.

بحوث

۱- لماذا ذکر الصبر فقط

؟ جملـة سَلامٌ عَلَیْکُمْ بِما صَبَرْتُمْ تشـیر الی مسألة الصبر فقط، فی الوقت الذی نری فیه الآیات السابقة اشارت الی ثمانیة صـفات لاولی الألباب، فما هو السرّ فی ذلک؟

للاجابة علی هذا الاستفهام نورد ما

جاء عن الامام علی علیه السّلام فی حـدیث قیّم و ذی مغزی کبیر، حیث قال: «انّ الصبر من الایمان کالرأس من الجسـد، و لا خیر فی جسد لا راس معه، و لا فی ایمان لا صبر معه».

فی الحقیقة انّ کلّ الأفعال الحیّة و الصـفات الحمیدة للافراد و المجتمعات تسـتند الی الصبر و الاستقامة، و بدونها لا یمکن ان نحصل علی ای شـیء من هـذه الصـفات، لاـنّ فی مسیرة عمل الخیر عقبات و موانع لا یمکن ان ننتصـر علیها الّا بالاسـتقامة، فلا الوفاء بالعهد یمکن تنفیـذه بـدون الصبر و الاسـتقامة و لاـ الصـلات الالهیّـة، و لا الخوف من اللّه، و لا اقامـة الصـلاة و لا الإنفاق یمکن بلوغها بغیر الصبر و الاستقامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۴

۲- أبواب الجنّة

يستفاد من آيات القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة انّ للجنّة عدّة أبواب، و لكن هذا التعدّد للأبواب ليس لكثرة الداخلين الى الجنّة فيضيق عليهم الباب الواحد، و ليس كذلك للتفاوت الطبقى حتّى تدخل كلّ مجموعة من باب، و لا لبعد المسافة او قربها، و لا لجمال الأبواب و كثرتها، فأبواب الجنّة ليست كأبواب القصور و البساتين فى الدنيا، بل تعدّدت هذه الأبواب بسبب الأعمال المختلفة للافراد.
و لذا نقرا فى بعض الاخبار انّ للأبواب اسماء مختلفة، فهناك باب يسمّى باب المجاهدين، و المجاهدون يدخلون بسلاحهم من ذلك الباب الى الجنّة، و الملائكة تحييهم ۲۱۰]! و
روى عن الامام الباقر عليه السّلام «و اعلموا انّ للجنّة ثمانية أبواب، عرض كلّ باب مسيرة أربعين سنة»[۲۱۱].
و من الظريف انّ القرآن الكريم يذكر لجهنّم سبعة أبواب لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ ۲۱۲] و طبقا للرّوايات فإنّ للجنّة ثمانية أبواب، و هذه اشارة واضحة الى انّ طرق الوصول الى السعادة و جنّة الخلد اكثر من طرق الوصول الى الشقاء و الجحيم. و رحمة اللّه سبقت غضبه «يا من سبقت رحمته غضبه».
و من الطف ما فى الأمر انّ الآيات السابقة اشارت الى ثمان صفات من صفات اولى الألباب، و كلّ واحدة منها- فى الواقع- هى باب من أبواب الجنّة و طريق للوصول الى السعادة الابدية.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۵

۳- يلحق بأهل الجنّة اقرباؤهم

الآية أعلاه و آيات اخرى من القرآن الكريم تصرّح انّ من بين اهل الجنّة آباؤهم و أزواجهم و أبناؤهم الصالحون، و هذا انّما هو لإتمام النعمة عليهم، و كى لا يشعروا بفراق احبّائهم، و بما انّ تلك الدار متكاملة و كلّ شىء يتجدّد فيها، فإنّ أصحابها يدخلون فيها بوجوه جديدة و اكثر محبّة و الفة. المحبّة التى تضاعف من نعم الجنّة لهم.
لا شكّ انّ الآية أعلاه اشارت الى الآباء و الأزواج و الأبناء، و لكن فى الواقع كلّ الأقرباء سيجتمعون هناك، لانّه من غير الممكن وجود الأبناء و الآباء بدون إخوانهم و أخواتهم .. و حتّى جميع اقربائهم، فالأب الصالح يلحق به ابناؤه و اخوته، و على هذا الأساس يكون حضور الأقرباء معهم بشكل طبيعى.

۴- ما هى جنّات عدن

؟ «العدن» الاستقرار، و هنا جاءت الكلمة بمعنى الخلود، و منه المعدن لمستقرّ العناصر الفلزية. و يستفاد من مختلف آيات القرآن انّ الجنّة دار خلود لأهلها، و لكن- كما قلنا فى ذيل الآية (۷۲) من سورة التوبة- جنّات عدن هى محلّ خاص فى الجنّة، و لها صفات و منازل عالية، و لا يدخلها الّا ثلاثة: الأنبياء و الصدّيقون و الشهداء[۲۱۳].

۵- التطهير من آثار الذنوب

ممّا لا شكّ فيه انّ الحسنات و السيئات لها اثر متقابل فى النفس و نحن نرى فى حياتنا اليوميّة كثيرا من النماذج بخصوص هذا

الموضوع، فمرّة یتحمّل الإنسان مشاق سنین کثیرة و یسعی للحصول علی الثروة، و لکن یفقدها بعمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۶

بسیط ناتج عن اللامبالاة، او لیس هذا احباطا للحسنات المادیة. و مرّة اخری علی العکس حیث یرتکب الإنسان کثیرا من الاخطاء فی حیاته و یتحمّل الخسارة الکبیرة، و لکن یسترجعها من خلال عمل شجاع و محسوب.

و الآیة وَ یَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ اشارة الی هذا الموضوع، لانّ الإنسان غیر معصوم، و هو معرّض للخطأ و المعصیة، فعلیه ان یفکّر بإصلاح ما فسد، فأعمال الخیر لا- تمحو الآثار الاجتماعیة للذنوب، بل کذلک تمحو من قلبه الظلمة و تعیده الی النّور و الصفاء الفطری. و هذه الحالة تسمّی فی القرآن الکریم ب «التکفیر» (کما تقدّم فی ذیل الآیة ۲۱۷ من تفسیر سورة البقرة إشارات کثیرة فی هذا المجال).

و لکن کما قلنا- فی تفسیر الآیة أعلاه- یمکن ان تکون اشارة الی الفضیلة الاخلاقیة لاولی الألباب، و ذلک انّهم لا یواجهون السیّئة بالسیّئة، بل العکس یقابلون الانتقام بالإحسان و السیّئة بالحسنة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۷

الآیتان [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۲۵ الی ۲۶]

اشارة

وَ الَّذِینَ یَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِیثاقِهِ وَ یَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ یُوصَلَ وَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ أُولئِکَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۲۵) اللَّهُ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَیاةِ الدُّنْیا وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا فِی الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ (۲۶)

التّفسیر

المفسدون فی الأرض

! بعد ما ذکرت الآیات السابقة صفات اولی الألباب و دعاة الحقّ، اشارت هذه الآیات الی قسم من الصفات الاصلیّة للمفسدین الذین فقدوا حظّهم من العلم و المعرفة حیث یقول جلّ و علا: وَ الَّذِینَ یَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِیثاقِهِ وَ یَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ یُوصَلَ وَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ أُولئِکَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.

فی الحقیقة یتلخّص فساد عقیدتهم فی الجمل الثلاث الآتیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۸

۱- نقض العهود الالهیّة: و تشمل المواثیق الفطریة و العقلیّة و التشریعیّة.

۲- قطع الصلات: و تشمل الصلة مع اللّه و الرسل و الناس و مع أنفسهم.

۳- الإفساد فی الأرض: و هو نتیجة حتمیة لنقض العهود و قطع الصلات.

او لیس المفسد هو الذی ینقض عهد اللّه و یقطع الصلات؟! فهذا السعی من قبل هذه المجموعة من الافراد بهدف الوصول الی الأغراض المادّیة، و عوضا ان تصل بهم هذه الجهود المبذولة الی الاهداف النّبیلة تبعدهم عنها، لانّ اللعن هو عبارة عن الابتعاد من رحمة اللّه ۲۱۴].

و من الظریف انّ الدار هنا و فی الآیة السابقة جاءت بصیغة مطلقة، و هذه اشارة الی انّ الدار الحقیقیّة هی الدار الآخرة، و ای دار ما

عداها فانية و زائلة.

قوله تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ و هذه اشارة لأولئك الذين يسعون للحصول على دخل اكثر فهم يفسدون فى الأرض و ينقضون عهـد اللّه و يقطعون ما امر اللّه به ان يوصل لكى يزيـدوا من دخلهم المادّى، و هم غافلون عن هـذه الحقيقة و هى انّ الرزق- فى زيادته و نقصه- بيد اللّه سبحانه و تعالى.

و بالاضافة الى ذلك يمكن ان تكون هذه الجملة جوابا على سؤال مقدّر، و هو: كيف انّ اللّه سـبحانه و تعالى يرزق كلّ هؤلاء الناس الصالح منهم و الطالح من فيض كرمه.

و الآيـة تجيب على هذا السؤال و تقول: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ و مع ذلك فهو متاع قليل و زائل، و ما ينبغى السـعى اليه هو الآخرة و السعادة الابديّة.

و على ايّة حال فإنّ المشـيئة الالهيّـة فى مجال الرزق هى انّ اللّه سـبحانه و تعالى لا يبسط الرزق لأحـد بـدون الاسـتفادة من الأسـباب الطبيعيّة له «ابى اللّه ان يجرى الأمور الّا بأسبابها».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۹

ثمّ تضيف الآية وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ

و قد ذكر «متاع» بصيغة النكرة لبيان تفاهة الدنيا بالمقارنة مع الآخرة.

بحثان

۱- من هو المفسد فى الأرض

؟ الفساد يقابله الإصـلاح، و يطلق على كلّ عمل تخريبى، و يقول الراغب فى مفرداته: «الفساد خروج الشىء عن الاعتدال قليلا كان او كثيرا، و يضادّه الصـلاح، و يسـتعمل ذلك فى النفس و البـدن و الأشـياء الخارجة عن الاسـتقامة» و على ذلك فكلّ عمل فيه نقص، و كـلّ افراط و تفريـط فى المسائل الفرديـة و الاجتماعيـة هو مصـداق للفساد! و فى كثير من موارد القرآن الكريم ذكر الفساد فى مقابل الإصلاح الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ ۲۱۵]، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ [۲۱۶] و قوله تعالى: وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۲۱۷].

كما ذكر الايمان و العمل الصالـح فى مقابل الفساد، و حيث يقول جلّ و علا أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ [۲۱۸] و من جانب آخر ذكر الفساد، مع كلمـة «فى الأرض» فى كثير من آيات القرآن الكريم نحو عشـرين آيـة و نيّف، و هى توضّح الجوانب الاجتماعية للمسألة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۰

و من جانب ثالث ذكر الفساد و الإفساد مع ذنوب اخرى، و يحتمل ان يكون مصـداقا لها، و بعض هـذه الـذنوب كـبيرة و بعضـها الآخر أصغر فمثلا قوله تعالى:

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً،[۲۱۹] و قوله تعالى وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ[۲۲۰] النَّسْلَ و قوله تعالى: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ [۲۲۱] و قوله تعالى: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً.[۲۲۲] و مرّة يعتبر فرعون من المفسدين، و أثناء توبته عند غرقه فى النيل يقول:

آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [۲۲۳] و قد استعمل «الفساد فى الأرض» تعبيرا عن السرقة كما فى قصّة يوسف عليه السّلام تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كُنَّا سارِقِينَ [۲۲۴] و مرّة اخرى كناية عن قلّة البيع، كما فى قصّة شعيب حيث نقرا قوله تعالى:

وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [۲۲۵] و أخيرا استخدم القرآن الكريم الفساد فى التعبير عن اضطراب النظام الكونى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا.[۲۲۶] نستفيد من مجموع هذه الآيات انّ الفساد- بشكل عام- او الفساد فى الأرض، له معنى واسع جدّا، بحيث يشمل اكبر الجرائم مثل جرائم فرعون و سائر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۱

الطواغيت، كما يشمل الأعمال الأقل اجراما منها مثل بخس الناس أشياءهم، و يشمل كذلك اى خروج عن حالة الاعتدال كما أشرنا اليه سابقا. و بالنظر الى انّ العقوبة يجب ان تكون مطابقة للجريمة يتّضح لنا انّ كلّ مجموعة من هؤلاء المفسدين لها عقوبة معيّنة و جزاء خاص.

و نرى فى الآية (۳۳) من سورة المائدة التى ذكرت «الفساد فى الأرض مع محاربة اللّه و رسوله» انّ هناك اربع عقوبات و يجب على الحاكم الشرعى ان يختار العقوبة المناسبة على مقدار الجريمة (القتل- الصلب- قطع الايدى و الأرجل- النفى) كما بيّن فقهاؤنا فى كتبهم شروط و حدود المفسد فى الأرض و عقوباته [۲۲۷].

و لأجل ان نجتثّ هذه المفاسد، يجب ان نستخدم الوسائل الكافية فى كلّ مرحلة من مراحلها، ففى المرحلة الاولى نستخدم أسلوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر عن طريق النصائح و التذكير، و لكن إذا ما استوجب الأمر نستعمل الشدّة حتّى لو ادّى ذلك الى القتال.

و بالاضافة الى ما أشرنا اليه، فإنّ الجملة وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ترشدنا الى هذه الحقيقة فى حياة المجتمع الانسانى، و هى انّ الفساد الاجتماعى لا يبقى فى مكان معيّن و لا يمكن حصره فى منطقة معيّنة، بل ينتشر بين اوساط المجتمع و فى كافّة بقاع الأرض و يسرى من مجموعة الى اخرى.

و يستفاد من الآيات القرآنية انّ واحدة من اهداف بعثة الأنبياء هو إنهاء حالة الفساد فى الأرض (فى معناه الواسع) كما نقرا فى سورة هود الآية (۸۸) قول النّبى شعيب عليه السّلام إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۲

۲- الرزق بيد اللّه سبحانه و تعالى و لكن ...

! لا نستفيد من الآية أعلاه فقط أنّ الرزق فى زيادته و نقصانه بيد اللّه، بل نستفيد من آيات أخر انّ اللّه سبحانه و تعالى يبسط الرزق لمن يشاء و ينقصه لمن يشاء، و لكن ليس كما يعتقده بعض الجهلاء من عدم الكسب و الجلوس فى زاوية البيت حتّى يبعث اللّه لهم الرزق، ان هؤلاء الافراد- الذين يعتبر تفكيرهم السلبى ذريعة لمن يقول بأنّ الدين افيون الشعوب- قد غفلوا عن نقطتين اساسيتين هما: اوّلاـ انّ الارادة و المشيئة الالهيّة التى اشارت إليها الآيات القرآنية ليست مسألة اعتباطية و غير محسوبة، بل- و كما قلنا سابقا- انّ المشيئة الالهيّة غير منفصلة عن حكمته جلّ و علا و تدخل فيها الاستعدادات و التوفيقات.

ثانيا: انّ هذه المسألة لا تعنى نفى الأسباب، لانّ عالم الأسباب هو عالم الوجود، و هذه العوالم وجدت بإرادة اللّه و هى غير منفصلة عن المشيئة التشريعيّة.

و بعبارة اخرى: انّ ارادة اللّه فى مجال بسط الرزق نقصه مشروطة بشرائط تتحكّم فى حياة الناس، فالسعى و الإخلاص و الإيثار، و

بعكس ذلك الكسل و البخل و سوء النيّة، لها دور فعّال و كبير، و لهذا السبب نرى القرآن الكريم يشير مرارا الى انّ الإنسان رهين بسعيه و ارادته و عمله، و ما يستفيده من حياته انّما هو بمقدار هذا السعى و الاجتهاد لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى

و لهذا فإنّ هناك بابا فى السعى لتحصيل الرزق يذكره المحدّثون فى موسوعاتهم الحديثة «كوسائل الشيعة» فى باب التجارة، و يوردون أحاديث كثيرة فى هذا المجال، كما انّ هناك أبوابا اخرى تذمّ البطالة و الكسل، و من جملتها

الحديث المروىّ عن الامام على عليه السّلام حيث يقول: «انّ الأشياء لمّا ازدوجت ازدوج الكسل و العجز فنتجا بينهما الفقر»[۲۲۸].

و

عن الامام الصادق عليه السّلام «لا تكسلوا فى طلب معايشكم فإنّ آباءنا كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۳

يركضون فيها و يطلبونها»[۲۲۹].

و

عن الامام الباقر عليه السّلام قال: «انّى لأبغض الرجل ان يكون كسلانا عن امر دنياه، و من كسل عن امر دنياه فهو عن امر آخرته أكسل»[۲۳۰].

و

عن الامام موسى بن جعفر عليه السّلام «انّ اللّه تعالى ليبغض العبد النوّام، انّ اللّه ليبغض العبد الفارغ»[۲۳۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۴

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۲۷ الى ۲۹]

اشارة

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (۲۷) الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (۲۸) الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (۲۹)

التّفسير

الا بذكر اللّه تطمئنّ القلوب:

فى سورة الرعد- كما أشرنا سابقا- بحوث كثيرة حول التوحيد و المعاد و النبوّة، فالآية الاولى من هذه المجموعة تبحث مرّة اخرى فى دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تبيّن واحدا من اعذار المشركين المعاندين حيث يقول تعالى:

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

جملة «يقول» فعل مضارع للدلالة على انّ هذا العذر كان يجرى على ألسنتهم كثيرا، رغم ما يرونه من معجزات الرّسول (فعلى كلّ نبى ان يظهر المعجزة كدليل على صدقه) و مع ذلك كانوا يحتجّون عليه و لا يؤمنون بالمعاجز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۵

السابقة، و يطلبون منه معاجز جديدة تلائم افكارهم.

و بعبارة اخرى إنّ هؤلاء و جميع المنكرين لدعوة الحقّ كانوا دائما يطلبون «المعاجز الاقتراحية»، و يتوقّعون من النّبى ان يجلس فى زاوية الدار و يظهر لكلّ واحد منهم المعجزة التى يقترحها، فإن لم تعجبهم لم يؤمنوا بها!.

فى الوقت الذى نرى فيه انّ الوظيفة الرئيسيّة للأنبياء هى التبليغ و الإرشاد و الإنذار و هداية الناس، و امّا المعجزة فهى امر استثنائى و تكون بأمر من اللّه لا من الرّسول، و لكن نحن نقرا فى كثير من الآيات القرآنية انّ هذه المجموعة المعاندة لا تأخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار، و كانت تؤذى الأنبياء دائما بهذه الطلبات.

و يجيبهم القرآن الكريم حيث يقول: قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ

و هذه اشارة الى انّ العيب ليس من ناحية الاعجاز، لانّ الأنبياء قد أظهروا كثيرا من المعاجز، و لكن النقص من داخل أنفسهم. و هو العناد و التعصّب و الجهل و الذنوب التى تصدّ عن الايمان.

و لأجل ذلك يجب ان ترجعوا الى اللّه و تنيبوا اليه و ترفعوا عن عيونكم و افكاركم ستار الجهل و الغرور كى يتّضح لكم نور الحقّ المبين.

تشير الآية الثانية بشكل رائع الى تفسير مَنْ أَنابَ حيث يقول تعالى:

الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ثمّ يذكر القاعدة العامّة و الأصل الثابت حيث يقول تعالى: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

و تبحث الآية الاخيرة مصير الذين آمنوا حيث تقول: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ

كثير من المفسّرين قالوا: انّ كلمة «طوبى» مؤنّث «أطيب»، و بما انّ المتعلّق محذوف فإنّ للكلمة مفهوما واسعا و غير محدود، و نتيجة طوبى لهم هو ان تكون لهم أفضل الأشياء: أفضل الحياة و المعيشة، و أفضل النعم و الراحة، و أفضل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۶

الألطاف الالهيّة، و كلّ ذلك نتيجة الايمان و العمل الصالح لأولئك الراسخين فى عقيدتهم و المخلصين فى عملهم.

و ما ذكره جمع من المفسّرين فى معنى هذه الكلمة و أوصلها صاحب مجمع البيان الى عشرة معانى، فانّها فى الحقيقة تصبّ كلّها فى هذا المعنى الواسع و الشامل الذى ذكرناه.

و نقرا فى روايات متعدّدة انّ «طوبى» شجرة أصلها فى بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم او الامام على عليه السّلام فى الجنّة، و تنتشر أغصانها على رؤوس جميع المؤمنين و على دورهم، و لعلّ هذا تجسيما لقيادتهم و إمامتهم و الصلات القويّة التى تربط بين هؤلاء القادة و أصحابهم، و تكون ثمرتها كلّ هذه النعم المختلفة.

(و إذا ما رأينا انّ طوبى جاءت مؤنّثة لاطيب الذى هو مذكّر، فإنّ ذلك بسبب انّها صفة للحياة و المعيشة او النعمة و كلّ هذه مؤنثة).

بحوث

۱- كيف يطمئن القلب بذكر اللّه

؟ انّ الاضطراب و القلق من اكبر المصاعب فى حياة الناس، و النتائج الحاصلة منهما فى حياة الفرد و المجتمع واضحة للعيان، و الاطمئنان واحد من اهمّ اهتمامات البشر، و إذا حاولنا ان نجمع سعى و جهاد الانسانية على طول التاريخ فى بحثهم للحصول على الاطمئنان بالطرق الصحيحة غير الصحيحة، فسوف تتكوّن لدينا كتب كثيرة و مختلفة تعرض تلك الجهود.

يقول بعض العلماء: عند ظهور بعض الأمراض المعدية- كالطاعون- فإنّ من بين العشرة الافراد الذين يموتون بسبب المرض- ظاهرا- أكثرهم يموت بسبب القلق و الخوف، و عدّة قليلة منهم تموت بسبب المرض حقيقة. و بشكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۷

عام «الاطمئنان» و «الاضطراب» لهما دور مهمّ فى سلامة و مرض الفرد و المجتمع و سعادة و شقاء الانسانية، و هذه مسألة لا يمكن التغافل عنها، و لهذا السبب الّفت كتب كثيرة فى موضوع القلق و طرق التخلّص منه، و كيفيّة الحصول على الراحة، و التاريخ الانسانى ملىء بالمواقف مؤسفة لتحصيل الراحة، و كيف انّ الإنسان يتشبّث بكلّ وسيلة غير مشروعة كأنواع الاعتياد على المواد المخدّرة لنيل الاطمئنان النفسى.

و لكن القرآن الكريم يبيّن اقصر الطرق من خلال جملة قصيرة و لكنّها كبيرة المعنى حيث يقول: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و لتوضيح هذا المعنى و معرفة عوامل القلق و الاضطراب لا بدّ من ملاحظة ما يلى:

اوّلا: يحدث الاضطراب مرّة بسبب ما يجول فى فكر الإنسان عن المستقبل المظلم، فيحتمل زوال النعمة، او الأسر على يد الأعداء، او الضعف و المرض، فكلّ هذه تؤلم الإنسان، لكن الايمان باللّه القادر المتعال الرحمن الرحيم، اللّه الذى تكفّل برحمة عباده .. هذا الايمان يستطيع ان يمحو آثار القلق و الاضطراب و يمنحه الاطمئنان فى مقابل هذه الاحداث و يؤكّد له انّك لست وحيدا، بل لك ربّ قادر رحيم.

ثانيا: و مرّة يشغل فكر الإنسان ماضيه الأسود فيمسى قلقا بسبب الذنوب التى ارتكبها و بسبب التقصير و الزلّات، و لكن بالنظر الى انّ اللّه غفّار الذنوب و قابل التوبة و غفور رحيم، فإنّ هذه الصفات تمنح الإنسان الثقة و تجعله اكثر اطمئنانا و تقول له: اعتذر الى اللّه من سوالف أعمالك السيّئة و اتّجه اليه بالنيّة الصادقة.

ثالثا: ضعف الإنسان فى مقابل العوامل الطبيعيّة، او مقابل كثرة الأعداء يؤكّد فى نفسه حالة القلق و انّه كيف يمكن مواجهة هؤلاء القوم فى ساحة الجهاد او فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۸

الميادين الاخرى؟

و لكنّه إذا تذكّر اللّه، و استند الى قدرته و رحمته .. هذه القدرة المطلقة التى لا يمكن ان تقف امامها ايّة قدرة اخرى، سوف يطمئنّ قلبه، و يقول فى نفسه: نعم انّنى لست وحيدا، بل فى ظلّ القدرة الالهيّة المطلقة! فالمواقف البطولية للمجاهدين فى ساحات القتال، فى الماضى او الحاضر، و شجاعتهم النادرة حتّى فى المنازلة الفردية لهم، كلّها تبيّن حالة الاطمئنان التى تنشأ فى ظلّ الايمان.

نحن نشاهد او نسمع انّ احد الضبّاط المؤمنين فقد بصره مثلا او اصابته جراحات كثيرة بعد قتال شديد مع اعداء الإسلام و لكن عند ما يتحدّث كأنّه لم يكن به شىء، و هذه نتيجة الاستقرار و الطمأنينة فى ظلّ الايمان باللّه.

رابعا: و من جانب آخر يمكن ان يكون اصل المشقّة هى التى تؤذى الإنسان، كالاحساس بتفاهة الحياة او اللاهدفية فى الحياة، و لكن المؤمن باللّه الذى يعتقد انّ الهدف من الحياة هو السير نحو التكامل المعنوى و المادّى، و يرى انّ كلّ الحوادث تصبّ فى هذا الإطار، سوف لا يحسّ باللاهدفيّة و لا يضطرب فى المسيرة.

خامسا: و من العوامل الاخرى انّ الإنسان مرّة يتحمّل كثيرا من المتاعب للوصول الى الهدف، و لكن لا يرى من يقيّم اعماله و يشكر له هذا السعى، و هذه العملية تؤلمه كثيرا فيعيش حالة من الاضطراب و القلق، و امّا إذا علم انّ هناك من يعلم بهذا السعى و يشكره عليه و يثيبه، فليس للاضطراب و القلق هنا محل من الاعراب.

سادسا: سوء الظنّ عامل آخر من عوامل الاضطراب و الذى يصبّ كثيرا من الناس فى حياتهم و يبعث فيهم الألم و الهمّ، و لكنّ الايمان باللّه و لطفه المطلق و حسن الظنّ به التى هى من وظائف الفرد المؤمن سوف تزيل عنه حالة العذاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۹

و القلق و تحلّ محلّها حالة الاطمئنان و الاستقرار.

سابعا: الهوى و حبّ الـدنيا من اهمّ عوامل القلق و الاضـطراب، و قد تصل الحالة فى عدم الحصول على لون خاص فى الملبس، او اى شيء آخر من مظاهر الحياة البرّاقة ان يعيش الإنسان حالة من القلق قد تستمر ايّاما و شهورا.

و لكن الايمـان بـاللّه و التزام المؤمن بالزهـد و الاقتصـاد و عـدم الاستئسـار فى مخـالب الحيـاة الماديـة و مظاهرهـا البرّاقـة ينهى حـالة الاضطراب هذه، و كما

قال الامام على عليه السّلام: «دنياكم هذه أهون عندى من ورقة فى فمّ جرادة تقضمها»

فمن كانت له مثل هـذه الرؤيـة كيف يمكن ان تحـدث عنـده حالـة الخوف و القلق نتيجـة لعدم الحصول على شـيء من وسائل الحياة الماديّـة او فقـدانها؟! ثامنـا: من العوامل المهمّـة الاخرى الخوف من الموت، و بما انّ الموت لا يحصل فقط فى السنّ المتأخّرة، بل فى كافّة السـنين و خصوصا أثناء المرض و الحروب، و العوامل الاخرى فالقلق يسـتوعب كافّة الافراد. و لكن إذا اعتقدنا انّ الموت يعنى الفناء و نهاية كلّ شـيء (كما يعتقده الماديّون) فإنّ الاضطراب و القلق فى محلّه، و لا بدّ ان يخاف الإنسان من هذا الموت الذى ينهى عنـده كـلّ الآمال و الامانى و الطموحات. و لكن الايمان باللّه يمنحنا الثقـة بأنّ الموت هو باب لحياة أوسع و أفضل من هـذه الحياة، و برزخ يمرّ منه الإنسان الى دار فضاؤها رحب، فلا معنى للقلق حينئـذ، بل انّ مثل هـذا الموت- إذا ما كان فى سبيل اللّه يكون محبوبا و مطلوبا.

انّ عوامل الاضطراب لا تنحصر بهذه العوامل، فهناك عوامل كثيرة اخرى، و لكن كلّ مصادرها تعود الى ما ذكرناه أعلاه.

و عند ما رأينا انّ كلّ هذه العوامل تذوب و تضمحلّ فى مقابل الايمان باللّه سوف نصدّق انّه أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۲۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۰

۲- الطمأنينة و الخوف من اللّه

طرح بعض المفسّـرين هنا هذا السؤال، و خلاصـته: نحن قرانا فى الآية أعلاه أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و من جانب آخر فإنّ الآية ۲ من سورة الأنفال تقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ فهل انّ هاتين الآيتين متناقضتين؟

الجواب: انّ الطمأنينـة المحمودة هى مـا كانت فى مقابل العوامل الماديـة التى تقلق الإنسان- كما أشـرنا اليه سابقا- و لكن المؤمنين لا بدّ و ان يكونوا قلقين فى مقابل مسـئولياتهم، و بعبارة اخرى: انّ المؤمنين لا يشـكون من الاضطراب المدمّر الذى يشكّل غالبية أشكال القلق و الاضـطرابات، و لكن القلق البنّاء الـذى يحسّ به الإنسان تجاه مسـئولياته امام اللّه فهو المطلوب و لا بـدّ منه، و هـذا هو الخوف من اللّه ۲۳۳].

۳- ما هو ذكر اللّه، و كيف يتمّ

؟ «الـذكر» كمـا يقول الراغب فى مفرداته: حفـظ المعانى و العلوم، و يستعمل الحفظ للبـدء به، بينما الـذكر للاسـتمرار فيه، و يأتى فى معنى آخر هو ذكر الشـيء باللسان او القلب، لـذلك قالوا: انّ الذكر نوعين «ذكر القلب» و «ذكر اللسان» و كلّ واحد منها على نوعين: بعد النسيان او بدونه.

و على ايّـة حـال ليس المقصود من الـذكر- فى الآيـة أعلاـه- هو ذكره باللسان فقط فنقوم بتسبيحه و تهليله و تكبيره، بل المقصود هو التوجّه القلبى له و ادراك علمه و بأنّه الحاضـر و الناظر، و هذا التوجّه هو مبدا الحركة و العمل و الجهاد و السعى نحو الخير، و هو سدّ منيع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذى له كلّ هذه الآثار و البركات كما اشارت اليه عدّة من الرّوايات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۱

فمن وصایا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للإمام علی علیه السّلام

یقول له: «یـا علی، ثلاث لا تطیقها هـذه الامّـهٔ: المواساهٔ للأخ فی ماله، و انصاف الناس من نفسه، و ذکر اللّه علی کلّ حال، و لیس هو سبحان اللّه و الحمد للّه و لا اله الّا اللّه و اللّه اکبر، و لکن إذا ورد علی ما یحرم علیه خاف اللّه عزّ و جلّ عنده و ترکه»[۲۳۴].

و

قال الامام علی علیه السّلام: «الذکر ذکران: ذکر اللّه عزّ و جلّ عند المصیبهٔ، و أفضل من ذلک ذکر اللّه عند ما حرّم اللّه علیک فیکون حاجزا»[۲۳۵].

و لهذا السبب اعتبرت بعض الرّوایات الذکر وقایهٔ و وسیلهٔ دفاعیهٔ، کما

ورد عن الامـام الصادق علیه السّـلام قال: «انّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم خاطب أصـحابه یوما فقال لهم: اتّخـذوا جننا، فقالوا یا رسول اللّه امن عدو و قد أظلنا؟ قال: لا، و لکن من النار، قولوا:

سبحان اللّه و الحمد للّه و لا اله الّا اللّه و اللّه اکبر»[۲۳۶].

و إذا ما رأینا انّ بعض الرّوایات تتحـدّث عن «ذکر اللّه» انّه رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فـذلک لانّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم یذکّر الناس باللّه تعالی، و

قـد روی عن الامـام الصـادق علیه السّـلام فی تفسیر الآیـهٔ أَلا بِـذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ قال: «بمحمّـد تطمئن القلوب و هو ذکر اللّه و حجابه».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۲

الآیات [سورهٔ الرعد (۱۳): الآیات ۳۰ الی ۳۲]

اشارهٔ

کَذلِکَ أَرْسَـلْناکَ فِی أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَیْهِمُ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ وَ هُمْ یَکْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّی لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ مَتابِ (۳۰) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنـاً سُـیِّرَتْ بِهِ الْجِبـالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتی بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِیعاً أَ فَلَمْ یَیْأَسِ الَّذِینَ آمَنُوا أَنْ لَوْ یَشاءُ اللَّهُ لَهَدَی النَّاسَ جَمِیعاً وَ لا یَزالُ الَّذِینَ کَفَرُوا تُصِـیبُهُمْ بِما صَـنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِیباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّی یَأْتِیَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا یُخْلِفُ الْمِیعادَ (۳۱) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ فَأَمْلَیْتُ لِلَّذِینَ کَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کانَ عِقابِ (۳۲)

اسباب النّزول

قال بعض المفسّرین: انّ الآیهٔ الاولی نزلت فی صلح الحدیبیّهٔ فی السنهٔ السادسهٔ للهجرهٔ، و ذلک عند ما أرادوا کتابهٔ معاهدهٔ الصلح، قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۳

علیه السّلام: «اکتب: بسم اللّه الرّحمن الرّحیم ...»

قال سهیل بن عمرو و معه المشرکون:

نحن لا نعرف الرّحمان! و انّما هناک رحمان واحد فی الیمامهٔ «و کان قصدهم مسیلمهٔ الکذّاب» بل اکتب «باسمک اللّهم» کما کانوا یکتبونه فی الجاهلیهٔ، ثمّ

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلى عليه السّلام: «اكتب: هذا ما اتّفق عليه محمّد رسول اللّه ...»

فقال المشركون: إذا كنت رسول اللّه فإنّه لظلم كبير ان نقاتلك و نمنعك من الحجّ، و لكن اكتب: هذا ما اتّفق عليه محمّد بن عبد اللّه! ...

و فى هذه الأثناء غضب صحابة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: دعنا نقاتل هؤلاء المشركين، و لكنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لا، اكتب كما يشاءون» و فى هذه الأثناء نزلت الآية أعلاه، و هى توبّخ المشركين على عنادهم و مخالفتهم فى اسم الرّحمن الذى هو واحد من صفات اللّه جلّ و علا.

هذا السبب فى النّزول يمكن ان يكون صحيحا فى حالة اعتقادنا بأنّ السورة مدنيّة حتّى توافق حادثة صلح الحديبيّة، و لكنّ المشهور انّها مكيّة. الّا إذا اعتبرنا انّ سبب النّزول هو ردّ على المشركين كما فى الآية (۶۰) من سورة الفرقان اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ و على ايّة حال، و بغضّ النظر عن سبب النزول، فإنّ الآية لها مفهوم واضح سوف نتطرّق اليه فى تفسيرنا لها.

و قال بعض المفسّرين فى سبب نزول الآية الثّانية: انّها جواب لمجموعة من مشركى مكّة، حيث كانوا جالسين خلف الكعبة و طلبوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فجاءهم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «على امل هدايتهم» قالوا: إذا كنت تحبّ ان نكون من أصحابك فأبعد هذه الجبال قليلا الى الوراء حتّى تتّسع لنا الأرض! و شقّ الأرض لكى تتفجّر العيون و الأنهار حتّى نغرس الأشجار و نقوم بالزراعة! الم تعتقد بأنّك لا تقلّ عن داود الذى سخّر اللّه له الجبال تسبح معه؟ او انّ تسخّر لنا الرّيح حتّى نسافر عليها الى الشام و نحلّ مشاكلنا التجارية و ما نحتاج اليه ثمّ نعود فى نفس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۴

ذلك اليوم! كما كانت مسخّرة لسليمان عليه السّلام، الم تعتقد انّك لا تقلّ عن سليمان، أو احيى لنا جدّك «قصى» او اى واحد من موتانا كى نسأله هل انّ ما تقوله حقّ ام باطل، او ليس عيسى كان يحيى الموتى! و فى هذه الأثناء نزلت الآية الثانية تذكرهم بأنّ كلّ ما يقولونه سببه الخصومة و العناد لا لكى يؤمنوا، و الّا فهناك معاجز كثيرة حصلت لهم.

التّفسير

لا امل فى ايمان اهل العناد:

تبحث هذه الآيات مرّة ثانية مسألة النّبوة، و الآيات أعلاه تكشف عن قسم آخر من جدال المشركين فى النبوّة و جواب القرآن عليهم فيقول الآية: كما انّنا أرسلنا رسلا الى الأقوام السالفة لهدايتهم: كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِی أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ و الهدف من ذلك لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ فى الوقت الذى وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ يكفرون باللّه الذى عمّت رحمته كلّ مكان، و شمل فيضه المؤمن و الكافر.

ثمّ قل لهم: انّ الرّحمن الذى عمّ فضله هو ربّى قُلْ هُوَ رَبِّی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتابِ

ثمّ يجيب أولئك الذين يتشبّثون دائما بالحجج الواهية فيقول: لو انّ الجبال تحرّكت من مكانها بواسطة القرآن: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى فمع ذلك لا يؤمنون به.

و لكنّ كلّ هذه الأفعال بيد اللّه و يفعل ما يريد متى يشاء بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً.

و لكنّكم لا تطلبون الحقّ، و إذا كنتم تطلبونه فهذا المقدار من المعجزة التى صدرت من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كاف لايمانكم.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۵

النَّاسَ جَمِيعاً[۲۳۷] و هـذه اشارهٔ الى انّ اللّه سبحانه و تعالى يستطيع ان يجبر الناس و حتّى المعانـدين على ان يؤمنوا، لانّه القادر على كـلّ شـىء، و لكنّه لاـ يفعل ذلك ابـدا، لانّ هـذا الايمان الاجبارى لا قيمـهٔ له و هو فاقـد للمعنى و التكامل الـذى يحتاجه الإنسان فى حياته.

ثمّ تضيف الآيـهٔ وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَهٌٔ و هـذه مصائب تنزل عليهم بشكل ابتلاءات مختلفهٔ او على شكل هجوم المسلمين عليهم. و هـذه المصائب انّ لم تنزل فى دارهم فهى أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ لكى يعتبروا بها و يرجعوا الى اللّه جلّ و علا.

و هذا الإنذار مستمر حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ

و هذا الوعد الأخير قد يشير الى الموت، او الى يوم القيامهٔ، او على قول البعض الى فتح مكّهٔ التى سحقت آخر معقل للعدو.

و على ايّهٔ حال فالوعد الالهى اكيد: إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ.

الآيهٔ الاخيرهٔ من هذه المجموعهٔ تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول له: لست الوحيد من بين الأنبياء تعرّض لطلب المعاجز الاقتراحيهٔ و الاستهزاء من الكفّار، بل وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ و لكن لم نعاقب هؤلاء الكفّار فورا، بل فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لكى يستيقظوا و يعودوا الى طريق الحقّ، او نلقى عليهم الحجّهٔ الكافيـهٔ على الأقـل. لاـنّ هؤلاـء إذا كـانوا مـذنبين فـإنّ لطف اللّه و كرمه و حكمته لا تتأثّر بأفعال هؤلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۶

و على ايّهٔ حال فهذا التأخير ليس بمعنى نسيان العقاب، بل ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ و هذا المصير ينتظر قومك المعاندين ايضا.

بحوث

۱- لماذا التركيز على كلمهٔ «الرّحمان»

؟ توضّح الآيهٔ أعلاه، و ما ذكرناه فى اسباب النّزول، انّ كفّار قريش لم يوافقوا على وصف اللّه بالرحمن، و بما انّ ذلك لم يكن سائدا لديهم، فانّهم كانوا يستهزئون به، فى الوقت الذى نرى فيه الآيات السابقهٔ تصـرّ و تؤكّد على ذلك، لانّ فى هذه الكلمهٔ لطفا خاصّا، و نحن نعلم انّ صفهٔ الرّحمانيهٔ تعمّ و تشمل المؤمن و الكافر، الصديق و العدو، فى الوقت نفسه فانّ صفهٔ الرّحيم خاصّهٔ بعباده المؤمنين. فكيف لا تؤمنون باللّه الذى هو اصل اللطف و الكرم حتّى شمل أعداءه بلطفه و رحمته، فهذا منتهى الجهل.

۲- لماذا لم يستجب النّبى لمطاليبهم

و مرّهٔ اخرى نواجه هنا ما يقوله البعض من انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم تكن لديه معجزهٔ غير القرآن الكريم، و يستندون فى ذلك الى الآيهٔ أعلاه و أمثالها، لانّ ظاهر هذه الآيات انّ النّبى لم يستجب الى طلبهم فى اظهار المعاجز المختلفهٔ من قبيل تسيير الجبال او شقّ الأرض و اظهار العيون و احياء الموتى و التكلّم معهم.

و لكن- كما قلنا مرارا- الاعجاز يتمّ لإظهار الحقيقهٔ فقط، و لأولئك الذين يطلبون الحقّ، فليس النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجل

سحر حتّی ینفّذ لهم کلّ ما یطلبونه منه او

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۷

یقترحونه علیه ثمّ بعد ذلک لا یقبلون منه.

إنّ مثل هـذا الطلب للمعاجز (المعاجز الاقتراحیـة) کان یصدر- فقط- من الافراد المعاندین و الجاهلیین الذین لم یستجیبوا لایّ حقّ. و الآیات أعلاه تشیر الی ذلک بوضوح، ففی الآیة الاخیرة تتحدّث عن استهزائهم بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هذا یعنی انّهم لم یطلبوا المعجزة من اجل الحقّ، بل کان طلبهم استهزاء بالرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و بالاضافة الی ما ذکرناه من اسباب النّزول فی بدایة التّفسیر لهذه الآیات، یمکن ان نستفید من خلال طلبهم من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم احیاء واحد من أجدادهم لکی یسألوه: هل انّ ما تقوله حقّ ام باطل؟

فلو استجاب لهم النّبی هذا الطلب فما معنی سؤالهم انّ النّبی علی حقّ ام باطل؟ و هذا یوضّح انّ هؤلاء هم افراد متعصّبون و معاندون و هدفهم لیس البحث عن الحقیقة، (و لنا توضیح آخر من هذا الموضوع فی ذیل الآیة ۹۰ من سورة الاسراء).

۳- ما هی القارعة

؟ «القارعة» مأخوذة من مادّة «قرع» بمعنی طرق، و علی ذلک تکون القارعة بمعنی الطارقة، و تشیر هنا الی الاحداث التی تقرع الإنسان و تنذره و إذا کان مستعدّا للنهوض أیقظته.

و فی الحقیقة انّ للقارعة معنی واسعا، فهی تشمل کلّ مصیبة و مشکلة و حادثة تحیط بالإنسان.

و لـذلک یعتقد بعض المفسّرین انّها تعنی الحروب و الجفاف و القتل و الأسـر، و یری آخرون انّها تشـیر الی الحروب التی کانت تقع فی صدر الإسلام تحت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۸

عنوان «السریة» التی لم یکن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یشترک فیهـا، بل کان یأمر أصـحابه بها، و لکن معنی القارعـة یشـمل جمیع هذه الاحداث.

و من الطریف انّ الآیات أعلاه تشـیر الی انّ الحوادث هـذه امّا ان تنزّل علیهم او تقع قریبا من دارهم، و هذا یعنی: إذا لم تصـیبهم هذه الحوادث فی دارهم، فانّها سوف تقع قریبة منهم، فهل لا تکفی هذه الحوادث لایقاظهم؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۹

الآیتان [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۳۳ الی ۳۴]

اشارة

أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلی کُلِّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَکاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا یَعْلَمُ فِی الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُیِّنَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مَکْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِیلِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۳) لَهُمْ عَذابٌ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (۳۴)

التّفسیر

اشارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‏۷ ؛ ص‏۴۱۹

كيف تجعلون الأصنام شركاء مع اللّه

؟! نعود مرّة اخرى فى هذه الآيات الى البحث حول التوحيد و الشرك، و هى تخاطب الناس من خلال دليل واضح حيث يقول تعالى: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ۲۳۸] و هذه الجملة تريد ان تقول بوضوح انّ اللّه سبحانه و تعالى و كأنّه واقف على راس كلّ شخص و يعلم بما يفعلونه و يجازى عليه و بيده تدبير الأمور، و لذلك فإنّ كلمة «قائم» لها معنى واسع يشمل كلّ هذه الأمور، مع انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۷، ص: ۴۲۰

مجموعة من المفسّرين يرى لها ابعادا خاصّة.

و لإتمام البحث السابق، و مقدّمة للبحث الآتى، يقول تعالى: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ.

ثمّ يجيبهم بلا فاصلة و بعدّة طرق:

يقول اوّلا: قُلْ سَمُّوهُمْ

و المقصود من تسميتهم هو امّا ان يكونوا ليست لهم ايّة قيمة بحيث لا تستطيعون تسميتهم، فكيف تجعلون هذه الموجودات التى لا تستحق حتّى الأسماء و التى لا قيمة لها، فى عداد الخالق القادر المتعال؟

او يكون المقصود: بيّنوا صفاتهم لكى نرى هل يستحقّون العبادة، فنحن نقول فى صفات اللّه جلّ و علا- بأنّه الخالق، و الرازق، و المحيى و العالم و القادر، فهل تستطيعون ان تمنحوا هذه الصفات للأصنام؟! او بالعكس إذا أردنا تسميتها نقول بأنّها أحجار و أخشاب ساكنة و فاقدة للعقل و الشعور، و محتاجة لمن يعبدها، و خلاصة القول انّها فاقدة لكلّ شى‏ء! فكيف نجعلها سواء مع اللّه؟ أ فلا تعقلون؟! او يكون المقصود: عدّوا لنا اعمالهم، فهل كشفوا الضرّ لأحد او منحوا الخير لأحد؟ و هل حلّوا العقد و المشاكل؟! و مع هذا الوضع فأى عقل يجيز لكم ان تجعلوهم قرناء مع اللّه جلّ و علا و هو مصدر الخير و البركة و النافع و الضارّ و المثيب و المعاقب!.

طبعا لا مانع من ان تجتمع كلّ هذه المعانى فى جملة سَمُّوهُمْ و يقول ثانيا: أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ

و هذا التعبير فى الحقيقة أفضل أسلوب للجواب على حديثهم الواهى، و كمثال على ذلك يقول لك احد الأشخاص: انّ فلانا كان ضيفا عندكم البارحة، فتقول له: هل تخبرنى عن ضيف لا علم لى به؟! يعنى هل من الممكن ان أحدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۷، ص: ۴۲۱

يكون ضيفى و لا اعلم به و أنت تعلم بذلك؟! ثالثا: حتّى أنتم فى الواقع لا تؤمنون بذلك فى قرارة أنفسكم، بل أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ

و لهذا السبب نرى المشركين عند ما تضيق بهم المشاكل الحياتية يلوذون باللّه، لانّهم يعلمون فى قلوبهم انّ الأصنام لا يمكن ان تعمل لهم شيئا، كما بيّن القرآن الكريم حالهم فى الآية (۶۵) من سورة العنكبوت حيث يقول تعالى: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ

رابعا: انّ المشركين ليس لهم ادراك صحيح، و بما انّهم تابعين لاهوائهم و تقليدهم الأعمى، فإنّهم غير قادرين على ان يقضوا بالحقّ و بشكل صحيح، و لهذا السبب ضلّوا الطريق، يقول تعالى: بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ

هادٍ.

و قد قلنا مرارا: انّ هذا الضلال لیس جبرا، و لا- هو اعتباطا و بدون حساب، بل الإضلال الالهی انعکاس لما یقوم به الإنسان من الأعمال السیّئة التی تجرّه الی الضیاع، و بما انّ هذه الخاصیّة قد جعلها اللّه سبحانه و تعالی لمثل هذه الأعمال فلذلک نسب هذا العمل الیه.

و یشیر القرآن الکریم فی الآیة الاخیرة من هذه المجموعة الی العقاب الألیم الذی یشملهم فی الدنیا و الآخرة، الشقاء و الهزیمة و الحرمان و غیرها، حیث تقول: لَهُمْ عَذابٌ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ لانّها دائمة و مستمرة، جسدیة و روحیة، و فیها انواع الآلام.

و إذا اعتقدوا بأنّ لهم طریقا للفرار او سبیلا للدفاع فی مقابل ذلک، فإنّهم فی اشتباه کبیر، لان وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۲

الآیة [سورة الرعد (۱۳): آیة ۳۵]

اشارة

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُکُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها تِلْکَ عُقْبَی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَی الْکافِرِینَ النَّارُ (۳۵)

التّفسیر

بالنظر الی تناوب آیات هذه السورة فی بیان التوحید و المعاد و سائر المعارف الاسلامیة الاخری، تحدّثت هذه الآیة مرّة اخری حول المعاد و خصوصا نعم الجنّة و عذاب الجحیم. یقول تعالی اوّلا: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ[۲۳۹].

قد یکون التعبیر ب «مثل» اشارة الی هذه النکتة، و هی انّ الجنّة و سائر النعم الاخرویة غیر قابلة للوصف بالنسبة الی الساکنین فی هذا العالم المحدود الذی هو فی مقابل عالم بعد الموت یعتبر صغیرا جدّا، و لذلک نستطیع ان نضرب لهم مثلا او صورة عن ذلک، کما انّ الجنین فی بطن امّه لو کان یعقل لا یمکن ان نصوّر له کلّ نعم الدنیا، الّا من خلال أمثال ناقصة و شاحبة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۳

الوصف الثّانی للجنّة هو أُکُلُها دائِمٌ

فهی لیست کفاکهة الدنیا فصلیة و تظهر فی وقت معیّن من السنة، بل فی بعض الأحیان و بسبب الآفات الزراعیة تنقطع تماما، لکن ثمار الجنّة لیست فصلیة و لا موسمیة و غیر مصابة بآفة، بل کإیمان المؤمنین المخلصین دائمة و ثابتة.

و کذلک وَ ظِلُّها لیس کظلّ أشجار الدنیا التی یظهر ظلّها إذا کانت الشمس افقیة و یزول او یقل إذا صارت عمودیة، او یظهر فی الربیع و الصیف عند ما تکون الأشجار مورقة، و یزول فی الخریف و الشتاء عند تساقط الأوراق، (بالطبع هناک أشجار قلیلة تعطی ثمارا و ازهارا علی مدار السنة، و هذه تکون فی المناطق المعتدلة التی لیس فیها شتاء).

الخلاصة: ظلال الجنّة کبقیّة النعم الاخری خالدة، و دائمة، و من هذا یتّضح ان لیس فی الجنّة فصل لتساقط الأوراق، و نعلم من ذلک- ایضا- انّ شعاع الشمس موجود فی الجنّة، و الّا کان التعبیر بالظل هناک بدون شعاع الشمس لیس له ای مفهوم، و امّا ما جاء فی الآیة (۱۳) من سورة الدهر لا یَرَوْنَ فِیها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِیراً قد تکون اشارة الی اعتدال الهواء، فلا الشمس محرقة و لا البرد قارس، و هذا لا یعنی ان لا تکون هناک شمس أصلا.

انّ انطفاء الشمس لیس دلیلا علی زوالها ابدا، لانّ القرآن الکریم یقول:

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ ۲۴۰] تكون أوسع و بهيئة جديدة.

و إذا قيل: ان كانت شمس الجنّة غير محرقة، فعلام الظلّ؟

نقول فى جوابهم: انّ الظلّ ليس مانعا لحرارة الشمس فقط، بل انّ الرطوبة المعتدلة الصادرة من الأوراق باتّحادها مع الاوكسجين تعطى نشاطا و لطافة خاصّة للظلّ، و لذلك كان ظلّ الأشجار مختلفا عن ظلّ السقوف الجافّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۴

و بعد بيان هذه الصفات الثلاث قال تعالى فى آخر الآية: تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ.

لقد بيّن و فصّل فى هذه العبارة نعم الجنّة، و لكن بالنسبة الى اصحاب النّار ذكر جملة قصيرة و بعنف حيث ذكر انّ عاقبة أمرهم الى النار!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۵

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۳۶]

اشارة

وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ (۳۶)

التّفسير

المؤمنون و الأحزاب

! اشارت هذه الآية الى ردّ الفعل المتفاوت للناس فى مقابل نزول الآيات القرآنية، فالأفراد الذين يبحثون عن الحقيقة يفرحون بما انزل على الرّسول، بينما المعاندون يخالفون ذلك.

يقول تعالى اوّلا: وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ

انّ الوصف ب آتَيْناهُمُ الْكِتابَ اشارة الى اليهود و النصارى و أمثالهم ممّن لهم كتاب سماوى و قد ذكرهم القرآن فى مواطن كثيرة، فكان الأشخاص الطالبون للحقّ من اليهود و النصارى و أمثالهم يفرحون عند نزول الآيات على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّهم كانوا من جهة يرونها مطابقة لما فى أيديهم من العلامات، و من جهة اخرى كان سببا لحريتهم و نجاتهم من شرّ الخرافات و من علماء اليهود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۶

و المسيحيّة الذين كانوا يستعبدونهم، و كانوا محرومين من حرية الفكر و التكامل الانسانى.

و امّا ما قاله بعض المفسّرين الكبار من انّ المقصود من الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ هم اصحاب النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبعيد جدّا، لانّ هذا الوصف ليس معهودا بالنسبة للمسلمين، بالاضافة الى ذلك فإنّها غير موافقة مع جملة بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ۲۴۱].

و بما انّ سورة الرّعد مكيّة فهى غير منافية لما قلناه آنفا، مع انّ المركز الاصلى لليهود فى الجزيرة العربية كان المدينة و خيبر، و المركز الاصلى للمسيحيين هو نجران و أمثالها، و لكنّهم كانوا يتردّدون على مكّة و يعكسون افكارهم و معتقداتهم فيها، و لهذا السبب كان اهل مكّة يعرفون علامات آخر نبى مرسل و كانوا ينتظرونه (قصّة ورقة بن نوفل و أمثالها معروفة).

و هناك شواهـد لهـذا الموضوع فى آيات اخرى من القرآن الكريم و التى كان يفرح المؤمنين من اهل الكتاب عند نزول الآيات على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فمثلا الآية (۵۲) من سورة القصص تقول: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ

ثمّ تضيف الآية وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ المقصود من هذه المجموعة هى نفس جماعة اليهود و النصارى الذين غلبهم التعصّب الطائفى و أمثاله، و لذلك لم يعبّر القرآن الكريم عنهم بأهل الكتاب، لانّهم لم يتّبعوا كتبهم السّماوية. بل كانوا فى الحقيقة أحزابا و كتلا تابعين لخطّهم الحزبى، و هذه المجموعة كانت تنكر كلّ ما خالف ميلهم و لم يطابق أهواءهم.

و يحتمل ايضا انّ كلمة «الأحزاب» اشارة الى المشركين، لانّ سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۷

الأحزاب ذكرتهم بهذا التعبير، و هؤلاء فى الحقيقة ليس لهم دين و لا مذهب بل كانوا على شكل احزاب و كتل متفرّقة اتّحدوا فى مخالفتهم للقرآن و الإسلام.

و نقل العلّامة الطبرسى و بعض آخر من المفسّرين الكبار عن ابن عبّاس، انّ هذه الآية اشارة الى المشركين الذين كانوا يخالفون وصف اللّه بالرحمن، و اهل الكتاب- خصوصا اليهود- يفرحون بهذا الوصف «الرحمان» فى الآيات القرآنية، و مشركى مكّة كانوا يسخرون منه بسبب عدم معرفتهم به.

و فى آخر الآية يأمر اللّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ان لا يعتنى بهذا و ذلك من المخالفين، بل يدعوه الى الثبات على الخطّ الأصيل و الصراط المستقيم حيث يقول تعالى: قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ و تلك دعوة للموحّدين الصادقين و المؤمنين الرّساليين ان يسلّموا امام الأوامر الالهيّة، فالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان خاضعا لكلّ ما انزل عليه، فلا يأخذ ما كان يوافق ميله و يترك غيره.

بحث

الايمان و الائتلاف الحزبى:

رأينا فى الآية كيف انّ اللّه سبحانه و تعالى عبّر عن المؤمنين من اليهود و النصارى بأهل الكتاب، و عبّر عن أولئك التابعين للعصبية و الأهواء بالأحزاب، و هذا غير منحصر فى تاريخ صدر الإسلام، بل انّ هذا التفاوت موجود دائما بين المؤمنين الحقيقيين و الذين يدّعون الايمان، فالمؤمنون الحقيقيون يقولون بالتسليم المطلق لكلّ الأوامر الالهية، و لا يقولون بالتبعيض، و يجعلون ميلهم تحت ذاك الشعاع، فهم اهل لان يسمّيهم القرآن اهل الكتاب و الايمان.

بينما أولئك فهم مصداق الآية نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ و معناه كلّ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۸

طابق خطّهم الفكرى و ميلهم الشخصى و أهواءهم يقبلونه، و كلّ ما خالف منافعهم الشخصيّة ينكرونه، فهؤلاء ليسوا بمسلمين و لا مؤمنين، بل احزاب و كتل يبحثون عن مصالحهم فى الدين، و لذلك كانوا يقولون بالتبعيض فى التعاليم الاسلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۹

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ (۳۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (۳۸) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (۳۹) وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ (۴۰)

التّفسیر

الحوادث «الثّابتة» و «المتغیّرة»:

تتابع هذه الآیات المسائل المتعلّقة بالنبوّة، ففی الآیة الاولی یقول تعالی:

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا.

«العربی» کما یقول الرّاغب فی مفرداته «الفصیح البیّن من الکلام» و لذلک یقال للمراة العفیفة و الشریفة: انّها «امراة عروبة» ثمّ تضیف الآیة حُكْماً عَرَبِيًّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۰

قیل معناه مفصحا یحقّ الحقّ و یبطل الباطل.

و یحتمل فی «العربی» انّ معناه «الشریف» لأنّها جاءت فی اللغة بهذا المعنی. و علی هذا فوصف القرآن بالعربی لانّ احکامه واضحة و بیّنة. و لذلک وردت فی عدّة آیات اخری بعد «عربیا» مسألة الاستقامة و عدم الاعوجاج او العلم، منها فی الآیة (۲۸) من سورة الزمر قوله تعالی قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ و فی الآیة (۳) من سورة فصلت یقول تعالی: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ و علی هذا فما قبل هذه الآیة و ما بعدها یؤیّدان انّ المراد من «عربیا» هو الفصاحة و الوضوح فی البیان و خلوّه من الاعوجاج و الالتواء.

و هذه العبارة وردت فی سبع سور من القرآن الکریم، و لکن ذکرت فی عدّة موارد بشکل لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ و التی یمکن ان یکون لها نفس المعنی. و یمکن ان یکون هذا الموضع الخاص اشارة الی اللسان العربی، لانّ اللّه سبحانه و تعالی بعث کلّ نبی بلسان قومه، حتّی یهدی قومه اوّلا، ثمّ تنتشر دعوته فی المناطق الاخری.

ثمّ یخاطب القرآن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بلحن التهدید و بشکل قاطع حیث یقول:

وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ و بما انّ احتمال الانحراف غیر موجود إطلاقا فی شخصیّة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لما یتمیّز به من مقام العصمة و المعرفة، فهذا التعبیر- اوّلا- یوضّح انّ اللّه سبحانه و تعالی لیس له ارتباط خاص مع ای احد حتّی لو کان نبیّا، فمقام الأنبیاء الشامخ انّما هو بسبب عبودیتهم و تسلیمهم و استقامتهم.

و ثانیا: تأکید و إنذار للآخرین، لانّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا لم یکن مصونا من العقوبات الالهیّة فی حالة انحرافه عن مسیرة الحقّ و اتّجاهه صوب الباطل، فما بال الآخرین؟

و لا بدّ من ذکر هذه النقطة، و هی انّ «ولی» و «واق» مع انّهما متشابهان فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۱

المعنی، و لکن هناک تفاوت بینهما و هو انّ أحدهما یبیّن جانب الإثبات و الآخر جانب النفی، فواحد بمعنی النصرة و الدعم، و الآخر بمعنی الدفاع و الحفظ.

الآیة الاخری- فی الواقع- جواب لما کان یستشکله اعداء الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و من جملة هذه الإشکالات:

اوّلا: كان البعض يقول: هل من الممكن ان يكون الرّسول من جنس البشر، يتزوّج و تكون له ذرّية؟ فالآية تجيبهم و تقول ليس هذا بالأمر الغريب: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً[۲۴۲].

و يتبيّن من اشكالهم انّهم امّا ان يكونوا غير عالمين بتاريخ الأنبياء، او انّهم يتجاهلون ذلك و الّا لم يوردوا هذا الاشكال.

ثانيا: كان ينتظر هؤلاء من الرّسول ان يجيبهم على كلّ معجزة يقترحونها عليه بما تقتضيه اهواؤهم، سواء آمنوا او لم يؤمنوا، و لكن يجب ان يعلم هؤلاء انّ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

ثالثا: لماذا جاء نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و غيّر احكام التوراة و الإنجيل، ا و ليست هذه كتب سماوية؟ و هل من الممكن ان ينقض اللّه أوامره؟ (هذا الاشكال كان يطابق ما يقوله اليهود من عدم نسخ الأحكام).

و تجيب الجملة الاخيرة من الآية فتقول: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ كيما تبلغ البشرية المرحلة النهائية من الرّشد و التكامل فليس من العجيب ان ينزّل يوما التوراة، و يوما آخر الإنجيل، ثمّ القرآن، لانّ البشرية فى تحوّلها و تكاملها بحاجة الى البرامج المتغيّرة و المتفاوتة.

و يحتمل انّ جملة لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ جواب لمن كان يقول: إذا كان الرّسول صادقا، لماذا لا ينزل اللّه عذابه و سخطه على المخالفين و المعاندين؟ فيجيبهم

القرآن بأنّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ و ليس بدون حساب و كتاب، و سوف يصل الوقت المعلوم للعقاب [۲۴۳].

الآية الاخرى بمنزلة التأكيد و الاستدلال لما ورد فى ذيل الآية السابقة، و هو انّ لكلّ حدث و حكم زمن معيّن كما يقال: انّ الأمور مرهونة بأوقاتها، و إذا رأيت انّ بعض الكتب السّماوية تأخذ مكان البعض الآخر و ذلك بسبب يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ فيحذف بعض الأمور بمقتضى حكمته و ارادته و يثبت أمورا اخرى، و لكن الكتاب الأصل عنده.

و فى النّهاية و للتأكيد اكثر بالنسبة للعقوبات التى كان يوعدهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بها و كانوا ينتظرونها حتّى انّهم يقولون: لماذا لا تصبح هذه الوعود عملية؟ يقول تعالى وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (من انتصارك عليهم و هزيمتهم و تحرير اتباعك و أسر اتباعهم فى حياتك) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ

نقطتان

اشارة

يجب الانتباه الى هاتين النقطتين:

۱- لوح المحو و الإثبات و امّ الكتاب

مع انّ جملة يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ ... نزلت فى مجال المعاجز و الكتب السّماوية الى الأنبياء، لكنّها تبيّن قانونا عامّا و شاملا و قد أشير اليه فى مختلف المصادر الاسلامية، و هو انّ تحقّق و صيرورة الحوادث المختلفة للعالم لها مرحلتين: الاولى المرحلة القطعيّة او الثابتة، و لا سبيل للتغيير فيها (و التى

اشارت إليها الآية أعلاه بأمّ الكتاب) و الاخرى المرحلة المتغيّرة او بعبارة اخرى «المشروطة» و التى يجد التغيير سبيلا إليها، و قد عبّر

عنها بالمحو و الإثبات.

و أحيانـا يقال عن المرحلتين: «اللوح المحفوظ» و «لوح المحو و الإثبات» كأنّ ما كتب فى اللوح الاوّل محفوظ لا يتغيّر، امّا الثّانى فمن الممكن محو ما كتب فيه و تغييره.

و امّا حقيقة الأمر فإنّنا- أحيانا- ننظر الى الحوادث بأسباب و علل ناقصة، فمثلا إذا أخذنا بنظر الاعتبار السّمّ الذى بمقتضى طبعه يؤدّى الى قتل الإنسان و كلّ من يتناوله سوف يموت، بـدون علم مسبق انّ لهـذا السّمّ ترياق آخر ضـدّه لو شـربناه بعـده سوف يبطل مفعول الاوّل (و قد نكون على علم به لكن لا نريد ان نتحدّث لسبب او لآخر عن الترياق) لاحظوا هنا انّ هذه الحادثة (الموت بسبب استعمال السّمّ) ليس لهـا جـانب قطعى، و ببيـان آخر انّ مكانها فى (لوح المحو و الإثبات) و يجـد التغيير سبيلا اليه بالنظر الى الأسـباب الاخرى المرتبطة به.

و لكن لو نظرنا الى الحادثة من خلال العلّة التامّة لها، يعنى توفّر الشـروط اللازمة و ازالة الموانع (استعمال السّمّ بدون استعمال الترياق) تكون الحادثة هنا قطعيّة و ببيان آخر: انّ مكانها فى [اللوح المحفوظ و امّ الكتاب و لا سبيل للتغيير فيها.

و يمكن ان نوضّح هذا الحديث بشـكل آخر، و هو: انّ للعلم الالهى مرحلتين (علم بالمقتضـيات و العلل الناقصة) و (علم بالعلل التامّة) فما ارتبط بالمرحلـة الثانية نعبّر عنها ب (امّ الكتاب و اللوح المحفوظ) و ما ارتبط بالمرحلة الاولى نعبّر عنها ب (لوح المحو و الإثبات) و الّا فليس اللوح موضوعا فى زاوية من السّماء حتى يكتبوا او يمحوا فيه شيئا و يثبتوا بدله شيئا آخر.

و من هنـا تتضـح الاجابـة على كثير من الاسـئلة فى ضوء ما ورد فى المصادر الاصـليّة فى الإسـلام، لانّنا نقرا مرّة فى الرّوايات او بعض الآيات القرآنية، انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۴

العمل الفلانى له الأثر الكذائى، لكنّنا فى بعض الأحيان لا نرى هذه النتيجة، و ذلك بسبب انّ تحقّق تلك النتيجة يعتمد على شرائط او موانع لم تتحقّق.

و هنـاك روايات كثيرة فى باب (اللوح المحفوظ) و (لوح المحو و الإثبات) و علم الأنبياء و الائمـة عليهم السّـلام، و على سبيل المثال نذكر قسما منها:

۱-

اخرج ابن مردويه و ابن عسـاكر عن على عليه السّـلام انّه سـأل رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عن هـذه الآيـة فقـال له: «لاقرنّ عينيك بتفسـيرها و لاقرّنّ عين امّتى بعدى بتفسـيرها، الصدقة على وجهها، و برّ الوالدين، و اصـطناع المعروف، يحول الشـقاء سعادة و يزيد فى العمر و يقى مصارع السّوء»[۲۴۴].

و هذه اشارة الى انّ الشـقاء و السّـعادة ليست أمورا حتميـة، حتّى إذا ارتكب الإنسان إثما و عدّ من الأشـقياء فإنّ باسـتطاعته ان يغيّر من سلوكه و يتّجه صوب الخير، و خصوصا مساعدة و خدمة عباد اللّه، لانّ هذه الأمور مكانها فى (لوح المحو و الإثبات) لا (امّ الكتاب).

و يجب الالتفات الى انّ ما جاء فى هذا الحديث يبيّن قسما من مفهوم الآية.

۲-

عن الفضـيل بن يسار قال: سـمعت أبا جعفر عليه السّـلام يقول: «من الأمور امور محتومـة كائنة لا محالة، و من الأمور امور موقوفة عند اللّه يقدّم فيها ما يشاء و يمحو ما يشاء و يثبت ما يشاء[۲۴۵].

و

عن الامام على بن الحسين عليه السـلام قال: «لولا آيـة فى كتاب اللّه لحـدّثتكم بما كان و ما يكون الى يوم القيامة، فقلت له: ايّة آية؟ فقال: قال اللّه يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ۲۴۶].

و هذا الحديث دليل على انّ اللوح المحفوظ و لوح المحو و الإثبات بكلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۵

خصوصياتها مختصّة باللّه جلّ و علا، و هناك قسم منها يعلم بها الخواص من عباده إذا اقتضت الضرورة.

و نقرا فى ادعية ليالى شهر رمضان المبارك:

«و ان كنت من الأشقياء فاكتبنى عندك من السعداء».

و على ايّة حال فالمحو و الإثبات بهذا الشكل الذى قلناه له معنى جامع يشمل كلّ تغيير فى الحال بسبب تغيير الشروط و حدوث الموانع، و امّا ما قاله بعض المفسّرين من انّ هذه الجملة اشارة الى مسألة محو الذنوب بسبب التوبة، او زيادة و نقصان الرزق على اثر تغيير الشروط، ليس صحيحا، الّا إذا اعتبروها واحدا من مصاديقها.

۲- ما هو البداء

؟ «البداء» احد البحوث العويصة بين الشيعة و السنّة.

يقول الرازى فى تفسيره الكبير فى ذيل الآية- محلّ البحث-: «يعتقد الشيعة انّ البداء جائز على اللّه، و حقيقة البداء عندهم انّ الشخص يعتقد بشيء ثمّ يظهر له خلاف ذلك الاعتقاد، و لاثبات ذلك يتمسكون بالآية يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ ثمّ يضيف الرازى: انّ هذه العقيدة باطلة، لانّ علم اللّه من لوازم ذاته، و محال التغيير و التبديل فيه».

و ممّا يؤسف له حقّا عدم المعرفة بعقيدة الشيعة فى مسألة البداء ادّت الى ان ينسب كثيرون تهما غير صحيحة الى الشيعة الاماميّة.

و لتوضيح ذلك نقول:

«البداء» فى اللغة بمعنى الظهور و الوضوح الكامل، و له معنى آخر هو الندم، لانّ الشخص النادم قد ظهرت له- حتما- امور جديدة.

لا شكّ، انّ هذا المعنى الأخير بالنسبة الى اللّه تعالى مستحيل، و لا يمكن لاى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۶

عاقل و عارف ان يحتمل انّ هناك أمورا خافية على اللّه ثمّ تظهر له بمرور الايّام، فهذا القول هو الكفر بعينه، و لازمه نسبة الجهل و عدم المعرفة الى ذاته المقدّسة، و انّ ذاته محلّا للتغيير و الحوادث.

و حاشا للشيعة الاماميّة ان يحتملوا ذلك بالنسبة لذات اللّه المقدّسة! انّ ما يعتقده الشيعة من معنى البداء و يصرّون عليه، هو طبقا لما جاء فى روايات اهل البيت عليهم السّلام: ما عرف اللّه حقّ معرفته

من لم يعرفه بالبداء.

كثيرا ما يكون- و طبقا لظواهر العلل و الأسباب- ان نشعر انّ حادثة ما سوف تقع او انّ وقوع مثل هذه الحادثة قد اخبر عنه النّبى، فى الوقت الذى نرى انّ هذه الحادثة لم تقع، فنقول حينها: انّ «البداء» قد حصل، و هذا يعنى انّ الذى كنّا نراه بحسب الظاهر سوف يقع و اعتقدنا تحقّقه بشكل قاطع قد ظهر خلافه.

و الأصل فى هذا المعنى هو ما قلناه فى بحثنا السابق، و هو انّ معرفتنا مرّة تكون فقط بالعلل الناقصة، و لا نرى الشروط و الموانع و نقضى طبقا لذلك، و لكن بعد ان نواجه فقدان الشرط او وجود المانع و يتحقّق خلاف ما كنّا نتوقّعه سوف ننتبه الى هذه المسائل. و كذلك قد يعلم النّبى او الامام بأمور مكتوبة فى لوح المحو و الإثبات القابل للتغيير طبعا، فقد لا تتحقّق أحيانا لمواجهتها بالموانع و فقدان الشروط.

و لكى تتّضح هذه الحقيقة لا بدّ من مقايسة بين «النسخ» و «البداء»: نحن نعلم انّ النسخ جائز عند جميع المسلمين، يعنى من الممكن

ان ينزل حكم فى الشريعة فيتصوّر الناس انّ هذا الحكم دائمى، لكى بعد مدّة يعلن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تغيير هذا الحكم و ينسخه، و يحلّ محلّه حكما آخر (كما قرانا فى حادثة تغيير القبلة).

انّ هذا فى الحقيقة نوع من «البداء» و لكن فى القضايا التشريعيّة و القوانين و الأحكام يسمّونه ب «النسخ» و فى الأمور التكوينيّة يسمّى ب «البداء» و يقال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۷

أحيانا: (النسخ فى الأحكام نوع من البداء، و البداء فى الأمور التكوينيّة نوع من النسخ).

فهل يستطيع احد ان ينكر هذا الأمر المنطقى؟ الّا إذا كان لا يفرّق بين العلّة التامّة و العلل الناقصة، او كان واقعا تحت تأثير الدعايات المغرضة ضدّ شيعة اهل البيت عليهم السّلام، و لا يجيز له تعصّبه الأعمى ان يطالع عقائد الشيعة من نفس كتبهم، و العجيب انّ الرازى قد ذكر مسألة «البداء» عند الشيعة فى ذيل الآية يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ بدون ان يلتفت الى انّ البداء ليس اكثر من المحو و الإثبات، و هجم على الشيعة بعصبيته المعروفة و استنكر عليهم قولهم بالبداء.

اسمحوا لنا هنا ان نذكر امثلة مقبولة عند الجميع:

۱- نقرا فى قصّة «يونس» انّ عدم طاعة قومه ادّت الى ان ينزل العذاب الالهى عليهم، و قد تركهم النّبى لعدم هدايتهم و استحقاقهم العذاب، لكن فجأة وقع البداء حيث راى احد علمائهم آثار العذاب، فجمعهم و دعاهم الى التوبة، فقبل الجميع و رفع العذاب فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ ۲۴۷].

۲- و جاء فى التأريخ الاسلامى انّ السيّد المسيح عليه السّلام اخبر عن عروس انّها سوف تموت فى ليلة زفافها، لكنّها بقيت سالمة! و عند ما سألوه عن الحادثة قال:

هل تصدّقتم فى هذا اليوم؟ قالوا: نعم. قال: الصدقة تدفع البلاء المبرم ۲۴۸]!.

لقد اخبر السيّد المسيح عليه السّلام عن هذه الحادثة بسبب ارتباطه بلوح المحو و الإثبات، فى الوقت الذى كانت هذه الحادثة مشروطة (مشروطة بأن لا يكون هناك مانع مثل الصدقة) و بما انّها واجهت المانع أصبحت النتيجة شيئا آخر.

۳- و نقرا فى قصّة ابراهيم عليه السّلام- محطّم الأصنام- فى القرآن الكريم انّه امر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۸

بذبح إسماعيل، و ذهب بابنه الى المذبح و تلّه للجبين، فعند ما اظهر إسماعيل استعداده للذبح ظهر البداء الالهى و ظهر انّ هذا الأمر امتحان لكى يرى اللّه تعالى مستوى الطاعة و التسليم عند ابراهيم عليه السّلام.

۴- و نقرا فى سيرة موسى عليه السّلام انّه امر ان يترك قومه اوّلا ثلاثين يوما و يذهب الى مكان الوعد الالهى لاستلام احكام التوراة، لكن المدّة زادت عليها عشرة ايّام اخرى (و ذلك امتحانا لبنى إسرائيل).

هنا يأتى هذا السؤال: ما هى الفائدة من هذه البداءات؟

الجواب على هذا السؤال ليس صعبا بالنظر الى ما قلناه سابقا، لانّه تحدث مسائل مهمّة- أحيانا- مثل امتحان شخص مع قومه، او تأثير التوبة و الرجوع الى اللّه (كما فى قصّة يونس) او تأثير الصدقة و مساعدة المحتاجين و عمل الخير، كلّ ذلك يؤدّى الى دفع الحوادث المفجعة و أمثالها، و هذا يعنى انّ الحوادث المستقبلية قد نظّمت بشكل خاص ثمّ تغيّرت الشرائط فأصبحت شيئا آخر، حتّى يعلم الناس انّ مصيرهم بأيديهم، و هم قادرون ان يغيّروا مصيرهم من خلال تغيير سيرتهم و سلوكهم، و هذه اكبر فائدة نلمسها من البداء «فتدبّر».

فما ورد من انّ أحدا إذا لم يعرف اللّه بالبداء لم يعرفه معرفة كاملة، فهى اشارة لتلك الحقائق.

عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «ما بعث اللّه عزّ و جلّ نبيّا حتّى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبودية، و خلع الأنداد، و انّ اللّه

يقدّم ما يشاء و يؤخّر ما يشاء»[۲۴۹].

و فى الحقيقة انّ اوّل عهد مرتبط بالطاعة و التسليم للّه. و ثانى عهد محاربة الشرك، و الثّالث مرتبط بمسألة البداء، و نتيجته انّ مصيره بيده، فيستطيع ان يغيّر الشروط فيشمله اللطف او العذاب الالهى.

الملاحظة الاخيرة فى هذا المجال .. يقول علماء الشيعة: انّنا حينما ننسب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۹

البداء الى اللّه جلّ و علا فإنّه يكون بمعنى «الإبداء» بمعنى اظهار الشيء الذى لم يكن ظاهرا لنا من قبل و لم يكن متوقّعا.

و انّ ما ينسب الى الشيعة بأنّهم يعتقدون انّ اللّه يندم على عمله أحيانا، او يخبر عن شيء لم يعلمه سابقا، فهذه من اكبر التّهم و لا يمكن الصفح عنها ابدا.

لذلك

نقل عن الائمّة عليهم السّلام انّهم قالوا: «من زعم ان اللّه عزّ و جلّ يبدو له فى شيء لم يعلمه أمس فابرءوا منه»[۲۵۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۰

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۴۱ الى ۴۳]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۴۱) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (۴۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (۴۳)

التّفسير

البشرية فانية و وجه اللّه باق:

بما انّ الآيات السابقة كانت تتحدّث مع منكرى رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فقد تابعت هذه الآيات كذلك نفس البحث.

و الهدف هو دعوتهم الى التفكّر، ثمّ الإصلاح عن طريق الإنذار و الاستدلال و غيرها.

يقول تعالى اوّلا: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها من الواضح انّ المقصود من الأرض هنا هم اهل الأرض، يعنى انّ هؤلاء لا ينظرون الى هذا الواقع من انّ الأقوام و الحضارات و الحكومات فى حال الزوال و الابادة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۱

الأقوام الذين كانوا اكثر منهم قوّة و آثارا قد ألحدوا تحت الثرى حتّى العلماء و العظماء- الذين هم قوام الأرض- التحقوا بالرفيق الأعلى.

فهل انّ هذا القانون العامّ للحياة الذى يسرى على جميع الافراد و كلّ المجتمع البشرى صغيره و كبيره، غير كاف لايقاظهم و تفهيمهم انّ هذه الايّام القلائل للحياة ليست ابديه؟! ثمّ يضيف: وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ و لذلك فإنّ قانون الفناء مكتوب على جبين كلّ الافراد و الأمم من جهة، و من جهة اخرى لا يستطيع احد ان يغيّر هذا الحكم و لا الأحكام الاخرى، و من جهة ثالثة انّ حساب العباد سريع جدّا، و بهذا الترتيب يكون جزاؤه قاطعا.

و قد جاءت فى روايات متعدّدة فى تفسير «البرهان» و «نور الثقلين» و سائر منابع الحديث، انّ تفسير الآية أعلاه هو «فقدان العلماء» لانّ فقدهم نقصان الأرض و نقص المجتمع الانسانى.

و

نقل المفسّر الكبير الطبرسى عن الامام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية قال: «ننقصها بذهاب علمائها و فقهائها و خيارها»[۲۵۱].

و نقرا فى حديث آخر انّ «عبد اللّه بن عمر» تلا هذه الآية حين استشهد امير المؤمنين على عليه السّلام أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها.

ثمّ قال: «يا امير المؤمنين، لقد كنت الطرف الأكبر فى العلم، اليوم نقص علم الإسلام و مضى ركن الايمان».

انّ للآية- بدون شكّ- معنى واسعا كما قلنا، و هى تشمل كلّ نقص فى ذهاب الافراد و المجتمع و اهل الأرض، و إنذار لكلّ الناس، الصالح منهم و الطالح، حتّى العلماء الذين يشكّلون اركان المجتمع البشرى يكون موت أحدهم أحيانا نقصانا للدنيا، فهذا إنذار بليغ و ساطع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۲

و امّا ما احتمله بعض المفسّرين من انّ المقصود بالنقصان هو نقض ارض الكفّار و اضافتها الى ارض المسلمين، فلا نراه صحيحا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار انّ السورة مكّية، لانّ الفتوحات فى ذلك الوقت لم تكن موجودة حتّى يراها الكفّار او يشير إليها القرآن الكريم.

و امّا ما قاله بعض المفسّرين الذين غرقوا فى العلوم الطبيعيّة، من انّ الآية أعلاه تشير الى نقص الأرض من ناحية القطبين و استواؤها فى خطّ الاستواء، فهذا كذلك نراه بعيدا عن الواقع، لانّ القرآن الكريم ليس فى مقام الاشارة الى ذلك.

ثمّ يستمرّ البحث فى الآية الثانية و يقول: ليست هذه الفئة فقط نهضت بمكرها و محاربتها لك، بل وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لكن خططهم كشفت، و أجهضت مؤامرتهم بأمر من اللّه، لانّه اعلم الموجودات بهذه المسائل فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ذاك هو العالم بكلّ شىء و يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ثمّ يحذرهم بصيغة التهديد من عاقبة عملهم و يقول: وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ.

الآية الاخيرة من هذا البحث (كما بدأت هذه السورة بكتاب اللّه و القرآن) تنهى سورة الرعد فى التأكيد اكثر على معجزة القرآن يقول تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا.

فهم يصطنعون كلّ يوم عذرا، و يطلبون فى كلّ وقت المعاجز، ثمّ آخر الأمر يقولون: لست بنبى! قل فى جوابهم قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ فاللّه سبحانه و تعالى يعلم بأنّى رسوله، و كذلك هؤلاء لهم المعرفة الكافية بأنّ القرآن هو كتاب سماوى، فهم يعلمون جيّدا انّ هذا الكتاب ليس من صنع البشر، و لا يمكن نزوله الّا من قبل اللّه.

و هذا تأكيد جديد على اعجاز القرآن بمختلف جوانبه و قد ذكرنا ذلك فى أماكن اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۳

و بناء على ما قلناه أعلاه فإنّ المقصود ب مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ هم العالمون بمحتوى القرآن الكريم.

و احتمل بعض المفسّرين انّها تشير الى علماء اهل الكتاب الذين قرءوا علائم نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كتبهم السّماوية، و من جهة حبّهم و معرفتهم آمنوا به.

لكن التّفسير الاوّل نراه اقرب الى الصحّة.

و قد ذكرت كثير من الرّوايات انّ المقصود ب مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ هو على بن أبى طالب عليه السّلام و ائمّة الهدى، و هذه الرّوايات جمعت فى تفسير نور الثقلين و البرهان.

و هذه الرّوايات غير دالّة على الحصر، و كما قلنا مرارا فإنّها تشير الى مصداق او مصاديق تامّة و كاملة، و على ايّة حال فالتّفسير الاوّل

الذی ذکرناه یؤیّد ذلک.

و من المناسب ان ننهی حدیثنا هنا بهذه الرّوایة

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

عن أبی سعید الخدری قال: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن قول اللّه جلّ ثناؤه:

قالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتابِ قال: «ذاک وصی اخی سلیمان بن داود» فقلت له: یا رسول اللّه: قُلْ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ قال: «ذاک علی بن أبی طالب»[۲۵۲].

اللهمّ افتح لنا أبواب رحمتک و ألهمنا من علم الکتاب.

ربّنا أنر قلوبنا بمعرفة القرآن و احبس افکارنا علی الحاجة إلیک حتّی لا نتوجّه لغیرک فی مسائلنا، انّک موضع الحاجات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۵

سورة ابراهیم

اشارة

مکّیّة و عدد آیاتها اثنان و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۷

سورة ابراهیم تحتوی علی (۵۲) آیة، السورة مکّیة باستثناء الآیات (۲۸) و (۲۹) طبقا لما قاله کثیر من المفسّرین انّها نزلت بالمدینة فی قتلی المشرکین فی بدر.

محتوی السورة

المعلوم من اسم السورة انّ قسما منها نازل بشأن بطل التوحید و محطّم الأصنام سیّدنا ابراهیم علیه السّلام (قسم من ادعیته).

و القسم الآخر من هذه السورة یشیر الی تاریخ الأنبیاء السابقین أمثال نوح و موسی، و قوم عاد و ثمود، و ما تحتوی من دروس و عبر فیها.

و تکمل هذه المجموعة من البحوث فی السورة آیات الموعظة و النصیحة و البشارة و الإنذار.

کما نقرا فی اغلب السور المکّیة انّ قسما کبیرا منها ایضا یبحث مواضیع «المبدإ» و «المعاد» و التی تعمّق الایمان فی قلب الإنسان و فی روحه و نفسه ثمّ فی قوله و فعله، فیظهر له نور آخر فی مسیرة الحقّ و الدعوة الی اللّه.

و خلاصة هذه السورة انّها تبیّن عقائد و نصائح و مواعظ سیرة الأقوام الماضیة، و الهدف من رسالة الأنبیاء و نزول الکتب السّماویة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۸

فضیلة السورة

روی عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرا سورة ابراهیم و الحجر اعطی من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام و بعدد من لم یعبدها»[۲۵۳].

و کما أسلفنا مرارا فإنّ ما ورد من الثواب حول قراءة السور القرآنیة یلازمه التفکّر و من ثمّ العمل، و لمّا کانت هذه السورة و سورة الحجر تبحثان موضوع التوحید و الشرک و أصولهما و فروعهما، فإنّ من البدیهی انّ العمل بمضمونهما له نفس الفضیلة، أی انّهما

تصيغان الإنسان بصياغتهما حتّى توصلاه الى مثل هذا الثواب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص: ٤۴٩

الآيات [سورة إبراهيم (١۴): الآيات ١ الى ٣]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣)

التّفسير

الخروج من الظّلمات الى النّور

! شرعت هذه السورة- كبعض السور القرآنية الاخرى- بالحروف المقطّعة، التى ذكرنا تفسيرها فى بداية سورة البقرة و آل عمران، و النقطة التى يجب ملاحظتها هنا انّ من بين ٢٩ موردا لسور القرآن التى ابتدأت بالحروف المقطّعة هناك ٢۴ مورد ذكر بعدها مباشرة القرآن الكريم، و التى تبيّن انّ هناك علاقة بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص: ۴٥٠

الاثنين، اى بين الحروف المقطّعة و القرآن، و لعلّ هذه العلاقة هى نفسها التى ذكرناها فى بداية سورة البقرة، فاللّه سبحانه و تعالى يريد ان يوضّح من خلال هذا البيان انّ هذا الكتاب السّماوى العظيم المتعهّد لقيادة الانسانيّة يتكوّن من مواد بسيطة تسمّى بحروف الالفباء، و هذه تشير الى اهميّة هذا الاعجاز، حيث يوجد اصدق بيان من ابسط بيان.

و على ايّة حال فبعد ذكر الحروف (الف لام راء) يقول تعالى: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

فى الواقع انّ جميع الاهداف التربوية و الانسانية، المعنوية و المادية من نزول القرآن قد جمعت فى هذه الجملة (الخروج من الظّلمات الى النّور) اى الخروج من ظلام الجهل الى نور المعرفة، و من ظلام الكفر الى نور الايمان، من ظلم الظالمين الى نور العدالة، و من الفساد الى الصلاح، و من الذنوب الى الطهارة و التقوى، و من التفرقة و النفاق الى نور الوحدة.

و من الطريف انّ «الظّلمات» هنا (كما فى بعض السور الاخرى) جاءت بصيغة الجمع و «النّور» بصيغة المفرد، و هذه اشارة الى انّ كلّ الحسنات و الطيّبات و الايمان و التقوى لها حالة واحدة فى ظلّ التوحيد و نوره، فهى مترابطة و متّحدة فيما بينها، فتصنع مجتمعا واحدا متّحدا و طاهرا من كلّ جهة.

بينما الظّلمات تعنى التشتّت و تفرقة الصفوف، و حتّى الطواغيت و المذنبين و المفسدين و المنحرفين فى مسيرتهم الانحرافية نراهم غير متوحّدين غالبا، و فى حالة حرب فيما بينهم.

و من هنا لمّا كان مصدر كلّ الخير هى الذات الالهيّة المقدّسة، و الشرط الأساس لدرك التوحيد هو الالتفات الى هذه الحقيقة، فإنّه يضيف بلا فاصلة بِإِذْنِ رَبِّهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص: ۴٥١

و لکی یـبیّن اکثر مـا هو النّور یقول تعـالی: إِلی صِـراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیـدِ[۲۵۴] فعزّته دالّـهٔ علی قـدرته، لانّه لا یسـتطیع احـد ان یغلبه، و الحمید دالّهٔ علی نعمه و مواهبه غیر المتناهیهٔ، لانّ الحمد و الثناء دائما تکون فی مقابل النعم و المواهب.

الآیـهٔ الثانیـهٔ و لکی تعرّف اللّه بصـفاته، تبیّن درسا من دروس التوحید حیث تقول: اللَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ ۲۵۵] فله کلّ شیء، لانّه خالق جمیع الموجودات، و لهذا السبب هو القادر و العزیز و واهب النعم و الحمید.

ثمّ یتطرّق فی نهایهٔ الآیهٔ الی مسألهٔ المعاد (بعد ان ذکر المبدإ) فتقول الآیهٔ:

وَ وَیْلٌ لِلْکافِرِینَ مِنْ عَذابٍ شَدِیدٍ.

ثمّ یعرّف القرآن الکریم الکفّار فی الآیـهٔ الاخری، و یذکر لهم ثلاث صـفات کیما نسـتطیع ان نعرّفهم من اوّل وهلهٔ، یقول تعالی اوّلا: الَّذِینَ یَسْتَحِبُّونَ الْحَیاهَٔ الدُّنْیا عَلَی الْآخِرَهِٔ[۲۵۶] فهم یضـحّون بالایمان و الحقّ و العدالهٔ و الشرف التی هی من خصائص محبّی الآخرهٔ، من اجل منافعهم الشخصیّهٔ و شهواتهم.

ثمّ یبیّن تعالی انّ هؤلاء غیر قانعین بهذا المقدار من الضـلال، بل یسـعون فی ان یضلّوا الآخرین وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ فهم فی الواقع یوجدون الموانع المختلفهٔ فی طریق الفطرهٔ الالهیّهٔ فیزیّنون الهوی، و یدعون الناس الی الذنوب، و یخوّفونهم من الصدق و الإخلاص.

و لا یقتصـر عملهم علی ذلک فحسب، بل وَ یَبْغُونَها عِوَجاً ثمّ یحاولون ان یصـبغوا الآخرین بصـبغتهم، و یسـعون فی ان یحرفوا السبیل للوصول الی هدفهم من خلال نشر الخرافات و ابتداع السنن الخبیثهٔ أُولئِکَ فِی ضَلالٍ بَعِیدٍ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۲

و هـذا الضـلال قـد أوجـد بعـد المسافهٔ بینهم و بین الحقّ فکـان من العسـیر جـدّا عودتهم الی طریق الحقّ، و لکن ذلـک کـان نـتیجهٔ لاعمالهم.

ملاحظات

۱- مثل الإیمان و طریق اللّه مثل النّور

بالنظر الی انّ النّور الطف الموجودات المادیّهٔ فی العالم، و سرعهٔ مسیره أعلی سرعهٔ، و برکته من اکبر البرکات، و یمکن ان یقال انّه اصل لکلّ المواهب و البرکات، فإنّه یتّضح الی ای مدی یشـتمل النّور علی معنی کبیر بحیث انّ القرآن شـبّه الایمان و السـیر فی طریق اللّه بالنّور.

و النّور اصل التجمّع بینما الظلمهٔ عامل للتفرّق، النّور علامهٔ الحیاهٔ و الظلمهٔ علامهٔ الموت.

و لهـذا السبب شـبّه القرآن الکریم کثیرا من الأـمور القیّمـهٔ بـالنّور، و من جملتها العمل الصالـح یَوْمَ تَرَی الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ یَسْـعی نُورُهُمْ بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ بِأَیْمانِهِمْ ۲۵۷].

و کذلک الایمان و التوحید، قال تعالی: اللَّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ[۲۵۸].

و قـد شـبّه القرآن الکریم بـالنّور فی قوله تعالی: فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَـرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۲۵۹].

و کذلک الذین یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ [۲۶۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۳

بل اکثر من ذلک عبّر عن ذاته المقدّسـهٔ التی هی أفضل و اسـمی ما فی الوجود بالنّور اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ [۲۶۱] و مع انّ کلّ

هـذه الأمور تعود الی تلک الحقیقة، لأنها من اللّه، و من الایمان به، فإنّها وردت بصـیغة المفرد، و علی عکس الظّلمات التی هی عامل التشتّت لذلک وردت بصیغة الجمع التی تبیّن الکثرة و التعدّد.

و بما انّ الایمان باللّه و السیر فی طریقه باعث علی الحرکة و موجبا للیقظة، و عامل للاجتماع و الوحدة، و وسیلة للتقدّم و الکمال، فإنّ هذا التشبیه علی کلّ حال اکثر محتوی و دلالة تربویة.

۲- التعبیر ب «لتخرج» فی الآیة الاولی تشیر الی نقطتین:

الاولی: بما انّ القرآن الکریم کتاب هدایـة و نجاة للبشـر، لکنّه بحاجـة الی من یطبقه و یجریه، فیجب ان یکون هناک قائـد کالرّسول لکی یسـتطیع ان یخرج الضالّین عن الحقیقة من ظلمات الشـقاء و هدایتهم الی نور السعادة، و لهذا فالقرآن الکریم بعظمته لا یمکن له ان یحلّ جمیع المشاکل بدون وجود القائد و المنفّذ لهذه الأحکام.

الثانیـة: انّ صـیغة الإخـراج فی الواقع دلیـل علی التحرّک المشـفوع بـالتغیّر و التحوّل، و کأنّ غیر المؤمنین موجودون فی محیط مغلق و مظلم، و الرّسول- او القائد- یأخذ بأیدیهم و یدخلهم الی جوّ واسع و منیر.

۳- الملفت للنظر انّ بدایة هذه السورة شرعت بمسألة هدایة الناس من الظّلمات الی النّور، و نهایتها ختمت بمسألة إبلاغ و إنذار الناس، و هذه توضّح انّ الهدف الاصلی فی کلّ الأحوال هو الناس و مصیرهم و هدایتهم، فإنزال الکتب السّماویة و بعث الأنبیاء فی الواقع هو للوصول الی هذا الهدف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۴

الآیات [سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۴ الی ۷]

اشارة

وَ مـا أَرْسَـلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّـ بِلِسـانِ قَوْمِهِ لِیُبَیِّنَ لَهُمْ فَیُضِـلُّ اللَّهُ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْـدِی مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۴) وَ لَقَدْ أَرْسَـلْنا مُوسی بِآیاتِنـا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَـکَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ ذَکِّرْهُمْ بِأَیَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَـبَّارٍ شَـکُورٍ (۵) وَ إِذْ قالَ مُوسـی لِقَوْمِهِ اذْکُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ أَنْجاکُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَسُومُونَکُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ یُذَبِّحُونَ أَبْناءَکُمْ وَ یَسْتَحْیُونَ نِساءَکُمْ وَ فِی ذلِکُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَظِیمٌ (۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِی لَشَدِیدٌ (۷)

التّفسیر

الایّام الحسّاسة فی الحیاة:

کان الحدیث فی الآیات السابقة عن القرآن الکریم و آثاره الروحیة، و تتابع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۵

الآیة الاولی من هذه المجموعة نفس الموضوع، لکن فی بعد خاص و هو انّ دعوة الأنبیاء و کتبهم السّماویة نزلت بلسان اوّل قوم بعثوا إلیهم. یقول تعالی:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ

لـانّ الأنبیاء یرتبطون فی الدرجـة الاولی مع قومهم، و اوّل نور الوحی یشعّ من بینهم، و اوّل الصـحابة و الأنصار ینتخبون منهم، لـذلک فإنّ الرّسول یجب ان یحدّثهم بلغتهم و بلسانهم لِیُبَیِّنَ لَهُمْ

و فى الحقيقة فإنّ هذه الجملة تشير الى انّ دعوة الأنبياء لا تنعكس فى قلوب اتباعهم بأسلوب مرموز و غير معروف، بل كانت توضّح لهم من خلال التبيين و التعليم و التربية و بلسانهم الرائج.

ثمّ يضيف القرآن الكريم بعد ان بيّن لهم الدعوة الالهيّة فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ فليست الهداية و الضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإبلاغ و التبيين، اللّه سبحانه و تعالى هو الموجّه و الهادى الحقيقى لعباده.

و لكى لا- يتصوّر احد انّ هذا القول بمعنى الجبر و سلب الحرّيات، فيضيف القرآن مباشرة وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ و بمقتضى عزّته و قدرته فإنّه قادر على كلّ شىء، و لا احد له قدرة على المقاومة فى مقابل ارادته تعالى، و لكن بمقتضى حكمته لا يهدى و لا يضلّ أحدا بدون سبب و دليل، بل الخطوة الاولى تبدا من قبل العباد و بكامل الحرية فى السير الى اللّه، ثمّ يشعّ نور الهداية و فيض الحقّ فى قلوبهم، كما فى سورة العنكبوت الآية (۶۹) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا.

و كذلك حال الذين تاهوا فى وادى الضلالة و حرموا من فيض الهداية، فهو نتيجة لتعصّبهم الأعمى و محاربتهم للحقّ، و غرقهم فى الشّهوات، و تلوّثهم بالظلم و الجور. كما يقول تعالى: كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ [۲۶۲] و يقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۶

ايضا: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ [۲۶۳] و قوله تعالى: وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۲۶۴].

و على هذا النحو فإنّ محور الهداية و الضلال فى ايدى الناس أنفسهم.

تشير الآية الأخرى الى واحدة من نماذج إرسال الأنبياء فى مقابل طواغيت عصرهم، ليخرجوهم من الظّلمات الى النّور: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ[۲۶۵].

و كما قرانا فى الآية الاولى من هذه السورة فإنّ خلاصة دعوة رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى إخراج الناس من الظّلمات الى النّور، فهذه دعوة كلّ الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر، فهل الظلم غير الضلال و الانحراف و الذلّ و العبوديّة و الفساد و الظلم؟! و هل النّور غير الايمان و التقوى و الحرية و الاستقلال و العزّة و الشرف؟! لذلك فإنّها تمثّل الخطّ المشترك و الجامع بين كلّ دعوات القادة الإلهيين.

ثمّ يشير القرآن الكريم الى واحدة من اكبر مسئوليات موسى عليه السّلام حيث يقول تعالى: وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ

من المتيقّن انّ كلّ الايّام هى ايّام اللّه، كما انّ كلّ الأماكن متعلّقة باللّه جلّ و علا، و إذا كانت هناك نقطة خاصّة تسمّى (بيت اللّه) فذلك بدليل ميزاتها، كذلك ايّام اللّه تشير الى ايّام مميّزة لها خصائص منقطعة النظير.

و لهذا السبب اختلف المفسّرون فى تفسيرها:

قال البعض: انّها تشير الى ايّام النصر للأنبياء السابقين و أممهم و الايّام التى شملتهم النعم الالهيّة فيها على اثر استحقاقهم لها.

و قال البعض الآخر: انّها تشير الى العذاب الالهى الذى شمل الأقوام الطاغين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۷

و العاصين لأمر اللّه.

و قال آخرون: انّها تشير الى المعنيين السابقين معا.

لكنّنا- حقّا- لا نستطيع ان نجعل هذه العبارة البليغة و الواضحة محدودة، فأيّام اللّه هى جميع الايّام العظيمة فى تاريخ الانسانيّة. فكلّ يوم سطعت فيه الأوامر الالهيّة و جعلت بقيّة الأمور تابعة لها، هى من ايّام اللّه، و كلّ يوم يفتح فيه فصل جديد من حياة الناس فيه درس و عبرة، او ظهور نبى فيه، او سقوط جبّار و فرعون- او كلّ طاغ- و محوه من الوجود. خلاصة القول: كلّ يوم يعمل فيه بالحقّ و العدالة و يقع فى الظلم و تطفأ فيه بدعة، هو من ايّام اللّه.

و كما سوف نرى انّ روايات الائمّة عليهم السّلام فى تفسير هذه الآية تشير الى هذه الايّام الحسّاسة.

و فی آخر الآیة یقول تعالی: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَبّارٍ شَکُورٍ.

«صبّار» و «شکور» صیغة مبالغة فأحدهما تشیر الی شدّة الصبر، و الاخری الی زیادة الشکر، و تعنی انّ المؤمنین کما لا یستسلمون للحوادث و المشاکل التی تصیبهم فی حیاتهم، کذلک لا- یغترّون و لا- یغفلون فی ایّام النصر و النعم، و ذکر هاتین الصفتین بعد الاشارة الی ایّام اللّه دلیل علی ما قلناه.

تشیر الآیة الاخری الی احد هذه الایّام التی کانت ساطعة و مثمرة فی تاریخ بنی إسرائیل، و ذکرها تذکرة للمسلمین حیث یقول تعالی: وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ اذْکُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ أَنْجاکُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ هؤلاء الفراعنة الذین کانوا یَسُومُونَکُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ یُذَبِّحُونَ أَبْناءَکُمْ وَ یَسْتَحْیُونَ نِساءَکُمْ وَ فِی ذلِکُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَظِیمٌ

ای یوم اکثر برکة من ذلک الیوم حیث أزال اللّه عنکم فیه شرّ المتکبرین و المستعمرین، الذین کانوا یرتکبون أفظع الجرائم بحقّکم، و ای جریمة أعظم من ذبح أبنائکم کالحیوانات (انتبه الی انّ القرآن عبّر بالذبح لا بالقتل) و اهمّ من ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۸

فإنّ نوامیسکم کانت خدما فی ایدی الطامعین.

و لیس هذا المورد خاصّ ببنی إسرائیل، بل فی جمیع الأمم و الأقوام. فإنّ یوم الوصول الی الاستقلال و الحریة و قطع ایدی الطواغیت یوم من ایّام اللّه الذی یجب ان نتذکّره دوما حتّی لا نعود الی ما کنّا علیه فی الایّام الماضیة.

«یسومونکم» من مادّة (سوم) علی وزن (صوم) بمعنی البحث عن الشیء، و تأتی بمعنی فرض عمل علی الآخرین ۲۶۶]، و لهذا فإنّ معنی جملة یسومونکم سوء العذاب: انّ أولئک کانوا یفرضون علیکم اسوا الأعمال و أکثرها تعذیبا. و هل انّ تجمید و ابادة الکتلة الفعّالة فی المجتمع و استخدام نسائهم و اذلالهنّ علی ید فئة ظالمة و طاغیة یعتبر امرا هیّنا؟! ثمّ انّ التعبیر بفعل المضارع «یسومون» اشارة الی انّ هذا العمل کان مستمرّا لمدّة طویلة.

و جملة یُذَبِّحُونَ أَبْناءَکُمْ ... معطوفة علی «سُوءَ الْعَذابِ» و فی عین الوقت هی من مصادیق سوء العذاب، و ذلک بسبب اهمیّة هذین العذابین، و هذا توضیح انّ فرعون و قومه الظالمین فرضوا علی بنی إسرائیل احکاما جائرة اخری، الّا انّ هذین العذابین کانا اشدّ و أصعب.

ثمّ یضیف القرآن الکریم وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِی لَشَدِیدٌ[۲۶۷] یمکن ان تکون هذه الآیة من کلام موسی لبنی إسرائیل التی دعاهم فیها الی الشکر فی مقابل ذلک النجاة و النصر و النعم الکثیرة، و وعدهم بزیادة النعم، و فی حالة کفرهم هدّدهم بالعذاب، و یمکن ان تکون جملة مستقلّة و خطابا للمسلمین، و لکن علی ایّة حال فالنتیجة واحدة، لانّه حتّی إذا کان الخطاب موجّها لبنی إسرائیل وروده فی القرآن الکریم لیکون درسا بنّاء لنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۹

و من الطریف انّه فی حالة الشکر یقول بصراحة لَأَزِیدَنَّکُمْ امّا فی حالة کفران النعم فلا یقول (اعذّبکم) بل یقول: إِنَّ عَذابِی لَشَدِیدٌ و هذا التفاوت دلیل علی سموّ اللطف الالهی.

بحوث

۱- التذکّر لایام اللّه

کما قلنا فی تفسیر الآیة أعلاه، فإنّ اضافة «ایّام» الی «اللّه» اشارة الی الایّام المصیریة و المهمّة فی حیاة الناس، فإنّها بسبب عظمتها

أضیفت إلیها کلمة «اللّه»، و کذلک لانّ واحدة من النعم الالهیّة الکبیرة شملت حال قوم او امّة، او احدی العقوبات الکبری أصابت قوما طاغین بالعذاب الالهی، و قد أراد اللّه تعالی ان یجعل هذه الایّام تذکرة باقیة للناس.

الرّوایات الواردة من اهل البیت علیهم السّلام تشیر انّهم فسّروا «ایّام اللّه» بأیّام مختلفة،

فعن الامام الباقر علیه السّلام قال «ایّام اللّه، یوم یقوم القائم علیه السّلام و یوم الکرّة[۲۶۸]، و یوم القیامة»[۲۶۹].

و

جاء فی تفسیر علی بن ابراهیم «ایّام اللّه ثلاثة ایّام، یوم قیام المهدی علیه السّلام و یوم الموت، و یوم القیامة».

و

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال «ایّام اللّه نعماؤه و بلاؤه ببلائه سبحانه»[۲۷۰].

و کما قلنا سابقا فإنّ مثل هذه الأحادیث غیر دالّة علی الحصر إطلاقا، بل هی بیان لقسم من مصادیقها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۰

و علی ایّة حال فتذکر الایّام العظیمة (من ایّام النصر او من ایّام الشدّة) له دور مؤثّر فی یقظة الشعوب، و بالإلهام من هذا النداء السّماوی سوف نحیی الایّام العظیمة فی التاریخ الاسلامی، و نخصّص لها ایّاما معیّنة فی السنة لتجدید ذکراها، لکی نتعلّم منها الدروس التی لها اثر مهمّ فی یومنا هذا.

و فی تاریخنا المعاصر- خصوصا فی تأریخ الثورة الاسلامیة فی ایران- توجد ایّام مثیرة جدّا و التی هی بحقّ مصداق ل «ایّام اللّه» و یجب ان نذکرها فی کلّ سنة، و هی التی امتزجت بذکری الشهداء، المقاتلین، المجاهدین الکبار، و من ثمّ نستلهم منها و نحفظ میراثهم الکبیر.

و علی هذا الأساس یجب ان ندخل هذه الایّام العظام ضمن برامج الکتب الدراسیّة فی مدارسنا، و ضمن التعلیم و التربیة لأبنائنا، و لکی نعلم مسئولیتنا «و ذکّرهم» فی مقابل الأجیال القادمة.

لقد أشار القرآن الکریم مرارا الی «ایّام اللّه» فنسبها لبنی إسرائیل مرّة، و اخری للمسلمین، و ذکّرهم بأیّام النعم و العذاب.

۲- طریقة الجبّارین فی التعامل

نقرا مرارا فی آیات القرآن الکریم انّ الفراعنة کانوا یذبحون أبناء بنی إسرائیل و یحتفظون بنسائهم، و هذا العمل لا یقتصر علی فرعون، بل کان علی طول التاریخ طریقة کلّ المستعمرین حیث کانوا یبیدون قسما من القوی الفاعلة و المقاومة، و یضعفون قسما آخر منها و یستخدمونها فی منافعهم الخاصّة، و بدون هذا العمل لا یمکنهم الاستمرار فی استعمارهم.

و المهمّ یجب ان نعلم انّهم کانوا یذبحون الأبناء مباشرة مرّة (کالفراعنة) و أحیانا یبیدوهم بالادمان علی المخدّرات و المشروبات الکحولیة، و إغراقهم فی دوّامة الفحشاء لذلک یجب ان ینتبه المسلمون الی هذه المسألة، فإذا سلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۱

جیل الشباب هذه المسالک المهلکة و فقد سلاح الایمان و مقدرته الجسدیة، فیجب ان یعلم عبودیته للأجانب حتمیة.

۳- الحریة من أفضل النعم

من الطریف انّ الآیة أعلاه بعد ان ذکرت «ایّام اللّه» اشارت بصراحة الی یوم واحد منها، و هو یوم نجاة بنی إسرائیل من قبضة الفراعنة

إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ انّ تاريخ بنى إسرائيل مليء بالايّام العظيمة التى وهبهم اللّه فيها النعم الكبيرة تحت ظلّ هداية موسى، و لكن ذكر (يوم النجاة) فى الآية أعلاه دليل على اهميّة الحرية و الاستقلال فى مصير الأمم.

نعم لا تستطيع اى امّة ان تظهر نبوغها و استعدادها الّا من خلال قطع التبعية للاجنبى و التحرّر من قبضة الاستعمار و اسره. و لا يمكن ان ترفع قدما فى سبيل اللّه الّا من خلال محاربة الشرك و الظلم.

و لهذا السبب كان العمل الاوّل للقادة الإلهيين هو تحرير الشعوب من التبعيّة الفكرية و الثقافية و السياسيّة و الاقتصادية، ثمّ العمل فى إيجاد البرامج التوحيديّة و الانسانيّة لهم.

۴- الشكر سبب لزيادة النعم و الكفر سبب للفناء

ممّا لا شكّ فيه انّ اللّه سبحانه و تعالى ليس بحاجة الى شكرنا فى مقابل نعمه علينا، و إذا أمرنا بالشكر فذاك لنستوجب نعمة اخرى و هى واحدة من المبادئ السامية فى التربية.

المهمّ ان نعرف ما هى حقيقة الشكر؟ لكى يتّضح علاقته فى زيادة النعمة من اين؟ و كيف تستطيع ان تكون عاملا مهمّا للتربية؟

انّ حقيقة الشكر ليس فقط ما يقوله الإنسان (الحمد للّه) او الشكر اللفظى، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۲

هناك ثلاث مراحل للشكر:

الاولى: يجب ان نعلم من هو الواهب للنعم؟ هذا العلم و الايمان الركن الاوّل للشكر.

و الثّانية: الشكر باللسان.

و الثّالثة: و هى الاهمّ الشكر العملى، اى ان نعلم الهدف من منحنا للنعمة، و فى ايّ مورد نصرفها، و الّا كفرنا بها، كما قال العظماء: (الشكر صرف العبد جميع ما أنعمه اللّه تعالى فيما خلق لأجله).

لماذا أعطانا اللّه تعالى العين؟ و لماذا وهبنا السمع و النطق؟ فهل كان السبب غير ان نرى عظمته فى هذا العالم، و نتعرّف على الحياة؟ و بهذه الوسائل نخطو الى التكامل، ندرك الحقّ و ندافع عنه و نحارب الباطل، فإذا صرفنا النعم الالهيّة فى هذا المسير كان ذلك هو الشكر العملى له، و إذا أصبحت هذه الأدوات وسيلة للطغيان و الغرور و الغفلة و الابتعاد عن اللّه فهذا هو عين الكفران!

يروى عن الامام الصادق عليه السّلام انّه قال: «ادنى الشكر رؤية النعمة من اللّه من غير علّة يتعلّق القلب بها دون اللّه، و الرضا بما أعطاه، و انّ لا تعصيه بنعمة و تخالفه بشيء من امره و نهيه بسبب من نعمته»[۲۷۱].

و هنا يتّضح انّ شكر العلم و المعرفة و الفكر و المال و السلامة، كلّ واحد منها من اى طريق يتمّ؟ و كيف يكون كفرانها؟

الحديث الوارد عن الامام الصادق عليه السّلام دليل واضح على هذه التّفسيرات حيث يقول: «شكر النعمة اجتناب المحارم»[۲۷۲].

و تتّضح ايضا هذه العلاقة بين الشكر و زيادة النعمة، لانّ الناس لو صرفوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۳

النعم الالهيّة فى هدفها الحقيقى، فسوف يثبتون عمليّا استحقاقهم لها و تكون سببا فى زيادة الفيوضات الالهيّة عليهم.

من الثابت انّ هناك نوعين من الشكر، (شكر تكوينى) و (شكر تشريعى).

«الشكر التكوينى» هو ان يستفيد الكائن الحى من مواهبه فى نموّه و رشده، فمثلا يرى المزارع انّ القسم الفلانى من مزرعته تنمو فيه الأشجار بشكل جيد، و كلّما يخدمها اكثر تنتج اكثر، فهذا الأمر سوف يؤدّى الى ان يقوم المزارع على خدمة و تربية ذلك القسم بشكل اكبر، و يوصى مساعديه بها، لانّ الأشجار تناديه بلسان حالها: ايّها المزارع، نحن لائقون مناسبون، افض علينا من النعم، و هو

يجيبهم بالاثبات.

امّا إذا راى فى قسم آخر أشجارا ذابلة و يابسة و ليس لها ثمر، فكفران النعمة من قبلها بهذه الصورة يسبّب عدم اعتناء المزارع بها، و إذا استمرّ الوضع بهذا الحال سوف يقوم بقلعها.

و هذه الحالة موجودة فى عالم الانسانيّة بهذا التفاوت، و هو انّ الأشجار ليس لها الاختيار، بل هى خاضعة للقوانين التكوينيّة، امّا الإنسان فباستفادته فى ارادته و اختياره و تربيته التشريعيّة يستطيع ان يخطو فى هذا المجال خطوات واثقة.

و لذلك فمن يستخدم نعمة القوّة فى الظلم، ينادى بلسان حاله: الهى، انا غير لائق لهذه النعمة، و من يستخدمها لاقامة الحقّ و العدالة يقول بلسان حاله: الهى، انا مناسب و لائق فزد نعمتك علىّ! و هناك حقيقة غير قابلة- ايضا- للترديد، و هى انّنا فى كلّ مرحلة من مراحل الشكر الالهى- ان كان باللسان او العمل- سوف نحتاج الى شكر جديد لمواهب و عطايا جديدة، و لذلك فلسنا قادرين ان نؤدّى حقّ الشكر، كما نقرا

فى مناجاة الشاكرين للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام: «كيف لى بتحصيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۴

الشكر و شكرى ايّاك يفتقر الى شكر، فكلّما قلت لك الحمد وجب علىّ لذلك ان أقول لك الحمد»!

و لهذا فإنّ أعلى مراحل الشكر ان يظهر الإنسان عجزه امام شكر نعمائه تعالى، كما

جاء فى الحديث عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «فيما اوحى اللّه عزّ و جلّ الى موسى: اشكرنى حقّ شكرى، فقال: يا ربّ، و كيف أشكرك حقّ شكرك، و ليس من شكر أشكرك به الّا و أنت أنعمت به علىّ؟ قال: يا موسى، الآن شكرتنى حين علمت انّ ذلك منى»[۲۷۳].

هناك عدّة نقاط فى مجال شكر النعمة:

-۱

قال الامام على عليه السّلام فى احدى حكمه: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر»[۲۷۴].

۲- يجب الالتفات الى هذا الموضوع، و هو انّ الشكر و الحمد ليس كافيا فى مقابل نعمائه تعالى، بل يجب ان نشكر- كذلك- الأشخاص الذين كانوا وسيلة لهذه المواهب و نؤدّى حقوقهم من هذا الطريق، و نشوّقهم اكثر بالخدمة فى هذا السبيل، كما نقرا

فى الحديث عن الامام على بن الحسين عليه السّلام قال: «و انّ اللّه يحبّ كلّ قلب حزين و يحبّ كلّ عبد شكور، يقول اللّه تبارك و تعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أ شكرت فلانا؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرنى إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم للّه أشكركم للناس»[۲۷۵].

۳- انّ الوعد فى زيادة نعم الشاكرين لا ينحصر فى النعم المادية فقط، بل الشكر نفسه مصحوبا بالتوجّه الخاص للّه و الحبّ لساحته المقدّسة هو واحد من النعم الالهيّة الروحيّة الكبيرة، و التى لها تأثير كبير فى تربية نفوس الناس،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۵

و دعوتهم لطاعة الأوامر الالهيّة، بل الشكر ذاته طريق الى معرفة اللّه، و لهذا السبب ورد عن علماء العقائد فى علم الكلام انّ وجوب شكر المنعم طريق الى اثبات وجوب معرفة اللّه.

۴- انّ احياء روح الشكر فى المجتمع و تقديمه الى مستحقّيه و تقديرهم و حمدهم و ثنائهم على خدمتهم فى طريق تحقيق الاهداف الاجتماعية بعلمهم و معرفتهم و إيثارهم و استشهادهم، هو عامل مهمّ فى حركة و رقىّ المجتمع.

ففى المجتمع الفاقد للشكر و التقدير نجد القليل جدّا ممّن يريد الخدمة، و على العكس فالمجتمع الذى يقيّم و يثنى على خدمات الأشخاص، يكون اكثر نشاطا و حيوية.

و الالتفات الی هـذه الحقیقـة ادّی الی ان تقام فی عصـرنا مراسـیم احتفال لتقـدیر و شـکر الأساطین فی الـذکری المئویـة، او الـذکری الالفیة، و ضمن هذا الشکر لخدماتهم یدعی الناس الی الحرکة و السعی بشکل اکبر.

احیـاء هـذه الـذکریات یساعـد علی ترشـید الإیثار و التفانی لـدی الآخرین، فیرتفع المسـتوی الثقافی و الاخلاقی لـدی الناس، و بتعبیر القرآن فـإنّ شـکر هـذه النعمـة سـوف یبعث علی الزیـادة، و من دم شـهید واحـد یبعث آلاـف المجاهـدین، و یکـون مصـداقا حیّا ل لَأَزِیدَنَّکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۶

الآیات [سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۸ الی ۱۰]

اشارة

وَ قالَ مُوسی إِنْ تَکْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِیٌّ حَمِیدٌ (۸) أَ لَمْ یَأْتِکُمْ نَبَؤُا الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا یَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَرَدُّوا أَیْدِیَهُمْ فِی أَفْواهِهِمْ وَ قالُوا إِنَّا کَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِی شَکٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَیْهِ مُرِیبٍ (۹) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللَّهِ شَکٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ یَدْعُوکُمْ لِیَغْفِرَ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُؤَخِّرَکُمْ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِیدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا کانَ یَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِینٍ (۱۰)

التّفسیر

أ فی اللّه شکّ

؟ الآیة الاولی من هذه المجموعة تؤیّد و تکمل البحث السابق فی الشکر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۷

و الکفران، و ذلک ضـمن الکلام الذی نقل عن لسان موسی علیه السّلام وَ قالَ مُوسی إِنْ تَکْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِیٌّ حَمِیدٌ[۲۷۶].

انّ الشـکر و الایمـان بـاللّه- فی الواقع- سـبب فی زیادة النعم و التکامل الانسانی، و الّا فاللّه عزّ و جلّ لیس بحاجـة الی ای شـیء، و لو کفرت جمیع الکائنات و لم تحمده لا تمسّ کبریاءه بأدنی ضرر، لانّه حمید فی ذاته.

و لو کان محتاجا لم یکن واجب الوجود، و علی هـذا فمفهوم الغنی هو اشـتماله لجمیع الکمالات، و إذا کان کـذلک فهو محمود فی ذاته، لانّ «الحمید» من استحقّ الحمد.

ثمّ یشـرح مصـیر الفئات من الأقوام السابقة ضمن عدّة آیات، الفئات التی کفرت بأنعم اللّه و خالفت الدعوة الالهیّة، و هی تأکید للآیة السابقة یقول تعالی:

أَ لَمْ یَأْتِکُمْ نَبَؤُا الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ

یمکن ان تکون هذه الجملة تعقیبا علی کلام موسـی، او بیان مسـتقلّ یخاطب به المسـلمین، لکن النتیجة غیر متفاوتة کثیرا، ثمّ یضیف تعالی: قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ فهؤلاء لم یطّلع علی اخبارهم الّا اللّه لا یَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۲۷۷].

ممّا لا شکّ فیه انّ قسما من اخبار قوم نوح و عاد و ثمود و الذین من بعدهم قد وصلتنا، و لکن لم یصلنا القسم الأکبر منها و لا یعلمها الّا اللّه، فتاریـخ الأـقوام الماضـیة ملیء بالاسـرار و الخصوصـیّات بحیث لم یصـل إلینـا منهـا الّـا القلیـل. و لکی یوضّـح القرآن الکریم

مصیرهم یقول: جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَرَدُّوا أَیْدِیَهُمْ فِی أَفْواهِهِمْ ای وضعوا أیدیهم علی أفواههم من التعجّب و الإنکار وَ قالُوا إِنَّا کَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۸

. لماذا؟ بسبب وَ إِنَّا لَفِی شَکٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَیْهِ مُرِیبٍ و معه کیف یمکننا ان نؤمن بما تدعونا الیه؟

و یرد هنا سؤال، و هو انّهم أظهروا الکفر و عدم الایمان بالرّسول فی البدایهٔ، و لکن بعد ذلک أظهروا الشکّ و الریب، فکیف ینطبق الاثنان؟

الجواب: انّ بیان الشکّ و التردید- فی الحقیقهٔ- علّهٔ لعدم الایمان، لانّ الایمان بحاجهٔ الی الیقین، و الشکّ مانع لذلک.

و بما انّ الآیهٔ السابقهٔ بیّنت قول المشرکین و الکفّار فی عدم ایمانهم بسبب شکّهم و تردیدهم، فالآیهٔ بعدها تنفی هذا الشکّ من خلال دلیل واضح و عبارهٔ قصیرهٔ حیث یقول تعالی: قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِی اللَّهِ شَکٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

مع انّ «فاطر» من «فطر» و هی فی الأصل بمعنی «شقّ» الّا انّه هنا کنایهٔ عن «الخلق» فالخالق هو الموجد للأشیاء علی أساس نظام دقیق ثمّ یحفظها و یحمیها، کأنّ ظلمهٔ العدم شقّت بنور الوجود، و کما یطلع الفجر من عتمهٔ اللیل، و کما یتشقّق التمر من غلافه.

و لعلّ «فاطر» تشیر الی تشقّق المادّهٔ الاوّلیهٔ للعالم. کما نقرأ فی العلوم الحدیثهٔ انّ مجموع مادّهٔ العالم کانت واحدهٔ مترابطهٔ ثمّ انشقّت الی کراهٔ مختلفهٔ.

و علی ایّهٔ حال، فالقرآن الکریم هنا- کما فی اغلب الموارد الاخری- یستند لاثبات وجود الخالق و صفاته الی نظام الوجود و خلق السّماوات و الأرض، و نحن نعلم انّه لیس هناک أوضح من هذا الدلیل لمعرفهٔ اللّه، لانّ هذا النظام العجیب ملیء بالاسرار فی کلّ زوایاه، و ینادی بلسان حاله: لیس هناک من له القدرهٔ علی هذه الهندسهٔ الّا القادر الحکیم و العالم المطلق، و لهذا السبب فکلّما تقدّمت العلوم ظهرت اسرار تدلّ علی الخالق اکثر من السابق و تقرّبنا من اللّه فی کلّ لحظهٔ.

و ما اکثر العجائب فی القرآن؟ فکلّ بحوث معرفهٔ اللّه و التوحید- و التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۹

وردت بصیغهٔ الاستفهام الانکاری- اشارت إلیها هذه العبارهٔ: أَ فِی اللَّهِ شَکٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و هذه العبارهٔ إذا أردنا تجزئتها و تحلیلها بشکل موسّع لا تکفیها آلاف الکتب.

انّ مطالعتنا لاسرار الوجود و نظام الخلقهٔ لا تهدینا الی وجود اللّه فحسب، بل الی صفاته الکمالیهٔ ایضا کعلمه و قدرته و حکمته.

ثمّ یجیب القرآن الکریم علی ثانی اعتراض للمخالفین، و هو اعتراضهم علی مسألهٔ الرسالهٔ (لانّ شکّهم کان فی اللّه و فی دعوهٔ الرّسول) و یقول انّ من المسلّم انّ اللّه القادر و الحکیم لا یترک عباده بدون قائد، بل انّه بإرسال الرسل: یَدْعُوکُمْ لِیَغْفِرَ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ [۲۷۸].

و زیادهٔ علی ذلک فإنّه وَ یُؤَخِّرَکُمْ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی کیما تسلکوا سبیل التکامل و تستفیدوا من موهبهٔ الحیاهٔ بأقصی ما یمکنکم.

انّ غایهٔ دعوهٔ الأنبیاء أمران: أحدهما غفران الذنوب، بمعنی تطهیر الروح و الجسم و المحیط الانسانی، و الثّانی استمرار الحیاهٔ الی الوقت المعلوم، و الاثنان علّهٔ و معلول، فالمجتمع الذی یستمرّ فی وجوده هو المجتمع النقی من الظلم و الذنوب.

ففی طول التاریخ أبیدت مجتمعات کثیرهٔ بسبب الظلم و الذنوب و اتّباع الهوی، و بتعبیر القرآن لم یصلوا إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی

روی فی حدیث جامع عن الامام الصادق علیه السّلام قال: «من یموت بالذّنوب اکثر ممّن یموت بالآجال، و من یعیش بالإحسان اکثر ممّن یعیش بالأعمال»[۲۷۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۰

و

عن الامام الصادق ايضا: «انّ الرجل يذنب فيحرم صلاة الليل، و انّ العمل السيء اسرع فى صاحبه من السكّين فى اللحم»[۲۸۰].

و نستفيد من هذه الآية- ضمنيا- انّ الايمان بدعوة الأنبياء و العمل بأحكامها يأخذ طابع الأجل المعلّق، و تستمرّ حياة الإنسان الى «اجل مسمّى» (لأنّنا نعلم انّ للإنسان نوعين من الآجال، اجل محتوم و يكون بانتهاء الحياة فى جسم الإنسان، و أجل معلّق و يكون بفناء الإنسان على اثر عوامل و موانع فى وسط العمر، و هذا غالبا ما يكون بسبب اللامبالاة و ارتكاب الذنوب، و قد بحثنا هذا الموضوع فى ذيل الآية (۲) من سورة الانعام).

و مع كلّ ذلك لم يقبل الكفّار المعاندون دعوة الحقّ المصحوبة بوضوح منطق التوحيد، و من خلال بيانهم المشوب بالعناد و عدم التسليم كانوا يجيبون الأنبياء بهذا القول: قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا علاوة على ذلك تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا و اكثر من ذلك فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ

و قد ذكرنا مرارا (كما صرّح القرآن بذلك) انّ كون الأنبياء بشرا ليس مانعا لنبوّتهم، بل هو مكمّل لها، و لكن أولئك الأقوام يوردون هذه الحجّة دليلا لانكار الرسالة، و الهدف- غالبا- هو التبرير و العناد.

و كذلك الحال فى الاستنان بسنّة الأجداد، فإنّها و بالنظر الى هذه الحقيقة و هى انّ معرفة الأجيال القادمة اكثر من الماضين، لا تعدو سوى خرافة و جهل.

و يتّضح من هنا انّ طلبهم لم يكن لاقامة البرهان الواضح، بل لهروبهم من الحقيقة، لانّ القرآن الكريم- كما قرانا مرارا- انّ هؤلاء المعاندين أنكروا الآيات الواضحة و الدلائل البيّنة، و كانوا يقترحون فى كلّ مرّة معجزة و دليلا للتهرّب من الأمر الواقع.

و على كلّ حال نقرا فى الآيات القادمة كيف أجابهم الأنبياء.

الآيتان [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۱ الى ۱۲]

اشارة

قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۱) وَ ما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۱۲)

التّفسير

التوكّل على اللّه وحده:

نقرا فى هاتين الآيتين جواب الرسل على حجج المخالفين المعاندين، و اعتراضهم على بشرية الرسل، فكان جوابهم: قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ يعنى لو افترضنا انّ اللّه تعالى أرسل لكم ملائكة بدل البشر، فهى لا تمتلك شيئا لذاتها، فكلّ المواهب و من جملتها موهبة الرسالة و القيادة هى من عند اللّه، فالذى يستطيع ان يهب الملائكة هذا المقام قادر ان يعطيها للإنسان.

و بديهى انّ هذه المنح من قبل اللّه ليست بدون حساب، و قد قلنا مرارا: انّ

المشیئة الالهیّة تسایر حکمته تعالی، فعند ما نسمع قول القائل: «انّ اللّه إذا أراد بعبد خیرا ...» یکون المراد العبد المستعدّ لهذه الموهبة. و من المعلوم انّ مقام الرسالة موهبة الهیّة، و نحن نری انّ الأنبیاء بالاضافة الی الرسالة الالهیّة لهم استعداد و اهلیة لتحمّلها.

ثمّ یجیب علی السؤال الثّالث دون ان یجیب علی الثانی، و کأنّ الاعتراض الثّانی الذی هو الاستنان بسنّة الأجداد لیس له ای اهمیّة و فارغ من المحتوی بحیث انّ ایّ انسان عاقل- بأقلّ تأمّل- یفهم جوابه، بالاضافة الی انّ القرآن الکریم قد أجاب عنه فی آیات أخر.

و جواب السؤال الثّالث هو انّ عملنا لیس الإتیان بالمعاجز، فنحن لا نجلس فی مکان و نلبّی لکم المعاجز الاقتراحیة و کلّ ما سوّلت لکم أنفسکم، بل ما کانَ لَنا أَنْ نَأْتِیَکُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

و مع ذلک فإنّ کلّ نبی کان یظهر لقومه المعاجز بمقدار کاف بدون ان یطلبها الناس منه، و ذلک لکی یثبت الأنبیاء احقّیتهم و لتکون المعاجز سندا لصدقهم، مع انّ مطالعة دعوتهم وحدها اکبر اعجاز لهم، و لکن المعترضین غالبا لم یصغوا لذلک، و هم یقترحون کلّ یوم شیئا جدیدا، فإن لم یستجب لهم الرّسول، یقیموا الدنیا و یقعدوها. و لکی یردّ الرسل علی تهدیداتهم المختلفة یقولون: وَ عَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و بعد ذلک استدلّ الأنبیاء علی مسألة التوکّل حیث قالوا: وَ ما لَنا أَلَّا نَتَوَکَّلَ عَلَی اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا فالذی منحنا أفضل المواهب، یعنی موهبة الهدایة الی طرق السعادة، سوف یقوم بحمایتنا فی مقابل ای هجوم او مشکلة تعترضنا.

ثمّ أضافوا: انّ ملاذنا هو اللّه، ملاذ لا یقهر و هو فوق کلّ شیء: وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلی ما آذَیْتُمُونا و أخیرا انهوا کلامهم بهذه الجملة: وَ عَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۳

ملاحظات

۱- ما هو معنی التوکّل

؟ قرانا فی الآیة الاولی فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ و فی الآیة الثانیة فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ و کأنّ الجملة الثانیة تشیر الی مرحلة أوسع و اعمّ من الجملة الاولی، یعنی انّ توکّل المؤمنون ممّا لا شکّ فیه- لانّ الایمان باللّه غیر منفصل عن الایمان بقدرته و حمایته و التوکّل علیه- بل حتّی غیر المؤمنین ملجأهم الی اللّه و لا یجدون سبیلا غیره، لانّ غیره فاقد للأشیاء، و کلّ ما فی الوجود ملک لذاته المقدّسة، و لذلک یجب ان یجعلوه ولیّا لهم، و یطلبوا منه ان یهدیهم توکّلهم هذا للایمان باللّه.

۲- المعاجز بید اللّه تعالی

أجابت الآیات أعلاه- بشکل واضح- الأشخاص الذین کانوا ینکرون اعجاز الرسل. او ینکرون معاجز رسول الإسلام غیر القرآن، و تعلّمنا هذه الآیات انّ الرسل لم یقولوا ابدا: نحن لا نأتی بالمعاجز، بل انّ الأوامر الالهیّة کانت تمنعهم من ذلک، لانّ الاعجاز بیده و فی اختیاره، و کلّ ما یراه مصلحة یأمرنا به.

۳- ما هی حقیقة و فلسفة التوکّل

؟ «التوكّل» فی الأصل من «الوكالة» و كما قال الراغب: التوكیل ان تعتمد علی غیرك و تجعله نائبا عنك. و نحن نعلم انّ الوكیل الصالح له اربع خصال رئیسیّة:

العلم الكافی، و الامانة، و القدرة، و المبالغة فی رعایة مصلحة موكّله. فانتخاب الوكیل المحامی یتمّ فی الأعمال التی لا یستطیع الإنسان نفسه ان یدافع عنها، فیستفید من مساعدة قوّة الآخرین فی حلّ مشاكله.

و علی ذلك فالتوكّل علی اللّه یتمّ فی حالة عدم استطاعة الإنسان من حلّ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۴

المشاكل الحیاتیة و فی مقابل الأعداء و إصرار المخالفین، و أحیانا فی الطرق المسدودة التی تواجهه فی مسیرة اهدافه. و لذلك فهو یستند الی اللّه جلّ و علا و یستمر فی سعیه، بل حتّی لو كان مستطیعا فی أداء اعماله، فیجب ان یعلم انّ اللّه هو المؤثّر الاصلی، لانّ اللّه تعالی فی نظر المؤمن هو منبع لكلّ القدرات.

و النقطة التی تقابل التوكّل علی اللّه هی التوكّل علی غیره، یعنی الاتّكالیة فی الحیاة و التبعیة للآخرین، و عدم الاستقلالیّة، یقول علماء الأخلاق: التوكّل الثمرة المباشرة لتوحید افعال اللّه، لانّه- و كما قلنا- من وجهة نظر المؤمن یرتبط كلّ ما فی الكون بالنهایة بذات اللّه المقدّسة، و لذلك فالموحّد یری انّ جمیع اسباب القدرة و النصر من عند اللّه.

فلسفة التوكّل

نستفید ممّا ذكرناه انّه:

اوّلا: انّ الإنسان سوف تزداد مقاومته للمشاكل الصعبة لتوكّله علی اللّه الذی هو منبع جمیع القدرات و الاستطاعات.

و لهذا السبب فعند ما انهزم المسلمون فی «احد» یقول تعالی: الَّذِینَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِیماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِیلُ [۲۸۱].

و هناك نماذج اخری للمقاومة و الثبات فی ظلّ التوكّل، و من جملتها الآیة ۱۲۲ من آل عمران یقول تعالی: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِیُّهُما وَ عَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و فی الآیة (۱۲) من سورة ابراهیم یقول تعالی: وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلی ما آذَیْتُمُونا.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۵

و فی الآیة (۱۵۹) آل عمران فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِینَ

و كذلك یقول القرآن الكریم: إِنَّهُ لَیْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَكَّلُونَ [۲۸۲] نستفید من مجموع هذه الآیات انّ القصد من التوكّل ان لا یحسّ الإنسان بالضعف فی مقابل المشكلات العظیمة، بل بتوكّله علی قدرة اللّه المطلقة یری نفسه فاتحا و منتصرا، و بهذا الترتیب فالتوكّل عامل من عوامل القوّة و استمداد الطاقة و سبب فی زیادة المقاومة و الثبات. و إذا كان التوكّل یعنی الجلوس فی زاویة و وضع احدی الیدین علی الاخری، فلا معنی لأن یذكره القرآن بالنسبة للمجاهدین و أمثالهم.

و إذا اعتقد البعض انّ التوكّل لا ینسجم مع التوجه الی العلل و الأسباب و العوامل الطبیعیّة، فهو فی خطأ كبیر، لانّ فصل العوامل الطبیعیّة عن الارادة الالهیّة یعتبر شركا باللّه، او لیست هذه العوامل تسیر بأوامر و مشیئة اللّه؟

نعم إذا اعتقدنا انّ العوامل مستقلّة عن ارادته فهی لا تتناسب مع روح التوكّل. فهل من الصحیح ان نفسّر التوكّل بهذا التّفسیر، مع انّ الرّسول الأكرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذی هو راس المتوكّلین لم یغفل من استخدام الخطط الصحیحة و الاستفادة من الفرص المتاحة و انواع الوسائل و الأسباب الظاهریة لتحقیق اهدافه، انّ هذا یثبت انّ التوكّل لیس له مفهوم سلبی.

ثانیا: انّ التوکّل ینجّی الإنسان من التبعیة التی هی اصل الذلّ و العبودیة، و یمنحه الحریة و الاعتماد علی النفس.

«التوکل» و «القناعة» لهما جذور مشترکة، و فلسفتهما متشابهة، و فی نفس الوقت متفاوتة، و لا بأس هنا ان نذکر عدّة روایات فی مجال التوکّل و أصله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۶

و جذوره:

عن الامام الصادق علیه السّلام قال: «انّ الغنا و العزّ یجولان، فإذا ظفرا بموضع التوکّل أوطنا»[۲۸۳]

و قد عرّف الامام التوکّل بأنّه موطن العزّة و عدم الحاجة للآخرین.

و

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: سألت جبرئیل: ما هو التوکّل؟ قال: (العلم بأنّ المخلوق لا یضرّ و لا ینفع، و لا یعطی و لا یمنع، و استعمال الیأس من الخلق فإذا کان العبد کذلک لم یعمل لأحد سوی اللّه و لم یطمع فی احد سوی اللّه فهذا هو التوکّل)[۲۸۴].

و

سئل الامام الرضا علیه السّلام: ما حدّ التوکّل؟ فقال: «ان لا تخاف مع اللّه أحدا»[۲۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۷

الآیات [سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۱۳ الی ۱۷]

اشارة

وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّکُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنا فَأَوْحی إِلَیْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِکَنَّ الظَّالِمِینَ (۱۳) وَ لَنُسْکِنَنَّکُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِکَ لِمَنْ خافَ مَقامِی وَ خافَ وَعِیدِ (۱۴) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ کُلُّ جَبَّارٍ عَنِیدٍ (۱۵) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ یُسْقی مِنْ ماءٍ صَدِیدٍ (۱۶) یَتَجَرَّعُهُ وَ لا یَکادُ یُسِیغُهُ وَ یَأْتِیهِ الْمَوْتُ مِنْ کُلِّ مَکانٍ وَ ما هُوَ بِمَیِّتٍ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِیظٌ (۱۷)

التّفسیر

خطط الجبّارین المعاندین و مصیرهم

! عند ما یعلم الظالمون بضعف منطقهم و عقیدتهم، یترکون الاستدلال، و یلجأون الی القوّة و العنف، و نقرا هنا انّ الأقوام الکافرة العنیدة عند ما سمعوا منطق الأنبیاء المتین و الواضح قالوا لرسلهم: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّکُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنا و کأنّ هؤلاء القوم یعتبرون جمیع ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۸

فی الأرض ملکهم، حتّی انّهم لم یمنحوا لرسلهم حقوق المواطنة، و لذلک یقولون «أرضنا». و فی الحقیقة فإنّ اللّه سبحانه و تعالی خلق الأرض و کلّ مواهبها للصالحین، و هؤلاء الجبابرة فی الواقع لیس لهم ای حقّ فیها.

و قد یتوهّم البعض انّ جملة لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنا اشارة الی انّ الأنبیاء السابقین کانوا من أنصار عبادة الأصنام، مع انّ الحقیقة لیست کذلک، لانّهم- و بصرف النظر عن کونهم معصومین حتّی قبل نبوّتهم- فعقلهم و درایتهم کان اکبر من ان یفعلوا هذا العمل غیر

الحكيم، فيسجدوا امام الأحجار و الأخشاب.

و يمكن ان يكون هذا التعبير بسبب انّ الأنبياء قبل بعثهم لم يؤمروا بالتبليغ، فسكوتهم أوجد هذا الوهم بأنّهم من المشركين.

بالاضافة الى انّ الخطاب و ان كان موجّها للرسل، الّا انّه فی الواقع يشمل حتّى الاصحاب، و نعلم انّهم كانوا مع المشركين من قبل، فنظر المشركين كان منصرفا الى الاصحاب فقط، و تعبير «لتعودنّ» من باب التغليب (يعنى حكم الاكثرية يسرى على العموم).

و هناك جواب آخر لهذا الوهم و هو انّ «عود» إذا عدّيت ب «الى» يكون معناها الرجوع، و إذا عديت ب «فى» فتفيد تغيير الحال .. لذلك فمعنى الآية لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا يكون مفهومها ان تغيّروا من حالكم و تدخلوا فى ملّتنا، و قد اختار هذا المعنى العلّامة الطباطبائى فى الميزان، و لكن عند مراجعتنا لبعض الآيات و منها كُلَّما أرادُوا أنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها تبيّن ان «عود» حتّى لو عدّيت ب «فى» فمعناها الرجوع ايضا (فتدبّر).

ثمّ يضيف القرآن الكريم لتسلية قلوب الأنبياء فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ فلا تخافوا من وعيدهم، و لا تظهروا الضعف فى ارادتكم.

و بما انّ الظالمين كانوا يهدّدون الأنبياء بالتبعيد عن أرضهم، فإنّ اللّه فى مقابل ذلك كان يعد الأنبياء وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ و لكن هذا النصر

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۹

و التوفيق لا يناله الّا ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ فلطفه و منّه ليس بدون حساب و دليل، و لا يناله الّا من احسّ بمسؤوليته فى مقابل العدل الالهى، لا الظالمين و المعاندين لطريق الحقّ.

و حين انقطعت الأسباب بالأنبياء من كلّ جانب، و ادّوا جميع وظائفهم فى قومهم، فآمن منهم من آمن، و بقى على الكفر من بقى، و بلغ ظلم الظالمين مداه، فى هذه الأثناء طلبوا النصر من اللّه تعالى وَ اسْتَفْتَحُوا ... و قد استجاب اللّه عزّ و جلّ دعاء المجاهدين المخلصين وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

«خاب» من الخيبة بمعنى فقدان المطلوب.

و «جبّار» بمعنى المتكبّر هنا،

ورد فى الحديث انّ امرأة جاءت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأمرها بشىء، فلم تطعه فقال النّبى: دعوها فإنّها جبّارة[۲۸۶].

و تطلق هذه الكلمة أحيانا على اللّه جلّ و علا فتعطى معنى آخر، و هو (جبر و إصلاح من هو بحاجة الى الإصلاح) او بمعنى (المتسلّط على كلّ شىء)[۲۸۷].

و «العنيد» فى الأصل من «العند» على وزن (رند) بمعنى الاتّجاه، و جاءت هنا بمعنى الانحراف عن طريق الحقّ.

و لذلك نقرا

فى رواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «كلّ جبّار عنيد من ابى ان يقول لا اله الّا اللّه».[۲۸۸]

و

عن الامام الباقر عليه السّلام قال: «العنيد المعرض عن الحقّ».[۲۸۹]

و من الطريف انّ «جبّار» تشير الى صفة نفسانية بمعنى روح العصيان، و «عنيد» تشير الى آثار تلك الصفة فى افعال الإنسان حيث تصرفه عن طريق الحقّ. ثمّ يبيّن نتيجة عمل الجبّارين فى الآخرة ضمن آيتين فى خمسة مواضع:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۰

۱- على اثر هذه الخيبة، او انّ مثل هذا الشخص: مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ

مع انّ كلمة «وراء» بمعنى «الخلف» فى مقابل امام، الّا انّها فى هذه الموارد تعنى نتيجة و عاقبة العمل.

۲- امّا فی جهنّم فإنّه وَ یُسْقی مِنْ ماءٍ صَدِیدٍ.

«الصدید» القیح المتجمّع بین اللحم و الجلد، و هو بیان للماء المتعفّن الکریه الذی یسقونه.

۳- فهذا المجرم المذنب عند ما یری نفسه فی مقابل هذا الشراب یَتَجَرَّعُهُ وَ لا یَکادُ یُسِیغُهُ یسیغه: من اساغة، و هی وضع الشراب فی الحلق.

۴- و وسائل التعذیب کثیرة بحیث وَ یَأْتِیهِ الْمَوْتُ مِنْ کُلِّ مَکانٍ وَ ما هُوَ بِمَیِّتٍ حتّی یذوق وبال عمله و سیّئاته.

۵- و قد یتصوّر ان لیس هناک عقابا اکثر من ذلک، و لکن وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِیظٌ.

و بهذا الترتیب فإنّ کلّ ما یخطر فی ذهن الإنسان و ما لا یخطر من شدّة العقاب هو فی انتظار هؤلاء الظالمین و الجبّارین و المذنبین، أسوؤها الشراب المتعفّن الکریه، و العقوبات المختلفة من کلّ طرف، و فی نفس الوقت عدم الموت، بل الاستمرار فی الحیاة و ادامة العذاب.

و لکن لا یتصوّر انّ هذا العقاب غیر عادل، لانّه- و کما قلنا مرارا- النتیجة الطبیعیّة لعمل الإنسان، بل تجسیم أفعالهم فی الآخرة، فکلّ عمل یجسّم بشکل مناسب، و إذا ما شاهدنا جنایات بعض المجرمین فی عصرنا او فی التاریخ القدیم لقلنا: حتّی هذه العقوبات قلیلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۱

بحوث

۱- ماذا یعنی مقام الربّ

؟ قرانا فی الآیات أعلاه انّ النصر علی الظالمین و اسکان الأرض للذین یخافون مقام ربّهم، فما هو المقصود من «المقام»؟ هناک عدّة احتمالات:

الف:- المقصود هو مقام الربّ عند الحساب، کما ذکرت بعض الآیات الاخری وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَوی ...، [۲۹۰] وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ [۲۹۱].

باء:- المقام بمعنی القیام ای المراقبة، و معناه الشخص الذی یخاف من مراقبة اللّه له، و یحسّ بالمسؤولیة.

ج:- و المقام بمعنی «القیام لإجراء العدالة و احقاق الحقّ».

و علی ایّة حال، فلا مانع ان تکون الآیة الشریفة متضمّنة لکلّ هذه المفاهیم، فالذین یرون مراقبة اللّه لهم، یخافون من حسابه و اجراء عدالته، خوفا بنّاء یجعلهم یحسّون بمسؤولیاتهم فی کلّ عمل یقومون به، و یبعدهم عن الظلم و الذنوب، فالغلبة و حکومة الأرض من نصیبهم.

۲- هناک جدل بین المفسّرین حول جملة «و استفتحوا» حیث اعتقد البعض بأنّها بمعنی طلب الفتح و النصر، کما ذکرناه سابقا، و شاهدهم الآیة (۱۹) من سورة الأنفال إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَکُمُ الْفَتْحُ

و قال بعض آخر: انّها بمعنی القضاء و الحکومة، یعنی انّ الأنبیاء طلبوا من اللّه ان یحکم بینهم و بین الکفّار، و شاهدهم الآیة (۸۹) من سورة الأعراف رَبَّنَا افْتَحْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَیْرُ الْفاتِحِینَ

۳- جاء فی التأریخ و التّفسیر انّ الولید بن یزید بن عبد الملک الحاکم الاموی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۲

الجبّار تفألّ بالقرآن یوما لکی یری حظّه فی المستقبل، فظهرت قوله تعالی وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ کُلُّ جَبَّارٍ عَنِیدٍ فی بدایة الصفحة،

فاستوحش و أخذته العصبية بحيث مزّق القرآن الكريم ثمّ انشد:

اتوعد كلّ جبّار عنيد؟فها انا ذاك جبّار عنيد؟

إذا ما جئت ربّك يوم حشرفقل يا ربّ مزّقنى الوليد

و لكن لم يمض وقت طويل حتّى قتل اسوا قتلة من قبل أعدائه، و قطعوا رأسه و علّقوه فوق سطح قصره، و من ثمّ نقلوه الى باب المدينة[۲۹۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۳

الآية [سورة إبراهيم (۱۴): آية ۱۸]

اشارة

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (۱۸)

التّفسير

رماد اشتدّت به الريح:

ضربت هذه الآية مثالا واضحا و بليغا لاعمال الكفّار، و بذلك تكمل بحث الآيات السابقة فى مجال عاقبة أمرهم.

يقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ فيتناثر الرماد فى الريح العاصف بحيث لا يستطيع احد جمعه، كذلك منكرو الحقّ ليست باستطاعتهم ان يجمعوا ما كسبوا لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۴

بحوث

۱- لماذا شبّهت اعمالهم كرماد اشتدّت به الريح؟ الجواب:

۱- التشبيه بالرماد (مع إمكان الاستفادة من التراب و الغبار فى ذلك) لانّه عبارة عن بقايا الاحتراق، و الآية توضّح انّ اعمالهم ظاهرية فقط و ليس لها اى محتوى، فيمكن ان تنمو وردة جميلة فى حفنة من التراب، و لكن لا يمكن ان ينمو فى الرماد حتّى العلف الرّدىء.

۲- ان ذرّات الرماد غير متلاصقة، و حتّى بمساعدة الماء لا يمكن ترابطها فالذرّات تنفصل عن بعضها البعض بسرعة، و كأنّ ذلك يشير الى انّ اعمال الكفّار غير منسجمة و لا موحّدة، على العكس من اعمال المؤمنين حيث نراها منسجمة و موحّدة و مترابطة و كلّ عمل يكمل العمل الآخر، فروح التوحيد و الوحدة لا تقتصر على توحيد الجماعة المؤمنة فى ما بينهم بل تنعكس حتّى فى اعمال الفرد المسلم.

۳- بالرغم من تناثر الرماد فى اشتداد الريح، الّا انّه يؤكّده فى يوم عاصف، لانّ الرياح إذا كانت محدودة و آنيّة فمن الممكن ان ينتقل الرماد من مكان الى مكان ليس بالبعيد، و لكن إذا كان يوم عاصف فمن البديهى ان يتناثر الرماد بشكل واسع، و تنتشر ذرّاته و لا

یمکن لایّة قدرة جمعها.

۴- إذا کـانت العاصـفة تهبّ علی التبن و أوراق الشـجر و تنثرهـا فی أمـاکن بعیـدة الّـا انّه یمکن تشخیصـها، و لکن ذرّات الرمـاد من الصغر بحیث لو انتثرت لا یبقی لها ای اثر و کأنّ لیس لها وجود سابق.

۵- انّ الریاح و حتّی العواصف لها فوائد جمّة فی الطبیعة بغضّ النظر عن آثارها المدمّرة فی بعض الأحیان، و فوائدها هی:

الف:- تقوم بنشر بذور النباتات فی کلّ مکان من الکرة الارضیّة، کالمزارع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۴۸۵

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۵

و الفلاح.

ب:- تلقّح الأشجار بنقل حبوب اللقاح من الذکور الی الإناث.

ج:- تقوم بتحریک السحاب من المحیطات الی الاراضی الیابسة.

د:- تحکّ الجبال العالیة و تحوّلها الی تراب ناعم و مفید.

ه:- تنقل الهواء من المناطق القطبیة الی المناطق الاستوائیة و بالعکس، حیث تقوم بدور فعّال فی تعدیل درجات الحرارة.

و:- انّ حرکـة الریاح تثیر البحار فتجعلها متلاطمـة و موّاجة کی یدخل فیها الهواء، لانّها إذا رکدت سوف تتعفّن، و هکذا نجد انّ کلّ ما فی الوجود من الأشجار و الکائنات الحیّة قد استفاد من هبوب الریاح کلّ علی قدره.

و لکن «الرماد» الخفیف الوزن و التافه و عـدیم الفائـدة و الذی لا یمکن لای موجود ان یعیش فیه، هذا الرماد المتناثر یتلاشـی بسـرعة حینما تهبّ الریح علیه، و یزول حتّی ظاهره غیر المفید.

۲- لماذا فرغت اعمالهم من المحتوی

؟ یجب ان نری لماذا کانت اعمال الکفّار غیر ذات قیمة و غیر ثابتة؟ و لماذا لا یستطیع الکفّار الاستفادة من نتائج اعمالهم؟

و یتّضـح الجواب علی هـذا السؤال لو درسـنا المسألـة من ناحیـة النظرة التوحیدیّة للعالم، لانّ النیّة و الهدف و المنهجیة هی التی تعطی للعمـل شـکله و مضـمونه، فـإذا کانت الخطّـة و النیّـة و الغایـة سالمـة و جـدیرة بالاهتمام فسوف یکون العمل کـذلک، و لکن لو قمنا بأحسن الأعمال بنیّـة غیر صادقة و خطّة سـقیمة و هدف شـیطانی، فإنّ ذلک العمل یکون ممسوخا و یفقد محتواه و یزول کلیّا کالرماد إذا اشتدّت به الریح! و لا بأس هنا ان نذکر مثالا حیّا لذلک، نشاهد الآن برامجا تحت عنوان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۶

حقوق الإنسـان فی العـالم الغربی و من قبل القوی المسـتکبرة، هـذه البرامـج نفسـها کانت تجری من قبل الأنبیاء ایضا، و لکن حصـیلة الاثنین متفاوتة کما بین الأرض و السّـماء. فالقوی الاسـتکباریة عند ما تنادی بحقوق الإنسان فمن المسـلّم انّ اهدافها غیر انسانیة و غیر أخلاقیة، بل التغطیة علی جرائمهم و استعمارهم بشکل اکثر، لذلک و علی سبیل المثال لو اعتقل احد جواسیسهم فی مکان ما، فسوف یملا عویلهم و صـراخهم الـدنیا بالـدفاع، عن حقوق الإنسان، و لکن عنـد ما تلطّخت أیـدیهم بـدماء آلاف الناس فی فیتنام، و ارتکبوا الفجائع فی الـدول الاسـلامیة، و نسیت فیه حقوق الإنسان، بل انّهم اسـتغلّوا حقوق الإنسان لمساعـدة الانظمة الجائرة و العمیلة! و لکن الأنبیـاء علیهم السّـلام او أوصـیاءهم ینـادون بحقوق البشـر لتحریر الإنسـان من القیود و الأغلال و الظلم، و عنـد ما یرون إنسانا مظلوما نراهم یهبون للدفاع عنه بالقول و العمل.

و بهذا النحو يكون الاوّل رماد اشتدّت به الريح، و الثّانى ارض مباركة طيّبة لنمو النباتات و الثمار و الأوراد.

و يتّضح من هنا ما دار بين المفسّرين من المقصود من العمل فى الآية أعلاه، و هو انّ مراد الآية جميع اعمال الكفّار حتّى اعمالهم الحسنة فى الظاهر، الّا انّها مبطّنة بالشرك و الإلحاد.

٣- مسألة الإحباط

هناك جدل كبير بين علماء المسلمين فى مسألة «حبط الأعمال» فهل معناه ذهاب عمل الخير بسبب عمل الشرّ، او بسبب الكفر و عدم الايمان، و لكن الحقّ ما قلناه فى ذيل الآية (٢١٧) من سورة البقرة، من انّ الإصرار على الكفر و العناد و ايضا بعض الأعمال الاخرى كالحسد و الغيبة و قتل النفس لها آثار سيّئة كبيرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص: ٤٨٧

بحيث تذهب بأعمال الخير و الحسنات.

و الآية أعلاه دليل آخر فى إمكان حبط الأعمال ٢٩٣].

٤- هل للمخترعين و المكتشفين ثواب الهى

؟ بالنظر للبحوث الآنفة الذكر يرد سؤال مهمّ، و هو انّنا من خلال مطالعتنا فى تأريخ العلوم و الاختراعات و الاكتشافات نرى انّ هناك مجموعة من العلماء استطاعوا ان يقدّموا خدمات جليلة للبشرية و تحمّلوا فى سبيل خدمة البشرية منتهى الشدّة و الصعوبة ليقدّموا اختراعاتهم و اكتشافاتهم للناس، فعلى سبيل المثال مخترع الكهرباء «اديسون» تحمّل الصعاب و يقال فقد حياته فى هذا الطريق لكنّه أضاء العالم، و حرّك المعامل، و ببركة اختراعه وجدت الآبار العميقة حيث اخضّرت الأرض و تغيّرت الدنيا. و «باستور» الذى اكتشف المكروب، و أنقذ ملايين الناس من الموت المحتوم .. فهؤلاء و عشرات مثلهم كيف يجعلهم اللّه فى جهنّم لكونهم غير مؤمنين؟ مع انّ هناك افرادا لم يقدّموا ايّة خدمة للانسانية طول حياتهم، و يدخلون الجنّة! الجواب: انّ العمل فى حدّ ذاته ليس كافيا من وجهة نظر العقيدة الاسلامية، بل قيمته فى النيّة و القوى المحرّكة له، فكثيرا ما نشاهد من اعمال الخير كبناء مدرسة او مستشفى او اى عمل آخر و هدف صاحبه فى الظاهر هو خدمة المجتمع الانسانى، الّا انّه تحت هذا الغطاء شيء آخر و ذاك هو حفظ جاهه او ماله او جلب انظار الناس اليه، و تحكيم منافعه المادية، او حتّى ستر خيانته بعيدا عن انظار الآخرين! و على العكس، فمن الممكن ان يعمل شخص عملا صغيرا، الّا انّه مخلص فى نيّته صادق، و الآن يجب ان نحقّق فى ملفات هؤلاء الرجال العظام من وجهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص: ٤٨٨

نظر عملهم و كذلك الأسباب و الدوافع، و هى لا تخرج من احد امور:

الف:- يكون الهدف من الاختراع أحيانا عملا تخريبيّا (كما فى اكتشاف الطاقة النووية حيث كان الهدف الاوّل منها صناعة القنابل النووية) و يمكن الاستفادة منها لخدمة الإنسان، الّا انّه لم يكن الهدف الاصلى من اختراعها، فقيمة عمل هذه المجموعة من المخترعين واضح تماما.

ب:- و قد يكون هدف المخترع او المكتشف الربح المادّى او الشهرة، فحكمه- فى الحقيقة- حكم التاجر الذى يقوم بتأسيس الخدمات العامّة لكى يحصل على أرباح اكثر، و يقوم بتشغيل العمّال و انتاج المحاصيل الزراعية للبلد، فالهدف من كلّ ذلك هو الحصول على اكبر وارد ممكن، و لو كان هناك عمل اكثر ربحا لركض وراءه.

بالطبع فإنّ هذه التجارة لو کانت طبقا للموازین الشرعیّة، فإنّها لیست حراما، الّا انّها لا تحتسب عملا مقدّسا و مهمّا.

و مثل هؤلاء المخترعین و المکتشفین لیسوا قلیلین علی طول التاریخ، فطریقة تفکیرهم ان یقدّموا العمل الأکثر ربحا- حتّی لو کان مضرّا بالمجتمع- (فمثلا صناعة الادویة لها من الفوائد ۲۰٪ بینما فی صناعة الهیروئین ۵۰٪ فهم یرجّحون الثّانی علی الاوّل) فحکم هذه المجموعة واضح ایضا، حیث لم یطلبوا من اللّه و لا من الناس ای شیء و جزاؤهم الربح و الشهرة فقط.

ج:- هناک مجموعة ثالثة لا شکّ فی انّ دوافعها انسانیة، او الهیّة إذا کانت الجماعة مؤمنة، و أحیانا یمضون سنین طویلة فی زوایا المختبرات بکامل الفاقة و الحرمان علی امل ان یقدّموا خدمة لبنی جنسهم، او هدیّة للعالم، لیحلّوا أغلال المتعبین، و یمسحوا التراب من وجوب المعذّبین. فإذا کان هؤلاء الافراد مؤمنین و دوافعهم الهیّة فمصیرهم واضح.

و امّا إذا کانوا غیر مؤمنین و دوافعهم انسانیّة، فسوف یحصلون علی الجزاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۹

المناسب من اللّه بلا ادنی شکّ، هذا الجزاء یمکن ان یکون فی الدنیا او الآخرة، فاللّه عزّ و جلّ عالم و عادل لا یحرمهم من ذلک، و لکن کیف؟ تفاصیله غیر واضحة لنا، و یمکن ان نقول: (انّ اللّه لا یضیع اجر هؤلاء المحسنین فیما إذا کانوا غیر مقصّرین لعدم ایمانهم).

و لیس عندنا ای دلیل من انّ الآیة إِنَّ اللَّهَ لا یُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ لا تشمل هؤلاء الافراد، فإطلاق المحسنین فی القرآن لیس خاصّا بالمؤمنین فقط، و لذلک نری انّ اخوة یوسف لما حضروا عنده و هم لا یعرفوه و یظنّون انّه عزیز مصر قالوا: إِنَّا نَراکَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ [۲۹۴] و کذلک الآیة فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ تشمل هؤلاء الافراد.

عن علی بن یقطین عن الامام الکاظم علیه السّلام قال: «کان فی بنی إسرائیل رجل مؤمن و جاره کافر، و کان هذا الجار الکافر یحسن الی جاره المؤمن، فعند ما ارتحل من الدنیا بنی له اللّه بیتا یمنعه من نار جهنّم. و قیل له: انّ هذا بسبب حسن سیرتک مع جارک المؤمن»[۲۹۵].

و

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «انّ ابن جدعان اقلّ اهل جهنّم عذابا» قالوا: لماذا یا رسول اللّه؟ قال «انّه کان یطعم الطعام» و عبد اللّه بن جدعان احد مشرکی مکّة المعروفین و من زعماء قریش ۲۹۶].

و

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعدی بن حاتم الطائی «رفع عن أبیک العذاب الشدید بسخاء نفسه»[۲۹۷].

و

عن الامام الصادق علیه السّلام قال: «أتی رسول اللّه وفد من الیمن و کان فیهم رجل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۰

أعظمهم کلاما و اشدّهم فی محاجة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فغضب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتّی التوی عرق الغضب بین عینیه، و تغیّر وجهه و اطرق الی الأرض فأتاه جبرئیل فقال:

ربّک یقرئک السّلام و یقول لک: هذا رجل سخی یطعم الطعام، فسکن عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الغضب و رفع رأسه و قال: لولا انّ جبرئیل اخبرنی عن اللّه عزّ و جلّ انّک سخی تطعم الطعام، لشدوت بک و جعلتک حدیثا لمن خلفک، فقال له الرجل: و انّ ربّک لیحبّ السخاء؟ فقال: نعم، قال: انّی اشهد ان لا اله الّا اللّه و انّک رسول اللّه و الذی بعثک بالحقّ لا رددت عن مالی أحدا»[۲۹۸].

و هنا یأتی هذا السؤال و الذی یمکن ان نستفیده من بعض الآیات و کثیر من الرّوایات، و هو: هل انّ الایمان و الولایة شرط لقبول الأعمال و الدخول الی الجنّة؟ فإذا کان کذلک فإنّ أفضل اعمال الکفّار لیس مقبولا عند اللّه.

و یمکن ان نجیب علی هذا السؤال بأنّ مسألة «قبول الأعمال» شیء، و «الجزاء المناسب» شیء آخر، فمثلا- المشهور بین علماء المسلمین انّ الصلاة بدون حضور القلب او مع ارتکاب بعض الذنوب کالغیبة غیر مقبولة عند اللّه، و نحن نعلم انّ مثل هذه الصلوات صحیحة شرعا، و تحتسب طاعة لاوامر اللّه و تفرغ بها ذمّة المصلّی و الطاعة لا تکون بدون اجر. و لذلک فقبول العمل هو الدرجة العالیة للعمل، و نحن نقول هذا ایضا: إذا کانت الخدمات الانسانیة مصاحبة للایمان فلها أعلی المضامین، و لکن فی غیر هذه الصورة لا تکون بدون مضمون و جزاء، و جزاء العمل لا ینحصر بدخول الجنّة. (هذه عصارة الفکرة بما یتناسب و هذا التّفسیر، و تفصیل ذلک فی الأبحاث الفقهیّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۱

الآیتان [سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۱۹ الی ۲۰]

اشارة

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ (۱۹) وَ ما ذلِکَ عَلَی اللَّهِ بِعَزِیزٍ (۲۰)

التّفسیر

الخلق علی أساس الحقّ:

بعد ما بحثنا عن الباطل و انّه کالرماد المتناثر إذا اشتدّت به الریح، نبحث فی هذه الآیة عن الحقّ و استقراره. یقول اللّه تعالی مخاطبا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتباره الاسوة لکلّ دعاة الحقّ أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

«الحقّ» کما یقول الراغب فی مفرداته «المطابقة و التنسیق» و له استعمالات اخری: فتارة یستعمل الحقّ فی العمل الصادر وفقا للحکمة و النظام کما فی قوله تعالی: هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً ... ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِکَ إِلَّا بِالْحَقِ [۲۹۹] و تارة یطلق علی الشخص الذی قام بهذا العمل المحکم، کما نطلقها علی اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۲

عزّ و جلّ فَذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمُ الْحَقُ [۳۰۰] و تارة اخری یطلق علی الاعتقاد الذی یطابق الواقع کما فی قوله تعالی:

فَهَدَی اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ الْحَقِ [۳۰۱] و مرّة یقال للقول و العمل الذی یتحقّق فی الوقت المناسب کما فی قوله تعالی: حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ [۳۰۲] و علی ایّة الحال فمقابل «الحقّ» الباطل و الضلال و اللعب و أمثالهما.

لکنّ الآیة التی نحن بصددها تشیر الی المعنی الاوّل، و هو إنشاء عالم الخلق.

حیث توضّح السّماء و الأرض انّ فی الهدف من خلقها الحکمة و النظام و الحساب. فاللّه تعالی لیس محتاجا فی خلقها و لا ناقصا لکی یسدّ نقصه بها، بل هو الغنی عن کلّ شیء، و هذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات و تکاملها.

ثمّ یضیف: انّ الدلیل فی عدم الحاجة إلیکم و لا الی ایمانکم هو: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ.

و هذا العمل لیس صعبا عند اللّه وَ ما ذلِکَ عَلَی اللَّهِ بِعَزِیزٍ.

و الشاهد علی هذا القول فی سورة النساء وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ غَنِیًّا حَمِیداً ... إِنْ یَشَأْ

يُذْهِبْكَمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً.[۳۰۳] و هذا التّفسير بخصوص الآية أعلاه منقول عن ابن عبّاس.

و هناك احتمال آخر، و هو انّ الجملة أعلاه تشير الى مسألة المعاد و انّ اللّه قادرا على ان يفنى جميع الناس و يأت بخلق آخر، فهل تشكّون فى مسألة المعاد و بعثكم من جديد؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۳

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۲۱ الى ۲۳]

اشارة

وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (۲۱) وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۲) وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (۲۳)

التّفسير

المحادثة الصريحة بين الشيطان و اتباعه:

اشارت الآيات السابقة الى العقاب الشديد للمخالفين و المعاندين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۴

و الكافرين، و هذه الآيات تكمل ذاك البحث.

يقول تعالى اوّلا: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً[۳۰۴].

و فى هذه الأثناء يقول الضعفاء الذين تاهوا فى وادى الضلالة للمستكبرين الذين كانوا سبب ضلالهم فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فيجيبونهم بدون توقّف قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ

و لكن للأسف فالمسألة منتهية سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ

ملاحظات

۱- ما هو المراد من وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً

؟ أوّل سؤال يطرح بخصوص هذه الآية هو: هل أنّ الناس فى هذه الدنيا غير ظاهرين فى علم اللّه لكى تقول الآية: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً؟

فى الجواب على هذا السؤال قال كثير من المفسّرين: انّ المقصود عدم احساس الناس بهذا الظهور و البروز امام اللّه فى هذه الدنيا، فيكون احساسهم ظاهرا لهم فى الآخرة.

و قال بعض ايضا: المقصود هو البروز و الظهور من القبور فى ساحة العدل الالهى للحساب.

هذان التّفسیران جیدان و لیس هناک مانع من ان تجمعا فی مفهوم الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۵

۲- ما هو المقصود من جملة لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَیْناکُمْ

؟ یعتقد کثیر من المفسّرین انّ المقصود الهدایة عن طریق النجاة من العقاب الالهی فی ذلک العالم، لانّ هذا الحدیث قاله المستکبرون لاتباعهم حینما طلبوا منهم ان یغنوا عنهم قسما من العذاب، فالسؤال و الجواب متناسبان و یوحیان انّ المقصود هو هدایتهم للنجاة من العذاب.

و قد استخدم القرآن هذه الکلمة «الهدایة» بخصوص الوصول الی نعم الجنّة، کما یقول اهل الجنّة: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی هَدانا لِهذا وَ ما کُنَّا لِنَهْتَدِیَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ [۳۰۵] و هناک احتمال انّ «قادة الضلالة» حینما یرون أنفسهم امام طلب اتباعهم، و لکی یتنصّلوا من الذنب و یلقوا باللائمة علی الغیر، کما هی طریقة کلّ المستکبرین- یقولون بکلّ وقاحة: ماذا نعمل؟ فلو کان اللّه قد هدانا الی الطریق الصحیح لهدیناکم الیه! و معناه انّنا مجبورون علی ذلک و لیست لنا ارادة حرّة.

و هذا هو منطق الشیطان بعینه، او لیس هو القائل فَبِما أَغْوَیْتَنِی لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَکَ الْمُسْتَقِیمَ و لکن یجب ان یعلم المستکبرون انّهم یتحمّلون مسئولیة ذنوب اتباعهم شاؤوا ام أبوا، طبقا لصریح القرآن و الرّوایات، لانّهم المؤسّسون للانحراف و الضلال دون ان ینقص ای شیء من عذاب اتباعهم.

۳- أوضح بیان فی ذمّ التقلید الأعمی

یتّضح لنا من الآیة أعلاه ما یلی:

اوّلا: الأشخاص الذین یضعون زمام أمورهم بید الآخرین هم ضعفاء الشخصیّة، و قد عبّر عنهم القرآن الکریم ب الضُّعَفاءُ.

ثانیا: انّ مصیرهم و مصیر قادتهم واحد، و هؤلاء البؤساء لا یستطیعون حتّی فی احلک الظروف ان یستفیدوا من حمایة قادتهم المضلّین، او ان یخفّفوا عنهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۶

قلیلا من العذاب، بل یسخرون منهم و یقولون لهم: لا تجزعوا و لا تفزعوا فلا طریق للخلاص و النجاة من العذاب! ثالثا: «برزوا» فی الأصل من مادّة «البروز» ای الظهور او الخروج من الصفّ فی مقابل الخصم فی ساحة القتال، و تأتی ایضا بمعنی المقاتلة.

«المحیص» من «المحص» بمعنی التخلّص من العیوب او الألم.

ثمّ یشیر القرآن الکریم الی موقف آخر من مواقف القیامة و العقاب النفسی للجبّارین و المذنبین و اتباعهم الشیاطین، حیث یقول تعالی: وَ قالَ الشَّیْطانُ لَمَّا قُضِیَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُکُمْ فَأَخْلَفْتُکُمْ و بهذا الترتیب فالشیطان و جمیع المستکبرین الذین هم قادة طرق الضلال، أصبحوا یلومون و یوبّخون تابعیهم البؤساء.

ثمّ یضیف وَ ما کانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی و یستمرّ فی القول فَلا تَلُومُونِی وَ لُومُوا أَنْفُسَکُمْ أنتم فعلتم فاللعنة علیکم!! و علی کلّ حال فلا انا أستطیع انقاذکم من العذاب و لا أنتم تستطیعون انقاذی: ما أَنَا بِمُصْرِخِکُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِیَ و الآن أعلمکم بأنّی أتبرّأ من شرککم و إطاعتکم لی إِنِّی کَفَرْتُ بِما أَشْرَکْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ فقد فهمت الآن انّ الشرک فی الطاعة ادّی الی شقائی و شقائکم، و هذه التعاسة لیس لها طریق للنجاة، و اعلموا إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ

بحوث

۱- جواب الشیطان الحاسم لاتباعه

مع انّ کلمة «الشیطان»[۳۰۶] لها مفهوم واسع و تشمل کلّ الطواغیت و وساوس

الجنّ و الانس، و لکن فی قراءتنا لهـذه الآیـة و ما قبلها علمنا انّ المقصود هنا هو شـخص إبلیس الذی یعتبر رئیسا للشـیاطین، و لذلک انتخب جمیع المفسّرین هذا التّفسیر ایضا.

و نستفید بشکل اکید من هذه الآیة انّ وساوس الشیطان لا تسلب الإنسان اختیاره و حریة ارادته، بل هی مجرّد دعوة لیس اکثر، فالناس هم الـذین یلبّون دعوته بإرادتهم، و قـد تصل الارضیّة السابقـة و الـدوام علی الخلاف بالإنسان الی حالة من سـلب الاختیار فی مقابل وساوسه، کما نشاهـد بعض المـدمنین علی المخدرات، و لکن نعلم انّ السـبب الاوّل کان هو الاختیار. یقول تعالی فی الآیة (۱۰۰) من سورة النحل: إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَی الَّذِینَ یَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِینَ هُمْ بِهِ مُشْرِکُونَ

و علی هذا فالشـیطان یجیب بشـکل قاطع علی الذین یعتبرونه العامل الاوّل فی انحرافهم و ضـلالهم، و ما یقوله بعض الجهلاء لتبرئتهم من ذنوبهم، فإنّ السلطان الحقیقی علی الإنسان هو ارادته و عمله و لا شیء غیره.

۲- کیف استطاع الشیطان ان یلتقی باتّباعه و یلومهم فی ذاک الموقف الکبیر؟

الجواب: هو انّ اللّه تعالی یمنحه القدرة علی ذلک، و هذا فی الواقع نوع من العقاب النفسـی لاتباع الشیطان، و إنذار لکلّ السائرین فی طریقه فی هـذه الـدنیا، لکی یعلموا من الآن مصـیرهم و مصـیر قادتهم، و علی ایّة حال فاللّه تعالی بطریقة ما یهیئ وسـیلة الارتباط بین الشیطان و اتباعه.

و من الطّریف انّ هـذه المواجهـة غیر منحصـرة بالشـیطان و اتباعه، بل انّ جمیع ائمّـة الضـلالة فی هـذا العالم لهم نفس البرنامج ایضا، یأخـذون بأیـدی اتباعهم (بموافقتهم طبعا) و یـذهبون بهم الی أمواج العذاب و البلاء، و حینما یرون الأوضاع سیّئة یترکونهم و شأنهم حتّی انّهم یلومونهم و یوبّخونهم فی خسران

الدنیا و الآخرة.

۳- «المصـرخ» من مـادّة «اصـراخ» و فی الأصل من مادّة «صـرخ»، و هی بمعنی الاغاثـة و طلب المساعـدة، و لـذلک فالمصـرخ بمعنی المغیث، و المستصرخ طالب الاستغاثة.

۴- القصد من اتّخاذ الکفّار الشیطان شریکا فی الآیة أعلاه شرک الطاعة و لیس شرک العبادة.

۵- فی انّ جملة إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ تابعة لحدیث الشـیطان ام کلام مستقل من اللّه تعالی، هناک آراء مختلفة عند المفسّرین، لکن التّفسیر الأقرب هو انّ الجملة مستقلّة و من کلام اللّه حیث قالها فی نهایة حدیث الشیطان مع اتباعه لتکون درسا تربویّا.

و بعـد بیان حال الجبّارین و الظالمین و مصـیرهم المؤلم، تتطرّق الآیـة الاخیرة من هذا البحث الی حال المؤمنین و عاقبتهم حیث یقول تعالی: وَ أُدْخِلَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ الی آخر الآیة.

«التحیّة» فی الأصل «الحیاة» و تستعمل لسلامة و حیاة الافراد، و تطلق لکلّ تحیّة و سلام و دعاء فی بدایة اللقاء.

قال بعض المفسّرین: «التحیة» هنا من اللّه للمؤمنین قرینة علی نعمهم و سلامتهم من کلّ أذی و نزاع (لذلک فتحیّتهم اضافة لمفعول، و فاعله اللّه).

و قال البعض الآخر: انّ القصد هو تحیّة المؤمنین فیما بینهم، او تحیّة الملائکة لهم، و علی ایّة حال ف «سلام» التی قیلت بشکل مطلق لها من المفهوم الواسع بحیث یشمل کلّ سلامة من ای نوع من انواع العذاب الروحی و الجسمی ۳۰۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۹

الآیات [سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۲۴ الی ۲۷]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا کَلِمَةً طَیِّبَةً کَشَجَرَةٍ طَیِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ (۲۴) تُؤْتِی أُکُلَها کُلَّ حِینٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۲۵) وَ مَثَلُ کَلِمَةٍ خَبِیثَةٍ کَشَجَرَةٍ خَبِیثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (۲۶) یُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَةِ وَ یُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِینَ وَ یَفْعَلُ اللَّهُ ما یَشاءُ (۲۷)

التّفسیر

الشّجرة الطیّبة و الشّجرة الخبیثة

! هنا مشهد آخر فی تجسیم الحقّ و الباطل، الکفر و الایمان، الطیّب و الخبیث ضمن مثال واحد جمیل و عمیق المعنی ... یکمل البحوث السابقة فی هذا الباب.

یقول تعالی اوّلا: أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا کَلِمَةً طَیِّبَةً کَشَجَرَةٍ طَیِّبَةٍ ثمّ یشیر الی خصائص هذه الشجرة الطیّبة فی جمیع ابعادها ضمن عبارات قصیرة.

و لکن قبل ان نستعرض هذه الخصائص یجب ان نعرف ما المقصود من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۰

«الکلمة الطیّبة»؟

قال بعض المفسّرین: انّها کلمة التوحید (لا اله الّا اللّه).

و قال آخرون: انّها تشیر الی الأوامر الالهیّة.

و قال البعض الآخر: انّه الایمان الذی محتواه و مفهومه (لا اله الّا اللّه).

و قال آخرون فی تفسیرها: انّها شخص المؤمن.

و أخیرا قال بعضهم: انّها الطریقة و البرامج العملیّة.

و لکن بالنظر الی سعة مفهوم و محتوی الکلمة الطیّبة نستطیع ان نقول: انّها تشمل جمیع هذه الأقوال، لانّ «الکلمة» فی معناها الواسع تشمل جمیع الموجودات، و لهذا السبب یقال للمخلوقات «کلمة اللّه».

و «الطیّب» کلّ طاهر و نظیف، فالنتیجة من هذا المثال انّه یشمل کلّ سنّة و دستور و برنامج و طریقة، و کلّ عمل، و کلّ انسان .. و الخلاصة: کلّ موجود طاهر و نظیف و ذی برکة، و جمیعها کشجرة طیّبة فیها الخصائص التالیة:

۱- کائن یمتلک الحرکة و النمو، و لیس جامدا و لا خاملا، بل ثابت و فاعل و مبدع للآخرین و لنفسه (التعبیر ب «الشجرة» بیان لهذه الحقیقة).

۲- هذه الشجرة طیّبة، و لکن من ایّة جهة؟ بما انّه لم یذکر لها قسم خاص بها، فإنّها طیّبة من کلّ جهة .. منظرها، ثمارها، ازهارها،

ظلالها، و نسیمها جمیعها طیب و طاهر.

۳- لهذه الشجرة نظام دقیق، لها جذور و أغصان، و کلّ واحد له وظیفته الخاصّة، فوجود الأصل و الفرع فیها دلیل على سیادة النظام الدقیق علیها.

۴- أصلها ثابت محکم بشکل لا یمکن ان یقلعها الطوفان و لا العواصف.

و باستطاعتها ان تحفظ أغصانها العالیة فی الفضاء و تحت نور الشمس، لانّ الغصن کلّما کان عالیا یحتاج الى جذور قوّیة أَصْلُها ثابِتٌ

۵- انّ أغصان هذه الشجرة الطیّبة لیست فی محیط ضیّق و لا ردیء، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۱

مقرّها فی عنان السّماء، و هذه الاغصان و الفروع تشقّ الهواء و تصعد فیه عالیا وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ.

و من الواضح انّ الاغصان کلّما کانت عالیة و سامقة تکون بعیدة عن التلوّث و الغبار و تصبح ثمارها نظیفة، و تستفید اکثر من نور الشمس و الهواء الطلق، فتکون ثمارها طیّبة جدّا[۳۰۸].

۶- هذه الشجرة کثیرة الثمر لا کالأشجار الذابلة العدیمة الثمر، و لذلک فهی کثیرة العطاء تُؤْتِی أُکُلَها.

۷- و ثمارها لیست فصلیة، بل فی کلّ فصل و زمان، فإذا أردنا ان نمدّ یدنا الى أغصانها فی ای وقت لم نرجع خائبین کُلَّ حِینٍ

۸- انّ إنتاجها من الثمار یکون وفق قوانین الخلقة و السنن الالهیّة و لیس بدون حساب بِإِذْنِ رَبِّها.

و الآن یجب ان نفتّش، این نجد هذه الخصائص و البرکات؟

نجدها بالتأکید فی کلمة التوحید و محتواها، و فی الإنسان الموحّد ذی المعرفة، و فی البرامج الحیّة النظیفة، و جمیعها نامیة و متحرّکة و لها اصول ثابتة و محکمة و فروع کثیرة و عالیة بعیدة عن التلوّث بالادران الجسدیّة و الدنیویة، و کلّها مثمرة و فیّاضة.

و ما من احد یأتی إلیها و یمدّ یده الى فروعها الّا و یستفید من ثمارها اللذیذة العطرة، و تتحقّق فیه الخصال المذکورة، فعواصف الاحداث الصعبة و المشاکل الکبیرة لا تزحزحه من مکانه، و لا یتحدد، وافق تفکیره فی هذه الدنیا الصغیرة، بل یشقّ حجب الزمان و المکان و یسیر نحو المطلق اللامتناهی.

سلوکهم و برامجهم لیست تابعة للهوى و الهوس، بل طبقا للأوامر الالهیّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۲

و بإذن ربّهم، و هذا هو مصدر الحرکة و النمو فی حرکتهم.

الرجال العظام من المؤمنین هم کلمة اللّه الطیّبة، و حیاتهم اصل البرکة، دعوتهم توجب الحرکة، آثارهم و کلماتهم و أقوالهم و کتبهم و تلامیذهم و تاریخهم .. و حتّى قبورهم جمیعها ملهمة و حیّة و مربّیة.

نعم وَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ

و هناک سؤال مطروح بین المفسّرین و هو: هل لوجود هذه الشجرة و صفاتها واقع خارجی؟

یعتقد البعض بوجودها و هی النخلة، و لذلک اضطروا الى ان یفسّروا کُلَّ حِینٍ بستّة أشهر.

و لکن لا حاجة الى الإصرار فی وجود مثل هذه الشجرة، بل هناک تشبیهات کثیرة و لیس لها وجود خارجی أصلا.

و على ایّة حال، فالهدف من التشبیه هو تجسیم الحقائق و المسائل العقلیّة و صبّها فی قالب الحواس، و هذه الأمثال لیس فیها ای إبهام، بل هی مقبولة و مؤثّرة و جذّابة.

و فی عین الحال هناک أشجارا فی هذه الدنیا ثمارها لا تنقطع على طول السنة، و قد رأینا بعض الأشجار فی المناطق الحارّة و کانت مثمرة و فی نفس الوقت لها ازهار جدیدة للثمار المقبلة! و بما انّ احد أفضل الطرق لتوضیح المسائل هو الاستفادة من طریق المقابلة و المقایسة، فقد جعلت النقطة المقابلة للشجرة الطیّبة، الشجرة الخبیثة وَ مَثَلُ کَلِمَةٍ خَبِیثَةٍ کَشَجَرَةٍ خَبِیثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ

قَرارٍ.

و الكلمة «الخبيثة» هى كلمة الكفر و الشرك، و هى القول السىء و الردىء، و هى البرنامج الضالّ و المنحرف، و الناس الخبثاء، و الخلاصة: هى كلّ خبيث و نجس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۳

و من البديهى انّ مثل هذه الشجرة ليس لها اصل، و لا نمو و لا تكامل و لا ثمار و لا ظلّ و لا ثبات و لا استقرار، بل هى قطعة خشبيّة لا تصلح الّا للاشتعال ...

بل اكثر من ذلك هى قاطعة للطريق و تزاحم السائرين و أحيانا تؤذى الناس! و من الطريف انّ القرآن الكريم فصل الحديث فى وصف الشجرة الطيّبة بينما اكتفى فى وصف الشجرة الخبيثة بجملة قصيرة واحدة اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ، و هذا نوع من لطافة البيان ان يتابع الإنسان جميع خصوصيات ذكر «المحبوب» بينما يمرّ بسرعة فى جملة واحدة بذكر «المبغوض»! و مرّة اخرى نجد المفسّرين اختلفوا فى تفسير الشجرة الخبيثة، و هل لها واقع خارجى؟

قال البعض: انّها شجرة «الحنظل» و التى لها ثمار مرّة و رديئة.

و اعتقد آخرون انّها «الكشوت» و هى نوع من الاعشاب المعقّدة التى تنبت فى الصحراء و لها اشواك قصيرة تلتفّ حولها و ليس لها جذر و لا أوراق.

و كما قلنا فى تفسير الشجرة الطيّبة، ليس من اللازم ان يكون للشجرة الخبيثة وجود خارجى فى جميع صفاتها، بل الهدف هو تجسيم الوجه الحقيقى لكلمة الشرك و البرامج المنحرفة و الناس الخبثاء، و هؤلاء كالشجرة الخبيثة ليس لها ثمار و لا فائدة ... الّا المتاعب و المشاكل. مضافا الى انّ الأشجار و النّباتات الخبيثة التى قلعتها الأعاصير ليست قليلة.

و بما انّ الآيات السابقة جسّدت حال الايمان و الكفر، الطيّب و الخبيث من خلال مثالين صريحين، فإنّ الآية الاخيرة تبحث نتيجة عملهم و مصيرهم النهائى، يقول تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِى الْآخِرَةِ لانّ ايمانهم لم يكن ايمانا سطحيا و شخصيتهم لم تكن كاذبة و متلوّنة، بل كانت شجرة طيّبة أصلها ثابت و فرعها فى السّماء، و بما انّ ليس هناك من لا يحتاج الى اللطف الالهى، و بعبارة اخرى: كلّ المواهب تعود لذاته المقدّسة، فالمؤمنون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۴

المخلصون الثابتون بالاستناد الى اللطف الالهى يستقيمون كالجبال فى مقابل ايّة حادثة. و اللّه تعالى يحفظهم من الزلّات التى تعتريهم فى حياتهم. و من الشياطين الذين يوسوسون لهم زخرف الحياة ليزلّوهم عن الطريق.

و كذلك فاللّه تعالى يثبّتهم امام القوى الجهنّمية للظالمين القساة، الذين يسعون لاخضاعهم بأنواع التهديد و الوعيد.

و من الطريف انّ هذا الحفظ و التثبت الإلهيين يستوعبان كلّ حياتهم فى هذه الدنيا و فى الآخرة، فهنا يثبتون بالايمان و يبرؤون من الذنوب، و هناك يخلدون فى النعيم المقيم.

ثمّ يشير الى النقطة المقابلة لهم وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ.

قلنا مرارا: انّ الهداية و الضلال التى تنسب الى اللّه عزّ و جلّ لا تتحقّقان الّا بأن يرفع الإنسان القدم الاوّل لها، فاللّه عزّ و جلّ عند ما يسلب المواهب و النعم من العبد او يمنحها له يكون ذلك بسبب استحقاقه او عدم استحقاقه.

و وصف «الظالمين» بعد جملة «يُضِلُّ اللَّهُ» أفضل قرينة لهذا الموضوع، يعنى ما دام الإنسان غير ملوّث بالظلم لا تسلب الهداية منه، امّا إذا تلوّث بالظلم و عمّت وجوده الذنوب، فسوف يخرج من قلبه نور الهداية الالهيّة، و هذه عين الارادة الحرّة. و بالطبع إذا غيّر مسيره بسرعة فطريق النجاة مفتوح له، و لكن إذا استحكم الذنب فإنّ طريق العودة يكون صعبا جدّا.

بحوث

۱- هل القصد من الآخرة فى الآية هو القبر

؟ نقرا فى روايات متعدّدة انّ اللّه يثبت الإنسان على خطّ الايمان عند ما يواجه اسئلة الملائكة فى القبر، و هذا معنى الآية يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۵

فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ.

و لقد وردت كلمة «القبر» بصراحة فى بعض هذه الرّوايات [۳۰۹].

و لكن هناك

رواية شريفة عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «انّ الشيطان ليأتى الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه و عن شماله ليضلّه عمّا هو عليه، فيأبى اللّه عزّ و جلّ له ذلك، و هو قول اللّه عزّ و جلّ: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ[۳۱۰].

و اكثر المفسّرين يميلون الى هذا التّفسير، طبقا لما نقله المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان و لعلّ ذلك يعود الى انّ الآخرة ليست محلا للأعمال و لا للانحراف، بل هى محلّ الحصول على النتائج فحسب و لكن عند وقوع الموت و حتّى فى البرزخ (الذى هو عالم بين الدنيا و الآخرة) قد تحصل بعض الهفوات، فهنا يكون اللطف الالهى عاملا فى حفظ و ثبات الإنسان.

۲- دور الثبات و الاستقامة

من بين جميع الصفات التى ذكرتها الآيات أعلاه للشجرة الطيّبة و الخبيثة، وردت مسألة الثبات و عدم الثبات بشكل اكثر، و حتّى فى بيان ثمار هذه الشجرة يقول تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا و بهذا الترتيب تتّضح لنا اهميّة الثبات و دوره فى حياة الإنسان.

فكثير من الأشخاص من ذوى القابليات المتوسطة، الّا انّهم ينالون انتصارات كبيرة فى حياتهم، ثمّ إذا حقّقنا فى الأمر لم نجد دليلا الّا الثبات و الاستقامة لديهم.

و من جهة اجتماعية لا يتحقّق اى تقدّم فى البرامج الّا فى ظلّ الثبات، و لهذا السبب نجد المخرّبين يسعون فى تدمير الاستقامة، و لا نعرف المؤمنين الصادقين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۶

الّا من خلال استقامتهم و ثباتهم فى مقابل الحوادث الصعبة.

۳- الشجرة الطيّبة و الخبيثة فى الرّوايات الاسلامية

كما قلنا أعلاه فإنّ كلمة «الطيّبة» و «الخبيثة» التى شبّهت الشجرتان بها، لها مفهوم واسع بحيث تشمل كلّ شخص و برنامج و مبدا و فكر و علم و قول و عمل، و لكن وردت فى بعض الرّوايات فى موارد خاصّة و لكن لا تنحصر بها.

و من جملتها ما

ورد فى الكافى عن الامام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ قال: «رسول اللّه أصلها و

امير المؤمنين فرعها، و الائمّـة من ذرّيتهما أغصانها، و علم الائمّـة ثمرها، و شيعتهم المؤمنون ورقها، هل فيها فضل؟» (اى هل يبقى شىء) قال قلت: لا و اللّه، قال:

«و اللّه انّ المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، و انّ المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها»[۳۱۱].

و

عنه ايضا عليه السّلام حينما سأله سائل عن معنى الآيـة تُؤْتِی أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها قال: «ذاك علم الائمّـة يأتيكم كلّ عام من كلّ المناطق»[۳۱۲].

و

فى رواية اخرى: «الشجرة الطيّبة رسول اللّه و على و فاطمة و بنوها، و الشجرة الخبيثة بنو اميّة»[۳۱۳].

و فى بعضها الآخر فسّرت الشجرة الطيّبة بالنخل و الخبيثة بالحنظلة.

و على ايّة حال ليس هناك من تضادّ بين هذه التفاسير، بل بينها و بين ما قلناه أعلاه ترابط و تنسق، لانّها مصاديقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۷

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (۲۸) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (۲۹) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (۳۰)

التّفسير

نهاية كفران النعم:

الخطاب فى هذه الآيات موجّه للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو فى الحقيقة عرض لواحد من موارد «الشجرة الخبيثة».

يقول تعالى اوّلا: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا ... الى نهايـة الآية. هؤلاء هم جذور الشّـجرة الخبيثة و قادة الكفر و الانحراف، لديهم أفضـل نعمة و هو رسول اللّه، و باسـتطاعتهم ان يسـتفيدوا منه فى الطريق الى السعادة، الّا انّ تعصّبهم الأعمى و عنادهم و حقدهم صارت سببا فى تركهم هذه النعمة الكبيرة، و لم يقتصروا على تركها فحسب. بل اضلّوا قومهم ايضا ممّا جعلهم يسلكون هذا السلوك.

مع انّ بعض المفسّرين الكبار عند متابعتهم للروايات الاسلامية فسّروا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۸

أحيانا- هذه النعمة بوجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أحيانا أخرى بالأئمة عليهم السّلام، و فسّروا الكافرين بهذه النعمة «بنى اميّـة» و «بنى المغيرة» مرّة، و مرّة اخرى جميع الكفّار الـذين عاصـروا عهد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و لكن من المسـلّم به انّ للآية مفهوما أوسع من هذا، و ليس مختصّا بمجموعة معيّنة، بل تشمل جميع الافراد الذين يكفرون بالنعم الالهيّة.

و تثبت الآيـة ضـمنا هـذه الحقيقـة، و هى انّ الاسـتفادة من وجود القادة العظام تعود لنفس الإنسان، كما انّ الكفر بهـذه النعمة العظيمة يؤدّى الى الهلاك و البوار.

ثمّ انّ القرآن الكريم يفسّر دار البوار بقوله تعالى: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ[۳۱۴].

ثمّ یشیر فی الآیهٔ الاخری الی واحدهٔ من أسوإ انواع کفران النعم وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِهِ لکی یستفیدوا عدّهٔ ایّام من حیاتهم المادیّهٔ و من رئاستهم و حکومتهم فی ظلّ الشرک و الکفر لإضلال الناس عن طریق الحقّ.

ایّها النّبی قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِیرَکُمْ إِلَی النَّارِ.

فحیاتکم هذه شقاء و رئاستکم فاسدهٔ، و مع ذلک فانّها تعدّ حیاهٔ لذیذهٔ و سعیدهٔ بالنسبهٔ للنهایهٔ التی تنتظرهم، کما نقرا فی آیهٔ اخری قُلْ تَمَتَّعْ بِکُفْرِکَ قَلِیلًا إِنَّکَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ.[۳۱۵].

بحوث

۱- یقال فی العبارات الدارجهٔ: انّ الشخص الفلانی کفر بنعمهٔ اللّه، و لکن الآیهٔ أعلاه تقول: الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ کُفْراً انّ هذا التعبیر الخاص یدلّ علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۹

احد أمرین:

الف: المراد من تبدیل «النعمهٔ» الی «کفران» هو عدم شکرهم لهذه النعم، فبدّلوا الشکر بالکفران (فی الحقیقهٔ کلمهٔ الشکر مقدّرهٔ، ففی التقدیر: الذین بدّلوا شکر نعمهٔ اللّه کفرا).

ب:- انّ المقصود هو تبدیلهم نفس «النعمهٔ» «کفرا»، و فی الحقیقهٔ فإنّ النعم الالهیّهٔ وسائل، و طریقهٔ استعمالها مرتبطهٔ بإرادهٔ الإنسان، فمثلما یمکن ان نستفید منها فی طریق السعادهٔ و الایمان و العمل الصالح، یمکن ان نستعملها کذلک فی مسیر الکفر و الظلم و الفساد، فهی کالمواد الاوّلیهٔ التی یمکن بمساعدتها الحصول علی انواع مختلفهٔ من الانتاج، الّا انّها خلقت فی الأصل للخیر و السعادهٔ.

۲- لیس «کفران النعم» عدم الشکر اللسانی فقط، بل کلّ استفادهٔ غیر صحیحهٔ و منحرفهٔ للنعم، تلک هی حقیقهٔ الکفران، و امّا عدم الشکر باللسان ففی الدرجهٔ الثانیهٔ، و کما قلنا سابقا فإنّ شکر النعمهٔ تعنی صرفها فی الهدف الذی خلقت من اجله، و الشکر علیها باللسان یأتی فی الدرجهٔ الثانیهٔ، فإذا قلنا آلاف المرّات: الحمد للّه، و لکنّنا اسأنا عملیّا الاستفادهٔ من النعم، فذلک کفران للنعم.

و فی عصرنا الحاضر أفضل نموذج لتبدیل النعم بالکفران هو استخدام الإنسان لمواهب الطبیعهٔ بفکره و مهارته التی منحها اللّه للإنسان لخدمهٔ منافعه الخاصّهٔ. فالاکتشافات العلمیّهٔ و الخبرات الصناعیهٔ غیّرت وجه العالم و رفعت عن کاهل الإنسان عبئا ثقیلا و وضعته علی عجلات المعامل. فالمواهب و النعم الالهیّهٔ اکثر من ای زمن آخر، و وسائل نشر المعارف و انتشار العلوم و معرفهٔ جمیع اخبار العالم متوفّرهٔ فی ایدی الجمیع، فیجب علی الناس فی هذا العصر ان یکونوا سعداء من الناحیهٔ المادیّهٔ و المعنویهٔ.

و لکن بسبب تبدیل النعم الالهیّهٔ الکبیرهٔ الی کفران، و صرف القوی الطبیعیّهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۰

فی طریق الظلم و الطغیان و استخدام الاختراعات و الاکتشافات فی طریق الاهداف المخربهٔ بحیث انّ کلّ تطور صناعی یستخدم اوّلا فی عملیات التدمیر.

و خلاصهٔ القول: انّ عدم الشکر هذا و الذی هو بعید عن التعالیم الصالحهٔ للأنبیاء ادّی الی ان یجرّوا قومهم و مجتمعهم الی دار البوار.

و دار البوار هذه هی مجموعهٔ من الحروب الاقلیمیّهٔ و العالمیّهٔ بکلّ آثارها التخریبیّهٔ، و کذلک عدم الأمن و الظلم و الفساد و الاستعمار حیث یبتلی بها فی النهایهٔ المؤسّسون لها ایضا، کما رأینا فی السابق و نراه الیوم.

و ما الطف تصویر القرآن حیث جعل مصیر کلّ الأقوام و الأمم التی کفرت بأنعم اللّه الی دار البوار.

۳- «أنداد» جمع «ندّ» بمعنی «المثل» و لکن الراغب فی مفرداته و الزبیدی فی تاج العروس قالا: انّ «الندّ» یقال للشیء الذی یشابه الشیء الآخر جوهریا، و «المثل» یطلق علی کلّ شیء شبیه لشیء، و لذلک فالندّ له معنی اعمق و ادقّ من المثل.

و طبقا لهـذا المعنى نسـتفيد من الآيـة أعلاه انّ ائمّة الكفر كانوا يسـعون لان يجعلوا للّه شـركاء و يشـبهوهم فى جوهر ذاتهم باللّه عزّ و جلّ، لكى يضلّوا الناس عن عبادة اللّه و يحصلوا على مقاصدهم الشريرة.

فتارة يقرّبون لهؤلاء الشـركاء القرابين، و اخرى يجعلون قسـما من النعم الالهيّة (كبعض الانعام) مخصوصة للأصـنام، و يعتقدون أحيانا بعبادتها. و اوقح من ذلك كلّه كانوا يقولون أثناء حجّهم فى عصـر الجاهلية: (لبّيك لا شـريك لك- الا شريك هو لك- تملكه و ما ملك)[۳۱۶].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۱

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۳۱ الى ۳۴]

اشارة

قُلْ لِعِبادِیَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِیَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ (۳۱) اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمـاءِ مـاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِیَ فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (۳۲) وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ (۳۳) وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (۳۴)

التّفسير

عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن:

تعقيبا للآيات السابقة فى الحديث عن برنامج المشـركين و الذين كفروا بأنعم اللّه و كون مصيرهم الى دار البوار، تتحدّث هذه الآيات عن برنامج عباد اللّه المخلصين و النعم النازلة عليهم، يقول تعالى: قُلْ لِعِبادِیَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۲

الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً قبل ان يأتى ذلك اليوم الذى لا يستطيع فيه الإنسان من التخلّص من العذاب بشراء السعادة و النعيم الخالد، و لا تنفع الصداقة حينئذ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِیَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ

ثمّ تتطرّق الآيـة الى معرفة اللّه عن طريق نعمه، معرفة تؤدّى الى احياء ذكره فى القلوب، و تحثّ الإنسان على تعظيمه فى مقابل لطفه و قدرته، لانّ من الأمور الفطرية ان يشعر الإنسان فى قلبه بالحبّ و الودّ لمن أعانه و احسن اليه.

و يبيّن هذا الموضوع من خلال عدّة آيات اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ثمّ انّه وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ سواء من جهة موادّها الاوّلية المتوفّرة فى الطبيعة، او من جهة القوّة المحرّكة لها و هى الرياح التى تهب على البحار و المحيطات بصورة منتظمـة لتسـيير هـذه السـفن فتنقل الإنسان و ما يحتاج اليه من منطقة الى اخرى بيسـر و سـهولة: لِتَجْرِیَ فِی الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ كى تسـقوا من مائها زروعكم، و تشـربوا أنتم و انعامكم، و فى كثير من الأحيان تكون طريقا للسفن و القوارب، و تستفيدون منها فى صيد الأسماك.

و ليست موجودات الأرض- فقط- مسخّرة لكم، بل وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ [۳۱۷].

و ليست مخلوقات العالم بـذاتها فقط، بل حتّى الحالات العرضـية لها هى فى خـدمتكم: وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما

سَأَلْتُمُوهُ من احتیاجاتکم البدنیّة و الاجتماعیة و جمیع وسائل السعادة و الرفاه وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها لانّ النعم المادیة و المعنویة للخالق شملت جمیع وجودکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۳

و هی غیر قابلة للاحصاء، و علاوة علی ذلک فإنّ ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلونه کقطرة فی مقابل البحر.

و علی الرغم من کلّ هذه الألطاف و النعم ف إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ کَفَّارٌ.

فلو کان الإنسان یستفید من هذه النعم بشکلها الصحیح لاستطاع ان یجعل الدنیا حدیقة غنّاء و لنفّذ مشروع المدینة الفاضلة، و لکن بسبب عدم الاستفادة الصحیحة لها أصبحت حیاته مظلمة، و اهدافه غیر سامیة، فتراکمت علیه المشاکل و الصعاب و قیّدته بالسلاسل و الأغلال.

بحوث

۱- الصلة بالخالق و الصلة بالخلق

نواجه فی هذه الآیات مرّة اخری و فی تنظیم برنامج المؤمنین الصادقین مسألة «الصلاة» و «الإنفاق»، و فی البدایة قد یطرح هذا السؤال، و هو: کیف أشار القرآن الکریم لهاتین المسألتین من بین جمیع البرامج العملیّة للإسلام؟ العلّة فی ذلک انّ للإسلام ابعاد مختلفة یمکن تلخیصها فی ثلاث نقاط: علاقة الإنسان بربّه، و علاقته بخلق اللّه، و علاقته بنفسه، و هذا القسم الأخیر فی الحقیقة نتیجة للقسم الاوّل و الثانی، فالصلاة و الإنفاق کلّ واحدة منهما رمز للعلاقة الاولی و الثانیة.

و الصلاة مظهر لصلة الإنسان بربّه و هذه الصلة تظهر فی الصلاة بشکل أوضح من ای عمل آخر، و الإنفاق رمز للصلة بین المخلوقین، فالرزق فی مفهومه الواسع یشمل کلّ نعمة مادیة و معنویة.

و بالنظر الی انّ هذه السورة مکّیة، و أثناء نزولها لم یکن حکم الزکاة نازلا بعد، لا نستطیع القول: انّ هذا الإنفاق مرتبط بالزکاة، بل له معنی واسع بحیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۴

یشمل حتّی الزکاة بعد نزولها.

و علی ایّة حال إذا تأصّل الایمان فسوف یتجلّی بالعمل فیقرب الإنسان الی ربّه من جانب، الی عباده من جانب آخر.

۲- لماذا السرّ و العلانیة

؟ نقرا مرارا فی آیات القرآن انّ المؤمنین ینفقون او یتصدّقون فی السرّ و العلانیة، و بهذا الترتیب فإنّه تعالی مع ذکره للإنفاق یذکر کیفیّة الإنفاق، لانّه یکون مرّة فی السرّ اکثر تأثیرا و کرامة، و یکون مرّة اخری فی الجهر سببا فی تشجیع الآخرین و اقتدائهم فی اقامة الشعائر الدینیّة.

و لو قامت حرب بین دولة اسلامیة و اخری کافرة لرأینا الناس المؤمنین یحملون کلّ یوم مقادیر کبیرة من التبرعات الی المناطق المنکوبة لمساعدة المتضرّرین بالحرب، او الجرحی و المعوّقین او المقاتلین، و من المعلوم انّ نشر اخبار هذه التبرّعات مفید جدّا و لتکون دلیلا علی مواساتهم، و دعمهم لمقاتلیهم، و إحیاء لروح الانسانیّة فی عامّة الناس، و تشجیعا للذین تخلّفوا عن هذه القافلة لکی

یوصلوا أنفسهم بها، و من البدیهی انّ الإنفاق هنا فی العلانیة اکثر تأثیرا.

و یقول بعض المفسّرین: انّ الفرق بین الانفاقین هو انّ الإنفاق العلنی مرتبط بالواجبات، فلا یخشی علیه من الریاء، لان العمل بالواجبات لازم للجمیع و لا داعی لاخفائه، و امّا الإنفاق المستحبّ- و لانّه زائد عن الوظیفة الواجبة- فمن الممکن ان تتخلّله حالة من التظاهر و الریاء و لذلک کان إخفاؤه أفضل.

و لکن الظاهر انّ هذا التّفسیر لیس أصلا کلّیا علی حدة. بل هو فرع من التّفسیر الاوّل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۵

۳- یوم لا بیع فیه و لا خلال

من المعلوم انّ یوم القیامة هو یوم استلام النتائج و متابعة جزاء الأعمال، و بهذا الترتیب لا یستطیع احد هناک ان ینجو من العذاب بفدیة، حتّی لو افترضنا انّه ینفق جمیع ما فی الأرض فإنّه لا یمکن ان یمحو ذرّة من جزاء اعماله، لانّ صحیفته فی «دار العمل» ای الدنیا ملیئة بالاخطاء و الذنوب و هناک «دار الحساب».

و کذلک لا تستطیع العلاقة المادیة للصداقة مع ای شخص کان ان تنجیه من العذاب، و بعبارة اخری: انّ الإنسان غالبا ما یلجأ الی المال او الواسطة (الرشوة، العلاقات) فی نجاته من المصاعب فی هذه الدنیا، فإذا کان تصوّرهم انّ الآخرة کذلک فهذا دلیل و همّهم و جهلهم.

و من هنا یتّضح انّ نفی وجود الخلّة و الصداقة فی هذه الآیة لا یتنافی مع صداقة المؤمنین بعضهم لبعض فی الآخرة و التی اشارت إلیها بعض الآیات، لأنّها صداقة مودّة معنویة فی ظلّ الایمان.

و امّا مسألة «الشفاعة» فقد قلنا کرارا انّها تخلو من ای مفهوم مادّی، بل بالنظر الی ما صرّحت به بعض الآیات فإنّها فی ظلّ العلاقات المعنویة و صلاحیة البعض بسبب اعمال الخیر (و قد شرحنا هذا الموضوع فی ذیل الآیة ۲۵۴ من سورة البقرة).

۴- کلّ الموجودات تحت امرة الإنسان

! نواجه فی هذه الآیات مرّة اخری تسخیر مختلف الموجودات فی الأرض و السّماء للإنسان، و قد قسمت الی ستّة اقسام: تسخیر الفلک، و الأنهار، و الشمس، و القمر، و اللیل، و النهار. و نری انّ قسما من هذه المسخّرات من السّماء، و قسما آخر من الأرض، و قسما ثالثا من الظواهر بین الاثنین (اللیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۶

و النهار).

و قلنا سابقا، و نکرّر هنا للتذکرة: انّ الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة بحیث سخّر اللّه له جمیع ما فی الوجود، امّا ان یکون زمام أمورها بیده او تتحرّک ضمن منافعه، و علی ایّة حال فهذه العظمة جعلته من اشرف الموجودات.

«فالشمس»: تسطع له بالنّور، و تعطیه الحرارة، و تساعد علی نمو النباتات له، و تطهّر محیطه من الأمراض، و تخلق له البهجة و السرور، و تعلّمه الحیاة.

و امّا «القمر»: فمصباح فی لیله المظلم، و مفکرة طبیعیّة دائمة، و من آثاره تتکوّن ظاهرة الجزر و المدّ لتحلّ کثیرا من مشاکله، فتسقی الأشجار (بسبب ارتفاع منسوب المیاه فی الأنهار المجاورة للبحار) و تتحرّک میاه البحار الراکدة کی لا تتعفّن، و لیدخل الاوکسجین

فیها بسبب الأمواج لیکون تحت تصرّف الکائنات الحیّة.

«الریاح»: تؤدّی الی حرکة السفن فی المحیطات حیث تشکّل اکبر واسطة نقل و فی أوسع طریق للإنسان، بحیث تستطیع- أحیانا- ان تدفع سفینة بحجم مدینة صغیرة بکامل افرادها و تنقلها فی المحیطات.

«الأنهار»: تجری فی خدمة الإنسان، تسقی زرعه، و تروی مواشیه، و تجعل محیطة ذا طراوة، و تربّی له الأسماک لتغذیته.

«ظلام اللیل»: حیث هو سکن للإنسان، و یمنحه الطمأنینة و الراحة، و یخفّف من حرارة الجو الملتهبة فی النهار.

و أخیرا «ضیاء النهار»: یدعوه الی الحرکة و السعی، و یخلق له الدفء و الحرارة.

و الخلاصة: انّ کلّ ما علی الأرض و حولها لنفع الإنسان، و بیان هذه النعم و شرحها یمنح الإنسان شخصیة جدیدة، و تفهمه عظمة مقامه و تبعث فیه الاحساس بالشکر اکثر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۷

و نستفید ایضا من هذا البیان انّ للتسخیر فی لغة القرآن معنیان:

الاوّل: التسخیر لخدمة الإنسان و تحقیق منافعه و مصالحه (کتسخیر الشمس و القمر).

و الثّانی: التسخیر الذی یکون زمام أموره بید الإنسان (کتسخیر الفلک و البحار).

و امّا ما اعتقده البعض من انّ هذه الآیات اشارة الی تسخیر الإنسان للقمر و غیره فی عصرنا الحاضر فإنّنا لا نراه صحیحا، لانّ هناک بعض الآیات تقول:

وَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ ۳۱۸]، فلا یستطیع الإنسان ان یصل الی جمیع الکرات السّماویة بتاتا.

نعم هناک بعض الآیات قد تشیر الی هذا النوع من التسخیر، و سوف نبحث هذا الموضوع بإذن اللّه فی تفسیر سورة الرحمن (و سبق لنا بحث فی تسخیر الموجودات للإنسان فی ذیل الآیة (۲) من سورة الرعد).

۵- دائبین

قلنا انّ «دائب» من مادّة «الدؤوب» بمعنی استمرار العمل طبقا للعادة و السنّة، فالشمس لا تدور حول الأرض، بل الأرض تدور حول الشمس، و نحن نظنّ انّ الشمس تدور حولنا، و هذه الحرکة لیست المقصودة فی معنی «دائب» بل الاستمرار فی انجاز العمل یدخل فی مفهوم الدؤوب، و نحن نعلم انّ الشمس و القمر لهما برنامج فی انبعاث النّور و ما یتبعه من توقّف الحیاة علی الأرض علیه بشکل مستمر و فی غایة من الدقّة (و هناک حرکات اخری للشمس کما یقوله العلماء، منها الحرکة حول نفسها، و حرکتها مع المجموعة الشمسیة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۸

۶- هل یعطینا اللّه کلّ ما نطلب منه

؟ قرانا فی الآیات أعلاه انّ اللّه عزّ و جلّ لطف بکم و أعطاکم من کلّ ما سألتموه («من» فی الآیة تبعیضیّة) و ذلک بسبب انّ کثیرا ممّا یطلبه الإنسان من ربّه قد یعود علیه بالضرر و الهلاک، و لکنّ اللّه حکیم و عالم و رحیم فلا یستجیب لمثل هذه الطلبات، و فی المقابل نری فی اکثر الأحیان انّ الإنسان لا یطلب شیئا بلسانه، و لکن یتمنّاه بفطرته و وجدانه فیستجیب اللّه له، و لیس هناک مانع من ان یکون السؤال فی جملة ما سَأَلْتُمُوهُ شاملا للسؤال باللسان و السؤال بالفطرة و الوجدان.

۷- لماذا لا تحصی نعماؤه

؟ نعم اللّه- فی الحقیقة- تعمّ کلّ وجودنا، و إذا ما طالعنا الکتب المختلفة فی العلوم الطبیعیّة و الانسانیّة و النفسیّة و أمثالها فسوف نری الی ای مدی تتّسع أطراف هذه النعم، و فی الحقیقة انّ لکلّ نفس یتنفّسه الإنسان نعمتان، و لکلّ نعمة شکر واجب.
و اکثر من ذلک فنحن نعلم بأنّ متوسّط عدد الخلایا الحیّة فی جسم الإنسان نحو العشرة ملایین ملیارد، و کلّ مجموعة تشکّل قسما فعّالا فی الجسم، و هذا العدد کبیر جدّا بحیث لو أردنا إحصاءه نحتاج الی مئات السنین! فهذا قسم من نعمه علینا، و لذلک- حقّا- لا نستطیع عدّ نعمه، وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها.
و یوجد فی دم الإنسان مجموعتان من الکریّات (و هی خلایا صغیرة سابحة فی الدم و لها وظائف حیاتیة مهمّة) ملایین من «الکریّات الحمراء» وظیفتها إیصال الاوکسجین لأجل الاحتراق و صنع خلایا الجسم، و ملایین من «الکریات البیض» وظیفتها حفظ سلامة الإنسان مقابل هجوم المکروبات، و العجیب انّ
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۹
هذه الکریات فی حالة حرکة مستمرّة لخدمة الإنسان.
فهل نستطیع فی هذه الأحوال ان نحصی نعمه تعالی غیر المتناهیة؟!

۸- أسفا .. انّ الإنسان ظلوم و کفّار

توصّلنا فی البحوث السابقة الی هذه الحقیقة، و هی انّ اللّه سخّر للإنسان جمیع الموجودات، و هیّأ له کلّ هذه النعم بحیث سدّ جمیع احتیاجاته، و لکن الإنسان بسبب ابتعاده عن نور الایمان و التربیة، نراه یخطو فی طریق الظلم و الطغیان و یکفر بالنعم.
و یسعی المحتکرون فی احتکار النعم الالهیّة الواسعة و السیطرة علی منابعها الحیاتیة، مع انّهم لا یستهلکون الّا الشیء القلیل و یحرمون الآخرین منها، و یظهر هذا الظلم بأشکال مختلفة من السیطرة علی الشعوب الضعیفة و استعمارها و التجاوز علی حقوق الآخرین، فیعرّض الإنسان حیاته الهادئة الی الهلاک، یخلق الحروب، و یسفک الدماء، و یقضی علی الأموال و الأنفس.
و فی الحقیقة فإنّ القرآن الکریم ینادیه: ایّها الإنسان، کلّ شیء بالقدر الکافی تحت تصرّفک، بشرط ان لا تکون ظلوما کفّارا، علیک ان تقنع بحقّک و لا تتجاوز علی حقوق الآخرین.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۰

الآیات [سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۳۵ الی ۴۱]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی وَ مَنْ عَصانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۶) رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ (۳۷) رَبَّنا إِنَّکَ تَعْلَمُ ما نُخْفِی وَ ما نُعْلِنُ وَ ما یَخْفی عَلَی اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی السَّماءِ (۳۸) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّی لَسَمِیعُ الدُّعاءِ (۳۹)
رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ (۴۰) رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ الْحِسابُ (۴۱)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۱

التّفسیر

دعاء ابراهیم علیه السّلام:

لمّا کان الحدیث فی الآیات السابقة عن المؤمنین الصادقین و الشاکرین لأنعم اللّه، عقّبت هذه الآیات فی بحث بعض ادعیة و طلبات العبد المجاهد و الشاکر للّه ابراهیم علیه السّلام لیکون هذا البحث تکملة للبحث السابق و نموذجا حیّا للذین یریدون ان یستفیدوا من النعم الالهیّة أفضل استفادة.

یقول تعالی: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ لانّه علیه السّلام کان یعلم حجم البلاء الکبیر الکامن فی عبادة الأصنام، و یعلم کثرة الذین ذهبوا ضحیّة فی هذا الطریق رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ فأیّ ضلال اکبر من هذا الضلال الذی یفقد الإنسان فیه حتّی عقله و حکمته.

الهی انّنی ادعو الی توحیدک، و ادعو الجمیع الی عبادتک فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی وَ مَنْ عَصانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

فی الحقیقة انّ ابراهیم علیه السّلام أراد بهذه العبارة ان یقول للّه تعالی: انّه حتّی لو انحرف ابنائی عن مسیرة التوحید و اتّجهوا الی عبادة الأصنام فإنّهم لیسوا منّی، و لو کان غیرهم فی مسیرة التوحید فهم ابنائی و إخوانی.

انّ تعبیر ابراهیم المؤدّب و العطوف جدیر بالملاحظة، فهو لم یقل: و من عصانی فإنّه لیس منّی و سأعاقبه عقابا شدیدا، بل یقول: وَ مَنْ عَصانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

ثمّ یستمر بدعائه و مناجاته رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاةَ.

و کان ذلک عند ما رزقه اللّه إسماعیل من جاریته «هاجر» فأثار ذلک حسد زوجته الاولی «سارة» و لم تستطع تحمّل وجود هاجر و ابنها، فطلبت من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۲

ابراهیم ان یذهب بهما الی مکان آخر، فاستجاب لها ابراهیم طبقا للأوامر الالهیّة، و جاء بإسماعیل و امّه الی صحراء مکّة القاحلة، ثمّ ودّعهم و ذهب.

و لم یمض قلیل من الوقت حتّی عطشت الامّ و ابنها فی تلک الشمس المحرقة، وسعت هاجر کثیرا فی انقاذ ابنها، و لکنّ اللّه تعالی أراد ان تکون تلک الأرض قاعدة عظیمة للعبادة فأظهر عین زمزم، و لم یمض وقت حتّی علمت قبیلة «جرهم» البدویة التی کانت قریبة منهم بالأمر، فرحلوا و أقاموا عندهم، فأخذت مکّة بالتحضّر شیئا فشیئا.

ثمّ یتابع ابراهیم علیه السّلام دعاءه: الهی، انّ اهلی قد سکنوا فی هذه الصحراء المحرقة احتراما لبیتک المحرّم: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ

و من هنا لمّا کان الإنسان الموحّد و العارف یعلم بمحدودیة علمه فی مقابل علم اللّه، و انّه یعلم مصلحته الّا اللّه تعالی، فما اکثر ما یطلب شیئا من اللّه و لیس فیه صلاحه، او لا یطلبه و فیه صلاحه، و أحیانا لا یستطیع ان یقوله بلسانه فیضمره فی اعماق قلبه، و لذلک یعقّب علی ما مضی من دعائه و یقول: رَبَّنا إِنَّکَ تَعْلَمُ ما نُخْفِی وَ ما نُعْلِنُ وَ ما یَخْفی عَلَی اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی السَّماءِ.

فان کنت مغتمّا لفراق ابنی و زوجتی فأنت تعلم بذلک .. و تری دموع عینی المنهملة. و ان کان قلبی قد ملأه همّ الفراق، و امتزج بفرح العمل بالتکلیف و الطاعة لاوامرک فأنت اعلم بذلک ..

و عند ما فارقت زوجتی و قالت لی: «الی من تكلنی» فأنت أدری بها و بمستقبلها و مستقبل هذه الأرض.
ثمّ يشير القرآن الی شكر ابراهيم عليه السّلام لنعمه تعالی و التی هی من اهمّ ما امتاز به عليه السّلام .. شكره علی منحه ولدين بارّين إسماعيل و إسحاق و ذلك فی سنّ
الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۳
الشيخوخة الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ ۳۱۹] نعم إِنَّ رَبِّی لَسَمِيعُ الدُّعاءِ.
ثمّ يستمرّ بدعائه و مناجاته ايضا فيقول: رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِی رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ.
ثمّ يختم دعاءه هنا فيقول: رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ

بحوث

۱- هل كانت مكّة فی ذلك الوقت مدينة

؟ رأينا فی الآيات السابقة انّ ابراهيم قال: رَبَّنا إِنِّی أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِی بِوادٍ غَيْرِ ذِی زَرْعٍ و هذه اشارة الی اوّل دخوله ارض مكّة و التی كانت غير مزروعة و لا معمورة و لا ساكن فيها سوی اسّس بيت اللّه الحرام، و مجموعة من الجبال الجرداء.
و لكنّنا نعلم انّها لم تكن رحلته الوحيدة الی مكّة، بل وطأت قدمه عدّة مرّات تلك الأرض، و فی الوقت نفسه كانت مكّة تأخذ طابع المدينة، و سكنتها قبيلة «جرهم» و بظهور عين زمزم أصبحت صالحة للسكن.
و المعتقد انّ ادعية ابراهيم هذه كانت فی احدی رحلاته، و لذلك عبّر عنها بالبلد، ای المدينة فقال: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً.
و امّا قوله: بِوادٍ غَيْرِ ذِی زَرْعٍ فقد تكون اشارة الی رحلته الاولی او اشارة
الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۴
الی ارض مكّة بعد ان أخذت طابع المدينة، فإنّها لا زالت غير صالحة للزراعة، لانّها من الناحية الجغرافية تقع بين جبال يابسة و قليلة المياه.

۲- أمان ارض مكّة

من الطريف انّ اوّل ما سأل ابراهيم من ربّه فی هذه الأرض هو الامان، و هذا يوضّح انّ نعمة الأمن هی من الشروط الاولی لحياة الإنسان و سكنه فی منطقة ما، فالمكان غير الآمن لا يمكن السكن فيه، حتّی لو اجتمعت كلّ النعم الدنيويّة فيه، و فی الحقيقة ای مدينة او بلد فاقد لنعمة الأمن سوف يفقد جميع النعم! و لا بدّ هنا من الالتفات الی هذه النقطة، و هی انّ استجابة اللّه لدعاء ابراهيم بخصوص امن مكّة له جهتان: فمن جهة منحها امنا تكوينيّا، و لذلك لم تشهد فی تاريخها الّا النزر القليل من إخلال الأمن، و من جهة ثانية منحها الأمن التشريعی، ای انّ اللّه اقرّ ان يأمن جميع الناس- و حتّی الحيوانات- فی هذه الأرض. و منع صيد الحيوانات، و عدم متابعة المجرمين الذين يلجأون الی حرم الكعبة، و نستطيع- فقط- ان نمنع عليهم الغذاء لكی يخرجوا، و من ثمّ تطبيق العدالة فی حقّهم.

۳- دعاء ابراهيم لاجتناب عبادة الأصنام

؟ ممّا لا شكّ فيه انّ ابراهيم عليه السّلام كان نبيّا معصوما، و كذلك ابناه إسماعيل و إسحاق كانا نبيّين معصومين، لأنّهما داخلان فى كلمة «بنىّ» فى الآية قطعا، و مع ذلك يدعو اللّه ان يجنّبهم عبادة الأصنام! و هذا دليل فى التأكيد على محاربة عبادة الأصنام بحيث كان يطلب هذا الأمر من اللّه حتّى للأنبياء المعصومون و محطّمو الأصنام، و هذا نظير اهتمام النّبى فى وصاياه لعلى- او الائمّة الآخرين بالنسبة لاوصيائهم- فى امر الصلاة، و التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۵

لا يمكن احتمال تركها من قبلهم ابدا، بل انّ الصلاة أساسا قامت ببركة سعيهم و جهودهم.

و هنا يطرح هذا السؤال: كيف قال ابراهيم رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فى حين انّ الأصنام ليست سوى أحجارا و خشبا و لا استطاعة لهنّ فى إضلال الناس.

و يمكن الجواب على هذا السؤال من جهتين:

اوّلا: لم تكن الأصنام من الأحجار و الخشب دائما، بل هناك الفراعنة و أمثال نمرود الذين كانوا يدعون الناس لعبادتهم و يسمّون أنفسهم بالربّ الأعلى و المحى و المميت.

ثانيا: و أحيانا يكون القائمون بأمر الأصنام مظهرين تعظيمها و تزيينها بالشكل الذى تكون حقّا مضلّة لعوام الناس.

۴- من هم اتباع ابراهيم

؟ قرانا فى الآيات انّ ابراهيم قال: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي فهل انّ اتباع ابراهيم من كان فى عصره فقط، ام الذين كانوا على دينه فى العصور اللاحقة، او يشمل كلّ الموحدين و المؤمنين فى العالم- باعتبار ابراهيم عليه السّلام مثالا فى التوحيد و محطّما للأصنام-؟

نستفيد من الآيات القرآنية- و من ضمنها الآية ۷۸ من سورة الحج- انّ دعاء ابراهيم يشمل جميع الموحدين و المجاهدين فى طريق التوحيد. و يؤيّد هذا التّفسير ما ورد عن اهل البيت عليهم السّلام ايضا:

فعن الباقر عليه السّلام قال «من احبّنا فهو منّا اهل البيت. قلت، جعلت فداك: منكم؟ قال منّا و اللّه، اما سمعت قول ابراهيم فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۳۲۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۶

و يوضّح هذا الحديث صيرورة الفرد من اهل البيت معنويا ان سار على خطّهم و تابع منهجهم.

و

عن الامام على عليه السّلام قال: «نحن آل ابراهيم، أ فترغبون عن ملّة ابراهيم! و قد قال اللّه تعالى: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي

۵- واد غير ذى زرع و الحرم الآمن

الذين سافروا الى مكّة يعلمون جيدا انّها تقع بين جبال صخرية يابسة لا ماء فيها و لا كلا، و كأنّ الصخور وضعت فى افران حارّة ثمّ صبّت فى أماكنها. و فى نفس الوقت فهى اكبر مركز للعبادة و اقدم قاعدة للتوحيد على وجه المعمورة، و كذلك هى حرم اللّه الآمن.

و هنا قد يرد هذا السؤال فى أذهان الكثيرين و هو: لماذا جعل اللّه هذا المركز المهمّ فى مثل هذه الأرض؟

يجيب الامام على عليه السّلام على هذا السؤال من خلال أوضح العبارات و أجمل التعابير الفلسفيّة خطبته القاصعة حيث يقول: «وضعه بأوعر بقاع الأرض صخرا و اقلّ نتائق الدنيا مدرا ... بين جبال خشنة و رمال دمثة ... و لو أراد سبحانه ان يضع بيته الحرام

و مشاعره العظام بین جنّات و انهار و سهل و قرار، جمّ الأشجار، دانی الثمار، ملتفّ البنا، متّصل القوی، بین برّة سمراء و روضة خضراء، و أریاف محدقة، و عراص مغدقة و ریاض ناظرة و طرق عامرة، لکان قد صغر قدر الجزاء علی حسب ضعف البلاء، و لو کان الأساس المحمول علیها و الأحجار المرفوع بها بین زمردة خضراء، و یاقوتة حمراء، و نور و ضیاء، لخفّف ذلک مصارعة الشکّ فی الصدور، و لوضع مجاهدة إبلیس عن القلوب، و لنفی معتلج الریب من الناس، و لکنّ اللّه یختبر عباده بأنواع الشدائد، و یتعبّدهم بأنواع المجاهد، و یبتلیهم بضروب المکاره، إخراجا للتکبّر من قلوبهم، و إسکانا للتذلّل فی نفوسهم و لیجعل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۷

ذلک أبوابا فتحا الی فضله، و أسبابا ذللا لعفوه»[۳۲۱].

۶- الدعوات السبعة لإبراهیم

اشارة

دعا ابراهیم علیه السّلام فی هذه الآیات سبع دعوات فی مجال التوحید و المناجاة و محاربة الأصنام و عبادتها و محاربة الظالمین:

اوّل هذه الدعوات هو أمان مکّة القاعدة العظیمة لمجتمع التوحید (و ما اعمق مغزی هذا الطلب).

الثّانی: دعاؤه فی الاجتناب عن عبادة الأصنام و التی هی الأساس و القاعدة لجمیع العقائد و البرامج الدینیّة.

الثّالث: دعاؤه فی تمایل قلوب المؤمنین و ارتباطهم العاطفی بالنسبة لأبنائه و التابعین لدینه.

دعاؤه الرابع: ان یرزقهم اللّه من انواع الثمرات، لتکون عنوانا للشکر و الالتفات بشکل اعمق لخالق النعم.

الدعاء الخامس: التوفیق لاقامة الصلاة و التی هی أقوی صلة بین الإنسان و ربّه، و دعاؤه علیه السّلام لیس له فقط، بل حتّی لأبنائه.

دعاؤه السادس: قبول دعائه، و نحن نعلم انّ اللّه یقبل الدعاء من مواقع الإخلاص و القلوب الطاهرة و الأرواح السامیة، و فی الواقع انّ هذا الطلب من ابراهیم علیه السّلام یحتوی ضمنا الحصول علی القلب الطاهر و الروح السامیة.

و آخر دعائه علیه السّلام: ان یشمله اللّه بلطفه و رحمته فیما إذا صدر منه ذنب او خطیئة، و ان یرحم امّه و أباه و جمیع المؤمنین فی یوم القیامة.

و بهذا الترتیب فإن دعواته تبدا بالأمن و تنتهی بالعفو و الغفران، و من الطریف انّه لم یطلبها لنفسه فقط، بل للآخرین کذلک، لانّ عباد الرحمن لیسوا انانیّین!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۸

-۷

هل یدعو ابراهیم لأبیه

؟ ممّا لا شکّ فیه انّ «آزر» کان یعبد الأصنام، و کما یشیر الیه القرآن فإنّ ابراهیم سعی جاهدا لان یهدیه لکن خاب سعیه، و إذا سلّمنا انّ آزر کان أبا لإبراهیم، فلما ذا یدعو ابراهیم ان یغفر اللّه له فی الوقت الذی نری انّ القرآن یقول:

ما کانَ لِلنَّبِیِّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا أَنْ یَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِکِینَ وَ لَوْ کانُوا أُولِی قُرْبی مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِیمِ [۳۲۲] و من هنا یتّضح انّ آزر لم یکن أبا لإبراهیم، و انّ کلمة أب تطلق أحیانا علی العمّ، و کثیرا ما یستعملها العرب کذلک، بینما (الوالد) خاصّة بالأب الحقیقی و التی جاءت فی الآیات أعلاه. امّا کلمة أب و التی وردت بخصوص آزر فمن الممکن انّ المراد بها العمّ.

و نستنتج من الآیات أعلاه و ممّا ورد فی سورة التوبة من النهی عن الاستغفار للمشرکین انّ «آزر» لم یکن أبا لإبراهیم حتما. (و

للتوضيح اكثر راجع تفسير الآية ۷۴ من سورة الانعام و ۳۶ من سورة الأعراف فى تفسيرنا هذا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۹

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۴۲ الى ۴۵]

اشارة

وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (۴۲) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (۴۳) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (۴۴) وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (۴۵)

التّفسير

اليوم الذى تشخّص فيه الأبصار

! كان الحديث فى الآيات السابقة عن يوم الحساب، و بهذه المناسبة تجسّم هذه الآيات حال الظالمين و المتجبّرين فى ذلك اليوم، ثمّ تبيّن المسائل المتعلّقة بالمعاد و تكمل الحديث السابق حول التوحيد و تبدا فى تهديد الظالمين: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۰

و هذا فى الواقع جواب لأولئك الذين يقولون: إذا كان لهذا العالم اله عادل فلما ذا يترك الظالمين و حالهم؟ هل هو غافل عنهم ام لا يستطيع ان يمنعهم و هو يعلم بظلمهم؟

فيجيب القرآن الكريم على ذلك بأنّ اللّه ليس غافلا عنهم ابدا، لانّ عدم عقابهم مباشرة هو انّ هذا العالم محلّ الامتحان و الاختبار و تربية الناس، و هذا لا يتمّ الّا فى ظلّ الحرية، و سوف يأتى يوم حسابهم إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ.

«تشخص» من مادّة «الشخوص» بمعنى توقّف العين عن الحركة و النظر الى نقطة بدهشة.

«مهطعين» من مادّة «إهطاع» بمعنى رفع الرقبة، و يعتقد البعض انّها بمعنى «السرعة» و قال آخرون: تعنى «النظر بذلّة و خشوع». و لكن بالنظر الى الجمل الاخرى يكون المعنى الاوّل اقرب الى الصحّة.

«مقنعى» من مادّة «الاقناع» بمعنى رفع الراس عاليا.

و مفهوم جملة لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ لا يقدرون على ان يطرفوا من شدّة الهول، و كأنّ أعينهم كأعين الأموات عاطلة عن العمل! و جملة أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ بمعنى قلوبهم خالية و مضطربة بحيث ينسون كلّ شىء حتّى أنفسهم و فقدت قلوبهم و أنفسهم كلّ ادراك و علم، و فقدوا كلّ قواهم.

انّ بيان هذه الصفات الخمس: تشخص الأبصار، مهطعين، مقنعى رؤوسهم، لا يرتدّ إليهم طرفهم، افئدتهم هواء، صورة بليغة لهول و شدّة ذلك اليوم على الظالمين الذين كانوا يستهزئون بكلّ شىء، و أصبحوا فى هذا اليوم لا يستطيعون حتّى تحريك أجفان أعينهم.

و لكى لا يشاهدوا هذه المناظر المفجعة ينظرون الى الأعلى فقط، فهؤلاء كانوا يعتقدون بكمال عقولهم و يعدّون الآخرين من

الحمقى، فأصبحوا اليوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۱

مدهوشين لدرجة انّ نظرهم نظر المجانين. بل الأموات نظر جاف عديم الروح و ملىء بالرعب و الفزع ..

نعم، عند ما يريد القرآن الكريم ان يصوّر منظرا او يجسّم موقفا يستخدم اقصر العبارات فى أكمل بيان كما فى الآية أعلاه.

و لكى لا يعتقد احد انّ هذه المجازات تتعلّق بمجموعة معيّنة، يقول تعالى لنبيّه الكريم: وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ حتّى نستفيد من هذه الفرصة ثمّ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ و لكن هيهات انّ ذلك محال أ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ فكلّ هذه الدروس لم تؤثّر بكم و أدمتم ظلمكم و جوركم، و الآن و بعد ان وقعتم فى يد العدالة تطلبون تمديد المدّة، اى مدّة؟ لقد انتهى كلّ شىء!

بحوث

۱- لماذا وجّه الخطاب هنا الى الرّسول الأكرم

؟ ممّا لا شكّ فيه انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يتصوّر ابدا انّ اللّه غافلا عن الظالمين، و مع ذلك نرى الآيات أعلاه توجّه خطابها الى النّبى و تقول له: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

انّه- فى الواقع- إيصال الخطاب بشكل غير مباشر الى الآخرين، و الذى هو احد فنون الفصاحة، كما نقول: ايّاك اعنى و اسمعى يا جارة.

و بالاضافة الى ذلك فإنّ هذا التعبير كناية عن التهديد، كما نقول فى بعض الأحيان للشخص المقصّر «لا تعتقد انّنا غافلون عن افعالك» يعنى سوف نحاسبك على ما فعلت!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۲

و على اى حال فأساس الحياة يقوم على إعطاء المهلة الكافية للافراد حتّى ينفقوا ممّا عندهم، و لكى لا يبقى عذر لأحد تعطى المهلة الكافية قبل ساعة الامتحان، و إعطاء المهلة الكافية للرجوع و الإصلاح للجميع.

۲- ما هو المقصود من يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ

؟ لقد امر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ان ينذر الناس بهذا اليوم الذى ينزل عليهم فيه العذاب الالهى، و لكن اى يوم هذا؟ ذكر المفسّرون له ثلاث احتمالات:

الاوّل: يوم القيامة.

الثّانى: يوم وقوع الموت، حيث تبدا مقدّمة العذاب الالهى للظالمين.

الثّالث: المقصود هو نزول جزء من العذاب و البلاء الدنيوى، كعذاب قوم لوط و عاد و ثمود و قوم نوح و فرعون، و الذى تمّ من خلال الطوفان او الزلازل و العواطف و الريح و غيرها.

و مع انّ كثير من المفسّرين رجّحوا التّفسير الاوّل، الّا انّ الآيات التى تليها تشير الى قوّة الاحتمال الثّالث، و التى توضّح انّ المقصود هو

العقاب الدنيوى لانّنا نقرا بعد هذه الآية رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَکَ

فالتعبير «اخّرنا» قرينة واضحة فى الطلب لاستمرار الحياة فى الدنيا، لانّه لو كان فى الآخرة لقالوا: ربّنا ارجعنا الى الدنيا، كما نقرا فى الآية (۲۷) من سورة الانعام وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حيث يردّ عليهم القرآن الكريم و يقول: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

و قد يسأل سائل: إذا كانت هذه الآية تشير الى عذاب الدنيا، و الآية ما قبلها وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا تشير الى عذاب الآخرة، فكيف يمكن ان تتوافق هاتان الآيتان، بالنظر الى انّ كلمة «انّما» دالّة على عقابهم فى الآخرة فقط و ليس فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۳

الدنيا.

و يتّضح الجواب بملاحظة انّ العقاب الاخروى الذى يشمل جميع الظالمين، ليس له اى تبديل و تغيير، بينما الجزاء الدنيوى- بالاضافة الى انّه غير شامل- فهو قابل للتبديل.

و لا بدّ من ذكر هذه النقطة ايضا و هو انّ العقاب الدنيوى- كعقاب قوم نوح و فرعون و أمثالهم- إذا حلّ بهم سوف تغلق أبواب التوبة كليّا و ليس لهم طريق للرجوع و التوبة، لانّ اغلب المذنبين عند ما يرون العذاب يندمون على ما فعلوا، و هذا الندم اضطرارى و ليس له اى قيمة، و لذلك يجب عليهم ان يتوبوا قبل نزول العذاب ۳۲۳].

۳- لماذا لا تقبل المهلة

؟ نقرا فى آيات مختلفة من القرآن الكريم انّ الظالمين و المذنبين فى مواقف متعدّدة، يطلبون الرجوع الى الحياة لتصحيح مسيرتهم، فبعض هذه المواقف مرتبط بيوم القيامة كما أشرنا فى الآية (۲۸) من سورة الانعام، و بعض آخر مرتبط بساعة الموت كما تشير اليه الآية (۹۹) من سورة المؤمنون حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ و البعض الآخر يطلب الرجوع عند نزول العذاب المهلك- كما فى هذه الآية- حيث يقول الظالمون عند رؤيتهم للعذاب رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَکَ و من الطريف انّ الجواب فى جميع هذه المواقف يكون بالنفى.

و دليله واضح، لانّ اى واحد من هذه الامنيات لا يمثّل حقيقة واقعيّة و لا جديّة، و رجاؤهم هذا هو حالة اضطرارية تظهر حتّى عند أسوإ الأشخاص، و ليست حالة دالّة على التغيّر الذاتى و التصميم الواقعى الصادق لتصحيح مسيرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۴

حياتهم، كالمشركين عند ما يأخذهم الطوفان يسألون اللّه النجاة، و عند ما ينجيهم الى الساحل ينكثون عهودهم كأن لم يكن يحدث شىء إطلاقا.

و لذلك يقول القرآن الكريم فى بعض آياته- كما أشرنا اليه أعلاه- وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۵

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۴۶ الى ۵۲]

اشارة

وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (۴۶) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو

انتِقام (۴۷) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۴۸) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (۴۹) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (۵۰)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۵۱) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (۵۲)

التّفسير

لا فائدة من مكرهم

! اشارت الآيات السابقة الى نوع من عقاب الظالمين، و فى هذه الآيات ايضا اشارت- اوّلا- الى جزء من أفعالهم، و من ثمّ الى قسم آخر من جزائهم الشديد و عقابهم الأليم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۶

تقول الآية الاولى: وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ

لقد عملوا كلّ ما بوسعهم من اجل طمس حقائق الإسلام، بدء من الترغيب و التهديد و حتّى الأذى و محاولات القتل و الاغتيال و بثّ الشائعات، و مع كلّ ذلك فإنّ اللّه مطّلع على جميع مؤامراتهم و قد احصى اعمالهم: وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ و على اى حال فلا تقلق فانّهم لا يستطيعون بمكرهم هذا ان يصيبوك بسوء حتّى وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ

«المكر»- و كما أشرنا اليه سابقا- بمعنى الاحتيال، فمرّة يلازمه الفساد و مرّة اخرى لا يلازمه، و فى تفسير جملة وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ رأيان:

يقول البعض و من جملتهم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان: المراد بكون مكرهم عند اللّه احاطته تعالى به بعلمه و قدرته.

و يقول البعض الآخر، كالعلّامة الطبرسى فى مجمع البيان: انّ المراد هو ثبوت جزاء مكرهم عند اللّه تعالى (و على هذا التّفسير يكون تقدير الآية: عند اللّه جزاء مكرهم) فكلمة الجزاء محذوفة.

و ممّا لا شكّ فيه انّ التّفسير الاوّل اقرب الى الصحّة، لانّه يوافق ظاهر الآية و لا يحتاج الى الحذف و التقدير، و تؤيّده جملة وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ اى انّ مكرهم مهما كان قويّا. و مهما كانت لديهم قدرة على المؤامرة، فإنّ اللّه اعلم بهم و اقدر عليهم و سيدمر كلّ ما مكروا.

ثمّ يتوعّد اللّه الظالمين و المسيئين مرّة اخرى من خلال مخاطبة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ لانّ الأخلاف يصدر من الذى ليست له قدرة و استطاعة، و لكن: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقام

و هذه الآية- فى الواقع- مكمّلة للآية التى قبلها وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

و تعنى انّ المهلة التى أعطيت للظالمين ليست بسبب انّ اللّه غافل عنهم و عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۷

اعمالهم و لا مخلف لوعده، بل سينتقم منهم فى اليوم المعلوم. و الانتقام لا يراد به ما كان مصحوبا بالحقد و الثأر كما يستخدم عادة فى اعمال البشر، بل هو الجزاء و العقاب و اقامة العدالة بحقّ الظالمين، بل انّها نتيجة عمل الإنسان نفسه، و لا حاجة الى القول بأنّ اللّه تعالى لو لم ينتقم من الظالمين لكان ذلك خلافا لعدله و حكمته.

ثمّ يضيف تعالى يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ و سوف يتجدّد كلّ شىء بعد الدمار، و يبعث الإنسان فى خلق جديد و

عـالم جديـد يختلف فى كـلّ شـيء عن هـذا العـالم، فى سعته، فى نعيمه و عقابه و سيظهر الإنسان بكلّ وجوده للّه تعالى: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

و «البروز» من مادّة «البراز» على وزن «فراز» بمعنى الفضاء و المحلّ الواسع، و غالبا ما تأتى بمعنى الظهور، لانّ وجود الشيء فى الفضاء الواسع بمعنى ظهوره، و هناك آراء مختلفة للمفسّرين فى معنى بروز الناس للّه تعالى، الكثير يرى انّها تعنى الخروج من القبر.

و يحتمـل ان يكـون المعنى انكشـاف بواطن و ظواهر جميع النـاس فى يوم المحشـر، كمـا نقرا فى الآيـة (۱۶) من سـورة غـافر يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ و كذلك الآية (۹) من سورة الطارق يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ و على اى حال فوصـفه بالقهّار دليل على تسلطه على كلّ الأشياء و سيطرته على ظاهرها و باطنها.

و هنا يأتى هذا السؤال، و هو: هل انّ شيئا خفى على اللّه فى هذه الدنيا لكى يظهر فى الآخرة؟ ام انّ اللّه لا يعلم بما فى القبور و لا يعلم بأسرار الناس؟

و يتّضـح الجـواب من الالتفـات الى هـذه النقطـة، و هى انّ لنـا ظـاهرا و باطنـا فى هـذه الـدنيا، و قـد يشـتبه على البعض- بسـبب علمنا المحدود- انّ اللّه لا يرى باطننا، و لكن سوف يظهر كلّ شيء فى الآخرة و لا وجود للظاهر و الباطن هناك، و بعبارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۸

اخرى فالظهور بالقياس الى علمنا و ليس الى علم اللّه المطلق.

و تصوّر الآية التالية كيفيّة بروزهم الى اللّه فنقول: وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ.

«الأصفاد» جمع «صفد» بمعنى الغلّ، و قال البعض هو الغلّ و السلاسل التى تجمع اليد الى العنق.

«مقرنين» من مادّة «القرن و الاقتران» و هى بنفس المعنى، لكن لو اسـتخدمت من باب التفعيل يسـتفاد منها التكثير، و على ذلك فكلمة مقرّنين بمعنى الأشخاص المتقاربين مع بعضهم البعض.

و للمفسّرين ثلاث آراء حول المقصود من هذه الكلمة:

الاوّل: هو تقييد المجرمين بالسلاسل و الأغلال بعضهم مع البعض الآخر و ظهورهم بهذه الصورة فى يوم القيامة، انّ هذا الغل هو عبارة عن تجسـيد للروابط العمليـة و الفكريـة بين المجرمين فى هذه الدنيا، حيث كان يساعد بعضـهم البعض على الظلم و الفساد، و تتجسّـد هذه العلاقة فى الآخرة بصورة سلاسل تربطهم فيما بينهم.

الثّانى: انّ المجرمين يقرّنون مع الشياطين بالسلاسل فى يوم القيامة بسبب علاقتهم الباطنية معهم فى هذه الدنيا.

الثّالث: ان تقيّد أيديهم برقابهم فى الآخرة.

و لا مانع هناك من ان تجمع هذه الصفات للمجرمين، لكن المعنى الاوّل الذى ذكرناه يوافق ظاهر الآية.

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم الى لباسهم و الذى هو احد افراد المجازاة الشديدة سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ.

«سـرابيل» جمع (سـربال) على وزن (مثقـال) بمعنى القميص من اى قماش كان، و يقول البعض بأنّه كلّ انواع اللباس، لكن الاوّل اقرب الى المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۹

«قطران» بفتـح القـاف و سـكون الطاء او بكسـر القاف و سـكون الطاء، و هى مادّة تؤخـذ من شـجرة الأبهل ثمّ تغلى فتثخن و تطلى بها الإبـل عنـد اصابتها بمرض الجرب، و كانوا يعتقـدون انّ المرض يزول بسـبب وجود الحرقـة فى هـذه المادّة، و على اى حال فهى مادّة سوداء نتنة و قابلة للاشتغال [۳۲۴].

فيكون معنى الجملـة سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ انّهم يلبسون ثيابا من مادّة سوداء و نتنـة و قابلـة للاشـتعال، حيث تمثّل اسوا الالبسة لما كانوا يعملونه فى هـذه الدنيا من ارتكاب الذنوب و الفواحش. و سوادها يشـير إلى أنّ الذنوب تؤدّى إلى ان يكون الإنسان مسودّ الوجه امام

ربّه، و تعفّنها يشير الى تلوّث المجتمع بهم و مساعدتهم على إشعال نار الفساد، و كأنّ القطران تجسيد لاعمالهم فى الدنيا.

وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ بسبب لباسهم الذى هو من قطران، لانّه عند اشتعاله لا يحرق جسمهم فقط، بل يصل لهيبه الى وجوههم. كلّ ذلك لأجل لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ

و من الطريف انّه لم يقل انّ الجزاء بما كسبت أنفسهم، بل يقول: «ما كسبت» ليكون تجسيدا حيّا لاعمالهم، و هذه الآية بهذا التعبير الخاص دليل آخر على تجسّم الأشياء.

و فى الختام يقول تعالى: إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ و هذا واضح تماما لانّ كلّ انسان حسابه معه! و نقرا فى بعض الرّوايات: انّ اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر. و لا ريب انّ اللّه تعالى لا يحتاج الى وقت لمحاسبة الافراد، و ما جاء فى الرّواية أعلاه اشارة الى اقصر الفترات. (للتوضيح اكثر راجع تفسير الآية ۲۰۲ من سورة البقرة من تفسيرنا هذا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۰

و بما انّ آيات هذه السورة- و كذلك جميع الآيات- لها جانب الدعوة الى التوحيد و إبلاغ الأحكام الالهيّة الى الناس و إنذارهم، يقول تعالى فى آخر آية من هذه السورة: هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ

بحوث

۱- تبديل الأرض غير الأرض و السماوات

قرانا فى الآيات أعلاه انّ فى يوم القيامة تبدّل الأرض غير هذه الأرض و كذلك السّماوات، فهل التبديل تبديل ذاتى، اى ان تفنى هذه الأرض و تخلق مكانها ارض اخرى للقيامة؟ ام المقصود هو تبديل الصفات، يعنى دمار ما فى الأرض و السّماوات و خلق ارض و سماوات جديدة على انقاضها؟ حيث تكون النسبة بينهما انّ الثانية أكمل من الاولى.

الظاهر فى كثير من الآيات القرآنية أنّها تشير الى المعنى الثانى، ففى الآية (۲۱) من سورة الفجر يقول تعالى: كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا و فى الآية الاولى من سورة الزلزال يقول تعالى: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها و فى الآية (۱۵) من سورة الحاقة وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ و قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً- لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً- يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً، [۳۲۵] و قوله تعالى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ و قوله تعالى فى سورة الانفطار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۱

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ

يستفاد من مجموع هذه الآيات و الآيات الاخرى التى تتحدّث عن بعث الناس من القبور، انّ النظام الحالى للعالم لا يبقى بهذه الصورة التى هو عليها، و لا يفنى فناء تامّا، بل تتغيّر صورة العالم و تعود الأرض مسطّحة مستوية و يبعث الناس فى ارض جديدة (بالطبع تكون الأرض اكثر كمالا لانّ الآخرة كلّ ما فيها أوسع و أكمل).

و من الطبيعى انّ عالمنا اليوم ليس له الاستعداد لتقبّل مشاهد الآخرة، و هو محدود المجال بالنسبة لحياتنا الاخروية و كما قلنا مرارا: انّ نسبة عالم الآخرة الى عالم الدنيا كنسبة عالم الجنين فى الرحم الى الدنيا.

و الآيات التى تقول: يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ دليل واضح على هذه الحقيقة.

من الطبيعى انّنا لا نستطيع ان نصوّر الآخرة و خصائصها بشكل دقيق- كما هو حال الجنين فى بطن امّه لو افترضنا انّ له عقلا كاملا،

فإنّه لا يستطيع ان يتصوّر عالم الدنيا- الّا انّنا نعلم انّه سوف يحدث تغيير عظيم لهذا العالم، حيث يتمّ تدميره و تبديله بعالم جديد، و من الطريف ما ورد فى الرّوايات من انّ الأرض تبدّل بخبزة نقيّة بيضاء يأكل الناس منها حتّى يفرغ من الحساب.

و قد وردت هذه الرّوايات بطرق مختلفة فى تفسير نور الثقلين، و أشار إليها القرطبى فى تفسيره كذلك.

و ليس من المستبعد ان يكون المقصود من هذه الرّوايات انّ الأرض سوف تغطّيها مادّة غذائية يمكن للإنسان ان يستعملها بسهولة، و وصفها بالخبز لأنّه الأكثر احتواء لهذه المادّة الغذائية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۲

۲- بداية و ختام سورة ابراهيم

و كما رأينا فإنّ سورة ابراهيم ابتدأت فى بيان دور القرآن الكريم فى إخراج الناس من الظّلمات الى نور العلم و التوحيد، و انتهت فى بيان دور القرآن فى إنذار الناس و تعليمهم التوحيد.

انّ هذه البداية و النهاية تبيّن هذه الحقيقة، و هو انّ كلّ ما نحتاجه موجود فى هذا القرآن، حيث

يقول الامام على عليه السّلام: «فيه ربيع القلوب و ينابيع العلم، فاستشفوه من أدوائكم»

و هذا البيان دليل على خلاف ما يراه بعض المسلمين من انّ القرآن الكريم كتاب مقدّس يقتصر وجوده فى ترتّب الثواب لقارئه. بل هو كتاب شامل لجميع مراحل الحياة الانسانية.

كتاب رشد و هداية و دستور للعمل، فهو يذكّر العالم و يستلهم منه عموم الناس.

انّ مثل هذا الكتاب يجب ان يأخذ موقعه فى قلوب المسلمين، و يشكّل قانونا و نظاما اساسيا فى حياتهم، و يجب عليهم ان يطالعوه و يبحثوا مضامينه بدقّة فى تطبيقاتهم العمليّة.

انّ هجران القرآن الكريم و اتّخاذ المبادئ المنحرفة الشرقيّة منها و الغربية، احد العوامل المهمّة فى تأخّر المسلمين.

و ما أروع ما

قاله الامام على عليه السّلام «و اعلموا انّه ليس على احد بعد القرآن من فاقة، و لا لأحد قبل القرآن من غنى».[۳۲۶]

و ما اشدّ مصيبتنا فى غربتنا عن القرآن، و معرفة الغرباء به! و من المؤلم ان تكون وسيلة السعادة فى دارنا و نحن نبحث عنها فى دور الناس! و ما أعظم المصاب حين نكون الى جانب نبع ماء الحياة، عطاشى، ظمأى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۳

او نهرول فى الصحارى حفاة وراء السراب! اللهمّ ارزقنا العقل و الهداية و الايمان حتّى لا نفقد وسيلة السعادة هذه، التى هى من ثمار دماء الشهداء فى سبيلك! و الطف علينا بالجدّ حتّى نعلم ضالّتنا فى هذا الكتاب العظيم و لا نمدّ أيدينا الى الآخرين.

۳- التوحيد هو البداية و النهاية

الفائدة الاخرى التى علّمتنا ايّاها الآية أعلاه، هى التأكيد على التوحيد بعنوان الحديث الأخير، و على اولى الألباب بعنوان التذكّر الأخير.

نعم، فالتوحيد اعمق اصل اسلامى حيث تنتهى اليه جميع خطوط التربية و التعليم فى الإسلام، و يجب ان نبتدئ به و ننتهى اليه لأنّه العمود الفقرى للإسلام. و ليس توحيد اللّه فى العبادة فقط، بل التوحيد فى الهدف، و التوحيد فى صفوف القتال، و التوحيد فى

البرامج العمليـة و التنفيذيّة، فكلّها توضّح الأركان الاصـليّة للدين، و سـبب وجود المشاكل الكثيرة فى مجتمعاتنا الاسـلامية هو حذف التوحيد من واقعنا العملى.

و مع الأسف الشديد نلاحظ انّ الدول العربيـة و التى هى مهد الإسلام قد اقترنت برامجها و اهدافها بالشرك و القومية و تكالبت خلف أمجاد العروبـة و عظمـة العرب و أمثال ذلك من الاهـداف و الغايات الوهميّـة، و اتّخذت الدول الاخرى لها أصـناما من هذا القبيل، و بذلك قطعوا أواصـر التوحيد الاسـلامى التى كانت تربط فى ما مضى شرق العالم و غربه، و تغرّبوا عن مبادئهم السّماوية الى درجة انّ الحرب و الاقتتال فيما بينهم اكثر و اشدّ من حربهم مع أعدائهم!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۴

حياة النّبى ابراهيم عليه السّلام

اشارة

مع انّ سورة ابراهيم هى السورة الوحيـدة فى القرآن سـمّيت بهذا الاسم، رأينا من المناسب ان نفهرس حياة هذا الرجل العظيم و محطّم الأصـنام فى نهايتها- مع العلم انّها لا تـذكر حالات ابراهيم الاخرى التى وردت فى آيات اخرى من القرآن- لكى يكون القارئ العزيز على علم كاف بحياة هذا الرجل العظيم التى تذكرها الآيات الاخرى ان شاء تعالى.

و نستطيع ان نقسّم مراحل حياته الشريفة الى ثلاث فترات:

۱- فترة ما قبل النبوّة.

۲- فترة نبوّته و محاربته للأصنام فى بابل.

۳- فترة الهجرة من بابل و تجواله فى ارض مصر و فلسطين و مكّة.

ولادته و طفولته

ولـد ابراهيم عليه السّـلام فى ارض «بابل» التى كانت من بلدان العالم المهمّة، و تحكّمها حكومة قويّة و جائرة، و فتح عينيه على العالم فى الوقت الذى كان نمرود بن كنعان الملك الجبّار الظالم يحكم ارض بابل و يعتبر نفسه الربّ الأعلى [۳۲۷].

بـالطبع لم يكن للنـاس فى ذلك الوقت هـذا الصـنم فقط، بل كانت لهم أصـنام مختلفـة يعبـدونها و يتقرّبون إليها. و الدولـة فى ذلك الوقت كانت تدافع بقوّة عن الأصـنام، لانّها الوسيلة المؤثّرة فى تخدير و تسخيف المجتمع، بحيث لو صدرت اى اهانة من احد تجاهها يعتبرونها خيانة عظمى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۵

و قد نقل المؤرّخون قصّة عجيبة حول ولادة ابراهيم عليه السّلام و خلاصتها هى:

توقّع المنجّمون انّه سوف يولد شخص و يحارب نمرود بكلّ قوّة، و لذلك فقد سعى جاهدا لان يوقف ولادة هذا الشخص او ان يقتله حين ولادته، الّا انّه لم يتمكّن من ذلك و ولد المولود.

و استطاعت امّه ان تحفظه عبر تربيته فى زوايا الغار القريب من مولده، بالشكل الذى امضى ثلاثة عشر عاما هناك.

و فى النهايـة و بعـد ان ترعرع فى مخفاه بعيدا عن انظار شـرطة نمرود، و وصل الى سنّ الشـباب، صـمّم على الخروج منه و النّزول الى المجتمع ليشرح لهم دروس التوحيد التى استلهمها من دخيلة نفسه و تأمّلاته الفكرية.

محاربته للمجاميع المختلفة من الوثنيين

و فى هذه الأثناء التى كان يعبد فيها شعب بابل- بالاضافة الى الأصنام- الموجودات السّماوية كالشمس و القمر و النّجوم، صمّم ابراهيم عليه السّلام على ان يوقظ وجدانهم عن طريق المنطق و الادلّة الواضحة، و يزيل عن فطرتهم النقيّة ستار الظّلمات حتّى يشعّ فى نفوسهم نور الفطرة و يسلكوا فى طريق التوحيد.

و كان يتفكّر فى خلق السّماوات و الأرض حتّى شعّ نور اليقين فى قلبه [۷۵- الانعام .

الجهاد المنطقى مع الوثنيين

واجه ابراهيم اوّلا عبّاد النّجوم و وقف مع مجموعة ممّن يعبدون الزهرة، التى تظهر بعد غروب الشمس مباشرة، حيث كانوا منشغلين فى عبادتها، نادى ابراهيم- امّا من باب الاستفهام الانكارى، او من باب التنسيق مع الطرف المقابل بعنوان المقدّمة، لاثبات اشتباههم- هذا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۶

الْآفِلِينَ

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً و بدا عبدة القمر مراسم دعائهم قالَ هذا رَبِّی

فَلَمَّا أَفَلَ قالَ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِی رَبِّی لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً و قد نشرت اشعّتها الذهبية على السهول الخضراء، و بدا عبّاد الشمس تضرّعهم و عبادتهم لها قال ابراهيم هذا رَبِّی هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۳۲۸]. انّ هذه الآلهة دائمة الأفول و الغروب، فلا اختيار لها إطلاقا، بل هى اسيرة القوانين الطبيعية فكيف تكون خالقه للكون؟

و انهى عليه السّلام هذه الفترة مع الوثنيين على أفضل صورة و استطاع ان يوقظ جماعة منهم و يجعل مجموعة اخرى تشكّ فى عقيدتها.

و لم يمض وقت طويل حتّى شاع صيته .. هذا الشاب الذى أنار قلوب الناس بمنطقه و بيانه البليغين!

الحديث مع آزر

و فى مرحلة اخرى بدا حديثه مع عمّه آزر بعبارات محكمة جدّا و واضحة مقترنة بالمحبّة، و أحيانا يوبّخه و ينذره من مغبّة عبادة الأصنام و يقول له: لماذا تعبد شيئا لا يسمع و لا يرى و لا يغنى عنك شيئا؟

فَاتَّبِعْنِی أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا، إِنِّی أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا الّا انّ عمّه لم يستجب له و هدّده بالرجم إذا لم يرجع عن مساره هذا، لكن ابراهيم بقلبه الواسع قال: سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّی ۴۷- مريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۷

نبوّة ابراهيم عليه السّلام

ليس عندنا دليل واضح على عمر ابراهيم عليه السّلام حينما تقلّد مقام النبوّة، و لكن نستفيد من الآيات فى سورة مريم، انّه أثناء محاورته لعمّه كان من الأنبياء، حيث يقول تعالى: وَ اذْكُرْ فِی الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِی عَنْكَ شَيْئاً.

و نعلم انّ هذه الحادثة كانت قبل القائه فى النار، و إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ما قاله بعض المؤرّخين من انّ عمره أثناء القائه فى النّار

کان ۱۶ عاما سوف یثبت لدینا انّه تحمّل اعباء الرسالة منذ صباه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۵۴۷

الجهاد العملی مع الوثنیین

علی أی حال ازداد صدامه مع الوثنیین یوما بعد یوم حتّی انتهی إلی قیامه بکسر الأصنام فی معبد بابل (الّا کبیرهم) بالاستفادة من الفرصة الملائمة!

الحدیث مع الحاکم المتجبّر!

لقد وصلت هذه الاحداث الی اسماع نمرود فأمر بإحضاره لیطفئ هذا النّور من خلال النصیحة و التهدید. و کان ماهرا فی الدجل، فسأل ابراهیم: إذا کنت لا تعبد الأصنام، فمن هو إلهک؟

قال: ربّی الذی یحیی و یمیت.

قال: انا احیی و أمیت، الا تری انّی اطلق سراح المحکوم بالاعدام، و اعدم من أرید اعدامه؟

فأجابه ابراهیم علیه السّلام بکلام حاسم و قاطع: فَإِنَّ اللَّهَ یَأْتِی بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِی کَفَرَ.[۳۲۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۸

و ممّا لا شکّ فیه انّ ابراهیم کان یعلم انّ نمرود لا یستطیع ان یحیی الموتی، و لکن مهارته فی الدجل جعلت ابراهیم یأتیه بسؤال لا قدرة له علی جوابه.

هجرة ابراهیم

لقد احسّت حکومة نمرود الجبّارة بخطر هذا الشاب علی دولته و انّ من الممکن ان یسبّب یقظة الشعب الرازح تحت ظلمه، و ان یحطّم القیود الاستعماریة المتسلّطة علی رقاب الشعب، فصمّم علی الإیقاع بإبراهیم من خلال إحراقه بالنّار التی اجّجها جهل الناس و إرهاب النظام الحاکم.

و حینما أصبحت النّار بردا و سلاما بأمر من اللّه تعالی و خرج ابراهیم سالما منها، أصابت نمرود و حکومته الدهشة، و فقدوا معنویاتهم لانّهم کانوا یصوّرون ابراهیم علی انّه شاب مغامر یرید تفرقة الناس، لکنّه ظهر قائدا الهیّا و بطلا شجاعا یستطیع ان یقارع الجبّارین لوحده.

و لهذا السبب صمّم نمرود و أعوانه- الذین کانوا یمتصّون قوّتهم من دماء الناس البؤساء- علی ان یقفوا بوجه ابراهیم بکلّ قواهم.

و من جهة اخری فإنّ ابراهیم قد ادّی دوره فی هذا المجتمع، حیث جعل القلوب المستعدّة تمیل الیه و تؤمن بدعوته، و لذلک رای من الأفضل ان یترک ارض بابل هو و التابعون له، و لأجل نشر دعوته سافر الی بلاد الشام و فلسطین و مصر، و استطاع هناک ان یدعو کثیرا من الناس الی التوحید و عبادة الواحد القهّار.

المرحلة الاخیرة للرسالة

امضی ابراهیم علیه السّلام عمره فی جهاد الوثنیین و خصوصا صنمیة الإنسان، و استطاع ان ینیر قلوب المؤمنین بنور التوحید، و یبعث فیهم روحا جدیدة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۹

و یحرّر مجامیع اخری من قیود المتسلّطین.

و الآن یجب ان یصل الی ذروهٔ عبودیته للّه و یبذل کلّ ما عنده فی هذا الطریق بإخلاص، و یصل الی مرحلهٔ الامامهٔ بقفزهٔ روحیهٔ کبیرهٔ من خلال الامتحانات الالهیّهٔ الکثیرهٔ، و فی نفس الوقت یقوم ببناء القواعد للکعبهٔ حتّی تکون اکبر قاعدهٔ للعبادهٔ التوحیدیّهٔ، و یدعو جمیع المؤمنین لهذا المؤتمر العظیم الی جانب هذا البیت الکریم.

و قد ادّی حسد سارهٔ زوجته الاولی لهاجر التی کانت جاریهٔ و اختارها زوجهٔ له و ولدت له إسماعیل .. ادّی الی ان یأتی بها من فلسطین بأمر اللّه الی مکّهٔ و یترکها و ابنها بین الصحاری و الجبال الیابسهٔ، بدون مأوی و لا قطرهٔ ماء، و یعود ثانیهٔ الی فلسطین.

انّ ظهور عین زمزم و مجیء قبیلهٔ جرهم و السّماح لها بالسکن کلّ ذلک ادّی لان تعمّر هذه الأرض. رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاهَٔ فَاجْعَلْ أَفْئِدَهًٔ مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ

و من الطریف ان یقول بعض المؤرّخین: حینما وضع ابراهیم زوجته هاجر و ابنه الرضیع إسماعیل فی مکّهٔ و أراد الرجوع، نادته: یا ابراهیم، من أمرک ان تضعنا فی ارض قاحلهٔ لا نبات فیها و لا ماء و لا انسان؟ فأجابها بجملهٔ قصیرهٔ:

ربّی امرنی بذلک، قالت: ما دام کذلک فإنّ اللّه لا یترکنا.

و قد سافر إبراهیم علیه السّلام مرارا الی مکّهٔ بقصد زیارهٔ ابنه إسماعیل، و فی واحدهٔ من هذه السفرات ادّی مراسم الحجّ، و جاء بإسماعیل الذی کان شابّا قویا و مؤمنا صادقا الی المذبح لیفتدی به بأمر من اللّه و عند ما لبّی امر ربّه و خرج من هذا الامتحان العظیم بأفضل صورهٔ، قبل اللّه سبحانه و تعالی فدیته، و حفظ له إسماعیل، و بعث له کبشا لیفتدی به.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۵۰

و فی النهایهٔ و بعد ان ابلی بلاء حسنا نال کبیر درجهٔ من المقامات التی یمکن للإنسان ان یصل إلیها حیث یقول القرآن الکریم: وَ إِذِ ابْتَلی إِبْراهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قالَ لا یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ

منزلته علیه السّلام فی القرآن

توضّح الآیات القرآنیهٔ انّ اللّه سبحانه و تعالی اعطی لإبراهیم مقاما لم یعطه لأحد من الأنبیاء من قبله، و یمکن ترتیب الآیات کما یلی:

۱- انّ اللّه تعالی ذکره بعنوان انّه «امّهٔ»: إِنَّ إِبْراهِیمَ کانَ أُمَّهًٔ قانِتاً لِلَّهِ حَنِیفاً وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ۳۳۰].

۲- مقام الخلّهٔ وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِیمَ خَلِیلًا.[۳۳۱] و قد جاء فی بعض الرّوایات: (انّما اتّخذ اللّه ابراهیم خلیلا لانّه لم یردّ أحدا و لم یسأل أحدا قطّ غیر اللّه تعالی)[۳۳۲].

۳- و کان من الْمُصْطَفَیْنَ الْأَخْیارِ[۳۳۳]، و لَمِنَ الصَّالِحِینَ ۳۳۴]، وَ الْقانِتِینَ ۳۳۵]، وَ الصِّدِّیقِینَ ۳۳۶]، و کان لَأَوَّاهٌ حَلِیمٌ ۳۳۷]، و من الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ ۳۳۸].

۴- انّ ابراهیم کان محبّا للضیوف، و قد ورد فی بعض الرّوایات انّه کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۵۱

یلقّب ب «أبی الأضیاف».[۳۳۹] ۵- و کان من المتوکّلین علی اللّه، و لا یطلب حاجهٔ الّا منه، و قد ورد فی التاریخ انّه کان معلّقا بین السّماء و الأرض أثناء قذفه بالمنجنیق سأله جبرئیل:

هل لک حاجهٔ؟ قال: نعم، و لکن لیست منک بل من اللّه![۳۴۰].

۶- و کان شجاعا مقداما حیث وقف وحیدا بوجه التعصّبات الوثنیّهٔ، و لم یظهر ای خوف فی مقابلتهم، کسّر أصنامهم و جعلها رکاما، و تحدّث مع نمرود و أعوانه بکلّ شجاعهٔ.

۷- کان لإبراهیم علیه السّلام منطق قوی و استطاع من خلال عباراته و جمله القصیرة المحکمة ان یبطل اقوال المضلّین. و لم یثنه بأسهم عن مواصلة الطریق، بل کان یواجه الأمور بالصبر و الحلم المعبّرین عن روحه الکبیرة، کما جاء فی محاجته مع نمرود و مع عمّه آزر و مع القضاة أثناء محاکمته حیث قالوا له: أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا یا إِبْراهِیمُ، قالَ بَلْ فَعَلَهُ کَبِیرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ کانُوا یَنْطِقُونَ لقد استطاع من خلال هذه الجملة ان یفحمهم و یسدّ علیهم طریق الردّ علیه، فإذا قالوا: آلهتنا لا تسمع و لا تنطق. فتبا لهذه الآلهة! و إذا قالوا: تنطق.

فلما ذا لا یتکلّمون؟! فَرَجَعُوا إِلی أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّکُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ای قالت لهم أنفسهم: انّکم ظالمون، و علی ای حال کان علیهم ان یجیبوا ثُمَّ نُکِسُوا عَلی رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ یَنْطِقُونَ هکذا کان جواب ابراهیم کالصاعقة علی رؤوسهم أُفٍّ لَکُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

و عند ما رأوا انّهم لا یستطیعون مقاومة هذا المنطق الرصین قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ فاعِلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۵۲

هذا نموذج من المنطق الواضح المبیّن و الذی کان ابراهیم فیه هو الفائز.

۸- لقد عدّ القرآن الکریم الحنیفیّة الابراهیمیّة واحدة من مفاخر المسلمین ۳۴۱] و انه هو الذی سَمَّاکُمُ الْمُسْلِمِینَ ۳۴۲].

۹- وضع مناسک الحجّ بأمر من اللّه، و لذلک امتزج اسمه فی جمیع مراسیم الحجّ، حیث یتذکّر کلّ مسلم أثناء ادائه للفرائض هذه الشخصیّة العظیمة و یحسّ بعظمة نبوّته فی قلبه، انّ أداء فریضة الحجّ بدون ذکر ابراهیم تصبح خاویة المعنی.

۱۰- لقد حاولت کلّ المذاهب ان تنسب ابراهیم لنفسها، فالیهودیة و النصرانیة تؤکّدان علی صلتهما به بسبب شخصیته الکبیرة، و لکن القرآن الکریم ینفی هذه الصلة حیث یقول تعالی: ما کانَ إِبْراهِیمُ یَهُودِیًّا وَ لا نَصْرانِیًّا وَ لکِنْ کانَ حَنِیفاً مُسْلِماً وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ۳۴۳] آمین ربّ العالمین نهایة المجلد السّابع

---

[۱] (۱)- انّ جملة\i« رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَکاتُهُ عَلَیْکُمْ أَهْلَ الْبَیْتِ\»E یمکن ان تکون خبریة، و هی حال، کما یمکن ان تکون بمعنی الدعاء ایضا، و لکن الاحتمال الاوّل اقرب.

[۲] (۱)- کلمة« روع» علی وزن« نوع» معناها« الخوف و الوحشة» و کلمة« روع» علی وزن« نوح» معناها« الروح» او قسم منها الذی هو محل الخوف و مرکزه، لمزید الإیضاح تراجع المعاجم اللغویة.

[۳] (۱)-« الحلیم» مشتق من« الحلم» و هو: الاناة و الصبر فی سبیل الوصول الی هدف مقدس، و الأواه فی الأصل: کثیر التحسر و الآه سواء من الخوف من المسؤلیة التی یحملها او من المصائب، و المنیب من الانابة ای الرجوع.

[۴] (۱)- راجع تفسیر البرهان، ص ۲۲۶، ج ۲.

[۵] (۱)- مجمع البیان، فی شرح الآیة آنفة الذکر.

[۶] (۲)- المیزان، ج ۱۰، ص ۳۶۲.

[۷] (۳)-« یهرعون» مشتقة من الاهراع و معناها السیاقة الشدیدة، فکأنما تسوق غریزة هؤلاء إیاهم بشدة الی أضیافه.

[۸] (۱) انظر الفخر الرازی فی تفسیره الکبیر، و تفسیر مجمع البیان فی هذا الصدد.

[۹] (۲) وسائل الشیعة، الجزء ۷، ص ۹۵، کتاب الصوم باب ۵۷.

[۱۰] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۲۸.

[۱۱] (۱)« أسر» مشتق من« الاسراء» و هو المسير ليلا، و ذكر الليل فى الآية من باب توكيد الموضوع، و القطع معناه ظلمة الليل، اشارة الى ان يتحرك و الناس نيام او مشغولون عنه بالشراب و حلك الليل ليخرج وهم فى غفلة عنه.

[۱۲] (۱) فى قوله i إِلَّا امْرَأَتَکَ E هذا الاستثناء من اى جملة هو؟ للمفسّرين احتمالان:« الاوّل» انّه يعدّ استثناء من i لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ\E و مفهومها انّ لوطا و اهله بما فيهم امرأته تحركوا للخروج من المدينة و لم يلتفت منهم احد كما أمرهم الرسل، الا امراة لوط فإنّها بحكم علاقتها بقوم لوط و تأثرها على مصيرهم، وقفت لحظة و نظرت الى الوراء، و طبقا لبعض الرّوايات أصابها حجر من الأحجار التى كانت تهوى على المدينة فقتلت به.« الثانى» انّه استثناء من جملة\i فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ E فيكون معناها انّ جميع اهله ذهبوا معه و لكن امرأته بقيت فى المدينة و لم يأخذها لوط معه، و لكن الاحتمال الاوّل انسب.

[۱۳] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۳۱.

[۱۴] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۴، ص ۲۴۹.

[۱۵] (۲) وسائل الشيعة، ج ۱۴، ص ۲۵۳.

[۱۶] (۳) وسائل الشيعة، ج ۱۴، ص ۲۵۵.

[۱۷] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۴، ص ۲۵۲.

[۱۸] (۱) البحار، ج ۱۲، ص ۱۴۷.

[۱۹] (۲) سفينة البحار، ص ۵۱۷.

[۲۰] (۱) أعلام القرآن، ص ۵۷۳.

[۲۱] (۱) نقلا عن تفسير الصافى، فى شرح المتقدمة.

[۲۲] (۱) ينبغى الالتفات الى انّ جزاء الجملة الشرطية محذوف هنا و تقديره هكذا، أ فأعدل مع ذلك عمّا انا عليه من عبادته و تبليغ دينه.

[۲۳] (۱) ينبغى ذكر هذه المسألة ايضا و هى انّ جملة\i لا يَجْرِمَنَّكُمْ E ذات احتمالين:

الاوّل: بمعنى لا يحملنكم، ففى هذه الصورة تكون على النحو التالى لا يجرمن فعل و(شقاقى) فاعله، و« كم» الضمير المتصل بالفعل مفعول به اوّل و\i أَنْ يُصِيبَكُمْ E مصدر مؤول مفعول ثان فيكون معنى الآية: يا قوم لا يحملنكم شقاقى(مخالفتكم اياى) ان يصيبكم مصير كمصير قوم نوح و أمثالهم من الأقوام المذكورين.

الاحتمال الثّانى: انّ i لا- يَجْرِمَنَّكُمْ E اى لا- يجرنكم الى الذنب و الاجرام، ففى هذه الصورة تكون الجملة على النحو التالى، و« لا يجرمن» فعل و« شقاقى» فاعله و« كم» مفعوله و« انى يصيبكم» نتيجته، و يكون معنى الآية كما ذكرناه فى المتن.

[۲۴] (۱) سفينة البحار، مادة: شعيب.

[۲۵] (۱) هناك فى اللغة العربية أسلوب يستعمل عند عدم الاعتناء بشيء ما و ذلك على نحو الكناية فيقال مثلا« جعلته تحت قدمى» او يقال مثلا« جعلته دبر اذنى» او« جعلته وراء ظهرى» او« جعلته ظهريا» و« الظهر» على زنة« قهر»، و الياء بعده ياء النسبة و انّما كسرت الظاء فذلك لما يطرأ على الاسم المنسوب من تغيرات.

[۲۶] (۲) المكانة: مصدر او اسم مصدر و معناه القدرة على الشيء.

[۲۷] (۳) الرقيب: معناه الحافظ و المراقب و هو مشتق فى الأصل من الرقبة و انّما سمّى بذلك لانّه يكون حافظا على رقبة شخص ما« كناية عن انّه مراقب على روحه» او يحرك الرقبة ليؤدى دور الرقابة و الحفظ.

[۲۸] (۱) الأعراف، ۱۱۰.

[۲۹] (۲) غافر، ۲۶.

[۳۰] (۳) هـذا الجملـة من حيث التركيب النحوى يكون اعرابها كالتالى:« بئس» من افعال الـذم، و فاعله« الورد» و« المورود» صـفة، و المخصوص بالـذم« النار» التى حـذفت من الجملـة، و احتمل البعض انّ المخصوص بالذم هو كلمة« المورود» فعلى هذا لم يحذف من الجملة شيء، الّا انّ الاوّل أقوى كما يبدو.

[۳۱] (۱) اعراب هذه الجملة كإعراب أختها السابقة.

[۳۲] (۱)« التتبيب» مشتق من مادة« تبّ» و معناه الاستمرار فى الضرر، و قد يأتى بمعنى الهلاك ايضا.

[۳۳] (۱)« سـعدوا» من مادة(سـعد) و حسب رأى اصحاب اللغة فإنّ هذا الفعل لازم و لا يتعدّى الى مفعول، فعلى هذا ليست له صيغة للمجهول، فاضـطروا ان يقولوا: انّه مخفّف من(اسـعدوا) و بـابه(الأفعال) و لكن كما ينقل الآلوسـى فى كتاب روح المعانى فى شـرح الآية عن بعض اهل اللغة، انّ الفعل الثلاثى من« سـعد» يتعدّى الى المفعول ايضا- قالوا: سعده اللّه و هو مسعود، فعلى هذا لا حاجة الى ان نقول بأنّ(سعدوا) مخفف من« اسعدوا»« فتدبّر».

[۳۴] (۱) كما فى سورة ابراهيم، الآية(۴۸)، و الأنبياء، الآية(۱۰۴).

[۳۵] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

[۳۶] (۳) نور الأبصار للشبلنجى، ص ۱۴۰ و كتاب الغدير، و كتب أخرى.

[۳۷] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۹۸.

[۳۸] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۸۶.

[۳۹] (۲) مكارم الأخلاق، ص ۶۵.

[۴۰] (۳) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۹۸.

[۴۱] (۱)« المرية» على وزن« جزية» كما تأتى على وزن« قرية» و معناها التردد فى التصميم على امر ما ... و قد قال البعض: انّها تعنى الشكّ المقترن بالتهمة، و الجذر الاصـلى لهذه الكلمة معناه عصـر ثدى الناقة بعد احتلابها. على امل ان يكون شيء من اللبن لا يزال باقيا فى الثدى، و لانّ هذا العمل منشؤه التردد و الشك فلذلك أطلقت الكلمة على كل ما فيه شكّ و تردد.

[۴۲] (۲) هناك كلام بين المفسّـرين فى عودة الضميرين« هم» و« منه» على ايةُ كلمتين فى الآية؟! فقال بعضهم: انّ هذا الضمير هم« و انهم» يعود على قوم موسـى و« منه» يعود على كتاب(التوراة) فمعنى الآية: ان هؤلاء القوم لا يزالون يشـكّون فى كتاب موسـى، و لكن قال آخرون: ان الضـمير فى(انهم) يعود على مشـركى مكـة و« منه» يعود على القرآن، و بملاحظـة ان الآيات جاءت لتسـلية قلب النبى فيكون التفسير الثانى اقرب للنظر.

[۴۳] (۱) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۱۹۹.

[۴۴] (۲) الدر المنثور فى تفسير الآية هذه.

[۴۵] (۱) الآية، ۷۸.

[۴۶] (۲) الآية، ۲۳۸.

[۴۷] (۱) مجمع البيان فى تفسير الآية.

[۴۸] (۲) المصدر السّابق.

[۴۹] (۳) المصدر السّابق.

[۵۰] (۴) المصدر السّابق.

[۵۱] (۱) المصدر السابق.

[۵۲] (۱) الأنفال، ۶۵.

[۵۳] (۲) سورة الإنسان، ۱۲.

[۵۴] (۱) سوره البقرة، الآية ۲۴۸.

[۵۵] (۱) هود، ۸۶.

[۵۶] (۱) الليل، ۱۲.

[۵۷] (۲) الغاشية، ۲۱.

[۵۸] (۳) الشمس، ۸.

[۵۹] (۴) الذاريات، ۵۶.

[۶۰] (۱) الملك، ۲.

[۶۱] (۱) ممّا ذكر فى المتن يتّضح انّ مرجع الضـمير فى« هذه» يعود على i« أَنْباءِ الرُّسُلِ\E» و عودة الضمير على هذه الكلمة لقربها و تناسبها مع البحوث الواردة فى هذه الآية واضح جدّا، لكنّ الاحتمالات الاخرى بأنّ المشار اليه هو« الدنيا» او« خصوص الآيات السابقة» فبعيـد، كما يبدو، و ما قاله كثير من المفسّـِرين من انّ المشار اليه هو« السورة» فقابل للمطابقة مع ما ذكرنا، لانّ القسم الاهمّ من السورة يتناول قصص الأنبياء السابقين.

[۶۲] (۱) فصّلت، ۴۰.

[۶۳] (۲) الاسراء، ۶۴.

[۶۴] (۱) القصص، ۷.

[۶۵] (۱) الآية ۱۰۰.

[۶۶] (۱) مجمع البيان فى تفسير الآية.

[۶۷] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۹.

[۶۸] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۹.

[۶۹] (۱) نهج البلاغة، من كتاب له عليه السّلام لولده الحسن المجتبى عليه السّلام.

[۷۰] (۱)« التأويل» فى الأصل إرجاع الشىء، و كل عمل او كل حديث يصل الى الهدف النهائى يطلق عليه« تأويل» و تحقق الرؤيا فى الخـارج مصـداق للتأويـل ... و« الأحـاديث» جمع الحـديث، و هو نقـل مـا يجرى، و الحـديث هنـا كنايـة عن الرؤيا لان الإنسان ينقلها للمعبرين.

[۷۱] (۱) بحـار الأنوار، ج ۱۴، ص ۴۴ و يضـيف بعض العلماء قسـما رابعا على هـذه الأقسام، هو الرؤيا التى تكون نتيجة مباشـرة عن الوضع المزاجى و الجسمانى للإنسان، و سيشار إليها فى البحوث المقبلة ... ان شاء اللّه.

[۷۲] (۱) بحار الأنوار، ط جديدة، ج ۷۸، ص ۳۳۴.

[۷۳] (۲) سفينة البحار، مادة: كتم.

[۷۴] (۱)« العصبة» معناها الجماعة المتفقون على الأمر، و هذه الكلمة معناها الجمع الّا لا مفرد لها من جنسها.

[۷۵] (۱) مقتبس من تفسير المنار فى تفسير الآية.

[۷۶] (۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۳۰۷.

[۷۷] (۱) المصدر نفسه.

[۷۸] (۱) بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۷۸.

[۷۹] (۱)« يرتع» من مـادة« رتع» على وزن« قطع» و معناه فى الأصل رعى الأغنام و الانعام بصورة عامّـة للنباتات و شـبعها منها، و لكن قد يطلق هذا اللفظ(رتع، يرتع) و يراد به تنزّه الإنسان و كثرة الاكل و الشرب ايضا.

[۸۰] (۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار: رقم الكلمة ۳۹۰.

[۸۱] (۱) سفينة البحار، ج ۱، ص ۵۹۶.

[۸۲] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۱۵.

[۸۳] (۱) فى العبارة المتقدمة حذف جواب« لما» و التقدير كما يلى: فلما ذهبوا به و اجمعوا ان يجعلوه فى غيابة الجبّ عظمت فتنتهم(تفسير القرطبى) و لعل هـذا الحـذف اقتضـى لعظم هذه الحادثة المؤلمة ان يسـكت عنه المتكلم، و هو بنفسه من فنون البلاغة العربية(تفسير الميزان).

[۸۴] (۱) تفسير الآلوسى: ذيل الآية.

[۸۵] (۲) صبر جميل(صفة و موصوف) خبر لمبتدإ محذوف، و تقدير الكلام: صبرى صبر جميل.

[۸۶] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۴۳ و نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۱۱.

[۸۷] (۲) المصدر السّابق.

[۸۸] (۱) تفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۳۷.

[۸۹] (۱) المصدر السابق، ص ۴۱۶.

[۹۰] (۲) نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۶.

[۹۱] (۱) بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۱۵۷ و ۱۵۸.

[۹۲] (۱) سمّيت القافلة« سيارة» لأنّها فى سير و حركة دائمين.

[۹۳] (۱)« الوارد» فى الأصل من« الورود» و هو من يأتى بالماء، ثمّ توسع استعمال الكلمة و أطلقت على كل ورود و دخول.

[۹۴] (۲)« البضاعـة» فى الأصل من مادة« بضع» على وزن« نذر» و معناها: القطعة من اللحم، ثمّ توسـعوا فى المعنى و أطلقوا هذا اللفظ على القطعة المهمّـة، من المـال. و البضـعة هى القطعـة من الجسـد، و حسن البضـع معنـاه: الإنسـان المكتنز لحمه، و« بضع» على وزن« حزب» معناه العدد من ثلاثة الى عشرة(راجع المفردات للراغب).

[۹۵] (۱) هود، ۸۵.

[۹۶] (۱)« المثوى» من مادة(ثوى) و معناه المقام، و لكن معناه هنا الموقعية و المنزلة و المقام كذلك.

[۹۷] (۱) راجع التفسير الكبير للفخر الرازى، ج ۱۸، ص ۱۱۱.

[۹۸] (۱) سورة الاسراء، الآية ۳۴.

[۹۹] (۱) سورة الأحقاف، الآية ۱۵.

[۱۰۰] (۲) سورة غافر، ۶۷.

[۱۰۱] (۱) تفسير الفخر الرازى، ج ۱۸، ص ۱۱۱.

[۱۰۲] (۱) تفسير نور الثقلين ج ۲ ص ۴۲۱.

[۱۰۳] (۱) مقتبس من تفسير« فى ظلال القرآن» لسيّد قطب ذيل الآية ج ۴ ص ۷۱۱.

[۱۰۴] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۲۲، و تفسير القرطبى، ص ۳۹۸، ج ۵.

[۱۰۵] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۱۲۲.

[۱۰۶] (۲) المصدر السابق، ص ۱۲۴.

[۱۰۷] (۳) المصدر نفسه، ص ۱۲۳.

[۱۰۸] (۱) العنكبوت، ۶۵.

[۱۰۹] (۲) البينة، ۵.

[۱۱۰] (۱) سورة ص، الآية ۸۳.

[۱۱۱] (۱) مجمع البيان: ذيل الآية.

[۱۱۲] (۱) الزخرف، ۵۱.

[۱۱۳] (۲) سورة طه، ۶۳.

[۱۱۴] (۳) فى المراد من« ما» من قولها\i« ما جَزاءُ\E» أ هى نافية ام استفهامية، هناك اختلاف بين المفسّرين، و النتيجة واحدة.

[۱۱۵] (۱) ورد التعبير بالخاطئين و هو جمع مـذكّر، و لم يرد التعبير بالخاطئات الـذى هو جمع مؤنث، لانّ جمع المـذكّر السالم يغلّب فى كثير من الموارد و يطلق على جماعة الذكور و الإناث اى« انّك فى زمرة الخاطئين».

[۱۱۶] (۱) تفسير المنار، ج ۱۲، ص ۲۸۷.

[۱۱۷] (۲) تفسير نور الثقلين، ج ۱۲، ص ۴۲۲.

[۱۱۸] (۱) تفسير(روح المعانى) ج ۱۲ ص ۲۰۳.

[۱۱۹] (۲)« المتّكأ» ما يتكأ عليه كالكراسى و الاسرة، و ما يوضع خلف الظهر كما هو معروف فى القصور، و لكن البعض قال: انّ المتّكأ هو نوع من الفواكه المعروفـة« بالاترنـج» و الـذين فسّـروا المتّكأ بالمعنى المتقدّم قالوا ايضا: انّها فاكهة« الأترنج» و هى فاكهة من فصائل الحمضيات لها قشر ضخم يستعمل فى المربيات، و هذه الفاكهة فى مصر خفيفة الحموضة الحموضة و تؤكل!

[۱۲۰] (۱)« حاش للّه» من مادة« حشـى» معناها الطرف او الناحية .. و التحاشـى الابتعاد و مفهوم جملة« حاش للّه» اى ان الله منزه، و هى اشارة الى ان يوسف عبد منزه و طاهر.

[۱۲۱] (۱) سفينة البحار، ج ۱، ص ۵۹۵، مادّة« ظلّ».

[۱۲۲] (۱) مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۳۲.

[۱۲۳] (۱) مجمع البيان فى تفسير الآية، الجزء ۳، ص ۲۳۵.

[۱۲۴] (۱) لزيادة الإيضاح فى سنوات سجن يوسف يراجع تفسير المنار، و القرطبى، و الميزان، و الفخر الرازى.

[۱۲۵] (۱) كلمة« داب» على وزن« ادب» تعنى فى الأصل ادامة الحركة، كما انّها بمعنى العادة المستمرة، فيكون معنى الكلام: عليكم ان تزرعوا تبعا لعادتكم المستـمرة فى مصر و لكن ينبغى ان تقتصدوا فى مصرفه .. و يحتمل ان يكون المراد منه ان تزرعوا بجد و جهد اكثر فأكثر لانّ دأبا و دؤوبا بمعنى الجدّ و التعب ايضا، اى اعملوا حتّى تتعبوا.

[۱۲۶] (۱) سفينة البحار ج ۱ ص ۵۵۴.

[۱۲۷] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۲، ۱۳۹.

[۱۲۸] (۱) نطالع

\i\i فى روايـات عديـدة عن الإمام على بن موسـى الرضا عليه السّـلام E انّ بعض الجـاهلين بالمعـايير الاسـلامية كانوا يعترضون على الامام أحيانا، بأنّه لماذا قبلت ولايـة عهد المأمون مع كلّ زهدك فى الدنيا و اعراضك عنها؟ فكان الامام عليه السّـلام يجيبهم:« يا هذا ايّما أفضل النّبى ام الوصـى»؟ فقالوا: لا بل النّبى، فقال: ايّهما أفضل مسـلم ام مشرك»؟ فقالوا: لا بل مسلم فقال:« فإنّ العزيز عزيز مصر كان مشـركا، و كان يوسف عليه السّـلام نبيّا، و انّ المأمون مسـلم» و انا وصـى، و يوسف سأل العزيز ان يولّيه حين قال\:i اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ E، و انا أجبرت على ذلك\»i وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۱۴۶.\E\E

[۱۲۹] (۱) مجمع البيان، المجلّد الثّالث، صفحة ۲۴۴، تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۳۵.

[۱۳۰] (۲) تفسير نور الثّقلين، ج ۲، ص ۴۳۳.

[۱۳۱] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۳۲.

[۱۳۲] (۲) نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۳۲.

[۱۳۳] (۱) سورة ن و القلم، ۲۵.

[۱۳۴] (۱) مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۵۳ ذيل الآية.

[۱۳۵] (۱) يقول الطبرسى فى مجمع البيان- ذيل الآية- انّ السنّة المتّبعة لدى بعض المجتمعات فى ذلك الزمان هو ان يصير السارق عبدا لمدّة سنة كاملة، و ذكر ايضا انّ اسرة يعقوب كانت ترى عبودية السارق بمقدار ما سرق(اى يعمل عندهم بذلك المقدار).

[۱۳۶] (۱)(فرّطتم) من مادّة تفريط و أصله من(فروط) على وزن شروط، و معناه التقدّم، و لكن حينما يكون من باب التفعيل يأخذ معنى القصور فى التقدّم، و حينما يكون من باب الأفعال(افراط) يأخذ معنى الإسراف فى التقدّم و التجاوز عنه.

[۱۳۷] (۱)(القرية) لا تطلق عند العرب على القرى و الأرياف خاصّة، بل يشمل جميع الأرياف و المدن و القرى، الصغيرة منها و الكبيرة- و المقصود منها فى الآية هى مصر.

[۱۳۸] (۲)« عير» كما يقول الراغب فى المفردات- تعنى الجماعة التى تصحب معها الإبل و الدواب المحمّلة بالغذاء، اى يطلق على المجموع« عير» فعلى هذا يكون السؤال منهم ممكنا لانّ الكلمة تشمل الأشخاص ايضا و لا حاجة للتقدير، و لكن بعض المفسّرين ذهب الى انّ« العير» يطلق على الدواب فقط فلا بدّ من التقدير كما هو الحال فى« القرية».

[۱۳۹] (۱) احتمل بعض المفسّرين انّ هذه الآية لعلّها اشارة الى قصّة يوسف، لكنّه بعيد عن الواقع، لانّ الآيات السابقة لا تبحث عن قضيّة يوسف و فراقه عن أبويه.

[۱۴۰] (۱)(حرض) على وزن مرض بمعنى الشىء الفاسد و المؤلم، و المقصود منه هنا هو المريض الذى ضعف جسمه و صار مشرفا على الموت.

[۱۴۱] (۲)(بثّ) بمعنى التفرقة و الشىء الذى لا يمكن إخفاؤه، و المقصود منه هنا هو الألم و الحزن الظاهر الذى لا يخفى على احد.

[۱۴۲] (۱)(البضاعة) أصلها(البضع) على وزن جزء، و هى بمعنى القطعة من اللحم المقطوعة من الجسم، كما يطلق على جزء من المال الذى يقتطع منه ثمنا لشىء(مزجاة) من(الإزجاء) بمعنى الدفع، و بما انّ الشىء التافه و القليل الثمن يدفعه الآخذ عن نفسه، اطلق عليه(مزجاة).

[۱۴۳] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية الشريفة.

[۱۴۴] (۱) مجمع البيان فى ذيل الآية الشريفة.

[۱۴۵] (۱)(آثرك) أصله من(الإيثار) و فى الأصل بمعنى البحث عن اثر الشىء، و بما انّه يقال للفضل و الخير: اثر، فقد استعملت هذه الكلمة للدلالة على الفضيلة و العلو، فبناء على هذا يكون معنى قوله i آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا\E اى انّ اللّه سبحانه و تعالى قد أكرمك و فضّلك علينا لما قمت به من الأعمال الخيّرة.

[۱۴۶] (۲) يرى الفخر الرازى فى تفسيره انّ الفرق بين الخاطئ و المخطئ هو انّ الخاطئ يقال لمن تعمّد الخطأ، و المخطئ لمن اخطأ عن سهو.

[۱۴۷] (۱)« تثريب» أصله من مادّة(ثرب) و هو شحمة رقيقة تغطّى المعدة و الأمعاء، و التثريب بمعنى رفع هذا الغطاء، ثمّ بمعنى العتاب و الملامة فكان المعاقب قد رفع بعتابه غطاء الذنب عن وجه المذنب(راجع القاموس و مفردات الراغب و تفسير الرازى و روح المعانى).

[۱۴۸] (۱) مجمع البيان ذيل الآية الشريفة.

[۱۴۹] (۱) تفسير فخر الرازى، ج ۱۸، ص ۲۰۶.

[۱۵۰] (۱) تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۲۵۸.

[۱۵۱] (۲) نهج البلاغة- الكلمات القصار- جملة ۱۱.

[۱۵۲] (۱)(تفنّدون) من مادّة(الفند) على زنة(الرمد) و معناها العجز الفكرى و السفاهة، و مضى بعض اللغويين الى انّ معناها الكذب و معناها فى الأصل الفساد. فبناء على ذلك فإنّ جملة(لو لا ان تفنّدون) معناها إذا لم تتّهمونى بالسفاهة و فساد العقل.

[۱۵۳] (۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۲۳« و السائل هو جابر الجعفى».

[۱۵۴] (۲) لمزيد الاطلاع على هذه الرّوايات يراجع المجلد الثّانى من تفسير نور الثقلين، ص ۴۶۴.

[۱۵۵] (۱) شرح نهج البلاغة، للخوئى، ج ۵، ص ۲۰۰.

[۱۵۶] (۱) نقرا فى تفسير القرطبى انّ هدفه كان الاستغفار لهم فى ليلة الجمعة الموافقة ليوم عاشوراء« لمزيد الاطلاع يراجع تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۴۹۱».

[۱۵۷] (۱) راجع تفسير الميزان، و تفسير الفخر الرازى ذيل الآية محل البحث.

[۱۵۸] (۲) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۶۷.

[۱۵۹] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۶۸.

[۱۶۰] (۱) البقرة، ۱۳۲.

[۱۶۱] (۱) مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۶۵.

[۱۶۲] (۱) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، صفحة ۶۹۷.

[۱۶۳] (۲) فى ظلال القرآن، المجلّد الخامس، صفحة ۵۳.

[۱۶۴] (۳) نور الثقلين، ج ۲، صفحة ۲۷۵- اصول الكافى، المجلّد الثّانى، صفحة ۲۹۲.

[۱۶۵] (۱) غاشية مؤنثة لأنّها صفة« للعقوبة» التى هى مقدّرة.

[۱۶۶] (۱) استخدام تلك للبعيد- و كما قلنا سابقا- كناية عن عظمة القرآن و اعجازه.

[۱۶۷] (۱)(عمد) على وزن(صمد)« و عمد» على وزن(زحل) و الاثنان جمع عمود، فالاوّل جمع، و الثّانى اسم الجمع(مجمع البيان ذيل الآية).

[۱۶۸] (۲) الحديث فى تفسير البرهان، عن على بن ابراهيم عن العياشى(البرهان، المجلّد الثّانى، ص ۲۷۸).

[۱۶۹] (۱) سفينة البحار، المجلد الثانى، ص ۵۷۴ نقلا من تفسير على بن ابراهيم القمى.

[۱۷۰] (۱) متجاور بمعنى الجار و ما يكون قريبا، فقوله\:i(قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ\)E يقصد منه انّ هذه القطع مختلفة و ليست متساوية، و الّا لم يكن للجملة معنى.

[۱۷۱] (۱)« أعناب» جمع عنب و« النخيل» جمع نخلة، و يحتمل انّهما ذكرتا بصيغة الجمع للدلالة على الأنواع المختلفة للعنب و التمر و التى قد تصل الى مئات الأنواع فى العالم.

[۱۷۲] (۲) و قد ذكروا معنى آخر لصنو، و هو الشبيه، و لكن يحتمل انّ هذا المعنى مأخوذ من نفس المعنى الذى ذكرناه آنفا.

[۱۷۳] (۱) للمطالعة اكثر راجع كتاب المعاد و العالم بعد الموت .

[۱۷۴] (۱) ابراهيم، ۳۲.

[۱۷۵] (۲) ابراهيم، ۳۲.

[۱۷۶] (۳) النحل، ۱۲.

[۱۷۷] (۴) ابراهیم، ۳۳.

[۱۷۸] (۱) النحل، ۱۴.

[۱۷۹] (۲) الحجّ، ۶۵.

[۱۸۰] (۳) الجاثیة، ۱۳.

[۱۸۱] (۱) و یحتمل فی تفسیر جملة\i إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ E انّ المقصود منه ان تعجب من عبادتهم للأصنام فالأعجب ان ینکروا المعاد، و لکن هذا الاحتمال غیر وارد، و الصحیح ما هو ظاهر الآیة المذکور فی المتن.

[۱۸۲] (۱) المثلات جمع« مثلة» بفتح المیم و ضم الثاء و معناها العقوبات النازلة علی الأمم الماضیة.

[۱۸۳] (۱) مجمع البیان، المجلد ۵ و ۶، ص ۲۷۸- تفسیر القرطبی، المجلّد السّادس، ص ۳۵۱۴.

[۱۸۴] (۱) للمزید من الاطلاع راجع کتاب احقاق الحقّ، المجلّد الثّالث، ص ۸۷ و ما بعدها.

[۱۸۵] (۱)« تغیض» أصلها الغیض بمعنی ابتلاع السائل و هبوط مستوی الماء. و تأتی بمعنی النقصان و الفساد، و« الغیضة» المکان الذی یقف فیه الماء فیبتلعه، و« لیلة غائضة» ای مظلمة.

[۱۸۶] (۲) یقول صاحب المیزان مؤیّدا هذا الرای: إنّ بعض روایات ائمّة اهل البیت یؤیّد هذا الرای. و ابن عبّاس ممّن یؤیّد هذا الرای ایضا، و لکن بالنظر الی الرّوایات المنقولة فی تفسیر نور الثقلین فی ذیل الآیة فإنّ أکثرها یؤیّد ما قلناه فی الرای الاوّل.

[۱۸۷] (۱) نور الثقلین، ج ۲، صفحة ۴۸۵.

[۱۸۸] (۲)« سارب» من سرب علی وزن ضرر، بمعنی الماء الجاری، و یقال للشخص الذاهب الی عمل ایضا.

[۱۸۹] (۱) هناک حدیث بین المفسرین فی ان الضمیر(له) لمن یعود، و کما تشیر الآیة فإنه یعود للإنسان کما تؤکد علیه الآیات السابقة، و لکن بعضهم قال: یعود للنبی او لله. و هذا یخالف ما جاء فی ذیل الآیة[فتأمل .

[۱۹۰] (۱) للتوضیح اکثر فی معنیی التسبیح و التقدیس للکائنات سیأتی فی ذیل الآیة\i وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ E الاسراء، ۴۴.

[۱۹۱] (۲) یقول الشیخ الطوسی رحمه اللّه فی تفسیره التبیان: الخیفة بیان لحالة الشخص امّا الخوف فمصدر.

[۱۹۲] (۱) فسر البعض« المحال» من« المحل، الماحل» بمعنی المکر و الجدال و التصمیم علی العقوبة، و لکن ما أشرنا الیه أعلاه هو الصحیح، و التفسیران قریبا المعنی.

[۱۹۳] (۱) تشیر هذه الآیة الی الافران التی تستعمل لصهر الفلزان، فهذه الافران تتمیّز بوجود النّار من تحتها و من فوقها یعنی نار تحت الفلز و نار فوقه، و هذه من أفضل انواع الافران حیث تحیط بها النّار من کلّ جانب.

[۱۹۴] (۱)

\i\i یقول الامام علی علیه السّلام فی وصفه أصحابه یوم الجمل E« و قد ارعدوا و ابرقوا و مع هذین الأمرین الفشل، و لسنا نرعد حتّی نوقع و لا نسیل حتّی نمطر\».E

[۱۹۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۵۰.

[۱۹۶] (۱) آل عمران، ۵۹.

[۱۹۷] (۱) البقرة، ۲۰.

[۱۹۸] (۲) البقرة، ۲۶۱.

[۱۹۹] (۳) البقرة، ۲۶۴.

[۲۰۰] (۱) الاحتجاج، ص ۳۵۴.

[۲۰۱] (۱) تفسير البرهان، المجلّد الثّانى، صفحة ۲۸۸.

[۲۰۲] (۲) الانشقاق، ۸.

[۲۰۳] (۱) الطلاق، ۸.

[۲۰۴] (۱) نور الثقلين، ج ۲، صفحة ۴۹۴.

[۲۰۵] (۱) المصدر السابق، صفحة ۴۹۵.

[۲۰۶] (۱) ليس الصبر على الطاعة و المعصية و المصيبة فقط بل الصبر على النعم كذلك حتّى لا يصيب الإنسان الغرور.

[۲۰۷] (۱) مجمع البيان ذيل الآية أعلاه.

[۲۰۸] (۲) الكلمات القصار فى نهج البلاغة، الكلمة ۱۵۸.

[۲۰۹] (۳)« العقبى» بمعنى العاقبة او نهاية العمل خيرا كان او شرّا، و لكن بالنظر الى قرينة الحال فى الآية أعلاه تشير الى العاقبة الحسنة.

[۲۱۰] (۱) منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة، المجلّد الثّالث، ص ۹۹۵.

[۲۱۱] (۲) الخصال للصدوق، الباب الثانى.

[۲۱۲] (۳) الحجر، ۴۴.

[۲۱۳] (۱) للتوضيح اكثر راجع ما ذكر ذيل الآية(۷۲) من سورة التوبة.

[۲۱۴] (۱) يقول الراغب فى مفرداته: اللعن بمعنى الطرد مع الغضب، و اللعن فى الآخرة تشير الى العقوبة و فى الدنيا الابتعاد من رحمة اللّه، و إذا كان من قبل الناس فمعناه دعاء السوء.

[۲۱۵] (۱) الشعراء، ۱۵۲.

[۲۱۶] (۲) البقرة، ۲۲۰.

[۲۱۷] (۳) الأعراف، ۱۴۲.

[۲۱۸] (۴) سورة ص، ۲۸.

[۲۱۹] (۱) المائدة، ۳۳.

[۲۲۰] (۲) البقرة، ۲۰۵.

[۲۲۱] (۳) البقرة، ۲۷.

[۲۲۲] (۴) القصص، ۸۳.

[۲۲۳] (۵) يونس، ۹۱.

[۲۲۴] (۶) يوسف، ۷۳.

[۲۲۵] (۷) هود، ۸۵.

[۲۲۶] (۸) الأنبياء، ۲۲.

[۲۲۷] (۱) و نحن أشرنا اليه بشكل مفصّل فى ذيل الآية(۳۳) من سورة المائدة.

[۲۲۸] (۱) وسائل الشيعة، المجلّد ۱۲، صفحة ۳۷.

[۲۲۹] (۱) وسائل الشيعة المجلّد ۱۲ صفحة ۳۷ و ۳۸.

[۲۳۰] (۲) وسائل الشيعة المجلّد ۱۲ صفحة ۳۸.

[۲۳۱] (۳) وسائل الشيعة المجلّد ۱۲ صفحة ۳۷ و ۳۸.

[۲۳۲] (۱) للاستفادة اكثر راجع كتاب(طرق التغلّب على الاضطراب و القلق).

[۲۳۳] (۱) و قد أشرنا الى هذه المسألة من تفسير الأمثل ذيل الآية(۲) من سورة الأنفال.

[۲۳۴] (۱) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، صفحة ۴۸۴.

[۲۳۵] (۲) المصدر السّابق.

[۲۳۶] (۳) المصدر السّابق.

[۲۳۷] (۱)« ييأس» مأخوذة من مادّة اليأس، و لكن يقول جمهور من المفسّرين: انّها جاءت هنا بمعنى العلم، و امّا ما يقوله البعض طبقا لما نقله الفخر الرّازى ان« يئست» لا تأتى بمعنى« علمت» إطلاقا، و يرى الرّاغب فى مفرداته انّ اليأس هنا هو نفس معناه، و لكن يحتاج لتحقّقه الى العلم بعدم تحقّق الموضوع، و على هذا يكون ثبوت يأسهم يتوقّف على علمهم و تكون نتيجته انّ اليأس هنا ليس العلم بالوجود، بل العلم بالعدم، و هو مخالف لمفهوم الآية، و على ذلك فالحقّ ما قاله جمهور المفسّرين، و ما ذكروه من شواهد فى قول العرب على ذلك، و قد ذكر الفخر الرّازى فى تفسيره امثلة من هذه الشواهد[دقّقوا النظر].

[۲۳۸] (۱) الجملة أعلاه مبتدا لخبر محذوف تقديره i أ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ E كمن ليس كذلك.

[۲۳۹] (۱) هناك نقاش بين المفسّرين حول تركيب هذه الجملة فقال البعض: انّ« مثل» مبتدا و« تجرى» خبرها، و قال بعض آخر: انّ« مثل» مبتدا و خبره محذوف تقديره« فيما نقص عليكم مثل الجنّة».

[۲۴۰] (۱) ابراهيم، ۴۸.

[۲۴۱] (۱) لأنّه يلازم هذا الحديث ان يكون ما انزل إليك هو نفس« الكتاب» فالاثنان يشيران الى القرآن، فى الوقت الذى نرى فيه من قرينة المقابلة انّ المقصود من« الكتاب» غير ما انزل إليك.

[۲۴۲] (۱) يقول بعض المفسّرين فى سبب نزول هذه الآية: انّها جواب لما كان يورده البعض من تعدّد ازواج الرّسول، فى الوقت الذى نرى انّ سورة الرّعد مكّية و تعدّد الزوجات لم يكن حينذاك.

[۲۴۳] (۱) و لتطابق هذا المعنى يجب ان يكون هناك تقديم و تأخير فى الجملة أعلاه، و يقال فى تقديره لكل كتاب اجل كما قاله بعض المفسّرين.

[۲۴۴] (۱) تفسير الميزان، المجلّد ۱۱، ص ۴۱۹.

[۲۴۵] (۲) المصدر السّابق.

[۲۴۶] (۳) نور الثقلين، ج ۲، صفحة ۵۱۲.

[۲۴۷] (۱) يونس، ۹۸.

[۲۴۸] (۲) بحار الأنوار الطبعة القديمة المجلّد الثّانى صفحة ۱۳۱- عن امالى الصدوق.

[۲۴۹] (۱) اصول الكافى، المجلّد الاوّل، صفحة ۱۱۴- سفينة البحار، المجلّد الاوّل، صفحة ۶۱.

[۲۵۰] (۱) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، صفحة ۶۱.

[۲۵۱] (۱) تفسير البرهان، المجلّد الثّانى، صفحة ۳۰۱.

[۲۵۲] (۱) الميزان، المجلّد ۱۱، الصفحة ۴۲۷.

[۲۵۳] (۱) مجمع البيان، و نور الثقلين، فى بداية السورة.

[۲۵۴] (۱)« الى صراط اللّه» فى الواقع بدل من« الى النّور» فالمقصود من الهداية الى النّور هو الهداية الى صراط العزيز الحميد، و« كتاب أنزلناه» خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب أنزلناه.

[۲۵۵] (۲)(اللّه): بالكسر لانّه بدل من i(الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ\)E.

[۲۵۶] (۳) يقول الراغب فى مفرداته: استحبّ الكفر على الايمان، و الاستحباب هو سعى الإنسان لان يحبّ شيئا، و إذا ما تعدّى ب(على) فسوف يصرف عنه المعنى المتقدّم كما فى i أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى E.

[۲۵۷] (۱) الحديد، ۱۲.

[۲۵۸] (۲) البقرة، ۲۵۷.

[۲۵۹] (۳) الأعراف، ۱۵۷.

[۲۶۰] (۴) التوبة، ۳۲.

[۲۶۱] (۱) النّور، ۳۵.

[۲۶۲] (۱) غافر، ۳۴.

[۲۶۳] (۱) البقرة، ۲۶.

[۲۶۴] (۲) ابراهيم، ۲۷.

[۲۶۵] (۳) المعجزات التى ظهرت من موسى بن عمران اشارت إليها الآية أعلاه بلفظ الآيات، و هى ۹ معاجز مهمّة طبقا للآية(۱۰۱) من سورة الاسراء، و التى سوف تأتى ان شاء اللّه فى تفسير تلك الآية.

[۲۶۶] (۱) راجع المفردات للراغب، و تفسير المنار،[المجلّد الاوّل، ص ۳۰۸] و تفسير الرازى المجلّد السابع، ص ۷].

[۲۶۷] (۲)« تأذّن» من باب« تفعّل» بمعنى الاعلام للتأكيد، لانّ مادة افعال من(إيذان) بمعنى أعلام، و لمّا يصبح من باب تفعّل يستفاد منه الاضافة و التأكيد.

[۲۶۸] (۱) يوم الكرّة- اى يوم الرجعة.

[۲۶۹] (۲) نور الثقلين، ج ۲، ۵۲۶.

[۲۷۰] (۳) المصدر السّابق.

[۲۷۱] (۱) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، ۷۱۰.

[۲۷۲] (۲) نور الثقلين، ج ۲، ۵۲۹.

[۲۷۳] (۱) اصول الكافى، المجلّد الرابع، صفحة ۸۰ باب الشكر.

[۲۷۴] (۲) نهج البلاغة الكلمات القصار، رقم ۱۳.

[۲۷۵] (۳) اصول الكافى، الجزء الثّانى- ص ۹۹- ح ۳۰.

[۲۷۶] (۱\)i« إِنْ تَكْفُرُوا\»E جملة شرطيّة تقديرها محذوف، و جملة« انّ اللّه لغنى حميد» تدلّ على ذلك و كان التقدير« ان تكفروا ... لا تضرّوا اللّه شيئا».

[۲۷۷] (۲)- جملة\i لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ E قد تكون معطوفة على ما قبلها و الواو محذوفة، و قد تكون جملة وصفية للجملة السابقة.

[۲۷۸] (۱) هناك جدل بين المفسّرين فى معنى« من»، فقال بعضهم بالتبعيض، اى يغفر قسما من ذنوبكم، و هذا الاحتمال ضعيف لانّ الايمان يؤدّى الى غفران الذنوب كلّها(الإسلام يجب ما قبله) و احتمل البعض الآخر انّ« من» بدل، فيكون معنى الجملة يدعوكم ليغفر ذنوبكم بدل الايمان، و قال آخرون: انّ« من» هنا زائدة للتأكيد، و معناه: انّ اللّه تعالى يدعوكم للايمان ليغفر لكم ذنوبكم، و هذا التّفسير نراه اقرب الى الصحّة.

[۲۷۹] (۲) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، ص ۴۸۸.

[۲۸۰] (۱) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، ص ۴۸۸.

[۲۸۱] (۱) آل عمران، ۱۷۳.

[۲۸۲] (۱) النحل، ۹۹.

[۲۸۳] (۱) اصول الكافى، المجلّد الثّانى، باب التفويض الى اللّه و التوكّل عليه حديث- ۳.

[۲۸۴] (۲) بحار الأنوار، ج ۱۵ القسم الثّانى فى الأخلاق، ص ۱۴ الطبعة القديمة.

[۲۸۵] (۳) سفينة البحار، المجلد الثّانى، ص ۶۸۲.

[۲۸۶] (۱) تفسير الفخر الرازى ذيل الآية.

[۲۸۷] (۲) للتوضيح اكثر راجع تفسير الآية(۴۳) من سورة المائدة من تفسيرنا هذا.

[۲۸۸] (۳) نور الثقلين، ج ۲، ص ۵۳۲.

[۲۸۹] (۴) المصدر السابق.

[۲۹۰] (۱) النازعات، ۴۰.

[۲۹۱] (۲) الرحمان، ۴۶.

[۲۹۲] (۱) تفسير القرطبى، ص ۳۵۷۹.

[۲۹۳] (۱) للاطلاع اكثر راجع تفسير الآية(۲۱۷) من سورة البقرة من تفسيرنا هذا.

[۲۹۴] (۱) يوسف، ۹۰.

[۲۹۵] (۲) البحار، ج ۳، مطبعة كمبانى ص ۳۷۷.

[۲۹۶] (۳) المصدر السابق، ص ۳۸۲.

[۲۹۷] (۴) البحار، ج ۲، ص ۶۰۷.

[۲۹۸] (۱) البحار، ج ۲.

[۲۹۹] (۱) يونس، ۵.

[۳۰۰] (۱) يونس، ۳۲.

[۳۰۱] (۲) البقرة، ۲۱۳.

[۳۰۲] (۳) السجدة، ۱۳.

[۳۰۳] (۴) النساء، ۱۳۱ الى ۱۳۳.

[۳۰۴] (۱) يجب الانتباه الى انّ« برزوا» فعل ماضى، الّا انّه جاء هنا بصيغة المستقبل، لانّ المسائل المتعلّقة بالقيامة قطعيّة و غير قابلة للنقاش، و لذلك وردت فى كثير من الآيات بصيغة الماضى.

[۳۰۵] (۱) الأعراف، ۴۳.

[۳۰۶] (۱) للتوضيح اكثر فى معنى الشيطان فى القرآن راجع تفسير الآية ۳۶ من سورة البقرة من تفسيرنا هذا.

[۳۰۷] (۱) بحثنا هذا الموضوع« السّلام و التحيّة» فى المجلد الثّانى، ذيل الآية(۸۶): من سورة النساء من تفسيرنا هذا.

[۳۰۸] (۱) و يظهر هذا الأمر بشكل واضح فى ثمار الأشجار، فثمار الاغصان العالية تكون انضج و أطيب طعما من ثمار الاغصان الواطئة.

[۳۰۹] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، صفحة ۵۴۰- ۵۴۱.

[۳۱۰] (۲) المصدر السابق.

[۳۱۱] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۵۳۵.

[۳۱۲] (۲) المصدر السابق.

[۳۱۳] (۳) المصدر السابق.

[۳۱۴] (۱)« یصلون» من« الصلی» بمعنی الاشتعال و الاحتراق بالنار.

[۳۱۵] (۲) الزمر، ۸.

[۳۱۶] (۱) تفسیر الفخر الرازی ذیل الآیة أعلاه.

[۳۱۷] (۱)« دائبین» من مادّة« الدؤوب» بمعنی ادامة العمل طبقا للسنّة الثابتة، و بما انّ الشمس و القمر مستمرّان بشکل ثابت من ملایین السنین، و ما لهما من فوائد عظیمة للکائنات، لا نجد هناک عبارة لهما أفضل من دائبین.

[۳۱۸] (۱) الجاثیة، ۱۳.

[۳۱۹] (۱) هناک اختلاف بین المفسّرین فی سنّ ابراهیم عند ولادة إسماعیل و إسحاق، فمنهم من قال: کان عمره عند ولادة إسماعیل ۹۹ عاما و عند ولادة إسحاق ۱۱۲ عام، و منهم من یقول اکثر من ذلک و اقل، و لکن القدر المسلّم به انّ عمره کان فی سن یصعب ان یولد منه الأبناء.

[۳۲۰] (۱) نور الثقلین ج ۴ ص ۵۴۸.

[۳۲۱] (۱) نهج البلاغة، خطبة ۱۹۲(القاصعة).

[۳۲۲] (۱) التوبة، ۱۱۳.

[۳۲۳] (۱) للمطالعة اکثر راجع ذیل الآیة(۱۸) من سورة النساء.

[۳۲۴] (۱) یقول فرید وجدی فی دائرة المعارف فی مادّة(القطران) مائع ناتج من تقطیر الفحم الحجری، و القطران النباتی یتمّ الحصول علیه من بعض الأشجار.

[۳۲۵] (۱) سورة طه، ۱۰۸۱۰۵-.

[۳۲۶] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۳۲۷] (۱) ذکر بعض المؤرّخین انّ ولادته علیه السّلام- فی مدینة(اور) التابعة لدولة بابل.

[۳۲۸] (۱) الانعام، ۹۷۵- ۷.

[۳۲۹] (۱) البقرة، ۲۵۸.

[۳۳۰] (۱) النحل، ۱۲۰.

[۳۳۱] (۲) النساء، ۱۲۵.

[۳۳۲] (۳) سفینة البحار، ج ۱، ص ۷۴.

[۳۳۳] (۴) سورة ص، ۴۷.

[۳۳۴] (۵) النحل، ۱۲۲.

[۳۳۵] (۶) النحل، ۱۲۰.

[۳۳۶] (۷) مریم، ۴۱.

[۳۳۷] (۸) التوبة، ۱۱۴.

[۳۳۸] (۹) النجم، ۳۷.

[۳۳۹] (۱) سفینة البحار، ج ۱، ص ۷۴.

[۳۴۰] (۲) الکامل لابن الأثیر ج ۱- ص ۹۹.

[۳۴۱] (۱) سورة الأنبياء، ۷۶۳- ۶، و سورة الحجّ، ۷۸\i مِلَّةَ أَبِيكَمْ إِبْراهِيمَ E.

[۳۴۲] (۲) الممتحنة، ۴.

[۳۴۳] (۳) آل عمران، ۶۷.

الجزء الثامن

سورة الحجر

اشارة

مكيّة و عدد آياتها تسع و تسعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۷

«سورة الحجر»

محتوى السّورة:

المشهور عند جل المفسّرين أنّ سورة الحجر مكّية، و هى السورة الثّانية و الخمسون من السور التى نزلت على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّة المكرمة على ما ذكره ابن النديم فى فهرسته تحت موضوع تاريخ القرآن، و عدد آياتها تسع و تسعون آية باتفاق كل المفسّرين.

و لم تشذ السورة فى سياقها و مضامينها عن السور المكّية السابقة لها، و كما ذكرنا سابقا فإنّ السور المكّية تشتمل على جمل من الكلام حول أصول الدين كالتوحيد و المعاد، و إنذار المشركين و العاصين و الظالمين، بالإضافة إلى ما يحمله تاريخ الأقوام السالفة من دروس العبرة للاعتبار.

و يمكننا تلخيص ما حوته السورة فى سبع نقاط:

۱- الآيات المتعلقة بمبدإ عالم الوجود، و الإيمان به بالتدبر فى أسرار الإيجاد.

۲- الآيات المتعلقة بالمعاد و عقاب الفجرة الفسقة.

۳- أهمية القرآن باعتباره كتابا سماويا.

۴- محاولة إيقاظ و تنبيه البشر من خلال طرح قصّة خلق آدم، و تمرد إبليس، و تبيان عاقبة التمرد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۸

۵- زيادة فى محاولة الإيقاظ و التنبيه من خلال عرض القصص القرآنى لما جرى لأقوام لوط و صالح و شعيب عليهم السّلام.

۶- إنذار و بشارة، مواعظ لطيفة و تهديدات عنيفة، إضافة إلى المرغبات المشوقة.

۷- مخاطبة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لتقوية صبره و ثباته قبال ما يحاك من دسائس، و بالذات ما كان يجرى داخل إطار مكّة.

و قد اختير اسم السورة من الآية الثمانين التى ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر، علما بأنّ السورة تناولت ذلك فى خمس آيات، و هى السورة الوحيدة فى القرآن التى ذكرتهم بهذه التسمية، و سيأتى ذلك مفصلا فى تفسير الآيات (۸۰- ۸۴) إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۹

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱ الى ۵]

اشارهٔ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (۱) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (۲) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۳) وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (۴)
ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ (۵)

التّفسير

الأمانی الزّائفهٔ!

سورهٔ أخرى تفتتح بالحروف المقطعهٔ (ألف، لام، وراء) لتبيّن من جديد أنّ مفردات كتاب نور السماء إلى ظلام أهل الأرض، ما هى إلّا عين تلك الأبجديهٔ التى تلوك ألفاظها ألسن كل البشر، صغيرهم و كبيرهم، بين مختلف اللغات، و مع ذلك فلا يستطيع أى مخلوق الوصول لبناء و تركيب كلام القرآن، و هو ذروهٔ التحدى الربانى المعجز، و عليه فقد جاءت تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ مباشرهٔ.

كما نعلم أنّ «تلك» اسم إشارهٔ للبعيد، و المفروض فى هذا الموضع استعمال اسم الإشارهٔ (هذه) باعتباره يدل على القرب، لأنّ القرآن كتاب بين أيدينا، إلّا إنّ

لغهٔ العرب- كما بيّنا سابقا- تسمح بذلك لبيان عظمهٔ المشار إليه، فالمراد أنّ لشأن القرآن عظمهٔ، و كأنّه فى موضع بعيد جدّا بين طيات السماء، لا يناله إلّا من ملك مستلزمات التحليق إليه. و يقارب ذلك ما نتداوله فيما بيّننا عند تعظيم شخص معين فنقول له مثلا: (إن سمح لنا ذلك السّيد أن ...) فنستعمل (ذلك) مع كون الشخص مخاطبا.

و أمّا بشأن مجىء صيغهٔ «قرآن» نكرهٔ فلبيان عظمته أيضا، و ذكر «القرآن» بعد «الكتاب» تأكيد، و وصفه بال «مبين» لأنّه يظهر الحقائق و يبيّن الحق من الباطل.

و أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المراد بكلمهٔ «الكتاب» إشارهٔ إلى التوراهٔ و الإنجيل، فهو كما يبدو بعيد جدّا و يفتقد الى الدليل.

ثمّ يحذر الذين يصرون على الفساد و مخالفهٔ آيات اللّه الجليهٔ، و يخبر بأنّهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامهٔ بما كسبت أيديهم من كفر و تعصب أعمى و عناد. و يقول: رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ

فالمراد بكلمهٔ «يود» التمنى حسب ما ورد فى تفسير الميزان، و ذكر كلمهٔ «لو» للدلالهٔ على تمنيهم الإسلام فى وقت لا يمكنهم فيه العودهٔ إلى ما كانوا ينكرون، و هذه إشارهٔ إلى أن تمنيهم سيكون فى العالم الآخر و بعد معاينهٔ نتائج الأعمال.

و يؤيد هذا المعنى و ما

ورد عن الإمام الصّادق عليه السّلام قوله: «ينادى مناد يوم القيامهٔ يسمع الخلائق إنّه لا يدخل الجنّهٔ إلا مسلم، فثمّ يود سائر الخلائق أنّهم كانوا مسلمين».[۱]

و

روی أیضا عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا اجتمع أهل النّار فی النّار و معهم من یشاء اللّه من أهل القبلة، قال الکفار للمسلمین: ألم تکونوا مسلمین، قالوا: بلی، قالوا: فما أغنی عنکم إسلامکم و قد صرتم معنا فی النّار؟ قالوا: کانت لنا ذنوب (کبائر) فأخذنا بها (و هذا الاعتراف بالذنب و التقصیر و لوم الأعداء یکون سببا لأن) یسمع اللّه عزّ و جلّ ما قالوا فأمر من کان فی النّار من أهل الإسلام فأخرجوا منها فحینئذ یقول الکفار: یا لیتنا کنّا مسلمین».[۲]

و ربّما کان ظاهر الآیة یوحی إلی أولئک الکفرة الذین ما زالت جذوة الفطرة تسری فی أعماق وجدانهم، و حینما لمسوا من نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تلک الآیات الرّبانیة التی تناغی أوتار القلوب، لانت قلوبهم و تمنوا أن لو یکونوا مسلمین، إلّا أنّ تعصبهم الأعمی و عنادهم القائم، أو قل منافعهم المادیة حجبتهم عن قبول دعوة الحق، و بذلک بقوا بین قضبان کفرهم و استحوذت علیهم أحابیل الکفر و الضلال.

ذکر لنا أحد الأصدقاء من المؤمنین المجاهدین و کان قد سافر إلی أوروبا قائلا: ذات مرّة التقیت بأحد المسیحیین- و کان رجلا منصفا- و بعد أن بیّنت له بعض خصال دیننا، استهوته و مال إلیها قائلا: أهنئکم من أعماقی علی عظمة معتقدکم، و لکن- ما ذا نصنع مع الظروف الاجتماعیة التی أجبرتنا علی أن لا نحید عنها! و من تاریخ الإسلام نطالع ما حصل لقیصر الروم عند ما وصله رسول النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یذکر بأنّ القیصر قد أظهر الإیمان سرّا للرسول حتی أنّه رغب فی دعوة قومه لدین التوحید إلّا أنّه خاف قومه و فکر بامتحانهم ف (أمر منادیا ینادی:

ألا إنّ هرقل قد ترک النصرانیّة و اتبع دین محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فأقبل جنده بأسلحتهم حتی

طافوا بقصره، فأمر منادیه فنادی: ألا- إنّ قیصر إنّما أراد أن یجرّبکم کیف صبرکم علی دینکم، فارجعوا فقد رضی عنکم. ثمّ قال للرسول: إنّی أخاف علی ملکی. و إنّی لأعلم أنّ صاحبک نبیّ مرسل، و الذی کنّا ننتظره و نجده فی کتابنا، و لکنّی أخاف الروم علی نفسی، و لو لا ذلک لاتبعته).[۳] و علی أیة حال، ینبغی التنویه بعدم وجود تعارض بین أیّ من التّفسیرین، فیمکن حمل الآیة علی ندم بعض من الکافرین فی کلا- العالمین (الدنیا و الآخرة)، و اعتبار عدم استطاعتهم العودة إلی الإسلام فی حیاتهم الدنیا و فی الآخرة لجهات مختلفة- فتأمل.

ثمّ یأتی نداء السماء بلهجة لاذعة، یا محمّد ذَرْهُمْ یَأْکُلُوا وَ یَتَمَتَّعُوا وَ یُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ فهم کالأنعام التی لا تعرف سوی الحقل و العلف، و لا تفهم سوی اللّذات المادیة، و کل ما تریده لا یتعدی إطار ما تعرف و تفهم.

إنّهم لا یدرکون فقه الحقائق، لأنّ حجب الغرور و الغفلة و الأمانی الزائفة ختمت علی قلوبهم.

و لکن، عند ما یصفع الأجل وجوههم و ترتفع تلک الحجب عن أعینهم، و حینما یجدون أنفسهم أمام الموت أو فی عرصة یوم القیامة، هنالک سیدرکون عظمة حجم غفلتهم و مدی خسرانهم، و کیف أنّهم قد ضیعوا أغلی ما کانوا یملکون! الآیة التالیة توضح محدودیة اللذائذ الدنیویة لکی لا یظن أحد إنّما خالدة فتقول: وَ ما أَهْلَکْنا مِنْ قَرْیَةٍ إِلَّا وَ لَها کِتابٌ مَعْلُومٌ ثمّ یقول تعالی: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما یَسْتَأْخِرُونَ

فقد سرت سنّة الباری جل شأنه بأن یعطی المدّة الکافیة لرجوع المضللین إلی بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبة تارة، و بفیوضات رحمة الرخاء

تارة أخری، فمن لا تنفعه البشارة یأتیه الإنذار و هکذا، کل ذلک إتماما للحجة علیهم.

صحیح أنّ المصلحة الموجبة للتربیة الربانیة تقتضی (بعلم ربّ الأرباب) أن یمهل و لکنّه سبحانه لا یهمل، و عاجلا أم آجلا سینال کلّ نصیبه بما کسبت یداه.

من الآيتين الأخيرتين، تتّضح لنا فلسفة تكرار آيات القرآن لذكر تأريخ الأمم السابقة.

أ فلا تكفينا قصص السابقين عبرة لإصلاح أنفسنا و الرجوع إلى اللّه تعالى؟

بل كيف نسترخى بالقعود حتى يقدّر علينا ما كتب على الذين ضلوا و ظلموا من قبلنا؟ اذن و علينا الإعتبار، و إلّا فسنكون عبرة لمن سيأتى بعدنا.

ملاحظة:

الغفلة و طول الأمل

ممّا لا شك فيه أن الأمل بمثابة العامل المحرك لعجلة حياة الإنسان، فلو ارتفع الأمل يوما من قلوب الناس لارتبكت مسيرة الحياة و لا تجد إلّا القليل ممن يجد فى نفسه دافعا لمواجهة صراع الحياة معه، و الحديث النبوى الشريف: «الأمل رحمة لأمتى، و لو لا الأمل ما رضعت والدة ولدها، و لا غرس غارس شجرا»[۴] يشير لهذه الحقيقة.

و إذا ما تجاوز الأمل حده المعقول فإنّه سيتحول إلى (طول أمل) و هو ما ينذر بالانحراف و الهلاك، و مثله كمثل ماء المطر الذى يمثل عامل الحياة الفياض للأرض و النبات و الحيوان، فلو زاد عن حدّ الحاجة إليه، أصبح عاملا للغرق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۴

و الهلاك.

و هذا الأمل القاتل هو أساس الجهل باللّه و عدم معرفة الحق و الابتعاد عن الحقيقة، و يؤدى الى تقوقع الإنسان فى دائرته الفردية بما ينسجه الخيال الواسع و يبتعد عن هدف وجود الإنسان على الأرض و المصير الذى يصبو إليه.

و

يحدثنا أمير المؤمنين على عليه السّلام عن هذا المضمون بقوله: «يا أيّها الناس، إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى و طول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة»[۵].

حقا، كم هم أولئك الذين امتازوا بالملكات الفائقة و الكفاءات اللائقة، و لكنّهم سقطوا فى شباك فخ طول الأمل فتحولوا إلى موجودات ضعيفة، بل و ممسوخة! و أصبحوا لا يستطيعون تقديم شى‌ء لمجتمعهم، بل ضيّعوا حتى ما ينفع أنفسهم و أثقلوا عمّا يسمون به إلى التكامل.

و هذه الصورة نتلمس ملامحها بجلاء

فى دعاء كميل: «و حبسنى عن نفعى بعد أملى».

بديهى أنّ الأمل الذى يتجاوز الحد المعقول، يجعل الإنسان عرضة للانهماك و العجز و الاضطراب، و يصوّر لصاحبه أنّ هذه الحال ستوصله إلى السعادة و الرفاه، و ما يدرى أنّه يخطو صوب جرف الشقاء و النكد.

و غالبا ما تطوى صفحات هؤلاء بالدمعة الجارية و الحسرة لما آل إليه المآل ليكونوا عبرة لكل ذى عين بصيرة و أذن سميعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۵

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

وَ قالُوا یا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ ما تَأْتِینا بِالْمَلائِکَةِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۷) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِکَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ ما کانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ (۸)

التّفسیر

طلب نزول الملائکة:

تبتدئ الآیات بتبیان موقف العداء الأعمی و التعصب الأصم للقرآن الحکیم و النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من قبل الکفار، فتقول: وَ قالُوا یا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ

و من خلال کلامهم یظهر بجلاء مدی وقاحتهم و سوء الأدب الذی امتازوا به حین مخاطبتهم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فتارة یقولون: یا أَیُّهَا الَّذِی و أخری: نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ بصیغة الهزؤ و الإنکار لآیات اللّه سبحانه، و ثالثة: یستعملون أدوات التوکید «إن» و لام القسم لیتّهموا أشرف خلق اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالجنون! نعم، الخصم ینطلق المریض الجاهل حینما یقابل حکیما لا نظیر له، فأوّل ما یرمیه بالجنون، لأنّه ینطلق من جهله الذی لا یستوعب الحکمة و المعقول، فیری کل ما فوق تصوره القاصر غیر معقول، و یوصم خصمه بالمجنون!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۶

هؤلاء الأشخاص لدیهم تعصب خاص نحو کل ما ألفوه فی محیطهم الاجتماعی حتی و إن کان ضلالا و انحرافا، لذا تراهم یواجهون کل دعوة جدیدة علی أساس أنّها غیر معقولة، فهم یخشون من کل جدید، و یتمسکون بشدّة بالعادات و التقالید القدیمة.

أضف إلی ذلک، أن من استهوته الدنیا و عاش لها لا یفقه المعانی الروحیة و القیم الإنسانیة و یوزن کل شیء بالمعاییر المادیة، فإذا شاهد شخصا یضحی بکل شیء و حتی بنفسه لأجل أن یصل إلی هدف معنوی، فسوف لا یصدّق بأنّه عاقل، لأن العقل فی عرفهم هو ما یصیب: المال الوافر، الزوجة الجمیلة، الحیاة المرفهة، و الوجاهة الکاذبة! و علیه، فحینما یرون رجلا قد عرضت علیه الدنیا بکل ما یحملون به فأبی أن یقبلها بقوله: «و اللّه لو وضعتم الشمس فی یمینی و القمر فی شمالی علی أن أترک هذا الأمر ما ترکته» فسیقولون عنه: إنّه لمجنون! الملفت فی التهم الموجهة إلی أنبیاء اللّه تعالی أنّها تحمل بین طیاتها تضادا واضحا یلمس بأدنی تدبر، ففی الوقت الذی یرمون النّبی بالمجنون یعودون و یقولون عنه: إنّه لساحر، فمع أن الساحر لا بدّ له من الذکاء و النباهة، فهل یعقل أن یکون الساحر، مجنونا؟! إنّهم لم یکتفوا بنسبة الجنون إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل تحججوا قائلین: لَوْ ما تَأْتِینا بِالْمَلائِکَةِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ

فیجیبهم الباری جل شأنه: ما نُنَزِّلُ الْمَلائِکَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ ما کانُوا إِذاً مُنْظَرِینَ فلو ثمّ إنزال الملائکة و شاهدوا الحقیقة بأعینهم ثمّ لم یؤمنوا بما فسوف یحیق بهم، العذاب الالهی دون إمهال.

و للمفسّرین وجوها متباینة فی تفسیر ما نُنَزِّلُ الْمَلائِکَةَ إِلَّا بِالْحَقِ

۱- یری البعض، أن أمر تنزیل الملائکة لا یتعلق بما یتقوله القائلون تحججا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۷

بل هو إعجاز ربانی لإظهار الحق و إحقاقه.

و بعبارة أخری، فالإعجاز لیس أمرا ترفیهیا یناغی تصورات الآخرین بقدر ما هو حجة إلهیة لإثبات الحق و إماطة الباطل.

و قد أشبعت هذه الحقیقة بما فیه الکفایة لمن یری النّور نورا و الظلام ظلاما من خلال ما أوصله نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و

سلّم عن طريق القرآن و المعاجز الأخرى.

۲- المقصود من كلمة «الحق» هو العقاب الدنيوى بالبلاء المهلك، و بعبارة أخرى (عذاب الاستئصال).

أي ... فى حال عدم إيمان الكفار المعاندين بعد نزول الملائكة على ضوء اقتراحهم فهم هالكون قطعا.

و بهذا تكون جملة وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ مؤكّدة لهذا المعنى، و أمّا على التّفسير الأوّل فإنّها تتناول موضوعا جديدا.

۳- و قيل المراد بالحق فى الآية الموت، إى أنّ الملائكة لا تنزل إلّا لقبض الأرواح.

لكنّ هذا المعنى بعيد جدّا أمام ما يحفل به القرآن من ذكر نزول الملائكة فى قصتى إبراهيم و لوط عليهما السّلام و معركة بدر ... إلخ.

۴- و قيل المراد بالحق الشهادة (المشاهدة).

أي ... ما دام الإنسان يعيش فى عالم الدنيا فهو عاجز عن رؤية ما وراء هذا العالم حيث هناك تسبح الملائكة بحمد ربّها، لأنّ الحجب المادية قد أفسدت رؤيته و لا يتسنى له ذلك إلّا بعد الرحيل إلى العالم الآخر، و حين ذلك ينتهى مفعول الماديات فتزال الحجب و يرى الملائكة.

يواجه هذا التّفسير نفس ما واجهه التّفسير الثّالث من إشكال، فقوم لوط مثلا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۱۸

على ما كانوا عليه من كفر و انحراف فقد رأوا ملائكة العذاب فى دنياهم ۶].

من خلال ما تقدم يتبيّن لنا أن التّفسيرين الأوّل و الثّاني ينسجمان مع ظاهر الآية دون الآخرين.

أمّا ما ورد فى ذيل الآية من عدم الامهال بعد استجابة مطاليبهم فى رؤية المعاجز الحسيّة و عدم إيمانهم بها، فلأنه قد تمّت الحجة عليهم و انتفت جميع اعذارهم و تبريراتهم، و بما أن استدامة الحياة إنّما هو لأجل إتمام الحجة و احتمال توبة و رجوع الافراد المنحرفين الى الصراط المستقيم، و هذا الأمر لا موضوع له فى مثل هؤلاء الأشخاص، فلذلك يحين أجلهم و ينالون جزاءهم الذى يستحقونه.

(فتدبّر)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۱۹

الآية [سورة الحجر (۱۵): آية ۹]

اشارة

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۹)

التّفسير

حفظ القرآن من التحريف:

بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار و استهزاءهم بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن، تأتى هذه الآية المباركة لتواسى قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة و لتطمئن قلوب المؤمنين المخلصين من جهة أخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغة لحياة الرسالة، ألا و هى .. حفظ القرآن من أيادى التلاعب و التحريف إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ...

فبناء هـذا القرآن مستحكم و شـمس وجوده لا يغطيها غبار الضـلال، و مصباح هـديه أبـدى الإنارة، و لو اتحد أعتى جبابرة التاريخ و طغاته و حكامه الظلمة، محفوفين بعلماء السوء، و مزودين بأقوى الجيوش عدّة و عتادا، على أن يخمدوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأنّ الحكيم الجبار سبحانه تعهد بحفظه و صيانته ..

و قد اختلف المفسّرون فی دلالة (حفظ القرآن) فی هذه الآية المباركة:

۱- قال بعضهم: الحفظ من التحريف و التغيير، و الزيادة و النقصان.

۲- و قال البعض الآخر: حفظ القرآن من الضياع و الفناء إلى يوم قيام الساعة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰

۳- و قال غيرهم: حفظه أمام المعتقدات المضلة المخالفة له.

بما أنّه لا يوجـد أى تضاد بين هـذه التفاسير و تـدخل ضـمن المفهوم العام لعبارة إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ فلا داعى لحصر مصاديقها فی بعد واحد، خصوصا و إن «لحافظون» ذكرت بصيغة مطلقة و ليس هناك ما يخصصها.

و الصحيح، وفقا لظاهر الآية المذكورة، أنّ اللّه تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحى: من التحريف، من التلف و الضياع، و من سفسطات الأعداء المزاجية و وساوسهم الشيطانية.

أمّا ما احتمله بعض قدماء المفسّرين بأنّه الحفظ على شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتبار أن ضمير «له» فی الآية يعود إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدلالة إطلاق لفظة «الذكر» على شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی بعض الآيات ۷]، فهو احتمال يتعارض مع سياق الآيات السابقة التى عنت ب «الذكر» «القرآن»، بالإضافة إلى إشارة الآية المقبلة لهذا المعنى.

بحث

فی عدم تحريف القرآن:

المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين شيعة و سنة، أنّ القرآن لم يتعرض لأى نوع من التحريف، و أن الـذى بين أيـدينا هو عين القرآن الـذى نزل على صـدر الحبيب محمّـد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فلا زيادة أو نقصان، حتى و لو بكلمـة واحـدة، أو قل بحرف واحد.

و من جملة من صرح بهذا من العلماء الأعلام الشيعة (من المتقدمين و المتأخرين) تغمّدهم اللّه برحمته.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱

۱- الشّيخ الطوسى المعروف بشيخ الطائفة (۴۶۰ ه- ق)، و له بحث صريح و قاطع بهذا الشأن فی أوّل تفسيره المعروف ب (التبيان).

۲- الشريف المرتضى، و يعتبر من كبار علماء الإمامية فی القرن الرّابع الهجرى.

۳- الشّيخ الصـدوق محمد بن على بن بابويه المعروف برئيس المحدثين، حيث يقول فی بيان عقائد الإمامية: (إن اعتقادنا بالقرآن أنّه سالم من أى تحريف).

۴- المفسّر الكبير الشّيخ الطبرسى، و له فی مقدمة تفسيره بحث مفصل بهذا الشأن.

۵- المرحوم الشّيخ محمد حسين كاشف الغطاء، من كبار العلماء المتأخرين.

۶- المرحوم المحقق اليزدى، و قد نقل فی كتابه (العروة الوثقى) مسألة عدم تحريف القرآن عن جمهور مجتهدى الشيعة.

۷- بالإضافة إلى جمع من العلماء الآخرين، أمثال: الشّيخ المفيد، الشّيخ البهائى، القاضى نور اللّه مع سائر محققى الشيعة.

و قد نحی هذا المنحی علماء و محققوا أهل السنة.

و قد نقل عن بعض محدّثی الشیعة و بعض أهل السنة، اعتقادهم بوقوع التحریف فی القرآن. إلّا أن کبار علماء الفریقین بأدلتهم القاطعة قد أبطلوا زعم هؤلاء و أدخلوه فی حیز النسیان.

و أفاد العلّامة الشریف المرتضی فی جواب (المسائل الطرابلسیات) «إن صحة نقل القرآن واضحة و بیّنة کمعرفتنا لعواصم العالم و الحوادث المهمّة فی التأریخ و الکتب الشهیرة» فهل هناک من یشک فی وجود مدن کمکّة و المدینة أو لندن و باریس و إن لم یزرها؟! أو هل هناک من ینکر وقوع الهجوم المغولی علی الشرق، الثورة الفرنسیة،

الحرب العالمیة الأولی أو الثّانیة؟! فإنّ لم یکن هناک من یشک أو ینکر، بسبب تواتر ذکر وجودها، فکذلک آیات القرآن الکریم، و هذا ما سیأتی بیانه إن شاء اللّه.

و إذا کان بعض المغرضین قد نسبوا للشیعة اعتقادهم بتحریف القرآن، فغایتهم إشعال فتیل التفرقة و الفتنة بین الشیعة و السنة، و قد فندت کتب کبار علماء الشیعة هذه الأباطیل الفاقدة لأی دلیل منطقی.

و لا نستغرب من الفخر الرازی قوله فی ذیل الآیة مورد البحث: (إنّ الآیة:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ دلیل علی بطلان قول الشیعة فی حصول التغییر و الزیادة و النقصان فی القرآن)، ممّا نعلمه عن هذا الرجل من حساسیة و تعصب تجاه الشیعة.

و هنا .. لا بدّ من کلمة: إن کان یقصد بالشیعة کبار علمائهم و محققیهم، فلیس هناک من یعتقد بذلک.

و إن کان یقصد بوجود قول ضعیف بهذا الشأن بین أوساط الشیعة، فإنّ نظیره موجود فی أوساط السنة أیضا، و هو ما لم یعتن به من قبل الطرفین.

و قد تطرق لذلک بوضوح المحقق الشّیخ جعفر المعروف بکاشف الغطاء فی کتابه (کشف الغطاء) بقوله: لا ریب أنّه (أی القرآن) محفوظ من النقصان بحفظ الملک الدیان، کما دل علیه صریح القرآن، و إجماع العلماء فی کل زمان، و لا عبرة بنادر[۸].

إنّ التأریخ الإسلامی مزدحم بالتهم الباطلة المتغذیة من ثدی العصبیة المقیتة، مع علمنا القاطع بأنّ أعداء الإسلام یقفون وراء حیاکة و نشر هذه التهم لإیقاع البغضاء بین أبناء الدین الواحد، و أنّ غایة ما یسعون إلیه أن یروا المسلمین أمّة

مفککة غیر قادرة علی القیام بمهامها الوحدویة التوحیدیة.

تری کاتبا معروفا (من أهل الحجاز) فی عرض ذمّه للشیعة من خلال کتابه (الصراع) یقول: (و الشیعة هم أبدا أعداء المساجد)[۹].

و الحال لو أجرینا إحصاء لعدد المساجد فی شوارع و أسواق و أزقة المدن الشیعیة لأخذ منّا الوقت الطویل لکثرتها، لدرجة أنّ بعضا من الشیعة بات یشکل علی کثرة المساجد فی المنطقة الواحدة و یری لو یلتفت المحسنون لدور الأیتام و المستشفیات الخیریة و ما شاکلها، بدلا من بنایة المساجد لکفایة الموجود و مع هذا تری کاتبا معروفا یتحدث بصراحة عن أمر یدعو إلی الضحک.

و علیه فلا ینبغی الاستغراب لما افتراه الفخر الرازی.

أدلة عدم تحریف القرآن:

۱- أدلة عدم تحریف القرآن کثیرة- فبالإضافة الی الآیة محل البحث و آیات أخر- کیفیة تعامل الناس مع هذا الکتاب السماوی العظیم عبّر التأریخ.

و قبل البداء ينبغى التنويه بأنّ من احتمل التحريف فى القرآن، إنّما أراد بذلك حصول النقص فيه، و لم نر من احتمل الزيادة فى القرآن.

و نظرة فاحصة إلى تاريخ حياة المسلمين نرى من خلالها أنّهم كانوا يعايشون القرآن فى كافة مرافق حياتهم، فهو القانون و الدستور الحاكم، و نظام الدولة، و هو الكتاب المقدس السماوى و رمز العبادة .. و بعد هذا كله هل يحتمل أن تطرأ عليه الزيادة أو النقصان؟! يحدثنا التأريخ بأنّ القرآن ما كان ليفارق الإنسان المسلم فى: صلاته، المسجد، البيت، ميدان الحرب عند مواجهة الأعداء، بل إنّ المسلمين كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴

يجعلون تعليم القرآن مهورا للنساء. فكان للقرآن الحضور الفاعل فى كل صغيرة و كبيرة من شؤون المسلمين، حتى أن الطفل ينمو على هديه.

و مرّة أخرى نقول: أو يعقل أن يصاب هذا الكتاب السماوى المقدس بسهام التحريف و التغيير و هو محفوظ فى قلوب و سلوك المسلمين على مرّ التأريخ؟! لقد تمّ جمع القرآن- كما ذكرنا فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير- فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و اهتمّ به المسلمون الأوائل أقصى درجات الاهتمام، فى مجال تعلم أحكامه، و حفظه، لدرجة أصبحت فيها مكانة الفرد الاجتماعية تقاس بقدر حفظه من سور القرآن الكريم، حتى أصبح عدد حفاظ القرآن من الكثرة بحيث أنّه فى إحدى المعارك قتل فيها أربعة آلاف منهم ۱۰].

و كذلك الحال فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما استشهد سبعون رجلا من الصحابة الذين حفظوا القرآن فى معركة بئر معونة- و هى إحدى المناطق المجاورة للمدينة-[۱۱].

من هذين المثلين (و أمثالهما كثير) يتّضح لنا أن حفظة و قراء و معلمى القرآن الكريم من الكثيرة بحيث يستشهد منهم فى معركة واحدة ذلك العدد الضخم.

و هذا طبيعى جدا إذا ما نظرنا إلى طريقة تعامل المسلمين مع القرآن، باعتباره القانون الحاكم النافذ، و الكتاب المقدس الذى لا يوجد سواه.

لم يكن القرآن الكريم كتابا مهملا فى زوايا البيوت و المساجد يعلوه غبار النسيان حتى تسنح الفرصة لمن يريد أن يزيد فيه أو ينقص، بل إنّ مسألة حفظه كانت و ما زالت عبادة عظيمة و سنّة متبعة تمتد جذورها فى عمق التاريخ الإسلامى.

و بعد أن ظهرت الطباعة كان القرآن الكريم أكثر الكتب من حيث الطبع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵

و الانتشار بين صفوف المسلمين فى كافة بلدانهم، و لا تخلو مدينة إسلامية من حفاظ للقرآن. و الأمثلة أكثر من أن تقال، ففى البلدان الإسلامية هناك مدارس خاصة لقراءة و حفظ القرآن و ذكر أحد المطلعين: أنّه يوجد فى بعض بلاد الإسلامية ما يقرب من مليون و نصف المليون حافظ للقرآن.

و بناء على ما ذكره فريد و جدى فى كتابه (دائرة المعارف): إن من شروط امتحان القبول فى كلية الأزهر فى مصر، هو حفظ القرآن الكريم كاملا و درجة النجاح فى ذلك (۲۰) من (۴۰) كحد أدنى.

خلاصة القول: إنّ حفظ القرآن منذ عصر ظهور الإسلام أصبح سنّة حية فى حياة المسلمين، من خلال ما أمر و أكّد عليه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و هو ما تعضده الرّوايات الكثيرة)، و إلى هنا نعاود طرح السؤال: هل هناك مجال لاحتمال وجود التحريف فى القرآن؟! ۲- بالإضافة إلى ما تقدم تواجهنا مسألة (كتّاب الوحى) و هم الأشخاص الذين أو كل إليهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مهمّة تسجيل الآيات القرآنية بعد نزولها، و يذكر أن عددهم كان بين ۱۴- ۴۳ رجلا.

یقول أبو عبد اللّه الزنجانی فی کتابه القیّم (تأریخ القرآن): (کان للنبی کتّاب یکتبون الوحی و هم ثلاثة و أربعون، أشهرهم الخلفاء الأربعة، و کان ألزمهم للنّبی زید بن ثابت و علی بن أبی طالب علیه السّلام) فکیف لکتاب له کل هؤلاء الکتّاب أن تمتد إلیه ید التحریف؟! ۳- دعوة الأئمّة المعصومین علیهم السلام للعمل بالقرآن الموجود بین أیدینا. و لو تفحصنا کلامهم علیهم السلام لوجدنا أنّهم قد دعوا الناس لتلاوة و دراسة القرآن و العمل علی هدیه منذ صدر الإسلام و علی امتداد وجودهم المبارک بین الناس، و هذا دلیل علی أن الأیادی المفسدة ما استطاعت النیل من هذا الکتاب السماوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶

و خطب الإمام علی علیه السّلام فی نهج البلاغة خیر شاهد ینطق بهذا الادعاء: فنقرأ

فی الخطبة (۱۳۳): «و کتاب اللّه بین أظهرکم، ناطق لا یعیا لسانه، و بیت لا تهدم أرکانه، و عز لا تهزم أعوانه».

و

یقول فی الخطبة (۱۷۶): «و اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذی لا یغش، و الهادی الذی لا یضل ...».

و نطالع

قوله علیه السّلام فی نفس الخطبة المذکورة: «و ما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزیادة أو نقصان: زیادة فی هدی، أو نقصان من عمی».

و نتابع ذات الخطبة حتی نصل

لقوله علیه السّلام: «و إنّ اللّه سبحانه لم یعظ أحدا بمثل هذا القرآن، فإنّه حبل اللّه المتین، و سببه الأمین».

و نقرأ

فی الخطبة (۱۹۸): «ثمّ أنزل علیه الکتاب نورا لا تطفأ مصابیحه، و سراجا لا یخبو توقده، ...، و منهاجا لا یضل نهجه، ...، و فرقانا لا یخمد برهانه»

و أمثال ذلک کثیر فی کلام علی و الأئمّة علیهم السّلام.

و لو فرضنا أنّ ید التحریف قد طالت کتاب السماء، فهل من الممکن أن یدعو إلیه الأئمّة علیهم السلام بهذه القوة؟ و یصفونه بأنّه: صراط هدایة، وسیلة التفریق بین الحق و الباطل، النّور الذی لا یطفأ أبدا، مصباح هدایة لا یخبو، حبل اللّه المتین و العروة الوثقی.

۴- و إذا ما سلمنا ب (خاتمیة) النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ الدین الإسلامی هو خاتم الأدیان الإلهیة، و إنّ رسالة القرآن باقیة إلی یوم القیامة.

فهل یصدق أنّ اللّه سبحانه سوف لا یحفظ دلیل دینه و حجّة نبیّه الخاتم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ و هل یجتمع تحریف القرآن مع بقاء الإسلام عبر آلاف السنین و دوامه حتی نهایة العالم؟! ۵- و هناک دلیل آخر علی أصالة القرآن و حفظه من أیة شائبة نتلمسه فی روایات الثقلین المرویة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بطرق متعددة معتبرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷

فقد روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّی تارک فیکم الثقلین، کتاب اللّه و عترتی، ما إن تمسکتم بهما لن تضلوا بعدی أبدا»[۱۲].

فهل یصح هذا التعبیر عن کتاب تطاله ید التحریف؟! ۶- بالإضافة إلی کل ذلک فالقرآن طرح علی المسلمین باعتباره الحد الفاصل المأمون الجانب فی تمییز الأحادیث الصادقة من الکاذبة، و تشیر کثیر من الرّوایات الواردة عن أهل البیت علیهم السلام إلی أن صدق أو کذب أی حدیث یتبیّن من خلال عرضه علی القرآن، فما وافق القرآن فهو حق و ما خالفه فهو باطل.

فلو افترضنا أنّ تحریفا قد طرأ علی القرآن (و لو بصورة نقصان) فهل یمکن اعتباره فاصلا بین الحق و الباطل، أو معیارا دقیقا لتمییز

الحديث الصحيح من السقيم؟!

روايات التّحريف:

يستند القائلون بتحريف القرآن مرّة على روايات قد أسيء فهمها نتيجة عدم الوصول لما كانت ترمز إليه من معنى، و أخرى على روايات ضعيفة السند و يمكن تقسيم روايات التحريف إلى ثلاثة أقسام:

۱- الرّوايات القائلة: إنّ عليّا عليه السّلام شرع بجمع القرآن بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عند ما تمّ جمعه عرضه على جمع من الصحابة ممن تربعوا فى مقام الخلافة فلم يقبلوه منه،

فقال على عليه السّلام: إنّكم لن تروه بعد الآن أبدا.

و بنظرة فاحصة إلى تلك الرّوايات نصل إلى أن القرآن الذى كان عند على

عليه السّلام لا يختلف مع بقية النسخ من حيث المضمون، سوى اختلافه من حيث العرض و الترتيب فى ثلاثة أمور:

الأوّل: أن آياته و سوره كانت مرتبة حسب تأريخ النّزول.

الثّاني: تثبيت سبب النّزول لكل آية و سورة.

الثّالث: تضمن تفسير النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للآيات بالإضافة إلى ذكر الناسخ و المنسوخ.

فالقرآن الذى جمعه أمير المؤمنين عليه السّلام ليس إلّا عين القرآن الموجود سوى أنّه أضاف إليه: (التّفسير) و (التأويل) و (سبب النّزول) و (تبيان الناسخ و المنسوخ) و ما شابه ذلك. و بعبارة أخرى، و كان قرآنا مع تفسيره الأصيل.

كما أنّه

ورد فى كتاب سليم بن قيس: (إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام لما رأى غدر الصحابة و قلّة وفائهم لزم بيته، و أقبل على القرآن، فلما جمعه كله، و كتابه بيده، و تأويله الناسخ و المنسوخ، بعث إليه أن أخرج فبايع، فبعث إليه إنى مشغول فقد آليت على نفسى لا أرتدى بردائى إلا لصلاة حتى أؤلف القرآن و أجمعه)[۱۳].

۲- الرّوايات المشيرة إلى «التحريف المعنوى» للقرآن.

إنّ التحريف- كما نعلم- على ثلاثة ضروب: لفظى، معنوى، و عملى.

فالتحريف اللفظى: هو تغيير ألفاظ و عبارات القرآن و حصول الزيادة و النقصان فيها. (و هذا ما نرفضه بشدة- و جميع محققى الإسلام- و ننكره إنكارا قاطعا).

و التحريف المعنوى: هو تفسير الآية خلافا لمفهومها و معناها الحقيقى.

أمّا التحريف العملى: فهو العمل على خلاف المقتضى.

ففى تفسير على بن إبراهيم عن أبى ذر رضى اللّه عنه أنّه قال: لما نزلت هذه الآية

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ترد علىّ أمتى يوم القيامة على خمس رايات، فراية مع عجل هذه الأمة، فأسألهم: ما ذا فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقولون: أمّا الأكبر فحرفناه و نبذناه وراء ظهورنا ...»[۱۴].

و واضح أن التحريف هنا يقصد به التحريف المعنوى للقرآن و نبذه وراء الظهور.

۳- الرّوايات المختلفة:

فقد سعى أعداء الدين و المنحرفون عن الصراط المستقيم، و تبعهم الجهلة، في اختلاق بعض الرّوايات للحطّ من شرف القرآن و قدسيته، و منها الرّوايات التي رواها أحمد بن محمّد بن السيارى و البالغة (١٨٨) رواية[١٥]، و قد استدل العلّامة الشّيخ النّورى بكثير من هذه الرّوايات في كتابه (فصل الخطاب).

و السيارى هذا مطعون عند كثير من علماء (علم الرجال) و يقولون عليه كان:

فاسد المذهب، لا يعتمد عليه، و ضعيف الحديث.

و على قول بعضهم: إنّه من أهل الغلو، منحرف، معروف بالتقول بالتناسخ، و كذاب، و يقول عنه الكشى (صاحب كتاب الرجال المعروف): إنّ الإمام الجواد عليه السّلام وصف ادعاءات السيارى في رسالته بأنّها باطلة.

مع أنّ روايات التحريف غير مقتصرة على السيارى، إلّا أنّ أكثرها و أهمها تعود إليه.

و بين هذه الرّوايات المزيفة ما تضحك الثكلى، و ينكرها كل ذى لب لبيب، و على سبيل المثال ما جاء في إحداها بخصوص الآية الثّالثة من سورة النساء وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ أنّه: قد سقط بين شرطها و جزاءها ثلث القرآن!!!

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨ ص: ٣٠

و قد ذكرنا في تفسير الآية المذكورة، أن الشرط و الجزاء في الآية مرتبطان ارتباطا تاما، و لم يسقط من بينهما و لو كلمة واحدة.

أضف إلى ذلك، أن ثلث القرآن ما يعادل أربعة عشر جزء منه تقريبا، فكيف يدعى هذا المدعى مع ما للقرآن من كتّاب وحى و حفاظ و قراء منذ عهد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هل يعقل أن يحصل ذلك دون أن يلتفت إليه أحد؟! و كأنّ هؤلاء لم يعيشوا و يعايشوا التاريخ بواقعيته و جلاءه، ألم يثبت التأريخ بأنّ الشيء الأساسى في حياة المسلمين هو القرآن؟ أو لم يكن القرآن يتلى في آناء الليل و أطراف النهار في جميع البيوت و المساجد؟ إذن .. فكيف يحتمل إسقاط كلمة واحدة دون أن يلتفت إليه أحد، فضلا عن كون السقط ثلث القرآن؟! لا يسعنا إلّا أن نقول: إنّ كذبه بهذه المواصفات لدليل جلى على سذاجة واضعى مثل هذه الأحاديث.

و قد اعتمد الكثير من المتذرعين في إثبات تحريف القرآن على كتاب (فصل الخطاب) المشار إليه آنفا.

و لا بدّ من الإشارة إلى غرض و غاية هذا الكتاب من خلال ما كتبه تلميذ المؤلف العلّامة الشيخ آغا بزرگ الطهرانى في الجزء الأوّل من كتاب (مستدرك الوسائل)، حيث يذكر أنّه سمع من استاذه مرارا: إنّ ما في كتاب فصل الخطاب لا يمثل عقيدتى الشخصية، إنّما ألفته للبحث و المناقشة، و أشرت فيه إلى عقيدتى في عدم تحريف القرآن دون أن أصرح، و كان من الأفضل أن أسميه (فصل الخطاب في عدم تحريف الكتاب).

ثمّ يقول المحدث الطهرانى: هذا ما سمعناه من قول شيخنا نفسه، و أمّا عمله فقد رأيناه يقيم وزنا لما ورد في مضامين الأخبار، و يراها أخبار آحاد لا بدّ أن تضرب عرض الحائط، و لا أحد يستطيع نسبة التحريف إلى أستاذنا إلّا من هو غير عارف بعقيدته و مرامه.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨ ص: ٣١

و أخيرا .. فالأيادى المغلولة لا يسعها في هذا المجال إلّا أن تبذل كل جهودها للنيل من أصالة و عظمة و قدسية كتاب السماء عند المسلمين عن طريق بث الخرافات و الأباطيل.

و طالعتنا الصحف من مدّة ليست بالبعيدة بأنّ أياد إسرائيلية صهيونية قامت بطبع نسخة جديدة للقرآن غيروا فيها كثيرا من الآيات القرآنية، و كما هو معهود فقد انتبه علماء المسلمين بسرعة لهذه الدسيسة الخبيثة و جمعوا تلك النسخ، فباءت محاولتهم بالفشل و الخذلان.

وفات هؤلاء الأعـداء من أصـحاب القلوب الداكنـة، أن نقطة واحدة لو غيّرت فى القرآن فسيعيدها إلى نصابها المفسّرون و الحفاظ و قراء هذا الكتاب العظيم يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ۱۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۰ الى ۱۵]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (۱۰) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۱) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۱۲) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (۱۴)
لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵)

التّفسير

العناد و التعصب:

تواسـى الآيـات قلب النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و قلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صـعاب فى طريق دعوتهم، من خلال الإشارة إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالة و المتعصبة.

فتقول أوّلا: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ

و لكنّهم من العناد و التعصب لدرجة وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

ذلك الاستهزاء و تلك السخرية لاعتبارات عدّة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳

- مرة، يريدون بالسخرية إسقاط شخصية النّبى كى لا يؤثر فى أوساط الفئة الواعية.

- و أخرى، يحاولون بالاستهزاء تغطية ضعفهم و عجزهم أمام المنطق القوى و الحجج الدامغة لرسل اللّه عزّ و جلّ.

- و تـارة، يأخـذهم الاسـتغراب لـدعوات الأنبيـاء الثوريـة ضـد طريقـة حيـاتهم الموبوءة و تقاليـدهم الباليـة، و لمـا كانوا مكيفين لها و مسترخين بين أجوائها، فيدفعهم جهلهم و تعصبهم الأعمى لما هو سائد، لأنّ يستهزءوا.

- و أخرى، محاولة تخدير وجدانهم السارح فى المتاهات كى لا يصحوا على حين غرّة فيعتنق الحق و ينهض بأعباء مسئوليته.

- و قد يكون الاسـتهزاء بسبب خطل مقياسهم و معيارهم للقدوة و القائد فما تعارفوا عليه فى مواصفات الزعيم أو القائد، أن يكون من الطبقة الثرية المرفهة، و قيمة الإنسان عندهم من خلال: لباسه الأنيق، مركبة الفاره، بيته الفخم، و حياته المحفوفة بالزخارف و إذا نهض بـدعوة الحق إنسان فقير لا يمتلك من حطام الدنيا شيئا، فسيكون موضع سـخريتهم!- و أخيرا، فقبولهم لدعوة الأنبياء عليهم السـلام- حسب تصورهـم- يسـتلزم تقويضا لكل شـهواتهم الدنيوية، و تحميلهم وظائف جديدة لا يطيقونها، فليجؤون للاستهزاء لتبرير إعراضهم و انكارهم و إراحة ضمائرهم.

ثمّ يقول جلّ و علا: كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ أى نوصل الآيات القرآنية الى اعماق وجدانهم و عقولهم.

و مع وضوح البلاغ و التأكيـد و بيان المنطق الربانى و إظهار المعجزات، ترى المتعصبين المسـتهزئين لا يُؤْمِنُونَ بِهِ و هو ليس بجديد وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ

و یصل أمر الغارقین فی شهواتهم و المصرین فی عنادهم علی الباطل إلی أنّهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴

لا یؤمنون حتی وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِیهِ یَعْرُجُونَ و مع ذلک لَقالُوا إِنَّما سُکِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ عجبا، أن یصل الإنسان لهذا الدرک من العناد و التعصب! إن الذنوب و الجهل و معاداة الحق تؤثر علی الروح الطاهرة و الفطرة السلیمة، فتحجبهما عن رؤیة وجه الحقیقة الناصع، و تمنعهما من إدراک الحقائق، و إذا لم یتمکن الإنسان من رفع تلک الحجب و إزالة الموانع، فإنّ صورة الحق ستتلوّث فی نظره فینکر کل ما هو معقول و محسوس معا، و من الممکن تطهیر الفطرة فی المراحل الأولی، و لکن إذا رسخت فی قلبه هذه الحالة و تجذرت و أمست «ملکة» و صفة أخلاقیة، فلا یمکن إزالتها بسهولة، و عندها سوف لا تترک أقوی الأدلة العقلیة و لا أوضح الأدلة الحسیة أی تأثیر فی قلبه.

ملاحظات

اشارة

۱- (شیع) جمع (شیعة)، و یطلق علی المجموعة و الفرقة التی تمتلک نهجا مشترکا.

یقول الراغب الأصفهانی فی کتاب (المفردات)- باب شیع: الشیاع الانتشار و التقویة، یقال شاع الخبر أی کثر و قوی، و شاع القوم انتشروا و کثروا، و شیعت النّار بالحطب قویتها، و الشیعة: من یتقوی بهم الإنسان.

أمّا العلّامة الطبرسی فی (مجمع البیان) فیعتبر أنّ أصلها من المشایعة، و هی المتابعة، یقال شایع فلان فلانا علی أمره أی تابعه علیه، و منه شیعة علی علیه السّلام و هم الذین تابعوه علی أمره و دانوا بإمامته، و

فی حدیث أم سلمة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «شیعة علی هم الفائزون یوم القیامة»

إشارة لهذا المعنی.

و علی أیة حال ... فالشیاع بمعنی الانتشار و التقویة، أو المشایعة بمعنی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵

المتابعة، کلاهما دلیل علی وجود نوع من الاتحاد و الارتباط الفکری و الدینی فی مفهوم (الشیعة) و (التشیع).

و إطلاق لفظ (شیع) علی الأقوام السابقة یدل علی أنّهم فی قبال دعوة الأنبیاء علیهم السلام کانوا متحدین فی توجههم و متآزرین متعاضدین فی عملهم.

فإن کان لأهل الضلال هذا الاتحاد و التنسیق أ فلا ینبغی لأتباع الحق أن یسیروا علی نور هدیة متکاتفین و متآزرین؟

۲- مرجع الضمیر فی «نسلکه»:

من لطف الباری جلّ شأنه أن یوصل و یفهم آیاته للمجرمین و المخالفین بطرق شتی، عسی أن تستقر فی قلوبهم، و لکنّ عدم صلاحیة و لیاقة المحل یکون سببا لخروجها من تلک الأجواف النتنة، فتبقی قلوبا غیر متأثرة، شبیها بمرور الغذاء النافع فی معدة مریضة فلا تتقبله و تقذفه إلی الخارج. (و یستفاد هذا المعنی من (السلوک) المادة الأصلیة لعبارة «نسلکه»).

و علی هذا الأساس فضمیر «نسلکه» یعود إلی «الذکر» أی القرآن کما ورد فی الآیات المتقدمة، و کذلک حال الضمیر فی لا یُؤْمِنُونَ بِهِ یعود إلیه أیضا، أی:

إنّهم مع کل ذلک لا یؤمنون بالذکر.

فنلحظ التوافق التام بين الضميرين بالضبط كما جاء فى سورة الشعراء فى الآيتين ۲۰۰ و ۲۰۱.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أن ضمير «نسلكه» يعود إلى الاستهزاء المذكور فى الآية المتقدمة لها، فيكون المعنى: إنّا ندخل الاستهزاء و السخرية فى قلوبهم نتيجة لذنوبهم و عنادهم.

و يكفينا لتضعيف هذا التّفسير أن نقول: إنّه يذهب بالتناسق بين الضميرين.

و نستفيد كذلك من عبارة «نسلكه» أنّ على المبلغ و المرشد أن لا يكتفى فى أداء وظيفته بإيصال صوته الى أسماع الناس، بل عليه أن يطرق كل الآفاق حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶

يوصل صوت الحق إلى القلوب ليقرّ فيها.

و بعبارة أخرى، ينبغى الاستفادة من جميع الوسائل ... السمعية و البصرية، البرامج العملية، الأدب- شعرا و قصة- و الفن الأصيل الهادف. لتكون كلمة الحق واضحة لذوى القلوب الواعية، و الحجة تامة على من ظلم و عاند.

-۳

سنّة الأولين:

تفيدنا الآية الآنفة الذكر بأنّ أساليب أهل الضلال الرامية لتخدير الناس و محاولة تفريقهم و إبعادهم عن أولياء اللّه لا تختص بزمان و مكان معينين، بل هى ممارسة موجودة منذ القدم و باقية ما بقى صراع الحق ضد الباطل على الأرض و لهذا لا ينبغى أن نستوحش من ذلك و نتراجع امام المشاكل و العراقيل التى يدبرها الأعداء.

و لا نسمح لليأس من أن يدخل قلوبنا، و لا لأساليب الأعداء من أن تفقدنا الثّقة بالنفس فذكر سنن الأولين فى القرآن ما هى إلّا مواساة و تسلية مؤثرة لقلوب دعاة الإيمان.

و إذا ما تصورنا يوما أن نشر دعوة الحق و رفع راية العدل و الهداية لا يواجهان برد فعل الأعداء، فإنّنا فى خطأ كبير، و أقل ما فيه أننا سنصاب بحالة اليأس المهلكة، و ما علينا إلّا أن نستوعب مسير خط الأنبياء عليهم السّلام فى مواجهاتهم لأعداء اللّه، و أن نجسد ذلك الإستيعاب فى سلوكنا، بل و علينا أن نزداد فى كل يوم عمقا فى دعوتنا.

۴- تفسير فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ

يظهر هذا المقطع القرآنى- بوضوح- تصويرا لحال المعاندين، فلو أنّ بابا من السماء فتحت لهم و ظلوا يصعدون و ينزلون من خلاله، لقالوا: سحرت عيوننا و حجبت عن رؤية الواقع! (يبدو أنّ المراد من السماء هنا: الفضاء الخارجى الذى لا يمكن النفوذ منه بسهولة).

علما بأنّ كلمة «ظلوا» تستعمل لاستمرار العمل فى النهار و تقابلها كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷

(باتوا) من البيتوتة اللّيل.

و يميل إلى هذا المعنى غالب المفسّرين و لكن العجيب أن بعض المفسّرين احتملوا عودة ضمير «ظلّوا» إلى الملائكة، فيكون المعنى: أنّهم لو رأوا الملائكة تصعد و تنزل من السماء بأمّ أعينهم لما آمنوا أيضا.

و لكن إضافة لعدم انسجام هذا الاحتمال مع تسلسل الآيات السابقة و اللاحقة التى تتحدث عن المشركين، أن ذكر الملائكة إنّما ورد قبل ست آيات (فعودة الضمير إلى الملائكة بعيد جدّا) فإنّ هذا المعنى يقلل من بلاغة العبارة القرآنية، لأنّ القرآن يريد أن يقول أنّ المشركين لا يستسلمون للحق حتى لو صعدوا و هبطوا من السماء مرارا فى ساعات النهار.

۵- معنى عبارة سُكِّرَتْ أَبْصارُنا.

جمله «سكّرت» من مادة (سكر) أى: التغطية.

و يراد بها: أنّ الكافرين المعاندين يقولون: قد غطيت عيوننا عن رؤية الواقعيات، و إذا رأينا أنفسنا نصعد إلى السماء و ننزل إلى الأرض سنحكم على ذلك بأنّه و هم و خيال، كما فى ما يسمّى بالشعوذة التى يستفيد صاحبها من خفة حركة يده فيخدع أنظار الحاضرين بها.

و يضيفون القول: بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ فبالرغم من أنّ الشعوذة هى لون من ألوان السحر، لكنّهم ربما يشيرون إلى ما هو أشد من الشعوذة التى تختص بخداع البصر فقط، ألا و هو السحر الكامل الذى يغطى على كل وجود الإنسان و يفقد معه الإحساس بكل ما هو واقع! فلو أغلقنا عين انسان ما فإنّه لا يفقد الشعور فيما لو أنّه يصعّد به إلى الأعلى أو ينزّل إلى الأسفل.

فمعنى الآية: لو أخذنا المشركين إلى أقطار السماوات لقالوا أوّلا: إنّنا أصبنا بالشعوذة، و بعد أن يجدوا أنّ هذه العملية لا تتوقف على العين فقط فسيقولون حينها: إنّنا مسحورون!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۶ الى ۱۸]

اشارة

وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (۱۶) وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (۱۷) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (۱۸)

التّفسير

تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات للدلالة على معرفة توحيد اللّه، و بسياقها جاءت تكملة لبحثى القرآن و النّبوة المذكورين فى الآيات السابقة.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً.

«البروج»: جمع «برج» و يعنى «الظهور»، و لهذا يطلق على البيت الذى يبنى فى سور المدينة أو على سور الحصن الذى يعتصم به المقاتلون، و ذلك لما له من بروز و ارتفاع خاص. و يقال كذلك (تبرجت) للمرأة التى تظهر زينتها.

و البروج السماوية: هى منازل الشمس و القمر. و بعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس و القمر بإمعان فسنراها فى كل فصل من فصول السنة و لفترة زمنية معينة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إنّ الشمس فى برج الحمل ۱۷]- مثلا- أو الثور أو الميزان أو العقرب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹

أو القوس.

و يعتبر وجود الأبراج السماوية، و كذلك النظام الدقيق فى حركة منازل الشمس و القمر ضمن هذه البروج (و هو التقويم المجسّم لعالم وجودنا)، يعتبر من الأدلة الواضحة على علم و قدرة الخالق جل و علا.

إنّ هذا النظام العجيب بما يحمل من دقة فى حساب تشكيله يكشف لنا وجود هدف لخلق هذا العالم، و كلما أمعنا النظر فى خلق اللّه ازددنا مقربة من معرفة الخالق الجليل.

ثمّ يضيف: زَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ ۱۸].

انظروا لإحدى الليالى المظلمة ذات النجوم الكثيرة فسترون مجموعات نجمية ائتلفت فيما بينها فى كل زاوية من زوايا السماء، و كأنّها حلقات تنظيمية تتجاذب أطراف الحديث، و ترى تلك كأنّها ترمقنا شابحة، و أخرى تغمزنا باستمرار و كأنّها تدعونا إليها، و يخال من بعضها و كأنّها تقترب منّا لشدة تلألئها، و تلك التى تنادينا بخافت ضوئها و ينطق لسان حالها من أعماق السماء و جوفها المتباعد .. إنّنى هنا! هذه اللوحة الشاعرية الرائعة ربّما ألفها البعض على أنها عادية نتيجة لتكرار المشاهدة، و مع ذلك فلها جذب خاص و هى جديرة بالتأمل.

و حينما يبزغ القمر (و بأشكاله المختلفة) وسط تلك المجاميع، يضيف إلى سحرها و جمالها رونقا جديدا.

و تراها خجلة، لا- تقوى على أن ترفع رأسها إلّا بعد غروب الشمس، فتتلألأ الواحدة تلو الأخرى، كأنّهن يخرجن على استحياء من خلف ستار .. و ما إن يحل الطلوع حتى نراها تفر فرارا لتختفى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۰

و مضافا الى ذلك فإنّ لها من الجمالية العلمية و الأسرار المخفية ما لا يصدق، و يكفيك لجماليتها أنّها جعلت أنظار العلماء تشخص إليها منذ آلاف السنين حتى زماننا الذى ما توصل العلماء إلى صناعة المرقبات (التلسكوبات)، إلّا للوصول لاكتشاف أسرار جديدة عن هذا العالم الدائب الملتهب رغم صمته.

و يضيف فى الآية التالية: وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ

الآية المذكورة، من الآيات التى أشبعت شرحا و تفسيرا من قبل المفسّرين، و كلّ منهم قد نحى منحى خاصا فى فهم معناها.

و قد ورد ذات المضمون فى سورة الصافات (الآيتان ۶ و ۷) و كذلك فى سورة الجن الآية (۹).

و ربّما ارتسمت فى أذهان البعض أسئلة لم يسعفوا بالإجابة عنها، فكان لزاما علينا فى بادئ الأمر أن نلقى نظرة إلى آراء كبار المفسّرين فيما يخص الموضوع الذى نحن بصدده، و من ثمّ نعرج إلى ما نراه راجحا من هذه الآراء:

۱- بعض المفسّرين و منهم صاحب تفسير (فى ظلال القرآن) قد اكتفوا بالتّفسير الإجمالى و لم يغوصوا إلى كثير من التفاصيل، و لم يعيروا أهمية لكثير من المسائل على اعتبار أنّها حقائق فوق البشر و لا يمكننا إدراكها، و ما علينا إلّا أن نهتم بالآيات التى ترتب الآثار على حياتنا العملية و تنظم لنا السلوك و التوجه الى الحق.

فكتب يقول: و ما الشيطان؟ و كيف يحاول استراق السمع؟ و أى شىء يسترق؟ ..

كل هذا غيب من غيب اللّه لا سبيل لنا إليه إلّا من خلال النصوص، و لا جدوى فى الخوض فيه، لأنّه لا يزيد شيئا فى العقيدة و لا يثمر إلّا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه، و بما يعطله عن عمله الحقيقى فى هذه الحياة، ثمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۱

لا يضيف إليه إدراكا جديدا لحقيقة جديدة[۱۹].

و ينبغى التنويه هنا إلى أنّ القرآن كتاب سماوى جاء لتوجيه الإنسان إلى الحق، و هو كتاب حياة و تربية، فإن كان فيه ما لا يخص الحياة الإنسانية فمن الأولى أن لا يطرح أصلا، و هذا خلاف التخطيط و المنهج الرّبانى، و كلّ ما فيه دروس لنا و منهج قويم للحياة.

و التسليم بوجود حقائق غامضة فى القرآن أمر مرفوض .. أو ليس القرآن كتاب نور، و كتابا مبينا؟! أو لم ينزل كى يفهمه الناس و يسيروا بهديه؟! فكيف إذن .. لا يهمنا فهم بعض آياته؟! و بكلمة: فإنّ هذا التّفسير مرفوض.

۲- يصرّ جمع لا بأس به من المفسّرين (و خصوصا القدماء منهم) على الوقوف عند المعنى الظاهرى لهذه الآيات.

فالسماء هى هذه السماء، و الشهاب هو ما نراه و نسميه شهابا (أى الكرات الصغيرة التى تسبح فى الفضاء، و تخترق بين الحين و الآخر جاذبية الأرض فتنطلق نحوها بسرعة فتحترق نتيجة لاحتكاكها بالهواء المسبب لزيادة حرارتها).

و الشيطان هو ذلك الموجود الخبيث المتمرد الذى يحاول أن يخترق أعماق السماوات ليطلع على أخبار ذلك العالم ليوصل تلك الأخبار إلى أوليائه الأشرار على الأرض من خلال استراقه السمع، و لكنّه يمنع من الوصول إلى هدفه برميه بالشهب ۲۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۲

۳- و ذهب جمع من المفسّرين مثل العلّامة الطّباطبائى فى (تفسير الميزان) و الطنطاوى فى تفسير (الجواهر) إلى حمل هذه الآيات على التشبيه و الكناية و ضرب الأمثال، أو ما يسمّى ب (البيان الرمزى) ثمّ شرحوا ذلك بصور عدّة:

ألف: نقرأ فى تفسير الميزان: (أورد المفسّرون أنواعا من التوجيه لتصوير استراق السمع من الشياطين و رميهم بالشهب، و هى مبنية على ما سبق إلى الذهن من ظاهر الآيات و الأخبار، إنّ هناك أفلاكا محيطة بالأرض تسكنها جماعات من الملائكة و لها أبواب لا يلج فيها شىء إلّا منها، و إنّ فى السماء الأولى جمعا من الملائكة بأيديهم الشهب يرصدون المسترقين للسمع من الشياطين فيقذفونهم بالشهب.

و قد اتّضح اليوم اتضاح عيان بطلان هذه الآراء.

و يحتمل- و اللّه العالم- أنّ هذه البيانات فى كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبة تصور بها الحقائق الخارجة عن الحس فى صورة المحسوس لتقريبها من الحس، و هو القائل عزّ و جلّ فى سورة العنكبوت (۴۳): وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ و هو كثير فى كلامه تعالى و منه العرش و الكرسى و اللوح و الكتاب.

و على هذا يكون المراد من السماء التى تسكنها الملائكة عالما ملكوتيا ذا أفق أعلى، نسبته إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة بأجرامها إلى الأرض، و المراد لاقتراب الشياطين من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخلقة و الحوادث المستقبلة و رميهم بما لا يطيقونه من نور الملكوت ۲۱].

ب- و الطنطاوى فى تفسيره المعروف، هكذا يرى: (إنّ العلماء المحتالين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۳

المرائين الذين يتبعهم عوام الناس دون أن تكون لهم الأهلية لأن يطلعوا على عجائب السماوات و بدائع العالم العلوى و أجرامه غير المحدودة، و ما يحكمها من نظم و حساب دقيق، فإنّ اللّه تعالى يمنع عنهم هذا العلم و يجعل هذه السماء المليئة بالنجوم الوضاءة بكل أسرارها فى اختيار من له عقل و نباهة و إخلاص و إيمان، و من الطبيعى أن يمنع هذا الصنف من العلماء من النفوذ فى أسرار هذه السماء، فكل شيطان يطرد عن الحضرة الإلهية سواء كان من البشر أو من غيرهم، و ليس له حق الوصول إلى هذه الحقائق، و متى ما اقترب منها طرد عنها، فيمكن أن يعيش هكذا أشخاص سنوات كثيرة ثمّ يموتون و لكنّهم لا يدركون هذه الأسرار أبدا، لهم أبصار ينظرون بها و لكن لا- تستطيع رؤية هذه الحقائق، أليس العلم لا يناله إلّا عشاقه و لا يدرك جماله و لا ينظر إليه إلّا عرفاؤه ۲۲]؟! و يقول فى مكان آخر: ما المانع أن تكون هذه التعبيرات كناية، فيكون المنع الحسى رمزا للمنع العقلى، و الكناية من أجمل أنواع البلاغة، ألّما ترى أن كثيرا من الناس حولك محبوسون فى هذه الأرض، غائبة أبصارهم، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى و لا يفهمون رموز هذه الدنيا و عجائبها و قد قذفوا من كل جانب، مطرودين حيث طردتهم شهواتهم و عداواتهم و كبرياؤهم و حروبهم و طمعهم و شرهم عن تلك المعانى العالية[۲۳]، و إن أصيب أحد بهذه الأهواء يوما بسبب التلوثات التى تملأ قلبه و روحه فإنّه سيطرد أيضا.

ج- و له كلام فى مكان آخر، خلاصته: تبقى قائمة بين أرواح البشر المنتقلة إلى عالم البرزخ مع الأرواح التى ما زالت مع البشر فى الحياة الدنيا، و إذا ما توفر التشابه و السنخية فيما بينها فيمكن و الحال هذه إحضارها و التكلم معها فتطلعها على أمور واقعة و دقيقة جدّا، و لا تتمكن من أن تعطى الصورة الحقيقية لبعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۴

الأمور، لأنها لا تنقل بدقة إلا ما هو ضمن عالمها المحدود، و لا يمكنها أن تصل إلى عالم أعلى منها، فكما أنّ الأسماك لا تتمكن

من اختراق عالمها المائى، كذلك هذه الأرواح فإنّها لا تقوى على الخروج لأكثر من حدود عالمها.

د- و قال بعض آخر: أظهرت الاكتشافات الأخيرة وجود أشعة قوية تنبعث باستمرار من الفضاء البعيد، و يمكن استلامها على الأرض بوضوح بواسطة أجهزة استقبال خاصة، و إنّ مصدر هذه الأمواج لا زال مجهولا، إلّا أن بعض العلماء يحتملون وجود كائنات حية كثيرة تعيش على الأجرام السماوية البعيدة و ربّما كانت متفوقة علينا مدنيا فيرسلون هذه الأمواج ليخبرونا عن وجودهم و بعض أخبارهم، و فى تلك الأخبار مسائل جديدة علينا، و لكنّ الجن تسعى للاستفادة من تلك المسائل فتطرد بتلك الأشعة القوية المقتدرة على أن لا تصل لفهم ما أرسل إلى أهل الأرض ۲۴].

كانت هذه آراء المفسّرين و العلماء و أقوالهم المختلفة.

نتيجة البحث:

طال بنا البحث فى تفسير الآيات الآنفة الذكر، و قبل الخروج بمحصلة البحث لا بدّ من ذكر بعض الملاحظات:

۱- أشار القرآن الكريم بكلمة «السماء» إلى نفس هذه السماء التى يتبادر الذهن إليها تارة، و إلى السمو المعنوى و المقام العلوى تارة أخرى.

فمثلا نقرأ فى الآية (۴۰) من سورة الأعراف إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ.

فمن الممكن حمل معنى السماء هنا على الكناية عن مقام القرب من اللّه عزّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵

و جلّ، كما نقرأ فى الآية العاشرة من سورة فاطر إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

و كما هو بيّن أن كلا من الحكم الطيب و العمل الصالح ليسا من الأشياء التى يقال عنها ذلك، بل المراد هو الارتفاع إلى مقام القرب الإلهى و التشرف بالسمو و الرفعة المعنوية.

و المقصود من تعبير «أنزل» و «نزل» فى آيات القرآن هو النّزول من الساحة الإلهية المقدسة على قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قرأنا فى تفسير الآية (۲۴) من سورة إبراهيم أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ إنّ أصل الشجرة الطيبة المشار إليها فى الآية هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الفرع على عليه السّلام (و الفرع هنا هو الأصل الثانوى الذى يرتفع فى السماء) و الأئمّة عليهم السلام هم الفروع الأصغر[۲۵].

و كذلك ما نقرؤه

فى أحد الأحاديث: «كذلك الكافرون لا تصعد أعمالهم إلى السماء.

لا ريب أنّ «السماء» المستعملة هنا ليست السماء المشاهدة.

نستنتج ممّا سبق أنّ «السماء» قد استعملت بمفهوميها المادى و المعنوى أو الحقيقى و المجازى.

۲- و «النجوم» كذلك، بمفهومها المادى .. هذه الأجرام السماوية التى تشاهد فى السماء. و مفهومها المعنوى .. أولئك العلماء و الأشخاص الذين ينيرون درب المجتمعات البشرية.

فكما أنّ سالك الصحراء و عابر البحر يستهديان بالنجوم و الليالى الحالكة الداكنة، فكذلك المجتمعات البشرية، فإنّها تسلك الطريق السليمة لترشيد حياتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶

و نيل سعادتها بنور أولئك المؤمنين الواعين من العلماء و الصالحين.

و

فی الحدیث المعروف عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «مثل أصحابی فیکم کمثل النجوم بأیّها اقتدیتم اهتدیتم»[۲۶]

و هو إشارة جلیة لهذا المعنی.

کما نقرأ فی تفسیر علی بن إبراهیم فی ذیل الآیة وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِی ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ[۲۷] ..

إنّ الإمام علیه السّلام قال: «النجوم آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم»[۲۸].

۳- یستفاد من الرّوایات العدیدة التی وردت فی تفسیر الآیات المبحوثة، أن منع الشیاطین من الصعود إلی السماوات و طردها بالشهب تمّ حین ولادة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یستفاد من بعضها أنّ ذلک حدث أثناء ولادة عیسی بن مریم علیه السّلام کذلک و لکن لفترة معینة، و أمّا عند ولادة نبیّنا الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقد تمّ المنع بشکل کامل ۲۹].

و من کل ما تقدم یمکننا القول: إن «السماء» کنایة عن سماء الحق و الإیمان، و الشیاطین تسعی أبدا لاختراق هذه السماء و التسلل إلی قلوب المؤمنین المخلصین عن طریق تخدیر حمارة الحق بأنواع الوساوس لصرعهم.

و لکن علم و تقوی أولیاء اللّه و قادة دعوة الحق من الأنبیاء و الأئمّة علیهم السّلام و العلماء العاملین کفیل بأن یبعد عبدة الجبت و الطاغوت عن هذه السماء.

و هذا ما یساعدنا علی فهم ذلک الترابط بین ولادة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو ولادة المسیح علیه السّلام، و بین طرد الشیاطین عن السماء.

و یساعدنا کذلک علی أن نفهم تلک الرابطة بین الصعود إلی السماء و الاطلاع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷

علی الأسرار، لتیقننا بعدم وجود أخبار خاصّة بین طبقات هذه السماء المشاهدة، و کل ما هناک لا یتعدی عجائب الخلقة التی صورها الباری جل شأنه و التی یمکن دراسة الکثیر منها علی سطح الأرض، و الذی ربما أصبح شبیه بالبدیهی من أن الأجرام السماویة المنتشرة فی الفضاء اللامتناهی بعضها أجرام فاقدة للحیاة و أخری حیة، و لکنّ حیاتها لیست کحیاتنا.

و لا بدّ من الالتفات إلی أنّ مسألة وجود الشهب منحصرة ضمن منطقة الغلاف الجوی للأرض فقط، و ذلک حینما تلتهب تلک الصخور المتساقطة صوب الأرض من خلال احتکاکها بالهواء، أمّا خارج منطقة الغلاف الجوی فخال من الشهب.

نعم، هناک صخور و کرات تسبح فی الفضاء إلّا أنّها لا تسمی شهبا إلّا بعد دخولها فی منطقة الغلاف الجوی فتلتهب و تظهر للعیان علی هیئة خط ناری واضح تخیل للناظر أنّها نجمة متحرکة بسرعة.

و کما هو معلوم، فإنّ إنسان العصر الحدیث قد نفذ مرارا من هذه المنطقة، بل و غالی فی نفوذه حتی وطأت قدماه سطح القمر (علما بأنّ سمک الغلاف الجوی یبلغ من مائة إلی مائتی کیلومتر طولا .. و أنّ القمر یبعد عن الأرض بأکثر من ثلاثمائة ألف کیلومتر).

فإنّ کان المقصود من الشهب فی الآیة عین الشهب المشاهدة لنا، فیمکن القول: إنّ علماء البشر قد اکتشفوا هذه المنطقة و لم یجدوا الأسرار الخاصة المدعاة.

و الخلاصة: یظهر لنا من خلال ما ذکر من قرائن و شواهد کثیرة أن المقصود من السماء هو .. سماء الحق و الحقیقة، و أنّ الشیاطین ذوی الوساوس یحاولون أن یجدوا لهم سبیلا لاختراق السماء و استراق السمع، لیتمکنوا من إغواء الناس بذلک، و لکنّ النجوم و الشهب (و هم القادة الربانیون من الأنبیاء و الأئمّة و العلماء) یبعدونهم و یطردونهم بالعلم و التقوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸

و لکن .. بما أن القرآن الکریم بحر غیر متناه، فلا ینبغی البناء القطعی علی هذا التأویل، و ربّما المستقبل سیحفل بتفسیر آخر لهذه الآیات مستندا علی حقائق لم نصل لها فی زماننا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۹

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۹ الى ۲۱]

اشارة

وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (۱۹) وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (۲۰) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۱)

التّفسير

و إتماما لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، و مظاهر عظمة البارى على وجه البسيطة، و يبدأ بنفس الأرض وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها.

«المد»، فى الأصل بمعنى: التوسعة و البسط، و من المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء، لأنّ سطح الأرض (كما هو معلوم) كان مغطى بالمياه بشكل كامل نتيجة للأمطار الغزيرة، و استقرت المياه على سطح الأرض بعد أن مرّت السنين الطويلة على انقطاع الأمطار، و بشكل تدريجى ظهرت اليابسة من تحت الماء، و هو ما تسمّيه الرّوايات ب «دحو الأرض».

ثمّ يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّة كآية من آيات التوحيد وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۰

عبّر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، و لعل المراد ب «إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد) لأنّ الجبال هى الارتفاعات الشاخصة على سطح الأرض الناشئة من برودة قشرة الأرض التدريجى، أو من المواد البركانية.

و من بديع خلق الجبال إضافة إلى كونها أوتادا لتثبيت الأرض و حفظها من التزلزل نتيجة الضغط الداخلى، فإنّها تقف كالدرع الحصين فى مواجهة قوّة العواصف، بل و تعمل على تنظيم حركة الهواء و تعيين اتجاهه، و مع ذلك فهى المحل الأنسب لتخزين المياه على صورة ثلوج و عيون.

و استعمال كلمة «رواسى» جمع (راسية) بمعنى الثابت و الراسخ، إشارة لطيفة لما ذكرناه.

فهى: ثابتة بنفسها، و سبب لثبات قشرة الأرض و ثبات الحياة الإنسانية عليها.

ثمّ ينتقل إلى العامل الحيوى الفعال فى وجود الحياة البشرية و الحيوانية، ألا و هو النبات وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ

ما أجمل هذا التعبير و أبلغه! «موزون» من مادة (وزن)[۳۰]، و يشير بذلك إلى:

الحساب الدقيق، النظام العجيب، و التناسق فى التقدير فى جميع شؤون النباتات، و كل أجزائها تخضع لحساب معين لا يقبل التخلخل من السارق، الغصن، الورقة، الوردة، الحبة و حتى الثمرة.

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، و كل تحمل خواصا معينة و لها من الآثار ما يميزها عن غيرها، و هى باب بمعرفة واسع وصولا لمعرفة البارئ المصور جل شأنه، و كل ورقة منها كتاب ينطق بعرفة الخالق.

و قد ذهب البعض إلى أن المقصود هو إحداث المعادن و المناجم المختلفة فى الجبال، لأنّ كلمة «إنبات» تستعمل فى اللغة العربية للمعادن أيضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۱

و قد وردت الإشارة فى بعض الرّوايات لهذا المعنى،

ففى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام عند ما سئل عن تفسير هذه الآية أنبتنا فيها من كل شىء موزون، أنّه قال: «فإنّ اللّه تبارك و

تعالى أنبت فى الجبال الذهب و الفضة و الجوهر و الصفر و النحاس و الرصاص و الكحل و الزرنيخ و أشباه هذه لا يباع إلّا وزنا»[۳۱].

و هناك من ذهب إلى أن المقصود من الإنبات فى الآية إلى معنى أوسع يشمل جميع المخلوقات على هذه الأرض، كما يشير إلى ذلك نوح عليه السّلام حين مخاطبته قومه وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً[۳۲].

و عليه، فليس هناك ما يمنع من إطلاق مفهوم الإنبات فى الآية ليشمل النبات و البشر و المعادن ... إلخ.

و بما أنّ وسائل و عوامل حيازة الإنسان غير منحصرة بالنبات و المعادن فقط، ففى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب بقوله: وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحية حتى الخارجة عن مسئوليتكم وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ

نعم، لقد كفينا الجميع احتياجاتهم.

«معايش» جمع «معيشة»، و هى: الوسائل و المستلزمات التى تتطلبها حياة الإنسان، و التى يحصل عليها بالسعى تارة، و تأتيه بنفسها تارة أخرى.

و مع أن بعض المفسّرين قد حصر كلمة «معايش» بالزراعة و النبات أو الأكل و الشرب فقط، و لكنّ مفهومها اللغوى أوسع من أن يخصص، و يطلق ليشمل كل ما يرتبط بالحياة من وسائل العيش.

و انقسم المفسّرون فى تفسير مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ إلى قسمين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۲

الأوّل: أنّ اللّه تعالى يريد أن يبيّن مواهبه و نعمه الشاملة للبشر و الحيوان و الكائنات الحية الأخرى التى لا يملك الإنسان أمر تغذيتها و لا يستطيعه.

الثّانى: أنّ اللّه تعالى يريد تذكير الإنسان بأنّه سبحانه هو الرازق، و قد تكفل بإيصال رزقه إلى كل محتاج له سواء كان بواسطة الإنسان أو بواسطة أخرى [۳۳].

و يبدو لنا أنّ التّفسير الأوّل أكثر صوابا، و يعزز ذلك الحديث المروى فى تفسير علىّ بن إبراهيم، حيث يتناول معنى وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ على أنّه:

(لكل ضرب من الحيوان قدّرنا له مقدرا)[۳۴].

أمّا آخر آية من الآيات المبحوثة، فتحوى جوابا لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس، و هو: لماذا لم تهيأ النعم و الأرزاق بما لا يحتاج إلى سعى و كدح؟! فتنطق الحكمة الإلهية جوابا: وَ إِنْ مِنْ شَيْ‌ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ فليست قدرتنا محدودة حتى نخاف نفاذ ما نملك، و إنّما منبع و مخزن و أصل كل شى‌ء تحت أيدينا، و ليس من الصعب علينا خلق أى شى‌ء و بأى وقت يكون، و لكنّ الحكمة اقتضت أن يكون كل شى‌ء فى هذا الوجود خاضعا لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنّما تنزل إليكم بقدر.

و نقرأ فى مكان آخر من القرآن: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ[۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۳

إنّ السعى و الكدح فى صراع الحياة يضفى على حركة الإنسان الحيوية و النشاط، و هو بقدر ما يعتبر وسيلة سليمة و مشروعة لتشغيل العقول و تحريك الأبدان، فإنه يطرد الكسل و يمنع العجز و يحيى القلب للتحرك و التفاعل مع الآخرين ... و إذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الربانى، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشرية؟

فيكفى لحفنة ضئيلة من العاطلين، ذوى البطون المنتفخة، و بدون أىّ وازع انضباطى، يكفيهم لأن يعيثوا فى الأرض الفساد، لماذا؟ لأنّ الناس ليسوا كالملائكة، بل هناك الأهواء التى تلعب بالقلوب و المغريات التى تدنى إلى الانحراف.

لقد اقتضت الحكمة الرّبانية أن يكون الإنسان حاملا لجميع الصفات الحسنة و السيئة، و يمتحن على هذه الأرض بما يحمل، و بما ذا

يعمل، و عن ماذا يتجاوز؟ ...

و السعى و الحركة لما هو مشروع، المجال الأمثل للامتحان.

و الفقر و الغنى من البلاء الذى يدخل ضمن مخطط التمحيص و الامتحان، فكما أنّ الفقر و العوز قد يجران الإنسان نحو هاوية السقوط فى مهالك الانحراف، فكذلك الغنى فى كثير من حالاته يكون منشأ للفساد و الطغيان.

بحوث

١- ما هى خزائن اللّه تعالى؟

نقرأ فى آيات القرآن أن: للّه عزّ و جلّ خزائن، للّه خزائن السماوات و الأرض، بيده خزائن كل شيء .. فما هى خزائنه تعالى؟

«الخزائن» لغة جمع «خزانة»: و هى المكان المخصص لحفظ و تجميع المال.

و هى من مادة (خزن) على وزن (وزن) بمعنى: حفظ الشيء و حبسه.

بديهى، أن من كانت قدرته محدودة و غير قادر على أن يهيء لنفسه كل ما يحتاج إليه على الدوام، يبدأ بجمع ما يملك و خزنه لوقت الحاجة إليه مستقبلا.

و هل يمكن تصور ذلك فى شأنه سبحانه!؟ الجواب بالنفى قطعا .. و لهذا فسّر جمع من المفسّرين أمثال العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان) و الفخر الرازى فى (تفسيره الكبير) و الراغب فى (المفردات)، فسّروا خزائن اللّه بمعنى (مقدورات اللّه)، يعنى: أنّ كل شيء جمع فى خزانة قدرة اللّه، و كل ما يخطه ضرورة أو صلاحا لمخلوقه يخلقه بقدرته.

و قد فسّر بعض كبار المفسّرين «خزائن اللّه» بأنّها: (مجموع ما فى الكون من أصوله و عناصره و أسبابه العامّة المادية، و مجموع الشيء موجود فى مجموع خزائنه لا فى كل واحد منها)[٣۶].

هذا التّفسير و إن كان مقبولا من الناحية الأصولية و لكنّ تعبير «عندنا» ينسجم أكثر مع التّفسير الأوّل.

و انّ عبارة «خزائن اللّه» و ما شابهها لا تصف مقام الرب و شأنه الجليل، و لا يصح أن نعتبرها بعين معناها، و إنّما استعملت للتقريب، من باب تكلم الناس بلسانهم، ليكونوا أكثر قربا للسمع و أشد فهما للمعنى.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ «خزائن» تختص بالماء و المطر، و لكن من الواضح حصر مفهوم «خزائن» بهذا المصداق المحدد تقييد بلا مقيد لإطلاق مفهوم الآية، و هو خال من أىّ دليل أو قرينة.

٢- النّزول مكانىّ و مقامى

كما بيّنا سابقا أن النّزول لا يرمز إلى الحالة المكانية دوما (أى النّزول من

مكان عال إلى أسفل)، بل يرمز إلى النّزول المقامى فى بعض الموارد، فمثلا .. فى حال وصول نعمة من شخص ذى شأن إلى من هم أقل منه شأنا، فإنّه يعبر عنها بالنّزول.

و قد استعملت هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى مورد النعم الإلهية، سواء كانت نازلة من السماء إلى الأرض كالمطر، أو ما يتوالد

على الأرض كالحيوانات، و هـذا ما نلاحظه فى الآيـة السادسـة من سورة الزمر وَ أَنْزَلَ لَكَمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ و كذلك فى الآية الخامسة و العشرين من سورة الحديد، بشأن الحديد، وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ... إلخ.

خلاصة القول:

إنّ (نزول) و (إنزال) هنا بمعنى وجود و إيجاد و خلق، و ما استعمال هذا اللفظ إلّا لأنّها نعم اللّه عزّ و جلّ التى وهبها لعباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۵۶

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۲۲ الى ۲۵]

اشارة

وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (۲۲) وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (۲۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۲۵)

التّفسير

دور الرّياح و الأمطار:

بعد أن عرض القرآن الكريم فى الآيات السابقة قسما من أسرار الخليقة و النعم الإلهية كخلق الأرض و الجبال و النباتات و ما تحتاجه الحياة من مستلزمات، يشير فى أولى الآيات المبحوثة إلى حركة الرياح و مالها من آثار فى عملية نزول المطر، فيقول: وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ

«لواقح» جمع «لاقح» ... و هى تشير هنا إلى دور الرياح فى تجميع قطع الحساب مع بعضها لتهيئة عملية سقوط الأمطار.

و قد ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن الآية تشير إلى عملية تلقيح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۵۷

النباتـات بواسـطة الريـاح، و بها يسـتدلون على الإعجاز العلمى للقرآن، على اعتبار أن عصـر نزول القرآن ما كان يحظى بما وصل إليه عصرنا من العلوم الحديثة، و أنّ إخبار القرآن بهذه الحقيقة العلمية (علمية التلقيح) من ذلك الوقت لدليل على إعجازه العلمى.

مع قبولنا بحقيقة تلقيح النباتات و دور الرياح فيها، إلّا أنّنا لا نرى ما يشير لما ذهب إليه علماء اليوم لسببين:

الأوّل: وجود قرينة نزول المطر بعد كلمة لواقح مباشرة.

ثانيا: وجود فاء السببية بينها (بين لواقح و نزول المطر).

ممّا يبيّن بشكل جلى أن تلقيح الرياح يعقبه نزول المطر.

و يعتبر ما جاء فى الآية المباركة من روائع الكلم، حيث شبّه قطع الحساب بالآباء و الأمهات يتم تزاوجهم بأثر الرياح، فتحمل الأمهات، ثمّ تلقى بما حملت (قطرات المطر) إلى الأرض.

و يمكن حمـل مـا أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ على أنّها إشارة لخزن ماء المطر فى السـحب قبل نزوله، أى إنّكم لا تسـتطيعون اسـتملاك السـحب التى هى المصدر الأصلى للأمطار.

و يمكن حملهـا على أنّها إشارة إلى جمع و خزن الأمطار بعـد نزولها، أى إنّكم لا تقـدرون على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيرة حتى بعـد نزوله، و أنّ اللّه عزّ و جلّ هو الـذى يحفظها و يخزنها على قمم الجبال بهيئـة ثلوج، أو ينزلها فى أعماق الأرض لتكون بعـد ذلك

عيونا و آبارا.

ثمّ ينتقل من مظاهر توحيد اللّه إلى المعاد و مقدماته: وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ فيذكر مسألة الحياة و الموت التى تعتبر من أهم المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسألة من مكملات موضوع التوحيد، باعتبار مسألة الحياة منذ بدايتها و حتى انتهائها بالموت تشكل نظاما مترابطا فى عالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۸

الوجود لا يمكن تصور تشكيله إلّا بوجود علم و قدرة مطلقين، بالإضافة إلى أن وجود الحياة و الموت بحد ذاته دليل على أنّ موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عمّا هو بأيديها، و أنّ الوارث الحقيقى لكل شيء هو اللّه تعالى.

ثمّ يضيف: وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ

أى، نحن على علم بهم و بما يعملون، و إن أمر محاسبتهم و جزائهم فى المعاد علينا سهل يسير.

و لهذا، نرى الآية التى تليها: وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ مرتبطة تماما مع ما قبلها و متممة من خلال طرحها مسألة ما سيكون بعد الموت .. فحكمة البارى أوجبت أن لا يكون الموت نهاية لكل شيء.

فلو أنّ الحياة انحصرت بهذه الفترة الزمنية المحدودة و ينتهى كل شيء بالموت لكانت عملية الخلق عبثا، و هذا غير معقول، لأنّه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمة الإلهية اقتضت من «حياة الدنيا أن تكون مرحلة استعداد لمسيرة دائمة نحو المطلق»، و بتعبير آخر. مقدمة الحياة أبدية خالدة.

و أمّا كونه سبحانه عليما .. فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة فى قلب هذا العالم الطبيعى من جهة، و كذلك فى اعماق وجود الإنسان من جهة أخرى، و لا تخفى عليه خافية يوم يقوم الحساب.

و كونه سبحانه الحكيم العليم فى هذا المورد دليل قوى و عميق الغور على مسألة الحشر و المعاد.

بحث

من هم المستقدمون و المستأخرون؟

ذكر المفسّرون فى تفسير وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۹

الْمُسْتَأْخِرِينَ احتمالات كثيرة، فذكر العلامة الطبرسى فى (مجمع البيان) ستة احتمالات، و القرطبى ثمانية احتمالات، و أبو الفتوح الرازى بحدود العشرة احتمالات، و الملاحظة الدقيقة تظهر أنّه يمكن لنا أن نجمع كل ما ذكروه فى تفسير واحد، لأن كلمة «المستقدمين» و «المستأخرين» لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين و المتأخرين من حيث الزمان، و كذلك من حيث أعمال الخير و الجهاد و حتى الحضور فى الصفوف المتقدمة لصلاة الجماعة و ما شابهها. و إذا ما أخذنا بهذا المعنى الجامع فيمكننا جمع كل الاحتمالات الواردة فى «تقدم» و «تأخر» المذكورتين فى الآية فى تفسير واحد.

و فيما

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحث على الاشتراك فى الصف الأوّل من صفوف صلاة الجماعة أنّه قال: «إنّ اللّه و ملائكته يصلون على الصف المتقدم»

فازدحم الناس و كانت دور بنى عذرة بعيدة عن المسجد فقالوا: «لنبيعنّ دورنا و لنشترينّ دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف

المقدم»، فنزلت هذه الآية.

(و أفهمتهم على أنّ اللّه تعالى عليم بنيّاتكم، فحتى لو كنتم فى الصف الأخير فإنّه يكتب لكم ثواب الصف الأوّل حسب نيّتكم و عزمكم على ذلك).

فمحدودية شأن نزول الآية لا يكون أبدا سببا لحصر مفهومها الواسع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۰

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۲۶ الى ۴۴]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۶) وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (۲۷) وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۸) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (۲۹) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۳۰)

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (۳۱) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (۳۲) قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۳۳) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (۳۴) وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (۳۵)

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۳۶) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۳۷) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (۳۸) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۳۹) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (۴۰)

قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (۴۱) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (۴۲) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۳) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۱

التّفسير

خلق الإنسان:

بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات اللّه فى الآيات السابقة، تأتى هذه الآيات لتبيّن أن الهدف الأساسى من إيجاد كل الخليقة إنّما هو خلق الإنسان. و تتطرق الآيات إلى جزئيات عديدة فى شأن الخلق، زاخرة بالمعانى.

و قبل الدخول فى بحوث مفصلة حول بعض المسائل التى ذكرت فى الآيات المباركات نشرع بتفسير إجمالى ..

يقول تعالى فى البداية: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ «الصلصال» هو التراب اليابس الذى لو اصطدم به شىء أحدث صوتا ... و «الحمأ المسنون» هو طين متعفن.

وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ

«السّموم» لغة: الهواء الحارق، و سمّى بالسموم لأنّه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان، و كذلك يطلق على المادة القاتلة (السم) لأنّها تنفذ فى بدن الإنسان و تقتله.

ثمّ يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرّة أخرى فيتعرض إلى كلام اللّه تعالى مع الملائكة قبل خلق الإنسان: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي و هى روح شريفة طاهرة جليلة فَقَعُوا لَهُ

ساجِدِینَ

و بعد أن تمّ خلق الإنسان من الجسم و الروح المناسبین فَسَجَدَ الْمَلائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۲

و لم یعص هذا الأمر إلّا إبلیس: إِلَّا إِبْلِیسَ أَبی أَنْ یَکُونَ مَعَ السَّاجِدِینَ

و هنا سأل اللّه إبلیس: قالَ یا إِبْلِیسُ ما لَکَ أَلَّا تَکُونَ مَعَ السَّاجِدِینَ

فأجاب إبلیس بعد أن کان غارقا فی بحر الغرور المظلم، و تائها فی حب النفس المقتم، و بعد أن غطی حجاب الخسران عقله .. أجاب بوقاحة قالَ لَمْ أَکُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .. فأین النّار المضیئة من التراب الأسود المتعفن! و هل لموجود شریف مثلی أن یتواضع و یخضع لموجود أدنی منه! أیّ قانون هذا؟! ..

و نتیجة للغرور و حب النفس، فقد جهل أسرار الخلیقة، و نسی برکات التراب الذی هو منبع کل خیر و برکة، و الأهم من ذلک کله .. فقد تجاهل شرافة تلک الروح التی أودعها الرّب فی آدم .. و کنتیجة طبیعیة لهذا السلوک المنحرف فقد هوی من ذلک المقام المرموق بعد أن أصبح غیر لائق لأن یکون فی درجة الملائکة و بین صفوفهم، فجاء الأمر الإلهی مقرعا: قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِیمٌ أی أخرج من الجنّة، أو من السماوات أو اخرج من بین صفوف الملائکة.

و اعلم یا إبلیس بأنّ غرورک أصبح سببا لکفرک، و کفرک قد أوجب طردک الأبدی وَ إِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَةَ إِلی یَوْمِ الدِّینِ أی، إلی یوم القیامة.

و هنا .. حینما وجد إبلیس نفسه مطرودا من الساحة الإلهیة، ساوره إحساس بأنّ خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد و الضغینة فی قلبه لینتقم لنفسه من أولاد آدم علیه السّلام.

فبالرغم من أنّ السبب الحقیقی یرجع إلی إبلیس نفسه و لیس لآدم دخل فی ذلک، إلّا أن غروره و حبّه لنفسه و عناده المستحکم لم یعطیاه الفرصة لدرک حقیقة شقاءه، و لهذا قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ لیرکز عناده و عداءه! و قبل اللّه تعالی طلبه: قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ

و لکن لیس إلی یوم یبعثون کما أراد، بل إِلی یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ فما هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۳

یوم الوقت المعلوم؟

قال بعض المفسّرین: هو نهایة هذا العالم و انتهاء التکلیف، لأنّ بعد ذلک (کما یفهم من ظاهر الآیات القرآنیة) تحلّ نهایة حیاة جمیع الکائنات، و لا یبقی حی إلّا الذات الإلهیة المقدسة، و من هذا نفهم حصول الموافقة علی بعض طلب إبلیس.

و قال بعض آخر: هو زمان معین لا یعلمه إلّا اللّه، لأنّه لو أظهره عزّ و جلّ لکان لإبلیس ذریعة فی المزید من التمرد و المعاصی.

و ثمة من قال: إنّه یوم القیامة، لأنّ إبلیس أراد أن یکون حیا إلی ذلک الیوم لیکون بذلک من الخالدین فی الحیاة، و إن یوم الوقت المعلوم قد ورد بمعنی یوم القیامة فی سورة الواقعة (الآیة/ ۵۰)، و هو ما یعزز هذا القول.

و یبدو أن هذا الاحتمال بعید جدا لأنه یتضمن الموافقة الإلهیة علی کل طلب إبلیس، و الحال أن ظاهر الآیات المذکورة لا تعطی هذا المعنی، فلم تبیّن الآیات أن اللّه استجاب لطلبه بالکامل، بل یوم الوقت المعلوم ... و من هنا یکون التّفسیر الأوّل أکثر توافقا مع روح و ظاهر الآیة، و کذلک ینسجم مع بعض الرّوایات عن الإمام الصّادق علیه السّلام بهذا الخصوص [۳۷].

و هنا أظهر إبلیس نیته الباطنیة قالَ رَبِّ بِما أَغْوَیْتَنِی و کان هذا الإنسان سببا لشقائی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ نعمها المادیة وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ بإلهائهم بتلک النعم.

إلّا أنّه یعلم جیدا بأن وساوسه سوف لن تؤثر فی قلوب عباد اللّه المخلصین، و أنّهم متحصنون من الوقوع فی شباکه، لأنّ قوة الإیمان و

درجة الإخلاص عندهم بمكان يكفى لدرء الخطر عنهم بتحطيم قيود الشيطان عن أنفسهم .. و لهذا نراه قد استثنى فى طلبه إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۴

من البديهى أنّ اللّه سبحانه منزّه عن تضليل خلقه، إلّا أنّ محاولة إبليس لتبرير ضلاله و تبرئة نفسه جعلته ينسب ذلك إلى اللّه سبحانه و تعالى. هذا الموقف هو ديدن جميع الأبالسة و الشياطين، فهم يلقون تبعة ذنوبهم على الآخرين أوّلا و من ثمّ يسعون لتبرير أعمالهم القبيحة بمنطق مغلوط ثانيا، و المصيبة أن مواقفهم تلك إنّما يواجهون بها ربّ العزة و الجبروت، و كأنّهم لا يعلمون أنّه لا تخفى عليه خافية.

و ينبغى ملاحظة أن «المخلصين» جمع مخلص (بفتح اللام) و هو- كما بيّناه فى تفسير سورة يوسف- المؤمن الذى وصل إلى مرحلة عالية من الإيمان و العمل بعد تعلم و تربية و مجاهدة مع النفس، فيكون ممتنعا من نفوذ وساوس الشيطان و أىّ وسواس آخر.

ثمّ قال تعالى تحقيرا للشيطان و تقوية لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيد الخالص: قالَ هذا صِراطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِیمٌ إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ

يعنى، يا إبليس ليس لك القدرة على إضلال الناس، لكن الذين يتبعونك إن هم إلّا المنحرفين عن الصراط المستقيم و المستجيبين لدواعى رغباتهم و ميولهم.

و بعبارة أخرى ... إنّ الإنسان حر الإرادة، و إنّ إبليس و جنوده لا يقوون على أن يجبروا إنسانا واحدا على السير فى طريق الفساد و الضلال، لكنّه الإنسان هو الذى يلبى دعوتهم و يفتح قلبه أمامهم و يأذن لهم فى الدخول فيه! و خلاصة القول: إنّ الوساوس الشيطانية و إن كانت لا- تخلو من أثر فى تضليل و انحراف الإنسان، إلّا أنّ القرار الفعلى للانصياع للوساوس أو رفضها يرجع بالكامل إلى الإنسان، و لا يستطيع الشيطان و جنوده مهما بلغوا من مكر أن يدخلوا قلب إنسان صاحب إرادة موجهة صوب الإيمان المخلص.

و أراد اللّه سبحانه بهذا القول نزع الخيال الباطل و الغرور الساذج من فكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۵

الشيطان من أنّه سيجد سلطة فائقة على الناس و بلا منازع، يمكنه من خلالها إغواء من يريد.

ثمّ يهدد اللّه بشدّة أتباع الشيطان: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ و أن ليس هناك وسيلة للفرار، و الكل سيحاسب فى مكان واحد. لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِکُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ

هى أبواب للذنوب التى يدخلون جهنم بسببها، و كل يحاسب بذنبه .. كما هو الحال فى أبواب الجنّة التى هى عبارة عن طاعات و أعمال صالحة و مجاهدة للنفس يدخل بها المؤمنون الجنّة.

بحوث

۱- التكبر و الغرور من المهالك العظام:

المستفاد تربويا من قصة إبليس فى القرآن هو أن الكبر و الغرور من الأسباب الخطيرة فى عملية الانهيار و السقوط من المكانة المحترمة الوسيط المرموقة إلى مدارك الدون و الخسران.

فكما هو معلوم أنّ إبليس لم يكن من الملائكة (كما تشير إلى ذلك الآية الخمسون من سورة الكهف) إلّا أنّه ارتقى الدرجات العلا و نال شرف العيش بين صفوف الملائكة نتيجة لطاعته السابقة للّه عزّ و جلّ، حتى أنّ البعض قال عنه: إنّه كان معلما للملائكة، و يستفاد

من الخطبة القاصعة فى (نهج البلاغة) أنّه عبد اللّه عزّ و جلّ آلاف السنين.

لكن شراك التعصب الأعمى و عبادة هوى النفس المهلك قد أدّيا الى خسرانه كل ذلك فى لحظة تكبر و غرور.

بل إنّ حب الذات و الغرور و التعصب و التكبر قد جعلته يستمر فى موقفه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۶

المريض و يوغل قدمه فى وحل الإصرار على الإثمّ و السير المتخبط فى جادة العناد، فنسى أو تناسى ما للتوبة و الاستغفار من أثر إيجابى، حتى دعته الحال لأن يشارك كل الظلمة و المذنبين من بنى آدم فى جرائمهم و ذنوبهم بوسوسته لهم ...

و بات عليه أن يتحمل نصيبه من عذاب الجميع يوم الفزع الأكبر.

و ليس إبليس فحسب، بل إنّ التأريخ يحدثنا عن أصحاب النفوس المريضة ممن ركبهم الغرور و الكبر فعاثوا فى الأرض فسادا بعد أن غطت العصبية رؤاهم، و حجب الجهل بصيرتهم، و سلكوا طريق الظلم و الاستبداد و سادوا على الرقاب بكل جنون فهبطوا إلى أدنى درجات الرذيلة و الانحراف عن الطريق القويم.

إنّ هاتين السمتين الأخلاقيتين (التكبر و الغرور) فى الواقع .. نار رهيبة محرقة. فكما أن من صرف و طرأ من عمره فى بناء و تأنيث دار، لربّما فى لحظات معدودات يتحول إلى هباء منثور بسبب شرارة صغيرة .. فالتكبر و الغرور يفعل فعل النّار فى الحطب و لا تنفع معه تلك السنين المعمورة بالطاعة و البناء.

فأىّ درس أنطق من قصة إبليس و أبلغ؟! إنّ إبليس قد اختلطت عليه معانى الأشياء فراح يضع المعانى حسب تصوراته الخادعة المحدودة و لم يدرك أن النّار ليست أفضل و أشرف من التراب، و التراب مصدر جميع البركات كالنباتات و الحيوانات و المعادن و هو محل حفظ المياه، و بعبارة اشمل هو منبع و أصل كل الكائنات الحية، و ما عمل النّار إلّا الإحراق و كثيرا ما تكون مخربة و مهلكة.

و يصف أمير المؤمنين عليه السّلام إبليس بأنّه

«عدو للّه، إمام المتعصبين و سلف المستكبرين»

ثمّ

يقول: «ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبره و وضعه بترفعه، فجعله فى الدنيا مدحورا و أعد له فى الآخرة سعيرا»[۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۷

و كما أشرنا سابقا أنّ إبليس كان أوّل من وضع أسس مذهب الجبر الذى ينكره وجدان أى إنسان. حيث أنّ الدافع المهم لأصحاب هذا المذهب تبرئة ساحة المذنبين من أعمالهم المخالفة لشرع اللّه، و كما قرأنا فى الآيات مورد البحث من أنّ إبليس تذرع بتلك الكذبة الكبيرة لأجل تبرئة نفسه، و أنّه على حق فى إضلاله لبنى آدم حين قال: رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

۲- على من يتسلط الشيطان؟

نرى من الضرورى أن نكرر القول بأنّ نفوذ الوساوس الشيطانية فى قلب الإنسان لا تأتى فجأة أو إجبارا، و إنما بوجود الرغبة الكافية عند الإنسان بفسح المجال أمام دخول الوساوس إلى دواخله، و على هذا فالشيطان يعلم تماما بأن ليس له سبيل على المخلصين الذين طهّروا أنفسهم فى ظل التربية الخالصة من الشوائب و الأدران و غسلوا قلوبهم من صدأ الشرك و الضلال. و بتعبير القرآن الكريم إنّ رابطة الشيطان مع الضالين هى رابطة التابع و المتبوع و ليس رابطة المجبر و المجبور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۸ ؛ ص۶۷

۳- أبواب جهنم!

قرأنا فی الآیات مورد البحث أن لجهنم سبعة أبواب (و لیس بعیدا أن یکون ذکر العدد فی هذا المورد للکثرة کما ورد هذا العدد فی الآیة السابعة و العشرین من سورة لقمان بهذا المعنی أیضا).

و من الواضح أنّ تعدد أبواب جهنم (کما هو تعدد أبواب الجنّة) لم یکن لتسهیل أمر دخول الواردین نتیجة لکثرتهم، بل هی إشارة إلی الأسباب و العوامل المتعددة التی تؤدی لدخول الناس فی جهنم، و أنّ لکل من هذه الذنوب باب معین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۶۸

یؤدی إلی مدرکه.

ففی نهج البلاغة: «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه اللّه لخاصّة أولیائه»[۳۹]،

و

فی الحدیث المعروف: «إن السیوف مقالید الجنّة» ..

فهذه التعبیرات تبیّن لنا بوضوح ما المقصود من تعدد أبواب الجنّة و النّار.

و ثمة نکتة لطیفة فی ما

روی عن الإمام الباقر علیه السّلام: «إنّ للجنة ثمانیة أبواب»[۴۰]،

فی حین أن الآیات تذکر أن لجهنم سبعة أبواب، و هذا الاختلاف فی العددین إشارة إلی أنّه مع کثرة أبواب العذاب و الهلاک إلّا أن أبواب الوصول إلی السعادة و النعیم أکثر، (و قد تحدثنا عن ذلک فی تفسیر الآیة الثّالثة و العشرین من سورة الرعد).

۴- (الحمأ المسنون) و (روح اللّه):

یستفاد من الآیات أن خلق الإنسان تمّ بشیئین متغایرین، أحدهما فی أعلی درجات الشرف و الآخر فی أدنی الدرجات (بقیاس ظاهر القیمة).

فالطین المتعفن خلق منه الجانب المادی منه الإنسان، فی حین جانبه الروحی و المعنوی خلق بشیء سمی (روح اللّه).

و بدیهی أنّ اللّه سبحانه منزّه عن الجسمیة و لیس له روح، و إنّما أضیف الروح إلی لفظ الجلالة لإضفاء التشریف علیها و للدلالة علی أنّها روح ذات شأن جلیل قد أودعت فی بدن الإنسان، بالضبط کما تسمّی الکعبة (بیت اللّه) لجلالة قدرها، و شهر رمضان المبارک (شهر اللّه) لبرکته.

و لهذا السبب نری أن الخط التصاعدی الإنسان یتساهی فی العلو حتی یصل الی أن لا یری سوی اللّه عزّ و جلّ، و خط تسافله من الانحطاط حتی یرکد فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۶۹

أدنی مرتبة من الحیوانات بَلْ هُمْ أَضَلُّ و هذا البون الشاسع بین الخطین التصاعدی و التنازلی بحد ذاته دلیل علی الأهمیة الاستثنائیة لهذا المخلوق.

إنّ شرف مقام الإنسان و تکریمه یأتی من خلال هذا الترکیب الخاص، و لکن لیس بفضل جنبته المادیة لأنّه لیس سوی (حمأ مسنون)

و إنّما بفضل الروح الإلهیـة المودعة فیه، بما تحمل من اسـتعدادات و لیاقة لأن تکون منعکسا للأنوار الإلهیة، تلک الأنوار التی اسـتمد منهـا الإنسـان شـرف قـدره و مقـامه .. و لاـ سبیـل لتکامـل الإنسـان إلّا ببنائه الروحی و وضع بعـده المادی فی خدمـة طریق التکامل و الوصول لساحة رضوانه جل شأنه.

و المسـتفاد من الآیـات المتعلقـة بخلق آدم فی أوائل سورة البقرة أنّ مسألـة سـجود الملائکـة لآدم، کان لما أودع فیه من العلم الإلهی الخاص.

و قد أجبنا علی سؤال: کیف یصحّ السجود لغیر اللّه؟ و هل أنّ سجود الملائکة کان فی حقیقة للّه عزّ و جلّ لأجل هذا الخلق العجیب؟ أم کان لآدم؟ .. فی تفسیر الآیات المتعلقة بخلق آدم سورة البقرة.

۵- ما هو الجان؟

إنّ کلمـة (الجن) فی الأصل بمعنی: الشـیء الـذی یستر عن حس الإنسان، فمثلا نقول (جنّه اللیل) أو (فلما جنّ علیه اللیل) أی عنـد ما غطته سـتارة اللیل السوداء، و یقال (مجنون) لمن فقـد عقله أی ستر، و (الجنین) للطفل المسـتور فی رحم أمّه، و (الجنّة) للبسـتان الذی تغطی أشجاره أرضه، و (الجنان) للقلب الذی ستر داخل صدر الإنسان، و (الجنّه) للدرع الذی یحمی الإنسان من ضربات الأعداء.

و المسـتفاد من آیـات القرآن أن «الجنّ» نوع من الموجودات العاقلـة قـد سترت عن حس الإنسان، و خلقت من النّار، أو من مارج من نار، أی من صافی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۰

شعلتها، و إبلیس من هذا الصنف.

و قـد عبّر بعض العلمـاء عن الجن بأنّهـا: نوع من الأـرواح العاقلـة المجردة من المـادة (و واضـح أن تجردهـا لیس کاملا، فما یخلق من المادة فهو مادی، و لکن یمکن أن یکون نصف تجرد لأنه لا یدرک بحواسنا، و بتعبیر آخر: إنّه نوع من الجسم اللطیف).

و یستفاد من الآیات القرآنیة أیضا أنّ الجن فیهم المؤمن المطیع و الکافر العاصی، و أنّهم مکلفون شرعا، و مسؤولون.

و من الطبیعی أنّ شـرح هذه الأمور و مسألة انسـجامها مع العلم الحدیث یتطلب منا بحثا مطولا، و سـنتناوله إن شاء اللّه فی تفسیر سورة الجن.

و ممّا ینبغی الإشارة إلیه فی هـذا الصـدد .. أنّ کلمة «الجان» الواردة فی الآیات مورد البحث هی من مادة (الجن) و لکن .. هل ترمزان إلی معنی واحد؟ فقد ذهب بعض المفسّرین إلی أن الجان نوع خاص من الجن، و لکننا لا نری ذلک.

فلو جمعنا الآیات القرآنیة الواردة بهذا الشأن مع بعضـها البعض لا تضح أن کلا المعنیین واحد، لأن الآیات القرآنیة وضعت «الجن» فی قبال الإنسان تارة، و وضعت «الجان» تارة أخری.

فمثلا نقرأ فی الآیة (۸۸) من سورة الإسراء قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ

و فی بعض الآیة (۵۶) من سورة الذاریات وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ

فی حین نقرأ فی الآیة (۱۵) من سورة الرحمن خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ کَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ.

و فی الآیة (۳۹) من نفس السورة فَیَوْمَئِذٍ لا یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ

فمن مجموع الآیات أعلاه و الآیات القرآنیـة الأخری یسـتفاد بوضوح أن الجنّ و الجان لفظان لمعنی واحـد، و لهـذا وردت فی الآیات السابقة کلمة «الجن»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۱

فی مقابل الإنسان، و کذا الحال بالنسبة «للجان».

و ینبغی التنویه إلی أن القرآن الکریم قد ذکر «الجان» و یرید به نوعا من الأفاعی کما جاء فی قصة موسی علیه السّلام کَأَنَّها جَانٌ فی سورة القصص- ۳۱، إلّا أنّ ذلک خارج نطاق بحثنا.

۶- القرآن و خلق الإنسان:

شاهدنا فی الآیات الأنفة أن القرآن قد تناول مسألة خلق الإنسان بشکل مختصر و مکثف تقریبا، لأنّ الهدف الأساسی من التناول هو الجانب التربوی فی الخلق، و ورد نظیر ذلک فی أماکن أخری من القرآن، کما فی سورة السجدة، و المؤمنون، و سورة ص، و غیرها.

و بما أنّ القرآن الکریم لیس کتابا للعلوم الطبیعیة بقدر ما هو کتاب حیاة الإنسان یرسم له فیه أسالیب التربیة و أسس التکامل. فلا ینتظره منه أن یتناول جزئیات هذه العلوم من قبیل تفاصیل: النمو، التشریح، علم الأجنّة، علم النبات و ما شابه ذلک، إلّا أنّه لا یمنع من أن یتطرق بإشارات مختصرة إلی قسم من هذه العلوم بما یتناسب مع البحث التربوی المراد طرحه.

بعد هذه المقدمة نشرع بالموضوع من خلال بحثین:

۱- التکامل النوعی من الناحیة العلمیة.

۲- التکامل النوعی وفق المنظور القرآنی.

فی البدء، نتناول البحث الأوّل و ندرس المسألة وفق المقاییس الخاصة للمعلوم الطبیعیة بعیدا عن الآیات و الرّوایات:

ثمة فرضیتان مطروحتان فی أوساط علماء الطبیعة بشأن خلق الکائنات الحیة بما فیها الحیوانات و النباتات:

ألف: فرضیة تطوّر الأنواع (ترانسفورمیسم) و التی تقول: إنّ الکائنات الحیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۲

لم تکن فی البدایة علی ما هی علیه الآن، و إنّما کانت علی هیئة موجودات ذات خلیة واحدة تعیش فی میاه المحیطات، و ظهرت بطفرة خاصة من تعرقات طین أعماق البحار.

أیّ أنّها کانت موجودات عدیمة الروح، و قد تولدت منها أوّل خلیة حیة نتیجة لظروف خاصّة.

و هذه الکائنات الحیة لصغرها لا تری بالعین المجرّدة و قد مرت بمراحل التکامل التدریجی و تحولت من نوع إلی آخر.

و تمّ انتقالها من البحار إلی الصحاری و منها إلی الهواء ... فتکونت بذلک أنواع النباتات و الحیوانات المائیة و البریة و الطیور.

و إن أکمل مرحلة و أتمّ حلقه لهذا التکامل هو الإنسان الذی نراه الیوم، الذی تحول من موجودات تشبه القرود إلی القرود التی تشبه الإنسان ثمّ وصل إلی صورته الحالیة.

ب- فرضیة ثبوت الأنواع (فیکنسیسم)، و التی تقول: إنّ أنواع الکائنات الحیة منذ بدایتها و ما زالت تحمل ذات الأشکال و الخواص، و لم یتغیر أیّ من الأنواع إلی نوع آخر، و من جملتها الإنسان فکان له صورته الخاصّة به منذ بدایة خلقه.

و قد کتب علماء کلا الفریقین بحوثا مطولة لإثبات عقیدتهم، و جرت مناظرات و منازعات کثیرة فی المحافل العلمیة حول هذه المسألة، و قد اشتد النزاع عند ما عرض کل من (لامارک) العالم الفرنسی المعروف المتخصص بعلوم الأحیاء و الذی عاش بین أؤخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر، و (داروین) عالم الأحیاء الإنکلیزی الذی عاش فی القرن التاسع عشر نظراتهما فی مسألة تطوّر الأنواع بأدلة جدیدة.

و ممّا ینبغی التنویة إلیه، هو أنّ معظم علماء الیوم یمیلون إلی فریضة تطوّر أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۳

تکامل الأنواع هذه خصوصا فی محافل العلوم الطبیعیة.

أدلة القائلین بالتکامل:

یمکننا تلخیص أدلتهم بثلاثة أقسام:

الأوّل: الأدلـة المـأخوذة من الهیاکـل العظیمـة المتحجرة للکائنـات الحیّـة القدیمـة فـإن الـدراسات لطبقات الأرض المختلفـة (حسـب اعتقـادهم) تظهر أن الکائنـات الحیّـة قـد تحولت من صور بسیطة إلی أخری أکمـل و أکثر تعقیـدا، و لا یمکن تفسیر ما عثر علیه من متحجرات الکائنات الحیة إلّا بفرضیة التکامل هذه.

الثّانی: مجموع القرائن التی جمعت فی (التشریح المقارن).

و یؤکّد هؤلاء العلماء عبر بحوثهم المطولة المفصلة: إنّنا عند ما نشرّح الهیاکل العظیمة للحیوانات المختلفة و نقارنها فیما بینها، نجد أن ثمّة تشابها کبیرا فیما بینها، ممّا یشیر إلی أنّها جاءت من أصل واحد.

الثّالث: مجموع القرائن التی حصل علیها من (علم الأجنّة).

فیقولون: إنّنا لو وضعنا جمیع الحیوانات فی حالتها الجنینیة- قبل أن تأخذ شکلها الکامل- مع بعضها، فسنری أنّ الأجنّة قبل أن تتکامل فی رحم أمهاتها أو فی داخل البیوض تتشابه إلی حد کبیر .. و هذا ما یؤکّد علی أنّها قد جاءت فی الأصل من شیء واحد.

أجوبة القائلین بثبوت الأنواع:

إلّا أن القائلین بفرضیة ثبوت الأنواع لدیهم جواب واحد لجمیع أدلة القائلین بالتکامل و هو: أن القرائن المذکورة لا تملک قوّة الإقناع، و الذی لا یمکن إنکاره أن الأدلة الثلاثة توجد فی الذهن احتمالا ظنیا لمسألة التکامل، إلّا أنّها لا تقوی أن تصل إلی حال الیقین أبدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۴

و بعبـارة أوضـح: إنّ إثبـات فرضـیة التکامل و انتقالها من صورة فرض علمی إلی قانون علمی قطعی .. إمّا أن یکون عن طریق الـدلیل العقلی، أو عن طریق الحس و التجربة و الإختیار، و لا ثالث لها.

أمّا الأدلة العقلیة و الفلسـفیة فلیس لها طریق إلی هذه المسائل کما نعلم، و أما ید التجربة و الإختیار فأقصـر من أن تمتد إلی مسائل قد امتدت جذورها إلی ملایین السنین.

إنّ ما ندرکه بالحس و التجربة لا یتعدی بعض الحالات السـطحیة، و لفترة زمنیة متباعدة، علی شـکل طفرة وراثیة (موتاسیون) فی کل من الحیوان و النبات.

فمثلا ... نری أحیانا فی نسل الأغنام العادیـة ولادة مفاجئـة لخروف ذی صوف یختلف عن صوف الخراف العادیة، فیکون أنعم و أکثر لینا من العادیة بکثیر، فیکون بدایة لظهور نسل جدید یسمّی (أغنام مرینوس).

أو أنّ حیوانات تحصل فیها الطفرة الوارثیـة فیتغیر لون عیونها أو أظفارها أو شـکل جلودها و ما شابه ذلک .. لکنّه لم یشاهد لحدّ الآن طفرة تؤدی إلی حصول تغییر مهم فی الأعضاء الأصلیة لبدن أیّ حیوان، أو یتبدل نوع منها إلی نوع آخر.

بنـاء علی ذلـک .. یمکننا أن نتخیل أنّ نوعا من الحیوان یتحول إلی نوع آخر بطریق تراکم الطفرة الوراثیـة، کأن تتحول الزواحف الی طیور و لکنّ ذلـک لیس سوی حـدس و مجرّد تخیـل لا ـ غیر، و لم نر الطفرات الوارثیـة قـد غیرت عضوا أصـلیا لحیوان مـا إلی صورة أخری.

نخلص ممّا تقدم إلى النتيجة التالية: إن الأدلة التى يطرحها أنصار فرضية (الترانسفورميسم) لا تتجاوز كونها فرضا لا غير، لذا نرى أنصارها يعبرون عنها ب (فرضية تطوّر الأنواع) و لم يجرأ أىّ منهم من تسميتها بالقانون أو الحقيقة العلمية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۵

نظرية التكامل و .. الإيمان باللّه:

الكثير ممّن يحاولون تصوير نوع من التضاد بين هذه الفرضية و مسألة الإيمان باللّه، و لعل الحق يعطى لهم من جهة، حيث أنّ العقيدة الداروينية فى واقعها قد أوجدت حربا شعواء بين أصحاب الكنيسة من جانب و مؤيدى داروين من جانب آخر، حتى وصل الصراع ذروته بين الطرفين فى تلك الفترة بعد ما لعب الظرف السياسى و كذا الاجتماعى دورهما (ممّا لا يسع المجال لشرح ذلك هنا)، فكانت النتيجة أن اتهم أصحاب الكنيسة الداروينية بأنّها لا تنسجم مع الإيمان باللّه.

و قد كشفت الأيّام عن عدم وجود تضاد بين الأمرين، فإنّنا سواء قبلنا بفرضية التكامل أو نفيناها لفقدانها الدليل، فلا يمنع من الإيمان باللّه بكلا الاحتمالين.

فإذا قبلنا بالفرضية فلكونها قانونا علميا مبنيا على العلة و المعلول، و لا فرق فى العلاقة بين العلة و المعلول فى عالم الكائنات الحية و بقية الموجودات، فهل يعتبر اكتشاف العلل الطبيعية من قبيل نزول الأمطار، المد و الجزر فى البحار، الزلازل و ما شابهها، مانعا من الإيمان باللّه؟ الجواب بالنفى قطعا. إذن فاكتشاف وجود رابطة و علاقة تكاملية بين أنواع الموجودات الحية لا يؤدى إلى تعارض مع مسألة الإيمان باللّه كذلك.

إذن، فالأشخاص الذين يتصورون أن كشف العلل الطبيعية ينافى الإيمان بوجود اللّه هم الذين يذهبون هذا المذهب و إلّا فإنّ كشف هذه العلل ليس- فقط- لا يتعارض مع التوحيد، و إنّما سيعطينا أدلة جديدة من عالم الخليقة لإثبات وجوده سبحانه و تعالى.

و ممّا ينبغى ذكره: أنّ داروين قد تبرأ من تهمة الإلحاد و صرح فى كتابه (أصل الأنواع) قائلا: إنّنى مع قبولى لتكامل الأنواع فإنّى اعتقد بوجود اللّه، و أساسا فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۶

بدون الاعتقاد بوجود اللّه لا يمكن توجيه مسألة التكامل.

و قد كتب عن داروين بما نصه: (إنّه بقى مؤمنا باللّه الواحد رغم قبوله بالعلل الطبيعية فى ظهور الأنواع المختلفة من الأحياء، و قد كان إحساسه بوجود قدرة ما فوق البشر يشتد فى أعماقه كلما تقدم فى السن، معتبرا أن لغز الخلق يبقى لغزا محيرا للإنسان)[۴۱].

كان يعتقد أن توجيه هذا التكامل النوعى المعقد و العجيب، و تحويل كائن حى بسيط جدّا إلى كل هذه الأنواع المختلفة من الأحياء لا يتمّ إلّا بوجود خطة دقيقة يضعها و يسيرها عقل كلى.

و هو كذلك .. إذ كيف يمكن إيجاد كل هذه الأنواع العجيبة و المحيرة و التى لكل منها تفصيلات و شؤون واسعة، من مادة واحدة بسيطة جدا و حقيرة .. كيف يمكن ذلك بدون الاستناد على علم و قدرة مطلقين؟! النتيجة: إنّ الضجّة المفتعلة فى وجود تضاد بين عقيدة التكامل النوعى و بين مسألة الإيمان باللّه إنّما هى بلا أساس و فاقدة للدليل (سواء قبلنا بالفرضية أو لم نقبلها).

تبقى أمامنا مسألة جديرة بالبحث و هى: هل أنّ فرضية تطور الأنواع تتعارض مع ما ذكره القرآن حول قصة خلق آدم، أو لا؟

القرآن و مسألة التكامل:

الجدیر بالذکر أن کلّا من مؤیدی و منکری فرضیة التکامل النوعی- نعنی المسلمین منهم- قد استدل بآیات القرآن الکریم لإثبات مقصوده، و لکنّهما فی بعض الأحیان و تحت تأثیر موقفهما قد استدلا بآیات لا ترتبط بمقصودهما إلّا من

بعید، و لذلک سنتطرق إلی الآیات القابلة للبحث و المناقشة.

أهم آیة یتمسک بها مؤید و الفرضیة، الآیة الثّالثة و الثلاثون من سورة آل عمران إِنَّ اللَّهَ اصْطَفی آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِیمَ، وَ آلَ عِمْرانَ عَلَی الْعالَمِینَ

فیقولون: کما أنّ نوحا و آل إبراهیم و آل عمران کانوا یعیشون ضمن أممهم فاصطفاهم اللّه من بینهم فکذلک آدم، أی ینبغی أنّه کان فی عصره و زمانه أناس باسم «العالمین» فاصطفاه اللّه من بینهم، و هذا یشیر إلی أن آدم لم یکن أوّل إنسان علی وجه الأرض، بل کان قبله أناس آخرون، ثمّ امتاز آدم من بینهم بالطفرة الفکریة و الروحیة فکانت سببا لاصطفائه من دونهم.

هذا و ذکروا آیات أخر و لکنّها من حیث الأصل لا ترتبط بمسألة البحث، و لا یعدو تفسیرها بالتکامل أن یکون تفسیرا بالرأی، و بالبعض الآخر مع کونه ینسجم مع التکامل النوعی إلّا أنّه ینسجم مع الثبوت النوعی و الخلق المستقل لآدم کذلک، و لهذا ارتأینا صرف النظر عنها.

أمّا ما یؤخذ علی هذا الاستدلال فهو أنّ کلمة «العالمین» إن کانت بمعنی الناس المعاصرین لآدم علیه السّلام و أنّ الاصطفاء کان من بینهم، کان ذلک مقبولا، أمّا لو اعتبرنا «العالمین» أعم من المعاصرین لآدم، حیث تشمل حتی غیر المعاصرین، کما

روی فی الحدیث المعروف عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی فضل فاطمة علیها السّلام حیث قال: «أمّا ابنتی فاطمة فهی سیدة نساء العالمین من الأولین و الآخرین»،

ففی هذه الحال سوف لا تکون لهذه الآیة دلالة علی مقصودهم، و هو شبیه بقول قائل: إنّ اللّه تعالی اصطفی عدّة أشخاص من بین الناس جمیعا فی کل القرون و الأزمان، و آدم علیه السّلام أحدهم، و عندها سوف لا یکون لازما وجود أناس فی زمان آدم کی یطلق علیهم اسم «العالمین» أو یصطفی آدم من بینهم، و خصوصا أن الاصطفاء إلهی، و اللّه عزّ و جلّ مطلع علی المستقبل و علی کافة الأجیال فی کل

الأزمان [۴۲].

و أمّا مؤید و ثبوت الأنواع فقد اختاروا الآیات مورد البحث و ما شابهها، حیث نقول إنّ اللّه تعالی خلق الإنسان من تراب من طین متعفن.

و من الملفت للنظر أن هذا التعبیر قد ورد فی صفة خلق «الإنسان» وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ الآیة السادسة و العشرون من سورة الحجر- و أیضا فی صفة خلق «البشر» وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ الآیة الثامنة و العشرون من سورة الحجر- و فی مسألة سجود الملائکة بعد خلق شخص آدم أیضا (لاحظ الآیات ۲۹، ۳۰، ۳۱ من سورة الحجر).

عند الملاحظة الأولی للآیات یظهر أن خلق آدم کان من الحمأ المسنون أوّلا، و من ثمّ اکتملت هیئته بنفخ الروح الإلهیة فیه فسجد له الملائکة إلّا إبلیس.

ثمّ إنّ أسلوب تتابع الآیات لا ینم عن وجود أیّ من الأنواع الأخری منذ أن خلق آدم من تراب حتی الصورة الحالیة لبنیه.

و علی الرغم من استعمال الحرف «ثمّ» فی بعض من هذه الآیات لبیان الفاصلة بین الأمرین، إلّا أنّه لا یدل أبدا علی مرور ملایین السنین و وجود آلاف الأنواع خلال تلک الفاصلة.

بل لا مانع إطلاقا من كونه إشارة إلى نفس مرحلة خلق آدم من الحمأ المسنون، ثمّ مرحلة خلقه من الصلصال، فخلق بدن آدم، و نفخ الروح فيه.

و ذلك ما ملاحظه فى استعمال «ثمّ» فى مسألة خلق الإنسان فى عالم الجنين و المراحل التى يطويها .. يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۹

[۴۳].

فهذه الآية المباركة تدلل على أن استعمال «ثم» يعبر عن وجود فاصلة ليس من الضرورى أن تكون طويلة، فيمكن كونها فاصلة طويلة أو قصيرة.

و خلاصة ما ذكر: أن الآيات القرآنية و إن لم تتطرق مباشرة لمسألة التكامل النوعى أو ثبوت الأنواع، لكنّ ظاهرها (فى خصوص الإنسان) ينسجم مع مسألة الخلق المستقل، و إن لم يكن بالتصريح المفصل، لأنّ أكثر ما يدور ظاهر الآيات حول الخلق المستقل المباشر، أمّا ما يتعلق بخلق سائر الأحياء (من غير الإنسان) فقد سكت القرآن عنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۰

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۴۵ الى ۵۰]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۴۵) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (۴۶) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (۴۷) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (۴۸) نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۴۹) وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (۵۰)

التّفسير

نعم الجنّة الثّمان:

رأينا فى الآيات السابقة كيف وصف اللّه تعالى عاقبة أمر الشيطان و أنصاره و أتباعه، و أنّ جهنم بأبوابها السبعة مفتحة لهم.

و جريا على أسلوب القرآن فى التربية و التعليم جاءت هذه الآيات المباركات (و من باب المقارنة) لترفع الستار عن حال الجنّة و أهلها و ما ترفل به من نعم مادية و معنوية، جسدية و روحية.

و قد عرضت الآيات ثمانية نعم كبيرة (مادية و معنوية) بما يساوى عدد أبواب الجنّة.

۱- أشارت فى البدء إلى نعمة جسمانية مهمّة حيث: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ و يلاحظ أنّ هذه الآية قد اتخذت من صفة (التقوى) أساسا لها، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۱

الخوف من اللّه و الورع و الالتزام، فهى إذن ... جامعة لكافة صفات الكمال الإنسانى.

إنّ ذكر الجنات و العيون بصيغة الجمع إشارة إلى تنوع رياض الجنّة و كثرة عيونها، و التى لكل منها لذة مميزة و طعم خاص.

۲ و ۳- ثمّ تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمّتين أخيرتين (السلامة) و (الأمن) .. السلامة من أىّ أذى و ألم، و الأمن من كل خطر،

فتقول- على لسان الملائكة مرحبة بهم-: ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ

و فى الآية التّالية بيان لثلاث نعم معنوية أخرى:

۴- وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ أى: الحسد و الحقد و العداوة و الخيانة[۴۴].

۵- إِخْواناً تربطهم أقوى صلات المحبة.

۶- عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ۴۵].

إن جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التى يعانى منها عالمنا الدنيوى، فلا طبقية و لا ترجيح بدون مرجح و الكل إخوان، يجلسون متقابلين فى صف واحد و مستوى واحد.

و بطبيعة الحال، فهذا لا ينافى تفاوت مقاماتهم و درجاتهم الحاصلة من درجة الإيمان و التقوى فى الحياة الدنيا، و لكنّ ذلك التساوى إنما يرتبط بجلساتهم الاجتماعية.

۷- ثمّ تأتى الإشارة إلى النعمة المادية و المعنوية السابعة:

لا- يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ إنّه ليس كيوم استراحة بهذه الدنيا يقع بين تعب و نصب قبله و بعده، و لا- يدع الإنسان يجد طعم الراحة و الاستقرار.

۸- و لا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نعم وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليلة التى ينالها المتقون فى الجنّة بذلك الرونق المؤثر الذى يوقع المذنبين و العاصين فى بحار لجية من الغم و الحسرة و يجعلهم يقولون: يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح اللّه الرحمن الرحيم أبواب الجنّة لهم و لكن بشرط، فيقول لهم بلهجة ملؤها المحبّة و العطف و الرحمة و على لسان نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

إنّ كلمة «عبادى» لها من اللطافة ما يجذب كل إنسان، و حينما يختم الكلام ب الْغَفُورُ الرَّحِيمُ يصل ذلك الجذب إلى أوج شدته المؤثرة.

و كما هو معهود من الأسلوب القرآنى، تأتى العبارات العنيفة حين تتحدث عن الغضب و العذاب الإلهى لتمنع من سوء الاستفادة من الرحمة الإلهية، و لتوجد التعادل بين مسألتى الخوف و الرجاء، الذى يعتبر رمز التكامل و التربية فيقول و بدون فاصلة: وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ

بحوث

۱- رياض و عيون الجنّة:

إنّ فهم و استيعاب أبعاد النعم الإلهية التى تزخر بها الجنّة و نحن نعيش فى هذا العالم الدنيوى المحدود، يعتبر أمرا صعبا جدا، بل و من غير الممكن، لأنّ نعم هذا العالم بالنسبة لمنعم الآخرة كنسبة الصفر إلى رقم كبير جدّا .. و مع ذلك فلا يمنع من أن نحس ببعض أشعتها بفكرنا و روحنا.

إنّ القدر المسلم بهذا الخصوص، هو أنّ النعم الأخروية متنوعة جدّا، و ينطق

بهذه الحقیقهٔ التعبیر بال «جنات» فی الآیات المتقدمهٔ و غیرها من الآیات الأخر، و کذلک التعبیر بال «عیون».
لقد ورد فی القرآن الکریم (فی سور الإنسان، الرحمن، الدخان، محمد و غیرها) إشارهٔ إلی أنواع مختلفهٔ من هذه العیون، و أشیر الی تنوعها بإشارات صغیرهٔ. و لعل ذلک تصویر لأنواع الأعمال الصالحهٔ فی هذا العالم، و سنشیر إلی هذا الأمر إن شاء اللّه عند تفسیرنا لهذه السور.

۲- النّعم المادیهٔ و غیر المادیهٔ:

علی خلاف ما یتصور البعض .. فإنّ القرآن لم یبشر الناس دائما بالنعم المادیهٔ للجنّهٔ فقط، بل تحدث مرارا عن النعم المعنویهٔ أیضا، و الآیات مورد البحث نموذج واضح لذلک حیث نری أن أول ما یواجه أهل الجنّهٔ هناک هو الترحیب و البشارهٔ من الملائکهٔ لأهل الجنّهٔ عند دخولهم فیها ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِینَ
و من النعم الروحیهٔ الأخری التی أشارت إلیها هذه الآیات .. تطهیر الصدور من الأحقاد و کل الصفات المذمومهٔ کالحسد و الخیانهٔ و ما شابهها، و التی تذهب بروح الأخوهٔ.
و کذلک حذف الاعتبارات و الامتیازات الاجتماعیهٔ المغلوطهٔ التی تخدش استقرار فکر و روح الإنسان، و هو ما ذکره فی وصف جلساتهم.
و من نافلهٔ القول .. أن (السلامهٔ) و (الأمن) المجعولتین علی رأس النعم الأخروی، هما أساس لکل نعمهٔ أخری، و لا یمکن الاستفادهٔ الکاملهٔ من أیهٔ نعمهٔ بدونهما و هذا ما ینطبق حتی علی الحیاهٔ الدنیا، فالأمن و السلام أساس لکل نعیم و رخاء و إلّا فلا.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۴

۳- الحقد و الحسد عدوّا الأخوهٔ:

من لطیف ما یلاحظ فی هذه الآیات أنّها بعد أن ذکرت نعمهٔ السلامهٔ و الأمن، و قبل أن تتعرض لبیان حال الأخوّهٔ و الألفهٔ التی سیکون علیها أهل الجنّهٔ، أشارت إلی مسألهٔ نزع الصفات المانعهٔ للأخوّهٔ، کالحقد و الحسد و الغرور و الخیانهٔ، جامعهٔ کل ذلک بکلمهٔ «الغل» ذات المفهوم الواسع.
و فی الحقیقهٔ، إنّ قلب الإنسان ما لم یطهر من هذا «الغل» فسوف لا تتحقق نعمهٔ السلامهٔ و الأمن و لا الأخوّهٔ و المحبّهٔ، بل الحروب و المظالم و المجابهات و الصراعات علی الدوام، و هو ما یؤدی إلی قلع جذور الأخوّهٔ و السلامهٔ و الأمن من الحیاهٔ.

۴- الجزاء الکامل:

یقول بعض المفسّرین: إنّ الجزاء لا یکتمل إلّا بأربعهٔ أمور: منافع و خیرهٔ، أن تکون مقرونهٔ بالاحترام، خالیهٔ من أیّ ألم، دائمهٔ و خالدهٔ.
و قد أشارت الآیات مورد البحث إلی هذه الأمور الأربعهٔ ...
فعبارهٔ إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ إشارهٔ إلی المنفعهٔ الأولی.
و عبارهٔ ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِینَ دلیل علی الاحترام و التقدیر.

و عبارة وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ إشارة إلى نفى أى نوع من الآلام و المعاناة الروحية (النفسية).

و عبارة لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ إشارة إلى نفى الآلام الجسمانية.

أمّا عبارة وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ فهى حاكية عن آخر شرط، و هو دوام و بقاء النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۵

و بهذا يكون هذا الجزاء و الثواب كاملا من كل الجهات [۴۶].

۵- تعالوا لنجعل من هذه الدنيا جنّة:

إنّ النعم المادية و الروحية الأخروية التى صورتها الآيات السابقة فى حقيقتها تشكل أصول النعم لهذا العالم، و لعل القرآن الكريم يريد أن يفهمنا بأنّنا يمكن أن نوجد جنّة صغيرة فى حياتنا تكون شبيهة بتلك الجنّة الكبيرة، فيما لو استطعنا أن نوفر شرائطها المطلوبة اللازمة.

فلو طهرنا قلوبنا من الحقد و العداوة.

و قوّينا بيننا روابط الأخوّة و المحبّة.

و حذفنا من حياتنا تلك الاعتبارات و اشكال الترف الزائدة و المفرقة.

و إذا ما عملنا لتحقيق الأمن و السلام فى مجتمعنا.

و إذا أدرك الناس بأنّه لا استعباد و لا استغلال و لا طبقية فيما بينهم ... فإنّنا- و الحال هذه- سنكون فى جنّة الحياة الدنيا!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۶

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۵۱ الى ۶۰]

اشارة

وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (۵۳) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (۵۴) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (۵۵)

قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (۵۶) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۵۷) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۵۸) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۹) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (۶۰)

التّفسير

الضّيوف الغرباء ..!

تتحدث هذه الآيات المباركات و ما بعدها عن الجنبة التربوية فى تاريخ حياة الأنبياء عليهم السلام و ما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، و تطرح الآيات نماذج حيّة للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد اللّه المخلصين من طرف و أتباع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۷

الشيطان من طرف آخر).

و من لطيف البيان القرآنى شروع الآيات بذكر قصة ضيف إبراهيم (و هم الملائكة الذين جاؤوا بهيئة البشر و بشروه بولد جليل الشأن، و من ثمّ أخبروه عن أمر عذاب قوم لوط).

فقد جاء فى الآيتين السابقتين أمر اللّه إلى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتبيان سعة رحمة اللّه للناس مع تبيان أليم عذابه، و يطرح فى هذه القصة نموذجين حيين لهاتين الصفتين، و بذلك تتبيّن صلة الربط بين هذه الآيات.

فتقول أوّلا: وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ

فكلمة «ضيف» جاءت بصيغة المفرد، و لا مانع من ذلك حيث ذهب بعض كبار المفسّرين إلى أن «ضيف» تستعمل مفردا و جمعا.

و هؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم عليه السّلام بوجوه خالية من الابتسامة، فابتدءوه بالسلام إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً.

فقام إبراهيم عليه السّلام بوظيفته (إكرام الضيف)، فهيأ لهم طعاما و وضعه أمامهم، إلّا أنّهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبّر عمّا جال فى خاطره قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۴۷].

و كان مصدر خوف إبراهيم عليه السّلام ممّا كان عليه متعارفا فى مسألة رد الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود نيّة سوء أو علامة عداء.

و لكن الملائكة لم يتركوا ابراهيم فى هذا الحال حتى: قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ

من هو المقصود بالغلام العليم؟

يبدو من خلال متابعة الآيات القرآنية أنّ المقصود هو (إسحاق)، حيث نقرأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۸

فى سورة هود، الآية (۷۱) أن امرأة إبراهيم كانت واقفة بقربه عند ما بشرته الملائكة، و يظهر كذلك أنّها كانت امرأة عاقرا فبشروها أيضا وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ

و كما هو معروف فإنّ سارة، هى أم إسحاق، و لإبراهيم عليه السّلام ولد آخر أكبر من إسحاق و اسمه (إسماعيل) من (هاجر)- الأمّة التى تزوجها إبراهيم.

كان إبراهيم يعلم جيدا أنّه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (و مع أن كل شىء مقدورا للّه عز و جلّ)، و لهذا أجابهم بصيغة التعجب:

قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِى عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ .. هل البشارة منكم أم من اللّه عزّ و جلّ و بأمره، أجيبونى كى أزداد اطمئنانا؟

إنّ تعبير «مسّنى الكبر» إشارة إلى ما كان يجده من بياض فى شعره و تجاعيد فى وجهه و بقية آثار الكبر فيه.

و يمكن لأحد أن يشكل: بأنّ إبراهيم عليه السّلام قد سبق بحالة مشابهة حينما ولد له إسماعيل عليه السّلام و هو فى الكبر .. فلم التعجب من تكرار ذلك؟

و الجواب: أوّلا- كان بين ولادة إسماعيل و إسحاق (على ما يقول بعض المفسّرين) أكثر من عشر سنوات، و بذلك يكون تكرار الولادة مع مضى هذه المدّة ضعيف الاحتمال.

و ثانيا: إنّ حدوث و وقوع حالة مخالفة للموازين الطبيعية مدعاة للتعجب، و إذا ما تكررت فلا يمنع من التعجب لحدوثها و تكرارها مرّة أخرى.

فولادة مولود جديد فى هكذا سن أمر غير متوقع، و إذا ما وقع فهو غريب و عجيب فى كل الأحوال ۴۸].

و على أية حال .. لم يدع الملائكة مجالا لشك أو تعجب إبراهيم حيث قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِ فهى بشارة من اللّه و بأمره، فهى حقّ مسلّم به.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۸۹

و تأكيدا للأمر و دفعا لأی احتمال فی غلبة اليأس علی إبراهيم، قالت الملائكة: فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ

لكنّ إبراهيم عليه السّلام طمأنهم بعدم دخول اليأس من رحمة اللّه إليه، و إنّما هو فی أمر تلك القدرة التی تجعل من اختراق النواميس الطبيعية أمر حاصل و بدون الخلل فی الموازنة، قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ

إنّ الضالين هم الذين لا يعرفون اللّه و قدرته المطلقة، اللّه الذی خلق الإنسان ببنائه العجيب المحير من ذرة تراب و من نطفة حقيرة ليخرجه ولدا سويا، اللّه الذی حوّل نخلة يابسة الی حاملة للثمر بإذنه، اللّه الذی جعل النّار بردا و سلاما .. هل من شك بأنّه سبحانه قادر علی كل شیء، بل و هل يصح ممن آمن به و عرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته!؟! و راود إبراهيم عليه السّلام- بعد سماعه البشارة- أنّ الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشارة، و ما البشارة إلّا مهمّة عرضية ضمن مهمّتهم الرئيسية، و لهذا قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ

و مع علم الملائكة بإحساس إبراهيم عليه السّلام المرهف و أنّه دقيق فی كل شیء و لا يقنع بالعموميات، فبينوا له أمر نزول العذاب علی قوم لوط المجرمين باستثناء أهله إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ

إنّ ظاهر تعبير «آل لوط» و ما ورد من تأكيد بكلمة «أجمعين» سيشمل امرأة لوط الضالة التی وقفت فی صف المشركين، و لعل إبراهيم كان مطلعا علی ذلك، و لذا أضافوا قائلين: إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ

و «قدّرنا» إشارة إلی المهمّة التی كلفوا بها من اللّه عزّ و جلّ.

هذا و قد بحثنا قصة نزول الملائكة علی إبراهيم عليه السّلام و تبشيره بإسحاق عليه السّلام و حديثهم معه بشأن قوم لوط عليه السّلام مفصلا فی تفسيرنا للآيتين (۶۹ و ۷۰) من سورة هود من هذا التّفسير.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۹۰

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۶۱ الی ۷۷]

اشارة

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (۶۱) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (۶۲) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵)

وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (۶۶) وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶۹) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (۷۰)

قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (۷۱) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (۷۳) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (۷۴) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (۷۵)

وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (۷۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷)

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۹۱

التّفسير

عاقبة مذنبی قوم لوط:

طالعتنا الآيات السابقة بقصة اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء و بين إبراهيم عليه السّلام، و هذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصّة فتبدأ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السّلام.

فنقرأ أوّلا فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ

فالتفت إليهم لوط قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ

يقول المفسّرون: قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصورة ريعان الشباب، و هو يعلم ما كان متفشيا بين قومه من الانحراف الجنسي .. فمن جهة، هم ضيوفه و مقدمهم مبارك و لا بد من إكرامهم و احترامهم، و لكنّ المحيط الذى يعيشه لوط عليه السّلام مريض و ملوث.

و لهذا ورد تعبير «سيء بهم» فى الآيات المتعرضة لقصة قوم لوط فى سورة هود، أى إنّ هذا الموضوع كان صعبا على نبيّ اللّه و قد اغتم لقدومهم لتوقعه يوما عصيبا! و لكنّ الملائكة لم يتركوه و هذه الهواجس طويلا حتى سارعوا الى القول:

قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ أى إنّنا جئنا بالعذاب الذى واعدتهم به كثيرا، و ذلك لأنّهم لم يعتنوا و لم يصدقوا بما ذكرته لهم.

ثمّ أكّدوا له قائلين: وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِ أى العذاب الحتمى الجزاء الحاسم لقومك الضالين.

ثمّ أضافوا لزيادة التأكيد: وَ إِنَّا لَصادِقُونَ

فهؤلاء القوم قد قطعوا كل جسور العودة و لم يبق فى شأنهم محلا للشفاعة و المناقشة، كى لا يفكر لوط فى التشفع لهم و ليعلم أنّهم لا يستحقونها أبدا.

ثمّ قال الملائكة للوط: أخرج و أهلك من المدينة ليلا حين ينام القوم أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۲

ينشغلوا بشرابهم و شهواتهم، لأجل نجاة الثلة المؤمنة من قومه (و هم أهله ما عدا زوجته).

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ و كن خلفهم كى لا يتخلف أحد منهم و لتكون محافظا و رقيبا لهم وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ و على أن يكون نظركم إلى الأمام وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ أى إلى أرض الشام، أو أىّ مكان آخر يكون فيه الناس مطهرين من هذه الآثام.

ثمّ ينتقل مجرى الحديث حيث يقول تعالى: وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ أى سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.

و من الملفت للنظر، أن القرآن قد ترك القصّة عند هذا الحد و عاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه- لسبب سنشير إليه فيما بعد- فيقول: وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ أى إنّهم قد ظنوا بحصول لقمة جديدة سائغة عن طريق ضيوف لوط! إنّ تعبير أَهْلُ الْمَدِينَةِ ليوحى إلى أن الذين تحركوا صوب منزل لوط عليه السّلام كانوا جمعا كبيرا، و هو ما يوضح بجلاء تلك الوقاحة و القبح و الجسارة التى كانوا عليها، و خصوصا قوله يَسْتَبْشِرُونَ التى تحكى عمق تلوثهم بذلك الدرك السافل، مع أنّ مثل هذا الفعل القبيح ربّما لا يشاهد حتى بين الحيوانات، و إذا ما ابتلى به إنسان (و العياذ باللّه) فإنّه سوف يحاول كتمه و إخفاؤه، حيث أن الإتيان به مدعاة للتحقير و الازدراء من قبل الآخرين .. أمّا قوم لوط، فكانوا مستبشرين بذلك الصيد الجديد و كل يهنئ الآخر على ما سيصيبه من نصيب!! و حينما سمع لوط أصواتهم و ضجيجهم أغتم غمّا شديدا لأجل ضيوفه، لأنّه ما كان يدرى أنّهم ملائكة العذاب الى ذلك الوقت و لهذا قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ

أى .. إن كنتم لا تؤمنون باللّه و لا تصدقون بالنّبى و لا تعتقدون بثواب و عقاب، فراعوا حق الضيافة التى هى من السنن المتعارف عليها عند كل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۳

المجتمعات سواء کانت مؤمنة أم کافرة، أیّ بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانیة، فإن لم یکن لکم دین فکونوا أحرارا فی دنیاکم! ثمّ أضاف قائلا: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ ۴۹] أمام ضیفی.

و لکنّهم من الوقاحة و الإصرار علی الانحراف بحیث صاروا لا یشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا یحاججون لوطا و یحاسبونه، و کأنّه ارتکب جرما فی استضافته لهؤلاء القوم قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَکَ عَنِ الْعالَمِینَ باستضافتهم! فلما ذا خالفت أمرنا؟! و کان قوم لوط من البخل بحیث أنّهم لا- یحبون الضیافة، و کانت مدینتهم علی طریق القوافل، و یبررون فعلهم القبیح ببعض الواردین لأجل أن لا ینزل عندهم أحد من القوافل المارة، و تعارفوا علی ذلک حتی أصبح عندهم عادة.

و کما یبدو أنّ لوطا کان حینما یسمع بأحد الغرباء یدخل المدینة یسرع لاستضافته خوفا علیه من عمل قومه الخبیث، و لما علم أهل المدینة بذلک جاؤوا إلیه غاضبین و نهوه عن أن یستضیف أحدا مستقبلا.

علیه، فکلمة «العالمین» فی الآیة أعلاه- ما یبدو- إشارة إلی عابری السبیل، و من هم لیسوا من أهل تلک المدینة.

و عند ما رآهم لوط علی تلک الحال من الوقاحة و الجسارة، أتاهم من طریق آخر لعلهم یستفیقون من غفلتهم و سکر انحرافهم، فقال لهم: إن کنتم تریدون إشباع غرائزکم فلما ذا تسلکون سبیل الانحراف و لا تسلکون الطریق الصحیح (الزواج) قالَ هؤُلاءِ بَناتِی إِنْ کُنْتُمْ فاعِلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۴

ممّا لا شک فیه أنّ بنات لوط لا یکفین لذلک العدد الهائل من المتحجرین حول داره، و لکن لوطا الذی کان یهدف إلی إلقاء الحجّة علیهم أراد أن یقول لهم:

اننی مستعد الی هذه الدرجة للتضحیة من أجل الضیف، و کذلک لأجل إنقاذکم من الفساد و نجاتهم من الانحراف.

و ذهب البعض إلی أنّ المقصود من هؤُلاءِ بَناتِی کل بنات المدینة، باعتباره أبا روحیا للجمیع. (إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أقرب إلی معنی الآیة).

و لیس نجاف أنّ لوطا ما کان لیزوج بناته من أولئک المشرکین الضالین، و لکنّه أراد أن یقول لهم: تعالوا آمنوا لأزوجکم بناتی.

لکنّ الویل، کل الویل من سکرات الشهوة، الانحراف الغرور و العناد .. التی مسحت عنهم کل قیم الأخلاق الإنسانیة و أفرغتهم من العواطف البشریة، و التی بها یحسون بالخجل و الحیاء أمام منطق لوط علیه السّلام، أو أن یترکوا بیت لوط و ینسحبوا عن موقفهم، و لکنّ أنّی لهم ذلک، و الأکثریة بسبب عدم تأثرهم بحدیث لوط استمروا فی غیهم و أرادوا أن یمدوا أیدیهم إلی الضیوف.

و هنا یخاطب اللّه تعالی نبیّه قائلا: لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَکْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ

و قرأنا فی سورة هود- فیما یتعلق بهذه القصّة- أنّ ملائکة العذاب قد کشفوا عن أمرهم و قالوا للوط: لا تخف إنّهم لن یصلوا إلیک.

و فی الآیة السابعة و الثلاثین من سورة القمر نقرأ وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَیْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْیُنَهُمْ

و فی بعض الرّوایات: إنّ أحد هؤلاء الضیوف أخذ قبضة من تراب فرماها فی وجوه القوم فأصبحوا لا یبصرون جمیعا.

و بعد ذلک یبلغ کلام اللّه تعالی عن هؤلاء القوم الذروة حینما یبیّن عاقبتهم السیئة فی آیتین قصیرتین و بشکل حدّی ملیء بالدروس و العبر بقوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّیْحَةُ مُشْرِقِینَ أی صوت شدید عند شروق الشمس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۵

و یمکن حمل «الصیحة» علی أنّها صاعقة عظیمة أو صوت زلزلة رهیب، و المهم أنّه کان صوتا مرعبا أسقط الجمیع مغمیا علیهم أو میتین.

و المعلوم أنّ الأمواج الصوتیة إذا ما تعدت حدّا معینا فستکون مرعبة مخیفة تهز فرائص الإنسان، و إذا ما ازدادت شدتها فستبهت

الإنسان و تشلّه عن الحركة و ربّما تودى بحياته، بل و من الممكن لها أن تهدم الأبنية، و هذا ما تفعله المتفجرات.

و لم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينة أيضا فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها.

و زيد فى التنكيل بهم وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ

إنّ سقوط الحجارة على رؤوسهم ربّما كان يستهدف من لم يمت من الصيحة المرعبة و لم يصبح تحت الأنقاض، و ربّما لأجل محو أجسادهم، و جثثهم من على الأرض كى لا- يبقى أثر لهؤلاء القوم المجرمين، حتى أنّ المار على تلك الديار بعد نزول الأحجار لا يصدق بسهولة أنّها كانت مدينة معمورة! ثمّ إنّ نزول هذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصيحة الرهيبة، قلب المدينة، المطر الحجرى)- رغم أن كل واحدة منهن كانت تكفى لقطع دابر القوم- كان لمضاعفة عذابهم لشدّة فسادهم و جسارتهم و إصرارهم على إدامة التلوّث بتلك القبائح الشنيعة، و كى يكون عبرة لمن يعتبر.

و هنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائج الأخلاقية و التربية فيقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [۵۰] العقلاء الذين يفهمون الأحداث بفراستهم و ذكائهم و نظرهم الثاقب و يحملون من كل إشارة حقيقة و من كل تنبيه درسا.

و لا تتصوروا أن آثارهم ذهبت تماما، بل هى باقية على طريق القوافل و المارة وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۹۶

و إن لم تصدقوا فاذهبوا لرؤية آثار المدن المعذبة الواقعة على طريق المسافرين إلى الشام (من المدينة) فانظروا و فكروا و اعتبروا، و عودوا إلى اللّه، و اسلكوا طريق التوبة، و طهّروا نفوسكم من الآثام و الذنوب.

ثمّ تدعوا الآية المؤمنين إلى التفكر مليا فى هذه القصة و استخلاص العبر منها:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ

فكيف يمكن للمؤمن أن لا يعتبر و لا يهتز عند ما يطالع خبر هذه الواقعة؟! بحثنا بشىء من التفصيل فى الآيات المتعلقة بقوم لوط فى سورة هود من هذا التفسير، فبحثنا فى معنى «سجيل»، و لما ذا أمطر على هؤلاء القوم المنحرفين بالحجارة، و لماذا قلبت مدينتهم، و لما ذا كان العذاب صباحا، و لما ذا أمر لوط و أهله أن لا يلتفتوا إلى الوراء، و كذلك بحثنا مسألة تحريم الشذوذ الجنسى فى الأديان السماوية و فلسفة التحريم، بالإضافة إلى بحث فى أخلاق قوم لوط ...

و سنبحث هنا بعض ما تبقى من الإشارات المتعلقة بهذه القصّة.

بحوث

۱- ما المقصود ب بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ

«القطع» بمعنى سواد الليل، يقول المرحوم الطبرسى فى (مجمع البيان): القطع كأنّه جمع قطعة، و معناه: سر بأهلك بعد ما يمضى أكثر الليل و تبقى قطعة منه.

و لكنّ الراغب الأصفهانى فى مفرداته يعتبر كلمة «قطع» بمعنى قطعة على صيغة المفرد، مع أن كثيرا من المفسّرين فسّروها بأواخر الليل و عند السحر، و لعل تفسيرهم يعود إلى الآيات الأخرى التى تحدد هذا الوقت فى قصّة آل لوط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۹۷

نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ [۵۱].

أى إنّهم خرجوا عند ما كان عبّاد الشهوة غارقين فى نوم غفلتهم و قد أفسد وجودهم سكر الشراب و الغرور و الشهوات، فكانت

المدینۀ مهیئۀ لآل لوط فی الخروج بسلام.

ثمّ إنّ نزول العقاب کان فی الصباح عند شروق الشمس، و لعل انتخاب هذا الوقت کان لإعطاء المهلۀ لقوم لوط بعد أن فقدوا أبصارهم، عسی أن یتفکروا فی أمرهم فیعیدوا النظر فی شرکهم و عصیانهم، فکانت تلک اللیلۀ آخر فرصۀ لهم.

و یستفاد من بعض الرّوایات .. أنّ بعضا منهم عند ما کانوا فی طریق عودتهم إلی دورهم أقسموا أن لا یدعوا أحدا من آل لوط حیا عند الصباح، و لهذا نزل علیهم العذاب الإلهیۀ فی ذلک الوقت [۵۲].

۲- تفسیر قوله تعالی: وَ امْضُوا حَیْثُ تُؤْمَرُونَ

ذکرنا أنّ الملائکۀ أوصت آل لوط بالخروج آخر اللیل إلی المکان الذی عین لهم، إلّا أن الآیات القرآنیۀ لم تدخل فی تفاصیل ذلک السفر و لم تعین المنطقۀ التی سیذهبون إلیها، لذلک عرض المفسّرون جملۀ آراء بهذا الخصوص.

فمنهم من قال: أمروا بالسیر نحو الشام لأنّ محیطها أکثر طهارة.

و قال بعض آخر: إنّ الملائکۀ عینت لهم قریۀ و طلبت منهم الذهاب إلیها.

و اکتفی تفسیر المیزان بعبارة: کان لدیهم نوع من الهدیۀ الإلهیۀ و الدلالۀ العلمیۀ فی سلوک طریقهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۸

۳- علاقۀ الرّبط بین «المتوسم» و «المؤمن».

لاحظنا تعبیر إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ و إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَۀً لِلْمُؤْمِنِینَ فی الآیات الحاکیۀ عن قصّۀ قوم لوط، و الجمع بین التعبیرین یعطینا: أنّ المؤمن الحقیقی هو المتوسم الذی ذو الفراسۀ و النباهۀ.

و

فی روایۀ عن الإمام الباقر علیه السّلام عند ما سئل عن تفسیر قوله تعالی: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ قال: هم الأمّۀ، ثمّ قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «اتقوا فراسۀ المؤمن، فإنّه ینظر بنور اللّه عزّ و جلّ»[۵۳].

و

فی روایۀ أخری عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «هم الأئمّۀ»[۵۴].

و

روی أن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه قال: «کان رسول اللّه المتوسم، و أنا من بعده، و الأئمّۀ من ذریتی المتوسمون»[۵۵].

۴- سکر الشّهوة و الغرور!

إن سکر الخمر معروف، و ثمۀ سکر أشد منه آثارا کسکر المنصب و سکر الشهوة، و قرأنا فی الآیات السابقۀ کیف أن اللّه یقسم بروح نبیّه لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَکْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ و لهذا فإنّهم لا یبصرون أوضح طرق النجاة، و بلغ بهم الحال أن یردوا ما عرض علیهم نبیّهم علیهم السّلام أن یشبعوا شهواتهم بالطریق الصحیح المشروع لیتخلصوا من الذنوب و التلوثات و قبائح الأفعال! و الذی نستفیده من موقف لوط علیه السّلام هو أنّ مکافحۀ الفساد لا یتم بالنهی عنه فقط، بل لا بدّ من تهیئۀ و تعبید الطریق المعبدة البدلیۀ، لینتقل الضال

أو المضلل به من جادة الفساد إلى جادة الصلاح، فلا بد من تهيئة الأوضاع و الأجواء السليمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏٨، ص: ٩٩

للناس مع وجود البرامج المؤثرة الهادفة.

و من غريب ما نطالعه فى بعض الرّوايات .. أنّ لوطا (هذا النّبى الجليل) قد قضى بين قومه ثلاثين عاما و هو يدعوهم إلى الهدى و يحذرهم من مغبة الانغماس فى متاهات الضلال، و مع ذلك لم يؤمن به إلّا أهل بيته (ما عدا زوجته)[۵۶].

ما أعظم ثباته عليه السّلام! مع منحرفين لدرجة لا يطيق أىّ إنسان العيش معهم حتى و لو لساعة واحدة! بل و ما أصعب العيش مع تلك الزوجة! و نقرأ فى الآيتين الخامسة و الثلاثين و السادسة و الثلاثين من سورة الذاريات: فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

فيتّضح لنا .. أنّ العقاب الإلهى لا يكون عشوائيا، بل لا يشمل إلّا المستحقين له و لو كان هناك مؤمن واحد عامل بواجباته لا نقذه اللّه تعالى من بينهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏٨، ص: ١٠٠

الآيات [سورة الحجر (١۵): الآيات ٧٨ الى ٨۴]

اشارة

وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٨١) وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢)
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨۴)

التّفسير

خاتمة أصحاب الأيكة و أصحاب الحجر:

يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى قصّتين من قصص الأمم السالفة، و هما (أصحاب الأيكة) و (أصحاب الحجر) ليكمل البحث الذى عرضه فى الآيات السابقة حول قوم لوط.

يقول أوّلا: وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ ۵٧].

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ و عاقبناهم على ظلمهم و استبدادهم ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏٨، ص: ١٠١

و جعلنا أرضهم و أرض قوم لوط- المتقدمة قصّتهم- على طريقكم وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ فانظروا إليها و إلى عاقبة أمرهم، و اعتبروا يا أولى الألباب.

من هم أصحاب الأيكة؟

قال جمع من المفسّرين، بالإضافة إلى أرباب اللغة: «الأيكة»: هى الأشجار المتشابكة مع بعضها، و «أصحاب الأيكة»: هم قوم «شعيب»

الذين عاشوا فى بلدة مليئة بالماء و الأشجار بين الحجاز و الشام و كانت حياتهم مرفهة ثرية فأصيبوا بالغرور و الغفلة، فأدى ذلك إلى الاحتكار و الفساد فى الأرض.

و قد دعاهم شعيب عليه السّلام إلى التوحيد و نهج طريق الحق، مع تحذيره المكرر لهم من عاقبة أعمالهم السيئة فيما لو استمروا على الحال التى هى عليها.

و من خلال ما بيّنته الآيات فى سورة هود، فإنّهم لم ينصاعوا للحق و لم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب اللّه المهلك.

فبعد أن يئس من إصلاحهم أصابهم حرّ شديد استمر لعدّة أيّام متصلة، و فى اليوم الأخير ظهرت سحابة فى السماء اجتمعوا فى ظلها، ليتفيئوا من حر ذلك اليوم، فنزلت عليهم صاعقة مهلكة فقطعت دابرهم عن آخرهم.

و لعل استعمال القرآن لعبارة «أصحاب الأيكة» فى تسميتهم، إشارة إلى النعم التى أعطاها اللّه لهم، و لكنّهم استبدلوا الشكر بالكفر، فأقاموا صرح الظلم و الاستبداد، فحقّت عليهم كلمة اللّه فأهلكوا بالصاعقة هم و أشجارهم.

و ورد ذكرهم مفصلا- مع التصريح باسم شعيب- فى الآيات (۱۷۶) حتى (۱۹۰) من سورة الشعراء.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ عبارة فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ يمكن أن تشمل قوم لوط و أصحاب الأيكة معا، بدليل ما يأتى بعدها مباشرة وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ

و المشهور عند المفسّرين أنّ الآية تشير إلى مدينة قوم لوط و مدينة أصحاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۰۲

الأيكة.

و كلمة «إمام» بمعنى طريق و جادة، لأنّها من مادة. «أمّ»، بمعنى القصد، حيث أنّ الإنسان حينما يسير فى طريق ما إنّما يسير لأجل الوصول إلى غاية معينة أو قصد معين.

و احتمل البعض أنّ الإمام المبين هو اللوح المحفوظ، بدلالة الآية (۱۲) من سورة يس.

و لكن هذا الاحتمال مستبعد، لأنّ القرآن هنا فى صدد إعطاء درس العبرة للاعتبار، و وجود اسم هذين البلدين فى اللوح المحفوظ سيكون بعيدا عن التأثير فى اعتبار الناس و تذكيرهم، فى حين أن وجود هذين البلدين على طريق القوافل و المارة يمكن أن يكون له الأثر البالغ فيهم.

فعند وقوف الناس قرب تلك الآثار و تذكر خبر أهلها و ما جرى لهم من سوء العاقبة، ربّما سيهمل دموع العابرين عند أرض قوم لوط مرّة، و عند أرض أصحاب الأيكة مرّة أخرى .. فتكون تلك اللحظات لحظات اعتبار، بعد ما عرفوا أو استذكروا ما حل بالقومين من دمار و هلاك نتيجة ظلمهم و ظلالهم.

أمّا «أصحاب الحجر» فهم قوم عصاة عاشوا مرفهين فى بلدة تدعى «الحجر» و قد بعث اللّه إليهم نبيّه صالح عليه السّلام لهدايتهم.

و يقول القرآن عنهم: وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ و لكن أين تقع هذه البلدة؟

يذكر بعض المفسّرين و المؤرخين: أنّها كانت على طريق القوافل بين المدينة و الشام فى منزل يسمى (وادى القرى) فى جنوب (تيماء) و لا أثر لها اليوم- تقريبا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۰۳

و يذكرون أنّها كانت إحدى المدن التجارية فى الجزيرة العربية، و لها من الأهمية بحيث ذكرها (بطليموس) فى مذكراتها لكنها إحدى المدن التجارية.

و كذلك ذكرها العالم الجغرافى (بلين) باسم (حجرى).

و نستشف من بعض الرّوايات أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما قاد جيشا لدفع جيش الروم فى السنة التاسعة للهجرة، أراد

الجنود أن يتوقفوا فى هذا المكان، فمنعهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و

قال: هنا نزل عذاب اللّه على قوم ثمود[۵۸].

و من الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم ذكر مسألة تكذيب الأنبياء فى خبر أصحاب الحجر (و كذلك قوم نوح و قوم شعيب و قوم لوط فى الآيات (۱۰۵ و ۱۲۳ و ۱۶۰) من سورة الشعراء) بالإضافة إلى أقوام أخر كذبت الأنبياء عليهم السّلام، و الواضح من خلال ظاهر القصص أن لكل قوم كان نبىّ واحد لا أكثر.

و لعل مجىء هذا التعبير فى هذه الآية (المرسلين)، باعتبار أنّ الأنبياء لهم برنامج واحد و هدف واحد، و بينهم من درجة من الصلة بحيث أن تكذيب أىّ منهم هو تكذيب للجميع.

و احتمل آخرون وجود أكثر من نبى وسط الأمّة الواحدة، و ذكر اسم أحدهم لأنّه أكثر شهرة.

و كما يبدو فإنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى الصواب منه إلى الثّانى.

و يستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ و موقف الأعراض المشار إليه- كما يبدو- هو عدم استعدادهم لسماع الآيات و التفكر بها.

و تشير الآية إلى أنّهم كانوا من الجد و الدقّة فى أمور معاشهم و حياتهم الدنيوية حتى أنّهم وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۴

و هو ما يبيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جبلية، بالإضافة إلى ما توصلوا إليه من مدنية متقدمة، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول و العواصف و الزلازل.

و العجيب من أمر الإنسان، أنّه يحزم أمره لتجهيز و تحصين مستلزمات حياته الفانية، و لا يعير أىّ اهتمام لحياته الباقية، حتى يصل به المال لأن لا يكلف نفسه بسماع آيات اللّه و التفكر بها!!.

و أىّ عاقبة ينتظرون بعد عنادهم و كفرهم غير أن يطبق عليهم القانون الإلهى الموعدين به (البقاء للإصلاح) و عدم إعطاء حق إدامة الحياة لأقوام فاسدين و مفسدين .. فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك، و لهذا يقول القرآن: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ

و كانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمر نزل على دورهم و كان من القوّة و الرهبة بحيث جعل أجسادهم تتناثر على الأرض.

و الشاهد على ما قلناه ما تحدثنا به الآية الثّالثة عشر من سورة فصلت: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ.

فالعذاب الإلهى لا تقف أمامه الجبال الشاهقة، و لا البيوت المحصنة، و لا الأبدان القوية أو الأموال الوافرة، و لهذا يأتى فى نهاية قصتهم فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ

و جاءت الآيات (۱۴۱ إلى ۱۵۸) من سورة الشعراء بتفصيل أكثر، و هو ما سيأتى فى محله إن شاء اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۸۵ الى ۹۱]

اشارة

وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (۸۵) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (۸۶) وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (۸۷) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (۸۸) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (۸۹)

كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (۹۰) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (۹۱)

التّفسير

يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفة- كقوم لوط و قوم شعيب و صالح- إلى مسألة التوحيد و المعاد، لأنّ سبب ضلال الإنسان يعود إلى عـدم اعتناقه عقيـدة صـحيحة، و لعدم ارتباطه بمسألة المبدأ و المعاد، فيشـير إليهما معا فى آية واحدة وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِ

فنظامها محسوب و محكم و هو حق، و كذا هدف خلقها حقّ.

فيكون هذا النظام البديع و الخلق الدقيق المنظم دليلا واضحا على الخالق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۶

العـالم القادر جلّ و علا، و هو حق أيضا، بل هو حقيقـة الحق، و كل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، و كل شـىء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل .. و هذا ما يخصّ التوحيد أمّا فى المعاد فيقول: وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ .. و إن تأخرت فإنّها آتية بالنتيجة.

و لا يبعـد أن تكون الفقرة الأولى بمنزلـة الـدال على الفقرة الثّانيـة، لأنّ هـذا العالم إنّما يكون حقا عنـد ما يكون لهـذه الأيّام الـدنيوية المليئة بالآلام و المتاعب هـدف عال يبرر خلق هـذا الوجود الكبير- فليست الـدنيا لنحياها و تنتهى- و لهـذا فمسألـة خلق السـماوات و الأرض و ما بينهما حقّ يدل على وجود يوم القيامة و الحساب، و إلّا لكان الخلق عبثا و ليس حقّا- فتأمل.

و بعـد ذلك .. يأمر اللّه تعالى نبيّه الكريم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يقابل عناد قومه و جهلهم و تعصـبهم و عـداءهم بالمحبّـة و العفو و غض النظر عن الذنوب، و الصفح عنهم بالصفح الجميل، أى غير مصحوب بملامة فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ

لأنّـك تملـك الـدليل الواضـح على ما أمرت بالـدعوة إليه، فلا تحتاج و إيّاهم إلى الخشونـة لتثبيت عقيـدة المبـدأ و المعاد فى قلوب الناس، فالعقل و المنطق السليم معك.

بالإضافة إلى أنّ الخشونة مع الجهلة غالبا ما تؤدى بهم إلى الرد بالمثل، بل و بأشد من ذلك.

الصفح: هو وجه كل شىء، كوجه الصورة[۵۹]، و لهذا فقد جاءت كلمة «فاصفح» بمعنى أدر وجهك و غض النظر عنهم.

و بما أنّ إدارة الوجه و صـرفه عن الشـىء قـد تعطى معنى عـدم الاهتمام و النفرة و ما شابه ذلك بالإضافة لمعنى العفو و الصـفح، فقد ذكرت الآية المتقدمة كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۷

«الجميل» بعد «الصفح» لكى تحدد المعنى الثّانى.

و

فى رواية عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: العفو من غير عتاب ۶۰].

و روى مثل ذلك عن الإمام زين العابدين عليه السّلام ۶۱].

الآية التالية- كما يقول جمع من المفسّرين- بمنزلة الدليل على وجوب العفو و الصفح الجميل، حيث يقول: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ فاللّه يعلم بأنّ الناس ليسوا سواسيـة من جهـة الطبائع و المسـتويات الفكريـة و العاطفيـة و هو سـبحانه مطلع على ما تخفيه صـدورهم، و ينبغى معاملتهم بروحية العفو و المسامحة ليهتدوا إلى طريق الحق بأسلوب الإصلاح المرحلى أو التدريجى.

و لاـ يرمز ذلـك إلى الجبر فى أعمـال النـاس و سـلوكهم، بقـدر مـا هو إشـارة إلى أمر تربوى يأخـذ بنظر الاعتبـار اختلاـف الناس فى القابليات.

و ممّا يجدر ذكره .. تصور البعض أنّ الأمر الإلهى مختص بفترة حياة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى مكّة قبل الهجرة، و عند ما هاجر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة أصبح للمسلمين القدرة و القوّة فنسخ هذا الأمر و جاء الجهاد بدله.

و لكننا نجـد ورود هذا الأمر في السور المدنية أيضا (كسورة البقرة و سورة النّور و التغابن و المائدة)، فبعض منها يأمر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالعفو و الصفح، و البعض الآخر يأمر المؤمنين بذلك.

فيتّضح لنا أنّ أمر الصفح عام و دائم، و هو لا يعارض أمر الجهاد أبدا، فلكلّ محله الخاص به.

فإذا كان الموقف يستدعى العفو و التسامح، فلم لا يؤخذ به! و إذا كان مدعاة

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ١٠٨

للتجرؤ و الجسارة من قبل الأعداء و لا ينفع معهم إلّا الشدة، فلا مناص حينئذ من الأخذ بأمر الجهاد.

ثمّ يواسـى اللّه تعـالى نبيّه الكريم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم .. أن لا ـ تقلق من وحشـية الأعـداء و كثرتهم و ما يملكون من إمكانات مادية واسعة، لأنّ اللّه أعطاك ما لا يقف أمامه شيء وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ

و كما هو معلوم، فإنّ «السبع» هم العدد سبعة، و «المثانى» هو العدد اثنان، و لهذا اعتبر أكثر المفسّرون أنّ «سبعا من المثانى» كناية عن سورة الحمد، و الرّوايات كذلك تشير لهذا المعنى.

و الداعى لذلك كونها تتألف من سبع آيات، لأهميتها و عظمة محتواها فقد نزلت مرتين على النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أو لأنّها تتكون من قسمين (فنصفها حمد و ثناء للّه عزّ و جلّ و النصف الآخر دعاء عبادة)، أو لأنّها تقرأ مرّتين في كل صلاة[۶۲].

و احتمل بعض المفسّـرين أن «السـبع» إشارة إلى السور السبع الطول التى ابتدأ بها القرآن، و «المثانى» كناية عن نفس القرآن، لأنّه نزل مرتين على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّة بصورة كاملة، و أخرى نزل نزولا تدريجيا حسب الاحتياج إليه في أزمنة مختلفة.

و على هذا يكون معنى سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي سبع سور مهمات من القرآن.

و دليلهم في ذلك الآية الثّالثة و العشرون من سورة الزمر، حيث يقول تعالى:

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ أى مرتين على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لكنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صوابا، خصوصا و أنّ روايات أهل البيت عليهم السّلام تشير إلى أنّ «السبع المثانى» هى سورة الحمد.

و اعتبر الراغب في مفرداته أنّ كلمة «المثانى» أطلقت على القرآن لما يتكرر

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ١٠٩

من قراءة آيـاته، و هـذا التكرار هو الـذى يحفظه من التلاعـب و التحريف (إضافة إلى أنّ حقـائق القرآن تتجلى في كل زمان بشـكل جديد ينبغى له أن يوصف بالمثانى).

و على أيـة حـال، فـذكر عبارة «القرآن العظيم» بعـد ذكر سورة الحمـد، بالرغم من أنّها جزء منه، دليل آخر على شـرف و أهميـة هـذه السورة المباركة، و كثيرا ما يذكر الجزء مقابل الكل لأهميته، و هو كثير الاستعمال في الأدب العربى و غيره.

و خلاصة المطاف أنّ اللّه تعالى قد صـرّح لنبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّك قد ملكت سندا عظيما (القرآن)، و لا تستطيع أى قوة في عالم الوجود أن تصرعه.

سنـدا كلّه نور، بركـة، دروس تربوية، برامج عملية، هداية و تسديد، و بالذات سورة الفاتحة منه التى لها من المحتوى و الأثر بحيث لو ارتبط العبد بربّه و لو للحظة واحدة لحلّقت روحه لساحة قدس الربّ، و هى تعيش حال التعظيم و التسليم و المناجاة و الدّعاء.

و بعد هذه الهبة العظيمة بأمر اللّه تعالى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأربعة أوامر فيقول له أوّلا: لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ ۶۳].

فمتع الحياة الدنيا ليست دائمة و لا خالية من التبعات، و الحفاظ عليها أمر صعب في أحسن الحالات.

و لهذا، لا تستحق الاهتمام بها مقابل ما أعطاك اللّه عزّ و جلّ من العطاء المعنوى الجزيل (أى القرآن).

ثمّ یقول فی الأمر الثّانی: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ لما عندهم من أموال و نعم مادية.
فالأمر الأوّل فی الحقیقة یتعلق بعدم الاهتمام و التوجه نحو النعم المادیة، و الأمر الثّانی یتعلق بعدم التأثر لفقدانها.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۰
و قد جاء ما یشبه هذا المضمون فی الآیة (۱۳۱) من سورة طه حیث یقول جل و علا بتفصیل أکثر: وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى
و الأمر الثّالث: جاء بخصوص ضرورة اللین و التواضع مع المؤمنین حیث یقول: وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ
إنّ هذا التعبیر، کنایة جمیلة عن التواضع و المحبّة و الملاطفة، فالطیور حینما ترید إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفظها، فتجسّم بذلک أعلی صور العاطفة و الحنان و تحفظهم من الحوادث و الأعداء، و تحمیهم من التشتت.
و التعبیر المذکور عبارة عن کنایة مختصرة بلیغة ذات مغزی و معان کثیرة جدّا.
و یمکن أن یحمل ذکر هذه الجملة بعد الأوامر الثلاثة المتقدمة إشارة تحذیر بعدم إظهار التواضع و الانکسار أمام الکفار المتنعمین بزهو الحیاة الدنیا، بل لا بدّ للتواضع و الحب و العاطفة الفیاضة لمن آمن و إن کان محروما من مال الدنیا.
و نصل إلی الأمر الرّابع: و قل لهؤلاء الکفرة المنعمین بکل حزم إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ
قل: أنذرکم من أمر اللّه بنزول عذابه علیکم كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۶۴]، أی الذین قسّموا الآیات القرآنیة أصنافا، فما کان ینفعهم أخذوه، و ما لا ینسجم و مشتهیاتهم ترکوه.
فبدل أن یتخذوا کتاب اللّه هادیا و قائدا لهم، جعلوه کآلة بأیدیهم و وسیلة للوصول لأهدافهم الشریرة، فلو وجدوا فیه کلمة واحدة تنفعهم لتمسکوا بها، و لو وجدوا ألف کلمة لا تنسجم مع منافعهم الدنیویة لترکوها بأجمعها!!
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۱

بحوث

۱- القرآن .. عطاء إلهی عظیم

یخبر اللّه تعالی فی الآیات المذکورة نبیّه الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعنوان تنبیه لجمیع مسلمی العالم، أن هذا القرآن جعل فی اختیارکم، و فیه من العطاء ما لا یعد، و لیکن رأس مالکم الذی تتعاملون فیه فی حیاتکم، و لو عملتم به لجعلتم دنیاکم کلها سعادة و رفاه و أمن و صلاح.
و هذه حقیقة یعترف بها حتی غیر المسلمین، فهم یعتقدون بأنّ المسلمین إذا أخذوا القرآن و جعلوه أساس حیاتهم، و عملوا بأحکامه و هدیه، فسیکونون من القوّة و التقدم بحیث لا یسبقهم فی ذلک أحد.
فنری مثلا، سورة الحمد «سبعا من المثانی» و التی تسمّی «خاتمة الکتاب» لوحدها تمثل مدرسة کاملة للحیاة:
فأوّلها ... یشیر إلی خالق الوجود الذی یربی جمیع أهل العالم فی مسیرة تکاملیة شاملة، هذا الخالق الذی وسعت رحمته «خاصّة» و عامّة کل شیء .. ثمّ تشیر إلی محکمة العدل الإلهیة التی یکفل الإیمان بها خلق رقابة دقیقة علی جمیع سلوکیات الإنسان و نوایاه.
ثمّ الإشارة إلی عدم الاتکال علی غیر اللّه، و عدم الخضوع و التسلیم لغیره لتتهیأ الأرضیة الصالحة للسیر علی صراطه المستقیم الذی لا عوج فیه و لا میل له إلی شرق و لا إلی غرب، کما أنّه لیس فیه إفراط و لا تفریط، و کذلک لیس فیه ضلال و لا غضب من اللّه عزّ و جلّ.

إنّها جملة أمور، لو تمثلها الإنسان و بنى عليها كيانه، لكانت كفيلة بأن تجعل له شخصية سامية متكاملة.

و للأسف الشديد فقد وقع هذا العطاء الإلهى بأيدى أناس لم يعرفوا جلالة قدره، و لم يغور و العمق معناه، بل إنّهم من الجهل بمكان حتى وصل بهم الأمر أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ١١٢

تركوا تلك الآيات الرّبانية المنجية من التيه و الضلال و الجهل، و ركضوا لاهثين وراء من ملكته شهواته و من لم يصل إلى أدنى درجات النضج الفكرى، ليستجدوا منهم القوانين و البرامج التربوية التى صنعها جهلهم المتلبس بلباس العلم و التقدم! فهؤلاء المساكين يبيعون أغلى ما عندهم بثمن بخس، و يشترون به ما يبعدهم عن بناء أخراهم! و لا يعنى هذا بأنّا ضد التقدم التقنى، بل علينا أن لا نحصر كل أنفسنا فى هذا الجانب من الحياة الإنسانية .. ففى الوقت الذى نجد فى القرآن تلك العيون الفياضة بالمعنويات، نراه كذلك صاحب برامج حيوية فى مجالات التقدم و الرفاه الماديين، و هذا ما أوضحناه فى الآيات المتقدمة و ما سنزيد فيه فى الآيات القادمة إن شاء اللّه تعالى.

٢- الطمع بما عند الغير .. مصدر الانحطاط

هناك الكثير من أصحاب العيون الضيقة الذين يلاحظون هذا و ذاك باستمرار بعيون ملؤها الطمع و الجشع! لقد دأب هؤلاء على قياس حالهم و حال الآخرين و يغتمون غما شديدا فيما لو وجدوا أن شيئا من الحاجات المادية الحياتية ناقصا عندهم، فيبذلون كل شىء فى سبيل الحصول عليها حتى و إن كلفهم ذلك خسارة القيم الإنسانية و بيع كرامتهم! هذا نمط من التفكير ينم عن حالة التخلف، و يكشف عن الشعور بعقدة الحقارة و نقص الهمة. و هو من العوامل الفاعلة فى تخلف الإنسان فى حياته، و على كافّة الأصعدة.

و الشخص المستقل لا- يتعامل مع مجريات الحياة بذلك النمط من التفكير المتخلف، و إنّما يستعمل قواه الفكرية و الجسمانية فى طريق رشده و تكامله، فهو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ١١٣

كمن يحدث نفسه قائلا- بما أنّه لا ينقصنى عن الآخرين شىء، و لا يوجد دليل على عدم استطاعتى التقدم أكثر منهم أو الوصول لمصافهم .. فلما ذا أمد عينى لما متع به الآخرين من مال و جاه و ما شاكل ...

فصاحب الشخصية المستقلة لا يربط هدفه و مقصده من الحياة بالجوانب المادية البحتة فقط، بل يطلبها لإشباع ما يحتاجه روحيا و تربويا، و يطلبها لكى يحفظ بها استقلاله و حريته، و لكى لا- يكون عالة على الآخرين، فهو لا- يطلبها بحرص، و لا يطلبها بكل ما يملك، لأنّ ذلك ليس بيع الأحرار، و لا هو بيع عباد اللّه الصالحين.

و نختم الحديث بالحديث النّبوى الشريف: «من رمى ببصره ما فى يد غيره كثر همّه و لم يشف غيظه»[۶۵].

٣- تواضع القائد

لقد أوصى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرارا من خلال القرآن أن يكون مع المؤمنين متواضعا، محبّا، سهلا و رحيما، و الوصايا ليست منحصرة بخصوص نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل هى عامّة لكل قائد و موجّه، سواء كانت دائرة قيادته واسعة أم محدودة، فعليه أن يأخذ بهذا الأصل الأساسى فى الإدارة و القيادة الصحيحة.

إنّ حبّ و تعلق الأفراد بقائدهم من الأسس الفاعلية لنجاح القائد، و هذا ما لا يتحقق من دون تواضعه و طلاقه وجهه و حبّه لخير أفراده.

أمّا خشونة و قساوة القائد فلا تؤدى إلّا إلى فصم رابطة الالتحام بينه و بين الأفراد ممّا يؤدى إلى تفرق و تشتت الناس عن قائدهم.

قال أمير المؤمنين على عليه السّلام فى رسالته إلى محمّد بن أبى بكر: «فاخفض لهم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۴

جناحك و أن لهم جانبك و ابسط لهم وجهك و آس بينهم فى اللحظة و النظرة»[۶۶].

۴- من هم المقتسمون؟

إنّ التوجيهات الإلهية بلا شك تراعى فيها المصلحة العامّة و مصلحة الأفراد بصورة عامة، و لكن البعض منها قد يوافق مصالحنا الشخصية بحسب الظاهر و البعض الآخر على خلافها. و من خلال قبول أو رفض ما يدعونا إليه اللّه يمحص المؤمن الخالص من المدعى للإيمان، فالذى يقبل كل شىء نازل من اللّه و يسلم له، حتى و إنّ ظاهرة لا يتوافق مع مصلحته، و يقول «كل من عند ربّنا» و لا يجرأ على تجزئه أو تقسيم أو تبعيض الأحكام الإلهية .. فذلك هو المؤمن حقّا.

أمّا الذين استفحل المرض فى قلوبهم فيحاولون تسخير دين اللّه و أحكامه لخدمة مصالحهم الشخصية، فيقبلون ما يدعم منافعهم و يتركون غيره، فتراهم يجزؤون الآيات القرآنية، بل و تراهم فى بعض الأحيان يجزؤون الآية الواحدة، فما يوافق ميولهم احتذوا به و يتركون القسم الباقى من الآية! و لكن من القبح أن نردد ما قاله بعض الأقوام السابقة نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ فهذا شأن عبيد الدنيا.

أمّا معيار تشخيص أتباع الحق من أتباع الباطل فمن خلال التسليم للأوامر و التوجيهات الإلهية التى لا تنسجم مع الميول و الأهواء و المنافع الدنيوية، فمن هنا يعرف الصادق من الكذاب و المؤمن من المنافق.

و تجدر الإشارة هنا إلى وجود تفاسير أخرى لمعنى المقتسمين (غير ما ذكرناه)، حتى أنّ القرطبى قد ذكر فى تفسيره سبعة آراء فى معنى هذه الكلمة، إلّا أنّ أكثرها خال من القرينة، و البعض الآخر لا يخلو من مناسبة و هو ما سنذكره

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۵

أدناه:

فمنها .. أنّ جمعا من رؤوس المشركين كانوا يقفون فى أيّام الحج على رؤوس طرق و أزقة مكّة، و يشرع كل واحد منهم بالسخرية و الاستهزاء بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن لينفروا الناس عنه.

فبعض يقول: إنّه «مجنون» فإنّ ما يقوله ليس بموزون ..

و بعض يقول: إنّه «ساحر» و قرآنه نوع من السحر ..

و بعض يقول: إنّه «شاعر» و النغمة البلاغية للآيات السماوية هى شعر ..

و بعض يقول: إنّه «كاهن» و إنّ أخبار القرآن الغيبية هى نوع من الكهانة.

و قد سمى هؤلاء بالمقتسمين لتقسيمهم شوارع و أزقة مكّة و معابرها بينهم ضمن خطة دقيقة و محسوبة.

و لا مانع من دخول هذا التّفسير و ما ذكرناه معا ضمن مفهوم الآية المبحوثة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۶

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۹۲ الى ۹۹]

اشارهٔ

فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۹۲) عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ (۹۳) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ (۹۴) إِنَّا کَفَیْناکَ الْمُسْتَهْزِئِینَ (۹۵) الَّذِینَ یَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۹۶)
وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِما یَقُولُونَ (۹۷) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ کُنْ مِنَ السَّاجِدِینَ (۹۸) وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ (۹۹)

التّفسیر

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ!

یبیّن القرآن فی أواخر سورهٔ الحجر مصیر المقتسمین الذین ذکروا فی الآیات السابقهٔ فیقول: فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ

إنّ عالم السر و العلن و من لا یخفی علیه ذرهٔ ما فی السماوات و الأرضین لا یسأل لکشف أمر خفی علیه (سبحانه و تعالی عن ذلک)، و إنّما السؤال لتفهیم المسؤول قبح فعله، أو کون السؤال نوعا من العقاب الروحی، لأنّ الجواب سیکون عن أمور قبیحهٔ و مصحوبا باللوم و التوبیخ، و ذلک ما یکون له بالغ الأثر فی ذلک المقام، حیث أنّ الإنسان عندها أقرب ما یکون إلی الحقائق و إدراکها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۷

و علی هذا الأساس فالسؤال قسم من العقاب الروحی.

و عموم قوله تعالی: عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ یرشدنا إلی أنّ السؤال سیکون عن جمیع أفعال الإنسان بلا استثناء، و هو درس بلیغ کی لا نغفل عن أفعالنا.

أمّا ما اعتبره بعض المفسّرین من اختصاص السؤال عن التوحید و الإیمان بالأنبیاء، أو هو مرتبط بما یعبد المشرکون .. فهو کلام بلا دلیل، و مفهوم الآیهٔ عام.

و قد یشکل البعض من کون الآیهٔ المتقدمهٔ تؤکّد علی أنّ اللّه تعالی سیسأل عباده، فی حین نقرأ فی الآیهٔ التاسعهٔ و الثلاثین من سورهٔ الرحمن فَیَوْمَئِذٍ لا یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ

و قد أجبنا عن ذلک سابقا، و خلاصته: فی القیامهٔ مراحل، یسأل فی بعضها و لا یسأل فی البعض الآخر حیث تکون الأمور من الوضوح بحیث لا تستوجب السؤال، أو أن لا یکون السؤال باللسان، و هذا ما نستنتجه من الآیهٔ الخامسهٔ و الستین من سورهٔ یس حیث تشیر إلی غلق الأفواه و بدأ أعضاء البدن- حتی الجلد- بالسؤال.[۶۷] ثمّ یأمر اللّه تعالی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقوله فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ، أی لا تخف من ضوضاء المشرکین و المجرمین، و لا تضعف أو تتردد أو تسکت، بل أدعهم إلی رسالتک جهارا.

وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ و لا تعتن بهم.

«فاصدع»، من مادهٔ (صدع) و هی لغهٔ بمعنی «الشق» بشکل مطلق، أو شق الأجسام المحکمهٔ بما یکشف عمّا فی داخلها، و یقال أیضا لألم الرأس الشدید (صداع) و کأنّه من شدته یرید أن یشق الرأس! و هی هنا ... بمعنی: الإظهار و الإعلان و الإفشاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۸

و علی أیهٔ حال ... فالإعراض عن المشرکین هنا بمعنی الإهمال، أو ترک مجاهدتهم و حربهم، لأنّ المسلمین فی ذلک الوقت لم تصل قدرتهم- بعد- لمستوی المواجههٔ مع الأعداء و حربهم.

ثمّ يطمئن اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تقوية لقلبه: إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

أنّ مجىء الفعل بصيغة الماضى فى هذه الآية مع أنّ المراد المستقبل يشير إلى حتمية الحماية الرّبانية، أىّ: سندفع عنك شهر المستهزئين، حتما مقضيا.

و قد ذكر المفسّرون رواية تتحدث عن ست جماعات (أو أقل) كان منهم يمارس نوعا من الاستهزاء تجاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فكلما صدع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالدعوة قاموا بالاستهزاء تفريقا للناس من حوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلا أنّ اللّه تعالى ابتلى كلا منهم بنوع من البلاء، حتى شغلهم عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، (و قد ورد تفصيل تلك الابتلاءات فى بعض التفاسير).

ثمّ يصف المستهزئين: الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

كأن القرآن يريد أن يقول: إنّ أفكار و أعمال هؤلاء بنفسها عبث سخف حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر و خشب، و دفعهم جهلهم لأن يجعلوا مع اللّه ما صنعوا بأيديهم آلهة! و مع ذلك .. يستهزءون بك! و لمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، يضيف تعالى قائلا: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فروحك اللطيفة و قلبك الطيب الرقيق لا يتحملان تلك الأقوال السيئة و أحاديث الكفر و الشرك، و لذلك يضيق صدرك.

و لكن لا تحزن من قبح أقوالهم فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

لأنّ تسبيح اللّه يذهب أثر أقوالهم القبيحة من قلوب أحباء اللّه، هذا أوّلا ..

و ثانيا، يعطيك قدرة و قوّة و نورا و صفاء، و يخلق فيك تجليا و انفتاحا، و يقوى ارتباطك مع اللّه، و يقوى إرادتك و يثبت فيك قدرة أكبر للتحمل و الثبات و المجاهدة فى قبال أعداء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۹

و لهذا نقرأ

فى رواية نقلا عن ابن عبّاس أنّه قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة.

ثمّ يعطى اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آخر أمر فى هذا الشأن: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

المعروف و المشهور بين المفسّرين أنّ المقصود من «اليقين» هنا الموت، و سمّى باليقين لحتميته، فربما يشك الإنسان فى كل شىء، إلّا الموت فلا يشك فيه أحد قط.

أو لأنّ الحجب تزال عن عين الإنسان عند الموت فتتّضح الحقائق أمامه و يحصل له اليقين.

و فى الآيتين السادسة و الأربعين و السابعة و الأربعين من سورة المدّثر نقرأ عن لسان أهل جهنم: وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ أى الموت.

و من هنا يتّضح خطأ ما نقل عن بعض الصوفية من أنّ الآية أعلاه دليل على ترك العبادة. فقالوا: أعبد اللّه حتى تحصل على درجة اليقين، فإذا حصلت عليها فلا حاجة للعبادة بعدها! و نقول:

أوّلا: اليقين هنا بمعنى الموت بشهادة الآيات القرآنية المشار إليها، و هو ما يحصل للمؤمن و الكافر سواء.

ثانيا: المخاطب بهذه الاية هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مقام اليقين للنّبى من المسلمات، و هل يجرأ أحد أن يدّعى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يصل لدرجة اليقين، حتى يخاطب بالآية المذكورة؟!! ثانيا: المقطوع به أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يترك العبادة حتى آخر لحظات عمره الشريف، و كذا الحال بالنسبة لأمير المؤمنين على عليه السّلام و هو المستشهد فى المحراب، و هو ما سار عليه بقية الأئمّة عليهم السّلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۰

بحوث

۱- بدایة الدعوة العلنیة للإسلام

المستفاد من بعض الرّوایات أنّ الآیتین: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ إِنَّا کَفَیْناکَ الْمُسْتَهْزِئِینَ نزلتا فی مکّة بعد أن قضی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثلاث سنوات فی الدعوة السریة لرسالته، و لم یؤمن به إلّا القلیل من المقربین إلیه، و أول من آمن من النساء خدیجة علیها السّلام و من الرجال علی علیه السّلام.

من البدیهی، أنّ الدعوة إلی التوحید الخالص المصاحبة لتحطیم نظام الشرک و عبادة الأصنام فی تلک البیئة و فترتها کانت فی الواقع عملا عجیبا و مخیفا، و استهزاء المشرکین و سخریتهم کان معلوما عند اللّه من قبل أن یمارس، و لهذا أراد اللّه تعالی تقویة قلب نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کی لا یخشی المستهزئین، و یعلن رسالته بکل قوّة علی الملأ و یشرع بجهاد منطقی معهم ۶۸].

۲- الأثر الرّوحی لذکر اللّه

إنّ حیاة الإنسان (کانت و ما زالت) زاخرة بالمشاکل بحسب ما تقتضیه طبیعة الحیاة الدنیا، و کلما علا الإنسان درجة کثرت مشاکله و تعددت، و من هنا نفهم شدة ما واجهه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مشاکل و صعاب فی طریق دعوته الکبیرة.

و یکون العلاج الرّبانی لتجاوز العقبات عبارة عن محاولة تحصیل القوة من مصدرها الحق مع التحلی بسعة الصدر، فیأمر نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالتسبیح و الذکر و الدعاء و السجود، لما للعبادة من أثر عمیق فی تقویة روح الإنسان و إیمانه و إرادته.

و نستفید من روایات مختلفة أنّ الأئمّة علیهم السّلام إذا واجهتهم المصاعب الشداد و البلاء، لجؤوا إلی اللّه و شرعوا بالعبادة و الدعاء، کی یستمدوا القوة من معینها الأصیل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۱

۳- العبادة و التکامل

و کما هو معلوم فإنّ الإنسان قد بدأ انطلاقته فی الحیاة من نقطة العدم و لا یزال یسیر نحو المطلق، و لن تتوقف عجلة تکامله (ما داموا علی الطریق) کما أنّه یمتلک مقومات السیر و یمتاز بقابلیة فائقة و استعداد کامل فی طلبه للتکامل، هذا من جهة.

و من جهة أخری- تعتبر العبادة مدرسة عالیة للتربیة، لأنّها توقظ عقل الإنسان، و توجه فکره نحو المطلق، و تغسل غبار الذنوب و الغفلة من قلبه و روحه، و تنمی فیه الصفات الإنسانیة الرفیعة، و تقوی إیمانه و تجعله أکثر و عیا و اکبر مسئولیة.

فلا یمکن للإنسان الواقعی أن یستغنی عن هذه المدرسة الراقیة، أمّا الذین یعتقدون بأنّ الإنسان قد یصل إلی درجة معینة لا یحتاج عندها إلی العبادة، فأولئک إمّا أنّهم یعتبرون عملیة تکامل الإنسان محدودة و تنتهی بحدّ معین، أو أنّهم لم یدرکوا معنی العبادة حقّا.

و للعلّامة الطّباطبائی رحمه اللّه فی تفسیر المیزان بیان بهذا الشأن، إلیک ملخصه، (إن کل نوع من أنواع الموجودات له غایة کمالیة، و کذلک الإنسان له غایة تکاملیة لا ینالها إلّا بالاجتماع المدنی، و لهذا فهو اجتماعی بالطبع، و إن تحقق هذا الاجتماع فسیحتاج أفراد

المجتمع إلى أحكام و قوانين ينتظم باحترامها و العمل بها شتات أمورهم، و ترتفع بهذا اختلافاتهم الضرورية، و يقف بها كل منهم فى موقفه الذى ينبغى له، و يحوز بها سعادته و كماله الوجودية.

و بعبارة أخرى: إن كان المجتمع الإنسانى صالحا أمكن لأفراده الوصول إلى هدفهم النهائى فى الكمال، و إن فسد المجتمع تخلف أفراده عن هذا التكامل.

و إنّ هذه الأحكام و القوانين سواء كانت اجتماعية أو عبادية، لا تكون مؤثرة إلّا إذا أخذت من طريق النّبوة و الوحى السماوى لا غير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۱۲۲

و نعلم أيضا أنّ الأحكام العبادية تشكل جزءا من هذا التكامل الفردى و الاجتماعى.

و بهذا يتبيّن أنّ التكليف الإلهى يلازم الإنسان ما عاش فى هذه النشأة الدنيوية، و أن تجويز ارتفاع التكليف ملازم لتجويز تخلفه عن الأحكام و القوانين، و هذا يوجب فساد المجتمع! و من الجدير بالملاحظة أنّ الأعمال الصالحة و العبادات منبع للملكات النفسانية الفاضلة فإذا أديت هذه الأعمال بقدر كاف، و قويت تلك الملكات الفاضلة فى نفس الإنسان، فستكون نفسها منبعا جديدا لأعمال صالحة أكثر و طاعات و عبادات أفضل.

و من هنا يظهر فساد ما ربّما يتوهّم أنّ الغرض من التكليف هو تكميل الإنسان فإذا كمل لم يكن لبقاء التكليف معنى، و ما ذلك إلّا مغالطة ليس أكثر، لأنّ الإنسان لو تخلف عن التكليف الإلهى فإنّ المجتمع سيسير نحو الفساد فورا، فكيف يتسنى للفرد الكامل أن يعيش فى هكذا مجتمع! و كذلك فرضية تخلف الإنسان عند امتلاكه الملكات الفاضلة عن العبادات و طاعة اللّه، فإنّها تعنى تخلف هذه الملكات عن آثارها[۶۹]- فتأمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۱۲۳

سورة النّحل

اشارة

مكّية و عدد آياتها مائة و ثمان و عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۱۲۵

«سورة النحل»

محتويات السّورة:

يذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ قسما من آيات هذه السورة مكيّة، و قسمها الآخر آيات مدنيّة، فى حين يعتبر بعضهم أنّ آياتها مكية على الإطلاق. و عند ملاحظة طبيعة السورة المكية و المدنية يتبيّن لنا أنّ الرأى الأوّل أكثر صوابا، و يعزز ذلك ما تبحثه الآية (۴۱) وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ ...، و الآية (۱۱۰) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا ... حيث أنّها تناولت بوضوح موضوع الهجرة و الجهاد معا .. و كما هو بيّن فإنّ الموضوعين يتناسبان مع الحوادث التى جرت بعد هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة إلى المدينة.

و إذا اعتبرنا الهجرة المشار إليها فى الآية (۴۱) هى هجرة المسلمين الأولى حين هاجر جمع منهم من مكّة إلى الحبشة برئاسة جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فيستبعد أن تكون الهجرة و الجهاد المشار إليهما فى الآية (۱۱۰) الهجرة الأولى، و لا تنطبق الآية المباركة إلّا على هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة.

بالإضافة إلى أنّ الآية (۱۲۶) وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ... قد نزلت فی غزوة أحد التی وقعت بعد الهجرة الثّانية، و هذا معروف عند المفسّرين.

و قال بعض المفسّرين: إنّ الآيات الأربعين الأوّل من السورة نزلت فی مكّة و بقية الآيات نزلت فی المدينة، فی حين يعتبر البعض الآخر منهم جميع آياتها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج‏٨، ص: ۱۲۶

مكّية سوى الآيات المتعلقة بغزوة أحد (الآيات الثلاثة الأخيرة).

فالمتيقن بخصوص السورة أنّ آياتها مكّية و مدينة، إلّا أنّه لا يمكن تشخيص ما هو مكی أو مدنی بالدقة الكافية سوى الموارد المذكورة.

و على أية حال، فمن خلال ملاحظة السورة يبدو لنا أنّ بحوثها تتناول ما تتناوله الآيات المكّية تارة مثل: التوحيد، المعاد، محاربة الشرك و عبادة الأصنام، و تارة أخرى ما تتناوله الآيات المدينة مثل: الأحكام الاجتماعية و مسائل الجهاد و الهجرة.

و يمكننا إجمال محتويات السورة المسبوكة بعناية و إحكام بما يلی:

۱- ذكر النعم الإلهية، و تفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذی حس حی، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم و واهبها.

و من النعم المذكورة فی السورة: نعمة المطر، نور الشمس، أنواع النباتات و الثمار، المواد الغذائية الأخرى، الحيوانات الداجنة بما تقدمه من خدمات و منافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياة و حتى نعمة الولد و الزوجة، و بعبارة شاملة (أنواع الطيبات).

و لهذا أطلق البعض عليها (سورة النعم).

و عرفت بسورة النحل لورود تلك الإشارة القصيرة ذات المعانی الجليلة و العجيبة للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهية الواسعة، و بخصوص اعتبار النحل مصدرا لغذاء مهم من أغذية الإنسان، و باعتبار حياة هذه الحشرة تعبير ناطق لتوحيد اللّه.

۲- الحديث عن أدلة التوحيد، عظمة ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين و المجرمين.

۳- تناول الأحكام الإسلامية المختلفة، من قبيل: الأمر بالعدل و الإحسان، الهجرة و الجهاد، النهی عن الفحشاء و المنكر و الظلم و الاستبداد و خلف العهد،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج‏٨، ص: ۱۲۷

بالإضافة إلى الدعوة لشكر اللّه تعالى على نعمة الجزيلة، و تأتی الإشارة فی آيات عديدة إلى أنّ إبراهيم عليه السّلام رجل التوحيد لأنه كان من الشاكرين.

۴- الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثلة جميلة حية.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏٨ ؛ ص۱۲۷

و أخيرا تحذير الإنسانية من وساوس الشيطان.

فضيلة السّورة:

روى عن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فی فضل سورة النحل، أنّه قال: «من قرأها لم يحاسبه اللّه تعالى بالنعم التی أنعمها عليه من دار الدنيا»[۷۰].

فقراءة الآيات- التی تتناول جانبا كبيرا من النعم الإلهية- بتدبر و تفكر مع وجود العزم على العمل و السير وفق الشكر للمنعم، تكون سبيلا لأن يستعمل الإنسان كل نعمة بما ينبغی عليه أن يستعمل، فلا يحبس و لا يهمل، و يكون من الشاكرين .. فإن أصبح كذلك

فهل سیتعرض لمحاسبة بعد؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۸

الآیتان [سورة النحل (۱۶): الآیات ۱ الی ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
أَتی أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ (۱) یُنَزِّلُ الْمَلائِکَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (۲)

التّفسیر

أَتی أَمْرُ اللَّهِ:

ذکرنا سابقا أن قسما مهمّا من الآیات التی جاءت فی أوّل السورة هی آیات مکّیة نزلت حینما کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخوض صراعا مشتدا مع المشرکین و عبدة الأصنام، و ما یمر یوم حتی یطلع أعداء الرسالة بمواجهة جدیدة ضد الدعوة الإسلامیة المبارکة، لأنّها ترید بناء صرح الحریة، بل کل الحیاة من جدید.

و من جملة مواجهاتهم الیائسة قولهم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حینما یهددهم و ینذرهم بعذاب اللّه: إن کان ذلک حقا فلم لا یحل العذاب و العقاب بنا إذن؟! و لعلهم یضیفون: و حتی لو نزل العذاب فسنلتجئ إلی الأصنام لتشفع لنا عند اللّه فی رفع العذاب .. و لم لا یکون ذلک، أو لسن شفیعات؟! ...

و أوّل آیة من السورة تبطل أوهام أولئک بقوله تعالی: أَتی أَمْرُ اللَّهِ فَلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۹

تَسْتَعْجِلُوهُ و إن اعتقدتم أنّ الأصنام شافعة لکم عند اللّه فقد أخطأتم الظن سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ

ف «أمر اللّه» هنا: أمر العذاب للمشرکین، أمّا الفعل «أتی» فالمراد منه المستقبل الحتمی الوقوع علی الرّغم من وقوعه بصیغة الماضی، و مثل هذا کثیر فی الأسلوب البلاغی للقرآن.

و احتمل بعض المفسّرین أنّ «أمر اللّه» إشارة إلی نفس العذاب و لیس الأمر به.

و احتمل بعض آخر أنّ المراد به یوم القیامة.

و یبدو لنا أنّ التّفسیر الذی ذکرناه أقرب من غیره، و اللّه العالم.

و بما أنّ مستلزمات العدل الإلهی اقتضت عدم العقاب إلّا بعد البیان الکافی و الحجّة التامة، فقد أضاف سبحانه: یُنَزِّلُ الْمَلائِکَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ۷۱] عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا بناء علی هذا الإنذار و التذکیر فَاتَّقُونِ

أمّا المقصود من «الروح» فی الآیة فهناک کلام کثیر بین المفسّرین فی ذلک إلّا أنّ الظاهر منها هو: الوحی و القرآن و النّبوة .. و التی هی مصدر الحیاة المعنویة للبشریة.

و قد فصل بعض المفسّرین الوحی عن القرآن و عن النّبوة، معتبرا ذلک ثلاثة تفاسیر مستقلة للکلمة و لکنّ الظاهر رجوع الجمیع إلی حقیقة واحدة.

و علی أیـة حال فکلمة «الروح» فی هذا الموضوع ذات جانب معنوی و إشارة إلی کل ما هو سـبب لإحیاء القلوب و تهذیب النفوس و هدایة العقول، کما نقرأ فی الآیة الرّابعة و العشرین من سورة الأنفال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۰

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاکُمْ لِما یُحْیِیکُمْ .. و فی الآیة الخامسة عشـر من سورة غافر: یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ .. و فی الآیة و الثانیة الخمسـین من سورة الشوری: وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لَا الْإِیمانُ

و جلیّ أنّ «الرّوح» فی الآیات المتقدمة ترمز إلی «القرآن» و «الوحی» و «أمر النّبوة».

و قـد وردت «الرّوح» بمعانی أخر فی مواضع من القرآن الکریم، و لکن مع الأخذ بنظر الإعتبار ما ذکر من قرائن نخلص إلی أنّ المراد من مفهوم «الروح» فی الآیة مورد البحث هو القرآن و ما تضمنه الوحی.

و جـدیر بالملاحظـة أنّ عبـارة عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لا تعنی أن هدایـة الوحی و النّبوة لا حساب فیها، لأنّه لا انفصام و لا ضدیـة بین مشیئة اللّه و حکمته، کما تحدثنا فی ذلک الآیة (۱۲۴) من سورة الأنعام: اللَّهُ أَعْلَمُ حَیْثُ یَجْعَلُ رِسالَتَهُ

و لا ینبغی غض الطرف من کون الإنـذار من أوائل الأوامر الربانیـة الموجهـة إلی الأنبیاء علیهم السّـلام بدلیل عبارة أَنْ أَنْذِرُوا، لأنّ من طبیعة الإنذار أن یعقبه انتباه فنهوض و حرکة.

صحیح أنّ الإنسان طالب للمنفعة و دافع للضرر، و لکنّ التجربة أظهرت أنّ للترغیب أثر بالغ لمن یمتلک أسس و شرائط قبول الهدایة، أما من أعمت بصیـرتهم ملهیات الحیاة الـدنیا فلا ینفع معهم إلّا التهدید و الوعید، و فی بدایة دعوة النّبی کان من الضـروری استخدام أسلوب الإنذار الشدید.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۱

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۳ الی ۸]

اشارة

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ (۳) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ (۴) وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَکُمْ فِیها دِفْءٌ وَ مَنـافِعُ وَ مِنْها تَأْکُلُونَ (۵) وَ لَکُمْ فِیهـا جَمالٌ حِینَ تُرِیحُونَ وَ حِینَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقالَکُمْ إِلی بَلَدٍ لَمْ تَکُونُوا بالِغِیهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (۷)

وَ الْخَیْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِیرَ لِتَرْکَبُوها وَ زِینَةً وَ یَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (۸)

التّفسیر

الحیوان ذلک المخلوق المعطاء:

بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن نفی الشرک، جاءت هذه الآیات لتقلع جذوره بالکامل، و توجه الإنسان نحو خالقة بطریقین:

الأوّل: عن طریق الأدلة العقلیة من خلال فهم و محاولة استیعاب ما فی الخلائق من نظام عجیب.

الثّانی: عن طریق العاطفة ببیان نعم اللّه الواسعة علی الإنسان، عسی أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۲

یتحرک فیه حس الشکر علی النعم فیتقرب من خلاله إلی المنعم سبحانه.

فیقول: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

و تتّضح حقّانیّة السماوات و الأرض من نظامها المحکم و خلقها المنظم و کذلک من هدف خلقها و ما فیها من منافع.

ثمّ یضیف: تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ

فهل تستطیع الأصنام إیجاد ما أوجده اللّه؟! بل هل تستطیع أن تخلق بعوضة صغیرة أو ذرة تراب؟! فکیف إذن جعلوها شریکة اللّه سبحانه!! ..

و المضحک المبکی فی حال المشرکین أنّهم یعتبرون اللّه هو الخالق عن علم و قدرة لهذا النظام العجیب و الخلق البدیع .. و مع ذلک فهم یسجدون للأصنام! و بعد الإشارة إلی خلق السماوات و الأرض و ما فیها من أسرار لا متناهیة یعرّج القرآن الکریم إلی بعض تفاصیل خلق الإنسان من الناحیة التکوینیة فیقول:

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ

«النطفة» (فی الأصل) بمعنی: الماء القلیل، أو الماء الصافی، ثمّ أطلقت علی قطرات الماء التی تکون سببا لوجود الإنسان بعد تلقیحها.

و حقیقة التعبیر یراد به تبیان عظمة و قدرة اللّه عزّ و جلّ، حیث یخلق هذا المخلوق العجیب من قطرة ماء حقیرة مع ما له من قیمة و تکریم و شرف بین باقی المخلوقات و عند اللّه أیضا.

هذا إذا ما اعتبرنا «الخصیم» بمعنی المدافع و المعبر عمّا فی نفسه، کما تخبرنا الآیة (۱۰۵) من سورة النساء بذلک: وَ لا تَکُنْ لِلْخائِنِینَ خَصِیماً کما ذهب إلیه جمع من المفسّرین.

و هناک من یذهب إلی تفسیر آخر، خلاصته: بقدرة اللّه التامة خلق الإنسان من نطفة حقیرة، و لکنّ هذا المخلوق غیر الشکور یقف فی کثیر من المواضع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۳۳

مجادلا خصیما أمام خالقه، و اعتبروا الآیة السابعة و السبعین من سورة یس شاهدا علی ما ذهبوا إلیه.

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل کما یبدو- أقرب من الثّانی، لأنّ الآیات أعلاه فی مقام بیان عظمة اللّه و قدرته، و تتبیّن عظمته بشکل جلی حین یخلق کائنا شریفا جدا من مادة لیست بذی شأن فی ظاهرها.

و جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم: (خلقه من قطرة من ماء منتن فیکون خصیما متکلما بلیغا)[۷۲].

ثمّ یشیر القرآن الکریم إلی نعمة خلق الحیوانات و ما تدر من فوائد کثیر للإنسان فیقول: وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَکُمْ فِیها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ وَ مِنْها تَأْکُلُونَ

فخلق الأنعام الدال علی علم و قدرة الباری سبحانه، فیها من الفوائد الکثیرة للإنسان، و قد أشارت الآیة إلی ثلاث فوائد:

أوّلا: «الدفء» و یشمل کل ما یتغطی به (بالاستفادة من وبرها و جلودها) کاللباس و الأغطیة و الأخذیة و الأخبیة.

ثانیا: «المنافع» إشارة إلی اللبن و مشتقاته.

ثالثا: «منها تأکلون» أی، اللحم.

و یلاحظ تقدیم الملابس و الأغطیة و المسکن، فی عرض منافع الأنعام دون المنافع الأخری، و هذا دلیل علی أهمیتها و ضروریتها فی الحیاة.

و یلاحظ أیضا مجیء کلمة «الدفء» قبل «المنافع» إشارة إلی أنّ ما تدفع به الضرر مقدم علی ما یجلب لک فیه المنفعة.

و یمکن للبعض ممن یخالفون أکل اللحوم أن یستدلوا بظاهر هذه الآیة، حیث لم یعتبر الباری جل شأنه مسألة أکل لحومها ضمن منافعها، و لهذا نری قد جاءت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۴

وَ مِنْها تَأْكُلُونَ بعد ذكر كلمة «المنافع»، و أقل ما يستنتج من الآية اعتبارها لأهمية الألبان أكثر بكثير من اللحوم.

و لم يكتف بذكر منافعها المادية، بل أشار إلى المنافع النفسية و المعنوية كذلك حين قال: وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ

«تريحون»: (من مادة الإراحة) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل استراحتها، و لهذا يطلق على ذلك المحل اسم (المراح).

و «تسرحون»: (من مادة السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحا إلى مراعيها.

عبّر القرآن بكلمة «جمال» عن تلك الحركة الجمالية للأنعام حين تسرع إلى مراعيها و تعود إلى مراحها، لما لها من جمال و رونق خاص يغبط الإنسان، و المعبر عن حقيقة راسخة فی عمق المجتمع.

فحركة الإبل إضافة إلى روعتها فإنّها تطمئن المجتمع بأنّ ما تحتاجه من مستلزمات حياتك ها هو يسير بين عينيك، فتمتع به و خذ منه ما تحتاجه، و لا داعی لأن ترتبط بهذا أو ذاك فتسضعف، و كأنّها تخاطبه: فأنت مكتف ذاتيا بواسطتی.

ف «الجمال» جمال استغناء و اكتفاء ذاتی، و جمال إنتاج و تأمين متطلبات أمّة كاملة، و بعبارة أوضح: جمال الاستقلال الاقتصادی و قطع كل تبعية للغير! و الحقيقة التی يدركها القرويون و أبناء الريف أكثر من غيرهم، هی ما تعطيه حركة تلك الأنعام من راحة نفسية للإنسان، راحة الإحساس بعدم الحاجة و الاستغناء، راحة تأدية إحدى الوظائف الاجتماعية الهامة.

و من لطيف الإشارة أنّ بدأت الآية أعلاه بذكر عودة الأنعام إلى مراحلها، حيث الملاحظ عليها فی هذه الحال أثديتها ملأى باللبن، بطونها ممتلئة، يشاهد على وجوهها علائم الرضا و الارتياح و لا يرى فيها ذلك الحرص و الولع و العجلة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۵

التی تظهر عليها حين خروجها فی الصباح، بل تسير هادئة مطمئنة نحو محل استراحتها، و يكفيك الشعور بالغنى من خلال رؤية أثدائها.

ثمّ يشير تعالى فی الآية التی تليها إلى إحدى المنافع المهمّة الأخرى فيقول:

وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ و هذا مظهر من مظاهر رحمة اللّه عزّ و جلّ و رأفته حيث سخر لنا هذه الحيوانات مع ما تملكه من قدرة و قوّة إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

«الشق»: (من مادة المشقة)، و لكنّ بعض المفسّرين احتمل أنّها بمعنى الشق و القطع، أی أنّكم لا- تستطيعون حمل هذه الأثقال و إيصالها إلى مقاصدكم إلّا بعد أن تخسروا نصف قوتكم.

و يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب من الثّانی.

فالأنعام إذن: تعطی للإنسان ما يلبسه و يدفع عنه الحر و البرد. و كذلك تعطيه الألبان و اللحوم ليتقوت بها. و تترك فی نفس الإنسان آثارا نفسية طيبة. و أخيرا تحمل أثقاله.

و بالرغم ممّا وصل إليه التقدم التقنی فی مدنية الإنسان و تهيئة وسائل النقل الحديثة، إلّا أن سلوك كثير من الطرق لا زال منحصرا بالدواب.

ثمّ يعرج على نوح آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها فی تنقلاته، فيقول: وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً.

و «زينة» هنا ليست كلمة زائدة أو عابرة بقدر ما تعبر عن واقع الزينة فی مفهومها الصحيح، و ما لها من أثر على ظاهر الحياة الاجتماعية.

و لأجل الإيضاح بشكل أقرب نقول: لو قطع شخص طريقا صحراويا طويلا مشيا على الأقدام، فكيف سيصل مقصده؟ سيصله و هو متعب خائر القوى، و لا يقوى على القيام بأی نشاط.

أمّا إذا ما استعمل وسيلة مريحة سريعة فی سفره، فإنّه- و الحال هذه- سيصل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۶

إلى مقصده و قد كسب الوقت، و لم يهدر طاقاته، و حافظ على النشاط و القدرة على قضاء حوائجه ... بعد كل هذا، أو ليس ذلك زينة؟! و تأتى الإشارة فى ذيل الآية إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان فى الحصول على الوسائط النقلية المدنية من غير الحيوانات، فيقول: وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ من المراكب و وسائل النقل.

و بعض قدماء المفسّرين اعتبر هذا المقطع من الآية إشارة إلى الحيوانات ستخلق فى المستقبل ليستعملها الإنسان فى تنقلاته.

و ورد فى تفسير (المراغى) و تفسير (فى ظلال القرآن) أنّ درك مفهوم هذه الجملة أسهل لنا و نحن نعيش فى عصر السيارة و وسائل النقل السريعة الأخرى.

و عند ما تعبّر الآية بكلمة «يخلق» فذلك لأنّ الإنسان فى اختراعه لتلك الوسائل ليس هو الخالق لها، بل إنّ المواد الأولية اللازمة للاختراعات، مخلوقة و موجودة بين أيدينا و ما على الإنسان إلّا أن يستعمل ما وهبه اللّه من قدرة على الاختراع لما أودع فيه من استعداد و قابلية بتشكيل و تركيب تلك المواد على هيئة يمكن من خلالها أن تعطى شيئا آخر يفيد الإنسان.

أهمية الزراعة و الثروة الحيوانية:

على الرغم من انتشار الآلات الإنتاجية فى جميع مرافق الحياة، كما هو حاصل فى يومنا، إلّا أن الزراعة و تربية الحيوانات تبقى متصدرة لقائمة المنتوجات من حيث الأهمية فى حياة الإنسان، لأنّها مصدر الغذاء، و لا حياة بدونه.

حتى أنّ الاكتفاء الذاتى فى مجالى الزراعة و الثروة الحيوانية يعتبر الدعامة الرئيسية لضمان الاستقلالين الاقتصادى و السياسى إلى حدّ كبير.

و لذلك نرى شعوب العالم تسعى جاهدة لإيصال زراعتها و ثروتها الحيوانية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۷

لأعلى المستويات مستفيدة من التقدم التقنى الحاصل.

و الحاجة لأى من هذين الإنتاجين الأساسيين من الخطورة و الأهمية البالغة ما يجعل دولة عظمى كروسيا تمديد العوز و تعطى بعض التنازلات السياسية لدول متباينة معها فى الخط السياسى العقائدى لاضطرارها لتأمين احتياجاتها! و أعطت التعاليم الإسلامية أهمية خاصة للإنتاج الحيوانى و الزراعة بالحث و الترغيب لغور غمار هذه العملية المعطاءة.

فقد رأينا كيف عرضت الآيات السابقة و بلحن مشوق حركة الأنعام و منافعها للترغيب فيها.

و سيأتى الحديث إن شاء اللّه فى الآيات القادمة عن أهمية الزراعة و منافع الثمار المختلفة.

و نورد هنا (و من مصادر مختلفة) بعض الرّوايات التى تخص موضوعنا و ما جاءت به من تعبيرات جميلة.

-۱

عن أبى جعفر عليه السّلام أنّه قال: «قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعمته: ما يمنعك من أن تتخذى فى بيتك بركة؟

فقالت: يا رسول اللّه ما البركة؟

فقال: شاة تحلب، فإنّه من كانت فى داره شاة تحلب أو نجعة أو بقرة فبركات كلّهن»[۷۳].

-۲ و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال فى الغنم: «نعم المال الشاة»[۷۴].

-۳ و

فی تفسیر نور الثقلین، فی تفسیر الآیات مورد البحث، روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه قال: «أفضل ما یتخذه الرجل فی منزله لعیاله الشاة، فمن کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ١٣٨

فی منزلة شاة قدست علیه الملائکة مرّتین فی کل یوم».

و لا ینبغی الغفلة عن أنّ الکثیر من بیوت المدن غیر صالحة لتربیة الأغنام، و الهدف الأصلی من إشارة الرّوایات هو إنتاج ما یحتاج إلیه الناس علی الدوام- فتأمل.

۴- و یکفینا ما

قال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی أهمیة الزّراعة: «من وجد ماء و ترابا ثمّ افتقر فأبعده اللّه»[۷۵].

و بدیهی انطباق هذا الحدیث علی الفرد و الأمّة معا، فالشعب الذی لدیه مستلزمات الزراعة بشکل کاف و مع ذلک یمد یده لطلب المساعدة إلی الآخرین، فهو مبعد عن رحمة اللّه بلا إشکال.

۵-

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «علیکم بالغنم و الحرث فإنّهما یروحان بخیر و یغدوان بخیر»[۷۶].

۶- و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «ما فی الأعمال شی‌ء أحبّ إلی اللّه من الزراعة»[۷۷].

۷- و أخیرا نقرأ

فی حدیث روی عن الإمام الصادق علیه السّلام ما یلی: «الزارعون کنوز الأنام یزرعون طیبا أخرجه اللّه عزّ و جلّ، و هم یوم القیامة أحسن الناس مقاما و أقربهم منزلة، یدعون المبارکین»[۷۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ١٣٩

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۹ الی ۱۳]

اشارة

وَ عَلَی اللَّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداکُمْ أَجْمَعِینَ (۹) هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَکُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِیهِ تُسِیمُونَ (۱۰) یُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّیْتُونَ وَ النَّخِیلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۱۲) وَ ما ذَرَأَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ (۱۳)

التّفسیر

کل شی‌ء فی خدمة الإنسان!

بعد ذکر مختلف النعم فی الآیات السابقة، تشیر هذه الآیات إلی نعم أخری ...

فتشیر أوّلا إلی نعمة معنویة عالیة فی مرماها وَ عَلَی اللَّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ أی علیه سبحانه سلامة الصراط المستقیم و هو الحافظ له من کل

انحراف، و قد وضعه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۰

متناول الإنسان.

«القصد»: بمعنى صفاء و استواء الطريق، فيكون معنى «قصد السبيل» الصراط المستقيم الذى ليس فيه ضلال و لا انحراف [۷۹].

و لكن أى النحوين من الصراط المستقيم هو المراد، التكوينى أم التشريعى؟

اختلف المفسّرون فى ذلك، إلّا أنّه لا مانع من قصد الجانبين معا.

توضيح:

جهّز اللّه الإنسان بقوى متنوعة و أعطاه من القوى و القابليات المختلفة ما يعينه على سلوكه نحو الكمال الذى هو الهدف من خلقه.

و كما أنّ بقية المخلوقات قد أودعت فيها قوى و غرائز توصلها إلى هدفها، إلّا أنّ الإنسان يمتاز عليها بالإرادة و بحرية الإختيار فيما يريده، و لهذا فلا قياس بين الخط التصاعدى لتكامل الإنسان و بقية الأحياء الأخرى.

فقد هدى اللّه الإنسان بالعقل و القدرة و بقية القوى التكوينية التى تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء و الوحى السماوى و أعطاه التعليمات الكافية و القوانين اللازمة للمضى بهدى التشريع الرّبانى فى تكملة مشوار المسيرة، و ترك باقى السبل المنحرفة.

و من لطيف الأسلوب القرآنى جعل الأمر المذكور فى الآية فريضة عليه جل شأنه فقال: عَلَى اللَّهِ و كثيرا ما نجد مثل هذه الصيغة فى الآيات القرآنية، كما فى الآية (۱۲) من سورة الليل إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى و لو دققنا النظر فى سعة مدلول عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ و ما أودع فى الإنسان من هدى تكوينى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۱

و تشريعى لأجل ذلك لأدركنا عظمة هذه النعمة و ما لها من الفضل على بقية النعم.

ثمّ يحذر البارى جعل شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفة كثيرة: وَ مِنْها جائِرٌ [۸۰].

و بما أن نعمة الإرادة و حرية الإختيار فى الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليها الآية بجملته قصيرة: وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ و لا تستطيعون عندها غير ما يريد اللّه.

إلّا أنّه سبحانه لم يفعل ذلك، لأنّ الهداية الجبرية لا تسمو بالإنسان إلى درجات التكامل و الفخر، فأعطاه حرية الإختيار ليسير فى الطريق بنفسه كى يصل لأعلى ما يمكن الوصول إليه من درجات الرفعة و الكمال.

كما تشير الآية إلى حقيقة أخرى مفادها أنّ سلوك البعض للطريق الجائر و الصراط المنحرف ينبغى أن لا يوجد عند البعض توهما أنّ اللّه مغلوب (سبحانه و تعالى) أمام هؤلاء، بل إنّ مشيئته جل اسمه و مقتضى حكمته دعت لأن يكون الإنسان حرا فى اختياره ما يريد من السبل.

و فى الآية التالية يعود إلى الجانب المادى بما يثير حسّ الشكر للمنعم عند الناس، و يوقد نار عشق اللّه فى قلوبهم بدعوتهم للتقرب أكثر و أكثر لمعرفة المنعم الحق، فيقول: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ماء فيه سبب الحياة، و زلالا شفافا خال من أى تلوّث لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ و تخرج به النباتات و الأشجار فترعى أنعامكم وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

«تسيمون»: (من مادة الإسامة) بمعنى رعى الحيوانات، و كما هو معلوم فإنّ الحيوانات تستفيد من النباتات الأرضية و ورق الأشجار، و «الشجر» لغة: ذو معنى واسع يشمل إطلاقه الأشجار و غيرها من النباتات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۲

و ممّا لا شك فيه أيضا أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان و إرواء النباتات، بل و من فوائده أيضا: تطهير الأرض، تصفية الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان و تنفسه براحة، و ما شابه ذلك .. فالمذكور من فوائده فى هذه الآية لا حصرا و إنّما من باب الأهم.

فيكمل الموضوع بقوله: يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ

و لا شك أنّ خلق هذه الثمار المتنوعة و كل ما هو موجود من المحاصيل الزراعية لآية للمتفكرين إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

«الزرع»: يشمل كل مزروع و «الزيتون» اسم لشجرة معروفة و اسم لثمرها أيضا.

إلّا أنّ بعض المفسّرين يذهبون إلى أنّ «الزيتون» هو اسم الشجرة فقط، و اسم ثمرتها «زيتونة». فى حين أنّ الآية الخامسة و الثلاثين من سورة النّور تطلق كلمة «الزينونة» على الشجرة.

و «النخيل» تستعمل للمفرد و الجمع ... و «الأعناب» جمع أعنبة، و هى ثمرة معروفة.

و هنا يرد سؤال و هو: لما ذا اختار القرآن ذكر هذه الثمار دون غيرها (الزيتون، التمر، العنب)؟ ستقرأ توضيح ذلك فى البحوث التّفسيرية لهذه الآيات إن شاء اللّه.

ثمّ يشير إلى نعمة تسخير الموجودات المختلفة فى العالم للإنسان بقوله:

وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ على عظمة و قدرة اللّه و عظمة ما خلق.

قلنا فى تفسيرنا لآيات سورتى الرعد و إبراهيم، أنّ المفهوم الواقعى لتسخير الموجودات للإنسان أن تكون فى منفعته، و يكون ذلك من شأنها و وظيفتها مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۳

تمكين الإنسان من الاستفادة منها.

فكل من الشمس و القمر و الليل و النهار و النجوم له نوع و أثر خاص فى حياة الإنسان، و ما أجمل عبارة (تسخير الموجودات للإنسان بأمر اللّه) فبالإضافة لما تظهره من شرف و رفعة شخصية الإنسان بنظر الإسلام و القرآن، و إعطائه من الجلال ما يجعله مؤهلا لمقام خليفة اللّه، فهى تذكرة للإنسان بأن لا يغفل عمّا أنعم اللّه عليه، و باعثة فيه شعور لزوم الشكر للّه تعالى من خلال ما يلمس و يرى، عسى أن يتقرب لخالقه فينال حسن مآبه.

و لهذا يقول تعالى فى ذيل الآية: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

راجع تفسيرنا للآيتين (۳۲ و ۳۳) من سورة إبراهيم للاستزادة فى معرفة أسرار التسخير المذكور.

و إضافة لكل ما تقدم وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ من مخلوقات سخرها لكم و مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ من الأغطية و الملابس و الأغذية و الزوجات العفيفات و وسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن و كنوز الأرض و سائر النعم الأخرى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ

البحوث

۱- النعم المادية و المعنوية

احتوت الآيات مورد البحث على ذكر النعم المادية و المعنوية بشكل مترابط لا يقبل الفصل، إلّا أن أسلوب و لحن التعبير يختلف بين

النعم المادیـة و المعنویـة، فبالنسبـة للنعم المادیـة لاـ نجـد مـوردا یقول فیه القرآن الکریم: إنّ علی اللّه رزقکم، لکنّه فی مورد الهـدایة یقول: عَلَی اللَّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ فیعطیکم کل ما تحتاجونه تکوینیا و تشریعیا للسیر باقتدار فی الطریق الإلهی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۱۴۴

و حینما یتحدث عن خلق الأشـجار و الفواکه و عن تسـخیر الشمس و القمر نراه سبحانه یضعها فی مسیر هدف معنوی ... إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ و ذلک لإنّ الأسلوب القرآنی- کما هو معروف- لا یتخذ بعدا واحدا فی خطابه للناس.

۲- لما ذا الزّیتون و النخیل و الأعناب دون غیرها؟!

یمکننـا للوهلـة الأولی أن نتصور أنّ ذکر القرآن للزیتون و التمر و العنب، فی الآیات مورد البحث، لوجودها فی المنطقـة التی نزل فیها القرآن .. و لکن بملاحظة الجانب العالمی لرسالة القرآن و مع الإعتقاد ببقائها و استمرارها بالإضافة إلی التوجه لعمق التعبیر القرآنی .. یتّضح لنا خطل ذلک التصور.

یقول العلماء المتخصـصون بالأغذیـة (ممن صـرفوا السـنین الطول فی البحث عن فوائـد و خواص الأغذیة): إنّ القلیل من الفواکه التی تنفع بدن الإنسان من الناحیة الغذائیة هی بمستوی هذه الثمار الثلاث.

و یقولون: إنّ (زیت الزیتون) له قیمـة عالیـة جـدا لتأمین السـعرات الحراریة اللازمة للبدن، و لذلک یعتبر من الأغذیة المقویة للبدن، و علی الذین یریدون حفظ سلامتهم أن یواظبوا علی تناول هذا الإکسیر.

إنّ زیت الزیتون ملائم لکبد الإنسان، مؤثر فعال فی رفع عوارض الکلی، و القولنج الکلوی و الکبدی و الیبوسة.

و لهذا نجد له مدحا کثیرا فی الرّوایات،

ففی حـدیث عن الإمـام علی بن موسـی الرضـا علیه السّـلام أنّه قال عن الزیتون: «نعم الطعام الزیت، یطیب النکهـة، و یـذهب البلغم، و یصفی اللون، و یشد العصب، و یذهب بالوصب، و یطفئ الغضب»[۸۱].

و الأهم من ذلک کله تسمیة القرآن لشجرة الزیتون ب «الشجرة المبارکة».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۱۴۵

و للتمر حدیث أیضا حیث ثبتت الأهمیتین العلاجیة و الغذائیة له من خلال ما بیّنه علماء الطب و الأغذیة .. فقد اتّضح وجود الکالسیوم فیه الـذی یعتبر العامل الأساسـی لبناء و تقویة العظام، و کذلک الفسـفور الذی یعتبر من العناصـر الأساسـیة فی تکوّن الدماغ، بالإضافة إلی أن التمر یمنع ضعف الأعصاب و مزیل للتعب، کما أنّ له دورا فی حدة البصر.

و فیه البوتاسیوم الذی له الأهمیة البالغة فی بناء خلایا الجسم، علاوة علی أن فقدانه بسبب قرحة المعدة.

کما بات من المعروف عند المتخصصین فی علم الأغذیة أن التمر له الدور الفعال فی عدم الإصابة بمرض السرطان.

و أظهرت الإحصائیات أنّ المناطق التی یکثر فیها تناول التمر هی أقل المناطق إصابـة بهـذا المرض الفتاک. و لهـذا نجـد أن البـدو فی الصـحاری العربیة مع ما یعانونه من فقر غذائی إلّا أنّهم لا یصابون بمرض السرطان. و یعزی سبب ذلک إلی وجود المغنیسیوم فی التمر غذائهم الأول.

أمّا السکر الموجود فی التمر فیعتبر من أفضل أنواع السکریات، حتی أنّه لا یسبب ضررا لکثیر من المصابین بمرض السکر عند تناوله.

و قـد اکتشف العلماء لحـدّ الآن ثلاث عشـرة مادة حیاتیـة و خمسـة أنواع من الفیتامینات فی التمر، تجعله مصـدرا غذائیا غنیا و ذا قیمة عالیة جدّا[۸۲].

و لهذا ورد تأکید واسع علی أهمیة هذه المادة الغذائیة فی الرّوایات، و ممّا

روی عن علی علیه السّلام أنّه قال: «کل التمر فإنّ فیه شفاء من الأدواء».

و

قد روی أیضا أنّ طعام أمیر المؤمنین علیه السّلام کثیرا ما کان الخبز و التمر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۶

و

فی روی أخری: «بیت لا تمر فیه جیاع أهله»[۸۳].

و فی سورة مریم أن اللّه أطعم مریم عند ما ولدت عیسی علیه السّلام، الرطب، و هو إشارة إلی أن أفضل غذاء للمرأة حدیثة الولادة التمر، و علیه کان تأکید الرّوایات بخصوص تفسیر هذه الآیة .. إنّ أفضل طعام لها هو التمر[۸۴].

أمّا العنب .. فیقول عنه علماء الأغذیة: إنّ ما فیه الفوائد تدعونا إلی القول بأنّه صیدلیة طبیعیة متکاملة.

إضافة إلی أنّ خواص العنب شبیهة جدا بخواص حلیب الأم (أی أنّه غذاء کامل)، و فائدته ضعف فائدة اللحم، و هو ذو سعرة حراریة عالیة، و مقاوم للسموم، و له أثر علاجی قطعی فی تصفیة الدم و الوقایة من الروماتیزم و النقرس، و یزید فی الدم، و ینظف المعدة و الأمعاء، و هو: منشط، مزیل للتعب، مقو للأعصاب، و تعطی الفیتامینات المختلفة التی یحتویها قوة للإنسان.

و إضافة لکونه مادة غذائیة مهمّة فله القدرة علی مکافحة المیکروبات بدرجة ملحوظة، حتی أعتبر من العوامل المهمّة فی مکافحة مرض السرطان و الوقایة منه ۸۵].

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «خیر طعامکم الخبز، و خیر فاکهتکم العنب»[۸۶].

و لو أردنا ذکر کل ما أورده علماء التغذیة بخصوص الفواکه الثلاث و ضمّناها ما جاء بصددها من روایات لخرجنا عن طبیعة التّفسیر، و إنّما کان القصد من هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۷

الإطالة بیان السبب العلمی الدقیق وراء ذکر هذه الفواکه فی الآیة المشار إلیها، و لعل أکثر ما ذکر من فوائد کان خافیا علی أهل زمان نزول الآیة.

۳- التفکر و التعقل و التذکر:

رأینا فی الآیات المبحوثة أنّ القرآن دعا الناس بعد ذکر ثلاثة أقسام من النعم الإلهیة إلی التأمل فی ذلک، فقال فی المورد الأوّل: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ و فی المورد الثّانی: لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ و فی الثّالث: لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ

إن الاختلاف الوارد لیس للتصویر الفنی فی عبارات القرآن، لأن المعروف عن الأسلوب القرآنی إشارته لکل معنی برمز خاص.

و لعل المقصود من ذلک أنّ النعم الإلهیة الموجودة فی الأرض من الوضوح ما یکفی معها التذکر.

أمّا فیما یخص الزراعة و الزیتون و النخیل و الأعناب و الفاکهة فتحتاج إلی ترکیز الفکر لمعرفة خواصها الغذائیة و العلاجیة، و لهذا ورد التعبیر بالتفکر فیها.

و أمّا تسخیر الشمس و القمر و اللیل و النهار و النجوم فیحتاج إلی تفکیر أشد و أعمق من الحالة الأولی، فورد التعبیر بالتعقل.

و علی أیة حال، فالقرآن- دوما- یخاطب العلماء و المفکرین و العقلاء، بالرغم من أنّ المحیط الذی نزل فیه کان متخوما بالجهل، و من هنا تتضح لنا عظمة عبارات القرآن بشکل جلی.

و القرآن بما یحمله یمثل ضربة قاصمة لضیقی الأفق من الذین رفضوا الأدیان کلها لأنّهم اصطدموا بوجود أدیان خرافیة، و علی أساسها الهش بنوا بنیانهم المهزوز علی اعتبار أنّ الدین معطل للعقل و العلم و أنّ الإیمان باللّه عزّ و جلّ ناتج عن جهل الإنسان و ضعفه!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۸

و من هذه النداءات الرّبانیة ما نجده فی جمیع السور القرآنیة تقریبا، التی تتحدث بکل وضوح عن: أنّ الدین الحق هو ولید التعقل و التفکر و لیس ولید الخیال السارح و الجهل الدامس.

و خطاب الإسلام موجه باستمرار إلی علماء و أولی الألباب و لیس إلی الجهلة و ذوی الخرافات الباطلة أو إلی أدعیاء الثقافة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۹

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۱۴ الی ۱۸]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْکُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِیًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْیَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَی الْفُلْکَ مَواخِرَ فِیهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۴) وَ أَلْقی فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ وَ أَنْهاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵) وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ یَهْتَدُونَ (۱۶) أَ فَمَنْ یَخْلُقُ کَمَنْ لا یَخْلُقُ أَ فَلا تَذَکَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۸)

التّفسیر

نعمة الجبال و البحار و النجوم:

تبیّن هذه الآیات قسما آخر من النعم الإلهیة غیر المحدودة التی تفضل بها اللّه عزّ و جلّ علی الإنسان، فیبدأ القرآن الکریم بذکر البحار، المنبع الحیوی للحیاة، فیقول: وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ.

و کما هو معلوم أنّ البحار تشکل القسم الأکبر من سطح الکرة الأرضیة، و أن الماء أساس الحیاة، و لا زالت البحار باعتبارها المنبع المهم فی إدامة الحیاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۰

البشریة و حیاة جمیع الکائنات الحیة علی سطح الکرة الأرضیة.

فما أکبرها من نعمة حین جعلت البحار فی خدمة الإنسان ...

ثمّ یشیر الباری سبحانه إلی ثلاثة أنواع من منافع البحار: لِتَأْکُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِیًّا فقد جعل اللّه فی البحار لحما لیتناوله الإنسان من غیر أن یبذل أدنی جهد فی تربیة، بل أوجدته و نمّته ید القدرة الإلهیة، و قد خصه بالطراوة، فمع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ اللحوم غیر الطازجة متوفرة فی ذلک الزمان و فی هذا الزمان علی السّواء ندرک جیدا أهمیة هذه النعمة، و فی ذلک إشارة أیضا الی أهمیة اللحوم الطازجة.

و مع ما شهدته الحیاة البشریة من التقدم و التمدن المدنی فی کافّة أصعدة الحیاة لا زال البحر أحد المصادر الرئیسیة للتغذیة، و یصاد سنویا مئات الآلاف من الأطنان من الأسماک الطریة التی أوجدتها و رعتها ید اللطف الإلهیة لأجل الإنسان.

و نجد أنظار العلماء متجهة صوب البحار فی قبال ما سیهدد البشریة من خطر نقص المواد الغذائیة فی المستقبل جراء الزیادة السکانیة

الهائلة، آملين خيرا بأنّ البحار ستسد مقدارا ملحوظا من ذلك النقص، بواسطة تربية و تكثير أنواع الأسماك.

و من جهة أخرى وضعوا عدّة مقررات لمنع تلوّث مياه البحار للحد من تلف نسل الحيوانات البحرية، و كل ذلك يوضح ما فى الآية المذكورة من مسائل علمية طرحت على البشرية قبل أربعة عشر قرنا.

و من فوائد البحار أيضا تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه:

وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها.

الحس الجمالى من الأمور الفطرية التى فطر الإنسان عليها و هو الباعث على إثارة الشعر و الفن الأصيل و ما شاكلها عنده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۱

و بلا شك، يلعب هذا البعد دورا مهمّا فى حياة البشر، و ينبغى العمل على إشباعه بشكل صحيح و سالم بعيدا عن أى نوع من الإفراط و التفريط.

فلا فرق بالنتيجة بين من غرق فى عبادة التجميل و الزينة، و بين من أهملها و عاش حالة الجفاف الجمالى، لأنّ الأوّل مارس الإفراط الباعث على تلف رأسماله و بات سببا فى إيجاد الفواصل الطبقية المصاحب لقتل كل ما يمت للمعنويات بصلة، و الثّانى مارس التفريط الباعث على الخمود و الركود. فالإثنان معا عملا بما لا ينبغى أن يعمله أى إنسان ذو فطرة سليمة بكافة أبعادها.

و لهذا أوصى الإسلام كثيرا بالتزين المعقول الخالى من أى إسراف مثل: لبس اللباس الجيد، التطيب بالعطور، استعمال الأحجار الكريمة ... إلخ.

ثمّ يتطرق القرآن إلى الفائدة الثّالثة فى البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمّة لتنقل الإنسان و نقل ما يحتاجه، فيقول: وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ و ما أجمل ما تقع عليه أنظار راكبى السفينة حين حركتها على سطح البحار و المحيطات.

و أعطاكم اللّه هذه النعمة لتستفيدوا منها فى التجارة أيضا وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۸۷].

و بعد ذكر هذه النعم التى تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتى فى ذيل الآية: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

«الفلك»: أى السفينة، و تأتى بصيغتى المفرد و الجمع.

«مواخر» جمع «ماخرة» (من مادة مخر) على وزن (فخر) بمعنى شق الماء يمينا و شمالا، و تطلق على صوت الرياح الشديد أيضا، و باعتبار السفن عند حركتها تشق الماء بمقدمتها فيطلق عليها اسم (الماخر) أو الماخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۲

و نتساءل: من الذى أعطى المواد التى تصنع منها السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟

فالسفينة بما تحمل أثقل من الماء بكثير، و لو لم تكن تلك القوّة الدافعة للماء، هل بإمكاننا العوم على سطح المياه؟

و من الذى يحرك الرياح على سطح البحر؟

بل من أعطى البحار القوّة لتحريك السفينة فى مسيرها على سطح الماء؟

أو ليس ذلك كله من نعم اللّه تعالى؟

و ممّا يكشف عن عظم نعمة البحار أنّها: أوسع بكثير من الطرق البرية، أقلّ كلفة، أكثر أهلية للحركة، أعظم وسيلة نقلية للبشر، و ذلك بملاحظة كبر السفن المستخدمة فى النقل و ضخامة ما تحمله.

ثمّ يأتى الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ۸۸].

كما قلنا سابقا فإنّ الجبال متصلة من جذورها و تقوم بتثبيت الأرض ممّا يجعلها مانعا حصينا من الزلازل الأرضية الشديدة الناشئة من الغازات الكامنة فى باطن الأرض و المهددة بالخروج فى أية لحظة على شكل زلزال.

إضافة لخاصية الجبال فى مد القشرة الأرضية بالمقاومة اللازمة أمام جاذبية القمر (التى تسبب ظاهرة المد و الجزر) و يقلل من أثرها

إلى حد كبير.

و للجبال من جانب ثالث القدرة على تقليل شدة حركة الرياح و توجيه حركتها، و لو لم تكن الجبال لكن سطح الأرض عرضة للعواصف الشديدة المستمرة.

ثمّ يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمة الأنهار، لما بين الجبال و الأنهار من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۳

علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: وَ أَنْهاراً.

ثمّ يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أن الجبال حاجز بين ارتباط الأراضى فيما بينها بالإضافة لكونها مانعا رهيبا أمام حركة النقل، فيقول وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٨٩].

و هذه المسألة ملفتة للنظر حقا، حيث نجد طرق عبور يستطيع أن يتخذها الإنسان سبيلا لتنقلاته بين أكبر السلاسل الجبلية و عورة فى العالم، و قليلا ما يكون هناك قطع كامل بين المناطق بسبب الجبال.

ثمّ يضيف قائلا: وَ عَلاماتٍ لأنّ الطريق لوحدها لا يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة و مميزات شاخصة يستهدى بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، و لذا ذكر هذه النعمة.

و من تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الارتفاع و الانخفاض، لون الأرض و الجبال و حتى طبيعة حركة الهواء.

و لمعرفة ما لوجود هذه العلامات من أهمية، يكفينا أن نلقى نظره إلى حال الصحارى الواسعة ذات الصفة الواحدة الموجودة فى بعض مناطق العالم، حيث عملية التنقل فيها أمر صعب مستصعب إلى حد كبير، إضافة لخطورته الكبيرة، و كم هناك من مسافر دخل فيها و لم يعد ...

فلو كان سطح الأرض كله على شاكلة الصحارى، كأن تكون الجبال كلها بشكل و حجم واحد، و حقولها بلون واحد، و أوديتها متشابهة تماما .. فهل كان من اليسير على الإنسان أن يسير عليها؟! و أمّا فى حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل فى أىّ من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۴

سفر البر أو البحر، فقد جعل اللّه تعالى علامات فى السماء تعوض عن علامات الأرض فى تلك الحال: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ

بطبيعة الحال فهذه إحدى الفوائد الجملة للنجوم، و لو لم يكن لها سوى هذه الفائدة لكان كافيا لوجودها، خصوصا فى زمن لا أسطرلاب فيه و لا مؤشرات قطبية تعين السفن فى تحديد مسيرها وفق خرائط أعدت لذلك الغرض، و قديما كانت الرحلات تتوقف إذا ما غطيت السماء بالسّحب و تلبدت بالغيوم، و من يجرأ على تكملة السفر فسيواجه خطر الموت.

و كما هو معلوم اليوم، فإنّ النجوم التى تبدو لنا متحركة فى السماء عبارة عن خمسة كواكب، و يطلق عليها اسم السيارات، و السيارات أكثر من خمسة، إلّا أنّ البقية لا يمكن تشخيصها بالعين المجرّدة بسهولة، أمّا بقية النجوم فإنّها تحتفظ بمكانها النسبى، و كأنّها لآلئ خيطت على قطعة قماش أسود، و هذه القطعة كأنّها تسحب من إحدى جهاتها فتتحرك بكاملها.

و بعبارة أخرى: إنّ حركة النجوم الثوابت جمعية، و حركة السيارات انفرادية، حيث تتغير المسافات بينها و بين الثوابت باستمرار.

إضافة لذلك، فالنجوم الثوابت تشكل فيما بينها أشكالا معينة تعرف ب (الصور الفلكية) و لها الأثر الكبير فى معرفة الاتجاهات الأربعة (الشمال، الجنوب، الشرق، و الغرب).

و بعد أن بيّن القرآن كل هذه النعم الجليلة و الألطاف الإلهية الخفية، راح يدعو الوجدان الإنسانى للحكم فى ذلك أ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ! و كما اعتدنا عليه من القرآن فى أسلوبه التربوى الهادف المؤثر، فقد طرح مسألة المحاججة بصيغة السؤال يترك الجواب عنه فى عهدة الوجدان الحى للإنسان، مستعينا بتحريك الإحساس الباطنى ليجيب من أعماق روحه، و لينشد عشقا

بخالقه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۵

و الثابت فی الواقع النفسی للإنسان، أن التعلیم و التربیة السلیمة یستلزمان بذل أقصی سعی ممکن لإقناع المقابل بقبول ما یوجد إلیه عن قناعة ذاتیة، أی ینبغی إشعاره بأن ما یعطی إلیه ما هو فی حقیقته إلّا انبعاث من داخله و لیس فرضا علیه من الخارج لیتقبلها بکل وجوده و یتبناها و یدافع عنها.

و نجد من الضرورة إعادة ما قلناه سابقا من أن المشرکین الذین کانوا یسجدون للأصنام کانوا یعتقدون أنّ اللّه عزّ و جلّ هو الخالق، و لهذا یتساءل القرآن الکریم .. من أحق بالسجود .. خالق کل شیء أم المخلوق؟! و فی نهایة المطاف، یفند الباری سبحانه مسألة حصر النعم الإلهیة بما ذکر، بقوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها.

إنّکم غارقون فی النعم الإلهیة و فی کل نفس یصعد و ینزل آلاف النعم (و لکل نعمة شکر واجب).

إنّ کل دقیقة تمر من عمرنا نکون فیها مدینین لفعالیات ملایین الموجودات الحیّة فی داخل بدننا و ملایین الموجودات الحیة و غیر الحیة فی خارجة، و التی لا یمکننا أن نحیا و لو للحظة واحدة بدونها.

و لکنّ ضبابیة الغفلة حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجمة التی کلّما خطا العلم الحدیث خطوة إلی الإمام اتّضحت لنا أبعاد واسعة و انفتحت لنا آفاقا جدیدة فی معرفة النعم الإلهیة، و کل ما ندرکه فی هذا المجال قلیل جدّا ممّا قدّره الباری لنا، فهل بإمکان المحدود أن یعد ما أعطاه المطلق؟! و نواجه فی هذا المقام سؤالا و استفسارا: کیف إذن نؤدی حق الشکر للّه؟ و ..

ألسنا مع ما نحن فیه زمرّة الجاحدین؟

و قوله تعالی: إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ خیر جواب لما واجهنا به.

نعم، فهو سبحانه أرحم و أرأف من أن یؤاخذنا علی عدم الاستطاعة فی أداء أتمّ الشکر علی نعمه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۶

و یکفینا من لطفه تعالی بأن یحسبنا من الشاکرین فی حال اعتذرنا له و اعترافنا بالعجز عن أداء حق الشکر الکامل.

و لکن هذا لا- یمنع من أن نتتبع و نحصی النعم الرّبانیة بقدر المستطاع، لأنّ ذلک یزیدنا معرفة اللّه، و علما بعالم الخلیقة، و آفاق التوحید الرحبة، کما یزید من حرارة عشقه سبحانه فی أعماق قلوبنا، و کذا یحرک فینا الشعور المتحسس بضرورة و وجوب شکر المنعم جل و علا.

و لهذا نجد أنّ الأئمّة علیهم السّلام یتطرقون فی أقوالهم و أدعیتهم و مناجاتهم إلی النعم الإلهیة و یعدون جوانب منها، عبادة للّه و تذکیرا و درسا للآخرین.

(و قد تناولنا مسألة شکر النعمة و عدم قدرة الإنسان علی إحصاء النعم الإلهیة عند بحث الآیة الرّابعة و الثّلاثین من سورة إبراهیم).

بحث

الطریق، العلامة، القائد:

تحدثت الآیات أعلاه عن الطرق الأرضیة بکونها إحدی النعم الإلهیة باعتبارها من أهم وسائل الارتباط فی طریق التمدن الإنسانی.

و لهذا عند وضع الخطط العمرانیة لا بد معها من رسم و بناء خطوط الطرق المناسبة للمکان المقصود، و إلّا لا یمکن أن یقام عمران.

و مع هذا، فلا یمکننا حصر البیان القرآنی بهذا الجانب فحسب، بل یمکننا القول بأنّه یشمل حتی جوانب الحیاة المعنویة للبشریة أیضا،

لأنّ الوصول إلى هدف مقدس يستلزم سلوك الطريق الصحيح لذلك الهدف.

بالإضافة إلى الأهمية الحيوية الوجود العلامات فى تشخيص السبيل من بين كثرة السبل و تشابكها، فإضاعة السبيل الأصلى ممكن فى حال عدم وجود ما يدل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ١٥٧

عليه من «علامات».

و خصوصا، ورود تسمية المؤمنين فى الآيات القرآنية بالمتوسمين للتأكيد على ضرورة الانتباه إلى هذه العلامات.

فلكى يستطيعوا تشخيص الحق من الباطل لا بد من معرفة المذاهب و السنن و الدعوات المختلفة، بل حتى الأشخاص، و ذلك من خلال (العلامات).

و أمّا مسألة وجود القائد فلا تحتاج لتوضيح و بيان (الموضح لا يوضح).

و قد فسرت «النجم» برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و «العلامات» بالأئمّة عليهم السلام فى روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السّلام .. و فى بعضها فسّر «النعم» و «العلامات» كلاهما بالأئمّة عليهم السّلام، و نشير هنا إلى نماذج من الرّوايات:

١-

فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «النجم رسول اللّه، و العلامات الأئمّة عليهم السّلام»[٩٠] و ورد مثله عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام.

٢- و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية أعلاه أنّه قال: «نحن النجم»[٩١].

٣- و

روى كذلك عن الإمام الرضا عليه السّلام أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام: «أنت نجم بنى هاشم»[٩٢].

۴- و

فى رواية أخرى: «أنت أحد العلامات»[٩٣].

و كل ذلك يشير إلى التّفسير المعنوى لهذه الآيات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ١٥٨

الآيات [سورة النحل (١۶): الآيات ١٩ الى ٢٣]

اشارة

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (١٩) وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

التّفسير

آلهة لا تشعر!

تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا- تنطبق أية منها على الأصنام و سائر المعبودات الأخرى غير اللّه تعالى و هما: (خلق الموجودات، إعطاء النعم)، أمّا الآية الأولى أعلاه فتشير إلى الصفة الثّالثة للمعبود الحقيقى (و هى العلم)، فتقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ

فلما ذا تسجدون للأصنام التى لم تكن هى الخالقة لكم، و لم تمنّ عليكم بأية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۹

نعمة، و لا تعرف عن علنكم شيئا مضافا إلى سرّكم؟! فهل يصح عبادة من لا يمتلك مستلزمات المعبود؟! ثمّ يعود القرآن إلى مسألة الخالقية بأفق أوسع من الآية السابقة: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ

و قد بحث لحد الآن فى عدم صلاحية الأصنام لتكون معبودة لأنّها ليست خالقة. بل و الأكثر من ذلك أنّها إضافة لكونها مخلوقة فهى فقيرة و محتاجة فى وجودها، فكيف يلجأ إليها الإنسان لسد حوائجه؟! أو ليس ذلك السخف بعينه؟

و مع ذلك كلّه، فإنّها أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ.

أو ليس ينبغى أن يكون المعبود حيا (على أقل التقادير) ليكون مطلعا على حاجات عباده؟

إذن ... يلزم توفر صفة «الحياة» للمعبود الحقيقى، و هذا ما لا يتوفر فى الأصنام.

ثمّ يضيف قائلا عنها: وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ

فإذا كان الثواب و العقاب بيد الأصنام. فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهن، و مع جهلها بيوم البعث و الحساب كيف تكون لائقة للعبادة؟! و هذه هى الصفة الخامسة التى يجب توفرها فى المعبود الحقيقى و تفتقدها الأصنام.

و قلنا مرارا فيما سبق أن مفهوم الصنم و عبادة الأصنام فى المنطق القرآنى أوسع من أنّ يحدد بالآلهة المصنوعة من الحجر و الخشب و المعادن. فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل اللّه عزّ و جلّ، و نسلم له أمر مصائرنا، فهو صنم و إنّ كان بشرا.

و لهذا فكل ما جاء فى الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون اللّه بألسنتهم، و لكن فى واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، و قد تبعوه لكونه المخلص لهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۰

من دون اللّه، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

أولئك الذين يعتقدون أن القوى العالمية الكبرى يمكن أن تكون ملجأ لهم فى حياتهم، و إن كانت كافرة باللّه و جهنمية فهم من الناحية العملية الواقعية عبدة للأصنام و مشركين باللّه عزّ و جلّ، و ينبغى محاجحتهم ب:

هل خلقت لكم هذه المعبودات شيئا؟

هل هى مصدر النعمة؟

أ هى مطلعة على شؤونكم الظاهرة و الخفية؟

و هل تعلم متى ستبعثون؟

هل بيدها الثواب و العقاب؟

و إن كانت الإجابة بالنفى، فلم تعبدونها من دون اللّه؟! و بعد هذه الاستدلالات الحية و الواضحة على عدم صلاحية الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقية لما ذكر: إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ.

و بما أنّ العلاقة بين المبدأ و المعاد مترابطة ربطا لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصلة: فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۹۴].

فأدلة التوحيد و المعاد قائمة لمن أراد الحق و طلب الحقيقة، إلّا أن سبب عدم قبول الحق و إنكاره يرجع إلى حالة الاستكبار و عدم

التسليم له، و يصبح ملكة في وجود المنكرين خصوصا بعد أن يصل بهم الحال إلى إنكار الحقائق الحسيّة المتوفرة لديهم، و عندها فلا ينفع معهم كلام حق أو دليل شاخص أو منطق سليم.

فالأدلة الحية التي ذكرتها الآيات السابقة بعدم صلاحية الأصنام للعبادة كافية لكل ذي لب رشيد، إلّا أنّ هناك الكثير ممن لا يقبلها مع مالها من حقيقة

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۱

و وضوح!!! ثمّ تتطرق في الآية الأخيرة إلى علم اللّه في الغيب و الشهادة: لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ

و الآية في واقعها تهديد للكفار و أعداء الحق، بأنّ اللّه عزّ و جلّ ليس بغافل عنهم، سرهم و علانيتهم، و كل سينال جزاءه بما غرفت يداه.

فهم مستكبرون و إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ و الاستكبار على الحق من علامات الجهل باللّه عزّ و جلّ.

إنّ كلمة «لا جرم» متكون من «لا» و «جرم» و تستعمل عادة للتأكيد بمعنى (قطعا)، و أحيانا بمعنى (لا بد)، و في بعض الأحيان تستعمل كقسم مثل: (لا جرم لأفعلن).

أمّا كيف أمكن استخراج هذه المعاني من كلمة «لا جرم» فذلك لأنّ «جرم» في الأصل بمعنى القطف و قطع الثمار من الأشجار، و عند ما تدخل عليها «لا» يكون مفهومها: أن لا شيء يستطيع قطع هذا الموضوع و منعه من التحقق، و لهذا يستفاد منها معاني: قطعا، و لا بدّ، و أحيانا القسم.

بحث

من هم المستكبرون؟

وردت كلمة الاستكبار في آيات كثيرة من القرآن الكريم باعتبارها إحدى الصفات الذميمة الخاصّة بالكفار، و لتعطي معنى التكبر عن قبول الحق.

ففي الآية السابقة من سورة نوح: وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً.

و في الآية الخامسة من سورة المنافقين: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۲

رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

و كذلك في الآية الثّامنة من سورة الجاثية: يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها.

و من أقبح ألوان التكبر ذلك الذي يقف أمام قبول الحق فيرفضه، لأنّه يغلق على الإنسان جميع سبل الهداية و يتركه يتخبط في متاهات المعاصي و الضلال.

و يصف أمير المؤمنين عليه السّلام الشيطان بأنّه:

«سلف المستكبرين»[۹۵]

لأنه أوّل من خطا في طريق مخالفة الحق بعدم تسليمه للحقيقة الرّبانية التي تقول: إنّ أدم أكمل منه.

صحيح أنّ زهو المال قد يوقع الإنسان في حالة الاستكبار، إلّا أنّ المسألة أكبر من ذلك و أشمل، فكل رافض لقبول الحق مستكبر و

إن كان فقيرا.

و نختم البحث

بروايـة عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّه قال: «و من ذهب يرى أنّ له على الآخر فضـلا فهو المسـتكبرين، فقلت: إنّما يرى أن له عليه فضلا بالعافية إذا رآه مرتكبا للمعاصى؟ فقال: هيهات هيهات! فلعله أن يكون قد غفر له ما أتى و أنت موقوف تحاسب، أما تلوت قصّة سحرة موسى عليهم السّلام»[۹۶].

(حين وقف السـحرة يومـا فى مقابـل موسـى عليه السّـلام إرضاء لفرعون و طمعا فى جوائزه، و لكنّهم انقلبوا فجأة لما تبيّن لهم الحق و اعتنقوه و ما هابوا تهديد فرعون، و بقوا على رفضهم فى عديم التسليم للطاغية، فكانت النتيجة أن عفا اللّه عنهم و رحمهم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۳

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۲۴ الى ۲۹]

اشارة

وَ إِذا قِيـلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۴) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَـةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِـلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (۲۵) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِـدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَـذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (۲۶) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَـةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُـولُ أَيْنَ شُـرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَـاقُّونَ فِيهِمْ قـالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (۲۷) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۲۹)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان: يروى أنّها نزلت فى المقتسمين و هم ستة عشر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۴

رجلا خرجوا إلى عقاب مكّة أيام الحـج على طريق الناس على كل عقبـة أربعـة منهم ليصدوا الناس عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إذا سألهم الناس عمّا أنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قالوا: أحاديث الأولين و أباطيلهم.

التّفسير

حمل أوزار الآخرين:

دار الحـديث فى الآيات السابقـة حول عناد المستكبرين و استكبارهم أمام الحق، و سـعيهم الحثيث فى التنصل عن المسؤوليـة و عدم التسليم للحق.

أمّا فى هـذه الآيات فيـدور الحديث حول منطق المسـتكبرين الدائم، فيقول القرآن: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ فليس هو وحى الهى، بل أكاذيب القدماء.

و كانوا يرمون بكلامهم المؤدى هذا إلى أمرين:

الأوّل: الإيحاء بأن مستوى تفكيرهم و علميتهم أرقى ممّا أنزل اللّه! الثّاني: ما جاء به النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن هو إلّا أساطير الأولين قد صيغت بعبارات جذابة لتنطلى على عوام الناس، و هذا ليس بالجديد، و ما محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا معيد لما جاء به الأوّلون من أساطير.

«الأساطير»[٩٧]: جمع أسطورة، و تطلق على الحكايات و القصص الخرافية و الكاذبة، و قد وردت هذه الكلمة تسع مرات فى القرآن الكريم نقلا عن لسان الكفار ضد الأنبياء تبريرا لمخالفتهم الدعوة إلى اللّه عزّ و جلّ.

و فى جميع المواطن ذكروا معها كلمة «الأوّلين» ليؤكدوا أنّها ليست بجديدة و أنّ الأيّام ستتجاوزها! حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ١٦٥

لسانهم فى الآية (٣١) من سورة الأنفال: قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا.

و الملاحظ على مستكبرى يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطلة هروبا من الحق و إضلالا للآخرين، و وصلت بهم الحماقة لأن يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشرى، و ما الآراء الدينية إلّا أساطير و خرافات! حتى أنّهم اثبتوا ذلك فى كتب (علم الاجتماع و دوّنوه بصياغة (علمية) كما يدّعون).

أمّا لو نفذنا فى أعماق تفكيرهم لوجدنا صورة أخرى: فهم لم يحاربوا الأديان و المذاهب الخرافية المجعولة أبدا، فهم مؤسسوها و الداعون لنشرها، إنّما محاربتهم للأصالة و الدين الحق الذى يوقظ الفكر الإنسانى و يحطم الأغلال الاستعمارية و يقطع دابر المنحرفين عن جادة الصواب.

إنهم يرون عدم انسجام دعوة الدين إلى الأخلاق الحميدة، لأنّها تعارض أهواءهم الطائشة و رغباتهم غير المشروعة.

لذلك يجدون فى دعوة الحق مانعا أمام ما يطمحون الحصول عليه، و نراهم يستعملون مختلف الأساليب لتوهين هذا الدين القيم و إسقاطه من أنظار الآخرين كى تخلو الساحة لهم ليفعلوا ما يشاءون.

و من المؤسف أنّ طرح بعض الخرافات و الأفكار الخاطئة فى قالب دينى من قبل الجهلة، كان بمثابة العامل المساعد فى تجرّى هؤلاء و دفعهم لإلصاق تهمة الخرافات بالدين. و لا بدّ للمؤمنين الواعين أمام هذه الحال من الوقوف بكل صلابة أمام الخرافات ليبطلوا هذا السلاح فى أيدى أعدائهم و يذكروا هذه الحقيقة فى كل مكان و أن هذه الخرافات لا ترتبط بالدين الحق أبدا و لا ينبغى للداعية المخلص أن يجعل الخرافات ذريعة لأعداء الدين فى محاربته و محاربتنا، لأنّ عملية انسجام التعليمات الربانية مع العقل بحدّ من المتانة و الوضوح لا يفسح أىّ مجال لأنّ توجه إليه هكذا أباطيل.

توضح الآية الأخرى أعمالهم بالقول: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ١٦٦

وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ

لأنّ أقوالهم الباطلة لها الأثر السلبى بتضليل أعداد كبيرة من الآخرين. فمن أسوأ ممن حمّل أوزار آلاف البشر إلى وزره! و الأكثر من ذلك أن أقوالهم ستركد فى مخيلة من يأتى بعدهم من الأجيال لتكون منبعا لإضلالهم، ممّا يزيد فى حمل الأوزار باطراد.

و قد جاءت عبارة «ليحملوا» بصيغة الأمر، أمّا مفهومها فلبيان نتيجة و عاقبة أعمال أولئك المظلين، كما نقول لشخص ما: لكونك قمت بهذا العمل غير المشروع فعليك أن تتحمل عاقبة ما فعلت بتذوقك لمرارة عملك القبيح. (و احتمل بعض المفسّرين أن لام (ليحملوا، لام نتيجة).

و الأوزار: جمع وزر، بمعنى الحمل الثقيل، و جاءت بمعنى الذنب أيضا، و يقال للوزير لعظم ما يحمل من مسئولية.

و يواجهنا السؤال التالى .. لما ذا قال القرآن: يحملون من أوزار الذين يضلونهم و لم يقل كل أوزارهم، فى حين أن الرّوايات تؤكد ..

أن

«من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة»؟

أجاب بعض المفسّرين بوجود نوعين من الذنوب عند المضلّلين، نوع ناتج من أتباعهم لأئمّة الضلال، و النوع الآخر من أنفسهم، فما يحمله أئمّتهم، و قادتهم هو من النوع الأوّل دون الثّانى.

و اعتبر البعض الآخر من المفسّرين أنّ «من» فى هذه الجملة ليست تبعيضية، بل جاءت لبيان أنّ ذنوب الأتباع على عاتق المتبوعين.

و ثمّة تفسير آخر قد يكون أقرب إلى القبول من غيره، يقول: إنّ الاتباع الضالين لهم حالتان من التبعية ...

فتارة يكونون أتباعا للمنحرفين على علم و بيّنة منهم، و التأريخ حافل بهكذا صور، فيكون سبب الذنب أوامر القادة من جهة، و تصميم الأتباع من جهة أخرى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۷

فيقع على عاتق القادة قسم من المسؤولية المترتبة على هذه الذنوب «و لا يقلل من وزر الأتباع شيء».

و تارة أخرى تكون التبعية نتيجة الاستغفال و الوقوع تحت شراك وساوس المنحرفين من دون حصول الرغبة عند المتبوعين فيما لو أدركوا حقيقة الأمر، و هو ما يشاهد فى عوام الناس عند الكثير من المجتمعات البشرية، (و قد يسلك طريق الضلال بعنوان التقرب إلى اللّه) .. و فى هذه الحال يكون وزر ذنوبهم على عاتق مضلّيهم بالكامل، و لا وزر عليهم إن لم يقصّروا بالتحقق من الأمر.

و لا شك أنّ المجموعة الأولى التى سارت فى طريق الضلال عن علم و بيّنة من أمرها سوف لا يخفف من ذنوبهم شيء مع ما يلحق أئمّتهم من ذنوبهم.

و هنا يلزم ملاحظة أنّ التعبير «بغير علم» فى الآية ليس دليلا على الغفلة الدائمة للمضلّلين، و لا يعبّر عن سقوط المسؤولية- فى جميع الحالات- على غير المطلعين بحال و شأن أئمّة السوء و الضلالة بل يشير إلى سقوط عوام الناس لجهلهم بشكل أسرع من علمائهم فى شراك أو شباك المضلّلين.

و لهذا نرى القرآن فى آيات أخرى لا يبرئ هؤلاء الأتباع و يحملهم قسطا من المسؤولية كما فى الآيتين (۴۷ و ۴۸) من سورة غافر: وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ.

ثمّ تذكر الآية الأخرى أن تهمة وصف الوحى الإلهى بأساطير الأوّلين ليست بالأمر المستجد: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ

مع أنّ بعض المفسّرين قد ذهب بالآية إلى قصة «النمرود» و صرحه الذى أراد من خلاله محاربة رب السماء! و البعض الآخر فسرها بقصة «بخت نصر» .. إلّا أن الظاهر من مفهوم الآية شمول جميع مؤامرات و دسائس المستكبرين و أئمّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۸

الضلال.

و من لطيف دقّة العبارة القرآنية، أنّ الآية أشارت إلى أنّ اللّه عزّ و جلّ لا يدمّر البناء العلوى للمستكبرين فحسب، بل سيدمره من القواعد لينهار بكله عليهم.

و قد يكون تخريب القواعد و إسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهرية، من خلال الزلازل و الصواعق لتنهار على رؤوسهم، و قد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم و أحزابهم بأمر اللّه عزّ و جلّ، بل لا مانع من شمول الأمرين معا.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن ذكر كلمة «السقف» بعد ذكر «من فوقهم»، ف «السقف» عادة فى الطرف الأعلى من البناء، فما الذى استلزم ذكر «من فوقهم»؟ و يمكن حمله للتأكيد، و كذلك لبيان أنّ السقوط سيتحقق بوجودهم أسفله لهلاكهم، حيث أنّ السقوط قد

یحدث بوجود أصحاب الدار أو عدم وجودهم.

و قدم لنا التأریخ قدیمه و حدیثه بوضوح صورا شتی للعقاب الإلهی، فإحکام الطغاة و الجبابرة لما یعیشون و یتمتعون فی کنفه من حصون و قلاع، إضافة لخططهم المحبوکة کی یستمر لهم و لنسلهم الحال، و ما قاموا به من تهیئة و إعداد کل مستلزمات بقاء قدرة التسلط و دوام نظام الحکم .. کل ذلک لا یعبر فی الحقیقة إلّا عن ظواهر خاویة من کل معانی القدرة و الاقتدار و الدوام، حیث تحکی لنا قصص التاریخ أنّ هؤلاء یأتیهم العذاب الإلهی و هم بذروة ما یتمتعون به، و إذا بالقلاع و الحصون تتهاوی علی رؤوسهم فیفنون و لا تبقی لهم باقیة.

و عذابهم فی الحیاة الدنیا لا یعنی تمام الجزاء، بل تکملته ستکون یوم الجزاء الأکبر ثُمَّ یَوْمَ الْقِیامَةِ یُخْزِیهِمْ

فیسألهم اللّه تعالی: وَ یَقُولُ أَیْنَ شُرَکائِیَ الَّذِینَ کُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِیهِمْ أی تجادلون و تعادون فیهم ۹۸]، فلا یتمکنون من الإجابة، و لکن:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۹

قالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْیَ الْیَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَی الْکافِرِینَ

و یظهر من خلال ذلک أنّ المتحدثین یوم القیامة هم العلماء، و لا ینبغی فی ذلک المحضر المقدس الحدیث بالباطل.

و إذا رأینا فی بعض الرّوایات عن أهل البیت علیهم السّلام التأکید علی أنّ العلماء فی ذلک المحضر هم الأئمّة المعصومون علیهم السّلام لأنّهم أفضل و أکمل مصداق لذلک ۹۹].

و نعاود الذکر لنقول: إنّ المقصود من السؤال و الجواب فی یوم القیامة لیس لکشف أمر خفی، بل هو نوع من العذاب الروحی، و ذلک إحقاقا للمؤمنین الذین لاقوا اللوم و التوبیخ الشدیدین فی الحیاة الدنیا من المشرکین المغرورین.

و یصف ذیل الآیة السابقة حال الکافرین بالقول: الَّذِینَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ

لأنّ ممارسة الظلم فی حقیقتها ظلم للنفس قبل الآخرین، لأنّ الظالم یتلف ملکاته الوجدانیة، و یهتک حرمة الصفات الفطریة الکامنة فیه.

بالإضافة إلی أنّ الظلم متی ما شاع و انتشر فی أی مجتمع، فالنتیجة الطبیعیة له أن یعود علی الظالمین أنفسهم لیشملهم الحال.

أمّا حین تحین ساعة الموت و یزول حجاب الغفلة عن العیون فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما کُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ.

لما ذا ینکرون عملهم القبیح؟ فهل یکذبون لأنّ الکذب أصبح صفة ذاتیة لهم من کثرة تکراره، أم یریدون القول: إننا نعلم سوء أعمالنا، و لکننا أخطأنا و لم تکن لدینا نوایا سیئة فیه؟؟.

یمکن القول بإرادة کلا الأمرین.

و لکن الجواب یأتیهم فورا: إنّکم تکذبون فقد ارتکبتم ذنوبا کثیرة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۰

بَلی إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ حتی بنیّاتکم.

و لیس المقام محلا للإنکار أو التبریر .. فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها فَلَبِئْسَ مَثْوَی الْمُتَکَبِّرِینَ

بحثان

۱- السنّة سنتان .. حسنة و سیئة:

القیام بأی عمل یحتاج بلا شک إلی مقدمات کثیرة، و تعتبر السنن السائدة فی المجتمع سواء کانت حسنة أم سیئة من ممهدات

الأرضیة الفکریة و الاجتماعیة التی تساعد القائد (سواء کان مرشدا أم مضلا) للقیام بدوره بکل فاعلیة، و حتی أنّه قد یفوق دور الموجهین و واضعی السنن علی جمیع العاملین فی بضع الأحیان.

و لهذا لا یمکن فصل دور واضعی السنن عن العاملین بتلک السنن، فهم شرکاء فی العمل الصالح إذا ما سنوا سنة حسنة، و شرکاء فی جرم المنحرفین إذا ما سنوا لهم سنة سیئة.

و قد اهتم القرآن الکریم، و کذا الأحادیث الشریفة کثیرا بمسألة السنّة الحسنة و السنّة السیئة و واضعیها.

کما طالعتنا الآیات أعلاه بأنّ المستکبرین المضلّین یحملون أوزارهم و أوزار الذین یضلونهم (دون أن ینتقص من أوزارهم شیء).

و هذا الأمر من الأهمیة بمکان حتی

قال عنه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «الدال علی الخیر کفاعله»[۱۰۰].

و

فی تفسیر هذه الآیة روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «أیما داع دعا إلی الهدی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۱

فاتبع، فله مثل أجورهم، من غیر أن ینقص من أجورهم شیئا، و أیما داع دعا إلی ضلالة فاتبع علیه، فإنّ علیه مثل أوزار من اتبعه، من غیر أن ینقص من أوزارهم شیئا»[۱۰۱].

و کذلک

روی عن الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من استنّ بسنّة عدل فاتبع کان له أجر من عمل بها، من غیر أن ینتقص من أجورهم شیء، و من استنّ سنّة جور فاتبع کان علیه مثل وزر من عمل به، من غیر أن ینتقص من أوزارهم شیء»[۱۰۲].

و ثمّة روایات أخری تحمل نفس هذا المضمون رویت عن الأئمّة الأطهار علیهم السّلام و قد جمعها الشّیخ الحر العاملی قدّس سره، فی المجلد الحادی عشر من کتابه الموسوم بالوسائل (کتاب الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، الباب السّادس عشر).

و

فی صحیح مسلم ورد حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرفوعا عن المنذر بن جریر عن أبیه قال: کنّا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابی النمار أو العباء و متقلدی السیوف ... فتمعر وجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لما رأی بهم من الفاقة، فدخل ثمّ خرج فأمر بدلا فأذّن و أقام فصلّی و خطب فقال: یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ... إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلَیْکُمْ رَقِیباً و الآیة التی فی الحشر اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ تصدق رجل من دیناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره (حتی قال) و لو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرّة کادت کفّه تعجز عنها بل قد عجزت، قال:

ثمّ تتابع الناس حتی رأیت کومین من طعام ثیاب حتی رأیت وجه رسول اللّه یتهلل کأنّه مذهبة، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من سنّ فی الإسلام سنّة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها بعده من غیر أن ینقص من أجورهم شیء، و من سنّ فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۲

الإسلام سنّة سیئة کان علیه وزرها و وزر من عمل بها من بعده من غیر أن ینقص من أوزارهم شیء»[۱۰۳].

و هنا، یواجهنا سؤال .. کیف تنسجم هذه الرّوایات مع ما یعاضدها من آیات مع الآیة (۱۶۴) من سورة الأنعام وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری

و تتّضح الإجابة من خلال ملاحظة أنّ هؤلاء ليسوا عن ذنوب الأخرى بل عن ذنوبهم فقط، و لكنّهم من خلال اشتراكهم فی تحقق ذنوب الآخرين يشاركوهم فيها، ای ان تلك الذنوب تعتبر من ذنوبهم بهذا اللحاظ.

٢- التّسليم بعد فوات الأوان:

قليل أولئك الذين ينكرون الحقيقة بعد رؤيتها فی مرحلة الشهود، و لهذا نجد المذنبين و الظالمين يظهرون الإيمان فورا بعد أن تزال عن أعينهم حجب الغفلة و الغرور و حصول العين البرزخية فی حال ما بعد الموت، كما بيّنت لنا الآيات السابقة فَأَلْقَوُا السَّلَمَ

و غاية ما فی الأمر أنّ الكلّ مستسلم، و لكنّ الحديث يختلف من بعض إلی بعض، فقسم منهم يتبرأ من أعماله القبيحة بقولهم: ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ أی إنّهم من كثرة ممارستهم للكذب فقد اختلط بلحمهم و دمهم و التبس عليهم الأمر تماما، فمع علمهم بعدم فائدة الكذب فی ذلك المشهد العظيم و لكنّهم يكذبون! و يستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ هناك من يكذب حتی فی يوم القيامة، كما فی الآية الثّالثة و العشرين من سورة الأنعام: قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ و قسم آخر يظهر الندامة و يطلب العودة إلی لحياة الدنيا لإصلاح أمره، كما

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۳

جاء فی الآية (١٢) من سورة السجدة.

و قسم يكتفی بإظهار الإيمان كفرعون، كما جاء فی الآية (٩٠) من سورة يونس.

و علی أيّة حال .. سوف لا تقبل كل تلك الأقوال لأنها قد جاءت فی غير وقتها بعد أن انتهت مدّتها، و لا أثر لهكذا إيمان صادر عن اضطرار.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۴

الآيات [سورة النحل (١٦): الآيات ٣٠ الی ٣٢]

اشارة

وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِی هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِی اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

التّفسير

عاقبة المتقين و المحسنين:

قرأنا فی الآيات السابقة أقول المشركين حول القرآن و عاقبة ذلك، و الآن فندخل مع المؤمنين فی اعتقادهم و عاقبته .. فيقول القرآن: وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً.

و روی فی تفسير القرطبی: كان يرد الرجل من العرب مكّة فی أيّام الموسم فيسأل المشركين عن محمّد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۵

و یسأل المؤمنین فیقولون: أنزل اللّه علیه الخیر و الهدی.

ما أجمل هذا التعبیر و أکمله «خیرا» خیر مطلق یشمل کل: صلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادی و معنوی، خیر للدنیا و الآخرة، خیر للإنسان الفرد و المجتمع، و خیر فی: التربیة و التعلیم، السیاسة و الإقتصاد، الأمن و الحریة ... و الخلاصة: خیر فی کل شیء (لأنّ حذف المتعلق یوجب عموم المفهوم).

و قد وصفت الآیات القرآنیة القرآن الکریم بأوصاف کثیرة مثل: النّور، الشفاء، الهدایة، الفرقان (یفرق الحق عن الباطل)، الحق، التذکرة، و ما شابه ذلک ..

و لکن فی هذه الآیة وردت صفة «الخیر» التی یمکن أن تکون مفهوما عاما جامعا لکل تلک المفاهیم الخاصة.

و الفرق واضح فی نعت القرآن بین المشرکین و المؤمنین، فالمؤمنون قالوا:

«خیرا» أی أنزل اللّه خیرا، و بذلک یظهر اعتقادهم بأنّ القرآن وحی إلهی ۱۰۴].

بینما نجد المشرکین عند ما قِیلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّکُمْ؟ قالُوا: أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ و هذا إنکار واضح لکون القرآن وحی إلهی ۱۰۵].

و تبیّن الآیة مورد البحث نتیجة و عاقبة ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، کما عرضت الآیات السابقة عاقبة ما قاله المشرکین من عقاب دنیوی و أخروی، و مادی و معنوی مضاعف: لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هذِهِ الدُّنْیا حَسَنَةٌ.

و قد أطلق الجزاء بال «حسنة» کما أطلقوا القول «خیرا»، لیشمل کل أنواع الحسنات و النعم فی الحیاة الدنیا، بالإضافة إلی: وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَیْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِینَ

و تشارک عبارة «نعم دار المتقین» الإطلاق مرّة أخری و کلمة «خیرا»، لأنّ الجزاء بمقدار العمل کمّا و کیفا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۶

فیتّضح لنا ممّا قلنا إنّ الآیة لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا إلی آخرها تعبر عن کلام اللّه عزّ و جلّ، و یقوی هذا المعنی عند مقابلتها مع الآیات السابقة.

و احتمل بعض المفسّرین أنّ الظاهر من الکلام یتضمّن احتمالین:

الأوّل: أنّه کلام اللّه.

الثّانی: أنّه استمرار لقول المتقین.

ثمّ تصف الآیة التالیة- بشکل عام- محل المتقین فی الآخرة بالقول: جَنَّاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَها تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ فهل ثمّة أوسع وصفا من هذا أم أشمل مفهوما لبیان نعم الجنّة.

حتی أنّ التعبیر یبدو أوسع ممّا ورد فی الآیة (۷۱) من سورة الزخرف وَ فِیها ما تَشْتَهِیهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْیُنُ فالحدیث فی الآیة عن ما تَشْتَهِیهِ الْأَنْفُسُ فی حین الحدیث فی الآیة مورد البحث عن مطلق الإشاءة ما یَشاؤُنَ

و استفاد بعض المفسّرین من تقدیم لَهُمْ فِیها علی ما یَشاؤُنَ الحصر، أی یمکن للإنسان أن یحصل علی کل ما یشاء فی الجنّة فقط دون الدنیا.

و قلنا أنّ الآیات مورد البحث توضح کیفیة حیاة و موت المتقین مقارنة مع ما ورد فی الآیات السابقة حول المشرکین و المستکبرین، و قد مرّ علینا هناک أنّ الملائکة عند ما تقبض أرواحهم یکون موتهم بدایة لمرحلة جدیدة من العذاب و المشقة، ثمّ یقال لهم «ادخلوا أبواب جهنم ..».

و أمّا عن المتقین: الَّذِینَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ طَیِّبِینَ طاهرین من کل تلوثات الشرک و الظلم و الاستکبار، و مخلصین من کل ذنب- یَقُولُونَ سَلامٌ عَلَیْکُمْ السّلام الذی هو رمز الأمن و النجاة.

ثمّ یقال لهم: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و التعبیر عن موتهم ب تَتَوَفَّاهُمُ یحمل بین طیاته اللطف، و یشیر إلی أن الموت لا یعنی الفناء و العدم أو نهایة کل شیء، بل هو مرحلة انتقالیة إلی عالم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۷

آخر.

و فی تفسیر المیزان: أنّ فی هذه الآیة ثلاثة مسائل:

۱- طهارة المؤمنین من خبث الظلم.

۲- یقولون لهم سَلامٌ عَلَیْکُمْ و هو تأمین قولی لهم.

۳- ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و هو هدایة لهم إلیها.

و هذه المواهب الثلاث هی التی ذکرت فی الآیة (۸۲) من سورة الأنعام الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِکَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۸

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۳۳ الی ۳۷]

اشارة

هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِیَهُمُ الْمَلائِکَةُ أَوْ یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ کَذلِکَ فَعَلَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصابَهُمْ سَیِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۳۴) وَ قالَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ کَذلِکَ فَعَلَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَی الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِینُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِی کُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَی اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَیْهِ الضَّلالَةُ فَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُکَذِّبِینَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلی هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ (۳۷)

التّفسیر

البلاغ المبین .. وظیفة الأنبیاء:

یعود القرآن الکریم مرّة أخری لیعرض لنا واقع و أفکار المشرکین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۹

و المستکبرین و یقول بلهجة وعید و تهدید: ما ذا ینتظرون؟ هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِیَهُمُ الْمَلائِکَةُ أی ملائکة الموت فتغلق أبواب التوبة أمامهم حیث لا سبیل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال! أو هل ینتظرون أن یأتی أمر اللّه بعذابهم: أَوْ یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ حیث تغلق أبواب التوبة أیضا و لا سبیل عندها للإصلاح.

فأی فکر یسیرهم، و أی عناد و لجاجة تحکمهم؟! کلمة «الملائکة» و إن کانت ترمز إلی عنوان عام، إلّا أنّها فی هذا الموقع یقصد منها ملائکة قبض الأرواح انسجاما مع الآیات السابقة التی کانت تتحدث عنهم.

أمّا عبارة یَأْتِیَ أَمْرُ رَبِّکَ فمع قبولها لاحتمالات کثیرة فی تفسیرها، إلّا أنّ المعنی الراجح هو نزول العذاب، لورود هذا المعنی بالخصوص فی آیات مختلفة من القرآن.

و مجموع الجملتين يعنى تقريع المستكبرين بأنّ المواعظ الإلهية و تذكير الأنبياء إن كانت لا- توقظكم من غفلتكم فإنّ الموت و العذاب الإلهى سيوقظكم، و لكن حينئذ لا ينفعكم ذلك الإيقاظ.

ثمّ يضيف: إنّ هؤلاء- ليس أوّل من كانوا على هذه الحال و الصفة و إنّما كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

و سوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال.

و الآية تؤكد مرّة أخرى على حقيقة عود الظلم و الاستبداد و الشر على الظالم المستبد الشرير فى آخر المطاف، لأنّ الفعل القبيح يترك آثاره السيئة على روح و نفسية فاعله، فيسوّد قلبه و يلوّث روحه فيفقده الأمان و الاطمئنان.

ثمّ يذكر عاقبة أمرهم بقوله: فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

«حاق بهم»: بمعنى أصابهم، إلّا أنّ بعض المفسّرين كالقرطبى و فريد و جدى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۱۸۰

فى تفسير لهذه الآية اعتبر معناها (أحاط بهم).

و يمكن الجمع بين المعنيين، فيكون المعنى: نزول العذاب عليهم، و كذلك محيطا بهم.

و على أية حال، فتعبير الآية ب فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا يؤكد مرّة أخرى على عودة الأعمال على فاعلها سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، و تتجسم له بصور شتى، و تعذبه و تؤلمه و ليس غير ذلك ۱۰۶].

و تشير الآية التالية إلى أحد أقوال المشركين الخاوية، فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‌ءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‌ءٍ.

إنّ قولهم وَ لا حَرَّمْنا إشارة إلى بعض أنواع الحيوانات التى حرّم لحومها المشركون فى عصر الجاهلية، و التى أنكرها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشدة.

و الخلاصة: أنّهم أرادوا الادعاء بأنّ كلّ ما عملوه من عبادة للأصنام إلى تحليل و تحريم الأشياء، إنما كان وفقا لرضا اللّه تعالى و بإذنه! و لعل قولهم يكشف عن وجود عقيدة (الجبر) ضمن ما كانوا به يعتقدون، معتبرين كل ما يصدر منهم إن هو إلّا من القضاء المحتوم عليهم (كما فهم ذلك جمع كثير من المفسّرين).

و ثمّة احتمال آخر: إنّهم لم يقولوا ذلك اعتقادا منهم بالجبر، و إنّما أرادوا الإحتجاج على اللّه سبحانه، و كأنّهم يقولون: إن كانت أعمالنا لا ترضى اللّه تعالى فلما ذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عمّا نقوم به، فسكوته و عدم منعه ما كنّا نعمل دليل على رضاه.

و هذا الاحتمال ينسجم مع ذيل الآية و الآيات التالية.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۱۸۱

و لهذا يقول تعالى مباشرة: كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ... يعنى.

أوّلا: أن تقولوا أنّ اللّه سكت عن أعمالنا! فإنّ اللّه قد بعث إليكم الأنبياء، و دعوكم إلى التوحيد و نفى الشرك.

ثانيا: إنّ وظيفة اللّه تعالى و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس هى هدايتكم بالجبر، بل بإراءتكم السبيل الحق و الطريق المستقيم، و هذا ما حصل فعلا.

أمّا عبارة كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فمواساة لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بأن لا يحزن و يثبت فى قبال ما يواجه من قبل المشركين، و أنّ اللّه معه و ناصره.

و بعد ذكر وظيفة الأنبياء (البلاغ المبين)، تشير الآية التالية باختصار جامع إلى دعوة الأنبياء السابقين، بقولها: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا.

«الأمّة»: من الأم بمعنى الوالدة، أو بمعنى: كل ما يتضمّن شيئا آخر فى دخله، (و من هنا يطلق على جماعة تربطها وحدة معينة من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «أمّة».

و يتأكد هذا المعنى من خلال دراسة جميع موارد استعمال هذه الكلمة فى القرآن و البالغة (۶۴) موردا.

و يبيّن القرآن محتوى دعوة الأنبياء عليهم السّلام، بالقول: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ١٠٧].

فأساس دعوة جميع الأنبياء و اللبنة الأولى لتحركهم هى الدعوة إلى التوحيد و محاربة الطاغوت، و ذلك لأنّ أسس التوحيد إذا لم تحكم و لم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أىّ برنامج إصلاحى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۱۸۱

الطاغوت»: (كما قلنا سابقا) صيغة مبالغة للطغيان .. أى التجاوز و التعدى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۲

و عبور الحد، فتطلق على كل ما يكون سببا لتجاوز الحد المعقول، و لهذا يطلق اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر و على كل مسير يؤدى إلى غير طريق الحق.

و تستعمل الكلمة للمفرد و الجمع أيضا و إن جمعت أحيانا ب (الطواغيت).

و نعود لنرى ما وصلت إليه دعوة الأنبياء عليهم السّلام إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ.

و هنا علت أصوات من يعتقد بالجبر استنادا إلى هذه الآية باعتبارها المؤيدة لعقيدتهم! و لكن قلنا مرارا إنّ آيات الهداية و الضلال إذا جمعت و ربط فيما بينها فلن يبقى هناك أىّ إبهام فيها، و يرتفع الالتباس من أنّها تشير إلى الجبر و يتّضح تماما أن الإنسان مختار فى تحكيم إرادته و حريته فى سلوكه أى طريق شاء.

فالهداية و الإضلال الإلهيين إنّما يكونا بعد توفر مقدمات الأهلية للهداية أو عدمها فى أفكار و ممارسة الإنسان نفسه، و هو ما تؤكّده الكثير من آيات القرآن الكريم.

فاللّه عزّ و جلّ (وفق صريح آيات القرآن) لا يهدى الظالمين و المسرفين و الكاذبين و من شابههم، أما الذين يجاهدون فى سبيل اللّه و يستجيبون للأنبياء عليهم السّلام فمشمولون بألطافه عزّ و جلّ و يهديهم إلى صراطه المستقيم و يوفقهم إلى السير فى طريق التكامل، بينما يوكل القسم الأوّل إلى أنفسهم حتى تصيبهم نتائج أعمالهم بضلالهم عن السبيل.

و حيث أنّ خواص الأفعال و آثارها- الحسنة منها أو القبيحة- من اللّه عزّ و جلّ، فيمكن نسبة نتائجها إليه سبحانه، فتكون الهداية و الإضلال إلهيين.

فالسنّة الإلهية اقتضت فى البداية جعل الهداية التشريعية ببعث الأنبياء ليدعوا الناس إلى التوحيد و رفض الطاغوت تماشيا مع الفطرة الإنسانية، و من ثمّ فمن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۳

يبدى اللياقة و التجاوب مع الدعوة فردا كان أم جماعة يكون جديرا باللطف الإلهى و تدركه الهداية التكوينية.

نعم، فها هى السنّة الإلهية، لا كما ذهب إليه الفخر الرازى و أمثاله من أنصار مذهب الجبر من أنّ اللّه يدعوا الناس بواسطة الأنبياء، و من ثمّ يخلق الإيمان و الكفر جبرا فى قلوب الأفراد (من دون أىّ سبب) و العجيب أنّه لإجمال للتساؤل و لا يسمح فى الاستفهام عن سبب ذلك من اللّه عزّ و جلّ.

فما أوحش ما نسبوا اليه سبحانه .. إنّما صورة لا تتفق مع العقل و العاطفة و المنطق؟! و التعبير الموارد فى الآية مورد البحث يختلف فى

مورد الهدایـة و الضـلال، ففی مسألـة الهدایـة، یقول: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَی اللَّهُ أمّـا بالنسـبة للقسم الثّانی، فلا یقول: إنّ اللّه أضـلهم، بل إنّ الضلالة ثبتت علیهم و التصقت بهم: وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَیْهِ الضَّلالَةُ.

و هذا الاختلاف فی التعبیر یمکن أن یکون الإشارة لما فی بعض الآیات الأخری، و المنسجم مع ما ورد من روایات .. و خلاصته:

إنّ القسم الأعظم من هدایـة الإنسان یتعلق بالمقـدمات التی خلقها اللّه تعالی لـذلک، فقد أعطی تعالی: العقل، و فطرة التوحید، و بعث الأنبیاء، و إظهار الآیات التشریعیة و التکوینیة، و یکفی الإنسان أن یتخذ قراره بحریة وصولا للهدف المنشود.

أمّا فی حال الضلال فالأمر کلّه یرجع إلی الضالین أنفسهم، لأنّهم اختاروا السیر خلاف الوضعین التشریعی و التکوینی الذی جعلهم اللّه علیه، و جعلوا حول الفطرة حجابا داکنا و أغفلوا قوانینها، و جعلوا الآیات التشـریعیة و التکوینیة وراء ظهورهم، و أغلقوا أعینهم و صموا أذانهم أمام دعوة الأنبیاء علیهم السّلام، فکان أن آل المآل بهم إلی وادی التیه و الضلال .. أو لیس کل ذلک منهم؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۴

و الآیة (۷۹) من سورة النساء تشیر إلی المعنی المذکور بقولها: ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِکَ و

روی فی أصول الکافی عن الأمام علی بن موسـی الرضا علیه السّلام، فی إجابته علی سؤال لأحد أصحابه حول مسألة الجبر و الإختیار، أنّه قال: «أکتب: بسم اللّه الرحمن الرحیم قال علی بن الحسـین، قال اللّه عزّ و جلّ: یا ابن آدم بمشـیئتی کنت أنت الذی تشاء، و بقوتی أدیت فرائضـی، و بنعمتی قویت علی معصـیتی، جعلتـک سـمیعا بصـیرا، مـا أصابـک من حسـنة فمن اللّه و مـا أصابک من سیئة فمن نفسک، و ذلک أنّی أولی بحسناتک منک، و أنت أولی بسیئاتک منّی»[۱۰۸].

و فی نهایـة الآیـة یصدر الأمر العام لأجل إیقاظ الضالین و تقویة روحیة المهتدین، بالقول: فَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُکَذِّبِینَ

فالآیـة دلیـل نـاطق علی حریـة إرادة الإنسان، فإن کانت الهدایـة و الضـلال أمرین إجباریین، لم یکن هناک معنی للسیر فی الأرض و النظر إلی عاقبة المکذبین، فالأمر بالسیر بحد ذاته تأکید علی اختیار الإنسان فی تعیین مصیره بنفسه و لیس هو مجبر علی ذلک.

و ثمّة بحوث کثیرة و شیقة فی القرآن الکریم بخصوص مسألة السیر فی الأرض مع التأمل فی عاقبة الأمور، و قد شـرح ذلک مفصـلا فی تفسیرنا للآیة (۱۳۷) من سورة آل عمران.

الآیـة الأخیر من الآیـات مورد البحث تؤکّـد التسلیة لقلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتبیـان مـا وصـلت إلیه حال الضّالین: إِنْ تَحْرِصْ عَلی هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی مَنْ یُضِلُّ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ

«تحرص» من مادة (حرص)، و هو طلب الشیء بجدّیة و سعی شدید.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۵

بدیهی، أنّ الآیة لا تشـمل کل المنحرفین، لأنّ الشمول یتعارض مع وظیفة النّبی (هدایة و تبلیغ)، و للتاریخ شواهد کثیرة علی ما لهدایة الناس و إرشادهم من أثر بالغ، و کم أولئک الذین انتشلوا من و حل الضلال لیصبحوا من خلص أنصار الحق، بل و دعاته.

فعلیه .. تکون الجملـة المتقدمـة خاصـة بمجموعـة معینـة من الضـالین الـذین وصـل بهم العنـاد و اللجاجـة فی الباطل لأقصـی درجات الضلال، و أصبحوا غرقی فی بحر الاستکبار و الغرور و الغفلة و المعصیة فأغلقت أمامهم أبواب الهدایة، فهؤلاء لا ینفع معهم محاولات النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لهـدیهم حتی و إن طالت المدّة لأنّهم قد انحرفوا عن الحق بسـبب أعمالهم الی درجة أنّهم باتوا غیر قابلین للهدایة.

و من الطبیعی أن لا یکون لهکذا أناس من ناصـرین و أعوان، لأنّ الناصـر لا یتمکن من تقدیم نصـرته و عونه إلّا فی أرضـیة مناسـبة و مساعدة.

و هـذا التعبير أيضـا دليـل على نفى الجبر، لأنّ الناصـر إنّمـا ينفع سـعيه فيمـا لو كـان هناك تحرك من داخل الإنسان نحو الصـلاح و الهداية فيعينه و يأخذ بيده- فتأمل.

و لعل اسـتعمال «ناصـرين» بصيغة الجمع للإشارة إلى أنّ المؤمنين على العكس من الضالين، لهم أكثر من ناصر، فاللّه تعالى ناصرهم و .. الأنبياء، و عباد اللّه الصالحين، و ملائكة الرحمة كذلك.

و يشـير القرآن الكريم إلى هـذه النصـرة فى الآية (۵۱) من سورة المؤمن: إِنَّا لَنَنْصُـرُ رُسُـلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيـاةِ الـدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

و كـذلك فى الآية (۳۰) من سورة فصـلت: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَـةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۶

بحثان

۱- ما هو البلاغ المبين؟

رأينا فى الآيات مورد البحث أنّ الوظيفة الرئيسية للأنبياء هى البلاغ المبين فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

أى لا بـدّ من الـدعوة علنا، و إذا كانت ثمّـة ظروف موضوعيـة تسـتدعى من الأنبياء أن تكون دعوتهم سـرية، فهـذا لا يكون إلّا لمـدّة محدودة، لإنّ الأسـلوب السرى فى عصر دعوة الأنبياء عليهم السّلام غير مستساغ من قبل المجتمع، فلا يكون له الأثر المطلوب و الحال هذه.

فلا بدّ للدعوة إذن من الإعلان السليم القاطع المصحوب بالتخطيط و التدبير كشرط أساسى فى إنجاح الدعوة بين المجتمع.

و بمطالعـة تأريـخ جميع الأنبيـاء عليهم السّـلام نرى أنّهم كـانوا يعلنون دعوتهم ببيـان صـريح معلن، بـالرغم من قلـة الناصـر من قومهم بالذات.

و هـذا هو خط جميع دعاة الحق (من الأنبياء و غيرهم) .. فهم: لا يـداهنون فى دعوتهم أبـدا و لا يجاملون الباطل و أهله، متحملين كل عواقب هذه الصراحة و القاطعية.

۲- لكل أمّة رسول

عند قوله عزّ و جلّ: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا يواجهنا السؤال التالى: لو كان لكل أمّة رسول لظهر الأنبياء فى جميع مناطق العالم، و لكنّ التأريـخ لا يحكى لنا ذلك، فيكف التوجيه؟! و تتضـح الإجابة من خلال الالتفات إلى أن الهدف من بعث الأنبياء لإيصال الدعوة الإلهيـة إلى أسـماع كل الأمم، فعلى سبيل المثال .. عند ما بعث النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى مكّة أو المدينة لم يكن فى بقية مدن الحجاز الأخرى نبى، و لكنّ رسل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۷

كـانوا يصـلون إليها و بوصولهم يصل صوت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إليها أسـماع الجميع، بالإضافة إلى كتبه و رسائله العديدة التى أرسلها إلى الدول المختلفة (إيران، الروم، الحبشة) ليبلغهم الرسالة الإلهية.

و ها نحن الیوم کأمّة قد سمعنا دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالرغم من بعد الشقّة التاریخیة بیننا و بینه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و ذلک بواسطة العلماء الرسالیین الذین حملوا رسالته إلینا عبر القرون .. و لا یقصد من بعثة رسول لکل أمّة إلّا هذا المعنی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸ ص: ۱۸۸

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۳۸ الی ۴۰]

اشارة

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لا یَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ یَمُوتُ بَلی وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۳۸) لِیُبَیِّنَ لَهُمُ الَّذِی یَخْتَلِفُونَ فِیهِ وَ لِیَعْلَمَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ کانُوا کاذِبِینَ (۳۹) إِنَّما قَوْلُنا لِشَیْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۴۰)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون فی شأن نزول الآیة الأولی (الآیة ۳۸) أنّ رجلا- من المسلمین کان له دین علی مشترک فتقاضاه فکان تتعلل فی بتسدیده، فتأثر المسلم بذلک، فوقع فی کلامه القسم بیوم القیامة و قال: و الذی أرجوه بعد الموت إنّه لکذا، فقال المشرک: و إنّک لتزعم أنّک تبعث بعد الموت و أقسم باللّه، لا یبعث اللّه من یموت.

فأنزل اللّه الآیة[۱۰۹].

فأجاب اللّه فیها الرجل المشرک و أمثاله، و عرض المعاد بدلیل واضح، و کان حدیث الرجلین سببا لطرح هذه المسألة من جدید.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸ ص: ۱۸۹

التّفسیر

المعاد و .. نهایة الاختلافات:

تعرض الآیات أعلاه جانبا من موضوع «المعاد» تکمیلا لما بحث فی الآیات السابقة ضمن موضوع التوحید و رسالة الأنبیاء.

فتقول الآیة الأولی: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لا یَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ یَمُوتُ

و هذا الإنکار الخالی من الدلیل و الذی ابتدءوه بالقسم المؤکّد، لیؤکّد بکل وضوح علی جهلهم، و لهذا یجیبهم القرآن بقوله: بَلی وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ

إنّ الکلمات الواردة فی المقطع القرآنی مثل «بلی»، «وعدا»، «حقّا» لتظهر بکل تأکید حتمیة المعاد.

و عموما- ینبغی مواجهة من ینکر الحقّ بحجم ما أنکر بل و أقوی، کی یمحو الأثر النفسی السیء للنفی القاطع، و لا بدّ من إظهار أن نکران الحق جهل حتی یمحی أثره تماما وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ

ثمّ یتطرق القرآن الکریم إلی ذکر أحد أهداف المعاد و قدرة اللّه عزّ و جلّ علی ذلک، لیرد الاشتباه القائل بعدم إعادة الحیاة بعد الموت، أو بعیشة المعاد ..

فیقول: لِیُبَیِّنَ لَهُمُ الَّذِی یَخْتَلِفُونَ فِیهِ وَ لِیَعْلَمَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ کانُوا کاذِبِینَ فی إنکارهم للمعاد و بأنّ اللّه لا- یبعث من یموت! لأنّ ذلک عالم الشهود، عالم رفع الحجب و کشف الغطاء، عالم تجلی الحقائق، کما نقرأ فی الآیة (۲۲) من سورة ق: لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَةٍ

مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.

و فى الآية (۹) من سورة الطارق: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ أى تظهر و تعلن.

و كذا الآية (۴۸) من سورة إبراهيم: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

ففى يوم الشهود و كشف السرائر و إظهارها لا معنى فيه لاختلاف العقيدة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ۱۹۰

و إن كان من الممكن أن يقوم بعض المنكرين اللجوجين بإطلاق الأكاذيب فى بعض مواقف يوم القيامة لأجل تبرئة أنفسهم، إلّا أنّ ذلك سيكون أمرا استثنائيا عابرا.

و هذا يشبه إلى حد ما إنكار المجرم لجريمته ابتداء عند المحاكمة، و لكنّه سرعان ما ينهار و يرضخ للحقيقة عند ما تعرض عليه مستمسكات جريمته المادية التى لا تقبل إدانة غيره أبدا، و هكذا فإنّ ظهور الحقائق فى يوم القيامة يكون أوضح و أجلى من ذلك.

و مع أنّ أهداف حياة ما بعد الموت (عالم الآخرة) عديدة و قد ذكرتها الآيات القرآنية بشكل متفرق مثل: تكامل الإنسان، إجراء العدالة الإلهية، تجسيد هدف الحياة الدنيا، الفيض و اللطف الإلهيين و ما شابه ذلك .. إلّا أنّ الآية مورد البحث أشارت إلى هدف آخر غير الذى ذكر و هو: رفع الاختلافات و عودة الجميع إلى التوحيد.

و نعتقد أنّ أصل التوحيد من أهم الأصول التى تحكم العالم، و هو شامل يصدق على: ذات و صفات و أفعال اللّه عزّ و جلّ، عالم الخليقة و القوانين التى تحكمه، و كل شىء فى النهاية يجب أن يعود إلى هذا الأصل.

و لهذا فنحن نعتقد بوجود نهاية لكل ما تعانيه البشرية على الأرض- الناشئة من الاختلافات المنتجة للحروب و الصدامات- من خلال قيام حكومة واحدة تحت ظلال قيادة الإمام المهدى «عجل اللّه تعالى فرجه الشريف» لأنّه يجب فى نهاية الأمر رفع ما يخالف روح عالم الوجود (التوحيد).

أمّا اختلاف العقيدة فسوف لا يرتفع من هذه الدنيا تماما لوجود عالم الحجب و الأستار، و لا ينتهى إلّا يوم البروز و الظهور (يوم القيامة).

فالرجوع إلى الوحدة و انتهاء الخلافات العقائدية من أهداف المعاد الذى أشارت إليه الآية مورد البحث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ۱۹۱

و ثمّة آيات قرآنية كثيرة كررت مسألة أنّ اللّه عزّ و جلّ سيحكم بين الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ۱۱۰].

ثمّ يشير القرآن إلى الفقرة الثّانية من بيان حقيقة المعاد، للرد على من يرى عدم إمكان إعادة الإنسان من جديد إلى الحياة من بعد موته: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

فمع هذه القدرة التامّة .. هل ثمّة شك أو ترديد فى قدرته عزّ و جلّ على إحياء الموتى؟! و لعل لا حاجة لتبيان أنّ «كن» إنّما ذكرت لضرورة اللفظ، و إلّا لا حاجة فى أمر اللّه ل «كن» أيضا، فإرادته سبحانه و تعالى كافية فى تحقق ما يريد.

و لو أردنا أن نضرب مثلا- صغيرا ناقصا من حياتنا (و للّه المثل الأعلى)، فنستطيع أن نشبهه بانطباع صورة الشىء فى أذهاننا لمجرد إرادته، فإنّنا لا نعانى من أية مشكلة فى تصور جبل شامخ أو بحر متلاطم أو روضة غناء، و لا نحتاج فى ذلك لجملة أو كلمة نطلقها حتى نتخيل ما نريد، فبمجرّد إرادة التصور تظهر الصورة فى ذهننا.

و نقرأ سوية

الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام .. إنّ صفوان بن يحيى سأله: أخبرنى عن الإرادة من اللّه تعالى و من الخلق، فقال: «الإرادة من المخلوق الضمير و ما يبدو له بعد ذلك من الفعل، و أمّا من اللّه عزّ و جلّ فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنّه لا- يروّى و لا يهم و لا يتفكر، و هذه الصفات منفية عنه و هى من صفات الخلق، فإرادة اللّه تعالى هى الفعل لا غير ذلك، يقول له:

کن فیکون، بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همة و لا تفکر و لا کیف کذلک کما أنّه بلا کیف»[۱۱۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۲

الآیتان [سورة النحل (۱۶): الآیات ۴۱ الی ۴۲]

اشارة

وَ الَّذِینَ هاجَرُوا فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِی الدُّنْیا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَکْبَرُ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (۴۱) الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۴۲)

سبب النّزول

ذکر بعض المفسّرین فی شأن نزول الآیة الأولی (۴۱): نزلت فی المعذبین بمکّة مثل صهیب و عمار و بلال و خباب و غیرهم مکّنهم اللّه فی المدینة، و ذکر أن صهیبا قال لأهل مکّة: أنا رجل کبیر إن کنت معکم لم أنفعکم و إن کنت علیکم لم أضرکم فخذوا مالی و دعونی، فأعطاهم ماله و هاجر إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال له أحدهم: ربح البیع یا صهیب.

و یروی أنّ أحد الخلفاء کان إذا أعطی أحدا من المهاجرین عطاء قال له:

خذ هذا ما وعدک اللّه فی الدنیا، و ما أخّره لک أفضل. ثمّ تلی هذه الآیة[۱۱۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۳

التّفسیر

ثواب المهاجرین:

قلنا مرارا: إنّ القرآن الکریم یستخدم أسلوب المقایسة و المقارنة کأهم أسلوب للتربیة و التوجیه، فما یرید أن یعرضه للناس یطرح معه ما یقابله لتتشخص الفروق و یستوعب الناس معناه بشکل أکثر وضوحا.

فنری فی الآیات السابقة الحدیث عن المشرکین و منکری یوم القیامة، و ینقل الحدیث فی الآیات مورد البحث إلی المهاجرین المخلصین، لیقارن بین المجموعتین و یبیّن طبیعتهما ..

فیقول أوّلا: وَ الَّذِینَ هاجَرُوا فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِی الدُّنْیا حَسَنَةً أمّا فی الآخرة وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَکْبَرُ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ

ثمّ یصف فی الآیة التالیة المهاجرین المؤمنین الصالحین بصفتین، فیقول:

الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ

بحوث

۱- کما هو معروف فإنّ للمسلمین هجرتین، الأولی: کانت محدودة نسبیا (هجرة جمع من المسلمین علی رأسهم جعفر بن أبی طالب إلی الحبشة)، و الثّانیة:

الهجرة العامة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین من مکّة إلی المدینة.

و ظاهر الآية يشير إلى الهجرة الثّانية، كما يؤيد ذلك شأن النّزول.

و قد بحثنا أهمية دور الهجرة فى حياة المسلمين فى الماضى و الحاضر و استمرار هذا الأمر فى كل عصر و زمان بشكل مفصل ضمن تفسيرنا للآية (۱۰۰) من سورة النساء، و الآية (۷۵) من سورة الأنفال.

و على أية حال، فللمهاجرين مقام سام فى الإسلام، و قد اهتم النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۴

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهم كثيرا و كذا المسلمون من بعد، و ذلك لأنّهم جعلوا حياتهم المادية و ما يملكون فى خدمة الدعوة الإسلامية المباركة، ممّا حدا بالبعض أن يعرض حياته للمخاطر، و البعض الآخر ترك كل أمواله (كصهيب) معتبرا نفسه رابحا فى هذه الصفقة المباركة.

و لو لم تكن تلك التضحيات لأولئك المهاجرين لما سمح المحيط الفاسد فى مكّة و تحكم الشياطين عليها بأن يخرج صوت الإسلام ليعم أسماع الجميع، و لكتم الصوت و قبر فى صدور المؤمنين إلى الأبد، و لكنّ المهاجرين بتحولهم المدروس الواعى و هجرتهم المباركة لم يفتحوا مكّة فحسب، و إنّما أوصلوا صوت الإسلام إلى أسماع العالم، فأصبحت الهجرة سنّة إسلامية تجرى على مرّ التأريخ إذا ما واجهت ما يشبه ظروف مكّة قبل الهجرة.

۲- التعبير ب هاجَرُوا فِي اللَّهِ من دون ذكر كلمة «سبيل» إشارة إلى ذروة الإخلاص الذى كان يحملونه أولئك المهاجرون الأول، فهم هاجروا للّه و فى سبيله و طلبا لرضاه و حماية لدينه و دفاعا عنه، و ليس لنجاتهم من القتل أو طلبا لمكاسب مادية أخرى.

۳- و تظهر لنا جملة مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا عدم ترك الميدان فورا، بل لا بدّ من الصبر و التحمل قدر الإمكان.

أمّا عند ما يصبح تحمل العذاب من العدو باعثا على زيادة جرأته و جسارته، و إضعاف المؤمنين .. فهنا تجب الهجرة لأجل كسب القدرة اللازمة و تهيئة خنادق المواجهة المحكمة، و يستمر بالجهاد على كافة الأصعدة من موقع أفضل، حتى تنتهى الحال إلى نصر أهل الحق فى الساحات العسكرية و العلمية و التبليغية ...

۴- أمّا قوله تعالى: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً «نبوئنهم» من (بوأت له مكانا) أى هيأته له و وضعته فيه- فيشير إلى أن المهاجرين فى اللّه و إن كانوا ابتداء يفتقدون إلى الإمكانيات المادية المستلزمة للمواجهة، إلّا أنّهم فى النهاية- حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۵

فى الجانب الدنيوى- منتصرون [۱۱۳].

فلما ذا بعد ذلك يتحمل الإنسان ضربات الأعداء المتوالية و يموت منها ذليلا؟! لما ذا لا يهاجر و بكل شجاعة ليجاهد عدوّه من موضع جديد فيأخذ منه حقّه؟! و قد عرض هذا الموضوع بوضوح أكثر فى الآية (۱۰۰) من سورة النساء، حيث تقول: وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً.

۵- إن سبب انتخاب صفتين للمهاجرين «الصبر» و «التوكل» واضح، لما يواجه من ظروف صعبة و متعبة، تحتاج الثبات و الصبر على مرارة تلك الظروف فى الدرجة الأولى، ثمّ الاعتماد الكامل على اللّه سبحانه و تعالى. و أساسا فإنّ الإنسان لو افتقد فى الحوادث العصيبة و الشدائد القاسية المعتمد المطمئن و السند المعنوى المحكم، فإنّ الصبر و الاستقامة و الثبات تكون مستحيلة.

و قال البعض: إنّ انتخاب «الصبر» هنا، لأنّ ابتداء السير فى طريق الهجرة إلى اللّه يحتاج إلى المقاومة و الثبات أمام رغبات النفس، أما انتخاب «التوكل» فلأجل أنّ نهاية السير هى الانقطاع عن كل شىء غير اللّه عزّ و جلّ و الارتباط به.

و على هذا، تكون الصفة الأولى لأوّل الطريق و الثانية لآخره [۱۱۴].

و على أية حال .. فلا سبيل الى الهجرة الخارجية دون الهجرة الباطنية، فعلى الإنسان أن يقطع علائقة المادية الباطنية أوّلا بهجرته نحو الفضائل الأخلاقية، ليستطيع أن يهاجر و يترك دار الكفر- مع كل ما له فيها- منتقلا إلى دار الإيمان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۶

الآیتان [سورة النحل (۱۶): الآیات ۴۳ الی ۴۴]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِی إِلَیْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۴۳) بِالْبَیِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (۴۴)

التّفسیر

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ! بعد أن عرض القرآن فی الآیتین السابقتین حال المهاجرین فی سیاق حدیثه عن المشرکین، یعود إلی بیان المسائل السابقة فیما یتعلق بأصول الدین من خلال إجابته لأحد الإشکالات المعروفة، حین یتقول المشرکون: لماذا لم ینزل اللّه ملائکة لإبلاغ رسالته؟ ... أو یقولون: لم لم یجهز النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقدرة خارقة لیجبرنا علی ترک أعمالنا!؟ ..

فیجیبهم اللّه عزّ و جلّ بقوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ إِلَّا رِجالًا نُوحِی إِلَیْهِمْ

نعم. فإنّ أنبیاء اللّه علیهم السّلام جمیعهم من البشر، و بکل ما یحمل البشر من غرائز و عواطف إنسانیته، حتی یحس بالألم و یدرک الحاجة کما یحس و یدرک الآخرون.

فی حین أن الملائکة لا تتمکن من إدراک هذه الأمور جیدا و الاطلاع علی ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۷

یدور فی أعماق الإنسان بوضوح.

إنّ وظیفة الأنبیاء إبلاغ رسالة السماء و الوحی الإلهی، و إیصال دعوة اللّه إلی الناس و السعی الحثیث و بالوسائل الطبیعیة لتحقیق أهداف الوحی، و لیس باستعمال قوی إلهیة خارقة للسنن الطبیعیة لإجبار الناس بقبول الدعوة و ترک الانحرافات، و إلّا فما کان هناک فخر للإیمان و لا کان هناک تکامل.

ثمّ یضیف القول (تأکیدا لهذه الحقیقة): فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

«الذکر»: بمعنی العلم و الاطلاع، و «أهل الذکر» له من شمولیة المفهوم بحیث یستوعب جمیع العالمین و العارفین فی کافة المجالات.

و إذا فسّر البعض کلمة «أهل الذکر» فی هذا المورد بمعنی (أهل الکتاب)، فهو لا یعنی حصر هذا المصطلح بمفهوم معین، و ما تفسیرهم فی واقعة إلّا تطبیق لعنوان کلی علی أحد مصادیقه.

لأنّ السؤال عن الأنبیاء و المرسلین السابقین و هل أنّهم من جنس البشر و ذوی رسالات و وظائف ربانیة، یجب أن یکون من علماء أهل الکتاب.

و بالرّغم من عدم وجود الوفاق التام بین علماء الیهود و النصاری من جهة و المشرکین من جهة أخری، إلّا أنّهم مشترکون فی مخالفتهم للإسلام، و لهذا فیمکن أن یکون علماء أهل الکتاب مصدرا جیدا بالنسبة للمشرکین فی معرفة أحوال الأنبیاء السابقین.

یقول الراغب فی مفرداته: إنّ الذکر علی معنیین، الأوّل: الحفظ. و الثّانی:

التذکر و استحضار الشیء فی القلب. و لذلک قیل: الذکر ذکران، ذکر بالقلب و ذکر باللسان .. و لذا رأینا أنّ الذکر یطلق علی القرآن لأنّه یعرض الحقائق و یکشفها.

ثمّ تقول الآیة التالیة: بِالْبَیِّناتِ وَ الزُّبُرِ[۱۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۹۸

«البینات»: جمع بیّنة، بمعنی الدلائل الواضحة. و یمکن أن تکون هنا إشارة إلی معاجز و أدلة إثبات صدق الأنبیاء علیهم السّلام فی دعوتهم.

«الزبر»: جمع زبور، بمعنی الکتاب.

فالبینات تتحدث عن دلائل إثبات النّبوة، و الزّبر إشارة إلی الکتب التی جمعت فیها تعلیمات الأنبیاء.

و من ثمّ یتوجه الخطاب إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ لیبیّن للناس مسئولیتهم تجاه آیات ربّهم الحق.

فدعوتک و رسالتک لیست بجدیدة من الناحیة الأساسیة، و کما أنزلنا علی الذین من قبلک من الرسل کتبا لیعلموا الناس تکالیفهم الشرعیة، فقد أنزلنا علیک القرآن لتبیّن تعالیمه و مفاهیمه، و توقظ به الفکر الإنسانی لیسیروا فی طریق الحق بعد شعورهم بالمسؤولیة الملقاة علی عاتقهم، و لیتجهوا صوب الکمال (و لیس بطریق الجبر و القوة).

بحث

من هم أهل الذکر؟

ذکرت الرّوایات الکثیرة المرویة عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ «أهل الذکر» هم الأئمّة المعصومون علیهم السّلام، و من هذه الرّوایات:

روی عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی جوابه عن معنی الآیة أنّه قال: «نحن أهل الذکر و نحن المسؤولون»[۱۱۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۱۹۹

و

عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر الآیة أنّه قال: «الذکر القرآن و آل الرّسول أهل الذکر و هم المسؤولون»[۱۱۷].

و

فی روایات أخری: أنّ «الذکر» هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و «أهل الذکر» هم أهل البیت علیهم السّلام ۱۱۸].

و ثمّة روایات متعددة أخری تحمل نفس هذا المعنی.

و فی تفاسیر و کتب أهل السنّة روایات تحمل نفس المعنی أیضا، منها:

ما فی التّفسیر الاثنی عشری: روی عن ابن عباس فی تفسیر هذه الآیة، قال:

هو محمد و علی و فاطمة و الحسن و الحسین علیهم السّلام هم أهل الذکر و العقل و البیان ۱۱۹].

فهذه لیست هی المرّة الأولی فی تفسیر الرّوایات للآیات القرآنیة ببیان أحد مصادیقها دون أن تقید مفهوم الآیة المطلق.

و کما قلنا ف «الذکر» یعنی کل أنواع العلم و المعرفة و الاطلاع، و «أهل الذکر» هم العلماء و العارفون فی مختلف المجالات، و باعتبار أن القرآن نموذج کامل و بارز للعلم و المعرفة أطلق علیه اسم «الذکر»، و کذلک شخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فهو مصداق واضح «للذکر» و الأئمّة المعصومون باعتبارهم أهل بیت النّبوة و وارثو علمه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فهم علیهم السّلام أفضل مصداق ل «أهل الذکر».

و هـذا لاـ ینـافی عمومیـة مفهوم الآیـة، و لا ینافی مورد نزولها أیضا (علماء أهل الکتاب) و لهـذا اتجه علماؤنا فی الفقه و الأصول عند بحثهم موضوع الاجتهاد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۰

و التقلیـد إلی ضـرورة و وجوب أتباع العلماء لمن لیست له القدرة علی اسـتنباط الأحکام الشـرعیة، و یسـتدلون بهذه الآیة علی صـحة منحاهم.

و قد یتساءل فیما

ورد عن الإمـام علی بن موسـی الرضـا علیه السّـلام فی کتـاب (عیون أخبار الرضا علیه السّـلام): أنّ علماء فی مجلس المأمون قالوا فی تفسـیر الآیـة: إنمـا عنی بـذلک الیهود و النصـاری، فقـال الرضا علیه السّـلام: «سـبحان اللّه و هل یجوز ذلک، إذا یـدعونا إلی دینهم و یقولون: إنّه أفضل من الإسلام ...» ثمّ قال: «الذکر رسول اللّه و نحن أهله»[۱۲۰].

و تتخلص الإجابـة بقولنا: إنّ الإمام قال ذلک لمن کان یعتقـد أن تفسـیر الآیـة منحصـر بمعنی الرجوع إلی علماء أهل الکتاب فی کل عصـر و زمان، و بدون شک أنّه خلاف الواقع، فلیس المقصود بالرجوع إلیهم علی مر العصور و الأیّام، بل لکل مقام مقال، ففی عصر الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام لا بدّ من الرجوع إلیه علی أساس إنّه مرجع علماء الإسلام و رأسهم.

و بعبـارة أخری: إذا کـانت وظیفـة المشـرکین فی صـدر الإسـلام لـدی سؤالهم عن الأنبیـاء السابقین، و هل أنّهم من جنس البشـر هی الرجوع إلی علماء أهل الکتاب لا إلی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، فهـذا لا یعنی أن علی جمیع الناس فی أی عصـر و مصـر أن یرجعوا إلیهم، بل یجب الرجوع إلی علماء کل زمان.

و علی أیة حال .. فالآیة مبیّنة لأصل إسـلامی یتعیّن الأخذ به فی کل مجالات الحیاة المادیة و المعنویة، و تؤکّد علی المسلمین ضرورة السؤال فیما لا یعلمونه ممن یعلمه، و أن لا یورطوا أنفسهم فیما لا یعلمون.

و علی هـذا فـإنّ «مسألـة التخصـص» لم یقررهـا القرآن الکریم و یحصـرها فی المسائل الدینیـة بل هی شاملـة لکل المواضـیع و العلوم المختلفة، و یجب أن یکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۱

من بین المسلمین علماء فی کافة التخصصات للرجوع إلیهم.

و ینبغی التنویه هنـا إلی ضـرورة الرجوع إلی المتخصـص الثابت علمه و تمکنه فی اختصاصه، بالإضافـة إلی توفر عنصـر الإخلاص فی عمله فهل یصح أن نراجع طبیبا متخصـصا- علی سبیل المثال- غیر مخلص فی علمه؟! و لهذا وضع شرط العدالة فی مسائل التقلید إلی جانب الاجتهاد و الأعلمیة، أی لا بدّ لمرجع التقلید من أن یکون تقیا ورعا بالإضافة إلی علمیته فی المسائل الإسلامیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۲

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۴۵ الی ۴۷]

اشارة

أَ فَأَمِنَ الَّذِینَ مَکَرُوا السَّیِّئاتِ أَنْ یَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ یَأْتِیَهُمُ الْعَـذابُ مِنْ حَیْثُ لا یَشْـعُرُونَ (۴۵) أَوْ یَأْخُـذَهُمْ فِی تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِینَ (۴۶) أَوْ یَأْخُذَهُمْ عَلی تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (۴۷)

التّفسیر

لكلّ ذنب عقابه:

ثمّـة ربـط فى كثير من بحوث القرآن بين الوسائـل الاسـتدلالية و المسائل الوجدانيـة بشـكل مؤثر فى نفوس السامعين، و الآيات أعلاه نموذج لهذا الأسلوب.

فالآيات السابقة عبارة عن بحث منطقى مع المشـركين فى شأن النّبوة و المعاد، فى حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجبابرة و الطغاة و المذنبين.

فتبتـدأ القول: أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ من الذين حاكوا الدسائس المتعددة حسبا منهم لإطفاء نور الحق و الإيمان أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ

فهل ببعيـد (بعد فعلتهم النكراء) أن تتزلزل الأرض زلزلة شديدة فتنشق القشـرة الأرضـية لتبتلعهم و ما يملكون، كما حصل مرارا لأقوام سابقة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۳

«مكروا السيئات»: بمعنى وضـعوا الـدسائس و الخطط وصولا لأهـدافهم المشؤمـة السـيئة، كما فعل المشـركون للنيل من نور القرآن و محاولة قتل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما مارسوه من إيذاء و تعذيب للمؤمنين المخلصين.

«يخسف»: من مادة «خسف»، بمعنى الاختفاء، و لهذا يطلق على اختفاء نور القمر فى ظل الأرض اسم (الخسوف)، يقال (بئر مخسوف) للذى اختفى ماؤه، و على هذا يسمّى اختفاء الناس و البيوت فى شق الأرض الناتج من الزلزلة خسفا.

ثمّ يضـيف: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْـعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ أى عند ذهابهم و مجيئهم و حركتهم فى اكتساب الأموال و جمع الثروات. فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ

و كما قلنا سابقا، فإنّ «معجزين» من الإعجاز بمعنى ازالة قدرة الطرف الآخر، و هى هنا بمعنى الفرار من العذاب و مقاومته.

أو أنّ العذاب الإلهى لا يأتيهم على حين غفلة منهم بل بشكل تدريجى و مقرونا بالأنذار المتكرر: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ

فـاليوم مثلاـ يصـاب جارهم ببلاء، و غـدا يصاب أحـد أقربائهم، و فى يوم آخر تتلف بعض أموالهم ... و الخلاصـة، تأتيهم تنبيهات و تذكيرات الواحدة تلو الأخرى، فإن استيقظوا فما أحسن ذلك، و إلّا فسيصيبهم العقاب الإلهى و يهلكهم.

إنّ العـذاب التـدريجى فى هـذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتـدى هذه المجموعة، و اللّه عزّ و جلّ لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

و من الملفت للنظر فى الآيات مورد البحث، ذكرها لأربعة أنواع من العذاب الإلهى:

الأوّل: الخسف.

الثّانى: العقاب المفاجئ الذى يأتى الإنسان على حين غرة من أمره.

الثّالث: العذاب الذى يأتى الإنسان و هو غارق فى جمع الأموال و تقلبه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۴

ذلك.

الرّابع: العذاب و العقاب التدريجى.

و المسـلم به أنّ نوع العـذاب يتناسب و نوع الذنب المقترف، و إن وردت جميعها بخصوص الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ لعلمنا أنّ أفعال اللّه لا تكون إلّا بحكمة و عدل.

و هنـا .. لم نجـد رأيـا للمفسّـرين- فى حـدود بحثنـا- حول هـذا الموضوع، و لكن يبـدو أنّ النوع الأـوّل من العقـاب يختص بـأولئك

المتآمرین الذین هم فی صف الجبارین و المستکبرین کقارون الذی خسف اللّه تعالی به الأرض و جعله عبرة للناس، مع ما کان یتمتع به من قدرة و ثروة.

أمّا النوع الثّانی فیخص المتآمرین الغارقین بملذات معاشهم و أهوائهم، فیأتیهم العذاب الإلهی بغتة و هم لا یشعرون.

و النوع الثّالث یخص عبدة الدنیا المشغولین فی دنیاهم لیل نهار لیضیفوا ثروة إلی ثروتهم مهما کانت الوسیلة، حتی و إن کانت بارتکاب الجرائم و الجنایات وصولا لما یطمحون له! فیعذبهم اللّه تعالی و هم علی تلک الحالة[۱۲۱].

و أمّا النوع الرّابع من العذاب فیخص الذین لم یصلوا فی طغیانهم و مکرهم و ذنوبهم إلی حیث اللارجعة، فیعذبهم اللّه بالتخویف. أی یحذرهم بإنزال العذاب الألیم فی أطرافهم فإن استیقظوا فهو المطلوب، و إلّا فسینزل العذاب علیهم و یهلکهم.

و علی هذا، فإنّ ذکر الرأفة و الرحمة الإلهیة ترتبط بالنوع الرّابع من الذین مکروا السّیئات، الذین لم یقطعوا کل علائقهم مع اللّه و لم یخربوا جمیع جسور العودة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۵

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۴۸ الی ۵۰]

اشارة

أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلی ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَیْءٍ یَتَفَیَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْیَمِینِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ (۴۸) وَ لِلَّهِ یَسْجُدُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِکَةُ وَ هُمْ لا یَسْتَکْبِرُونَ (۴۹) یَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ یَفْعَلُونَ ما یُؤْمَرُونَ (۵۰)

التّفسیر

سجود الکائنات للّه عزّ و جلّ:

تعود هذه الآیات مرّة أخری إلی التوحید بادئة ب: أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلی ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَیْءٍ یَتَفَیَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْیَمِینِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ ۱۲۲].

أی: ألم یشاهد المشرکون کیف تتحرک ظلال مخلوقات اللّه یمینا و شمالا لتعبر عن خضوعها و سجودها له سبحانه؟! و یقول البعض: إنّ العرب تطلق علی الظلال صباحا اسم (الظل) و عصرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۶

(الفیء)، و إذا ما نظرنا إلی تسمیة (الفیء) لقسم من الأموال و الغنائم لوجدنا إشارة لطیفة لحقیقة .. إنّ أفضل غنائم و أموال الدنیا لا تلبث أن تزول و لا یعدو کونها کالظل عند العصر.

و مع ملاحظة ما اقترن بذکر الظلال فی هذه الآیة من یمین و شمال، و إنّ کلمة الفیء استعملت للجمیع .. فیستفاد من ذلک: أن الفیء هنا ذو معنی واسع یشمل کل أنواع الظلال.

فعند ما یقف الإنسان وقت طلوع الشمس متجها نحو الجنوب فإنّه سیری شروق قرص الشمس من الجهة الیسری لأفق الشرق، فتقع ظلال جمیع الأشیاء المجسمة علی یمینه (جهة الغرب)، و یستمر هذا الأمر حتی تقترب الظلال نحو الجهة الیمنی لحین وقت الظهر، و عندها ستتحول الظلال إلی الجهة المعاکسة (الیسری) و تستمر فی ذلک حتی وقت الغروب فتصبح طویلة و ممتدة نحو الشرق، ثمّ تغیب و تنعدم عند غروب الشمس.

و هنا .. یعرض الباری سبحانه حرکة ظلال الأجسام یمینا و شمالا بعنوانها مظهرا لعظمته جل و علا واصفا حرکتها بالسجود و الخضوع.

أثر الظلال فی حیاتنا:

ممّا لا شک فیه أنّ لظلال الأجسام دور مؤثر فی حیاتنا، و لعل الکثیر منّا غیر ملتفت إلی هذه الحقیقة، فوضع القرآن الکریم إصبعه علی هذه المسألة لیسترعی الانتباه لها.

للظلال (التی هی لیست سوی عدم النّور) فوائد جمّة:

۱- کما أنّ لأشعة الشمس دور أساسی فی حیاتنا، فکذلک الظلال، لأنّها تقوم بعملیة تعدیل شدّة الحرارة لأشعة الشمس.

إنّ الحرکة المتناوبة للظلال تحفظ حرارة الشمس لحد متعادل و مؤثر، و بدون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۷

الظلال فسیحترق کل شیء أمام حرارة الشمس الثابتة و بدرجة واحدة و لمدّة طویلة.

۲- و ثمّة موضوع مهم آخر و ربّما علی خلاف تصور معظم الناس، ألا و هو:

إنّ النّور لیس هو السبب الوحید فی رؤیة الأشیاء، بل لا بدّ من اقتران الظل بالنّور لتحقیق الرؤیة بشکل طبیعی.

و بعبارة أخری: إنّ النّور لو کان یحیط بجسم ما و یشع علیه باستمرار بما لا یکون هناک مجالا للظل أو نصف الظل، فإنّه و الحال هذه لا یمکن رؤیة ذلک الجسم و هو غارق بالنّور.، أی: کما أنّه لا یمکن رؤیة الأشیاء فی الظلمة القائمة، فکذا الحال بالنسبة للنور التام، و یمکن رؤیة الأشیاء بوجود النّور و الظلمة (النّور و الظلال).

و علی هذا یکون للظلال دور مؤثر جدّا فی مشاهدة و تشخیص و معرفة الأشیاء و تمییزها- فتأمل.

و ثمّة ملاحظة أخری فی الآیة: و هی: ورود «الیمین» بصیغة المفرد فی حین جاءت الشمال بصیغة الجمع «شمائل».

فالاختلاف فی التعبیر یمکن أن یکون لوقوع الظل فی الصباح علی یمین الذی یقف مواجها للجنوب ثمّ یتحرک باستمرار نحو الشمال حتی وقت الغروب حین یختفی فی أفق الشرق [۱۲۳].

و احتمل المفسّرون أیضا: مع أن کلمة (الیمین) مفردا إلّا أنّه یمکن أن یراد بها الجمع فی بعض الحالات، و هی فی هذه الآیة تدل علی الجمع [۱۲۴].

و جاء فی الآیة أعلاه ذکر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أما فی الآیة التالیة فقد جاء ذکر السجود بعنوانه برنامجا عاما شاملا لکل الموجودات المادیة و غیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۸

المادیة، و فی أی مکان، فیقول: وَ لِلَّهِ یَسْجُدُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِکَةُ وَ هُمْ لا یَسْتَکْبِرُونَ مسلمین للّه و لأوامره تسلیما کاملا.

و حقیقة السجود نهایة الخضوع و التواضع و العبادة، و ما نؤدیه من سجود علی الأعضاء السبعة ما هو إلّا مصداق لهذا المفهوم العام و لا ینحصر به.

و بما أنّ جمیع مخلوقات اللّه فی عالم التکوین و الخلق مسلمة للقوانین العامّة لعالم الوجود، التی أفاضتها الإرادة الإلهیة فإنّ جمیع المخلوقات فی حالة سجود له جلّ و علا، و لا ینبغی لها أن تنحرف عن مسیر هذه القوانین، و کلها مظهرة لعظمة و علم و قدرة الباری عزّ و جلّ، و لتدلل علی أنّها آیة علی غناه و جلاله .. و الخلاصة:

کلها دلیل علی ذاته المقدسة.

«الدابة»: بمعنى الموجودات الحية، و يستفاد من ذكر الآية لسجود الكائنات الحية فى السماوات و الأرض على وجود كائنات حية فى الأجرام السماوية المختلفة علاوة على ما موجود على الأرض.

و قد احتمل البعض: عبارة «من دابة» قيد ل «ما فى الأرض» فقط، أى: إنّ الحديث يختص بالكائنات الحية الموجودة على الأرض.

و يبدو ذلك بعيدا بناء على ما جاء فى الآية (٢٩) من سورة الشورى وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ.

صحيح أنّ السجود و الخضوع التكوينى لا ينحصر بالكائنات الحية، و لكنّ تخصيص الإشارة بها لما تحمله من أسرار و عظمة الخلق أكثر من غيرها.

و بما أنّ مفهوم الآية يشمل كلا من: الإنسان العاقل المؤمن، و الملائكة، و الحيوانات الأخرى، فقد استعمل لفظ السجود بمعناه العام الذى يشمل السجود الاختيارى و التشريعى و كذا التكوينى الاضطرارى.

أمّا الإشارة إلى الملائكة بشكل منفصل فى الآية فلأنّ الدابة تطلق على الكائنات الحيّة ذات الجسم المادى فقط، بينما للملائكة حركة و حضور و غياب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ٢٠٩

و لكن ليس بالمعنى المادى الجسمانى كى تدخل ضمن مفهوم «الدابة».

و

روى فى حديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ للّه تعالى ملائكة فى السماء السابعة سجودا منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ترعد فرائصهم من مخافة اللّه تعالى، لا تقطر من دموعهم قطرة إلّا صارت ملكا، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم و قالوا: ما عبدناك حق عبادتك»[١٢٥].

أمّا جملة وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ فإشارة لحال و شأن الملائكة التى لا يداخلها أىّ استكبار عند سجودها و خضوعها للّه عزّ و جلّ.

و لهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآية مباشرة و تأكيدا لنفى حالة الاستكبار عنهم: يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ كما جاء فى الآية (٦) من سورة التحريم فى وصف جمع من الملائكة: لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ

و يستفاد من هذه الآية بوضوح .. أنّ علامة نفى الاستكبار شيئان:

أ- الشعور بالمسؤولية و إطاعة الأوامر الإلهية من دون أى اعتراض، و هو وصف للحالة النفسية لغير المستكبرين.

ب- ممارسة الأوامر الإلهية بما ينبغى و العمل وفق القوانين المعدة لذلك ..

و هذا انعكاس للأول، و هو التحقيق العينى له.

و ممّا لا ريب فيه أنّ عبارة مِنْ فَوْقِهِمْ ليست إشارة إلى العلو الحسى و المكانى، بل المراد منها العلو المقامى، لأنّ اللّه عزّ و جلّ فوق كل شى مقاما.

كما نقرأ فى الآية (٦١) من سورة الأنعام: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ و كذلك فى الآية (١٢٧) من سورة الأعراف: وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ حينما أراد فرعون أن يظهر قدرته و قوته!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ٢١٠

الآيات [سورة النحل (١٦): الآيات ٥١ الى ٥٥]

اشارة

وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً أَ فَغَيْرَ اللَّهِ

تَتَّقُونَ (۵۲) وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (۵۳) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۵۴) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۵۵)

التّفسير

دين حق و معبود واحد:

تتناول هذه الآيات موضوع نفى الشرك تعقيبا لبحث التوحيد و معرفهٔ اللّه عن طريق نظام الخلق الذى ورد فى الآيات السابقهٔ، لتتّضح الحقيقهٔ من خلال المقارنهٔ بين الموضوع، و يبتدأ ب: وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ

و تقديم كلمهٔ «إيّاى» يراد بها الحصر كما فى «إيّاك نعبد» أى: يجب الخوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۱

من عقابى لا غير.

و من الملفت للنظر أنّ الآيهٔ أشارت إلى نفى وجود معبودين فى حين أن المشركين كانوا يعبدون أصناما متعددهٔ.

و يمكن أن يكون ذلك إشارهٔ إلى إحدى النقاط التاليهٔ أو إلى جميعها:

۱- إنّ الآيهٔ نفت عبادهٔ اثنين، فكيف بالأكثر؟! و بعبارهٔ أخرى: إنّها بيّنت الحد الأدنى للمسألهٔ ليتأكّد نفى الأكثر، و أىّ عدد ننتخبه (أكثر من واحد) لا بدّ له أن يمر بالإثنين.

۲- كل ما يعبد من دون اللّه جمع فى واحد، فتقول الآيهٔ: أن لا تعبدوها مع اللّه، و لا تعبدوا إلهين (الحق و الباطل).

۳- كان العرب فى الجاهليهٔ قد انتخبوا معبودين:

الأوّل: خالق العالم، أى اللّه عزّ و جلّ و كانوا يؤمنون به.

و الثّانى: الأصنام، و اعتبروها واسطهٔ بينهم و بين اللّه، و اعتبروها كذلك منبعا للخير و البركهٔ و النعمهٔ.

۴- يمكن أن تكون الآيهٔ ناظرهٔ إلى نفى عقيدهٔ (الثنويين) القائلين بوجود إله للخير و آخر للشر، و مع انتخابهم لأنفسهم هذا المنطق الضعيف الخاطئ، إلّا إنّ عبدهٔ الأصنام قد غالوا حتى فى هذا المنطق و تجاوزوه لمجموعهٔ من الآلههٔ! و ينقل المفسّر الكبير العلّامهٔ الطبرسى فى تفسير هذه الآيهٔ عبارهٔ لطيفهٔ نقلها عن بعض الحكماء: (نهاك ربك أن تتخذ إلهين فاتخذت آلههٔ، عبدت: نفسك و هواك، و طبعك و مرادك، و عبدت الخلق فأنّى تكون موحدا).

ثمّ يوضح القرآن أدلهٔ توحيد العبادهٔ بأربعهٔ بيانات ضمن ثلاث آيات ...

فيقول أوّلا وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فهل ينبغى السجود للأصنام التى لا تملك شيئا، أم لمن له ما فى السموات و الأرض؟

ثمّ يضيف: وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۲

فعند ما يثبت أن عالم الوجود منه، و هو الذى أوجد جميع قوانينه التكوينيهٔ فينبغى أن تكون القوانين التشريعيهٔ من وضعه أيضا، و لا تكون طاعهٔ إلّا له سبحانه.

«واصب»: من «الوصوب»، بمعنى الدوام. و فسّرها البعض بمعنى (الخالص) (و من الطبيعى أن ما لم يكن خالصا لم يكن له الدوام. أما الذين اعتبروا «الدين» هنا بمعنى الطّاعهٔ، فقد فسّروا «واصبا» بمعنى الواجب، أى: يجب إطاعهٔ اللّه فقط.

و نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ شخصا سأله عن قول اللّه وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً قال: «واجبا»[۱۲۶].

و الواضح أنّ هذه المعانى متلازمة جميعها.

ثمّ يقول فى نهاية الآية: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ

فهل يمكن للأصنام أن تصدّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمة حتى تتقوها و تواظبوا على عبادتها؟! هذا .. وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ

فهذه الآية تحمل لبيان الثّالث بخصوص لزوم عبادة اللّه الواحد جلّ و علا، و أنّ عبادة الأصنام إن كانت شكرا على نعمة فهى ليست بمنعمة، بل الكل بلا استثناء منّعمون فى نعم اللّه تعالى، و هو الأحق بالعبادة لا غيره.

و علاوة على ذلك ... ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ

فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعا للضر و حلا للمعضلات، فهذا من اللّه و ليس من غيره، و هو ما تظهره ممارستكم عمليا حين إصابتكم بالضر، فلمن تلتجئون؟

إنّكم تتركون كل شيء و تتجهون إلى اللّه.

و هذا البيان الرّابع حول مسألة التوحيد بالعبادة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨ ص: ٢١٣

«تجئرون»: من مادة (الجؤار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات و الوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثمّ استعملت كناية فى كل الآهات غير الاختيارية الناتجة عن ضيق أو ألم.

إنّ اختيار هذه العبارة هنا إشارة إلى أنّه عند ما تتراكم عليكم الويلات و يحل بكم البلاء الشديد تطلقون حينها صرخات الإستغاثة اللااختيارية .. و أنتم بهذه الحال، أ توجهون النداء لغيره سبحانه و تعالى؟! فلما ذا إذن فى حياتكم الاعتيادية و عند ما تواجهون المشاكل اليسيرة تلتجئون إلى الأصنام؟! نعم. فاللّه سبحانه يسمع نداءكم فى كل الحالات و يغيثكم و يرفع عنكم البلاء ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ بالعود إلى الأصنام! و فى الحقيقة ... فالقرآن فى الآية يشير إلى فطرة التوحيد فى جميع الناس، إلّا أنّ حجب الغفلة و الغرور و الجهل و التعصب و الخرافات تغطيها فى الأحوال الاعتيادية.

و لكن، عند ما تهب عواصف البلاء تنقلع تلك الحجب فيظهر نور الفطرة براقا من جديد ليرى الناس لمن يتوجهون، فيدعون اللّه مخلصين بكامل وجودهم، فيرفع عنهم أغطية البلاء المتأتية من تلك الحجب، (لاحظوا أنّ الآية قالت:

كَشَفَ الضُّرَّ أى: رفع أغطية البلاء).

و لكن .. عند ما تهدأ العاصفة و يرتفع البلاء و تعودون إلى شاطئ الأمان، تعاودون من جديد على الغفلة و الغرور، و تظهرون الشرك بعبادتكم للأصنام مجددا! و فى آخر آية (من الآيات مورد البحث) يأتى التهديد بعد إيضاح الحقيقة بالأدلة المنطقية: لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

و يشبّه ذلك بتوجيه النصائح و الإرشادات لمنحرف متخلف لا يفيد معه هذا الأسلوب المنطقى فيقطع معه الحديث باللين ليواجه بالتهديد عسى أن يرعوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨ ص: ٢١۴

فيقال له: مع كل ما قلنا لك ... افعل ما شئت و لكن سترى نتيجة عملك عاجلا أم آجلا.

و على هذا فتكون اللام فى «ليكفروا» يراد به التهديد، و كذا «تمتعوا» أمر يراد به التهديد أيضا، أمّا مجيء الفعل الأوّل بصيغة الغائب «ليكفروا» و الثّانى بصيغة المخاطب «تمتعوا»، فكأنه افترض غيابهم أوّلا فقال: ليذهبوا و يكفروا بهذه النعم، و عند تهديدهم يلتفت إليهم و يقول: تمتعوا بهذه النعم الدنيوية قليلا فسيأتى اليوم الذى تدركون فيه عظم خطئكم و سترون عاقبة أعمالكم.

و الآية (۳۰) من سورة إبراهيم تشابه الآية المذكورة من حيث الغرض: قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ[۱۲۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۵

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۵۶ الى ۶۰]

اشارة

وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (۵۶) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (۵۷) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۵۹) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶۰)

التّفسير

عند ما كانت ولادة البنت عارا!

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحوثا استدلالية فى نفى الشرك و عبادة الأصنام، تأتى هذه الآيات لتتناول قسما من بدع المشركين و صورا من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلا آخرا على بطلان الشرك و عبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع و عادات المشركين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۶

و تقول أوّلا: وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ ۱۲۸].

و كان النصيب عبارة عن قسم من الإبل بقية من المواشى بالإضافة إلى قسم من المحاصيل الزراعية، و هو ما تشير إليه الآية (۱۳۶) من سورة الأنعام:

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ

و سيكون بعد السؤال اعتراف لا مفر منه ثمّ الجزاء و العقاب، و عليه فما تقومون به له ضرر مادى من خلال ما تعملونه بلا فائدة، و له عقاب أخروى لأنّكم أسأتم الظن باللّه و اتجهتم إلى غيره.

أمّا البدعة الثّانية فكانت: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ من التجسم و من هذه النسبة. وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ أى: إنّهم لم يكونوا ليقبلوا لأنفسهم ما نسبوا إلى اللّه، و يعتبرون البنات عارا و سببا للشقاء! و إكمالا للموضوع تشير الآية التالية إلى العادة القبيحة الثّالثة: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ [۱۲۹] و لا ينتهى الأمر إلى هذا الحد بل يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ

و لم ينته المطاف بعد، و يغوص فى فكر عميق: أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۷

و فى ذيل الآية، يستنكر البارى حكمهم الظالم الشقى بقوله: أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ

و أخيرا يشير تعالى إلى السبب الحقيقى وراء تلك التلوثات، ألا هو عدم الإيمان بالآخرة: لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فكلّما اقترب الإنسان من العزيز الحكيم انعكس فى روحه نور صفاته العليا من العلم و القدرة و الحكمة و ابتعد عن الخرافات و البدع و الأفعال القبيحة.

و كلما ابتعد عنه تعالى غرق بقدر ذلك البعد فى ظلمات الجهل و الضعف و الذلة و القبائح.

فالسبب الرئيسى لكل انحراف و قبح و خرافة هو الغفلة عن ذكر اللّه و عن محكمته العادلة فى الآخرة، أمّا ذكر اللّه و الآخرة فدافع أصيل للإحساس بالمسؤولية و محاربة الجهل و الخرافة، و عامل قدرة و قوة و علم للإنسان.

بحوث

١- لماذا اعتبروا الملائكة بناتا للّه؟

تطالعنا الكثير من آيات القرآن الكريم بأنّ المشركين كانوا يقولون بأنّ الملائكة بنات اللّه جلّ و علا، أو أنّهم كانوا يعتبرون الملائكة إناثا دون نسبتها إلى اللّه ..

كما فى الآية (١٩) من سورة الزخرف: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً، و فى الآية (٤٠) من سورة الإسراء: أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٢١٨

يمكن أن تكون هذه الإعتقادات بقايا خرافات الأقوام السابقة التى وصلت عرب الجاهلية، أو ربما يحصل هذا الوهم بسبب ستر الملائكة عنهم و حال الاستتار أكثر ما يختص بحال النساء، و لهذا تعتبر العرب الشمس مؤنثا مجازيا و القمر مذكرا مجازيا أيضا، على اعتبار أنّ قرص الشمس لا يمكن للناظر إليه أن يديم النظر لأنه يستر نفسه بقوة نوره، أمّا قرص القمر فظاهر للعين و يسمح للنظر إليه مهما طالت المدّة.

و ثمّة احتمال آخر يذهب إلى الكناية عن لطافة الملائكة، و الإناث أكثر من الذكور لطافة.

و على أية حال .. فهذه إحدى ترسبات الخرافات القديمة التى تكلست فى مخيلة البشرية حتى وصلت للبعض ممن يعيش فى يومنا هذا، و لا تختص هذه الخرافة بقوم دون آخر لأنّنا نلاحظ وجودها فى أدبيات عدد من لغات العالم! فنرى الأديب مثلا حينما يريد وصف جمال امرأة ينعتها بالملائكة، و ذاك الفنان الذى يريد أن يعبر عن الملائكة فيجعلها بهيئة النساء، فى حين أن الملائكة لا تملك جسما ماديا حتى يمكننا أن نصفه بالمذكر أو المؤنث.

٢- لما ذا شاع وأد البنات فى الجاهلية؟

الوأد فى واقعة أمر رهيب، لأنّ الفاعل يقوم بسحق كل ما بين جوانحه من عطف و رحمة، ليتمكن من قتل إنسان بريء ربّما هو من أقرب الأشياء إليه من نفسه! و الأقبح من ذلك افتخاره بعمله الشنيع هذا! فأين الفخر من قتل إنسان ضعيف لا يقوى حتى للدفاع عن نفسه؟ بل كيف يدفن الإنسان فلذة كبده و هى حية؟! و هذا ليس بالأمر الهيّن، فأىّ إنسان و مهما بلغت به الوحشية لا يقدم على

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٢١٩

هكذا جريمة بشعة من غير أن تكون لها مقدمات اجتماعية و نفسية و اقتصادية عميقة الأثر و التأثير تدعوه لذلك ..

يقول المؤرخون: إنّ بداية وقوع هذا العمل القبيح كانت على أثر حرب جرت بين فريقين منهم فى ذلك الوقت، فأسر الغالب منهم

نساء و بنات المغلوب، و بعد مضى فترة من الزمن تمّ الصلح بينهم فأراد المغلوبون استرجاع أسراهم إلّا أنّ بعضا من الأسيرات ممن تزوجن من رجال القبيلة الغالبة اخترن البقاء مع الأعداء و رفضن الرجوع إلى قبيلتهن، فصعب الأمر على آبائهن بعد أن أصبحوا محلا للوم و الشماتة، حتى أقسم بعضهم أن يقتل كل بنت تولد له كى لا تقع مستقبلا أسيرة بيد الأعداء! و يلاحظ بوضوح ارتكاب أفظع جناية ترتكب تحت ذريعة الدفاع عن الشرف و الناموس و حيثية العائلة الكاذبة .. فكانت النتيجة: ظهور بدعة و أد البنات القبيحة و انتشارها بين جمع منهم حتى أصبحت سنّة جاهلية، و لفظاعتها فقد أنكرها القرآن الكريم بشدّة بقوله: وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۱۳۰].

و ثمّة احتمال آخر يذهب إلى دور الطبيعة الإنتاجية للأولاد الذكور، و النزوع إلى الطبيعة الاستهلاكية عند الإناث، و ما له من أثر على الحياة الاجتماعية و الاقتصادية، فالولد الذكر بالنسبة لهم ذخر مهم ينفعهم فى القتال و الغارات و فى حفظ الماشية و ما شابه ذلك من الفوائد، فى حين أنّ البنات لسن كذلك.

و من جانب آخر .. فقد سببت الحروب و النزاعات القبلية قتل الكثير من الرجال و الأولاد ممّا أدى لاختلال التوازن فى نسبة الإناث إلى الذكور، حتى وصل وجود الولد الذكر عزيزا و دفع الرجل لأن يتباهى بين قومه حين يولد له مولود ذكرا، و ينزعج و يتألم عند ولادة البنت .. و وصل حالهم لحد (كما يقول عنه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۰

بعض المفسّرون) أنّ الرجل فى الجاهلية يغيّب نفسه عن داره عند قرب وضع زوجته لئلا تأتيه بنت و هو فى الدار! و إذا ما أخبروه بأنّ المولود ذكر فيرجع إلى بيته و بشائر الفرح تتعالى وجنتيه، و لكنّ الويل كل الويل و الثبور فيما لو أخبروه بأنّ المولود بنتا و يمتلئ غيظا و غضبا[۱۳۱].

و قصّة «الوأد» ملأى بالحوادث المؤلمة ...

منها: ما

روى أنّ رجلا- جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأعلن إسلامه، و جاءه يوما فسأله: إنّى أذنبت ذنبا عظيما فهل لى من توبة؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ اللّه تواب رحيم». قال: يا رسول اللّه إنّ ذنبى عظيم قال: «ويلك مهما كان ذنبك عظيما فعفو اللّه أعظم منه»، قال: لقد سافرت فى الجاهلية سفرا بعيدا و كانت زوجتى حبلى و عند ما عدت بعد أربع سنوات استقبلتنى زوجتى فرأيت بنتا فى الدار، فقلت لها: ابنة من هذه؟ قالت: ابنة جازنا. فظننت أنّها سترحل عن دارنا بعد ساعة، فلم تفعل، ثمّ قلت لزوجتى: أصدقينى من هذه البنت؟ قالت: ألا تذكر أنّى كنت حاملة عند ما سافرت، إنّها ابنتك. فنمت تلك الليلة مغتما، أنام و استيقظ، حتى اقترب وقت الصباح نهضت من فراشى و ذهبت إلى فراش ابنتى فأخرجتها و أيقظتها و طلبت منها أن تصحبنى إلى حائط النخل، فتبعتنى حتى اقتربنا من الحائط فأخذت بحفر حفيرة و هى تعيننى على ذلك، و عند ما انتهيت من ذلك وضعتها فى وسط الحفرة .. و هنا فاضت عينا رسول اللّه بالدمع .. ثمّ وضعت يدى اليسرى على كتفها و أخذت أهيل التراب عليها بيدى اليمنى، فأخذت تصرخ و تدافع بيديها و رجليها و تقول: أبى ما تصنع بى!؟ ثمّ أصاب لحيتى بعض التراب فرفعت يدها تمسحه عنها، و أدمت ذلك حتى دفنتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۱

فقال رسول اللّه و هو يمسح دموعه: «لو لا أن سبقت رحمة اللّه غضبه لعجل اللّه لك العذاب»[۱۳۲].

و كذلك ما

روى فى (قيس بن عاصم) أحد أشرف و رؤساء قبيلة بنى تميم فى الجاهلية، و قد أسلم عند ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،

جـاء يوما إلى النّبى و قال له: أنّ آباءنا كانوا يـدفنون بناتهم أحياء، و قـد دفنت أنا (۱۲) بنتا، و عنـد ما ولـدت لى زوجتى البنت الثّالثة عشر أخفت أمرها و ادّعت أنّها ماتت عنـد الولادة، ثمّ أودعتها آخرين، و عنـد ما علمت بـذلك بعـد مـدّة، أخذتها إلى مكان بعيد و دفنتها حيّة دون أن أعتنى ببكائها و تضرعها.

فتـأذى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من ذلـك فقـال و دموعه جاريـة: «من لا يرحم لا يرحم» ثمّ التفت إلى قيس و قال: «إنّ لك يوما سيئا»، فقال قيس: ما أفعل لتكفير ذنبى؟ فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «حرر من العبيد بعدد ما و أدت»[۱۳۳].

و روى أيضا أن (صعصعة بن ناجية) جد الفرزدق الشاعر المعروف، و كان رجلا شريفا حرّا فقيل: إنّه كان فى الجاهلية يحارب الكثير من العادات القبيحة حتى أنّه اشترى (۳۶۰) بنتا من آبائهن كى ينقذهن من القتل، و قد أعطى يوما دابته مع بعيرين لأب كان يريد قتل ابنته.

و

قال له الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذات مرّة (فى ما معناه): ما أحسن ما صنعت و أجرك عند اللّه.

و قال الفرزدق فخرا بعمل جده:

و منّا الذى منع الوائداتفأحيا الوئيد فلم توئد[۱۳۴]

و سنرى كيف أنّ الإسلام قد أصم تلك الفواجع العظام، و اعتبر للمرأة مكانة ما كانت تحظى بها من قبل على مر العصور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۲۲۲

۳- دور الإسلام فى إعادة اعتبار المرأة:

لم يكن احتقـار المرأة مختصـا بعرب الجاهليـة، فلم تلق المرأة أدنى درجـات الاـحترام و التقـدير حتى فى أكثر الأمم تمـدنا فى ذلك الزمان، و كانت المرأة غالبا ما يتعامل معها باعتبارها بضاعة و ليست إنسانا محترما، و لكنّ عرب الجاهلية جسدوا تحقير المرأة بأشكال أكثر قباحة و وحشية من غيرهم، حتى أنّهم ما كانوا يدخلونهن فى الأنساب كما نقرأ ذلك فى الشعر الجاهلى المعروف:

بنونا بنو ءابائنا و بناتنابنوهن أبناء الرجال الأباعد

و كانوا أيضا لا يورثون النساء، و لم يجعلوا لتعدد الزوجات حدّا، و عملية الزواج أو الطلاق أسهل من شربة الماء عندهم.

و عنـد ما ظهر الإسـلام حارب بشـدّة هـذه المهانة من كافة أبعادها، و بالخصوص مسألة اعتبار ولادة البنت عارا، حتى وردت الرّوايات الكثيرة التى تؤكّد على أنّ البنت باب من أبواب رحمة اللّه للعائلة.

و أولى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ابنته فاطمـة الزهراء عليهـا السّـلام من الاحترام ما جعل الناس فى عجب من أمره، حيث كان صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مع ما يحظى به من شرف و مقام، كان يقبل يد الزهراء عليها السّلام، و عند ما يعود من السفر يذهب إليها قبل أى أحد. و عند ما يريد السفر كان بيت فاطمة الزهراء عليها السّلام آخر بيت يودّعه.

و حينما أخبر بولادة الزهراء عليها السّلام، رأى الانقباض فى وجوه أصحابه

فقال على الفور: «ما لكم! ريحانة أشمها، و رزقها على اللّه عزّ و جل»[۱۳۵].

و

فى حديث أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «نعم الولد البنات ملطفات، مجهزات، مؤنسات، مفليات»[۱۳۶].

و

فى حديث آخر: «من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل الصدقة إلى قوم محاويج، و ليبدأ بالإناث قبل الذكور،

فإنّه من فرّح ابنته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۲۲۳

فکأنّما أعتق رقبة من ولد إسماعیل»[۱۳۷].

فالاحترام الذی أولاه الإسلام للمرأة قد أعاد لها شخصیتها الضائعة بین حولک الجاهلیة، و حررها من العادات البالیة، و أنهى عصر تحقیرها.

و إن کان غور هذا الموضوع یستلزم التفصیل فستنطرق إلى ذلک فی تفسیرنا للآیات المناسبة له، و لکنّ ما یحز فی النفوس و لا یمکن السکوت عنه ما یشاهد فی کثیر من مجتمعاتنا الإسلامیة من آثار لنفس ذلک التوجه الجاهلی الموبوء، فإلى الآن نرى الکثیر من العوائل تفرح و تسر عند ما یأتیها مولود ذکر، و تتأسف و تتأفف عند ما تکون المولودة بنتا! و على أقل التقادیر ترجح ولادة الولد على البنت!.

من الممکن أن تکون الظروف الخاصة اقتصادیا و اجتماعیا، المرتبطة بوضع المرأة فی مجتمعاتنا، عاملا على وجود عادات و حالات خاطئة، إلّا أنّه ینبغی على المؤمنین المخلصین مکافحة هذا النمط من التفکیر و اقتلاع جذوره الاجتماعیة و الاقتصادیة، فالإسلام لا یقبل من أتباعه بعد (۱۴) قرن العود إلى أفکار الجاهلیة المقیتة .. فهذا السلوک فی واقعة نوع من الجاهلیة الثّانیة.

و لا ینبغی أن تأخذنا التصورات السارحة فنرى عن بعد أن المرأة قد نالت مناها فی عالم الغرب و أنّها تحظى من الاحترام و التحرر ما تحسد علیه! فالحیاة العملیة فی الغرب تؤکّد بما لا یقبل الشک أنّ المرأة هناک محتقرة، و قد جعلت لعبة مبتذلة و وسیلة رخیصة لإشباع الشهوات أو وسیلة إعلان للبضائع و المنتوجات ۱۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۲۲۴

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۶۱ الى ۶۴]

اشارة

وَ لَوْ یُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَکَ عَلَیْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا یَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا یَسْتَقْدِمُونَ (۶۱) وَ یَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما یَکْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْکَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (۶۲) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِکَ فَزَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِیُّهُمُ الْیَوْمَ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۶۳) وَ ما أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ إِلاَّ لِتُبَیِّنَ لَهُمُ الَّذِی اخْتَلَفُوا فِیهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۶۴)

التّفسیر

وسعت رحمته غضبه:

بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن جرائم المشرکین البشعة فی وأدهم للبنات، یطرق بعض الأذهان السؤال التالی: لما ذا لم یعذب اللّه المذنبین بسرعة نتیجة لما قاموا به من فعل قبیح و ظلم فجیع؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۲۲۵

و الآیة الأولى (۶۱) تجیب بالقول: وَ لَوْ یُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَکَ عَلَیْها مِنْ دَابَّةٍ[۱۳۹].

«الدابة»: یراد بها کل کائن حی، و یمکن أن یراد بها هنا (الإنسان) خاصّة بقرینة (بظلمهم).

أی: إنّ اللّه لو یؤاخذ الناس علی ما ارتکبوه من ظلم لما بقی إنسان علی سطح البسیطة.

و یحتمل أیضا إرادة جمیع الکائنات الحیّة، لعلمنا بأنّ هذه الکائنات إنّما خلقت و سخرت للإنسان کما یقول القرآن فی الآیة (۲۹) من سورة البقرة: هُوَ الَّذِی خَلَقَ لَکُمْ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً، فعند ما یذهب الإنسان فسینتفی سبب وجود الکائنات الأخری و ینقطع نسلها.

و هنا یواجهنا السؤال التالی: لو نظرنا إلی سعة مفهوم الآیة و عمومیتها فإنّها تدل فی النتیجة علی أنّه لا یوجد علی الأرض إنسان غیر ظالم، فالکلّ ظالم کلّ حسب قدره و شأنه، و لو نزل العذاب الفوری السریع و الحال هذه لما بقی إنسان علی سطح الأرض ... مع إنّنا نعلم أنّ هناک من لا یصدق علیه هذا المعنی، فالأنبیاء و الأئمّة المعصومون علیهم السّلام خارجون عن شمولیة هذا المعنی، بل فی کل زمان و مکان ثمة من تزید حسناته علی سیئاته من الصالحین المخلصین و المجاهدین ممن لا یستحقون العذاب المهلک أبدا ..

و الجواب علی ذلک أنّ الآیة تبیّن حکما نوعیا و لیس حکما عاما شاملا للجمیع و نظیر ذلک کثیر فی الأدب العربی.

و من الشواهد علی ذلک: الآیة (۳۲) من سورة فاطر حیث تقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْکِتابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَیْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۲۲۶

. فنری الآیة تتطرق إلی ثلاثة أقسام: ظالم، صاحب ذنوب خفیفة، و سابق بالخیرات .. و من المسلم به أنّ القسم الأوّل هو المقصود فی الآیة مورد البحث دون القسمین الآخرین، و لا عجب من تعمیم الآیة، لأنّ هذا القسم یشکل القسم الأکبر من المجتمعات البشریة.

و یتّضح من خلال ما ذکر أنّ الآیة لا تنفی عصمة الأنبیاء، أمّا من یعتقد بخلاف ذلک فقد غفل عن القرائن الموجودة فی العبارة من جهة، و لم یلتفت إلی ما توحی إلیه بقیة الآیات القرآنیة بهذا الخصوص.

و یضیف القرآن الکریم قائلا: وَ لکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا یَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا یَسْتَقْدِمُونَ

بل یدرکهم الموت فی نفس اللحظة المقررة.

بحث

ما هو الأجل المسمی؟

للمفسّرین بیانات کثیرة بشأن المراد من «الأجل المسمی» و لکن بملاحظة سائر الآیات القرآنیة، و من جملتها الآیة (۲) من سورة الأنعام، و الآیة (۳۴) من سورة الأعراف، یبدو أنّ المراد منه وقت حلول الموت، أی: إنّ اللّه عزّ و جلّ یمهل الناس إلی آخر عمرهم المقرر لهم إتماما للحجة علیهم، و لعل من ظلم یعود إلی رشده و یصلح شأنه فیکون ذلک العود سببا لرجوعه إلی بارئه الحق و إلی العدالة.

و یصدر أمر الموت بمجرّد انتهاء المهلة المقررة، فیبدأ بعقابهم من بدایة اللحظات الأولی لما بعد الموت.

و لأجل المزید من الإیضاح حول مسألة (الأجل المسمی) راجع ذیل الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۲۲۷

رقم (۲) من سورة الأنعام و کذا ذیل الآیة (۳۴) من سورة الأعراف.

و یعود القرآن الکریم لیستنکر بدع المشرکین و خرافاتهم فی الجاهلیة (حول کراهیة المولود الأنثی و الإعتقاد بأنّ الملائکة إناثا، فیقول: وَ یَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما یَکْرَهُونَ

فهـذا تناقض عجيب- و كما جاء فى الآيهٔ (۲۲) من سورهٔ النجم تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى فإن كانت الملائكهٔ بنات اللّه سبحانه و تعالى فينبغى أن تكون البنـات أمرا حسـنا، فلمـا ذا تكرهون ولادتهـا؟! و إن كانت شـيئا سيئا فلما ذا تنسبونها إلى اللّه؟! و مع كل ذلك .. وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى

فبأى عمل تنتظرون حسنى الثواب؟! أ بوأدكم بناتكم؟! أم بافترائكم على اللّه؟! ..

و جـاءت «الحسـنى» (و هى مؤنث أحسن) هنـا بمعنى أفضـل الثواب أو أفضل العواقب، و ذلك ما يـدعيه أولئك المغرورون الضالون لأنفسهم مع كل ما جاؤوا به من جرائم! و هنا يطرح السؤال التالى نفسه: كيف يقول عرب الجاهلية بذلك و هم لا يؤمنون بالمعاد؟

و الجواب: أنّهم لم ينكروا المعاد مطلقا، و إنّما كانوا ينكرون المعاد الجسمانى، و يستوعبون مسألهٔ عودهٔ الإنسان إلى حياته المادية مرّهٔ أخرى.

إضافهٔ إلى إمكان اعتبار قولهم قضيهٔ شرطيهٔ، أى: إن كان هناك معاد حقّا فسيكون لنا فى عالمه أفضل الجزاء! و هكذا هو تصور كثير مـن الجبـابرهٔ و المنحرفيـن فبـالرغم من بعـدهم عن اللّه تعـالى يعتـبرون أنفسـهم أقرب النـاس إليه، و يتشـدّقون بادّعـاءهٔ هزيلـهٔ مـدعاهٔ للسخريهٔ!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۸

و احتمل بعض المفسّرين أيضا أنّ «الحسنى» تعنى نعمهٔ الأولاد الذكور، لأنّهم يعتبرون البنات سوءا و شرّا، و البنين نعمهٔ و حسنى.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صوابا، و لهذا يقول القرآن، و بلا فاصلهٔ:

لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ، أى: أنّهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبهٔ فقط، بل و «لهم النّار» وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ أى: من المتقدمين فى دخول النّار.

و المفرط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

و ربّما يراود البعض منّا الاستغراب عنـد سـماعهٔ لقصهٔ عرب الجاهلية فى وأدهم للبنات، و يسأل: كيف يصدّق أن نسـمع عن إنسان ما يدفن فلذهٔ كبده بيده و هى على قيد الحياهٔ؟! ..

و كأنّ الآيهٔ التاليهٔ تجيب على ذلك: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ

نعم، فللشيطان وساوس يتمكن من خلالها أن يصور أقبـح الأعمال و أشـنعها جميلـهٔ فى نظر البعض بحيث يعتبرها مجالا للتفاخر! كما كانوا يعتبرون وأد البنات شـرفا و فخرا و حفظا لناموس و كرامـهٔ القبيلـهٔ! ممّا يحدو ببعض المغفلين لأن يتفاخر بالقول: لقد دفنت ابنتى اليوم بيـدى كى لا تقع غـدا أسيرهٔ فى يد الأعداء! فإنّ كان الشـيطان يزيّن أقبح الأعمال مثل وأد البنات بنظر بعض الناس بهذه الحال، فحال بقيهٔ الأعمال معلوم.

و نرى فى يومنـا الكثير من أعمـال الناس التى سـيطر عليها زخرف الشـيطان، فراحوا ينعتون سـرقاتهم و جرائمهم بعبارات تبـدو مقبولهٔ فيخفون حقيقتها فى طى زخرف القول.

ثمّ يضـيف القرآن: إن مشـركى اليوم على سـنّهٔ من سـبقهم من الماضـين من الذين زينوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشـيطان فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ يستفيدون ممّا يعطيهم إيّاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۹

و لهذا .. وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

و للمفسّـرين بيانات كثيرهٔ فى تفسير فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ و لعل أوضحها ما قلناه أعلاه، أى: إنّها إشارهٔ إلى أنّ المشركين فى عصر الجاهلية إنّما هم على خطى الأمم المنحرفهٔ السابقهٔ، و الشيطان رائد مسيرتهم و الموجه لهم كما كان للماضين ۱۴۰].

و يحتمل تفسيـرها أيضا بأنّ المقصود من فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ أنّه لا تزال بقايا الأمم المنحرفـهٔ السابقهٔ موجودهٔ إلى اليوم، و لا زالوا يعملون بطريقتهم المنحرفهٔ، و الشيطان وليهم كما كان سابقا.

و تبيّن آخر آية من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، و لتؤكّد حقيقة:
أنّ الأقوام و الأمم لو اتبعت الأنبياء و تخلت عن أهوائها و رغباتها الشخصية لما بقى أثر لأى خرافة و انحراف، و لزالت تناقضات الأعمال، فتقول: وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
ليخرج وساوس الشيطان من قلوبهم، و يزيل حجاب النفس الأمارة بالسوء عن الحقائق لتظهر ناصعة براقة، و يفضح الجنايات و الجرائم المختفية تحت زخرف القول، و يمحو أىّ أثر للاختلافات الناشئة من الأهواء، فيقضى على القساوة بنشر نور الرحمة و الهداية ليعم الجميع فى كل مكان.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۰

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۵ الى ۶۷]

اشارة

وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۶۷)

التّفسير

المياه، الثمار، الأنعام:

مرّة أخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم و العطايا الإلهية الكثيرة، تأكيدا لمسألة التوحيد و معرفة اللّه، و إشارة إلى مسألة المعاد، و تحريكا لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، و من خلال هذا التوجيه الرّبانى تتّضح علاقة الربط بين هذه الآيات و ما سبقها من آيات.
فالآية الأخيرة من الآيات السابقة تناولت مسألة نزول القرآن و ما فيه من حياة لروح الإنسان، و بنفس السياق تأتى الآية الأولى من الآيات مورد البحث لتتناول نزول الأمطار و ما فيها من حياة لجسم الإنسان: وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۱
فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ
لقد تناولت آيات قرآنية كثيرة مسألة إحياء الأرض بواسطة نزول الأمطار من السماء، فكم من أرض يابسة أو ميتة أحيانا أو أصابها الجفاف فأخرجها عن مجال الاستفادة من قبل الإنسان، و نتيجة لما وصلت إليه من وضع قد يخيل للإنسان أنّها أرض غير منبتة أصلا، و لا يصدّق بأنّها ستكون أرض معطاء مستقبلا- و لكنّ، بتوالى سقوط المطر عليها و ما يثبت عليها من أشعة الشمس، ترى و كأنّها ميت قد تحرك حينما تدب فيه الروح من جديد، فتسرى فى عروقها دماء المطر و تعادلها الحياة، فتعمل بحيويه و نشاط و تقدم أنواع الورود و النباتات، و من ثمّ تتجه إليها الحشرات و الطيور و أنواع الحيوانات الأخرى من كل جانب، و بذلك ... تبدأ عجلة الحياة على ظهرها بالدوران من جديد.
و خلاصة المقال أنّه سيبقى الإنسان مبهوتا أمام تحول الأرض الميتة إلى مسرح جديد للحياة، و هذا بحق من أعظم عجائب الخلقة.
و هذا المظهر من مظاهر قدرة و عظمة الخالق عزّ و جلّ يدلل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد، و ما ارتداء الأموات لباس الحياة

الجدید إلّا أمر خاضع لقدرته سبحانه.

و إنّ نعمة الأمطار (التی لا یتحمل الإنسان أی قسط من أمر إیجادها) دلیل آخر علی قدرة و عظمة الخالق سبحانه.

و بعد ذکر نعمة الماء (الذی یعتبر الخطوة الأولی علی طریق الحیاة) یشیر القرآن الکریم إلی نعمة وجود الأنعام، و بخصوص ما یؤخذ منها من اللبن کمادة غذائیة کثیرة الفائدة، فیقول: وَ إِنَّ لَکُمْ فِی الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً.

و أیة عبرة أکثر من أن: نُسْقِیکُمْ مِمَّا فِی بُطُونِهِ مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِینَ

«الفرث» لغة: بمعنی الأغذیة المهضومة فی المعدة و التی بمجرّد وصولها إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۲

الأمعاء تزود البدن بمادتها الحیاتیة، بینما یدفع الزائد منها إلی الخارج .. فما یهضم من غذاء داخل المعدة یسمّی «فرثا» و ما یدفع إلی الخارج یسمّی (روثا).

و نعلم بأنّ جدار المعدة لا یمتص إلّا مقدارا قلیلا من الغذاء (کبعض المواد السکریة) و القسم الأکبر منه ینتقل إلی الأمعاء کی یمتص الدم ما یحتاجه منه.

و کما نعلم أیضا بأنّ اللبن یترشح من غدد خاصّة داخل ثدی الإناث، و مادته الأصلیة تؤخذ من الدم و الغدد الدهنیة.

فهذه المادة الناصعة البیاض ذات القوّة الغذائیة العالیة تنتج من الأغذیة المهضومة المخلوطة بالفضلات، و من الدم.

و العجب یمکن فی استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عین ملوثة! و بعد حدیثه عن الأنعام و ألبانها یتناول القرآن ذکر النعم النباتیة، فیقول:

وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِیلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ

«السکر» لغة، له معانی مختلفة، إلّا أنّه هنا بمعنی: المسکرات و المشروبات الکحولیة (و هو المعنی المشهور من تلک المعانی).

و ممّا لا یقبل الشک أنّ القرآن لا یجیز فی هذه الآیة صنع المسکرات من التمر و العنب أبدا، و إنّما جاء ذکر المسکرات هنا لمقابلته ب رِزْقاً حَسَناً و کإشارة صغیر لتحریم الخمر و نبذه. و علی هذا .. فلا حاجة للقول بأنّ هذه الآیة نزلت قبل تحریم الخمر أو أنّها تشیر إلی تحلیله، بل حقیقة التعبیر القرآنی یشیر إلی التحریم، و لعل الآیة کانت تمثل الإنذار الأوّل للتحریم.

و قد تبدو العبارة و کأنّها جملة اعتراضیة بین قوسین داخل الآیة القرآنیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۳

بحوث

۱- کیف یتکوّن اللبن؟

یقول القرآن الکریم فی ذلک کما فی الآیات أعلاه: إنّه یخرج من بین «فرث»- الأغذیة المهضومة داخل المعدة- و «دم».

و قد أثبت ذلک فیزیولوجیا: حیث أنّه عند ما یتمّ هضم الغذاء داخل المعدة و یکون جاهزا للامتصاص ینتشر داخل المعدة و الأمعاء بشکل واسع و أمام الملایین من العروق الشعیریة، فتمتص منه العناصر المفیدة المطلوبة لتوصلها إلی تلک الشجرة ذات الجذور التی تنتهی عروقها عند عروق الثدی.

عند ما تتناول المرأة الحامل الغذاء تنتقل عصارته إلی الدم الذی یجری فی عروقها حتی یصل نهایة العروق المجاورة لعروق الجنین لیتغذی الجنین بهذه الطریقة ما دام فی بطن أمه، و عند ما ینفصل عن أمّه یتحول طریق تغذیته إلی الثدی .. و هنا لا تستطیع الأم أن

تصل دمها إلى دم ولدها، و لذلک ینبغی تصفیة الغذاء و تغییر حالته بما ینسجم و الوضع الجدید للطفل، و هنا ... یتکون اللبن من بین فرث و دم، أی: من بین ما تتناوله الأم الذی یتحول إلى فرث و ما ینتقل من مواده إلى الدم لیتکون منه اللبن.

فاللبن فی حقیقة .. شیء وسط بین الفرث و الدم، فلا هو دم مصفى و لا هو غذاء مهضوم، و هو أعلى من الثّانی و دون الأوّل! علما بأنّ الثدی یستفید من الحوامض الأمینیة المخزونة فی البدن فقط فی صناعة المواد البروتینیة للبن.

و ثمّة مکونات أخرى للبن لا توجد فی الدم و إنّما تنتجها غدد خاصّة فی الثدی (کالکازوئین).

و البعض الآخر من المکونات یأتی من ترشح بلازما الدم مباشرة: و یدخل فی تکوین اللبن من دون أی تغییر (کالفیتامینات و ملح الطعام و الفوسفات).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۴

أمّا سکر اللاکتوز الموجود فی اللبن فیؤخذ من السکر الموجود فی الدم بعد أن تجرى علیه الغدد الخاصّة فی الثدی التغییرات اللازمة لتحویله إلى نوع جدید من السکر.

و مع أنّ إنتاج اللبن یکون عن طریق جذب المواد الغذائیة بواسطة الدم، و من خلال الارتباط المباشر بین الدم و غدد الثدی، إلّا أنّنا لا نلاحظ أیّ أثر لرائحة الفرث أو لون الدم فیه، بل یبدأ اللبن بالترشح من ثدی الأم بلون جدید و رائحة خاصّة به.

و من لطیف ما ینقل عن العلماء المتخصصین أنّ إنتاج لتر واحد من اللبن فی الثدی یحتاج بما لا یقل عن عبور (۵۰۰) لتر من الدم خلال الثدی لیستطیع من امتصاص المواد اللازمة لإنتاج اللبن، کما یلزم لإنتاج لتر واحد من الدم عبور مواد غذائیة کثیرة من الأمعاء ... و بهذا یتّضح لنا معنى مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ کاملا[۱۴۱].

۲- أهم ما فی اللبن من مواد غذائیة

اللبن ملیء بالمواد الغذائیة المختلفة التی تشکل مع بعضها مجموعة عذائیة کاملة.

فالمواد المعدنیة فی اللبن، عبارة عن: الصودیوم، البوتاسیوم، الکالسیوم، المغنیسیوم، النحاس، قلیل من الحدید بالإضافة إلى الفسفور و الکلور و غیرها.

و یوجد فی اللبن کذلک غاز الأوکسجین و حامض الکاربونیک.

أمّا المواد السکریة فموجودة بکمیة کافیة على شکل (لاکتوز).

و الفیتامینات المحلولة فی اللبن عبارة عن: فیتامین ب، پ، آ، د.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۵

و قد أثبت العلم الحدیث أنّ الحیوان الذی یتغذى بشکل جید یکون لبنه حاویا لکافة أنواع الفیتامینات، و أصبح بدیهیا أنّ اللبن الطازج یعتبر غذاء کاملا.

و لا یمکن لنا تفصیل ذلک فی هذا البحث المختصر.

و لعل ما

روی عن النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم من قوله: «لیس یجزی مکان الطعام و الشراب إلّا اللبن»

إشارة لهذا السبب.

و نقرأ فی روایات أخرى عن اللبن أنّه یزید فی عقل الإنسان، و یحد النظر، و یرفع النسیان، و یقوی القلب و الظهر (کما أصبح معلوما أن هذه الآثار لها ارتباط وثیق بما فی اللبن من مواد حیاتیة)[۱۴۲].

۳- اللبن .. غذاء خالص و سهل الهضم

لقد أكّدت الآيات أعلاه على ميزتين مهمتين للبن- كونه «خالصا»، و «سائغا» أى لذيذا و سريع الهضم- و كما هو المعروف عن اللبن من كونه غذاء كثير الفائدة على الرغم من قلّة حجمه. و «خالص» أى خال من المواد الزائدة و بذات الوقت فهو سهل الهضم بالشكل الذى جعل ملائما لأى إنسان و على مختلف الأعمار- منذ الطفولة حتى الشيخوخة- و لهذا يعتمده المرضى كغذاء ملائم و مفيد و مقبول، و بالخصوص ما له من أثر فعال بالنسبة لنمو العظام، و لهذا يوصى بالإكثار من تناوله فى حالات كسور العظام و ما شابهها.

و من جملة معانى الخلوص هو (الربط)، و لعل البعض اعتمد على هذا المعنى فيما جاء فى التعبير القرآنى «خالصا»، و اعتبارهم من كون «خالصا» إشارة إلى تأثير اللبن الخالص فى بناء و ربط العظام.

و كذا نجد فى الإحكام الإسلامية الواردة حول الرضاعة ما يشير إلى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۶

المعنى بوضوح.

و يقول الفقهاء: إنّ الطفل لو رضع من غير أمّه حتى اشتدت عظامه و زاد لحمه فإنّ مرضعته ستحرم عليه (و ما يتبع ذلك فى من يعود إليه النسب).

و يقولون أيضا: إن (۱۵) رضاعة متوالية، أو رضاعة يوم و ليلة متصلة، يؤدى إلى هذه الحرمة أيضا.

و لو جمعنا القولين، ألا ينتج أن التغذية باللبن يوم و ليلة لها أثر فى تقوية العظام و زيادة اللحم!؟

و ينبغى الالتفات إلى أن التوجيهات الإسلامية أكّدت كثيرا على لبن «اللباء» هو أو ما ينزل من اللبن بعد الولادة، حتى لتقول بعض كتب الفقه إنّ حياة الطفل مرهونة به، و لهذا اعتبر إعطاء الطفل من حليب اللباء واجبا[۱۴۳].

و لعل ما فى الآية (۷) من سورة القصص حول موسى عليه السّلام يتعلق بهذا الموضوع أيضا وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۷

الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۸ الى ۶۹]

اشارة

وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (۶۸) ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۶۹)

التّفسير

وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ

اشارة

انتقل الأسلوب القرآنى بهاتين الآيتين من عرض النعم الإلهية المختلفة و بيان أسرار الخليقة إلى الحديث عن «النحل» و ما يدره من

منتوج (العسل) و رمز إلى ذلك الإلهام الخفى بالوحى الإلهى إلى النحل: أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ
و فى الآية المباركة جملة تعبيرات تستدعى التوقف و الدقّة:

۱- ما هو «الوحى»

«الوحى» فى الأصل (كما يقول الراغب فى مفرداته) بمعنى الإشارة السريعة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۳۸

ثمّ بمعنى الإلقاء الخفى.

و قد جاءت كلمة «الوحى» فى القرآن الكريم لترمز إلى عدّة أشياء، و لكنّها بالنتيجة تعود لذلك المعنى، منها:

وحى النّبوة: حيث نلاحظ وروده فى القرآن بهـذا المعنى كثيرا. كما فى الآية (۵۱) من سورة الشورى: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً ....

و منهـا: الوحى بمعنى «الإلهـام» سواء كـان الملهم منتبهـا لـذلك (كما فى الإنسان وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِ ۱۴۴]، أو مع عدم انتباه الملهم كالإلهام الغريزى (كما فى النحل) و هو ما ورد فى الآية مورد البحث.

و من المعروف أنّ الوحى فى هذا المورد يعنى الأمر الغريزى و الباعث الباطنى الذى أودعه اللّه فى الكائنات الحيّة.

و منها: أنّ الوحى بمعنى الإشارة، كما ورد فى قصّة زكريا فى الآية (۱۱) من سورة مريم فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا.

و منها أيضا: إيصال الرسالة بشكل خفى، كما فى الآية (۱۱۲) من سورة الأنعام يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً.

۲- هل يختص الإلهام الغريزى بالنحل؟

و إذا كان وجود الغرائز (الإلهام الغريزى) غير منحصر بالنحل دون جميع الحيوانات، فلما ذا ورد ذكره فى الآية فى النحل خاصّة؟

و الإجابة على السؤال تتّضح من خلال المقدمة التالية: إنّ الدراسة الدقيقة التى قام بها العلماء بخصوص حياة النحل، قد أثبتت أنّ هذه الحشرة العجيبة لها من التمدن و الحياة الاجتماعية المدهشة ما يشبه لحد كبير الجانب التمدنى عند

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۳۹

الإنسان و حياته الاجتماعية، من عدّة جهات.

و قـد توصـل العلمـاء اليوم لاكتشاف الكثير من أسـرار حياة هـذه الحشـرة و التى أوصـلتهم بقناعـة تامـة إلى توحيـد الخالق و الإذعان لربوبيته سبحانه و تعالى.

و أشار القرآن الكريم إلى ذلك الإعجاز بكلمـة «الوحى» ليبيّن أنّ حياة النحل لا تقاس بحياة الأنعام، و ليـدفعنا للتعمق فى عالم أسـرار هـذه الحشـرة العجيبـة، و لنتعرف من خلالها على عظمـة و قـدرة خالقها، و لعل «الوحى» هو التعبير الرمزى الذى اختصت به هذه الآية نسبة إلى الآيات السابقة.

۳- المهمّة الأولى فى حياة النحل:

و أوّل مهمّـة أمر بهـا النحـل فى هـذه الآيـة هى: بنـاء البيت، و لعـل ذلك إشارة إلى أن اتّخاذ المسـكن المناسب بمثابـة الشـرط الأوّل للحياة، و من ثمّ القيام ببقية الفعاليات، أو لعله إشارة إلى ما فى بيوت النحل من دقة و متانة، حيث أن بناء البيوت الشـمعية و السداسـية الأضلاع، و التى كانت منذ ملايين السنين و فى أماكن متعددة و مختلفة، قد يكون أعجب حتى من عملية صنع العسل ۱۴۵].

فكيف تضع هـذه المـادة الشـمعية الخاصـة؟ و كيف تبنى الخلايا السداسـية بتلك الهندسـة الدقيقـة؟ و بيوت النحل ذات هيئـة و أبعاد

محسوبة بدقة فائقة و ذات زوايا متساوية تماما، و مواصفاتها تخلو من أية زيادة أو نقصان ..

فقد اقتضت الحكمة الربانية من جعل بيوت النحل فی أفضل صورة و أحسن اختيار و أحكم طبيعة، و سبحان اللّه خالق كل شیء.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۰

۴- اين مكان النحل:

و قد عيّنت الآية المباركة مكان بناء الخلايا فی الجبال، و بين الصخور و انعطافاتها المناسبة، و بين أغصان الأشجار، و أحيانا فی البيوت التی يصنعها لها الإنسان.

و يستفاد من تعبير الآية أن خلايا النحل يجب أن تكون فی نقطة مرتفعة من الجبل أو الشجرة أو البيوت الصناعية ليستفاد منها بشكل أحسن.

و يذكر القرآن الكريم فی الآية التالية المهمّة الثّانية للنحل: ثُمَّ كُلِی مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِی سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا.

«الذلل»: (جمع ذلول) بمعنى التسليم و الانقياد.

و وصف الطرق بالذلل لأنّها قد عينت بدقّة لتكون مسلمة و منقادة للنحل فی تنقله، و سنشير إلى كيفية ذلك قريبا.

و أخيرا يعرض القرآن المهمّة الأخيرة للنحل (كنتيجة لما قامت به من مهام سابقة): يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فی طبيعة حياتها و ما تعطيه من غذاء للإنسان (فيه شفاء)، و هو دليل على عظمة و قدرة البارى عزّ و جلّ.

بحوث

اشارة

و فی الآية جملة بحوث قيمة أخرى:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۲۴۰

۱- مم يتكون العسل؟

يمتص النحل بعض المواد السكرية الخاصّة الموجودة فی مياسم الأوراد، و يقول خبراء النحل: إنّ عمل النحل فی واقعة لا ينحصر بأخذ المادة السكرية فقط، بل يتعدى ذلك فی بعض الأحيان للاستفادة من بعض أجزاء الورود

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۱

الأخرى، و كذا الحال مع الأثمار، و هو ما يشير إليه القرآن بقوله: مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ

و قد نقل قول عالم البيئة (مترلينك) بما يوضح التعبير القرآنی بشكل أوضح:

(لو قدّر أن تفنى أنواع النحل- الوحشی و الأهلی- فإنّ مائة ألف نوع من النباتات و الثمار و الأوراد ستفنى، أی أنّ تمدننا سيفنى أيضا)[۱۴۶]. ذلك لأنّ دور النحل فی نقل حبوب اللقاح من ذكر الأشجار إلى مياسم إناثها من الأهمية بحيث يجعل بعض العلماء

یعتقدون أن ذلک أهم من إنتاج العسل نفسه.

و الحقیقة أنّ ما یتناوله النحل من أنواع الثمار إنّما هو بالقوّة لا بالفعل، و لهذا فهو یساهم فی عملیة تکوینها، فما أشمل و أدق التعبیر القرآنی مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ

۲- السّبل المذللة!

لقد توصل العلماء المتخصصون بدراسة حیاة النحل إلی ما یلی: تخرج فی کل صباح مجموعة من النحل لمعرفة أماکن وجود الأوراد و تعیینها، ثمّ تعود إلی الخلیة لتخبر بقیة النحل عن أماکن الورود و الجهات التی ینبغی التوجه إلیها، و مقدار الفاصلة بین الورود و الخلیة.

و یستعمل النحل أحیانا لأجل تعیین طرق وصوله إلی الأوراد علامات خاصّة کأن یشخص طبیعة الروائح المنتشرة علی طول الطریق أو ما شابه ذلک، و ذلک لضمان عدم إضاعة الطریق ذهابا و إیابا.

و لعل عبارة فَاسْلُکِی سُبُلَ رَبِّکِ ذُلُلًا إشارة لهذه الحرکة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۲

۳- أین یصنع العسل؟

ربّما، إلی الآن یوجد من یتصور بأنّ النحل یمتص رحیق الأوراد و یجمعه فی فمه ثمّ یخزنه فی الخلیة، و هذا خلاف الواقع، فالنحلة تجمع الرحیق فی حفر خاصّة داخل بدنها یطلق علیها علمیا اسم (الحوصلة) و هی بمثابة معامل مختبرات کیمیاویة خاصّة تقوم بعملیات تحویل و تغییر مختلفة لرحیق الأزهار، حتی یصل إلی إنتاج العسل، الذی تقوم النحلة بإخراجه و جمعه فی الخلیة.

و المدهش أن سورة النحل مکیة، و کما هو معلوم بأنّ مکّة منطقة جافة لیس فیها نحل لعدم توفر النباتات و الأوراد التی یحتاجها و مع ذلک فالقرآن الکریم یتحدث بکل دقة عن النحل و یشیر إلی أدق أعماله (إنتاج العسل): یَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ

۴- ألوان العسل المختلفة

تتفاوت ألوان العسل وفقا لتنوع الأوراد التی یؤخذ رحیقها منها .. فیبدو أحیانا بلون اللبن القاتم، و أحیانا أخری یکون أصفر اللون، أو أبیض فضی، أو لیس له لون، و تارة تراه شفافا، و تارة أخری ذهبی أو تمری و قد تراه مائلا إلی السواد! و لهذا التفاوت فی اللون حکمة بالغة قد تبیّنت أخیرا مفادها: إنّ للون الغذاء أثّر بالغ فی تحریک رغبة الإنسان إلیه.

و هذه الحقیقة ما کانت خافیة علی القدماء أیضا، فکانوا یعتنون بإظهار لون الغذاء المشهی لدرجة کانوا یضیفون إلیه بعض المواد تحصیلا لما یریدون کإضافة الزعفران و ما شابهه.

و لهذا الموضوع بحوث مفصلة فی کتب التغذیة لا یسمح لنا المجال بعرضها کاملة خوفا من الابتعاد عن مجال التّفسیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۳

۵- العسل .. و الشفاء من الأمراض:

کما نعلم بأنّ للنباتات و الأوراد استعمالات علاجیة فعالة لکثیر من الأمراض، و لا زلنا نجهل الکثیر من فوائدها علی الرغم من کثرة ما عرفناه، و الشیء المهم فی موضوعنا ما توصل إلیه العلماء من خلال تجاربهم التی أکّدت علی أنّ للنحل من المهارة بحیث أنّه فی علمیة صنعه للعسل لم یبذر فیما تحویه النباتات و الأوراد من خواص علاجیة، فالنحل ینقل تلک الخواص بالکامل و یجعلها فی العسل! و قد صرّح العلماء بکثیر من تلک الخواص الوقائیة و العلاجیة و المقویة.

فالعسل: سریع الامتصاص من قبل الدم، و لهذا فهو غذاء مقوّ و مؤثر جدّا فی تکوین الدم.

و العسل: ینقی المعدة و الأمعاء من العفونة.

و العسل: رافع للیبوسة.

و هو علاج ضد الأرق (علی أن لا یتناول الکثیر منه، لأن الإکثار منه یقلل النوم).

و للعسل: رافع للیبوسة.

و هو علاج ضد الأرق (علی أن لا یتناول الکثیر منه، لأن الإکثار منه یقلل النوم).

و للعسل: أثر مهم فی رفع التعب و تشنج العضلات.

و العسل: یقوی الشبکیة العصبیة للأطفال (إذا ما أطعمت الأم أثناء الحمل).

و یرفع نسبة الکالسیوم فی الدم.

و نافع لتقویة الجهاز الهضمی (و بالخصوص لمن أبتلی بنفخ البطن).

و بما أنّه سریع الاحتراق فهو یعمل علی تولید الطاقة بسرعة فائقة بالإضافة لترمیمه للقوی.

و العسل أیضا: مقوّ للقلب، مساعد فی علاج أمراض الرئة، نافع للإسهال لخاصیته فی قتل المکروبات.

و یعتبر العسل عاملا مهما من عوامل معالجة قرحة المعدة و الاثنی عشری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۴

و هو دواء نافع لعلاج الروماتیزم، و نقصان قوّة نمو العضلات، و رفع الآلام العصبیة.

و بالإضافة إلی ذلک فهو نافع فی رفع السعال و عامل مهم لتصفیة الصوت.

و الخلاصة: إنّ خواص العسل العلاجیة أکثر من أن یحیط بها هذا المختصر.

و مع ذلک کله فإنّه یدخل فی صناعة الأدویة لتلطیف الجلد و للتجمیل، و یستعمل لطول العمر، و لعلاج و رم الفم و اللسان و العین، و یستعمل أیضا لمعالجة الإرهاق، و تشقق الجلد، و ما شابه ذلک.

أمّا المواد و الفیتامینات الموجودة فی العسل فکثیرة جدّا. و فیه من المواد المعدنیة: الحدید، الفسفور، البوتاسیوم، الیود، المغنیسیوم، الرصاص، النحاس، السلفور، النیکل، الصودیوم و غیرها.

و من المواد الآلیة فیه: الصمغ، حامض اللاکتیک، حامض الفورمیک، حامض السیتریک و التاتاریک و الدهون العطریة.

أمّا ما یحویه من الفیتامینات، ففیه، فیتامینات (أ، ب، ث، د، ک) (A ,B ,C ,D ,K).

و یعتقد البعض باحتوائه علی فیتامین (پ ب) (B P) أیضا.

و أخیرا: فالعسل علاج لصحة و جمال الإنسان.

و صرحت الرّوایات کذلک بخواص العسل العلاجیة، و

ورد الکثیر عن أمیر المؤمنین علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام و بعض الأئمّة المعصومین علیهم السّلام من أنّهم قالوا: «ما استشفی الناس بمثل العسل»[۱۴۷].

و

بروایة أخری: «لم یستشف مریض بمثل شربة عسل»[۱۴۸].

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من شرب العسل فی کل شهر مرّة یرید ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۵

جاء به القرآن، عوفی من سبعة و سبعین داء»[۱۴۹].

و ثمّة أحادیث أخری حول أهمیة العسل فی علاج آلام البطن.

و نذکر أنّ لکل حکم عام أو قاعدة کلیة استثناء، و لهذا فقد ورد النهی عن تناول العسل فی بعض الحالات النادرة.

۶- لِلنَّاسِ

و ممّا یجذب النظر أن خبراء النحل یرون کفایة امتصاص وردتین أو ثلاث لسد جوع النحلة، إلّا أنّها تحط علی (۲۵۰) وردة فی کل ساعة (کمعدل) و لأجل ذلک تقطع مسافة کیلومترات، و علی الرغم من قصر عمر النحلة، إلّا أنّها تنتج کمیة لا بأس بها من العسل، و قد لا یصدق کثرة ما تنتجه قیاسا لما تعیشه من عمر، و لکنّ ما تقوم به من مثابرة و عمل دؤوب لا یعرف الکلل و الملل قد هیأها لأن تقوم بهذا العمل الکبیر العجیب.

و کل ذلک السعی و تلک المثابرة لیس فی واقعه لملء بطنها بقدر ما عبّر عنه القرآن الکریم ب لِلنَّاسِ

۷- ملاحظات مهمّة بخصوص العسل:

أثبت العلم الحدیث أنّ العسل من المواد الغذائیة التی تبقی علی الدوام طازجة و سالمة و محافظة علی کل ما تحویه فی فیتامینات مهما طالت المدّة لأنّه من المواد غیر القابلة للفساد.

و یعزو العلماء سبب ذلک لوجود نسبة البوتاسیوم الوافیة فیه المانع من نمو الجراثیم، بالإضافة لاحتوائه علی بعض المواد المقاومة للعفونة کحامض الفورمیک فمضافا لکون العسل مانع من نمو الجراثیم، فهو قاتل لها أیضا و لهذا السبب فقد استعمله المصریون القدماء فی عملیة التحنیط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۶

و یقول العلماء: لا ینبغی حفظ العسل فی أوانی فلزیة.

و یقول القرآن فی هذا الجانب: ... مِنَ الْجِبالِ بُیُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا یَعْرِشُونَ أی: إنّ بیوت النحل لا ینبغی أن تکون إلّا بین الأحجار و الأخشاب.

و ملاحظة مهمّة أخری: للاستفادة من خواصه الصّحیحة و العلاجیة ینبغی عدم تعریضه لحرارة الطبخ. یعتقد البعض أنّ تعبیر القرآن بکلمة «شراب» إشارة لهذه المسألة، فهو من المشروبات و لیس من المأکولات کی یعرض لحرارة الطبخ.

و ثمة ملاحظة أخری: علی الرغم ممّا تسببه لسعة النحل من الألم، إلّا أن لهذا أثر علاجی أیضا، و مع ذلک و نتیجة لطبع النحل اللطیف فإنّه لا یلسع أحدا بلا سبب، بل نحن ندفعه إلی ذلک و نضطره لیلسعنا عن علم أو جهل.

و من الأسباب التی تدفع النحل للسع الإنسان: عدم ارتیاحه للروائح الکریهة، و عند ما یقترب الإنسان من الخلیة لجنی نتاج النحل فهی لا تلسعه إلّا إذا کانت یده ملوّثة أو أن فی لباسه رائحة کریهة، أو عند ما یمدّ الإنسان یده إلی خلیة ما و بدون أن یغسل یده یمدّها إلی خلیة أخری، فإن نحل الثّانیة ستسرع فی لسعه لأنه قد نقل إلیها رائحة خلیة أجنبیة! و علی الرغم من أنّ اللسع یحمل أهدافا دفاعیة، إلّا أنّه بالنسبة للنحل یعنی الانتحار لأنّه بمجرّد أن تقوم النحلة باللسع فإنّها قد کتبت علی نفسها مصیر الموت! و قد وضع العلماء المتخصصون برنامجا معینا لمعالجة الأمراض کالروماتیزم و المالاریا و الآلام العصبیة و غیرها عن طریق لسعات النحل، و إلّا فإنّ لسع النحل قد یؤدی إلی آلام مؤذیة تصل فی بعض حالاتها إلی مخاطر کبیرة.

و قد یتحمل الإنسان لسعة أو عدّة لسعات، و لکنّ الأمر حینما یصل إلی (۲۰۰- ۳۰۰) لسعة فإنّ ذلک سیؤدی إلی التسمم و اضطرابات فی القلب، و إذا ما وصل العدد إلی (۵۰۰) لسعة فسوف یؤدی إلی شلل الجهاز التنفسی، و ربّما یؤدی إلی الموت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۷

۸- عجائب حیاة النحل

کان القدماء یعرفون القدر الیسیر عن حیاة النحل، أمّا الیوم و نتیجة لدراسات العلماء الواسعة فقد تبیّن أن للنحل حیاة منظمة جدّا و یتخللها: تقسیم أعمال، توزیع مسئولیات و برنامج عمل دقیق جدّا.

و مدینة النحل: أکثر المدن نظافة، و أکثرها نظاما، کلّها عمل .. إنّها مدینة علی خلاف کل مدن البشر، فلیس فیها بطالة و لا فقر، و الکل یعیش حیاة تمدن جمیل ...

و کل أفراد المدینة یخضعون لقوانینها و لا تری مخالفا للضوابط القانونیة و لا مقصرا فی عمله إلّا ما ندر، و إذا ما حدث ذلک کأن تذهب إحدی النحلات إلی وردة کریهة الرائحة و تمتص رحیقها، فإنّها ستخضع للتفتیش عند أعتاب المدینة ثمّ تحاکم فی محکمة صحراویة، و الإعدام بالموت هو المعروف عن ارتکاب مثل هذه الأخطاء! یقول (مترلینک) عالم البیئة البلجیکی الذی أجری العدید من الدراسات حول حیاة النحل و النظام العجیب الذی یحکم مدنها: إنّ ملکة النحل (أو علی الأصح أمّ الخلیة) لا تعیش فی مدینتها، کما نتصور من سلطتها و إصدارها الأوامر، بل هی کسائر أفراد هذه المدینة فی إطاعتها للقواعد و الأنظمة الکلیة السائدة إنّنا لا نعلم کیف وضعت هذه القوانین و الأنظمة، و ننتظر أن نفهم هذا الأمر یوما ما، و نعرف واضع هذه المقررات، إلّا أنّنا نسمیه مؤقتا (روح الخلیة)!! إنّ الملکة تطیع روح الخلیة شأنها شأن بقیة الأفراد.

إنّنا لا نعلم أین توجد روح هذه الخلیة؟ و فی أی فرد من سکنة مدینة النحل قد حلّت؟

إلّا أنّنا نعلم أن روح الخلیة لیست شبیهة بغریزة الطیور، و نعلم أیضا أنّ روح الخلیة لیست عادة و إرادة عمیاء تحکم عنصر و نوع النحل، إنّ روح الخلیة تقوم بتحدید وظیفة کل فرد من أفراد الخلیة وفق استعداده، و توجه کل واحد منها نحو عمل معین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۸

إنّ روح الخلیة تأمر النحل المهندس و البناء و العامل ببناء البیوت، و هی التی تأمر سکنة المدینة جمیعا بالهجرة منها فی یوم معین و ساعة معینة، و تتجه نحو حوادث و مشاق غیر معلومة من أجل تحصیل مسکن و مأوی جدید! إنّنا لا نستطیع أن نفهم فی أی مجمع شوری قد طرحت قوانین مدینة النحل التی وضعتها روح الخلیة و اتخذ قرارها بتنفیذها، من یصدر الأمر بالحرکة فی الیوم المعین؟

نعم، إنّ فی الخلیة مقدمات هجرة من أجل إطاعة الإله الذی بیده مصیر النحل ۱۵۰].

إنّ العالم المذکور قد واجه الإبهام فی فهم هذه المسألة، لما علقت فی ذهنه من ترسبات الفکر المادی! و لکننا نفهم بیسر من أین جاءت تلک القوانین و البرامج؟ و من الآمر بها؟

و ذلک من خلال الاستهداء بنور القرآن.

ما أجمل ما عبّر عنه القرآن حین قوله: وَ أَوْحی رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ أو هل ثمـة تعبیر أوسع و أشـمل و أنطق من هـذا؟! لم نذکر فیما قلناه عن النحل إلّا النزر الیسیر لأنّ منهج التّفسیر لا یسمع لذا بمواصلة هذا الموضوع ۱۵۱].

و نظن کفایة هذا القدر للمتفکر السائر نحو معرفة عظمة اللّه: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۹

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۷۰ الی ۷۲]

اشارة

وَ اللَّهُ خَلَقَکُمْ ثُمَّ یَتَوَفَّاکُمْ وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلی أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِکَیْ لا یَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَیْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ قَدِیرٌ (۷۰) وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَکُمْ عَلی بَعْضٍ فِی الرِّزْقِ فَمَا الَّذِینَ فُضِّلُوا بِرَادِّی رِزْقِهِمْ عَلی ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُمْ فَهُمْ فِیهِ سَواءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ (۷۱) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَزْواجِکُمْ بَنِینَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَکُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ أَ فَبِالْباطِلِ یُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ یَکْفُرُونَ (۷۲)

التّفسیر

سبب اختلاف الأرزاق:

بیّنت الآیات السابقة قسـما من النعم الإلهیة المجعولة فی عالمی النبات و الحیوان، لتکون دلیلا حسـیا لمعرفته جل شأنه، و تواصل هذه الآیات مسألة إثبات الخالق جل و علا بأسلوب آخر، و ذلک بأن تغییر النعم خارج عن اختیار الإنسان، و ذلک کاشف بقلیل من الدقة و التأمل علی وجود المقدّر لذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۰

فیبتدأ القول ب وَ اللَّهُ خَلَقَکُمْ ثُمَّ یَتَوَفَّاکُمْ

فمنه الممات کما کانت الحیاة منه، و لتعلموا بأنّکم لستم خالقین لأی من الطرفین (الحیاة و الموت).

و مقدار عمرکم لیس باختیارکم أیضا، فمنکم من یموت فی شبابه أو فی کهولته وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلی أَرْذَلِ الْعُمُرِ[۱۵۲].

و نتیجة هذا العمر الموغل فی سنی الحیاة لِکَیْ لا یَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَیْئاً[۱۵۳].

فیکون کما کان فی مرحلـة الطفولـة من الغفلـة و النسـیان و عـدم الفهم .. نعم ف إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ قَدِیرٌ فکل القدرات بیده جل و علا، و عطاؤه بما یوافق الحکمة و المصلحة، و کذا أخذه لا یکون إلّا عند ما یلزم ذلک.

و یواصل القرآن الکریم اسـتدلاله فی الآیـة التالیة من خلال بیان أنّ مسألة الرزق لیست بید الإنسان و إنّما .. وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَکُمْ عَلی بَعْضٍ فِی الرِّزْقِ فأصحاب الثروة و الطول غیر مستعدین لإعطاء عبیدهم منها و مشارکتهم فیها خوفا أن یکونوا معهم علی قدم المساواة: فَمَا الَّذِینَ فُضِّلُوا بِرَادِّی رِزْقِهِمْ عَلی ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُمْ فَهُمْ فِیهِ سَواءٌ.

و احتمل بعض المفسّـرین أنّ الآیـة تشـیر إلی بعض أعمال المشـرکین الناتجـة عن حماقتهم، حینما کانوا یجعلون لآلهتهم من الأصـنام سهما من مواشیهم و محاصیلهم الزراعیة، بالرغم من عدم وجود أیّ أثر لتلک الأحجار و الأخشاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۱

علی حیاتهم! بل کان الأولی بهم لو التفتوا إلی خدمهم و عبیدهم لیعطوهم شیئا جزاء ما یقدمونه لهم من خدمات لیل نهار! ...

هل التفاضل فی الرّزق من العدالهٔ؟! ...

و هنا یواجهنا سؤال یطرح نفسه: هل أنّ إیجاد التفاوت و الاختلاف فی الأرزاق بین الناس، ینسجم مع عدالهٔ اللّه عزّ و جلّ و مساواته بین خلقه، التی ینبغی أن تحکم نظام المجتمع البشری؟

لأجل الإجابهٔ، ینبغی الالتفات إلی الملاحظتین التالیتین:

۱- إنّ الاختلاف الموجود بین البشر فی جانب الموارد المادیهٔ یرتبط بالتباین الناشئ بین الناس جزاء اختلاف استعداداتهم و قابلیتهم من واحد لآخر.

و التفاوت فی الاستعدادین الجسمی و الروحی یستلزم الاختلاف فی مقدار و نوعیهٔ الفعالیهٔ الاقتصادیهٔ للأفراد، ممّا یؤدی إلی زیادهٔ وارد بعض و قلّهٔ وارد البعض الآخر.

و لا شک أنّ بعض الحوادث و الاتفاقات لها دخل فی اثراء بعض الناس، الّا أنّه لا یمکن أن نعوّل علیها عند البحث لأنّها لیست أکثر من استثناء، أمّا الضابط فی أکثر الحالات فهو التفاوت الموجود فی کمیهٔ و کیفیهٔ السعی (و من الطبیعی أن بحثنا یتناول المجتمع السلیم و البعید عن الظلم و الاستغلال، و لا نقصد به تلک المجتمعات المنحرفهٔ التی ترکت قوانین التکوین و النظام الإنسانی جانبا و انزلقت فی طرق الظلم و الاستغلال).

و قد یساورنا التعجب حینما نجد بعض الفاقدین لأی مؤهل أو استعداد یتمتعون برزق وافر و جید، و لکننا عند ما نتجرّد عن الحکم من خلال الظواهر و نتوغل فی أعماق ممیزات ذلک البعض جسمیا و نفسیا و أخلاقیا، نجد أنّهم یتمتعون بنقاط قوهٔ أوصلتهم إلی ذلک (و نکرر القول بأنّ بحثنا ضمن إطار مجتمع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۲

سلیم خال من الاستغلال).

و علی أیهٔ حال .. فالتفاوت بین دخل الأفراد ینبع من التفاوت بالاستعدادات، و هو من المواهب و النعم الإلهیهٔ أیضا، و إن أمکن أن یکون بعض ذلک اکتسابیا، فالبعض الآخر غیر اکتسابی قطعا. فإذن وجود التفاوت فی الأرزاق أمر غیر قابل للإنکار من الناحیهٔ الاقتصادیهٔ، و یتمّ ذلک حتی داخل المجتمعات السلیمهٔ .. إلّا إذا افترضنا وجود مجموعهٔ أفراد کلهم فی هیئهٔ واحدهٔ من حیث: الشکل، اللون، الاستعداد و لا یعتریهم أیّ اختلاف! و إذا ما افترضنا حدوث ذلک فإنّه بدایهٔ المشاکل و الویلات! ۲- لو نظرنا إلی بدن إنسان ما، أو إلی هیکل شجرهٔ أو باقهٔ ورد، فهل سنجد التساوی بین أجزاء کل منها و من جمیع الجهات؟

و هل أنّ قدرهٔ و مقاومهٔ و استعداد جذور الشجرهٔ مساویهٔ لقدرهٔ و مقاومهٔ و استعداد أوراق الوردهٔ الظریفهٔ؟ و هل أن عظم قدم الإنسان لا یختلف عن شبکیهٔ عینه؟

و هل من الصواب أن نعبر کل ذلک شیئا واحدا؟! و لو ترکنا الشعارات الکاذبهٔ و الفارغهٔ من أیّ معنی، و افترضنا تساوی الناس من جمیع النواحی، فنملأ الأرض بخمسهٔ ملیارات من الأفراد ذوی: الشکل الواحد، الذوق الواحد، الفکر الواحد، بل و المتحدین فی کل شیء کعلبهٔ السجائر ..

فهل نستطیع أن نضمن أنّ حیاهٔ هؤلاء ستکون جیدهٔ؟ ستکون الإجابهٔ بالنفی قطعا، و سیحرق الجمیع بنار التشابه المفرط و الرتیب الکئیب، لأنّ الکل یتحرک فی جهـهٔ واحدهٔ، و الکل یرید شیئا واحدا، و یحبون غذاء واحدا، و لا یرغبون إلّا بعمل واحد! و بدیهیا ستکون حیاهٔ کهذه سریعهٔ الانقراض، و لو افترض لها الدوام، فإنّها ستکون متعبهٔ و رتیبهٔ و فاقدهٔ لکل روح. و بعبارهٔ أشمل سوف لا یبعدها عن الموت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۳

بون شاسع.

و علی هذا فحکمة وجود التفاوت فی الاستعدادات المستتبعة لهذا التفاوت قد ألزمتها ضرورة حفظ النظام الاجتماعی، و لیکون التفاوت فی الاستعدادات دافعا لتربیة و إنماء الاستعدادات المختلفة للأفراد. و لا یمکن للشعارات الکاذبة أن تقف فی وجه هذه الحقیقة التی یفرضها الواقع الموضوعی أبدا.

و لا ینبغی أن نفهم من هذا الکلام أنّنا نرید منه إیجاد مجتمع طبقی أو نظام استغلالی و استعماری، لا- أبدا .. و إنّما نقصد بالاختلافات التفاوت الطبیعی بین الأفراد (و لیس المصطنع) الذی یعاضد بعضه الآخر و یکمله (و لیس الذی یکون حجر عثرة فی طریق تقدم الأفراد و یدعو إلی التجاوز و التعدی علی الحقوق).

إنّ الاختلاف الطبقی (و المقصود من الطبقات هنا: ذلک المفهوم الاصطلاحی الذی یعنی وجود طبقة مستغلة و أخری مستغلة) لا ینسجم مع نظام الخلیقة أبدا، و لکنّ الموافق لنظام الخلیقة هو ذلک التفاوت فی الاستعدادات و السعی و بذل الجهد، و الفرق بین الأمرین کالفرق بین السماء و الأرض- فتأمل.

و بعبارة أخری، إن الاختلاف فی الاستعدادات ینبغی أن یوظف لخدمة مسیرة البناء، کما فی اختلاف طبیعة أعضاء بدن الإنسان أو أجزاء الوردة، فمع تفاوتها إلّا أنها لیست متزاحمة، بل إنّ البعض یعاضد البعض الآخر وصولا للعمل التام علی أکمل وجه.

و خلاصة القول: ینبغی أن لا یکون وجود التفاوت و الاختلاف فی الاستعدادات و فی الدخل الیومی للأفراد دافعا لسوء الاستفادة و ذلک بتشکیل مجتمع طبی ۱۵۴].

و لهذا یقول القرآن الکریم فی ذیل الآیة مورد البحث:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۴

أ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ

و ذلک إشارة إلی أن هذه الاختلافات فی حالتها الطبیعیة (و لیس الظالمة المصطنعة) إنّما هی من النعم الإلهیة التی أوجدها لحفظ النظام الاجتماعی البشری.

و تبدأ الآیة الأخیرة من الآیات مورد البحث بلفظ الجلالة «اللّه» کما کان فی الآیتین السابقتین، و لتتحدث عن النعم الإلهیة فی إیجاد القوی البشریة، و لتتحدث عن الأرزاق الطیبة أیضا تکمیلا للحلقات الثلاثة من النعم المذکورة فی آخر ثلاث آیات، حیث استهلت البحث بنظام الحیاة و الموت، ثمّ التفاوت فی الأرزاق و الاستعدادات الکاشف لنظام (تنوع الحیاة) لتنتهی بالآیة مورد البحث، حیث النظر إلی نظام تکثیر النسل البشری و .. الأرزاق الطیبة.

و تقول الآیة: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لتکون سکنا لأرواحکم و أجسادکم و سببا لبقاء النسل البشری.

و لهذا تقول و بلا فاصلة: وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَزْواجِکُمْ بَنِینَ وَ حَفَدَةً.

«الحفدة» بمعنی (حافد) و هی فی الأصل بمعنی الإنسان الذی یعمل بسرعة و نشاط دون انتظار أجر و جزاء، أمّا فی هذه الآیة- کما ذهب إلی ذلک أکثر المفسّرین- فالمقصود منها أولاد الأولاد، و اعتبرها بعض المفسّرین بأنّها خاصّة بالإناث دون الذکور من الأولاد.

و یعتقد قسم آخر من المفسّرین: أن «بنون» تطلق علی الأولاد الصغار، و «الحفدة» تطلق علی الأولاد الکبار الذین یستطیعون إعانة و مساعدة آبائهم.

و اعتبر بعض المفسّرین أنّها شاملة لکل معین و مساعد، من الأبناء کان أم من غیرهم ۱۵۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۵

و یبدو أن المعنی الأوّل (أولاد الأولاد) أقرب من غیره، بالرغم ممّا تقدم من سعة مفهوم «حفدة» فی الأصل.

و على أية حال فوجود القوى الإنسانية من الأبناء و الأحفاد و الأزواج للإنسان من النعم الإلهية الكبيرة التى أنعمها جل اسمه على الإنسان، لأنّهم يعينون ماديا و معنويا فى حياته الدنيا.

ثمّ يقول القرآن الكريم: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ

«الطيبات» هنا لها من سعة المفهوم بحيث تشمل كل رزق طاهر نظيف، سواء كان ماديا أو معنويا، فرديا أو اجتماعيا.

و بعد كل العرض القرآنى لآثار و عظمة قدرة اللّه، و مع كل ما أفاض على البشرية من نعم، نرى المشركين بالرغم من مشاهدتهم لكل ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام و يتركون السبيل التى توصلهم إلى جادة الحق أ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ

فما أعجب هذا الزيغ! و أية حال باتوا عليها! عجبا لهم و تعسا لنسيانهم مسبب الأسباب، و ذهابهم لما لا ينفع و لا يضر ليقدسوه معبودا!!!

بحثان

۱- أسباب الرزق:

اشارة

على الرغم ممّا ذكر بخصوص التفاوت من حيث الاستعداد و المواهب عند الناس، إلّا أنّ أساس النجاح يمكن فى السعى و المثابرة و الجد، فالأكثر سعيا أكثر نجاحا فى الحياة و العكس صحيح.

و لهذا جعل القرآن الكريم ارتباطا بين ما يحصل عليه الإنسان و بين سعيه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۶

فقال بوضوح: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى ‌[۱۵۶].

و من الأمور المهمّة و المؤثرة فى مسألة استحصال الرزق الالتزام بالمبادى من قبيل: التقوى، الأمانة، إطاعة القوانين الإلهية و الالتزام بأصول العدل، كما أشارت إلى ذلك الآية (۹۶) من سورة الأعراف: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

و كما فى الآيتين (۲ و ۳) من سورة الطلاق: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ

و كما أشارت الآية (۱۷) من سورة التغابن بخصوص أثر الإنفاق فى سعة الرزق-: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ

و لعلنا لا حاجة لنا بالتذكير أن فقدان فرد أو جمع من الناس يضر بالمجتمع و لهذا فحفظ سلامة الأفراد و إعانتهم يعود بالنفع على كل الناس (بغض النظر عن الجوانب الإنسانية و الروحية لذلك).

و خلاصة القول إنّ اقتصاد المجتمع إن بنى على أسس التقوى و الصلاح و التعاون و الإنفاق فالنتيجة أن ذلك المجتمع سيكون قويا مرفوع الرأس، أمّا لو بنى على الاستغلال و الظلم و الاعتداء و عدم الاهتمام بالآخرين، فسيكون المجتمع متخلفا اقتصاديا و تتلاش فيه أواصر الحياة و الاجتماعية.

و لذلك فقد أعطت الأحاديث و الرّوايات أهمية استثنائية للسعى فى طلب الرزق المصحوب بالتقوى، و حتى

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «لا تكسلوا فى طلب معايشكم، فإن أباءنا كانوا يركضون فيها و يطلبونها»[۱۵۷].

و

روی عنه أیضا: «الکاد علی عیاله کالمجاهد فی سبیل اللّه»[۱۵۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۵۷

و حتی أنّ الأمر قد وجّه إلی المسلمین بالتبکیر فی الخروج لطلب الرزق ۱۵۹] و ذکر أنّ من جملة من لا یستجاب لهم الدعاء أولئک الذین ترکوا طلب الرزق علی ما لهم من استطاعة، انزووا فی زوایا بیوتهم یدعون اللّه أن یرزقهم! و هنا یتبادر الی الذهن تساؤل عن الآیات القرآنیة و الرّوایات التی تؤکد علی أنّ الرزق بید اللّه، و ذم السعی فیه، فکیف یتمّ تفسیر ذلک؟!

و للاجابة نذکر الملاحظتین التالیتین:

۱- دقة النظر و التحقق فی المصادر الإسلامیة یوضح أنّ الآیات أو الرّوایات التی یبدو التضاد فی ظاهر ألفاظها- سواء فی هذا الموضوع أو غیره- إنّما ینتج من النظرة البسیطة السطحیة، لأنّ حقیقة تناولها لموضوع ما إنّما یشمل جوانب متعددة من الموضوع، فکل آیة أو روایة إنّما تنظر إلی بعد معین من أبعاد الموضوع، فتوهم غیر المتابع بوجود التضاد.

فحیث یسعی الناس بولع و حرص نحو الدنیا و زخرف الحیاة المادیة، و یقومون بارتکاب کل منکر للوصول إلی ما یریدونه، تأتی الآیات و الرّوایات لتوضح لهم تفاهة الدنیا و عدم أهمیة المال.

و إذا ما ترک الناس السعی فی طلب الرزق بحجة الزهد، تأتیهم الآیات و الرّوایات لتبیّن لهم أهمیة السعی و ضرورته.

فالقائد الناجح و المرشد الرشید هو الذی یتمکن من منع انتشار حالتی الإفراط و التفریط فی مجتمعه.

فغایة الآیات و الرّوایات التی تؤکّد علی أنّ الرزق بید اللّه هی غلق أبواب الحرص و الشر و حبّ الدنیا و السعی بلا ضوابط شرعیة، و لیس هدفها إطفاء شعلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۵۸

الحیویة و النشاط فی الإعمال و الاکتساب وصولا لحیاة کریمة و مستقلة.

و بهذا یتّضح تفسیر الرّوایات التی تقول: إنّ کثیرا من الأرزاق إن لم تطلبوها تطلبکم.

۲- إنّ کلّ شیء من الناحیة العقائدیة تنتهی نسبته إلی اللّه عزّ و جلّ، و کل موحد یعتقد أن منبع و أصل کل شیء منه سبحانه و تعالی، و یردد ما تقوله الآیة (۲۶) من سورة آل عمران: بِیَدِکَ الْخَیْرُ إِنَّکَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

و ینبغی عدم الغفلة عن هذه الحقیقة و هی أنّ کل شیء من سعی و نشاط و فکر و خلاقیة الإنسان إنّما هی فی حقیقتها من اللّه عزّ و جلّ.

و لو توقف لطف اللّه (فرضا) عن الإنسان- و لو للحظة واحدة- لما کان ثمّة شیء اسمه الإنسان.

و یقول الإنسان الموحد حینما یرکب وسیلة: «سبحان الذی سخر لنا هذا».

و عند ما یحصل علی نعمة ما، یقول:

«و ما بنا من نعمة فمنک»[۱۶۰].

و یقول عند ما یخطو فی سبیل الإصلاح- کما هو حال الأنبیاء فی طریق هدایتهم للناس-: وَ ما تَوْفِیقِی إِلَّا بِاللَّهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ ۱۶۱].

و إلی جانب کل ما ذکر فالسعی و العمل الصحیح البعید عن أی إفراط أو تفریط، هو أساس کسب الرزق، و ما یوصل إلی الإنسان من رزق بغیر سعی و عمل إنّما هو ثانوی فرعی و لیس بأساسی، و لعل هذا الأمر هو الذی دفع أمیر المؤمنین علیه السّلام فی کلماته القصار فی تقدیم ذکر الرزق الذی یطلبه الإنسان علی الرزق الذی یطلب الإنسان، حیث

قال: «یا ابن آدم، الرزق رزقان: رزق تطلبه، و رزق یطلبک»[۱۶۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۹

۲- مواساة الآخرین:

أشارت الآیات إلی بخل کثیر من الناس ممن لم یتّبعوا سلوک و هدی الأنبیاء و الأئمّة علیهم السّلام، و قد أکّدت الرّوایات فی تفسیرها لهذه الآیات علی المساواة و المواساة و منها: ما جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم فی ذیل الآیة: «لا یجوز الرجل أن یخص نفسه بشیء من المأکول دون عیاله»[۱۶۳].

و

روی أیضا عن أبی ذر أنّه سمع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول عن العبید: «إنّما هم إخوانکم فاکسوهم ممّا تکسون و أطعموهم ممّا تطعمون»

فما رؤی عبده بعد ذلک إلّا و رداؤه و إزاره من غیر تفاوت ۱۶۴].

و الذی نستفیده من الرّوایات المذکورة و الآیة المبحوثة حین تقول: فَهُمْ فِیهِ سَواءٌ أنّ الإسلام یوصی بمراعاة المساواة کبرنامج أخلاقی بین أفراد العائلة الواحدة و من یکون تحت التکفل قدر الإمکان، و أن لا یجعلوا لأنفسهم فضلا علیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۰

الآیتان [سورة النحل (۱۶): الآیات ۷۳ الی ۷۴]

اشارة

وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَمْلِکُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَیْئاً وَ لا یَسْتَطِیعُونَ (۷۳) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۷۴)

التّفسیر

لا تجعلوا للّه شبیها:

تواصل هاتان الآیتان بحوث التوحید السابقة، و تشیر إلی موضوع الشرک، و تقول بلهجة شدیدة ملؤها اللوم و التوبیخ: وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَمْلِکُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَیْئاً.

و لیس لا یملک شیئا فقط، بل وَ لا یَسْتَطِیعُونَ أن یخلقوا شیئا.

و هذه إشارة إلی المشرکین بأن لا أمل لکم فی عبادتکم للأصنام، لأنّها لا تضرّکم و لا تنفعکم و لیس لها أیّ أثر علی مصیرکم، فالرزق مثلا- و الذی به تدور عجلة الحیاة سواء کان من السماء (کقطرات المطر و أشعة الشمس و غیر ذلک) أو ما یستخرج من الأرض، إنّما هو خارج عن اختیار الأصنام، لأنّها موجودات فاقدة لأیة قیمة و لا تملک الإرادة، و إن هی إلّا خرافات صنعتها العصبیة الجاهلیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۱

لیس إلّا.

و جملـة لا يَسْتَطِيعُونَ سـبب لجملة «لا يملكون» أى: إنّها لا تملك شـيئا من الأرزاق لعدم اسـتطاعتها الملك، فكيف بالخلق! ثمّ تقول الآية التالية كنتيجة لما قبلها: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ و ذلك إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

قال بعض المفسّـرين: إنّ عبارة فَلا تَضْـرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ تشير إلى منطق المشركين فی عصر الجاهلية (و لا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه أولئك المشـركين) حيث كـانوا يقولون: إنّمـا نعبـد الأصـنام لأنّنا لا نتملك الأهليـة لعبادة اللّه، فنعبـدها لتقربنا إلى اللّه! و إنّ اللّه مثل ملـك عظيم لاـ يصـل إليه إلّا الوزراء و الخواص، و ما على عوام الناس إلّا أن تتقرب للحاشـية و الخواص لتصل إلى خدمـة اللّه!! هـذا الانحراف فی التوجه و التفكير، و الـذى قـد يتجسم أحيانا على هيئـة أمثال منحرفة، إنّما هو من الخطورة بمكان بحيث يطغى على كل الانحرافات الفكرية.

و لذا يجيبهم القرآن الكريم قائلا: فَلا تَضْـرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ التی هی من صنع أفكاركم المحدودة و من صنع موجودات (ممكنة الوجود) و مليئة بالنواقص.

و إنّكم لو أحطتم علما بعظمـة وجوده الكريم و بلطفه و رحمته المطلقة، لعرفتم أنّه أقرب إليكم من أنفسـكم و لما جعلتم بينكم و بينه سبحانه من واسطة أبدا.

فاللّه الـذى دعاكم لأن تـدعوه و تناجوه، و فتـح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لا ينبغی أن تشـبّهوه بجبار مسـتكبر لا يتمكن أیّ أحد من الوصول إليه و دخول قصره إلّا بعض الخواص فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ

لقـد أكّدنا فی بحوثنا السابقة حول صـفات اللّه عزّ و جلّ: أنّ منزلق التشبيه يعتبر من أخطر المزلقات فی طريق معرفة صـفاته سـبحانه و تعالى، و لا ينبغی مقايسة صفاته سبحانه بصفات العباد، لأنّ البارى جلت عظمته وجود مطلق، و كل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٢۶٢

الموجودات بما فيها الإنسان محدودة، فهل يمكن تشبيه المطلق بالمحدود؟! و إذا ما اضـطررنا إلى تشبيه ذاته المقدسة بالنّور و ما شابه ذلك فينبغی أن لا يغيب عن علمنا بأنّ هذا التشبيه ناقص على أيّة حال، و أنّه لا يصدق إلّا من جهة واحدة دون بقية الجهات- فتأمل.

و بمـا أنّ أكثر النـاس قـد غفلوا عن هـذه الحقيقـة، و كثيرا ما يقعون فی وادى التشبيه الباطل و القياس المرفوض فيبتعـدون عن حقيقة التوحيـد، فلذا نجد القرآن الكريم كثيرا ما يؤكّد على هذه المسألة، فمرّة يقول كما فی الآية (۴) من سورة التوحيد، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، و أخرى كما فی الآية (١١) من سورة الشورى:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‌ءٌ، و ثالثة كما فی الآية مورد البحث: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ

و لعل عبارة إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فی ذيل الآية مورد البحث، تشير إلى أنّ أغلب الناس فی غفلة عن أسرار صفات اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٢۶٣

الآيات [سورة النحل (١۶): الآيات ٧۵ الى ٧٧]

اشارة

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْ‌ءٍ وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧۵) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْ‌ءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧۶) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

التّفسير

مثلان للمؤمن و الكافر!

ضمن التعقيب على الآيات السابقة التى تحدثت عن: الإيمان، الفكر، المؤمنين، الكافرين و المشركين، تشخص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين و الكافرين) بضرب مثلين حيين و واضحين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۶۴

يشبه المثال الأوّل المشركين بعبد مملوك لاـ يستطيع القيام بأية خدمة لمولاه، و يشبه المؤمنين بإنسان غنى، يستفيد الجميع من إمكانياته .. ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ.

و العبد ليس له قدرة تكوينية لأنّه أسير بين قبضة مولاه و محدود الحال فى كل شىء، و ليس له قدرة تشريعية أيضا لأنّ حق التصرف بأمواله (إن كان له مال) و كل ما يتعلق به هو بيد مولاه، و بعبارة أخرى إنّه: عبد للمخلوق، و لا يعنى ذلك إلّا الأسر و المحدودية فى كل شىء.

أمّا ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذى يتمتع بأنواع المواهب و الرزق الحسن: وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً و الإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً فاحكموا: هَلْ يَسْتَوُونَ

قطعا، لا ... فإذن: الْحَمْدُ لِلَّهِ

اللّه الذى يكون عبده حرّ و قادر و منفق، و ليس الأصنام التى عبادها أسرى و عديمو القدرة و محددون بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۱۶۵].

ثمّ يضرب مثلا آخر لعبدة الأصنام و المؤمنين و الصادقين، فيشبه الأوّل بالعبد الأبكم الذى لا يقدر على شىء، و يشبه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل و هو على صراط مستقيم: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ ۱۶۶] و لهذا ... أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ.

و على هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

أبكم (لا ينطق و لا يسمع و لا يبصر منذ الولادة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۶۵

و عاجز لا يقدر على شىء.

و كلّ على مولاه.

و أينما يوجهه لا يأت بخير.

مع أنّ الصفات المذكورة علة و معلول لبعضها الآخر و لكنّها ترسم صورة إنسان سلبى مائة فى المائة حيث أن وجوده لا ينم عن أى خير أو بركة إضافة لكونه «كلّ» على أهله و مجتمعه.

ف هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ! و أمّا الرجل الآخر فى مثل الآية فهو صاحب دعوة مستمرّة إلى العدل و سائر على الصراط المستقيم، و ما هاتان الصفتان إلّا مفتاح لصفات أخرى متضمنة لها، فصاحب هاتين الصفتين: لسانه ناطق، منطقه محكم، إرادته قوية، شجاع و شهم، لأنّه لا يمكن أن يتصور لداعية العدل أن يكون: أبكم، جبانا و ضعيفا! و لا يمكن أن يكون من هو على صراط مستقيم إنسانا عاجزا أبله و ضعيف العقل، بل ينبغى أن يكون ذكيا، نبيها، حكيما و ثابتا.

و تظهر المقايسة بين هذين الرجلين ذلك البون الشاسع بين الاتجاهين الفكريين المختلفين لعبدة الأصنام من جهة، و عباد اللّه عزّ و جلّ من جهة أخرى، و ما بينهم من تفاوت تربوى و عقائدى.

كما رأينا من ربط القرآن فى بحوثه المتعلقة بالتوحيد و محاربة الشرك مع بحث المعاد و محكمة القيامة الكبرى، نراه هنا يتناول

الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و كأن الآية جواب على الإشكال العالق فى أذهان و ألسنة منكرى المعاد الجسمانى بقولهم: إنّنا إذا متنا و تبعثرت ذرات أجسامنا بين التراب، فمن يقدر على جمعها؟! و إذا ما افترضنا أنّ هذه الذرات قد جمعت وعدنا إلى الحياة، فمن سيعلم بأعمالنا التى طوتها يد النسيان فنحاسب عليها؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ٢٦۶

و بعبارة مختصرة تجيب الآية على كل أبعاد السؤال، فاللّه عزّ و جلّ «يعلم غيب السماوات و الأرض» فهو حاضر فى كل زمان و مكان، و عليه فلاـ يخفى عليه شىء أبدا، و لاـ مفهوم لقولهم إطلاقا، و كل شىء يعلمه تعالى شهودا، و أمّا تلك العبارات و الأحوال فإنّما تناسب وجودنا الناقص لا غير.

ثمّ يضيف قائلا: وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ١۶٧].

و هذا المقطع القرآنى يشير إلى رد إشكال آخر كان يطرحه منكر و المعاد بقولهم: من له القدرة على المعاد و من يتمكن من انجاز هذا الأمر العسير؟! فيجيبهم القرآن، بأن هذا الأمر يبدو لكم صعبا لأنّكم ضعفاء، أمّا لصاحب القدرة المطلقة فهو من السهولة و السرعة بحيث يكون أسرع ممّا تتصورون، و إن هو إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ منكم.

و بعد أن شبّه قيام الساعة بلمح البصر، قال: أَوْ هُوَ أَقْرَبُ أى: إنّ التشبيه بلمح البصر جاء لضيق العبارة و اللغة، و إنّما هو من السرعة بما لا يلحظ فيه الزمان أساسا، و ما ذلك الوصف إلّا لتقريبه لأذهانكم من حيث أنّ لمح البصر هو أقصر زمان فى منطقكم.

و على أيّة حال، فالعبارتان إشارة حيّة لقدرة اللّه عزّ و جلّ المطلقة، و بخصوص مسألتى المعاد و القيامة، و لهذا يقول البارى فى ذيل الآية: إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بحوث

١- الإنسان بين الحرية و الأسر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ٢۶٧

إنّ مسألة التوحيد و الشرك ليست مسألة عقائدية ذهنية صرفة كما يتوهم البعض و ذلك لما لها من آثار بالغة على كافة أصعدة الحياة، بل و أنّ بصماتها لتراها شاخصة على كافة مرافق و مناحى الحياة- فالتوحيد إذا دخل قلبا أحياه و غرس فيه عوامل الرّشد و الكمال، لأنّه بتوسيع أفق نظر و تفكير الإنسان بشكل يجعله مرتبطا بالمطلق.

و الشرك على العكس من ذلك تماما، حيث يجعل الإنسان يعيش فى دوامة عالم محدود، و تتقاذف كيانه تلك الأصنام الحجرية و الخشبية، أو ميول و شهوات الأصنام البشرية الضعيفة، فيختزل فكر و إدراك و قدرة و سعى الإنسان فى دائرة تلك الأبعاد الضيقة التقاذف.

و قد صورت الآيات تصويرا دقيقا لهذا الواقع، و جمعته فى مثال تقريبا للأذهان و قالت: إنّ المشرك فى حقيقة أبكم و ممارساته تنم عن خطل تفكيره و فقدانه للمنطق السليم، و قد قيد الشرك إمكانياته فجعله خواء لا يقوى على القيام بأى شىء فانسلخت منه حريته بعد أن أسلم نفسه أسيرا فى يد الخرافات و الأوهام.

و بسبب هذه الصفات المذمومة فهو كلّ على المجتمع، لأنّه يستهين بكرامة و عزّة المجتمع من خلال تسليم مقدراته بيد الأصنام أو المستعمرين.

و هو تابع أبدا ما دام لم يتحرر من ربقة الشرك، و لن يذوق طعم الحرية و الاستقلال الحق إلّا بعد أن يتوجه إلى التوحيد بصدق.
و نتيجة لمتبنياته الفكرية الضالة فلن يخترق طريقا إلّا ضاع به، و لن يجد الخير أينما حط أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ.
فكم هى الفاصلة بين ذلك الخرافى، ضيق الأفق، الأسير، العاجز .. و بين هذا الحر، الشجاع، الذى لا يكتفى بنهج خط العدل، بل يدعو إليه ليعم كل الناس؟! الشخص الذى يمتلك الفكر المنطقى المنسجم مع نظام التوحيد الحاكم على

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۸

الخليقة يسير دوما على صراط مستقيم، و هذا السير سيوصله بأقرب و أسرع طريق إلى الهدف المنشود دون أن يفنى ذخائر وجوده فى طرق الضلال و الانحراف.
و خلاصة القول: فالتوحيد و الشرك ليسا أمرا عقائديا ذهنيا بحتا، بل نظام كامل لكل الحياة، و برنامج واسع يشمل: فكر، أخلاق و عواطف الإنسان و يتناول كذلك حياته الفردية، الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية و الثقافية.
لو وضعنا مقايسة بين عرب الجاهلية المشركين و المسلمين فى صدر الإسلام لوجدنا الفرق الواضح بين المسيرين ...
الأشخاص الذين كانوا فى: جهل، تفرقة، انحطاط، و لا يعرفون إلّا محيطا محدودا مملوءا بالفقر و الفساد، نراهم قد أصبحوا و كلهم: وحدة، علم، قدرة ... حتى أصبح العالم المتمدن فى ذلك الزمان تحت تأثيرهم و قدرتهم .. كل ذلك بسبب تغيير سير خطواتهم من الشرك إلى التوحيد.

۲- دور العدل و الاستقامة فى حياة الإنسان

من الملفت للنظر اشارة الآيات إلى الدعوة للعدل و السير على الصراط المستقيم من بين صفات و شؤون الموحدين، لتبيان ما لهذين الأمرين من أهمية فى خصوص الوصول إلى المجتمع الإنسانى السعيد، و هو ما يتم من خلال امتلاك برنامج صحيح بعيد عن أى انحراف يمينا أو شمالا (لا شرقى و لا غربى)، و من ثمّ الدعوة لتنفيذ ذلك البرنامج المبنى على أصول العدل، كما و ينبغى أن لا يكون البرنامج وقتيا ينتهى بانقضاء المدّة، بل كما يقول القرآن: يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ (حيث يعطى الفعل المضارع معنى الاستمرار) برنامج مستمر و دائمى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۹

۳- أمّا الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام

الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام بخصوص تفسير هذه الآية تذكر أنّ:
«الذى يأمر بعدل أمير المؤمنين و الأئمّة صلوات اللّه عليهم».
و ذكر بعض المفسّرين: أنّ جملة مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ نزلت فى: حمزة و عثمان بن مظعون أو فى عمار.
و «أبكم» فى: أبى بن مخلف و أبى جهل و من شابههم.
و كل ذلك إنّما هو من جهة بيان مصاديق مهمّة و واضحة للآية، و لا يمكن بأية حال أن يكون سببا للحصر، مع ملاحظة أنّ التفاسير التى تناولت الآيات المبحوثة مبينة على أساس بيان الفرق بين المشركين و المؤمنين، و ليس بين الأصنام و بين اللّه عزّ و جلّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۰

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۸ الى ۸۳]

اشارة

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۸) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۷۹) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (۸۰) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (۸۱) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۸۲)
يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَ أَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (۸۳)

التّفسير

أنواع النعم المادية و المعنوية:

يعود القرآن الكريم مرّة أخرى بعرض جملة أخرى من النعم الإلهية كدرس
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۲۷۱
فى التوحيد و معرفة اللّه، و أوّل ما يشير فى هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم و المعرفة و وسائل تحصيله .. و يقول: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً.
فمن الطبيعى أنّكم فى ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شىء، و لكن عند ما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، و لهذا فقد زودكم البارى سبحانه بوسائل إدراك الحقائق و معرفة الموجودات وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ. لكى يتحرك حس الشكر للمنعم فى أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانية الجليلة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

ملاحظات

اشارة

و هنا نطرح الملاحظات التالية:

۱- بداية الإدراك عند الإنسان

تصرّح الآية بوضوح بأنّ الإنسان حين يولد فإنّه لا يدرك من الأشياء شيئا، و كل ما يدركه إنّما هو بعد الولادة و بواسطة الحواس التى منحه اللّه إيّاه.
و يواجهنا الإشكال التالى: إنّ الإنسان مزود بجملة من العلوم الفطرية كالتوحيد و معرفة اللّه، بالإضافة إلى بعض البديهيات مثل (عدم اجتماع النقيضين، الكل أكبر من الجزء، حسن العدل، قبح الظلم ... إلخ) و كل هذه العلوم قد أودعت فى قلوبنا و تولدت معنا ..

فكيف يقول القرآن إنّ الإنسان حين يخرج من محيط الجنين ليس له من العلم شيئا؟

و هل علمنا بوجودنا (و الذى هو علم حضورى) لم يكن فينا و إنّما نكتسبه عن طريق السمع و البصر و الفؤاد؟

و للإجابة على هذا الإشكال، نقول: إنّ العلوم البديهية و الضرورية و الفطرية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۲

لم تكن فى الإنسان بصورة فعلية حين ولادته، و إنّما على شكل استعداد و وجود بالقوّة.

و بعبارة أخرى: إنّنا عند الولادة نكون فى غفلة عن كل شيء حتى عن أنفسنا التى بين جنبينا، إلّا أن مسألة إدراك الحقائق تكمن فينا بصورة القوّة لا- الفعل، و بالتدريج تحصل لأعيننا قوّة النظر و لآذاننا قوة السمع و لعقولنا القدرة على الإدراك و التجزئية و التحليل، فنعم بهذه العطايا الإلهية الثلاث التى بواسطتها نستطيع أن ندرك كثيرا من التصورات و نودعها فى العقل لكى ننشئ منها مفاهيم كلية، و من ثمّ نصل إلى الحقائق العقلية بطريق (التعميم) و (التجريد).

و تصل قدرتنا الفكرية إلى إدراك أنفسنا (باعتبارها علما حضوريا) و من ثمّ تتحرر العلوم التى أودعت فينا قوة لتصبح علوما بالفعل، و نجعل بعد ذلك من العلوم البديهية و الضرورية سلّما للوصول إلى العلوم النظرية و غير البديهية.

و على هذا .. فالعموم و الكلية التى نطقت بها الآية (من أنّنا لا نعلم شيئا عند الولادة) ليس لها استثناء و لا تخصيص.

۲- نعمة وسائل المعرفة

ممّا لا شك فيه عدم امكانية استيعاب و دخول العالم الخارجى فى وجودنا، و الحاصل الفعلى هو رسم صورة الشيء الخارجى المراد فى الذهن و بواسطة الوسائل المعينة لذلك، و عليه .. فمعرفتنا بالعالم الخارجى تكون عن طريق أجهزة خاصّة منها السمع و البصر.

و تنقل هذه الآلات و الأجهزة كل ما تلتقطه من الخارج لتودعه فى أذهاننا و عقولنا، و نقوم بواسطة العقل و الفكر بعملية التجزئة و التحليل ..

و لذلك بيّنت الآية مسألة عدم علم الإنسان المطلق حين الولادة: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لكى تحصلوا على حقائق الوجود و تدركوها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۳

و نشاهد تقديم ذكر السمع على البصر فى الآية مع ما للعين من عمل أوسع من السمع، و لعل ذلك لسبق الأذن فى العمل على العين بعد الولادة، حيث أنّ العين كانت فى ظلام دامس (فى رحم الأم) و نتيجة لشدّة أشعة النّور (بعد الولادة) فإنّها لا تستطيع العمل مباشرة بسبب حساسيتها، و إنّما تتدرج فى اعتيادها على مواجهة النّور حتى تصل للحالة الطبيعية المعتادة، و لذا نجد الوليد فى بداية أيّامه الأولى مغلق العين. أمّا بخصوص الأذن .. فثمة من يعتقد بأنّ لها القدرة على السماع (قليلا أو كثيرا) و هى فى عالم الأجنّة و أنّها تسمع دقات قلب الأم و تعتاد عليها! أضف إلى ذلك أنّ الإنسان إنّما يرى بعينه الأشياء الحسيّة فقط، فى حين أن الأذن تعتبر وسيلة للتربية و التعليم فى جميع المجالات، فالإنسان يصل بواسطة سماع الكلمات إلى معرفة جميع الحقائق سواء ما كان منها فى دائرة الحس أو ما كان خارجها، و ليس للعين هذه السعة، و صحيح أنّ الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطة القراءة، إلّا أنّ القراءة ليست عامّة لكل الناس و سماع الكلمات أمر عام.

أمّا سبب ورود «السمع» بصيغة المفرد و «الأبصار» بصيغة الجمع، فقد بيّناه عند تفسيرنا للآية (۷) من سورة البقرة.

و ثمّة ملاحظة أخرى ينبغى ذكرها تتعلق بكلمة «الفؤاد»، فقد جاءت هنا بمعنى القلب (العقل) الذى يعيش حالة التوقد، و بعبارة أخرى: يعيش حالة التّفسير و التحليل و الابتكار.

یقول الراغب فی مفرداته: (الفؤاد کالقلب، لکن یقال له فؤاد إذا اعتبر فیه معنی الفؤاد أی التوقد). و من المسلّم به أن هذا الموضوع یحصل للإنسان بعد حصوله علی تجارب کافیة.

و علی أیة حال، فآلات المعرفة و إن لم تنحصر بهذه الأجهزة الثلاث، إلّا أنّها أفضل الأجهزة جمیعا، لأنّ علم الإنسان إمّا أن یکون عن طریق التجربة أو عند

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۴

طریق الاستدلالات العقلیة، و لا تجربة بدون السمع و البصر، و لا استدلالات عقلیة من غیر الفؤاد (العقل).

۳- لعلکم تشکرون

تعتبر نعمة أجهزة تحصیل العلم من أفضل النعم التی وهبها اللّه للإنسان، فلا یقتصر دور العین و الأذن (مثلا) علی النظر إلی آثار اللّه فی خلقه، و الاستماع إلی أحادیث أنبیاء اللّه و أولیائه، و تفهم ذلک و تدرکه بالتحلیل و الاستنتاج، بل إنّ کل خطوة نحو التکامل و التقدم مرتبطة ارتباطا وثیقا بهذه الوسائل الثلاثة.

و غایة إعطاء هذه الوسائل إنّما تستوجب شکر الواهب، لأنّه من خلالها یمکن الحصول علی العلم و المعرفة اللذین بهما امتاز الإنسان عن غیره من الحیوانات.

و ممّا لا شک فیه أنّ الإنسان لیقف عاجزا أمام حق شکر المولی و لیس له إلّا الاعتذار.

و تستمر الآیة التالیة فی بیان أسرار عظمة اللّه عزّ و جلّ فی علم الوجود، و تقول: أَ لَمْ یَرَوْا إِلَی الطَّیْرِ مُسَخَّراتٍ فِی جَوِّ السَّماءِ.

«الجو» لغة: هو الهواء (کما ذکره الراغب فی مفرداته)، أو ذلک الجزء من الهواء البعید عن الأرض (کما ورد فی تفسیر مجمع البیان و تفسیر المیزان و کذلک تفسیر الآلوسی).

و بما أنّ الأجسام تنجذب إلی الأرض طبیعیا فقد وصف القرآن الکریم حرکة الطیور فی الهواء بالتسخیر، أی: أنّ الباری سبحانه قد جعل فی أجنحة الطیور قوّة، و فی الهواء خاصیة، تمکنان الطیور من الطیران فی الجو علی رغم قانون الجاذبیة.

و یضیف قائلا: ما یُمْسِکُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ

صحیح أنّ ثمّة أمور مجتمعة تعطی للطیور إمکانیة التحلیق و الطیران، مثل:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۵

الخاصیة الطبیعیة للأجنحة، قدرة عضلات الطیور، هیکل الطیر بالإضافة إلی خواص الهواء الملائمة .. و لکن، من الذی خلق هذه الهیئة و تلک الخواص؟

و من الذی أقرّ هذا النظام الدقیق؟

فهل هی الطبیعة العمیاء، أم من یعلم بجمیع الخواص الفیزیائیة للأجسام و أحاط علمه المطلق بکل هذه الأمور؟؟

فإذا ما رأینا نسبة هذه الأمور إلی اللّه، لأنّ منبع وجودها منه تعالی، و أمثال هذا التعبیر فی نسبة الأسباب و العلل إلی اللّه کثیرة فی القرآن الکریم.

و فی نهایة الآیة، یأتی قوله عزّ من قائل: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ أی إنّهم ینظرون إلی هذه الأمور بعین باصرة و أذن سمیعة و یتفکرون فیما یرون و یسمعون، و بذلک یقوی إیمانهم و یرسخ أکثر فأکثر.

بحوث

۱- أسرار تحليق الطيور فى السماء

إنّنا لا نشعر بأهمية الكثير من عجائب عالم الوجود لاعتيادنا على كثرة مشاهدتها، و لعدم انشغالنا بالتدقيق العلمى عند المشاهدة، حتى باتت هذه العادة كحجاب يغطى تلك العظمة، و لو استطاع أيّ منّا رفع ذلك الحجاب عن ذهنه لرأى العجائب الكثيرة من حوله.

و تحليق الطيور فى السماء لا تبتعد عن هذه الحقيقة، فحركة جسم ثقيل بخلاف قانون الجاذبية من دون أية صعوبة، و ارتفاعه بسرعة حتى ليغيب عن أعيننا فى لحظات لأمر يدعو إلى التأمل و الدراسة.

و لو دققنا النظر فى بناء جسم الطائر لوجدنا ذلك الترابط الدقيق بين كل صفاته و حالاته التى تساعده على الطيران، فهيكله العام مدبب ليقلل من مقاومة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۶

الهواء على بدنه لأقصى حد ممكن، و ريشه خفيف مجوف، و صدره مسطح يمكنه من ركوب أمواج الهواء، و طبيعة أجنحته الخاصّة تمنحه القوة الرافعة[۱۶۸] التى تساعده على الارتفاع، و كذلك الطبيعة الخاصّة لذيل الطائر التى تعينه على تغيير اتجاه طيرانه و سرعة التحوّل يمينا و شمالا و أعلى و أسفل (كذيل الطائرة)، و ذلك التناسق الموجود بين النظر و بقية الحواس التى تشترك جميعا فى عملية الطيران ... و كل ذلك يعطى للطائر إمكانية الطيران السريع.

ثمّ إنّ طريقة تناسل الطير (وضع البيض)، و عملية تربية الجنين و نموه تجرى خارج رحم الأم ممّا يرفع عنها حالة الحمل و التى تعيق (بلا شك) عملية الطيران ..

و ثمّة أمور كثيرة تعتبر من العوامل المؤثرة فيزيائيا فى عملية الطيران.

و كل ما ذكر يكشف عن وجود علم و قدرة فائقين لخالق و منظم بناء و حركة هذه الكائنات الحية، و كما يقول القرآن: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

إنّ عجائب الطيور لأكثر من أن تسطر فى كتاب أو عدّة كتب، فهناك مثلا الطيور المهاجرة و ما يكتنف رحلاتها من عجائب، و حياة هذه الطيور مبنية على التنقل بين أرجاء المعمورة المختلفة حتى أنّها لتقطع المسافة ما بين القطبين الشمالى و الجنوبى على طولها، و تعتمد فى تعيين اتجاهات رحلاتها على إشارات رمزية تمكنها من عبور الجبال و الأودية و البحار، و لا يعيق تحركها رداءة الجو أو حلكة الظلام فى الليالى التى يتيه فيها حتى الإنسان و بما يملك.

و من غريب ما يحدث فى رحلاتها أنّها: قد تنام أحيانا بين عباب السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۷

و هى طائرة! و قد تستغرق بعض رحلاتها عدّة أسابيع دون توقف ليل نهار و بدون أن يتخلل تلك المدّة أية فترة لتناول الطعام! حيث أنّها تناولت الطعام الكافى قبل بدءها حركة الرحيل (بإلهام داخلى) و يتحول ذلك الطعام إلى دهون تدخرها فى أطراف بدنها! و ثمّة أسرار كثيرة تتعلق فى: بناء الطير لعشه، تربية أفراخه، كيفية التحصن من الأعداء، كيفية تحصيل الغذاء اللازم، تعاون الطيور فيما بينها بل و مع غير جنسها أيضا ... إلخ، و لكل ممّا ذكر قصّة طويلة.

نعم، و كما تقول الآية المباركة: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

۲- ترابط الآيات:

لا شك أنّ هناك ترابطا بين الآية أعلاه و التى تتحدث عن كيفية طيران الطيور و ما قبلها من الآيات يتمثل فى الحديث عن نعم اللّه

عزّ و جلّ فی عالم الخلیقة، و عن أبعاد عظمته و قدرته سبحانه و تعالی، و لکن لا یبعد أن یکون ذکر تحلیق الطیور بعد ذکر آلات المعرفة یحمل بین طیاته إشارة لطیفة فی تشبیه تحلیق هذه الطیور فی العالم المحسوس بتحلیق الأفکار فی العالم غیر المحسوس، فکلّ منها یحلق فی فضائه الخاص و بما لدیه من آلات.

یقول الإمام علی علیه السّلام فی خطبته الشقشقیة: «ینحدر عنّی السیل و لا یرقی إلیّ الطیر».

و کذا

فی کلماته علیه السّلام القصار فی بیان فضیلة مالک الأشتر رحمه اللّه، ذلک القائد الشجاع: «لا یرتقیه الحافر، و لا یوفی علیه الطائر»[۱۶۹].

و عدّ فی هذه السورة خمسین نعمة کلها تدعو إلی معرفة اللّه جل و علا و تدفع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۸

إلی شکره، و لذلک ذهب البعض لتسمیتها ب (سورة النعم).

و تستمر الآیات فی الإشارة إلی النعم الإلهیة حتی نصل إلی الآیة الثّالثة (مورد البحث) لتقول: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ بُیُوتِکُمْ سَکَناً.

و حقّا إنّ هذه النعمة المبارکة من أهم النعم، فلولاها لم یمکن التمتع بغیرها.

«البیوت»: جمع بیت، مأخوذ من (البیتوتة): و هی فی الأصل بمعنی التوقف لیلا، و أطلقت کلمة (بیت) علی الحجرة أو الدار لحصول الاستفادة منهما للسکن لیلا.

و یلزمنا هنا التنویه بالملاحظة التالیة: إنّ القرآن الکریم لم یقل: إنّ اللّه جعل بیوتکم سکنا لکم، و إنّما ذکر کلمة (من) التبعیضیة أوّلا و قال: مِنْ بُیُوتِکُمْ و ذلک لدقة کلام اللّه التامة فی التعبیر، حیث أنّ الدار أو الحجرة الواحدة تلحقها مرافق أخری کالمخزن و الحمام و غیرها.

و بعد أن تطرق القرآن الکریم إلی ذکر البیوت الثابتة عرّج علی ذکر البیوت المتنقلة فقال: وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُیُوتاً[۱۷۰].

و هی من الخفة بحیث تَسْتَخِفُّونَها یَوْمَ ظَعْنِکُمْ أی رحیلکم- وَ یَوْمَ إِقامَتِکُمْ

بل و جعل لکم: وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلی حِینٍ

و کما هو معلوم فإنّ الشعر الذی یحمله بدن الحیوان بعضه خشن تماما کشعر الماعز و یطلق علیه (شعر)، و جمعه (أشعار)، و بعضه الآخر أقل خشونة بقلیل و هو (الصوف) و جمعه (أصواف)، (و الوبر) أقل نعومة من الصوف و جمعه (أوبار)، و بدیهی أنّ الاختلاف الحاصل فی طبیعته و خشونته یؤدی إلی تنوع الاستفادة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۹

منها، فمن بعضها تصنع الخیام، و من البعض الآخر یصنع اللباس، و من الثّالث الفرش و هکذا ..

أمّا عن المقصود ب «الأثاث» و «المتاع» فی الآیة فقد ذکر المفسّرون لذلک جملة احتمالات.

قال بعضهم: «الأثاث» بمعنی الوسائل المنزلیة، و هی فی الأصل من (أثّ) بمعنی الکثرة و التجمع، و أطلقت علی الوسائل و الأدوات المنزلیة لکثرتها عادة.

و یطلق «المتاع» علی کل ما یتمتع به الإنسان و یستفید منه (فالمصطلحان إشارة إلی شیء واحد من جهتین مختلفتین).

و مع ملاحظة ما ذکر فاستعمال المصطلحین علی التوالی یمکن أن یشیر إلی هذا المعنی: إنّکم تستطیعون أن تهیئوا من أصوافها و أوبارها و أشعارها وسائل بیتیة کثیرة تتمتعون بها.

و احتمل البعض و منهم «الفخر الرازی»: «الأثاث» بمعنی الأغطیة و الملابس، و «المتاع بمعنی الفرش، إلّا أنّه لم یذکر أیّ دلیل لتفسیره.

و احتمل «الآلوسى» فى (روح المعانى): «الأثاث» إشارة إلى الوسائل المنزلية، و «المتاع» إشارة إلى الوسائل المستخدمة فى التجارة.

و يبدو أنّ ما قلناه أوّلا أقرب من الجميع.

و ذكرت وجوه عديدة فى تفسير إِلى حِينٍ و لكنّ الظاهر من مقصودها هو:

استفيدوا من هذه الوسائل فى هذا العالم حتى نهاية الحياة فيه، و هو إشارة إلى عدم خلود الحياة فى هذا العالم و ما فيه من وسائل و لوازم و أنّ كل ما فيه محدود.

۳- الظلال، المساكن، الأغطية:

و يشير القرآن الكريم إلى نعمة أخرى بقوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏٨، ص: ٢٨٠

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية و الحفظ، و لهذا فقد أطلقت على المغارات و أماكن الاختفاء و فى الجبال.

و نرى إطلاق كلمة «الظلال» فى الآية لتشمل كل الظلال، سواء كانت ظلال الأشجار أو المغارات الجبلية أو ظل أى شىء آخر، باعتبارها إحدى النعم الإلهية (و حقيقة الأمر كذلك)، فكما يحتاج الإنسان إلى النّور فى حياته فكثيرا ما يحتاج إلى الظلل كذلك، لأنّ النّور إذا ما استمر فى اشراقه فسوف تكون الحياة مستحيلة، و يكفينا أن نلمس ما لظل الكرة الأرضية (و المسمى بالليل) على حياتنا، و كذلك دور الظلال الأخرى خلال النهار فى مختلف الأمكنة و الحالات.

و كأن ذكر نعمة «الظلال» و «أكنان الجبال» بعد ذكر نعمة «المسكن» و «الخيام» فى الآية السابقة، للإشارة إلى: أنّ طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة .. واحدة تعيش فى المدن و القرى و تستفيد من بناء البيوت لسكناها، و أخرى تعيش الترحال و التنقل فتحمل معها الخيام، و ثالثة أولئك الذين يسافرون و ليس معهم مستلزمات المأوى .. و لم يترك البارى جل شأنه المجموعة الثّالثة تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل فى طريقهم الظلال و المغارات لتقيهم.

و قد لا يدرك سكنة المدن ما لوجود المغارات الجبلية من أهمية، و لكنّ عابرى الصحارى و المسافرين العزل و الرعاة و كل من حرم من نعمة البيوت الثابتة أو السيارة (مؤقتا أو دائما) عند ما يكونون تحت سطوة حرارة الصيف اللاهبة أو تحت وطأة زمهرير الشتاء القارص، سيعرفون عندها أهمية تلك المغارات، و خصوصا كونها باردة فى الصيف و دافئة فى الشتاء، و هى ملاذ ينجى من موت قريب- فى بعض الأحيان- للإنسان أو الحيوانات.

و بعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية و الصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ، و ثمّة ألبسة أخرى تستعمل لحفظ أبدانكم فى الحروب وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏٨، ص: ٢٨١

«السرابيل»: جمع «سربال» (على وزن مثقال)، بمعنى الثوب من أىّ جنس كان (على ما يقول الراغب فى مفرداته)، و يؤيده فى ذلك أكثر المفسّرين، و لكنّ البعض منهم قد اعتبر معنى السربال هو: لباس و غطاء لبدن الإنسان، إلّا أنّ المشهور هو المعنى الأوّل.

و كما هو معلوم، فإنّ فائدة الألبسة لا تنحصر فى حفظ الإنسان من الحر و البرد، بل تلبس الإنسان ثوب الكرامة و تقى بدنه من الأخطار الموجهة إليه، فلو تعرى الإنسان لكان أكثر عرضه للجراحات و ما شابهها، و استناد الآية المباركة على الخاصية الأولى دون غيرها لأهميتها المميزة.

و لعل ذكر خصوص الحر فى الآية جاء تماشيا مع ما شاع فى لغة العرب من ذكر أحد المتضادين اختصارا، فيكون الثّانى واضحا بقرينة وجود الأوّل، أو لأنّ المنطقة التى نزل فيها القرآن الكريم كان دفع الحرّ فيها ذا أهمية بالغة عند أهلها.

و ثمّة احتمال آخر: أن یکون ذلک بلحاظ خطورة الإصابة بمرض ضـربة الشمس المعروفة، و بتعبیر آخر: إنّ تحمل الإنسان لحر أشعة الشمس الشدیدة أقل من تحمله و مقاومته للبرد، لأنّ حرارة البدن الداخلیة یمکن لها أن تعین الإنسان علی تحمل البرودة لحد ما.

و فی ذیل الآیة .. یقول القرآن مذکّرا: کَذلِکَ یُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ لَعَلَّکُمْ تُسْلِمُونَ أی تطیعون أمره.

و طبیعی جدّا أن یفکر الإنسان بخالق النعم، خصوصا عند تنبّهه للنعم المختلفة التی تحیط بوجوده، و أنّ ضـمیره سیستیقظ و یتجه نحو المنعم قاصدا زیادة معرفته به إذا ما امتلک أدنی درجات حسن الشکر.

و مع أنّ بعض المفسّرین قد حصروا لکلمة «النعمة» فی الآیة ببعض النعم:

کنعمة الخلق، و تکامل العقل، أو التوحید، أو نعمة وجود النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا أنّ معنی الکلمة أوسع من ذلک، لیشمل کل النعم (المذکور منها أو غیر المذکور)، و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۲

التخصیص فی حقیقته إلّا من قبیل التّفسیر بالمصداق الواضح.

و بعـد ذکر هـذه النعم الجلیلـة .. یقول عزّ و جـلّ أنّهم لو اعرضوا و لم یسـلموا للحق فلاـ تحزن و لا تقلق، لأنّ وظیفتک إبلاغهم: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَیْکَ الْبَلاغُ الْمُبِینُ

و مع کـل مـا یمتلکه المتکلم من منطق سـلیم و مـدعمّ بالاسـتدلال الحق و الجاذبیـة، إلّـا أنّه لاـ یؤثر فی المخاطب ما لم یکن مسـتعدا لاستماع و قبول کلام المتکلم، و بعبارة أخری: إنّ (قابلیة المحل) شرط فی حصول التأثر.

و علی هـذا، فإن لم یسـلم لک أصـحاب القلوب العمیاء و من امتاز بالتعصب و العناد، فـذلک لیس بالأمر الجدیـد، و ما علیک إلّا أن تصدع ببلاغ مبین و أن لا تقصر فی ذلک و المراد من هذا المقطع القرآنی هو مواساة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تسلیته.

و تکمیلا للحدیث .. یضیف القرآن الکریم القول: یَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ یُنْکِرُونَها.

فعلّة کفرهم لیست فی عدم معرفتهم بالنعم الإلهیة و إنّما بحملهم تلک الصـفات القبیحة التی تمنعهم من الإیمان کالتعصب الأعمی و العناد فی معاداة الحق، و تقدیم منافعهم المادیة علی کل شیء، و تلوّثهم بمختلف الشهوات، بالإضافة إلی مرض التکبّر الغرور.

و لعل ما جاء فی آخر الآیة وَ أَکْثَرُهُمُ الْکافِرُونَ إشارة لهذه الأسباب المذکورة.

و قـد جذبت کلمة «أکثرهم» انتباه و اهتمام المفسّـرین و راحوا یبحثون فی سبب ذکرها ... حتی توصل المفسّـرون إلی أسـباب کثیرة کـلّ حسب زاویـة اهتمـامه فی البحث، و لکنّ مـا ذکرنـاه یبـدو أقرب من کـلّ مـا ذکروه، و خلاصـته: إنّ أکثریـة الکفار هم من أهل التعصب و العناد، و الذین کفروا نتیجة جهلهم أو غفلتهم فهم القلّة قیاسا إلی أولئک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۳

و یشاهـد فی القرآن الکریم مقاطع قرآنیة تطلق الکفر علی ذلک النوع الناشـئ من التکّبر و العناد، و منها ما یتحدث عن الشـیطان کما جاء فی الآیة (۳۴) من سورة البقرة أَبی وَ اسْتَکْبَرَ وَ کانَ مِنَ الْکافِرِینَ

و احتمل البعض: أنّ المقصودین ب «أکثرهم» من تمّت علیهم الحجّـة فی قبال أقلیـة لم تتم علیهم الحجّة بعد، و هذا المعنی یمکن أن یعود إلی المعنی الأوّل.

بحثان

۱- کلمات المفسّرین

ما نطالعه فی كلمات المفسّرين المتعددة بخصوص تفسير نِعْمَتَ اللَّهِ فی الآية لا يعدو غالبا من قبيل التّفسير بالمصداق، فی حين أنّ مفهوم «نعمة اللّه» من السعة بحيث يشمل جميع النعم المادية و المعنوية، حتى أنّ النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يعتبر أحد المصاديق الحيّة لنعمه سبحانه و تعالی.

و روايات أهل البيت عليهم السّلام تؤكّد علی أنّ المقصود ب «نعمة اللّه» هو وجود الأئمّة المعصومين عليهم السّلام.

و

فی رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «نحن و اللّه نعمة اللّه التی أنعم بها علی عباده، و بنا فاز من فاز»[۱۷۱].

فواضحٌ أنّ السعادة و النجاح لا يمكن إدراكهما إلّا عن طريق قادة الحق و هم الأئمّة عليهم السّلام فوجودهم إذن من أوضح و أفضل النعم الإلهية (و قد ذكر هنا لأنّه أحد المصاديق الجلية لنعم اللّه سبحانه).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۸۴

۲- صراع الحقّ مع الباطل

لقد توقف بعض المفسّرين عند كلمة «ثمّ» من قوله تعالی: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها، لأنّ استعمالها عادة كأداة عطف مع وجود فاصلة بين أمرين، و لذلك فثمّة فاصلة بين معرفتهم لنعم اللّه و بين إنكارهم للنعم، فقالوا: إنّ الهدف من هذا التعبير تبيان ما ينبغی عليهم من الاعتراف بالتوحيد بعد معرفتهم بنعمة اللّه، و كان عليهم أن يذعنوا لذلك الاعتراف، إلّا أنّهم ساروا فی طريق الباطل! فاستبعد القرآن عملهم و عبر عن ذلك بكلمة «ثمّ».

و نحتمل أنّ «ثمّ» هنا إشارة إلی معنی خفی، خلاصته: أنّ دعوة الحقّ عند ما تتوغل إلی دواخل الروح الإنسانية عن طريق أصولها المنطقية السليمة، فإنّها ستصطدم مع عوامل السلب و الإنكار الموجود فيه أحيانا، فيستغرق ذلك الجدال أو الصراع الداخلی مدّة تتناسب مع حجم قوّة و ضعف تلك العوامل، فإن كانت عوامل النهی و الإنكار أقوی فإنّها ستغلبها بعد مدّة .. و عبّر القرآن عن تلك الحالة بكلمة «ثمّ».

و الآيتان (۶۴ و ۶۵)، من سورة الأنبياء ضمن عرضهما لقصة إبراهيم عليه السّلام تتحدثان عن قوّة احتجاج نبی اللّه إبراهيم عليه السّلام بعد أن حطم أصنامهم جميعها إلّا كبيرها ممّا تركهم فی الوهلة الأولی يغوصون فی تفكير عميق، ممّا حدا بهم لأنّ يلوموا أنفسهم و كادوا أن يهتدوا إلی الحقّ لو لا وجود تلك الرواسب من العوامل السلبية فی نفوسهم (التعصب، الكبر، العناد) التی أمالت كفة انحرافهم علی قبول دعوة الحق، فعادوا من جديد إلی ما كانوا عليه، و لوصف تلك الحالة نری القرآن قد استعمل كلمة «ثم» أيضا: فَرَجَعُوا إِلی أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلی رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ

و علی هذا فمعنی «الكافرون» يتوضح بشكل أدق عند وجود كلمة «ثم».

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۸۵

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۸۴ الی ۸۹]

اشارة

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۸۴) وَ إِذا رَأَی الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۸۵) وَ إِذا رَأَی الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ

لَکاذِبُونَ (۸۶) وَ أَلْقَوْا إِلَی اللَّهِ یَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۸۷) الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما کانُوا یُفْسِدُونَ (۸۸)

وَ یَوْمَ نَبْعَثُ فِی کُلِّ أُمَّةٍ شَهِیداً عَلَیْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِکَ شَهِیداً عَلی هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ وَ هُدیً وَ رَحْمَةً وَ بُشْری لِلْمُسْلِمِینَ (۸۹)

التّفسیر

عند ما تغلق الأبواب أمام المجرمین:

بعد أن عرض القرآن الکریم فی الآیات السابقة جحود منکری الحق و عدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۶

اعترافهم بالنعم الإلهیـة، یتطرق فی هـذه الآیات إلی جانب من العقاب الإلهی الشدیـد الذی ینتظر أولئک فی عالم الآخرة، لینبه الغافل من سباته، فعسی أن یعید النظر فی مواقفه المنحرفة قبل فوات الأوان، فیقول أوّلا: وَ یَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ شَهِیداً[۱۷۲].

و هل ثمّة حاجة إلی شاهد مع وجود علم اللّه المطلق؟

قد یتبادر إلی الأذهان هذا السؤال عند قراءة الآیة، و تتّضح الإجابة علی ذلک من خلال التدقیق فی الملاحظة التالیة: إنّ الأمور غالبا ما یقصد فیها الجانب النفسی و الروحی، و الإنسان کلما أیقن بوجود الشهود و المراقبین علیه من قبل اللّه سبحانه ازداد فی محاسبة نفسه، و أقلّ ما یمکن أن یذکر بهذا الصدد ما سیصیبه من خجل یوم مواجهتهم مع ما اقترفت یداه.

و بخصوص تلک المحکمة، تأتی الآیة لتقول: ثُمَّ لا یُؤْذَنُ لِلَّذِینَ کَفَرُوا.

و هل من الممکن أن لا یأذن اللّه للمجرمین فی الدفاع عن أنفسهم؟

نعم، و ذلک لعدم الحاجة للسان فی ذلک الیوم العظیم، لأنّ الجوارح من رجل و أذن و عین و کذلک الجلد، بل و حتی الأرض التی أطاع الإنسان علیها أو عصـی، کلها ستشـهد علیه، و یمکن اسـتفادة هـذا المعنی من آیات قرآنیـة أخری کالآیة (۶۵) من سـورة یس و الآیة (۳۶) من سورة المرسلات.

بل و یزداد علی عدم السماح لهم بالکلام ب وَ لا هُمْ یُسْتَعْتَبُونَ ۱۷۳].

لأنّ هناک محل مواجهة نتائج الأعمال و لیس یوم العمل و الإصلاح، و هم حینها کالثمرة المقطوفة التی انتهی زمن نموها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۷

و تشـرح الآیة التالیة حال الظالمین بعد انتهاء مرحلة حسابهم و دخولهم فی العذاب، و کیف أنّهم یطلبون تخفیف شدة العذاب تارة، و یطلبون إمهالهم مدّة تارة أخری، فتقول: وَ إِذا رَأَی الَّذِینَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا یُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ

و الآیتان أشارتا إلی أربع مراحل لأهوال المجرمین (و هو ما نشاهد شبیهه فی حیاتنا الدنیا):

المرحلة الأولی: سعی المجرم للتنصل و التزویر لتبرئة نفسه، و إن لم یحصل علی هدفه یسعی إلی المرحلة التالیة.

المرحلة الثّانیة: یستعتب صاحب الحق و یمتص غضبه وصولا لرضاه، و إذا لم ینفعه ذلک یتنقل إلی المرحلة الثّالثة.

المرحلة الثّالثة: یطلب تخفیف العذاب، فیقول: عاقبنی و لکن خفف العذاب! و إن لم یستجاب له لعظم ذنبه فإنّه سیطلب الطلب الأخیر ...

المرحلة الرّابعة: یطلب الإمهال و التأجیل، و هو المحاولة الأخیرة للنجاة من العقاب ...

إلّا أنّ القرآن الكريم يجيب عن طلبات المجرمين بعدم حصول إذن الدفاع عنهم، و لا يمكنهم تحصيل رضا المولى جل و علا، و لا يخفف عنهم العذاب، و لا هم ينظرون، لأن أعمالهم من القباحة و ذنوبهم من العظمة تسد كل أبواب الاستجابة.

و فى الآية التالية .. يستمر الحديث عن عاقبة المشركين، و كيف أنّهم سيحشرون فى جهنّم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية و البشرية، فتقول الآية المباركة واصفة حالهم: وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فهذه المعبودات هى التى وسوست لنا للوقوع فى دركـ العمل القبيح، و هى شريكنا فى الجرم أيضا، فارفع عنّا بعض العذاب و اجعله لها!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۸

و عندها ... تبدأ تلك الأصنام بالتكلم (بإذن اللّه): فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ فلم نكن شركاء للّه، و مهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

و هنا ينبغى التذكير ببعض الملاحظات:

۱- إنّ استعمال كلمة «شركاءهم» بدلا من «شركاء اللّه» للدلالة على أنّ الأصنام ما كانت فى حقيقتها شريكة للّه عزّ و جلّ، بل إنّ عبدة الأصنام و المشركين هم الذين نسبوها بهذا النسب خيالا و كذبا، فمن الحرى أن تنسب لهم و ليس إلى اللّه سبحانه.

و يؤيد ذلك ما مرّ علينا فيما سبق من تخصيص عبدة الأصنام بعض مواشيهم و محصولاتهم الزراعية مشاركة بينهم و بين الأصنام أى أنّهم جعلوا الأصنام شريكة لهم فى هذه الأنعام.

۲- يستفاد من الآية أنّ الأصنام تحضر عرصة يوم القيامة أيضا، و ليس المعبودات البشرية فقط كفرعون و النمرود.

و الآية (۹۸) من سورة الأنبياء: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ تؤيد ذلك.

۳- و تظهر الآية قول المشركين يوم القيامة من أنّهم كانوا يعبدون هذه الأصنام: هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ و هذا القول يتضمن صدقهم فى قولهم فلا معنى لتكذيب الأصنام لهم فى هذه المقولة.

و لكن من الممكن أن يكون التكذيب بمعنى عدم لياقة الأصنام لأن تكون معبودة من دون اللّه. أو أنّ المشركين قد أضافوا جملة أخرى مفادها أنّ هذه المعبودات قد دعتنا و وسوست لنا لنعبدها، فتكذبهم الأصنام بأنّها لا تملك القدرة أصلا على الوسوسة و الإيحاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۹

۴- لعل ورود جملة فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ بدل «قالوا لهم» لعدم قدرة الأصنام على التكلم بنفسها، فيكون قولها عبارة عن إلقاء من قبل اللّه فيها، أى أنّ اللّه عزّ و جلّ يلقى إليها، و هى بدورها تلقية إلى المشركين.

و تأتى الآية التالية لتبيّن أنّ الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم، و يسمعوا جواب قولهم، سيتوجهون إلى حالة أخرى ... وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۱۷۴] مسلمين للّه، مذعنين لعظمته جل و علا، لأنّ غرور و تعصب الجاهلين قد أزيل برؤية الحق الذى لا مفرّ من تصديقه و الإذعان إليه.

و فى هذه الأثناء، و حيث كل شىء جلى كوضوح الشمس .. وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ فتبطل كذبتهم بوجود شريك للّه، و كذلك يبطل ادعاؤهم بشفاعة الأصنام لهم عند اللّه، عند ما يلمسون عدم قدرة الأصنام للقيام بأى عمل، بل و يرونها محشورة معهم فى نار جهنم!.

و بهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصبا حول انحراف المشركين الضالين و غرقهم فى دركـ الشركـ، دون أن يدعوا الآخرين

إلى ما هم فيه .. و بعد ذلك ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، و إنّما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! فيقول: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ

فهم شركاء فى جرم الآخرين إضافة لما عليهم من تبعات أعمالهم، لأنّهم كانوا عاملا مؤثرا للفساد على الأرض و إضلال خلق اللّه بالصد عن سبيله.

و ذكرنا مرارا و انطلاقا من منطق الاجتماع الإسلامى أنّ من يسن سنّة (حسنة أم سيئة) فهو شريك العاملين بها ثوابا أو عقابا، و الحديث المشهور يبيّن لنا هذا المعنى بوضوح:

«من استن بسنّة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۹۰

ينتقص من أجورهم شىء و من استن سنّة جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شىء».

و على أيّة حال، فالآيات القرآنية و الأحاديث الشريفة توضح مسئولية الرؤساء و الموجهين أمام اللّه و أمام الناس.

و تتناول الآية أيضا مسألة وجود الشهيد فى كل أمّة (و الذى ذكر قبل آيات معدودة)، و لمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

و وجود هؤلاء الشهود، و على الخصوص من الأشخاص الذين ينهضون لهذه المهمّة من وسط نفس الأمم، لا يتعارض مع علم اللّه تعالى و إحاطته بكل شىء، بل هو للتأكيد على مراقبة أعمال الناس، و للتنبيه على وجود المراقبة الدائمة بشكل قطعى.

و مع أنّ عموم الحكم فى هذه الآية يشمل المجتمع الإسلامى و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ القرآن الكريم فى مقام التأكيد قال: وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ.

و قيل إنّ المقصود ب «هؤلاء» المسلمون الذين يعيشون فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الرقيب و الناظر و الشاهد على أعمالهم، و من الطبيعى أن يكون ثمّة شخص آخر يأتى بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليكمل طريقه فيكون شهيدا على الأمّة (و هو من وسطها)، و ينبغى أن يكون طاهرا من كل ذنب و خطيئة، ليتمكن من إعطاء الشهادة حقّها.

و لهذا .. اعتمد بعض المفسّرين (من علماء الشيعة و السنّة) على كون الآية بمثابة الدليل على وجود شاهد، حجّة، عادل، فى كل عصر و زمان. و ضرورة وجود الإمام المعصوم فى كل زمان، و هذا المنطق يتفق مع مذهب أهل البيت عليهم السّلام دون غيرهم من المذاهب الإسلامية.

و لعل لهذا السبب عرض الفخر الرازى فى تفسيره عند مواجهته لهذا الإشكال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۲۹۱

توجيها لا يخلو من إشكال أيضا حيث قال: (فحصل من هذا أن عصرا من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس، و ذلك الشهيد لا بدّ أن يكون غير جائز الخطاء و إلّا لافتقر إلى شهيد آخر، و يمتد ذلك إلى غير النهاية، و ذلك باطل، فيثبت أنّه لا بدّ فى كل عصر من أقوام تقوم الحجّة بقولهم، و ذلك يقتضى أن يكون إجماع الأمّة حجّة)[۱۷۵].

لو أنّ الفخر الرازى تجاوز قليلا حدود عقائده لم يكن ليسقط فى هكذا تناقض و عناد فاحش. لأنّ القرآن يقول: يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ و ليس مجموع الأمّة شاهدا على كل فرد من أفراد الأمّة.

و كما ذكرنا عند تفسيرنا للآية (۴۱) من سورة النساء أنّ هناك احتمالين آخرين فى تفسير «هؤلاء»:

الأوّل: أنّ «هؤلاء» إشارة إلى شهداء الأمم السابقة من الأنبياء عليهم السّلام و الأوصياء، فيكون النّبى شاهدا على هذه الأمة و شاهدا

على الأنبياء السابقين أيضا.

الثّانى: المقصود من الشاهد هنا هو الشاهد العملى، أى: شخص يكون وجوده قدوة و ميزانا لتمييز الحق من الباطل.

(و المزيد من الإيضاح، راجع ذيل الآية (۴۱) من سورة النساء).

و بما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل و جامع للناس بما تتم فيه الحجّة عليهم، و يصح فيه مفهوم النظارة و المراقبة، لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشرة: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٢٩٢

بحثان

١- القرآن تبيان لكل شى‌ء:

من أهم ما تطرقت له الآيات المباركات هو أنّ القرآن مبين لكل شى‌ء.

«تبيان» (بكسر التاء أو فتحها) له معنى مصدرى ١٧۶]، و يمكن الاستدلال بوضوح على كون القرآن بيانا لكل شى‌ء من خلال ملاحظة سعة مفهوم «كل شى‌ء»، و لكن بملاحظة أن القرآن كتاب تربية و هداية للإنسان و قد نزل للوصول بالفرد و المجتمع- على كافة الأصعدة المادية و المعنوية- إلى حال التكامل و الرقى، يتّضح لنا أنّ المقصود من كل «شى‌ء» هو كل الأمور اللازمة للوصول إلى طريق التكامل، و القرآن ليس بدائرة معارف كبيرة و حاوية لكل جزئيات العلوم الرياضية و الجغرافية و الكيميائية و الفيزيائية ... إلخ، و إنّما القرآن دعوة حق لبناء الإنسان، و صحيح أنّه وجه دعوته للناس لتحصيل كل ما يحتاجونه من العلوم، و صحيح أيضا أنّه قد كشف الستار عن الكثير من الأجزاء الحساسة فى جوانب علمية مختلفة ضمن بحوثه التوحيدية و التربية، و لكن ليس ذلك الكشف هو المراد، و إنّما توجيه الناس نحو التوحيد و التربية الربانية التى توصل الإنسان إلى شاطئ السعادة الحقة من خلال الوصول لرضوانه سبحانه.

و يشير القرآن الكريم تارة إلى جزئيات الأمور و المسائل، كما فى بيانه لأحكم كتابة العقود التجارية و سندات القرض، حيث ذكر (١٨) حكما فى أطول أية قرآنية و هى الآية (٢٨٢) من سورة البقرة[١٧٧].

و تارة أخرى يعرض القرآن المسائل الحياتية للإنسان بصورها الكلية، كما فى الآية التى ستأتى قريبا، حيث يقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٢٩٣

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ

و كذلك عموم مفهوم الوفاء بالعهد فى الآية (٣۴) من سورة الإسراء: إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا، و عموم مفهوم الوفاء بالعقد فى الآية الأولى من سورة المائدة: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ، و لزوم أداء حق الجهاد كما جاء فى الآية (٧٨) من سورة الحج: وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ و كمفهوم إقامة القسط و العدل كما جاء فى الآية (۴۵) من سورة الحديد: لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، و عموم مفهوم رعاية النظم فى كل الأمور فى الآيات (٧، ٨، ٩) من سورة الرحمن: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ و عموم الميزان أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ و عموم مفهوم الامتناع عن فعل الفساد فى الأرض كما فى الآية (٨۵) من سورة الأعراف: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها، بالإضافة إلى الدعوة للتدبر و التفكر و التعقل التى وردت فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم، و أمثال هذه التوجيهات العامة كثيرة فى القرآن، لتكون للإنسان نبراسا وهاجا فى كافة مجالات الفكر و الحياة و الإنسان .. و كل ذلك يدلل بما لا يقبل التردد أو الشك على أنّ القرآن الكريم «فيه تبيان لكل

شی‌ء».

بل و حتی فروع هـذه الأوامر الکلیة لم یهملها الباری سبحانه، و إنّما عیّن لها من یؤخذ منه التفاصیل، کما تبیّن لنا ذلک الآیة (۷) من سورة الحشر: وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا.

و الإنسان کلما سبح فی بحر القرآن الکریم و توغّل فی أعماقه، و استخرج برامجا و توجیهات توصله إلی السعادة، اتّضحت له عظمة هذا الکتاب السماوی و شموله.

و لهذا، فمن استجدی القوانین من ذا و ذاک و ترک القرآن، فهو لم یعرف القرآن، و طلب من الغیر ما هو موجود عنده.

و إضافة لتشخیص الآیة المبارکة مسألة أصالة و استقلال تعالیم الإسلام فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸ ص: ۲۹۴

کل الأمور، فقد حمّلت المسلمین مسئولیة البحث و الدراسة فی القرآن الکریم باستمرار لیتوصلوا لاستخراج کل ما یحتاجونه.

و قد أکّدت الرّوایات الکثیرة علی مسألة شمول القرآن ضمن تطرقها لهذه الآیة و ما شابهها من آیات.

منها: ما

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارک و تعالی أنزل فی القرآن تبیان کل شیء حتی و اللّه ما ترک شیئا تحتاج إلیه العباد، حتی لا یستطیع عبد یقول: لو کان هذا أنزل فی القرآن، إلّا و قد أنزله اللّه فیه»[۱۷۸].

و

فی روایة أخری عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارک و تعالی لم یدع شیئا تحتاج إلیه الأمّة إلّا أنزله فی کتابه و بیّنه لرسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جعل لکل شیء حدا، و جعل علیه دلیلا یدل علیه، و جعل علی من تعدی ذلک الحد حدا»[۱۷۹].

و جاء فی الرّوایات الشریفة الإشارة الی هذه المسألة أیضا. و هی أنّه مضافا الی ظواهر القرآن و ما یفهمه منها العلماء و سائر الناس، فإنّ باطن القرآن بمثابة البحر الذی لا یدرک غوره، و فیه من المسائل و العلوم ما لا یدرکها إلّا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أوصیاؤه بالحق، و من هذه الرّوایات ما

ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «ما من أمر یختلف فیه اثنان إلّا و له أصل فی کتاب اللّه عزّ و جلّ، و لکن لا تبلغه عقول الرجال»[۱۸۰].

إنّ عدم إدراک العامة لهذا القسم من العلوم القرآنیة الذی یمکننا تشبیهه ب (عالم اللاشعور) لا یمنع من التحرک فی ضوء (عالم الشعور) و علی ضوء ظاهرة و الاستفادة منه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸ ص: ۲۹۵

۲- مراحل الهدایة الأربع

إنّ الآیة أعلاه ذکرت أربعة تعابیر متلازمة حسب تسلسلها لتوضیح الهدف من نزول القرآن:

۱- تبیانا لکل شی‌ء.

۲- هدی.

۳- رحمة.

۴- بشری للمسلمین.

و لو أمعنا النظر لوجدنا ثمّة ارتباطا منطقیا واضحا بین هذه التعابیر، فكلّ منها یرمز إلی مرحلة معینهٔ، المرحلهٔ الأولی فی مسیر الهدایهٔ تستلزم البیان و التعلیم، و بعدها تأتی مرحلهٔ الهدایهٔ، و من ثمّ تأتی العمل الموجب للرحمهٔ، و أخیرا البشری بثواب اللّه لمن آمن و عمل صالحا و سرور جمیع السائرین علی طریق الحق.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۶

الآیهٔ [سورهٔ النحل (۱۶): آیهٔ ۹۰]

اشارهٔ

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۹۰)

التّفسیر

أكمل برنامج اجتماعی:

بعد أن ذكرت الآیات السابقهٔ أنّ القرآن فیه تبیان لكل شیء، جاءت هذه الآیهٔ المباركهٔ لتقدم نموذجا من التعلیمات الإسلامیهٔ فی شأن المسائل الاجتماعیهٔ و الإنسانیهٔ و الأخلاقیهٔ، و قد تضمّنت الآیهٔ ستهٔ أصول مهمّهٔ، الثلاث الأوّل منها ذات طبیعهٔ إیجابیهٔ و مأمور بالعمل بها، و البقیهٔ ذات صفهٔ سلبیهٔ منهی عن ارتكابها.

فتقول فی البدء: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى

و هل یمكن تصور وجود قانون أوسع و أشمل من «العدل»؟! فالعدل هو القانون الذی تدور حول محوره جمیع أنظمهٔ الوجود، و حتی السماوات و الأرض فهی قائمهٔ علی أساس العدل «بالعدل قامت السماوات

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۷

و الأرض».

و المجتمع الإنسانی الذی هو جزء صغیر فی كیان هذا الوجود الكبیر، لا یقوی أن یخرج عن قانون العدل، و لا یمكن تصور مجتمع ینشد السّلام یحظی بذلك دون أن تستند أركان حیاته علی أسس العدل فی جمیع المجالات.

و لما كان المعنی الواقعی للعدل یتجسد فی جعل كل شیء فی مكانه المناسب، فالانحراف و الإفراط و التفریط و تجاوز الحد و التعدی علی حقوق الآخرین، ما هی إلّا صور لخلاف أصل العدل.

فالإنسان السلیم هو ذلك الذی تعمل جمیع أعضاء جسمه بالشكل الصحیح (بدون أیهٔ زیادهٔ أو نقصان). و یحل المرض فیه و تتبیّن علیه علائم الضعف و الخوار بمجرّد تعطیل أحد الأعضاء، أو تقصیره فی أداء وظیفته.

و یمكن تشبیه المجتمع ببدن إنسان واحد، فإنّه سیمرض و یعتل إن لم یراع فیه العدل.

و مع ما للعدالهٔ من قدرهٔ و جلال و تأثیر عمیق فی كل الأوقات- الطبیعیهٔ و الاستثنائیهٔ- فی عملیهٔ بناء المجتمع السلیم، إلّا أنّها، لیست العامل الوحید الذی یقوم بهذه المهمّهٔ، و لذلك جاء الأمر ب «الإحسان» بعد «العدل» مباشرهٔ و من غیر فاصلهٔ.

و بعبارهٔ أوضح: قد تحصل فی حیاهٔ البشریهٔ حالات حسّاسهٔ لا یمكن معها حل المشكلات بالاستعانهٔ بأصل العدالهٔ فقط، و إنّما تحتاج إلی إیثار و عفو و تضحیهٔ، و ذلك ما یتحقق برعایهٔ أصل «الإحسان».

و علی سبیل المثال: لو أنّ عدوا غدّارا هجم علی مجتمع ما، أو وقعت زلزلهٔ أو فیضان أو عواصف فی بعض مناطق البلاد، فهل من

الممكن معالجة ذلك بالتقسيم العادل لجميع الطاقات و الأموال، و تنفيذ سائر القوانين العادية؟! هنا لا بدّ من تقديم التضحية و البذل و الإيثار لكل من يملك القدرة المالية، الجسمية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٢٩٨

الفكريـة، لمواجهـة الخطر و إزالته، و إلّا فالطريق مهيأ أمام العدو لإهلاك المجتمع كله، أو أنّ الحوادث الطبيعية ستدمر أكبر قدر من الناس و الممتلكات.

و الأصـلان يحكمان نظام بـدن الإنسان أيضا بشـكل طبيعى، ففى الأحوال العاديـة تقوم جميع الأعضاء بالتعاضـد فيما بينها، و كلّ منها يؤدى ما عليه من وظائف بالاستعانة بما تقوم به بقية الأعضاء (و هذا هو أصل العدالة).

و لكن .. عند ما يصاب أحد الأعضاء بجرح أو عطل يسبب فى فقدانه القدرة على أداء وظيفته، فإنّ بقية الأعضاء سوف لن تنساه، لأنّه توقف عن عمله، بل تستمر فى تغذيته و دعمه ... إلخ، (و هذا هو الإحسان).

و فى المجتمع كذلك، حيث ينبغى للمجتمع السليم أن يحكمه هذان الأصلان.

و ما جاء فى الرّوايات و فى أقوال المفسّرين، من بيانات مختلفة فى الفرق بين العدل و الإحسان، لعل أغلبها يشير إلى ما قلناه أعلاه.

فعن على عليه السّلام أنّه قال: «العدل: الإنصاف، و الإحسان: التفضل»[١٨١]

و هذا ما أشرنا إليه.

و قال البعض: إنّ العدل: أداء الواجبات، و الإحسان: أداء المستحبات.

و قال آخرون: إنّ العدل: هو التوحيد، و الإحسان: هو أداء الواجبات.

(و على هذا التّفسير يكون العدل إشارة إلى الإعتقاد، و الإحسان إشارة إلى العمل).

و قال بعض: العدالة: هى التوافق بين الظاهر و الباطن، و الإحسان: هو أن يكون باطن الإنسان أفضل من ظاهره.

و اعتبر آخرون: أنّ العدالة ترتبط بالأمور العمليّة، و الإحسان بالأمور، الكلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٢٩٩

و كما قلنا فإنّ بعض هـذه التفاسير ينسـجم تماما مع التّفسير الـذى قـدّمناه أعلاه، و بما أنّ البعض الآخر لا ينافيه فيمكن و الحال هذه الجمع بينهما.

أمّا مسألـة إِيتـاءِ ذِى الْقُرْبى فتنـدرج ضـمن مسألـة «الإحسان» حيث أن الإحسان يشـمل جميع المجتمع، بينما يخص هـذا الأمر جماعة صغيرة من المجتمع الكبير و هم ذوو القربى، و بلحـاظ أنّ المجتمع الكبير يتـألف من مجموعـات، فكلمـا حصل فى هـذه المجموعات انسـجام أكثر، فإنّ أثره سيظهر على كل المجتمع، و المسألة تعتبر تقسيما صحيحا للوظائف و المسؤوليات بين الناس، لأنّ ذلك يستلزم من كـل مجموعـة أن تمديـد العون إلى أقربائهـا (بالدرجـة الأـولى) ممّا سـيؤدى لشـمول جميع الضـعفاء و المعوزين برعايـة و اهتمام المتمكنين من أقربائهم.

و على ما نجده فى بعض الأحاديث من أنّ المقصود ب «ذى القربى» هم أهل بيت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ذريته من الأئمّة عليهم السّـلام، و المقصود ب إِيتـاءِ ذِى الْقُرْبى هو أداء الخمس، فـإنّه لاـ يقصـد منه تحديـد مفهوم الآيـة أبـدا، بـل هو أحـد مصاديق المفهوم الواضحة، و لا يمنع إطلاقا من شمول مفهوم الآية الواسع.

لو اعتبرنا مفهوم «ذى القربى» بمعنى مطلق الأقرباء، سواء كانوا أقرباء العائلة و النسب، أو أقرباء من وجوه أخرى، فسيكون للآية مفهوم أوسع ليشمل حتى الجار و الأصدقاء و ما شابه ذلك (و لكنّ المعروف فى ذلك قربى النسب).

و لإعانة المجموعات الصغيرة (الأقرباء) بناء محكم من الناحية العاطفية، إضافة لما لها من ضمانة تنفيذية.

و بعد ذكر القرآن الكريم للأصول الإيجابية الثلاثة يتطرق للأصول المقابلة لها (السلبية) فيقول: وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ

و تحدث المفسّرون کثیرا حول المصطلحات الثلاثة «الفحشاء»، «المنکر»، «البغی»، إلّا أنّ ما يناسب معانيها اللغوية بقرينة مقابلة الصفات مع بعضها الآخر يظهر أنّ «الفحشاء»: إشارة إلى الذنوب الخفية، و «المنکر»: إشارة إلى الذنوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۰

العلنية، و «البغی»: إشارة إلى کل تجاوز عن حق الإنسان، و ظلم الآخرين و الاستعلاء عليهم.

قال بعض المفسّرون ۱۸۲]: إنّ منشأ الانحرافات الأخلاقية ثلاث قوى: القوّة الشهوانية، القوّة الغضبية، و القوة الوهمية الشيطانية.

أمّا القوّة الشهوانية فإنما ترغّب فی تحصيل اللذائذ الشهوانية و الغرق فی الفحشاء، و القوة الغضبية تدفع الإنسان إلى فعل المنکرات و إيذاء سائر الناس، و أمّا القوّة الوهمية الشيطانية فتوجد فی الإنسان الاستعلاء على الناس و الترفع و حبّ الرياسة و التقدم و التعدی على حقوق الآخرين.

و أشار الباری سبحانه فی المصطلحات الثلاثة أعلاه إلى طغيان غرائز الإنسان، و دعا إلى طريق الحق و الهداية ببيان جامع لکل الانحرافات الأخلاقية.

و فی آخر الآية المبارکة يأتی التأکيد مجددا على أهمية هذه الأصول الستة:

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

أشمل آيات الخير و الشر:

إنّ محتوى هذه الآية المبارکة له من قوّة التأثير ما جعل کثيرا من الناس يصبحون مسلمين على بيّنة من أمرهم، و ها هو «عثمان بن مظعون» أحد أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: (کنت أسلمت استحياء من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لکثرة ما کان يعرض علیّ الإسلام، و لم يقر الإسلام فی قلبی، فکنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء کأنّه يستفهم شيئا، فلمّا سرّی عنه سألته عن حاله فقال: نعم، بيّنا أنا أحدثک إذ رأيت جبرائيل فی الهواء فأتانی بهذه الآية إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ و قرأها علیّ إلى آخرها، فقّر الإسلام فی قلبی. و أتيت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۳۰۰

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۱

عمّه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش، اتبعوا محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ترشدوا، فإنّه لا يأمرکم إلّا بمکارم الأخلاق، و أتيت الوليد بن المغيرة و قرأت عليه هذه الآية فقال: إن کان محمّد قاله فنعم ما قال، و إن قاله ربّه فنعم ما قال)[۱۸۳].

و نقرأ

فی حديث آخر أنّ النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة فقال: (يا ابن أخی ۱۸۴] أعد، فأعاد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال الوليد: إنّ له الحلاوة، و إنّ عليه لطلاوة، و إنّ أعلاه لمثمر، و إنّ أسلفه لمغدق، و ما هو قول البشر)[۱۸۵].

و

روی عن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «جماع التقوى فی قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ ۱۸۶].

و نستفيد من هذه الأحاديث- و أحاديث أخرى أنّ الآية تعتبر دستور عمل إسلامی عام، و تمثل أحد مواد القانون الأساسی للإسلام فی کل زمان و مکان، حتى

روی عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه کان يقرأ الآية المبارکة قبل الانتهاء من خطبة الجمعة ثمّ يقول بعدها: «اللّهم اجعلنا ممن يذکر

فتنفعه الذکری»[۱۸۷] ثمّ ینزل من علی المنبر.

فإحیاء الأصول الثلاثة «العدل، و الإحسان، و إیتاء ذی القربی»، و مکافحة الانحرافات الثلاث «الفحشاء و المنکر، و البغی» علی صعید العالم کفیل بأن یجعل الدنیا عامرة بالخیر، و هادئة من کل اضطراب، و خالیة من أی سوء و فساد، و إذا روی عن ابن مسعود (الصحابی المعروف) قوله: (هذه الآیة أجمع آیة فی کتاب اللّه للخیر و الشر) فهو للسبب الذی ذکرناه.

و یذکرنا محتوی الآیة المبارکة بالحدیث

المروی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقوله:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۲

«صنفان من أمّتی إذا صلحا صلحت أمتی، و إذا فسدا فسدت أمتی، فقیل: یا رسول اللّه، من هما؟ قال: الفقهاء و الأمراء».

و

ذکر المحدّث القمّی فی (سفینة البحار) حدیثا بعد نقله لهذا الحدیث مرویا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «تکلم النّار یوم القیامة ثلاثة: أمیرا، و قارئا، و ذا ثروة من المال، فتقول للأمیر: یا من وهب اللّه له سلطانا فلم یعدل، فتزدرده کما تزدرد الطیر حبّ السمسم، و تقول للقارئ: یا من تزین للناس و بارز اللّه بالمعاصی، فتزدرده، و تقول للغنی: یا من وهب اللّه له دنیا کثیرة واسعة فیضا و سأله الحقیر الیسیر قرضا، فأبی إلّا بخلا، فتزدرد؟

و قد بحثنا موضوع العدالة باعتبارها رکنا إسلامیا مهمّا جدّا ضمن تفسیرنا للآیة (۸) من سورة المائدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۳

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۹۱ الی ۹۴]

اشارة

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (۹۱) وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۹۲) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۳) وَ لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۹۴)

سبب النّزول

یقول المفسّر الکبیر العلّامة الطبرسی فی (مجمع البیان) فی شأن نزول أوّل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۴

آیة من هذه الآیات أنّها نزلت فی الذین بایعوا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی الإسلام (و کان من المحتمل أن ینقض بعضهم البیعة لقلّة المسلمین و کثرة الأعداء)، فقال سبحانه مخاطبا لهم لا یحملنّکم قلّة المسلمین و کثرة المشرکین علی نقض البیعة.

التّفسیر

الوفاء بالعهد دليل الإيمان:

بعـد أن عرض القرآن الكريم فى الآيـة السابقـة بعض أصول الإسـلام الأساسيـة (العـدل، و الإحسـان، و مـا شابههما)، يتناول فى هـذه الآيات قسما آخر من تعاليم الإسلام المهمّة (الوفاء بالعهد و الأيمان).

يقول أوّلاـ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ ثمّ يضيف: وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ

إنّ ظاهر معنى «عهـد اللّه»- مع كثرة ما قال المفسّرون فيه- و هو: العهود التى يبرمها الناس مع اللّه تعالى (و بـديهى أنّ العهد مع النّبى عهد مع اللّه أيضا)، و عليه فهو يشمل كل عهد إلهى و بيعة فى طريق الإيمان و الجهاد و غير ذلك.

بـل إنّ التكاليف الشـرعية التى يعلنها النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم هى من نوع من العهـد الإلهى الضـمنى، و كـذا الحال بالنسبة للتكاليف العقليـة، لأنّ إعطاء العقل و الإدراك من اللّه عزّ و جلّ للإنسان إنّما يرافقه عهـد ضـمنى، و هكذا يدخل الجميع فى المفهوم الواسع لعهد اللّه.

أمّا مسألة «الأيمان» (جمع يمين، أىّ: القسم) التى وردت فى الآية- و التى عرض فيها المفسّرون آراء كثيرة- فلها معنى واسع، و يتّضح ذلك عند ملاحظة مفهوم الجملة حيث أنّه يشمل العهود التى يعقدها الإنسان مع اللّه عزّ و جلّ، بالإضافة إلى ما يستعمله من أيمان فى تعامله مع خلق اللّه.

و بعبارة أخرى: يدخل بين إطار هذه الجملة كل عهد يبرم تحت اسم اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۵

و باستعمال صيغة القسم، و ما يؤكّد ذلك ما تبعها من عبارة تفسيرية تأكيدية وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا.

و نتيجة القول: أنّ جملة أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ خاصّة، و جملة لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ عامّة.

و حيث أنّ الوفـاء بالعهـد أهم الأسـس فى ثبـات أىّ مجتمع كـان، تواصل الآيـة التاليـة ذكره بأسـلوب يتسم بنوع من اللوم و التوبيـخ، فتقول: وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً[۱۸۸].

و الآيـة تشير إلى (رابطة) تلك المرأة التى عاشت فى قريش زمن الجاهلية، و كانت هى و عاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصـف النهـار فى غزل مـا عنـدهن مـن الصـوف و الشـعر، و بعـد أن ينتهين من عملهن تـأمرهن بنقض مـا غزلن، و لهـذا عرفت بين قومهـا ب (الحمقاء).

فما كانت تقوم به (رابطة) لا يمثل عملا بالا ثمر- فحسب- بل هو الحماقة بعينها، و كذا الحال بالنسبة لمن يبرم عهدا مع اللّه و باسمه، ثمّ يعمل على نقضه، فهو ليس بعابث فقط، و إنّما هو دليل على انحطاطه و سقوط شخصيته.

ثمّ يضـيف القرآن الكريم قائلاـ تَتَّخِذُونَ أَيْمـانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ[۱۸۹]، أى لاـ تنقضوا عهودكم مع اللّه بسبب أنّ تلك المجموعة أكبر من هذه فتقعوا فى الخيانة الفساد.

و هذا دليل على ضعف شخصية الفرد، أو نفاقه و خيانته حينما يرى كثرة أتباع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۶

المخالفين فيترك دينه القويم و ينخرط فى المسالك الباطلة التى يتبعها الأكثرية.

و اعلموا إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ

و اليوم الذى تكونون فيه كثرة و أعداءكم قلة ليس بيوم اختبار و امتحان، بل امتحانكم فى ذلك اليوم الذى يقف فيه عدوكم أمامكم و هو يزيدكم عددا بأضعاف مضاعفة و أنتم قلّة.

و علی أیهٔ حال .. ستتّضح النتیجهٔ فی الآخرهٔ لیلاقی کل فرد جزاءه العادل:

وَ لَیُبَیِّنَنَّ لَکُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِٔ ما کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ من هذا الأمر و غیره.

و الآیـهٔ التالیـهٔ تجیب علی توهم غالبا ما یطرق الأذهان عنـد الحدیث عن الامتحان الإلهی و التأکید علی الالتزام بالعهود و الوظائف، و خلاصته: هل أنّ اللّه لا یقدر علی إجبار الناس جمیعا علی قبول الحق؟ فتقول: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّهً واحِدَهً.

«أمّهٔ واحدهٔ» من حیث الإیمان و العمل علی الحق بشـکل إجباری، و لکن ذلک سوف لا یکون خطوهٔ نحو التکامل و التسامی و لا فیه أفضلیهٔ للإنسان فی قبوله الحق، و علیه فقد جرت سنّهٔ اللّه بترک الناس أحرارا لیسیروا علی طریق الحق مختارین.

و لا تعنی هـذه الحریهٔ بأنّ اللّه سـیترک عباده و لا یعینهم فی سـیرهم، و إنّما بقدر ما یقدمون علی السـیر و المجاهدهٔ سیحصـلون علی التوفیق و الهدایـهٔ و السـداد منه جل شأنه، حتی یصـلوا لهـدفهم، بینما یحرم السائرون علی طریق الباطل من هـذه النعمهٔ الرّبانیهٔ، فتراهم کلما طال المقام بهم ازدادوا ضلالا.

و لهذا یواصل القرآن الکریم القول ب: وَ لکِنْ یُضِلُّ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ.

و لکنّ الهدایـهٔ الإلهیـهٔ أو الإضـلال لا تسـلب المسؤولیهٔ عنکم، حیث أنّ الخطوات الأولی علی عواتقکم، و لهذا یأتی النداء الربانی: وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا کُنْتُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۷

تَعْمَلُونَ

و تشـیر هذه العبارهٔ إلی نسـبهٔ أعمال البشر إلی أنفسهم، و تؤکّد علی تحمیلهم مسئولیهٔ تلک الأعمال، و تعتبر من القرائن الواضحهٔ فی تفسیر مفهوم الهدایهٔ و الإضلال الإلهیین و أن أیّا منهما لا یستبطن صفهٔ الإجبار أبدا.

و قد بحثنا هذا الموضوع سابقا (راجع تفسیر الآیهٔ (۲۶) من سورهٔ البقرهٔ).

و تأکیـدا علی مسألهٔ الوفاء بالعهد و الثبات فی الإیمان (باعتبار ذلک من العوامل المهمّهٔ فی ثبات المجتمع) یقول القرآن: وَ لا تَتَّخِذُوا أَیْمانَکُمْ دَخَلًا بَیْنَکُمْ أی وسیلهٔ للخداع و النفاق، لأنّ فی ذلک خطرین کبیرین:

الأوّل: فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها، لأنّ من یبرم عهدا أو یطلق قسـما و نیته أن لا یفی بذلک فسوف لا یعول علیه الناس و لا یثقون به، و مثله کمن وضع قدمه علی أرض قد بدت له أنّها صلبهٔ و محکمهٔ، إلّا أنّها زلقهٔ فی الواقع، و ستکون سببا فی انزلاقه و سقوطه.

الثّانی: وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ فی هذه الدنیا وَ لَکُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ فی الآخرهٔ.

من الآثـار السـلبیهٔ لنقض العهود و الأیمان شـیاع سوء ظن الناس و تنفرهم من الـدین الحق، و تشـتت الصـفوف و فقـدان الثقـهٔ حتی لا یرغب الناس فی الإسـلام، و إن عقـدوا معکم عهـدا فسوف لا یجـدون أنفسـهم ملزمین بالوفاء به، و هـذا ما یؤدی لمساوی، و مفاسـد کثیرهٔ و بروز حالهٔ التخلف فی الحیاهٔ الدنیا.

و أمّا علی صعید الحیاهٔ الأخری فإنه سیکون سببا للعقاب بالعذاب الإلهی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۸

بحثان

۱- فلسفهٔ احترام العهد

کمـا هو معلوم فـإنّ الثقـهٔ المتبادلـهٔ بین أفراد المجتمع تمثـل أهم دعائم رسوخ المجتمع، بل من دعائم تشـکیل المجتمع و إخراجه من

حالـة الآحاد المتفرقـة و إعطائه صـفة التجمع، و بالإضافـة لكون أصل الثقـة المتبادلة يعتبر السـند القويم للقيام بالفعاليات الاجتماعية و التعاون على مستوى واسع.

و العهـد و القسم من مؤكـدات حفظ هـذا الارتباط و هـذه الثقـة، و إذا تصورنا مجتمعا كان نقض العهـد فيه هو السائـد، فمعنى ذلك انعـدام الثقـة بشـكل عـام فى ذلـك المجتمع، و عنـدها سوف يتحول المجتمع الى آحـاد متنـاثرة تفتقـد الارتبـاط و القـدرة و الفاعلية الاجتماعية.

و لهـذا نجـد أنّ الآيات القرآنيـة و الأحاديث الشـريفة تؤكّـد باهتمام بالغ على مسألـة الوفاء بالعهد و الأيمان، و تعتبر نقضـها من كبائر الذنوب.

و قد أشار أمير المؤمنين عليه السّلام إلى أهمية هذا الموضوع فى الإسلام و الجاهلية و اعتبره من أهم المواضيع فى

قوله عنـد عهده لمالك الأشتر «فإنّه ليس من فرائض اللّه شـيء الناس أشد عليه اجتماعا من تفرق أهوائهم و تشـتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود، و قد لزم ذلک المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر»[۱۹۰].

و نجد فى أحكام الحرب الإسـلامية أنّ إعطاه الأمان من قبل فرد واحد من جيش المسـلمين لشخص أو كتيبة من كتائب العدو يوجب مراعاة ذلک على كل المسلمين! يقول المؤرخون و المفسّرون: من جملة الأمور التى جعلت الكثير من الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۹

فى صدر الإسلام يعتنقون هذا الدين الإلهى العظيم هو التزام المسلمين الراسخ بالعهود و المواثيق و رعايتهم لأيمانهم.

و ما لهذا الأمر من أهمية بحيث دفع سلمان الفارسى لأن يقول: (تهلک هذه الأمّة بنقض مواثيقها)[۱۹۱].

أى أنّ الوفاء بالعهد و الميثاق كما أنّه يوجب القدرة و النعمة و التقدم، فنقضهما يؤدى إلى الضعف و العجز و الهلاک.

و نجد فى التأريخ الإسـلامى أنّ المسلمين عند ما غلبوا جيش الساسانيين فى عهد الخليفة الثّانى و أسروا الهرمزان قائد جيش فارس، و جاؤوا به إلى عمر، قال له عمر: ما حجتک و ما عذرک فى انتقاضک مرّة بعد أخرى؟

فقال: أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرک.

قال: لا تخف ذلک، و استسقى ماء فأتى به فى قدح غليظ.

فقال: لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا! فأتى به فى إناء يرضاه ..

فقال: إنّى أخاف أن أقتل و أنا أشرب.

فقال عمر: لا بأس عليک حتى تشربه، فأكفأه ...

فقال عمر: أعيدوا عليه و لا تجمعوا عليه بين القتل و العطش ..

فقال: لا حاجة لى فى الماء، إنّما أردت أن أستأمن به.

فقال عمر له: إنّى قاتلک.

فقال: قد أمنتنى.

فقال: كذبت.

قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته.

فقال عمر: يا أنس، أنا أؤمن قالت مجزأة بن ثور، و البراء بن مالک! و للّه لتأتّين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۰

بمخرج أو لأعاقبنّک.

قال: قلت له: لا بأس عليک حتى تخبرنى، و لا بأس عليک حتى تشربه ..

و قال له من حوله مثل ذلک ...

فأقبل على الهرمزان و قال: خدعتنى، و اللّه لا أنخدع إلّا أن تسلم فأسلم ۱۹۲].

۲- ما لا يقبل فى نقض العهود:

إنّ قبح نقض العهد الشناعة بحيث لا أحدا على استعداد لأن يتحمل مسئولية بصراحة إلّا النادر من الناس حتى أن ناقض العهد يلتمس لذلك اعذارا و تبريرات مهما كانت واهية لتبرير فعلته. و قد ذكرت لنا الآيات أعلاه نموذجا لذلك .. فبعض المسلمين يتذرعون بحجج واهية ككثرة الأعداء و قلة المؤمنين للتنصل من عهودهم مع اللّه و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتكون مواقفهم متزلزلة، فى حين أنّ الأكثرية من حيث العدد لا تمثل القدرة و القوة فى واقع الحال، و انتصار القلّة المؤمنة على الكثرة غير المؤمنة من الشواهد المعروفة فى تأريخ البشرية، ثمّ إنّ حصول القدرة و القوة للأعداء- على فرض حصولها- لا- تسوغ لأن تكون مبررا مقبولا- لنقض العهد، و لو دققنا النظر فى الإمر لرأينا فى واقعة أنّه نوع من الشرك و الجهل باللّه عزّ و جلّ.

و قد تجسّد هذا الموضوع بعينه فى عصرنا الحاضر و لكن بصورة أخرى ..

فقسم من الدول الإسلامية الصغيرة فى الظاهر قد تنصلت عن أداء وظائفها فى نصرة المؤمنين لخوفها من الدول الاستعمارية الكبرى، فتقدم فى حساباتها قدرة البشر الهزيلة على قدرة اللّه المطلقة، و تلتجئ إلى غير اللّه و تخشى غيره، و تنقض عهدها مع بارئها، و كل ذلک من بقايا الشرک و عبادة الأصنام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۱

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۵ الى ۹۷]

اشارة

وَ لا- تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹۵) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹۶) مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹۷)

سبب النّزول

نقل المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى عن ابن عباس قوله: إنّ رجلا من حضر موت يقال له عيدان الأشرع قال: يا رسول اللّه، إنّ امرأ القيس الكندى جاورنى فى أرضى فاقتطع من أرضى فذهب بها منّى، و القوم يعلمون إنّى لصادق، و لكنّه أكرم عليهم منّى، فسأل رسول اللّه أمرا القيس عنه فقال: لا- أدرى ما يقول، فأمره أن يحلف. فقال عيدان: إنّه فاجر لا يبالى أن يحلف، فقال: إن لم يكن لک شهود فخذ بيمينه، فلما ذا قال ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله:

وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ... الآيتان فلمّا قرأهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال امرؤ القيس: أمّا ما عندى فينفد و هو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه و لم أدركم هى، فليأخذ من أرضى ما شاء و مثلها معها بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه مَنْ عَمِلَ صالِحاً ... الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۲

التّفسير

ثمن الحياة الطيبة:

جاءت الآيـة الأولى من هـذه الآيات لتؤكّـد على قبـح نقض العهد مرّة أخرى و لتبيّن عذرا آخرا من أعذار نقض العهد الواهية، فحيث تطرقت الآيات السابقـة إلى عـذر الخوف من كثرة الأعـداء تأتى هذه الآية لتطرح ما للمصـلحة الشخصـية (المادية) من أثر سـلبى على حياة الإنسان.

و لهذا تقول: وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا.

أى إنّ قيمة الوفاء بعهد اللّه لا تدانيها قيمة، و لو استلمتم زمام ملك الدنيا بأسرها فإنّه لا يساوى قيمة لحظة واحدة من الوفاء بعهد اللّه.

و تضيف الآية المباركة للدلالة على هذا الأمر: إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

و يبيّن القرآن فى الآيـة التالية سـبب الأفضـلية بقوله: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ لأنّ المنافع المادية و إن بدت كبيرة فى الظاهرة، إلّا أنّهـا لاـ تعـدو أن تكون فقاعات على سـطح ماء، فى حين أنّ الجزاء و الثواب الإلهى النابع من ذات اللّه المطلقـة المقدسـة أعلى و أفضل من كل شىء.

ثمّ يضيف قائلا: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ و على الأخص فى الثبات على العهد و الأيمان- بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

إنّ التعبير ب «أحسن» دليـل على أنّ أعمـالهم الحسـنة ليست بدرجـة واحـدة، فبعضـها حسن و البعض الآخر أحسن، و لكنّ اللّه تعالى يجزى الجميع بـأحسن مـا كانوا يعملون، و هو ذروة اللطف و الرحمـة الربانيـة، كما لو مثلنا لـذلك فى مثل من حياتنا كأن يعرض بائع أنواعـا من البضائع المتفاوتـة فى النوعيـة، فقسم منها بضائع جيـدة، و قسم آخر بضائع رديئـة، و البقيـة بين الإثنين، فيأتى مشترى ليأخذ الجميع بسعر النوعية الجيدة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٣١٣

و لاـ تخلو جملـة وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ... من الإشارة إلى أنّ الصبر و الثبات فى السـير على طريق الطاعـة، و خصوصا حفظ العهود و الإيمان هى من أفضل أعمال الإنسان.

و

قـد روى عن على عليه السّـلام قوله: «الصبر من الإيمـان كـالرأس من الجسـد، و لاـ خير فى جسـد لا رأس معه، و لا فى إيمان لا صبر معه»[١٩٣].

ثمّ يبيّن القرآن الكريم بعـد ذلك- على صورة قانون عام- نتائـج الأعمال الصالحـة المرافقـة للإيمان التى يؤديها الإنسان و بأية صورة كانت فى هـذه الدنيا و فى الآخرة، فيقول: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و عليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحة الناتجة عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانة الاجتماعية أو ما شابه ذلك فى هذا الأمر.

و «الحياة الطيبـة» فى هذه الدنيا هى النتاج الطبيعى للعمل الصالح النابع من الإيمان، أى أنّ المجتمع البشـرى سـيعيش حينها حياة هادئة مطمئنـة ملؤها الرفاه و السـلم و المحبّـة و التعاون، بل و كل ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانيـة، و فى أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار و الظلم و الطغيان و عبادة الأهواء و الأنانية التى تملأ الدنيا ظلاما و ظلامات.

و علاوة على كل ما تقدم فإنّ اللّه سيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون (كما تقدم تفسيره).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۴

بحوث

۱- منابع الخلود

إنّ طبیعة الحیاة فی هذا العالم المادی هی الفناء و الهلاک، فأقوى الأبنیة و أکثر الحکومات دواما و أشد البشر قدرة لا یعدون أن یصیروا فی نهایة أمرهم إلى الضعف فالفناء، و کل شیء معرض للتلف بلا استثناء فی هذا الأمر.

أمّا لو تمکنت الکائنات من أن توجد لها ارتباطا على نحو ما مع الذات الإلهیة المقدسة، و تبقى تعمل لأجلها و فی سبیلها، فإنّها و الحال هذه ستصطبغ بصبغة الخلود، لأنّ ذات اللّه المقدسة أبدیة و أزلیة و کل من ینتسب الیه یحصل على صبغة الأبدیة.

فالأعمال الصالحة أبدیة، الشهداء لهم حیاة أبدیة، و الأنبیاء و العلماء المخلصون و المجاهدون فی سبیل اللّه یبقى ذکرهم خالدا فی ذاکرة التاریخ ..

لأنّهم یحملون الصبغة الإلهیة.

و لهذا، تذکّرنا الآیات أعلاه و تدعونا لأن ننفذ ذخائر وجودنا من الفناء، و نودعها فی صندوق لا تطاله ید الزمان و لا تفنیه اللیالی و الأیّام.

فهلموا لبذل الطاقات فی سبیل اللّه و فی خدمة خلق اللّه، و کسب رضا الباری، لتصبح من مصادیق «عند الله» و لتکون باقیة بمقتضى ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ

و

روی عن النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث:

صدقة جاریة، علم ینتفع به، و ولد صالح یدعو له»[۱۹۴].

و

عن علی علیه السّلام أنّه قال: «شتّان ما بین عملین: عمل تذهب لذته و تبقى تبعته، و عمل تذهب مؤنته و یبقى أجره»[۱۹۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۵

۲- التساوی بین الرجل و المرأة

ممّا لا شک فیه أنّ بین الرجل و المرأة تفاوت و اختلاف من الناحیتین الجسمیة و الروحیة، و هذا الفرق هو الذی جعلهما مختلفین فی وظائفها و شؤونهما الاجتماعیة، إلّا أنّ طبیعة الاختلاف الموجود لا تنعکس على الشخصیة الإنسانیة، و لا توجد اختلافا فی مقامهما عند اللّه عزّ و جل، فهما فی هذا الجانب متساویان و متکافئان، و یحکم شخصیة أی منهما مقیاس واحد ألا و هو الإیمان و العمل الصالح و التقوى، و إمکانیة تحصیل ذلک لأیّ منهما متساویة.

إنّ الآیات أعلاه قد بیّنت هذه الحقیقة بکل وضوح لتخرس الأفواه المشککة فی الطبیعة الإنسانیة للمرأة فی الماضی و الحاضر، و لترد بقوّة أولئک الذین یعطون للمرأة مقاما أقل و رتبة أنزل من الناحیة الإنسانیة نسبة إلى الرجل، و قد أعلنت الآیات المنطق الإسلامی فی هذه المسألة الاجتماعیة المهمّة، فقالت: إنّ الإسلام خلافا لقاصری الفکر لیس دین الرجال، فهو یخص المرأة بنفس القدر الذی

یخص الرجل.

فمن عمل صالحا و هو مؤمن رجلا- کان أو امرأة، فله الحیاة الطیبة: و سینال ثواب اللّه تعالی من غیر تمایز فی الجنس، و لا تفاضل بینهما إلّا من خلال ما یتفوق أیّ منهما علی الآخر من حیث الإیمان و العمل الصالح.

۳- جذور العمل الصالح ترتوی من الإیمان

العمل الصالح: مصطلح له من سعة المفهوم ما یضم بین طیاته جمیع الأعمال الإیجابیة و المفیدة و البناءة علی کافة أصعدة الحیاة العلمیة و الثقافیة و الاقتصادیة و السیاسیة و العسکریة ... إلخ.

و یشمل: الاختراع الذی یبذل فیه العالم جهده سنوات طویلة من أجل خدمة الإنسانیة .. جهاد الشهید الذی حمل روحه علی کفه و خاض ساحة الصراع بین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۶

الحق و الباطل فبذل دمه الشریف فی سبیل اللّه .. الآلام التی تتحملها الأمّ المؤمنة عند الولادة و ما تواجه من صعاب فی تربیة أبنائها .. و تشمل ما یعانیه العلماء فی تحریر کتبهم الثمینة.

و تشمل أیضا: أعظم الأعمال، کحمل رسالة النبوة .. و أقل و أصغر الأعمال، کرفع حجر صغیر من طریق المارة، نعم، فکل ما ذکره یدخل ضمن مفهوم العمل الصالح.

و الحال هذه .. یواجهنا «السؤال» الآتی: لما ذا قیّد العمل الصالح بشرط الإیمان، فی حین یمکن أداؤه بدون هذا الشرط، و الساحة البشریة فیها کثیر من الشواهد التی تحکی ذلک؟

و «الجواب» ینصب علی تبیان مسألة واحدة، ألا- و هی (الباعث الإیمانی)، فإن لم یحرز هذا الباعث فغالبا ما تکون الأعمال المنجزة ملوّثة (و قد تشذ عن هذه القاعدة العامّة بعض المتفرقات هنا و هناک)، و أمّا إذا ارتوت جذور شجرة العمل الصالح من ماء التوحید و الإیمان باللّه، فنادرا ما یصیب هذا العمل آفات مثل: العجب، و الریاء، الغرور، التقلب، المنّة .. إلخ، و لذلک نری القرآن الکریم غالبا ما یربط بین هذین الأمرین، لما لارتباطهما من واقعیة.

و نوضح المسألة فی مثال: لو افترضنا أنّ شخصین أرادا بناء مستشفی، أحدهما یدفعه الباعث الإلهی لخدمة خلق اللّه، و الآخر هدفه التظاهر بالعمل الصالح و الحصول علی السمعة و المکانة الاجتماعیة المرموقة.

و فی النظرة الأولی و بتفکیر سطحی یمکننا أن نقول- إنّ المستشفی ستقام، و سیستفید الناس من عملهما علی السواء، و صحیح أن أحدهما سیحصل علی الثواب، الإلهی و الآخر لا یحصل علیه، و لکنّ ظاهر عملیهما لا اختلاف فیه.

و کما قلنا فإنّ هذا القول ناتج عن رؤیة سطحیة للموضوع، أمّا لو أمعنا النظر لرأینا أنّهما مختلفان من جهات متعددة، فعلی سبیل المثال: إنّ الشخص الأوّل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۷

سینتخب مکانا لمستشفاه یکون قریبا من أکثر طبقات المنطقة فقرا و حرمانا، و لربّما تکون فی محلة غیر معروفة و منزویة، أمّا الشخص الثّانی فإنّه سیبحث عن منطقة أکثر شهرة حتی و إن کانت حاجتها للمستشفی قلیلة جدّا.

و سیسعی الشخص الأوّل فی انتخاب مواد البناء و طریقته بما یلحظ فیه المستقبل البعید، و یحکم أساس البناء لیصمد البناء لسنین طویلة، أمّا الشخص الآخر فإنّه سیحاول أن یسرع فی البناء و تعجیل افتتاح المستشفی و یکثر الضجیج و الإعلام لینال مراده. و سیجدّ الأوّل فی إحکام باطن العمل فی حین أنّ الثّانی سیهتم بمظهره و رونقه. و عند انتخاب الأقسام الطبیة، الأطباء، الممرضین و سائر

احتیاجات المستشـفى، فثمّة اختلاف كبير بين الشخصين، فاختلاف النيّة يترک أثره على جميع مراحل و شؤون العمل و بعبارة أخرى: إنّ العمل يصطبغ بصبغة النيّة.

۴- ما هی الحیاة الطیبة؟

لقد ذكر المفسّرون فی معنى الحياة الطيبة تفاسير عديدة:

فبعض فسرها ب: الرّزق الحلال.

و بعض ب: القناعة و الرضا بالنصيب.

و بعض ب: الرزق اليومی.

و بعض ب: العبادة مع الرزق الحلال.

و بعض ب: التوفيق لطاعة أوامر اللّه ... و ما شابه ذلک.

و لعله لا حاجة بنا للتذكير بأن مفهوم الحياة الطيبة من السعة بحيث يشـمل كل ما ذكروه و غيره، فالحياة الطيبة بجميع جهاتها، و خالية من التلوثات و الظلم و الخيانة و العداوة و الذل و كل ألوان الآلام و الهموم، و فيها ما يجعل حياة الإنسان صافية كماء زلال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۸

و بملاحظـة تعبير الآيـة عن الجزاء الإلـهی وفق أحسن الأعمال، ليفهم من ذلک أنّ الحياة الطيبـة ترتبط بعالم الـدنيا بينما يرتبط الجزاء بالأحسن بعالم الآخرة.

و

عند ما سئل أمير المؤمنين عليه السّلام عن قوله تعالى: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً، قال:

«هی القناعة»[۱۹۶].

و لا شک أنّ هـذا التّفسير لا يعنی حصـر معنى الحياة الطيبـة بالقناعة، بل هو بيان لأحد مصاديقها الواضـحة جدّا، حيث أنّ الإنسان لو أعطيت له الـدنيا بكاملها و سلبت منه روح القناعة فإنه- و الحال هذه- سـيعيش دائما فی عذاب و ألم و حسـرة، و بعكس ذلک، فإذا امتلک الإنسان القناعة و ترک الحرص و الطمع، فإنّه سيعيش مطمئنا راضيا على الدوام.

و قد ورد فی روايات أخرى تفسير الحياة الطيبة بمعنى الرضا بقسم اللّه، و هذا المعنى قريب الأفق مع القناعة.

و ينبغی أن لا نعطی لهذه المفاهيم صفة تخديرية أبدا، و إنّما الهدف الواقعی من بيان الرضا و القناعة هو القضاء على الحرص و الطمع و اتباع الهوى فی نفس الإنسان، التی تعتبر من العوامل المؤثرة فی إيجاد الاعتداءات و الاسـتغلال و الحروب و إراقة الدماء، و المسـببة للذل و الأسر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۹

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۸ الى ۱۰۰]

اشارة

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (۹۸) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۹۹) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (۱۰۰)

التّفسير

اقرأ القرآن هكذا:

لم يفت ذاكرتنا ما ورد قبل عدّة آيات أنّ القرآن تِبياناً لِكُلِّ شَيْءٍ ثمّ تمّ البحث عن قسم من أهم الأوامر الإلهية فى القرآن.

و تبيّن الآيات مورد البحث طريقة الاستفادة من القرآن و تتطرق إلى كيفية تلاوته، فكثافة المحتوى القرآنى لا تكفى وحدها لتوجيهنا، و لا بد من رفع الحجب المخيمة على وجودنا و إزالتها عن محيط فكرنا و روحنا، كى نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثر الغنى.

و لهذا يقول القرآن: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ

و لا يقصد من الاستعاذة الاكتفاء بذكر بل ينبغى لها أن تكون مقدمة لتحقيق و إيجاد الحالة الروحية المطلوبة .. حالة: التوجه إلى اللّه عزّ و جلّ، الانفصال عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨ ص: ٣٢٠

هوى النفس و العناد المانع للفهم و الدرك الصحيح للإنسان، البعد عن التعصبات و الغرور و حبّ الذات و محورية الذات التى تضغط على الإنسان ليسخر كل شىء (حتى كلام اللّه) فى تحقيق رغباته المنحرفة.

و إن لم تتحقق للإنسان هذه الحالة فسيتعذر عليه إدراك الحقائق القرآنية، و ربّما سيجعل القرآن وسيلة لتبرير آرائه و رغباته الملوّثة بالشرك بواسطة «تفسير بالرأى».

و تأتى الآية التالية لتكون دليلا على ما جاء فى الآية التى قبلها: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ لأنّهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعة دون أمر اللّه!

***

بحوث

١- موانع المعرفة

مع كل ما للحقيقة من ظهور و وضوح فإنّها لا تلحظ إلّا بعين باصرة، و بعبارة أخرى، ثمة شرطان لمعرفة الحقائق:

الأوّل: وضوح الحقيقة.

الثّانى: وجود وسيلة للنظر إليها و إدراكها.

فهل يمكن للأعمى أن يرى قرص الشمس يوما ما مع البقاء على حالة العمى؟ و هل يمكن للأصم أن يسمع نغمات هذا العالم الجميلة؟ فكذا الحال بالنسبة لفاقد البصيرة الثاقبة و الأذن السميعة، فإنّه محروم من رؤية جلال الحق، و محروم من سماع آياته الرائعة.

و لكن، لما ذا يفقد الإنسان قدرته على المعرفة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨ ص: ٣٢١

لأنّه قد أوجد الأحكام المسبقة الخاطئة عنده، و سمح للأهواء النفسية.

و التعصبات العمياء المتطرفة أن تتغلب على توجهه، و وقع فى أسر الذات و الغرور، و لوث صفاء قلبه و طهارة روحه بأمور قد جعلها موانع أمام فهم و إدراك الحقائق.

و

جاء فی الحدیث الشریف: «لو لا أنّ الشیاطین یحومون حول قلوب بنی آدم لنظروا إلی ملكوت السماوات».

فأوّل شرط ینبغی تحقیقه لمن رام السیر علی طریق الحق هو تهذیب النفس و امتلاك التقوی، و بدون ذلك یقع الإنسان فی ظلمات الوهم فیضل الطریق.

و یشیر القرآن الكریم لهذه الحقیقة ب هُدیً لِلْمُتَّقِینَ

و كم من أناس طلبوا آیات القرآن بتعصب و عناد و أحكام مسبقة (فردیة أو اجتماعیة) و حملوا القرآن بما یریدون لا بما یریده القرآن، فازدادوا ضلالا بدلا من أن یكون القرآن هادیا لهم (و طبیعی أنّ القرآن بآیاته و حقائقه الناصعة لا یكون وسیلة للإضلال، و لكنّ أهواءهم و عنادهم هو الذی جرّهم لذلك) و الآیتان (۱۲۴ و ۱۲۵) من سورة التوبة تبیّن لنا هذه الحالة بكل وضوح: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِیماناً وَ هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ وَ أَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَی رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ

فالمقصود بالآیة عدم الاكتفاء بذكر (أعوذ باللّه من الشیطان الرجیم) بل ینبغی أن نجعل من هذا الذكر فكرا، و من الفكر حالة داخلیة، و عند ما نقرأ آیة نستعیذ باللّه من أن تستحوذ وساوس الشیطان علینا، أو أن تحول بیننا و بین كلام اللّه جل و علا.

۲- لما ذا یكون التعوذ «من الشیطان الرجیم»؟

«الرجیم»: من (رجم)، بمعنی الطرد، و هو فی الأصل بمعنی الرمی بالحجر ثمّ استعمل فی الطرد.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۲

و نلاحظ ذكر صفة طرد الشیطان من دون جمیع صفاته، للتذكیر بتكبره علی أمر اللّه حین أمره بالسجود و الخضوع لآدم، و إنّ ذلك التكبر الذی دخل الشیطان بات بمثابة حجاب بینه و بین إدراك الحقائق، حتی سولت له نفسه أن یعتقد بأفضلیته علی آدم و قال: أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ

فكان ذلك العناد و الغرور سببا لتمرده علی أمر اللّه عزّ و جلّ ممّا أدی لكفره و من ثمّ طرده من الجنّة.

و كأنّ القرآن الكریم یرید أن یفهمنا باستخدامه كلمة «الرجیم» بضرورة الاحتیاط و الحذر من الوقوع فی حالة التكبّر و الغرور و التعصب عند تلاوة آیات اللّه الحكیم، لكی لا نقع بما وقع به الشیطان من قبل، فنهوی فی وحل الكفر بدلا من إدراك و فهم الحقائق القرآنیة.

۳- بین لوائی الحقّ و الباطل

قسمت الآیات أعلاه الناس إلی قسمین: قسم یرزح تحت سلطة الشیطان و قسم خارج عن هذه السلطة، و بیّنت صفتین لكلّ من هذین القسمین:

فالذین هم خارج سلطة الشیطان: مؤمنون و متوكلون علی اللّه عزّ و جلّ، أی أنّهم من الناحیة الاعتقادیة عباد للّه، و من الناحیة العملیة یعیشون مستقلین عن كل شیء سوی اللّه، و یتوكلون علیه لا علی البشر أو علی الأهواء و التعصبات.

أمّا الذین یرزحون تحت سلطة الشیطان، فقائدهم الشیطان یَتَوَلَّوْنَهُ و هو مشركون، لأنّ أعمالهم تشیر إلی تبعیتهم للشیطان و أوامره كشریك للّه جل و علا.

و ثمة من یسعی لأن یكون من القسم الأوّل، و لكنّ ابتعاده عن المربّین الإلهیین، أو الضیاع فی محیط فاسد، أو أیّ أسباب أخری،

تؤدی الی سقوطه فی وحل القسم الثّانی.

و علی أیّة حال، فالآیة تؤکّد حقیقة أنّ سلطة الشیطان لیست إجباریة علی

الإنسان، و لا یتمکن من التأثیر علی الإنسان من دون أن یمهد الإنسان السبیل لدخول الشیطان فی نفسه، و یعطیه إجازة المرور من بوابة قلبه.

۴- آداب تلاوة القرآن:

کل شیء یحتاج الی برنامج معین و لا یستثنی کتاب عظیم- کالقرآن الکریم- من هذه القاعدة، لذلک فقد ذکر فی القرآن بعض الآداب و الشروط لتلاوة کلام اللّه و الاستفادة من آیاته:

۱- یقول تعالی أوّلا: لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ و یمکن أن یشیر هذا التعبیر إلی الطهارة الظاهریة، کأن یکون مس کتابة القرآن مشروط بالطهارة و الوضوء، و کذا الإشارة إلی إمکان تیسر الوصول لفهم محتوی آیات القرآن من خلال تطهیر النفس من الرذائل الأخلاقیة، لأنّ الصفات القبیحة تمنع من مشاهدة جمال الحق باعتبارها حجابا مظلما بین الإنسان و الحقائق.

۲- یجب الاستعاذة باللّه من الشیطان الرجیم قبل الشروع بتلاوة آیات اللّه فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّیْطانِ الرَّجِیمِ

و عند ما سئل الإمام الصادق علیه السّلام عن طریقة العمل بهذا القول،

یروی أنّه قال: «قل أستعیذ بالسمیع العلیم من الشیطان الرجیم».

و

فی روایة أخری، عند تلاوته علیه السّلام لسورة الحمد قال: «أعوذ باللّه السمیع العلیم من الشیطان الرجیم و أعوذ باللّه أن یحضرون».

و کما قلنا، فإنّ التلفظ- فقط- فی الاستعاذة لا یغنی من الحق شیئا، ما لم تنفذ الاستعاذة إلی أعماق الروح بشکل ینفصل فیه الإنسان عند التلاوة عن إرادة الشیطان، و یقترب من الصفات الإلهیة، لترتفع عن فکره موانع فهم کلام الحق، و لیری جمال الحقیقة بوضوح تام.

فالاستعاذة باللّه من الشیطان- إذن- لازمة قبل الشروع بالتلاوة، و مستمرّة

مع التلاوة إلی آخرها و إن لم یکن ذلک باللسان.

۳- تجب القراءة ترتیلا، أی مع التفکّر و التأمّل وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلًا[۱۹۷].

و

فی تفسیر هذه الآیة روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ القرآن لا یقرأ هزرمة و لکن یرتل ترتیلا، إذا مررت بآیة فیها ذکر النّار وقفت عندها و تعوّذت باللّه من النّار»[۱۹۸].

۴- و قد ورد الأمر بالتدبّر و التفکّر فی القرآن إضافة إلی الترتیل. حیث جاء فی الآیة (۸۲) من سورة النساء: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ

و عن أبی عبد الرحمن السلمی قال: حدثنا من کان یقرئنا من الصحابة أنّهم کانوا یأخذون من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عشر آیات، فلا یأخذون فی العشر الأخر حتی یعلموا ما فی هذه من العلم و العمل.

و

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أعربوا القرآن و التمسوا غرائبه»[۱۹۹].

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «لقد تجلّی اللّه لخلقه فی کلامه و لکنّهم لا یبصرون»[۲۰۰].

(و لکنّ ذوی الضمائر الحیّة و العلماء المؤمنین، یستطیعون رؤیة جماله المتجلّی فی کلامه جل و علا).

۵- علی الذین یستمعون إلی تلاوة القرآن أن ینصتوا إلیه بتفکّر و تأمّل وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ ۲۰۱].

و ثمة أحادیث شریفة تحث علی قراءة القرآن بصوت حسن، لما له من فعل مؤثر فی تحسّس مفاهیمه، و لکنّ المجال لا یسمح لنا بتفصیل ذلک ۲۰۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۳۲۵

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۱۰۱ الی ۱۰۵]

اشارة

وَ إِذا بَدَّلْنا آیَةً مَکانَ آیَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما یُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۱۰۱) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ لِیُثَبِّتَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هُدیً وَ بُشْری لِلْمُسْلِمِینَ (۱۰۲) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ إِنَّما یُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَیْهِ أَعْجَمِیٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِیٌّ مُبِینٌ (۱۰۳) إِنَّ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِآیاتِ اللَّهِ لا یَهْدِیهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۱۰۴) إِنَّما یَفْتَرِی الْکَذِبَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِآیاتِ اللَّهِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْکاذِبُونَ (۱۰۵)

سبب النّزول

یقول ابن عباس: (کانوا یقولون: یسخر محمّد بأصحابه، یأمرهم الیوم بأمر و غدا یأمرهم بأمر، و إنّه لکاذب، یأتیهم بما یقول من عند نفسه).

التّفسیر

الافتراء

تحدثت الآیات السابقة أسلوب الاستفادة من القرآن الکریم، و تتناول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۳۲۶

الآیات مورد البحث جوانب أخری من المسائل المرتبطة بالقرآن، و تبتدئ ببعض الشبهات التی کانت عالقة فی أذهان المشرکین حول الآیات القرآنیة المبارکة، فتقول: وَ إِذا بَدَّلْنا آیَةً مَکانَ آیَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما یُنَزِّلُ فهذا التغییر و التبدیل یخضع لحکمة اللّه، فهو أعلم بما ینزل، و کیف ینزل، و لکن المشرکین لجهلهم قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ

و حقیقة الأمر أنّ المشرکین لم یتوصلوا بعد لإدراک وظیفة القرآن و ما یحمل من رسالة، و لم یدخل فی تصوراتهم و أذهانهم أنّ القرآن فی صدد بناء مجتمع إنسانی جدید یسوده التطور و التقدم و الحریة و المعنویة العالیة ... نعم، فأکثرهم لا یعلمون.

فبدیهی و الحال هذه أن یطرأ علی و صفة الدواء الإلهی لنجاة هؤلاء المرضی التغییر و التبدیل تدرجا مع ما یعیشونه، فما یعطون الیوم یکمله الغد .. و هکذا حتی تتمّ الوصفة الشاملة.

فغفلة المشركين عن هذه الحقائق و ابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للاعتقاد بأنّ أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحمل بين ثناياها التناقض أو الافتراء على اللّه عزّ و جلّ! و إلّا لعلموا أنّ النسخ فى الأحكام جزء من أوامر و آيات القرآن المنظمة على شكل برنامج تربوى دقيق لا يمكن الوصول للهدف النهائى لنيل التكامل إلّا به.

فالنسخ فى أحكام مجتمع يعيش حالة انتقالية بين مرحلتين يعتبر من الضروريات العملية و الواقعية، فالتحول و الانتقال بالناس من مرحلة إلى أخرى لا يتم دفعة واحدة، بل ينبغى أنّ يمر بمراحل انتقالية دقيقة.

أ يمكن معالجة مريض مزمن فى يوم واحد؟

أو شفاء رجل مدمن على المخدرات لسنوات عديدة فى يوم واحد؟ أو ليس التدرج فى المعالجة من أسلم الأساليب؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۷

و بعد الإجابة على هذه الأسئلة لا يبقى لنا إلّا أن نقول: ليس النسخ سوى برنامج مؤقت فى مراحل انتقالية.

(لقد بحثنا موضوع النسخ فى تفسير الآية (۳۶) من سورة البقرة- فراجع).

و تستمر الآية التالية بنفس الموضوع، و للتأكيد عليه تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ «روح القدس» أو (الرّوح المقدسة) هو أمين الوحى الإلهى «جبرائيل الأمين»، و بواسطته كانت الآيات القرآنية تتنزّل بأمر اللّه تعالى على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فكل الآيات حق، و هدفها واحد يتركز فى توجيه الإنسان ضمن التربية الرّبانية له، و ظروف و تركيبة الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخة و المنسوخة فى العملية التربوية.

و لهذا، جاء فى تكملة الآية المباركة: لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ

يقول صاحب تفسير الميزان: إنّ تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين و الهدى و البشرى للمسلمين إنّما هو لما بين الإيمان و الإسلام من الفرق، فالإيمان للقلب و نصيبه التثبيت فى العلم و الإذعان، و الإسلام فى ظاهر العمل و مرحلة الجوارح و نصيبها الاهتداء إلى واجب العمل و البشرى بأنّ الغاية هى الجنّة و السعادة.

و على أيّة حال، فلأجل تقوية الروح الإيمانية و السير فى طريق الهدى و البشرى لا بدّ من برامج قصيرة الأمد و مؤقتة، و بالتدريج يحل البرنامج النهائى الثابت محلها، و هو سبب وجود الناسخ و المنسوخ فى الآيات الإلهية.

و بعد أن فنّد القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهة أخرى، أو على الأصح لذكر افتراء آخر لمخالفى نبى الرحمة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقول: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۸

يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ.

اختلف المفسّرون فى ذكر اسم الشخص الذى ادّعى المشركون أنّه كان يعلّم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ...

فعن ابن عباس: أنّه رجل يدعى (بلعام) كان يصنع السيوف فى مكّة: و هو من أصل رومى و كان نصرانيا.

و اعتبره بعضهم: غلاما روميا لدى بنى حضرم و اسمه (يعيش) أو (عائش) و قد أسلم و أصبح من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قال آخرون: إنّ معلّمه غلامين نصرانيين أحدهما اسمه (يسار) و الآخر (جبر) و كان لهما كتاب بلغتهما يقرءانه بين مدّة و أخرى بصوت عال.

و احتمل بعضهم: أنّه (سلمان الفارسى)، فى حين أن سلمان الفارسى التحق بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينة و أسلم على يديه هناك، و أنّ هذه التهم التى أطلقها المشركون كانت فى مكّة، أضف إلى ذلك كون القسم الأعظم من سورة النحل مكى و

ليس مدنيا.

و على أيّة حال، فالقرآن أجابهم بقوة و أبطل كل ما كانوا يفترون، بقوله:

لِسانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ ۲۰۳] إِلَيْهِ أَعْجَمِیٌّ ۲۰۴] وَ هذا لِسانٌ عَرَبِیٌّ مُبِينٌ

فإن كان مقصودهم فی تهمتهم و افترائهم أنّ معلّم النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لألفاظ القرآن هو شخص أجنبی لا ـ يفقه من العربية و بلاغتها شيئا فهذا فی منتهی السفه، إذ كيف يمكن لفاقد ملكة البيان العربی أن يعلّم هذه البلاغة و الفصاحة التی عجز أمامها أصحاب اللغة أنفسهم، حتی أنّ القرآن تحداهم بإتيان سورة من مثله فما

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۹

استطاعوا ناهيك عن عدد الآيات؟! و إن كانوا يقصدون أنّ المحتوی القرآنی هو من معلّم أجنبی .. فردّ ذلك أهون من الأوّل و أيسر، إذ أن المحتوی القرآنی قد صبّ فی قالب كل عباراته و ألفاظه من القوة بحيث خضع لبلاغته و إعجازه جميع فطاحل فصحاء العرب، و هذا ما يرشدنا لكون الواضع يملك من القدرة علی البيان ما تعلو و قدرة و ملكة أیّ إنسان، و ليس لذلك أهلا سوی اللّه عزّ و جلّ و سبحانه عمّا يشركون.

و بنظرة تأمّلية فاحصة نجد فی محتوی القرآن أنّه يمتلك المنطق الفلسفی العميق فی إثبات عقائده، و كذا الحال بالنسبة لتعاليمه الأخلاقية فی تربية روح الإنسان و قوانينه الاجتماعية المتكاملة، و أنّ كلّ ما فی القرآن هو فرق طاقة المستوی الفكری البشری حقّا .. و يبدو لنا أن مطلقی الافتراءات المذكورة هم أنفسهم لا يعتقدون بما يقولون، و لكنّها شيطنة و وسوسة يدخلونها فی نفوس البسطاء من الناس ليس إلّا.

و الحقيقة أنّ المشركين لم يجدوا من بينهم من ينسبون إليه القرآن، و لهذا حاولوا اختلاق شخص مجهول لا يعرف الناس عنه شيئا و نسبوا إليه القرآن، عسی بفعلهم هذا أن يتمكنوا من استغفال أكبر قدر ممكن من البسطاء.

أضف إلی ذلك كله أن تاريخ حياة النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لا يسجل له اتصالات دائمة مع هذه النوعيات من البشر، و إن كان (علی سبيل الفرض) صاحب القرآن موجودا ألا يستلزم ذلك اتصال النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم به و باستمرار؟ إنّهم حاولوا التشبث لا أكثر، و كما قيل: (الغريق يتشبّث بكل حشيش).

إنّ نزول القرآن فی البيئة الجاهلية و تفوقه الإعجازی أمر واضح، و لم يتوقف تفوقه حتی فی عصرنا الحاضر حيث التقدم الذی حصل فی مختلف مجالات التمدّن الإنسانی، و التأليفات المتعمقة التی عكست مدی قوّة الفكر البشری المعاصر.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۰

نعم، فمع كل ما وصلت إليه البشرية من قوانين و أنظمة ما زال القرآن هو المتفوق و سيبقی.

و ذكر سيد قطب فی تفسيره: أنّ جمعا من الماديين فی روسيا عند ما أرادوا الانتقاص من القرآن فی مؤتمر المستشرقين المنعقد فی سنة (۱۹۵۴ م) قالوا: إنّ هذا الكتاب لا يمكن أن ينتج من ذهن إنسان واحد «محمّد» بل يجب أن يكون حاصل سعی جمع كثير من الناس بما لا يصدق كونهم جميعا من جزيرة العرب، و إنّما يقطع باشتراك جمع منهم من خارج الجزيرة[۲۰۵].

و لقد كانوا يبحثون- وفقا لمنطقهم الإلحادی- عن تفسير مادی لهذا الأمر من جهة، و ما كانوا يعقلون أن القرآن نتاج إشراقة عقلية لإنسان يعيش فی شبه الجزيرة العربية من جهة أخری، ممّا اضطرّهم لأن يطرحوا تفسيرا مضحكا و هو:

اشتراك جمع كثير من الناس- فی تأليف القرآن- من داخل شبه الجزيرة العربية و خارجها!! علی أنّ التاريخ ينفی ما ذهبوا إليه جملة و تفصيلا.

و علی أيّة حال، فالآية المباركة دليل الإعجاز القرآنی من حيث اللفظ و المضمون، فحلاوة القرآن و بلاغته و جاذبيته و التناسق الخاص فی ألفاظه و عباراته ما يفوق قدرة أیّ إنسان. (قد كان لنا بحث مفصل فی الإعجاز القرآنی تناولناه فی تفسير الآية (۲۳) من

سورة البقرة- فراجع).

و بلهجة المهدد المتوعّد يبيّن القرآن الكريم أنّ حقيقة هذه الاتهامات و الانحرافات ناشئة من عدم انطباع الإيمان فى نفوس هؤلاء، فيقول: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

لأنّهم غير لائقين للهداية و لا يناسبهم إلّا العذاب الإلهى، لما باتوا عليه من التعصب و العناد و العداء للحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ٣٣١

و فى آخر الآية يقول: إنّ الأشخاص الذين يتّهمون أولياء اللّه هم الكفار: إِنَّما يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ فهم الكاذبون و ليس أنت يا محمّد، لأنهم مع ما جاءهم من آيات بينات و أدلة قاطعة واضحة و لكنّهم يستمرون فى إطلاق الافتراءات و الأكاذيب.

فأيّة أكاذيب أكبر من تلك التى تطلق على رجال الحق لتحول بينهم و بين المتعطشين للحقائق!

***

بحوث

١- قبح الكذب فى المنظور الإسلامى

الآية الأخيرة بحثت مسألة قبح الكذب بشكل عنيف، و قد جعلت الكاذبين بدرجة الكافرين و المنكرين للآيات الإلهية.

و مع أنّ موضوع الآية هو الكذب و الافتراء على اللّه و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ الآية تناولت قبح الكذب بصورة إجمالية.

و لأهمية هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلامية إفاضات خاصّة لمسألة الصدق و النهى عن الكذب، و إليكم نماذج مختصرة و مفهرسة لجوانب الموضوع:

الصدق و الأمانة من علائم الإيمان و كمال الإنسان، حتى أنّ دلالتهما على الإيمان أرقى من دلالة الصلاة.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده، فإنّ ذلك شىء قد اعتاده و لو تركه استوحش لذلك، و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته»[٢٠۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص: ٣٣٢

فذكر الصدق مع الأمانة لاشتراكهما فى جذر واحد، و ما الصدق إلّا الأمانة فى الحديث، و ما الأمانة إلّا الصدق فى العمل.

٢- الكذب منشأ جميع الذنوب:

و قد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب ..

فعن على عليه السّلام أنّه قال: «الصدق يهدى إلى البر و البر يهدى إلى الجنّة»[٢٠٧].

و

عن الباقر عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ جعل للبشر أقفالا و جعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، و الكذب شر من

الشراب»[۲۰۸].

و

عن الإمام العسكرى عليه السّلام أنّه قال: «جعلت الخبائث كلها فى بيت و جعل مفتاحها الكذب»[۲۰۹].

فالعلاقة بين الكذب و بقية الذنوب تتلخص فى كون الكاذب لا يتمكن من الصدق، لأنّه سيكون موجبا لفضحه، فتراه يتوسّل بالكذب عادة لتغطية آثار ذنوبه.

و بعبارة أخرى: إنّ الكذب يطلق العنان للإنسان للوقوع فى الذنوب، و الصدق يحدّه.

و

قد جسد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذه الحقيقة بكل وضوح عند ما جاءه رجل و قال له: يا رسول اللّه، إنّى لا أصلى و أرتكب القبائح و أكذب، فأيّها أترك أوّلا؟.

فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «الكذب»، فتعهد الرجل للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يكذب أبدا.

فلمّا خرج عرضت له نيّة منكر فقال فى نفسه: إن سألنى رسول اللّه غدا عن أمرى، ما ذا أقول له! فإن أنكرت كان كاذبا، و إن صدقت جرى علىّ الحد. و هكذا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨ ص: ٣٣٣

ترك الكذب فى جميع أفعاله القبيحة حتى تورّع عنها جميعا.

و لذا .. فترك الكذب طريق لترك الذنوب.

٣- الكذب منشأ للنفاق:

لأنّ الصدق يعنى تطابق اللسان مع القلب، فى حين أنّ الكذب يعنى عدم تطابق اللسان مع القلب، و ما النفاق إلّا الاختلاف بين الظاهر و الباطن.

و الآية (٧٧) من سورة التوبة تبيّن لنا ذلك بوضوح: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ

۴- لا انسجام بين الكذب و الإيمان:

و إضافة إلى الآية المباركة فثمة أحاديث كثيرة تعكس لنا هذه الحقيقة الجليّة ...

فقد روى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سئل: يكون المؤمن جبانا؟ قال: «نعم»، قيل: و يكون بخيلا؟ قال: «نعم»، قيل: يكون كذّابا؟ قال: «لا»[۲۱۰].

ذلك لأنّ الكذب من علائم النفاق، و هو لا يتفق مع الإيمان.

و بهذا المعنى نقل عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه أشار لهذا المعنى و استدل عليه بالآية مورد البحث.

۵- الكذب يرفع الاطمئنان:

إنّ وجود الثقة و الاطمئنان المتبادل من أهم ما يربط الناس فيما بينهم، و الكذب من الأمور المؤثرة فی تفكيك هذه الرابطة لما يشبعه من خيانة و تقلب،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۴

و لذلك كان تأكيد الإسلام على أهمية الالتزام بالصدق و ترك الكذب.

و من خلال الأحاديث الشريفة نلمس بكل جلاء نهی الأئمّة عليهم السّلام عن مصاحبة مجموعة معينة من الناس، منهم الكذّابون لعدم الثقة بهم.

فعن علی عليه السّلام أنّه قال: «إيّاك و مصادقة الكذّاب، فإنّه كالسراب يقرّب عليك البعيد و يبعد عليك القريب»[۲۱۱].

و الحديث عن قبح الكذب و فلسفته، و الأسباب الداعية إليه من الناحية النفسية، و طرق مكافحته، كل ذلك يحتاج إلى تفصيل طويل لا يمكن لبحثنا استيعابه، و لمزيد من الاطلاع راجع كتب الأخلاق ۲۱۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۵

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۰۶ الى ۱۱۱]

اشارة

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰۶) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۱۰۷) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (۱۰۸) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۰۹) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۰)

يَوْمَ تَأْتِی كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۱۱۱)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسّرون فی شأن نزول الآية الأولى من هذه الآيات أنّها: نزلت فی جماعة أكرهوا- و هو: عمار و أبوه ياسر و أمّة سمية و صهيب و بلال و خبّاب- عذّبوا و قتل أبو عمار و أمّه و أعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه، ثمّ أخبر سبحانه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۶

بذلك رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فقال قوم: كفر عمّار.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلا: «إنّ عمارا ملیء إيمانا من قرنه إلى قدمه و اختلط الإيمان بلحمه دمه» ..

و

جاء عمّار إلى رسول اللّه و هو يبكی، فقال النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما وراءك»؟ فقال: شرّ يا رسول اللّه، ما تركت حتى نلت منك و ذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يمسح عينيه و يقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»، فنزلت الآية.

التّفسير

المرتدون عن الإسلام:

تكمل هذه الآيات ما شرعت به الآيات السابقة من الحديث عن المشركين و الكفار و ما كانوا يقومون به، فتتناول الآيات فئة أخرى من الكفرة و هم المرتدون.

حيث تقول الآية الأولى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

و تشير الآية إلى نوعين من الذين كفروا بعد إيمانهم:

النوع الأوّل: هم الذين يقعون فی قبضة العدو الغاشم و يتحملون أذاه و تعذيبه، و لكنّهم لا يصبرون تحت ضغط ما يلاقوه من أعداء الإسلام، فيعلنون براءتهم من الإسلام و ولاءهم للكفر، على أنّ ما يعلنوه لا يتعدى حركة اللسان، و أمّا قلوبهم فتبقى ممتلئة بالإيمان.

فهذا النوع يكون مشمولا بالعفو الإلهی بلا ريب، بل لم يصدر منهم ذنب، لأنّهم قد ما رسوا التقية التی أحلها الإسلام لحفظ النفس و حفظ الطاقات للاستفادة منها فی طريق خدمة دين اللّه عزّ و جلّ.

النوع الثّانی: هم الذين يفتحون للكفر أبواب قلوبهم حقيقة، و يغيّرون

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۷

مسيرتهم و يتخلّون عن إيمانهم، فهؤلاء يشملهم غضب اللّه عزّ و جلّ و عذابه العظيم.

و يمكن أن يكون «غضب اللّه» إشارة إلى حرمانهم من الرحمة الإلهية و الهداية فی الحياة الدنيا، و «العذاب العظيم» إشارة إلى عقابهم فی الحياة الأخرى .. و على أيّة حال، فما جاء فی الآية من وعيد للمرتدين هو فی غاية الشدة.

و تتطرق الآية التالية إلى أسباب ارتداد هؤلاء، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِی الْقَوْمَ الْكافِرِينَ الذين يصرّون على كفرهم و عنادهم.

و خلاصة المقال: حين أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم المادية و تعرضت للخطر المؤقت، فندموا على إسلامهم لشدّة حبّهم لدنياهم، و عادوا خاسئين إلى كفرهم.

و بديهی أن من لا- يرغب فی الإيمان و لا- يسمح له بالدخول إلى أعماق نفسه، لا تشمله الهداية الإلهية، لأنّ الهداية تحتاج إلى مقدمات كالسعی للحصول على رضوانه سبحانه و الجهاد فی سبيله، و هذا مصداق لقوله عزّ و جلّ فی آخر سورة العنكبوت: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا.

و تأتی الآية الأخرى لتبيّن سبب عدم هدايتهم، فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ بحيث أنّهم حرموا من نعمة الرؤية و السمع و ادراك الحقائق: وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ

و كما قلنا سابقا فإنّ ارتكاب الذنوب و فعل القبائح يترك أثره السلبی على إدراك الإنسان للحقائق و على عقله و رؤيته السليمة، و تدريجيا يسلب منه سلامة الفكر، و كلما ازداد فی غيه كلّما اشتدت حجب الغفلة على قلبه و سمعه و بصره، حتى يؤول به المآل إلى أن يصبح ذا عين و لكن لا يرى بها، و ذا أذن و كأنّه لا يسمع

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۸

بها، و تغلق أبواب روحه من تقبّل أيّة حقيقة، فيخسر الحس التشخيصی و القدرة على التمييز، و التی تعتبر من النعم الإلهی العالية.

«الطبع» هنا: بمعنى «الختم»، و هو إشارة إلى حالة الإحكام المطلق، فلو أراد شخص مثلا أن يغلق صندوقا معينا بشكل محكم كی لا تصل إليه الأيدی فإنّه يقوم بربطه بالحبال و غيرها، و من ثمّ يقوم بوضع ختم من الشمع على باب الصندوق للاطمئنان من عبث العابثين.

ثمّ تعرض الآیة التالیة عاقبة أمرهم، فتقول: لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ

و هل هناک من هو أتعس حالا من هذا الإنسان الذی خسر جمیع طاقاته و امکاناته لنیل السعادة الدائمة بإتباعه هوی النفس.

و بعد ذکر الفئتین السابقتین، أی الذین یتلفظون بکلمات الکفر و قلوبهم ملأی بالإیمان، و الذین ینقلبون إلی الکفر مرّة أخری بکامل اختیارهم و رغبتهم، فبعد ذلک تتطرق الآیة التالیة إلی فئة ثالثة و هم البسطاء المخدعون فی دینهم، فتقول:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ ۲۱۳].

فالآیة دلیل واضح علی قبول توبة المرتد، و لکنّ الآیة تشیر إلی من کان مشرکا فی البدایة ثم أسلم، فعلیه یکون المقصود به هو (المرتد الملّی) و لیس (المرتد الفطری).[۲۱۴] و تأتی الآیة الأخیرة لتقدم تذکیرا عاما بقولها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۳۳۹

یَوْمَ تَأْتِی کُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها[۲۱۵] لتنقذها من العقاب و العذاب.

فالمذنبون أحیانا ینکرون ما ارتکبوه من ذنوب إنکارا تاما فرارا من الجزاء و العقاب، و الآیة (۲۳) من سورة الأنعام تنقل لنا قولهم: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما کُنَّا مُشْرِکِینَ و عند ما لا- یلمسون أیّة فائدة لإنکارهم یتجهون بإلقاء اللوم علی أئمتهم و قادتهم، و یقولون: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ[۲۱۶].

و لکن .. لا فائدة من کل ذلک .. وَ تُوَفَّی کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ

بحثان

۱- التقیة و فلسفتها:

امتاز المسلمون الأوائل الذین تربّوا علی ید النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بروح مقاومة عظیمة أمام أعدائهم، و سجل لنا التأریخ صورا فریدة للصمود و التحدی، و ها هو «یاسر» لم یلن و لم یدخل حتی الغبطة الکاذبة علی شفاه الأعداء، و ما تلفظ حتی بعبارة خالیة من أیّ أثر علی قلبه ممّا یطمخ الأعداء أن یسمعوها منه، مع أنّ قلبه مملوءا ولاء و إیمانا باللّه تعالی و حبّا و إخلاصا للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و صبر علی حاله رغم مرارتها فنال شرف الشهادة، و رحلت روحه الطاهرة إلی بارئها صابرة محتسبة تشکو إلیه ظلم و جور أعداء دین اللّه.

و ها هو ولدة «عمّار» الذی خرجت منه کلمة بین صفیر الأسواط و شدّة الآلام تنم عن حالة الضعف ظاهرا، و بالرغم من اطمئنانه بإیمانه و تصدیقه لنبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۳۴۰

أنّه اغتمّ کثیرا و ارتعدت فرائصه حتی طمأنه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحلّیّة ما فعل به حفظا للنفس، فهذا.

و یطالعنا تأریخ (بلال) عند ما اعتنق الإسلام راح یدعو له و یدافع عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فشدّ علیه المشرکون حتی أنّهم طرحوه أرضا تحت لهیب الشمس الحارقة، و ما اکتفوا بذلک حتی وضعوا صخرة کبیرة علی صدره و هو بتلک الحال، و طلبوا منه أن یکفر باللّه و لکنّه أبی أن یستجیب لطلبهم و بقی یردد: أحد أحد، ثمّ قال: أقسم باللّه لو علمت قولا أشد علیکم من هذا لقلته.

و نقرأ فی تاریخ (حبیب بن زید) أنّه لما أسره مسیلمة الکذاب فقد سأله: هل تشهد أنّ محمّدا رسول اللّه؟

قال: نعم.

ثمّ سأله: أتشهد أنّی رسول اللّه؟

فأجابه ساخرا: إنّى لا أسمع ما تقول! فقطعوه إربا إربا[۲۱۷].

و التأريخ الإسلامى حافل بصور كهذه، خصوصا تأريخ المسلمين الأوائل و تأريخ أصحاب الأئمّة عليهم السّلام.

و لهذا قال المحققون: إنّ ترك التقية و عدم التسليم للأعداء فى حالات كهذه، عمل جائز حتى لو أدى الأمر إلى الشهادة، فالهدف سام و هو رفع لواء التوحيد و إعلاء كلمة الإسلام، و خاصة فى بداية دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث كان لهذا الأمر أهمية خاصّة.

و مع هذا، فالتقية جائزة فى موارد، و واجبة فى موارد أخرى، و خلافا لما يعتقده البعض فإنّ التقية (فى مكانها المناسب) ليست علامة للضعف، و لا هى مؤشر للخوف من تسلط الأعداء، و لا هى تسليم لهم بقدر ما هى نوع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۱

المراوغة المحسوبة لحفظ الطاقات الإنسانية و عدم التفريط بالأفراد المؤمنين مقابل موضوعات صغيرة و قليلة الأهمية.

و ممّا تعارف عليه عند كل الشعوب أن تلجأ الأقليات المجاهدة و المحاربة إلى أسلوب العمل السرّى غالبا، و ذلك لحفظ حياة الأفراد و تهيئة الظروف لإكثارهم، فتشكّل مجموعات سرّية و تضع لأنفسها برامجا غير معلنة على غيرهم، حتى أنّ البعض من أفرادهم يحاول أن يتنكر حتى فى زيه، و إذا ما تمّ اعتقالهم من قبل السلطة المعادية لمبادئهم فيحاولون جهد الإمكان إخفاء حقيقة أمرهم كى لا تخسر المجموعة كل طاقاتها، و لتكون قادرة على مواصلة الطريق بالبقية المتبقية منهم.

و العقل لا يجيز فى ظروف كهذه أن تعلن المجموعة المجاهدة قليلة العدد عن نفسها، لكى لا يعرفها العدو بسهولة و هو القادر على القضاء عليها بما يملك من بطش و تسلط.

فالتقية قبل أن تكون برنامجا إسلاميا هى أسلوب عقلانى و منطقى، ينفذه و يعمل به من يعيش صراعا مع عدو قوّى متمكن منه.

و لذا فقد ورد تعبير (الترس) عن التقية فى الأحاديث الشريفة،

فعن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «التقية ترس المؤمن، و التقية حرز المؤمن»[۲۱۸].

(لاحظوا أنّ التقية هنا شبّهت بالترس، و الترس إنّما يستعمل فى ميادين الحرب و القتال مع الأعداء لحفظ القوى الثائرة.

و إذا رأينا أنّ الأحاديث الشريفة تعتبر التقية علامة للدين و الإيمان و تقدرها بتسعة أعشار الدين، فإنّما هو للسبب المذكور.

و المجال- فى هذا الكتاب- لا يسع للخوض فى تفصيل موضوع التقية، و كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۲

ما أردنا هو أنّ من يستنكر التقية و يذمها إنّما هو جاهل بشروطها و فلسفتها.

و ثمة حالات تحرم فيها التقية، حينما يكون حفظ النفس فيها سببا لزوال الدين نفسه، أو قد تؤدى التقية لحدوث فساد عظيم، فيجب و الحال هذه كسر طوق التقية و استقبال كل خطر يترتب على ذلك ۲۱۹].

۲- المرتد الفطرى و الملى و .. المخدوعين:

لا- يواجه الإسلام الذين لا- يعتنقون الإسلام من (أهل الكتاب) بالشدّة و القسوة و إنّما يدعوهم باستمرار و يتحدث معهم بالمنطق السليم، فإذا لم يقتنعوا و راموا البقاء على ديانتهم فيعطون الأمان و التعهد بحفظ أموالهم و أرواحهم و مصالحهم المشروعة بعد أن يعلنوا قبول شرط أهل الذمة فى عهدهم مع المسلمين.

أمّا الذين يقبلون الإسلام و من ثمّ يرتدون عنه فيواجهون بشدّة و عنف، لأنّ عملا كهذا يؤدى إلى أضرار فادحة تصيب المجتمع الإسلامى، و هو بمثابة نوع من الحرب ضد الحكومة الإسلامية، و غالبا ما يصدر مثل هذا العمل مستبطنا النية السيئة بإيصال أسرار

المجتمع الإسلامی (و نقاط القوة و الضعف) لید الأعداء المتربصین للمسلمین الدوائر.

فلهذا، من انعقدت نطفته و کان أبواه مسلمین عند انعقاد النطفة (مسلم الولادة) ثمّ تثبت المحکمة الإسلامیة بأنّه قد ارتد عن الإسلام یباح دمه، تقسّم أمواله علی ورثته، تبیّن عنه زوجته، و ظاهرا لا تقبل توبته، أی أنّ هذه الأحکام الثلاثة تجری فی حقه علی کل حال، و لکن إذا ندم و تاب صادقا، فإنّ توبته ستقبل عند اللّه تعالی (و توبة المرأة تقبل علی الإطلاق).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۳۴۳

و إذا ارتدّ إنسان ما عن الإسلام و لم یکن مسلما بالولادة، یتعیّن علیه التوبة، فإن تاب قبلت توبته و ینجو من العقاب.

و قد ینظر للحکم السیاسی الصادر بحقّ المرتدّ الفطری علی أنّ فیه نوعا من الخشونة و القسوة و فرضا للعقیدة و سلبا لحریة الفکر، و لکنّ حقیقة هذه الأحکام تختص بمن یظهر عقائده المخالفة أو یدعو لها و لا تطال من یعتقد باعتقادات مخالفة و لکنّه لم یظهرها للناس، لأنّ الدعوة للعقائد المخالفة تمثل فی واقعها حربا للنظام الاجتماعی الموجود، و علیه فلا تکون الخشونة و الحال هذه عبثا، و لا تتنافی و حریة الفکر و الإعتقاد، و کما قلنا فإنّ شبیه هذا القانون موجود فی کثر من دول الغرب و الشرق مع بعض الاختلافات.

و ینبغی الالتفات إلی أنّ قبول الإسلام یجب أن یکون طبقا للمنطق، و الذی یولد من أبوین مسلمین و ینشأ بین أحضان بیئة إسلامیة، فمن البعید عدم إدراکه محتوی الإسلام، و لهذا یکون ارتداده و عدوله عن الإسلام أشبه بالخیانة منه من عدم إدراک الحقیقة، و لذلک فهو یستحق ما خطّ فی حقه من عقاب.

علی أنّ الأحکام عادة لا تخصص لشخص أو شخصین و إنّما یلحظ فیها المجموع العام ۲۲۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۳۴۴

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۱۱۲ الی ۱۱۴]

اشارة

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (۱۱۲) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱۱۳) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۱۴)

التّفسیر

الذین کفروا فأصابهم العذاب

قلنا مرارا: إنّ هذه السورة هی سورة النعم، النعم المادیة و المعنویة و علی کافة الأصعدة، و قد مرّ ذکر فی آیات متعددة من هذه السورة المبارکة.

و تصور لنا الآیات أعلاه عاقبة الکفر بالنعم الإلهیة علی شکل مثل واقعی.

و یبتدأ التصویر القرآنی بضرب مثل لمن لم یشکر نعمة اللّه علیه: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً لا تضطر إلی هجرة إجباریة، بل تعیش فی أمن و أمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۳۴۵

(مطمئنة) و مضافا الی ذلک يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ

و لكنّ حالها قد تبدّل فى النهاية فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ

و إضافة لاستكمال نعم اللّه المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقر به حالهم فى الدنيا، و يدام لهم ذلك فى الآخرة، فبعث بين ظهرانيهم رسل و أنبياء و أرسلت إليهم التعاليم السماوية وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ

فكانت النتيجة أن: فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَ هُمْ ظالِمُونَ

و إنّكم حين تطلعون على هذه النماذج الواقعية من الأمم السابقة، فاعتبروا بها و لا تنهجوا طريق أولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم اللّه فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

بحوث

۱- أهو مثال أم حدث تاريخى؟

لقد عبّرت الآيات أعلاه عند حديثها عن تلك المنطقة العامرة بكثرة النعم، و التى أصاب أهلها بلاء الجوع و الخوف نتيجة كفرهم بأنعم اللّه، عبّرت عن ذلك بكلمة «مثلا» و بذات الوقت فإنّ الآية استخدمت الأفعال بصيغة الماضى، ممّا يشير إلى وقوع ما حدث فعلا فى زمن ماض، و هنا حصل اختلاف بين المفسّرين فى الهدف من البيان القرآنى، فقسم قد احتمل أنّ الهدف هو ضرب مثال عام، و ذهب القسم الثّانى إلى أنّه لبيان واقعة تأريخية معيّنة.

و تطرّق مؤيد و الاحتمال الثّانى إلى تحديد المنطقة التى حدثت فيها هذه الواقعة. فذهب بعضهم أنّها أرض مكّة، و لعل يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ تدعو إلى تقوية هذا الاحتمال، لأنّه دليل على أنّ هذه المنطقة مجدبة، و ما تحتاج

إليه يأتيها من خارجها، و ما جاء فى الآية (۵۷) من سورة القصص يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ يعضد هذا المعنى، خصوصا و أنّ المفسّرين قد قطعوا بأنّها إشارة إلى مكّة المكرمة.

و يردّ هذا الزعم بعدم معرفة حادثة كهذه فى تأريخ مكّة على ما للحادثة من وضوح، فغير معروف عن مكّة أنّها عاشت أيّاما رغيدة و من ثمّ جاءها القحط و الجوع! و قال بعض آخر: حدثت هذه القصّة لجمع من بنى إسرائيل فى منطقة ما، و أنّهم ابتلوا بالقحط و الخوف على أثر كفرانهم بنعم اللّه.

و ما يؤيد ذلك ما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ قوما فى بنى إسرائيل تؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت فى بلادهم يستنجون بها فلم يزل اللّه بهم حتى اضطرّوا إلى التماثيل يبيعونها و يأكلونها و هو قول اللّه» ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ...[۲۲۱].

و رويت روايات أخرى قريبة من هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السّلام و تفسير على بن إبراهيم ممّا لا يمكن الاعتماد الكامل على أسانيدها، و إلّا لكانت المسألة واضحة[۲۲۲].

و ثمّة احتمال آخر و هو أنّ الآية تشير إلى قوم «سبأ» الذين عاشوا فى اليمن، و قد ذكر القرآن الكريم قصتهم فى الآيات (۱۵- ۱۹) من سورة سبأ، و كيف أنّهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار و الخيرات فى أمن و سلام، حتى أصابهم الغرور و الطغيان و الاستكبار و كفران النعم الإلهية، فأهلكهم اللّه و شتّت جمعهم و جعلهم عبرة للآخرين.

و جملة يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ ليست دليلا قاطعا على أنّها لم

تکن عامرة بـذاتها، لأنّه من الممکن أن یقصـد ب «کل مکان» أطرافها و ضواحیها، و کما هو معروف فإنّ المحاصـیل الزراعیـة لإقلیم کبیر تنتقل إلی المدینة أو القریة المرکزیة فی تلک المنطقة.

و ینبغی التذکیر مرّة أخری بعدم وجود المانع من شمولة إشارة الآیة إلی کل ما ذکر من احتمالات.

و علی أیّة حال، فلیس ثمّة مشکلة مهمّة فی تفسیر هذه الآیة و ذلک لکثرة المناطق التی أصابها مثل هذه العاقبة عبر التاریخ.

و إذا کان عـدم الاطمئنان الکافی فی تعیین محل المنطقـة قد دفع بعض المفسّـرین إلی اعتبار الموضوع مثالا عامّا مجرّدا و لیس منطقة معینة، فظاهر الآیات مورد البحث لا یناسب ذلک التّفسیر، بل یشیر إلی وجود منطقة معینة و حادثة تأریخیة.

۲- الرابطة ما بین الأمن و الرّزق الکثیر

ذکرت الآیات ثلاث خصائص لهذه المنطقة العامرة المبارکة:

الخاصیة الأولی: الأمن.

الخاصیة الثّانیة: الاطمئنان فی إدامة الحیاة.

الخاصیة الثّالثة: جلب الأرزاق و المواد الغذائیة الکثیرة إلیها.

و ترتبـط هـذه الخواص فیمـا بینهـا ترابطا علّیا و حسب تسلسـلها، فکل خاصـیة ترتبط بما قبلها ارتباط علـة و معلول، فلو فقـد الأمن لما اطمأن الإنسان علی إدامـة حیاته فی مکانه المعیّن، و إذا فقـد الاثنان فلا رغبـة حقیقیـة لأحـد علی الإنتاج و تحسـین الوضع الاقتصادی هناک.

فالآیة تقدم درسا عملیا لمن یرغب فی بلاد عامرة و حرّة و مستقلة، فقبل کل شیء لا بدّ من توفیر حالة الأمن، و من ثمّ بعث الاطمئنان فی قلوب الناس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۸

بخصوص مستقبل وجودهم فی تلک المنطقة، و من بعد ذلک یأتی دور تحریک عجلة الإقتصاد.

فبهـذه النعم المادیة الثلاثة تصل المجتمعات إلی درجة تکامل حیاتها المادیة فقط، و وصولا للحیاة المتکاملة من کافة الجوانب (مادیا و معنویا) تحتاج المجتمعات إلی نعمة الإیمان و التوحید، و لهذا فقد جاء بعد ذکر هذه النعم: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ

۳- لباس الجوع و الخوف

ذکرت الآیات فی بیان عاقبة الکافرین بنعم اللّه، قائلة: فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ فمن جهة: شـبّهت الجوع و الخوف باللباس، و من جهة أخری:

عبّرت ب «أذاقها» بدلا من (ألبسها).

و حمل هذا التفاوت فی التعبیر المفسّرین إلی التوقف و التأمل فی الآیة ...

فالتعبیر یحمل بین طیاته إشارة لطیفة، فمثلا:

قال ابن الراوندی لابن الأعرابی الأدیب: هل یذاق اللباس؟

قال ابن الأعرابی: لا بأس و لا لباس یا أیّها النسناس، هب أنّک تشکّ أنّ محمّدا ما کان نبیّا أمّا کان عربیا!![۲۲۳].

و علی أیّـة حال، فالتعبیر إشارة إلی أن القحط و الخوف کانا من الشـدة و کأنّهما لباس قـد أحاط بأبدانهم من کل الجهات، و أبدانهم

فى تماس معه، و من جهة أخرى فقد وصلت حالة لمسهم للخوف و القحط كأنّهم يتذوقونه بألسنتهم.

و هو تعبير عن أشدّ حالات الخوف و منتهى حالات الفقر و الذى يمكن أنّ يصيب جميع وجود الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۹

فكما أنّ نعمـة الأمن و الرفاة قد غطّت كامل وجودهم فى البداية، فها هم و قد حال بهم الأمر لأن يحل الفقر و الخوف محلّها فى آخر مطافهم نتيجة لكفرانهم بنعم اللّه سبحانه.

۴- أثر كفران النعمة فى تضييع المواهب الإلهية

رأينا فى الرّواية المتقدمة كيف راح أولئك المرفهون بتطهير أجسادهم بواسـطة المواد الغذائية بعد أن تسلطت عليهم الغفلة و ساورهم الغرور، حتى ابتلاهم اللّه بالقحط و الخوف.

و عرض الحادثة ما هو إلّا تنبيه للناس و لكل الأمم الغارقة بالنعم الإلهية، على أنّ الإسراف و التبذير و تضييع النعم لا ينجو من عقوبة و غرامة ثقيلة الوقع.

و هو تنبيه أيضا للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) فى أكياس الأوساخ دائما.

و هو تنبيه كـذلك لأولئك الـذين يهيئون غـذاء يكفى لعشـرين شـخصا، و ليس لهم من الضـيوف إلّا أربعة، و لا يصل الزائد منه إلى بطون الجياع من الناس.

و هو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية فى بيوتهم لاسـتعمالهم الخاص، و يملؤون مخازنهم انتظارا لارتفاع سـعرها فى الأسواق حتى يفسد و يذهب هباء من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم، فلا يخلو أىّ عمل ممّا ذكر من عقوبة إلهية، و أقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.

و تتّضـح أهميـة المسألة إذا علمنا أنّ المواد الغذائية على سـطح الكرة الأرضـية محددة بنسـبة، فأىّ إفراط فى أىّ نوع من المواد يؤدى إلى حرمان نسبة من البشر من تلك المواد.

و لذلك جاء التأكيد الشديد حول هذه المسألة فى الأحاديث الشريفة، حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۰

روى عن الإمام الصادق عليه السّـلام قوله: «كان أبى يكره أن يمسح يده فى المنديل و فيه شـىء من الطعام تعظيما له، إلّا أن يمصـها، أو يكون إلى جانبه صبى فيمصها، قال:

فإنّى أجـد اليسير يقع من الخوان فأتفقده فيضـحك الخادم، ثمّ قال: إنّ أهل قرية ممن كان قبلكم كان اللّه قد وسّع عليهم حتى طغوا، فقـال بعضـهم لبعض: لو عمـدنا إلى شـىء من هـذا النقى فجعلنـاه نسـتنجى به كان ألين علينا من الحجارة، قال عليه السّـلام: فلما فعلوا ذلـك بعث اللّه على أرضـهم دوابا أصـغر من الجراد فلم تـدع لهم شـيئا خلقه اللّه إلّا أكلته من شـجر أو غيره، فبلغ بهم الجهـد إلى أنّ أقبلوا على الذى كانوا يستنجون به، فأكلوه، و هى القرية التى قال اللّه تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً إلى قوله: بِما كانُوا يَصْنَعُونَ ۲۲۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۱

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۱۵ الى ۱۱۹]

اشارة

إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۵) وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (۱۱۶) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۸) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۹)

التّفسير

لا يفلح الكاذبون:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم الإلهية و مسألة شكر النعمة، تأتى الآيات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع و تطرح مسألة المحرمات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۲

الواقعية و غير الواقعية لتفصل بين الدين الحق و بين البدع التى أحدثت فى دين اللّه، و تشرع بالقول: إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۲۲۵].

و قد بحثنا موضوع تحريم الميتة و الدم و لحم الخنزير بالتفصيل فى تفسيرنا للآية (۱۷۳) من سورة البقرة.

إنّ تلوّث هذه المواد الثلاث بات اليوم ليس خافيا على أحد، فالميتة مصدر لأنواع الجراثيم، و الدم من أكثر مكونات البدن تقبلا للتلوّث بالجراثيم، و أمّا لحم الخنزير فيعتبر سببا للإصابة بالكثير من الأمراض الخطرة، و فوق كل ذلك (و كما قلنا فى تفسيرنا لسورة البقرة) فتناول لحم الخنزير و الدم له الأثر الخطير على الحالة النفسية و الأخلاقية للإنسان، بسبب التأثير الحاصل منهما على هرمونات البدن، (و الميتة بسبب عدم ذبحها و خروج دمها فإنّ أضرار التلوّث تتضاعف فيها).

أمّا فلسفة تحريم ما يذبح لغير اللّه (حيث كانوا بدلا من ذكر اسم اللّه عند الذبح يذكرون أسماء أصنامهم أو لا يتلفظون بشىء) فليست صحيحة، بل هى أخلاقية و معنوية، حيث نعلم بعدم كفاية علّة التحليل و التحريم فى الإسلام بملاحظة الجانب الصحى للموضوع، بل من المحرمات ذات جانب معنوى صرف، و حرمت بلحاظ تهذيب الروح و النظر إلى الجنبة الأخلاقية، و قد يأتى التحريم فى بعض الحالات حفظا للنظام الاجتماعى.

فتحريم أكل لحم ما لم يذكر عليه اسم اللّه إنّما كان بلحاظ أخلاقى. فمن جهة يكون التحريم حربا على الشرك و عبادة الأصنام، و من جهة أخرى يكون دعوة إلى خالق هذه النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۳

و يستفاد من المحتوى العام للآية و الآيات التالية أنّ الإسلام يوصى بالاعتدال فى تناول اللحوم، فلا يكون المسلم كالذين حرّموا على أنفسهم تناول اللحم و اكتفوا بالأغذية النباتية، و لا كالذين أحلّوا لأنفسهم أكل اللحوم أيّا كانت كأهل الجاهلية و البعض ممن يدّعى التمدّن فى عصرنا الحاضر، ممن يجيزون أكل كل لحم (كالسحالى و السرطان و أنواع الديدان).

جواب على سؤال:

و هنا يأتى السؤال التالى .. ذكرت الآية المباركة أربعة أقسام من الحيوانات المحرمة الأكل أو أجزائها، و الذى نعلمه أنّ المحرم من

اللحوم أكثر ممّا ذكر، حتى أنّ بعض السور القرآنية ذكرت من المحرمات أكثر من أربعة أقسام (كما فى الآية (۳) من سورة المائدة). فلما ذا حددت الآية أربعة أشياء فقط؟

و جواب السؤال- كما قلنا فى تفسير الآية (۱۴۵) من سورة الأنعام-: أنّ الحصر الموجود فى الآية هو حصر إضافى، أى أنّ المقصود من استعمال «إنّما» فى هذه الآيات لنفى و إبطال البدع التى كان يقول بها المشركون فى تحريم بعض الحيوانات، و كأنّ القرآن يقول لهم: هذه الأشياء حرام، لا ما تقولون! و ثمّة احتمال آخر، و هو أن تكون هذه المحرمات الأربعة هى المحرمات الأصلية أو الأساسية، حيث أنّ «المنخنقة» المذكورة فى آية (۳) من سورة المائدة داخلة فى إحدى الأقسام الأربعة (الميتة).

أمّا المحرمات الأخرى من أجزاء الحيوانات أو أنواعها- كالوحوش- فتأتى فى الدرجة الثّانية، و لذا أتى حكم تحريمها بطريق سنّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عليه فيمكن أن يكون الحصر فى الآية حصرا حقيقيا- فتأمل.

و فى نهاية الآية سياقا مع الأسلوب القرآنى عند تناوله ذكرت الحالات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۴

و الموارد الاستثنائية، يقول: فَمَنِ اضْطُرَّ كأن يكون فى صحراء و لا يملك غذاء غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

«باغ» أو الباغى: (من البغى) بمعنى «الطلب»، و يأتى هنا بمعنى طلب اللذة أو تحليل ما حرم اللّه.

«عاد» أو العادى، (من العدو) أى «التجاوز»، و يأتى هنا بمعنى أكل المضطر لأكثر من حد الضرورة.

و ورد تفسير (الباغى) فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام بأنّه (الظالم)، و (العادى) بمعنى (الغاصب)، و جاء- أيضا- الباغى: هو الذى يخرج على إمام زمانه، و العادى، هو السارق.

و إشارة الرّوايات المذكورة يمكن حملها على الاضطرار الحاصل عند السفر، فإذا سافر شخص ما طلبا للظلم و الغصب و السرقة ثمّ اضطر إلى أكل هذه اللحوم المحرمة فسوف لا يغفر له ذنبه، حتى و إن كان لحفظ حياته من الهلاك المحتم.

و على أيّة حال، فلا تنافى بين ما ذهبت إليه التفاسير و بين المفهوم العام للآية، حيث يمكن جمعها.

و تأتى الآية التالية لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل، و الذى تطرق القرآن إليه سابقا بشكل غير مباشر، فتأتى الآية لتطرحه صراحة حيث تقول: وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۲۲۶].

أى إنّ ما جئتم به ليس إلّا كذبة صريحة أطلقتها ألسنتكم فى تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم، و تحريمكم لأخرى! (أشارة إلى الأنعام التى حرمها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۵

البعض على نفسه، و البعض الآخر حللها لنفسه بعد أن جعل قسما منها لأصنامه).

فهل أعطاكم اللّه حقّ سنّ القوانين؟ أم أنّ أفكاركم المنحرفة و تقاليدكم العمياء هى التى دفعتكم لإحداث هذه البدع؟ .. أو ليس هذا كذبا و افتراءا على اللّه؟! و جاء فى الآية (۱۳۶) من سورة الأنعام بوضوح: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ

و يستفاد كذلك من الآية (۱۴۸) من سورة الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ أنّهم كانوا يجعلون لأنفسهم حق التشريع فى التحليل و التحريم، و يظنون أنّ اللّه يؤيد بدعهم! (و على هذا فكانوا يضعون البدعة أوّلا و يحللون و يحرمون ثمّ ينسبون ذلك إلى اللّه فيكون افتراء آخر)[۲۲۷].

و يحذر القرآن فى آخر الآية بقوله: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ لأنّ من مسببات الشقاء الأساسية الكذب و الافتراء على أىّ إنسان، فكيف به إذا كان على اللّه عزّ و جلّ!؟ فلا أقل و الحال هذه من مضاعفة آثاره السيئة.

و توضح الآية التالية ذلك الخسران، فتقول: مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

و یمکن أن تکون مَتاعٌ قَلِیلٌ إشارة إلی أجنّة الحیوانات المیتة التی کانوا یحللونها لأنفسهم و یأکلون لحومها، أو إشارة إلی إشباعهم حب الذات و عبادتها بواسطة جعل البدع، أو أنّهم بتثبیت الشرک و عبادة الأصنام فی مجتمعهم یتمکنون أن یحکموا علی الناس مدّة من الزمن، و کل ذلک مَتاعٌ قَلِیلٌ سیعقبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۶

عَذابٌ أَلِیمٌ

و یطرح السؤال التالی: لما ذا حرّمت علی الیهود محرّمات إضافیة؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۸ ؛ ص۳۵۶

یة التالیة کأنها جواب علی السؤال المطروح، حیث تقول: وَ عَلَی الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ

و هو إشارة إلی ما ذکر من الآیة (۱۴۶) من سورة الأنعام: وَ عَلَی الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا کُلَّ ذی ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوایا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِکَ جَزَیْناهُمْ بِبَغْیِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ

ذِی ظُفُرٍ: هی الحیوانات ذات الظفر الواحد کالخیل.

ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما: الشحوم التی فی منطقة الظهر منها.

الْحَوایا: الشحوم التی علی أطراف الأمعاء و الخاصرتین.

و حقیقة هذه المحرمات الإضافیة العقاب و الجزاء للیهود جراء ظلمهم، و لذلک یقول القرآن الکریم فی آخر الآیات مورد البحث: وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ

و کذلک ما جاء فی الآیتین (۱۶۰ و ۱۶۱) من سورة النساء: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ طَیِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ کَثِیراً وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ

فکان تحریما قسما من اللحوم علی الیهود ذا جنبة عقابیّة دون أن یکون للمشرکین القدرة علی الإحتجاج فی ذلک.

و ما حرّمه المشرکون إن هو إلّا بدعة نشأت من خرافاتهم و أباطیلهم، لأنّ ما فعلوه ما کان جاریا لا عند الیهود و لا عند المسلمین (و یمکن أن تکون إشارة الآیة تؤدی إلی هذا المعنی و هو إنّکم فعلتم ما لا یتفق مع أیّ کتاب سماوی).

و فی آخر آیة من الآیات مورد البحث، و تمشیا مع الأسلوب القرآنی، یبدأ القرآن بفتح أبواب التوبة أمام المخدوعین من الناس و النادمین من ضلالهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۷

فیقول: ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِکَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ

و یلاحظ فی هذه الآیة جملة أمور:

أوّلا: اعتبرت علّة ارتکاب الذنب «الجهالة»، و الجاهل المذنب یعود إلی طریق الحق بعد ارتفاع حالة الجهل، و هؤلاء غیر الذین ینهجون جادة الضلال علی علم و استکبار و غرور و تعصب و عناد منهم.

ثانیا: إنّ الآیة لا تحدّد موضوع بالتوبة القلبیة و الندم، بل تؤکّد علی أثر التوبة من الناحیة العملیة و تعتبر الإصلاح مکملا للتوبة، لتبطل الزعم القائل بإمکان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر اللّه»، و تؤکّد علی وجوب إصلاح الأمور عملیا، و ترمیم ما أفسد من روح الإنسان أو المجتمع بارتکاب تلک الذنوب، للدلالة إلی التوبة الحقیقیة لا توبة لقلقة اللسان.

ثالثا: التأکید علی شمول الرحمة الإلهیة و المغفرة لهم، و لکن بعد التوبة و الإصلاح: إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ

و بعبارة أخری إنّ مسألة قبول التوبة لا یکون إلّا بعد الندم و الإصلاح، و قد ذکر ذلک فی ثلاثة تعابیر:

أوّلا: باستعمال الحرف «ثمّ».

ثانیا: «من بعد ذلک».

ثالثا: «من بعدها».

لکی یلتفت المذنبون إلی أنفسهم و یترکوا ذلک التفکیر الخاطئ بأن یقولوا:

نرجو لطف اللّه و غفرانه و رحمته، و هم علی ارتکاب الذنوب دائمون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۸

الآیات [سورة النحل (۱۶): الآیات ۱۲۰ الی ۱۲۴]

اشارة

إِنَّ إِبْراهِیمَ کانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِیفاً وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۱۲۰) شاکِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۱۲۱) وَ آتَیْناهُ فِی الدُّنْیا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِینَ (۱۲۲) ثُمَّ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِیمَ حَنِیفاً وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۱۲۳) إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَی الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِیهِ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَیَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۱۲۴)

التّفسیر

کان إبراهیم لوحده أمّة!

کما قلنا مرارا بأنّ هذه السورة هی سورة النعم، و هدفها تحریک حس الشکر لدی الإنسان بشکل یدفعه لمعرفة خالق و واهب هذه النعم.

و الآیات تتحدث عن مصداق کامل للعبد الشکور للّه، ألا و هو «إبراهیم» بطل التوحید، و أوّل قدوة للمسلمین عامة و للعرب خاصة.

و الآیات تشیر إلی خمس من الصفات الحمیدة التی کان یتحلی بها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۹

إبراهیم علیه السّلام.

۱- إِنَّ إِبْراهِیمَ کانَ أُمَّةً.

و قد ذکر المفسّرون أسبابا کثیرة للتعبیر عن إبراهیم علیه السّلام بأنّه «أمّة» و أهمها أربع:

الأوّل: کان لإبراهیم شخصیة متکاملة جعلته أن یکون أمّة بذاته، و شعاع شخصیة الإنسان فی بعض الأحیان یزداد حتی لیتعدی الفرد و الفردین و المجموعة فتصبح شخصیته تعادل شخصیة أمّة بکاملها.

الثّانی: کان إبراهیم علیه السّلام قائدا و قدوة حسنة و معلما کبیرا للإنسانیة، و لذلک أطلق علیه أُمَّةً لأنّ «أمّة» اسم مفعول یطلق علی الذی تقتدی به الناس و تنصاع له.

و ثمّة ارتباط معنوی خاص بین المعنیین الأوّل و الثانی، حیث أنّ الذی یکون بمرتبة إمام صدق و استقامة لأمّة ما، یکون شریکا لهم فی أعمالهم و کأنّه نفس تلک الأمّة.

الثّالث: کان إبراهیم علیه السّلام موحدا فی محیط خال من أیّ موحد، فالجمیع کانوا یخوضون فی وحل الشرک و عبادة الأصنام، فهو و الحال هذه «أمّة» فی قبال أمّة المشرکین (الذین حوله).

الرّابع: کان إبراهیم علیه السّلام منبعا لوجود أمّة، و لهذا أطلق القرآن علیه کلمة «أمّة».

و لا مانع من أن تحمل هذه الکلمة القصیرة الموجزة کل ما ذکر ما معان کبیرة.

نعم فقد کان إبراهیم أمّة و کان إماما عظیما، و کان رجلا- صانع أمّة، و کان منادیا بالتوحید وسط بیئة اجتماعیة خالیة من أیّ موحد[۲۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۰

و قال الشاعر:

لیس علی اللّه بمستنکرأن یجمع العالم فی واحد

۲- صفته الثّانیة فی هذه الآیات: أنّه کان قانِتاً لِلَّهِ

۳- و کان دائما علی الصراط المستقیم سائرا علی طریق اللّه، طریق الحق حَنِیفاً.

۴- وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ بل کان نور اللّه یملأ کل حیاته و فکره، و یشغل کل زوایا قلبه.

۵- و بعد کل هذه الصفات، فقد کان شاکِراً لِأَنْعُمِهِ

و بعد عرض الصفات الخمسة یبیّن القرآن الکریم النتائج المهمّة لها، فیقول:

۱- اجْتَباهُ للنّبوة و إبلاغ دعوته.

۲- وَ هَداهُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ و حفظه من کل انحراف، لأنّ الهدایة لا تأتی لأحد عبثا، بل لا بدّ من توفر الاستعداد و الأهلیة لذلک.

۳- وَ آتَیْناهُ فِی الدُّنْیا حَسَنَةً.

«الحسنة» فی معناها العام کل خیر و إحسان، من قبیل منح مقام النّبوة مرورا بالنعم المادیة حتی نعمة الأولاد و ما شابهها.

۴- وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِینَ

و مع أنّ إبراهیم کان علی رأس الصالحین فی الدنیا، فإنّه سیکون منهم فی الآخرة کما أخبرنا بذلک القرآن الکریم، و هذه دلالة علی عظمة مقام الصالحین بأن یحسب إبراهیم علیه السّلام علی ما له من مقام سام کأحدهم فی دار الآخرة، و لم لا یکون ذلک و قد طلب إبراهیم علیه السّلام ذلک من ربّه حین قال: رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ ۲۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۱

۵- و ختمت عطایا اللّه عزّ و جلّ لإبراهیم علیه السّلام لما ظهر منه من صفات متکاملة بأن جعل دینه عاما و شاملا لکل ما سیأتی بعده من زمان- و خصوصا للمسلمین- و لم یجعل دینه مختصا ببعض أهل زمانه، فقال اللّه عزّ و جلّ: ثُمَّ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِیمَ حَنِیفاً[۲۳۰].

و یأتی التأکید مرّة أخری: وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ

و بملاحظة الآیات السابقة یبدو لنا هذا السؤال: إن کان دین الإسلام هو نفس دین إبراهیم و أنّ المسلمین یتبعون سنن إبراهیم علیه السّلام فی کثیر من المسائل و منها احترام یوم الجمعة، فلما ذا اتّخذ الیهود یوم السبت عیدا لهم بدلا من الجمعة و یعطلون فیه أعمالهم؟

إنّ آخر آیة من الآیات مورد البحث تجیب علی السؤال المذکور حین تقول:

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَی الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِیهِ أی أنّ السبت و ما حرم فی السبت کان عقوبة للیهود، و قد اختلفوا فیه أیضا، فمنهم من قبله و منهم من أهمله.

و تقول بعض الرّوايات: أنّ موسى عليه السّلام دعا قومه بنى إسرائيل لاحترام يوم الجمعة و تعطيل أعمالهم فيه، و هو دين إبراهيم عليه السّلام، إلّا إنّهم تعلّلوا، و اختاروا يوم السبت، فجعله اللّه عطلة لهم و لكن بضيق و شدّة، و لهذا لا ينبغى الاعتماد على تعطيل يوم السبت، لأنّه إنّما كان استثنائيا و ذا طابع جزائى، و أفضل دليل على هذا الأمر أنّ اليهود أنفسهم اختلفوا فى يومهم المنتخب هذا، فبعض احترمه و بعض آخر خالف ذلك و أدام العمل و الكسب فيه حتى أصابهم عذاب اللّه.

و ثمّة احتمال آخر أن تكون إشارة الآية مرتبطة ببدع المشركين فى موضوع الأغذية الحيوانية، لأنّ الآيات السابقة تطرقت لذلك من خلال إجابتها على

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۲

تساؤل: لما ذا لم يحرم فى الإسلام ما كان محرما فى دين اليهود؟ فجاء الجواب أنّ ذلك كان عقابا لهم، فيطرح السؤال مرّة أخرى حول عدم حرمة صيد الأسماك يوم السبت فى الأحكام الإسلامية فى حين أنّه محرم على اليهود .. فيكون الجواب بأنّه كان عقابا لليهود أيضا.

و على أيّة حال، فثمّة ارتباط بين هذه الآيات و الآيات (۱۶۳- ۱۶۶) من سورة الأعراف التى تتحدث الحديث عن «أصحاب السبت»، حيث عرضت قصتهم، و كيف أنّ صيد السمك قد حرّم عليهم فى يوم السبت، و مخالفة قسم منهم لهذا الأمر، و العقاب الشديد الذى نزل عليهم بعد ذلك الامتحان الإلهى.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ «السبت» فى الأصل بمعنى تعطيل الأعمال للاستراحة، و لذلك سمى يوم السبت، لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم فيه، و بقى هذا الاسم مستعملا حتى بعد مجىء الإسلام، إلّا أنّه لا عطلة فيه.

و يقول القرآن الكريم فى آخر الآية: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

و كما أشرنا سابقا فإنّ إحدى خصائص يوم القيامة إنهاء الاختلافات على كافة الأصعدة، و العودة إلى التوحيد المطلق، لأنّ يوم القيامة هو يوم: البروز، الظهور، كشف السرائر و البواطن، و كشف الغطاء و يوم رفع الحجب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۳

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۲۵ الى ۱۲۸]

اشارة

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۲۵) وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (۱۲۶) وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۱۲۷) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (۱۲۸)

التّفسير

عشرة قواعد أخلاقية .. سلاح داعية الحق:

حملت آيات السورة بين طياتها أحاديث كثيرة و متنوعة، فقد تناولت المشركين و اليهود و أصناف المخالفين بشكل عام، تارة بلهجة لينة و أخرى بأسلوب تقريع شدة، و خصوصا الآيات السابقة لما لها من عمق و شدة أكثر ممّا سبقها من الآيات المباركات.

أمّا الآيات أعلاه و التى تمثل خاتمة بحوث و أحاديث سورة النحل، فتبيّن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۴

أهم الأوامر الأخلاقیة الأساسیة التی ینبغی التحصن بها عند مواجهة المخالفین علی أساس منطقی، کما و تبیّن کیفیة العقاب و العفو و أسلوب الصمود أمام مؤامرتهم و ما شابه ذلک.

و یمکن تسمیة ذلک بالأصول التکتیکیة و منهج المواجهة فی الإسلام ضد المخالفین، کما و ینبغی العمل به کقانون کلی شامل لکل زمان و مکان.

و یتلخص هذا البرنامج الرّبانی بعشرة أصول، تم ترتیبها وفقا لتسلسل الآیات مورد البحث:

۱- ادْعُ إِلی سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَةِ:

«الحکمة»: بمعنی العلم و المنطق و الاستدلال، و هی فی الأصل بمعنی (المنع) و قد أطلقت علی العلم و المنطق و الاستدلال لقدرتها علی منع الإنسان من الفساد و الانحراف ...

فأوّل خطوة علی طریق الدعوة إلی الحقّ هی التمکن من الاستدلال وفق المنطق السلیم، أو النفوذ إلی داخل فکر الناس و محاولة تحریک و إیقاظ عقولهم، کخطوة أولی فی هذا الطریق.

۲- وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ:

و هی الخطوة الثّانیة فی طریق الدعوة إلی اللّه، بالاستفادة من عملیة تحریک الوجدان الإنسانی، و ذلک لما للموعظة الحسنة من أثر دقیق و فاعل علی عاطفة الإنسان و أحاسیسه، و توجیه مختلف طبقات الناس نحو الحقّ.

و فی الحقیقة فإنّ «الحکمة» تستثمر البعد العقلی للإنسان، و «الموعظة الحسنة» تتعامل مع البعد العاطفی له ۲۳۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۵

إنّ تقیید «الموعظة» بقید «الحسنة» لعلّه إشارة إلی أنّ النصیحة و الموعظة إنّما تؤدی فعلها علی الطرف المقابل إذا خلیت من أیّة خشونة أو استعلاء و تحقیر التی تثیر فیه حسّ العناد و اللجاجة و ما شابه ذلک.

فکم من موعظة أعطت عکس ما کان یؤمّل بها بسبب أسلوب طرحها الذی یشعر الطرف المقابل بالحقارة و الإهانة کأن تکون الموعظة امام الآخرین و مقرونة بالتحقیر، أو یستشمّ منها رائحة الاستعلاء فی الواعظ، فتأخذ الطرف المقابل العزة بالإثم و لا یتجاوب مع تلک الموعظة.

و هکذا یترتب الأثر الإیجابی العمیق للموعظة إذا کانت «حسنة».

۳- وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ

الخطوة الثّالثة تختص بتخلیة أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقة فیه و الأفکار المغلوطة لیکون مستعدا لتلقی الحق عند المناظرة.

و بدیهی أن تکون المجادلة و المناظرة ذات جدوی إذا کانت بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ أی أن یحکمها الحق و العدل و الصحة و الأمانة و الصدق، و تکون خالیة من أیّة إهانة أو تحقیر أو تکبر أو مغالطة، و بعبارة شاملة: أن تحافظ علی کل الأبعاد الإنسانیة السلیمة عند المناظرة.

و فی ذیل الآیة الأولی، یقول القرآن: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ

فالآیة تشیر إلی أنّ وظیفتکم هی الدعوة إلی طریق الحق بالطرق الثلاثة المتقدمة، أمّا مسألة من الذی سیهتدی و من سیبقی علی ضلاله، فعلم ذلک عند اللّه وحده سبحانه.

و ثمة احتمال آخر فی مقصود هذه الجملة و هو بیان دلیل للتوجیهات الثلاث المتقدمة، أی: إنّما أمر سبحانه بهذه الأوامر الثلاثة لأنّه یعلم الکیفیة التی تؤثر بالضالین لأجل توجیههم و هدایتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۶

۴- انصب الحدیث فی الأصول الثلاثة حول البحث المنطقی و الأسلوب العاطفی و المناقشة المعقولة مع المخالفین، و إذا حصلت المواجهة معهم و لم یتقبلوا الحق و راحوا یعتدون، فهنا یأتی الأصل الرابع: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ

۵- وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِلصَّابِرِینَ

و تقول الرّوایات: إنّ الآیة نزلت فی معرکة (أحد) عند ما شاهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شهادة عمّه حمزة بن عبد المطلب المؤلمة (حیث لم یکتف العدو بقتله بل شقّ صدره بوحشیة و قساوة فظیعة و أخرج کبده أو قلبه و قطع أذنه و أنفه) و تأذی النّبی لذلک کثیرا و

قال: «اللّهم لک الحمد و إلیک و أنت المستعان علی ما أری»

ثمّ

قال: «لئن ظفرت لأمثلن و لأمثلن و لأمثلن»

و

علی روایة أخری أنّه قال: «لأمثلن بسبعین منهم» فنزلت الآیة: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِلصَّابِرِینَ فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «أصبر أصبر»[۲۳۲].

ربّما کانت تلک اللحظة من أشد لحظات حیاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکنّه تمالک زمام أمور نفسه و اختار الطریق الثّانی، طریق العفو و الصبر.

ربّما کانت تلک اللحظة من أشد لحظات حیاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکنّه تمالک زمام أمور نفسه و اختار الطریق الثّانی، طریق العفو و الصبر.

و یحکی لنا التأریخ ما قام به الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین فتح مکّة، فما أن وطأت أقدام المسلمین المنتصرة أرض مکّة حتی أصدر نبی الرحمة صلّی اللّه علیه و آله و سلّم العفو العام عن أولئک الجفاة، فوفی بوعده الذی قطعه علی نفسه فی معرکة أحد[۲۳۳].

و حری بالإنسان إذا أراد أن ینظر إلی أعلی نموذج حی فی العواطف الإنسانیة، أن یضع قصتی أحد و فتح مکّة نصب عینیة لیقارن و یربط بینهما.

و لعل التأریخ لا یشهد لأیّة أمّة منتصرة عوملت بمثل ما عمل به النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۷

و المسلمون مشرکی مکّة عند انتصارهم علیهم، علی الرغم من أن المسلمین کانوا من أبناء تلک البیئة التی نفذ شعور الانتقام و الحقد فیها لیتوغل و یرکد فی أعماق المجتمع، بل و کانت الأحقاد تتوارث جیلا بعد جیل إلی حدّ کان عدم الانتقام یعدّ عیبا کبیرا لا یمکن ستره! و من ثمار عفو و سماحة الإسلام أن اهتزت تلک الأمّة الجاهلة العنیدة من أعماقها و استیقظت من نوم غفلتها، و راح أفرادها کما یقول عنهم القرآن الکریم:

یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اللَّهِ أَفْواجاً.

۶- وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُکَ إِلَّا بِاللَّهِ

و الصبر إنّما یکون مؤثرا و فاعلا إذا قصد به رضوانه تعالی و لا یلحظ فیه أیّ شیء دون ذلک.

و هل یتمکن أیّ إنسان من الصبر علی الکوارث المقطعة للقلب من غیر هدف معنوی و بدون قوة إلهیة و یتحمل الآلام دون فقدان الاتزان!؟ .. نعم، ففی سبیل رضوان اللّه کل شیء یهون و ما التوفیق إلّا منه عزّ و جلّ.

۷- و إذا لم ينفع الصبر فى التبليغ و الـدعوة إلى اللّه، و لا العفو و التسامح، فلا ينبغى أن يحل اليأس فى قلب المؤمن أو يجزع، بل عليه الاستمرار فى التبليغ بسعة صدر و هدوء أعصاب أكثر، و لهذا يقول القرآن الكريم فى الأصل السابع:

وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

لأنّ الحزن و التأسف على عـدم إيمان المعانـدين يترك أحـد أثرين على الإنسان، فإمّا أن يصـيبه اليأس الدائم، أو يدفعه إلى الجزع و الغضب و ضـعف التحمل، فالنهى عن الحزن عليهم يحمل فى واقعة نهيا للأمرين معا، فينبغى للعاملين فى طريق الدعوة إلى اللّه .. عدم الجزع و عدم اليأس.

۸- وَ لا تَکُ فِی ضَیْقٍ مِمَّا یَمْکُرُونَ

فمهما كانت دسائس العدو العنيد واسعة و دقيقة و خطرة فلا ينبغى لك ترك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۸

الميـدان، لظنك أن قـد وقعت فى زاويـة ضـيقة و حصار محكم، بل لا بـدّ من التوكل على اللّه، و سوف تفشل كل الـدسائس و تبطل مفعولها بقوة الإيمان و الثبات و المثابرة و العقل و الحكمة.

و آخر آية من سورة النحل تعرض الأمرين التاسع و العاشر، حيث تقول:

۹- إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِینَ اتَّقَوْا:

التقوى فى جميع أبعادها و بمفهومها الواسع، و منها: التقوى فى مواجهـة المخالفين بمراعاة أصول الأخلاق الإسـلامية عنـد المواجهـة، فمع الأسـير لا بدّ من مراعاة أصول المعاملة الإسـلامية، و مع المنحرف ينبغى مراعاة الإنصاف و الأدب و التورع عن الكذب و الاتهام، و فى ميدان القتال لا بدّ من التعامل على ضوء التعليمات العسـكرية وفق الموازين و الضوابط الإسلامية، فمثلا: ينبغى عدم الهجوم على العزل من الأعداء، عدم التعرض للأطفال و النساء و العجزة، و لا التعرض للمواشـى و المزارع لأجل إتلافها، و لا يقطع الماء على العدو ... و خلاصـة القول: تجب مراعاة أصول العـدل مع العـدو و الصديق (و طبيعى أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم اسـتثناء و ليس قاعدة).

۱۰- وَ الَّذِینَ هُمْ مُحْسِنُونَ

أكّـد القرآن الكريم فى كثير من آياته البيّنات بأن يقابل المؤمن إساءة الجاهل بالإحسان، عسـى أن يخجل الطرف المقابل أو يسـتحى من موقفه المتشـنج، و بهـذه السـلوكية الرائعـة قـد ينتقـل ذلـك الجاهـل من أَلَدُّ الْخِصامِ إلى أحسن الأصـدقاء وَلِیٌّ حَمِیمٌ و إذا عمل بالإحسان فى محله المناسب، فإنّه أفضل أسـلوب للمواجهـة، و التأريخ الإسـلامى يرفدنا بعيّنات رائعة فى هذا المجال .. و منها: موقف معاملة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مع مشركى مكّة بعد الفتح، معاملة النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ل (وحشى) قاتل حمزة، معاملته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأسرى معركة بدر الكبرى، معاملته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع من كان يؤذيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۹

بمختلف السبل من يهود زمانه .. و نجد شبيه معاملة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع الآخرين قد تجسدت عمليا فى حياة على عليه السّلام و سائر الأئمّة عليهم السّلام، و كل ذلك يكشف لنا بوضوح أهمية الإحسان فى حياة الإنسان من وجهة نظر الإسلام.

و من دقيق العبارة فى هـذا المجال ما نجده فى نهج البلاغة ضـمن الخطبة المعروفة بخطبة همّام، ذلك الرجل الزاهد العابد الذى طلب من أمير المؤمنين عليه السّـلام أن يصف له المتقين، حيث اكتفى أمير المؤمنين عليه السّـلام بـذكر الآية المباركة من مجموع القرآن و قال: اتق الله و أحسن إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ الَّذِینَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۲۳۴].

و لكنّ السائـل العـاشق للحقّ لم يرو عطشـهُ بهـذا البيـان المختصـر، ممّا اضـطر الإمام عليه السّـلام أن يعرض له بيانا أكثر تفصـيلا حتى اسـتخرجت من فمه الشـريف أكمل خطبة فى وصف المتقين، حوت على أكثر من مائة صفة لهم، إلّا أنّ جوابه المختصر يبيّن أنّ الآية

المباركة مختصر جامع لكل صفات المتقين.

و بنظرة تأمليّة ممعنة إلى الأصول العشرة المذكورة، تتبيّن لنا جميع الخطوط الأصليّة و الفرعية لأسلوب مواجهة المخالفين، و أنّ هذه الأصول إنّما احتوت كل الأسس المنطقية و العاطفية و النفسية و التكتيكية، و كل ما يؤدى للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الإيجابى فيها.

و مع ذلك ... فالاكتفاء بالمنطق و الاستدلال فى مواجهة الأعداء و فى كل الظروف لا يقول به الإسلام و لا يقرّه، بل كثيرا ما تدعو الضرورة لدخول الميدان عمليا فى مواجهة الأعداء حتى يلزم الأمر فى بعض الأحيان المقابلة بالمثل و التوسل بالقوّة فى قبال استعمال القوة من قبل الأعداء، و بالتدابير المبيتة فى قبال ما يبيتون أمور، و لكن أصول العدل و التقوى و الأخلاق و الإسلامية يجب أن تراعى فى جميع الحالات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨ ص: ٣٧٠

و لو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعمورة أو معظمها على أقل التقادير.

خاتمة مقال سورة النحل «سورة النعم»:

ممّا يلفت النظر فى السورة المباركة- كما قلنا سابقا- ذكرها لكثير من النعم الإلهية، المادية منها و المعنوية، الظاهرية و الباطنية، الفردية و الاجتماعية، ممّا دعت المفسّرين لأن يطلقوا عليهم اسم (سورة النعم).

و بملاحظة و دراسة آيات السورة تظهر لنا فى حدود الأربعين نعمة من النعم الكبيرة و الصغيرة متوزعة بين طياتها، و سنذكر أدناه فهرسا لهذه النعم مع التأكيد على أنّ الهدف من ذكرها إنّما هو لأمرين:

الأوّل: تعليم درس التوحيد و بيان عظمة الخالق.

الثّانى: تقوية حب و تعلق الإنسان بخالقه و تحريك غريزة الشكر لديه.

١- خَلَقَ السَّماواتِ

٢- وَ الْأَرْضَ

٣- وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها.

٤- الاستفادة من صوفها و جلدها لَكُمْ فِيها دِفْ‌ءٌ.

٥- وَ مَنافِعُ

٦- مِنْها تَأْكُلُونَ

٧- الاستفادة من جمال الاستقلال الاقتصادى وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ

٨- وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها.

٩- الهداية إلى الصراط المستقيم وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ

١٠- هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ

١١- إنشاء المراعى وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج٨ ص: ٣٧١

١٢- يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ

١٣- وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ.

۱۴- وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ.

۱۵- وَ النُّجُومُ

۱۶- وَ ما ذَرَأَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ

۱۷- وَ هُوَ الَّذِی سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْکُلُوا مِنْهُ لَحماً طَرِیًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْیَةً تَلْبَسُونَها.

۱۸- وَ تَرَی الْفُلْکَ مَواخِرَ فِیهِ

۱۹- وَ أَلْقی فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ

۲۰- وَ أَنْهاراً.

۲۱- وَ سُبُلًا.

۲۲- وَ عَلاماتٍ لمعرفهٔ الطرق.

۲۳- وَ بِالنَّجْمِ هُمْ یَهْتَدُونَ فی معرفهٔ الطرق لیلا.

۲۴- وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها.

۲۵- نُسْقِیکُمْ مِمَّا فِی بُطُونِهِ مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِینَ

۲۶- وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِیلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً.

۲۷- العسل فِیهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ

۲۸- وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً.

۲۹- وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَزْواجِکُمْ بَنِینَ وَ حَفَدَةً.

۳۰- وَ رَزَقَکُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ بمعناها الواسع.

۳۱- وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ

۳۲- وَ الْأَبْصارَ.

۳۳- وَ الْأَفْئِدَةَ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۲

۳۴- وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ بُیُوتِکُمْ سَکَناً و هی البیوت الثابتهٔ.

۳۵- وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُیُوتاً و هی البیوت المتحرکهٔ.

۳۶- وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلی حِینٍ

۳۷- نعمهٔ الظلال وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا.

۳۸- نعمهٔ وجود الملاجئ الآمنهٔ فی الجبال وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْجِبالِ أَکْناناً.

۳۹- وَ جَعَلَ لَکُمْ سَرابِیلَ تَقِیکُمُ الْحَرَّ.

۴۰- وَ سَرابِیلَ تَقِیکُمْ بَأْسَکُمْ أی: فی الحروب.

و جاء فی خاتمهٔ هذه النعم: کَذلِکَ یُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ لَعَلَّکُمْ تُسْلِمُونَ

الهدف من ذکر النعم:

لا حاجهٔ للتنبیه علی أنّ ذکر النعم الإلهیهٔ الواردهٔ فی القرآن الکریم لا یقصد منها إلقاء المنّهٔ أو کسب الوجاههٔ و ما شابه ذلک، فشأن

الباری أجلّ و أسمی من ذلک و هو الغنی و لا غنی سواه. و لکنّ ذکرها جاء ضمن أسلوب تربوی مبرمج یهدف لإیصال الإنسان إلی أرقی درجات الکمال الممکنـة من الناحیتین المادیـة و المعنویة. و أقوی دلیل علی ذلک ما جاء فی أواخر کثیر من الآیات السابقة من عبارات و التی تصب- مع کثرتها و تنوعها- فی نفس الاتجاه التربوی المطلوب.

فبعد ذکر نعمة تسخیر البحار، یقول القرآن فی الآیة (۱۴): لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ

و بعد بیان نعمة الجبال و الأنهار و السبل، یقول فی الآیة (۱۵): لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ

و بعد بیان أعظم النعم المعنویة (نعمة نزول القرآن) تأتی الآیة (۴۴) لتقول: لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ

و بعد ذکر نعمة آلات المعرفة المهمّة (السمع و البصر و الفؤاد)، تقول الآیة (۷۸): لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۳

و بعد الإشارة إلی إکمال النعم الإلهیة، تقول الآیة (۸۱): لَعَلَّکُمْ تُسْلِمُونَ

و بعد ذکر جملة أمور فی مجال العدل و الإحسان و محاربة الفحشاء و المنکر و الظلم، تأتی الآیة (۹۰) لتقول: لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ

و الحقیقة أنّ القرآن الکریم قد أشار إلی خمسة أهداف من خلال ما ذکر فی الموارد الستة أعلاه:

۱- الشکر.

۲- الهدایة.

۳- التفکّر.

۴- التسلیم للحق.

۵- التذکّر.

و ممّا لا شک فیه أنّ الأهـداف الخمسـة مترابطـة فیما بینها ترابطا وثیقا فالإنسان یبـدأ بالتفکر، و إذا نسـی تذکّر، ثمّ یتحرک فیه حس الشکر لواهب النعم علیه، فیفتح الطریق إلیه لیهتدی، و أخیرا یسلّم لأوامر مولاه.

و علیه، فالأهداف الخمسة حلقات مترابطة فی طریق التکامل، و إذا سلک السالک ضـمن الضوابط المعطاة لحصل علی نتائج مثمرة و عالیة.

و ثمّة ملاحظة، هی أنّ ذکر النعم الإلهیة بشکلیها الجمعی و الفردی إنّما یراد بها بناء الإنسان الکامل.

إلهی! أحاطت نعمک بکل وجودنا، فغرقنا فی بحر عطایاک، و لکننا لم نعرفک بعد.

إلهی! هب لنا بصرا و بصیرة نری بهما طریق معرفتک و حبّک، و وفقنا للسیر فی مراضیک و أوصلنا إلی منزل الشاکرین حقا.

اللّهم! أنت تعلم بحوائجنـا دون غیرک، و تعلم أکثر منّا لمـا نریـد، فمنّ علینـا لنکون کمـا تحب، و اجعلنـا خیرا ممّـا یظن الناس إنّک سمیع مجیب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۵

سورة الإسراء

اشارة

مکیة و عدد آیاتها مائة و إحدی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۷

«سورة الإسراء» قبل الدّخول فی تفسیر هذه السورة من المفید الانتباه إلی النقاط الآتیة:

أوّلا: أسماء السّورة و مکان النّزول:

بالرّغم من أنّ الاسم المشهور لهذه السورة هو «بنی إسرائیل» إلّا أنّ لها أسماء أخری مثل «الإسراء» و «سبحان»[۲۳۵].
و من الواضح أنّ ثمّة علاقة تصل بین أی اسم من أسماء السورة و بین محتواها و مضمونها، فهی «بنی إسرائیل» لأنّ هناک قسما مهمّا فی بدایة السورة و نهایتها یرتبط بالحدیث عن بنی إسرائیل.
و إذا قلنا أنّها سورة «الإسراء» فإنّ ذلک یعود إلی الآیة الأولی فیها التی تتحدث عن إسراء (و معراج) النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.
و أمّا تسمیتها ب «سبحان» فإنّ ذلک یعود إلی الکلمة الأولی فی السورة المبارکة.
و لکن الرّوایات التی تتحدّث عن فضیلة هذه السورة، تطلق علیها «بنی إسرائیل» فقط. و لهذا السبب فإنّ معظم المفسّرین یقتصرون علی هذا الاسم، و قد
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۸
اختاروه دون غیره.
و بالنسبة لمکان نزول السورة، فمن المشهور أنّ جمیع آیاتها مکیّة، و ممّا یؤید ذلک أنّ مضمون السورة و مفاهیمها یناسب بشکل کامل مضمون و محتوی و سیاق السور المکّیة، هذا بالرغم من أنّ المفسّرین یعتقد بأنّ هناک مقطعا من السورة قد نزل فی المدینة، و لکن المشهور ما شاع بین المفسّرین من مکیّة تمام السورة.

ثانیا: فضیلة سورة الإسراء:

وردت فی فضیلة سورة الإسراء و أجرها أحادیث کثیرة عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عن الإمام الصادق علیه السّلام.
فعن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «من قرأ سورة بنی إسرائیل فی کل لیلة جمعة لم یمت حتی یدرک القائم و یکون من أصحابه».
و بالنسبة لثواب قراءة سور القرآن الکریم و الرّوایات التی تتحدث عن فضائلها، ینبغی أن یلاحظ أنّ ملاک الأمر لا- یتعلق بمجرّد القراءة و حسب، و إنّما- کما قلنا مرارا- أنّ التلاوة ینبغی أن تقترن بالتفکر فی معانیها و التأمّل فی مفاهیمها، و ینبغی أن یعقب ذلک جمیعا العمل بها، و تحویلها إلی قواعد یسترشدها الإنسان المسلم فی سلوکه.
خصوصا و إنّنا نقرأ فی واحدة من الرّوایات التی تتحدث عن فضیلة هذه السورة ما نصه:
«فرق قلبه عند ذکر الوالدین».
أی أنّ هناک أثر ترتّب علی القراءة، و قد تمثل هنا بموجة من الأحاسیس النّبیلة و الحبّ و المودّة للوالدین.
إذا، ألفاظ القرآن تملک و لا شک قیمة و احتراما بحدّ ذاتها، إلّا أنّ هذه الألفاظ هی مقدمة للوعی الفکری الصحیح، کما أنّ الوعی الفکری الإیمانی الصحیح هو مقدمة للعمل الصالح.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۹

ثالثا: خطوط عامّة فی محتوی السورة:

لقد أشرنا إلی مکیّة السورة وفق القول المشهور بین المفسّرین، لذا فإنّ محتوی السورة یوافق خصوصیات السور المکّیة، من قبیل ترکیزها علی قضیة التوحید و المعاد، و مواجهة إشکالیات الشرک و الظلم و الانحراف.
و بالإمکان فرز المحاور المهمّة الآتیة التی یدور حولها مضمون السورة:

أوّلا: الإشارة إلى أدلة النّبوة الخاتمة و براهينها، و فى مقدمتها معجزة القرآن و قضية المعراج.

ثانيا: ثمّة بحوث فى السورة ترتبط بقضية المعاد و ما يرتبط به من حديث عن صحيفة الأعمال، و قضية الثواب و العقاب المترتب على نتيجة الجزاء.

ثالثا: تتحدّث السورة فى بدايتها و نهايتها عن قسم من تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث.

رابعا: تتعرض السورة إلى حرية الإختيار لدى الإنسان و أنّ الإنسان غير مجبر فى أعماله، و بالتالى فإنّ على الإنسان أن يتحمل مسئولية تلك الحرية من خلال تحمله لمسؤولية أعماله سواء كانت حسنة أو سيئة.

خامسا: تبحث السورة قضية الحساب و الكتاب فى هذه الدنيا، لكى يعى الإنسان قضية الحساب و الكتاب على أعماله و أقواله فى اليوم الآخر.

سادسا: تشير إلى الحقوق فى المستويات المختلفة، خصوصا فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، و بالأخص منهم الأم و الأب! سابعا: تتعرض السورة إلى حرمة «الإسراف»، و «التبذير»، و «البخل»، و «قتل الأبناء»، و «الزنا»، و «أكل مال اليتيم»، و «البخس فى المكيال»، و «التكبر»، و «إراقة الدماء».

ثامنا: فى السورة بحوث حول التوحيد و معرفة اللّه تعالى.

ناسعا: تواجه السورة مواقف العناد المكابرة إزاء الحق، و أنّ الذنوب تتحوّل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۰

إلى حجب تمنع الإنسان من رؤية الحق.

عاشرا: تركز السورة على أفضلية الإنسان على سائر الموجودات.

أحد عشر: تؤكّد السورة على تأثير القرآن الكريم فى معالجة الأشكال المختلفة من الأمراض الأخلاقية و الاجتماعية.

ثانى عشر: تبحث السّورة فى المعجزة القرآنية و عدم تمكن الخصوم و عجزهم عن مواجهة هذه المعجزة.

ثالث عشر: تحذّر السورة المؤمنين من وساوس الشيطان و إغواءاته، و تنبههم إلى المسالك التى ينفذ من خلالها إلى شخصية المؤمن.

رابع عشر: تتعرض السورة إلى مجموعة مختلفة من القضايا و المفاهيم و التعاليم الأخلاقية.

خامس عشر: أخيرا تتعرض السورة إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السّلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس و العبر من هذه القصص.

فى كل الأحوال تعكس سورة الإسراء فى مضمونها و محتواها العقائدى و الأخلاقى و الاجتماعى لوحة متكاملة و متنافسة لسمو و تكامل البشر فى المجالات المختلفة.

و الجميل فى السورة أنّها تبدأ ب «تسبيح اللّه»- جلّ جلاله- و تنتهى ب «الحمد و التكبير». و التسبيح هو تنزيه عن كل عيب و نقص، و الحمد علامة على تحقق صفات الفضيلة و تمثّلها فى ذاته العليا المقدّسة، بينما التكبير هو رمز الشرف و العظمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۱

الآية [سورة الإسراء (۱۷): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۱)

التّفسیر

معراج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

الآیة الأولی فی سورة الإسراء تتحدّث عن إسراء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أی سفره لیلا من المسجد الحرام فی مکّة المکرمة إلی المسجد الأقصی (فی القدس الشریف).

و قد کان هذا السفر «الإسراء» مقدمة لمعراجه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی السماء. و قد لو حظ فی هذا السفر أنّه تمّ فی زمن قیاسی حیث أنّه لم یستغرق سوی لیلة واحدة بالنسبة إلی وسائل نقل ذلک الزمن و لهذا کان أمرا اعجازیا و خارقا للعادة.

السّورة المبارکة تبدأ بالقول: سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی

و قد کان القصد من هذا السفر اللیلی الإعجازی هو لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا.

ثمّ ختمت الآیة بالقول: إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ. و هذه إشارة إلی أنّ اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۲

تبارک و تعالی لم یختر رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یصطفه لشرف الإسراء و المعراج إلا بعد أن اختبر استعداده صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهذا الشرف و لیاقته لهذا المقام، فاللّه تبارک و تعالی سمع قول رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و رأی عمله و سلوکه فاصطفاه للمقام السامی الذی اختاره له فی الإسراء و المعراج.

و احتمل بعض المفسّرین فی قوله تعالی: إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ أن یکون تهدیدا لمنکری هذا الإعجاز، و أنّ اللّه تبارک و تعالی محیط بما یقولون و بما یفعلون، و بما یمکرون! و بالرغم من أنّ هذه الآیة تنطوی علی اختصار شدید، إلّا أنّها تکشف عن مواصفات هذا السفر اللیلی «الإسراء» الإعجازی من خلال ما ترسمه له من أفق عام یمکن تفصیله بالشکل الآتی:

أوّلا: إنّ تعبیر «أسری» فی الآیة یشیر إلی وقوع السفر لیلا، لأنّ «الإسراء» فی لغة العرب یستخدم للدلالة علی السفر اللیلی، فیما یطلق علی السفر النهاری کلمة «سیر».

ثانیا: بالرغم من أنّ کلمة «لیلا» جاءت فی الآیة تأکیدا لکلمة «أسری» إلّا أنّها ترید أن تبیّن أن سفر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد تمّ فی لیلة واحدة فقط علی الرغم من أنّ المسافة بین المسجد الحرام و بیت المقدس تقدّر بأکثر من مائة فرسخ، و بشروط مواصلات ذلک الزمان، کان إنجاز هذا السفر یتطلب أیّاما بل و أسابیع، لا أن یقع فی لیلة واحدة فقط! ثالثا: إذا کان مقام العبودیة هو أسمی مقام یبلغه الإنسان فی حیاته، فإنّ الآیة قد کرّمت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإطلاق وصف العبودیة علیه، فقالت «عبده» للدلالة علی مراقی الطاعة و العبودیة التی قطعها الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للّه تبارک و تعالی حتی استحق شرف «الإسراء» حیث لم یسجد جبین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لشیء سوی اللّه، و لم یطع صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما عداه، و قد بذل کل وسعه، و خطا کل خطوة فی سبیل مرضاته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۳

تعالی.

رابعا: تفید کلمة «عبد» فی الآیة، أنّ سفر الإسراء قد وقع فی الیقظة، و أنّ رسول اللّه سافر بجسمه و روحه معا، و أنّ الإسراء لم یکن سفرا روحانیا معنویا و حسب، لأنّ الإسراء إذا کان بالروح- و حسب- فهو لا یعدو أن یکون رؤیا فی المنام، أو أی وضع شبیه بهذه الحالة، و لکن کلمة «عبد» فی الآیة تدلّ علی أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد سافر بجسمه و روحه، لأنّ «عبد» معنی یطلق علی الروح و الجسد معا.

أمّا الأشخاص الذين لا- يستطيعون هضم معجزة الإسراء و المعراج، و لم تستطع عقولهم أن تتعامل مع هذه المعجزة كما هى، فقد عمدوا إلى توجيهها بعنوان الإسراء الروحى فى حين أنّه لو قال شخص لآخر: إنى نقلتك إلى المكان الفلانى فإنّ المفهوم الصريح للمعنى لا يمكن تأويله باحتمال أنّ هذا الأمر قد تمّ فى حالة النوم، أو أنّه تعبير عن حالة معنوية تمتزج بأبعاد من الوهم و التخيّل.

خامسا: لقد كان مبتدأ هذا السفر (الذى كان مقدمة للمعراج كما سنثبت ذلك فى محلّه) هو المسجد الحرام فى مكّة المكرمة، و منتهاه المسجد الأقصى فى القدس الشريف.

بالطبع هناك كلام كثير للمفسّرين عن المكان الدقيق الذى انطلق منه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فيما إذا كان هذا المكان بيت أحد أقربائه (باعتبار أنّ المسجد الحرام قد يطلق أحيانا و من باب التعظيم على مكّة المكرمة بأجمعها) أو أنّه انطلق من جوار الكعبة، و لكن ظاهر الآية بلا شك يفيد أنّ المنطلق فى سفر الإسراء كان من المسجد الحرام.

سادسا: لقد كان الهدف من هذا السفر الإعجازى أن يشاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آيات العظمة الإلهية، و قد استمرّ سفر الإسراء إلى المعراج صعودا فى السماوات لتحقيق هذا الغرض، و هو أن تمتلئ روح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أكثر بدلائل العظمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۴

الرّبانية، و آيات اللّه فى السماوات، و لتجد روحه السامية فى هذه الآيات زخما إضافيا يوظّفه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هداية الناس إلى ربّ السماوات و الأرض! و بذلك فإنّ سفر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى رحلة الإسراء و المعراج لم يكن- كما يتصوّر البعض ذلك- بهدف رؤية اللّه تبارك و تعالى- ظنّا منهم أنّه تعالى يشغل مكانا فى السماوات!!! و بالرغم من أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان عارفا بعظمة اللّه سبحانه، و كان عارفا أيضا بعظمة خلقه، و لكن «متى كان السماع كالرؤية؟!».

و نقرأ فى سورة (النّجم التى تلت سورة الإسراء و تحدثت عن المعراج قوله تعالى: لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى

سابعا: إنّ تعبير الآية بارَكْنا حَوْلَهُ تفيد بأنّه علاوة على قدسية المسجد الأقصى، فإنّ أطرافه أيضا تمتاز بالبركة و الأفضلية على ما سواها.

و يمكن أن يكون مراد الآية البركة الظاهرية المتمثلة بها تهبه هذه الأرض الخصبة الخضراء من مزايا العمران و الأنهار و الزراعة.

و يمكن أن تحمل البركة على قواعد الفهم المعنوى فتشير حين ذاك إلى ما تمثّله هذه الأرض فى طول التأريخ، من كونها مركزا للنبوات الإلهية، و منطلقا لنور التوحيد، و أرضا خصبة للدعوة إلى عبودية اللّه.

ثامنا: إنّ تعبير إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ إشارة إلى أنّ إكرام اللّه لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمعجزة الإسراء و المعراج لم يكن أمرا عفويا عابرا، بل هو بسبب استعدادات رسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قابلياته العظيمة التى تجلت فى أقواله و أفعاله، هذه الأقوال و الأفعال التى يعرفها اللّه و يحيط بها.

تاسعا: إنّ كلمة «سبحان» إشارة إلى أنّ سفر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الإسراء و المعراج دليل آخر على تنزيه اللّه تبارك و تعالى من كل عيب و نقص.

عاشرا: كلمة «من» فى قوله تعالى: مِنْ آياتِنا إشارة إلى عظمة آيات اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۵

بحيث أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- على علو مقامه و استعداده الكبير- لم ير من هذه الآيات خلال سفره الإعجازى سوى جزء معين منها.

المعراج:

اشارة

من المعروف و المشـهور بين علماء الإسـلام أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عنـد ما كان فى مكّة! أسـرى به اللّه تبارك و تعالى بقدرته من المسـجد الحرام إلى المسـجد الأقصـى، و من هناك صعد به إلى السماء «المعراج» ليرى آثار العظمة الرّبانية و آيات اللّه الكبرى فى فضاء السماوات، ثمّ عاد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى نفس الليلة إلى مكّة المكرمة.

و المعروف المشـهور أيضا أنّ سـفر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الإسراء و المعراج قد تمّ بجسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و روحه معا.

و لكن العجيب ما يحاوله البعض من توجيه معراج الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بالمعراج الروحى و الذى هو حالة شبيهة بالنوم أو «المكاشفة الروحية» و لكن هذا التوجيه- كما أشرنا- لا ينسجم إطلاقا مع ظواهر الآيات، بل هو مخالف لها، إذ يدل الظاهر على أنّ القضية تمت بشكل جسمى حسى.

فى كل الأحوال تبقى هناك مجموعة أسئلة تثار حول قضية المعراج يمكن أن نلخصها بالشكل الآتى:

۱- كيفية المعراج من وجهة نظر القرآن و التأريخ و الحديث.

۲- آراء علماء الإسلام شيعة و سنة حول هذه القضية.

۳- الهدف من المعراج.

۴- إمكانية المعراج من وجهة نظر العلوم المعاصرة.

بالرغم من أنّ الإجابـة المفصّـلة على هـذه الأسـئلة هى خارج نطاق بحثنا التّفسـيرى، إلّا أننا سـنعالج هـذه النقاط باختصار يناسب ذوق القارئ الكريم. إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۳۸۶

شاء اللّه:

المعراج فى القرآن و الحديث:

فى كتاب اللّه سورتان تتحدثان عن المعراج:

السورة الأولى هى سورة «الإسـراء» التى نحن الآن بصددها، و قد أشارت إلى القسم الأوّل من سفر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (أى أشارت لإسرائه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) و قد استتبع الإسراء بالمعراج.

السورة الثّانيـة التى أشارت للمعراج هى سورة «النجم» التى تحـدثت عنه فى ست آيات هى: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى

هذه الآيات تفيد حسب أقوال المفسّـرين أنّ الإسـراء و المعراج تمّا فى حالة اليقظة، و إنّ قوله تعالى: ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى هو إثبات آخر لصحة هذا القول.

فى الكتب الإسـلامية المعروفـة هنـاك عـدد كبير جـدّا من الأحاديث و الرّوايات التى جاءت حول قضـية المعراج، حتى أنّ الكثير من علماء الإسلام يذهب إلى «تواتر» حديث المعراج أو اشتهاره، و على سبيل المثال نعرض للنماذج الآتية:

يقول الشـيخ «الطوسـى» فى تفسـير (التبيـان) مـا نصّه: «إنّه عرج به فى تلـك الليلـة إلى السـماوات حتى بلغ سـدرة المنتهى فى السـماء السابعـة، و أراه اللّه من آيات السـماوات و الأرض ما ازداد به معرفـة و يقينا، و كان ذلک فى يقظته صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم دون منامه»[۲۳۶].

أمّا العلّامة «الطبرسى» فى تفسيره المعروف «مجمع البيان» فيقول: «و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۳۸۷

قاله بعضهم أنّ ذلک کان فی النوم فظاهر البطلان إذ لا معجز یکون فیه و لا برهان، و قد وردت روایات کثیرة فی قصّة المعراج، فی عروج نبیّنا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی السماء، و رواها کثیر من الصحابة .. [إذ أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم صلّی المغرب فی المسجد الحرام ثمّ أسری به فی لیلته ثمّ رجع فصلّی الصبح فی المسجد الحرام. و قال الأکثرون و هو الظاهر من مذاهب أصحابنا و المشهور فی أخبارهم، أنّ اللّه تعالی صعد بجسمه إلی السماء حیا سلیما حتی رأی ما رأی من ملکوت السماوات بعینه، و لم یکن ذلک فی المنام»[۲۳۷].

أمّا العلّامة «المجلسی» فیقول فی (بحار الأنوار) ما نصه: «أعلم أنّ عروجه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی بیت المقدس ثمّ إلی السماء فی لیلة واحدة بجسده الشریف، ممّا دلّت علیه الآیات و الأخبار المتواترة من طرق الخاصّة و العامّة، و إنکار أمثال ذلک أو تأویلها بالعروج الروحانی أو بکونه فی المنام ینشأ إمّا من قلّة التتبع فی آثار الأئمّة الطاهرین أو من ضعف الیقین»[۲۳۸].

ثمّ یردف العلّامة المجلسی قائلا: «لو أردت استیفاء الأخبار الواردة فی هذا الباب لصار مجلدا کبیرا»[۲۳۹].

و من علماء السنة قام منصور علی ناصف الأزهری المعاصر بجمع أحادیث المعراج فی کتابه المعروف باسم «التاج».

أمّا الفخر الرازی- المفسّر الإسلامی المعروف- فیقول بعد ذکره لسلسلة من الاستدلالات علی إمکان الوقوع العقلی للمعراج، ما یلی: «من وجهة نظر الحدیث تعتبر أحادیث المعراج من الرّوایات المشهورة فی صحاح أهل السنّة، و مفاد هذه الأحادیث إسراء الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مکّة إلی بیت المقدس، و عروجه من بیت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۳۸۸

المقدس إلی السماء».

أمّا الشیخ عبد العزیز بن عبد اللّه بن باز و هو من متعصبی علماء الوهابیة و الذی یشغل الآن منصب رئیس إدارات البحوث العلمیة و الإفتاء و الدعوة و الإرشاد، فیقول فی کتابه «التحذیر من البدع»: «لیس من شک فی أنّ الإسراء و المعراج هی من العلامات الکبیرة علی صدق النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و علو مقامه و منزلته» إلی أن یقول: «نقلت أخبار متواترة عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّ اللّه تبارک و تعالی أخذ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فتح له أبواب السماء»[۲۴۰].

و لکن ینبغی أن نلاحظ هنا أن من بین الرّوایات الواردة فی قضیة المعراج ثمّة أحادیث ضعیفة و مجعولة لا یمکن القبول بها مطلقا.

لذلک نری أن المفسّر الإسلامی الکبیر، الشیخ الطبرسی عمد فی ذیل تفسیر هذه الآیة مورد البحث إلی تقسیم الأحادیث الواردة فی المعراج إلی أربع فئات هی:

۱- ما یقطع بصحته لتواتر الأخبار به و إحاطة العلم بصحته، و مثله أنّه أسری به علی الجملة.

۲- ما ورد فی ذلک ممّا تجوزه العقول و لا تأباه الأصول، فنحن نجوزه ثمّ نقطع علی أنّ ذلک کان فی یقظته دون منامه، و مثله ما شاهده من آیات ربّه فی السماوات.

۳- ما یکون ظاهره مخالفا لبعض الأصول إلّا أنّه یمکن تأویلها علی وجه یوافق المعقول، نحو ما روی أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رأی قوما فی الجنّة یتنعمون فیها، و قوما فی النّار یعذبون فیها، فهو یحمل علی أنّه رأی صفتهم أو أسماءهم.

۴- ما لا یصح ظاهره و لا یمکن تأویله إلّا علی التعسف البعید فالأولی أن لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۳۸۹

نقبله، نحو ما قیل من أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کلّم اللّه سبحانه جهرة، و رآه و قعد معه علی سریره ... ممّا یوجب ظاهره التشبیه و اللّه سبحانه و تعالی یتقدّس عن ذلک ۲۴۱].

هناک أیضا اختلافات بین المؤرخین المسلمین حول تاریخ وقوع المعراج، إذ یقول البعض: أنّه حصل فی السنة العاشرة للبعثة فی لیلة

السابع و العشرين من شهر رجب، و البعض يقول: إنّه عرج به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى (۱۷) رمضان من السنة الثّانية عشرة للبعثة المباركة. و بعض ثالث قال: إنّ المعراج وقع فى أوائل البعثة.

و لكن فى كل الأحوال، فإنّ الاختلاف فى تأريخ وقوع المعراج لا ينفى أصل الحادثة.

من المفيد أيضا أن نذكر أنّ عقيدة المعراج لا تقتصر على المسلمين، بل هناك ما يشابهها فى الأديان الأخرى، بل إنا نرى فى المسيحية أكثر ممّا قيل فى معراج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إذ يقول أولئك كما فى الباب السّادس من إنجيل «مرقس» و الباب (۲۴) من إنجيل «لوقا» و الباب (۲۱) من إنجيل (يوحنّا) أن عيسى بعد أن صلب و قتل و دفن نهض من مدفنه و عاش بين الناس أربعين يوما قبل أن يعرج إلى السماء ليبقى هناك فى عروج دائم! و نستفيد من مؤدّى بعض الرّوايات أنّ بعض الأنبياء السابقين عرج بهم إلى السماء أيضا.

هل كان المعراج جسديا أم روحيا؟

إن ظاهر الآيات القرآنية الواردة فى أوائل سورة الإسراء، و كذلك سورة النجم (كما فصلنا أعلاه) تدلل على وقوع المعراج فى اليقظة، و يؤكّد هذا الأمر كبار علماء الإسلام من الشيعة و السنة.

و تشهد التواريخ الإسلامية أيضا على صدق هذا الموضوع، و نقرأ فى التأريخ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۰

أن المشركين أنكروا بشدّة قضية المعراج عند ما تحدث بها الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أخذوها عليه ذريعة للاستهزاء به، ممّا يدل بوضوح على أنّ الرّسول لم يدّع الرؤية أو المكاشفة الروحية أبدا، و إلّا لما استتبع القضية كل هذا الضجيج.

أمّا ما ورد عن الحسن البصرى أنّه (كان فى المنام رؤيا رآها) أو عن عائشة أنّه: (و اللّه ما فقد جسد رسول اللّه و لكن عرج بروحه)، فيبدو أنّ لذلك منظور سياسى، لإخماد الضجّة التى أثيرت حول قضية المعراج.

هدف المعراج:

اتّضح لنا من خلال البحوث الماضية، أنّ هدف المعراج لم يكن تجوالا للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى السماوات للقاء اللّه كما يعتقد السذج، و كما نقل بعض العلماء الغربيين- و مع الأسف- لجهلهم أو لمحاولتهم تحريف الإسلام أمام الآخرين، و منهم (غيور غيف) الذى يقول فى كتاب (محمد رسول ينبغى معرفته من جديد، ص ۱۲۰)، (بلغ محمد فى سفر معراجه إلى مكان كان يسمع فيه صوت قلم اللّه، و يفهم أنّ اللّه منهمك فى تدوين حساب البشر! و مع أنّه كان يسمع صوت قلم اللّه إلّا أنّه لم يكن يراه! لأنّ أحدا لا يستطيع رؤية اللّه و إن كان رسولا).

و هذا يظهر أن القلم كان من النوع الخشبى! الذى يهتز و يولد أصواتا عند حركته على الورق!! و أمثال هذه الخرافات و الأوهام.

كلا. فالهدف كان مشاهدة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأسرار العظمة الإلهية فى أرجاء عالم الوجود، لا سيما العالم العلوى الذى يشكل مجموعة من براهين عظمته، و تتغذى بها روحه الكريمة و تحصل على نظرة و إدراك جديدين لهداية البشرية و قيادتها.

و يتّضح هذا الهدف بشكل صريح فى الآية الأولى من سورة الإسراء، و الآية (۱۸) من سورة النجم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۱

و هناك رواية أيضا منقولة عن الإمام الصادق عليه السّلام فى جوابه على سبب المعراج. أنّه

قال عليه السّلام: «إنّ اللّه لا يوصف بمكان، و لا يجرى عليه زمان، و لكنّه عزّ و جلّ أراد أن يشرف به ملائكته و سكان سماواته، و يكرمهم بمشاهدته، و يريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه»[۲۴۲].

المعراج و العلوم العصریة:

کان بعض الفلاسفة القدماء یعتقد بنظریة «الأفلاک البطلیموسیة التسعة» و التی تکون علی شکل طبقات البصل فی إحاطتها بالأرض، لذلک فقد أنکر المعراج بمزاعم علمیة تقوم علی أساس الإیمان بنظریة الهیئة البطلیموسیة و التی بموجبها یلزم خرق هذه الأفلاک و من ثمّ التئامها لیکون المعراج ممکنا[۲۴۳].

و لکن مع انهیار قواعد نظریة الهیئة البطلیموسیة أصبحت شبهة خرق و التئام الأفلاک فی خبر کان، و ضمتها ید النسیان، و لکن التطوّر المعاصر فی علم الأفلاک أدّی إلی إثارة مجموعة من الشبهات العلمیة التی تقف دون إمکانیة المعراج علمیا، و هذه الشبهات یمکن تلخیصها کما یلی:

أوّلا: إنّ أوّل ما تواجه الذی یرید أن یجتاز المحیط الفضائی للأرض إلی عمق الفضاء هو وجوب الانفلات من قوة الجاذبیة الأرضیة، و یحتاج الإنسان للتخلّص من الجاذبیة إلی وسائل استثنائیة تکون معدّل سرعتها علی الأقل (۴۰) ألف کیلومتر فی الساعة.

ثانیا: المانع الآخر یتمثل فی خلو الفضاء الخارجی من الهواء، الذی هو القوام فی حیاة الإنسان.

ثالثا: المانع الثّالث یتمثل بالحرارة الشدیدة الحارقة (للشمس) و البرودة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۲

القاتلة، و ذلک بحسب موقع الإنسان فی الفضاء من الشمس.

رابعا: هناک خطر الإشاعات الفضائیة القاتلة کالأشعة الکونیة و الأشعة ما وراء البنفسجیة و أشعة إکس، إذ من المعروف أنّ الجسم یحتاج إلی کمیات ضئیلة من هذه الإشعاعات، و هی بهذا الحجم لا تشکّل ضررا علی جسم الإنسان و وجود طبقة الغلاف الجوی یمنع من تسر بها بکثرة إلی الأرض.، و لکن خارج محیط الغلاف الجوّی تکثر هذه الإشاعات إلی درجة تکون قاتلة.

خامسا: هناک مشکلة فقدان الوزن التی یتعرض لها الإنسان فی الفضاء الخارجی، فمن الممکن للإنسان أن یتعوّد تدریجیا علی الحیاة فی أجواء انعدام الوزن، إلّا أنّ انتقاله مرّة واحدة إلی الفضاء الخارجی- کما فی المعراج- هو أمر صعب للغایة، بل غیر ممکن.

سادسا: المشکلة الأخیرة هی مشکلة الزمان، حیث تؤکد علوم الیوم علی أنّه لیست هناک وسیلة تسیر أسرع من سرعة الضوء، و الذی یرید أن یجول فی سماوات الفضاء الخارجی یحتاج إلی سرعة تکون أسرع من سرعة الضوء!.

فی مواجهة هذه الأسئلة:

أوّلا: فی عصرنا الحاضر، و بعد أن أصبحت الرحلات الفضائیة بالاستفادة من معطیات العلوم أمرا عادیا، فإنّ خمسا من المشاکل الست الآنفة تنتفی، و تبقی- فقط- مشکلة الزمن. و هذه المشکلة تثار فقط عند الحدیث عن المناطق الفضائیة البعیدة جدا.

ثانیا: إنّ المعراج لم یکن حدثا عادیا، بل أمر إعجازی خارق للعادة ثمّ بالقدرة الإلهیة. و کذلک الحال فی کافة معجزات الأنبیاء و هذا یعنی عدم استحالة المعجزة عقلا، أمّا الأمور الأخری فتتم بالاستناد إلی القدرات الإلهیة.

و إذا کان الإنسان قد استطاع باستثمار لمعطیات العلوم الحدیثة أن یوفّر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۳

حلولا للمشکلات الآنفة الذکر، مثل مشکلة الجاذبیة و الأشعة و انعدام الوزن و ما إلی ذلک، حتی أصبح بمستطاعه السفر إلی الفضاء الخارجی .. فألا یمکن للّه- خالق الکون، صاحب القدرات المطلقة- أن یوفّر وسیلة تتجاوز المشکلات المذکورة؟! إنّنا علی یقین من أنّ اللّه تبارک و تعالی وضع فی متناول رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرکبا مناسبا صانه فیه عن کل المخاطر و الأضرار فی معراجه نحو السماوات، و لکن ما اسم هذا المرکب هل هو «البراق» أو «رفرف»؟ و علی أی شکل و هیئة کان؟ کل هذه أمور غامضة

بالنسبة لنا، و لكنّها لا تتعارض مع يقيننا بما تمّ، و إذا أردنا أن نتجاوز كل هذه الأمور فإنّ مشكلة السرعة التى بقيت- لوحدها- تحتاج إلى حل، فإنّ آخر معطيات العلم المعاصر بدأت تتجاوز هذه المشكلة بعد أن وجدت لها حلولا مناسبة بالرغم ممّا يؤكّده «إنشتاين» فى نظريته من أن سرعة الضوء هى أقصى سرعة معروفة اليوم.

إنّ علماء اليوم يؤكدون أنّ الأمواج الجاذبة لا تحتاج إلى الزمن، و هى تنتقل فى آن واحد من طرف من العالم إلى الطرف الآخر منه و هناك احتمال مطروح بالنسبة للحركة المرتبطة بتوسّع الكون (من المعروف أنّ الكون فى حالة اتساع و أنّ النجوم و المنظومات السماوية تبتعد عن بعضها البعض بحركة سريعة) إذ يلاحظ أنّ الأفلاك و النجوم و المنظومات الفضائية تبتعد عن بعضها البعض و عن مركز الكون إلى أطرافه، بسرعة تتجاوز سرعة الضوء! إذن، بكلام مختصر نقول: إنّ المشكلات الآنفة ليس فيها ما يحول عقلا دون وقوع المعراج، و دون التصديق به، و المعراج بذلك لا يعتبر من المحالات العقلية، بل بالإمكان تذيل المشكلات المثارة حوله بتوظيف الوسائل و القدرات المناسبة.

و بذلك فالمعراج لا يعتبر أمرا غير ممكن لا من وجهة الأدلة العقلية، و لا من وجهة معطيات و موازين العلوم المعاصرة. و هو بالإضافة إلى ذلك أمر إعجازى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٣٩۴

خارق للعادة. لذلك، إذا قام الدليل النقلى السليم عليه فينبغى قبوله و الإيمان به ۲۴۴].

و أخيرا .. هناك إشارة أخرى حول المعراج سنقف عليها أثناء الحديث عن سورة النجم إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٣٩۵

الآيات [سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢ الى ٨]

اشارة

وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (٣) وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (۴) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولاً (۵) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (۶)

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (٨)

التّفسير

بعد أن أشارت الآية الأولى فى السورة إلى معجزة إسراء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليلا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ٣٩۶

المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كشفت آيات السورة الأخرى، عن موقف المشركين و المعارضين لمثل هذه الأحداث، و أبانت استنكارهم لها، و عنادهم إزاء الحق، فى هذه الاتجاه انعطفت الآية الأولى- من الآيات مورد البحث- على قوم موسى، ليقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّ تأريخ النبوات واحد، و إنّ موقف المعاندين واحد أيضا، و أنّه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشى موقفه هذا منك، و بين يديك الآن تأريخ بنى إسرائيل فى موقفهم من موسى عليه السّلام.

تقول الآية أوّلا: وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ

و صفة هذا الكتاب أنّه: وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ و الكتاب الذى تعنيه الآية هنا هو «التوراة» الذى نزل على موسى عليه السّلام هدى لبنى إسرائيل.

ثمّ تشير الآية إلى الهدف من بعثة الأنبياء بما فيهم موسى عليه السّلام فتقول:

أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا[۲۴۵].

إنّ التوحيد فى العمل هو واحد من معالم أصل التوحيد، و هو علامة على التوحيد العقائدى. الآية تقول: لا تتكئ على أحد سوى اللّه، و إنّ أى اعتماد على غيره دلالة على ضعف الإيمان بأصل التوحيد. إنّ أسمى معانى التجلّى فى هداية الكتب السماوية، هو اشتعال نور التوحيد فى القلوب و الانقطاع عن الجميع و الاتصال باللّه تعالى.

و من أجل أن تحرّك الآية التالية عواطف بنى إسرائيل و تحفّزهم لشكر النعم الإلهية عليهم، خصوصا نعمة نزول الكتاب السماوى، فإنّها تضع لهم نموذجا للعبد الشكور فتقول: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ۲۴۶] و لا تنسوا: إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸ ص: ۳۹۷

و الآية تخاطب بنى إسرائيل بأنّهم أولاد من كان مع نوح، و عليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم و آبائهم فى الشكر لأنعم اللّه.

«شكور» صيغة مبالغة بمعنى «كثير الشكر»، و أمّا كون بنى إسرائيل ذرية من كان مع نوح، فإنّ ذلك قد يعود إلى أنّ من فى الأرض جميعا، بعد طوفان نوح، و منهم بنو إسرائيل، هم كلّهم من سلالة الأبناء الثلاثة لنوح، أى «سام» و «حام» و «يافث» كما ورد فى كتب التاريخ، و ممّا لا شك فيه أنّ كل أنبياء اللّه شكورون، و لكنّ الأحاديث تعطى ميزة خاصّة لنوح الذى كان دائم الشكر على كل نعمة ففى كل شربة ماء، أو وجبة غذاء، أو وصول نعمة أخرى له فإنّه يذكر اللّه فورا و يشكره على نعمائه.

و

فى حديث عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام نقرأ قولهما إنّ نوحا كان يقرأ هذا الدعاء فى كل صباح و مساء، «اللّهم إنّى أشهدك أنّ ما أصبح أو أمس بى من نعمة فى دين أو دنيا فمنك، وحدك لا شريك لك، لك الحمد و لك الشكر بها علىّ حتى ترضى، و بعد الرضا».

ثمّ أضاف الإمام: «هكذا كان شكر نوح»[۲۴۷].

بعد هذه الإشارة تدخل الآيات إلى تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث، فتقول: وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً.

كلمة «قضاء» لها عدّة معان، إلّا أنّها استخدمت هنا بمعنى «إعلام» أمّا المقصود من «الأرض» فى الآية- بقرينة الآيات الأخرى هى ارض فلسطين المقدسة التى يقع المسجد الأقصى المبارك فى ربوعها.

الآية التى تليها تفصل ما أجملته من إشارة إلى الإفسادين الكبيرين لبنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸ ص: ۳۹۸

إسرائيل و الحوادث التى تلى ذلك على أنّها عقوبة الهية فتقول: فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما و ارتكبتم ألوان الفساد و الظلم و العدوان بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ.

و هؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ.

و هذا الأمر لا مناصّ منه: وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولًا.

ثمّ تشير بعد ذلك إلى أنّ الإلطاف الإلهية ستعود لتشملكم، و سوف تعينكم فى النصر على أعدائكم، فتقول: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً[۲۴۸].

و هـذه المنّة و اللطف الإلهی بکم علی أمل أن تعودوا إلی أنفسـکم و تصـلحوا أعمالکم و تترکوا القبائح و الذنوب لأنّه: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها.

إنّ الآیـة تعبّر عن سنّة ثابتـة، إذ أن محصلـة مـا یعمله الإنسـان من سوء أو خیر تعود إلیه نفسه، فالإنسان عنـد مـا یلحق أذی أو سوءا بالآخرین، فهو فی الواقع یلحقه بنفسه، و إذا عمل للآخرین، فإنّما فعل الخیر لنفسه، أمّا بنو إسرائیل، فهم مع الأسف لم توقظهم العقوبة الأولی، و لا نبهتهم عودة النعم الإلهیة مجددا، بل تحرکوا باتجاه الإفساد الثّانی فی الأرض و سلکوا طریق الظلم و الجور و الغرور و التکبر.

تقول الآیـة فی وصف المشـهد الثّانی أنّه حین یحین الوعـد الإلهی سوف تغطیکم جحافل من المحاربین و یحیق بکم البلاء الی درجة أنّ آثار الحزن و الغم تظهر علی وجوهکم: فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِیَسُوؤُا وُجُوهَکُمْ

بل و یأخذون منکم حتی بیت المقدس: وَ لِیَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ کَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۹

و هم لا یعکفون بذلک، بل سیحتلّون جمیع بلادکم و یدمرّونا عن آخرها:

وَ لِیُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِیراً و فی هذه الحالة فإنّ أبواب التوبة الإلهیة مفتوحة:

عَسی رَبُّکُمْ أَنْ یَرْحَمَکُمْ

وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا أی إن عـدتم لنـا بالتوبـة فسوف نعود علیکم بالرحمـة، و إن عـدتم للإفسـاد عـدنا علیکم بالعقوبـة. و إذا کـان هـذا جزاؤکم فی الدنیا ففی الآخرة مصیرکم جهنم: وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْکافِرِینَ حَصِیراً[۲۴۹].

***

ملاحظات

الأولی: الإفسادان التأریخیان لبنی إسرائیل:

تحدثت الآیات أعلاه عن فسادین اجتماعیین کبیرین لبنی إسرائیل، یقود کل منهما إلی الطغیان و العلو، و قد لاحظنا أنّ اللّه سلّط علی بنی إسـرائیل عقب کل فساد رجال أشـدّاء شـجعانا یذیقونهم جزاء فسادهم و علوهم و طغیانهم، هذا مع اسـتثناء الجزاء الأخروی الذی أعدّه اللّه لهم.

و بـالرغم من اتسـاع تاریـخ بنی إسـرائیل، و تنوّع الأحـداث و المواقف فیه، إلّـا أنّ المفسّـرین یختلفون فی کـل المرّات الـتی یتحـدّث القرآن فیها عن حدث أو موقف من تاریخ بنی إسرائیل و علی سبیل التدلیل علی هذه الحقیقة تتعرّض فیما یلی للنماذج الآتیة:

أوّلا: یستفاد من تاریخ بنی إسرائیل بأنّ أول من هجم علی بیت المقدس و خرّبه هو ملک بابل «نبوخذ نصر» حیث بقی الخراب ضاربا فیه لسبعین عاما، إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۰

أن نهض الیهود بعـد ذلـک لإعمـاره و بنائه. أمّا الهجوم الثّانی الـذی تعرّض له، فقـد کان من قبل قیصـر الروم «أسـبیانوس» الـذی أمر وزیره «طرطوز» بتخریب بیت المقدس و قتل بنی إسرائیل. و قد تمّ ذلک فی حدود مائة سنة قبل المیلاد.

و بـذلک یحتمل أن تکون الحادثتان اللتان أشارت إلیهما الآیات أعلاه هما نفس حادثتی «نبوخـذ نصـر» و «أسـبیانوس» لأنّ الأحداث الأخری فی تاریخ بنی إسـرائیل لم تفن جمعهم، و لم تذهب بملکهم و استقلالهم بالمرّة، و لکن نازلة (نبوخذ نصر) ذهبت بجمعهم و

سؤددهم إلی زمن «کورش» حیث اجتمع شملهم مجددا و حررهم من أسر بابل و أعادهم إلی بلادهم و أعانهم فی تعمیر بیت المقدس، إلی أن غلبتهم الروم و ظهرت علیهم، و ذهبت قوتهم و شوکتهم ۲۵۰].

لقد استمر بنو إسرائیل فی مرحلة الشتات و التشرّد إلی أن أعانتهم القوی الدولیة الاستعماریة المعاصرة فی بناء کیان سیاسی لهم من جدید.

ثانیا: أمّا «الطبری» فینقل فی تفسیره عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ المراد فی الفساد الأوّل هو قتل بنی إسرائیل لزکریا علیه السّلام و مجموعة أخری من الأنبیاء علیهم السّلام، و أنّ المقصود من الوعد الأول، هو الانتقام الإلهی من بنی إسرائیل بواسطة (نبوخذ نصر) و أمّا المراد من الفساد الثّانی فهو الفوضی و الاضطراب الذی قام به «بنو إسرائیل» بعد تحریرهم من بابل بمساعدة أحد ملوک فارس، و ما قاموا به من فساد. أمّا الوعد الثّانی، فهو هجوم «أنطیاخوس» ملک الروم علیهم.

و بالرغم من انطباق بعض جوانب هذا التّفسیر مع التّفسیر الأوّل، إلّا أنّ راوی الحدیث الذی یعتمد علیه «الطبری» غیر ثقة، بالإضافة إلی عدم تطابق تاریخ «زکریا» و «یحیی» مع تاریخ «نبوخذ نصر» و «أسییانوس أو أنطیاخوس» إذا یلاحظ أن «نبوخذ نصر» عاصر «أرمیا» أو «دانیال» النّبی کما یری بعض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۰۱

المؤرخین، و قیامه قد تمّ فی حدود (۶۰۰) سنة قبل زمان یحیی علیه السّلام، لذلک کیف یقال: إنّ قیام نبوخذ نصر کان للانتقام من دم یحیی علیه السّلام؟! ثالثا: و قال آخرون: إنّ بیت المقدس شیّد فی زمن داود و سلیمان علیهما السّلام، و قد هدمه «نبوخذ نصر» و هذا هو المقصود من إشارة القرآن إلی الوعد الأوّل. أمّا المرّة الثّانیة، فقد بنی فیها بیت المقدس علی عهد ملوک الأخمنیین لیقوم بعد ذلک «طیطوس» الرومی بهدمه و خرابه (الملاحظ أن «طیطوس» یطابق «طرطوز» الذی ذکر فی التّفسیر السابق) و قد بقی علی خرابه إلی عصر الخلیفة الثّانی عند ما فتح المسلمون فلسطین ۲۵۱]. و الملاحظ فی هذا التّفسیر أنّه لا یفترق کثیرا عمّا ورد فی مضمون التفسیرین أعلاه.

رابعا: فی مقابل التفاسیر الآنفة و التفاسیر الأخری التی تتشابه فی مضمون آرائها مع هذه التفاسیر، نلاحظ أنّ هناک تفسیرا آخر یورده «سید قطب» فی تفسیر «فی ظلال القرآن» یختلف فیه مع کل ما ورد، حیث یری أن الحادثتین لم تقعا فی الماضی، بل تتعلقان فی المستقبل، فیقول: «فأمّا إذا عاد بنو إسرائیل إلی الإفساد فی الأرض فالجزاء حاضر و السنة ماضیة وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا ثمّ یقول:

«و لقد عادوا إلی الإفساد فسلّط اللّه علیهم المسلمین فأخرجوهم من الجزیرة کلّها. ثمّ عادوا إلی الإفساد و سلّط اللّه علیهم عبادا آخرین، حتی کان العصر الحدیث فسلط علیهم «هتلر» و لقد عادوا الیوم إلی الإفساد فی صورة «إسرائیل» التی أذاقت العرب أصحاب الأرض الویلات. و لیسلطنّ اللّه علیهم من یسومهم سوء العذاب، تصدیقا لوعد اللّه القاطع، وفاقا لسنته التی لا تتخلف ... و إنّ غدا لناظرة قریب!)[۲۵۲].

و لکن الاعتراض الأساسی الذی یرد علی هذا التّفسیر، هو أنّ أیّا منهما لم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۰۲

ینته بدخول القوم المنتصرین (علی الیهود) إلی بیت المقدس حتی یخرّبوه؟

خامسا: الاحتمال الأخیر الذی ورده البعض فی تفسیر الإفسادین الکبیرین لبنی إسرائیل، یرتبط بأحداث ما بعد الحرب العالمیة الثّانیة، حیث یقول هؤلاء: إن قیام الحزب الصهیونی و تشکیل دولة للیهود باسم «إسرائیل» فی قلب العالم الإسلامی مثّل الإفساد و الطغیان و العلو الأوّل لهم، و بذلک فإنّ وعی البلاد الإسلامیة لخطر هؤلاء الشعوب الإسلامیة فی ذلک الوقت إلی التوحدّ و تطهیر بیت المقدس و قسما آخر من مدن و قری فلسطین، حتی أصبح المسجد الأقصی خارج نطاق احتلالهم بشکل کامل.

أمّا المقصود من الإفساد الثّانی حسب هذا التّفسیر، فهو احتلال الیهود مجددا للمسجد الأقصی بعد أن حشدت «إسرائیل» قواها و

استعانت بالقوی الدولیة الاستعماریة فی شن هجومها الغادر (عام ۱۹۶۷).

و بهذا الشکل یکون المسلمون الیوم فی انتظار النصر الثّانی علی بنی إسرائیل، لیخلّصوا المسجد الأقصی من دنس هؤلاء و یقطعوا دابرهم عن کل الأرض الإسلامیة. و هذا ما وعد به المسلمون من فتح و نصر آت بلا ریب ۲۵۳].

بالطبع هناک تفاسیر و آراء أخری فی الموضوع صرفنا النظر عنها، و لکن ینبغی أن یلاحظ أنّ فی حال اعتماد التفسیرین الرّابع و الخامس، ینبغی أن نحمل الأفعال الماضیة فی الآیة علی معنی الفعل المضارع. و هذا ممکن فی أدب اللغة العربیة، و ذلک إذا جاء الفعل بعد حرف من حروف الشرط.

و لکن یستفاد من ظاهر قوله تعالی: ثُمَّ رَدَدْنا لَکُمُ الْکَرَّةَ عَلَیْهِمْ وَ أَمْدَدْناکُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِینَ وَ جَعَلْناکُمْ أَکْثَرَ نَفِیراً إنّ الإفساد الأوّل علی الأقل- و الانتقام الإلهی من بنی إسرائیل کان قد وقع فی الماضی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۳

و إذا أردنا أن نتجاوز کل ذلک، فینبغی أن نلتفت إلی أنّ قوله تعالی: بَعَثْنا عَلَیْکُمْ عِباداً لَنا أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ تفید فی أنّ الرجال الذین سیؤدبون «بنی إسرائیل» علی فسادهم و علوّهم و طغیانهم، هم رجال مؤمنون، شجعان حتی استحقوا لقب العبودیة. و ممّا یؤکّد هذا المعنی الذی غفلت عنه معظم التفاسیر، هو کلمة «و بعثنا» و «لنا».

و لکنّا مع ذلک، لا نستطیع الادّعاء أن کلمة «بعث» تستخدم فقط فی مورد خطاب الأنبیاء و المؤمنین، بل هی تستخدم فی غیر هذه الموارد أیضا، ففی قصّة هابیل و قابیل یقول القرآن الکریم: فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ ۲۵۴].

و کذلک الحال فی کلمة «عباد» أو «عبد» فهی تطلق فی بعض الأحیان علی الأفراد غیر الصالحین من المذنبین و غیرهم، کما فی الآیة (۵۸) من الفرقان فی قوله تعالی: وَ کَفی بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِیراً و الآیة (۲۷) من سورة الشوری، حیث یقول تعالی: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ و فی خصوص المخطئین و المنحرفین نقرأ فی الآیة (۱۱۸) من سورة المائدة قوله تعالی: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُکَ

و لکنّا مع ذلک لا نستطیع أن ننکر- و إن لم تقم قرینة خلاف ذلک- أنّ العباد الذین بعثهم اللّه للانتقام من بنی إسرائیل هم من العباد المؤمنین الصالحین.

و خلاصة البحث: إنّ هذه الآیات تتحدث عن فسادین کبیرین لبنی إسرائیل، و کیف أنّ اللّه تبارک و تعالی لم یهمل هؤلاء، بل أذاقهم جزاءهم فی الدنیا، و بقی علیهم جزاء الآخرة و حسابها، و الدرس الذی نستفیده و الإنسانیة جمعا هو أنّ اللّه تعالی لا یهمل الظالمین و لا یسکت علی ظلمهم بل علینا أن نعتبر و نتعظ من دروس التاریخ و أحوال الأمم الماضیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۴

الثّانیة: تحمّل الإنسان لتبعات أعماله:

الآیات الآنفة تشیر إلی قاعدة مهمّة، و هی أنّ أعمال الإنسان سواء کانت حسنة أم قبیحة فإنّ مردودها یعود إلیه، صحیح أنّ الآیات تتحدّث عن بنی إسرائیل، و لکن القاعدة من الشمول و العموم بحیث تشمل کافة البشر علی مر التاریخ ۲۵۵].

إنّ الحیاة و التاریخ یعکسان لنا الکثیر من تلک النماذج التی أسست أعمالا و سننا سیئة، و سنّت قوانین ظالمة و مبتدعة، و لکنّها فی النهایة، کانت ضحیة ما سنّت و ابتدعت و أسست، و کانت نهایتها و نهایة من یلوذ بها الوقوع فی نفس الحفرة التی حفرتها للآخرین، و بذلک نالت جزاءها بما اقترفت أیدیها. إنّ خصوصیة هذا الأمر تتّضح أکثر بالنسبة لأعمال الفساد و علی الأخص العلو و الاستکبار، فإنّ الإنسان لا بدّ و أن یذوق فی هذه الدنیا جزاء ما اقترف من أسباب العلو و الاستکبار و الإفساد.

و لهـذا السـبب بالذات رأینا أنّ بنی إسـرائیل لاقوا جزاءهم السـریع فی الدنیا، من دون أن یعنی ذلک انتفاء العقاب الأخروی إذ عاشوا طویلاـ واقع الشـتات و التشـرّد، و ذاقوا الکثیر من السوء و المصائب. إنّنا الیوم نعیش مظاهر من فساد بنی إسـرائیل و علوهم و طغیانهم، فهم قـد اغتصـبوا أرض الآخرین و طردوهم منها، و أذاقوا أهلها ألوان القتل و البطش و الإرهاب، و روعوا الأبناء و سـبوا النساء، بل لم یحترموا حتی بیوت اللّه فی بیت المقدس! إنّ هؤلاء یتعاملون مع العالم بدون رعایة أی شکل من أشکال القانون أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۵

الضوابـط و المعـاییر الدولیـة، فـإذا قـام- مثلاـ- فـدائی فلسـطینی بإطلاـق رصاصـة علیهم، فـإنّهم بـدلا عنها یقومون بقصف و تخریب المخیمات السـکنیة للاجئین، و مـدارس الأطفال، و المستشـفیات. و هم فی مقابل خسارتهم لقتیل واحـد، یقومون بحصـد المئات من الأنفس البریئة و یفجّرون عددا کبیرا من البیوت.

إنّ هؤلاـء یتجـاهرون بعـدم التزامهم، بـل بعـدائهم لکـل قرارات المنظمات الدولیـة، و الکل یعرف أنّ جرأتهم فی مواجهـة العالم إنّما کانت و ما زالت مسـتمدة من دعم القوی الاسـتعماریة الدولیة لهم- و فی الطلیعة منها أمریکا- من دون أن یعنی دعم هذه القوی لهم تبریرا لما یمتازون هم به من خصائص انحرافیة ذاتیة فی الفکر و الأخلاق، و استعداد قبلی للعلو و الطغیان و الفساد.

إنّهم بعلوّهم و فسادهم علیهم أن ینتظروا أولئک الذین وصفهم القرآن بقوله:

عِباداً لَنا أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ حیث ینالون جزاءهم، و هو وعد الهی قاطع فی قرآنه الکریم.

الثّالثة: تطبیق الآیات علی أحداث التاریخ الإسلامی:

فی روایات عدّة نری انطباق الآیات أعلاه علی بعض أحداث التاریخ الإسلامی حیث یشیر بعضها إلی أنّ الفساد الأوّل و الثّانی هو قتل الإمام علی بن أبی طالب علیه السّـلام، و العدوان علی جنازة الإمام الحسن علیه السّلام. و بعضها تشیر إلی أنّ المقصود من قوله تعالی: بَعَثْنا عَلَیْکُمْ عِباداً لَنا أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ هو الإشارة إلی الإمام المهدی علیه السّلام و أصحابه.

و فی روایات أخری نقرأ أنّ المقصود، هو نهضة مجموعة من المسلمین قبل ظهور الإمام المهدی علیه السّلام [۲۵۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۶

من الواضح أنّ هذه الأحادیث لا تفسّر الآیات تفسیرا لفظیا، لأنّ الآیات تتحدث بصراحة عن بنی إسرائیل، و لکنّها تتحدث عن التشابه بین نهج هؤلاء (بنی إسرائیل) و نهج ما یقع علی شبههم و حالتهم فی أحداث التأریخ الإسلامی.

و هکذا ننتهی إلی نتیجة مؤدّاها أنّ الآیات و إن تحدّثت عن خصوصـیات بنی إسـرائیل، إلّا أنّها تتسع فی مفهومها لترتفع إلی مسـتوی القاعدة الکلیة، و السنّة المستمرّة فی تأریخ البشریة بما یطویه من حیاة شعوب و أمم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۷

الآیات [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۹ الی ۱۲]

اشارة

إِنَّ هـذَا الْقُرْآنَ یَهْـدِی لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ وَ یُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِینَ الَّذِینَ یَعْمَلُونَ الصَّالِحـاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً کَبِیراً (۹) وَ أَنَّ الَّذِینَ لاـ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۱۰) وَ یَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَیْرِ وَ کانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (۱۱) وَ جَعَلْنَا اللَّیْلَ وَ النَّهارَ آیَتَیْنِ فَمَحَوْنا آیَةَ اللَّیْلِ وَ جَعَلْنا آیَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّکُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ وَ کُلَّ شَیْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِیلاً (۱۲)

التّفسير

أقصر الطرق للهداية و السعادة:

الآيات السابقة تحدّثت عن بنى إسرائيل و كتابهم السماوى «التوراة» و كيف تخلفوا عن برنامج الهداية الإلهية ليلقوا بعض جزائهم فى هذه الحياة الدنيا، و الباقى مدخر ليوم القيامة.

و فى هذا المقطع من الآيات، انتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۸

السماوى للمسلمين، و آخر حلقة فى الكتب السماوية، فقال تعالى أوّلا: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ

«أقوم» صيغة تفضيل مشتقة من «قيام» حيث يكون الإنسان فيها على أحسن حالاته حينما يريد أن يشرع بعمل ما، لذلك فإنّ «القيام» كناية عن أفضل الصيغ التى ينجز فيها الإنسان الأعمال التى يباشرها، أو يستعد لمباشرتها.

«الاستقامة» مشتقّة أيضا من مادة «قيم» و هى بمعنى الاعتدال و الإستواء و الثبات.

و بما أنّ «أقوم» هى «أفعل تفضيل» بمعنى الأكثر ثباتا و استقامة و اعتدالا، فإنّ معنى الآية أعلاه، هو أنّ القرآن الكريم يمثل أقصر و أفضل طرق الاستقامة و الثبات و الهداية و بهذا فإنّ الطريق القويم.

من وجهة نظر العقائد و الأفكار، يتمثل بالعقائد الواضحة، القابلة للهضم و الإدراك و الفهم، و التى تكون أساسا للعمل، و تعبئة الطاقات الإنسانية باتجاه الإعمار و البناء. العقيدة الأقوم هى العقيدة الخالية من الخرافات و الأوهام، و هى التى توائم بين الإنسان و عالم الوجود و الطبيعة من حوله.

العقيدة الأقوم من هذه الزاوية، هى التى توافق بين الإعتقاد و العمل، و الظاهر و الباطن، الفكر و المنهج، و تدفع الإنسان و الجميع نحو اللّه.

أمّا الأقوم من وجهة نظر القوانين الاجتماعية و الاقتصادية و العسكرية و السياسية، التى تسود المجتمع، فهى تلك التى تربّى فى المجتمع الإنسانى الجوانب المادية و المعنوية و تدفع الجميع نحو التكامل و الاتساق.

و الأقوم من وجهة النظر العبادية و الأخلاقية، هو كل ما يجعل الإنسان فى المركز الوسط بين الإفراط و التفريط، و يجعله فى موقع الاعتدال بين الإسراف و البخل، بين الاستضعاف و الاستكبار.

و أخيرا فإنّ المنهج الأقوم بالنسبة للنظم و السلطات الحاكمة، هو كل ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۹

يدفعها إلى إقامة العدل، و الدعوة إلى إشاعة الإنصاف، و مواجهة الظلم و الظالمين.

نعم، إنّ القرآن هو الطريق الأقوم فى كل تلك المستويات الآنفة الذكر، و هو الأسلوب الأقوم فى كل جوانب الحياة و الوجود، و على كافة القضايا و الصعد.

و لكنّا هنا نقف مع نقطة حساسة، و هى إذا كان القرآن هو الأقوم، أى «أفعل تفضيل» فمعنى ذلك تفوقه فى ميزات العدل و صفات الهداية و الاستقامة ليس على سائر المذاهب و العقائد الوضعية و حسب، و إنّما على سائر الأديان و الشرائع السابقة عليه أيضا.

و إزاء المفهوم الذى تطرحه هذه النقطة نرى أنفسنا بحاجة إلى إثارة الحديث على النحو الآتى.

أوّلا: إذ كانت أطراف المقايسة هى الأديان السماوية الأخرى، فلا شك أنّ كل دين و شريعة منها كانت أفضل و أقوم لوقتها و زمانها، و لكن وفق قانون التكامل الذى وصلت البشرية بمقتضاه إلى أقصى حالات رشدها و تكاملها، فى زمن الرسالة الإسلامية الخاتمة و

النّبوة الخاتمة، فإنّ القرآن الكريم يعبّر تبعا لذلك عن أرقى و أقوم مضامين الهداية و الاستقامة الاعتدال.

ثانيا: أمّا إذا كان طرف المقايسة هو المذاهب و العقائد الوضعية، فمن الطبيعى جدّا أن يكون القرآن كتاب السماء الواصل إلينا من اللّه ذى العلم المطلق، هو الأقوم و الأظهر عليها، لأنّ العقائد الوضعية مهما بلغت مزاياها فهى نتاج الفهم المحدود للبشر.

ثالثا: أشرنا فى غير مكان إلى أن «أفعل تفضيل» لا يدلّ دائما على أنّ الموضوع لا بدّ و أن يكون طرفا للمقايسة، كما فى قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى ۲۵۷].

ثالثا: أشرنا فى غير مكان إلى أن «أفعل تفضيل» لا يدلّ دائما على أنّ الموضوع لا بدّ و أن يكون طرفا للمقايسة، كما فى قوله تعالى: أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى ۲۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۰

و على هامش هذه النقطة ينبغى أن لا يفوتنا أن تعبير «أقوم» فى الآية الآنفة يشير إلى أنّ الإسلام هو آخر أديان السماء، و أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو آخر الأنبياء.

و كيفية ذلك، هو أنّ أقوم بوصفها أفعل تفضيل، تمثل أعلى درجات التفضيل، و لأنّ الآية لا تذكر الطرف الآخر فى المقايسة و الذى يكون القرآن أقوم بالنسبة إليه، و طالما أنّ حذف المتعلق يدل على العموم كما يقول الأصوليون، فينتج أنّ الإسلام آخر الأديان، و أنّ محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاتم الرسل، لأنّه ليس بعد صيغة تفضيل «أقوم» من درجة فى التفضيل.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس فى مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذى ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالأولى يكون حالها كما يقول تعالى:

وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً.

أمّا الفئة الثّانية فيكون مصيرها تبعا لموقفها كما يقول تعالى: وَ أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً.

و إذا كان استخدم «بشارة» واضح هنا بالنسبة للمؤمنين، فهو بالنسبة لغيرهم من غير المؤمنين يقع على معنى السخرية و الاستهزاء، أو أنّه بشارة للمؤمنين أيضا تخبرهم عن حال غير المؤمنين ۲۵۹].

ضمنا الآية تشير باختصار بليغ إلى جزاء المؤمنين و ثوابهم فتقول: أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً أمّا غير المؤمنين فإنّ لهم بنفس صورة الإيجاز القرآنى البليغ عَذاباً أَلِيماً و هذا الاختصار البليغ يطوى فى كلا مجاليه صورا تفصيلية من الثواب و العقاب.

أمّا لماذا اقتصرت الآية فى غير المؤمنين على صفة عدم إيمانهم بالآخرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۱

دون غيرها من الصفات و الأعمال. فى الواقع يمكن أن يكون ذلك بسبب أنّ الإيمان بالآخرة هو صمام أمان يضبط الإنسان عن ارتكاب المعاصى و الذنوب.

ثمّ إنّ إنكار القيامة يعتبر إنكارا لوجود اللّه تعالى، و إلّا كيف يستقيم للإنسان أن يؤمن باللّه العادل الحكيم و لا يؤمن بوجود آخرة يحاسب فيها الإنسان على أعماله و ينال حسابه العادل!؟

ثمّ إنّ حديث الآية هو عن العقاب و الثواب و هو يتناسب مع الحديث عن الإيمان باليوم الآخر.

الآية التى بعدها تنساق فى نفس اتجاه البحث و تشير إلى احدى العلل المهمّة لعدم الإيمان و تقول بأنّ عجلة الإنسان و تسرعه و عدم اطلاعه على الأمور و إحاطته بها تسوقه إلى أن يساوى فى جهده بين دعائه بالخير و طلبه، و بين دعائه بالشر و طلبه له! تقول الآية: وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ.

لما ذا؟: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا.

إنّ كلمة «دعا» هنا تنطوى على معنى واسع يشمل كل طلب و رغبة للإنسان، سواء أعلن عنها بلسانه و كلامه، أو سعى إليها بعمله و

جهده و سلوكه.

إنّ استعجال الإنسان و اندفاعه فى سبيل تحصيل المنافع لنفسه، تقوده إلى النظرة السطحية للأمور بحيث أنّه لا يحيط الأشياء بالدراسة الشاملة المعمّقة ممّا يفوّت عليه تشخيص خيره الحقيقى و منفعته الواقعية، و هكذا بنتيجة تعجّله و اندفاعه المضطرب يضيع عليه وجه الحقيقة، و يتغيّر مضمونها بنظره، فيقود نفسه باتجاه الشر و الأعمال السيئة الضارّة.

و هكذا ينتهى الإنسان- نتيجة سوء تشخيصه و اضطراب مقياسه فى رؤية الخير و الحقيقة- إلى أن يطلب من اللّه الشر، تماما كما يطلب منه الخير، و أن يسعى وراء الأعمال السيئة، كسعيه وراء الأعمال الحسنة. و هذا الاضطراب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۲

و فقدان الموازين هى أسوأ بلا يصاب به الإنسان و يحول بينه و بين السعادة الحقيقية.

ما أكثر الناس الذين يضعون أنفسهم- بسبب من عجلتهم و اندفاعاتهم المضطربة- على حافة الخطر و مشارف الضلال، و هم يظنون أنّهم يسيرون نحو الأمن و الاستقرار و الهداية. إنّ مثل هؤلاء كمن هو غارق بالسوء و القبائح و هو يفتخر بما هو فيه!! إنّ نتيجة العجلة و التسرّع و الاندفاع الأهوج لن تكون أحسن من هذه العاقبة.

من هنا يتّضح- كما أشرنا سابقا- أنّ معنى «دعا» لا يقتصر لا على الرغبات التى يظهرها الإنسان على لسانه، و لا على تلك الرغبات التى يسعى لتحقيقها بسلوكه و بما يبذل لها من جهد، و إنّما المعنى يشمل محصلة الإثنين معا. و أمّا ما ذهب إليه بعض المفسّرين من حصر المعنى فى أحدهما فليس ثمّة دليل عليه.

أمّا ما يظهر من بعض الرّوايات من اقتصار المعنى على الدعاء اللفظى، فإنّ ذلك من قبيل بيان المصداق لا كل المفهوم من قبيل الرّواية التى

يقول فيها الإمام الصادق عليه السّلام: «و أعرف طريق نجاتك و هلاكك، كى لا تدعو اللّه بشيء عسى فيه هلاكك، و أنت تظن أنّ فيه نجاتك، قال اللّه تعالى: وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا.

من هنا يتبيّن أنّ أفضل طريق لوصول الإنسان إلى الخير و السعادة، هو أن يكون الفرد فى كل خطوة و موقف على غاية قصوى من الدقّة و الحيطة و الحذر، و أن يتجنب الاندفاع و العجلة و التسرّع، و يدرس الموقف من جميع جوانبه، و بجانب الأحكام المتعجّلة الممزوجة بالهوى و العاطفة، و أن يستعين باللّه العزيز و يستمده القوة و العون.

الآية التى بعدها تتحدث عن تعاقب الليل و النهار و منافع هذا التعاقب، لتجعل من هذا الشاهد مثالا على معرفة اللّه و التمعّن بآياته، و المثال أيضا يفيد معنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۳

التأمّل و الهدوء و يدعو إلى محاذرة التعجّل و التسرّع.

الآية تقول أوّلا: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ ثمّ: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً. و لنا فى ذلك هدفان: الأوّل: لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ حيث تنطلقون نهارا فى الكسب و العمل و المعاش مستثمرين العطايا الإلهية، و تنعمون ليلا بالراحة و الهدوء و الاستقرار. و الهدف الثّانى فهو: وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ لكى لا تبقى شبهة لأحد وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا.

بين المفسّرين كلام كثير حول المقصود من «آية الليل» و «آية النهار» و فيما إذا كان ذلك كناية عن نفس الليل و النهار، أم أنّ المقصود من «آية الليل» القمر، و من «آية النهار» الشمس ۲۶۰].

و لكن التدقيق فى الآية يكشف عن رجاحة التّفسير الأوّل، خصوصا و أنّ المقصود من قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ هو أنّ كل واحد منهما علامة على إثبات وجود اللّه، أمّا محو آية الليل فهو تمزيق ظلمة الليل و حجب الظلمة فيه بواسطة نور النهار، الذى يكشف ما كان مستورا بظلمة الليل.

و إذا كانت آيات أخرى فى القرآن [آية (۵) من سورة يونس تفيد أنّ الغاية من خلق الشمس و القمر هو تنظيم الحساب إلى سنين و أشهر، فليس ثمّة تنافى بين الآيتين، إذ من الممكن أن تنتظم حياة الإنسان و حسابه على أساس الليل و النهار، و على أساس الشمس و القمر من دون أى تناف بين الإثنين.

فى نهج البلاغة نقرأ للإمام أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام، قوله: «و جعل شمسها آية مبصرة لنهارها، و قمرها آية ممحوة من ليلها، و أجراهما فى مناقل مجراهما، و قدّر سيرهما فى مدارج درجهما، ليميز بين الليل و النهار بهما، و ليعلم عدد السنين و الحساب بمقاديرهما»[۲۶۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ۴۱۴

إنّ كلام الإمام هنا لا ينافى التّفسير الأوّل، لأنّ حساب السنين يمكن أن يكون على أساس الأيّام و الليالى، كما يمكن أن يتم ذلك على أساس الشمس و القمر.

***

بحوث

أوّلا: هل الإنسان عجول ذاتا؟

إنّ الإنسان لا يوصف فى القرآن بوصف «العجول» و حسب، و إنّما هناك أوصاف أخرى أطلقها على الإنسان مثل «ظلوم» و «جهول» و «كفور» و «هلوع» و «مغرور».

و لكن السؤال هنا، هو أنّ هذه الأوصاف تتعارض مع التعليمات القرآنية التى تتحدّث عن الفطرة النظيفة الطاهرة للإنسان، فكيف إذن نوائم بين الحالتين؟

بعبارة أخرى: إنّ الإنسان من وجهة نظر الإسلام هو أفضل الموجودات و أكرمها حتى أنّه استحق مقام الخلافة عن اللّه، فى الأرض، و هو معلّم الملائكة و أفضل منها، فكيف- إذن- يتسق هذا الطرح مع الأوصاف السيئة الآنفة التى نقرؤها عن الإنسان فى القرآن؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال يمكن أن نختصرها بجملة واحدة، و هى أنّ شخصية الإنسان هى كما تقوم آنفا من السمو و الرفعة، و لكن بشرط أن تتم تربيته و تكون رعايته من قبل القادة الرّبانيين، و إلّا ففى غير هذه الصورة، فسيتسافل نحو أسوأ الأحوال، و يغرق فى الهوى و الشهوات، و يخسر القابليات العظيمة الموجودة فيه بالقوة لتظهر بدلا عنها الجوانب السلبية.

لذلك إذا تحقق الشرط السابق (تربية الإنسان على يد القادة الإلهيين) فإنّ الجوانب الإيجابية فى الإنسان هى التى تظهر، و هى التى تطبعه بطابعها و بعكس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ۴۱۵

ذلك تظهر الصفات السلبية، لذلك نقرأ فى الآيات ١٩- ٢۴ من سورة المعارج قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ و يمكن للقارئ أن يعود إلى تفسير الآية (۱۲) من سورة يونس لأجل المزيد من التفاصيل حول الموضوع.

ثانيا: أضرار العجلة

إنّ تعلق الإنسان و انـدفاعه نحو موضوع معین، و التفکیر السطحی المحدود، و الهوی و الاضطراب، و حسن الظن أکثر من الحد الطبیعی إزاء أمر ما، کلّها عوامل للعجلة فی الأعمال. ثمّ إنّ الاقتصار علی بحث المقدمات بشکل سطحی سریع و مرتجل لا یکفی فی التوصل إلی حقیقة الأمر، و عادة تؤدی العجلة و التسرع فی الأعمال إلی الخسران و الندامة! و قد قرأنا فی الآیات أعلاه أنّ عجلة الإنسان تقوده إلی أن یطلب الشر لنفسه و یسعی إلیه، بنفس الحالة و السرعة التی یطلب فیها الخیر و یسعی إلیه! إنّنا لا نستطیع أن نحصی ما أصاب الإنسان علی طول التاریخ جرّاء استعجاله و تسرّعه، و فی التجربة الحیاتیة الخاصّة لأی واحد منّا ثمّة ما یکفی لنتعلّم دروس العجلة و التسرّع من خلال النتائج المرّة التی جنیناها.

إنّ «التثبت» و «التأنّی» هی الصفات التی تقابل العجلة، ففی حدیث عن رسول اللّه نقرأ

قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّما أهلک الناس العجلة، و لو أنّ الناس تثبتوا لم یهلک أحد»[۲۶۲].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله علیه السّلام: «مع التثبت تکون السلامة، و مع العجلة تکون الندامة»[۲۶۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۶

و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «إنّ الأناة من اللّه و العجلة من الشیطان»[۲۶۴][۲۶۵].

طبعا هناک باب فی الرّوایات الإسلامیة بعنوان «تعجیل فعل الخیر» ففی حدیث عن رسول اللّه نقرأ

قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ اللّه یحب من الخیر ما یعجل»[۲۶۶].

إنّ الرّوایات فی هذا المجال کثیرة، و المقصود منها هی السرعة فی مقابل الإهمال و التأخیر غیر الموّجه، و الاتکاء إلی الأعذار و التسویف بالیوم و غدا، التی غالبا ما تؤدی إلی ظهور المشاکل فی الأعمال، و شاهد هذا الکلام هو الحدیث الوارد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۴۱۶

عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من همّ بشیء من الخیر فلیعجله فإنّ کل شیء فیه تأخیر فإنّ للشیطان فیه نظرة»[۲۶۷].

لذلک نقول: نعم للجدیة و السرعة فی الأعمال، و لکن لا .. للعجلة و التسرّع.

و بعبارة أخری: إنّ العجلة المذمومة هی التی تکون أثناء البحث و الدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أمّا السرعة و العجلة الممدوحتان فهما اللتان یکونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، و التصمیم علی التنفیذ، لذلک نقرأ فی الرّوایات «سارعوا فی عمل الخیر» أی بعد أن یثبت أن هذا العمل خیر فلا مجال للتأخیر و التسویف.

ثالثا: دور العدد و الحساب فی حیاة الإنسان:

کل عالم الوجود یدور حول محور العدد و الحساب، و لا نظام فی هذا العالم بدون حساب، و طبیعی أنّ الإنسان الذی هو جزء من هذه المجموعة لا یستطیع العیش من دون حساب و کتاب.

لهذا السبب تعتبر الآیات القرآنیة وجود الشمس و القمر أو اللیل و النهار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۷

واحدة من نعم اللّه تعالی، لأنّها الأساس فی تنظیم الحساب فی حیاة الإنسان، إنّ شیوع الفوضی و فقدان الحیاة للاتساق و النظم یؤدی إلی دمار الحیاة و فنائها.

و الظريف أنّ الآيـة تتحـدّث عن فائـدتين لنعمـة الليل و النهار، الأولى: ابتغاء فضل اللّه و التى تعنى التكسّب و العمل المفيـد المثمر. و الثّانية: معرفة عدد السنين و الحساب.

و قـد يكون الهـدف من ذكر الإثنين إلى جنب بعضـهما البعض يعود إلى أنّ (ابتغاء فضل اللّه) لا يتم بـدون الاسـتفادة من (الحساب و الكتاب) و قد لا يكون هذا المعنى واضحا فى العصور الماضية، أمّا فى عصرنا فهو واضح كالشمس.

إنّ عالمنا اليوم، هو عالم الأرقام و الأعداد و الإحصاء، فإلى جانب كل مؤسسة و منظمة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عسكرية أو عملية أو ثقافية، ثمّة مؤسسة إحصائية.

و هكذا نستفيد من الإشارة القرآنية أنّ القرآن لا يبلى بالزمان، بل كلّما مرّ عليه الزمان تجددت معانيه و تجلّت آفاقه ۲۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۱۸

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۳ الى ۱۵]

اشارة

وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَـةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (۱۳) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (۱۴) مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (۱۵)

التّفسير

أربعة أصول إسلامية مهمّة:

لقـد تحدّثت الآيات القرآنية السابقة عن القضايا التى تتصل بالمعاد و الحساب، لذلك فإنّ الآيات التى نبحثها الآن تتحدّث عن قضـية «حساب الأعمال» التى يتعرض لها البشر، و كيفية و مراحل إنجاز ذلك فى يوم المعاد و القيامة حيث يقول تعالى: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ

«الطـائر» يعنى الطير. و لكن الكلمـة هنـا تشـير إلى معنى آخر كان سائـدا و معروفا بين العرب، إذ كانوا يتفألون بواسـطة الطير، و كانوا يعتمدون فى ذلك على طبيعة الحركة التى يقوم بها الطير. فمثلا إذا تحرّك الطير من الجهة اليمنى، فهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۱۹

يعتبرون ذلـك فألا حسـنا و جميلا. أمّا إذا تحرّك الطير من اليسرى فإنّ ذلك فى عرفهم و عاداتهم علامـة الفأل السـىء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطيّر، من هنا فإنّ هذه الكلمة غالبا ما كانت تعنى الفأل السـىء فى حين أنّ كلمة التفؤل (عكس التطيّر) كانت تشير إلى الفأل الجميل الحسن.

و فى الآيات القرآنيـة ورد مرارا أنّ «التطيّر» هو بمعنى الفأل السـىء حيث يقول تعالى فى الآية (۱۳۱) من سورة الأعراف: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسـى وَ مَنْ مَعَهُ و فى الآيـة (۴۷) من سورة النمـل نقرأ أيضـا: قـالُوا اطَّيَّرْنـا بِـكَ وَ بِمَنْ مَعَـكَ و الآيـة تحكى خطاب المشركين من قوم صالح عليه السّلام لنبيّهم.

بـالطبع عنـد ما نقرأ الأحاديث و الرّوايات الإسـلامية نراها تنهى عن «التطيّر» و تجعل «التوكل على اللّه» طريقا و أسلوبا لمواجهـة هـذه العادة.

و فى كلّ الأحوال فإنّ كلمـة «طائر» فى الآيـة التى نبحثها، تشـير إلى هـذا المعنى بالـذات، أو أنّها على الأقل تشـير إلى مسألة «الحظ و

حسن الطالع» التی تقترب فی أفق واحد مع قضیهٔ التفؤل الحسن و السیء، إنّ القرآن- فی الحقیقهٔ- یبیّن أنّ التفؤل الحسن و السیء أو الحظ النحس و الجمیل، إنّما هی أعمالکم لا غیر، و التی ترجع عهدتها إلیکم و تتحملون علی عاتقکم مسئولیاتها.

إنّ تعبیر الآیهٔ الکریمهٔ، بکلمتی «ألزمناه» و «فی عنقه» تدلان بشکل قاطع علی أنّ أعمال الإنسان و النتائج الحاصلهٔ عن هذه الأعمال لا تنفصل عنه فی الدنیا و لا فی الآخرهٔ، و هو بالتالی، و فی کل الأحوال علیه أن یکون مسئولا عنها، إذ أنّ الملاک هو العمل دون غیره.

بعض المفسّرین ذکروا فی إطلاق معنی کلمهٔ «طائر» علی الأعمال الإنسانیهٔ أنّها تعنی أنّ الأعمال الحسنهٔ و الأعمال القبیحهٔ للإنسان کالطیر الذی یطیر من بین جنباته، لذلک شبهوها (أی الأعمال) بالطائر.

و فی کل الأحوال، اختلف المفسّرون فی معنی کلمهٔ طائِرٍ فی هذه الآیهٔ،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۰

و قد أوردوا فی ذلک مجموعهٔ احتمالات منها أنّ «الطائر» بمعنی «حصیلهٔ ما یجنیه الإنسان من أعماله الحسنهٔ و السیئهٔ»، أو أنّ الطائر بمعنی «الدلیل و العلامهٔ»، و بعضهم قال: إن معناه «صحیفهٔ أعمال الإنسان» بینما ذهب البعض الآخر إلی أنّ معنی «الطائر» هو «الیمن و الشؤم».

و لکن الملاحظ فی هذه التّفسیرات جمیعا، أنّ بعضها یرجع إلی نفس التّفسیر الذی ذکرناه فی البدایهٔ، کما أن بعضها الآخر بعید عن معنی الآیهٔ.

یقول القرآن بعد ذلک: وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیامَهِٔ کِتاباً یَلْقاهُ مَنْشُوراً. و من الواضح أنّ المقصود من «الکتاب» فی الآیهٔ الکریمهٔ هی صحیفهٔ الأعمال لا غیر.

و هی نفس الصحیفهٔ الموجودهٔ فی هذه الدنیا و التی تثبت فیها الأعمال، و لکنّها هنا (فی الدنیا) مخفیهٔ عنّا و مکتومهٔ، بینما فی الآخرهٔ مکشوفهٔ و معروفهٔ.

إنّ التعبیر القرآنی فی کلمتی «نخرج» و «منشورا» یشیر إلی هذا المعنی، إذ نخرج و ننشر ما کان مخفیا و مکتوما.

و بالنسبهٔ الصحیفهٔ الأعمال و حقیقتها و ما یتعلق بها، فسیأتی البحث عنها فی نهایهٔ هذه الآیات.

فی هذه اللحظهٔ یقال للإنسان: اقْرَأْ کِتابَکَ، کَفی بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً یعنی أنّ المسألهٔ- مسألهٔ المصیر- بدرجهٔ من الوضوح و العلنیهٔ و الانکشاف، بحیث أن کل من یری صحیفهٔ الأعمال هذه سیحکم فیها علی الفور- مهما کان مجرما- لماذا؟ لأنّ صحیفهٔ الأعمال هذه- کما سیأتی- هی مجموعهٔ من آثار الأعمال أو هی نفس الأعمال، و بالتالی فلا مجال لانکارها فإذا سمعت- أنا- صوتی من شریط مسجّل، أو رأیت صورتی و هی تضبط قیامی ببعض الأعمال الحسنهٔ أو السیئهٔ، فهل أستطیع أن أنکر ذلک؟ کذلک صحیفهٔ الأعمال فی یوم القیامهٔ، بل هی أکثر حیوتهٔ و دقهٔ من الصورهٔ و الصوت! الآیهٔ التی بعدها تّوضح أربعهٔ أحکام أساسیهٔ فیما یخص مسألهٔ الحساب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۱

و الجزاء علی الأعمال، و هذه الأحکام هی:

۱- أوّلا تقرّر أنّ مَنِ اهْتَدی فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ حیث تعود النتیجهٔ علیه.

۲- ثمّ تقرّر أیضا أنّ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما یَضِلُّ عَلَیْها.

و قرأنا نظیر هذین الحکمین فی الآیهٔ السابعهٔ من هذه السورهٔ فی قوله تعالی:

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِکُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها.

۳- ثمّ تنتقل الآیهٔ لتقول: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری

«الوزر» بمعنی الحمل الثقیل. و أیضا تأتی بمعنی المسؤولیهٔ، لأنّ المسؤولیهٔ- أیضا- حمل معنوی ثقیل علی عاتق الإنسان، فإذا قیل

للوزیر وزیرا، فإنّما هو لتحمله المسؤولیهٔ الثقیلهٔ علی عاتقه من قبل الناس أو الأمیر و الحاکم.

طبعا هذا القانون الکلّی الذی تقرّره آیهٔ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری لا یتنافی مع ما جاء فی الآیهٔ (۲۵) من سورهٔ النحل التی تقول: لِیَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ کامِلَةً یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِینَ یُضِلُّونَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما یَزِرُونَ لأنّ هؤلاء بسبب تضلیلهم للآخرین یکونون فاعلین للذنب أیضا، أو یعتبرون بحکم الفاعلین له، و لذلک فهم فی واقع الأمر یتحملون أوزارهم و ذنوبهم، و بتعبیر آخر: فإنّ «السبب» هنا هو فی حکم «الفاعل» أو «المباشر».

کذلک مرّت علینا روایات متعدّدهٔ حول مسألهٔ السنّهٔ السیئهٔ و السنّهٔ الحسنهٔ، و التی کان مؤدّاها یعنی أنّ من سنّ سنهٔ سیئهٔ أو حسنهٔ فإنّه سیکون له أجر من نصیب العاملین بها، و هو شریکهم فی جزائها و عواقبها، و هذا الأمر هو الآخر لا یتنافی مع قاعدهٔ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری لأنّ المؤسس للسنّهٔ، یعتبر فی الحقیقهٔ أحد اجزاء العلهٔ التامّهٔ للعمل، و هو بالتالی شریک فی العمل و الجزاء.

۴- الحکم الرّابع یتمثل فی قوله تعالی: وَ ما کُنَّا مُعَذِّبِینَ حَتَّی نَبْعَثَ رَسُولًا یقوم ببیان التکلیف و إلقاء الحجهٔ.

هناک نقاش بین المفسّرین حول نوع العذاب المقصود هنا، و هل هو نوع من

أنواع العذاب الذی یقع فی الدنیا أو فی الآخرهٔ، أم المقصود به هو عذاب «الاستیصال» الذی یعنی العذاب الشامل المدمّر کطوفان نوح مثلا؟

إنّ ظاهر الآیهٔ الکریمهٔ یدل علی الإطلاق، و هو بالتالی یشمل کل أنواع العذاب.

و هناک نقاش آخر- أیضا- بین المفسّرین حول قاعدهٔ وَ ما کُنَّا مُعَذِّبِینَ حَتَّی نَبْعَثَ رَسُولًا و هل أنّ الحکم فیها یخص المسائل الشرعیهٔ التی یعتمد فهمها علی الأدلهٔ النقلیهٔ فقط، أو أنّه یشمل جمیع المسائل العقلیهٔ و النقلیهٔ فی الأصول و الفروع؟

فی الواقع، إذا أردنا العمل بظاهر الآیهٔ الذی یفید الإطلاق، فینبغی القول أنّها تشمل جمیع الأحکام العقلیهٔ و النقلیهٔ، سواء ارتبطت بأصول أو فروع الدین.

و مفهوم هذا الکلام أنّه حتی فی المسائل العقلیهٔ البحتهٔ التی یقطع «العقل المستقل» بحسنها و قبحها مثل حسن العدل و قبح الظلم، فإنّه ما لم یأت الأنبیاء، و یؤیدون حکم العقل بحکم النقل، فإنّ اللّه تبارک و تعالی لا یجازی أحدا بالعذاب. للطفه و رحمته بالعباد.

و لکن هذا الموضوع مستبعد و ضعیف الاحتمال، لأنّه یصطدم مع قاعدهٔ أنّ المستقلات العقلیهٔ لا تحتاج إلی بیان الشرع، و حکم العقل فی إتمام الحجهٔ فی هذه الموارد یعتبر کافیا و مجزیا، لذلک فلا طریق أمامنا إلّا أن نستثنی المستقلات العقلیهٔ عن مجال عمل القاعدهٔ المذکورهٔ.

و إذا لم نستثن ذلک فسیکون معنی العذاب فی هذه الآیهٔ هو «عذاب الاستیصال» و سیکون المفاد الأخیر للمعنی هو أنّ اللّه سبحانه و تعالی لرحمته و لطفه بالعباد لا یهلک الظالمین و المنحرفین إلّا بعد أن یبعث الأنبیاء، و تستبین جمیع طرق السعادهٔ و الهدایهٔ، حتی تطابق حجّهٔ الشرع حجّهٔ العقل المستقل، و تتم الحجهٔ بذلک من طریقی العقل و النقل (فتأمّل ذلک).

بحوث

۱- التفؤل و التطیر

التفؤل و التطیّر کانا موجودین بین جمیع الأمم و لا یزالان کذلک. و یظهر أنّ مصدرهما هو عدم القدرهٔ علی اکتشاف الحقائق، و

الغفلة عن علل الحوادث.

و علی أیـة حال، لیست هناک آثار طبیعیـة فعلیـة لهذین الأمرین، و لکن لهما آثارا نفسیـة، إذ (التفاؤل) یبعث علی الأمل بینما «التطیّر» یؤدی إلی الیأس و العجز.

و لأنّ الإسـلام یؤکّد دائما علی الأمور الإیجابیة، و یدفعها مشجعا إیّاها، لذا فإنّه لم ینه عن (التفاؤل) و لکنّه أدان و بشدّة «التطیّر» حتی أنّه فی بعض الرّوایات اعتبر ذلک من الشرک، إذ جاء الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

قوله: «الطیرة شرک»

و قد بحثنا هذا الموضوع بشکل مفصّل فی نهایة الآیة (۱۳۱) من سورة الأعراف ۲۶۹].

الظریف فی الأمـر أنّ الإسـلام یقوم دائما بتوجیه مثل هـذه الأمور الوهمیـة و یحاول توظیفها فی مجراها الصـحیح و البنّاء، حتی یمکن الاستفادة منها.

فمثلاـ ممّـا هو شـائع بین الناس أنّ الزوجـة الفلانیـة قـدمها خیر، بینما الأخری قـدمها فی بیت زوجها شـرّ و نحس، و کـذلک شائع أن الزوجـة الفلانیـة و منـذ أن دخلت بیت زوجها حصل کـذا و کـذا (خیرا أم شـرا) بینما واقع الحال إنّ هـذه الأمور خرافیـة وهمیة، لکن الإسلام أعطی بعضها- من خلال توجیهه- شکلا بناء و مضمونا تربویا،

فعن الإمام الصادق علیه السّلام نقرأ: «من شؤم المرأة غلاء مهرها و شدّة مؤنتها»[۲۷۰].

و

فی حدیث آخر عن رسول الهدی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقرأ: «أمّا الدار فشؤمها ضیقها و خبث جیرانها»[۲۷۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۴

لاحظوا بدقة کیف یسـتخدم الإسـلام نفس الألفاظ التی کان الناس یستخدمونها فی مفاهیم خرافیة و وهمیة، یوظفها فی مفاهیم واقعیة و بأسلوب تربوی بنّاء، و لاحظوا أیضا، کیف أنّ الأفکار التی کانت تنتهی إلی طریق مغلق، جاء الإسلام و وجهها نحو طریق الهدایة و الإصلاح.

أخیرا و قبل أن ننتقل إلی الملاحظة الثّانیة نختم حدیثنا بکلام لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یطابق ما قلناه آنفا؟ إذا روی عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «اللهمّ لا خیر إلّا خیرک، و لا طیر إلّا طیرک و لا ربّ غیرک».

۲- صحیفة أعمال الإنسان العجیبة:

لقـد تحـدّثت آیات قرآنیة و روایات عدیدة عن صـحیفة أعمال الإنسان. و کلّ هذه الآیات و الرّوایات تؤکّد علی أنّ جمیع الأعمال و جزئیاتها و تفصیلاتها تکون مدوّنة فی صحیفة الأعمال، و فی یوم البعث و القیامة، یستلم الإنسان صحیفة عمله بیمینه إذا کان محسنا و یتناولها بشماله إذا کان مسیئا. ففی الآیة (۱۹) من سورة الحاقة نقرأ! فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَیَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا کِتابِیَهْ و فی الآیة (۲۵) من نفس السورة نقرأ قوله تعالی حکایـة عن الإنسـان الخاسـر: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتـابَهُ بِشِـمالِهِ فَیَقُولُ یـا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ و فی الآیة (۴۹) من سورة الکهف نقرأ قوله تعـالی: وَ وُضِعَ الْکِتـابُ فَتَرَی الْمُجْرِمِینَ مُشْـفِقِینَ مِمَّا فِیهِ وَ یَقُولُونَ یـا وَیْلَتَنا ما لِهـذَا الْکِتابِ لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصاها، وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً.

و فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام، یتعلق بالآیة- مورد البحث- اقْرَأْ کِتابَکَ ...

قال: «یـذکر العبد جمیع ما عمل، و ما کتب علیه، حتی کأنّه فعله تلک الساعة، فلذلک قالوا یا ویلتنا ما لهذا الکتاب لا یغادر صـغیرة و لا کبیرة إلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۵

أحصاها»[۲۷۲].

و هنا یطرح هذا السؤال؛ عن ماهیة هذه الصحیفة و کیفیتها؟

ممّا لا شک فیه أنّها لیست من جنس الکتب و الورق و الصحف العادیة، لذا فإنّ بعض المفسّرین قالوا بأنّ صحیفة الأعمال لیست سوی «روح الإنسان» و التی تکون جمیع الأعمال مثبتة فیها[۲۷۳] لأنّ أی عمل نعمله سیکون له أثر فی روحنا شئنا أم أبینا.

و قد تکون صحیفة الأعمال، هی أعضاء جسمنا و جلودنا، و الأعظم من ذلک هو أنّ الصحیفة قد تکون متضمّنة فی الأرض و الهواء و الفضاء الذی یحیطنا و الذی نعیش فیه، لأنّ هذه المفردات هی و وعاء أعمالنا، فترتسم الأعمال فی أفق الأرض الهواء و الوجود الذی حولنا، هذا الوجود الذی تنحت فی ذراته أعمالنا أو آثارها و علی الأقل.

و إذا کانت هذه الآثار غیر محسوسة الیوم، و لا یمکن درکها فی الحیاة الدنیا هذه، إلّا أنّ ذلک- بدون شک- لا یعنی عدم وجودها؛ فعند ما نرزق بصرا جدیدا آخر (فی یوم القیامة) فسوف یکون بإمکاننا أن نری جمیع هذه الأمور، و نقرؤها.

علی أنّ استخدام الآیة الکریمة لتعبیر (اقرأ) ینبغی أن لا یغیّر من تفکیرنا شیئا إزاء ما ذهبنا إلیه آنفا، لأنّ کلمة «اقرأ» تتضمّن مفهوما واسعا، و تدخل الرؤیا بمفهومها الواسع هذا، فنحن مثلا و فی تعابیرنا العادیة التی نستخدمها یومیا نقول:

قرأت فی عینی فلان ما الذی یرید أن یفعله، کما أنّنا فی عالم الیوم أخذنا نستخدم کلمة «اقرأ» بخصوص الأشعة التی تؤخذ للمرضی، هذا بالرغم من أنّ الأشعة، هی صورة تخضع للمشاهدة لا للقراءة، و هذا المثال و الأمثلة التی سبقته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۶

تؤکد ما ذهبنا إلیه أنّ المشاهدة تدخل فی إطار المعنی الواسع للقراءة.

و قد تقدم فی الآیات السابقة أنّ تفصیلات صحیفة الأعمال هذه، لا یمکن إنکارها بأی وجه، لأنّ الآثار الحقیقیة الموضوعیة (أی الخارجیة) و التکوینیة للعمل تشبه کثیرا الصوت المسجّل للإنسان، أو الصورة المأخوذة له، أو بصمات أصابعه، و أیّا من هذه الآثار لا یجد الإنسان إلی نکرانها سبیلا!

۳- البریء لا یؤخذ بجریرة المذنب:

فی منطق العقل و توجیهات الأنبیاء علیهم السّلام لا یمکن معاقبة البریء بسبب جریمة المذنب، و هذا تماما عکس ما هو شائع بین عامّة الناس من خلال المثل الذی یقول (یحرق الأخضر و الیابس معا)، و کمثل علی ذلک، نری أنّ فی کل المدن و المناطق التی کانت فی حدود نبوّة النّبی لوط علیه السّلام، لم تکن هناک سوی عائلة مؤمنة واحدة، و لکن عند ما نزل العذاب علی قوم لوط علیه السّلام أنجی اللّه تلک العائلة، و کتب لها سبیل الخلاص من العذاب العام، و هکذا لم تؤخذ هذه العائلة المؤمنة البریئة بجریرة القوم المذنبین.

و تتحدث الآیة، من مجموع الآیات التی نحن بصددها، بصراحة عن هذه القاعدة، فتقول: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری و إذا صادف أن وجدنا من بین الأحادیث غیر المعتبرة، أمورا تعارض هذا القانون الإسلامی العام. فیجب ترک تلک الأحادیث أو توجیهها.

و فی هذه الاتجاه، أمامنا روایة تقول: إنّ الشخص المیت یتعذب ببکاء الحیّ، (و هنا یحتمل، و من باب توجیه الحدیث، أن یکون الغرض من العذاب، هو لیس العذاب الإلهی، بل الأذی الذی یصیب المیت من ذلک عند ما تطّلع روحه علی جزع الأهل و الأقرباء).

و یتّضح هنا- أیضا- مصیر عقیدة الأشخاص الذین یقولون: إنّ أبناء الکفّار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۷

يحشرون مع آبائهم فى نار جهنّم لبطلانه إسلاميا و لمنافاته لقاعدة وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى و إنّ الذرية لا تؤاخذ بجريرة الآباء، و هى بالتالى لا تعاقب بسبب ذنوب الأب و الأم. و لهذا السبب بالذات، فقد قلنا بأنّ الأبناء غير الشرعيين (أولاد الزنا) ليست لهم من جريرة غيرهم عليهم شىء، و أنّهم بمنأى عن الذنب و أنّ أبواب السعادة أمامهم مفتوحة، إذا أرادوهم ذلك، بالرغم من اعترافنا بصعوبة تربيتهم!

۴- قاعدة «أصل البراءة» و آية! ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ:

فى علم الأصول، و فى بحث «البراءة» استدلوا بقوله تعالى: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى ... على أن فهم الآية يوضّح أنّ المسائل التى لا يمكن للعقل إدراكها أو القطع بها، لا يعاقب عليها الإنسان حتى يبعث اللّه الرسل و الأنبياء ليبيّنوا الأحكام و التكاليف و الوظائف. و هذا بحد ذاته دليل على عدم العقاب فى الأمور التى لم تقم الحجة عليها، و قاعدة «أصل البراءة» لا تعنى شيئا غير هذا؛ أى لا عقاب بدون حجة من العقل أو النقل.

أمّا قول البعض: إنّ مفاد «العذاب» فى الآية أعلاه، هو «عذاب الاستئصال» مثل طوفان نوح، فلا دليل على ذلك، بل- كما قلنا- إنّ اطلاق الآية ينفى ذلك، و هى تشمل بالتالى كلّ عذاب و عقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۴۲۸

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۶ الى ۱۷]

اشارة

وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (۱۶) وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۱۷)

التّفسير

مراحل العقاب الإلهى:

إنّ موضوع البحث فى هذه الآيات يكمّل ما كنّا بصدد بحثه فى نهاية الآيات السابقة، و لكن بصورة أخرى، إذ تقول الآية الكريمة: وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً[۲۷۴]. إنّ الآيات التى كنّا قبل قليل بصدد بحثها، كانت تتحدّث عن أنّ العقاب الإلهى لا يمكن أن ينزل بساحة شخص أو مجموعة أو أمّة، من دون أن تكون هناك حجة و بيان للتكليف من قبل الرسل و الأنبياء عليهم السّلام، و الآية التى نحن بصددها الآن، تتحدث عن نفس هذا الأصل، و لكن بطريقة أخرى.

صحيح أنّ المفسّرين وضعوا احتمالات متعددة لتفسير هذه الآية، إلّا أنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۴۲۹

نعتقد بأنّه لا يوجد سوى تفسير واحد واضح لهذه الآية، يمكن تبيانه من مؤدّى ظاهرها، و هذا التّفسير هو: إنّ اللّه لا يعاقب أو يؤاخذ أحدا بالعذاب، قبل أن يتمّ الحجّة عليه، و قبل أن يتّضح و يستبين تكليفه، ففى البداية يضع اللّه تعليماته و أوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها و أطاعوا فستنالهم سعادة الدنيا و الآخرة. أمّا إذا عصوا و خالفوا و لم يلتزموا الأوامر و النواهى الربانية، فسيحيق بهم العذاب،

و یؤدی إلی هلاکهم.

و إذا تأملنا الآیة، و دققنا النظر فیها بشکل صحیح، فسنری أنّ هناک أربع مراحل لهذا البرنامج الربانی، هی:

۱- مرحلة الأوامر و النواهی.

۲- مرحلة الفسق و المخالفة.

۳- مرحلة استحقاق المجازاة.

۴- مرحلة الهلاک.

و الملاحظ هنا، أنّ المراحل الأربع هذه، معطوفة علی بعضها البعض بواسطة «فاء» التفریع.

هنا یطرح هذا السؤال: لماذا کان المأمورون فی الآیة الکریمة هم المترفین دون غیرهم؟[۲۷۵].

فی الإجابة علی السؤال المثار، لا بدّ من الإشارة إلی ملاحظة تعتبر مهمّة فی توضیح المعنی، و هی أنّ المترفین هم وجهاء القوم، و رؤساء المجتمع- طبعا هذه القاعدة تخص المجتمعات المریضة- و الآخرون تبع لهم.

إضافة إلی ذلک، فإنّ التعبیر فی الآیة الکریمة ینطوی علی إشارة مهمّة، هی أنّ أغلب المفاسد الاجتماعیة تنبع من المترفین، أصحاب الأموال، البعیدین عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۰

اللّه تعالی، و الذین یعیشون حیاة مترفة بعیدة عن الشرع مملوءة بالأهواء و المفاسد، و هم بذلک لا یفقهون شیئا عن تلک المفردات التی تتحدث عن الأخلاق و الإنسانیة و الإصلاح. و لهذا السبب بالذات، و بحکم موقعهم، کان المترفون دائما فی الصفوف الأولی، فی مواجهة دعوات الأنبیاء و الرسل، و کانوا یعتبرون دعوات الأنبیاء- القائمة علی أساس العدل و حمایة المستضعفین- ضدّهم.

لهذه الأسباب ذکر هؤلاء بالخصوص لأنّهم أساس الفساد. علی أیة حال، هذه الآیة بمثابة تحذیر لکل المؤمنین کی ینتبهوا، و لا یسلموا زمام أمورهم و حکوماتهم بید المترفین و الأغنیاء الغارقین بالشهوات، و ألّا یتبعونهم، لأنّ هؤلاء یجرون مجتمعهم نحو الهلاک.

الآیة التی بعدها تشیر إلی نماذج بهذا الخصوص، علی أنّها أصل عام، و قاعدة ساریة، إذ تقول: وَ کَمْ أَهْلَکْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وفقا لهذه القاعدة و السنّة، ثمّ تضیف بعد ذلک: وَ کَفی بِرَبِّکَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً أی إنّ ظلم و ذنوب فرد أو مجموعة لا یمکنها أن تکون خافیة علی العین البصیرة التی لا تنام لربّ العالمین.

«قرون» جمع «قرن» و هی تعنی الجماعة التی تعیش فی عصر واحد، ثمّ أطلقت فیما بعد علی مجموع العصر الواحد.

أمّا بصدد عدد سنین القرن الواحد، فهناک آراء مختلفة، فقسم أعتبر القرن (۴۰) سنة، و آخرون قالوا: ثمانین، و البعض الثالث، قال: إنّ القرن مائة عام، أخیرا فقد اعتبر البعض أنّ القرن هو مائة و عشرون عاما. و فی کلّ الأحوال لا بدّ من الإشارة هنا إلی أن الحکم فی هذه القضیة یخضع لطبیعة الاتفاق العرفی الذی ینعقد حولها. و من هنا فقد اتفق فی عصرنا الراهن علی أنّ کل مائة سنة تعتبر قرنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۱

واحدا[۲۷۶].

أمّا لماذا أکدت الآیة علی القرون من بعد نوح علیه السّلام فقد یکون ذلک بسبب أنّ الحیاة قبل نوح علیه السّلام کانت حیاة بسیطة، و الاختلافات التی تقسّم المجتمعات إلی مترف و مستضعف، کانت بسیطة و ضئیلة، لذلک فالعذاب الإلهی لم یشملهم بکثرة.

أمّا عن سبب ذکر کلمتی «خبیر» و «بصیر» معا، فإنّ ذلک یعود إلی المعنی المراد، إذ «الخبیر» تعنی العلم و الإحاطة بالنیة و العقیدة، أمّا «بصیر» فدلالة علی رؤیة الأعمال. لذلک فإنّ اللّه تبارک و تعالی یعلم بواطن الأعمال و النیات، و یحیط بنفس الأعمال، و مثل هذه القدرة لا یمکنها بحال أن تظلم أحدا، و لا أن یضیع حق أحد فی ظل حکومتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۳۲

الآیات [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۱۸ الی ۲۱]

اشارة

مَنْ کانَ یُرِیدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِیها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِیدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ یَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (۱۸) وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعی لَها سَعْیَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ کانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً (۱۹) کُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّکَ وَ ما کانَ عَطاءُ رَبِّکَ مَحْظُوراً (۲۰) انْظُرْ کَیْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَکْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَکْبَرُ تَفْضِیلًا (۲۱)

التّفسیر

طلاب الدنیا و الآخرة:

لقد تحدّثت الآیات السابقة عن الذین عصوا أوامر اللّه تعالی، و کیفیة هلاکهم، لذا فإنّ هذه الآیات- التی نحن بصددها الآن- تشیر إلی سبب التمرّد علی شریعة اللّه، و العصیان لأوامره، و هذا السبب هو حب الدنیا، إذ یقول تعالی:

مَنْ کانَ یُرِیدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِیها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِیدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ یَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۳۳

«العاجلة» تعنی النعم الزائلة، أو الدنیا الزائلة.

و الظریف فی الآیة، أنّها لا تقول: إنّ من یسعی وراء الدنیا، و یجعلها کلّ همه، یحصل علی کلّ ما یرید، بل هی قیّدت ذلک بشرطین هما:

أوّلا: سیحصل علی جزء ممّا یریده، و أنّ هذا الجزء هو المقدار الذی نریده نحن، أی (ما نشاء).

و الشرط الثّانی الذی یقیّد رغبة الساعی إلی الدنیا، فهو: إنّ جمیع الأشخاص- رغم سعیهم الدنیوی- لا یحصلون علی هذا المقدار، و إنما قسم منهم سیحصل علی جزء من متاع الدنیا. و هذا معنی قوله: لِمَنْ نُرِیدُ.

و بناء علی ذلک، فلا کلّ طلّاب الدنیا یحصلون علیها، و لا أولئک الذین یحصلون علی شی‌ء منها، یحصلون علی ما یریدون. و مسیر الحیاة الیومیة یوضح لنا هذین الشرطین، إذ ما أکثر الذین یکدون لیلا و نهارا و لکنّهم لا یحصلون علی شی‌ء.

و ما أکثر الذین لهم أمنیات کبیرة و طموحات متعددة و مشاریع بعیدة، و لکن لا یحصلون إلّا علی القلیل منها.

و فی هذا تحذیر الدنیا إنّکم إذا تصورتم بأنّکم ستصلون إلی أهدافکم عن طریق بیع الآخرة بالدنیا، فهذا خطاء و اشتباه کبیر، حیث أنّکم فی بعض الأحیان قد لا تحققون أی هدف، و فی أحیان أخری قد تحققون بعض أهدافکم.

و عادة ما تکون للإنسان آمال کبیرة و متعدّدة، لا یمکن إشباعها فی هذه الدنیا المادیة المحدودة، فلو أعطیت الدنیا کلّها إلی شخص واحد، فقد لا یقتنع بها! أمّا الأشخاص الذین یکدّون و لا یصلون إلی شی‌ء، فلذلک أسباب مختلفة، إذ قد یکون هناک أمل فی إنقاذهم، و اللّه بذلک یحبهم و ییسر سبل الهدایة لهم. أو یکون السبب أنّهم إذا وصلوا إلی مرحلة ما من أهدافهم و رغباتهم، فسیطغون و یؤذون خلق اللّه، و یضیقون علیهم الخناق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۳۴

«یصلی» مشتقة من «صلی» و هی تعنی إشعال النّار، و أیضا تعنی الحرق بالنّار، و المقصود منها هنا هو المعنی الثانی.

و الجدير بالانتباه هنا، أنّ عاقبة هذه المجموعة من الناس، و التى هى نار جهنّم، قد تمّ تأكيدها فى الآية، بكلمتى مَذْمُوماً و مَدْحُوراً إذ التعبير الأوّل يأتى بمعنى اللوم، بينما الثّانى يعنى الابتعاد عن رحمة الخالق، و فى الحقيقة إنّ نار جهنّم تمثل العقاب الجسدى لهم، أمّا «مذموم» و «مدحور» فهما عقاب الروح، لأنّ المعاد هو للروح و للجسد، و الجزاء و العقاب يكون للإثنين معا.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعة الثّانية و مصيرها، و بقرينة المقابلة و هى أسلوب قرآنى مميّز- يتوضح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً.

بناء على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسية للوصول إلى السعادة الأبدية، هى:

أوّلا: إرادة الإنسان: و هى الإرادة التى ترتبط بالحياة الأبدية، و لا تكون مرتبطة باللذات الزائلة و النعم غير الثابتة، و الأهداف المادية، فالإرادة القوية و الروحية العالية تجعلان من الإنسان حرّا طليقا غير مرتبط بالدنيا.

ثانيا: هذه الإرادة يجب أن لا- تكون ضعيفة و قاصرة فى المجال الفكرى و الروحى للإنسان، بل إنّها يجب أن تشمل جميع ذرات الوجود الإنسانى، و تدفعه للحركة، و يبذل كل ما يستطيع من السعى فى هذا المجال (يجب الملاحظة، بأنّ كلمة «سعيها» قد جاءت فى الآية الكريمة للتأكيد. و هى تعنى أنّ على الإنسان أن يبذل أقصى ما يستطيع من السعى فى سبيل الآخرة).

ثالثا: إنّ كل ما سبق من حيث عن الإرادة فى النقطتين السابقتين، ينبغى أن يقترن بالإيمان، الإيمان الثابت القوى، لأنّ أى تصميم و جهد، إذا أريد له أن يثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحة، و مصدر هذه الأهداف هو الإيمان باللّه لا غير.

صحيح أنّ السعى و بذل الجهد للآخرة لا يمكن أن يكون بدون إيمان، حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۵

أنّ مفهوم الإيمان داخل ضمنه، و لكن يجب عدم الاكتفاء بهذا المقدار من الدلالة الالتزامية للإيمان، بل و ينبغى التوسع فى شرط الإيمان، بحكم أنّ (الإيمان) يعتبر أمرا أساسيا، و ركنا مهمّا فى هذا الطريق.

و الملاحظ هنا، أنّ الآية تخاطب عبيد الدنيا بالقول: جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ بينما عند ما تنتقل إلى طلّاب الآخرة و عشّاقها و مريدها، فهى تخاطبهم بالقول:

فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. إنّ استخدام هذا التعبير أشمل و أجمل من استخدام أى تعبير آخر، مثل (جزاءهم الجنّة) لأنّ الشكر من أى شخص هو بمقدار شخصيته و مكانته لا بمقدار العمل الذى تمّ، لذا فإنّ شكر اللّه لسعى عباده يتناسب مع ذاته اللامتناهية، و نعمه المادية و المعنوية و ما نتصوره و ما نعجز عن تصوّره.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد فسّروا كلمة «مشكورا» فى هذه الآية بمعنى «الأجر المضاعف»[۲۷۷]. أو بمعنى «قبول العمل»[۲۷۸]، إلّا أنّه من الواضح أن كلمة «مشكورا» لها معنى أوسع من هذه المعانى جميعا.

و قد يتوهم البعض و يلتبس عليه الأمر، ظنا أنّ نعم الدنيا هى من نصيب عبيدها و طلابها فقط، و أنّ طلّاب الآخرة و أهلها محرومون منها. لذلك فإنّ الآية التى بعدها تقف أمام هذا اللبس، و تمنع هذا الظن، عند ما تقول: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ لتضيف بعدها بقليل: وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً.

نمدّ هنا من «الإمداد» بمعنى الزيادة.

الآية التى بعدها تشير إلى أصل مهم فى هذا الخصوص و تقول: كما أن السعى فى هذه الدنيا متفاوت، و تتفاوت معه الأجور، فكذلك الأمر فى الآخرة: و لكن التفاوت الدنيوى محدود، لأنّ الدنيا هى نفسها محدودة، و أمّا الآخرة- و لكونها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۶

غير محدودة- فإن تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا.

قد يقول قائل هنا: إنّنا نرى فى هذه الدنيا أفرادا يحصلون على أرباح كثيرة بدون أى سعى أو جهد.

الجواب: إنّ وجود هؤلاء يعبّر عن حالات استثنائية لا يمكن اعتبارها قاعدة فى مقابل الأصل الكلى، المتمثل فى الجهد و السعى و دورهما فى نجاح الإنسان و توفيقه. و بذلك فإنّ هذه الاستثناءات الثانوية لا تنافى الأصل الأساسى.

و أخيرا، و قبل أن ننتقل إلى الملاحظات، ينبغى أن ننّبه إلى أنّ السعى و بذل الجهد لا يتعلقان بالكمية و المقدار فقط، ففى بعض الأحيان يكون السعى القليل ذو الكيفية العالية أكثر أثرا من السعى الكثير و الكيفية الدانية.

***

بحوث

أوّلا: هل الدنيا و الآخرة تقعان على طرفى نقيض؟

فى الواقع إنّنا نرى فى كثير من الآيات القرآنية مدحا و تمجيدا للدنيا و بإمكانها المادية، ففى بعض الآيات اعتبر المال خيرا (سورة البقرة آية ۱۸۰).

و فى آيات كثيرة وصفت العطايا و المواهب المادية بأنّها فضل اللّه وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۲۷۹]. و فى مكان آخر نقرأ قوله تعالى: خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً[۲۸۰]. و فى آيات كثيرة أخرى وصفت نعم الدنيا بأنها مسخّرة لنا سَخَّرَ لَكُمُ

و إذا أردنا أن نجمع كل الآيات التى تهتم بالإمكانات المادية و تؤكد عليها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۷

و تجعلها فى سياق واحد، فستكون أمامنا مجموعة كبيرة منها.

و لكن، و برغم الأهمية الكبرى التى تختص بها النعم المادية، فإنّ القرآن الكريم استخدم تعابير أخرى تحقّرها و تحطّ منها بقوة، إذ نقرأ فى سورة النساء، آية (۹۴)، قوله تعالى: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا و فى مكان آخر نقرأ قوله تعالى: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ[۲۸۱]. و فى سورة العنكبوت آية (۶۴)، نقرأ وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ أمّا فى الآية (۳۷) من سورة النّور، فإنا نلتقى مع قوله تعالى: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

هذه المعانى المزدوجة إزاء النعم و المواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضا فى الأحاديث و الرّوايات الإسلامية، فالدنيا فى وصف لأمير المؤمنين على عليه السّلام هى

«مسجد أحباء اللّه، و مصلى ملائكة اللّه، و مهبط وحى اللّه، و متجر أولياء اللّه»[۲۸۲].

و فى جانب آخر، نرى أنّ الأحاديث و الرّوايات الإسلامية تعتبر الدنيا دار الغفلة و الغرور، و ما شابه ذلك.

و السؤال هنا: هل تتعارض هذه المجاميع من الآيات و الرّوايات فيما بينها؟

فى الواقع، عند ما تلام الدنيا، فإنّ اللوم ينصب على أولئك الناس الذين لا هدف لهم و لا همّ سواها. من هنا نقرأ فى الآية (۲۹) من سورة النجم قوله تعالى:

وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا. و بعبارة أخرى: فإنّ الذم الذى يرد للدنيا يقصد به الأشخاص الذين باعوا آخرتهم بدنياهم. و لا يتناهون عن أى منكر و جريمة فى سبيل الوصول إلى أهدافهم المادية، و فى هذا السياق نقرأ فى الآية (۳۸) من سورة التوبة: أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ.

ثمّ إنّ الآيات التى نبحثها تشهد على ما نقول، إذ أنّ قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۸

مَنْ كانَ یُرِیدُ الْعاجِلَةَ ... هو خطاب لأولئك الذین یستهدفون هذه الحیاة العادیة الزائلة، و یقفون عندها.

و عادة فإن استخدام تعابیر «المزرعة» أو «المتجر» و ما شاكلهما فی تشبیه الحیاة الدنیا و وصفها، یعتبر دلیلا حیا علی هذا الموضوع.

و خلاصة القول: إنّه إذا تمت الاستفادة من مواهب الدنیا و عطایاها التی تعتبر من النعم الإلهیة، و یعتبر وجودها ضروریا فی نظام الخلق و الوجود، و تمت الاستفادة فی سعادة الإنسان الأخرویة و تكامله المعنوی، فإنّ ذلك یعتبر أمرا جیدا، و تمتدح معه الدنیا. أمّا إذا اعتبرناها هدفا لا وسیلة، و أبعدناها عن القیم المعنویة و الإنسانیة، عندها سیصاب الإنسان بالغرور و الغفلة و الطغیان و البغی و الظلم.

و ما أجمل وصف

الإمام علی علیه السّلام للدنیا حینما یقول: «من أبصر بها بصرته، و من أبصر إلیها أعمته»[۲۸۳].

و فی أنّ الفرق بین الدنیا المذمومة و الدنیا الممدوحة، هو نفس الفرق الذی نستفیده، بین «إلیها» و «بها»، إذ تعنی الأولی أنّ الدنیا هدف، بینما تعنی الثّانی أنّها مجرد وسیلة!

ثانیا: دور السعی فی تحقیق المكاسب:

هذه لیست المرّة الأولی التی یشید فیها القرآن بالسعی و الجهد و دورهما فی تحقیق المكاسب، و بعكسه یحذّر الأشخاص العاطلین و الكسالی بأنّ السعادة الأخرویة لا یمكن ضمانها بالكلام المجرد، و التظاهر بالإیمان، بل الطریق یتمثل بالسعی و بذل الجهود.

و هذه الحقیقة واضح مفادها فی الكثیر من الآیات القرآنیة. ففی سورة

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۹

المدثر. آیة (۳۸) نقرأ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِینَةٌ و آیة أخری تقول: وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی و فی آیات كثیرة أخری، یأتی العمل الصالح بعد ذكر الإیمان حتی لا یتوهم أحد و یظنّ بأنّه یستطیع الوصول إلی مرحلة ما بدون سعی و جهد، فمواهب الدنیا المادیة لا یمكن استحصالها بدون سعی و جهد، فكیف إذن بالسعادة الأخرویة الخالدة!!؟

ثالثا: الإمدادات الإلهیة:

«نمدّ» مشتقّة من كلمة «إمداد» و هی تعنی إیصال المعونة، یقول الراغب الأصفهانی فی كتاب «المفردات» أن: كلمة «إمداد» غالبا ما تستعمل فی المساعدات المفیدة و المؤثّرة. أما كلمة «مدّ» فإنها تستعمل فی الأشیاء المكروهة و غیر المقبولة.

علی أیة حال، نقرأ فی الآیات التی نبحثها، أنّ اللّه سبحانه و تعالی یضع جزءا من نعمه فی خدمة الجمیع، إذ یستفید منها المحسنون و المسیئون، و هذه النعم غالبا ما تكون من النوع الذی یتوقف استمرار الحیاة علیه.

بتعبیر آخر: هذه النعم هی تعبیر عن مقام الرحمانیة الإلهیة التی تشمل فیوضاتها جمیع الناس، المؤمن و الكافر. و لكن ما وراء ذلك هناك نعم لا تحصی تختص بالمؤمنین و المحسنین دون غیرهم.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۰

الآیات [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۲۲ الی ۲۵]

اشارة

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (۲۲) وَ قَضى رَبُّکَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ الْکِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (۲۳) وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (۲۴) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (۲۵)

التّفسیر

أحکام إسلامیۀ مهمّۀ:

الآیات التی نحن بصدد بحثها هی بدایۀ لسلسلۀ من الأحکام الإسلامیۀ الأساسیۀ، و التی تبدأ بالدعوۀ إلی التوحید و الإیمان، التوحید الذی یعتبر الأساس و الأصل لکل النشاطات الإیمانیۀ، و الأعمال الحسنۀ و البناءۀ. و الآیات عند ما تنحو هذا المنحی فهی بذلک تتصل مع مضمون البحث فی الآیات السابقۀ، التی کانت تتحدث عن الناس السعداء الذین أقاموا حیاتهم علی دعائم ثلاث هی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۱

الإیمان، السعی و العمل و وضع الآخرۀ و منازلها نصب أعینهم.

و تعتبر هذه الآیات- أیضا- تأکیدا ثانیا لدعوۀ القرآن إلی أفضل السبل و أکثرها استقامۀ. فی البدایۀ تبدأ هذه الآیات بالتوحید و تقول: لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إنّها لم تقل: لا تعبد مع اللّه إلها آخر، بل تقول: لا تَجْعَلْ هذا اللفظ أشمل و أوسع، إذ هو یعنی: لا تجعل معبودا آخر مع اللّه لا فی العقیدۀ، و لا فی العمل، و لا فی الدعاء، و لا فی العبودیۀ. بعد ذلک توضح الآیۀ النتیجۀ القاتلۀ للشرک: فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا.

إنّ استعمال کلمۀ «القعود» تدل علی الضعف و العجز، فمثلا یقال: قعد به الضعف عن القتال. و من هذا التعبیر یمکن أن نستفید أنّ للشرک ثلاثۀ آثار سیئۀ جدّا فی وجود الإنسان، هی:

۱- الشرک یؤدی إلی الضعف و العجز و الذّلۀ، فی حین أنّ التوحید هو أساس الحرکۀ و النهوض و الرفعۀ.

۲- الشرک موجب للذم و اللوم، لأنّه خط انحرافی واضح فی قبال منطق العقل، و یعتبر کفرا واضحا بالنعم الإلهیۀ، لذا فالشخص الذی یسمح لنفسه بهذا الانحراف یستحق الذم.

۳- الشرک یکون سببا فی أن یترک اللّه سبحانه و تعالی الإنسان إلی الأشیاء التی یعبدها، و یمنع عنه حمایته، و بما أنّ هذه المعبودات المختلفۀ و المصطنعۀ لا تملک حمایۀ أی إنسان أو دفع الضرر عنه، و لأنّ اللّه لا یحمی مثل هؤلاء، لذا فإنهم یصبحون «مخذولین» أی بدون ناصر و معین.

إنّ هذا المعنی یتّضح بشکل آخر فی آیات قرآنیۀ أخری، إذ نقرأ مثلا فی الآیۀ (۴۱) من سورۀ العنکبوت: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

بعد تبیان هذا الأصل التوحیدی، تشیر الآیات إلی واحدۀ من أهم توجیهات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۲

الأنبیاء علیهم السّلام للإنسان، فالآیۀ- بعد أن تؤکد مرّۀ أخری علی التوحید- تقول:

وَ قَضى رَبُّکَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.

کلمۀ «قضاء» لهم مفهوم توکیدی أکثر من کلمۀ «أمر» و هی تعنی القرار و الأمر المحکم الذی لا نقاش فیه. و هذا أوّل تأکید فی هذه القضیۀ. أما التأکید الثّانی الذی یدل علی أهمیۀ هذا القانون الإسلامی، فهو ربط التوحید الذی یعتبر أهم أصل إسلامی، مع الإحسان

إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثّالث و الرّابع فهما يتمثلان فى معنى الإطلاق الذى تفيده كلمة «إحسان» و التى تشمل كل أنواع الإحسان. و كذلك معنى الإطلاق الذى تفيده كلمة «والدين» إذ هى تشمل الأم و الأب، سواء كانا مسلمين أو كافرين.

أمّا التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجىء كلمة «إحسانا» نكرة لتأكيد أهميتها و عظمتها[۲۸۴].

و من الضرورى الانتباه إلى هذه الملاحظة، و هى أنّ الأمر عادة ما ينصبّ على الأمور الإيجابية، بينما جاء هنا فى مفاد السلب و النفى (و قضى ... ألا تعبدوا ...) فما هو يا ترى سبب ذلك؟

من الممكن أن نقول: إنّ جملة وَ قَضى ... تتضمن تقديرا جملة إيجابية، يمكن أن نقدرها بالقول: و قضى ربّك أن تعبده، و لا تعبد أى شىء سواه. أو من الممكن أن تكون جملة أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ التى تتضمن «النفى و الإثبات» جملة إيجابية واحدة، إذ هى تحصر العبادة باللّه دون غيره ثمّ تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلا بالإحسان إلى الوالدين فتقول: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما بحيث يحتاجان الى الرعاية و الاهتمام الدائم. فلا تبخل عليها بأى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۳

شكل من إشكال المحبّة و اللطف و لا تؤذيهما أو تجرح عواطفهما بأقل إهانة حتى بكلمة «أف»: فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما[۲۸۵] بل: وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً و كن أمامهما فى غاية التواضع وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً.

الأهمية الاستثنائية لاحترام الوالدين:

إنّ الآيتين السابقتين توضحان جانبا من التعامل الأخلاقى الدقيق، و الاحترام الذى ينبغى أن يؤدّيه الأبناء للوالدين:

۱- من جانب أشارت الآية إلى فترة الشيخوخة، و حاجة الوالدين فى هذه الفترة إلى المحبّة و الاحترام أكثر من أى فترة سابقة، إذ الآية تقول: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ من الممكن أن يصل الوالدان إلى مرحلة يكونان فيها غير قادرين على الحركة دون مساعدة الآخرين، و قد لا يستطيعون بسبب الكهولة رفع الخبائث عنهم، و هنا يبدأ الاختبار العظيم للأبناء، فهل يعتبرون وجود مثل هذين الوالدين دليل الرحمة، أو أنّهم يحسبون ذلك بلاء و مصيبة و عذابا .. هل عندهم الصبر الكافى لاحترام مثل هؤلاء الآباء و الأمهات، أم أنّهم يوجهون الإهانات و يسيئون الأدب لهم، و يتمنون موتهم؟! ۲- من جانب آخر .. تقول الآية: فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ بمعنى لا تظهر عدم ارتياحك أو تنفرك منهم وَ لا تَنْهَرْهُما ثمّ تؤكّد مرّة أخرى على ضرورة التحدّث معهم بالقول الكريم، إذ اللسان مفتاح إلى القلب وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً.

۳- من جانب ثالث تأمر الآية بالتواضع لهم، هذا التواضع الذى يكون علامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۴

المحبة، و دليل الود لهم: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ.

۴- أخيرا تنتهى الآيات، إلى توجيه الإنسان نحو الدعاء لوالديه و ذكرهم بالخير سواء كانا أمواتا أم أحياء، و طلب الرحمة الرّبانية لهما جزاء لما قاما به من تربية وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً.

إضافة إلى ما ذكرناه، فثمّة ملاحظة لطيفة أخرى يطويها التعبير القرآنى، هذه الملاحظة خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مسنّين و ضعيفين و كهلين لا يستطيعان الحركة أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنّك عند ما كنت صغيرا كنت على هذه الشاكلة أيضا، و لكن والديك لم يقصرا فى مداراتك و العناية بك، لذا فلا تقصّر أنت فى مداراتهم و محبتهم.

و قـد تحـدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين و احترامهم و التواضع لهم، و قد يصدر هذا العقوق عن جهل في بعض الأحيان، و عن قصد و علم في أحيان أخرى، لذا فإنّ الآية الأخيرة في بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ و هـذه إشـارة إلى أنّ علم اللّه ثـابت و أزلي و أبـدي و بعيـد عن الاشـتباهات، بينمـا علمكم أيّهـا النـاس لاـ يحمل هـذه الصـفات! لـذلك فإذا طغى الإنسان و عصـى أوامر خالقه في مجال احترام الوالـدين و الإحسان إليهم، و لكن بدون قصد و عن جهل، ثمّ تـاب بعـد ذلك و أناب، و نـدم على ما فعل و أصلح، فإنّه سـيكون مشـمولا لعفو اللّه تعالى: إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً.

«أوّاب» مشـتقة من «أوب» على وزن «قوم» و هي تعني الرجوع مع الإرادة، في حين أن كلمة «رجع» تقال للرجوع مع الإرادة أو بدونها، لهذا السبب يقال للتوبة «أوبة» لأنّ حقيقة التوبة تنطوي على الرجوع عن الأمر (المنكر)، إلى اللّه، مع الإرادة.

و بما أنّ كلمة «أوّاب» هي صيغة مبالغة، لذا فإنّها تقال للأشخاص الذين كلما

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۵

أذنبوا رجعوا إلى خالقهم. و قـد تكون صـيغة المبالغـة في «أوّاب» هي إشارة إلى تعـدّد عوامل العودة و الرجوع إلى اللّه. فالإيمان باللّه أوّلا، و التفكير بحكمة يوم الجزاء و القيامة ثانيا، و الضـمير الحي ثالثا، و التفكير بعواقب و نتائج الذنوب رابعا، كل هذه العوامل تعمل سوية لأجل عودة الإنسان من طريق الانحراف، نحو اللّه.

بحوث

أوّلا: احترام الوالدين في المنطق الإسلامي

بالرغم من أنّ العاطفة الإنسانية و معرفة الحقائق، يكفيان لوحدهما لاحترام و رعاية حقوق الوالدين، إلّا أنّ الإسلام لا يلتزم الصمت في القضايـا التي يمكن للعقل أن يتوصل فيها بشـكل مسـتقل، أو أن تـدلّ عليها العاطفـة الإنسانيـة المحضـة، لـذلك تراه يعطي التعليمات اللازمة إزاء قضـية احترام الوالدين و رعاية حقوقهما، بحيث لا يمكن لنا أن نلمس مثل هذه التأكيدات في الإسـلام إلّا في قضايا نادرة أخرى.

و على سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

ألف: في أربع سور قرآنيـة ذكر الإحسان إلى الوالـدين بعـد التوحيـد مباشـرة، و هـذا الاقتران يـدل على مـدى الأهمية يوليها الإسـلام للوالدين.

ففي سورة البقرة آية (۸۳) نقرأ: لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.

و في سورة النساء آيـة (۳۶) نقرأ قوله تعالى: وَ اعْبُـدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْـرِكُوا بِهِ شَـيْئاً وَ بِالْوالِـدَيْنِ إِحْساناً. أما الآية (۱۵۱) من سورة الأنعام فإنّها تقول: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً. و في الآية التي نبحثها نقرأ قوله تعالى:

وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.

ب- إنّ مسألة احترام الوالدين و رعاية حقّهما من المنزلة بمكان، حتى أنّ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۶

القرآن و الأحـاديث و الرّوايـات الإسـلامية، تؤكـدان معا على الإحسان للوالـدين حتى و لو كانا مشـركين، إذ نقرأ في الآيـة (۱۵) من سورة لقمان: وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً.

ج- رفع القرآن الكريم منزلة شكر الوالدين إلى منزلة شكر اللّه تعالى، إذ تقول الآية (۱۴) من سورة لقمان: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ و هـذا دليل على عمق و أهميـة حقوق الوالدين فى منطق الإسـلام و شـريعته، بالرغم من أن نعم اللّه التى يشـكرها الإنسان لا تعدّ و لا تحصى.

د- القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانة للوالدين، و لا يجيز ذلك، ففى حديث

عن الإمام الصادق عليه السّـلام قال: «لو علم اللّه شـيئا هو أدنى من أف لنهى عنه، و هو من أدنى العقوق، و من العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحدّ النظر إليهما»[۲۸۶].

ه- بـالرغم من أنّ الجهـاد يعتبر من أهم التعـاليم الإسـلامية، إلّا أنّ رعايـة الوالـدين تعتبر أهم منه، بل لا يجوز إذا أدّى الأمر إلى أذية الوالدين، بالطبع هذا إذا لم يكن الجهاد واجبا عينيا، و إذ توفرّ العدد الكافى من المتطوعين له.

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّ رجلا جاء إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال له، إنّى أحبّ الجهاد، و صحتى جيـدة، و لكن لى أمّ لا ترتاح لذلك، فما ذا أفعل، فأجابه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: «إرجع فكن مع والدتك فو الذى بعثنى بالحق لأنسها بك ليلة خير من جهاد فى سبيل اللّه سنة»[۲۸۷].

و لكن عنـد ما يجب الجهاد وجوبا عينيا، و تصـبح بلاد الإسـلام فى خطر يلزم الجميع بالحضور و لا تقبل جميع الاعذار حينئذ بما فيها عدم رضاء الوالدين.

و ما قلناه عن الجهاد ينطبق كذلك على الواجبات الكفائية الأخرى، و كذلك المستحبات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۸، ص: ۴۴۷

و-

عن الرّسـول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قـال: «إيّـاك و عقـوق الوالـدين فـإنّ ريـح الجنّـة توجـد من ميسـرة ألـف عـام و لاـ يجـدها عاقّ»[۲۸۸].

هذا التعبير ينطوى على إشارة لطيفة، إذ أن مثل هؤلاء الأشـخاص (العاقين) ليسوا لا يدخلون الجنّة و حسب، بل إنّهم يبقون على مسافة بعيدة جدا منها و لا يستطيعون الاقتراب منها.

و ينقل «سيد قطب»

حـديثا عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم جاء فيه: «عن بريدة عن أبيه، أنّ رجلا كان فى الطواف حاملا أمّه يطوف بها، فرأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسأله: هل أديت حقّها؟ فأجابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا، و لا بزفرة واحدة».

و يقصد بالزفرة الواحدة الوجعة الواحدة، أو الطلقة الواحدة، التى تغشى الأم حين الولادة و الوضع ۲۸۹].

إذا أردنا نطلق العنان للقلم فى هذا المجال، فسيطول بنا المقام و نبتعد عن التّفسير، لكن- بصـراحة- يجب أن نعترف بأنّ كل ما يقال فى هذا المجال فهو قليل، لأنّ الوالدين حق العيش و الحياة على الولد.

فى نهايـة هذه الفقرة، أشـير إلى أنّ الوالدين- فى بعض الأحيان- يقترحان على الأبناء أشـياء غير منطقية و حتى- غير شـرعية، طبعا فى مثـل هـذه الحالاـت لا تجب الطاعـة، و لكن من الأفضل أن يتسم التعامل معهما بالهـدوء و المنطق، و أن تتم عمليـة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بأحسن وجه.

أخيرا نختم الكلام بحديث

عن الإمـام الكـاظم عليه السّـلام قال فيه: إنّ رجلا جاء النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يسأله عن حق الأدب على ابنه، فأجابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله: «لا يسميه باسمه، و لا يمشى بين يديه، و لا يجلس قبله، و لا يستسب له»[۲۹۰]

(اى لا يفعل شيئا يؤدى

الی أن یسبّ الناس والدیه).

ثانیا: بحث حول کلمة «قضی»:

«قضی» أصلها من کلمة «قضاء» بمعنی الفصل فی شیء ما، إمّا بالعمل و إمّا بالکلام. و قال بعض: إنّ معناها هو وضع نهایة لشیء ما، و فی الواقع فإنّ المعنیین متقاربان. و بما أنّ الفصل و وضع النهایـة لهما معانی واسـعة، لـذا فإنّ هـذه الکلمـة لها اسـتخدامات فی مفاهیم مختلفة، فالقرطبی فی تفسیره مثلا ذکر لها ستة معان هی:

* «قضی» بمعنی «أمر» کما فی قوله تعالی: وَ قَضی رَبُّکَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِیَّاهُ

* «قضی» بمعنی «خلق» کما فی قوله آیة (۱۲) من سورة فصلت فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِی یَوْمَیْنِ

* «قضی» بمعنی «حکم» کما فی الآیة (۷۲) من سورة طه فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ

* «قضی» بمعنی الانتهاء من شیء، و مثله الآیة (۴۱) من سورة یوسف قُضِیَ الْأَمْرُ الَّذِی فِیهِ تَسْتَفْتِیانِ

* «قضی» بمعنی «أراد» کما فی سورة آل عمران آیة (۴۷): إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ

* «قضی» بمعنی «عهد» کما فی الآیة (۴۴) من القصص: إِذْ قَضَیْنا إِلی مُوسَی الْأَمْرَ[۲۹۱].

و قد أضاف أبو الفتوح الرازی إلی هذه المعانی قوله:

* «قضی» بمعنی «الإخبار و الإعلام» مثل قوله تعالی:

وَ قَضَیْنا إِلی بَنِی إِسْرائِیلَ فِی الْکِتابِ ۲۹۲].

و نسـتطیع أن نضیف إلی هذا المعنی، معنی آخر تکون فیه «قضی» بمعنی «الموت» کما فی آیة (۱۵) من سورة القصص فَوَکَزَهُ مُوسی فَقَضی عَلَیْهِ

المهم هنا، أنّ بعض المفسّرین وضع أکثر من (۱۳) معنی لکلمة فی القرآن الکریم ۲۹۳].

و لکن لا یمکن اعتبار کل هذه معانی متعدّدة لکلمة «قضـی» لأنها تنتهی إلی مفهوم واحد. لذلک فإنّ أغلب المعانی المذکورة أعلاه هی من بـاب اختلاـط المصـداق بـالمفهوم. لأـنّ کـل واحـدة منهـا، ما هی فی واقعها إلّا مصـداقا للمفهوم الکلّی و الجامع المتمثل فی «الفصل و وضع النهایـة» فالقاضـی بحکمه یضع نهایـة للدعوی، و الخالق یضع نهایة لما خلق، و المخبر بأخباره یضع نهایة لما یرید أن یوضـحه. و لکن لا یمکن الإنکار أنّ بعض هذه المصادیق، و من کثرة الاسـتخدام قد وضـعت معان جدیدة لکلمة «قضاء» مثل الحکم أو إعطاء الأوامر.

ثالثا: بحث حول معنی کلمة «أف»:

أصل «أف» کلّ مسـتقذر من وسخ و قلامة ظفر و ما یجری مجراهما، و یقال ذلک لکلّ مستخف به استقذارا له. و یمکن أن نشتق منه فعلا، کمثل قولنا: قد أففت لکذا، إذا قلت ذلک استقذارا له. (مفردات الراغب صفحة ۱۹).

بعض المفسّرین مثل «القرطبی» فی الجامع، و «الطبرسی» فی «مجمع البیان» قالوا: «أف» و «تف» فی الأصل بمعنی وسخ الظفر حیث أنّه ملوّث و تافة أیضا، و ینقل الرازی عن الأصمعی أنّ «الأف» وسخ الأذن، و «التف» وسخ الظفر، حتی توسع المعنی لیشمل کل ما یتأذی

منه، و تذكر اللفظة أيضا عند كل مكروه يصل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ۴۵۰

إليهم ۲۹۴].

و هناك معان أخرى لكلمة «أف» منها أنّها تعنى الشيء القليل، أو الأذى من الرائحة الكريهة.

البعض الآخر قال: إنّ أصل هذه الكلمة مأخوذ من «الصوت» الذى يخرج من الفم عند ما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملابسه من الغبار الموجود عليها، و هذا الصوت يشبه كلمة «أوف» أو «أف» و قد أستفيد منها فيما بعد للتعبير عن التنفّر و عدم الراحة من الأشياء الصغيرة بالخصوص.

و خلاصة الذى ذكرناه أعلاه، و بالإضافة إلى قرائن أخرى يمكن القول بأنّ هذه الكلمة هى فى الأصل «اسم صوت» و المقصود بالصوت هنا ما يصدره الإنسان من فمه عند ما يتذمّر أو ينفخ لإزالة شيء ما. ثمّ بعد ذلك تحول «اسم الصوت» إلى كلمة يمكن اشتقاق الأفعال منها، و بذلك تكون المعانى التى ذكرناها مصاديق لهذا المفهوم العام و الشامل.

و منتهى الكلام هنا، أنّ الآية تريد أن تقول بعبارة قصيرة و فصيحة و بليغة، إنّ احترام الوالدين و رعاية حقوقهما مهمان للغاية، بحيث لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمة «أف» من معنى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ۴۵۱

الآيات [سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢۶ الى ٣٠]

اشارة

وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢۶) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَ كانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (٢٨) وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠)

التّفسير

رعاية الاعتدال فى الإنفاق و الهبات:

مع هذه الآيات يبدأ الحديث عن فصل آخر من سلسلة الأحكام الإسلامية الأساسية، التى لها علاقة بحقوق القربى و الفقراء و المساكين، و الإنفاق بشكل عام ينبغى أن يكون بعيدا عن كل نوع من أنواع الإسراف و التبذير، حيث تقول الآية وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ۴۵۲

«تبذير» من «بذر» و هى تعنى بذر البذور، إلّا أنّها هنا تخص الحالات التى يصرف فيها الإنسان أمواله بشكل غير منطقى و فاسد. بتعبير آخر: إنّ التبذير هو هدر المال فى غير موقعه و لو كان قليلا، بينما إذا صرف فى محلّه فلا يعتبر تبذيرا و لو كان كثيرا. ففى تفسير العياشى، عن الإمام الصادق عليه السّلام، نقرأ

قوله: «من أنفق شيئا فى غير طاعة اللّه فهو مبذر و من أنفق فى سبيل اللّه فهو مقتصد»[۲۹۵].

و ينقل

عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا أنّه دعا برطب (لضیوفه) فاقبل بعضهم یرمی بالنوی، فقال: «لا تفعل إن هذا من التبذیر، و إنّ اللّه لا یحب الفساد»[۲۹۶].

و فی مکان آخر نقرأ،

أنّ رسول الهدی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرّ بسعد و هو یتوضأ، فقال: ما هذا السرف یا سعد؟ قال: أفی الوضوء سرف؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «نعم و إن کنت علی نهر جار»[۲۹۷].

و بالنسبة لذوی القربی هناک کلام کثیر بین المفسّرین، هل هم عموم القربی؟

أو المقصود بهم قربی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتباره هو المخاطب بالآیة؟

فی الأحادیث الکثیرة التی سنقرؤها و فی الملاحظات التی سنقف عندها سنعرف بأنّ ذوی القربی هم قربی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و بعض الرّوایات تشیر إلی أنّ الآیة تتحدث عن قصّة فدک التی أعطاها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بنته فاطمة الزهراء علیها السّلام.

و لکن مخاطبة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی کلمة «و آت» لا تعتبر دلیلا علی اختصاص هذا الحکم به، لأنّ جمیع الأحکام الواردة فی هذه المجموعة من الآیات کالنهی عن الإسراف و مداراة السائل و المسکین، و النهی عن البخل، هی أحکام عامّة بالرغم من أنّها تخاطب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و هناک نقطة ینبغی الالتفات إلیها، و هی مجیء النهی عن التبذیر و الإسراف،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۳

بعد إعطاء الأمر بأداء حق الأقرباء و المساکین حتی لا یقع الإنسان تحت تأثیر عاطفة القرابة أو الصدقة فیعطی لهذا المسکین أو ابن السبیل أو القریب أکثر ممّا یستحق أو یتحمل، فیعتبر ذلک إسرافا و تبذیرا، و هما مذمومان دائما.

الآیة التی بعدها هی لتأکید النهی عن التبذیر إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کانُوا إِخْوانَ الشَّیاطِینِ، وَ کانَ الشَّیْطانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً.

أمّا کیف کفر الشیطان بنعم ربّه، فهذا واضح، لأنّ اللّه أعطاه قدرة و قوة و استعدادا و ذکاء خارقا للعادة، و لکن الشیطان استفاد من هذه الأمور فی غیر محلّها، أی فی طریق إغواء الناس و إبعادهم عن الصراط المستقیم.

أما کون المبذرین إخوان الشیاطین، فذلک لأنّهم کفروا بنعم اللّه، إذ وضعوها فی غیر مواضعها. ثمّ إنّ استخدام «إخوان» تعنی أنّ أعمالهم متطابقة و متناسقة مع أعمال الشیطان، کالأخوین اللذین تکون أعمالهما متشابهة، أو أنّهم قرناء و جلساء للشیطان فی الجحیم، کما توضح ذلک الآیة (۳۹) من سورة الزخوف بعد أن تشرک الشیطان و المذنب فی العذاب: وَ لَنْ یَنْفَعَکُمُ الْیَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّکُمْ فِی الْعَذابِ مُشْتَرِکُونَ

أمّا لما ذا جاءت کلمة الشیطان هنا بصیغة الجمع «شیاطین»؟ قد یعود ذلک إلی أنّ لکل إنسان غافل عن خالقه و ربّه، شیطان قرین له، کما نری هذا المعنی واضحا فی الآیة (۳۶) و (۳۸) من الزخرف: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ .. حَتَّی إِذا جاءَنا قالَ یا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ

ثمّ أنّ الإنسان قد لا یملک ما یعطیه للمسکین أحیانا، و فی هذه الحالة ترسم الآیة الکریمة طریقة التصرّف بالنحو الآتی: إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَیْسُوراً.

«میسور» مشتقّة من «یسر» و هی بمعنی الراحة و السهولة، أمّا هنا فلها مفهوم واسع، یشمل کل کلام جمیل و سلوک مقرون بالاحترام و المحبّة، و إذا فسّرها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۴

البعض بمعنی الوعد للمستقبل فإنّ ذلک أحد مصادیقها.

نقرأ فی الرّوایات، أنّه بعد نزول هذه الآیة، کان إذا جاء شخص محتاج إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و الرّسول لا یملک شیئا لإعطائه،

قال له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یرزقنا اللّه و إیّاکم من فضله»[۲۹۸].

و قدیما عند ما کان السائل یطرق الباب، و یطلب منّا شیئا لا نستطیع إعطاءه إیّاه، نقول له «العفو» و ذلک تأکیدا علی أنّ لهذا السائل حق علینا یطالبنا به، و إذا کنّا لا نملک قضاء حاجته و إعطاءه حقّه، فإننا نطلب منه العفو.

الاعتدال هو شرط فی کل الأمور بما فیها الإنفاق و المساعدة الآخرین، لذلک تنتقل الآیة للقول: وَ لا تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَةً إِلی عُنُقِکَ و هذا تعبیر جمیل یفید أنّ الإنسان ینبغی أن یکون ذا ید مفتوحة، لا أن یکون مثل البخلاء و کأنّ أیدیهم مغلولة إلی أعناقهم بخلا و خشیة من الإنفاق. و لکن فی نفس الوقت تقرّر الآیة أنّ بسط الید لا ینبغی أن یتجاوز الحد المقرر و المعقول فی الصرف و البذل و العطاء، حتی لا ینتهی المصیر إلی الملامة و الابتعاد عن الناس: وَ لا تَبْسُطْها کُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً.

و «تقعد» مشتقّة من «قعود» و هی کنایة عن التوقف عن العمل. أمّا تعبیر «ملوم» فهو یشیر إلی أنّ عاقبة الإسراف لا تؤدی إلی توقف الإنسان عن عمله و نشاطه و حسب، و إنّما تؤدی إلی إیقاع لوم الناس علیه.

«محسور» مشتقّة من کلمة «حسر» و هی فی الأصل تعنی خلع الملابس رفع الثوب و إظهار بعض البدن من تحته، لذا یقال للمقابل الذی لم یلبس الخوذة و الدرع، بأنه «حاسر». و أیضا یقال للحیوان الذی یتعب من کثرة المشی بأنّه «حسیر» أو «حاسر» بسبب استنفاذ طاقته و قدرته.

و قد توسع هذا المفهوم فیما بعد بحیث أصبح یطلق علی کل إنسان عاجز عن الوصول إلی هدفه بأنّه «حسیر» أو «محسور» أو «حاسر».

أمّا کلمة «الحسرة» و التی تعنی الغم و الحزن، فهی مشتقة من هذه الکلمة، و تطلق علی الإنسان الفاقد لقابلیة حل المشاکل بسبب الضعف.

و کذلک بالنسبة للإنفاق، فهو إذا تجاوز الحد المقرّر بحیث یستنفذ طاقة الإنسان، فإنّه یؤدی إلی أن یصاب صاحبه بالغم و الحزن بسبب الضعف عن أداء واجباته و مسئولیاته، و ینقطع اتصاله و ارتباطه بالناس.

و بعض الرّوایات التی تتحدث عن سبب نزول الآیة تؤکّد هذا المعنی، إذ أنّها تتحدث أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یوما فی بیته فجاءه سائل یسأله إعطاءه ملابس، و لمّا لم یکن مع الرّسول ما یعطی السائل، فقد خلع لباسه و أعطاه إیّاه، الأمر الذی أدّی إلی بقاء الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی البیت و عدم خروجه فی ذلک الوقت للصلاة.

و قد کان هذا الحادث سببا لتقولات الکفار المنافقین، الذین قالوا: إنّ الرّسول نائم، أو إنّه فی لهو أنساه صلاته. و بذلک أدّی هذا العمل إلی إیقاع اللوم شماتة الأعداء و الانقطاع عن الأصحاب، و أصبح بذلک مصداقا للملوم و المحسور، عندها نزلت الآیة أعلاه تنهی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن تکرار هذا العمل.

أمّا عن التضاد القائم بین هذا الأمر و مسألة «الإیثار» فسنبحثه فی الملاحظات القادمة إن شاء اللّه.

بعض الرّوایات تتحدث عن أنّ سبب نزول الآیة، هو أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یعطی ما یوجد فی بیت المال إلی المحتاج بحیث إذا جاءه محتاج آخر، فلن یجد شیئا یعطیه له، فیلوم ذلک المحتاج الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یؤذیه، لذلک صدرت التعلیمات بأن لا ینفق کل ما فی بیت المال لمواجهة هذه المشکلات.

سؤال: لما ذا یجب أن یکون هناک مساکین و فقراء و محرومون حتی ننفق علیهم؟ ألیس من الأفضل أن یعطیهم اللّه ما یریدون حتی لا یحتاجون إلی إنفاقنا؟

الجواب: تعتبر الآیـة الأخـیرة بمثابـة جواب علی هـذا السؤال: إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ کانَ بِعِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً. إنّه اختبار لنا، فاللّه قادر علی کل شیء، و لکنّه یرید بهذا الطریق تربیتنا علی روح السخاء و التضحیة و العطاء.

إضافة إلی ذلک، إذا أصبح أکثر الناس فی حالـة الکفایـة و عـدم الحاجة فإنّ ذلک یقود إلی الطغیان و التمرد إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی لذلک من المفید أن یبقوا فی حد معین من الحاجة. هذا الحد لا یسبب الفقر و لا الطغیان. من ناحیة أخری یرتبط التقدیر و البسط فی رزق الإنسان بمقدار السعی و بذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبیل العجزة و المعلولین)، و هکذا تقتضـی المشـیئة الإلهیـة ببسط الرزق و تقـدیره لمن یشاء، و هـذا دلیل الحکمة، إذ تقضـی الحکمة بزیادة رزق من یسـعی و یبذل الجهد، بینما تقضـی بتضییقه لمن هو أقل جهدا و سعیا.

العلّامـة الطباطبائی ینظر للعلاقـة بین هذه الآیة و التی قبلها فی ضوء احتمال آخر فیقول فی تفسیر المیزان: «إنّ هذا دأب ربّک و سـنته الجاریـة، یبسـط الرزق لمن یشاء و یقـدر لمن یشاء، فلا یبسطـه کل البسط، و لا یمسک عنه کل الإمساک رعایـة لمصـلحة العباد، إنّه کان بعباده خبیرا بصیرا أو ینبغی لک أن تتخلق بخلق اللّه و تتخذ طریق الاعتدال و تتجنب الإفراط و التفریط»[۲۹۹].

***

بحوث

أوّلا: من هم المقصودون بذی القربی؟

کلمة «ذی القربی» تعنی الأرحام و المقربین، و هناک کلام بین المفسّرین،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۷

حول المقصود بها، إذ هل هو المعنی العام أو الخاص؟ و یمکن أن نلاحظ هنا بعض هذه الآراء:

* البعض یعتقد أنّ المخاطب بالآیة جمیع المؤمنین و المسلمین، و الغرض هو الحث علی أداء حقوق الأقرباء.

* البعض الآخر یری أنّ المخاطب فی الآیة هو الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، و الغرض هو إیصال حقوق أقرباء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کخمس الغنائم، أو غیرها ممّا یتعلق بها الخمس.

أو بصورة عامّة تأدیة کل الحقوق التی لهم فی بیت المال.

لذلک نری فی روایات عدیدة عند الشـیعة و السـنّة إنّ رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بعث إلی فاطمة علیها السّـلام بعد نزول هذه الآیة، و وهبها فدکا[۳۰۰].

ففی مصادر السـنة مثلا نقرأ عن أبی سـعید الخـدری الصـحابی المعروف: «لما نزل قوله تعالی: وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ أعطی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فاطمة فدکا»[۳۰۱].

و یستـفاد من بعض الرّوایات، أنّ الإمام زین العابدین علیه السّـلام أثناء سـیره إلی الشام بعد واقعة کربلاء، اسـتدلّ بهذه الآیة وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ فی التعریف بنفسه و أهل بیته و عیال أبیه الحسـین علیه السّلام، بأنّهم المعنیین بقوله تعالی: فیما کان أهل الشام یغمطونهم هذا الحق![۳۰۲].

و لکن- کما أشـرنا سابقا- لیس هناک تعارض بین هـذین التّفسـیرین، فالکل مکلفون بإیتاء حقوق ذوی القربی، و الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذی اعتبر قائدا للأمّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۸

الإسلامية مكلّف أيضا بالعمل بهذه المسؤولية الكبيرة، فأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هم فى الواقع من أوضح مصاديق القربى له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى طليعة المخاطبين بالآية الكريمة. لهذا السبب و هب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حقوق ذوى القربى لهم، فأعطى فاطمة فدكا، و أجرى عليهم الأخماس و غير ذلك، حيث كانت الزكاة أموالا عامّة محرمة على أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرباه.

ثانيا: مصائب الإسراف و التبذير:

لا ريب فى أنّ النعم الموجودة على الكرة الأرضية كافية لساكنيها، بشرط واحد، هو أن لا يبذروا هذه النعم بلا سبب، بل عليهم استثمارها بشكل معقول و بلا إفراط أو تفريط، و الّا فإنّ هذه النعم ليست غير متناهية حتى لو أسيء استثمارها و التصرف بها. و قد يؤدى الإسراف و التبذير فى منطقة معينة الى الفقر فى منطقة أخرى، أو إنّ إسراف و تبذير الناس فى هذا الزمان يسبّب فقر الأجيال القادمة.

و فى ذلك اليوم الذى لم تكن فيه الأرقام و الإحصاءات فى متناول الإنسان، حذّر الإسلام من مغبة الإسراف و التبذير فى نعم اللّه على الأرض، لذلك فالقرآن أدان فى أماكن كثيرة و بشدّة المسرفين و المبذرين.

ففى الآيتين (۱۴۱) من الأنعام و (۳۱) من الأعراف نقرأ قوله تعالى وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

أمّا فى غافر (۴۳) فنقرأ: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ.

و الآية (۱۵۱) من الشعراء تنهى عن طاعة المسرفين: وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ

أمّا الآية (۸۳) من يونس فتجعل الإسراف صفة فرعونية: وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ

و الهداية ممنوعة عن المسرفين كما هو مفاد الآية (۲۸) من سورة غافر: إِنَ

اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

و أخيرا تتحدث الآية (۹) من سورة الأنبياء عن مصيرهم: وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ

و قد رأينا فى الآية التى نبحثها أن اللّه تعالى جعل المسرفين إخوان الشياطين. و الإسراف بمعناه الواسع هو الخروج و تجاوز الحد فى أى عمل يقوم به الإنسان، و لكنّها عادة تستخدم فى المصروفات.

و من آيات القرآن نفسها نستفيد أنّ الإسراف هو فى مقابل التقتير، بينما هناك طريق ثالث هو منزلة بين الأمرين، كما فى الآية (۶۷) من سورة الفرقان: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً.

ثالثا: الفرق بين الإسراف و التبذير:

فى الواقع لا يوجد هناك بحث واضح عند المفسّرين فى التفاوت الموجود بين الإسراف و التبذير، و لكن عند التأمّل بأصل هذه الكلمات فى اللغة، يتبيّن أنّ الإسراف هو الخروج عن حدّ الاعتدال، و لكن دون أن نسخر شيئا، فمثلا نلبس ثيابا ثمينا بحيث أنّ ثمنه يعادل أضعاف سعر الملبس الذى نحتاجه، أو أنّنا نأكل طعاما غاليا بحيث يمكننا إطعام عدد كبير من الفقراء بثمنه. كل هذه أمثلة على الإسراف، و هى تمثّل خروجنا عن حدّ الاعتدال، و لكن من دون أن نخسر شيئا.

أمّا كلمة «تبذير» فهى تعنى الصرف الكثير، بحيث يؤدى إلى إتلاف الشىء و تضييعه، فمثلا نهيّئ طعام عشرة أشخاص لشخصين، كما

یفعل ذلک بعض الجهلاء و یعتبرون ذلک فخرا، حیث یرمون الزائد فی المزابل.

و لکن بالرغم من هـذا التمییز، لا بـدّ من القول بأنّ کثیرا ما تسـتخدم هاتین الکلمتین للتدلیل علی معنی واحد، و قد تتابعان فی الجملهٔ الواحدهٔ لغرض التأکید.

فالإمام علی فی نهج البلاغهٔ یقول: «ألا إنّ إعطاء المال فی غیر حقّه تبذیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۰

و إسراف و هو یرفع صاحبه فی الدنیا و یضعه فی الآخرهٔ، و یکرمه فی الناس و یهینه عند اللّه».

و فی الآیات التی بحثناها رأینا أن الإسـلام بحیث کثیرا علی عـدم الإسـراف و التبذیر إلی درجهٔ أنّه نهی عن الإسـراف فی ماء الوضوء حتی إذا کان ذلک قرب نهر جار، و حتی فی نوی التمر. و عالم الیوم الـذی بـدأ یتحسّـس الضائقـهٔ فی بعض الموارد. أخذ یهتم بهذه الفکرهٔ، حتی بات یستفید من کلّ شیء، فهو مثلا یستفید من فضولات المنازل فی صنع السماد، و من ماء المجاری لسقی المزروعات، لأـنّه أحسّ أنّ المصـادر الطبیعیـهٔ محـدودهٔ، لـذا لاـ یمکن التفریط بها بسـهولهٔ، و إنّما ینبغی الاسـتفادهٔ منها ضـمن ما یعرف ب «دورهٔ المصادر الطبیعیهٔ».

رابعا: هل ثمّهٔ تعارض بین الاعتدال فی الإنفاق و الإیثار؟

مع الأخـذ- بنظر الإعتبار- الآیات أعلاه و التی تؤکّـد ضـرورهٔ الاعتدال فی الإنفاق، یثار سؤال مؤدّاه، إنّ فی سورهٔ الدهر مثلا، و آیات أخری، و فی مجموعهٔ من الأحادیث و الرّوایات، ثمّهٔ إشادهٔ بالمؤثرین الذین یؤثرون غیرهـم علی أنفسـهم فی أحلک الساعات و أشـدّ الظروف و یعطون ما یملکون للآخرین، فکیف یا تری نوفّق بین هذین المفهومین؟

إنّ الدقـهٔ فی سـبب نزول هـذه الآیات مع قرائن أخری تفیـدنا فی الوقوف علی جواب هذا السؤال، إذ یکون الأمر بمراعاهٔ الاعتدال فی المجالاـت التی یکون فیها العطاء و الهبات الکثیرهٔ سـببا لاضـطراب الإنسان فی حیاته أو بمصـطلح القرآن یصـبح فیها مَلُوماً مَحْسُوراً و کذلک إذا کان الإیثار سـببا فی التضییق علی أبنائه أو أنّه یهدّد ترکیبهٔ عائلته. و إذا لم یقع أی من هذین المحذورین، فإنّ الإیثار یعتبر أفضـل السـبل، نضـیف إلی ذلک أنّ الاعتـدال فی الإنفاق یعتبر حکما عاما، بینما الإیثار یعتبر حکما خاصا یرتبط بمصادیق خاصّـهٔ، و لیس ثمّهٔ تضاد بین الاثنین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۱

الآیات [سورهٔ الإسراء (۱۷): الآیات ۳۱ الی ۳۵]

اشارهٔ

وَ لاـ تَقْتُلُوا أَوْلادَکُمْ خَشْیَهَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِیَّاکُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ کانَ خِطْأً کَبِیراً (۳۱) وَ لاـ تَقْرَبُوا الزِّنی إِنَّهُ کانَ فاحِشَـهً وَ ساءَ سَبِیلًا (۳۲) وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِیِّهِ سُـلْطاناً فَلا یُسْـرِفْ فِی الْقَتْلِ إِنَّهُ کانَ مَنْصُوراً (۳۳) وَ لاـ تَقْرَبُوا مـالَ الْیَتِیمِ إِلاَّـ بِـالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتَّی یَبْلُغَ أَشُـدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْـدِ إِنَّ الْعَهْـدَ کانَ مَسْؤُلًا (۳۴) وَ أَوْفُـوا الْکَیْـلَ إِذا کِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِیمِ ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلًا (۳۵)

التّفسیر

ستة أحكام مهمّة:

فی متابعة للأحكام الإسلامية التی أثارتها الآيات السابقة، تتحدّث هذه الآيات عن ستة أحكام إسلامية أخرى وردت فی ست آيات، بعبارات قصيرة و معان كبيرة، تأخذ بلباب القلوب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ۴۶۲

أوّلا: تشير الآية إلى عمل قبيح و جاهلى هو من أعظم الذنوب، فتنهى عنه:

وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ فرزق هؤلاء ليس عليكم نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ أمّا علّة الحكم فهى: إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً.

هذه الآية تفيد أنّ الوضع الاقتصادى للعرب فی الجاهلية كان صعبا و سيئا.

بحيث أنّهم كانوا يتقلون أبناءهم فی بعض الأحيان خوف العيلة و الفقر.

و هناك كلام بين المفسّرين فيما إذا كان العرب فی الجاهلية يدفنون البنات أحياء و حسب، أو أنّهم كانوا يقتلون الأبناء أيضا خوفا من الفقر! البعض يعتقد أنّ الآيات تتحدث عن دفن البنت و هى حيّة، هذا العمل الذى كان شائعا فی الجاهلية لسببين:

الأوّل: يتمثل فی الخوف من وقوعهن فی الأسر أثناء الحروب، الأمر الذى يجعل الأعراض و النواميس تحت رحمة العدو.

أمّا الثّانى: فيعود إلى خوفهم من الفقر و عدم تمكنهم من توفير المؤونة للبنات اللاتى لا يقمن بعمل إنتاجى، و يقتصر دورهن على الاستهلاك فقط. صحيح أنّ الولد فی مطلع حياته لا ينتج، لكنّه فی عرف عرب الجاهلية يعتبر رأسمالا ثمينا، لا يمكن التفريط به.

البعض الآخر من المفسّرين يعتقد أن هناك نوعين من القتل، النوع الأوّل يشمل البنات، لحفظ الناموس حسب اعتقادهم الخاطئ. أمّا النوع الثّانى فسببه الفقر. و هو يشمل البنات و البنين معا.

ظاهر الآية يدل على هذا المعنى، لوجود ضمير الجمع المذكر فی الآية فی «قتلهم» و هذا الضمير يطلق فی اللغة العربية على الولد و البنت معا، و بالتالى فإنّه يستبعد اختصاصه بالبنات وحدهن.

أمّا ما يقال من أنّ الولد قادر على الإنتاج، و يعتبر وجوده رأسمالا للمستقبل، فهذا صحيح فی حال وجود القدرة المالية، أمّا فی حالة عدم القدرة على تأمين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌٨، ص: ۴۶۳

حياة هؤلاء الأولاد فالراى الثّانى هو الأصح لهذا الدليل.

المهم أنّ هذا التصرف الجاهلى يرتبط بعقيدة وهمية تقول: إنّ الأب و الأم هما الرازقان، بينما اللّه سبحانه و تعالى يقول: اطردوا هذا التفكير الشيطانى من أذهانكم و ابذلوا سعيكم و وسعكم و اللّه يؤمن رزقكم و رزقهم.

و فی الوقت الذى تستغرب فيه ارتكاب الجاهليين لهذه الجرائم بحق النوع البشرى، فإنّ عصرنا الحاضر- و فی أكثر مجتمعاته رقيا و تقدما- يعيد تكرار هذه الجريمة و لكن بأسلوب آخر، إذ أنّ العمليات الواسعة فی إسقاط الجنين و قتله خوفا من الضائقة المالية و ازدياد عدد السكان، هى نموذج آخر للقتل، (للمزيد راجع تفسير الآية (۱۵۱) من سورة الإنعام).

إنّ تعبير «خشية إملاق» إشارة لطيفة إلى الدافع الوهمى الشيطانى و رفضه، حيث يفيد التعبير أنّ الوهم و مجرّد الخوف هو الذى يتحكم بهذا السلوك المحرم، لا الدوافع الحقيقية.

كما يجب الانتباه إلى أنّ «كان» فی كانَ خِطْأً كَبِيراً هى فعل ماض، يفيد هنا التأكيد على أنّ قتل الأبناء يعتبر من الذنوب العظيمة التى كانت معروفة، منذ القدم بين البشر، و أنّ الفطرة الإنسانية السليمة تحمل دوافع الرفض و الإدانة لمثل هذا السلوك الذى لا يختص بزمان معين دون غيره.

ثانيا: الآية التى بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِيلًا و فی هذا التعبير القرآنى تمت

الإشارة إلى ثلاث نقاط:

ألف- لم تقل الآية: لا تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، و هذا الأسلوب فى النهى فضلا عمّا يحمله من تأكيد، فإنّه يوضح أنّ هناك مقدمات تجر إلى الزنا ينبغى تجنبها و عدم مقاربتها، فخيانة العين تعتبر واحدة من المقدمات، و السفور و التعرى مقدمة أخرى، الكتب السيئة و الأفلام الملوّثة و المجلات الفاسدة و مراكز الفساد كل واحدة منها تعتبر مقدمة لهذا العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۴

كذلك فإنّ الخلوة بالأجنبية (يعنى خلوة المرأة و الرجل الأجنبى عليها فى مكان واحد و لوحدهما) يعتبر عاملا فى إثارة الشهوة.

و أخيرا فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصة مع ملاحظة الصعوبات الموضوعة أمام الطرفين، هى من العوامل التى قد تؤدى إلى الزنا.

و الآية نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مختصر، و لكنّا نرى فى الأحاديث و الرّوايات نهيا مفصلا عن كل واحدة من هذه المقدمات.

ب- إنّ جملة إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً بتأكيداتها الثلاثة المستفادة من «إن» و الفعل الماضى «كان» و كلمة «فاحشة» تكشف عن فظاعة هذا الذنب.

ج- إنّ جملة ساءَ سَبِيلًا توضح حقيقة أنّ هذا العمل «الزنا» يؤدى إلى مفاسد أخرى فى المجتمع.

فلسفة تحريم الزنا:

يمكن الإشارة إلى خمسة عوامل فى فلسفة تحريم الزنا، و هى:

۱- شياع حالة الفوضى فى النظام العائلى، و انقطاع العلاقة بين الأبناء و الآباء. هذه الرابطة التى تختص بكونها سببا للتعارف الاجتماعى، بل إنّها تكون سببا لصيانة الأبناء، و وضع أسس المحبّة الدائمة فى مراحل العمر المختلفة، و التى هى ضمانة الحفاظ على الأبناء.

إنّ العلاقات الاجتماعية القائمة فى أساس العلاقات العائلية ستتعرض للانهيار و التصدّع إذا شاع وجود الأبناء غير الشرعيين «أبناء الزنا»، و للمرء أن يتصوّر مصير الأبناء فيما إذا كانوا ثمرة للزنا، و مقدار العناء الذى يتحملونه فى حياتهم من لحظة الولادة و حتى الكبر.

و علاوة على ذلك، فإنّهم سيحرمون من الحبّ الأسرى الذى يعتبر عاملا فى الحدّ الجريمة من فى المجتمع الإسلامى، و حينئذ يتحول المجتمع الإنسانى بالزنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۵

إلى مجتمع حيوانى تغزوه الجريمة و القساوة من كل جانب.

۲- إنّ إشاعة الزنا فى جماعة ما، ستقود إلى سلسلة واسعة من الانحرافات أساسها التصرفات الفردية و الاجتماعية المنحرفة لذوى الشهوات الجامحة. و ما ذكر فى هذا الصدد من القصص عن الجرائم و الانحرافات المنبعثة عن مراكز الفحشاء و الزنا فى المجتمعات يوضح هذه الحقيقة، و هى أنّ الانحرافات الجنسية تقترن عادة بأبشع ألوان الجرائم و الجنايات.

۳- لقد أثبت العلم و دلّت التجارب على أنّ إشاعة الزنا سبب لكثير من الأمراض و المآسى الصحية و كل المعطيات تشير إلى فشل مكافحة هذه الأمراض من دون مكافحة الزنا أصلا. (يمكن أن تلاحظ موجات مرض الإيدز فى المجتمعات المعاصرة، و نتائجها الصحية و النفسية المدمّرة).

۴- إنّ شياع الزنا غالبا ما يؤدى إلى محاولة إسقاط الجنين و قطع النسل، لأنّ مثل هؤلاء النساء «الزانيات» لا يرضين بتربية الأطفال، و عادة ما يكون الطفل عائقا كبيرا أمام الانطلاق فى ممارسة هذه الأعمال المنحرفة، لذلك فهن يحاولن إسقاط الجنين و قطع النسل.

أمّا النظرية التى تقول، بأنّ الدولة يمكنها- من خلال مؤسسات خاصّة- جمع الأولاد غير الشرعيين و تربيتهم و العناية بهم، فإنّ

التجارب أثبتت فشل هذه المؤسسات فى تأدية أهدافها، إذ هناك صعوبات التربية، و هناك النظرة الاجتماعية لهؤلاء، ثمّ هناك ضغوطات العزلة و الوحدة و فقدان محبّة الوالدين و عطفهما، كل هذه العوامل تؤدى إلى تحويل هذه الطبقة من الأولاد الى قساة و جناة و فاقدى الشخصية.

۵- يجب أن لا ننسى أنّ هدف الزواج ليس إشباع الغريزة الجنسية و حسب، بل المشاركة فى تأسيس الحياة على أساس تحقيق الاستقرار الفكرى و الأنس الروحى للزوجين. و أمّا تربية الأبناء و التعامل مع قضايا الحياة، فهى آثار طبيعية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۶

للزواج، و كل هذه الأمور لا يمكن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأة بالرجل و قطع دابر الزنا و أشكال المشاعية الجنسية.

فى حديث عن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام يقول: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «فى الزنا ست خصال: ثلاث فى الدنيا و ثلاث فى الآخرة. فأمّا اللاتى فى الدنيا، فيذهب بنور الوجه، و يقطع الرزق، و يسرع الفناء. و أمّا اللّواتى فى الآخرة، فغضب الرب، و سوء الحساب، و الدخول فى النّار، أو الخلود فى النّار»[۳۰۳].

ثالثا: الحكم الآخر الذى تشير إليه الآية التى بعدها، هو احترام دماء البشر، و تحريم قتل النفس حيث تقول: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ

إنّ احترام دماء البشر و حرمة قتل النفس تعتبر من المسائل المتفق عليها فى كل الشرائع السماوية و قوانين البشر، فقتل النفس المحترمة لدى الجميع من الذنوب الكبيرة، إلّا أنّ الإسلام أعطى أهمية استثنائية لهذه المسألة بحيث اعتبر من يقتل إنسانا فكأنّما قتل الناس جميعا، كما فى الآية (۳۲) من سورة المائدة مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِی الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً. بل نستفيد من بعض الآيات القرآنية أنّ جزاء قتل النفس بغير حق هو الخلود فى النّار، و أنّ هؤلاء الذين يتورطون فى دم الأبرياء يخرجون عن ربقة الإيمان، و لا يمكن أن يخرجوا من هذه الدنيا مؤمنين: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها[۳۰۴]. و حتى فى الإسلام فإنّ الذين يشهرون السلاح بوجه الناس ينطبق عليهم عنوان «محارب» و هذا الصنف له عقوبات شديدة مفصّلة فى المصنفات الفقهية، و قد أشرنا إلى بعضها أثناء الحديث عن الآية (۳۳) من سورة المائدة.

إنّ الإسلام يحاسب على أقل أذى ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضية القتل و إراقة الدماء؟! و هنا نستطيع أن نقول- باطمئنان-: إننا لا نرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۷

أىّ شريعة غير الإسلام أعطت هذه الحرمة الاستثنائية لدم الإنسان، بالطبع هناك حالات ينتفى معها احترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبة به، لذلك فإنّ الآية بعد أن تثبت حرمة الدم كأصل، تشير للاستثناء بالقول: إِلَّا بِالْحَقِ

و

فى حديث معروف عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلّا اللّه و أنّ محمدا رسول اللّه إلّا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، و الزانى المحصن، و التارك لدينه المفارق للجماعة»[۳۰۵].

أمّا القاتل فتكون نهايته معلومة بالقصاص، الذى يؤمّن استمرار الحياة و استقرارها. و إذا لم يعط الحق لأولياء دم المقتول بالقصاص من القاتل، فإنّ القتلة سيتجرءون على المزيد من القتل و الإخلال بالأمن الاجتماعى.

أمّا الزانى المحصن، فإنّ قتله فى قبال واحد من أعظم الذنوب قباحة، و هو يساوى سفك الدم الحرام فى المرتبة.

أمّا قتل المرتد فيمنع الفوضى و الإخلال فى المجتمع الإسلامى، و هذا الحكم- كما أشرنا سابقا- هو حكم سياسى، لأجل حفظ النظام الاجتماعى فى قبال الأخطار التى تهدّد كيان النظام الإسلامى و وحدة أمنه الاجتماعى، و الإسلام- عادة- لا يفرض على أحد قبول الانتماء إليه، و لكن إذا اقتنع أحد بالإسلام و اعتنقه، و أصبح جزء من المجتمع الإسلامى، و اطلع على أسرار المسلمين، ثمّ أراد بعد

ذلك الارتداد عن الإسلام ممّا يؤدى عملا الى تضعيف و ضرب قواعد المجتمع الإسلامى، فإن حكمه سيكون القتل ۳۰۶] بالشرائط المذكورة فى الكتب الفقهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۸

إنّ حرمة دم الإنسان فى الإسلام لا تختص بالمسلمين و حسب، بل تشمل غير المسلمين أيضا من غير المحاربين، و الذين يعيشون مع المسلمين عيشة مسالمة، فإنّ دماءهم- أيضا- و أعراضهم و أرواحهم مصونة و يحرم التجاوز عليها.

تشير الآية بعد ذلك إلى إثبات حق القصاص بالمثل لولى القتيل فتقول:

وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً. و لكن فى نفس الوقت ينبغى لولى المقتول أن يلتزم حد الاعتدال و لا يسرف فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً إذا ما دام ولى الدم يتحرك فى الحدود الشرعية فإنّه سيكون موردا لنصرة اللّه تعالى.

و النهى عن الإسراف تشير إلى واقع كان سائدا فى الجاهلية، و اليوم أيضا يمكن مشاهدة نماذج لها، فحين يقتل فرد من قبيلة معينة، فإنّها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القاتل.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. كأن يكون المقتول شخصا معروفا و ذا منزلة اجتماعية. فإنّ أهله وفق الأعراف الجاهلية، سوف لن يكتفوا بحدّ القصاص الشرعى، بل يقتلون فردا معروفا و مكافئا فى منزلته الاجتماعية للمقتول من قبيلة القاتل، حتى و إن لم يكن له أى دور فى عملية القتل.[۳۰۷].

و عصرنا الحاضر، شهد من التجاوز فى الإسراف و هدر دماء الأبرياء ما غسل معه عار أهل الجاهلية، فهذه إسرائيل اليوم تقوم بحجة قتل أحد جنودها بإلقاء القنابل و الصواريخ على رؤوس النساء و الأطفال الفلسطينيين الأبرياء، و تعمد إلى هدم ديارهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۹

كذلك شهدت سنوات الحرب الظالمة التى شنّها النظام البعثى على الجمهورية الإسلامية أسواء أنواع العدوان على دماء الأبرياء و الإسراف فى القتل.

إنّ رعاية العدالة- حتى فى عقاب القاتل- تعتبر مهمّة إسلاميا، لذلك نقرأ فى وصية الإمام على عليه السّلام، بعد أن اغتاله عبد الرحمن بن ملجم المرادى

قوله: «يا بنى عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين، تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بى إلّا قاتلى، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه، فاضربوه، ضربة بضربة، و لا تمثلوا بالرجل»[۳۰۸].

رابعا: الآية التى بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم، و الملاحظ أنّ الآية استخدمت نفس أسلوب الآية التى سبقتها، فلم تقل: لا تأكلوا مال اليتيم و حسب، و إنّما قالت: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ

و فى هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم. و لكن قد تكون هذه الآية حجة لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يهدر و يكون عرضة للحوادث بدون أن يكون عليه قيم، لذلك استثنت بقوله: إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ و بناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال، و تنميتها و تكثيرها. و هذا الوضع يستمر الى أن يبلغ اليتيم سنّ الرشد و يستطيع فكريا و اقتصاديا أن يكون قيما على نفسه و أمواله حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

«أشدّ» مأخوذة من «شدّ» على وزن «جدّ» و هى بمعنى «العقدة المحكمة» ثمّ توسع المعنى فيما بعد ليشمل أى نوع من القوة الروحية و الجسمية. و المقصود من كلمة «أشد» فى الآية هو الوصول إلى مرحلة البلوغ. و لكن ليس البلوغ الجسمى و حسب، و إنّما الرشد الفكرى و القدرة الاقتصادية التى تؤهل اليتيم لأن يحفظ أمواله. اختيار كلمة «أشد» فى الآية هو لتحقيق كل هذه المعانى مجتمعة، و التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۰

يمكن اختيارها بالتجربة.

الأيتام ظاهرة طبيعية فى أى مجتمع، و وجودهم يكون تبعا لحوادث مختلفة يمر بها المجتمع، و الدوافع الإنسانية تفرض رعاية هؤلاء اليتامى من قبل الخيّرين و المحسنين فى المجتمع، و الإسلام يحث على رعاية الأيتام، و قد تحدثنا عن هذا الأمر مفصلا فى الآية (۲) من سورة النساء.

و الشيء الذى نريد أن نضيفه هنا هو أن بعض الرّوايات و الأحاديث الإسلامية وسّعت فى مفهوم اليتيم ليشمل الأفراد الذين انقطعوا عن إمامهم و قائدهم، و لا يصل صوت الحق إليهم. و هذا المعنى نوع من التوسع فى المفهوم و استفادة معنوية من حكم مادى.

خامسا: تشير الآية بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا. إنّ الكثير من العلاقات الاجتماعية و خطوط النظام الاقتصادى و المسائل السياسية قائمة على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور و انهارت الثقة بين الناس، فسينهار النظام الاجتماعى و ستحل الفوضى، و لهذا السبب تؤكّد الآيات القرآنية- بقوّة- على قضية الوفاء بالعهود.

«العهد» له معان واسعة، فهو يشمل العهود و المواثيق الخاصة بين الأفراد فى القضايا الاقتصادية و المعاشية، و فى العمل و الزواج، و هو يشمل أيضا المواثيق و المعاهدات بين الحكومات و الشعوب، و فوق ذلك فإنّ العهد يشير إلى ميثاق الأمم مع اللّه و رسوله و كتبه، و كذلك العكس، أى التزام هؤلاء بالعهد أمام الناس ۳۰۹].

سادسا: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل فى الوزن و الكيل و رعاية حقوق الناس فى ذلك و محاربة التطفيف فى الميزان حيث تقول الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۷۱

الكريمة: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ، وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا.

***

ملاحظات

۱- أضرار التطفيف فى الكيل:

أوّل ملاحظة ينبغى الانتباه إليها هنا، هى أنّ القرآن الكريم أكدّ مرارا على ضرورة الوزن للناس بالقسطاس، و حذّر من البخس و التطفيف فى الميزان حتى أنّه اعتبر ذلك فى موضع، مرادفا لنظام الخلق فى عالم الوجود، حيث نقرأ فى الآيتين (۷، ۸) من سورة الرحمن، قوله تعالى: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ و الآية تشير إلى أنّ مسألة بخس الناس و التطفيف فى الميزان ليست مسألة صغيرة، بل هى كبيرة و تدخل فى صميم أصول العدالة و النظام المهيمن على عالم الوجود برمته.

فى مكان آخر، و بأسلوب أكثر قوّة، يهدّد القرآن المطففين، بقوله، كما فى سورة المطففين (۱- ۴): وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

بعض الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن كانوا يحاربون التطفيف بعد الشرك مباشرة، كما حصل لشعيب مع قومه، و لمّا لم يلتفتوا إلى تعليمات نبيّهم نالهم العذاب الأليم. (تراجع القصة فى نهاية آية ۸۵ من سورة آل عمران).

و عادة، فإنّ الحق و العدل و النظام و الحساب، كل هذه الأمور تعتبر أصولا أساسية للحياة، بل و تدخل فى نظام الوجود و الخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل- خصوصا بالنسبة لبخس الكيل و التطفيف فى الميزان- يؤدى إلى إنزال ضربة شديدة بالثقة التى تعتبر جوهر استقرار التعامل الاقتصادى بين الناس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۲

و مع الأسف فإنّنا نرى- فی بعض الأحیان- أنّ غیر المسلمین، و لأغراض کسب الثقة بأنفسهم و تجارتهم، یلتزمون بشکل دقیق بالمواصفات و الأرقام المتفق علیها، بینما یتجاوز بعض المسلمین هذه الحدود! و هذه إشارة على أنّ طریق الدنیا أیضا یمر من خلال عدم الخیانة و الغش.

و ینبغی أن یلاحظ هنا أنّ هؤلاء الذین یخلّون بالمیزان و یطففون الکیل مسئولون أمام المشتری مسئولیة حقوقیة، لذلک فإنّ توبتهم لا تتم إلّا برد الحقوق المغصوبة إلى أهلها، و إذا تعذّر علیهم ذلک، فینبغی لهم إعطاء ما یساویها إلى الفقراء و المحتاجین بعنوان رد مظالم عن الأصحاب الحقیقیین.

۲- ما هو حکم التطفیف و بخس الکیل؟

الجدیر بالملاحظة أن حکم التطفیف و بخس الکیل، قد یعمّم بحیث یشمل کل أشکال التقصیر المتعمد فی الأعمال و الوظائف المختلفة، فمن التطفیف من لا ینجز عمله کاملا، و المعلم الذی لا یدرّس بشکل جید، و الموظف الذی لا یلتزم بأوقات عمله و هو غیر حریص علیه. و لکن الألفاظ المستخدمة فی هذه الآیة لا تفید معنى هذا التعمیم، فهی من التوسعة العقلیة إلّا أنّ قوله تعالى: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِیزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِی الْمِیزانِ یشیر إلى هذا التعمیم.

۳- ما هو معنى «قسطاس»؟

«قسطاس» بکسر القاف أو ضمها على وزن «مقیاس» و أحیانا تقاس على وزن «قرآن» بمعنى «المیزان» و البعض یعتبرها کلمة رومیة، بینما البعض یرى بأنّها کلمة عربیة. و هناک من یقول بأنّها مرکبة من کلمتین هما «قسط» بمعنى العدل و «طاس» بمعنى کفة المیزان.

أمّا البعض الآخر فیقول بأنّ کلمة «قسطاس» تطلق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۳

على المیزان الکبیر، بینما کلمة «میزان» تطلق على الموازین الصغیرة[۳۱۰].

و فی کل الأحوال، فإنّ (القسطاس المستقیم) تعنی المیزان الصحیح و السالم و العادل بدون نقیصة أو زیادة.

و الطریف هو أنّ هناک روایة عن الإمام الباقر علیه السّلام، تفسر هذه الکلمة بقوله:

«هو المیزان الذی له لسان»[۳۱۱].

و ذلک لأنّه مع عدم وجود اللسان لا یستطیع المیزان أن یوضح حرکة الکفتین بشکل دقیق، أمّا مع وجوده فإنّ أقل حرکة للکفتین تنعکس على اللسان، و بهذا الشکل یمکن رعایة العدل کاملا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۴

الآیات [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۳۶ الى ۴۰]

اشارة

وَ لا تَقْفُ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ کُلُّ أُولئِکَ کانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا (۳۶) وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ

الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (۳۷) کُلُّ ذلِکَ کانَ سَیِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً (۳۸) ذلِکَ مِمَّا أَوْحی إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَةِ وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقی فِی جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (۳۹) أَ فَأَصْفاکُمْ رَبُّکُمْ بِالْبَنِینَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِکَةِ إِناثاً إِنَّکُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِیماً (۴۰)

التّفسیر

الانقیاد للعلم:

فی الآیات السابقة وقفنا علی مجموعة من الأصول و الأحکام الإسلامیة التی بدأت بالتوحید بوصفه أساس هذه التعالیم، و انتهت بالأحکام التی تشمل الحیاة الفردیة و الجماعیة للإنسان.

و فی الآیات التی نبحثها الآن نلتقی مع آخر مجموعة من سلسلة هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۵

الأحکام حیث تشیر الآیات أعلاه الی عدّة احکام مهمّة:

أوّلا: فی البدایة ینبغی للإنسان المسلم أن یلتزم الدقة فی کل الأمور و یجعل العلم رائده وَ لا تَقْفُ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فی شؤونک الشخصیة و فی القضاوة بین الناس، و فی إعطاء الشهادة، و حتی فی الأعمال الشخصیة لیکن رائدک الدائم هو العلم دون غیره.

و علی هذا الأساس یکون مورد الآیة شاملا لمعان واسعة، و لا دلیل علی ما یذهب إلیه بعض المفسّرین من تقیید المعنی ببعض ما ورد أعلاه من الموارد و الذی یؤید ذلک أن لا تَقْفُ مأخوذة من «قفو» علی وزن «عفو» و هی تعنی متابعة شیء ما، و من المعلوم أنّ الأمور التی نتابعها هی أمور لا تقف عند حد، لذلک فإنّ النهی الوارد فی الآیة یشملها جمیعا.

بناء علی ذلک، یتّضح أنّ (العلم و الیقین) هما أساس المعرفة فی کلّ شیء، و أن لا شیء من «الظن» أو «التخمین» أو «الشک» یسد مسد العلم و الیقین، و من یعتمد علی ما دون العلم فإنّه بذلک یخالف القانون الإسلامی الصریح.

و بعبارة أخری: لا الشائعة یمکن أن تکون مقیاسا للقضاء و الشهادة و العمل، و لا القرائن الظنیة، و لا الأخبار غیر القطعیة المشکوک فی مصادرها. و فی النهایة تعلّل الآیة عدم اتباع ما دون العمل، فتقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ کُلُّ أُولئِکَ کانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا.

و السّؤال الذی تواجه به الأعضاء المذکورة یعود إلی مسئولیاتها عن الأعمال، إذ السمع مسئول عن الکلام المشکوک غیر الموثق، و البصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهدة و الرؤیة مع أنّه لم یشاهد أو یری، و الفؤاد یسأل عن الأفکار الخاطئة التی تدخل فی الأحکام الخاطئة. و إذا کان بعض المفسّرین یری أنّ المسؤولیة التی تتحدث عنها الآیة تقع علی عاتق صاحبها لا علیها- أی الأعضاء- بالذات، إلّا أنّ هناک الکثیر من الآیات تصرّح بأنّ الأعضاء نفسها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۶

تسأل یوم القیامة (مثل الآیة ۲۱ من سورة فصّلت) و تجیب عمّا اقترفت. لذلک لا معنی لتوجیه المسؤولیة فی الآیة من الأعضاء المذکورة إلی صاحبها.

أمّا لما ذا أشارت الآیة- من بین کل حواس الإنسان- إلی السمع و البصر بالذات؟ فسبب ذلک واضح، إذ أنّ معظم المعلومات الحسیة للإنسان یکون مصدرها السمع و البصر.

درس فی استقرار النظام الاجتماعی:

الآیـة المـذکورة آنفا تشـیر إلی أحـد المبادی و الأصول المهمّـة فی الحیاة الاجتماعیة الذی لو طبّق فی المجتمع البشـری بشـکل دقیق لأمکن اجتثاث جـذور الفساد من الشایعات و الأحکام القضائیـة المتسـرعة و الظنون العائمـة و الأکاذیب و أمثال ذلک، و فی غیر هذه الصورة فإنّ حالـة من الفوضـی ستضـرب العلاقات الاجتماعیـة، إذ سوف لا یبقی أی شـخص بمنأی عن الشک و الریبـة، و بمأمن عن سوء الظن و ستنعدم الثقة بین الأفراد. و تکون مکانة الفرد فی المجتمع فی خطر دائم.

لذلک نری الآیات و الأحادیث الإسلامیة تؤکّد بکثرة علی هذه الفکرة، و بین یدینا الآن ما یلی:

* الآیة (۳۶) من سورة یونس تنتقـد بشـدة الأـفراد الـذین یتبعون الظن و یجعلونه مقاسا لقناعاتهم وَ ما یَتَّبِعُ أَکْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ لا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً.

* أمّا الآیة (۲۳) من النجم، فإنها اعتبرت الظن فی مرتبة إتباع هوی النفس إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَی الْأَنْفُسُ

* و

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام نقرأ: «إنّ من حقیقة الإیمان أن لا یجوز

منطقک علمک»[۳۱۲].

* و

فی حدیث عن الإمام موسـی بن جعفر علیه السّلام نقل عن آبائه علیهم السّلام، قوله: «لیس لک أن تتکلم بما شئت، لأنّ اللّه عزّ و جلّ یقول: وَ لا تَقْفُ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ ۳۱۳].

* و

عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إیّاکم و الظن فإنّ الظن أکذب الکذب»[۳۱۴].

* و

فی من لاـ یحضـره الفقیه: «قـال رجـل للصـادق علیه السّـلام: إنّ لی جیرانـا و لهم جوار یتغنین و یضـربن بالعود، فربما دخلت المخرج فأطیل الجلوس استماعا منّی لهن؟

قال له الصادق علیه السّلام: «تاللّه أنت! أما سمعت اللّه یقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ کُلُّ أُولئِکَ کانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا فقال الرجل: کأنّی لم أسمع بهذه الآیة من کتاب اللّه عزّ و جلّ من عربی و لا عجمی، و لا جرم أنی قد ترکتها و أنا أستغفر اللّه تعالی»[۳۱۵].

و فی بعض المصادر الحدیثیـة نقرأ أنّ الإمام الصادق علیه السّـلام أمر الرجل أن ینهض و یغسل غسل التوبـة، و أن یصـلّی ما اسـتطاع، لأنّه قد ارتکب عملا سـیئا لو قبض علیه لکانت مسـئولیة عظیمة! من خلال مجموع هذه الآیات و الرّوایات تتّضح مدی المسؤولیة التی تقع علی العین و الأذن، و کیف أنّ الإسـلام ینهی عن أن یقول الإنسان ما لم یسـمع، أو ما لا یقوم علی العلم، أو یتحدث عن أشیاء لم یرها، إذا العلم وحـده هو المیزان دون إتباع الظن و الوهم و الحـدس أو الاعتماد علی الشک و الإشاعـة، لأنّ سبیل الاعتماد علی هـذه المصادر یؤدی إلی آثار خطرة علی حیاة الفرد و المجتمع، هذه الآثار یمکن أن نلخصها کما یلی:

۱- إنّ اعتماد ما هو دون العلم، یؤدی إلی هضم حقوق الأفراد و إعطاء الحق

لغیر صاحبه.

۲- الاعتماد علی الظن و ما شابهه یؤدی إلی تعریض کرامة الإنسان المؤمن للخطر، و یقلّل أیضا من حماس و اندفاع المخلصین.

۳- اعتماد ما هو دون العلم، یؤدی إلی انتشار الشائعات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۸ ؛ ص‌۴۷۸

اعتماد الظن و غیره یقضی علی ملاکات الدقة و البحث و التحقیق عند الإنسان و یجعله ساذجا سریع التصدیق.

۵- إنّ الاعتماد علی غیر العلم ینقض العلائق الودیة الحمیمة القائمة بین الناس فی البیت و السوق و محل العمل، و یجعل بعضهم یسیء الظن بالبعض الآخر.

۶- اعتماد غیر العلم یفسد فی الإنسان قابلیة الاستقلال الفکری و یجعله عرضة للأفکار الفاسدة.

۷- إنّ اعتماد غیر العالم یکون قاعدة للتعجّل فی انتخاب الأشیاء و الحکم علی الأشخاص ممّا یسبّب الندامة و الفشل فیما بعد.

الأوهام و سبل مکافحتها

السؤال الذی یرد هنا، هو کیف نصون أنفسنا و مجتمعنا من الانجرار إلی هذه العادة الخاطئة (إتباع الظن) ذات العواقب الوخیمة؟

و الجواب علی السؤال یحتاج إلی بحث طویل، و لکنّا لانعدم ثلاث إشارات سریعة هی:

ألف- یجب أن نتبّه الناس إلی العواقب الخطیرة لاتباع الظن دون العلم، و نحذّرهم من مغبة النتائج الوخیمة لذلک.

ب- یجب تکریس طریقة التفکیر الإسلامی، و جعلها حیّة فی حیاة الإنسان، هذه الطریقة التی یؤکّد علی أنّ الإنسان مراقب دوما من قبل اللّه تعالی، إذ هو سمیع و بصیر، و خبیر بالنوایا و البواطن، إذا جاء فی الآیة (۱۹) من غافر قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۷۹

تعالی: یَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْیُنِ وَ ما تُخْفِی الصُّدُورُ.

ج- ینبغی ترشید المستوی الفکری و الثقافی فی حیاة الإنسان المسلم لأنّ إتباع غیر العلم هو سمة یختص بها الجهلاء الذین ما إن یستمعوا إلی إشاعة معینة حتی یصدّقوا بها، و یجعلوا منها قاعدة للحکم علی القضایا و مقیاسا لآرائهم.

ثانیا: الکبر و الغرور:

الآیة التی بعدها تدعو إلی محاربة الکبر و الغرور، و بتعبیر واضح و لطیف تنهی المؤمنین عن هاتین الصفتین حیث تخاطب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالقول: وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً[۳۱۶]. لما ذا؟ إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا. و هذه إشارة إلی سلوک المتکبرین و المغرورین الذی یضربون الأرض بعنف أثناء مشیهم لکی یلتفت الناس إلیهم، و یرفعون رؤوسهم فی السماء علامة علی أفضلیتهم المزعومة بین الناس، لهؤلاء تقول الآیة: إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا. إذ مثل هؤلاء کالنملة التی تمشی علی صخرة کبیرة و تضرب برجلها علیها، إلّا أن الصخرة تسخر من حماقتها. ثمّ أنت أیّها المتکبر هل تستطیع- مهما رفعت رأسک فی السماء- أن تکون مثل الجبال علوا، إنّک مهما تفعل لا ترتفع سوی سنتیمترات قلیلة، و حتی هذه الجبال لن تکون شیئا إزاء الکرة الأرضیة، و الکرة الأرضیة تعتبر ذرّة سابحة فی عالم الوجود! إذن فما هذا الکبر و الغرور الموجود عندک أیّها الإنسان؟!

الظریف فی الأمر، أنّ القرآن لم یبحث مباشرة هذه الصفات الداخلیة الخطرة فی ترکیب الإنسان و وجوده (أی التکبر و الغرور) و إنّما أشار إلیها من خلال آثارها و الظواهر السلوکیة التی تنتج عنها، حیث تحدّث القرآن عن مشیة المتکبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۸، ص: ۴۸۰

و المغرور، و هذه إشارة إلی أنّ التکبر و الغرور، حتی فی أهون الصور و أقل الحالات، یعتبر مذموما مخجلا مهما کانت آثاره جزئیة و صغیرة.

و فی الآیة- أیضا- إشارة إلی أنّ الصفات الداخلیة- الباطنیة- للإنسان تظهر- شاء أم أبی- من خلال الأعمال و التصرفات، من خلال المشی مثلا، أو النظر أو الکلام و أمثال ذلک. لهذا السبب ینبغی علینا إذا ما واجهتنا أدنی ظاهرة أو أثر لهذه الصفات، أن نعرف أنّ الخطر أصبح قریبا، و أنّ هذه الصفة المذمومة (التکبر و الغرور) قد عشّشت فی روحنا و یجب علینا مجاهدتها فورا.

و یمکن أن نفهم من خلال هذه الآیة، و ما ذکر فی القرآن الکریم (و من خلال سورة لقمان و سور أخری) أنّ التکبر و الغرور مرفوضان بشکل عام. لماذا؟ لأنّ الغرور هو مصدر الغربة عن اللّه و عن النفس السلیمة، و هو سبب الخطأ فی الحکم و القضاء، و سبیل ضیاع الحق و الارتباط بخط الشیطان و التلوث بأنواع الذنوب.

فالإمام علی علیه السّلام یقول فی صفات المتقین فی حدیثه إلی «همام»:

«و مشیهم التواضع»[۳۱۷].

و المقصود بالمشی هنا لیس التجوال فی السوق و الشارع، و إنّما هی کنایة عن أسلوب المشی و التعامل فی جمیع الأمور الحیاتیة، بما فی ذلک خطوطهم الفکریة إذ هم متواضعون فی تفکیرهم.

البرنامج الحیاتی العملی لقادة الإسلام یعتبر درسا مفیدا لکل مسلم حقیقی فی هذا المجال. ففی سیرة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نری أنّه لم یکن یسمح لأحد أن یمشی بین یدیه و هو راکب، بل کان یقول: اذهب أنت إلی المکان الفلانی و أنا سآتیک إلی نفس المکان، حیث أنّ المشی بین یدی الراکب یؤدی إلی غرور الراکب و ذلة الماشی.

و نقرأ- أیضا- أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یجلس علی التراب تواضعا، و یأکل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۱

الطعام کما یأکله العبید، و کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یحلب الماعز بنفسه، و یرکب الدابة دون غطاء.

و قد کان الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یلتزم هذا السلوک فی کل مواقفه حتی عند فتح مکّة، حتی لا یفکر الناس بأنّهم إذا وصلوا إلی منصب مهم، أو أحرزوا إنجازا ما، فإنّ ذلک مدعاة لهم بأن یصابوا بالتکبر و الغرور و یکونوا بالتالی بعیدین و غرباء عن الناس و المستضعفین.

و فی سیرة الإمام علی علیه السّلام، نقرأ أنّه کان یجلب الماء إلی البیت، و فی بعض الأحیان کان ینظّف البیت.

أمّا فی سیرة الإمام الحسن علیه السّلام، فنقرأ أنّه علیه السّلام، حجّ إلی بیت اللّه عشرین مرّة مشیا علی الأقدام، و النجائب (المحامل و الدواب) تقاد بین یدیه، و کان علیه السّلام یبیّن أن هذا العمل تواضع للّه تعالی [۳۱۸].

أمّا الآیة التی بعدها فهی تؤکّد علی ما تمّ تحریمه فی الآیات السابقة کالشرک و قتل النفس و الزنا و قتل الأولاد و التصرف فی مال الیتیم و إیذاء الوالدین و ما شابه ذلک، حیث تقول الآیة: کُلُّ ذلِکَ کانَ سَیِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً[۳۱۹].

و من هذا التعبیر یتّضح أنّ اللّه سبحانه و تعالی لیس فقط لا یجبر الإنسان علی الذنب، و إنّما لا یرید له (بمعنی لا یرغب و لا یوّد) أن یرتکب الذنب أیضا، و إلّا لو کان الأمر کما یقول أصحاب مذهب الجبر، لما أکّد اللّه سبحانه و تعالی علی کراهیة هذه الذنوب.

و یتّضح من التعبیر- أیضا- أنّ القرآن استخدم کلمة «مکروه» اتجاه أعظم الذنوب و أکبرها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۲

ثالثا: لا تکن مشرکا:

من أجل التأکید أکثر علی أنّ کل هذه التعلیمات إنّما تصدر من الوحی و تتسم بالحکمة، تقول الآیة: ذلِکَ مِمَّا أَوْحی إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَةِ.

إنّ استخدام کلمة «الحکمة» هی إشارة إلی أنّ هذه التعالیم و النواهی برغم کونها وحیا سماویا إلهیا، إلّا أنّها فی نفس الوقت یمکن إدراکها بمیزان العقل.

و إلّا فمن یستطیع أن ینکر- عقلا- قباحة الشرک أو القتل أو إیذاء الوالدین أو قبح الزنا و التکبر و الغرور، و ظلم الیتامی و العواقب السیئة لنقض العهود و ما إلی ذلک؟

بتعبیر آخر، إنّ هذه التعالیم ثابتة عن طریق العقل کما هی ثابتة عن طریق الوحی الإلهی. و عادة ما تکون جمیع الأحکام الإلهیة علی هذه الشاکلة، بالرغم من أنّ الإنسان لا یستطیع فی کثیر من الأحیان أن یشخص انسجام جزئیات الأحکام الإلهیة مع العقل بحکم عدم کماله، و یبقی بعد ذلک الوحی هو المجال الوحید لمصداقیة درکها و الإیمان بها.

بعض المفسّرین استفادوا من کلمة «حکمة» علی أساس أنّ الأحکام المتعدّدة فی الآیات السابقة تعتبر من الأحکام الثابتة التی لا تقبل النسخ فی جمیع الأدیان السماویة، إذ لا یمکن- فی أی شریعة إلهیة- اعتبار الشرک و قتل النفس و الزنا و نقض العهود أمورا جائزة. لذلک فإنّ هذه الأحکام تعتبر من المحکمات و القوانین الثابتة.

بعد ذلک ینتهی الحدیث عن مجموع هذه الأحکام بنفس البدایة التی انطلق منها، حیث یقول تعالی: وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ. لما ذا؟ لأنّ المصیر سیکون فَتُلْقی فِی جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً.

و فی الحقیقة: إنّ الشرک هو أساس جمیع الانحرافات و الجرائم و الذنوب، لذلک فإنّ هذه المجموعة من الأحکام بدأت بالشرک و انتهت به.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۳

بنات اللّه!!

آخر آیة- من الآیات التی نبحثها- تشیر إلی واحدة من الأفکار الخرافیة للمشرکین، إذ الکثیر منهم کان یعتقد بأنّ الملائکة هم بنات اللّه، فی حین أنّهم کانوا یعتبرون البنت عارا و شنارا، و ولادتها فی بیت یؤدی إلی سوء الحظ. القرآن یسایر هذا المنطق فیقول لهم: أَ فَأَصْفاکُمْ رَبُّکُمْ بِالْبَنِینَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِکَةِ إِناثاً.

إنّ البنات- بدون شک- کالبنین، هم عطایا الإله و مواهبه، و لا یوجد أی تفاوت بینهم فی القیمة الإنسانیة. و عادة لا یمکن الحفاظ علی الأصل البشری من دونهما معا، لذلک فإن تحقیر البنات تعتبر عادة جاهلیة کانت تعیشها تلک المجتمعات، کما أشرنا إلی ذلک سابقا[۳۲۰]. و لکن هدف القرآن هو مقابلهم بمنطقهم فیقول لهم: کیف تنسبون لربّکم ما تحسبوه عارا لکم؟! بعد ذلک یقول القرآن بأسلوب قاطع: إِنَّکُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِیماً إذ هذا الکلام لا یتلاءم مع أی منطق و یعتبر ضعیفا من عدّة جهات، هی:

۱- إنّ الإعتقاد بوجود ابن للّه یعتبر إهانة عظیمة لمحضره المقدّس، لأنّه سبحانه و تعالی لیس بجسم، و لیست فیه الصفات الجسمانیة، و لا یحتاج فی بقائه إلی النسل. لذا فالاعتقاد بهذا الأمر یدل علی عدم المعرفة بالصفات الإلهیة.

۲- کیف تعتقدون بأنّ أولاد اللّه کلّهم بنات، فی حین أنّکم ترون البنات أدنی مکانة و احتراما من الأولاد؟ هذا الإعتقاد السفیه یعتبر إهانة أخری ألی مقام اللّه تبارک و تعالی.

۳- هذا الإعتقاد یعتبر إهانة لمقام ملائکة اللّه الذین یعتبرون من المقربین للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرّد سماع کلمة «بنت»، فی حین تعتبرون هؤلاء المقربین من العرش إناثا؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۴

من الالتفات إلی هذه الأمور یتّضح أنّ هذا الکلام یعتبر انحرافا عظیما و کبیرا .. إنّه کبیر من حیث الانحراف عن الحقائق و کبیر من

حيث استحقاق صاحبه العقاب العظيم، و هو أيضا كبير قياسا لأعراف أهل الجاهلية و عاداتهم، هذه العادات التى كانت تقوم على أساس تحقير البنات.

أمّا لما ذا يعتبر مشركو العرب الملائكة إناثا؟ و لما ذا كان عرب الجاهلية يئدون البنات أحياء و يفزعون من مجرّد ذكرهن؟ .. ثمّ دور الإسلام فى إعادة بناء موقع المرأة داخل مجتمعهم، كل هذه الأمور بحثناها مفصلا أثناء الحديث عن الآيات (۵۷- ۵۹) من سورة النحل. و ننصح هنا بالعودة لها مجددا. نهاية المجلد الثّامن

---

[۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۳، ص ۳۲۸، كذلك ورد الحديث الأوّل فى تفسير الثقلين عن تفسير العياشى، و أورد الفخر الرازى فى تفسيره حديثا يشابه الحديث الثّانى مع تفاوت يسير، و ذكر فى تفسير الطبرى أيضا عدّة أحاديث فى مضمون الحديث الثّانى ضمن تفسير الآية المذكورة.

[۲] (۱)- المصدر السّابق.

[۳] (۱)- مكاتيب الرّسول، ج ۱، ص ۱۱۲.

[۴] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ۳۰(أمل).

[۵] (۱)- نهج البلاغة، من الخطبة ۴۲.

[۶] (۱)- راجع سورة هود، ۸۱.

[۷] (۱)- راجع سورة الطلاق، الآية العاشرة.

[۸] (۱)- تفسير آلاء الرحمن، ۳۵.

[۹] (۱)- الصراع، لعبد اللّه على القصيمى، ج ۲، ص ۲۳، على ما نقل عنه العلّامة الأمينى فى الغدير، ج ۳، ص ۳۰۰.

[۱۰] (۱)- منتخب كنز العمال، كما نقل عنه(البيان فى تفسير القرآن)، ص ۲۶۰.

[۱۱] (۲)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۵۷.

[۱۲] (۱)- حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة، رواه عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جمع من الصحابة مثل: أبو سعيد الخدرى، زيد بن أرقم، زيد بن ثابت، أبو هريرة، حذيفة بن أسيد، جابر بن عبد اللّه الأنصارى، عبد اللّه حنطب، عبد بن حميد، جبير بن مطعم، ضمّرة الأسلمى، أبو ذر الغفارى، أبو رافع، أم سلمة و غيرهم.

[۱۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۴۱.

[۱۴] (۱)- تفسير البرهان، ذيل الآية(۱۰۶) من سورة آل عمران.

[۱۵] (۲)- أورد هذا الإحصاء مؤلف كتاب(البرهان المبين).

[۱۶] (۱)- التوبة، ۳۲.

[۱۷] (۱)- الحمل: مجموع شمسية تظهر فى السماء على هيئة الحمل تقريبا. و كذلك الثور و الميزان و غيرها.

[۱۸] (۱)- ضمير« زيناها» يعود إلى« السماء» لأنّها مؤنث مجازى.

[۱۹] (۱)- تفسير فى ظلال القرآن، ج ۵، ص ۳۹۶.

[۲۰] (۲)- ذكر هذا التّفسير الفخر الرازى فى تفسيره الكبير، و كذلك الآلوسى فى(روح المعانى) بعد طرح الإشكالات المختلفة فى

الموضوع اعتمادا علی علم الهیئة و الطبقات الفلکیة القدیم و أمثال ذلک. و أکثر العلماء فیه البیان من خلال الإجابة علی تلک التساؤلات. و لا ضرورة لذکرها لما وصل إلیه علم الفلک فی یومنا.

[۲۱] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۷، ص ۱۲۴(فی تفسیر الآیات من سورة الصافات).

[۲۲] (۱)- تفسیر الجواهر، ج ۸، ص ۱۱.

[۲۳] (۲)- تفسیر الجواهر، ج ۱۸، ص ۱۰.

[۲۴] (۱)- القرآن علی مر العصور، ع. نوفل.

[۲۵] (۱)- راجع تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۳۱۰.

[۲۶] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۹.

[۲۷] (۲)- الأنعام، ۹۷.

[۲۸] (۳)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۵۰.

[۲۹] (۴)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۵- تفسیر القرطبی، ج ۵، ص ۳۶۲۶.

[۳۰] (۱)- الوزن: معرفة قدر الشیء- مفردات الراغب.

[۳۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۶(یعود ضمیر« فیما» بناء علی هذا التّفسیر إلی الجبال).

[۳۲] (۲)- سورة نوح، ۱۷.

[۳۳] (۱)- بناء علی التّفسیر الأوّل یکون الاسم الموصول« من» فی« من لستم له برازقین» عطفا علی ضمیر« لکم» و بناء علی التّفسیر الثّانی عطفا علی« معایش»، و بعض المفسّرین اعترض علی التّفسیر الأوّل بأنّ الاسم الصریح المجرور لا یعطف علی ضمیر مجرور إلّا بإعادة ذکر حرف الجر، أیّ .. دخول اللام علی« من» هنا واجبا، و ثمة اعتراض آخر یقول: کیف یطلق الاسم الموصول« من» علی غیر العاقل؟

و الاعتراضان مردودان، لأنّ عدم تکرار حرف الجر جار علی لسان العرب، و کذا الحال بالنسبة لاستعمال« من» لغیر العاقل.

بل التّفسیر الثّانی یواجهه ما لسعة المفهوم« للمعایش»، حیث یشمل جمیع وسائل الحیاة حتی الحیوانات الداجنة و ما شابهها .. و علی هذا الأساس رجحنا التّفسیر الأوّل.

[۳۴] (۲)- تفسیر نور الثّقلین، ج ۳، ص ۶.

[۳۵] (۳)- الشوری، ۲۷.

[۳۶] (۱)- المیزان، ج ۱۲، ص ۱۴۲.

[۳۷] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۱۳، الحدیث ۴۵.

[۳۸] (۱)- نهج البلاغة، من الخطبة ۱۹۲.

[۳۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۷.

[۴۰] (۲)- الخصال للشیخ الصدوق- باب الثمانیة.

[۴۱] (۱)- الداروینیة، تألیف محمود بهزاد، الصفحة ۷۵ و ۷۶.

[۴۲] (۱)- و هناک احتمال آخر و هو: أن اصطفاء آدم من بین أولاده بعد أن مرت علیهم مدة لیست بالطویلة فتشکل من بینهم مجتمع صغیر.

[۴۳] (۱)- سورة الحج، ۵.

[۴۴] (۱)- الغل: فی الأصل بمعنی النفوذ الخفی للشیء، و لهذا یطلق علی الحسد و الحقد و العداوة التی تنفذ بخفاء فی نفس

الإنسان، فالغل مفهوم واسع يشمل الكثير من الصفات الأخلاقية القبيحة.

[۴۵] (۲)- السرر: جمع سرير، و هى المقاعد التى يجلسون عليها فى جلسات سمرهم.(علما بأن كلا من سرر و سرير من مادة واحدة).

[۴۶] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، ج ۱۹، ص ۱۹۳.

[۴۷] (۱)- إنّ الآيات مورد البحث لم تذكر هذا التفصيل فى تهيئة الطعام و عدم مد أيديهم إليه، إلّا أنّ ذلك ورد فى الآية(۶۹) و(۷۰) من سورة هود فليراجع.

[۴۸] (۱)- يذكر بعض المفسّرين أن عمر إبراهيم عليه السلام عند ولادة ابنه إسماعيل كان(۹۹) عاما، و عند ولادة إسحاق كان عمره(۱۱۲) عاما.

[۴۹] (۱)- نرى فى هذه الآيات أن لوطا يطلب من قومه أن لا يفضحوه تارة و ألّا يخزوه تارة أخرى، الفضيحة لغة بمعنى:

انكشاف شىء، و ظهور العيب أيضا(و أراد لوط أنّه يفهمهم بأن عملكم القبيح هذا سيخجلنى أمام ضيوفى و يعرفوا مدى خباثة أهل مدينتى).

أمّا الخزى: فهو بمعنى الإبعاد و كذلك بمعنى الخجل(و أراد لوط أن يقول لهم: لا تخجلونى أمام ضيوفى و تباعدوا بينى و بينهم).

[۵۰] (۱)- متوسم: من مادة(وسم)- على وزن رسم- أى ترك أثرا، و يقال لمن يخلص من أثر صغير إلى نتائج و حقائق كبيره(متوسم).

[۵۱] (۱)- سورة القمر، ۳۴.

[۵۲] (۲)- نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۵۸.

[۵۳] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳.

[۵۴] (۲)- المصدر السابق.

[۵۵] (۳)- المصدر السابق.

[۵۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۸۲.

[۵۷] (۱)- إنّ كلمة« إنّ» فى هذه الآية ليست شرطية و إنّما هى مخففة، فيكون تقدير الكلام(إنه كان أصحاب الأيكة لضالمين).

[۵۸] (۱)- أعلام القرآن، الخزائلى، الصفحة ۲۹۲.

[۵۹] (۱)- يقول الفيروزآبادى، فى القاموس، ج ۱، ص ۲۴۲: الصفح: الجانب، و من الجبل مضطجعه، و منك جنبك، و من الوجه و السيف عرضه.

[۶۰] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۷.

[۶۱] (۲)- المصدر السّابق.

[۶۲] (۱)- و

\i\'i فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم\:E« إنّ اللّه عزّ و جلّ قال: قسّمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين، نصفها لى و نصفها لعبدى\»i مجمع البيان، ج ۱، ص ۱۷، و راجع كذلك تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۸ و ۲۹.\E\E

[۶۳] (۱)- أزواجا: مفعول(متعنا). و منهم: جار و مجرور متعلق بفعل مقدر. فيكون المعنى إجمالا: مجموعات مختلفة من الكفار.

[۶۴] (۱)- عضين:(جمع عضة) أى التفريق، و يقال لكل جزء ممّا قسم عضين أيضا.

[۶۵] (۱)- تفسير الصافى، فى تفسير الآيات مورد البحث.

[۶۶] (۱)- نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة ۲۷.

[۶۷] (۱)- لمزید من الإیضاح، راجع ذیل تفسیر الآیة(۷) من سورة الأعراف.

[۶۸] (۱)- راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۲.

[۶۹] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۲، ص ۱۹۹.

[۷۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۶، ص ۳۲۷.

[۷۱] (۱)-« من» فی عبارة« من أمره» جاءت بمعنی« ب» السببیة.

[۷۲] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۹.

[۷۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۴، ص ۱۳۰، ورد ذکر النجعة(فی هذا الحدیث) إضافة إلی الشاة و البقرة، و هی فی اللغة: البقر الوحشی و الأغنام الجبلیة و أنثی الغنم.

[۷۴] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶۴، ص ۱۲۹.

[۷۵] (۱)- بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۱۹.

[۷۶] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۴، ص ۳۰۴.

[۷۷] (۳)- بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۲۰.

[۷۸] (۴)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۱۹۴.

[۷۹] (۱)- ذکر بعض کبار المفسّرین کالعلّامة الطباطبائی فی المیزان أن« القصد» بمعنی(القاصد) فی قبال« الجائر» أی المنحرف عن الحق.

[۸۰] (۱)- ضمیر« منها» یعود إلی السبیل. و السبیل مؤنث مجازی.

[۸۱] (۱)- البحار: ۶۶/ ۱۸۳.

[۸۲] (۱)- أول جامعة و آخر نبی، الجزء السابع، و یختص هذا الجزء بشرح الخواص الغذائیة و الصحیة و العلاجیة للتمر و العنب و یطلع الإنسان من خلاله علی أهمیة هذین الغذائین.

[۸۳] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۱۲۴.

[۸۴] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۱۲۴ کذلک.

[۸۵] (۳)- أول جامعة و آخر نبی، الجزء السابع.

[۸۶] (۴)- الإسلام طبیب بلا دواء.

[۸۷] (۱)- ابتدأت عبارة\i وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ E بواو العطف بما یستوجب تقدم المعطوف و هو هنا مقدرا، تقدیره« لتنتفعوا بها و لتبتغوا من فضله».

[۸۸] (۱)-\i أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ E علی تقدیر(لئلا تمید بکم) أو(کراهة أن تمید بکم).

[۸۹] (۱)- تعتبر هذه الآیة إحدی المعجزات العلمیة للقرآن الکریم، حیث ذکرت هذا الأمر و بما یحمل من ظواهر علمیة فی زمن لم یصل الإنسان لاکتشافه بعد.

و لأجل مزید من التوضیح راجع کتابنا(القرآن و آخر نبی)- فصل المعجزات العلمیة للقرآن.

[۹۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۴۵.

[۹۱] (۲)- المصدر السابق.

[۹۲] (۳)- المصدر السابق.

[۹۳] (۴)- المصدر السابق.

[۹۴] (۱)- إنّ حرف الفاء فی كلمة« فالذين» للتفريع كما هو معلوم، فيكون المراد: إنّ إنكار القيامة فرع لإنكار المبدأ.

[۹۵] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة القاصعة.

[۹۶] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۴۸ عن(روضة الكافی).

[۹۷] (۱)- يعتبرها البعض جمع الجمع، فالأساطير جمع أسطار، و الأساطير جمع سطر .. و يعتبرها البعض الآخر جمعا ليس له مفرد من جنسه .. إلّا أنّ المشهور ما ذكرناه أعلاه.

[۹۸] (۱)- تشاقون: من مادة الشقاق، بمعنى المخالفة و العداء، و أصلها من(شق، أی قطعه نصفين).

[۹۹] (۱)- راجع تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۰.

[۱۰۰] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۴۳۶.

[۱۰۱] (۱)- مجمع البيان، فی تفسير الآية مورد البحث.

[۱۰۲] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۴۳۷.

[۱۰۳] (۱)- صحيح مسلم، ج ۲، ص ۷۰۴(باب الحث على الصدقة و لو بشق تمرة).

[۱۰۴] (۱)- خيرا: مفعول لفعل محذوف تقديره(أنزل اللّه).

[۱۰۵] (۲)- أساطير الأولين: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره(هذه أساطير الأولين).

[۱۰۶] (۱)- و على هذا، فلا داعی لتقدير كلمة« جزاء» قبل« سيئات» فی الآية.

[۱۰۷] (۱)- تقدير هذه الجملة: ليقولوا لهم اعبدوا ..

[۱۰۸] (۱)- أصول الكافی، ج ۱، ص ۱۶۰(باب الجبر و القدر- الحديث ۱۲).

[۱۰۹] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۱۰] (۱)- راجع الآيات:(۵۵) آل عمران،(۴۸) المائدة،(۱۶۴) الأنعام،(۹۲) النحل و(۶۹) الحج.

[۱۱۱] (۲)- عيون الأخبار، ج ۱، ص ۱۱۹.

[۱۱۲] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية ۴۱.

[۱۱۳] (۱)-« لنبوئنهم»: فی الأصل من(بوأ) بمعنى تساوی أجزاء مكان ما .. على عكس« نبوء» على وزن(مبدأ) بمعنى عدم تساوی أجزاء المكان. و على هذا ف« بوّأت له مكانا» أی ساويت له مكانا، ثمّ بمعنى هيأته له.

[۱۱۴] (۲)- التّفسير الكبير للفخر الرازی، فی تفسير الآية مورد البحث.

[۱۱۵] (۱)- أعطى المفسّرون احتمالات متعددة فی الفعل الذی تتعلق به عبارةi\ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ\E ... فقال بعضهم: إنّها متعلقة ب« لا- تعلمون» كما قلنا و هو ينسجم مع ظاهر الآيات، و بملاحظة أن الفعل(علم) يتعدى بالباء و بدونها، و قال بعض آخر: أنّها متعلقة بجملة تقديرها« أرسلنا» و هی فی الأصل« أرسلناهم بالبينات و الزبر». و قال آخرون: إنّها متعلقة بجملة« و ما أرسلنا» فی الآية السابقة، و قال غيرهم: إنّها متعلقة بجملة« نوحی إليهم»، و الواضح أنّ جميع الآراء المطروحة كل منها يحدد مفهوما معينا للآية، و لكنّها فی المجموع العام فالتفاوت غير كبير فيما بينها.

[۱۱۶] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۵.

[۱۱۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۶.

[۱۱۸] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۳ ص ۵۵ و ۵۶.

[۱۱۹] (۳)- إحقاق الحق، ج ۳، ص ۴۲۸- و المقصود من تفسير الاثنی عشر، هو تفاسير كل من: أبی يوسف، ابن حجر، مقاتل بن سليمان، وكيع بن جراح، يوسف بن موسى، قتادة، حرب الطائی، السدی، مجاهد، مقاتل بن حيان، أبی صالح و محمد بن موسى

الشيرازى.

و

\i\i روى حديث آخر عن جابر الجعفى فى تفسير الآية، فى كتاب الثعلبى أنّه قال:\E لما نزلت هذه الآية قال على عليه السّلام:« نحن أهل الذكر»\E-

راجع المصدر أعلاه-.

[۱۲۰] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۷.

[۱۲۱] (۱)- مع أنّ« التقلب» لغة، بمعنى التردد و الذهاب و المجيء، مطلقا و لكن فى هكذا موارد- كما قال أكثر المفسّرين و تأييد الرّوايات لذلك- بمعنى التردد فى طريق التجارة و كسب المال- فتأمل.

[۱۲۲] (۱)- داخر: فى الأصل من مادة(دخور) أى: التواضع.

[۱۲۳] (۱)- تفسير القرطبى، ضمن تفسير الآية.

[۱۲۴] (۲)- تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ۷، ص ۱۱۰.

[۱۲۵] (۱)- مجمع ذيل البيان، ذيل الآية المبحوثة.

[۱۲۶] (۱)- تفسير البرهان، ج ۲، ص ۳۷۳.

[۱۲۷] (۱)- احتمل جمع من المفسّرين: أنّ« ليكفروا» غاية و نتيجة للشرك و الكفر الذى نسب إليهم فى الآية التى قبلها، فيكون المعنى أنّهم بعد إنجائهم من الضر تركوا طريق التوحيد و ساروا فى طريق الشرك ليكفروا بنعم اللّه و ينكرونها.

[۱۲۸] (۱)- ذكر المفسرون رأيين فى تفسير« ما لا يعلمون» و ضميرها:

الأول: أن ضمير« لا يعلمون» يعود إلى المشركين أى أن المشركين يجعلون للأصنام نصيبا و هم لا يعلمون لها خيرا و شرا(و هذا ما انتخبناه من تفسير).

و الثانى: إن الضمير يعود إلى نفس الأصنام، أى يجعلون للأصنام نصيبا فى حين أنها لا تدرك، لا تعقل، لا تعلم! و التفسير الثانى يظهر نوعا من التضاد بين عبارات الآية، لأن« ما» تستعمل عادة لغير العاقل و« يعلمون» تستعمل للعاقل عادة.

أما فى التفسير الأول ف« ما» تعود على الأصنام و« يعلمون» على عبدتها.

[۱۲۹] (۲)- الكظيم: تطلق على الإنسان الممتلئ غضبا.

[۱۳۰] (۱)- سورة التكوير، ۹.

[۱۳۱] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۰، ص ۵۵.

[۱۳۲] (۱)- القرآن يواكب الدهر، ج ۲، ص ۳۱۴(مضمونا).

[۱۳۳] (۲)- الجاهلية و الإسلام، ص ۶۳۲.

[۱۳۴] (۳)- قاموس الرجال، ج ۵، ص ۱۲۵(مضمونا).

[۱۳۵] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۵ ص ۱۰۲.

[۱۳۶] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۵، ص ۱۰۰.

[۱۳۷] (۱)- مكارم الأخلاق، ص ۵۴.

[۱۳۸] (۲)- و من جميل الصدف أن كتب هذا البحث فى اليوم العشرين من جمادى الثّانية سنة ۱۴۰۱، و هو يوم ولادة فاطمة الزّهراء عليها السّلام.

[۱۳۹] (۱)- إن ضمير« عليها» يعود إلى« الأرض» و إن لم يرد لها ذكر فى الآيات المتقدمة لوضوح الأمر، و نظائر ذلك كثيرة فى لغة

العرب.

[۱۴۰] (۱)- و لكن لازم هذا التّفسير وجود اختلاف فى ضـمير\i أَعْمالَهُمْ E و ضمير\i وَلِيُّهُمُ E، فالأوّل يعود إلى الأمم السالفـة، و الثّانى إلى المشركين فى صدر الإسلام. و يمكن حل هذا المشكل بتقدير جملة، و هى ان تقول: هؤلاء يتبعون الأمم الماضية.(فتأمل).

[۱۴۱] (۱)- مقتبس من كتابى: الكيمياء الحياتية و الطبية، و أوّل جامعة و آخر نبى، الجزء السادس.

[۱۴۲] (۱)- لزيادة التفصيل، يراجع كتاب أول جامعة و آخر نبى- الجزء السادس.

[۱۴۳] (۱)- شرح اللمعة، كتاب النكاح، أحكام الأولاد و منها الرضاع.

[۱۴۴] (۱)- القصص، ۷.

[۱۴۵] (۱)- عرف لحد الآن(۴۵۰۰) نوعا من النحل الوحشى، و العجيب أنّها فى حال واحدة من حيث: الهجرة، بناء الخلايا، المكان، تناول رحيق الأزهار، أوّل جامعة، الجزء الخامس.

[۱۴۶] (۱)- أول جامعة، الجز الخامس، ص ۵۵.

[۱۴۷] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۷، ص ۷۳، إلى ۷۵.

[۱۴۸] (۲)- المصدر السابق.

[۱۴۹] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۱۹۰.

[۱۵۰] (۱)- تلخيص من كتاب(النحل)، تأليف مترلينك.

[۱۵۱] (۲)- اعتمـدنا فى بحثنا عن النحل و خواص العسل على جملـة كتب منها: أوّل جامعة و آخر نبى، و النحل، تأليف مترلينك، و عجائب عالم الحيوانات.

[۱۵۲] (۱)-« أرذل»: من(رذل) بمعنى الحقارة و عدم المرغوبية، و المقصود من« أرذل العمر»: السـنين المتقدمة جدّا من عمر الإنسان حيث الضـعف و النسيان، و لا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، و لهذا سماها القرآن بأرذل العمر، و قد اعتبر بعض المفسّرين أنّها تبدأ من عمر(۷۵) عامّا، و بعض آخر من(۹۰) و آخرون اعتبروها من(۹۵) .. و الحق أنّها لا تحدد بعمر، و إنّما تختلف من شخص لآخر.

[۱۵۳] (۲)- عبارة\i لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً\E يمكن أن تكون غاية و نتيجة للسنين المتقدمة من حياة الإنسان، فيكون مفهومها أنّ دماغ الإنسان و أعصابه فى هـذه السـنين تفقـد القـدرة على التركيز و الحفظ فيسـيطر على الإنسان النسـيان و الغفلة. و يمكن أن يكون معناها العلّة، أى أنّ اللّه تعالى يوصل الإنسان إلى هذا العمر لكى يصاب بالنسيان، فيفهم الناس بأنّهم لا يملكون شيئا من أنفسهم.

[۱۵۴] (۱)- لقـد بحثنا بشـكل مفصل موضوع فلسـفة الاختلاف فى الاسـتعدادات و الفوائـد الناتجة عن ذلك فى ذيل الآية(۳۲) من سورة النساء- فيراجع.

[۱۵۵] (۱)- و فى هـذه الحـال يجب أن لا- تكون« حفـدة» معطوفـة على« بنين» بـل على« أزواجا»، و لكنّ هـذا العطف خلاف الظاهر الذى يشير إلى عطفها على« بنين»- فتأمل.

[۱۵۶] (۱)- سورة النجم، ۳۹.

[۱۵۷] (۲)- الوسائل، ج ۱۲، ص ۴۸.

[۱۵۸] (۳)- الوسائل ج ۱۲، ص ۴۳.

[۱۵۹] (۱)- الوسائل، ج ۱۲، ص ۵۰.

[۱۶۰] (۱)- من أدعية التعقيبات لصلاة العصر، كما فى كتب الدعاء.

[۱۶۱] (۲)- سورة هود، ۸۸.

[۱۶۲] (۳)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۳۷۹.

[۱۶۳] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۶۸.

[۱۶۴] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۶۸

[۱۶۵] (۱)- المثال المذكور عبارة عن تشبيه للمؤمن و الكافر(على ضوء تفسيرنا)، إلّا أنّ جمعا من المفسّرين ذهب إلى أنّ العبد المملوك يرمز إلى الأصنام، و أنّ المؤمن الحر المنفق إشارة إلى اللّه سبحانه و تعالى(و يبدو لنا أنّ هذا التشبيه بعيد).

[۱۶۶] (۲)- يقول الراغب فى مفرداته: الأبكم هو الذى يولد أخرس، فكل أبكم أخرس و ليس كل أخرس أبكم، و يقال: بكم عن الكلام، إذا أضعف عنه لضعف عقله فصار كالأبكم.

[۱۶۷] (۱)- لمح:(على وزن مسح) بمعنى ظهور البرق، ثمّ جاءت بمعنى النظر السريع، و ينبغى الانتباه إلى أنّ« أو» هنا بمعنى(بل).

[۱۶۸] (۱)-« القوة الرافعة»: اصطلاح فيزيائى حديث يستعمل فى حقل الطائرات، و خلاصته: أنّ الجسم إذا كان له سطحين متفاوتين بالاستواء(كجناح الطائرة حيث سطحه الأسفل مستويا و الأعلى محدبا) و تحرك أفقيا فستتولد فيه قوة خاصّة ترفعه إلى الأعلى، تنشأ من ضغط الهواء على سطحه الأسفل و الذى يكون أكثر منه على السطح الأعلى، لأنّ الأسفل مساحته أصغر، و السطح العلوى أوسع مساحة، و هذا ما تعتمد عليه حركة الطائرات .. و إذا ما دققنا النظر فى اجنحة الطيور فسنرى هذه الظاهرة بوضوح- فتأمل.

و عموما، ينبغى القول: ما بناء الطائرات إلّا تقليد لأجسام الطيور فى جوانب مختلفة!

[۱۶۹] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۴۴۳.

[۱۷۰] (۱)- إنّ صناعة الخيام من الجلود قليلة فى عصرنا المعاش، و لكنّ الآية المباركة أرادت أن تظهر أن هذا النوع من الخيام كان من أفضل الأنواع فى تلك الأزمان، و اختص بالذكر دون بقية الأنواع ربما لكونها أكثر مأمنا أمام عواصف الصحراء الحارقة فى الحجاز.

[۱۷۱] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۷۲.

[۱۷۲] (۱)- أل« يوم» هنا ظرف متعلق بفعل مقدّر، و أصل العبارة:(و ليذكروا) أو(و اذكروا).

[۱۷۳] (۲)- يستعتبون: من الاستعتاب، و هى فى الأصل من(العتاب) و هو التحدث بلهجة شديدة و لوم، فيكون مفهوم الاستعتاب: أن يطلب المذنب من صاحب الحق عقابه فيصبح سببا لسكون غضبه و حصول رضاه، و لهذا اعتبر البعض، أنّ الاستعتاب بمعنى الاسترضاء .. فى حين أنّ حقيقة مفهومه ليس الاسترضاء، و إنّما هو لازم له.

[۱۷۴] (۱)- احتمل بعض المفسّرين كصاحب الميزان: أنّ إظهار التسليم هنا كان من جانب عبدة الأصنام فقط دون الأصنام، و يؤيد ذلك ما ورد فى ذيل الآية.

[۱۷۵] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۳۰، ص ۹۸.

[۱۷۶] (۱)- نقل« الآلوسى» فى(روح المعانى) عن بعض الأدباء: أن جميع المصادر على وزن(تفعال) تفتح تاؤها إلا مصدرين« تبيان» و« تلقاء». و يعتبرها بعض مصدرا، و بعض آخر يعتبرها اسم مصدر.

[۱۷۷] (۲)- راجع ذيل تفسير الآية(۲۸۲) من سورة البقرة.

[۱۷۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۷۴.

[۱۷۹] (۲)- المصدر السابق.

[۱۸۰] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۷۵.

[۱۸۱] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۲۳۱.

[۱۸۲] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، ج ۲۰، ص ۱۰۴.

[۱۸۳] (۱)- مجمع البيان، ذيل تفسير الآية مورد البحث.

[۱۸۴] (۲)- قال هذا لأنه عم أبى جهل و كلاهما من قريش.

[۱۸۵] (۳)- مجمع البيان: ذيل تفسير الآية مورد البحث.

[۱۸۶] (۴)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۷۸.

[۱۸۷] (۵)- الكافى على ما نقل عنه تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۷۷.

[۱۸۸] (۱)-« أنكاث»: جمع(نكث) على وزن(قسط) بمعنى حل خيوطه الصوف و الشعر بعد برمها، و تطلق أيضا على اللباس الذى يصنع من الصوف و الشعر، و أمّا محل إعرابها فى الآية فهو(حال) للتأكيد على قول البعض، فيما اعتبرها آخرون(مفعولا ثانيا) لفعل« نقضت» أى(جعلت غزلها أنكاثا).

[۱۸۹] (۲)-« الدّخل»:(على وزن الدغل)، بمعنى الفساد و التقلب و منها أخذ معنى(الداخل)، و ينبغى الالتفات إلى أنّ جملة\i تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ E- على ما قلناه من تفسير- جملة حاليّة، إلّا أنّ بعض المفسّرين اعتبرها جملة استفهامية، و التّفسير الأوّل يوافق ظاهر الآية.

[۱۹۰] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۱۹۱] (۱)- مجمع البيان، فى تفسير الآية(۹۴).

[۱۹۲] (۱)- الكامل فى التاريخ، ج ۲، ص ۵۹۴.

[۱۹۳] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۸۲.

[۱۹۴] (۱)- إرشاد الديلمى.

[۱۹۵] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۱۲۱.

[۱۹۶] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۲۲۹.

[۱۹۷] (۱)- سورة المزمل، ۴.

[۱۹۸] (۲)- بحار الأنوار، ج ۸۹، ص ۱۰۶.

[۱۹۹] (۳)- المصدر السابق.

[۲۰۰] (۴)- بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۱۰۷.

[۲۰۱] (۵)- الأعراف، ۲۰۴.

[۲۰۲] (۶)- مزيد من الاطلاع .. راجع بحار الأنوار، ج ۹، ص ۱۹۰ و ما بعدها.

[۲۰۳] (۱)- يلحدون: من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل، و قد يطلق على أىّ انحراف، و المراد هنا: إنّ الكاذبين يريدون نسبة القرآن إلى إنسان و يدعون بأنّه معلم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم!

[۲۰۴] (۲)- الإعجام و العجمة لغة: بمعنى الإبهام، و يطلق الأعجمى على الذى فى بيانه لحن(نقص) سواء كان من العرب أو من غيرهم، و باعتبر أنّ العرب ما كانوا يفهمون لغة غيرهم فقد استعملوا اسم(العجم) على غير العرب.

[۲۰۵] (۱)- فى ضلال القرآن، ج ۵، ص ۲۸۲.

[۲۰۶] (۱)- سفينة البحار، مادة(صدق)، نقلا عن الكافى.

[۲۰۷] (۱)- مشكاة الأنوار للطبرسى، ص ۱۵۷.

[۲۰۸] (۲)- أصول الكافى، ج ۲، ص ۲۵۴.

[۲۰۹] (۳)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۲۳۳.

[۲۱۰] (۱)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۳۲۲.

[۲۱۱] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، قم ۳۷.

[۲۱۲] (۲)- راجع كتابنا(الحياة على ضوء الأخلاق).

[۲۱۳] (۱)- ضمير« بعدها»- و كما يقول كثير من المفسرين- يعود إلى« الفتنة»، فى حين ذهب البعض من المفسرين إلى أنه يعود إلى الهجرة و الجهاد و الصبر المذكورة سابقا.

[۲۱۴] (۲)- المرتد الفطرى: هو الذى يولد من أبوين مسلمين ثم يرتد عن الإسلام بعد قبوله إياه، و المرتد الملى: يطلق على من انعقدت نطفته من أبوين غير مسلمين ثم قبل الإسلام، و ارتد عنه بعد ذلك.

[۲۱۵] (۱)- اختلاف القول بخصوص متعلق« يوم» جار بين المفسّرين .. فبعضهم يذهب إلى أنّه متعلق بفاعل مستتر و التقدير هو« ذكرهم يوم القيامة»، و اعتبره آخرون متعلقا بفعل الغفران و الرحمة المأخوذان من« الغفور الرحيم» فى الآية السابقة،(و لكنّنا نرجح التّفسير الاحتمال الأوّل لشموله).

[۲۱۶] (۲)- الأعراف، ۳۸.

[۲۱۷] (۱)- فى ظلال القرآن، ج ۵، ص ۲۸۴.

[۲۱۸] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۱، الحديث(۶) من الباب(۲۴) من أبواب الأمر بالمعروف.

[۲۱۹] (۱)- لأجل المزيد من الإيضاح فى مسألة التقية و أحكامها و فلسفتها و أدلتها، راجعوا كتابنا(القواعد الفقهية)، الجزء الثالث.

[۲۲۰] (۱)- اختلف المفسّرون بخصوص جملة« من كفر باللّه ...»، فاعتبرها بعضهم: شرحا و توضيحا للجملة السابقة لها و أنّها بدل لعبارة« الذين لا يؤمنون بآيات اللّه»، فيما اعتبرها آخرون: بدلا لكلمة« كاذبون»، و قال بعضهم: أنّها مبتدأ محذوف الخبر و يقدروها ب« من كفر باللّه من بعد إيمانه فعليهم غضب من اللّه و لهم عذاب أليم»، فجزاء الشرط محذوف لدلالة الجملة التالية على ذلك.

و ثمّة احتمال رابع(و يبدو أفضل الاحتمالات) و هو: أنّها مبتدأ، و خبرها فى نفس الآية و غير محذوف، أمّا عبارة« لكن من شرح للكفر صدرا» فهى توضيح جديد للمبتدأ لوقوع جملة استثنائية بينها و بين خبرها، و هذا النوع من التعبير كثير الاستعمال حتى فى غير اللغة العربية- فتأمل.

[۲۲۱] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۹۱(لا حظ بأن الرّواية عن تفسير العياشى، و أحاديثه مرسلة).

[۲۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۲۲۳] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۰، ص ۱۲۸.

[۲۲۴] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۹۱ و ۹۲.

[۲۲۵] (۱)- أهلّ: من الإهلال، مأخوذ من الهلال، بمعنى إعلاء الصوت عند رؤية الهلال، و باعتبار أنّ المشركين كانوا إذا ذبحوا حيواناتهم للأصنام صرخوا عاليا بأسماء أصنامهم، فقد عبّر عنه ب« أهلّ».

[۲۲۶] (۱)- و هكذا أصل تركيب جملة« و لا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب»: اللام: .. لام التعليل،« ما» فى« لما تصف» .. مصدرية، و« الكذب» .. مفعول ل« تصف» .. فتكون العبارة:(لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام لتوصيف ألسنتكم الكذب).

[۲۲۷] (۱)- و لذا جاء ذكر افتراءهم فى الآية مسبوقا باللام ليكون نتيجة و غاية لبدعهم- فتأمل.

[۲۲۸] (۱)- و فى الرّوايات عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن عبد المطلب:« يبعث يوم القيامة أمّة وحده، عليه بهاء الملوك و سيماء الأنبياء» لأنّه كان مدافعا عن التوحيد فى بيئة الشرك و عبادة الأصنام.(سفينة البحار، ج ۲، ص ۱۳۹).

[۲۲۹] (۱)- سورة الشعراء، ۸۳.

[۲۳۰] (۱)-« الحنيف»: بمعنى الذى يترك الانحراف و يتجه إلى الاستقامة و الصلاح، و بعبارة أخرى، يغض نظره عن الأديان و الأوضاع المنحرفة و يتوجه نحو صراط اللّه المستقيم، الدين الموافق للفطرة، و لهذا يسمى الصراط المستقيم، فالتعبير بالحنيف يحمل

بین طیاته إشارة خفیّة إلی أنّ التوحید هو دین الفطرة.

[۲۳۱] (۱)- قال بعض المفسّرین فی الفرق ما بین الحکمة، و الموعظة الحسنة، المجادلة بالتی هی أحسن: أنّ الحکمة إشارة إلی الأدلة القطعیة .. الموعظة الحسنة إشارة إلی الأدلة الظنیة .. و المجادلة بالتی هی أحسن إشارة إلی الأدلة التی تهدف إلی إفحام المخالفین من خلال إلزامهم بما به یقبلون.(إلّا أنّ ما أوردناه أعلاه یبدو أکثر مناسبة للمقصود).

[۲۳۲] (۱)- تفسیر العیاشی، و تفسیر الدرر المنثور فی تفسیر الآیة(علی ما ذکره تفسیر المیزان).

[۲۳۳] (۲)- یلاحظ فی بعض الرّوایات إنّ القول بالمثلة بأکثر من واحد عند الظفر کان من بعض المسلمین(راجع تفسیر التبیان، ج ۶، ص ۴۴۰).

[۲۳۴] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۹۳.

[۲۳۵] (۱)- تفسیر الآلوسی، ج ۱۵، ص ۲.

[۲۳۶] (۱)- تفسیر« التبیان»، للشیخ الطوسی، المجلد السادس، ص ۴۴۶.

[۲۳۷] (۱)- مجمع البیان، المجلد الثالث، ص ۳۹۵.

[۲۳۸] (۲)- بحار الأنوار، الطبعة الحدیثة المجلد ۱۸، ص ۲۸۹.

[۲۳۹] (۳)- المصدر السابق، ص ۲۹۱.

[۲۴۰] (۱)- التخذیر من البدع، ص ۷.

[۲۴۱] (۱)- مجمع البیان، المجلد الثالث، ص ۳۹۵.

[۲۴۲] (۱)- تفسیر البرهان، المجلد ۲، ص ۲۰۰.

[۲۴۳] (۲)- بعض القدماء یعتقد بعدم إمکان خرق هذه الأفلاک ثمّ التئامها.

[۲۴۴] (۱)- للمزید من التفاصیل یمکن مراجعة کتاب:« لکل یرید أن یعرف» و الذی یبحث فی قضیة المعراج و شق القمر بالإضافة إلی قضایا أخری.

[۲۴۵] (۱)- من وجهة الترکیب النحوی یقول بعض المفسّرین: إنّ تقدیر جملة\i أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِی وَکِیلًا\E هو: لئلا تتخذوا .. و بعضهم قال:« أن» زائدة، و جملة« قلنا لهم» تقدیرها:« و قلنا لهم لا تتخذوا من دونی وکیلا».

[۲۴۶] (۲)- إنّ جملة\i: ذُرِّیَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ E جملة ندائیة و فی التقدیر تکون: یا ذریة من حملنا مع نوح. أمّا ما احتمله البعض من أنّ« ذریة» هی بدل عن« وکیلا» أو مفعول ثان ل« تتخذوا» فهو بعید، و لا یتسق مع جملة\i إِنَّهُ کانَ عَبْداً شَکُوراً\E.

[۲۴۷] (۱)- یراجع تفسیر مجمع البیان أثناء تفسیر الآیة.

[۲۴۸] (۱)-« نفیر» اسم جمع و هی بمعنی مجموعة من الرجال، و قال بعض: هی من« نفر». و« نفر» فی الأصل علی وزن« عفو» تعنی الارتحال و الإقبال علی شیء. و لذلک یطلق علی الجماعة المستعدة للتحرک باتجاه شیء بأنها فی حالة« نفیر».

[۲۴۹] (۱)-« حصیر» مشتقة من« حصر» بمعنی الحبس، و کل شیء لیس له منفذ للخروج یطلق علیه اسم« حصیر». و یقال للحصیر العادیة حصیرا لأنّ خیوطها و موادها نسجت إلی بعضها البعض.

[۲۵۰] (۱)- یراجع تفسیر المیزان، ج ۱۳، ص ۴۴ فما فوق.

[۲۵۱] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۷، ص ۲۰۹.

[۲۵۲] (۲)- سید قطب، فی ظلال القرآن، ج ۴، ص ۲۲۱۴ الطبعة العاشرة.

[۲۵۳] (۱)- یلاحظ هذا الرأی العدد(۱۲) السنة(۱۲) من جملة« عقیدة الإسلام» و قد کتب البحث فی عددین إبراهیم الأنصاری.

[۲۵۴] (۱)- المائدة، ۳۱.

[۲۵۵] (۱)- نقرأ فى الآية\:i إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكَمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها\E بينما كان ينبغى أن يكون التعبير« عليها» لأنّ الإساءة لا تكون فى فائدة و نفع الإنسان بل هى فى ضرره! إنّ السبب فى ذلك يعود إلى ضروريات التنسيق بين قسمى الجملة، أو قد يكون ذلك بسبب أنّ اللام هنا استخدمت بمعنى التخصيص لا بمعنى النفع و الضرر. بعض المفسّرين احتمل أيضا أن تكون اللام بمعنى« إلى».

[۲۵۶] (۱)- يلاحظ نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۳۸.

[۲۵۷] (۱، ۲)- يونس، ۳۵.

[۲۵۸] (۱، ۲)- يونس، ۳۵.

[۲۵۹] (۱)- فى نهاية الآية(۱۳۸) من سورة النساء قلنا: إنّ« البشارة» مشتقّة أصلا من« البشرة» بمعنى الوجه. و الملاحظ أنّ صحيفة الوجه و بشرته كالمرآة تعكس كل خبر إذا كان سارا أو سيئا بشكل إيحاءات معينة.

[۲۶۰] (۱)- فى الحالة الأولى تكون الإضافة« إضافية بيانية» أما فى الثّالثة فتكون الإضافة« إضافة اختصاصية».

[۲۶۱] (۲)- نهج البلاغة، خطبة الأشباح، رقم(۹۱).

[۲۶۲] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۱۲۹.

[۲۶۳] (۲)- المصدر السابق.

[۲۶۴] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۱۲۹.

[۲۶۵] (۲، ۳) أصول الكافى، ج ۱، كتاب الإيمان و الكفر، باب تعجيل فعل الخير.

[۲۶۶] (۲، ۳) أصول الكافى، ج ۱، كتاب الإيمان و الكفر، باب تعجيل فعل الخير.

[۲۶۷] (۴)- المصدر السابق.

[۲۶۸] (۱)- لنا كلام مفصّل حول الموضوع أثناء الحديث عن الآية(۵) من سورة يونس.

[۲۶۹] (۱)- يراجع التّفسير« الأمثل» عند تفسير قوله تعالى\:i فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ، وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ، أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ E،(الأعراف ۱۳۱).

[۲۷۰] (۲)- راجع وسائل الشيعة، ج ۳، ص ۱۰۴.

[۲۷۱] (۳)- راجع سفينة البحار، ج ۱، ص ۶۸۰.

[۲۷۲] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۴۴.

[۲۷۳] (۲)- يراجع تفسير الصافى فى شأن تفسير هذه الآية.

[۲۷۴] (۱)- بالرغم من أنّ كلمة« قول» لها معنى واسع، و لكنّها هنا تعنى إعطاء الأمر بالعذاب.

[۲۷۵] (۱)- مترفون، من مادة رفاه، و تعنى المتنعمين و ذوى الأموال الكثيرة الناسين للّه تعالى.

[۲۷۶] (۱)- فى نهاية الآية(۱۳) من سورة يونس أشرنا إلى هذا الموضوع.

[۲۷۷] (۱)- يراجع فى هذا الشأن تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۸۵۲.

[۲۷۸] (۲)- راجع تفسير الصافى عند الحديث عن هذه الآية.

[۲۷۹] (۱)- الجمعة، ۱۰.

[۲۸۰] (۲)- البقرة. ۲۹.

[۲۸۱] (۱)- الحديد، ۲۰.

[۲۸۲] (۲)- نهج البلاغة، باب الكلمات القصار، جملة رقم ۱۳۱.

[۲۸۳] (۱)- يراجع نهج البلاغة، الخطبة رقم(۸۲).

[۲۸۴] (۱)- يعتقد البعض أنّ كلمة« إحسان» تتعدى غالبا ب« إلى» مثل قولنا« أحسن إليه». و فى بعض الأحيان قد تتعدى بالباء. و قد يكون هذا التعبير لإظهار المباشرة، أى إظهار المحبّة و الاحترام مباشرة و بدون أى واسطة. و هذا فى الواقع تأكيد سادس فى هذه القضية.

[۲۸۵] (۱)- هناك قولان حول« إما» فى جملة« إما يبلغنّ» فالفخر الرازى فى تفسيره يذهب إلى أنّها مركّبة من« إن» الشرطية و« ما» الشرطية، و هى بذلك تفيد التأكيد. أما البعض الآخر كصاحب« الميزان» مثلا، فيرى أنّها مركبة من« إن» الشرطية و« ما» الزائدة، التى جاءت هنا لتسمع ل« إن» الشرطية بالدخول على الفعل المؤكد بنون التأكيد.

[۲۸۶] (۱)- يلاحظ: جامع السعادات، النراقى، ج ۲، ص ۲۵۸.

[۲۸۷] (۲)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۲۶۰.

[۲۸۸] (۱)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۲۵۷.

[۲۸۹] (۲)- فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۲۲۲۲، الطبعة العاشرة.

[۲۹۰] (۳)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۴۹.

[۲۹۱] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۸۵۳.

[۲۹۲] (۱)- تفسيره أبو الفتوح الرازى، ج ۷، ص ۱۸۸.

[۲۹۳] (۲)- وجوه القرآن للتفليسى، ص ۲۳۵.

[۲۹۴] (۱)- التّفسير الكبير، الفخر الرازى، ج ۲، ص ۱۸۸.

[۲۹۵] (۱)- يراجع تفسير الصافى عند بحث هذه الآية.

[۲۹۶] (۲)- المصدر السابق.

[۲۹۷] (۳)- المصدر السابق.

[۲۹۸] (۱)- يراجع تفسير مجمع البيان، عند تفسير الآية.

[۲۹۹] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۸۴.

[۳۰۰] (۱)- فدك أرض معمورة و خصبة، كانت بالقرب من خيبر و على بعد(۱۴۰) كم عن المدينة المنورة، و فدك بعد خيبر كانت مركزا لاستقرار يهود الحجاز[يراجع كتاب: مراصد الاطّلاع. موضوع فدك . و بعد أن استسلم اليهود للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدون حرب، أعطى الرّسول هذه الأرض إلى فاطمة الزّهراء عليها السّلام و ذلك وفقا للوقائع التأريخية الثابتة لدى الجميع، لكنّها صودرت بعد وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لأسباب سياسية و بقيت فى أيدى الخلفاء إلى أن أعادها عمر بن عبد العزيز أيّام خلافته إلى العلويين.

[۳۰۱] (۲)- نقل هذا الحديث« البذار» و« أبو يعلى» و« ابن أبى حاتم» و« ابن مردويۀ» عن« أبى سعيد»[لا حظ كتاب ميزان الاعتدال المجلد الثّانى صفحة(۲۸۸) و كنز العمال المجلد الثّانى صفحة(۱۵۸)] و قد ورد هذا الحديث أيضا فى تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسى عند حديثه عن هذه الآية، و فى الدر المنثور أيضا و قد أخرجه عن طريق السنة و الشيعة معا.

[۳۰۲] (۳)- راجع تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۵۵.

[۳۰۳] (۱)- تفسير مجمع البيان، ج ۶، ص ۴۱۴.

[۳۰۴] (۲)- النساء، ۹۳.

[۳۰۵] (۱)- صحيح البخارى و مسلم نقلا عن تفسير فى ظلال القرآن، ج ۵، ص ۳۲۳.

[۳۰۶] (۲)- هناک بحث مفصل فی نهایة الآیة(۱۰۶) من سورة النحل، من التّفسیر الأمثل حول الارتداد، و فلسفة العقوبات الشدیدة للمرتد.

[۳۰۷] (۱)- یراجع تفسیر الآلوسی(روح المعانی) أثناء حدیثه عن هذه الآیة.

[۳۰۸] (۱)- نهج البلاغة، مجموعة الرسائل، الرقم(۴۷).

[۳۰۹] (۱)- بالنسبة لأهمیة الوفاء بالعهد و القسم لدینا بحث مفصل حول الموضوع یمکن مراجعته فی بحث الآیات ۹۱- ۹۴ من سورة النحل.

[۳۱۰] (۱)- تلاحظ تفاسیر المیزان، و الفخر الرازی، و مجمع البیان فی تفسیر الآیة مورد البحث.

[۳۱۱] (۲)- یراجع تفسیر الصافی، أثناء تفسیر هذه الآیة.

[۳۱۲] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۱۶.

[۳۱۳] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۱۷.

[۳۱۴] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۳۸.

[۳۱۵] (۴)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۱۶۴.

[۳۱۶] (۱)-« مرح» علی وزن فرح، و هی تعنی الفرح الشدید قبال موضوع باطل لا أساس له.

[۳۱۷] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة(۱۹۳).

[۳۱۸] (۱)- لقد تحدّثنا عن التکبر و الغرور و آثارهما السیئة فی المجلد الرّابع فی تفسیر الأمثل لدی تفسیر الآیة ۱۲ من سورة الأعراف.

[۳۱۹] (۲)- ضمیر« سیئه» یعود علی« ذلک» أو« کل» و سبب کونه مفردا لأنّ کلا- من هاتین الکلمتین مفردتین بالرغم من أنّهما تعطیان معنی الجمع.

[۳۲۰] (۱)- انظر تفسیر الآیتین ۵۸ و ۵۹ من سورة النحل فی هذا التّفسیر.

الجزء التاسع

[تتمة سورة الاسراء]

الآیات [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۴۱ الی ۴۴]

اشارة

وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِی هذَا الْقُرْآنِ لِیَذَّکَّرُوا وَ ما یَزِیدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (۴۱) قُلْ لَوْ کانَ مَعَهُ آلِهَةٌ کَما یَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلی ذِی الْعَرْشِ سَبِیلاً (۴۲) سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یَقُولُونَ عُلُوًّا کَبِیراً (۴۳) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاَّ یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لکِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِیحَهُمْ إِنَّهُ کانَ حَلِیماً غَفُوراً (۴۴)

التّفسیر

کیف یفرّون من الحق؟

كان الحديث فى الآيات السابقة يتعلّق بقضيتى التوحيد و الشرك، لذا فإنّ هذه الآيات تتابع هذا الموضوع بوضوح و قاطعية أكبر. ففى البداية تتحدث عن لجاجة بعض المشركين و عنادهم فى قبال أدلة التوحيد فتقول: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً.

«صرّف» مشتقّة من «تصريف» و هى تعنى التغيير و التحويل، و كونها على وزن «تفعيل» يؤكّد معنى الكثرة. و لأنّ القرآن يستخدم تعابير متنوعة و فنونا كلامية مختلفة من أجل تنبيه المشركين، إذ يستخدم الاستدلال العقلى المنطقى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶

و الفطرى أو التهديد و الترغيب، لذا فإنّ كلمة «صرّفنا» تناسب هذا التنوّع فى هذا المقام.

القرآن الكريم يريد أن يقول: إنّنا سلكنا مختلف الطرق، و فتحنا مختلف الأبواب من أجل أن ننير قلوب هؤلاء العميان بضياء التوحيد، و لكن مجموعة من هؤلاء وصل بهم التعصب و العناد و اللجاجة إلى درجة أنّ كل هذه الوسائل لم تؤثر فى جذبهم إلى الحقيقة، بل إنّها زادت فى ابتعادهم و نفورهم.

و هنا قد يطرح هذا السؤال: إذا ما الفائدة من ذكر كلّ ذلك، إذا كانت النتائج.

معكوسة؟

إنّ جواب هذا السؤال واضح، إذ أنّ القرآن لم ينزل لفرد أو لمجموعة خاصّة، و لكنّه للمجتمع كافّة، و طبيعى أن جميع الناس ليسوا على منوال المعاندين، إذ هناك الكثير ممن يتبع طريق الحق إذا استبانت له أدلته من هذا النوع من الأدلّة القرآنية، بالرغم من أنّها تؤدى بمجموعة أخرى من فاقدى بصيرة القلب إلى المزيد من العناد.

إضافة إلى أنّ وجود هؤلاء المعاندين مفيد للمجموعة الأخرى التى تقبل الحق و تنصاع إليه، إذ يستبيّن من ينصاع للحق طريقة من خلال النظر إلى سلوك المعاندين إذ أنّ تقابل الظّلمة و النّور يوضح قيمة النور أكثر (الأشياء تعرف بأضدادها) كما أن تعلم الأخلاق و الآداب يمكن أن يتمّ- أحيانا- بتوسط عديمى الأدب و الخلق.

و هذا فى الواقع درس مفيد فى القضايا التربوية و التبليغية، إذ يمكن أن نستفيد من هذه الآية ضرورة سلوك طرق مختلفة و وسائل متعدّدة لتحقيق الأهداف التربوية المنشودة، حيث أنّ الاقتصار على طريق واحد يخالف التنوع الكبير فى أذواق الناس و مؤهلاتهم، و بالتالى يجافى الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يتّبع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷

دليل التمانع:

الآية التى بعدها تشير إلى واحد من أدلة التوحيد و الذى يعرف بين العلماء و الفلاسفة بعنوان «دليل التمانع» إذ الآية تقول للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قل لهم: قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا.

و بالرغم من أنّ جملة إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا تفيد أنّهم لا بدّ أن يجدوا طريقا يؤدى بهم إلى صاحب العرش، و لكن طبيعة الكلام توضح بأنّ الهدف هو العثور على سبيل للانتصار عليه (على ذى العرش) خاصّة و أنّ كلمة ذِي الْعَرْشِ التى استخدمت بدلا من «اللّه» تشير إلى هذا الموضوع و تؤكّده. إذ تعنى أنّهم أرادوا أن يكونوا مالكى العرش و حكومة عالم الوجود، لذلك فإنّهم سيحاولون منازلة ذى العرش.

و من الطبيعى هنا أنّ كل صاحب قدرة يسعى لمدّ قدرته و تكميلها، لذا فإنّ وجود عدّة آلهة يؤدى إلى التنازع و التمانع فيما بينهم حول الحكم و السلطة فى عالم الوجود.[۱] هنا قد يقال: إن من الممكن تصوّر وجود عدّة آلهة يحكمون العالم من خلال التعاون و

التنسيق فيما بينهم، لـذلك فليس ثمّـة من سبب للتنازع بينهم؟! فى الإجابـة على هـذا السؤال نقول: بصـرف النظر عن أنّ كل موجود يسعى نحو توسيع قدرته بشكل طبيعى، و بصرف النظر أيضا عن الآلهة التى يعتقد بها المشركون تحمل العديد من الصفات البشرية، و التى تعتبر أوضـحها جميعـا هى الرغبـة فى السيطرة و الحكم و توسـيع نطـاق القـدرة ... بغض النظر عن كـلّ ذلـك نقول: إنّ اللازمـة الضرورية لتعدّد الوجود هى الاختلاف، و حيث لا يوجد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸

اختلاف بين وجودين إطلاقا، فلا معنى لوجود التعدّد!! (دقق جيدا).

و نظير هـذا البحث ورد فى الآية (۲۲) من سورة الأنبيـاء حيث قوله تعالى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتا. و منعا للالتباس ينبغى أن نقول: هناك اختلاف بين الدليلين بالرغم من التشابه بينهما:

الأوّل يدلّ على فساد العالم و نظام الوجود بسبب تعدّد الآلهة.

أمّا الثّانى فيتحـدّث- بغض النظر عن النظم فى عالم الوجود- عن حالـة التنازع و التمانع التى سوف تقوم بين الآلهـة المتعـدّدة. (سوف نبحث هذه الأمور مفصلا أثناء تفسير الآية (۲۲) من سورة الأنبياء).

و بما أنّ كلام المشركين و عباراتهم توحى بأنّهم نزلوا فى إدراكهم للّه عزّ و جل إلى مستوى أن يكون طرفا للنزاع، لذا فإنّ الآية تقول بعد ذلك مباشرة: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً.

فى الواقع إنّ هـذا التعبير القرآنى القصير، يوضـح- من خلال أربعـة تعابير- علو الكبرياء الإلهيـة و نزاهتها عن مثل هـذه التخيلات، إذ تقول:

۱- استخدام كلمة سُبْحانَهُ بمعنى التنزيه للذات الإلهية.

۲- ثمّ تعبير وَ تَعالى عَمَّا يَقُولُونَ

۳- ثمّ استخدام عُلُوًّا و هى مفعول مطلق يفيد التأكيد.

۴- أخيرا، جاءت كلمة كَبِيراً للتأكيد مجددا على معانى التنزيه و العلو.

و بعد ذلك فإنّ جملة عَمَّا يَقُولُونَ لها معنى واسع حيث أنّها تنفى كل أشكال التهم الباطلة و لوازمها.

ثمّ لأجل إثبات عظمـة الخالق و أنّه منزّه عن خيالات و اعتقادات و أوهام المشـركين، تتحـدث الآيـة التالية عن تسبيح كائنات الوجود لذاته المقدسة إذ تقول: تُسَـبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ ثمّ تتطرق الآية إلى أنّ التسبيح لا يقتصر على ما هو موجود فى السماوات و الأرض، و إنّما ليس هناك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹

موجود إلّا و يسبّح و يحمد اللّه، و لكن لا تدركون تسبيحهم: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ و مع ذلك: إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً.

أى لا يؤاخـذكم و لا يعاقبكم بسبب كفركم و شـرككم مباشـرة، و لكن يمهلكم بالقـدر الكافى، و يفتـح لكم أبواب التوبة و يتركها مفتوحة لإتمام الحجة.

بتعبير آخر: إنّكم تملكون القدرة على إدراك تسبيح ذرات الوجود و الكائنات جميعا للّه القادر المتعال، و تدركون وجوده عزّ و جلّ، و لكنّكم مع ذلـك تقصّيرون، و اللّه سـبحانه و تعـالى لاـ يؤاخـذكم مباشـرة على هـذا التقصـير، و لا يجازيكم به فورا و لكن يعطيكم الفرصة الكافية لمعرفة التوحيد و ترك الشرك.

تسبيح الكائنات:

تـذکر الآیات القرآنیـة المختلفة تسبیح و حمد جمیع موجودات عالم الوجود للّه تعالی، و إنّ أکثر الآیات صـراحة بهذا الخصوص هی الآیـة التی نبحثهـا و التی تـذکر لنـا- بـدون اسـتثناء- أنّ جمیع الموجودات فی العـالم، الأـرض و السـماء، النجوم و الفضـاء، الأناس و الحیوانات و أوراق الشجر، و حتی الذرات الصغیرة، تشترک جمیعا فی هذا التسبیح و الحمد العام.

یبیّن القرآن الکریم أنّ عالم الوجود قطعـة واحـدة من التسبیح و الحمد، و أنّ کل موجود یؤدی هذا التسبیح و یقوم به بشـکل معین و یثنی علی الباری عزّ و جلّ، و أنّ أزیز هـذا التسبیح و الحمد یملأ عالم الوجود المترامی الأطراف، و لکن الجهلاء لا یسـتطیعون سـماع هـذا الأزیز، بعکس المستبصـرین المتأملین و العلماء الذین أضاء اللّه قلوبهم و أرواحهم بنور الإیمان، فإنّ هؤلاء یسـمعون هذا الصوت من جمیع الجهات بشکل جیّد.

هناک کلام کثیر بین العلماء و المفسّـرین و الفلاسـفة حول تفسیر حقیقة هذا الحمد و التسبیح، فبعضهم اعتبر الحمد و التسبیح (حالا) و البعض الآخر (قولا)،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰

أمّا خلاصة أقوالهم فهی:

۱- البعض یعتقـد أنّ جمیع ذرات الوجود فی هـذا العـالم لها نوع من الإدراک و الشـعور، سواء کانت هـذه الموجودات عاقلـة أو غیر عاقلـة. و هی تقوم بالتسبیـح و الحمـد فی نطـاق عالمهـا الخاص، بالرغم من أنّنا لا نسـتطیع إدراک ذلک أو الإحساس بهـذا الحمـد و التسبیح و سـماعه. آیات کثیرة تؤکّد هذا المعنی منها الآیة رقم (۷۴) من سورة البقرة واصـفة الحجارة أو نوع منها: وَ إِنَّ مِنْها لَما یَهْبِطُ مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ ثمّ قوله تعالی فی الآیة (۱۱) من سورة فصّلت: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِیا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قالَتا أَتَیْنا طائِعِینَ

۲- الکثیر یعتقـد أنّ هـذا التسبیـح و الحمـد هو علی شاکلـة ما نسـمیه ب «لسان الحال» و هو حقیقی غیر مجازی إلّا أنّه بلسان الحال و لیس بالقول. (تأمّل ذلک).

و لتوضیح ذلک تقول: قد یحدث أن نشاهد آثار عدم الارتیاح و الألم، و عدم النوم فی وجه أو عینی شخص ما و نقول له: بالرغم من أنّک لم تتحـدث عن شـیء من هـذا القبیل، إلّا أن عینیک تقولان بأنّک لم تنم اللیلـة الماضـیة، و وجهک یؤکّـد بأنّک غیر مرتاح و متألم! و قد یکون لسان الحال من الوضوح بدرجة بحیث أنّه یغطی علی لسان القول لو حاول التستر علیها قولا.

و هذا هو المعنی الذی صرّح به

أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام بقوله: «ما أضمر أحد شیئا إلّا ظهر فی فلتات لسانه و صفحات وجهه»[۲].

من جانب آخر هل یمکن التصـدیق بأنّ لوحـة فنیـة جمیلة للغایة تدل علی ذوق و مهارة رسامها، لا تمدحه أو تثنی علیه؟ و هل یمکن انکار ثناء دواوین أشـعار أساطین الشعر و الأدب و تمجیدها لقرائحهم و اذواقهم الرفیعة؟ أو یمکن انکار أن بناء عظیما أو مصنعا کبیرا أو عقولا الکترونیة معقدة أو أمثالها، أنّها تمدح صانعها و مبتکرها بلسان حالها غیر الناطق؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱

لذا یجب التصدیق و التسلیم بأنّ عالم الوجود العجیب ذا الأسرار المتعدّدة و العظمة الکبیرة، و الجزئیات العدیدة المحیّرة، یقوم بتسبیح و حمد الخالق عزّ و جلّ، و إلّا فهل «التسبیح» سوی التنزیه عن جمیع العیوب؟ فنظام عالم الوجود ناطق بأنّ خالقه لیس فیه أی نقص أو عیب:

ثمّ هـل «الحمـد» سوی بیـان الصـفات الکمالیـة؟ فنظـام الخلق و الوجود کلّه یتحـدث عن الصـفات الکمالیـة للخـالق و علمه و قـدرته اللامتناهیة و حکمته الوسیعة.

خاصّـة و أنّ تقـدم العلوم البشـریة و کشف بعض أسـرار و خفایا هـذا العالم الواسع، توضـح هـذا الحمد و التسبیح العام بصورة أجلی.

فاليوم مثلا ألّف علماء النبات المؤلفات العديدة عن أوراق الأشجار، و خلايا هذه الأوراق، و الطبقات السبع الداخلة فى تكوينها، و الجهاز التنفسى لها، و طريقة التغذية و سائر الأمور الأخرى التى تتصل بهذا العالم.

لذلك، فإنّ كل ورقة توحد اللّه ليلا و نهارا، و ينتشر صوت تسبيحها فى البساتين و الغابات، و فوق الجبال و فى الوديان، إلّا أنّ الجهلاء لا يفقهون ذلك، و يعتبرونها جامدة لا تنطق.

إنّ هذا المعنى للتسبيح و الحمد السارى فى جميع الكائنات يمكن دركه تماما، و ليست هناك حاجة لأن نعتقد بوجود إدراك و شعور لكل ذرات الوجود، لأنّه لا يوجد دليل قاطع على ذلك، و الآيات السابقة يحتمل أن يكون مقصودها التسبيح و الحمد بلسان الحال.

الجواب على سؤال:

يبقى سؤال واحد، و هو إذا كان الغرض من الحمد و التسبيح هو تعبير نظام الكون عن نزاهة و عظمة و قدرة الخالق عزّ و جلّ، و تبيان الصفات السلبية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲

و الثبوتية، فلما ذا يقول القرآن: لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ لأنّه إذا كان البعض لا يفقه، فإنّ العلماء يفقهون و يعلمون؟.

هناك جوابان على هذا السؤال هما:

الأوّل: إنّ الآية توجّه خطابها إلى الأكثرية الجاهلة من عموم الناس، خصوصا إلى المشركين، حيث أنّ العلماء المؤمنين قلّة و هم مستثنون من هذا التعميم، وفقا لقاعدة ما من عام إلّا و فيه استثناء.

الثّانى: هو أنّ ما نعلمه من أسرار و خفايا العالم فى مقابل ما لا نعلمه كالقطرة فى قبال البحر، و كالذرة فى قبال الجبل العظيم. و إذا فكرنا بشكل صحيح فلا نستطيع أن نسمّى الذى نعرفه بأنّه (علم). إنّنا فى الواقع لا نستطيع أن نسمع تسبيح و حمد هذه الموجودات الكونية مهما أوتينا من العلم، لأنّ ما نسمعه هو كلمة واحدة فقط من هذا الكتاب العظيم!! و على هذا الأساس تستطيع الآية أن تخاطب العالم بأجمعه و تقول لهم: إنّكم لا تفقهون تسبيح و حمد الموجودات بلسان حالها، أمّا الشىء الذى تفقهوه فهو لا يساوى شيئا بالنسبة إلى ما تجهلون.

۳- بعض المفسّرين يحتمل أنّ الحمد و التسبيح هو تركيب من لسان:

«الحال» و «القول». و بعبارة أخرى: يعتقدون بأنّه تسبيح تكوينى و تشريعى، لأنّ أكثر البشر و كل الملائكة يحمدون اللّه عن إدراك و شعور؛ و كل ذرات الوجود تتحدّث عن عظمة الخالق بلسان حالها. و بالرغم من أنّ هذين النوعين من الحمد و التسبيح مختلفين، إلّا أنّهما يشتركان فى المفهوم الواسع لكلمتى الحمد و التسبيح.

و لكن التّفسير الثّانى- حسب الظاهر- أكثر قبولا للنفس من التّفسيرين الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳

جانب من روايات العترة الطاهرة:

هناك تعابير لطيفة فى هذا المجال وردت فى أحاديث الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أهل البيت عليهم السّلام، منها:

* أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام يقول: سألت الإمام عن تفسير قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ فقال عليه السّلام:

«كل شىء يسبّح بحمده و إنّا لنرى أن ينقض الجدار و هو تسبيحها»[۳].

* و

عن الإمام محمّد الباقر عليه السّلام قال: «نهى رسول اللّه أن توسم البهائم فى وجوهها، و أن تضرب وجوهها لأنّها تسبّح بحمد ربّها»[۴].

* و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «ما من طير يصاد فى بر و لا بحر، و لا شىء يصاد من الوحش إلّا بتضييعه التسبيح»[۵].

* أمّا الإمام الباقر عليه السّلام، فعند ما سمع يوما صوت عصفور،

فقال لأبى حمزة الثمالى- و كان من خاصّة أصحابه-: «يسبحن ربّهنّ عزّ و جلّ و يسألن قوت يومهن»[۶].

* و

فى حديث آخر نقرأ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أتى إلى عائشة، و قال لها:

«اغسلى هذين الثوبين» فقالت: يا رسول اللّه، لقد غسلتهما أمس، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أمّا علمت أنّ الثوب يسبّح فإذا اتسخ انقطع عن تسبيحه»[۷].

* فى حديث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السّلام: «للدابة على صاحبها ستة حقوق: لا يحملها فوق طاقتها، و لا يتخذ ظهرها مجلسا يتحدث عليها، و يبدأ بعلفها إذا نزل، و لا يسمها فى وجهها، و لا يضربها فإنّها تسبح، و يعرض عليها الماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴

إذا مرّ بها»[۸].

إنّ هذه المجموعة من الأحاديث و الرّوايات و التى لبعضها معانى دقيقة، تظهر أنّ التسبيح العام للموجودات يشمل كل شىء بدون استثناء، و كل هذا يتطابق مع ما ذكرناه فى التّفسير الثّانى (أى إن التسبيح هو تسبيح تكوينى أو تسبيح بلسان الحال).

أمّا ما قرأناه فى هذه الأحاديث من أنّ اللباس إذا توسخ ينقطع تسبيحه، فهو كناية عن أنّ المخلوقات إذا كانت محافظة على نظافتها الطبيعية فسوف تذكّر الإنسان بخالقه، أمّا إذا فقدت نظافتها الطبيعية فسوف لا تقوم بالتذكير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴۵ الى ۴۸]

اشارة

وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (۴۵) وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (۴۶) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (۴۷) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (۴۸)

سبب النّزول

تحدّث مجموعة من المفسّرين مثل الطبرسى فى «مجمع البيان» و الفخر الرازى فى «التّفسير الكبير» و آخرون، فى شأن نزول هذه الآيات، فقالوا: إنّها نزلت فى مجموعة من المشركين كانوا يؤذون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالليل إذا تلا القرآن و صلّى عند

الكعبة، و كانوا يرمونه بالحجارة و يمنعونه عن دعوة الناس إلى الدين، فحال اللّه سبحانه بينه و بينهم حتى لا يؤذوه.

و قد احتمل الطبرسى أن يكون اللّه منع المشركين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن طريق إلقاء الخوف و الرعب فى قلوبهم ٩].

أمّا الرازى فيقول فى ذلك: «إنّ هذه الآية نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا قرأ القرآن على الناس. روى أنّه عليه الصلاة و السّلام كان كلّما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان و عن يساره آخران من ولد قصى يصفقون و يصفرون و يخلطون عليه بالأشعار».

ثمّ أضاف: «و روى عن ابن عباس، أنّ أبا سفيان و النضر بن الحرث و أبا جهل و غيرهم كانوا يجالسون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوما: ما أدرى ما يقول محمّد غير أنّى أرى شفتيه تتحركان بشيء. و قال أبو سفيان: إنّى لأرى بعض ما يقوله حقّا، و قال أبو جهل: هو مجنون. و قال أبو لهب: هو كاهن. (!!!) و قال حويطب بن عبد العزى: هو شاعر، فنزلت الآية أعلاه:

وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ ...[١٠].

التّفسير

المغرورون و موانع المعرفة:

بعد الآيات السابقة قد يطرح الكثيرون هذا السؤال: رغم وضوح قضية التوحيد بحيث أنّ جميع مخلوقات العالم تشهد بذلك؛ فلما ذا- اذن- لا يقبل المشركون هذه الحقيقة و لا ينصاعون للآيات القرآنية بالرغم من سماعهم لها؟

الآيات التى نبحثها يمكن أن تكون جوابا على هذا السؤال، إذ تقول الآية الأولى فيها: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً. و هذا الحجاب و الساتر هو نفسه التعصّب و اللجاجة و الغرور

و الجهل، حيث تقوم هذه الصفات بصد حقائق القرآن عن أفكارهم و عقولهم و لا تسمح لهم بدرك الحقائق الواضحة مثل التوحيد و المعاد و صدق الرّسول فى دعوته و غير ذلك.

و فيما يخص كلمة «مستور» هل أنّها صفة للحجاب، أو لشخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو للحقائق القرآنية؟ فإنّ البحث عن ذلك سنشير إليه فى البحوث.

و سنتناول فى البحوث- أيضا- كيفية نسبة الحجاب للخالق جلّ و علا.

أمّا الآية التى بعدها فتقول: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً أى أنّنا غطّينا قلوبهم بأستار لكى لا يفهموا معناه، و جعلنا فى آذانهم ثقلا، لذلك فإنّهم إذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً.

حقّا ما أعجب الهروب من الحق؛ الهرب من السعادة و النجاة، من النصر و الفهم! إنّ شبيه هذا المعنى نجده- أيضا- فى الآية (٥٠- ٥١) من سورة المدثر:

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ أى كالحمير الهاربة من الأسد.

ثمّ يضيف اللّه تبارك و تعالى مرّة أخرى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أى أنّ اللّه تعالى يعلم الغرض من استماعهم

لکلامک و حضورهم فی مجلسک و إِذْ هُمْ نَجْوى یتشاورون و یتناجون إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً. إذ- فی الحقیقة- إنّهم لا- یأتون إلیک من أجل سماع کلامک بقلوبهم و أرواحهم، بل هدفهم هو التخریب، و تصیّد الأخطاء (بزعمهم و دعواهم) حتی یحرفوا المؤمنین عن طریقهم إذا استطاعوا. و عادة یکون مثل هؤلاء الأشخاص و بمثل نوایاهم، قلوبهم موصدة، و فی آذانهم وقر، لذلک لا یجالسون رجال الحق إلّا لتحقیق أهداف شیطانیة.

الآیة الأخیرة خطاب للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بالرغم من أنّ عبارة الآیة قصیرة، إلّا أنّها کانت قاضیة بالنسبة لهذه المجموعة حیث قالت: انْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلًا. و الآیة لا تعنی أنّ الطریق غیر واضح و الحق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸

خاف، بل علی أبصارهم غشاوة، و قلوبهم مغلقة دون الاستجابة للحق، و عقولهم معطّلة عن الهدی بسبب الجهل و الحقد و التعصب و العناد.

بحوث

۱- خلاصة عامّة للآیات

الآیات الآنفة ترسم لنا بدقة أحوال الضالین و الموانع التی تحول دون معرفتهم للهدی، و بشکل عام تقول الآیات: إنّ ثمّة ثلاثة موانع لمعرفة هؤلاء للحق، بالرغم من سهولة رؤیة طریق الحق، هذه الموانع هی:

أ- وجود الحجاب بینک و بینهم، و هذا الحجاب فی حقیقته إن هو إلّا أحقادهم و حسدهم و بغضهم و العداوة التی یضمرونها نحوک، فهذا الحجاب بمکوناته هو الذی یمنعهم من النظر إلی شخصیتک الرسالیة، أو أن یدرکوا کلامک، حتی أنّ الحسنات تتحول فی نظرهم إلی سیئات.

ب- سیطرة الجهل و التقلید الأعمی علی قلوبهم بحیث أنّهم غیر مستعدین لسماع کلمة الحق من أی شخص کان.

ج- إنّ حواس المعرفة لدی هؤلاء، کالأذن- مثلا- تنفر من کلام الحق، و تکون کأنّها صمّاء، أمّا الکلام الباطل فإنّهم یتذوقونه و یفرحون به، و ینفذ إلی أعماقهم بسرعة، خاصّة و أن التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا لم یکن راغبا بشیء فسوف لا یسمعه بسهولة. أمّا إذا کان راغبا فیه، فإنّه سیدرکه بسرعة، و هذا یدل علی أنّ الإحساسات الداخلیة لها تأثیرها علی الحواس الظاهرة، بل و تستطیع أن تطبعها بالشکل الذی تریده.

أمّا نتیجة هذه الموانع الثلاثة فهی:

أوّلا- الهروب من سماع الحق، خاص عند ما یکون الحدیث عن وحدانیة الخالق، لأنّ هذه الوحدانیة تتناقض مع أصول اعتقادات المشرکین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹

ثانیا: اللجوء إلی توجیهات خاطئة لتبریر انحرافهم، حیث کانوا یصفون الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتهم مختلفة کالساحر و الشاعر و المجنون. و بذلک تکون عاقبة کل أعداء الحق أنّ أعمالهم الرذیلة تکون حجابا لهم دون الحق و الهدی.

و هنا ینبغی القول بأنّ من یرید أن یسلک الصراط المستقیم و أن یأمن من الانحراف یجب علیه أوّلا و قبل کل شیء إصلاح نفسه. یجب تطهیر القلب من البغض و الحسد و العناد، و تطهیر الروح من التکبر و الغرور، و بشکل عام تطهیر النفس من جمیع الصفات الرذیلة، لأنّ القلب إذا تطهّر من هذه الرذائل و أصبح نظیفا نقیّا، فسوف یدرک جمیع الحقائق. لهذا السبب نری أنّ الأمیین و أصحاب

القلوب النقية يدركون الحقائق أسرع من العالم الذى لم يقم بتهذيب نفسه.

۲- لماذا تنسب الحجب للخالق؟

الآيات تنسب الحجب إلى الخالق، حيث قوله تعالى: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً. كذلك هناك آيات قرآنية أخرى بنفس المضمون. و هذه التعابير قد يستشم منها رائحة «الجبر» فى حين أنّها لم تكن سوى صدى لأعمالهم. و لكن هذه الحجب- فى الواقع- هى بسبب الذنوب و الصفات الرّذيلة لنفس الإنسان، و إن هى إلّا آثار الأعمال. و نسبة هذه الأمور إلى الخالق يعود إلى أنّه سبحانه و تعالى هو الذى خلق خواص الأمور، فإنّ تلك الأعمال الرّذيلة و الصفات القبيحة لها هذه الخواص. و قد تحدّثنا عن هذه الفكرة فى البحوث السابقة مستفيدين من الشواهد القرآنية الكثيرة.

۳- ما معنى الحجاب المستور؟!

هناك آراء كثيرة للمفسّرين حول الحجاب المستور، منها:

أ- (مستور) صفة للحجاب، و نستفيد من ظاهر التعبير القرآنى أنّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰

الحجاب مخفى عن الأنظار. و فى الواقع إنّ حجاب الحقد و العداوة و الحسد لا يمكن رؤيته بالعين، لأنّها فى نفس الوقت تضع حجابا سميكا بين الإنسان و الشخص الذى يقوم بحسده و الحقد عليه.

ب- البعض الآخر فسّر (مستور) بمعنى «الساتر» (لأنّ اسم المفعول قد يأتى بمعنى الفاعل كما فسّر بعض المفسّرين كلمة «مسحور» فى هذه الآيات بمعنى الساحر)[۱۱].

ج- القسم الثّالث من المفسّرين اعتبر (مستور) وصفا مجازيا، أى أنّه لا يعنى أنّ الحجاب مستور، بل إنّ الحقائق الموجودة خلف هذا الحجاب هى المستورة (مثل شخصية الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و صدق دعوته و عظمة أحاديثه).

و عند التدقيق فى هذه التفاسير الثّلاثة يظهر أنّ التّفسير الأوّل يتلائم أكثر مع ظاهر الآية.

و فى بعض الرّوايات نقرأ أنّ أعداء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يأتونه و هو مع أصحابه يتلو القرآن، إلّا أنّهم لم يكونوا يرونه، و كأن عظمة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تمنعهم من رؤيته و معرفته، و بذلك يكون بعيدا عن أذاهم.

۴- «أكنّة» و «وقر» ماذا يعنيان؟

(أكنّة) جمع «كنان» و هى على وزن «لسان» و فى الأصل تعنى أى غطاء يمكن أن يستر شيئا ما، أمّا «كن» على وزن «جن» فتعنى الوعاء الذى يمكن أن نحفظ فى داخله شيئا ما. أمّا جمع «كن» فهو «أكنان» و قد توسع هذا المعنى ليشمل أى شىء يؤدى إلى التستّر، كالأستار و البيت و الأجسام التى يتستر الإنسان خلفها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱

أمّا «وقر» على وزن «جبر» فتعنى ثقل السمع، و «وقر» على وزن «رزق» تعنى الحمل الثقيل.

۵- تفسير جملة بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ

فى معنى هذه الجملة ذكر تفسيرين:
الأوّل: الذى يذهب إليه العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان، و الرازى فى التّفسير الكبير، إذ قالا بأنّها تعنى «غرض الاستماع» يعنى نحن نعلم الغرض من استماعهم لك، فهو ليس لسماع الحق، بل للاستهزاء و إلصاق التهم و تضليل الآخرين.
أمّا الثّانى: (كما ذهب إليه العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان) فقد اعتبرها «وسيلة الاستماع» بمعنى نحن نعلم بأى مسمع و أذن يستمعون إليك، و نعلم ما فى قلوبهم و نعلم نجواهم. (و يظهر أنّ التّفسير الأوّل أقرب).

۶- لماذا اتهموا النّبى بأنّه مسحور؟

إنّ اتّهام النّبى العظيم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل المشركين بأنّه (مسحور) لأنّهم أرادوا رميه بالجنون، و أنّ السحرة أثروا على عقله و فكره بحيث أصيب فى حواسه، و أخذ يظهر ما يظهر- العياذ باللّه!! بعض المفسّرين احتملوا أن تكون كلمة (مسحور) بمعنى الساحر (لأنّه- كما أشرنا قبلا- فإنّ اسم المفعول قد يأتى فى بعض الأحيان بمعنى اسم الفاعل) و بهذا الأسلوب أرادوا إعطاء صفة السحر لكلام الرّسول حتى يحولوا دون تأثيره فى النفوس و القلوب. و هذا الاتهام بحدّ ذاته يعتبر اعترافا ضمنيا على مدى تأثير دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقواله على الناس.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲

۷- تخوّف المشركين من نداء التوحيد

فى الآيات السابقة عرفنا كيف أنّ المشركين كانوا يتخوفون من نداء التوحيد و كانوا يفرون منه، لأنّ أساس حياتهم قائم على الشرك و عبادة الأصنام، و كل النظم التى كانت تحكم مجتمعاتهم كانت تقوم على أساس قواعد الشرك و أصوله.
إذن، فالتوحيد لا ينسف عقائدهم المذهبية و حسب، بل يهدم نظامهم الاجتماعى و الاقتصادى و السياسى و الثقافى الذى يقوم على أساس الشرك.
فالحكومة مثلا ستكون بيد المستضعفين، و ستسقط حكومة المستكبرين، و سينتهى التقسيم الطبقى، و الاستغلال و غيرها من الظواهر السلبية التى تعتبر بأجمعها نتائج للأنظمة الكافرة. لذا فإنّ زعماء الشرك كانوا يحاولون- بقوة- ألّا يصل صوت التوحيد إلى آذان الآخرين، و لكنّهم- كما تشير الآيات القرآنية- كانوا يظلمون المستضعفين و كانوا يظلمون أنفسهم أيضا، لأنّ أى ظالم و منحرف إنّما يحفر قبره بيده.
و الطّريف أن القرآن يقول: إنّ هؤلاء المشركين، و لأجل تبرير فجورهم و استمرار كفرهم كانوا يسألون دوما عن موعد يوم القيامة متى تقوم: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ[۱۲] و هذه إشارة إلى تهربهم من تحمّل المسؤولية.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴۹ الى ۵۲]

اشارة

وَ قـالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظامـاً وَ رُفاتـاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيـداً (۴۹) قُـلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيـداً (۵۰) أَوْ خَلْقـاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُـدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (۵۱) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (۵۲)

التّفسير

حتمية البعث و يوم الحساب

الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد و حاربت الشرك، أمّا الآيات التى نبحثها الآن فتتحدّث عن المعاد و الذى يعتبر مكملا للتوحيد.
لقد قلنا سابقا: إنّ أهم العقائد الإسلامية تتمثل فى الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و الإعتقاد بهذين الأصلين يربيّان الإنسان عمليا و أخلاقيا، و يصدّانه عن الذنوب و يدعوانه لأداء مسئولياته و يرشدانه إلى طريق التكامل.
الآيات التى نحن بصددها أجابت على ثلاثة أسئلة- أو شكوك- يثيرها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴

منكر و المعـاد، ففى البدايـة تحكى الآيـات على لسـان المنكريـن اسـتفهامهم: قـالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظامـاً وَ رُفاتـاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً[۱۳]. يقول هؤلاء: هل يمكن أن تجتمع هـذه العظام المتلاشـية الـداثرة المتناثرة فى كل مكان؟ و هل يمكن أن تعاد لها الحياة مرّة أخرى؟!. ثمّ أين هذه العظام النخرة المتناثرة فى كل حدب و صوب من هذا الإنسان الحى القوى العاقل؟
إنّ التعبير القرآنى فى هذه الآية الكريمة يدلل على أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يبيّن فى دعوته (المعاد الجسمانى) بعد موت الإنسان، إذ لو كان الكلام عن معاد الروح فقط، لم يكن ثمّة سبب لإيراد مثل هذه الإشكالات من قبل المعارضين و المنكرين.
القرآن فى إجابته على هؤلاء يبيّن أنّ قضـية بعث عظام الإنسان سـهلة و ممكنة، بل و أكثر من ذلك، فحتى لو كنتم حجارة أو حديدا: قُـلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيـداً و حتى لو كنتم أشـدّ من الحجر و الحديـد و أبعـد منهما من الحياة: أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُـدُورِكُمْ فإنّ البعث سيكون مصيركم.
من الواضـح أنّ العظام بعـد أن تنـدثر و تتلاشـى تتحول إلى تراب، و التراب فيه دائما آثار الحياة، إذ النباتات تنمو فى التربة، و الأحياء تنمو فى التراب، و أصل خلقه الإنسان هى من التراب، و هذا كلام مختصر على أنّ التراب هو أساس الحياة.
أمّا الحجـارة أو الحديـد أو مـا هو أكبر منهما تحـدّى به القرآن منكرى المعاد، فإنّ كل هـذه أمور بينها و بين الحياة بون شاسع، إذ لا يمكن للنبـات مثلاـ أن ينبت فى الحديـد أو الصـخور أمّا القرآن فيبيّن أن لاـ فرق عنـد الخـالق جـلّ و علاـ من أى مادة كنتم، إذ أنّ عودتكم إلى الحياة بعد الموت تبقى ممكنة، بل و هى المصير الذى لا بدّ و أن تنتهون إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵

إنّ الأحجار تتلاشى و تتحول إلى تراب، و أصل الحياة ينبع من هذا التراب.
الحديـد هو الآخر يتلاشـى و يتفاعل مع باقى الموجودات على الكرة الأرضـية ليـدخل فى أصل مادتها و فى تركيبها الترابى الـذى هو أيضا أصل الحياة الذى تنبع من داخله و من مادته الموجودات الحيّة. و هكذا تحتوى جميع موجودات الكرة الأرضية بما فيها الإنسان، فى بنائهـا و تركيبهـا على خليط من الفلزات و اللافلزات. و هـذا التحوّل و التغيّر فى حركـة الموجودات، دليل على أنّ جميع مخلوقات عالم الوجود لها قابليـة التحوّل إلى موجود حيّ باختلاف واحد يقع فى الدرجة و المرحلة، إذ بعضـها يكون فى مرتبة أقرب إلى الحياة مثل التراب، بينما بعضها الآخر يكون فى مرتبة أبعد مثل الحجارة و الحديد.

السؤال التشكيكى الآخر الذى يثيره منكر و المعاد هو: إذا سلّمنا بأنّ هذه العظام المندثرة المتلاشية يمكن أن تعود إلى الحياة، فمن يستطيع أن يقوم بهذا الأمر؛ و من الذى له قدرة القيام بهذه العملية المعقّدة للغاية؟

هذا السؤال تصوغه الآية بالقول على لسان المنكرين: فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا القرآن يجيب على هذا السؤال حيث يقول: قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

إذا كان شككم فى (القابلية) فقد كنتم ترابا فى أوّل الأمر، فما المانع أن تصيرون ترابا، ثمّ يعيدكم مرّة أخرى إلى الحياة من نفس التراب؟! و إذا كان شككم فى (الفاعلية) فإنّ الخالق الذى خلقكم فى البداية من تراب يستطيع مرّة أخرى أن يكرّر هذا العمل لأنّ: «حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز سواء».

بعد الانتهاء من الشك الأوّل و الثّانى الذى يطلقه المنكرون للمعاد، تنتقل الآيات إلى الشك الثّالث الذى تصوغه على لسانهم بهذا السؤال: فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ.

«سينغضون» مشتقّة من مادة «انغاض» بمعنى مدّ الرأس نحو الطرف المقابل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶

بسبب التعجّب.

ما يقصده هؤلاء من سؤالهم- فى الواقع- هو قولهم: لو اعترفنا بقدرة الخالق على إعادة بعث الإنسان من التراب من جديد، فإنّ هذا يبقى مجرّد وعد لا ندرى متى يتحقق، إذا كان سيحصل هذا فى آلاف أو ملايين السنين القادمة فما تأثيره فى يومنا هذا ... إنّ المهم أن نتحدّث عن الحاضر لا عن المستقبل!! و يجيب القرآن بقوله: قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً إن يوم المعاد- طبعا- قريب، لأنّ عمر العالم و الحياة على الأرض، مهما طالت، فإنّها فى قبال الحياة الأبدية تعتبر لا شىء، إذ هى مجرّد لحظات سريعة و عابرة و سرعان ما تنتهى.

إضافة إلى ذلك، فإنّ القيامة إذا كانت فى تصوراتنا المحدودة بعيدة فإنّ مقدمة القيامة و التى هى الموت، تعتبر قريبة منّا جميعا، لأنّ الموت هو القيامة الصغرى (إذا مات الإنسان قامت قيامته)، صحيح أنّ الموت لا يمثل القيامة الكبرى، و لكنّه علامة عليها و مذكّر بها.

كما إنّ استخدام كلمة «عسى» فى الآية الشريفة هو إشارة إلى أنّ لا أحد يعرف- و بدقة- متى تقوم القيامة؟ حتى شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هذا الأمر هو من أسرار الكون و الخليفة التى لا يعلمها سوى اللّه تبارك و تعالى.

فى الآية التى بعدها إشارة إلى بعض خصوصيات القيامة فى قوله تعالى:

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ أى إن بعثكم يكون يوم يدعوكم من القبور فتمتثلون لأمره طوعا أو كرها، و الآية- بالطبع- تتحدث عن خصوصية يوم القيامة لا عن موعد القيامة.

فى ذلك اليوم ستظنون أنّكم لبثتم قليلا فى عالم ما بعد الموت (البرزخ) و هو قوله تعالى: وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا إنّ هذا الإحساس سيطغى على الإنسان فى يوم القيامة، و هو يظن أنّه لم يلبث فى عالم البرزخ إلّا قليلا، بالرغم من طول الفترة التى قضاها هناك، و هذه إشارة إلى أنّ حياة البرزخ لا تعتبر فى مدتها شيئا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷

فى قبال عالم الخلود الاخروى.

بعض المفسّرين يحتمل أنّ الغرض من الآية هو الإشارة إلى حياة الإنسان فى الدنيا، و المعنى أنّ الإنسان سيدرك فى يوم القيامة أنّ الحياة الدنيوية لم تكن إلّا وقفة، أو يوم، بل و ساعات قصار سريعة الزوال فى مقابل الحياة الآخر الأبدية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۵۳ الى ۵۷]

اشارة

وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (۵۳) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (۵۴) وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (۵۵) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا (۵۶) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (۵۷)

التّفسير

التعامل المنطقى مع المعارضين:

الآيات السابقة عرضت لقضية المبدأ و المعاد، أمّا الآيات التى نحن بصددها فهى توضح أسلوب المحادثة و الاستدلال مع المعارضين و خصوصا المشركين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹

لأنّه مهما كان المذهب عالى المستوى، و المنطق قويا، فإنّ ذلك لا تأثير له ما دام لا يتزامن مع أسلوب صحيح للبحث و المجادلة مرفقا بالمحبّة بدلا من الخشونة.

لذا فإنّ أوّل آية من هذه المجموعة تقول: وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

الأحسن من حيث المحتوى و البيان، و الأحسن من حيث التلازم بين الدليل و مكارم الأخلاق و الأساليب الإنسانية، و لكن لماذا يستعمل هذا الأسلوب مع المعارضين؟

الجواب: إذا ترك الناس القول الأحسن و اتبعوا الخشونة فى الكلام و المجادلة ف إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ و يثير بينهم الفتنة و الفساد، فلا تنسوا: إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً.

أمّا من هم (العباد) المقصودون فى هذه الآية؟

فى صدد الجواب هناك رأيان مختلفان بين المفسّرين، و كل رأى مدعم بالقرآئن التى تؤيده؛ هذان الرأيان هما:

أوّلا: المقصود من (عبادى) هم عبيده المشركون، إذ بالرغم من أنّهم سلكوا طريقا خاطئا، إلّا أنّ اللّه تبارك و تعالى يناديهم (عبادى) و ذلك من أجل إثارة عواطفهم الإنسانية، و يدعوهم إلى (القول الأحسن) و يعنى هنا كلمة التوحيد و ترك الشرك و مراقبة أنفسهم من وسواس الشيطان، و هكذا يكون الهدف من هذه الآيات- بعد ذكر أدلة التوحيد و المعاد- هو النفوذ إلى قلوب المشركين حتى يستيقظ ذوى الاستعداد منهم.

الآيات التى تلى هذه الآية- كما سيأتى- تناسب هذا المعنى، و كون هذه السورة مكّية يرجح هذا الرأى، إذ لم يكن الجهاد قد فرض بعد و كانت الدعوة بالمنطق و الأسلوب الحسن فقط هى المأمور بها.

ثانيا: كلمة (عبادى) خطاب للمؤمنين، حيث تعلّمهم الآية أسلوب النقاش مع الأعداء، فقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتعامل المؤمنون الجدد بخشونة مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰

معارضى عقيدتهم و يقولون لهم بأنّهم من أهل النّار و العذاب، و أنّهم ضالون، و يعتبرون أنفسهم من الناجين، قد يكون هذا الموقف سببا فى أن يقف المعارضون موقفا سلبيا إزاء دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

اضافة لـذلك، فإنّ الاتهامات التى يطلقها المشـركون ضـدّ شـخص رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و يتهمونه فيها بالسـحر و الجنون و الكهانة و الشعر، قد تكون سببا فى أن يفقد المؤمنون السيطرة على أنفسـهم و يبدأوا بالتشاجر مع المشـركين و يسـتخدموا الألفاظ الخشـنة ضـدّهم ... القرآن يمنع المؤمنين من هذا العمل و يدعوهم إلى التزام اللين و التلطّف بالكلام و اختيار أفضل الكلمات فى أسلوب التخاطب، حتى يأمنوا من إفساد الشيطان.

كلمـة (بينهم) وفقـا لهـذا الرأى توضـح أنّ الشـيطان يحـاول زرع الفسـاد بين المؤمنين و من يخـالفهم؛ أو أنّه يحاول النفوذ إلى قلوب المؤمنين لإفسادها «ينزغ» مشتقة من «نزغ» و تعنى الدخول إلى عمل بنيّة الإفساد.

بملاحظـة مجموع هـذه القرائن يتبيّن لنا أنّ التّفسير الثّانى ينطبق مع ظاهر الآية الكريمة أكثر من التّفسـير الأوّل، لأنّ كلمة (عبادى) فى القرآن تسـتخدم عـادة لمخاطبـة المـؤمنين، إضافـة إلى أنّ سـبب نزول الآيـة يؤيـد هـذا المعنى و يـدعم هـذا التّفسير، إذ ينقـل بعض المفسّـرين أنّ المشـركين كانوا يؤذون أصـحاب الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّة و يضيّقون عليهم، و فى أثناء ذلك كان بعضهم يأتى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستأذنه و يلح عليه فى مواجهة المشركين بالمثل (على الأقل الرد عليهم بألفاظ شديـدة تنـاسب ألفـاظ المشـركين) و البعض يطلب الإذن بالجهـاد، و لكن الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كان يبيّن لهم بأنّه لم يؤذن له بعـد القيام بهذه الأعمال. و فى هذه الأثناء نزلت الآيات أعلاه تؤكّد بأن التكليف ما زال يتمثل فى اسـتمرار الدعوة بالكلام، و المجادلة باللطف و بالتى هى أحسن ۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱

الآيـة التى بعـدها تضيـف: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَـذِّبْكُمْ بناء على الرأيين السابقين فى تفسير من المخاطب فى تعبير (عبادى) فإنّ هذه الآية أيضا- و تبعا لما سبق- تحتمل تفسيرين هما:

الأوّل: أيّها المشـركون؛ إنّ ربّكم ذو رحمة واسـعة، و ذو عقاب اليم، و سيشملكم منهما ما يلائم أعمالكم، و لكن الأفضل أن تتوسلوا برحمته الواسعة و تحذروا عذابه.

الثّانى: لا تظنوا أيّها المؤمنون بأنّكم وحدكم الناجون، و أن غيركم سيكون مصيره النّار، فاللّه أعلم بأعمالكم و نواياكم، و لو أراد عزّ و جلّ لأخذكم بذنوبكم، و لو شاء لشملكم برحمته، ففكروا قليلا فى أنفسكم و ليكن حكمكم على أنفسكم و الآخرين بالانصاف.

و فى آخر الآيـة مواساة للرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم الـذى كان يتأذى و يتألم من عدم إيمان المشـركين، إذ يقول تعالى: وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا. إنّ مسـئوليتك- يا رسول اللّه- هى الإبلاغ الواضح، و الدعوة الحثيثة نحو الحق، فإذ آمنوا فهو الأفضل، أمّا إن لم يؤمنوا فسوف لن يصيبك ضرر، لأنك أنجزت مسئوليتك و قمت بواجبك.

و بالرغم من أنّ المخاطب فى الآيـة هو الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، إلّا أنّ من غير المسـتبعد أن يكون هـدف الخطاب جميع المؤمنين. و هذا دليل آخر على التّفسـير الثّانى للمعنى من خطاب (عبادى)، إذ يقول القرآن للمؤمنين: إنّ مسـئوليتكم هى الدعوة سواء آمنوا أم لم يؤمنوا. لـذا لا داعى لعـدم ارتياحكم الـذى قد يؤدى بكم إلى اتباع الخشونة مع غير المؤمنين، و الخروج بالتالى عن طريق التى هى أحسن، ممّا يؤدى إلى نزغ الشيطان.

الآيـة التّاليـة ذهبت أكثر من الآيـة السابقة فى التعبير عن إحاطه اللّه تبارك و تعالى و علمه بأعمال و نيّات عباده، فقالت: وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲

وَ الْأَرْضِ ثمّ أضافت: وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً.

هـذا التعبير القرآنى جواب على أحد أسـئلة المشـركين و شـكوكهم، حيث كانوا يقولون- بأسـلوب اسـتهزائى- لماذا انتخب اللّه للنّبوة محمّد اليتيم، ثمّ ما الذى حصل حتى أصبح هذا اليتيم ليس نبيّا و حسب، و إنّما خاتم الأنبياء؟

القرآن يقول لهؤلاء: لا تعجبوا من ذلك، لأنّ اللّه عليم بقيمة كل إنسان، و هو سبحانه و تعالى ينتخب أنبياءه من بين عامّة الناس، و يفضل بعضهم على بعض، إذ جعل أحدهم (خليل اللّه) و الآخر (كليم اللّه) و الثّالث (روح اللّه)، أمّا نبيّنا فقد انتخبه بعنوان (حبيب اللّه). و باختصار: لقد فضل اللّه بعض النّبيين على بعض لموازين يعلمها هو و تختص بها حكمته جلّ و علا.

أمّا لماذا اختار تبارك و تعالى (داود) من بين جميع الأنبياء، و ذكر (الزبور) من دون الكتب السماوية الأخرى؟ ... قد يكون السبب ما يلى:

أوّلا: يختص زبور داود عليه السّلام من بين جميع كتب الأنبياء بأنّ جميعه على شكل مناجاة و دعاء، و ذكره هنا يتلائم أكثر مع موقع هذه الآيات و حديثها عن القول الحسن و الكلام الجميل.

ثانيا: فى زبور داود إخبار عن حكومة الصالحين الذين هم ظاهرا أناس فقراء و يتامى. و هذا الإخبار يتناسب مع دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الذين يكونوا عادة فى زمرة الفقراء، و هو رد على إشكال المشركين و أسئلتهم و شكوكهم ۱۵].

ثالثا: بالرّغم من أنّ داود عليه السّلام كان له حكم عظيم و دولة كبيرة و ملك واسع، إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳

أنّ اللّه سبحانه لم يجعل هذه الأمور سببا لافتخاره، بل اعتبر كتاب الزّبور فخره، حتى يدرك المشركون أنّ عظمة الإنسان، ليس لها علاقة بالمال و الثروة و وجود الحكومة و السلطة، كما أنّ اليتم و الفقر ليس مدعاة للذل أو دليلا على الحقارة.

رابعا: بعض اليهود قالوا: لا يمكن نزول كتاب سماوى آخر بعد موسى عليه السّلام، و القرآن يقول لهم: إنّنا أعطينا داود زبورا، فلما ذا تتعجبون من نزول القرآن؟

(بالطبع كتاب داود كان كتابا للأخلاق و ليس للأحكام، و لكنّه نزل من اللّه سبحانه و تعالى بعد التّوراة).

فى كل الأحوال، ليس هناك من مانع أن تكون النقاط الأربع أعلاه سببا لانتخاب داود و زبوره من بين جميع الأنبياء، و جميع الكتب السماوية.

الآية التى تليها تستمر فى اتجاه الآيات السابقة، إذ تقول للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يخاطب المشركين بقوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا.

إنّ هذه الآية- فى الحقيقة، كما فى آيات أخرى كثيرة- تبطل منطق المشركين و تضرب، صميم عقيدتهم من هذا الطريق، و هو أنّ عبادة الآلهة من دون اللّه، إمّا بسبب جلب المنفعة أو دفع الضرر، فى حين أنّ الآلهة التى يعبدونها ليس لها القدرة على حل مشكلة معينة أو حتى تحريكها؛ أى نقل المشكلة من مستوى معين إلى مستوى أقل.

لذا فإنّ ذكر جملة وَ لا تَحْوِيلًا بعد قوله فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ إشارة إلى أنّ هؤلاء ليست لهم القدرة للتأثير الكامل فى حل المشاكل بشكل نهائى، و لا القدرة للتأثير الناقص فى تغيير هذه المشاكل و حلّها بشكل جزئى.

«زعمتم» مأخوذة من «زعم» و هى عادة ما تعنى المعنى الناقص، لذا نقل عن ابن عباس أنّه متى ما جاءت كلمة (زعم) فى القرآن فإنّها تعنى الكذب و العقائد الباطلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴

أمّا الراغب الأصفهانى فى كتاب المفردات فيقول: «الزعم حكاية قول يكون مظنّة للكذب». لذا فإنّ هذه الكلمة وردت مذمومة فى جميع الموارد التى ذكرت فى القرآن الكريم.

أمّا كلمة (كشف) ففى الأصل تعنى إبعاد الستار أو اللباس أو ما شابهه عن شى معين. و إذا استخدمت فى تعبير (كشف الضر) فتعنى إبعاد الحزن و الغم و المرض؛ و السبب فى ذلك أنّ هذه الأمور تعتبر كالستار التى يغطى وجه الإنسان و جسمه، إذ تغطى الوجه الحقيقى الذى هو عبارة عن السلامة و الراحة و الهدوء، لذلك فإنّ إزالة هذا الغم و الحزن يعتبر (كشفا للضر).

من الضروری أیضا الالتفات هنا إلی ملاحظة مهمّة هی أنّ استخدام تعبیر «الذین» فی هذه الآیة لا یشمل جمیع المعبودات التی یشرکها الإنسان مع اللّه (کالأصنام و غیرها) بل یشمل الملائکة و المسیح و أمثالهم، لأنّ (الذین) فی اللغة العربیة هی اسم إشارة یستخدم عادة للعاقل.

بعد ذلک تؤکّد الآیة التالیة علی ما ذکرناه فی الآیة السّابقة، فتقول: هل تعلمون لماذا لا یستطیع الذین تدعونهم من دون اللّه أن یحلّوا مشاکلکم، أو أن یجیبوا لکم طلباتکم بدون إذن اللّه سبحانه و تعالی؟

الآیة تجیب علی ذلک بأنّ هؤلاء أنفسهم یذهبون إلی بیت اللّه، و یلجأون للتقرب من الذات الإلهیة المقدّسة لقضاء حوائجهم و حل مشاکلهم و تحقیق ما یریدونه: أُولئِکَ الَّذِینَ یَدْعُونَ یَبْتَغُونَ إِلی رَبِّهِمُ الْوَسِیلَةَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ وَ یَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ یَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ کانَ مَحْذُوراً.

فی تفسیر قوله تعالی أَیُّهُمْ أَقْرَبُ لمفسری القرآن العظیم آراء مختلفة فی ذلک، نحاول استعراضها فیما یلی:

ذهب بعض کبار مفسری الإسلام إلی: أنّ التعبیر القرآنی یشیر إلی أنّ أولیاء اللّه یذهبون إلی الملائکة و الأنبیاء (الذین یعبدهم المشرکون من دون اللّه)، أیّهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵

أقرب إلی اللّه فیقربون إلیه أکثر. و هؤلاء لا یملکون شیئا من عندهم، بل کل ما یملکونه هو من اللّه، و کلما یرتفعون فی المقام تزداد طاعتهم و عبودیتهم ۱۶].

البعض الآخر من المفسّرین یعتقد بأنّ مفهوم التعبیر القرآنی هو أنّهم یحاولون التسابق فی التقرّب من الخالق، ففی طریق طاعة اللّه و التقرب من ذاته المقدّسة اشترک هؤلاء فی مسابقة معنویة، حیث یحاول کل واحد منهم أن یتقدم علی الآخر فی المیدان.

و الآیة- بعد ذلک- تقول: الذین یتصفون بهذه الصفات هل یمکن عبادتهم من دون اللّه، و هل هم مستقلون ۱۷]؟

أمّا التّفسیر الذی یقول: إنّهم یسلکون أی وسیلة تقربهم من اللّه، فاحتماله بعید جدّا، لأنّ ضمیر (هم) فی «أیّهم» و الذی یستخدم لجمع المذکر، لا یتلائم مع هذا المعنی، بل کان یجب أن یکون «أیّها» لیستقیم الرأی و بالإضافة إلی ذلک فإنّ جملة أَیُّهُمْ أَقْرَبُ تقع علی شکل مبتدأ و خبر، فی حین أنّها وفقا لهذا المعنی یجب أن تکون علی شکل مفعول أو بدلا عن المفعول.

ما هی الوسیلة؟

هذه الکلمة استخدمت فی موضعین فی القرآن الکریم، الموضع الأوّل فی هذه الآیة، و الآخر فی الآیة (۳۵) من سورة المائدة فی قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَةَ وَ جاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ و قد قلنا هناک: إنّ (الوسیلة) تعنی (التقرب) أو الشیء الذی یبعث علی التقرّب (أو النتیجة التی یمکن الحصول علیها من التقرّب).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶

علی هذا الأساس فإنّ هناک مفهوما واسعا جدّا لکلمة (الوسیلة) یشمل کل عمل جمیل و لائق، و تدخل فی مفهومها کل صفة بارزة أخری، لأنّ کل هذه الأمور تکون سببا فی التقرب من اللّه.

و نقرأ

فی الکلمات الحکیمة للإمام علی علیه السّلام فی الخطبة (۱۱۰) من نهج البلاغة قوله علیه السّلام: «إنّ أفضل ما توسل به المتوسلون إلی اللّه سبحانه و تعالی، الإیمان به و برسوله، و الجهاد فی سبیله، و أقام الصلاة، و إیتاء الزکاة، و صوم شهر رمضان، و حج البیت و اعتماره، وصلة الرحم، و صدقة السّر، و صدقة العلانیة، و صنائع المعروف فإنّها تقی مصارع الهوان»[۱۸].

شفاعة الأنبياء و الصالحين و المقرّبين التی تكون مقبولة فی حضرة اللّه تبارك و تعالی، كما تصرح بذلك الآيات القرآنية، تعتبر أيضا من وسائل التقرّب.

و ينبغی هنا عدم التباس الأمور، إذ أنّ التوسّل بالمقربين من اللّه تعالی لا يعنی أنّ الإنسان يريد شيئا من النّبی أو الإمام بشكل مستقل، أو أنّهم يقومون بحل مشاكله بشكل مستقل عن اللّه، بل الهدف هو أن يضع الإنسان نفسه فی خطّهم و يطبق برامجهم، ثمّ يطلب من اللّه بحقهم، حتی يعطی اللّه إذن الشفاعة لهم. (لمزيد من التفاصيل يراجع التّفسير الأمثل، الآية (۵۳: من سورة المائدة).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۵۸ الی ۶۰]

اشارة

وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِی الْكِتابِ مَسْطُوراً (۵۸) وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (۵۹) وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِی أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً (۶۰)

التّفسير

بعد أنّ تحدثت الآيات السابقة مع المشركين فی قضايا التوحيد و المعاد، تبدأ أوّل آية من هذه الآيات بكلام علی شكل نصيحة لتوعيتهم، حيث تجسّم هذه الآية النهائية الفانية لهذه الدنيا أمام عقولهم حتی يعرفوا أنّ هذه الدنيا دار زوال و أنّ البقاء الأبدی فی مكان آخر، لذلك ما عليهم إلّا تهيئة أنفسهم لمواجهة نتائج أعمالهم، حيث تقول الآية: وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸

الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً.

فالطغاة و الظالمون نبيدهم بواسطة العذاب، أمّا الآخرون فيهلكون بالموت أو الحوادث الطبيعية.

و أخيرا، فإنّ هذه الدنيا زائلة و الكل يسلك طريق الفناء كانَ ذلِكَ فِی الْكِتابِ مَسْطُوراً. و الكتاب هنا هو نفس اللوح المحفوظ و هو العلم اللامتناهی للخالق جلا و علا، و مجموعة القوانين الإلهية التی لا يمكن التخلّف عنها فی عالم الوجود هذا.

و نظرا لهذا القانون الحتمی الذی لا يمكن تغييره يجب علی المشركين و الظالمين و المنحرفين- من الآن- أن يحاسبوا أنفسهم لأنّهم حتی لو بقوا أحياء حتی نهاية هذه الدنيا، فإنّ عاقبتهم ستكون الفناء ثمّ الحساب و الجزاء.

و هنا قد يقول المشركون: نحن لا مانع لدينا من الإيمان و لكن بشرط أن يقوم الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بجميع المعجزات التی نقترحها عليه، أی أن يستسلم لحججنا.

القرآن يجيب أمثال هؤلاء بقوله تعالی: وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ

الآية تشير إلی أنّ اللّه تبارك أرسل معجزات كثيرة و كافية لدلالة علی صدق الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم، أمّا ما تقترحونه من معجزات فهی غير مقبولة، لأنّكم بعد وقوعها و مشاهدتها سوف لا تؤمنون، بدليل أنّ الأمم السابقة و التی كانت أوضاعها و حالاتها مماثلة لأوضاعكم و حالاتكم، اقترحت نفس الاقتراحات ثمّ لم تؤمن بعد ذلك.

تشير الآية بعد ذلك إلی نموذج واضح لهذه الحالة فتقول: وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً لقد طلب قوم صالح الناقة فأخرجها اللّه لهم من الجبل، و أجيبت بذلك المعجزة التی طلبوها، و قد كانت معجزة واضحة و موضّحة! و لكن بالرغم من كل ذلك فَظَلَمُوا بِها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹

و عادة فإنّه لیس من مقتضیات البرنامج الإلهی أن یستجیب لأی معجزة یقترحها إنسان، أو أن ینصاع إلی تنفیذها الرّسول، و لکن الهدف هو: وَ ما نُرْسِلُ بِالْآیاتِ إِلَّا تَخْوِیفاً. إنّ أنبیاء اللّه لیسوا أفرادا خارقی العادة حتی یجلسوا و ینفذوا أیّ اقتراح یقترح علیهم و إنّما مسئولیتهم إبلاغ دعوة اللّه و التعلیم و التربیة و إقامة الحکومة العادلة، إلّا أنّهم یظهرون المعجزات من أجل إثبات علاقتهم بالخالق جلّ و علا، و بالقدر الذی یناسب هذا الإثبات لیس أکثر.

ثمّ یواسی اللّه تبارک و تعالی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مقابل عناد المشرکین و إلحاحهم بالباطل، إذ یبیّن له أن لیس هذا بالشیء الجدید: وَ إِذْ قُلْنا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحاطَ بِالنَّاسِ ففی قبال دعوة الأنبیاء علیهم السّلام هناک دائما مجموعة مؤمنة نظیفة القلب نقیة السریرة، صافیة الفطرة، فی مقابل مجموعة أخری معاندة مکابرة لجوجة تتحجج و تجد لنفسها المعاذیر فی معاداة الدعوات و إیذاء الأنبیاء. و هکذا یتشابه الحال بین الأمس و الیوم.

ثمّ یضیف تعالی: وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْیَا الَّتِی أَرَیْناکَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ و امتحانا لهم، و کذلک الشجرة الملعونة هی أیضا امتحان و فتنة للناس: وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ

فیما یخص المقصود من (الرؤیا) و (الشجرة الملعونة) فسنبحث ذلک فی مجموعة الملاحظات التی ستأتی بعد قلیل إن شاء اللّه.

و فی الختام یأتی قوله تعالی: وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما یَزِیدُهُمْ إِلَّا طُغْیاناً کَبِیراً.

لماذا؟ لأنّه ما دام قلب الإنسان غیر مستعد لقبول الحق و التسلیم له، فإنّ الکلام لیس لا یؤثر فیه و حسب، بل إنّ له آثارا معکوسة، حیث یزید فی ضلال هؤلاء و عنادهم بسبب تعصبهم و مقاومتهم السلبیة و انغلاق نفوسهم عن الحق. (تأمّل ذلک).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰

بحوث

۱- رؤیا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الشّجرة الملعونة

کثر الکلام بین المفسّرین عن المقصود بالرؤیا و نجمل هذه الأقوال بما یلی:

أ: بعض المفسّرین قالوا: إنّ هذه الرؤیا لا تعنی رؤیا المنام، بل تعنی المشاهدة الحیّة الحقیقیة للعین، و یعتبرونها (أی الرؤیا) إشارة إلی قصّة المعراج التی ورد ذکرها فی بدایة هذه السورة.

فالقرآن و وفقا لهذا التّفسیر یقول: إنّ حادثة المعراج هی بمثابة اختبار للناس، لأنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما إن شرع بذکر قصّة المعراج و الإخبار عنها، حتی ارتفعت أصوات الناس، بآراء مختلفة حولها، فالأعداء استهزؤا بها، و ضعیفو الإیمان نظروا إلیها بشیء من التردّد و الشک، أمّا المؤمنون الحقیقیون فقد صدّقوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیما أخبر، و اعتقدوا بالمعراج بشکل کامل، لأنّ مثل هذه الأمور تعتبر بسیطة فی مقابل القدرة المطلقة للخالق جلّ و علا.

الملاحظة الوحیدة التی یمکن درجها علی هذا التّفسیر، هی أنّ الرؤیا عادة ما تطلق علی رؤیا المنام، لا الرؤیا فی الیقظة.

ب: نقل عن ابن عباس، أنّ المقصود بالرؤیا، هی الرؤیا التی رآها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی السّنة السّادسة من الهجرة المبارکة (أی عام الحدیبیة) فی المدینة، و بشرّ بها الناس أنّهم سینتصرون علی قریش قریبا و سیدخلون المسجد الحرام آمنین.

و من المعلوم أنّ هذه الرؤیا لم تتحقق فی تلک السنة، بل تحققت بعد سنتین أی فی عام فتح مکّة. و هذا المقدار من التأخیر جعل أصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقعون فی بوتقة الاختبار، إذ أصیب ضعیفو الإیمان بالشک و الریبة من رؤیا الرّسول و

قوله، فى حين أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بيّن لهم- بصراحة- بأنّنى لم أقل لكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱

بأنّنا سنذهب إلى مكّة هذا العام، بل فى المستقبل القريب. (و هذا ما حصل بالفعل).

الاعتراض الـذى يمكن أن يرد على هـذا التّفسـير، هو أنّ سورة بنى إسـرائيل من السور المكّيـة، بينما حادثـة الحديبيـة وقعت فى العام السّادس للهجرة المباركة!! ج: مجموعة من المفسّرين الشيعة و السنة، نقلوا أنّ هذه الرؤيا إشارة للحادثة المعروفة و التى رأى فيها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام أن عددا من القرود تصـعد منبره و تنزل منه (تنزو على منبره صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم)، و قد حزن صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم كثيرا لهـذا الأمر بحيث لم ير ضاحكا من بعـدها إلّا قليلا (و قد تمّ تفسـير هذه القرود التى تنزو على منبر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم ببنى أمية الـذين جلسوا مكـان النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم الواحـد تلو الآخر، يقلّد بعضهم بعضا، و كانوا ممسوخى الشخصية، و قد جلبوا الفساد للحكومة الإسلامية، و خلافة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و نقل هذه الرّواية (الفخر الرازى) فى التّفسير الكبير، و (القرطبى) فى تفسيره الجامع و (الطبرسى) فى مجمع البيان، و غيرهم.

و يقول الفيض الكاشانى فى تفسير الصافى، بأنّ هذه الرّواية من الرّوايات المعروفة فى أوساط العامّة و الخاصّة.

ثمـة إشارة نلاحظ فيها، إنّ التفاسـير الثلاثة هذه فى «الرؤيا» من الممكن أن تشترك جميعا فى تفسـير الآية، و لكن التّفسـير الثّانى كما أشـرنا- لا ينطبق مع مكّية السورة. و بالنسبة للمقصود من الشجرة الملعونة فقد واجهتنا أيضا مجموعة من التفاسير التى يمكن أن نجمل القول بها فى الآراء الآتية:

أ: الشجرة الملعونـة الـتى ورد ذكرهـا فى القرآن هى (شـجرة الزقوم) و هى الشّجرة التى تنمو فى الجحيم طبقـا للآيـة (۶۴) من سورة الصافات فى قوله تعالى إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ و لهذه الشجرة طعم مج و مؤذ، و ثمارها طعام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲

للمذنبين طبقا للآيات ۴۳- ۴۶ من سورة الدخان إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعامُ الْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ و طعامها ليس كطعام الـدنيا بل يشبه المعدن المذاب بالحرارة و الذى يغلى فى الأحشاء. و سـيرد تفسيرها بشكل كامل فى تفسـير الآيات من سورة الدخان إن شاء اللّه.

إنّ شـجرة الزقوم- بـدون شـك- لا تشـبه أشـجار الـدنيا أبـدا، و لهـذا السـبب فإنّها تنمو فى النار، و طبيعى أنّنا لا نـدرك هـذه الأمور المتعلقة بالعالم الآخر إلّا على شكل أشباح و تصورات ذهنية.

لقد اسـتهزأ المشركون بهذه التعابير و الأوصاف القرآنية بسبب من جهلهم و عدم معرفتهم و عنادهم، فأبو جهل- مثلا- كان يقول: إنّ محمّـدا يهددكم بنار تحرق الأحجار، ثمّ يقول بعد ذلك بأنّ فى النار أشـجارا تنمو! و ينقل عن أبى جهل- أيضا- أنّه كان يهيئ التمر و السمن و يأكل منه ثمّ يقول لأصحابه: كلوا من هذا فإنّه الزقوم. (نقلا عن روح المعانى فى تفسير الآية).

لهـذا السـبب فإنّ القرآن يعتبر الشـجرة الملعونة فى الآيات التى نبحثها، وسـيلة لاختبار الناس، إذ كان المشـركون يسـتهزئون بها، بينما استيقنها المؤمنون الحقيقيون الذين كانوا يؤمنون بها.

و يمكن أن يطرح على هذا التّفسير السؤال الآتى: إنّ شجرة الزقوم لم تطرح فى القرآن بعنوان الشجرة المعلونة؟

فى الإجابة على ذلك نقول: يمكن أن يكون المقصود هو اللعن آكليها.

بالإضافة إلى ذلك إنّه ما من شيء بعد رحمة اللّه سوى اللعن، و طبيعى جدا أنّ مثل هذه الشجرة بعيدة جدّا عن رحمة اللّه.

ب: الشـجرة الملعونـة، هم اليهود البغـاة، إذ أنّهم يشـبهون الشـجرة ذات الفروع و الأوراق الكثيرة، و لكنّهم مطرودون من مقام الرحمة الإلهية.

ج: جاء فى الكثير من تفاسير الشيعة و السنة أنّ الشجرة الملعونة هم بنو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳

أمیهٔ.

ینقل الفخر الرازی فی تفسیره روایهٔ فی هذا المجال عن ابن عباس الذی أدرک الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اشتهر فی التاریخ الإسلامی بکونه مفسرا للقرآن الکریم.

هذا التّفسیر یتلاءم من جههٔ مع الرّوایهٔ التی ذکرناها أعلاه بخصوص رؤیا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هو أیضا یتلاءم مع الحدیث المنقول عن عائشهٔ و التی التفتت فیه إلی مروان و قالت له: «لعن اللّه أباک و أنت فی صلبه، فأنت بعض من لعنه اللّه»[۱۹].

و لکن مرّهٔ أخری یطرح هذا السؤال: فی أی مکان من القرآن تمّ لعن بنی أمیهٔ باعتبارهم الشجرهٔ الخبیثهٔ؟

فی الجواب نقول: لقد تمّ ذلک فی الآیهٔ (۲۶) من سورهٔ إبراهیم عند الحدیث عن الشجرهٔ الخبیثهٔ وَ مَثَلُ کَلِمَةٍ خَبِیثَةٍ کَشَجَرَةٍ خَبِیثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ. و ذلک للمفهوم الواسع للشجرهٔ الخبیثهٔ، و لما ورد من روایات فی تفسیرها بأنّ المقصود منها هم بنو أمیّهٔ، ثمّ إنّ (الخبیثهٔ) تقترن من حیث المعنی ب (الملعونهٔ)[۲۰].

و جدیر بالذکر هنا، أنّ الکثیر من هذه التّفاسیر أو کلّها لا تتعارض فیما بینها، و من الممکن أن تکون (الشجرهٔ الملعونهٔ) فی القرآن إشارهٔ إلی أی مجموعهٔ منافقهٔ و خبیثهٔ و مطرودهٔ من رحمهٔ اللّه تعالی و مقام الربوبیهٔ، خصوصا تلک المجامیع مثل بنی أمیهٔ و الیهود قساهٔ القلب، و المعاندین و کل الذین یسیرون علی خطاهم. و شجرهٔ الزقوم فی القیامهٔ تمثل الأشجار الخبیثهٔ فی العالم الآخر، و کل هذه الأشجار الخبیثهٔ (المجامیع المعنیهٔ) هی لاختبار و تمحیص المؤمنین الصادقین فی الحیاهٔ الدنیا.

إنّ الیهود الذین سیطروا الیوم- زورا و غصبا- علی المقدسات الإسلامیهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴

و الذین یشعلون نار الفتنهٔ و الحرب فی کل زاویهٔ من زوایا العالم، و یفتعلون العدید من الجرائم و المظالم بحق الشعوب، إضافهٔ إلی المنافقین الذین یتعاملون معهم تعاملا سیاسیا و غیر سیاسی، و کذلک کل المتسلطین الذین یسیرون علی خطی بنی أمیهٔ فی البلاد الإسلامیهٔ، و یقفون ضدّ الإسلام، و یبعدون المخلصین و المؤمنین من حرکه المجتمع، و یقومون بتسلیط المجرمین و الخبثاء علی رقاب الناس، و یقتلون أهل الحق و المجاهدین، و یفتحون المجال لبقایا الجاهلیهٔ فی استلام الأمور و التحکّم بالمقدرات ... إنّ هؤلاء جمیعا هم فروع و أغصان و أوراق هذه الشجرهٔ الخبیثهٔ المعلونهٔ، و هم علامات اختبار و مواقع امتحان للمؤمنین و لعامّهٔ الناس فی هذه الحیاهٔ الدنیا.

۲- أعذار منکری الإعجاز

إنّ بعض الجهلهٔ و الغافلین فی عصرنا الحاضر، یقولون: إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم تکن لدیه من معجزهٔ سوی القرآن الکریم، و یقدمون مختلف الحجج من أجل إثبات أقوالهم و دعاواهم، و ممّا یحتجون به قوله تعالی: وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآیاتِ إِلَّا أَنْ کَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ حیث یعتبرونها دلیلا علی أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یأت بمعجزهٔ، بخلاف باقی الأنبیاء السابقین.

و لکن العجیب فی أمر هؤلاء أنّهم التزموا بأوّل الآیهٔ و ترکوا آخرها، حیث تقول نهایهٔ الآیهٔ وَ ما نُرْسِلُ بِالْآیاتِ إِلَّا تَخْوِیفاً هذا التعبیر القرآنی یوضح أنّ المعجزات تقع علی نوعین:

القسم الأوّل: المعجزات التی لها ضرورهٔ لإثبات صدق دعوهٔ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تشوق المؤمنین، و تخوّف المنکرین للنّبوهٔ.

القسم الثّانی: المعجزات التی لها جانب اقتراحی، أی إنّها تصدر من اقتراحات المعاندین و تنطلق من أمزجة ذوی الأعذار، و فی تأریخ الأنبیاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵

نماذج عدیدة لهذه المعجزات، التی وقع بعضها فعلا، إلّا أنّ المنکرین و الذین سبق لهم اقتراح هذه المعجزات کشرط لإیمانهم، بقوا علی إنکارهم و لم یؤمنوا بعد وقوع المعجزة، لذلک أصیبوا بالبلاء و العذاب الإلهی. (لأنّه وقعت المعجزة المقترحة و لم یؤمن بها من اقترحها و طلبها فإنّه سیستحق العقاب الإلهی السریع).

بناء علی ذلک، فما نشاهده فی الآیة أعلاه و التی تخص الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنّما هی نفی للنوع الثّانی من المعجزات، و لیس للنوع الأوّل، الذی یعتبر ملازما للنّبوة و ضروریا لها.

صحیح أنّ القرآن یعتبر لوحده معجزة خالدة، و یمکنه لوحده اثبات دعوی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (إذا لم تکن معه معجزة أخری)، و لکن- بدون شک- فإنّ القرآن یعتبر معجزة معنویة، و هو أفضل شاهد بالنسبة لأهل الفکر، و لکن لا یمکن إنکار أهمیة أن تکون مع هذه المعجزة، معجزات مادیة محسوسة بالنسبة للأفراد العادیین و عموم الناس، خاصّة و أن القرآن یتحدث مرارا عن مثل هذه المعجزات التی وقعت للأنبیاء السابقین، و هذا الحدیث یعتبر- بحدّ ذاته- سببا فی أن یطالب الناس رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتقدیم المعجزات التی تقع علی منوال معجزات الأنبیاء السابقین، خصوصا و أنّ الناس کانوا یقولون لرسول الإسلام: کیف تدعی بأنّک أفضل الأنبیاء و خاتمهم و لا تستطیع أن تقدّم لنا أصغر معجزة من معجزاتهم. (!!!)؟

إنّ أفضل جواب لهذا التساؤل هو مجیء رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بنماذج من معجزات الأنبیاء السابقین، و التواریخ الإسلامیة المتواترة تؤکّد بأنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد جاء بمثل هذه المعجزات.

ففی القرآن تواجهنا نماذج لهذه المعجزات، مثل التنبؤ بحوادث مختلفة، أو نصرة الملائکة لجیش الإسلام علی الأعداء، و أمور خارقة أخری لا سیما ما کان یقع فی الحروب الإسلامیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶

۳- ما العلاقة بین المنکرین سابقا و المنکرین لا حقا؟

قد یطرح أحیانا هذا السؤال حیث یبیّن القرآن- فی الآیات أعلاه- أنّ السابقین اقترحوا معجزات معیّنة ثمّ لم یؤمنوا بعد وقوعها، بل استمروا فی تکذیبهم و إنکارهم و عنادهم، لذا فقد أصبح هذا سببا لعدم إجابة مقترحاتکم.

و السؤال هنا: هل أنّ تکذیب السابقین یکون سببا لحرمان الأجیال اللاحقة، أی کیف یؤخذ هؤلاء بجریرة أولئک؟

الجواب علی هذا السؤال واضح من خلال ما ذکرناه أعلاه، حیث یسود هذا التعبیر و یروج فی أوساطنا، إذ نقول- مثلا- لأحدهم: لا نستطیع أن نسلّم بحججک، فإذا سأل الطرف الآخر: لماذا؟ فإنّنا نقول له: إنّ هناک سوابق کثیرة لهذا العمل، فهناک من قدّم اقتراحات إلّا أنّهم لم یستسلموا للحق لما جاءهم، لذا فإنّ وضعکم و ظروفکم تشابه أولئک. إضافة لذلک، فإنّکم توافقون أولئک الأقوام علی أسالیبهم، بل و تدعمونها، و أثبتم عملیا أنّکم لا ترغبون فی البحث عن الحق و الحقیقة، بل إنّ هدفکم هو مجرّد العناد و التحجج و البقاء فی طور المعاذیر، ثمّ تتبعون ذلک کلّه بالعناد و المکابرة و الإنکار، لذا فإنّ الرضوخ إلی مقترحاتکم و إجابتها لا معنی له.

فهؤلاء القوم- مثلا- عند ما أخبرهم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّ أهل النّار یأکلون من شجرة تسمّی (زقوم) و تخرج فی أصل الجحیم و لها أوصاف معینة، بدأوا بالسخریة و الاستهزاء- کما ذکرنا سابقا- فالبعض منهم کان یقول: إنّ الزقوم هو التمر و السمن، و بعض کان یقول: کیف تنمو الأشجار فی الجحیم المستعر من الحجارة؟ فی حین أن المعنی واضح و لا یحتاج إلی مثل هذه

المكابرة و العناد، إذ أنّ الشجرة المقصودة لا تشبه أشجار هذه الدنيا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۶۱ الى ۶۵]

اشارة

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (۶۱) قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِی كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (۶۲) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (۶۳) وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شارِكْهُمْ فِی الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (۶۴) إِنَّ عِبادِی لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (۶۵)

التّفسير

مكر إبليس:

هذه الآيات تشير إلى قضية امتناع إبليس عن إطاعة أمر اللّه فی السجود لآدم عليه السّلام، و العاقبة السيئة التی انتهى إليها.

إنّ طرح هذه القضية بعد ما ذكر عن المشركين المعاندين هو إشارة- فی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸

الواقع- إلى أنّ الشيطان يعتبر نموذجا كاملا للاستكبار و الكفر و العصيان. ثمّ انظروا إلى أين وصلت عاقبته، لذا فإنّ من يتبعه سيصير إلى نفس العاقبة.

إضافة إلى ذلك، فإنّ إصرار الضالين عميان القلوب على مخالفة الحق، لا يعتبر مدعاة للعجب و الدهشة، لأنّ الشيطان استطاع- وفقا لما يستفاد من هذه الآيات- أن يغويهم بواسطة عدّة طرق، و فی الواقع حقق فيهم قولته لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ الآية تقول: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لقد قلنا سابقا فی نهاية الآيات الخاصّة بخلق آدم عليه السّلام: إنّ هذه السجدة التی أمر اللّه تعالى بها هی فی الحقيقة نوع من الخضوع و التواضع بسبب عظمة خلق آدم عليه السّلام و تميزه عن سائر الموجودات، أو هی سجود للخالق جلّ و علا فی قبال خلقه لهذا المخلوق المتميز.

و قلنا هناك أيضا: إنّ إبليس و برغم ذكره هنا- استثناء- مع الملائكة، إلّا أنّه- بشهادة القرآن- لم يكن من الملائكة، بل كان مخلوقا ماديا و من الجن، و قد أصبح فی صف الملائكة بسبب عبادته للّه.

على كل حال، فقد سيطر الكبر و الغرور على إبليس و تحكّمت الأنانية فی عقله، ظنا منه بأنّ التراب و الطين اللذان يعتبران مصدرا لكل الخيرات و منبعا للحياة أقل شأنا و أهمية عن النّار، لذا اعترض على الخالق جلّ و علا و قال: قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً.

و لكنّه عند ما طرد- إلى الأبد- من حضرة الساحة الإلهية بسبب استكباره و طغيانه فی مقابل أمر اللّه له، قال: قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِی كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا.[۲۱]

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹

«أحتنكن» مشتقّة من «احتناك» و هی تعنی قطع جذور شیء ما، لذا فعند ما يأكل الجراد المزروعات تقول العرب: احتنك الجراد الزرع، لذا فإنّ هذا القول يشير إلى أن إبليس سيحرف كل بنی آدم عن طريق اللّه و طاعته، إلّا القليل منهم.

و يحتمل أن تكون كلمة (احتنكن) مشتقة من (حنك) و هی المنطقة التی تحت البلعوم، فعند ما يوضع الحبل فی رقبة الحيوان تقول العرب (احتنك الدابة)، و فی الواقع، فإنّ الشيطان يريد أن يقول بأنّه سيضع حبل الوسوسة فی أعناق الناس و يجرهم إلی طريق الغواية و الضلال.

و هكذا كان، فقد أعطی الشيطان إمكانية البقاء و الفعالية حتی يتحقق الاختبار للجميع، و يكون وجوده سببا لتمحيص و اختبار المؤمنين الحقيقيين لأنّ الإنسان يشتدّ عزمه عند ما تهاجمه الحوادث و يقوی عوده فی مواجهة الأعداء، لذلك قالت الآية: قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً. و بهذه الوسيلة للاختبار ينكشف الفاشل من الناجح فی الامتحان الإلهی الكبير.

ثمّ ذكرت الآيات بعد ذلك- بأسلوب جميل- الطرق التی ينفذ منها الشيطان و الأساليب التی يستخدمها فی الوسوسة و الإغواء فقالت:

وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ...

وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ ...

وَ شارِكْهُمْ فِی الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ ..

وَ عِدْهُمْ ...

ثمّ يجیء التحذير الإلهی: وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً ...

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰

ثمّ اعلم أيّها الشيطان: إِنَّ عِبادِی لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ... وَ كَفی بِرَبِّكَ وَكِيلًا.

بحوث

۱- فی معانی الكلمات

«استفزز» مشتقة من «استفزاز» و هی تعنی الإثارة؛ الإثارة السريعة و العادية، و لكنّ الكلمة فی الأصل تعنی قطع شیء ما، فالعرب تقول «تفزّز الثوب» إذا تقطّع أو انفصلت منه قطعة.

و استعمال هذه الكلمة هنا للدلالة علی تحريك الشخص و إثارته لينقطع عن الحق يتوجه نحو الباطل.

«اجلب» مأخوذ من «إجلاب» و فی الأصل من «جلبة» و هی تعنی الصرخة الشديدة، و الإجلاب تعنی الطرد مع الأصوات و الصرخات.

و أمّا النهی عن «الجلب» الوارد فی الرّوايات فهو إمّا أن يعنی أنّ الذی يذهب إلی المزارع لجمع الزكاة يجب عليه أن لا- يصيح و يصرخ بحيث يخيف الأحياء، أو أنّه يعنی أنّ علی المتسابقين عند سباق الخيل أن لا يصرخوا فی وجوه الخيل الأخری لتكون لهم الأسبقية.

«خيل» لها معنيان، فهی تعنی «الخيول» و أيضا تعنی (الخيالة)، أمّا فی هذه الآية فقد وردت للتدليل علی المعنی الثّانی.

أمّا «رجل» فهی تعنی معكوس (الخيالة) أی (جيش الرجّالة و المشاة) و بهذا يتكون جيش الشيطان من (الخيالة و الرجّالة) من جنسه أو من غير جنسه، و هذا يعنی أنّ البعض يتأثر بسرعة بغواية الشيطان و يصبح من أعوانه و مساعديه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱

فهؤلاء كالخيّالة. أمّا البعض الآخر فيتأثر ببطء و علی مهل كالمشاة و الرجّالة[۲۲]!

۲- وسائل الشيطان المختلفة فی الوسوسة و الإغواء

بالرغم من أنّ المخاطب فى الآيات أعلاه هو الشيطان، و أنّ اللّه جلّ جلاله يتوعده و يقول له: افعل كل ما تريده فى سبيل غواية الناس، و استخدم كل طرقك فى ذلك، إلّا أنّ هذا الوعيد- فى الواقع- هو تهديد و تنبيه لنا نحن بنى الإنسان حتى نعرف الطرق التى ينفذ منها الشيطان و الوسائل التى يستخدمها فى وساوسه و إغوائه.

الطريف فى الأمر أنّ الآيات القرآنية أعلاه تشير إلى أربعة طرق و أساليب مهمّة و أساسية من أساليب الشيطان، و تقول للإنسان: عليك بمراقبة نفسك من خلال الجوانب الأربعة هذه:

أ: البرامج التبليغية التى تجد دلالتها فى التعبير القرآنى وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ حيث اعتبر بعض المفسّرين أنّها تعنى- فقط- أنغام الموسيقى الشهوانية المثيرة، و الأغانى المبتذلة، و لكن هذا المعنى يتسع حتى يشمل جميع البرامج الدعائية التى تقود للانحراف و التى تستخدم- عادة- الأجهزة الصوتية و السمعية.

لهذا فإنّ أوّل برامج الشيطان هو الاستفادة من هذه الأجهزة. هذه القضية تتوضح فى زماننا هذا أكثر، لأنّ عالمنا اليوم هو عالم الأمواج الراديوية، و عالم الدعاية و التبليغ الواسع، سواء كان على الصعيد السمعى أو البصرى. حيث أنّ الشياطين و أحزابهم فى الشرق و الغرب يعتمدون على هذه الأجهزة و يخصصون قسما كبيرا من ميزانيتهم للصرف فى هذا الطريق حتى يستعمروا عبيد اللّه، و يحرفوهم عن طريق الحق و الاستقلال، و يزيغوا بهم عن طريق الهداية و الإيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲

و التقوى، و يجعلون منهم عبيدا تابعين لا حول لهم و لا قوة.

ب: الاستفادة من القوة العسكرية: و هذا لا- يخص زماننا حيث أنّ الشياطين يستخدمون القوّة العسكرية لأجل الحصول على مناطق للنفوذ. إنّ الأداة العسكرية تعتبر أداة خطرة لكل الظالمين و المستكبرين فى العالم. فهؤلاء و فى لحظة واحدة يصرخون فى قواتهم العسكرية و يرسلونها إلى المناطق التى تحاول الحصول على حريتها و استقلالها و تسعى إلى الاعتماد بقوات على قدراتها الخاصّة.

و فى عصرنا الحاضر نرى أنّهم نظّموا ما يسمونه بقوات (التدخل السريع) و الذى هو نفس مفهوم (الإجلاب) القرآنى، و هذا يعنى أنّهم جعلوا جزءا من قواتهم العسكرية على شكل قوات خاصّة كى يستطيعوا إرسالها فى أسرع وقت إلى أى منطقة من مناطق العالم تتعرض فيها مصالحهم غير المشروعة للخطر، لكى يقضوا بواسطة هذه القوات على أى حركة تطالب بالحق و تنادى بالاستقلال.

و قبل أن تصل القوات السريعة الخاصّة هذه، يكون هؤلاء قد هيأوا الأرضية بواسطة جواسيسهم الماهرين، و الذين هم فى الواقع كناية عن جيش المشاة (الرجّالة).

إنّ هؤلاء فى مخططاتهم هذه قد غفلوا عن أنّ اللّه سبحانه و تعالى قد وعد أولياءه الحقيقيين- فى نفس هذه الآيات- بأنّ الشيطان و جيشه لا يستطيع أن يسيطر عليهم.

ج: البرامج الاقتصادية ذات الظاهر الإنسانى: من أساليب الشيطان الأخرى المؤثرة فى النفوذ و الغواية، هى المشاركة فى الأموال و الأنفس، و هنا نرى أيضا:

أنّ بعض المفسّرين يخصص هذه المشاركة ب (الربا). أمّا المشاركة فى الأولاد فيحصر معناها ب «الأولاد غير الشرعين»[۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳

فى حين أنّ هاتين الكلمتين لهما معانى أوسع، إذ تشمل جميع الأموال المستحصلة عن طريق الحرام، و الأبناء غير الشرعيين و غيرهم. فمثلا- فى زماننا الحاضر نشاهد أنّ الشياطين المستكبرين يقترحون دائما استثمار و تأسيس الشركات، و إيجاد مختلف المصانع و المصالح الاقتصادية فى الدول الضعيفة، و تحت غطاء هذه الشركات تتم مختلف أشكال النشاطات الخطرة و الضارّة بالبلد المستضعف، حيث يرسل الشياطين جواسيسهم تحت عنوان خبراء فنيين أو مستشارين اقتصاديين أو مهندسين تقنيين، و يقوم هؤلاء جميعا بامتصاص خيرات البلد الذين هم فيه بأبرع الحيل و أظرفها، و يقفون حائلا بين البلد و بين تحقيقه لاستقلاله الاقتصادى على

بنية اقتصادية تحتية حقيقية.

و عن طريق تأسيس المدارس و الجامعات و المكتبات و المستشفيات و المراكز السياحية، فإنّهم يشاركون هذه الدول الضعيفة فى أبنائها حيث يحاولون أن يستميلوا هؤلاء نحوهم، و أحيانا عن طريق توفير (المنح الدراسية) لشباب، فإنّهم يقومون (بجلبهم) نحو ثقافتهم و يشاركونهم فى أفكارهم، و ما يترتب على ذلك من فساد العقيدة.

و من الأساليب الرائجة و المخربة لهؤلاء الشياطين إيجاد مراكز الفساد تحت غطاء الفنادق العالمية و إيجاد المناطق الترفيهية و دور السينما و الافلام المبتذلة و أمثال ذلك، حيث لا تكون هذه الوسائل أدوات لترويج الفحشاء و زيادة أولاد الزنا فحسب، بل تؤدى إلى انحراف جيل الشباب و تميّعهم و تغرّبهم، و تصنع منهم أشخاصا فاقدين للإرادة. و كلما أمعنا النظر فى دسائسهم و مكرهم تكشفت لنا الأخطار الكبيرة الكامنة فى هذه الوساوس الشيطانية.

د: برامج التخريب النفسى: من البرامج الأخرى التى يتبعها الشياطين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴

الاستفادة من الوعود و الأمنيات الكاذبة التى يطلقونها بمختلف الحيل، فهؤلاء الشياطين يعدّون مجموعة ماهرة و متمكنة من علماء النفس لغواية الناس البسطاء منهم و الأذكياء، كلا بما يناسب وضعه، ففى بعض الأحيان يصورون لهم حالهم بأنّهم سيصبحون قريبا من الدول المتمدنة و الكبيرة، أو أنّ شبابهم لا مثيل له، و يستطيع الشباب فى بلدانهم أن يصل من خلال إتباعه برامجهم إلى أوج العظمة، و هكذا فى بلدانهم يغرقوهم فى هذه الخيالات الواهية التى تتلخّص فى جملة وَ عِدْهُمْ

فى أحيان أخرى يسلك الشياطين طريقا معكوسة، إذ يصوّرون للبلد بأنّه لا يستطيع مطلقا مواجهة القوى الكبرى، و أنّهم متأخرون عن هذه القوى بمائة عام أو أكثر، و بهذا الأسلوب تزرع المبررات النفسية لاستمرار التخلف و عدم انطلاق جهود البلد الضعيف نحو العمل و البناء الحقيقى.

بالطبع هذه القصّة لها بدايات بعيدة، و طرق نفوذ الشيطان فيها لا تنحصر بواحد أو اثنتين.

و لكنّ (عباد اللّه) الحقيقيين و المخلصين، و بالاتكاء على الوعد القرآنى القاطع بالنصر، و الذى تضمنته هذه الآيات، سيقومون بمحاربة الشياطين و لا يسمحون بالتردد يساور أنفسهم، و هم يعلمون- برغم الأصوات الكثيرة للشياطين- أنّهم سينتصرون، و إنّهم بصبرهم و صمودهم و بإيمانهم و توكلهم على اللّه سوف يفشلون الخطط الشيطانية، و ذلك قوله تعالى: وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا.

۳- أمّا لماذا خلق اللّه الشيطان؟ فقد بحثنا ذلك فى الآية (۳۹) من سورة البقرة. و فيما يخص وساوس الشيطان و أشكالها و لبوساتها، و معنى الشيطان فى القرآن، فقد بحثنا كل ذلك فى ذيل الآية (۱۳) من سورة الأعراف. و الآية (۳۹) من سورة البقرة من هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۶۶ الى ۶۹]

اشارة

رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (۶۶) وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (۶۷) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (۶۸) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (۶۹)

التّفسير

لماذا الكفران مع كلّ هذه النعم؟

هـذه الآيات تابعت البحوث السابقـة فى مجال التوحيد و محاربة الشـرك، و دخلت فى البحث من خلال طريقين مختلفين، هما: طريق الاستدلال و البرهان، و طريق الوجدان و مخاطبة الإنسان من الداخل.

ففى البداية تشير الآية إلى التوحيد الاستدلالى فتقول: رَبُّكُمُ الَّذِی یُزْجِی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۶

لَکُمُ الْفُلْکَ فِی الْبَحْرِ.

طبعا هناک أنظمة لأجل حركة الفلک فى البحار، فمن جانب ينبغى وجود الماء بشـكل يصلح لمسير السـفن، و من جانب آخر لا بدّ من توفر بعض الأشياء التى تكون أخف من الماء كى يمكن لها أن تطفو على سطحه، و إذا كانت أثقل فيمكن صناعتها بشكل بحيث تكون أخف من المـاء و تستطيع أن تتحمّـل وزن الأحمـال الثقيلـة و الأعـداد الكـثيرة من البشـر. و من جـانب ثـالث يلزم وجود القوّة المحرّكـة و الّتى كـان الهواء يمثلهـا فى السـابق، حيث كـان البحّـارة يسـتفيدون من حركـة التيـارات الهوائيـة فوق المحيطات و البحار لتحديد أوقات و سرعة و اتجاه السفن، و اليوم يستفاد من طاقة البخار و أشكال الطاقة الأخرى فى حركة السفن.

من جانب آخر ينبغى وجود أسلوب لتحديد الطرق، و هذا الأسـلوب كان سابقا يعتمد على الشمس و النجوم فى السماء، أمّا اليوم فإنّ السـفن تسـتفيد من البوصـلات و الخرائط و الإحداثيات الدقيقة. على أى حال، إذا لم تتوافر هذه الشروط الأربعة و لم يكن ثمّة تنسيق بينها فإنّ حركة السفن تصبح أمرا مستحيلا، و لا يكون الإنسان قادرا على الاستفادة من هذه الوسيلة المهمّة.

تعلمون- طبعا- بأنّ السـفن تعتبر أضـخم وسـيلة لحمل الإنسان، و اليوم فإنّ هناک من السـفن العملاقة ما يكون بعضـها بمساحة مدينة صغيرة.

ثمّ يضـيف تعالى: لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ حتى تساعدكم فى أسفاركم و نقل أموالكم و تجارتكم و تعينكم فى كل ما يخص أمور دنياكم و دينكم. أمّا لماذا؟

فلأنّ اللّه تبارک و تعالى إِنَّهُ کانَ بِکُمْ رَحِیماً.

من هـذا التوحيـد الاسـتدلالى و الـذى يعكس جانبا صـغيرا من نظام الخلق، و علم و قـدرة و حكمة الخالق جلّ و علا، تنتقل الآية إلى أسلوب الاستدلال الفطرى فتقول: لا تنسوا وَ إِذا مَسَّکُمُ الضُّرُّ فِی الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِیَّاهُ

أن يضل أى شىء من دون اللّه، لأنّ ضرر البحر إذا وقع، كالطوفان و غيره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۷

يـذهب بكل الحواجز و أسـتار التقليـد و التعصّب اللاصـقة على صـفاء الفطرة الإنسانيـة، لينكشف نور الفطرة الـذى هو نور التوحيـد و الإيمان و العبودية للّه دون غيره.

نعم فى هذه اللحظات، فى لحظات الضـرّ ينقطع الإنسان عن جميع المعبودات التصورية و الوهمية و الخيالية التى سبق و أن أعطاها قوّة بسـبب أوهامه، و تمحى من ذهنه فاعليتها و وجودها و تتلاشـى و تـذوب تماما كما يـذوب الجليد فى شـمس الصـيف و لا يبقى حين ذاک سوى نور الأنوار ... نور اللّه جلّ جلاله.

إنّ الآيـة تعبّر عن قـانون عـام، عرفه كـلّ من جرّب ذلـک، حيث تؤدى المشاكـل و الصـعوبات الحـادة التى يمرّ بها الإنسان- و يصـل السكين العظم- إلى الغاء كل الأسباب الظاهرية التى كان يتعلق بها الإنسان، و تنعدم فاعلية العلل المادية التى كان يتشبث بها، و تنقطع كل الأسـباب، إلّا السبب الـذى يصل الإنسان بمصـدر العلم و القدرة المطلقتين، و الذى هو- لوحده سـبحانه و تعالى- قادر على حال

أعقـد المشـكلات ... ليس مهمّا هنا ما الـذى نسـمّى فيه هـذه الحالـة، و إنّما المهم أنّ نعلم أن قلب الإنسان فى هذه الحالة ينفتح على الأمـل بالخلاـص، و تغمر القلب بنور خاص لطيف. و هـذه المنعطفات هى واحـدة من أقرب الطرق إلى اللّه، إنّها طريق ينبع من داخل الروح و من سويداء القلب.[۲۴] ثمّ تضيف الآية: فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً.

مرّة أخرى تغطى حجب الغرور و الغفلـة و التعصب هـذا النور الإلـهى، و يغطى غبار العصـيان و الـذنوب و ملاهى الحياة الماديـة فطرة الإنسان و وجدانه.

و لكن هل تظنون أنّ اللّه لا يستطيع أن ينزل بكم عقابه الشديد و أنتم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۸

اليابسة و فى قلب الحصارى و البرارى؟

لـذلك تقول الآيـة أ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ ثمّ أضـافت: أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا، حيث تغشيكم عاصـفة محمّلـة بالحصـى و الحجارة و تـدفنكم تحتها و لا تجـدون من ينقذكم منها (و فى ذلك من العذاب ما هو أشدّ من الغرق فى البحر).

إنّ المتجولين فى الصـحارى و أهل البوادى يـدركون أكثر من غيرهم رهبـة هـذا التهديـد الرّبانى و الوعيـد القرآنى، إذ يعرفون كيف تؤدى ثورة الكثبـان الرمليـة فى الصـحراء إلى دفع الرمـال و الأحجـار إلى غير مواقعهـا لتشـكّل تلالاـ تـدفن فى ثناياهـا و بطونها قوافل الجمال و من عليها.

بعـد ذلـك تضـيف الآيـة مـذكّرة أمثال هؤلاء بأنّكم هل تظنون أنّ هـذه هى المرّة الأخيرة التى تحتاجون فيها إلى السـفر فى البحر: أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً، أى لا أحد حينئذ يطالب بدمكم و يثأر لكم منّا.

بحوث

۱- الشّخصية المتقلّبة

إنّ الكثير من الناس لا يذكرون اللّه إلّا عند بروز المشاكل. و ينسونه فى الرخاء، إنّ نسيان اللّه فى حياة هؤلاء هو القاعدة و الأصل، أى أنّه صار طبيعة، ثانية لهؤلاء، لذا فإنّ ذكر اللّه بالنسـبة لهؤلاء و الالتفات إلى وقائع الحياة الحقّة تعتبر حالة استثنائية فى وجودهم، تحتاج فى حضورهـا إلى عوامـل إضافيـة، فمـا دامت هـذه العوامـل الإضافيـة موجـودة فهم يـذكرون اللّه، أمّـا إذا زالت فسـوف يرجعون إلى طبيعتهم المنحرفة و ينسون اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۹

و الخلاصـة، أنّنا لا نجـد من الناس بصورة عامّـة من لا يلجأ إلى اللّه و لا يخضع له عنـد ما تضـغطه المشاكل الحادّة و الصـعبة، و لكن ينبغى أن نعرف أن الوعى و ذكر اللّه تعالى فى مثل هـذه الظروف فى مثل هـذه و الذى نسـتطيع أن نصـفه بالوعى الإجبارى، هو وعى عديم الفائدة.

إنّ المؤمنين و المسـلمين الحقيقيين، يـذكرون اللّه فى الراحـة و البلاء و السـلامة و المرض و الفقر و الغنى، فى السـجن و على كرسـى الحكم، و فى أى وضع كـان. إنّ تغيير الأوضـاع و تبـدّل الحالات لا يغيّر هؤلاء. إنّ أرواحهم كبيرة بحيث تسـتوعب كل هـذه الأمور، مثلهم فى ذلك على بن أبى طالب عليه السّـلام، حيث كانت عبادته و زهده و متابعته لأمور الفقراء لا تختلف عند وجوده فى السـلطة،

أو عند ما كان جليس بيته.

أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام- يقول فى وصف المتقين: «نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء»[۲۵].

و خلاصـة القول: إنّ الإيمـان و الارتباط باللّه و عبادته و التوسل به و التوبـة إليه و التسـليم له سـبحانه و تعالى، كل هـذه الأمور تكون مهمّة و ثمينة و ذات أثر عند ما تكون دائمية و ثابتة، أمّا الإيمان الموسمى و التوبة و العبادات الموسمية، و التى تفرضها حالات خاصّة يمرّ بها الإنسان و يبغى من خلالها جلب بعض المنافع له، فليس لها أثر و لا قيمة. و الآيات القرآنية توبخ أمثال هؤلاء الأشخاص دائما.

۲- لا يمكن الهروب من حكومة اللّه

البعض يتوجه إلى اللّه (مثل عبـدة الأصـنام فى الجاهلية) عند ما يكون فى وسط البحر أو عند ما يكون على هاوية السـقوط و الخطر أو فى حال مرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۰

شديـد، فى حين أنّنا إذا فكّرنا بشـكل صـحيح نرى أنّ الإنسان معرض للخطر و الضـرر فى كل الأزمنة و الحالات و الأوقات، فالبحر و الـبر و الصـحراء و المرض و الهاويـة و غيرهـا، هى فى الواقـع متساويـة الخطورة. إنّ هزة أرضـية واحـدة يمكنهـا أن تـدمّر بيتنـا الآـمن الهادىء، و إنّ تخثرا بسيطا فى الـدم يمكنه أن يغلق مسـير الـدم فى الشـريان الأبهر فيؤثر على القلب أو على الـدماغ فتحـدث السـكتة القلبيـة أو الدماغيـة، و بعـد ثانية واحدة يكون الموت هو المصـير المحتوم. مع وجود كل هذه الأمور نعلم أنّ الغفلة عن اللّه تعالى كم هى مجانبـة للصواب!! قـد يقوم هنا أنصار نظريـة تعليل الإيمان- و الـدين بشـكل عام- على أساس الخوف، بتبرير هذه الحالة بقولهم: طالما أنّ الخوف فى الإنسان غريزى و فطرى، فإنّ خوفه من العوامل الطبيعيـة يجعل الإنسان يتوجه نحو الخالق. و مثل هـذه الحالات و الأوضاع التى تحدثت عنها الآيات تدعم هذا التصوّر و تعضده.

الآيات القرآنية أجابت على هذه الأوهام، إذ أبانت أنّ القرآن لم يجعل- أبدا- معرفة الخالق قائمة على هذه الأمور، بل إنّ الأساس هو قراءة فى نظـام الكـون و الوجود و معرفـة اللّه تعـالى من خلاـل هـذا الخلق. و حـتى فى الآيـات أعلاـه نرى أنّهـا ذكرت أوّلاـ الإيمـان الاسـتدلالى قبل ذكر التوحيـد و الإيمان الفطرى، و فى الواقع فإنّها تعتبر هـذه الحوادث بمثابة تذكير بالخالق لا من أجل معرفته، إذ أن معرفته لطلاب الحق تتوضح من خلال أسلوب الاستدلال و عن طريق الفطرة.

ثالثا: معانى الكلمات

«يزجى» مأخوذة من «إزجاء» و هى تعنى تحريك شىء ما بشكل مستمر.

«حاصب» تعنى الهواء الذى يحرّك معه الأحجار الصـغيرة ثمّ تضرب الواحدة بعد الأخرى مكانا معينا، و هى مشتقّة أصلا من (حصباء) التى تعنى الأحجار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۱

الصغيرة (الحصى).

«قاصف» بمعنى المحطّم، و هى هنا تشير إلى العاصفة الشديدة التى تقلع كل شىء من مكانه.

«تبيع» بمعنى تابع، و هى تشير هنا إلى الشخص الذى ينهض للمطالبة بالدم، و ثمن الدم و الثأر و يستمر فى ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۲

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۰ الى ۷۲]

اشارة

وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا (۷۰) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۱) وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (۷۲)

التّفسير

الإنسان سيّد الموجودات:

إنّ واحدة من أبرز طرق الهداية و التربية، هى التنويه بشخصية الإنسان و مكانته و مواهبه، لذا فإنّ القرآن الكريم و بعد بحوثه عن المشركين و المنحرفين فى الآيات السابقة، يقوم هنا بتبيان الشخصية الممتازة للإنسان و المواهب التى منحها إيّاها ربّ العالمين، لكى لا يلوّث الإنسان جوهره الثمين، و لا يبيع نفسه بثمن بخس، حيث يقول تعالى وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ

ثمّ تشير الآيات القرآنية إلى ثلاثة أقسام من المواهب الإلهية التى حباها اللّه لبنى البشر، هذه المواهب هى أوّلا: وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۳

ثمّ قوله تعالى: وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ و مع الالتفات إلى سعة مفهوم (الطيب) الذى يشمل كل موجود طيب و طاهر تتّضح عظمة و شمولية هذه النعمة الإلهية الكبيرة.

أمّا القسم الثّالث من المواهب فينص عليه قوله تعالى: وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا.

بحوث

أوّلا: وسيلة النقل أوّل نعمة للإنسان

الملاحظة التى تلفت النظر هنا، هى: لماذا اختار اللّه قضية الحركة على اليابسة و فى البحار، و أشار إليها أوّلا من بين جميع المواهب الأخرى التى وهبها للإنسان؟

قد يكون ذلك بسبب أنّ الاستفادة من الطيبات و أنواع الأرزاق لا يحدث بدون الحركة، حيث أنّ حركة الإنسان على سطح الكرة الأرضية تحتاج إلى وسيلة نقل، إذ أنّ الحركة هى مقدمة لأى بركة.

أو أنّ السبب قد يكون لإظهار سلطة الإنسان على الكرة الأرضية الواسعة بما فى ذلك البحار و الصحارى. إذ أنّ لكل نوع من أنواع الموجودات سلطة على جزء محدود من الأرض، أمّا الإنسان فإنّه يحكم الكرة الأرضية ببحارها و صحاريها و هوائها.

ثانيا، تكريم الإنسان من قبل الخالق

بأی شیء کرّم اللّه الإنسان؟ الآیة تقول بشکل مجمل وَ لَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ

بین المفسّرین کلام کثیر عن مصداق هذا التکریم، فالبعض یعز و السبب لقوّة

العقل و المنطق و الاستعدادات المختلفة و حریة الإرادة. أمّا البعض الآخر فیعز و ذلک إلی الجسم المتزن و الجسد العمودی، و البعض یربط ذلک بالأصابع التی یستطیع الإنسان القیام بواسطتها بمختلف الأعمال الدقیقة، و أیضا تمنحه القدرة علی الکتابة.

و البعض یعتقد أنّ التکریم یعود إلی أنّ الإنسان هو الکائن الوحید الذی یأکل طعامه بیده.

و هناک من یقول: إنّ السبب یعود إلی سلطة الإنسان علی جمیع الکائنات الأرضیة.

و هناک من المفسّرین من یعزو التکریم إلی قدرة الإنسان علی معرفة اللّه، و القدرة أیضا علی إطاعة أوامره.

لکن من الواضح أنّ جمیع هذه المواهب موجودة فی الإنسان و لا یوجد تضاد بینها، لذا فإنّ تکریم الخالق لهذا المخلوق الکریم یتجلّی من خلال جمیع هذه المواهب و غیرها.

خلاصة القول: إنّ الإنسان له امتیازات کثیرة علی باقی المخلوقات، و هذه الامتیازات الواحدة منها أعظم من الأخری، فمضافا إلی الامتیازات الجسمیة، فإنّ روح الإنسان لها مجموعة واسعة من الاستعدادات و القدرات الکبیرة التی توهله لطی مسیرة التکامل بشکل غیر محدود.

ثالثا: الفرق بین (کرّمنا) و (فضّلنا)

هناک آراء کثیرة حول التفاوت بین (کرّمنا) و (فضّلنا) فالبعض یقول: إنّ (کرّمنا) هی إشارة إلی المواهب التی أعطاها اللّه ذاتا للإنسان، بینما (فضّلنا) إشارة إلی الفضائل التی اکتسبها الإنسان بسبب توفیق اللّه.

هناک احتمال قوی بأنّ (کرّمنا) إشارة إلی الجوانب المادیة، أمّا (فضّلنا) فهی

إشارة إلی المواهب المعنویة، لأنّ کلمة (فضّلنا) غالبا ما تأتی فی القرآن بهذا المعنی.

رابعا: ما معنی کلمة (کثیر) فی الآیة؟

بعض المفسّرین یعتبرون الآیة الآنفة دلیلا علی أفضلیة الملائکة علی بنی الإنسان، فالقرآن یقول بأنّ الإنسان مفضّل علی أکثر المخلوقات، و تبقی مجموعة لا یکون الإنسان أفضل منها، و هذه المجموعة لیست سوی الملائکة.

و لکن بملاحظة آیات خلق آدم و سجود الملائکة و تعلیمهم (الأسماء) من قبل آدم، لا یبقی شک فی أنّ الإنسان أفضل من الملائکة.

لذا فإنّ کلمة (کثیر) تعنی هنا (جمیع). و کما یقول المفسّر الکبیر الشّیخ الطبرسی فی مجمع البیان، فإنّ استخدام کلمة (کثیر) بمعنی (جمیع) یعتبر عادیا و واردا فی القرآن الکریم و فی لغة العرب.

و هکذا یکون معنی الجملة حسب تفسیر الطبرسی لها هو: «إنّا فضلناهم علی من خلقناهم، و هم کثیر».

فالقرآن یقول عن الشیاطین فی الآیة (۲۲۳) من سورة الشعراء: وَ أَکْثَرُهُمْ کاذِبُونَ بینما من البدیهی أنّ کل الشیاطین کاذبین و لیس أکثرهم، و إنّما استخدمت الآیة (کثیر) بمعنی (الجمیع).

على أي حال، إذا اعتبرنا المعنى خلافا للظاهر، فإنّ آيات خلق الإنسان ستكون قرينة واضحة لذلك.

خامسا: لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟

لاـ يعد الجواب على هذا السؤال معقدا، إذ أنّنا نعلم أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتكون من قوى مختلفة، مادية و معنوية، جسمية و روحية، و ينمو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۶

وسط المتضادات، و له استعدادات غير محدودة للتكامل و التقدّم.

و هناك حديث معروف للإمام على عليه السّلام و هو شاهد على ما نقول، إذ

يقول فيه عليه السّـلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ ركّب فى الملائكة عقلا بلا شهوة، و ركّب فى البهائم شهوة بلا عقل، و ركّب فى بنى آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، و من غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم»[۲۶].

و هنا يبقى سؤال واحد: هل أنّ جميع البشر أفضل من الملائكة، فى حين يوجد بين البشر الكفار و المجرمون و الظالمون، و هؤلاء يعتبرون من أسوأ خلق اللّه ... بعبارة أخرى: هل أنّ كلمة (بنى آدم) فى الآية تنطبق على جميع البشر أم على قسم منهم؟

يمكن تلخيص الإجابة على هذا السؤال فى جملة واحدة هى: نعم جميع البشر أفضل، و لكن بالقوة و الاستعداد، يعنى أنّ الجميع يملك الأرضية ليكون أفضل، و لكنّهم إذا لم يستفيدوا من هذه الأرضية و القابلية المودعة فيهم، و سقطوا فى الهاوية، فإنّ ذلك يكون بسببهم و يعود عليهم فقط.

و بالرغم من أنّ أفضلية الإنسان هى فى المجالات المعنوية و الإنسانية، و لكن بعض العلماء ذكر أنّ الإنسان قد يكون أقوى من سائر الإحياء حتى من جهة القوّة الجسمية بالرغم من أنّه يعتبر ضعيفا فى مناحى أخرى.

«الكسيس كاريل» مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول) يقول فى كتابه واصفا قدرات الإنسان: «انّ جسم الإنسان من المتانة و الإحكام و الدّقة بحيث أنّه يقاوم كل أشكال التعب و العقبات التى يتعرض لها الوجود الإنسانى من قلّة غذاء، و سهر و تعب، و هموم زائدة، و أشكال المرض و الألم و المعاناة، و هو فى ثباته و مقاومته للأشكال الآنفة يبدى استعدادا استثنائيا يبعث على الحيرة و العجب، حتى أنّنا نستطيع أن نقول: إنّ الوجود الإنسانى فى تكوينه الروحى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۷

و الجسدى هو أثبت الموجودات من ذوى الأرواح و أكثرها نشاطا و استعدادا فى مضمار الفاعلية الفكرية و الجسدية التى يتضمّنها و التى أدّت إلى تشييد المدنية الراهنة بكل مظاهرها»[۲۷].

الآية التى بعدها تشير إلى موهبة أخرى من المواهب الإلهية التى حباها اللّه للإنسان، و رتّبت عليه المسؤوليات الثقيلة بسبب هذه المواهب.

ففى البداية تشير الآية إلى قضية القيادة و دورها فى مستقبل البشر فتقول:

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ يعنى أنّ الذين اعتقدوا بقيادة الأنبياء و أوصيائهم و من ينوب عنهم فى كل زمان و عصر، سوف يكونون مع قادتهم و يحشرون معهم، أمّا الذين انتخبوا الشيطان و أئمّة الضلال و الظالمين و المستكبرين قادة لهم، فإنّهم سيكونون معهم و يحشرون معهم.

خلاصة القول: إنّ الارتباط بين القيادة و الأتباع فى هذا العالم سوف ينعكس بشكل كامل فى العالم الآخر، و طبقا لهذا الأمر سيتم تحديد الفرق الناجية، و الأخرى التى تستحق العذاب.

بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد حصر كلمة (إمام) ب (الأنبياء) و البعض الآخر حصرها بمعنى (الكتب السماوية) و البعض الثّالث ب (العلماء)، إلّا أنّ من الواضع أنّ كلمة (إمام) فى هذا المكان لها معنى أوسع، و تشمل أية قيادة سواء تمثّلت بالأنبياء أو أئمّة الهدى أو العلماء أو الكتاب و السنة. و يدخل فى معنى الكلمة أيضا أئمّة الكفر و الضلال، و بهذا الترتيب فإنّ كل إنسان سيسلك فى الاخرة مسار القائد الذى انتخبه لنفسه فى الدنيا اماما و قائدا.

هذا التعبير و الإشارة إلى دور الإمامة و كونها من أسباب تكامل الإنسان، يعتبر فى نفس الوقت تحذيرا لكل البشرية كى تدقق فى انتخاب القيادة، و لا تعطى أزمّة وجودها الفكرى و الحياتى بيد أى شخص كان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۸

ثمّ تقسم الآية الناس يوم القيامة إلى قسمين: فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[۲۸]. أمّا القسم الآخر فهو: من كان فى الدنيا أعمى القلب: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى و طبيعى أن يكون هؤلاء العميان القلب أضل من جميع المخلوقات وَ أَضَلُّ سَبِيلًا فهؤلاء لا يوفقون فى هذه الدنيا لسلوك طريق الهداية، و لا هم فى الآخرة من أصحاب الجنّة و السعادة، لأنّهم أغمضوا عيونهم عن جميع الحقائق و حرّموا أنفسهم من رؤية الحق و آيات اللّه و كل ما يؤدى إلى هدايتهم، و يقود إلى خلاصهم من المواهب العظيمة التى أعطاهم اللّه إيّاها، و لأنّ الآخرة هى صورة منعكسة لوجود الإنسان فى هذه الدنيا، إذن ليس ثمّة من عجب فى أن يحشر هؤلاء العميان بنفس الصورة فى يوم الحشر و القيامة.

بحوث

۱- دور القيادة فى حياة البشر

الحياة الاجتماعية للبشر فى الدنيا لا يمكن أن تنفصل عن القيادة أو أن تستغنى عنها، لأنّ تحديد مسير مجموعة معينة يحتاج دائما إلى قيادة، و عادة لا يمكن سلوك طريق التكامل بدون وجود قيادة، و هذا هو سر إرسال الأنبياء و انتخاب الأوصياء لهم.

و فى علوم العقائد و الكلام، يستفاد أيضا من (قاعدة اللطف) فى إثبات لزوم بعث الأنبياء و لزوم وجود الإمام فى كل زمان، و ذلك لأهمية دور القائد فى تنظيم المجتمع، و منع الانحرافات، و بنفس المقدار الذى يقوم به القائد الإلهى و العالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۹

و الصالح بإيصال الإنسان إلى هدفه النهائى بشكل سهل و سريع، فإنّ التسليم لقيادة أئمّة الكفر و الضلال و الانقياد لهم يؤديان بالإنسان إلى الهاوية و الشقاء.

و فى تفسير هذه الآية تتضمّن المصادر الإسلامية أحاديث متعدّدة توضح مفهومها و تبيّن الغرض من الإمامة.

ففى حديث تنقله الشيعة و السنة عن الإمام على بن موسى الرّضا عليه السّلام بأسناد صحيحة أنّه نقل عن آبائه عن جدّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حول تفسير هذه الآية قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يدعى كل أناس بإمام زمانهم و كتاب ربّهم و سنة نبيّهم».[۲۹]

و نقرأ

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قوله: «ألا تحمدون اللّه! إذا كان يوم القيامة فدعى كل قوم إلى من يتولونه و دعينا إلى رسول اللّه و فزعتم إلينا فإلى أين ترون يذهب بكم؟ إلى الجنّة و ربّ الكعبة- قالها ثلاثا».[۳۰]

۲- تكريم بنى آدم

(بنى آدم) وردت فى القرآن الكريم كعنوان للإنسان مقرونة بالمدح و الاحترام، فى حين أنّ كلمة (إنسان) ذكرت مع صفات مثل: ظلوم، جهول، هلوع، ضعيف، طاغى، و ما شابهها من الأوصاف. و هذا يدل على أن بنى آدم صفة للإنسان المتربى، أو على الأقل الذى له استعدادات إيجابية (إن افتخار آدم و تفضيله على الملائكة يؤيد هذا المعنى لبنى آدم). فى حين أنّ كلمة (إنسان) وردت بشكل مطلق، و أحيانا تشير إلى الصفات السلبية.

لذا فإنّ الآيات التى نبحثها استخدمت كلمة (بنى آدم) لأنّ الحديث فيها هو عن الكرامة و أفضلية الإنسان. (هناك بحث مفصل حول معنى الإنسان فى القرآن الكريم يمكن مراجعته فى تفسيرنا هذا ذيل الآية ۱۱ من سورة يونس).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۰

۳- دور القيادة فى الإسلام

فى الحديث المعروف عن الإمام محمّد بن على الباقر عليهما السّلام ينقل أنّه عند ما كان يتحدث عن الأركان الأساسية فى الإسلام ذكر (الولاية) كخامس و أهم ركن، فى حين الصلاة التى توضح العلاقة بين الخالق و الخلق، و الصيام الذى هو رمز محاربة الشهوات، و الزكاة التى تحدّد العلاقة بين الخلق و الخالق، و الحج الذى يكشف الجانب الاجتماعى فى الإسلام، اعتبرت الأركان الأربعة الأساسية الأخرى. ثمّ يضيف

الإمام الباقر عليه السّلام «و لم يناد بشىء كما نودى بالولاية»

لماذا؟

لأنّ تنفيذ الأركان الأخرى لن يتحقق إلّا فى ظل هذا الأصل، أى فى ظل الولاية[۳۱].

و لهذا السبب بالذات روى عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله «من مات بغير إمام مات ميتة الجاهلية»[۳۲].

التأريخ يشهد أنّ بعض الأمم تكون فى الصف الأوّل بين دول العالم و أممه بسبب قيادتها العظيمة و الكفوءة، و لكن نفس الأمّة تنهار و تسقط فى الهاوية، برغم امتلاكها لنفس القوى البشرية و المصادر الأخرى، إذا كانت قيادتها ضعيفة و غير كفوءة.

ثمّ ألم يكن عرب الجاهلية غارقين فى جهلهم و فسادهم و ذلتهم و انحطاطهم، و كانوا نهشة الآكل، بسبب عدم امتلاكهم لقائد كفوء، و لكن ما إن ظهرت القيادة الإلهية الرّبانية المتمثلة بالهادى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى سلك نفس القوم طريق العظمة و التكامل بسرعة كبيرة بحيث أدهش العالم، و هذا يكشف عن دور القائد فى ذلك الزمان و هذا الزمان و فى كل زمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۱

طبعا لقد جعل اللّه للبشرية قائدا لإنقاذ و هداية البشر فى كل عصر و زمان، حيث تقتضى حكمته أن لا تطبّق السعادة إلّا مع وجود ضامن تنفيذى لها. و المهم أن تتعرف المجتمعات على قيادتها و أن لا يقعوا فى شباك القادة الضالين و الفاسدين، حيث تكون النجاة من مخالبهم أمرا صعبا للغاية.

و هذه هى فلسفة عقيدة الشيعة بضرورة وجود إمام معصوم فى كل زمان، كما

يقول الإمام على عليه السّلام: «اللّهم بلى لا- تخلوا الأرض من قائم للّه بحجّة، إمّا ظاهرا مشهورا و إمّا خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج اللّه و بيناته»[۳۳].

و هناك بحث فى نهاية الآية (۱۲۴) من سورة البقرة، حول معنى الإمامة و أهميتها فى دنيا الإنسان.

۴- عميان القلوب

فى القرآن الكريم تعابير لطيفة فى وصف المشركين و الظالمين، حيث يصفهم هنا ب (الأعمى) و هذا الوصف كناية عن الحقيقة التى تقول بأنّ الحق يكون واضحا دوما و فى متناول البصر إذا كانت هناك عين بصيرة تنظر، العين التى تشاهد آيات اللّه فى هذا العالم الواسع، العين التى تعتبر الدروس المكتوبة على صفحات التأريخ؛ العين التى تشاهد عاقبة الظالمين و المستكبرين، العين التى تنظر الحق دون غيره.

أمّا عند ما تكون هناك ستائر و حجب الجهل و الغرور و التعصّب و العناد و الشهوة أمام هذه العين، فإنّها لا تستطيع مشاهدة جمال الحق بالرغم من أنّه غير محجوب بستار.

و

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية نقرأ: «من لم يدله خلق السماوات و الأرض، و اختلاف الليل و النهار، و دوران الفلك و الشمس و القمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۲

و الآيات العجيبات، على أن وراء ذلك أمر أعظم منه، فهو فى الآخرة أعمى و أضل سبيلا»[۳۴].

و جاء فى روايات مختلفة فى تفسير هذه الآية أنّها تعنى الشخص الذى يكون مستطيعا للحج و لكنّه لا يؤديه حتى نهاية عمره ۳۵].

و بدون شك فإنّ هذا المعنى هو أحد مصاديق الآية و ليس كلّها. و قد يكون ذكر هذا المصداق و التأكيد عليه من زاوية دفع المسلمين للمشاركة فيه لمشاهدة هذا الاجتماع الإسلامى العظيم، بما يحويه من أسرار عبادية و مصالح سياسية تتجلى لعين الإنسان يحضر الموسم، و يتعلم الحقائق الكثيرة و المتعدّدة منه.

و

فى روايات أخرى ورد أنّ «شرّ العمى عمى القلب»[۳۶].

على أى حال- كما قلنا سابقا- فإنّ عالم القيامة، هو انعكاس لهذا العالم فى كل ما يحويه وجودنا من أفكار و مواقف و مشاعر و أعمال. لذلك نقرأ فى الآيات ۱۲۴- ۱۲۶ من سورة طه، قوله تعالى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِی أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً. قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۳

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۳ الى ۷۵]

اشارة

وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِیَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (۷۳) وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا (۷۴) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (۷۵)

سبب النّزول

لقد ذكرت أسباب مختلفة لنزول هذه الآيات، إلّا أنّ بعض هذه الأسباب لا يتلائم مع تأريخ النّزول، و بما أن أسباب النّزول هذه قد أفاد منها بعض المنحرفين لأغراض خاصّة، لذلك سوف نقوم هنا بذكرها جميعا:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۹ ؛ ص۷۳

ر العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان) خمسة آراء فى هذا المجال، و هى:

الرأى الأوّل: قالت قريش للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا ندعك تلمس الحجر الأسود حتى تحترم آلهتنا، و قال الرّسول فى قلبه: إنّ اللّه يعلم نفرتى من أصنامهم و إنكارى لها، فما المانع من أن أنظر إلى هذه الآلة باحترام ظاهرا حتى يسمحوا لى باستلام الحجر الأسود. و هنا أنزل اللّه تبارك و تعالى الآيات أعلاه التى نهت الرّسول عن هذا الأمر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۷۴

الرأى الثّانى: اقترحت قريش على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يترك الاستهانة بآلهتهم و الاستخفاف بعقولهم، و أن يبعد عنه العبيد من أصحابه و ذوى الأصول المتواضعة، و الرائحة الكريهة، لكى تحضر قريش مجلسه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يستمعون إليه، فطمع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى إسلامهم، فنزلت الآيات أعلاه تحذّر من هذا الأمر.

الرأى الثّالث: عند ما حطّم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأصنام التى كانت موجودة فى المسجد الحرام، اقترحت قريش عليه أن يبقى الصنم الموضوع على جبل المروة قرب بيت اللّه، فوافق الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى البداية على هذه الاقتراح لكى يحقق من خلاله بعض مصالح الدعوة، إلّا أنّه بعد ذلك عدل عن هذا الأمر و أعطى أوامره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتحطيم هذا الصنم، و عند ما نزلت الآيات أعلاه.

الرأى الرّابع: إنّ مجموعة من قبيلة (ثقيف) و فدت على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عرضت عليه ثلاثة شروط لمبايعته، و كان شرطهم، الأوّل: أن لا يركعوا و لا يسجدوا عند الصلاة، و ثانيا: أن لا يحطموا أصنامهم بأيديهم بل يقوم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك. أمّا الشرط الثّالث: فقد طلبوا فيه من رسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يسمح لهم ببقاء صنم (اللات) بينهم لمدّة سنة.

و قد أجابهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن لا فائدة فى دين لا ركوع و لا سجود فيه، و أمّا تحطيم الأصنام فإذا كنتم ترغبون فى القيام بذلك فافعلوا، و إلّا فنحن نقوم به، أمّا الاستمرار فى عبادة اللات لسنة أخرى، فلا أسمح بذلك.

بعد ذلك قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توضأ، فالتفت عمر بن الخطاب و قال: ما بالكم آذيتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّه لا يدع الأصنام فى أرض العرب. إلّا أنّ ثقيف أصرّت على مطالبها، حتى نزلت الآيات الآنفة.

الرأى الخامس: إنّ وفد ثقيف طلب من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يمهلهم سنة حتى يستلموا الهدايا المرسلة إلى الأصنام، و بعد ذلك يكسرون الأصنام و يسلمون، فهمّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإمهالهم و إجابتهم إلى ما أرادوا لو لا نزول الآيات أعلاه التى نهت عن إجابة طلبهم بشدّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۷۵

و هناك أسباب أخرى للنزول تشبه الآراء التى ذكرناها.

أقول: لا حاجة لبيان ضعف هذه الآراء إذ أنّ بطلان أكثر هذه الآراء كامن فيها، لأنّ مجىء وفود القبائل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و طلباتهم و تحطيم الأصنام، كل هذه الأمور إنّما تمّت بعد فتح مكّة فى العام الثّامن للهجرة، فى حين أنّ هذه السورة نزلت قبل هجرة الرّسول، و فى وقت لم يكن فيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يمتلك القدرة الظاهرية التى تفرض على المشركين التواضع لمقامه، و سوف نقوم بتوضيح أكثر لا حقّا.

التّفسير

بما أنّ الآيات السابقة كانت تبحث حول الشرك و المشركين، لذا فإنّ الآيات التى نبحثها تحذّر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من وساوس و إغواءات هذه المجموعة، حيث لا يجوز أن يبدى أدنى ضعف فى محاربة الشرك و عبادة الأصنام، بل يجب الاستمرار بصلابة أكبر.
فى البداية تقول الآية أنّ وساوس المشركين كادت أن تؤثر فيك: وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا.
ثمّ بعد ذلك تضيف أنّه لو لا نور العصمة و أنّ اللّه تعالى ثبّتك على الحق:
وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا.
و أخيرا لو أنّك ركنت إليهم فسوف يكون جزاءك ضعف عذاب المشركين فى الحياة الدنيا، و ضعف عذابهم فى الآخرة: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۶

بحوث

۱- هل أبدى الرّسول ليونة إزاء المشركين؟

بالرغم من أنّ بعض السطحيين أرادوا الاستفادة من هذه الآيات لنفى العصمة عن الأنبياء، و قالوا أنّه طبقا للآيات أعلاه و أسباب النّزول المرتبطة بها إنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أبدى ليونة إزاء عبدة الأصنام، و أنّ اللّه عاتبه على ذلك. إلّا أنّ هذه الآيات صريحة فى افهام مقصودها بحيث لا- تحتاج إلى شواهد أخرى على بطلان هذا النوع من التفكير، لأنّ الآية الثّانية تقول و بصراحة: وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا. و مفهوم التثبيت الإلهى (و الذى نعتبره بأنّه العصمة) أنّه منع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من التوجه إلى مزالق عبدة الأصنام، و لا يعنى ظاهر الآية- فى حال- أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مال إلى المشركين، ثمّ نهى عن ذلك بوحى من اللّه تعالى.
و توضيح ذلك، إن الآية الأولى و الثّانية هما فى الحقيقة إشارة إلى حالتين مختلفتين للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، الحالة الأولى هى الحالة البشرية و الإنسانية و التى تجلّت بشكل واضح فى الآية الأولى، و بمقتضى هذه الحالة يمكن تأثير وساوس الأعداء فى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاصّة إذا كانت ثمّة مرجحات فى إظهار الليونة و التوجّه إليهم، من قبيل رغبته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أن يسلم زعماء الشرك بعد إظهار الليونة، أو أن يمنع بذلك سفك الدماء، و الآية تكشف عن احتمال وقوع الإنسان العادى و مهما كان قويا تحت تأثير الأعداء.
أمّا الآية الثّانية فهى ذات طبيعة معنوية، إذ هى تبيّن العصمة الإلهية و لطفه الخاص سبحانه و تعالى الذى يشمل به الأنبياء خصوصا نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما يمر بمنعطفات و مزالق دقيقة.
و النتيجة أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالطبع البشرى قد وصل إلى حافة القبول ببعض وساوس الأعداء، إلّا أن التأييد الإلهى (العصمة) ثبته و حفظه و أنقذه من الانزلاق.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۷

و هـذا التعبير نفسه نقرأه فى سورة يوسف حيث جـاء البرهـان الإلـهى فى أدق اللحظـات و أخطرهـا، فى مقابـل الإغـواء الخطير و غير الاعتيادى لامرأة العزيز، حيث قوله تعالى فى الآيـة (۲۴) من سورة يوسف: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ، كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ

و فى اعتقادنـا أنّ الآيـات أعلاه ليست لا تصلح أن تكون دليلا على نفى العصـمة و حسب، بل هى واحـدة من الآيات التى تـدل على العصـمة، لأنّ التثبيت الإلهى هـذا (و الـذى هو كناية عن العصـمة أو التثبيت أو التثبيت الفكرى و العاطفى و السلوكى) لا يخص فقط هذه الحالة، و هذا الموقف، بل هو يشمل الحالات المشابهة الأخرى، و على هذا الأساس تعتبر الآية شاهدا على عصمة الأنبياء و القادة الإلهيين.

أمّا الآية الثالثة التى نبحثها و التى تقول: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً فهى دليل على صحة البحوث الخاصّة بعصـمة الأنبياء، حيث أنّ العصمة ليست حالة جبرية يلتزم فيها النّبى بلا ارادة منه أو وعى، و إنّما هى توأم مع نوع من الوعى الـذاتى و التى تنفـذ مع الحريـة، لـذا فـإنّ ارتكـاب ذنب فى مثـل هـذه الحالات ليس محالا عقلا، و لكن هـذا الإيمان و الوعى الخاص سوف يمنعان صدور الذنب، فلا تتحقق المعصـية عملا، و لو فرضنا تحققها فى الخارج فإنّه سينال عقوبات الجزاء الإلهى (دقق فى ذلك)[۳۷].

۲- لماذا العذاب المضاعف؟

من الواضـح أنّه كلما زاد مقام الإنسان من حيث العلم و الوعى و المعرفة و الإيمان، ازدادت قيمة و عمق الأعمال الخيرة التى يقوم بها، و بدرجة نسبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۸

الوعى العلم و المعرفة، و طبعا سيكون ثوابها أكثر، لذا فإنّنا نقرأ فى بعض الرّوايات: (إنّ الثواب على قدر العقل)[۳۸].

أمّا الثواب و العقاب فسوف يزداد تبعا لهـذه النسبة، فإذا ارتكب إنسان أمّى و ضـعيف الإيمان ذنبا كبيرا، فهـذا ليس بالأمر العجيب، و لهذا السـبب سيكون جزاؤه أخف، أمّا إذا قام عالم مؤمن بارتكاب ذنب صغير فإنّ جزاءه فى مقابل ذلك سيكون أشد من جزاء الأمى فى قبال ذنبه الكبير.

لهـذا السـبب بالذات نقرأ فى الآيتين (۳۰- ۳۱) من سورة الأحزاب خطابا بهـذا المضـمون إلى نساء النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم حيث يقول تعـالى: يـا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَـةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً.

و

فى الرّوايات نقرأ هذا المفهوم: «يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[۳۹].

هـذه الآيـات تشير إلى هـذه الحقيقـة، فهى تقـول للرسـول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: إذا أظهرت ميلا- (و حاشـاه) نحـو الشـرك و المشركين فإنّ عقابك سيتضاعف فى هذه الدنيا و فى الآخرة.

۳- معنى (الضعف)

يجب الانتباه إلى هذه الملاحظة، و هى أن كلمة (ضعف) فى اللغة العربية ليس المقصود بها مرّتين فقط، بل مرّتان و عدّة مرّات أيضا.

یقول الفیروزآبادی، (العالم اللغوی المعروف فی القرن الثّامن الهجری) فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۹

القاموس: یقال فی بعض الأحیان «ضعف شیء معین» و هی تعنی المرّتین و الثلاث مرّات و ما شابهها، لأنّ هذه الکلمة تعنی الإضافة غیر المحدودة.

الدلیل علی هذا القول، أنّ الآیات القرآنیة- و فی خصوص الحسنات- تقول: إِنْ تَکُ حَسَنَةً یُضاعِفْها[۴۰] و فی موقع آخر تقول: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها[۴۱].

و

فی الرّوایات الإسلامیة ورد عن الإمام جعفر الصّادق علیه السّلام قوله فی تفسیر الآیة (۲۶۱) من سورة البقرة: «إذا أحسن المؤمن عمله ضاعف اللّه عمله بکل حسنة سبعمائة ضعف، و ذلک قول اللّه وَ اللَّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ[۴۲].

و لکن هذا الکلام لا یمنع من أن تطلق هذه الکلمة علی «التثنیة» بمعنی الضعفین. أو عند ما تذکر علی شکل مضاف فإنّها تعنی ثلاثة أضعاف مثلا نقول:

ضعف الواحد.

۴- تفسیر جملة إِذاً لَاتَّخَذُوکَ خَلِیلًا

المشهور بین المفسّرین أنّ القرآن یعنی بالآیة هذه أنّک إذا أظهرت توجها للمشرکین فسوف یعتبرونک صدیقا لهم. إلّا أنّ بعض المفسّرین یعتبر أنّ معنی الجملة، أن المشرکین سیعتبرونک- یا رسول اللّه- فقیرا لهم و محتاجا إلیهم. إذ فی المعنی الأوّل (خلیل) مأخوذة من (خلّة) علی وزن (قلّة) و تعنی الصداقة. أمّا فی المعنی الثّانی فإنّ (خلّة) علی وزن (غلّة) و تعنی العوز و الفقر و الحاجة. لکن من الواضح أنّ الصحیح هو المعنی الأوّل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۰

۵- إلهی لا تکلنی إلی نفسی

فی المصادر الإسلامیة نقرأ

أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند ما نزلت هذه الآیات قرأ هذا الدعاء «اللّهم لا تکلنی إلی نفسی طرفة عین أبدا».

و هذا الدعاء المهم لرسول الهدی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یعطینا درسا مهمّا، و هو أنّه یجب أن نذکر اللّه دائما و نلتجئ إلیه، و نعتمد علی لطفه، حیث أنّ الأنبیاء المعصومین لم یسلموا من المزالق بدون نصرة اللّه و تثبیته لهم، إذن فکیف بنا نحن مع کل ما یحیطنا من أشکال الوسوسة و الإغواء الشیطانی!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۱

الآیتان [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۷۶ الی ۷۷]

اشارة

وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلًا (۷۶) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا (۷۷)

أسباب النّزول

المشهور أنّ هـذه الآيات نزلت فی أهل مكّة بعد أن قرروا إخراج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم منها. ثمّ بدّلوا رأیهم بعد ذلک و قرروا قتله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فحاصروا بیته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لكنّ اللّه أنجاه من هذه المكیدة بشكل إعجازی و استطاع أن یهاجر إلی المدینة المنوّرة.

البعض یری أنّ هـذه الآیات نزلت بشأن اقتراح یهود المدینـة علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی أن یخرج منها إلی بلاد الشام باعتبار أنّ المدینة لیست أرض الأنبیاء، بل إنّ أرض الأنبیاء هی الشام، لذلک قال الیهود لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إذا كنت ترغب بانتشار دعوتک فهاجر إلی هناک، إلی بلاد الشام.

و لكن لمّا كانت هـذه السورة مكّیـة فیتّضح عدم صـحّة هذا السبب للنزول، فضـلا عن أنّنا سوف نری أثناء الحدیث عن الآیات أنّها- أیضا- لا تتوافق مع السبب المذكور.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۲

التّفسیر

مؤامرة خبیثة أخری:

فی الآیات السابقة رأینا كیف أنّ المشركین أرادوا من خلال مكائدهم المختلفة أن یحرفوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الطریق المستقیم، لكن اللّه أنجاه بلطفه له و رعایته إیّاه، و بذلک فشلت خطط المشركین.

بعـد تلک الأحـداث، و طبقا للآیات التی بین أیـدینا، وضع المشـركون خطّـة أخری للقضاء علی دعوة الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هذه الخطّة تقضـی بإبعاد الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن مسقط رأسه (مكّة) إلی مكان آخر قد یكون مجهولا و بعیدا عن الأنظار. إلّا أنّ هذه الخطّة فشلت أیضا بلطف اللّه أیضا.

الآیة الأولی تقول: وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها بخطة دقیقة.

و بما أنّ كلمة «یستفزونک» مشتقة من «استفزاز» التی تأتی فی بعض الأحیان بمعنی قطع الجذور، و فی أحیان أخری بمعنی الإثارة مع السرعة و المهارة، فإنّنا نفهم من ذلک أنّ المشـركین وضـعوا خطّة محكمة تجعل الوسط المحیط بالرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم غیر مناسب له، و تثیر عامّة الناس ضدّه كی یخرجوه بسـهولة من مكّة. لكن هؤلاء لا یعرفون أنّ هناک قوّة أعظم من قوّتهم، و هی قوّة الخالق الكبیر حیث تتلاشی إرادتهم دون إرادته عزّ و جلّ.

ثمّ یحـذّرهم القرآن بعـد ذلـک بقوله: وَ إِذاً لا ـ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا فهؤلاء سـیبادون بسـرعة بسـبب ذنبهم العظیم فی إخراج القائد الكفوء- الذی تذهب نفسه حسرات علی العباد- من البلد، إذ یعتبر ذلک أوضح مدالیل كفران النعمة، و مثل هؤلاء القوم لا یستحقون الحیاة و یستحقون العذاب الإلهی.

إنّ هذا الأمر لا یخص مشركی العرب و حسب، بل هو سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا. و هذه السنة تنبع من منطق واضح،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۳

حيث أنّ هؤلاء القوم لا يشكرون النعم، و يحطمون مصباح هدايتهم و منبع النور إليهم بأيديهم، إنّ مثل هؤلاء الأقوام لا يستحقون رحمة الخالق، و إنّ العقاب سيشملهم. و نعلم هنا أنّ اللّه تبارك و تعالى لا يفرق بين عباده، و بذلك فإنّ الأعمال المتشابهة فى الظروف المتشابهة لها عقاب متشابه، و هذا هو معنى عدم اختلاف سنن الخالق جلّ و علا.

إنّ السنن الإلهية هى عكس السنن و القوانين التى يضعها البشر حيث تقتضى مصالحهم فى يوم أن تكون هناك سنة أو قانون معين، و فى يوم آخر يمكن أن تنقلب هذه السنّة أو القانون إلى عكسه تماما.

و نعرف هنا أنّ اختلاف السنن و القوانين البشرية إمّا أن يعود إلى عدم وضوح الأمور، و التى عادة ما تتوضح بمرور الزمن، و تنكشف للإنسان اشتباهاته و أخطاؤه، أو أنّ السبب فى ذلك يعود إلى مقتضيات المصالح الخاصّة و شروط الحياة التى تتحوّل و تتغيّر فى كل وقت. و لمّا كانت هذه الأمور لا تؤثّر على الإرادة الإلهية، فإنّ ما يصدر عن الحكمة الإلهية من سنن تكون ثابتة فى جميع الحالات و الشرائط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۴

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۸ الى ۸۱]

اشارة

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (۷۸) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (۷۹) وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (۸۰) وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (۸۱)

التّفسير

الفناء نهاية الباطل:

بعد سلسلة الآيات التى تحدثت عن التوحيد و الشرك و عن مكائد المشركين و مؤامراتهم، تبحث هذه الآيات عن الصلاة و الدعاء و الارتباط باللّه و التى تعتبر عوامل مؤثّرة فى مجاهدة الشرك، و وسيلة لطرد إغواءات الشيطان من قلب و روح الإنسان، إذ تقول الآيات فى البداية أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً.

«دلوك الشمس» يعنى زوال الشمس من دائرة نصف النهار و التى يتحدّد معها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۵

وقت الظهر. و فى الأصل فإنّ (دلوك) مأخوذة من (دلك) حيث أنّ الإنسان يقوم بدلك عينيه فى ذلك الوقت لشدّة ضوء لشمس. أو أنّ كلمة (دلك) تعنى (الميل) حيث أنّ الشمس تميل من دائرة نصف النهار من طرف المغرب. أو أنّها تعنى أنّ الإنسان يضع يده فى قبال الشمس حيث يقال بأنّ الشخص يمنع النور عن عينيه و يميله عنه.

على أى حال، فى الرّواية التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام توضح لنا أنّ معنى (دلوك) هو زوال الشمس.

فقد روى العاملى فى (وسائل الشيعة) أنّ عبيد بن زرارة سأل الإمام الصادق عليه السّلام عن تفسير الآية فقال عليه السّلام: «إنّ اللّه افترض أربع صلوات أوّل وقتها زوال الشمس إلى انتصاف الليل، منها صلاتان أوّل وقتهما من عند زوال الشمس إلى غروب الشمس،

إلّا أنّ هذه قبل هذه، و منها صلاتان أوّل وقتهما من غروب الشمس إلى انتصاف الليل إلّا أنّ هذه قبل هذه»[۴۳].

و

فی رواية أخرى رواها المحدّث الكبير (زرارة بن أعين) عن الإمام الباقر عليه السّلام، فی تفسير الآية قال عليه السّلام: «دلوكها زوالها، و غسق الليل إلى نصف الليل، ذلك أربع صلوات وضعهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وقتهنّ للناس، و قرآن الفجر صلاة الغداة»[۴۴].

لكن وضع بعض المفسّرين احتمالات أخرى لمعنى (دلوك) إلّا أنّا آثرنا تركها لأنّها لا تستحق الذكر.

و أمّا (غسق الليل) فإنّها تعنی منتصف الليل، حيث أنّ (غسق) تعنی الظلمة الشديدة، و أكثر ما يكون الليل ظلمة فی منتصفه.

أمّا (قرآن) فهی تعنی كلاما يقرأ. و (قرآن الفجر) هنا تعنی صلاة الفجر.

و بهذا الدليل تعتبر هذه الآية من الآيات التی تشير بشكل إجمالی إلى أوقات

الصلوات الخمس. و مع أخذ الآيات القرآنية الأخرى بنظر الإعتبار فی مجال وقت الصلوات و الرّوايات الكثيرة الواردة فی هذا الشأن، يمكن تحديد أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق.

و يجب الانتباه هنا إلى أنّ بعض الآيات تشير إلى صلاة واحدة فقط، كقوله تعالى: حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى ۴۵]. حيث (الصلاة الوسطى) وفقا لأصح التفاسير هی صلاة الظهر.

و فی بعض الأحيان تشير الآية إلى ثلاث صلوات من الصلوات الخمس كما فی الآية (۱۱۴) من سورة هود، فی قوله تعالى: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ حيث يشير تعبير طَرَفَيِ النَّهارِ إلى صلاتی الصبح و المغرب، و أمّا زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ فهی إشارة إلى صلاة العشاء.

و فی بعض الأحيان تشير الآية إلى الصلوات الخمس بشكل إجمالی، كما فی الآية التی نبحثها (راجع للمزيد من التوضيح نهاية تفسير الآية (۱۱۴) من سورة هود).

على أی حال، لا يوجد ثمّة شك فی أنّ هذه الآيات لم توّضح جزئيات أوقات الصلاة، بل تشير إلى الكليات و الخطوط العامّة، مثلها مثل الكثير من الأحكام الإسلامية الأخرى، أمّا التفاصيل فإنّها وردت فی سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة الصادقين من أهل بيته عليهم السّلام.

الآية بعد ذلك تقول: إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً و هنا يطرح سؤال حول هوية الذی يقوم بالمشاهدة، من هو يا ترى؟ الرّوايات الواردة فی تفسير هذه الآية تقول إنّ ملائكة الليل و النهار هی التی تشاهد، لأنّه فی بداية الصباح تأتی ملائكة النهار لتحل محل ملائكة الليل التی كانت تراقب العباد، و حيث أنّ صلاة الصبح هی فی أوّل وقت الطلوع، لذلك فإنّ المجموعتين من الملائكة تشاهدها

و تشهد عليها.

و الرّوايات فی هذه المجال نقلها علماء الشيعة و السنّة.

فمثلا ينقل أحمد و النسائی و ابن ماجه و الترمذی و الحاكم عن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، وفقا لما نقله عنهم صاحب تفسير (روح المعانی) أثناء تفسير الآية قولهم

عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «تشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار»[۴۶].

أمّا البخاری و مسلم فقد نقلا نفس هذا المعنى فی صحيحيهما وفقا لما نقله عنهم صاحب تفسير (روح المعانی) فی المجلد الخامس

عشر، صفحة (۱۲۶) من تفسيره.

و لمزيد الاطلاع على الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السّلام فى هذا المورد يمكن مراجعة المجلد الثّالث من تفسير (نور الثقلين) فى نهاية حديثه عن الآية الكريمة.

و من هنا يتّضح أنّ أفضل وقت لأداء صلاة الصبح هى اللحظات الأولى لطلوع الفجر.

و بعد أن تذكر الآية أوقات الصلوات الخمس تنتقل الآية التى بعدها إلى قوله تعالى: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ۴۷] المفسّرون الإسلاميون المعروفون يعتبرون هذا التعبير إشارة إلى نافلة الليل التى وردت روايات عديدة فى فضيلتها، و بالرغم من أنّ الآية لا تصرّح بهذا الأمر، إلّا أن هناك قرائن مختلفة ترجح هذا التّفسير.

ثمّ تقول الآية نافِلَةً لَكَ أى برنامج إضافى علاوة على الفرائض اليومية.

و هذا التعبير اعتبره الكثير بأنّه دليل على وجوب صلاة الليل على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث أنّ هذه (النافلة) و التى هى بمعنى (زيادة فى الفريضة)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۸

تخصك أنت دون غيرك يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

أمّا البعض الآخر فيعتقد بأنّ صلاة الليل كانت بالأصل واجبة على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقرينة آيات سورة المزمّل، إلّا أنّ هذه الآية نسخت الوجوب و أبدلته بالاستحباب.

و لكن هذا التّفسير ضعيف، لأنّ النافلة لم تكن تعنى (الصلاة المستحبّة) كما نسميها اليوم، بل تعنى الزيادة و الإضافة، و نعلم أنّ صلاة الليل كانت واجبة على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لذلك فهى إضافية على الفرائض اليومية.

على أية حال فى ختام الآية تتوضح نتيجة هذا البرنامج الإلهى الروحانى الرفيع حيث تقول: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً.

و لا ريب فإنّ المقام المحمود هو مقام مرتفع جدّا يستثير الحمد، حيث أن (محمود) مأخوذة من (الحمد). و بما أنّ هذه الكلمة وردت بشكل مطلق، لذا فقد تكون إشارة إلى أنّ حمد الأوّلين و الآخرين يشملك.

الرّوايات الإسلامية الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السّلام أو عن طريق أهل السنة، تشير إلى أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى. فالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أكبر الشفعاء فى ذلك العالم، و شفاعته تشمل الذين يستحقونها.

أمّا الآية التى بعدها فإنّها تشير إلى أحد التعاليم الإسلامية الأساسية و الذى ينبع من روح التوحيد و الإيمان: وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ۴۸]. فأى عمل فردى أو اجتماعى لا أبدؤه إلّا بالصدق و لا أنهيه إلّا بالصدق، فالصدق و الإخلاص و الأمانة هى الخط الأساس لبداية و نهاية مسيرتى.

بعض المفسّرين أراد تحديد المعنى الواسع لهذه الآية فى مصداق أو مصاديق معنية، فمثلا قال بعضهم: إنّ الآية تعنى الدخول إلى المدينة و الخروج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۹

منها إلى مكّة المكرّمة، أو الدخول إلى القبر و الخروج منه يوم البعث، و أمثال هذه الأمور، و لكن من الواضح جدا أنّ التعبير القرآنى الجامع فى الآية الكريمة لا يمكن تحديده، فهو طلب فى الدخول و الخروج الصادق من جميع الأمور و فى كل الأعمال و المواقف و البرامج.

و فى الحقيقة فإنّ سر الإنتصار يكمن هنا، و هذا هو طريق الأنبياء و الأولياء الرّبانيين حيث كانوا يتجنّبون كل غش و خداع و حيلة فى أفكارهم و أقوالهم و أعمالهم و كل ما يتعارض مع الصدق.

و عادة فإنّ المصائب التى نشاهدها اليوم و التى تصيب الأفراد و المجتمعات و الأقوام و الشعوب، إنّما هى بسبب الانحرافات عن هذا

الأساس، ففی بعض الأحيان يكون أساس علمهم قائما على الكذب و الغش و الحيلة، و فی بعض الأحيان يدخلون إلى عمل معين بصدق و لكنهم لا يستمرون على صدقهم حتى النهاية. و هذا هو سبب الفشل و الهزيمة.

أمّا الأصل الثّانی الذی يعتبر من ناحية ثمرة لشجرة التوحيد، و من ناحية أخرى نتيجة للدخول و الخروج الصادق فی الأعمال، فهو ما ذكرته الآية فی نهايتها: وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً لماذا؟ لأنّنی وحيد، و الإنسان الوحيد لا يستطيع أن ينجز عملا، و لا يستطيع أن ينتصر فی مقابل جميع هذه المشاكل فيما إذا اعتمد على قوته وحدها، لذلك فسؤاله من اللّه تبارك و تعالى، هو انصرنی و اجعل لی نصيرا.

أعطنی يا إلهی، لسانا ناطقا، و أدلة قوية فی مقابل الأعداء، و أتباعا يضحّون بأنفسهم، و إرادة قوية، و فكرا وضّاء، و عقلا واسعا بحيث تقوم كل هذه الأمور بنصرتی، فغيرك لا يستطيع إعطائی هذه الأشياء كلها.

و بعد أن ذكرت الآيات (الصدق) و (التوكل) جاء بعدها الأمل بالنصر النهائی، و الذی يعتبر بحدّ ذاته عاملا للتوفيق فی الأعمال، إذ خاطبت الآية

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۰

الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بوعد اللّه تعالى: وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ ۴۹]، لأنّ طبيعة الباطل الفناء و الدمار: إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً. فللباطل جولة، إلّا أنّه لا يدوم و العاقبة تكون لانتصار الحق و أصحابه و أنصاره.

بحوث

١- صلاة اللّيل عبادة روحية عظيمة

إنّ التأثيرات المختلفة لضوضاء الحياة اليومية تؤثر على الإنسان و على أفكاره و تجرّه إلى وديان مختلفة بحيث يصعب معها تهدئة الخاطر، و صفاء الذهن، و الحضور الكامل للقلب فی مثل هذا الوضع. أمّا فی منتصف الليل و عند السحر عند ما تهدأ هذه ضوضاء حياتية المادية، و يرتاح جسم الإنسان، و تهدأ روحه بعد فترة من النوم، فإنّ حالة من التوّجه و النشاط الخاص تخالج الإنسان، فی مثل هذا المحيط الهادیء و البعيد عن كل أنواع الرياء، مع حضور القلب، يعيش الإنسان حالة خاصّة قادرة على تربيته و تكامل روحه.

لهذا السبب نرى أن عباد اللّه و محبيه يتوقون إلى التعبّد منتصف الليل، لأنّه يزكّی أرواحهم، و يحيی قلوبهم، و يقوی إرادتهم، و يكمل إخلاصهم.

و فی بداية عصر الإسلام كان الرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستفيد من هذا البرنامج الروحی فی تربية المسلمين، و كانت يبنی شخصياتهم بحيث كانوا يتغيّرون تماما عمّا كانوا عليه فی السابق، يعنی أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يجعل منهم شخصيات جديدة ذات إرادة قوية و شجاعة، و مؤمنين ذوی إخلاص و نقاء.

و قد يكون (المقام المحمود) الذی ورد ذكره فی الآيات أعلاه نتيجة لصلاة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۱

الليل، إشارة لهذه الحقيقة.

و عند ما نبحث الرّوايات الواردة فی المصادر الإسلامية عن فضيلة صلاة الليل، نرى أنّها توضح هذه الحقيقة. و على سبيل المثال يمكن أن نقف مع هذه النماذج:

-۱

عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «خيركم من أطاب الكلام و أطعم الطعام و صلّى بالليل و الناس نيام»[۵۰].

۲- و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، أنّه عليه السّلام قال: «قيام الليل مصحة للبدن، و مرضاة للرّب عزّ و جلّ، و تعرّض للرحمة، و تمسك بأخلاق النّبيين»[۵۱].

۳- و

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه أوصى أحد أصحابه بقوله: «لا تدع قيام الليل فإنّ المغبون من حرم قيام الليل»[۵۲].

۴- و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من صلّى بالليل حسن وجهه بالنهار»[۵۳].

و نقرأ فى بعض الرّوايات أنّ هذه العبادة (صلاة الليل) على قدر من الأهمية بحيث أنّ غير الطاهرين و المحسنين لا يوفقون إليها.

۵-

جاء رجل إلى أمير المؤمنين على عليه السّلام و قال له: إنّى محروم من صلاة الليل، فأجابه عليه السّلام: «أنت رجل قد قيدتك ذنوبك»[۵۴].

۶-

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «إنّ الرجل ليكذب الكذبة و يحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم بها صلاة الليل حرم بها الرّزق»[۵۵].

۷- و بالرغم من أننا نعلم أن شخصا مثل على بن أبى طالب لا يترك صلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۲

الليل أبدا، و نظرا لأهمية هذه الصلاة نرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوصاه بها فى جملة من وصاياه له، إذ قال له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أوصيك فى نفسك بخصال فاحفظها، ثمّ قال: اللهم أعنه ... و عليك بصلاة الليل، و عليك بصلاة الليل، و عليك بصلاة الليل!»[۵۶].

۸- و

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال لجبرئيل عليه السّلام: عظنى، فقال جبرائيل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا محمّد، عش ما شئت فإنّك ميت، و أحبب ما شئت فإنّك مفارقه، و اعمل ما شئت فإنّك ملاقيه، و اعلم أنّ شرف المؤمن صلاته بالليل، و عزّه كفّه عن أعراض النّاس»[۵۷].

إنّ هذه الوصايا الملكوتية لجبرائيل تدل على أنّ صلاة الليل تضفى على الإنسان من الإيمان و الروحانية و قوة الشخصية ما يكون سببا فى شرفه كما أن كفّه الأذى عن الآخرين يكون سببا فى عزته.

۹-

عن الإمام الصّادق عليه السّلام قال: «ثلاثة هنّ فخر المؤمن و زينة فى الدنيا و الآخرة، الصّلاة فى آخر الليل و يأسه ممّا فى ايدى الناس و و الآية الإمام من آل محمّد».

۱۰-

عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «ما من عمل حسن يعمله العبد إلّا و له ثواب فى القرآن إلّا صلاة الليل، فإنّ اللّه لم يبيّن ثوابها لعظيم خطرها عنده فقال:

تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفا و طمعا وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ* فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما

كانُوا يَعْمَلُونَ ۵۸].

و لصلاة اللّيل- بالطبع- آداب كثيرة، و لكن لا بأس أن نذكر هنا أبسط شكل لها، حتى يستطيع عشاق و محبّو هذه العبادة الروحية بها و الاستفادة منها:

و إنّ صلاة الليل تتكون بأبسط صورها من (۸۵) ركعة، و هى مقسمة إلى ثلاثة أقسام هى:

أ- أربع صلوات، ذات ركعتين، يكون مجموعها ثمانى ركعات و تسمّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۳

(نافلة الليل).

ب- صلاة واحدة ذات ركعتين، و تسمّى ب (الشفع).

ج- صلاة واحدة ذات ركعة واحدة، و تسمّى ب (الوتر).

أمّا طريقة أداء هذه الصلاة فهى لا تختلف عن صلاة الصبح، إلّا أنّها لا تحتوى على الأذان و الإقامة، و الأفضل إطالة قنوت ركعة الوتر[۵۹].

۲- ما هو المقام المحمود؟

المقام المحمود- كما هو واضح من اسمه- له معنى واسع بحيث يشمل كل مقام يستحق الحمد، و لكن من المسلّم بأن المقصود به هنا، هو الإشارة إلى المقام الممتاز و الخاص الذى اختص به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بسبب عباداته الليلية و دعائه فى وقت السحر.

و المعروف بين المفسّرين- كما قلنا سابقا- أنّ هذا المقام هو مقام الشفاعة الكبرى للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و هذا التّفسير ورد فى روايات متعدّدة، ففى تفسير العياشى عن الإمام الصادق أو الباقر عليهما السّلام، نقرأ فى تفسير قوله تعالى: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً أنّه قال: «هى الشّفاعة».

و قد حاول بعض المفسّرين الوصول إلى هذه الحقيقة من مفهوم الآية نفسها، فهم يعتقدون أنّ جملة عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ دليل على أنّ اللّه سوف يعطيك هذا المقام فى المستقبل. المقام الذى سوف يحمده الجميع، لأنّ فائدته سوف تنال الجميع (لأنّ محمود فى الجملة أعلاه جاءت مطلقة غير مقيدة بشرط). إضافة إلى ذلك فإنّ الحمد فى مقابل عمل معين هو أمر اختيارى، و الشىء الذى يحتوى على جميع هذه الصفات لا يمكن أن يكون سوى الشفاعة الكبرى و العامّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۴

لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۶۰].

و هناك احتمال أن يكون المقام المحمود هو أقصى القرب من الخالق عزّ و جلّ، و الذى تكون إحدى آثاره هى الشفاعة الكبرى. (فتأمل ذلك).

و بالرغم من أنّ المخاطب فى هذه الآية- ظاهرا- هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّه يمكن تعميم الحكم و القول بأنّ جميع الأشخاص المؤمنين الذين يقومون ببرنامج التلاوة و صلاة الليل لهم نصيب فى هذا المقام المحمود، و سوف يقتربون من الساحة الإلهية بمقدار إيمانهم و عملهم، و بنفس المقدار سوف يقيمون بالشفاعة للآخرين.

إنّنا نعلم أنّ أى مؤمن و بمقدار إيمانه له نصيب من مقام الشفاعة، إلّا أنّ المصداق الأتم و الأكمل لهذه الآية هو شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۳- العوامل الثّلاثة للانتصار

فی میادین الصراع بین الحق و الباطل یکون جیش الباطل- عادة- ذا عدّة و عدد أکثر، إلّا أن جیش الحق- بالرغم من قلّة أفراده و وسائله الظاهریة- یحصل علی انتصارات عظیمة. و یمکن مشاهدة نماذج من ذلک فی غزوات بدر و الأحزاب و حنین، و فی عصرنا الحاضر یمکن مشاهدة ذلک فی الثورات المنتصرة للأمم المستضعفة فی مقابل الدول المستکبرة.

و هذا الأمر یکون سبب تحلّی أنصار الحق بقوّة معنویة خاصّة بحیث تصنع من (الإنسان) أمّة. و فی الآیات أعلاه تمت الإشارة إلی ثلاثة عوامل للانتصار، العوامل التی ابتعد عنها مسلمو الیوم، و لهذا السبب نری هزائمهم المتکرّرة فی مقابل الأعداء و المستکبرین.

و العوامل الثلاثة هی: الدخول الصادق و الخالص فی الأعمال، و الاستمرار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۵

علی هذه الحالة الصادقة حتی النهایة رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ ثمّ الاعتماد علی قدرة الخالق جلّ و علا، و الاعتماد علی النفس، و ترک أی اعتماد أو تبعیة للأجانب وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْکَ سُلْطاناً نَصِیراً.

و بهذا الشکل فلیست هناک أیة سیاسیة تؤثر فی الإنتصار کما فی الصدق و الإخلاص، لیس هناک أی اعتماد أفضل من الاعتماد علی الخالق و الاستقلال و عدم التبعیة.

کیف یرید المسلمون أن ینتصروا علی الأعداء الذین قاموا بغصب أراضیهم و صادروا مصادرهم الحیاتیة فی حین أنّهم مرتبطون بأعدائهم فی المجالات السیاسیة و العسکریة و الاقتصادیة؟ هل نستطیع أن ننتصر علی العدو بواسطة السلاح الذی نشتریه منه؟

۴- حتمیة انتصار الحق و هزیمة الباطل

نواجه فی الآیات أعلاه أصلا تاما، و أساسا آخر، و سنة إلهیة خالدة تزرع الأمل فی قلوب أنصار الحق، هذا الأصل هو أنّ عاقبة الحق الإنتصار، و عاقبة الباطل الاندحار، و أنّ للباطل صولة و برق و رعد، و له کر و فر، إلّا أن عمره قصیر، و فی النهایة یکون مآله السقوط و الزوال .. الباطل کما یقول القرآن: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما یَنْفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ [۶۱].

و الدلیل علی هذا الموضوع کامن فی باطن کلمة الباطل، حیث أنّه لا یتفق مع القوانین العامّة للوجود، و لیس له من رصید من الواقعیة و الحقیقة.

إنّ الباطل شیء مصنوع و مزوّر، لیست له جذور، أجوف، و الأشیاء التی لها صفات کهذه- عادة- لا یمکنها البقاء طویلا.

أمّا الحق فله أبعاد و جذور متناسقة مع قوانین الخلق و الوجود، و مثله ینبغی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۶

أن یبقی.

أنصار الحق یعتمدون سلاح الإیمان، منطقهم الوفاء بالعهد، و صدق الکلام، و التضحیة، و هم مستعدون أن یضحوا بأنفسهم و الاستشهاد فی سبیل اللّه، قلوبهم منوّرة بنور المعرفة، لا یخافون أحدا سوی اللّه، و لا یعتمدون إلّا علیه، و هذا هو سر انتصارهم.

۵- آیة جاء الحق ... و قیام المهدی علیه السّلام

فی بعض الرّوایات تمّ تفسیر قوله جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ بقیام دولة المهدی علیه السّلام، فالإمام الباقر یبیّن أنّ مفهوم الکلام الإلهی هو:

«إذا قام القائم ذهبت دولة الباطل»[۶۲].

و فی روایة أخری نقرأ أنّه حینما ولد المهدی علیه السّلام کان مکتوبا علی عضده قوله تعالی جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ کانَ زَهُوقاً[۶۳].

إنّ مفهوم هذه الأحادیث لا یحصر المعنی الواسع للآیة بهذا المصداق، بل إنّ ثورة المهدی علیه السّلام و نهضته هی من أوضح المصادیق حیث تکون نتیجتها الإنتصار النهائی للحق علی الباطل فی کل العالم.

و بالنسبة للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقرأ أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دخل فی یوم فتح مکّة، المسجد الحرام و حطم (۳۶۰) صنما کانت لقبائل العرب، و کانت موضوعة حول فناء الکعبة، و کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یحطمها الواحد تلو الآخر بعصاه، و هو یقول: جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ کانَ زَهُوقاً.

و خلاصة القول: إنّ حقیقة انتصار الحق و انهزام الباطل هی تعبیر عن قانون عام یجری فی مختلف العصور، و انتصار الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی الشرک و الأصنام،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۷

و نهضة المهدی علیه السّلام الموعودة و انتصاره علی الظالمین فی العالم، هما من أوضح المصادیق لهذا القانون العام.

و هذا القانون یبعث الأمل فی نفوس أهل الحق، و یعطیهم القوة علی مواجهة مشاکل الطریق فی عملهم و مسیرهم الإسلامی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۸

الآیة [سورة الإسراء (۱۷): آیة ۸۲]

اشارة

وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لا یَزِیدُ الظَّالِمِینَ إِلاَّ خَساراً (۸۲)

التّفسیر

القرآن و صفة للشفاء

الآیة التی نبحثها الآن تشیر إلی التأثیر الکبیر للقرآن الکریم و دوره البنّاء فی هذا المجال حیث تقول: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ أمّا الظالمون فإنّهم بدلا من أن یستفیدوا من هذا الکتاب العظیم، فإنّهم یتمسکون بما لا ینتج لهم سوی الذل و الهوان وَ لا یَزِیدُ الظَّالِمِینَ إِلَّا خَساراً.

بحوث

۱- مفهوم کلمة (من) فی مِنَ الْقُرْآنِ

نعرف أنّ كلمة (من) فى مثل هذه الموارد تأتى للتبعيض، إلّا أنّ الشـفاء و الرحمة لا تخص قسـما من القرآن، بل هى صفة لكل آياته، لذا فإنّ كبار المفسّرين يميلون إلى اعتبار (من) هنا بيانية. و لكن البعض احتمل أن تكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۹

تبعيضـية كذلك، و هى بذلك تشير إلى النزول التدريجى للقرآن- خاصّة و أنّ (ننزل) فعل مضارع- لذا فإنّ معنى الجملة يكون: (إنّنا ننزل القرآن و كل قسم ينزل منه، هو بحدّ ذاته و لوحده يعتبر شفاء و رحمة) (فتدبّر جيدا).

۲- الفرق بين الشّفاء و الرّحمة

إنّ (الشـفاء) هو فى مقابـل الأـمراض و العيوب و النواقص، لـذا فـإنّ أوّل عمـل يقوم به القرآن فى وجود الإنسـان هو تطهيره من أنواع الأمراض الفكرية و الأخلاقية الفردية منها و الجماعية.

ثمّ تأتى بعـدها مرحلـة (الرحمـة) و هى مرحلـة التخلّق بأخلاق اللّه، و تفتّح براعم الفضائل الإنسانية فى أعماق الأفراد الذين يخضـعون للتربية القرآنية.

بعبارة أخرى: إنّ الشفاء إشارة إلى (التطهير) و (الرحمة) إشارة إلى (البناء الجديد). أو بتعبير الفلاسفة و العارفين، فإنّ الأولى تشير إلى مقام (التخلية) بينما الثّانية تشير إلى مقام (التحلية).

۳- الظّالمون و نصيبهم من القرآن

ليس فى هـذه الآيـة القرآنية و حسب، بل فى الكثير من الآيات الأخرى، نقرأ أنّ الظالمين يزداد جهلهم و بؤس حالهم، بدل الاسـتفادة من نور الآيات الإلهية!! إنّ ذلك يعود إلى أنّ وجودهم قائم بالأساس على قواعد الكفر و الظلم و النفاق، لذلك فإنّهم أين ما يجدون الحق يحاربونه، و هذه الحرب للحق و أهله تزيد فى بؤسهم و تقوى روح الطغيان و التمرّد عندهم.

فإذا أعطينا- مثلا- وجبة طعام متكاملة لعالم مجاهد، فإنّه سيسـتفيد من تلك الطاقة لأجل التربية و التعليم و الجهاد فى طريق الحق، أمّا إذا أعطينا نفس وجبة الطعام هذه إلى شخص ظالم، فأنّه سيستفيد من هذه الطاقة فى تموين قدرة الظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۰

لديه أكثر، و هذا المثال يكشف عن أنّه لا يوجد اختلاف فى المادة الإلهية نفسها (المعنى هنا القرآن الكريم) بل الاختلاف فى أمزجة و أفكار و استعداد الإنسان المتلقى.

فالآيـات القرآنيـة طبقـا للمثـال، هى كقطرات المـاء التى تكون سـببا فى إنبـات الورود فى البسـاتين، بينمـا تنبت الأشواك فى الأرض السبخة.

و لهذا السـبب ينبغى أن تتهيأ مسـبقا الأرضية حتى تتم الاستفادة من القرآن، إضافة إلى أنّ فاعلية الفاعل يشترط فيها قابلية المحل كما يصطلح.

و هنا تتّضـح الإجابـة على السؤال الذى يقول: كيف لا يهدى القرآن أمثال هؤلاء الأشـخاص فى حين أنّه كتاب هداية؟ إذ لا ريب أنّ القرآن قادر على هداية الضالين، و لكن بشـرط أن يبحث هؤلاء عن الحق، و يكونوا فى مستوى قبوله و الإذعان له. أمّا واقع المعاندين و أعداء الحق فإنّه يكشف عن تعامل هؤلاء سلبيا مع القرآن، و لذلك لا يستفيدون من القرآن، بل يزداد عنادهم و كفرهم، لأنّ تكرار الذنب يكرس فى روح الإنسان حالة الكفر و العناد.

۴- القرآن دواء ناجع لکل الأمراض الاجتماعیة و الأخلاقیة

إنّ الأمراض الروحیة و الأخلاقیة لها شبه کبیر بالأمراض الجسمیة للإنسان، فالإثنان یقتلان، و الاثنان یحتاجان إلی طبیب و علاج و وقایة، و الاثنان قد یسریان للآخرین، و یجب فی کل منهما معرفة الأسباب الرئیسة ثمّ معالجتها.

و فی کل منهما قد یصل الحال بالمصاب الی عدم امکانیة العلاج، و لکن فی أکثر الأحیان یتم علاجها و الشفاء منها، إلّا أنّ العلاج قد لا ینفع فی أحیان أخری.

إنّه شبه جمیل و ذو معانی متعدّدة؛ فالقرآن یعتبر و صفة شفاء للذین یریدون محاربة الجهل و الکبر و الغرور و الحسد و النفاق ... القرآن و صفة شفاء لمعالجة الضعف و الذّلة و الخوف و الاختلاف و الفرقة. و کتاب اللّه الأعظم و صفة شفاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۱

للذین یئنّون من مرض حبّ الدنیا و الارتباط بالمادة و الشهوة. و القرآن و صفة شفاء لهذه الدنیا التی تشتعل فیها النیران فی کل زاویة، و تئن من وطأة السباق فی تطویر الأسلحة المدمرة و خزنها، حیث وضعت رأس مالها الاقتصادی و الإنسانی فی خدمة الحرب و تجارة السلاح.

و أخیرا فإنّ کتاب اللّه و صفة شفاء لإزالة حجب الشهوات المظلمة التی تمنع من التقرب نحو الخالق عزّ و جلّ.

نقرأ فی الآیة (۵۷) من سوره یونس قوله تعالی: قَدْ جاءَتْکُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِی الصُّدُورِ.

و فی الآیة (۴۴) من سورة فصّلت نقرأ قوله تعالی: قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ آمَنُوا هُدیً وَ شِفاءٌ.

و لإمام المتقین علی بن أبی طالب علیه السّلام قول جامع فی هذا المجال، حیث

یقول علیه السّلام فی نهج البلاغة: «فاستشفوه من أدوائکم و استعینوا به علی لأوائکم، فإنّ فیه شفاء من أکبر الداء، و هو الکفر و النفاق و الغی و الضلال»[۶۴].

و

فی مکان آخر نقرأ لإمام المتقین علی علیه السّلام قوله واصفا کتاب اللّه: «ألا إنّ فیه علم ما یأتی و الحدیث عن الماضی و دواء دائکم و نظم ما بینکم».[۶۵]

و فی مقطع آخر یضمّه نهج علی علیه السّلام، نقرأ وصفا لکتاب اللّه

یقول فیه علیه السّلام: «و علیکم بکتاب اللّه فإنّه الحبل المتین، و النور المبین، و الشفاء النافع، و الری الناقع، و العصمة للمتمسک، و النجاة للمتعلق، لا یعوج فیقام، و لا یزیغ فیستعتب، و لا تخلقه کثرة الرد و ولوج السمع، من قال به صدق، و من عمل به سبق»[۶۶].

هذه التعابیر العظیمة و البلیغة، و التی نجد لها أشباها کثیرة فی أقوال النّبی الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فی کلمات الإمام علی علیه السّلام الأخری و الأئمّة الصادقین علیهم السّلام، هی دلیل یثبت بدقة و وضوح أنّ القرآن و صفة لمعالجة کل المشاکل و الصعوبات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۲

و الأمراض، و لشفاء الفرد و المجتمع من أشکال الأمراض الأخلاقیة و الاجتماعیة.

إنّ أفضل دلیل لإثبات هذه الحقیقة هی مقایسة وضع العرب فی الجاهلیة مع وضع الذین تربوا فی مدرسة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مطلع الإسلام. إنّ المقایسة بین الوضعین ترینا کیف أنّ أولئک القوم المتعطشون للدماء، و المصابون بأنواع الأمراض الاجتماعیة و الأخلاقیة، قد تمّ شفاؤهم ممّا هم فیه بالهدایة القرآنیة، و أصبحوا برحمة کتاب اللّه من القوّة و العظمة بحیث أنّ القوی

السیاسیة المستکبرة آنذاک خضعت لهم أعنّتها، و ذلت لهم رقابها.

و هذه هی نفس الحقیقة التی تناساها مسلمو الیوم، و أصبحوا علی ما هم علیه من واقع بائس مریر غارق بالأمراض و المشاکل ... إنّ الفرقة قد اشتدت بینهم، و الناهبین سیطروا علی مقدراتهم و ثرواتهم، مستقبلهم أصبح رهینة بید الآخرین بعد أن أصیبوا بالضعف و الهوان بسبب الارتباط بالقوی الدولیة و التبعیة الذلیلة لها.

و هذه هی عاقبة من یستجدی دواء علّته من الآخرین الذین هم اسوأ حالا منه، فی حین أن الآخرین، لیأخذ منهم علاج الدواء حاضر بین یدیه و موجود فی منزله! القرآن لا یشفی من الأمراض و حسب، بل إنّه یساعد المرضی علی تجاوز دور النقاهة إلی مرحلة القوّة و النشاط و الانطلاق، حیث تکون (الرحمة) مرحلة لا حقة لمرحلة (الشفاء).

الظریف فی الأمر أنّ الأدویة التی تستخدم لشفاء الإنسان لها نتائج و تأثیرات عرضیة حتمیة لا یمکن توقیها أو الفرار منها، حتی أنّ الحدیث المأثور یقول: «ما من دواء إلّا و یهیج داء»[۶۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۳

أمّا هذا الدواء الشافی، کتاب اللّه الأعظم، فلیست له أی آثار عرضیة علی الروح و الأفکار الإنسانیة، بل علی عکس ذلک کله خیر و برکة و رحمة.

و فی واحدة من عبارات نهج البلاغة نقرأ فی وصف هذا المعنی

قول علی علیه السّلام: «شفاء لا تخشی أسقامه»

واصفا بذلک القرآن الکریم ۶۸].

یکفی أن نتعهد باتباع هذه الوصفة لمدّة شهر، نطیع الأوامر فی مجالات العلم و الوعی و العدل و التقوی و الصدق و بذل النفس و الجهاد ... عندها سنری کیف ستحل مشاکلنا بسرعة.

و أخیرا ینبغی القول: إنّ الوصفة القرآنیة حالها حال الوصفات الأخری، لا یمکن أن تعطی ثمارها و أکلها من دون أن نعمل بها و نلتزمها بدقة، و إلّا فإنّ قراءة و صفة الدواء مائة مرّة لا تغنی عن العمل بها شیئا!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۴

الآیتان [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۸۳ الی ۸۴]

اشارة

وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَی الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأی بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ کانَ یَؤُساً (۸۳) قُلْ کُلٌّ یَعْمَلُ عَلی شاکِلَتِهِ فَرَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدی سَبِیلًا (۸۴)

التّفسیر

کل یتصرف وفق فطرته:

بعد أن تحدّثت الآیة السابقة عن شفاء القرآن، تشیر الآیة التی بین أیدینا إلی أحد أکثر الأمراض تجذرا فتقول: وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَی الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأی بِجانِبِهِ و لکن عند ما نسلب منه النعمة و یتضرر من ذلک و لو قلیلا: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ کانَ یَؤُساً.

(أعرض) مشتقة من (إعراض) و هی تعنی عدم الالتفات، و المقصود منها هنا هو عدم الالتفات للخالق عزّ و جلّ، و إعراض الوجه عنه

و عن الحق.

(نأى) مشتقّة من (نأى) و هى على وزن (رأى) و هى بمعنى الابتعاد، و عند إضافة كلمة (بجانبه) إليها يكون المعنى التكبر و الغرور و التزام المواقف المعادية.

و يمكن الاستفادة من مجموع هذه الجملة الأشخاص الدنيويين يصابون بالغرور

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۵

عند مجىء النعم، بحيث أنّهم ينسون واهب و معطى هذه النعم، و لا يقتصر الأمر على النسيان و حسب، بل ينتقل إلى الاعتراض التكبر و عدم الالتفات للخالق.

جملة مَسَّهُ الشَّرُّ تشير إلى أدنى سوء يصيب الإنسان. و المعنى أنّ هؤلاء من الضعف و عدم التحمّل بحيث أنّهم ينسون أنفسهم و يغرقون فى دوّامة اليأس بمجرّد أن تصيبهم أبسط مشكلة.

الآية الثّانية تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ

فالمؤمنون يطلبون الرحمة و الشفاء من آيات القرآن الكريم، و الظالمون لا يستفيدون من القرآن سوى مزيد من الخسران، أمّا الأفراد الضعفاء فيصابون بالغرور فى حال النعمة. و يصابون باليأس فى حال ظهور المشاكل ... هؤلاء جميعا يتصرفون وفق أمزجتهم، هذه الأمزجة التى تتغيّر وفق التربية و التعليم و الأعمال المتكررة للإنسان نفسه.

و فى هذه الأحوال جميعا فإنّ هناك علم اللّه الشاهد و المحيط بالجميع و خاصّة بالأشخاص المهتدين: فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا.

بحوث

۱- الغرور و اليأس

يتداول على ألسنتنا أنّ فلانا أصبح بعيدا عن اللّه، أو أنّه نسى اللّه بعد أن تحسنت أموره. و رأينا أنّ أمثال هؤلاء الأشخاص الذين نسوا اللّه كيف يصابون باليأس الذلة و الهلع عند ما تنزل بهم أبسط الشدائد، بحيث لا نكاد نصدّق بأنّهم سبق و أن كانوا على غير هذه الحال! أجل، هكذا حال هؤلاء الجماعة من ضيقى التفكير و ضعيفى الإيمان، و على العكس من ذلك حال أولياء اللّه، حيث تكون نفوسهم واسعة و أرواحهم وضاءة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۶

نيّرة إزاء المؤثرات التى تحيط بهم و لو بلغت فى عتوها و ضغطها مبلغا شديدا، إنّهم كالجبال فى مقابل الصعوبات و الشدائد، إذا وهبتهم الدنيا فلا يؤثر ذلك فيهم، و إذا أخذت منهم العالم أجمع لا يتأثرون.

و العجيب فى الأمر أنّ هؤلاء القوم الذى يخسرون أنفسهم و الذين تذكرهم السور القرآنية فى آيات متعدّدة (مثل يونس- آية ۱۲، لقمان- آية ۳۲، الفجر- آية ۱۴، ۱۵، فصلت- الآية ۴۸، ۴۹) هم أنفسهم يعودون إلى اللّه، و يستجيبون لنداء الفطرة عند ما تنزل بهم النوازل و تقع بساحتهم الشدائد، و لكنّهم عند ما تهدأ أمواج الحوادث و الضواغط يتغيرون، أو فى الواقع يعودون إلى ما كانوا عليه سابقا و يكون مثلهم كمن لم يسمع باللّه الذى خلقه و أنقذه! إنّ العلاج الوحيد لهذا المرض هو رفع مستوى الفكر فى ظل العلم و الإيمان، و ترك العبودية لما هو دون اللّه و سواه، و فك الارتباط مع الشهوة و المادة، و العيش فى إطار من القناعة و الزهد البنّاء.

و ممّا ذكرنا تظهر الإجابة على سؤال، و هو: إنّ الآيات التى نبحثها تصف حال مثل هؤلاء الأشخاص عند الصعوبات و الشدائد ب

«یؤوس» فی حین أنّ آیات أخری مثل الآیـة (۶۵) من سورة العنکبوت تصـفهم بأنّهم مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ و هی دلالة علی غایة التوّجه نحو الخالق عزّ و جلّ؟

فی الواقع لیس ثمّـة من تضـاد بین هـاتین الحـالتین، بل إنّ إحـداهما هی بمثابـة مقدمـة للأخری، فهؤلاء الأشـخاص عنـد ما تصادفهم المشکلات ییأسون من الحیاة، و هذا الیأس یکون سببا لأنّ تزول الحجب عن فطرتهم و یلتفتون لخالقهم العظیم.

إنّ هـذا التوّجه الاضـطراری إلی الخـالق عزّ و جـلّ- طبعـا- لیس فخرا لأمثال هؤلاء و لیس دلیلا علی یقظتهم، لأنّهم بمجرّد انصـراف المشاکل عنهم یعودون إلی حالتهم السابقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۷

أمّا أولیاء الحق و عباد اللّه المخلصون الحقیقیون فلا ییأسون عنـد ما یقعون فی المشاکل و المحن، بل تزیـدهم الصـعوبات اسـتقامة و صلابـة علی طریق الهـدی، و بسـبب اعتمـادهم علی اللّه و علی أنفسـهم فـإنّهم یتمتعون بقوّة لمواجهـة المشاکـل و لاـ معنی للیأس فی وجودهم.

إنّ هؤلاء لیسوا علی صـلة بالخالق فی أوقات المشـکلات و حسب، و إنّما فی اتصال دائم معه فی کل الحالات إذ یستمدون العون منه تعالی، و تکون قلوبهم منیرة برحمته و هدایته.

۲- ما معنی (شاکلة)؟

«شاکلـة» فی الأصـل مشـتقة من (شـکل) و هی تعنی وضع الزمـام و الربـاط للحیوان. و (شـکال) تقـال لنفس الزمـام؛ و بما أنّ طبائع و عادات کل إنسان تقیّده بصفات معینة لذا یقال لذلک «شاکلة». أمّا کلمة «إشکال» فتقال للاستفسار و السؤال و سائر الأمور التی تحدّد الإنسان نوعا ما[۶۹].

لهـذا فإنّ مفهوم الشاکلة لا یختص بالطبیعة الإنسانیة، لذلک ذکر العلّامة الطبرسـی فی مجمع البیان لهذه الکلمة معنیین، هما: الطبیعة و الخلقة، ثمّ الطریقة و المذهب و السنّة، علی اعتبار أنّ کل واحدة من هذه الأمور تحدّد الإنسان من حیث العمل.

و من هنا یتّضح خطأ أولئک الذین اعتبروا الآیة أعلاه دلیلا علی إلزامیة الصفات الذاتیة للإنسان بشکل یخرج عن إرادته، و هو دلیلهم علی عقیدة الجبر، و إذ أنکروا قیمة التربیة و التزکیة.

هذا النوع من التفکیر الذی یخضع فی أسـبابه إلی عوامل سیاسیة و اجتماعیة و نفسیة- و التی ذکرناها فی بحوثنا عن الجبر و الإختیار- له هیمنة علی ثقافة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۸

و أدب الکثیر من المجتمعات و النظم، حیث تستخدم هذه الثقافة لتبریر النواقص.

إنّ هذه الثقافة تعتبر من أخطر الإعتقادات التی یمکن أن تجر المجتمع سنین بل قرون إلی الذلة و التأخّر.

بناء علی ما ذکرنا نعتقد أن عقیدة الجبر هی دوما ذریعة للتسلـط الاسـتعماری، لکی تبقی القوّة المسیطرة فی ظل ثقافة الجبر بمنأی عن ردود الفعل المقاومة للسیطرة و التی یمکن أن تنطلق من صفوف المسحوقین المستضعفین.

و التعبیر المشهور هنا، یوضح هذه الحقیقة بشکل دقیق، إذ یقول: «الجبر و التشبیه أمویان و العدل و التوحید علویان».

و خلاصـة القول هنا: إنّ الشاکلـة لا تعنی أبـدا الطبیعة الذاتیة، بل هی تطلق علی کلّ عادة و طریقة و مذهب و أسـلوب یعطی للإنسان اتجاها معینا.

لـذا فـإنّ العـادات و الصـفات التی یکتسـبها الإنسان بتکرار الأعمال اختیاریا و إرادیا، و کـذلک الإعتقادات التی یقتنع بها و یعتمـدها

بسبب الاستدلال أو التعصب لرأى معين يطلق عليها كلّها كلمة «شاكلة».

و عادة ما تكون الملكات الإنسانية لها صفة اختيارية، لأنّ الإنسان عند ما يكرّر عملا ما ففى البداية يقال له (حالة) ثمّ تتحوّل الحالة إلى (عادة) و العادة إلى (ملكة) و هذه الملكات نفسها تعطى شكلا معينا لأعمال الإنسان و تحدّد خطّه فى الحياة، و هى عادة ما تظهر بفعل العوامل الاختيارية و الإرادية.

و فى بعض الرّوايات تمّ تفسير «الشاكلة» بأنّها النيّة،

فقد ورد فى أصول الكافى عن الإمام الصّادق عليه السّلام، قوله: «النّية أفضل من العمل، ألا و إنّ النّية هى العمل، ثمّ تلا قوله عزّ و جلّ: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ يعنى على نيّته»[۷۰].

هذا التّفسير ينطوى على ملاحظة لطيفة، و هى أنّ الإنسان و التى تنبع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۹

اعتقاداته تغطى شكلا لعمله، و عادة فإنّ النيّة هى نوع من الشاكلة، بمعنى الأمر المقيّد. لذا تفسّر النيّة أحيانا بأنّها نفس العمل. و فى أحيان أخرى بأنّها أفضل من العمل، لأنّه- فى كل الأحوال- يكون خط العمل و اتجاهه ناتجا عن خط النيّة و اتجاهها.

و

فى رواية «من لا يحضره الفقيه» عن صالح بن الحكم، قال: سئل الصّادق عليه السّلام عن الصلاة فى البيع و الكنائس، فقال عليه السّلام: «صلّ فيها» قلت: أصلى فيها و إن كانوا يصلون فيها؟ قال: «نعم. أمّا تقرأ القرآن»: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا صلّ على القبلة و دعهم»[۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۰

الآية [سورة الإسراء (۱۷): آية ۸۵]

اشارة

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (۸۵)

التّفسير

ما هى الرّوح؟

تبدأ هذه الآية فى الإجابة على بعض الأسئلة المهمّة للمشركين و لأهل الكتاب، إذ تقول: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

مفسّر و الإسلام الكبار- السابقون منهم و اللاحقون- لهم كلام كثير عن الروح و معناها، و نحن فى البداية سنشير إلى معنى كلمة (روح) فى اللغة، ثمّ موارد استعمالها فى القرآن، و أخيرا تفسير الآية و الرّوايات الواردة فى هذا المجال.

و فى هذا الصدد يمكن ملاحظة النقاط الآتية:

۱- (الرّوح) فى الأصل اللغوى تعنى (النفس) و البعض يرى بأنّ (الروح) و (الرّيح) مشتقّتان من معنى واحد، و إذ تمّ تسمية روح الإنسان- التى هى جوهرة مستقلة- بهذا الاسم فذلك لأنّها تشبه النفس و الريح من حيث الحركة و الحياة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۱

و كونها غير مرئية مثل النفس و الريح.

۲- استخدمت كلمة (الرّوح) فى القرآن الكريم فى موارد و معانى متعدّدة، فهى فى بعض الأحيان تعنى الروح المقدّسة التى تساعد الأنبياء على أداء رسالتهم كما فى الآية (۲۵۳) من سورة البقرة و التى تقول: وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

و فى بعض الأحيان تطلق على القوّة الإلهية المعنوية التى تقوى المؤمنين و تدفعهم، كما فى قوله تعالى فى الآية (۲۲) من سورة المجادلة: أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ

و فى موارد أخرى تأتى للدلالة على (الملك الخاص بالوحى) و يوصف ب (الأمين)، كما فى الآية (۱۹۳) من سورة الشعراء: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ

و فى مكان آخر وردت بمعنى (الملك الكبير) من ملائكة اللّه الخاصين، أو مخلوق أفضل من الملائكة كما فى الآية (۴) من سورة القدر: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. و فى الآية (۳۸) من سورة النباء: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا.

و وردت- أيضا- بمعنى القرآن أو الوحى السماوى، كما فى الآية (۵۲) من سورة الشورى فى قوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا.

و أخيرا وردت الروح فى القرآن الكريم بمعنى الروح الإنسانية، كما فى آيات خلق آدم: ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۷۲]. و كذلك قوله تعالى فى الآية (۲۹) من سورة الحجر: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ ۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۲

۳- و الآن لنر من خلال هذه النقطة ما هو المقصود بالروح فى الآية التى نبحثها؟

ما هى الرّوح التى سأل عنها جماعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأجابهم بقوله تعالى:

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا؟

يمكن أن نستفيد من مجموع القرائن الموجودة فى الآية أنّ المستفسرين سألوا عن حقيقة الروح الإنسانية، هذه الروح العظيمة التى تميّز الإنسان عن الحيوان، و قد شرفتنا بأفضل الشرف، حيث تنبع كل نشاطاتنا و فعالياتنا منها، و بمساعدتها نجول فى الأرض و نتأمّل السماء، نكتشف أسرار العلوم، و نتوغل فى أعماق الموجودات إنّهم أرادوا معرفة حقيقة أعجوبة عالم الخلق!! و لأنّ الروح لها بناء يختلف عن بناء المادة، و لها أصول تحكمها تختلف عن الأصول التى تحكم المادة فى خواصها الفيزيائية و الكيميائية، لذا فقد صدر الأمر إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهؤلاء فى جملة قصيرة قاطعة: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي و لكى لا يتعجب هؤلاء أو يندهشوا من هذا الجواب فقد أضافت الآية:

وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا حيث لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتكم بأسرار الروح بالرغم من أنّها أقرب شىء إليكم.

و

فى تفسير العياشى نقل الإمام الباقر و الصّادق عليهما السّلام أنّهما قالا فى تفسير آية يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ما نصّه: «إنّما الروح خلق من خلقه، له بصر و قوّة و تأييد، يجعله فى قلوب الرسل و المؤمنين»[۷۴].

و

فى حديث آخر عن الإمامين الباقر و الصادق أنّهما عليهما السّلام قالا: «هى من الملكوت، من القدرة»[۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۳

و فى الرّوايات المتعدّدة التى بين أيدينا من طرق الشيعة و أهل السنّة نقرأ أنّ هذا السؤال عن الروح أخذه المشركون من علماء أهل الكتاب الذين يعيشون مع قريش، كى يختبروا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إذ قالوا لهم: إذا أعطاكم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معلومات كثيرة عن الروح فهذا دليل على عدم صدقه، لذلك نراهم قد تعجبوا من إجابة الرّسول صلّى اللّه عليه و

آله و سلّم المليئة بالمعانى رغم قصرها و قلّة كلماتها.

و لكن نقرأ فى بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام، فى تفسير هذه الآية، أنّ الروح مخلوق أفضل من جبرائيل و ميكائيل، و كان هذا المخلوق برفقة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و برفقة الأئمّة الصادقين عليهم السّلام من أهل بيته من بعده، حيث كان يعصمهم من أى انحراف أو زلل خلال مسيرتهم ۷۶].

إنّ هذه الرّوايات لا تعارض التّفسير الذى قلناه، بل هى متناسقة معه و داعمة له، لأنّ الروح الإنسانية لها مراتب و درجات، فتلك المرتبة من الروح الموجودة عند الأنبياء و الأئمة عليهم السّلام، هى فى مرتبة و درجة عالية جدّا، و من آثارها العصمة من الخطأ و الذنب و كذلك يترتب عليها العلم الخارق. و بالطبع فإنّ روحا مثل هذه هى أفضل من الملائكة بما فى ذلك جبرئيل و ميكائيل. (فتدبّر)

أصالة و استقلال الرّوح:

يظهر تأريخ العلم و المعرفة الإنسانية أنّ قضية الروح و أسرارها الخاصّة كانت محط توجّه العلماء، حيث حاول كل عالم الوصول إلى محيط الروح السرى. و لهذا السبب ذكر العلماء آراء مختلفة و كثيرة حول الروح.

و من الممكن أن تكون علومنا و معارفنا اليوم- و كذلك فى المستقبل- قاصرة عن التعرف على جميع أسرار الروح و الإحاطة بتفصيلاتها، بالرغم من أنّ روحنا هى أقرب شيء لدينا من جميع ما حولنا. و بسبب الفوارق التى تفصل بين

جوهرة الروح و بين ما نأنس به من عوالم المادة، فإنّنا لن نحيط بأسرار و كنه الروح، أعجوبة الخلق، و المخلوق الذى يتسامى على المادة.

و لكن كل هذا لا يمنعنا من رؤية أبعاد الروح بعين العقل، و أن نتعرف على النظم و الأصول العامّة الحاكمة عليها.

إنّ أهم أصل يجب أن نعرفه هو قضية أصالة و استقلال الروح، فى مقابل آراء المذاهب الوضعية التى تذهب إلى مادية الروح، و أنّها من افرازات الذهن و الخلايا العصبية و لا شيء غير ذلك! و سنبحث هذا الموضوع هنا و نتوسع فيه، لأنّ مسألة (بقاء الروح) و قضية (التجرد المطلق أو عالم البرزخ) يعتمدان على هذا الأمر.

و لكن قبل الورود فى البحث لا بدّ من ذكر ملاحظة هامّة، و هى أن تعلق الروح بجسم الإنسان ليست- و كما يظن البعض- من نوع الحلول، و إنّما هى نوع من الارتباط و العلاقة القائمة على أساس حاكمية الروح على الجسم و تصرفها و تحكمها به، حيث يشبهها البعض بعلاقة تعلق المعنى و ارتباطه باللفظ.

هذه المسألة- طبعا- ستتوضح أكثر ضمن حديثنا عن استقلال الروح.

و الآن لنرجع إلى أصل الموضوع.

لا يشك أحد فى أنّ الإنسان يختلف عن الحجارة و الخشب، لأنّنا نشعر- بشكل جيّد- بأنّنا نختلف عن الجمادات، بل و حتى عن النباتات، فنحن نفهم و نتصوّر و نصمّم، و نريد، و نحب، و نكره، و ... الخ.

إلّا أنّ الجمادات و النباتات ليس لها أىّ من هذه الإحساسات، لذلك فثمّة فرق أساسى بيننا و بينها و يتمثل فى امتلاكنا للروح الإنسانية.

ثمّ إنّه لا الماديون و لا أى مجموعة فكرية مذهبية أخرى تنكر أصل وجود الروح، و لذلك يعتبرون علوما مثل علم النفس (سيكولوجيا)، و علم العلاج النفسى (بسيكاناليزم) من العلوم المفيدة و الواقعية، و هذين العلمين بالرغم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۵

أنّهما یعیشان مراحل طفولتهما بلحاظ بعض العوامل و القضایا، و لکنّهما مع ذلک یدخلان الیوم ضمن المناهج الدراسیة فی الجامعات، حیث یقوم أساتذة کبار بالبحث و التحقیق فیهما، و کما سنلاحظ، فإنّ النفس و الروح لیستا حقیقتین منفصلتین، بل هما مراحل مختلفة لحقیقة واحدة.

و إنّنا هنا سنطلق کلمة (النفس) عند ما یتعلق الحدیث بالارتباط بین الروح و الجسم و التأثیر المتبادل لکل منهما علی الآخر. أمّا عند ما یکون الحدیث عن الظواهر الروحیة مع غض النظر عن البدن فإنّنا سنطلق علیها کلمة (الروح).

و خلاصة القول: أنّه أحد یستطیع أن ینکر حقیقة وجود الروح و النفس عندنا.

و الآن ینبغی أن نتفحّص مجالات السجال و الحرب بین المذاهب المادیة من جهة، و بین مجموع هذه المذاهب و تیارات و مذاهب الفلاسفة الروحیین و المیتافیزیقیین من جهة أخری.

إنّ العلماء الإلهیین و الفلاسفة الروحیین یعتقدون بأنّ الإنسان و بالإضافة إلی المواد التی تدخل فی تشکیل جسمه، ینطوی وجوده علی حقیقة جوهریة أخری لا تتجلی فیها صفات المادة، و إن جسم الإنسان یخضع لتأثیرها بشکل مباشر و فاعل.

و بعبارة أخری، فإنّ الروح هی حقیقة من حقائق ما وراء الطبیعة (أی میتافیزیقیة) حیث أنّ ترکیبها و فعالیتها تختلف عن ترکیب و فاعلیة عالم المادة؛ صحیح أنّها مرتبطة مع عالم المادة، إلّا أنّها لیست مادة و لا تملک خواص المادة.

فی المقابل هناک الفلاسفة المادیون الذین یقولون: إنّنا لا نعرف موجودا مستقلا عن المادة یسمی بالروح، أو أی اسم آخر، و إنّ کل ما موجود هو هذه المادة الجسمیة و آثارها الفیزیائیة أو الکیمیائیة.

إنّنا نملک جهازا یسمّی (الذهن و الأعصاب) و هو یقوم بقسم مهم من أعمالنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۶

الحیاتیة، و هو مثل باقی الأجهزة المادیة حیث یخضع فی نشاطه لقوانین المادة.

إنّنا نملک غددا تحت اللسان تسمّی الغدد اللعابیة و التی تقوم بفاعلیة فیزیائیة و کیمیائیة، فعند ما یدخل الطعام إلی الفم تقوم هذه الغدد بالعمل بشکل أوتوماتیکی حیث تقوم بإفراز السائل بالمقدار الذی یحتاجه الطعام حتی یلین و یمضغ بشکل جیّد، فهناک- أطعمة تحتوی علی سوائل و هناک أطعمة قلیلة السوائل أو جافّة، و کل نوع من هذه الأطعمة یحتاج إلی مقدار معین من هذه السوائل (اللعاب).

المواد الحامضیة تزید من عمل هذه الغدد، خاصّة عند ما تکون کثافة الطعام کبیرة، حتی یحصل الطعام علی کمیّة أکبر من السوائل لیلین، و من ثمّ لا تصاب جدران المعدة بضرر.

عند ما نبلع الطعام ینتهی عمل هذه الغدد و القنوات. و خلاصة القول: إنّ هناک نظاما عجیبا یتحکم بهذه الغدد و القنوات بحیث أنّها إذا فقدت تعادلها لمدّة ساعة، فإمّا أن یسیل اللعاب بشکل دائم عبر الشفتین، أو أن یکون الفم جافا بحیث لا یمکن ابتلاع الطعام. هذا هو العمل الفیزیائی للعاب، إلّا أنّنا نعلم أنّ العمل الأهم للعاب هو عمله الکیمیاوی، فهناک مواد متنوعة متداخلة معه حیث تتفاعل مع الطعام و تقلل من تعب المعدة.

المادیون یقولون: إن عقلنا و أعصابنا یشبهان عمل الغدد اللعابیة و ما شابهها من أجهزة الجسم من حیث العمل الفیزیائی و الکیمیائی (حیث یسمّی المجموع فیزیوکیمیائی) و هذا العمل الفیزیوکیمیائی نحن نسمّیه ب «الظواهر الرّوحیة أو «الرّوح».

المادیون یقولون: عند ما نفکّر تصدر سلسلة من الأمواج الکهربائیة من عقلنا، هذه الأمواج یمکن التقاطها الیوم بواسطة أجهزة خاصّة و تدوینها علی الأوراق و دراستها، خاصّة فی مستشفیات الأعصاب، حیث یتمّ تشخیص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۷

الأمراض العصبية و معالجتها، و هذه هى الفعالية الفيزيائية لعقلنا.

إضافة إلى هذا، فإنّ خلايا العقل عند التفكير، و كذلك عند النشاطات العصبية المختلفة، تقوم بمجموعة من الأفعال و الانفعالات الكيمياوية.

لذلك فإنّ الروح و الصفات الروحية ليست سوى الخواص الفيزيائية و الأفعال الكيميائية للخلايا العقلية و العصبية.

إنّ الماديين يستفيدون من كل هذا العرض لبلورة النتائج التالية:

۱- بما أنّ نشاط الغدد اللعابية و آثارها المختلفة لم تكن موجودة قبل وجود جسم الإنسان، بل إنّها وجدت بعد وجوده، لذا فإنّ النشاطات الروحية تظهر بعد ظهور الدماغ و الجهاز العصبى، و تموت هذه الفعاليات بموت الإنسان.

۲- الروح من خواص الجسم، إذن فهى مادية و ليس لها أى صفات ميتافيزيقية.

۳- الروح خاضعة لجميع القوانين التى تحكم جسم الإنسان.

۴- ليس هناك وجود مستقل للروح بدون جسم، و لا يمكن أن يكون ذلك.

دلائل الماديين على عدم استقلال الروح

لقد أورد الماديون شواهد لإثبات دعواهم بأنّ الروح و الفكر و سائر الظواهر الروحية هى قضايا مادية، أى تكون انعكاسا للخواص الفيزيائية و الكيميائية للخلايا العصبية و الدماغية، و نستطيع أن نشير هنا إلى هذه الشواهد من خلال هذه النقاط:

۱- «يمكن الإشارة و بسهولة إلى تعطّل قسم من الأغراض الروحية عند عطل أو إصابة قسم من المراكز العصبية أو سلسلة من الأعصاب»[۷۷].

فمثلا تمّ اختبار حالة رفع فيها قسم من دماغ الطير، و لم يؤد ذلك إلى موته،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۸

بل إنّه فقد قسما كبيرا من معلوماته، مثلا يفقد شهيته للطعام فإذا أعطيناه طعاما فإنّه يأكله و يهضمه، و لكنّا إذا لم نعطه و وضعنا الحب أمامه فإنّه لا يأكل و سيموت من الجوع.

كما شوهد أنّ إصابة دماغ الإنسان نتيجة للحوادث أو الأمراض ببعض الضربات أو الصدمات، يؤدى إلى فقدان الدماغ لجزء كبير من نشاطه، حيث ينسى الإنسان جانبا من معلوماته.

و قد قرأنا قبل فترة فى الصحف أنّ شابا مثقفا من مدينة (الأهواز) الايرانية تعرض لضربة على دماغه فى حادثة، فنسى جميع أحداث حياته الماضية حتى أنّه نسى أمّه و أخته و نسى نفسه و عند ما جاؤوا به إلى بيته و المكان الذى ولد و ترعرع فيه، فإنّه لم يعرف هذا المكان و بدا فيه غريبا.

إنّ هذه الأمور و ما شابهها تثبت وجود علاقة قريبة بين نشاطات الخلايا الدماغية و الظواهر الروحية.

۲- «عند ما نفكر تكثر التغييرات المادية على سطح الدماغ .. الدماغ يحتاج إلى طعام أكثر، و يطرح مواد فسفورية أكثر. و لكن عند النوم فإنّ الدماغ لا يقوم بالتفكير، لذا فإنّه يحتاج إلى طعام قليل، و هذا يعتبر دليلا على أنّ الآثار الفكرية للإنسان تترشح من فعاليات مادية»[۷۸].

۳- تظهر التجارب أن وزن أدمغة المفكرين هى أكثر من الحد المتوسط (الحد المتوسط لدماغ الرجل فى حدود (۱۴۰۰) غرام، و الحد المتوسط لدماغ المرأة أقل من هذا بقليل)، و هذا دليل آخر- بزعم الماديين- على مادية الروح.

۴- إذا كانت قوة التفكير و الظواهر الروحية دليلا على الوجود المستقل للروح، فيجب أن نقبل ذلك أيضا فى الحيوانات، لأنّها تملك

قدرة الإدراک.

و الخلاصة: إنّ الماديين فی أدلتهم بأننا ندرک و نحس بأنّ روحنا ليست

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۹

موجودا مستقلا، و التطورات المتعلقة بمعرفة الإنسان و دراسته تؤيد هذه الحقيقة.

و من مجموع هذه الاستدلالات، يستنتج هؤلاء أنّ التقدم الفيزيولوجی الإنسانی و الحيوانی يوضحان يوما بعد آخر حقيقة وجود العلاقة القريبة بين الظواهر الروحية و الخلايا الدماغية.

نقد هذه النظرية:

الخطأ الكبير الذی وقع فيه الماديون فی أدلتهم و استنتاجاتهم، أنّهم خلطوا بين (وسائل العمل) و (القائم بالعمل).

و لأجل معرفة هذا الخلط نذكر هنا مثالا للتوضيح نرجو أن يدقق فيه القارئ الكريم جيدا:

منذ زمان غاليلو و حتى يومنا الحاضر، حصل تحوّل كبير فی دراسة حركة الأفلاک و الأجرام السماوية، فغاليلو الإيطالی استطاع و بمعونة أحد صانعی العوينات الزجاجية من صناعة مجهر صغير، فطار غاليلو به فرحا، بحيث أنّه شرع عند المساء بدراسة نجوم السماء بواسطة مجهره الذی أظهر له أوضاعا عجيبة إذ أنّه شاهد عالم لم يستطيع أی إنسان مشاهدته حتى ذلک اليوم. لقد فهم غاليلو أنّه توصّل إلی اكتشاف مهم، و منذ ذلک اليوم أصبحت دراسة أسرار العالم الأعلى فی متناول الإنسان.

لقد كان الإنسان حتى ذلک اليوم مثل الفراشة التی لم تكن ترى من حولها سوى بعض سيقان الشجر، أمّا عند ما صنع الإنسان التلسكوب فإنّه استطاع أن يشاهد من حوله مقدارا من أشجار الغابة الكبيرة.

لقد تطور العمل فی التلسكوب حتى وصل إلی وضعه الراهن حيث بنيت مختبرات كبيرة و مراصد جبارة يبلغ قطر عدساتها عدّة امتار لقد نصبت هذه

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۰

المراصد فی أعالی الجبال المرتفعة حيث يتميز الأفق بصفاء خاص ممّا يسهل على الفلكيين دراسة النجوم، و بواسطة هذه المراصد الجبارة استطاع الإنسان أن يشاهد عوالم أخرى كان عاجزا عن مشاهدتها بالعين المجرّدة قبل ذلک.

و الآن لنتصوّر أن الإنسان يكون بمقدوره مستقبلا أن يتوصل إلی صناعة مرصد بقطر (۱۰۰) متر بحيث يكون حجم الأجهزة المستخدمة فيه بحجم مدينة بكاملها، فما هی يا ترى العوالم التی سوف تنكشف له بواسطة ذلک؟

و الآن نطرح هذا السؤال: لو أخذت منّا هذه المجاهر و العدسات، أ فلا يتعطّل قسم من معلوماتنا و معارفنا حول السماوات ... و هل الناظر الأصلی نحن أم التلسكوب و المجهر؟

هل المجهر و التلسكوب وسيلة نستطيع بواسطتها الرؤيا و المشاهدة، أم أنّها هی التی تقوم بالعمل و النظر الحقيقی؟

و فيما يخص الدماغ لا يستطيع أی شخص أن ينكر أنّه بدون الخلايا الدماغية لا يمكن أن تتمّ عملية التفكير، و لكن هل الدماغ هو وسيلة عمل للروح، أم أنّه هو الروح؟

و خلاصة القول: إنّ جميع الأدلة التی ذكرها الماديون تثبت وجود الارتباط بين خلايا العقل و الدّماغ و بين إدراكاتنا، إلّا أنّ أيا منها لا يثبت أنّ الدماغ يقوم بالإدراک، بل أنّه مجرّد وسيلة لذلک.

و هنا يتّضح لماذا لا يفهم الموتى شيئا، إذ أنّهم و بسبب عدم وجود الارتباط بين الروح و البدن يعجزون عن ذلک، و بالتالی فإنّ الموت لا يعنی فناء الروح و انعدامها، و مثل الميت مثل السفينة أو الطائرة التی عطّل فيها جهاز اتصالها (اللاسلكی) فالسفينة و الطائرة

بمن فيهما موجودون إلّا أنّ اتصالهم مع الساحل أو المطار مقطوع بسبب فقدانهم لوسيلة الارتباط و الاتصال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۱

أدلة استقلال الروح

اشارة

كان الكلام حتى الآن عن الماديين الـذين يصـرّون على أنّ الظواهر الروحيـة هى افرازات لخلايا الـدماغ، و يعتبرون الفكر و الإبداع و الحب و التنفر و الغضب و جميع العلوم، مثـل القضايـا الماديـة التى تخضع لأسـلوب العمـل المختبرى و تشـملها قوانين المـادة، إلّـا أنّ الفلاسفة الذى يعتقدون باستقلالية الروح ذكروا أدلة قاطعة على نفى هذه العقيدة، منها:

أوّلا: ادراک الواقع الخارجي

إنّ أوّل سؤال يمكن أن نطرحه على الماديين، هو أنّه إذا كانت الأفكار و الظواهر الروحية هى نفسها الخواص (الفيزيكيميائية) للدماغ، ففى مثل هذه الحالة ينبغى أن تنعدم الخلافات و الفروق بين عمل الدماغ و بين عمل المعدة أو الكلية أو الكبد، حيث أنّ عمل المعدة هو التركيب الأساس و مجموعة من الفعاليات الفيزيائية و الكيميائية، إذ بواسـطة نشاط معين و إفرازات حامضية تتم عملية هضم الطعام و يصـبح جـاهزا للامتصاص من قبل الجسم. و إذا كان إفراز اللعاب عملا فيزيائيا و كيميائيا فى آن واحـد، فإنّنا نرى أنّ العمل الروحى يختلف عن هذه الأعمال.

إن كـل أعمال أجهزة الجسم لها تشابه بدرجـة معينـة مع بعضـها البعض، ما عـدا (الـدماغ) الـذى له وضع اسـتثنائى، إنّ أجهزة الجسـم مرتبطة جميعا بجوانب داخلية، فى حين أنّ الظواهر الروحية لها جهة خارجية و تخبرنا عن الواقع الخارجى المحيط بنا.

و لأجل توضيح هذا الكلام يجب ذكر بعض الملاحظات:

الملاحظة الأولى: هل هناک عالم خارج وجودنا؟

من البديهى وجود مثل هذا العالم، أمّا المثاليين الذين ينكرون وجود العالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۲

الخارجى و يقولون بأنّ كل ما وجود هو (نحن) و (تصوراتنا) و يعتبرون العالم الخارجى مجموعة من التصورات و الأحلام التى تشاهد فى النوم، فهؤلاء على خطأ، و قـد أثبتنا خطأهم هذا فى أحد الأبحاث، و أثبتنا أنّه كيف يتحول هؤلاء المثاليون إلى واقعيين فى العمل، إذ أن ما يفكرون به فى محيط مكتباتهم ينسونه عند ما يتجولون فى الشارع و يتنقلون من مكان إلى آخر.

الملاحظة الثّانية: هل ندرک و نعلم بوجود العالم الخارجى، أم لا؟

بـالطبع الجواب على هـذا السؤال بالإيجـاب، لأنّنـا نملـک معرفـة كبيرة عن العـالم الخارجى، و عنـدنا معلومات كثيرة عن الموجودات المحيطة بنا.

و الآـن نصـل إلى هـذا السؤال: هـل هناک وجود للعالم الخارجى فى داخل وجودنا؟ طبعا لا، و لكن ارتساماته و صورته منعكسـة فى أذهاننا حيث نستفيد من خاصية (انعكاس الواقع الخارجى) لإدراک العالم الخارجى.

هـذا الإدراک الـذهنى للعالم الخارجى- فى الحقيقـة- ليس من الخواص الفيزيكيميائيـة للـدماغ لوحـدها، إذ أنّ هـذه الخواص وليـدة إحساسـنا و تأثرنا بالعالم الخارجى، و فى الاصـطلاح: فإنّها معلولة لها. و نفس الشـىء يقال بالنسـبة لتأثير الطعام على معدتنا، فهل تأثير الطعام على معدتنا و النشاطات الفيزيائية و الكيميائية تكون سببا لمعرفة المعدة بالأطعمة؟

إذن کیف یستطیع الدماغ أن یتعرف علی عالمه الخارجی؟

بعبارة أخری نقول: فی التعرف علی الموجودات الخارجیة هناک حاجة إلی نوع من الإحاطة بها، و هذه الإحاطة لیست من عمل الخلایا الدماغیة، إذ الخلایا الدماغیة تتأثر بالخارج فقط، و هذا التأثر مثله کمثل سائر أجهزة الجسم، و هذا الموضوع ندرکه نحن بشکل جید.

و إذا کان مجرّد التأثّر بالخارج دلیلا علی إدراکنا و معرفتنا بالواقع الموضوعی الخارجی، فیجب أن تتساوی فی ذلک معدتنا و لساننا و أن یکون لها

نفس قابلیة الفهم، فی حین أنّنا نعرف أنّ واقع الحال لیس کذلک. و خلاصة القول:

إنّ الوضع الاستثنائی لإدراکنا دلیل علی أنّ هناک حقیقة أخری کامنة فیها، بحیث أنّ نظامها و القوانین المتحکمة فیه تختلف عن القوانین و النظم الفیزیائیة و الکیمیائیة. (فتدبّر ذلک).

ثانیا: وحدة الشخصیة

اشارة

الدلیل الآخر علی استقلال الروح و تمایزها هو مسألة وحدة الشخصیة فی طول عمر الإنسان.

إذا أردنا نشک فی کل شیء، فإنّنا لا نستطیع أن نشک فی موضوع وجودنا (أی مقولة: أنا موجود) و لیس ثمّة شک فی وجودی و فی علمی بوجودی أو ما یصطلح علیه ب «العلم الحضوری» و لیس «العلم الحصولی» أی أنّنی موجود عند نفسی و غیر منفصل عنها.

علی أی حال إنّ معرفتنا بأنفسنا من أوضح معلوماتنا، و لا تحتاج إلی استدلال و إثبات.

أمّا بالنسبة للاستدلال المشهور الذی استدلّ به الفیلسوف الفرنسی دیکارت حول وجوده، و الذی یقول فیه (بما أنّنی أفکر فإذن أنا موجود) فهو استدلال زائد و غیر صحیح، لأنّه قبل أن یثبت وجوده اعترف مرّتین بوجوده (المرّة الأولی عند ما یقول: إنّنی، و الثّانیة عند ما یقول: أنا) هذا من جانب.

و من جانب ثان فإنّ (إنّنی) هذه منذ بدایة العمر حتی نهایته واحدة ف (إنّنی الیوم) هی نفسها (إنّنی بالأمس) و هی نفسها (إنّنی منذ عشرین عاما) ف (أنا) منذ الطفولة و حتی الآن تعبیر عن شخص واحد لا أکثر، إنّنی نفس ذلک الشخص الذی کنت و سأبقی إلی آخر عمری نفس ذلک الشخص، و لیس شخصا آخر، طبعا خلال هذه الفترة یکون الإنسان قد درس و تعلم و وصل إلی مراحل عالیة

فی العلم، و لکن فی جمیع الأحوال یبقی هو هو، و لا یصبح إنسانا آخر، و هکذا فی تعامل الآخرین معه حیث یعتبره الآخرون شخصیة واحدة منذ أوّل حیاته و إلی آخر لحظة فیها باسم واحد و جنسیة معینة.

و الآن لنری ما هو هذا الکائن المتوغّل فی اعماقنا؟ فهل هو ذرات و خلایا جسدنا و مجموعة الخلایا الدماغیة و تأثیراتها؟ إنّ کل هذه الأمور قد تغیّرت علی مدی عمرنا عدّة مرّات، تقریبا فی کل سبع سنوات مرّة واحدة، حیث نعرف أنّه فی کل یوم تموت ملایین الخلایا فی جسدنا لتحل محلها ملایین أخری جدیدة، و مثلها فی ذلک مثل البناء الذی یتمّ إخراج الطابوق القدیم منه و وضع طابوق جدید فی مکانه فلو استمر التعمیر فی هذا البناء فإنّ البنیة الأساسیة لن تتغیر، و لکن یبقی البیت هو نفس ذاک البیت برغم أنّ الناس السطحیین لا یلتفتون لذلک. و مثل خلایا الجسم التی تموت و تحیا کمثل المسبح الکبیر الذی یدخله الماء ببطء و یخرج من طرف آخر. طبیعی أنّ ماء هذا المسبح سیتغیر بعد مدّة بشکل کامل بالرغم من عدم التفات الناس إلی ذلک، إذ یظنون أنّ ماء المسبح ما زال علی حاله لم یتغیّر.

و بشكل عام، إنّ كل موجود يحصل على الطعام و من جانب ثان يستهلك هذا الطعام، فإنّه في الواقع يتجدّد و يتغّير بالتدريج.
لذا فإنّ إنسانا في السبعين من عمره لا يبعد أن يكون جسمه قد تغّير عشر مرات، و إذا كان الأمر كما يقول الماديون، من أنّ الإنسان هو نفس جسمه و أجهزته الدماغية و العصبية و خواصه الفيزيائية و الكيميائية، ففي هذه الحالة يجب أن يكون ال (أنا) قد تغيّر عشر مرات خلال هذه السنوات السبعين! و لهذا يكون هذا الإنسان ليس الإنسان السابق، إلّا أنّ هذا الكلام لا يقبله أي وجدان.
و من هنا يتّضح أن ثمّة حقيقة واحدة ثابتة على طول العمر، هي غير الأجزاء المادية، هذه الحقيقة لا تتغّير كالأجزاء المادية، و هي أساس وجودنا و تتحكم في حياتنا و هي سبب وحدة شخصيتنا.
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۵

الحذر من هذا الاشتباه!

البعض يتصوّر أن الخلايا الدماغية لا تتغّير، و يقولون: لقد قرأنا في الكتب الفسيولوجية أنّ عدد الخلايا الدماغية واحد و ثابت منذ البداية و حتى نهاية العمر، و هي لا تزيد و لا تنقص و إنّما تكبر. لذلك إذا أصيبت بخلل فلن تكون قابلة للعلاج. و على هذا الأساس فإنّنا نملك وحدة ثابتة في مجموع بدننا، هذه الوحدة هي الخلايا الدماغية التي تحفظ لنا وحدة شخصيتنا.
إنّ هذا الكلام- في الواقع- يمثل اشتباها كبيرا، فهو خلط بين مسألتين، إذ أن ما أثبته العلم من ثبات عدد الخلايا الدماغية منذ البداية حتى النهاية و أنّها غير قابلة للزيادة و النقصان، لا يعني أنّ الذرات المكوّنة لهذه الخلايا لا تتغيّر، فكما قلنا: إنّ خلايا الجسم التي تأخذ الطعام و تطرد الذرات القديمة بالتدريج تكون خاضعة للتغيير، مثلها في ذلك مثل ذلك الشخص الذي يأخذ المال من طرف و ينفقه من طرف آخر، فهذا الشخص سيتغير رأس ماله بالتدريج، بالرغم من أن مقدار رأس المال لم يتغيّر. و كذلك يمكن أن نذكّر بمثال ماء المسبح.
لذلك، يتبيّن أنّ الخلايا الدماغية ليست ثابتة، بل متغيّرة مثل سائر خلايا الجسم.

ثالثا: عدم تطابق الكبير مع الصغير

اشارة

افترضوا أنّنا جلسنا على ساحل البحر، و شاهدنا أمامنا عددا من الزوارق مع باخرة كبيرة، ثمّ نظرنا إلى جانب الشمس فرأيناها تميل للغروب، بينما القمر بدأ يبزغ من الجانب الآخر. و على الشاطئ هناك صفوف من طيور الماء الجميلة و قد اقترب بعضها نحو الماء. و نشاهد على الطرف الآخر جبلا عظيما تناطح قمته السماء علوا. و الآن، إزاء هذا المنظر، لنغمض عيوننا برهة من الزمن و نتخيل ما شاهدناه: جبل عظيم، بحر واسع، سفينة كبيرة، كل هذه الأمور ترتسم في مخيلتنا
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۶
كاللوحة الكبيرة للغاية في مقابل روحنا، أو في داخل روحنا.
و السؤال هنا: أين مكان هذا المخطط في وجودنا ... هل تستطيع الخلايا الدماغية الصغيرة و المحدودة للغاية أن تستوعب حجم اللوحة الكبيرة و المخطط الكبير؟ الإجابة- طبعا- هي النفي، و لذلك لا بدّ أنّنا نمتلك قسما آخر في وجودنا يكون فوق المادة الجسمية، و هو من السعة بمقدار بحيث يستوعب كل هذه المناظر و المخططات و اللوحات.
و إلّا فهل نستطيع تنفيذ مخطط لبناية ذات مساحة (۵۰۰) متر على قطعة أرض ذات مساحة بضعة مليمترات؟
الجواب- طبعا- سيكون بالنفي، لأنّ موجودا أكبر لا يمكنه الانطباق على موجود أصغر مع احتفاظه بكبره وسعته، إذ من ضرورات الانطباق أن يكونا متساويين، أو أن يكون أحدهما أصغر من الثّاني، فيمكن حينذاك تنفيذ الصغير على الكبير.

مع هذا الوضع كيف يمكن لخلايا دماغنا الصغيرة استيعاب الصور الذهنية الكبيرة؟

إنّنا نستطيع تصوّر الكرة الأرضية بحزامها الذى يبلغ أربعين مليون متر فى أذهاننا، و نستطيع أن نتصوّر ذهنيا كرة الشمس التى تكبر الأرض بمقدار مليون و مائتى ألف مرّة، و كذلك يمكننا تصوّر المجرات و التى هى أكبر من الشمس بملايين المرّات. و لكن كل هذه الصور لا يمكن ارتسامها عمليا فى خلايا الدماغ الصغيرة، و ذلك وفقا لقاعدة عدم انطباق الكبير على الصغير.

إذن يجب أن نعترف و نقرّ بوجود كامن فينا هو أكبر من جسمنا فى قدرة استيعابه و إحاطته بالأشياء و المخطوطات و الموجودات الكبيرة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۷

سؤال مهم:

يمكن أن يقول البعض: إن تصوراتنا الذهنية هى مثل المايكرو فيلم أو الخرائط الجغرافية التى تحتوى على مقياس للرسم مثل ۱۰۰۰۰۰۰/ (۱) أو ۱۰۰۰۰۰۰۰۰/ (۱) حيث يرمز هذا المقياس إلى مقدار التصغير و كذلك كثيرا ما يحدث لادراك عظمة باخرة كبيرة جدا و تصوير حجمها أن أحد الأشخاص يقف على عرشتها و يؤخذ لهما صورة لكى يعرف الناظر لها عظمة حجمها من خلال روية الشخص الواقف عليها.

و تصوراتنا الذهنية على منوال الصور المصغّرة و ذات مقاييس رسم معينة، و عند ما نكبّرها بنفس المقدار فإنّنا نحصل على المخطط أو الحجم الصحيح و الواقعى. و بالطبع فإنّ المخططات و الأحجام الصغيرة يمكن أن تستوعبها الخلايا الدماغية.

فى الجواب نقول: إنّ المايكرو فيلم يتمّ تكبيرة بواسطة (البرجكتر و الشاشة الكبيرة التى تنعكس عليها الصور) كما أنّ الخرائط الجغرافية نستطيع التعرّف على ما تطويه من أحجام حقيقية بواسطة الأرقام الموجودة تحت الخرائط، فعند ما نضرب المساحات بهذا الرقم نحصل على الخريطة الكبيرة الواقعية مجسمة فى أذهاننا.

و الآن نطرح هذا السؤال: أين هى هذه الشاشة أو الصفحة العظيمة التى ينعكس عليها مايكروفيلم الذهن؟ هل تمثل الخلايا الدماغية الصفحة أو الشاشة المعنية؟

بالطبع لا، لأنّ الخريطة الجغرافية الصغيرة التى نضربها بمقياس الرسم لتتحوّل إلى حجمها الحقيقى، لا يمكن أن يكون مكانها الخلايا الدماغية الصغيرة فى حجمها.

و بعبارة أوضح نقول: بالنسبة إلى المايكرو فيلم و الخارطة الجغرافية، فإنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۸

نرى أنّ الشىء الموجود فى الخارج هو الفيلم و الخارطة الصغيرة، إلّا أنّه فى صورنا و إدراكاتنا الذهنية تكون الصور بمقدار وجودها الخارجى، و لا بدّ بالتالى من مكان يستوعبها، فهل يمكن للخلايا الدماغية و هى بمساحتها و حجمها المعروف أن تستوعب كل هذه الأحجام العظيمة؟

و خلاصة القول: إنّنا نتصوّر الصور الذهنية للأشياء بنفس أحجامها وسعتها فى موضوعاتها الخارجية، و هذا التصوّر العظيم لا يمكن أن ينعكس فى الخلايا الدماغية، لذلك فهى تحتاج إلى مكان و محل خاص، و هكذا ندرك أن فينا وجودا حقيقيا أكبر من هذه الخلايا و فوقها جميعا.

رابعا: عدم تشابه الظواهر الروحية مع الأوضاع المادية

هناك دليل آخر على استقلال الروح و عدم ماديتها، ففى الظواهر الروحية نشاهد خواصا و أوضاعا معينة تختلف عن الخواص و

الأوضاع المادیة، و لیس ثمّة تشابه بینهما. و مثال ذلک ما یلی:

۱- الموجودات المادیة تحتاج إلی الزمان و لها بعد تدریجی.

۲- بمرور الزمن تبلی هذه الموجودات المادیة.

۳- من صفاتها أنّها قابلة للتقسیم إلی أجزاء متعدّدة.

و لکن الظواهر الذهنیة لیست لها هذه الآثار و الخواص، حیث أنّنا نستطیع أن نتصوّر عالما کعالمنا الحالی فی ذهننا دون الحاجة إلی مرور الزمن و التدرّج.

و إضافة إلی ذلک، فإنّ اللقطات الموجودة فی الذهن منذ عهد الطفولة لا تصبح قدیمة و لا تستهلک أو تبلی بمرور الزمن، بل تحتفظ بنفس شکلها، و یمکن أن یستهلک دماغ الإنسان، إلّا أنّ صورة البیت المتجسّدة فی الدماغ منذ عشرین عامّا ثابتة فیه لا تتغیّر و لا تستهلک و لها نوع من الثبات الذی هو صفة عالم ما وراء الطبیعة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۹

إنّ روحنا تظهر خلاقیة عجیبة اتجاه الصور، و فی لحظة واحدة و بدون أی مقدمة یمکن رسم صور معینة فی أذهاننا کالکرات السماویة و المجرات و الکائنات الأرضیة و الجبال و ما شابهها. إنّ هذه الخاصیة لیست لکائن مادی، بل هی دلیل لکائن ما فوق المادة.

إضافة إلی ذلک فإنّنا لا نشک فی أن (۲+ ۲ ۴) حیث یمکن تجزئة طرفی المعادلة، مثلا تجزئة الرقم (۲) أو الرقم (۴) إلّا أنّ هذا مفهوم التساوی هذا لا یمکن تجزئته، فنقول مثلا: إنّ التساوی له نصفان و کل نصف هو غیر النصف الآخر، فالتساوی مفهوم لا یقبل التجزئة، فإمّا أن یکون موجود أو غیر موجود، إذ لا یمکن تنصیفه أبدا.

لذا فإنّ هذا النوع من المفاهیم الذهنیة غیر قابل للتقسیم، و لهذا السبب فهی لیست مادیة، إذ لو کانت مادیة لکان یمکن تجزئتها، و لهذا السبب فإنّ روحنا التی هی مرکز للمفاهیم غیر المادیة لا یمکن أن تکون مادیة، لذا فإنّها فوق المادة.

(فدقق فی ذلک)[۷۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۰

الآیتان [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۸۶ الی ۸۷]

اشارة

وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنا وَکِیلًا (۸۶) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ کانَ عَلَیْکَ کَبِیراً (۸۷)

التّفسیر

ما عندک هو من رحمته و برکته:

تحدثت الآیات السابقة عن القرآن، أمّا الآیتان اللتان نبحثهما الآن فهما أیضا ینصبان فی نفس الاتجاه.

ففی البدایة تقول الآیة: وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ و بعد ذلک:

ثُمَّ لا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنا وَکِیلًا إنّنا نحن الذین أعطیناک هذه العلوم حتی تکون قائدا و هادیا للناس، و نحن الذین إذا شئنا استرجعناها منک، و لیس لأحد أن یعترض علی ذلک.

و عنـد ربط هـذه الآيات بالآيـة السابقـة التی كانت تقول: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فإنّنا نعرف أنّ اللّه إذا شاء يأخذ حتى هذا العلم الذی أعطاه لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.
الآيـة التی بعـدها جاءت لتسـتثنی، فهی تبيّن أنّنا إذا لم نأخـذ ما أعطيناک، فليس ذلک سوی رحمـة من عنـدنا، حيث يقول تعالى: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ و هذه
الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۱
الرحمة لأجل هدايتک و إنقاذک، و كذلک لهداية و إنقاذ العالم البشری، و هذه الرحمة- فی الواقع- مكمّلة لرحمة الخلق.
إنّ اللّه الـذی خلق البشـر بمقتضـی رحمته الخاصّة و العامّة، و ألبسـهم لباس الوجود الذی هو أفضل الألبسة، هو نفسه الذی بعث إليهم قادة و أعين معصومين و حريصـين رؤوفين .. ذوی اسـتقامة و قدرة لهداية الناس، لأنّ من مقتضـيات رحمة اللّه أن لا تخلو الأرض من حجّة له عزّ و جلّ.
و فی نهاية الآية و لأجل تأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً.
إنّ وجود القابليـة لهـذا الفضل فی قلبک الكبير بجهادک و عبادتک من جهـة، و حاجة العباد إلى مثل قيادتک من جهة أخری، جعلا فضل اللّه عليک كبيرا للغاية فقد فتح اللّه أمامک أبواب العلم، و أنبأک بأسرار هداية الإنسان، و عصمک من الخطأ، حتى تكون أسوة و قدرة لجميع الناس إلى نهاية هذا العالم.
كما أنّه ينبغی أن نشـير إلى أنّ الجملـة الاسـتثنائية الواردة هنا ترتبط مع الآية السابقة، و مفهوم المسـتثنی و المسـتثنی منه هو هكذا: إذا أردنا فإنّنا نستطيع أن نمنع عنک هذا الوحی الذی أرسلناه لک، إلّا أنّنا لا نفعل، لأنّ الرحمة الإلهية شملتک و تشمل جميع الناس ۸۰].
و من الواضح أنّ هذا الاسـتثناء لا يعنی أنّ اللّه يحجب فی يوم من الأيّام رحمته عن نبيّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل هو دليل على أنّ الرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يملک شيئا من عنده، فعلمه و وحيه السماوی هو من اللّه و مرتبط بمشيئته و إرادته.
الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۲

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۸۸ الى ۸۹]

اشارة

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۸۸) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِی هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (۸۹)

التّفسير

معجزة القرآن:

الآيات التی بين أيدينا تتحدث عن إعجاز القرآن، و لأنّ الآيات اللاحقة تتحدّث عن حجج المشـركين فی مجال المعجزات، فإنّ الآية التی بين أيدينا- فی الحقيقة- مقدمة للبحث القادم حول المعجزات.
إنّ أهم و أقوی دليل و معجزة لرسول الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و التی هی معجزته الدائمـة على طول التأريـخ، هو القرآن الكريم الذی بوجوده تبطل حجج المشركين.
بعض المفسّرين أراد أن يؤكّد ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة من خلال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۳

مجهولیة الروح و أسرارها و قیاسها بمجهولیة القرآن و أسراره. و لکن العلاقة التی أشرنا إلیها آنفا تبدو أکثر من هذا الربط[۸۱].

علی أیة حال فإنّ اللّه یخاطب رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یقول له: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً.

إنّ هذه الآیة دعت- بصراحة- العالمین جمیعهم، صغارا و کبارا، عربا و غیر عرب، الإنسان أو أی کائن عاقل آخر، العلماء و الفلاسفة و الأدباء و المؤرخین و النوابغ و غیرهم ... لقد دعتهم جمیعا لمواجهة القرآن، و تحدّیه الکبیر لهم، و قالت لهم: إذا کنتم تظنون أنّ هذا الکلام لیس من الخالق و أنّه من صنع الإنسان، فأنتم أیضا بشر، فأتوا إذا بمثله، و إذا لم تستطیعوا ذلک بأجمعکم، فهذا العجز أفضل دلیل علی إعجاز القرآن.

إنّ هذه الدّعوة للمقابلة و التی یصطلح علیها علماء العقائد ب «التحدّی» هی أحد أرکان المعجزة، و عند ما یرد هذا التعبیر فی أی مکان، نفهم بوضوح أنّ هذا الموضوع هو من المعجزات.

و نلاحظ فی هذه الآیة عدّة نقاط ملفتة للنظر:

۱- عمومیة دعوة التحدّی و التی تشمل کل البشر و الموجودات العاقلة الأخری.

۲- خلود دعوة التحدّی و استمرارها، إذ هی غیر مقیّدة بزمان، و علی هذا الأساس فإنّ هذا التحدی الیوم جار مثلما کان فی أیّام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و سیبقی کذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۴

فی المستقبل.

۳- استخدام کلمة «اجتمعت» إشارة لأشکال التعاون و التعاضد و التساند الفکری و العملی، الذی یضاعف حتما من نتائج أعمال الأفراد مئات، بل آلاف المّرات.

۴- إنّ تعبیر وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً تأکید مجدّد علی قضیة التعاون و التعاضد، و هی أیضا إشارة ضمنیة إلی قیمة هذا العمل و تأثیره علی صعید تحقق الأهداف و تنجزها.

۵- إنّ تعبیر بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ دلالة علی الشمول و العموم، و هو یعنی (المثل) فی جمیع النواحی و الأمور، من حیث الفصاحة و البلاغة و المحتوی، و من حیث تربیة الإنسان، و البحوث العلمیة و القوانین الاجتماعیة، و عرض التأریخ، و التنبؤات الغیبیة المرتبطة بالمستقبل ... إلی آخر ما فی القرآن من أمور.

۶- إنّ دعوة جمیع الناس للتحدّی دلیل علی أنّ الإعجاز لا ینحصر فی ألفاظ القرآن و فصاحته و بلاغته و حسب، و إلّا لو کان کذلک، لکانت دعوة غیر العرب عدیمة الفائدة.

۷- المعجزة تکون قویة عند ما یقوم صاحب المعجزة بإثارة و تحدّی أعدائه و مخالفیه، و بتعبیرنا تقول: یستفزهم، ثمّ تظهر عظمة الإعجاز عند ما یظهر عجز أولئک و فشلهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۱۳۴

فی الآیة التی نبحثها یتجلی هذا الأمر واضحا، فمن جانب دعت جمیع الناس، و من جانب آخر تستفزهم بصراحة فی قولها لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ثمّ تحرضهم و تدفعهم للتحدی بالقول وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً.

الآیة التی بعدها- فی الواقع- توضیح لجانب من جوانب الإعجاز القرآنی، متمثلا فی شمولیته و إحاطته بکل شیء، إذ یقول تعالی: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۵

هذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ و لکن بالرغم من ذلک: فَأَبی أَکْثَرُ النَّاسِ إِلَّا کُفُوراً.

«صرّفنا» من «تصریف» بمعنی التغییر أو التبدیل.

أمّا «کفورا» فتعنی إنکار الحق.

حقّا إنّ التنوع الذی یتضمّنه القرآن الکریم تنوع عجیب، خاصّة و أنّه صدر من شخص لا یعرف القراءة و الکتابة، ففی هذا الکتاب وردت الأدلة العقلیة بجزئیاتها الخاصّة حول قضایا العقائد، و ذکرت- أیضا- الأحکام المتعلقة بحاجات البشر فی المجالات کافة. و تعرّض القرآن- أیضا- إلی قضایا و أحداث تأریخیة تعتبر فریدة فی نوعها و مثیرة فی بابها، و خالیة من الخرافات.

و تعرض إلی البحوث الأخلاقیة التی تؤثّر فی القلوب المستعدّة کتأثیر المطر فی الأرض المیتة.

القضایا العلمیة ورد ذکرها فی القرآن الکریم، إذ ذکرت بعض الحقائق التی لم تکن تعرف فی ذلک الزمان من قبل أی عالم.

و الخلاصة: إنّ القرآن سلک کل واد و تناول فی آیاته أفضل النماذج.

و إذا توجهنا إلی حقیقة محدودیة معلومات الإنسان کائنا من کان (کما تشیر إلی ذلک أیضا الآیات القرآنیة) و أنّ رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد ترعرع فی بیئة محدودة فی القضایا العلمیة و المعرفیة حتی أنّها لم تبلغ من معلومات و معارف الإنسان فی زمانها إلّا مبلغا یکاد لا یذکر ... وسط کل ذلک، ألا یعتبر التنوع فی القرآن فی قضایا التوحید و الأخلاق و الاجتماع و السیاسة و الأمور العسکریة و غیرها، دلیلا علی أنّ هذا القرآن لیس من صنع عقل بشری، بل من الخالق جلّ و علا؟

و لهذا السبب إذا اجتمعت الجن و الإنس علی أن یأتوا بمثله فلا یستطیعون و لو کان بعضهم لبعض ظهیرا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۶

لنفترض أنّ جمیع العلماء و المتخصصین یجتمعون الیوم لتألیف دائرة معارف، و ینظموها بأفضل ما لدیهم من خبرات فنیة و معرفیة، فإنّ النتیجة ستکون عملا یلقی صداه الحسن فی مجتمع الیوم، أمّا بعد خمسین عاما فسیعتبر هذا العمل ناقصا و قدیما.

أمّا القرآن ففی أی عصر و زمان یقرأ، و خاصّة فی زماننا الحاضر، فإنّه یبدو کأنّه نزل لیومنا هذا، و لا یوجد فیه أی أثر یدل علی أنّه قدیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۷

الآیات [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۹۰ الی ۹۳]

اشارة

وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ قَبِیلًا (۹۲) أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتَّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا (۹۳)

سبب النّزول

لقد ذکر المفسّرون استنادا للروایات الواردة أسبابا عدیدة لنزول هذه الآیات، و فیما یلی سنتعرض بشکل موجز إلی هذه الأسباب

معتمدين بشكل مباشر على تفسير مجمع البيان الذى قال:

إنّ جماعة من وجهاء قريش- و فيهم الوليد بن المغيرة و أبو جهل- اجتمعوا عند الكعبة، و قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد فكلّموه و خاصموه. فبعثوا إليه:

إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك. فبادر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليهم ظنّا منه، أنّهم بدا لهم فى أمره، و كان حريصا على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا: يا محمّد إنا دعوناك لنعذر إليك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۸

فلا نعلم أحدا أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، و عبت الدين و سفهت الأحكام، و فرقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالا أعطيناك، و إن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا، و إن كانت علّة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ليس شيء من ذلك، بل بعثنى اللّه إليكم رسولا، و أنزل كتابا، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم فى الدنيا و الآخرة، و إن تردّوه أصبر حتى يحكم اللّه بيننا».

قالوا: فإذن ليس أحد أضيق بلدا منّا فاسأل ربّك أن يسيّر هذه الجبال، و يجرى لنا أنهارا كأنهار الشام و العراق، و أن يبعث لنا من مضى و ليكن فيهم قصيّ فإنّه شيخ صدوق لنسألهم عمّا تقول أحق أم باطل.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما بهذا بعثت».

قالوا: فإن لم تفعل ذلك فاسأل ربّك أن يبعث ملكا يصدقك و يجعل لنا جنات و كنوزا و قصورا من ذهب.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما بهذا بعثت، و قد جئتكم بما بعثنى اللّه به، فإن قبلتم و إلّا فهو يحكم بينى و بينكم».

قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت، إن ربّك إن شاء فعل ذلك.

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ذاك إلى اللّه إن شاء فعل».

و قال قائل منهم: لا نؤمن حتى تأتى باللّه و الملائكة قبيلا.

فقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قام معه عبد اللّه بن أبى أمية المخزومى ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمّد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثمّ سألوك لأنفسهم أمورا فلم تفعل، ثمّ سألوك أن تعجّل ما تخوفهم به فلم تفعل، فو اللّه لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ سلّما إلى السماء ثمّ ترقى فيه و أنا أنظر، و يأتى معك نفر من الملائكة يشهدون لك، و كتاب يشهد لك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۹

و قال أبو جهل: إنّه أبى إلّا سبّ الآلهة و شتم الآباء، و أنا أعاهد اللّه لأحملن حجرا فإذا سجد ضربت به رأسه.

فانصرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حزينا لما رأى من قوله، فأنزل اللّه سبحانه الآيات أعلاه ۸۲].

التّفسير

أعذار و ذرائع مختلفة:

بعد الآيات السابقة التى تحدثت عن عظمة و إعجاز القرآن، جاءت هذه الآيات تشير إلى ذرائع المشركين، هذه الذرائع تثبت أنّ مواقف هؤلاء المشركين إزاء دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى جاءت أصلا لإحيائهم، لم تكن إلّا للعناد و المكابرة، حيث أنّهم كانوا يطالبون بأشياء غير معقولة فى مقابل اقتراح الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المنطقى و إعجاز القوى.

هذه الطلبات وردت على ستة أقسام هى:

۱- فى البداية يقولون: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً.

«فجور و تفجير» بمعنى الشق. و هى عامّة، سواء كان شق الأرض بواسطة العيون أو شق الأفق بواسطة نور الصباح (مع الأخذ بنظر الإعتبار أن تفجير هى صيغة مبالغة لفجور).

«ينبوع» مأخوذة من «نبع» و هو محل فوران الماء، و البعض قالوا بأنّ الينبوع هى عين الماء التى لا تنتهى أبدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۰

۲- قولهم كما فى الآية: أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً.

۳- أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً.

۴- أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ قَبِیلًا.

«قبيل» تعنى فى بعض الأحيان «الكفيل و الضامن» و تعنى- فى أحيان أخرى- الشىء الذى يوضع قبال الإنسان و فى مواجهته، و قال بعضهم بأنّها جمع (قبيلة) أى الجماعة من الناس.

و طبقا للمعنى الأوّل يكون معنى الآية أن تأتى باللّه و الملائكة كضامنين على صدقك! و أمّا طبقا للمعنى الثّانى فيكون المعنى أن تأتى باللّه و الملائكة و تضعهما فى مقابلنا! و أمّا طبقا للمعنى الثّالث فيكون معنى الآية أن تأتى باللّه و الملائكة على شكل مجموعة مجموعة! و يجب الانتباه إلى أنّ هذه المفاهيم الثلاثة لا تتعارض فيما بينها، و يمكن أن تكون مجتمعة فى مفهوم الآية، لأنّ استخدام كلمة واحدة لأكثر من معنى ممكن عندنا.

۵- أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ

«زخرف» فى الأصل تعنى (الزينة)، و يقال للذهب «زخرف» لأنّه من الفلزات المعروفة و المستخدمة لأغراض الزينة، و يقال للبيوت المزيّنة و الملونة أنّها (مزخرفة)، كما يقال للكلام المزوّق و المخادع بأنّه «كلام مزخرف».

۶- أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتَّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ

ثمّ يصدر الأمر من الخالق جلّ و علا لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهؤلاء فى مقابل اقتراحاتهم هذه: قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۱

بحوث

۱- جواب الرّسول للمتذرعين

لقد تبيّن من خلال الآيات أعلاه و الحديث الوارد فى أسباب النّزول، أنّ طلبات المشركين العجيبة و الغريبة لم تكن تنع من روح نشدان الحقيقة، بل كان هدفهم البقاء على الشرك و عبادة الأصنام لأنّه كان يمثل الدعامة الأساسية و القوّة المادية لزعماء مكّة، و كذلك منع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الاستمرار فى طريق الدعوة الى التوحيد بأى صورة ممكنة.

إلّا أنّ الرّسول الهادى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أجابهم بجوابين منطقيين و فى جملة واحدة و قصيرة:

الجواب الأوّل: إنّ الخالق جلّ و علا منزّه عن هذه الأمور، منزّه التأثّر بهذا و ذاك، و منزّه من أن يستسلم للاقتراحات الباطلة و الواهية لأصحاب العقول السخيفة: سُبْحانَ رَبِّی

الجواب الثّانی: بغض النظر عمّا مضی فإنّ الإتیان بالمعجزات لیس من عملی، فأنا بشر مثلکم، إلّا أنّنی رسول اللّه، و القیام بالمعاجز من عمل الخالق و بإرادته تتمّ، و بأمره تنجز، فأنا لا أستطیع أن أطلب مثل هـذه الأمور من الخالق و لا یحق لی أن أتدخل فی مثل الأمور، فمتی شاء سبحانه فسیبعث بالمعجزات الإثبات صدق دعوهٔ رسوله: هَلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا.

صحیح أنّ هناک ترابط بین هذین الجوابین، إلّا أنّهما یعتبران جوابین منفصلین، فأحدهما یثبت ضعف البشر فی مقابل هذه الأمور، و الثّانی تنزیه ربّ البشر عن القبول بهذه المعجزات المقترحهٔ.

و عادهٔ فإنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس إنسانا استثنائیا یجلس فی مکان معین، و یأتی الأشخاص یقترحون علیه المعجزات کیفما یشاءون، و یتلاعبون بقوانین و سنن الخلق و الوجود، و إذا لم تعجبهم معجزهٔ معینهٔ یطلبون غیرها ... و هکذا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۲

إنّ مسئولیهٔ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی إثبات ارتباطه بالخالق عن طریق المعجزهٔ، و عند ما یأتی بالقدر الکافی من المعاجز، فلیست علیه أیهٔ مسئولیهٔ أخری.

إنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد لا یعرف بزمان نزول المعجزات، و قد یطلب المعجزهٔ من ربّه عند ما یعلم بأنّ الإتیان بها یرضی اللّه تعالی.

۲- الأفکار المحدودهٔ و الطلبات غیر المعقولهٔ

کل إنسان یتکلم بحدود فکره، و لهذا السبب فإنّ حدیث أی شخص هو دلیل علی مقدار عمق أفکاره.

الأفراد الذی لا یفکرون إلا بالمال و الجاه یتصورون أنّ کل من یتحدث عن شیء إنّما یقصد هذا المجال.

لهـذا السـبب کـان مشـرکو مکّهٔ یقترحون- بسبب قصور تفکیرهم- علی رسول اللّه اقتراحـات تتصل بالمال و قضایاه، یطلبون منه أن یترک دعوته مقابل المال، إنّهم یقیسون الروح الواسعهٔ لرسول الهدی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بضیق أفکارهم.

إنّ هؤلاء کانوا یعتقدون بأنّ من لا یجاهد فی سبیل المال أو المقام مجنون حتما، و مثلهم کمثل المسجون فی غرفهٔ صغیرهٔ لا یری السماء الواسعهٔ و الشمس العظیمهٔ و الجبال الشامخهٔ و البحار الواسعهٔ و لا یحس بعظمهٔ عالم الوجود. لقد أرادوا مقایسهٔ الروح السمحهٔ العظیمهٔ لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمقاییسهم.

إضافهٔ لـذلک، لنر مـا هی الأشیاء التی أرادوهـا من الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم تکن موجودهٔ فی الإسلام، لقـد أرادوا الأراضی المزروعهٔ و العیون المتفجّرهٔ، و بساتین النخیل و الأعناب، و البیوت المزخرفهٔ. و نحن نعلم أنّ الإسلام قد فتح أبواب التقدّم و التکنولوجیا بحیث یمکن فی ظل التقدم الاقتصادی تحقیق الکثیر من هذه الأمور، بل و نلاحظ بأنّ المسلمین فی ظل البرامج القرآنیهٔ و صلوا إلی تحقیق تقدّم أکثر ممّا کان یدور فی عقول المشرکین ذوی الأفق الضیق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۳

فهؤلاء لو کانوا ینظرون بعین الحقیقهٔ لکانوا قد شاهدوا هذا التطوّر المعنوی العظیم فی هذا الدین، و کذلک الانتصارات المادیهٔ المنظورهٔ حیث یضمن القرآن سعادهٔ الإنسان فی المجالین الدنیوی و الأخروی.

بالإضافهٔ إلی ذلک، فإنّ اقتراحاتهم السفیههٔ الأخری تدل علی مدی التکبّر و الغرور و الجهل المسیطر علی عقولهم .. کقولهم: أو تسقط السماء علینا ..

و قولهم: أن تضع سلما و تصعد الی السماء.

و قولهم: أن تحضر أمّامنا اللّه و الملائکهٔ!! حتی أنّهم لم یطلبوا منه أن یأخذهم الی اللّه تعالی .. فما اشدّ هذا الجهل و الغرور و التکبر!!

۳- ذریعة أخری لنفی الإعجاز

بالرغم من وضوح الآیات أعلاه، و أنّها غیر معقّدة، و أنّ طلبات المشرکین من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم واضحة، و کذلک سبب تعامل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم السلبی مع هؤلاء معلوم أیضا، إلّا أنّ الآیات أصبحت ذریعة بید بعض المتذرعین فی عصرنا الذین یصرّون علی نفی أی معجزة لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و هؤلاء یعتبرون هذه الآیات من أوضح الأدلة علی نفی الإعجاز عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث طلب المشرکون منه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یأتی ستة أنواع من المعاجز سواء من الأرض أو السماء و سواء کانت مفیدة لهم أو قاضیة بموتهم، إلّا أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یستطیع تنفیذ أیّ منها، جوابه الوحید لهم کان سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا.

نحن نقول: إذا لم یکن متذرعو الیوم کأسلافهم، فإنّ ما ورد فی الآیات یکفیهم جوابا علی ما أوردوا، إذ ینبغی أن نلاحظ ما یلی:

۱- البعض من الطلبات الهزیلة، کمثل طلبهم إحضار الخالق جلّ و علا و الملائکة، أو المجیء برسالة من السماء فیها أسماؤهم و عناوینهم! البعض

الآخر مما طلبوا، فیها أجابهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلیه، سوف لن یبقی أثر لهم، و بالتالی لن تکون قضیة المعجزة ذات أثر فی إیمانهم أو عدمه، مثل قولهم أن یسقط علیهم کسفا من السماء، أی أن تنزل علیهم صخور من السماء.

أمّا بقیة الطالبات المقترحة فتشمل الحصول علی المزید من وسائل الحیاة المرفّهة و الأموال و الثروات الکبیرة، فی حین أنّ الأنبیاء لم یأتوا لتحقیق هذه الأمور.

و إذا افترضنا خلو ما اقترحه المشرکون من المآخذ، فإنّنا نعلم- کما تخبر بذلک الآیات- أنّ ما طلبوه کان من نمط التحجّج و التذرّع أمام دعوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس من مسئولیة رسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یجیبهم إلی ذرائعهم و تحججاتهم هذه، بل إنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقدّم المعجزة بمقدار ما یثبت صدق دعوته، و لا شیء أکثر من ذلک.

۲- بعض تعابیر هذه الآیات توضح بنفسها- بصراحة شدیدة- مدی عناد و تذرّع هؤلاء بمثل هذه الطلبات، فمثلا هم یقترحون علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الصعود الی السماء، و لکنّهم یقولون له، بأنّنا لا نصدّق صعودک إن لم تأتنا برسالة من السماء. إذا کان هؤلاء طلّاب معجزة- فقط- فلما ذا لا یکفیهم صعود الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم السماء، ثمّ هل هناک دلیل أوضح من هذا علی عدم واقعیة هؤلاء القوم و عدم منطقیة عروضاتهم؟

۳- إضافة إلی کلّ ما مر، فإنّنا نعلم أنّ المعجزة من عمل الخالق جلّ و علا و لیست من عمل الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فی حین یظهر واضحا من کلامهم أنّهم کانوا یعتبرون المعجزة من فعله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لذا کانوا ینسبون جمیع الأعمال إلیه مثل قولهم:

تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً ... أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً، أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ و ما إلی ذلک من طلبات.

الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یعتقد بأنّ علیه أن یزیل هذه الأوهام من عقولهم، و یثبت

لهم بأنّه لیس هو اللّه و لا هو شریکه، و المعجزة من اللّه دون سواه، فأنا بشر مثلکم، و الفارق أنّ الوحی ینزل علیّ، و بمقدار ما یلزم الأمر فإنّ اللّه ینزل المعاجز علی یدی، و لا أستطیع أن أفعل أکثر من هذا، و قوله سُبْحانَ رَبِّی شاهد علی هذا المعنی، إذا أنّ الخالق منزّه عن أی شریک و شبیه.

و بالرغم من أنّ القرآن ذكر معاجز متعدّدة لعيسى عليه السّلام مثل إحياء الموتى و شفاء المرضى و غير ذلك، إلّا أنّ هذه المعجزات جميعا كانت ملحقة بكلمة «بإذني» أو «بإذن اللّه» أي إنّها تتم- فقط- بإذن الخالق، و أجريت على يد المسيح عليه السّلام ۸۳].

۴- أيّ إنسان يصدّق بأنّ إنسانا يدّعي النّبوة، بل يعتبر نفسه خاتم النّبيين، و يذكر في كتابه المعاجز الكثيرة للأنبياء السابقين، إلّا أنّه نفسه لا يستطيع أن يأتي بمعجزة؟! ثمّ إنّ الناس على هذا الفرض، ألا يعترضون على مثل هذا النّبي و يقولون له:

كيف تكون نبيّا في حين أنّك تعجز عن القيام بمعاجز مثل معاجز الأنبياء الآخرين ... فإن كنت تدّعي أنّك أفضل منهم جميعا و خاتمهم، فكيف إذن تستقيم الدعوة مع عدم الإتيان بالمعجزات؟

إنّ هذا الواقع- بحدّ ذاته- دليل على أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد جاء- عند الضرورة و اللزوم- بالمعجزات، و من هنا يتّضح أن عدم استسلام رسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لطلبات المشركين الآنفة إنّما يعود لعلمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعدم جدواها في إثبات ما يلزم من نبوته، و أنّها انطلقت- فقط- على سبيل التحجج و التذرّع من قبل عتاة قريش و كبرائها، لذلك أهمل صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا الكلام و لم يستجب لاقتراحاتهم غير المنطقية و غير المعقولة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۶

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۴ الى ۹۵]

اشارة

وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (۹۴) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (۹۵)

التّفسير

ذريعة عامّة:

اشارة

الآيات السابقة تحدّثت عن تذرّع المشركين- أو قسم منهم- في قضية التوحيد، أمّا الآيات التي نبحثها فإنّها تشير إلى ذريعة عامّة في مقابل دعوة الأنبياء، حيث تقول: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا.

هل يمكن التصديق بأنّ هذه المهمّة و المنزلة الرفيعة تقع على عاتق الإنسان ... ثمّ و الكلام للمشركين- ألم يكن الأولى و الأجدر أن تقع هذه المهمّة- و هذه المسؤولية- على عاتق مخلوق أفضل كالملائكة- مثلا- كي يستطيعوا أداء هذه المهمّة بجدارة ... إذ أين الإنسان الترابي و الرسالة الإلهية؟! إنّ هذا المنطق الواهي الذي تحكيه الآية على لسان المشركين لا يخص

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۷

مجموعة أو مجموعتين من الناس، بل إنّ أكثر الناس و في امتداد تأريخ النّبوات قد تذرّعوا به في مقابل الأنبياء و الرّسل.

قوم نوح عليه السّلام- مثلا- كانوا يعارضون نبيّهم بمثل هذا المنطق و يصّرحون: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ كما حكت ذلك الآية (۲۴) من سورة المؤمنون.

أمّا قوم هود فقد كانوا يواجهون نبيّهم بالقول: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ كما ورد في الآية (۳۳)

من سورة المؤمنون. ثمّ أضافت الآیة (۳۴) من نفس السورة قولهم: وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَکُمْ إِنَّکُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ

نفس هـذه الذریعة تمسّک بها المشـرکون ضد رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و أمام دعوة الإسـلام التی جاء بها، إذ قالوا: ما لِهذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً[۸۴].

القرآن الکریم أجاب هؤلاء جمیعا فی جملة قصیرة واحدة ملیئة بالمعانی و الدلالات، قال تعالی: قُلْ لَوْ کانَ فِی الْأَرْضِ مَلائِکَةٌ یَمْشُونَ مُطْمَئِنِّینَ لَنَزَّلْنا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَکاً رَسُولًا.

یعنی أنّ القائد یجب أن یکون من سنخ من بعث إلیه، و من جنس أتباعه، فالإنسان لجماعة البشر، و الملک لجماعة الملائکة.

و دلیل هـذا التجانس و التطابق بین القائـد و أتباعه واضـح؛ فمن جانب یعتبر التبلیغ العملی أهم وظیفـة فی عمل القائد من خلال کونه قـدوة و أسوة، و هـذا لاـ یتمّ إلّا أن یکون القائـد من جنسـهم، یمتلـک نفس الغرائز و الأحاسیس، و نفس مکونات البناء الجسـمی و الروحی الذی یملکه کل فرد من أفراد جماعته، فلو کان الرّسول إلی البشـر من جنس الملائکة الذین لا یملکون الشهوة و لا یحتاجون إلی الطعام و المسکن و الملبس، فلا یستطیع أن یتمثل معنی الأسوة و القدوة لمن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۸

بعث إلیهم، بل إنّ الناس سوف یقولون: إنّ هذا النّبی المرسل لا یعرف ما فی قلوبنا و ضمائرنا، و لا یدرک ما تنطوی علیه أرواحنا من عوامل الشـهوة و الغضب و ما إلی ذلک، إنّ مثل هذا الرّسول سوف یتحدث إلی نفسه فقط، إذ لو کان مثلنا یملک نفس أحاسیسـنا و مشاعرنا لکان مثل حالنا أو أسوأ، لذا لا اعتبار لکلامه.

أمّا عند ما یکون القائد مثل

أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه السّلام الذی یقول: «إنّما هی نفسی أروضها بالتقوی لتأتی أمنة یوم الخوف الأکبر»[۸۵].

فإنّ مثله یصلح أن یکون الأسوة و القدوة لمن یقودهم.

من جانب آخر ینبغی للقائد أن یدرک جمیع احتیاجات و مشاکل أتباعه کی یکون قادرا علی علاجهم، و الإجابة علی أسـئلتهم، لهذا السبب نری أنّ الأنبیـاء برزوا من بین عامّـة الناس، و عانوا فی حیاتهم کما یعانی الناس، و ذاقوا جمیع مرارات الحیاة، و لمسوا الحقائق المؤلمة بأنفسهم و هیأوا أنفسهم لمعالجتها و مصابرة مشکلات الحیاة.

المهتدون الحقیقیون:

بعـد أن قطعت الآیات السابقـة أشواطا فی مجال التوحید و النّبوة و عرض حدیث المعارضـین و المشـرکین، فإنّ هذه الآیات عبارة عن خاتمـة المطاف فی هـذا الحـدیث، إذ تضع النتیجـة الأخیرة لکل ذلک. ففی البدایـة تقول الآیـة إذا لم یقبل أولئک أدلتک الواضـحة حول التوحید و النّبوة و المعاد فقل لهم: قُلْ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ إِنَّهُ کانَ بِعِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً[۸۶].

إنّ هذه الآیة تستهدف أمرین فهی أوّلا: تهدّد المعارضین المتعصبین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۱

و المعانـدین، بـأنّ اللّه خبیر و بصیر و یشـهد أعمالنـا و أعمالکم، فلا تظنوا بأنّکم خارجون عن محیط قـدرته أو أنّ شـیئا من أعمالکم خاف عنه.

الأـمر الثّـانی: هو أنّ الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أظهر إیمانه القاطع بما قال، حیث أنّ ایمان المتحـدّث القوی بما یقول له أثر نفسی عمیق فی المستمع، و عسی أن یکون هذا التعبیر القاطع و الحاسم المقرون بنوع من التهدید مؤثرا فیهم، و یهز وجودهم، و یوقظ فکرهم و وجدانهم و یهدیهم إلی الطریق الصحیح.

الآیة التالیة تؤکّد علی أن الشـخص المهتدی هو الذی قذف اللّه تعالی بنور الإیمان فی قلبه: وَ مَنْ یَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ أمّا من أظلّه اللّه

بسوء أعماله:

وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ فالطريق الوحيد هو أن يرجعوا إليه و يطلبوا نور الهداية منه.

هاتان الجملتان تثبتان أنّ الدليل القوى و القاطع لا يكفى للإيمان، فما لم يكن هناك توفيق إلهى لا يستقر الإيمان أبدا.

هذا التعبير يشبه دعوتنا لمجموعة لأن تفعل الخير بعد أن نشرح لهم أهمية الموضوع بواسطة الأدلة المختلفة، إلّا أنّ الحصيلة العملية ستكون موافقة البعض، و امتناع البعض الآخر عن فعل الخير برغم صحة الأدلة. و بذلك لا يكون كل واحد لائقا لفعل الخير.

و هذه حقيقة فليس كل قلب يليق لأن ينال نور الحق، إضافة إلى أنّ الكلام يثير المستمع، و قد يحدث أن يترك الشخص بتأثير هذا الكلام عناده و لجاجته ليثبت لياقته للحق و يستسلم له.

و قلنا مرارا: إنّ الهداية و الضلالة الإلهيتين ليستا شيئين جبريين، بل تخضعان للأثر المباشر لأعمال الإنسان و صفاته، فالأشخاص الذين جاهدوا أنفسهم وسعوا بجدية فى طريق القرب الإلهى، فمن البديهى أن اللّه سيوفّقهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۲

و يهديهم: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا[۸۷].

أمّا أولئك الذين يسلكون طريق العناد و المكابرة و تتلوّث فطرتهم و قلوبهم بأنواع الذنوب و المفاسد و المظالم، فإنّهم قد قضوا على أى استعداد أو جدارة لديهم فى قبول الحق بالتالى مستحق للضلالة: وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۸۸]. وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ ۸۹]. كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ ۹۰].

أمّا عن سبب مجىء «أولياء» بصيغة الجمع، فقد يعود ذلك للإشارة إلى تعدّد الآلهة الوهمية أو تنوع الوسائل التى يلجأون إليها، فيكون المقصود أنّ جميع هذه الوسائل و جميع البشر و غير البشر، و كل ما تؤلهون من آلهة من دون اللّه، لا يستطيع أن ينقذكم من الضلالة و سوء العاقبة.

ثمّ تذكر الآيات- بصيغة التهديد القاطع- جانبا من مصيرهم بسبب أعمالهم فى يوم القيامة فتقول: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ فبدلا من الدخول بشكل عادى و بقامة منتصبة، فإنّ الملائكة الموكلين بهم يسحبونهم إلى جهنّم على وجوهم تعذيبا لهم.

البعض يعتقد أنّ هؤلاء يسبحون يوم القيامة بسبب عجزهم فى ذلك اليوم عن المشى، لذلك فإنّهم يزحفون كالزواحف على وجوههم و صدورهم بشكل ذليل و مؤلم.

نعم، فأولئك محرومون من نعمة كبيرة، هى نعمة المشى على الأرجل، لأنّهم لم يستفيدوا من هذه الوسيلة فى هذه الدنيا فى سلوك طريق السعادة و الهداية، بل خصصوها لسلوك طرق الذنوب و المعاصى.

ثمّ هم يحشرون: عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا. و هنا قد يطرح هذا السؤال، و هو: إنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۳

المجرمين و أهل الجحيم ينظرون و يسمعون و يتكلمون، فكيف تقول هذه الآية عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا[۹۱]؟

للمفسّرين أقوال متعدّدة فى الإجابة على هذا السؤال، إلّا أن أفضلها جوابان نستطيع إجمالهما فيما يلى:

أوّلا: إنّ مراحل و مواقف يوم القيامة متعدّدة، ففى بعض المراحل و المواقف يكون هؤلاء صما و بكما و عميا، و هذا نوع من العقاب لهم، لأنّهم لم يستفيدوا من هذه النعم الإلهية بصورة صحيحة فى حياتهم الدنيا. إلّا أنّه- فى مراحل لاحقة- فإنّ عيونهم تبدأ بالنظر، و آذانهم بالسماع، و ألسنتهم بالنطق حتى يروا منظر العذاب و يسمعون كلام الشامتين، و يبدأون بالتأوه و الصراخ و إظهار ضعفهم، حيث أن كل هذه الأمور هى نوع آخر من العقاب لهم.

ثانيا: إنّ المجرمين و أهل النار محرومون من رؤية ما هو سارّ و من سماع أمور تبعث على الفرح، و من قول كلام يستوجب نجاتهم، بل على العكس من ذلك، فهم لا ينظرون و لا يسمعون و لا يقولون إلّا ما يؤذى و يؤلم.

فى الختام تقول الآية: مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ

لكن لا تظنّوا أنّ نارها كنار الدنيا تنطفى فى النهاية، بل هى: كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۴

ملاحظات

۱- قوله تعالى: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ ... يعنى إن سبب عدم إيمانهم هو هذا التدرّج، إلّا أنّ هذا التعبير ليس دليلا على الحصر، بل هو للتأكيد و بيان أهمية الموضوع.

۲- عبارة: مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ موضع اختلاف فى أقوال و آراء المفسّرين، فالبعض يعتبرها إشارة إلى قول عرب الجاهلية الذين كانوا يقولون بأنّنا كنّا نعيش فى هذه الجزيرة حياة هادئة، و قد جاء محمّد ليجلب الفوضى و القلق، إلّا أنّهم جوبهوا بقول القرآن لهم بأنّه حتى لو كانت الملائكة تسكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۹

الأرض و كانوا يعيشون حياة هادئة- كما تدّعون- فإنّنا كنّا سنرسل لهم رسولا من جنسهم و صنفهم.

البعض الآخر من المفسّرين فسّرها بأنّها «اطمئنان إلى الدنيا و لذاتها و الابتعاد عن أى مذهب و دين».

و أخيرا فسّرها بعضهم بمعنى (السكن و التوطّن) فى الأرض.

لكن الاحتمال الأقوى هو أن يكون هدف الآية: لو كانت الملائكة ساكنة فى الأرض، و كانوا يعيشون حياة هادئة و خالية من الصراع و النزاع، فرغم ذلك كانوا سيشعرون بالحاجة إلى قائد من جنسهم، حيث أنّ الهدف من إرسال الأنبياء و بعثهم ليس لإنهاء الصراع و النزاع و إيجاد أسباب الحياة المادية الهادئة و حسب، بل إنّ هذه الأمور هى مقدمة لطى سبيل التكامل و التربية فى المجالات المعنوية و الإنسانية، و مثل هذا الهدف يحتاج إلى قائد إلهى.

۳- يستفيد العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان من كلمة «أرض» فى الآية أعلاه، أنّ طبيعة الحياة المادية على الأرض تحتاج إلى نبى، و بدونه لا يمكن الحياة.

إضافة الى ذلك فإنّه يرى أنّ هذه الكلمة إشارة لطيفة إلى جاذبية الأرض حيث أنّ التحرّك بهدوء و اطمئنان بدون وجود الجاذبية يعتبر أمرا محالا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۰

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۶ الى ۹۷]

اشارة

قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۹۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (۹۷)

التّفسير

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۸ الى ۱۰۰]

اشارة

ذلِکَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِآیاتِنا وَ قالُوا أَ إِذا کُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً (۹۸) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلی أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَیْبَ فِیهِ فَأَبَی الظَّالِمُونَ إِلاَّ کُفُوراً (۹۹) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِکُونَ خَزائِنَ رَحْمَهِٔ رَبِّی إِذاً لَأَمْسَکْتُمْ خَشْیَهَٔ الْإِنْفاقِ وَ کانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (۱۰۰)

التّفسير

كيف يكون المعاد ممكنا؟

فی الآیات السابقهٔ رأینا کیف أنّ یوما سیئا ینتظر المجرمین فی العالم الآخر.

هذه العاقبهٔ التی تجعل أی عاقل یفکّر فی هذا المصیر، لذلک فإنّ الآیات التی بین أیدینا تقف علی هذه الموضوع بشکل آخر.

فی البدایهٔ تقول: ذلِکَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِآیاتِنا وَ قالُوا أَ إِذا کُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً.

«رفات» کما یقول الراغب فی «المفردات» هی قطع من (التبن) لا تتهشم بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۵

تنتشر و تتناثر هنا و هناک. و الأمر لا یحتاج إلی مزید توضیح، فالإنسان یتحول تحت التراب إلی عظام نخرهٔ ثمّ إلی تراب، ثمّ تتلاشی ذرات التراب هذه و تنتشر.

و بعد تعجبهم من المعاد الجسمانی و اعتبارهم ذلک أمرا غیر ممکن، یقول القرآن بأسلوب واضح و مباشر و بلا فصل: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلی أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ و علی هؤلاء أن لا یعجلوا فإنّ القیامهٔ و إن تأخّرت، إلّا أنّها سوف تتحقق بلا ریب: وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَیْبَ فِیهِ

و لکن هؤلاء الظالمین و المعادین مستمرون علی ما هم فیه رغم سماعهم هذه الآیات: فَأَبَی الظَّالِمُونَ إِلَّا کُفُوراً.

و حیث أنّهم کانوا یصرخون و یصّرون علی أن لا یکون النّبی من البشر حسدا من عند أنفسهم و جهلا و ضلالا، و قد منعهم هذا الحسد و الجهل من التصدیق بإمکانیهٔ أن یعطی اللّه کل هذه المواهب لإنسان، لذا فإنّ الخالق جلّ و علا یخاطبهم بقوله: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِکُونَ خَزائِنَ رَحْمَهِٔ رَبِّی إِذاً لَأَمْسَکْتُمْ خَشْیَهَٔ الْإِنْفاقِ ثمّ یقول: وَ کانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً.

«قتور» من «قتر» علی وزن «قتل» و هی تعنی الإمساک فی الصرف، و بما أنّ (قتور) صیغهٔ مبالغهٔ فإنّها تعنی شدّهٔ الإمساک و ضیق النظر.

ملاحظات

۱- المعاد الجسمانی

الآیات أعلاه من أوضح الآیات المرتبطهٔ بإثبات المعاد الجسمانی، فالمشرکین کانوا یعجبون من إمکانیهٔ عودهٔ الحیاهٔ إلی العظام النخرهٔ، و القرآن یجیبهم بأنّ القادر علی خلق السماوات و الأرض، لدیه القدرهٔ علی جمع الأجزاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۶

المتناثرة للإنسان و أن يهبها الحياة مرّة أخرى.

و لا ندرى كيف ينكر بعض من يدعى الإسلام قضية المعاد الجسمانى، و يقتصرون فى إيمانهم على المعاد الروحى برغم الدلالات الواضحة لهذه الآيات و غيرها؟

كما إنّ الاستدلال بالقدرة الكلية للخالق عزّ و جلّ فى إثبات المعاد، هو واحد من الأدلة التى يذكرها القرآن مرارا و يعتمد عليها كثيرا. و يظهر مثل هذا النمط من الاستدلال بالقدرة الكلية على المعاد فى الآية الأخيرة من سورة (يس) و التى تتضمّن عدّة أدلة لإثبات المعاد الجسمانى ۹۲].

۲- أىّ الآيات؟

هناك احتمالات عديدة فى أنّ الغرض من هذه (الآيات) فى جملة كَفَرُوا بِآياتِنا هى آيات التوحيد أو أدلة النّبوة، أو الآيات المرتبطة بالمعاد. و لكن وقوع الجملة فى بحث المعاد، ترجح اعتقادنا بأنّها إشارة إلى آيات المعاد، و هى فى الحقيقة مقدمة للردّ على منكرى المعاد.

۳- ما هو الغرض من «مثلهم»؟

إنّنا نعرف أنّ اللّه- بسبب قدرته العظيمة- قادر فى يوم القيامة على إرجاع الناس، فى حين أنّنا نقرأ فى الآيات أعلاه أنّه يستطيع أن يخلق مثلهم. و قد يكون هذا التعبير مدعاة لاشتباه أو استفسار البعض عمّا إذا كان الناس الذين يردون القيامة هم ليسوا هؤلاء الناس أنفسهم؟

بعض المفسّرين يرى أن الغرض من (مثل) هنا هو (عين) ففى بعض الأحيان نقول (مثلك يجب ألّا يقوم بهذا العمل) إلّا أنّنا نقصد أنّك أنت الذى يجب أن لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۷

تقوم بهذا العمل، لكن هذا التّفسير بعيد، لأنّ مثل هذه التعابير لها محل آخر لا يتناسب مع ما نبحثه الآن.

الظاهر أنّ الغرض من استخدام تعبير (مثل) فى هذه الآية هو إعادة الحياة.

فإعادة الخلق مرّة ثانية لا تكون حتما كالمرّة الأولى، حيث هناك على الأقل زمان آخر و ظروف أخرى، و صورة جديدة بالرغم من أنّ المادة هى نفس المادة القديمة. و كمثال لذلك إذا جمعنا اجزاء متناثرة لقطعة من الآجر و وضعناها فى قالبها القديم، فإنّنا لا نستطيع أن نقول عن الآجر الجديد أنّه نفس قطعة الآجر القديمة، بالرغم من أنّه ليس إلّا الطين السابق. بل نقول: إنّه مثله. و هذا دليل على التعابير المختارة و المنتخبة فى القرآن الكريم.

و من المسلّم به أنّ روح الإنسان تحدّد شخصيته، و نحن نعلم أنّ الروح الأولى هى التى عند البعث، إلّا أنّ المعاد الجسمانى يقول لنا: إنّ الروح ستكون مع نفس المادة الأولى، يعنى أنّ تلك المادة المتلاشية ستتجمّع مرّة أخرى و تندمج مع روحها، و فى موضوع المعاد أثبتنا أن روح الإنسان بعد أن تتخذ شكلا معينا لا يمكنها أن تنسجم مع غير جسدها الأصلى الذى تربت و عاشت معه. و هذا هو السر فى البعث الروحى و الجسدى معا.

۴- ما هو (الأجل)؟

إنّ (الأجل) هو نهایـة العمر. و لکن هل (الأجل) فی هـذه الآیات إشارة إلی نهایـة العمر ... أو هو إشارة إلی نهایـة عمر الـدنیا و بـدایة البعث؟

و بمـا أنّ الحـدیث یـدور حول المعـاد، لـذا فـإنّ المعنی الثّانی أکثر صـحة. و أمّا ما قاله بعض المفسّـرین الکبار من أنّ هـذا الکلام لا یتناسب مع جملة لا رَیْبَ فِیهِ لأنّ منکری المعاد کانوا یشکّون حتما فی قضیة المعاد. فإنّ ذلک غیر صحیح، لأنّ مفهوم مثل هذا التعبیر هو أنّه یجب أن لا نسمح للشک بأنّ یدخل إلی أنفسنا نحن،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۸

لا أنّ أحـدا لا یشک بـذلک! لذا فإنّ المفهوم الکلی للآیة یصـبح علی هذه الصورة. إنّ اللّه الذی خلق السـماوات و الأرض یسـتطیع- حتما- أن یعید الحیاة لهؤلاء البشـر، أمّا إذا لم یحدث هذا الأمر بسرعة، فذلک بسبب أنّ السنة الإلهیة لها أجل محدود و حتمی بحیث لا مجال للشک فیها.

و تصبح النتیجة: إنّ الدلیل القاطع فی قبال منکری المعاد هی هذه القدرة، و أمّا قوله: جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَیْبَ فِیهِ فهو جواب علی سؤال حول سبب تأخیر القیامة. (فدقق فی ذلک).

۵- الترابط بین الآیات

عند مطالعة هذه الآیات یثار سؤال حول کیفیة الارتباط و الصـلة بین کلمة (قتورا) التی هی بمعنی (بخیل) الواردة فی آخر الآیة، و بین ما نبحثه؟

بعض المفسّـرین قالوا: إنّ هذه الجملة إشارة إلی موضوع طرح قبل عدّة آیات من قبل عبدة الأصـنام، فقد طلبوا من الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أن یملأ أرض مکّة بالعیون و البساتین. أمّا القرآن فیقول فی جواب هؤلاء: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِکُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّی إِذاً ...

إلّا أنّ هذا التّفسیر مستبعد لأنّ کلام المشرکین لم یکن عن مالکیة هذه العیون و البساتین، بل إنّهم طالبوا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأصل هذا العمل و الذی یعتبر عملا إعجازیا.

التّفسیر الآخر الذی ذکر فی بیان الصلة و هو أفضل من التّفسیر الأوّل، هو أنّهم- بسبب بخلهم و ضیق أنفسهم- کانوا یتعجبون من منح هـذه الموهبـة (النّبوة) للإنسان، و هـذه الآیـة بمثابـة ردّ علیهم حیث تقول لهم: إن بخلکم بلغ درجة بحیث أنّکم لو ملکتم جمیع الدنیا فسوف لا تترکون صفاتکم السیئة و القبیحة هذه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۹

۶- هل أن جمیع البشر بخلاء؟

لقد قلنا- لمرّات عدیدة- إنّ القرآن یذکر الإنسان بشـکل عام، و یلومه بأنواع اللوم، و یصـفه بصـفات کالبخل و الجهل .. و العجول و الظلوم و ما شابهها.

إنّ هـذه التعـابیر لاـ تتنافی مع کون المؤمنین و الصالحین یتحلّون بضـد هـذه الصـفات، حیث یشـیر التعبیر إلی أنّ الطبیعـة الآدمیـة هی هکـذا، و إذا لم یخضع الإنسـان لتربیـة القـادة الإلهیین، و ترک لشأنه کالنباتات المتروکـة فسـیکون مستعدا للاتصاف بهـذه الصـفات

السيئة. و هذا لا يعنى أنّ ذاته خلقت هكذا، أو أنّ عاقبة الجميع كذلك ۹۳].

۷- استخدام تعبير خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ

يعنى الخوف من الفقر، ذلك الفقر الذى يكون سببه كثرة الإنفاق، كما يظنون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۰

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۴]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (۱۰۱) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (۱۰۳) وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (۱۰۴)

التّفسير

لم يؤمنوا رغم الآيات:

قبل بضعة آيات عرفنا كيف أنّ المشركين طلبوا أمورا عجيبة غريبة من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بما أنّ هدفهم- باعترافهم هم أنفسهم- لم يكن لأجل الحق و طلبا له، بل لأجل التذرّع و التحجج و التعجيز، لذا فإنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ردّ عليهم و رفض الانصياع إلى طلباتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۱

و هذه الآيات- التى نبحثها- فى الحقيقة تقف على نماذج للأمم السابقة ممّن شاهدوا أنواع المعاجز و الأعمال غير العادية، إلّا أنّهم استمروا فى الإنكار و عدم الإيمان.

فى البدء يقول تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ سنشير فى نهاية هذا البحث إلى هذه الآيات التسع و ماهيتها.

و لأجل التأكيد على الموضوع اسأل- و الخطاب موّجه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- بنى إسرائيل (اليهود) أمام قومك المعارضين و المنكرين: فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ

إلّا أنّ الطاغية الجبار فرعون- برغم الآيات- لم يستسلم للحق، بل أكثر من ذلك اتّهم موسى فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً.

و فى بيان معنى «مسحور» ذكر المفسّرون تفسيرين، فالبعض قالوا: إنّها تعنى الساحر بشهادة آيات قرآنية أخرى، تقول بأنّ فرعون و قومه اتّهموا موسى بالساحر، و مثل هذا الاستخدام وارد و له نظائر فى اللغة العربية، حيث يكون اسم المفعول بمعنى الفاعل، كما فى (مشؤوم) التى يمكن أن تأتى بمعنى «شائم» و (ميمون) بمعنى «يامن».

و لكن قسم آخر من المفسّرين أبقى كلمة «مسحور» بمعناها المفعولى و التى تعنى الشخص الذى أثّر فيه الساحر، كما يستفاد من الآية (۳۹) من سورة الذاريات التى نسبت السحر إليه، و الجنون أيضا، فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

علی أی حال، فإنّ التعبیر القرآنی یکشف عن الأسلوب الدعائی التحریضی الذی یستخدمه المستکبرون و یتهمون فیه الرجال الإلهیین بسبب حرکتهم الإصلاحیهٔ الربانیهٔ ضدّ الفساد و الظلم، إذ یصف الظالمون و الطغاهٔ معجزاتهم بالسحر أو ینعتونهم بالجنون کی یؤثروا من هذا الطریق فی قلوب الناس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۲

و یفرّقوهم عن الأنبیاء.

و لکن موسی علیه السّلام لم یسکت أمام اتّهام فرعون له، بل أجابه بلغهٔ قاطعهٔ یعرف فرعون مغزاها الدقیق، إذ قال له: قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ.

لذا فإنّک- یا فرعون- تعلم بوضوح أنّک تتنکر للحقائق، برغم علمک بأنّها من اللّه! فهذه «بصائر» أی أدلهٔ واضحهٔ للناس کی یتعرفوا بواسطتها علی طریق الحق. و عند ما سیسلکون طریق السعادهٔ. و بما أنّک- یا فرعون- تعرف الحق و تنکره، لذا: وَ إِنِّی لَأَظُنُّکَ یا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً.

(مثبور) من (ثبور) و تعنی الهلاک.

و لأنّ فرعون لم یستطع أن یقف بوجه استدلالات موسی القویهٔ، فإنّه سلک طریقا یسلکه جمیع الطواغیت عدیمی المنطق فی جمیع القرون و کافهٔ الأعصار، و ذاک قوله تعالی: فَأَرادَ أَنْ یَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِیعاً.

«یستفز» من «استفزاز» و تعنی الإخراج بقوهٔ و عنف.

و من بعد هذا النصر العظیم: وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِی إِسْرائِیلَ اسْکُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَهِٔ جِئْنا بِکُمْ لَفِیفاً. فتأتون مجموعات یوم القیامهٔ للحساب.

«لفیف» من مادهٔ «لفّ» و هنا تعنی المجموعهٔ المتداخلهٔ المعقّدهٔ بحیث لا یعرف الأشخاص، و لا من أی قبیلهٔ هم!

بحوث

۱- المقصود من الآیات التسع

لقد ذکر القرآن الکریم آیات و معجزات کثیرهٔ لموسی علیه السّلام منها ما یلی:

۱- تحوّل العصا إلی ثعبان عظیم یلقف أدوات الساحرین، کما فی الآیهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۳

(۲۰) من سورهٔ طه: فَإِذا هِیَ حَیَّهٌٔ تَسْعی

۲- الید البیضاء لموسی علیه السّلام و التی تشع نورا: وَ اضْمُمْ یَدَکَ إِلی جَناحِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ آیَهًٔ أُخْری ۹۴].

۳- الطوفان: فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمُ الطُّوفانَ ۹۵].

۴- الجراد الذی أباد زراعتهم و أشجارهم وَ الْجَرادَ[۹۶].

۵- و القمل الذی هو نوع من الأمراض و الآفات التی تصیب النبات:

و الْقُمَّلَ ۹۷].

۶- (الضفادع) التی جاءت من النیل و تکاثرت و أصبحت وبالا علی حیاتهم: وَ الضَّفادِعَ ۹۸].

۷- الدم، أو الابتلاء العام بالرعاف، أو تبدّل نهر النیل إلی لون الدم، بحیث أصبح ماؤه غیر صالح لا للشرب و لا للزراعهٔ: وَ الدَّمَ آیاتٍ

مُفَصَّلاتٍ ۹۹].

۸- فتح طریق فی البحر بحیث استطاع بنو إسرائیل العبور منه: وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ[۱۰۰].

۹- نزول ال (منّ) و (السلوی) من السماء، و قد شرحنا ذلک فی نهایة الآیة (۵۷) من سورة البقرة وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى ۱۰۱].

۱۰- انفجار العیون من الأحجار: فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً[۱۰۲].

۱۱- انفصال جزء من الجبل لیظلّلهم: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۴

[۱۰۳].

۱۲- الجفاف و نقص الثمرات: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ ۱۰۴].

۱۳- عودة الحیاة إلی المقتول و الذی أصبح قتله سببا للاختلاف بین بنی إسرائیل: فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى ۱۰۵].

۱۴- الاستفادة من ظل الغمام فی الاحتماء من حرارة الصحراء بشکل إعجازی: وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ ۱۰۶].

و لکن الکلام هنا هو: ما هو المقصود من (الآیات التسع) المذکورة فی الآیات التی نبحثها؟

یظهر من خلال التعابیر المستخدمة فی هذه الآیات أنّ المقصود هو المعاجز المرتبطة بفرعون و أصحابه، و لیست تلک المتعلقة ببنی إسرائیل من قبیل نزول المنّ و السلوی و تفجّر العیون من الصخور و أمثال ذلک.

لذا یمکن القول أنّ الآیة (۱۳۳) من سورة الأعراف تتعرض إلی خمسة مواضیع من الآیات التسع و هی: (الطوفان، القمّل، الجراد، الضفادع، و الدم).

کذلک الید البیضاء و العصا تدخل فی الآیات التسع، یؤید ذلک ورود تعبیر (الآیات التسع) فی الآیات (۱۰- ۱۲) من سورة النمل بعد ذکر هاتین المعجزتین الکبیرتین.

و بذلک یصبح مجموع هذه المعاجز- الآیات- سبعا، فما هی الآیتان الأخیرتان؟

بلا شک إنّنا لا نستطیع اعتبار غرق فرعون و قومه فی عداد الآیات التسع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۵

لأنّ الهدف من الآیات أن تکون دافعا لهدایتهم و سببا لقبولهم بنبوة موسی علیه السّلام، لا أن تقوم بهلاک فرعون و قومه.

عند التدقیق فی آیات سورة الأعراف التی جاء فیها ذکر العدید من هذه الآیات یظهر أنّ الآیتین الأخریتین هما: (الجفاف) و (نقص الثمرات) حیث أننا نقرأ بعد معجزة العصا و الید البیضاء و قبل تبیان الآیات الخمس (الجراد، و القمل ...) قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

و بالرغم من أنّ البعض یتصوّر أنّ الجفاف لا یمکن فصله عن نقص الثمرات و بذا تعتبر الآیتان آیة واحدة، إلّا أنّ الجفاف المؤقت و المحدود- کما قلنا فی تفسیر الآیة (۱۳۰) من سورة الأعراف- لا یؤثّر تأثیرا کبیرا فی الأشجار، أمّا عند ما یکون جفافا طویلا فإنّه سیؤدی إلی إبادة الأشجار، لذا فإنّ الجفاف لوحده لا یؤدی دائما إلی نقص الثمرات.

إضافة إلی ما سبق یمکن أن یکون السبب فی نقص الثمرات هو الأمراض و الآفات و لیس الجفاف.

و النتیجة أنّ الآیات التسع التی وردت الإشارة إلیها فی الآیات التی نبحثها هی: العصا، الید البیضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، الجفاف، و نقص الثمرات.

و من نفس سورة الأعراف نعرف أنّ هؤلاء- برغم الآیات التسع هذه- لم یؤمنوا، لذلک انتقمنا منهم و أغرقناهم فی الیم بسبب تکذیبهم ۱۰۷].

هناک روایات عدیدة وردت فی مصادرنا حول تفسیر هذه الآیة، و لاختلافها فیما بینها لا یمکن الاعتماد علیها فی إصدار الحکم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۶

۲- هل أنّ السائل هو الرّسول نفسه؟

ظاهر الآیات أعلاه یدل علی أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد أمر بسؤال بنی إسرائیل حول الآیات التسع التی نزلت علی موسی، و کیف أنّ فرعون و قومه صدّوا عن حقانیة موسی علیه السّلام بمختلف الذرائع رغم الآیات.

و لکن بما أنّ لدی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من العلم و العقل بحیث أنّه لا یحتاج إلی السؤال، لذا فإنّ بعض المفسّرین ذهب الی أن المأمور بالسؤال هم المخاطبون الآخرون.

و لکن یمکن أن یقال: إنّ سؤال الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یکن لنفسه، بل للمشرکین، لذلک فما المانع من أن یکون شخص الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو الذی یسأل حتی یعلم المشرکون أنّه عند ما لم یوافق علی اقتراحاتهم، فذلک لأنّها اقتراحات باطلة قائمة علی التعصّب و العناد، کما قرأنا فی قصّة موسی و فرعون و نظیر ذلک.

۳- ما المراد ب (الأرض) المذکورة فی الآیات؟

قرأنا فی الآیات أعلاه أنّ اللّه أمر بنی إسرائیل بعد أن انتصروا علی فرعون و جنوده أن یسکنوا الأرض، فهل الغرض من الأرض هی مصر (نفس الکلمة وردت فی الآیة السابقة و التی بیّنت أنّ فرعون أراد أن یخرجهم من تلک الأرض.

و بنفس المعنی أشارت آیات أخری إلی أنّ بنی إسرائیل ورثوا فرعون و قومه) أو أنّها إشارة إلی الأرض المقدّسة فلسطین، لأنّ بنی إسرائیل بعد هذه الحادثة اتجهوا نحو أرض فلسطین و أمروا أن یدخلوها.

بالنسبة لنا فإنّنا لا نستبعد أیّا من الاحتمالین، لأنّ بنی إسرائیل- بشهادة الآیات القرآنیة- ورثوا أراضی فرعون و قومه، و امتلکوا أرض فلسطین أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۷

۴- هل تعنی کلمة (وعد الآخرة) یوم البعث و الآخرة؟

ظاهرا ... إنّ الإجابة بالإیجاب، حیث أنّ جملة جِئْنا بِکُمْ لَفِیفاً قرینة علی هذا الموضوع، و مؤیّدة لهذا الرأی. إلّا أنّ بعض المفسّرین احتملوا أنّ (وعد الآخرة) إشارة إلی ما أشرنا إلیه فی بدایة هذه السورة، من أنّ اللّه تبارک و تعالی قد توعّد بنی إسرائیل بالنصر و الهزیمة مرّتین، و قد سمی الأولی ب «وعد الأولی» و الثّانیة ب «وعد الآخرة»، إلّا أنّ هذا الاحتمال ضعیف مع وجود قوله تعالی: جِئْنا بِکُمْ لَفِیفاً (فدقق فی ذلک).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۸

الآیات [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۱۰۵ الی ۱۰۹]

اشارة

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (١٠٥) وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (١٠۶) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (١٠٧) وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩)

التّفسير

عشاق الحق

مرّة أخرى يشير القرآن العظيم إلى أهمية و عظمة هذا الكتاب السماوى و يجيب على بعض ذرائع المعارضين.

فى البداية تقول الآيات: وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ ثمّ تضيف بلا أدنى فاصلة وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ

ثمّ تقول: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً إذ ليس لك الحق فى تغيير محتوى القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۹

لقد ذكر المفسّرون آراء مختلفة فى الفرق بين الجملة الأولى: وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ و الجملة الثّانية: وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ منها:

۱- المراد من الجملة الأولى: إنّنا قدّرنا أن ينزل القرآن بالحق. بينما تضيف الجملة الثّانية أنّ هذا الأمر أو التقدير قد تحقق، لذا فإنّ التعبير الأوّل يشير إلى التقدير، بينما يشير الثّانى إلى مرحلة الفعل و التحقق [۱۰۸].

۲- الجملة الأولى تشير إلى أنّ مادة القرآن و محتواه هو الحق، أمّا التعبير الثّانى فانّه يبيّن أن نتيجته و ثمرته هى الحق أيضا[۱۰۹].

۳- الرأى الثّالث يرى أنّ الجملة الأولى تقول: إنّنا نزّلنا هذا القرآن بالحق بينما الثّانية تقول: إنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يتدخل فى الحق و لم يتصرف به، لذا فقد نزل الحقّ.

و ثمّة احتمال آخر قد يكون أوضح من هذه التّفاسير، و هو أنّ الإنسان قد يبدأ فى بعض الأحيان بعمل ما، و لكنّه لا يستطيع إتمامه بشكل صحيح و ذلك بسبب من ضعفه، أمّا بالنسبة للشخص الذى يعلم بكل شيء و يقدر على كل شيء، فإنّه يبدأ بداية صحيحة، و ينهى العمل نهاية صحيحة. و كمثال على ذلك الشخص الذى يخرج ماء صافيا من أحد العيون، و لكن خلال مسير هذا الماء لا يستطيع ذلك الشخص أن يحافظ على صفاء هذا الماء و نظافته أو يمنعه من التلوث، فيصل الماء فى هذه الحالة إلى الآخرين و هو ملوّث. إلّا أنّ الشخص القادر و المحيط بالأمور، يحافظ على بقاء الماء صافيا و بعيدا عن عوامل التلوث حتى يصل إلى العطاشى و المحتاجين له.

القرآن كتاب نزل بالحق من قبل الخالق، و هو محفوظ فى جميع مراحله سواء فى المرحلة التى كان الوسيط فيها جبرائيل الأمين، أو المرحلة التى كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۰

الرّسول فيها هو المتلقى، و بمرور الزمن له تستطيع يد التحريف و التزوير أن تمتد إليه بمقتضى قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ فاللّه هو الذى يتكفل حمايته و حراسته.

لذا فإنّ هذا الماء النقى الصافى الوحى الإلهى القويم لم تناله يد التحريف و التبديل منذ عصر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حتى نهاية العالم.

الآية التى تليها ترد على واحدة من ذرائع المعارضين و حججهم، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لماذا كان نزوله تدريجيا؟ كما تشير إلى ذلك الآية (۳۲) من سورة الفرقان التى تقول: وَ قالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً، كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا فيقول اللّه فى جواب هؤلاء: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ ۱۱۰] حتى يدخل القلوب و الأفكار و يترجم عمليا بشكل كامل.

و من أجل التأكيد أكثر تبيّن الآية- بشكل قاطع- أنّ جميع هذا القرآن أنزلناه نحن: وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا.

إنّ القرآن كتاب السماء إلى الأرض، و هو أساس الإسلام و دليل لجميع البشر، و القاعدة المتينة لجميع الشرائع القانونية و الاجتماعية و السياسية و العبادية لدنيا المسلمين، لذلك فإنّ شبهة هؤلاء فى عدم نزوله دفعة واحدة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يجاب عليها من خلال النقاط الآتية:

أوّلا: بالرغم من أنّ القرآن هو كتاب، إلّا أنّه ليس ككتب الإنسان المؤلّفة حيث يجلس المؤلّف و يفكّر و يكتب موضوعا، ثمّ ينظّم فصول الكتاب و أبوابه لينتهى من تحرير الكتاب، بل القرآن له ارتباط دقيق بعصره، أى ارتباط ب (۲۳) سنة، هى عصر نبوة نبى الإسلام بكل ما كانت تتمخض به من حوادث و قضايا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۱

لذا كيف يمكن لكتاب يتحدث عن حوادث (۲۳) سنة متزامنا لها أن ينزل فى يوم واحد؟

هل يمكن جمع حوادث (۲۳) سنة نفسها فى يوم واحد، حتى ينزل القرآن فى يوم واحد؟

إنّ فى القرآن آيات تتعلق بالغزوات الإسلامية، و آيات تختص بالمنافقين، و أخرى ترتبط بالوفود التى كانت تفد على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فهل يمكن أن يكتب مجموع كل ذلك منذ اليوم الأوّل؟

ثانيا: ليس القرآن كتابا ذا طابع تعليمى و حسب، بل ينبغى لكل آية فيه أن تنفّذ بعد نزولها، فإذا كان القرآن قد نزل مرّة واحدة، فينبغى أن يتمّ العمل به مرّة واحدة أيضا، و نعلم بأنّ هذا محال، لأنّ إصلاح مجتمع ملىء بالفساد لا يتمّ فى يوم واحد، إذ لا يمكن إرسال الطفل الأمى دفعة واحدة من الصف الأوّل إلى الصفوف المتقدمة فى الجامعة فى يوم واحد. لهذا السبب نزل القرآن نجوما- أى بشكل تدريجى- كى ينفذ بشكل جيّد و يستوعبه الجميع و كى يكون للمجتمع قابلية قبوله و استيعابه و تمثله عمليا.

ثالثا: بدون شك، إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كقائد هذه النهضة العظيمة سيكون ذا قدرات و إمكانيات أكبر عند ما يقوم بتطبيق القرآن جزءا جزءا، بدلا من تنفيذه دفعة واحدة. صحيح أنّه مرسل من الخالق و ذو عقل و استعداد كبيرين ليس لهما مثيل، إلّا أنّه برغم ذلك فإنّ تقبّل الناس للقرآن و تنفيذ تعاليمه بصورة تدريجية سيكون أكمل و أفضل ممّا لو نزل دفعة واحدة.

رابعا: النّزول التدريجى يعنى الارتباط الدائمى للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع مصدر الوحى، إلّا أنّ النّزول الدفعى يتمّ بمرحلة واحدة لا يتسنى للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الارتباط بمصدر الوحى لأكثر من مرّة واحدة.

آخر الآية (۳۲) من سورة الفرقان تقول: كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۲

تَرْتِيلًا و هى إشارة إلى السبب الثّالث، بينما الآية التى نبحثها تشير إلى السبب الثّانى من مجموع الأسباب الأربعة التى أوردناها. و لكن الحصيلة أنّ مجموع هذه العوامل تكشف بشكل حى و واضح أسباب و ثمار النّزول التدريجى للقرآن.

الآية التى تليها استهدفت غرور المعارضين الجهلة حيث تقول: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً.

ملاحظات

فى هذه الآية ينبغى الالتفات إلى الملاحظات الآتية:

أوّلا: یعتقد المفسّرون أنّ جملة آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا یتبعها جملة محذوفة قدّروها بأوجه متعدّدة، إذ قال بعضهم: إن المعنی هو: سواء آمنتم أم لم تؤمنوا فلا یضر ذلک بإعجاز القرآن و نسبته إلی الخالق.

بینما قال البعض: إنّ التقدیر یکون: سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا فإنّ نفع ذلک و ضرره سیقع علیکم.

لکن یحتمل أن تکون الجملة التی بعدها مکمّلة لها، و هی کنایة عن أنّ عدم الإیمان هو سبب عدم العلم و المعرفة، فلو کنتم تعلمون لآمنتم به. و بعبارة أخری:

یکون المعنی: إذا لم تؤمنوا به فإنّ الأفراد الواعین و ذوی العلم یؤمنون به.

ثانیا: إنّ المقصود من الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ هم مجموعة من علماء الیهود و النصاری من الذین آمنوا بعد أن سمعوا آیات القرآن، و شاهدوا العلائم التی قرءوها فی التوراة و الإنجیل، و التحقوا بصف المؤمنین الحقیقیین، و أصبحوا من علماء الإسلام.

و فی آیات أخری من القرآن تمت الإشارة إلی هذا الموضوع، کما فی قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۳

تعالی فی الآیة (۱۱۳) من سورة آل عمران: لَیْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ یَتْلُونَ آیاتِ اللَّهِ آناءَ اللَّیْلِ وَ هُمْ یَسْجُدُونَ

ثالثا: «یخرّون» بمعنی یسقطون علی الأرض بدون إرادتهم، و استخدام هذه الکلمة بدلا من السجود ینطوی علی إشارة لطیفة، هی أنّ الواعین و ذوی القلوب الیقظة عند ما یسمعون آیات القرآن و کلام الخالق عزّ و جلّ ینجذبون إلیه و یولهون به الی درجة أنّهم یسقطون علی الأرض و یسجدون خشیة بدون وعی و اختیار[۱۱۱].

رابعا: (أذقان) جمع (ذقن) و من المعلوم أن ذقن الإنسان عند السجود لا یلمس الأرض، إلّا أن تعبیر الآیة إشارة إلی أنّ هؤلاء یضعون کامل وجههم علی الأرض قبال خالقهم حتی أنّ ذقنهم قد یلمس الأرض عند السجود.

بعض المفسّرین احتمل أنّ الإنسان عند سجوده یضع أوّلا جبهته علی الأرض، و لکن الشخص المدهوش عند ما یسقط علی الأرض یضع ذقنه أولا، فیکون استخدام هذا التعبیر فی الآیة تأکیدا لمعنی (یخرون)[۱۱۲].

الایة التی بعدها توضح قولهم عند ما یسجدون: وَ یَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ کانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا[۱۱۳]. هؤلاء یعبرون بهذا الکلام عن عمق إیمانهم و اعتقادهم باللّه و بصفاته و بوعده. فهذا الکلام یشمل الإیمان بالتوحید و الصفات الحقة و الإیمان بنبوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بالمعاد. و الکلام علی هذا الأساس یجمع أصول الدین فی جملة واحدة.

و للتأکید- أکثر- علی تأثّر هؤلاء بآیات ربّهم، و علی سجدة الحب التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۴

یسجدونها تقول الآیة التی بعدها: وَ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ یَبْکُونَ وَ یَزِیدُهُمْ خُشُوعاً.

إنّ تکرار جملة یَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ دلیل علی التأکید، و علی الاستمرار أیضا.

الفعل المضارع (یبکون) دلیل علی استمرار البکاء بسبب حبّهم و عشقهم لخالقهم.

و استخدام الفعل المضارع فی جملة یَزِیدُهُمْ خُشُوعاً دلیل علی أنّهم لا یتوقفون أبدا علی حالة واحدة، بل یتوجهون باستمرار نحو ذروة التکامل، و خشوعهم دائما فی زیادة (الخشوع هو حالة من التواضع و الأدب الجسدی و الروحی للإنسان فی مقابل شخصیة معینة أو حقیقة معینة).

بحثان:

۱- التخطیط للتربیة و التعلم

من الـدروس المهمّـة التى نسـتفيدها من الآيات أعلاه، هو ضـرورة التخطيط لأى ثورة أو نهضة ثقافية أو فكرية أو اجتماعية أو تربوية، فإذا لم يتمّ تنظيم مثل هذا البرنامج فالفشل سـيكون النتيجة الحتمية لمثل هذه الجهود. إنّ القرآن الكريم لم ينزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مرّة واحـدة بالرغم من أنّه كان موجودا فى مخزون علم اللّه كاملا، و قد تمّ عرضه فى ليلة القدر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم دفعـة واحـدة، إلّا أنّ النّزول التـدريجى اسـتمرّ طوال (۲۳) سـنة، و ضـمن مراحل زمنيـة مختلفة و فى إطار برنامج عملى دقيق.

و عنـد ما يقوم الخالق جلّ و علا بهـذا العمل بالرغم من عمله و قـدرته المطلقـة و غير المتناهيـة ... عند ذلك سـيتّضح دورنا و تكليفنا نحن إزاء هذا المبدأ. و عادة ما يكون هذا قانونا و تكليفا إلهيا، حيث أنّ وجوده العينى لا يختص بعالم التشريع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۵

و حسب، بل فى عالم التكوين أيضا. إنّه من غير المتوقع أن تنصلح أمور مجتمع فى مرحلة البناء خلال ليلة واحدة لأنّ البناء الحضارى الفكرى و الثقافى و الاقتصادى و السياسى يحتاج إلى المزيد من الوقت.

و هـذا الكلام يعنى أنّنا إذا لم نصل إلى النتيجـة المطلوبة فى وقت قصير فعلينا أن لا نيأس و نترك بذل الجهد أو المثابرة. و ينبغى أن نلتفت إلى أنّ الانتصارات النهائية و الكاملة تكون عادة لأصحاب النفس الطويل.

۲- علاقة العلم بالإيمان

الموضوع الآـخر الـذى يمكن أن نسـتفيده من الآيـات أعلاـه هو علاقـة العلم بالإيمـان، إذ تقول الآيـات: إنّكم سواء آمنتم بـاللّه أو لم تؤمنوا فإنّ العلماء سـيؤمنون باللّه إلى درجـة أنّهم يعشـقون الخالق و يسـقطون أرضا ساجدين من شدّة الوله و الحبّ، و تجرى الدّموع من أعينهم، و إنّ هذا الخشوع و التأدّب يتصف بالاستمرار فى كل عصر و زمان.

إنّ الجهلة- فقط- هم الذين لا يعيرون أهمية للحقائق و يواجهونها بالاسـتهزاء و السخرية، و إذا أثّر فيهم الإيمان فى بعض الأحيان فإنّه سيكون تأثيرا ضعيفا خاليا من الحبّ و الحرارة.

إضافـة إلى ذلك، فإنّ فى الآيـة ما يؤكّـد خطأ و خطل النظريـة التى تربط بين الدين و الجهل أو الخوف من المجهول. أمّا القرآن فإنّه يؤكّـد على عكس ذلك تماما، إذ يقول فى مواقع متعـدّدة: إنّ العلم و الإيمان توأمان، إذ لا يمكن أن يكون هناك إيمان عميق ثابت من دون علم، و العلم فى مراحلة المتقدمة يحتاج إلى الإيمان. (فدقق فى ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۶

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۱]

اشارة

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَـدْعُوا فَلَهُ الْأَسْـماءُ الْحُسْـنى وَ لا تَجْهَرْ بِصَـلاتِکَ وَ لا تُخافِتْ بِها وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِکَ سَبِيلاً (۱۱۰) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَکُنْ لَهُ شَرِيکٌ فِى الْمُلْکِ وَ لَمْ يَکُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ کَبِّرْهُ تَکْبِيراً (۱۱۱)

سبب النّزول

وردت آراء متعدّدة فی سبب نزول هاتین الآیتین منها ما

نقله صاحب مجمع البیان عن ابن عباس الذی قال: کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ساجدا ذات لیلة بمکّة یدعو: یا رحمن یا رحیم، فقال المشرکون متهمین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنّه یدعونا إلی إله واحد، بینما یدعو هو مثنی مثنی. یقصدون بذلک قول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا رحمن یا رحیم. فنزلت الآیة الکریمة أعلاه ۱۱۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۷

التّفسیر

آخر الذرائع و الأعذار

بعد سلسلة من الذرائع التی تشبث بها المشرکون امام دعوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، نصل مع الآیات التی بین أیدینا إلی آخر ذریعة لهم، و هی قولهم: لماذا یذکر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الخالق بأسماء متعدّدة بالرغم من أنّه یدّعی التوحید. القرآن ردّ علی هؤلاء بقوله: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَیًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی إنّ هؤلاء عمیان البصیرة و القلب، غافلون عن أحداث و وقائع حیاتهم الیومیة حیث کانوا یذکرون أسماء مختلفة لشخص واحد أو لمکان واحد، و کل اسم من هذه الأسماء کان یعرّف بشطر أو بصفة من صفات ذلک الشخص أو المکان.

بعد ذلک، هل من العجیب أن تکون للخالق أسماء متعدّدة تتناسب مع أفعاله و کمالاته و هو المطلق فی وجوده و فی صفاته و المنبع لکل صفات الکمال و جمیع النعم، و هو وحده عزّ و جلّ الذی یدیر دفة هذا العالم و الوجود؟

أساسا، فانّ اللّه تعالی لا یمکن معرفته و مناجاته باسم واحد إذ ینبغی أن تکون أسماؤه مثل صفاته غیر محدودة حتی تعبّر عن ذاته، و لکن لمحدودیة ألفاظنا- کما هی أشیاؤنا الأخری أیضا- لا- نستطیع سوی ذکر أسماء محدودة له، و إنّ معرفتنا مهما بلغت فهی محدودة أیضا، حتی أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو من هو فی منزلته و روحه و علو شأنه، نراه

یقول: «ما عرفناک حق معرفتک».

إنّ اللّه تعالی فی قضیة معرفتنا إیّاه لم یترکنا فی أفق عقولنا و درایتنا الخاصّة، بل ساعدنا کثیرا فی معرفة ذاته، و ذکر نفسه بأسماء متعدّدة فی کتابه العظیم، و من خلال کلمات أولیائه تصل أسماؤه- تقدس و تعالی- إلی ألف اسم.

و طبیعی أنّ کل هذه أسماء اللّه، و أحد معانی الأسماء العلّامة، لذا فإنّ هذه علامات علی ذاته الطاهرة، و جمیع هذه الخطوط و العلامات تنتهی إلی نقطة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۸

واحدة، و هی لا تقلّل من شأن توحید الذات و الصفات.

و هناک قسم من هذه الأسماء ذو أهمیة و عظمة أکثر، حیث تعطینا معرفة و وعیا أعظم، تسمی فی القرآن الکریم و فی الرّوایات الإسلامیة، بالأسماء الحسنی، و هناک روایة معروفة عن رسول الهدی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما مضمونها:

«إن اللّه تسعا و تسعین اسما، من أحصاها دخل الجنّة».

و هناک شرح مفصل للأسماء الحسنی، و الأسماء التسعة و التسعین بالذات، أوردناه فی نهایة الحدیث عن الآیة (۱۸۰) من سورة الأعراف، فی قوله تعالی:

وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنی فَادْعُوهُ بِها.

لکن علینا أن نفهم أنّ الغرض من عد الأسماء الحسنی لیس ذکرها علی اللسان و حسب، حتی یصبح الإنسان من أهل الجنّة و مستجاب الدعوة، بل إنّ الهدف هو التخلّق بهذه الأسماء و تطبیق شذرات من هذه الأسماء، مثل (العالم، و الرحمن، و الرحیم، و الجواد، و الکریم) فی وجودنا حتی نصبح من أهل الجنّة و مستجابی الدعوة.

و هناک کلام

ینقله الشیخ الصدوق رحمه اللّه فی کتاب التوحید عن هشام بن الحکم جاء فیه: یقول هشام بن الحکم: سألت أبا عبد اللّه الصادق علیه السّلام عن أسماء اللّه عزّ ذکره و اشتقاقها فقلت: اللّه ممّا هو مشتق؟

قال علیه السّلام: «یا هشام، اللّه مشتق من إله، و إله یقتضی مألوها، و الاسم غیر المسمّی، فمن عبد الاسم دون المعنی فقد کفر و لم یعبد شیئا، و من عبد الاسم و المعنی فقد أشرک و عبد الاثنین، و من عبد المعنی دون الاسم فذاک التوحید.

أ فهمت یا هشام؟».

قال هشام: قلت: زدنی.

قال علیه السّلام: «للّه عزّ و جلّ تسعة و تسعون اسما، فلو کان الاسم هو المسمی لکان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۹

کلّ اسم منها هو إلها، و لکن اللّه عزّ و جلّ معنی یدلّ علیه بهذه الأسماء و کلّها غیره.

یا هشام، الخبز اسم للمأکول، و الماء اسم للمشروب، و الثوب اسم للملبوس، و النار اسم للمحرق»[۱۱۵].

و الآن لنعد إلی الآیات. ففی نهایة الآیة التی نبحثها نری المشرکین یتحدّثون عن صلاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یقولون: إنّه یؤذینا بصوته المرتفع فی صلاته و عبادته، فما هذه العبادة؟ فجاءت التعلیمات لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عبر قوله تعالی: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِکَ وَ لا تُخافِتْ بِها وَ ابْتَغِ بَیْنَ ذلِکَ سَبِیلًا.

لذلک فإنّ الآیة أعلاه لا علاقة لها بالصلوات الجهریة و الإخفاتیة فی اصطلاح الفقهاء، بل إنّ المقصود منها یتعلق بالإفراط و التفریط فی الجهر و الإخفات، فهی تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحیث یشبه الصراخ، و لا أقل من الحد الطبیعی بحیث تکون حرکة شفاه و حسب و لا صوت فیها.

أسباب النّزول الواردة- حول الآیة- التی یرویها الکثیر من المفسّرین نقلا عن ابن عباس تؤیّد هذا المعنی.[۱۱۶] و هناک آیات عدیدة من طرق أهل البیت نقلا عن الإمام الباقر و الصادق علیهما السّلام و تؤید هذا المعنی و تشیر إلیه ۱۱۷].

لذا فإنا نستبعد التفاسیر الأخری الواردة حول الآیة.

أمّا ما هو حد الاعتدال، و ما هو الجهر و الإخفات المنهی عنهما؟ الظاهر أنّ الجهر هو بمعنی (الصراخ)، و (الإخفات) هو من السکون بحیث لا یسمعه حتی فاعله.

و

فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال فی تفسیر الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۰

«الجهر بها رفع الصوت، و التخافت بها ما لم تسع نفسک، و اقرأ بین ذلک»[۱۱۸].

أمّا الإخفات و الجهر فی الصلوات الیومیة، فهو- کما أشرنا لذلک- له حکم آخر، أو مفهوم آخر، أی له أدلة منفصلة، حیث ذکرها فقهاؤنا رضوان اللّه علیهم فی (کتاب الصلاة) و بحثوا عنها.

ملاحظة

هذا الحكم الإسلامى فى الدعوة إلى الاعتدال بين الجهر و الإخفات يعطينا فهما و إدراكا من جهتين:

الأولى: لا تؤدوا العبادات بشكل تكون فيه ذريعة بيد الأعداء، فيقومون بالاستهزاء و التحجج ضدكم، إذ الأفضل أن تكون مقرونة بالوقار و الهدوء و الأدب، كى تعكس بذلك نموذجا لعظمة الأدب الإسلامى و منهج العبادة فى الإسلام.

فالذين يقومون فى أوقات استراحة الناس بإلقاء المحاضرات الدينية بواسطة مكبرات الصوت، و يعتقدون أنّهم بذلك يوصلون صوتهم إلى الآخرين، هم على خطأ، و عملهم هذا لا يعكس أدب الإسلام فى العبادات، و ستكون النتيجة عكسية على قضية التبليغ الدينى.

الثّانية: يجب أن يكون هذ التوجيه مبدأ لنا فى جميع أعمالنا و برامجنا الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية، و تكون جميع هذه الأمور بعيدة عن الإفراط و التفريط، إذ الأساس هو: وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا.

أخيرا نصل إلى الآية الأخيرة من سورة الإسراء، هذه الآية تنهى السورة المباركة بحمد اللّه، كما افتتحت بتسبيحه و تنزيه ذاته عزّ و جلّ. إنّ هذه الآية- فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۱

الواقع- هى خلاصة أخيرة لكل البحوث التوحيدية التى وردت فى السورة، و هى ثمرة لمفاهيمها جميعا، إذ هى تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالقول: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ

و مثل هذا الرّب فى مثل هذه الصفات، هو أفضل من كل ما تفكّر به: وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً.

و نلاحظ فى هذه الآية عدة أمور:

۱- تناسب الصفات الثلاثية

فى الآيات أعلاه تمّت الإشارة إلى ثلاث صفات من صفات اللّه، ثمّ بملاحظة الأمر الوارد فى نهاية الآية تكتمل الى اربع صفات.

أوّلا: نفى الولد، لأنّ امتلاك الولد دليل على الحاجة، و أنّه جسمانى، و له شبيه و نظير، و الخالق جلّ و علا ليس بجسم و لا يحتاج لولد، و ليس له شبيه و نظير.

الثّانى: نفى الشريك وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ حيث أن وجود الشريك دليل محدودية القدرة و الحكومة و السلطة، و هو دليل العجز و الضعف، و يقتضى وجود الشبيه و النظير. و الخالق جلّ و علا منزّه عن هذه الصفات، فقدرته كما هى حكومته غير محدودة، و ليس له أى شبيه.

الثّالث: نفى الولى و الحامى عند التعرّض للمشاكل و الهزائم وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ

و نفى هذه الصفة عن الخالق يعتبر أمر بديهى .. إنّ الآية تنفى أى مساعد للخالق أو شبيه له، سواء كان ذلك فى مرحلة أدنى (كالولد) أو فى مرحلة مساوية (كالشريك) أو أفضل منه (كالولى).

نقل العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان) عن بعض المفسّرين الذين لم يذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۲

أسماءهم بصراحة قولهم: «إنّ هذه الآية تنفى ثلاثة اعتقادات منحرفة لثلاث مجاميع: المجموعة الأولى هم المسيحيون و اليهود الذين يقولون بوجود الولد للخالق، و الثّانية مجموعة مشركى العرب الذين قالوا بوجود الشريك له سبحانه، لذلك فإنّهم كانوا يقولون عند

کل صباح و فی طقوس خاصّة: لبیک لا شریک لک، إلّا شریکا هو لک! أمّا المجموعة الثّالثة، فهم عبدة النجوم و المجوس الذین یقولون بوجود الولی و الحامی للخالق».

۲- ما هو التکبیر؟

القرآن یؤکّد علی رسوله أن یکبّر اللّه، و هذا تعنی أنّ الغرض من ذلک هو الإعتقاد بهذا الأمر، و لیس فقد ذکر (اللّه أکبر) علی اللسان.

إنّ معنی الإعتقاد بأنّ (اللّه أکبر) أن لا نقیسه مع المخلوقات الأخری، و نقول بأنّه أعظم و أکبر منها، لأنّ مثل هذه المقایسة خطأ من الأساس. إنّنا یجب أن نعتبره أعظم و أکبر من أن نقیسه بشیء، کما یعلمنا ذلک الإمام الصادق علیه السّلام فی مقولته القصیرة اللفظ و الکبیرة المعنی، حیث نقرأ فیها ما نصّه:

قال رجل عند الإمام الصادق علیه السّلام: اللّه أکبر.

فقال علیه السّلام: «اللّه أکبر من أی شیء؟».

قال الرجل: من کل شیء.

فقال علیه السّلام: «حددته».

فقال الرجل: کیف أقول؟

قال علیه السّلام: قل: «اللّه أکبر من أن یوصف»[۱۱۹].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا نقرأ عن جمیع بن عمیر قال:

قال أبو عبد اللّه علیه السّلام: «أی شیء، اللّه أکبر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۳

فقلت: اللّه أکبر من کل شیء.

فقال: «و کان ثمّ شیء فیکون أکبر منه».

فقلت: فما هو؟

قال علیه السّلام: «أکبر من أن یوصف»[۱۲۰].

۳- الإجابة علی هذا السؤال

قد یطرح هنا هذا السؤال: کیف یکون حمد الخالق فی الآیة أعلاه فی قبال الصفات السلبیة، فی حین أنّنا نعلم بأنّ (الحمد) هو فی قبال الصفات الثبوتیة کالعلم و القدرة، أمّا صفات مثل نفی الولد و الشریک و الولی فهی تتلاءم مع التسبیح فکیف مع الحمد؟

فی الجواب علی هذا السؤال نقول: بالرغم من أنّ طبیعة الصفات السلبیة و الثبوتیة تختلف بضعها عن بعض و إنّ إحداهما تتلاءم مع التسبیح و الأخری تتلاءم مع الحمد، إلّا أنّه فی الوجود الخارجی (العینی) یکون الاثنان لازمین و ملزومین، فنفی الجهل عن الخالق یکون ملازما لإثبات العلم له، کما أنّ إثبات العلم لذاته جلّ و علا ملازم لنفی الجهل.

و على هذا الأساس فلا مانع تارة من ذكر اللازم و أخرى من ذكر الملزوم.

كما ذكر التسبيح فى بداية هذه السورة لأمر فى قوله: سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی

دعاء الختام: إلهى املأ قلوبنا بنور العلم حتى نخضع لعظمتك، و نؤمن بما وعدت، و نلتزم ما أمرت، لا نعبد غيرك، و لا نتوكل إلّا عليك.

إلهنا، وفقنا فى حياتنا اليومية فى أن لا نخرج عن حدّ الاعتدال، و أن نبتعد عن كل إفراط و تفريط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۴

إلهنا، لك الحمد و لك الشكر، و أنت الواحد الكبير، أكبر من أن تحدّ فى وصف، فاغفر لنا، و ثبتنا فى خطواتنا، و انصرنا على أعدائنا، و أوصل انتصاراتنا بالانتصار النهائى للمصلح المهدى عليه السّلام، و وفقنا لتكميل هذا التّفسير و ارحمنا برحمتك و تقبلنا فى رضاك.

نهاية سورة الإسراء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۵

سورة الكهف

اشارة

مكّية و عدد آياتها مائة و عشر آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۷

سورة الكهف

فضيلة سورة الكهف

۱-

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك، حين نزلت ملأت عظمتها ما بين السماء و الأرض؟ قالوا: بلى.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر اللّه له إلى الجمعة الأخرى، و زيادة ثلاثة أيّام، و أعطى نورا يبلغ السماء، و وقى فتنة الدجّال»[۱۲۱].

۲- و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف، ثمّ أدرك الدجّال لم يضره. و من حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نورا يوم القيامة»[۱۲۲].

۳- و

عن الإمام أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام قال فى فضل سورة الكهف: «من قرأ سورة الكهف فى كلّ ليلة جمعة لم يمت إلّا شهيدا، و بعثه اللّه مع الشهداء، و وقف يوم القيامة مع الشهداء»[۱۲۳].

لقد قلنا مرارا: إنّ عظمة السور القرآنية و تأثيرها المعنوى، و بركاتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۸

الأخلاقية، إنّما يكون بسبب الإيمان بها و العمل وفقا لمضامينها.

و بما أنّ قسما مهمّا من هذه السورة يتعرض إلى قصّة تحرك مجموعة من الفتية ضدّ طاغوت عصرهم، و دجّال زمانهم، هذا التحّرك الذى عرّض حياتهم و وجودهم للخطر و للموت لولا عناية البارى بهم و رعايته لهم. لذا فإنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة ينير القلب بنور الإيمان، و يحفظه من الذنوب و إغواءات الدجالين، و يعصمه من الذوبان فى المحيط الفاسد.

إنّ ممّا يساعد على تكميل هذا الأثر النفوس و القلوب هو ما تثيره السورة من أوصاف الآخرة و يوم الحساب، و المستقبل المشؤوم الذى ينتظر المستكبرين، و ضرورة الالتفات إلى علم الخالق المطلق و إحاطته بكل شىء.

إنّ كل ذلك ممّا يحفظ الإنسان من فتن الشيطان، و يجعل نور الإيمان يشع فيه، و يغرس العصمة فى قلبه، و تكون عاقبته مع الشهداء و الصدقين.

محتوى سورة الكهف

تبدأ السورة بحمد الخالق جلّ و علا، و تنتهى بالتوحيد و الإيمان و العمل الصالح.

يشير محتوى السورة- كما فى أغلب السور المكّية- إلى قضية المبدأ و المعاد و الترغيب و الإنذار. و تشير أيضا إلى قضية مهمّة كان المسلمون يحتاجونها فى تلك الأيّام بشدّة، و هى عدم استسلام الأقلية- مهما كانت صغيرة- إلى الأكثرية مهما كانت قوية فى المقاييس الظاهرية، بل عليهم أن يفعلوا كما فعلت المجموعة الصغيرة القليلة من أصحاب الكهف، أن يبتعدوا عن المحيط الفاسد و يتحركوا ضدّه.

فإذا كانت لديهم القدرة على المواجهة، فعليهم خوض الجهاد و الصراع، و إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۹

عجزوا عن المواجهة فعليهم بالهجرة.

من قصص هذه السورة أيضا قصّة شخصين، أحدهما غنىّ مرفه إلّا أنّه غير مؤمن، و الآخر فقير مستضعف و لكنّه مؤمن. و قد صمد الفقير المستضعف المؤمن و لم يفقد شرفه عزته و إيمانه أمام الغنى، بل قام بنصيحته و إرشاده، و لمّا لم ينفع معه تبرأ منه، و قد انتهت المواجهة إلى انتصاره.

و هذه القصّة تذكر المسلمين و خاصّة فى بداية عصر الإسلام و تقول لهم: إنّ من سنة الأغنياء أن يكون لهم فورة من حركة و نشاط مؤقت سرعان ما ينطفئ لتكون العاقبة للمؤمنين.

كما يشير جانب آخر من هذه السورة إلى قصة موسى و الخضر عليهما السّلام لم يستطع الصبر فى مقابل أعمال كان ظاهرها يبدو مضرا، و لكنّها فى الواقع كانت مليئة بالأهداف و المصالح، إذ تبيّنت لموسى عليه السّلام و بعد توضيحات الخضر مصالح تلك الأعمال، فندم على تعجله.

و فى هذا درس للجميع أن لا ينظروا إلى ظاهر الحوادث و الأمور، و ليتبصروا بما يكمن خلف هذه الظواهر من بواطن عميقة و ذات معنى.

قسم آخر من السورة يشرح أحوال (ذى القرنين) و كيف استطاع أن يطوى العالم شرقه و غربه، ليواجه أقواما مختلفة بآداب و سنن مختلفة، و أخيرا استطاع بمساعدة بعض الناس أن يقف بوجه مؤامرة (يأجوج) و (مأجوج) و أقام سدا حديديا فى طريقهم ليقطع دابرهم (تفصيل كل هذه الإشارات المختصرة سيأتى لاحقا إن شاء اللّه تعالى) حتى تكون دلالة هذه القصة بالنسبة للمسلمين، هو أن يهيئوا أنفسهم- بأفق أوسع- لنفوذ إلى الشرق و الغرب بعد أن يتحدوا و يتحصنوا ضدّ أمثال يأجوج و مأجوج.

الظريف أنّ السورة تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۰

موسى و الخضر، و قصة ذى القرنين) حيث أنّ هذه القصص بخلاف أغلب القصص القرآنية لم تكرّر فى مكان آخر من القرآن (أشارت الآية (۹۶) من سورة الأنبياء إلى يأجوج و مأجوج دون ذكر ذى القرنين). و هذه الإشارة تعتبر واحدة من خصائص هذه السورة المباركة.

و خلاصة الكلام أن السورة تحتوى على مفاهيم تربوية مؤثرة فى جميع الأحوال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۱

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (۱) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (۲) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (۳) وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (۴)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (۵)

التّفسير

البداية باسم اللّه، و القرآن:

تبدأ سورة الكهف- كما فى بعض السور الأخرى- بحمد اللّه، و بما أنّ الحمد يكون لأجل عمل أو صفة معينة مهمّة و مطلوبة، لذا فإنّ الحمد هنا لأجل نزول القرآن الخالى من كل اعوجاج، فتقول الآية: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً. هذا الكتاب هو كتاب ثابت و محكم و معتدل و مستقيم، و هو يحفظ المجتمع الإنسانى و يحمى سائر الكتب السماوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۲

قَيِّماً و ينذر الظالمين من عذاب شديد: لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ

و فى نفس الوقت فهو: وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً. و هؤلاء فى نعيمهم ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً.

ثمّ تشير الآيات إلى واحدة من انحرافات المعارضين، سواء كانوا نصارى أو يهود أو مشركين، حيث تنذرهم هذا الأمر فتقول: وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً فهى تحذر النصارى بسبب اعتقادهم بأنّ المسيح ابن اللّه، و تحذر اليهود لأنّهم اعتقدوا بأنّ عزير ابن اللّه، و تحذّر المشركين لظّنهم بأنّ الملائكة بنات اللّه.

ثمّ تشير الآيات إلى أصل أساسى فى إبطال هذه الادعاءات الفارغة فتقول:

إنّ هؤلاء لا علم لهم و لا يقين بهذا الكلام، و إنّما هم مقلدون فيه للآباء، و إنّ آباءهم على شاكلتهم فى الجهل و عدم العلم: ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ بل: ولد؟

أو أن يحتاج إلى الصفات المادية و أن يكون محدودا ... إنّه كلام رهيب، و مثل هؤلاء الذين يتفوهون به لا ينطقون إلّا كذبا: إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً.

بحوث

۱- افتتاح السورة بحمد اللّه سبحانه و تعالى

هناك خمس سور فى القرآن الكريم تبدأ بحمد اللّه، ثمّ تعرج بعد الحمد و الثناء على قضايا خلق السموات و الأرض (أو ملكية اللّه سبحانه و تعالى لها) أو هداية العالمين، عدا هذه السورة التى تتناول بعد الحمد و الثناء مسألة نزول القرآن على نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى حقيقة الأمر إنّ السور الأربع «الأنعام- سبأ- فاطر- الحمد» تتناول القرآن التكوينى، فيما تتطرق سورة الكهف إلى القرآن التدوينى، و كما هو معلوم فإنّ الكتابين، أى (القرآن التدوينى) و خلق الكون و ما فيه (القرآن التكوينى) كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۳

منهما مكمّل للآخر، و هذا يوضح أنّ للقرآن وزن يعادل الخلق. و أساسا فإنّ تربية الخلائق الواردة فى الآية الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ غير ممكنة، ما لم يستفاد بصورة تامة من الكتاب السماوى العظيم، أى القرآن.

۲- القرآن كتاب ثابت و مستقيم و حافظ

كلمة «قيّم» على وزن كلمة «سيّد» و مشتقة من مصدر الكلمة «قيام» وهنا تأتى بمعنى (الثبات و الصمود) إضافة إلى أنّها تعنى المدبّر و الحافظ لبقية الكتب السماوية، كما تعنى كلمة «قيم» فى نفس الوقت الاعتدال و الاستقامة التى لا اعوجاج فيها و إضافة إلى أنّ كلمة «قيم» هى وصف للقرآن فى عدم وجود أى اعوجاج فى آياته، بل إنّ فى مضمونها تأكيد على استقامة و اعتدال القرآن، و خلوّه من أى شكل من أشكال التناقض، و إشارة إلى أبدية و خلود هذا الكتاب السماوى العظيم، و كونه أسوة لحفظ الأصالة، و إصلاح الخلل، و حفظ الأحكام الإلهية و العدل و الفضائل البشرية.

صفة (القيّم) مشتقة من (قيمومة) البارى عزّ و جلّ التى تعنى اهتمام البارى عزّ و جلّ و حفظه جميع الكائنات، و القرآن الذى هو كلام اللّه له نفس الصفة أيضا.

كما وصف اللّه سبحانه و تعالى دينه فى عدّة آيات قرآنية بأنّه (القيّم) حتى أنّه أمر نبيّه الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالعمل وفق ما يمليه الدين القيّم و المستقيم: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ۱۲۴].

و ما ذكر أعلاه بشأن تفسير كلمة «قيّم»، أخذ من عدّة تفاسير مختلفة، و هو خلاصة لما قاله المفسّرون من أنّ كلمة «قيّم» تعنى الكتاب الباقى الذى لا ينسخ، أو الكتاب الحافظ للكتب السابقة، أو الكتاب القيّم على الدين، أو الخالى من الاختلافات و التناقضات، و كل هذه المعانى انصبت فى المفهوم الذى ذكرناه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۴

و اعتبر بعض المفسّرين أنّ جملة لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً تعنى فصاحة ألفاظ القرآن و كلمة «قيما» تعنى البلاغة و الاستقامة بالرغم من عدم امتلاكهم لأى دليل واضح على هذا التباين ۱۲۵]، و الظاهر أنّ الكلمتين تؤكّد كل منهما الأخرى، مع فرق أن كلمة «قيّم» لها مفهوم واسع، و تعنى اضافة إلى معنى الاستقامة، المحافظ و المصلح للكتب المساوية الأخرى ۱۲۶].

۳- انذارين شديدين عام و خاص:

بعـد الإنـذار العام الـذی وجهته الآیات فی البدایـة لکافة البشـر، وجهت الآیات المذکورة آنفا إنذارا خاصّا للذین ادّعوا بأنّ للّه ولدا و هذا ما یوضح خطورة الانحراف العقائدی الذی أصاب المسـیحیین و الیهود و المشـرکین، و انتشـر بصورة واسـعة فی الأجواء التی نزل القرآن، و من الطبیعی فإنّ انتشار مثل هذه الأفکار یقضـی علی روح التوحید فی ذلک المجتمع، إذ حدّوا اللّه سـبحانه و تعالی بحدود مادیة و جسمیة، و أنّه یمتلک عواطف و أحاسیس بشریة، إضافة إلی وجود أکفاء و شرکاء له، و أنّه یحتاج إلی الآخرین.

و بسـبب هذه المعتقدات نزلت آیات عدیدة للردّ علی تلک الشـبهات، و منها الآیة (۶۸) فی سورة یونس: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِیُّ و الآیـات من (۸۸) إلی (۹۱) فی سورة مریم: وَ قـالُوا اتَّخَـذَ الرَّحْمنُ وَلَـداً لَقَـدْ جِئْتُمْ شَـیْئاً إِدًّا، تَکادُ السَّماواتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً.

و مـا جاء فی هـذه الآیات المبارکـة یوضـح قوّة الرّد الإلهی علی تلک الادعاءات، حیث أکّدت علی العقاب الشدیـد الـذی ینتظر من یعتقدون بمثل هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۵

الخرافـة، لأنّ من یـدّعی باتّخاذ اللّه سـبحانه و تعالی ولـدا، إنّما یمس کبریاء الباری عزّ و جلّ و عظمته، و ینزله إلی المسـتوی البشـری المادی ۱۲۷].

۴- الادعاء الفارغ

إنّ البحث فی المعتقـدات و المبادئ المنحرفة، کشف عن أنّ أغلبها لیس له أی دلیل واقعی، و لکن بعض الأشـخاص یتخذها کشـعار کـاذب کی یتبعه الآخرون، و تنتقل أحیانا من جیل إلی آخر کعادة. و القرآن هنا یلقی علینا دروسا فی تجنب الادعاءات التی لیس لها أی دلیـل أو سـند قوی، و یأمرنـا بعـدم إعـارة أیـة أهمیـة لناقلهـا و مروجها، و قـد اعتبر اللّه تبارک و تعالی تلک الأعمال من الکبائر، وعدّها مصدرا للکذب و الدجل.

و لو اتّخـذ المسـلمون هذا الأصل منهجا فی حیاتهم، أی عدم التحدّث بشـیء من دون التأکید منه، و رفض أی شـیء لیس له دلیل، و عدم الاهتمام بالإشاعات الفارغة، لتحسن الکثیر من أمورهم و تصرفاتهم الخاطئة.

۵- العمل الصالح برنامج مستمر

الآیات المـذکورة أعلاه عنـد ما تتحـدّث عن المؤمنین، تعتبر العمل الصالح بمثابة برنامج مسـتمر، إذ أنّ کلمة (یعملون فی قوله تعالی: یَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ فعل مضارع، و الفعل المضارع یـدل علی الاسـتمراریة، فالعمل الصالح یمکن أن یصدر صدفة أو بسـبب ما عن أی شخص، فلا یکون حینئذ دلیلا علی الإیمان الصادق، لکن استدامة العمل الصالح دلیل الإیمان الصادق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۶

۶- صفة العبد أرقی و سام للإنسان

و أخیرا، إنّ القرآن عنـد ما یتحـدّث فی آیاته عن قضـیة نزول الکتاب السـماوی یقول: الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْکِتابَ و هذا یعنی أن صـفة «العبـد» هی أرقی و سـام و أعلی مرتبـة ینالهـا الإنسـان فی معراج تکـامله المعنوی، فإذا نال الإنسان و سام العبودیـة للّه

تعالى، فإنّه يرى أن كل شىء فى العالم ملكا للّه، و عملا يسلكك سبيل الطاعة لأوامر اللّه و التمسك بالنهج الذى رسمه و حدّده تعالى للإنسان، و لا يفكر فى سواه و يرى أنّ خير شرف للإنسان أن يكون عبدا صالحا و ملتزما بأوامر و نواهى البارى عزّ و جلّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (۶) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (۷) وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (۸)

التّفسير

العالم ساحة اختبار:

الآيات السابقة كانت تتحدّث عن الرسالة و قيادة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لذا فإنّ أوّل آية نبحثها الآن، تشير إلى أحد أهم شروط القيادة، ألا و هى الإشفاق على الأمّة فتقول: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً.

و هنا يجب الانتباه إلى بعض الملاحظات:

أوّلا: «باخع» من «بخع» على وزن، «نخل» و هى بمعنى إهلاك النفس من شدّة الحزن و الغم.

ثانيا: كلمة «أسفا» و التى تبيّن شدّة الحزن و الغم، هى تأكيد على هذا الموضوع.

ثالثا: «آثار» جمع «أثر» و هى فى الأصل تعنى محل موضع القدم، إلّا أنّ أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۸

علامة تدل على شىء معين تسمّى أثرا.

إنّ الاستفادة من هذا التعبير فى الآيات أعلاه تشير إلى ملاحظة لطيفة، و هى أنّ الإنسان قد يغادر فى بعض الأحيان مكانا ما، و لكنّ آثاره ستبقى بعده، و تزول إذا طال زمن المغادرة. فالآية تريد أن تقول: أنّك على قدر من الحزن و الغم و لعدم إيمانهم بحيث تريد أن تهلك نفسك من شدّة الحزن قبل أن تمحى آثارهم.

و يحتمل أن يكون الغرض من الآثار أعمالهم و تصرفاتهم.

رابعا: استخدام كلمة (حديث) للتعبير عن القرآن، هو إشارة إلى ما ورد من معارف جديدة فى هذا الكتاب السماوى الكبير، يعنى أنّ هؤلاء لم يفكروا فى أن يستفيدوا و يبحثوا فى هذا الكتاب الجديد ذى المحتويات المستجدّة. و هذا دليل على عدم المعرفة، بحيث أنّ الإنسان بقدر قربه من هذا الكتاب، إلّا أنّه لا يلتفت إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۹ ؛ ص۱۹۸

مسا: صفة الإشفاق لدى القادة الإلهيين.

نستفيد من الآيات القرآنية و تأريخ النبوات، أنّ القادة الإلهيين كانوا يتألمون أكثر ممّا نتصور لضلال الناس، و كانوا يريدون لهم الإيمان و الهداية. و يألمون عند ما يشاهدون العطاشى جالسين بجوار النبع الصافى، و يأنون من شدّة العطش، الأنبياء يبكون لهم و

يجهـدون أنفسـهم ليلاـ و نهارا، و يبلغون سـرّا و جهارا، و ينادون فی المجتمع من أجل هدايـة الناس. إنّهم يألمون بسـبب ترک الناس للطريق الواضح الى الطرق المسدودة، هذا الألم يكاد يوصـلهم فی بعض الأحيان إلى حدّ الموت. و لو لم يكن القادة بهذه الدرجة من الاهتمام لما انطبق عليهم المفهوم العميق للقائد.

و بالنسبة لرسول الهـدى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كانت تصل به حالة الحزن و الشـفقة إلى مرحلة خطرة على حياته بحيث أنّ اللّه تبارک و تعالى يسلّيه.

فی سورة الشعراء نقرأ فی الآيتين (۳، ۴) قوله تعالى لَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ أَلَّا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۹

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ

الآيـة التی بعـدها تجسّد وضع هذا العالم و تكشف عن أنّه ساحة للاختبار و التمحيص و البلاء، و توضح الخط الذی ينبغی أن يسـلكه الإنسان: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها.

لقد ملأنا العالم بأنواع الزينة، بحيث أنّ كلّ جانب فيه يذهب بالقلب، و يحيّر الأبصار، و يثير الدوافع الداخلية فی الإنسان، كيما يتسنى امتحانه فی ظل هذه الإحساسات و المشاعر و وسط أنواع الزينة و أشكالها، لتظهر قدرته الإيمانية، و مؤهلاته المعنوية.

لذلک تضيف الآية مباشرة قوله تعالى: لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

أراد بعض المفسّـرين حصـر معنى مـا عَلَى الْأَرْضِ بالعلمـاء أو بالرجـال فقـط، و يقولوا: إنّ هؤلاء هم زينـة الأرض، فی حين أنّ لهـذه الكلمة مفهوما واسعا يشمل كل الموجودات على الكرة الأرضية.

و الظّريف هنـا اسـتخدام الآيـة لتعبير أَحْسَنُ عَمَلًا و ليس (أكثر عملاـ) و هی إشـارة إلى أنّ حسن العمـل و كيفيته العاليـة همـا اللـذان يحدّدان قيمته عند ربّ العالمين، و ليس كثرة العمل أو كميته.

على أی حال فإنّ هنا إنـذار لكل الناس، لكل المسـلمين كی لا ينخـدعوا فی ساحة الاختبار بزينة الحياة الدنيا، و بدلا من ذلک عليهم أن يفكروا بتحسين أعمالهم.

ثمّ يبيّن تعالى أنّ أشياء الحياة الدنيا ليست ثابتة و لا دائمة، بل مصيرها إلى المحو و الزوال: وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً.

«صعيد» مشتقّة من «صعود» و هی هنا تعنی وجه الأرض، الوجه الذی يتّضح فيه التراب.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۰

و «جرز» تعنی الأـرض التی لاـ ينبت فيهـا الكلأـ و كأنّمـا هی تأكل نباتها، و بعبارة أخرى فإنّ «جرز» تطلق على الأرض الموات بسـبب الجفاف و قلّة المطر.

إنّ المنظر الذی نشاهده فی الربيع فی الصحاری و الجبال عند ما تبتسم الورود و تتفتح النباتات، و حيث تتناجى الأوراق، و حيث خرير الماء فی الجـداول ... إنّ هـذه الحالـة سوف لا تدوم و لا تبقى، إذ لا بدّ أن يأتی الخريف، حيث تتعرى الأغصان و تنطفئ البسـمة من شفاه الورود، و تذبل البراعم، و تجف الجداول، و تموت الأوراق، و تسكت فيها نغمة الحياة.

حياة الإنسان الماديـة تشـبه هـذا التحوّل، فلا بدّ أن يأتی ذلک اليوم الذی يضع نهاية للقصور التی تناطح السـماء، و لملابس الباذخة و النعم الكثيرة التی يرفـل بها الإنسان، كـذلک تنتهی المناصب و المواقع و الاعتبارات، و سوف لن يبقى شـیء من المجتمعات البشـرية سوى القبور الساكنة اليابسة، و هذا درس عظيم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۱

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (١٢)

أسباب النّزول

لقد أورد المفسّرون قصّة لسبب نزول الآيات خلاصتها أنّ سادة قريش اجتمعوا ليبحثوا فی أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرروا إرسال اثنين منهم إلى أحبار اليهود فی المدينة، و الاثنان هما النضر بن الحرث بن كلدة و عقبة بن أبی معيط.

قال زعماء قريش لهؤلاء: سلوا أحبار اليهود عن محمّد وصفا له صفته، و خبراهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل و عندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا.

فخرجا حتى قدما المدينة. فسألا أحبار اليهود عن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالا لهم ما قالت قريش.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۲

فقال لهما أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبی مرسل، و إن لم يفعل فهو رجل متقوّل فروا فيه أريكم. سلوه عن فتية ذهبوا فی الدهر الأوّل ما كان من أمرهم، فإنّه قد كان لهم حديث عجيب. و سلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها ما كان نبؤه. و سلوه عن الروح ما هو.

و فی رواية أخرى قالوا: فإن أخبركم عن اثنتين و لم يخبركم بالروح فهو نبی.

فانصرفا إلى مكّة فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم و بين محمّد. و قصّا عليهم القصة.

فجاءوا إلى النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسألوه.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أخبركم بما سألتم غدا و لم يستثن- أی لم يقل إن اللّه- فانصرفوا عنه،

و مكث صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خمس عشرة ليلة لا يحدث اللّه إليه فی ذلك و حيا، و لا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكّة و تكلموا فی ذلك. فشق على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما يتكلم به أهل مكّة، ثمّ جاءه جبرائيل عليه السّلام عن اللّه بسورة الكهف، و فيها ما سألوه عنه من أمر الفتية و الرجل الطوّاف. و أنزل عليه آية وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ

و

قد سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جبرائيل حين جاءه: «لقد احتبست عنّی يا جبرائيل» فقال له جبرائيل عليه السّلام وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا الآية.

(من الجدير بالذكر هنا أنّ سورة الكهف تضمنت الجواب على سؤالين من الأسئلة الثلاثة. إلّا أنّ الآية التی تتحدث عن الروح قد مرّت علينا فی سورة الإسراء. و هذا أمر لا يندر حدوثه فی القرآن، إذ تنزل آية فی مناسبة معينة، ثمّ توضع بأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی سورة أخرى).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۳

التّفسير

بداية قصّة أصحاب الكهف

فى الآيـات السابقـة كـانت هنـاك صورة للحيـاة الـدنيا، و كيفيـة اختبـار الناس فيها، و مسير حياتهم عليها، و لأنّ القرآن غالبا ما يقوم بضرب الأمثلة للقضايا الحسّاسة، أو أنّه يذكر نماذج من التأريخ لتجسيد الوعى بالقضية، لذا قام فى هذه السورة بتوضيح قصّة أصحاب الكهف، و عبرّت عنهم الآيات بأنّهم (أنموذج) أو (أسوة).

إنّهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، الذين كانوا يعيشون فى ظل حياة مترفة بالزّينة و أنواع النعم، إلّا أنّهم انسلخوا من كل ذلك لأجل حفظ عقيدتهم و للصراع ضدّ الطاغوت؛ طاغوت زمانهم، و ذهبوا إلى غار خال من جميع أشكال الزّينة و النعم، و قد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم فى سبيل الإيمان و الثبات عليه.

الملفت للنظر أنّ القرآن ذكر فى البدايـة قصّيـة هـذه المجموعـة من الفتيـة بشـكل مجمـل، موظفـا بـذلك أحـد أصول فن الفصاحـة و البلاغة، و ذلك لتهيئة أذهان المستمعين ضمن أربع آيات، ثمّ بعد ذلك ذكر التفاصيل فى (۱۴) آية.

فى البداية يقول تعالى: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً. إنّ لنا آيات أكثر عجبا فى السموات و الأرض، و إن كل واحـد منها نموذج لعظمـة الخالق جلّ و علا، و فى حياتكم- أيضا- أسـرار عجيبـة تعتبر كل واحـدة منها علامـة على صـدق دعوتك، و فى كتابك السماوى الكبير هذه آيات عجيبة كثيرة، و بالطبع فإنّ قصّة أصحاب الكهف ليست بأعجب منها.

أمّا لماذا سميت هذه المجموعة بأصحاب الكهف؟ فذلك يعود إلى لجوئهم إلى الغار كى ينقذوا أنفسهم، كما سيأتى ذلك لاحقا إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۴

أمّا «الرقيم» ففى الأصـل مـأخوذة من (رقم) و تعنى الكتابـة[۱۲۸]، و حسب اعتقـاد أغلب المفسّـرين فـإنّ هـذا هو اسم ثان لأصـحاب الكهف، لأنّه فى النهاية تمت كتابة أسمائهم على لوحة وضعت على باب الغار.

البعض يرى أنّ «الرقيم» اسم الجبل الذى كان فيه الغار.

و البعض الآخر اعتبر ذلك اسما للمنطقة التى كان الجبل يقع فيها.

أمّا بعضهم فقد اعتبر ذلك اسما للمدينة التى خرج منها أصحاب الكهف، إلّا أنّ المعنى الأوّل أكثر صحة كما يظهر.

أمّا مـا احتمله البعض من أنّ أصـحاب الرقيم هم مجموعـة أخرى غير أصـحاب الكهـف، و تنقـل بعض المرويـات قصّيـة تختص بهم، فالظاهر أنّ هـذا الرّاى لا يتناسب مع الآية، لأنّ ظاهر الآية يدل على أنّ أصـحاب الكهف و الرقيم كانوا مجموعة واحدة، لذلك و بعد ذكر العنوانين تذكر السورة قصّة أصحاب الكهف و لا تذكر غيرهم. و هذا بنفسه دليل على الوحدة.

و فى الرّوايات المعروفة الواردة فى تفسير نور الثقلين فى ذيل الحديث عن الآية، نرى أنّ الأشخاص الثلاثة الذين دخلوا الغار قد دعوا اللّه بـأخلص ما عملوه لوجهه تعالى أن ينجيهم من محنتهم، و لكن هـذه الرّوايات لا تتحـدث عن أصـحاب الرقيم بالرغم من أنّ بعض كتب التّفسير قد تعرّضت لهم.

على أيـة حال يجب أن لا نتردّد فى أنّ هاتين المجموعتين (أصـحاب الكهف و الرقيم) هم مجموعـة واحدة، و أنّ سـبب نزول الآيات يعضد هذه الحقيقة.

ثمّ تقول الآيات بعـد ذلك: إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ و عنـد ما انقطعوا عن كل أمل توجهوا نحو خالقهم: فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ثم: وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً. أى أرشدنا إلى طريق ينقذنا من هذا الضيق و يقربنا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۵

مرضاتك و سعادتك، الطريق الذى فيه الخير و السعادة و إطاعة أوامر اللّه تعالى.

و قد استجيبت دعوتهم: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً.

ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً.

ملاحظات

۱- جملة أَوَى الْفِتْيَةُ من مادة (مأوى) و تعنى المكان الآمن، و هو إشارة إلى أنّ هؤلاء الفتية الهاربين من بيئتهم الفاسدة المنحرفة قد أحسّوا بالأمن عند ما وصلوا إلى الغار.

۲- (فتية) جمع (فتى) و هو الشاب الحدث، و لكنها تطلق أحيانا على الأشخاص الكبار و المسنين الذين يملكون روحية شابّة، و قد ذكرت هذه الكلمة مع نوع من الإشادة و المدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة و الشهامة و التسليم فى مقابل الحق.

و الشاهد على هذا الكلام ما

نقل عن الإمام الصادق فى أصحاب الكهف إذ قال: «أمّا علمت أنّ أصحاب الكهف كانوا كلّهم كهولا فسمّاهم اللّه فتية بإيمانهم».

بعد ذلك

أضاف الإمام الصادق فى معنى الفتوة قوله عليه السّلام: «من آمن باللّه و اتقى فهو الفتى»[۱۲۹].

و قد نقل عن الإمام الصادق ما يشبه هذا الحديث فى (روضة الكافى)[۱۳۰] أيضا.

۳- استخدام تعبير مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إشارة إلى أنّ هؤلاء الفتية عند ما لجأوا إلى الغار تركوا جميع الوسائل و الأسباب الظاهرية، و كانوا لا يأملون سوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۶

رحمة اللّه.

۴- جملة فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ كناية لطيفة عن (التنويم)، كأنّما يوضع ستار على أذن الشخص بحيث لا يسمع أى شىء، و هو ستار النوم.

و لهذا فإنّ النوم الحقيقى هو النوم الذى يطغى على السمع، و كذلك إذا أردنا أن نوقظ شخصا من نومه، فإنّنا نصيح به و نناديه حتى ينفذ الصوت إلى مسامعه.

۵- إنّ استخدام تعبير سِنِينَ عَدَداً إشارة إلى أنّ نومهم قد استمرّ لعدّة سنين كما سيأتى تفسير ذلك فى الآيات القادمة إن شاء اللّه تعالى.

۶- إنّ استخدام تعبير بَعَثْناهُمْ ليقظتهم من النوم، قد يكون لأنّ نومهم أصبح من الطول بمقدار بحيث كانوا كالموتى. فيقظتهم من النوم كبعثهم إلى الحياة مرّة أخرى.

۷- جملة لِنَعْلَمَ ... لا- تعنى أنّ اللّه يريد أن يعلم شيئا جديدا. و يكثر استخدام هذا التعبير فى القرآن، و الغرض منه هو تحقق العلم الإلهى، بمعنى نحن أيقظناهم من المنام حتى يتحقق هذا المعنى، أى حتى يسأل كل واحد الآخر عن مقدار نومهم.

۸- عبارة أَيُّ الْحِزْبَيْنِ إشارة لما سنتحدث عنه أثناء تفسير الآيات اللاحقة، حيث أنّهم بعد يقظتهم اختلفوا فى مقدار نومهم، فالبعض قال: يوما، و البعض الآخر قال: نصف يوم، فى حين أنّهم كانوا نائمين لسنين طويلة.

أمّا قول البعض بأنّ هذا التعبير هو شاهد على أنّ أصحاب الكهف هم غير أصحاب الرقيم، فهذا كلام بعيد للغاية و لا يحتاج لمزيد توضيح [۱۳۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۷

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۳ الى ۱۶]

اشارة

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً (۱۳) وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (۱۴) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (۱۵) وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً (۱۶)

التّفسير

القصّة المفصّلة لأصحاب الكهف:

بعد أن ذكرت الآيات بشكل مختصر قصّة أصحاب الكهف، بدأت الآن مرحلة الشرح المفصّل لها ضمن (۱۴) آية و كان المنطلق فى ذلك قوله تعالى:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ كلام خال من أى شكل من أشكال الخرافة و التزوير. إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً و كما قلنا فإنّ (فتية) جمع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۸

(فتى) و هى تعنى الشاب الحدث. و بما أنّ الجسم يكون قويا فى مرحلة الشباب، فهو على استعداد لقبول نور الحق، و منبع للحب و السخاء و العفة. و لذا كثيرا ما تستخدم كلمة (الفتى و الفتوة) للتدليل على مجموع هذه الصفات حتى لو كان أصحابها من المسنّين.

و تشير الآيات القرآنية- و ما هو ثابت فى التأريخ- إلى أنّ أصحاب الكهف كانوا يعيشون فى بيئة فاسدة و زمان شاعت فيه عبادة الأصنام و الكفر، و كانت هناك حكومة ظالمة تحتمى مظاهر الشرك و الكفر و الانحراف.

مجموعة أهل الكهف- الذين كانوا على مستوى من العقل و الصدق- أحسّوا بالفساد و قرروا القيام ضدّ هذا المجتمع، و فى حال عدم تمكنهم من المواجهة و التغيير فإنّهم سيهجرون هذا المجتمع و المحيط الفاسد.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً.

فإذا عبدنا غيره: لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً.

نستفيد من تعبير رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أنّ بذرة التوحيد و فكرته كانت منذ البداية مرتكزة فى قلوبهم، إلّا أنّهم لم تكن لديهم القدرة على إظهارها و التجاهر بها. و لكن اللّه بتقوية قلوبهم أعطاهم القدرة على أن ينهضوا و يعلنوا علانية نداء التوحيد.

و ليس من الواضح فيما إذا كان هذا الإعلان قد تمّ أوّلا أمام ملك زمانهم الظالم (دقيانوس) أو أنّه تمّ أمام الناس، أو أمام الاثنين معا (الحاكم الظالم و الناس) أو أنّهم تجاهروا به فيما بينهم أنفسهم؟

لكن يظهر من كلمة (قاموا) أنّ إعلانهم كان وسط الناس، أو أمام السلطان الظالم.

(شطط) على وزن (وسط) تعنى الخروج عن الحد و الإفراط فى الابتعاد لذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۹

فإنّ (شطط) تقال للكلام البعيد عن الحق، و يقال لحواشى و ضفاف الأنهار الكبيرة (شط) لكونها بعيدة عن الماء، و كونها ذات جدران مرتفعة.

و فى الواقع، إنّ هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلا واضحا لإثبات التوحيد و نفى الآلهة. و هو قولهم: إنّنا نرى و بوضوح أنّ لهذه السماوات و الأرض خالقا واحدا، و أنّ نظام الخلق دليل على وجوده، و ما نحن إلّا جزء من هذا الوجود، لذا فإنّ ربّنا هو نفسه ربّ

السماوات و الأرض.

ثمّ ذكروا دليلا آخر و هو: هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً.

فهل يمكن الإعتقاد بشىء بدون دليل و برهان؟: لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ

و هل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمى دليلا على مثل هذا الإعتقاد؟

ما هذا الظلم الفاحش و الانحراف الكبير: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً.

و هذا الافتراء هو ظلم للنفس، لأنّ الإنسان يستسلم حينئذ لأسباب السقوط و الشقاء، و هو أيضا ظلم بحق المجتمع الذى تسرى فيه هذه الانحرافات، و أخيرا هو ظلم للّه و تعرض لمقامه العظيم سبحانه و تعالى.

هؤلاء الفتية الموحدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صدأ الشرك عن قلوب الناس، و زرع غرسة التوحيد فى مكانها، إلّا أنّ ضجة عبادة الأصنام فى ذلك المحيط الفاسد، و ظلم الحاكم الجبار كانتا من الشدّة بحيث حبستا أنفاس عبادة اللّه فى صدورهم و انكمشت همهمات التوحيد فى حناجرهم.

و هكذا اضطروا للهجرة لانقاذ أنفسهم و الحصول على محيط أكثر استعدادا و قد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذى سيذهبون إليه ثمّ كان قرارهم: وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ حتى: يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً.

«يهيّئ» مشتقة من «تهيئة» بمعنى الإعداد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۰

«مرفق» تعنى الوسيلة التى تكون سببا للطف و الرفق و الراحة، و بذا يكون معنى الجملة وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً أنّ الخالق سبحانه و تعالى سيرتب لكم وسيلة للرفق و الراحة.

و ليس من المستبعد أن يكون (نشر الرحمة) الوارد فى الجملة الأولى إشارة إلى الألطاف المعنوية للّه تبارك و تعالى، فى حين أنّ الجملة الثّانية تشير إلى الجوانب المادية التى تؤدى إلى خلاصهم و نجاتهم.

ملاحظات

۱- الفتوة و الإيمان

تتزامن روح التوحيد دائما مع سلسلة من الصفات الإنسانية العالية، فهى تنبع منها و تؤثّر فيها أيضا، و يكون التأثير فيما بينهما متبادلا. و لهذا السبب فإننا نقرأ فى قصّة أصحاب الكهف أنّهم كانوا فتية آمنوا بربّهم.

و على هذا الأساس قال بعض العلماء: رأس الفتوة الإيمان.

و قال البعض الآخر منهم: الفتوة بذل الندى، و كف الأذى، و ترك الشكوى.

و البعض الثّالث فسّر الفتوة بقوله: هى اجتناب المحارم و استعمال المكارم.

۲- الإيمان و الإمداد الإلهى

فى عدّة مواقع من الآيات أعلاه تنعكس بوضوح حقيقة الإمداد الإلهى للمؤمنين، فإذا وضع الإنسان خطواته فى طريق اللّه، و نهض

لأجله فإنّ الإمداد الإلهى سيشمله، ففى مكان تقول الآية: إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً

و فى مكان آخر تقول: وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ و فى نهاية الآيات كانوا بانتظار رحمة الخالق: يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۱

الآيـات القرآنيـة الأخرى تؤيـد هـذه الحقيقـة بوضوح، فعنـد ما يجاهـد الإنسان من أجل اللّه، فإنّ اللّه يهـديه إلى طريق الحق: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا[۱۳۲] و فى سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آية (۱۷) نقرأ قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً إنّ طريق الحق مليء بـالموانع و الصـعوبات، و من العسير على الإنسان طى هـذا الطريق و الوصول إلى الأهـداف من دون لطف اللّه و عنايته.

و نعلم أيضا إنّ لطف اللّه أكبر من أن يترك العبد فى طريق الحق لوحده.

۳- ملجأ باسم الغار

إنّ وجود (أل) التعريف فى كلمة «الكهف» قد تكون إشارة إلى أنّهم (أصحاب الكهف) كانوا مصممين على الذهاب إلى مكان معين فى حال عدم نجاح دعوتهم التوحيدية، و ذلك لإنقاذ أنفسهم من ذلك المحيط الملوّث.

(الكهف) كلمـة ذات مفهوم واسع، و تـذكرنا بنمط الحياة الابتدائيـة للإنسان، حيث ينعدم فيه الضوء، و لياليه مظلمة و باردة، و تذكرنا بآلام المحرومين، إذ ليس ثمّة شيء من زينة الحياة المادية، أو الحياة الناعمة المرفّهة.

و يتّضـح الأمر أكثر إذا ما أخـذنا بنظر الإعتبار أنّ التأريخ ينقل لنا أنّ أصـحاب الكهف كانوا من الوزراء و أصـحاب المناصب الكبيرة داخل الحكم. و قد نهضوا ضدّ الحاكم و ضدّ مذهبه، و كان اختيار حياة الكهوف على هذه الحياة قرارا يحتاج إلى المزيد من الشهامة و الهمّة و الروح و الإيمان العالى.

و فى هذا الغار البارد المظلم الذى قد يتضّمن خطر الحيوانات المؤذية، هناك عالم من النور و الإخلاص و التوحيد و المعانى السامية.

إنّ خطوط الرحمة الإلهية متجلية على جدران هذا الغار، و أمواج لطف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۲

الخالق تسبح فى فضائه، ليس هناك وجود للأصنام من أى نوع كانت، و لا يصل طوفان ظلم الجبارين إلى هذا الكهف.

هؤلاء الفتية الموحدون تركوا الدنيا الملوثة الواسعة و التى كان سجنا لأرواحهم و ذهبوا إلى غار مظلم جاف. و فعلهم هذا يشبه فعل النّبى يوسف عليه السّـلام حين أصـروا عليه أن يستسلم لشهوة امرأة العزيز الجميلة، و إلّا فالسجن الموحش المظلم سيكون فى انتظاره، لكن هـذا الضـغط زاد فى صـموده و قال متوجها إلى ربّه العظيم: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِی إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْـرِفْ عَنِّی كَيْـدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ ۱۳۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۳

الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۷ الى ۱۸]

اشارة

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُـهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَ هُمْ فِی فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْـدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَـدِ وَ مَنْ يُضْـلِلْ فَلَنْ تَجِـدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (۱۷) وَ تَحْسَـبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمـالِ وَ

كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨)

التّفسير

مكان أصحاب الكهف:

يشير القرآن فى الآيتين أعلاه إلى التفاصيل الدقيقة المتعلّقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف فى الغار، و كأنّها تحكى على لسان شخص جالس فى مقابل الغار ينظر إليهم.

فى هاتين الآيتين إشارة إلى ست خصوصيات هى:

أوّلا: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، و لكونه فى الجزء الشمالى من الكرة الأرضية، فإنّ ضوء الشمس كان لا يدخل الغار بشكل مباشر، فالقرآن يقول إنّك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۴

إذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنّها تطلع من جهة يمين الغار، و تغرب من جهة الشمال: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ

و على هذا الأساس لم يكن ضوء الشمس يصل إلى أجسادهم بشكل مباشر، و هو أمر لو حصل فقد يؤدى إلى تلف أجسادهم، و لكن الأشعة غير المباشرة كانت تدخل الغار بمقدار كاف.

إنّ عبارة (تزاور) التى تعنى (التمايل) تؤكّد على هذا المعنى، و كأنّ الشمس كانت مأمورة بأن تمرّ من اليمين (يمين الغار). و كلمة (تقرض) التى تعنى (القطع) تؤكّد نفس مفهوم السابق، و إضافة إلى هذا فإنّ كلمة «تزاور» المشتقّة من كلمة (الزيارة) المقارنة لبداية الشيء تناسب مفهوم طلوع الشمس. (و تقرض) تعنى القطع و النهاية و هو معنى يتجلى فى غروب الشمس.

و لأنّ فتحة الغار كانت إلى الشمال فإنّ الرياح اللطيفة و المعتدلة كانت تهب من طرف الشمال و كانت تدخل بسهولة إلى داخل الغار، و تؤدى الى تلطيف الهواء فى جميع زوايا الغار.

ثانيا: وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ لقد كان أولئك فى مكان واسع من الغار، و هذا يدل على أنّهم لم يأخذوا مستقرّهم فى فتحة الغار التى تتسم بالضيق عادة، بل إنّهم انتخبوا وسط الغار مستقرا لهم كى يكونوا بعيدين عن الأنظار، و بعيدين أيضا عن الأشعة المباشر لضوء الشمس.

و هنا يقطع القرآن تسلسل الكلام و يستنتج نتيجة معنوية، حيث يبيّن أنّ الهدف من ذكر هذه القصة هو لتحقيق هذا الغرض: ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۵

نعم، إنّ الذين يضعون أقدامهم فى طريق اللّه، و يجاهدون لأجله فإنّ اللّه سيشملهم بلطفه فى كل خطوة و ليس فى بداية العمل فقط. إنّ اللّه يرعى هؤلاء حتى فى أدق التفاصيل.

ثالثا: إنّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوما عاديا: وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ. و هذا يدل على أنّ أجفانهم كانت مفتوحة بالضبط مثل الإنسان اليقظ، و قد تكون هذه الحالة الاستثنائية لكى لا تقترب منهم الحيوانات المؤذية التى تخاف الإنسان اليقظ. أو لكى يكون شكلهم مرعبا كى لا يتجرأ إنسان على الاقتراب منهم. و هذا بنفسه أسلوب للحفاظ عليهم.

رابعا: و حتى لا تتهرأ أجسامهم بسبب السنين الطويلة التى مكثوا فيها نياما فى الكهف، فإنّ اللّه تبارك و تعالى يقول: وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ

حتى لا يتركز الدم فى مكان معين، و لا تكون هناك آثار سيئة على العضلات الملاصقة للأرض بسبب الضغط عليها لمدّة طويلة.

خامسا: فى وصف جديد يقول تعالى: وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ.

كلمة «وصيد» و كما يقول الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل الغرفة أو المخزن الذى يتمّ إيجاده فى الجبال لأجل خزن الأموال، إلّا أنّ المقصود به هنا هو فتحة الغار.

برغم أنّ الآيـات القرآنيـة لم تتحـدث حتى الآن عن كلب أصـحاب الكهف، إلّا أنّ القرآن يـذكر هنا تعابير خاصّـة تتضـح من خلالها بعض المسائل، فمثلا ذكر حالة كلب أصحاب الكهف يفيد أنّه كان معهم كلب يتبعهم أينما ذهبوا و يقوم بحراستهم.

أمّا متى التحق هـذا الكلب بهم، و هـل كان كلب صـيدهم، أو أنّه كلب ذلك الراعى الـذى التقى بهم فى منتصف الطريق، و عنـد ما عرف حقيقتهم أرسل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۶

حيواناته إلى القرية و التحق بهم، لأنّه كان يبحث عن الحقيقة مثلهم و قد رفض هذا الكلب أن يتركهم و استمرّ معهم.

ألا يعنى هـذا الكلام أنّ جميع المحبّين- لأجل الوصول إلى الحق- يستطيعون سلوك هذا الطريق، و أنّ الأبواب غير مغلقة أمام أحد سواء كانوا وزراء عنـد الملك الظالم ثمّ تابوا، أو كان راعيا، بل و حتى كلبه؟! ألم يؤكّد القرآن أن جميع ذرات الوجود فى الأرض و السماء، و جميع الأشجار و الأحياء تذكر اللّه، و تحبّ اللّه فى قلوبها و صميم وجودها؟ (راجع سورة الإسراء- الآية ۴۴).

سادسا: قوله تعالى: لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً.

إنّهـا ليست المرّة الأولى و لا الأخيرة التى يحفـظ فيهـا اللّه تبـارك و تعـالى عباده المؤمنين بالرعب و الخوف، فقـد واجهتنا فى الآية (۱۵۱) من سورة آل عمران صورة مماثلة جسّدها قول اللّه تبارك و تعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۱۳۴].

و فى دعاء الندبة نقرأ كلاما حول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«ثمّ نصرته بالرعب».

أو ما هو سبب الرعب فى مشاهدة أهل الكهف، و هل يعود ذلك لظاهرهم الجسمانى، أو بسبب قوّة معنوية سرية؟

الآيات القرآنية لم تتحدّث عن ذلك، و لكن المفسّرين ذكروا بحوثا مفصّلة فى هذا المجال، و لعدم قيام الدليل عليها صرفنا النظر عن ذكرها.

كما أنّ قوله تعالى: وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً فى الحقيقة علّة لقوله تعالى:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۷

لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً يعنى لكنت تهرب بسبب الخوف الذى يملأ قلبك، و كأنّ قلبك مملوء بالخوف، و ينفذ إلى ذرّات وجودك بحيث أنّ جميع وجود الإنسان يصاب بالوحشة و الخوف. على أى حال، إذا أراد اللّه شيئا فإنّه يحقق أهم النتائج من خلال أبسط الطرق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۸

الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (۱۹) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (۲۰)

التّفسير

اليقظة بعد نوم طويل:

سوف نقرأ فی الآيات القادمة- إن شاء اللّه تعالی- أنّ نوم أصحاب الكهف كان طويلا للغاية بحيث استمر (۳۰۹) سنة، و على هذا الأساس كان نومهم أشبه بالموت، و يقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإنّ القرآن يقول فی الآيات التی نبحثها وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ

يعنی مثلما كنّا قادرين على إنامتهم نوما طويلا فإنّنا أيضا قادرون على

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۹

إيقاظهم. لقد أيقظناهم من النوم: لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۱۳۵].

قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

لعل التردّد و الشك هنا يعود- كما يقول المفسّرون- إلى أن أصحاب الكهف دخلوا الغار فی بداية اليوم، ثمّ ناموا، و فی نهاية اليوم استيقظوا من نومهم، و لهذا السبب اعتقدوا فی بادئ الأمر بأنّهم ناموا يوما واحدا، و بعد أن رأوا حالة الشمس، قالوا: بل بَعْضَ يَوْمٍ

و أخيرا، بسبب عدم معرفته لمقدار نومهم قالوا: قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ

قال بعضهم: إنّ قائل هذا الكلام هو كبيرهم المسمی (تلميخا) و بالنسبة لاستخدام صيغة الجمع على لسانه (قالوا) فهو متعارف فی مثل هذه الموارد.

و قد يكون كلامهم هذا بسبب شكّهم فی أنّ نومهم لم يكن نوما عاديا، و ذلك عند ما شاهدوا هندامهم و شعرهم و أظفارهم و ما حلّ بملابسهم.

و لكنّهم- فی كل الأحوال- كانوا يحسّون بالجوع و بالحاجة الشديدة إلى الطعام، لأنّ المخزون الحيوی فی جسمهم انتهى أو كاد، لذا فأوّل اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود و مسكوكات فضية لشراء الغذاء: فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ

ثمّ أردفوا: وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً. لماذا هذا التلطّف: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِی مِلَّتِهِمْ

ثمّ: وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۰

بحوث

۱- أزكى الطعام

اشارة

مع أنّ أصحاب الكهف كانوا بعد يقظتهم بحاجة شديدة إلى الطعام، إلّا أنّهم قالوا للشخص الذی كلّفوه بشراء الطعام: لا تشتر الطعام من أیّ كان، و إنّما انظر أيّهم أزكى و أطهر طعاما فأتنا منه.

بعض المفسّرين تأولوا المعنى و قالوا: إنّ المقصود من (أزكى) هو ما يعود إلى الحيوانات المذبوحة، إذ أنّهم كانوا يعلمون أنّ فی تلك المدينة من يبيع لحم الميتة (أی غير المذبوح على الطريقة الشرعية) و أنّ البعض يتكسّب بالحرام، لذلك أوصوا صاحبهم

بضرورة أن يتجنب مثل هؤلاء الأشخاص عند ما يحاول شراء الطعام.

و لكن يظهر أنّ لهـذه الجملـة مفهوما واسعا يشـمل كافة أشـكال الطهارات الظاهرية و الباطنية (المعنوية)، و كلامهم و توصـيتهم هى توصـية لكافـة أنصـار الحق، فى أن لاـ يفكروا بطهـارة غـذائهم المعنوى و حسب، بـل عليهم أيضـا الاهتمام بطهارة طعام الأجسام كى يكون زكيا نقيا من جميع الأرجاس و الشـبهات. و إنّ هذا الأمر ينبغى أن يلازمهم حتى فى أصـعب لحظات الحياة و أشدّها عسرا، لأنّ هذا المعنى هو تعبير عن أصل فى وجود المؤمن.

اليوم يسـعى معظم أفراد عالمنا للاهتمام بجانب من هذا الأمر، و هو الجانب المتعلق بالحفاظ على الطعام من أشـكال التلوث الظاهرى، إذ يضـعون الطعام فى أوانى مغطاة بعيـدة عن الأيدى الملوّثة، و عن الأتربة و الغبار. و هذا العمل بحدّ ذاته جيد جدّا، إلّا أنّ علينا أن لا نكتفى بهذا المقدار، بل ينبغى تزكية الطعام و تطهيره من لوثة الشبهة و الحرام و الرّبا و الغش و أى شكل من أشكال التلوّث المعنوى.

و فى الرّوايات الإسلامية هناك تأكيد كبير على الطعام الحلال النقى الزاكى و أثره فى صفاء القلب و استجابة الدعاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۱

ففى رواية نقرأ أنّه جاء رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سأله قائلا: أحبّ أن يستجاب دعائى.

فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «طهّر مأكلك و لا تدخل بطنك الحرام»[۱۳۶].

ثانيا: التقية البنّاءة

نستفيد من تعبير الآيات أعلاه أنّ أصـحاب الكهف كانوا يصـرّون على أن لا يعرف أحد مكانهم حتى لا يجبرون على عبادة الأصنام، أو يقتلـون بـأفجع طريقـة مـن خلاـل رميهم بالحجـارة. إنّهم كـانوا يرغبـون فى أن يبقـوا غير معروفين حـتى يسـتطيعوا بهـذا الأسـلوب الاحتفاظ بقوّتهم للصراع المقبل، أو على الأقل حتى يستطيعوا أن يحتفظوا بإيمانهم.

و هـذا المعنى تعبير عن أحـد أقسام «التقية البنّاءة» حيث أنّ حقيقة التقية هو أن يحفظ الإنسان طاقته من الهدر بإخفاء نفسه أو عقيدته. يحفظ نفسه و يصونها حتى يسـتطيع- فى مواقع الضـرورة- الاسـتمرار فى جهاده المؤثّر. و طبيعى عنـد ما تكون التقيـة و إخفاء العقيدة سببا لتصدّع الأهداف و البرنامج الكبرى، فإنّها تكون ممنوعة و ينبغى الجهر بالحق و الصدع به بالغا ما بلغ الضرر.

ثالثا: اللطف مركز القرآن

إنّ قوله تعـالى: لْيَتَلَطَّفْ كما هو مشـهور- هى نقطـة الفصل بين نصـفى القرآن من حيث عـدد الكلمات. و هـذا بنفسه يشـير إلى معنى لطيف للغايـة، لأنّ الكلمـة مشـتقّة من اللطف، و اللطافـة و التى تعنى هنا الدقـة. بمعنى أنّ المرسل لتهيئة الطعام عليه أن يذهب و يرجع بحيث لا يشعر أحد بقصتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۲

بعض المفسّـرين قـالوا: إنّ الغرض من التلطّف فى شـراء الطعـام هو أن لاـ يتصـعّب فى التعامل، و يبتعـد عن النزاع الضوضاء و ينتخب أفضل البضاعة.

و هذا بذاته لطف أن تشكّل كلمة اللطف وسط القرآن و نقطة النصف بين كلماته الهادية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۳

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۲۱ الى ۲۴]

اشارة

وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (۲۱) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (۲۲) وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (۲۳) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (۲۴)

التّفسير

نهاية قصّة أصحاب الكهف:

لقد وصلت بسرعة أصداء هجرة هذه المجموعة من الرّجال المتشخّصين

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۴

إلى كلّ مكان و أغاظت بشدّة الملك الظالم، حيث قدّر أن تكون هذه الهجرة مقدّمة ليقظة و وعي الناس، أو قد يذهب أصحاب الكهف إلى مناطق بعيدة أو قريبة و يقومون بتبليغ مذهب التوحيد و الدعوة إليه، و محاربة الشرك و عبادة الأصنام.

لقد أصدر الحاكم تعليماته إلى جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الكهف في كل مكان، و عليهم أن يتبعوا آثارهم حتى إلقاء القبض عليهم و معاقبتهم.

و لكن كلما بحثوا لم يعثروا على شيء، و هذا الأمر أصبح بحدّ ذاته لغزا للناس، و نقطة انعطاف في أفكارهم، و قد يكون هذا الأمر- و هو قيام مجموعة من ذوي المناصب في الدولة بترك مواقعهم العالية في الدولة و تعريض أنفسهم للخطر- هو بحدّ ذاته سببا ليقظة الناس و مصدرا لوعيهم، أو لوعي قسم منهم على الأقل.

و لكن في كل الأحوال، فإنّ قصّة هؤلاء النفر قد استقرت في صفحات التأريخ و أخذت الأجيال و الأقوام تتناقلها عبر مئات السنين.

و الآن لنعد إلى الشخص المكلّف بشراء الطعام و لننظر ماذا جرى له.

لقد دخل المدينة و لكنّه فغرفاه من شدّة التعجّب، فالشكل العام للبناء قد تغيّر، هندام الجميع و لباسهم غريب عليه، الملابس من طراز جديد، خرائب الأمس تحولت إلى قصور، و قصور الأمس تحوّلت إلى خرائب! لقد ظنّ- للحظة واحدة- أنّه لا يزال نائما، و أنّ ما يشاهده ليس سوى أحلام، فرك عينيه، إلّا أنّه التفت إلى ما يراه، و هو عين الحقيقة، و إن كانت عجيبة و لا يمكن تصديقها.

إنّه لا يزال يعتقد بأنّ نومهم في الغار كان ليوم أو بعض يوم، فلما ذا هذا الاختلاف، و كيف تمّت كل هذه التغييرات الكبيرة و الواسعة في ظرف يوم واحد؟!

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۵

و من جانب آخر كان منظره هو عجيبا للناس و غير مألوف. ملابسه، كلامه، شكله كل شيء فيه بدا غريبا للناس، و قد يكون هذا الوضع قد لفت أنظارهم إليه، لذا قام بعضهم بمتابعته.

لقد انتهى عجبه عند ما مدّ يده إلى جيبه ليسدّد مبلغ الطعام الذي اشتراه، فالبائع وقع نظره على قطعة نقود ترجع في قدمها إلى (۳۰۰) سنة، و قد يكون اسم (دقيانوس) الملك الجبار مكتوبا عليها، و عند ما طلب منه توضيحا قال له بأنّه حصل عليها حديثا.

و قد عرف الناس تدريجيا من خلال سلسلة من القرائن أنّ هذا الشخص هو واحد من أفراد المجموعة الذين قرءوا عن قصّتهم العجيبة و التأريخية التي وقعت قبل (۳۰۰) سنة، و أنّ قصّتهم كانت تدور على الألسن في اجتماعات الناس و ندواتهم، و هنا أحسّ الشخص

بأنّه و أصحابه كانوا فى نوم عميق و طويل.

هذه القضية كان لها صدى كالقنبلة فى المدينة، و قد انتقلت عبر الألسن إلى جميع الأماكن.

قال بعض المؤرّخين: إنّ حكومة المدينة كانت بيد حاكم صالح و مؤمن، إلّا أنّ استيعاب و فهم قضية المعاد الجسمانى و إحياء الموتى بعد الموت كان صعبا جدّا على أفراد ذلك المجتمع، فقسم منهم لم يكن قادرا على التصديق بأنّ الإنسان يمكن أن يعود للحياة بعد الموت، إلّا أنّ قصّة أصحاب الكهف أصبحت دليلا قاطعا لأولئك الذين يعتقدون بالمعاد الجسمانى.

و لذا فإنّ القرآن يبيّن أنّنا كما قمنا بإنامتهم نقوم الآن بإيقاظهم حتى ينتبه الناس: وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ثمّ أضاف تعالى: وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها.

حيث أنّ هذا النوم الطويل الذى استمرّ لمئات السنين كان يشبه الموت، و أن إيقاظهم يشبه البعث. بل يمكن أن نقول: إنّ هذه الإنامة و الإيقاظ هى أكثر إثارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۶

للعجب من الموت و الحياة فى بعض جوانبها، فمن جهة قد مرّت عليهم مئات السنين و هم نيام و أجسامهم لم تفن أو تتأثّر، و قد بقوا طوال هذه المدّة بدون طعام أو شراب، إذن كيف بقوا أحياء طيلة هذه المدّة؟

أ ليس هذا دليلا قاطعا على قدرة اللّه على كل شيء، فالحياة بعد الموت، بعد مشاهدة هذه القضية ممكنة حتما.

بعض المؤرّخين كتب يقول: إنّ الشخص الذى أرسل لتهيئة الطعام و شرائه، عاد بسرعة إلى الكهف و أخبر رفقاءه بما جرى، و قد تعجب كل منهم، و بعد أن علموا بفقدان الأهل و الأولاد و الأصدقاء و الإخوان، و لم يبق من أصحابهم أحد، أصبحت الحياة بالنسبة إليهم صعبة للغاية، فطلبوا من الخالق جلّ و علا أن يميتهم، و ينتقلون بذلك إلى جوار رحمته. و هذا ما حدث.

لقد ماتوا و مضوا إلى رحمة ربّهم، و بقيت أجسادهم فى الكهف عند ما وصله الناس.

و هنا حدث النزاع بين أنصار المعاد الجسمانى و بين من لم يعتقد به، فالمعارضون للمعاد كانوا يريدون أن تنسى قضية نوم و يقظة أصحاب الكهف بسرعة، كى يسلبوا أنصار المعاد الجسمانى هذا الدليل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تغلق فتحة الغار، حتى يكون الكهف خافيا إلى الأبد عن أنظار الناس.

قال تعالى: إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً.

و لأجل إسكات الناس عن قصّتهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيرا، إنّ قضيتهم معقدة و مصيرهم محاط بالألغاز!! لذلك فإن: رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ أى اتركوهم و شأنهم و اتركوا الحديث فى قصّتهم.

أمّا المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر و اعتبروه دليلا حيّا لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جهدوا على أن لا تنسى القصة أبدا لذلك اقترحوا أن يتخذوا قرب مكانهم مسجدا، و بقرينة وجود المسجد فإنّ الناس سوف لن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۷

ينسوهم أبدا، بالإضافة إلى ما يتبرك به الناس من آثارهم: قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً.

و فى تفسير الآية ذكرت احتمالات أخرى سنقف على بعضها فى البحوث.

الآية التى بعدها تشير إلى بعض الاختلافات الموجودة بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلا تتحدث الآية عن اختلافهم فى عددهم فتقول: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ و بعضهم وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ و ذلك منهم رَجْماً بِالْغَيْبِ و بعضهم وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ أمّا الحقيقة فهى:

قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ و لذلك لأنّه ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ

و بالرغم من أنّ القرآن لم يشر إلى عددهم بصراحة، لكن نفهم من العلامات الموجودة فى الآية أنّ القول الثّالث هو الصحيح المطابق

للواقع، حيث أنّ كلمـة رَجْماً بِالْغَيْبِ وردت بعـد القول الأوّل و الثّانى، و هى إشارة إلى بطلان هـذين القولين، إلّا أنّ القول الثّالث لم يتبع بمثل الاستنكار بل استتبع بقوله تعالى: قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ و أيضا بقوله ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ و هذا بحدّ ذاته دليل على صحة هذا القول (الثّالث).

و فى كل الأحوال فإنّ الآية تنتهى بنصيحة تحث على عدم الجدال حولهم إلّا الجدل القائم على أساس المنطق و الدليل: فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً.

(مراء) كما يقول الراغب فى مفرداته، مأخوذة فى الأصل من (مريت الناقـة) بمعنى قبضت على (ضـرع) الناقة لأحلبها، ثمّ أطلق المعنى بعد ذلك ليشمل الأشياء الخاضعة للشك و الترديد.

و قـد تسـتخدم كـثيرا فى المجادلات و الـدفاع عن الباطـل، إلّـا أنّ أصـلها لا ـ يختص بهـذا المعنى، بـل تتسع لكـل أنـواع البحـوث و المفاوضات حول أى موضوع كان موضعا للشك.

«ظاهر» تعنى غالب و مسيطر و منتصر. لذا فالآية تقول: فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۸

مِراءً ظاهِراً بمعنى قل لهم قولا منطقيا بحيث تتوضح رجحان منطقك.

و قـد احتمل البعض أن تفسير هذه الآية هو: لا تتحدّث حديثا خاصّا مع المعارضين و المعاندين حيث أنّهم يحرّفون كلّ ما تقول، بل تحدّث معهم علانية و أمام النّاس كى لا يستطيعوا أن يحرفوا حقيقة ما تقول، و لا يستطيعوا إنكارها.

التّفسير الأوّل أكثر صحّة.

و على أى حال فإنّ مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحدّث معهم بالاعتماد على الوحى الإلهى، لأنّ أقوى الأدلة هو ما يصدر عن الوحى دون غيره: وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً.

الآية التى بعدها تعطى توجيها عاما لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فاعِلٌ ذلِكَ غَداً.

إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ يعنى يجب أن تقول (إن شـاء اللّه) لكـل ما يخص أخبار المسـتقبل و أحـداثه و لكل تصـميم تتخـذه، لأنّك أوّلا غير مستقل فى اتّخاذ القرارات، و إذا لم يشأ اللّه فإنّ كائنا من كان لا يستطيع القيام بأىّ عمل، لذا و لأجل أن تثبت أنّ قوّتك قبس من قوّة اللّه الأزلية، و أنّها مرتبطة بقدرته، أضف عبارة (إن شاء اللّه) إلى كلامك.

ثانيا: لا يصـح للإنسان- من الوجهـة المنطقيـة- أن يقطع فى أخباره المسـتقبلية و مواقفه و تصـميماته، لأنّ قـدرته محـدودة مع احتمال ظهور الموانع المختلفة، لذلك الأفضل له ذكر جملة (إن شاء اللّه) مع كل تصميم لفعل شىء.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون مراد الآية هو أن تنفى استقلال الإنسان فى إنجاز الأعمال، حيث يصبح مفهوم الآية: إنّك لا تستطيع أن تقول: إنّك ستقوم بالعمل الفلانى غدا إلّا أن يشاء اللّه ذلك.

بالطبع فإنّ لازم هذا القول أن الكلام سيكون تاما مع اضافة (ان شاء اللّه)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۹

و لكن هذا اللزوم سيكون للجملة لا للمتن كما هو الحال فى التّفسير الأوّل ۱۳۷].

سبب النّزول الـذى أوردناه فى بدايـة الآيات يؤيـد التّفسير الأوّل، حيث أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قد وعد بالإجابة على أسـئلة قريش حول أصـحاب الكهف و غيرها بـدون ذكر جملـة (إن شاء اللّه) لـذلك تأخّر عنه الوحى فترة، لكى يكون ذلك تحذيرا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يكون عبرة لجميع الناس.

و بعـد ذلـك يقول القرآن: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ و هـذه إشـارة إلى أنّ الإنسـان إذا نسـى قول (إن شاء اللّه) و هو يتحـدّث عن أمر مستقبلى، فعليه أن يقولها فور تذكره، حيث يعوّض بذلك عمّا مضى منه.

و بعد ذلک جاء قوله تعالی: وَ قُلْ عَسی أَنْ یَهْدِیَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً.

بحوث

۱- قوله تعالی: رَجْماً بِالْغَیْبِ

کلمهٔ (رجم) تعنی فی الأصل الحجارهٔ أو رمی الحجارهٔ، ثمّ أطلقت بعد ذلک علی أی نوع من أنواع الرمی. و تستخدم فی بعض الأحیان کنایهٔ عن (الاتهام) أو (الحکم استنادا إلی الظن و الحدس). و کلمهٔ (بالغیب) تأکیدا لهذا المعنی، یعنی لا تحکم بدون الاستناد علی مصدر أو علم.

۲- الواو فی قوله: وَ ثامِنُهُمْ کَلْبُهُمْ

فی الآیات أعلاه وردت جملهٔ رابِعُهُمْ کَلْبُهُمْ و سادِسُهُمْ کَلْبُهُمْ بدون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۰

(واو) فی حین أنّ جملهٔ وَ ثامِنُهُمْ کَلْبُهُمْ بدأت بالواو. و لأنّ جمیع تعابیر القرآن تنطوی علی ملاحظات و مغاز، لذلک نری أنّ المفسّرین بحثوا کثیرا فی معنی هذه الواو.

و لعل أفضل تفسیر لها هو ما قیل من أنّ هذه (الواو) تشیر إلی آخر الکلام و آخر الحدیث، کما هو شائع استخدامه فی أسلوب التعبیر الحدیث، إذ توضع الواو لآخر شیء من مجموعهٔ الأشیاء التی تذکر مثلا نقول (جاء زید، عمر، حسن، و محمّد) فهذه الواو إشارهٔ إلی آخر الکلام و تبیّن الموضوع و المصداق الأخیر.

هذا الکلام منقول عن المفسّر المعروف (ابن عبّاس)، و قد أیده بعض المفسّرین، و استفادوا من هذه (الواو) لتأیید القول فی أنّ عدد أصحاب الکهف الحقیقی هو سبعهٔ، حیث أنّ القرآن بعد ذکر الأقوال الباطلهٔ، أبان فی الأخیر العدد الحقیقی لهم.

البعض الآخر من المفسّرین کالقرطبی و الفخر الرازی ذکروا رأیا آخر فی تفسیر هذه (الواو) و خلاصته: «إنّ العدد سبعهٔ عند العرب عدد کامل، و لذلک فإنّهم یعدّون حتی السبعهٔ بدون واو. أمّا بمجرّد أن یتجاوزوا هذا العدد فإنّهم یأتون بالواو التی هی دلیل علی بدایهٔ الکلام و الاستئناف. لذلک تعرف (الواو) هذه عند الأدباء العرب بأنّها (واو الثمانیهٔ)».

و فی الآیات القرآنیهٔ غالبا ما یواجهنا هذا الموضوع، فمثلا الآیهٔ (۱۱۲) من سورهٔ التوبهٔ عند ما تعدّد صفات المجاهدین فی سبیل اللّه تذکر سبع صفات بدون واو و عند ما تذکر الصفهٔ الثامنهٔ فإنّها تذکرها مع الواو فتقول: وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ

و فی الآیهٔ (۵) من سورهٔ التحریم، تذکر الآیهٔ فی وصف نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سبع صفات ثمّ تذکر الثّامنهٔ مع الواو حیث تقول: ثَیِّباتٍ وَ أَبْکاراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۱

و فی الآیهٔ (۷۱) من سورهٔ الزمر التی تتحدّث عن أبواب جهنّم تقول:

فُتِحَتْ أَبْوابُها إلّا أنّها و بعد آیتین و عند الحدیث عن أبواب الجنهٔ تقول الآیهٔ:

وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها. ألیس ذلک بسبب أنّ أبواب النار سبعهٔ، و أبواب الجنّهٔ ثمانیهٔ؟

طبعا قد لا یکون هذا تعبیرا عن قانون کلّی، و لکنّه- فی الأغلب- یعبّر عن ذلک. فی کل الأحوال یظهر من ذلک أنّ حرف (الواو) و

هو مجرّد حرف، له حساب خاص فى الاستعمال و يظهر حقيقة معينة.

۳- المسجد إلى جوار المقبرة

ظاهر تعبير القرآن أنّ أصحاب الكهف ماتوا أخيرا و دفنوا، و كلمة «عليهم» تؤيّد هذا القول. بعد ذلك قرّر محبّوهم بناء مسجد بجوار مقبرتهم، و قد ذكر القرآن هذا الموضوع فى الآيات أعلاه بلهجة تنم عن الموافقة، و هذا الأمر يدل على أنّ بناء المساجد لاحترام قبور عظماء الدين ليس أمرا محرما- كما يظن ذلك الوهابيون- بل هو عمل حلال و محبّذ و مطلوب.

و عادة فإنّ بناء الأضرحة التى تخلّد الأشخاص الكبار أمر شائع بين أمم العالم و شعوبه، و يبيّن جانب الاحترام لمثل هؤلاء الأشخاص، و تشجيع لمن يأتى بعدهم، و الإسلام لم ينه عن هذا العمل، بل أجازه و أقرّه.

إنّ وجود مثل هذه الأبنية سند تأريخى للتدليل على وجود هذه الشخصيات و الرموز و على منهجها و مواقفها، و لهذا السبب فإنّ الأنبياء و الشخصيات الذين هجرت قبورهم فإنّ تأريخهم أمسى موضعا للشك و الاستفهام.

و يتّضح من ذلك أيضا أن ليس هناك تضاد بين بناء المساجد و الأصرخة و بين قضية التوحيد و اختصاص العبادة باللّه تعالى، بل هما موضوعان مختلفان.

بالطبع هناك بحوث كثيرة حول هذا الموضوع فليراجع إلى مظانها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۲

۴- كل شيء يعتمد على مشيئته تعالى

إنّ ذكر جملة (إن شاء اللّه) عند اتّخاذ القرارات المرتبطة بالمستقبل ليس نوعا من الأدب فى محضر الخالق جلّ و علا و حسب، بل هو بيان لحقيقة أنّنا لا نملك شيئا من عندنا، بل هو من عنده تعالى، و كلنا نعتمد و نستند إليه لأنّه هو المستقل بالذات فقط، فلو تحركت كل السكاكين و الشفرات فى العالم لتقطع عرقا واحدا فإنّها لا تستطيع من دون إذنه تعالى.

إنّ هذه الحقيقة هى نفسها (توحيد الأفعال) ففى الوقت الذى يملك الإنسان حريته و إرادته، فإنّ تحقق أى شىء و أى عمل إنّما يرتبط بمشيئة الخالق جلّ و علا.

إنّ تعبير (إن شاء اللّه) يزيد من توجهنا نحو اللّه تبارك و تعالى، و يمنحنا القوّة و القدرة على الإنجاز، و هو مدعاة إلى تزكية و طهارة و صحة الأعمال أيضا.

و نستفيد من بعض الرّوايات أنّ الإنسان إذا ذكر كلاما عن المستقبل بدون ذكر (إن شاء اللّه) فإنّ اللّه سوف يكله إلى نفسه و يخرجه من مظلة حمايته ۱۳۸].

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ أنّه عليه السّلام أمر يوما بكتابة رسالة، و عند ما جاؤوا بالرسالة إليه وجدها خالية من كلمة (إن شاء اللّه) فقال عليه السّلام: «كيف رجوتم أن يتمّ هذا و ليس فيه استثناء، انظروا كل موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه».

۵- الإجابة على سؤال

قرأنا فی الآیات- محل البحث- أنّ اللّه یخاطب رسوله بقوله: وَ اذْکُرْ رَبَّکَ إِذا نَسِیتَ ۱۳۹] و هی إشارة إلی أنک عند ما تنسی ذکر (إن شاء اللّه) و تتذکر بعد ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۳

فعلیک باستدراک الأمر بذکر (إن شاء اللّه).

و فی الأحادیث العدیدة الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام- فی تفسیر الآیة- هناک تأکید علی هذا الموضوع حتی بعد مرور سنة إذا تذکرت فعلیک أن تقول (إن شاء اللّه) عوضا عمّا فاتک و عمّا نسیته ۱۴۰].

و الآن قد یطرح هذا السؤال و هو: إذا جاز نسبة النسیان إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حین أنّ الناس یعتمدون علی أقواله و أعماله، فکیف یستقیم ذلک مع دلیل عصمة الأنبیاء و الرسل و الأئمّة من الخطأ و النسیان؟

و لکن ینبغی الالتفات الی أنّ الکثیر من الآیات القرآنیة یکون الحدیث فیها موجها إلی الرسل فی حین أنّ المعنیّ بها عامّة الناس، و هی کما یقول المثل العربی، «إیاک أعنی و اسمعی یا جارة».

بعض المفکرین الکبار ذکروا جوابا علی هذا السؤال أوردناه فی نهایة الحدیث عن الآیة (۶۸) من سورة الأنعام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۴

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۲۵ الی ۲۷]

اشارة

وَ لَبِثُوا فِی کَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِینَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً (۲۵) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَیْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا یُشْرِکُ فِی حُکْمِهِ أَحَداً (۲۶) وَ اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ کِتابِ رَبِّکَ لا مُبَدِّلَ لِکَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۷)

التّفسیر

نوم أصحاب الکهف:

من القرائن الموجودة فی الآیات السابقة نفهم إجمالا أنّ نوم أصحاب الکهف کان طویلا جدّا. هذا الموضوع یثیر غریزة الاستطلاع عند کل مستمع، إذ یرید أن یعرف کم سنة بالضبط استمرّ نومهم؟

فی المقطع الأخیر من مجموعة الآیات التی تتحدث عن أصحاب الکهف، تبعد الآیات الشک عن المستمع و تقول له:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۵

وَ لَبِثُوا فِی کَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِینَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً[۱۴۱].

و وفقا للآیة فإنّ مجموع نومهم و بقائهم فی الکهف هو (۳۰۹) سنة. و البعض یری أن ذکر ثلاثمائة و تسعة مفصولة بدلا عن ذکرها فی جملة واحدة، یعود إلی الفرق بین السنین الشمسیة و السنین القمریة حیث أنّهم ناموا (۳۰۰) سنة شمسیة، و بالقمری تعادل (۳۰۹).

و هذا من لطائف التعبیر حیث أوجز القرآن بعبارة واحدة صغیرة، حقیقة کبیرة تحتاج إلی شرح واسع ۱۴۲].

و من أجل وضع حد لأقاویل الناس حول مکثهم فی الکهف تؤکّد الآیة: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لماذا؟ لأن: لَهُ غَیْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و الذی یعرف خفایا و ظواهر عالم الوجود و یحیط بها جمیعا، کیف لا یعرف مدّة بقاء أصحاب الکهف: أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ ۱۴۳] و

لهذا السبب فإنّ سكان السماوات و الأرض: ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍ

أمّا من هو المقصود بالضمير (هم) فى (مالهم) فقد ذكر المفسّرون أقوالا كثيرة، إذا يعتقد البعض أنّها اشارة إلى سكان السماوات و الأرض، أمّا البعض الآخر فيعتقد أن الضمير إشارة إلى أصحاب الكهف، بمعنى أنّ أصحاب الكهف لا يملكون وليا من دون اللّه، فهو الذى تولاهم فى حادثة الكهف، و قام بحمايتهم.

و لكن بالنظر إلى الجملة التى قبلها، يكون التّفسير الأوّل أقرب.

و فى نهاية الآية يأتى قوله تعالى: وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً. هذا الكلام هو فى الحقيقة تأكيد على الولاية المطلقة للخالق جلّ و علا، إذ ليس هناك قدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۶

أخرى لها حق الولاية المطلقة على العالمين، و لا يوجد شريك له تعالى فى ولايته، يعنى ليس ثمّة قدرة أخرى غير اللّه لها حق الولاية فى العالم، لا بالاستقلال و لا بالاشتراك.

و فى آخر آية يتوجّه الخطاب إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يقول اللّه له: وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ أى لا تعر أية أهمية إلى أقوال الآخرين المخلوطة بالكذب و الخرافة و الوضع، يجب أن يكون اعتمادك فى هذه الأمور على الوحى الإلهى فقط. لأنّه لا يوجد شيء يستطيع أن يغيّر كلامه تعالى: لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ

فكلام اللّه تعالى و علمه ليس من سنخ علم الإنسان الذى يخضع يوميا للتغيّر و التبديل بسبب الاكتشافات الجديدة و المعرفة الحديثة. لذلك لا يمكن الاعتماد عليها و الركون إليها مائة فى المائة، و لهذه الأسباب: وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً.

«ملتحد» مشتقّة من «لحد» على وزن «مهد» و هى الحفرة التى يميل وسطها إلى أحد الأطراف (كاللحد الذى يحفر لقبر الإنسان).

و لهذا السبب يقال للمكان الذى يميل إليه الإنسان (ملتحد)، ثمّ استخدمت بعد ذلك بمعنى «ملجأ».

و من المهم أن نلاحظ أنّ الآيتين الأخيرتين بينتا إحاطة علم الخالق جلّ و علا بجميع كائنات الوجود، و ذلك من خلال عدّة طرق.

* فى البداية تبيّن الآيات: أنّ غيب السماوات و الأرض من عنده، و لهذا فهو تعالى محيط بها جميعا.

* ثمّ تضيف: إنّه سميع و بصير لأقصى حد و لأبلغ غاية.

* مرّة أخرى تقول: إنّه الولى المطلق، و إنّه أعلم الجميع.

* ثمّ تضيف مرّة أخرى: لا يشاركه أحد فى حكمه حتى يتحدّد علمه أو معرفته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۷

* ثمّ تقول: لا يتغيّر و لا يتبدّل علمه و كلامه.

* و فى آخر جملة تقول الآية: أنّه تعالى هو الملجأ الوحيد فى الوجود لا سواه نعلمه محيط بكلّ اللاجئين إليه سبحانه و تعالى.

بحوث

۱- قصّة أصحاب الكهف فى الرّوايات الإسلامية

هناك روايات كثيرة فى المصادر الإسلامية حول أهل الكهف، و لكن بعضها لا يعتمد عليها لضعف فى سندها، و البعض الآخر تتضاد و تختلف فيما بينها.

و من الرّوايات المختلفة اخترنا رواية على بن إبراهيم القمى التى ينقلها فى تفسيره، و قد لاحظنا فى هذه الرّواية أنّها الأفضل من حيث

المتن و المضمون الذی یتناسق مع الآیات القرآنیة.

فی روایة علی بن إبراهیم عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إنّ أصحاب الکهف و الرقیم کانوا فی زمن ملک جبّار عات، و کان یدعو أهل مملکته إلی عبادة الأصنام فمن لم یجبه قتله، و کانوا هؤلاء قوما مؤمنین یعبدون اللّه عزّ و جلّ، و وکل الملک بباب المدینة و کلاء و لم یدع أحدا یخرج حتی یسجد للأصنام، فخرج هؤلاء بعلة الصید، و ذلک أنّهم مرّوا براع فی طریقهم فدعوه إلی أمرهم فلم یجبهم و کان مع الراعی کلب، فأجابهم الکلب و خرج معهم، فقال الصادق علیه السّلام: لا یدخل الجنة من البهائم إلا ثلاثة حمار بلعم بن باعور، و ذئب یوسف علیه السّلام و کلب أصحاب الکهف.

فخرج أصحاب الکهف من المدینة بعلّة الصید هربا من دین ذلک الملک، فلمّا أمسوا دخلوا إلی ذلک الکهف، و الکلب معهم فألقی اللّه عزّ و جلّ علیهم النعاس، کما قال اللّه تبارک و تعالی: فَضَرَبْنا عَلَی آذانِهِمْ فِی الْکَهْفِ سِنِینَ عَدَداً فناموا حتی أهلک اللّه عزّ و جلّ الملک و أهل مملکته و ذهب ذلک الزمان، و جاء زمان آخر و قوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۸

آخرون ثمّ انتبهوا، فقال بعضهم لبعض: کما نماها هنا فنظروا إلی الشمس قد ارتفعت فقالوا: نمنا یوما أو بعض یوم. ثمّ قالوا لواحد منهم: خذ هذه الورق و ادخل فی المدینة متنکرا لا- یعرفوک فاشتر لنا، فإنّهم إن علموا بنا و عرفونا قتلونا أو ردّونا فی دینهم، فجاء ذلک الرجل فرأی المدینة بخلاف الذی عهدها، و رأی قوما بخلاف أولئک لم یعرفهم و لم یعرفوا لغتهم، و لم یعرف لغتهم، فقالوا له: من أنت و من أین جئت، فأخبرهم فخرج ملک تلک المدینة مع أصحابه، و الرجل معهم حتی وقفوا علی باب الکهف، فأقبلوا یتطلعون فیه فقال بعضهم: هؤلاء ثلاثة و رابعهم کلبهم، و قال بعضهم: هم خمسة و سادسهم کلبهم، و قال بعضهم: هم خمسة و سادسهم کلبهم، و قال بعضهم: هم سبعة و ثامنهم کلبهم، و حجبهم اللّه عزّ و جلّ بحجاب من الرعب فلم یکن أحد یقدم بالدخول علیهم غیر صاحبهم فإنّه لمّا دخل علیهم وجدهم خائفین أن یکون أصحاب [الملک «دقیانوس» شعروا بهم، فأخبرهم صاحبهم أنّهم کانوا نائمین هذا الزمن الطویل، و أنّهم آیة للناس، فبکوا و سألوا اللّه تعالی أن یعیدهم إلی مضاجعهم نائمین کما کانوا، ثمّ قال الملک: «ینبغی أن یبنی هنا مسجد و نزوره، فإنّ هؤلاء قوم مؤمنون».

و هنا أضاف الإمام علیه السّلام: فلهم فی کل سنة نقلة، نقلتان، ینامون ستة أشهر علی جنبهم الأیمن، و ستة أشهر علی جنبهم الأیسر، و الکلب معهم قد بسط ذراعیه بفناء الکهف»[۱۴۴].

و

فی روایة أخری عن الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام ورد حدیث مفصّل عن قصّة أصحاب الکهف مفاده ما یلی: لقد کان هؤلاء فی الأصل ستة نفر اتّخذهم (دیقیانوس) وزراءه، فأقام ثلاثة عن یمینه و ثلاثة عن یساره، و اتّخذ لهم عیدا فی کل سنة مرّة، فبینا هم ذات یوم فی عید و البطارقة عن یمینه و الهراقلة عن یساره، إذ أتاه بطریق فأخبره أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۹

عساکر الفرس قد غشیته، فاغتمّ لذلک حتی سقط التاج عن رأسه، فنظر إلیه أحد الثلاثة الذین کانوا عن یمینه و یقال له (تلمیخا) فقال فی نفسه: لو کان (دیقیانوس) إلها کما یزعم إذا ما کان یغتم و ما کان یبول و لا یتغوّط، و ما کان ینام، و لیس هذا من فعل الإله.

و قد کان هؤلاء الوزراء الستة یجتمعون کل یوم عند أحدهم، و کانوا ذلک الیوم عند (تلمیخا) فاتّخذ لهم من طیّب الطعام ثمّ قال لهم: یا إخوتاه، قد وقع فی قلبی شیء منعنی الطعام و الشراب و المنام. قالوا: و ما ذاک یا تلمیخا؟ قال: أطلت فکری فی هذه السماء فقلت من رفع سقفها محفوظة بلا عمد و لا علاقة من فوقها، و من أجری فیها شمسا و قمرا، آیتین مبصرتین، و من زیّنها بالنجوم! ثمّ أطلت الفکر فی الأرض فقلت: من سطحها علی صمیم الماء الزخّار، و من حبسها بالجبال أن تمید علی کل شیء؟ و أطلت فکری فی

نفسی من أخرجنی جنینا من بطن أمی و من غذّانی و من ربّانی؟ إنّ لها صانعا و مدبرا غیر (دیقیانوس الملک)، و ما هو إلّا ملک الملوک و جبّار السماوات.

فانکب الفتیة (الوزراء) علی رجلیه یقبلونها و قالوا: بک هدانا اللّه تعالی من الضلالة إلی الهدی فأشر علینا. وهنا وثب (تملیخا) فباع تمرا من حائط له بثلاثة آلاف درهم و صرّها فی ردائه و رکبوا خیولهم و خرجوا من المدینة، فلما ساروا ثلاثة أمیال قال لهم تملیخا: یا إخوتاه جاءت مسکنة الآخرة و ذهب ملک الدنیا، انزلوا عن خیولکم و امشوا علی أرجلکم لعلّ اللّه أن یجعل لکم من أمرکم فرجا و مخرجا، فنزلوا عن خیولهم و مشوا علی أرجلهم سبعة فراسخ فی ذلک الیوم، فجعلت أرجلهم تقطر دما.

و هنا استقبلهم راع، فقالوا: یا أیّها الراعی هل من شربة لبن أو ماء؟ فقال الراعی: عندی ما تحبّون، و لکن أری وجوهکم وجوه الملوک، و ما أظنّکم إلّا هرّابا من «دیقیانوس» الملک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۰

قالوا: یا أیّها الراعی لا یحلّ لنا الکذب أ فینجینا منک الصدق؟ فأخبروه بقصّتهم، فانکب الراعی علی أرجلهم یقبلها و یقول: یا قوم لقد وقع فی قلبی ما وقع فی قلوبکم، و لکن أمهلونی حتی أردّ الأغنام علی أربابها و ألحق بکم، فتوقفوا له، فردّ الأغنام، و أقبل یسعی یتبعه الکلب ... فنظر الفتیة (الوزراء) إلی الکب و قال بعضهم: إنّا نخاف أن یفضحنا بنباحه، فألحّوا علیه بالحجارة، فأنطق اللّه تعالی جلّ ذکره، الکلب [قائلا]: ذرونی حتی أحرسکم من عدوّکم.

فلم یزل الراعی یسیر بهم حتی علا بهم جبلا، فانحطّ بهم علی کهف یقال له (الوصید) فإذا بفناء الکهف عیون أشجار مثمرة فأکلوا من الثمر، و شربوا من الماء، و جنّهم اللیل، فآووا إلی الکهف و ربض الکلب علی باب الکهف و مدّ یدیه علیه، فأوحی اللّه تعالی إلی ملک الموت بقبض أرواحهم. (فأنامهم اللّه نوما طویلا و عمیقا)[۱۴۵].

و فیما یخص دیقیانوس قال بعض المفسّرین: إنّه کان امبراطور الروم و حکم منذ عام ۲۴۹- ۲۵۱ میلادی، و قد کان عدوا شدیدا للمسیحیین، و کان یؤذیهم و یعذبهم، و ذلک قبل اعتناق ملک الروم لدین المسیحیة.

۲- أین کان الکهف؟

للمفسّرین و العلماء کلام کثیر حول أصحاب الکهف، أین کانت منطقتهم؟

و أین یقع الکهف الذی مکثوا فیه؟

و هنا ینبغی أن نلاحظ أنّه بالرغم من أنّ العثور علی المکان الدقیق لهذه الحادثة لا یؤثّر کثیرا علی أصل القصّة و دروسها التربویة و أهمیتها التأریخیة، و بالرغم من أنّ هذه القصّة لیست الوحیدة التی نعرف أصلها و لا نعرف بعض جزئیاتها و تفصیلاتها، إلّا أنّ معرفة محل الحادث یساعدنا حتما فی فهم أکثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۱

لخصوصیات هذه القصّة.

علی أیة حال هناک قولان راجحان من بین الاحتمالات الکثیرة المطروحة عن مکان الکهف، یمکن أن نجملهما بما یلی:

أوّلا: إنّ هذه الحادثة وقعت فی مدینة (أفسوس) و هذا الکهف کان یقع بالقرب منها.

و یمکن فی الوقت الحاضر مشاهدة خرائب هذه المدینة بالقرب من مدینة (أزمیر) الترکیة، و بالقرب من قریة (أیاصولوک) فی جبال (ینایرداغ) حیث یوجد کهف لا یبتعد کثیرا عن (أفسوس).

إنّ هذا الکهف هو غار وسیع، و یقال بأنّه یمکن فی داخله مشاهدة آثار مئات القبور، و یعتقد الکثیرون بأنّ هذا الغار هو غار أصحاب

الکهف.

و قد نقل من شاهد الکهف أنّ فتحة الغار باتجاه الشمال الشرقی، و قد کان هذا الموقع سببا فی ترجیح شک بعض المفسّرین الکبار بکون هذا المکان هو غیر غار أصحاب الکهف، فی حین أنّ هذا الوضع یؤید صحة الموضوع و یرجح کون الغار هو الکهف المقصود لأنّ دلالة أن تکون الشمس عند الشروق علی یمین الغار، و عند الغروب علی یساره، هو أن تکون فتحة الغار باتجاه الشمال أو تمیل قلیلا نحو الشمال الشرقی.

بالطبع لا یقلّل من صحة الموضوع عدم وجود مسجد أو معبد إلی جانبه، حیث یمکن أن تکون آثاره قد اندثرت بعد مرور حوالی (۱۷) قرن علی الحادث.

ثانیا: یقع الغار بالقرب من (عمّان) عاصمة الأردن، و بالقرب من قریة تسمّی «رجیب».

و یمکن مشاهدة آثار صومعة فوق الغار تعود- وفقا لبعض القرائن- إلی القرن الخامس المیلادی، حیث تحوّلت إلی مسجد ذی محراب و مئذنة بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۲

سیطرة المسلمین علی ذلک المکان.

۳- الجوانب التربویة لقصّة أهل الکهف

هذه القصّة التأریخیة العجیبة التی یذکرها القرآن خالیة من أی خرافة أو وضع، و فیها العدید من الدروس التربویة البنّاءة، تماما کما فی قصص القرآن الأخری، و إذا کنّا قد أشرنا إلی هذه الدروس ضمن تفسیر الآیات، فإنّنا نری من الضروری الآن أن نشیر إلیها بشکل مجمل حتی نقترب أکثر من الهدف الأساس للقرآن، و فیما یلی أبرز هذه الدروس:

أ: إنّ أول دروس هذه القصّة هو تحطیم حاجز التقلید، و الابتعاد عن التلوّن بلون المجتمع الفاسد. فهؤلاء الفتیة حافظوا- کما لا حظنا- علی استقلالهم الفکری فی قبال الأکثریة المنحرفة المحیطة بهم، و هذا الأمر أصبح سببا فی نجاتهم و تحرّرهم.

و ینبغی للإنسان أن یکون له تأثیر بناء علی مجتمعه لا أن یکون مسایرا له.

ب: الهجرة من الأوساط المنحرفة درس آخر فی هذه القصّة ذات العبر، فهم قد ترکوا بیوتهم و حیاتهم المرفّهة الملیئة بألوان النعم المادیة، و ترکوا مناصبهم، و رضوا بأنواع الصعوبات و أشکال الحرمان- فی الغار الذی کان یفتقد کل شیء- لکی یحفظوا إیمانهم، و لا یکونوا من عوامل و أعوان جهاز الظلم و الجور و الکفر و الشرک [۱۴۶].

ج: التقیة بمعناها البنّاء درس آخر نستفیده من هذه القصّة، لقد کانوا یصرون علی عدم اطّلاع أهل المدینة علی حالهم و خبرهم، و احتاطوا لیبقی أمرهم و حالهم مخفیا، حتی لا یخسروا أنفسهم بدون سبب، و کی یتجنبوا أن یجبروا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۳

علی الرجوع إلی المحیط المنحرف الذی تخلّصوا منه.

و نحن نعرف أنّ التقیة لیست سوی أن یتکتم الإنسان علی حقیقة أمره فی الأماکن و المواقف التی لا یرتجی منها فائدة فی ذکر الحقیقة، بل تکون سببا للضرر. و التقیة وقایة للنفس و احتفاظ بقوّة الإنسان لوقت جهاد العدو حیث لا تقیة[۱۴۷].

د: عدم وجود تفاوت بین الناس و هم فی طریق اللّه، فالوزیر کان إلی جانب الراعی، بل کان الاثنان إلی جانب الکلب کان یقوم بالحراسة. و هذا درس آخر یتّضح من خلاله أنّ امتیازات الدنیا المادیة، و المناصب المختلفة لیس لها أدنی نصیب أو تأثیر علی تصنیف الناس من أهل الحق و سالکیه، إذ الکل فیه سواء ..

إنّ طريق الحق هو طريق التوحيد، و طريق التوحيد هو طرق وحدة جميع الناس.

ه: الإمدادات الإلهية العجيبة عند ظهور المشاكل، هى نتيجة أخرى يجب الاعتبار بها، فقد رأينا كيف قام الخالق جلّ و علا بإنامة أصحاب الكهف كل تلك المدّة الطويلة، من أجل إنقاذهم من تلك الظروف الاجتماعية الصعبة التى كانت تحيط بهم.

و قد أيقظهم جلّ و علا فى الوقت المناسب، أى فى الوقت الذى أصبحوا رمزا من رموز التوحيد، و قد رأينا- كشكل من أشكال العناية- كيف أنّ اللّه تعالى حفظ أجسادهم خلال هذه المدّة من تأثيرات الأحداث و العوامل المختلفة، و جعل من الرعب و الخوف أسلوبا للحفاظ عليهم فى قبال أعدائهم.

و: لقد تعلّمنا من أصحاب الكهف قيمة (طهارة الطعام) حتى فى أصعب الظروف و أدقّها، لأنّ طعام الإنسان له آثار عميقة فى روحه و فكره و قلبه، و عند ما يختلط الطعام بالحرام و النجاسة، يبتعد الإنسان عن طريق اللّه؛ طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۴

التقوى.

ز: ضرورة الاعتماد على مشيئة اللّه و طلب العون من لطفه تعالى: و قول (إن شاء اللّه) فى كل ما يتعلق بأمور المستقبل .. درس آخر نتعلمه من قصّة أصحاب الكهف.

ح: لقد رأينا أنّ القرآن سمّاهم: ب (الفتية) فى حين أنّهم- طبقا للرّوايات- لم يكونوا شبابا من حيث العمر، و إذا عرفنا أنّهم كانوا فى البداية وزراء الملك الجبار، يتأكد لنا أنّهم لم يكونوا صغارا من حيث العمر. و لكن تسمية القرآن لهم ب (الفتية) للدلالة على صفات الشهامة و الرشد و الطهر و الفتوة العفو و التسامح.

ط: ضرورة النقاش المنطقى مع المعارضين درس آخر نستفيده من قصّة أصحاب الكهف، حيث إنّهم عند ما أرادوا دحض الشرك الذى عليه مجتمعهم، ذكروا أدلة منطقية قرأنا نماذج لها فى الآيات (۱۵- ۱۶) من هذه السورة.

إنّ أساس عمل جميع الأنبياء و القادة الإلهيين مع أعدائهم و معارضين يستند- فى العادة- إلى قاعدة الحوار المنطقى و النقاش الحر. أمّا استخدام القوة لأجل القضاء على الفتنة فهو أمر يلجأ إليه عند ما تفشل الحجة فى أداء وظيفتها، أو عند ما يقوم الخصم بعرقلة النقاش المنطقى.

ى: و أخيرا، فإنّ إمكانية المعاد الجسمانى و عودة الناس إلى الحياة مرّة أخرى عند البعث، يعتبر عاشر و آخر درس نستفيده من هذه القصّة، و سنقرأ عنه تفصيلا فى بحوث قادمة إن شاء اللّه تعالى.

إنّنا لا نستطيع القول بأنّ الدروس التربوية فى قصّة أصحاب الكهف تقتصر على ما ذكرناه، و لكنّا نعتقد أنّه حتى لو كان هناك درس واحد نستفيده من هذه القصة لكفانا ذلك، فكيف بنا و أمامنا هذه الدروس الكثيرة؟! على أية حال، إنّ هدف القرآن ليس قص القصص لغرض التسلية، بل بناء الناس المقاومين المؤمنين الشجعان الواعين، و أحد الطرق لذلك هو ذكر نماذج أصيلة مما حدث طوال التأريخ البشرى الملىء بالحوادث و المواقف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۵

۴- هل أنّ قصّة أصحاب الكهف علمية؟

من المسلّم به أنّ قصّة أصحاب الكهف لم تكن مذكورة فى أى من الكتب السماوية السابقة (سواء الكتب الأصلية أو المحرّفة الموجودة الآن) و يجب أن لا تذكر، لأنّ الحادثة- طبقا للتأريخ العام- كانت قد وقعت فى القرون التى تلت ظهور المسيح عيسى عليه السّلام.

إنّ حادثة أصحاب الكهف وقعت فی زمان «دكيوس» (التی تعرّب بديقيانوس) حيث تعرّض المسيحيون فی عصره إلى تعذيب شديد. و يقول المؤرخون الأوربيون: إنّ هذه الحادثة وقعت فی الفترة من ۴۹- ۲۵۱ ميلادی، و بذلك يرى هؤلاء المؤرخون أنّ مدّة نوم أصحاب الكهف لم تستغرق سوى (۱۵۷) سنة، و يطلقون عليهم لقب (النائمون السبعة لأفسوس) فی حين أنّهم يعرفون بيننا بأصحاب الكهف ۱۴۸].

و الآن لنتعرف أين تقع (أفسوس) هذه؟ و من أوّل عالم كتب كتابا عن قصّة هؤلاء السبعة النائمين؟ و فی أی قرن حصل ذلك؟

(أفسوس) أو (أفسس) بضم الألف و السين، هی واحدة من مدن آسيا الصغرى (تركيا الحالية التی هی جزء من مملكة الروم الشرقية القديمة) و تقع بالقرب من نهر (كاستر) و على بعد (۴۰) ميلا تقريبا جنوب شرقی (أزمير) حيث كانت عاصمة الملك (الونی).

و قد اشتهرت (أفسوس) بسبب معبدها الوثنی المعروف ب «أرطاميس» الذی يعتبر أحد عجائب الدنيا السبع ۱۴۹].

و يقولون: إنّ قصة أصحاب الكهف شرحت لأول مرّة فی رسالة باللغة السريانية كتبها عالم مسيحی يسمى (جاك) الذی كان رئيسا للكنيسة السورية،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۶

و ذلك فی القرن الخامس الميلادی، ثمّ شخص آخر يسمّى «جوجويوس» بترجمة تلك الرسالة إلى اللاتينية و سمّها ب «جلال الشهداء»[۱۵۰]. و هذا الأمر يبيّن أنّ الحادثة كانت معروفة بين المسيحيين قبل قرن أو قرنين من ظهور الإسلام، و كانت الكنائس تهتم بها.

بالطبع بعض أحداث هذه القصّة- مثل مدّة نوم أصحاب الكهف- تختلف عمّا ورد فی المصادر الإسلامية، فالقرآن يقول- و بصراحة- بأنّ نومهم كان (۳۰۹) سنة.

من جانب ثان و طبقا لما ينقله ياقوت الحموی فی معجم البلدان (المجلد الثّانی ص ۸۰۶) و طبقا لما ينقله «ابن خردادبه» فی كتاب «المسالك و الممالك» (صفحة ۱۰۶- ۱۱۰) و طبقا- أيضا- لما يقوله ابو ريحان البيرونی فی الصفحة (۲۹۰) من كتاب «الآثار الباقية»: إنّ مجموعة من السوّاح القدماء قد وجدوا غارا فی مدينة (آبس) فيه بعض الأجساد المتيبسة، و قد احتملوا أن هذه الآثار تتعلق بقصّة أصحاب الكهف.

من سياق الآيات القرآنية فی سورة الكهف، و أسباب النّزول المذكورة فی المصادر الإسلامية، نستفيد أنّ الحادثة كانت أيضا معروفة بين علماء اليهود، و أنّها كانت عندهم حادثة تأريخية مشهورة. و بذلك يتّضح- بدقة- أنّ قصّة النوم الطويل لأصحاب الكهف وردت فی المصادر التأريخية للأقوام المختلفة[۱۵۱].

و هنا قد يشكك البعض فی طول المدة التی قضاها أصحاب الكهف فی نومهم، و يعتبر أنّ ذلك لا ينطق مع المعايير العلمية، لذلك يضعها فی قسم الأساطير و القصص الخرافية (!!) و الذرائع التی يستند إليها هؤلاء هی:

أوّلا: إنّ هذا العمر الطويل أمر غير مألوف فی حياة الأشخاص العاديين

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۷

المستيقظين، فكيف يصح تصوره لناس نيام؟! ثانيا: إذا اقتنعنا بهذا العمر الطويل بالنسبة للأشخاص العاديين الذين يمارسون الحياة بشكل طبيعی، فإنّ ذلك غير ممكن بالنسبة للنائمين، لأنّ هناك مشكلة الطعام و الشراب، إذ كيف يمكن للإنسان أن يبقى طيلة هذه المدّة بدون طعام أو شراب، و إذا افترضنا مثلاـ أنّ الإنسان يحتاج يوميا إلى كيلو غرام واحد من الطعام أو لتر واحد من الماء، فإنّ أصحاب الكهف كانوا بحاجة، أثناء نومهم، إلى (۱۰۰) طن من الطعام و (۱۰۰۰۰۰) لتر من الماء، و من الطبيعی أنّ الجسم لا يستطيع خزن كل هذه الأحجام و الكميات من الماء و الطعام.

ثالثا: إذا تجاوزنا كل الأمور السابقة، فسوف تكون أمامنا مشكلة جديدة، و هی أن جسم الإنسان لا يستطيع أن يبقى كل هذه الفترة

الطويلة من دون أن تتأثّر أجهزته و تتضرّر بأضرار فادحة.

إنّ هـذه الأمور قـد تبـدو للوهلـة الأولى مانعا من التصـديق بقصّة أصـحاب الكهف، فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، إذ يمكن مناقشـة الأمور السابقة وفقا لما يلى:

أوّلا: لا تعتبر قضـية العمر الطويل قضـية غير علميـة، حيث أنّنا نعلم أنّ طول عمر أى كائن حى ليس لها من الوجهة العلمية ميزان ثابت من حيث المدّة و العمر، بحيث يكون موت الكائن عند هذا الحد المفترض أمرا حتميا.

بعبـارة أخرى: صـحيح أنّ الطاقـة الجسـمية للإنسـان مهمّا بلغت فهى محـدودة و لا بـدّ أن تنتهى، إلّا أنّ هـذا الكلام لا يعنى أنّ جسـم الإنسان- أو أى كائن حى آخر- ليست له قابلية البقاء أكثر من المقدار المألوف و المتعارف عليه.

أى إن المسألـة ليست كالقوانين الطبيعيـة، فمثلا الماء يغلى فى درجة حرارة (۱۰۰) مئوية و يتجمد فى درجة الصـفر المئوى، فكذلك الإنسان إذا وصل إلى عمر المائة سنة أو المائة و خمسين سنة فإنّ قلبه سيتوقف عن العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۸

إنّ المسألـة ليست على هـذه الشاكلـة، بـل إنّ ميزان طول عمر الكائنـات الحيـة يرتبـط ارتباطا كبيرا بوضـعهم المعيشـى، فعنـد ما تتغيّر الظروف بالكامل تكون الموازين قابلة للتغيير هى الأخرى.

و الـدليل على مـا نقول، هو أنّنـا لم نر أحـدا من علمـاء العالم قـد حـدّد ميزانا معينا لعمر الإنسان، و من جانب ثان اسـتطاعوا من خلال تجـارب مختبريـة من زيـادة عمر بعض الكائنـات إلى الضـعفين، أو الثلاثـة فى بعض الأحيـان، و اسـتطاعوا فى أحيان أخرى أن يفعلوا ذلك بنسبة (۱۲) مرّة أو أكثر قياسا للعمر المألوف.

و اليوم فإنّ هؤلاء العلماء يأملون بأن الإنسان يمكنه- فى المسـتقبل و مع ظهور أساليب علميـة جديـدة- أن يعيش عدّة أضـعاف عمره الطبيعى.

هذا فيما يخص أصل قضية طول العمر.

ثانيا: أمّا فيما يخص الطعام و الشـراب أثناء فترة النوم الطويل، فنقول: إنّ نوم أصحاب الكهف لو كان عاديا و طبيعيا فنستطيع عندها أن نقبل بالإشـكالات و الاعتراضات السابقـة. أمّا من الوجهـة العلميـة فإنّ الأصول العلميـة تقول: إنّ حـاجة الجسم إلى الطاقة الغذائيه أثناء النوم أقـل من حـاجته إليهـا اليقظـة، إلّـا أنّ الجسم مع ذلك لا يسـتطيع أن يـدّخر ما يلزمه من طاقـة غذائيـة لنوم طويل كنوم أصـحاب الكهف.

و هنـا ينبغى الالتفـات إلى أنّ هنـاك أنواعا من النوم فى عالم الطبيعـة تكون فيها حاجـة الجسم إلى الغـذاء قليلـة للغايـة، كما فى حالة السبات مثلا.

حالة السبات:

هناك العديد من الأحياء تنام فى فصل الشتاء و يسمّى نومها علميا ب «السبات».

فى هذا النوع من النوم تتوقف فعاليات الحياة تقريبا، و تكون بأضعف حالة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۹

فالقلب يتوقف عن العمل تقريبا، و بعبارة أصح تكون ضرباته قليلة للغاية بحيث لا يمكن الإحساس بها أبدا.

فى هذه الحالات يمكن تشبيه الجسم بالفرن العظيم الذى لا تبقى فيه بعد انطفائه سوى شعلة أو شـمعة صغيرة دائبة الإشتغال. و واضح أنّ الطاقة التى تحتاجها هذه الأفران (من النفط أو غير) للاشتعال الطبيعى يعادل ما تحتاجه الشمعة الصغيرة من طاقة للاشتعال، لعشرات

أو مئات السـنين. (يمكن أن نطبّق المثال على ما نحن فيه فتكون حالـة اشـتعال الفرن الطبيعى فى شبيهـة بحالة اليقظة، أمّا حاله اشـتعال الفرن على الشعلة الصغيرة فقط فهى شبيهة بحالة السبات و النوم الطويل).

من جهـة أخرى يقول العلمـاء عن سـبات بعض الأحياء: إنّنا إذا أخرجنا إحـدى الزواحف و هى فى حالـة سـبات، فسوف نراها و كأنّها ميتة، فلا هواء فى رئتيها، و ضـربات القلب ضعيفة بحيث لا يمكن الإحساس بها. و من بين الحيوانات ذات الدم البارد نستطيع أن نعدّد الفراشات و الحشـرات و الحلزون و الزحافات و كلها تقوم بحاله السبات. كما أنّ بعض الحيوانات ذات الأثدية (ذات الدم الحار) تقوم بالسـبات أيضا. و فى فترة السـبات تكون الفعاليات الحياتية ضعيفة للغاية، و تقوم الحيوانات السابتة باستهلاك المواد الدهنية المخزونة بالجسم بالتدريج»[۱۵۲].

المقصود من كـل هـذا العرض هو أن نقول: إنّ هنـاك نوعـا من النوم تكون الحاجـة فيه إلى الطعام قليلـة جـدّا، و قـد تصل النشاطات الحياتية فى مثل هذه الحالة إلى درجة الصفر.

و بالمناسـبة، نـذكر هنا أنّ هذا الأمر يساعد فى منع تلاشـى أعضاء الجسم أو تضـرّر الأجهزة الجسـمية، و يعين- أيضا- على طول عمر الكائن الحى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۰

إنّ السبات بالنسبة للحيوانات التى لا تستطيع الحصول على غذائها فرصة ثمينة للغاية لكى تديم حياتها عن هذا الطريق.

نموذج آخر: دفن المرتاضين

فيما يخص المرتاضـين يشاهد أنّ بعضـهم يتمّ وضعه بالتابوت و يدفن أحيانا تحت التراب لمدّة أسبوع، و ذلك أمام عيون المشاهدين الحيارى التى لا تكاد تصدّق ما ترى، و بعد أن تنتهى المدّة المقرّرة يتمّ إخراجه و يجرى له التدليك و التنفس الاصـطناعى حتى يعود إلى حالته الطبيعية.

و حتى لو افترضـنا أن حاجة أجسادهم إلى الطعام غير ملحّة، فإنّ الحاجة إلى الأوكسجين حاجة مهمّة للغاية و لا يمكن للجسم التخلّى عنهـا، إذا نعرف هنـا أنّ حساسـية الخلايـا المخيـة للاوكسـجين و حاجتهـا إليه كبيرة للغايـة، بحيث إذا حرمت منها لبضـعة دقائق فإنّها ستتلف.

و الآن يتساءل: كيف يتحمّل الشخص المرتاض قلّة الأوكسجين مثلا لمدّة قد تصل إلى حدود الأسبوع؟

الجواب على هـذا السؤال- و مع مراعـاة مـا ذكرناه قبل قليل- ليس بالأمر الصـعب، ففى هـذه المـدّة تتوقف (تقريبا) الفعاليات الحياتية لجسم المرتاض، لـذا فإنّ حاجة الخلايا للأوكسـجين و اسـتهلاكها لها سـتقل بشدّة، بحيث أنّ الهواء الموجود فى فضاء التابوت يكفى فى هذه المدّة لتغذية الخلايا.

تجميد جسم الإنسان و هو حى:

اليوم ثمّـة نظريـات كثيرة حول تجميـد جسم الأحياء بما فيهم الإنسان (لزيادة العمر) و قـد تمّ تنفيـذ قسم من هـذه النظريات فى الوقت الحاضر.

طبقا لهذه النظريات، فإنّه عند وضع جسم الإنسان أو أى حيوان فى درجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۱

حرارة تحت الصفر- بأسلوب خاص- فإنّ حیاته ستتوقف بدون أن یموت. و بعد مدّة معینة یوضع الکائن فی درجة حراریة معینة حیث یرجع إلی الحالة العادیة.

و قد تمّ اقتراح مجموعة حالات من هذه الحالة للإفادة منها فی الرحلات الفضائیة إلی الکواکب البعیدة التی یستغرق الوصول إلیها مئات أو آلاف السنین، حیث یتمّ تجمید أجسام روّاد الفضاء فی محفظة خاصّة، و بعد سنین طویلة، و عند الاقتراب من الکواکب المعنیة ترجع الحرارة العادیة إلی تلک المحفظة بشکل أوتوماتیکی، و عندها سیعود هؤلاء الروّاد إلی حالتهم العادیة دون أن یحدث أی ضرر لهم.

ذکرت إحدی المجلات العلمیة أنّ کتابا صدر مؤخرا حول تجمید جسم الإنسان بهدف إطالة عمره بقلم «روبرت نیلسون» و کان لهذا الکتاب صدی واسعا فی عالم المعرفة. ففی المقالة التی نشرتها تلک المجلة فی هذا المجال، ذکر الکاتب أنّه تمّ أخیرا إضافة فرع علمی جدید إلی الفروع العلمیة الأخری، یتکفل التخصص فی هذا المجال.

و نقرأ فی تلک المقالة أیضا: «لقد کانت الحیاة الأبدیة- علی طول التأریخ- حلما من الأحلام الذهبیة و القدیمة للإنسان، و فی الوقت الحاضر فقد تحقق هذا الحلم، و السبب یعود إلی التقدّم العجیب لعلم حدیث یسمّی (کریونیک) و هو علم یرسل الإنسان إلی عوالم الانجماد، و یحفظه علی شکل جسد منجمد علی أمل أن یستطیع العلماء إعادته یوما إلی الحیاة مرّة أخری.

هل یمکن تصدیق هذا الکلام؟ هناک العدید من العلماء البارزین الذین یقومون بالتفکیر فی هذا الأمر من جوانبه المختلفة. و هناک نشریات کثیرة تقوم ببحث هذا الموضوع مثل (لایف) و (اسکوایر) و الصحف العالمیة فی مختلف أنحاء العالم. و الأهم من ذلک أنّ هناک برنامج فی هذا المجال هو قید التنفیذ فی

الوقت الحاضر[۱۵۳].

لقد أعلنت الصحف قبل مدّة عن اکتشاف سمکّة منجمدة بین ثلوج القطب الشمالی یعود عمرها إلی آلاف السنین، کما تبیّن ذلک من طبقات الثلج القشریة، و بعد أن وضعت السمکّة فی ماء معتدل عادت إلی حیاتها الطبیعیة و بدأت بالحرکة وسط دهشة الجمیع.

و یتّضح من ذلک أنّ الأجهزة الحیاتیة لا تتوقف بالکامل فی حالات الانجماد، و لکن فی هذه الظروف التی لا یمکن معها ممارسة الحیاة الطبیعیة یصبح عمل تلک الأجهزة بطیئا للغایة.

و من مجموع هذه الأحادیث یتبیّن أنّه بالإمکان إیقاف الحیاة أو تعویق حرکتها بشدة و البحوث العلمیة دعمت إمکانیة ذلک من جوانب مختلفة. و فی مثل هذه الحالة یصل استهلاک البدن للطعام لدرجة الصفر تقریبا، و بذا یکفیه المخزون القلیل المدّخر فی الجسم لإدامة الحیاة البطیئة لسنوات طویلة.

و یجب أن لا یفسّر کلامنا هذا بأنّنا نستهدف انکار الجانب الإعجازی فی نوم أصحاب الکهف، بل نرید أن نقرّب الأمر للأذهان من وجهة نظر العلم. إذ من المحتم أنّ نوم أصحاب الکهف لم یکن نوما عادیا کمنامنا فی اللیل، لقد کان نومهم ذا جنبة استثنائیة، لذلک فلا عجب فی نوم هؤلاء هذه المدّة الطویلة (بإرادة اللّه) من دون أن یکونوا بحاجة إلی الشراب و الطعام، و من دون أن تتضرّر أجسامهم و أجهزتهم الحیویه.

و الطریف فی الأمر أنّنا نستفید من آیات سورة الکهف أنّ طبیعة نومهم کانت تختلف عن النوم العادی: وَ تَحْسَبُهُمْ أَیْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ ... لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَیْهِمْ لَوَلَّیْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً[۱۵۴]. إنّ هذه الآیة تدل علی أن نومهم لم

یکن نوما عادیا، بل هو أشبه ما یکون بحالة المیت. (ذی العیون المفتوحة).

إضافة إلی ذلک تفید آیات السورة أنّ نور الشمس لم یکن یشع داخل کهفهم، و لأنّه من المحتمل أن یکون الکهف فی جبال آسیا

الصغری، و فی منطقة باردة، فإنّ ذلک یعدّ مؤشرا علی الحالة الاستثنائیة لنومهم، و من جانب آخر فإنّ القرآن یقول: وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْیَمِینِ وَ ذاتَ الشِّمالِ ۱۵۵].

و من الآیة یتبیّن أنّهم لم یکونوا علی حالة واحدة، و أنّ هناک عوامل و قوی غیبیة خفیة غیر واضحة لنا کانت تقلبهم نحو الیمین و الیسار (احتمالا فی کل سنة مرّة واحدة) حتی لا تتضرّر أجسامهم.

و الآن و بعد أن اتّضحت الجوانب العلمیة فی هذا البحث، فإنّ المعاد لم یعد یحتاج إلی کلام کثیر، لأنّ الیقظة بعد ذلک النوم الطویل تشبه الحیاة بعد الموت و تقرّب إلی الأذهان قضیة المعاد[۱۵۶]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۴

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۲۸ الی ۳۱]

اشارة

وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَیْناکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَةَ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ کانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (۲۸) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْیُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْیَکْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِینَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَ إِنْ یَسْتَغِیثُوا یُغاثُوا بِماءٍ کَالْمُهْلِ یَشْوِی الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً (۲۹) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِیعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (۳۰) أُولئِکَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ یُحَلَّوْنَ فِیها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ یَلْبَسُونَ ثِیاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّکِئِینَ فِیها عَلَی الْأَرائِکِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (۳۱)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۵

سبب النّزول

یروی المفسّرون فی سبب نزول الآیات الأولی فی هذا المقطع من سورة الکهف المبارکة وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ ... أنّ مجموعة من أشراف قریش و من المؤلّفة قلوبهم جاؤوا إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا له: یا رسول اللّه، إن جلست فی صدر المجلس و نحّیت عنّا هؤلاء و روائح صنانهم (کانت علیهم جباب الصوف)[۱۵۷] جلسنا نحن إلیک، و أخذنا عنک، لأنّه لا یمنعنا من الدخول علیک إلّا هؤلاء.

لقد کان هؤلاء الأشراف و المؤلفة قلوبهم یقصدون فی کلامهم المستضعفین و الفقراء من أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من أمثال سلمان الفارسی و أبی ذر الغفاری و صهیب و عمّار بن یاسر و خباب و غیرهم ممن کان علی شاکلتهم، إذ کان هؤلاء ممن التفّ حول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، ممن قربه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلیه.

لذلک اشترط الأشراف علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یطرد أمثال هؤلاء الفقراء عن مجلسه و نعتوهم بشتی النعوت.

و هنا نزلت الآیة الکریمة علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِیِّ یُرِیدُونَ ... فلمّا نزلت الآیة قام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یلتمسهم فأصابهم فی مؤخّر المسجد یذکرون اللّه عزّ و جلّ، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «الحمد اللّه الذی لم یمتنی حتی أمرنی أن أصبر نفسی مع رجال من أمتی. معکم المحیا و معکم الممات».

التّفسیر

الحفاة الأطهار!

من الدروس التى نستفيدها من قصّة أصحاب الكهف أنّ مقياس قيمة البشر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۶

ليست بالمنصب الظاهرى أو بالثروة، بل عند ما يكون المسير فى سبيل اللّه يتساوى الوزير و الراعى، و الآيات التى نبحثها تؤكّد هذه الحقيقة المهمّة و تعطى للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا الأمر: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ إنّ استخدام تعبير اصْبِرْ نَفْسَكَ هو إشارة إلى حقيقة أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد تعرّض إلى ضغط الأعداء المستكبرين و المشركين حتى يبعد عنه مجموع المؤمنين الفقراء، لذلك جاءه الأمر الإلهى بالصبر و الاستقامة أمام هذا الضغط المتزايد و أن لا يستسلم له. إنّ استخدام تعبير بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ إشارة إلى أنّهم كانوا دائما و أبدا يذكرون اللّه.

أمّا استخدام مصطلح يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۱۵۸] فهو دليل على إخلاصهم و إشارة إلى أنّهم يعبدون اللّه لذاته لا طمعا بالجنة (بالرغم من نعمها الكبيرة و الثمينة) و لا خوفا من الجحيم و عذابه (بالرغم من شدّة عذابها) بل يعبدون اللّه لأجل ذاته المنزّهة، و هذه أعلى مرتبة فى الطاعة و العبودية و الحبّ و الإيمان باللّه تعالى.

ثمّ تستمر الآيات مؤكّدة خطابها للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا[۱۵۹] فلا تنظر إلى هؤلاء المستكبرين بدل المستضعفين من أجل بهارج الدنيا و زخارفها.

ثمّ من أجل التأكيد مجددا يقول تعالى: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا.

وَ اتَّبَعَ هَواهُ و المطيع لاهوائه النّفسية، و المفرط فى أفعاله دائما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۷

وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً[۱۶۰].

الطريف هنا أنّ القرآن وضع هاتين المجموعتين فى مقابل بعضهما من حيث الصفات، و كان الأمر كما يلى:

مؤمنون حقيقيون إلّا أنّهم فقراء، و لهم قلوب مملوءة بحبّ اللّه، يذكرونه باستمرار و يسعون إليه.

الأغنياء المستكبرون الغافلون عن ذكر اللّه، و الذين لا يتبعون سوى هواهم، و خارجون عن حدّ الاعتدال فى كل أمورهم و يفرطون و يسرفون.

إنّ الموضوع- أعلاه- من الأهمية بمكان، بحيث أنّ القرآن يقول للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- بصراحة- فى الآية التى بعدها: وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ.

و لكن اعلموا أنّ هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون من الألبسة الخشنة التى يرتديها أمثال سلمان و أبى ذر خاصّة، و الذين يعيشون حياة مرفهة باذخة و مليئة بالزينة، ستنتهى عاقبهم إلى سوء و ظلام و عذاب: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها.

نعم، إنّهم كانوا اعطشوا فى هذه الدّنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، و لكنّهم عند ما يطلبون الماء فى جهنّم يؤتى إليهم بماء كالمهل: وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۱۶۱].

بِئْسَ الشَّرابُ

ثمّ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً[۱۶۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۸

تصوروا هل يمكن شرب الماء الذى إذا اقترب من الوجه فإنّ حرارته ستشوى الوجه؟ إن ذلك بسبب أنّهم شربوا فى الدنيا أنواع المشروبات المنعشة و الباردة، فى حين أنّهم أجّجوا فى قلوب المحرومين نيرانا، إنّ هذه النار هى نفسها التى تجسدت فى الآخرة بهذا

الشکل.

و الطریف فی أمر هؤلاء أنّ القرآن ذکر لهم بعض «التشریفات» و هم فی جهنّم. لقد کان لهؤلاء فی حیاتهم الدنیا (سرادق) عالیة و باذخة لیس فیها نصیب للفقراء، و هذه السرادق ستتحوّل إلی خیام عظیمة من لهیب نار جهنّم! و فی هذه الدنیا تتوفر لدیهم أنواع المشروبات التی تحضر بین أیدیهم بمجرّد مناداة الساقی، و فی جهنّم یوجد أیضا ساق و أشربة، أمّا ما هو نوع الشراب؟ إنّه ماء کالمعدن المذاب! حرارته کحرارة دموع الیتامی و آهات المستضعفین و الفقراء الذین ظلمهم هؤلاء الأغنیاء! نعم، إنّ کل ما هو موجود هناک (فی الآخرة) هو تجسید لما هو موجود هنا (فی الدنیا).

و بما أنّ أسلوب القرآن أسلوب تربوی و تطبیقی، فإنّه بعد ما بیّن أوصاف و جزاء عبید الدنیا، ذکر حال المؤمنین الحقیقیین و جوائزهم الثمینة الغالیة التی تنتظرهم جزاء ما فعلوا. لقد أجملت الآیة کل ذلک بشکل مختصر، ثمّ بشکل تفصیلی نوعا ما.

ففی البدء قال تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِیعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أی إنّنا لا نضیع أعمال العاملین قلیلة کانت أو کثیرة، کلیة أو جزئیة، و من أی شخص و فی أی عمر کان:

أُولئِکَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ (الجنات الخالدة).

تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ (من تحت الأشجار و القصور).

یُحَلَّوْنَ فِیها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ۱۶۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۹

وَ یَلْبَسُونَ ثِیاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ (من حریر ناعم و سمیک).

مُتَّکِئِینَ فِیها عَلَی الْأَرائِکِ ۱۶۴].

نِعْمَ الثَّوابُ

وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (و حسنت مجمعا للأحبّة).

بحوث

۱- الرّوح الطبقیة مشکلة اجتماعیة کبیرة

لیست الآیات الآنفة الذکر- وحدها- تحارب تقسیم المجتمع إلی مجموعتین من الأغنیاء و الفقراء، بل إنّنا نجد الکثیر من الآیات القرآنیة الأخری، ممّا ذکرنا سابقا أو سنذکرها لاحقا، تؤکّد جمعها علی هذا الموضوع.

إنّ المجتمع الذی تکون فیه مجموعة (و هی أقلیة فی الغالب) مرفهة و غارقة فی الإسراف و التبذیر و ملوّثة بأنواع المفاسد، سیکون فی مقابل هؤلاء مجموعة أخری، هم الأکثریة التی لا تملک أبسط وسائل الحیاة الإنسانیة. و مثل هذا المجتمع یرفضه الإسلام و لیس مجتمعا إنسانیا.

مثل هذا المجتمع سوف لا یری الاستقرار أبدا، و سوف یلقی الاستعمار و الاستکبار و أشکال الظلم و العبودیة بضلال علیه. و غالبا ما تقوم الحروب الدامیة فی مثل هذه المجتمعات و لا تنتهی الاضطرابات فیها أبدا.

و من الطبیعی أن یتساءل المرء عن أسباب تکدّس النعم الإلهیة بید حفنة معدودة من الناس و بدون سبب، بینما الأکثریة تعیش الفقر و الألم و العذاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۰

و المرض؟

إنّ مثل هذا المجتمع يكون مملوءا- حتما- بالكراهية و الحسد و الكبر و العداء و الغرور و الظلم و التكّبر، و كل عوامل الفساد الأخرى.

و لو دققنا النظر فى تأريخ النّبوات لرأينا أنّ الأنبياء عليهم السّلام بأجمعهم، و خصوصا رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم واجهوا هذا النظام المنحرف و الظالم و رموزه من الأغنياء الظالمين من أجل تأمين عوامل الاستقرار داخل المجتمع.

فى مثل هذه المجتمعات الطبقية تكون جلسات و اجتماعات المترفين منفصلة عن مجالس الفقراء، و أماكنهم، و كذا الحال بالنسبة لمراكز الترفيه و ما إلى ذلك. (هذا إذا كان الفقراء يملكون فى الأصل مراكز للترفيه). ثمّ إنّ العادات و التقاليد تختلف بين المجموعتين تماما.

إنّ هذا الانفصال المجافى للروح الإنسانية، و روح كل القوانين السماوية، لن يتحملها أى رجل إلهى. و قد كان مثل هذا الوضع حاكما بشدّة فى المجتمع العربى الجاهلى، حتى كان هؤلاء يعتبرون التفاف الفقراء من أمثال سلمان و أبو ذر حول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أكبر العيوب (!!) و لكن لم يعلم هؤلاء الأغنياء أن قلوب الفقراء هؤلاء مملوءة بحب اللّه و الإيمان و بصفات الشهامة و الإيثار.

فى المجتمع الجاهلى الذى عاصر النّبى المصلح نوح عليه السّلام، قال المترفون من الملأ عبيد الدنيا مخاطبين نوحا عليه السّلام: لماذا اتبعك الذين هم أراذلنا (على حدّ قولهم) و لقد حكى القرآن اعتراضهم هذا فى الآية (۲۷) من سورة هود فى قوله تعالى: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا.

و هكذا نرى أنّ عبيد الدنيا و أتباع الهوى هؤلاء يرفضون الجلوس- حتى للحظات- قرب الفقراء المؤمنين! و لاحظنا- أيضا- كيف أن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بطرده للمجموعة الأولى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۱

(الأغناء المترفين) و تقريبه للمجموعة الثّانية (الفقراء المؤمنين) شكّل مجتمعا توحيديا بمعنى الكلمة، مجتمعا تفجّرت فيه الطاقات الكامنة، و أصبحت فيه معايير الشخصية و القيم و النبوغ، هى التقوى و العلم و الإيمان و الجهاد و العمل الصالح.

و اليوم ما لم نسع لبناء مثل هذا المجتمع و الاقتداء بالنموذج الإسلامى الذى شيّده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى عهده، و بدون نبذ الفكر الطبقى من العقول عن طريق التعليم و التربية و تدوين القوانين الصحيحة و السهر على تنفيذها بدقّة- بالرغم من رفض الاستكبار العالمى و تعويقه لذلك- فسوف لن نملك مجتمعا إنسانيا سليما أبدا.

۲- المقارنة بين الحياة فى هذا العالم و عالم الآخرة:

لقد قلنا مرارا: إنّ تجسّد الأعمال هو من أهم القضايا المرتبطة بالمعاد. يجب أن نعلم أنّ ما هو موجود فى ذلك العالم هو انعكاس واسع و متكامل لهذا العالم، فأعمالنا و أفكارنا و أساليبنا الاجتماعية و صفاتنا الأخلاقية المختلفة سوف تتجسّم و تتجسّد أمامنا فى ذلك العالم و ستبقى قرينة لنا دائما.

الآيات- أعلاه- دليل حى على هذه الحقيقة، فالمترفون الظالمون الذين كانوا يعيشون فى هذه الدنيا فى ظل سرادق عالية، و كانوا سكارى بهواهم، وسعوا إلى فصل كل شيء يخصّهم عن المؤمنين الفقراء، هؤلاء يملكون فى ذلك العالم أيضا (سرادق) و لكنّها من النار الحارقة، لأنّ الظلم فى حقيقته نار حارقة تحرق الحياة و تذروا آمال المستضعفين المظلومين.

هناك يشربون من شراب يجسّد باطن شراب الدنيا، و هو بالنسبة للظالمين الطغاة شراب من دماء قلوب المحرومين، و مثل هذا الشراب

يقدّم للظالمين فى ذلك العالم، و هو لا يحرق أمعاءهم و أحشاءهم فحسب، بل يكون كالمعدن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۲

المذاب الذى يشوى الوجوه قبل شربه من شدّة حرارته.

و على العكس من ذلك أولئك الـذين تركوا الشـهوات فى سبيل حفظ طهارة وجودهم و رعايـة أصول العدالة، و الذين اقتنعوا بحياة بسـيطة، و تحمّلوا كل الصـعوبات و المنغصات فى هـذه الـدنيا من أجل تنفيـذ أصول العدالة .. هؤلاء تنتظرهم هناك بساتين الجنّة مع الأنهار الجارية، و أفضل أنواع الزينة و أفخر الألبسة، و أحبّ المجالس. و هذا فى الواقع تجسيد لنياتهم النزيهة حيث كانوا يريدون كل الخير لجميع عباد اللّه.

۳- العلاقة بين عبادة الهوى و الغفلة عن اللّه

الروح الإنسانيـة تخضع إمّـا للّه تعـالى أو للأهـواء، حيث لا يمكن الجمع بين الإثنين، فعبادة الأهواء أساس الغفلـة عن اللّه و عبادة اللّه، عبادة الهوى هى سبب الابتعاد عن جميع الأصول الأخلاقية؛ و أخيرا فإنّ عبادة الهوى تدخل الإنسان فى ذاته و تبعده عن جميع حقائق العالم.

إنّ الإنسان الـذى يعبـد هواه لا يفكّر إلّا فى إشـباع شـهواته، و لا يوجد لديه معنى للفتوّة و العفو و الإيثار و التضـحية و الشـيم المعنوية الأخرى.

و قـد أوضـحت الآيـات محل البحث الربط و العلاقـة بين الإثنين بشـكل جلى فى قوله تعالى: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

لقـد طرحت الآيـة أوّلا (الغفلـة) عن اللّه تعالى، ثمّ ذكرت بعـدها (أتباع الهوى)، و الطريف أنّ نتيجـة هذا الأمر هو الإفراط و بالشـكل المطلق الذى ذكرته الآية.

لماذا يكون عابد الهوى مصابا بالإفراط دائما؟

قـد يكـون السـبب أنّ الطبيعـة الإنسانيـة تتجـه فى الملـذات الماديـة نحـو الزيـادة دومـا، فالـذى كـان يشـعر بـالنشوة بمقـدار معين من المخدرات، لا يكفيه نفس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۳

المقـدار فى اليوم التالى لبلوغ نفس درجـة النشوة، بل عليه زيادة الكمية بالتدريج، و الشـخص الذى كان يكفيه فى السابق قصـر واحد مجهّز بجميع الإمكانات و بمساحه عـدة آلاف بين الأمتار، يصـبح اليوم إحساسه بهـذا القصـر عاديا، فينشـد الزيادة. و هكـذا فى جميع مصاديق الهوى و الشهوة حيث أنّها دائما تنشد الزيادة حتى تهلك الإنسان نفسه.

۴- ملابس الزينة فى العالم الآخر

قد يطرح البعض هذا السؤال: لقد ذمّ اللّه تعالى الزينة و التزيّن فى القرآن بالنسبة لهذه الحياة، إلّا أنّه يعد المؤمنين بمثل هذه الأمور فى ذلك العالم، إذ تنص الآيات على الذهب و ملابس الحرير و الإستبرق و السرر المساند الجميلة؟

قبل الإجابـة على هـذا السؤال ينبغى أن نوضّـح بأنّنا لا نوافق على توجيه هـذه الكلمات على أنّها كنايـة عن مفاهيم معنويـة و يفسّـِرون الآيات على هذا الأساس، لقد تعلمنا من القرآن الكريم أنّ المعاد ذو جانبين: معاد روحانى و معاد جسمانى.

و علی هذا الأساس، فإنّ لذات ذلک العالم یجب أن تکون موجودة فی المجالین، و اللذات الروحیة- طبعا- لا یمکن مقایستها باللذات الجسمیة. و لکن لا بدّ من الاعتراف بأنّنا لا نعرف من نعم ذلک العالم سوی أشباح بعیدة، و نسمع کلاما یشیر إلیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۲۶۳

اذا؟ لأنّ نسبة ذلک العالم إلی عالمنا هذا کنسبة عالمنا إلی عالم الجنین فی بطن الأم، فإذا قدّر للأم أن تقیم رابطة بینها و بین الجنین، فلا یسعها إلّا أن توضح للجنین بالإشارات جمال هذه الدنیا بشمسها الساطعة و قمرها المنیر، و العیون الفوّارة، و البساتین و الورود و ما شابهها، حیث لا توجد ألفاظ کافیة لتبیان کل هذه المفاهیم للجنین فی رحم الأم کی یفهمها و یستوعبها.

کذلک فإنّ النعم المادیة و المعنویة لعالم الآخرة لا یمکن توضیحها لنا بشکل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۴

کامل و نحن محاصرون فی أبعاد رحم هذه الدنیا.

و مع وضوح هذه المقدمة نجیب علی السؤال و نقول: إن ذم اللّه عز اسمه لحیاة الزینة و الترف فی هذه الدنیا یعود إلی أن محدودیة هذا العالم تسبب أن تقترن الزینة و الترف مع أنواع الظلم و الانحراف الذی یکون بدوره سببا للغفلة و الانقطاع عن اللّه.

إنّ الاختلافات التی تبرز خلال هذا الطریق ستکون سببا للحقد و الحسد و العداوة و البغضاء، و أخیرا إراقة الدماء و الحروب.

أمّا فی ذلک العالم اللامحدود من جمیع الجهات، فإنّ الحصول علی هذه الزینة لا یسبّب مشکلة و لا یکون سببا للتمییز و الحرمان، و لا للحقد و النفرة، و لا یبعد الإنسان عن اللّه فی ذلک المحیط المملوء بالمعنویات حیث لا حسد و لا تنافس و لا کبر و لا غرور تؤدی ابتعاد خلق اللّه عن اللّه، کما فی زینة الحیاة الدنیا.

فإذا کان الحال کذلک فلما ذا یحرم أهل الجنة من هذه المواهب و العطایا الإلهیة التی هی لذّات جسمیة إلی جانب کونها مواهب معنویة کبیرة!

۵- الاقتراب من الأثریاء بسبب ثروتهم:

الدرس الآخر الذی نتعلمه من الآیات الآنفة، هو أنّه یجب علینا أن لا نمتنع عن إرشاد و توجیه هذه المجموعة- أو تلک- بسبب کونها ثریة أو ذات حیاة مرّفهة، بل إنّ الشیء المذموم هو أن نذهب لهؤلاء لأجل ثروتهم و دنیاهم المادیة، و نصبح مصداقا لقوله تعالی: تُرِیدُ زِینَةَ الْحَیاةِ الدُّنْیا أمّا إذا کان الهدف هو الهدایة و الإرشاد، أو حتی الاستفادة من إمکانیاتهم من أجل تنفیذ النشاطات الإیجابیة و المهمّة اجتماعیا، فانّ مثل هذا الهدف لا یعتبر غیر مذموم و حسب، بل هو واجب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۵

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۳۲ الی ۳۶]

اشارة

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَیْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَیْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَیْنَهُما زَرْعاً (۳۲) کِلْتَا الْجَنَّتَیْنِ آتَتْ أُکُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَیْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (۳۳) وَ کانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً (۳۴) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِیدَ هذِهِ أَبَداً (۳۵) وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلی رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْها مُنْقَلَباً (۳۶)

التّفسیر

تجسید لموقف المستکبرین من المستضعفین:

فی الآیات السابقة رأینا کیف أنّ عبید الدنیا کانوا یحاولون الابتعاد فی کل شیء عن رجال الحق و أهله المستضعفین، ثمّ عرّفتنا الآیات جزاءهم فی الحیاة الأخری.

الآیات التی نبحثها تشیر إلی حادثة اثنین من الأصدقاء أو الإخوة الذین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۶

یعتبر کل واحد منهم نموذجا لإحدی المجموعتین، و یوضحان طریقة تفکیر و قول و عمل هاتین المجموعتین.

فی البدایة تخاطب الآیات الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتقول: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَیْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَیْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَیْنَهُما زَرْعاً.

البستان و المزرعة کان فیهما کل شیء: العنب و التمر و الحنطة و باقی الحبوب، لقد کانت مزرعة کاملة و مکفیة من کل شیء: کِلْتَا الْجَنَّتَیْنِ آتَتْ أُکُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَیْئاً.

و الأهم من ذلک هو توفّر الماء الذی یعتبر سر الحیاة، و أمرا مهمّا لا غنی للبستان و المزرعة عنه، و قد کان الماء بقدر کاف: وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً.

علی هذا الأساس کانت لصاحب البستان کل أنواع الثمار: وَ کانَ لَهُ ثَمَرٌ.

و لأنّ الدنیا قد استهوته فقد أصیب بالغرور لضعف شخصیته و رأی أن الإحساس العمیق بالأفضلیة و التعالی علی الآخرین، حیث التفت و هو بهذه الحالة إلی صاحبه: فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ یُحاوِرُهُ أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً.

بناء علی هذا فأنا أملک قوّة إنسانیة کبیرة و عندی مال و ثروة، و أنا أملک- أیضا- نفوذا و موقعا اجتماعیا، أمّا أنت (و الخطاب لصاحبه) فما ذا تستطیع أن تقول، و هل لدیک ما تتکلم عنه؟! لقد تضخّم هذا الإحساس و نما تدریجیا- کما هو حاله- و وصل صاحب البستان إلی حالة بدأ یظن معها أنّ هذه الثروة و المال و الجاه و النفوذ إنّما هی أمور أبدیّة، فدخل بغرور إلی بستانه (فی حین أنّه لا یعلم بأنّه یظلم نفسه) و نظر إلی أشجاره الخضراء التی کادت أغصانها أن تنحنی من شدّة ثقل الثمر، و سمع صوت الماء الذی یجری فی النهر القریب من البستان و الذی کان یسقی أشجاره، و بغفلة قال: لا أظن أن یفنی هذا البستان، و بلسان الآیة و تصویر القرآن الکریم:

وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِیدَ هذِهِ أَبَداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۷

بل عمد إلی ما هو أکثر من هذا، إذ بما أنّ الخلود فی هذا العالم یتعارض مع البعث و المعاد، لذا فقد فکّر فی إنکار القیامة و قال: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً و هذا کلام یعکس و هم قائلة و تمنیاته! ثمّ أضاف! حتی لو فرضنا وجود القیامة فإنّی بموقعی و وجاهتی سأحصل عند ربّی- إذا ذهبت إلیه- علی مقام و موقع أفضل. لقد کان غارقا فی أوهامه وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلی رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْها مُنْقَلَباً.

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسیة التی یعیشها و التی صورها القرآن الکریم، یضیف إلی نفسه فی کل فترة و هما بعد آخر من أمثال ما حکت عنه الآیات آنفا، و عند هذا الحد انبری له صدیقه المؤمن و أجابه بکلمات یشرحهما لنا القرآن الکریم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۸

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۳۷ الی ۴۱]

اشارة

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (۳۷) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَداً (۳۸) وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَ وَلَداً (۳۹) فَعَسى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (۴۰) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (۴۱)

التّفسير

جواب المؤمن:

هذه الآيات هى ردّ على ما نسجه من أوهام ذلك الغنى المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجرى على لسان صاحبه المؤمن.

لقد بدأ الكلام بعد أن ظلّ صامتا يستمع إلى كلام ذلك الرجل ذى الأفق الضيق و الفكر المحدود، حتى ينتهى من كلامه، ثمّ قال له: قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۹

يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا.

و هنا قد يثار هذا السؤال، و هو: إنّ كلام ذلك الرجل المغرور المتكبر الذى مرّ ذكره فى الآيات الآنفة، لم يصرّح فيه بإنكار الحق جلّ و علا، فى حين أنّ جواب الإنسان المؤمن ركزّ فيه أوّلا على إنكاره للخالق!؟ لذلك فإنّه وجّه نظره أوّلا إلى قضية خلق الإنسان التى هى من أبرز أدلة التوحيد و التوجّه نحو الخالق العالم القادر. اللّه الذى خلق الإنسان من تراب، حيث امتصت جذور الأشجار المواد الغذائية الموجودة فى الأرض، و الأشجار بدورها أصبحت طعاما للحيوانات، و الإنسان استفاد من هذا النبات و لحم الحيوان، و انعقدت نطفته من هذه المواد، ثمّ سلكت النطفة طريق التكامل فى رحم الأم حتى تحوّلت إلى إنسان كامل، الإنسان الذى هو أفضل من جميع موجودات الأرض، فهو يفكّر و يصمّم و يسخّر كلّ شىء لأجله.

نعم، إنّ هذا التراب عديم الأهمية يتحوّل إلى هذا الموجود العجيب، مع هذه الأجهزة المعقدة الموجودة فى جسم الإنسان و روحه، و هذا من الدلائل العظيمة على التوحيد.

و فى الجواب على السؤال المثار ذكر المفسّرون تفاسير معتدّدة نجملها فيما يلى:

۱- قالت مجموعة منهم: بما أنّ هذا الرجل المغرور أنكر بصراحة المعاد و البعث أو شكك فيه، فإنّه يلزم من ذلك إنكار الخالق، لأنّ منكر المعاد الجسمانى ينكر فى الواقع قدرة اللّه، و لا يصدّق بأنّ هذا التراب المتلاشى سوف تعود له الحياة مرّة أخرى، لذا فإنّ الرجل المؤمن مع ذكره للخلق الأوّل من تراب، ثمّ من نطفة، ثمّ بإشارته للمراحل الأخرى- أراد أن يلفت نظره إلى القدرة غير المتناهية للخالق حتى يعلم بأنّ قضية المعاد يمكن مشاهدتها هنا و تمثّلها بأعيننا فى واقع هذه الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۰

۲- و قال آخرون: إنّ شركه و كفره كانا بسبب ما رآه لنفسه من استقلال فى المالكية و ما تصوره من دوام و أبدية هذه الملكية.

۳- الاحتمال الثّالث أنّه لا يبعد أن يكون الرجل قد أنكر الخالق فى بعض كلامه و لم يذكر القرآن هذا المقطع من كلامه. و قد يتوضح الأمر بقرينة جواب الرجل المؤمن، لذا نرى فى الآية التى بعدها أنّ الرجل المؤمن قال لصاحب البستان ما مضمونه: إن كنت أنكرت وجود خالقك و سلكت طريق الشرك، إلّا أنّنى لا أفعل ذلك أبدا.

على أى حال، ثمّة علاقة واضحة تربط بين الاحتمالات الثلاثة، و يمكن أن يكون كلام الرجل المؤمن الموحّد إشارة الى هذه الاحتمالات جميعا.

ثمّ عمد الرجل الموحّد المؤمن إلى تحطيم كفر و غرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى ١٦٥]. و إنّى أفتخر بهذا الإعتقاد و أتباهى به، إنّك تفتخر بأنّك تملك بستانا و مزرعة و فواكه و ماءا كثيرا؛ إلّا أنّنى أفتخر بأنّ اللّه ربّى، إنّه خالقى و رازقى؛ إنّك تتباهى بدنياك و أنا أفتخر بعقيدتى و إيمانى و توحيدى:

وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَداً.

و بعد أن أشار إلى قضية التوحيد و الشرك اللذين يعتبران من أهم المسائل المصيرية، جدّد لومه لصاحبه قائلا: وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ ١٦٦].

فلما ذا لا تعتبر كل هذه النعم من الخالق جلّ و علا، و لماذا لم تشكره عليها.

و لماذا لم تقل: لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

فإذا كنت قد هيّأت الأرض و بذرت البذور و زرعت الغرس و ربيت الأشجار، و فعلت كلّ شىء فى وقته المناسب حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه؛

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۱

فإنّ كل هذه الأمور هى من قدرة الخالق جلّ و علا، و قد وضع سبحانه و تعالى الوسائل و الإمكانات تحت تصرفك، حيث أنّك لا تملك شيئا من عندك، و بدونه تكون لا شىء! ثمّ يقول له: ليس من المهم أن أكون أقل منك مالا و ولدا: إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَ وَلَداً.

فَعَسى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ

و ليس فقط أن يعطينى أفضل ممّا عندك، بل و يرسل صاعقة من السماء على بستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرض محروقة جرداء: وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً.

أو أنّه سبحانه و تعالى يعطى أوامره إلى الأرض كى تمنعك الماء: أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً.

«حسبان» على وزن «لقمان» و هى فى الأصل مأخوذة من كلمة «حساب»، ثمّ وردت بعد ذلك بمعنى السهام التى تحسب عند رميها، و تأتى أيضا بمعنى الجزاء المرتبط بحساب الأشخاص، و هذا هو ما تشير إليه الآية أعلاه.

«صعيد» تعنى القشرة التى فوق الأرض. و هى فى الأصل مأخوذة من كلمة صعود.

«زلق» بمعنى الأرض الملساء بدون أى نباتات بحيث أنّ قدم الإنسان تنزلق عليها (الطريف ما يقوم به الإنسان اليوم حيث تتمّ عملية تثبيت الأرض و الرمال المتحركة، و منع القرى من الاندثار تحت هذه الرمال عند هبوب العواصف الرملية، و ذلك من خلال زراعتها بالنباتات و الأشجار، أو- كما يصطلح عليه- إخراجها من حال الزلق و الانزلاق).

فى الواقع، إنّ الرجل المؤمن و الموحّد حذّر صديقه المغرور أن لا يطمأن لهذه النعم، لأنّها جميعا فى طريقها إلى الزوال و هى غير قابلة للاعتماد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۲

إنّه أراد أن يقول لصاحبه: لقد رأيت بعينيك- أو على الأقل سمعت بأذنك- كيف أنّ الصواعق السماوية جعلت من البساتين و البيوت و المزروعات- و خلال لحظة واحدة- تلّا من التراب و الدمار و أصبحت أرضهم يابسة عديمة الماء و الكلأ.

و أيضا سمعت أو رأيت بقيام هزة أرضية تطمس الأنهار و تجفّف العيون، بحيث تكون غير قابلة للإصلاح و الترميم.

و بمعرفتك لكل هذ الأمور فلم هذا الغرور؟! أنت الذى شاهدت أو سمعت كل هذا، فلم هذا الانشداد للأرض و الهوى؟

ثمّ لماذا تقول: لا أعتقد أن تزول هذه النعم و أنّها باقية و خالدة؛ فلما ذا هذا الجهل و البلاهة!!!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۲۷۳

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۴۲ الى ۴۴]

اشارة

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (۴۲) وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً (۴۳) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً (۴۴)

التّفسير

العاقبة السوداء:

أخيرا انتهى الحوار بين الرجلين دون أن يؤثر الشخص الموحّد المؤمن فى أعماق الغنى المغرور، الذين رجع إلى بيته و هو يعيش نفس الحالة الروحية و الفكرية، و غافل أنّ الأوامر الإلهية قد صدرت بإبادة بساتينه و مزروعاته الخضراء، و أنّه وجب أن ينال جزاء غروره و شركه فى هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

و يحتمل أنّ العذاب الإلهى قد نزل فى تلك اللحظة من الليل عند ما خيّم الظلام، على شكل صاعقة مميتة أو عاصفة هو جاء مخيفة، أو على شكل زلزال مخرّب و مدمّر. و أيّا كان فقد دمّرت هذه البساتين الجميلة و الأشجار العالية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۲۷۴

و الزرع المثمر، حيث أحاط العذاب الإلهى بتلك المحصولات من كل جانب:

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ

«أحيط» مشتقّة من «إحاطة» و هى فى هذه الموارد تأتى بمعنى (العذاب الشامل) الذى تكون نتيجته الإبادة الكاملة.

و عند الصباح جاء صاحب البستان و تدور فى رأسه الأحلام العديدة ليتفقد و يستفيد من محصولات البستان، و لكنّه قبل أن يقترب منه واجهه منظر مدهش و موحش، بحيث أنّ فمه بقى مفتوحا من شدة التعجّب، و عيناه توقفتا عن الحركة و الاستدارة.

لم يكن يعلم بأنّ هذا المنظر يشاهده فى النوم أم فى اليقظة! الأشجار جميعها ساقطة على التراب، النباتات مدمّرة، و ليس ثمّة أى أثر للحياة هناك! كان الأمر بشكل و كأنّه لم يكن هناك بستان و لا أراضى مزروعة، كانت أصوات (البوم)- فقط- تدوى فى هذه الخرائب، قلبه بدأ ينبض بقوّة، بهت لونه، يبس الماء فى فمه، و تحطّم الكبرياء و الغرور اللذان كانا يثقلان نفسه و عقله.

كأنّه صحا من نوم عميق: فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها.

و فى هذه اللحظة ندم على أقواله و أفكاره الباطلة: وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً.

و الأكثر حزنا و أسفا بالنسبة له هو ما أصبح عليه من الوحدة فى مقابل كل هذه المصائب و الابتلاءات: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

و لأنّه فقد ما كان يملكه من رأس المال و لم يبقى لديه شى‌ء آخر، فإنّ مصيره: وَ ما كانَ مُنْتَصِراً.

لقد انهارت جميع آماله و ظنونه الممزوجة بالغرور، لقد أدت الحادثة إلى انتهاء كل شى‌ء، فهو من جانب كان يقول: إنّى لا أصدق بأنّ هذه الثروة العظيمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۵

من الممكن أن تفنى، إلّا أنّنى رأيت فناءها بعينى! و من جانب آخر فقد كان يتعامل مع رفيقه المؤمن بكبر و يقول: إنّنى أقوى منك و أكثر أنصارا و مالا، و لكنّه بعد هذه الحادثة اكتشف أن لا أحد ينصره! و من جانب ثالث فإنّه كان يعتمد على قوته و قدرته الذاتية، و يعتقد بأنّ غير قدرته محدودة، لكنّه بعد هذه الحادثة، و بعد أن لم يكن بمقدوره الحصول على شىء، انتبه إلى خطئه الكبير، لأنّه لم يعد يتملك شيئا يعوضه جانبا من تلك الخسارة الكبرى.

و عادة، فإنّ الأصدقاء الذين يلتفون حول الإنسان لأجل المال و الثروة مثلهم كمثل الذباب حول الحلوى، و قد يفكّر الإنسان أحيانا بالاعتماد عليهم فى الأيّام الصعبة، و لكن عند ما يصاب فيما يملك يتفرق هؤلاء الخلّان من حوله، لأنّ صداقتهم له لم تكن لرابط معنوى، بل كانت لأسباب مادية، فإذا زالت هذه الأسباب انتفت الرفقة! و هكذا انتهى كل شىء و لا ينفع الندم، لأنّ مثل هذه اليقظة الإجبارية التى تحدث عند نزول الابتلاءات العظيمة يمكن ملاحظتها حتى عند أمثال فرعون و نمرود، و هى بلا قيمة، لهذا فإنّها لا تؤثّر على حال من ينتبه.

صحيح أنّه ذكر عبارة لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّی أَحَداً و هى نفس الجملة التى كان قد قالها له صديقه المؤمن، إلّا أنّ المؤمن قالها فى حالة السلامة و عدم الابتلاء، بينما ردّدها صاحب البستان فى وقت الضيق و البلاء.

هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِ نعم، لقد اتضح أنّ جميع النعم منه تعالى، و أنّ كل ما يريده تعالى يكون طوع إرادته، و أنّه بدون الاعتماد على لطفه لا يمكن إنجاز عمل: هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً.

إذن، لو أراد الإنسان أن يحب أحدا و يعتمد على شىء ما، أو يأمل بهديه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۶

شخص ما، فمن الأفضل أن يكون اللّه سبحانه محط أنظاره، و موقع آماله، و من الأفضل أن يتعلق بلطفه تعالى و إحسانه.

بحثان

۱- غرور الثروة

فى هذه القصّة نشاهد تجسيدا حيا لما نطلق عليه اسم غرور الثروة، و قد عرفنا أنّ هذا الغرور ينتهى أخيرا إلى الشرك و الكفر. فعند ما يصل الأفراد الذين يعيشون حياتهم بلا غاية و هدف إيمانى إلى منزلة معينة من القدرة المالية أو الوجاهة الاجتماعية، فإنّهم فى الغالب يصابون بالغرور. و فى البداية يسعون إلى التفاخر بإمكاناتهم على الآخرين و يعتبرونها وسيلة تفوّق، و يرون من التفاف أصحاب المصالح حولهم دليلا على محبوبيتهم، و قد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: أَنَا أَكْثَرُ مِنْکَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً.

و يتبدّل حبّ هؤلاء للدنيا تدريجيا بفكرة الخلود فيها: ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً.

إنّ ظنّهم بخلود ثرواتهم المادية يجعلهم ينكرون المعاد للتضاد الواضح بين ما هم فيه و بين مبدأ البعث و المعاد، فيكون لسان حالهم: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً.

و الأنكى من ذلك هو أنّهم يعتبرون مقامهم و وجاهتهم فى هذه الدنيا دليلا على قرب مقامهم من محضر القدس الإلهى، فيقولون: وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً.

هذه المراحل الأربع نجدها واضحة فى حياة أصحاب القدرة من عبيد الدنيا، مع فوارق نسبية فيما بينهم، فيبدأ مسيرهم الانحرافى من الاغترار بما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۷

لـدیهم من قوة و قـدرة، و یتصاعـد انحرافهم إلی الشـرک و عبـادة الأصـنام و الکفر و إنکـار المعاد، لأنّهم یعبـدون القـدرة المادیـة و یجعلونها صنما دون سواها.

-۲

دروس و عبر

هذا المصـیر المقترن بالعبرة و الذی ذکر هنا بشـکل سریع یتضمّن بالإضافة إلی الدرس الآنف، دروسا أخری ینبغی أن نتعلمها، و هذه الدروس هی:

أ: مهما کانت نعم الدنیا المادیة کبیرة و واسعة، فإنّها غیر مطمئنة و غیر ثابتة، فصاعقة واحدة تستطیع فی لیلة أو فی لحظات معدودة أن تبید البساتین و المزارع التی یکمن فیها جهد سنین طویلة من عمر الإنسان، و تحیلها إلی تل من تراب و رماد و أرض یابسة زلقة.

إنّ زلزلة واحدة خفیفة یمکن أن تقضی علی العیون الفّوارة التی هی الأصل فی هذه الحیاة، بالشکل الذی لا یمکن معه ترمیمها أبدا.

ب: إنّ الأصدقاء الذین یلتفون حول الإنسان بغرض الإفادة من إمکاناته المادیة هم بدرجة من اللامبالاة و علی قدر من الغدر و الخیانة بحیث أنّهم یتخلّون عنه فی نفس اللحظـة التی تزول فیها إمکاناته المادیة و یترکونه وحیدا لهمومه: وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ فِئَةٌ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

هـذا النوع من الأحـداث الـذی طالما سـمعنا و رأینا له نماذج تبرهن علی أنّ الإنسان لا یملک سوی التعلق باللّه وحده، و أنّ الأصدقاء الحقیقیین و الأوفیاء للإنسان هم الـذین تصـنعهم الروابط و العلائق المعنویة، إذ یسـتمر ودّ هؤلاء فی حال الفقر و الثروة، فی الشـباب و الشیبة، فی الصحة و المرض، فی العز و الذلة، بل و تستمر مودّة هؤلاء إلی ما بعد الموت! ج: لا فائدة من الصحوة بعد نزول البلاء:

لقد أشرنا مرارا إلیّ أنّ الیقظة الإجباریة لدی الإنسان لیست دلیلا علی یقظة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۸

داخلیـة حقیقیـة هادیة، و لیست علامة علی تغییر مسـیر الإنسان، أو ندمه علی أعماله السابقة و علی ما کان فیها من معصـیة و انحراف، بـل کـل ما فی الأمر هو أنّ الإنسان عنـد ما ینزل بساحته البلاء أو یری عمود المشـنقة، أو تحیط به أمواج البلاء و العواصف، فهو یتأثر للحظـات لاـ تتعـدی مـدة البلاـء و یتخـذ قرارا بتغییر مصـیره، و لکن لأـنّه لا یملک أساسا متینا فی أعماقه، فإنّه بانتهاء البلاء یغفل عن صحوته هذه و یعود إلی خطّة و مسیره الأوّل.

لو تأملنا الآیة (۱۸) من سورة النساء لرأینا من خلالها أنّ أبواب التوبـة تغلق أمام الإنسان عند رؤیة علائم الموت، و سـبب هذا الأمر هو ما ذکرناه أعلاه.

و فی الآیات (۹۰- ۹۱) من سورة یونس یقول القرآن حول فرعون عند ما صار مصـیره إلی الغرق و عصفت به الأمواج، فإذا به یصرخ و یقول: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ إلّا أنّ هذه التوبة ترد علیه و لا تقبل منه:

آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ د: لا الفقر دلیل الذلة و لا الثروة دلیل العزة:

و هـذا درس آخر نتعلمه من الآیات أعلاه، طبیعی أنّ المجتمعات المادیة و المذاهب النفعیة غالبا ما تتوهم بأنّ الفقر و الثروة هما دلیل الذلـة و العزة، لهـذا السـبب لاحظنا أنّ مشـرکی العصـر الجاهلی یعجبون من یتمّ رسول الإسـلام صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و فقره و یقولون: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلی رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ ۱۶۷].

ه: أسلوب تحطیم الغرور:

عنـد مـا تبـدأ بواعث الغرور تقـترب من الإنسـان و تنـاجى أعمـاقه بسـبب المـال و المنصب، فيجب عليه أن يقطع تلـك الوسوسـة من جـذورها، عليه أن يتـذكر ذلك اليوم الـذى كان فيه ترابا لا قيمة له، و ذلك اليوم الذى كان فيه نطفة لا قيمة لها، عليه أن يعى اللحظة التى كان فيها وليدا ضعيفا لا يقدر على الحركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۹

لاحظنـا القرآن فى الآيـات الآنفـة كيف يعيـد من خلاـل خطـاب الرجـل المؤمن، صاحب البسـتان إلى وضعـه العادى: أ كَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاکَ رَجُلًا.

و: درس من عالم الطبيعة:

القرآن عنـد ما يصف البساتين المثمرة يقول: وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَیْئاً و لكنّه عند ما يتحدث عن صاحب البسـتان يقول: وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ

يعنى: أيّها الإنسان، أنظر إلى الوجود من حولك، و لا حظ أنّ هذه الأشجار المثمرة و الزراعة المباركة كيف آتت كل ما عندها بأمانة و قـدمته لك، فلا مجال عنـدها للاحتكار و الحسد و البخل، فعالم الوجود هو ساحة للإيثار و البذل و العفو، فما تمتلكه الأرض تقدمه بإيثـار إلى الحيوانـات و النباتـات، و تضع الأشـجار و النباتـات كـل ثمارهـا و مواهبهـا فى إختيـار الإنسـان و الأحيـاء الأخرى، و قرص الشمس يضعف يوما بعد آخر و هو يشع النور و الدفء و الحرارة، الغيوم تمطر و الرياح تهب، لتتسع أمواج الحياة فى كل مكان.

هـذا هو نظام الوجود، و لكنّك أيّها الإنسان تريـد أن تكون سـيد الوجود و مع ذلك تسـحق قوانينه الثابتة البيّنة. فتكون رقعة نشاز غير متناسقة فى عالم الوجود تريد أن تستحوذ على كل شىء و تصادر حقوق الآخرين!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۰

الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۴۵ الى ۴۶]

اشارة

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِیماً تَذْرُوهُ الرِّیاحُ وَ کانَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ مُقْتَدِراً (۴۵) الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِینَةُ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ الْباقِیاتُ الصَّالِحاتُ خَیْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَواباً وَ خَیْرٌ أَمَلاً (۴۶)

التّفسير

بداية و نهاية الحياة فى لوحة حيّة:

الآيات السابقـة تحدّثت عن عدم دوام نعم الدنيا، و لأنّ إدراك هذه الحقيقة لعمر بطول (۶۰- ۸۰) سنة يعتبر أمرا صعبا بالنسبة للأفراد العاديين، لذا فإنّ القرآن قد جسّد هذه الحقيقة من خلال مثال حى و معبّر كى يستيقظ الغافلون المغرورون من غفلتهم و نومهم عند ما يشاهدون تكرار هذا الأمر عدّة مرّات خلال عمرهم.

يقول تعالى: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ هذه القطرات الواهبة للحياة تسـقط على الجبال و الصحراء، و تعيد الحياة للبذور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۱

المستعدة الكامنة فى الأرض المستعدّة بدورها، لتبدأ حركتها التكاملية.

إنّ الطبقـة الخارجيـة السـميكة للبـذور تلين قبال المطر، و تسـمح للبراعم فى الخروج منها، و أخيرا تشق هـذه البراعم التراب و تخترقه، الشـمس تشع، النسـيم يهب، المواد الغذائيـة فى الأـرض تقـدّم ما تسـتطيع، تتقوى البراعم بسـبب عوامل الحياة هـذه ثمّ تواصل نموها، بحيث- بعد فترة- نرى أن نباتات الأرض تتشابك فيما بينها: فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ

الجبـل و الصـحراء يتحولاـن إلى قوّة حياتيـة دافعـة، أمّـا الـبراعم و الفواكه و الأـوراد فإنّهـا تزيّن الأغصـان، و كـأنّ الجميع يضـحك، يصـرخون صـراخ الفرح، يرقصون فرحا! لكن هـذا الواقع الجـذّاب لا يدوم طويلا، حيث تهب رياح الخريف و تلقى بغبار الموت على النباتـات، يبرد الهواء، و تشـح الميـاه، و لاـ تمضـى مـدّة حتى يمسـى ذلك الزرع الجميل الأخضـر ذو الأغصان المورقـة، ميتا و يابسا: فَأَصْبَحَ هَشِيماً[۱۶۸].

تلك الأوراق التى لم تتمكن العواصف الهوجاء من فصلها عن الأغصان فى فصل الربيع، قد أصبحت ضعيفة بدون روح بحيث أنّ أى نسيم يهب عليها يستطيع فصلها عن الأغصان و يرسلها إلى أى مكان شاء: تَذْرُوهُ الرِّياحُ ۱۶۹].

نعم: وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ مُقْتَدِراً.

الآية التى بعدها تذكر وضع المال و الثروة و القوة الإنسانية اللذين يعتبران ركنين أساسيين فى الحياة الدنيا، حيث تقول: الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا.

إنّ هـذه الآيـة- فى الحقيقـة- تشير إلى أهـم قسـمين فى رأسـمال الحيـاة حيث ترتبـط الأشـياء الأـخرى بهمـا، إنّهـا تشـير إلى (القـوّة الاقتصادية) و (القوّة الإنسانية)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۲

لأـنّ وجودهمـا ضـرورى لتحقيق أى هـدف مـادى، خاصّـة فى الأزمنـة السابقـة إذ كان من يملك أبناء أكثر يعتبر نفسه أكثر قوة، لأنّ الأبناء هم ركن القوّة، و قـد وجـدنا فى الآيات السابقة أنّ صاحب البسـتان الغنى كان يتباهى بأمواله و أعوانه على الآخرين و يقول: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً.

لذا فإنّهم كانوا يعتمدون على «البنين» جمع (ابن) و المقصود به الولد الذكر، حيث كانوا يعتبرون الولد رأسـمال القوّة الفعّالة للإنسان، و بالطبع ليس للبنات نفس المركز أو المقام.

المهم أنّ الْمالُ وَ الْبَنُونَ بمثابة الورد و البراعم الموجودة على أغصان الشـجر، إنّها تزول بسـرعة و لا تستمر طويلا، و إذا لم تستثمر فى طريق المسير إلى (اللّه) فلا يكتب لها الخلود، و لا يكون لها أدنى اعتبار.

و رأينا أنّ أكثر الأموال ثباتا و دواما و المتمثلة فى البستان و الأرض الزراعية و عين الماء قد أبيدت خلال لحظات.

و فيمـا يخص الأبنـاء، فبالإضافـة إلى أنّ حيـاتهم و سـلامتهم معرّضـة للخطر دائما، فهم يكونون فى بعض الأحيان أعـداء بـدلا من أن يكونوا عونا فى اجتياز المشاكل و الصعوبات.

ثمّ يضيف القرآن: وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا.

بالرغم من أنّ بعض المفسّـرين أرادوا حصـر مفهوم (الباقيات الصالحات) فى دائرة خاصّة مثل الصلوات الخمس أو ذكر: سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر، و أمثال هذه الأمور، إلّا أنّ الواضح أنّ هذا التغيير هو من السعة بحيث يشـمل كل فكره و قول و عمل صالح تدوم و تبقى آثاره و بركاته بين الأفراد و المجتمعات.

فـإذا رأينـا فى بعض الرّوايـات أنّ الباقيات الصالحات تفسّـر بصـلاة الليل، أو مودة أهل البيت عليهم السّـلام، فإن الغرض من ذلك هو بيان المصداق البارز، و ليس تحديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۳

المفهوم، خاصّة و إن بعض هذه الرّوايات استخدمت فيها كلمة (من) التى تدل على التبعيض.

فمثلا

فی روایة عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «لا تستصغر مودّتنا فإنّها من الباقیات الصالحات».

و

فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقرأ قوله: «لا تترکوا التسبیحات الأربع فإنّها من الباقیات الصالحات».

و حتی الأموال المتزلزلة أو الأبناء الذین یکونون أحیانا فتنة و اختبارا، إذ استخدمت فی مسیر اللّه تبارک و تعالی فإنّها ستکون من الباقیات الصالحات، لأنّ الذات المقدسة الإلهیة ذات أبدیة، فکل ما یرتبط بها و یسیر نحوها سیکتب له البقاء و الابدیة.

بحوث

۱- المغریات

مرّة أخری توظّف الآیات أعلاه دور المثال فی تجسید المعانی و استیعابها.

إنّ القرآن- من خلال مثل واحد- یعکس مجموعة من الحقائق العقلیة التی قد یکون من الصعب درکها من قبل الکثیر من الناس.

یقول للناس: إنّ دورة حیاة النبات و موته تتکرّر أمّا أعینکم فی کل سنة مرّة، فإذا کان عمر الإنسان (۶۰) سنة فإنّ هذا المشهد یتکرر أمامکم (۶۰) مرّة.

إذا ذهبتم فی الربیع إلی الصحراء فستشاهدون تلک المناظر الجمیلة و التی یدل کل ما فیها علی الحیاة، و لکن لو ذهبتم فی الخریف إلی نفس تلک الأماکن فسوف ترون الموت ینشر أجنحته فی کل مکان.

إنّ مثل الإنسان فی حیاته کمثل النبتة، فهو فی یوم کان طفلا کالبرعم، ثمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۴

أصبح شابا کالوردة المملوءة طراوة، ثمّ یصبح کهلا ضعیفا کالنبتة الذابلة الیابسة ذات الأوراق الصفراء، ثمّ إنّ عاصفة الموت تحصد هذا الإنسان لینتشر بعد فترة تراب جسده المتهرئ- بواسطة العواصف- إلی مختلف الاتجاهات و الأماکن.

و لکن قد تنتهی دورة الحیاة بصورة غیر طبیعیة، بمعنی أنّها لا ترتقی إلی نهایة شوطها، إذ من الممکن أن تنتهی فی منتصف الشوط بواسطة صاعقة أو عاصفة کما فی قوله تعالی فی الآیة (۲۴) من سورة یونس: إِنَّما مَثَلُ الْحَیاةِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا یَأْکُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّی إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّیَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَیْها أَتاها أَمْرُنا لَیْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

و فی بعض الأحیان لا تکون الحوادث سببا لفناء الحیاة فی منتصف دورة الحیاة، بل یستمر السیر الطبیعی حتی النهایة، أی وصولا إلی مرحلة الذبول و التشتت و الفناء کما أشارت إلی ذلک الآیة التی نبحثها.

فی کل الأحوال تنتهی الحیاة الدنیا- سواء فی الطریق الطبیعی أو غیر الطبیعی- إلی الفناء الذی یحل بساحة الإنسان عاجلا أم آجلا.

۲- عوامل تحطیم الغرور

قلنا: إنّ الکثیر من الناس عند ما یحصلون علی الإمکانات المادیة و المناصب یصابون بالغرور، و هذا الغرور هو العدو اللدود لسعادة الإنسان، و فی الآیات السابقة رأینا کیف أنّ الغرور یؤدی إلی الشرک و الکفر.

و لأنّ القرآن کتاب تربوی عظیم، فهو یستفید من عدة طرق لتحطیم الغرور.

ففی بعض الأحیان یجسّد لنا أنّ الفناء هو نهایة الثروات المادیة کما فی الآیات أعلاه.

و فی أحیان أخری یحذّر من إمکانیة تحوّل الثروات و الأولاد إلی عدو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۵

للإنسان (کما فی الآیة ۵۵ من سورة التوبة).

و فی مرّات یحذّر الناس و یوقظ فیهم حسهم الوجدانی، عند ما یستعرض أمامهم عاقبة المغرورین فی التأریخ من أمثال فرعون و قارون.

و قد رأینا القرآن یعالج إحساس الإنسان بالغرور من خلال تذکیره بماضیه، عند ما کان نطفة عدیمة الأهمیة أو ترابا لا یذکر، ثمّ یجسّد له مستقبله و ما هو صائر إلیه کی یعرف أنّ الغرور بین حدّی الضعف هذین یعتبر عملا جنونیا (کما فی الآیة ۶ من سورة الطارق، و الآیة ۸ من سورة السجدة، و الآیة ۳۸ من سورة القیامة).

و بهذه الصورة حاول القرآن توظیف أی أسلوب و وسیلة لمعالجة عوامل الغرور فی شخصیة الإنسان، هذه الصفة الشیطانیة التی هی مصدر الکثیر من الجرائم فی طول التأریخ.

و لکن من المسلّم به أنّ المؤمنین الحقیقیین لا یصابون بهذه الخصلة القبیحة عند الوصول إلی منصب أو ثروة، لیس هذا و حسب، بل تری أنّه لا یحدث أدنی تغییر فی برنامج حیاتهم، إذ یعتبرون کل هذه الأمور عبارة عن زینة عابرة، و بضاعة زائلة، و مصیرها إلی فناء عند ما تهب أدنی عاصفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۶

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۴۷ الی ۴۹]

اشارة

وَ یَوْمَ نُسَیِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَی الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۴۷) وَ عُرِضُوا عَلی رَبِّکَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا کَما خَلَقْناکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَکُمْ مَوْعِداً (۴۸) وَ وُضِعَ الْکِتابُ فَتَرَی الْمُجْرِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا فِیهِ وَ یَقُولُونَ یا وَیْلَتَنا ما لِهذَا الْکِتابِ لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً (۴۹)

التّفسیر

یا ویلتاه من هذا الکتاب!

تعقیبا لما کانت تتحدث به الآیات السابقة عن غرور الإنسان و إعجابه بنفسه، و ما تؤدی إلیه هذه الصفات من إنکار للبعث و المعاد، ینصب المقطع الراهن من الآیات التی بین أیدینا علی تبیان المراحل الممهدة للقیامة وفق الترتیب الآتی:

۱- مرحلة ما قبل بعث الإنسان.

۲- مرحلة البعث.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۷

۳- قسم من مرحلة ما بعد البعث.

الآية الأولى تذكّر الإنسان بمقدمات البعث و القيامة فتقول: إنّ انهيار معالم الشكل الراهن للعالم هى أوّل مقدمات البعث، و سيتمّ هذا التغيير لشكل العالم من خلال مجموعة مظاهر، فى الطليعة منها تسيير الجبال الرواسى و كل ما يمسك الأرض و يبرز عليها، حتى تبدو الأرض خالية من أىّ من المظاهر السابقة:

وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً.

هذه الآية تشير إلى حوادث قبيل البعث، و هى حوادث كثيرة جدّا.

و الملاحظ أنّ السور القصار تتحدث عنها بشكل بارز فى إطار حديثها عمّا بات يعرف اصطلاحا ب «أشراط الساعة».

إنّ المستفاد من مجموعة تلك السور أنّ وجه العالم الراهن يتغيّر بشكل كلىّ حيث تتلاشى الجبال، و تنهار الأبنية و الأشجار، ثمّ تضرب الأرض سلسلة من الزلازل، و تنطفئ الشمس، و يخمد نور القمر، و تظلم النجوم. و على حطام كل ذلك تظهر إلى الوجود سماء جديدة، و أرض جديدة، ليبدأ الإنسان حينئذ حياته الأخرى فى مرحلة البعث و الحساب.

بعد ذلك تضيف الآية قوله تعالى: وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً.

«نغادر» من «غدر» بمعنى الترك. و لذلك يقال للذى يخلف الوعد و الميثاق و يتركه بأنّه «غدر» و يقال لمياه الأمطار المتجمعة فى مكان واحد ب «الغدير» لأنّها قد تركت هناك.

فى كل الأحوال، تؤكّد الآية الآنفة الذكر على أنّ المعاد هو حالة عامّة لا يستثنى منها أحد.

الآية التى بعدها تتحدّث عن كيفية بعث الناس فتقول: وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا. إنّ استخدام هذا التعبير قد يكون إشارة إلى حشر كل مجموعة من الناس تتشابه فى أعمالها فى صف واحد؛ أو أنّ الجميع سيكونون فى صف واحد دون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۸

أية امتيازات أو تفاوت، و سوف يقال لهم: لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

فليس ثمّة كلام عن الأموال و الثروات، و لا الذهب و الزينة، و لا الامتيازات و المناصب المادية، و لا الملابس المختلفة، و ليس هناك ناصر أو معين، ستعودون كمثل الحالة التى خلقناكم فيها أوّل مرّة، بالرغم من أنّكم كنتم تتوهمون عدم إمكان ذلك: بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً.

و ذلك فى وقت سيطرت فيه حالة الغرور عليكم بما أوتيتم من إمكانات مادية غفلتم معها عن الآخرة، و أصبحتم تفكرون فى حياتكم الدنيا و خلودها، و غفلتم عن نداء الفطرة فيكم.

ثمّ تشير الآيات إلى مراحل أخرى من يوم البعث و المعاد فتقول: وَ وُضِعَ الْكِتابُ هذا الكتاب الذى يحتوى على أحوال الناس بكل تفصيلاتها: فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ و ذلك عند ما يطّلعون على محتواه فتتجلى آثار الخوف و الوحشة على وجوههم.

فى هذه الأثناء يصرخون و يقولون: وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها.

الجميع مدعوون للحساب عن كل شىء مهما دنا و صغر، إنّه موقف موحش .. لقد نسينا بعض أعمالنا و كأن لم نفعلها، حتى كنّا نظن بأنّنا لم نقم بعمل مخالف، لكن نرى اليوم أنّ مسئوليتنا أصبحت ثقيلة جدّا و مصيرنا مظلم.

بالإضافة إلى الكتاب المكتوب ثمة دليل آخر: وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً. وجدوا الحسنات و السيئات؛ الظلم و العدل، السلبيات و الخيانات، كل هذه و غيرها وجدوها متجسّدة أمامهم.

فى الواقع إنّهم يلاقون مصير أعمالهم: وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً. الذى سيشملهم هناك، هو- لا محالة- ما قاموا به فى هذه الحياة الدنيا، لذلك فلا يلومون أحدا سوى أنفسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۹

بحوث

١- سر انهدام الجبال

قلنا: إنّه في يوم الحشر و النشور سيتغير نظام العالم المادى، و قد وردت صياغات مختلفة حول انهدام الجبال في القرآن الكريم، يمكن أن تقف عليها من خلال ما يلي:

في الآيات التي نبحثها قرأنا تعبير نُسَيِّرُ الْجِبالَ و إنّ نفس هذه الصيغة التعبيرية يمكن ملاحظتها في الآية (٢٠) من سورة النبأ. و الآية (٣) من سورة التكوير.

و لكنّنا نقرأ في الآية (١٠) من سورة المرسلات قوله تعالى: وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ

في حين أنّنا نقرأ في الآية (١٤) من سورة الحاقة قوله تعالى: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً.

و في الآية (١٤) من سورة المزمّل قوله تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا.

و في الآية (٥) من سورة الواقعة قوله تعالى: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا.

أخيرا نقرأ قوله تعالى في الآية (٥) من سورة القارعة: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

و من الواضح أن ليس هناك تناف أو تضاد بين مجموع الآيات أعلاه، بل هي صيغ لمراحل مختلفة لزوال جبال العالم و دمارها، هذه الجبال التي تعتبر أكثر أجزاء الأرض ثباتا و استقرارا، حيث تبدأ العملية من نقطة حركة الجبال حتى نقطة تحوّلها إلى غبار و تراب بحيث لا يرى في الفضاء سوى لونها! ترى ما هي أسباب هذه الحركة العظيمة المخفية؟

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٩، ص: ٢٩٠

إنّها غير معلومة لدينا، إذ قد يكون السبب في ذلك هو الزوال المؤقت لظاهرة الجاذبية حيث تكون الحركة الدورانية للأرض سببا في أن تتصادم الجبال فيما بينها ثمّ حركتها باتجاه الفضاء. و قد يكون السبب هو الإنفجارات الذرية العظيمة في النّواة المركزية للأرض، و بسببها تحدث هذه الحركة العظيمة و الموحشة.

و على كل حال، فهذه الأمور تدلّ على أنّ حالة البعث و النشور هي ثورة عظيمة في عالم المادة الميت، أيضا في تجديد حياة الناس، حيث تكون كل هذه المظاهر هي بداية لعالم جديد يكون في مستوى أعلى و أفضل، إذ بالرغم من أنّ الروح و الجسم هما اللذان يحكمان طبيعة ذلك العالم، إلّا أنّ جميع الأمور ستكون أكمل و أوسع و أفضل.

إنّ التعبير القرآني يتضمّن هذه الحقيقة أيضا، و هي أنّ عملية فناء عيون الماء و دمار البساتين هي أمور سهلة في مقابل الحدث الأعظم الذي ستتلاشى عنده الجبال الراسيات، و يشمل الفناء كل الموجودات بما في ذلك أعظمها و أشدّها.

٢- صحيفة الأعمال

يرى العلّامة الطباطبائي في تفسير (الميزان) أنّ في يوم القيامة ثلاثة كتب، أو ثلاثة أنواع من صحف الأعمال:

أوّلا: كتاب واحد يوضع لحساب أعمال جميع البشر، و يشير لذلك قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها وَ وُضِعَ الْكِتابُ

الثّاني: كتاب يختص بكل أمّة، إذ لكل أمة كتاب قد كتب فيه أعمالها كما يصرّح بذلك قول الحق سبحانه و تعالى في الآيتين ٢٨، ٢٩ من سورة الجاثية في قوله تعالى: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا.

الثّالث: كتاب لكل انسان بصورة مستقلة كما ورد في سورة الأسراء: الآية (١٣) وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ

الْقِيامَةِ كِتاباً ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۱

و طبیعی أنّه لا یوجد أی تعارض بین هذه الآیات، لأنّه لیس ثمّة مانع من أن تدوّن أعمال الإنسان فی عدّة کتب، کما نشاهد نظیر ذلک فی برامج دنیا الیوم، إذ من أجل التنظیم الدقیق لتشکیلات دولة ما، هناک نظام و حساب لکل قسم، ثمّ إنّ هذه الأقسام و فی ظل أقسام أکبر لها حساب جدید.

و لکن یجب الانتباه إلی أنّ صحیفة أعمال الناس فی یوم القیامة لا تشبه الدفتر و الکتاب العادی فی هذا العالم، فهی مجموعة ناطقة غیر قابلة للنکران، و قد تکون الناتج الطبیعی لأعمال الإنسان نفسه.

فی کل الأحوال، نری أنّ الآیات التی نبحثها تظهر أنّه علاوة علی تدوین أعمال الناس فی الکتب الخاصّة، فإنّ نفس الأعمال ستتجسّد هناک و ستحضر:

وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً.

فالأعمال التی تکون شکل طاقات متناثرة فی هذا العالم و تکون محجوبة عن الأنظار و تبدو و کأنّها قد تلاشت و انتهت، هی فی الحقیقة لم تنته (و قد أثبت العلم الیوم أنّ أی مادی أو طاقة لا یمکن أن تفنی، بل یتغیر شکلها دائما).

ففی ذلک الیوم تتحوّل هذه الطاقة الضائعة بإذن اللّه إلی مادة، و تتجسّد علی شکل صور مناسبة، فالأعمال الحسنة علی شکل صور لطیفة و جمیلة، و الأعمال السیئة علی شکل صور قبیحة، و هذه الأعمال ستکون معنا، و لهذا السبب نری أنّ آخر جملة فی الآیات أعلاه تقول: وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً لأنّ الثواب و العقاب یترتبان علی نفس أعمال الإنسان.

بعض المفسّرین اعتبر جملة وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً تأکیدا علی قضیة صحیفة الأعمال، و قالوا: إنّ معنی الجملة هو أنّنا سنجد جمیع أعمالنا مدوّنة فی ذلک الکتاب ۱۷۰].

البعض الآخر اعتبر کلمة (جزاء) فی هذه الآیة مقدّرة و قالوا: إنّ المعنی هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۲

أنّهم فی ذلک الیوم «سیشاهدون جزاء أعمالهم جاهزا»[۱۷۱].

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أکثر ملاءمة مع ظاهر الآیات.

أمّا فیما یخص تجسّد الأعمال فقد ذکرنا شرحا مفصلا لذلک فی نهایة الآیة (۳۰) من سورة آل عمران، و سنبحثه أکثر مرّة أخری أثناء الحدیث عن الآیات التی تناسب الموضوع.

۳- الإیمان بالمعاد و دوره فی تربیة الناس

حقّا إنّ القرآن کتاب تربوی عجیب، فعند ما یذکر للناس جانبا من مشاهد القیامة یقول: إنّ الجمیع سیعرضون علی محکمة الخالق العادلة علی شکل صفوف منظمة، فی حین أن تشابه عقائدهم و أعمالهم هو المعیار فی الفرز بین صفوفهم! إنّ أیدیهم هناک فارغة من کل شیء، فقد ترکوا کل متعلقات الدنیا، فهم فی جمعهم فرادی، و فی فردیتهم مجموعین، تعرض صحائف أعمالهم.

هناک یذکر کل شیء، صغائر و کبائر الناس، و الأکثر من ذلک أنّ الأعمال و الأفکار نفسها تحیا .. تتجسّد .. تحیط الأعمال المتجسّدة بأطراف کل شیء، فالناس مشغولون بأنفسهم بحیث أنّ الأم تنسی ولدها، و الابن ینسی الأب و الأم بشکل کامل.

هذه المحکمة الإلهیة- و الجزاء العظیم- التی تنتظر المسیئین، ستلقی بظلها الثقیل و الموحش علی جمیع الناس، حیث تحبس الأنفاس فی الصدور، و تتوقف العیون عن الحرکة! تری ما مقدار ما یعکسه الإیمان بهذا الیوم- بهذه المحکمة بکل ما تتخلله من مشاهد و

مواقف- على قضية تربية الإنسان و دفعه لمسك زمام شهواته!؟

فی حديث عن الإمام الصادق نقرأ وصفه عليه السّلام لهذا اليوم: «إذا كان يوم القيامة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۳

دفع للإنسان كتاب، ثمّ قيل له: اقرأ» قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: «إنّه يذكره، فما من لحظة و لا كلمة و لا نقل قدم و لا شيء فعله إلّا ذكره، كأنّه فعله تلك الساعة، و لذلك قالوا: يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها»[۱۷۲].

من هنا يتّضح الدور المؤثر للإيمان بالقيامة فی تربية الإنسان، و إلّا فهل يمكن أن يجمع الإنسان بين الذنب، و بين إيمانه و يقينه بهذا اليوم!؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۴

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۵۰ الى ۵۳]

اشارة

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِی وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (۵۰) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (۵۱) وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِیَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (۵۲) وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (۵۳)

التّفسير

لا تتخذوا الشياطين أولياء:

لقد تحدثت الآيات مرّات عدّة عن خلق آدم و سجود الملائكة له، و عدم انصياع إبليس. و قد قلنا: إنّ هذا التكرار يطوی دروس متعدّدة، و فی كل مقطع مكرّر هناك دروس و عبر جديدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۵

بعبارة أخرى نقول: إنّ للحادثة المهمّة عدّة أبعاد، و فی كل مرّة تذكر فيها يتجلى واحد من أبعادها.

و لأنّ الآيات السابقة ذكرت مثالا واقعيا عن كيفية وقوف الأثرياء المستكبرين و المغرورين فی مقابل الفقراء المستضعفين و تجسّد عاقبة عملهم، و لأنّ الغرور كان هو السبب الأصلی لانحراف هؤلاء و انجرارهم إلى الكفر و الطغيان، لذا فإنّ الآيات تعطف الكلام على قصة إبليس و كيف أبى السجود لآدم غرورا منه و علوا، و كيف قاده هذا الغرور و العلو إلى الكفر و الطغيان.

إضافة إلى ذلك، فإنّ هذه القصّة توضّح أنّ الانحرافات تنبع من وساوس الشيطان، كم تكشف أنّ الاستسلام إلى وساوس الشيطان الذی أصرّ على عناده و عداوته للحق تعالى يعدّ غاية الجنون و الحمق.

فی البداية تقول الآيات: تذكروا ذلك اليوم الذی فيه: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ هذا الاستثناء يمكن أن يوهمنا بأنّ إبليس كان من جنس الملائكة، فی حين أنّ الملائكة معصومون، فكيف سلك إبليس- إذا- طريق الطغيان و الكفر إذا كان من جملتهم؟

لذلک فإنّ الآیات- منعا لهذا الوهم- تقول مباشرة إنّه: کانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ

إنّه إذا لم یکن من الملائکة، لکنّه- بسبب عبودیته و طاعته للخالق جلّ و علا- قرّب و کان فی صف الملائکة، بل و کان معلما لهم، إلّا أنّه- بسبب لحظة من الغرور و الکبر- سقط سقوطا بحیث أنّه فقد معه کل ملاکاته المعنویة، و أصبح أکثر الموجودات نفرة و ابتعادا عن اللّه تبارک و تعالی.

ثمّ تقول الآیة: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّیَّتَهُ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِی

و العجب أنّهم: وَ هُمْ لَکُمْ عَدُوٌّ.

و هذا العدو، هو عدوّ صعب مصمّم علی ضلالکم و أن یوردکم سوء العاقبة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۶

و قد أظهر عدوانه منذ الیوم الأوّل لأبیکم آدم علیه السّلام.

فاتّخاذ الشیطان و أولاده. بدلا من الخالق المتعال أمر قبیح: بِئْسَ لِلظَّالِمِینَ بَدَلًا[۱۷۳].

حقّا إنّه لأمر قبیح أن یترک الإنسان الإله العالم الرحیم العطوف ذا الفیوضات و الرحمات و الألطاف، و یتمسک بالشیطان و أصحابه، إنّه أقبح إختیار، فأی عاقل یقبل أن یتخذ من عدوّه الذی ناصبه العداء- منذ الیوم الأوّل ولیا و قائدا و دلیلا و معتمدا؟! الآیة التی بعدها هی دلیل آخر علی إبطال هذا التصوّر الخاطئ، إذ تقول:

عن إبلیس و ابنائه أنّهم لم یکن لهم وجود حین خلق السماوات و الأرض، بل لم یشهدوا حتی خلق أنفسهم: ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ حتی نطلب العون منهم فی خلق العالم، أو نطلعهم علی أسرار الخلق.

لذا فإنّ الشخص الذی لیس له أی دور فی خلق العالم، و حتی فی خلق من یقع علی شاکلته و من هو من نوعه، و لا یعرف شیئا من أسرار الخلق، کیف یکون مستحقا للولایة، أو العبادة، و أی قدرة أو دور یملک؟

إنّه کائن ضعیف و جاهل حتی بقضایاه الذاتیة، فکیف یستطیع أن یقود الآخرین، أو أن ینقذهم من المشاکل و الصعوبات؟

ثمّ تقول: وَ ما کُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّینَ عَضُداً.

یعنی أنّ الخلق قائم علی أساس الصدق و الصحة و الهدایة، أمّا الکائن الذی یقوم منهج حیاته علی الإضلال و الإفساد، فلیس له مکان فی إدارة هذا النظام، لأنّه یسیر فی اتجاه معاکس لنظام الخلق و الوجود؛ إنّه مخرّب و مدمّر و لیس مصلحا متکاملا.

آخر آیة من الآیات التی نبحثها، تحذّر مرّة أخری، و تقول: تذکروا یوما یأتی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۷

فیه النداء الإلهی: وَ یَوْمَ یَقُولُ نادُوا شُرَکائِیَ الَّذِینَ زَعَمْتُمْ

لقد کنتم تنادونهم عمرا کاملا، و کنتم تسجدون لهم، و الیوم و بعد أن أحاطت بکم أمواج العذاب فی ساحة الجزاء، نادوهم لیأتوا لمساعدتکم و لو لساعة واحدة فقط.

هناک ینادی الأشخاص الذین لا تزال ترسبات أفکار الدنیا فی عقولهم:

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُمْ فلم یجیبوا علی ندائهم، فکیف بمساعدتهم و انقاذهم!! وَ جَعَلْنا بَیْنَهُمْ مَوْبِقاً[۱۷۴].

ثمّ تقول الآیة التی بعدها موضحة عاقبة الذین اتبعوا الشیطان و المشرکین:

وَ رَأَی الْمُجْرِمُونَ النَّارَ.

لقد انکشفت لهم النّار التی لم یکونوا یصدّقون بها أبدا، و ظهرت أمام أعینهم، و حینئذ یشعرون بأخطائهم، و یتیقنون بأنّهم سیدخلون النّار و ستدخلهم:

فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها.

ثمّ یتیقنون أیضا أنّ لا منقذ لهم منها: وَ لَمْ یَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً.

فلا تنقذهم الیوم منها لا معبوداتهم و لا شفاعة الشفعاء، و لا الکذب أو التوسّل بالذهب و القوّة، إنّها النّار التی یزداد سعیرها بسبب أعمالهم.

ینبغی الالتفات هنا إلی أنّ جملة «ظنّوا» بالرغم من أنّها مشتقّة من «الظن» إلّا أنّها فی هذا المورد، و فی موارد أخری تأتی بمعنی الیقین، لذا فإنّ الآیة (۲۴۹) من سورة البقرة تستخدم نفس التعبیر بالرغم من أنّها تتحدث عن المؤمنین الحقیقیین و المجاهدین المرابطین الذین کانوا مع طالوت لقتال جالوت الجبّار الظالم، إذ تقول: قالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ کَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۸

فإنّ کلمة «موقعوها» مشتقّة من «مواقعة» بمعنی الوقوع علی الآخرین، و هی إشارة إلی أنّهم یقعون علی النّار، و أنّ النّار تقع علیهم؛ فالنّار تنفذ فیهم و هم ینفذون فی النّار، و قد قرأنا فی الآیة (۲۴) من سورة البقرة قوله تعالی: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ.

بحثان

۱- هل کان الشیطان ملکا؟

کما نعلم أنّ الملائکة أطهار و معصومون کما صرّح بذلک القرآن الکریم: بَلْ عِبادٌ مُکْرَمُونَ لا یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ [۱۷۵].

و یعود سبب عدم وجود التکبر و الغرور و دوافع ارتکاب الذنوب لدی الملائکة، إلی أن العقل لا الشهوة یتحکم فی أعماقهم.

من ناحیة ثانیة، یتداعی إلی الذهن من خلال استثناء إبلیس فی الآیات المذکورة أعلاه (و آیات أخری فی القرآن الکریم) أنّه من صنف الملائکة، بأنّه کان منهم. و هنا یرد علی عصیانه و تمرده و الإشکال التالی: کیف تصدر ذنوب کبیرة عن ملک من الملائکة؟ و قد جاء فی نهج البلاغة «ما کان اللّه سبحانه لیدخل الجنة بشرا بأمر أخراج به منها ملکا»[۱۷۶].

الآیات المذکورة تحل لنا رموز هذه المشکلة حینما تقول: کانَ مِنَ الْجِنِ و الجن کائنات خفیة عن أنظارنا لها عقل و إحساس و غضب و شهوة، و متی ما وردت فی القرآن کلمة «الجن» فإنّها تعنی هذه الکائنات ... لکن من یعتقد من المفسّرین بأن إبلیس کان من الملائکة، فإنّما یفسر الآیة المذکورة آنفا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۹

بمفهومها اللغوی، و یقول: إنّه یفهم من عبارة کانَ مِنَ الْجِنِ أنّه کان خفیا عن الأنظار کسائر الملائکة، و هذا المعنی خلاف الظاهر تماما.

و من الدلائل الواضحة التی تؤکّد ما ذهبنا إلیه من المعنی، أنّ القرآن الکریم یقول فی الآیة (۱۵) من سورة الرحمن: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ أی من نیران مختلطة و من جانب آخر کان منطق إبلیس عند ما امتنع عن السجود لآدم:

خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ [۱۷۷].

هذا بالإضافة إلی أن الآیات الشریفة أعلاه أشارت إلی أن لإبلیس (ذریة) فی حین أن الملائکة لا ذریة لهم.

إن ما ذکرناه آنفا، مضافا إلیه الترکیبة الجوهریة للملائکة تثبت أن إبلیس لم یکن ملکا، لکن آیة السجود لآدم شملته- أیضا- لانضمامه إلی صفوف الملائکة، و کثرة عبادته للّه و طموحه للوصول إلی منزلة الملائکة المقربین.

و إنّما بیّن القرآن امتناع إبلیس عن السجود بشکل استثنائی، و أطلق علیه الأمام علیّ علیه السّلام فی الخطبة القاصعة فی نهج البلاغة کلمة (الملک) کتعبیر مجازی.

و

جاء فی کتاب (عیون الأخبار) عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام: «إنّ الملائکة معصومون و محفوظون من الکفر بلطف اللّه تعالی» قالا: قلنا له: فعلی هذا لم یکن إبلیس أیضا ملکا؟، فقال: «لا، بل کان من الجن، أما تسمعان اللّه تعالی یقول: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ کانَ مِنَ الْجِنِ فأخبر عزّ و جل أنّه من الجن، ...»[۱۷۸]

و

فی حدیث آخر نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام، بأن أحد أصحابه المخلصین و هو جمیل بن دراج قال: سألته عن إبلیس کان من الملائکة و هل کان یلی من أمر السماء شیئا؟ قال: «لم یکن من الملائکة و لم یکن یلی من السماء شیئا، أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۰

کان من الجن و کان مع الملائکة، و کانت الملائکة تراه أنّه منها، و کان اللّه یعلم أنّه لیس منها، فلمّا أمر بالسجود کان منه الذی کان»[۱۷۹].

و عند ما صدر أمر السجود تحقق الشیء الذی نعرفه (کشفت الأستار و اتضحت ماهیة إبلیس).

و هناک بحوث تفصیلیة ذکرناها حول إبلیس و الشیطان بشکل عام فی ذیل الآیات (۱۱- ۱۸) من سورة الأعراف، و فی ذیل الآیة (۱۱۲) من سورة الأنعام، و فی ذیل الآیة (۳۴) من سورة البقرة.

۲- لا تستعینوا بالضالّین

مع أن هذه الآیات، صادرة عنه تعالی و تنفی وجود عضد له من الضالین، و نعلم أنّه تعالی لیس بحاجة إلی من یعینه سواء کان المعین ضالا أم لم یکن، لکنها تقدم لنا درسا کبیرا للعمل الجماعی، حیث یجب أن یکون الشخص المنتخب للنصرة و العون سائرا علی منهج الحق و العدالة و یدعو إلیها، و ما أکثر ما رأینا أشخاصا طاهرین قد ابتلوا بمختلف أنواع الانحرافات و المشاکل و أصیبوا بالخیبة و سوء الحظ جراء عدم الدقّة فی انتخاب الأعوان، حیث التفّ حولهم عدد من الضالّین و المضلّین حتی تلفت أعمالهم، و کانت خاتمة أمرهم أن فقدوا کل ملکاتهم الإنسانیة و الاجتماعیة.

إنّنا نقرأ فی تاریخ کربلاء أن سید الشهداء الإمام الحسین علیه السّلام قام یتمشی إلی (عبید اللّه بن الحر الجعفی) و هو فی فسطاطه حتی دخل علیه و سلم علیه، فقام ابن الحر و أخلی له المجلس، فجلس و دعاه إلی نصرته، فقال عبید اللّه بن الحر: و اللّه ما خرجت من الکوفة إلّا مخافة أن تدخلها، و لا أقاتل معک، و لو قاتلت لکنت أوّل مقتول، و لکن هذا سیفی و فرسی فخذهما ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۱

فأعرض الإمام عنه بوجهه

فقال: «إذا بخلت علینا بنفسک فلا حاجة لنا فی مالک، و تلا الآیة وَ ما کُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّینَ عَضُداً[۱۸۰].

إشارة إلی أنّک ضال و مضل، و لا تستحق أن تکون نصیرا.

و علی أیة حال، فإن البقاء دون نصیر و معین أفضل من طلب معونة الأشخاص الملوثین و الضالین و اتّخاذهم عضدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۲

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۵۴ الی ۵۶]

اشارة

وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِی هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ وَ کانَ الْإِنْسانُ أَکْثَرَ شَیْءٍ جَدَلاً (۵۴) وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدی وَ یَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِیَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِینَ أَوْ یَأْتِیَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا (۵۵) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِینَ إِلاَّ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ یُجادِلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِالْباطِلِ لِیُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آیاتِی وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً (۵۶)

التّفسیر

فی انتظار العقاب:

تنطوی هذه الآیات علی تلخیص و استنتاج لما ورد فی الآیات السابقة، و هی تشیر- أیضا- إلی بحوث قادمة.

الآیة الأولی تقول: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِی هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ

لقد ذکرنا نماذج من تأریخ الماضین الملیء، بالإثارة، و قد أوضحنا للناس الحوادث المرّة للحیاة و اللحظات الحلوة فی التأریخ، و قد قلّبنا بیان هذه الأمور بحیث تتقبلها القلوب المستعدّة للحق، و تکون الحجة علی الآخرین تامّة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۳

و لا یبقی ثمّة مجال للشک.

و لکن بالرغم من هذا فإنّ مجموعة عصاة لم یؤمنوا أبدا: وَ کانَ الْإِنْسانُ أَکْثَرَ شَیْءٍ جَدَلًا.

«صرّفنا» من «تصریف» و تعنی التغییر و التحوّل من حال إلی حال. الهدف من هذا التعبیر فی الآیة أعلاه هو أنّنا تحدثنا مع الناس بکل لسان یمکن التأثیر به علیهم.

«جدل» تعنی محادثة الآخرین علی أساس المنازعة و إظهار نزعة التسلّط علی الآخرین. و لهذا فإنّ (المجادلة) تعنی قیام شخصین بإطالة الحدیث فی حالة من التشاجر، و هذه الکلمة فی الأصل مأخوذة- و کما یقول الراغب فی المفردات- من (جدلت الحبل) أی ربطت الحبل بقوّة، و هی کنایة عن أنّ الشخص المجادل یستهدف من خلال جدله أن یحرف الشخص الآخر- بالقوّة- عن أفکاره.

و قال آخرون: إنّ أصل (الجدال) هو بمعنی المصارعة و إسقاط الآخر علی الأرض. و هی تستعمل أیضا فی الدلالة علی الشجار اللفظی.

فی کل الأحوال، یکون المقصود بالناس فی الآیة هم تلک الفئة التی لا تقوم فی وجودها و ممارساتها علی أصول التربیة الإسلامیة و قواعدها، و قد أکثر القرآن فی استعمال هذه التعابیر، و قد شرحنا هذه الحالة مفصلا فی نهایة الحدیث عن الآیة (۱۲) من سورة یونس.

الآیة التی بعدها تقول: إنّه بالرغم من کل هذه الأمثلة المختلفة و التوضیحات المثیرة و الأسالیب المختلفة التی ینبغی أن تنفذ إلی داخل الإنسان المستعد لقبول الحق، فإنّ هناک مجموعة کبیرة من الناس لم تؤمن: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدی وَ یَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِیَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِینَ أی مصیر الأمم السالفة: أَوْ یَأْتِیَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا[۱۸۱] فیرونه بامّ أعینهم.

إنّ هذه الآیة- فی الحقیقة- إشارة الی أنّ هذه المجموعة المعاندة و المغرورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۴

لا تؤمن بإرادتها و بشكل طبيعى أبدا، بل هم يؤمنون فى حالتين فقط:

أوّلا: عند ما يصيبهم العذاب الأليم الذى نزل مثله فى الأقوام و الأمم السابقة.

ثانيا: عند ما يشاهدون العذاب الإلهى بأعينهم على الأقل و قد أشرنا مرارا إلى أنّ مثل هذا الإيمان هو إيمان عديم الفائدة.

و من الضرورى الانتباه هنا إلى أنّ مثل هؤلاء الناس لم يكونوا ينظرون مثل هـذه العاقبة أبدا، أمّا لأنّ هذه العاقبة كانت حتمية بالنسبة لهم و هى الشىء الوحيد الذى ينتهى إليه مصيرهم، لذا نرى القرآن قد طرحها على شكل انتظار، و هذا نوع من الكناية اللطيفة. و مثله أن تقول للشخص العاصى: إنّ أمامك- فقط- أن تنتظر لحظة الحساب، بمعنى أنّ الحساب و العقاب أمر حتمى بالنسبة له، و هو بذلك يعيش حالة انتظار للمصير المحتوم.

إنّ بعض حالات العصيان و الغرور التى يصاب بها الإنسان قد تسلّط عليه بحيث لا- يؤثّر فيه لا الوحى الإلهى، و لا دعوات الأنبياء الهادية، و لا رؤية دروس و عبر الحياة الاجتماعية، و لا مطالعة تأريخ الأمم السابقة. إنّ الذى ينفع مع هذه الفئة من الناس هو العذاب الإلهى الذى يعيد الإنسان إلى رشده، و لكن عند نزول العذاب تغلق أبواب التوبة، و لا يوجد ثمّة طريق للرجعة و الاستغفار.

و من أجل طمأنة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مقابل صلافة و عناد أمثال هؤلاء، تقول الآية: وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ

ثمّ تقول الآية: إنّ هذه القضية ليست جديدة، بل إنّ من واقع هؤلاء الأشخاص المعارضة و الاستهزاء بآيات اللّه: وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۵

لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً[۱۸۲].

و هذه الآية تشبه الآيات (۴۲- ۴۵) من سورة الحج التى تقول: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ ... إلى آخر الآيات.

و يحتمل فى تفسير الآية أنّ اللّه تبارك و تعالى يريد أن يقول: إنّ عمل الأنبياء لا يقوم على الإجبار و الإكراه، بل إنّ مسئوليتهم التبشير و الإنذار، و القرار النهائى مرتبط بنفس الناس كى يفكروا بعواقب الكفر و الإيمان معا، و حتى يؤمنوا عن تصميم و إرادة و بيّنة، لا أن يلجأوا إلى الإيمان الاضطرارى عند نزول العذاب الإلهى.

لكن، مع الأسف أن يساء استخدم حرية الإختيار هذه و التى هى وسيلة لتكامل الإنسان و رقيّه، عند ما يقوم أنصار الباطل بالجدال فى مقابل أنصار الحق، إذ يريدون القضاء على الحق عن طريق الاستهزاء أو المغالطة. و لكن هناك قلوبا مستعدة لقبول الحق دوما و التسليم له، و إنّ هذا الصراع بين الحق و الباطل كان و سيبقى على مدى الحياة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۶

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۵۷ الى ۵۹]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (۵۷) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (۵۸) وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (۵۹)

التّفسير

لا استعجال فی العقاب الإلهی:

الآیات السابقة کانت تتحدّث عن مجموعة من الکافرین المتعصبین و المظلمة قلوبهم؛ و الآیات التی بین أیدینا تستمر فی نفس البحث.

ففی البدایة قوله تعالی: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُکِّرَ بِآیاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِیَ ما قَدَّمَتْ یَداهُ

إنّ استخدم تعبیر (ذکّر) یوحی إلی أنّ تعلیمات الأنبیاء علیهم السّلام هی بمثابة التذکیر بالحقائق الموجودة بشکل فطری فی أعماق الإنسان، و إنّ مهمّة الأنبیاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۷

هی رفع الحجب عن نقاء و شفافیة هذه الفطرة.

هذا المعنی

ورد فی الخطبة الأولی من خطب نهج البلاغة حیث یقول أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام: «لیستأدوهم میثاق فطرته، و یذکروهم منسی نعمته، و یحتجوا إلیهم بالتبلیغ، و یثیروا لهم دفائن العقول».

الطریف فی الأمر أنّ الآیة الکریمة رسمت ثلاثة مسالک لیقظة هؤلاء و إعادتهم إلی نور الهدایة، هی:

أوّلا: إنّ هذه الحقائق تلائم بشکل کامل ما هو مکنون فی فطرتکم و وجدانکم و أرواحکم.

ثانیا: إنّها جاءت من قبل خالقکم.

ثالثا: علیکم أن لا تنسوا أنّکم اقترفتم الذنوب، و أنّ منهاج عمل الأنبیاء هو فتح باب التوبة من الذنوب و الهدایة للصواب.

لکن هذه الفئة من الناس لم تؤمن برغم کل ذلک: إِنَّا جَعَلْنا عَلی قُلُوبِهِمْ أَکِنَّةً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَ فِی آذانِهِمْ وَقْراً[۱۸۳] و بذلک لا تنفع معهم دعوتک: وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَی الْهُدی فَلَنْ یَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً.

و لا نعتقد أننا بحاجة إلی أن نوضح أن سبب انعدام قابلیة التشخیص و القدرة و الإحساس و السمع لدی هؤلاء، إنّما کان من عند اللّه، و لکن بسبب ما قَدَّمَتْ یَداهُ و بسبب الأعمال التی قاموا بها سابقا، و هذا هو الجزاء المباشر لأعمالهم و لما کسبت أیدیهم. بعبارة أخری: إنّ الأعمال القبیحة السیئة و المخزیة تحوّلت إلی ستار و ثقل، أی (کنان و وقر) علی قلوبهم و آذانهم، و هذه الحقیقة تذکرها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۸

الکثیر من الآیات القرآنیة، إذ نقرأ علی سبیل المثال قوله تعالی فی الآیة (۱۵۵) من سورة النساء: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَیْها بِکُفْرِهِمْ فَلا یُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِیلًا.

و لکن هناک من یتذرّع بشتی الحجج و الذرائع لإثبات فکرة الجبر و دعم مذهبه فی ذلک، دون أن یأخذ بنظر الاعتبار بقیة هذه الآیة، و سائر الآیات القرآنیة الأخری التی تفسرها، بل یعتمد علی ظواهر ألفاظ الآیات و یتخذها سندا لإثبات مقولة الجبر، فی حین أنّ الجواب علی ذلک- کما أسلفنا- واضح بدرجة کبیرة.

إنّ البرنامج التربوی للخالق جلّ و علا هو أن یعطی لعباده الفرصة بعد الأخری، و هو جلّ و علا لا یعاقب بشکل فوری مثل الجبارین و الظالمین، بل إنّ رحمته الواسعة تقتضی دوما إعطاء أوسع الفرص للمذنبین، لذا فإنّ الآیة التی بعدها تقول: وَ رَبُّکَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ. لَوْ یُؤاخِذُهُمْ بِما کَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ فإذا کانت الإرادة الإلهیة تقتضی إنزال العذاب بسبب ارتکابهم للذنوب لتحقّق ذلک فورا. بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ یَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا[۱۸۴].

فغفرانه تعالی یقضی أن یرحم التوابین، و رحمته تقضی أن لا- یعجّل عذاب غیرهم، إذ من المحتمل أن یلتحق بعضهم بصفوف

التوابين، إلّا أن عدالته تعالى تقتضى مجازاة المذنبين العاصين الظالمين عند ما يصل طغيانهم و تمردهم إلى أقصى درجاته، و عند ما يكون بقاء مثل هؤلاء الأفراد الفاسدين المفسدين الذين لا يوجد أمل فى إصلاحهم، عبثا و بدون فائدة، لذا ينبغى تطهير الأرض منهم، و من لوث وجودهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۹

و أخيرا تنتهى هذه المجموعة من الآيات إلى توجيه التحذير الأخير من خلال التذكير بالعاقبة المؤلمة المرّة لمن ظلم من السابقين ليكون مصيرهم عبرة لمن يسمع، فتقول: إنّ هذه المدن و القرى أمامكم، و لكم أن تشاهدا خرائبها و الدمار و الذى حلّ فيها، و قد أهلكنا أهلها بما ارتكبوا من ظلم، فى نفس الوقت الذى لم نعجّل فيه لهم العذاب، بل جعلنا موعدا لمهلكهم: وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۰

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۶۰ الى ۶۴]

اشارة

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (۶۰) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (۶۱) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (۶۲) قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (۶۳) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (۶۴)

التّفسير

لقاء موسى و الخضر عليهما السّلام:

ذكر المفسّرون فى سبب نزول هذه الآيات أنّ مجموعة من قريش جاؤوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سألوه عن عالم كان موسى عليه السّلام مأمورا باتباعه، و فى الجواب على ذلك نزلت هذه الآيات.

لقد ذكرت فى سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة و هذه القصص هى: قصّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۱

أصحاب الكهف التى انتهينا منها؛ و قصّة موسى و الخضر عليهما السّلام؛ و قصّة ذى القرنين التى سنقف على ذكرها فيما بعد.

هذه القصص الثلاث تخرجنا من الأفق المحدود فى حياتنا و ما تعدونا عليه و ألفناه، و تبيّن لنا أن حدود العالم لا تنحصر فى نطاق ما نرى و ما نشاهد، و أنّ الشكل العالم للحوادث و الأحداث ليس هو ما نفهمه من خلال النظرة الأولى.

و إذا كانت قصّة أصحاب الكهف تتحدث عن فتية تركوا كلّ شىء من أجل أن يحافظوا على إيمانهم، و قد أدى بهم ذلك إلى حوادث عظيمة ذات أبعاد تربوية لجميع الناس، فإنّ قصّة موسى و الخضر لها أبعاد عجيبة أخرى. ففى القصّة يواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبيّا من أولى العزم بكل وعيه و مكانته فى زمانه يعيش محدودية فى علمه و معرفته من بعض النواحى، و هو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس و يتعلم على يديه، و نرى أنّ المعلم يقوم بتعليمه دروسا يكون الواحد منها أعجب من الآخر. ثمّ إنّ هذه القصّة تنطوى- كما سنرى- على ملاحظات مهمّة جدّا.

فى أوّل آية نقرأ قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً.

إنّ المعنى بالآيـة هو بلاـ شـك موسـى بن عمران النّبى المعروف من أولى العزم، بـالرغم ممّـا احتمله بعض المفسّـرين من أنّ موسـى المـذكور فى الآيـة هو غير موسـى بن عمران عليه السّـلام، و سوف نرى- فيما بعد- أنّ اعتماد هذا الرأى كان بسـبب عدم اسـتطاعتهم حل بعض الإشكالات الواردة فى القصّة، فى حين أنّه كلما ورد اسم (موسى) فى القرآن فالمراد به موسى بن عمران.

أمّا المعنى من (فتاه) فهو كما يقول أكثر المفسّـرين؛ كما تشـير إلى ذلك العديـد من الرّوايات: يوشع بن نون، الرجل الشـجاع الرشـيد المؤمن من بنى إسرائيل.

و استخدام كلمة (فتى) فى وصفه قد يكون بسبب هذه الصفات البارزة، أو بسبب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۲

خدمته لموسى عليه السّلام و مرافقته له.

(مجمع البحرين) بمعنى محل التقاء البحرين، و هناك كلام كثير بين المفسّـرين عن اسم هذين البحرين، و لكن- بشـكل عام- يمكن إجمال الحديث بثلاثة احتمالات هى:

أوّلاـ المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليـج العقبـة» مع «خليـج السويس» (إذا المعروف أنّ البحر الأحمر يتفرع شـمالا إلى فرعين: فرع نحو الشـمال الشـرقى حيث يشـكّل خليـج العقبـة، و الثّانى نحو الشـمال الغربى و يسـمى خليج السويس، و هذان الخليجان يرتبطان جنوبا و يتصلان بالبحر الأحمر).

ثانيا: المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال المحيط الهندى بالبحر الأحمر فى منطقة «باب المندب».

ثالثـا: محـل اتصال البحر المتوسط (الـذى يسـمّى- أيضا- ببحر الروم و البحر الأبيض) مع المحيط الأطلسـى، يعنى نفس المكان الـذى يطلق عليه اسم (مضيق جبل طارق) قرب مدينة «طنجة».

الاحتمال الثّالث مسـتبعد بحكم بعـد مكان موسـى عليه السّـلام عن جبل طارق الـذى يبعد عنه مسافة كبيرة جدّا، قد تصل فترة وصوله عليه السّلام إليه عدّة أشهر إذا انتقل بالوسائل العادية.

أمّـا الاحتمـال الثّانى، فمع أنّ المسافـة ما بينه و بين مكان موسـى عليه السّـلام أقرب، إلّا أنّه مسـتبعد- أيضا- بحكم الفاصل الكبير بين الشام و جنوب اليمن.

يبقى الاحتمال الأوّل هو الأقرب من حيث قربه إلى مكان موسـى عليه السّلام. و ما يرجح هذا الرأى هو ما نستفيده من الآيات- بشكل عام- من أنّ موسـى عليه السّـلام لم يسـلك طريقا طويلا بالرغم من أنّه كان مسـتعدا للسفر إلى أى مكان لأجل الوصول إلى مقصوده (فدقق فى ذلك).

و فى بعض الرّوايات إشارة إلى هذا المعنى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۳

كلمـة «حقب» تعنى المـدّة الطويلـة و التى فسّـرها البعض بثمانين عاما، و غرض موسـى عليه السّـلام من هذه الكلمة، هو أنّنى سوف لا أترك الجهد و المحاولة للعثور على ما ضيعته و لو أدّى ذلك أن أسير عدّة سنين.

و من مجموع ما ذكرنا أعلاه يتبيّن لنا أن موسـى عليه السّـلام كان يبحث عن شـىء مهم و قـد أقام عزمه و رسّـخ تصـميمه للعثور على مقصوده و عدم التهاون فى ذلك إطلاقا.

إنّ الشىء الذى كان موسى عليه السّلام مأمورا بالبحث عنه له أثر كبير فى مستقبله، و بالعثور عليه سوف يفتتح فصل جديد فى حياته. نعم، إنّه عليه السّـلام كـان يبحث عن عـالم يزيـل الحجب من أمـام عينيه و يريه حقائق جديـدة، و يفتـح باب العلوم أمامه، و سـنعرف سريعا أنّ موسى عليه السّلام كان يملك علامة للعثور على محل هذا العالم الكبير، و كان عليه السّلام يتحرك باتجاه تلك العلامة.

قوله تعالى: فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما أى السمكة التى كانت معهما، أمّا العجيب فى الأمر فإنّ الحوت: فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ

سَرَباً[۱۸۵].

و هناک کلام کثیر بین المفسّرین عن نوعیة السمک الذی کان معدا للغذاء ظاهرا هل کانت سمکة مشویة، أو مملّحة أو سمکة طازجة حیث بعثت فیها الحیاة بشکل اعجازی و قفزت الی الماء و غاصت فیه، هناک کلام کثیر بین المفسّرین.

و فی بعض کتب التّفسیر نری أنّ هناک حدیثا عن عین تهب الحیاة، و أنّ السمکة عند ما أصابها مقدار من ماء تلک العین عادت إلیها الحیاة.

و هناک احتمال آخر و هو أن السمکة کانت حیّة، بمعنی أنّها لم تکن قد ماتت بالکامل، حیث یوجد بعض أنواع السمک یبقی علی قید الحیاة فترة بعد إخراجه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۴

من الماء، و یعود إلی الحیاة الکاملة إذا أعید فی هذه الفترة إلی الماء.

و فی تتمة القصّة، نقرأ أنّ موسی و صاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرین شعرا بالجوع، و فی هذه الأثناء تذکّر موسی علیه السّلام أنّه قد جلب معه طعاما، و عند ذلک قال لصاحبه: فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِینا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً.

(غداء) یقال للطعام الذی یتمّ تناوله فی أوّل الیوم أو فی منتصفه. و لکنّا نستفید من التعابیر الواردة فی کتب اللغة أنّهم فی الأزمنة السابقة کانوا یطلقون کلمة (غداء) علی الطعام الذی یتمّ تناوله فی أوّل الیوم (لأنّها مأخوذة من کلمة «غدوة» و التی تعنی بدایة الیوم) فی حین أنّ کلمة «غداء» و «تغدّی» تطلق الیوم علی تناول الطعام فی وقت الظهیرة.

علی أی حال، إنّ هذه الجملة تظهر أنّ موسی و یوشع قد سلکا طریقا یمکن أن نسمیه بالسفر، إلّا أنّ نفس هذه التعابیر تفید أنّ هذا السفر لم یکن طویلا.

و فی هذه الأثناء قال له صاحبه: قالَ أَ رَأَیْتَ إِذْ أَوَیْنا إِلَی الصَّخْرَةِ فَإِنِّی نَسِیتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِیهُ إِلَّا الشَّیْطانُ أَنْ أَذْکُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِیلَهُ فِی الْبَحْرِ عَجَباً[۱۸۶].

و لأنّ هذا الحادث و الموضوع- بشکل عام- کان علامة لموسی علیه السّلام، لکی یصل من خلاله إلی موقع (العالم) الذی خرج یبحث عنه، لذا فقد قال: قالَ ذلِکَ ما کُنَّا نَبْغِ

و هنا رجعا فی نفس الطریق: فَارْتَدَّا عَلی آثارِهِما قَصَصاً.

و هنا قد یطرح هذا السؤال: هل یمکن لنبی مثل موسی علیه السّلام أن یصاب بالنسیان حیث یقول القرآن نَسِیا حُوتَهُما ثمّ لماذا نسب صاحب موسی علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۵

نسیانه إلی الشیطان؟

فی الجواب نقول: إنّه لا یوجد ثمّة مانع من الإصابة بالنسیان فی المسائل و الموارد التی لا ترتبط بالأحکام الإلهیة و الأمور التبلیغیة، أی فی مسائل الحیاة العادیة (خاصّة فی المواقع التی لها طابع اختبار، کما هو الحال فی موسی هنا، و سوف نشرح ذلک فیما بعد).

أمّا ربط نسیان صاحبه بالشیطان، فیمکن أن یکون ذلک بسبب أن قضیة السمکة ترتبط بالعثور علی ذلک الرجل العالم، و بما أنّ الشیطان یقوم بالغوایة، لذا فإنّه أراد من خلال هذا العمل (النسیان) أن یصلا متأخرین إلی ذلک العالم، و قد تکون مقدمات النسیان قد بدأت من (یوشع) نفسه حیث أنّه لم یدقق و یهتم بالأمر کثیرا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۶

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۶۵ الی ۷۰]

اشارة

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (۶۵) قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (۶۶) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۶۷) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (۶۸) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (۶۹)

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (۷۰)

التّفسير

رؤية المعلم الكبير:

عند ما رجع موسى عليه السّلام و صاحبه إلى المكان الأوّل، أى قرب الصخرة و قرب (مجمع البحرين)، فجأة: فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً.

إنّ استخدام كلمة «وجدا» تفيد أنّهم كانوا يبحثون عن نفس هذا الرجل العالم، و قد وجداه أخيرا.

أمّا استخدام عبارة عَبْداً مِنْ عِبادِنا فهى تبيّن أن أفضل فخر للإنسان هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۷

أن يكون عبدا حقيقيا للخالق جلّ و علا، و إنّ مقام العبودية هذا يكون سببا فى شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، و فتح أبواب المعرفة و العلم فى قلبه.

كما أنّ استخدام عبارة مِنْ لَدُنَّا تبيّن أنّ علم ذلك العالم لم يكن علما عاديا، بل كان يعرف جزءا من أسرار هذا العالم، و أسرار الحوادث التى لا يعلمها سوى اللّه تعالى.

أمّا استخدام (علما) بصيغة النكرة فهو للتعظيم، و يتبيّن من ذلك أنّ ذلك الرجل العالم قد حصل من علمه على فوائد عظيمة.

أمّا ما هو المقصود من عبارة رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا فقد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة، فقال بعضهم: إنّها إشارة إلى مقام النبوة، و البعض الآخر اعتبرها إشارة للعمر الطويل. و لكن يحتمل أن يكون المقصود هو الاستعداد الكبير و الروح الواسعة، وسعة الصدر التى وهبها اللّه تعالى لهذا الرجل كى يكون قادرا على استقبال العلم الإلهى.

أمّا ما ذكر من أنّ هذا الرجل اسمه (الخضر) و فيما إذا كان نبيّا أم لا، فسوف نبحث كل ذلك فى البحوث القادمة.

فى هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام و بأدب كبير: قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً.

و نستفيد من عبارة «رشدا» أنّ العلم ليس هدفا، بل هو وسيلة للعثور على طريق الخير و الهداية و الصلاح، و أنّ هذا العلم يجب أن يتعلّم، و أن يفتخر به.

فى معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم مع كامل العجب لموسى عليه السّلام قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

ثمّ بيّن سبب ذلك مباشرة و قال: وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً.

و كما سنرى فيما بعد، فإنّ هذا الرجل العالم كان يحيط بأبواب من العلوم التى تخص أسرار و بواطن الأحداث، فى حين أنّ موسى عليه السّلام لم يكن مأمورا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۸

بمعرفة البواطن، و بالتالى لم يكن يعرف عنها الكثير، و فى مثل هذه الموارد يحدث كثيرا أن يكون ظاهر الحوادث يختلف تمام

الاختلاف عن باطنها، فقد يكون الظاهر قبيحا أو غير هادف فى حين أنّ الباطن مفيد و مقدّس و هادف لأقصى غاية.

فى مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذى ينظر إلى الظاهر صبره و تماسكه فيقوم بالاعتراض و حتى بالتشاجر.

و لكن الأستاذ العالم و الخبير بالأسرار بقى ينظر إلى بواطن الأعمال، و استمر بعمله ببرود، و لم يعر أى أهمية إلى اعتراضات موسى و صيحاته، بل كان فى انتظار الفرصة المناسبة ليكشف عن حقيقة الأمر، إلّا أنّ التلميذ كان مستمرا فى الإلحاح، و لكنّه ندم حين توضحت و انكشفت له الأسرار.

و قد يكون موسى عليه السّلام اضطرب عند ما سمع هذا الكلام و خشى أن يحرم من فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهد بأن يصبر على جميع الحوادث و قال: قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً.

مرّة أخرى كشف موسى عليه السّلام عن قمة أدبه فى هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّى صابر، بل قال: إن شاء اللّه ستجدنى صابرا.

و لأنّ الصبر على حوادث غريبة و سيئة فى الظاهر و التى لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السّلام أن يتعهد له مرّة أخرى، و حذّره: قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً[۱۸۷]. و قد أعطى موسى العهد مجددا و انطلق مع العالم الأستاذ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۹

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۷۱ الى ۷۸]

اشارة

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (۷۱) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۲) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (۷۳) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (۷۴) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۵)

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (۷۶) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (۷۷) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (۷۸)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۰

التّفسير

المعلم الإلهى و الأفعال المنكرة!!

نعم، لقد ذهب موسى و صاحبه و ركبا السفينة: فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ.

من الآن فصاعدا نرى القرآن يستخدم ضمير المثنّى فى جميع الموارد، و الضمير إشارة إلى موسى و العالم الرّبانى، و هذه إشارة إلى انتهاء مهمّة صاحب موسى عليه السّلام (يوشع) و رجوعه، أو أنّه لم يكن معنيا بالحوادث بالرغم من أنّه قد حضرها جميعا. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأقوى.

عند ما ركبا السفينة قام العالم بثقبها: «خرقها».

«خرق» كما يقول الراغب فى المفردات: الخرق، قطع الشيء على سبيل الإفساد بلا تدبّر و لا تفكر حيث كان ظاهر عمل الرجل العالم على هذا المنوال.

و بحكم كون موسى عليه السّلام نبيّا إلهيا كبيرا فقد كان من جانب يرى أن من واجبه الحفاظ على أرواح و أموال الناس، و أن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، و من جانب آخر كان وجدانه الإنسانى يضغط عليه و لا يدعه يسكت أمام أعمال الرجل العالم التى يبدو ظاهرها سيئا قبيحا، لذا فقد نسى العهد الذى قطعه للخضر (العالم) فاعترض و قال: قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً.

لا ـ ريب إنّ هدف العالم (الخضر) لم يكن إغراق من فى السفينة، و لكنّ النتيجة النهائية لخرق السفينة لم يكن سوى غرق من فى السفينة، لذا فقد استخدم موسى عليه السّلام (اللام الغائية) لبيان الهدف.

مثل ذلك ما نقوله للشخص الذى يأكل كثيرا، عند ما نقول له: أ تريد أن تقتل نفسك؟! بالطبع مثل هذا لا يريد قتل نفسه بكثرة الطعام، إلّا أنّ نتيجة عمله قد تكون هكذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۱

«إمر» على وزن «شمر» و تطلق على العمل المهم العجيب أو القبيح للغاية.

و حقا، لقد كان ظاهر عمل الرجل العالم عجيبا و سيئا للغاية، فهل هناك عمل أخطر من أن يثقب شخص سفينة تحمل عددا من المسافرين! و فى بعض الرّوايات نقرأ أنّ أهل السفينة انتبهوا إلى الخطر بسرعة و قاموا بإصلاح الثقب (الخرق) مؤقتا، و لكن السفينة أصبحت بعد ذلك معيبة و غير سالمة.

و فى هذه الأثناء نظر الرجل العالم إلى موسى عليه السّلام نظرة خاصّة و خاطبة: قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

أمّا موسى الذى ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذى قطعة لهذا العالم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلا: قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً. يعنى لقد أخطأت و نسيت الوعد فلا تؤاخذنى بهذا الاشتباه.

«لا ترهقنى» مشتقّة من «إرهاق» و تعنى تغطية شيء ما بالقهر و الغلبة، و تأتى فى بعض الأحيان بمعنى التكليف، و فى الآية- أعلاه- يكون معناها: لا تصعّب الأمور علىّ، و لا تقطع فيضك عنّى بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحرية و ترجلوا من السفينة: فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ و قد تمّ ذلك بدون أى مقدمات! و هنا ثار موسى عليه السّلام مرّة أخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفل برىء بدون أى سبب، و ظهرت آثار الغضب على وجهه و ملأ الحزن و عدم الرضا عينيه و نسى وعده مرّة أخرى، فقام للاعتراض، و كان اعتراضه هذه المرّة أشد من اعتراضه فى المرّة الأولى، لأنّ الحادثة هذه المرّة كانت موحشة أكثر من الأولى، فقال عليه السّلام: قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ أى إنّك قتلت إنسانا بريئا من دون أن يرتكب جريمة قتل، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۲

كلمة «غلام» تعنى الفتى الحدث، أى الصبى سواء كان بالغا أو غير بالغ.

و بين المفسّرين ثمّة كلام كثير عن الغلام المقتول، و فيما إذا كان بالغا أم لا، فالبعض استدل بعبارة نَفْساً زَكِيَّةً على أنّ الفتى لم يكن بالغا. و البعض الآخر اعتبر عبارة بِغَيْرِ نَفْسٍ دليلا على أنّ الفتى كان بالغا، ذلك لأنّ القصاص يجوز بحق البالغ فقط، و لكن لا يمكن القطع فى هذا المجال بالنسبة لنفس الآية.

«نكر» تعنى القبيح و المنكر، و أثرها أقوى من كلمة «إمر» التى وردت فى حادثة ثقب السفينة، و السبب فى ذلك واضح، فالأمر الأوّل قد أوجد الخطر لمجموعة من الناس، إلّا أنّهم تداركوه بسرعة، لكن ظاهر العمل الثّانى يدل على إرتكاب جريمة.

و مرّة أخرى كرّر العالم الكبير جملته السابقة التى اتسمت ببرود خاص، حيث قال لموسى عليه السّلام: قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

و الاختلاف الوحید مع الجملة السابقة هو إضافة کلمة «لک» التی تفید التأکید الأکثر؛ یعنی: إنّنی قلت هذا الکلام لشخصک! تذکر موسی تعهده فانتبه إلی ذلک و هو خجل، حیث أخلّ بالعهد مرّتین- و لو بسبب النسیان- و بدأ تدریجیا یشعر بصدق عبارة الأستاذ فی أنّ موسی لا یستطیع تحمّل أعماله، لذا فلا یطیق رفقته کما قال له عند ما عرض علیه موسی الرفقة، لذا فقد بادر الی الاعتذار و قال: إذا اعترضت علیک مرّة أخری فلا تصاحبنی و أنت فی حل منّی: قالَ إِنْ سَأَلْتُکَ عَنْ شَیْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِی قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّی عُذْراً. صیغة العذر هنا تدل علی انصاف موسی علیه السّلام و رؤیته البعیدة للأمور، و تبیّن أنّه علیه السّلام کان یستسلم للحقائق و لو کانت مرّة؛ بعبارة أخری:

إنّ الجملة توضح و بعد ثلاث مراحل للاختبار أنّ مهمّة هذین الرجلین کانت مختلفة.

بعد هذا الکلام و العهد الجدید: فَانْطَلَقا حَتَّی إِذا أَتَیا أَهْلَ قَرْیَةٍ اسْتَطْعَما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۳

أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ یُضَیِّفُوهُما.

لا ریب، إنّ موسی و صاحبه لم یکونا ممّن یلقی بکلّه علی الناس و لکن یتّضح أنّ زادهم و أموالهم قد نفدت فی تلک السفرة، لذا فقد رغبا أن یضیفهما أهل تلک المدینة (و یحتمل أنّ الرجل العالم تعمد طرح هذا الاقتراح کی یعطی موسی درسا بلیغا آخر).

و یجب أن نلتفت إلی أنّ (قریة) فی لغة القرآن تنطوی علی مفهوم عام، و تشمل المناطق السکنیة فی الریف و المدینة، أمّا المقصود منها فی الآیة فهو المدینة لا القریة، کما تصرح بعد ذلک الآیات اللاحقة.

و ذکر المفسّرون نقلا عن ابن عباس أنّ المقصود بهذه المدینة، هو (أنطاکیة)[۱۸۸].

و ذکر آخرون: إنّ المقصود منها هو مدینة «أیلة» التی تسمی الیوم میناء (أیلات) المعروف و الذی یقع علی البحر الأحمر قرب خلیج العقبة. أمّا البعض الثّالث فیری بأنّها مدینة (الناصرة) الواقعة شمال فلسطین، و هی محل ولادة السیّد المسیح علیه السّلام. و قد نقل العلّامة الطبرسی حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام یدعم صحة هذا الاحتمال.

و رجوعا إلی ما قلناه فی المقصود من (مجمع البحرین) إذ قلنا: إنّه کنایة عن محل التقاء خلیج العقبة و خلیج السویس، یتّضح أنّ مدینة (الناصرة) أو میناء (أیلة) أقرب إلی هذا المکان من انطاکیة.

المهم فی الأمر، أنّنا نستنتج من خلال ما جری لموسی علیه السّلام و صاحبه من أهل هذه المدینة أنّهم کانوا لئاما دنیئی الهمّة، لذا نقرأ فی روایة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۴

قوله فی وصف أهل هذه المدینة: «کانوا أهل قریة لئام»[۱۸۹].

ثمّ یضیف القرآن: فَوَجَدا فِیها جِداراً یُرِیدُ أَنْ یَنْقَضَّ فَأَقامَهُ ۱۹۰] و قد کان موسی علیه السّلام یشعر بالتعب و الجوع، و الأهم من ذلک أنّه کان یشعر بأنّ کرامته و کرامة أستاذه قد أهینت من أهل هذه القریة التی أبت أن نضیفهما؛ و من جانب آخر شاهد کیف أنّ الخضر قام بترمیم الجدار بالرغم من سلوک أهل القریة القبیح إزاءهما، و کأنّه بذلک أراد أن یجازی أهل القریة بفعالهم السیئة، و کان موسی یعتقد بأنّ علی صاحبه أن یطالب بالأجر علی هذا العمل حتی یستطیعا أن یعدّا طعاما لهما.

لذا فقد نسی موسی علیه السّلام عهده مرّة أخری و بدأ بالاعتراض، إلّا أنّ اعتراضه هذه المرّة بدا خفیفا فقال: قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَیْهِ أَجْراً.

و فی الواقع فإنّ موسی یعتقد بأنّ قیام الإنسان بالتضحیة فی سبیل أناس سیئین عمل مجاف لروح العدالة؛ بعبارة أخری: إنّ الجمیل جیّد و حسن، بشرط أن یکون فی محلّه.

صحیح أنّ الجزاء الجمیل فی مقابل العمل القبیح هو من صفات الناس الإلهیین، إلّا أنّ ذلک ینبغی أن لا یکون سببا فی دفع المسیئین

للقیام بالمزید من الأعمال السیئة.

و هنا قال الرجل العالم کلامه الأخیر لموسی، بأنّک و من خلال حوادث مختلفة، لا تستطیع معی صبرا، لذلک قرّر العالم قراره الأخیر: قالَ هذا فِراقُ بَیْنِی وَ بَیْنِکَ سَأُنَبِّئُکَ بِتَأْوِیلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَیْهِ صَبْراً.

موسی علیه السّلام لم یعترض علی القرار- طبعا- لأنّه هو الذی کان قد اقترحه عند

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۵

وقوع الحادثة السابقة، و هکذا ثبت لموسی أنّه لا یستطیع الاستمرار مع هذا الرجل العالم. و لکن برغم کل ذلک، فإنّ خبر الفراق قد نزل بوقع شدید علی قلب موسی علیه السّلام، إذا یعنی فراق أستاذ قلبه مملوء بالأسرار، و مفارقة صحبة ملیئة بالبرکة، إذ کان کلام الأستاذ درسا، و تعامله یتسّم بالإلهام؛ نور اللّه یشع من جبینه، و قلبه مخزن للعلم الإلهی.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمر صعب للغایة، لکن علی موسی علیه السّلام أن ینصاع لهذه الحقیقة المرّة.

المفسّر المعروف أبو الفتوح الرازی یقول:

ورد فی الخبر، أنّ موسی علیه السّلام عند ما سئل عن أصعب ما لاقی من مشکلات فی طول حیاته، أجاب قائلا: لقد واجهت الکثیر من المشاکل و الصعوبات (إشارة إلی ما لاقاه علیه السّلام من فرعون، و ما عاناه من بنی إسرائیل) و لکن لم یکن أیّا منها أصعب و أکثر ألما علی قلبی من قرار الخضر فی فراقی إیّاه»[۱۹۱].

«تأویل» من «أول» علی وزن «قول» و تعنی الإرجاع، لذا فإنّ أی عمل أو کلام یرجعنا إلی الهدف الأصلی یسمّی «تأویل» کما أنّ رفع الحجب عن أسرار شیء هو نوع من التأویل.

اطلاق کلمة (التأویل) علی تفسیر الأحلام یعود لهذا السبب بالذات، کما ورد فی سورة یوسف هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ ۱۹۲[۱۹۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۶

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۷۹ الی ۸۲]

اشارة

أَمَّا السَّفِینَةُ فَکانَتْ لِمَساکِینَ یَعْمَلُونَ فِی الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِیبَها وَ کانَ وَراءَهُمْ مَلِکٌ یَأْخُذُ کُلَّ سَفِینَةٍ غَصْباً (۷۹) وَ أَمَّا الْغُلامُ فَکانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَیْنِ فَخَشِینا أَنْ یُرْهِقَهُما طُغْیاناً وَ کُفْراً (۸۰) فَأَرَدْنا أَنْ یُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَیْراً مِنْهُ زَکاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (۸۱) وَ أَمَّا الْجِدارُ فَکانَ لِغُلامَیْنِ یَتِیمَیْنِ فِی الْمَدِینَةِ وَ کانَ تَحْتَهُ کَنْزٌ لَهُما وَ کانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّکَ أَنْ یَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ یَسْتَخْرِجا کَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِی ذلِکَ تَأْوِیلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَیْهِ صَبْراً (۸۲)

التّفسیر

الأسرار الداخلیة لهذه الحوادث:

بعد أن أصبح الفراق بین موسی و الخضر علیهما السّلام أمرا حتمیا، کان من اللازم أن یقوم الأستاذ الإلهی بتوضیح أسرار أعماله التی لم یستطع موسی أن یصبر علیها، و فی الواقع فإنّ استفادة موسی من صحبته تتمثل فی معرفة أسرار هذه الحوادث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۷

الثلاثة العجیبة، و التی یمکن أن تکون مفتاحا للعدید من المسائل، و جوابا لکثیر من الأسئلة.

ففى البداية ذكر قصّة السفينة و قال: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً.

و بهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيّر وراء ثقب السفينة الذى بدأ فى حينه عملا مشينا سيئا، و الهدف هو نجاتهم من قبضة ملك غاصب، و كان هذا الملك يترك السفينة المعيبة و يصرف النظر عنها. إذا خلاصة المقصود فى الحادثة الأولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

كلمة «وراء» لا تعنى هنا الجانب المكانى، و إنّما هى كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، و بما أنّ الإنسان لا يحيط بالحوادث التى سوف تصيبه لاحقا، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

إضافة إلى ذلك فإنّ الإنسان عند ما يخضع لضغط فرد أو مجموعة فإنّه يستخدم تعبير (وراء) كقوله مثلا: الدّيانون ورائى و لا يتركونى؛ و فى الآية (۱۶) من سورة إبراهيم نقرأ قوله تعالى: مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ و كأنّ جهنّم تلاحق و تتبع المذنبين، لذا فقد استخدمت كلمة وراء[۱۹۴].

و يفيد استخدام كلمة (مسكين) أنّ «المسكين» ليس هو الشخص الذى لا يملك شيئا مطلقا، بل هى وصف يطلق على الأشخاص الذين يملكون أموالا و ثروة لكنّها لا تفى بحاجاتهم.

و يحتمل أيضا أن يكون السبب فى إطلاق وصف (المساكين) عليهم ليس بسبب الفقر المالى، بل بسبب افتقارهم للقوّة و القدرة، و هذا التعبير يستخدم فى لغة العرب، كما و أنّه يتلاءم مع الجذور الأصلية لمعنى مسكين لغويا، و الذى يعنى السكون و الضعف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۸

و

فى نهج البلاغة نقرأ قول أمير المؤمنين عليه السّلام: «مسكين ابن آدم .. تؤلمه البقة، و تقتله الشرقة، و تنتنه العرقة»[۱۹۵].

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثّانية التى قتل فيها الفتى فيقول:

وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً.

تحتمل مجموعة من المفسّرين أنّ المقصود من الآية ليس ما يتبيّن من ظاهرها من أنّ الفتى الكافر و العاصى قد يكون سببا فى انحراف أبويه، و إنّما المقصود أنّه بسبب من طغيانه و كفره يؤذى أبويه كثيرا[۱۹۶]؛ و لكن التّفسير الأوّل أقرب للصحة.

فى كل الأحوال، فإنّ الرجل العالم قام بقتل هذا الفتى، و اعتبر سبب ذلك ما سوف يقع للأب و الأم المؤمنين فى حال بقاء الابن على قيد الحياة.

و سوف نجيب فى فقرة البحوث على شبهة (القصاص قبل الجناية) التى ترد على أعمال الخضر هذه.

كلمة (خشينا) تستبطن معنى كبيرا، فهذا التعبير يوضح أنّ هذا الرجل العالم كان يعتبر نفسه مسئولا عن مستقبل الناس، و لم يكن مستعدا لأن تصاب أم أو أب مؤمنان بسوء بسبب انحراف ابنهم.

كما إنّ تعبير (خشينا) جاء هنا بمعنى: لم نكن نرغب، و إلّا لا معنى للخوف فى هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى من العلم و الوعى و القدرة.

و بعبارة أخرى، فإنّ الهدف هو الاتقاء من حادث سيء نرغب أن نقى الأبوين منه على أساس المودّة لهما.

و يحتمل أن يكون التعبير بمعنى (علمنا) كما ينقل عن ابن عباس، يعنى أنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۹

كنّا نعلم أنّ الفتى- فى حال بقائه- سوف يكون سببا لأحداث أليمة تقع لأبيه و أمه فى المستقبل.

أمّا لماذا استخدم ضمير المتكلّم فى حالة الجمع، بينما كان المتكلّم فردا واحدا، فإنّ سبب ذلك واضح، حيث أنّها ليست المرّة الأولى

التى يستخدم القرآن هذه الصيغة، ففى كلام العرب عند ما يتحدث الأشخاص الكبار عن أنفسهم فإنّهم يستخدمون ضمير الجمع. و السبب فى ذلک أنّ هؤلاء الأشخاص يملکون أشخاصا تحت أيديهم و يعطونهم الأوامر لتنفيذ الأعمال، فاللّه يعطى الأوامر للملائکة، و الإنسان يعطى الأوامر للذين هم تحت يديه.

ثمّ تحکى الآيات على لسان العالم قوله: فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً.

إنّ تعبير (أردنا) و (ربّهما) يطوى معانى کبيرة سوف نقف عليها بعد قليل.

(زکاة) هنا بمعنى الطهارة و النظافة، و لها مفهوم واسع حيث تشمل الإيمان و العمل الصالح، و تتسع للأمور الدينية و المادية، و قد يکون فى هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السّلام الذى قال: أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً ... فقال له العالم فى الجواب: إنّ هذه النفس ليست زکية، و أردنا أن يبدلهما ربّهما ابنا طاهرا بدلا عن ذلک.

و فى روايات عديدة نقرأ

«أبدلهما اللّه به جارية ولدت سبعين نبيّا»[۱۹۷].

فى آخر آية من الآيات التى نبحثها، کشف الرجل العالم عن السر الثّالث الذى دعاه إلى بناء الجدار فقال: وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏۹ ؛ ص۳۲۹

فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما.

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۹، ص: ۳۳۰

و أنا کنت مأمورا ببناء هذا الجدار بسبب جميل و إحسان أبوى هذين اليتيمين، کى لا يسقط و ينکشف الکنز و يکون معرّضا للخطر.

و فى خاتمة الحديث، و لأجل أن تنتفى أى شبهة محتملة، أو شک لدى موسى عليه السّلام، و لکى يکون على يقين بأنّ هذه الأعمال کانت طبقا لمخطط و توجيه أعلى خاص، قال العالم: وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي بل بأمر من اللّه.

و ذلک سر ما لم يستطع موسى عليه السّلام صبرا، إذ قال: ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً.

بحوث

۱- هل كانت مهمّة الخضر فى اطار النظام التشريعى أم التكوينى!؟

إنّ هذه الحوادث الثّلاث شغلت عقول العلماء الکبار، و أثارت بينهم الکثير من الکلام و الاستفهامات.

و السؤال الأوّل هو: هل يمکن إتلاف جزء من أموال شخص بدون إجازته بذريعة أنّ هناک غاصبا يريد أن يصادرها؟

و هل يمکن معاقبة فتى بذريعة الأعمال التى سيقوم بها فى المستقبل؟

ثمّ هل هناک ضرورة للعمل المجانى بهدف الحفاظ على أموال شخص معين؟

لقد رأينا من سياق القصّة القرآنية أنّ موسى اعتراض على الرجل العالم، و لکنّه بعد أن استمع للتوضيحات و أحاط ببواطن الأمور عاد و اقتنع.

أمّا نحن فأمامنا طريقان للإجابة على الأسئلة، نعرضها بالتفصيل الآتى:

الطريق الأوّل: أن نطابق الحوادث و تصرفات الرجل العالم مع الموازين الفقهية، و قوانين الشرع، و قد قامت مجموعة من المفسّرين بسلوك هذا الطريق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۱

فالحادثة الأولى اعتبروها منطبقة مع قانون الأهم و المهم؛ و قالوا بأنّ حفظ مجموع السفينة عمل أهم حتما من الضرر الجزئى الذى لحقها بالخرق؛ و بعبارة أخرى، فإنّ الخضر قام هنا (بدفع الأفسد بالفاسد) خاصّة و أنّه كان يمكن تقدير الرضا الباطنى لأهل السفينة فيما إذا علموا بهذه الحادثة. (أى أنّ الخضر قد حصل من وجهة الإحكام و القواعد الشرعية على إذن الفحوى).

و فيما يتعلق بالغلام فقد أصرّ المفسّرون ممن سلك هذا الطريق، على أنّ الفتى كان بالغا و أنّه كان مرتدا أو مفسدا، و بسبب أعماله الفعلية فإنّه من الجائز أن يقتل.

و أمّا حديث الخضر عن جرائم الغلام المستقبلية، فإنّه بذلك أراد أن يقول بأن جرائم هذا الغلام لا تقتصر على إفساده الراهن و جرائمه الحالية، بل سيقوم بالمستقبل بجرائم أكبر، لذا فإنّ قتله طبقا للموازين الشرعية و بسبب ما اقترفه من جرائم فعلية يكون جائزا.

أمّا ما يخص الحادثة الثّالثة، فلا أحد يستطيع أن يعترض على الآخرين فيما لو قاموا بالتضحية و الإيثار من أجل الآخرين، و من أجل أن لا تضيع أموالهم دون أن يتقاضوا أجرا على أعمالهم، و هو بالضبط ما قام به الخضر، و قد لا تصل هذه الأفعال إلى حدّ الوجوب، إلّا أنّها تعتبر- حتما- من السلوك الحسن.

بل قد يقال من الوجهة الفقهية أنّ الإيثار و التضحية فى بعض الموارد من الأمور الواجبة، مثل أن تكون أموال كثيرة لطفل يتيم معرضة للتلف، و يمكن المحافظة عليها بجهد قليل فلا يستبعد وجوب بذل الجهد.

الطريق الثّانى: تتمّ فيه مناقشة بعض عناصر الاستدلال الفقهية التى وردت فى الطريق الأوّل، فإذا كانت التوضيحات الآنفة مقنعة فيما يخص الكنز و الحائط، إلّا أنّها فى قضية قتل الغلام لا تتلاءم مع ظاهر الآية، الذى اعتبر علّة قتل الغلام هو ما سيقوم به من أعمال فى المستقبل، و ليس أعماله الفعلية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۲

أمّا الدليل الوارد حول خرق السفينة، فهو أيضا لا يخلو من تأمل فهل نستطيع مثلا- و من الوجهة الفقهية- أن نتلف جزءا من أموال أو بيت شخص معين بدون علمه لانقاذها من خطر ما، حتى لو علمنا و تيقنا بأنّه سيتمّ غصب تلك الأموال فى المستقبل ... ترى هل يسمح الفقهاء بمثل هذا الحكم؟! و على هذا الأساس يجب علينا أن نسلك طريقا آخر:

الطريق الثّالث: إنّ فى هذا العالم ثمّة نظامان هما: «النظام التكوينى، و النظام التشريعى»، و بالرغم من أنّ هذين النظامين متناسقين فيما بينهما فى الأصول الكلية، و لكنها قد ينفصلان و يفترقان فى الجزئيات.

على سبيل المثال، يقوم اللّه سبحانه و تعالى و من أجل اختبار العباد، بابتلائهم بالخوف و نقص فى الأموال و الثمرات و موت الأعزّة و فقدانهم حتى يتبيّن الصابر من غيره تجاه هذه الحوادث و البلاءات.

و السؤال هنا هو: هل يستطيع أى فقيه أو حتى نبى أن يقوم بهذا العمل، أى ابتلاء العباد بنقص الأموال و الثمرات و فقدان الأعزة، و فقدان الأمن و الاستقرار بهدف اختبار الناس و ابتلائهم؟

و نرى أنّ اللّه سبحانه و تعالى يقوم بتحذير و تربية بعض أنبيائه و عباده الصالحين، و ذلك بابتلائهم بمصائب بسبب تركهم للأولى، مثل ما ابتلى به يعقوب عليه السّلام بسبب قلّة توجهه إلى المساكين، أو ما ابتلى به يونس عليه السّلام بسبب تركه الأولى من بعض الأمور و لو لفترة قصيرة ... فهل يا ترى يحق لأحد أن يقوم بهذه الأعمال بعنوان الجزاء و العقاب لهؤلاء الرسل الكرام و العباد الصالحين؟

و نرى أنّ اللّه سبحانه و تعالى يقوم فى بعض الأحيان، بسلب النعمة من الإنسان بسبب عدم شكره، كأن تغرق أمواله فى البحر- مثلا-

یخسر هذه الأموال، أو یصاب بالمرض بسبب عدم شکره لربّه علی نعمة السلامة ...

و السؤال هنا: هل یستطیع أحد من الناحیة الفقهیة و التشریعیة أن یسلب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۳

النعمة من الآخرین، أو ینزل الضرر بسلامتهم و صحتهم بسبب عدم شکرهم و بدعوی ابتلائهم؟

إنّ أمثال هذه الأمور کثیر للغایة، و هی تظهر- بشکل عام- أنّ عالم الوجود، و خصوصا خلق الإنسان، قد قام علی النظام الأحسن، حیث وضع اللّه تعالی مجموعة من القوانین و المقررات التکوینیة حتی یسلک الإنسان طریق التکامل، و عند ما یتخلف عنها فسیصاب بردود فعل مختلفة.

و لکنّا من وجهة قوانین الشرع و ضوابط الأحکام لا نستطیع أن نصنّف الأمور فی إطار هذه القوانین التکوینیة.

علی سبیل المثال نری أنّ الطبیب یستطیع أن یقطع إصبع شخص معین بحجّة عدم سرایة السم إلی قلبه، و لکن هل یستطیع أی شخص أن یقطع إصبع شخص آخر بحجّة تربیته علی الصبر أو عقابا له علی کفرانه للنعم؟ (بالطبع الخالق یستطیع القیام بذلک حتما لأنّه یلائم النظام الأحسن).

و الآن بعد أن ثبت و توضح أنّ فی العالم نظامان (تکوینی و تشریعی)، و أنّ اللّه هو الحاکم و المسیطر علی هذین النظامین، لذا فلا مانع فی أن یأمر تعالی مجموعة بأن تطبّق النظام التشریعی، بینما یأمر مجموعة من الملائکة أو بعض البشر (کالخضر مثلا) بأن یطبقوا النظام التکوینی.

و من وجهة النظام التکوینی لا یوجد أی مانع فی أن یبتلی اللّه طفلا غیر بالغ بحادثة معینة، ثمّ یموت ذلک الطفل بسبب هذه الحادثة، و ذلک لعلم اللّه تعالی بأنّ أخطارا کبیرة کامنة لهذا الطفل فی المستقبل کما أنّ وجود مثل هؤلاء الأشخاص و بقاءهم یتمّ لمصلحة معینة کالامتحان و الابتلاء و غیر ذلک.

و أیضا لا- مانع فی أن یبتلینی اللّه الیوم بمرض صعب یقعدنی الفراش لعلمه تعالی بأنّ خروجی من البیت لو تمّ فسأتعرض لحادثة خطیرة لا أستحقها، لذا فهو تعالی یمنعنی منها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۴

بعبارة أخری: إنّ مجموعة من أولیائه و عباده مکلّفون فی هذا العالم بالبواطن، بینما المجموعة الأخری مکلّفون بالظواهر. و المکلّفون بالبواطن لهم ضوابط و أصول و برامج خاصّة بهم، مثلما للمکلّفین بالظواهر ضوابطهم و أصولهم الخاصّة بهم أیضا.

صحیح أنّ الخط العام لهذین البرنامجین یوصل الإنسان إلی الکمال؛ و صحیح أنّ البرنامجین متناسقین من حیث القواعد الکلیة، إلّا أنّهما یفترقان فی التفاصیل و الجزئیات کما لاحظنا ذلک فی الأمثلة.

بالطبع لا یستطیع أحد أن یعمل کما یحلو له ضمن هذین الخطین، بل یجب أن یحصل علی إجازة المالک القادر الحکیم الخالق جلّ و علا، لذا رأینا الخضر (العالم الکبیر) یوضح هذه الحقیقة بصراحة قائلا، (ما فعلته عن أمری) بل إنّی خطوت الخطوات وفقا للبرنامج الإلهی و الضوابط التی کانت موضوعة لی.

و هکذا سیزول التعارض و التضاد و تنتفی الأسئلة و المشکلات المثارة حول مواقف الخضر فی الحوادث الثلاث.

و سبب عدم تحمّل موسی علیه السّلام لأعمال الخضر یعود إلی مهمّة موسی التی کانت تختلف عن مهمّة الخضر فی العالم، لذا فقد کان موسی علیه السّلام یبادر إلی الاعتراض علی مواقف الخضر المخالفة لضوابط الشریعة بینما کان الخضر مستمرا فی طریق ببرود، لأنّ وظیفة کل من هذین المبعوثین الإلهیین تختلف عن وظیفة الآخر و دوره المرسوم له إلهیا، لذلک لم یستطیعا العیش سویة، لذا قال الخضر لموسی علیه السّلام: هذا فِراقُ بَیْنِی وَ بَیْنِکَ

۲- من هو الخضر؟

لقـد رأينا القرآن الكريم يتحـدّث عن العالم من دون أن يسـميّه بالخضـر و قد عبّر عن معلّم موسـى عليه السّـلام بقوله: عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۵

مِنْ لَدُنَّا عِلْماً و الآيهٔ توضح المقام الخاص للعبوديهٔ و العلم و المعرفهٔ، لذا فإنّنا غالبا ما نصفه بالرجل العالم.

أمّا الرّوايات الإسـلاميهٔ و فى مختلف مصادرها عرّفت هذا الرجل باسم (الخضـر) و من بعض هذه الرّوايات نسـتفيد بأنّ اسمه الحقيقى كان (بليا بن ملكان) أمّا الخضر فهو لقب له، حيث أنّه أينما كان يطأ الأرض فإنّ الأرض كانت تخضر تحت قدميه.

البعض احتمل أنّ اسم الرجل العالم هذا هو (إلياس) و من هنا ظهرت فكرهٔ أن الياس و الخضر هما اسمان لشخص واحد.

و لكن المشهور المعروف بين المفسّرين و الرواهٔ هو الأوّل.

و طبيعى أن نقول: إنّ اسم الرجل العالم أيّا كان فهو غير مهم لا لمضمون القصّهٔ و لا لقصدها، إذ المهم أن نعرف أنّه كان عالما إلهيا، شملته الرحمـهٔ الإلهيـهٔ الخاصّـهٔ، و كان مكلّفا بالباطن و النظام التكوينى للعالم، و يعرف بعض الأسـرار، و كان معلّم موسـى بن عمران بالرغم من أنّ موسى عليه السّلام كان أفضل منه من بعض الجوانب.

و هناك أيضا آراء و روايات مختلفهٔ فيما إذا كان الخضر نبيّا أم لا.

ففى المجلـد الأوّل من أصول الكافى وردت روايات عديـدهٔ تـدل على أنّ هـذا الرجل لم يكن نبيّا، بل كان عالما مثل (ذو القرنين) و (آصف بن برخيا)[۱۹۸].

فى حين نسـتفيد من روايـات أخرى أنّه كـان نبيّا، و ظاهر بعض الآيات أعلاه يـدل على هـذا المعنى، لأنّها تقول على لسانه: وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي و فى مكان آخر قوله: فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ ....

و نستفيد من روايات أخرى أنّ الخضر عمّر طويلا.

و هنا قد يطرح هذا السؤال: هل ذكرت قصّهٔ موسى و هذا العالم الكبير فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۶

مصادر اليهود و المسيح؟

فى الجواب نقول: إذا كـان المقصود هو كتب العهـدين (التوراهٔ و الإنجيل) فإنّ ذلك غير مـذكور فيهما، أمّا بعض كتب علماء اليهود التى تمّ تدوينها فى القرن الحادى عشر الميلادى، ففيها قصّهٔ تشبه إلى حد كبير حادثهٔ موسى عليه السّلام و عالم زمانه، بالرغم من أنّها تـذكر أنّ أبطـال تلـك القصّـهٔ همـا (إلياس) و (يوشع بن لاوى) و هما من مفسّـرى (التلمود) فى القرن الثّالث الميلادى، و تختلف من خلال عدّهٔ أمور عن قصّهٔ موسى و الخضر، و القصهٔ هذه هى:

«و هو (اى يوشع) يطلب من اللّه أن يلقى اليـاس، و بمجردّ أن يسـتجاب دعـاؤه و يحظى بلقـاء اليـاس فـإنّه يرجوه أن يطلعه على بعض الأسـرار. فيجيبه اليـاس: إنّك لا طاقـهٔ لك على تحمّل ذلك، إلّا أن يوشع يصّـِر و يلـحّ فى طلبه فيسـتجيب له الياس مشترطا عليه أن لا يسأل عن أىّ شـيء يراه، و إذا تخلّف يوشع عن هذا الشـرط فإنّ الياس حرّ فى الانفصال عنه و تركه، و على أساس هذا الاتّفاق يترافق يوشع و الياس فى السفر.

و أثنـاء سـفرهما يـدخلان إلى بيت فيسـتقبلهما صاحب البيت أحرّ اسـتقبال و يكرم وفادهما. و كان لأهل ذلك البيت بقرهٔ هى كلّ ما يملكون من حطـام الـدنيا حيث كـانوا يوفّرون لأنفسـهم لقمـهٔ العيش من بيع لبنهـا. فيأمر الياس صاحب البيت أن يذبـح تلك البقرهٔ، و يستولى على يوشع العجب و الاستغراب من هذا التصّرف و يدفعه ذلك لأن يسأله عن المبرّر لهذا الفعل. فيذكّره الياس بما اتّفقا عليه

و يهدّده بمفارقته له فيصمت يوشع و لا ينبس بكلمة.

و من هناك يواصلان سفرهما إلى قرية أخرى فيدخلان إلى بيت شخص ثرىّ و ينهض الياس إلى جدار فى ذلك البيت يشرف على السقوط فيرمّمه و يقيمه. و فى قرية أخرى يواجهان عددا من سكان تلك القرية مجتمعين فى مكان معيّن و لا- يعيرون هذين الشخصين بالا و لا يواجهونهما باحترام. فيقوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۷

الياس بالدعاء لهم أن يصلوا جميعا إلى الرئاسة. و فى قرية رابعة يواجههما سكّانها باحترام فائق فيدعو لهم الياس بأن يصل شخص واحد منهم فحسب إلى الرئاسة. و بالتالى فإنّ يوشع بن لاوى لا- يطيق الصبر فيسأل عن الوقايع الأربع، و يجيبه الياس: بأنّه فى البيت الأوّل كانت زوجة ربّ الدار مريضة و لو أنّ تلك البقرة لم تذبح بعنوان الصدقة فإنّ تلك المرأة تموت و يصاب صاحب الدار بخسارة أفدح من الخسارة التى تلحقه نتيجة لذبح البقرة، و فى البيت الثّانى كان هناك كنز ينبغى الاحتفاظ به لطفل يتيم، و أمّا إنّه قد دعوت لأهل القرية الثّالثة بأن يصلوا إلى الرئاسة جميعا فذلك لكى تضطرب أمورهم و يختلّ النظام عندهم.

على العكس من أهل القرية الرّابعة فإنّهم إذا أسندوا زمام أمورهم إلى شخص واحد فإنّ أمورهم سوف تنتظم و تسير على ما يرام»[۱۹۹].

و يجب عدم التوهّم أنّنا نرى بأنّ القصتين هما قصة واحدة، بل إنّ غرضنا الإشارة إلى أنّ القصة التى يذكرها علماء اليهود يمكن أن تكون قصة مشابهة أو محرّفة لما حصل أصلا لموسى عليه السّلام و الخضر، و قد تغيرت بسبب طول الزمان و أصبحت على هذا الشكل.

۳- الأساطير الموضوعة

إنّ الأساس فى قصّة موسى و الخضر عليهما السّلام هو ما ذكر فى القرآن، و لكن مع الأسف هناك أساطير كثيرة قيلت حول القصّة و حول رمزيها (موسى و الخضر) حتى أنّ بعض الإضافات تعطى للقصّة طابعا خرافيا. و ينبغى أن نعرف أنّ مصير كثير من القصص لم يختلف عن مصير هذه القصة، إذ لم تنج قصة من الوضع و التحريف و التقوّل.

مقياسنا فى واقعية القصّة هو أن نضع الآيات الثلاث و العشرون أعلاه كمعيار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۸

أمامنا، و حتى بالنسبة للأحاديث و الرّوايات فإنّنا نقبلها فى حال كونها مطابقة للآيات، فإذا كان هناك حديث لا يطابق الآيات فسنرفضه حتما و من حسن الحظ لم يرد فى هذه الأحاديث حديث معتبر.

۴- هل يمكن أن يصاب الأنبياء بالنسيان؟

لقد واجهتنا- أعلاه، و لعدّة مرّات- قضية نسيان موسى عليه السّلام، فمرّة فى قضية تلك السمكة المعدّة لطعامهم؛ و ثلاث مرّات أخرى خلال الحوادث الثلاث التى وقعت عند مرافقته للخضر، حينما نسى تعهده! إذن، نحن أمام هذا السؤال: هل يقع النسيان بالنسبة للأنبياء؟

البعض يعتقد بصدور و وقوع مثل هذا النسيان بالنسبة للأنبياء، لأنّه لا يرتبط بأساس دعوة النّبوة و لا بفروعها و لا بتبليغ الدعوة، بل يقع فى قضية عادية تخص الحياة اليومية، فالمسلّم به أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يصاب بالنسيان فى أصل دعوة النّبوة، و لا

يخطأ أو يشتبه فى التبليغ، حيث أن عناية اللّه تعصمه فى مثل هذه الأمور.

و لكن ما المانع أن ينسى موسى عليه السّلام طعامه، خصوصا و أن هذا النسيان أمر طبيعى عند ما يكون موسى متوجها بحواسه فى البحث عن الرجل العالم؟

ثمّ ما المانع من أن يصاب بالهيجان بحيث ينسى تعهد الذى قطعه مع صاحبه العالم، و ذلك عند ما شاهد هذه الحوادث العظيمة التى مرّت به كقتل الفتى و خرق السفينة و بناء الجدار فى مدينة البخلاء؟

إنّ موارد النسيان هذه لا تتعارض مع مقام العصمة، و لا هى مستبعدة عن أى نبى.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون النسيان هنا بمعنى مجازى، و يعنى الترك، لأنّ الإنسان عند ما يترك شيئا فهو كمن قد نسيه؛ أمّا لماذا ترك موسى طعامه، فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۹

يعود ذلك إلى عدم اهتمامه بمثل هذا الأمر. و فيما يتعلق بتعهده اتجاه صاحب العالم، فذاك منه لأنّه كان ينظر إلى ظواهر الأمور، إذ من غير المألوف أن يعرّض أحد أرواح و أموال الناس إلى الضرر، فضلا عن أن يكون ذلك الشخص هو العالم الكبير، لذا فإنّ موسى عليه السّلام كان يعتبر نفسه مكلفا بالاعتراض، و كان يعتقد بأنّ هذا الأمر لا يقيّد بالتعهد.

لكن من الواضح أنّ هذه التفاسير و الآراء لا تتسق مع ظواهر الآيات.

۵- لماذا ذهب موسى لرؤية الخضر؟

فى حديث عن ابن عباس قال: أخبرنى أبى بن كعب قال: خطبنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «إنّ موسى عليه السّلام قام خطيبا فى بنى إسرائيل، فسئل أى الناس أعلم؟

قال: أنا.

فعتب اللّه عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى إليه: إنّ لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال موسى: يا ربّ فكيف لى به؟

قال: تأخذ معك حوتا ...»[۲۰۰] إلخ الرّواية حيث أرشد تعالى نبيّه موسى للوصول إلى الرجل العالم.

كما روى ما يشابه هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام ۲۰۱].

إنّ مفاد هذه الواقعة هو تحذير لموسى عليه السّلام حتى لا يعتبر نفسه- برغم علمه و معرفته- أفضل الأشخاص.

و لكن هنا يثار هذا السؤال: ألا يجب أن يكون النّبى- و هو هنا من أولى العزم و صاحب رسالة- أعلم أهل زمانه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۰

فى معرض الجواب نقول: نعم، ينبغى أن يكون أعلم فيما يتعلق بمهمّته، يعنى الأعلم بالنظام التشريعى، و موسى عليه السّلام كان كذلك. أمّا الرجل العالم (الخضر) فهو كما قلنا سابقا، كانت له مهمّة تختلف عن مهمّة موسى عليه السّلام و لا ترتبط بعالم التشريع. بعبارة أخرى: إنّ الرجل العالم كان يعرف من الأسرار ما لا تعتمد عليه دعوة النّبوة.

و

فى حديث جاء عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله عليه السّلام: «كان موسى أعلم من الخضر»[۲۰۲].

أى أعلم منه فى علم الشرع.

و هنا نلاحظ أنّ هذه الشبهة و قضية نسيان موسى عليه السّلام هما اللتان دفعتا البعض إلى القول أنّ موسى المذكور فى القصة ليس

هو موسى بن عمران، بل هو شخص آخر. لكن مع حل هاتين المشكلتين لا يبقى مجال لهذا الكلام.

و فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام نرى إشارة صريحة إلى أن مهمّة و وظيفة كلّ من موسى و الخضر كانت تختلف عن الآخر، فقد كتب أحدهم إلى الإمام الرضا عليه السّلام يسأله عن العالم الذى أتاه موسى، أيّهما كان أعلم؟ فكان ممّا أجاب به الإمام

قوله عليه السّلام: «أتى موسى العالم فأصابه فى جزيرة من جزائر البحر إمّا جالسا و إمّا متكئا فسلّم عليه موسى، فأنكر السلام، إذ كانت الأرض ليس بها سلام.

قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قال: أنت موسى بن عمران الذى كلمه اللّه تكليما؟ قال: نعم، قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمنى ممّا علمت رشدا. قال: إنّى وكلت بأمر لا تطيقه، و وكلت بأمر لا أطيقه»[۲۰۳].

و من المناسب هنا أن نختم هذه الفقرة بما

رواه صاحب «الدر المنثور» عن «الحاكم» النيسابورى من أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لما لقى موسى الخضر، جاء طير فألقى منقاره فى الماء، فقال الخضر لموسى: تدرى ما يقول هذا الطائر؟ قال: و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۱

يقول؟ قال: يقول: ما علمك و علم موسى فى علم اللّه إلّا كما أخذ منقارى من الماء»[۲۰۴].

۶- ماذا كان الكنز؟

من الأسئلة التى تثار حول هذه القصّة، هى عن ماهية الكنز الوارد فى الآية، ماذا كان؟ و لماذا كان صاحب موسى يصر على إخفائه؟ و لماذا قام الرجل المؤمن، يعنى أ بالأيتام يتجمع هذا الكنز و إخفائه؟

يرى بعض المفسّرين أن الكنز يرمز إلى شىء معنوى، قبل أن يكون له مفهوم مادى.

إذ أنّ هذا الكنز- طبقا لروايات عديدة تنقل من طرق السنة و الشيعة- لم يكن سوى لوح منقوش عليه مجموعة من الحكم.

أمّا ما هى هذه الحكم؟ فثمة كلام كثير للمفسّرين فى ذلك.

ففى كتاب الكافى نقلا عن الإمام حيث قال فى جوابه على سؤال يتعلق بماهية الكنز: «أمّا إنّه ما كان ذهبا و لا فضة، و إنّما كان أربع كلمات: لا إله إلّا اللّه، من أيقن بالموت لم يضحك، و من أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، و من أيقن بالقدر لم يخش إلّا اللّه»[۲۰۵].

و فى روايات أخرى، ورد أنّ اللوح كان من ذهب. الظاهر أنّه ليس هناك تعارض بين الاثنين، لأنّ هدف الرّواية الأولى أن تبيّن أنّ الكنز لم يكن دراهم و دنانير.

و لو فرضنا أنّنا التزمنا المعنى الظاهر لكلمة كنز، و فسرناه على أنّه كمية من الذهب، فإنّنا لا نواجه مشكلة أيضا، لأنّ الكنز المحرم شرعا هو أن يقوم الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۲

بتجميع و ادخار أموال و ثروة كبيرة لمدّة طويلة فى حين أن المجتمع بحاجة إليها، و لكن لو قام أحد الأشخاص بدفن ماله ليوم أو عدّة أيّام (كما هو المتعارف فى الازمنة السابقة بسبب عدم الأمن) ثمّ توفى هذا الشخص بسبب حادثة، فلا يوجد أى إشكال فى مثل هذا الكنز.

۷- دروس هذه القصّة

هناك جملة دروس يمكن أن نستفيدها من القصّة، و يمكن لنا أن ندرجها كما يلى:

أ: أهمية العثور على قائد عالم و الاستفادة من علمه، بحيث رأينا أنّ نبيّا من أولى العزم مثل موسى عليه السّلام يسلك هذا الطريق الطويل، و قد بذل ما بذل لتحقيقه.

و هذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم و فى أى عمر كانوا.

ب: جوهرة العلم الإلهى تنبع من العبودية للّه تعالى، كما قرأنا فى الآيات أعلاه فى قوله تعالى: عَبْداً مِنْ عِبادِنا عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً.

ج: يجب تعلم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السّلام لصاحبه مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً أى علمنى عملا يقربنى من هدفى و مقصدى، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د: يجب عدم الاستعجال فى الأعمال، إذ العديد من الأمور تحتاج إلى الفرص المناسبة (الأمور مرهونة بأوقاتها) خاصّة فى القضايا المهمّة، و لهذا السبب، فإنّ الرجل العالم قد ذكر سرّ أعماله لموسى فى الفرصة المناسبة.

ه: الظاهر و الباطن من المسائل المهمّة الأخرى التى نتعلمها من القصة، إذ يجب علينا أن لا نصدر أحكاما سريعة تجاه الحوادث التى تقع فى مجرى حياتنا مما قد لا يعجبنا. إذ ما أكثر الحوادث التى نكرهها، و لكن يتّضح بعد مدّة أنّ هذه الحوادث لم تكن سوى نوع من الألطاف الخفية الإلهية. و القرآن يصرّح بمضمون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۳

هذه الحقيقة فى قوله تعالى: عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [۲۰۶].

إنّ المستفاد من هذه القضية أن لا يصاب الإنسان باليأس عند ما تهجم عليه الحوادث، و فى هذا الصدد نقرأ

فى حديث طريف ينقله عبد اللّه بن المحدّث و الفقيه المعروف زرارة بن أعين، و يقول فيه عبد اللّه: قال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام: «اقرأ منى على والدك السلام، و قل له: إنّى إنّما أعيبك دفاعا منّى عنك، فإنّ الناس و العدوّ يسارعون إلى كلّ من قرّبناه و حمدنا مكانه لإدخال الأذى فى من نحبه و نقرّبه، و يرمونه لمحبتنا له و قربه و دنوه منّا، و يرون إدخال الأذى عليه و قتله و يحمدون كل من عبناه نحن، فإنّما أعيبك لأنّك رجل اشتهرت منّا، و بميلك إلينا، و أنت فى ذلك مذموم عند الناس غير محمود الأثر بمودّتك لنا و لميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك فى الدين بعيبك و نقصك، و يكون بذلك منّا دافع شرّهم عنك. يقول اللّه عزّ و جلّ: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً هذا التنزيل من عند اللّه، صالحة، لا و اللّه ما عابها إلا لكى تسلم من الملك، و لا تعطب على يديه، و لقد كانت صالحة ليس للعيب فيها مساغ و الحمد للّه، فافهم المثل يرحمك اللّه، فإنّك و اللّه أحبّ الناس إلىّ، و أحبّ أصحاب أبى حيا و ميتا. فإنّك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، و إن من ورائك ملكا ظلوما غصوبا يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد بحر الهدى ليأخذها غصبا، ثمّ يغصبها و أهلها و رحمة اللّه عليك حيا و رحمته و رضوانه عليك ميتا»[۲۰۷].

و: من دروس القصة الاعتراف بالحقائق و اتخاذ المواقف المطابقة لها، فعند ما تخلف موسى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۴

لا يستطيع الاستمرار معه فى الصحبة، و بالرغم من أنّ فراق هذا الأستاذ كان أمرا صعبا على موسى عليه السّلام، إلّا أنّه عليه السّلام لم يكابر و أنصف العالم بإعطائه الحق، و فارقة عن إخلاص بعد أن حصل على حقائق عظمية و كنوز معنوية كبيرة من هذه الصحبة

القصيرة.

يجب على الإنسان أن لا يستمر إلى آخر عمره فى اختبار نفسه، بحيث تتحوّل حياته إلى مختبر للأمور المستقبلية التى قد لا تحصل أبدا، إذ عليه عند ما يختبر موضوعا ما عدّة مرّات، أن يلتزم العمل بنتائج الاختبار و أن يقتنع به.

ز: تأثير إيمان الآباء على الأبناء لقد تحمّل الخضر مسئولية حماية الأبناء فى المقدار الذى كان يستطيعه، و ذلك بسبب الأب الصالح الملتزم. بمعنى أنّ الابن يستطيع أن يسعد فى ظل الإيمان و أمانة و التزام الأب، و إنّ نتيجة العمل الصالح الذى يلتزمه الأب تعود على الابن أيضا.

و فى بعض الرّوايات نقرأ أنّ ذلك الرجل الصالح لم يكن الأب المباشر لليتامى، بل هو من أجدادهم البعيدين جدا. (و هكذا يكون للعمل الصالح تأثيره)[۲۰۸]. و إنّ من علائم صلاح هذا الأب هو ما تركه من الكنوز المعنوية، و من الحكم لأبنائه.

ح: قصر العمر بسبب إيذاء الوالدين عند ما يطال الموت الابن بسبب ما يلحقه من أذى بوالديه فى مستقبل حياته، و بسبب ما يرهقهما به من أذى و طغيان و كفر، قد يحرفهم به عن الطريق الإلهى، كما رأينا ذلك فى القصّة التى بين أيدينا، فإنّ الرّوايات الإسلامية تربط

بين قصر العمر و ترك صلة الرحم (و بالأخص أذية الوالدين و عقوقهما) و قد أشرنا إلى بعضها فى نهاية الحديث عن الآية (۲۳) من سورة الإسراء.

و ينبغى هنا أن نستوعب الدرس على صعيد هذا الجانب من القصة، إذا كان الولد يقتل لما يلحقه بأبويه من ضرر و أذى فى مستقبل حياته، ترى فما حال الذى يمارس الأذى فعلا بحق والديه و يرهقهما بالعقوق؟

ط: الناس أعداء ما جهلوا قد يحدث أن يقوم شخص بالإحسان إلينا، إلّا أنّنا نتصوره عدوّا لنا، لأنّنا لا نعرف بواطن الأمور، و نتسرع و نفقد الصبر، خصوصا إزاء الأحداث و الأمور التى نجهلها و لا نحيط بأسبابها علما. من الطبيعى أن يفقد الإنسان صبره إزاء ما لا يحيط به علما من الأحداث و القضايا، إلّا أنّ الدرس المستفاد من القصّة هو أن لا نتسرع فى إصدار الأحكام على مثل هذه القضايا حتى تكتمل لدينا الرؤية التى نحيط من خلالها بجوانب و زوايا الموضوع المختلفة.

ففى حديث عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، نقرأ قوله عليه السّلام: «الناس أعداء ما جهلوا»[۲۰۹]،

لذا فإنّه كلّما يرتفع الوعى لدى الإنسان فإنّ تعامله يكون أكثر منطقية، و بعبارة أخرى إنّ أساس الصبر هو الوعى.

و كان لانزعاج موسى عليه السّلام- بالطبع- ما يبرره، إذ كان يرى تجاوزا عن حدود الشرع فى الأحداث التى وقعت على يد صاحبه بحيث تعرض القسم الأعظم للشريعة الى الخطر، ففى الحادثة الأولى تعرضت مصونية أموال الناس إلى الخطر؛ و فى الثّانية تعرضت أرواحهم إلى خطر، أمّا فى الثّالثة، فكان اعتراضه ينصب على ضرورة التعامل المنطقى مع حقوق الناس، لذلك فقد اعترض و نسى

عهده الذى قطعه لصاحبه العالم، و لكن ما إن اطلّع على بواطن الأمور هدأ و كفّ عن الاعتراض. و هذا الأمر يدل على أنّ عدم الاطلاع هو أمر مقلق بحدّ ذاته.

ى: أدب التلميذ و الأستاذ ثمّة ملاحظات لطيفة حول أدب التلميذ و الأستاذ ظهرت فى مقاطع الحديث بين موسى عليه السّلام و الرجل الربّانى العالم، فمن ذلك مثلا:

۱- اعتبار موسى عليه السّلام لنفسه تابعا للخضر قوله: أَتَّبِعُکَ

۲- لقد أعلن موسى عليه السّلام هذا الإتباع على شكل استئذان فقال: هَلْ أَتَّبِعُکَ

۳- إقراره عليه السّلام بعلم أستاذه و بحاجته للتعلّم فقال: عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ

۴- و للتواضع فقد اعتبر علم أستاذه كثيرا، و هو يطلب جانبا من هذا العلم، فقال: مِمَّا.

۵- یصف علم أستاذه بأنّه علم إلهی فیقول: عُلِّمْتَ

۶- یطلب من أستاذه الهدایة و الرشاد فقال علیه السّلام: رُشْداً.

۷- یقول لأستاذه بشکل لطیف خفی، بأنّ اللّه قد تلطّف علیک و علّمک، فتلطّف أنت علیّ، و حیث قال علیه السّلام: «تعلمن ممّا علمت».

۸- إنّ جملة هَلْ أَتَّبِعُکَ تکشف حقیقة أن یکون التلمیذ فی طلب الأستاذ، و فی أتباعه، إذ لیس من وظیفة الأستاذ اتباع تلمیذه إلّا فی حالات و موارد خاصّة.

۹- برغم ما کان یتمتع موسی علیه السّلام بمنصب کبیر (حیث کان نبیّا من أولی العزم و صاحب رسالة و کتاب) إلّا أنّه تواضع، و هذا یعنی أنّک و مهما کنت و فی أی مقام أصبحت، یجب علیک أن تتواضع فی مقام طلب العلم و المعرفة.

۱۰- إنّ موسی علیه السّلام لم یذکر عبارة جازمة فی معرض تعهده لأستاذه، بل قال:

سَتَجِدُنِی إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً و هذه الصیغة فی التعبیر مملوءة أدبا إزاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۷

الخالق جلّ و علا، و اتجاه الأستاذ أیضا، حتی إذا تخلّف عنها لا یکون ثمّة نوع من هتک الحرمة إزاء الأستاذ.

و ضروری أن نذکر فی خاتمة هذا الحدیث أنّ العالم الربانی قد استخدم إزاء موسی علیه السّلام منتهی الحلم فی مقام التعلیم و التربیة، فعند ما کان موسی علیه السّلام ینسی تعهده و تثور ثائرته و یعترض علیه، یجیبه الأستاذ بهدوء و برود، و لکن علی شکل استفهام: أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۸

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۸۳ الی ۹۱]

اشارة

وَ یَسْئَلُونَکَ عَنْ ذِی الْقَرْنَیْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَیْکُمْ مِنْهُ ذِکْراً (۸۳) إِنَّا مَکَّنَّا لَهُ فِی الْأَرْضِ وَ آتَیْناهُ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ سَبَباً (۸۴) فَأَتْبَعَ سَبَباً (۸۵) حَتَّی إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِی عَیْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا یا ذَا الْقَرْنَیْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِیهِمْ حُسْناً (۸۶) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ یُرَدُّ إِلی رَبِّهِ فَیُعَذِّبُهُ عَذاباً نُکْراً (۸۷)

وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنی وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا یُسْراً (۸۸) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۸۹) حَتَّی إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلی قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (۹۰) کَذلِکَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَیْهِ خُبْراً (۹۱)

التّفسیر

قصّة «ذو القرنین» العجیبة:

قلنا فی بدایة حدیثنا عن أصحاب الکهف: إنّ مجموعة من قریش قرّرت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۹

اختبار الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و قامت هذه المجموعة بالتنسیق مع الیهود و استشارتهم بطرح ثلاث قضایا هی: تأریخ الفتیة من أصحاب الکهف.

السؤال عن ماهیة الروح، أمّا القضیة الثّالثة فقد کانت حول «ذو القرنین».

و فی القرآن، جاء الردّ علی قضیة الروح فی سورة الإسراء، أمّا الإجابة علی السؤالین الآخرین فقد جاءت فی سورة الکهف.

و نحن الآن بصدد قصّة «ذو القرنین»:

و أشرنا سابقا إلی أنّ سورة الکهف أشارت إلی ثلاث قصص تختلف فی الظاهر عن بعضها، و لکنّها تشترک فی جوانب معینة، و القصص الثلاث هی قصّة أصحاب الکهف، و موسی و الخضر، و قصّة «ذو القرنین».

إنّ فی القصص الثلاث هذه مضامین تنقلنا من حیاتنا العادیة إلی أفق آخر، یکشف لنا أنّ العالم فی حقائقه و أسراره لا یحدّ فیما ألفناه منه، و فیما یحیطنا منه، و اعتدنا علیه.

إنّ قصة «ذو القرنین» تدور حول شخصیة أثارت اهتمامات الفلاسفة و الباحثین منذ القدم. و قد بذلت جهود و مساعی کثیرة للتعرّف علی هذه الشخصیة.

و سنقوم أوّلا بتفسیر الآیات الست عشرة الخاصّة بذی القرنین حیث أن حیاته مع قطع النظر عن جوانبها التاریخیة بمثابة درس کبیر و ملیء بالعبر، ثمّ ننتقل إلی بحوث لمعرفة شخصیة ذی القرنین نفسه مستفیدین فی ذلک من الرّوایات الإسلامیة، و ممّا أشار إلیه المؤرّخون فی هذا الصدد.

بتعبیر آخر: إنّ ما یهمنا أوّلا- هو الحدیث عن شخصیة ذی القرنین، و هو ما فعله القرآن، حیث یقول تعالی: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنْ ذِی الْقَرْنَیْنِ

فیکون الجواب علی لسان الرّسول المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: قُلْ سَأَتْلُوا عَلَیْکُمْ مِنْهُ ذِکْراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۰

و لأنّ «السین» فی (سأتلوا) تستخدم عادة للمستقبل القریب، و الرّسول هنا یتحدّث مباشرة إلیهم عن ذی القرنین، فمن المحتمل أن یکون ذلک منه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم احتراما و مراعاة للأدب؛ الأدب الممزوج بالهدوء و التروی، الأدب الذی یعنی استلهامه للعلم من اللّه تبارک و تعالی، و نقله إلی الناس.

إنّ بدایة الآیة تبیّن لنا أنّ قصة «ذو القرنین» کانت متداولة و معروفة بین الناس، و لکنّها کانت محاطة بالغموض و الإبهام، لهذا السبب طالبوا الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الإدلاء حولها بالتوضیحات اللازمة.

و فی استئناف الحدیث عن ذی القرنین یقول تعالی: إِنَّا مَکَّنَّا لَهُ فِی الْأَرْضِ أی منحناه سبل القوة و القدرة و الحکم.

وَ آتَیْناهُ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ سَبَباً.

بالرغم من أنّ مفهوم (السبب) یعنی الحبل المستخدم فی تسلّق النخیل، الّا أن بعض المفسّرین یحصره فی الوسائل المستخدمة فی إنجاز الأعمال، إلّا أنّ الواضح من مفهوم الآیة أنّ الکلمة المذکورة یراد منها معناها و مفهومها الواسع، حیث أنّ اللّه تبارک و تعالی منح «ذو القرنین» أسباب الوصول لکل الأشیاء: العقل، العلم الکافی، الإدارة السلیمة، القوّة و القدرة، الجیوش و القوی البشریة، بالإضافة إلی الإمکانات المادیة. أی إنّه منح کل الأسباب و السبل المادیة و المعنویة الکفیلة بتحقیق الأهداف المنشودة.

ثمّ یشیر القرآن بعد ذلک إلی استفادة ذی القرنین من هذه الأسباب و السبل فیقول: فَأَتْبَعَ سَبَباً.

ثمّ حَتَّی إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ

فرأی أنّها تغرب فی بحر غامق أو عین ذات ماء آجن: وَجَدَها تَغْرُبُ فِی عَیْنٍ حَمِئَةٍ[۲۱۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۱

وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً أی مجموعة من الناس فیهم الصالح و الطالح، هؤلاء القوم هم الذین خاطب اللّه ذا القرنین فی شأنهم: قُلْنا یا ذَا الْقَرْنَیْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِیهِمْ حُسْناً[۲۱۱].

و يرى بعض المفسّرين فى كلمة (قلنا) دليلا- على نبوة ذى القرنين. و لكن من المحتمل أن يكون المقصود بهذا التعبير هو الإلهام القلبى الذى يمنحه الخالق جلّ و علا- لغير الأنبياء أيضا، هذا و ليس بالإمكان انكار أنّ التعبير الآنف الذكر يشير بالفعل إلى معنى النّبوة.

بعد ذلك تحكى الآيات جواب «ذى القرنين» الذى قال: قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً[۲۱۲]. أى إنّ الظالمين سينالون العذاب الدنيوى و الأخروى معا.

وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى

وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً.

أى أنّنا سنتعامل معه بالقول الحسن، فضلا عن أنّنا سنخفف عنه و لا نجعله يواجه المشاكل و الصعاب، بالإضافة إلى أنّنا سوف لن نجبى منه ضرائب كثيرة.

و الظاهر أنّ ذا القرنين أراد من ذلك أن الناس سينقسمون مقابل دعوتى الى التوحيد و الإيمان و النهى عن الظلم و الفساد إلى مجموعتين، الأولى: هى المجموعة التى سترحب ببرنامجه الإلهى و دعوته للتوحيد و الإيمان و هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۲

ستجزى بالحسنى و ستعيش حياة آمنة و مطمئنة. أمّا الثّانية: فستتخذ موقفا عدائيا من دعوة ذى القرنين و تقف فى الجبهة المناوئة، و تستمر فى شركها و ظلمها، و تواصل فسادها. و هى لذلك ستعاقب نتيجة موقفها هذا أشدّ العقاب.

و بمقارنة قوله: مَنْ ظَلَمَ و قوله: مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً يتبيّن لنا أنّ الظلم يعنى هنا الشرك و العمل غير الصالح الذى يعدّ من ثمار شجرة الشرك المشؤومة.

و عند ما انتهى «ذو القرنين» من سفره إلى الغرب توجه إلى الشرق حيث يقول القرآن فى ذلك: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً أى استخدم الوسائل و الإمكانات التى كانت بحوزته.

حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ و هنا رأى أنّها: وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً. و فى اللفظ كناية عن أنّ حياة هؤلاء الناس بدائية جدّا، و لا يملكون سوى القليل من الملابس التى لا تكفى لتغطية أبدانهم من الشمس.

أمّا بعض المفسّرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التى تحميهم من الشمس [۲۱۳].

و هناك احتمال آخر يطرحه البعض، و يرى أن يكون هؤلاء القوم فى أرض صحراوية تفتقر للجبال و الأشجار و الملاجئ، و أن ليس فى تلك الصحراء ما يمكّن هؤلاء القوم من حماية أنفسهم من الشمس من غطاء أو غير ذلك [۲۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۳

بالطبع ليس هناك تعارض بين التفاسير هذه، قوله تعالى: كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً. هكذا كانت أعمال «ذو القرنين» و نحن نعلم جيدا بإمكاناته.

بعض المفسّرين قال: إنّ هذه الآية تشير إلى الهداية الإلهية لذى القرنين فى برامجه و مساعيه [۲۱۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۴

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۹۲ الى ۹۸]

اشارة

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۹۲) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (۹۳) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ

مُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَکَ خَرْجاً عَلی أَنْ تَجْعَلَ بَیْنَنا وَ بَیْنَهُمْ سَدًّا (۹۴) قالَ ما مَکَّنِّی فِیهِ رَبِّی خَیْرٌ فَأَعِینُونِی بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ رَدْماً (۹۵) آتُونِی زُبَرَ الْحَدِیدِ حَتَّی إِذا ساوی بَیْنَ الصَّدَفَیْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّی إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِی أُفْرِغْ عَلَیْهِ قِطْراً (۹۶) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ یَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (۹۷) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّی فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّی جَعَلَهُ دَکَّاءَ وَ کانَ وَعْدُ رَبِّی حَقًّا (۹۸)

التّفسیر

کیف تمّ بناء سد ذی القرنین؟

الآیات أعلاه تشیر إلی سفرة أخری من أسفار ذی القرنین حیث تقول: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۵

أی بعد هذه الحادثة استفاد من الوسائل المهمّة التی کانت تحت تصرفه و مضی فی سفره حتی وصل إلی موضع بین جبلین: حَتَّی إِذا بَلَغَ بَیْنَ السَّدَّیْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا یَکادُونَ یَفْقَهُونَ قَوْلًا.

و الآیة إشارة إلی أنّه وصل إلی منطقة جبلیة، و هناک وجد أناسا (غیر المجموعتین اللتین عثر علیهما فی الشرق و الغرب) کانوا علی مستوی دان من المدنیة، لأنّ الکلام أحد أوضح علائم التمدّن لدی البشر.

البعض احتمل أنّ جملة لا یَکادُونَ یَفْقَهُونَ قَوْلًا لا تعنی أنّهم لم یکونوا یعرفون اللغات، بل کانوا لا یفهمون محتوی الکلام، أی کانوا متخلفین فکریا.

أمّا عن مکان الجبل و الجوانب التأریخیة و الجغرافیة لهذه الحادثة، و سنذکر فی نهایة البحث التّفسیری، حدیثا مفصلا عن ذلک.

فی هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجیء ذی القرنین، لأنّهم کانوا فی عذاب شدید من قبل أعدائهم یأجوج و مأجوج، لذا فقد طلبوا العون منه قائلین: قالُوا یا ذَا الْقَرْنَیْنِ إِنَّ یَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَکَ خَرْجاً عَلی أَنْ تَجْعَلَ بَیْنَنا وَ بَیْنَهُمْ سَدًّا.

قد یکون کلامهم هذا تمّ عن طریق تبادل العلامات و الإشارات، لأنّهم لا یفهمون لغة ذی القرنین، أو أنّهم تحدثوا معه بعبارات ناقصة لا یمکن الاعتداد بها.

و یحتمل أن یکون التفاهیم بینهم تمّ عن طریق المترجمین، أو بأسلوب الإلهام الإلهی، مثل تحدّث بعض الطیور مع سلیمان علیه السّلام.

فی کل الأحوال، یمکن أن نستفید من الآیة الشریفة أنّ تلک المجموعة من الناس کانت ذات وضع جیّد من حیث الإمکانات الاقتصادیة، إلّا أنّهم کانوا ضعفاء فی المجال الصناعی و الفکری و التخطیطی، لذا فقد تقبلوا بتکالیف بناء هذا السد المهم، بشرط أن یتکفل ذو القرنین ببنائه و هندسته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۶

و فیما یخص یأجوج و مأجوج سنتحدث عنهم فی نهایة هذا البحث إن شاء اللّه.

أمّا ذو القرنین فقد أجابهم: قالَ ما مَکَّنِّی فِیهِ رَبِّی خَیْرٌ، و أنّی لا أحتاج إلی مساعدتکم المالیة و إنّما: فَأَعِینُونِی بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ رَدْماً.

کلمة «ردم» علی وزن «طرد» و هی فی الأصل تعنی ملء الشق بالأحجار، إلّا أنها فیما بعد أخذت معنی واسعا بحیث شمل کل سد، بل و شمل حتی ترقیع الملابس.

یعتقد بعض المفسّرین أنّ کلمة «ردم» تقال للسد القوی ۲۱۶]، و وفقا لهذا التّفسیر فإنّ ذا القرنین قد وعدهم بأکثر ممّا کانوا ینتظرونه.

كما أنّه يجب الانتباه إلى أنّ «سد» على وزن «قد»، و «سدّ» على وزن «قفل» هما بمعنى واحد، و هو الحائل الذى يفصل بين شيئين، إلّا أنّ البعض- كما يقول الراغب- وضع فرقا بين الإثنين، فالأوّل هو من صناعة الإنسان، و الثّانى هو الحائل الطبيعى.

ثمّ أمر ذو القرنين فقال: آتُونِی زُبَرَ الْحَدِیدِ.

«زبر» جمع «زبرة» على وزن (غرفة)، و تعنى القطع الكبيرة و الضخيمة من الحديد.

و عند ما تهيأت قطع الحديد أعطى أمرا بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتى غطّى بين الجبلين بشكل كامل: حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ

«صدف» تعنى هنا حافة الجبل، و يتّضح من هذا التعبير أنّ هناك شقا بين حافتى الجبل حيث كان يأجوج و مأجوج يدخلان منه، و قد صمم ذو القرنين ملأ هذا الشق.

الأمر الثّالث لذى القرنين هو طلبه منهم أن يجلبوا الحطب و ما شابهه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۷

و وضعه على جانبى هذا السد، و أشعل النار فيه ثمّ أمرهم بالنفخ فيه حتى احمرّ الحديد من شدة النّار: قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً.

لقد كان يهدف ذو القرنين من ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سدا من قطعة واحدة، و عن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذى يقام به اليوم فى ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيرا أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لى النحاس المذاب حتى أضعه فوق هذا السد: قالَ آتُونِی أُفْرِغْ عَلَیْهِ قِطْراً.

و بهذا الشكل قام بتغطية هذا السد الحديدى بطبقة النحاس حتى لا ينفذ فيه الهواء و يحفظ من التآكل.

بعض المفسّرين قالوا: إنّ علوم اليوم أثبتت أنّه عند إضافة مقدار من النحاس إلى الحديد فإنّ ذلك سيزيد من مقدار مقاومته، و لأنّ «ذا القرنين» كان عالما بهذه الحقيقة فقد أقدم على تنفيذه.

إنّ المشهور فى معنى «قطر» هو ما قلناه (أى النحاس المذاب)، إلّا أنّ بعض المفسّرين فسّر ذلك ب «الخارصين المذاب» و هو خلاف المتعارف عليه.

و أخيرا، أصبح هذا السد بقدر من القوّة و الإحكام بحيث: فَمَا اسْطاعُوا أَنْ یَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً.

لقد كان عمل ذى القرنين عظيما و مهما، و كان له وفقا لمنطق المستكبرين و نهجهم أن يتباهى به أو يمنّ به، إلّا أنّه قال بأدب كامل: قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّی لأنّ أخلاقه كانت أخلاقا إلهية.

إنّه أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم و المعرفة و أستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمّة، فإنّ كل ذلك إنما كان من قبل الخالق جلّ و علا، و إذا كنت أملك قابلية الكلام و الحديث المؤثّر فذلك أيضا من الخالق جلّ و علا.

و إذا كانت مثل هذه الوسائل و الأفكار فى اختيارى فإنّ ذلك من بركة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۸

و رحمته الخالق الواسعة.

أراد ذو القرنين أن يقول: إنّنى لا أملك شيئا من عندى كى أفتخر به، و لم أعمل عملا مهما كى أمنّ على عباد اللّه.

ثمّ استطرد قائلا: لا تظنوا أنّ هذا السد سيكون أبديا و خالدا: فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّی جَعَلَهُ دَكَّاءَ.

وَ كانَ وَعْدُ رَبِّی حَقًّا.

لقد أشار ذو القرنين فى كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا و تحطّم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

لكن بعض المفسّرين اعتبر الوعد الإلهى إشارة إلى التقدم العلمى للبشر و الذى بواسطته لا يبقى معنى لسد غير قابل للاختراق و العبور، فالطائرات و ما شابهها تستطيع أن تعبر جميع هذه الموانع. و لكن هذا التّفسير بعيد حسب الظاهر.

بحوث

أولا- الملاحظات التربوية فى هذه القصة التأريخية

سنبحث فيما بعد- إن شاء اللّه- ما يتعلق بذى القرنين؛ من هو؟ و كيف تمّ سفره للشرق و الغرب؛ و أين كان السد الذى أنشأه؟ و غير ذلك، و لكن بصرف النظر عن الجوانب التأريخية، فإنّ القصّة بشكل عام تحوى على دروس تربوية كثيرة من الضرورى الالتفات إليها و الإفادة منها، و فى الواقع أنّها هى الهدف القرآنى من إيرادها. و يمكن تلخيص هذه الدروس بالشكل الآتى:

١- إنّ أوّل درس تعلمنا إيّاه أنّ عمل هذه الدنيا لا يتمّ دون توفير أسبابه، لذا فإنّ اللّه تبارك و تعالى وهب الوسائل و الأسباب لتقدم و انتصار ذى القرنين فى علمه: وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً. و فى نفس الوقت استفاد «ذو القرنين» من

هذه الأسباب و الوسائل بأفضل وجه ممكن: فَأَتْبَعَ سَبَباً.

لذلك فإنّ من يظن أنّه سيحصل على النصر من دون تهيئة أسبابه و مقدماته، فإنّه لا يصل إلى مرامه حتى لو كان ذا القرنين نفسه! ٢- بالرغم من أنّ غروب الشمس فى عين من ماء آسن سببه خطأ فى الباصرة و اشتباه منها، إلّا أنّ المعنى الذى نلمحه من هذا المثال هو إمكان تغطية الشمس مع عظمتها بالعين الآسنة و مثلها فى ذلك مثل ذلك الإنسان العظيم الذى يسقط و ينهار بسبب خطأ واحد فتغرب شخصيته من انظار الناس.

٣- لا تستطيع أى حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار و الأتباع، و معاقبة المذنبين و المخطئين، و هذا هو نفس الأساس الذى اعتمد عليه ذو القرنين حيث قال: قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ... وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى

و الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام بلور هذا المعنى فى رسالته إلى مالك الأشتر و التى هى برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السّلام: «و لا يكونن المحسن و المسىء عندك بمنزلة سواء، فإنّ فى ذلك تزهيدا لأهل الإحسان فى الإحسان، و تدريبا لأهل الإساءة على الإساءة»[٢١٧].

۴- التكليف الشاق و التصعّب فى الأمور و تحميل الناس ما لا يطيقون، كل هذه الأمور لا تناسب الحكومة الإلهية العادلة أبدا، و لهذا السبب فإنّ ذا القرنين بعد أن صرّح بمعاقبة الظالمين و تشويق الصالحين، أضاف: وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً حتى يمكن إنجاز الأعمال عن شوق و رغبة.

۵- الحكومة الكبيرة ذات الإمكانات الواسعة لا تتغاضى عن التفاوت و الاختلاف القائم فى حياة الناس و تراعى شرائط حياتهم المختلفة، و لهذا السبب فإنّ «ذو القرنين» صاحب الحكومة الإلهية و الذى واجهته أقوام مختلفة، كان

يتعامل مع كل مجموعة بما يناسب حياتها الخاصّة، و بذلك كان الجميع منضوين تحت لوائه.

۶- إنّ «ذو القرنين» لم يستعبد حتى تلك المجموعة التى لم تكن تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا بل إنّه استمع إلى مشاكلهم، و دأب على رفع احتياجاتهم بأى أسلوب كان، و بنى لهم سدا محكما بينهم و بين أعدائهم اللدودين (يأجوج و مأجوج) و قد قام بإنجاز أمورهم بدون أن يفرّق بينهم (رغم أنّه كان يظهر أنّ مثل هؤلاء الناس عديمى الفهم لا ينفعون الحكومة بأى شيء).

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ قوله: إسماع الأصم من غير تصعرّ صدقة هنيئة»[٢١٨].

۷- الأمن هو أوّل و أهم شرط من شروط الحياة الاجتماعية السالمة، لهذا السبب تحمّل «ذو القرنين» أصعب الأعمال و أشقها لتأمين أمن القوم من أعدائهم، و قد استفاد من أقوى السدود و أمنعها الذى أصبح مضرب الأمثال فى التأريخ و رمزا للاستحكام و الدوام و البقاء، حيث يقال لبناء القوى «إنّه مثل سدّ الإسكندر» بالرغم من أن «ذو القرنين» غير الإسكندر.

و عادة لا يسعد المجتمع من دون قطع الطريق على المفسدين، و لهذا فإنّ أوّل شىء طلبه إبراهيم عليه السّلام عند بناء الكعبة هو الأمن: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً[۲۱۹].

و لهذا السبب أيضا فإنّ الفقه الإسلامى وضع أقسى العقوبات للذين يعرضون أمن المجتمع إلى الخطر (راجع فى ذلك تفسير الآية (۳۳) من سورة المائدة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۱

۸- الدرس الآخر الذى يمكن أن نتعلمه من هذه القصّة، هو أنّ أصحاب المشكلة الأصليين معنيين بالدرجة الأولى فى الاشتراك فى الجهد المبذول لحل مشكلتهم، لذا فإنّ «ذو القرنين» أعطى أمرا إلى الفئة التى اشتكت إليه أمر يأجوج و مأجوج بأن يجلبوا قطع الحديد، ثمّ أعطاهم الأمر بإشعال النار فى أطراف السد لدمج القطع فيما بينها، ثمّ أمرهم بتهيئة النحاس المذاب. و عادة فإن العمل الذى يتمّ بمساهمة و حضور الأطراف الأصليين فى المشكلة يؤدى إلى إظهار استعداداتهم و يعطى قيمة خاصّة للنتائج الحاصلة منه، و للجهود المبذولة فيه، و من ثمّ يحرص الجميع للحفاظ عليه و إدامته بحكم تحملهم لمجهودات إنشائه.

كما يتّضح من هذه النقطة أن، المجتمع المتخلف و المتأخّر يستطيع أن ينجز أعمالا مهمّة و عظيمة إذا تمتع ببرنامج صحيح و إدارة مخلصة.

۹- الزعيم الإلهى و القائد الرّبانى لا يلتفت إلى الجزاء المادى و النفع المالى و إنّما يقتنع بما حباه اللّه، لذا رأينا «ذو القرنين» عند ما اقترحوا عليه الأموال قال:

ما مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ و هذا النمط من السلوك يخالف أساليب السلاطين و ولعهم العجيب بجمع الثروة و الأموال.

و فى القرآن الكريم نقرأ مرارا فى قصص الأنبياء أنّهم لم يكونوا يطلبون المال جزاء لأعمالهم و دعواتهم.

و يمكن مشاهدة هذا الموضوع فى (۱۱) موردا من القرآن الكريم، سواء ما يخص نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو الأنبياء السابقين، ففى بعض الأحيان يذكر القرآن تعبير: إنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ و فى أحيان أخرى يضع القرآن محبّة أهل البيت عليهم السّلام و الذين هم ركن القيادة المستقبلية أساسا للجزاء فيقول: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى

۱۰- إحكام الأمور هو درس آخر نستفيده من هذه القصّة، فذو القرنين استفاد من القطع الحديدية الكبرى فى بناء السد، و قد وصلها بالنّار، ثمّ غطّاها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۲

بالنحاس المذاب كى تمتنع عن التلف و الصدأ إذا تعرضت للهواء و الرطوبة.

۱۱- مهما كان الإنسان قويا و متمكنا و صاحب قدرة و استطاعة فى إنجاز الأعمال، فعليه، أن لا يغتر بنفسه، و هذا هو درس آخر نتعلمه من قصة «ذو القرنين». فقد اعتمد فى جميع شؤونه على قدرة الخالق جلّ و علا، و قال بعد إتمام السد: هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى و عند ما اقترحوا عليه المساعدة المالية قال:

ما مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ. و أخيرا عند ما يتحدث عن فناء هذا السد المحكم، فإنّه لا ينسى أن ينسب موعد ذلك إلى اللّه تعالى.

۱۲- كل شى إلى زوال مهما كان محكما و صلدا. هذا هو الدرس الأخير فى هذه القصة، و هو درس للذين يتمنون أو يظنون خلود المال أو المنصب و الجاه.

إنّ سد ذى القرنين أمر هيّن قياسا إلى انطفاء الشمس و فناء الجبال الراسيات، إذا فكيف بالإنسان المعرّض للأضرار أكثر من غيره!؟

ألا يكفى التفكير بهذه الحقائق حافزا على الوقوف بوجه الاستبداد؟

ثانيا: من هو ذو القرنين؟

ذكر المفسّرون كلاما كثيرا عن شخصية ذى القرنين الوارد فى القرآن الكريم، فمن هو؟ و على أى واحد من الشخصيات التأريخية المعروفة تنطبق أوصافه و يمكن أن نرجع الآراء إلى ثلاث نظريات أساسية هى:

النظرية الأولى: يرى البعض أنّ «ذو القرنين» ليس سوى «الإسكندر المقدونى»، لذا فإنّهم يسمونه «الإسكندر ذو القرنين» و يعتقد هؤلاء بأنّه سيطر بعد وفاة أبيه على دول الروم و المغرب و المصر، و بنى مدينة الإسكندرية، ثمّ سيطر بعد ذلك على الشام و بيت المقدس، ثمّ ذهب من هناك إلى «أرمينيا»، و فتح العراق و بلاد فارس، ثمّ قصد الهند و الصين، و من هناك رجع إلى خراسان، و قد بنى مدنا كثيرة، ثمّ جاء إلى العراق و مرض فى مدينة «زور» و توفى فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۳

و يقول البعض: إنّه لم يعمّر أكثر من (۳۶) سنة، أمّا جسده فقد ذهبوا به إلى الإسكندرية و دفنوه هناك ۲۲۰].

النظرية الثّانية: و يرى جمع من المؤرخين أنّ «ذو القرنين» كان أحد ملوك اليمن (كان ملوك اليمن يسمّون ب «تبّع» و جمع ذلك «تبايعه») و قد دافع عن هذه النظرية «الأصمعى» فى تأريخ العرب قبل الإسلام، و «ابن هشام» فى تأريخه المعروف بسيرة ابن هشام، و «أبو ريحان البيرونى» فى كتاب «الآثار الباقية».

و يمكن لنا أن نلمح فى شعر شعراء (الحميرية) و هم من أقوام اليمن، و بعضا من شعراء الجاهلية تفاخرا بكون «ذو القرنين» من قومهم ۲۲۱].

وفقا لهذه النظرية يكون سد ذو القرنين هو سد «مأرب» المعروف.

النظرية الثّالثة: و هى أحدث النظريات فى هذا المجال وردت عن المفكر الإسلامى المعروف (أبو الكلام آزاد) الذى شغل يوما منصب وزير الثقافة فى الهند. و قد أورد رأيه فى كتاب حققه فى هذا المجال.

و طبقا لهذه النظرية فإنّ ذا القرنين هو نفسه (كورش الكبير) الملك الأخمينى.

أمّا النظريتان الأولى و الثّانية فإنّها لا تدعمها أدلة قوية، و مضافا إلى ذلك فإنّ صفات الإسكندر المقدونى أو ملوك اليمن لا تنطبق مع الصفات الذى ذكرها القرآن لذى القرنين.

من ناحية ثالثة فإنّ الإسكندر لم يبن سدا معروفا. أمّا سد مأرب فى اليمن فإنّه لا يتطابق مع الصفات الواردة فى سدّ «ذو القرنين». الذى بنى من الحديد و النحاس، و قد أنشئ لصد هجوم الأقوام الهمجية، فى حين أنّ سد مأرب مكوّن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۴

من المواد العادية، و وظيفته خزن المياه و منعها من الطغيان و الفيضان، و قد ذكر القرآن شرحا لذلك فى سورة «سبأ».

لكل هذه الأسباب سنركز البحث على النظرية الثّالثة، و نرى من الضرورى- هنا- الانتباه بدقة إلى الأمور التالية:

أ: لماذا سمى ذو القرنين بهذا الاسم؟

البعض يعتقد أن سبب التسمية تعود إلى وصوله للشرق و الغرب، حيث يعبّر العرب عن ذلك بقرنى الشمس.

البعض الآخر يرى بأنّه عاش قرنين أو أنّه حكم قرنين، و أمّا ما مقدار القرن فهناك آراء مختلفة فى ذلك.

البعض الثّالث يقول: كان يوجد على طرفى رأسه بروز (قرن)، و لهذا السبب سمّى بذى القرنين.

و أخيرا فإنّ البعض يعتقد بأنّ تاجه الخاص كان يحتوى على قرنين.

بـالطبع هنـاک آراء أخرى فی ذلـک، إلّا أنّ ذکرهـا جمیعـا یطیل بنا المقام؛ و سوف نرى أنّ مبتکر النظریـة الثّالثـة (أبو الکلام آزاد) استفاد کثیرا من هذا اللقب لإثبات نظریته.

ب: لو لاحظنا بدقة من آیات القرآن الکریم لاستفدنا أنّ ذا القرنین کانت له صفات ممتازة هی:

* هیّأ له اللّه جلّ و علا أسباب القوّة و مقدمات الإنتصار، و جعلها تحت تصرفه و فی متناول یده.

* لقد جهز ثلاثة جیوش مهمّة: الأوّل إلى الغرب، و الثّانی إلى الشـرق؛ و الثّالث إلى المنطقة التی تضم المضیق الجبلی، و فی کل هذه الأسفار کان له تعامل خاص مع الأقوام المختلفة حیث ورد تفصیل ذلک فی الآیات السابقة.

* کان رجلا مؤمنا تتجلى فیه صفات التوحید و العطف، و لم ینحرف عن

طریق العـدل، و لهذا السـبب فقد شـمله اللطف الإلهی الخاص، إذ کان ناصـرا للمحسـنین و عدوّا للظالمین، و لم یکن یرغب أو یطمع بمال الدنیا کثیرا.

* کان مؤمنا باللّه و بالیوم الآخر.

* لقد صـنع واحدا من أهم و أقوى السدود، السد الذی اسـتفاد لصنعه من الحدید و النحاس بدلا من الطابوق و الحجارة. (و إذا کانت هناک مواد أخرى مستخدمة فیه، فهی لا یعتبر شیئا بالقیاس الى الحدید و النحاس) أمّا هدفه من بنائه فقد فی مساعدة المستضعفین فی قبال ظلم یأجوج و مأجوج.

* کان شـخصا مشـهورا بین مجموعـة من الناس، و ذلک قبل نزول القرآن، لذا فإنّ قریش أو الیهود سألوا رسول اللّه صـلّى اللّه علیه و آله و سلّم عنه، کما یصرح بذلک الکتاب العزیز فی قوله تعالى: یَسْئَلُونَکَ عَنْ ذِی الْقَرْنَیْنِ

و لا یمکن الاسـتفادة بشـیء من صـریح القرآن للدلالة على أنّه کان نبیّا، بالرغم من وجود تعابیر تشـعر بهذا المعنى، کما مرّ ذلک فی تفسیر الآیات السابقة.

و نقرأ فی العدید من الرّوایات الإسلامیة الواردة عن الرّسول صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة أهل البیت علیهم السّلام أنّه: لم یکن نبیّا بل عبدا صالحا»[۲۲۲].

ج: أساس القول فی النظریة الثّالثة (فی أنّ ذا القرنین هو کورش الکبیر) قائم على أصلین و هما:

الأصل الأوّل: وفق العدیـد من الرّوایات الواردة فی سـبب نزول هـذه الآیات فإنّ الـذی سأل عن «ذو القرنین» هم قوم من الیهود، أو أنّ قریشا قامت بالأمر بتحریض من الیهود، لذا یجب العثور على أصل هذا الموضوع فی کتاب الیهود.

و من الکتب المعروفـة عنـد الیهود، هو کتاب «دانیال» حیث نقرأ فی الفصل الثامن منه، ما یلی: «حینما ملک (بل شصّیر) عرضت لی و أنا دانیال رؤیا بعد الرؤیا الأولى التی شاهدتها، و ذلک حینما کنت أسکن قصر (شوشان) فی بلاد (عیلام)

فقد رأیت و أنا فی المنام بأنّی على مقربة من نهر (أولای) و أن کبشا یقف قرب النهر و کان له قرنان طویلان، و وجدته یضرب بقرنیه غربـا و شـمالا و جنوبـا، و لم یتقـدم أحـد أمـامه، و لأنّـه لم یکن یوجـد أحـد أمـامه، لـذا فـإنّه کـان یتصـرف وفقـا لمـا یریـد، و کان یکبر»[۲۲۳].

و بعـد ذلک نقل عن دانیال فی هذا الکتاب قوله: «و قد تجلّى له جبرائیل (أی لدانیال) و فسّر منامه هکذا: إنّ الکبش ذا القرنین الذی رأیته فإنّه من ملوک المدائن و فارس (أو ملوک ماد و فارس).

لقد استبشر الیهود من رؤیا دانیال و علموا بأنّ فترة عبودیتهم ستنتهی من قبضة البابلیین.

و لم تمض مدّة طویلة حتى ظهر (کورش) على مسرح الحکم فی إیران و وحّد بلاد (ماد و فارس) و شکّل منهما مملکة کبیرة؛ و کما

قال دانيال، فإنّ الكبش كان يضرب بقرنه الغرب و الشرق، فإنّ كورش قام بالفتوحات الكبيرة فى الجهات الثلاث، و حرّر اليهود و سمح لهم بالعودة إلى فلسطين ..

و الطريف ما نقرؤه فى التوراة فى كتاب «أشعيا» فصل (۴۴) رقم (۲۸): «ثمّ يقول بخصوص كورش: إنّه كان راعيا عندى (أى عند الرب) و سيقوم بتنفيذ مشيئتى».

يجب الانتباه إلى أنّ وصف كورش ورد فى بعض تعبيرات التوراة على أنّه «عقاب المشرق» و الرجل المدبّر الذى يأتى من مكان بعيد. (كتاب أشعيا فصل ۴۶ رقم ۱۱).

الأصل الثّانى: لقد تمّ العثور فى القرن التاسع عشر الميلادى على تمثال لكورش فى طول إنسان تقريبا، و ذلك بالقرب من مدينة «إصطخر» بجوار نهر «المرغاب» و يظهر من هذا التمثال أنّ لكورش جناحين من الجانبين يشبهان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۷

جناح العقاب، و على رأسه تاج يشاهد فيه قرنان يشبهان قرنا الكبش.

فضلا عمّا يطويه هذا التمثال من نموذج قيّم لفن النحت القديم، فقد جلب انتباه العلماء، حتى أنّ مجموعة من العلماء الألمان سافروا إلى إيران لأجل رؤيته فقط.

عند تطبيق ما ورد فى التوراة على مواصفات التمثال تبلور فى ذهن العلّامة (أبو الكلام آزاد) احتمال فى وجود اشتراك بين «ذو القرنين» و كورش، و أنّ الأخير لم يكن سوى «ذو القرنين» نفسه. فتمثال كورش له جناحان كجناحى العقاب، و هكذا توضحت شخصية «ذو القرنين» التأريخية لمجموعة من العلماء.

و ممّا يؤيّر هذه النظرية الأوصاف الأخلاقية المذكورة لكورش فى التأريخ.

يقول «هرودوت»، المؤرخ اليونانى: لقد أعطى كورش أمرا إلى قواته بألّا يضربوا بسيوفهم سوى المحاربين، و أن لا يقتلوا أى جندى للعدوّ إذا انحنى. و قد أطاع جيشه أوامره، بحيث أنّ عامّة الناس لم تشعر بمصائب الحرب و مآسيها.

و يكتب عنه «هرودوت» أيضا: لقد كان كورش ملكا كريما، و سخيا عطوفا، و لم يكن مثل بقية الملوك فى حرصهم على المال، بل كان حريصا على إفشاء العدل، و كان يتسم بالعطاء و الكرم، و كان ينصف المظلومين و يحب الخير.

و يقول مؤرّخ آخر هو (ذينوفن): لقد كان كورش ملكا عادلا و عطوفا، و قد اجتمعت فيه فضائل الحكماء، و شرف الملوك؛ فالهمة الفائقة كانت تغلب على وجوده، و كان شعاره خدمة الإنسانية، و أخلاقه إفشاء العدل، كما أنّ التواضع و السماحة كانا يغلبان الكبر و العجب فى وجوده.

الطريف فى الأمر أنّ هؤلاء المؤرّخين الذين ذكروا كورش فى الأوصاف الآنفة الذكر، كانوا من كتاب التأريخ الغرباء عن قوم كورش، و من غير أبناء وطنه، حيث كانوا من (اليونان)، و المعروف أنّ أهل اليونان تعرضوا لهزيمة منكرة على يد كورش عند ما فتح «ليديا»!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۸

ثمّ إنّ أنصار هذا الرأى يقولون: إنّ الأوصاف المذكورة فى القرآن الكريم حول «ذو القرنين» تتطابق مع الأوصاف التأريخية لكورش.

و الأهم من ذلك أنّ كورش قد سافر أسفارا نحو الشمال و الشرق و الغرب، و قد وردت قصة هذه الأسفار مفصّلة فى حياته، و هى تتطابق مع الأسفار الثلاثة لذى القرنين الوارد ذكرها فى القرآن الكريم.

فأوّل جيش له كان قد أرسله إلى بلاد «ليديا» الواقعة فى شمال آسيا الصغرى، و هذه البلاد كانت تقع غرب مركز حكومة كورش.

و عند ما نضع خارطة الساحل الغربى لآسيا الصغرى أمامنا، فسوف نرى أنّ القسم الأعظم من الساحل يغرق فى الخلجان الصغيرة و خاصة قرب «أزمير» حيث يكون الخليج بشكل يشبه شكل العين. و القرآن يبيّن أن «ذو القرنين» فى سفره نحو الغرب أحسّ بأنّ

الشمس غرقت فی عین من اللجن.

هـذا المشـهد، هو نفس المنظر الذی شاهده «کورش» حینما تطمس الشـمس فی الخلجان الساحلیة لتبدو لعین الناظر و کأنّها غارقة فی تلک الخلجان الساحلیة.

أمّا الجیش الثّانی فقـد کان باتجاه الشـرق، و فی وصـفه یقول المؤرخ «هرودوت»: إنّ هذا الهجوم الکورشـی فی الشـرق کان بعد فتح «لیدیا» و خاصّة بعد عصیان بعض القبائل الهمجیة التی أجبرت بعصیانها کورش علی هذا الهجوم.

و تعبیر القرآن الذی یقول: حَتَّی إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلی قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً هو إشارة إلی سـفر «کورش» إلی أقصـی الشرق حیث شاهد أنّ الشمس تشرق علی أناس لم یجعلوا لهم ما یظلّهم من حرّ الشمس، و هذه إشارة إلی أنّ القوم کانوا من سکنة الصحاری الرحّل.

أمّـا الجیش الثّـالث فقـد أرسـله نحو الشـمال باتجـاه جبـال القوقاز حیث وصل إلی المضـیق المحصور بین الجبلین، و بنی هناک سـدّا محکما بطلب من أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۹

المنطقة، لکی یتحصنوا به عن هجمات القبائل الهمجیة من قوم یأجوج و مأجوج.

المضـیق یسـمی فی الـوقت الحاضـر مضـیق «داریـال» حیـث یمکـن مشاهـدته فی الخرائـط المنتشـرة فی الـوقت الحاضـر، و یقـع بین «والادی کیوکز» و «تفلیس» فی نفس المکان الـذی ما زال یظهر فیه حتی الآن الجـدار الحدیـدی الأثری، و الـذی هو نفس السد الذی بناه «کورش»، إذ ثمّة تطابق واضح بینه و بین ما ذکر القرآن من صفات و خصائص لسدّ ذی القرنین.

هذه هی خلاصة الأدلة التی تدعم صحة النظریة الثّالثة حول شخصیة «ذو القرنین»[۲۲۴].

صحیـح أنّ ثمّـة نقاطا مبهمـة فی هـذه النظریة، إلّا أنّها فی الوقت الحاضـر تعتبر أفضل النظریات فی تشـخیص شخصـیة «ذو القرنین» و تطبیق مواصفاتها القرآنیة علی الشخصیات التأریخیة.

ثالثا: أین یقع سد ذی القرنین؟

بالرغم من محاولـة البعض المطابقـة بین سد ذی القرنین و بین جدار الصـین الذی لا یزال موجودا و یبلغ طوله مئات الکیلو مترات، إلّا أنّ الواضـح أنّ جـدار الصـین لا یـدخل فی بنائه الحدید و لا النحاس، و مضافا إلی ذلک لا یقع فی مضـیق جبلی ضـیق، بل هو جدار مبنی من مواد البناء العادیة و یبلغ طول مئات الکیلو مترات، و ما زال موجودا حتی الآن.

البعض یری فی سـد ذی القرنین أنّه سـد مأرب فی الیمن، و لکن هـذا السد برغم وقوعه فی مضـیق جبلی، إلّا أنّه أنشـئ لمنع السـیل و لخزن المیاه، و لم یدخل النحاس و الحدید فی بنائه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۰

و لکن بالاسـتناد إلی شـهادة العلماء و أهل الخبرة فإنّ السد- کما أشرنا لذلک قبل قلیل- یقع فی أرض القوقاز بین بحر الخزر و البحر الأسود، حیث توجـد سلسـلة جبلیـة کالجـدار تفصل الشـمال عن الجنوب، و المضـیق الوحیـد الذی یقع بین هذه الجبال الصـخریة هو مضیق «داریال» المعروف، و یشاهد فیه جدار حدیدی أثری حتی الآن، و لهذه المرجحات یعتقد الکثیرون أنّ سد «ذو القرنین» یقع فی هذا المضیق، و أنّ المتبقی من مواصفات آثاره دلیل مؤیّد لذلک.

الطریـف فی الأـمر أنّه یوجـد نهر علی مقربـة من ذلـک المکـان یسـمی «سـائرس» أی «کـورش» إذ کـان الیونـان یسـمون کورش ب (سائرس).

الآثار الأرمنیة القدیمة کانت تطلق علی هذا الجدار اسم «بهاک کورائی» و التی تعنی «مضیق کورش» أو «معبر کورش» و هذا دلیل آخر علی أنّ کورش هو الذی بنی السد[۲۲۵].

رابعا: من هم یأجوج و مأجوج؟

ذکر القرآن الکریم یأجوج و مأجوج فی سورتین، إذ وردت المرّة الأولی فی الآیات التی نبحثها، و الثّانیة فی سورة الأنبیاء، آیة (۹۶). الآیات القرآنیة تؤیّد بوضوح أنّ هذین الاسمین هما لقبیلتین همجیتین کانتا تؤذیان سکان المناطق المحیطة بهم.

و فی کتاب «حزقیل» من التوراة، الفصل الثامن و الثلاثین و التاسع و الثلاثین، و فی کتاب رؤیا «یوحنا» الفصل العشرین، ذکرا بعنوان «کودک» و «ماکوک» التی تعنی بعد التعریب یأجوج و مأجوج.

و یقول العلّامة الطباطبائی، فی تفسیر المیزان: إنّه یستفاد من مجموع ما ذکر فی التوراة أن مأجوج أو یأجوج و مأجوج هم مجموعة أو مجامیع کبیرة کانت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۱

تقطن أقصی نقطة فی شمال آسیا، و هم أناس محاربون یغیرون علی الأماکن القریبة منهم ۲۲۶].

البعض یعتقد أنّ هاتین الکلمتین عبریتین، و لکنهما فی الأصل انتقلتا من الیونانیة إلی العبریة، إذ کانتا تلفظان فی الیونانیة ب «کاک» و «ماکاک» ثمّ انتقلتا علی هذا الشکل إلی کافة اللغات الأوروبیة.

ثمّة أدلة تأریخیة علی أنّ منطقة شمال شرقی الأرض فی نواحی «مغولستان» کانت فی الأزمنة السابقة کثیفة السکان، إذ کانت الناس تتکاثر بسرعة، و بعد أن ازداد عددهم اتجهوا نحو الشرق أو الجنوب، و سیطروا علی هذه الأراضی و سکنوا فیها تدریجیا.

و قد وردت مقاطع تأریخیة مختلفة لحرکة هؤلاء الأقوام و هجراتهم، و قد تمّت واحدة من هذه الهجمات فی القرن الرابع المیلادی، بقیادة «آتیلا» و قد قضت هذه الهجمة علی حضارة الإمبراطوریة الرومانیة.

و کان آخر مقطع تأریخی لهجومهم فی القرن الثّانی عشر المیلادی بقیادة جنگیزخان، حیث هاجم شرق البلاد الإسلامیة و دمّر العدید من المدن، و فی طلیعتها مدینة بغداد حاضرة الخلافة العباسیة، و فی عصر کورش فی حوالی عام (۵۰۰) قبل المیلاد قامت هذه الأقوام بعدة هجمات، لکن موقف حکومة «ماد و فارس» إزاءهم أدّی إلی تعتبر الأوضاع و استتباب الهدوء فی آسیا الغربیة التی نجت من حملات هذه القبائل.

و بهذا یظهر أنّ یأجوج و مأجوج هم من هذه القبائل الوحشیة، حیث طلب أهل القفقاز من «کورش» عند سفره إلیهم أن ینقذهم من هجمات هذه القبائل، لذلک أقدم علی تأسیس السد المعروف بسدّ ذی القرنین ۲۲۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۲

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۹۹ الی ۱۰۲]

اشارة

وَ تَرَکْنا بَعْضَهُمْ یَوْمَئِذٍ یَمُوجُ فِی بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (۹۹) وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ یَوْمَئِذٍ لِلْکافِرِینَ عَرْضاً (۱۰۰) الَّذِینَ کانَتْ أَعْیُنُهُمْ فِی غِطاءٍ عَنْ ذِکْرِی وَ کانُوا لا یَسْتَطِیعُونَ سَمْعاً (۱۰۱) أَ فَحَسِبَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنْ یَتَّخِذُوا عِبادِی مِنْ دُونِی أَوْلِیاءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْکافِرِینَ نُزُلًا (۱۰۲)

التّفسير

عاقبة الكافرين:

لقد تناولت الآية السابقة سد يأجوج و مأجوج و انهدامه عند البعث، و هذه الآيات تستمر فى قضايا القيامة، فتقول أوّلا: إنّنا سنترك فى ذلك اليوم- الذى ينتهى فيه العالم- بعضهم يموج ببعض: وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ

إنّ استخدام كلمة «يموج» إمّا بسبب الكثرة الكاثرة للناس فى تلك الواقعة، و شبيه له ما نقوله من أنّ الناس فى القضية الفلانية يموجون، كناية عن كثرتهم، أو بسبب الاضطراب الخوف الذى يصيب الناس فى ذلك اليوم، و كأنّما أجسادهم تهتز كأمواج الماء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۳

طبعا لا يوجد تناقض بين المعنيين، و يمكن أن يشمل تعبير الآية كلا الحالتين.

بعد ذلك تضيف الآيات: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً و بلا شك فإنّ كافة الناس سيجمعون فى تلك الساحة و لن يستثنى منهم أحد، و تعبير فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً إشارة إلى هذه الحقيقة.

من مجموع الآيات نستفيد أنّ ثمّة تحولان عظيمان سيحصلان عند نهاية هذا العالم و بداية العالم الجديد:

الأوّل: فناء الموجودات و الناس بشكل آنى.

و الثّانى: إحياء الموتى بشكل آنى أيضا.

و لا نعلم مقدار الفاصل بين الحدثين، و لكنّ القرآن يعبّر عن هذين التحوّلين بعنوان (نفخ الصور)، و سنشرح ما يعينه ذلك فى نهاية الآية (۶۸) من سورة الزمر إن شاء اللّه.

و هناك رواية ينقلها «أصبغ بن نباتة» عن الإمام الصادق عليه السّلام، يبيّن فيها عليه السّلام أنّ المقصود من قوله تعالى: وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ هو يوم القيامة[۲۲۸].

و قد يتصّور البعض أنّ هناك تعارضا بين الرّواية و بين ما ذكرناه أعلاه فى تفسير الآية، حيث قلنا: إنّها تعنى مرحلة فناء الدنيا، كما يظهر من الآيات التى تسبقها و التى تليها. لكن هذا التعارض سيزول إذا التفتنا إلى ملاحظة و هى أنّه يتمّ استخدام يوم القيامة- فى بعض الأحيان- بمعناه الواسع الذى يشتمل على المقدمات) أى مقدمات القيامة) و نحن نعرف: أنّ الفناء السريع للدنيا هو أحد المقدمات.

ثمّ تتناول الآيات تفصيل حال الكافرين، حيث توضح عاقبة أعمالهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۴

و الصفات التى تقود إلى هذه العاقبة، فتقول: وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً.

إنّ جهنّم ستظهر لهم، و تتضح لهم الأنواع المختلفة من عذابها، و هذا هو بحدّ ذاته عذاب أليم موجع، فكيف إذا ولجوها!؟ من هم الكافرون؟ و لماذا يصابون بمثل هذه العاقبة؟

الآية تعرّف هؤلاء بجملة قصيرة واحدة بقولها: الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي و بالرغم من أنّهم يمتكون آذانا، إلّا أنّهم يفقدون القدرة على السماع: وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً.

فهؤلاء أسقطوا فى الواقع أهم وسيلة لمعرفة الحق و إدراكه، و أهملوا و الوسيلة الهامة فى شقاء أو سعادة الإنسان، يعنى أنّهم غطّوا أعينهم و أسماعهم بحجاب و ستار بسبب أفكارهم الخاطئة و تعصبهم و حقدهم و صفاتهم القبيحة الأخرى.

الطريف فى الأمر أنّ الآية تقول فيما يخص العين: إنّها كانت مغطاة و بعيدة عن ذكرى، و هذه إشارة إلى أنّهم لم يستطيعوا أن

یشاهـدوا آثار الخالق جلّ و علا، لأنّهم کانوا فی سـتار و حجاب من الغفلـة، و لأنّهم لـم یشاهـدوا الحقائق فقد اختلفوا الأساطیر و نسوا اللّه.

نعم، إنّ الحق الواضـح، و کل شـیء فی هذا الوجود یتحدث مع الإنسان، و المطلوب أن تکون للإنسان عین تنظر و أذن تسـمع! بعبارة أخری: إنّ ذکر اللّه لیس شیئا یمکن رؤیته بالعین، فما یشاهد هو آثاره، إلّا أنّ آثاره هی التی تذکّر الإنسان بخالقه.

الآیـة التی بعـدها تشـیر إلی نقطـة انحراف فکریـة لـدی هؤلاء هی أصل انحرافاتهم الأخری، فتقول: أَ فَحَسِبَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنْ یَتَّخِذُوا عِبادِی مِنْ دُونِی أَوْلِیاءَ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۵

هل یملک هؤلاء المعبودون- کالمسیـح و الملائکة- شـیئا للدفاع عن الآخرین بالرغم من مکانتهم العالیة، أو أنّ الأمر بالعکس إذ کل ما عند هؤلاء هو من اللّه، و أنّهم أنفسهم یحتاجون إلی هدایته؟

إنّ هذه حقیقة واضحة، و لکنّ هؤلاء تناسوها و تورطوا فی شراک الشرک.

فی ختام الآیة و للمزید من التأکید، تقول الآیة: إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْکافِرِینَ نُزُلًا.

«نزل» علی وزن «رسل» بمعنی الإقامة، و تعنی أیضا الشـیء الذی یهیّأ لتقدیمه للضیوف، و ذهب البعض إلی أن هذه الکلمة تطلق علی أوّل شیء یقدم للضیف عند وروده کالفواکه و الشراب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۶

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۱۰۳ الی ۱۰۸]

اشارة

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمالاً (۱۰۳) الَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ هُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً (۱۰۴) أُولئِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِیمُ لَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَزْناً (۱۰۵) ذلِکَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما کَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آیاتِی وَ رُسُلِی هُزُواً (۱۰۶) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ کانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (۱۰۷)

خالِدِینَ فِیها لا یَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (۱۰۸)

التّفسیر

أخسر الناس:

هـذه الآیات و الآیات اللاحقة- إلی نهایة السورة المبارکة- فی الوقت الذی تتحدّث فیه عن صـفات غیر المؤمنین، فإنّها تعتبر نوعا من التلخیص لکافة البحوث التی وردت فی هذه السورة، خاصة البحوث المتعلقة بقصة أصحاب الکهف و موسی و الخضر و ذی القرنین، و ما بذلوه من جهود إزاء معارضیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۷

فالآیات تکشف أوّلا عن أخسـر الناس، و لکنّها- بهدف إثارة حب الاسـتطلاع لدی المستمع إزاء هذه القضیة- تعمد إلی إثارتها علی شکل سؤال موّجه إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فتقول: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمالًا.

ثمّ یأتی الجواب بدون أی توقف حتی لا یبقی المستمع فی حیرة، فتقول:

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

مفهوم الخسران لا ينطبق على خسران الأرباح و حسب، بل إنّ الخسران الواقعى هو خسران أصل رأس المال، و هل هناک رأس مال أربح و أفضل و أحسن من العقل و الذكاء و الطاقات الإلهية الموهوبة للإنسان من عمر و شباب و صحة؟

إنّ نتاج كل هذه المواهب هى أعمال الإنسان، و أعمال الإنسان هى فى الواقع انعكاس و تجسيد لطاقاتنا و قدراتنا.

عند ما تتحوّل هذه الطاقات إلى أعمال مخرّبة أو غير هادفة، فكأنّها قد فنيت أو ضاعت، فهى كمثل الإنسان الذى يحمل ثروة عظيمة معه، و لكنّه أثناء ذهابه إلى السوق يفقد هذه الثروة و يعود بيد خالية.

و قد لا- يكون الخسران خسرانا خطيرا عند ما يتعلّم الإنسان من فقدان الثروة دروسا كبيرة قد تكون فى قيمتها مساويه للثروة التى فقدها، أو أكثر قيمة منها فى بعض الأحيان، فكأنّه لم يخسر شيئا.

إلّا أنّ الخسران الحقيقى و المضاعف هو أن يفقد الإنسان رأسماله المادى و المعنوى فى مسالک خاطئة و مجالات منحرفة و يظن أنّه أحسن العمل، فهو فى هذه الحالة لم يحصل على ثمرة لعمله، و فى نفس الوقت لم يلتفت إلى ما هو فيه، فيكرّر العمل.

الجميل هنا، إنّ القرآن الكريم استخدم تعبير بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا فى حين أنّ المفروض هو القول: «الأخسرين عملا» (لأنّ التمييز مفرد عادة) و لكن لعل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۸

هذه الصياغة القرآنية بسبب أنّهم لم يخسروا فى عمل معين، بل إنّ جهلهم المركب كان سببا للخسران فى جميع البرامج الحياتية و فى جميع أعمالهم.

بعبارة أخرى: إنّ الإنسان قد يربح فى تجارة معينة و يخسر فى أخرى، إلّا أنّ المحصلة فى نهاية السنة هى أنّه لا توجد خسارة كبيرة، و لكن من سوء حظ الإنسان أن يخسر فى جميع الأعمال التى اشترک فيها.

استخدم كلمة «ضلّ» لعله إشارة إلى هذه الحقيقة؛ و هى أنّ أعمال الإنسان لا تفنى فى هذا العالم بأى صورة من الصور، كما أنّ المادة و الطاقة تتبدّل و تتغيّر و لكنّها لا تفنى، و لكن قد تختفى أحيانا، لأنّه لا يمكن مشاهدة آثارها بالعين، و لا يمكن الاستفادة منها بأى شكل من الاشكال و مثلها فى ذلک مثل رأس المال الضائع و الذى لا هو فى حوزتنا فنستفيد منه، و لا هو فان.

أمّا لماذا يصاب الإنسان نفسيا بمثل هذه الحالات؟ فهو أمر سنبحث فيه مفصلا فى فقرة البحوث.

الآيات الأخرى تذكر صفات و معتقدات هذه المجموعة من الخاسرين، حيث تبدأ بتلک الصفات التى تكون أساسا فى مصائبهم فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ إنّهم كفروا بالآيات التى تفتح الأبصار و المسامع؛ الآيات التى ترفع حجب الغرور و تجسّد الحقائق أمام الإنسان، و أخيرا فإنّها آيات النور و الضياء التى تخرج الإنسان من ظلمات الأوهام و التصورات الخاطئة و ترشده إلى عالم الحقائق.

ثمّ إنّهم بعد ذلک نسوا اللّه و كفروا بالمعاد و بلقاء اللّه وَ لِقائِهِ

نعم، فما لم يكن الإيمان بالمعاد إلى جانب الإيمان بالمبدأ، و ما لم يحس الإنسان بأنّ هناک قوّة تراقب أعماله و تحتفظ بكل شيء إلى لحظة انعقاد المحكمة الكبيرة الدقيقة و القاسية، فإنّ الإنسان سوف لا يعير أهمية إلى أعماله و سوف لا يصلح نفسه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۹

ثمّ تضيف الآية أنّهم بسبب من كفرهم بالمبدأ و المعاد فإنّ أعمالهم قد حبطت و ضاعت: فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ و غدت تماما كالرماد فى مقابل العاصفة الهوجاء.

و لأنّهم لا يملكون عملا قيما ثمينا لذا: فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً.

لأنّ الوزن يخص الأمور الموجودة، أمّا هؤلاء فلا يملكون شيئا من الأعمال، و لذلک ليس لهم وزن و لا قيمة؟ و فى إطار بيان جزاء

هؤلاء، تكشف الآيهٔ عن ثالث سبب في انحراف و خسران هؤلاء، و هو الاستهزاء بما انزل اللّه فتقول: ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ رُسُلِي هُزُواً[۲۲۹].

و بـذلك فـإنّ هؤلاء انتهوا إلى إنكـار الأصول الأساسيهٔ الثلاثـهٔ في الإعتقاد الـديني (المبـدأ، و المعاد، و رسالـهٔ الأنبياء) و الأكثر من الإنكار أنّهم استهزءوا بهذه الأمور! و الآن بعد أن عرفنا علامات الكفار و الأخسرين أعمالا، و بعد أن انكشفت عاقبهٔ أعمالهم، تتوجه الآيـات إلى المؤمنين فتبيّن عـاقبتهم، و بمقايسـهٔ بين الاثنين نستطيع تشخيص كل طرف بشكل كامل. تقول الآيـهٔ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا.

«الفردوس» بقول كبار المفسّرين (البستان) الـذي يشتمل على كل النعم و المواهب اللازمـهٔ، و بـذلك فالفردوس هو أفضل و أكمل البساتين في الجنّهٔ.

و بما أنّ كمال النعم بدوامها و أن لا تطالها يد الزوال، لذا فإنّ الآيهٔ تقول بلا فصل: خالِدِينَ فِيها.

و بالرغم من أنّ طبع الإنسان قائم على التغيّر و التنوّع، إلّا أنّ سكان الجنّهٔ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۰

لا يطلبون تغيير مكانهم أو حالهم أبدا: لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا. ذلك لأنّهم يجدون كل ما يطلبون حتى التنوع و التكامل كما سيأتي شرح ذلك.

بحوث

۱- من هم الأخسرون أعمالا؟

نلاحظ في حياتنا و حياهٔ الآخرين، أنّ الإنسان عنـد ما يقوم بعمل خاطئ و يعتقد أنّه صـحيح، فإنّ جهله المركب هذا لا يدوم أكثر من لحظهٔ أو موقف أو حتى سنهٔ، أمّا أن يدوم على امتداد عمره فذلك هو سوء الحظ و هو الخسران المبين.

لهذا وجدنا القرآن الكريم يسـمي مثل هؤلاء الأشـخاص بالأخسرين، لأنّ الذي يرتكب الذنب و هو يعلم بذلك، فإنّه سيضع حدا لما هو فيه و يعوّض عن الـذنب بالتوبـهٔ و العمـل الصالـح، أمّـا أولئك الـذين يظنون أن ذنوبهم عبادهٔ و أعمالهم السيئهٔ أعمالا صالحـهٔ، و انحرافهم استقامهٔ، فـإنّ مثـل هؤلاء لا يستطيعون التعويض عن ذنوبهم، بل يستمرون فيما هم فيه إلى نقطهٔ النهايـهٔ، فيكونون كما عبّر عنهم القرآن: بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا.

و في الرّوايات و الأحاديث الإسلاميهٔ تفاسير متعدّدهٔ للأخسرين أعمالا، و إنّ كل واحد منها إشارهٔ إلى أحد المصاديق الواضحهٔ لهذا المفهوم الواسع من دون أن تحدّده،

ففي حديث «أصبغ بن نباتهٔ» أنّه سأل الإمام علي عليه السّلام عن تفسير الآيهٔ، فقال الإمام: «كفرهٔ أهل الكتاب، اليهود و النصارى، و قد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم و هم يحسبون أنّهم يحسبون صنعا»[۲۳۰].

و

في حديث آخر عن الإمام علي عليه السّلام أيضا، قوله بعد ذكر الجواب الآنف:

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۱

«و ما أهل النهر منهم ببعيد»

يعنى عليه السّلام الخوارج ۲۳۱].

و فى حديث ثالث هنا إشارة خاصّة إلى الرهبان (الرجال و النساء الذين يتركون الدنيا) و المجاميع التى ابتدعت البدع من المسلمين ۲۳۲].

و هناك قسم من الرّوايات تفسّر الآية ب (الذين ينكرون ولاية أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام)[۲۳۳].

أليس الرهبان الذى يعيشون كل عمرهم فى زاوية من الزوايا (فى الدير مثلا) و يعانون أنواع الحرمان، و يمتنعون عن الزواج و الأكل و الملابس الجيدة، و يفضلون سكنى الدير على كل شىء و هم يظنون أنّ هذه الحياة تقرّبهم إلى اللّه، أليس هؤلاء مصداقا واضحا للأخسرين أعمالا؟! هل هناك مذهب أو دين إلهى يمكن أن يدعو إلى خلاف قانون العقل و الفطرة، أى يدعو الإنسان الاجتماعى إلى الابتعاد عن الحياة، و يعتبر هذا العمل مصدرا للتقرب إلى اللّه تعالى؟! إنّ الذين أوجدوا البدع فى دين اللّه من قبيل التثليث فى مقابل توحيد اللّه الواحد الأحد، و اعتبروا المسيح بن مريم ابن اللّه، و أدخلوا خرافات أخرى فى دين اللّه، ظنا منهم بأنّهم يحسنون صنعا، أليس هؤلاء و أمثالهم هم أخسر الناس؟! ألا يعتبر خوارج «النهروان» من أخسر الناس، و هم المجموعة الجاهلة التى ارتكبت أعظم الذنوب (مثل قتل الإمام على عليه السّلام) ظنا منهم أنّ هذا الأمر سيقربهم من اللّه، بل و اعتبروا أنّ الجنّة مخصوصة لهم؟!

الخلاصة: إنّ الآية لها مفهوم واسع، إذ تشمل أقواما كثيرين فى السابق و الحاضر و المستقبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۲

و الآن نصل إلى هذا السؤال: ما هو مصدر هذا الانحراف الخطير؟

إنّ التعصب القوى و الغرور و التكبير و حب الذات، هى من أهم العوامل التى تقود إلى مثل هذه التصورات الخاطئة. و فى بعض الأحيان يكون التملق، أو الانطواء على النفس لفترة معينة سببا لظهور هذه الحالة، حيث يتصوّر الإنسان أنّ كل أعماله الخاطئة المنحرفة هى أعمال جميلة، بحيث يشعر بالفخر و الغرور و المباهاة بدلا من إحساس الخجل و الشعور بالعار بسبب أعماله القبيحة. يقول القرآن فى مكان آخر واصفا هذه الحالة: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً[۲۳۴] و فى آيات أخرى، نقرأ أنّ الشيطان هو الذى يزيّن للإنسان سيئاته حسنات، و يمنيهم بالغلبة و النصر، كما فى قوله تعالى: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ ۲۳۵].

و يقول القرآن بعد قصّة برج فرعون المعروف: وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ و الآية تعليق على عمل فرعون عند ما طلب من هامان أن يبنى له برجا ليطّلع بزعمه إلى إله موسى كما فى الآيتين (۳۶- ۳۷) من سورة غافر.

۲- ماذا يعنى لقاء اللّه؟

بالرغم من أنّ بعض أشباه العلماء يستفيدون من أمثال هذه الآيات إمكانية رؤية الخالق جلّ و علا فى العالم الآخر، و يفسّرون لقاء اللّه باللقاء الحسى، إلّا أنّه من المعلوم بداهة أنّ اللقاء الحسى يقتضى تجسيم الخالق جلّ و علا، و التجسيم يقتضى التحديد و الحاجة، و المحدود المحتاج يكون قابلا للفناء، و الكل يعرف و يؤمن بأنّ هذه الصفات لا تنطبق على اللّه تعالى.

لذا فإنّ القصد من اللقاء أو الرؤيا فى الآيات القرآنية ليس الرؤية الحسية، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۳

الرؤية الباطنية المعنوية.

يعنى أنّ الإنسان فى يوم القيامة يشاهد آثار الخالق أكثر و أفضل من أى زمان، لذا فإنّه ينظر إليه بوضوح، بعين القلب الواعى البصير. لهذا السبب- و وفقا للآيات القرآنية- فإنّه حتى أشد الناس إنكارا للخالق و أكثرهم عنادا، سوف يقر يوم القيامة بوجود الخالق، و أنّه

لا مجال لإنكاره ۲۳۶].

بعض المفسّرين اعتبر هذا المفهوم (لقاء اللّه) مشاهدة النعم و الثواب، و أيضا العذاب و العقاب الإلهی و فی ذلك تكون كلمة الثواب و العقاب مقدّرة فی الآية.

و بالرغم من أن هذان التّفسيران لا تعارض بينهما، إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أظهر و أوضح.

۳- وزن الأعمال

ليس بنا حاجة إلى أن نفسّر قضية وزن الأعمال عن طريق تجسيم الأعمال و القول بأنّ عمل الإنسان سيتحوّل هناك إلى جسم و له وزن، ذلك لأنّ الوزن له معنى واسع يشمل أية مقايسة، فمثلا نقول للأشخاص عديمی الشخصية أنّهم أشخاص لا وزن لهم، أو أنّهم أشخاص خفيفون، و نعنی بذلك ضعف شخصيتهم و ليس القلّة فی وزنهم الجسمی.

و الجميل هنا أنّ الاية تصف الأخسرين أعمالا بأنّنا لم نضع لهم يوم القيامة ميزانا للقياس. و لكن هل تتعارض هذه الآية مع قوله تعالى فی الآية (۸) من سورة الأعراف: وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ

طبعا لا، لأنّ الوزن يخصّ الأشخاص الذين قاموا بأعمال تستحق الوزن، أمّا الشخص الذی لا يساوی وجوده و أعماله و أفكاره حتى جناح بعوضة، فهل هو بحاجة إلى الوزن؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۴

لهذا السبب نقرأ

فی رواية معروفة عن النّبی قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّه ليأتی الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة»[۲۳۷].

لماذا؟ لأنّ أعمال مثل هؤلاء و أفكارهم و شخصيتهم كانت فی الحياة الدنيا عديمة الأهمية و الفائدة.

و من هنا يتّضح أنّ الناس هناك على عدّة أنواع هی:

۱- مجموعة تكون مثقلة بالحسنات و الأعمال الصالحة بحيث لا تحتاج إلى الوزن و الحساب فی أعمالها، بل تدخل الجنّة بدون حساب.

۲- مجموعة ثانية من الذين حبطت أعمالهم، أو ليس لهم أی عمل الصالح، و هذه لا تحتاج إلى وزن أيضا، بل تدخل النّار بدون حساب.

۳- أمّا المجموعة الثّالثة، فهی التی تملك السيئات و الحسنات، و هذه يشملها الوزن و الحساب. و قد يكون أكثر الناس من هذه الفئة.

۴- تفسير قوله تعالى: لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا

(حول) على وزن (علل) لها معنى مصدری و تعنی التحوّل و نقل المكان، و كما قلنا فی تفسير الآيات، فإنّ الفردوس بستان الجنة توجد فيه أفضل النعم و المواهب الإلهية، و لهذا السبب فإنّها تعتبر أفضل مناطق ذلك العالم، حيث أنّ الساكنين فيها لا يتمنون أبدا الانتقال منها إلى مكان آخر.

و قد يقول البعض: إنّ الحياة قد تكون هناك رتيبة و راكدة، و هذا بحد ذاته نقص و عيب كبير فيها؟! فی الجواب نقول: ليس ثمة مانع من أن يكون التحوّل و التكامل فی نفس المكان، إذا توافرت أسباب التكامل و اجتمعت هناك، و هی- قطعا- متوافرة.

و فی ظل الأعمال التی قام بها الإنسان فی هذه الدنيا، فإنّ الإنسان- من خلال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۵

المواهب الإلهیة هناک- سوف یستمر فی طریق تکامله بشکل دائم و مستمر.

و سنقوم إن شاء اللّه بشرح أفضل لتکامل الإنسان حتی فی الجنّة، و ذلک فی نهایة الآیات التی تناسب الموضوع.

۵- الفردوس لمن؟

قلنا: إنّ «الفردوس»[۲۳۸] أفضل مناطق الجنة، و لا یسکنه سوی المؤمنین و ذوی الأعمال الصالحة، إذا سیکون السؤال: من یسکن الأقسام الأخری فی الجنة، إذا کانت الجنة مکانا للمؤمنین و حسب و ممنوعة علی غیرهم؟

فی الجواب نقول: إنّ الفردوس لا تشمل کل مؤمن ذی عمل الصالح، بل هی لمن بلغ درجة عالیة من الإیمان و العمل الصالح، و هذه المرتبة هی المعیار للوصول إلی الفردوس بالرغم من أنّ ظاهر الآیة مطلق، إلّا أنّ الانتباه إلی معنی الفردوس یقیّد الإطلاق المذکور.

لذلک عند ما تتحدث سورة المؤمنون عن صفات ورثة الفردوس فإنّها تبیّن الحد الأعلی لصفات المؤمنین و الذی لا یکون موجودا عند جمیع الأفراد. و هذا دلیل آخر علی أنّ سکنة الفردوس یملکون صفات ممتازة بالإضافة إلی شرطی الإیمان و العمل الصالح.

لذلک رأینا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حدیث سابق، یعلمنا بأنّنا عند ما نطلب الجنّة، فعلینا أن ندعو لنیل الفردوس بالخصوص، لأنّها أکمل و أفضل منازل الجنّة.

و هذه إشارة إلی ضرورة أن تنصرف همة المؤمن- فی کل الأمور- إلی أعلی حد، و حتی فی الجنة علیه أن لا یقنع بمراحلها الدنیا بالرغم ممّا فی هذه المراحل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۶

من نعم و مواهب.

و طبیعی أنّ الذی یطلب هذه المنزلة من اللّه لا بدّ و أن یکون قد أعدّ نفسه لها، و علیه أن یبذل کل سعیه و جهده لکسب أفضل الصفات و أرضی الأعمال.

و من ذلک یعلم أن من یقول بأن المهم هو أن أدخل الجنّة حتی فی أدنی درجة منها هو شخص یفتقد للهمة العالیة للمؤمنین الحقیقیین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۷

الآیتان [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۱۰۹ الی ۱۱۰]

اشارة

قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ کَلِماتُ رَبِّی وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (۱۰۹) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ کانَ یَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا یُشْرِکْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (۱۱۰)

سبب النّزول

عن ابن عباس قال: «قالت الیهود لما قال لهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا قالوا: و کیف و قد أوتینا التوراة و من أوتی التوراة فقد أوتی خیرا کثیرا؟ فنزل قوله تعالی: قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ.

و قیل أیضا: قالت الیهود: إنّک أوتیت الحکمة، و من أوتی الحکمة فقد أوتی خیرا کثیرا، ثمّ زعمت- و المخاطب هنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- أنّک لا علم لک بالروح؟

فأمره اللّه تعالی أن یجیبهم بأنّی و إن أوتیت القرآن و أوتیتم التوراة فهی بالنسبة إلی کلمات اللّه تعالی قلیلة»[۲۳۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۸

التّفسیر

الذین یأملون لقاء اللّه:

الآیات أعلاه فی نفس الوقت الذی تبحث بحثا مستقلا، إلّا أنّها متصلة مع بحوث هذه السورة، حیث أنّ کل قصة من القصص الثلاث الواردة فی السورة، تکشف الستار عن مواضیع جدیدة و عجیبة، و کأنّما القرآن یرید أن یقول فی هذه الآیات: إنّ الاطلاع علی قصّة أصحاب الکهف، و موسی و الخضر، و ذی القرنین، یعتبر لا- شیء إزاء علم اللّه غیر المحدود، لأنّ علمه سبحانه و تعالی و معرفته تشمل کافة الکائنات و عالم الوجود فی الماضی و الحاضر و المستقبل.

القرآن الکریم یخاطب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی أوّل آیة نبحثها بقوله: قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ کَلِماتُ رَبِّی وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً.

«مداد» تعنی الحبر، أو أی مادة ملونة تساعد فی الکتابة، و هی فی الأصل مأخوذة من «مدّ» بمعنی السحب، حیث تتوضح خطوط الکتابة بسحب القلم ۲۴۰].

(کلمات) جمع کلمة، و هی فی الأصل تعنی الألفاظ التی یتمّ التحدّث بها، أو بعبارة أخری: الکلمة لفظ یدل علی المعنی، و بما أنّ کل موجود من موجودات هذا العالم هو دلیل علی علم و قدرة الخالق، لذا فإنّه یطلق فی بعض الأحیان علی کل موجود اسم (کلمة اللّه) و یختص هذا التعبیر أکثر بالموجودات المهمّة العظیمة.، فبالنسبة للمسیح عیسی علیه السّلام یقول القرآن الکریم: إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ ۲۴۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۹

و فی الآیة التی نبحثها فإنّ (کلمة) قد استخدمت بهذا المعنی، أی إشارة إلی موجودات عالم الوجود التی تدل کل واحدة فیه علی الصفات المختلفة للّه تبارک و تعالی.

و فی الحقیقة إن القرآن یلفت أنظارنا فی هذه الآیة إلی هذه الحقیقة و هی:

لا تظنّوا أنّ عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسّونه، بل هو علی قدر من السعة و العظمة بحیث لو أنّ البحار تتحول إلی حبر، و تکتب صفاته و خصائصه، فإنّها- أی البحار- ستجف قبل أن تحصی موجودات عالم الوجود.

و من الضروری الالتفات هنا إلی أنّ کلمة البحر یراد بها الجنس و کذلک کلمة (مثل) فی قوله: وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً فإنّه یراد بها الجنس أیضا، و هذه إشارة إلی أنّنا مهما أضفنا من أمثال هذه البحار إلیها فإنّ الکلمات الإلهیة لا تنتهی و لا تنفد.

و لهذا السبب فلیس ثمّة تعارض بین هذه الآیة و ما ورد فی سورة لقمان حیث قوله تعالی فی الآیة (۲۷): وَ لَوْ أَنَّ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ یعنی أنّ هذه الأقلام ستتکسر و المحابر ستجف حتی آخر قطرة، و مع ذلک فإنّ أسرار المخلوقات و حقائق عالم الوجود لا تنتهی.

و ینبغی الانتباه هنا إلی أنّ الآیة أعلاه فی الوقت الذی تجسّد فیه سعة عالم الوجود اللامتناهیة فی الماضی و الحاضر و المستقبل، فإنّها

توضّح- أیضا- العلم المطلق و غیر المحدود للخالق جلّ و علا، لأنّنا نعلم أنّ اللّه سبحانه و تعالی یحیط علمه بما کان موجودا فی عالم الوجود، و بما سیکون موجودا. و فی الوقت الـذی یعتبر فیه علم اللّه تعالی «علما حضوریا» فإنّه لا یفترق عن وجود هـذه الموجودات. (فدقق فی ذلک).

إذن نستطیع أن نقول: لو أنّ جمیع المحیطات و بحار الأرض تحولت إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۰

حبر و مداد، و لو أنّ کافة الأشجار تحولت إلی أقلام، فإنّ ذلک کلّه لا یستطیع الإحاطة بما موجود فی عالم الخالق جلّ و علا.

توضیح لمفهوم اللانهایة:

یقوم القرآن الکریم بتجسید العدد اللانهائی و یقرب معنی العلم المطلق غیر المحدود للّه تعالی، و یقرب سعة عالم الوجود العظیم إلی أفکارنا. و قد استخدم القرآن فی ذلک توضیحا بلیغا للغایة، و ذکر أرقاما حیّة و ذات روح.

تری هل هناک أعداد حیّة و أخری میتة؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۹ ؛ ص۳۹۰

م، ففی الریاضیات إذا وضعت الأصفار إلی یمین العدد الصحیح فهی لا تعبّر فی الواقع سوی عن أعداد میتة لا تستطیع أن تجسّد عظمة شیء معین.

الأشـخاص الـذین یهتمون بالقضایا الریاضـیة و الحسابیـة یعرفون أنّ العـدد الواحـد (کرقم واحد مثلا) لو وضع أمامه من الجهة الیمنی أصفارا بطول کیلومتر واحد، فسیکون عدد عظیم جدّا و محیّر و لا یمکن تصوّر عظمته، و لکن لمن؟

للاشخاص الریاضیین لا عامّة الناس الذین لا یستطیعون تصور العظمة فی هذا الرقم.

العدد الحی هو العدد الذی تنشغل أفکارنا به، و یجسّد الحقائق کما هی و یملک روحا و لسانا و عظمة.

و القرآن الکریم بـدلا من أن یقول: إنّ مخلوقـات عـالم الوجود تتجـاوز فی کثرتها الرقم الـذی تقع علی یمینه مئات الکیلو مترات من الأصـفار، یقول: إذا تحولت جمیع الأشـجار إلی أقلاـم، و کل البحار إلی مواد و حبر، فإنّ الأقلام ستتکسـر و میاه البحار سـتنتهی، و لا تنتهی أسرار و رموز و حقائق عالم الوجود، هذه الأسرار التی یحیط بها جمیعا علم اللّه تعالی.

فکروا جیدا و تأملوا المقدار الذی یستطیع أن یکتبه القلم، ثمّ ما هو عدد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۱

الأقلام التی یمکن صناعتها من غصن واحد صغیر من شجرة معینة؟

و معلوم أن باسـتطاعتنا صـناعة آلاـف بل حتی ملایین الأقلام من شـجرة کبیرة عظیمـة، و لنا أن نتصوّر الکمیـة من الأقلام التی یمکن صنعها من أشـجار الأرض جمیعا و غاباتها! من الجهـة الثّانیـة لنا أن نتصوّر عـدد الکلمات التی یمکن کتابتها من قطرة حبر واحدة، ثمّ علینا أن نتصوّر ما نسـتطیع کتابته من حوض واحـد، فبحیرة واحـدة، فبحر واحـد، فمحیط، و من ثمّ جمیع بحار الأرض و محیطاتها! إنّ الحصیلة- بلا شک- ستکون رقما عجیبا و خیالیا!! و تتوضح عظمة المثال القرآنی إذا عرفنا أنّ رقم (سبع) لیس للتحدید، بل هو إشارة للکثرة، و معنی هذا الکلام أنّنا لو أضفنا لهذا العدد أضعافه من البحار، فإنّ کلمات اللّه لا تنفد.

و الآن لنتصور الحیویة و الروح الدافقة فی هذا العدد، و الشاهد الحی الذی یبعث الیقظة فی روح الإنسان، و یشغل فکره و یجعله یفکّر فی آفاق اللانهایة! إنّ العدد الذی یتضمنه المثال القرآنی یحس بعظمته الجمیع سواء کانوا ریاضیین أو أمیین.

نعم، إنّ علم اللّه تعالى هو أعلى و أوسع من هذا العدد.

علم غير محدود و لا متناهى.

علم يشمل كل الوجود، سابقا و حاضرا و مستقبلا، و هو يضم فى طياته كل الأسرار و الحقائق! الآية الثّانية فى البحث و التى هى آخر آية فى سورة الكهف، عبارة عن مجموعة من الأسس و الأصول للاعتقادات الدينية، التى تتركز فى التوحيد و المعاد و رسالة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و الآية فى مضمونها إشارة إلى نفس المضمون الذى ورد فى بداية السورة المباركة. ففى البداية تحدّثت السورة عن اللّه و الوحى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۲

و الجزاء و القيامة، و الآية الأخيرة هى خلاصة لمجموع ما ورد فى السورة، التى اشتملت فى قسم مهم منها على الأصول الثلاثة الآنفة باعتبارها محاور للسورة.

و لأنّ قضية النبوة قد اقترنت مع أشكال من الغلو و المبالغة على طول التأريخ، لذا فإنّ الآية تقول: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ

و هذا التعبير القرآنى نسف جميع الامتيازات المقرونة بالشرك التى تخرج الأنبياء من صفة البشرية إلى صفة الألوهية.

ثمّ تشير الآية إلى قضية التوحيد من بين جميع القضايا الأخرى فى و الوحى الالهى حيث تقول: أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ.

أمّا لماذا تمت الإشارة إلى هذه القضية؟ فذلك لأنّ التوحيد هو خلاصة جميع المعتقدات، و غاية كل البرامج الفردية و الاجتماعية التى تجلب السعادة للإنسان.

و فى مكان آخر، أشرنا إلى أنّ التوحيد ليس أصلا من أصول الدين و حسب، و إنّما هو خلاصة لجميع أصول و فروع الإسلام.

لو أردنا- على سبيل المثال- أن نشبّه التعليمات الإسلامية من الأصول و الفروع على أنّها قطع من الجواهر، عندها نستطيع أن نقول: إنّ التوحيد هو السلك و الخيط الذى يربط جميع هذه القطع إلى بعضها البعض ليتشكّل من المجموع قلادة جميلة و ثمينة.

و إذا أردنا أن نشبّه التعليمات الإسلامية أصولا- و فروعا بأعضاء الجسم، فإنّ التوحيد سيكون روح الإنسان التى تهب الحياة لكافة الأعضاء.

و قد أثبتنا فى بحوثنا حول المعاد و النبوة أنّ هذين الأصلين لا ينفصلان عن التوحيد. يعنى: عند ما نعرف الخالق بجميع صفاته، فإنّنا نعلم أنّ مثل هذا الخالق يجب أن يرسل الأنبياء، و تقتضى حكمته و عدالته أن توجد محكمة عادلة و أن يكون هناك بعثا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۳

و المسائل الاجتماعية، و كل المجتمع الإنسانى و ما يرتبط به، ينبغى أن يكون فيه شعاع من التوحيد حتى يتوحد و ينتظم و يستقر.

لهذا السبب نقرأ فى الأحاديث القدسية إن: «كلمة لا اله إلّا اللّه حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى».

و كل منّا قد سمع أيضا أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فى بداية الإسلام: (قولوا لا إله إلّا اللّه تفلحوا).

الجملة الثّالثة فى الآية الكريمة تشير إلى قضية البعث و تربطها بالتوحيد بواسطة (فاء التفريع) حيث تقول: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً.

بالرغم من أن لقاء اللّه بمعنى المشاهدة الباطنية و رؤية الذات المقدسة بعين البصيرة هو أمر ممكن فى هذه الدنيا بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين، إلّا أنّ هذه القضية تكتسب جانبا عاما يوم القيامة بسبب مشاهدة الآثار الكبيرة و الواضحة و الصريحة للخالق تبارك و تعالى. لذا فإنّ القرآن استخدام هذا التعبير فى خصوص يوم القيامة.

من جانب آخر، فإنّ الإنسان الذى ينتظر أمرا معينا، و يأمل شيئا ما، فمن الطبيعى أن يهىء نفسه و يعدّها لاستقبال ذلك الأمر. أمّا الشخص الذى يدّعى و لا يستعد، و ينتظر و لا يعمل، فهو فى الواقع مدع كاذب لا غير.

لهذا السبب فإنّ الآية أعلاه تقول: فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وردت بصيغة الأمر، الأمر الذى يلازمه الرجاء و الأمل بانتظار لقاء اللّه.

و فی آخر جملة ثمّة توضیح للعمل الصالح فی جملة قصیرة، هی قوله تعالی: وَ لا یُشْرِکْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً.

بعبارة أخری: لا یکون العمل صالحا ما لم تتجلی فیه حقیقة الإخلاص.

فالهدف الإلهی یعطی لعمل الإنسان عمقا و نورانیة خاصّة، و یوجهه الوجهة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۴

الصحیحة، و عند ما نفقد الإخلاص یکون العمل ذا جنبة ظاهریة حیث یشیر إلی المنافع الخاصّة، و یفقد عمقه و أصالته و وجهته الصحیحة.

فی الحقیقة إنّ العمل الصالح الذی ینبع من أهداف إلهیة، و یمتزج بالإخلاص و یتفاعل معه، هو الذی یکون جوازا للقاء اللّه تبارک و تعالی.

و قد أشرنا سابقا إلی أنّ العمل الصالح له مفهوم واسع للغایة، و هو یشمل أی برنامج مفید و بنّاء، فردی و اجتماعی، و فی أی قضیة من قضایا الحیاة.

الإخلاص أو روح العمل الصالح:

أعطت الرّوایات الإسلامیة مکانة خاصّة لقضیة «النیة»، و الإسلام فی العادة یقر بقبول الأعمال بملاحظة النیة و الهدف من العمل.

الحدیث المشهور

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا عمل إلّا بنیة»

بیان واضح لهذه الحقیقة.

و بعد (النیة) هناک (الإخلاص)، فلو اقترن العمل بالإخلاص فسیکون عملا ثمینا للغایة، و بدون الإخلاص هو لا قیمة له. و الإخلاص هو أن تکون الدوافع الإنسانیة خالیة من أی نوع من أنواع الشوائب، و یمکن أن نسمّی الإخلاص ب «توحید النیة» یعنی التفکیر باللّه و برضاه فی جمیع الأمور و الحالات.

و الطریف فی الأمر هنا هو ما

ورد فی سبب نزول هذه الآیة من أنّ رجلا جاء إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: إنّی أتصدق و أصل الرحم، و لا أصنع ذلک إلّا للّه، فیذکر ذلک منّی، و أحمد علیه فیسرّنی ذلک، و أعجب به. فسکت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لم یقل شیئا، فنزلت الآیة: فَمَنْ کانَ یَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا یُشْرِکْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً[۲۴۲].

إنّ المقصود من هذه الرّوایة لیس الفرح أو السرور اللاإرادی، بل هی الحالة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۵

التی یکون فیها الفرح و السرور هدفا لعمل الإنسان، أو الحالة التی تؤدی إلی عدم خلوص النیة.

فالعمل الخالص یعتبر مهما فی الإسلام إلی الحد الذی

یقول فیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من أخلص للّه أربعین یوما فجّر اللّه ینابیع الحکمة من قلبه علی لسانه»[۲۴۳].

دعاء الختام:

إلهی، اجعل نیاتنا خالصة فی جمیع أعمالنا بحیث لا نفکّر بأحد سواک، و لا نعدوک إلی غیرک ... و اجعل ما نریده و ما لا نریده

تبعا لطاعتک و رضاک ... آمین ربّ العالمین.

نهایة سورة الکهف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۷

سورة مریم

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها ثمان و تسعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۹

«سورة مریم»

محتوی السورة:

لهذه السورة من جهة المحتوی عدة أقسام مهمّة:

۱- یشکل القسم الذی یتحدث عن قصص زکریا و مریم و المسیح علیهم السّلام و یحیی و إبراهیم علیهما السّلام بطل التوحید، و ولده إسماعیل، و إدریس و بعض آخر من کبار أنبیاء اللّه، الجزء الأهم فی هذه السورة، و یحتوی علی أمور تربویة لها خصوصیات مهمّة.

۲- الجزء الثّانی من هذه السورة- و الذی یأتی بعد القسم الأوّل من حیث الاهمیة- عبارة عن المسائل المرتبطة بالقیامة، و کیفیة البعث، و مصیر المجرمین، و ثواب المتقین، و أمثال ذلک.

۳- القسم الثّالث، و هو المواعظ و النصائح التی تکمل- فی الواقع- الأقسام السابقة.

۴- و أخیرا، فإنّ آخر قسم عبارة عن الإشارات المرتبطة بالقرآن، و نفی الولد عن اللّه سبحانه، و مسألة الشفاعة، و تشکل بمجموعها برنامجا تربویا مؤثرا من أجل دفع النفوس الإنسانیة إلی الإیمان و الطهارة و التقوی.

فضل السورة:

روی عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأها أعطی من الأجر بعدد من صدّق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۰

بزکریا و کذب به، و یحیی و مریم و موسی و عیسی و هارون و إبراهیم و إسحاق و یعقوب و إسماعیل عشر حسنات، و بعدد من ادعی للّه ولدا، و بعدد من لم یدع ولدا»[۲۴۴].

إن هذا الحدیث- فی الحقیقة- دعوة إلی السعی ت و الجد فی خطین مختلفین: خط مساندة و دعم النّبی و الطاهرین و الخیرین، و خط محاربة المشرکین و المنحرفین و الفاسقین، لأنا نعلم أن هذه المکافئات و العطایا الجزیلة لا تعطی لمن یتلفظ کلمات السورة بلسانه فقط، و لا یعمل بأوامرها، بل إن هذه الألفاظ المقدسة مقدمة للعمل.

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من أدمن قراءة سورة مریم لم یمت فی الدنیا حتی یصیب منها ما یغنیه فی نفسه و ماله و ولده»[۲۴۵].

إن هذا الغنی و عدم الاحتیاج- حتما- قبس من وجود محتوی السورۀ و سریانها فی أعماق روح الإنسان، و انعکاسها من خلال أعماله و أقواله و سلوکه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۱

الآیات [سورۀ مریم (۱۹): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

کهیعص (۱) ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیَّا (۲) إِذْ نادی رَبَّهُ نِداءً خَفِیًّا (۳) قالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعائِکَ رَبِّ شَقِیًّا (۴)

وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِیَ مِنْ وَرائِی وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا (۵) یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا (۶)

التّفسیر

دعاء زکریا المستجاب:

مرّۀ أخری نواجه الحروف المقطعۀ فی بدایۀ هذه السورۀ، و لما کنّا قد بحثنا تفسیر هذه الحروف المقطعۀ بصورۀ مفصلۀ فی بدایۀ ثلاث سور مختلفۀ فیما سبق- سورۀ البقرۀ و آل عمران و الأعراف- فلا نری حاجۀ للتکرار هنا.

و لکن ما ینبغی اضافته هنا هو وجود طائفتین من الرّوایات فی المصادر الإسلامیۀ تتعلق بالحروف المقطعۀ فی هذه السورۀ.

الأولی: تقول بأن کل حرف من هذه الحروف یشیر إلی اسم من أسماء اللّه الحسنی، فالکاف یشیر إلی الکافی، و هو من أسماء اللّه الحسنی، و الهاء تشیر إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۲

الهادی، و الیاء إشارۀ إلی الولی، و العین إشارۀ إلی العالم، و الصاد إشارۀ إلی صادق الوعد[۲۴۶].

الثّانیۀ: تفسر هذه الحروف المقطعۀ بحادثۀ ثورۀ الإمام الحسین علیه السّلام فی کربلاء، فالکاف إشارۀ إلی کربلاء، و الهاء إشارۀ إلی هلاک عترۀ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و الیاء إشارۀ إلی یزید، و العین إشارۀ إلی مسألۀ العطش، و الصاد إشارۀ إلی صبر و ثبات الحسین و أصحابه المضحین ۲۴۷].

و کما قلنا مرارا، فإن لآیات القرآن أنوار معان مختلفۀ، و تبیّن أحیانا مفاهیم من الماضی و المستقبل، و مع تنوعها و اختلافها فإنّه لا یوجد تناقض بینها، فی حین أننا إذا حصرنا المعنی و فسّرناه تفسیرا واحدا، فمن الممکن أن نبتلی بإشکالات من ناحیۀ وضع و سبب نزول الآیۀ و زمانه.

و بعد ذکر الحروف المقطعۀ، تشرع الکلمات الأولی من قصّۀ زکریا علیه السّلام فتقول: ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیَّا[۲۴۸]. و فی ذلک الوقت الذی کان زکریا علیه السّلام مغتما و متألما فیه من عدم إنجاب الولد، توجه إلی رحمۀ ربّه: إِذْ نادی رَبَّهُ نِداءً خَفِیًّا بحیث لم یسمعه أحد، و ذکر فی دعائه و هن و ضعف العظام باعتبارها عمود بدن الإنسان و دعامته و أقوی جزء من اجزائه: قالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً.

إن تشبیه آثار الکبر بالشعلۀ التی عمت کل الرأس تشبیه جمیل، لأنّ خاصیۀ شعلۀ النّار أنّها تتسع بسرعۀ، و تلتهم کل ما یحیط بها.

و من جهة ثانية فإنّ شعلة النّار لها بريق و ضياء يجلب الانتباه من بعيد.

و من ناحية ثالثة، فإنّ النّار إذا اشتعلت فی محل له، فإنّ الشیء الذی يبقى

منه هو الرماد فقط.

لقد شبه زكريا نزول الكبر، و بياض كل شعر رأسه باشتعال النّار، و الرماد الأبيض الذی تتركه، و هذا التشبيه جميل و بليغ جدا.

ثمّ يضيف: وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا فقد عودتنی دائما- فيما مضی- علی استجابة أدعيتی، و لم تحرمنی منها أبدا، و الآن و قد أصبحت كبيرا و عاجزا فأجدنی أحوج من السابق إلی أن تستجيب دعائی و لا تخيّبنی.

إنّ الشقاء هنا بمعنی التعب و الأذی أی إنّی لم أتعب و لم أتأذّ فی طلباتی منك، لأنّك كنت تقضيها بسرعة.

ثمّ يبيّن حاجته: وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي أی إنّی أخشی من أقربائی أن يسلكوا سبيل الانحراف و الظلم وَ كانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِی وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا أی مرضيا عندك.

بحوث

١- المراد من الإرث

لقد قدم المفسّرون الإسلاميون بحوثا كثيرة حول الإجابة عن هذا السؤال، فالبعض يعتقد أنّ الإرث هنا يعنی الإرث فی الأموال، و البعض اعتبره إشارة إلی مقام النبوة، و بعض آخر احتمل أن يكون المراد معنی جامعا شاملا لكلا الرأيين السابقين.

و قد اختار كثير من علماء الشيعة المعنی الأوّل، فی حين ذهب جماعة من علماء العامّة إلی المعنی الثّانی، و البعض الآخر- كسيد قطب فی (فی ظلال القرآن)، و الآلوسی فی روح المعانی- اختاروا المعنی الثّالث.

إنّ الذين حصروا المراد فی الإرث فی المال استندوا إلی ظهور كلمة الإرث

فی هذا المعنی، لأن هذه الكلمة إذا كانت مجرّدة عن القرائن الأخری، فإنّها تعنی إرث الأموال، أمّا فی موارد استعمالها فی بعض آيات القرآن فی الأمور المعنوية، كالآية (٣٢) من سورة فاطر: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فلوجود القرائن فی مثل هذه الموارد.

إضافة إلی أنّه يستفاد من قسم من الرّوايات أن هدايا و نذورا كثيرة كانت تجلب إلی الأحبار- و هم علماء اليهود- فی زمان بنی إسرائيل، و كان زكريا رئيس الأحبار[٢٤٩].

و إذا تجاوزنا ذلك، فإن زوجة زكريا كانت من أسرة سليمان بن داود، و بملاحظة الثروة الطائلة لسليمان بن داود، فقد كان لها نصيب منها.

لقد كان زكريا خائفا من وقوع هذه الأموال بأيدی أناس غير صالحين، و انتهازيين، أو أن تقع بأيدی الفساق و الفجرة، فتكون بنفسها سببا لنشوء و انتشار الفساد فی المجتمع، لذلك طلب من ربّه أن يرزقه ولدا صالحا ليرث هذه الأموال و ينظر فيها، و يصرفها فی أفضل الموارد.

الرّواية المعروفة المروية عن فاطمة الزهراء عليها السّلام، و التی استدلت فيها بهذه الآية من أجل استرجاع فدك، هی شاهد آخر علی هذا المدعی.

ینقل العلّامة الطبرسی فی کتاب الإحتجاج عن سیدة النساء علیها السّلام: إنّه عند ما صمم الخلیفة الأوّل علی منع فاطمة الزهراء علیها السّلام فدکا، و بلغ ذلک فاطمة، حضرت عنده و

قالت: «یا أبا بکر! أ فی کتاب اللّه أن ترث أباک و لا أرث أبی؟ لقد جئت شیئا فریا! أ فعلی عمد ترکتم کتاب اللّه و نبذتموه وراء ظهورکم إذ یقول فیما اقتص من خبر یحیی بن زکریا: إذ قال رب هب لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ؟[۲۵۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۵

أمّا الذین یعتقدون بأن الإرث هنا هو الإرث المعنوی، فقد تمسکوا بقرائن فی نفس الآیة، أو خارجة عنها، مثل:

۱- یبدو من البعید أن نبیّا کبیرا کزکریا، و فی ذلک السن الکبیر، یمکن أن تشغل فکره مسألة میراث ثروته، خاصّة و أنّه یضیف بعد جملة یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ جملة وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا، و لا شک أن هذه الجملة إشارة إلی الصفات المعنویة لذلک الوارث.

۲- إنّ اللّه سبحانه لما بشره بولادة یحیی فی الآیات القادمة، فإنّه ذکر صفات و مقامات معنویة عظیمة، و من جملتها مقام النبوة.

۳- إن الآیة (۳۸) من سورة آل عمران بینت السبب الذی دفع زکریا إلی هذا الطلب و الدعاء، و أنّه فکر فی ذلک عند ما شاهد مقامات مریم حیث کان یأتیها رزقها من طعام الجنّة فی محرابها بلطف اللّه: هُنالِکَ دَعا زَکَرِیَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ ذُرِّیَّةً طَیِّبَةً إِنَّکَ سَمِیعُ الدُّعاءِ.

۴- ورد فی بعض الأحادیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما یؤید أن الإرث هنا یراد به الإرث المعنوی، و خلاصة الحدیث أنّ الإمام الصادق علیه السّلام روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنّ عیسی بن مریم مرّ علی قبر کان صاحبه یعذب، و مرّ علیه فی العام الثّانی فرأی صاحب ذلک القبر لا یعذب، فسأله ربّه عن ذلک، فأوحی اللّه إلیه أنّه لصاحب هذا القبر ولد صالح قد أصلح طریقا و آوی یتیما، فغفر اللّه له بعمل ولده. ثمّ قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «میراث اللّه من عبده المؤمن ولد یعبده من بعده»، ثمّ تلا الإمام الصادق عند نقله هذا الحدیث الآیة المرتبطة بزکریا: فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا[۲۵۱].

فإن قیل: إن ظاهر کلمة الإرث هو إرث الأموال.

فیقال فی الجواب: إن هذا الظهور لیس قطعیا، لأنّ هذه الکلمة قد استعملت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۶

فی القرآن مرارا فی الإرث المعنوی، کالآیة (۳۲) من سورة فاطر، و الآیة (۵۳) من سورة المؤمن. إضافة إلی أنّنا لو فرضنا أنّها خلاف الظاهر، فإنّ هذا الإشکال سیزول بوجود القرائن.

إلّا أنّ أنصار الرأی الأوّل یستطیعون أن یناقشوا هذه الاستدلالات، بأنّ ما کان یشغل فکر زکریا- نبی اللّه الکبیر- هی مسألة الأموال، و لم تکن تشغله کمسألة شخصیة، بل باعتبارها مصدرا لفساد أو صلاح المجتمع؛ لأنّ بنی إسرائیل- و کما قیل أعلاه- کانوا یأتون بالهدایا و النذور الکثیرة إلی الأحبار فکانت تودع عند زکریا، و ربما کانت هناک أموالا متبقیة من قبل زوجته التی کانت من أسرة سلیمان، و من البدیهی أن وجود شخص غیر صالح یتولی هذه الأموال قد یؤدی إلی مفاسد عظیمة، و هذا هو الذی کان یقلق زکریا.

و أمّا الصفات المعنویة التی ذکرت لیحیی فی هذه الآیات و الآیات الأخری، فإنّها تؤید ما ذکرنا، و تنسجم معه، لأنّه أراد أن تقع هذه الثروة العظیمة بید رجل صالح یستفید منها فی سبیل المجتمع.

إلّا أنّنا نعتقد بأنا إذا توصلنا من مجموع المباحث أعلاه إلی هذه النتیجة، و هی أن للإرث هنا مفهوما و معنی واسعا یشمل إرث الأموال کما یشمل إرث المقامات المعنویة، فسوف لا یکون هناک مورد خلاف، لأنّ لکل رأی قرائنه، و إذ لاحظنا الآیات السابقة و اللاحقة و مجموع الرّوایات، فإنّ هذا التّفسیر یبدو أقرب للصواب.

أمّا جملة إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِیَ مِنْ وَرائِی فإنّها مناسبة لکلا المعنیین، لأنّ الأشخاص الفاسدین إذ تولوا أمر هذه الأموال، فإنّهم سیکونون

مصدر قلق حقا، و إذا وقعت زمام الأمور و قیادة الناس المعنویة بید أناس منحرفین، فإنّ ذلک أیضا یثیر المخاوف، و علی هذا فإنّ خوف زکریا یمکن توجیهه فی کلا الصورتین.

و حدیث فاطمة الزهراء علیها السّلام یناسب هذا المعنی أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۷

۲- ماذا تعنی کلمة «نادی»؟

فی قوله تعالی إِذْ نادی رَبَّهُ نِداءً خَفِیًّا طرح هذا السؤال بین المفسّرین، و هو أن «نادی» تعنی الدعاء بصوت عال، فی حین أن «خفیا» تعنی الإخفات و خفض الصوت، و هذان المعنیان لا یناسب أحدهما الآخر.

إلا أننا إذا علمنا أن «خفیا» لا تعنی الإخفات، بل تعنی الإخفاء، فسیکون من الممکن أن زکریا حین خلوته، حیث لا یوجد أحد سواه، کان ینادی و یدعو اللّه بصوت عال.

و البعض قال: إن طلبه هذا کان فی جوف اللیل حیث کان الناس یغطون فی النوم [۲۵۲].

و البعض الآخر اعتبر قوله تعالی: فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ التی ستأتی فی الآیات التالیة، دلیلا علی وقوع هذا الدعاء فی الخلوة [۲۵۳].

۳- وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ

إنّ زکریا قال: وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ و ذلک لأنّ زوجته کانت خالة مریم أو عیسی، و یتصل نسبها بیعقوب، لأنّها کانت من أسرة سلیمان بن داود، و هو من أولاد یهودا بن یعقوب [۲۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۸

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۷ الی ۱۱]

اشارة

یا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْیی لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا (۷) قالَ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیًّا (۸) قالَ کَذلِکَ قالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً (۹) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِی آیَةً قالَ آیَتُکَ أَلَّا تُکَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَیالٍ سَوِیًّا (۱۰) فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحی إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیًّا (۱۱)

التّفسیر

بلوغ زکریا أمله:

تبیّن هذه الآیات استجابة دعاء زکریا علیه السّلام من قبل اللّه تعالی استجابة ممزوجة بلطفه الکریم و عنایته الخاصّة، و تبدأ بهذه الجملة: یا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْیی لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا.

کم هو رائع و جمیل أن یستجیب اللّه دعاء عبده بهذه الصورة، و یطلعه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۹

ببشارته علی تحقیق مراده، و فی مقابل طلب الولد فإنّه یعطیه مولدا ذکرا، و یسمیه أیضا بنفسه، و یضیف إلی ذلک أنّ هذا الولد قد تفرد بأمور لم یسبقه أحد بها. لأنّ قوله: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا و إن کانت تعنی ظاهرا بأن أحدا لم یسم باسمه لحد ولادته، لکن لما لم یکن الاسم لوحده دلیلا علی شخصیة أحد، فسیصبح من المعلوم أنّ المراد من الاسم هنا هو المسمّی، أی أحدا قبله لم یکن یمتلک هذه الامتیازات، کما ذهب الراغب الأصفهانی إلی هذا المعنی- بصراحة- فی مفرداته.

لا شک فی وجود أنبیاء کبار قبل یحیی، بل و أسمی منه، إلّا أنّه لا مانع مطلقا من أن یکون لیحیی خصوصیات تختص به، کما ستأتی الإشارة إلی ذلک فیما بعد.

أمّا زکریا الذی کان یری أن الأسباب الظاهریة لا تساعد علی الوصول إلی مثل هذه الأمنیة، فإنّه طلب توضیحا لهذه الحالة من اللّه سبحانه: قالَ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیًّا.

«عاقر» فی الأصل من لفظة «عقر» بمعنی الجذر و النهایة، أو بمعنی الحبس، و إنّما یقال للمرأة: عاقر، لأنّ قابلیتها علی الولادة قد انتهت، أو لأنّ إنجاب الأولاد محبوس عنها.

«العتیّ» تعنی الشخص الذی نحل جسمه و ضعف هیکله، و هی الحالة التی تظهر علی الإنسان عند شیخوخته.

إلّا أنّ زکریا سمع فی جواب سؤاله قول اللّه سبحانه: قالَ کَذلِکَ قالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ ۲۵۵].

إن هذه لیست بالمسألة العجیبة، أن یولد مولود من رجل طاعن فی السن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۰

مثلک، و امرأة عقیم ظاهرا وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً، فإنّ اللّه قادر علی أن یخلق کل شیء من العدم، فلا عجب أن یتلطف علیک بولد فی هذا السن و فی هذه الظروف.

و لا شک أنّ المبشر و المتکلم فی الآیة الأولی هو اللّه سبحانه، إلّا أن البحث فی أنّه هو المتکلم فی الآیة الثّالثة: قالَ کَذلِکَ قالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ

ذهب البعض بأنّ المتکلم هم الملائکة الذین کانوا واسطة لتبشیر زکریا، و الآیة (۳۹) من سورة آل عمران یمکن أن تکون شاهدا علی ذلک: فَنادَتْهُ الْمَلائِکَةُ وَ هُوَ قائِمٌ یُصَلِّی فِی الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ یُبَشِّرُکَ بِیَحْیی

لکن الظاهر هو أنّ المتکلم فی کل هذه الأحوال هو اللّه سبحانه، و لا دلیل- أو سبب- یدفعنا إلی تغییره عن ظاهره، و إذا کانت الملائکة وسائط لنقل البشارة، فلا مانع- أبدا- من أن ینسب اللّه أصل هذا الإعلان و البشارة إلی نفسه، خاصّة و أنّنا نقرأ فی الآیة (۴۰) من سورة آل عمران: قالَ کَذلِکَ اللَّهُ یَفْعَلُ ما یَشاءُ.

و قد سرّ زکریا و فرح کثیرا لدی سماعه هذه البشارة، و غمر نفسه نور الأمل، لکن لما کان هذا النداء بالنسبة إلیه مصیریا و مهما جدا، فإنّه طلب من ربّه آیة علی هذا العمل: قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِی آیَةً.

لا شک أنّ زکریا کان مؤمنا بوعد اللّه، و کان مطمئنا لذلک، إلّا أنّه لزیادة الاطمئنان- کما أنّ إبراهیم الذی کان مؤمنا بالمعاد طلب مشاهدة صورة و کیفیة المعاد فی هذه الحیاة لیطمئن قلبه- طلب من ربّه مثل هذه العلامة و الآیة، فخاطبه اللّه: قالَ آیَتُکَ أَلَّا تُکَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَیالٍ سَوِیًّا و اشغل لسانک بذکر اللّه و مناجاته.

لکن، أیة آیة عجیبة هذه! آیة تنسجم من جهة مع حال مناجاته و دعائه، و من جهة أخری فإنّها تعزله عن جمیع الخلائق و تقطعه إلی اللّه حتی یشکر اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۱

على هذه النعمة الكبيرة، و يتوجه إلى مناجاة اللّه أكثر فأكثر.

إن هذه آية واضحة على أن إنسانا يمتلك لسانا سليما، و قدرة على كل نوع من المناجاة مع اللّه، و مع ذلك لا تكون له القدرة على التحدث أمام الناس! بعد هذه البشارة و الآية الواضحة، خرج زكريا من محراب عبادته إلى الناس، فكلّمهم بالإشارة: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا لأنّ النعمة الكبيرة التى منّ اللّه بها على زكريا قد أخذت بأطراف القوم، و كان لها تأثير على مصير و مستقبل كل هؤلاء، و لهذا فقد كان من المناسب أن يهبّ الجميع لشكر اللّه بتسبيحه و مدحه و ثنائه.

و إذا تجاوزنا ذلك، فإنّ بإمكان هذه الموهبة التى تعتبر إعجازا أن تحكّم أسس الإيمان فى قلوب الناس، و كانت هذه أيضا موهبة أخرى.

بحثان

۱- يحيى عليه السّلام النّبى المتألّه الورع

لقد ورد اسم «يحيى» فى القرآن الكريم خمس مرات- فى سور آل عمران، و الأنعام، و مريم، و الأنبياء- فهو واحد من أنبياء اللّه الكبار، و من جملة امتيازاته و مختصاته أنّه وصل إلى مقام النّبوة فى مرحلة الطفولة، فإنّ اللّه سبحانه قد أعطاه عقلا و ذكاء وقّادا و دراية واسعة فى هذا العمر بحيث أصبح مؤهلا لتقبل هذا المنصب.

و من خصائص هذا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى أشار إليها القرآن فى الآية (۳۹) من سورة آل عمران، وصفه بالحصور، كما قلنا فى ذيل تلك الآية، فإنّ «الحصور» من مادة الحصر، بمعنى وقوع الشخص فى المحاصرة، و هى تعنى هنا- طبقا لبعض الرّوايات- الامتناع عن الزواج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۲

لقد كان هذا العمل امتيازا بالنسبة له، من جهة أنّه يبيّن نهاية العفة و الطهارة، أو أنّه كان- نتيجة ظروف الحياة الخاصّة- مضطرا إلى الأسفار المتعددة من أجل نشر الدين الإلهى و الدعوة إليه، و اضطر كذلك إلى أن يعيش حياة العزوبة كعيسى بن مريم عليه السّلام.

و هناك تفسير قريب من الصواب أيضا، و هو أن الحصور- فى الآية المذكورة- تعنى الشخص الذى ترك شهوات الدنيا و ملذاتها، و هذا فى الواقع مرتبة عالية من الزهد[۲۵۶].

على كل حال، فإنّ المستفاد من المصادر الإسلامية و المسيحية أن يحيى كان بن خالة عيسى.

فقد صرّحت المصادر المسيحية بأنّ يحيى غسل المسيح عليه السّلام غسل التعميد، و لذلك يسمّونه (يحيى المعمد)- و غسل التعميد غسل خاص يغسل المسيحيون أولادهم به، و يعتقدون أنّه يطهرهم من الذنوب- و لما أظهر المسيح نبوته آمن به يحيى.

لا شك أن يحيى لم يكن له كتاب سماوى خاص، و ما نقرأه فى الآيات التالية من أنّه يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ إشارة إلى التوراة، و هى كتاب موسى عليه السّلام.

و هناك جماعة يتبعون يحيى، و ينسبون له كتابا، و ربما كان (الصابئون الموحدون) من أتباع يحيى [۲۵۷].

لقد كان بين يحيى و عيسى جوانب مشتركة، كالزهد الخارق غير المألوف، و ترك الزواج للأسباب التى ذكرت، و ولادتهما التى تحمل طابع الإعجاز، و كذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۳

النسب القريب جدّا.

و يستفاد من الرّوايات الإسلامية، أن بين الحسين عليه السّلام و يحيى عليه السّلام جهات مشتركة، و لذلك
فقد روى الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: «خرجنا مع الحسين بن على عليه السّلام، فما نزل منزلا و لا رحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريا و قتله، و قال: و من هو ان الدنيا على اللّه أنّ رأس يحيى بن زكريا أهدى إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل»[۲۵۸].
كما أن شهادة الحسين عليه السّلام تشبه شهادة يحيى عليه السّلام من عدّة جهات أيضا، و سنذكر كيفية قتل يحيى فيما بعد.
و كذلك فإنّ اسم الحسين عليه السّلام كاسم يحيى عليه السّلام لم يسبقه به أحد، و مدّة حملهما كانت أقل من المعتاد.

۲- ما معنى كلمة «المحراب»؟

«المحراب» محل خاص فى مكان العبادة يجعل للإمام أو الوجهاء و المبرزين، و قد ذكروا علتين لهذه التسمية:
الأولى: أنّها من مادة «حرب»، لأنّ المحراب فى الحقيقة محل لمحاربة الشيطان و هوى النفس.
و الثّانية: أنّ المحراب فى اللغة بمعنى مكان الصدارة فى المجلس، و لما كان مكان المحراب فى صدر المعبد فقد سمى بهذا الاسم.
يقول البعض: إنّ المحراب كان عند بنى إسرائيل بعكس ما هو المتعارف عندنا، حيث كان فى مكان أعلى من سطح الأرض حيث يرتقى اليه بعدّة
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۴
درجات. و كانوا يحيطونه بالجدران بحيث تصعب رؤية الذين يتعبدون فى داخل المحراب، و يؤيد ذلك ما ورد فى الآية: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ و التى قرأناها فى الآيات محل البحث، و مع ملاحظة كلمة «على» التى تستعمل عادة للدلالة على الجهة العليا يتّضح هذا المطلب أكثر.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۵

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۱۲ الى ۱۵]

اشارة

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (۱۲) وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا (۱۳) وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (۱۴) وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (۱۵)

التّفسير

صفات يحيى عليه السّلام البارزة:

رأينا فى الآيات السابقة كيف أنّ اللّه سبحانه منّ على زكريا عند كبره بيحيى، و بعد ذلك فإنّ أوّل ما نلاحظه فى هذه الآيات هو الأمر الإلهى المهم الذى يخاطب يحيى: يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ.
المشهور بين المفسّرين أنّ المراد من الكتاب هنا هو التوراة، حتى ادعوا الإجماع على ذلك [۲۵۹].
إلّا أنّ البعض احتمل أن يكون له كتاب خاص كزبور داود، و هو طبعا ليس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۶

کتابا متضمنا لدین جدید و مذهب مستحدث ۲۶۰]. غیر أن الاحتمال الأوّل هو الأقوی کما یبدو.

و علی أی حال، فإنّ المراد من أخذ الکتاب بقوة هو إجراء و تنفیذ ما جاء فی کتاب التوراة السماوی بکل حزم و اقتدار و تصمیم راسخ، و إرادة حدیدیة، و أن یعمل بکل ما فیه، و أن یستعین بکل القوی المادیة و المعنویة فی سبیل نشره و تعمیمه.

إنّ من القواعد المسلّمة أنّه لا یمکن تطبیق أی کتاب و دین بدون قوة و قدرة و حزن أتباعه و أنصاره، و هذا درس لکل المؤمنین، و کل السالکین و السائرین فی طریق اللّه.

یحیی و صفاته العشرة:

ثمّ أشار القرآن الکریم إلی المواهب العشرة التی منحها اللّه لیحیی و التی اکتسبها بتوفیق اللّه:

۱- وَ آتَیْناهُ الْحُکْمَ صَبِیًّا. و هو أمر النّبوة و العقل و الذکاء و الدرایة.

۲- وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا و الحنان فی الأصل بمعنی الرحمة و الشفقة و المحبّة و إظهار العلاقة و المودّة للآخرین.

۳- وَ زَکاةً أی أعطیناه روحا طاهرة و زکیة، و بالرغم من أنّ المفسّرین فسروا الزکاة بمعان مختلفة، فبعضهم فسّرها بالعمل الصالح، و آخر بالطاعة و الإخلاص، و ثالث ببر الوالدین و الإحسان إلیهما، و رابع بحسن السمعة و الذکر، و خامس بطهارة الأنصار، إلّا أنّ الظاهر هو أنّ للزکاة معنی واسعا و شاملا یتضمن کل هذه الأعمال و الصفات الطاهرة الصالحة.

۴- وَ کانَ تَقِیًّا فکان یجتنب کل ما یخالف الأوامر الالهیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۷

۵- وَ بَرًّا بِوالِدَیْهِ

۶- وَ لَمْ یَکُنْ جَبَّاراً فلم یکن رجلا ظالما و متکبرا و انانیا.

۷- و لم یکن عَصِیًّا و لم یقترف ذنبا و معصیة.

۸، ۹، ۱۰- و لما کان جامعا لکل هذه الصفات البارزة، و الأوسمة الکبیرة، فإن اللّه سبحانه قد سلّم علیه فی ثلاثة مواطن: وَ سَلامٌ عَلَیْهِ یَوْمَ وُلِدَ، وَ یَوْمَ یَمُوتُ، وَ یَوْمَ یُبْعَثُ حَیًّا.

بحوث

۱- خذ الکتاب السماوی بقوة و اقتدار!

إنّ لکلمة «قوة» فی قوله: یا یَحْیی خُذِ الْکِتابَ بِقُوَّةٍ- کما تقدم- معنی واسعا جمعت فیه کل القدرات و الطاقات المادیة و المعنویة، الروحیة الجسمیة، و هذا بحد ذاته یبیّن و یوضح هذه الحقیقة، و هی أنّ الدین الإلهی و الإسلام و القرآن لا یمکن أن تحفظ بالضعف و التخاذل و المهادنة اللین، بل یجب أن تصان بقوّة و تجعل فی قلعة القدرة المنیعة.

إنّ المخاطب هنا و إن کان یحیی، إلّا أنّه قد ورد هذا التعبیر بالنسبة إلی غیره من الأنبیاء فی موارد أخری من القرآن المجید، ففی الآیة (۱۴۵) من سورة الأعراف أمر موسی بأن یأخذ التوراة بقوة: فَخُذْها بِقُوَّةٍ.

و فی الآیة (۶۳ و ۹۳) من سورة البقرة یلاحظ أنّ الخطاب موجه لجمیع بنی إسرائیل: خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّةٍ و هو یوحی بأن هذا

الحكم عام يشمل الجميع، و لا يخص شخصا أو أشخاصا معينين.

و قد ورد هذا المفهوم بتعبير آخر فى الآية (۶۰) من سورة الأنفال: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۸

و على كل حال، فإنّ هذه الآية تعتبر جوابا لمن يظن أنّه بالإمكان تنفيذ عمل أو تحقيق غاية من موقعه الضعف، أو يريد حل المشاكل عن طريق المساومة فى كل الظروف.

۲- ثلاثة أيّام صعبة فى مصير الإنسان

إنّ التعبير ب سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا يبيّن أن فى تاريخ حياة الإنسان و انتقاله من عالم إلى عالم آخر ثلاثة أيّام صعبة: يوم يضع قدمه فى هذه الدنيا: يَوْمَ وُلِدَ و يوم موته و انتقاله إلى عالم البرزخ وَ يَوْمَ يَمُوتُ و يوم بعثه فى العالم الآخر وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا و لما كان من الطبيعى أن تكون هذه الأيّام مرافقة للاضطرابات و القلق، فإنّ اللّه سبحانه يكتنف خاصّة عباده بسلامه و عافيته، و يجعل هؤلاء فى ظل حمايته و منعته فى هذه المراحل العسيرة الثلاثة.

و بالرغم من أنّ هذا التعبير قد ورد فى القرآن فى موردين فقط، فى حق يحيى و فى حق عيسى عليه السّلام، إلّا أنّ التعبير القرآن فى شأن يحيى امتيازا خاصّا، لأنّ المتكلم بهذا الكلام هو اللّه سبحانه، فى حين أنّ المسيح عليه السّلام هو المتكلم فى حق نفسه.

و من الواضح أنّ الأفراد الذين يكونون فى أوضاع و أحوال تشابه أحوال هذين العظيمين ستعمهم و تظللهم هذه السلامة.

و من البديع أن نقرأ

فى رواية عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام: «إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم يلد و يخرج من بطن أمه فيرى الدنيا، و يوم يموت فيعاين الآخرة و أهلها، و يوم يبعث حيا فيرى أحكاما لم يرها فى دار الدنيا، و قد سلم اللّه على يحيى عليه السّلام فى هذه الثلاثة مواطن و آمن روعته، فقال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۹

و سلام عليه ...»[۲۶۱].

۳- النّبوة فى الطفولة

صحيح أنّ مرحلة النضج العقلى للإنسان لها حدّ معين عادة، إلّا أنّه يوجد أفراد استثنائيون بين البشر دائما، فأى مانع من أن يختصر اللّه هذه المرحلة لبعض عباده لمصالح ما، و يجعلها تتلخص فى سنوات أقل؟ كما أن مرور سنة أو سنتين على الولادة أمر محتم من أجل التمكن من النطق عادة، فى حين أنّنا نعلم أنّ عيسى عليه السّلام قد تكلم فى أيّامه الأولى، و كان كلاما عميق المحتوى من شأنه أن يصدر- عادة عن أناس كبار فى السن، كما سيأتى فى تفسير الآيات القادمة إن شاء اللّه تعالى.

من هنا يتّضح عدم صحة الإشكال الذى طرحه بعض الأفراد حول بعض أئمة الشيعة، بأنّه كيف تسلّم بعضهم أمور الإمامة فى سن صغيرة؟

نطالع

فى رواية عن على بن أسباط، أحد أصحاب الإمام الجواد محمّد بن على النقى عليه السّلام أنّه قال: رأيت أبا جعفر عليه السّلام و قد خرج علىّ، فأجدت النظر إليه، و جعلت أنظر إلى رأسه و رجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فبينا أنا كذلك قعد فقال: «يا علىّ، إنّ

اللّه احتـج فى الإمامة بمثل ما احتج به فى النّبوة، قد يقول وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، و قد يقول وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ و بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَـنَةً فقد يجوز أن يؤتى الحكمة و هو صبى، و يجوز أن يؤتى الحكمة و هو ابن أربعين»[۲۶۲].

كما أنّ هذه الآية تتضـمن جوابا مفحما لأولئك المعترضـين الذين يقولون: إنّ عليا عليه السّـلام لم يكن أوّل من آمن بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الرجال، لأنّه كان ابن عشر سنين فى ذلك اليوم، و لا يقبل إيمان صبى فى العاشرة من عمره!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۰

و لا بأس من ذكر الرّواية الشريفة

عن الإمام على بن موسـى الرضا عليه السّـلام، و هى أن جماعـة من الأطفال قالوا للرضا عليه السّـلام أيّام طفولته: أذهب بنا نلعب، قال: «ما للعب خلقنا» و هذا ما أنزل اللّه تعالى وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا[۲۶۳].

يجب الالتفات إلى أن اللعب هنا هو الإشتغال بما لا فائدة فيه، و بتعبير آخر لا هدف يطلب منه، لكن قد يستتبع اللعب و اللهو- أحيانا- هدفا منطقيا و عقلائيا و يسعى إليه، فمن البديهى أن لهذا اللعب حكما مستثنى.

۴- شهادة يحيى

لم تكن ولادة يحيى عجيبـة و مذهلـة لوحـدها، بل إنّ موته أيضا كان عجيبا من عدّة جهات، و قد ذكر أغلب المؤرخين المسـلمين، و كذلك المصادر المسيحية، مجرى هذه الشهادة على هذه النحو، بالرغم من وجود اختلاف يسير فى خصوصياتها بين هذه المراجع:

لقـد أصـبح يحيى ضـحية للعلاقات غير الشـرعية لأحـد طواغيت زمانه مع أحد محارمه، حيث تعلق «هروديس» ملك فلسـطين اللاهث وراء شـهواته ببنت أخته «هروديـا» و هام فى غرامها، و ألهب جمالها قلبه بنار العشق، و لـذلك صـمم على الزواج منها! فبلغ هـذا الخبر نبى اللّه العظيم يحيى عليه السّلام، فأعلن بصراحة أنّ هذا الزواج غير شرعى و مخالف لتعليمات التوراة، و سأقف امام مثل هذا العمل.

لقد انتشـر صخب و ضوضاء هذه المسألة فى كل أرجاء المدينة، و سمعت تلك الفتاة (هيروديا) بذلك، فكانت ترى يحيى أكبر عائق فى طريقها، و لذلك صـممت على الانتقام منه فى فرصة مناسبة لترفع هذا المانع من طريق شهواتها و ميولها، فعمقت علاقتها بخالها و وطدتها، و جعلت من جمالها مصيدة له، و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۱

ملكت عليه كل مشاعره و أحاسيسه، إلى أن قال لها هيروديس يوما: اطلبى منّى كل ما تريدين فسأحققه لك قطعا، فقالت هيروديا: لا أريـد منك إلّا رأس يحيى! لأنّه قـد شوّه سـمعتى و سـمعتك، و قـد أصبح كل الناس يعيروننا، فإنّ كنت تريـد أن يهـدأ قلبى و يسر خاطرى فيجب أن تقوم بهذا العمل! فسلّم هيروديس- الذى أصبح مجنونا لا يعقل من عشق هذه المرأة- لما أرادت من دون أن يفكر و يتنبه إلى عاقبـة هـذا العمل، و لم يمض قليل من الزمن حتى أحضـر رأس يحيى عنـد تلك المرأة الفاجرة، إلّا أنّ عواقب هـذا العمل الشنيع قد أحاطت به، و أخذت بأطرافه فى النهاية[۲۶۴].

و نقرأ

فى الرّوايات أن سـيد الشـهداء الإمام الحسين عليه السّلام كان يقول: «إنّ من هو ان الدنيا أن يهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل»

أى إن ظروفى تشابه من هذه الناحية ظروف و أحوال يحيى، لأنّ أحد أهداف ثورتى محاربة الأعمال المخزية لطاغوت زمانى يزيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۲

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۱۶ الى ۲۱]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (۱۶) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (۱۷) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (۱۸) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (۱۹) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (۲۰)

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (۲۱)

التّفسير

ولادة عيسى عليه السّلام:

بعد ذكر قصّة يحيى عليه السّلام، حولت الآيات مجرى الحديث إلى قصّة عيسى عليه السّلام لوجود علاقة قوية و تقارب واضح جدا بين مجريات هاتين الحادثتين.

فإنّ كانت ولادة يحيى من أب كبير طاعن فى السن و أم عقيم عجيبة، فإن ولادة عيسى من أم دون أب أعجب!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۳

و إن كان الوصول إلى مقام النّبوة و بلوغ العقل الكامل- فى مرحلة الطفولة- باعثا على الحيرة و معجزا، فإنّ التحدث فى المهد عن الكتاب و النّبوة أبعث على التعجب و الحيرة، و أكثر إعجازا.

و على كل حال، فإنّ كلا الأمرين آيتان على قدرة اللّه الكبير المتعال، إحداهما أكبر من الأخرى، و قد صادف أن تكون كلا الآيتين مرتبطتان بشخصين تربطهما أواصر نسب قوية، فكل منهما قريب للآخر من ناحية النسب، حيث أن أم يحيى كانت أخت أم مريم، و كانت كلاهما عقيمتين و تعيشان أمل الولد الصالح.

تقول الآية الأولى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا فقد كانت تبحث عن مكان خال من كل نوع من التشويش و الضوضاء حتى لا يشغلها شيء عن مناجاتها و يصرفها- و لو حينا- عن ذكر المحبوب، و لذلك اختارت شرقى بيت المقدس، ذلك المعبد الكبير، لعله يكون مكانا أكثر هدوءا، أو أنّه كان أنظف و أنسب من جهة أشعة الشمس و نورها.

كلمة «انتبذت» أخذت من مادة (نبذ) على قول الراغب، و هى تعنى إلقاء و إبعاد الأشياء التى لا تسترعى الانتباه، و ربّما كان هذا التعبير فى الآية إشارة إلى أنّ مريم قد اعتزلت بصورة متواضعة و مجهولة و خالية من كل ما يجلب الانتباه، و اختارت ذلك المكان من بيت اللّه للعبادة.

فى هذه الأثناء من أجل أن تكمل مريم مكان خلوتها و اعتكافها من كل جهة، فإنّها فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً و لم تصرح الآية بالهدف من اتّخاذ هذا الحجاب، فهل أنّه كان من أجل أن تناجى ربّها بحرية أكبر، و تستطيع عند خلو هذا المكان من كل ما يشغل القلب و الحواس أن تتوجه إلى العبادة و الدعاء؟ أو أنّها كانت تريد اتخاذه من أجل الغسل و الاغتسال؟ الآية ساكتة من هذه الجهة.

على كل حال، فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا و الروح أحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۴

الملائكة العظام حيث تجسّد لمريم على شكل انسان جميل لا عيب فيه و لا نقص.

إنّ الحالة التى اعترت مريم فى تلك اللحظة واضحة جدّا، فمريم التى عاشت دائما نقية الجيب، و تربّت فى أحضان الطاهرين، و كان

يضرب بهـا المثل بين الناس فى العفـة و التقوى ... كم داخلها من الرعب و الاضـطراب عنـد مشاهـدة هـذا المنظر، و هو دخول رجل أجنبى جميـل فى محـل خلوتها! و لـذلك فإنّها مباشـرة قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا و كانت هـذه أوّل هزّة عمّت كل وجود مريم.

إنّ ذكر اسم الرحمان، و وصـفه برحمته العامّـة من جهـة، و ترغيب الرجل فى التقوى و الامتناع عن المعصـية من جهة أخرى، كان من أجل أن يرتـدع هـذا الشـخص المجهول إن كانت له نيّة سيئة فى ارتكاب المعصـية، و الأهم من ذلك كله هو الالتجاء إلى اللّه، فاللّه الذى يلتجئ إليه الإنسان فى أحلك الظروف، و لا تقف أية قدرة أمام قدرته، هو الذى سيحل المعضلات.

لقد كانت مريم تنتظر رد فعل ذلك الشخص المجهول بعد أن تفوهت بهذه الكلمات انتظارا مشوبا بالاضطراب و القلق الشديد، إلّا أنّ هذه الحالة لم تطل، فقد كلمها ذلك الشخص، و وضّح مهمته و رسالته العظيمة قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ

لقـد كانت هـذه الجملـة كالماء الـذى يلقى على النار، فقـد طمأنت قلب مريم الطاهر، إلّا أنّ هذا الاطمئنان لم يدم طويلا؛ لأنّه أضاف مباشرة لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا.

لقد اهتز كيان و وجود مريم لدى سماع هذا الكلام، و غاصت مرّة أخرى فى قلق شديد قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا.

لقد كانت تفكر فى تلك الحالة فى الأسباب الطبيعية فقط، و كانت تظن أن المرأة يمكن أن يكون لها ولد عن طريقين لا ثالث لهما: إمّا الزواج أو التلوّث بالرذيلة و الانحراف، و إنّى أعرف نفسى أكثر من أى شخص آخر، فإنّى لم أختر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۵

زوجا لحـد الآن، و لم أكن امرأة منحرفـة قط، و لم يسـمع لحد الآن أنّ شـخصا يولد له ولد من غير هذين الطريقين! إلّا أنّ أمواج هذا القلق المتلاطمـة هـدأت بسرعة عند سـماع كلام آخر من رسول اللّه إليها، فقد خاطب مريم بصـراحة: قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ فأنت الواقفـة على قـدرتى و العالمـة بها جيـدا .. أنت التى رأيت ثمر الجنّة فى فصل لا يوجد شبيه لتلك الفاكهة فى الدنيا جنب محراب عبادتك. أنت التى سـمعت نـداء الملائكـة حين شـهدت بعفتك و طهارتك .. أنت التى تعلمين أنّ جـدك آدم قد خلق من التراب، فلما ذا هذا التعجب من سماعك هذا الخبر؟

ثمّ أضاف: وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَـةً مِنَّا فنحن نريـد أن نبعثه للناس رحمـة من عندنا، و نجعله معجزة، و على كل حال وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا. فلا مجال بعد ذلك للمناقشة.

بحثان

۱- ما هو المراد من روح اللّه؟

إنّ كـل المفسّرين المعروفين تقريبـا فسّروا الروح هنـا بأنّه جبرئيل ملك اللّه العظيم، و التعبير عنه الروح لأنّه روحانى، و وجود مفيض للحياة، لأنّه حامل الرسالة الإلهية إلى الأنبياء و فيها حياة جميع البشر اللائقين، و إضافة الروح هنا إلى اللّه دليل على عظمة و شرف هذا الروح، حيث أنّ من أقسام الإضافة هى (الإضافة التشريفية).

و يستفاد من هذه الآية بصورة ضـمنية أنّ نزول جبرئيل لم يكن مختصا بالأنبياء، و إن كان نزوله بالوحى و الشريعة و الكتب السماوية منحصرا فيه، إلّا أنّه لا مانع من أن يواجه غير الأنبياء من أجل تبليغ رسائل و أوامر أخرى، كرسالته المذكورة إلى مريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۶

۲- ما هو التمثل؟

«التمثل» فی الأصل من «المثول»، أی الوقوف مقابل شخص أو شیء، و یقولون للشیء الذی یظهر بصورة أخری: ممثلا، و علی هذا فإنّ قوله: فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِیًّا تعنی أن ذلک الملک قد ظهر بصورة إنسان.

و لا شک أنّ هذا الکلام لا یعنی أن جبرئیل قد تبدل إلی إنسان شکلا و سیرة، لأنّ مثل هذا التحول و التبدل أمر غیر ممکن، بل المراد أنّه ظهر بصورة إنسان بالرغم من أنّ سلوکه کان نفس ذلک السلوک الملائکی، إلّا أنّ مریم التی لم تکن تعلم بالأمر فی البدایة، کانت تظن أن فی مقابلها إنسانا سیرة و صورة.

و تلاحظ کثیرا فی الرّوایات و التواریخ کلمة «تمثل» بمعناها الواسع، و من جملتها: إنّ إبلیس لما اجتمع المشرکون فی «دار الندوة» و کانوا یخططون لقتل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، ظهر بصورة شیخ کبیر حصیف الرأی، یهدف إلی الخیر و شرع بإغواء رؤساء قریش.

أو أنّ الدنیا و باطنها تمثلت للإمام علی علیه السّلام علی شکل امرأة فی غایة الجمال و الجذابیة و لم تستطع أن تنفذ إلیه، و قصتها مفصّلة معروفة.

و نقرأ أیضا فی الرّوایات أنّ مال الإنسان و ولده و عمله تتجسم أمامه عند الموت بصورة مختلفة و خاصّة.

أو أنّ أعمال الإنسان تتجسم فی القبر و یوم القیامة، و یظهر کل منها بشکل خاص.

إن التمثّل فی جمیع هذه الوارد یعنی أن شیئا أو شخصا یظهر بشکل آخر من ناحیة الصورة و الشکل فقط، لا أن تتبدّل ماهیته و باطنة[۲۶۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۷

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۲۲ الی ۲۶]

اشارة

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَکاناً قَصِیًّا (۲۲) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلی جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ یا لَیْتَنِی مِتُّ قَبْلَ هذا وَ کُنْتُ نَسْیاً مَنْسِیًّا (۲۳) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِی قَدْ جَعَلَ رَبُّکِ تَحْتَکِ سَرِیًّا (۲۴) وَ هُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَیْکِ رُطَباً جَنِیًّا (۲۵) فَکُلِی وَ اشْرَبِی وَ قَرِّی عَیْناً فَإِمَّا تَرَیِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِی إِنِّی نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُکَلِّمَ الْیَوْمَ إِنْسِیًّا (۲۶)

التّفسیر

مریم فی عاصفة:

و أخیرا حملت مریم، و استقر ذلک الولد الموعود فی رحمها: فَحَمَلَتْهُ و لم یتحدث القرآن عن کیفیة نشوء و تکوّن هذا المولود، فهل أنّ جبرئیل قد نفخ فی ثوبها، أم فی فمها؟ و ذلک لعدم الحاجة إلی هذا البحث، بالرغم من أنّ کلمات المفسّرین مختلفة فی هذا الشأن.

و علی کل حال، فإنّ هذا الأمر قد تسبب فی أن تبتعد عن بیت المقدس فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَکاناً قَصِیًّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۸

لقد كانت تعيش فى حالة بين الخوف و الأمل، حالة من القلق و الاضطراب المشوب بالسرور، فهى تفكر أحيانا بأن هذا الحمل سيفشو أمره فى النهاية، فالأفضل أن أبقى بعيدة عن أولئك الذين يعرفوننى عدّة أيّام أو أشهر، و أعيش فى هذا المكان بصورة مجهولة، و ماذا سيحدث فى النهاية؟

فمن الذى سيقتنع بأنّ امرأة لا زوج لها تحمل دون أن تكون قد تلوثت بالرذيلة؟ فما ذا سأفعل تجاه هذا الاتهام؟ و الحق أنّ من المؤلم جدّا بالنسبة لفتاة كانت لسنين طويلة نموذجا و قدوة للطهارة و العفة و التقوى و الورع، و مثالا فى العبادة و العبودية للّه، و كان زهاد بنى إسرائيل يفتخرون بكفالتها منذ الطفولة، و قد تربت و ترعرعت فى ظل نبى كبير، و قد شاع أمر سجاياها و قداستها فى كل مكان، أن تحس فى يوم ما أن كل هذا الرصيد المعنوى مهدد بالخطر، و ستكون غرضا و مرمى لاتهام يعتبر أسوء و أقبح اتهام، و كانت هذه هى المصيبة الثّالثة التى وقعت لها.

إلّا أنّها من جهة أخرى كانت تحس أنّ هذا المولود، نبى اللّه الموعود، تحفة سماوية نفيسة، فإنّ اللّه الذى بشرنى بمثل هذا الغلام، و خلقه بهذه الصورة الإعجازية كيف سيذرنى وحيدة؟ فهل من المعقول أن لا يدافع عنى فى مقابل مثل هذا الاتهام؟ أنا التى رأيت و جربت لطفه على الدوام، و أحسست بيد رحمته على رأسى.

و هناك بحث بين المفسّرين فى مدّة حمل مريم، بالرغم من أنّه ذكر فى القرآن بصورة مخفية و مبهمة، فبعضهم حسبه ساعة واحدة، و آخر تسع ساعات، و ثالث ستة أشهر، و رابع سبعة، و آخر ثمانية، و آخر تسعة أشهر كسائر النساء، إلّا أن هذا الموضوع ليس له ذلك التأثير فى هدف هذه القصّة. و الرّوايات الواردة فى هذا المجال مختلفة أيضا.

و قد اعتقد الكثيرون أنّ المكان «القصى» هو مدينة «الناصرة» و ربّما بقيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۹

فى تلك المدينة بصورة دائما و قلّما خرجت منها.

و مهما كان فقد انتهت مدّة الحمل، و بدأت لحظات تلاطم أمواج حياة مريم، و قد دفعها ألم الولادة الشديد الذى هاج فيها إلى ترك الأماكن المعمورة و التوجه إلى الصحارى الخالية من البشر، و القاحلة التى لا عشب فيها و لا ماء و لا مأوى.

و مع أن النساء يلجأن عادة فى مثل هذه الحالة إلى المعارف و الأصدقاء ليساعدوهنّ على الولادة، إلّا أن وضع مريم لما كان استثنائيا، و لم تكن تريد أن يرى أحد وضع حملها مطلقا، فإنّها اتّخذت طريق الصحراء بمجرّد أن بدأ ألم الولادة و يقول القرآن فى ذلك: فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ.

إنّ التعبير بجذع النخلة، و بملاحظة أن الجذع يعنى بدن الشجرة، يوحى بأنّه لم يبق من تلك الشجرة إلّا جذعها و بدنها، أى إنّ الشجرة كانت يابسة[۲۶۶].

فى هذا الحال غمر كل وجود مريم الطاهر سيل من الغم و الحزن، و أحسست بأنّ اللحظة التى كانت تخشاها قد حانت، اللحظة التى مهما أخفيت فإنّها ستتضح هناك، و سيتجه نحوها سيل سهام الاتهام التى سيرشقها بها الناس.

لقد كان هذا الاضطراب و الصراع صعبا جدّا، و قد أثقل كاهلها إلى الحد الذى تكلمت فيه بلا إرادة و قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا.

إنّ من البديهى أنّ الخوف من التهم فى المستقبل لم يكن الشىء الوحيد الذى كان يعصر قلب مريم و يقلقها، و إن كان هذا الموضوع يشغل فكر مريم أكثر من أية مسألة أخرى، إلّا أنّ مشاكل و مصائب أخرى كوضع الحمل لوحدها بدون قابلة و صديق و معين فى الصحارى الخالية، و عدم وجود مكان للاستراحة، و عدم وجود الماء للشرب، و الطعام للأكل، و عدم وجود وسيلة لحفظ المولود الجديد، و غير هذه الأمور كانت تهزّها من الأعماق بشدّة.

قد يتساءل البعض باعتراض: كيف أنّ مريم المؤمنة و العارفة بالتوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۰

حيث رأت كل ذلك اللطف و الإحسان الإلهى، أجرت مثل هذه الجملة على لسانها و قالت: يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا، إلّا أنّ هؤلاء لم يدركوا أبدا حال مريم فى تلك الساعة، و لو أنّهم أصابهم شيء قليل من هذه المشاكل فإنّهم سينسون حتى أنفسهم.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلا، فقد سطعت ومضة الأمل التى كانت موجودة دائما فى أعماق قلبها، و طرق سمعها صوت فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا و انظرى إلى الأعلى كيف أن هذا الجذع اليابس قد تحول إلى نخلة مثمرة وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً بالمولود الجديد فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. و هذا الصوم هو المعروف بصوم السكوت.

و خلاصة الأمر، إنّك لا تحتاجين إلى الدفاع عن نفسك، فإنّ الذى وهبك هذا الوليد قد تعهد بمهمّة الدفاع عنك أيضا، و على هذا فليهدأ روعك من كل الجهات، و لا تدعى للهم طريقا إلى نفسك.

إن هذه الحوادث المتلاحقة التى سطعت كالشرر المضيء الوهاج فى الظلام الدامس، قد أضاءت كل أرجاء قلبها، و ألقت عليها الهدوء و الاطمئنان.

بحوث

۱- ازدياد قوة مريم عند تراكم المشاكل

إنّ الحوادث التى مرّت على مريم فى هذه المدّة القصيرة، و المشاهد و المواقف التى تثير الإعجاب، و التى حدثت لها بلطف اللّه، كانت تهيؤها و تعدها من أجل تربية نبى من أولى العزم، و لتستطيع أن تؤدى وظيفة الأمومة من خلال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۱

هذا الأمر الخطير على أحسن وجه.

إنّ سير الأحداث صاحبها حتى آخر مرحلة، بحيث لم يبق بينها و بين الموت إلّا خطوة واحدة، لكن فجأة يرجع كل شيء إلى وضعه، و يهّب كل شيء لمساعدتها، و تخطو فى محيط هادئ مطمئن من كل الجهات.

جملة وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ التى تأمر مريم بتحريك النخلة لتستفيد من ثمرها، أعطت درسا لها و لكل البشر، بأن لا يكفوا عن الجد و السعى حتى فى أشد لحظات الحياة و أصعبها.

إنّه جواب لأولئك الذين يسألون عن الحاجة بأنّ مريم التى وضعت حملها لتوها تقوم و تهزّ النخلة، ألم يكن من الأولى أن يرسل اللّه- الذى- بعث عين الماء العذب قرب مريم تلك الشجرة اليابسة- نسمة و ريحا تهزّ النخلة و تسقط الثمر قرب مريم؟ فما الذى حدث، حيث أن مريم عند ما كانت سالمة صحيحة كانت تحضر الفاكهة جنب محرابها، أمّا الآن و قد ابتليت بكل هذه المشاكل فإنّ عليها أن تقطف الثمر بنفسها؟

أجل، إن هذا الأمر الإلهى لمريم يوضح أنّه لا بركة بدون حركة، و بتعبير آخر، فإن على كل إنسان أن يبذل قصارى جهده عند ظهور المشاكل، و ما وراء ذلك فعلى اللّه.

۲- لماذا طلبت مريم الموت من اللّه؟

لا- شک أن طلب الموت من اللّه عمل غیر صحیح، إلّا أنّه قد تقع حوادث فی حیاة الإنسان یصبح فیها طعم الحیاة مرّا، و خاصّة إذا رأی الإنسان أهدافه المقدسة أو شرفه و شخصیته مهددة بالخطر، و لا یملک قدرة الدفاع عن نفسه أمامها، و فی مثل هذه الظروف یتمنی الإنسان الموت للخلاص من العذاب الروحی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۲

لقد خطرت فی ذهن مریم فی اللحظات الأولی هذه الأفکار، و تصورت بأن کل وجودها و کیانها و ماء وجهها مهدد بالخطر أمام هؤلاء الناس الجهلاء نتیجة ولادة هذا المولود، و فی هذه اللحظات تمنت الموت، و هذا بحد ذاته دلیل علی أنّها کانت تحب عفتها و طهارتها و تهتم بهما أکثر من روحها، و تعتبر حفظ ماء وجهها أغلی من حیاتها.

إلّا أنّ مثل هذه الأفکار ربّما لم تدم إلّا لحظات قصیرة جدّا، و لما رأت ذینک المعجزتین الإلهیتین- انبعاث عین الماء، و حمل النخلة الیابسة- زالت کل تلک الأفکار عن روحها، و غمر قلبها نور الاطمئنان الهدوء.

۳- سؤال و جواب

یسأل البعض: إنّ المعجزة إذا کانت مختصة بالأنبیاء و الأئمّة علیهم السّلام، فکیف ظهرت مثل هذه المعجزات لمریم؟

و قد اعتبر بعض المفسّرین- حلا- لهذا الإشکال- هذه المعاجز جزءا من معاجز عیسی تحققت کمقدمة، و یعبرون عن ذلک بالإرهاص.

إلّا أنّه لا- حاجة لجواب کهذا أبدا، لأنّه لا مانع مطلقا من ظهور الأمور الخارقة للعادة لغیر الأنبیاء و الأئمّة، و هذا هو الذی نسمیه بالکرامة.

إنّ المعجزة هی عمل یقترن بالتحدی، و تکون مقترنة بادعاء النّبوة و الإمامة.

۴- صوم الصمت

یدل ظاهر الآیات أعلاه علی أنّ مریم کانت مأمورة بالسکوت لمصلحة، و أن تمتنع عن الکلام بأمر اللّه فی هذه المدّة المعینة، حیث تتحرک شفتا ولیدها عیسی بالکلام و یدافع عن عفتها، و هذا أکثر تأثیرا من کل الجهات.

و یظهر من تعبیر الآیة أن نذر السکوت کان أمرا معروفا فی ذلک المجتمع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۳

و لهذا لم یعترضوا علیها علی هذا العمل. غیر أنّ هذا النوع من الصوم غیر جائز فی شریعتنا.

ورد عن علی بن الحسین علیه السّلام فی حدیث: «صوم السکوت حرام»

[۲۶۷]، و ذلک لاختلاف الظروف فی ذلک الزمان عن ظروف زمن ظهور الإسلام.

إلّا أن أحد آداب الصوم الکامل فی الإسلام أن یحفظ الإنسان لسانه من التلوّث بالمعاصی و المکروهات خلال صیامه، و کذلک یصون عینه من الزلل و الذنب، کما نقرأ ذلک

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: إنّ الصوم لیس من الطعام و الشراب وحده، إن مریم قالت: إنّی نذرت للرحمن صوما، أی صمتا، فاحفظوا ألسنتکم، و غضوا أبصارکم، و لا تحاسدوا و لا تنازعوا»[۲۶۸].

۵- غذاء مولد للطاقة

استفاد المفسّرون ممّا جاء صریحا فی هذه الآیات، أنّ اللّه سبحانه قد جعل غذاء مریم حین ولادة مولودها الرطب، فهو من أفضل الأغذیة للنساء بعد وضع الحمل، و فی الأحادیث الإسلامیة إشارة صریحة إلی ذلک أیضا:

فیروی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لیکن أول ما تأکل النفساء الرطب، فإن اللّه عزّ و جلّ قال لمریم علیها السّلام: وَ هُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَیْکِ رُطَباً جَنِیًّا[۲۶۹].

و یستفاد من آخر الحدیث أن تناول هذا الغذاء لا یؤثر و یفید الأم فقط، بل إنّه سیؤثر حتی فی لبنها، و حتی أن بعض الرّوایات تؤکّد علی أن أفضل غذاء و دواء للحامل هو الرطب:

«ما تأکل الحامل من شیء و لا تتداوی به أفضل من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۴

الرطب».[۲۷۰]

إلّا أن من المسلّم أن الاعتدال و التوسط فی کل شیء یجب أن یراعی حتی فی هذه المسألة، کما یستفاد ذلک من بعض الرّوایات الواردة فی هذا المجال.

و یستفاد أیضا أنّ الرطب إن لم یکن موجودا، فلا بأس بأکل التمر المتعارف.

یقول علماء التغذیة: إنّ السکر الکثیر الموجود فی التمر من أصح السکریات و أسلمها، و حتی المبتلین بمرض السکر فإنّهم یستطیعون تناول التمر.

و یقول هؤلاء العلماء: إنّ فی التمر (۱۳) مادة حیویة، و اکتشفوا خمسة أنواع من الفیتامینات، جمعها التمر و أظهرها علی هیئة مصدر غذائی غنی ۲۷۱]، و نحن نعلم أن النساء فی مثل هذه الأوضاع بحاجة شدیدة إلی غذاء یولد الطاقة و ملیء بالفیتامینات.

لقد ثبتت أهمیة التمر بتقدم علم الطب، ففی التمر یوجد «الکالسیوم»، و هو عامل مهم فی تقویة العظام، و کذلک یوجد «الفسفور» و هو من العناصر الأساسیة فی تکوین المخ، و یمنع من ضعف الأعصاب و التعب، و کذلک یوجد «البوتاسیوم» الذی یسبب فقدانه فی قرحة المعدة[۲۷۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۵

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۲۷ الی ۳۳]

اشارة

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا یا مَرْیَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَیْئاً فَرِیًّا (۲۷) یا أُخْتَ هارُونَ ما کانَ أَبُوکِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما کانَتْ أُمُّکِ بَغِیًّا (۲۸) فَأَشارَتْ إِلَیْهِ قالُوا کَیْفَ نُکَلِّمُ مَنْ کانَ فِی الْمَهْدِ صَبِیًّا (۲۹) قالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ آتانِیَ الْکِتابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیًّا (۳۰) وَ جَعَلَنِی مُبارَکاً أَیْنَ ما کُنْتُ وَ أَوْصانِی بِالصَّلاةِ وَ الزَّکاةِ ما دُمْتُ حَیًّا (۳۱)

وَ بَرًّا بِوالِدَتِی وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبَّاراً شَقِیًّا (۳۲) وَ السَّلامُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیًّا (۳۳)

التّفسیر

المسيح يتكلم فى المهد:

و أخيرا رجعت مريم عليها السّلام من الصحراء إلى المدينة و قد احتضنت طفلها فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ فلمّا رأوا طفلا حديث الولادة بين يديها فغروا أفواههم تعجبا، فقد كانوا يعرفون ماضى مريم الطاهر، و كانوا قد سمعوا بتقواها و كرامتها، فقلقوا لذلك بشدّة، حيث وقع شك بعضهم و تعجّل آخرون فى القضاء و الحكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۶

و أطلق العنان للسانه فى توبيخها و ملامتها، و قالوا: إن من المؤسف هذا الانحدار مع ذلك الماضى المضىء، و مع الأسف على تلوّث سمعه تلك الأسرة الطاهرة قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا[۲۷۳].

و البعض الآخر واجهها، بالقول: يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فمع وجود مثل هذا الأب و الأم الطاهرين، ما هذا الوضع الذى نراك عليه؟ فأى سوء رأيت فى سلوك الأب و خلق الأم حتى تحيدى عن هذا الطريق؟

قولهم لمريم: يا أُخْتَ هارُونَ وقع مثار الاختلاف بين المفسّرين، لكن يبدو أنّ الأصح هو أنّ هارون رجل طاهر صالح إلى الدرجة التى يضرب به المثل بين بنى إسرائيل، فإذا أرادوا أن يصفوا شخصا بالطهارة و النزاهة، كانوا يقولون:

إنّه أخو أو أخت هارون، و قد نقل العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان هذا المعنى فى حديث قصير عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم [۲۷۴].

و فى حديث آخر ورد كتاب سعد السعود، عن المغيرة، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعثه إلى نجران لدعوتهم الى الإسلام فقالوا (معترضين على القرآن): ألستم تقرؤون يا أُخْتَ هارُونَ و بينهما كذا و كذا» (حيث تصوروا أنّ المراد هو هارون أخو موسى) فلمّا لم يستطع المغيرة جوابهم ذكر ذلك للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

فقال: «ألا قلت لهم:

إنّهم كانوا يسمّون بأنبيائهم و الصالحين منهم»[۲۷۵]

أى ينسبون الأشخاص الصالحين منهم الى الأنبياء.

فى هذه الساعة، سكتت مريم بأمر اللّه، و العمل الوحيد الذى قامت به، هو أنّها أشارت إلى وليدها فَأَشارَتْ إِلَيْهِ إلّا أنّ هذا العمل جعل هؤلاء يتعجبون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۷

أكثر، و ربما حمل بعضها على السخرية، ثمّ غضبوا فقالوا: مع قيامك بهذا العمل تسخرين من قومك أيضا؟ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا.

لقد بحث المفسّرون هنا و تناقشوا كثيرا فى شأن كلمة «كان» الدالة على الماضى، إلّا أنّ الظاهر هو أن هذه الكلمة تشير هنا إلى ثبوت و لزوم وصف موجود، و بتعبير أوضح: إنّ هؤلاء قالوا لمريم: كيف نكلم طفلا كان و لا يزال فى المهد؟

و الشاهد على هذا المعنى آيات أخرى من القرآن، مثل كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ سورة آل عمران/ ۱۱۰، فمن المسلم أن «كنتم» لا تعنى الماضى هنا، بل هى بيان لثبوت و استمرار هذه الصفات للمجتمع الإسلامى.

و كذلك بحثوا حول «المهد»، فإنّ عيسى لم يكن قد وضع فى المهد، بل إنّ ظاهر الآيات هو أن مريم بمجرّد أن حضرت بين الناس، و فى الوقت الذى كان عيسى على يديها، جرى هذا الحوار بينها و بينهم.

إلّا أنّ الالتفات إلى معنى كلمة «المهد» فى لغة العرب سيوضح جواب هذا السؤال، فإنّ كلمة المهد تعنى- كما يقول الراغب فى مفرداته- المكان الذى يهيئونه للطفل، سواء كان المهد، أو حجر الأم، أو الفراش، و المهد و المهاد ورد كلاهما فى اللغة بمعنى:

المكان الممهد الموطأ، أى: للاستراحة و النوم.

على كل حال، فإنّ الناس قلقوا و اضطربوا من سماع كلام مريم هذا، بل و ربما غضبوا و قالوا لبعضهم البعض- حسب بعض الرّوايات-: إنّ استهزاءها و سخريتها أشدّ علينا من انحرافها عن جادة العفة! إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلا، لأن ذلك الطفل الذى ولد حديثا قد فتح فاه و تكلم: قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ و مفيدا من كل الجهات للعباد وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۸

و كذلك جعلنى مطيعا و وفيا لأمى وَ بَرًّا بِوالِدَتِي ۲۷۶] وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا.

كلمة «جبار» تطلق على الشخص الذى يعتقد بأنّ له كل الحق على الناس و لا يعتقد بأنّ لأحد عليه حقا.

و كذلك يطلقونها على الذى يضرب الناس و يقتلهم إذا غضب، و لا يتبع ما يأمر به العقل، أو أنّه يريد أن يسد نقصه و يغطيه بادعاء العظمة و التكبر، و هذه كلها صفات بارزة للطواغيت المستكبرين فى كل زمان ۲۷۷].

و «الشقى» تقال للشخص الذى يهىء أسباب البلاء و العقاب لنفسه، و بعضهم فسر ذلك بالذى لا يقبل النصيحة، و من المعلوم أن هذين المعنيين لا ينفصلان عن بضعهما.

و نقرأ

فى رواية، أن عيسى عليه السّلام يقول «قلبى رقيق و أنا صغير فى نفسى»[۲۷۸]

و هو إشارة إلى أن هذين الوصفين يقعان فى مقابل الجبار و الشقى.

و فى النهاية يقول هذا المولود- أى المسيح- وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا و كما قلنا فى شرح الآيات المتعلقة بيحيى عليه السّلام، فإنّ هذه الأيّام الثلاثة فى حياة الإنسان أيّام مصيرية خطرة، لا تتيسر السلامة فيها إلّا بلطف اللّه، و لذلك جاءت هذه الآية فى حق يحيى عليه السّلام كما وردت فى شأن المسيح عليه السّلام، مع الاختلاف بأنّ اللّه هو الذى قالها فى المورد الأوّل، أمّا فى المورد الثّانى فإنّ المسيح قد طلب ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۹

بحوث

۱- أوضح تصوير عن ولادة عيسى عليه السّلام

يمكن إدراك فصاحة و بلاغة القرآن الكريم، و خاصّة فى مثل هذه الموارد، و ذلك عند ملاحظة طريقة طرحه لمسألة مهمّة اختلطت بكل تلك الخرافات، فى عبارات قصيرة و عميقة، و حية، و غنية المحتوى، و ناطقة تماما، بحيث تطرح جانبا كل أنواع الخرافات.

الملفت للنظر أنّ الآيات المذكورة ذكرت «سبع صفات» ممتازة و «برنامجان» و «دعاء واحد».

فالصفات السبعة عبارة عن كونه «عبدا للّه» و ذكرها فى بداية كل الصفات إشارة إلى أن أعلى و أكبر مقام يصله الإنسان هو مقام العبودية.

و بعد ذلك، كونه «صاحب كتاب سماوى» ثمّ «مقام النبوة» (مع العلم أن مقام النبوة لا يقترن دائما بالمجىء بكتاب سماوى).

و بعد مقام العبودية و الإرشاد، ذكر كونه «مباركا» أى مفيدا لوضع المجتمع، و فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ أن معنى المبارك: «النفّاع»، أى كثير المنفعة.

ثمّ ذكرت الآيات كونه «بارا بأمه» و فى النهاية أنّه «لم يكن جبارا شقيا» بل كان متواضعا، عارفا بالحق، و سعيدا.

و من بين جميع البرنامج الالهى للإنسان تؤكّد الآية على وصية اللّه سبحانه بالصلاة و الزكاة، و ذلك للأهمية الفائقة لهذين الأمرين، لأنّهما رمز الارتباط بالخالق و الخلق، و يمكن تلخيص كل البرامج و الأهداف الدينية و المذهبية فيهما، لأن أحدهما يشخصّ ارتباط الإنسان بالخلق، و الآخر يشخصّ ارتباطه بالخالق.

و أمّا الدعاء الذى دعاه لنفسه، و يرجوه فيه من ربّه فى بداية عمره، فهو أن يجعل هذه الأيّام الثلاثة سلاما عليه: يوم الولادة، و يوم الموت، و اليوم الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۰

يبعث فيه، و أن يمن عليه فى هذه المراحل الثلاثة بالشعور بالأمن و الطمأنينة!

۲- منزلة الأم

بالرغم من أنّ المسيح عليه السّلام قد ولد بأمر اللّه النافذ من امرأة بدون زوج، إلّا أنّ ما نقرأه فى الآيات- محل البحث- عن لسانه، و الذى يعدّ فيه «ضمن تعداده لميزاته و أوسمته» برّه بأمه، دليل واضح على أهمية مقام الأم، و هى توضح بصورة ضمنية أنّ هذا الطفل الصغير- الذى نطق بالإعجاز- كان عالما و مطلعا على أنّه ولد نموذجى بين البشر، و أنّه ولد من أمه فقط دون أن يكون للأب دخل فى تكونه و ولادته.

و على كل حال، فبالرغم من أنّ ثقافة العصر الحاضر فيها الكثير من الحديث عن مقام و مكانة الأم، حتى أنّه خصص يوما و سمى ب (يوم الأم)، إلّا أن التطور الآلى- و للأسف الشديد- يقطع بسرعة علاقة الآباء و الأمهات بالأولاد بحيث يلاحظ ضعف الروابط العاطفية بين هؤلاء فى السنين المتقدمة من أعمارهم.

و لدينا فى الإسلام روايات تثير العجب و الحيرة فى هذا الباب، توصى المسلمين بالأم و تشيد بمكانتها الفائقة الأهمية، و تأمرهم أن يسعوا عمليا- و ليس فى الكلام و حسب- فى برّ الوالدين، فنطالع

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إن رجلا أتى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: يا رسول اللّه، من أبرّ؟ قال: أمك، قال:

ثمّ من؟ قال: أمك، قال: ثمّ من؟ قال: أمك، قال: ثمّ من؟ قال: أباك»[۲۷۹]!

و

فى حديث آخر: أن رجلا أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للجهاد- حيث لم يكن الجهاد واجبا عينيا- فقال: «أ لك والدة»؟ قال: نعم، قال: «فألزمها فإنّ الجنّة تحت قدمها»[۲۸۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۱

لا- شك أنّنا إذا لاحظنا و دققنا فى المشقات و المتاعب التى تتقبلها و تتحملها الأم من حين الحمل إلى الوضع، و فى مرحلة الرضاعة إلى أن يكبر الطفل، و كذلك العذاب و الأتعاب و السهر فى الليالى، و التمريض و الرعاية، كل ذلك تقبلته بكل رحابة صدر و أنس فى سبيل ولدها .. إذا لاحظنا ذلك فسنرى أن الإنسان مهما سعى وجدّ فى هذا الطريق، فإنّه سيبقى مدينا للام.

و الجميل فى الأمر نطالع فى حديث، أن أم سلمة قالت: يا رسول اللّه، ذهب الرجال بكل خير، فأى شيء للنساء؟

قال: النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «بلى، إذ حملت المرأة كانت بمنزلة الصائم القائم المجاهد بنفسه و ماله فى سبيل اللّه، فإذا وضعت كان لها من الأجر ما لا يدرى أحد ما هو لعظمه، فإذا أرضعت كان لها بكل مصة كعدل عتق محرر من ولد إسماعيل، فإذا

فرغت من رضاعه ضرب ملک کریم علی جنبها و قال: استأنفی العمل فقد غفر لک»[۲۸۱]!

و کأن صحیفة عملک ستبدأ من جدید.

۳- إنجاب البکر

من جملة الأسئلة التی تثیرها هذه الآیات، هو: هل یمکن من الناحیة العلمیة أن یولد ولد من دون أب؟ و هل أن مسألة ولادة عیسی علیه السّلام دون أب تخالف تحقیقات العلماء فی هذا المجال، أو لا؟

مما لا- شک فیه أنّ هذه المسألة قد تمت عن طریق الإعجاز، إلّا أنّ العلم الیوم لا ینفی إمکان وقوع مثل هذا الأمر أیضا، بل صرح بإمکان ذلک، خاصّة و أن موضوع إنجاب البکر قد لوحظ بین کثیر من الحیوانات، و إذا علمنا أن مسألة انعقاد النطفة لا تختص بالإنسان، فإنّ هذا یثبت إمکان حدوث هذا الأمر بصورة عامّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۲

لقد کتب الدکتور «الکسیس کارل»، الفیزیائی و عالم الحیاة الفرنسی المعروف، فی کتاب «الإنسان ذلک المجهول»، عند ما نفکر فی مقدار مساهمة کل من الأب و الأم فی تکوین أمثالهما، فیجب أن نتذکر تجارب (لوب) و (باتایون) بأنّه یمکن إنتاج ضفدعة جدیدة من بیضة ضفدعة غیر ملقحة بدون تدخل الحیامن، بل بواسطة أسالیب خاصّة.

و علی هذا فإنّ من الممکن أن یحل عامل کیمیاوی أو فیزیاوی محل حیمن الذکر، و لکن لا- بدّ علی کل حال من وجود أحد العوامل کمادة ضروریة دائما.

بناء علی هذا، فإنّ المؤکّد من الناحیة العلمیة لتکوّن الجنین هو وجود نطفة الأم (البیضة)، و إلّا فإنّ نطفة الذکر (الحیمن) یمکن أن یقوم مقامها عامل آخر، و لهذا فإن مسألة حمل و ولادة البکر من المسائل الواقعیة التی یتقبلها و یعترف بها الأطباء فی عالمنا المعاصر، و إن کانت نادرة الحدوث.

و إذا تجاوزنا ذلک، فإنّ هذه المسألة فی مقابل قوانین الخلقة و قدرة اللّه، هی کما یصورها القرآن حیث یقول: إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ ۲۸۲]، أی إنّ خرق العادة هذا لیس بأهم من خرق العادة الأوّل ذاک.

۴- کیف یتکلم الصبی؟

لا یخفی أنّ أی طفل حدیث الولادة لا یتکلم فی الساعات أو الأیّام الأولی لولادته حسب الوضع الطبیعی المتعارف، فإنّ النطق یحتاج إلی نمو المخ بالقدر الکافی، ثمّ تقویة عضلات اللسان و الحنجرة، و انسجام أجهزة الجسم المختلفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۳

مع بعضها، و هذه الأمور عادة تستغرق عدّة أشهر حتی تتهیأ تدریجیا عند الطفل.

إلّا أنّنا فی المقابل لا نمتلک أی دلیل علمی علی استحالة هذا الأمر، غایة ما فی الأمر أنّه خارق للعادة، و کل المعجزات تتصف بهذه الصفة، أی أنّها کلها خارقة للعادة، لا أنّها مستحیلة الوقوع، و قد ذکرنا تفصیل هذا الموضوع فی بحث معجزات الأنبیاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۴

الآیتان [سورة مریم (۱۹): الآیات ۳۴ الی ۳۵]

اشارة

ذلِکَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِی فِیهِ یَمْتَرُونَ (۳۴) ما کانَ لِلَّهِ أَنْ یَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۳۵)

التّفسیر

أ یمکن أن یکون للّه ولدا!؟

بعد تجسید القرآن الکریم فی الآیات السابقة حادثة ولادة المسیح علیه السّلام بصورة حیة و واضحة جدّا، انتقل إلی نفی الخرافات و کلمات الشرک التی قالوها فی شأن عیسی، فیقول: ذلِکَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ خاصّة و أنّه یؤکّد علی کونه «ابن مریم» لیکون ذلک مقدمة لنفی بنوته للّه سبحانه.

ثمّ یضیف: قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِی فِیهِ یَمْتَرُونَ ۲۸۳] و هذه العبارة فی الحقیقة تأکید علی صحة جمیع ما ذکرته الآیات السابقة فی حق عیسی علیه السّلام و لا یوجد أدنی ریب فی ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۵

أمّا ما یذکره القرآن من أنّ هؤلاء فی شک و تردد من هذه المسألة، فربّما کان إشارة إلی أنصار و أعداء المسیح علیه السّلام، و بتعبیر آخر: إشارة إلی الیهود و النصاری، فمن جهة شککت جماعة ضالة بطهارة أمّه و عفتها، و من جهة أخری شک قوم فی کونه إنسانا، حتی أنّ هذه الفئة قد انقسمت إلی مذاهب متعددة، فالبعض اعتقد بصراحة أن ابن اللّه- الابن الروحی و الجسمی الحقیقی لا المجازی!- و من ثمّ نشأت مسألة التثلیث و الأقانیم الثلاثة.

و البعض اعتبر مسأله التثلیث غیر مفهومة و واضحة من الناحیة العقلیة، و اعتقدوا بوجوب قبولها تعبدا، و البعض الآخر تخبط بکلام لا أساس له فی سبیل توجیه المسألة منطقیا. و الخلاصة: فإنّ هؤلاء جمیعا لما لم یروا الحقیقة- أو أنّهم لم یطلبوها و لم یریدوها- سلکوا طریق الخرافات و الأساطیر[۲۸۴]! و تقول الآیة التالیة بصراحة: ما کانَ لِلَّهِ أَنْ یَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ و هذا إشارة إلی أن اتخاذ الولد- کما یظن المسیحیون فی شأن اللّه- لا یناسب قداسة مقام الألوهیة و الربوبیة، فهو یستلزم من جهة الجسمیة، و من جانب آخر المحدودیة، و من جهة ثالثة الاحتیاج، و خلاصة القول: تنزیل اللّه سبحانه من مقام قدسه إلی إطار قوانین عالم المادة، و جعله فی حدود موجود مادی ضعیف و محدود.

اللّه الذی له من القوّة و القدرة ما إذا أراد فإن آلاف العوالم کعالمنا المترامی الأطراف ستتحقق بأمر و إشارة منه، ألا یعتبر شرکا و انحرافا عن أصول التوحید و معرفة اللّه بأن نجعله سبحانه کإنسان له ولد؟ و ولد أیضا الولد فی مرتبة و درجة الأب، و من نفس طرازه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۶

إنّ تعبیر کُنْ فَیَکُونُ الذی جاء فی ثمانیة موارد من القرآن، تجسید حی جدّا عن مدی سعة قدرة اللّه، و تسلطه و حاکمیته فی أمر الخلقة، و لا یمکن تصور تعبیر عن الأمر أقصر و أوجز من کُنْ و لا نتیجة أوسع و أجمع من فَیَکُونُ خاصّة مع ملاحظة «فاء التفریع» التی تعطی معنی الفوریة هنا، فإنّها لا تدل هنا علی التأخیر الزمانی بتعبیر الفلاسفة، بل تدل علی التأخیر الرتبی، أی تبیّن ترتب المعلوم علی العلة. دققوا جیدا.

نفی الولد یعنی نفی الاحتیاج عن اللّه:

لماذا تحتاج الكائنات الحیة إلی الولد عادة؟ لأنّ عمرها محدود، و لكی لا ینقرض نسلها، و من أجل أن تستمر حیاتها النوعیة؟! و من الناحیة الاجتماعیة، فإنّ حاجة الأعمال الجماعیة إلی طاقة إنسانیة أكبر أدّت الی زیادة علاقة الإنسان بالولد. إضافة إلی أنّ الحاجات العاطفیة و النفسیة، و إزالة و دفع وحشة الوحدة، كلها تدعوه إلی هذا العمل.

لكن، هل تتصور مثل هذه الأمور فی حق اللّه الأزلی الأبدی الذی لا- تنتهی قدرته، و لا سبیل لمسألة الحاجة العاطفیة إلی ذاته المقدسة أبدا؟! و هل تنج ذلك إلّا عن أن هؤلاء الذین یقولون: إنّ للّه ولدا، قد قاسوا اللّه سبحانه علی أنفسهم، و رأوا فیه ما رأوا فی أنفسهم؟ فی حین أنّه لَیسَ كَمِثْلِهِ شَیْءٌ[۲۸۵].

ملاحظة تاریخیة هامة حول الهجرة الأولی

إنّ أوّل هجزة وقعت فی الإسلام كانت هجرة مجموعة كبیرة من المسلمین-

ضمت النساء و الرجال- إلی أرض الحبشة، فقد ترك هؤلاء مكّة للخلاص من قبضة مشركی قریش، و تنظیم أمرهم و التهیؤ بأقصی درجات الاستعداد للبرامج و المشاریع الإسلامیة المستقبلیة و كما توقعوا من قبل، فإنّهم استطاعوا أن یعیشوا هناك فی طمأنینة و استقرار، و یشتغلوا بتربیة أنفسهم و تزكیتها و نشر الدین الحنیف.

لقد طرق هذا الخبر أسماع زعماء قریش، فاعتبروا هذه القضیة ناقوس خطر بالنسبة إلیهم، و أحسوا بأنّ الحبشة ستكون مأوی و ملجأ للمسلمین، و ربّما یرجعون إلی مكّة بعد أن تقوی شوكتهم، و بالتالی سیخلقون للمشركین مشاكل و عراقیل عظیمة.

و بعد التشاور استقر رأیهم علی انتخاب رجلین من رجال قریش النشیطین، و إرسالهما إلی النجاشی حتی یبیّنوا للنجاشی الأخطار التی تنجم عن وجود المسلمین هناك كی یطرد هؤلاء من هذه الأرض المطمئنة. فأرسلوا «عمرو بن العاص» و «عبد اللّه بن أبی ربیعة» مع هدایا كثیرة إلی النجاشی و قواد جیشه.

تقول «أم سلمة» زوجة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لما دخلنا أرض الحبشة رأینا حسن استقبال و معاملة النجاشی، فلم نمنع من شعائر دیننا، و لم یكن یؤذینا أحد، إلّا أنّ قریش بعد علمها بهذه المسألة، و إرسالها الرجلین مع الهدایا الكثیرة، كانت قد أمرت هؤلاء أن یلتقوا بقادة الحبشة قبل لقائه، و أن یسلموهم هدایاهم، ثمّ یقدمون هدایا النجاشی إلیه، و یطلبون منه أن یسلم المسلمین إلیهم قبل أن ینبسوا ببنت شفة! و قد نفذ هؤلاء هذه الخطة بدقة، و قالوا مقدما لقواد و أمراء جیش النجاشی:

إنّ جماعة من الشباب الحمقی قد لجؤوا إلی أرضكم، و قد ابتعد هؤلاء عن دینهم، و لم یعتنقوا دینكم أیضا، و قد ابتدعوا دینا جدیدا لا نعرفه، و لا أنتم تعرفونه، و قد أرسلنا أشراف قریش إلیكم حتی نقطع شرّهم عن هذه البلاد، و نعیدهم إلی

قومهم، فأخذوا من حاشیة النجاشی عهدا بأنّهم متی ما استشارهم النجاشی فإنّه سیؤیدون هذه الفكرة و یقولون: إن قوم هؤلاء أعلم بحالهم. ثمّ أدخلوا علی الملك و كرروا ما توطئوا علیه.

لقد كانت هذه الخطة تسیر خطواتها بدقة نحو الأمام، و قد أصبحت هذه الكلمات الخداعة، مع تلك الهدایا الكثیرة سببا فی أن تصدق حاشیة النجاشی هؤلاء.

و بعد أن سمع النجاشی أقوالهم غضب و قال: لا و اللّه، لا أسلم قوما جاورونی و نزلوا بلادی و اختارونی علی من سوای حتی أدعوهم و أسألهم عمّا یقول هذا، فإن كانا صادقین سلمتهم إلیهما، و إن كانوا علی غیر ما یذكر هذان منعتهم و أحسنت جوارهم.

تقول أم سلمة: فبعث النجاشی إلی المسلمین، فتشاوروا فیما بینهم فیما یقولون، و استقر رأیهم علی أن یقولوا الحقیقة، و یشرحوا تعلیمات النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و برنامج الإسلام، و لیکن ما یکون! لقد کان ذلک الیوم الذی عیّن لهذه الدعوة یوما عصیبا، فإنّ کبار النصاری و علماءهم کانوا قد دعوا إلی ذلک المجلس، و کانت الکتب المقدسة فی أیدیهم، فاستقبل النجاشی المسلمین و سألهم: ما هذا الدین الذی فارقتم فیه قومکم و لم تدخلوا فی دینی و لا دین أحد من الملل؟

فتصدی جعفر بن أبی طالب علیه السّلام للجواب و قال:

«أیّها الملک کنّا أهل جاهلیة نعبد الأصنام و نأکل المیتة و نأتی الفواحش و نقطع الأرحام و نسیء الجوار و یأکل القوی منّا الضعیف حتی بعث اللّه إلینا رسولا منّا نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه فدعانا لتوحید اللّه و أن لا نشرک به شیئا و نخلع ما کنّا نعبد من الأصنام و أمرنا بصدق الحدیث و أداء الأمانة و صلة الرحم و حسن الجوار و الکف عن المحارم و الدماء، و نهانا عن الفواحش و قول الزور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۹

و أکل مال الیتیم و أمرنا بالصلاة و الصیام».

و عدد علیه أمور الإسلام قال: فآمنا به و صدقناه و حرمنا ما حرم علینا و حللنا ما أحل لنا فتعدی علینا قومنا فعذبونا و فتنونا عن دیننا لیردونا إلی عبادة الأوثان فلمّا قهرونا و ظلمونا و حالوا بیننا و بین دیننا خرجنا إلی بلادک و اخترناک علی من سواک و رجونا أن لا نظلم عندک أیّها الملک.

فقال النجاشی: هل معک ممّا جاء به عن اللّه شیء؟ قال: نعم، فقرأ علیه سطرا من «کهیعص».

فلمّا قرأ جعفر هذه الآیات بقراءته المؤثرة النابعة من صفاء القلب، أثرت فی روح النجاشی و علماء النصاری الکبار إلی الحد الذی کانت تنهمر دموعهم علی وجوههم بدون إرادة، فتوجه إلیهم النجاشی و قال: «إن هذا و الذی جاء به عیسی یخرج من مشکاة واحدة، انطلقا و اللّه لا أسلمهم إلیکما أبدا».

ثمّ سعی رسولا قریش مساعی أخری لتغییر نظرة النجاشی تجاه المسلمین، إلّا أنّها لم تؤثر فی روحه السامیة الواعیة، فرجعا یائسین من هناک، و أرجعوا إلیهم هدایاهم ۲۸۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۰

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۳۶ الی ۴۰]

اشارة

وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ (۳۶) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَیْنِهِمْ فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۳۷) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ یَوْمَ یَأْتُونَنا لکِنِ الظَّالِمُونَ الْیَوْمَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۳۸) وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِیَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۳۹) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَیْها وَ إِلَیْنا یُرْجَعُونَ (۴۰)

التّفسیر

یوم القیامة .. یوم الحسرة و الأسف:

إنّ آخر کلام لعیسی علیه السّلام بعد تعریفه لنفسه بالصفات التی ذکرت، هو التأکید علی مسألة التوحید، و خاصّة فی مجال العبادة،

فيقول: وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكَمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ۲۸۷].

و على هذا فإنّ عيسى عليه السّلام بدأ بمحاربة كل أنواع الشرك و عبادة الآلهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۱

المزدوجة و المتعددة منذ بداية حياته، و كان يؤكّد أينما كان على التوحيد، و بناء على هذا، فإنّ ما يلاحظ اليوم بين المسيحيين بعنوان التثليث بدعة محضة ابتدعت بعد عيسى قطعا، و قد بينا تفصيل ذلك فى آخر الآية (۱۷۱) من سورة النساء[۲۸۸].

و بالرغم من أن بعض المفسّرين احتمل أن تكون هذه الجملة من كلام نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أى إنّ اللّه سبحانه أمره أن يدعو الناس إلى التوحيد فى العبادة، و قد وصف ذلك بأنّه الصراط المستقيم، إلّا أن آيات القرآن الأخرى شاهدة على أن هذه الجملة من قول المسيح عليه السّلام و تابعة للكلام السابق، فنقرأ فى سورة الزخرف/ الآية ۶۳- ۶۴: وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ و هنا نرى نفس الجملة تقريبا نقلت عن لسان عيسى، و كذلك ورد هذا المضمون فى سورة آل عمران/ الآية ۵۰- ۵۱.

غير أنّه بالرغم من كل هذه التأكيدات التى أكّد عليها المسيح عليه السّلام فى مجال التوحيد و عبادة اللّه، فقد اختلفت الفئات، و أظهروا اعتقادات مختلفة، و خاصّة فى شأن المسيح فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ

إنّ تاريخ المسيحية يشهد بوضوح على مدى الاختلاف الذى حصل بعد المسيح عليه السّلام فى شأنه، و حول مسألة التوحيد، هذه الاختلافات التى ازدادت حدتها، فشكل «قسطنطين» إمبراطور الروم مجمعا للأساقفة- علماء النصارى الكبار- و كان واحدا من المجامع التأريخية المعروفة، و وصل عدد أعضاء هذا المجمع إلى ألفين و مائة و سبعين عضوا، و عند ما طرحت مسألة المسيح للبحث أظهر العلماء الحاضرون و جهات نظر مختلفة تماما، و كان لكل مجموعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۲

عقيدتها.

فذهب البعض: إنّ المسيح هو اللّه الذى نزل إلى الأرض! فأحيى جماعة، و أمات أخرى، ثمّ صعد إلى السماء! و قال البعض الآخر: إنّه ابن اللّه! و رأى آخرون: إنّه أحد الأقانيم الثلاثة- الذوات الثلاثة المقدسة- الأب و الابن و روح القدس، اللّه الأب، و اللّه الابن و روح القدس.

و آخرون قالوا: إنّه ثالث ثلاثة: فاللّه معبود، و هو معبود، و أمّه معبودة! و أخيرا قال البعض: إنّه عبد اللّه و رسوله.

و قال آخرون أقوالا أخرى، و لم تتفق الآراء على أى من هذه العقائد، و كان أكبر عدد من الأصوات حازت عليه عقيدة من العقائد المذكورة آنفا هو (۳۰۸) فرد، و قبله الإمبراطور كرأى حصل على أكثرية نسبية، و دافع عنه باعتباره الدين الرسمى، و طرح الباقى جانبا، أمّا عقيدة التوحيد فقد بقيت فى الأقلية لقلّة ناصريها مع الأسف ۲۸۹].

و لما كان الانحراف عن أصل التوحيد يعتبر أكبر انحراف للمسيحيين، فقد رأينا كيف أن اللّه قد هدد هؤلاء فى ذيل الآية بأنّهم سيكون لهم مصير مؤلم مشؤوم فى يوم القيامة، فى ذلك المشهد العام، و أمام محكمة اللّه العادلة[۲۹۰].

ثمّ تبيّن الآية التالية وضع أولئك فى عرصات القيامة، فتقول عند ما يقدمون علينا يوم القيامة فسوف تكون لهم اسماع قوية و ابصار حادّه فيسمعون و يرون جميع الحقائق التى كانت خافية عليهم فى هذه الدنيا، و لكن الظالمين اليوم، أى فى هذه الدنيا غافلون عن هذه العاقبة: أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۳

الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ

إنّ من الواضح أن الحجب سترتفع فى النشأة الآخرة، لأنّ آثار الحق هناك أوضح من آثاره فى عالم الدنيا بمراتب و من الطبيعى أن

تسلب المحكمة و آثار الأعمال نوم الغفلة من العين و الأذن، و حتى عمى القلوب فإنّهم سيعون الأمر و يعلمون الحق، إلّا أن هذا الوعى و العلم لا ينفعهم شيئا.

و فسّر بعض المفسّرين كلمة (اليوم) فى جملة لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ بيوم القيامة، أى إن معنى الآية: إنّهم سيصبحون ناظرين سامعين، إلّا أنّ هذا النظر و السمع سوف لا ينفعهم فى ذلك اليوم، و سيكونون فى ضلال مبين.

لكن يبدو أن التّفسير الأوّل أصح [۲۹۱].

ثمّ تؤكّد الآية التالية مرّة أخرى على مصير المنحرفين و الظالمين فى ذلك اليوم، فتقول: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ

من المعلوم أنّ ليوم القيامة أسماء مختلفة فى القرآن المجيد، و من جملتها يَوْمَ الْحَسْرَةِ حيث يتحسر المؤمنون المحسنون على قلّة عملهم، و يا ليتهم كانوا قد عملوا أكثر، و كذلك يتحسر المسيئون، لأنّ الحجب تزول، و تتضح حقائق الأعمال و نتائجها للجميع.

و اعتبر البعض جملة إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ مرتبطة بانتهاء برامج و وقائع الحساب و الجزاء و التكليف فى يوم القيامة، و اعتبرها بعضهم إشارة إلى فناء الدنيا، و على هذا التّفسير فإنّ الآية تحذر هؤلاء و تخيفهم من يوم الحسرة، ذلك الحين الذى تفنى فيه الدنيا و هم فى حالة الغفلة و عدم الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۴

إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأصح كما يبدو، خاصّة و أنّه

قد روى فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير جملة إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ أنّه قال: «أى قضى على أهل الجنّة بالخلود فيها، و قضى على أهل النّار بالخلود فيها»[۲۹۲].

ثمّ تحذر الآية الأخيرة- من آيات البحث- كل الظالمين و الجائرين، و تذكرهم بأن هذه الأموال التى تحت تصرفهم الآن ليست خالدة، كما أن حياتهم ليست خالدة، بل إنّ الوارث الأخير لكل شىء هو اللّه سبحانه: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ [۲۹۳] إن هذه الآية- فى الحقيقة- تتناغم مع الآية ۱۶/ سورة المؤمن، و التى تقول:

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ فإذا آمن شخص و اعتقد بهذه الحقيقة، فلما ذا يبيح التعدى و الظلم و سحق الحقيقة، و هضم حقوق الناس، أمن أجل الأموال و اللذائذ المادية التى أودعت فى أيدينا لعدّة أيّام و ستخرج من أيدينا بسرعة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۵

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۴۱ الى ۴۵]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۴۱) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (۴۲) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (۴۳) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (۴۴) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (۴۵)

التّفسير

إبراهيم و منطقه المؤثر و القاطع:

انتهت قصّة ولادة المسيح عليه السّلام و قد تضمنت جانبا من حياة أمّه مريم، و بعدها تزيح هذه الآيات- و الآيات الآتية- الستار عن جانب من حياة بطل التوحيد إبراهيم الخليل عليه السّلام، و تؤكّد على أنّ دعوة هذا النّبى الكبير- كسائر المرشدين الإلهيين- تبدأ من نقطة التوحيد، فتقول أوّلا: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا.

كلمة (الصدّيق) صيغة مبالغة من الصدق، و تعنى الشخص الصادق جدّا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۶

و ذهب البعض الى أنّه الشخص الذى لا يكذب مطلقا، بل و أسمى من ذلك، و هو أنّه لا يملك القدرة على الكذب، لأنّه اعتاد طيلة حياته على الصدق. و يرى آخرون أن معناها الشخص الذى يصدق عمله كلامه و اعتقاده. إلّا أن من الواضح أن جميع هذه المعانى- تقريبا- ترجع إلى معنى واحد.

على كل حال، فإنّ هذه الصفة مهمّة إلى حدّ أنّها ذكرت فى الآية- محل البحث- قبل صفة النّبوة، و لعلها بذلك تكون ممهدة لتلقى النّبوة، و إذا تجاوزنا ذلك فإنّ أبرز صفة يلزم وجودها فى كل الأنبياء و حملة الوحى الإلهى أن يوصلوا أوامر اللّه إلى العباد دون زيادة أو نقصان.

ثمّ تتطرق الآية التى بعدها إلى شرح محاورته مع أبيه آزر- و الأب هنا إشارة إلى العم، فإنّ كلمة الأب، كما قلنا سابقا، ترد أحيانا فى لغة العرب بمعنى الأب، و أحيانا بمعنى العم [۲۹۴]- فتقول: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً.

إنّ هذا البيان القصير القاطع من أحسن أدلة نفى الشرك و عبادة الأوثان، لأنّ أحد بواعث الإنسان فى معرفة الرب هو باعث الربح و الخسارة، و الضر و النفع، و الذى يعبر عنه علماء العقائد بمسألة (دفع الضرر المحتمل). فهو يقول: لماذا تتجه إلى معبود ليس عاجزا عن حل مشكلة من مشاكلك و حسب، بل إنّه لا يملك أصلا القدرة على السمع و البصر. و بتعبير آخر: إن العبادة يجب أن تكون لمن له القدرة على حل المشاكل، و يدرك عباده و حاجاتهم، سميع بصير، إلّا أنّ هذه الأصنام فاقدة لكل ذلك.

إن إبراهيم يبدأ فى دعوته العامّة بأبيه، و ذلك لأنّ النفوذ فى الأقربين أهم و أولى، كما أن نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمر أولا بدعوة عشيرته الأقربين كما جاء فى ذلك فى الآية (۲۱۴) من سورة الشعراء: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۷

بعد ذلك دعاه- عن طريق المنطق الواضح- إلى اتباعه، فقال: يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا فإنّى قد وعيت أمورا كثيرة عن طريق الوحى، و أستطيع أن أقول باطمئنان: إنّى سوف لا أسلك طريق الضلال و الخطأ، و لا أدعوك أبدا إلى هذا الطريق المعوج، فإنّى أريد سعادتك و فلاحك، فاقبل منّى لتنجو و تخلص من العذاب و تصل بطيّك هذا الصراط المستقيم إلى المحل المقصود.

ثمّ يعطف نظره إلى الجانب السلبى من القضية بعد ما ذكر بعدها الايجابى و يشير إلى الآثار التى تترتب على مخالفة هذه الدعوة، فيقول: يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا.

من الواضح أنّ العبادة هنا لا تعنى السجود و الصلاة و الصوم للشيطان، بل بمعنى الطاعة و اتباع الأوامر، و هذا بنفسه يعتبر نوعا من العبادة.

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن اللّه فقد عبد اللّه، و إن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس»[۲۹۵].

إن إبراهيم يريد أن يعلّم أباه هذه الحقيقة، و هى أن الإنسان لا يمكن أن يكون فاقدا لخط و منهج فى حياته، فإمّا سبيل اللّه و الصراط المستقيم، و إمّا طريق الشيطان العاصى الضال، فيجب عليه أن يفكر بصورة صحيحة و يصمم، و أن يختار ما فيه خيره و صلاحه بعيدا عن العصبية و التقاليد العمياء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۹ ؛ ص۴۵۷
یذکره و ینبه مرّة أخری بعواقب الشرک و عبادة الأصنام المشؤومة، و یقول: یا أَبَتِ إِنِّی أَخافُ أَنْ یَمَسَّکَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَکُونَ لِلشَّیْطانِ وَلِیًّا.
إنّ تعبیر إبراهیم هـذا رائع جـدّا، فهو من جانب یخاطب عمّه دائما ب یا أَبَتِ و هـذا یدل علی الأدب و احترام المخاطب، و من جانب آخر فإنّ قوله أَنْ یَمَسَّکَ توحی بأنّ إبراهیم کان قلقا و متأثرا من وصول أدنی أذی إلی آزر، و من
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۴۵۸
جهـة ثالثة فإنّ التعبیر ب عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ یشـیر إلی أن أمرک نتیجة هذا الشـرک و عبادة الأصـنام قد بلغ حدّا بحیث أن اللّه- الذی عمت رحمته الأرجاء- سیغضب علیک و یعاقبک، فانظر إلی عملک الذی تقوم به کم هو خطیر و کبیر! و من جهة رابعة، فإنّ عملک سیؤدی بک فی النهایة أن تستظل بولایة الشیطان.

بحوث

۱- طریق النفوذ إلی الآخرین

إنّ طریقـة محاورة إبراهیم لآزر- الـذی کان- طبقا للرّوایات- من عبدة الأصـنام، حیث کان یصـنعها و یبیعها، و کان یعتبر عاملا مهمّا فی ترویج الشـرک- تبیّن لنا بأنّه یجب اسـتخدم المنطق الممتزج بالاحترام و المحبة و الحرص علی الهدایة، مقترنا بالحزم قبل التوسـل بـالقوة، للنفوذ إلی نفوس الأـفراد المنحرفین، لأنّ الکثیر سـیذعنون للحق عن هـذا الطریق، و هناک جماعـة سـیظهرون مقاومتهم لهـذا الأسلوب، و من الطبیعی أن حساب هؤلاء یختلف، و یجب أن یعاملوا بأسلوب آخر.

۲- دلیل اتباع العالم

قرأنـا فی الآیـات- محل البحث- أن إبراهیم دعا عمه آزر لاتباعه، مع کبر سـنة و شـهرته فی المجتمع. و یـذکر دلیله علی دعوته هـذه فیقول: إِنِّی قَدْ جاءَنِی مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ یَأْتِکَ
إنّ هـذا قانون عام فی أن الـذین لا یعلمون یتبعون العالمین فیما یجهلونه، و هذا فی الواقع هو منهج الرجوع إلی المتخصصـین فی کل فن، و من ذلک مسألة تقلید المجتهد فی فروع الأحکام الإسلامیة.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۴۵۹
من الواضـح أنّ بحث إبراهیم لم یکن فی المسائـل المرتبطـة بفروع الـدین، بل کان یتحـدث عن أهم أصل من أصول الـدین، و لکن حتی فی مثـل هـذه المسائـل أیضـا یجب الاسـتعانة و الاسـتفادة من إرشـادات العالم، لتحصل الهدایـة إلی الصـراط السوی، الـذی هو الصراط المستقیم.

۳- سوره الرحمة و التذکیر

لقـد وردت جملـة (و اذکر) خمس مرات عنـد الشـروع بذکر قصـص الأنبیاء العظام و مریم، و لهذا السـبب یمکن تسـمیة هذه السورة بسورة (التذکیر) .. ذکر الأنبیاء، و الرجال و النساء العظام؛ و حرکتهم التوحیدیة، و جهودهم فی طریق محاربة الشرک و عبادة الأصنام و الظلم و الجور.

و لما کان الـذکر عادة بعـد النسیان، فمن الممکن أن یکون إشارة إلی أن جـذور التوحید و عشق رجال الحق و الإیمان بجهادهم من أجل إحقاق الحق حیة فی أعماق روح کل إنسان، و إن الکلام عن هؤلاء فی الحقیقة نوع من الذکر.

و قـد ورد وصف اللّه ب «الرحمان» ست عشـرة مرّة فی هـذه السورة، فإنّ السورة تبـدأ بالرحمة، رحمه اللّه بزکریا، رحمة اللّه بمریم و المسیح، و کـذلک تنتهی السـورة بهـذه الرحمـة حیث تقـول فی أواخرهـا: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحـاتِ سَـیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا»[۲۹۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۰

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۴۶ الی ۵۰]

اشارة

قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِی یا إِبْراهِیمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّکَ وَ اهْجُرْنِی مَلِیًّا (۴۶) قالَ سَلامٌ عَلَیْکَ سَأَسْتَغْفِرُ لَکَ رَبِّی إِنَّهُ کانَ بِی حَفِیًّا (۴۷) وَ أَعْتَزِلُکُمْ وَ ما تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّی عَسـی أَلَّا أَکُونَ بِدُعاءِ رَبِّی شَـقِیًّا (۴۸) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما یَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ کُلًّا جَعَلْنا نَبِیًّا (۴۹) وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِیًّا (۵۰)

التّفسیر

نتیجة البعد عن الشرک و المشرکین:

مرّت فی الآیـات السابقـة کلمـات إبراهیم علیه السّـلام التی کـانت ممتزجـة باللطف و المحبّـة فی طریق الهدایـة، و الآن جاء دور ذکر أجوبة آزر، لکلی تتضح الحقیقة و الواقع من خلال مقارنة الکلامین مع بعضهما.

یقول القرآن الکریم: إنّ حرص و تحرّق إبراهیم، و بیانه الغنی العمیق لم ینفذ إلی قلب آزر، بل إنّه غضب لدی سـماعه هذا الکلام، و قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِی یا إِبْراهِیمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّکَ وَ اهْجُرْنِی مَلِیًّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۱

الملفت للنظر، أنّ آزر لم یکن راغبا حتی فی أن یجری إنکار الأصـنام أو مخالفتها و تحقیرها علی لسانه، بل إنّه قال: أ راغب أنت عن هذه الآلهة؟ حتی لا تهان الأصنام! هذا أولا.

ثانیا: إنّه عنـد ما هـدد إبراهیم، هـدده بالرجم، ذلک التهدید المؤکّد الذی یسـتفاد من لام و نون التوکید الثقیلة فی «لأرجمنّک» و من المعلوم أن الرجم من أشد و أسوء أنواع القتل.

ثالثا: إنّه لم یکتف بهـذا التهدید المشـروط، بل إنّه اعتبر إبراهیم فی تلک الحال وجودا لا یحتمل، و قال له اهْجُرْنِی مَلِیًّا أی ابتعد عنی دائمـا، و إلی الأبـد (کلمـة «ملیا»- حسب قول الراغب فی المفردات- أخـذت من مادة الإملاء، أی الإمهال الطویل، و هی تعنی هنا أن ابتعد عنی لمدّة طویلة، أو علی الدوام).

و هذا التعبیر المحقّر جدّا لا یستعمله إلّا الأشخاص الأجلاف و القساة ضد مخالفیهم.

بعض المفسّرين لا يرى أن جملة «لأرجمنّك» تعنى الرمى بالحجارة، بل اعتقد أنّها تعنى تشويه السمعة و الاتهام، إلّا أن هذا التّفسير يبدو بعيدا، و ملاحظة سائر آيات القرآن- التى وردت بهذا التعبير- شاهد على ما قلناه.

لكن، و رغم كل ذلك، فقد سيطر إبراهيم على أعصابه، كبقية الأنبياء و القادة الإلهيين، و مقابل هذه الغلظة و الحدّة وقف بكل سمو و عظمة، و قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ

إنّ هذا السلام يمكن أن يكون سلام التوديع، و أن إبراهيم بقوله: سَلامٌ عَلَيْكَ و ما يأتى بعده من كلام يقصد ترك آزر. و يمكن أن يكون سلاما يقال لفض النزاع، كما نقرأ ذلك فى الآية (۵۵) من سورة القصص: لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِی الْجاهِلِینَ

ثمّ أضاف: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّی إِنَّهُ كانَ بِی حَفِیًّا. إن إبراهيم فى الواقع قابل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۲

خشونة و تهديد آزر بالعكس، و وعده بالاستغفار و طلب مغفرة اللّه له.

و هنا يطرح سؤال، و هو: لماذا وعد إبراهيم آزر بالاستغفار مع أنا نعلم أن آزر لم يؤمن أبدا، و لا يجوز الاستغفار للمشركين طبقا لصريح الآية (۱۱۳) من سورة التوبة؟

و قد ذكرنا جواب هذا السؤال بصورة مفصلة فى ذيل تلك الآية فى سورة التوبة.

ثمّ يقول: وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى الأصنام وَ أَدْعُوا رَبِّی عَسی أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّی شَقِیًّا.

تبيّن هذه الآية من جهة أدب إبراهيم فى مقابل آزر الذى قال: «اهجرنى» فقبل إبراهيم ذلك. و من جهة أخرى فإنّها تبيّن حزمه فى عقيدته، فإنّ ابتعادى هذا عنك لم يكن من أجل حيادى عن اعتقادى الراسخ بالتوحيد، بل لأنّك لا تملك الأهلية لتقبل الحق، و لذلك فإنى سأثبت على اعتقادى.

و يقول بصورة ضمنية بأنّى إذا دعوت ربّى فإنّه سيجيب دعوتى، أمّا أنتم المساكين الذين تدعون من هو أكثر مسكنة منكم، فلا يستجاب دعاؤكم مطلقا، بل و لا يسمع كلامكم أبدا.

لقد و فى إبراهيم بقوله، و ثبت على عقيدته بكل صلابة و صمود، و كان دائما ينادى بالتوحيد، بالرغم من أن كل ذلك المجتمع الفاسد فى ذلك اليوم قد وقف ضده و ثار عليه، إلّا أنّه لم يبق وحده فى النهاية، فقد وجد أتباعا كثيرين على مر القرون و الأعصار، بحيث أنّ كل الموحدين و عباد اللّه فى العالم يفتخرون بوجوده.

يقول القرآن الكريم: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِیًّا فالبرغم من أن الفترة التى وهب اللّه بها لإبراهيم إسحاق، ثمّ يعقوب- ابن إسحاق- قد استغرقت زمنا طويلا، إلّا أنّ هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۳

الموهبة العظيمة- حيث وهبه ولدا كإسحاق، و حفيدا كيعقوب، و كل منهما كان نبيّا سامى المقام- كانت نتيجة صبر إبراهيم عليه السّلام و استقامته التى أظهرها فى طريق محاربة الأصنام، و اعتزال المنهج الباطل و الابتعاد عنه.

و إضافة إلى ذلك وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا تلك الرحمة الخاصّة بالمخلصين و المخلصين، و الرجال المجاهدين فى سبيل اللّه. و أخيرا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِیًّا.

إنّ هذا فى الحقيقة إجابة لطلب و دعاء إبراهيم الذى جاء فى الآية (۸۴) من سورة الشعراء: وَ اجْعَلْ لِی لِسانَ صِدْقٍ فِی الْآخِرِینَ فإنّ أولئك كانوا يريدون طرد و إبعاد إبراهيم و أسرته من المجتمع الإنسانى، بحيث لا يبقى لهم أى أثر أو خبر، و ينسون إلى الأبد. إلّا أن الذى حدث بالعكس، فإنّ اللّه سبحانه قد رفع ذكرهم نتيجة إيثارهم و تضحيتهم و استقامتهم فى أداء الرسالة التى كانت ملقاة على عاتقهم، و جعل أسماءهم تجرى على ألسنة شعوب العالم، و يعرفون كأسوة و نموذج فى معرفة اللّه و الجهاد و الطهارة و التقوى و

المقارعة للباطل.

إنّ «اللسان» فى مثل هـذه الموارد يعنى الـذكر الـذى يـذكر به الإنسان بين الناس، و عنـد ما نضـيف إليه كلمـة صـدق، و نقول: «لسان صدق» فإنّه يعنى الذكر الحسن و الذكرى الطيبة بين الناس، و إذا ما ضممنا إليها «عليّا» التى تعنى العالى و البارز، فإنّها ستعنى الذكرى الجميلة جدّا التى تبقى بين الناس عن شخص ما.

و من المعلوم أن إبراهيم لا يريد بهذا الطلب أن يحقق أمنية فى قلبه، بل كان هدفه أن لا يستطيع الأعداء أن يجعلوا تاريخ حياته، الذى كان تربويا خارقا للعادة، فى بوتقة النسيان، و أن يمحوا ذكره من الأذهان إلى الأبد، و هو الأنموذج و الأسوة الدائمة للبشرية.

و نقرأ

فى رواية عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «لسان الصدق للمرء يجعله اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۴

فى الناس، خير من المال يأكله و يورثه»[۲۹۷]

و بغض النظر عن الجوانب المعنويـة، فـإنّ حسن السـمعة و الـذكر الحسن بين الناس يمكن أن يكون أحيانا رأس مال عظيم للإنسان و لأولاده، و أمامنا شواهد حية على ذلك.

و هنا يمكن أن يبرز سؤال، و هو: كيف لم تذكر هنا موهبة وجود إسماعيل، مع أن اسم يعقوب، حفيد إبراهيم، قد ذكر صريحا؟ و فى مكان آخر من القرآن ذكر وجود إسـماعيل ضـمن مواهب إبراهيم، هناك حيث تقول الآيـة على لسان إبراهيم: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ ۲۹۸].

الجواب أنّه بالإضافـة إلى أن اسم إسـماعيل قـد ورد مستقلا بعد آيتين أو ثلاث، و قد ذكر فيها بعض صـفاته البارزة، إلّا أنّ المقصود هذه الآية هو بيان استـمرار النّبوة فى أسـرة إبراهيم، و توضح كيف أن حسن سمعته و ذكره الحسن و تاريخه الحافل قد تحقق بواسطة الأنبيـاء من أسـرته، و الـذين جـاؤوا الواحـد تلو الآـخرين، و من المعلوم أن كـثيرا من الأنبيـاء هم من أسـرة إسـحاق و يعقوب على مر الأعصار و القرون، و إن كان قـد ولـد من ذرية إسـماعيل أعظم الأنبياء، أى نبى الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، إلّا أن اسـتمرار النبوة كان فى أولاد يعقوب، و لـذلك نقرأ فى الآية (۲۷) من سورة العنكبوت، وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۵

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۱ الى ۵۳]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِى الْكِتـابِ مُوسـى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (۵۱) وَ نادَيْنـاهُ مِنْ جـانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا (۵۲) وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (۵۳)

التّفسير

موسى النّبى المخلص:

فى هـذه الآيات الثلاث إشارة قصـيرة إلى موسـى عليه السّـلام- و هو من ذريـة إبراهيم عليه السّـلام و موهبـة من مواهب ذلك الرجل

العظيم- حيث سار على خطاه.

و توجه الآيـة الخطاب إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تقول: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى ثمّ تـذكر خمس مواهب و صفات من المواهب التى أعطيت لهذا النّبى الكبير:

۱- إنّه وصل فى طاعته و عبوديته للّه إلى حد إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً و لا ريب أن الـذى يصل إلى هـذه المرتبـة سيكون مصونا من خطر الانحراف و التلوث، لأنّ الشيطان رغم كل إصراره على إضلال عباد اللّه، يعترف هو نفسه بعدم قدرته على إضلال المخلصين: قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۶

الْمُخْلَصِينَ ۲۹۹].

۲- وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا فحقيقـة الرسالـة أن تلقى مهمّـة على عاتق شخص، و هو مسئول عن أدائها و إبلاغها، و هـذا المقام كان لجميع الأنبياء المأمورين بالدعوة.

إن ذكر كونه «نبيّا» هنا إشارة إلى علو مقام و رفعة شأن هـذا النّبى العظيم، لأنّ هـذه اللفظة فى الأصل مأخوذة من (النّبوة) على وزن (نغمة) و تعنى رفعة المقام و علوه. و لها- طبعا- أصل آخر من (نبأ) بمعنى الخبر، لأنّ النّبى يتلقى الخبر الإلهى، و يخبر به الآخرين، إلّا أن المعنى الأوّل هو الأنسب هنا.

۳- و أشارت الآيـة التاليـة إلى بدايـة رسالـة موسى، فقالت: وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ففى تلك الليلة المظلمة الموحشة، حيث قطع موسى صحارى مدين متوجها إلى مصر، أخذ زوجته الطلق و ألم الولادة، و كان البرد شديدا، فكان يبحث عن شعلة نار، و فجأة سطع نور من بعيد، و سمع نداء يبلغه رسالة اللّه، و كان هذا أعظم و سام و ألذ لحظة فى حياته.

۴- إضافة إلى ذلك وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا[۳۰۰] فإنّ النداء كان موهبة، و التكلم موهبة أخرى.

۵- و أخيرا وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا ليكون معينه و نصيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۷

بحثان

۱- من هو المخلص؟

قرأنا فى الآيات السابقة أنّ اللّه سبحانه جعل موسى من العباد المخلصين- بفتح اللام- و هذا المقام عظيم جدّا كما أشرنا إلى ذلك، مقام مقترن بالضمان الإلهى عن الانحراف، مقام محكم لا يستطيع الشيطان اختراقه، و لا يمكن تحصيله إلّا بالجهاد الدائم للنفس، و الطاعة المستمرة المتلاحقة لأوامر اللّه سبحانه.

إنّ كبار علماء الأخلاق يعتبرون هـذا المقام مقاما ساميا جـدّا، و يستفاد من آيات القرآن أنّ للمخلصين امتيازات و خصائص خاصّـة، سنتطرق إليها إن شاء اللّه تعالى.

۲- الفرق بين الرّسول و النّبى

الرّسول هو الشخص الذى ألقيت على عاتقه مهمّة أو رسالة ليبلغها، و النّبى- بناء على أحد التفاسير- هو الشخص المطلع على الوحى

الإلهى و الذى يخبر بما يوحى إليه، و بناء على تفسير آخر هو الشخص العالى المقام و السامى المرتبة، و قد بيّنا اشتقاق كلا الكلمتين ما مادتيهما. هذا من جهة اللغة.

أمّا من جهة التعبيرات القرآنية و لسان الرّوايات، فالبعض يرى أن «الرّسول» صاحب شريعة و مأمور بابلاغها، أى يتلقى الوحى الإلهى ثمّ يبلغه للناس، أمّا «النّبى» فإنّه يتلقى الوحى، إلّا أنّه ليس مكلفا بإبلاغه، بل مكلف بأداء واجبه فقط، أو الإجابة على أسئلة من سأله.

و بتعبير آخر فإنّ النّبى مثله كالطبيب الواعى الذى جلس فى محله مستعدا لاستقبال المرضى، فهو لا يذهب إلى المرضى، أمّا إذا راجعه مريض فإنّه لا يمتنع عن معالجته و أداء النصح إليه. أمّا الرّسول فإنّه كالطبيب السيّار، و بتعبير

الإمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۸

على عليه السّلام فى نهج البلاغة عن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «طبيب دوّار بطبه»[۳۰۱]

، فهو يدور فى كل مكان، يذهب إلى المدن و القرى، الجبال و الصحارى ليجد المرضى و يشرع بعلاجهم، فهو عين تنبع بالماء العذب و تجرى نحو العطاشى، و ليس عينا يبحث عنها العطاشى.

و يستفاد من الرّوايات التى وصلت إلينا فى هذا الباب، و أوردها العلّامة الكلينى فى كتاب (أصول الكافى) فى باب (طبقات الأنبياء و الرسل) و باب (الفرق بين النّبى و الرسول) أنّ «النّبى» هو الشخص الذى يرى حقائق الوحى فى حال النوم فقط، كرؤيا إبراهيم، أو أنّه إضافة إلى النوم، فإنّه يسمع فى اليقظة أيضا صوت ملك الوحى. أمّا الرّسول فإنّه علاوة على تلقى الوحى فى المنام، و سماع صوت الملك، فإنّه يراه أيضا[۳۰۲].

و لا تنافى بين ما ورد فى هذه الرّوايات و التّفسير الذى قلناه، لأن من الممكن أن يكون للمهمات و المسؤوليات المتفاوتة للنبى و الرّسول تأثير فى طريقة تلقى الوحى، و بتعبير آخر فإنّ كل مرحلة من المهمّة تساير مرحلة خاصّة من الوحى. (دققوا جيدا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۹

الآيتان [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۴ الى ۵۵]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (۵۴) وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (۵۵)

التّفسير

إسماعيل نبى صادق الوعد:

بعد ذكر إبراهيم عليه السّلام و تضحيته، و بعد الإشارة القصيرة إلى حياة موسى عليه السّلام المتسامية، يأتى الحديث عن إسماعيل، أكبر ولد إبراهيم، و يكمل ذكر إبراهيم بذكر ولده إسماعيل، و برامجه ببرامج ولده، و يبيّن القرآن الكريم خمس صفات من صفاته البارزة التى يمكن أن تكون قدوة للجميع.

و يبدأ الكلام بخطاب الآية الشريفة للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا.

لقـد عـدّت هاتـان الآيتـان كونه صادق الوعـد، نبيّا عالى المرتبـة، أمره بالصـلاة و الارتباط بالخالق، و أمره بالزكاة و تحكيم الروابط و العلاقات بخلق اللّه، و أخيرا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۰

القيام بالأعمال التى تجلب رضى اللّه سبحانه من صفات هذا النّبى العظيم.

و تؤكّد الآيتان على الوفاء بالعهـد، و الاهتمام بتربيـة العائلة، و تشـيران إلى الأهمية الخاصّة لهذين التكليفين، اللذين ذكر أحدهما قبل النّبوة و الأخر بعدها مباشرة.

إنّ الإنسان- فی الواقع- ما لم يكن صادقا، فمن المستحيل أن يصل إلى مقام الرسالة السامى، لأنّ أوّل شرط لهذه الرتبة أن يبلغ الوحى الإلـهى إلى العباد بـدون زيادة أو نقصان، و لـذلك فحتى الأفراد المعـدودون الـذين ينكرون عصـمة الأنبياء فی بعض الأحوال، فإنّهم اعترفوا و أقروا بأنّ مسألة صدق النّبى شرط أساسى، الصدق فی الأخبار، و فی الوعود، و فی كل شیء.

و نقرأ

فی رواية عن الإمام الصادق عليه السّـلام: «إنّما سـمّى إسماعيل صادق الوعد، لأنّه وعد رجلا فی مكان فانتظره فی ذلك المكان سنة، فسمّاه اللّه عزّ و جل صادق الوعد. ثمّ قال: إنّ الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل: ما زلت منتظرا لك»[۳۰۳].

من البـديهى أنّه ليس المراد أنّ إسـماعيل قـد ترك عمله و أمور حياته، بل المراد أنّه فی الوقت الذى كان يمارس أعماله كان يراقب مجیء الشخص المذكور. و قد بحثنا فی مجال الوفاء بالعهد بصورة مفصلة فی ذيل أوّل آية من سورة المائدة.

و من جهـة أخرى فإنّ المرحلـة الأولى لتبليغ الرسالـة هی الشـروع من عائلة المبلغ الذين هم أقرب الناس إليه، و لهذا فإنّ نبى الإسـلام صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بدأ دعوته أيضا بزوجته الغالية خديجة عليها السّـلام، و ابن عمّه على عليه السّـلام، ثمّ و حسب أمر وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۳۰۴] توجه إلى أقربائه.

و فی الآية (۱۳۲) من سورة طه نقرأ أيضا: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۱

. النقطة الأخرى التی تسـتحق الذكر هنا، أن وصف إسماعيل بكونه مرضيا، إشارة فی الواقع إلى هذه الحقيقة، و هی أنّه قد حاز رضى اللّه فی كل أعماله، و لا توجد نعمة أجلّ من أن يرضى المعبود و المولى و الخالق عنه، و لهذا تقول الآية (۱۱۹) من سورة المائدة بعد أن بينت نعمة الجنة الخالدة لعباد اللّه المخلصين:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۳۰۵].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۲

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۶ الى ۶۰]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۵۶) وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (۵۷) أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا (۵۸) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (۵۹) إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (۶۰)

التّفسير

هؤلاء أنبياء اللّه، و لكن ..

فی آخر قسم من تـذكيرات هـذه السورة، جاء الحـديث عن «إدريس» النّبى، فقـالت الآيـة أوّلا: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتـابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا و «الصديق»- كما قلنا سابقا- هو الشخص الصادق جدّا، و المصدق بآيات اللّه سبحانه، و المذعن للحق و الحقيقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۳

ثمّ تشير الآيـة إلى مقـامه العـالى و تقول: وَ رَفَعْنـاهُ مَكاناً عَلِيًّا. و هناك بحث بين المفسّـرين فى أن المراد هل هو عظمـة مقام إدريس المعنوية، أم الارتفاع المكانى بين المفسّـرين فى أنّ المراد هل هو عظمة مقام إدريس المعنوية، أم الارتفاع المكانى الحسى؟ فالبعض اعتبر ذلك- كما ذهبنا إليه- إشارة إلى المقامات المعنوية و الدرجات الروحية لهذا النّبى الكبير، و البعض الآخر يعتقد أن اللّه سبحانه قد رفع إدريس كالمسيح إلى السماء، و اعتبروا التعبير ب (مكان علىّ) إشارة إلى هذا.

إلّا أنّ إطلاق كلمة المكان على المقامات المعنوية أمر متداول و طبيعى، فنحن نرى فى الآية (۷۷) من سورة يوسف أنّ يوسف قد قال لإخوته العاصين:

أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً.

و على كل حال، فإنّ إدريس واحد من أنبياء اللّه المكرمين، و سيأتى شرح حاله فى البحوث القادمة إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ تبيّن الآيـة التاليـة بصورة جماعيـة عن كـل الامتيـازات و الخصائص التى مرت فى الآيات السابقـة حول الأنبياء العظام و صـفاتهم و حالا-تهم و المواهب التى أعطـاهم اللّه إياها، فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ

و مع أن كل هؤلاء الأنبياء كانوا من ذرية آدم، غير أنّهم لقربهم من أحد الأنبياء الكبار فقد سمّوا بذرية إبراهيم و إسرائيل، و على هذا فإنّ المراد من ذريـة آدم فى هـذه الآية هو إدريس، حيث كان- حسب المشـهور- جدّ النّبى نوح، و المراد من الذرية هم الذين ركبوا مع نوح فى السفينة، لأنّ إبراهيم كان من أولاد سام بن نوح.

و المراد من ذرية إبراهيم إسحاق و إسماعيل و يعقوب، و المراد من ذرية إسرائيل: موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى، و الذين أشير فى الآيات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۴

السابقة إلى حالاتهم و كثير من صفاتهم البارزة المعروفة.

ثمّ تكمل الآية هذا البحث بذكر الأتباع الحقيقيين لهؤلاء الأنبياء، فتقول:

وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا[۳۰۶].

لقد اعتبر بعض المفسّـرين جملة وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا .. بيانا آخر لنفس هؤلاء الأنبياء الذين أشـير إليهم فى بداية هذه الآية. إلّا أنّ ما قلنا أعلاه يبدو أنّه أقرب للصواب ۳۰۷]. و الشاهد على هذا الكلام

الحديث المروى عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام، إذ قال أثناء تلاوة هذه الآية: «نحن عنينا بها»[۳۰۸].

و ليس المراد من هـذه الجملـة هو الحصـر مطلقـا، بـل هى مصـداق واضـح لمتبعى و أولياء الأنبياء الواقعيين، و قـد مرت بنا نماذج من مصاديق هذا البحث فى التّفسـير الأمثل هذا. إلّا أنّ عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة سـبب أن يقع بعض المفسّرين- كالآلوسى فى روح المعـانى- فى خطأ حيث طعن فى هـذا الحـديث، و عـدّه دليلا على كون أحاديث الشـيعة غير معتبرة! و هـذه هى نتيجـة عـدم الإحاطة بالمفهوم الواقعى للروايات الواردة فى تفسير الآيات.

و ممّا یستحق الانتباه أن الحدیث فی الآیات السابقة کان عن مریم، فی حین أنّها لم تکن من الأنبیاء، بل کانت داخلة فی جملة مِمَّنْ هَدَيْنا و تعتبر من مصادیقها، و لها فی کل زمان و مکان مصداق أو مصادیق، و من هنا نری أن الآیة (۶۹) من سورة النساء لم تحصر المشمولین بنعم اللّه بالأنبیاء، بل أضافت إلیهم الصدیقین و الشهداء: فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ و کذلک عبرت الآیة (۷۵) من سورة المائدة عن مریم أم عیسی بالصدیقة، فقالت: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۵

ثمّ تتحدث الآیات عن جماعة انفصلوا عن دین الأنبیاء المربی للإنسان، و کانوا خلفا سیئا لم ینفذوا ما أرید منهم، و تعدد الآیة قسما من أعمالهم القبیحة، فتقول: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا.

(خلف) بمعنی الأولاد الطالحین، و (خلف) بمعنی الأولاد الصالحین.

و هذه الجملة قد تکون إشارة إلی جماعة من بنی إسرائیل ساروا فی طریق الضلال، فنسوا اللّه، و رجحوا اتباع الشهوات علی ذکر اللّه، و ملؤوا الدنیا فسادا، و أخیرا ذاقوا و بال أعمالهم السیئة فی الدنیا، و سیذوقونه فی الآخرة أیضا.

و احتمل المفسّرون احتمالات عدیدة فی أنّ المراد من (إضاعة الصلاة) هنا هل هو ترک الصلاة، أم تأخیرها عن وقتها، أم القیام بأعمال تضیع الصلاة فی المجتمع؟ إن المعنی الأخیر- کما یبدو- هو الأصح.

لماذا کان التأکید علی الصلاة- هنا- من بین کل العبادات؟

قد یکون السبب أن الصلاة- کما نعلم- سدّ یحول بین الإنسان و المعاصی، فإذا کسر هذا السد فإن الغرق فی الشهوات هو النتیجة القطعیة لذلک، و بتعبیر آخر، فکما أن الأنبیاء یبدؤون فی ارتقاء مراتبهم و مقاماتهم من ذکر اللّه، و عند ما کانت تتلی علیهم آیات اللّه کانوا یخرون سجدا و یبکون، فإن هذا الخلف الطالح بدأ انحرافهم و سقوطهم من نسیانهم ذکر اللّه.

و لما کان منهج القرآن فی کل موضع هو فتح أبواب الرجوع إلی الإیمان و الحق دائما، فإنّه یقول هنا أیضا بعد ذکر مصیر الأجیال المنحرفة: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً، و علی هذا فلا یعنی أن الإنسان إذا غاص یوما فی الشهوات فسیکتب علی جبینه الیأس من رحمة اللّه، بل إن طریق التوبة و الرجوع مفتوح ما بقی نفس یتردد فی صدر الإنسان، و ما دام الإنسان علی قید الحیاة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۶

بحثان

۱- من هو إدریس؟

طبقا لنقل کثیر من المفسّرین، فإنّ إدریس جدّ سیدنا نوح علیه السّلام و اسمه فی التوراة (أخنوخ) و فی العربیة (إدریس)، و ذهب البعض أنّه من مادة (درس) لأنّه أوّل من کتب بالقلم، فقد کان إضافة إلی النّبوة عالما بالنجوم و الحساب و الهیئة، و کان أوّل من علم البشر خیاطة الملابس.

لقد تحدث القرآن عن هذا النّبی الکبیر مرّتین فقط، و بإشارة خاطفة:

إحداهما هنا فی هذه الآیات، و الأخری فی سورة الأنبیاء الآیة ۸۵- ۸۶ و قد ذکرت حیاته بصورة مفصلة فی روایات مختلفة نشک فی صحة أکثرها، و لهذا السبب اکتفینا بالإشارة أعلاه.

۲- من هم الذين أَضاعُوا الصَّلاةَ

نقرأ

فی حدیث ورد فی کثیر من کتب علماء أهل السنة، أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند ما تلا هذه الآیة قال: «یکون خلف من بعد ستین سنة أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات فسوف یلقون غیا، ثمّ یکون خلف یقرءون القرآن لا یعدو تراقیهم، و یقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، منافق، و فاجر»[۳۰۹].

ینبغی الالتفات إلی أنّنا إذا اعتبرنا هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مبدأ الستین سنة، فإنّه ینطبق تماما علی الزمن الذی تربع فیه یزید علی کرسی الحکم، و استشهد فیه سید الشهداء الإمام الحسین علیه السّلام و أصحابه، و یشیر الحدیث بعد ذلک إلی بقیة فترة بنی أمیة و فترة بنی العباس الذین کانوا قد اقتنعوا من الإسلام بالاسم، و من القرآن باللفظ، و نعوذ باللّه أن نکون من هذا الخلف المنحرف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۷

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۶۱ الى ۶۳]

اشارة

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَیْبِ إِنَّهُ کانَ وَعْدُهُ مَأْتِیًّا (۶۱) لا یَسْمَعُونَ فِیها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِیها بُکْرَةً وَ عَشِیًّا (۶۲) تِلْکَ الْجَنَّةُ الَّتِی نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ کانَ تَقِیًّا (۶۳)

التّفسير

بعض صفات الجنّة:

وصفت الجنّة و نعمها فی هذه الآیات حیث جاء ذکرها فی الآیات السابقة، فهی تصف الجنّة الموعودة بأنّها جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَیْبِ إِنَّهُ کانَ وَعْدُهُ مَأْتِیًّا.

ممّا یستحق الاهتمام و یسترعی الانتباه أن الآیات السابقة التی تحدثت عن التوبة و الإیمان و العمل الصالح، جاء الوعد فیها بالجنّة بصیغة المفرد (جنة)، أمّا هنا فقد ورد بصیغة الجمع (جنات) لأنّ الجنّة فی الحقیقة متکونة من حدائق متعددة و غنیة بالنعم جدّا، و ستکون تحت تصرف المؤمنین الصالحین.

إنّ وصف الجنّة ب (عدن) التی تعنی الدوام و الخلود، دلیل علی أنّ الجنّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۸

لیست کحدائق و بساتین هذه الدنیا و نعمها الزائلة، لأنّ الشیء الذی یقلق الإنسان فیما یتعلق بنعم هذه الدنیا الکثیرة هو زوالها فی النهایة، إلّا أن مثل هذا القلق بالنسبة لنعم الجنّة لا معنی له ۳۱۰].

کلمة (عباده) تعنی عباد اللّه المؤمنین، لا جمیع العباد، و التعبیر (بالغیب) الذی جاء بعدها یعنی غیبته و اختفاءه عن نظرهم إلّا أنّهم یؤمنون به. و فی الآیة (۳۰) من سورة الفجر نقرأ أیضا: فَادْخُلِی فِی عِبادِی وَ ادْخُلِی جَنَّتِی

و یحتمل أیضا فی معنی الغیب أنّ نعم الجنّة علی هیئة لم ترها عین، و لم تسمع بها أذن، و لم تخطر علی فکر و قلب بشر، و بکلمة

واحدة: إنّها غائبة عن حسنا و إدراكنا، عالم أسمى و أوسع من هذا العالم، و نحن لا نرى منها إلا شبحا من بعيد بعين الروح و القلب.

ثمّ تشير بعد ذلك إلى نعمة أخرى من أكبر نعم الجنّة فتقول: لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً فلا كذب، و لا عداء، لا تهمة و لا جرح لسان، لا سخرية و لا حتى كلام لا فائدة فيه، بل الشيء الوحيد الذى يسمعونه هو السلام إِلَّا سَلاماً.

«السلام» بالمعنى الواسع للكلمة، و الذى يدل على سلامة الروح و الفكر و اللسان و السلوك و العمل.

السلام الذى جعل ذلك الجو و تلك البيئة جنة، و اقتلع كل نوع من الأذى منها.

السلام الذى هو علامة على المحيط الآمن، المحيط الملى بالصفاء و العلاقة الحميمة و الطهارة و التقوى الصلح و الهدوء و الاطمئنان.

و فى آيات أخرى من القرآن جاءت هذه الحقيقة أيضا بتعبيرات مختلفة، ففى الآية (۷۳) من سورة الزمر نقرأ: وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ و فى الآية (۳۴) من سورة ق: ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۹

. و ليست الملائكة وحدها التى تحييهم، و ليسوا لوحدهم يحيى بعضهم بعضا، بل إنّ اللّه سبحانه يحييهم أيضا، كما حياتهم فى الآية (۵۷) من سورة يس: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ فهل يوجد محيط أصفى و أجمل من هذا الجوّ المليء بالسلام و السلامة؟

و بعد هذه النعمة تشير الآية إلى نعمة أخرى فتقول: وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا.

إنّ هذه الجملة تثير سؤالين:

أحدهما: هل يوجد فى الجنّة صبح و ليل؟

و قد جاء جواب هذا السؤال فى الرّوايات هكذا: إنّ الجنّة و إن كانت دائما منيرة مضيئة، إلّا أنّ أهلها يميزون الليل و النهار من قلة النور و زيادته.

و السؤال الآخر هو: إنّه يستفاد من آيات القرآن بوضوح أن كل ما يريده أهل الجنة من الهبات و الأرزاق موجود تحت تصرفهم دائما و فى أى ساعة، فأى رزق هذا الذى يأتيهم فى الصبح و المساء فقط؟

و يمكن استخلاص جواب هذا السؤال من

حديث جميل روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «و تعطيهم طرف الهدايا من اللّه لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا»[۳۱۱].

و يستفاد من هذا الحديث أن هذه الهدايا الممتازة التى لا يمكن بيان ماهيتها حتى بالحدس و التخمين، نعم قيمة جدا، تهدى إلى هؤلاء بكرة و عشيا مضافا إلى سائر نعم الجنّة.

ألا يدل تعبير الآية، و الحديث الذى ذكر، على أنّ حياة أهل الجنّة ليست على وتيرة واحدة، بل إن لهم فى كل صباح و مساء موهبة جديدة و لطف جديد يعمهم و يشملهم!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۰

أ ليس معنى هذا الكلام أنّ السير التكاملى للإنسان سيستمر هناك، بالرغم من أنّه لا يعمل عملا، غير أنّه سيديم سيره التكاملى بواسطة معتقداته و أعماله فى هذه الدنيا؟! و بعد الوصف الإجمالى للجنّة و نعمها المادية و المعنوية، تعرّف الآية أهل الجنّة فى جمله قصيرة، فتقول: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا و على هذا فإن مفتاح باب الجنّة مع كل تلك النعم التى مرت ليس إلّا «التقوى».

و بالرغم من أنّ التعبير ب «عبادنا» فيه إشارة إجمالية إلى الإيمان و التقوى، غير أنّ المحل هنا لا يكتفى فيه بالإشارة الإجمالية، بل لا بدّ من بيان هذه الحقيقة بصراحة، بأن الجنة محل المتقين فقط.

و نواجه هنا مرّة أخرى كلمة الإرث، و التى تطلق عادة على الأموال التى تنتقل من شخص إلى آخر بعد موته، فى حين أنّ الجنّة ليست مملوكة لأحد حتى يمكن توريثها للآخرين.

و يمكن الإجابة على هذا السؤال عن طريقين:

١- إنّ الإرث من الناحية اللغوية جاء بمعنى التمليك، و لا ينحصر بالانتقال المالى من الميت إلى الورثة.

٢- إنّنا نقرأ

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما من أحد إلّا و له منزل فى الجنّة و منزل فى النّار، فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار، و المؤمن يرث الكافر منزله من الجنّة»[۳۱۲].

و يلزم هنا أيضا ذكر هـذه النكتـة، و هى أن الوارثـة التى وردت بذلك المعنى فى الحديث ليست على أساس العلاقة النسبية، بل على أساس التقوى الدينية و العملية.

و يستفاد هذا المعنى أيضا من سبب النّزول الذى ذكره بعض المفسّرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۱

للآيـة، بأن أحد المشـركين- و اسـمه العاص بن وائل- قد منع أجيره أجره- و الظاهر أنّه كان مسـلما- و قال متهكما: إن كان ما يقوله محمّـد حقا فنحن أولى من غيرنا بنعم الجنّة، و سـندفع أجر هذا العامل بالكامل هناك! فنزلت هذه الآية و قالت: إنّ الجنّة مختصة بمن كان تقيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۲

الآيتان [سورة مريم (١٩): الآيات ۶۴ الى ۶۵]

اشارة

وَ مـا نَتَنَزَّلُ إِلاَّـ بِأَمْرِ رَبِّکَ لَهُ مـا بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِکَ وَ ما کانَ رَبُّکَ نَسِيًّا (۶۴) رَبُّ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (۶۵)

سبب النّزول

ذكر جماعة من المفسـِرين فى سبب نزول هاتين الآيتين، أنّ الوحى انقطع أيّاما، و لم يأت جبرئيل رسول الوحى الإلهى إلى النّبى، فلمّا انقضت هـذه المـدّة قـال له: قال عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: «ما منعک أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا»، فنزلت الآيـة: وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّکَ ۳۱۳].

التّفسير

الطاعة التّامة:

بالرّغم من أن لهذه الآية سبب نزول ذكر أعلاه، إلّا أنّ هذا لا يكون مانعا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۳

أن يكون لها ارتباطا منطقيا بالآيات السابقة، لأنّها تأكيـد على أنّ كل ما أتى به جبرئيل من الآيات السابقة قد بلغه عن اللّه بدون زيادة أو نقصان، و لا شـىء من عنده، فتتحدث الآية الأولى على لسان رسول الوحى فتقول: وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّکَ فكل شـىء منه، و نحن

عباد وضعنا أرواحنا و قلوبنا علی الأکف لَهُ ما بَیْنَ أَیْدِینا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَیْنَ ذلِکَ و الخلاصهٔ: فإنّ الماضی و الحاضر و المستقبل، و هنا و هناک و کل مکان، و الدنیا و الآخرهٔ و البرزخ، کل ذلک متعلق بذات اللّه المقدسهٔ.

و قد ذکر بعض المفسّرین لجملهٔ لَهُ ما بَیْنَ أَیْدِینا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَیْنَ ذلِکَ آراء عدیدهٔ بلغت أحیانا أحد عشر قولا ما ذکرنا أعلاه هو أنسبها جمیعا کما یبدو ..

ثمّ تضیف الآیهٔ: إن کل ذلک بأمر ربّک رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما فإذا کان الأمر کذلک، و کل الخطوط تنتهی إلیه فَاعْبُدْهُ عبادهٔ مقترنهٔ بالتوحید و الإخلاص. و لما کان هذا الطریق- طریق العبودیهٔ و الطاعهٔ و عبادهٔ اللّه الخالصهٔ- ملیء بالمشاکل و المصاعب، فقد أضافت وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ و تقول فی آخر جملهٔ: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِیًّا.

و هذه الجملهٔ فی الواقع، دلیل علی ما جاء فی الجملهٔ السابقهٔ، یعنی: هل لذاته المقدسهٔ شریک و مثیل حتی تمد یدک الیه و تعبده؟ إنّ کلمهٔ (سمی) و إن کانت تعنی «المشترک فی الاسم»، إلّا أن من الواضح أنّ المراد هنا لیس الاسم فقط، بل محتوی الاسم، أی: هل تعلم أحدا غیر اللّه خالقا رازقا، محییا ممیتا، قادرا علی کل شیء، و ظاهرا علی کل شیء؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۴

الآیات [سورهٔ مریم (۱۹): الآیات ۶۶ الی ۷۰]

اشارهٔ

وَ یَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَیًّا (۶۶) أَ وَ لا یَذْکُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ یَکُ شَیْئاً (۶۷) فَوَ رَبِّکَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّیاطِینَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِیًّا (۶۸) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ کُلِّ شِیعَهٍ أَیُّهُمْ أَشَدُّ عَلَی الرَّحْمنِ عِتِیًّا (۶۹) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِینَ هُمْ أَوْلی بِها صِلِیًّا (۷۰)

سبب النّزول

الآیات الأولی- علی رأی جماعهٔ من المفسّرین- نزلت فی شأن «أبی بن خلف»، أو «الولید بن المغیرهٔ»، حیث أخذوا قطعهٔ من عظم منخور، ففتوه بأیدیهم و نثروه فی الهواء حتی تطایرت کل ذرهٔ منه إلی جههٔ، و قالوا انظروا إلی محمّد الذی یظن أن اللّه یحیینا بعد موتنا و تلاشی عظامنا مثل هذا العظم! إن هذا شیء غیر ممکن أبدا. فنزلت هذه الآیات و أجابتهم، جوابا قاطعا، جوابا مفیدا و معلما لکل البشر، و فی جمیع القرون و الأعصار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۵

التّفسیر

حال أهل النّار:

مرّت فی الآیات السابقهٔ بحوث عدیدهٔ حول القیامهٔ و الجنّهٔ و الجحیم، و تتحدث هذه الآیات التی نبحثها حول نفس الموضوع، فتعید الآیهٔ الأولی أقوال منکری المعاد، فتقول: وَ یَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَیًّا.

هذا الاستفهام استفهام إنکاری طبعا، أی إنّ هذا الشیء غیر ممکن. أمّا التعبیر بالإنسان (و خاصّهٔ مع ألف و لام الجنس)، مع أنّه کان

من المناسب أن یذکر الکافر محله- فربّما کان من جهة أن هذا السؤال مخفی فی طبع کل إنسان فی البدایة بزیادة و نقیصة، و بسماع مسألة الحیاة بعد الموت سترتسم فی ذهنه علامة الاستفهام فورا.

ثمّ یجیبهم مباشرة بنفس التعبیر أ وَ لا یَذْکُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ یَکُ شَیْئاً. و یمکن أن یکون التعبیر ب «الإنسان» هنا أیضا إشارة إلی أن الإنسان مع ذلک الاستعداد و الذکاء الذی منحه اللّه إیّاه، یجب أن لا- یجلس ساکتا أمام هذا السؤال، بل یجب أن یجیب علیه بتذکر الخلق الأوّل، و إلّا فإنّه لم یستعمل حقیقة إنسانیته.

إنّ هذه الآیات- ککثیر من الآیات المرتبطة بالمعاد- تؤکّد علی المعنی الجسمانی، و إلّا فإذا کان القرار أن تبقی الروح فقط، و لا وجود لرجوع الجسم إلی الحیاة، فلا مکان و لا معنی لذلک السؤال، و لا لهذا الجواب.

علی کل حال، فقد استعمل القرآن هذا المنطق لإثبات المعاد هنا، و قد جاء فی مواضع أخری من القرآن أیضا، و من جملتها فی أواخر سورة یس، حیث طرح الأمر بنفس تعبیر الإنسان: أ وَ لَمْ یَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ. وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ. قُلْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۶

یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ [۳۱۴][۳۱۵].

بعض المفسّرین طرح هنا سؤالا، و هو أن هذا الدلیل إذا کان صحیحا، بأنّ کل شخص إذا ما عمل عملا فإنّه قادر علی إعادته، فلما ذا نقوم بأعمال ثمّ نعجز عن تکرارها أحیانا؟ فمثلا قد ننشد قطعة شعریة رائعة جدّا، أو نکتب بخط جمیل جدّا، غیر أنّنا بعد ذلک نجتهد فی الإتیان بمثله و لکن دون جدوی.

الجواب هو: صحیح أنّنا نقوم بأعمالنا بإرادة و اختیار، إلّا أن هناک سلسلة من الأمور غیر الإرادیة تؤثر فی أفعالنا الخاصّة أحیانا، فإنّ حرکة و اهتزاز یدنا غیر المحسوس یؤثر أحیانا فی دقة شکل الحروف. إضافة إلی أن قدرتنا و استعدادنا لیسا متساویین دائما، فقد تعرض أحیانا عوامل تعبئ کل قوانا الداخلیة، و نستطیع أن نبدع فی الأعمال و نأتی بأعلاها، إلّا أنّ هذه الدوافع تکون ضعیفة أحیانا، فلا تستجمع کل الطاقات، و لذلک فإن العمل الثّانی لا ینفذ بدقة وجودة العمل الأوّل.

إلّا أنّ اللّه الذی لا تنتهی قدرته، لا تثار حوله هذه المسائل، و لا تقاس قدرته علی أعمالنا و قدراتنا، فإنّه إذا عمل عملا فإنّه یستطیع إعادته بعینه بدون زیادة أو نقصان.

ثمّ تهدد الآیة التالیة منکری المعاد، و المجرمین الکافرین: فَوَ رَبِّکَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّیاطِینَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِیًّا.

إنّ هذه الآیة توحی بأنّ محکمة الأفراد الکافرین و المجرمین قریبة من جهنم! و التعبیر ب «جثیا»- مع العلم أن جثی جمع جاثی، و هو الذی یجثو علی رکبتیه- ربّما کان إشارة إلی ضعف و عجز و ذلة هؤلاء، حتی أنّهم لا قدرة لهم علی الوقوف أحیانا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۷

و لهذه الکلمة معانی أخری أیضا، فمن جملتها أنّهم فسروا «جثیا» بمعنی جماعة جماعة، و بعضهم فسّرها بمعنی الکثرة و ازدحام بعضهم علی بعض کتراکم التراب و الحجارة، إلّا أنّ التّفسیر الأوّل هو الأنسب و الأشهر.

و لما کانت الأولویات تلاحظ فی تلک المحکمة العادلة، فإنّ الآیة التالیة تقول: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ کُلِّ شِیعَةٍ أَیُّهُمْ أَشَدُّ عَلَی الرَّحْمنِ عِتِیًّا [۳۱۶] و نبدأ بحسابهم أوّلا- فإنّهم عتوا عتوا نسوا معه کل مواهب اللّه الرحمان، و جنحوا إلی التمرد و العصیان و إظهار الوقاحة أمام ولی نعمتهم! أجل، إن هؤلاء أحق من الجمیع بالجحیم.

ثمّ تؤکّد علی هذا المعنی مرّة أخری فتقول: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِینَ هُمْ أَوْلی بِها صِلِیًّا فسنختار هؤلاء بدقة، و سوف لا یقع أی اشتباه فی هذا الإختیار.

(صلی) مصدر یعطی معنی إشعال النار و إیقادها، کما یعنی حرق الشیء بالنّار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۸

الآیتان [سورة مریم (۱۹): الآیات ۷۱ الی ۷۲]

اشارة

وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلَّا وارِدُها کانَ عَلی رَبِّکَ حَتْماً مَقْضِیًّا (۷۱) ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِینَ فِیها جِثِیًّا (۷۲)

التّفسیر

الجمیع یردون جهنم!

تستمر الآیات فی بحث خصائص القیامة و الثواب و العقاب، و أشارت فی البدایة إلی مسألة یثیر سماعها الحیرة و العجب لدی أغلب الناس، فتقول: وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلَّا وارِدُها کانَ عَلی رَبِّکَ حَتْماً مَقْضِیًّا فجمیع الناس سیدخلون جهنم بدون استثناء لأنّه أمر حتمی.

ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِینَ فِیها جِثِیًّا فنترکهم فیها جالسین علی الرکب من الضعف و الذّل.

و هناک بحث مفصل بین المفسّرین فی تفسیر هاتین الآیتین حول المراد من «الورود» فی جملة وَ إِنْ مِنْکُمْ إِلَّا وارِدُها.

فیری بعض المفسّرین أنّ «الورود» هنا بمعنی الاقتراب و الإشراف، أی إن جمیع الناس بدون استثناء- المحسن منهم و المسیء- یأتون إلی جانب جهنم للحساب، أو لمشاهدة مصیر المسیئین النهائی، ثمّ ینجی اللّه المتقین، و یدع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۹

الظالمین فیها. و قد استدل هؤلاء لدعم هذا التّفسیر بالآیة (۲۳) من سورة القصص: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْیَنَ .. حیث أن للورود هنا نفس المعنی.

و التّفسیر الثّانی الذی اختاره أکثر المفسّرین، هو أن الورود هنا بمعنی الدخول، و علی هذا الأساس فإنّ کل الناس بدون استثناء- محسنهم و مسیئهم- یدخلون جهنم، إلّا أنّها ستکون بردا و سلاما علی المحسنین، کحال نار نمرود علی إبراهیم یا نارُ کُونِی بَرْداً وَ سَلاماً عَلی إِبْراهِیمَ لأنّ النّار لیست من سنخ هؤلاء الصالحین، فقد تفر منهم و تبتعد عنهم، إلّا أنّها تناسب الجهنمیین فهم بالنسبة للجحیم کالمادة القابلة للاشتعال، فما أن تمسهم النار حتی یشتعلوا.

و بغض النظر عن فلسفة هذا العمل، و التی سنشرحها فیما بعد- إن شاء اللّه تعالی- فإنّ ممّا لا شک فی أنّ ظاهر الآیة یلائم و ینسجم مع التّفسیر الثانی، لأنّ المعنی الأصلی للورود هو الدخول، و غیره یحتاج إلی قرینة. إضافة إلی أن جملة ثُمَّ نُنَجِّی الَّذِینَ اتَّقَوْا و کذلک جملة وَ نَذَرُ الظَّالِمِینَ فِیها کلتاهما شاهدتان علی هذا المعنی. علاوة علی الرّوایات المتعددة الواصلة إلینا فی تفسیر الآیة التی تؤید هذا المعنی، و من جملتها:

روی عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری أنّ رجلا سأله عن هذه الآیة، فأشار جابر بإصبعیه إلی أذنیه و قال: صمتا إن لم أکن سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:

«الورود الدّخول، لا یبقی بر و لا فاجر إلّا یدخلها، فتکون علی المؤمنین بردا و سلاما کما کانت علی إبراهیم، حتی أن للنّار- أو قال لجهنم- ضجیجا من بردها، ثمّ ینجی اللّه الذین اتقوا و یذر الظالمین فیها جثیا»[۳۱۷].

و

فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «تقول النّار للمؤمن یوم القیامة: جز یا مؤمن، فقد أطفأ نورک لهبی»[۳۱۸]!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۰

و یستفاد هـذا المعنی أیضا من بعض الرّوایات الأخری. و کذلک التعبیر العمیق المعنی للصـراط، و الذی ورد فی روایات متعددهٔ بأنّه جسر علی جهنم، و أنّه أدق من الشعرهٔ و أحد من السیف، هذا التعبیر شاهد آخر علی هذا التّفسیر[۳۱۹].

أمّا ما یقوله البعض من أن الآیـهٔ (۱۰۱) من سورهٔ الأنبیاء: أُولئِکَ عَنْها مُبْعَدُونَ دلیل علی التّفسیر الأوّل، فلا یبـدو صـحیحا، لأن هذه الآیهٔ مرتبطهٔ بمحل إقامهٔ و مقر المؤمنین الدائمی، حتی أنّنا نقرأ فی الآیهٔ التالیهٔ لهذه الآیهٔ:

لا یَسْمَعُونَ حَسِیسَها فإذا کان الورود فی آیهٔ البحث بمعنی الاقتراب، فهی غیر مناسبهٔ لکلمهٔ مُبْعَدُونَ و لا لجملهٔ لا یَسْمَعُونَ حَسِیسَها.

جواب عن سؤال:

السؤال الوحید الذی یبقی هنا، هو: ما هی الحکمهٔ هذا العمل؟ و هل أن المؤمنین لا یرون أذی و لا عذابا من هذا العمل؟

إنّ الإجابهٔ علی هذا السؤال- التی وردت فی الرّوایات حول کلا الشقین- ستتضح بقلیل من الدقهٔ.

إنّ مشاهـدهٔ جهنم و عـذابها فی الحقیقـهٔ، سـتکون مقدمـهٔ لکی یلتـذ المؤمنون بنعم الجنـهٔ بأعلی مراتب اللذهٔ، لأن أحدا لا یعرف قدر العافیهٔ حتی یبتلی بمصیبهٔ (و بضدها تتمایز الأشیاء) فهناک لا یبتلی المؤمنون بمصیبهٔ، بل یشاهدون المصیبهٔ علی المسرح فقط، و کما قرأنا فی الرّوایات السابقهٔ، فإنّ النّار تصبح بردا و سلاما علی هؤلاء، و یطغی نورهم علی نورها و یخمده.

إضافهٔ إلی أنّ هؤلاء یمرون علی النار بکل سرعهٔ بحیث لا یری علیهم أدنی أثر، کما

روی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال فی حدیث: «یرد الناس ثمّ یصدون بأعمالهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۱

فأوّلهم کلمع البرق، ثمّ کمر الریح، ثمّ کحضر الفرس، ثمّ کالراکب، ثمّ کشد الرجل، ثمّ کمشیه»[۳۲۰].

و إذا تجاوزنا ذلک، فإنّ أهل النّار أیضا سیلقون عذابا أشد من رؤیهٔ هذا المشهد، و أن أهل الجنّهٔ یمرون بتلک السـرعهٔ و هم یبقون فی النّار، و بهذا سیتّضح جواب کلا السؤالین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۲

الآیات [سورهٔ مریم (۱۹): الآیات ۷۳ الی ۷۶]

اشارهٔ

وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا أَیُّ الْفَرِیقَیْنِ خَیْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِیًّا (۷۳) وَ کَمْ أَهْلَکْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْیاً (۷۴) قُلْ مَنْ کانَ فِی الضَّلالَهِٔ فَلْیَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّی إِذا رَأَوْا ما یُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَهَٔ فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَکاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (۷۵) وَ یَزِیدُ اللَّهُ الَّذِینَ اهْتَدَوْا هُدیً وَ الْباقِیاتُ الصَّالِحاتُ خَیْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَواباً وَ خَیْرٌ مَرَدًّا (۷۶)

التّفسیر

هـذه الآیـات تتابع مـا مر فی الآیـات السابقـهٔ فی الحـدیث عن الظـالمین الـذین لاـ إیمان لهم، و تتعرض لجانب آخر من منطق هؤلاء الظالمین و مصیرهم.

و من المعلوم أنّ أوّل جماعة آمنت بالرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانوا من المستضعفین الطاهری القلوب، و الذین خلت أیدیهم من مال الدنیا و مغریاتها ..

هؤلاء المحرومون هم الذین جاءت الأدیان الإلهیة من أجل إنقاذهم من قبضة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۳

الظالمین الجائرین بلال و سلمان، و عمار، و خباب، و سمیة، و أمثالهم مصادیق بارزة لهؤلاء المؤمنین المظلومین.

و لما کان المعیار فی المجتمع الجاهلی فی ذلک الزمان- و کذا فی کل مجتمع جاهلی آخر- هو الذهب و الزینة و المال و المقام و المنصب و الهیئة الظاهریة، فکان الأثریاء الظالمون، کالنضر بن الحارث و أمثاله یفتخرون علی المؤمنین الفقراء بذلک و یقولون: إنّ علامة شخصیتنا معنا، و علامة عدم شخصیتکم فقرکم و محرومیتکم، و هذا بنفسه دلیل علی أحقیتنا و باطلکم! کما یقول القرآن الکریم فی أول آیه من الآیات مورد البحث: وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا أَیُّ الْفَرِیقَیْنِ خَیْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِیًّا.

خاصّة و أنّنا نقرأ فی الرّوایات الإسلامیة أن هؤلاء الأشراف المترفین کانوا یلبسون أجمل ملابسهم، و یتزینون بأبهی زینة، و یتبخترون أمام أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و کانوا ینظرون إلیهم نظرة تحقیر و استهزاء .. نعم، هذه طریقة هذه الطبقة فی کل عصر و زمان.

«الندیّ» أخذت فی الأصل من (الندی) أی الرطوبة، ثمّ جاءت بمعنی الأفراد الفصحاء و الخطباء، لأن أحد شروط القدرة علی التکلم امتلاک القدر الکافی من اللعاب، و لذلک فإن (ندیّ) تعنی المجالسة و التحدث، بل یقال للمجلس الذی یجتمعون فیه للأنس و السمر، أو یجلسون فیه للتشاور: نادی، و من هذا أخذت (دار الندوة) و هی المحل الذی کان فی مکّة، و کان یجتمع فیه زعماؤها للتشاور.

و قد یعبر عن السخاء و البذل و العطاء ب (الندی)[۳۲۱] و هذه الآیة یمکن أن تکون إشارة إلی کل هذه المعانی، أی: إنّ مجلس أنسنا أجمل من مجلسکم، و إن مالنا و ثروتنا و زینتنا و لباسنا أبهی و أروع، و إن کلامنا و أشعارنا الفصیحة و البلیغة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۴

أبلغ و أحسن! إلّا أنّ القرآن الکریم یجیب هؤلاء بجواب منطقی و مستدل تماما، و فی الوقت نفسه قاطع و مفحم، فیقول: کأن هؤلاء قد نسوا تاریخ البشر، و لم ینظروا کم دمرنا من الأقوام السابقین عند تمردهم و عصیانهم: وَ کَمْ أَهْلَکْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْیاً[۳۲۲] فهل استطاعت أموالهم و ثروتهم، و مجالسهم الفاسقة، و ملابسهم الفاخرة، و صورهم الجمیلة أن تمنع العذاب الإلهی و تقف أمامه؟ و إذا کانت هذه الأمور دلیلا علی شخصیتهم و منزلتهم عند اللّه، فلما ذا ابتلوا بهذا المصیر المشؤوم؟

إنّ زخارف الدنیا و بهارجها متزلزلة إلی حدّ أنّها تتلاشی و تزول بمجرّد أن یهب علیها أدنی نسیم هادئ.

«القرن»- کما قلنا سابقا فی ما مرّ فی ذیل الآیة (۶) من سورة الأنعام- تعنی عادة الزمان الطویل، لکن لما کانت قد أخذت من مادة الاقتران، أی الاقتراب، فإنّها تقال أیضا للقوم و الأناس المجتمعین فی زمان واحد.

ثمّ تحذرهم تحذیرا آخر، بأن لا تظنوا أیّها الظالمون الکافرون أنّ مالکم و ثروتکم هذه رحمة، بل کثیرا ما تکون دلیلا علی العذاب الإلهی: قُلْ مَنْ کانَ فِی الضَّلالَةِ فَلْیَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا. حَتَّی إِذا رَأَوْا ما یُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ إی إمّا العذاب فی هذه الدنیا، و إمّا عذاب الآخرة فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَکاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً.

فی الحقیقة، إنّ مثل هؤلاء الأفراد الذین لا یمکن هدایتهم (و الملاحظ أن القرآن یقول: مَنْ کانَ فِی الضَّلالَةِ و هو إشارة إلی الاستمرار فی الضلال) من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۵

أجل أن یروا العقاب الإلهی الشدید، فإنّ اللّه سبحانه یجعلهم أحیانا یغوصون و یغرقون فی النعم لتصبح سببا لغرورهم، کما تکون سببا لنزول العـذاب علیهم، فإنّ سـلب النعم عنهم حینئـذ سیجعل لوعة العذاب أشد. و هذا هو ما ذکر فی بعض آیات القرآن بعنوان عقاب «الاستدراج»[۳۲۳].

جملة فَلْیَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا و إن کانت بصیغة الأمر، إلّا أنّها بمعنی الخبر، فمعناها: إنّ اللّه یمهل هؤلاء و یدیهم علیهم النعم.

و قد فسرها بعض المفسّرین بنفس معنی الأمر أیضا، و أنّه یعنی هنا اللعنة، أو وجوب مثل هذا العمل و المعاملة علی اللّه. إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یبدو هو الأقرب.

و کلمـة (العـذاب) بقرینة وقوعها فی مقابل (الساعة) فإنّها إشارة إلی العقوبات الإلهیة فی عالم الدنیا، عقوبات کطوفان نوح، و الزلزلة، و الحجـارة السـماویة التی نزلت علی قوم لوط. أو العقوبات التی أصـیبوا بها علی یـد المؤمنین و المقاتلین فی جبهات الحق، کما نقرأ فی الآیة (۱۴) من سورة التوبة: قاتِلُوهُمْ یُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَیْدِیکُمْ

«الساعة» هنا إمّا بمعنی نهایة الدنیا، أو العذاب الإلهی فی القیامة. و یبدو لنا أن المعنی الثّانی هو الأنسب.

هـذه عاقبـة و مصیر الظالمین المخـدوعین بزخرف الدنیا و زبرجها، أمّا أولئک الذین آمنوا و اهتدوا، فإنّ اللّه یزیدهم هدی و إیمانا وَ یَزِیدُ اللَّهُ الَّذِینَ اهْتَدَوْا هُدیً

من البـدیهی أن للهدایة درجات، فإذا طوی الإنسان درجاتها الأولی فإنّ اللّه یأخذه بیده و یرفعه إلی درجات أعلی، و کما أنّ الشـجرة المثمرة تقطع کل یوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۶

مرحلة جدیدة إلی التکامل و الإیناع، فکذلک المهتدون یرتقون کل یوم مراق أعلی فی ظل الإیمان و الأعمال الصالحة التی یعملونها.

و فی النهایة تجیب الآیة هؤلاء الذین اعتمدوا علی زینة الدنیا السریعة الزوال، و جعلوها وسیلة للتفاخر علی الآخرین، فتقول: وَ الْباقِیاتُ الصَّالِحاتُ خَیْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَواباً وَ خَیْرٌ مَرَدًّا[۳۲۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۷

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۷۷ الی ۸۲]

اشارة

أ فَرَأَیْتَ الَّذِی کَفَرَ بِآیاتِنـا وَ قالَ لَأُوتَیَنَّ مالاً وَ وَلَداً (۷۷) أَطَّلَعَ الْغَیْبَ أَمِ اتَّخَـذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (۷۸) کَلاَّ سَنَکْتُبُ ما یَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (۷۹) وَ نَرِثُهُ ما یَقُولُ وَ یَأْتِینا فَرْداً (۸۰) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِیَکُونُوا لَهُمْ عِزًّا (۸۱)
کَلاَّ سَیَکْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ یَکُونُونَ عَلَیْهِمْ ضِدًّا (۸۲)

التّفسیر

تفکیر خرافی و منحرف:

یعتقد بعض الناس أنّ الإیمان و الطهارة و التقوی لا تناسـبهم، و أنّها السبب فی أن تدبر الدنیا عنهم، أمّا إذا خرجوا من دائرة الإیمان و التقوی فإنّ الـدنیا سـتقبل علیهم، و تزیـد ثروتهم و أموالهم! إنّ هذا النوع من التفکیر، سواء کان نابعا من البساطة و اتباع الخرافات، أو أنّه غطاء و تستّر للفرار من تحمل المسؤولیات و التعهدات الإلهیة، فهو تفکیر خاطئ و خطیر.

لقد رأینا عبدة الأوهام هؤلاء یجعلون أحیانا من کثرة أموال و ثروات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۸

الأفراد غیر المؤمنین، و فقر و حرمان جماعة من المؤمنین، دلیلا لإثبات هذه الخرفة، فی حین أنّه لا الأموال التی تصل إلی الإنسان عن طریق الظلم و الکفر و ترک أسس التقوی تبعث علی الفخر، و لا الإیمان و التقوی یکونان سدا و مانعا فی طریق النشاطات المشروعة و المباحة مطلقا.

علی کل حال، فقد کان فی عصر النّبی- و کذلک فی عصرنا- أفراد جاهلون یظنون هذه الظنون و الأوهام، أو کانوا یتظاهرون بها علی الأقل، فیتحدث القرآن- کمواصلة للبحث الذی بیّنه سابقا حول مصیر الکفار و الظالمین- فی الآیات مورد البحث عن طریقة التفکیر هذه و عاقبتها، فیقول فی أوّل آیة من هذه الآیات:

أَ فَرَأَیْتَ الَّذِی کَفَرَ بِآیاتِنا وَ قالَ لَأُوتَیَنَّ مالًا وَ وَلَداً[۳۲۵].

ثمّ یجیبهم القرآن الکریم: أَطَّلَعَ الْغَیْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً فإنّ الذی یستطیع أن یتکهن بمثل هذا التکهن، و یقول بوجود علاقة بین الکفر و الغنی و امتلاک الأموال و الأولاد، مطلّع علی الغیب، لأنا لا نری أیّ علاقة بین هاتین المسألتین، أو یکون قد أخذ عهدا من اللّه سبحانه، و هذا الکلام أیضا لا معنی له.

ثمّ یضیف بلهجة حادة: إنّ الأمر لیس کذلک، و لا یمکن أن یکون الکفر أساسا لزیادة مال و ولد أحد مطلقا: کَلَّا سَنَکْتُبُ ما یَقُولُ أجل، فإنّ هذا الکلام الذی لا أساس له قد یکون سببا فی انحراف بعض البسطاء، و سیثبت کل ذلک فی صحیفة أعمال هؤلاء وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا.

هذه الجملة قد تکون إشارة إلی العذاب المستمر الخالد، کما یحتمل أیضا أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۹

تکون إشارة إلی العقوبات التی تحیط بهم فی هذه الدنیا نتیجة للکفر و عدم الإیمان. و یحتمل أیضا أنّ هذه الأموال و الأولاد التی هی أساس الغرور و الضلال هی بنفسها عذاب مستمر لهؤلاء! وَ نَرِثُهُ ما یَقُولُ من الأموال و الأولاد وَ یَأْتِینا فَرْداً.

نعم، إنّه سیترک فی النهایة کل هذه الإمکانیات و الأملاک المادیة و یرحل، و یحضر فی محکمة العدل الإلهیة بأید خالیة، و فی الوقت الذی اسودت فیه صحیفة أعماله من الذنوب و المعاصی، و خلت من الحسنات .. هناک، حیث یری نتیجة أقواله الجوفاء فی دار الدنیا.

و تشیر الآیة التالیة إلی علّة أخری فی عبادة هؤلاء الأفراد للأصنام، فتقول:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِیَکُونُوا لَهُمْ عِزًّا و لیشفعوا لهم عند اللّه، و یعینوهم فی حل مشاکلهم، لکن، أی ظن خاطئ و خیال ساذج هذا؟! لیس الأمر کما یظن هؤلاء أبدا، فلیست الأصنام سوف لا تکون لهم عزّا و حسب، بل ستکون منبعا لذلتهم و عذابهم، و لهذا فإنّهم سوف ینکرون عبادتهم لها فی یوم القیامة: کَلَّا سَیَکْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ یَکُونُونَ عَلَیْهِمْ ضِدًّا.

إن هذه الجملة إشارة إلی نفس ذلک المطلب الذی نقرؤه فی الآیة (۱۴) من سورة فاطر: وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما یَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِیرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا یَسْمَعُوا دُعاءَکُمْ ... وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ یَکْفُرُونَ بِشِرْکِکُمْ و کذلک ما نلاحظه فی الآیة (۶) من سورة الأحقاف: وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ کانُوا لَهُمْ أَعْداءً.

و قد احتمل بعض کبار المفسّرین أن المراد من الآیة: إنّ عبدة الأصنام عند ما ترفع الحجب فی القیامة، و تتضح کل الحقائق، و یرون أنفسهم قد فضحوا و خزوا، فإنّهم ینکرون عبادة الأصنام، و سیقفون ضدها، کما نقرأ ذلک فی الآیة (۲۳) من سورة الأنعام: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما کُنَّا مُشْرِکِینَ

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أنسب مع ظاهر الآیة، لأن عبّاد الأصنام کانوا یریدون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۰

أن تکون آلهتهم و معبوداتهم عزّا لهم، إلّا أنّهم یصبحون ضدها فی النهایة.

و من الطبیعی أن تکلم المعبودات التی لها عقل و إدراک کالملائکة و الشیاطین و الجن واضح و معلوم، إلّا أنّ الآلهة المیتة التی لا روح لها، من الممکن أن تتکلم بإذن اللّه و تعلن تنفرها و اشمئزازها من عبدتها و من الممکن أن یستفاد هذا التّفسیر من

حدیث مروی عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث قال فی تفسیر هذه الآیة: یکون هؤلاء الذین اتخذوهم آلهة من دون الله ضدا یوم القیامة و یتبرءون منهم و من عبادتهم إلی یوم القیامة.

و الجمیل فی الأمر أننا نقرأ فی ذیل الحدیث جملة قصیرة عمیقة المحتوی حول العبادة: لیس العبادة هی السجود و لا الرکوع، و إنّما هی طاعة الرجال، من أطاع مخلوقا فی معصیة الخالق فقد عبده»[۳۲۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۱

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۸۳ الی ۸۷]

اشارة

أ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّیاطِینَ عَلَی الْکافِرِینَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (۸۳) فَلا تَعْجَلْ عَلَیْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (۸۴) یَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِینَ إِلَی الرَّحْمنِ وَفْداً (۸۵) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِینَ إِلی جَهَنَّمَ وِرْداً (۸۶) لا یَمْلِکُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (۸۷)

التّفسیر

من هم الذین لهم أهلیة الشفاعة؟

بملاحظة البحث فی الآیات السابقة الذی کان حول المشرکین، فإنّ البحث فی هذه الآیات، إشارة إلی بعض علل انحراف هؤلاء، ثمّ تبیّن الآیات فی النهایة عاقبتهم المشؤومة، و تثبت هذه الحقیقة، و هی أنّ هذه الآلهة لم تکن سبب عزتهم بل أصبحت سبب ذلهم و شقائهم، فتقول أولا: أ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّیاطِینَ عَلَی الْکافِرِینَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا.

«الأزّ» فی الأصل- کما یقول الراغب فی المفردات- یعنی غلیان القدر، و تقلب محتواه عند شدة غلیانه، و هو هنا کنایة عن مدی تسلط الشیاطین علی هؤلاء، بحیث أنّهم یوجهونهم بالصورة التی یریدونها، و فی المسیر الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۲

یشاءون، و یقلبونهم کیف یشتهون! و من البدیهی- کما قلنا ذلک مرارا- أن تسلّط الشیاطین علی بنی آدم لیس تسلطا إجباریا، بل إنّ الإنسان الذی یسمح للشیاطین بالنفوذ إلی قلبه و روحه، هو الذی یطوق رقبته بقید العبودیة لهم، و یقبل بطاعتهم، کما یقول القرآن فی الآیة (۱۰۰) من سورة النحل: إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَی الَّذِینَ یَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِینَ هُمْ بِهِ مُشْرِکُونَ

ثمّ یوجه القرآن المجید الخطاب إلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیقول: فَلا تَعْجَلْ عَلَیْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا و سنسجل کل شیء لذلک الیوم الذی تشکل فیه محکمة العدل الإلهی.

و هناک احتمال آخر فی تفسیر الآیة، و هو أنّ المراد من عدّ أیّام عمر- بل أنفاس- هؤلاء، أنّ مدّة بقائهم قصیرة و داخلة تحت إمکان الحساب و العد، لأنّ حساب الشیء و عدّه کنایة عادة عن قلته و قصره.

و نقرأ

فی روایة عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا أنّه سأل أحد أصحابه، قال: «ما هو عندک؟» قال: عدد الأیّام، قال: «إنّ الآباء و الأمهات یحصون ذلک، و لکنه عدد الأنفاس»[۳۲۷].

إنّ تعبیر الإمام هذا یمکن أن یکون إشارة إلی التّفسیر الأوّل، أو إلی التّفسیر الثّانی، أو إلی کلا التّفسیرین.

و علی کل حال، فإنّ دقة محتوی هذه الآیة یهز الإنسان، لأنّها تثبت أن کل شیء- حتی أنفاسنا- خاضعة للحساب و العد، و یجب أن نجیب یوما علی کل هذه الأشیاء و الأعمال.

ثمّ تبیّن المسیر النهائی للمتقین و المجرمین فی عبارات موجزة، فتقول: إنّ کل هذه الأعمال جمعناها و ادخرناها له: یَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِینَ إِلَی الرَّحْمنِ وَفْداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۳

«الوفد»- علی وزن وعد- فی الأصل بمعنی الجماعة الذین یذهبون إلی الکبار لحل مشاکلهم، و یکونون مورد احترام و تقدیر، و علی هذا فإنّ الکلمة تتضمن معنی الاحترام و التکریم، و ربّما کان ما نقرؤه فی بعض الرّوایات من أن المتقین یرکبون مراکب سریعة السیر، و یدخلون الجنة باحترام بالغ، لهذا السبب.

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «سأل علی علیه السّلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن تفسیر قوله عزّ و جلّ: یَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِینَ إِلَی الرَّحْمنِ وَفْداً فقال: یا علی، الوفد لا یکون إلا رکبانا، أولئک رجال اتقوا اللّه عزّ و جلّ، فأحبّهم و اختصهم و رضی أعمالهم فسمّاهم المتقین»[۳۲۸].

الملفت للنظر أنّنا نقرأ فی الآیة: أنّ المتقین یحشرون إلی الرحمن، فی حین أنّ الکلام فی الآیة التالیة عن سوق المجرمین إلی جهنم، و علی هذا ألم یکن من المناسب أن یقال: (الجنة) هنا بدل (الرحمن)؟

إلّا أنّ هذا التعبیر- فی الحقیقة- یشیر إلی نکتة مهمة، و هی أن المتقین یحصلون هناک علی ما هو أسمی من الجنّة، فهم یقتربون من اللّه و تجلیاته الخالصة، و یدرکون رضاه الذی هو أسمی و أغلی من الجنّة. و تعبیرات الحدیث الذی قرأناه من قبل عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تشیر إلی هذا المعنی أیضا.

ثمّ تقول فی المقابل: وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِینَ إِلی جَهَنَّمَ وِرْداً کما تساق الإبل العطشی إلی محل الماء، إلّا أنّه لا ماء هناک، بل نار جهنم.

ینبغی الالتفات إلی أن کلمة (ورد) تعنی مجموعة من البشر أو الحیوانات التی ترد المیاه، و لما کان هؤلاء الجماعة عطاشی حتما، فإن المفسّرین فسروا هذا التعبیر هنا بأنّهم یردونها عطاشی.

کم هو الفرق بین أولئک الذین یذهبون بهم إلی الرحمن بکل عزة و احترام، تهب الملائکة لاستقبالهم، و یحیوهم بالسلام، و بین أولئک الذین یساقون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۴

کالحیوانات العطشی إلی نار جهنم، و هم مطأطئو الرؤوس، خجلون، مفتضحون و لا أهمیة و لا قیمة لهم.

و إذا کانوا یتصورون أنّهم یستطیعون الخلاص عن طریق الشفاعة، فإنّهم یجب أن یعلموا أن هؤلاء الذین یرجونهم لا یَمْلِکُونَ الشَّفاعَةَ فلا أحد یشفع لهؤلاء، فمن طریق أولی أن لا یقدروا علی الشفاعة لأحد إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً فهؤلاء هم الوحیدون الذین تنفعهم و تشملهم شفاعة الشافعین، أو أن مقامهم أعلی من هذه الرتبة أیضا، و لهم القدرة و الصلاحیة لأن یشفعوا للعاصین الذین یستحقون الشفاعة.

ما معنی العهد؟

لقد بحث المفسّرون بحوثا کثیرة فی المراد من العهد فی الآیة الشریفة التی تقول: لا یَمْلِکُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً.
فقال بعضهم: إنّ العهد هو الإیمان باللّه، و الإقرار بوحدانیته، و تصدیق أنبیاء اللّه.
و قال البعض الآخر: إنّ العهد هنا یعنی الشهادة بوحدانیة الحق تعالی، و البراءة ممن یعتقد بقدرة غیر اللّه، و کذلک لا یرجو الا اللّه تعالی.

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال فی جواب سؤال أحد أصحابه عن تفسیر هذه الآیة: «من دان بولایة أمیر المؤمنین و الأئمّة من بعده فهو العهد عند اللّه»[۳۲۹].

و

فی روایة أخری عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من أدخل علی مؤمن سرورا فقد سرنی، و من سرنی فقد اتّخذ عند اللّه عهدا»[۳۳۰].

و

فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ المحافظة علی العهد هی المحافظة

علی الصلوات الخمس ۳۳۱].
و من تحقیق الرّوایات أعلاه، و التی وردت فی المصادر الإسلامیة المختلفة، و کذلک کلمات کبار المفسّرین المسلمین، نحصل علی هذه النتیجة، و هی أن للعهد عند اللّه- کما یستفاد ذلک من معناه اللغوی- معنی واسعا جمع فیه کل نوع من أنواع الارتباط باللّه و معرفته و طاعته، و کذلک الارتباط بمذهب أولیاء الحق، و کل عمل صالح، و إن کان کل روایة قد أشارت إلی جانب من ذلک، أو إلی مصداق معین.
و لذلک نقرأ فی حدیث آخر ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی بیان کیفیة الوصیة، و قد جمعت فیه کل المسائل الاعتقادیة تقریبا، حیث
قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إذا حضرته- أی المسلم- الوفاة و اجتمع الناس إلیه قال: اللهم فاطر السماوات و الأرض، عالم الغیب و الشهادة، الرحمن الرحیم، إنی أعهد إلیک فی دار الدنیا، أنی أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدک لا شریک لک، و أن محمّدا عبدک و رسولک، و أن الجنة حق، و أن النار حق، و أن البعث حق، و الحساب حق، و القدر و المیزان حق، و أن الدین کما وصفت، و الإسلام کما شرعت، و أن القول کما حدثت، و أن القرآن کما أنزلت، و أنک أنت اللّه الحق المبین. جزی اللّه محمّدا عنا خیر الجزاء، و حیا اللّه محمّدا و آله بالسلام.
اللهم یا عدتی عند کربتی، و یا صاحبی عند شدتی، و یا ولی نعمتی، إلهی و إله آبائی، لا تکلنی إلی نفسی طرفة عین، فإنّک إن تکلنی إلی نفسی أقرب من الشر، و أبعد من الخیر. و آنس فی القبر وحشتی، و اجعل لی عهدا یوم ألقاک منشورا. ثمّ یوصی بحاجته.
و تصدیق هذه الوصیة فی سورة مریم فی قوله:

لا یَمْلِکُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً، فهذا عهد المیت و الوصیة حق ...»[۳۳۲].
و من البدیهی أنّ المراد لیس هو قراءة أو کتابة هذه المطالب المذکورة أعلاه بالعربیة أو بغیرها من اللغات، بل المراد الإیمان بها من

صمیم القلب لتبدو آثاره واضحة فی كل نشاطات حیاة الإنسان.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۵۰۷

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۸۸ الى ۹۵]

اشارة

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (۸۸) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (۸۹) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (۹۰) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (۹۱) وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (۹۲)

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (۹۳) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (۹۴) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (۹۵)

التّفسير

لما كان الكلام فی الآیات السابقة عن الشرك، و عاقبة عمل المشركین، فقد أشارت هذه الآیات فی نهایة البحث إلی فرع من فروع الشرك، أی الاعتقاد بوجود ولد للّه سبحانه، و تبیّن مرّة أخری قبح هذا الكلام بأشد و أحدّ بیان، فتقول:

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً فلیس المسیحیون لوحدهم كانوا یعتقدون بأنّ «المسیح» هو الابن الحقیقة للّه سبحانه، بل إن الیهود كانوا یعتقدون أیضا مثل هذا الإعتقاد فی (عزیر)، و كذلك عبدة الأصنام فی (الملائكة) فكانوا یظنون أنها

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۵۰۸

بنات اللّه ۳۳۳].

عند ذلك قالت الآیة بلهجة شدیدة: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا و الإدّ- علی وزن ضد- معناه فی الأصل الصوت القبیح المضطرب الذی یصل الأذن نتیجة الاضطراب الشدید للأمواج الصوتیة فی حنجرة البعیر، ثمّ أطلق علی الأعمال القبیحة و الموحشة جدا.

و لما كانت مثل هذه النسبة غیر الصحیحة مخالفة لأصل التوحید- لأنّ اللّه سبحانه لا شبیه له و لا مثیل، و لا حاجة له إلی الولد، و لا هو جسم و لا تعرض علیه العوارض الجسمیة- فكأنّ كل عالم الوجود، الذی بنی علی أساس التوحید، قد اضطرب و تصدع إثر هذه النسبة الكاذبة، و لذلك تضیف الآیة التالیة:

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا! و من أجل تأكید و بیان أهمیة الموضوع فإنّها تقول: إن كل ذلك من أجل أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً.

إنّ هؤلاء- فی الحقیقة- لم یعرفوا اللّه قط، لأنّه: وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً فإنّ الإنسان یطلب الولد لواحد من عدّة أشیاء:

إمّا لأنّ عمره ینتهی فیحتاج لولد مثله یحمل صفاته لیبقی نسله و ذكره.

أو لأنّه یطلب الصدیق و الرفیق لأنّ قوته محدودة.

أو لأنّه یستوحش من الوحدة، فیبحث عن مؤنس لوحدته.

أو لأنّه یحتاج عند كبره و عجزه إلی مساعد و معین شاب.

لكن أیّا من هذه المعانی لا ینطبق علی اللّه سبحانه، و لا یصح، فلا قدرته محدودة، و لا حیاته تنتهی، و لا یعتریه الضعف و الوهن، و لا یحس بالوحدة و الحاجة، إضافة إلی أن امتلاك الولد دلیل علی الجسمیة، و وجود الزوجة، و كل

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج‌۹، ص: ۵۰۹

هذه المعانی بعیدة عن ذاته المقدسة. و لذلك قالت الآیة الأخری: إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً، فمع أن

کل العباد مطیعون له، و قد وضعوا أرواحهم و قلوبهم علی الأکف طاعة لأمره، فهو غیر محتاج لطاعتهم، بل هم المحتاجون.
ثمّ تقول الآیة التالیة: لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا أی لا تتصور بأنّ محاسبة کل هؤلاء العباد غیر ممکن، و عسیر علیه سبحانه، فإنّ علمه واسع إلی الحد الذی لیس یحصی عدد هؤلاء و حسب، بل إنّه عالم و مطلع علی کل خصوصیاتهم، فلا هم یستطیعون الفرار من حکومته، و لا یخفی علیه شیء من أعمالهم.
وَ کُلُّهُمْ آتِیهِ یَوْمَ الْقِیامَةِ فَرْداً و بناء علی هذا فإنّ المسیح و عزیر و الملائکة و کل البشر یشملهم حکمه و لا یستثنی منه أحد، و مع هذه الحال فما أقبح أن نعتقد و نقول بوجود ولد له، و کم ننقص من قدر ذاته المقدسة و ننزلها من أوج العظمة و قمتها، و ننکر صفاته الجلالیة و الجمالیة حینما ندعی أن له ولدا[۳۳۴]

ملاحظتان

۱- إلی الآن یظنون أنّه ابن اللّه!

إنّ ما قرأناه فی الآیات السابقة ینفی الولد عن اللّه بکل جزم و قطع، و إنّ هذه الآیات مرتبطة بزمان مرّ علیه أربعة عشر قرنا، فی حین أنّنا لا نزال نری الیوم کثیرا من المسیحیین- و نحن فی عصر العلم- یعتقدون أنّ المسیح ابن اللّه، لا بنوة مجازیة، بل هو الابن الحقیقی! و إذا ما ذکر فی بعض الکتابات التی لها صفة التبشیر، و کتبت بصورة خاصّة للأوساط الإسلامیة، إن هذا الابن ابن مجازی،
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۰
فإنّه لا یناسب و لا یوافق المتون الأصلیة لکتبهم الاعتقادیة بأی وجه من الوجوه.
و لا ینحصر هذا الأمر فی کون المسیح علیه السّلام أبنا، فإنّهم فیما یتعلق بمسألة التثلیث التی تعنی الأرباب الثلاثة (هی جزء من الإعتقادات الأساسیة لهم) و لما کان المسلمون یتنفرون من هذا الکلام الممتزج بالشرک، غیرّوا نبرتهم فی الأوساط الإسلامیة، و وجهوا کلامهم بأنّه نوع من التشبیه و المجاز. و من أجل زیادة التوضیح راجع قاموس الکتاب المقدس فی شأن المسیح و الأقانیم الثلاثة.

۲- کیف تفنی السماوات و تتلاشی؟

ما قرأناه فی الآیة: تَکادُ السَّماواتُ یَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا إمّا أن یکون إشارة إلی أن مجموعة عالم الوجود- علی أساس مفاهیم القرآن المجید- تمتلک نوعا من الحیاة و الإدراک و الشعور، و الآیات، کالآیة (۷۴) من سورة البقرة: وَ إِنَّ مِنْها لَما یَهْبِطُ مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ و الآیة (۲۱) من سورة الحشر: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلی جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ شاهدة علی ذلک، فیکون المراد أنّ هذه النسبة غیر الصحیحة إلی الساحة الإلهیة المقدسة، قد أرعبت و أقلقت کل العالم.
أو أن یکون کنایة عن شدة قبح هذا القول، و نظائر هذه الکنایة لیست قلیلة فی لسان العرب، و سنبحث- إن شاء اللّه تعالی- عن ذلک فی ذیل الآیات المناسبة.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۱

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۹۶ الی ۹۸]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (۹۶) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (۹۷) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (۹۸)

التّفسير

الإيمان و المحبوبية:

هـذه الآيـات الثلاـث نهايـة سورة مريم، و الكلاـم فيهـا أيضا عن المؤمنين، و الظالمين الكافرين، و عن القرآن و بشاراته و انـذاراته، و هی- فی الحقيقة- عصارة البحوث السابقة بملاحظات و نكات جديدة.

تقول أوّلا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا.

لقد اعتبر بعض المفسّرين هذه الآية خاصّة بأمير المؤمنين عليه السّلام، و البعض اعتبرها شاملة لكل المؤمنين.

و قال آخرون: إنّ المراد أنّ اللّه سبحانه يلقی محبّـة هؤلاء فی قلوب أعـدائهم، و تصبح هـذه المحبّة رباطا و لجاما فی رقابهم تجرهم إلی الإيمان.

و ذهب البعض بأنّها تعنی محبة المؤمنين بعضهم لبعض، و التی تكون سببا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۲

فی قوتهم و زيادة قدرتهم، و وحدة كلمتهم.

و اعتبرهـا بعضـهم إشـارة إلی محبّـة المؤمنين و إخوتهم لبعضـهم فی الآـخرة، و قالوا: بأنّ هؤلاء سـيعيشون نوعا من العلاقـة فيما بينهم بحيث يكونون فی أعلی درجات السعادة و السرور.

غير أننا إذا فكرنا و تـدبرنا بسعة نظر فی المفاهيم الواسعة للآيـة، فسنری أن جميع هـذه التفاسير قـد جمعت فی معنی الآية بدون أن تتضاد مع بعضها.

و النقطـة الرئيسـية للآيـة، هی أنّ للإيمان و العمل الصالـح جاذبيـة خارقة، فإنّ الإعتقاد بوحدانية اللّه، و الإيمان بدعوة الأنبياء، و الذی يتجلی نوره فی روح الإنسان و فكره، و قوله و عمله، بصورة أخلاق إنسانيـة عالية، و كذلك يتجلی فی التقوی و الطهارة، و الصدق و الأمانة، و الشجاعة و الإيثار، فيها قوة مغناطيسية عظيمة جاذبة و خاطفة.

و حتی الأـفراد الملوثون، فإنّهم يرتاحون للطاهرين الصالحين، و يتنفرون من القـذرين أمثالهم، و لـذلك فإنا نراهـم- مثلا- إذا أقـدموا علی الزواج فإنّهم يؤكّدون علی توفر جانب العفة و الطاهرة و الأمانة و الصدق فی الزوجة.

و هذا أمر طبيعی، و هو فی الحقيقة أوّل مكافأة يعطيها اللّه للمؤمنين و الصالحين فی هذه الدنيا و تصحبهم إلی عالم الآخرة أيضا.

لقـد رأينـا بـأم أعيننا كثيرا من هؤلاء الأتقياء عنـد ما يحين أجلهم و يرتحلون عن هـذه الـدنيا، فإنّ الناس يبكونهم، بالرغم من أنّهم لم يكن لهم منصب و لا مركز اجتماعی، و لكن الناس يشعرون بفقدهم، و يعتبرون أنفسهم شركاء فی مصاب هؤلاء و عزائهم.

أمّا ما اعتقـده البعض من أنّ ذلك فی شأن أمير المؤمنين عليه السّـلام، و قـد أشـير إلی ذلك فی روايات عديدة، فإنّ الدرجة العالية و المرحلة السامية منه مختصة بإمام المتقين- و سنبحث بعض هذه الرّوايات مفصلا فی الملاحظات الآتية- إلّا أنّ هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۳

لا يكون مانعا من أن يـذوق و يتمتع كل المؤمنون و الصالحون فی المراتب الأخری بطعم المحبّـة هذا، و يحظون به لدی عامّة الناس،

و أن یفوزوا بسهم من هذه المودّهٔ الإلهیهٔ. و سوف لا یکون مانعا من أن یضمر الأعداء- أیضا- فی داخلهم المحبّهٔ و الاحترام تجاه هؤلاء.

و هناک نکتهٔ لطیفهٔ نقرؤها

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ اللّه إذا أحبّ عبدا دعا جبرئیل، فقال: یا جبرئیل، إنّی أحب فلانا فأحبّه، قال: فیحبّه جبرئیل، ثمّ ینادی فی أهل السماء: إن اللّه یحب فلانا فأحبّوه، قال: فیحبّه أهل السماء، ثمّ یوضع له القبول فی الأرض.

و إن اللّه إذا أبغض عبدا دعا جبرئیل، فقال: یا جبرئیل، إنّی أبغض فلانا فابغضه، قال: فیبغضه جبرئیل، ثمّ ینادی فی أهل السماء: إنّ اللّه یبغض فلانا فأبغضوه، قال:

فیبغضه أهل السماء، ثمّ یوضع له البغضاء فی الأرض»[۳۳۵].

إنّ هذا الحدیث العمیق المحتوی یبیّن أن للإیمان و العمل الصالح نورا و ضیاء بسعهٔ عالم الوجود، و یعم نور المحبهٔ الحاصل منهما کل أرجاء عالم الخلقهٔ، و إن الذات الإلهیهٔ المقدسهٔ تحب أمثال هذا الفرد، فهم محبوبون عن کل أهل السماء، و تقذف هذه المحبّهٔ فی قلوب أهل الأرض.

حقا، أی لذهٔ أکبر من أن یحس الإنسان بأنّه محبوب من قبل کل الطاهرین و الصالحین فی عالم الوجود؟ و أی عذاب أشد من أن یشعر الإنسان بأن الأرض و السماء و الملائکهٔ و المؤمنین جمیعا متنفرون و مشمئزون منه؟! ثمّ تشیر الآیهٔ التالیهٔ إلی القرآن الذی هو منبع و مصدر تنمیهٔ الإیمان و العمل الصالح، فتقول: فَإِنَّما یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِینَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا.

«اللّد»- بضم اللام و تشدید الدال- جمع ألدّ- علی وزن معدّ- بمعنی العدو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۴

الشدید العداوهٔ، و تطلق علی المتعصب العنود فی عداوته، و لا منطق له.

و تقول الآیهٔ الأخیرهٔ کتهدئهٔ لخاطر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین، و تسلیهٔ لهم، خاصّهٔ مع ملاحظهٔ أنّ هذه السورهٔ نزلت فی مکّهٔ، و کان المسلمون یومذاک تحت ضغط شدید جدّا. و کذلک تقول بنبرهٔ التهدید و التحذیر لکل الأعداء اللجوجین العنودین: وَ کَمْ أَهْلَکْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِکْزاً.

«الرکز» بمعنی الصوت الهادیء، و یقال للأشیاء التی یخفونها تحت الأرض:

«رکاز»، أی إنّ هؤلاء الأقوام الظالمین، و أعداء الحق و الحقیقهٔ المتعصبین، قد تمّ تدمیرهم و سیحقهم الی حدّ لا یسمع صوت خفی منهم.

بحثان

۱- محبّهٔ علی علیه السّلام فی قلوب المؤمنین

لقد صدرت روایات عدیدهٔ عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی سبب نزول قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا فی کثیر من کتب الحدیث و تفسیر السنهٔ و الشیعهٔ، و هی تبیّن أنّ هذه الآیهٔ نزلت لأول مرّهٔ فی حق علی علیه السّلام، و من جملهٔ من یمکن ذکرهم: العلّامهٔ الزمخشری فی الکشاف، و سبط ابن الجوزی فی التذکرهٔ، و الکنجی الشافعی، و القرطبی فی تفسیره المشهور، و محب الدین الطبری فی ذخائر العقبی، و النیسابوری فی تفسیره المعروف، و ابن الصباغ المالکی فی الفصول المهمهٔ، و السیوطی فی الدر المنثور، و الهیثمی فی الصواعق المحرقهٔ، و الآلوسی فی روح المعانی. و من جملهٔ الأحادیث:

۱-

یروی الثعلبی فی تفسیره عن البراء بن عازب: إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السّلام: «قل: اللّهم اجعل لی عندک عهدا، و اجعل لی فی قلوب المؤمنین مودّة»،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۵

فأنزل اللّه تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا[۳۳۶].

و قد وردت نفس هذه العبارة باختلاف یسیر فی کثیر من الکتب الأخری.

۲- و قد نقل عن ابن عباس- فی کثیر من المصادر الإسلامیة- أنّه قال:

نزلت فی علی بن أبی طالب: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا قال: محبة فی قلوب المؤمنین ۳۳۷].

۳- روی فی کتاب «الصواعق» عن محمّد بن الحنفیة فی تفسیر هذه الآیة:

لا یبقی مؤمن إلّا و فی قلبه ودّ لعلی و لأهل بیته ۳۳۸].

۴- و ربّما روی لهذا السبب

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام نفسه فی روایة صحیحة معتبرة أنّه قال: «لو ضربت خیشوم المؤمن بسیفی هذا علی أن یبغضنی ما أبغضنی، و لو صببت الدنیا بجماتها علی المنافق علی أن یحبنی ما أحبنی، و ذلک أنّه قضی فانقضی علی لسان النّبی الأمی أنه قال: لا یبغضک مؤمن، و لا یحبّک منافق»[۳۳۹].

۵- و نقرأ

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «و دعا رسول اللّه لأمیر المؤمنین فی آخر صلاته، رافعا بها صوته لیسمع الناس: «اللّهم هب لعلی المودة فی صدور المؤمنین، و الهیبة و العظمة فی صدور المنافقین، فأنزل اللّه: إن الذین آمنوا ...» الآیة[۳۴۰].

علی کل حال- و کما قلنا فی تفسیر الآیات أعلاه- فإنّ نزول هذه الآیة فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۶

علی علیه السّلام لأنّه المصداق الأتم و الأکمل، و لا یمنع من تعمیمها فی شأن کل المؤمنین علی اختلاف المراتب.

۲- تفسیر جملة: یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ

«یسرناه»، من مادة التیسیر، أی التسهیل، و اللّه سبحانه یقول: فَإِنَّما یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِینَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا، فیمکن أن یکون هذا التسهیل من جوانب مختلفة:

۱- من جهة أن القرآن عربی فصیح، عذب سلس العبارة، و له نغمة تفرح القلب، و تلاوته سهلة علی اللسان.

۲- من جهة أن سبحانه قد سلط نبیّه و مکنه من آیات القرآن، بحیث کان یستفید منها بکل بساطة فی کل مکان، و لحل أیة مشکلة، و کان یتلوها دائما علی المؤمنین، و بلا انقطاع.

۳- من جهة المحتوی، برغم عمق معانیه و کثرة ما یستنبط منه، فإن إدراکه سهل و بسیط فی الوقت نفسه، و لا ریب أن کل هذه الحقائق الکبیرة و المهمة التی صبت فی قالب هذه الألفاظ المحدودة، سهلة الإدراک، و هی بذاتها دلیل علی إعجاز القرآن. و قد تکررت هذه الجملة فی عدة آیات من سورة القمر: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ.

إلهنا، نوّر قلوبنا بنور الإیمان، و وجودنا بنور العمل الصالح، و اجعلنا من محبی المؤمنین و الصالحین، و خاصّة إمام المتقین، و أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، و ألق محبتنا فی قلوب کل المؤمنین.

اللّهم، اجمع شمل مجتمعنا الإسلامی الکبیر الذی وقع فی قبضة» الأعداء- مع کل ماله من کثرة العدد وسعة الإمکانیات المادیة و المعنویة- و الضعف و العجز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۷

الذی اعتراه نتیجة تبعثر و تفرقة الصفوف ... اللهم ألف شمله و اجمعه حول مشعل الإیمان و العمل الصالح.

ربّنا، کما أهلکت الجبارین المتمردین السابقین حتی لا- یسمع لهم حس و لا- صوت، فامح جبابرة زماننا أیضا، و ادفع شرّهم عن المستضعفین، و منّ بالنصر النهائی علی المؤمنین فی ثورتهم ضد المستکبرین.

آمین یا رب العالمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۹

سورة طه مکّیة و عدد آیاتها مائة و خمس و ثلاثون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۱

«سورة طه»

فضل سورة طه

وردت روایات عدیدة حول عظمة و أهمیة هذه السورة فی المصادر الإسلامیة.

فعن النّبی الأکرم اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إن اللّه تعالی قرأ طه و یس قبل أن یخلق آدم بألفی عام، فلمّا سمعت الملائکة القرآن قالوا: طوبی لأمّة ینزل هذا علیها، و طوبی لأجواف تحمل هذا، و طوبی لألسن تکلّم بهذا»[۳۴۱].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «لا تدعوا قراءة سورة طه، فإنّ اللّه یحبّها، و یحبّ من قرأها، و من أدمن قراءتها أعطاه اللّه یوم القیامة کتابه بیمینه، و لم یحاسبه بما عمل فی الإسلام، و أعطی فی الآخرة من الأجر حتی یرضی»[۳۴۲].

و

فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأها أعطی یوم القیامة ثواب المهاجرین و الأنصار»[۳۴۳].

و نری من اللازم أن نکرر هذه الحقیقة، و هی أنّ کل هذه المکافئات و الهبات العظیمة التی وصلت إلینا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام مقابل تلاوة سور القرآن، لا تعنی و لا ترید أن کل هذه النتائج تعود علی الإنسان بالتلاوة فقط، بل المراد أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۲

تکون التلاوة مقدمة للتفکر و التدبر، التفکر الذی تتجلی آثاره فی کل أعمال و أقوال الإنسان، و إذا أخذنا المحتوی الإجمالی لهذه السورة بنظر الإعتبار، فإننا سنری أنّ للرّوایات تناسبا کاملا مع محتوی هذه السورة.

محتوی السّورة

إنّ سورة (طه) برأی جمیع المفسّرین نزلت فی مکّة، و أکثر ما یتحدث محتواها عن المبدأ و المعاد کسائر السور المکّیة، و یذکر نتائج التوحید و تعاسات الشرک.

فی القسم الأوّل، تشیر هذه السورة إشارة قصیرة إلی عظمة القرآن، و بعض صفات اللّه الجلالیة و الجمالیة.

أمّا قسم الثّانی الـذی یتضـمّن أکثر من ثمانین آیة- فیتحدث عن قصة موسـی علیه السّـلام، من حین بعثته، إلی نهوضه لمقارعة فرعون الجبار و أعوانه، إلی مواجهة السحرة و إیمانهم. ثمّ إغراق اللّه فرعون و أتباعه بصورة إعجازیة، و نجاة موسی و الذین آمنوا به.

ثمّ تبیّن حادثة عبادة بنی إسرائیل للعجل، و المواجهة بین هارون و موسی و بین بنی إسرائیل.

و فی القسم الثّالث جاءت بعض المسائل حول المعاد، و جانب من خصوصیات القیامة.

و فی القسم الرّابع الحدیث عن القرآن و عظمته.

و فی القسم الخامس تصف الآیات قصّة آدم و حواء فی الجنّة، ثمّ حادثة وسوسة إبلیس، و أخیرا هبوطهما إلی الأرض.

و فی القسم الأخیر، تبیّن السورة المواعظ و النصائح، لکل المؤمنین، مع توجیه الخطاب فی کثیر من الآیات إلی نبی الإسـلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۳

الآیات [سورة طه (۲۰): الآیات ۱ الی ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

طه (۱) ما أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقی (۲) إِلاَّ تَذْکِرَةً لِمَنْ یَخْشی (۳) تَنْزِیلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلی (۴) الرَّحْمنُ عَلَی الْعَرْشِ اسْتَوی (۵) لَهُ مـا فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّری (۶) وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ یَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفی (۷) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی (۸)

سبب النّزول

وردت روایـات کثیرة فی سـبب نزول الآیات الأولی من هـذه السورة، یسـتفاد من مجموعها أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بعد نزول الوحی و القرآن کـان یعبـد اللّه کثیرا، و خاصّـة أنّه کـان یکثر القیـام و الوقوف فی العبادة حتی تورمت قـدماه، و کان من شـدّة التعب أحیانا یسـتند فی وقوفه علی أحـدی قـدمیه، ثمّ یسـتند علی الأخری حینا آخر، و حینا علی کعب قدمه، و آخر علی أصابع رجله ۳۴۴]، فنزلت الآیات المذکورة و أمرت النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یحمل نفسه کل هذا التعب و المشقّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۴

التّفسیر

لا تجهد نفسک إلی هذا الحد:

مرّة أخری نواجه الحروف المقطعة فی بدایة هذه السورة، و التی تثیر حبّ الاستطاع لدی الإنسان:

لقد بحثنا فی تفسیر الحروف المقطعة فی القرآن فی بدایة ثلاث سور بحثا کافیا[۳۴۵]، غیر أنّنا نری أن من اللازم أن نضـیف هنا هذا المبحث، و هو أن من الممکن أن یکون لکل هذه الحروف المقطعة- أو علی الأقل لقسم منها- معان و مفاهیم خاصّة، تماما کالکلمة الواحدة التی تتضمّن محتوی معینا.

إنّنا نلاقی فی کثیر من الرّوایات و کلمات المفسّرین فی بدایـة هذه السورة و سورة «یس» هذا البحث، و هو أن «طه» تعنی: یا رجل، و نری کلمة «طه» فی بعض شعر العرب أیضا، و لها معنی شبیه ب (یا رجل) أو قریب منه، و یمکن أن تعود هذه الأشعار إلی بدایة ظهور الإسلام، أو إلی ما قبل الإسلام ۳۴۶].

و قـد نقل لنا أحد المطلعین أن بعض علماء الغرب الملمین بالدراسات الإسـلامیة، یعممون هذه النظریة علی کل الحروف المقطعة فی القرآن، و یعتقدون أن الحروف المقطعة فی بدایة کل سورة هی کلمة لها معنی خاص، أصـبح بعضها متروکا مع مرور الزمن، و وصل إلینا البعض، و إلّا فإنّ من المستبعد أن مشرکی العرب یسمعون الحروف المقطعة و لا یفهمون منها شیئا، و لا یدرکون لها معنی، ثمّ لا نراهم یسـخرون و لاـ یسـتهزءون منهـا، فی حین أنّه لاـ یری و لاـ یلاحـظ فی أی من التواریـخ أنّ هؤلاـء الحمقی المتتبعین للعیـوب و الهفوات قد اتخذوا الحروف المقطعة وسیلة للقیام بردود فعل ضدها و ضد الإسلام.

و طبعا من الصعب قبول هذا الرأی بصورة عامّة، و بالنسبة إلی کل حروف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۵

القرآن المقطعة، إلّا أنّه یمکن قبوله فی البعض منها، و قد بحث هذا الموضوع أیضا فی الکتب الإسلامیة.

و ممّا یلفت النظر، و هو أنّنا نقرأ

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إنّ طه من أسماء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و معناه: یا طالب الحق الهادی إلیه»

و یظهر من هـذا الحـدیث أنّ طه مرکب من حرفین رمزیین، فالطـاء إشـارة إلی طـالب الحق، و الهـاء إلی الهـادی إلیه، و نحن نعلم أن اسـتعمال الحروف الرمزیة و علامات الاختصار فیما مضـی و فی یومنا هذا أمر طبیعی و کثیر الاستعمال، خاصّة فی عصرنا الحاضر فإنّه کثیر التداول و الاستعمال جدّا.

و آخر کلام فی هذا الباب هو أنّ (طه) ک (یس) قد أصـبحت تدریجیا و بمرور الزمان اسـما خاصا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، حتی أنّهم یسـمون آل النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم آل طه أیضا، و عبّر عن الإمام المهدی عجل اللّه فرجه فی دعاء الندبة ب (یا بن طه).

ثمّ تقول الآیـة: ما أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقی فصـحیح أن العبادة و التقرب إلی اللّه عن طریق مناجاته من أفضل العبادات، إلّا أنّ لکل عمل حسابا و مقـدارا، و للعبادة أیضا مقـدارها، فلا یجب أن تجهـد نفسک بالعبادة حتی تتورم قدماک، و بالتالی ستضـعف قوتک و تعجز عن التبلیغ و الجهاد.

و ینبغی الالتفـات إلی أن «تشـقی» مأخوذة من مادة الشـقاء ضـد السـعادة، إلّا أنّ هـذه المادة، و کما یقول الراغب فی المفردات، تأتی أحیانا بمعنی المشقّة و التعب، و المراد فی الآیة هذا المعنی، کما یحکون ذلک أیضا فی أسباب النّزول.

ثمّ تبیّن الآیة الأخری الهدف من نزول القرآن فتقول: إِلَّا تَذْکِرَةً لِمَنْ یَخْشی

إنّ التعبیر ب «تذکرة» من جهة، و ب «من یخشـی» من جهة أخری یشیر إلی واقع لا یمکن إنکاره، و هو: إن التذکرة توحی بأن أسس و مقومـات کـل التعلیمـات الإلهیـة موجودة فی أعمـاق روح الإنسـان و طبیعته، و تعلیمـات الأنبیـاء تجعلهـا مثمرة، و توصـلها إلی حد النضج، کما نذکّر أحیانا بمطلب و أمر ما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۶

لا نقول: إنّ الإنسان کان یعلم کل العلوم من قبل و زالت من ذاکرته، و إن أثر التعلیم فی هـذا العالم هو التـذکیر فحسب- کما ینقلون ذلک عن أفلاطون- بل نقول: إنّ مادتها الأصلیة قد أخفیت فی طینة الآدمی (دققوا ذلک).

إنّ تعبیر «من یخشی» یبیّن أن نوعا من الإحساس بالمسؤولیة، و الذی سمّاه القرآن بالخشیة، إذا لم یکن موجودا فی الإنسان، فسوف لا یقبل الحقائق، لأنّ قابلیـة القابل شـرط فی حمل و نمو کل بـذرة و حبـة. و هـذا التعبیر فی الحقیقة شبیه بما نقرؤه فی أوّل سورة البقرة:

هُدیً لِلْمُتَّقِینَ

ثمّ تتطرق الآیات إلی التعریف باللّه تعالی المنزل للقرآن، لتتضح عظمة القرآن من خلال معرفته، فتقول: تَنْزِیلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلی ۳۴۷].

إنّ هذا التعبیر فی الحقیقة إشارة إلی ابتداء و انتهاء نزول القرآن، انتهاؤه إلی الأرض و ابتداؤه من السماوات، و إذا لم تصف هنا کلمة «و ما بینهما»- کما فی بعض الآیات الأخری من القرآن- فربّما کان لهذا السبب، و هو أنّ الهدف کان بیان الابتداء و الانتهاء.

علی کل حال، فإنّ من المعلوم أنّ اللّه الذی عمت قدرته و تدبیره و حکمته کل أرجاء الأرض السماء، إذا أنزل کتابا، فکم سیکون غنی المحتوی، و جنیّ الثمر؟! ثمّ تستمر فی تعریف اللّه المنزل للقرآن فتقول: الرَّحْمنُ عَلَی الْعَرْشِ اسْتَوی و کما قلنا سابقا فی تفسیر الآیة: ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ ۳۴۸]، فإنّ کلمة عرش تقال للشیء الذی له سقف، و أحیانا تطلق علی نفس السقف، أو علی الأسرة المرتفعة القوائم کأسرة و کراسی السلاطین، و فی قصة سلیمان نقرأ:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۷

أَیُّکُمْ یَأْتِینِی بِعَرْشِها[۳۴۹].

من البدیهی أنّ اللّه سبحانه لیس له عرش، و لا محکومة کحکام البشر، بل المراد من عرش اللّه کل عالم الوجود الذی یعتبر عرشه، و بناء علی هذا فإنّ قوله تعالی: اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ کنایة عن تسلط اللّه، و إحاطته الکاملة بعالم الوجود، و نفوذ أمره و تدبیره فی جمیع أنحاء العالم.

و أساسا فإنّ کلمة «عرش» فی لغة العرب، کنایة عن القدرة غالبا، فنقول مثلا: إن فلانا قد أنزلوه من العرش، أو أزاحوه عنه، فهذا یعنی أنّهم قد أنهوا حکمه و قدرته، أو نقول: ثل عرشه.

و علی کل حال، فإنّ من السخف أن یتوهم الإنسان من هذا التعبیر جسمیة اللّه سبحانه.

ثمّ تتحدث عن مالکیة اللّه بعد حاکمیته فتقول: لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّری

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۵۲۷

الثری» فی الأصل بمعنی التراب الرطب، و لما کانت قشرة الأرض- فقط- هی التی تجف نتیجة لأشعة الشمس و هبوب الریاح، و تبقی الطبقة السفلی- غالبا- رطبة، فإنّه یقال لهذه الطبقة: ثری، و علی هذا فإن وَ ما تَحْتَ الثَّری تعنی أعماق الأرض و جوفها، و کلها مملوکة لمالک الملک و خالق عالم الوجود.

إلی هنا بینت ثلاثة أرکان من أرکان صفات اللّه: الرکن الأوّل: «خالقیته»، و الثّانی: «حاکمیته»، و الثّالث: «مالکیته».

و أشارت الآیة التالیة إلی الرّکن الرّابع، أی: «العالمیة»، فقالت: «وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ یَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفی و هناک نقاش و بحث بین المفسّرین فی المراد من «أخفی» هنا:

فذهب بعضهم إلی أنّ السر هو أن یتحدث إنسان مع آخر بصورة خفیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۸

و أخفی: هو أن یحتفظ الإنسان بذلک القول و الأمر فی قلبه و لا یحدث به أحدا.

و ذهب آخرون: إن «السر» هو ما أضمره الإنسان فی قلبه، و «أخفی» هو الذی لم یخطر علی باله، إلّا أنّ اللّه سبحانه مطلع علیه و عالم به.

و قال ثالث: إنّ «السر» هو ما یقوم به الإنسان من عمل فی الخفاء، و أخفی:

هی النیة التی فی قلبه.

و قال رابع: إن (السر) یعنی أسرار الناس، و (أخفی) هی الأسرار التی فی ذات اللّه المقدسة.

فی حدیث عن الإمامین الباقر و الصادق علیهما السّلام: «السر ما أخفیته فی نفسک، و أخفی ما خطر ببالک ثمّ أنسیته»[۳۵۰].

إنّ هذه الحدیث یمکن أن یکون إشارة إلی أن ما یتعلمه الإنسان یودع فی مخزن الحافظة، غایة الأمر أن ارتباط الإنسان قد ینقطع أحیانا مع زاویة من هذا المخزن، فتنتج حالة النسیان، و لذلک فإنّه إذا ما تذکر ذلک المنسی بطریقة ما، فسیری هذا المطلب واضحا و معروفا لدیه، و بناء علی هذا فإن ما ینساه الإنسان هو أخفی أسراره التی أخفیت فی زوایا الحافظة، و قطع ارتباطه بها بصورة مؤقتة، أو دائمة.

و لکن لا ـ مانع علی کل حال من أن تجمع کل هذه التفاسیر التی ذکرت أعلاه فی مفهوم الکلمة و معناها الواسع. و علی هذا فقد رسمت صورة واضحة عن علم اللّه اللامتناهی، و عرف منزل القرآن من مجموع الآیات أعلاه معرفة إجمالیة فی الأبعاد الأربعة: الخلقة، و الحکومة، و المالکیة، و العلم.

و الآیة التالیة ربّما تشیر إلی ما ذکرنا: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی

و کما قلنا فی تفسیر الآیة (۸۰) من سورة الأعراف، فإنّ التعبیر بالأسماء الحسنی قد ورد مرارا و تکرارا فی الآیات القرآنیة، و فی کتب الحدیث و من البدیهی أن کل أسماء اللّه حسنة، و لکن لما کانت لبعض أسماء اللّه و صفاته أهمیة أکبر، فقد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۹

سمّیت بالأسماء الحسنی.

و نقرأ فی کثیر من الرّوایات التی وصلتنا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام أن للّه (۹۹) اسما، و کل من دعاه بهذه الأسماء یستجاب دعاؤه، و کل من أحصاها فهو من أهل الجنّة. و یلاحظ هذا المضمون أیضا فی مراجع الحدیث المعروفة عند أهل السنة أیضا.

و یبدو أنّ المراد من إحصاء هذه الأسماء هو التخلق بصفاتها، لا مجرّد ذکر ألفاظها، و لا شک أن من تخلق بصفة العالم و القادر، أو الرحیم و الغفور و أمثالها، و سطعت فی وجوده أشعة و قبسات من هذه الصفات الإلهیة العظیمة، فإنّه من أهل الجنة، و ممن یستجاب دعاؤه.

و لمزید الإیضاح راجع الآیة (۱۸۰) من سورة الأعراف من هذا التّفسیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۰

الآیات [سورة طه (۲۰): الآیات ۹ الی ۱۶]

اشارة

وَ هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ مُوسی (۹) إِذْ رَأی ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَی النَّارِ هُدیً (۱۰) فَلَمَّا أَتاها نُودِیَ یا مُوسی (۱۱) إِنِّی أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ نَعْلَیْکَ إِنَّکَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُویً (۱۲) وَ أَنَا اخْتَرْتُکَ فَاسْتَمِعْ لِما یُوحی (۱۳) إِنَّنِی أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِی وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِکْرِی (۱۴) إِنَّ السَّاعَةَ آتِیَةٌ أَکادُ أُخْفِیها لِتُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعی (۱۵) فَلا یَصُدَّنَّکَ عَنْها مَنْ لا یُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدی (۱۶)

التّفسیر

نار فی الجانب الآخر من الصحراء!

من هنا تبدأ قصّة نبى اللّه الكبير موسى عليه السّلام، و تفصيل الجوانب المهمّة من هذه القصة المليئة بالأحداث سيأتى فى أكثر من ثمانين آية، لتكون تهدئة و مواساة و تسلية لخاطر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الذين كانوا يعانون خلال تلك الفترة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۱

مكّة ضغوطا شديدة من الأعداء، ليعلموا أن هذه القوى الشيطانية لا طاقة لها فى مقاومة قدرة اللّه، و أنّ كل هذه الخطط و المؤامرات رسم على الماء.

و كذلك ليعتبروا بهذه الواقعة المليئة بالعبر و المواعظ، و يستمروا فى طريقهم فى توحيد اللّه و عبادته، و محاربة فراعنة و سحرة كل عصر و زمان، و كذلك مجاهدة الانحرافات الداخلية و الرغبات المنحرفة .. تلك العبر التى تستطيع أن يكون دليلا و مرشدا لهم فى مسيرتهم الجهادية.

و يمكن تقسيم مجموع الآيات التى تحدثت عن موسى و بنى إسرائيل و الفراعنة فى هذه السورة إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: يتحدث عن بداية نبوة موسى و بعثته، و أوّل و مضات الوحى، و بتعبير آخر: فإنّ البحث يدور حول مرحلة قصيرة المدة غنية المحتوى و قضاها موسى فى الوادى المقدس فى تلك الصحراء المظلمة المقفرة.

القسم الثّانى: يتحدث عن دعوة موسى و أخيه هارون لفرعون- و ملئه- إلى دين التوحيد، ثمّ اشتباكهما بالأعداء.

القسم الثّالث: يبحث عن خروج موسى و بنى إسرائيل من مصر، و كيفية نجاتهم من قبضة فرعون و أتباعه، و غرق هؤلاء و هلاكهم.

القسم الرّابع: و يتحدث حول الاتجاهات الانحرافية الشديدة لبنى إسرائيل عن دين التوحيد إلى الشرك، و قبول وساوس السامرى، و مواجهة موسى الحازمة لهذا الانحراف.

و نعود الآن إلى الآيات مورد البحث، و التى ترتبط بالقسم الأوّل. فهذه الآيات تقول بتعبير رقيق و جذاب: وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى و من البديهى أن هذا الاستفهام ليس هدفه تحصيل الخبر، فهو سبحانه مطلع على جميع الأسرار، بل هو «استفهام تقريرى»، و بتعبير آخر فإنّ هذا الاستفهام، مقدمة لبيان خبر مهم، كما نقول فى مكالماتنا اليومية حينما نريد أن نبدأ بذكر خبر مهم: أسمعت هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۲

الخبر الذى ...؟

ثمّ تقول: إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ ناراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً فبملاحظة أن «القبس» يعنى الشعلة القليلة التى تؤخذ من النار، و بملاحظة أن مشاهدة النار فى الصحارى تدل عادة على أن جماعة قد اجتمعوا حولها، أو أنّهم وضعوها على مرتفع حتى لا تضل القوافل الطريق فى الليل، و أيضا بملاحظة أن «مكثوا»- من مادة مكث- تعنى التوقف القصير، فمن مجموع هذه التعابير يستفاد أن موسى و زوجته و ابنه كانوا يقطعون الصحراء فى ليلة ظلماء .. ليلة كانت مظلمة و باردة كان موسى قد ضل الطريق فيها، فجلبت انتباهه شعلة نار من بعيد، و بمجرد رؤيتها قال لأهله: قفوا هنا قليلا فقد رأيت نارا سأذهب إليها حتى آتيكم منها بقبس، أو أجد الطريق بواسطة النار أو من اجتمع حولها.

و نقرأ فى التواريخ أنّ موسى عليه السّلام عند ما انتهت مدّة عقده مع «شعيب» فى «مدين»، حمل زوجته و ابنه و أغنامه و سار من مدين إلى مصر، فضلّ الطريق، و كانت ليلة مظلمة، فتفرقت أغنامه فى الصحراء، فأراد أن يشعل نارا فى ذلك الليل البارد ليتدفأ هو و أهله، و حاول إشعال النار فلم يفلح، و فى هذه الأثناء عصفت بزوجته آلام الوضع! لقد حاصره سيل من الحوادث الصعبة .. و فى هذه الأثناء لاح لعينيه ضياء من بعيد، إلّا أنّه لم يكن نارا، بل كان نورا إلهيا، و ظن موسى أنّه نار، فسعى نحوها علّه يجد من يهديه فى تلك الصحراء إلى الطريق، أو يأخذ لأهله جذوة منها[۳۵۱].

و الآن لنسمع بقیة الحادثة من القرآن الکریم:

فَلَمَّا أَتاها نُودِیَ یا مُوسی إِنِّی أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ نَعْلَیْکَ إِنَّکَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُویً و یستفاد من الآیة (۳۰) من سورة القصص، أن موسی قد سمع هذا النداء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۳

من جهة شجرة کانت هناک: نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَةِ الْمُبارَکَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ یا مُوسی إِنِّی أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ یستفاد من مجموع هذین التعبیرین أن موسی لما اقترب شاهد النار فی داخل الشجرة- و یقول المفسّرون أنّها کانت شجرة العناب- و هذا بنفسه کان قرینة واضحة علی أن هذه النار لیست نارا عادیة، بل إنّ هذا النور الإلهی الذی لیس لم یحترق الشجرة و حسب، بل إنّه منسجم معها و معروف، ألا و هو نور الحیاة! و قد هام موسی لدی سماعه هذا النداء المحیی للروح: إِنِّی أَنَا رَبُّکَ و أحاطت بکل وجوده لذة لا- یمکن وصفها، فمن هذا الذی یتحدث معی؟ إنّه ربّی الذی جللنی بالفخر الکلمة رَبُّکَ لیعلمنی بأنّی قد تربیت و ترعرعت منذ نعومة أظفاری و إلی الآن فی ظل رحمته و عنایته، و أصبحت مهیئا لرحمة عظیمة.

لقد أمر أن یخلع نعلیه، لأنّه قد وضع قدمه فی أرض مقدسة .. الأرض التی تجلی فیها النور الإلهی، و یسمع فیها نداء اللّه، و یتحمل مسئولیة الرسالة، فیجب أن یخطو فی الأرض بمنتهی الخضوع و التواضع، و هذا هو سبب خلعه النعل عن رجله.

بناء علی هذا، فإنّ البحث المفصل الذی بحثه بعض المفسّرین حول خلع النعل- و نقلوا أقوالا عن المفسّرین- یبدو زائدا. طبعا لقد نقلت روایات فی باب تأویل هذه الآیة سنبحثها فی مقطع البحوث.

إنّ التعبیر ب (طوی) إمّا لأنّ اسم تلک الأرض کان أرض طوی، کما قال ذلک أغلب المفسّرین، و لأن «طوی» فی الأصل بمعنی الإحاطة، و هنا کنایة عن أن البرکات المعنویة التی أحاطت هذه الأرض من کل جانب، و لهذا عبر عنها فی الآیة (۳۰) من سورة القصص بأنّها «البقعة المبارکة».

ثمّ سمع هذا الکلام من نفس المتکلم: وَ أَنَا اخْتَرْتُکَ فَاسْتَمِعْ لِما یُوحی و من بعدها تلقی موسی أوّل جمله من الوحی علی شکل ثلاثة أمور: إِنَّنِی أَنَا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۴

اللَّهُ لا- إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِی وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِکْرِی شرعت هذه الآیة فی بیان أهم أصل لدعوة الأنبیاء فی هذه الآیة، ألا و هو مسألة التوحید، و بعدها ذکرت موضوع عبادة اللّه الواحد کثمرة لشجرة الإیمان و التوحید، ثمّ أصدرت له أمر الصلاة بعد ذلک، و هی تعنی أکبر عبادة و أهم ارتباط بین الخلق و الخالق، و أکثر الطرق تأثیرا فی عدم الغفلة عن الذات المقدسة.

إنّ هذه الأوامر الثلاثة، مع أمر الرسالة الذی ورد فی الآیة السابقة، و مسألة المعاد التی تأتی فی الآیة التالیة، تشکّل مجموعة کامله و مضغوطة من أصول الدین و فروعه، و تکملها بالأمر بالاستقامة الذی سیأتی فی آخر الآیات مورد البحث.

و لما کان المعاد هو الأصل و الأساس الثّانی، فبعد ذکر التوحید و أغصانه و فروعه، أضافت الآیة التالیة: إِنَّ السَّاعَةَ آتِیَةٌ أَکادُ أُخْفِیها لِتُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعی

فی هذه الجملة نقطتان یجب الالتفات إلیهما:

الأولی: إن معنی جملة أَکادُ أُخْفِیها: یقرب أن أخفی تاریخ قیام القیامة، و لازم هذا التعبیر أنّی لم أخفه من قبل، و نحن نعلم بصریح کثیر من آیات القرآن، أن أحدا لم یطلع علی تاریخ القیامة، کما فی الآیة (۱۸۷) من سورة الأعراف حیث نقرأ: یَسْئَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَیَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی

لقد بحث المفسّرون هذا الموضوع، فالکثیر منهم یعتقد أن هذا التعبیر نوع من المبالغة و معناه: إن وقت بدء و قیام القیامة مخفی و مجهول إلی الحد الذی أکاد أخفیه حتی عن نفسی. و قد وردت فی هذا الباب روایة أیضا، و یحتمل أن هذه الفئة من المفسّرین قد

اقتبسوا رأيهم من تلك الرّواية.

و التّفسير الآخر هو أن مشتقات (كاد) لا تعنى دائما الاقتراب، بل تأتى أحيانا بمعنى التأكيد، و لذلك فإنّ بعض المفسّرين فسر (أكاد) ب (أريد) و قد جاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۵

هذا المعنى صريحا فى بعض متون اللغة[۳۵۲].

و النقطة الأخرى: إنّ علّة إخفاء تاريخ القيامة حسب الآية، هى: لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى و بتعبير آخر: فإنّ كون الساعة مخفية سيوجد نوعا من حرية العمل للجميع. و من جهة أخرى فإن وقتها لما لم يكن معلوما بدقة، و يحتمل أن يكون فى أى وقت و ساعة، فإنّ نتيجة هذا الخفاء هى حالة الاستعداد الدائم و التقبل السريع للبرامج التربوية، كما قالوا فى فلسفة إخفاء ليلة القدر: إن المراد أن يحيى الناس كل ليالى السنة، أو كل ليالى شهر رمضان المبارك، و يتوجهوا إلى اللّه سبحانه.

و أشارت الآية الأخيرة إلى أصل أساس يضمن تنفيذ كل البرامج العقائدية و التربوية، فتقول: فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ و إلّا فسوف تملك فَتَرْدى فأصمد فى مقابل الكافرين و وساوسهم و عراقيلهم، و لا تدع للخوف من كثرتهم و مؤامرتهم و خططهم الخبيثة إلى قلبك سبيلا، و لا تشك مطلقا فى أحقية دعوتك و أصالة دينك نتيجة هذه الضوضاء.

الملفت للنظر أنّ جملة «لا يؤمن» وردت هنا بصيغة المضارع، و جملة «و اتبع هواه» بصيغة الماضى، و هى فى الحقيقة أشارت إلى هذه النكتة، و هى أن عدم إيمان منكرى القيامة ينبع من أتباع هوى النفس، فهم يريدون أن يكونوا أحرارا و يفعلون ما تشتهى أنفسهم، فأى شىء أحسن من أن ينكروا القيامة حتى لا تخدش حرية ميولهم و أهوائهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۶

بحوث

۱- المراد من قوله تعالى: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ

و كما قلنا، فإن ظاهر الآية أنّ موسى عليه السّلام قد أمر بخلع نعليه احتراما لتلك الأرض المقدسة، و أن يسير بكل خضوع و تواضع فى ذلك الوادى ليسمع كلام الحق، و أمر الرسالة.

إلّا أنّ بعض المفسّرين قالوا تبعا لبعض الرّوايات: إنّ سبب ذلك هو أن جلد ذلك النعل كان من جلد حيوان ميت.

إنّ هذا الكلام إضافة إلى أنّه يبدو بعيدا بحد ذاته، لأنّه لا دليل على أن موسى عليه السّلام كان يستعمل مثل هذه الجلود و النعال الملوثة، فإن الرّواية التى رويت عن الناحية المقدسة، صاحب الزمان- أرواحنا له الفداء- تنفى هذا التّفسير نفيا شديدا[۳۵۳]. و يلاحظ فى التوراة الحالية أيضا، سفر الخروج، الفصل الثّالث، نفس التعبير الذى يوجد فى القرآن.

البعض الآخر من الرّوايات يشير إلى تأويل الآية و بطونها: «فاخلع نعليك:

أى خوفيك: خوفك من ضياع أهلك، و خوفك من فرعون»[۳۵۴].

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فيما يتعلق بهذا الجانب و الزمن من حياة موسى عليه السّلام حيث يقول: «كن لما لا ترجوا أرجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران خرج ليقبس لأهله نارا فرجع إليهم و هو رسول نبى»[۳۵۵]!

و هى إشارة إلى أن الإنسان كثيرا ما يأمل أن يصل إلى شىء لكنه لا يصل إليه، إلّا أن أشياء أهم لا أمل له فى نيلها تتهيأ له بفضل

اللّه.

و قد نقل هذا المعنى أيضا عن أمير المؤمنين على عليه السّلام ٣٥۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۷

٢- جواب عن سؤال،

يطرح بعض المفسّرين هنا سؤالا، و هو: كيف و من أين علم موسى أنّ الصوت الذى يسمعه صادر من اللّه سبحانه و تعالى؟ و من أين تيقن أن اللّه كلّفه بهذه المهمّة؟

و هذا السؤال يمكن طرحه فى شأن سائر الأنبياء أيضا، و يمكن الإجابة عنه بطريقين:

الأوّل: إنّه يحصل للأنبياء فى تلك الحالة نوع من المكاشفة الباطنية و الإحساس الداخلى تبلغهم و توصلهم إلى القطع و اليقين الكامل، و تزيل عنهم كل أنواع الشك و الشبهة.

و الثّانى: إنّ من الممكن أن تكون بداية الوحى مقترنة بأمور خارقة للعادة، لا يمكن أن تقع و تتمّ إلا بقوة اللّه، كما أن موسى عليه السّلام شاهد النار فى الشجرة الخضراء، و من هذا فهم أن المسألة إلهية و إعجازية.

و ينبغى أن نذكّر بهذا الموضوع أيضا، و هو أن سماع كلام اللّه سبحانه و بلا واسطة، لا يعنى أن للّه حنجرة و صوتا، بل إنّه يخلق بقدرته الكاملة أمواج الصوت فى الفضاء، و يتكلم مع أنبيائه عن هذا الطريق، و لما كانت نبوة موسى عليه السّلام قد بدأت بهذه الكيفية، فقد لقب ب (كليم اللّه).

٣- الصلاة أفضل وسيلة لذكر اللّه

أشير فى الآيات- محل البحث- إلى واحدة من أهم أسرار الصلاة، و هى أن الإنسان يحتاج فى حياته فى هذا العالم- و بسبب العوامل المؤدية إلى الغفلة- إلى عمل يذكّره باللّه و القيامة و دعوة الأنبياء و هدف الخلق فى فترات زمنية مختلفة، كى يحفظه من الغرق فى دوامة الغفلة و الجهل، و تقوم الصلاة بهذه الوظيفة المهمّة.

إنّ الإنسان يستيقظ فى الصباح من النوم ... ذلك النوم الذى عزله عن كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۸

موجودات العالم، و يريد أن يبدأ نشاطه الحياتى، فقبل كل شيء يتوجه إلى الصلاة، و يصفى قلبه و روحه بذكر اللّه، و يستمد منه القوّة و المدد، و يستعد للجد و السعى الممتزج بالصدق و المودة.

و عند ما يغرق فى زحمة الأعمال اليومية، و تمضى عدة ساعات و قد نسى ذكر اللّه، و فجأة يحين الظهر، و يسمع صوت المؤذن: اللّه أكبر! حى على الصلاة! فيتوجه إلى الصلاة و يقف بين يدى ربّه و يناجيه، و إذا كان غبار الغفلة قد استقر على قلبه فإنّه يغسله بهذه الصلاة، و من هنا يقول اللّه سبحانه لموسى فى أوّل الأوامر فى بداية الوحى: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِی

و ممّا يجلب الانتباه أنّ هذه الآية تقول: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِی أمّا الآية (٢٨) من سورة الرعد فتقول: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و الآيات (٢٧- ٣٠) من سورة الفجر تقول: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِی إِلی رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِی فِی عِبادِی وَ ادْخُلِی جَنَّتِی و إذا جعلنا هذه الآيات الثلاثة جنبا إلى جنب فسنفهم جيدا أن الصلاة تذكر الإنسان باللّه، و ذكر اللّه يجعل نفسه مطمئنة، و نفسه المطمئنة ستوصله إلى مقام العباد المخلصين و الجنّة الخالدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۹

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۷ الى ۲۳]

اشارة

وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (۱۷) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (۱۸) قالَ أَلْقِها يا مُوسى (۱۹) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (۲۰) قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (۲۱)
وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى (۲۲) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى (۲۳)

التّفسير

عصا موسى و اليد البيضاء:

لا شك أنّ الأنبياء يحتاجون إلى المعجزة لإثبات ارتباطهم باللّه، و إلّا فإنّ أى واحد يستطيع أن يدعى النّبوة، و بناء على هذا فإن معرفة الأنبياء الحقيقيين من المزيفين لا ـ يتيسر إلّا عن طريق المعجزة. و هـذه المعجزة يمكن أن تكون بـذاتها دعوة و كتابا سماويا للنّبى، و يمكن أن تكون أمورا أخرى من قبيل المعجزات الحسية و الجسمية، إضافة إلى أن المعجزة مؤثرة فى نفس النّبى، فهى تزيد من عزيمته و إيمانه و ثباته.

على كل حال، فإن موسى عليه السّلام بعد تلقيه أمر النّبوة، يجب أن يتلقى دليلها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۰

و سندها أيضا، و هكذا تلقّى موسى عليه السّلام فى تلك الليلة المليئة بالذكريات و الحوادث معجزتين كبيرتين من اللّه، و يبيّن القرآن الكريم هذه الحادثة فيقول:

وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى

إنّ هذا السؤال البسيط المقترن باللطف و المحبة، إضافة إلى أنّه بثّ الطمانينة فى نفس موسى عليه السّلام الذى كان غارقا حينئذ فى دوامة من الاضطراب و الهيجان فإنّه كان مقدمة لحادثة مهمّة.

فأجاب موسى: قالَ هِيَ عَصايَ و لما كان راغبا فى أن يستمر فى حديثه مع محبوبه الذى فتح الباب بوجهه لأوّل مرّة، و ربّما كان يظن أيضا أن قوله: هِيَ عَصايَ غير كاف، فأراد أن يبيّن آثارها و فوائدها فأضاف: أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ [۳۵۷] بِها عَلى غَنَمِي أى أضرب بها على أغصان الشجر فتتساقط أوراقها لتأكلها الأغنام وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ [۳۵۸] أُخْرى

من المعلوم ما للعصا لأصحابها من فوائد، فهم يستعملونها أحيانا كسلاح للدفاع عن أنفسهم أمام الحيوانات المؤذية و الأعداء، و أحيانا يصنعون منها مظلة فى الصحراء تقيهم حرّ الشمس، و أحيانا أخرى يربطون بها وعاء أو دلوا و يسحبون الماء من البئر العميق.

على كل حال، فإنّ موسى غط فى تفكير عميق: أى سؤال هذا فى هذا المجلس العظيم، و أى جواب أعطيه؟ و ماذا كانت تلك الأوامر؟ و لماذا هذا السؤال؟

و فجأة قالَ أَلْقِها يا مُوسى فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى «تسعى» من مادة السعى أى المشى السريع الذى لا يصل إلى الركض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۱

و هنا صدر الأمر لموسى قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى [۳۵۹].

و فی الآیة (۳۱) من سورة القصص نقرأ: وَلَّی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یا مُوسی أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ

و بالرغم من أن خوف موسی هنا قد أثار التساؤل لدی بعض المفسّرین بأن هذه الحالة کیف تناسب موسی مع الشجاعة التی عهدنا لدی موسی، و أثبتها عملیا طوال عمره عند محاربته الفراعنة؟ إضافة إلی صفات و شروط الأنبیاء بصورة عامّة.

إلّا أنّ الجواب عن هذا السؤال یتّضح بملاحظة نکتة واحدة، و هی أن من الطبیعی أن کل إنسان، مهما کان شجاعا و غیر هیاب، إذا رأی فجأة قطعة خشب تتحول إلی حیة عظیمة و تتحرک بسرعة، فلا بدّ أن یرتبک و یخاف و لو لمدّة قصیرة و یسحب نفسه جانبا توقیا، إلّا أن یکون هذا المشهد قد تکرر أمامه مرارا، ورد الفعل الطبیعی هذا لا یکون نقطة ضعف ضد موسی أبدا. و لا تنافی الآیة (۳۹) من سورة الأحزاب حیث تقول: الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لا یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ فإن هذا الخوف طبیعی و مؤقت و سریع الزوال أمام حادثة لم تحدث من قبل قط، و خارق للعادة.

ثمّ أشارت الآیة التالیة إلی المعجزة المهمّة الثّانیة لموسی، فأمرته: وَ اضْمُمْ یَدَکَ إِلی جَناحِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ آیَةً أُخْری

.[۳۶۰

و بالرغم من أنّ للمفسّرین فی تفسیر جملة وَ اضْمُمْ یَدَکَ إِلی جَناحِکَ ...

أقوالا مختلفة، إلّا أنّه بملاحظة الآیة (۳۲) من سورة القصص، و التی تقول:

اسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ و الآیة (۱۲) من سورة النمل، و التی تقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۲

وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ سیستفاد أن موسی کان مأمورا أن یدخل یده فی جیبه و یوصلها إلی تحت إبطه، لأنّ الجناح فی الأصل جناح الطیر، و یمکن أن تکون هنا إشارة إلی تحت الإبط.

کلمة (بیضاء) من البیاض، و جملة مِنْ غَیْرِ سُوءٍ إشارة إلی أن بیاض یدک لیس نتیجة مرض البرص و أمثاله، بدلیل أن لها لمعانا و بریقا خاصا یظهر فی لحظة و یختفی فی لحظة أخری.

إلّا أنّه یستفاد من بعض الرّوایات أنّ ید موسی قد صارت فی تلک الحالة نورانیة بشکل عجیب، و إذا کان کذلک فیجب أن نقبل أن لجملة مِنْ غَیْرِ سُوءٍ معنی آخر غیر الذی قلناه، أی إن لها نورانیة لا-عیب فیها، فلا-تؤذی عینا، و لا یری فیها بقعة سوداء، و لا غیر ذلک.

و تقول الآیة الأخیرة، و کنتیجة لما مر بیانه فی الآیات السابقة: لِنُرِیَکَ مِنْ آیاتِنَا الْکُبْری و من المعلوم أن المراد من الآیات الکبری هو تلکما المعجزتان المهمتان اللتان وردتا أعلاه، و ما احتمله بعض المفسّرین من أنّها إشارة إلی المعجزات التی سیضعها اللّه سبحانه تحت تصرف موسی فیما بعد یبدو بعیدا جدا.

بحوث

۱- معجزتان کبیرتان

لا شک أنّ ما ذکر أعلاه من تبدل عصا موسی إلی حیة عظیمة تسعی، و قد عبرت الآیة (۱۰۷) من سورة الأعراف عنها ب (ثعبان) و کذلک البریق الخاص للید فی لحظة قصیرة ثمّ رجوعها إلی الحالة الأولی، لیس أمرا طبیعیا، أو نادرا، أو قلیل الوقوع، بل إن کلا الأمرین یعتبر خارقا للعادة لا یمکن أن یقع بدون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۳

الاستناد إلى قوة فوق قوة البشر، أى قوة اللّه عزّ و جلّ.
إنّ من يؤمن باللّه، و يعتقد أن علمه و قدرته غير محدودة، لا يقدر على إنكار هذه الأمور، أو ينسبها إلى الخرافة كالماديين.
المهم فى المعجزة هو عدم استحالتها عقلا، و هذا الأمر يصدق هنا كاملا، فلا يوجد أى دليل عقلى على نفى تبدل العصا إلى ثعبان عظيم.
أليس العصا و الحية العظيمة كانتا ترابا فى الماضى السحيق؟ من الطبيعى أن المدة قد استغرقت ملايين أو مئات الملايين من السنين حتى ظهرت على شكل هذه الموجودات. لا- تفاوت فى هذه المسألة سواء قلنا بتكامل الأنواع أو ثبوتها، لأن أخشاب الأشجار و الحيوانات قد خلقت جميعا من التراب على كل حال.
غاية ما فى الأمر أن العمل الإعجازى هنا اختصر كل تلك المراحل التى كان يجب أن تطوى خلال سنين طويلة فى لحظة واحدة، و فى مدّة قصيرة جدّا، فهل يبدو مثل هذا الأمر محالا؟
من الممكن أن أكتب باليد كتابا ضخما فى سنة، فإذا وجد شخص يستند و يعتمد على الإعجاز و يؤدى هذا العمل فى ساعة أو أقل، فإنّ هذا ليس محالا عقليا، بل هو خارق للعادة. (دققوا ذلك).
على كل حال، فإنّ القضاء العجول حول المعجزات، و نسبتها- لا- سمح اللّه- إلى الخرافات أمر بعيد عن المنطق و العقل. الشىء الوحيد الذى يحفز و يثير هذه الأفكار أحيانا، هو أنّنا قد اعتدنا على العلل و المعلولات الطبيعية، إلى الحد الذى اعتقدنا أنّها من الضروريات، و كل ما يخالفها فهو مخالف للضرورة، فى حين أن هذه العلاقة بين العلة و المعلول أمر طبيعى، و ليس له صفة الضرورية، و لا مانع من أن يظهرها عامل أقوى من الطبيعة بشكل آخر[۳۶۱].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۴

۲- قابليات الأشياء الخارقة

من المسلّم أن موسى الذى اختار لنفسه عصا الرعى تلك، لم يكن يصدق أن هذا الموجود البسيط يستطيع القيام بمثل هذا العمل العظيم بأمر اللّه، و يحطم قوّة الفراعنة، إلّا أنّ اللّه سبحانه قد أراه أن نفس هذه الآلة البسيطة تستطيع أن توجد مثل تلك القوة الخارقة.
إنّ هذا- فى الواقع- درس لكل البشر بأن لا يستصغروا أى شىء، فإن كثيرا من الموجودات التى ننظر إليها باحتقار تحتوى فى باطنها على قدرات عظيمة نحن غافلون عنها و غير مطلعين عليها.

۳- ماذا تقول التوراة حول هذا الموضوع؟

فى الآيات أعلاه قرأنا أنّ موسى عليه السّلام عند ما أخرج يده من جيبه كانت بيضاء مضيئة لا عيب فيها، و يمكن أن تكون هذه الجملة من أجل نفى التعبير الذى يلاحظ فى التوراة المحرفة، فقد ورد فى التوراة: (و قال اللّه له أيضا: الآن ضع يدك إلى جنبك، فوضع يد إلى جنبه، و أخرجها فإذا يده مبروصة كالثلج)[۳۶۲].
إن كلمة «المبروص» مأخوذة من البرص، و هو نوع من الأمراض، و من المسلم أن استعمال هذا التعبير هنا خطأ و غير مناسب.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۵

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۲۴ الى ۳۶]

اشارة

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٢۴) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢۵) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢۶) وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣)

وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣۴) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (٣۵) قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (٣۶)

التّفسير

موسى و طلباته القيمة:

إلى هنا وصل موسى إلى مقام النبوة، و تلقى معاجز مهمّة تسترعى الانتباه، إلّا أنّه من الآن فصاعدا صدر له أمر الرسالة .. رسالة عظيمة و ثقيلة جدّا ..

الرسالة التى تبدأ بإبلاغ أعتى و أخطر شخص فى ذلك المحيط، فتقول الآية:

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى

أجل .. فمن أجل إصلاح بيئة فاسدة، و إيجاد ثورة شاملة يجب البدء برؤوس الفساد و أئمّة الكفر .. أولئك الذين لهم تأثر فى جميع أركان المجتمع، و لهم حضور فى كل مكان، بأنفسهم أو أفكارهم أو أنصارهم .. أولئك الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۶

تركزت كل الوسائل و المنظمات الإعلامية و الاقتصادية و السياسية فى قبضتهم، فإذا ما أصلح هؤلاء، أو قلعت جذورهم عند عدم التمكن من إصلاحهم، فيمكن أن يؤمن خلاص و نجاة المجتمع، و إلّا فإنّ أى إصلاح يحدث فإنّه سطحى و مؤقت و زائل.

و الملفت للنظر أن دليل وجوب الابتداء بفرعون ذكر فى جملة قصيرة: إِنَّهُ طَغى حيث جمع فى كلمة (طغيان) كل شىء .. الطغيان و تجاوز الحدود فى كل أبعاد الحياة، و لذلك يقال هؤلاء الأفراد: طاغوت.

و مضافا إلى أنّ موسى عليه السّلام لم يستوحش و لم يخف من هذه المهمّة الثقيلة الصعبة، و لم يطلب من اللّه أى تخفيف فى هذه المهمة، فإنّه قد تقبلها بصدر رحب، غاية ما فى الأمر أنّه طلب من اللّه أسباب النصر فى هذه المهمة. و لما كان أهم و أول أسباب النصر الروح الكبيرة، و الفكر الوقاد، و العقل المقتدر، و بعبارة أخرى: رحابة الصدر، فقد قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي

نعم إنّ أوّل رأسمال لقائد ثورى هو رحابة الصدر، و الصبر الطويل، و الصمود و الثبات، و الشهامة و تحمل المشاكل و المصاعب، و لذلك فإنّنا نقرأ

فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «آلة الرياسة سعة الصدر»[۳۶۳].

و قد بحثنا الصدر و معناه فى ذيل الآية (١٢۵) من سورة الأنعام.

و لما كان هذا الطريق مليئا بالمشاكل و المصاعب التى لا يمكن تجاوزها إلّا بلطف اللّه، فقد طلب موسى من اللّه فى المرحلة الثّانية أن تيسر له أموره و أعماله، و أن تذلل هذه العقبات التى تعترضه، فقال: وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي

ثمّ طلب موسى أن تكون له قدرة على البيان بأعلى المراتب فقال: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي فصحيح أن امتلاك الصدر الرحب أهم الأمور و الأسس، إلّا أنّ بلورة هذا الأساس تتمّ إذا وجدت القدرة على إراءته و إظهاره بصورة كاملة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۷

و لذلک فإنّ موسی بعد طلب انشرح الصدر، و رفع الموانع و العقبات، طلب من اللّه حل العقدة من لسانه.

خاصّة و أنّه بیّن علة هذا الطلب فقال: يَفْقَهُوا قَوْلِي فهذه الجملة فی الحقیقة تفسیر للآیة التی قبلها، و منها یتّضح أنّ المراد من حلّ عقدة اللسان لم یکن هو التلکؤ و بعض العسر فی النطق الذی أصاب لسان موسی علیه السّلام نتیجة احتراقه فی مرحلة الطفولة- کما نقل ذلک بعض المفسّرین عن ابن عباس- بل المراد عقد اللسان المانعة من إدراک و فهم السامع، أی أرید أتکلم بدرجة من الفصاحة و البلاغة و التعبیر بحیث یدرک أی سامع مرادی من الکلام جیدا.

و الشاهد الآخر علی هذا التعبیر هی الآیة (۳۴) من سورة القصص: وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً. و اللطیف فی الأمر أن «أفصح» من مادة فصیح، و هی فی الأصل کون الشیء خالصا من الشوائب، ثمّ أطلقت علی الکلام البلیغ المعبر الخالی من الحشو و الزیادات.

و علی کل حال، فإنّ القائد و القدوة و الموفق و المنتصر هو الذی یمتلک إضافة إلی سعة الفکر و قدرة الروح، بیانا أخاذا بلیغا خالیا من کل أنواع الإبهام و القصور.

و لما کان إیصال هذا الحمل الثقیل- حمل رسالة اللّه، و قیادة البشر و هدایتهم، و محاربة الطواغیت و الجبابرة- إلی المحل المقصود یحتاج إلی معین و مساعد، و لا یمکن أن یقوم به إنسان بمفرده، فقد کان الطلب الرابع لموسی من اللّه هو:

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي

«الوزیر» من مادة الوزر، و هی فی الأصل تعنی الحمل الثقیل، و لما کان الوزراء یتحملون کثیرا من الأحمال الثقیلة علی عاتقهم، فقد أطلق علیهم هذا الاسم، و کذلک تطلق کلمة الوزیر علی المعاون و المساعد.

أمّا لماذا طلب موسی أن یکون هذا الوزیر من أهله؟ فسببه واضح، لأنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۸

یعرفه جیدا، و من جهة أخری فإنّه أحرص من غیره، فکم هو جید و جمیل أن یستطیع الإنسان أن یتعاون مع شخص تربطه به علائق روحیة و جسمیة؟! ثمّ یشیر إلی أخیه، فیقول: هارُونَ أَخِي و هارون- حسب نقل بعض المفسّرین- کان الأخ الأکبر لموسی، و کان یکبره بثلاث سنین، و کان طویل القامة، جمیلا بلیغا، عالی الإدراک و الفهم، و قد رحل عن الدنیا قبل وفاة موسی بثلاث سنین ۳۶۴].

و قد کان نبیّا مرسلا کما یظهر من الآیة (۴۵) من سورة المؤمنون: ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ و کذلک کانت له بصیرة بالأمور و میزانا باطنیا لتمییز الحق من الباطل، کما ورد فی الآیة (۴۸) من سورة الأنبیاء:

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً. و أخیرا فقد کان نبیّا وهبه اللّه لموسی من رحمته: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا[۳۶۵]، فقد کان یسعی جنبا إلی جنب مع أخیه فی أداء هذه الرسالة الثقیلة.

صحیح أن موسی علیه السّلام عند ما طلب ذلک من اللّه فی تلک اللیلة المظلمة فی الوادی المقدس حیث حمّل الرسالة، کان قد مضی علیه أکثر من عشر سنین بعیدا عن وطنه، إلّا أنّ ارتباطه- عادة- بأخیه لم یقطع بصورة کاملة، بحیث أنّه یتحدث بهذه الصراحة عنه، و یطلب من اللّه أن یشارکه فی هذا البرنامج الکبیر.

ثمّ یبیّن موسی علیه السّلام هدفه من تعیین هارون للوزارة و المعونة فیقول: اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي و «الأزر» أخذت فی الأصل من مادة الإزار، أی اللباس، و تطلق خاصّة علی اللباس الذی یشد و یعقد وسطه، و لذلک قد تطلق هذه الکلمة علی الظهر أو القوّة و القدرة لهذا السبب و یطلب، من أجل تکمیل هذا المقصد و المطلب: وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۹

فیکون شریکا فی مقام الرسالة، و فی إجراء و تنفیذ هذا البرنامج الکبیر، إلّا أنّه یتبع موسی علی کل حال، فموسی إمامه و مقتداه.

و فی النهایة یبیّن نتیجة هذه المطالب فیقول: كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً و تعلم حاجاتنا جیدا، و مطّلع علی مصاعب هذا الطریق أکثر من الجمیع، فنحن نطلب منک أن تعیننا علی طاعتک، و أن توفقنا و تؤیدنا فی أداء واجباتنا و

مسئولیاتنا الملقاة على عاتقنا.

و لما کان موسى لم یهدف من طلباته المخلصة هذه إلّا الخدمة الأکثر و الأکمل، فإنّ اللّه سبحانه قد لبى طلباته فی نفس الوقت قالَ قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یا مُوسى

إنّ موسى فی الواقع طلب کل ما کان یلزمه فی هذه اللحظات الحساسة الحاسمة التی یجلس فیها لأوّل مرّة على مائدة الضیافة الإلهیة و یطأ بساطها، و اللّه سبحانه کان یحب ضیفه أیضا، حیث لبّى کل طلباته و أجابه فیها فی جملة قصیرة تبعث الحیاة، و بدون قید و شرط ثمّ و بتکرار اسم موسى أکمل له الاستجابة و حلاوتها و أنزال کل إبهام عن قلبه، و أی تشویق و افتخار أن یکرر المولى اسم العبد؟

بحوث

١- شروط قیادة الثورة

لا شک أنّ تبدیل البنیة فی نظام المجتمعات البشریة، و تغییر القیم المادیة و الملحدة إلى القیم المعنویة و الإنسانیة، و خاصّة إذا کان الطریق یقع فی طریق الفراعنة العنودین، لیس بالعمل الهین، بل یحتاج إلى استعداد روحی و جسمی، و قدرة على التفکیر، و قوة فی البیان، و استمرار الإمدادات الإلهیة، و وجود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۰

الصاحب الذی یطمأن إلیه. و هذه هی الأمور التی طلبها موسى علیه السّلام فی بدایة الرسالة من ربّه.

إن هذه المطالب تبیّن بنفسها أنّ موسى علیه السّلام کان یمتلک روح الوعی و الاستعداد حتى قبل النّبوة، و تبیّن أیضا هذه الحقیقة، و هی أنّه کان واقفا على أبعاد مسئولیته جیدا، و کان یعلم بأنّه ماذا یجب أن یستعمل فی الساحة فی تلک الظروف، و أی سلاح هو الأمضى، لیمتلک القدرة على مقارعة الاجهزة الفرعونیة، و هذا نموذج و قدوة لکل القادة الربانیین فی کل عصر و زمان، و لکل السائرین فی هذا الطریق.

٢- مقارعة الطغاة

لا شک أنّ لفرعون نقاطا و صفات منحرفة کثیرة، فقد کان کافرا، عابدا للأصنام، ظالما، مستبدا و و ... إلّا أنّ القرآن طرح من بین کل هذه الانحرافات مسألة الطغیان إِنَّهُ طَغى لأن روح الطغیان و التمرد فی مقابل أمر الحق عصارة و خلاصة کل هذه الانحرافات و جامع لها.

و یتّضح بصورة ضمنیة أنّ هدف الأنبیاء فی الدرجة الأولى هو مقارعة الطواغیت و المستکبرین، و هذا فی الواقع عکس التحلیل الذی یذکره المارکسیون حول الدین تماما، حیث زعموا أنّ الدین فی خدمة الطغاة و المستعمرین الماضین.

إنّ کلام هؤلاء قد یصح فی شأنه المذاهب المصطنعة التخدیریة، إلّا أنّ تاریخ الأنبیاء الحقیقیین ینفی بصراحة تامة ظنون هؤلاء الواهیة فی شأن الأدیان و المذاهب، خاصّة و إن ثورة موسى بن عمران شاهد ناطق فی هذا المجال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۱

٣- کل عمل یحتاج إلى تخطیط و وسائل

الدرس الآخر الذی نستفید من حیاة موسی و جهاده العظیم، هو أنّه حتی الأنبیاء، و مع امتلاکهم للمعجزات، کانوا یستعینون بالوسائل العادیة الطبیعیة، من البیان البلیغ و المؤثر، و من طاقات المؤمنین بهم الفکریة و الجسمیة، فی سبیل تقدم عملهم و تطوره، فلیس صحیحا أن ننتظر المعاجز فی حیاتنا دائما، بل یجب تهیئة البرامج و أدوات العمل، و الاستمرار فی التقدم بالطرق و الوسائل الطبیعیة، فإذا ما واجهتنا عقدة و معضلة، فیجب أن ننتظر اللطف الإلهی هناک.

۴- التسبیح و الذکر

لقد جعل موسی الهدف النهائی من طلباته- کما فی الآیات محل البحث- هو: کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً وَ نَذْکُرَکَ کَثِیراً و معلوم أنّ التسبیح یعنی تنزیه اللّه عن تهمة الشرک و النواقص الإمکانیة، و معلوم أیضا أنّ مراد موسی علیه السّلام لم یکن تکرار جملة «سبحان اللّه» مرارا، بل کان الهدف إیجاد حقیقة التسبیح فی ذلک المجتمع الملوث فی ذلک الزمان، فیقتلعوا الأصنام، و یهدموا معابد الأوثان، و تغسل الأدمغة من أفکار الشرک، و ترفع النواقص المادیة و المعنویة.

و بعد تنزیه المجتمع عن هذه المفاسد، علیهم أن یحیوا فی القلوب ذکره تعالی و ذکر صفاته، و یجعلون الصفات الإلهیة تشع فی أرجاء المجتمع، و التأکید علی کلمة «کثیرا» توحی بأنّه کان یرید أن یجعل هذا الأمر عاما، و أن یخرجه من الإختصاص بدائرة محدودة.

۵- الرّسول الأعظم یکرر مطالب موسی

یستفاد من الرّوایات الواردة فی کتب أهل السنة و الشیعة أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد طلب من اللّه نفس تلک المطالب التی طلبها موسی علیه السّلام من اللّه من أجل تقدم عمله،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۲

مع فارق، هو أنّه وضع اسم علی علیه السّلام مکان اسم هارون، و قال: «اللهم إنّی أسألک بما سألک أخی موسی أن تشرح لی صدری، و أن تیسر لی أمری، و أن تحل عقدة من لسانی، یفقهوا قولی، و اجعل لی وزیرا من أهلی، علیا أخی، أشدد به أزری، و أشرکه فی أمری، کی نسبحک کثیرا، و نذکرک کثیرا».

و قد نقل هذا الحدیث السیوطی فی تفسیر «الدر المنثور»، و العلّامة الطبرسی فی «مجمع البیان»، و کثیرون و غیرهم من کبار علماء الفریقین باختلاف فی العبارات.

و هذا الحدیث یشبه حدیث المنزلة، حیث

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی علیه السّلام: «ألا ترضی أن تکون منّی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبی بعدی».

و هذا الحدیث قد ورد فی کتب العامّة المعتمدة، و کما قال المحدث البحرانی فی کتابه «غایة المرام»: إنّ هذا الحدیث قد ورد بمائة طریق عن أهل السنة، و بسبعین طریق من طرق الشیعة»، فهو معتبر إلی الحدّ الذی لا یدع أی مجال للشک فیه، أو لإنکاره.

و قد بحثنا حول حدیث المنزلة بحثا ضافیا فی ذیل الآیة (۱۴۲) من سورة الأعراف، و الذی نعتبر ذکره ضروریا هنا، هو أن بعض المفسّرین- کالآلوسی فی «روح المعانی»- مع قبوله أصل الرّوایة، إلّا أنّه أشکل فی دلالتها، و قالوا: إن جملة أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی لا تثبت غیر الاشتراک فی أمر إرشاد و دعوة الناس إلی الحق! إلّا أنّ من الواضح أن مسألة الاشتراک فی الإرشاد، و بتعبیر آخر: الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و نشر الدین، واجب علی کل فرد من المسلمین، و هذا لم یکن شیئا یطلبه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و

سلّم لعلی علیه السّلام .. إن هذا توضیح للواضحات، و لا یمکن تفسیر دعاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بذلک مطلقا.

و من جهة أخری، فإنّا نعلم أن الأمر لم یکن الاشتراک فی النّبوة، و بناء علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۳

هـذا نخلص إلی هـذه النتیجـة، و هی أن المطلوب مقام خاص غیر النّبوة، و هل یمکن أن یکون إلّا الولایـة الخاصّـة؟! ألیس ذلک هو الخلافة بالمفهوم الخاص الذی تقول به الشیعة؟ و جملة «وزیرا» أیضا تؤید و تقوی ذلک.

و بتعبیر آخر، فإنّ هناک واجبات لا یقوم بها کل الأفراد، و هی حفظ دین النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من کل أنواع التحریف و الانحراف، و تفسیر أی إبهام بیدیه البعض فی محتوی الدین، و قیادة الأمّة فی غیبة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعده، و المساعدة المؤثرة جدا فی تحقیق أهدافه.

إن هذا هو الشیء الذی طلبه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

بقوله: «أشرکه فی أمری»

لعلی علیه السّلام من اللّه سبحانه.

و من هنا یتّضح أن وفاة هارون قبل موسی لا توجد إشکالا فی هذا البحث، لأنّ الخلافة و النیابة تکون أحیانا فی زمان غیبة القائد کما تولاها هارون عند غیاب موسی، و تکون أحیانا بعد وفاته کما کان علی علیه السّلام بعد وفاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و کلاهما لهما نفس القدر المشترک و الجامع الواحد، و إن کانت المصادیق متفاوتة.

(دققوا ذلک).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۴

الآیات [سورة طه (۲۰): الآیات ۳۷ الی ۴۱]

اشارة

وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلَیْکَ مَرَّةً أُخْری (۳۷) إِذْ أَوْحَیْنا إِلی أُمِّکَ ما یُوحی (۳۸) أَنِ اقْذِفِیهِ فِی التّابُوتِ فَاقْذِفِیهِ فِی الْیَمِّ فَلْیُلْقِهِ الْیَمُّ بِالسّاحِلِ یَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِی وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَیْتُ عَلَیْکَ مَحَبَّةً مِنِّی وَ لِتُصْنَعَ عَلی عَیْنِی (۳۹) إِذْ تَمْشِی أُخْتُکَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلی مَنْ یَکْفُلُهُ فَرَجَعْناکَ إِلی أُمِّکَ کَیْ تَقَرَّ عَیْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّیْناکَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنّاکَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِینَ فِی أَهْلِ مَدْیَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلی قَدَرٍ یا مُوسی (۴۰) وَ اصْطَنَعْتُکَ لِنَفْسِی (۴۱)

التّفسیر

الربّ الرحیم:

یشیر اللّه سبحانه فی هذه الآیات إلی فصل آخر من فصول حیاة موسی علیه السّلام، و الذی یرتبط بمرحلة الطفولة و نجاته من قبضة الفراعنة. و هذا الفصل و إن کان من ناحیة التسلسل التاریخی قبل فصل الرسالة و النّبوة، إلّا أنّه ذکر کشاهد علی شمول عنایة اللّه عزّ و جل لموسی علیه السّلام من بدایة عمره، و هی فی الدرجة الثّانیة من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۵

الأهمیة بالنسبة إلی الرسالة، فیقول أوّلا: وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلَیْکَ مَرَّةً أُخْری ۳۶۶].

و بعد ذكر هذا الإجمال تتطرق الآيات إلى الشرح و التفصيل، فتقول: إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى و هو إشارة إلى أنّنا قد علّمنا أمّه كل الطرق التى تنتهى إلى نجاة موسى عليه السّلام من قبضة الفراعنة، لأنّه يستفاد من سائر آيات القرآن أن فرعون شدّد ارهابه على بنى إسرائيل للتصدّى لقوتهم و عصيانهم المحتمل، أو أنّه- على رأى بعض المفسّرين و المؤرخين- كان قد أمر بقتل أبنائهم و إبقاء البنات للخدمة، لكى يمنع ولادة ولد من بنى إسرائيل كان قد أخبره المنجمون أنّه يثور عليه و يزيل ملكه.

من الطبيعى أن جواسيس و عيون فرعون كانوا يراقبون بشدة محلات بنى إسرائيل و بيوتهم، و كانوا لا يدعون ذكرا يولد إلّا و قتلوه.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أن فرعون كان يريد تحطيم قوّة بنى إسرائيل من جهة، و كان من جهة أخرى غير راغب فى انقراض نسلهم تماما، لأنّه كان يعتبرهم عبيدا يصلحون للخدمة، و لذلك كان قد أمر بأنّ يتركوا الأولاد سنة و يذبحونهم سنة أخرى، فكان أن ولد موسى فى العام الذى يقتل فيه الأولاد! على كل حال، فإنّ هذه الأم أحسّت بأن حياة وليدها فى خطر، و إخفاؤه مؤقتا سوف لا يحل المشكلة .. فى هذه الأثناء ألهمها اللّه- الذى رشّح هذا الطفل لثورة كبيرة- أن أودعيه عندنا، و انظرى كيف سنحافظ عليه، و كيف سنرده إليك؟

فألقى فى قلب الأمّ: أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِ

«اليم» هنا يعنى نهر النيل العظيم الذى يطلق عليه أحيانا اسم البحر لسعته و كثرة مياهه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۶

و التعبير ب اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ربما كان إشارة إليها أن ارفعى ولدك بكل شجاعة و بدون أى خوف أو ارتياب، و ضعيه فى الصندوق، و ألقيه فى نهر النيل، و لا تدعى للخوف سبيلا إلى نفسك.

كلمة «التابوت» تعنى الصندوق الخشبى، و لا يعنى دائما الصندوق الذى توضع فيه الأموات كما يظن البعض، بل إنّه له معنى واسعا، حيث تطلق أحيانا على الصناديق الأخرى أيضا، كما قرأنا ذلك فى قصة طالوت و جالوت فى ذيل الآية (۲۴۸) من سورة البقرة[۳۶۷].

ثمّ تضيف: فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ و الملفت أن كلمة «عدو» قد تكررت هنا، و هذا فى الحقيقة تأكيد على عداء فرعون للّه، و لموسى و بنى إسرائيل، و أشارت إلى أن الشخص الذى انغمس إلى هذا الحد فى العداء هو الذى سيتولى فى النهاية تربية موسى ليعلم البشر الضعيف أنّه ليس عاجزا عن التمرد على أمر اللّه و حسب، بل إنّ اللّه سيربيه على يد عدوه و فى أحضانه! و عند ما يريد أن يفنى المتمردين الظالمين فسيفنيهم و يبيدهم بأيديهم، و يحرقهم بالنار التى يوقدونها بأنفسهم، فأى قدرة عجيبة قدرته تعالى؟! و لما كان موسى عليه السّلام يجب أن يحفظ فى حصن أمين فى هذا الطريق الملىء بالمخاطر، فقد ألقى اللّه قبسا من محبّة عليه، إلى الحد الذى لم ينظر إليه أحد إلا و يعشقه، فلا يكف عن قتله و حسب، بل لا يرضى أن تنقص شعرة من رأسه، كما يقول القرآن فى بقية هذه الآيات: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي فأى درع عجيب هذا الحب! إنّه لا يرى بالعين، و لكنه أقوى من الحديد و الفولاذ!! يقولون: إنّ قابلة موسى كانت من الفراعنة، و كانت مصممة على رفع خبر ولادته إلى فرعون، إلّا أنّه لما وقعت عينها على عين المولود الجديد، فكأن ومضة برقت من عينه و أضاءت أعماق قلبها، و طوّقت محبته رقبتها، و ابتعدت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۷

عن رأسها كل الأفكار السيئة.

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى هذا الباب: «فلمّا وضعت أم موسى موسى نظرت إليه و حزنت عليه و اغتمت و بكت و قالت: تذبح الساعة، فعطف اللّه الموكلة بها عليه، فقالت لأم موسى: مالك قد اصفر لونك؟ فقالت: أخاف أن يذبح ولدى، فقالت: لا تخافى و كان موسى لا يراه أحد إلا أحبه»[۳۶۸]،

و كان درع المحبة هذا هو الذى حفظه تماما فى بلاط فرعون.

و تقول الآیة فی النهایة: وَ لِتُصْنَعَ عَلی عَیْنِی فلا شک فی أنّه لا تخفی ذرة عن علم اللّه فی السماء و لا فی الأرض، و کل شیء حاضر بین یدیه، إلّا أنّ هذا التعبیر إشارة إلی العنایة الخاصّة التی أولاها اللّه سبحانه لموسی و تربیته.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین اعتقد أنّ جملة وَ لِتُصْنَعَ عَلی عَیْنِی مقصورة علی مرحلة رضاعة موسی و أمثالها، إلّا أنّ من المعلوم أن لهذه الجملة معنی واسعا، تدخل فیه کل أنواع التربیة و العنایة، و صنع موسی علیه السّلام من أجل حمل رایة الرسالة مع عنایة اللّه الخاصّة.

و یستفاد بوضوح من القرائن الموجودة فی هذه الآیات، و الآیات المشابهة لها فی القرآن، و ممّا جاء فی الرّوایات و التواریخ، أنّ أمّ موسی علیه السّلام قد ألقت الصندوق الذی کان فیه موسی و هی فی حالة من الخوف و القلق، و حملته أمواج النیل، و أخذ قلب أم موسی یخفق من مشاهدة هذا المنظر، إلّا أنّ اللّه قد ألهم قلبها أن لا یدع للهم و الحزن إلیه طریقا، فهو سبحانه سیعیده إلیها فی النهایة سالما.

و کان قصر فرعون قد بنی علی جانب شط النیل، و یحتمل أن فرعا من هذا النهر العظیم کان یمر داخل قصره، فحملت أمواج المیاه الصندوق إلی ذلک الفرع الصغیر، و بینما کان فرعون و زوجته علی حافة الماء ینظرون إلی الأمواج، و إذا بهذا الصندوق الغریب یلفت انتباههما، فأمر جنوده أن یخرجوا الصندوق من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۸

الماء، فلمّا فتحوا الصندوق شاهدوا بکامل العجب مولودا جمیلا فیه، و هو شیء لم یکن بالحسبان.

و هنا تنبه فرعون إلی أن هذا الولید ینبغی أن یکون من بنی إسرائیل، و إنما لاقی هذا المصیر خوفا من جلاوزته، فأمر بقتله، إلّا أنّ زوجته- التی کانت عقیما- تعلقت جدّا بالطفل، فقد نفذ النور الذی کان ینبعث من عینی الطفل إلی زوایا قلبها، و جذبها إلیه، فضربت علی ید فرعون و طلبت منه أن یصرف النظر عن قتله، و عبرت عن هذا الطفل بأنّه قُرَّتُ عَیْنٍ بل و تمادت فی طلبها، فطلبت منه أن یتخذاه ولدا لیکون مبعث أمل لهما، و یکبر فی أحضانهما، و أصرّت علی طلبها حتی أصابت سهامها، و حققت ما تصبو إلیه.

غیر أن الطفل جاع، و أراد لبنا، فأخذ یبکی و یذرف الدموع، فرق قلب امرأة فرعون لهذه الدموع و البکاء و اهتز، و لا محیص من أن یبحث الخدم عن مرضعة له، إلّا أنّهم کلما جاؤوه بمرضعة لم یقبل ثدیها، لأن اللّه سبحانه کان قد قدر أن یعیده إلی أمّه، فهب المأمورون للبحث من جدید، و کانوا یطرقون الأبواب بحثا عن مرضع جدیدة.

و الآن نقرأ بقیة القصة علی ضوء الآیات الشریفة:

نعم یا موسی، فإنّا کنّا قدرنا أن تتربی بأعیننا و علمنا إِذْ تَمْشِی أُخْتُکَ بأمر أمک لتراقب مصیرک، فرأت جنود فرعون: فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلی مَنْ یَکْفُلُهُ و ربّما أضافت بأن هذه المرأة لها لبن نظیف، و أنا مطمئنة بأن هذا الرضیع سیقبلها.

فاستبشر الجنود علی أمل أن یجدوا ضالتهم عن هذا الطریق، فذهبوا معها، فأطلعت أخت موسی- و التی کانت تظهر نفسها بمظهر الشخص الغریب و المجهول- أمّها علی الأمر، فجاءت أمّه إلی بلاط فرعون، من دون أن تفقد سیطرتها علی أعصابها، بالرغم من أن أمواجا من الحب و الأمل کانت قد أحاطت بکل قلبها، و احتضنت الطفل، فلمّا شم الطفل رائحة أمّه، و کانت رائحة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۹

مألوفة لدیه، التقم ثدیها کأنّه تضمن لذة الروح و حلاوتها، و اشتغل الطفل بشرب اللبن بلهفة و عشق شدیدین، فانطلقت صرخات الفرح من الحاضرین، و بدت آثار الفرح و السرور علی زوجة فرعون.

یقول البعض: إنّ فرعون تعجب من هذه الحادثة، و قال: من أنت إذ قبل هذا الطفل لبنک فی حین أنّه ردّ جمیع الأخریات؟ فقالت الأم: إنّی امرأة طیبة الریح و اللبن، و لا یرفض لبنی أی طفل! عل کل حال فقد أمرها فرعون بالاهتمام بالطفل، و أکدت زوجته کثیرا علی حفظه و حراسته، و أمرت أن یعرض علیها الطفل بین فترة و أخری.

هنا تحقق ما قاله القرآن: فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَیْ تَقَرَّ عَیْنُها وَ لا تَحْزَنَ و لتستطيع تربيته بدون خوف من جلاوزة فرعون. و يستفاد من هـذه العبارة أن فرعون أودع الطفل أمه لتذهب به إلى بيتها، إلّا أنّ من الطبيعى أن ابن عائلة فرعون! الذى تعلقت به امرأته و أحبته حبا شديدا، يجب أن يعرض عليها بين فترة و أخرى.

و مرّت السنون و الأعوام، و تربى موسى عليه السّلام وسط هالة من لطف اللّه و محبته، و فى محيط آمن، و شيئا فشيئا أصبح شابا. و كان ذات يوم يمر من طريق فرأى رجلين يتشاجران، أحدهما من بنى إسرائيل و الآخر من الأقباط- (و هم المصريون قوم فرعون)- و لما كان بنو إسرائيل يعيشون دائما تحت ضغط الأقباط الظالمين و أذاهم، هبّ موسى لمعونة المظلوم الذى كان من بنى إسرائيل، و من أجل الدفاع عنه وجه ضربة قاتلة إلى ذلك القبطى، فقضت عليه.

فتأثر موسى مما حدث و قلق، لأن حراس فرعون علموا فى النهاية من الذى قام بعملية القتل هذه، فنشطوا للبحث عنه و مطاردته. إلّا أنّ موسى، و حسب إشارة بعض أصدقائه عليه، خرج متخفيا من مصر، و توجه إلى مدين، فوجد محيطا و جوا آمنا فى ظل النّبى «شعيب»، و الذى سيأتى شرح حاله فى تفسير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۶۰

سورة القصص إن شاء اللّه تعالى هنا حيث يقول القرآن الكريم: وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فبعد حادثة القتل اختبرناك كثيرا و القينا بك فى اتون الحوادث و الشدائد فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ و بعد اجتياز هذا الطريق الطويل، و الاستعداد الروحى و الجسمى، و الخروج من دوامة الأحداث بشموخ و انتصار فقد جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى أى حيث لاستلام مهمّة الرسالة فى زمان مقدّر إلى هذا المكان.

إن كلمة «قدر»- برأى كثير من المفسّرين- تعنى الزمان الذى قدر فيه أن ينتخب موسى للرسالة. إلّا أنّ البعض اعتبرها بمعنى المقدار، كما جاء هذا المعنى فى بعض الآيات القرآنية، الآية (۲۱) من سورة الحجر، و طبقا لهذا التّفسير سيكون معنى الآية: يا موسى إنّك قد نشأت و أصبحت- بعد تحمل هـذه المصاعب و الامتحانات و عشت سنين فى بيت نبى كبير كشعيب- ذا قدر و مقام و شخصية، و حصلت على استعداد لتلقى الوحى.

ثمّ يضيف: وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي فمن أجل مهمّة تلقى الوحى الصعبة، و من أجل قبول الرسالة، و من أجل هداية العباد و إرشادهم ربّيتك و اختبرتك فى الحوادث الصعبة و مشاقّها، و منحتك القوة و القدرة، و الآن حيث ألقيت هـذه المهمّة الكبرى على عاتقك، فإنّك مؤهل من جميع الجوانب.

«اصطناع» من مادة «صنع» بمعنى الإصرار و الاقدام الأكيد على إصلاح شيء (كما يراه الراغب فى مفرداته). و يعنى إنّنى قد اصلحتك من كل الجهات و كأننى أريدك لى و هـذا الكلام هو أكثر ما يمكن أن يقال فى تصوير محبّة اللّه لهذا النّبى العظيم، و ذهب البعض أنّه يشبه ما قاله الحكماء من: إنّ اللّه إذا أحبّ عبدا تفقده كما يتفقد الصديق صديقه.

نهاية المجلد التّاسع

---

[۱] (۱) بعض المفسّرين قال: إنّ هذا الجزء من الآية يعنى أنّ هناك آلهة أخرى تحاول أن تقرب نفسها إلى اللّه. و هذا يعنى أنّ هذه الآلهة(الأصنام و غيرها) الوهمية عند ما لا تستطيع أن تقرّب نفسها للّه فكيف تستطيع أن تقربكم أنتم؟

و لكن سياق هذه الآية التى بعدها لا يتواءمان مع هذا التّفسير.

[۲] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۲۶.

[۳] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة(۱۶۸).

[۴] (۲)- نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة(۱۶۸).

[۵] (۳)- المصدر السابق.

[۶] (۴)- عن أبو نعیم الإصفهانی فی حلیة الأولیاء(نقلا عن تفسیر المیزان).

[۷] (۵)- المصدر السابق.

[۸] (۱)- عن« الکافی» طبقا لما ذکره صاحب المیزان.

[۹] (۱)- مجمع البیان، المجلد الثّالث، صفحة ۴۱۸.

[۱۰] (۲)- التّفسیر الکبیر، المجلد ۲۰، صفحة ۲۲۰- ۲۲۱.

[۱۱] (۱)- نقل عن الأخفش، أنّ اسم المفعول قد یأتی فی بعض الأحیان بمعنی اسم الفاعل مثل میمون بمعنی یامن، و مشئوم بمعنی شائم.

[۱۲] (۱)- سورة القیامة، الآیتان ۵، ۶.

[۱۳] (۱)-« رفات» علی وزن« کرات» و هو معنی یطلق علی کلّ شیء قدیم و متلاش.

[۱۴] (۱)- إلی هذا الرأی یذهب الشّیخ الطبرسی فی مجمع البیان، و القرطبی فی تفسیره. یراجع تفسیرهما للآیة الکریمة.

[۱۵] (۱)- فی کتاب مزامیر داود(الزّبور) و الذی بین أیدینا الآن، نقرأ فی الزبور(۲۷):« لأنّ الشریرین سوف ینقطعون، أمّا المتوکلون علی اللّه فسیرثون الأرض، و بعد مدّة سوف لا یکون هناک شریرین، أمّا الحکماء و الصالحون فسیرثون الأرض». و فی المزمور فی الجملة(۲۲) و(۲۹) نقرأ تعابیر مشابهة. و هذا ینطبق مع ما جاء فی القرآن الکریم فی الآیة(۱۰۵) من سورة الأنبیاء\:i وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ E.

[۱۶] (۱)- وفقا لهذا التّفسیر تکون« أیّهم» بدل من ضمیر« یبتغون»، أو مبتدأ لخبر محذوف، و فی التقدیر تکون الآیة:

\i أَیُّهُمْ أَقْرَبُ E أیّهم أکثر دعاء و ابتغاء للوسیلة.

[۱۷] (۲)- فی هذه الحالة« أیّهم» من حیث الترکیب النحوی یمکن أن تکون- فقط- بدلا من ضمیر(یبتغون).

[۱۸] (۱)- ملخص من الخطبة(۱۱۰) من نهج البلاغة. و قد شرحنا هذه الخطبة فی تفسیرنا هذا، ذیل الآیة(۱۳) من سورة المائدة.

[۱۹] (۱)- تفسیر القرطبی، المجلد السّادس، ص ۳۹۰۲؛ و تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۰، ص ۲۳۷.

[۲۰] (۲)- یراجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الثانی، ص ۵۳۸.

[۲۱] (۱)- ذهب المفسّرین إلی إنّ حرف الکاف فی کلمة(أ رأیتک) زائد، أو هو حرف للخطاب و قد جاء للتأکید، و جملة(أ رأیتک) بمعنی(أخبرنی) جوابها محذوف و تقدیرها(أخبرنی عن هذا الذی کرمته علیّ، لم کرمته علیّ و قد خلقتنی من نار؟). و لکن هناک احتمال آخر، و هو أنّ(أ رأیت) هی فی نفس معناها الأصلی و لا یوجد محذوف فی الجملة، و بشکل عام تعطی هذا المعنی: هل لاحظت هذا الموجود الذی فضلته علیّ، فإذا أبقیتنی علی قید الحیاة ستری بأنّی سأضل أکثر أبنائه.(احتمال الثّانی أوفق فی ترکیب الآیة و معناها).

[۲۲] (۱)- فی معانی المفردات تراجع مفردات الراغب، و مجمع البیان.

[۲۳] (۱)- وردت روایات متعدّدة فی أنّ مشارکة الشیطان فی الأولاد تعنی الأبناء غیر الشرعیین، أو المنعقدة نطفتهم من مال حرام، أو انعقاد النطفة فی لحظة غفلة الوالدین عن الخالق، و لکن- کما قلنا مرّات- إنّ هذه التفاسیر تبیّن جانبا من المصداق الواضح و هی لیست دلیلا علی حصر المعنی.(راجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة ۱۸۴).

[۲۴] (۱) طالع الشّرح الكامل للتوحيد الفطرى فى كتاب(خالق العالم)، و لا حظه أيضا فى نهاية الآية(۱۴) من سورة النحل حيث أشرنا إلى هذه المسألة.

[۲۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۹۳.

[۲۶] (۱) نور الثقلين، المجلد الثّالث، صفحة ۱۸۸.

[۲۷] (۱)- الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كارل، ص ۷۳- ۷۴.

[۲۸] (۱)-(فتيل) تعنى الخيط الرقيق الموجود فى شق نوى التمر، و فى المقابل فإن(نقير) تعنى مؤخرة نوى التمر، بينما تعنى(قطمير) الطبقة الرقيقة التى تغطى نوى التمر. و كل هذه التعابير كناية عن الشيء الصغير جدّا و الحقير.

[۲۹] (۱)- مجمع البيان عند تفسير الآية.

[۳۰] (۲)- المصدر السّابق.

[۳۱] (۱)-

i\'i\ قال الباقر عليه السّلام E« بنى الإسلام على خمس، على الصلاة، و الزكاة، و الصوم، و الحج، و الولاية، و لم يناد بشيء كما نودى بالولاية»\i عن أصول الكافى، ج ۲، ص ۱۵.\E\E

[۳۲] (۲)- عن نور الثقلين، المجلد الثّالث، صفحة ۱۹۴، و كذلك مصادر أخرى.

[۳۳] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار ۱۴۷.

[۳۴] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۹۶.

[۳۵] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۹۶- ۱۹۷.

[۳۶] (۳)- المصدر السابق.

[۳۷] (۱)- يمكن ملاحظة المزيد من التفاصيل عن الموضوع فى كتاب(القادة الكبار).

[۳۸] (۱)- أصول الكافى، ج ۱، كتاب العقل و الجهل، ص ۹، حديث ۸.

[۳۹] (۲)- أصول الكافى، ج ۱، ص ۳۷.

[۴۰] (۱)- النساء، ۴۰.

[۴۱] (۲)- الأنعام، ۱۶۰.

[۴۲] (۳)- تفسير العياشى وفقا لما نقله صاحب الميزان، ج ۲، ص ۴۲۴.

[۴۳] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۳، ص ۱۱۵.

[۴۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۰۵.

[۴۵] (۱)- روح المعانى، ج ۱۵، ص ۱۲۶.

[۴۶] (۱)- روح المعانى، ج ۱۵، ص ۱۲۶.

[۴۷] (۲)-« تهجّد» مأخوذة من(هجود) و هى تعنى فى الأصل: النوم، حسبما يقول الراغب فى المفردات. و لكن عند ما تكون على وزن(تفعل» فإنّها تعنى إزالة النوم و الانتقال إلى حالة اليقظة. أمّا الضمير فى كلمة« تهجّد به» فإنّه يدل على القرآن. و لكن هذه الكلمة استخدمت عند أهل الشرع بمعنى صلاة الليل. و يقال للذى يصلّى الليل(المتهجّد).

[۴۸] (۱)-(مدخل) و(مخرج) هى تعنى الإدخال و الإخراج، تؤدى هنا المعنى المصدرى.

[۴۹] (۱)-(زهق) من مادة« زهوق» بمعنى الاضمحلال و الهلاك و الإبادة، و(زهوق) على وزن« قبول» صيغة مبالغة و هى تعنى الشيء الذى تمت إبادته بالكامل.

[۵۰] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۲- ۱۴۸.

[۵۱] (۲)- المصدر السّابق.

[۵۲] (۳)- المصدر السّابق.

[۵۳] (۴)- المصدر السّابق.

[۵۴] (۵)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۲- ۱۴۸.

[۵۵] (۶)- المصدر السّابق.

[۵۶] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۲۶۸.

[۵۷] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۲۶۹.

[۵۸] (۳)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۰.

[۵۹] (۱)- بعض الفقهاء یحتاطون بعدم قراءة القنوت فی رکعتی الشفع أو قراءتها بأمل الرجاء.

[۶۰] (۱)- المیزان، ج ۱، ص ۱۷۸.

[۶۱] (۱) الرعد، ۱۷.

[۶۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۲ و ۲۱۳.

[۶۳] (۲)- المصدر السّابق.

[۶۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۶۵] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۵۸.

[۶۶] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۵۸.

[۶۷] (۱)- سفینة البحار.

[۶۸] (۱) نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۹۸.

[۶۹] (۱)- مفردات الراغب مادة« شکل».

[۷۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۴.

[۷۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۴.

[۷۲] (۱)- السجدة، ۹.

[۷۳] (۲)- قلنا سابقا: إنّ إضافة(روح) إلی اللّه هی إضافة تشریفیة، و الهدف هو الروح الکبیرة التی و هبها اللّه تبارک و تعالی للآدمیین.

[۷۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۶.

[۷۵] (۲)- المصدر السّابق.

[۷۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۵.

[۷۷] (۱)- پیسیکولوجی دکتور آرانی، ص ۲۳.

[۷۸] (۱)- البشر فی النظرة المادیة، دکتور آرانی، ص ۲.

[۷۹] (۱)- عرض و تلخیص عن کتاب: المعاد و عالم ما بعد الموت، الفصل المتعلق باستقلال الروح.

[۸۰] (۱)- فی الحقیقة إنّ مفهوم الجملة هو هکذا:« و لکن لا نشاء أن نذهب بالذی أوحینا إلیک رحمة من ربّک».

[۸۱] (۱)- یراجع فی ظلال القرآن، ج ۵، ص ۳۵۸.

[۸۲] (۱)- يراجع تفسير مجمع البيان أثناء تفسير الآيات. و كذلك جاء مثله مع تفاوت فى الدر المنثور للسيوطى أثناء تفسير الآيات.

[۸۳] (۱)- يمكن فى هذا الصدد مراجعة الآيات(۱۱۰) من سورة المائدة، و(۴۹) من سورة آل عمران.

[۸۴] (۱)- الفرقان، ۷.

[۸۵] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة رقم ۴۵.

[۸۶] (۱)- من حيث التركيب: إنّ« الباء» فى i كَفى بِاللَّهِ E زائدة، و« اللّه» فاعل« كفى» و« شهيدا» تمييز، أو حال كما يقول البعض.

[۸۷] (۱)- العنكبوت، ۶۹.

[۸۸] (۲)- إبراهيم، ۲۷.

[۸۹] (۳)- البقرة، ۲۶.

[۹۰] (۴)- غافر، ۳۴.

[۹۱] (۱)- فى الآية(۵۳) من سورة الكهف نقرأ قوله تعالى\:i وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ\E و فى الآية(۱۳) من سورة الفرقان قوله تعالى\:i دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً\E و فى الآية(۱۲) من الفرقان نقرأ\:i سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً\E.

[۹۲] (۱)- لمزيد من التفاصيل يراجع كتاب:« العالم و المعاد بعد الموت».

[۹۳] (۱)- فى البحوث السابقة تعرضنا لهذه القضية تفصيلا.

[۹۴] (۱)- طه، ۲۲.

[۹۵] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۹۶] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۹۷] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۹۸] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۹۹] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۱۰۰] (۷)- البقرة، ۵۰.

[۱۰۱] (۸)- البقرة، ۵۷.

[۱۰۲] (۹)- البقرة، ۶۰.

[۱۰۳] (۱)- الأعراف، ۱۷۱.

[۱۰۴] (۲)- الأعراف، ۱۳۰.

[۱۰۵] (۳)- البقرة، ۷۳.

[۱۰۶] (۴)- البقرة، ۵۷.

[۱۰۷] (۱)- الأعراف، ۱۳۶.

[۱۰۸] (۱)- يراجع تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۹۵۵.

[۱۰۹] (۲)- فى ظلال القرآن، أثنا تفسير الآية.

[۱۱۰] (۱)- مجىء كلمة(قرآن) منصوبة فى الآية أعلاه يفسّره المفسّرين بأنّه مفعول لفعل مقدّر تقديره(فرقناه)، و بذلك تصبح الجملة هكذا:(و فرقناه قرآنا).

[۱۱۱] (۱)- يقول الراغب فى(المفردات):« يخرون» من مادة« خرير» و يقال لصوت الماء و الريح و غير ذلك ممّا يسقط من علّو. و قوله تعالى\:i خَرُّوا لَهُ سُجَّداً\E تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط و حصول الصوت منهم بالتسبيح، و التنبيه أنّ ذلك الخرير كان

صوت تسبيحهم بحمد اللّه لا بشيء آخر. و دليله قوله تعالى فيما بعد:\i وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ E.

[۱۱۲] (۲)- تفسير المعانى، ج ۱۵، ص ۱۷۵.

[۱۱۳] (۳)-(إنْ) فى قوله:\i إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا\E غير شرطية، بل هى تأكيدية، و هى مخففة من الثقيلة.

[۱۱۴] (۱)- يراجع مجمع البيان أثناء تفسير الآية.

[۱۱۵] (۱)- توحيد الصدوق نقلا عن تفسير الميزان أثناء تفسير الآية.

[۱۱۶] (۲، ۳)- يمكن مراجعة نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳۳ فما بعد.

[۱۱۷] (۲، ۳)- يمكن مراجعة نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳۳ فما بعد.

[۱۱۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳۴.

[۱۱۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳۹.

[۱۲۰] (۱)- المصدر السّابق.

[۱۲۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۳ ص ۴۴۷.

[۱۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۳] (۳)- مجمع البيان، ج ۳، ص ۴۴۷.

[۱۲۴] (۱)- الروم، ۴۳.

[۱۲۵] (۱)- روح المعانى، المجلد ۱۵، أثناء تفسير الآية.

[۱۲۶] (۲)-« قيم» من الناحية اللغوية« حال» و عامله« أنزل».

[۱۲۷] (۱)- حول عقيدة التثليث و اعتقاد المسيحيين بأنّ المسيح ابن اللّه يمكن مراجعة ما جاء فى ذيل الآية(۱۷۱) من سورة النساء فى تفسيرنا هذا.

[۱۲۸] (۱)- يقول الراغب فى المفردات: إنّ رقم(على وزن زخم) تعنى الخط الخشن و الواضح، و البعض اعتبره النقطة فى خط. و فى كل الأحوال إنّ(رقيم) تعنى الكتاب أو اللوح أو الرسالة التى يكتب فيها شيئا.

[۱۲۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۴۴ و ۲۴۵.

[۱۳۰] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۳۱] (۱)- ذهب إلى هذا الرأى صاحب كتاب(أعلام القرآن) فى صفحة ۱۷۹ من كتابه.

[۱۳۲] (۱)- العنكبوت، الآية الأخيرة.

[۱۳۳] (۱)- يوسف، ۳۳.

[۱۳۴] (۱)- لأجل التوضيح أكثر يمكن مراجعة ما جاء فى ذيل الآية(۱۴۸) من سورة آل عمران و الآية(۱۲) من سورة الأنفال من تفسيرنا هذا.

[۱۳۵] (۱)- اللام فى« ليتساءلوا» هى لام العاقبة و ليست للعلّة. يعنى أنّ نتيجة يقظتهم هو أن سأل أحدهم الآخر عن طول مدّة نومهم.

[۱۳۶] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد الرابع، أبواب الدعاء، باب(۶۷) الحديث الرابع. و لمزيد من التوضيح يمكن مراجعة تفسير الآية(۱۸۶) من سورة البقرة.

[۱۳۷] (۱)- يجب الانتباه إلى أنّه طبقا للتفسير الأوّل فإنّ هناك جملة مقدّرة و هى(أن تقول) و يصبح المعنى بعد التقدير(إلّا أن تقول إن شاء اللّه) أمّا وفقا للتفسير الثّانى فليس ثمّة حاجة لهذا التقدير.

[۱۳۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۵۳ و ۲۵۴.

[۱۳۹] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۴۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۵۴ فما بعد.

[۱۴۱] (۱)- طبقا للقواعد النحوية يجب أن تأتى كلمة(سنة) و التى هى مفرد بدلا من(سنين) التى هى جمع، و لكن بما أن النوم كان طويلا للغاية، و عدد السنوات كثيرا، لذا ذكرت الكلمة بصيغة الجمع حتى توضّح الموضوع و تبيّن كثرته.

[۱۴۲] (۲)- الفرق بين السنة الشمسية و القمرية هو(۱۱) يوم تقريبا، فإذا ضربنا ذلك(۳۰۰) و قسمنا الناتج على عدد أيّام السنة القمريّة أى على(۳۵۴) يكون العدد(۹) طبعا يبقى باق قليل، أهمل لأنّه لا يصل إلى السنة الكاملة.

[۱۴۳] (۳)- جملة\i أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ E هى صيغة تعجّب، تبيّن لنا عظمة علم الخالق جلّ و علا، و المعنى أنّه بصير سميع بحيث أنّ الإنسان يعجب من ذلك.

[۱۴۴] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۴۷- ۲۴۸.

[۱۴۵] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۳۸۲ مادة فكر.

[۱۴۶] (۱)- من أجل المزيد من التفاصيل حول مسألة الهجرة و فلسفتها فى الإسلام يمكن مراجعة ما جاء فى تفسير الآية(۱۰۰) من سورة النساء من تفسيرنا هذا.

[۱۴۷] (۱)- حول كون التقية أسلوبا للدفاع و الوقاية، يمكن مراجعة ما ذكرناه لدى تفسير الآية(۶۲) من سورة يونس من تفسيرنا هذا، و كذلك ملاحظة الملاكات الفقهية لهذه المسألة فى كتابنا« القواعد الفقهية».

[۱۴۸] (۱)- أعلام القرآن، ص ۱۵۳.

[۱۴۹] (۲)- الكلام مقتبس من كتاب« قاموس الكتاب المقدّس»، ص ۸۷.

[۱۵۰] (۱)- أعلام القرآن، ص ۱۵۴.

[۱۵۱] (۲)- المعاد و العالم بعد الموت، ص ۱۶۳- ۱۶۵.

[۱۵۲] (۱)- اقتباس عن دائرة المعارف الفارسية الجديدة، مادة(سبات).

[۱۵۳] (۱)- مجلة« دانشمند»، عدد ۴۷، ص ۴.

[۱۵۴] (۲)- الكهف، ۱۸.

[۱۵۵] (۱)- الكهف، ۱۸.

[۱۵۶] (۲)- لتفاصيل أكثر يراجع كتاب: المعاد و الحياة بعد الموت.

[۱۵۷] (۱)- هذه الصفات أطلقها أشراف قريش و المؤلفة قلوبهم على المستضعفين من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كأبى ذر و غيره.

[۱۵۸] (۱)- فيما يخص معنى(وجه) و أنها تأتى فى بعض الأحيان بمعنى(الذات) و أحيانا بمعنى(وجه الإنسان) و فى سبب انتخاب ذلك فى هذه الموارد .. فيما يخص كل ذلك يمكن مراجعة ما كتبناه مفصلا لدى تفسير الآية(۲۷۲) من سورة البقرة فى تفسيرنا هذا.

[۱۵۹] (۲)-(لا تعد) مأخوذة من كلمة« عدا يعدو و ...» و هى بمعنى تجاوز الشىء و بذا يصبح مفهوم الجملة(لا تبعد عينيك عنهم كى تنظر إلى الآخرين).

[۱۶۰] (۱)-« فرط» تعنى التجاوز عن الحد، و كل شىء يخرج عن حدّه و يتحول إلى إسراف يقال له(فرط).

[۱۶۱] (۲)-« مهل» على وزن« قفل» و هى تعنى كما يقول الراغب فى المفردات: هى المقدار المترسب من الدهن و الذى يكون عادة ملوثا بأشياء وسخة و رديئة الطعم، إلّا أنّ بعضا آخر من المفسّرين يقولون بأنّها تعنى أى معدن مذاب.

و الظاهر أنّ تعبير(يشوى الوجوه) يرجّح المعنى الثّانى.

[۱۶۲] (۳)-« مرتفق» من كلمهٔ« رفق و رفيق» بمعنى محل اجتماع الأصدقاء.

[۱۶۳] (۱)-« أساور» جمع« أسورهٔ» على وزن« مشورهٔ» و هى بدورها جمع(سوار) على وزن(غبار) و(كتاب) و هى فى الأصل مأخوذهٔ من كلمهٔ فارسيهٔ عرّبت و اشتقت منها الأفعال العربيهٔ.

[۱۶۴] (۱)-« أرائك» جمع« أريكهٔ» و تطلق على السرير الذى تكون جوانبه جميعا مغطاهٔ، و هى فى الأصل- كما يقول الراغب- مأخوذهٔ من(أراك) و هى شجرهٔ معروفهٔ كان العرب يصنعون منها مظلّهٔ؛ أو من(أروك) بمعنى الإقامهٔ و التوّقف.

[۱۶۵] (۱)- كلمهٔ(لكنّا) فى الأصل كانت(لكن إنّ) ثمّ دمجت و أصبحت هكذا.

[۱۶۶] (۲)- جمله i ما شاءَ اللَّهُ E لها محذوف إذ تكون مع التقدير: ما شاء اللّه كان، أو: ما شاء اللّه، فإنّ هذا هو الشىء الذى يريده اللّه.

[۱۶۷] (۱)- الزخرف، ۳۱.

[۱۶۸] (۱)-« هشيم» من« هشم» بمعنى محطّم، و هى هنا تطلق على النباتات المتيبسهٔ و المتحطّمهٔ.

[۱۶۹] (۲)-« تذروه» من« ذرو» و تعنى التشتيت.

[۱۷۰] (۱)- الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، و القرطبى فى التّفسير الجامع.

[۱۷۱] (۱)- المصدر السّابق.

[۱۷۲] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۶۷.

[۱۷۳] (۱)-« بدلا» من حيث التركيب اللغوى، تمييز. و فاعل« بئس» هو الشيطان و عصابته، أو عباد الشيطان و عصابته.

[۱۷۴] (۱)-« موبق» من« وبوق» على وزن« نبوغ» و هى تعنى الهلاك، و(موبق) تقال للمهلكهٔ.

[۱۷۵] (۱)- الأنبياء، ۲۶- ۲۷.

[۱۷۶] (۲)- نهج البلاغهٔ الخطبهٔ(۱۹۲)« الخطبهٔ القاصعهٔ».

[۱۷۷] (۱)- الأعراف، ۱۲.

[۱۷۸] (۲)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۶۷.

[۱۷۹] (۱)- المصدر السّابق.

[۱۸۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۶۸

[۱۸۱] (۱)-(قبل) تعنى(التقابل، بمعنى مشاهدهٔ العذاب الإلهى بالعين، بعض المفسّرين كالطبرسى فى مجمع البيان، و أبى الفتوح فى روح الجنان، و الآلوسى فى روح المعانى احتملوا أن تكون(قبل) جمع(قبيل) و هى إشارهٔ إلى الأنواع المختلفهٔ من العذاب، إلّا أنّ المعنى الأوّل أقرب حسب الظاهر.

[۱۸۲] (۱)-(يدحضوا) مشتقهٔ من(إدحاض) بمعنى الإبطال و الإزالهٔ، و هى فى الأصل مأخوذهٔ من كلمهٔ(دحض) بمعنى الانزلاق.

[۱۸۳] (۱)- كما قلنا سابقا(أكنهٔ) جمع(كنان) على وزن كتاب، و تعنى الستار أو الحجاب و(وقر) تعنى ثقل الأذن عن السماع.

[۱۸۴] (۱)-(موئل) من كلمهٔ(وئل) و تعنى الملجأ و وسيلهٔ النجاهٔ.

[۱۸۵] (۱)-(سرب) على وزن(جرب) كما يقول الراغب فى مفرداته، و هى تعنى السير فى الطريق المنحدر، و(سرب) على وزن(حرب) تعنى الطريق المنحدر.

[۱۸۶] (۱)- إن جملهٔ\i وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ E جملهٔ اعتراضيهٔ تقع فى وسط الكلام، و لأنّ هذه الجملهٔ تذكر- فى الواقع- سبب النسيان، لذا فقد وقعت فى وسط الكلام، و هذا الأسلوب شائع خصوصا للأشخاص الذين يكونون موضع عتاب شخص

أكبر، حيث أنّهم يذكرون العلة الأصلية ضمن الكلام بشكل اعتراضى، حتى يكون الاعتراض عليهم أقل.

[۱۸۷] (۱)- إن عبارة\i أُحْدِثَ لَکَ مِنْهُ ذِکْراً\E یکون مفهوما بعد الأخذ بنظر الإعتبار کلمة(أحدث) هو: إنّى أنا الذى أبدأ بالكلام و أكشف للمرّة الأولى؛ أمّا أنت فلا تتكلم.

[۱۸۸] (۱)- أنطاكية من المدن السورية القديمة التى تقع على بعد(۹۶) كم من حلب، و(۵۹) كم عن الإسكندرونة، تشتهر المدينة بالحبوب الغذائية، و الحبوب الدهنية، فيها ميناء يسمى« سويدية» و يبعد عن مركزها(۲۷) كيلومتر.(يراجع فى ذلك دائرة فريد وجدى، ج ۱، ص ۸۳۵).

[۱۸۹] (۱)- مجمع البيان فى تفسير الآية.

[۱۹۰] (۲)- إنّ نسبة(الإرادة) إلى الجدار هو استخدام مجازى، و مفهوم ذلك أنّ الجدار كان ضعيفا للغاية و هو على مشارف الانهيار.

[۱۹۱] (۱)- أبو الفتوح الرازى فى(روح الجنان)، ج ۳، أثناء تفسير الآية.

[۱۹۲] (۲)- للتوضيح أكثر يمكن مراجعة الآية(۷) من سورة آل عمران.

[۱۹۳] (۳)- يوسف، ۱۰۰.

[۱۹۴] (۱)- فى معنى(وراء) يمكن مراجعة البحث الوارد فى ذيل الآية(۱۶) من سورة إبراهيم فى تفسيرنا هذا.

[۱۹۵] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار الجملة رقم ۴۱۹.

[۱۹۶] (۲)- وفق التّفسير الأوّل يكون الفعل« يرهق» متعديا إلى مفعولين: الأوّل(هما)، و المفعول الثّانى(طغيانا)، أمّا وفق التّفسير الثّانى فإن(طغيانا) و(كفرا) يكونان مفعولا لأجله.

[۱۹۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۸۶ و ۲۸۷.

[۱۹۸] (۱)- أصول الكافى، المجلد الأوّل، باب« إنّ الأئمّة بمن يشبهون فيمن مضى»، ص ۲۱۰.

[۱۹۹] (۱)- ما ورد أعلاه منقول عن كتاب(أعلام القرآن)، ص ۲۱۳.

[۲۰۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۳، ص ۴۸۱.

[۲۰۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۷۵.

[۲۰۲] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۳۵۶.

[۲۰۳] (۲)- مجمع البيان، ج ۶، ص ۴۸۰. و الميزان، ج ۱۳، ص ۳۵۶.

[۲۰۴] (۱)- الدر المنثور و مصادر أخرى طبقا لما نقله صاحب الميزان فى ج ۱۳، ص ۳۵۶.

[۲۰۵] (۲)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۸۷.

[۲۰۶] (۱)- البقرة، ۲۱۶.

[۲۰۷] (۲)- معجم رجال الحديث، ج ۷، ص ۲۲۶.

[۲۰۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۸۹.

[۲۰۹] (۱)- نهج البلاغة- الحكمة رقم ۴۳۸.

[۲۱۰] (۱)-(حمئة) تعنى فى الأصل الطين الأسود ذا الرائحة الكريهة؛ أو الماء الآسن الموجود فى المستنقعات. و هذا الوصف يبيّن لنا بأنّ الأرض التى بلغها« ذو القرنين» كانت مليئة بالمستنقعات، بشكل كان ذو القرنين يشعر معه بأنّ الشمس كانت تغرب فى هذه المستنقعات، تماما كما يشعر بذلك مسافر البحر، و سكّان السواحل الذين يشعرون بأنّ الشمس قد غابت فى البحر أو خرجت منه!

[۲۱۱] (۱)- يظهر أن جملة\i إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ\ ...E استفهامية بالرغم من أنّ ظاهرها أنّها جملة خبرية.

[۲۱۲] (۲)-« نكر» مشتقة من« منكر» بمعنى الشيء المجهول؛ أى العذاب المجهول الذى لم يمكن تصوره.

[۲۱۳] (۱)- أشارت بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام إلى التّفسير الأوّل، فيما أشارت روايات أخرى إلى التّفسير الثّاني. و ليس ثمّة تناقض بين الإثنين(يراجع نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۰۶).

[۲۱۴] (۲)- تفسير فى ظلال القرآن، و الفخر الرازى أثناء تفسير الآية.

[۲۱۵] (۱)- الميزان، ج ۱۳، ص ۳۹۱.

[۲۱۶] (۱)-« الآلوسى» فى« روح المعانى»، و الفيض الكاشانى فى تفسير« الصافى»، و الفخر الرازى فى« التّفسير الكبير».

[۲۱۷] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة رقم ۵۳.

[۲۱۸] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، مادة« صمم».

[۲۱۹] (۲)- سورة إبراهيم، ۳۵.

[۲۲۰] (۱)- يمكن ملاحظة ذلك فى تفسير الفخر الرازى، و الكامل لابن الأثير(المجلد الأوّل صفحة ۲۸۷). و يعتقد البعض أن أوّل من قال بهذه النظرية هو الشيخ ابن سينا فى كتابه الشفاء.

[۲۲۱] (۲)- الميزان، ج ۱۳، ص ۴۱۴.

[۲۲۲] (۱)- يراجع تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۹۴ و ۲۹۵.

[۲۲۳] (۱)- كتاب دانيال، الفصل الثامن، الجمل ۱- ۴.

[۲۲۴] (۱)- لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتاب« ذو القرنين أو كورش الكبير».

[۲۲۵] (۱)- للمزيد من التفاصيل يراجع المصدرين السابقين.

[۲۲۶] (۱)- يلاحظ المجلد ۱۳، من تفسير الميزان، ص ۴۱۱.

[۲۲۷] (۲)- لمزيد من التفاصيل يراجع كتاب(ذو القرنين أو كورش الكبير).

[۲۲۸] (۱)- تفسير العياشى، نقلا عن الميزان فى تفسير الآية.

[۲۲۹] (۱)- هناك كلام بين المفسّرين حول تركيب جملة\i ذلِكَ جَزاؤُهُمْ E فالبعض اعتبر« ذلك» مبتدأ و« جزاؤهم» خبرا و« جهنم» بدلا، فى حين أنّ البعض الآخر اعتبر أنّ المبتدأ محذوف و« ذلك» خبرا له، و« جزاؤهم جهنم» مبتدأ لخبر آخر تقديره: الأمر ذلك جزاؤهم جهنم. إلّا أنّهم يظهر أنّ الرأى الأوّل أكثر تناسبا من غيره.

[۲۳۰] (۱)- يراجع نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۱۱- ۳۱۲.

[۲۳۱] (۱)- المصدر السّابق.

[۲۳۲] (۲)- المصدر السّابق.

[۲۳۳] (۳)- المصدر السّابق.

[۲۳۴] (۱)- فاطر، ۸.

[۲۳۵] (۲)- الأنفال، ۴۸.

[۲۳۶] (۱)- يمكن مراجعة سورة المؤمنون، الآية ۱۰۶ فما فوق.

[۲۳۷] (۱)- عن تفسير مجمع البيان، فى تفسيره للآية.

[۲۳۸] (۱)- ذهب بعض إلى أن هذه الكلمة مأخوذة من اللغة الرومية فى الأصل، و ذهب آخرون الى أن جذورها حبشية انتقلت الى العربية(تفسير الفخر الرازى و تفسير مجمع البيان).

[۲۳۹] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد ۱۱- ۱۲، صفحة ۶۸- ۶۹. و كذلك تفسير الصافى أثناء الحديث عن الآية.

[۲۴۰] (۱)- نقل الفخر الرازی فی معنی(مداد) إضافة إلی ما ذکر معنی آخر، و هو« الزیت» الذی یوضع فی المصباح و یکون سببا للنور، و الاثنان یرجعان إلی معنی واحد.

[۲۴۱] (۲)- النساء، ۱۷۱.

[۲۴۲] (۱)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة. و کذلک تفسیر القرطبی.

[۲۴۳] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۴۰۸.

[۲۴۴] (۱)- مجمع البیان الجزء ۳، ص ۵۰۰.

[۲۴۵] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۶] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۰.

[۲۴۷] (۲)- المصدر السّابق.

[۲۴۸] (۳)- کلمة« ذکر» خبر لمبتدأ محذوف، و علیه فالتقدیر: هذا ذکر رحمة ربّک.

[۲۴۹] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۲۳.

[۲۵۰] (۲)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۴(نقلا عن الإحتجاج).

[۲۵۱] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۳ و ۳۲۴.

[۲۵۲] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۶، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۵۳] (۲)- تفسیر المیزان الجزء ۱۴، ذیل الآیة.

[۲۵۴] (۳)- مجمع البیان، الجزء ۶، ذیل الآیة.

[۲۵۵] (۱)- المعروف بین المفسّرین أن عبارة(کذلک) هی فی تقدیر(الأمر کذلک). و یحتمل کذلک أن(کذلک) متعلقة بما بعدها و یصبح معناها: کذلک قال ربّک.

[۲۵۶] (۱)- لقد بحثنا مفصلا فی أنّ ترک الزواج لا یمکن أن یکون فضیلة لوحده، و أنّ قانون الإسلام یؤکّد فی هذا المجال علی الزواج، فی الجزء الثّانی ذیل الآیة(۳۹) من آل عمران من هذا التّفسیر.

[۲۵۷] (۲)- أعلام القرآن، ص ۶۶۷.

[۲۵۸] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۴.

[۲۵۹] (۱)- یراجع تفسیر القرطبی و الآلوسی فی تفسیر هذه الآیة.

[۲۶۰] (۱)- یراجع تفسیر المیزان فی ذیل الآیة.

[۲۶۱] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۳، ص ۷.

[۲۶۲] (۲)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۵.

[۲۶۳] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۵.

[۲۶۴] (۱)- یستفاد من بعض الأناجیل و قسم من الرّوایات أنّ هیرودیس قد تزوج امرأة أخیه، و قد کان هذا الزواج ممنوعا فی قانون التوراة، و قد لامه یحیی علی هذا العمل بشدّة، ثمّ أن تلک المرأة حملت هیرودیس علی قتل یحیی بإغرائه بجمال بنتها. إنجیل متی باب ۱۴، إنجیل مرقس باب ۶، الفقرة ۱۷ و ما بعدها.

[۲۶۵] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۴، ص ۳۷.

[۲۶۶] (۱)-« جذع» علی وزن« ذبح» فی الأصل من مادة« جذع» علی وزن« منع» بمعنی القطع.

[۲۶۷] (۱)- وسائل الشیعة، الجزء ۷، ص ۳۹۰.

[۲۶۸] (۲)- من لا يحضره الفقيه، حسب نقل تفسير نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۳۲.

[۲۶۹] (۳)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۳۰.

[۲۷۰] (۱)- المصدر السّابق.

[۲۷۱] (۲)- من كتاب أول جامعهٔ و آخر نبى، الجزء ۷، ص ۶۵.

[۲۷۲] (۳)- المصدر السابق.

[۲۷۳] (۱)-« فريـا» بنـاء على قول الراغب فى المفردات- جاءت بمعنى العظيم أو العجيب، و فى الأصل من مادهٔ فرى، أى قص و قطع الجلد إمّا لإصلاحه أو إفساده.

[۲۷۴] (۲)- نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۳۳.

[۲۷۵] (۳)- المصدر السّابق.

[۲۷۶] (۱)- البر- بالفتـح- بمعنى الشـخص المحسن، فى حين أن البر- بالكسـر- بمعنى صـفهٔ الإنسان، و ينبغى الالتفات إلى أن هذه الكلمهٔ فى الآيهٔ عطف على(مباركا) لا على الصلاهٔ و الزكاهٔ، و المعنى فى الواقع: جعلنى برا بوالدتى.

[۲۷۷] (۲)- لزيادهٔ التوضيح حول(جبار)، و جواب هذا السؤال، و هو أنّه كيف تكون إحدى صفات اللّه سبحانه أنّه جبار؟ يراجع ذيل الآيهٔ(۵۹) من سورهٔ هود من هذا التّفسير.

[۲۷۸] (۳)- تفسير الفخر الرازى، آخر الآيهٔ.

[۲۷۹] (۱)- وسائل الشيعهٔ، الجزء ۱۵، ص ۲۰۷.

[۲۸۰] (۲)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۲۶۱.

[۲۸۱] (۱)- الوسائل، الجزء ۱۵ ص ۱۷۵.

[۲۸۲] (۱)- آل عمران، ۵۹.

[۲۸۳] (۱)- لقـد بحث المفسّـرون فى تركيب هـذه الجملـهٔ كثيرا، إلّا أن أصـحها على ما يبدو، من الناحيهٔ الأدبيهٔ، و بملاحظهٔ الآيات السابقـهٔ، هو أنّ« قول الحق» مفعول لفعل محـذوف، و\i الَّذِی فِیهِ یَمْـتَرُونَ E صـفهٔ له، و كان التقـدير هكـذا: أقول قو الحق الذى فيه يمترون.

[۲۸۴] (۱)- من أجل زيادهٔ الإيضاح فى مسألهٔ تثليث النصارى، و ما حاكوه و نسـجوه من الخرافات حولها، راجع ذيل الآيهٔ(۱۷۱) من سورهٔ النساء.

[۲۸۵] (۱)- لقد بحثنا فى معنى(كن فيكون)، و أدلهٔ نفى الولد عن اللّه المجلد الأوّل من هذا التّفسير، فى ذيل الآيتين ۱۱۶، ۱۱۷ من سورهٔ البقرهٔ.

[۲۸۶] (۱)- اقتبس من سيرهٔ ابن هشام، المجلد الأوّل، الصفحهٔ ۳۵۶- ۳۶۱.

[۲۸۷] (۱)- إنّ هـذه الآيهٔ من جهـهٔ التركيب، عطف على كلام عيسـى الذى مر آنفا، و الذى ابتدأ بقوله i قالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ E و انتهى بهذه الجملهٔ.

[۲۸۸] (۱)- يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآيهٔ(۱۷۱) من سورهٔ النساء.

[۲۸۹] (۱)- تفسير فى ظلال القرآن، ج ۵، ص ۴۳۶، بتصرف.

[۲۹۰] (۲)- يمكن أن يكون(مشـهد) مصـدرا ميميا بمعنى الشـهود، أو أن يكون اسم مكان أو زمان بمعنى محل أو زمن الشـهود، و بالرغم من اختلاف هذه المعانى، إلّا أنّها لا تختلف كثيرا من ناحيهٔ النتيجهٔ.

[۲۹۱] (۱)- الألف و اللام فى كلمـهٔ(اليوم) هى ألف و لام العهد، إلا أنّه طبقا للتفسـير الأوّل العهد الحضورى، و على التّفسـير الثّانى

العهد الذكرى.

[۲۹۲] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية أعلاه.

[۲۹۳] (۲)- هل أن هذه الآية إشارة إلى القيامة، أو إلى زمان فناء الدنيا، فإن كانت إشارة إلى القيامة، فإنّها لا تناسب ظاهرا جملة\i وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ E و إن كانت إشارة إلى زمان فناء الدنيا، فإنّها لا تناسب جملة\i وَ مَنْ عَلَيْها\E لأنّه لا يوجد أى حى عند فناء الدنيا حتى يصدق عليه تعبير(من عليها) و ربّما فسّر بعض المفسّرين- كالعلّامة الطباطبائى- هذه الجملة هكذا: إنا نحن نرث عنهم الأرض، لهذا السبب. إلا أن هذا التّفسير أيضا يخالف الظاهر قليلا لأن i وَ مَنْ عَلَيْها\E عطفت بالواو.

و هنا- أيضا- احتمال آخر، و هو أن مفعول i نَرِثُ E تارة يكون الشخص الذى يترك الأموال، مثل\:i وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ\E، و تارة أخرى الأموال التى بقيت للإرث، مثل\:i نَرِثُ الْأَرْضَ E و فى الآية أعلاه ورد كلا التعبيرين.

[۲۹۴] (۱)- لقد بحث هذا الموضوع مفصلا ذيل الآية(۷۴) من سورة الأنعام.

[۲۹۵] (۱)- سفينة البحار، الجزء ۲، ص ۱۱۵ مادة(عبد).

[۲۹۶] (۱)- مريم، ۹۶.

[۲۹۷] (۱)- أصول الكافى، حسب نقل تفسير نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۳۹.

[۲۹۸] (۲)- إبراهيم، ۳۹.

[۲۹۹] (۱)- سورة ص، ۸۲- ۸۳.

[۳۰۰] (۲)-« النجى» بمعنى المناجى، أى الشخص الذى يهمس فى أذن الآخر، و هنا ينادى اللّه موسى من بعيد، و لما اقترب ناجاه. و من المعلوم أن اللّه سبحانه ليس له لسان و لا مكان، بل يوجد الأمواج الصوتية فى الفضاء، و يتكلم مع عبد كموسى.

[۳۰۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۸.

[۳۰۲] (۲)- أصول الكافى، ج ۱، ص ۱۳۳- ۱۳۴، طبعة دار الكتب الإسلامية.

[۳۰۳] (۱)- أصول الكافى، ج ۲، ص ۸۶.

[۳۰۴] (۲)- سورة الشعراء، ۲۱۴.

[۳۰۵] (۱)- كان لنا بحث أكثر تفصيلا حول هذا الموضوع ذيل الآية(۱۱۹) من سورة المائدة من هذا التّفسير.

[۳۰۶] (۱)- سجد جمع ساجد، و بكى جمع باك.

[۳۰۷] (۲)- لأنّها إذا كانت إشارة للأنبياء السابقين، فإنّها لا تناسب الفعل المضارع(تتلى) الذى يتعلق بالمستقبل، إلّا أن نقدر جملة(كانوا) و أمثالها، و هى خلاف الظاهر أيضا.

[۳۰۸] (۳)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۳۰۹] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۸۴.

[۳۱۰] (۱)-(عدن) فى اللغة بمعنى الإقامة، و هنا تعطى هذا المعنى، بأن ساكنى تلك الجنان سيكونون مقيمين فيها دائما.

[۳۱۱] (۱)- تفسير روح المعانى، الجزء ۱۶، ص ۱۰۳.

[۳۱۲] (۱)- نور الثقلين، الجزء ۲، ص ۳۱. و قد بحثنا فى هذا الباب ذيل الآية(۴۲) من سورة الأعراف من هذا التّفسير.

[۳۱۳] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۵۲، عن مجمع البيان، و تفسير القرطبى، الجزء ۱۱، ص ۴۱۶، و ذيل الآية مورد البحث باختلاف يسير.

[۳۱۴] (۱)- يس، ۷۷- ۷۹.

[۳۱۵] (۲)- لقد بحثنا حول هذا الدليل فى ذيل الآية(۲۹) من الأعراف تحت عنوان(أقصر دليل لإثبات المعاد).

[۳۱۶] (۱)-« الشیعة» فی الأصل بمعنی الجماعة التی یتعاون أفرادها للقیام بعمل ما، و انتخاب هذا التعبیر فی الآیة یمکن أن یکون إشارة إلی أن العتاة المردة و الضالین الکافرین کانوا یتعاونون فی طریق الطغیان، و نحن سنحاسب هؤلاء أوّلا، لأنّهم أکثر تمردا و عصیانا من الجمیع.

[۳۱۷] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۵۳.

[۳۱۸] (۲)- المصدر السّابق.

[۳۱۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۷۲ ذیل آیة\i إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ\E الفجر، ۱۴.

[۳۲۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۵۳.

[۳۲۱] (۱)- مفردات الراغب، مادة(ندی).

[۳۲۲] (۱)-(الأثاث) بمعنی المتاع و زینة الدنیا، و(رئی) بمعنی الهیئة و المنظر.

[۳۲۳] (۱)- راجع ذیل الآیات ۱۸۲، ۱۸۳ من سورة الأعراف.

[۳۲۴] (۱)-« مردّ»- علی وزن نمدّ بتشدید الدال- إمّا مصدر بمعنی الرّد و الإرجاع، أو اسم مکان بمعنی محل الرجوع، و المراد منه هنا الجنّة، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أوفق لمعنی الآیة.

[۳۲۵] (۱)- نقل بعض المفسّرین سببا لنزول الآیة و هو: إنّ أحد المؤمنین- و اسمه خباب- کان یطلب أحد المشرکین- و اسمه العاص بن وائل، فقال المدین مستهزئا: إذا وجدت مالا و ولدا فی عالم الآخرة فسأؤدی دینک.

إلّا أنّ سبب النّزول هذا لا یناسب الآیة التی نبحثها ظاهرا، خاصّة و أنّ الکلام عن الولد هنا، و نحن نعلم أنّ الولد فی عالم الآخرة غیر مطروح للبحث. إضافة إلی أن الآیات التالیة تقول بصراحة\i: نَرِثُهُ ما یَقُولُ E و یتّضح من هذا التعبیر أنّ المقصود أموال الدنیا لا الأموال فی الآخرة.

و علی کل حال، فإنّ جماعة من المفسّرین اعتبروا هذه الآیة- بناء علی سبب النّزول هذا- إشارة إلی الآخرة، إلّا أنّ الحق ما قیل.

[۳۲۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۵۷.

[۳۲۷] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۵۷.

[۳۲۸] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۵۹.

[۳۲۹] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۶۲.

[۳۳۰] (۲)- الدر المنثور(حسب نقل المیزان فی ذیل الآیة مورد البحث).

[۳۳۱] (۱)- المصادر السابقة.

[۳۳۲] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۳۳] (۱)- لقد تمّ الحدیث عن« عزیر» فی الآیة(۳۰) من سورة التوبة، و عن(الملائکة) فی ذیل الآیة(۱۹) من سورة الزخرف.

[۳۳۴] (۱)- بحثنا حول نفی الولد عن اللّه فی الجزء الأوّل ذیل الآیة(۱۱۶) من سورة البقرة، ذیل الآیة(۶۸) من سورة یونس.

[۳۳۵] (۱)- لقد ورد هذا الحدیث فی کثیر من المصادر الحدیثیة المعروفة، و کذلک فی کثیر من کتب التّفسیر، إلّا أنّنا اخترنا المتن الذی نقل فی تفسیر(فی ظلال القرآن)، ج ۵، ص ۲۵۴ عن أحمد و مسلم و البخاری.

[۳۳۶] (۱)- نقلا عن إحقاق الحق، الجزء ۳، ص ۸۳- ۸۶.

[۳۳۷] (۲)- المصدر السّابق.

[۳۳۸] (۳)- المصدر السابق.

[۳۳۹] (۴)- روح المعانی الجزء ۱۶، ص ۱۳۰، و مجمع البیان الجزء ۶، ص ۵۳۳، و کذلک نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة

.۴۵

[۳۴۰] (۵)- نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۶۳.

[۳۴۱] (۱)- مجمع البيان، الجزء ۷، ص ۱.

[۳۴۲] (۲)- تفسير النور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۶۷.

[۳۴۳] (۳)- مجمع البيان، ج ۷، ص ۱.

[۳۴۴] (۱)- لمزيد الاطلاع على هذه الرّوايات، راجع: تفسير نور الثقلين، و الدر المنثور، بداية سورة طه.

[۳۴۵] (۱)- بداية سورة البقرة و آل عمران و الأعراف من التّفسير الأمثل.

[۳۴۶] (۲)- تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۳۴۷] (۱)- هناك بحث بين المفسّرين فى محل(تنزيلا) من الإعراب، غير أن الأصح أنّها مفعول مطلق لفعل مجهول محذوف، و كان التقدير: نزل تنزيلا ممن خلق الأرض.

[۳۴۸] (۲)- الأعراف، ۵۴.

[۳۴۹] (۱)- النمل، ۳۸.

[۳۵۰] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۳۵۱] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۳۵۲] (۱)- نقرأ فى قاموس اللغة، مادة كاد: و تكون بمعنى أراد، أكاد أخفيها: أريد.

[۳۵۳] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۷۳.

[۳۵۴] (۲)- المصدر السابق، ص ۳۷۴.

[۳۵۵] (۳)- المصدر السابق.

[۳۵۶] (۴)- سفينة البحار، الجزء الأول، ص ۵۱۳.

[۳۵۷] (۱)-« أهش» من مادة هشّ- بفتح الهاء- أى ضرب أوراق الشجر و تساقطها.

[۳۵۸] (۲)-« مآرب» جمع مأربة، أى الحاجة و المقصد.

[۳۵۹] (۱)-« السيرة»- كما يقول الراغب فى المفردات- بمعنى الحالة الباطنية، سواء غريزية أو اكتسابية و البعض فسرها هنا بمعنى الهيئة و الصورة.

[۳۶۰] (۲)- آية منصوبة على أنها اسم حال محل الحال، و الحال لضمير مستتر فى(تخرج).

[۳۶۱] (۱)- تحدثنا أيضا حول هذا الموضوع ذيل الآية(۱۰۷) من سورة الأعراف.

[۳۶۲] (۱)- التوراة، سفر الخروج، الفصل الرابع، الجملة ۶.

[۳۶۳] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الحكمة ۱۷۶.

[۳۶۴] (۱)- مجمع البيان ذيل الآية.

[۳۶۵] (۲)- مريم، ۵۳.

[۳۶۶] (۱)- كما قلنا سابقا أيضا فإنّ« المنة» فى الأصل من المن، و هو يعنى الأحجار الكبيرة التى كانوا يزنون بها، و لذلك فإن كل نعمة كبيرة و نفيسة يقال عنها: إنّها منة. و المراد فى الآية هو هذا المعنى، و هذا المعنى مفهوم جميل و ايجابى للمنّة، إلّا أنّ الإنسان إذا عظّم عمله الصغير بكلامه، و ذكرّ الطرف الآخر به، فإنّه مصداق حى للمنة السلبية المذمومة.

[۳۶۷] (۱)- راجع المجلد الثّانى من التّفسير الأمثل ذيل الآية(۲۴۸) من سورة البقرة.

[۳۶۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۷۸.

الجزء العاشر

[تتمة سورة طه]

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۴۲ الى ۴۸]

اشارة

اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي (۴۲) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۴۳) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (۴۴) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (۴۵) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى (۴۶)
فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (۴۷) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۴۸)

التّفسير

أوّل لقاء مع فرعون الجبّار:

الآن و قد أصبح كلّ شيء مهيّا، و كلّ الوسائل قد جعلت تحت تصرّف موسى، فقد خاطب اللّه سبحانه موسى و هارون. بقوله: اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي الآيات التي تشمل المعجزتين الكبيرتين لموسى عليه السّلام، كما تشمل كلّ آيات اللّه و تعليماته التي هي بذاتها دليل على أحقّية دعوته، خاصّة و أنّ هذه التعليمات العظيمة المحتوى ظهرت على يد رجل قضى أهمّ سنيّ حياته في «رعي الأغنام»!

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶

و من أجل رفع معنوياتهما، و التأكيد على بذل أقصى ما يمكن من المساعي و الجهود، فقد أضاف سبحانه قائلا: وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي و تنفيذ أوامري، لأنّ الضعف و اللين و ترك الحزم سيذهب بكلّ جهود كما أدراج الرياح، فأثبتا و لا تخافا من أي حادثة، و لا تهنا أمام أي قدرة.

بعد ذلك، يبيّن الهدف الأصل لهذه الحركة، و النقطة التي يجب أن تكون هدفا لتشخيص المسار، فيقول: اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فإنّه سبب كلّ الشقاء و التعاسة في هذه المنطقة الواسعة، و ما لم يتمّ إصلاحه فسوف لا ينجح أي عمل، لأنّ عامل تقدّم الأمّة أو تخلّفها، سعادتها أو شقائها و بؤسها هو قادتها و حكّامها، و لذلك يجب أن يكونوا هدفكما قبل الجميع.

صحيح أنّ هارون لم يكن في ذلك الحين حاضرا في تلك الصحراء، و لكن اللّه أطلعه على هذه الحوادث كما ذكر المفسّرون، و قد خرج من مصر لاستقبال أخيه موسى لأداء هذه المهمّة، إلّا أنّه لا مانع مطلقا من أن يخاطبا معا، و توجّه إليهما مأمورية تبليغ الرسالة، في الوقت الذي لم يحضر غير أحدهما.

ثمّ بيّنت الآية طريقة التعامل المؤثّرة مع فرعون، فمن أجل أن تنفذا إليه و تؤثرا فيه فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى و الفرق بين «يتذكّر» و «يخشى» هنا هو أنّكما إذا واجهتماه بكلام لطيف، رقيق، ملائم، و تبيّنان في الوقت ذاته المطالب بصراحة و حزم، فيحصل أحد الاحتمالين: أن يقبل من صميم قلبه أدلتكما المنطقيّة و يؤمن، و الاحتمال الآخر هو أن يخاف على الأقل من العقاب الإلهي في

الدنيا أو الآخرة، و من زوال ملكه و قدرته، فيذعن و يسلم و لا يخالفكما.

و يوجد احتمال ثالث أيضا، و هو أنّه لا يتذكّر و لا يخشى، بل سيستمر فى طريق المخالفة و المجابهة، و قد أشير إلى ذلك بكلمة «لعلّ» و فى هذه الصورة فإنّ الحجّة قد تمّت عليه، و على كلّ حال فإنّ القيام بهذا العمل لا يخلو من فائدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٧

لا- شكّ أنّ اللّه تعالى يعلم عاقبة عمله، إلّا أنّ التعبيرات المذكورة آنفا درس لموسى و هارون و كلّ المصلحين و المرشدين إلى طريق اللّه ١].

و مع هذه الحال، فقد كان موسى و هارون قلقين من أنّ هذا الرجل القوى المتغطرس المستكبر، الذى عمّ رعبه و خشونته كلّ مكان، قد يقدم على عمل قبل أن يبلّغ موسى عليه السّلام و هارون عليه السّلام الدعوة، و يهلكهما، لذلك قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى

«يفرط» من مادّة فرط- على وزن شرط- أى السبق و العجلة، و لذلك يقال للشخص الذى يردّ محلّ الماء أوّلا: فارط، و نقرأ فى كلام الإمام على عليه السّلام أمّا قبور الموتى بجبانة الكوفة: «أنتم لنا فرط سابق»[٢].

على كلّ حال، فإنّ موسى و هارون كانا مشفقين من شيئين: فإمّا أن يقسو فرعون و يستخدم القوّة قبل أن يسمع كلامهما، أو أنّه يقدم على هذا العمل بعد سماعه هذا الكلام مباشرة، و كلتا الحالين تهدّد مهمّتهما بالخطر.

إلّا أنّ اللّه سبحانه قد أجابهما بحزم: ف قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى و بناء على هذا، فمع وجود اللّه القادر معكما فى كلّ مكان، اللّه الذّى يسمع كلّ شىء، و يرى كلّ شىء، و هو حاميكما و سندكما، فلا معنى للخوف و الرعب.

ثمّ يبيّن لهما بدقّة كيفية إلقاء دعوتهما فى محضر فرعون فى خمس جمل قصار قاطعة غنيّة المحتوى، ترتبط أوّلها بأصل المهمّة، و الثّانية ببيان محتوى المهمّة، و الثّالثة بذكر الدليل و السند، و الرّابعة بترغيب الذين يقبلونها، و أخيرا فإنّ الخامسة تكفّلت بتهديد المعارضين.

فتقول أوّلا: فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ و الجميل هنا أنّهما بدل أن يقولا:

(ربّنا) فإنّهما يقولان (ربّك) ليثيروا عواطف فرعون و إحساساته تجاه هذه النقطة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٨

بأنّ له ربّا، و أنّهما رسولاه، و يكونان قد أفهماه بصورة ضمنيّة أن ادّعاء الرّبوبية لا يصحّ من أى أحد، فهى مختصّة باللّه.

ثمّ تقول: فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ الصحيح أنّ دعوة موسى لم تكن من أجل نجاة بنى إسرائيل من قبضة الفراعنة فقط، بل كانت- و بشهادة سائر آيات القرآن- تهدف أيضا إلى نجاة فرعون و الفراعنة أنفسهم من قبضة الشرك و عبادة الأوثان. إلّا أنّ أهميّة هذا الموضوع، و ارتباطه المنطقى بموسى كان السبب فى أن يضع إصبعه على هذه المسألة بنفسه، لأنّ استغلال و استعباد بنى إسرائيل مع كلّ ذلك التعذيب و الأذى لم يكن أمرا يمكن توجيهه.

ثمّ أشارت إلى دليلهما و وثيقتهما، فتقول: قولا له: قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ فإنّا لا نتكلم اعتباطا أو جزافا، و لا نتحدّث من دون أن نمتلك الدليل، و بناء على هذا، فإنّ العقل يحكم بأن تفكّر فى كلامنا على الأقل، و أنّ تقبله إن كان صحيحا و منطقيّا.

ثمّ تضيف الآية من باب ترغيب المؤمنين: وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى

و هذه الجملة يمكن أن تشير أيضا إلى معنى آخر، و هو أنّ السلامة فى هذه الدنيا، و العالم الآخر من الآلام و العذاب الإلهى الأليم، و من مشاكل الحياة الفردية و الاجتماعية، من نصيب أولئك الذين يتّبعون الهدى الإلهى، و هذه فى الحقيقة هى النتيجة النهائية لدعوة موسى.

و أخيرا، فإنّ اللّه يأمرهما أن يفهماه العاقبة المشؤومة للتمرّد على هذه الدعوة و عصيانها، بقولهما له: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى

مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى

من الممكن أن يتوهّم متوهّم عدم تناسب هذه العبارة و الحوار الملائم اللذين كانا قد امرا بهما. إلّا أنّ هذا خطأ محض، فأى مانع من أن يقول طبيب حريص بأسلوب مناسب لمريضه: كلّ من يستعمل هذا الدواء سيشفى و ينجو، و كلّ من يتركه فسينزل به الموت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص: ٩

إنّ هذا بيان لنتيجة التعامل غير المناسب مع واقع ما، و لا يوجد فيه تهديد خاص، و لا شدّة فى التعامل. و بتعبير آخر: فإنّ هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لفّ و دوران، و بدون أى تغطية و تورية.

بحوث

١- قدرة اللّه العجيبة

لقد رأينا كثيرا- على مرّ التاريخ- أناسا أقوياء هبّوا للوقوف بوجه الحقّ، إلّا أنّ اللّه سبحانه لم يستخدم و يعبّئ جنود الأرض و السّماء من أجل سحقهم و تدميرهم فى أى مورد من الموارد، بل إنّه يغلبهم بسهولة و بساطة، و بصورة لا تخطر على ذهن أحد، خاصة و أنّه فى كثير من الموارد يبعث هؤلاء نحو أسباب موتهم، و يؤكل مهمّة إعدامهم إليهم أنفسهم! و نرى فى قصّة فرعون هذه، أنّ عدوّه الأصلى- أى موسى- قد تربّى فى أحضانه، و هو الذى رعاه، و نشأ فى كنفه! و من الطبيعى أنّ ذلك كان بتخطيط اللّه سبحانه.

و الأروع من ذلك أنّ قابلة موسى عليه السّلام- طبقا لنقل التواريخ- كانت من الأقباط، و النجّار الذى صنع صندوق نجاته كان من الأقباط أيضا، و الذين أخرجوا الصندوق من الماء كانوا من حرّاس فرعون، و الذى فتح الصندوق كانت امرأة فرعون، و استدعيت أمّ موسى من قبل أتباع فرعون لتكون مرضعة له، و كانت مطاردة موسى عليه السّلام بعد حادثة قتل الرجل القبطى قد تمّت من قبل الفراعنة، و كانت سبب هجرته إلى مدين ليقضى فترة من التعليم و التكامل فى مدرسة النّبى «شعيب» نعم، عند ما يريد اللّه سبحانه أن يظهر قوّته فهكذا يفعل، ليعلم كلّ العصاة و المتمرّدين أنّهم أصغر من أن يقفوا أمام إرادة اللّه و مشيئته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص: ١٠

٢- التعامل المناسب مع الأعداء

إنّ أوّل أوامر القرآن من أجل النفوذ إلى قلوب الناس- مهما كانوا ضالّين و منحطّين- هو التعامل المناسب المقترن بالمحبّة و العواطف الإنسانية، أمّا التوسّل بالعنف فإنّه يتعلّق بالمراحل التالية حينما لا يؤثّر التعامل برفق، فالهدف هو جذب الناس ليتذكّروا، و ليبصروا طريقهم، أو أن يخافوا من العواقب المشؤومة للعمل السىء لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى

إنّ كلّ عقيدة يجب أن تمتلك جاذبية، و لا تبعد الأفراد عنها بدون مبرّر، و قصص و وقائع الأنبياء و أئمّة الدين عليهم السّلام تبيّن بوضوح أنّهم لم ينحرفوا عن هذا المنهج و المسير أبدا طوال حياتهم.

نعم، من الممكن أن لا- تؤثّر أساليب المحبّة و اللطف فى القلوب الداكنة عند بعض الناس، و يكون الطريق مقتصرا على استعمال العنف فى المكان المناسب، إلّا أنّه ليس قانونا عامّا و أساسيّا للبدء فى العمل، فإنّ المحبّة هى البداية و المسلك الأوّل، و هذا هو الدرس الذى تذكره لنا الآية آنفة الذكر.

ممّا يلفت النظر أنّنا نقرأ فى بعض الرّوايات: إنّ موسى كان مأمورا بأن ينادى فرعون بأحسن أسمائه، فربّما يؤثّر ذلك فى قلبه المظلم.

۳- هل یوحی إلی غیر الأنبیاء؟

لا شکّ أنّ للوحی فی القرآن الکریم معانی مختلفة: فقد جاء أحیانا بمعنی الصوت الواطئ، أو القول همسا. و هذا هو المعنی الأصلی لهذا اللفظ فی اللغة العربیة.

و جاء أحیانا بمعنی الإشارة الرمزیة إلی شیء ما، مثل: فَأَوْحی إِلَیْهِمْ أَنْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱

سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیًّا[۳].

و أحیانا بمعنی الإلهام الغریزی، مثل أَوْحی رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ ۴].

و أحیانا بمعنی الأمر التکوینی، الأمر الذی یصدر بلسان الخلقة، مثل یَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحی لَها[۵].

و ورد أحیانا بمعنی الإلهام الذی یلقی فی قلوب المؤمنین، و إن لم یکونوا أنبیاء أو أئمّة، مثل: إِذْ أَوْحَیْنا إِلی أُمِّکَ ما یُوحی ۶].

إلّا أنّ أهمّ موارد استعماله فی القرآن المجید هی النداءات الإلهیّة الخاصّة بالأنبیاء، مثل: إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ ۷].

فبناء علی هذا، فإنّ لکلمة الوحی معنی واسعا و جامعا یشمل هذه الموارد، و لهذا فسوف لا نعجب من استعمال کلمة الوحی فی شأن أمّ موسی.

۴- سؤال و جواب

من الممکن أن یتساءل البعض عند قراءة هذه الآیات، و هو: لماذا یقلق موسی و یضطرب و یتردّد مع تلک الوعود الإلهیّة، إلی أن یقول اللّه سبحانه له بصراحة: اذهبا فإنّنی معکما أسمع کلّ الکلام، و أری کلّ شیء، و لا مجال للقلق مطلقا؟

و یتّضح جواب هذا السؤال من أنّ هذه المهمّة کانت ثقیلة جدّا، فإنّ موسی علیه السّلام- الذی کان راعیا للأغنام- یرید أن یذهب مع أخیه فقط إلی حرب رجل قوی مقتدر، و متمرّد عاص، و الذی یحکم بلدا قویّا فی ذلک الزمان. ثمّ إنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲

هذه الدعوة تبدأ من دعوة فرعون نفسه، لا أن یذهبا أوّلا إلی الآخرین لیعدّا الأنصار و الجیوش، بل یجب أن یقدحوا أوّل شرارة فی قلب فرعون، و هذه فی الحقیقة مهمّة معقّدة جدّا، و صعبة للغایة.

إضافة إلی أنّ للعلم و المعرفة درجات و مراتب، فکثیرا ما یعلم الإنسان بشیء یقینا، إلّا أنّه یرغب أن یصل إلی مرحلة علم الیقین و الاطمئنان المطلق، کما أنّ إبراهیم مع إیمانه القطعی بالمعاد، فإنّه طلب من اللّه أن یریه مشهدا من إحیاء الموتی فی هذه الدنیا، لیطمئن أکثر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳

الآیات [سورة طه (۲۰): الآیات ۴۹ الی ۵۵]

اشارة

قالَ فَمَنْ رَبُّکُما یا مُوسی (۴۹) قالَ رَبُّنَا الَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی (۵۰) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولی (۵۱) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی

فِی کِتابٍ لا یَضِلُّ رَبِّی وَ لا یَنْسی (۵۲) الَّذِی جَعَلَ لَکَمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَکَ لَکَمْ فِیها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّی (۵۳)

کُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَکُمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِأُولِی النُّهی (۵۴) مِنْها خَلَقْناکُمْ وَ فِیها نُعِیدُکُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُکُمْ تارَةً أُخْری (۵۵)

التّفسیر

من ربّکما؟

لقد حذف القرآن المجید هنا- و کما هی طریقته- بعض المطالب التی یمکن فهمها بمعونة الأبحاث الآتیة، و توجّه مباشرة إلی محاورة موسی و هارون مع فرعون، و المبحث فی الواقع هکذا:

إنّ موسی بعد تلقّی الوحی و الرسالة، و خطّة عمل کاملة فی کیفیّة التعامل مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۴

فرعون، تحرّک من تلک الأرض المقدّسة، و التقی أخاه هارون- علی حدّ قول المفسّرین- قرب مصر، ثمّ توجّها معا نحو فرعون، و تمکّنا من الدخول إلی قصر فرعون الأسطوری برغم المشاکل الکثیرة.

فلمّا أصبح موسی أمام فرعون وجها لوجه، أعاد تلک الجمل الدقیقة المؤثّرة التی علّمه اللّه إیّاها أثناء الأمر بالرسالة: إِنَّا رَسُولا رَبِّکَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِی إِسْرائِیلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناکَ بِآیَةٍ مِنْ رَبِّکَ وَ السَّلامُ عَلی مَنِ اتَّبَعَ الْهُدی و اعلم أیضا إِنَّا قَدْ أُوحِیَ إِلَیْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلی مَنْ کَذَّبَ وَ تَوَلَّی

فلمّا سمع فرعون هذا الکلام، کان أوّل ردّ فعله أن قالَ فَمَنْ رَبُّکُما یا مُوسی

و العجیب أنّ فرعون المغرور و المعجب بنفسه لم یکن مستعدا حتّی أن یقول: من ربّی الذی تدّعیانه؟ بل قال: من ربّکما؟! فأجابه موسی مباشرة بجواب جامع جدّا، و قصیر فی الوقت نفسه، عن اللّه:

قالَ رَبُّنَا الَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی ففی هذه العبارة الموجزة إشارة إلی أصلین أساسیین من الخلقة و الوجود، و کلّ واحد منهما دلیل و برهان مستقل یوصل إلی معرفة اللّه:

الأوّل: إنّ اللّه سبحانه قد وهب لکلّ موجود ما یحتاجه، و هذا أمر فی غایة الأهمیّة ممّا یقتضی تألیف عدّة کتب، بل إنّ کثیرا من الکتب قد الّفت فی هذا المجال.

إنّنا إذا دقّقنا قلیلا فی النباتات و الحیوانات التی تعیش فی کلّ منطقة، سواء الطیور، أو الحیوانات البحریة، أو الحشرات و الزواحف، فسنری أنّ لکلّ منها انسجاما تامّا مع محیطها الذی تعیش فیه، و کلّ ما تحتاجه فهو موجود تحت تصرّفها، فإنّ هیکل الطیور قد هیّئها للطیران من ناحیة شکلها و وزنها و حواسها المختلفة، و کذلک تکوین و بناء الحیوانات التی تعیش فی أعماق البحار.

و الثّانی: مسألة هدایة و إرشاد الموجودات، و قد جعلها القرآن باستعماله (ثمّ)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۵

فی الدرجة الثّانیة بعد تأمین الاحتیاجات.

إنّ من الممکن أن یمتلک الإنسان أی شیء من أسباب الحیاة، إلّا أنّه یجهل کیفیّة الاستفادة منها، و المهمّ أن یعرف طریقة استعمالها، و هذا هو الشیء الذی نراه فی الموجودات المختلفة بوضوح، و کیف أنّ کلّا منها یستغلّ طاقته بصورة دقیقة فی إدامة حیاته، کیف یبنی بیتا، و کیف یتکاثر، و کیف یربیّ أولاده و یخفیهم و یبعدهم عن متناول الأعداء، أو یعلمهم کیف یواجهون الأعداء؟

و البشر- أيضا- لديهم هذه الهداية التكوينيّة، إلّا أنّ الإنسان لمّا كان موجودا يمتلك عقلا و شعورا، فقد جعل اللّه سبحانه هدايته التكوينيّة مع هدايته التشريعيّة بواسطة الأنبياء متلازمة و متزامنة، بحيث إنّه إذا لم ينحرف عن ذلك الطريق، فإنّه سيصل حتما إلى مقصده. و بتعبير آخر فإنّ الإنسان نتيجة لامتلاكه العقل و الإرادة، فإنّ له واجبات و مسئوليات، و بعد ذلك مناهج تكامليّة ليس للحيوانات مثلها، و لذلك فإنّه إضافة إلى الهداية التكوينيّة محتاج إلى الهداية التشريعيّة.

و خلاصة القول: إنّ موسى عليه السّلام يريد أن يفهم فرعون أنّ عالم الوجود هذا غير منحصر فيك، و لا فى أرض مصر، و لا يختص بالحاضر أو الماضى، فإنّ لهذا العالم ماضيا و مستقبلا لم أكن و لم تكن فيه، و تلاحظ مسألتان أساسيتان فى هذا العالم:

تأمين الحاجات، ثمّ استغلال الطاقات و القوى فى طريق رقى الموجودات، فإنّها تستطيع جيدا أن تدلّك على ربّنا، و تعرّفك به، و كلّما أمعنت النظر فى هذا المجال فستحصل على دلالات و براهين كثيرة على عظمته و قدرته.

فلمّا سمع فرعون هذا الجواب الجامع الجميل، ألقى سؤالا آخر قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى و هناك بحث بين المفسّرين فى مراد فرعون من هذه الجملة، فقد أظهروا وجهات نظر مختلفة! ۱- فقال بعضهم: إنّ موسى عليه السّلام لمّا ذكر فى آخر جملة من كلامه شمول العذاب الإلهى للمكذّبين بالتوحيد، فإنّ فرعون سأل: إذن فلما ذا لم يبتل أولئك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶

الأقوام المشركين الماضين، بمثل هذا العذاب؟

۲- و قال بعض: إنّ موسى لمّا قال: إنّ ربّ العالم هو ربّ الجميع، سأل فرعون: فلما ذا كان الأسلاف من قومنا و كلّ الأقوام الماضية مشركين؟ فهذا يبيّن أنّ الشرك و عبادة الأصنام ليس عملا خاطئا! ۳- و قال آخرون: لمّا كان معنى كلام موسى هو أنّ الجميع سينال نتيجة أعماله فى النهاية، و سيعاقب أولئك الذين عصوا الأوامر الإلهيّة، فسأل فرعون:

فما هو مصير الأقوال الماضية الذين هلكوا و اندثروا؟

على كلّ حال، أجابه موسى عليه السّلام بقوله: قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى فِى كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّى وَ لا يَنْسى ۸] و بناء على هذا فإنّ حساب هؤلاء و كتبهم محفوظة، و سينالون فى النهاية ثواب و عقاب أعمالهم، فإنّ الحافظ لهذا الحساب هو اللّه الذى لا يخطئ و لا ينسى، و بملاحظة ما بيّنه موسى من أصل التوحيد و التعريف باللّه، فإنّ من الواضح جدّا أنّ حفظ هذا الحساب لدى من أعطى كلّ موجود حاجته بدقّة، ثمّ هداه ليس أمرا صعبا.

و للمفسّرين آراء مختلفة فى الفرق بين (لا يضلّ) و (لا ينسى) إلّا أنّ الظاهر هو أن (لا يضلّ) إشارة إلى نفى أى نوع من الخطأ من قبل اللّه سبحانه، و (لا ينسى) إشارة إلى نفى النسيان، أى أنّه سبحانه لا يشتبه فى حساب الأفراد عند بداية العمل، و لا يبتلى بنسيان حفظ حسابهم و أعمالهم، و على هذا فإنّ موسى قد نبّه بصورة ضمنيّة على إحاطة علم اللّه بكلّ شىء، لينتبه فرعون إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ أى شىء من عمله لا يخفى على اللّه و إن كان بمقدار رأس الإبرة، و سوف ينال عقابه أو ثوابه.

فى الحقيقة، إنّ الإحاطة العلمية للّه هى نتيجة الكلام الذى قاله موسى من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷

قبل، و هو أنّ اللّه الذى أعطى كلّ موجود حاجته ثمّ هداه، مطّلع على حال كلّ أحد، و كلّ شىء.

و لمّا كان جانب من حديث موسى عليه السّلام حول مسألة التوحيد و معرفة اللّه، فإنّه يبيّن هنا فصلا آخر فى هذا المجال، فيقول: الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى و فى مجموع هذه الآية إشارة إلى أربعة أنواع من نعم اللّه الكبرى.

۱- الأرض التى هى مهد استقرار الإنسان و مهاده، و يستطيع الإنسان العيش عليها براحة و أمان ببركة قانون الجاذبية، و كذلك الطبقة الغازية العظيمة التى تحيط بالأرض.

۲- الطرق و السبل التى أوجدها اللّه فى الأرض، و التى تربط جميع مناطقها بعضها بالبعض الآخر، كما رأينا غالبا وجود طرق و وديان بين سلسلة الجبال التى تناطح السّماء يستطيع الإنسان أن يمرّ من خلالها و يصل إلى مقصده.

۳- المـاء الـذى هو أساس الحياة، و مصـدر كلّ البركات، و الـذى أنزل من السّـماء ۴- الأعشـاب و النباتات المختلفـة التى تخرج من الأرض بفعل هـذا الماء، و يشـكل قسم منها المواد الغذائيـة للإنسان، و قسم يسـتفيد منه الإنسان فى صـنع الأدويـة، و قسم آخر يصـنع ملابسه، و قسم آخر لوسائـل الحيـاة كالأبواب، و حتّى البيوت التى تبنى من الخشب، و السـفن، و كثير من وسائـط النقل الأخرى، بل يمكن القول: إنّ هـذه النعم الأربع الكبرى تشـكل حسب الترتيب الـذى ورد فى الآيـة أولويّات حياة الإنسان، فقبل كلّ شـىء يحتاج الإنسان إلى محلّ سكن و هدوء، و بعده إلى طرق المواصلات، ثمّ الماء، ثمّ المحاصيل الزراعية.

ثمّ أشـار إلى خامس النعم و آخرها من سلسـلة النعم الإلهيّـة هـذه، فقال: كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ و هو إشارة إلى ثرواتكم و منتوجاتكم الحيوانيّة، و التى تشكّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸

جانبا مهمّا من المواد الغذائية و الملابس و وسائل الحياة، هى أيضا من بركات هذه الأرض و ذلك الماء النازل من السّماء.

و فى النهاية، و بعد أن أشار إلى كلّ هذه النعم، قال: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى

ممّا يسـتحقّ الانتباه أنّ «النهى» جمع «نهيـة» و هى فى الأصل مأخوذة من مادّة «نهى» مقابل الأمر، و تعنى العقل الذى ينهى الإنسان عن القبائـح و السيّئات، و هـذه إشارة إلى أنّ كلّ تدبّر و تفكّر من أجل فهم أهميّة هذه الآيات ليس كافيا، بل إنّ العقل و الفكر المسؤول هو الذى يستطيع أن يدرك و يطلع على هذه الحقيقة.

و بمـا أنّ هـذه الآيـات دلّت على التوحيـد بخلق الأرض و نعمها، فقـد بيّنت مسألـة المعاد بالإشارة إلى الأرض فى آخر آيـة من هـذه الآيات أيضا فقالت:

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى و إنّه لتعبير بليغ حقّا، و مختصـر أيضا، عن ماضـى البشـر و حاضره و مستقبله، فكلّنـا قـد جئنا من التراب، و كلّنا نرجع إلى التراب، و منه نبعث مرّة أخرى! إنّ رجوعنا إلى التراب، أو بعثنا منه أمر واضـح تماما، لكن فى كيفيّـة بـدايتنا من التراب تفسيران: الأوّل: إنّنـا جميعا من آدم و آدم من تراب. و الآخر: إنّنا أنفسـنا قـد خلقنا من التراب، لأنّ كلّ المواد الغذائية التى كوّنت أجسام آبائنا و أمهاتنا قد أخذت من هذا التراب.

ثمّ إنّ هـذا التعبير ينبّه كـلّ العتاة المتمردّين، و المتّصـفين بصـفات فرعون، كى لا ينسوا من أين أتوا، و إلى أين يـذهبون؟ فلما ذا كلّ هذا الغرور و العصيان و الطغيان من موجود كان بالأمس ترابا، و سيكون غدا ترابا أيضا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹

ملاحظات

۱- كلمتى «المهـد» و «المهاد» تعنيان المكان المهيّأ للجلوس و المنام و الاستراحـة، و فى الأصل تطلق كلمـة المهـد على المكان الـذى ينام فيه الطفل، فكأنّ الإنسان طفل وضع فى مهد الأرض، و قد توفّرت فى هذا المهد كلّ وسائل الحياة.

۲- كلمة «أزواجا» التى أخذت من مادّة «زوج» يمكن أن تكون إشارة إلى أصـناف و أنواع النباتات، كما يمكن أن تكون إشارة خفيّة إلى مسألة الزوجيّة فى عالم النباتات، و التى سنتحدّث عنها فى ذيل آية مناسبة إن شاء اللّه تعالى.

۳-

ورد عن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلم حديث فى اصول الكافى فى تفسـير (أولو النهى)، جاء فيه: «إنّ خياركم أولو النهى» قيل: يا رسـول اللّه، و من أولـو النهى؟ قـال: «هم أولو الأخلاـق الحسـنة، و الأحلاـم الرزينـة، و صـلة الأرحـام، و البـررة بالأمّهـات و الآبـاء، و

المتعاهدين للفقراء و الجيران و اليتامى، و يطعمون الطعام، و يفشون السلام فى العالم، و يصلّون و الناس نيام غافلون»[۹].

و

فى حديث آخر نقل عن أمير المؤمنين عليه السّلام، أنّ رجلا سأله: يا ابن عمّ خير خلق اللّه، ما معنى السجدة الأولى؟ فقال: «تأويله: اللّهمّ إنّك منها خلقتنى- يعنى من الأرض- و رفع رأسك و منها أخرجتنا، و السجدة الثّانية و إليها تعيدنا، و رفع رأسك من الثّانية و منها تخرجنا تارة أخرى»[۱۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۵۶ الى ۶۴]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى (۵۶) قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (۵۷) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (۵۸) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (۵۹) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (۶۰)

قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (۶۱) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى (۶۲) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (۶۳) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (۶۴)

التّفسير

فرعون يهىء نفسه للجولة الأخيرة:

تعكس هذه الآيات مرحلة أخرى من المواجهة بين موسى و فرعون، و يبدأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱

القرآن الكريم هذا الفصل بهذه الجملة: وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى و من المسلّم أنّ المراد من هذه الآيات هنا ليس كلّ المعجزات التى ظهرت على يد موسى عليه السّلام طيلة حياته فى مصر. بل مرتبطة بالمعجزات التى أراها فرعون فى بداية دعوته، معجزة العصا، و اليد البيضاء، و محتوى دعوته السماوية الجامعة، و التى كانت بنفسها دليلا حيّا على أحقّيته، و لذلك تطالعنا بعد هذه الحادثة مسألة المواجهة بين السّحرة و موسى عليه السّلام و معجزاته الجديدة.

و الآن، لنر ماذا قال فرعون الطاغى المستكبر العنود فى مقابل موسى و معجزاته، و كيف اتّهمه كما هى عادة كلّ المتسلّطين و الحكّام المتعنّتين: قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى و هو إشارة إلى أنّنا نعلم أنّ مسألة النبوّة و الدعوة إلى التوحيد، و إظهار هذه المعجزات تشكّل بمجموعها خطّة منسّقة للانتصار علينا، و بالتالى إخراجنا مع الأقباط من أرض آبائنا و أجدادنا، فليس هدفك الدعوة إلى التوحيد، و لا نجاة و تخليص بنى إسرائيل، بل هدفك الوصول إلى الحكم و السيطرة على هذه الأرض، و إخراج المعارضين! إنّ هذه التهمة هى نفس الحربة التى يستخدمها الطواغيت و المستعمرون على امتداد التاريخ، و يلوحون بها و يشهرونها كلّما رأوا أنفسهم فى خطر، و من أجل إثارة الناس لصالحهم يثيرون مسألة تعرّض مصالح البلد للخطر، فالبلد يعنى حكومة هؤلاء العتاة، و وجوده يعنى وجودهم! و يعتقد بعض المفسّرين أنّ الهدف من جلب بنى إسرائيل إلى مصر، و الاحتفاظ بهم فى هذه الأرض

لم يكن من أجل استغلال قواهم كعبيد و حسب، بل إنّهم فى الوقت نفسه كانوا لا يريدون لبنى إسرائيل، الذين كانوا قوما أقوياء، أن يتحوّلوا إلى قوّة و مصدر خطر. و كذلك لم يكن الأمر بقتل الذكور للخوف من ولادة موسى فقط، بل للوقوف أمام قوّتهم و الحدّ منها، و هذا عمل يقوم به كلّ الأقوياء الظالمين، و بناء على هذا فإنّ خروج بنى إسرائيل- حسب طلب موسى-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲

يعنى اقتدار هذه الأمّة، و فى هذه الحالة سيتعرّض سلطان الفراعنة و عرشهم إلى الخطر.

و النقطة الأخرى فى هذه العبارة القصيرة، هى أنّ فرعون قد اتّهم موسى بالسحر، و هذا هو ما اتّهم به كلّ الأنبياء عند إظهار معجزاتهم البيّنة، كما نقرأ ذلك فى الآيتين (۵۲- ۵۳) من سورة الذاريات: كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ

و تجدر الإشارة إلى هذه المسألة أيضا، و هى أنّ إثارة المشاعر الوطنية وحبّ الوطن فى مثل هذه المواضع أمر مدروس بدقّة كاملة، لأنّ أغلب الناس يحبّون أرضهم و وطنهم كحبّهم أنفسهم و أرواحهم، و لذلك جعلوا هذين الأمرين فى مرتبة واحدة، كما فى بعض آيات القرآن: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۱۱].

ثمّ أضاف فرعون بأن لا تظن بأنّنا نعجز عن أن نأتى بمثل هذا السحر فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ و لكى يظهر حزما أكثر فإنّه قال: فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً

و ذكر البعض فى تفسير مَكاناً سُوىً إنّ المراد هو أن تكون فاصلته عنّا و عنك متساوية، و قال بعضهم: أن تكون فاصلته متساوية بالنسبة إلى الناس، أى أن يكون المكان فى وسط المدينة تماما، و قال بعض: المراد أن تكون الأرض أرضا مكشوفة و مسطّحة يشرف عليها الجميع، و أن يتساوى فى ذلك العالى و الدانى. و يمكن أن تعتبر كلّ هذه المعانى مجتمعة فيها.

و ينبغى التذكير بأنّ الحكّام الطغاة، و من أجل أن يهزموا خصمهم فى المعركة، و يرفعوا معنويات أتباعهم و أعوانهم الذين ربّما وقعوا تحت تأثيره (كما فى قصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳

موسى و معجزاته فلا يبعد أن يكونوا قد وقعوا تحت تأثيره) فإنّهم يعيدون إليهم المعنويات و القوّة، و يتعاملون فى الظاهر مع أمثال هذه المسائل بصرامة و شدّة، و يثيرون الصخب حولها! إلّا أنّ موسى لم يفقد هدوء أعصابه، و لم يدع للخوف من عنجهيّة فرعون إلى قلبه طريقا، بل قال بحزم: قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۱۲].

إنّ التعبير ب يَوْمُ الزِّينَةِ إشارة إلى يوم عيد كان عندهم لا نستطيع تعيينه بدقّة، إلّا أنّ المهمّ هو أنّ الناس كانوا يعطّلون أعمالهم فيه، و كانوا حتما مستعدّين للمشاركة فى مثل هذا «المشهد».

على كلّ حال، فإنّ فرعون بعد مشاهدة معجزات موسى العجيبة، و تأثيرها النفسى فى أنصاره، صمّم على مواجهة موسى عليه السّلام بالاستعانة بالسّحرة، و لذلك وضع الاتّفاق المذكور مع موسى فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى

فى هذه الجملة القصيرة تلخّصت حوادث جمّة جاءت بشكل مفصّل فى سورتى الأعراف و الشعراء، لأنّ فرعون بعد تركه ذلك المجلس و مفارقة موسى و هارون، عقد اجتماعات عديدة مع مستشاريه الخاصّين، و أتباعه المستكبرين، ثمّ دعا السّحرة من جميع أنحاء البلاد إلى الحضور فى العاصمة، و رغّبهم بمرغّبات كثيرة من أجل مواجهة موسى عليه السّلام، و امور أخرى ليس هنا مجال بحثها، إلّا أنّ القرآن الكريم قد جمّعها كلّها فى هذه الجمل الثلاث: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ، فَجَمَعَ كَيْدَهُ، ثُمَّ أَتى ۱۳].

و أخيرا حلّ اليوم الموعود، و وقف موسى أمام جميع الحاضرين، الذين كان بعضهم السّحرة، و كان عددهم- على رأى بعض المفسّرين- إثنين و سبعين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴

ساحرا، و قال آخرون إنّهم بلغوا أربعمائة، و ذكر البعض أعدادا أكبر أيضا. و كان قسم من ذلك الجمع عبارة عن فرعون و أنصاره و حاشيته، و أخيرا القسم الثّالث الذى كان يشكّل الأكثرية، و هم الناس المتفرّجون.

هنا توجّه موسى إلى السّحرة، أو إلى الفراعنة، و السّحرة، و قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى و واضح أنّ مراد موسى من الافتراء على اللّه سبحانه هو أن يجعلوا شخصا أو شيئا شريكا له، أو ينسبوا معجزات رسول اللّه إلى السحر، و يظنّوا أنّ فرعون إلههم و معبودهم، و من المحتّم أنّ اللّه سبحانه سوف لا- يدع من ينسبون هذه الأكاذيب إلى اللّه، و يسعون بكلّ قواهم لإطفاء نور الحقّ، بدون عقاب.

إنّ كلام موسى المتين الذى لا يشبه كلام السّحرة بوجه، بل إنّ نبرته كانت نبرة دعوة كلّ الأنبياء الحقيقيين، و نابعة من صميم قلب موسى الطاهر، فأثّرت على بعض القلوب، و أوجدت اختلافا بين ذلك الحشد من السّحرة، فبعض كان يناصر المواجهة و المبارزة، و بعض تردّد فى الأمر، و احتمل أن يكون موسى عليه السّلام نبيّا إليها، و أثّرت فيهم تهديداته، خاصّة و أنّ لباس موسى و هارون البسيط كان لباس رعاة الأغنام، و عدم مشاهدة الضعف و التراجع على محيّاهما بالرغم من كونهما وحيدين، كان يعتبر دليلا آخر على أصالة أقوالهما و صدق نواياهما، و لذلك فإنّ القرآن يقول: فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى

إنّ من الممكن أن تكون هذه المسارّة و النجوى أمام فرعون، و يحتمل أيضا أن لا- تكون أمامه، و هناك احتمال آخر، و هو أنّ القائمين على إدارة هذا المشهد قد تناجوا فى خفاء عن الناس.

إلّا أنّ أنصار الاستمرار فى المواجهة انتصروا أخيرا و أخذوا زمام المبادرة بيدهم، و شرعوا فى تحريك السّحرة بطرق مختلفة، فأوّلا قالُوا إِنْ هذانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٥

لَساحِرانِ ۱۴] و بناء على هذا فلا يجب أن تخافوا مواجهتهما، لأنّكم كبار و أساتذة السحر فى هذه البلاد العريضة، و لأنّ قوتكم و قدرتكم أكبر منهما! ثمّ إنّهما يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما الوطن الذى هو أعزّ من أنفسكم، إضافة إلى أنّهما لا يقنعان بإخراجكم من أرضكم، بل إنّهما يريدان أيضا أن يجعلا مقدّساتكم أضحوكة و محلّا للسخرية وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى ۱۵].

و الآن حيث أصبح الأمر كذلك، فلا- تدعوا للتردّد إلى أنفسكم طريقا مطلقا، بل فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا لأنّ الوحدة رمز انتصاركم فى هذه المعركة المصيريّة الحاسمة وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٦

الآيات [سورة طه (٢٠): الآيات ۶۵ الى ۶۹]

اشارة

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (۶۵) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (۶۶) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (۶۷) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (۶۸) وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (۶۹)

التّفسير

موسى عليه السّلام ينزل إلى الساحة:

لقد اتّحد السّحرة ظاهرا، و عزموا على محاربة موسى عليه السّلام و مواجهته، فلمّا نزلوا إلى الميدان قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى

قال بعض المفسّرين: إنّ اقتراح السّحرة، هذا إمّا أن يكون من أجل أن يسبقهم موسى عليه السّلام، أو إنّه كان احتراما منهم لموسى، و ربّما كان هذا الأمر هو الذى هيّأ السبيل إلى أن يذعنوا لموسى عليه السّلام و يؤمنوا به بعد هذه الحادثة.

إلّا أنّ هذا الموضوع يبد و بعيدا جدّا، لأنّ هؤلاء كانوا يسعون بكلّ ما أوتوا من قوّة لأن يسحقوا و يحطّموا موسى و معجزته، و بناء على هذا فإنّ التعبير آنف الذكر ربّما كان لإظهار اعتمادهم على أنفسهم أمام الناس.

غير أنّ موسى عليه السّلام بدون أن يبدى عجلة، لاطمئنانه بأنّ النصر سوف يكون حليفه، بل و بغضّ النظر عن أنّ الذى يسبق إلى الحلبة فى هذه المجابهات هو الذى يفوز قالَ بَلْ أَلْقُوا. و لا شكّ أنّ دعوة موسى عليه السّلام هؤلاء إلى المواجهة و عمل السحر كانت مقدّمة لإظهار الحقّ، و لم يكن من وجهة نظر موسى عليه السّلام أمرا مستهجنا، بل كان يعتبره مقدّمة لواجب.

فقبل السّحرة ذلك أيضا، و ألقوا كلّ ما جلبوه معهم من عصى و حبال للسحر فى وسط الساحة دفعة واحدة، و إذا قبلنا الرّواية التى تقول: إنّهم كانوا آلاف الأفراد، فإنّ معناها أنّ فى لحظة واحدة ألقيت فى وسط الميدان آلاف العصى و الحبال التى ملئت أجوافها بمواد خاصة فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى أجل، لقد ظهرت بصورة أفاع و حيّات صغيرة و كبيرة متنوّعة، و فى أشكال مختلفة و مخيفة، و نقرأ فى الآيات الأخرى، من القرآن الكريم فى هذا الباب:

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۱۶] و بتعبير الآية (۴۴) من سورة الشعراء: وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ

لقد ذكر كثير من المفسّرين أنّ هؤلاء كانوا قد جعلوا فى هذه الحبال و العصى موادا كالزئبق الذى إذا مسّته أشعّة الشمس و ارتفعت حرارته و سخن، فإنّه يولّد لهؤلاء- نتيجة لشدّة فورانه- حركات مختلفة و سريعة «إنّ هذه الحركات لم تكن سيرا و سعيا حتما، إلّا أن إيحاءات السّحرة التى كانوا يلقنونها الناس، و المشهد

الخاص الذّى ظهر هناك، كان يظهر لأعين الناس و يجسّد لهم أنّ هذه الجمادات قد و لجتها الروح، و هى تتحرّك الآن. (و تعبير سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ إشارة إلى هذا المعنى أيضا، و كذلك تعبير يُخَيَّلُ إِلَيْهِ يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى أيضا).

على كلّ حال، فإنّ المشهد كان عجيبا جدّا، فإنّ السّحرة الذين كان عددهم كبيرا، و تمرسهم و اطلاعهم فى هذا الفن عميقا، و كانوا يعرفون جيدا طريقة الاستفادة من خواص هذه الأجسام الفيزيائية و الكيميائية الخفيّة، استطاعوا أن ينفذوا إلى أفكار الحاضرين ليصدّقوا أنّ كلّ هذه الأشياء الميتة قد ولجتها الروح.

فعلت صرخات السرور من الفراعنة، بينما كان بعض الناس يصرخون من الخوف و الرعب، و يتراجعون إلى الخلف.

فى هذه الأثناء فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى و كلمة «أوجس» أخذت من مادّة (إيجاس) و فى الأصل من (وجس) على وزن (حبس) بمعنى الصوت الخفى، و بناء على هذا فإنّ الإيجاس يعنى الإحساس الخفى و الداخلى، و هذا يوحى بأنّ خوف موسى الداخلى كان سطحيّا و خفيفا، و لم يكن يعنى أنّه أولى اهتماما لهذا المنظر المرعب لسحر السّحرة، بل كان خائفا من أن يقع الناس تحت تأثير هذا المنظر بصورة يصعب معها إرجاعهم إلى الحقّ.

أو أن يترك جماعة من الناس الميدان قبل أن تتهيّأ الفرصة لموسى لإظهار معجزته، أو أن يخرجوهم من الميدان و لا يتضح الحقّ لهم، كما نقرأ

فى خطبة الإمام على عليه السّلام الرقم (۶) من نهج البلاغة: «لم يوجس موسى عليه السّلام خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهّال و دول الضلال»[۱۷].

و مع ما قيل لا نرى ضرورة لذكر الأجوبة الأخرى التى قيلت فى باب خوف موسى عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹

على كلّ حال، فقد نزل النصر و المدد الإلهى على موسى فى تلك الحال، و بيّن له الوحى الإلهى أنّ النصر حليفه كما يقول القرآن: قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّکَ أَنْتَ الْأَعْلى

إنّ هذه الجملة و بتعبيرها المؤكّد قد أثلجت قلب موسى بنصره المحتّم- فإنّ (إنّ) و تكرار الضمير، كلّ منهما تأكيد مستقل على هذا المعنى، و كذلك كون الجملة اسميّة- و بهذه الكيفيّة، فقد أرجعت لموسى اطمئنانه الذى تزلزل للحظات قصيرة.

و خاطبه اللّه مرّة أخرى بقوله تعالى: وَ أَلْقِ ما فِى يَمِينِکَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى

«تلقف» من مادة «لقف» بمعنى البلع، إلّا أنّ الراغب يقول فى مفرداته: إنّ معناها فى الأصل تناول الشىء بحذق، سواء فى ذلك تناوله باليد أو الفمّ. و فسّرها بعض اللغويين بأنّها التناول بسرعة.

و ممّا يلفت النظر أنّه لم يقل (الق عصاك) بل يقول (الق ما فى يمينك) و ربّما كان هذا التعبير إشارة إلى عدم الاهتمام بالعصا، و إشارة إلى أنّ العصا ليست مسألة مهمّة، بل المهم إرادة اللّه و أمره، فإنّه إذا أراد اللّه شيئا، فليست العصا فقط، بل أقل و أصغر منها قادر على إظهار مثل هذه المقدّرة! و هنا نقطة تستحقّ الذكر أيضا و هى: إنّ كلمة (ساحر) فى الآية وردت أوّلا نكرة، و بعدها معرفة بألف و لام الجنس، و ربّما كان هذا الاختلاف لأنّ الهدف فى المرتبة الأولى هو عدم الاهتمام بعمل هؤلاء السّحرة، و معنى الجملة: إنّ العمل الذى قام به هؤلاء ليس إلّا مكر ساحر. أمّا فى المورد الثّانى فقد أرادت التأكيد على أصل عام، و هو أنّه ليس هؤلاء السّحرة فقط، بل كلّ ساحر فى كلّ زمان و مكان و أينما وجد سوف لا ينتصر و لا يفلح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰

بحثان

۱- ما هى حقيقة السحر؟

بالرغم من أنّنا تحدّثنا بصورة مفصّلة فيما مضى عن هذا الموضوع، إلّا أنّنا نرى أن نذكر على سبيل الإيضاح باختصار أنّ «السحر» فى الأصل يعنى كلّ عمل و كلّ شىء يكون مأخذه خفيا، إلّا أنّه يقال فى التعبير المألوف للأعمال الخارقة للعادة التى تؤدّى باستعمال الوسائل المختلفة. فتسمّى سحرا أيضا فأحيانا يتخذ جانب الحيلة و المكر و خداع النظر و الشعوذة.

و أحيانا يستفاد من عوامل التلقين و الإيحاء.

و أحيانا يستفاد من خواص الأجسام و المواد الفيزيائية و الكيميائية المجهولة.

و أحيانا بالاستعانة بالشياطين.

و كلّ هذه الأمور جمعت و اندرجت فى ذلك المفهوم اللغوى الجامع.

إنّنا نواجه على طول التاريخ قصصا كثيرة حول السحر و السّحرة، و فى عصرنا الحاضر فإنّ الذين يقومون بهذه الأعمال ليسوا بالقليلين، إلّا أنّ كثيرا من خواص الأجسام و الموجودات التى كانت خافية على الناس فيما مضى، قد اتّضحت فى زماننا الحاضر، بل كتبوا كتبا فى مجال آثار الموجودات المختلفة العجيبة، فكشفت كثيرا من سحر السّاحرين و سلبته من أيديهم.

فمثلا- إنّنا نعرف فى علم الكيمياء الحديثة أجساما كثيرة وزنها أخفّ من الهواء، و إذا ما وضعت داخل جسم فإنّ من الممكن أن يتحرّك ذلك الجسم، و لا يتعجّب من ذلك أحد، فحتّى الكثير من وسائل لعب الأطفال اليوم ربّما كانت تبدو سحرا فى الماضى!

اليوم يعرضون في «السيرك» فعاليّات تشبه سحر السّحرة الماضين بالاستفادة من كيفيّة الإضاءة و توليد النور، و المرايا، و خواص الأجسام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱

الفيزياوية و الكيمياوية، و يحدثون مشاهد غريبة و عجيبة بحيث يفتح المتفرجون أفواههم أحيانا من التعجّب.

طبعا، إنّ أعمال المرتاضين الخارقة للعادة لها قصّة أخرى عجيبة جدّا.

و على كلّ حال، فانّه لا مجال لإنكار وجود السحر، أو اعتباره خرافة سواء في الأزمنة الماضية أو هذه الأيّام.

و الملاحظة التي تستحقّ الانتباه، هي أنّ السحر ممنوع في الإسلام، و يعدّ من الذنوب الكبيرة، لأنّه في كثير من الأحيان سبب لضلال الناس، و تحريف الحقائق، و تزلزل عقائد السذج. و من الطبيعي أنّ لهذا الحكم الإسلامي- ككثير من الأحكام الاخرى- موارد استثناء، و من جملتها تعلّم السحر لإبطال ادّعاء المدّعين للنبوّة، أو لإزالة أثره ممّن رأوا منه الضرر و الأذى. و قد تحدّثنا حول هذه المسألة بصورة مفصّلة في ذيل الآيتين ۱۰۲- ۱۰۳ من سورة البقرة.

۲- السّاحر لا يفلح أبدا

يسأل الكثيرون: إنّ السّحرة إذا كانوا يقدرون على القيام بأعمال خارقة للعادة و شبيهة بالمعجزة، فكيف يمكن التفريق و التمييز بين أعمال هؤلاء و بين المعجزة؟

و الجواب عن هذا السؤال بملاحظة نقطة واحدة، و هي: إنّ عمل السّاحر يعتمد على قوّة الإنسان المحدودة، و المعجزة تستمدّ قوتها و تنبع من قدرة اللّه الأزليّة غير المتناهية، و لذلك فإنّ أي ساحر يستطيع أن يقوم بأعمال محدودة، و إذا أراد ما هو أعظم منها فسيعجز، فهو يستطيع أن يؤدّي ما تمرّن عليه كثيرا من قبل، و تمكّن منه و سيطر عليه، و أصبح مطّلعا و عارفا بكلّ دقائق و زوايا و عقد ذلك العمل، إلّا أنّه سيكون عاجزا فيما عداه، في حين أنّ الأنبياء لمّا كانوا يستمدّون العون من قدرة اللّه الأزليّة، فإنّهم قادرون على القيام بأي عمل خارق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲

للعادة، في الأرض، و السّماء، و من كلّ نوع و شكل.

السّاحر لا يستطيع أن يقوم بالعمل الخارق وفق اقتراح الناس، إلّا أن يكون ذلك الاقتراح مطابقا لما تمرّن عليه (و أحيانا يتفقون مع أصدقائهم بأن ينهضوا من بين الناس و يقترحوا ابتداء القيام بالعمل المتفق عليه سابقا) إلّا أنّ الأنبياء كانوا يقومون مرارا و تكرارا بمعاجز مهمّة كان يطلبها أناس يبتغون الحقّ دعما للنبوّة و دليلا على صحتها، كما سنلاحظ ذلك أيضا في قصّة موسى هذه.

و مع ما مرّ، فإنّ السحر لما كان عملا منحرفا، و نوعا من الخدعة و المكر، فإنّه يحتاج إلى وضع روحي ينسجم معه، و السّحرة- بدون استثناء- أفراد خدّاعون ماكرون يمكن معرفتهم بسرعة من خلال مطالعة نفسياتهم، في حين أنّ إخلاص و طهارة و صدق الأنبياء عليهم السّلام أمور مقرونة بمعاجزهم، و تضاعف من تأثيرها.

(دقّقوا ذلك).

و ربّما لهذه الأسباب تقول الآية: وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى لأنّ قوّته محدودة، و أفكاره و صفاته منحرفة.

إنّ هذا الموضوع لا يختص بالسّحرة الذين هبّوا لمحاربة الأنبياء، بل هو صادق في شأن السّحرة بصورة عامّة، لأنّهم سوف يفتضحون بسرعة، و لا يفلحون في عملهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۷۰ الى ۷۶]

اشارة

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى (۷۰) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى (۷۱) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (۷۲) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (۷۳) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (۷۴)
وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (۷۵) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (۷۶)

التّفسير

الإنتصار العظيم لموسى عليه السّلام:

انتهينا فى الآيات السابقة إلى أنّ موسى أمر أن يلقى عصاه ليبطل سحر السّاحرين، و قد عقبت هذه المسألة فى هذه الآية، غاية الأمر أنّ العبارات و الجمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۴

التى كانت واضحة قد حذفت، و هى (أنّ موسى قد ألقى عصاه، فتحوّلت إلى حيّة عظيمة لقفت كلّ آلات و أدوات سحر السّحرة، فعلت الصيحة و الغوغاء من الحاضرين، فاستوحش فرعون و ارتبك، و فغر أتباعه أفواههم من العجب.

فأيقن السّحرة الذين لم يواجهوا مثل هذا المشهد من قبل، و كانوا يفرّقون جيدا بين السحر و غيره، إنّ هذا الأمر ليس إلّا معجزة إلهيّة، و إنّ هذا الرجل الذى يدعوهم إلى ربّهم هو رسول اللّه، فاضطربت قلوبهم، و تبيّن التحوّل العظيم فى أرواحهم و وجودهم).

و الآن نسمع بقيّة الحديث من لسان الآيات:

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى إنّ التعبير ب (القى)- و هو فعل مبنى للمجهول- ربّما كان إشارة إلى أنّهم قد صدّقوا موسى، و تأثّروا بمعجزته إلى الحدّ الذى سجدوا معه دون إرادة.

و نقطة أخرى يلزم ذكرها و تستحقّ الالتفات، و هى أنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الإيمان القلبى، بل رأوا أنّ من واجبهم إظهار هذا الإيمان بصورة جليّة، بتعابير لا يشوبها أى إبهام، أى التأكيد على ربوبية ربّ موسى و هارون، حتّى يرجع أولئك الذين ضلّوا بسبب سحرهم، و لا تبقى على عاتقهم مسئولية من هذه الجهة.

من البديهى أنّ عمل السّحرة هذا قد وجّه صفعة قويّة إلى فرعون و حكومته الجبّارة المستبدّة الظالمة، و هزّ كلّ أركانها، لأنّ الإعلام كان قد ركّز على هذه المسألة مدّة طويلة فى جميع أنحاء مصر، و كانوا قد جلبوا السّحرة من كلّ أرجاء البلاد، و وعد هؤلاء بكلّ نوع من المكافئات و الجوائز و الامتيازات إذا ما غلبوا و انتصروا فى المعركة! إلّا أنّه يرى الآن أنّ أولئك الذين كانوا فى الصفّ الأوّل من المعركة، قد استسلموا فجأة للعدو بصورة جماعية، و لم يسلموا و حسب، بل أصبحوا من المدافعين الصلبين عنه، و لم تكن هذه المسألة فى حسبان فرعون أبدا، و لا شكّ أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۵

جمعا من الناس قد اتّبعوا السّحرة و آمنوا بدين موسى. و لذلك لم ير فرعون بدّا إلّا أن يجمع كيانه و يلملم ما تبقى من هيبته و سلطانه عن طريق الصراخ و التهديد و الوعيد الغليظ، فتوجّه نحو السّحرة و قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ

إنّ هـذا الجبّار المستكبر لم يكن يـدّعى الحكومـة على أجسام و أرواح النـاس و حسب، بـل كـان يريـد أن يقول: إنّ قلوبكم تحت تصرّفى أيضا، و يجب على أحدكم إذا أراد أن يصمّم على أمر ما أن يستأذننى، و هذا هو العمل الذى يؤكّد عليه كلّ الفراعنة على امتداد العصور.

فالبعض- كفرعون مصر- يجريها على لسانه حمقا عند اضطرابه و قلقه، و البعض احتفظ بهـذا الحقّ لنفسه و يبيّنه بصورة غير مباشرة عن طريق وسائل الإعلام، و طوابير العملاء، و يعتقد بأنّ الناس يجب أن لا يعطوا الاستقلالية فى التفكير، بل إنّه فى بعض الأحيان قد يسلب الناس الحرية باسم حرية التفكير.

و على كلّ حال، فإنّ فرعون لم يكتف بذلك، بل إنّه ألصق بالسّاحرين التهمة و قال: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ.

لا شكّ أنّ فرعون كان على يقين و معرفة تامّة بكـذب كلامه و بطلانه، و لم يكن بالإمكان أن تحـدث مثل هـذه المؤامرة فى جميع أنحاء مصر و يجهل جنوده و شرطته بالأمر، و كـان فرعون قـد ربّى موسى عليه السّلام فى أحضـانه، و غيبته عن مصر كـانت من المسلّمات لـديه، فلو كـان كبير سحرة مصر لكـان معروفا بـذلك فى كلّ مكان، و لا يمكن أن يخفى أمره. إلّا أنّا نعلم أنّ الطغاة لا يتورّعون عن إلصاق أى كذب و تهمة بخصومهم عند ما يرون مركزهم الذى حصلوا عليه بغير حقّ يتعرّض للخطر.

ثمّ إنّه لم يكتف بهذا، بل إنّه هدّد السّحرة أشدّ تهديد، التهديد بالموت، فقال:

فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶

أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى ١٨].

فى الحقيقـة إنّ جملـة أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً إشارة إلى تهديد موسى عليه السّلام له من قبل، و كذلك تهديده للسحرة فى البداية وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ و التعبير ب مِنْ خِلافٍ إشارة إلى قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس، و ربّما كان إختيار هـذا النوع من التعذيب للسحرة، لأنّ موت الإنسان يكون أكثر بطأ و أشدّ عذابا فى هذه الحالة، أى أنّ النزيف سيكون أبطأ، و سيعانون عذابا أشدّ، و ربّما أراد أن يقول: سأجعل بدنكم ناقصا من جانبيه.

أمّا التهديـد بالصلب على جذوع النخل، فربّما كان لأنّ النخلة تعدّ من الأشجار العالية، و كلّ شخص- سواء البعيد أو القريب- يرى المعلّق عليها.

و الملاحظـة التى تستحقّ الـذكر أنّ الصلب فى عرف ذلك الزمـان لم يكن كمـا هو المتعارف عليه اليوم، فلم يكونوا يضعون حبل الإعدام فى رقبة من يريدون صلبه، بل كانوا يشدّون به الأيادى أو الأكتاف حتّى يموت المصلوب بعد تحمّل العذاب الشديد.

لكن نرى ماذا كان ردّ فعل السّحرة تجاه تهديـدات فرعون الشديدة؟ إنّهم لم يخافوا و لم يهربوا من ساحة المواجهة، أثبتوا صمودهم فى الميـدان بصورة قاطعـة، و قـالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى مـا جاءَنـا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِى فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ لكن، ينبغى أن تعلم بأنّك تقدر على القضاء فى هذه الدنيا، أمّا فى الآخرة فنحن المنتصرون، و ستلاقى أنت أشدّ العقاب إِنَّما تَقْضِى هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا.

و على هذا، فإنّهم قد بيّنوا هذه الجمل الثلاث الراسخة أمام فرعون:

الأولى: إنّنا قد عرفنا الحقّ و اهتدينا، و لا نستبدله بأى شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷

و الأخرى: إنّنا لا نخاف من تهديداتك مطلقا.

و الثّالثة: حكومتك و سعيك سوف يـدومان إلّا أيّاما قليلـة من الدينا! ثمّ أضافوا بأنّا قد ارتكبنا ذنوبا كثيرة نتيجة السحر، ف إِنَّا آمَنَّا

بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى و خلاصة القول: إنّ هدفنا هو الطهارة من الذنوب الماضيـة، و من جملتها محاربـة نبى اللّه الحقيقى، فنحن نريـد أن نصل عن هـذا الطريق إلى السعادة الأبدية، فإذا كنت تهدّدنا بالموت فى الدنيا، فإنّنا نتقبّل هذا الضـرر القليل فى مقابل ذلك الخير العظيم! و هنا ينقدح سؤال، و هو: إنّ السّحرة قد أتوا بأنفسـهم إلى حلبة الصراع ظاهرا، بالرغم من أنّ فرعون قد وعدهم وعودا كبيرة، فكيف عبّرت الآية بالإكراه؟

و نقول فى الجواب: إنّنـا لاـ نملك أى دليل على أنّ السّحرة لم يكونوا مجبورين منـذ البدايـة، بل إنّ ظاهر جملـة يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ ١٩]، أنّ السّحرة العلماء بـالفنّ كـانوا ملزمين بقبول الـدعوة، و من الطبيعى أنّ هـذا الأمـر يبـدو طبيعيّا فى ظـلّ حكومـة فرعون المستبدّة، بـأن يجبر أفرادا فى طريق تحقيق نيّاته، و وضع الجوائز و أمثـال ذلـك لاـ ينافى هـذا المفهوم، لأنّنا رأينا- كثيرا- حكومات ظالمة مستبدّة تتوسّل بالترغيبات المادية إلى جانب استعمال القوّة.

و يحتمل أيضا أنّ السّحرة عند أوّل مواجهة لهم مع موسى عليه السّلام تبيّن لهم من خلال القرائن أنّ موسى عليه السّلام على الحقّ، أو أنّهم على أقل تقدير وقعوا فى شكّ، و نشب بينهم نزاع و جدال، كما نقرأ ذلك فى الآية (۶۲) من هذه السورة:

فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ فأطلع فرعون و أجهزته على ما جرى، فأجبروهم على الاستمرار فى المجابهة.

ثمّ و اصل السّحرة قولهم بأنّنا إذا كنّا قد آمنا فإنّ سبب ذلك واضح ف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ و مصيبته الكبرى فى الجحيم هى أنّه لاـ يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى بل إنّه يتقلّب دائما بين الموت و الحياة، تلك الحياة التى هى أمر من الموت، و أكثر مشقّة منه.

وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الـدَّرَجاتُ الْعُلى جَنَّاتُ عَـدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِـدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى

و هنـاك بحث بين المفسّرين فى أنّ الجمـل الثلاثـ الأخيرة تابعـة لكلاـم السّحرة أمـام فرعون، أم أنّها جمل مسـتقلّة من جانب اللّه سبحانه جاءت تتمّة لكلامهم؟

فبعضهم اعتبرها تابعة لكلام السّحرة، و ربّما كان الابتداء ب (انّه) التى هى فى الواقع لبيان العلّة، يؤيّد وجهة النظر هذه.

إلّا أنّ التّفصيل الـذى جاء فى هـذه الآيات الثلاث حول مصير المؤمنين الصالحين، و الكافرين المجرمين، الذى ينتهى بجملة وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى و كذلك الأوصاف التى جاءت فيها حول الجنّة و النّار، تؤيّد الرأى الثّانى، و هو أنّها من كلام اللّه، لأنّ السّحرة ينبغى أن يكونوا قد تلّقوا حظّا وافرا من المعرفة و العلوم الإلهيّة فى هذه الفترة القصيرة بحيث يستطيعون أن يقضوا بهذا الجزم و القطع، و عن علم و اطّلاـع و وعى من أمر الجنّة و النّار و مصير المـؤمنين و المجرمين. إلّـا أن نقـول: إنّ اللّه سـبحانه قـد أجرى هـذا الكلاـم على ألسنتهم لإيمانهم، و إن كان هذا لا يفرّق عندنا و لا يختلف من ناحية التربية الإلهيّة و النتيجة سواء كان اللّه تعالى قد قال ذلك، أو أنّ السّحرة قد تعلّموه من اللّه، خاصة و أنّ القرآن ينقل كلّ ذلك بنغمة متناسقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹

بحوث

۱- العلم أساس الإيمان و الوعى

إنّ أهمّ مسألة تلاحظ فى الآيات- محلّ البحث- هى تحوّل السّحرة السـريع العميق قبال موسـى عليه السّلام، فإنّهم عند ما وقفوا بوجه

موسی علیه السّلام کانوا أعداء ألدّاء، إلّا أنّهم اهتزّوا بشدّة عند مشاهدة أوّل معجزة من موسی، فانتبهوا و غیّروا مسیرهم حتّی أثاروا دهشة الجمیع.

إنّ هذا التغییر السریع من الکفر إلی الإیمان، و من الانحراف إلی الاستقامة، و من الاعوجاج إلی الطریق المستقیم، و من الظلمة إلی النور، قد جعل الجمیع فی دهشة، و ربّما کان هذا الأمر غیر قابل للتصدیق حتّی من قبل فرعون نفسه، و لذا سعی إلی إیهام الناس بأنّ هذا الأمر قد دبّر من قبل، و اتّفق علیه مسبقا، فی حین أنّه کان یعلم فی أعماقه أنّ هذا الاتّهام کذب محض.

أی عامل کان السبب فی هذا التّحول العمیق السریع؟ و أی عامل أضاء قلوبهم بنور الإیمان الوهّاج، إلی درجة أبدوا استعدادهم فیها لأن یضعوا کلّ وجودهم فی خدمة هذا العمل، بل وضعوه فعلا علی ما نقل التاریخ، لأنّ فرعون قد نفّذ تهدیده، و قتل هؤلاء بطریقة وحشیّة؟

هل نجد هنا عاملا غیر العلم و الوعی؟ إنّ هؤلاء لمّا کانوا عالمین بفنون السحر و أسراره، و أیقنوا بوضوح تامّ أنّ عمل موسی لم یکن سحرا، بل هو معجزة إلهیّة، غیّروا مسیرهم بتلک الشجاعة و الحزم، و من هنا نعلم جیدا أنّه من أجل تغییر الأفراد المنحرفین، أو المجتمع المنحرف، و إیجاد انقلاب فی المسیرة ینبغی توعیتهم قبل کلّ شیء[۲۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰

۲- لن نؤثرک علی البیّنات

ممّا یلفت النظر أنّ هؤلاء اختاروا أکثر التعابیر منطقیّة إزاء فرعون و کلامه غیر المنطقی، فقالوا أوّلا: إنّنا قد رأینا أدلّة واضحة علی أحقیّة موسی و دعوته الإلهیّة، و سوف لا نکترث بأی شیء و لا نقدّمه علی هذه الدلالات البیّنة، و أکّدوا هذا الأمر فیما بعد بجملة وَ الَّذِی فَطَرَنا و ربّما کان هذا التعبیر بحدّ ذاته- مع ملاحظة کلمة (فطرنا)- إشارة إلی ما هم علیه من الفطرة التوحیدیّة، فکأنّهم قالوا: إنّنا نشاهد نور التوحید من أعماق وجودنا و أرواحنا، و کذلک بالدلیل العقلی، و مع هذه الآیات البیّنات کیف نستطیع أن نترک هذا الصراط المستقیم، و نسیر فی طریقک المنحرف؟

و یلزم الالتفات إلی هذه النکتة أیضا، و هی أنّ جمعا من المفسّرین لم یعتبروا جملة وَ الَّذِی فَطَرَنا قسما، بل عدّوها عطفا علی ما جاءَنا مِنَ الْبَیِّناتِ و بناء علی هذا سیصبح معنی الجملة: إنّنا سوف لن نؤثرک أبدا علی هذه الأدلّة الجلیة، و علی اللّه الذی خلقنا.

غیر أنّ التّفسیر الأوّل یبدو أقرب للصحّة، لأنّ عطف هاتین الجملتین بعضهما علی بعض غیر مناسب. «فلاحظوا بدقّة»!

۳- من هو المجرم؟

بملاحظة الآیات الشریفة التی تقول: إِنَّهُ مَنْ یَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ و التی یظهر منها خلود العذاب، یتبادر هذا السؤال: تری هل لکلّ مجرم هذا المصیر؟

إلّا أنّه بالالتفات إلی أنّ الآیة التالیة قد بیّنت النقطة المقابلة لذلک، و جاءت فیها کلمة «المؤمن» یتّضح أنّ المراد من المجرم هنا هو الکافر، إضافة إلی أنّه ورد فی القرآن کثیرا استعمال هذه الکلمة بمعنی الکافر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱

فمثلا نقرأ فی شأن قوم لوط الذین لم یؤمنوا بنبیّهم أبدا: وَ أَمْطَرْنا عَلَیْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِینَ ۲۱] و نقرأ فی سورة الفرقان فی الآیة ۳۱:

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

۴- جبر البيئة خرافة

تبيّن قصّـة السّـحرة فى الآيات المـذكورة أنّ القول بأنّ البيئة تملى أو تفرض على صاحبها مساره فى الحياة ليس سوى و هم فارغ، فإنّ الإنسان فاعل مختار، و صاحب إرادة حرّة، فإذا صـمّم فى أى وقت فإنّه يسـتطيع أن يغيّر مسيره من الباطل إلى الحقّ، حتّى لو كان كلّ الناس فى تلك البيئـة غارقين فى الذنوب و الضـلال، فالسّـحرة الذين كانوا لسـنين طويلة فى ذلك المحيط الملوّث بالشـرك، و كانوا يرتكبون بأنفسـهم و يعملون الأعمال المتوغّلة فى الشـرك عند ما صمّموا على قبول الحقّ و الثبات عليه بعشق، لم يخافوا أى تهديد، و حقّقوا هدفهم، و على قول المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى: (كانوا أوّل النهار كفّارا سحرة، و آخر النهار شهداء بررة)[۲۲].

و من هنا يتّضـح- أيضا- مـدى ضـعف و عـدم واقعيّـة أساطير الماديين، و خاصة الماركسـيين حول نشأة الدين و تكوّنه، فإنّهم اعتبروا أساس كلّ حركة هو العامل الاقتصادى، فى حين أنّ الأمر هنا كان بالعكس تماما، لأنّ السّـحرة قد حضـروا حلبة الصـراع نتيجة ضـغط أجهزة فرعون من جانب، و الإغراءات الاقتصاديـة من جانب آخر، إلّا أنّ الإيمان باللّه قـد محا كلّ هذه الأمور، فقد انهار المال و الجاه الذى وعدهم فرعون به عند أعتاب إيمانهم، و وضعوا أرواحهم العزيزة هديّة لهذا العشق!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۷۷ الى ۷۹]

اشارة

وَ لَقَدْ أَوْحَيْنـا إِلى مُوسـى أَنْ أَسْـرِ بِعِبادِي فَاضْـرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشـى (۷۷) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (۷۸) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى (۷۹)

التّفسير

نجاة بنى إسرائيل و غرق الفراعنة:

بعد حادثة المجابهة بين موسـى و السّـحرة، و انتصاره الباهر عليهم، و إيمان جمع عظيم منهم، فقد غزا موسى عليه السّلام و دينه أفكار الناس فى مصـر، بالرغم من أنّ أكثر الأقباط لم يؤمنوا به، إلّا أنّ هـذا كان ديدنهم دائما، و كان بنو إسـرائيل تحت قيادة موسـى مع قلّة من المصريين فى حالة صراع دائم مع الفراعنة، و مرّت أعوام على هذا المنوال، و حدثت حوادث مرّة موحشة و حوادث جميلة مؤنسة، أورد بعضها القرآن الكريم فى الآية (۱۲۷) و ما بعدها من سورة الأعراف.

و تشير الآيات التى نبحثها إلى آخر فصل من هذه القصّة، أى خروج بنى إسـرائيل من مصـر، فنقول: وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسـى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فتهيّأ بنو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳

إسـرائيل للتـوجّه إلى الوطن الموعود (فلسـطين)، إلّا أنّهم لمّـا وصـلوا إلى سواحـل النيـل علم الفراعنـة بهم، فتعقّبهم فرعون فى جيش عظيم، فرأى بنو إسـرائيل أنفسـهم محاصـرين بين البحر و العـدو، فمن جهـة نهر النيل العظيم، و من جهة أخرى العدوّ القوى السّـفاك

الغاضب.

إلّا أنّ اللّه الـذى كان يريـد إنقاذ هذه الأمّة المظلومة المحرومة المؤمنة من قبضة الظالمين، و أن يهلك الظالمين فى البحر، أمر موسـى أن امض بقومك فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً طريقا متى ما مضيت فيه ف لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى

الطريف هنا أنّ الطريق لم يفتح و حسب، بل كان طريقا يابسا صـلبا بأمر اللّه، مع أنّ مياه النهر أو البحر إذا ما انحسرت جانبا فإنّ قيعانها تبقى عادة غير قابلة للعبر عليها.

يقول الراغب فى مفرداته: «الـدّرك» أقصـى عمق البحر، و يقال للحبل الـذى يوصل به حبل آخر ليـدرك به الماء «درك»، و كذلك يقال للخسارة التى تصيب الإنسان «درك» و يقال «دركات النّار»- فى مقابل درجات الجنّة أى حدودها و طبقاتها السفلى.

و لكن مع ملاحظة أنّ بنى إسـرائيل- و طبقـا للآيـة (۶۱) من سورة الشـعراء- لمّـا علموا بخـبر مجىء جيش فرعون، قـالوا لموسـى: إِنَّا لَمُـدْرَكُونَ و هـذا يعنى أنّ المراد من الـدرك فى الآيـة هنـا، أنّ جيش فرعون سوف لن يصل إليكم، و المراد من (لا تخشـى) أنّ أى خطر لا يهدّدكم من ناحية البحر.

و بذلك فإنّ موسى و بنى إسرائيل قد ساروا فى تلك الطرق التى فتحت فى أعماق البحر بعد انحسار المياه عنها. فى هذه الأثناء وصل فرعون و جنوده إلى ساحل البحر فدهشوا لهذا المشهد المذهل المثير غير المتوقّع، و لذلك أعطى فرعون أمرا لجنوده باتّباعهم، و سار هو أيضا فى نفس الطريق: فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴

بِجُنُودِهِ ۲۳].

ممّا لا ريب أنّ جيش فرعون كان مكرها فى البدايـة على أن يسير فى هـذا المكان الخطير المجهول، و يتعقّب بنى إسـرائيل، و كانت مشاهـدة مثـل هـذه المعجزة العجيبـة كافيـة على الأقل أن يمتنعوا عن الاسـتمرار فى السـير فى هـذا الطريق، إلّا أنّ فرعون الـذى ركب الغرور و العصبية رأسه، و غرق فى بحر العناد و الحماقة، لم يهتمّ لهذه المعجزة الكبيرة، و أمر جيشه فى المسير فى هذه الطرق البحرية المرعبة حتّى دخل من هذه الجهة آخر جندى فرعونى، فى وقت خرج من الجانب الآخر آخر فرد من بنى إسرائيل.

فى هـذه الأثنـاء صـدر الأـمر لأمواج المياه أن ترجع إلى حالتها الأولى، فوقعت عليهم الأمواج كما تسـقط البنايـة الشامخـة إذا هـدّمت قواعدها فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ ۲۴]. و بـذلك فقـد غـاص ملـك جبّـار ظـالم مع جنوده و جيشه القهّـار فى وسط أمواج الماء، و أصبحوا طعمة جاهزة لسمك البحر!.

أجل، وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى

صحيـح أنّ جملـة (أضـلّ) و جملـة (ما هـدى) تعطى معنى واحـدا تقريبا، و ربّما كان هـذا هو السبب فى أن يعتبرها بعض المفسّـرين تأكيـدا، إلّـا أنّ الظـاهر أنّ هنـاك تفاوتـا فيما بينهما، و هو أنّ (أضلّ) إشارة إلى الإضـلال، و (ما هـدى) إشارة إلى عـدم الهدايـة بعد وضوح الضلالة.

و توضيـح ذلـك: إنّ القائـد قـد يخطئ أحيانـا، و يجرّ أتبـاعه إلى طريق منحرف، إلّا أنّه بمجرّد أن ينتبه إلى خطئه يعيـدهم إلى طريق الصواب. إلّا أنّ فرعون كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵

عنيدا إلى الحدّ الذى لم يبيّن لقومه الحقيقة حتّى بعد وضوح الضلال، و مشاهدته، و استمرّ فى توجيه هؤلاء إلى المتاهات حتّى هلك و إيّاهم.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الجملة تنفى كلام فرعون الوارد فى الآية (۲۹) من سورة غافر حيث يقول: وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ فإنّ هذه الحوادث بيّنت أنّ هذه الجملة كذبة كبيرة كأكاذيبه الأخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۸۰ الى ۸۲]

اشارة

يـا بَنِي إِسْـرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنـاكُمْ مِنْ عَـدُوِّكُمْ وَ واعَـدْناكُمْ جـانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنـا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى (۸۰) كُلُـوا مِنْ طَيِّبـاتِ ما رَزَقْنـاكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَـدْ هَوى (۸۱) وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تـابَ وَ آمَنَ وَ عَمِـلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (۸۲)

التّفسير

طريق النجاة الوحيد:

تعقيبا على البحث السابق فى نجاة بنى إسـرائيل بصورة إعجازيـة من قبضـة الفراعنـة، خاطبت هـذه الآيات الثلاث بنى إسـرائيل بصورة عامّة، و فى كلّ عصر و زمان، و ذكرتهم بالنعم الكبيرة التى منحها اللّه إيّاهم، و أوضحت طريق نجاتهم.
فقـالت أوّلا- يـا بَنِي إِسْـرائِيلَ قَـدْ أَنْجَيْنـاكُمْ مِنْ عَـدُوِّكُمْ و من البـديهى أنّ أساس كلّ نشاط و مجهود إيجابى هو التخلّص من قبضـة المتسلّطين، و الحصول على الحرية و الاستقلال، و لذلك أشير إلى هذه المسألة قبل كلّ شىء.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷
ثمّ تشير إلى واحـدة من النعم المعنويـة المهمّـة، فتقول: وَ واعَـدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ و هـذه إشارة إلى حادثة ذهاب موسى عليه السّلام مع جماعة من بنى إسرائيل إلى مكان ميعادهم فى الطور، ففى ذلك المكان أنزل اللّه سبحانه ألواح التوراة على موسى و كلّمه، و شاهدوا جميعا تجلّى اللّه سبحانه ۲۵].
و أخيرا أشارت إلى نعمة ماديّة مهمّة من نعم اللّه الخاصّة ببنى إسرائيل، فتقول: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى ففى تلك الصحراء كنتم حيـارى، و لم يكن عنـدكم شـىء من الطعام المناسب، فأدرككم لطف اللّه، و رزقكم من الطعام الطيّب اللذيـذ ما كنتم بأمسّ الحاجة إليه.
و للمفسّـرين بحوث كثيرة فيمـا هو المراد من (المنّ و السـلوى)، بيّناهـا فى ذيل الآيـة (۵۷) من سورة البقرة، بعـد ذكر آراء المفسّـرين الآخرين و قلنا: إنّه ليس من البعيد أن يكون «المنّ» نوعا من العسل الطبيعى كان موجودا فى الجبال المجاورة لتلك الصـحراء، أو نوعا من السـكريات المولدة للطاقة من نباتات خاصّة كانت تنمو فى أطراف تلك الصـحراء. و السـلوى نوع من الطيور المحلّلة اللحم شبيها بالحمام. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۵۷) من سورة البقرة.
ثمّ تخاطبهم الآية التالية بعد ذكر هذه النعم الثلاث العظيمة، فتقول كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ
الطغيان فى النعمة هو أن يتّخذ الإنسان هذه النعم وسـيلة للذنب و الجحود و الكفران و التمرّد و العصيان، بدل أن يستغلّها فى طاعة اللّه و سـعادته، تماما كما فعل بنو إسـرائيل حيث تمتّعوا بكلّ هذه النعم ثمّ ساروا فى طريق الكفر و الطغيان و المعصـية. و لذلك حذّرتهم الآية بعد ذلك فقالت:
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸
فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى

«هوی» فی الأصل بمعنی السقوط من المکان المرتفع، و الذّی تکون نتیجته الهلاک عادة، إضافة إلی أنّه هنا إشارة إلی السقوط الرتبی و البعد عن قرب اللّه، و الطرد من رحمته.

و لمّا کان من الضروری أن یقترن التحذیر و التهدید بالترغیب و البشارة دائما، لتتساوی کفّتا الخوف و الرجاء، حیث تشکّلان العامل الأساسی فی تکامل الإنسان، و لتفتح أبواب التوبة و الرجوع بوجه التائبین، فقد قالت الآیة التالیة:

وَ إِنِّی لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدی

کلمة (غفّار)، صیغة مبالغة، و توحی أنّ اللّه سبحانه لا یقبل هؤلاء التائبین و یشملهم برحمته مرّة واحدة فقط، بل سیعمّهم عفوه و مغفرته مرّات و مرّات.

و ممّا یستحقّ الانتباه أنّ أوّل شرط للتوبة هو ترک المعصیة، و بعد أن تتطهّر روح الإنسان من هذه التلوّث، فإنّ الشرط الثّانی هو أن یغمرها نور الإیمان باللّه و التوحید، و فی المرحلة الثّالثة یجب أن تظهر بر أعم الإیمان و التوحید- و التی هی الأعمال الصالحة و المناسبة- علی أغصان وجود الإنسان.

و بخلاف سائر آیات القرآن التی تتحدّث عن التوبة و الإیمان و العمل الصالح فقط فقد أضافت هذه الآیة شرط رابع، و هو قوله: ثُمَّ اهْتَدی و قد ذکر المفسّرون لهذه الجملة تفسیرات عدیدة، یبدو أنّ اثنین منها هما الأوفق و الأدقّ:

الأوّل: إنّها إشارة إلی أنّ الاستمرار فی طریق الإیمان و التقوی و العمل الصالح، یعنی أنّ التوبة تمحو ما مضی و تکون سببا للنجاة، و هی مشروطة بأن لا یسقط النائب مرّة أخری فی هاویة الشرک و المعصیة، و أن یراقب نفسه دائما کیلا تعیده الوساوس الشیطانیّة و أهواؤه إلی مسلکه السابق.

و الثّانی: هذه الجملة إشارة إلی لزوم قبول الولایة، و الالتزام بقیادة القادة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹

الربّانیین، أی أنّ التوبة و الإیمان و العمل الصالح کلّ ذلک سیکون سببا للنجاة و الفلاح إذا کان فی ظلّ هدایة القادة الربّانیین، ففی زمان تحت قیادة موسی علیه السّلام، و فی زمن آخر تحت لواء نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلم، و مرّة تحت لواء أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، أمّا الیوم فینبغی أن ننضوی تحت لواء الإمام المهدی علیه السّلام لأنّ أحد أرکان الدین قبول دعوة النّبی و الانضواء تحت قیادته ثمّ قبول قیادة خلیفته و نائبه.

ینقل العلامة الطبرسی فی ذیل هذه الآیة عن الإمام الباقر أنّه قال: «ثمّ اهتدی إلی و لا یتنا أهل البیت» ثمّ أضاف: «فو اللّه لو أنّ رجلا عبد اللّه عمره ما بین الرکن و المقام، ثمّ مات و لم یجیء بولایتنا لأکبّه اللّه فی النّار علی وجهه».

و قد نقلها العلّامة الحاکم «أبو القاسم الحسکانی»- من کبار محدّثی أهل السنّة[۲۶] و قد رویت روایات عدیدة فی هذا الباب عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم و عن الإمام زین العابدین علیه السّلام، و الإمام الصادق علیه السّلام.

و لکی نعلم أنّ ترک هذا الأصل- إلی أی حدّ هو- مهلک لتارکیه، یکفی أن نبحث الآیات التالیة، و کیف أنّ بنی إسرائیل قد ابتلوا بعبادة العجل و الشرک و الکفر نتیجة ترکهم ولایة موسی علیه السّلام و خروجهم عن نهجه و نهج خلیفته هارون علیه السّلام.

و من هنا یتّضح أنّ ما قاله العلّامة الآلوسی فی تفسیر روح المعانی بعد ذکر جملة من هذه الرّوایات:

«لا شکّ عندنا فی وجوب محبّة أهل البیت، و لکن هذا لا یرتبط ببنی إسرائیل و عصر موسی» کلام واه، لأنّ البحث أوّلا لیس حول المحبّة، بل حول قبول الولایة و القیادة و ثانیا: لیس المراد من انحصار الولایة بأهل البیت علیهم السّلام، بل فی عصر موسی کان هو و أخوه قائدین، فکان یلزم قبول ولایتهما، أمّا فی عصر النّبی فتلزم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰

قبول ولایته، و فی عصر أئمّة أهل البیت یلزم قبول ولایتهم علیهم السّلام.

و يتّضح أيضا أنّ المخاطب فى هذه الآية و إن كانوا بنى إسرائيل، إلّا أنّه لا ينحصر فيهم و لا يختّص بهم، فإنّ كلّ فرد أو جماعة تطوى هذه المراحل الأربعة فستشملها مغفرة اللّه سبحانه و عفوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۱

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۸۳ الى ۹۱]

اشارة

وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (۸۳) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِى وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (۸۴) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (۸۵) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى (۸۶) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (۸۷)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (۸۸) أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً (۸۹) وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِى وَ أَطِيعُوا أَمْرِى (۹۰) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (۹۱)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۲

التّفسير

صخب السامرى:

ذكر فى هذه الآيات فصل آخر من حياة موسى عليه السّلام و بنى إسرائيل، و يتعلّق بذهاب موسى عليه السّلام مع و كلاء و ممثّلى بنى إسرائيل إلى الطور حيث موعدهم هناك، ثمّ عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غياب هؤلاء.

كان من المقرّر أن يذهب موسى عليه السّلام إلى «الطور» لتلقّى أحكام التوراة، و يصطحب معه جماعة من بنى إسرائيل لتتّضح لهم خلال هذه الرحلة حقائق جديدة حول معرفة اللّه و الوحى.

غير أنّ شوق موسى عليه السّلام إلى المناجاة مع اللّه و سماع ترتيل الوحى كان قد بلغ حدّا بحيث نسى فى هذا الطريق- حسب الرّوايات- كلّ شىء حتّى الأكل و الشرب و الاستراحة، فطوى هذا الطريق بسرعة، و وصل لوحده قبل الآخرين إلى ميقات اللّه و ميعاده. هنا نزل عليه الوحى: وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى

فأجاب موسى على الفور: قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِى وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى فليس شوق المناجاة و سماع كلامك لوحده قد سلب قرارى، بل كنت مشتاقا إلى أن آخذ منك أحكام التوراة بأسرع ما يمكن لأؤدّيها إلى عبادك، و لأنال رضاك عنّى بذلك ... أجل إنّى عاشق لرضاك، و مشتاق لسماع أمرك.

و فى هذا اللقاء امتدّت مدّة الإشراقات و التجليّات المعنوية الإلهيّة من ثلاثين ليلة إلى أربعين، و أدّت الأجواء المهيأة لانحراف بنى إسرائيل دورها، فالسامرى، ذلك الرجل الفطن و المنحرف صنع باستعماله الوسائل التى سنشير إليها فيما بعد عجلا، و دعا تلك الجماعة إلى عبادته، و أوقعهم فيها.

لا شكّ فى أنّ الأرضيات، كمشاهدة عبادة المصريين للعجل، أو مشاهدة مشهد عبادة الأصنام- العجل بعد عبور نهر النيل، و طلب

صنع صنم كهؤلاء، و كذلك تمديد مدّة ميعاد موسى، و انتشار شائعة موته من قبل المنافقين، و أخيرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳

جهل هذه الامّة، كلّ ذلك كان له أثر فى ظهور هذه الحادثة و الانحراف الكبير عن التوحيد، لأنّ الحوادث الاجتماعية لا تقع عادة بدون مقدّمات، غاية ما هناك أنّ هذه المقدّمات تكون تارة واضحة و علنية، و أخرى مستورة و خفيّة.

على كلّ حال، فإنّ الشرك فى أسوأ صورة قد أحاط ببنى إسرائيل، و أخذ بأطرافهم، خاصة و أنّ كبار القوم كانوا مع موسى فى الجبل، و كان زعيم الأمّة هارون وحيدا دون أن يكون له مساعدون أكفّاء مؤثّرون.

و أخيرا أخبر اللّه موسى فى الميعاد بما جرى لقومه و السامرى إذ تحكى الآية التالية ذلك فتقول: قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِیُّ

غضب موسى عند سماعه هذه الكلمات غضبا التهب معه كلّ وجوده، و ربّما كان يقول لنفسه: لقد تحمّلت المصائب و المصاعب خلال هذه السنين الطويلة، و أرهقت نفسى و واجهت كلّ الأخطار فى سبيل أن تركن هذه الامّة إلى التوحيد، فكيف ذهبت جهودى أدراج الرياح بمجرّد أن غبت عنها عدّة أيّام فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً.

و ما أن وقعت عينه على ذلك المنظر القبيح، منظر عبادة العجل قال أ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً. و هذا الوعد الحسن إمّا أن يكون وعد بنى إسرائيل بنزول التوراة و بيان الأحكام السماوية فيها، أو الوعد بالنجاة و الإنتصار على الفراعنة و وراثة حكومة الأرض، أو الوعد بالمغفرة و العفو للذين يتوبون و يؤمنون و يعملون الصالحات، أو أنّه كلّ هذه الأمور.

ثمّ أضاف: أ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ و هو يشير إلى أنّه: هبوا أنّ مدّة رجوعى قد طالت من ثلاثين إلى أربعين يوما، فإنّ هذا الزمن ليس طويلا، ألا يجب عليكم أن تحفظوا أنفسكم فى هذه المدّة القصيرة؟ و حتّى لو نأيت عنكم سنين طويلة فينبغى أن تلتزموا بالتعاليم الإلهيّة التى تعلمّتموها و تؤمنوا بالمعجزات التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۴

رأيتموها: أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِی ۲۷] فقد عاهدتكم على أن تثبتوا على خطّ التوحيد و طريق طاعة اللّه الخالصة، و أن لا تنحرفوا عنه قيد أنملة، إلّا أنّكم نسيتم كلّ كلامى فى غيابى، و كذلك تمرّدتم على طاعة أمر أخى هارون و عصيتموه.

فلمّا رأى بنو إسرائيل أنّ موسى عليه السّلام قد عنّفهم بشدّة و لا مهم على فعلهم و تنبّهوا إلى قبح ما قاموا به من عمل، هبوا للاعتذار ف قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَکَ بِمَلْكِنا[۲۸] فلم نكن فى الواقع قد رغبنا و صمّمنا على عبادة العجل وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِکَ أَلْقَى السَّامِرِیُّ

و للمفسّرين آراء فيما فعله بنو إسرائيل، و ما فعله السامرى، و ما هو معنى الآيات- محلّ البحث- على نحو الدقّة، و لا يبدو هناك فرق كبير فى النتيجة بين هذه الاختلافات.

فذهب بعضهم: إن «قذفناها» تعنى أنّنا ألقينا أدوات الزينة التى كنّا قد أخذناها من الفراعنة قبل الحركة من مصر فى النّار، و كذلك ألقى السامرى ما كان معه أيضا فى النّار حتّى ذاب و صنع منه عجلا.

و قال آخرون: إنّ معنى الجملة أنّنا ألقينا أدوات الزينة بعيدا عنّا، فجمعها السامرى و ألقاها فى النّار ليصنع منها العجل.

و يحتمل أيضا أن تكون جملة فَكَذلِکَ أَلْقَى السَّامِرِیُّ إشارة إلى مجموع الخطّة التى نفذّها السامرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۵

و على كلّ حال، فإنّ كبير القوم إذا لام من تحت إمرته على ارتكابهم ذنبا ما، فإنّهم يسعون إلى نفى ذلك الذنب عنهم، و يلقونه على عاتق غيرهم، و كذلك عبّاد العجل من بنى إسرائيل، فإنّهم كانوا قد انحرفوا بإرادتهم و رغبتهم عن التوحيد إلى الشرك، إلّا أنّهم

أرادوا أن یلقوا کلّ التبعة علی السامری.

علی کلّ، فإنّ السامری ألقی کلّ أدوات زینة الفراعنة و حلیهم التی کانوا قد حصلوا علیها عن طریق الظلم و المعصیة- و لم یکن لها قیمة إلّا أن تصرف فی مثل هذا العمل المحرّم- فی النّار فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ[۲۹] فلمّا رأی بنو إسرائیل هذا المشهد، نسوا فجأة کلّ تعلیمات موسی التوحیدیّة فَقالُوا هذا إِلهُکُمْ وَ إِلهُ مُوسی

و یحتمل أیضا أن یکون قائل هذا الکلام هو السامری و أنصاره و المؤمنون به.

و بهذا فإنّ السامری قد نسی عهده و میثاقه مع موسی، بل مع إله موسی، و جرّ الناس إلی طریق الضلال: «فنسی».

و لکن بعض المفسّرین فسّروا «النسیان» بالضلال و الانحراف، أو أنّهم اعتبروا فاعل النسیان موسی علیه السّلام و قالوا: إنّ هذا کلام السامری، و هو یرید أن یقول: إنّ موسی نسی أنّ هذا العجل هو ربّکم، إلّا أنّ کلّ ذلک مخالف لظاهر الآیة، و ظاهرها هو ما قلناه من أنّ المراد هو أنّ السامری قد أودع عهده و میثاقه مع موسی و ربّ موسی فی ید النسیان، و أتّخذ طریق عبادة الأصنام.

و هنا قال اللّه سبحانه توبیخا و ملامة لعبدة الأوثان هؤلاء: أَ فَلا یَرَوْنَ أَلَّا یَرْجِعُ إِلَیْهِمْ قَوْلًا وَ لا یَمْلِکُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً فإنّ المعبود الواقعی یستطیع علی الأقل أن یلبیّ طلبات عباده و یجیب علی أسئلتهم، فهل یمکن أن یکون سماع خوار العجل من هذا الجسد الذهبی لوحده، ذلک الصوت الذی لا یشعر بأیّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۶

إرادة، دلیلا علی جواز عبادة العجل، و صحّة تلک العبادة؟

و علی فرض أنّه أجابهم عن أسئلتهم، فإنّه لا یعدو أن یکون کإنسان عاجز لا یملک نفع غیره و لا ضرّه، بل و حتّی نفسه، فهل یمکن أن یکون معبودا و هو علی هذا الحال؟

أی عقل یسمح بأن یعبد الإنسان تمثالا لا روح له یظهر منه بین الحین و الآخر صوت غیر مفهوم، و یعظمه و یخضع أمامه؟

و لا شکّ أنّ هارون، خلیفة موسی و نبی اللّه الکبیر، لم یرفع یده عن رسالته فی هذا الصخب و الغوغاء، و أدّی واجبه فی محاربة الانحراف و الفساد قدر ما یستطیع، کما یقول القرآن: وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ یا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ ثمّ أضاف: وَ إِنَّ رَبَّکُمُ الرَّحْمنُ

لقد کنتم عبیدا فحرّرکم، و کنتم أسری فأطلقکم، و کنتم ضالّین فهداکم، و کنتم متفرّقین مبعثرین فجمعکم و وحدّکم تحت رایة رجل ربّانی، و کنتم جاهلین فألقی علیکم نور العلم و هداکم إلی صراط التوحید المستقیم، فالآن فَاتَّبِعُونِی وَ أَطِیعُوا أَمْرِی

أنسیتم أنّ أخی موسی قد نصّبنی خلیفة له و فرض علیکم طاعتی؟ فلما ذا تنقضون المیثاق؟ و لماذا ترمون بأنفسکم فی هاویة الفناء؟

إلّا أنّ بنی إسرائیل تمسکوا بهذا العجل عنادا، و لم یؤثّر فیهم المنطق السلیم القوی لهذا الرجل، و لا أدلّة هذا القائد الحریص، و أعلنوا مخالفتهم بصراحة:

قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَیْهِ عاکِفِینَ حَتَّی یَرْجِعَ إِلَیْنا مُوسی ۳۰].

و الخلاصة: إنّهم رکبوا رؤوسهم و قالوا: الأمر هو هذا و لا شیء سواه، و یجب أن نعبد العجل حتّی یرجع موسی و نطلب منه الحکم و القضاء، فلعلّه یسجد معنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۷

للعجل! و علی هذا فلا تتعب نفسک کثیرا، و کفّ عنّا یدک! و بهذا لم یذعن بنو إسرائیل لأمر العقل و لا لأمر خلیفة قائدهم و زعیمهم أیضا.

و لکن، کما کتب المفسّرون- و القاعدة تقتضی ذلک أیضا- فإنّ هارون لمّا أدّی رسالته فی هذه المواجهة، و لم یقبل أکثر بنی إسرائیل کلامه، ابتعد عنهم بصحبة القلّة الذین اتّبعوه، لئلّا یکون اختلاطهم بهؤلاء دلیلا علی إمضاء طریقهم المنحرف.

و العجیب أنّ بعض المفسرین ذکروا أنّ هذا التبدّل و الانحراف فی بنی إسرائیل قد حدث فی أیّام قلیلهٔ فحسب، فبعد أن مضت (۳۵) یوما علی ذهاب موسی علیه السّلام إلی میقات ربّه، شرع السامری بعمله، و طلب من بنی إسرائیل أن یجمعوا کلّ أدوات الزینهٔ التی أخذوها کعاریهٔ من الفراعنهٔ و ما أخذوه منهم بعد غرقهم، و وضعوها جمیعا فی الیوم السادس و الثلاثین و السابع و الثلاثین و الثامن و الثلاثین فی موقد النّار، و أذابوها ثمّ صنعوا منها تمثال العجل، و فی الیوم التاسع و الثلاثین دعاهم السامری إلی عبادته، فقبلها جماعهٔ عظیمهٔ- و علی بعض الرّوایات ستمائهٔ ألف شخص- و فی الیوم التالی، أی فی نهایهٔ الأربعین یوما، رجع موسی [۳۱].

و لکن افترق عنهم هارون مع القلّهٔ من المؤمنین الثابتین، و الذین کان عددهم قرابهٔ اثنی عشر ألفا، فی حین أنّ الأغلبیهٔ الجاهلهٔ کادوا أن یقتلوه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۸

بحوث

۱- شوق اللقاء!

قد یکون قول موسی علیه السّلام فی جواب سؤال اللّه تعالی له حول استعجاله إلی المیقات حیث قال: وَ عَجِلْتُ إِلَیْکَ رَبِّ لِتَرْضی عجیبا لدی من لم یعرف شأن جاذبیهٔ عشق اللّه، إلّا أن الذین أدرکوا هذه الحقیقهٔ بکلّ وجودهم، و الذین إذا اقترب موعد الوصال اشتدّ لهیب العشق فی أفئدتهم، یعلمون جیدا أیّهٔ قوّهٔ خفیّهٔ کانت تجرّ موسی علیه السّلام إلی میقات اللّه، و کان یسیر سریعا بحیث تخلّف عنه قومه الذین کانوا معه.

لقد کان موسی علیه السّلام قد تذوق حلاوهٔ الوصال و الحبّ و المناجاهٔ مع اللّه مرارا، فکان یعلم أنّ کلّ الدنیا لا تعدل لحظهٔ من هذه المناجاهٔ.

أجل ... هذا هو طریق الذین تجاوزوا مرحلهٔ العشق المجازی نحو مرحلهٔ العشق الحقیقی ... عشق المعبود الأزلی المقدّس و الکمال المطلق، و الحسن و اللطف الذی لا نهایهٔ له، و کلّ ما عند المحسنین الصالحین جمیعا عنده بمفرده، بل إنّ جمال و حسن المحسنین کلّه ومضهٔ بسیطهٔ من إحسانه الدائم الخالد. فیا إلهنا الکبیر من علینا بذرّهٔ من هذا العشق المقدّس.

یقول الإمام الصادق علیه السّلام- کما روی عنه- «المشتاق لا یشتهی طعاما، و لا یلتذّ شرابا، و لا یستطیب رقادا، و لا یأنس حمیما، و لا یأویّ دارا ... و یعبد اللّه لیلا و نهارا، راجیا بأن یصل إلی ما یشتاق إلیه ... کما أخبر اللّه عن موسی بن عمران فی میعاد ربّه بقوله: و عجّلت إلیک ربّ لترضی»[۳۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۹

۲- الحرکات المناوئهٔ لنهضهٔ الأنبیاء!

من الطبیعی أن توجد فی مقابل کلّ ثورهٔ حرکهٔ مضادّهٔ تسعی إلی تحطیم نتائج الثورهٔ، و إلی إرجاع المجتمع إلی مرحلهٔ ما قبل الثورهٔ، و لیس سبب ذلک معقّدا و لا غامضا، لأنّ انتصار ثورهٔ ما لا یعنی فناء کلّ العناصر الفاسدهٔ من الفترهٔ السابقهٔ دفعهٔ واحدهٔ، بل تبقی حثالات منهم تبدأ نشاطها من أجل الحفاظ علی وجودها و کیانها، و مع اختلاف ظروف و مقدار و کیفیّهٔ هؤلاء، فإنّهم یقومون بأعمال تناهض الثورهٔ سرّا أمّ علانیهٔ.

و فى حركة موسى بن عمران الثورية نحو توحيد و استقلال و حرية بنى إسرائيل، كان السامرى زعيم هذه الحركة الرجعيّة المضادّة، فقد كان عالما- كبقيّة قادة الحركات الرجعيّة- بنقاط ضعف قومه جيدا، و كان يعلم أنّه قادر على أن يستغلّ هذه النقاط فيثير الفتنة فيهم، فسعى أن يصنع من أدوات الزينة و الذهب التى هى آلهة عبيد الدنيا، و تجلب اهتمام عوام الناس، عجلا على هيئة خاصة، و جعله فى مسير حركة الريح- أو بالاستعانة بأيّة وسيلة أخرى- ليخرج منه صوت. و ذلك بانتهاز فرصة مناسبة- و هى غيبة موسى لعدّة أيّام- و نظرا إلى أنّ بنى إسرائيل بعد النجاة من الغرق، و مرورهم على قوم يعبدون الأصنام، طلبوا من موسى صنما، و الخلاصة أنّه استغلّ كلّ نقاط الضعف النفسى، و الفرص المكانية و الزمانية المناسبة، و بدأ خطّته المضادّة للتوحيد. و قد نظّم هذه المواد بمهارة فائقة بحيث حرّف فى مدّة قصيرة أغلبية الجهلة من بنى إسرائيل عن خطّ التوحيد إلى طريق الشرك.

و بالرغم من أنّ هذه الخطّة قد أحبطت بمجرّد رجوع موسى و قوّة إيمانه و منطقه بنور الوحى، و لكن إذا لم يرجع موسى فما ذا كان سيحدث؟ إنّهم إمّا كانوا سيقتلون أخاه هارون حتما، أو سيحجمونه بحيث لا يصل صوته إلى أحد.

أجل ... إنّ كلّ ثورة تحارب فى البداية بهذه الصورة، فيجب الحذر دائما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٦٠

و مراقبة تحرّكات الشرك الرجعية، و القضاء على المؤامرات و هى فى و كرها و مهدها.

و كذلك يجب الالتفات إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ كثيرا من الثورات الحقيقيّة تعتمد فى البداية- و لأسباب مختلفة- على فرد أو أفراد معينين، بحيث أنّهم إذا فقدوا و غابوا عن الساحة سيعود الخطر و يهدّد الثورة من جديد، و لذلك يجب السعى من أجل خلق الموازين الثقافية الثورية فى عمق المجتمع بأسرع ما يمكن، و كذلك تربية الناس بشكل لا تهزّهم العواصف المضادّة للثورة، بل يقفون كالجبل الأصمّ أمام كلّ حركة رجعيّة متخلّفة.

و بتعبير آخر، فإنّ واحدة من وظائف القادة المخلصين أن ينقلوا الموازين و المعايير منهم إلى المجتمع، و لا شكّ أنّ هذا الأمر المهمّ يحتاج إلى مضى زمان، إلّا أنّه يجب السعى لاختصار هذا الزمن إلى أقلّ ما يمكن.

أمّا من كان السامرى؟ و كيف كانت عاقبة أمره؟ فسنتحدّث عنه فى الآيات المقبلة إن شاء اللّه تعالى.

٣- مراحل القيادة

لا شكّ أنّ هارون عليه السّلام لم يأل جهدا فى أداء رسالته عند غياب موسى عليه السّلام، إلّا أنّ جهل الناس من جهة، و ترسبّات مرحلة العبودية و الرقّ و عبادة الأصنام من جهة أخرى، قد أفشلت جهوده، فهو قد نفّذ واجبه- حسب الآيات محل البحث- على أربع مراحل:

الأولى: إنّه نبّه هؤلاء و أعلمهم أنّ هذا العمل يشكّل تيار انحرافى، و هو موضع اختبار خطير للجميع لتصحو العقول الغافلة، و ليعى الناس و يفكّروا لئلّا يغلبوا على أمرهم، إذ قال لهم: يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ

الثّانية: إنّه ذكرهم بنعم اللّه المختلفة عليهم منذ بدء ثورة موسى عليه السّلام إلى زمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٦١

نجاتهم من قبضة الفراعنة، خاصّة و إنّه وصف اللّه بصفة رحمته العامّة، ليكون الأثر أعمق، و ليؤمل هؤلاء فى غفران هذا الذنب الكبير: وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ

الثّالثة: إنّه نبّههم على مقام نبوّته و خلافته لأخيه موسى فَاتَّبِعُونِی

و أخيرا فإنّه عرفهم بواجباتهم الإلهيّة وَ أَطِيعُوا أَمْرِی

۴- سؤال و جواب؟

لقد أورد المفسّر المعروف «الفخر الرازی» هنا إشکالا و هو ینتظر جوابه و الرّد علیه و هو أنّه قال: إنّ الرافضة تمسّکوا بقوله صلی اللّه علیه و آله و سلم لعلی «أنت منّی بمنزلة هارون من موسی»

ثمّ إنّ هارون ما منعته التقیّة فی مثل هـذا الجمع، بل صـعد المنبر و صـرّح بالحقّ و دعا الناس إلی مبایعة نفسه و المنع من متابعة غیره، فلو کانت أمّة محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلم علی الخطأ لکان یجب علی علی علیه السّلام أن یفعل ما فعله هارون و أن یصعد علی المنبر من غیر تقیّة و لا خوف و أن یقول: فاتّبعونی و أطیعوا أمری. فلمّا لم یفعل ذلک علمنا أنّ الأمّة کانت علی الصواب.

إلّا أنّ الرازی غفل فی هذا الباب عن مسألتین أساسیتین:

۱- إنّ ما یقوله من أنّ علیا علیه السّلام لم یقل شیئا فی شأن خلافته التی لا ینازع فیها خطأ محض، لأنّ فی أیدینا وثائق کثیرة تؤکّد أنّ الإمـام قـد بیّن هـذا الموضوع فی موارد مختلفـة، تـارة بصـراحة، و أخری تلمیحـا، و تلاحـظ فی نهـج البلاغـة أمثلـة مختلفـة کالخطبة الشقشقیة- الخطبة الثّالثة- و الخطبة ۸۷، ۹۴، ۱۵۴، ۱۴۷، و کلّها تتحدّث فی هذا المجال.

و قد ذکرنا فی تفسیرنا هذا ذیل الآیة (۶۷) من سورة المائدة بعد ذکر قصّة الغدیر، روایات عدیدة، و أنّ علیّا علیه السّـلام قد استدلّ و استند إلی حدیث الغدیر مرارا لإثبات موقعه و خلافته. و لمزید التوضیح راجع ذیل الآیة (۶۷) من سورة المائدة.

۲- لقد کانت هناک ظروف خاصّة بعد وفاة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم، فإنّ المنافقین الذین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۲

کانوا یعـدّون الأیّام یوما بعـد یوم و هم یترقّبون وفاة النّبی و کانوا قـد أعدّوا أنفسـهم لیطعنوا الإسـلام الفتیّ طعنة نجلاء، و لذا نری أنّ أصـحاب الردّة- المناوئین للإسـلام- قد ثاروا مباشـرة فی زمان أبی بکر، و لولا اتّحاد المسلمین و فطنتهم و حذرهم لکان من الممکن أن ینزلوا بالإسلام ضربات قاسیة، و من أجل ذلک سکت علی علیه السّلام عن حقّه لئلّا یستغلّ العدو هذا الأمر.

ثمّ إنّ هارون- مع أنّ موسـی کان علی قید الحیاة- قال بصـراحة ردّا علی ملامة أخیه له علی تقصـیره: إِنِّی خَشِیتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَیْنَ بَنِی إِسْرائِیلَ ۳۳] و هو یوحی بأنّه أیضا قد تراجع بعض الشیء نتیجة الخوف من الاختلاف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۳

الآیات [سورة طه (۲۰): الآیات ۹۲ الی ۹۸]

اشارة

قالَ یا هارُونُ ما مَنَعَکَ إِذْ رَأَیْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَیْتَ أَمْرِی (۹۳) قالَ یا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْیَتِی وَ لا بِرَأْسِی إِنِّی خَشِیتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَیْنَ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِی (۹۴) قالَ فَما خَطْبُکَ یا سامِرِیُّ (۹۵) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ یَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ کَذلِکَ سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی (۹۶)

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَکَ فِی الْحَیاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلی إِلهِکَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عاکِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِّ نَسْفاً (۹۷) إِنَّما إِلهُکُمُ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً (۹۸)

التّفسیر

نهایة السّامری المریرة:

تعقیبا على البحث الـذی تناولته الآیات السابقـة حول تقریع موسـی و ملامته لبنی إسـرائیل الشدیـدة على عبادتهم العجل، تعکس هذه الآیات التی نبحثها- فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۴

البدایة- محاورة موسى علیه السّلام مع أخیه هارون علیه السّلام، ثمّ مع السامری.

فخاطب أوّلا أخاه هارون قالَ یا هارُونُ ما مَنَعَکَ إِذْ رَأَیْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أ فلم أقل لک أن اخْلُفْنِی فِی قَوْمِی وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ ۳۴]؟ فلما ذا لم تهب لمحاربة عبادة العجل هذه؟

بناء على هذا، فإنّ المراد من جملة أَلَّا تَتَّبِعَنِ هو: لماذا لم تتّبع طریقة عملی فی شدّة مواجهة عبادة الأصـنام؟ أمّا ما قاله بعض المفسّرین من أنّ المراد هو: لماذا لم تثبت معی على التوحیـد مع الذین ثبتوا، و لم تأت معی إلى جبل الطور، فیبدو بعیدا جدّا، و لا یتناسب کثیرا و الجواب الذی سیبدیه هارون فی الآیات التالیة.

ثمّ أضـاف: أ فَعَصَیْتَ أَمْرِی لقـد کـان موسـى علیه السّـلام یتحـدّث بهـذا الکلاـم مع أخیه و هو فی فورة و سورة من الغضب، و کان یصرخ فی وجهه، و قد أخذ برأسه و لحیته یجرّه إلیه. فلمّا رأى هارون غضب أخیه الشدید قال له- من أجل تهدئته و لیقلّل من فورته، و کذلک لیبیّن عذره و حجّته فی هذه الحادثة ضـمنا ... قالَ یَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْیَتِی وَ لا بِرَأْسِی إِنِّی خَشِیتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَیْنَ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِی

کـان هـارون فی الحقیقـة یشـیر إلى کلاـم موسـى علیه السّـلام الـذی وجّهه إلیه عنـد توجّهه إلى المیقات، و کان محتواه الـدعوة إلى الإصـلاح- الآیة (۱۴۲) من سورة الأـعراف- فهو یریـد أن یقول: إنّی إذا کنت قـد أقـدمت على الاشـتباک معهم کـان ذلـک خلاـف أمرک، و کان من حقّک أن تؤاخـذنی. و بهـذا أثبت هارون براءته، و خاصّـة مع ملاحظة الجملة الأخرى التی وردت الآیة (۱۵۰) من سورة الأعراف: إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ کادُوا یَقْتُلُونَنِی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۵

و هنـا ینقـدح السؤال التـالی و هو: لاـ شـکّ أنّ کلّا من موسـى و هارون نبی، فکیف یوجّه موسـى علیه السّـلام هـذا العتاب و اللهجة الشدیدة إلى أخیه، و کیف نفسّر دفاع هارون عن نفسه؟! و یمکن القول فی الجواب: إنّ موسى علیه السّلام کان متیقّنا من براءة أخیه، إلّا أنّه أراد أن یثبت أمرین بهذا العمل.

الأوّل: أراد أن یفهم بنی إسـرائیل أنّهم قـد ارتکبوا ذنبا عظیما جـدّا، و أی ذنب؟! الـذنب الـذی ساق هارون الذی کان نبیّا عظیما إلى المحکمـة، و بتلـک الشـدّة من المعاملـة، أی إنّ المسألـة لم تکن بتلـک البساطـة التی کـان یتصوّرهـا بنو إسـرائیل. فإنّ الانحراف عن التوحیـد و الرجوع إلى الشـرک، و ذلک بعـد کلّ هـذه التعلیمات، و بعـد رؤیة کلّ تلک المعجزات و آثار عظمة الحقّ، أمر لا یمکن تصدیقه، و یجب الوقوف أمامه بکلّ حزم و شدّة.

قـد یشقّ الإنسان جیبه، و یلطم على رأسه عنـد ما تقع حادثة عظیمة أحیانا، فکیف إذا وصل الأمر إلى عتاب أخیه و ملامته، و لا شـکّ أنّ هذا الأسـلوب مؤثّر فی حفظ الهدف و ترک الأثر النفسـی فی الأناس المنحرفین، و بیان عظمة الذنب الذی ارتکبوه. کما لا شـکّ فی أنّ هارون- أیضا- کان راضیا کلّ الرضى عن هذا العمل.

الثّانی: هو أن تثبت للجمیع براءة هارون من خلال التوضیحات التی یبدیها، حتّى لا یتّهموه فیما بعد بالتهاون فی أداء رسالته.

و بعد الانتهاء من محادثة أخیه هارون و تبرئة ساحته، بدأ بمحاکمة السامری:

لماذا فعلت ما فعلت، و ما هـدفک من ذلک؟: قالَ فَما خَطْبُکَ یا سامِرِیُّ فأجابه و قالَ بَصُـرْتُ بِما لَمْ یَبْصُـرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ

الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي

تری ما کان مقصود السامری من کلامه هذا؟! للمفسّرین قولان مشهوران ...

الأوّل: إنّ مراده هو: إنّنی رأیت جبرئیل علی فرس، عند مجیء جیش

فرعون إلی ساحل البحر، یرغّب ذلک الجیش فی المسیر فی تلک الطرق الیابسة فی البحر، و کان یسیر أمامهم، فقبضت شیئا من تراب قدمه، أو «مرکبه» و أدّخرته لهذا الیوم، فألقیته داخل العجل الذهبی، و ما هذا الصوت إلّا من أثر ذلک التراب الذی أخذته.

الثّانی: إنّنی آمنت- بدایة الأمر- بقسم من آثار الرّسول (موسی)، ثمّ شککت فیها فألقیتها بعیدا و ملت إلی عبادة الأصنام، و کان هذا عندی أجمل و أحلی.

فعلی التّفسیر الأوّل فإنّ کلمة «الرسول» تعنی جبرئیل، و علی التّفسیر الثّانی تعنی «موسی» علیه السّلام. «و الأثر» فی التّفسیر الأوّل بمعنی تراب القدم، و فی الثّانی یعنی بعض تعلیمات موسی علیه السّلام. و «نبذتها» علی التّفسیر الأوّل بمعنی إلقاء التراب داخل العجل، و علی الثّانی ترک تعلیمات موسی علیه السّلام. و أخیرا فإن بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا تشیر- طبق التّفسیر الأوّل إلی جبرئیل الذی کان قد تجلّی فی هیئته فارس- و ربّما رآه بعض آخر لکنّهم لم یعرفوه- إلّا أنّها تشیر- وفقا للتفسیر الثّانی إلی ما کان لدیه من معلومات خاصّة عن دین موسی علیه السّلام.

و علی کلّ حال، فإنّ لکلّ واحد من هذین التّفسیرین أنصارا، و له نقاط واضحة أو مبهمة، لکن- کمحصّلة نهائیة- یبدو أنّ التّفسیر الثّانی هو الأفضل و الأنسب من عدّة جهات، خاصّة و أنّا نقرأ

فی حدیث ورد فی کتاب (الإحتجاج) إنّ أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام لمّا فتح البصرة أحاط الناس به- و کان من بینهم «الحسن البصری» و قد جلبوا معهم ألواحا یکتبون فیها ما یقوله أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، فقال له أمیر المؤمنین بأعلی صوته: «ما تصنع؟» قال: أکتب آثارکم لنحدّث بها بعدکم، فقال أمیر المؤمنین: «أما إنّ لکلّ قوم سامریا، و هذا سامری

هذه الامّة! إلّا أنّه لا یقول: لا مساس، و لکنّه یقول: لا قتال»[۳۵].

و یستفاد من هذا الحدیث أنّ السامری کان رجلا منافقا، فإن توسّل لإغواء الناس و إضلالهم ببعض المطالب و المقولات الصحیحة التی تعلّمها سابقا، و هذا المعنی ینسجم و التّفسیر الثّانی أکثر.

من الواضح أنّ جواب السامری عن سؤال موسی علیه السّلام لم یکن مقبولا بأی وجه، و لذلک فإنّ موسی علیه السّلام أصدر قرار الحکم فی هذه المحکمة، و حکم بثلاثة أحکام علیه و علی عجله، فأوّلا: قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ أی یجب علیک الابتعاد عن الناس و عدم الاتّصال بهم إلی آخر العمر، فکلّما أراد شخص الاقتراب منک، فعلیک أن تقول له: لا تتّصل بی و لا تقربنی.

و بهذا الحکم الحازم طرد السامری من المجتمع و جعله فی عزلة تامّة. منزویا بعیدا عنهم! قال بعض المفسّرین: إنّ جملة لا مِساسَ إشارة إلی أحد القوانین الجزائیة فی شریعة موسی علیه السّلام التی کانت تصدر فی حقّ من یرتکب جریمة کبیرة، و کان ذلک الفرد یبدو کموجود شرّیر نجس قذر، فلا یقربه أحد و لا یقرب أحدا[۳۶].

فاضطرّ السامری بعد هذه الحادثة أن یخرج من جماعة بنی إسرائیل و یترک دیاره و أهله، و یتواری فی الصحراء، و هذا هو جزاء الإنسان الذی یطلب الجاه و یرید إغواء جماعة عظیمة من المجتمع ببدعه و أفکاره الضّالة، و یجمعهم حوله، و یجب أن یحرم مثل هذا و یعزل، و لا یتّصل به أیّ شخص، فإنّ هذا الطرد و هذه العزلة أشدّ من الموت و الإعدام علی مثل السامری و أضرابه. لأنّه یعامل معاملة النجس الملوّث فیطرد من کلّ مکان.

و قال بعض المفسّرین: إنّ موسی دعا علی السامری و لعنه بعد ثبوت جرمه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۸

و خطئه، فابتلاه اللّه بمرض غامض خفی جعله ما دام حیّا لا یمکن لأحد أن یمسّه، و إذا مسّه فسیبتلی بالمرض. أو أنّ السامری قد ابتلی بمرض نفسی و وسواس شدید، و الخوف من کلّ إنسان، إذ کان بمجرّد أن یقترب منه أی إنسان یصرخ (لا تمسّنی)[۳۷].

و العقاب الثّانی: إنّ موسی علیه السّلام قد أسمعه و أعلمه بجزائه فی القیامة فقال:

وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ۳۸].

و الثالث: وَ انْظُرْ إِلی إِلهِکَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عاکِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِّ نَسْفاً.

و هنا یأتی سؤالان:

الأوّل: إنّ جملة لَنُحَرِّقَنَّهُ تدلّ علی أنّ العجل کان جسما قابلا للاشتعال، و هذا یؤیّد عقیدة من یقولون: إنّ العجل لم یکن ذهبیّا، بل تبدّل إلی موجود حی بسبب تراب قدم جبرئیل.

و نقول فی الجواب: إنّ ظاهر جملة جَسَداً لَهُ خُوارٌ هو أنّ العجل کان جسدا لا روح فیه، کان یخرج منه صوت یشبه خوار العجل، بالطریقة التی قلناها سابقا. أمّا مسألة الإحراق فمن الممکن أن تکون لأحد سببین:

أحدهما: إنّ هذا التمثال لم یکن ذهبیّا خالصا، بل یحتمل أن یکون من الخشب، ثمّ إلی بالذهب.

و الآخر: إنّه علی فرض أنّه کان من الذهب فقط، فإنّ إحراقه کان للتحقیر و الإهانة و تعریة شکله الظاهری و إسقاطه، کما تکرّر هذا الأمر فی تماثیل الملوک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۹

المستکبرین الجبابرة فی عصرنا! بناء علی هذا فإنّهم بعد حرقه کسروه قطعا صغیرة بآلات معیّنة، ثمّ ألقوا ذرّاته فی البحر.

و السؤال الآخر هو: هل یجوز إلقاء کلّ هذا الذهب فی البحر، ألا یعدّ إسرافا؟

و الجواب: قد یکون مثل هذا التعامل مع الأصنام واجبا فی بعض الأحیان، إذا أرید منه تحقیق هدف أهمّ و أسمی، کتحطیم و سحق فکرة عبادة الأصنام، لئلّا یبقی بین الناس مادّة الفساد، و تکون باعثا للوسوسة فی صدور بعض الناس.

و بعبارة أوضح: فإنّ موسی علیه السّلام لو أبقی الذهب الذی استعمل فی صناعة العجل، أو قسّمه بین الناس بالسویّة، فربّما نظر إلیه الجاهلون یوما ما نظرة تقدیس، و تحیا فیهم من جدید فکرة عبادة العجل، فیجب أن تتلف هذه المادّة الغالیة الثمن فداء لحفظ عقیدة الناس، و لیس هناک أسلوب آخر لذلک و بهذا فإنّ موسی بطریقته الحازمة و تعامله الجازم الذی اتّخذه مع السامری و عجله استطاع أن یقطع مادّة عبادة العجل، و أن یمحو آثارها من العقول، و سنری فیما بعد کیف أثّر هذا التعامل القاطع مع عبّاد العجل فی عقول بنی إسرائیل ۳۹].

و شخص موسی فی آخر جملة، و مع التأکید الشدید علی مسألة التوحید، حاکمیة نهج اللّه، فقال: إِنَّما إِلهُکُمُ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً فلیس هو کالأوثان المصنوعة التی لا تسمع کلاما، و لا تجیب سائلا، و لا تحلّ مشکلة، و لا تدفع ضرّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۰

فی الواقع، إنّ جملة وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً جاءت فی مقابل وصف العجل و جهله و عجزه الذی ذکر قبل عدّة آیات.

بحثان

۱- یجب الثبات أمام الحوادث الصعبة

إنّ طريقة موسى عليه السّلام فى مقابلة انحراف بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، يمكن أن تكون مثلا يقتدى به فى كلّ زمان و مكان فى مجال مكافحة الانحرافات الصعبة المعقّدة.

فلو أنّ موسى عليه السّلام كان يريد أن يقف أمام مئات الآلاف من عبدة العجل و يواجههم بالموعظة و النصيحة و قدر من الاستدلال فقط لما حالفه الفوز و النجاح، فقد كان عليه أن يقف بحزم هنا أمام ثلاثة أمور: أمام أخيه، و السامرى، و عبدة العجل، فبدأ أوّلا بأخيه فأخذ بمحاسنه و جرّه إليه و صرخ فى وجهه، فهو فى الحقيقة قد شكّل محكمة له- و إن كانت قد ثبتت براءته فى النهاية- حتّى يحسب الآخرون حسابهم.

ثمّ توجّه إلى المسبّب الأصلى لهذه المؤامرة- أى السامرى- فحكمه بحكم كان أشدّ من القتل، و هو الطرد من المجتمع و عزله و تبديله إلى موجود نجس ملوّث يجب أن يبتعد عنه الجميع، ثمّ تهديده بعقاب اللّه الأليم.

ثمّ جاء إلى عبدة العجل من بنى إسرائيل، و وضّح لهم بأنّ ذنبكم كبير لا توبة منه إلّا أن تشهر السيوف و يقتل بعضكم بعضا ليتطهّر هذا المجتمع من الدماء الفاسدة، و بهذه الطريقة يعدم جماعة من المذنبين بأيديهم، ليتوارى هذا الفكر الخطر المنحرف عن عقول هؤلاء، و قد بيّنا شرح هذه الحادثة فى ذيل الآيات ۵۱- ۵۴ من سورة البقرة تحت عنوان: «توبة لم يسبق لها مثيل».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۷۱

و هكذا فإنّه توجّه أوّلا إلى قائد المجتمع ليرى هل كان فى عمله قصور أولا؟

و بعد ثبوت براءته توجّه إلى سبب الفساد، ثمّ إلى أنصار الفساد و مبتغيه!

۲- من هو السامرى؟

إنّ أصل لفظ (سامرى) فى اللغة العبرية (شمرى) و لمّا كان المعتاد أن يبدّل حرف الشين إلى السين عند تعريب الألفاظ العبرية كما فى تبديل «موشى» إلى «موسى»، و «يشوع» إلى «يسوع»، نفهم من ذلك أنّ السامرى كان منسوبا إلى «شمرون»، و شمرون هو ابن يشاكر النسل الرّابع ليعقوب.

و من هنا يتّضح أنّ اعتراض بعض المسيحيين على القرآن المجيد- بأنّ القرآن قد عرّف شخصا كان يعيش فى زمان موسى و أصبح زعيما و مروّجا لعبادة العجل باسم السامرى المنسوب إلى «السامرة»، فى حين أنّ السامرة لم يكن لها وجود أصلا فى ذلك الزمان- لا أساس له، لأنّه كما قلنا منسوب إلى شمرون لا السامرة[۴۰].

على كلّ حال، فإنّ السامرى كان رجلا أنانيا منحرفا و ذكيا فى الوقت نفسه، حيث استطاع أن يستغلّ نقاط ضعف بنى إسرائيل و أن يوجد- بجرأة و مهارة خاصّة- تلك الفتنة العظيمة التى سبّبت ميل الأغلبية الساحقة إلى عبادة الأصنام، و كذلك رأينا أيضا أنّه لاقى جزاء هذه الأنانيّة و الفتنة فى هذه الدنيا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۷۲

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۹۹ الى ۱۰۴]

اشارة

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (۹۹) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (۱۰۰) خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا (۱۰۱) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (۱۰۲) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً

(۱۰۳)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً (۱۰۴)

التّفسير

أسوأ ما يحملون على عاتقهم!

مع أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث حول تاريخ موسى و بنى إسرائيل و الفراعنة و السامرى المليء بالحوادث، و قد بيّنت فى أيّاتها بحوثا مختلفة، فإنّ القرآن الكريم بعد الانتهاء منها يستخلص نتيجة عامّة فيقول: كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ ثمّ يضيف وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً قرآنا مليئا بالدروس و العبر، و الأدلّة العقليّة، و أخبار الماضين و ما ينبّه المقبلين و يحذّرهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۳

إنّ قسما مهمّا من القرآن المجيد يبيّن تاريخ و قصص الماضين، و ذكر كلّ هذه الوقائع التاريخيّة التى جرت على السابقين فى القرآن الذى هو كتاب يهتمّ بتربية الإنسان ليس أمرا اعتباطيّا عبثيّا، بل الغاية منه الاستفادة من الأبعاد المختلفة فى تأريخ هؤلاء، عوامل الإنتصار و الهزيمة، و الساعدة و الشقاء، و الاستفادة من التجارب الكثيرة المخفية فى طيّات تاريخ أولئك السابقين.

و بصورة عامّة، فإنّ من أكثر العلوم اطمئنانا و واقعيّة هى العلوم التجريبيّة التى تخضع للتجارب فى المختبر، و تظهر نتائجها الدقيقة. و التأريخ مختبر كبير لحياة البشر، و فى هذا المختبر سرّ شموخ الأمم و سقوطها، نجاحها و فشلها، سعادتها و تعاستها، فكلّها وضعت تحت التجربة و ظهرت نتائجها أمام أعيننا، و نحن نستطيع بالاستفادة من تلك التجارب أن نتعلّم قسما من معارفنا الأكثر اطمئنانا فى مجال أمور حياتنا.

و بتعبير آخر، فإنّ حاصل حياة الإنسان- من جهة- هو التجربة، و لا شيء غيرها، و التاريخ- إذا كان خاليا من كلّ أشكال التحريف- هو حاصل حياة آلاف السنين من عمر البشر جمعت فى مكان واحد فى متناول الباحثين و الدارسين.

و لهذا السبب يؤكّد أمير المؤمنين على عليه السّلام فى مواعظه الحكيمة لولده الإمام الحسن عليه السّلام على هذه النقطة بالذات، فيقول: «أى بنى، إنّى و إن لم أكن عمرت عمر من كان قبلى، فقد نظرت فى أعمالهم، و فكّرت فى أخبارهم، و سرت فى آثارهم حتّى عدت كأحدهم، بل كأنّى بما أنتهى إليه من أمورهم قد عمّرت مع أوّلهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، و نفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كلّ أمر نخيله»[۴۱].

بناء على هذا، فإنّ التاريخ مرآة يعكس الماضى، و حلقة تربط الحاضر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۴

بالماضى، و يوسّع و يطيل من عمر الإنسان بمقداره.

التأريخ معلّم يحكى لنا عن سرّ و رمز عزّة الأمم و سقوطها، فيحذر الظالمين، و يجسّد المصير المشؤوم للظالمين السابقين الذين كانوا أشدّ منهم قوّة، و يبشّر رجال الحقّ و يدعوهم للاستقامة و الثبات، و يحمسهم و يحفّزهم على المضى فى مسيرهم.

التأريخ هو المشعل الذى يضيء مسير حياة البشر، و يفتح الطرق و يعبّدها لحركة الجيل الحاضر.

التأريخ مربّى الجيل الحاضر، و هم سيصنعون تأريخ الغدّ.

و الخلاصة، فإنّ التأريخ أحد أسباب الهداية الإلهية.

و لكن ينبغى الانتباه جيدا، فبمقدار ما يكون التأريخ الصحيح بنّاء ملهما مربّيا نجد أنّ التواريخ المزيّفة مدعاة للضلال و الانحراف، و

من هذا المنطلق فإنّ مرضى القلوب سعوا دائما إلى تضليل البشر و صدّهم عن سبيل اللّه، بتحريف التأريخ، و ينبغى أن لا ننسى أنّ التحريف فى التأريخ كثير[۴۲].

و يلزم بيان هذه الملاحظة أيضا، و هى أنّ كلمة (ذكر) هنا، و فى آيات كثيرة أخرى من آيات القرآن الكريم تشير إلى القرآن نفسه، لأنّ آياته سبب لتذكّر و تذكير البشر، و الوعى و الحذر.

و لهذا السبب فإنّ الآية التالية تتحدّث عن الذين ينسون حقائق القرآن و دروس التأريخ و عبره، فتقول: مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً.

نعم ... إنّ الإعراض عن اللّه سبحانه يجرّ الإنسان إلى مثل هذه المتاهات التى تحمله أعباءا ثقيلة من أنواع الذنوب و الانحرافات الفكريّة و العقائدية و كلمة (وزر) عادة تعنى بحدّ ذاتها الحمل الثقيل، و ذكرها نكرة يؤكّد تأكيدا أكبر على

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۵

هذه المسألة.

ثمّ تضيف: خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا و الملفت للنظر هنا أنّ ضمير (فيه) فى هذه الآية يعود إلى (الوزر) أى أنّ هؤلاء سيبقون دائما فى وزرهم و مسئوليتهم و حملهم الثقيل (و لا دليل لدينا كى نقدّر شيئا هنا و نقول: إنّ هؤلاء سيخلدون فى العذاب أو فى الجحيم) و هذا بنفسه إشارة إلى مسألة تجسّم الأعمال، و إنّ الإنسان يرى الجزاء الحسن أو العقاب فى القيامة طبقا لتلك الأعمال التى قام بها فى هذه الدنيا.

ثمّ تتطرّق الآيات إلى وصف يوم القيامة و بدايته، فتقول: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً و كما أشرنا سابقا، فإنّه يستفاد من آيات القرآن أنّ نهاية هذا العالم و بداية العالم الآخر ستتمّان بحركتين عنيفتين فجائيتين، و عبّر عن كلّ منهما ب (نفخة الصور)، و سنبيّن ذلك فى سورة الزمر ذيل الآية ۶۸ إن شاء اللّه تعالى.

لفظة «زرق» جمع «أزرق» تأتى عادة بمعنى زرقة العين، إلّا أنّها تطلق أحيانا على القاتم جسده بسبب الشدّة و الألم، فإنّ البدن عند تحمّل الألم و التعب و العذاب يضعف، و يفقد طراوته، فيبدو قاتما و كأنّه أزرق.

و فسّر بعضهم هذه الكلمة بمعنى «العمى»، لأنّ الأشخاص زرق العيون يعانون و يبتلون عادة بضعف شديد فى البصر، و ذلك يقترن عادة بكون كلّ شعر بدنهم أبيضا. إلّا أنّما ذكرناه آنفا من تفسير ربّما كان هو الأنسب.

فى هذه الحال يتحدّث المجرمون فيما بينهم بإخفات حول مقدار مكوثهم و بقائهم فى عالم البرزخ، فبعضهم يقول: لم تلبثوا إلّا عشر ليال، أو عشرة أيّام بلياليها: يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً[۴۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۶

لا شكّ أنّ مدّة توقّف هؤلاء كانت طويلة، إلّا أنّها تبدو قصيرة جدّا فى مقابل عمر القيامة. و إنّ تخافتهم هذا بالكلام إمّا هو للرعب و الخوف الشديد الذى ينتابهم عند مشاهدة أهوال القيامة، أو أنّه نتيجة شدّة ضعفهم و عجزهم.

و احتمل بعض المفسّرين أن تكون هذه الجملة إشارة إلى مكثهم فى الدنيا، و الذى يعدّ أيّاما قلائل بالنسبة للآخرة و حوادثها المخفية.

ثمّ يضيف: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ سواء تكلّموا بهمس أم بصراخ، و بصوت خفى أم عال إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً.

و من المسلّم به أنّه: لا العشر مدّة طويلة، و لا اليوم كذلك، إلّا أنّ هناك تفاوتا بينهما، و هو أنّ اليوم الواحد إشارة إلى أقل أعداد الآحاد، و العشرة إشارة إلى أقلّ أعداد العشرات، و لذلك فإنّ الأوّل يشير إلى مدّة أقل، و لذلك عبّر القرآن عمّن قال به ب أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً لأنّ قصر عمر الدنيا أو البرزخ فى مقابل عمر الآخرة، و كذلك كون كيفيتهما و حالهما لا شىء أمام كيفيّة و حال الآخرة، و يكون أنسب مع أقل الأعداد. (فلاحظوا بدقّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۷۷

الآیات [سورهٔ طه (۲۰): الآیات ۱۰۵ الی ۱۱۲]

اشارهٔ

وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ یَنْسِفُها رَبِّی نَسْفاً (۱۰۵) فَیَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (۱۰۶) لا تَری فِیها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (۱۰۷) یَوْمَئِذٍ یَتَّبِعُونَ الدَّاعِیَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (۱۰۸) یَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِیَ لَهُ قَوْلاً (۱۰۹)

یَعْلَمُ ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا یُحِیطُونَ بِهِ عِلْماً (۱۱۰) وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَیِّ الْقَیُّومِ وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (۱۱۱) وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا یَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً (۱۱۲)

التّفسیر

مشهد القیامهٔ المهول:

تتابع هذه الآیات الکلام فی الآیات السابقهٔ عن الحوادث المرتبطهٔ بانتهاء الدنیا و بدایهٔ القیامهٔ.

و یظهر من الآیهٔ الأولی أنّ الناس کانوا قد سألوا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم عن مصیر الجبال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۷۸

عند انتهاء الدنیا، و ربّما کان ذلک لأنّهم لم یکونوا یصدّقون إمکانیهٔ تصدّع و زوال هذه الجبال العظیمهٔ التی امتدّت جذورها فی أعماق الأرض و شمخت رؤوسها إلی السّماء، و إذا کان بالإمکان قلعها من مکانها فأی هواء أو طوفان له مثل هذه القدرهٔ، و لذلک یقول: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْجِبالِ و الجواب: فَقُلْ یَنْسِفُها رَبِّی نَسْفاً[۴۴].

یستفاد من مجموع آیات القرآن حول مصیر الجبال أنّها تمرّ عند حلول القیامهٔ بمراحل مختلفهٔ:

فی ترجف و تهتزّ أوّلا: یَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ ۴۵].

ثمّ تتحرّک: وَ تَسِیرُ الْجِبالُ سَیْراً[۴۶].

و فی المرحلهٔ الثّالثهٔ تتلاشی و تتحوّل إلی کثبان من الرمل: وَ کانَتِ الْجِبالُ کَثِیباً مَهِیلًا[۴۷].

و فی المرحلهٔ الأخیرهٔ سیزحزحها الهواء و الطوفان من مکانها و یبعثرها فی الهواء و تبدو کالصوف المنفوش: وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۴۸] ثمّ تقول الآیهٔ: إنّ اللّه سبحانه بعد تلاشی الجبال و تطایر ذرّاتها یأتی أمره إلی الأرض فَیَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً[۴۹] لا تَری فِیها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً[۵۰] و فی ذلک الحین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۰ ؛ ص۷۹

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۷۹

یدعو الداعی الإلهی جمیع البشر إلی الحیاهٔ و الاجتماع فی المحشر للحساب فیلبّی الجمیع دعوته و یتّبعونه یَوْمَئِذٍ یَتَّبِعُونَ الدَّاعِیَ لا عِوَجَ لَهُ

هل إنّ هذا الداعی (إسرافیل) أم ملک آخر من ملائکهٔ اللّه المقرّبین؟ القرآن لم یشخّص و یحدّد ذلک بدقهٔ، و کائنا من کان فإنّ

أمره نافذ لا يقدر أى أحد على التخلّف عنه.

و جملة «لا عوج» أ يمكن أن تكون وصفا لدعوة هذا الداعى، أو وصفا لاتّباع المدعوين، أو لكليهما. و ممّا يلفت النظر أنّه كما أنّ سطح الأرض يصبح صافيا و مستويا بحيث لا يبقى فيه أى اعوجاج، فإنّ أمر اللّه و الداعى أيضا كلّ منهما صاف و مستقيم جلى، و اتّباعه واضح لا سبيل لأى انحراف و اعوجاج إليه.

عند ذلك: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً»[۵۱]. إنّ هدوء الأصوات أو خشوعها هذا إمّا هو لهيمنة العظمة الإلهيّة على عرصة المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفا من الحساب و نتيجة الأعمال، أو لكليهما.

و بما أنّ بعض الغارقين فى الذنوب و المعاصى قد يحتمل أن تنالهم شفاعة الشافعين و تنجيهم، فإنّه يضيف مباشرة: يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا و هذا إشارة إلى أنّ الشفاعة هناك ليست اعتباطية و عشوائية، بل إنّ هناك تخطيطا دقيقا لها، سواء ما يتعلّق بالشافعين أو المشفوع لهم، و ما دام الأفراد لا يملكون الأهلية و الاستحقاق للشفاعة، فلا معنى حينئذ لها.

و الحقيقة هى أنّ جماعة ينظرون إلى الشفاعة بمنظار خاطئ، فهم يتصورون أنّها لا تختلف عن أساليب الدنيا و مراوغاتها، فى حين أنّ الشفاعة فى منطق الإسلام مرحلة تربوية متقدّمة، و عامل مساعد لهؤلاء الذين يطوون طريق الحقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۸۰

بجدّ و سعى إلّا أنّهم يبتلون أحيانا بالنقائص و الزلّات، و لعلّ من الممكن أن يعلو غبار اليأس و القنوط قلوبهم نتيجة هذه الزلّات و الهفوات، هنا تأتى إليهم الشفاعة كقوّة محرّكة و تقول: لا تيأسوا، و استمروا فى طريقكم، و لا تكفوا أيديكم عن السعى و الاجتهاد فى هذا المسير، و إذا ما بدر منكم زلل و هفوات فإنّ هناك شفعاء سيشفعون لكم عند اللّه الرحمن الذى وسعت رحمته كلّ شيء فيأذن لهم بالشفاعة.

أنّ الشفاعة ليست دعوة للتقاعس، أو الفرار من تحمّل المسؤولية، أو أنّها ضوء أخضر لارتكاب المعاصى، بل هى دعوة إلى الاستقامة فى طريق الحقّ، و اجتناب الذنوب قدر الإمكان.

و مع أنّنا قد أوردنا بحث الشفاعة بصورة مفصّلة فى ذيل الآية (۴۷- ۴۸) من سورة البقرة، و فى ذيل الآية (۲۵۵) من سورة البقرة، لكن لا بأس من أن نضيف هنا قصّة جميلة:

فقد روى العالم الرّبانى المرحوم «ياسرى»- أحد علماء طهران المحترمين- أنّ شاعرا يسمّى «حاجبا» كان قد ابتلى بأفكار العوام فى مسألة الشفاعة، فنظّم شعرا قال فيه:

يا حاجب إن كانت معاملتك مع على فى المحشر، فأنا ضامن لك النجاة و اعمل ما شئت من الذنوب.

فرأى أمير المؤمنين عليا عليه السّلام فى المنام، و كان مغضبا، و قال له: لم تحسن قول الشعر، فقال: فما ذا أقول؟ فقال: أصلح شعرك و قل: يا حاجب: إن كانت معاملتك مع على فى المحشر فاستح منه و قلّل من ذنوبك و معاصيك.

و لمّا كان حضور الناس فى عرصات القيامة للحساب و الجزاء لا بدّ معه من علم اللّه سبحانه بأعمالهم و سلوكهم و معاملاتهم، فإنّ الآية التالية تضيف: يَعْلَمُ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۸۱

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً[۵۲] فهو يعلم ما قدّم المجرمون و ما فعلوه فى الدنيا، و هو مطّلع على كلّ أفعالهم و أقوالهم و نيّاتهم فى الماضى و ما سيلاقونه من الجزء فى المستقبل، إلّا أنّهم لا يحيطون بعلم اللّه. و بهذا فإنّ إحاطة علم اللّه سبحانه تشمل العلم بأعمال هؤلاء و بجزائهم، و هذان الركنان فى الحقيقة هما دعامة القضاء التامّ العادل، و هو أن يكون القاضى عالما و مطّلعا تماما على الحوادث التى وقعت، و كذلك يعلم بحكمها و جزائها.

فى ذلك اليوم: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ

«العنت» من مادة العنوة، و قد وردت بمعنى الخضوع و الذلّة، و لذلك يقال للأسير: «عانى»، لأنّه خاضع و ذليل فى يد الأسر. و إذا رأينا الخضوع قد نسب إلى الوجوه هنا، فلأنّ كلّ الإحساسات النفسية، و من جملتها الخضوع، تظهر آثارها أوّلا على وجه الإنسان.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ الوجوه هنا تعنى الرؤساء و الزعماء و أولياء الأمور الذين يقفون فى ذلك اليوم أذلّاء خاضعين للّه. إلّا أنّ التّفسير الأوّل أقرب و أنسب.

إنّ انتخاب صفتى «الحى و القيّوم» هنا من بين صفات اللّه سبحانه، لأنّهما يناسبان النشور أو الحياة و قيام الناس جميعا من قبورهم «يوم القيامة».

و تختتم الآية بالقول: وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً فالظلم و الجور كالحمل العظيم الذى يثقل كاهل الإنسان، و يمنعه من السير و الرقى إلى نعم اللّه الخالدة، و إنّ الظالمين- سواء منهم من ظلم نفسه أو ظلم الآخرين- لما يرون بأعينهم فى ذلك اليوم خفيفى الأحمال يهرعون إلى الجنّة، و هم قد جثوا حول جهنّم ينظرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۲

إلى أهل الجنّة يتملّكهم اليأس و الخيبة و الحسرة.

و لمّا كانت طريقة القرآن غالبا هى بيان تطبيقى للمسائل، فإنّه بعد أن بيّن مصير الظالمين فى ذلك اليوم، تطرّق إلى بيان حال المؤمنين فقال: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً[۵۳].

التعبير ب مِنَ الصَّالِحاتِ إشارة إلى أنّهم إن لم يستطيعوا أن يعملوا كلّ الصالحات فليقوموا ببعضها، لأنّ الإيمان بدون العمل الصالح كالشجرة بلا ثمرة، كما أنّ العمل الصالح بدون إيمان كالشجرة من دون جذر، إذ قد تبقى عدّة أيّام لكنّها تجفّ آخر الأمر، و لذلك ورد قيد وَ هُوَ مُؤْمِنٌ بعد ذكر العمل الصالح فى الآية.

قاعدة: لا يمكن أن يوجد العمل الصالح بدون إيمان، و لو قام بعض الأفراد غير المؤمنين- أحيانا- بأعمال صالحة، فلا شكّ أنّها ستكون ضئيلة و محدودة و استثنائية، و بتعبير آخر: فإنّ العمل الصالح من أجل أن يستمر و يتأصّل و يتعمّق يجب أن يروى من عقيدة سالمة و إعتقاد صحيح.

بحثان

۱- الفرق بين الظلم و الهضم

قرأنا فى الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث أنّ المؤمنين الصالحين لا يخافون ظلما و لا هضما، و قال بعض المفسّرين: إنّ «الظلم» إشارة إلى أنّ هؤلاء لا يخافون مطلقا من أن يظلموا فى تلك المحكمة العادلة و يؤاخذوا على ذنوب لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۳

يرتكبوها و «الهضم» إشارة إلى أنّهم لا يخافون- أيضا- نقصان ثوابهم، لأنّهم يعلمون أنّ ما يستحقّونه من الثواب يصل إليهم دون زيادة أو نقصان.

و احتمل بعضهم أنّ الأوّل يعنى أنّهم لا يخافون من محو حسناتهم، و الثّانى إشارة إلى أنّهم لا يخافون نقصان حتّى مقدار قليل منها، لأنّ الحساب الإلهى دقيق جدّا.

و يحتمل أيضا أنّ للمؤمنين الصالحين زلّات و هفوات أيضا، و أنّ الكاتبين لا يكتبون أكثر ممّا صدر منهم، و لا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم الصالحة.

إنّ التفاسير المتقدّمة لا تتقاطع فيما بينها، و يمكن أن تكون الجملة آنفة الذكر إشارة إلى كلّ هذه المعانى أيضا.

۲- مراحل القيامة

وردت الإشارة فى الآيات- محلّ البحث- إلى سلسلة من الحوادث التى تقع عند حلول القيامة و بعدها:

۱- رجوع الأموات إلى الحياة: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ.

۲- جميع المجرمين و حشرهم: نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ

۳- تلاشى جبال الأرض، ثمّ تبعثرها فى كلّ مكان، و استواء سطح الأرض تماما: يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً.

۴- استماع الجميع لدعوة داعى اللّه، و انقطاع جميع الأصوات: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ....

۵- عدم تأثير الشفاعة فى ذلك اليوم بدون إذن اللّه: يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ ....

۶- إعداد اللّه تعالى جميع خلقه للحساب بعلمه المطلق غير المتناهى يَعْلَمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۴

ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ....

۷- خضوع الجميع فى مقابل حكمه: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ....

۸- يأس الظالمين: وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً.

۹- رجاء المؤمنين لطف اللّه و رحمته: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۵

الآيتان [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۴]

اشارة

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (۱۱۳) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (۱۱۴)

التّفسير

قل: رَبِّ زِدْنِي عِلْماً الآيات محلّ البحث- فى الواقع- إشارة إلى مجموع ما مرّ فى الآيات السابقة حول المسائل التربوية المرتبطة بالقيامة و الوعد و الوعيد، فتقول:

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً.

التعبير ب (كذلك) إشارة إلى المطالب التى بيّنت قبل هذه الآية، و هذا يشبه تماما أن يذكر إنسان لآخر أمورا من شأنها التوعية و العبرة، ثمّ يضيف: هكذا ينبغى التذكير و الوعظ، و على هذا فلا حاجة إلى التفاسير التى ذكرت و البعيدة هنا عن معنى الآية).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۶

كلمة «عربى» و إن كانت بمعنى اللغة العربية، إلّا أنّها هنا إشارة إلى فصاحة القرآن و بلاغته و سرعة إيصاله للمفهوم و المراد من جهتين:

الأولى: إنّ اللغة العربيّة- بشهادة علماء اللغة فى العالم- واحدة من أبلغ لغات العالم، و أدبها من أقوى الآداب.

و الثّانيـة: إنّ جملـة (صـرفنا) أحيانا تشير إلى التعبيرات القرآنيـة المختلفـة حول حادثـة واحـدة، فمثلا نراه يبيّن مسألـة الوعيد و عقاب المجرمين من خلال ذكر قصص الأمم السابقة و حوادثها تارة، و تارة أخرى على هيئة خطاب موجّه للحاضرين، و ثالثة بتجسيد حالهم فى مشهد القيامة، و هكذا.

إنّ اختلاف جملـة لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ مع جملـة يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً قـد يكون من جهـة أنّ الجملة الأولى تقول: إنّ الهدف هو إيجاد و غرس التقوى بصورة كاملة.

و فى الجملـة الثّانيـة: إنّ الهدف هو أنّ التقوى و إن لم تحصل كاملة، فليحصل على الأقل الوعى و العلم فعلا، ثمّ تكون فى المسـتقبل مصدرا و ينبوعا للحركة نحو الكمال.

و يحتمل أيضا أن تكون الجملـة الأولى إشارة إلى إيجاد و تحقيق التقوى بالنسـبة لغير المتّقين، و الثّانيـة إلى التذكّر و التذكير بالنسـبة للمتقين، كما نقرأ فى الآية (٢) من سورة الأنفال: إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً.

فى الآية آنفة الذكر إشارة إلى أصلين مهمّين من أصول التعليم و التربية المؤثّرة:

أحدهما: مسألة الصراحة فى البيان، و كون العبارات بليغة واضحة تستقرّ فى القلب.

و الآخر: بيان المطالب بأساليب متنوعة، لئلّا تكون سببا للتكرار و الملل، و لتنفذ إلى القلوب.

أمّا الآية التّالية فتضيف قائلة: فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ و من المحتمل أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص: ٨٧

يكون ذكر كلمـة «الحقّ» بعـد كلمـة «الملـك»، هو أنّ النـاس ينظرون إلى الملـك بمنظـار سـيء و تـداعى فى أذهانهم صور الظلم و الطغيان و الجور و الاستعلاء و التجبّر التى تكون فى الملوك غالبا، و لذا فإنّ الآية تصف اللّه الملك سبحانه مباشرة ب «الحقّ».

و بمـا أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلم كـان يعجّـل فى إبلاـغ الـوحى و مـا ينزل به من القرآن لاهتمـامه به و تعشّـقه أن يحفظه المسـلمون و يستظهروه، و لم يتمهّل أن يتمّ جبرئيل ما يلقيه عليه من الوحى فيبلغه عنه، فإنّ الآية محلّ البحث تذكّره بأنّ يتمهّل فتقول: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً.

و يستشفّ من بعض آيات القرآن الأخرى أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلم كانت تنتابه حالـة نفسـيّة خاصّة من الشوق عند نزول الوحى، فكانت سببا فى تعجّله كما فى قوله تعالى: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۵۴].

بحثان

١- لا تعجل حتّى فى تلقّى الوحى!

لقد تضمّنت الآيات الأخيرة دروسا تعليميّة، و من جملتها النهى عن العجلة عند تلقّى الوحى، و كثيرا ما لوحظ بعض المستمعين يقفون كلام المتحـدّث أو يكملونه قبل أن يتمّه هو، و هـذا الأمر ناشـئ عن قلّة الصبر أحيانا، أو ناشـئ عن الغرور و إثبات وجود أيضا، و قد يكون العشق و التعلّق الشديـدة بشـيء يـدفع الإنسان- أحيانا- إلى هـذا العمل، و فى هـذه الحالـة ينبعث عن حافز مقدّس، غير أنّ هذا الفعل نفسه- أى العجلة- قد يحدث مشاكل أحيانا، و لذلك فقد نهت الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص: ٨٨

آنفـة الـذكر عن العجلـة حتّى و لو كـان المراد أو الهـدف من هـذا الفعل صـحيحا، و أساسا لا تخلو الأعمال التى تنجز باسـتعجال من

العيب و النقص غالبا. و من المسلّم به أنّ فعل النّبى لمّا كان عليه من مقام العصمة- كان مصونا من الخطأ، إلّا أنّه ينبغى عليه أن يكون فى كلّ شىء مثلا- و قدوة للناس، ليفهم الناس أنّه إذا كان الاستعجال فى تلقّى الوحى غير محبّذ، فلا ينبغى الاستعجال فى الأمور الأخرى من باب أولى أيضا.

و لا ينبغى أن نخلط بين السرعة و العجلة طبعا- فالسرعة تعنى أنّ الخطّة قد نظمت بدقّة كاملة، و حسبت جميع مسائلها، ثمّ تجرى بنودها بدون فوات وقت.

أمّا العجلة فتعنى أنّ الخطّة لم تنضج تماما بعد، و تحتاج إلى تحقيق و تدقيق، و على هذا فإنّ السرعة مطلوبة، و العجلة أمر غير مطلوب.

و قد ذكرت احتمالات أخرى فى تفسير هذه الجملة، و منها أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم كان لا يطيق تأخّر الوحى، فعلّمته الآية أن يتمهّل فإنّ اللّه ينزل عليه وحيه عند الاقتضاء و الحاجة إليه.

و قال بعض المفسّرين: إنّ آيات القرآن نزلت على قلب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فى ليلة القدر دفعة واحدة، و نزلت مرّة أخرى بصورة تدريجيّة على مدى (٢٣) سنة، و لذلك فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم كان يسبق جبرئيل عند النّزول التدريجى للآيات، فأمره القرآن أن لا تعجل فى هذا الأمر، ودع الآيات تنزل نزولا تدريجيّا كلّ فى موقعها و زمانها.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب للصواب.

٢- أطلب المزيد من العلم

لمّا كان النهى عن العجلة عند تلقّى الوحى موهما النهى عن الاستزادة فى طلب العلم، فقد عقّبت الآية بعد ذلك بالقول مباشرة: وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً لتقف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٨٩

أما هذا التصوّر الخاطئ، أى أنّ العجلة ليست صحيحة، لكن من الضرورى الجدّ و السعى من أجل الارتواء من منهل العلم! و قال بعض المفسّرين: إنّ الجملة الأولى أمرت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم ألّا يعجل فى فهم كلّ جوانب الآيات قبل تبيينها فى الآيات الاخرى، و فى الجملة الثّانية صدر الأمر بأن يطلب من اللّه سبحانه علما أكثر فيما يتعلّق بأبعاد آيات القرآن المختلفة.

و على كلّ حال، فإذا كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم مأمورا أن يطلب زيادة العلم من ربّه إلى آخر عمره مع غزارة علمه، و روحه المليئة وعيا و علما، فإنّ واجب الآخرين واضح جدّا، و فى الحقيقة، فإنّ العلم من وجهة نظر الإسلام لا يعرف حدّا، و زيادة الطلب فى كثير من الأمور مذمومة إلّا فى طلب العلم فانّها ممدوحة، و الإفراط قبيح فى كلّ شىء إلّا فى طلب العلم.

فالعلم ليس له حدّ مكانى، فيجب الاجتهاد لتحصيله و لو كان فى الصين أو الثريا، و ليس له حدّ زمانى فهو يستمرّ من المهد إلى اللحد.

و لا- يعرف حدّا من جهة المعلّم، فإنّ الحكمة ضالّة المؤمن أينما وجدها أخذها، و إذا ما سقطت جوهرة من فم ملوّث فاسق فإنّه يلتقطها.

و لا حدّ فى الإسلام لمقدار السعى و الاجتهاد، فهو يغوص فى أعماق البحر ليكتسب العلم، و قد يضحّى بروحه فى طريق تحصيل العلم. و على هذا فإنّ كلمة (خرّيج) أو (أنهى دراسته) لا معنى لها فى منطق الإسلام، فإنّ المسلم الحقيقى لا يعرف نهاية فى تحصيله للعلوم، فهو دائما طالب جامعى، و طالب علم، حتّى لو أصبح أكثر الأساتذة تفوّقا و أفضلهم.

الطريف أنّنا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال لأحد أصحابه: «إنّ لنا فى كلّ جمعة سرورا» قال: قلت: و ما ذاك؟ قال: «إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم العرش، و وافى الأئمّة عليهم السّلام و وافينا معهم، فلا ترد أرواحنا بأبداننا

إلّا بعلم مستفاد، و لو لا ذلك لأنفذنا»[۵۵].

و قد ورد هذا المضمون فى روايات عديدة بعبارات، مختلفة، و هو يوضّح أنّ النّبى و الأئمّة يضاف و يزاد على علمهم إلى نهاية العالم: و نقرأ

فى رواية أخرى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال: «إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى اللّه فلا بارك اللّه لى فى طلوع شمسه»[۵۶].

و كذلك نقرأ

فى حديث آخر عنه صلى اللّه عليه و آله و سلم: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه، و أكثر الناس قيمة أكثرهم علما، و أقلّ الناس قيمة أقلّهم علما»[۵۷].

و هذا هو قدر العلم و قيمته فى منظار التعليمات الإسلامية.

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۱۵ الى ۱۲۲]

اشارة

وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (۱۱۵) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى (۱۱۶) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (۱۱۷) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى (۱۱۸) وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى (۱۱۹)

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى (۱۲۰) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (۱۲۱) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى (۱۲۲)

التّفسير

آدم و مكر الشّيطان:

كان القسم الأهمّ من هذه السورة فى بيان قصّة موسى عليه السّلام و بنى إسرائيل، و المواجهة بينهم و بين فرعون و أنصاره، إلّا أنّ هذه الآيات و ما بعدها تتحدّث عن

قصّة آدم و حواء، و عداء و محاربة إبليس لهما. و ربّما كانت إشارة إلى أنّ الصراع بين الحقّ و الباطل لا ينحصر بأمس و اليوم، و موسى عليه السّلام و فرعون، بل كان منذ بداية خلق آدم و سيستمر كذلك.

و بالرغم من أنّ قصّة آدم و إبليس قد وردت مرارا فى القرآن، إلّا أنّها تمتزج فى كلّ مورد بملاحظات و مسائل جديدة، و هنا تتحدّث أوّلا عن عهد اللّه إلى آدم فتقول: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً.

هناك عدّة آراء فى ماهيّة العهد المذكور، فقال البعض: إنّه أمر اللّه بعدم الاقتراب من الشجرة الممنوعة، و هناك روايات متعدّدة تؤيّد هذا المعنى. فى حين أنّ بعض المفسّرين احتملوا احتمالات أخرى يمكن اعتبارها بمثابة الأغصان و الأوراق لهذا المعنى، كإخطار اللّه لآدم بأنّ الشيطان عدوّ مبين له، و يجب أن لا يتبعه.

و أمّا «النسيان» هنا فمن المسلم أنّه ليس بالمعنى المطلق، لأنّه لا معنى للعتاب و الملامة فى النسيان المطلق، بل إنّه إمّا بمعنى الترك كما نستعمل ذلك فى مكالماتنا اليوميّة، فقد نقول لمن لم يف بعهده: أنسيت عهدك؟ أى إنّك كالناسى. أو أنّه بمعنى النسيان الذى يطرأ نتيجة قلّة الانتباه و شرود الذهن.

و المراد من «العزم» هنا هو التصميم و الإرادة القويّة الصلبة التى تحفظ الإنسان من الوقوع تحت تأثير وساوس الشيطان القويّة.

و على كلّ حال، فلا شكّ أنّ آدم لم يرتكب معصية، بل بدر منه ترك الأولى، أو بتعبير آخر، فإنّ مرحلة وجود آدم فى الجنّة لم تكن مرحلة تكليف، بل كانت مرحلة تجريبيّة للاستعداد للحياة فى هذه الدنيا و تقبل المسؤولية، خاصة و إن نهى اللّه هنا كان نهيا إرشاديا، لأنّه قد أخبره بأنّه إن أكل من الشجرة الممنوعة فسيبتلى بالشقاء. و قد أوردنا تفصيل كلّ ذلك، و كذلك المراد من الشجرة الممنوعة و أمثال ذلك فى ذيل الآيات ۱۹- ۲۲ من سورة الأعراف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۳

ثمّ أشارت إلى جانب آخر من هذه القصّة، فقالت: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى و من هنا يتّضح مقام آدم العظيم، آدم الذى سجدت له الملائكة، و أبدت هذه المخلوقات العظيمة احترامها إيّاه. كما أنّ عداوة إبليس تجلّت له ضمنا من أوّل الأمر إذ لم يخضع لآدم و لم يعظمه.

لا شكّ أنّ السجدة لا تعنى السجدة الخاصّة بعبادة اللّه، و لا أحد أو موجود يستحقّ أن يكون معبودا من دون اللّه سبحانه، و بناء على هذا فإنّ هذه السجدة كانت للّه، غاية ما هناك أنّها كانت من أجل خلق هذا الموجود العظيم. أو أنّ السجدة هنا تعنى الخضوع و التواضع.

على كلّ حال، فإنّ اللّه سبحانه تعالى أنذر آدم بقوله فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى

من الواضح أنّ الجنّة هنا لا يراد منها جنّة الخلود فى العالم الآخر، و التى هى نقطة تكامل لا يمكن الخروج منها أو التراجع عن نعيمها، بل كانت بستانا فيه كلّ شىء ممّا فى بساتين هذه الدنيا، و لم يكن فيها نصب و لا غصّة بلطف اللّه، و لذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أنذر آدم بأنّك إن خرجت من هذا النعيم فإنّك ستشقى. و كلمة «تشقى» من مادّة الشقاء، و أحد معانيها الألم و المشقّة.

سؤال: لماذا خاطب اللّه الإثنين معا- أى آدم و حواء- فى بداية الأمر فقال:

فَلا يُخْرِجَنَّكُما إلّا أنّه ذكر نتيجة الخروج بصيغة المفرد فى شأن آدم فقط فقال:

فَتَشْقى

و الجواب هو: إنّ هذا الاختلاف فى التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ الآلام و الأتعاب كانت تصيب آدم فى الدرجة الأولى، فإنّه كان مأمورا بتحمّل مسئوليات زوجته أيضا، و هكذا كانت مسئولية الرجال من بداية الأمر. أو أنّ العهد لما كان من البداية على عاتق آدم، فإنّ النهاية أيضا ترتبط به.

ثمّ يبيّن اللّه لآدم راحة الجنّة و هدوأها، و ألم و مشقّة الخروج منها، فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۴

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى

و هنا سؤال يوجّه للمفسّرين، و هو: لماذا اقترن ذكر الظمأ بضحى الشمس، و الجوع بالعرى، فى حين أنّ المعتاد ذكر العطش مع الجوع؟

قيل فى الجواب: إنّ بين العطش و أشعّة الشمس علاقة لا يمكن إنكارها.

(«تضحى» من مادّة «ضحى» أى إشراق الشمس من دون أن يحجبها حاجب من سحاب و أمثاله).

و أمّا الجمع بين الجوع و العرى فقد يكون بسبب أنّ الجوع نوع من عراء الجوف و خلوّه من الغذاء! و الأفضل أن يقال: إنّ هذين الوصفين- الجوع و العرى- علامتان واضحتان للفقر تأتيان معا عادة.

و على كلّ حال، فقد أشير فى هاتين الآيتين إلى أربع احتياجات أصلية و ابتدائية للإنسان، أى: الحاجة إلى الغذاء، و الماء، و اللباس- للحماية من حرارة الشمس- و المسكن، و كان تأمين هذه الحاجات نتيجة توفّر النعمة، و ذكر هذه الأمور فى الواقع توضيح لما جاء فى جملة «فتشقى».

لكن، و مع كلّ ذلك، فإنّ الشيطان قد ربط رباط العداوة حول آدم، و لهذا لم يهدأ له بال: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى

«الوسوسة» فى الأصل تعنى الصوت المنخفض جدّا، ثمّ قيلت لخطور الأفكار السافلة و الخواطر السيّئة سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجة.

إنّ الشيطان تتبع رغبة آدم و أنّها فى أى شيء، فوجد أنّ رغبته فى الحياة الخالدة و الوصول إلى القدرة الأزليّة، و لذلك جاء إليه عن هذين العاملين و استغلّهما فى سبيل جرّه إلى مخالفة أمر اللّه. و بتعبير آخر: فكما أنّ اللّه قد وعد آدم بأنّك إن تجنّبت الشيطان و خالفته فستحظى بالتّنعم فى الجنّة دائما، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۵

الشيطان قد وسوس إليه عن هذا الطريق «أى أنّه سيخلد فى الجنّة أيضا».

أجل ... إنّ الشياطين يبدؤون دائما فى بادية خططهم من نفس النقاط و الطرق التى يبدأ منها المرشدون إلى طريق الحقّ، لكن لا تمرّ الأيّام حتّى يجروهم إلى هاوية الانحراف، و يجعلون جاذبية طريق الحقّ وسيلة للوصول إلى المتاهات.

و أخيرا وقع المحذور، و أكل آدم و حواء من الشجرة الممنوعة، فتساقط عنهما لباس الجنّة، فبدت أعضاؤهما: فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما[۵۸] فلمّا رأى آدم و حواء ذلك استحييا وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ[۵۹]. نعم، لقد كانت العاقبة المؤسفة وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى

«غوى» أخذت من مادّة الغى، أى العمل الصبيانى الناشئ من إعتقاد خاطئ، و لمّا كان آدم هنا قد أكل- جهلا و اشتباها- من الشجرة المحرّمة، نتيجة للظنّ الذى حصل له من قول الشيطان، فقد عبّر عن عمله ب (غوى).

و فسّره بعض المفسّرين بأنّه الجهل الناشئ عن الغفلة، و البعض فسّرها بالمحرومين، و البعض الآخر بالفساد فى الحياة.

و على كلّ حال فإنّ «الغى» يقابل «الرشد»، و الرشد هو أن يسلك الإنسان طريقا يوصله إلى هدفه و مقصده، أمّا الغى فهو عدم الوصول إلى المقصود.

و لكن لمّا كان آدم نقيّا و مؤمنا فى ذاته، و كان يسير فى طريق رضى اللّه سبحانه، و كان لهذا الخطأ الذى أحاط به نتيجة وسوسة الشيطان صفة استثنائية، فإنّ اللّه سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۶

هل ارتكب آدم معصية؟

مع أنّ العصيان يأتى فى عرف اليوم- عادة- بمعنى الذنب و المعصية، إلّا أنّه فى اللغة يعنى الخروج عن الطاعة و عدم تنفيذ الأمر سواء

کان الأمر واجبا أو مستحبّا، و بناء علی هذا فإنّ استعمال کلمة العصیان لا یعنی بالضرورة ترک واجب أو ارتکاب محرّم، بل یمکن أن یکون ترک أمر مستحبّ أو ارتکاب مکروه.

إضافة لما مرّ، فإنّ الأمر و النهی یکون إرشادیا، کأمر و نهی الطبیب حیث یأمر المریض أن یتناول الدواء الفلانی، و أن یجتنب الغذاء الفلانی غیر المناسب، و لا شکّ أنّ المریض إذا خالف أمر الطبیب فإنّه لا یضرّ إلّا نفسه، لأنّه لم یعبأ بإرشاد الطبیب و نصیحته. و کذلک کان اللّه قد أمر آدم أن لا تأکل من ثمرة الشجرة الممنوعة، فإنّک إن أکلت ستخرج من الجنّة، و ستبتلی بالألم و المشقّة الکبیرة فی الأرض، فخالف هذا الأمر الإرشادی، و رأی نتیجة مخالفته أیضا. و إذا لا حظنا أنّ هذا الکلام کان فی مرحلة وجود آدم فی الجنّة، و هی مرحلة اختبار لا تکلیف، فسیتّضح معناه بصورة أجلی.

و إضافة لما مرّ، فإنّ العصیان أو الذنب یکون أحیانا متّصفا بالإطلاق، أی إنّه یعدّ ذنبا من قبل مرتکبیه جمیعا و بدون استثناء کالکذب و الظلم و أکل المال الحرام، و یکون أحیانا نسبیّا، أی العمل الذی إن بدر من شخص ما فقد لا یکون ذنبا، بل قد یعتبر أحیانا عملا مطلوبا و لائقا لصدوره من مثله، أمّا إذا صدر من آخر فإنّه لا یناسبه نظرا إلی مکانته و منزلته.

فمثلا: تطلب المساعدة من قبل بعض الناس لبناء مستشفی، فیعطی العامل أجرة یوم من عمله و التی لا تتجاوز أحیانا أکثر من عدّة دراهم. إنّ هذا الفعل الصادر من مثل هذا الشخص یعدّ إیثارا و حسنة و هو مطلوب تماما، أمّا إذا أعطی رجل ثری هذا المقدار من المال مثلا فإنّه لا یناسبه و لا یلیق به فحسب، بل سیکون موضع ملامة و مذمّة و تعنیف مع أنّه أساسا لم یرتکب حراما، بل ساهم و لو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۷

بمقدار یسیر فی عمل الخیر و البرّ.

إنّ هذا هو ما نعبّر عنه ب (حسنات الأبرار سیّئات المقرّبین) و هو المعروف بترک الأولی، و نحن نعبر عنه بالذنب النسبی الذی لا یعدّ ذنبا، و لا یخالف مقام العصمة.

و فی الأحادیث الإسلامیة أیضا أطلقت المعصیة علی مخالفة المستحبّات، فنری

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال فی النوافل الیومیّة: «و إنّما هذا کلّه تطوّع و لیس بمفروض ... و لکنّها معصیة، لأنّه یستحبّ إذا عمل الرجل عملا من الخیر أن یدوم علیه»[۶۰].

و قد بحثنا هذا الموضوع و سائر المسائل المرتبطة بآدم و خروجه من الجنّة فی سورة الأعراف ذیل الآیة ۱۹ و ما بعدها، و فی سورة البقرة ذیل الآیة ۳۰- ۳۸، و لا حاجة إلی التکرار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۸

الآیات [سورة طه (۲۰): الآیات ۱۲۳ الی ۱۲۷]

اشارة

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِیعاً بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدایَ فَلا یَضِلُّ وَ لا یَشْقی (۱۲۳) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْکاً وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ أَعْمی (۱۲۴) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِی أَعْمی وَ قَدْ کُنْتُ بَصِیراً (۱۲۵) قالَ کَذلِکَ أَتَتْکَ آیاتُنا فَنَسِیتَها وَ کَذلِکَ الْیَوْمَ تُنْسی (۱۲۶) وَ کَذلِکَ نَجْزِی مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ یُؤْمِنْ بِآیاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقی (۱۲۷)

التّفسیر

المعیشة الضنکا:

مع أنّ توبـة آدم قـد قبلت، إلّا أنّ عمله أدّى إلى عـدم اسـتطاعته الرجوع إلى الحالـة الأولى، و لـذا فإنّ اللّه سـبحانه أصدر أمره لآدم و حواء كليهما و كذلك الشيطان أن يهبطوا جميعا من الجنّة: قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.

إلّا أنّى أعلمكم بأنّ طريق النجاة و السعادة مفتوح أمامكم فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً

فَمَنِ اتَّبَعَ هُدایَ فَلا یَضِلُّ وَ لا یَشْقى

و من أجل أن يتّضح أيضا مصير الذين ينسون أمر الحقّ، فقد أضاف تعالى وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ أَعْمى

هنا قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِی أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِیراً؟ فيسمع الجواب مباشرة:

قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آیاتُنا فَنَسِیتَها وَ كَذلِكَ الْیَوْمَ تُنْسى و تعمى عينك عن رؤية نعم اللّه و مقام قربه.

أمّا الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث فهى بمثابة الاستنتاج و الخلاصة إذ تقول: وَ كَذلِكَ نَجْزِی مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ یُؤْمِنْ بِآیاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى

بحوث

١- الغفلة عن ذكر الحقّ و آثارها

قـد توصـد أحيانا كلّ أبواب الحياة بوجه الإنسان، فكلّما أقـدم على عمل يجـد الأبواب المغلقة، و قد تنعكس الصورة فأينما اتّجه يرى الأبواب مفتّحـة فى وجهه، و قـد تهيأت له مقدّمات العمل، و لا يواجه عقبات فى طريقه، فيعبّر عن هذه الحالة بسـعة العيش و رغده، و عن الأولى بضيق المعيشة و شظفها، و المراد من قوله تعالى:

مَعِیشَةً ضَنْكاً[٦١] الوارد فى الآيات محلّ البحث هو هذا المعنى أيضا.

و قد يكون ضـيق العيش ناتجا أحيانا من قلّة المورد، و قد يكون المرء كثير المال موفور الثراء. إلّا أنّ البخل و الحرص و الطمع يضـيق عليه معاشه، فلا يميل إلى فتح باب داره للآخرين لمشاركته نعيمه، بل و لا يميل إلى الإنفاق على نفسه أيضا، و على

قول الإمام على عليه السّلام: «يعيش عيش الفقراء و يحاسب حساب

الأغنياء».

حقّا، لماذا يبتلى الإنسان بهذه الضائقات؟

القرآن يقول: إنّ العامل الأساس هو الإعراض عن ذكر اللّه، فإنّ ذكر اللّه يبعث على اطمئنان الروح و التقوى و الشهامة، و نسيانه مبعث الاضطراب و الخوف و القلق.

عند ما ينسـى الإنسان مسـئولياته بعد أن ينسـى ذكر اللّه، فإنّه سيغرق فى خضمّ الشهوات و الحرص و الطمع، و من الوضوح بمكان أنّ نصيبه سيكون المعيشة الضنك، فلا قناعة تملأ عينه، و لا اهتمام بالمعنويات تغنى روحه، و لا أخلاق تمنعه أمام طغيان الشهوات.

و أساسـا فـانّ ضـيق الحيـاة ينشأ فى الغالب من النقائص المعنويـة و انعـدام الغنى الروحى ... ينشأ من عـدم الاطمئنان إلى المسـتقبل، و

الخوف من نفاد الإمكانيات الموجودة، و العلاقة المفرطة بعالم المادّة، بينما نجد أنّ الإنسان الذى يؤمن باللّه، و تعلّق قلبه بذاته المقدّسة، يعيش بعيدا عن كلّ هذه الاضطرابات، و فى مأمن منها.

إلى هنا كان الكلام عن الفرد، و عند ما نأتى إلى المجتمعات التى أعرضت عن ذكر اللّه، فإنّ المسألة ستكون أشدّ رعبا و خطرا، فإنّ المجتمعات البشرية على رغم تقدّمها الصناعى المذهل، و بالرغم من توفّر كلّ وسائل الحياة، فهى تعيش فى حالة اضطراب و قلق شديد، و مبتلاة بضائقات عجيبة و ترى نفسها سجينة.

فكلّ فرد يخاف من الآخرين، و لا يعتمد أحد على الآخر، و الروابط و العلاقات تتمحور حول محور المصالح الشخصيّة، و سبّاق التسلح- نتيجة الخوف من الحرب- يلتهم و يستهلك أغلب إمكانياتهم الاقتصادية.

السجون مليئة بالمجرمين، و تقع فى كلّ ساعة و دقيقة- و طبقا للإحصاءات الرسميّة- حوادث قتل و جرائم مرعبة ... التلوّث بالفحشاء، و الإدمان على المواد المخدّرة قد استعبد هؤلاء، و لا يوجد فى عوائلهم نسمة حبّ، و لا ارتباط عاطفى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ١٠١

يبعث على النشاط ... أجل هذه هى حياتهم القاسية، و معيشتهم الضنك.

لقد اعترف ريتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية- بلد الشيطان الأكبر- بهذا الواقع فى خطابه الرئاسى الأوّل إذ قال: (إنّنا نرى حولنا دائما حياة جوفاء، و نحن نأمل أن نرضى، و لكنّنا لا نرضى)! رجل آخر من رجال المعروفين كانت مهمّته إيجاد السرور و الفرح فى المجتمع، يقول: إنّى أرى الإنسانية تعدو فى زقاق مظلم لا شىء فى نهايته إلّا القلق المطلق.

و من الطريف أن نقرأ

فى الرّوايات الإسلامية أنّه سئل الإمام الصادق عليه السّلام عن المراد من الآية: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْكاً؟ قال: «يعنى [الإعراض عن ولاية أمير المؤمنين»[۶۲].

أجل ... فإنّ الذى يستلهم العبرة من حياة على عليه السّلام، ذلك الرجل العظيم الذى كانت الدنيا فى نظره لا تساوى عفطة عنز، و الذى انقطع إلى اللّه حتّى صغرت الدنيا فى عينه إلى هذا الحدّ، فمن يكن كذلك فستكون حياته فى سعة و رفاه، أمّا أولئك الذين ينسون المثل و القدوة فإنّهم فى ضنك العيش فى كلّ الأحوال.

و قد فسّر الإعراض عن ذكر اللّه- فى الآية- بترك الحجّ من قبل القادرين عليه، و ذلك لأنّ مراسم الحج تهزّ الإنسان، و توجد ارتباطا و علاقة جديدة بين الإنسان و ربّه بحيث يكون هذا الارتباط هو مفتاح حياته، فى حين أنّ عكس هذا الأمر يؤدّى إلى الارتباط الشديد بالماديات التى هى أساس المعيشة الضنكا.

۲- عمى البصر و عمى البصيرة!

لقد حدّدت عقوبتان لأولئك الذين يعرضون عن ذكر اللّه: إحداهما: المعيشة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ١٠٢

الضنك فى هذه الدنيا، و التى أشير إليها فى الملاحظة السابقة، و الأخرى: العمى فى الآخرة.

و قلنا مرارا: إنّ عالم الآخرة هو تجسّم أوسع لعالم الدنيا، و كلّ حقائق هذا العالم تتجسّد هناك بما يناسبها هنا، فأولئك الذين عميت بصيرتهم عن مشاهدة الحقائق فى هذه الدنيا، ستعمى هناك عيون أجسامهم، و لذلك فإنّهم حين يتساءلون بأنّا كنّا قبل هذا صحيحى البصر، فلما ذا حشرنا عميا؟ يقال لهم: لأنّكم قد نسيتم آيات اللّه، و هذه الحالة انعكاس لتلك الحالة.

و هنا ينقدح سؤال، و هو: إنّ ظاهر بعض الآيات القرآنية هو أنّ كلّ الناس يبصرون فى يوم القيامة، و يقال لهم: اقرؤوا صحيفة

أعمالكم اقْرَأْ كِتابَكَ ...[۶۳]، أو أنّ المجرمين يرون نـار جهنّم بـأعينهم: وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ...[۶۴]، فكيف تناسب هذه التعبيرات كون جماعة عميا؟

قـال بعض المفسّـرين إنّ حال ذلك العالم تختلف عن حال هـذا العالم، فربّما كان بعض الأفراد مبصـرين فى مشاهـدة بعض الأمور، و عميانا عن مشاهـدة البعض الآخر، و على ما ينقل العلّامـة الطبرسـى عن بعض المفسّـرين: إنّه أعمى عن جهات الخير لا يهتـدى لشـىء منها، لأنّ نظام ذلك العالم يختلف عن نظام هذا العالم.

و يحتمل أيضا أن يكون هؤلاء فى بعض المنازل و المواقف عميا، و فى بعضها مبصرين.

ثمّ إنّ المراد من نسـيان المجرمين فى العـالم الآـخر ليس هو نسـيان اللّه سـبحانه لهم، بـل من الواضـح أنّ المراد معاملـة هؤلاـء معاملة الناسى، كما نستعمل ذلك فى محاوراتنا اليوميّة، فإذا لم يهتمّ شخص بآخر، فإنّ الثّانى يقول له: لماذا نسيتنى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۳

۳- الإسراف فى المعصية

ممّا يلفت النظر أنّه قد ذكرت فى الآيات- محلّ البحث- هذه العقوبات المؤلمة للأفراد الذين يسرفون و لا يؤمنون بآيات اللّه.

إنّ التعبير ب «الإسـراف» هنـا قـد يكون إشـارة إلى أنّهم قـد اسـتعملوا تلك النعم و العطايا الإلهيّـة، كالعين و الاذن و العقل، فى طرق الشّر، و ليس الإسراف إلّا أن يتلف الإنسان هذه النعم من غير هدف.

أو أن يكون إشارة إلى أنّ المذنبين قسـمان: قسم لهم ذنوب محدودة، و فى قلوبهم خوف اللّه، أى أنّهم لم يقطعوا ارتباطهم و صلتهم باللّه تماما، فإذا ما ظلموا- على سبيل الفرض- يتيما أو ضريرا فإنّهم لا يستبيحون ذلك العمل، بل يعدّون أنفسهم مقصّرين أمام اللّه. و لاـ شكّ أنّ مثل هـذا الفرد عاص يسـتحقّ العقاب، إلّا أنّ بينه و بين من يقترف الـذنوب بلا حساب- و لا يعتبر ذلك ذنبا، و لا يعترف بمعيار للـذنب و عـدمه، بل و يفتخر أحيانا بارتكابه المعاصـى، أو يحتقر الـذنب و يستصـغره- فرقا شاسـعا، لأنّ القسم الأوّل يمكن أن يتوبوا فى النهاية و يجبروا ما صدر عنهم من ذنوب، أمّا أولئك الذين يسرفون فى الذنوب فلا توبة لهم.

۴- ما هو الهبوط؟

«الهبوط» فى اللغـة بمعنى النّزول الإجبـارى، كسـقوط الصـخرة من مرتفع مـا، و عنـد مـا تسـتعمل فى حقّ الإنسـان فإنّها تعنى الإبعاد و الإنزال عقابا له.

و بملاحظـة أنّ أدم قد خلق للحياة على وجه الأرض، و كانت الجنّة أيضا بقعة خضـراء و فيرة النعمة من هذا العالم، فإنّ هبوط و نزول آدم هنـا يعنى النّزول المقـامى لاـ المكـانى، أى إنّ اللّه سـبحانه قـد نزّل مقامه لتركه الأولى، و حرمه من كلّ نعم الجنّة تلك، و ابتلاه بمصائب هذه الدنيا و متاعبها.

و ممّا يستحقّ الالتفات أنّ المخاطب هنا قد ذكر بصيغة المثنّى (اهبطا) أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۴

اهبطا كلاكما، و من الممكن أن يكون المراد آدم و حواء، و إذا كان المخاطب قد ورد بصيغة الجمع (اهبطوا) فى بعض آيات القرآن الاخرى، فلأنّ الشيطان قد أشرك معهما فى الخطاب، لأنّه هو الآخر قد طرد من الجنّة.

و يحتمل أيضا أن يكون المخاطب آدم و الشيطان، لأنّ الجملة التى تلى هذه الجملة تقول: بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من جملة بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ و التى ورد الخطاب فيها بصيغة الجمع، هو تولّد العداوة بين أدم و حواء من جهة، و بين الشيطان من جهة أخرى، و تولّد العداوة بين آدم و أولاده من جهة و الشيطان و ذريته من جانب آخر.

و على كلّ حال، فإنّ المخاطب فى جملة: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً هم أولاد آدم و حواء حتما، لأنّ هداية اللّه مختصة بهم، أمّا الشيطان و ذريته الذين أعرضوا عن منهج الهداية الإلهيّة، فإنّ الخطاب لا يشملهم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۲۸ الى ۱۳۰]

اشارة

أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (۱۲۸) وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى (۱۲۹) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (۱۳۰)

التّفسير

اعتبروا بتاريخ الماضين:

لمّا كانت عدّة بحوث فى الآيات السابقة قد وردت عن المجرمين، فقد أشارت الآيات الأولى من الآيات محلّ البحث إلى واحد من أفضل طرق التوعية و أكثرها تأثيرا، و هو مطالعة تأريخ الماضين، فتقول: أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ۶۵] أولئك الذين عمّهم العذاب الإلهى الأليم يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۰۶

إنّ هؤلاء يمرّون فى مسيرهم و ذهابهم و إيّابهم على منازل قوم عاد- فى أسفارهم إلى اليمن- و على مساكن ثمود المتهدّمة الخربة- فى سفرهم إلى الشام- و على منازل قوم لوط التى جعل عاليها سافلها- فى سفرهم إلى فلسطين- و يرون آثارهم، إلّا أنّهم لا يعتبرون، فإنّ الخرائب و الأطلال تتكلّم بلسان الحال و تخبر عن قصص السابقين و تحذّر أبناء اليوم و أبناء الغد و تعول صارخة أنّ هذه عاقبة الظلم و الكفر و الفساد.

نعم .. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى ۶۶].

إنّ موضوع أخذ العبرة من تأريخ الماضين من الأمور التى يؤكّد عليها القرآن و الأحاديث الإسلامية كثيرا، و هو حقّا معلم مذكّر منبّه، فما أكثر أولئك الأشخاص الذين لا يتأثّرون بأيّة موعظة، و لا يعتبرون بها، إلّا أنّ رؤية مشاهد من آثار الماضين المعبّرة تهزّهم، و كثيرا ما تغيّر مسير حياتهم.

و نقرأ

فى حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم: «أغفل الناس من لم يتّعظ بتغيّر الدنيا من حال إلى حال»[۶۷]

و لا يفكّر فى تقلّب الليل و النهار و تعاقبهما.

الآية التالية فى الحقيقة جواب عن سؤال يثار هنا، و هو: لماذا لا- يجرى اللّه سبحانه على هذا القسم من المجرمين ما أجراه على المجرمين السابقين، فيقول القرآن: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى

إنّ هذه السنّة الإلهيّة التى ذكرت فى مواضع عديدة من القرآن باسم (كلمة) إشارة إلى قانون الخلقة المبتنى على حريّة البشر، لأنّ كلّ مجرم إذا عوقب مباشرة و بدون أن يمهل، فإنّ الإيمان و العمل الصالح سيتّصف بالجبر تقريبا، و سيكون على الأغلب خوفا من العقاب الآنى، و بناء على هذا فسوف لا يكون وسيلة للتكامل الذى هو الهدف الأصلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۷

إضافة إلى أنّه إذا تقرّر أن يعاقب جميع المجرمين فورا، فسوف لا يبقى أحد حيّا على وجه الأرض: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ[۶۸].

و بناء على هذا فيجب أن تكون هناك مهلة و فترة تعطى لكلّ المرتبطين بطريق الحقّ حتّى يرجع المجرمون إلى أنفسهم و يسلكوا سبيل الصلاح، و لتكون كذلك فرصة لتهذيب النفس.

إنّ التعبير ب (أجل مسمّى) بالشكل الذى يفهم من مجموع آيات القرآن، إشارة إلى الزمان الحتمى لنهاية حياة الإنسان ۶۹].

و على كلّ حال، فإنّ الظالمين الذين لا- إيمان لهم و المجرمين يجب أن لا يغترّوا بتأخير العذاب الإلهى، و أن لا يغفلوا عن هذه الحقيقة، و هى أنّ لطف اللّه و سنّته فى الحياة، و قانون التكامل هذا، هو الذى يفسح المجال لهؤلاء.

ثمّ يوجّه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، فيقول: فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ و من أجل رفع معنويات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و تقوية قلبه، و تسلية خاطره، فإنّه يؤمر بمناجاة اللّه و الصلاة و التسبيح فيقول: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى و لا يتأثّر قلبك جرّاء كلامهم المؤلم.

لا شكّ أنّ هذا الحمد و التسبيح محاربة للشرك و عبادة الأصنام، و فى الوقت نفسه صبر و تحمّل أمام أقوال المشركين السيّئة، و كلامهم الخشن. إلّا أنّ هناك بحثا بين المفسّرين فى أنّ المقصود من الحمد و التسبيح هل الحمد و التسبيح المطلق، أم أنّه إشارة إلى خصوص الصلوات الخمس اليوميّة؟ فجماعة يعتقدون بأنّه يجب أن يبقى ظاهر العبارات على معناه الواسع، و من ذلك يستفاد أنّ المراد هو التسبيح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۸

و الحمد المطلق.

فى حين أنّ جماعة أخرى ترى أنّه إشارة إلى الصلوات الخمس، و هى على النحو التالى.

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ و هى إشارة إلى صلاة الصبح.

وَ قَبْلَ غُرُوبِها و هى إشارة إلى صلاة العصر، أو أنّها إشارة إلى صلاتى الظهر و العصر، و اللتان يمتدّ وقتهما إلى الغروب.

وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ و هى إشارة إلى صلاتى المغرب و العشاء، و كذلك صلاة الليل.

أمّا التعبير ب أَطْرافَ النَّهارِ فهو إمّا إشارة إلى صلاة الظهر، لأنّ أطراف جمع طرف، و هو يعنى الجانب، و إذا قسّمنا اليوم نصفين، فإنّ صلاة الظهر ستكون فى أحد طرفى النصف الثّانى.

و يستفاد من بعض الرّوايات- أيضا- أنّ أَطْرافَ النَّهارِ إشارة إلى الصلوات المستحبّة التى يستطيع الإنسان أو يؤدّيها فى الأوقات المختلفة، لأنّ أطراف النهار هنا قد وقعت فى مقابل آناء الليل، و هى تتضمّن كلّ ساعات اليوم.

و خاصّة أنّنا إذا لاحظنا أنّ كلمة أطراف قد وردت بصيغة الجمع، فى حين أنّ لليوم طرفين لا أكثر، فسيتّضح أنّ للأطراف معنى واسعا يشمل ساعات اليوم المختلفة.

و هناك احتمال ثالث أيضا، و هو أنّه إشارة إلى الأذكار الخاصّة التى وردت فى الرّوايات الإسلامية فى هذه الساعات المخصوصة، فمثلا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية محل البحث أنّه قال: «فريضة على كلّ مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس

عشر مرّات و قبل غروبها عشر مرّات: لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، يحيى و يميت، و هو حى لا يموت، بيده الخير، و هو على كلّ شىء قدير».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۰۹

إلّا أنّ هذه التفاسير لا منافاة بينها على كلّ حال، و يمكن أن تكون الآية إشارة إلى التسبيحات و إلى الصلوات الواجبة و المستحبّة فى الليل و النهار، و بهذا فسوف لا يكون هناك تضادّ بين الرّوايات الواصلة فى هذا الباب، لأنّ الجملة فسّرت فى بعض الرّوايات بالأذكار الخاصّة، و فى بعضها بالصلاة.

و الجدير بالذكر أنّ جملة «لعلّك ترضى» فى الحقيقة نتيجة حمد اللّه و تسبيحه، و الصبر و التحمّل فى مقابل قول أولئك، لأنّ هذا الحمد و التسبيح و صلوات الليل و النهار تحكم الرابطة بين الإنسان و ربّه إلى درجة لا يفكّر فيها بأى شىء سواه، فلا يخاف من الحوادث الصعبة، و لا يخشى عدوّا باعتماده على هذا السند و العماد القوى، و بهذا سيملأ الهدوء و الاطمئنان وجوده.

و لعلّ التعبير ب (لعلّ) إشارة إلى ذلك المطلب الذى قلناه فيما مضى فى تفسير هذه الكلمة، و هو أنّ (لعلّ) عادة إشارة إلى الشروط التى تكون لازمة لتحصيل النتيجة، فمثلا- لكى تكون الصلاة و ذكر اللّه سببا لحصول الاطمئنان، يجب أن تقام مع حضور القلب و آدابها الكاملة.

ثمّ إنّ المخاطب فى هذه الآية و إن كان النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلم، إلّا أنّ القرائن تدلّ على أنّ هذا الحكم يتّصف بالعموم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۱۰

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۳۱ الى ۱۳۵]

اشارة

وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى (۱۳۱) وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (۱۳۲) وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (۱۳۳) وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى (۱۳۴) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى (۱۳۵)

التّفسير

لقد أصدرت فى هذه الآيات أوامر و توجيهات للنبى، و المراد منها و المخاطب فيها عموم المسلمين، و هى تتمّة للبحث الذى قرأناه آنفا حول الصبر و التحمّل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۱۱

فتقول أوّلا: وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ فإنّ هذه النعم المتزلزلة الزائلة ما هى إلّا زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا، تلك الأزهار التى تقطع بسرعة و تذبل و تتناثر على الأرض، و لا تبقى إلّا أيّاما معدودات.

فى الوقت الذى أمددناهم بها لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى فإنّ اللّه سبحانه وهب لك مواهب و نعما متنوّعة، فأعطاك الإيمان و الإسلام، و القرآن و الآيات الإلهيّة و الرزق الحلال الطاهر، و أخيرا نعم الآخرة الخالدة، هذه الهبات و العطايا المستمرّة الدائمة.

و تقول الآية التالية تلطيفا لنفس النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و تقوية لروحه: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لأنّ هذه الصلاة

بالنسبة لک و لأهلک أساس العفّة و الطهارة و صفاء القلب و سمو الروح و دوام ذكر اللّه.

لا شکّ أنّ ظاهر (أهلک) هنا هو أسرة النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلم بصورة عامّة، إلّا أنّ هذه السورة لمّا كانت قد نزلت فى مكّة، فإنّ مصداق الأهل فى ذلک الزمان كان (خديجة و عليا عليهما السّلام) و ربّما شملت بعضا من أقارب النّبى الآخرين، إلّا أنّ مصطلح أهل بيت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم أصبح واسع الدلالة بمرور الزمن.

ثمّ تضيف بأنّه إذا كان قد صدر الأمر لک و لأهلک بالصلاة فإنّ نفعها و بركاتها إنّما يعود كلّ ذلک عليكم، فإنّا لا نَسْئَلُکَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُکَ فإنّ هذه الصلاة لا تزيد شيئا من عظمة اللّه، بل هى رأس مال عظيم لتكامل البشر و ارتقائهم و درس تعليمى و تربوى عال، إنّ اللّه سبحانه ليس كباقى الملوک و الأمراء الذين يأخذون الضرائب من شعوبهم ليديروا بها حياتهم و حياة مقرّبيهم، فإنّ اللّه غنى عن الجميع و يحتاجه الجميع و يفتقرون إليه.

إنّ هذا التعبير فى الحقيقة يشبه ما ورد فى سورة الذاريات- الآية (۵۶- ۵۸): وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ١١٢

يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ و على هذا، فإنّ نتيجة العبادات ترجع مباشرة إلى نفس العابدين.

و تضعيف الآية فى النهاية: وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى فإنّ ما يبقى و يفيد فى نهاية الأمر هو التقوى، و المتّقون هم الفائزون فى النهاية، أمّا الذين لا تقوى لهم فهم محكومون بالهزيمة و الانكسار.

و يحتمل أيضا فى تفسير هذه الآية أنّ هدفها هو التأكيد فى مجال الروح و التقوى و الإخلاص فى العبادات، لأنّ هذا أساس العبادة، و فى الآية (۳۷) منسورة الحجّ نقرأ: لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ فليس ظاهر الأعمال و قشورها هو الذى يوصلكم إلى مقام القرب من اللّه، بل إنّ الواقع و الإخلاص و الباطن الذى فيها هو الذى يفتح الطريق إلى مقام القرب منه.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى واحدة من حجج الكفّار الواهية فقالت: وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ و اجابتهم مباشرة: أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى حيث كانوا يشكّكون و يطلبون الأعذار بصورة متلاحقة من أجل الإتيان بالمعجزات، و بعد رؤية و مشاهدة تلک المعاجز استمرّوا فى كفرهم و إنكارهم، فحاق بهم العذاب الإلهى، أ فلا يعلمون بأنّهم إذا ساروا فى نفس الطريق فسينتظرهم المصير نفسه؟

و يحتمل أيضا فى تفسير هذه الآية أنّ المراد من «البيّنة» نفس القرآن الذى يبيّن حقائق الكتب السماوية السابقة على مستوى أعلى، فالآية تقول: لماذا يطلب هؤلاء معجزة، و يتذرّعون بالأعذار الواهية؟ أليس هذا القرآن مع هذه الامتيازات الكبيرة التى تحتوى على حقائق الكتب السماوية السابقة كافيا لهؤلاء؟

و قد ذكر تفسير آخر لهذه الآية، و هو: إنّ الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلم- مع أنّه لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ١١٣

يكن قد درس و تعلّم- فقد جاء بكتاب واضح جلى ينسجم مع ما كان فى متون الكتب السماوية، و هذا بنفسه دليل على الإعجاز. إضافة إلى أنّ صفات النّبى و صفات كتابه تنطبق تماما على العلامات التى جاءت فى الكتب السماوية السابقة، و هذا دليل أحقّيّته [۷۰].

و على كلّ حال، فإنّ هؤلاء المتذرّعين ليسوا أناسا طلّاب حقّ، بل إنّهم دائما فى صدد إيجاد أعذار و تبريرات جديدة، فحتّى وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى إلّا أنّهم الآن و قد جاءهم هذا النّبى الكريم بهذا الكتاب العظيم، يقولون كلّ يوم كلاما، و يختلفون الأعذار للفرار من الحقّ.

و قالت الآية التالية: أنذر هؤلاء و قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فنحن بانتظار الوعود الإلهيّة فى حقّكم، و أنتم بانتظار أن تحيط بنا المشاكل و

المصائب فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى و بهذه الجملة الحاسمة العمیقة المعنی تنتهی المحاورة مع هؤلاء المنکرین العنودین المتذرّعین.

و خلاصة القول: فإنّ هذه السورة لمّا کانت قد نزلت فی مکّة، و کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم و المسلمون تحت ضغط شدید من قبل الأعداد، فإنّ اللّه قد واساهم و سرّی عن نفوسهم فی نهایة هذه السورة، فتارة ینهاهم عن أن تأخذهم و تبهرهم أموال المنکرین الزائلة و ثرواتهم، إذ هی للامتحان و الابتلاء و تارة یأمرهم بالصلاة و الاستقامة لتقوی قواهم المعنویة أمام کثرة الأعداء. و أخیرا یبشّر المسلمین بأنّ هؤلاء إن لم یؤمنوا فإنّ لهم مصیرا أسود مشؤوما یجب أن یکونوا فی انتظاره.

اللّهم اجعلنا من المهتدین و أصحاب الصراط المستقیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۴

اللهم ألهمنا تلک الشهامة التی لا نرهب معها کثرة الأعداء، و لا نضعف عند الحوادث الصعبة.

و اخلع عنّا أطمار العناد و اللجاجة، و وفّقنا لقبول الحقّ.

آمین ربّ العالمین نهایة سورة طه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۵

سورة الأنبیاء

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها مائة و اثنتا عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۷

سورة الأنبیاء

فضل سورة الأنبیاء:

روی عن النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلم فی فضل تلاوة هذه السورة أنّه قال صلی اللّه علیه و آله و سلم: «من قرأ سورة الأنبیاء حاسبه اللّه حسابا یسیرا، و صافحه و سلّم علیه کلّ نبی ذکر اسمه فی القرآن»[۷۱].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من قرأ سورة الأنبیاء حبّا لها کان کمن رافق النبیّین أجمعین فی جنّات النعیم، و کان مهیبا فی أعین الناس حیاة الدنیا»[۷۲].

إنّ جملة «حبّا لها» مفتاح فی الواقع لفهم معنی الرّوایات التی وصلتنا فی مجال فضل سورة القرآن، و هی تعنی أنّ الهدف لیس هو التلاوة و تلفّظ الکلمات فقط، بل عشق المحتوی، و من المسلّم أنّ عشق المحتوی بلا عمل لا معنی له، و إذا ما ادّعی شخص أنّه یعشق السورة الفلانیّة، و یخالف عمله مفاهیمها، فإنّه یکذب.

و قد قلنا مرارا: إنّ القرآن کتاب عقیدة و عمل، و القراءة مقدّمة للتفکیر و التدبّر، و هو مقدّمة للإیمان و العمل!.

محتوی السورة:

۱- إنّ هذه السورة کما تدلّ علیها تسمیتها هی سورة الأنبیاء، لأنّ اسم ستّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۱۸

عشر نبیّا قد جاء فی هذه السورة، بعضهم بذکر نماذج و صور من حالاتهم، و البعض کإشارة، و هم:

موسی- هارون- إبراهیم- لوط- إسحاق- یعقوب- نوح- داود- سلیمان- أیّوب- إسماعیل- إدریس- ذو الکفل- ذو النون (یونس)- زکریا- یحیی علیهم السّلام، و بناء علی هذا فإنّ عمدة البحوث المهمّة فی هذه السورة تدور حول مناهج الأنبیاء.

و إضافة إلی هؤلاء الأنبیاء، فإنّ هناک أنبیاء آخرین لم تذکر أسماؤهم صریحا فی هذه السورة، لکن قد ورد الکلام حولهم، کرسول اللّه محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلم و المسیح عیسی بن مریم علیهما السّلام.

۲- إضافة إلی ما مرّ، فإنّ خاصیة السورة المکیّة التی تتحدّث عن العقائد الدینیّة، و بالأخصّ المبدأ و المعاد، منعکسة تماما فی هذه السورة.

۳- بحثت هذه السورة کذلک عن توحید الخالق، و أنّه لا خالق و لا معبود سواه، و کذلک عن خلق العالم علی أساس الهدف و التخطیط، و وحدة القوانین الحاکمة علی هذا العالم، و کذلک وحدة مصدر و منبع الحیاة و الوجود، و کذلک اشتراک الموجودات فی مسألة الفناء و الموت.

۴- و تحدث جانب آخر من هذه السورة عن انتصار الحقّ علی الباطل، و التوحید علی الشرک، و جنود الحقّ علی جنود إبلیس.

۵- و الذی یلفت النظر هنا أنّ هذه السورة تبتدئ بتهدید الناس الغافلین الجاهلین بالحساب الشدید، و تنتهی بتهدیدات أخری فی هذا المجال أیضا.

إنّ الأنبیاء الذین وردت أسماؤهم فی هذه السورة، ذکر تفصیل حیاة و نشاطات بعضهم فی سورة أخری، إلّا أنّ التأکید فی هذه السورة کان أغلبه علی أنّ هؤلاء العظام عند ما کانوا یبتلون بالضائقات و المواقف الصعبة، کانوا یمدّون ید التوسّل و الاستعانة نحو لطف اللّه و عونه، و کیف أنّ اللّه سبحانه کان یفتح أمامهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۱۹

الطرق المغلقة، و ینجّیهم من الدوامات و تلاطم أمواج البلایا.

فإبراهیم حین ابتلی بنار نمرود.

و یونس حینما حلّ فی بطن الحوت.

و زکریا عند ما رأی أنّ شمس عمره قد أوشکت علی الغروب و لا خلیفة له یکمل مسیره.

کما أنّها تتکلّم علی سائر الأنبیاء عند وقوعهم فی المشاکل الصعبة العسیرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۲۰

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (۱) ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ یَلْعَبُونَ (۲) لاهِیَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَی الَّذِینَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۳) قالَ رَبِّی یَعْلَمُ الْقَوْلَ فِی السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۴)

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْیَأْتِنا بِآیَةٍ کَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (۵)

التّفسير

أعذار متنوّعة:

تبدأ هذه السورة- كما أشرنا- بتحذير قوى شديد موجّه لعموم الناس، تحذير يهزّ الوجدان و يوقظ الغافلين، فتقول: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۲۱

مُعْرِضُونَ

إنّ عمل هؤلاء يدلّ على أنّ هذه الغفلة عمّت كلّ وجودهم، و إلّا فكيف يمكن للإنسان أن يؤمن باقتراب الحساب .. الحساب الدقيق المتناهی فی الدقّة، و مع كلّ ذلک لا يكترث بالأمور و يرتكب أنواع الذنوب!! كلمة (اقترب) لها دلالة على التأكيد أكثر من (قرب) و هی إشارة إلى أنّ هذا الحساب قد أصبح قريبا جدّا.

و التعبير ب (الناس) و إن كان يشمل عموم الناس ظاهرا، و هو يدلّ على أنّ الجميع فی غفلة، إلّا أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ الذين لهم قلوب واعية يقظة على الدوام، و يفكّرون بالحساب و يعملون له فهم مستثنون من هذا العموم.

و الجميل فی الأمر أنّه يقول: اقترب الحساب للناس، لا أنّ الناس اقتربوا للحساب، فكأنّ الحساب يسرع لاستقبال الناس.

ثمّ إنّ الفرق بين «الغفلة» و «الإعراض» يمكن أن يكون من جهة أنّ هؤلاء غافلون عن اقتراب الحساب، و هذه الغفلة هی تسبّب الإعراض عن آيات اللّه سبحانه، ف «الغفلة عن الحساب» علّة فی الحقيقة، و «الإعراض عن الحقّ» معلول لتلک العلّة. أو أنّ المراد هو الإعراض عن نفس الحساب، و عن الاستعداد للإجابة فی تلک المحكمة الكبرى، أی إنّهم لمّا كانوا غافلين، فإنّهم لا يهيّؤون أنفسهم لذلک و يعرضون عنه.

و هنا يأتی سؤال، و هو: ما معنى اقتراب الحساب و القيامة؟

لقد قال البعض: إنّ المراد منه هو أنّ ما بقی من الدنيا قليل فی مقابل ما مضى منها، و لهذا فإنّ القيامة ستكون قريبة- قربا نسبيّا- خاصة و أنّه

قد روی عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال: «بعثت أنا و الساعة كهاتين»[۷۳]

و أشار إلى السبابة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۲۲

و الوسطى اللتين تقع إحداهما إلى جنب الأخرى.

و قال البعض الآخر: إنّ هذا التعبير لكون القيامة موجودة، كما نرى ذلک فی المثل السائر كلّ ما هو آت قريب.

و لا منافاة بين هذين التّفسيرين و يمكن أن تكون الآية إشارة إلى كلا الأمرين.

و احتمل بعض المفسّرين- كالقرطبی- أن يكون الحساب هنا إشارة إلى «القيامة الصغرى»، أی الموت، لأنّ جزءا من المحاسبة و جزاء الأعمال يصل إلى الإنسان حين الموت ۷۴] إلّا أنّ ظاهر الآية ناظر إلى القيامة الكبرى.

ثمّ تبيّن الآية التالية علامة من علامات إعراض هؤلاء بهذه الصورة: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ فلم يتّفق لهم أن يتدبّروا ساعة فی كلام اللّه المجيد، و يتأمّلوا فی آياته بجدّية، و يحتملوا- على الأقل- أن تكون مؤثّرة فی حياتهم و عاقبة أمرهم و مصيرهم. فهم لا يفكّرون فی الحساب الإلهی، و لا فی تحذيرات اللّه سبحانه.

و أساسا فإنّ أحد أسباب شقاء الجهلة و المتكبرين هو اتّخاذهم النصائح و مواعظ الأخيار لهوا و لعبا دائما، و هذا هو السبب فی عدم

تنبّههم من غفلتهم، فى حين أنّهم لو تعاملوا بصورة جديّة مع تلك النصائح و لو مرّة واحدة، فربّما تغيّر مسير حياتهم فى تلك اللحظة!

كلمة «ذكر» فى الآية إشارة إلى كلّ كلام منبّه يوقظ الغافلين، و التعبير ب (محدث) إشارة إلى أنّ الكتب السماوية كانت تنزل الواحد تلو الآخر، و تحتوى كلّ سورة من سور القرآن، و كلّ آية من آياته محتوى جديدا ينفذ إلى قلوب الغافلين بطرق مختلفة، لكن أى فائدة مع من يتّخذ كلّ ذلك هزوا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۳

و أساسا، فإنّ هؤلاء يفرقون من كلّ جديد، و يتمسكّون و يفرحون لكلّ الخرافات القديمة التى ورثوها من الآباء و الأجداد، و كأنّهم قد تعاهدوا عهدا دائما على أن يخالفوا كلّ حقيقة جديدة، مع أنّ أساس تكامل الإنسان مبتن على أن يواجه الإنسان كلّ يوم مسائل جديدة.

ثمّ تقول من أجل زيادة التأكيد: لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ لأنّهم فى الظاهر يتّخذون كلّ المسائل الجديّة لهوا و لعبا- كما تشير جملة «يلعبون» إلى ذلك، حيث وردت بصيغة فعل مضارع مطلق- و هم فى الباطن مشغولون باللهو و المسائل التى لا قيمة لها، و التى تجعلهم فى غفلة عن الواقع. و من الطبيعى أنّ مثل هؤلاء الأشخاص سوف لا يجدون طريق السعادة، و لا يوفّقون إليه.

ثمّ تشير إلى جانب من الخطط الشيطانيّة فتقول: وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هـذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ۷۵] و إذا لم يكن سوى بشر اعتيادى، فلا بدّ أن تكون أعماله الخارقة و نفوذ كلامه سحرا، و لا يمكن أن يكون شيئا آخر: أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

قلنا: إنّ هذه السورة نزلت فى مكّة، و فى تلك الأيّام التىّ كان فيها أعداء الإسلام فى غاية القوّة و المنعة، فأى داع يدعوهم لإخفاء كلامهم، بل و حتّى نجواهم؟ (و ينبغى الالتفات إلى أنّ القرآن يقول إنّهم كانوا يخفون حتّى مناجاتهم).

قد يكون ذلك من أجل أنّ هؤلاء كانوا يتشاورون فى المسائل التى تتّصف بالتخطيط و التآمر، حتّى يظهروا أمام عامّة الناس موقفا واحدا ضدّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم.

إضافة إلى أنّ هؤلاء كانوا من ناحية القوّة متفوّقين حتما، إلّا أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و المسلمين كانوا من ناحية المنطق و القوّة و نفوذ الكلام أكثر تفوّقا، و هذا التفوّق هو الذى دفع هؤلاء إلى أن يتشاوروا فى الخفاء لانتخاب الأجوبة المصطنعة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۴

مقابل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء قد أكّدوا على مسألتين فى أقوالهم: إحداهما: كون النّبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلم بشرا، و الأخرى: تهمة السحر، و ستأتى الاتّهامات الاخرى فى الآيات التالية أيضا، و يتصدّى القرآن الكريم لجوابها.

إلّا أنّ القرآن يجيبهم بصورة عامّه على لسان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فيقول: قالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّماءِ وَ الْأَرْضِ فلا تتصوّروا أنّ نجواكم و مؤامراتكم المخفيّة تخفى عليه وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فهو يعلم كلّ شىء، و مطّلع على كلّ شىء، فلا يسمع كلامكم و حسب، بل هو مطّلع حتى على الأفكار التّى تمرّ فى أذهانكم، و القرارات التى فى صدوركم.

بعد ذكر نوعين من تذرّعات المخالفين، يتطرّق القرآن إلى ذكر أربعة أنواع أخرى منها، فيقول: بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ۷۶] و هم يعتقدون أنّها حقيقة.

و قد يغيّرون كلامهم هذا أحيانا فيقولون: بَلِ افْتَراهُ و نسبه إلى اللّه.

و يقولون أحيانا: بَلْ هُوَ شاعِرٌ، و هذه الآيات مجموعة من خيالاته الشعرية.

و فى المرحلة الرّابعة يقولون: إنّا نتجاوز عن كلّ ذلك فإذا كان مرسلا من اللّه حقّا فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ

إنّ التحقيق فى هذه الادّعاءات المتضادّة المتناقضة فى حقّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم سيوضّح أنّها بنفسها دليل على أنّهم لم يكونوا طلّاب حقّ، بل كان هدفهم خلق الأعذار، و إخراج خصمهم من الحلبة بأيّة قيمة و ثمن، و بأى صورة كانت.

فهم يعتبرونه ساحرا تارة، و أخرى شاعرا، و ثالثة مفتريا، و أخرى إنسانا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۵

يختلط الأمر عليه و يهجر- و العياذ باللّه- فهو يحسب مناماته المضطربة وحيا! و يقولون حينا: لماذا أنت بشر؟ و يتذرّعون أحيانا بطلب معجزة جديدة مع كلّ تلك المعاجز.

إذا لم يكن لدينا دليل على بطلان كلامهم إلّا هذا الاضطراب و التمزّق، فإنّه كاف لوحده، و لكنّنا سنرى فى الآيات التالية أنّ القرآن سيجيبهم جوابا حاسما من طرق أخرى أيضا.

ملاحظة:

هل القرآن محدث؟

لقد أورد جمع من المفسّرين فى ذيل الآيات- لوجود كلمة (محدث) فى الآية الثّانية من الآيات محلّ البحث- بحوثا جمّة حول كون كلام اللّه حادثا أم قديما؟ و هى نفس المسألة التى أثيرت فى زمن خلفاء بنى العبّاس و صارت مثارا للجدل لسنين طويلة، و كانت قد لفتت انتباه و أفكار جماعة من العلماء.

إلّا أنّنا نعلم اليوم جيدا أنّ معظم هذا الموضوع كان يراد منه الإشغال السياسى ليهتمّ به علماء الإسلام، و ينصرفوا عن المسائل الضروريّة و الأساسيّة التى تتعلّق بشؤون الحكومة و كيفيّة حياة الناس، و حقائق الإسلام الأصيلة.

و اليوم اتّضح لنا تماما أنّ المراد من كلام اللّه محتواه و مضمونه، و هو قديم قطعا، أى إنّه كان دائما فى علم اللّه، و إنّ علم اللّه الواسع كان محيطا بالقرآن على الدوام. و إذا كان المراد منه هذه الألفاظ و الكلمات، و هذا الوحى الذى نزل على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فلا شكّ فى أنّه حادث.

أى عاقل يقول: إنّ ألفاظ القرآن و كلماته أزليّة؟ أو أنّ نزول الوحى على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم لم يكن من بداية أمر الرسالة؟ و بناء على هذا فأنتم تلاحظون بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۶

المسألة واضحة وضوح الشمس فى جميع أبعادها.

و بتعبير آخر فإنّ القرآن يحتوى على ألفاظ و معان: فألفاظه حادثة قطعا، و معانية قديمة قطعا، و على هذا فلا مجال للبحث و المناقشة.

ثمّ إنّ أىّ مشكلة علميّة و اجتماعية و سياسيّة و أخلاقية فى المجتمع الإسلامى يحلّها هذا البحث آنذاك؟ و لماذا خدع بعض العلماء السابقين بأساليب الحكّام المكرة المتآمرين الخداعة؟

و لهذا نرى أنّ بعض أئمّة أهل البيت عليهم السّلام بعد بيان هذه المسألة، قد حذّروا هؤلاء من هذه البحوث، و دعوهم إلى الابتعاد و الامتناع عنها[۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۷

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۶ الى ۱۰]

اشارة

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (۶) وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۷)

وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا یَأْکُلُونَ الطَّعامَ وَ ما کانُوا خالِدِینَ (۸) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَیْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَکْنَا الْمُسْرِفِینَ (۹) لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ کِتاباً فِیهِ ذِکْرُکُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۰)

التّفسیر

کلّ الأنبیاء کانوا بشرا:

قلنا: إنّ ستّهٔ إشکالات و إیرادات قد أعید ذکرها فی الآیات السابقهٔ، و هذه الآیات التی نبحثها تجیب عنها، تارهٔ بصورهٔ عامّهٔ جامعهٔ، و أخری تجیب عن بعضها بالخصوص.

أشارت الآیهٔ الأولی إلی المعجزات المقترحهٔ لأولئک، و نقصد منها:

المعجزات المقترحهٔ حسب أهوائهم تذرّعا، فنقول: إنّ جمیع المدن و القری التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۸

أهلکناها سابقا کانت قد طلبت مثل هذه المعاجز، و لکن لمّا استجیب طلبهم کذّبوا بها، فهل یؤمن هؤلاء؟: ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْیَةٍ أَهْلَکْناها أَ فَهُمْ یُؤْمِنُونَ و هی تنذرهم بصورهٔ ضمنیّهٔ بأنّ الآیات لو تحقّقت علی ما اقترحتم ثمّ لم تؤمنوا، فإنّ فناءکم حتمی! و یحتمل أیضا فی تفسیر هذه الآیهٔ أنّ القرآن یشیر- فی هذه الآیهٔ- إلی کلّ إشکالات هؤلاء المتناقضهٔ و یقول: إنّ هذا التعامل مع دعوهٔ الأنبیاء الحقیقیین لیس جدیدا، فإنّ الأفراد العنودین کانوا یتوسّلون دائما بهذه الأسالیب، و لم تکن عاقبهٔ عملهم و أمرهم إلّا الکفر، ثمّ الهلاک و العذاب الألیم.

ثمّ تطرّقت الآیهٔ التالیهٔ إلی جواب الإشکال الأوّل- خاصهٔ- حول کون النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم بشرا، فتقول: إنّک لست الوحید فی کونک نبیّا، و فی نفس الوقت أنت بشر وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَکَ إِلَّا رِجالًا نُوحِی إِلَیْهِمْ فإنّ هذه حقیقهٔ تاریخیّهٔ یعرفها الجمیع فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

من هم أهل الذکر؟

لا شکّ أنّ أَهْلَ الذِّکْرِ تشمل من الناحیهٔ اللغویهٔ کلّ العلماء و المطّلعین، و الآیهٔ أعلاه تبیّن قانونا عقلائیّا عامّا فی مسألهٔ (رجوع الجاهل إلی العالم) فإنّ مورد و مصداق الآیهٔ و إن کان علماء أهل الکتاب، إلّا أنّ هذا لا یمنع من عمومیهٔ القانون. و لهذه العلّهٔ استدلّ علماء و فقهاء الإسلام بهذه الآیهٔ فی مسألهٔ «جواز تقلید المجتهدین المسلمین».

و إذا رأینا فی بعض الرّوایات التی وصلتنا عن أهل البیت علیهم السّلام بأنّ أَهْلَ الذِّکْرِ قد فسّرت بعلی علیه السّلام أو سائر الأئمّهٔ علیهم السّلام، فلا یعنی ذلک الحصر، بل هو بیان لأوضح مصادیق هذا القانون الکلّی. و لزیادهٔ الإیضاح حول هذا الموضوع، اقرأ تفسیر الآیهٔ (۴۳) من سورهٔ النحل من هذا الکتاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۹

ثمّ تعطی الآیهٔ التالیهٔ توضیحا أکثر حول کون الأنبیاء بشرا، فتقول: وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا یَأْکُلُونَ الطَّعامَ وَ ما کانُوا خالِدِینَ و جملهٔ لا یَأْکُلُونَ الطَّعامَ إشارهٔ إلی ما جاء فی موضع آخر من القرآن فی نفس هذا الموضوع: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْواقِ [۷۸].

و جملـة ما كانُوا خالِدِينَ أيضا تكملة لنفس هذا المعنى، لأنّ المشـركين كانوا يقولون: كان من الأفضل أن يرسل ملك مكان البشـر، ملـك له الخلود، و لاـ تمتـدّ إليه يـد الموت! فأجـابهم القرآن بـأنّ أيّا من الأنبياء السابقين لم يكتب له الخلود حتّى يكتب لرسول اللّه (محمّد) الخلود و «البقاء فى هذه الدنيا».

على كـلّ حـال، فلاـ شـكّ- كمـا قلنـا ذلك مرارا- فى أنّه يجب أن يكون قائـد البشـر و مرشـدهم من جنسـهم، بنفس تلك الغرائز و العواطف و الأحاسيس و الحاجـات و العلاقـات حتّى يحسّ بآلامهم و عـذابهم، و لينتخب أفضل طرق العلاج باسـتلهامه من معلوماته ليكون قدوة و أسوة لكلّ البشر، و يقيم الحجّة على الجميع.

ثمّ تحذّر الآية و تهدّد المنكرين المتعصّبين العنودين، فتقول: إنّا كنا قد وعدنا رسلنا بل ننقذهم من قبضة الأعداء، و نبطل كيد أولئك الأشرار ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ

أجل، فكما أنّ سـنّتنا كانت إختيار قادة البشر من بين أفراد البشـر، كذلك كانت سنّتنا أن نحميهم من مكائد المخالفين، و إذا لم تؤثّر المواعظ و النصائح المتلاحقة أثرها فى المخالفين، فإنّنا سنطهّر الأرض من وجودهم القذر.

و من المعلوم أنّ المراد من «و من نشـاء»: الإرادة التى تـدور حول معيار الإيمان و العمل الصالـح، كما أنّ من الواضـح أيضا أنّ المراد من «المسرفين» هنا هم الذين أسرفوا فى حقّ أنفسهم و مجتمعهم الذى يعيشون فيه عن طريق إنكار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۳۰

الآيات الإلهيّة و تكذيب الأنبياء، و لهذا نرى القرآن فى موضع آخر يقول: كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ۷۹].

أمّا آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب- مرّة أخرى- فى جملة قصـيرة عميقة المعنى عن أكثر إشـكالات المشركين، فتقول: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ فإنّ كلّ من يتـدبّر آيات هذا الكتاب الذى هو أساس التذكّر و حياة القلب، و حركة الفكر، و طهـارة المجتمع، سيعلم جيـدا أنّه معجزة واضـحة و خالـدة، و مع وجود هـذه المعجزة البيّنـة التى تظهر فيها آثار الإعجاز من جهات مختلفـة ... من جهـة الجاذبيّـة الخارقـة، و من جهة المحتوى، الأحكام و القوانين، العقائد و المعارف، و و .. فهل لا زلتم بانتظار معجزة أخرى؟ أى معجزة تقدر أن تثبت أحقّية دعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم أحسن من هذه المعجزة؟

و فضلا عمّا مرّ، فإنّ آيات هذا الكتاب تصرخ بأنّها ليست سحرا، بل هى حقائق و تعليمات غنيّة المحتوى و جذّابة، أ تقولون بعد ذلك أنّها سحر؟

هـل يمكن أن توصف هـذه الآيـات بأنّهـا أضـغاث أحلاـم؟ فـأين هى الأحلاـم المضـطربة التى لا معنى لها من هـذا الكلام المنسـجم الموزون؟ و أين الثرى من الثريّا؟

هل يمكن أن تعتبر تلك الآيات كذبا و افتراء مع أنّ آثار الصدق بادية فى كلّ مكان منها؟

أم أنّ من جـاء بها كان شاعرا، فى حين أنّ الشـعر يـدور حول محور الخيال، و آيات هـذا الكتاب تـدور كلّها حول محور الواقعيّات و الحقائق؟

و بكلمـة قصـيرة، إنّ الدقّـة و البحث فى هـذا الكتاب يثبت أنّ هـذه الادّعاءات متضادّة متناقضة غير منسـجمة، و هى كلام المغرضـين الجهلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۳۱

و اختلف المفسّرون فى معنى كلمة «ذكركم» فى الآية آنفة الذكر، و ذكروا لها تفاسير مختلفة.

فـذهب بعضـهم: إنّ المراد هـو أنّ آيـات القرآن منبع الـوعى و التـذكّر بين أفراد المجتمع، كمـا يقول القرآن فى موضع آخر: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ[۸۰].

و قـال آخرون: إنّ المراد أنّ هـذا القرآن سـيرفع اسـمكم و مكـانتكم فى الـدنيا، أى إنّـه أسـاس عزّكـم و شـرفكم أيّهـا المؤمنـون و

المسلمون، أو أنتم أیّها العرب الذین نزل القرآن بلسانکم، و إذا أخذ منکم فسوف لا یکون لکم اسم و لا رسم فی العالم.

و البعض الآخر قالوا: إنّ المقصود هو أنّه قد ذکر فی هذا القرآن کلّ ما تحتاجون إلیه فی أمور الدین و الدنیا، أو فی مجال مکارم الأخلاق.

و بالرغم من أنّ هذه التفاسیر لا ینافی بعضها بعضا، و یمکن أن تکون مجتمعهٔ فی تعبیر «ذکرکم»، إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یبدو هو الأظهر.

فإن قیل: کیف یکون هذا القرآن أساس الوعی و الیقظهٔ، فی حین أنّ کثیرا من المشرکین قد سمعوه فلم ینتبهوا؟

قلنا: إنّ کون القرآن موقظا و منبّها لا یعنی إجباره الناس علی هذا الوعی، بل إنّ الوعی مشروط بأن یرید الإنسان و یصمّم، و أن یفتح نوافذ قلبه أمام القرآن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۲

الآیات [سورهٔ الأنبیاء (۲۱): الآیات ۱۱ الی ۱۵]

اشارهٔ

وَ کَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْیَهٍٔ کانَتْ ظالِمَهًٔ وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِینَ (۱۱) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها یَرْکُضُونَ (۱۲) لا تَرْکُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلی ما أُتْرِفْتُمْ فِیهِ وَ مَساکِنِکُمْ لَعَلَّکُمْ تُسْئَلُونَ (۱۳) قالُوا یا وَیْلَنا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ (۱۴) فَما زالَتْ تِلْکَ دَعْواهُمْ حَتَّی جَعَلْناهُمْ حَصِیداً خامِدِینَ (۱۵)

التّفسیر

کیف وقع الظّالمون فی قبضهٔ العذاب؟

تبیّن هذه الآیات مصیر المشرکین و الکافرین مع مقارنته بمصیر الأقوام الماضین، و ذلک بعد البحث الذی مرّ حول هؤلاء. فتقول الآیهٔ الاولی: وَ کَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْیَهٍٔ کانَتْ ظالِمَهًٔ وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِینَ

فمع ملاحظهٔ أنّ «القسم» یعنی الکسر المقترن بالشدّهٔ، بل ورد أحیانا بمعنی التفتیت و التقطیع، و مع ملاحظهٔ التأکید علی ظلم هذه الأقوام و جورها، فإنّها توحی بأنّ اللّه سبحانه قد أعدّ أشدّ العقاب و الانتقام للأقوام الظالمین الجائرین.

و تشیر الآیهٔ ضمنا إلی أنّکم إذا درستم تاریخ السابقین و بحثتم فیه فستعلمون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۳

بأنّ تهدیدات نبی الإسلام لم تکن مزاحا أو اعتباطا، بل هی حقیقهٔ مرّهٔ یجب أن تفکّروا فیها.

عند ذلک توضّح الآیهٔ حال هؤلاء عند ما تتّسع دائرهٔ العذاب لتشمل دیارهم العامرهٔ، و عجزهم أمام العقاب الإلهی، فتقول: فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها یَرْکُضُونَ ۸۱] تماما کفلول جیش منهزم یرون سیوف العدو مسلولهٔ وراءهم فیتفرقّون فی کلّ جانب.

إلّا أنّه یقال لهؤلاء من باب التوبیخ و التقریع: لا تَرْکُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلی ما أُتْرِفْتُمْ فِیهِ وَ مَساکِنِکُمْ لَعَلَّکُمْ تُسْئَلُونَ

إنّ هذه العبارهٔ قد تکون إشارهٔ إلی أنّ هؤلاء حینما کانوا غارقین فی تلک النعمهٔ الوفیرهٔ، کان السائلون و طالبو الحاجات یتردّدون دائما إلی أبوابهم، یأتون و الأمل یقدمهم، و یرجعون بالخیبهٔ و الحرمان، فالآیهٔ تقول لهم: ارجعوا و أعیدوا ذلک المشهد اللعین. و هذا فی الحقیقهٔ نوع من الاستهزاء و الملامهٔ.

و احتمل بعض المفسّرین أن تکون جملة لَعَلَّکُمْ تُسْئَلُونَ إشارة إلی قدرة و ثروة هؤلاء فی الدنیا، حیث کانوا یجلسون فی زاویة و علائم الابّهة و الکبریاء بادیة علیهم، و کان الخدم یأتون إلیهم و یحضرون عندهم بصورة متوالیة و یسألون إن کان لدیهم أمر أو عمل یقومون به.

أمّا من هو قائل هذا الکلام؟ فلم تصرّح الآیة به، فمن الممکن أن یکون نداء بواسطة ملائکة اللّه، أو أنبیائه و رسله، أو نداء صادر من داخل ضمیرهم الخفی و وجدانهم.

فی الحقیقة إنّه نداء إلهی یقول لهؤلاء: لا تفرّوا و ارجعوا، و کان یصل إلیهم بإحدی هذه الطرق الثلاث.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۴

و الجمیل هنا أنّه قد رکّز علی المسکن خاصّة من بین کلّ النعم المادیّة، و ربّما کان ذلک بسبب أنّ أوّل وسائل استقرار الإنسان هو وجود سکن مناسب. أو أنّ الإنسان یصرف أکثر مورد حیاته فی بیته، و کذلک فإنّ أشدّ تعلّقه إنّما یکون بمسکنه.

علی کلّ حال، فإنّ هؤلاء یعون فی هذا الوقت حقیقة الأمر، و یرون ما کانوا یظنّونه مزاحا من قبل قد تجلّی أمامهم بصورة جدیّة تماما، فتعلو صرختهم:

قالُوا یا وَیْلَنا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ

إلّا أنّ هذا الوعی الاضطراری للإنسان عند ما یواجه مشاهد العذاب لا قیمة له، و لا یؤثّر فی تغییر مصیر هؤلاء، و لذلک فإنّ القرآن فی آخر آیة من الآیات محلّ البحث یضیف: فَما زالَتْ تِلْکَ دَعْواهُمْ حَتَّی جَعَلْناهُمْ حَصِیداً فیلقونهم علی الأرض کالزرع المحصود، و تبدّل مدینتهم التی غمرتها الحیاة و الحرکة و العمران إلی قبور مهدّمة مظلمة، فیصبحوا خامِدِینَ ۸۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۵

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۱۶ الی ۱۸]

اشارة

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما لاعِبِینَ (۱۶) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ کُنَّا فاعِلِینَ (۱۷) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْباطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَکُمُ الْوَیْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (۱۸)

التّفسیر

خلق السّماء و الأرض لیس لهوا:

لمّا کانت الآیات السابقة قد عکست هذه الحقیقة و هی: إنّ الظالمین الذین لا إیمان لهم لا یعتقدون بوجود هدف و غایة من خلقهم إلّا الأکل و الشرب و الملذّات، و یظنّون أنّ العالم بلا هدف، القرآن الکریم یقول فی الآیات التی نبحثها من أجل إبطال هذا النوع من التفکیر، و إثبات وجود هدف عال و سام من وراء خلق کلّ العالم، و خاصّة البشر: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما لاعِبِینَ

إنّ هذه الأرض الواسعة، و هذه السّماء المترامیة الأطراف، و کلّ هذه الموجودات المتنوعة البدیعة التی توجد فی ساحتها تبیّن أنّ هدفا مهمّا فی خلقها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۶

... نعم، إنّ الهدف هو بیان قدرة الخالق الجلیل، و إبراز جانب من عظمته من جهة، و من جهة أخری لیکون دلیلا علی المعاد، و إلّا

فإنّ كلّ هذه الضجّة و الغوغاء إن كانت لبضعة أيّام فلا معنى لها.

هل يمكن أن يبنى الإنسان قصرا فى وسط صحراء، و يجهّزه بكلّ الوسائل، و ذلك من أجل أن يستريح فيه ساعة واحدة- طول عمره- عند مروره عليه؟

بعبارة موجزة: إذا نظرنا إلى هذا العالم العظيم من منظار الكفّار، فسنراه لا فائدة فيه و لا هدف منه، و الإيمان بالمبدأ و المعاد هو الذى يجعل له معنى و غاية.

ثمّ تقول الآية التالية: الآن و قد ثبت أنّ العالم له هدف فإنّه لا ريب فى أنّ الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو اللّه سبحانه و تعالى عن ذلك، فإنّ هذا اللهو غير معقول، ف لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ

«اللعب» يعنى العمل الغير هادف، و «اللهو» إشارة إلى الأهداف غير المعقولة و الملاهى.

هذه الآية تبيّن حقيقتين:

الأولى: أنّه بملاحظة كلمة (لو)، و هى فى لغة العرب للامتناع، فهى تشير إلى أنّ من المحال أن يكون هدف اللّه هو اللهو.

و الأخرى: إنّه على فرض أنّ الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهوا مناسبا لذاته، كأن يكون من عالم المجردات و أمثال ذلك، لا من عالم المادّة المحدود[۸۳].

ثمّ تقول بلهجة قاطعة من أجل إبطال أوهام الجاهلين الذين يظنّون عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۷

هدفيّة الدنيا، بل هى للهو و اللعب فقط: إنّ هذا العالم مجموعة من الحقّ و الواقع، و لم يقم أساسه على الباطل بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ

و تقول فى النهاية: وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ و تتحدّثون عن عدم هدفية الخلق.

أى إنّنا نجعل الأدلّة العقليّة و الاستدلالات الواضحة و المعجزات البيّنة إلى جانب ظنون و أوهام اللاهدفيين، لتتبخّر و تتلاشى هذه الأوهام فى نظر العلماء و أصحاب الفكر و الرأى.

إنّ أدلّة معرفة اللّه واضحة، و أدلّة وجود المعاد بيّنة، و براهين أحقيّة الأنبياء جليّة، و الحقّ يمكن تمييزه عن الباطل تماما إذا لم يكن الشخص من المعاندين.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ جملة «نقذف» من مادّة (قذف) بمعنى الإلقاء، و خاصّية الإلقاء من طريق بعيد، و لمّا كان للقذف من بعيد سرعة و قوّة أكثر، فإنّ هذا التعبير يبيّن قدرة انتصار الحقّ على الباطل. و كلمة «على» أيضا مؤيّدة لهذا المعنى.

و جملة «يدمغه» على قول الراغب كسر «الجمجمة و الدماغ»، و تعتبر أكثر نقطة فى بدن الإنسان حسّاسيّة، و هو تعبير بليغ عن غلبة جند الحقّ غلبة واضحة قاطعة.

و التعبير ب (إذا) توحى بأنّا حتّى فى الموارد التى لا ينتظر و لا يتوقّع انتصار الحقّ فيها، فإنّنا سنجرى هذه السنّة. و التعبير ب «زاهق» و الذى يعنى الشيء المضمحل، تأكيد على هذا المقصود.

و أمّا أنّ جملتى (نقذف) و (يدمغ) قد جاء تا بصيغة الفعل المضارع، فهو دليل على استمرار هذه السنّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۸

بحث

الهدف من الخلق:

فی الوقت الذی لا یعترف المادّیون بهدف للخلق، لأنّهم یعتقدون أنّ الطبیعة الفاقدة للعقل و الشعور و الهدف هی التی ابتدأت الخلق، و لهذا فإنّهم یؤیّدون اللغویة و عدم الفائدة فی مجموعة الوجود، فإنّ الفلاسفة الإلهیین و إتباع الأدیان جمیعا یعتقدون بوجود هدف سام للمخلوقات، لأنّ المبدئ للخلق قادر و حکیم و عالم، فمن المستحیل أن یقوم بعمل لا فائدة فیه.

و هنا ینقدح هذا السؤال: ما هو الهدف؟

قد نتوهّم أحیانا نتیجة قیاس اللّه سبحانه علی ذواتنا و أنفسنا و نتساءل: هل کان اللّه محتاجا و ینقصه شیء، و کان یرید بخلق الوجود، و من جملته الإنسان، أن یسدّ ذلک النقص و یرفع تلک الحاجة؟

هل هو محتاج لعبادتنا و دعائنا و مناجاتنا؟ هل کان یرید أن یعرف فخلق الخلق لیعرف؟

إلّا أنّ هذا کما قلنا خطأ کبیر ناشئ من المقارنة بین اللّه و خلقه، فی حین أنّ هذه المقارنة و القیاس غیر الصحیح هو أکبر سدّ و مانع فی بحث معرفة صفات اللّه، و لذلک فإنّ أوّل أصل فی هذا البحث هو أن نعلم أنّ اللّه سبحانه لا یشبهنا فی أی شیء.

فالإنسان موجود محدود من کلّ النواحی، و لذلک فإنّ کلّ مساعینا هی من أجل رفع نواقصنا و احتیاجاتنا، ندرس لنتعلّم فنمحو نقص جهلنا، و نسعی للعمل و الکسب لدفع الفقر و نکسب الثروة، نهیّئ الجیوش و القوی لنسدّ النقص فی قوانا أمام العدوّ، و حتّی فی الأمور المعنویة أو تهذیب النفس أو التکامل المعنوی و الروحی، فإنّ السعی و الجدّ فی کلّ ذلک من أجل رفع النواقص ...

و لکن، هل من المعقول أن یقوم الوجود المطلق غیر المتناهی فی کلّ الجهات

(فعلمه و قدرته و قوّته غیر محدودة، و لا یعانی أی نقص فی الوجود) بعمل لرفع حاجته؟

یتّضح من هذا التحلیل أنّ الخلق لیس عبثا من جهة، و من جهة أخری فإنّ الهدف من الخلق لا یعود إلی الخالق. و هنا یمکن أن نصل ببساطة إلی نتیجة، و هی: أنّ الهدف، حتما و بلا شکّ، أمر یرتبط بنا.

و مع ملاحظة هذه المقدّمة یمکن التوصّل إلی أنّ هدف الخلقة هو تکاملنا و ارتقاؤنا و لا شیء سواه.

و بتعبیر آخر فإنّ عالم الوجود بمثابة مدرسة لتکاملنا فی مجال العلم.

و دار حضانة لتربیة و تهذیب نفوسنا.

و متجر لکسب الموارد المعنویة، و أرض زراعیة غنیّة صالحة لإنتاج أنواع المحصولات الإنسانیة.

أجل

«الدنیا مزرعة الآخرة ... الدنیا دار صدق لمن صدقها، و دار غنی لمن تزوّد منها، و دار موعظة لمن اتّعظ بها»[۸۴].

إنّ هذه القافلة قد تحرکت من عالم العدم، و هی تسیر دائما إلی ما لا نهایة له.

و یشیر القرآن المجید إشارات قصیرة عمیقة المعنی جدّا فی آیات مختلفة إلی وجود هدف معیّن من الخلق من جهة، و من جهة أخری فإنّه یشخّص هذا الهدف و یوضّحه.

فیقول فی الجانب الأوّل: أَ یَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ یُتْرَکَ سُدیً ۸۵].

أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناکُمْ عَبَثاً وَ أَنَّکُمْ إِلَیْنا لا تُرْجَعُونَ ۸۶].

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما باطِلًا ذلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا[۸۷].

و فی الجانب الآخر، فإنّه جعل هدف الخلق فی بعض الآیات عبودیة اللّه و عبادته: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ ۸۸]، و من البدیهی أنّ العبادة منهج لتربیة الإنسان فی الأبعاد المختلفة ... العبادة بمعناها الشمولی التی هی التسلیم لأمر اللّه ستهب روح الإنسان تکاملا فی الأبعاد المختلفة، و قد بیّنا تفصیله فی ذیل الآیات المرتبطة بالعبادات المختلفة.

و یقول: أحیانا إنّ الهدف من الخلقة هو إیقاظکم و توعیتکم و تقویة إیمانکم و اعتقادکم: اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ یَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَیْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ[۸۹].

و یقول تارة: إنّ الهدف من الخلق هو اختبار حسن عملکم: الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[۹۰].

إنّ الآیات الثلاث آنفة الذکر و التی یشیر کلّ منها إلی بعد من أبعاد وجود الإنسان الثلاث- بعد الوعی و الإیمان، و بعد الأخلاق، و بعد العمل- تبیّن هدف الخلق التکاملی الذی یعود علی الإنسان نفسه.

و یجدر أن نشیر إلی هذه «اللطیفة»، و هی أنه لمّا کانت آیات القرآن غیر حاویة لکلمة التکامل، فإنّ بعضا یتصوّر أنّها من الأفکار المستوردة، إلّا أنّ الردّ علی مثل هذا التصّور أو الإشکال واضح، لأنّنا لسنا فی صدد الألفاظ الخاصّة، فمفهوم التکامل و مصادیقه جلیّة فی الآیات آنفة الذکر، تری ألم یکن العلم مصداقه الواضح .. أم لم یکن الارتقاء فی العبودیة و حسن العمل من مصادیقه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۱

فنحن نقرأ فی الآیة (۱۷) من سورة محمّد قوله تعالی: وَ الَّذِینَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدیً فهل یدلّ التعبیر بالزیادة إلّا علی التکامل؟

و هنا ینقدح سؤال، و هو: إذا کان الهدف هو التکامل، فلما ذا لم یخلق اللّه الإنسان کاملا منذ البدایة حتّی لا یکون محتاجا إلی طیّ مراحل التکامل؟

إنّ أساس هذا الإشکال هو الغفلة عن هذه النقطة، و هی أنّ العنصر الأصلی للتکامل هو التکامل الاختیاری، و بتعبیر آخر فإنّ التکامل یعنی أن یطوی الإنسان الطریق بنفسه و إرادته و تصمیمه، فإذا أخذوا بیده و أوصلوه بالقوّة و الجبر فلیس هذا افتخارا و لا تکاملا.

فمثلا: لو أنفق الإنسان فلسا واحدا من ماله بإرادته و تصمیمه، فقد طوی من طریق الکمال الأخلاقی بتلک النسبة، فی حین أنّه لو أجبر علی إنفاق الملایین من ثروته، فإنّه لم یتقدّم خطوة واحدة فی ذلک الطریق، و لذلک صرّح القرآن بهذه الحقیقة فی الآیات المختلفة، و هی أنّ اللّه سبحانه لو شاء لأجبر الناس علی أن یؤمنوا، إلّا أنّ هذا الإیمان لا نفع فیه لهؤلاء: وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ لَآمَنَ مَنْ فِی الْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعاً[۹۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۲

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۱۹ الی ۲۵]

اشارة

وَ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا یَسْتَحْسِرُونَ (۱۹) یُسَبِّحُونَ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ لا یَفْتُرُونَ (۲۰) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ یُنْشِرُونَ (۲۱) لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا یَصِفُونَ (۲۲) لا یُسْئَلُ عَمَّا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ (۲۳)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ هذا ذِکْرُ مَنْ مَعِیَ وَ ذِکْرُ مَنْ قَبْلِی بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (۲۴) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِی إِلَیْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (۲۵)

التّفسیر

الشرک ینبع من الظنّ:

کان الکلام فی الآیات السابقة عن أنّ عالم الوجود لیس عبثیا لا هدف من ورائه، فلا مزاح و لا عبث، و لا لهو و لا لعب، بل له هدف

تكاملى دقيق للبشر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۳

و لمّا كان من الممكن أن يوجد هذا التّوهّم، و هو: ما حاجة اللّه إلى إيماننا و عبادتنا؟

فإنّ الآيات التى نبحثها تجيب أوّلا عن هـذا التوهّم، و تقول: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ، وَ مَنْ عِنْدَهُ (أى الملائكة) لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ ۹۲] يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ

و مع هـذا الحال فأى حاجـة لطاعتكم و عبادتكم؟ فكلّ هؤلاء الملائكة المقرّبين مشـغولون بالتسبيح ليلا و نهارا، و هو تعالى لا يحتاج حتّى لعبادة هؤلاء، فإذا كنتم قد أمرتم بالإيمان و العمل الصالح و العبودية فإنّ كلّ ذلك سيعود بالنفع عليكم.

و هنـا نقطـة تلفت الانتبـاه أيضـا، و هى أنّه فى نظـام العبيـد و الموالى الظـاهرى، كلّمـا تقرّب العبـد من مولاه يقلّ خضوعه أمامه، لأن يختصّ به أكثر، فيحتاجه المولى أكثر. أمّا فى نظام عبوديّة الخلق و الخالق فالأمر على العكس، فكلّما اقتربت الملائكة و أولياء اللّه من اللّه سبحانه زادت عبوديتهم ۹۳].

و بعـد أن نفت فى الآيات السابقـة عبثيـة و لا هدفيـة عالم الوجود، و أصبـح من المسلّم أنّ لهـذا العالم هـدفا مقدّسا، فإنّ هذه الآيات تتطرّق إلى بحث مسألة وحدة المعبود و مدبّر هذا العالم، فتقول: أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ۹۴].

و هـذه الجملـة فى الحقيقـة إشارة إلى أنّ المعبود يجب أن يكون خالقا، و خاصّة خلق الحياة، لأنّها أوضح مظاهر الخلق و مصاديقه. و هذا فى الحقيقة يشبه ما نقرؤه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۴

فى الآية (۷۳) من سورة الحـجّ: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ و مع هذا الحال كيف يكون هؤلاء أهلا للعبادة؟

التعبير ب آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ إشارة إلى الأصـنام و المعبودات التى كانوا يصـنعونها من الحجارة و الخشب، و كانوا يظنّونها حاكمة على السماوات.

و تبيّن الآية التالية أحد الأدلّة الواضـحة على نفى آلهة و أرباب المشـركين، فتقول: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

هـذه الادّعاءات غير الصـحيحة و هـذه الأرباب المصـنوعة و الآلهـة المظنونـة ليست إلّا أوهاما، و ساحـة كبرياء ذاته المقدّسة لا تتلوّث بهذه النسب المغلوطة.

برهان التمانع:

إنّ الـدليل الوارد فى الآيـة آنفـة الذكر و لإثبات التوحيد و نفى الآلهة، فى الوقت الذى هو بسيط و واضح، فإنّه من البراهين الفلسـفيّة الدقيقة فى هذا الباب، و يذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع). و يمكن إيضاح خلاصة هذا البرهان بما يلى:

إنّنا نرى- بـدون شكّ- نظاما واحـدا حاكما فى هـذا العالم، ذلك النظام المتناسق من جميع جهاته، فقوانينه ثابتـة تجرى فى الأرض و السّماء، و مناهجه متطابقة بعضها مع بعضها، و أجزاؤه متناسبة.

إنّ انسـجام القوانين و أنظمـة الخلقة هذا يحكى أنّها تنبع من عين واحدة، لأنّ البدايات إن كانت متعدّدة، و الإرادات مختلفة، لم يكن يوجد هذا الانسجام مطلقا، و هذا الشيء الذى يعبّر عنه القرآن ب (الفساد) يلاحظ فى العالم بوضوح.

إذا كنّا من أهل التحقيق و المطالعة- و لو قليلا- فإنّا نستطيع أن نفهم جيدا من خلال تحقيق كتاب ما، أنّ كاتبه شـخص واحد أم عدّة

أشخاص؟ فإنّ الكتاب الذى يؤلّفه شخص واحد يوجد انسجام خاص بين عباراته، ترتيب جمله، تعبيراته المختلفة، كناياته و إشاراته، عناوينه و رؤوس مطالبه، طريقة الدخول فى البحوث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ١۴۵

و الخروج منها، و الخلاصة: إنّ كلّ أقسامه متحدّة متناسقة لأنّها وليدة فكر واحد، و ترشّح قلم واحد.

أمّا إذا تعهّد شخصان أو عدّة أشخاص بأن يؤلّف كلّ منهم جزءا من الكتاب- و إن كان الجميع علماء متقاربين فى الروح و التفكير- فستظهر آثار هذه الازدواجية أو الكثرة فى العبارات و الألفاظ، و طريقة الأبحاث. و سبب ذلك واضح، لأنّ الفردين مهما كانا منسجمين فى الفكر و الذوق، فإنّهما فى النتيجة فردان، فلو كانت كلّ أشيائهما واحدة لأصبحا فردا واحدا، فبناء على هذا فيجب أن يكون هناك تفاوت فيما بينهما قطعا ليتمكّنا أن يكونا فردين، و هذا الاختلاف سيؤثّر أثره فى النتيجة، و سيبدى آثاره فى كتاباتهما.

و كلّما كان هذا الكتاب أكبر و أكثر تفصيلا، و يبحث مواضيع متنوّعة، فإنّ عدم الانسجام يلمس فيه أوضح. و كتاب عالم الخلقة الكبير، الذى نضيّع بكلّ وجودنا فى طيّات عباراته لعظمته يشمله هذا القانون أيضا.

حقّا إنّنا لا نستطيع مطالعة كلّ هذا الكتاب حتّى لو صرفنا كلّ عمرنا فى مطالعته، إلّا أنّ هذا القدر الذى وفّقنا نحن- و جميع العلماء- لمطالعته منسجم إلى الحدّ الذى يدلّ تماما على وحدة مؤلّفه ... إنّنا كلّما تصفّحنا هذا الكتاب العجيب فستظهر بين كلماته و سطوره و صفحاته آثار تنظيم عال و انسجام منقطع النظير.

فإذا كانت هناك إرادات و بدايات متعدّدة تتدخّل فى إدارة هذا العالم و تنظيمه، فهل كان بالإمكان أن يوجد مثل هذا الانسجام؟

و لو فكّرنا: لماذا يستطيع علماء الفضاء أن يرسلوا السفن الفضائية إلى الفضاء بدقّة كاملة، و ينزلوا العربة على القمر فى المحلّ الذى قدروه من الناحية العلمية بدقّة متناهية، ثمّ يحرّكونها من هناك و ينزلونها إلى الأرض فى المحل الذى توقّعوه؟

ألم تكن هذه الدقّة فى الحسابات لكون النظام الحاكم على كلّ الوجود الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ١۴۶

هو أساس حسابات هؤلاء العلماء- دقيقا و منسجما، بحيث إذا كان هناك شىء من عدم الانسجام- و من الناحية الزمنيّة جزء من مائة من الثّانية- فستضطرب جميع حساباتهم؟

و نقول باختصار: إذا كانت هناك إرادتان أو عدّة إرادات حاكمة فى العالم، فإنّ لكلّ واحدة قضاء، و كانت الاخرى تمحو أثر الأولى، و سيؤول العالم إلى الفساد عندئذ.

سؤال:

و هنا يثار سؤال يمكن استلهام جوابه من التوضيحات السابقة، و هو: إنّ تعدّد الآلهة يكون منشأ للفساد عند ما يحارب أحدها الآخر، أمّا إذا اعتقدنا بأنّ هؤلاء أفراد حكماء عالمون، فإنّهم يتعاونون فيما بينهم و يديرون العالم.

و جواب هذا السؤال لا لبس فيه: فإنّ كونهم حكماء لا يزيل تعدّدهم، فعند ما نقول: إنّهم متعدّدون، فإنّ معناه إنّهم ليسوا متحدّين من جميع الجهات، لأنّهم إن اتّحدوا من كلّ الجوانب أصبحوا إلها واحدا، و بناء على ذلك فأينما وجد التعدّد وجد الاختلاف الذى يؤثّر فى الإدارة و العمل شئنا أم أبينا، و هذا سيجرّ عالم الوجود إلى الهرج و المرج.

و قد استند فى بعض هذه الاستدلالات إلى أنّه لو كان هناك إرادتان حاكمتان على الخلق، لما كان هناك عالم أصلا. فى حين أنّ هذه الآية تتحدّث عن فساد العالم و اختلال النظام، لا عن عدم وجود العالم.

و من اللطيف أن نقرأ فى حديث يرويه هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السّلام فى جواب الرجل الملحد الذى كان يتحدّث

عن تعدّد الآلهة، أنّه

قـال: «لا یخلو قولک أنّهما اثنان من أن یکونا قویین أو یکونا ضـعیفین، أو یکون أحـدهما قویّا و الآخر ضـعیفا، فإن کانا قویّین فلم لا یدفع کلّ واحد منهما صاحبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۱۴۷

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۷

و ینفرد بالتـدبیر، و إن زعمت أنّ أحـدهما قوی و الآـخر ضـعیف ثبت أنّه واحـد کمـا تقول، للعجز الظاهر فی الثّانی، و إن قلت: إنّهما اثنان، لا یخلو من أن یکونا متّفقین من کلّ جهـة أو متفرّقین من کلّ جهة، فلمّا رأینا الخلق منتظما، و الفلک جاریا، و اختلاف اللیل و النهار، و الشمس و القمر، دلّ صحّة الأمر و التدبیر و ائتلاف الأمر أنّ المدبّر واحد.

ثمّ یلزمـک إن ادّعیت إثنین فلاـ بـدّ من فرجـة بینهمـا حتّی یکونا إثنین، فصارت الفرجـة ثالثا بینهما قـدیما معهما فیلزمک ثلاثـة، فإن ادّعیت ثلاثة لزمک ما قلنا فی الإثنین حتّی یکون بینهما فرجتان فیکون خمسا، ثمّ یتناهی فی العدد إلی ما لا نهایة فی الکثرة»[۹۵].

إنّ بدایة هذا الحدیث إشارة إلی برهان التمانع، و نهایته إشارة إلی برهان آخر یسمّی ب (برهان الفرجة).

و

فی حدیث آخر: إنّ هشام بن الحکم سأل الإمام الصادق علیه السّلام: ما الدلیل علی أنّ اللّه واحد؟ قال: «اتّصال التدبیر، و تمام الصنع، کما قال اللّه عزّ و جلّ: لو کان فیهما آلهة إلّا اللّه لفسدتا»[۹۶].

و بعد أن ثبت بالاستدلال الذی ورد فی الآیة توحید مدبّر و مدیر هذا العالم، فتقول الآیة التالیة: إنّه قد نظّم العالم بحکمة لا مجال فیها للإشکال و الانتقاص و لا أحد یعترض علیه فی خلقه: لا یُسْئَلُ عَمَّا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ

و بالرغم من أنّ المفسّرین قد تکلّموا کثیرا حول تفسیر هذه الآیة، إلّا أنّ ما ذکرناه أعلاه یبدو هو الأقرب.

و توضیح ذلک: أنّ لدینا نوعین من الأسئلة:

الأوّل: السؤال التوضیحی، و هو أن یکون الإنسان جاهلا ببعض المسائل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۸

و یرغب فی أن یـدرک حقیقتهـا، و حتی إذا علم و آمن بأنّ هـذا العمل الـذی تمّ کان صـحیحا، فإنّه یریـد أن یعلم النقطـة الأصـلیّة و الهـدف الحقیقی منه، و مثـل هـذا السؤال جـائز حتّی حول أفعال اللّه، بل إنّ هـذا السؤال یعتبر أساس و مصـدر الفحص و التحقیق فی عالم المخلقة و المسائل العلمیّة، و قد کان لأصحاب النّبی و الأئمّة کثیر من هذه الأسئلة سواء فیما یتعلّق بعالم التکوین أو التشریع.

أمّا النوع الثّانی: فهو السؤال الاعتراضـی، و الـذی یعنی أنّ العمل الـذی تمّ کان خطأ، کأن ینقض إنسان عهـده بلا سـبب، فنقول: لماذا نقضت عهدک؟ فلیس الهدف طلب التوضیح، بل الهدف الاعتراض و التخطئة.

من المسـلّم أنّ هـذا النوع من السؤال لا معنی له حول أفعال اللّه الحکیم، و إذا ما اعترض أحـد أحیانا فلجهله، إلّا أنّ مجال هذا السؤال حول أفعال الآخرین واسع.

و

فی حـدیث عن الإمـام البـاقر علیه السّـلام فی جواب سؤال جـابر الجعفری عن هـذه الآیـة أنه قـال: «لأنّـه لا یفعل إلّا ما کان حکمـة و صوابا»[۹۷].

و یمکن أن تسـتخلص نتیجـة من هـذا الکلاـم، و هی: إنّ أحـدا إذا سـأل سؤالا من النوع الثّانی، فهو دلیل علی أنّه لم یعرف اللّه معرفة صحیحة لحدّ الآن، و هو جاهل بکونه حکیما.

و تشتمل الآیة التالیة علی دلیلین آخرین فی مجال نفی الشرک، فمضافا إلی الدلیل السابق یصبح مجموعها ثلاثة أدلّة.

تقول الآیة أوّلا: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ و هو إشارة إلی أنّکم إذا صرفتم النظر عن الدلیل السابق القائم علی أنّ نظام عالم الوجود دلیل علی التوحید، فإنّه لا یوجد أی دلیل- علی الأقل- علی إثبات الشرک و الوهیّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۹

هذه الآلهة، فکیف یتقبّل إنسان عاقل مطلبا لا دلیل علیه؟

ثمّ تشیر إلی الدلیل الأخیر فتقول: هذا ذِکْرُ مَنْ مَعِیَ وَ ذِکْرُ مَنْ قَبْلِی و هذا هو الدلیل الذی ذکره علماء العقائد تحت عنوان (إجماع و اتّفاق الأنبیاء علی التوحید).

و لمّا کانت کثرة المشرکین (و خاصّة فی ظرف حیاة المسلمین فی مکّة، و التی نزلت فیها هذه السورة) مانعا أحیانا من قبول التوحید من قبل بعض الأفراد، فهی تضیف: بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ

لقد کانت مخالفة الأکثریة الجاهلة فی کثیر من المجتمعات دلیل و حجّة لإعراض الغافلین الجاهلین دائما، و قد انتقد القرآن الاستناد إلی هذه الأکثریة بشدّة فی کثیر من الآیات، سواء التی نزلت فی مکّة أو المدینة، و لم یعرها أیّة أهمیّة، بل اعتبر المعیار هو الدلیل و المنطق.

و لمّا کان من المحتمل أن یقول بعض الجهلة الغافلین أنّ لدینا أنبیاء کعیسی مثلا دعوا إلی آلهة متعدّدة، فإنّ القرآن الکریم یقول فی آخر آیة من الآیات محلّ البحث بصراحة تامّة: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِی إِلَیْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ و بهذا یثبت أنّه لا عیسی و لا غیره قد دعا إلی الشرک، و مثل هذه النسبة إلیه تهمة و افتراء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۰

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۲۶ الی ۲۹]

اشارة

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُکْرَمُونَ (۲۶) لا یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ (۲۷) یَعْلَمُ ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی وَ هُمْ مِنْ خَشْیَتِهِ مُشْفِقُونَ (۲۸) وَ مَنْ یَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّی إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِکَ نَجْزِیهِ جَهَنَّمَ کَذلِکَ نَجْزِی الظَّالِمِینَ (۲۹)

التّفسیر

الملائکة عباد مکرمون مطیعون:

لمّا کان الکلام فی آخر آیة عن الأنبیاء، و نفی کلّ أنواع الشرک، و نفی کون المسیح علیه السّلام ولدا، فإنّ کلّ الآیات محلّ البحث تتحدّث حول نفی کون الملائکة أولادا.

و توضیح ذلک أنّ کثیرا من مشرکی العرب کانوا یعتقدون أنّ الملائکة بنات اللّه سبحانه، و لهذا السبب کانوا یعبدونها أحیانا، و القرآن الکریم انتقد هذه العقیدة الخرافیة التی لا أساس لها، و بیّن بطلانها بالأدلّة المختلفة.

یقول أوّلا: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً فإن کان مرادهم الولد الحقیقی، فإنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۱

يلزم من هذا الجسميّة، و إن كان المراد التبنّي- و الذى كان اعتياديا و متداولا بين العرب- فإنّ ذلك أيضا دليل على الضعف و الاحتياج، و فوق كلّ ذلك فإنّ الذى يحتاج إلى الولد هو الذى يفنى، و يجب أن يديم ابنه حياته على المدى البعيد، و كذلك ليبقى نسله و كيانه و آثاره، أو لإبعاد الإحساس بالوحدة و الحاجة إلى المؤنس، أو ليكتسب القدرة و القوّة. إلّا أنّ الوجود الأزلى الأبدى و غير الجسمانى، و غير المحتاج من جميع الجهات، لا معنى لوجود الولد له. و لذلك فإنّ القرآن يقول مباشرة: سُبْحانَهُ

ثمّ تبيّن أوصاف الملائكة فى ستّة أقسام تشكّل بمجموعها دليلا واضحا على نفى كونهم أولادا:

۱- بل عباد.

۲- مكرمون.

فليس هؤلاء عبادا هاربين خضعوا للخدمة تحت ضغط المولى، بل هم عباد لائقون يعرفون طريق العبودية و أصولها و يفتخرون بها، و لذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أحبّهم، و أفاض عليهم من مواهبه نتيجة لإخلاصهم فى العبودية.

۳- إنّ هؤلاء على درجة من الأدب و الخضوع و الطاعة للّه بحيث لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ

۴- و كذلك من ناحية العمل أيضا فهم مطيعون وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

فهل هذه صفات الأولاد، أم صفات العبيد؟

ثمّ أشارت إلى إحاطة علم اللّه بهؤلاء فتقول: إنّ اللّه تعالى يعلم أعمالهم الحاضرة و فى المستقبل، و كذلك أعمالهم السالفة، و أيضا يعلم دنياهم و آخرتهم و قبل وجودهم و بعده: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ ۹۸] و من المسلّم أنّ

الملائكة مطّلعون على هذا الموضوع، و هو أنّ للّه إحاطة علمية بهم، و هذا العرفان هو السبب فى أنّهم لا يسبقونه بالقول، و لا يعصون أمره، و لهذا فإنّ هذه الجملة يمكن أن تكون بمثابة تعليل للآية السابقة.

۵- و لا شكّ أنّ هؤلاء الذين هم عباد اللّه المكرمون المحترمون يشفعون للمحتاجين، لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ هؤلاء وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى و من المسلّم أنّ رضى اللّه و إذنه فى الشفاعة لا- يمكن أن يكون أى منهما اعتباطيا، بل لا بدّ أن يكون من أجل الإيمان الحقيقى، أو الأعمال التى تحفظ علاقة الإنسان باللّه.

و بتعبير آخر، فإنّ من الممكن أن يتلوّث الإنسان بالمعصية، إلّا أنّه إذا لم يقطع علاقته باللّه و أوليائه تماما، فإنّ الشفاعة تؤمّل فى حقّه. أمّا إذا قطع علاقته تماما من ناحية الاتّجاه الفكرى و العقائدى، أو أنّه غرق فى المعاصى و الانحراف من الناحية العملية، إلى الحدّ الذى يفقد معه لياقة الشفاعة أو استحقاقها، ففى هذه الحال سوف لا يشفع له أى نبى مرسل أو ملك مقرّب.

إنّ هذا هو نفس المطلب الذى أوردناه فى بحث فلسفة الشفاعة ضمن البحوث السابقة، بأنّ الشفاعة هى طريق لتهذيب الإنسان، و وسيلة لإرجاع المذنبين إلى الصراط المستقيم، و المنع من اليأس أو القنوط، و الذى هو بنفسه عامل للانزلاق و الغرق فى الانحراف و المعصية.

إنّ الإيمان بمثل هذه الشفاعة يبعث على بقاء ارتباط المذنبين باللّه و رسله و الأئمّة، و لا يهدموا كلّ الجسور خلفهم، و يحفظوا خطّ الرجعة[۹۹].

ثمّ إنّ هذه الجملة تجيب ضمنا أولئك الذين يقولون: إنّنا نعبد الملائكة لتشفع لنا عند اللّه، فيقول القرآن لهم: إنّ هؤلاء لا يقدرون على فعل شىء من تلقاء

أنفسهم، و كلّ ما تريدونه يجب أن تطلبوه من اللّه مباشرة، و حتّى إذن شفاعة الشافعين.

۶- و نتيجة لهذه المعرفة و الوعى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ فهم لا يخشون من أن يكونوا قد أذنبوا، بل يخافون من التقصير فى العبادة

أو ترك الأولى.

و من بديع اللغة العربية، أنّ «الخشية» من ناحية الأصل اللغوى لا تعنى كلّ خوف، بل الخوف المقترن بالتعظيم و الاحترام.

و كلمة «مشفق» من مادّة الإشفاق، بمعنى التوجّه الممتزج بالخوف، لأنّها فى الأصل مأخوذة من الشفق، و هو الضياء الممتزج بالظلمة. فبناء على هذا، فإنّ خوف الملائكة ليس كخوف الإنسان من حادثة مرعبة مخيفة، و كذلك إشفاقهم فإنّه لا يشبه خوف الإنسان من موجود خطر، بل إنّ خوفهم و إشفاقهم ممزوجان بالاحترام، و العناية و التوجّه، و المعرفة و الإحساس بالمسؤولية[۱۰۰].

من الواضح أنّ الملائكة مع هذه الصفات البارزة و الممتازة، و مقام العبودية الخالصة لا يدّعون الالوهية مطلقا، أمّا إذا فرضنا ذلك وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّی إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِکَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ إنّ ادّعاء الالوهية فى الحقيقة مصداق واضح على ظلم النفس و المجتمع، و يندرج فى القانون العامّ كَذلِکَ نَجْزِی الظَّالِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۴

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

اشارة

أ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ (۳۰) وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳۱) وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (۳۲) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۳۳)

التّفسير

علامات أخرى للّه فى عالم الوجود:

تعقيبا على البحوث السابقة حول عقائد المشركين الخرافية، و الأدلّة التى ذكرت على التوحيد، فإنّ فى هذه الآيات سلسلة من براهين اللّه فى عالم الوجود، و تدبيره المنظّم، و تأكيدا على هذه البحوث تقول أوّلا: أ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ

لقد ذكر المفسّرون أقوالا كثيرة فيما هو المراد من «الرتق» و «الفتق»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۵

المذكورين هنا فى شأن السماوات و الأرض؟ و يبدو أنّ الأقرب من بينها ثلاثة تفاسير، و يحتمل أن تكون جميعا داخلة فى مفهوم الآية[۱۰۱].

۱- إنّ رتق السّماء و الأرض إشارة إلى بداية الخلقة، حيث يرى العلماء أنّ كلّ هذا العالم كان كتلة واحدة عظيمة من البخار المحترق، و تجزّأ تدريجيّا نتيجة الإنفجارات الداخلية و الحركة، فتولّدت الكواكب و النجوم، و من جملتها المنظومة الشمسية و الكرة الأرضية، و لا يزال العالم فى توسّع دائب.

۲- المراد من الرتق هو كون مواد العالم متّحدة، بحيث تداخلت فيما بينها و كانت تبدو و كأنّها مادّة واحدة، إلّا أنّها انفصلت عن بعضها بمرور الزمان، فأوجدت تركيبات جديدة، و ظهرت أنواع مختلفة من النباتات و الحيوانات و الموجودات الأخرى فى السّماء و الأرض، موجودات كلّ منها نظام خاص و آثار و خواص تختص بها، و كلّ منها آية على عظمة اللّه و علمه و قدرته غير

المتناهية[۱۰۲].

۳- إنّ المراد من رتق السّماء هو أنّها لم تكن تمطر فى البداية، و المراد من رتق الأرض أنّها لم تكن تنبت النبات فى ذلك الزمان، إلّا أنّ اللّه سبحانه فتق الإثنين، فأنزل من السّماء المطر، و أخرج من الأرض أنواع النباتات. و الرّوايات المتعدّدة الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السّلام تشير إلى المعنى الأخير، و بعضها يشير إلى التّفسير الأوّل ۱۰۳].

لا شكّ أنّ التّفسير الأخير شيء يمكن رؤيته بالعين، و كيف أنّ المطر ينزل من السّماء، و كيف تنفتق الأرض و تنمو النباتات، و هو يناسب تماما قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا و كذلك ينسجم و قوله تعالى: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۶

إلّا أنّ التّفسيرين الأوّل و الثّانى أيضا لا يخالفان المعنى الواسع لهذه الآية، لأنّ الرؤية تأتى أحيانا بمعنى العلم. صحيح أنّ هذا العلم و الوعى ليس للجميع، بل إنّ العلماء وحدهم الذين يستطيعون أن يكتسبوا العلوم حول ماضى الأرض و السّماء، و اتّصالهما ثمّ انفصالهما، إلّا أنّنا نعلم أنّ القرآن ليس كتابا مختصا بعصر و زمان معيّن، بل هو مرشد و دليل للبشر فى كلّ القرون و الأعصار.

من هذا يظهر أنّ له محتوى عميقا يستفيد منه كلّ قوم و فى كلّ زمان، و لهذا نعتقد أنّه لا مانع من أن تجتمع للآية التفاسير الثلاثة، فكلّ فى محلّه كامل و صحيح و قد قلنا مرارا: إنّ استعمال لفظ واحد فى أكثر من معنى ليس جائزا فحسب، بل قد يكون أحيانا دليلا على كمال الفصاحة، و إنّ ما نقرؤه فى الرّوايات من أنّ للقرآن بطونا مختلفة يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى.

و أمّا فيما يتعلّق بإيجاد كلّ الكائنات الحيّة من الماء الذى أشير إليه فى ذيل الآية، فهناك تفسيران مشهوران:

أحدهما: إنّ حياة كلّ الكائنات الحيّة- سواء كانت النباتات أم الحيوانات- ترتبط بالماء، هذا الماء الذى كان مبدؤه- المطر الذى نزل من السّماء.

و الآخر: إنّ الماء هنا إشارة إلى النطفة التى تتولّد منها الكائنات الحيّة عادة.

و ما يلفت النظر أنّ علماء عصرنا الحديث يعتقدون أنّ أوّل انبثاقة للحياة وجدت فى أعمال البحار، و ذلك يرون أنّ بداية الحياة من الماء. و إذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أنّ المراد من التراب هو الطين المركّب من الماء و التراب.

و الجدير بالذكر أيضا أنّه طبقا لتحقيقات العلماء، فإنّ الماء يشكّل الجزء الأكبر من بدن الإنسان و كثير من الحيوانات، و هو فى حدود ۷۰٪! و ما يورده البعض من أنّ خلق الملائكة و الجنّ ليس من الماء، مع أنّها كائنات حيّة، فجوابه واضح، لأنّ المراد هو الموجودات الحيّة المحسوسة بالنسبة لنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۷

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ رجلا سأله: ما طعم الماء؟ فقال الإمام أوّلا: «سل تفقّها و لا تسأل تعنّتا» ثمّ أضاف: «طعم الماء طعم الحياة! قال اللّه سبحانه: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ

و خاصة عند ما يصل الإنسان إلى الماء السائغ بعد عطش طويل فى الصيف، و فى ذلك الهواء المحرق، فإنّه حينما تدخل أوّل جرعة ماء إلى جوفه يشعر أنّ الروح قد دبّت فى بدنه، و فى الواقع أراد الإمام أن يجسّد الارتباط و العلاقة بين الحياة و الماء بهذا التعبير الجميل.

و أشارت الآية التالية إلى جانب آخر من آيات التوحيد و نعم اللّه الكبيرة، فقالت: وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ۱۰۴] و قلنا فيما مضى: إنّ الجبال كالدرع الذى يحمى الأرض، و هذا هو الذى يمنع- إلى حدّ كبير- من الزلازل الأرضيّة الشديدة التى تحدث نتيجة ضغط الغازات الداخلية. إضافة إلى أنّ وضع الجبال هذا يقلّل من حركات القشرة الأرضيّة أمام ظاهرة المدّ و الجزر الناشئة بواسطة القمر إلى الحدّ الأدنى.

و من جهة أخرى فلو لا الجبال، فإنّ سطح الأرض سيكون معرّضا للرياح القويّة دائما، و سوف لا تستقرّ على حال أبدا، كما هى حال الصحارى المقفرة المحرقة.

ثمّ أشارت الآية إلى نعمة أخرى، و هى أيضا من آيات عظمة اللّه، فقالت:

وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

و لو لم تكن هذه الوديان و الفجاج، فإنّ سلاسل الجبال العظيمة الموجودة فى المناطق المختلفة من الأرض كانت ستنفصل بعضها عن بعض بحيث ينفصل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۸

ارتباطها تماما، و هذا يدلّ انّ هذه الظواهر الكونيّة كلّها وفق حساب دقيق.

و لمّا كان استقرار الأرض لا يكفى لوحده لاستقرار حياة الإنسان، بل يجب أن يكون آمنا ممّا فوقه، فإنّ الآية التالية تضيف: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ

المراد من السّماء هنا- كما قلنا سابقا- هو الجوّ الذى يحيط بالأرض دائما، و تبلغ ضخامته مئات الكيلومترات كما توصّل إليه العلماء و هذه الطبقة رقيقة ظاهرا، و تتكوّن من الهواء و الغازات، و هى محكمة و منيعة إلى الحدّ الذى لا ينفذ جسم من خارجها إلى الأرض إلّا و يفنى و يتحطّم، فهى تحفظ الكرة الأرضية من سقوط الشهب و النيازك «ليل نهار» التى تعتبر أشدّ خطرا حتّى من القذائف العسكرية.

إضافة إلى أنّ هذا الغلاف الجوى يقوم بتصفية أشعّة الشمس التى تحتوى على أشعّة قاتلة و تمنع من نفوذ تلك الأشعة الكونية القاتلة.

أجل، إنّ هذه السّماء سقف متين منيع حفظه اللّه من الهدم و السقوط[۱۰۵].

و تطرّقت الآية الأخيرة إلى خلق الليل و النهار و الشمس و القمر، فقالت:

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

بحثان

۱- تفسير قوله تعالى: كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

اختلف المفسّرون فى تفسير هذه الآية، أمّا ما يناسب تحقيقات علماء الفلك

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۹

الثابتة، فهو أنّ المراد من حركة الشمس فى الآية إمّا الدوران حول نفسها، أو حركتها ضمن المنظومة الشمسيّة.

و لا بدّ من الإشارة إلى أنّ كلمة (كل) يمكن أن تكون إشارة إلى الشمس و القمر، و كذلك النجوم، و التى تستفاد من كلمة «الليل».

و احتمل بعض المفسّرين أن تكون إشارة إلى كلّ من الليل و النهار و الشمس و القمر، لأنّ «الليل»- و الذى هو الظّل المخروطى للأرض- له مدار خاص، فإذا نظر إنسان- خارج الكرة الأرضية- من بعيد إليه، فسيرى أنّ هذا الظل المخروطى فى حركة مستمرة حول الأرض، و سيرى نور الشمس الذى يشعّ على الأرض و يشكّل فى النهار كالأسطوانة التى تنتقل دائما حول هذه الكرة، و بناء على هذا فإنّ لكلّ من الليل و النهار مدارا و مكانا خاصا به ۱۰۶].

و يحتمل أيضا أن يكون المراد من حركة الشمس حركتها فى إحساسنا، لأنّ كلّا من الشمس و القمر فى دوران مستمر فى نظر الناظرين من أهل الأرض ..

۲- السّماء سقف محکم

قلنا فیما مضی: إنّ (السّماء) وردت فی القرآن بمعان مختلفة، فجاءت تارة بمعنی الجو، أیّ الطبقة الضخمة من الهواء (الغلاف الغازی) الذی یحیط بالأرض، کالآیة آنفة الذکر. و لا بأس أن نسمع هنا توضیحا أکثر حول إحکام هذا السقف العظیم من لسان العلماء:

کتب (فرانک ألن) أستاذ الفیزیاء الحیاتیة یقول: إنّ الجو الذی یتکوّن من الغازات التی تحفظ الحیاة علی سطح الأرض ضخم إلی الحدّ الذی یستطیع أن یکون کالدرع الذی یحفظ الأرض من شرّ المجموعة القاتلة المتکوّنة من عشرین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۶۰

ملیون شهاب سماوی تسیر بسرعة ۵۰ کیلومتر فی الثّانیة لتتساقط یومیا علی الأرض.

إنّ الغلاف الجوی إضافة إلی فوائده الأخری، فإنّه یحفظ درجة الحرارة علی سطح الأرض فی حدود مناسبة تساعد علی الحیاة، و هو ذخیرة مهمّة جدّا لنقل الماء و البخار من المحیطات إلی الیابسة، و لو لم یکن کذلک لکانت کلّ القارات صحاری یابسة لا یمکن الحیاة فیها، و علی هذا فیجب القول بأنّ المحیطات و الغلاف الجوّی هی التی تحفظ للأرض توازنها و ثباتها فی مدارها.

إنّ وزن بعض هذه الشهب التی تسقط علی الأرض یبلغ جزءا من ألف من الغرام، إلّا أنّ قوته نتیجة تلک السرعة الخارقة یعادل قوّة الأجزاء الذریة التی فی القنبلة المخرّبة! و قد یکون حجم تلک الشهب بمقدار ذرّة الرمل أحیانا! فی کلّ یوم تحترق ملایین من هذه الشهب قبل وصولها إلی سطح الأرض، أو تتحوّل إلی بخار، إلّا أنّ حجم و وزن بعض الشهب کبیر إلی حدّ تخترق معه الغلاف الجوی و تصیب سطح الأرض.

و من جملة الشهب التی عبرت الغلاف الغازی و وصلت إلی الأرض، هو الشهاب العظیم المعروف ب (سیبری)، و الذی أصاب الأرض سنة ۱۹۰۸ و کان قطره بشکل أنّه شغل مکانا من الأرض بمقدار (۴۰) کیلومترا تقریبا و سبّب خسائر کبیرة.

و الشهاب الآخر الذی سقط فی (أریزونا) فی أمریکا، و الذی کان بقطر کیلومتر واحد و عمق (۲۰۰) متر، أحدث عند سقوطه علی الأرض حفرة عمیقة فیها، و تولّدت منه شهب صغیرة کثیرة نتیجة انفجاره شغلت مساحة کبیرة نسبیّا من الأرض.

و یکتب (کرسی موریسن): إنّ الهواء المحیط بالأرض لو کان أقل قلیلا ممّا علیه، فإنّ الأجرام السماویة و الشهب الثاقبة التی ترده بمقدار عدّة ملایین شهاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۶۱

فی الیوم، و تتلاشی فی الفضاء الخارجی، فإنّها کانت تصل إلی الأرض دائما و تصیبها.

إنّ هذه الأجرام الفلکیّة تتحرّک بسرعة ۶- ۴۰ میل فی الثّانیة! و هی تنفجر و تحترق عند اصطدامها بأی شیء، و لو کانت سرعة هذه الأجرام أقل ممّا هی علیه- مثلا بسرعة الطلقة- فإنّها کانت تسقط علی الأرض جمیعا، و یتّضح مقدار تدمیرها فیما لو أنّ إنسانا تعرّض لسقوط أصغر جرم من هذه الأجرام السماویة علیه، فإنّها کانت ستمزّقه إربا إربا و تفنیه لشدّة حرارتها، لأنّها تتحرّک بسرعة تعادل سرعة الطلقة (۹۰) مرّة! إنّ سمک الهواء المحیط بالأرض یبلغ مقدارا یسمح أن یمرّ من خلاله إلی الأرض المقدار اللازم من الأشعّة الکونیة لنمو النباتات، و یقتل کلّ الجراثیم المضرّة فی ذلک الفضاء، و یوجد الفیتامینات المفیدة[۱۰۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۱۶۲

الآیتان [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۳۴ الی ۳۵]

اشارة

وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (۳۴) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (۳۵)

التّفسير

الموت يتربّص بالجميع:

قرأنا فى الآيات السابقة أنّ المشركين قد تشبّثوا بمسألة كون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بشرا من أجل التشكيك بنبوّته، و كانوا يعتقدون أنّ النّبى يجيب أن يكون ملكا و خاليا من كلّ العوارض البشريّة.

إنّ الآيات- محلّ البحث- أشارت إلى بعض إشكالات هؤلاء، فهم يشيعون تارة أنّ انتفاضة النّبى (و فى نظرهم شاعر) لا دوام لها، و سينتهى بموته كلّ شىء، كما جاء فى الآية (۳۰) من سورة الطور، أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ

و كانوا يظنّون تارة أخرى أنّ هذا الرجل لمّا كان يعتقد أنّه خاتم النبيّين، فيجب أن لا يموت أبدا ليحفظ دينه، و بناء على هذا فإنّ موته فى المستقبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۳

سيكون دليلا على بطلان ادّعائه. فيجيبهم القرآن فى أوّل آية بجملة قصيرة فيقول:

وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ.

إنّ قانون الخلقة هذا لا يقبل التغيير، أى أنّه لا يكتب لأحد الخلود، و إذا كان هؤلاء يفرحون بموتك: أ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ

ربّما لا نحتاج إلى توضيح أنّ بقاء الشريعة و الدين لا يحتاج إلى بقاء الرسول. فإنّ شرائع إبراهيم و موسى و عيسى عليه السّلام و إن لم تكن خالدة، إلّا أنّها بقيت بعد وفاة هؤلاء الأنبياء العظام (و بالنسبة لعيسى فإنّ شريعته استمرت بعد صعوده إلى السّماء) لقرون طويلة. و بناء على هذا فإنّ خلود المذهب لا يحتاج إلى حراسة النّبى الدائمة له، فمن الممكن أن يستمر خلفاؤه فى إقامة دينه و السير على خطاه.

و أمّا ما تصوّره أولئك من أنّ كلّ شىء سينتهى بموت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فإنّهم أخطأوا فى ظنّهم، لأنّ هذا الكلام يصحّ فى المسائل التى تقوم بالشخص.

و الإسلام لم يكن قائما بالنّبى و لا بأصحابه. فقد كان دينا حيّا- ينطلق متقدّما بحركة الذاتية الداخلية و يخترق حدود الزمان و المكان و يواصل طريقه! ثمّ يذكر قانون الموت العامّ الذى يصيب كلّ النفوس بدون استثناء فيقول:

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ

و يجب أن نذكّر بأنّ لفظة (النفس) قد استعملت فى القرآن بمعان مختلفة، فأوّل معنى للنفس هو الذات، و هذا المعنى واسع يطلق حتّى على ذات اللّه المقدّسة، كما نقرأ: كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ[۱۰۸].

ثمّ استعملت هذه الكلمة فى الإنسان، أى مجموع جسمه و روحه، مثل:

مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً[۱۰۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۴

و استعملت أحيانا فى خصوص روح الإنسان كما فى أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ۱۱۰].

و من الواضح أنّ المراد من النفس فى الآيات التى نبحثها هو المعنى الثّانى، و بناء على هذا فإنّ المراد هو بيان قانون الموت العام فى

حقّ البشر، و بذلك لا يبقى مجال للإشكال على الآية بأنّ التعبير بالنفس يشمل اللّه أو الملائكة أيضا فكيف نخصّص الآية و نخرج اللّه و الملائكة منها؟[۱۱۱].

و بعد ذكر قانون الموت الكلّى يطرح هذا السؤال، و هو: ما هو الهدف من هذه الحياة الزائلة؟ و أى فائدة منها؟

فيقول القرآن حول هذا الكلام: وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ أى إنّ مكانكم الأصلى ليس هو هذه الدنيا، بل هو مكان آخر، و إنّما تأتون هنا لتؤدّوا الاختبار و «الامتحان»، و بعد اكتسابكم التكامل اللازم سترجعون إلى مكانكم الأصلى و هو الدار الآخرة.

و ممّا يسترعى النظر أنّ «الشرّ» مقدّم على «الخير» من بين المواد الامتحانية، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ الامتحان الإلهى و إن كان تارة بالنعمة و أخرى بالبلاء، إلّا أنّ من المسلّم أنّ الامتحان بالبلاء أشدّ و أصعب.

و أمّا «الشرّ» فإنّه لا يعنى مطلق الشرّ، لأنّ الفرض أنّ هذا الشرّ عبارة عن وسيلة للاختبار و التكامل، و بناء على هذا فإنّ المراد هو الشرّ النسبى، و أساسا لا يوجد شرّ مطلق فى مجموع عالم الوجود بالنظرة التوحيديّة الصحيحة! و لذلك نقرأ

فى حديث أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام مرض يوما فجاء جمع من أصحابه لعيادته، فقالوا: كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: «بشرّ»! قالوا: ما هذا كلام مثلك؟! قال: «إنّ اللّه تعالى يقول: و نبلوكم بالشرّ و الخير فتنة، فالخير الصحّة و الغنى، و الشرّ المرض و الفقر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۵

و يبقى هنا سؤال مهمّ، و هو: لماذا يختبر اللّه عباده؟ و ماذا يعنى الاختبار من قبل اللّه؟ و قد ذكرنا جواب هذا السؤال فى ذيل الآية (۱۵۵) من سورة البقرة، و قلنا: إنّ الامتحان من اللّه تعالى لعباده يعنى تربيتهم. طالعوا التّفصيل الكامل لهذا الموضوع هناك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۶

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۶ الى ۴۰]

اشارة

وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (۳۶) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (۳۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۸) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۳۹) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۴۰)

التّفسير

خلق الإنسان من عجل!

نواجه فى هذه الآيات مرّة أخرى، بحوثا أخرى حول موقف المشركين من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم، حيث يتّضح نمط تفكيرهم المنحرف فى المسائل الأصولية، فتقول أوّلا: وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً فهؤلاء لا عمل لهم إلّا السخرية و الاستهزاء، و يشيرون إليك بعدم اكتراث و يقولون: أَ هذَا الَّذِي يَذْكُرُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۷

آلِهَتَكُمْ ۱۱۲] وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ

ممّا يثير العجب هو إنّه لو ازدرى أحد هذه الأصنام الخشبية و الحجرية (و ما هو بمزدر لها، بل يفصح عن حقيقتها) فيقول: إنّ هذه

موجودات لا روح فیها و لا شعور و لا قیمة لها، لتعجبوا منه، أمّا إذا جحد أحدهم ربّه الرحمن الرحیم الذی عمّت آثار رحمته و عظمته الأرض و السّماء و ما من شیء إلّا و فیه دلیل علی عظمته و رحمته، لما أثار إعجابهم!! نعم، إنّ الإنسان إذا إعتاد أمرا و تطبّع علیه و تعصّب له فإنّه سیتقدّس فی نظره و إن کان أسوء الأمور، و إذا عادی شیئا فسیبدو سیّئا فی نظره تدریجیّا و إن کان أجمل الأمور و أحبّها.

ثمّ تشیر إلی أمر آخر من الأمور القبیحة لدی هذا الإنسان المتحلّل، فتقول:

خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ و بالرغم من اختلاف المفسّرین فی تفسیر کلمتی (إنسان) و (عجل)، و لکن من المعلوم أنّ المراد من الإنسان هنا نوع الإنسان- طبعا الإنسان المتحلّل و الخارج عن هدایة القادة الإلهیین و حکومتهم- و المراد من «عجل» هی العجلة و التعجیل، کما تشهد الآیات التالیة علی هذا المعنی، و کما نقرأ فی مکان آخر من القرآن: وَ کانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا[۱۱۳].

إنّ تعبیر خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ فی الحقیقة نوع من التأکید، أی إنّ الإنسان عجول إلی درجة کأنّه خلق من العجلة، و تشکّلت أنسجته و وجوده منها! و فی الواقع، فإنّ کثیرا من البشر العادیین هم علی هذه الشاکلة، فهم عجولون فی الخیر و فی الشرّ، و حتّی حین یقال لهم: إذا ارتکبتم المعاصی و کفرتم سیأخذکم العذاب الإلهی، فإنّهم یقولون: فلما ذا لا یأتی هذا العذاب أسرع؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۸

و تضیف الآیة فی النهایة: سَأُرِیکُمْ آیاتِی فَلا تَسْتَعْجِلُونِ

التعبیر ب (آیاتی) هنا یمکن أن یکون إشارة إلی آیات العذاب و علاماته و البلاء الذی کان یهدّد به النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم مخالفیه، و لکن هؤلاء الحمقی کانوا یقولون مرارا: فأین تلک الابتلاءات و المصائب التی تخوّفنا بها؟ فالقرآن الکریم یقول:

لا تعجلوا فلا یمضی زمن طویل حتّی تحیط بکم.

و قد یکون إشارة إلی المعجزات التی تؤیّد صدق نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلم، أی أنّکم لو صبرتم قلیلا فستظهر لکم معجزات کافیة.

و لا منافاة بین هذین التّفسیرین، لأنّ المشرکین کانوا عجولین فی کلیهما، و قد أراهم اللّه کلیهما، و إن کان التّفسیر بالأوّل یبدو هو الأقرب و الأنسب مع الآیات التالیة.

ثمّ یشیر القرآن إلی إحدی مطالب أولئک المستعجلین فیقول: وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ فهؤلاء کانوا ینتظرون قیام القیامة بفارغ الصبر، و هم غافلون عن أنّ قیام القیامة یعنی تعاستهم و شقاءهم المریر، و لکن ماذا یمکن فعله؟ فإنّ الإنسان العجول یعجّل حتّی فی قضیّة تعاسته و فنائه؟

و التعبیر ب إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ بصیغة الجمع مع أنّ المخاطب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم، من أجل أنّهم أشرکوا أنصاره و أتباعه الحقیقیّین فی الخطاب، فکأنّهم أرادوا أن یقولوا: إنّ عدم قیام القیامة دلیل علی أنّکم کاذبون جمیعا.

و تجیبهم الآیة التالیة فتقول: لَوْ یَعْلَمُ الَّذِینَ کَفَرُوا حِینَ لا یَکُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ

إنّ التعبیر ب «الوجوه» و «الظهور» فی الآیة محلّ البحث إشارة إلی أنّ جهنّم لیست نارا تحرقهم من جهة واحدة، بل إنّ وجوه هؤلاء و ظهورهم فی النّار، فکأنّهم غرقوا و دفنوا فی وسط النّار! و جملة وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ إشارة إلی أنّ هذه الأصنام التی یظنّون أنّها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۹

ستکون شفیعة لهم و ناصرة، لا تقدر علی أی شیء.

ممّا یلفت النظر أنّ العقوبة الإلهیّة لا یعیّن وقتها دائما بَلْ تَأْتِیهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا یَسْتَطِیعُونَ رَدَّها و حتّی إذا استمهلوا، و طلبوا التأخیر علی خلاف ما کانوا یستعجلون به إلی الآن، فلا یجابون وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ

ملاحظتان

۱- بملاحظة الآیات آنفات الذکر یثار هذا السؤال، و هو: إذا کان الإنسان عجولا بطبیعته، فلما ذا ینهی اللّه- سبحانه عن العجلة و یقول: فَلا تَسْتَعْجِلُونِ

ألیس هذا تناقضا بین الإثنین؟

و نقول فی الجواب: إنّنا إذا لا حظنا أصل إختیار و حریة إرادة الإنسان، و کون صفاته و معنویاته و خصائصه الأخلاقیّة قابلة للتغییر، فسیتّضح أن لا تضادّ فی الأمر، حیث یمکن تغییر هذه الحالة بالتربیة و تزکیة النفس.

۲- جملة بَلْ تَأْتِیهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ قد تشیر إلی أنّ عذاب القیامة و عقوباتها تختلف جمیعها عن عذاب الدنیا، فنقرأ مثلا حول النّار: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ[۱۱۴]، أو نقرأ فی شأن وقود النّار: وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ[۱۱۵].

و مثل هذه التعبیرات توحی بأنّ نار جهنّم تأتی علی حین غفلة فتبهت الناس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۰

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۴۱ الی ۴۵]

اشارة

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ فَحاقَ بِالَّذِینَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۴۱) قُلْ مَنْ یَکْلَؤُکُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا یُصْحَبُونَ (۴۳) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّی طالَ عَلَیْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلا یَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِی الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ (۴۴) قُلْ إِنَّما أُنْذِرُکُمْ بِالْوَحْیِ وَ لا یَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما یُنْذَرُونَ (۴۵)

التّفسیر

لا حظنا فی الآیات السابقة أنّ المشرکین و الکفّار کانوا یستهزءون برسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم، و هذا دأب کلّ الجهّال المغرورین، إنّهم یأخذون الحقائق المهمّة الجدیّة مأخذ الهزل و الاستهزاء.

فتقول الآیة الأولی تسلیة للنّبی: لست الوحید الذی یستهزأ به وَ لَقَدِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۱

اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ و لکن فی النهایة نزل بهم العذاب الذی کانوا یستهزؤن به فَحاقَ بِالَّذِینَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ و بناء علی هذا فلا تدع للغمّ و الحزن إلی نفسک طریقا، و ینبغی أن لا تترک مثل أعمال الجاهلین هذه أدنی أثر فی روحک الکبیرة، أو تخلّ بإرادتک الحدیدیّة الصلبة.

و تقول الآیة التالیة: قل لهم إنّ أحدا لا یدافع عنکم أمام عذاب اللّه فی القیامة، بل و فی هذه الدنیا: قُلْ مَنْ یَکْلَؤُکُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ أی من عذابه، فلو أنّ اللّه سبحانه لم یجعل السّماء- أی الجوّ المحیط بالأرض سقفا محفوظا کما مرّ فی الآیات السابقة- لکان هذا وحده کافیا أن تتهاوی النیازک و تمطرکم الأجرام السماویة بأحجارها لیل نهار.

إنّ اللّه الرحمن قد أولاکم من محبّته أن جعل جنودا متعدّدین لحفظکم و حراستکم، بحیث لو غفلوا عنکم لحظة واحدة لصبّ علیکم سیل البلاء.

ممّا يستحقّ الانتباه أنّ كلمة «الرحمن» قد استعملت مكان (اللّه) فى هذه الآية، أى انظروا إلى أنفسكم كم اقترفتم من الذنوب حتّى أغضبتم اللّه الذى هو مصدر الرحمة العامّة؟! ثمّ تضيف: بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ فلا هم يصغون إلى مواعظ الأنبياء و نصحهم، و لا تهزّ قلوبهم نعم اللّه و ذكره، و لا يستعملون عقولهم لحظة فى هذا السبيل.

ثمّ يسأل القرآن الكريم: أى شىء يعتمد عليه هؤلاء الكافرين الظالمين و المجرمين فى مقابل العقوبات الإلهيّة؟ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ۱۱۶] فهذه الأصنام لا تستطيع أن تنقذ نفسها من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۲

العذاب، و لا تكون مصحوبة بتأييدنا و رحمتنا.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى أحد علل تمرّد و عصيان الكافرين المهمّة، فتقول:

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ إلّا أنّ هذا العمر الطويل و النعم الوفيرة بدل أن تحرّك فيهم حسّ الشكر و الحمد، و يطأطئوا رؤوسهم لعبودية اللّه، فإنّها أصبحت سبب غرورهم و طغيانهم.

و لكن ألا يرى هؤلاء أنّ هذا العالم و نعمه زائلة؟ أ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها؟ فإنّ الأقوام و القبائل تأتى الواحدة تلو الاخرى و تذهب، و ليس للأفراد الصغار و الكبار عمر خالد، و الجميع سيصيبهم الفناء، و الأقوام الذين كانوا أشدّ منهم و أقوى و أكثر تمرّدا و عصيانا أودعوا تحت التراب، و فى ظلام القبور، و حتّى العلماء و العظماء الذين كان بهم قوام الأرض قد أغمضوا أعينهم و ودّعوا الدنيا! و مع هذا الحال أ فَهُمُ الْغالِبُونَ

و قد اختلف المفسّرون فى المراد من جملة أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها:

۱- فقال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ اللّه ينقص تدريجيّا من أراضى المشركين و يضيفها على بلاد المسلمين. إلّا أنّه بملاحظة كون هذه السورة نزلت فى مكّة، و لم يكن للمسلمين تلك الفتوحات، فإنّ هذا التّفسير يبدو غير مناسب.

۲- و قال بعض آخر: إنّ المقصود هو خراب و انهدام الأراضى بصورة تدريجيّة.

۳- و بعض يعتبرونها إشارة إلى سكّان الأرض.

۴- و ذكر بعض أنّ المراد من أطراف الأرض هو العلماء خاصّة.

إلّا أنّ الأنسب من كلّ ذلك، أنّ المراد من الأرض هو شعوب بلدان العالم المختلفة، و الأقوام و الأفراد الذين يسيرون نحو ديار العدم بصورة تدريجيّة و دائمة، و يودعون الحياة الدنيا، و بهذا فإنّه ينقص دائما من أطراف الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۳

و قد فسّرت هذه الآية فى بعض الرّوايات التى رويت عن أهل البيت عليهم السّلام بموت العلماء،

فيقول الإمام الصادق عليه السّلام: «نقصانها ذهاب عالمها».

و من المعلوم أنّ هذه الرّوايات- عادة- تبيّن مصاديق واضحة، لا أنّها تحصر مفهوم الآية فى أفراد معينين. و بهذا فإنّ الآية تريد أن تبيّن أنّ موت الكبار و العظماء و الأقوام درس و عبرة للكافرين المغرورين الجاهلين ليعلموا أنّ محاربة اللّه تعالى لا تنتج سوى الاندحار.

ثمّ تقرّر الآية حقيقة أنّ وظيفة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم هى إنذار الناس عن طريق الوحى الإلهى، فتوجّه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، فتقول: قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ و إذا لم يؤثّر فى قلوبكم القاسية، فلا عجب من ذلك، و ليس ذلك دليلا على نقص الوحى الإلهى، بل السبب هو وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ

إنّ الاذن السميعة يلزمها أن تسمع كلام اللّه، أمّا الآذان التى أصمّتها حجب الذنوب و الغفلة و الغرور فلا تسمع الحقّ مطلقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۴

الآیتان [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۴۶ الی ۴۷]

اشارة

وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ یا وَیْلَنا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ (۴۶) وَ نَضَعُ الْمَوازِینَ الْقِسْطَ لِیَوْمِ الْقِیامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً وَ إِنْ کانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَیْنا بِها وَ کَفی بِنا حاسِبِینَ (۴۷)

التّفسیر

موازین العدل فی القیامة:

بعد أن کانت الآیات السابقة تعکس حالة غرور و غفلة الأفراد الکافرین، تقول الآیة الأولی أعلاه: إنّ هؤلاء المغرورین لم یذکروا اللّه یوما فی الرخاء، و لکن: وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ یا وَیْلَنا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ

کلمة (نفحة) تعنی برأی المفسّرین و أرباب اللغة: الشیء القلیل، أو النسیم اللطیف، و بالرغم من أنّ هذه الکلمة تستعمل غالبا فی نسمات الرحمة و النعمة غالبا، إلّا أنّها تستعمل فی مورد العذاب أیضا[۱۱۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۵

و علی قول تفسیر الکشّاف فإنّ جملة وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ... تتضمّن ثلاثة تعابیر کلّها تشیر إلی القلّة: التعبیر بالمسّ، و التعبیر بالنفحة، من ناحیة اللغة، و من ناحیة الوزن و الصیغة أیضا[۱۱۸].

و الخلاصة: إنّ ما یرید أن یقوله القرآن الکریم هو: إنّ هؤلاء الذین عمیت قلوبهم یسمعون کلام النّبی و منطق الوحی سنین طویلة، و لا یؤثّر فیهم أدنی تأثیر، إلّا أنّهم عند ما تلهب ظهورهم سیاط العذاب- و إن کانت خفیفة یسیرة- سیصرخون إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ ألا ینبغی لهؤلاء أن ینتبهوا قبل أن تصیبهم سیاط العذاب؟

و لو انتبهوا حینئذ، فما الفائدة؟ فإنّ هذه الیقظة الاضطراریة لا تنفعهم، و إذا ما هدأت فورة العذاب و اطمأنّوا فإنّهم سیعودون إلی ما کانوا علیه! أمّا الآیة الأخیرة التی نبحثها فتشیر إلی حساب القیامة الدقیق، و جزائها العادل، لیعلم الکافرون و الظالمون أنّ العذاب علی فرض أنّه لم یعمّهم فی هذه الدنیا، فإنّ عذاب الآخرة حتمی، و سیحاسبون علی جمیع أعمالهم بدقّة، فتقول:

وَ نَضَعُ الْمَوازِینَ الْقِسْطَ لِیَوْمِ الْقِیامَةِ.

«القسط» یعنی أحیانا عدم التبعیض، و أحیانا یأتی بمعنی العدالة بصورة مطلقة، و ما یناسب المقام هو المعنی الثّانی.

و ممّا یلفت النظر أنّ «القسط» هنا ذکر کصفة للموازین، و هذه الموازین دقیقة و منظّمة إلی الحدّ الذی تبدو و کأنّها عین العدالة[۱۱۹].

و لهذا تضیف مباشرة: فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً فلا ینقص من ثواب المحسنین شیء، و لا یضاف إلی عقاب المسیئین شیء.

إلّا أنّ نفی الظلم و الجور هذا لا یعنی عدم الدقّة فی الحساب، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۶

وَ إِنْ کانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَیْنا بِها وَ کَفی بِنا حاسِبِینَ

«الخردل» نبات له حبّة صغیرة جدّا یضرب المثل بها فی الصغر و الحقارة.

و جاء نظیر هذا التعبیر فی موضع آخر من القرآن بتعبیر مِثْقالَ ذَرَّةٍ[۱۲۰].

و ممّا یستحقّ الانتباه أنّه قد عبّر فی ستّ مواضع من القرآن ب مِثْقالَ ذَرَّةٍ و فی موضعین ب مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ و فی الحقیقة فإنّ الآیة آنفة الذکر مع التعابیر الست المختلفة تأکید علی مسألة المحاسبة الدقیقة فی یوم القیامة.

إنّ کلمة «موازین»، و بصیغة الجمع، و بعدها ذکر وصف «القسط»، و بعده التأکید علی نفی الظلم فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً و بعد ذلک ذکر کلمة «شیئا» ثمّ التمثیل بحبّة الخردل، و أخیرا جملة وَ کَفی بِنا حاسِبِینَ کلّ هذه أدلّة علی أنّ حساب یوم القیامة دقیق جدّا، و خال من أی نوع من الظلم و الجور.

أمّا ما المراد من الموازین؟

بعض المفسّرین ظنّوا أنّ هناک موازین کموازین هذه الدنیا تنصب، ثمّ فرضوا بعد ذلک أنّ لأعمال الإنسان هناک و زنا و ثقلا لیمکن وزنها بتلک الموازین.

إلّا أنّ الصحیح هو أنّ المیزان هنا یعنی وسیلة قیاس الوزن، و من المعلوم أنّ لکلّ شیء مقیاس وزن متناسب معه، کمیزان الحرارة، و میزان الهواء، و الموازین الاخری الذی یتناسب کلّ منها مع الموضوع الذی یریدون قیاسه بها.

و نقرأ فی الرّوایات الإسلامیة أنّ موازین الحساب فی القیامة هم الأنبیاء و الأئمّة و الصالحون الذین لا توجد نقطة سوداء فی صحیفة أعمالهم ۱۲۱]. فنقرأ:

«السلام علی میزان الأعمال»! و تجد التوضیح و التفصیل بصورة أوسع حول هذا الموضوع ذیل الآیة (۸) من سورة الأعراف.

إنّ ذکر الموازین بصیغة الجمع لعلّه إشارة إلی هذا المعنی أیضا، لأنّ رجال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۷

الحقّ کلّ منهم میزان لأعمال البشر، فمضافا إلی أنّ جمیعهم ممتازون، فإنّ لکلّ منهم امتیازا خاصّا بحیث یعتبر فی تلک المرتبة مقیاسا و مثلا- و بتعبیر آخر: فإنّ کلّ من یشبه هؤلاء إلی حدّ ما، و تنسجم صفاته و أعماله و صفات و أعمال العظماء، فإنّ وزنه سیثقل بذلک المقدار، و کلّما ابتعدت و اختلفت فسیخفّ وزنه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۸

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۴۸ الی ۵۰]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسی وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِیاءً وَ ذِکْراً لِلْمُتَّقِینَ (۴۸) الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (۴۹) وَ هذا ذِکْرٌ مُبارَکٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْکِرُونَ (۵۰)

التّفسیر

لمحة من قصص الأنبیاء:

ذکرت هذه الآیات و ما بعدها جوانب من حیاة الأنبیاء المشفوعة بأمور تربویة بالغة الأثر، و توضّح البحوث السابقة حول نبوّة الرّسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلم و مواجهته المخالفین بصورة أجلی مع ملاحظة الأصول المشترکة الحاکمة علیها.

تقول الآیة الأولی: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسی وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِیاءً وَ ذِکْراً لِلْمُتَّقِینَ

«الفرقان» یعنی فی الأصل الشیء الذی یمیّز الحقّ عن الباطل، و هو وسیلة لمعرفة الإثنین. و قد ذکروا هنا تفاسیر متعدّدة فی المراد من

الفرقان فی هذه الآیة.

فقال بعضهم: إنّ المراد التوراة.

و البعض اعتبره انشقاق البحر لبنی إسرائیل، و الذی کان علامة واضحة علی

عظمة الحقّ و أحقیّة موسی. فی حین أنّ البعض اعتبره إشارة إلی سائر المعجزات و الدلائل التی کانت بید موسی و هارون علیهما السّلام.

غیر أنّ هذه التفاسیر لا- منافاة بینها مطلقا، لأنّ من الممکن أن یکون الفرقان إشارة إلی التوراة، و إلی سائر معجزات و دلائل موسی علیه السّلام.

و قد أطلق الفرقان فی سائر الآیات علی نفس القرآن أیضا، مثل: تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً[۱۲۲] و أحیانا یعبّر عن الإنتصار الإعجازی الذی ناله النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم، کما قال فی شأن معرکة بدر: یَوْمَ الْفُرْقانِ ۱۲۳] أمّا کلمة «الضیاء» فتعنی النور الذی ینبع من ذات الشیء، و من المسلّم أنّ القرآن و التوراة و معجزات الأنبیاء کانت کذلک ۱۲۴].

«الذکر» هو کلّ موضوع یبعد الإنسان عن الغفلة، و هذا أیضا من آثار الکتب السماویة و المعجزات الإلهیّة الواضحة.

إنّ ذکر هذه التعابیر الثلاثة متعاقبة ربّما کان إشارة إلی أنّ الإنسان من أجل أن یصل إلی هدفه یحتاج أوّلا إلی الفرقان، أی أن یشخّص الطریق الأصلی عند مفترق الطرق، فإذا شخّص طریقه یحتاج إلی ضیاء و نور لیتحرّک فی ذلک الطریق و یستمرّ فیه، و قد تعترضه موانع أهمّها الغفلة، فیحتاج إلی ما یذکره و یحذّره دائما.

و ممّا ینبغی الالتفات إلیه ورود لفظ «الفرقان» معرفة، و ورود کلمتی [ضیاء و ذکرا] نکرتین فی الآیة محلّ البحث، و عدّ أثرهما خاصّا بالمتّقین، و لعلّ هذا التفاوت إشارة إلی أنّ المعجزات و الخطابات السماویة تضیء الطریق للجمیع، إلّا أنّ من ینتفع من الضیاء و الذکر لیس جمیع الناس، بل الذین یحسّون بالمسؤولیة،

و علی جانب من التقوی.

ثمّ تعرف الآیة التالیة المتّقین بأنّهم الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ

و لکلمة «الغیب» هنا تفسیران: الأوّل: إنّه إشارة إلی ذات اللّه المقدّسة، أی مع أنّ اللّه سبحانه غائب عن الأنظار، فإنّ هؤلاء آمنوا به بدلیل العقل، و یحسّون بالمسؤولیة أمام ذاته المقدّسة.

و الآخر: إنّ المتّقین لا یخافون اللّه فی العلانیة و بین المجتمع فقط، بل یعلمون أنّه حاضر و ناظر إلیهم حتّی فی خلواتهم.

و ممّا یلفت النظر، أنّه عبّر عن الخوف أمام اللّه بالخشیة، و فی شأن القیامة بالإشفاق، إنّ هذین اللفظین و إن کان کلاهما بمعنی الخوف، إلّا أنّ «الخشیة»- علی قول الراغب فی المفردات- تقال فی موضع یمتزج فیه الخوف بالاحترام و التعظیم، کخوف الابن من أبیه الموقّر، و بناء علی هذا فإنّ خوف المتّقین ممتزج بالمعرفة.

و أمّا «الإشفاق» فیعنی الاهتمام و الحبّ المقترن بالخوف، و هذا التعبیر یستعمل أحیانا فی شأن الأولاد أو الأصدقاء الذین یحبّهم الإنسان، إلّا أنّه یخاف علیهم فی الوقت نفسه من تعرّضهم للبلایا و الأمراض مثلا. و فی الواقع فإنّ المتّقین یحبّون یوم القیامة، لأنّه مکان الثواب و الرحمة، إلّا أنّهم فی الوقت نفسه مشفقون من حساب اللّه فیه.

و یمکن أن تستعمل هاتان الکلمتان أیضا فی معنی واحد.

و قارنت الآیة الأخیرة بین القرآن و باقی الکتب السابقة: وَ هذا ذِکْرٌ مُبارَکٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْکِرُونَ و لماذا الإنکار؟ لأنّه ذکر لکم و مصدر وعیکم و یقظتکم و تذکیرهم؟ أ لأنّه مصدر البرکة و فیه خیر الدنیا و خیر الآخرة، و منبع الانتصارات و السعادات؟ فهل ینکر

مثل هذا الكتاب الذى يستبطن أدلّة أحقيّته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۱

فيه، و قد سطعت نورانيّته، و الذين يسيرون فى طريقه سعداء منتصرون؟! و لكى نعرف مدى أثر القرآن فى التوعية و ما له من البركات، فيكفى أن نرى حال سكّان جزيرة العرب قبل نزول القرآن عليهم، إذ كانوا يعيشون فى جاهلية جهلاء و فقر و تعاسة و تفرّق و تمزّق، ثمّ نرى حالهم بعد نزول القرآن حيث أصبحوا أسوة و مثلا حسنا للآخرين، و نرى كذلك حال الأقوام الآخرين قبل وصول القرآن إليهم و بعده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۲

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۵۱ الى ۵۸]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ (۵۱) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (۵۲) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (۵۳) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ (۵۴) قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (۵۵)

قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۵۶) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (۵۷) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (۵۸)

التّفسير

تخطيط إبراهيم عليه السّلام لتحطيم الأصنام:

قلنا: أنّ هذه السورة تحدّثت- كما هو معلوم من اسمها- عن جوانب عديدة من حالات الأنبياء- ستّة عشر نبيّا- فقد أشير فى الآيات السابقة إشارة قصيرة إلى رسالة موسى و هارون عليهما السّلام، و عكست هذه الآيات و بعض الآيات الآتية جانبا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۳

مهمّا من حياة إبراهيم عليه السّلام و مواجهته لعبدة الأصنام، فتقول أوّلا: وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ

«الرشد» فى الأصل بمعنى السير إلى المقصد و الغاية، و من الممكن أن يكون هنا إشارة إلى حقيقة التوحيد، و أنّ إبراهيم عرفها و اطّلع عليها منذ سنى الطفولة.

و قد يكون إشارة إلى كلّ خير و صلاح بمعنى الكلمة و الواسع.

و التعبير ب مِنْ قَبْلُ إشارة إلى ما قبل موسى و هارون عليهما السّلام.

و جملة وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ إشارة إلى مؤهّلات و استعدادات إبراهيم لاكتساب هذه المواهب، و فى الحقيقة إنّ اللّه سبحانه لا يهب موهبة عبثا و بلا حكمة، فإنّ هذه المؤهّلات استعداد لتقبّل المواهب الإلهيّة، و إن كان مقام النبوّة مقاما موهوبا.

ثمّ أشارت إلى أحد أهمّ مناهج إبراهيم عليه السّلام، فقالت: إنّ رشد إبراهيم قد بان عند ما قال لأبيه و قومه- و هو إشارة إلى عمّه آزر، لأنّ العرب تسمّى العمّ أبا- ما هذه التماثيل التى تعبدونها؟ إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ

لقد حقّر إبراهيم عليه السّلام الأصنام التى كان لها قدسيّة فى نظر هؤلاء بتعبير ما هذِهِ ۱۲۵] أوّلا، و ثانيا بتعبير التَّماثِيلُ لأنّ التمثال يعنى الصورة أو المجسّمة التى لا روح لها. و يقول تاريخ عبادة الأصنام: إنّ هذه المجسّمات و الصور كانت فى البداية ذكرى للأنبياء

و العلماء، إلّا أنّها اكتسبت قدسيّة و أصبحت آلهة معبودة بمضى الزمان.

و جملة أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ بملاحظة معنى «العكوف» الذى يعنى الملازمة المقترنة بالاحترام، توحى بأنّ أولئك كانوا يحبّون الأصنام، و يطأطئون رؤوسهم فى حضرتها و يطوفون حولها، و كأنّهم كانوا ملازميها دائما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۴

إنّ مقولة إبراهيم عليه السّلام هذه فى الحقيقة استدلال على بطلان عبادة الأصنام، لأنّ ما نراه من الأصنام هو المجسّمة و التمثال، و الباقى خيال و ظنّ و أوهام، فأى إنسان عاقل يسمح لنفسه أن يوجب عليها كلّ هذا التعظيم و الاحترام لقبضة حجر أو كومة خشب؟ لماذا يخضع الإنسان- الذى هو أشرف المخلوقات- أمام ما صنعه بيده، و يطلب منه حلّ مشاكله و معضلاته؟! إلّا أنّ عبدة الأصنام لم يكن عندهم- فى الحقيقة- جواب أمام هذا المنطق السليم القاطع، سوى أن يبعدوا المسألة عن أنفسهم و يلقوها على عاتق آبائهم، و لهذا قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ

و لمّا كانت حجّتهم بأنّ «هذه العبادة هى سنّة الآباء» غير مجدية نفعا .. و لا نمتلك دليلا على أنّ السابقين من الآباء و الأجداد أعقل و أكثر معرفة من الأجيال المقبلة، بل القضيّة على العكس غالبا، لأنّ العلم يتّسع بمرور الزمن، فأجابهم إبراهيم مباشرة ف قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ

إنّ هذا التعبير المقترن بأنواع التأكيدات، و الحاكى عن الحزم التامّ سبّب أن يرجع عبدة الأصنام إلى أنفسهم قليلا، و يتوجّهوا إلى التحقّق من قول إبراهيم، فأتوا إلى إبراهيم قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ لأنّ أولئك الذين كانوا قد اعتادوا على عبادة الأصنام، و كانوا يظنّون أنّ ذلك حقيقة حتميّة، و لم يكونوا يصدّقون أنّ أحدا يخالفها بصورة جدّيّة، و لذلك سألوا إبراهيم هذا السؤال تعجّبا، إلّا أنّ إبراهيم أجابهم بصراحة: قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

إنّ إبراهيم عليه السّلام قد بيّن بهذه الكلمات القاطعة أنّ الذى يستحقّ العبادة هو خالقهم و خالق الأرض و كلّ الموجودات، أمّا قطع الحجر و الخشب المصنوعة فهى لا شىء، و ليس لها حقّ العبادة، و خاصة و قد أكّد بجملة وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فأنا لست الشاهد الوحيد على هذه الحقيقة، بل إنّ كلّ العقلاء الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۵

قطعوا حبل التقليد الأعمى شاهدون على هذه الحقيقة.

و من أجل أن يثبت إبراهيم جدّيّة هذه المسألة، و أنّه ثابت على عقيدته إلى أبعد الحدود، و أنّه يتقبّل كلّ ما يترتّب على ذلك بكلّ وجوده، أضاف: وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ

«أكيدنّ» مأخوذة من الكيد، و هو التخطيط السرى، و التفكير المخفى و كان مراده أن يفهمهم بصراحة بأنّنى سأستغلّ فى النهاية فرصة مناسبة و احطّم هذه الأصنام.

إلّا أنّ عظمة و هيبة الأصنام فى نفوسهم ربّما كانت قد بلغت حدّا لم يأخذوا معه كلام إبراهيم مأخذ الجدّ، و لم يظهروا ردّ فعل تجاهه، و ربّما ظنّوا بأنّ أى إنسان لا يسمح لنفسه أن يهزأ و يسخر من مقدّسات قوم تدعم حكومتهم تلك المقدّسات تماما، بأيّة جرأة؟ و بأيّة قوّة؟! و من هنا يتّضح أنّ ما قاله بعض المفسّرين من أنّ هذه الجملة قد قالها إبراهيم سرّا فى نفسه، أو بيّنها لبعض بصورة خاصّة لا داعى له، خاصّة و أنّه مخالف تماما لظاهر الآية. إضافة إلى أنّنا سنقرأ بعد عدّة آيات أنّ عبّاد الأصنام قد تذكّروا قول إبراهيم، و قالوا: سمعنا فتى كان يتحدّث عن مؤامرة ضدّ الأصنام.

على كلّ حال، فإنّ إبراهيم نفّذ خطّته فى يوم كان معبد الأوثان خاليا من الناس و لم يكن أحد من الوثنيين حاضرا.

و توضيح ذلك: إنّه طبقا لنقل بعض المفسّرين، فإنّ عبدة الأوثان كانوا قد اتّخذوا يوما خاصّا من كلّ سنة عيدا لأصنامهم، و كانوا يحضرون الأطعمة عند أصنامهم فى المعبد فى ذلك اليوم، ثمّ يخرجون من المدينة أفواجا، و كانوا يرجعون فى آخر النهار، فيأتون

إلى المعبد ليأكلوا من ذلك الطعام الذى نالته البركة فى اعتقادهم.

و كانوا قد عرضوا على إبراهيم أن يخرج معهم، إلّا أنّه اعتذر بالمرض و لم

يخرج معهم.

على كلّ حال، فإنّ إبراهيم من دون أن يحذر من مغبّة هذا العمل و ما سيحدث من غضب عبدة الأصنام العارم، دخل الميدان برجولة و توجّه إلى حرب هذه الآلهة الجوفاء- التى لها أنصار متعصّبون جهّال- بشجاعة خارقة و حطّمها بصورة يصفها القرآن فيقول: فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ و كان هدفه من تركه لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۱۲۶].

ملاحظتان

۱- الصنميّة فى أشكال متعدّدة

صحيح أنّ أذهاننا تنصرف من لفظ عبادة الأصنام إلى الأصنام الحجرية و الخشبية على الأكثر، إلّا أنّ الصنم و الصنمية- من وجهة نظر- لها مفهوم واسع يشمل كلّ ما يبعد الإنسان عن اللّه، بأى شكل و صورة كان، حيث

يقول الحديث المعروف: «كلّما شغلك عن اللّه فهو صنمك».

و

فى حديث عن الأصبغ بن نباته- و هو أحد أصحاب الإمام على عليه السّلام المعروفين أنّه قال: انّ عليا عليه السّلام مرّ بقوم يلعبون الشطرنج، فقال: «ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ لقد عصيتم اللّه و رسوله»[۱۲۷].

۲- قول عبدة الأصنام و جواب إبراهيم

ممّا يلفت النظر أنّ عبدة الأصنام قالوا فى جواب إبراهيم عليه السّلام، اعتمادا على كثرتهم، و على طول الزمان: إنّا وجدنا آباءنا على هذا الدين. فأجابهم على كلا الشقين، بأنّكم كنتم أنتم و آباؤكم فى ضلال مبين دائما. أى إنّ الإنسان العاقل الذى له تفكير مستقل لا يربط نفسه بمثل هذه الأوهام مطلقا، فلا يعتبر كثرة الأنصار للمذهب المتداول دليلا على أصالته، و كذلك لا يعتنى بدوامه و تجذّره.

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۵۹ الى ۶۷]

اشارة

قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۵۹) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (۶۰) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (۶۱) قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (۶۲) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (۶۳)

فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (۶۴) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (۶۵) قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ (۶۶) أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۷)

التّفسير

إبراهيم و برهانه المبين:

و أخيرا انتهى يوم العيد، و رجع عبدة الأصنام فرحين إلى المدينة، فأتوا إلى المعبد مباشرة، حتّى يظهروا ولاءهم للأصنام، و ليأكلوا من الأطعمة التى تبرّكت-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۹

بزعمهم- بمجاورة الأصنام. فما أن دخلوا المعبد حتّى واجهوا منظرا أطار عقولهم من رؤوسهم، فقد وجدوا تلّا من الأيادى و الأرجل المكسّرة المتراكمة بعضها على البعض الآخر فى ذلك المعبد المعمور، فصاحوا و قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا[۱۲۸]؟! و لا ريب أنّ من فعل ذلك ف إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ فقد ظلم آلهتنا و مجتمعنا و نفسه! لأنّه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلّا أنّ جماعة منهم تذكّروا ما سمعوه من إبراهيم عليه السّلام و ازدرائه بالأصنام و تهديده لها و طريقة تعامله السلبى لهذه الآلهة المزعومة! قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ ۱۲۹].

صحيح أنّ إبراهيم- طبقا لبعض الرّوايات- كان شابا، و ربّما لم يكن سنّة يتجاوز (۱۶) عاما، و صحيح أنّ كلّ خصائص الرجولة من الشجاعة و الشهامة و الصراحة و الحزم قد جمعت فيه، إلّا أنّه من المسلّم به أنّ مراد عبّاد الأصنام لم يكن سوى التحقير، فبدل أن يقولوا: إنّ إبراهيم قد فعل هذا الفعل، قالوا: إنّ فتى يقال له إبراهيم كان يقول كذا ... أى إنّه فرد مجهول تماما، و لا شخصيّة له فى نظرهم.

إنّ المألوف- عادة- عند ما تقع جريمة فى مكان ما، فإنّه و من أجل كشف الشخص الذى قام بهذا العمل، تبحث علاقات الخصومة و العداء، و من البديهى أنّه لم يكن هناك شخص فى تلك البيئة من يعادى الأصنام غير إبراهيم، و لذلك توجّهت إليه أفكار الجميع، و قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بالجريمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۰

و احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد مشاهدة منظر عقاب إبراهيم، لا الشهادة على كونه مجرما. غير أنّ الآيات المقبلة التى لها صبغة التحقيق و الاستجواب تنفى هذا الاحتمال، إضافة إلى أنّ التعبير ب «لعلّ» لا يناسب المعنى الثّانى، لأنّ الناس إذا حضروا ساحة العقاب فسيشاهدون ذلك المنظر حتما، فلا معنى ل «لعلّ».

فنادى المنادون فى نواحى المدينة: «ليحضر كلّ من يعلم بعداء إبراهيم و إهانته للأصنام»، فاجتمع كلّ الذين كانوا يعلمون بالموضوع، و كذلك سائر الناس ليروا أين ستصل عاقبة عمل هذا المتّهم؟

لقد حدثت ضجّة و همهمة عجيبة بين الناس، لأنّ هذا العمل كان فى نظرهم جريمة لم يسبق لها نظير من قبل شابّ مثير للفتن و المتاعب، و كانت قد هزّت البناء الدينى للناس.

و أخيرا تشكّلت المحكمة، و كان زعماء القوم قد اجتمعوا هناك، و يقول بعض المفسّرين: أنّ نمرود نفسه كان مشرفا على هذه المحاكمة، و أوّل سؤال وجّهوه إلى إبراهيم عليه السّلام هو أن: قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ

هؤلاء لم يكونوا مستعدّين حتّى للقول: أ أنت حطّمت آلهتنا و جعلتها قطعا متناثرة؟ بل قالوا فقط: أ أنت فعلت بآلهتنا ذلك؟

فأجابهم إبراهيم جوابا أفحمهم، و جعلهم فى حيرة لم يجدوا منها مخرجا قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ

إنّ من أسس علم معرفة الجرائم أن يكون المتّهم بادية عليه آثار الجريمة، و الملاحظ هنا أنّ آثار الجريمة كانت بادية على يد الصنم

الكبير، [وفقا للروايـة المعروفة: إنّ إبراهيم جعل الفأس على رقبة الصـنم الكبير.] لماذا تأتون إلىّ؟ و لماذا لا تتّهمون إلهكم الكبير؟ ألا تحتملون أنّه غضب على الآلهة الصغيرة، أو إنّه اعتبرهم منافسيه فى المستقبل فعاقبهم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۱

و لمّا كان ظاهر هـذا التعبير لا يطابق الواقع فى نظر المفسّرين، و لمّا كان إبراهيم نبيّا معصوما و لا يكـذب أبـدا، فقـد ذكروا تفاسير مختلفة، و أفضلها كما يبدو هو:

إنّ إبراهيم عليه السّلام قد نسب العمل إلى كبير الأصـنام قطعا، إلّا أنّ كلّ القرائن تشـهد أنّه لم يكن جادّا فى قصده، بل كان يريد أن يزعزع عقائد الوثنين الخرافية الواهية، و يفنّدها أمامهم، و يفهم هؤلاء أنّ هذه الأحجار و الأخشاب التى لا حياة فيها ذليلة و عاجزة إلى الحـدّ الذى لا تستطيع أن تتكلّم بجملة واحدة تستنجد بعبّادها، فكيف يريدون منها أن تحلّ معضلاتهم؟! و نظير هذا التعبير كثير فى محادثاتنا اليوميّة، فنحن إذا أردنا إبطال أقوال الطرف المقابل نضع أمامه مسلّماته على هيئة الأمر أو الإخبار أو الاستفهام، و هذا ليس كذبا أبدا، بل الكذب هو القول الذى لا يمتلك القرينة معه.

و فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب الكافى: «إنّما قال: بل فعله كبيرهم، إرادة الإصلاح، و دلالة على أنّهم لا يفعلون» ثمّ قال: «و اللّه ما فعلوه و ما كذّب».

و احتمل جمع من المفسّرين أنّ إبراهيم قد أدّى هذا المطلب بشكل جملة شرطيّة و قال: إنّ الأصنام إذا كانت تتكلّم فإنّها قد فعلت هذا الفعل، و من المسلّم أنّ هذا التعبير لم يكن خلاف الواقع، لأنّ الأصنام لم تكن تتكلّم، و لم تكن قد أقدمت على مثل هذا العمل، و لم يصدر منها، و وردت رواية فى مضمون هذا التّفسير أيضا.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأقرب، لأنّ الجملة الشرطيّة «إن كانوا ينطقون» جواب الطلب فى «فاسألوهم»، و ليست شرطا لجملة «بل فعله كبيرهم».

(فلاحظوا بدقّة).

و اللطيفة الاخرى التى ينبغى الالتفات إليها هى: إنّ العبارة هى أنّه يجب أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۲

يسأل من الأصنام المحطّمة الأيدى و الأرجل عمّن فعل بها ذلك، لا من الصنم الكبير لأنّ ضمير (هم)، و كذلك ضمائر «إن كانوا ينطقون» كلّها بصيغة الجمع، و هذا أنسب مع التّفسير الأوّل ١٣٠].

لقد هزّت كلمات إبراهيم الوثنيين و أيقظت ضمائرهم النائمة الغافلة، و أزاح الرماد عن شعلة النّار فأضاءها، و أنار فطرتهم التوحيديّة من خلف حجب التعصّب و الجهل.

فى لحظة سريعة استيقظوا من هـذا النوم العميق و رجعوا إلى فطرتهم و وجدانهم، كما يقول القرآن: فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ١٣١] فقد ظلمتم أنفسكم و مجتمعكم الذى تنتمون إليه، و كذلك ساحة اللّه واهب النعم المقدّسة.

و الطريف فى الأمر أنّنا قرأنا فى الآيات السابقة أنّهم اتّهموا إبراهيم بكونه ظالما، و هنا قبلوا و اعترفوا فى أنفسهم بأنّ الظالم الأصلى و الحقيقى هو أنفسهم.

و فى الواقع فإنّ كلّ مراد إبراهيم من تحطيم الأصنام تحطيم فكر الوثنية و روح الصنمية، لا تحطيم الأصنام ذاتها، إذ لا جدوى من تحطيمها إذا صنع الوثنيّون العنودون أصناما أكبر منها و جعلوها مكانها، و توجد أمثلة كثيرة لهذه المسألة فى تأريخ الأقوام الجاهلين المتعصّبين.

إلى الآن استطاع إبراهيم أن يجتاز بنجاح مرحلة حسّاسة جدا من طريق تبليغه الرسالة، و هى إيقاظ الضمائر عن طريق إيجاد موجة نفسيّة هائجة.

و لكن للأسف، فإنّ صدأ الجهل و التعصّب و التقليد الأعمى كان أكبر من أن يصقل و يمحى تماما بنداء بطل التوحيد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۳

و للأسف لم تستمر هذه اليقظة الروحية المقدّسة، و ثارت في ضمائرهم الملوّثة المظلمة قوى الشيطان و الجهل ضدّ نور التوحيد هذا، و رجع كلّ شيء إلى حالته الأولى، و كم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ و من أجل أن يأتوا بعذر نيابة عن الآلهة البكم قالوا: لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ فإنّهم دائما صامتون، و لا يحطّمون حاجز الصمت. و أرادوا بهذا العذر الواهي أن يخفوا ضعف و ذلّة الأصنام.

و هنا فتح أمام إبراهيم الميدان و المجال للاستدلال المنطقي ليوجّه لهم أشدّ هجماته، و ليرمي عقولهم بوابل من التوبيخ و اللوم المنطقي الواعي: قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ فما ذا تنفع هذه الآلهة المزعومة الخياليّة التي لا قدرة لها على الكلام، و ليس لها شعور و إدراك، و لا تقدر أن تدافع عن نفسها، و لا تستطيع أن تحمي عبّادها، و لا يصدر عنها أي عمل؟

إنّ عبادة معبود ما إنّما يكون لأهليّته للعبادة، و مثل هذا الأمر لا معنى له في شأن الأصنام الميتة، أو يعبد رجاء فائدة و نفع تعود عليهم من قبله، أو الخوف من خسارتهم، إلّا أنّ إقدامي على تحطيم الأصنام أوضح أنّها لا تملك أدنى حركة، و مع هذا الحال ألا يعتبر عملكم هذا حمقا و جهالة؟! و وسّع معلّم التوحيد دائرة الكلام، و انهال بسياط التقريع على روحهم التي فقدت الإحساس، فقال: أُفٍّ ۱۳۲] لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ إلّا أنّه لم يلحّ في توبيخهم و تقريعهم لئلّا يلجّوا في عنادهم.

في الحقيقة، كان إبراهيم يتابع خطّته بدقّة متناهية، فأوّل شيء قام به عند دعوتهم إلى التوحيد هو أن ناداهم قائلا: ما هذه التماثيل التي تعبدونها؟ و هي

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۴

لا تحسّ و لا تتكلّم و إذا كنتم تقولون: إنّها سنّة آبائكم، فقد كنتم أنتم و آباؤكم في ضلال مبين.

و في المرحلة الثّانية أقدم على خطّة عملية ليبيّن أنّ هذه الأصنام ليست لها تلك القدرة على إهلاك كلّ من ينظر إليها نظرة احتقار، خاصة و أنّه ذهب إليها مع سابق إنذار و حطّمها تماما، و ليوضّح أنّ تلك الأوهام التي حاكوها مجتمعين لا فائدة و لا ثمر فيها.

و في المرحلة الثّالثة أوصلهم في تلك المحكمة التاريخيّة إلى طريق مسدود، فمرّة دخل إليهم عن طريق فطرتهم، و تارة خاطب عقولهم، و أخرى وعظّهم، و أحيانا وبّخهم و لامهم.

و الخلاصة، فإنّ هذا المعلّم الكبير قد دخل من كلّ الأبواب، و استخدم كلّ طاقته، إلّا أنّ من المسلّم أنّ القابلية شرط في التأثير، و كان هذا قليل الوجود بين أولئك القوم للأسف.

و لكن لا شكّ أنّ كلمات إبراهيم عليه السّلام و أفعاله بقيت كأرضيّة للتوحيد، أو على الأقل بقيت كعلامات استفهام في أذهان أولئك، و أصبحت مقدّمة ليقظة و وعي أوسع في المستقبل. و يستفاد من التواريخ أنّ جماعة آمنوا به، و هم و إن قلّوا عددا، إلّا أنّهم كانوا من الأهميّة بمكان، إذ هيّئوا الاستعداد النسبي لفئة أخرى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۵

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۶۸ الى ۷۰]

اشارة

قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (۶۸) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (۶۹) وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (۷۰)

التّفسير

عند ما تصير النّار جنّة:

مع أنّ عبدة الأوثان أسقط ما فی أیدیهم نتیجة استدلالات إبراهیم العملیّة و المنطقیّة، و اعترفوا فی أنفسهم بهذه الهزیمة، إلّا أنّ عنادهم و تعصّبهم الشدید منعهم من قبول الحقّ، و لذلک فلا عجب من أنّ یتّخذوا قرارا صارما و خطیرا فی شأن إبراهیم، و هو قتل إبراهیم بأبشع صورة، أی حرقه و جعله رمادا! هناک علاقة عکسیة بین القوّة و المنطق عادة، فکلّ من اشتدّت قوّته ضعف منطقه، إلّا رجال الحقّ فإنّهم کلّما زادت قوتهم یصبحون أکثر تواضعا و منطقا.

و عند ما لا یحقّق المتعصّبون شیئا عن طریق المنطق، فسوف یتوسّلون بالقوّة فورا، و قد طبّقت هذه الخطّة فی حقّ إبراهیم تماما کما یقول القرآن الکریم:

قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ فاعِلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۶

إنّ المتسلّطین المتعنّتین یستغلّون نقاط الضعف النفسیّة لدی الغوغاء من الناس لتحریکهم- عادة- لمعرفتهم بالنفسیات و مهارتهم فی عملهم! و کذلک فعلوا فی هذه الحادثة، و أطلقوا شعارات تثیر حفیظتهم، فقالوا: إنّ آلهتکم و مقدّساتکم مهدّدة بالخطر، و قد سحقت سنّة آبائکم و أجدادکم، فأین غیرتکم و حمیّتکم؟! لماذا أنتم ضعفاء أذلّاء؟ لماذا لا تنصرون آلهتکم؟ احرقوا إبراهیم و انصروا آلهتکم- إذا کنتم لا تقدرون علی أی عمل- ما دام فیکم عرق ینبض، و لکم قوّة و قدرة.

أنظروا إلی کلّ الناس یدافعون عن مقدّساتهم، فما بالکم و قد أحدق الخطر بکلّ مقدّساتکم؟! و الخلاصة، فقد قالوا الکثیر من أمثال هذه لخزعبلات و أثاروا الناس ضدّ إبراهیم بحیث أنّهم لم یکتفوا بعدّة حزم من الحطب تکفی لإحراق عدّة أشخاص، بل أتوا بآلاف الحزم و ألقوها حتّی صارت جبلا من الحطب ثمّ أشعلوه فاتّقدت منه نار مهولة کأنّها البحر المتلاطم و الدخان یتصاعد إلی عنان السّماء لینتقموا من إبراهیم أوّلا، و لیحفظوا مهابة أصنامهم المزعومة التی حطّمتها خطّته و أسقطت أبّهتها!! لقد کتب المؤرخّون هنا مطالب کثیرة، لا یبدو أی منها بعیدا، و من جملتها قولهم: إنّ الناس سعوا أربعین یوما لجمع الحطب، فجمعوا منه الکثیر من کلّ مکان، و قد وصل الأمر إلی أنّ النساء اللآتی کان عملهنّ الحیاکة فی البیوت، خرجن و أضفن تلّا من الحطب إلی ذلک الحطب، و وصّی المرضی المشرفون علی الموت بمبلغ من أموالهم لشراء الحطب، و کان المحتاجون ینذرون بأنّهم یضیفون مقدارا من الحطب إذا قضیت حوائجهم، و لذلک عند ما أشعلوا النّار فی الحطب من کلّ جانب اشتعلت نار عظیمة بحیث لا تستطیع الطیور أن تمرّ فوقها.

من البدیهی أنّ نارا بهذه العظمة لا یمکن الاقتراب منها، فکیف یریدون أن یلقوا إبراهیم فیها، و من هنا اضطروا إلی الاستعانة بالمنجنیق، فوضعوا إبراهیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۷

علیه و ألقوه فی تلک النّار المترامیة الأطراف بحرکة سریعة[۱۳۳].

و نقرأ فی الرّوایات المنقولة عن طرق الشّیعة و السنّة أنّهم عند ما وضعوا إبراهیم علی المنجنیق، و أرادوا أن یلقوه فی النّار، ضجّت السّماء و الأرض و الملائکة، و سألت اللّه سبحانه أن یحفظ هذا الموحد البطل و زعیم الرجال الأحرار.

و نقلوا أیضا أنّ جبرئیل جاء للقاء إبراهیم، و قال له: أ لک حاجة؟ فأجابه إبراهیم بعبارة موجزة: «أمّا إلیک فلا» إنّی أحتاج إلی من هو غنی عن الجمیع، و رؤوف بالجمیع.

و هنا اقترح علیه جبرئیل فقال: فاسأل ربّک، فأجابه:

«حسبی من سؤالی علمه بحالی»[۱۳۴].

و

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام: إنّ إبراهیم ناجی ربّه فی تلک الساعة:

«یا أحد یا أحد، یا صمد یا صمد، یا من لم یلد و لم یولد، و لم یکن له کفوا أحد، توکّلت علی اللّه»[۱۳۵].

کما ورد هذا الدعاء بعبارات مختلفة و فی العدید من المصادر الأخری.

و علی کلّ حال، فقد القی إبراهیم فی النّار وسط زعاریـد الناس و سرورهم و صراخهم، و قد أطلقوا أصوات الفرح ظانّین أنّ محطّم الأصنام قد فنی إلی الأبد و أصبح ترابا و رمادا.

لکنّ اللّه الذی بیده کلّ شیء حتّی النّار لا تحرق إلّا بإذنه، شاء أن یبقی هذا العبد المؤمن المخلص سالما من لهب تلک النّار الموقدة لیضیف وثیقة فخر جدیدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۸

إلی سجل افتخاراته، و کما یقول القرآن الکریم: قُلْنا یا نارُ کُونِی بَرْداً وَ سَلاماً عَلی إِبْراهِیمَ

لا شکّ أنّ أمر اللّه هنا کان أمرا تکوینیّا، کالأمر الذی یصدره فی عالم الوجود إلی الشمس و القمر، و الأرض و السّماء، و الماء و النّار، و النباتات و الطیور.

و المعروف أنّ النّار قد بردت بردا شدیدا اصطکّت أسنان إبراهیم منه، و حسب قول بعض المفسّرین: إنّ اللّه سبحانه لو لم یقل: سلاما، لمات إبراهیم من شدّة البرد. و کذلک نقرأ فی روایة مشهورة أنّ نار النمرود قد تحوّلت إلی حدیقة غناء[۱۳۶]. حتّی قال بعض المفسّرین إنّ تلک اللحظات التی کان فیها إبراهیم فی النّار، کانت أهدأ و أفضل و أجمل أیّام عمره ۱۳۷].

علی کلّ حال، فهناک اختلاف کبیر بین المفسّرین فی کیفیة عدم إحراق النّار لإبراهیم، إلّا أنّ مجمل الکلام أنّه فی فلسفة التوحید لا یصدر أی مسبّب عن أی سبب إلّا بأمر اللّه، فیقول یوما للسکّین التی فی ید إبراهیم: لا تقطعی، و یقول یوما آخر للنار: لا تحرقی، و یوما آخر یأمر الماء الذی هو أساس الحیاة أن یغرق فرعون و الفراعنة! و یقول اللّه سبحانه فی آخر آیة من الآیات محلّ البحث علی سبیل الاستنتاج باقتضاب: أنّهم تآمروا علیه لیقتلوه و لکن النتیجة لم تکن فی صالحهم وَ أَرادُوا بِهِ کَیْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِینَ

لا یخفی أنّ الوضع قد اختلف تماما ببقاء إبراهیم سالما، و خمدت أصوات الفرح، و بقیت الأفواه فاغرة من العجب، و کان جماعة یتهامسون علنا فیما بینهم حول هذه الظاهرة العجیبة، و أصبحت الألسن تلهج بعظمة إبراهیم و ربّه، و أحدق الخطر بوجود نمرود و حکومته، غیر أنّ العناد ظلّ مانعا من قبول الحقّ، و إن کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۹

أصحاب القلوب الواعیة قد استفادوا من هذه الواقعة، و زاد إیمانهم مع قلّتهم.

بحوث

۱- السعی للخیر و الشرّ

قد یغرق الإنسان أحیانا فی عالم الأسباب حتّی یخیّل إلیه أنّ الآثار و الخواص من نفس هذه الموجودات، و یغفل عن المبدأ العظیم الذی وهب هذه الآثار المختلفة لهذه الموجودات، و یغفل عن المبدأ العظیم الذی وهب هذه الآثار المختلفة لهذه الموجودات، و من أجل أن یوقظ اللّه العباد یشیر إلی أنّ بعض الموجودات التافهة قد تصبح مصدرا للآثار العظیمة، فیأمر العنکبوت أن تنسج عدّة خیوط

رقيقة ضعيفة على باب غار ثور، و تجعل الذين كانوا يطاردون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و يبحثون عنه فى كلّ مكان يائسين من العثور عليه، و لو ظفروا به لقتلوه، و لتغيّر مجرى التأريخ بهذا الأمر الهيّن ..

و على العكس من ذلك، فإنّه يعطّل الأسباب التى يضرب بها المثل فى عالم المادّة- كالنّار فى الإحراق، و السكّين فى القطع- عن العمل، ليعلم أنّ هذه أيضا ليس لها أمر و قدرة ذاتية فى العمل، فإنّها تقف عن العمل إذا نهاها ربّها الجليل فتكفّ حتّى لو أمرها إبراهيم الخليل عليه السّلام.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقائق التى رأينا أمثلة كثيرة لها فى الحياة، تحيى فى العبد المؤمن روح التوحيد و التوكّل حتّى أنّه لا يفكّر إلّا فى اللّه، و لا يطلب العون إلّا منه، فيطلب منه- وحده- إطفاء نار المشاكل و المعضلات، و يسأله أن يدفع كيد الأعداء، فلا يرى غيره، و لا يرجو شيئا من غيره.

۲- الفتى الشّجاع

جاء فى بعض كتب التّفسير أنّ إبراهيم لمّا ألقى فى النّار لم يكن عمره يتجاوز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۰

ست عشرة سنة[۱۳۸] و ذكر البعض الآخر أنّ عمره عند ذاك كان (۲۶) سنة[۱۳۹].

و على كلّ حال فإنّه كان فى عمر الشباب، و مع أنّه لم يكن معه أحد يعينه، فإنّه رمى بسهم المواجهة فى وجه طاغوت زمانه الكبير الذى كان حاميا للطواغيت الآخرين، وهبّ بمفرده لمقارعة الجهل و الخرافات و الشرك، و استهزاء بكلّ مقدّسات المجتمع الخيالية الواهية، و لم يدع للخوف من غضب و انتقام الناس أدنى سبيل إلى نفسه، لأنّ قلبه كان مغمورا بعشق اللّه، و كان اعتماده و توكّله على الذات المقدّسة فحسب.

أجل ... هكذا هو الإيمان، أينما وجد وجدت الشهامة، و كلّ من حلّ فيه فلا يمكن أن يقهر! إنّ أهمّ الاسس التى ينبغى للمسلمين الاهتمام بها لمقارعة القوى الشيطانية الكبرى، فى دنيا اليوم المضطربة، هو هذا الأساس و الرأسمال العظيم، و هو الإيمان،

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ المؤمن أشدّ من زبر الحديد، إنّ زبر الحديد إذا دخل النّار تغيّر، و إنّ المؤمن لو قتل ثمّ نشر ثمّ قتل لم يتغيّر قلبه»[۱۴۰].

۳- إبراهيم و نمرود

جاء فى التواريخ أنّه عند ما ألقوا إبراهيم فى النّار، كان نمرود على يقين من أنّ إبراهيم قد أصبح رمادا، أمّا عند ما دقّق النظر و وجده حيّا، قال لمن حوله: إنّى أرى إبراهيم حيّا، لعلّى يخيّل إلىّ! فصعد على مرتفع و رأى حاله جيدا فصاح نمرود: يا إبراهيم إنّ ربّك عظيم، و قد أوجد بقدرته حائلا بينك و بين النّار! و لذلك فإنّى أريد أن أقدّم قربانا له، و أحضر أربعة آلاف قربان لذلك، فأعاد إبراهيم القول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۱

عليه بأنّ أى قربان- و أى عمل- لا يتقبّل منك إلّا أن تؤمن أوّلا. غير أنّ نمرود قال فى الجواب: فسيذهب سلطانى و ملكى سدى إذن، و ليس بإمكانى أن أتحمّل ذلك! على كلّ حال، فإنّ هذه الحوادث صارت سببا لإيمان جماعة من ذوى القلوب الواعية بربّ إبراهيم عليه السّلام، أو يزدادوا إيمانا، و ربّما كان هذا هو السبب فى عدم إظهار نمرود ردّ فعل قوى ضدّ إبراهيم، بل اكتفى بإبعاده

عن أرض بابل ۱۴۱].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۲

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۱ الى ۷۳]

اشارة

وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (۷۱) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ (۷۲) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ (۷۳)

التّفسير

هجرة إبراهيم من أرض الوثنيين

لقد هزّت قصّة حريق إبراهيم عليه السّلام و نجاته الإعجازية من هذه المرحلة الخطيرة أركان حكومة نمرود، بحيث فقد نمرود معنوياته تماما، لأنّه لم يعد قادرا على أن يظهر إبراهيم بمظهر الشاب المنافق و المثير للمشاكل. فقد عرف بين الناس بأنّه مرشد إلهي و بطل شجاع يقدر على مواجهة جبّار ظالم- بكلّ إمكانياته و قدرته- بمفرده، و أنّه لو بقي في تلك المدينة و البلاد على هذا الحال، و مع ذلك اللسان المتكلّم و المنطق القوي، و الشهامة و الشجاعة التي لا نظير لها، فمن المحتّم أنّه سيكون خطرا على تلك الحكومة الجبّارة الغاشمة، فلا بدّ أن يخرج من تلك الأرض على أي حال.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۳

و من جهة أخرى، فإنّ إبراهيم كان قد أدّى رسالته في الواقع- في تلك البلاد، و وجّه ضربات ما حقة إلى هيكل و بنيان الشرك، و بذر بذور الإيمان و الوعي في تلك البلاد، و بقيت المسألة مسألة وقت لتنمو هذه البذور و تبدي ثمارها، و تقلع جذور الأصنام و عبادتها، و تسحب البساط من تحتها.

فلا بدّ من الهجرة إلى موطن آخر لإيجاد أرضية لرسالته هناك، و لذلك صمّم على الهجرة إلى الشام بصحبة لوط- و كان ابن أخ إبراهيم- و زوجته سارة، و ربّما كان معهم جمع قليل من المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم: وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ

و بالرغم من أنّ اسم هذه الأرض لم يرد صريحا في القرآن، إلّا أنّه بملاحظة الآية الأولى من سورة الإسراء: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ يتّضح أنّ هذه الأرض هي أرض الشام ذاتها، التي كانت من الناحية الظاهرية أرضا غنيّة مباركة خضراء، و من الجهة المعنوية كانت معهدا لرعاية الأنبياء.

و قد وردت بحوث مختلفة في التفاسير و الرّوايات في أنّ إبراهيم عليه السّلام هاجر تلقائيا، أم أبعدته سلطات نمرود، أم أنّ الإثنين اشتركا، و الجمع بينها جميعا هو أنّ نمرود و من حوله كانوا يرون في إبراهيم خطرا كبيرا عليهم، فأجبروه على الخروج من تلك البلاد، هذا من جهة، و من جهة أخرى، فإنّ إبراهيم كان يرى أنّ رسالته و مهمّته في تلك الأرض قد انتهت، و كان يبحث عن منطقة أخرى للعمل على توسيع دعوة التوحيد فيها، خاصة و أنّ البقاء في بابل قد يشكّل خطرا على حياته فتبقى دعوته العالمية ناقصة.

و

في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: إنّ نمرود «أمر أن ينفوا إبراهيم من بلاده، و أن يمنعوه من الخروج بماشيته و ماله، فحاجّهم

إبراهيم عند ذلك فقال: إن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۴

أخذتم ماشيتى و مالى فحقّى عليكم أن تردّوا علىّ ما ذهب من عمرى فى بلادكم، فاختصموا إلى قاضى نمرود، و قضى على إبراهيم أن يسلّم إليهم جميع ما أصاب فى بلادهم، و قضى على أصحاب نمرود أن يردّوا على إبراهيم ما ذهب من عمره فى بلادهم، فأخبر بذلك نمرود، فأمرهم أن يخلّوا سبيله و سبيل ماشيته و ماله، و أن يخرجوه، و قال: إنّه إن بقى فى بلادكم أفسد دينكم و أضرّ بآلهتكم»[۱۴۲].

و أشارت الآية التالية إلى أحد أهمّ مواهب اللّه لإبراهيم، و هى هبته الولد الصالح، و النسل المفيد، فقالت: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً[۱۴۳] وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ فقد مرّت أعوام طوال و إبراهيم فى لهفة و انتظار للولد الصالح، و الآية (۱۰۰) من سورة الصافات ناطقة بأمنيته الباطنية هذه: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ و أخيرا استجاب له ربّه، فوهبه إسماعيل أوّلا، و من بعد إسحاق، و كان كلّ منهما نبيّا عظيم الشخصيّة.

إنّ التعبير ب «نافلة»- و الذى يبدو أنّه وصف ليعقوب خاصّة- من جهة أنّ إبراهيم عليه السّلام كان قد طلب الولد الصالح فقد، فأضاف اللّه إلى مراده حفيدا صالحا أيضا، لأنّ النافلة فى الأصل تعنى الهبة أو العمل الإضافى.

و تشير الآية الأخيرة إلى مقام إمامة و قيادة هذا النّبى الكبير، و إلى جانب من صفات الأنبياء و مناهجهم المهمّة القيّمة بصورة جماعية.

لقد عدّت فى هذه الآية ستّة أقسام من هذه الخصائص، و إذا أضيف إليها وصفهم بكونهم صالحين- و الذى يستفاد من الآية السابقة- فستصبح سبعة.

و يحتمل أيضا أن يكون مجموع الصفات الست التى ذكرت فى هذه الآية تفصيلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۵

و تبيانا لصلاح أولئك، و الذى ورد فى الآية السابقة.

يقول أوّلا: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً أى إنّنا وهبناهم مقام الإمامة إضافة إلى مقام النّبوّة و الرسالة، و الإمامة- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- هى آخر مراحل سير الإنسان التكاملى، و التى تعنى القيادة العامّة الشاملة لكلّ الجوانب الماديّة و المعنوية، و الظاهرية و الباطنية، و الجسميّة و الروحية للناس.

و الفرق بين النبوّة و الرسالة و بين الإمامة، هو أنّ الأنبياء فى مقام النبوّة و الرسالة يتلقّون أوامر اللّه و يبلّغونها الناس إبلاغا مقترنا بالإنذار أو البشارة فقط، أمّا فى مرحلة الإمامة فإنّهم ينفّذون هذا البرنامج الإلهى، سواء كان هذا التنفيذ عن طريق تشكيل حكومة عادلة أو بدون ذلك، فهم فى هذه المرحلة مربّون للناس، و معلّمون لهم، و منفّذون للأحكام و البرامج فى سبيل إيجاد بيئة طاهرة نزيهة إنسانية.

فى الحقيقة، إنّ مقام الإمامة مقام تنفيذ كلّ الخطط و الاطروحات الإلهيّة، و بتعبير آخر: الإيصال إلى المطلوب، و الهداية التشريعيّة و التكوينيّة، فالإمام من هذه الناحية كالشمس التى تنمى الكائنات الحيّة بأشّعتها تماما[۱۴۴].

ثمّ يذكر فى المرحلة التالية ثمرة هذا المقام، فيقول: يَهْدُونَ بِأَمْرِنا و لا يعنى بالهداية الإرشاد و بيان الطريق الصحيح، و الذى هو من شأن النبوّة و الرسالة، بل يعنى الأخذ باليد و الإيصال إلى المقصود. و هذا بالطبع لمن له الاستعداد و اللياقة و الأهليّة.

أمّا الموهبة الثّالثة الرّابعة و الخامسة فقد عبّر عنها القرآن بقوله: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ و هذا الوحى يمكن أن يكون وحيا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۶

تشريعيّا، أى إنّنا جعلنا كلّ أنواع أعمال الخير و أداء الصلاة و إعطاء الزكاة فى مناهجهم الدينيّة. و يمكن أيضا أن يكون وحيا تكوينيّا،

أی إنّنا وهبنا لهم التوفیق و القدرة و الجاذبیة المعنویة من أجل تنفیذ هذه الأمور.

طبعا، لیس لأی من هذه الأمور صبغة إجباریة و اضطراریة، و حتّی مجرّد الأهلیة و الاستعداد و الأرضیة لوحدها من دون إرادتهم و تصمیمهم لا توصل إلی نتیجة.

إنّ ذکر إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِیتاءَ الزَّکاةِ بعد فعل الخیرات، من أجل أهمیّة هذین الأمرین اللذین بیّنا أوّلا بصورة عامّة فی جملة وَ أَوْحَیْنا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْراتِ ثمّ بصورة خاصّة فی التصریح بهما، و هذا ما یبحثه علماء البلاغة العربیة تحت عنوان ذکر الخاص بعد العام ...

و فی آخر فصل أشار إلی مقام العبودیة، فقال: وَ کانُوا لَنا عابِدِینَ ۱۴۵].

و التعبیر ب «کانوا» الذی یدلّ علی الماضی المستمر فی هذا المنهج، ربّما کان إشارة إلی أنّ هؤلاء کانوا رجالا صالحین موحّدین مؤهّلین حتّی قبل الوصول إلی مقام النّبوّة و الإمامة، و فی ظلّ ذلک المخطّط و هبهم اللّه سبحانه مواهب جدیدة.

و ینبغی التذکیر بهذه النقطة، و هیّ أنّ جملة یَهْدُونَ بِأَمْرِنا فی الحقیقة وسیلة لمعرفة الأئمّة و هداة الحقّ، فی مقابل زعماء و قادة الباطل الذین یقوم أساس و معیار أعمالهم علی الأهواء و الرغبات الشیطانیة. و

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ الأئمّة فی کتاب اللّه إمامان: قال اللّه تبارک و تعالی:

و جعلناهم أئمّة یهدون بأمرنا، لا بأمر الناس، یقدّمون ما أمر اللّه قبل أمرهم، و حکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۷

اللّه قبل حکمهم، قال: و جعلنا أئمّة یهدون إلی النّار، یقدّمون أمرهم قبل أمر اللّه، و حکمهم قبل حکم اللّه، و یأخذون بأهوائهم خلاف ما فی کتاب اللّه»[۱۴۶].

و هذا هو المعیار و المحک لمعرفة إمام الحقّ من إمام الباطل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۸

الآیتان [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۷۴ الی ۷۵]

اشارة

وَ لُوطاً آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّیْناهُ مِنَ الْقَرْیَةِ الَّتِی کانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِینَ (۷۴) وَ أَدْخَلْناهُ فِی رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِینَ (۷۵)

التّفسیر

نجاة لوط من أرض الفجّار:

لمّا کان لوط من أقرباء إبراهیم و ذوی أرحامه، و من أوائل من آمن به، فقد أشارت الآیتان بعد قصّة إبراهیم علیه السّلام إلی جانب من اجتهاده و سعیه فی طریق إبلاغ الرسالة، و المواهب التی منحها اللّه سبحانه له، فتقول: وَ لُوطاً آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً[۱۴۷].

لفظة (الحکم) جاءت فی بعض الموارد بمعنی أمر النبوّة و الرسالة، و فی موارد أخری بمعنی القضاء، و أحیانا، بمعنی العقل، و یبدو أنّ الأنسب هنا من بین هذه المعانی هو المعنی الأوّل، مع إمکانیة الجمع بین هذه المعانی هنا.

و المراد من العلم کلّ العلوم التی لها أثر فی سعادة و مصیر الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۹

لقد كان لوط من الأنبياء العظام و كان معاصرا لإبراهيم، و هاجر معه من أرض بابل إلى فلسطين، ثمّ فارق إبراهيم، و جاء إلى مدينة (سدوم) لأنّ أهلها كانوا غارقين فى الفساد و المعاصى، و خاصّة الانحرافات الجنسية. و قد سعى كثيرا من أجل هداية هؤلاء القوم، و تحمّل المشاق فى هذا الطريق، إلّا أنّه لم يؤثّر فى أولئك العمى القلوب.

و أخيرا، نعلم أنّ الغضب و العذاب الإلهى قد حلّ بهؤلاء، و قلب عالى مدينتهم سافلها، و أهلكوا جميعا، إلّا عائلة لوط- باستثناء امرأته- و قد بيّنا تفصيل هذه الحادثة فى ذيل الآيات (۷۷) و ما بعدها من سورة هود.

و لذلك أشارت الآية إلى هذه الموهبة التى و هبت للوط، و هى وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ

إنّ نسبة الأعمال القبيحة إلى القرية و المدينة بدلا من أهل القرية إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا قد غرقوا فى الفساد و المعاصى إلى درجة حتّى كأنّ أعمال الفساد و الخبائث كانت تقطر من جدران مدينتهم و أبوابها.

و التعبير ب «الخبائث» بصيغة الجمع، إشارة إلى أنّهم إضافة إلى فعل اللواط الشنيع، كانوا يعملون أعمالا قبيحة و خبيثة أخرى، أشرنا إليها فى ذيل الآية (۸) من سورة هود.

و التعبير ب «الفاسقين» بعد «قوم سوء» ربّما يكون إشارة إلى أنّ أولئك كانوا فاسقين من وجهة نظر القوانين الإلهيّة، و حتّى مع قطع النظر عن الدين و الإيمان، فإنّهم كانوا أفرادا حمقى و منحرفين فى نظر المعايير الاجتماعية بين الناس.

ثمّ أشارت الآية إلى آخر موهبة إلهيّة للنبى لوط، فقالت: وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ فهذه الرحمة الإلهيّة الخاصّة لا تعطى لأحد اعتباطا و بدون حساب، بل إنّ أهليّة و صلاحية لوط هى التى جعلته مستحقّا لمثل هذه الرحمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۰

حقّا، أى عمل أصعب، و أى منهج إصلاحى أجهد من أن يبقى إنسان مدّة طويلة فى مدينة فيها كلّ هذا الفساد و الانحطاط، و يظلّ دائما يبلّغ الناس الضالّين المنحرفين أمر ربّهم و يرشدهم إلى طريق الهدى، و يصل الأمر بهم إلى أنّهم يريدون أن يعتدوا حتّى على ضيفه؟ و الحقّ أنّ مثل هذه الاستقامة و الثبات لا تصدر إلّا من أنبياء اللّه و أتباعهم، فأى واحد منّا يستطيع أن يتحمّل مثل هذا العذاب الروحى المؤلم؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۱

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۶ الى ۷۷]

اشارة

وَ نُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۷۶) وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۷۷)

التّفسير

نجاة نوح من القوم الكافرين:

بعد ذكر جانب من قصّة إبراهيم و قصّة لوط عليهما السّلام، تطرّقت السورة إلى ذكر جانب من قصّة نبى آخر من الأنبياء الكبار- أى

نوح علیه السّلام- فقالت: وَ نُوحاً إِذْ نادی مِنْ قَبْلُ أی قبل إبراهیم و لوط.

إنّ هذا النداء- ظاهرا- إشارة إلی الدعاء و اللعنة التی ذکرت فی سورة نوح من القرآن الکریم حیث یقول: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیَّاراً. إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا یَلِدُوا إِلَّا فاجِراً کَفَّاراً[۱۴۸]. أو إنّه إشارة إلی الجملة التی وردت فی الآیة ۱۰/ سورة القمر: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ.

التعبیر ب «نادی» یأتی عادة بمعنی الدعاء بصوت عال، و لعلّه إشارة إلی أنّهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۲

آذوا هذا النّبی الجلیل إلی درجة جعلته یصرخ منادیا ربّه لیدرکه و ینجّیه من أذاهم و شرّهم، و لو أمعنا النظر فی أحوال نوح الواردة فی سورة نوح و سورة هود لوجدنا أنّه کان محقّا أن یرفع صوته و یدعو ربّه سبحانه ۱۴۹].

ثمّ تضیف الآیة: فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّیْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْکَرْبِ الْعَظِیمِ و فی الحقیقة فإنّ جملة «فاستجبنا» إشارة مجملة إلی استجابة دعوته، و جملة فَنَجَّیْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْکَرْبِ الْعَظِیمِ تعتبر شرحا و تفصیلا لها.

و هناک اختلاف بین المفسّرین فی المراد من کلمة (أهل) هنا، لأنّه إذا کان المراد منها عائلته و أهل بیته فستشمل بعض أبناء نوح، لأنّ واحدا من أولاده تخلّف عنه مع المسیئین و أضاع بنوته لعائلته، و کذلک لم تکن زوجته مؤمنة به.

و إن کان المراد من الأهل خواص أتباعه و أصحابه المؤمنین، فإنّها علی خلاف المعنی المشهور للأهل.

لکن یمکن أن یقال: أنّ للأهل- هنا- معنی وسیعا یشمل أهله المؤمنین و خواص أصحابه، لأنّا نقرأ فی حقّ ابنه الذی لم یتبعه: إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ ۱۵۰] و علی هذا فإنّ الذین اعتنقوا دین نوح یعدّون فی الواقع من عائلته و أهله.

و ینبغی ذکر هذه الملاحظة أیضا، و هی: إنّ «الکرب» فی اللغة تعنی الغمّ الشدید، و هی فی الأصل مأخوذة من تقلیب الأرض و حفرها، لأنّ الغمّ الشدید یقلب قلب الإنسان، و وصفه بالعظیم یکشف عن منتهی کربه و أساه.

و أیّ کرب أعظم من أن یدعو قومه إلی دین الحقّ (۹۵۰) عاما، کما صرّح القرآن بذلک، لکن لم یؤمن به خلال هذه المدّة الطویلة إلّا ثمانون شخصا علی المشهور بین المفسّرین ۱۵۱]، و أمّا عمل الآخرین فلم یکن غیر السخریة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۳

و الاستهزاء و الأذی.

و تضیف الآیة التالیة: وَ نَصَرْناهُ ۱۵۲] مِنَ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا إِنَّهُمْ کانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ إنّ هذه الجملة تؤکّد مرّة أخری علی حقیقة أنّ العقوبات الإلهیّة لا تتّصف بصفة الانتقام مطلقا، بل هی علی أساس انتخاب الأصلح، أی إنّ حقّ الحیاة و التنعّم بمواهب الحیاة لأناس یکونون فی طریق التکامل و السیر إلی اللّه، أو انّهم إذا ساروا یوما فی طریق الانحراف انتبهوا إلی أنفسهم و رجعوا إلی جادة الصواب. أمّا أولئک الفاسدون الذین لا أمل مطلقا فی صلاحهم فی المستقبل، فلا مصیر و لا جزاء لهم إلّا الموت و الفناء.

ملاحظة

الجدیر بالذکر أنّ هذه السورة ذکرت آنفا قصة «إبراهیم» و «لوط» و کذلک سوف تذکر قصتی «أیّوب» و «یونس»، و قد ذکرت آنفا قصّة نوح علیه السّلام و فی جمیعها تذکر مسألة نجاتهم و خلاصهم من الشدائد و المحن و الأعداء.

و کأنّ منهج هذه السورة بیان منتهی رعایة اللّه و حمایته لأنبیائه و إنقاذهم من الکروب، لیکون ذلک تسلیة للرسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلم، و أملا للمؤمنین، و بملاحظة أنّ هذه السورة مکّیة، و أنّ المسلمین کانوا حینئذ فی شدّة و کرب فستتجلّی أهمیّة هذا الموضوع أکثر ...

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۸ الى ۸۰]

اشارة

وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (۷۸) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ (۷۹) وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (۸۰)

التّفسير

قضاء داود و سليمان عليهما السّلام:

بعد الحوادث و الوقائع المتعلّقة بموسى و هارون و إبراهيم و نوح و لوط عليهم السّلام، تشير هذه الآيات إلى جانب من حياة داود و سليمان، و في البداية أشارت إشارة خفيّة إلى حادث قضاء و حكم صدر من جانب داود و سليمان، فتقول: وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ ۱۵۳] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ

و بالرغم من أنّ القرآن قد ألمح إلى هذه المحكمة لمحة خفيّة، و اكتفى بإشارة

إجمالية و استخلاص النتيجة الأخلاقية و التربوية لها و التي سنشير إليها فيما بعد، إلّا أنّه وردت بحوث كثيرة حولها في الرّوايات الإسلامية و أقوال المفسّرين.

فقال جماعة: إنّ القصّة كانت كما يلي: إنّ قطيع أغنام لبعض الرعاة دخلت ليلا إلى بستان فأكلت أوراقه و عناقيد العنب منه فأتلفته، فرفع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطى كلّ الأغنام لصاحب البستان تعويضا لهذه الخسارة الفادحة، فقال سليمان- و الذي كان طفلا آنذاك- لأبيه: يا نبي اللّه العظيم، غيّر هذا الحكم و عدّله! فقال الأدب: و كيف ذاك؟ قال: يجب أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها و لبنها و صوفها، و تودع البستان في يد صاحب الأغنام ليسعى في إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الأولى يردّ إلى صاحبه، و تردّ الأغنام أيضا إلى صاحبها، و أيّد اللّه حكم سليمان في الآية التالية.

و قد ورد هذا المضمون في رواية عن الإمامين الباقر و الصادقين عليهما السّلام ۱۵۴].

و يمكن أن يتصوّر عدم تناسب هذا التّفسير مع كلمة (حرث) التي تعني الزراعة، و لكن يبدو أنّ للحرث معنى واسعا يشمل الزراعة و البستان، كما يستفاد ذلك من قصّة أصحاب الجنّة في سورة القلم، الآية ۱۷- ۳۲.

لكن تبقى هنا عدّة استفهامات مهمّة:

۱- ماذا كان أساس و معيار هذين الحكمين؟

۲- كيف اختلف حكم داود عن حكم سليمان؟ فهل كانا يحكمان على أساس الاجتهاد؟

۳- هل المسألة هذه كانت على هيئة تشاور في الحكم، أم أنّهما حكما بحكمين مستقلّين يختلف كلّ منهما عن الآخر؟! و يمكن الإجابة عن السؤال الأوّل: إنّ المعيار كان جبران الخسارة، فينظر

داود إلى أنّ الخسارة التى أصابت الكرم تعادل قيمة الأغنام، و لذلک حكم بوجوب إعطاء الأغنام لصاحب البستان جبرا للخسارة، لأنّ التقصير من جانب صاحب الأغنام.

و ينبغى الالتفات إلى أنّنا نقرأ فى بعض الرّوايات أنّ على صاحب الأغنام أن يمنع غنمه من التعدّى على زرع الآخرين فى الليل، كما أنّ من واجب صاحب الزرع حفظ زرعه فى النهار[۱۵۵].

أمّا معيار حكم سليمان عليه السّلام فقد كان يرى أنّ خسارة صاحب البستان تعادل ما سينتفع به من الأغنام لسنة كاملة! بناء على هذا فإنّ الإثنين قد قضيا بالحقّ و العدل، مع فارق أنّ حكم سليمان كان أدقّ، لأنّ الخسارة لا تدفع مرّة واحدة فى مكان واحد، بل تؤدّى بصورة تدريجيّة بحيث لا تثقل على صاحب الغنم أيضا. و إضافة إلى ما مرّ، فقد كان هناک تناسب بين الخسارة و الجبران، لأنّ جذور النباتات لم تتلف، بل ذهبت منافعها المؤقتة، و لذلک فإنّ من الأعدل ألّا تنقل أصول الأغنام إلى ملک صاحب البستان، بل تنقل منافعها فقط.

و نقول فى جواب السؤال الثّانى: لا شکّ أنّ حكم الأنبياء مستند إلى الوحى الإلهى، إلّا أنّ هذا لا يعنى أنّ وحيا خاصّا ينزل فى كلّ مورد من موارد الحكم، بل إنّ الأنبياء يحكمون حسب القواعد الكليّة التى تلقّوها من الوحى.

بناء على هذا فإنّه لا توجد مسألة الاجتهاد النظرى بمعناها الاصطلاحى، و هو الاجتهاد الظنّى، و لكن لا مانع من أن يكون هناک طريقان لإيجاد ضابطة كليّة، و أن يكون نبيّان كلّ منهما يرى أحد الطريقين، و كلاهما صحيح فى الواقع، و كان الموضوع الذى عالجناه فى بحثنا- على سبيل الاتّفاق- من هذا القبيل كما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۷

بيّناه آنفا بتفصيل. و كما أشار القرآن إليه، فإنّ الطريق الذى اختاره سليمان عليه السّلام كان أقرب من الناحية التنفيذيّة، و جملة وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً و التى ستأتى فى الآية التالية، شاهدة على صحّة كلا القضاءين.

و نقول فى جواب السؤال الثّالث: لا يبعد أن يكون الأمر على هيئة تشاور، و هو التشاور الذى يحتمل أن يكون لتعليم سليمان و تأهيله فى أمر القضاء، و التعبير ب (حكمهم) شاهد أيضا على وحدة الحكم النهائى، بالرغم من وجود حكمين مختلفين فى البداية. (فتأمّلوا بدقّة).

و نقرأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۲۱۷

فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «لم يحكما، إنّما كانا يتناظران»[۱۵۶].

و يستفاد من رواية أخرى رويت فى أصول الكافى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ هذه القضيّة حدثت لتعيين وصىّ داود و خليفته و أن يتعلّم أولئک النفر منهما أيضا[۱۵۷].

و على كلّ حال، فإنّ الآية التالية تؤيّد حكم سليمان فى هذه القصّة على هذه الشاكلة: فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ و لكن هذا لا يعنى أنّ حكم داود كان اشتباها و خطأ، لأنّها تضيف مباشرة وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً.

ثمّ تشير إلى إحدى المواهب و الفضائل التى كان اللّه سبحانه قد وهبها لداود عليه السّلام، فتقول: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ فإنّ ذلک ليس شيئا مهمّا أمام قدرتنا وَ كُنَّا فاعِلِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۸

بحث

هناک بحث بین المفسّرین فی أنّه کیف کان تجاوب الجبال و الطیر مع داود؟

و ما المراد من قوله تعالی: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ یُسَبِّحْنَ ! ۱- فاحتمل أحیانا أنّ هذا کان صوت داود الرخیم المؤثّر الجذّاب، و الذی کان ینعکس فی الجبال، و کان یجذب الطیور إلیه.

۲- و قالوا حینا آخر: إنّ هذا التسبیح کان تسبیحا مقترنا بالإدراک و الشعور الموجود فی باطن ذرّات العالم، لأنّ کلّ موجودات العالم لها نوع من العقل و الشعور حسب هذه النظریة، و عند ما کانت تسمع صوت داود فی وقت المناجاة و التسبیح کانت تردّد معه، و تمتزج بهمهمة تسبیح منها.

۳- و قال البعض: إنّ المراد هو التسبیح التکوینی الذی یوجد فی موجودات العالم بلسان حالها، لأنّ لکلّ موجود نظاما دقیقا جدّا. و هذا النظام الدقیق یحکی عن طهارة و نزاهة اللّه، و عن أنّ له صفات کمال، و بناء علی هذا فإنّ نظام عالم الوجود العجیب فی کلّ زاویة منه تسبیح و حمد، ف «التسبیح» هو التنزیه عن النقائص، و «الحمد» هو الثناء علی صفات الکمال ۱۵۸].

فإنّ قیل: إنّ التسبیح التکوینی لا یختّص بالجبال و الطیور، و لا بداود، بل أنّ نغمة هذا التسبیح تنبعث من کلّ الأرجاء و الموجودات علی الدوام.

قالوا فی الجواب: صحیح إنّ هذا التسبیح عام، و لکن لا یدرکه الجمیع، فقد کانت روح داود العظیمة فی هذه الحالة منسجمة مع باطن و داخل عالم الوجود، و کان یحسن جیدا أنّ الجبال و الطیر یسبّحن معه.

و لیس لدینا دلیل قاطع علی أی من هذه التفاسیر، و ما نفهمه من ظاهر الآیة هو أنّ الجبال و الطیر کانت تردّد و تتجاوب مع داود، و کانت تسبّح اللّه، و فی الوقت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۹

نفسه لا تضادّ بین هذه التفاسیر الثلاثة، فالجمع بینهما ممکن.

و أشارت الآیة الأخیرة إلی موهبة أخری من المواهب التی وهبها اللّه لهذا النّبی الجلیل، فقالت: وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَکُمْ لِتُحْصِنَکُمْ مِنْ بَأْسِکُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاکِرُونَ

«اللبوس» کما یقول العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان- کلّ نوع من أنواع الأسلحة الدفاعیة و الهجومیة کالدرع و السیف و الرمح ۱۵۹].

إلّا أنّ القرائن التی فی آیات القرآن توحی بأنّ اللبوس هنا تعنی الدرع التی لها صفة الحفظ فی الحروب.

أمّا کیف ألان اللّه الحدید لداود، و علّمه صنع الدروع، فسنفصّل ذلک فی ذیل الآیات (۱۰- ۱۱) من سورة سبأ إن شاء اللّه تعالی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۰

الآیتان [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۸۱ الی ۸۲]

اشارة

وَ لِسُلَیْمانَ الرِّیحَ عاصِفَةً تَجْرِی بِأَمْرِهِ إِلی الْأَرْضِ الَّتِی بارَکْنا فِیها وَ کُنَّا بِکُلِّ شَیْءٍ عالِمِینَ (۸۱) وَ مِنَ الشَّیاطِینِ مَنْ یَغُوصُونَ لَهُ وَ یَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِکَ وَ کُنَّا لَهُمْ حافِظِینَ (۸۲)

التّفسیر

الریاح تحت إمرة سلیمان:

تشیر هاتان الآیتان إلی جانب من المواهب التی منحها اللّه لنبی آخر من الأنبیاء- أی سلیمان علیه السّلام فتقول الآیة الأولی منهما: وَ لِسُلَیْمانَ الرِّیحَ عاصِفَةً تَجْرِی بِأَمْرِهِ إِلَی الْأَرْضِ الَّتِی بارَکْنا فِیها و هذا الأمر لیس عجیبا، لأنّنا عارفون به وَ کُنَّا بِکُلِّ شَیْءٍ عالِمِینَ فنحن مطّلعون علی أسرار عالم الوجود، و القوانین و الأنظمة الحاکمة علیه، و نعلم کیفیة السیطرة علیها، و نعلم کذلک نتیجة و عاقبة هذا العمل، و علی کلّ حال فإنّ کلّ شیء خاضع و مسلّم أمام علمنا و قدرتنا.

إنّ جملة وَ لِسُلَیْمانَ ... معطوفة علی جملة وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ أی إنّ قدرتنا عظیمة نقدر معها علی أن نسخّر الجبال لعبد من عبادنا أحیانا لتسبّح معه، و أحیانا نجعل الریح تحت إمرة أحد عبادنا لیرسلها حیث شاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۱

إنّ لفظة (العاصفة) تعنی الریاح القویّة أو الهائجة، فی حین یستفاد من بعض آیات القرآن الاخری أنّ الریاح الهادئة أیضا کانت تحت إمرة سلیمان، کما تصوّر ذلک الآیة (۳۶) من سورة ص: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّیحَ تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخاءً حَیْثُ أَصابَ

إنّ التصریح بالعاصفة هنا یمکن أن تکون من باب بیان الفرد الأهمّ، أی لیست الریاح الهادئة لوحدها تحت إمرته، بل حتّی العواصف الشدیدة کانت رهن إشارته أیضا، لأنّ الثّانیة أعجب.

ثمّ إنّ هذه الریاح القویّة التی فی مسیر الأرض المبارکة (الشام) حیث کان مقرّ سلیمان علیه السّلام، لم تکن الوحیدة، بل إنّها کانت تتحرّک حیث أراد، و إلی جمیع الأمکنة حسب الآیة (۳۶) من سورة ص، و علی هذا فإنّ التصریح باسم الأرض المبارکة لأنّها کانت مرکزا لحکومة سلیمان.

أمّا کیف کانت الریح تحت إمرته و تصرّفه؟

و بأیّة سرعة کانت تتحرّک؟

و علی أی شیء کان یجلس سلیمان و أصحابه و یتحرّکون؟

و أی عامل کان یحفظ هؤلاء عند حرکتهم من السقوط أو ضغط الهواء أو المصاعب الأخری؟

و الخلاصة: أیّة قوّة خفیّة کانت تعطیه القدرة علی إمکانیة التحرّک بمثل هذه الحرکة السریعة فی ذلک العصر و الزمان ۱۶۰]؟

إنّ هذه مسائل لم تتّضح لنا جزئیاتها، و الذی نعلمه هو أنّها کانت موهبة إلهیّة خارقة وضعت تحت تصرّف هذا النّبی العظیم، و ما أکثر المسائل التی نعلم بوجودها الإجمالی، و نجهل تفصیلها؟! إنّ معلوماتنا فی مقابل ما نجهله کالقطرة من البحر المحیط، أو کالذرّة مقابل الجبل العظیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۲

و الخلاصة: فإنّ من وجهة نظر و إعتقاد إنسان موحّد یعبد اللّه، لا یوجد شیء صعب و مستحیل أمام قدرة اللّه سبحانه، فهو قادر علی کلّ شیء، و عالم بکلّ شیء.

لقد کتبت حول هذه الفترة من حیاة سلیمان- کالفترات الأخری من حیاته العجیبة- أساطیر کاذبة أو مشکوکة کثیرة لا نقبلها مطلقا، فنحن نکتفی بهذا المقدار الذی بیّنه القرآن هنا.

و یلزم ذکر هذه اللطیفة أیضا، و هی أنّ بعض الکتّاب المتأخرین یعتقدون بأنّ القرآن لیس فیه شیء صریح عن حرکة سلیمان و البساط، بل أورد الکلام عن تسخیر الریاح لسلیمان فقط، فربّما کان ذلک إشارة إلی استغلال سلیمان لقوّة الهواء فی المسائل المرتبطة بالزراعة، و تلقیح النباتات، و تنقیة الحنطة و الشعیر، و حرکة السفن، خاصّة و أنّ أرض سلیمان (الشام) کانت أرضا زراعیة من جهة، و من جهة أخری. فإنّ جانبا مهمّا منها کان علی سواحل البحر الأبیض المتوسط، و کان ینتفع منها فی حرکة الملاحة[۱۶۱].

إلّا أنّ هذا التّفسیر لا یتناسب کثیرا و آیات سورة سبأ و سورة ص و بعض الرّوایات الواردة فی هذا الباب.

ثمّ تذکر الآیة التالیة أحد المواهب الخاصّة بسلیمان علیه السّلام فتقول: وَ مِنَ الشَّیاطِینِ مَنْ یَغُوصُونَ لَهُ لاستخراج الجواهر و الأشیاء

الثمینة الأخری وَ یَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِکَ وَ کُنَّا لَهُمْ حافِظِینَ من التمرّد و الطغیان علی أوامر سلیمان علیه السّلام.

إنّ ما ورد فی الآیة آنفة الذکر باسم «الشیاطین»، جاء فی آیات سورة «سبأ» باسم الجن- الآیة (۱۲ و ۱۳) من سورة سبأ- و من الواضح أنّ هذین اللفظین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۳

لا منافاة بینهما، لأنّا نعلم أنّ الشیاطین من طائفة الجنّ.

و علی کلّ حال، فقد ذکرنا أنّ الجنّ نوع من المخلوقات التی لها عقل و شعور و استعداد، و علیها تکلیف، و هی محجوبة عن أنظارنا نحن البشر، و لذلک سمّیت بالجنّ، و هم- کما یستفاد من آیات سورة الجنّ- کالبشر منهم المؤمنون الصالحون، و منهم الکافرون العصاة، و لا نمتلک أی دلیل علی نفی مثل هذه الموجودات، و لأنّ المخبر الصادق (القرآن) قد أخبر عنها فنحن نؤمن بها.

و یستفاد من آیات سورة سبأ و سورة ص- و کذلک من الآیة محلّ البحث- جیدا أنّ هذه الجماعة من الجنّ التی سخّرت لسلیمان، کانوا أفرادا أذکیاء نشیطین فنّانین صنّاعا ماهرین فی مجالات مختلفة، و جملة وَ یَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِکَ تبیّن إجمالا ما جاء تفصیله فی سورة سبأ من أنّهم کانوا یَعْمَلُونَ لَهُ ما یَشاءُ مِنْ مَحارِیبَ وَ تَماثِیلَ وَ جِفانٍ کَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِیاتٍ

و یستفاد من جزء من الآیات المتعلّقة بسلیمان أنّ جماعة من الشیاطین العصاة کانوا موجودین أیضا، و کان سلیمان علیه السّلام قد أوثقهم: وَ آخَرِینَ مُقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفادِ[۱۶۲]، و ربّما کانت جملة وَ کُنَّا لَهُمْ حافِظِینَ إشارة إلی هذا المعنی بأنّا کنّا نحفظ تلک المجموعة التی کانت تخدم سلیمان من التمرّد و العصیان. و ستطالعون تفصیلا أکثر فی هذا الباب فی تفسیر سورة سبأ و سورة ص إن شاء اللّه تعالی.

و نذکر مرّة أخری أنّ هناک أساطیر کاذبة أو مشکوکا فیها کثیرة حول حیاة سلیمان و جنوده، یجب أن لا تمزج مع ما فی متن القرآن، لئلّا تکون حربة فی ید المتصیدین فی الماء العکر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۴

الآیتان [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۸۳ الی ۸۴]

اشارة

وَ أَیُّوبَ إِذْ نادی رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِیَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ (۸۳) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَکَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَیْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِکْری لِلْعابِدِینَ (۸۴)

التّفسیر

أیّوب و نجاته من المصاعب:

تتحدّث الآیتان عن نبی آخر من أنبیاء اللّه العظماء و قصّته الملهمة، و هو «أیّوب» و هو عاشر نبی أشیر إلی جانب من حیاته فی سورة الأنبیاء.

إنّ لأیوب قصّة حزینة، و هی فی نفس الوقت عظیمة سامیة، فقد کان صبره و تحمّله عجیبین، خاصّة أمام الحوادث المرّة، بحیث أنّ صبر أیّوب أصبح مضربا للمثل منذ القدم.

غیر أنّ هاتین الآیتین تشیران- بصورة خاصّة- إلی مرحلة نجاته و انتصاره علی المصاعب، و استعادة ما فقده من المواهب، لیکون

درسا لكلّ المؤمنين على مرّ الدهور ليغوصوا في المشاكل و يخترقوها، و لا سيّما لمؤمني مكّة الذين كانوا يعانون ضغوطا من أعدائهم عند نزول هذه الآيات، فتقول: وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۵

أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

و كلمة «الضرّ». تطلق على كلّ سوء و أذى يصيب روح الإنسان أو جسمه، و كذلك لنقص عضو، و ذهاب مال، و موت الأعزّة و انهيار الشخصيّة و أمثال ذلك، و كما سنقول فيما بعد، فإنّ أيّوب قد ابتلي بكثير من هذه المصائب.

إنّ أيّوب- كسائر الأنبياء- يظهر أقصى حالات الأدب و الخضوع أمام اللّه عند الدعاء لرفع هذه المشاكل المضنية المجهدة، و لا يعبّر بتعبير تشمّ منه رائحة الشكوى، بل يقول فقط: إنّي ابتليت بهذه المصائب و أنت أرحم الراحمين، فهو حتّى لا يقول: حلّ مشكلتي، لأنّه يعلم أنّه جليل عظيم، و هو يعرف حقّ العظمة.

و تقول الآية التالية: فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى لِلْعابِدِينَ ليعلم المسلمون أنّ المشاكل كلّما زادت، و كلّما زادت الابتلاءات، و كلّما زاد الأعداء من ضغوطهم و ضاعفوا قواهم، فإنّها جميعا ترفع و تحلّ بنظرة و منحة من لطف اللّه، فلا تجبر الخسارة و حسب، بل إنّ اللّه سبحانه يعطي الصابرين أكثر ممّا فقدوا جزاء لصبرهم و ثباتهم، و هذا درس و عبرة لكلّ المسلمين، و خاصة المسلمين الذين كانوا تحت محاصرة العدو الشديدة، و تحت ضغط المشاكل عند نزول هذه الآيات.

بحوث

۱- لمحة من قصّة أيّوب

في حديث عن الإمام الصّادق عليه السّلام إنّ رجلا سأله عن بليّة أيّوب لأي علّة كانت؟ فأجابه بما ملخّصه. إنّ هذا الابتلاء لم يكن لكفران نعمة، بل على العكس من ذلك، فإنّه كان لشكر نعمة حسده عليها إبليس، فقال لربّه: يا ربّ إنّ أيّوب لم يودّ إليك شكر هذه النعمة إلّا بما أعطيته من الدنيا، و لو حرمته دنياه ما أدّى إليك

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۶

شكرك، فسلّطني على دنياه حتّى يتبيّن الأمر، فسلّطه اللّه عليه ليكون هذا الحادث سندا لكلّ سالكي طريق الحقّ.

فانحدر إبليس و أهلك أموال أيّوب و أولاده الواحد تلو الآخر، و لكن لم تزد هذه الحوادث أيّوب إلّا ثباتا على الإيمان و خضوعا لقضاء اللّه و قدره.

فسأل الشيطان اللّه سبحانه أن يسلطه على زرعه و غنمه فسلطه، فأحرق كلّ زرعه، و أهلك كلّ غنمه، فلم يزدد أيّوب إلّا حمدا و شكرا.

و أخيرا طلب الشيطان من اللّه أن يسلطه على بدن أيّوب ليكون سبب مرضه، و هكذا كان بحيث لم يكن قادرا على الحركة من شدّة المرض و الجراحات، لكن من دون أن يترك أدنى خلل في عقله و إدراكه.

و الخلاصة، فقد كانت النعم تسلب من أيّوب الوحدة تلو الاخرى، و لكن شكره كان يزداد في موازاتها، حتّى جاء جمع من الرهبان لرؤيته و عيادته، فقالوا:

قل لنا أي ذنب عظيم قد اقترفت حتّى ابتليت بمثل هذا الابتلاء؟ و هنا بدأت شماتة هذا و ذاك، و كان هذا الأمر شديدا على أيّوب،

فقـال مجیبـا: و عزّة ربّی انّی مـا أکلت لقمـة من طعام إلّا و معی یتیم أو مسـکین یأکل علی مائـدتی، و ما عرض لی أمران کلاهما فیه طاعة للّه إلّا أخذت بأشدّهما علیّ.

عند ذاک کان أیّوب قد اجتاز جمیع الامتحانات صابرا شاکرا متجمّلا: و هو یناجی ربّه بلسان مهذّب و دعا أن یکشف عنه ضرّه بتعبیر صـادق لیس فیه أدنی شـکوی- و هـو مـا ذکرته الآیـة المتقدّمـة: رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِیَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ و فی هـذه الأثنـاء فتحت أبواب الرحمة الإلهیّة، و رفع البلاء بسرعة، و انهمرت علیه النعم الإلهیّة أکثر من ذی قبل [۱۶۳].

أجل ... إنّ رجال الحقّ لا تتغیر أفکارهم و أعمالهم بتغیّر النعم، فهم یتوجّهون إلی اللّه فی حریتهم و سـجنهم و سـلامتهم و مرضـهم و قوّتهم و ضعفهم، و بکلمة واحدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۷

فی کلّ الأحوال، و لا تغیّرهم حوادث الحیاة، فإنّ أرواحهم کالمحیط العظیم لا یؤثّر فی هدوئه تلاطم الریاح العاتیة.

کمـا أنّهم لا ـ ییأسون لهول الحوادث المرّة و کثرتهـا، بـل یواجهونهـا و یصـمدون لهـا حتّی تفتـح أبواب الرحمـة الإلهیـة، لعلمهم أنّ الحوادث و الظروف الصعبة امتحانات إلهیّة یعدّها اللّه لخاصّة عباده لیکونوا أکثر مرانا و مراسا ..

۲- المعروف بین المفسّـرین فی تفسیر جملة آتَیْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ أنّ اللّه سبحانه أرجع أولاده الهلکی إلی حیاتهم الأولی و رزقه أولادا آخرین.

و نقرأ فی بعض الرّوایات: إنّ اللّه قد ردّ علیه الأولاد الذین هلکوا فی هذه الحادثة، و أولاده الذین ماتوا قبلها[۱۶۴].

و احتمل بعضهم أنّ اللّه قد وهب أیّوب أولادا و أحفادا جددا لیسدّوا مسدّ الأولاد المفقودین و یملأوا الفراغ الذی ترکوه.

۳- نقرأ فی بعض الرّوایـات غیر المعتبرة أنّ بـدن أیّوب قـد تعفّن، نتیجـة المرض الشدیـد، إلی درجـة أنّه لم یکن بمقـدور النـاس أن یقتربوا منه، إلّا أنّ الرّوایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّـلام تنفی هـذا المعنی بصـراحة، و الـدلیل العقلی یؤکّد هذا المعنی أیضا، لأنّ النّبی إذا کان فی حال منفّرة، فإنّ ذلک لا یناسب منهـج رسالته، فکلّ نبی ینبغی أن یکون علی حالـة تمکّن الناس من الاتّصال به و ملاقاته لیسمعوا کلام الحقّ، أی إنّ للنّبی جاذبیة خاصّة.

و ستطالعون إن شاء اللّه تعالی تفصیلا أکثر حول قصّة أیّوب فی الآیة (۴۱- ۴۴) سورة ص.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۸

الآیتان [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۸۵ الی ۸۶]

اشارة

وَ إِسْماعِیلَ وَ إِدْرِیسَ وَ ذَا الْکِفْلِ کُلٌّ مِنَ الصَّابِرِینَ (۸۵) وَ أَدْخَلْناهُمْ فِی رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِینَ (۸۶)

التّفسیر

إسماعیل و إدریس و ذو الکفل علیه السّلام:

تعقیبا علی قصّة أیّوب علیه السّـلام التربویة، و صبره و ثباته بوجه سـیل الحوادث، تشیر الآیتان- محلّ البحث- إلی صبر ثلاثة من أنبیاء اللّه الآخرین فتقول الأولی:

وَ إِسْـماعِیلَ وَ إِدْرِیسَ وَ ذَا الْکِفْلِ کُلٌّ مِنَ الصَّابِرِینَ فکـلّ واحـد من هؤلاـء صـبر طوال عمره أمـام الأعـداء، أو أمـام مشاکـل الحیاة

المجهدة المضنية، و لم يركع أبدا فى مقابل هذه الحوادث، و كان كلّ منهم مثلا أعلى فى الصبر و الاستقامة.

ثمّ تبيّن الآية الاخرى موهبة إلهيّة لهؤلاء مقابل الصبر و الثبات، فتقول:

وَ أَدْخَلْناهُمْ فِی رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِینَ

ممّا يلفت النظر هنا أنّه لم يقل: وهبناهم رحمتنا، بل قال: و أدخلناهم فى رحمتنا، فكأنّ كلّ أجسامهم و أرواحهم أصبحت غارقة فى الرحمة الإلهيّة، بعد أن كانت غارقة فى بحر المشاكل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٢٩

إدريس و ذو الكفل عليهما السّلام:

«إدريس»- نبى اللّه العظيم- و كما تقدّم- هو جدّ والد نوح عليه السّلام وفقا لما رواه أغلب المفسّرين، و اسمه فى التوراة (أخنوخ) و فى العربية (إدريس) و يرى بعضهم أنّ إدريس مشتق من مادّة الدرس، لأنّه كان أوّل من كتب بالقلم، و كان ذا إحاطة بعلم الفلك و النجوم و الحساب و الهيأة بالإضافة إلى كونه نبيّا .. و يقال أنّه أوّل من علّم الناس خياطة الثياب.

و أمّا «ذو الكفل»، فالمشهور أنّه كان من الأنبياء[١۶۵]، و إن كان بعضهم يعتقد أنّه كان من الصالحين. و ظاهر آيات القرآن التى ذكرته فى عداد الأنبياء يؤيّد أنّه من الأنبياء، و أغلب الظنّ أنّه كان من أنبياء بنى إسرائيل ١۶۶].

و هناك احتمالات عديدة فى سبب تسميته بهذا الاسم، مع ملاحظة أنّ كلمة «كفل» جاءت بمعنى النصيب، و كذلك بمعنى الكفالة و الضمان و التعهّد.

فقال بعضهم: إنّ اللّه سبحانه لمّا غمره بنصيب وافر من ثوابه و رحمته فى مقابل الأعمال و العبادات الكثيرة التى كان يؤدّيها سمّى ذا الكفل، أى صاحب الحظّ الأوفى.

و قال آخرون: إنّه لمّا تعهّد بأن يحيى الليل فى العبادة و يصوم النهار، و أن لا يغضب عند الحكم، و أن يفى بوعده أبدا، لذلك سمّى بذى الكفل.

و يعتقد بعضهم- أيضا- أنّ «ذا الكفل» لقب «إلياس»، كما أنّ إسرائيل لقب يعقوب، و المسيح لقب عيسى، و ذا النون لقب يونس ١۶٧]. على نبيّنا و آله و عليهم الصلاة و السلام ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٣٠

الآيتان [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٧ الى ٨٨]

اشارة

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِی الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظَّالِمِینَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ کَذلِکَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِینَ (٨٨)

التّفسير

نجاة يونس من السجن المرعب:

تبيّن هاتـان الآيتـان جانبا من قصّـ ة النّبى الكبير يونس عليه السّـلام، حيث تقول الأولى و اذكر يونس إذ ترك قومه المشـركين غاضـبا عليهم: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً.

كلمـة «النون» فى اللغـة تعنى السـمكة العظيمـة، أو بتعبير آخر تعنى الحوت، و بنـاء على هـذا فـإنّ «ذا النون» معنـاه صـاحب الحوت، و إختيار هذا الاسم ليونس بسبب الحادثة التى سنشير إليها فيما بعد إن شاء اللّه تعالى.

و على كلّ حال، فإنّه ذهب مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ[١٦٨] عَلَيْهِ فقد كان يظنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٣١

أنّه قد أدّى كلّ رسالته بين قومه العاصـين، و لم يترك حتّى «الأولى» فى هذا الشأن، فلو تركهم و شأنهم فلا شـىء عليه، مع أنّ الأولى هو بقاؤه بينهم و الصبر و التحمّل و التجلّد، فلعلّهم ينتبهون من غفلتهم و يتّجهون إلى اللّه سبحانه.

و أخيرا، و نتيجـة تركه الأولى هـذا، ضـيّقنا عليه فابتلعه الحوت فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّی كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فقـد ظلمت نفسـى، و ظلمت قـومى، فقـد كـان ينبغى أن أتقبّـل و أتحمّـل أكـثر من هـذه الشدائـد و المصـائب، و أواجه جميع أنواع التعذيب و الآلام منهم فلعلّهم يهتدون.

و تقول الآيـة التاليـة: فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أجل لم يكن هـذا الأمر خاصّا بيونس، بل هو لطف اللّه الشامل فكلّ مؤمن يعتذر من ربّه عن تقصيره و يسأله العون و المدد و الرحمة فإنّ اللّه سيستجيب له و يكشف عنه غمّه.

بحوث

١- قصّة يونس عليه السّلام

ستأتى تفاصيل قصّة يونس فى تفسير سورة الصافات إن شاء اللّه تعالى، أمّا ملخّصها فهو:

إنّ «يونس» كان لسـنين طوال مشـتغلا بالـدعوة و التبليغ بين قومه فى أرض نينوى بالعراق، و لكن رغم كلّ ما بـذله من جهود و مساع فـإنّ إرشـاداته و توجيهاته لم تؤثر فى قلوبهم، فغضب و هجر تلك الأرض، و ذهب باتجاه البحر و ركـب السـفينة، و أثناء الطريق هاج البحر، فكاد كلّ ركّاب السفينة أن يغرقوا.

و هنا قال ربّان السـفينة: إنّى أظنّ أنّ بينكم عبدا هاربا يجب أن يلقى فى البحر- أو إنّه قال: إنّ السفينة ثقيلة جدّا و يجب أن نلقى فردا منّا تخرجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٣٢

القرعة- فاقترعوا عدّة مرّات، و كان اسم يونس عليه السّلام يخرج فى كلّ مرّة! فعلم أنّ فى هذا الأمر سرّا خفيّا، فسلّم للحوادث، و عند ما ألقوه فى البحر ابتلعه حوت عظيم و أبقاه اللّه فى بطنه حيّا.

و أخيرا انتبه إلى أنّه قد ترك الأولى، فتوجّه إلى اللّه و اعترف بتقصيره، فاستجاب اللّه دعوته و أنجاه من ذلك المكان الضيّق [١٦٩].

من الممكن أن يتصوّر اسـتحالة هـذا الحادث من الناحية العلمية، و لكن لا شكّ أنّ هذا الأمر خارق للعادة، إلّا أنّه ليس بمحال عقلى، كإحيـاء الموتى فـإنّه يعـدّ أمرا خارقـا للعادة و ليس محالا، و بتعبير آخر: فإنّ وقوعه غير ممكن بالطرق العاديـة، و لكنّه ليس صـعبا مع الاستعانة بقدرة اللّه غير المحدودة.

و ستقرءون تفصيلا أكثر حول هذه الحادثة فى تفسير سورة الصافات إن شاء اللّه تعالى.

۲- ما معنى الظلمات هنا؟

من الممكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى ظلمة البحر فى أعماق الماء، و ظلمة بطن الحوت، و ظلمة الليل، و تؤيّد ذلك الرّواية التى رؤيت عن الإمام الباقر عليه السّلام ۱۷۰].

۳- أى أولى تركه يونس؟

لا- شكّ أنّ تعبير «مغاضبا» إشارة إلى غضب يونس على قومه الكافرين، و كان مثل هذا الغضب فى هذه الظروف طبيعيّا تماما، إذ تحمّل هذا النّبى المشفق المشقّة و التعب سنين طويلة من أجل هداية القوم الضّالين، إلّا إنّهم لم يلبّوا دعوته

الخيّرة ...

و من جهة أخرى، فإنّ يونس لمّا كان يعلم أنّ العذاب الإلهى سينزل بهم سريعا، فإنّ ترک تلک المدينة لم يكن معصية، و لكن كان الأولى لنبى عظيم كيونس ألّا يتركها حتّى آخر لحظة- اللحظة التى سيعقبها العذاب الإلهى- و لذلک آخذه اللّه على هذه العجلة، و اعتبر عمله تركا للأولى.

و هذا هو عين ما أشرنا إليه فى قصّة آدم عليه السّلام من أنّ المعصية ليست مطلقة، بل نسبيّة، أو بتعبير آخر هى مصداق «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين». و لمزيد الاطّلاع راجع ما ذكرناه ذيل الآية (۱۹) و ما بعدها من سورة الأعراف.

۴- درس مصيرى

جملة كَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ العميقة المعنى توحى بأنّ ما أصاب يونس من البلاء و النجاة لم يكن حكما خاصّا، بل حكم عام مع حفظ تسلسل الدرجات و المراتب.

إنّ كثيرا من الحوادث المؤلمة و الابتلاءات الشديدة و المصائب نتيجة لذنوبنا و معاصينا، و هى سياط لتنبيه الأرواح الغافلة، أو هى مواقد لتصفية معادن أرواح الآدميين فمتى ما تنبّه الإنسان إلى ثلاثة أمور [التى انتبه إليها يونس فى مثل هذا الظرف فإنّه سينجو حتما:

۱- التوجّه إلى حقيقة التوحيد، و أنّه لا معبود و لا سند إلّا اللّه.

۲- تنزيه اللّه عن كلّ عيب و نقص و ظلم و جور، و تجنّب كلّ سوء ظنّ بذاته المقدّسة.

۳- الاعتراف بذنبه و تقصيره.

و الشاهد على هذا الكلام

الحديث المروى فى الدرّ المنثور عن الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال: «اسم اللّه الذى إذا دعى به أجاب، و إذا سئل به أعطى دعوة

يونس بن متّى» فقال رجل: يا رسول اللّه هى ليونس خاصّة أم لجماعة المسلمين؟

قال: «هى ليونس خاصّة و للمؤمنين إذا دعوا بها، ألم تسمع قول اللّه وَ كَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ فهو شرط من اللّه لمن دعاه»[۱۷۱].

و لا- يحتاج أن نذكر بأنّ المراد ليس قراءة الألفاظ و الكلمات فقط، بل جريان حقيقتها فى أعماق روح الإنسان، أى أن ينسجم كلّ

وجوده مع معنى تلك الألفاظ حين قراءتها.

و يلزم التذكير بهذه المسألة، و هى أن العقوبات الإلهيّة على نحوين:

أحدهما: عذاب الاستيصال، أى العقوبة النهائية التى تحلّ لمحو الأفراد الذين لا يمكن إصلاحهم، إذ لا ينفعهم أى دعاء حينئذ، لأنّ أعمالهم ذاتها ستكرّر بعد هدوء عاصفة البلاء.

و الآخر: عذاب التنبيه، و الذى له صفة تربوية، و يرتفع مباشرة بمجرّد أن يؤثّر أثره و يتنبّه المخطئ و يثوب إلى رشده. و من هنا يتّضح أنّ إحدى غايات الآفات و الابتلاءات و الحوادث المرّة هى التوعية و التربية.

إنّ حادثة يونس عليه السّلام تحذّر بصورة ضمنيّة جميع قادة الحقّ و المرشدين إليه بأن لا- يتصوّروا انتهاء مهمتهم مطلقا، و لا يستصغروا أى جهد و سعى فى هذا الطريق، لأنّ مسئولياتهم ثقيلة جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٣٥

الآيتان [سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٩ الى ٩٠]

اشارة

وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِى فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِى الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ (٩٠)

التّفسير

نجاة زكريا من الوحدة:

تبيّن هاتان الآيتان جانبا من قصّة شخصيتين أخريين من أنبياء اللّه العظماء، و هما زكريا و يحيى عليهما السّلام. فتقول الأولى: وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِى فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ

لقد مرّت سنين من عمر زكريا، و اشتعل رأسه شيبا، و لم يرزق الولد حتّى ذلك الحين، ثمّ أنّ زوجته كانت عقيما، و قد كان يأمل أن يرزق ولدا يستطيع أن يكمل مناهجه الإلهيّة و أعماله التبليغيّة، و لئلّا يتسلّط المنتفعون على معبد بنى إسرائيل، فينهبوا منه أمواله و هداياه التى ينبغى إنفاقها فى سبيل اللّه.

و عندئذ توجّه إلى اللّه بكلّ وجوده و سأله ولدا صالحا ... و دعا اللّه دعاء يفيض تأدّبا، فبدأ دعاءه بكلمة «ربّ»، الربّ الذى يشمل الإنسان بلطفه من أوّل لحظة.

ثمّ أكّد زكريا عليه السّلام على هذه الحقيقة، و هى أنّى إن بقيت وحيدا فسأنسى-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٣٦

و لا- أنسى وحدى، بل ستنسى مناهجى و سيرتى أيضا؛ أكّد كلّ ذلك بتعبير لا تَذَرْنِى من مادّة (وذر) على وزن مرز بمعنى ترك الشىء لقلّة قيمته و عدم أهميّته. و أخيرا فإنّ جملة وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ تعبّر عن حقيقة أنّه يعلم أنّ هذه الدنيا ليست دار بقاء، و نعلم أنّ اللّه خير الوارثين، و لكنّه يبحث- من جهة عالم الأسباب- عن سبب يوصله إلى هذا الهدف ..

فاستجاب اللّه هذا الدعاء الخالص الملىء بعشق الحقيقة، و حقّق أمنيته و ما كان يصبوا إليه، كما تقول الآية: فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى و من أجل الوصول إلى هذا المراد أصلحنا زوجته و جعلناها قادرة على الإنجاب وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ

ثمّ أشار اللّه سبحانه إلی ثلاث صفات من الصفات البارزة لهذه الأسرة فقال:
إِنَّهُمْ کانُوا یُسارِعُونَ فِی الْخَیْراتِ وَ یَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً[۱۷۲] وَ کانُوا لَنا خاشِعِینَ و الخشوع هو الخضوع المقرون بالاحترام و الأدب، و کذلک الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤولیة.
إنّ ذکر هذه الصفات الثلاث ربّما تکون إشارة إلی أنّ هؤلاء عند ما یصلون إلی النعمة فلا یبتلون بالغفلة و الغرور کما فی الأشخاص المادیین من ضعفاء الإیمان، فهؤلاء لا ینسون الضعفاء المحتاجین علی کلّ حال، و یسارعون فی الخیرات، و یتوجّهون إلی اللّه سبحانه فی حال الفقر و الغنی، و المرض و الصحّة، و أخیرا فإنّهم لا یبتلون بالکبر و الغرور عند إقبال النعمة، بل کانوا خاشعین خاضعین أبدا.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۷

الآیة [سورة الأنبیاء (۲۱): آیة ۹۱]

اشارة

وَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِیها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آیَةً لِلْعالَمِینَ (۹۱)

التّفسیر

مریم السیّدة الطاهرة:

أشیر فی هذه الآیة إلی مقام مریم و عظمتها و عظمة ابنها المسیح علیهما السّلام.
إنّ ذکر مریم فی ثنایا البحوث التی تتکلّم علی الأنبیاء الکرام؛ إمّا من أجل ولدها عیسی علیه السّلام، أو لأنّ ولادته کانت تشبه ولادة یحیی بن زکریا علیهما السّلام من جهات متعدّدة، و قد ذکرنا تفصیل ذلک فی ذیل آیات سورة مریم ۱۷۳]. أو لیوضّح أنّ العظمة غیر مختّصة بالرجال، بل هناک نساء عظیمات یدلّ تاریخهنّ علی عظمتهنّ، و کنّ قدوة و مثلا أسمی لنساء العالم.
تقول الآیة: و اذکر مریم: وَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِیها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آیَةً لِلْعالَمِینَ
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۸

ملاحظات

۱- «الفرج» معناه فی اللغة الفاصلة و الشقّ، و استعمل کنایة عن العضو التناسلی، لا أنّه صریح فی هذا المعنی و یری البعض انّ کلّ ما ورد فی القرآن فی شأن الأمور الجنسیة له طابع کنائی و غیر صریح، من قبیل «اللمس» «الدخول» «الغشیان»[۱۷۴] «الإتیان»[۱۷۵] و غیر ذلک.
و یلزم ذکر هذه اللطیفة أیضا، و هی: إنّ ظاهر الآیة المتقدّمة یقول: إنّ مریم قد حفظت طهارتها و عفّتها من کلّ أشکال التلوّث بما ینافی العفّة. إلّا أنّ بعض المفسّرین احتمل فی معنی هذه الآیة أنّها امتنعت من الاتّصال بالرجال، سواء کان ذلک من الحلال أو الحرام ۱۷۶]، کما تقول الآیة (۲۰) من سورة مریم: وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ وَ لَمْ أَکُ بَغِیًّا.
إنّ هذه الصفة فی الحقیقة مقدّمة لإثبات إعجاز ولادة عیسی و کونه آیة.
۲- إنّ المراد من «روحنا»- کما قلنا سابقا- الإشارة إلی روح عظیمة متعالیة، و یقال لمثل هذه الإضافة: «الإضافة التشریفیّة»، حیث

نضیف شیئا إلی اللّه لبیان عظمته، مثل بیت اللّه، و شهر اللّه.

۳- تقول الآیـة آنفـة الـذکر: إنّا جعلنا مریم و ابنها آیـة للعالمین، و لم تقل: آیتین و علامتین، لأنّ وجود مریم و وجود ابنها امتزجا فی هـذه الآیـة الإلهیّة العظیمة امتزاجا لا یمکن معه تجزئه بعضـهما عن بعض، فإنّ ولادة ولد بدون أب إعجاز بنفس المقدار الذی تحمل فیه امرأة بدون زوج. و کذلک معجزات عیسی علیه السّلام فی طفولته و کبره فإنّها تذکر بامّه.

إنّ هذه الأمور الخارقة للعادة، و المخالفة للأسباب الطبیعیّة العادیة، یبیّن فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۹

الجملة حقیقة أنّ وراء سلسلة الأسباب قدرة قادرة علی تغییرها فی أی وقت شاءت.

و علی کلّ حال، فإنّ حال السیّد المسیح و امّه مریم علیهما السّلام لم یکن له نظیر علی طول تأریخ البشر، فلم یر قبله و لا بعده شبیه له و ربّما کان تنکیر کلمة (آیة) [فی قوله تعالی: وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آیَةً لِلْعالَمِینَ الدالّ علی التعظیم هو إشارة إلی هذا المعنی ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۰

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۹۲ الی ۹۴]

اشارة

إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ (۹۲) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَیْنَهُمْ کُـلٌّ إِلَیْنـا راجِعُونَ (۹۳) فَمَنْ یَعْمَـلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا کُفْرانَ لِسَعْیِهِ وَ إِنَّا لَهُ کاتِبُونَ (۹۴)

التّفسیر

امّة واحدة:

لمّا ورد فی الآیات السابقة أسـماء جمع من أنبیاء اللّه، و کذلک مریم، تلک المرأة التی کانت مثلا أسـمی، و جانب من قصصهم، فإنّ هـذه الآیات تسـتخلص نتیجة ممّا مرّ، فتقول: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً واحِدَةً فقد کان منهجهم واحدا، و هدفهم واحدا بالرغم من اختلافهم فی الزمـان و المحیـط و الخصـائص و الأسـالیب و الطرائق، فهم کانوا یسـیرون فی منهـج واحـد و یمضون جمیعا فی طریق التوحیـد و محاربة الشرک و دعوة الناس إلی الإیمان باللّه و الحقّ و العدالة.

إنّ توحیـد و وحـدة الخطط و الأهـداف هـذه تعود إلی أنّها جمیعا تصـدر عن مصـدر واحـد، عن إرادة اللّه الواحد، و لهذا تقول الآیة مباشرة: وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاعْبُدُونِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۱

إنّ توحید الأنبیاء الاعتقادی فی الواقع یقوم علی أساس وحدة منبع الوحی، و هذا الکلام یشبه

کلام الإمام علی علیه السّـلام فی وصیته لولده الإمام المجتبی علیه السّلام حیث یقول: «و اعلم یا بنی أنّه لو کان لربّک شریک لأتتک رسله، و لعرفت أفعاله و صفاته»[۱۷۷].

«الامّـة»- کما یقول الراغب فی مفرداته- تعنی کلّ جماعـة تربطهم جهـة مشترکـة، الاشتراک فی الدین، أو الزمن و العصـر الواحد، أو المکان المعیّن، سواء کانت هذه الوحدة اختیاریة أو بدون إختیار.

و اعتبر بعض المفسّرین الامّة الواحدة هنا بمعنی الدین الواحد، و لکن کما قلنا أنّ هذا التّفسیر لا یتناسب و الأصل اللغوی للامّة.

و قال البعض الآخر: إنّ المراد من الامّـة هنا كلّ البشـر و فى جميع الأعصار، أى إنّكم أيّها البشـر أمّـة واحـدة، ربّكم واحـد، و هدفكم الأخير واحد.

إنّ هـذا التّفسير و إن كان أكثر انسـجاما من التّفسـير السابق، و لكنّه لا يبـدو مناسـبا بملاحظـة ارتباط هـذه الآيـة بالآيات السابقـة، بل الأنسب منها جميعا أن تكون هذه الجملة إشارة إلى الأنبياء الذين مرّ ذكرهم فى الآيات السابقة.

و أشارت الآيـة التاليـة إلى انحراف جماعة عظيمة من الناس عن أصل التوحيد، فقالت: وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ فقد وصل بهم الأمر إلى أن يقف بعضـهم ضـدّ بعض، و يلعن بعضـهم بعضـا و يتبرّأ منه، و لم يكتفوا بـذلك، بل شـهروا السـلاح فيما بينهم، و سـفكوا الـدماء الكثيرة، و كانت هذه الأحداث نتيجة الانحراف عن أصل التوحيد و دين اللّه الحقّ.

جملـة «تقطّعوا»- من مـادّة قطع- بمعنى تفريق القطع المتّصـلة بموضوع واحـد، و إذا لاـحظنـا أنّها جاءت من باب (تفعّل) الـذى يأتى بمعنى القبول، فإنّ معنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۲

الجملـة هو: إنّ أولئـك قـد استسلموا أمـام عوامل التفرقـة و النفاق، و رضوا بأن يبتعـد أحـدهم عن الآخر، و أنهوا اتّحادهم الفطرى و التوحيدى، فمنوا- نتيجة ذلك- بكلّ تلك الهزائم و الشقاوة! و تضيف فى النهاية: كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ فإنّ هذا الاختلاف عرضى يمكن اقتلاعه، و سيسيرون فى طريق الوحدة جميعا فى يوم القيامة، و قد أكّد على هذه المسألة فى كثير من الآيات القرآنية، و هى أنّ واحدة من خصائص يوم القيامـة زوال الاختلافات و ذوبانها و الرجوع إلى الوحدة، فنقرأ فى الآية ۴۸/ سورة المائدة: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

و يلاحظ هذا المضمون فى آيات متعدّدة من القرآن الكريم ۱۷۸]، و على هذا فإنّ خلق البشر بدأ من الوحدة، و يرجع إلى الوحدة.

و تبيّن الآيـة الأخيرة نتيجـة الانسـجام مع الامّة الواحدة فى طريق عبادة اللّه، أو الانحراف عنها و اتّخاذ طريق التفرقة، فتقول: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ و من أجل زيادة التأكيد قالت: وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ

و ممّا يسـتحقّ الانتباه، أنّ الإيمان و العمل الصالـح قـد ذكرا فى هذه الآيـة- ككثير من آيات القرآن الاخرى- كركنين أساسيّين لنجاة البشـر، غير أنّ كلمـة (من) التبعيضـيّة تضـيف إلى ذلـك أنّ القيـام بكـلّ الأعمـال الصالحـة ليس شـرطا، فإنّ المؤمنين إذا قاموا ببعض الأعمال الصالحة فإنّهم من أهل النجاة و السعادة.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآية ككثير من آيات القرآن الاخرى قد عدّت الإيمان شرطا لقبول الأعمال الصالحة.

ذكر جملة فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ فى مقام بيان ثواب مثل هؤلاء الأفراد، هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۳

تعبير مقترن بتمام اللطف و المحبّة و السماحة، لأنّ اللّه سبحانه هنا فى مقام الشكر و الثناء على عباده، و يشكر لهؤلاء سعيهم.

و هذا التعبير يشـبه التعبير الذى ورد فى الآية ۱۹/ سورة الإسـراء: وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَـعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۴

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۹۵ الى ۹۷]

اشارة

وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (۹۵) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (۹۶) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ

الْحَقُّ فَإِذا هِیَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِینَ کَفَرُوا یا وَیْلَنا قَدْ کُنَّا فِی غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ کُنَّا ظالِمِینَ (۹۷)

التّفسیر

الکافرون علی أعتاب القیامة:

کان الکلام فی آخر الآیات السابقة علی المؤمنین العاملین للصالحات، و تشیر الآیة الأولی من هذه الآیات إلی الأفراد فی الطرف المقابل لأولئک، و هم الذین استمرّوا فی الضلال و الفساد إلی آخر نفس، فتقول: وَ حَرامٌ عَلی قَرْیَةٍ أَهْلَکْناها أَنَّهُمْ لا یَرْجِعُونَ ۱۷۹].

إنّ هؤلاء فی الحقیقة أناس ترفع الحجب عن أعینهم و أنظارهم بعد مشاهدة العذاب الإلهی، أو بعد فنائهم و انتقالهم إلی عالم البرزخ، و عندها یأملون أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۵

یرجعوا إلی الدنیا لیصلحوا أخطاءهم و یعملون الصالحات، إلّا أنّ القرآن یقول بصراحة: إنّ رجوع هؤلاء حرام تماما، و لم یبق طریق لجبران ما صدر منهم.

و هذا یشبه ما جاء فی الآیة (۹۹) من سورة المؤمنون: حَتَّی إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ کَلَّا ...

و قد ذکرت فی تفسیر هذه الآیة توضیحات أخری نشیر إلی بعضها فی الهامش ۱۸۰].

و علی کلّ حال فإنّ هؤلاء المغفّلین فی غرور و غفلة علی الدوام، و تستمرّ هذه التعاسة حتّی نهایة العالم، کما یقول القرآن: حَتَّی إِذا فُتِحَتْ یَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ کُلِّ حَدَبٍ یَنْسِلُونَ

لقد بحثنا بصورة مفصّلة حول «یأجوج و مأجوج»، و إنّهما من أیّة طائفة کانا؟

و أین کانا یعیشان؟ و أخیرا ماذا یعملان، و ماذا سیکونان؟ فی ذیل الآیة (۹۴) و ما بعدها من سورة الکهف، کما تکلّمنا علی «السدّ» الذی بناه «ذو القرنین» فی مضیق جبلی لیمنع نفوذهما أیضا ...

هل المراد من فتح هاتین الطائفتین تحطیم السدّ، و نفوذهما عن هذا الطریق إلی مناطق العالم الأخری؟ أم المراد نفوذهما فی الکرة الأرضیة من کلّ حدب و صوب؟ لم تتحدّث الآیة عن ذلک بصراحة، بل ذکرت انتشارهم و تفرّقهم فی الکرة الأرضیة کعلامة لنهایة العالم و مقدّمة للبعث و القیامة، فتقول مباشرة:

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِیَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِینَ کَفَرُوا. لأنّ الرعب یسیطر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۶

علی وجودهم إلی حدّ أنّ عیونهم تتوقّف عن الحرکة و تصبح جاحظة لدی نظرهم إلی تلک الحوادث.

فی هذه الأثناء ترفع عن أبصارهم حجب الغفلة و الغرور، فیرتفع صوتهم:

یا وَیْلَنا قَدْ کُنَّا فِی غَفْلَةٍ مِنْ هذا. و لمّا کانوا لا یقدرون علی تغطیة ذنبهم بهذا العذر لیبرّئوا أنفسهم، فإنّهم یقولون بصراحة: بَلْ کُنَّا ظالِمِینَ

کیف یمکن عادة مع وجود کلّ هؤلاء الأنبیاء، و الکتب السماویة، و کلّ هذه الحوادث المثیرة و العبر و الدروس أن یکونوا فی غفلة؟

إنّ ما صدر من هؤلاء تقصیر و ظلم لأنفسهم و للآخرین.

معنی بعض الکلمات:

«حدب» علی زنة «أدب» معناه ما ارتفع من الأرض بین منخفضاتها، و قد یطلق علی ما ارتفع و برز من ظهر الإنسان أیضا.

«ینسلون» من مادّة «نسول» (علی وزن فضول)، أی الخروج بسرعة. و ما قیل فی شأن یأجوج و مأجوج إنّهما یمرّان بسرعة علی المرتفعات إشارة إلی نفوذهم الخارق فی الکرة الأرضیة.

«شاخصة» من الشخوص، و هو فی الأصل الخروج من المنزل، أو الخروج من مدینة إلی أخری، و لمّا کانت العین عند التعجّب و الدهشة کأنّها ترید الخروج من الحدقة، فقد قیل لذلک «شخوص» إنّ هذه هی حالة المذنبین العاصین فی القیامة یصبحون حائرین کأنّ أعینهم ترید أن تخرج من أحداقهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۷

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۹۸ الی ۱۰۳]

اشارة

إِنَّکُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (۹۸) لَوْ کانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ کُلٌّ فِیها خالِدُونَ (۹۹) لَهُمْ فِیها زَفِیرٌ وَ هُمْ فِیها لا یَسْمَعُونَ (۱۰۰) إِنَّ الَّذِینَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنی أُولئِکَ عَنْها مُبْعَدُونَ (۱۰۱) لا یَسْمَعُونَ حَسِیسَها وَ هُمْ فِی مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (۱۰۲)

لا یَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَکْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ هذا یَوْمُکُمُ الَّذِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۱۰۳)

التّفسیر

حصب جهنّم!

متابعة للبحث السابق عن مصیر المشرکین الظالمین، فقد وجّهت هذه الآیات الخطاب إلیهم، و جسّدت مستقبلهم و مستقبل آلهتهم بهذه الصورة: إِنَّکُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ «الحصب» فی الأصل یعنی الرمی و الإلقاء، و تقال بالذات لإلقاء قطع الحطب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۸

فی التنور.

و قال بعضهم: إنّ للحطب- علی وزن سبب- فی لغات العرب ألفاظا مختلفة، فبعض القبائل یسمّیه حصبا، و البعض الآخر خضبا، و لمّا کان القرآن یسعی للتألیف بین القبائل و الطوائف و القلوب، فإنّه کان یستعمل لغات مختلفة أحیانا، و من جملة ذلک کلمة «حصب» هذه، و هی لغة أهل الیمن لکلمة حطب [۱۸۱].

و علی کلّ حال، فإنّ الآیة محلّ البحث تقول للمشرکین، إنّکم و آلهتکم ستکوّنون حطب جهنّم، و ستلقون الواحد تلو الآخر فی نار جهنّم کقطع الحطب التی لا قیمة لها، ثمّ تضیف أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ

و هذه الجملة إمّا أن تکون تأکیدا لهذا المطلب، أو إنّها إشارة إلی نکتة جدیدة، و هی أنّهم یلقون آلهتکم فی النّار أوّلا، ثمّ تردون علیها، فکأنّ آلهتکم تستقبلکم و تستضیفکم بالنّار المنبعثة من وجودها[۱۸۲].

فإذا سأل سائل ما الهدف من إلقاء الأصنام فی جهنّم؟

یقال فی الجواب: إنّ هذا بنفسه نوع من العذاب بالنسبة لعبدة الأصنام حیث یرون أنّهم یحترقون فی النّار التی تتوقّد من آلهتهم. إضافة إلی أنّه تحقیر لأفکارهم حیث کانوا یلتجؤون إلی مثل هذه الموجودات العدیمة القیمة و الأهمیّة.

طبعا، هـذا فی حالة کون ما تَعْبُدُونَ تعنی الآلهة المیتة التی لا روح لها کالأصـنام الحجریة و الخشبیة، کما یسـتفاد ذلک من (ما) لأنّها تستعمل غالبا لغیر العاقل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۹

أمّا إذا أخذناها بالمعنی العامّ، بحیث تشـمل الشیاطین الذین أصبحوا محلّ عبادة، فإنّ مسألة ورود هذه الآلهة إلی جهنّم واضحة تماما، لأنّهم شرکاء فی الجریمة و المعصیة.

ثمّ تقول کاسـتخلاص للنتیجـة: لَوْ کانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها و لکن اعلموا أنّهم لا یدخلون جهنّم و حسب، بل وَ کُلٌّ فِیها خالِدُونَ و ممّا یلفت النظر هنا أنّ عبّاد الأصـنام سـیبتلون بآلهتهم خالـدین معها، تلک الآلهة التی کانوا یعبدونها دائما، و کانوا یعدّونها درعا واقیا عن البلاء، و کانوا یطلبون منها حلّ مشاکلهم و معضـلاتهم! و لمزید الإیضاح عن حال هؤلاء «العابدین الضالّین» المؤلمة المخزیة قبال «آلهتهم الحقیرة»، تقول الآیة محلّ البحث: لَهُمْ فِیها زَفِیرٌ وَ شَهِیقٌ

«الزفیر» فی الأصل یعنی الصـراخ المقترن بإخراج النفس. و قال بعضهم: إنّ صوت الحمار و صراخه المنکسر یسمّی فی البدایة زفیرا، و فی آخره شهیقا.

و علی کلّ حال فإنّه استعمل هنا إشارة إلی الصراخ أو الضجیج المنبعث من الحزن و شدّة الکرب ۱۸۳].

کما یحتمل أنّ هذا الزفیر أو الأنین المؤلم لا یکون مقتصرا علی العباد فحسب، بل إنّ معبوداتهم من الشیاطین أیضا یصطرخون معهم.

ثمّ تذکّر الجملة التالیة أحد العقوبات الاخری المؤلمة لهؤلاء، و هی وَ هُمْ فِیها لا یَسْمَعُونَ و هذه الجملة قد تکون إشارة إلی أنّ هؤلاء لا یسمعون الکلام الذی یسرّهم و یبهجهم، بل یسمعون أنین أهل جهنّم المؤلم المنغّص و صراخ ملائکة العذاب فقط.

و قال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ هؤلاء یوضعون فی توابیت من نار بحیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۰

لاـ یسـمعون صـوت أی أحـد أبـدا، فکـأنّهم لوحـدهم فی العـذاب، و هـذا بنفسه یعتبر عقوبـة أشـدّ، لأـنّ الإنسـان إذا رأی معه بعض المسجونین فستهون علیه المصیبة، و «البلیّة إذا عمّت طابت»، کما فی المثل.

ثمّ تبیّن الآیـة التالیـة حالاـت المؤمنین الحقیقیین من الرجـال و النسـاء لیتبیّن وضع الفریقین من خلاـل المقارنـة بینهما، فتقول أوّلا: إِنَّ الَّذِینَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنی أُولئِکَ عَنْها مُبْعَدُونَ و هو إشارة إلی أنّنا سنفی بکلّ الوعود التی وعدنا بها المؤمنین فی هذه الدنیا، و أحدها إبعادهم عن نار جهنّم.

و بالرغم من أنّ ظاهر الجملة یشـمل کلّ المؤمنین الحقیقیین، إلّا أنّ البعض احتمل أن تکون إشارة إلی من عبد من دون اللّه کالمسیح و مریم علیهما السّلام، الـذین عبـدوا دون إرادتهم، و لمّا کانت الآیات السابقـة تقول: سـتکونون أنتم و آلهتکم فی جهنّم، و کان من الممکن أن یشـمل هـذا التعبیر أمثال المسـیح علیه السّلام، فإنّ القرآن یبیّن هـذه الجملة کاسـتثناء بأنّ هذه الفئة سوف لا ترد الجحیم أبدا.

و ذکر بعض المفسّـرین سـببا لنزول هـذه الآیة، و هو یوحی بأنّ البعض قد سأل الرّسول الأعظم صـلی اللّه علیه و آله و سـلم نفس هذا السؤال فنزلت الآیـة تجیبهم. و لکن مع ذلـک فلاـ مـانع من أن تکون الآیـة جوابـا لهـذا السؤال، و أن تکون حکما عامّا لکلّ المؤمنین

الواقعيين.

و تذكر الآيتان الأخيرتان أربع نعم إلهيّة كبرى تغمر هذه الطائفة السعيدة.

فالأولى: إنّهم لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها و «الحسيس»- كما قال أرباب اللغة- الصوت المحسوس، و جاءت أيضا بمعنى الحركة، أو الصوت الناشئ من الحركة، و نار الجحيم المشتعلة دائما لها صوت خاصّ، و هذا الصوت مرعب من جهتين: من جهة أنّه صوت النّار، و من جهة أنّه صوت حركة النّار و التهامها. و لمّا كان المؤمنون المخلصون بعيدين عن جهنّم، فسوف لا يطرق سمعهم هذا الصوت المرعب مطلقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٥١

و الثّانية: إنّهم وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ فليس حالهم كما فى هذه الدنيا المحدودة، حيث أنّ الإنسان يأمل كثيرا من النعم دون أن ينالها، فإنّهم ينالون كلّ نعمة يريدونها، مادية كانت أو معنوية، و ليس ذلك على مدى يوم أو يومين، بل على امتداد الخلود.

و الثّالثة: إنّهم لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ. و قد اعتبر بعضهم أنّ هذا الفزع الأكبر إشارة إلى أهوال يوم القيامة التى هى أكبر من كلّ هول و فزع، و عدّه بعضهم إشارة إلى نفخة الصور و اختلافات الأحوال و تبدّلها عند انتهاء هذه الدنيا، و الزلزال العجيب الذى سيدكّ أركان هذا العالم كما جاء فى الآية (٨٧) من سورة النحل.

و لكن لمّا كان هول يوم القيامة و فزعها أهمّ و أكبر من جميع تلك الأمور، فإنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأصحّ.

و الرّابعة: من ألطاف اللّه تعالى لهؤلاء هو ما ذكرته الآية محلّ البحث:

وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

و

فى نهج البلاغة أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام قال: «فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران اللّه فى داره، رافق بهم رسله، و أزارهم ملائكته، و أكرم أسماعهم أن تسمع حسيس جهنّم أبدا»[١٨۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٥٢

الآية [سورة الأنبياء (٢١): آية ١٠۴]

اشارة

يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠۴)

التّفسير

يوم تطوى السّماء!

قرأنا فى آخر آية من الآيات السابقة أنّ المؤمنين آمنون من الفزع الأكبر و همّه، و تجسّم هذه الآية رعب ذلك اليوم العظيم، و فى الحقيقة تبيّن و تجسّد علّة عظمة و ضخامة هذا الرعب، فتقول: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ١٨٥].

لقد كان الناس فى الأزمنة الغابرة يستعملون أوراقا كالطومار لكتابة الرسائل و الكتب، و كانوا يطوون هذا الطومار قبل الكتابة، ثمّ أنّ الكاتب يفتح منه تدريجيّا و يكتب عليه ما يريد كتابته، ثمّ يطوى بعد الانتهاء من الكتابة و يضعونه جانبا، و لذلك فقد كانت رسائلهم و مثلها كتبهم أيضا على هيئة الطومار، و كان هذا الطومار يسمّى سجلا، إذ كان يستفاد منه للكتابة.

و فی هذه الآیة تشبیه لطیف لطیّ سجل عالم الوجود عند انتهاء الدنیا، ففی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۳

الوقت الحاضر فإنّ هذا السجل مفتوح، و تقرأ کلّ رسومه و خطوطه، و کلّ منها فی مکان معیّن، أمّا إذا صدر الأمر الإلهی بقیام القیامة فإنّ هذا السجل العظیم سیطوی بکلّ رسومه و خطوطه.

طبعا، لا یعنی طی العالم الفناء کما یتصوّر البعض، بل یعنی تحطّمه و جمعه، و بتعبیر آخر: فإنّ شکل العالم و هیئته ستضطرب و یقع بعضه علی بعض، لکن لا- تفنی مواده، و هذه الحقیقة تستفاد من التعبیرات المختلفة فی آیات المعاد، و خاصة من آیات رجوع الإنسان من العظام النخرة، و من القبور.

ثمّ تضیف کَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِیدُهُ و هذا التعبیر یشبه التعبیر الذی ورد فی الآیة (۲۹) من سورة الأعراف: کَما بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ أو أنّه مثل تعبیر وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ ۱۸۶][۱۸۷].

أمّا ما احتمله بعض المفسّرین من أنّ المراد من هذا الرجوع هو الرجوع إلی الفناء و العدم، أو التلاحم و الارتباط کما فی بدایة الخلق، فیبدو بعیدا جدّا.

و فی النهایة تقول الآیة: وَعْداً[۱۸۸] عَلَیْنا إِنَّا کُنَّا فاعِلِینَ ۱۸۹].

و یستفاد من بعض الرّوایات أنّ المراد من رجوع الناس إلی الحالة الأولی، هو أنّهم یرجعون حفاة عراة مرّة أخری کما کانوا فی بدایة الخلق. و لکن لا شکّ أنّ هذا لا یعنی انحصار معنی الآیة فی ذلک و اقتصاره علیه، بل إنّه أحد صور رجوع الخلق إلی الصورة الأولی ۱۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۴

الآیتان [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۱۰۵ الی ۱۰۶]

اشارة

وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ (۱۰۵) إِنَّ فِی هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِینَ (۱۰۶)

التّفسیر

سیحکم الصالحون الأرض:

بعد أن أشارت الآیات السابقة إلی جانب من ثواب المؤمنین الصالحین، فقد أشارت السورة فی هاتین الآیتین إلی أحد أوضح المکافآت الدنیویّة لهؤلاء، فتقول: وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ

و کلمة «الأرض» تطلق علی مجموع الکرة الأرضیة، و تشمل کافّة أنحاء العالم إلّا أن تکون هناک قرینة خاصّة فی الأمر، و مع أنّ البعض احتمل أن یکون المراد وراثة کلّ الأرض فی القیامة، إلّا أنّ ظاهر کلمة الأرض عند ما تذکر بشکل مطلق تعنی أرض هذا العالم.

و لفظ «الإرث»- کما أشرنا إلی ذلک سابقا- یعنی انتقال الشیء إلی شخص بدون معاملة و أخذ و عطاء، و قد استعملت هذه الکلمة فی القرآن أحیانا بمعنی تسلّط و انتصار قوم صالحین علی قوم طالحین، و السیطرة علی مواهبهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۵

و إمكانياتهم، كما نقرأ فى الآية (٣٧) من سورة الأعراف فى شأن بنى إسرائيل:

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا.

و بالرغم من أنّ «الزبور» فى الأصل يعنى كلّ كتاب و مقال، و مع أنّ موضعين من المواضع الثلاثة التى استعملت فيها هذه الكلمة فى القرآن يشيران إلى زبور داود، فلا يستبعد أن يكون المورد الثّالث، أى ما ورد فى الآية محلّ البحث إشارة إلى هذا المعنى أيضا.

إنّ زبور داود- أو بتعبير كتب العهد القديم (مزامير داود)- عبارة عن مجموعة أدعية النبىّ داود و مناجاته و نصائحه و مواعظه.

و احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الزبور هنا كلّ كتب الأنبياء السابقين ١٩١].

و لكن يبدو على الأغلب- مع ملاحظة الدليل الذى ذكرناه- أنّ الزبور هو كتاب مزامير داود فقط، خاصة و أنّ فى المزامير الموجودة عبارات تطابق هذه الآية تماما، و سنشير إلى ذلك فيما بعد إن شاء اللّه تعالى.

«و الذكر» فى الأصل يعنى التذكير أو ما يسبّب التذكير و التذكّر، و استعملت هذه الكلمة فى القرآن بهذا المعنى، و أطلقت أحيانا على كتاب موسى السماوى، كالآية (۴٨) من سورة النساء: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ

و استعملت أحيانا فى شأن القرآن، كالآية (٢٧) من سورة التكوير: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ و لذلك قال البعض: إنّ المراد من الذكر- فى الآية مورد البحث- هو القرآن، و الزبور كلّ كتب الأنبياء السابقين، أى إنّنا كتبنا فى كلّ كتب الأنبياء السابقين إضافة إلى القرآن بأنّ الصالحين سيرثون الأرض جميعا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢۵۶

لكن ملاحظة التعبيرات التى استعملت فى الآية توضّح أنّ المراد من الزبور كتاب داود، و الذكر بمعنى التوراة، و مع ملاحظة أنّ الزبور كان بعد التوراة، فإنّ تعبير مِنْ بَعْدِ حقيقى، و على هذا فإنّ معنى الآية: إنّنا كتبنا فى الزبور بعد التوراة أنّنا سنورث العباد الصالحين الأرض.

و هنا ينقدح سؤال، و هو: لماذا ذكر هذان الكتابان من بين الكتب السماوية؟

ربّما كان هذا التعبير بسبب أنّ داود كان أحد أكبر الأنبياء، و استطاع أن يشكّل حكومة الحقّ و العدل، و كان بنو إسرائيل مصداقا واضحا للقوم المستضعفين الذين ثاروا بوجه المستكبرين و دمّروا دولتهم و استولوا على حكومتهم و ورثوا أرضهم.

و السؤال الآخر الذى يثار هنا هو: من هم عباد اللّه الصالحون؟

إذا لاحظنا إضافة العباد إلى اللّه ستتّضح مسألة إيمان هؤلاء و توحيدهم، و بملاحظة كلمة الصالحين التى لها معنى واسع، فستخطر على الذهن كلّ المؤهّلات، الأهليّة من ناحية التقوى، و العلم و الوعى، و من جهة القدرة و القوّة، و من جانب التدبير و التنظيم و الإدراك الاجتماعى.

عند ما يهيء العباد المؤمنون هذه المؤهّلات و الأرضيات لأنفسهم، فإنّ اللّه سبحانه يساعدهم و يعينهم ليمرغوا انوف المستكبرين فى التراب، و يقطعوا أيديهم الملوّثة، فلا يحكمون أرضهم بعد، بل تكون للمستضعفين، فيرثونها، فبناء على ذلك فإنّ مجرّد كونهم مستضعفين لا يدلّ على الإنتصار على الأعداء و حكم الأرض، بل إنّ الإيمان لازم من جهة، و اكتساب المؤهّلات من جهة أخرى، و ما دام مستضعفو الأرض لم يحيوا هذين الأصلين فسوف لا يصلون إلى وراثة الأرض و حكمها. و لذلك فإنّ الآية التالية تقول من باب التأكيد المشدّد: إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ

لقد اعتبر بعض المفسّرين (هذا) إشارة إلى كلّ الوعود و التهديدات التى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢۵٧

جاءت فى هذه السورة، أو فى كلّ القرآن، و يدخل موضوع بحثنا فى هذا المفهوم الكلىّ أيضا. إلّا أنّ ظاهر الآية هو أنّ (هذا) إشارة إلى الوعد الذى أعطى للعباد الصالحين فى الآية السابقة فى شأن الحكومة فى الأرض.

بحوث

۱- روایات حول ثورة المهدی علیه السّلام

لقد فسّرت هذه الآیة فی بعض الرّوایات بأصحاب المهدی علیه السّلام، کما نری
روایة فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السّلام فی ذیل هذه الآیة: «هم أصحاب المهدی فی آخر الزمان».
و
جاء فی تفسیر القمّی فی ذیل هذه الآیة: أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ قال: «القائم و أصحابه».
لا یخفی أنّ معنی هذه الرّوایات لیس الحصر، بل هو بیان مصداق عال و واضح، و قلنا مرارا: إنّ هذه التفاسیر لا تحدّ من عمومیة مفهوم الآیة مطلقا، و بناء علی هذا ففی کلّ زمان، و فی أی مکان ینهض فیه عباد اللّه الصالحون بوجه الظلم و الفساد فإنّهم سینتصرون عاقبة الأمر، و سیکونون ورثة الأرض و حاکمیها.
و إضافة إلی الرّوایات الواردة آنفا فی تفسیر هذه الآیة، فقد رویت روایات کثیرة جدّا (بلغت حدّ التواتر) عن الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلم و أئمّة أهل البیت علیهم السّلام، و عن طریق السّنة و الشیعة، فی شأن المهدی علیه السّلام، و کلّها تدلّ علی أنّ حکم الأرض سیقع فی أیدی الصالحین، و إنّ رجلا من أهل بیت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم یقوم فیملأ الأرض قسطا و عدلا کما ملئت ظلما و جورا.
و من جملة الرّوایات الحدیث المعروف عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم، و الذی نقلته أکثر المصادر الإسلامیة:
«لو لم یبق من الدنیا إلّا یوم، لطوّل اللّه ذلک الیوم حتّی یبعث
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۸
رجلا (صالحا) من أهل بیتی یملأ الأرض قسطا و عدلا کما ملئت ظلما و جورا».
و قد ورد هذا الحدیث بهذا التعبیر مع اختلاف یسیر فی کثیر من کتب الشیعة و أهل السنّة[۱۹۲].
و قد نوّهنا فی ذیل الآیة (۳۳) من سورة التوبة: إنّ جماعة من کبار علماء الإسلام، من أهل السنّة و الشیعة قدیما و حدیثا قد صرّحوا فی کتبهم بأنّ الأحادیث الواردة فی قیام المهدی علیه السّلام بلغت حدّ التواتر، و لیس لأیّ إنکارها بأی وجه، حتّی أنّ کتبا قد ألّفت فی هذا الصدد بصورة خاصة تستطیع أن تطّلع علی تفصیلها فی ذیل الآیة (۳۳) من سورة التوبة.

۲- بشارة حکومة الصالحین فی مزامیر داود

ممّا یلفت النظر أنّه یلاحظ فی کتاب مزامیر داود- و الذی هو الیوم جزء من کتب العهد القدیم- یلاحظ التعبیر الذی ورد فی الآیة آنفة الذکر- نفسه أو ما یشبهه فی عدّة مواضع، و هذا یوحی بأنّه مع کلّ التحریفات التی وقعت فی هذه الکتب، فقد بقی هذا القسم مصونا من تلاعب الأیدی به.
۱- فنقرأ فی المزمور ۳۷/ جملة ۹: «... لأنّ عاملی الشرّ یقطعون و الذین ینتظرون الربّ هم یرثون الأرض، بعد قلیل لا یکون الشرّیر ...».
۲- و فی مکان آخر فی نفس هذا المزمور/ جملة ۱۱: «أمّا الودعاء فیرثون الأرض و یتلذّذون فی کثرة السلامة».
۳- و کذلک فی نفس المزمور ۳۷/ جملة ۲۷، یلاحظ هذا الموضوع بتعبیر آخر: «لأنّ المتبرکین باللّه سیرثون الأرض، أمّا الملعونون

فسينقطع أثرهم ...» ۴- و جاء فى هذا المزمور/ الجملة ۲۹: «إنّ الصالحين سيرثون الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۹

و سيسكنون فيها إلى الأبد».

۵- و جاء فى الجملة ۱۸ من نفس المزمور أعلاه: «إنّ اللّه يعلم أيّام الصالحين، و سيكون ميراثهم أبديّا»[۱۹۳].

نلاحظ نلاحظ هنا بصورة جيدة أنّ عنوان «الصالحين» الذى جاء فى القرآن، ورد بنفس هذا التعبير فى مزامير داود، إضافة إلى ورود تعابير أخرى كالصدّيقين و المتبركين و المتوكّلين و المتواضعين أو ما هو قريب من هذه المعانى فى جمل أخرى.

إنّ هذه التعبيرات دليل على عموم حكومة الصالحين، و تتطابق تماما مع أحاديث قيام المهدى عليه السّلام.

۳- حكم الصالحين قانون تكوينى

بالرغم من أنّه يصعب على أولئك الذين شهدوا و عاشوا فى ظلّ حكم الطواغيت الظلمة و العتاة المتجبّرين، قبول هذه الحقيقة بسهولة، و هى أنّ كلّ هذه الحكومات على خلاف نواميس الخلقة، و قوانين عالم الخلقة، و أنّ ما ينسجم معها هو حكم الصالحين المؤمنين، إلّا أنّ التحليلات الفلسفيّة تنتهى إلى أنّ هذه حقيقة واقعيّة، و بناء على هذا فإنّ جملة أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ قبل أن تكون وعدا إلهيّا، فإنّها تعتبر قانونا تكوينيّا.

توضيح ذلك: إنّ عالم الوجود- على حدّ علمنا- مجموعة من الأنظمة و القوانين تحكم جميع أرجاء هذا العالم و هى بذاتها دليل على وحدة هذا النظام و ارتباط أجزائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۰

وجود النظم و القانون فى عالم الوجود و الخلق تعتبر من أهمّ مسائل هذا العالم، فمثلا: إذا وجدنا مئات العقول الالكترونية القويّة قد انضمّ بعضها إلى بعض لإعداد الرحلات الفضائية لروّاد الفضاء بالمحاسبات الدقيقة، و كانت حساباتها صحيحة تماما حيث تنزل المركبة الفضائية فى المكان المقترح لها على سطح القمر، مع أنّ كوكبى القمر و الأرض يتحرّكان كلاهما بسرعة، فينبغى أن نعرف أنّ هذا الحدث العظيم مدين لنظام المجموعة الشمسية و أقمارها الدقيق، لأنّهم إذا انحرفوا عن مسيرهم الدقيق المنتظم بمقدار ۱٪ من الثّانية، لما كان معلوما مصير رجال الفضاء! و ننتقل من العالم الكبير إلى عالم أصغر و أصغر و صغير جدّا، فهنا- و خاصّة فى الكائنات الحيّة- سيتّخذ النظام معنى أكثر حيويّة، و لا محل للفوضى فيه مطلقا، فإنّ اختلال النظام فى خلية واحدة فى دماغ الإنسان كاف لأن يبدّل نظم حياته إلى اضطراب مؤسف.

و جاء فى أخبار الصحف: إنّ شابا جامعيا قد نسى كل ماضيه تقريبا على أثر هزّة دماغية شديدة فى حادثة سير! مع أنّه كان سالما من حيث الجهات الاخرى، فلم يعرف أخاه و لا أخته كما كان يتضايق عند ما تحتضنه أمّه و تقبّله، و يتساءل:

ماذا تفعل معى هذه المرأة الأجنبية؟ فيذهبون به إلى مسقط رأسه، و إلى الغرفة التى نشأ فيها، فكان ينظر إلى أعماله اليدوية، و لوحاته الفنية، إلّا أنّه يقول: إنّى أرى هذه الغرفة و اللوحات لأوّل مرّة! ربّما كان يعتقد أنّه قد قدم من كوكب آخر، فكلّ شىء جديد بالنسبة له.

ربّما توقّفت بعض خلاياه من بين عدّة مليارات من الخلايا المخيّة، و هى التى تربط ماضيه بحاضره، و لكن أى أثر مرعب تركه هذا الاختلال الجزئى؟! هل يستطيع المجتمع الإنسانى بانتخابه اللانظام و الفوضى و الظلم و الجور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۱

و الشقاء أن يعزل نفسه عن تيار نهر عالم الخلقة العظيم، و الذى يسير كلّه ببرنامج منظّم؟

ألاـ تجعلنا مشاهدة الوضع العام للعالم نفكّر فی أنّ البشر أیضا یجب أن یخضعوا لنظام عالم الوجود، شاؤوا أم أبوا، و یقبلوا القوانین المنتظمة العادلة، و یعودوا إلی مسیرهم الأصیل و یکونوا منسجمین و هذا النظام.

إذا ألقینا نظرة علی بناء أجهزة بدن الإنسان المختلفة المعقّدة، ابتداء من القلب و المخ إلی العین و الاذن و اللسان، إلی بصیلة الشعر، سنراها جمیعا خاضعة لقوانین و أنظمة و حسابات دقیقة، و إذا کان الأمر کذلک فی البدن، فکیف تقدر البشریة أن تستقرّ بدون اتّباع ضوابط و مقرّرات و نظام صحیح و عادل؟

إنّنا نرید بقاء البشریة، و نسعی لذلک، غایة ما فی الأمر أنّ مستوی وعی مجتمعنا لم یصل إلی ذلک الحدّ بحیث نعلم أنّ استمرارنا فی هذا الطریق الحالی سینتهی إلی فنائنا، و لکن سنثوب إلی عقولنا تدریجیّا، و یحصل لنا هذا الإدراک و الرشد الفکری.

نحن نرید منافعنا و مصالحنا، و لکنّنا إلی الآن لا نعلم أنّ استمرار الوضع الحالی سیدمّر مصالحنا و یجعلها هباء منثورا، و لکنّا نضع نصب أعیننا الأرقام و الإحصائیات الحیّة الناطقة عن سباق التسلّح مثلا، و سنری أنّ نصف القوی الفکریة و الجسمیة للمجتمع البشری، و نصف الثروات و رؤوس الأموال الضخمة تهدر فی هذا المجال! و لا تهدر فحسب، بل إنّها تسعی إلی فناء و إتلاف النصف الثّانی!

و تزامنا مع ارتفاع سطح و عینا سنری بوضوح أنّنا یجب أن نعود إلی نظام عالم الوجود العام، و نضمّ صوتنا إلیه، و نتّحد معه.

و کما أنّنا جزء من هذا الکلّ فعلا، فیجب أن نکون کذلک من الناحیة العملیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۲۶۲

حتّی نستطیع أن نصل إلی أهدافنا فی جمیع المجالات.

و النتیجة هی: إنّ نظام الخلقة سیکون دلیلا واضحا علی قبول نظام اجتماعی صحیح فی المستقبل، فی عالم الإنسانیة، و هذا هو الذی یستفاد من الآیة مورد البحث، و الأحادیث المرتبطة بقیام المصلح العالمی العظیم، المهدی الموعود[۱۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۲۶۳

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۱۰۷ الی ۱۱۲]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ (۱۰۷) قُلْ إِنَّما یُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُکُمْ عَلی سَواءٍ وَ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِیبٌ أَمْ بَعِیدٌ ما تُوعَدُونَ (۱۰۹) إِنَّهُ یَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ یَعْلَمُ ما تَکْتُمُونَ (۱۱۰) وَ إِنْ أَدْرِی لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَکُمْ وَ مَتاعٌ إِلی حِینٍ (۱۱۱)

قالَ رَبِّ احْکُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلی ما تَصِفُونَ (۱۱۲)

التّفسیر

النّبی رحمة للعالمین:

لمّا کانت الآیات السابقة قد بشّرت العباد الصّالحین بوراثة الأرض و حکمها، و مثل هذه الحکومة أساس الرحمة لکلّ البشر، فإنّ الآیة الأولی أشارت إلی رحمة وجود النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم العامّة، فقالت: وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ فإنّ عامّة البشر فی الدنیا، سواء الکافر منهم و المؤمن، مشمولون لرحمتک، لأنّک تکفّلت بنشر الدین الذی ینقذ الجمیع، فإذا کان جماعة قد انتفعوا به و آخرون لم ینتفعوا، فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۴

ذلک یتعلّق بهم أنفسهم، و لا یخدش فی عمومیّة الرحمة.

و هذا یشبه تماما أن یؤسّس جماعة مستشفی مجّهزة لعلاج کلّ الأمراض، و فیها الأطباء المهرة، و أنواع الأدویة، و یفتحوا أبوابها بوجه کلّ الناس بدون تمییز، أ لیست هذه المستشفی رحمة لکلّ أفراد المجتمع؟ فإذا امتنع بعض المرضی العنودین من قبول هذا الفیض العام، فسوف لا یؤثّر فی کون تلک المستشفی عامّة.

و بتعبیر آخر فإنّ کون وجود النّبی رحمة للعالمین له صفة المقتضی و فاعلیة الفاعل، و من المسلّم أنّ فعلیة النتیجة لها علاقة بقابلیة القابل.

إنّ التعبیر ب «العالمین» له إطار واسع یشمل کلّ البشر و علی امتداد الأعصار و القرون، و لهذا یعتبرون هذه الآیة إشارة إلی خاتمیة نبی الإسلام، لأنّ وجوده رحمة و إمام و قدوة لکلّ الناس إلی نهایة الدنیا، حتّی أنّ هذه الرحمة تشمل الملائکة أیضا:

ففی حدیث شریف مروی عنه صلی اللّه علیه و آله و سلم یؤیّد هذه العمومیة، إذ نلاحظ فیه إنّ هذه الآیة لمّا نزلت سأل النّبی جبرئیل فقال: «هل أصابک من هذه الرحمة شیء؟» فقال جبریل: «نعم إنّی کنت أخشی عاقبة الأمر، فآمنت بک لمّا أثنی اللّه علیّ بقوله: عند ذی العرش مکین»[۱۹۵].

و علی کلّ حال، ففی دنیا الیوم حیث ینتشر الفساد و الظلم و الاستبداد فی کلّ جانب، و نیران الحروب مستعرة فی کلّ جهة، و أخذت قبضات الجبّارین العتاة بأنفاس المستضعفین المظلومین ... فی الدنیا الغارقة فی الجهل و فساد الأخلاق و الخیانة و الظلم و الجور ... أجل فی مثل هذه الدنیا سیتّضح أکثر فأکثر معنی کون النّبی رحمة للعالمین، و أی رحمة أسمی من أنّه أتی بدین إذا عمل به فإنّه یعنی نهایة کلّ المآسی و النکبات و الأیّام السوداء؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۵

أجل، إنّه هو و أوامره، و دینه و أخلاقه کلّها رحمة، رحمة للجمیع، و ستکون عاقبة استمرار هذه الرحمة حکم الصالحین المؤمنین فی کلّ أرجاء المعمورة.

و لمّا کان أهمّ مظهر من مظاهر الرحمة، و أثبت دعامة لذلک هی مسألة التوحید و تجلیّاته، فإنّ الآیة التالیة تقول: قُلْ إِنَّما یُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

و هذه الآیة فی الواقع تشیر إلی ثلاث نقاط مهمّة:

الأولی: إنّ التوحید هو الدعامة الأساسیّة للرحمة، و حقّا کلّما فکّرنا أکثر فستتّضح هذه العلاقة أقوی، التوحید فی الإعتقاد، و فی العمل، و التوحید فی الکلمة، و توحید الصفوف، و فی القانون و فی کلّ شیء.

الثّانیة: إنّه بمقتضی کلمة (أنّما) الدالّة علی الحصر، فإنّ کلّ دعوات الأنبیاء تتلخّص فی أصل التوحید، و المطالعات الدقیقة تبیّن أیضا أنّ الأصول، بل و حتّی الفروع و الأحکام ترجع أخیرا إلی أصل التوحید، و لذلک فإنّ التوحید- و کما قلنا سابقا- لیس أصلا من الأصول و حسب، بل إنّه کالخیط القوی الذی یربط خرز المسبحة، أو الأصحّ أنّه کالروح الساریة فی البدن.

و النقطة الثّالثة: إنّ المشکلة الأساسیّة فی جمیع المجتمعات هی التلوّث بالشرک بأشکال مختلفة، لأنّ جملة فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ توحی بأنّ المشکلة الأساسیّة هی الخروج من الشرک و مظاهره، و رفع الید عن الأصنام و تحطیمها، لیس الأصنام الحجریة و الخشبیة فحسب، بل کلّ الأصنام، و فی أی شکل کانت، و خاصّة طواغیت البشر! ثمّ تقول الآیة التالیة: إنّهم إذا لم یذعنوا و یهتّموا لدعوتنا و نداءاتنا هذه فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُکُمْ عَلی سَواءٍ.

«آذنت» من مادّة الإیذان، أی الإعلان المقترن بالتهدید، و جاء أحیانا بمعنی إعلان الحرب، لکن لمّا کانت هذه السورة قد نزلت فی مکّة، و لم تکن هناک أرضیة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۶

للجهاد، و لم يكن حكم الجهاد قد نزل، فيبدو من البعيد جدّا أن يكون معنى هذه الجملة هنا إعلان الحرب، و الظاهر أنّ النّبی أراد بهذا الكلام أن يعلن تنفّره و ابتعاده عن أولئك، و يبيّن بأنّه قد يئس منهم تماما.

و تعبير «على سواء» إمّا أن يكون إشارة إلى أنّی قد أنذرتكم جميعا و حذّرتكم من العذاب الإلهی على حدّ سواء، لئلّا يتصوّروا أنّ أهل مكّة أو قريشا يختلفون عن الآخرين، و أنّ لهم عند اللّه فضلا أو كرامة. أو أنّه إشارة إلى أنّ النّبی قد بلّغهم جميعا و بدون استثناء.

ثمّ يبيّن هذا التهديد بصورة أوضح، فيقول بأنّی لا أعلم هل أنّ موعد عذابكم قريب أم بعيد: وَ إِنْ أَدْرِی أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ فلا تظنّوا أنّ هذا الوعيد بعيد، فربّما كان قريبا و قريبا جدّا.

قد يكون المراد من العذاب و العقوبة هنا عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا، أو كليهما، ففی الصورة الأولى هو مختص بعلم اللّه، و لا يعلم أی أحد تاريخ وقوع القيامة بدقّة حتّى أنبياء اللّه، و فی الصورة الثّانية و الثّالثة يمكن أن يكون إشارة إلى جزئياته و زمانه، و أنا لا أعلم بجزئياته، لأنّ علم النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلم بمثل هذه الحوادث ليس له صفة فعليّة دائما، بل له صفة إرادية أحيانا، أی ما دام لم يرد فهو لا يعلم ۱۹۶].

ثمّ إنّكم لا ينبغی أن تتوهّموا أنّ عقوبتكم إذا تأخّرت فهذا يعنی أنّ اللّه غير مطّلع على أعمالكم و أقوالكم، فهو يعلم كلّ شیء، ف إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ فإنّ الجهر و الإخفاء له معنى بالنسبة لكم حيث أنّ علمكم محدود عادة، أمّا بالنسبة لمن لا حدود لعلمه، فإنّ الغيب و الشهادة، و السرّ و العلن سواء لديه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۷

و كذلك إذا رأيتم أنّ العقوبة الإلهيّة لا تحيط بكم فورا، فلا تظنّوا أنّ اللّه سبحانه غير عالم بعملكم، فلا أعلم لعلّه إمتحان لكم: وَ إِنْ أَدْرِی لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ ثمّ يأخذكم أشدّ مأخذ و يعاقبكم أشدّ عقاب! لقد أوضحت الآية فی الواقع حكمتين لتأخير العذاب الإلهی:

الأولى: مسألة الامتحان و الاختبار، فإنّ اللّه سبحانه لا يعجّل فی العذاب أبدا حتّى يمتحن الخلق بالقدر الكافی، و يتمّ الحجّة عليهم.

و الثّانية: إنّ هناك أفرادا قد تمّ اختبارهم و حقّت عليهم كلمة العذاب حتما، إلّا أنّ اللّه سبحانه يوسّع عليهم النعمة ليشدّد عليهم العذاب، فإذا ما غرقوا فی النعمة تماما، و غاصوا فی اللذائذ، أهوى عليهم بسوط العذاب ليكون أشدّ و آلم، و ليحسّوا جيدا بألم و عذاب المحرومين و المضطهدين.

و تتحدّث آخر آية هنا- و هی آخر آية من سورة الأنبياء- كالآية الأولى من هذه السورة عن غفلة الناس الجهّال، فتقول حكاية عن النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلم فی عبارة تشبه اللعن، و تعكس معاناته صلى اللّه عليه و آله و سلم من كلّ هذا الغرور و الغفلة، و تقول: إنّ النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلم بعد مشاهدة كلّ هذا الإعراض قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ ۱۹۷]. و فی الجملة الثّانية يوجّه الخطاب إلى المخالفين و يقول: وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ

إنّه فی الحقيقة ينبّه هؤلاء بكلمة (ربّنا) إلى هذه الحقيقة، و هی أنّنا جميعا مربوبون و مخلوقون، و هو ربّنا و خالقنا جميعا.

و التعبير ب «الرحمن»، و الذی يشير إلى الرحمة العامّة، يعيد إلى أسماع هؤلاء أنّ الرحمة الإلهية قد عمّت كلّ وجودنا، فلما ذا لا تفكّروا لحظة فی خالق كلّ هذه النعمة و الرحمة؟

و تعبير الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ يحذّر هؤلاء بأن لا تظنّوا أنّا وحيدون أمام

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۸

جمعكم و كثرته، و لا تتصوّروا أنّ كلّ اتهاماتكم و أكاذيبكم، سواء كانت على ذات اللّه المقدّسة أو علينا، ستبقى بدون جواب و

جزاء، كلّا مطلقا، فإنّه تعالى سندنا و معتمدنا جميعا، و هو قادر على أن يدافع عن عباده المؤمنين أمام كلّ أشكال الكذب و الافتراء و الاتّهام.

نهایهٔ سورهٔ الأنبیاء

اللهمّ لا تدعنا وحدنا قبال الشرق و الغرب اللذين صمّما جميعا على إبادتنا، بل نسألك أن تنصرنا كما نصرت نبيّك صلى اللّه عليه و آله و سلم و أصحابه و هم قلّة و لم تدعهم و حدهم قبال كثرة الأعداء.

اللهمّ إنّك قد بيّنت في هذه السورة المباركة رحمتك الخاصّة على الأنبياء في الشدائد و الأزمات و عند تقلّبات الحياة و مصاعبها.

اللّهم و إنّنا مبتلون في عصرنا و زماننا بمثل تلك الشدائد و الأزمات، و انّا لنرجو رحمتك التي خصّصت بها أنبياءك و عبادك الصالحين، فارحمنا و فرّج عنّا ...

آمين ربّ العالمين

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٦٩

سورهٔ الحجّ

اشارهٔ

مدنيّة و عدد آياتها ثمان و سبعون آية

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٧١

«سورة الحجّ»

مضمون سورهٔ الحجّ:

سمّيت هذه السورة ب «سورة الحجّ» لأنّ جزءا من آياتها تحدّث عن الحجّ.

و هناك اختلاف بين المفسّرين و كتّاب تأريخ القرآن حول مكّيتها أو مدنيّتها.

فالبعض يرى أنّها مكيّة باستثناء عدد من آياتها. في الوقت الذي يرى آخرون أنّها مدنية عدا بعض آياتها. و آخرون يرون أنّها مزيجا من الآيات المكيّة و المدنيّة. إلّا أنّنا لو أخذنا بنظر الإعتبار استنتاجاتنا من السور المكية و المدنيّة، أو بتعبير آخر:

أجواء هاتين المدينتين و حاجات المسلمين و كيفية صدور تعاليم النّبي صلى اللّه عليه و آله و سلم إليهم في كلّ من هاتين المنطقتين، لوجدنا أنّ آيات هذه السورة تشبه السور المدنيّة، فالتعاليم الخاصّة بالحجّ، و كذلك التعاليم الخاصة بالجهاد تناسب أوضاع المسلمين في المدينة، مع أنّ تأكيد آيات في هذه السورة للمبدأ و المعاد لا تستبعد ملاءمتها للسور المكيّة.

يقول مؤلّف «تأريخ القرآن» استنادا إلى «فهرست ابن النديم و نظم الدرر»:

إنّ سورة الحجّ نزلت في المدينة، باستثناء آيات منها و التي نزلت بين مكّة و المدينة، و يضيف: إنّها السورة السادسة بعد المائة التي نزلت على النّبي صلى اللّه عليه و آله و سلم.

و تقع بعد سورة النور. و قبل سورة المنافقين.

و على أي حال فإنّ كون هذه السورة مدنيّة أقوى.

هذا و يمكن تقسيم مواضيعها إلى عدّة أقسام هى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۲

۱- تضمّنت آيات منها موضوع «المعاد» و أدلّته المنطقية، و إنذار الغافلين عن يوم القيامة و نظائر ذلك التى تبدأ هذه السورة بها لتضمّ جزءا كبيرا منها.

۲- يتضمّن جزء ملحوظ من هذه الآيات جهاد الشرك و المشركين، و جلب انتباه الناس إلى عظمة الخالق بواسطة معاجز الخلق فى عالم الوجود.

۳- دعا جزء آخر من هذه السورة الناس إلى الإعتبار بمصير الأقوام البائدة، و ما لاقت من عذاب إلهى، و من هذه الأقوام قوم نوح، و عاد و ثمود، و قوم إبراهيم و لوط، و قوم شعيب و موسى.

۴- و تناول جزء آخر منها مسألة الحجّ و تاريخه منذ عهد إبراهيم عليه السّلام، و مسألة القربان و الطواف و أمثالها.

۵- و تضمّن الجزء الآخر مقاومة الظالمين و التصدّى لأعداء الإسلام المحاربين.

۶- و احتوى قسم آخر نصائح فى مجالات الحياة المختلفة.

۷- التشجيع على أعمال الصلاة و الزكاة، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و التوكّل و التوجّه إلى اللّه (سبحانه و تعالى).

فضيلة تلاوة سورة الحجّ:

جاء فى حديث للرسول الأكرم محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلم «من قرأ سورة الحجّ اعطى من الأجر كحجّة حجّها، و عمرة اعتمرها، بعدد من حجّ و اعتمر فيما مضى و فيما بقى»[۱۹۸]!

و هذا الثواب و الفضل العظيم ليس لمجرد التلاوة اللفظيّة فقط، و إنّما لتلاوة تنير الفكر، و تفكّر يتبعه عمل و تطبيق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۳

و من يجعل هذه السورة و مضمونها من مبدأ و معاد و تعليمات تعبّدية أخلاقية و مسائل خاصّة بالجهاد و مقارعة الظالمين، مصباحا لبصيرته و منهاجا لحياته، سيجد نفسه قد ارتبط بجميع المؤمنين السابقين و اللاحقين- معنويا و روحيّا- ارتباطا يشعره بأنّه شريك فى أعمالهم، و هم شركاء فى أعماله، دون أن ينقص من أجرهم. و أنّه سيكون همزة وصل بين جميع المؤمنين عبر التاريخ.

و على هذا، فلا عجب من مقدار الثواب و الأجر الذى نصّ عليه هذا الحديث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۴

الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (۱) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (۲)

التّفسير

زلزلة البعث العظيمة:

تبدأ هذه السورة بآيتين تشيران إلى يوم البعث و مقدّماته، و هما آيتان تبعدان الإنسان- دون إرادته- عن هذه الحياة المادية العابرة، ليفكّر بالمستقبل المخيف الذى ينتظره المستقبل الذى سيكون جميلا و سعيدا إن فكّرت فيه اليوم، و لكنّه مخيف حقّا إن لم تعدّ العدّة له، و الآية المباركة: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ خطاب للناس جميعا بلا استثناء، فقوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ دليل واضح على عدم التفريق بينهم من ناحية العنصر، و اللغة، و الزمان، و الأماكن الجغرافية، و الطوائف، و القبائل. فهو موجّه للجميع: المؤمن و الكافر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۵

و الكبير و الصغير، و الشيخ و الشابّ، و الرجل و المرأة، على امتداد العصور.

و عبارة اتَّقُوا رَبَّكُمْ خلاصة لجميع برامج السعادة، فهى تبيّن التوحيد فى «ربّكم» من جهة و التّقوى من جهة أخرى. و بهذا جمعت البرامج الاعتقادية و العمليّة.

و جملة إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ التى جاءت فى عدد من الآيات القرآنية، تكرّر هنا الحديث عنها بشكل مختصر، هو أنّ البعث يحدث ثورة و تبدّلا حادّا فى عالم الوجود، الجبال تقتلع من مكانها، و تموج البحار، و تنطبق السّماء على الأرض، ثمّ يبدأ عالم جديد و حياة جديدة، و يسيطر ذعر شديد على الناس يفقدهم صوابهم.

ثمّ بيّنت الآية التالية فى عدّة جمل انعكاس هذا الذعر الشديد، فقالت: يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ من شدّة الوحشة و الرعب.

وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها.

و ثالث انعكاس لهذا الذعر الشديد: تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى و علّة ذلك هو شدّة العذاب فى ذلك اليوم وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ هذا العذاب الذى أرعب الناس و أفقدهم صوابهم.

مسائل مهمّة

۱- تحدث هذه الظواهر المذكورة آنفا بشكل يسير فى الزلازل الدنيويّة و الأحداث المرعبة، حيث تنسى الامّهات أطفالهنّ، و تسقط الحوامل حملهنّ، و ترى آخرين كالسكارى قد فقدوا صوابهم، إلّا أنّ هذا لا يتّخذ طابعا عاما. أمّا زلزال البعث فإنّه يصيب الناس جميعا دون استثناء.

۲- قد تكون هذه الآيات إشارة إلى خاتمة العالم التى تعتبر مقدّمة للبعث، و فى هذه الحالة ستأخذ عبارة «كلّ ذات حمل ... و تذهل كلّ مرضعة» مفهومها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۶

الحقيقى، إلّا أنّه يحتمل أنّها تشير إلى زلزال يوم البعث، بدلالة قوله سبحانه:

لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ و العبارات السابقة تكون كأمثلة. أى إنّ الموقف مرعب لدرجة أنّه لو فرض وجود ذات حمل لوضعت حملها، و تغفل الامّهات عن أطفالهنّ- تماما- إن شهدن هذا الموقف.

۳- نعلم أنّ كلمة «المرضع» تطلق فى اللغة العربية على المرأة التى ترضع ولدها[۱۹۹]، إلّا أنّ مجموعة من المفسّرين و بعض اللغويين يقولون: إنّ هذه الكلمة تستخدم بصيغة مؤنثة «مرضعة» لتشير إلى لحظة الإرضاع، أى يطلق على المرأة التى يمكنها إرضاع طفلها كلمة المرضع، و كلمة المرضعة خاصة بالمرأة التى هى فى حالة إرضاع طفلها[۲۰۰].

و لهذا التعبير فى الآية أهميّة خاصّة، فشدّة زلزال البعث، و رعبه بدرجة كبيرة، يدفعان المرضعة إلى سحب ثديها من فم رضيعها و نسيانه دون وعى منها.

۴- إنّ عبارة تَرَى النَّاسَ سُكارى إشارة إلى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم هو المخاطب فيها فيقول له: سترى الناس هكذا، أمّا أنت فلست مثلهم، و يحتمل أن يكون الخطاب للمؤمنين الراسخين فى الإيمان الذين ساروا على خطى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، بأنّهم فى أمان من هذا الخوف الشديد.

۵- نقل كثير من المفسّرين و رواة الحديث فى خاتمة هذه الآيات حديثا عن الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلم و هو أنّ الآيتان من بداية السورة نزلتا ليلا فى غزاة بنى المصطلق ۲۰۱]- و هم حى من خزاعة- و الناس يسيرون، فنادى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم فحثّوا المطى حتّى كانوا حوله صلى اللّه عليه و آله و سلم فقرأها عليهم. فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة، فلمّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۷

أصبحوا لم يحطّوا السرج عن الدواب و لم يضربوا الخيام، و الناس بين باك حزين أو جالس يتفكّر،

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم: «أ تدرون أى يوم ذاك؟» قالوا: اللّه و رسوله أعلم. قال: «ذاك يوم يدخل الناس من كلّ ألف تسعمائة و تسعة و تسعين إلى النّار، و واحد إلى الجنّة»! فكبر ذلك على المسلمين و بكوا بشدّة! و قالوا: فمن ينجو يا رسول اللّه؟ فأجابهم بأنّ المذنبين الذين يشكّلون الأكثرية هم غيركم. ثمّ قال: «إنّى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة» فكبّروا، ثمّ قال: «إنّى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنّة» فكبّروا، ثمّ قال: «إنّى لأرجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنّة، و إنّ أهل الجنّة مائة و عشرون صفّا، ثمانون منها أمّتى»[۲۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۸

الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳ الى ۴]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (۳) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (۴)

التّفسير

أتباع الشيطان!

بعد أن أعطت الآيات السابقة صورة لرعب الناس حين وقوع زلزلة القيامة، أوضحت الآيات اللاحقة حالة أولئك الذين نسوا اللّه، و كيف غفلوا عن مثل هذا الحدث العظيم، فقالت: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

نجد هؤلاء الناس يجادلون مرّة فى أساس التوحيد و وحدانيّة الحقّ تبارك و تعالى، و فى إنكار وجود شريك له. و مرّة يجادلون فى قدرة اللّه على إحياء الموتى، و فى البعث و النشور، و لا دليل لهم على ما يقولون.

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت فى «النضر بن الحارث» الذى كان من المشركين المعاندين، و كان يصرّ على القول بأنّ الملائكة بنات اللّه، و أنّ القرآن مجموعة من أساطير السلف تنسب إلى اللّه، كما كان ينكر الحياة بعد الموت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۹

و البعض الآخر من المفسّرين يعتقد أنّ هذه الآية إشارة إلى جميع المشركين الذين يجادلون فى التوحيد و فى قدرة اللّه.

إلّا أنّ سبب النّزول لا يمكنه أن يضيّق مفهوم هذه الآية، فهذان القولان يصبّان فى معنى واحد، يشمل جميع الذين يشتركون فى جدال مع اللّه تعالى، إمّا عن تقليد أعمى، و إمّا عن عصبية، أو لإتّباع الخرافات، أو الأهواء النفسية.

ثمّ تضيف هذه الآية وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ فهؤلاء الأشخاص الذين لا يتّبعون منطقا أو علما، و إنّما يتّبعون كلّ شيطان عنيد و متمرّد، و لا يخضعون لشيطان واحد، بل لجميع الشياطين! شياطين الإنس و الجنّ، الذين لكلّ منهم برنامجه و أحابيله و شراكه.

و كلمة «مريد» مشقّة من «مرد» و أصلها الأرض المرتفعة التى لا نبت فيها.

و تطلق أيضا كلمة «أمرد» على الشجرة الجرداء، و لهذا تطلق أيضا على كلّ صبى لم ينبت الشعر فى وجهه، و هنا يقصد ب «المريد» الشخص الذى خلا من أى خير و سعادة. و طبيعى أن يكون مثل هذا الشخص عنيدا و ظالما و عاصيا. و بهذا يتّضح مصير الإنسان الذى يتّبع الشيطان الخالى من كلّ خير!! و من هنا كانت الآية اللاحقة كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ[۲۰۳].

ملاحظات

۱- الجدال فى الحقّ و الباطل

رغم أنّ كلمة «المجادلة» تعنى فى عرف الناس البحث غير المنطقى، فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۲۸۰

أصلها اللغوى ليس كذلك. بل تعنى أى نقاش كان. لهذا نرى القرآن يوصى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بقوله: وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۲۰۴] أى جادل مخالفيك بأفضل أسلوب.

۲- جدال الباطل سبيل الشيطان

يرى بعض كبار المفسّرين أنّ عبارة يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ إشارة إلى أقوال المشركين التى تفتقد السند و الدليل. و عبارة وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ إشارة إلى أفعال المشركين الخاطئة.

و يرى آخرون أنّ العبارة الأولى تشير إلى اعتقاداتهم الفاسدة و الخرافية. أمّا العبارة الثّانية فتشير إلى سلوكياتهم الخاطئة و المنحرفة.

و بما أنّ الآية السابقة و التالية هذه الآية، تناولتا الأسس الاعتقادية، فلا يستبعد أن تشير هاتان الجملتان إلى حقيقة واحدة، أو بتعبير آخر: تتضمّنان طرفى موضوع واحد- نفيه و إثباته- فالعبارة الأولى تقول: يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ أى يجادل فى اللّه و قدرته تقليدا لأحد، أو عصبيّة، أو هوى نفس، و العبارة الثّانية تشير إلى أن من لا يتّبع العلم و المعرفة، فمن الطبيعى أنّه يتّبع كلّ شيطان طاغ عنيد.

۳- لماذا أى شيطان كان؟

إنّه ممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يقل أنّ هذا الشخص يتّبع الشيطان، بل ذكر.

أنّه يتّبع أى شيطان عنيد كان، و هذا يشير إلى تعدّد مناهج و مكائد الشياطين، فكلّ منهم اختار لنفسه مكيدة خاصّة، و هذه المكائد و الفخاخ متنوّعة و متكثّرة إلى حدّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۱

یکون من العسیر تشخیصها، إلّا المؤمنین المتوکّلین علی اللّه و المشمولین برحمته و حمایته: إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ ۲۰۵].

و لا بدّ من الانتباه إلی أنّ کلمة الشیطان تستبطن التمرّد و العناد و البعد عن کلّ خیر و برکة. إلّا أنّ ذکر کلمة «مرید» (الفاقد لکلّ خیر و سعادة) بعد کلمة الشیطان مباشرة، هو تأکید لتوضیح مصیر من یتّبعه.

۴- تفسیر عبارة کُتِبَ عَلَیْهِ ۲۰۶].

واضح أنّ هذه العبارة تعنی «الإلزام»، سواء کانت فی عالم الخلق أم فی عالم التشریع. إلّا أنّه یجب أن لا نتصوّر أنّها تعنی «الجبر» و أنّ الشیاطین مجبورون علی إضلال أتباعهم لیرسلوهم إلی دار البوار. بل إنّها نتیجة مؤکّدة لبرنامج اختاروه بمحض إرادتهم. فإبلیس قائد الشیاطین و کبیرهم خالف أمر اللّه و عنده بملء إرادته، حتّی بلغت به الجرأة أن یعترض علی ذات اللّه. فهو ضالّ و مضلّ و کذلک سائر الشیاطین من الجنّ و الإنس. و ذلک کما نقول للمدمن علی المخدرات: کتب علی جبینه سوء الطالع و التعاسة، فهل یعنی ذلک جبرا؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۲

الآیات [سورة الحج (۲۲): الآیات ۵ الی ۷]

اشارة

یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَیِّنَ لَکُمْ وَ نُقِرُّ فِی الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ نُخْرِجُکُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفَّی وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلی أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِکَیْلا یَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَیْئاً وَ تَرَی الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ (۵) ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ یُحْیِ الْمَوْتی وَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۶) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِیَةٌ لا رَیْبَ فِیها وَ أَنَّ اللَّهَ یَبْعَثُ مَنْ فِی الْقُبُورِ (۷)

التّفسیر

دلیل المعاد فی عالم الأجنّة و النّبات:

بما أنّ البحث فی الآیات السابقة کان یدور حول تشکیک المخالفین للمبدأ و المعاد، فالآیات محل البحث طرحت دلیلین منطقیین قویّین لإثبات المعاد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۳

الجسمانی: أحدهما التغیّرات التی تحدث فی مراحل تکوین الجنین، و الآخر هو التغیّرات التی تحدث فی الأرض عند خروج النبات.

و القرآن شرح صورا للمعاد ممّا یلمسه الناس فی هذه الدنیا، و یرونه بأمّ أعینهم، إلّا أنّهم لم ینتبهوا لذلک، لیعلموا أنّ الحیاة بعد الموت لیست ضربا من الخیال، بل هی حادثة فعلا مشهودة للعیان، و الخطاب القرآنی یعمّ جمیع الناس بنوره یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَةٍ[۲۰۷] کلّ ذلک من أجل أن نوضّح لکم حقیقة قدرتنا علی القیام بأی عمل لِنُبَیِّنَ لَکُمْ

فتبقى الأجنّة فى الأرحام إلى مدّة معلومة نحن نحدّدها لتمرّ بمراحل تكاملها. و نسقط ما نريد منها فنخرجها من الأرحام فى وسط الطريق قبل أن تكمل وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثمّ تبدأ الأجنّة مرحلة تطوّر جديدة. لنخرجكم أطفالا من أرحام أمّهاتكم.

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا و بهذا تنتهى مرحلة حياتكم المحدّدة فى بطون أمّهاتكم.

فتضعون أقدامكم فى محيط أوسع مملوء بالنور و الصفاء، و إمكانات واسعة جدّا، إلّا أنّ تكاملكم يستمرّ فى قطع المسافات بسرعة لتبلغوا الهدف، ألا و هو الرّشد و الكمال الجسمى و العقلى. ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

و هنا يتبدّل الجهل إلى علم، و الضعف إلى قوّة، و التبعيّة إلى الاستقلال، لكن مسيرة حياتكم تطوى و تستمر فبعضكم يودّع الحياة بينما يستمرّ آخرون حتّى المرحلة الأخيرة من الحياة، أى مرحلة الشيخوخة بعد تكاملهم: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ.

أجل، فالمرء يصل إلى مرحلة لا يتذكّر فيها شيئا، حيث يسيطر عليه النسيان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٨۴

و يصبح فى وضع و كأنّه طفل لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً و هذا الضعف و الخمول دليل على بلوغ المرء مرحلة انتقالية جديدة كما نجد ضعف التحام الثمرة بالشجرة حين تبلغ مرحلة النضج ممّا يدلّ على وصولها إلى مرحلة الانفصال.

و هذه التغيّرات المدهشة المتلاحقة التى تتحدّث عن قدرة اللّه تعالى غير المحدودة، توضّح أنّ إحياء الموتى يسير على اللّه جلّت عظمته. و هناك بحوث تعرض لمراحل الحياة المختلفة هذه، سنذكرها فى الملاحظات القادمة.

ثمّ تتناول الآية بيان الدليل الثّانى أى حياة النباتات، فتبيّن ما يلى: تنظر إلى الأرض فى فصل الشتاء فتجدها جافّة و ميتة، فإذا سقط المطر و حلّ الربيع، دبّت الحياة و الحركة فيها و نبتت أنواع النباتات فيها و نمت وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٢٠٨].

الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصّلنا إليه، و ذلك باستعراض خمس

ملاحظات

١- إنّ ما استعرضته الآيات الخاصّة بالمراحل التى تسبق مراحل الحياة للإنسان و عالم النبات، من أجل أن تعلموا أنّ اللّه تعالى حقّ ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ و بما أنّه هو الحقّ، فالنظام الذى خلقه حقّ أيضا، لهذا لا يمكن أن يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٢٨۵

هذا الخلق دون هدف، كما يذكر القرآن الكريم هذا المعنى فى مورد آخر: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا[٢٠٩].

و بما أنّ هذه الحياة ليست عبثا، و أنّ لها هدفا، و أنّنا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف فى حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد و البعث حتما.

٢- إنّ هذا النظام الذى يسيطر على عالم الحياة يقول لنا وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى

إنّ الذى يلبس الأرض لباس الحياة، و يغيّر النطفة التافهة إلى إنسان كامل، و يمنح الحياة للأرض الميتة، لقادر على أن يمنح الحياة للموتى، فهل يمكن التردّد فى قبول فكرة المعاد مع وجود كلّ هذه التشكيلات الحيّة الدائمة للخالق جلّ و علا فى هذا العالم ٢١٠]؟

الهدف الآخر هو أن نعلم وَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و لا يستحيل على قدرته شيء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميتة إلى نطفة؟ و يطوّر هذه النطفة التافهة فى مراحل الحياة؟ و يلبسها كلّ يوم لباسا جديدا من الحياة! و يجعل الأرض الجافّة العديمة الروح خضراء زاهية تعلوها بهجة الحياة؟! أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيى الإنسان بعد موته؟! ۴- إنّ كلّ هذا لتعلموا أنّ ساعة نهاية هذا العالم و بداية عالم آخر، ستحلّ بلا شكّ فيها وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها.

۵- ثمّ إنّ كلّ هذا مقدّمة لنتيجة أخيرة هى وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۶

و هذه النتائج الخمس بعضها مقدّمة، و بعضها ذو المقدّمة، البعض منها إشارة إلى الإمكان، و الآخر إشارة إلى الوقوع، و مترتّبة بعضها على بعض و كلّ يكمل صاحبه، و جميعها ينتهى إلى نقطة واحدة، هى أنّ البعث ليس ممكن فحسب، بل إنّه سيقع حتما.

فالذين يشكّون فى إمكان الحياة بعد الموت يشاهدون الصور المشابهة لها فى حياة البشر و النباتات بامّ أعينهم. و هى تتكرّر كلّ يوم و كلّ عام.

و إذا شكّوا فى قدرة اللّه فإنّ قدرة اللّه جعلتهم يشاهدون أمثلة بارزة لها بأعينهم. ألم يخلق الإنسان من تراب؟ ألا نشاهد كلّ عام احياء الأرض الميتة؟

فهل عجيب أمر حياة الأموات ثانية و نهوضهم من تراب؟

و إن شكّوا فى وقوع مثل هذه الأمور، فعليهم أن يعلموا أنّ النظام المسيطر على الخلق فى العالم يدلّ على وجود هدف له، و إلّا فإنّه باطل تافه، و الحياة القصيرة المملوءة بالآلام و خيبة الآمال غير جديرة بأن تكون هى الهدف الأخير لعالم الخلق.

و على هذا يجب أن يكون هناك عالم آخر، وسيع، خالد، جدير بأن يعدّ هدفها للخلق.

بحوث

۱- مراحل حياة الإنسان السبع

الآيات السابقة شرحت حركة الإنسان فى مسيرة ذات مراحل سبع، لتبيّن البعث و تثبت إمكانه:

المرحلة الأولى: عند ما كان الإنسان ترابا، و قد يراد به التراب الذى خلق منه آدم عليه السّلام. كما قد يكون إشارة إلى أنّ جميع البشر- من تراب، لأنّ جميع المواد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۷

الغذائية التى تكوّن النطفة و غذاءها- من بعد- من تراب. و لا شكّ فى أنّ الماء يشكّل جزءا ملحوظا من جسم الإنسان، و الجزء الآخر من الأوكسجين و الكاربون، و ليس من التراب، إلّا أنّ العنصر الأساس الذى تتشكّل منه أعضاء الجسم مصدره التراب. إذن عبارة خلق الإنسان من تراب صحيحة حتما.

المرحلة الثّانية: (النطفة): يتحوّل التراب، هذا الموجود البسيط المهمل العديم الحسّ و الحركة، يتحوّل إلى نطفة تتألّف من أحياء مجهولة مثيرة تسمّى عند الرجل «أسپر» أو الحيمن و عند المرأة «أوول» أو البويضة و هى غاية فى الصغر حتّى أنّها تبلغ الملايين فى نطفة الرجل! و المثير أنّ الإنسان يواصل عقب ولادته حركة تدريجيّة هادئة، تأخذ فى الغالب شكل «التكامل الكمّى» فى الوقت الذى كانت حركته فى الرحم «كيفيّة» ترافقها طفرات سريعة مغيّرة. و التغيّرات المتعاقبة للجنين فى الرحم مدهشة إلى درجة يمكن تشبيهها

بحشرة صغيرة بسيطة تتطوّر بعد أشهر قليلة إلى طائرة نفّاثة! و قد تطوّرت و توسّعت الدراسات عن «علم الأجنة» اليوم بحيث تمكّن علماؤه من دراسة الجنين فى مراحله المختلفة، و كشفوا عن أسرار هذه الظاهرة العجيبة فى عالم الوجود. و عرضوا النتائج الباهرة التى توصّلوا إليها فى دراساتهم عن الجنين.

و فى المرحلة الثّالثة يصبح الجنين علقة، و تكون خلاياه كحبّات التوت، بشكل قطعة دم خاثر متلاصقة، يطلق عليها علميّا «مورولا». و بعد مضى مدّة قصيرة تظهر أخاديد التقسيم الصغيرة كبداية لتقسيم أجزاء الجنين، و يطلق على الجنين فى هذه المرحلة اسم «لاستولا».

و فى المرحلة الرّابعة يتّخذ الجنين شكل قطعة لحم ممضوغ، دون أن تتّضح معالم الأعضاء فيه، و فجأة تحدث تغييرات فى قشرة «الجنين» و تتّخذ شكلا يلائم العمل المطلوب منه القيام به، فتظهر أعضاء الجسم تدريجيّا، و يسقط كلّ جنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۸

لا- يمكنه المرور بهذه المرحلة، و يمكن أن تكون عبارة مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ إشارة إلى هذه المرحلة، أى أنّ الجنين يكون «كامل الخلقة» أو «ناقص الخلقة».

و من المثير أنّ القرآن المجيد ذكر عبارة لِنُبَيِّنَ لَكُمْ بعد ذكر هذه المراحل الأربع، مؤكّدا أنّ هذه التغييرات السريعة المدهشة التى تغيّر قطرة ماء صغيرة إلى إنسان كامل، لدليل واضح على أنّ اللّه قادر على كلّ شىء.

ثمّ أشار القرآن الكريم إلى مرحلة الجنين الخامسة و السّادسة و السّابعة، التى تلى الولادة أى «الطفولة» و «البلوغ» و «الشّيخوخة»[۲۱۱].

و الجدير بالذكر أنّ ولادة الإنسان- من التراب- كائنا حيّا، قفزة كبيرة، و مراحل الجنين المختلفة قفزات متعاقبة، و ولادة الإنسان من بطن أمّه قفزة مهمّة جدّا، و هكذا البلوغ و الشيخوخة.

و تعبير القرآن عن يوم القيامة بالبعث، قد يكون إشارة إلى مفهوم القفزة ذاتها التى تحدث يوم البعث أيضا. و ما أجدرنا بالانتباه إلى أنّ القرآن تحدّث عن مراحل تكوّن الجنين قبل أن يظهر علم الأجنّة، و حديثه عنها فى ذلك الزمن دليل حىّ على أنّ هذا الكتاب العظيم إنّما هو وحى يوحى من قدرة قادرة هى التى أبدعت الطبيعة و ما وراءها.

۲- المعاد الجسمانى

ممّا لا- شكّ فيه أنّ القرآن الكريم أينما تحدث عن البعث قصد بعث الإنسان جسما و روحا فى العالم الأخروى، و الذين حصروا البعث فى الروح و قالوا ببقائها هى وحدها لم يفقهوا آيات القرآن قطّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۹

فهذه الآيات المباركة كالآية السابقة تصرّح بالمعاد الجسمانى. و إلّا فما هو وجه التشابه بين المعاد الروحى، و مراحل الجنين و إحياء الأرض الموات بنمو النباتات؟ و يؤكّد ذلك ختام الآيات التى نحن بصددها إذ تقول: وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ و القبر موضع جسم الإنسان و ليس روحه.

و أساسا فانّ تعجّب المشركين إنّما هو من البعث الجسمانى، فهم يقولون:

كيف يمكن للإنسان أن يعود للحياة ثانية بعد ما صار ترابا؟ و بقاء الروح لم يكن شيئا عجبا، لأنّه كان موضع قبول و رضى الأقوام الجاهلية.

۳- ما هو «أرذل العمر»؟

«الأرذل» مشتقّة من «رذل» أی المنحطّ و غیر المرغوب فیه. و یقصد ب «أرذل العمر» تلک المرحلة من عمر الإنسان التی هی أکثر انحطاطا و غیر مرغوب فیها لما یفقده فیها الإنسان من القوّة و الذاکرة، و لما یغلبه فیها من الضعف و الانفعال، حتّی تراه یغتاظ من أدنی شیء، و یرضی و یفرح لا یسر شیء، و یفقد سعة صدره و صبره، و ربّما قام بحرکات طفولیة. مع فارق بینه و بین الطفل و هو أنّ الناس لا- یتوقّعون منه ذلک، لأنّه لیس طفلا- مضافا إلی أنّ الطفل یؤمل فی أن یکبر و ینضج جسدیّا و نفسیّا و تزول عنه هذه الحرکات الصبیانیة، لهذا یترکوا أحرارا فی ممارستها، و لیس کذلک فی الفرد المسنّ، أی أنّ الطفل لیس لدیه شیء لیفقده، و لکن المسنّ یفقد رأس مال حیاته بذلک. و علی هذا فإنّ وضع الشیوخ المعمّرین یثیر الشفقة و الأسی عند مقارنته بوضع الأطفال.

و جاء فی بعض الأحادیث أنّ أرذل العمر هو الذی یبلغ مائة عام و أکثر[۲۱۲] و قد تعنی هذه العبارة نوع الأشخاص، و إلّا فهناک من یبلغ هذه الحالة و سنّهم أقل من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۰

مائة عام. کما أنّ هناک أشخاصا تجاوزت أعمارهم مائة عام و هم بکامل وعیهم و ذکائهم. و تندر مشاهدة من یصابون بهذه الحالة بین العلماء الذین شغلتهم المعارف و البحوث.

و ما أولانا بدعاء اللّه تعالی أن یحفظنا من هذه الحالة! و ما أجدرنا أن ننهی غرورنا و غفلتنا بمجرد الفکر بهذه العاقبة! علینا أن نفکّر ماذا کنّا و علی ماذا أصبحنا و ماذا سنکون؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۱

الآیات [سورة الحج (۲۲): الآیات ۸ الی ۱۰]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ (۸) ثانِیَ عِطْفِهِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ لَهُ فِی الدُّنْیا خِزْیٌ وَ نُذِیقُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ عَذابَ الْحَرِیقِ (۹) ذلِکَ بِما قَدَّمَتْ یَداکَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَیْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ (۱۰)

التّفسیر

الجدال بالباطل مرّة أخری:

تتحدّث هذه الآیات أیضا عمّن یجادلون فی المبدأ و المعاد جدالا خاویا لا أساس له، فی البدایة یقول القرآن المجید: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ.

و عبارة وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ هی ذاتها التی ذکرت فی آیة سابقة، و إعادتها تبیّن لنا أنّ العبارة الأولی إشارة إلی مجموعة من الناس، و الثّانیة إلی مجموعة أخری. و بعض المفسّرین یری أنّ الفرق بین هاتین المجموعتین من الناس هو أنّ الآیة السابقة الذکر دالّة علی وضع الأتباع الضالّین الغافلین، فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۲

وقت تکون فیه هذه الآیة دالّة علی قادة هذه المجموعة الضالّة[۲۱۳].

و عبارة لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِهِ تبیّن هدف هذه المجموعة، ألّا و هو تضلیل الآخرین، و هذا دلیل واضح علی الفرق بینهما، مثلما توضّح هذا المعنی عبارة یَتَّبِعُ کُلَّ شَیْطانٍ مَرِیدٍ فی الآیات السابقة التی تتحدّث عن اتّباع الشیاطین.

و لكن ما الفرق بين «العلم» و «الهدى» و «الكتاب المنير»؟

للمفسّرين آراء فى هذا المجال أقربها إلى العقل هو أنّ «العلم» إشارة إلى الاستدلال العقلى. و «الهدى» إشارة إلى إرشاد القادة الرّبانيين. و «الكتاب المنير» إشارة إلى الكتب السماويّة، أى أنّها تعنى الأدلّة الثلاثة المعروفة «الكتاب» و «السنّة» و «الدليل العقلى». و أمّا الإجماع فإنّه يعود إلى السنّة طبقا لدراسات العلماء، و قد جمعت هذه الأدلّة الأربعة فى هذه العبارة أيضا.

و يحتمل بعض المفسّرين أنّ «الهدى» إشارة إلى الإرشادات المعنوية التى يكتسبها الإنسان فى ظلّ بناء الذات و تهذيب النفس و تقواه. «و بالطبع يمكن ضمّ هذا المعنى إلى ما تقدّم آنفا».

و يمكن أن يكون الجدال العلمى مثمرا إذا استند إلى أحد الأدلّة: العقل، أو الكتاب، أو السنّة.

ثمّ يتطرّق القرآن المجيد فى جملة قصيرة عميقة المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القادة، فيقول: ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إنّهم يريدون أن يضلّوا الناس عن سبيل اللّه بغرورهم و عدم اهتمامهم بكلام اللّه و بالأدلّة العقليّة الواضحة.

«ثانى» مشتقّة من «ثنى» بمعنى التواء و «عطف» تعنى «جانب» فالجملة تعنى ثنى الجانب، أى الإعراض عن الشىء و عدم الاهتمام به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۲۹۳

و يمكن أن تكون عبارة «ليضلّ» هدف هذا الإعراض، أى إنّهم (قادة الضلال) يستخفّون بآيات اللّه و الهداية الإلهيّة لتضليل الناس. و يمكن أن تكون نتيجة لذلك. أى أنّ محصّلة الإعراض و عدم الاهتمام هو صدّ الناس عن سبيل الحقّ. و يعقب القرآن ذلك ببيان عقابهم الشديد فى الدنيا و الآخرة بهذه الصورة:

لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ

و نقول له: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ لا يعاقب اللّه أحدا بلا ذنب، و لا يضاعف عقاب أحد دون سبب، فهو العدل المطلق سبحانه ۲۱۴].

و هذه الآية من الآيات التى تنفى مذهب الجبريّة، و تثبت مبدأ العدالة فى أفعال اللّه تعالى. (للمزيد من التفصيل راجع تفسير الآية (۱۸۲) من سورة آل عمران).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۲۹۴

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۱ الى ۱۴]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (۱۱) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (۱۲) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ (۱۳) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (۱۴)

التّفسير

الواقف على حافّة وادى الكفر

تحدّثت الآيات السابقة عن مجموعتين: الأتباع الضالّين، و القادة المضلّين.

أمّا هذه الآيات، فتتحدّث عن مجموعة ثالثة هم ضعاف الإيمان. قال القرآن المجيد عن هذه المجموعة: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى

حَرْفٍ أي إنّ بعض الناس يعبد اللّه بلقلقة لسان، و إنّ إيمانه ضعيف جدّا. و لم يدخل الإيمان إلى قلبه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۵

و عبارة «على حرف» ربّما تكون إشارة إلى أنّ إيمانهم باللسان فقط، و أنّ قلوبهم لم تر بصيصا من نوره إلّا قليلا، و قد تكون إشارة إلى أنّ هذه المجموعة تحيا على هامش الإيمان و الإسلام و ليس فى عمقه، فأحد معانى «الحرف» هو حافّة الجبل و الأشياء الاخرى. و الذى يقف على الحافّة لا- يمكنه أن يستقرّ. فهو قلق فى موقفه هذا، يمكن أن يقع بهزّة خفيفة، و هكذا ضعاف الإيمان الذين يفقدون إيمانهم بأدنى سبب.

ثمّ تناول القرآن الكريم عدم ثبات الإيمان لدى هؤلاء الأشخاص فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ [۲۱۵] إنّهم يطمئنون إذا ضحكت لهم الدنيا و غمرتهم بخيراتها! و يعتبرون ذلك دليلا على أحقّية الإسلام.

إلّا أنّهم يتغيّرون و يتّجهون إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل و القلق و الفقر، فالدين و الإيمان لديهم وسيلة للحصول على ما يبتغون فى هذه الدنيا، فإن تمّ ما يبغونه كان الدين حقّا، و إلّا فلا.

و ذكر «ابن عبّاس» و مفسّرون قدماء سبب نزول هذه الآية: «أنّها نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا صحّ بها جسمه و نتجت فرسه مهرا حسنا. و ولدت امرأته غلاما و كثر ماله و ماشيته، رضى به و اطمأنّ إليه، و إن أصابه وجع و ولدت امرأته أنثى أو أجهضت فرسه أو ذهب ماله أو تأخّرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان و قال له: ما جاءتك هذه الشور إلّا بسبب هذا الدين. فينقلب عن دينه»[۲۱۶].

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن الكريم يعبّر عن إقبال الدنيا على هؤلاء الأشخاص بالخير. و عن إدبارها بالفتنة (وسيلة الامتحان) و لم يطلق عليها كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۶

الشّر، إشارة إلى أنّ هذه الأحداث غير المرتقبة ليست شرّا و لا سوءا و إنّما هى وسيلة للامتحان.

و يضيف القرآن المجيد فى الختام- خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ و ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ مؤكّدا أنّ أفدح الضرر و أفظع الخسران، هو أن يفقد الإنسان دينه و دنياه. و هؤلاء الأشخاص الذين يقيسون الحقّ بإقبال الدنيا عليهم ينظرون إلى الدين وفق مصالحهم الخاصّة، و هذه الفئة موجودة بكثرة فى كلّ مجتمع، و إيمانها مزيج بالشرك و عبادة الأصنام، إلّا أنّ أصنامهم هى و أزواجهم و أبناؤهم و أموالهم و مواشيهم، و مثل هذا الإيمان أضعف من بيت العنكبوت! و هناك مفسّرون يرون أنّ هذه الآية تشير إلى المنافقين، لكن إذا اعتبرنا أنّ المنافق هو من لا يملك ذرّة من الإيمان، فإنّ ذلك يخالف ظاهر هذه الآية، فعبارة «يعبد اللّه» و «اطمأنّ به» و «انقلب على وجهه» تبيّن أنّه ذو إيمان ضعيف قبل هذا.

أمّا إذا قصد بالمنافق من يملك قليلا من الإيمان، فلا يعارض ما قلناه، و يمكن قبوله.

و تشير الآية التالية إلى إعتقاد هذه الفئة الخليط بالشرك، خاصة بعد الانحراف عن صراط التوحيد و الإيمان باللّه، فتقول: يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ أى إذا كان هذا الإنسان يسعى إلى تحقيق مصالحه الماديّة و الابتعاد عن الخسائر و يرى صحّة الدين فى إقبال الدنيا عليه، و بطلانه فى إدبارها عنه. فلما ذا يتوجّه إلى أصنام لا يؤمّل منها خير، و لا يخاف منها ضرر.

فهى أشياء لا فائدة فيها، و لا أثر لها فى مصير البشر؟! أجل ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ. إنّ هؤلاء ليبتعدون عن الصراط المستقيم بعدا حتّى لا ترجى عودتهم إلى الحقّ إلّا رجاء ضعيفا جدّا.

و يوسّع القرآن الكريم هذا المعنى فيقول: يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ

لأنّ هذا المعبود المختلق ينزل بفكرهم إلى الحضيض فى هذه الدنيا، و يدفعهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۷

نحو الخرافات و الجهل، و يدعهم فى الآخرة فى نار جهنّم، بل هم كما تقول الآية ۹۸ من سورة الأنبياء: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

و تضيف الآية فى الختام لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ فما أسوأه ناصرا و معينا، و ما أسوأه مؤنسا و معاشرا.

و هنا يثار سؤال، فالآية السابقة تنفى كلّ فائدة و نفع من هذه الأصنام و كلّ ضرر، و هذه الآية تقول إنّ ضررها أقرب من نفعها! فكيف ينسجم الحكمان؟

فى الجواب عن ذلك نقول: إنّ ذلك أمر اعتيادى فى المخاطبة، ففى مرحلة لا يعتبرون لشىء فائدة و تأثير يذكر ثمّ يترقّى إلى الحال فى مرحلة أخرى فيعدّونه مصدر الضرر. كأن نقول: لا تصادق فلانا، فلا نفع فيه لدينك و لا لدنياك.

و بعدها نتقدّم فنقول إنّما هو: (أى هذا الصديق) سبب لتعاستك و افتضاحك. و هنا تجد إضافة إلى كون الأصنام لا ضرر فيها لأعداء المشركين، لأنّها غير قادرة على الإضرار بأعدائهم كما يتوقّعون منها، و لكنّها تتضمّن ضررا حتميّا لأتباعها.

كما أنّ صيغة «أفعل التفضيل» فى كلمة «أقرب» كما قلنا سابقا: تعنى عدم اتّصاف طرفى المقارنة بصفة معيّنة. و قد يكون الطرف الأضعف فاقدا لأيّة صفة، كأن نقول: ساعة صبر عن الذنب خير من نار جهنّم (و ليس معنى ذلك أنّ نار جهنّم فيها خير، إلّا أنّ الصبر أفضل منها،) و قد اختار هذا الرأى عدد من كبار المفسّرين كالشيخ الطوسى فى «التبيان» و الطبرسى فى «مجمع البيان».

و احتمل البعض كالفخر الرازى فى تفسير الآية بأنّ كلّ واحدة من هاتين الآيتين إشارة إلى مجموعة من الأصنام، فالآية الأولى تخصّ الأصنام الحجرية و الخشبية، و أمّا الآية الثّانية فتخصّ الطواغيت و البشر المتعالين أشباه الأصنام.

فالمجموعة الأولى لا تضرّ و لا تنفع، بل هى بالتأكيد خالية من أيّة صفة. أمّا المجموعة الثّانية «أئمّة الضلال» فإنّهم يضرّون و لا ينفعون. و إذا كان فيهم خير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۸

قليل فضرّهم كبير جدّا، و عبارة لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ تؤكّد ذلك، و عليه فلا تناقض بين الآيتين ۲۱۷].

و ختام الآية المباركة نلحظ مقارنة بين الخير و الشرّ كما هو دأب القرآن الكريم لتتّضح النتائج بشكل أكبر، فتقول الآية: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. فعاقبتهم معلومة و منهج تفكير هم و سلوكهم واضح فمولاهم هو اللّه تعالى، و رفاقهم و جلساؤهم فى الآخرة هم الأنبياء و الصالحون و الملائكة، و أنّ اللّه سبحانه يثيب المؤمنين العاملين للصالحات، جنّات تجرى من تحتها الأنهار، لينعموا بالسعادة و السرور جزاء استقامتهم على الحقّ و استجابتهم له فى الحياة الدنيا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ.

و ثوابهم يسير عليه- جلّ و علا- يسر عقاب الذين ظلموا أنفسهم بإيثار الباطل على الحقّ، و بعبادتهم الأصنام من دون اللّه سبحانه.

و فى هذه المقارنة نلاحظ طائفة من الناس لم يؤمنوا إلّا بلسانهم، فهم على جانب من الدين و ينحرفون بأدنى وسوسة، و ليس لهم عمل صالح، أمّا المؤمنون الحقيقيّون فإيمانهم راسخ و لا تزعزعه العواطف و مثمر هذا من جهة .. و من جهة أخرى فلئن كان مولى الخاسرين لا ينفع و لا يضرّ، فإنّ مولى الصالحين على كلّ شىء قدير. و لئن خسر الظالمون كلّ شىء، فقد ربح المهتدون خير الدنيا و سعادة الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۹

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشارة

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (١۵) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

سبب النّزول

روى بعض المفسّرين حول سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات، أنّها نزلت فى نفر من أسد و غطفان قالوا: نخاف أنّ اللّه لا ينصر محمّدا، فينقطع الذى بيننا و بين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا. فحذّرتهم هذه الآية و وبّختهم بشدّة.

و قال آخرون: إنّها نزلت فى قوم من المسلمين لشدّة غيظهم و حنقهم على المشركين، يستبطئون ما وعد اللّه رسوله من النصر، فنزلت هذه الآية[۲۱۸] تلومهم

على عدم صبرهم.

التّفسير

البعث نهاية جميع الخلافات:

بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن ضعفاء الإيمان، فإنّ الآيات مورد البحث ترسم لنا صورة أخرى عن هؤلاء فتقول: مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ.

أى من يظنّ أنّ اللّه لا ينصر نبيّه فى الدنيا و الآخرة، و هو غارق فى غضبه، فليعمل ما يشاء، و ليشدّ هذا الشخص حبلا من سقف منزله و يعلّق نفسه حتّى ينقطع نفسه و يبلغ حافّة الموت، فهل ينتهى غضبه؟! لقد اختار هذا التّفسير عدد كبير من المفسّرين، أو ذكروه كاحتمال يستحقّ الاهتمام به ۲۱۹].

الضمير فى قوله سبحانه: لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ بحسب هذا التّفسير يعود إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و «السّماء» تعنى سقف المنزل (لأنّ كلّ شىء فوقنا يطلق عليه سماء). أمّا عبارة «ليقطع» فتعنى قطع النفس و الوصول إلى حافّة الموت.

و احتمل البعض احتمالات أخرى فى تفسير هذه الآية لا حاجة لذكرها، ما عدا تفسيرين منها يستحقّان الاهتمام، و هما:

۱- إنّ السّماء يقصد بها السّماء الحقيقيّة، و بناء على هذا الرأى: فإنّ الأشخاص الذين يظنّون أنّ اللّه لا ينصر نبيّه، ليذهبوا إلى السّماء و ليشدّوا بها حبلا و يعلّقوا أنفسهم بينها و بين الأرض حتّى تنقطع أنفسهم. (أو يقطعوا الحبل الذى تعلّقوا به كى يسقطوا) و لينظروا إلى أنفسهم هل انتهى غضبهم؟!

۲- إنّ عود الضمير المذكور إلى هؤلاء الأشخاص (ليس إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أى أنّ الذين يظنّون عدم نصر اللّه لهم، و أنّه يقطع رزقهم، عليهم أن يعملوا ما شاءوا، و ليذهبوا إلى السّماء و يعلّقوا أنفسهم بحبل، ثمّ ليقطعوا هذا الحبل حتّى يقعوا على الأرض، فهل ينهى غضبهم؟

و جميع هذه التفاسير تركّز على ملاحظة نفسيّة تخصّ الأشخاص الحادّى المزاج. و الضعيفى الإيمان الذين يصابون بالهلع و يرتكبون أعمالا جنونية كلّما بلغت أمورهم طريقا مسدودا فى الظاهر، فيضربون الأبواب و الحيطان تارة، و أخرى يودّون أن تبتلعهم الأرض. و

قد یصمّمون على الانتحار لإخماد نیران غضبهم. فی وقت لا- تحلّ فیه هذه الأعمال الجنونیة مشاکلهم، و لو تریّثوا قلیلا، و التزموا بالصبر وسعة الصدر، و نهضوا بعد التوکّل على اللّه و الاعتماد على النفس فی مواجهة مشاکلهم، لأصبح حلّها مؤکّدا.

و أشارت الآیة التالیة إلى خلاصة الآیات السابقة، فقالت: وَ کَذلِکَ أَنْزَلْناهُ آیاتٍ بَیِّناتٍ

لقد أوضحت الآیات السابقة أدلّة المعاد و البعث، کالمراحل التی یمرّ بها الجنین الإنسانی و نموّ النباتات و إحیاء الأرض بعد موتها، و أدلّة أخرى على عدم نفع الأصنام و ضرّها، و عرضت أعمال الذین یجعلون الدین وسیلة لبلوغ المنافع التافهة. و لکن هذه الأدلّة الواضحة و البراهین الدامغة لا تکفی لتقبّل الحقّ، بل لا بدّ من استعداد ذاتی لذلک. و لهذا یقول القرآن المجید فی نهایة الآیة: وَ أَنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یُرِیدُ.

و قد قلنا مرارا: إنّ إرادة اللّه لیست بلا حساب، فهو المدبّر الحکیم یهدی من یشاء بآیاته البیّنات، خاصّة أولئک المجاهدین فی سبیله، و هم یرجون هدایته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۲

بکلّ مشاعرهم ۲۲۰].

و أشارت آخر الآیة هنا إلى ستّ فئات، إحداها مسلمة مؤمنة، و خمس منها غیر مسلمة إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ الَّذِینَ هادُوا وَ الصَّابِئِینَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا إِنَّ اللَّهَ یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ ألیس یوم الفصل من أسماء یوم القیامة! حیث یفصل اللّه سبحانه و تعالى، فیه بین الحقّ و الباطل، یوم تبلى فیه السرائر، و تنتهی فیه الخلافات، إِنَّ اللَّهَ عَلى کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ.

بحوث

۱- ارتباط الآیات

ترتبط هذه الآیة بالآیات التی سبقتها، حیث تناولت الآیة التی قبلها الهدایة الربّانیة لمن کان قابلا للهدایة، و لکن بما أنّ قلوب الناس لیست على نمط واحد، بسبب وجود التعقّب و العناد و التقلید الأعمى لا یسمح للقلوب بالاهتداء، لذا یبقى التحزّب و الخلاف إلى یوم القیامة الذی یکشف فیه عن الأسرار و یتجلّى الحقّ للجمیع.

مضافا إلى أنّ الآیات السابقة تحدّثت عن ثلاث فئات: أولاهما تجادل فی اللّه و فی یوم البعث بغیر دلیل، و ثانیها تضلّل الناس، و ثالثها ضعاف الإیمان الذین یمیلون کلّ مرّة إلى جهة. لذا فقد أشارت هذه الآیة إلى نماذج من هذه الفئات التی تجابه المؤمنین.

ثمّ أنّ الآیات السابقة تضمّنت سؤالا- هو: ما الهدف من المعاد؟ و قد بیّنت الآیة- موضع البحث- أحد أهداف المعاد، و هو إنهاء الخلافات و العودة إلى الوحدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۳

۲- من هم المجوس؟

جاءت کلمة «المجوس» مرّة واحدة فی هذه الآیات بجانب الأدیان السماویة الاخرى و فی مقابل المشرکین، و هذا دلیل على أنّ لهم دینا و نبیّا و کتابا.

و تطلق کلمة «المجوس» الیوم على أتباع «زرادشت» أو أنّ أتباع زرادشت یشکّلون جزءا مهمّا منهم، و حیاة «زرادشت» لیست واضحة

تماما، فقد قيل: إنّه ظهر فى القرآن الحادى عشر قبل الميلاد، و قيل: فى القرن السادس أو السابع ۲۲۱].

و هذا الاختلاف بخمسة قرون أمر عجيب! يدلّ على الغموض الذى يحيط بتاريخ زرادشت. و المعروف أنّ له كتابا اسمه «أفستا» تلف إبّان حملة الإسكندر المقدونى على بلاد فارس. ثمّ أعيدت كتابته على عهد أحد ملوك الساسانيين ۲۲۲].

و ليس لدينا معلومات كافية عن عقيدة زرادشت، إلّا ما اشتهر من اعتقاده بمبدإ الخير و الشرّ و النور و الظلام، فإله الخير و النور عنده «أهورامزدا» و إله الشرّ و الظلام «أهريمن» و يحترم فكرة العناصر الأربعة و خاصّة «النّار» حتّى أعتبر أتباعه عبدة للنار. و أينما كانوا وجد معهم معبد للنار صغير أو كبير.

و يرى البعض أنّ كلمة «مجوس» مشتقّة من «مغ» التى كانت تطلق على قادة و روحانيى هذا الدين. كما أنّ كلمة «مؤبّد» التى تطلق حاليا على روحانيى هذا الدين، مشتقّة فى الأصل من «مغود».

و روى أنّهم من أتباع أحد أنبياء الحقّ (إلّا أنّهم انحرفوا بعد توحيدهم اللّه، فأصبحوا على عقيدة يخالطها الشرك).

و جاء فى رواية أنّ مشركى مكّة طالبوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأخذ الجزية من أتباع زرادشت مقابل السماح لهم بالتزام ما يعتقدون به، فبيّن لهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه لا يأخذ الجزية إلّا من أهل الكتاب، فقالوا: كيف هذا و قد أخذت الجزية من مجوس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۴

منطقة «هجر»؟! أجاب صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«إنّ المجوس كان لهم نبى فقتلوه، و كتاب أحرقوه»[۲۲۳].

و

جاء فى حديث آخر عن «الأصبغ» بن نباتة» أنّ عليا قال على المنبر:

سلونى قبل أن تفقدونى، فقام إليه الأشعث «المنافق المعروف)، فقال:

يا أمير المؤمنين كيف تؤخذ الجزية من المجوس و لم ينزل عليهم كتاب و لم يبعث إليهم نبىّ؟ فقال عليه السّلام: «بلى يا أشعث قد أنزل اللّه عليهم كتابا و بعث إليهم نبيّا». الحديث ۲۲۴].

و

فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام قال: «إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب يعنى المجوس»[۲۲۵].

و «المجوس» جمع مفرده «مجوسى».

۳- من هم الصابئة؟

يستفاد من الآية السابقة، و لا سيّما من ذكر الصابئة بين اليهود و النصارى، أنّ الصابئة أصحاب دين سماوى. و قيل: إنّهم أتباع يحيى بن زكريا عليه السّلام الذى يسمّيه المسيحيون «يحيى المعمدان» و قيل: إنّ الصابئة مزجوا بين العقيدتين اليهودية و النصرانية، فعقيدتهم وسط بين أولئك و هؤلاء.

يهتمّ الصابئة بالماء كثيرا، و لهذا ترى معظمهم يعيشون على ضفاف الأنهر الكبيرة، و ذكر أنّهم يقدّسون بعض النجوم، و لهذا اتّهموا بعبادة النجوم. رغم أنّ الآية السابقة لم تضعهم فى صفّ المشركين (إيضاحا لذلك يراجع التّفسير الأمثل فى تفسير الآية ۶۲ من سورة البقرة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۵

۴- مجموعة المنحرفین عن التوحید

أشارت الآیات السابقة إلی خمس فئات منحرفة، یحتمل أن یکون ترتیبها هنا بحسب درجة انحرافها عن أصل التوحید، فالیهود أقل انحرافا من الآخرین بشأن التوحید، و الصابئة وسط بین الیهود و النصاری، و یلیهم النصاری لقولهم بالتثلیث أی تألیههم عیسی و أمّه مریم علیهما السّلام أیضا، و بذلک إزداد انحرافهم. أمّا المجوس فهم فی مرحلة رابعة لتقسیمهم العالم قسمین: الخیر و الشرّ، و قولهم بوجود مبدأین منذ الخلیقة. أمّا المشرکون و عبدة الأصنام فهم فی آخر مرحلة، لانحرافهم عن التوحید أکثر من الآخرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۶

الآیة [سورة الحج (۲۲): آیة ۱۸]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ کَثِیرٌ مِنَ النَّاسِ وَ کَثِیرٌ حَقَّ عَلَیْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ یُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُکْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ یَفْعَلُ ما یَشاءُ (۱۸)

التّفسیر

الوجود کلّه یسجد للّه:

بما أنّ الحدیث فی الآیات السابقة کان عن المبدأ و المعاد، فإنّ الآیة- موضع البحث- بطرحها مسألة التوحید، قد أکملت دائرة المبدأ و المعاد، و تخاطب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتقول أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ و کَثِیرٌ مِنَ النَّاسِ وَ کَثِیرٌ حَقَّ عَلَیْهِ الْعَذابُ ثمّ تضیف و هؤلاء لیست لهم قیمة عند اللّه تعالی، و من کان کذلک فهو مهان: وَ مَنْ یُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُکْرِمٍ

أی إنّ من یهینه اللّه لا یکرمه أحد، و لیست له سعادة و لا أجر، حقًّا إِنَّ اللَّهَ یَفْعَلُ ما یَشاءُ فهو یکرم المؤمنین به، و یذلّ المنکرین له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۷

بحثان

۱- فی کیفیة السجود العام!

جاء فی القرآن المجید ذکر «السجود العامّ» لجمیع المخلوقات فی العالم، و کذا «التسبیح» و «الحمد» و «الصلاة»، و أکّد القرآن الکریم علی أنّ هذه العبادات الأربع، لا تختص بالبشر وحدهم، بل یشارکهم فیها حتّی الموجودات التی تبدو عدیمة الشعور. و علی الرغم من أنّنا بحثنا فی ختام الآیة الرّابعة و الأربعین من سورة الإسراء عن حمد الموجودات و تسبیحها بحثا مسهبا، و تناولنا سجود المخلوقات

العامّ للّه فی تفسیر الآیة الخامسة عشرة من سورة الرعد، نجد الإشارة إلی هذا الحمد و التسبیح الکونی العامّ ضروریة.

إنّ للموجودات مع ملاحظة ما ورد فی الآیة- موضع البحث- شکلین من السجود «سجود تکوینی» و «سجود تشریعی».

فالسجود التکوینی هو الخضوع و التسلیم لإرادة اللّه و نوامیس الخلق و النظام المسیطر علی هذا العالم دون قید أو شرط، و هو یشمل ذرّات المخلوقات کلّها، حتّی أنّه یشمل خلایا أدمغة الفراعنة و المنکرین العنودین و ذرّات أجسامهم فالجمیع یسجدون للّه تعالی تکوینا.

و حسبما یقوله عدد من الباحثین، فإنّ ذرّات العالم کلّها لها نوع من الإدراک و الشعور، و لذا یسبّحون اللّه و یحمدونه و یسجدون له و یصلّون له بلسانهم الخاص (شرحنا ذلک فی تفسیر الآیة الرّابعة و الأربعین من سورة الإسراء) و إذا رفضنا هذا النوع من الإدراک و الشعور، فلا مجال لإنکار تسلیم الکائنات جمیعا للقوانین الحاکمة علی نظام الوجود کلّه.

أمّا «السجود التشریعی» فهو غایة الخضوع من العقلاء المدرکین العارفین للّه سبحانه. و هنا یثار سؤال، و هو أنّه إذا کان السجود العامّ یشمل المخلوقات و جمیع البشر، فلما ذا خصّصته الآیة المذکورة أعلاه ببعض البشر لا کلّهم؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۰۸

لو دقّقنا فی مفهوم السجود فی هذه الآیة لرأیناه یجمع بین المفهومین التشریعی و التکوینی، فتتیسّر الإجابة عن هذا السؤال، لأنّ سجود الشمس و القمر و النجوم و الجبال و الأشجار و الأحیاء تکوینی، و سجود البشر تشریعی یؤدّیه ناس و یأباه آخرون، فصدق فیهم القول: کَثِیرٌ حَقَّ عَلَیْهِ الْعَذابُ و استخدام لفظ واحد بمفهوم شامل عامّ مع الاحتفاظ بمصادیقه لا یضرّه شیئا، حتّی عند الذین لا یجیزون استخدام کلمة واحدة لعدّة معان. فکیف بنا و نحن نجیز استعمال کلمة واحدة فی معان عدیدة؟

۲- هل سجود الملائکة تشریعی؟

ممّا لا شکّ فیه أنّ عبارة یَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ تضمّ الملائکة، و سجودهم تشریعی، لأنّهم عقلاء ذوو أحاسیس و علم و إرادة، أی أنّ سجودهم عبادة و خضوع علی وفق إرادتهم و وعیهم، بدلالة ما قاله القرآن الکریم عنهم:

لا یَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ یَفْعَلُونَ ما یُؤْمَرُونَ ۲۲۶].

أجوبة عن استفسارات

۱- لماذا جاءت عبارة کَثِیرٌ مِنَ النَّاسِ بعد وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ التی تضمّ البشر کلّهم؟

یمکن القول أنّ هذه العبارة إیضاح لعبارة مَنْ فِی الْأَرْضِ أی أنّ أهل الأرض فئتان: الأولی مؤمنة خاضعة للّه، و الأخری کافرة متمرّدة عنیدة.

و قال بعض المفسّرین: إنّ تعبیر مَنْ فِی الْأَرْضِ بصیغة العامّة إشارة إلی السجود التکوینی، الذی یشترک فیه جمیع الناس بما فیهم الکفرة، حیث تشارک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۰۹

أجزاء أبدانهم فی هذا السجود، و إنّ عبارة کَثِیرٌ مِنَ النَّاسِ وَ ... إشارة إلی السجود التشریعی الذی یختلف فیه الناس. کما یحتمل أنّ عبارة مَنْ فِی الْأَرْضِ إشارة إلی الملائکة الساکنین فی الأرض کعبارة مَنْ فِی السَّماءِ التی تشیر إلی الملائکة الساکنین فی السّماء، فی وقت تتحدّث فیه العبارة التی تلیها عن البشر الساکنین فی الأرض.

۲- لماذا تحدّثت هـذه الآيـة عن أهل السّـماء و الأرض، و ليس عن السّـماء و الأرض ذاتهما! فى الجواب نقول: السموات داخلـة فى كلمة «النجوم»، مثلما يقصد «بالجبال» التى تشكّل جزءا مهمّا من الكرة الأرضية، الأرض ذاتها.

۳- و أخيرا: لماذا قال سبحانه و تعالى: أَ لَمْ تَرَ، أى: ألم تشاهد بعينيك، رغم أنّ السجود العام من قبل المخلوقات للّه تعالى لا يمكن رؤيته؟

و مع ملاحظة أنّ كلمة «رؤية» فى العربية تعنى أحيانا العلم، يتّضح الجواب.

و إضافة إلى ذلـك نعبّر أحيانا عن الواضـحات جـدّا بكلمـة الرؤيـة، فنقول: ألم تر فلانا حسودا بخيلا؟ أو: ألم تر فلانا عالما و عادلا؟ (رغم أنّ هذه الصفات ليست حسّية) و إنّما نقصد بذلك تأكيد الإدراك و العلم بهذه الصفات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۱۰

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۹ الى ۲۴]

اشارة

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِی رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (۱۹) يُصْهَرُ بِهِ ما فِی بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (۲۰) وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (۲۱) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيـدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (۲۲) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (۲۳) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (۲۴)

سبب النّزول

ذكر عدد من المفسّـرين من الشيعة و السـنّة روايات فى سبب نزول أوّل آية من الآيات السالفة الذكر نلخّصها بتركيز: «نزل إلى ساحة الحرب يوم معركة بدر ثلاثة من المسلمين هم (على عليه السّلام و حمزة و عبيدة بن الحارث بن عبد المطلّب)،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۱۱

فقتلوا بحسب ترتيبهم «الوليـد بن عتبـة» و «عتبـة بن ربيعـة» و «شـيبة بن ربيعـة» فنزلت هـذه الآيـة لتبيّن مصير الـذين اشتركوا فى هـذه المبارزة.

كما روى أنّ أبا ذر أقسم بأنّ هـذه الآيـة نزلت بحقّ هؤلاء الرجال ۲۲۷]، إلّا أنّنا نكرّر قولنا ثانية بأنّ سـبب النّزول الخاصّ بشـخص أو جماعة معيّنة لا يمنع أن يكون مضمون الآية عامّا يشمل الجميع.

التّفسير

خصمان متقابلان!

أشارت الآيـة السابقـة إلى المؤمنين و طوائف مختلفـة من الكفّار، و حـدّدتهم بستّ فئات. أمّا هنا فتقول: هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِی رَبِّهِمْ ۲۲۸] أى أنّ الخصـام بيـن مجموعـتين، همـا: طوائـف الكفّـار الخمس من جهـة، و المؤمنـون الحقيقيّون من جهـة أخرى. و إذا تفحصـنا الأمـر وجـدنا أسـاس الخلاف بين الأديان فى ذات اللّه تعالى و صـفاته، و هو يمتـدّ إلى الخلاف فى النبوّة و المعاد. لهـذا لا

ضرورة إلی القول بأنّ الناس مختلفین فی دین اللّه. إذ أنّ أساس الخلاف و جـذوره یعود إلی الخلاف فی توحیـده تعالی فقط. فجمیع الأدیان قد حرّفت، و الباطل منها قد اختلط بنوع من الشرک، و بدت دلائله فی جمیع اعتقادات أصحاب هذه الأدیان.

ثمّ تبیّن الآیهٔ أربعهٔ أنواع من عقاب الکافرین المنکرین للّه تعالی بوعی منهم، و العقاب الأوّل حول لباسهم، فتقول الآیهٔ: فَالَّذِینَ کَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِیابٌ مِنْ نارٍ و یمکن أن تکون هذه العبارهٔ إشارهٔ إلی لباسهم الذی أعدّ لهم من قطع من نار، أو کنایهٔ عن إحاطهٔ نار جهنّم بهم من کلّ جانب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۲

ثمّ یُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِـهِمُ الْحَمِیمُ ۲۲۹] أی یصبّ علی رؤوسـهم سائـل حـارق هو حمیم النّار، و هـذا الماء الحارق الفوّار ینفـذ إلی داخل أبدانهم لیذیب باطنها و ظاهرها یُصْهَرُ بِهِ ما فِی بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ[۲۳۰].

و ثالث نوع من العقاب هو وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِیدٍ[۲۳۱] أی أعدّت لهم أسواط من الحدید المحرق.

و الرابع: کُلَّمـا أَرادُوا أَنْ یَخْرُجُوا مِنْهـا مِنْ غَمٍّ أُعِیـدُوا فِیهـا وَ ذُوقُوا عَـذابَ الْحَرِیقِ أی کلّمـا أرادوا الخروج من جهنّم و الخلاـص من آلامها و همومها أعیدوا إلیها، و قیل لهم ذوقوا عذاب الحریق.

و أوضـحت الآیـات التالیـهٔ وضع المؤمنین الصـالحین، مسـتخدمهٔ أسـلوب المقارنـهٔ، لتکشف بهـا عن وضع هـاتین المجموعتین، و هنا تسـتعرض هـذه الآیـات خمسـهٔ أنواع من المکافئـات للمؤمنین: إِنَّ اللَّهَ یُـدْخِلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحـاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

فخلافا للمجموعهٔ الأولی الذین یتقلّبون فی نار جهنّم، نجد أنّ الذین آمنوا و عملوا الصالحات یتمتّعون بنعیم ریاض الجنّهٔ علی ضفاف الأنهر و هـذه هی المکافـأهٔ الأـولی، و أمّـا لباسـهم و زینتهـم فتقـول الآیـهٔ: و یُحَلَّوْنَ فِیهـا مِنْ أَسـاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُـهُمْ فِیها حَرِیرٌ[۲۳۲].

و هاتان مکافئتان یمنّ اللّه بهما کذلک علی عباده العالمین فی الجنّهٔ، یهبهم أفخر الملابس التی حرموا منها فی الدنیا، و یجمّلهم بزینهٔ الأساور التی منعوا عنها فی الحیاهٔ الأولی، لأنّها کانت تؤدّی إلی إصابتهم بالغرور و الغفلهٔ، و تکون سببا لحرمان الآخرین و فقرهم. أمّا فی الجنّهٔ فینتهی هذا المنع و یباح للمؤمنین لباس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۳

الحریر و الحلی و غیرها. و بالطبع ستکون للحیاهٔ الاخرویهٔ مفاهیم أسمی ممّا نفکّر به فی هذه الدنیا الدنیّهٔ، لأنّ مبادئ الحیاهٔ و مدلولها یختلفان فی الدنیا عمّا هی فی الآخرهٔ (فتأمّلوا جیدا).

و أخیرا الهبهٔ الرّابعهٔ و الخامسهٔ التی یهبها اللّه للمؤمنین الصالحین ذات سمهٔ روحانیهٔ وَ هُدُوا إِلَی الطَّیِّبِ مِنَ الْقَوْلِ حدیث ینمی الروح. و ألفاظ تثیر حیویـهٔ الإنسان، و کلمات ملؤها النقاء و الصـفاء التی تبلغ بالروح درجهٔ الکمال و تملأ القلب بهجهٔ و سـرورا، وَ هُدُوا إِلی صِراطِ الْحَمِیدِ[۲۳۳] هکـذا یهـدون إلی طریق اللّه الحمیـد، الجـدیر بالثنـاء، طریق معرفـهٔ اللّه و التقرّب المعنوی و الروحی إلیه، سـبیل العشق و العرفان.

حقّا إنّ اللّه یهدی المؤمنین إلی هذا الطریق الذی ینتهی إلی أعلی درجات اللذّهٔ الروحیّهٔ.

و نقرأ فی حـدیث رواه علی بن إبراهیم (المفسّـر المعروف) فی تفسیره، أنّ القصد من «الطیب من القول» التوحید و الإخلاص و یعنی «الصراط الحمید» الولایهٔ و الإقرار بولایهٔ القادهٔ الربانیّین (و بالطبع هذا أحد البراهین الواضحهٔ للآیهٔ).

کما یسـتنتج من التعابیر المختلفـهٔ الواردهٔ فی الآیات السابقهٔ و فی سـبب نزولها أنّ هناک عذابا عسـیرا صـعبا ینتظر مجموعهٔ خاصّهٔ من الکفّار الـذین یعانـدون اللّه و یحاولون تضـلیل الآخرین. إنّهم أفراد من قادهٔ الکفر کالـذین تقـدّموا فی معرکـهٔ بـدر لمبارزهٔ علی علیه السّلام و حمزهٔ بن عبد المطّلب و عبیدهٔ بن الحارث.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۴

الآية [سورة الحج (۲۲): آية ۲۵]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (۲۵)

التّفسير

الذين يصدّون عن بيت اللّه الحرام!

تحدّثت الآيات السابقة عن عامّة الكفّار، و هذه الآية تشير إلى مجموعة خاصة منهم بائت بمخالفات و ذنوب عظيمة، ذات علاقة بالمسجد الحرام و مراسم الحجّ العظيم.

تبدأ هذه الآية ب إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و كذلك يصدّون و يمنعون المؤمنين عن مركز التوحيد العظيم: وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ أى سواء المقيمون فيه و الذين يقصدونه من مكان بعيد.

وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ أى كلّ من أراد الانحراف فى هذه الأرض المقدّسة عن الحقّ و مارس الظلم و الجور أذقناه عذابا أليما.

و هذه الفئة من الكفّار ترتكب ثلاث جرائم كبيرة، إضافة إلى إنكارها الحقّ،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۵

و جرائمها هى:

۱- صدّ الناس عن سبيل اللّه و الإيمان به و الطاعة له.

۲- صدّهم عن حجّ بيت اللّه الحرام، و توهم أنّ لهم امتيازا عن الآخرين.

۳- ممارستهم للظلم و ارتكابهم الإثم فى هذه الأرض المقدّسة، و اللّه يعاقب هؤلاء بعذاب أليم.

ملاحظات

اشارة

۱- جاء «كفر» هؤلاء فى هذه الآية بصيغة الفعل الماضى، و جاء «الصدّ» عن سبيل اللّه بصيغة الفعل المضارع، إشارة إلى كونهم كفّارا من قبل. و إلى أنّ تضليلهم الناس هو عملهم الدائم. و بتعبير آخر: تشير العبارة الأولى إلى اعتقادهم الباطل، و هو أمر ثابت، بينما تشير العبارة الثّانية إلى عملهم الدائم و هو الصدّ عن سبيل اللّه.

۲- يقصد بالصدّ عن سبيل اللّه كلّ عمل يحول دون إيمان الناس و دون قيامهم بالأعمال الصالحة، و هذا المفهوم الواسع يشمل البرامج الإعلامية و العملية التى تتوخّى التضليل عن السبيل السوى و الأعمال الصالحة.

۳- إنّ جميع الناس فى هذا المكان العبادى سواء.

و قد وردت لعبارة سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ عند المفسّرين معان مختلفة، فذهب بعضهم أنّ المراد هو أنّ الناس سواسية فى هذا المكان الذى يوحّد فيه اللّه، و ليس لأحد الحقّ أن يعرقل حجّ الناس و عبادتهم بجوار بيت اللّه الحرام.

و أعطى آخرون لهذه العبارة معنى أوسع، و هو أنّ الناس ليسوا سواسية فقط فى أداء الشعائر و إنّما هم كذلك فى الاستفادة من الأرض و البيوت المحيطة بالكعبة لاستراحتهم و سائر حاجاتهم الاخرى، لهذا حرّم بعض الفقهاء بيع و شراء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۶

و إيجار البيوت فى مكّة المكرمة، و يتّخذون الآية السابقة دليلا على ما يرون.

كما ذكرت الأحاديث الإسلامية عدم جواز الحيلولة دون سكنى حجّاج بيت اللّه الحرام فى منازل مكّة، حتّى حرّمه قوم، و رآه آخرون مكروها.

جاء فى رسالة بعث بها الإمام على عليه السّلام إلى قثم بن العبّاس والى مكّة آنذاك:

«و أمر أهل مكّة أن لا يأخذوا من ساكن أجرا، فإنّ اللّه سبحانه يقول: سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ فالعاكف المقيم به، و البادى الذى يحجّ إليه من غير أهله»[۲۳۴].

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية: كانت مكّة ليست على شىء منها باب، و كان أوّل من علّق على بابه المصراعين، معاوية بن أبى سفيان، و ليس ينبغى لأحد أن يمنع الحاج شيئا من الدور و منازلها».

و ذكرت أحاديث أنّ الحجّاج بيت اللّه الحقّ فى استخدام البيوت المحيطة بالكعبة، و يرتبط هذا الحكم بشكل كبير ببحثنا المقبل، و هو: هل يقصد بالمسجد الحرام فى هذه الآية المسجد ذاته أو يشمل مكّة كلّها؟

فإذا سلّمنا بالرأى الأوّل فإنّ الآية السابقة لا تشمل منازل مكّة، و على فرض شمولها فإنّ قضيّة حرمة بيع و شراء و إيجار منازل مكّة بالنسبة للحجّاج تكون مطروحة للبحث، إلّا أنّ هذه القضيّة ليست مؤكّدة فى المصادر الفقهيّة و الأحاديث و التفاسير، فإنّ الحكم بحرمتها أمر صعب. و ما أجدر أهل مكّة بأن يقدّموا جميع التسهيلات الممكنة لحجّاج بيت اللّه الحرام! و ألّا يضعوا لأنفسهم امتيازات على الحجّاج حتّى بالنسبة لمنازلهم، و يبدو أنّ الأحاديث التى وردت فى نهج البلاغة و غيره تشير إلى هذه المسألة.

و القول بالتحريم لا يحظى بتأييد واسع من فقهاء الشيعة و السنّة (للاطّلاع أوسع بهذا الصدد يراجع المجلّد العشرين من جواهر الكلام الصفحة الثامنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۷

و الأربعين و ما بعدها فى أحكام منى).

و لا يحقّ لأحد باعتبار كونه حامى حرم اللّه- أو أيّة صفة أخرى- مضايقة حجّاج بيت اللّه، أو اتّخاذ الحجّ و البيت قاعدة لإعلامه و تنفيذ مآربه.

۴- ما الذى تعنيه هذه الآية بالمسجد الحرام؟

قال بعض: تعنى الكعبة و جميع أجزاء المسجد الحرام. و قال غيره: تشير إلى جميع أنحاء مكّة، بدلالة الآية الأولى من سورة الإسراء التى تخصّ معراج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مضمون هذه الآية أنّ بداية المعراج كانت من المسجد الحرام، فى الوقت الذى ذكر المؤرخّون أنّ المعراج بدأ من منزل خديجة أو شعب أبى طالب أو من منزل أم هانئ، و على هذا فإنّ المقصود من المسجد

الحرام مكّة كلّها[۲۳۵].

و لكن بداية معراج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليست بالتأكيد من خارج المسجد الحرام، و يحتمل أن تكون من المسجد ذاته، فلا دليل لدينا للإعراض عن ظاهر الآية، و عليه فهذه الآية تقصد المسجد الحرام ذاته.

و إذا توصّلنا من مطالعة الأحاديث السابقة إلى أنّها تستدلّ بهذه الآية على مساواة الناس فى منازل مكّة، لأنّ ذلك الحكم استحبابى، فلا مانع من توسعة موضوعه على ما يناسبه (فتأمّلوا جيدا).

۵- ماذا تعنى عبارة (إلحاد بظلم).

تعنى كلمة «الإلحاد» فى اللغة الانحراف عن حدّ الاعتدال، و لهذا أطلقت على الحفرة المجاورة للقبر التى تقع خارج حدّ الوسط كلمة «لحد».

و على هذا فإنّ عبارة (إلحاد بظلم) تعنى الخارجين عن حدّ الاعتدال بممارسة الظلم، فيرتكبون المخالفات فى تلك الأرض المقدّسة، و قد حصر البعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۸

مفهوم الظلم هنا بالشرك، و قال آخرون: إنّه يعنى إباحة المحرّمات، و قال غيرهم:

إنّ الظلم هنا ذو مدلول واسع يشمل كلّ ذنب و عمل حرام، فيدخل فيه حتّى السبّ للأدنى منه، و قالوا: إنّ ارتكاب أى ذنب فى هذه الأرض المقدّسة له عقاب أشدّ.

و

جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام جوابا على سؤال لأحد أصحابه حول هذه الآية: «كلّ ظلم يظلم الرجل نفسه بمكّة من سرقة أو ظلم أحد أو شىء من الظلم فإنّى أراه إلحادا، و لذلك كان ينهى أن يسكن الحرم»[۲۳۶].

و قد رويت أحاديث أخرى تتضمّن هذا المعنى، و تنسجم مع ظاهر الآية.

و على هذا يرى بعض الفقهاء- بالنسبة لمن يرتكب الذنب فى الحرم المكّى- وجوب التعزير أو عقاب آخر إضافة إلى الحدّ الذى نصّ عليه الشارع، و يستدلّون على ذلك بعبارة نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ۲۳۷].

و يتّضح بذلك أنّ حصر هذه الآية بالنهى عن الاحتكار، أو عدم الدخول إلى منطقة الحرم دون إحرام، لم تكن غايتهم إلّا بيان مصداق واضح لهذه الآية فقط، و إلّا فلا دليل لدينا على حصر مفهوم هذه الآية ذات الدلالات الواسعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۹

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۲۶) وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۲۷) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (۲۸)

التّفسير

الدّعوة العامّة للحجّ!

تناولت الآية السابقة قضيّة المسجد الحرام و حجّاج بيت اللّه، أمّا هذه الآيات فتستعرض بناء الكعبة على يد إبراهيم الخليل عليه السّلام، و وجوب الحجّ و فلسفته، و بعض أحكام هذه العبادة الجليلة. و بتعبير آخر: كانت الآية السابقة مقدّمة للأبحاث المختلفة التى تناولتها الآيات اللاحقة، إذ بدأت بقصّة تجديد بناء الكعبة:

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أى تذكّر كيف أعددنا لإبراهيم مكان الكعبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۰

ليقوم ببنائها.

و كلمة «بوّأ» مشتقة من بواء، أى الأرض المسطّحة، ثمّ أطلقت على إعداد المكان مطلقا.

و تقصد هذه الآية حسبما يراه المفسّرون أنّ اللّه هدى إبراهيم عليه السّلام إلى مكان الكعبة بعد أن هدمت بطوفان نوح و خفيت معالمها. إذ حدثت عاصفة فأزالت التراب و كشفت عن أسس البيت، أو بعث اللّه سحابة ظلّلت مكان البيت، أو بأىّ أسلوب آخر كشف اللّه لإبراهيم عليه السّلام أسّس الكعبة، فقام هو و ابنه إسماعيل عليهما السّلام بتجديد بناء بيت اللّه الحرام [۲۳۸].

و تضيف الآية الكريمة أنّه عند ما تمّ بناء البيت خوطب إبراهيم عليه السّلام: أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ[۲۳۹].

فمهمّة إبراهيم عليه السّلام كانت تطهير البيت و ما حوله من أى نجس ظاهر أو باطن، و من أى صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجّه عباد الرحمن قلوبهم و أبصارهم إليه تعالى وحده فى هذا المكان الطاهر، و ليقوموا بأهمّ العبادات فى هذه البقعة المباركة، ألا و هو الطواف و الصلاة فى محيط إيمانىّ لا يخالطه شرك.

و أشارت الآية أيضا إلى ثلاثة من الأركان الأساسيّة فى الصلاة: القيام، و الركوع، و السجود، بالترتيب، لأنّ الأركان الباقية تستظلّ بها، على الرغم من قول بعض المفسّرين: إنّ «القائمين» تعنى هنا المقيمين بمكّة، و مع ملاحظة مسألة الطواف و الركوع و السجود التى جاءت قبل كلمة القائمين و بعدها يتّضح لنا أنّ القيام هنا يعنى قيام الصلاة و قد اختار هذا المعنى عدد كبير من مفسّرى الشيعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۱

و السنّة أو نقلوه باعتباره تفسير لها[۲۴۰].

و كلمتا «ركّع» و هى جمع للراكع، و «السجود» و هى جمع ساجد، لم يرد بينهما واو العطف، بل ذكرتا وصفا لتقارب هاتان العبادتان.

و بعد إعداد البيت للعبادة، أمر اللّه تعالى إبراهيم عليه السّلام: وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ

كلمة «أذّن» مشتقة من «الأذان» أى «الإعلان». و «رجال» جمع «راجل» أى «ماشى». و «الضامر» تعنى الحيوان الضعيف. و «الفجّ» فى الأصل تعنى المسافة بين جبلين، ثمّ أطلقت على الطرق الواسعة و «العميق» تعنى هنا «البعيد».

جاء فى حديث رواه على بن إبراهيم فى تفسيره: عند ما تسلّم إبراهيم عليه السّلام هذا الأمر الربّانى قال: إنّ أذانى لا يصل إلى أسماع الناس، فأجابه سبحانه و تعالى (عليك الأذان و علىّ البلاغ)! فصعد إبراهيم عليه السّلام موضع المقام و وضع إصبعيه فى أذنيه و قال: يا أيّها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم. و أبلغ اللّه عزّ و جلّ نداءه أسماع جميع الناس حتّى الذين فى أصلاب آبائهم و أرحام أمّهاتهم، فردّوا: لبيّك اللهمّ لبّيك! و إنّ جميع الذين يشاركون فى مراسم الحجّ منذ ذلك اليوم و حتّى يوم القيامة، هم من الذين لبّوا دعوة إبراهيم عليه السّلام [۲۴۱].

و قد ذكرت الآية هنا الحجّاج المشاة أوّلا، ثمّ الراكبين، لأنّهم أفضل منزلة عند اللّه، بسبب ما يتحمّلون من صعاب السفر أكثر من غيرهم، و لهذا السبب

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «للحاج الراکب بکلّ خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، و للحاج الماشی بکلّ خطوة یخطوها سبعمائة حسنة»[۲۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۲

أو أنّ هذه المنزلة جاءت لتحدید أهمیّة حجّ بیت اللّه الحرام، الذی یجب أن یتمّ بأی أسلوب و بأیّة إمکانات. و أن لا ینتظر الحاج مرکبا له.

أمّا عبارة «ضامر» فتعنی الحیوان الضعیف، إشارة إلی أنّ هذا الطریق یجعل الحیوان هزیلا، لأنّه یجتاز صحاری جافة محرقة لا زرع فیها و لا ماء، و استعدادا لتحمل الصعاب فی هذا الطریق.

أو یکون المراد أنّ علی الحاج إختیار جواد قوی سریع صابر، رشیق ضامر، متدرّب علی السیر فی مثل هذه الطرق، و لا فائدة ترجی من الحیوان المنعم فی هذا الطریق. (مثلما لا یمکن للرجال المترفین اجتیاز هذا الطریق).

أمّا عبارة مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ فهی إشارة إلی توجّه الحجاج إلی الکعبة، لیس فقط من الأماکن القریبة، بل یشمل ذلک الحجّاج من الأماکن البعیدة أیضا. کلمة «کلّ» لا تعنی هنا الاستغراق و الشمول، بل الکثرة.

و یذکر المفسّر المشهور أبو الفتوح الرازی فی تفسیره لهذه الآیة حیاة مثیرة لرجل یدعی «أبو القاسم بشر بن محمّد» فیقول: رأیت حین الطواف شیخا هزیلا بدت علیه آثار السفر، و رسم التعب علائمه علی جبینه. تقدّمت إلیه و سألته من أین أنت؟ أجاب: من فجّ عمیق طال قطعه خمسة أعوام! فأصبحت شیخا هزیلا من شدّة تعب السفر و آلامه، فقلت: و اللّه لهی مشقّة، إلّا أنّها طاعة خالصة و حبّ عمیق للّه تعالی.

فسّره ذلک ثمّ أنشد:

زر من هویت و إن شطّت بک الدارو حال من دونه حجب و أستار!

لا یمنعنّک بعد من زیارتهإنّ المحبّ لمن یهواه زوّار!

حقّا إنّ جاذبیة بیت اللّه هی بدرجة تجعل القلوب الطافحة بالإیمان تهوی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۳

إلیه من جمیع الأنحاء، قربت أم بعدت، تجذب الشاب و الشیخ و الصغیر و الکبیر، من کلّ أمّة و مکان، بعیدا أم قریبا، الکل یلبّون اللّه یأتونه عشّاقا لیروا مظاهر ذات اللّه الطاهرة فی تلک الأرض المقدّسة بأعینهم، و یشعروا برحمته التی لا حدود لها من أعماق وجودهم [۲۴۳].

و تناولت الآیة التالیة فلسفة الحجّ فی عبارة موجزة ذات دلالات عدیدة فقالت: لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ أی أنّ علی الناس الحجّ إلی هذه الأرض المقدّسة، لیروا منافع لهم بأم أعینهم.

و قد ذکر المفسّرون لکلمة المنافع الواردة فی الآیة عدّة معان، إلّا أنّه لا تحدید لمعناها کما یبدو من ظاهر الآیة، فهی تشمل جمیع المنافع و البرکات المعنویة و المکاسب المادیة، و کلّ عائد فردی و اجتماعی و فلسفة سیاسیّة و اقتصادیة و أخلاقیة. فما أحری المسلمین أن یتوجّهوا من أنحاء العالم إلی مکّة لیشهدوا هذه المنافع! إنّها لعبارة جمیلة! ما أولاهم أن یجعلهم اللّه شهودا علی منافعهم! لیروا بأعینهم ما سمعوه بآذانهم! و علی هذا ذکر

فی کتاب الکافی حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام فی الردّ علی استفسار ربیع بن خیثم عن کلمة المنافع ...، منافع الدنیا أو منافع الآخرة؟ فقال:

«الکل»[۲۴۴].

و سنتناول بإسهاب شرح هذه المنافع فی ملاحظاتنا علی هذه الآیة إن شاء اللّه.

ثمّ تضیف الآیة: وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللّهِ فِی أَیّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۴

أی أنّه علی المسلمین أن یحجّوا إلی البیت و یقدّموا القرابین من المواشی التی رزقهم اللّه، و أن یذکروا اسم اللّه علیها حین الذبح فی أیّام محدّدة معروفة. و بما أنّ الاهتمام الأساس فی مراسم الحجّ، ینصب علی الحالات التی یرتبط فیها الإنسان بربّه لیعکس جوهر هذه العبادة العظیمة، تقیّد الآیة المذکورة تقدیم القربان بذکر اسم اللّه علی الاضحیة فقط، و هو أحد الشروط لقبولها من لدن العلی القدیر.

و هذا الذکر إشارة إلی توجّه الحاج إلی اللّه کلّ التوجّه عند تقدیم الأضحیة، و همّه کسب رضی اللّه و قبوله القربان، کما أنّ الاستفادة من لحم الضحیة تقع ضمن هذا التوجّه.

و فی الحقیقة یعتبر تقدیم الأضاحی رمزا لإعلان الحاج استعداده للتضحیة بنفسه فی سبیل اللّه، علی نحو ما ذکر من قصّة إبراهیم علیه السّلام و محاولة التضحیة بابنه إسماعیل علیه السّلام. إنّ الحجّاج بعملهم هذا یعلنون استعدادهم للإیثار و التضحیة فی سبیل اللّه حتّی بأنفسهم.

و علی کلّ حال فإنّ القرآن بهذا الکلام ینفی أسلوب المشرکین الذین کانوا یذکرون أسماء الأصنام التی یعبدونها علی أضاحیهم، لیحیلوا هذه المراسم التوحیدیّة إلی شرک باللّه. و جاء فی ختام الآیة: فَکُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِیرَ.

کما یمکن أنّ تفسیر هذه الآیة بأنّ القصد من ذکر اسم اللّه فی أَیّامٍ مَعْلُوماتٍ هو التکبیر و الحمد للّه ربّ العالمین لما أنعم علینا من نعم لا تعدّ و لا تحصی.

خاصة بما رزقنا من بهیمة الأنعام التی نستفید فی حیاتنا من جمیع أجزاء أبدانها[۲۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۵

بحوث

۱- ما هی الأیّام المعلومات؟

یأمرنا اللّه سبحانه و تعالی- فی الآیات السابقة- أن نذکره فی أَیّامٍ مَعْلُوماتٍ و جاء ذلک أیضا فی سورة البقرة الآیة (۲۰۳) بشکل آخر وَ اذْکُرُوا اللّهَ فِی أَیّامٍ مَعْدُوداتٍ فما هی الأیّام المعلومات؟ و هل تطابق فی معناها الأیّام المعدودات، أمّ لا؟

اختلف المفسّرون فی هذه الأیّام، کما اختلفت الرّوایات التی ذکرت بهذا الصدد: حیث یری بعض المفسّرین- و یستندون إلی بعض الأحادیث الإسلامیة- أنّه یقصد ب «الأیّام المعلومات» الأیّام العشرة الأولی من ذی الحجّة، و أمّا «الأیّام المعدودات» فهی «أیّام التشریق» أی الیوم الحادی عشر و الثّانی عشر و الثّالث عشر من ذی الحجّة. الأیّام التی تشرق فیها القلوب.

أمّا المجموعة الثّانیة من المفسّرین فقد استندوا إلی أحادیث أخری فقالوا:

إنّ العبارتین تشیران إلی أیّام التشریق التی تعتبر هی الأیّام الثلاثة ذاتها، و أحیانا یضاف إلیها الیوم العاشر أی عید الأضحی.

و عبارة فَمَنْ تَعَجَّلَ فِی یَوْمَیْنِ فَلا إِثْمَ عَلَیْهِ التی جاءت فی سورة البقرة، تدلّ علی أنّ أیّام التشریق لیست أکثر من ثلاثة أیّام، لأنّ التعجیل فیها یحدث نقصا فی أیّامها فتصبح یومین.

و مع ملاحظة أنّ التضحیة جاءت فی الآیات- موضع البحث- بعد ذکر الأیّام المعلومات. و نعلم أنّ تقدیم الأضاحی یتمّ فی الیوم العاشر من ذی الحجّة، فإنّ ذلک یؤکّد أنّ الأیّام المعلومات هی الأیّام العشرة الأولی من ذی الحجّة التی تنتهی بیوم الأضحی. و علی هذا یقوی دلیل التّفسیر الأوّل القائل باختلاف معنی الأیّام المعلومات و الأیّام المعدودات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۶

و مع الأخذ بوحدة المعانی التی تضمّنتها الآیتان، یبدو أنّ الأرجح فی هذه القضیّة القول بأنّ الآیتین تشیران إلی موضوع واحد، و هدفهما الاهتمام بذکر اللّه فی أیّام معیّنة تبدأ من العاشر من ذی الحجّة و تنتهی بالثّالث عشر منه. و من الطبیعی أن تکون إحدی الحالات التی یجب ذکر اسم اللّه فیها، هی حین تقدیم الأضاحی ۲۴۶].

۲- ذکر اللّه فی أرض «منی»

جاء فی روایات عدیدة أنّ ذکر اللّه فی هذه الأیّام تکبیر خاص یذکر بعد إتمام صلاة ظهر یوم عید الأضحی، و یستمر ذکر هذا التکبیر فی خمس عشرة صلاة (أی ینتهی بعد صلاة صبح الیوم الثّالث عشر) و هو کما یلی:

«اللّه أکبر، اللّه أکبر، لا إله إلّا اللّه و اللّه أکبر، اللّه أکبر، و للّه الحمد، اللّه أکبر علی ما هدانا، و اللّه أکبر علی ما رزقنا من بهیمة الأنعام»[۲۴۷].

کما نصّت بعض الأحادیث علی أنّ التکبیر فی المرّات الخمسة عشر خاص بالذین هم بأرض «منی» فی أیّام الحجّ، أمّا من کانوا فی المناطق الاخری فعلیهم ذکر هذا التکبیر عقب عشر صلوات (یبدأ من بعد صلاة الظهر من یوم العید، و ینتهی بصلاة صبح الیوم الثّانی عشر)[۲۴۸] و الأحادیث الخاصّة بالتکبیر دلیل آخر علی أنّ الذکر فی الآیات السابقة عامّ و لیس محدّدا بتقدیم الأضاحی. رغم أنّ هذا المفهوم الکلّی یشمل هذا المصداق أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۷

۳- فلسفة الحجّ و أسراره العمیقة!

اشارة

إنّ لشعائر الحجّ- کما هو الحال بالنسبة للعبادات الاخری- برکات کثیرة جدّا فی نفسیّة الفرد و المجتمع الإسلامی. و یمکنها- إن أجریت وفق أسلوب صحیح- أن تحدث فی المجتمعات الإسلامیة تبدّلا جدیدا کلّ عام.

و تمتاز هذه المناسک بأربعة أبعاد مهمّة:

۱- البعد الأخلاقی للحج:

أهمّ جانب فی فلسفة الحجّ التغیّر الأخلاقی نحو الأحسن الذی یحصل عند الناس، فمراسم الإحرام تبعد الإنسان بشکل تامّ عن الأمور المادیة و الامتیازات الظاهریة و الألبسة الفاخرة، و مع تحریم الملذّات، و بناء الذات الذی یعتبر من واجبات المحرم یبتعد الفرد عن عالم المادّة، و یدخل إلی عالم النور و الصفاء و التسامی الروحی. و تری الإنسان قد ارتاح فجأة من عبء الامتیازات الموهومة، و الدرجات و الرتب و النیاشین.

ثمّ تلی عملیّة الإحرام مراسم الحجّ الاخری تباعا، و فیها تتوطّد علاقة الإنسان الروحیّة مع خالقه- لحظة بعد أخری- و تتوثّق. فینقطع عن ماضیه الأسود المملوء آثاما و ذنوبا، و یتّصل بمستقبل واضح کلّه نور و صفاء. خاصّة أنّ مراسم الحجّ تثیر فی الإنسان اهتماما کبیرا- فی کلّ خطوة یخطوها- بإبراهیم علیه السّلام محطّم الأصنام، و إسماعیل علیه السّلام ذبیح اللّه. و أمّه هاجر علیها السّلام. و یتجلّی للحجّاج جهادهم و تضحیاتهم، إضافة إلی کون أرض مکّة عامّة، و المسجد الحرام و بیت الکعبة و محلّ الطواف حولها

خاصّة، تذکر الحاجّ بالرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قادة الإسلام العظام و جهاد المسلمین فی صدر الإسلام، فیتعمّق أثر هذه الثورة الأخلاقیة بدرجة یشاهد فیها الحاج فی کلّ زاویة من زوایا المسجد الحرام و أرض مکّة المقدّسة وجه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و علی علیه السّلام، و سائر قادة المسلمین، و یسمع قعقعة سیوفهم و صهیل خیولهم.

أجل، إنّ هذه الأمور کلّها تتّحد و تتضامن لتمهّد لثورة أخلاقیة فی القلوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۸

المستعدّة. و بشکل لا یمکن وصفه تفتح فی حیاة الفرد صفحة جدیدة. و لهذا نصّت الأحادیث الإسلامیة علی أنّ الذی یؤدّی الحجّ تامّا صحیحا

«یخرج من ذنوبه کهیئته یوم ولدته أمّه»[۲۴۹]!

فالحجّ ولادة ثانیة للمسلم. یستهلّ بها حیاة إنسانیة جدیدة، و لا حاجة هناک لإعادة القول بأنّ هذه البرکات و تأثیرها و ما نشیر إلیه بعد هذا لیست نصیب من اقتنع من مکاسب الحجّ بقشرته و رمی اللب جانبا. کما أنّها لیست نصیب من یعتبر الحجّ سیاحة للتنفیس عن الخاطر، أو للتظاهر و الریاء، أو طریقا للحصول علی متاع شخصی دنیوی، و هو فی الحقیقة لم یتوصّل إلی معنی الحج الحقیقی، فکان نصیبه ما یستحقّه!

۲- البعد السیاسی للحجّ

ذکر أحد کبار فقهاء المسلمین أنّ مراسم الحجّ فی الوقت الذی تستبطن أخلص و أعمق العبادات، هی أکثر الوسائل أثرا فی التقدّم نحو الأهداف السیاسیّة الإسلامیة. فجوهر العبادة التوجّه إلی اللّه، و جوهر السیاسة التوجّه إلی خلق اللّه، و هذان الأمران امتزجا فی الحجّ بدرجة أصبحا کنسیج واحد.

إنّ الحجّ عامل مؤثّر فی وحدة صفوف المسلمین.

الحجّ عامل مهمّ فی مکافحة التعصّب القومی و العنصری و التقوقع فی حدود جغرافیة.

و الحجّ وسیلة لتحطیم الرقابة التی تفرضها الأنظمة الظالمة، و تدمیر هذه الأنظمة المتسلّطة علی رقاب الشعوب الإسلامیة.

و الحجّ وسیلة لنقل الأنباء السیاسیة للبلدان الإسلامیة من نقطة إلی أخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۹

و أخیرا الحجّ عامل مؤثّر فی تحطیم قیود العبودیة و الاستعمار و تحریر المسلمین.

و لهذا السبب کان موسم الحجّ زمن الجبابرة کبنی أمیّة و بنی العبّاس الذین کانوا یسیطرون علی الأراضی الإسلامیة المقدّسة، و یراقبون کلّ تحرّک تحرّری إسلامی لیقمعوه بقوّة، کان الموسم متنفّسا للحریة و لاتّصال فئات المجتمع الإسلامی الکبیر بعضها مع بعض، لطرح القضایا السیاسیّة المختلفة التی تهمّ کلّ مسلم.

و علی هذا الأساس قال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی معرض حدیثه عن فلسفة الفرائض و العبادات

«الحجّ تقویة للدّین»[۲۵۰].

کما أنّ أحد السیاسیین الأجانب المشهورین قال: «الویل للمسلمین إن لم یعرفوا معنی الحجّ، و الویل لأعدائهم إذا أدرک المسلمون معنی الحجّ»! و اعتبرت الأحادیث الإسلامیة الحجّ جهاد الضعفاء، إذ یمکن للشیوخ و النساء الضعیفات المشارکة فی الحجّ لیظهروا عظمة الامّة الإسلامیة. و لیدخلوا الرعب فی قلوب أعداء الإسلام بمشارکتهم فی صفوف المصلّین المتراصّة فی دوائر تحیط ببیت اللّه الحرام. و هی توحّد اللّه و تکبّره.

۳- البعد الثقافی للحجّ

يمكن أن يؤدّى التقاء المسلمين أيّام الحجّ دورا فعّالا فى التبادل الثقافى فى المجتمع الإسلامى، خاصّة إذا لا حظنا أنّ اجتماع الحجّ العظيم يمثّل بشكل حقيقى فئات المسلمين من أنحاء العالم، حيث لا تصنّع فى المشاركة فى حجّ بيت اللّه الحرام، فالحجّاج جاؤوا من شتّى المجموعات و العناصر و القوميات، و قد اجتمعوا رغم اختلاف ألسنتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۳۰

لهذا ذكرت الأحاديث الإسلامية أنّ من فوائد الحجّ نشر أخبار آثار رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى أنحاء العالم الإسلامى، يقول «هشام بن الحكم» أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام المخلصين نقلا عن هذا الإمام العظيم عليه السّلام أنّه قال حول فلسفة الحجّ و الطواف حول الكعبة: «إنّ اللّه خلق الخلق ... و أمرهم بما يكون من أمر الطاعة فى الدين، و مصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق و الغرب، و ليتعارفوا و لينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد ...، و لتعرف آثار رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تعرف أخباره و يذكر لا ينسى»[۲۵۱].

و لهذا السبب كان المسلمون يجدون فى الحجّ متنفّسا من جور الخلفاء و السلاطين الظلمة الذين منعوا المسلمين من نشر هذه الأحكام، لحلّ مشاكلهم بالاجتماع بأئمّة الهدى عليهم السّلام فى المدينة المنوّرة و مكّة المكرّمة، و بكبار علماء المسلمين، لينهلوا من مناهل القرآن النقيّة و السنّة النبويّة الشريفة.

و من جهة ثانية يمكن أن يكون الحجّ مؤتمرا ثقافيا إسلاميا يحضره مفكّرو العالم الإسلامى فى أيّام الحجّ فى مكّة المكرّمة، ليتحاوروا فيما بينهم و يعرضوا نظرياتهم و أفكارهم على الآخرين.

و قد أصبحت الحدود بين البلدان الإسلامية- الآن- سببا لتشتّت ثقافتهم الأصيلة، و اقتصار تفكير مسلمى كلّ بلد بأنفسهم فقط، حتّى تقطّعت أواصر المجتمع الإسلامى الموحّد. بينما يستطيع الحجّ أن يغيّر هذا الوضع.

و ما أجمل ما

قاله الإمام الصادق عليه السّلام فى ختام الحديث السابق الذى رواه هشام بن الحكم: «و لو كان كلّ قوم إنّما يتكلّمون على بلادهم و ما فيها هلكوا، و خربت البلاد، و سقطت الجلب و الأرباح، و عميت الأخبار»[۲۵۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۳۱

۴- البعد الاقتصادى للحجّ

خلافا لما يراه البعض، فإنّ مؤتمر الحجّ العظيم يمكن أن يستفاد منه فى تقوية أسس الإقتصاد فى البلدان الإسلامية. بل إنّه وفق أحاديث إسلامية معتبرة يشكّل البعد الاقتصادى جزءا مهمّا من فلسفة الحجّ.

فما المانع من وضع أسس سوق مشتركة إسلامية خلال اجتماع الحجّ العظيم، ليوسّع المسلمون مجال التبادل التجارى فيما بينهم بشكل تعود منافعهم إليهم لا- إلى أعدائهم. و من أجل تحرير اقتصادهم من التبعية الأجنبية، و هذا العمل عبادة و جهاد فى سبيل اللّه، و لا يمكن أن يكون حبّا للدنيا و طمعا فيها.

و لذا أشار الإمام الصادق عليه السّلام فى الحديث السابق خلال شرحه فلسفة الحجّ، إلى هذا الموضوع بصراحة باعتبار أنّ أحد أهداف الحجّ، تقوية العلاقات التجارية بين المسلمين.

و جاء فى حديث آخر للإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية (۱۹۸) من سورة البقرة لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ قال عليه السّلام: «فإذا أحلّ الرجل من إحرامه و قضى فليشتر و ليبع فى الموسم»[۲۵۳].

و كما يبدو فإنّ هذا العمل لا إشكال فيه، بل فيه ثواب و أجر.

و بهذا المعنى

جاء فى نهاية حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام لبيان فلسفة الحجّ بشكل مسهب: (ليشهدوا منافع لهم)[۲۵۴] إشارة إلى المنافع المعنوية و الماديّة. و الأخيرة على رأى بعضهم معنوية أيضا.

فالحجّ باختصار عبادة عظيمة لو أستفيد منها بشكل صحيح فى تشكيل مؤتمرات متعدّدة سياسيّة و ثقافية و اقتصادية، لحلّ مشاكل العالم الإسلامى، و مفتاحا لحلّ معضلات المسلمين، و قد يكون هو المراد من

حديث الإمام الصادق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۲

عليه السّلام حيث قال: «لا يزال الدين قائما ما قامت الكعبة»[۲۵۵].

كما

قال الإمام على عليه السّلام «اللّه اللّه فى بيت ربّكم، لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا»[۲۵۶]

أى لا يمهلكم اللّه إن تركتم بيت ربّكم خاليا.

و لأهميّة هذا الموضوع الذى خصّص له باب فى الأحاديث الإسلامية تحت عنوان «وجوب إجبار الوالى الناس على الحجّ» فإذا أراد المسلمون تعطيل الحجّ فى عام من الأعوام، فعلى الحكومات الإسلامية أن ترسلهم بالقوّة إلى مكّة[۲۵۷].

۴- ما هو مصير لحوم الأضاحى فى عصرنا؟

يستفاد من الآية السالفة الذكر أنّ الهدف من تقديم الأضحية، إضافة إلى الجوانب المعنوية و الروحية و التقرّب إلى اللّه تعالى، يشمل الاستفادة من لحومها و منح قسم منها إلى الفقراء و المحتاجين.

و تحريم الإسراف فى الإسلام ليس خافيا على أحد، فقد أكدّه القرآن و الحديث و الدليل العقلى. و من هذا كلّه نستنتج عدم جواز ترك اللحوم على الأرض فى «منى» و لا يجوز دفنها، إذ أنّ وجوب تقديم الأضاحى لا يقصد به هذه الأعمال فيجب نقل لحومها إلى مناطق أخرى بحاجة إليها إن لم نجد محتاجين فى «منى» ليستفاد منها على أفضل وجه، و هذا هو مقتضى الجمع بين الأدلّة و البراهين.

و لكنّنا نجد- و مع الأسف- أنّ الكثير من المسلمين عملوا بالحكم الأوّل، و نسوا العمل بالحكم الثّانى، و لذا نشهد فى كلّ عام تلف الآلاف المؤلّفة من لحوم الأضاحى التى بإمكانها أن تكون منبع غذائى مهمّ لشرائح المحرومين فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۳

المجتمعات الإسلامية، و لكنّها تترك فى تلك الأرض المقدّسة بحالة سلبية و مزعجة جدّا. و قد تحدّث لحدّ الآن الكثير من المفكّرين و علماء المسلمين حول هذا الموضوع مع المسؤولين فى المملكة العربية السعودية، و حتّى أنّهم تبرّعوا بتكاليف حفظها و نقلها إلى المؤسّسات المختصّة، و لكن جمود و تحجّر رجال الدين الوهّابيين من جهة، و عدم اهتمام المسؤولين فى الحكومة السعودية من جهة أخرى كانت مانعا لتنفيذ هذا المشروع.

و مع غضّ النظر عن مسألة حرمة الإسراف التى هى من الثوابت فى التفكير الإسلامى، فإنّ منظر المذابح يوم عيد الأضحى فى الحجّ حاليا بشع و غير منطقى إلى درجة يثير علامات الاستفهام لدى كلّ ضعيف الإيمان حول شعيرة الحجّ بالكامل، و يعطى للأعداء مبرّرا قويّا للطعن و التقبيح غافلين عن أنّ هذه المسألة هى نتيجة جهل و إهمال رجال الدين الوهّابيين و السلطات السعودية، فعلى هذا، فإنّ عظمة الإسلام و أصالة مناسك الحجّ توجب على المسلمين من جميع مناطق العالم أن يمارسوا الضغط على المسؤولين فى تلك

الدولة لإنهاء هذه الحالة الموحشة، و تنفيذ الحكم الإسلامی فی هذه المسألة.

و إذا وردت أحاديث إسلامية فی حرمة إخراج لحوم الأضاحی من أرض «منی» أو من «حرم مكّة» فإنّ ذلك يعود إلی زمن كان فيه فی مكّة المكرّمة عدد كاف من المستهلكين و المستحقّين.

و لهذا

ورد فی حديث صحيح الإسناد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ أحد أصحابه سأله عن هذا الموضوع، فأجاب: «كنّا نقول لا يخرج منها بشیء لحاجة الناس إليه، فأمّا اليوم فقد كثر الناس فلا بأس بإخراجه»[۲۵۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۳۴

الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۲۹ الی ۳۰]

اشارة

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۲۹) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (۳۰)

التّفسير

اشارة

تتابع هذه الآيات البحث السابق عن مناسك الحجّ مشيرة إلی جانب آخر من هذه المناسك، فتقول أوّلا: ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ أی ليطّهروا أجسامهم من الأوساخ و التلوّث، ثمّ ليوفوا ما عليهم من نذور. و لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ أی يطوفوا بذلك البيت الذی صانه اللّه عن المصائب و الكوارث و حرّره.

و كلمة «تفث» تعنی- كما قال كبار اللغويين و المفسّرين- القذارة و ما يلتصق بالجسم و زوائده كالأظافر و الشعر. و يقول البعض: إنّ أصلها يعنی القذارة التی تحت الأظافر و أمثالها[۲۵۹]. و رغم إنكار بعض اللغويين لوجود مثل هذا الاشتقاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۳۵

فی اللغة العربية، إلّا أنّ الراغب الاصفهانی نقل كلام بدویّ قاله بحقّ أحد الأشخاص القذرين: «ما أتفثك و أدرنك» دليلا علی عربية هذه الكلمة و وجود اشتقاق لها فی اللغة العربية.

و قد فسّرت لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ فی الأحاديث الإسلامية بتقليم الأظافر و تطهير البدن و نزع الإحرام. و بتعبير آخر: تشير هذه العبارة إلی برنامج «التقصير» الذی يعدّ من مناسك الحجّ. و جاء فی أحاديث إسلامية أخری بمعنی حلاقة الرأس التی تعتبر أحد أساليب «التقصير».

كما جاء فی «كنز العرفان» حديث رواه ابن عبّاس فی تفسير هذه الآية:

«القصد إنجاز مشاعر الحجّ كلّها»[۲۶۰] إلّا أنّه لا سند لدينا لحديث ابن عبّاس هذا.

و الذی يلفت النظر فی حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه فسّر عبارة لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ بلقاء الإمام، و عند ما سأله الراوی عبد اللّه بن سنان عن توضيح لهذه المسألة

قال: «إنّ للقرآن ظاهرا و باطنا»[۲۶۱].

و هـذا الحـديث ربّما كان إشارة إلى ملاحظـة تسـتحقّ الاهتمام. و هى أنّ حجّاج بيت اللّه الحرام يتطهّرون عقب مناسك الحجّ ليزيلوا الأوساخ عن أبـدانهم، فعليهم أن يطهّروا أرواحهم أيضـا بلقـاء الإمـام عليه السّـلام، خاصّـة و أنّ الخلفـاء الجبـابرة كـانوا يمنعون لقـاء المسلمين لإمامهم فى الظروف العادية. لهذا تكون أيّام الحجّ خير فرصة للقاء الإمام، و بهذا المعنى نقرأ

حديثا للإمام الباقر عليه السّلام قال فيه: «تمام الحجّ لقاء الإمام»[۲۶۲].

و كلاهمـا- فى الحقيقـة- تطهير، أحـدهما تطهير لظـاهر البـدن من القـذارة و الأوسـاخ، و الآـخر تطهير بـاطنى من الجهـل و المفاسـد الأخلاقية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۶

أمّا «الوفاء بالنـذر» فيعنى أنّ كثيرا من الناس ينـذرون تقديم أضاحى إضافيّة فى الحجّ، أو التصدّق بمال، أو القيام بعمل خيرى فى أيّام الحجّ، و لكنّهم ينسون و يغفلون عن كلّ ذلك عند وصولهم إلى مكّة، لهذا أكّد القرآن عليهم الوفاء بالنذور، و إلّا يقصّـِروا فى ذلك [۲۶۳].

أمّا لماذا سمّيت الكعبة بالبيت العتيق؟

«العتيق» مشـتقّة من «العتق» أى التحرّر من قيود العبوديـة، و ربّما كان ذلك لأنّ الكعبـة تحرّرت من قيود ملكية عباد اللّه، و لم يكن لها مالك إلّا اللّه، كما حرّرت من قيد سيطرة الجبابرة كأبرهة.

و من معانى «العتيق» أيضا الشـىء الكريم الثمين، و هذا المعنى يتجسّد فى الكعبة بوضوح. و من المعانى الاخرى للعتيق «القديم» يقول الراغب الاصفهانى:

العتيق المتقـدّم فى الزمان أو المكان أو الرتبـة. و هـذا المعنى أيضا واضـح بالنسبة للكعبة، فهى أقدم مكان يوحّد فيه اللّه. و بحسب ما جـاء فى القرآن إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ۲۶۴] و على كلّ حال فلا مانع من إطلاق العتيق على بيت اللّه بعـد ملاحظـة ما تتضـمّنه هذه الكلمة من معان، أشار كلّ مفسّر إلى جانب منها. أو ذكرت الأحاديث المختلفة جوانب أخرى من معانيها.

أمّا المراد من «الطواف» الوارد فى آخر الآية المذكور أعلاه فهناك بحث بين المفسّـرين (هناك طوفان- بعد مراسم عيد الأضحى فى منى- على الحجّاج أن يقوموا بهما، الطواف الأوّل يدعى «طواف الزيارة»، و الثّانى «طواف النساء»).

يرى بعض الفقهاء و المفسّرين أنّ مفهوم الطواف عام هنا، لأنّ الآية لم تتضمّن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۷

قيودا أو شرطا ما، فهى تضمّ طواف الحجّ و طواف النساء، حتّى أنّها تشمل طواف العمرة أيضا[۲۶۵].

فى وقت يرى مفسّرون آخرون أنّ الآية تقصد طواف الزيارة فقط، الذى يجب على الحاج بعد إحلاله من إحرام الحجّ ۲۶۶].

إلّا أنّ الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام تفيد أنّ القصد هنا طواف النساء،

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ قال: «طواف النساء»[۲۶۷].

كما روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام حديث بهذا المعنى ۲۶۸].

و هذا الطواف يسمّى عند أهل السنّة طواف الوداع.

و مع ملاحظة هذه الأحاديث يبدو التّفسير الأخير هو الأقوى، خاصّة إذا عبّر بهذا المعنى أيضا فى تفسير ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ حيث يجب إضافـة إلى تطهير البـدن من القذارة و الشـعر الزائد، اسـتعمال العطر أيضا. و من المعلوم أنّه لا يجوز اسـتعمال العطور فى الحجّ إلّا بعد إتمام الطواف و السعى، أو عند ما لا يكون طواف بذمّة الحاج إلّا طواف النساء.

و أشارت الآيـة الأخيرة إلى خلاصـة ما بحثته الآيات السالفة الذكر، حيث تبدأ بكلمة «ذلك» التى لها جملة محذوفة تقديرها «كذلك أمر الحجّ و المناسك» ثمّ تضيف تأكيدا لأهميّة الواجبات التى شرحت وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ

و المقصود هنا ب «الحرمات»- طبعا- أعمال و مناسک الحجّ، و یمکن أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۸

یضاف إلیها احترام الکعبة خاصة و الحرم المکّی عامّة. و علی هذا فإنّ تفسیر هذه الآیة باختصاصها بالمحرّمات- أی کلّ ما نهی اللّه عنه- أو جمیع الواجبات، مخالف لظاهر الآیة. کما یجب الانتباه إلی أنّ «حرمات» جمع «حرمة» و هی فی الأصل الشیء الذی یجب أن تحفظ حرمته، و ألّا تنتهک هذه الحرمة أبدا.

ثمّ تشیر هذه الآیة و تناسبا مع أحکام الإحرام إلی حلیّة المواشی، حیث تقول: وَ أُحِلَّتْ لَکُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما یُتْلی عَلَیْکُمْ

عبارة إِلَّا ما یُتْلی عَلَیْکُمْ یمکن أن تکون إشارة إلی تحریم الصید علی المحرم الذی شرع فی سورة المائدة الآیة (۹۵) حیث تقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّیْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ

کما قد تکون إشارة إلی عبارة جاءت فی نهایة الآیة- موضع البحث- تخصّ تحریم الأضحیة التی تذبح للأصنام التی کانت متداولة زمن الجاهلیة. لأنّ تذکیة الحیوان یشترط فیها ذکر اسم اللّه علیه عند الذبح، و لا یجوز ذکر اسم الصنم أو أی اسم آخر علیه.

و فی ختام هذه الآیة ورد أمران یخصّان مراسم الحجّ و مکافحة العادات الجاهلیة:

الأوّل یقول: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ و «الأوثان» جمع «وثن» علی و کن «کفن» و تعنی الأحجار التی کانت تعبد زمن الجاهلیة، و هنا جاءت کلمة الأوثان إیضاحا لکلمة «رجس» التی ذکرت فی الآیة، حیث تقول: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ ثمّ تلیها عبارة مِنَ الْأَوْثانِ أی الرجس هو ذاته الأوثان.

کما تجب ملاحظة أنّ عبدة الأوثان زمن الجاهلیة کانوا یلطّخونها بدماء الأضاحی، فیحصل مشهد تقشّعر الأبدان من بشاعته، و قد یکون التعبیر السابق إشارة إلی هذا المعنی أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۹

و الأمر الثّانی هو وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ أی الکلام الباطل الذی لا أساس له من الصحّة.

مسألة: ما معنی قَوْلَ الزُّورِ؟

یری بعض المفسّرین أنّه إشارة إلی کیفیّة تلبیة المشرکین فی مراسم الحجّ فی زمن الجاهلیة، لأنّهم یلبّون بشکل یتضمّن الشرک بعینه، و یبعدونه من صورته التوحیدیّة، فقد کانوا یردّدون: «لبّیک لا شریک لک، إلّا شریکا هو لک! تملکه و ما ملک!».

حقّا إنّه کلام باطل و دلیل علی قَوْلَ الزُّورِ الذی یعنی فی الأصل: الکلام الکاذب، و الباطل، و البعید عن حدود الاعتدال.

و مع هذا فإنّ اهتمام الآیة المذکورة بأعمال المشرکین فی مراسم الحجّ علی زمن الجاهلیة، لا یمنع من تعمیمها علی بطلان أیّة عبادة للأصنام بأیّة صورة کانت، و اجتناب أی قول باطل مهما کانت صورته.

و لهذا فسّرت بعض الأحادیث الأوثان بلعبة الشطرنج، و قول الزور بالغناء، و الشهادة بالباطل. و فی الحقیقة فإنّ ذلک بیان لبعض أفراد ذلک الکلّی، و لیس القصد منه حصر معنی الآیة بهذه المصادیق فقط. و

جاء فی حدیث للرسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی خطبة ألقاها علی المسلمین «أیّها الناس، عدلت شهادة الزور بالشرک باللّه، ثمّ قرأ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ.

إنّ هذا الحدیث أیضا إشارة إلی سعة مفهوم هذه الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۰

الآیات [سورة الحج (۲۲): الآیات ۳۱ الی ۳۳]

اشارة

حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ (۳۱) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (۳۲) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳۳)

التّفسير

تعظيم شعائر اللّه دليل على تقوى القلوب:

عقّبت الآيات هنا المسألة التى أكدّها آخر الآيات السابقة، و هى مسألة التوحيد، و اجتناب أى صنم و عبادة الأوثان. حيث تقول حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۲۶۹] أى أقيموا مراسم الحجّ و التلبية فى حالة تخلصون فيها النيّة للّه وحده لا يخالطها أى شرك أبدا.

«حنفاء» جمع «حنيف» أى الذى استقام و ابتعد عن الضلال و الانحراف، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۴۱

بتعبير آخر: هو الذى سار على الصراط المستقيم، لأنّ «حنف» على وزن «صدف» تعنى الرغبة، و من رغب عن كلّ انحراف فقد سار على الصراط المستقيم.

و على هذا فإنّ الآية السابقة اعتبرت الإخلاص و قصد القربة إلى اللّه محرّكا أساسيّا فى الحجّ و العبادات الاخرى، حيث ذكرت ذلك بشكل عام، فالإخلاص أصل العبادة. و المراد به الإخلاص الذى لا يخالطه أى نوع من الشرك و عبادة غير اللّه.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أجاب فيه مبيّنا معنى كلمة حنيف: «هى الفطرة التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق اللّه، قال: فطرهم اللّه على المعرفة»[۲۷۰].

إنّ التّفسير الذى تضمّنه هذا الحديث، هو فى الواقع إشارة إلى أساس الإخلاص، أى: الفطرة التوحيديّة التى تكون مصدرا لقصد القربة إلى اللّه، و تحريكا ذاتيا من اللّه.

ثمّ ترسم الآية- موضع البحث- صورة حيّة ناطقة عن حال المشركين و سقوطهم و سوء طالعهم، حيث تقول: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ ۲۷۱].

«السّماء» هنا كناية عن التوحيد، و «الشرك» هو السبب فى السقوط من السّماء هذه.

و من الطبيعى أن تكون فى هذه السّماء نجوما زاهرة و شمسا ساطعة و قمرا منيرا فطوبى لمن يكون شمسا أو قمرا أو فى الأقل نجما متلألئا، و لكن الإنسان عند ما يسقط من هذا المكان العالى يبتلى بأحد أمرين: فإنّما يصبح طعاما للطيور الجوارح أثناء سقوطه و قبل وصوله إلى الأرض، و بعبارة أخرى: يبتلى بفقدانه هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۴۲

المكان السامى بأهوائه النفسيّة المعاندة. حيث تأكل هذه الأهواء جانبا من وجوده.

و إذا نجا بسلام منها، ابتلى بعاصفة هو جاء تدلّه فى إحدى زوايا الأرض بقوّة تفقده سلامته و حياته، و يتناثر بدنه قطعا صغيرة فى أنحاء المعمورة، و هذه العاصفة الهوجاء قد تكون كناية عن الشيطان الذى نصب شراكه للإنسان! و ممّا لا شكّ فيه أنّ الذى يسقط من السّماء يفقد كلّ قدرة على اتّخاذ قرار ما.

و تزداد سرعة سقوطه لحظة بعد أخرى نحو العدم، و يصبح نسيا منسيا.

حقّا أنّ الذی يفقد قاعدة السّماء التوحيديّة. يفقد القدرة على تقرير مصيره بنفسه. و كلّما سار فی هذا الاتّجاه إزداد سرعة نحو الهاوية، و فقد كلّ ما لديه.

و لا نجد تشبيها للشرك يضاهی فی هذا التشبيه الرائع.

كما تجب ملاحظة ما تأكّد فی هذا الزمان من حالة انعدام الوزن فی السقوط الحرّ. و لهذا تجری اختبارات على الفضائيين للاستفادة من هذه الحالة ليعدّوا أنفسهم للسفر إلى الفضاء. لأنّ مسألة انعدام الوزن هی التی تؤدّی بالإنسان إلى اضطرابه بشكل خارق أثناء السقوط الحرّ.

و الذی ينتقل من الإيمان إلى الشرك و يفقد قاعدته المطمئنة و أرضه الثابتة تبتلی روحه بمثل حالة انعدام الوزن، و يسيطر عليه اضطراب خارق للعادة.

و أوجزت الآية التالية مسائل الحجّ و تعظيم شعائر اللّه ثانية فتقول ذلِكَ أیّ إنّ الموضوع كما قلناه، و تضيف وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ

«الشعائر» جمع «شعيرة» بمعنى العلامة و الدليل، و على هذا فالشعائر تعنی علامات اللّه و أدلّته، و هی تضمّ عناوين لأحكامه و تعاليمه العامّة، و أوّل ما يلفت النظر فی هذه المراسم مناسك الحجّ التی تذكّرنا باللّه سبحانه و تعالى.

و من البديهی كون مناسك الحجّ من الشعائر التی قصدتها هذه الآية. خاصّة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۳

مسألة الأضحية التی اعتبرتها الآية (۳۶) من نفس السورة- و بصراحة- من شعائر اللّه، إلّا أنّ من الواضح مع كلّ هذا احتفاظ الآية بمفهوم شمولی لجميع الشعائر الإسلامية، و لا دليل على اختصاصها- فقط- بالأضاحی، أو جميع مناسك الحجّ.

خاصّة أنّ القرآن يستعمل «من» التی يستفاد منها التفريق فی مسألة أضحية الحجّ، و هذا دليل على أنّ الأضحية من شعائر اللّه كالصفا و المروة التی تؤكّد الآية (۱۵۸) من سورة البقرة على أنّهما من شعائر اللّه إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ

و يمكن القول: إنّ شعائر اللّه تشمل جميع الأعمال الدينيّة التّی تذكّر الإنسان باللّه سبحانه و تعالى و عظمته، و إنّ إقامة هذه الأعمال دليل على تقوى القلوب.

كما تجب ملاحظة أنّ المراد من عبارة يُعَظِّمْ ليس كما قاله بعض المفسّرين من عظمة جثّة الأضحية و أمثالها، بل حقيقة التعظيم تعنی تسامی مكانة هذه الشعائر فی عقول الناس و بواطنهم، و أن يؤدّوا ما تستحقّه هذه الشعائر من تعظيم و احترام.

كما أنّ العلاقة بين هذا العمل و تقوى القلب واضحة أيضا، فالتعظيم رغم أنّه من عناوين القصد و النيّة، يحدث كثيرا أن يقوم المنافقون بالتظاهر فی تعظيم شعائر اللّه. إلّا أنّ ذلك لا قيمة له، لأنّه لا ينبع من تقوى القلوب. إنّما تجده حقيقة لدى أتقياء القلوب. و نعلم أنّ مركز التقوى و جوهر اجتناب المعاصی و الشعور بالمسؤولية إزاء التعاليم الإلهيّة فی قلب الإنسان و روحه، و منه ينفذ إلى الجسد.

لهذا نقول: إنّ تعظيم الشعائر الإلهيّة من علامات التقوى القلبيّة[۲۷۲].

و

قد جاء فی حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال و هو يشير إلى صدره

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۴

المبارك: «التقوى هاهنا»[۲۷۳].

و يستدلّ من بعض الأحاديث أنّ مجموعة من المسلمين كانوا يعتقدون بعدم جواز الركوب على الأضحية (الناقة أو ما شابهها) حين

جلبها من موطنهم إلى منى للذبح، كما يرون عدم جواز حلبها أو الاستفادة منها بأى شكل كان، و لكن القرآن نفى هذه العقيدة الخرافية حيث قال: لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى

و

جاء فى حديث نبوى أنّ الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ برجل يسوق بدنة و هو فى جهد، فقال عليه السّلام: «اركبها» فقال: يا رسول اللّه إنّها هدى. فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم «اركبها ويلك»[۲۷۴].

كما أكّدت أحاديث عديدة وردتنا عن أهل البيت عليهم السّلام هذا الموضوع و منها

حديث رواه أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السّلام فى قوله عزّ و جلّ: لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قال: «إن احتاج إلى ظهرها ركبها من غير عنف عليها، و إن كان لها لبن حلبها حلابا لا ينهكها»[۲۷۵].

و الحقيقة أنّ الحكم أعلاه معتدل و حدّ وسط بين عملين يتّصفان بالإفراط و بعيدين عن المنطق.

فمن جهة كان البعض لا يحتفظ بالأضاحى أبدا حيث يذبحها قبل الوصول إلى «منى» و يستفيد من لحومها. و قد نهى القرآن عن ذلك كما جاء فى الآية الثّانية من سورة البقرة لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْىَ وَ لَا الْقَلائِدَ.

و من جهة أخرى كان آخرون يفرطون إلى درجة عدم الاستفادة من الانعام بمجرّد تخصيصها للأضحية، فلا يحلبونها و لا يركبون عليها إن كانت ممّا يركب و إن بعدت المسافة بين موطنهم و مكّة، و قد أجازت الآية موضع البحث ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۵

و النقد الوحيد الذى يمكن أن يوجّه إلى التّفسير السالف الذكر، هو أنّ الآيات السابقة، لم تتطرّق إلى الأضاحى، فكيف يعود ضمير الآية اللاحقة إليها؟

و لكن مع ملاحظة كون حيوان الأضاحى من مصاديق «شعائر اللّه» التى أشير إليها فى الآية السابقة، و سيأتى ذكرها أيضا بعد هذا، يتّضح بذلك الجواب عن هذا الاستفسار[۲۷۶].

و على كلّ حال تذكر الآية فى ختامها نهاية مسار الأضحية: ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ

و على هذا يمكن الاستفادة من الانعام المخصّصة للأضحية ما دامت فى الطريق إلى موضع الذبح، و بعد الوصول يجرى ما يلزم و بالطبع فإنّ المفسّرين يقولون بأنّ الذبح يجب أن يتمّ فى منى إن كانت الأضحية تخصّ الحجّ. أمّا إذا كانت لعمرة مفردة ففى أرض مكّة. و بما أنّ الآيات المذكورة تبحث فى مراسم الحجّ، فيجب أن يكون للبيت العتيق (الكعبة) مفهوم واسع ليشمل بذلك أطراف مكّة (أى منى) أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۶

الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۴ الى ۳۵]

اشارة

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (۳۴) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِى الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳۵)

التّفسير

بشّر المخبتين:

يمكن أن يتساءل الناس عن الآيات السابقة. و منها التعليمات الواردة بخصوص الاضحية، كيف شرّع الإسلام تقديم القرابين لكسب رضى اللّه؟ و هل اللّه سبحانه بحاجة إلى قربان؟ و هل كان ذلك متّبعا فى الأديان الاخرى، أو يخصّ المشركين وحدهم؟

تقول أوّل آية- من الآيات موضع البحث- لإيضاح هذا الموضوع أنّ هذا الأمر لا يختصّ بكم، بل إنّ كلّ أمّة لها قرابين: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۷

يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته: «النسك» يعنى العبادة، و الناسك هو العابد، و مناسك الحجّ تعنى المواقف التى تؤدّى فيها هذه العبادة، أو إنّها عبارة عن الأعمال نفسها.

إلّا أنّ العلّامة الطبرسى يقول فى «مجمع البيان» و أبو الفتوح الرازى فى «روح الجنان»: «المنسك» (على وزن منصب) يمكن أن يعنى- على وجه التخصيص- الأضحية، بين عبادات الحجّ الاخرى [۲۷۷].

و لهذا خصّ المنسك- رغم مفهومه العام و شموله أنواع العبادات فى مراسم الحجّ- هنا بتقديم الأضحية بدلالة لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ

و على كلّ حال فإنّ مسألة الأضحية كانت دوما مثار سؤال، لامتزاج التعبّد بها بخرافات المشركين الذين يتقرّبون بها إلى أوثانهم على نهج خاصّ بهم.

ذبح حيوان باسم اللّه و لكسب رضاه يبيّن استعداد الإنسان للتضحية بنفسه فى سبيل اللّه، و الاستفادة من لحم الأضحية و توزيعه على الفقراء أمر منطقى.

و لذا يذكر القرآن فى نهاية هذه الآية فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ و بما أنّه إله واحد فَلَهُ أَسْلِمُوا و بشّر الذين يتواضعون لأحكامه الربّانية و بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ [۲۷۸].

ثمّ يوضّح القرآن المجيد فى الآية التالية صفات المخبتين (المتواضعين) و هى أربع: اثنتان منها ذات طابع معنوى، و اثنتان ذات طابع جسمانى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۳۴۷

ول فى الأوّل: الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ لا يخافون فى غضبه دون سبب و لا يشكّون فى رحمته، بل إنّ خوفهم ناتج عن عظمة المسؤوليات التى بذمّتهم، و احتمال تقصيرهم فى أدائها، و ليقينهم بجلال اللّه سبحانه يقفون بين يديه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۸

بكلّ خشوع [۲۷۹].

و الثّانى: وَ الصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ فهؤلاء يصبرون على ما يكابدونه فى حياتهم من مصائب و آلام، و لا يرضخون للمصائب مهما عظمت و إزداد بلاؤها، و يحافظون على اتّزانهم و لا يفرّون من ساحة الامتحان، و لا يصابون باليأس و الخيبة، و لا يكفرون بأنعم اللّه أبدا. و بإيجاز نقول: يستقيمون و ينتصرون.

و الثّالث و الرابع: وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فمن جهة توطّدت علاقتهم ببارئ الخلق و ازدادوا تقربا إليه، و من جهة أخرى اشتدّ ارتباطهم بالخلق بالإنفاق.

و بهذا يتّضح جليّا أنّ الإخبات و التسليم و التواضع التى هى من صفات المؤمنين ليست ذات طابع باطنى فقط، بل تظهر و تبرز فى جميع أعمال المؤمنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۹

الآيات [سورة الحج (٢٢): الآيات ٣۶ الى ٣٨]

اشارة

وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣۶) لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

التّفسير

لماذا الأضحية؟

عاد الحديث عن مراسم الحجّ و شعائره الإلهيّة و الأضحية ثانية، ليقول أوّلا:

وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ إنّ «البدن» و هى الإبل البدينة تعلّقت بكم من جهة، و من جهة أخرى هى من شعائر اللّه و علائمه فى هذه العبادة العظيمة.

فالاضحية فى الحجّ من المظاهر الجليّة لهذه العبادة التى أشرنا إلى فلسفتها من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۵۰

قبل.

«البدن» على وزن «القدس» جمع ل «البدنة» على وزن «عجلة» و هى الناقة الكبيرة و السمينة. و قد أكّدها لأنّها تناسب إقامة وليمة لإطعام الفقراء و المحتاجين فى مراسم الأضحية، و من المعلوم أنّ سمن الحيوان ليس من الشروط الإلزامية فى الأضحية. و كلّ ما يلزم هو أن لا يكون ضعيفا.

ثمّ تضيف الآية: لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فمن جهة تستفيدون من لحومها و تطعمون الآخرين، و من جهة أخرى تستفيدون من آثارها المعنوية بإيثاركم و سماحكم و عبادتكم اللّه، و بهذا تتقرّبون إليه سبحانه و تعالى.

ثمّ تبيّن الآية- بعبارة موجزة- كيفية ذبح الحيوان فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ أى اذكروا اسم اللّه حين ذبح الحيوان و فى حالة وقوفه مع نظائره فى صفوف.

و ليس لذكر اللّه حين ذبح الحيوان أو نحر الناقة صيغة خاصّة. بل يكفى ذكر اسم من أسماء اللّه عليها، كما يبدو و من ظاهر الآية، إلّا أنّ بعض الرّوايات ذكرت صيغة محدّدة، و هى فى الواقع من أعمال الإنسان الكامل، حيث روى عن ابن عبّاس أنّه قال: اللّه أكبر، لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر، اللهم منك و لك ۲۸۰].

إلّا أنّه ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام عبارات أكثر وضوحا فبعد شراء الأضحية توجّهها إلى القبلة و تقول حين الذبح: «وجّهت وجهى للذى فطر السموات و الأرض حنيفا مسلما و ما أنا من المشركين، إنّ صلاتى و نسكى و محياى و مماتى للّه ربّ العالمين لا شريك له و بذلك أمرت و أنا من المسلمين، اللهمّ منك و لك بسم اللّه و باللّه و اللّه أكبر، اللهمّ تقبّل منّى»[۲۸۱].

كلمة «صوافّ» جمع «صافّة» بمعنى الحيوان الواقف فى صفّ. و كما ورد فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۵۱

الأحاديث فإنّ القصد من ذلك عقل رجلى الناقة الأماميتين معا حين وقوفها من أجل منعها من الحركة الواسعة حين النحر. و طبيعى

أنّ أرجل الناقـة تضـعف حين تنزف مقـدارا من الدم، فتتمدّد على الأرض، و يقول القرآن المجيد هنا فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ أى عنـد ما تسـتقر و يهـدأ جانبها (كنايـة عن لفظ الأنفاس الأخيرة). فكلوا منها و أطعموا الفقير القانع و السائل المعتر.

الفرق بين «القـانع» و «المعتر» هو أنّ القانع يطلق على من يقنع بما يعطى و تبـدو عليه علائم الرضـى و الارتياح و لا يعترض أو يغضب، أمّا المعترّ فهو الفقير السائل الذى يطالبك بالمعونة و لا يقنع بما تعطيه، بل يحتجّ أيضا.

كلمة «القانع» فمشـتقّة من «القناعة»، و «المعترّ» مشتقّة من «عرّ» على وزن (شرّ) و هى فى الأصل تعنى الجرب، و هو مرض عارض تظهر علاماته على جلـد الإنسان. ثمّ أطلقت كلمـة «المعترّ» على السائل الـذى يطلب العون و لكن بلسان معترض. و تقديم القانع على المعترّ إشارة إلى ضرورة الاهتمام أكثر بالمحرومين المتّصفين بالعفّة و عزّة النفس.

و ينبغى الالتفـات إلى أنّ عبـارة فَكُلُوا مِنْهـا توجب أن يأكـل الحجّاج من أضاحيهم، و لعلّها ترمى إلى مراعاة المساواة بين الحجّاج و الفقراء.

و تنتهى الآية بالقول: كَذلِكَ سَـخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ و إنّه لمن العجب أن يستسـلم حيوان عظيم الجثّة هائل القوّة لطفل يعقل يديه معا ثمّ ينحره.

(و طريقة النحر تتمّ بطعنة سكّين حادّة فى لبّة الناقة، لتنزف دمها، و ليلفظ هذا الحيوان أنفاسه بسرعة).

و لإيضاح أهميّـة تسلّط الإنسان على الحيوان فى الذبـح، فإنّ اللّه جلّ و علا يسلب أحيانا طاعـة هـذا الحيوان و انقياده للإنسان، حيث نشاهد هياج البعير و تبدلّه إلى موجود خطر لا يستطيع كبح جماحة عدّة رجال أقوياء بعد ما كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۲

مسخّر حتّى لصبى صغير!! و هناك ثمّة أسئلة، و هى: ما هى حاجة اللّه تعالى للأضحية؟

و ما هى فلسفة الاضحية؟

و هل لهذا العمل فائدة تعود إلى اللّه سبحانه؟

تجيب الآيـة التاليـة عن هـذه الأسـئلة لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها. إنّ اللّه ليس بحاجة إلى لحوم الأضاحى، فما هو بجسم، و لا هو بحاجة إلى شـىء، و إنّما هو موجد كلّ وجود و موجود. إنّ الغاية من الاضـحية كما تقول الآية: وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ فالهدف هو أن يجتاز المسلمون مراحل التقوى ليبلغوا الكمال و يتقرّبوا إلى اللّه.

إنّ جميع العبادات دروس فى التربية الإسـلامية، فتقديم الاضحية- مثلا- فيه درس الإيثار و التضحية و السماح و الاستعداد للشهادة فى سبيـل اللّه، و فيه درس مساعـدة الفقراء و المحتاجين. و عبارة لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها مع أنّ دماءها غير قابلـة للاسـتفادة، ربّما تشير إلى الأعمال القبيحة التى كان يمارسها أعراب الجاهلية، الذين كانوا يلطّخون أصنامهم و أحيانا على الكعبة بدماء هذه القرابين.

و قـد أتّبعهم فى ممارسـة هـذا العمل الخرافى مسـلمون جاهلون، حتّى نهتهم هـذه الآيـة المباركـة[۲۸۲] و ممّـا يؤسـف له وجود هـذه العادات الجاهليـة فى بعض المناطق حيث يرشّون دماء الأضـحية على باب و جـدران منزلهم الجديـد، حتّى أنّهم يمارسون هـذا العمل القبيح الخرافى فى المساجد الجديدة العمران أيضا.

و لذا يجب على المسلمين الواعين الوقوف بقوّة ضدّ هذا العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۳

ثمّ تشير الآية ثانية إلى نعمة تسخير الحيوان قائلة: كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ

إنّ الهـدف الأـخير هو التعرّف على عظمـة الخـالق جـلّ و علا الـذى هـداكم بمنهجه التشـريعى و التكوينى إلى تعلّم مناسك الحـجّ و التعاليم الخاصّة بطاعته و التعبّد له، هذا من جهة.

و من جهـة أخرى جعل هـذه الحيوانات الضـخمة القويّـة طيّعـة لكم تقـدّمونها أضاحى اسـتجابة للّه تعالى، و تعملون عملا طيّبا يساعد المحتاجين، و تسـتفيدون من لحومها فى تأمين حياتكم. لهـذا تقول الآية فى الختام: وَ بَشِّرِ الْمُحْسِـنِينَ أولئك الذين اسـتفادوا من هذه النعم الإلهيّـة فى طاعـة اللّه، و أنجزوا واجبـاتهم على خير وجه، و لم يقصّـروا فى الإنفـاق فى سبيـل اللّه أبـدا. و فـاعلو الخير هؤلاـء لم يحسنوا للآخرين فقط، بل شمل إحسانهم أنفسهم على أفضل وجه أيضا.

و قـد تؤدّى مقاومـة خرافـات المشـركين التى أشارت إليها الآيات السابقـة إلى إثارة غضب المتعصّبين المعانـدين، و وقوع اشـتباكات محدودة أو واسعة، لهذا طمأن اللّه سبحانه و تعالى المؤمنين بنصره إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا.

لتتّحد قبائل عرب الجاهلية مع اليهود و النصارى و المشركين فى شبه الجزيرة العربية للضغط على المؤمنين كما يحلو لهم، فلن يتمكّنوا من بلوغ مـا يطمحون إليه، لأـنّ اللّه وعـد المؤمنين بالـدفاع عنهم وعـدا تجلّى صـدقه فى دوام الإسـلام حتّى يوم القيامـة، و لاـ يختّص الـدفاع الإلـهى عن المؤمنين فى الصـدر الأـوّل للإسـلام و حسب، بل هو سارى المفعول أبـد الـدهر، فإن كنّا على نهـج الـذين آمنوا. فالدفاع الإلهى عنّا أكيد. و من ذا الذى لا يلتمس دفاع اللّه سبحانه عن عباده الصالحين؟

و فى الختام توضّح هذه الآية موقف المشركين و أتباعهم بين يدى اللّه بهذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۴

العبارة الصـريحة إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أولئك الذين أشـركوا باللّه حتّى أنّهم ذكروا أسماء أوثانهم عن التلبية. فثبتت عليهم الخيانـة و الكفر لأـنعم اللّه حيث يسـمّون أوثـانهم عنـد تقـديم الأضاحى، و لا يـذكرون اسم اللّه عليها، فكيف يحبّ اللّه قوما كهؤلاء الخونة الكفرة؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۵

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۹ الى ۴۱]

اشارة

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ (۳۹) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيـارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّـ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۴۰) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (۴۱)

التّفسير

أوّل حكم بالجهاد:

ذكرت روايـات أنّ المسـلمين عنـد مـا كـانوا فى مكّـة، كانوا يتعرّضون كثيرا لأذى المشـركين، فجاء المسـلمون إلى رسول اللّه ما بين مشجوج و مضروب يشكون إليه ما يعانون من قهر و أذى، فكان صلوات اللّه عليه و آله يقول لهم:

«اصبروا فانّى لم أؤمر بالقتال» حتّى هاجر، فأنزل اللّه عليه هذه الآية بالمدينة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۶

و هى أوّل آية نزلت فى القتال [۲۸۳].

هنـاك اختلاـف بين المفسّـرين فى كونهـا أوّل آيـة نزلت بالجهـاد، فهنـاك من يؤيّـد ذلك، و هنـاك من يرى أنّ أوّل آيـة نزلت فى

الجهاد هى آيـة قاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ ..[۲۸۴] و عدّ البعض آية إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ ...[۲۸۵] هى الأولى ۲۸۶].

إلّا أنّ أسلوب الآيـة يناسب هـذا الموضوع بشـكل أفضل لأنّ تعبير «أذن» جاء بصـراحة واضـحة فيها، و لم يرد فى الآيتين الأخريين، و بتعبير آخر: إنّ الإذن بالجهاد منحصر فى هذه الآية.

و لمّا وعـد اللّه المؤمنين بالـدفاع عنهم فى الآيـة السابقـة يتّضـح جيـدا الارتباط بين هـذه الآيات .. تقول الآيـة: إنّ اللّه تعالى أذن لمن يتعرّض لقتـال الأعـداء و عـدوانهم بالجهـاد، و ذلـك بسـبب أنّهم ظلموا: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ثمّ أردفت بنصـرة اللّه القادر للمؤمنين وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.

إنّ وعـد اللّه بالنصـر جاء مقرونا ب «قـدرة اللّه». و هـذا قـد يكون إشارة إلى القـدرة الإلهيّـة التى تنجد الناس حينما ينهضون بأنفسـهم للدفاع عن الإسـلام، لا أن يجلسوا فى بيوتهم بأمل مساعدة اللّه تعالى لهم، أو بتعبير آخر: عليكم بالجدّ و العمل بكلّ ما تسـتطيعون من قدرة، و عند ما تستحقّون النصـر بإخلاصكم ينجدكم اللّه و ينصركم على أعدائه، و هذا ما حدث للرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى جميع حروبه التى كانت تتكلّل بالنصر.

ثمّ توضّح هذه الآيات للمظلومين- الذين أذن لهم بالدفاع عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۷

أنفسهم- بواعث هذا الدفاع، و منطق الإسلام فى هذا القسم من الجهاد فتقول:

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ و ذنبهم الوحيد أنّهم موحّدون: إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ

و من البـديهى أنّ توحيـد اللّه موضع فخر للمرء و ليس ذنبـا يبيـح للمشـركين إخراج المسـلمين من بيوتهم و إجبارهم على الهجرة من مكّة إلى المدينة، و تعبير الآية جاء لطيفا- يجلّى إدانة الخصم، فنحن على سبيل المثال نقول لناكر الجميل:

لقد أذنبنا عند ما خدمناك، و هذه كناية عن جهل المخاطب الذى يجازى الخير شرّا[۲۸۷].

ثمّ تسـتعرض الآية واحدا من جوانب فلسـفة تشريع الجهاد فتقول: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً أى إنّ اللّه إن لم يـدافع عن المؤمنين، و يـدفع بعض النـاس ببعضـهم عن طريق الإـذن بالجهـاد، لهدّمت أديرة و صوامع و معابد اليهود و النصارى و المساجد التى يذكر فيها اسم اللّه كثيرا.

و لو تكاسـل المؤمنون و غضّوا الطرف عن فسـاد الطواغيت و المسـتكبرين و منحوهم الطاعـة، لمـا أبقى هؤلاـء أثرا لمراكز عبادة اللّه، لأنّهم سـيجدون الساحـة خالية من العوائق، فيعملون على تخريب المعابد، لأنّها تبثّ الوعى فى الناس، و تعبّئ طاقتهم فى مجابهة الظلم و الكفر. و كـلّ دعوة لعبـادة اللّه و توحيـده مضادّة للجبابرة الـذين يريـدون أن يعبـدهم الناس تشـبّها منهم باللّه تعالى، لهـذا يهـدّمون أماكن توحيد اللّه و عبادته، و هذا من أهداف تشريع الجهاد و الإذن بمقاتلة الأعداء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۸

و قد أورد المفسّرون معانى متفاوتة ل «الصوامع» و «البيع» و «الصلوات» و «المساجد» و الفرق بينها، و ما يبدو صحيحا منها هو أنّ:

«الصوامع» جمع «صومعة» و هى عادة مكان خارج المدينة بعيد عن أعين الناس مخصّص لمن ترك الدنيا من الزّهاد و العبّاد. (و يجب ملاحظة أنّ «الصومعة» فى الأصل تعنى البناء المربّع المسقوف، و يبدو أنّها تطلق على المآذن المربّعة القواعد المخصّصة للرهبان.

و «البيع» جمع بيعة بمعنى معبد النصارى، و يطلق عليها كنيسة أيضا.

و «الصلوات» جمع صلاة، بمعنى معبد اليهود، و يرى البعض أنّها معرّبة لكلمة «صلوتا» العبرية، التى تعنى المكان المخصّص بالصلاة.

و أمّا «المساجد» فجمع مسجد، و هو موضع عبادة المسلمين.

و الصوامع و الـبيع رغم أنّهـا تخصّ النصـارى، إلّـا أنّ إحـداهما معبـد عـامّ و الاـخرى لمن ترك الـدنيا، و يرى البعض أنّ «الـبيع» لفظ

مشترک یطلق علی معابد الیهود و المسیحیین.

و عبارة یُذْکَرُ فِیهَا اسْمُ اللَّهِ کَثِیراً وصف خاص بمساجد المسلمین حسب الظاهر، لأنّها أکثر ازدحاما من جمیع مراکز العبادة الاخری فی العالم، حیث تجری فیها الصلوات الخمس فی أیّام السنة کلّها، فی وقت نجد فیه المعابد الاخری لا تفتح أبوابها للمصلّین إلّا فی یوم واحد من الأسبوع، أو أیّام معدودات فی السنة.

و فی الختام أکّدت هذه الآیة ثانیة وعد اللّه بالنصر وَ لَیَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ یَنْصُرُهُ و لا شکّ فی إنجاز هذا الوعد، لأنّه من ربّ العزّة القائل: إِنَّ اللَّهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ. من أجل ألّا یتصوّر المدافعون عن خطّ التوحید أنّهم و حیدون فی ساحة قتال الحقّ للباطل، و مواجهة جموع کثیرة من الأعداء الأقویاء.

و بنور من هذا الوعد الإلهی انتصر المدافعون عن سبیل اللّه علی أعدائهم فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۵۹

معارک ضاریة خاضوها بضالة عدد وعدّة، ذلک النصر الذی لا یمکن أن یقع إلّا بإمداد إلهی.

و آخر آیة تفسّر المراد من أنصار اللّه الذین وعدهم بنصره فی الآیة السابقة، و تقول: الَّذِینَ إِنْ مَکَّنَّاهُمْ فِی الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّکاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْکَرِ.

إنّهم فئة لا تلهو و لا تلعب کالجبابرة بعد انتصارها، و لا یأخذها الکبر و الغرور، إنّما تری النصر سلّما لارتقاء الفرد و الجماعة. إنّها لن تتحوّل إلی طاغوت جدید بعد وصولها إلی السلطة، لارتباطها القویّ باللّه، و الصلاة رمز هذا الارتباط بالخالق، و الزکاة رمز للالتحام مع الخلق، و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر دعامتان قویتان لبناء مجتمع سلیم. و هذه الصفات الأربع تکفی لتعریف هؤلاء الأفراد، ففی ظلّها تتمّ ممارسة سائر العبادات و الأعمال الصالحة، و ترسم بذلک خصائص المجتمع المؤمن المتطور[۲۸۸].

کلمة «مکّنا» مشتقة من «التمکین» الذی یعنی إعداد الأجهزة و المعدّات الخاصّة بالعمل، من عدد و آلات ضروریة و علم و وعی کاف و قدرة جسمیة و ذهنیة.

و تطلق کلمة «المعروف» علی الأعمال الجیدة و الحقّة، و «المنکر» یعنی العمل القبیح، لأنّ الکلمة الأولی تطلق علی الأعمال المعروفة بالفطرة، و الکلمة الثّانیة علی الأعمال المجهولة و المنکرة. أو بتعبیر آخر: الأولی تعنی الانسجام مع الفطرة الإنسانیة، و الثّانیة تعنی عدم الانسجام.

و تقول الآیة فی ختامها وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ و تعنی أنّ بدایة أی قدرة و نصر من اللّه تعالی، و تعود کلّها فی الأخیر إلیه ثانیة إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَیْهِ راجِعُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۶۰

بحوث

۱- فلسفة تشریع الجهاد

رغم أنّنا بحثنا مسألة الجهاد بحثا واسعا[۲۸۹] قبل هذا، إلّا أنّه مع ملاحظة احتمال أن تکون الآیات- موضع البحث- أولی الآیات التی أجازت للمسلمین الجهاد، و احتوت إشارة إلی فلسفة هذا الحکم، وجدنا ضرورة تناولها بإیجاز.

و قد أشارت هذه الآیات إلی أمرین مهمّین فی فلسفة الجهاد:

أوّلهما: جهاد المظلوم للظالم، و هو من حقوقه المؤکّدة و الطبیعیّة، التی یؤکّدها عقل الإنسان و فطرته. و لیس له أن یستسلم للظلم، بل

عليه أن ينهض و يصرخ و يتسلّح ليقطع دابر الظالم و يدفعه.

و ثانيهما: جهاد الطواغيت الذين ينوون محو ذكر اللّه من القلوب بتهديم المعابد التى هى مراكز لبثّ الوعى و إيقاظ الناس، فيجب مناهضة هؤلاء لمنعهم من محو ذكر اللّه بتخديرهم، ثمّ جعلهم عبيدا لها.

و ممّا يلفت النظر أنّ تخريب المعابد و المساجد لا يعنى تخريبها مادّيا فقط، بل قد يكون بأساليب غير مباشرة كثيرة، كإشاعة برامج التسلية و الترفيه المقصودة، و بثّ الدعايات المسمومة، و الإعلام المضادّ لحرف الناس عن المساجد، فتحوّل أماكن العبادة إلى خرائب مهجورة.

و فى هذا جواب لمن يسأل: لماذا أجيز للمسلمين استخدام القوّة و خوض الحرب لتحقيق أهدافهم؟ و لماذا لا يتمّ تحقيق الأهداف الإسلامية باللجوء إلى التعقّل و المنطق؟

و هل يفيد المنطق ذلك الظالم الذى يهجّر المسلمين من ديارهم لا لذنب اقترفوه سوى اعتقادهم بتوحيد اللّه. فتراه يستولى على منازلهم و أموالهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۱

و لا يلتزم بأى قانون و منطق تجاههم؟! فهل يمكن ردع هؤلاء المجانين بغير لغة السلاح و القوّة؟! و هذا ينطبق على من يقول لنا: لماذا لا تساومون الكيان الصهيونى و تفاوضونه؟

الكيان الصهيونى الذى انتهك جميع القوانين الدولية و قرارات المنظمات الدولية التى أقرّتها شعوب العالم، و سحق و يسحق جميع القوانين البشرية و التعاليم السماوية، هل يعترف بالمنطق؟! الكيان الصهيونى الذى قصف المدارس و المستشفيات بالقنابل المحرقة، فقتل آلاف الأطفال و النساء و الشيوخ الآمنين الأبرياء و جعلهم إربا إربا! كيف يخاطب بالمنطق؟

و هكذا الأمر بالنسبة للذين يرون فى المعبد و المسجد الذى يبثّ الوعى بين الناس و يقود حركة الجماهير، منافسا لمصالحه غير المشروعة؟! و يعملون بما لديهم من قوّة لهدمه! فهل يمكن التفاوض سلميّا معهم؟! و إذا نظرنا إلى المجتمع الإنسانى نظرة واقعية و وضعنا القضايا الفكرية جانبا، فلا نجد مفرّا من اللجوء إلى القوّة و السلاح؟! و ليس هذا عجزا فى منطقنا، بل لعدم استعداد الجبابرة لقبول المنطق السليم، و متى وجدنا المنطق فاعلا لجأنا إليه.

۲- من هم الذين وعدهم اللّه بالنصر؟

إنّه لمن الخطأ الإعتقاد بأنّ نصر اللّه المؤمنين و وعدهم بالدفاع عنهم- الذى جاء فى الآيات السابقة و من آيات قرآنية أخرى- بعيد عن سنّة اللّه فى خلقه و قوانين الحياة! ليس الأمر هكذا، فاللّه يعدّ بنصرة الذين يعبئون جميع طاقاتهم ليدخلوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۲

ميدان القتال بكلّ قوّة، و لهذا نطالع فى الآيات السالفة: لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ فلا يدفع اللّه الظالمين بإمداداته الغيبيّة و بقدرة الصواعق و الزلازل التى يبعثها إلّا فى حالات استثنائية، إنّما يدفع شرّهم عن المؤمنين بمن يدافع عنهم، أى المؤمنين الحقيقيين.

و عليه فلا يعنى الوعد الإلهى بالنصر رفع المسؤولية و التكاسل و التواكل بالاعتماد على ما وعد اللّه للمؤمنين، بل يجب التحرّك الواسع لضمان النصر الإلهى و تهيئة مستلزماته.

و الجدير بالذكر أنّ هذه المجموعة من المؤمنين لا يتوجّهون إلى اللّه قبل النصر فقط، بل بعد النصر أيضا، فهم الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ ... يوطّدون علاقتهم مع اللّه. و النصر لديهم وسيلة لنشر الحقّ و العدل و مكارم الأخلاق.

و خصّصت بعض الرّوايات الآية السابقة بالمهدى (عجّل اللّه فرجه) و أصحابه أو بآل محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشكل عامّ،

فقد جاء فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام حین تفسیر الآیة الَّذِینَ إِنْ مَکَّنَّاهُمْ فِی الْأَرْضِ ... قال: إنّ هذه الآیة الَّذِینَ إِنْ ... نزلت فی آل محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المهدی (عج) و أصحابه «یملّکهم اللّه مشارق الأرض و مغاربها، و یظهر الدین و یمیت اللّه به و بأصحابه البدع و الباطل، کما أمات الشقاة الحقّ، حتّی لا یری أین الظلم، و یأمرون بالمعروف و ینهون عن المنکر»[۲۹۰].

و قد وردت أحادیث أخری فی هذا المجال، و هی عبارة عن مصادیق بارزة للآیة و لا تمنع عموم الآیة، لا یمکنها منع، فمفهوم الآیة الواسع یشمل جمیع المؤمنین و المجاهدین فی سبیل اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۳

۳- «المحسنین»، «المخبتین»، «أنصار اللّه».

و تأمر الآیات المذکورة أعلاه و التی قبلها أحیانا بتبشیر «المحسنین»، ثمّ تعرفّهم أنّهم من المؤمنین، و لیسوا من الخونة الکفّار ..

و أحیانا أخری تتکلّم حول «المخبتین» (المتواضعین) و تصفهم بأنّهم خشّع فی الصلاة، صابرون علی المصائب منفقون ممّا و هبهم اللّه.

و تعدّد هذه الآیات کذلک میزات «أنصار اللّه» الذین لا یطغون عند انتصارهم، بل یقیمون الصلاة و یؤتون الزکاة و یأمرون بالمعروف و ینهون عن المنکر.

و خلاصة هذه الآیات تکشف لنا أنّ المؤمنین الصادقین لهم جمیع هذه الخصائص، فهم من جهة أقویاء فی عقیدتهم و التزامهم المسؤولیة، و من جهة ثانیة برهنوا علی أنّهم أقویاء و مستقیمون فی علاقتهم مع الخالق و الخلق و فی مکافحة الفساد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۴

الآیات [سورة الحج (۲۲): الآیات ۴۲ الی ۴۵]

اشارة

وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ (۴۲) وَ قَوْمُ إِبْراهِیمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (۴۳) وَ أَصْحابُ مَدْیَنَ وَ کُذِّبَ مُوسی فَأَمْلَیْتُ لِلْکافِرِینَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کانَ نَکِیرِ (۴۴) فَکَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَةٍ أَهْلَکْناها وَ هِیَ ظالِمَةٌ فَهِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِیدٍ (۴۵)

التّفسیر

بئر معطّلة و قصر مشید!

لقد صدر أمر الجهاد للمسلمین بعد أن ذاقوا- کما ذکرت الآیات السابقة- مرارة المحنة التی فرضها علیهم أعداء الإسلام الذین آذوهم و طردوهم من منازلهم لا لذنب ارتکبوه، بل لتوحیدهم اللّه سبحانه و تعالی.

و قد طمأنت الآیات- موضع البحث- الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین و خفّفت عنهم من جهة، و بیّنت لهم أنّ العاقبة السیّئة تنتظر الکفرة من جهة أخری، فقالت: وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ.

أی إذا کذّبک هؤلاء القوم فلا تبتئس و لا تحزن، فالأقوام السابقة قد کذّبت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۵

رسلها أیضا، و أضافت: وَ قَوْمُ إِبْراهِیمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ.

و کذلک کذّب أهالی مدینة «مدین» نبیّهم «شعیب»، و کذّب فرعون و قومه نبیّهم «موسی» وَ أَصْحابُ مَدْیَنَ وَ کُذِّبَ مُوسی

و إنّ هذه المعارضة و التکذیب لن تؤثّر فی روحک الطاهرة و نفسک المطمئنة، مثلما لم تؤثّر فی أنبیاء کبار قبلک و لم تعق مسیرتهم التوحیدیّة و دعوتهم إلی الحقّ و العدل قطّ.

إلّا أنّ هؤلاء الکفرة الأغبیاء یتصوّرون إمکانیة مواصلة هذه الأسالیب المخزیة. فَأَمْلَیْتُ لِلْکافِرِینَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ أجل، أمهل اللّه الکافرین لیؤدّوا امتحانهم و لیتمّ الحجّة علیهم فأغرقهم بنعمته، ثمّ حاسبهم حسابا عسیرا. فَکَیْفَ کانَ نَکِیرِ[۲۹۱] و رأیت کیف أنکرت علیهم أعمالهم، و بیّنت لهم أعمالهم القبیحة، لقد سلبت منهم نعمتی و جعلتهم علی أسوأ حال ... سلبتهم سعادتهم الدنیویة و عوّضتهم بالموت.

آخر الآیة موضع البحث یبیّن اللّه تعالی کیفیّة عقاب الکفّار بجملة موجزة ذات دلالة واسعة فَکَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَةٍ أَهْلَکْناها وَ هِیَ ظالِمَةٌ و أضافت الآیة أنّ سقف بیوتها قد باتت أسفل البناء: فَهِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها.

أی إنّ الواقعة کانت شدیدة حتّی أنّ السقوف انهارت أوّلا ثمّ الجدران علی السقوف وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ فما أکثر الآبار الرویّة بمیاهها العذبة، و لکنّها غارت فی الأرض بعد هلاک أصحابها فأصبحت معطّلة لا نفع فیها.

وَ قَصْرٍ مَشِیدٍ[۲۹۲] أجل ما أکثر القصور المشیدة التی ارتفعت شاهقة و زینت،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۶

إلّا أنّها أضحت خرائب بعد أن هلک أصحابها، و النتیجة إنّهم ترکوا مساکنهم و قصورهم المجلّلة، و أهملوا میاههم و عیونهم التی کانت مصدر حیاتهم و عمران أراضیهم و ذهبوا. و کذلک الآبار الغنیّة بالماء أصبحت معطّلة لا ماء فیها.

ملاحظة

ممّا یلفت النظر التّفسیر الذی ورد عن أهل البیت علیهم السّلام حیث فسّروا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ بالعلماء الذین لا یستفید منهم المجتمع، فبقیت علومهم معطّلة.

فقد روی عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام فی تفسیر عبارة وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِیدٍ قوله:

«البئر المعطّلة الإمام الصامت، و القصر المشید الإمام الناطق»

و بهذا المعنی روی أیضا عن الإمام الصادق علیه السّلام ۲۹۳].

و هذا التّفسیر نوع من التشبیه (مثلما یشبه المهدی (عج) ناشر العدل فی العالم بالماء المعیّن) أی إنّ الإمام عند ما یستقرّ فی دست الحکم یکون کالقصر المشید، یجلب انتباه الدانی و البعید و یکون ملجأ للجمیع. و إذا أبعد عن الحکم و تخلّی الناس عنه، احتلّ مکانه من لا یستحقّه فیکون عندها کبئر امتلأت ماء، إلّا أنّها معطّلة لا یستفاد منها فلا تروی عطشانا و لا تسقی زرعا.

ما أحسن ما أنشد الشاعر العربی:

بئر معطّلة و قصر مشرفمثل لآل محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم مستطرف

فالقصر مجدهم الذی لا یرتقیو البئر علمهم الذی لا ینزف ۲۹۴]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۷

الآیات [سورة الحج (۲۲): الآیات ۴۶ الی ۴۸]

اشارة

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (۴۶) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۴۷) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۴۸)

التّفسير

السير فی الأرض و العبرة:

تحدّثت الآيات السابقة عن الأقوام الظالمة التی عاقبها اللّه علی ما اقترفت أيديهم فدمّر أحياءهم، و أكّدت الآية الأولی هذه القضيّة فقالت: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها.

أجل، تحدّثنا عن خرائب قصور الظلمة، و منازل الجبابرة المهدّمة، و عبدة الدنيا، فلكلّ واحد منها ألف لسان يحكی لنا بسكونه المسيطر عليه ما حدث فی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۸

زواياه من ظلم و فسق و جور، و يحدّثنا عن ألف حادثة و حادثة.

إنّ هذه الخرائب كتب ناطقة تتحدّث عن ماضی هؤلاء الأقوام، و نتائج أعمالهم و سلوكهم فی الحياة، و عن أعمالهم المشؤومة، و أخيرا عن العقاب الذی صبّه اللّه عليهم! إنّ آثار قصور الجبابرة تبعث فی روح الإنسان التفكّر و الاتّعاظ، حيث يعوّضنا أحيانا عن مطالعة كتاب ضخم، و مع أنّ أصل التاريخ يعيد نفسه، فانّ هذه الآثار تجسّد للإنسان مستقبله أمام عينيه. أجل، إنّ دراسة آثار القدماء تجعل آذاننا صاغية و أنظارنا ثاقبة. و لهذا السبب يحثّ القرآن المجيد- فی كثير من آياته- المؤمنين علی السياحة، سياحة إلهيّة أخلاقية فيها عبرة لأنفسنا و عظة نحصّلها من دراسة إيوان المدائن و قصور الفراعنة. فمرّة نمرّ عبر دجلة إلی المدائن، و قد نسكب الدمع بغزارة دجلة علی أرض المدائن، لنسمع نصائح جديدة من شقوق خرائب القصور التی كان عمّارها الملوك الجبابرة، و لنأخذ منها الدروس و العبر[۲۹۵].

و لإيضاح حقيقة هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا- يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحيانا أكثر وعيا من الآخرين. أمّا العمی فهم الذين تعمی قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبدا! لهذا

يقول الرّسول الأكرم صلی اللّه عليه و آله و سلّم: «شرّ العمی، عمی القلب! و أعمی العمی عمی القلب»[۲۹۶].

و نطالع

حديثا للرسول الأكرم صلی اللّه عليه و آله و سلم فی كتاب غوالی اللآلی «إذا أراد اللّه بعبد خيرا فتح عين قلبه فيشاهد بها ما كان غائبا عنه»[۲۹۷].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۹

و هنا يثار سؤال: كيف يقال أنّ القلوب التی فی الصدور تدرك الحقائق، فی وقت نعلم فيه أنّ القلب مضخّة للدم ليس إلّا؟! و قد

أجبنا عن هذا فی تفسير الآية السابقة من سورة البقرة، و خلاصته أنّ أحد معانی القلب هو العقل، و من معانی الصدر ذات الإنسان.

إضافة إلى أنّ القلب مظهر العواطف، و كلّما تأثّرت العواطف و الإدراكات الروحيّة فی الإنسان، فإنّ أوّل أثرها ينعكس على القلب فتزداد نبضاته و يسرع الدم فی جريانه، و يمنح الجسم نشاطا و حيوية جديدة، فتنسب الظواهر الروحية إلى القلب، لأنّه أوّل من يتأثّر بها فی جسم الإنسان. (فتأمّلوا جيدا).

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية المذكورة أعلاه نسبت سبل إدراك الإنسان إلى القلب (العقل) و الأذنين، إشارة إلى أنّه لا سبيل ثالث لإدراك الأشياء و الحقائق.

فإمّا أن يتفاعل مع الحدث فی أعماق روحه و يسعى لتحليل المسائل بنفسه فيصل إلى النتيجة المتوخاة، و إمّا أن يسمع النصيحة من المشفقين الهداة و أنبياء اللّه و أهل الحقّ، أو يصل إلى الحقائق عن طريق هذين السبيلين ۲۹۸].

و ترسم الآية الثّانية- موضع البحث- صورة أخرى لجهل الأغبياء و عديمی الإيمان فتقول: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ فردّ عليهم ألّا تعجلوا وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ و «العجول» هو من يخشى فوات الفرصة من يده، و انتهاء إمكاناتها.

أمّا اللّه القادر على كلّ شیء منذ الأزل، فلا حاجة له بالعجلة، فهو قادر دوما على الوفاء بما عد، فلا فرق عنده بين الساعة و اليوم و السنة: وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

و سواء أ كان حقّا أم باطلا تكرارهم القول: لماذا لم ينزل اللّه علينا البلاء.

فليعلموا أنّ العذاب يترقّبهم و سينزل عليهم قريبا. فإن أمهلهم اللّه، فإنّ ذلك ليعيدوا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۰

النظر فی أعمالهم، و سيغلق باب التوبة بعد نزول العذاب و لا سبيل للنجاة حينذاك.

و هناك تفاسير أخرى لعبارة وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ غير ما ذكرنا (و هو تساوی اليوم الواحد و الألف سنة بالنسبة إلى قدرته تعالى) منها:

قد يلزم ألف عام لإنجازك عملا ما، و اللّه تعالى ينجزه فی يوم أو بعض يوم، لهذا فإنّ عقابه لا يحتاج إلى مقدّمات كثيرة.

و تفسير آخر يقول: إنّ يوما من أيّام الآخرة كألف عام فی الدنيا، و إنّ جزاء ربّك و عقابه يزداد بهذه النسبة، لهذا نقرأ

فی الحديث التالی: «إنّ الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام»[۲۹۹].

و فی آخر آية نجد تأكيدا على ما سبق أن ذكرته الآيات الآنفة الذكر من إنذار الكفّار المعاندين بأنّه ما أكثر القرى و البلاد التی أمهلناها و لم ننزل العذاب عليها ليفيقوا من غفلتهم، و لمّا لم يفيقوا و ينتبهوا أمهلناهم مرّة أخرى ليغرقوا فی النعيم و الرفاهية، و فجأة نزل عليهم العذاب: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها.

إنّ أولئك الأقوام كانوا مثلكم يشكّون من تأخّر العذاب عليهم، و يسخرون من وعيد الأنبياء، و لا- يرونه إلّا باطلا، إلّا أنّهم ابتلوا بالعذاب أخيرا و لم ينفعهم صراخهم أبدا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ أجل كلّ الأمور تعود إلى اللّه، و تبقى جميع الثروات فيكون اللّه وارثها.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۱

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۴۹ الى ۵۱]

اشارة

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۴۹) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۵۰) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۵۱)

التّفسير

الرزق الكريم:

تحدّثت الآيـات السابق عن تعجيل الكفر و العـذاب الإلهى، و إنّ ذلك ليس من شأن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و إنّما يرتبط بمشيئة اللّه تعالى، فأوّل آية من الآيات أعلاه تقول:

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

يخاطب سبحانه و تعالى الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فيأمره أن ينذر الناس بعذاب اللّه إن تخلّفوا عن طاعته.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم نذير بشير، و تأكيد الآية هنا لصفة النذير جاء لملاءمة ذلك مع الخاطبين الكفّار المعاندين الذين يستهزئون بعقاب اللّه.

و ترسم الآيتان التاليتان صورة للبشـرى و أخرى للإنذار، لأنّ رحمة اللّه واسعة، فتقدّم على عقاب اللّه. تتحدّث أوّلا عن البشرى فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۷۲

الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ يتطهّرون بماء المغفرة الإلهيّة أوّلا، فتطمئن ضمائرهم، ثمّ تشملهم نعم اللّه و رحمته.

عبارة «رزق كريم» (مع ملاحظة أنّ كلمة «كريم» تطلق على أى موجود شـريف و ثمين) ذات مفهوم واسع يضمّ جميع الأنعم المادية و المعنوية.

أجل، إنّ اللّه الكريم يمنّ على عباده المؤمنين الصالحين بأنواع من الرزق الكريم فى تلك المنازل الكريمـة، يقول الراغب الاصـفهانى فى مفرداته: لا يقال الكرم إلّا فى المحاسن، كمن ينفق مالا فى تجهيز جيش فى سبيل اللّه، أو تحمّل حمالـة ترقئ دماء قوم. فعلى هـذا لا يطلق الكرم على الإحسان الجزئى.

و فسّر البعض الرزق الكريم بالرزق الدائم الذى لا عيب و لا نقص فيه.

و قـال آخرون: إنّه الرزق الـذى يليق بالمؤمنين الصالحين، و لا يخفى أنّ المراد من ذلك شامل و يضمّ جميع هـذه المعانى. و أضافت الآية السابقة وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ أى إنّ الذين حاولوا تخريب الآيات الإلهيّة و محوها، و كانوا يعتقدون بأنّ لهم القدرة على مغالبة إرادة اللّه المطلقة، فهم أصحاب الجحيم ۳۰۰].

«جحيم» من مادّة «جحم» بمعنى شـدّة توقّد النّار، و تقال كذلك لشدّة الغضب، فعلى هذا تطلق كلمة (الجحيم) على المكان المشـتعل بالنيران، و هى هنا تشير إلى نار الآخرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۷۳

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۵۲ الى ۵۴]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۲) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۴)

التّفسير

وساوس الشّياطين فى مساعى الأنبياء:

تناولت الآيات السابقة محاولات المشركين و الكفرة لمحو التعاليم الإلهيّة و الاستهزاء بها، أمّا الآيات موضع البحث فقد تضمّنت تحذيرا مهمّا حيث قالت:

إنّ هذه المؤامرات ليست جديدة، فالشياطين دأبوا منذ البداية على إلقاء وساوسهم ضدّ الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۴

فى البداية تقول الآية: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أمرا لصالح الدين و المجتمع و فكّر فى خطّة لتطوير العمل أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ إلّا أنّ اللّه لم يترك نبيّه وحده إزاء إلقاءات الشياطين فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ

إنّ هذا العمل يسير على اللّه تعالى، لأنّه عليم بجميع هذه المؤامرات الدنيئة، و يعرف كيف يحبطها وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

إلّا أنّ المؤامرات الشيطانية التى كان يحيكها المشركون و الكفرة، كانت تشكّل ساحة لامتحان المؤمنين و المتآمرين فى آن واحد، إذ تضيف الآية لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ

وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ فهم بعيدون عن الحقّ لشدّة عداوتهم و عنادهم.

و كذلك الهدف من هذا البرنامج: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ و طبيعى أنّ اللّه لا يترك المؤمنين الواعين المطالبين بحقوقهم و المدافعين عن الحقّ وحدهم فى هذا الطريق الوعر وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

بحوث

۱- المراد من إلقاءات الشيطان

ما ذكرناه فى تفسير الآيات المذكورة أعلاه كان تنسيقا مع آراء بعض الباحثين، إلّا أنّ هناك احتمالات أخرى فى تفسير الآية، منها أنّ عبارة «تمنّى» و «أمنية» تعنى التلاوة و القراءة، كما جاءت فى أشعار العرب بهذا المعنى. لهذا فإنّ تفسير آية وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ... كان الشياطين (خاصّة شياطين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۵

الإنس) يلقون بكلمات خلال قراءة كلام اللّه على الناس لتشويش الأفكار، و لإبطال أثر القرآن فى الهداية و النجاة. إلّا أنّ اللّه عزّ و جلّ كان يمحو أثر هذه الإلقاءات و يثبت آياته. و ينسجم هذا التّفسير مع عبارة ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ و كذلك يساير (وفقا لبعض التبريرات) أسطورة الغرانيق التى سيرد ذكرها.

و لم تستعمل «تمنّى، و أمنية» بمعنى التلاوة إلّا نادرا، و لم ترد فى القرآن بهذا المعنى قطّ. «تمنّى» مشتقة من «منى» على وزن «مشى» و أصلها تعنى التقدير و الفرض. و سمّيت نطفة الرجل ب «المنى» لأنّ تقدير كيان الفرد يفرض فيها. و يقال للموت «منيّة» لأنّه يحلّ فيه الأجل المقدّر للإنسان، و لهذا تستعمل كلمة «تمنّى» لما يصوّره الإنسان فى مخيّلته و التى يطمح إلى تحقّقها. و خلاصة القول: إنّ أصل هذه الكلمة هى التقدير و الفرض و التصوّر، أينما استخدمت.

و يمكن ربط معنى التلاوة بهذه الكلمة، فيقال: التلاوة تشمل التقدير و التصوّر للكلمات، إلّا أنّها رابطة بعيدة لا أثر لها فى كلمات العرب.

أمّا المعنى الذى ذكرناه لتفسير الآية (برامج الأنبياء و مخطّطاتهم للوصول إلى الأهداف الإلهيّة) فإنّه يناسب المعنى الأصلى للكلمة «تمنّى».

و ثالث احتمال فى تفسير الآية أعلاه هو ما ذكره بعض المفسّرين و رأى فيه أنّه إشارة إلى بعض الأخطار و الوساوس الشيطانية التى تلقى فى لحظة عابرة فى أذهان الأنبياء الطاهرة النيّرة.

و بما أنّهم معصومون و منصورون بقوّة غيبيّة و إمدادات إلهيّة، فإنّ اللّه يمحو أثر هذه الإلقاءات من أفكارهم و يهديهم إلى الصراط المستقيم.

إلّا أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع الآيتين الثّانية و الثّالثة ممّا نحن بصدده، و القرآن اعتبر هذه الإلقاءات الشيطانية وسيلة إمتحان للكفرة و المؤمنين الواعين على السواء، و لا أثر لها فى قلوب الأنبياء لما يمحو اللّه عنها من إلقاءات الشياطين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۶

و بهذا تتّضح ملاءمة التّفسير الأوّل أكثر من غيره، و هى إشارة إلى نشاط الشياطين و ما يلقونه على الأنبياء لتعويق عملهم البنّاء، غير أنّ اللّه يبطل ما يفعلون و يمحو ما يلقون.

۲- اسطورة الغرانيق المختلفة!

جاء فى بعض كتب السنّة رواية عجيبة تنسب إلى ابن عبّاس، مفادها أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان مشغولا بتلاوة سورة «النجم» فى مكّة المكرّمة، و عند ما بلغ الآيات التى جاء فيها ذكر أسماء أصنام المشركين أ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ألقى الشيطان على النّبى هاتين الجملتين و جعلهما على لسانه: (تلك الغرانيق العلى و إنّ شفاعتهنّ لترتجى!) أى إنّهن طيور جميلة ذات منزلة رفيعة و منها ترتجى الشفاعة[۳۰۱]! و قد فرح المشركون بذلك، و قالوا: إنّ محمّدا لم يذكر آلهتنا بخير حتّى الآن.

فسجد محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و سجدوا هم أيضا، فنزل جبرائيل عليه السّلام على الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم محذّرا من أنّه لم ينزل هاتين الآيتين و أنّهما من إلقاءات الشيطان. و هنا أنزل عليه الآيات موضع البحث وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ... محذّرا الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين ۳۰۲]. و رغم أنّ عددا من أعداء الإسلام نقلوا هذا الحديث و أضافوا عليه ما يحلو لهم للمساس برسالة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن، إلّا أنّه مختلق يبغى النيل من القرآن و أحاديث الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و هناك أدلّة دامغة عديدة تؤكّد اختلاق شياطين الإنس لهذا الحديث:

أوّلا: ذكر الباحثون ضعف رواته و عدم الثقة بهم، و لا دليل على أنّه من رواية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۷

ابن عبّاس. و قد صنّف محمّد بن إسحاق كتابا أكّد فيه اختلاق الزنادقة لهذا الحديث ۳۰۳].

ثانيا: ذكرت الكتب الإسلامية أحاديث عديدة عن نزول سورة النجم و سجود النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين، و لم تذكر شيئا عن هذا الحديث المختلق. و هذا يدلّ على إضافة هذه الجملة إليه فيما بعد[۳۰۴].

ثالثا: تنفى آيات مطلع سورة النجم بصراحة هذه الخرافة وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى

كيف تنسجم هذه الاسطورة مع هذه الآية التى نزّهت و عصمت الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟

رابعا: استنكرت الآيات التالية للآية التى سمّت أوثان المشركين و الأصنام، و بيّنت قبحها و سخفها، فقد ذكرت بصراحة إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ و قد جاءهم من ربّهم الهدى، و مع كلّ هذا الذّم للأصنام، كيف يمكن مدحها؟! إضافة إلى أنّ القرآن المجيد ذكر بصراحة أنّ اللّه يحفظه من كلّ تحريف إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ۳۰۵].

خامسا: إنّ جهاد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم للأصنام جهاد مستمر طوال حياته و لم يقبل المساومة قطّ.

و قد رفض الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم الأوثان، و برهنت سيرته المطهّرة على استنكارها و التصدّى لها، حتّى فى أصعب الظروف، فكيف ينطق بمثل هذه الكلمات؟! سادسا: إنّ الكثير من غير المسلمين الذين لا يعتقدون بأنّ النّبى محمّدا صلى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۸

مرسل من اللّه، يعترفون بأنّه إنسان مفكّر واع حقّق أعظم الانتصارات. فهل يمكن لمن شعاره الأساس «لا إله إلّا اللّه»، و جهاده الرافض لأىّ نوع من أنواع الشرك و الوثنية. و حياته برهان على الإباء و رفض الأصنام، يترك فجأة سيرته تلك ليشيد بالأوثان؟! و من كلّ هذا نستنتج أنّ اسطورة الغرانيق من وضع أعداء سذّج و مخالفين لا يخافون اللّه، اختلقوا هذا الحديث لإضعاف منزلة القرآن و الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لهذا نفى جميع الباحثين الإسلاميين من السنّة و الشيعة هذا الحديث بقوّة و اعتبروه مختلقا[۳۰۶].

و ذكر بعض المفسّرين تبريرا لهذه الإضافة بالقول: على فرض صحّة الحديث، إلّا أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يتلو سورة النجم و بلغ أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى استغلّ بعض المشركين المعاندين هذه الفرصة، فنادى بلحن خاص «تلك الغرانيق العلى و إنّ شفاعتهن لترتجى» فأشكلوا على الناس بالتشويش على كلام الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم. إلّا أنّ الآيات اللاحقة ردّتهم بإدانتها الشديدة لعبادة الأصنام ۳۰۷].

و يتّضح أنّ بعضهم وجد فى اسطورة الغرانيق نوعا من الرغبة لدى الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى كسب الوثنيين إلى صفوف المسلمين، إلّا أنّ هذا القول يعنى ارتكاب هؤلاء المفسّرين خطأ كبيرا، و يدلّ على أنّ هؤلاء المسوّغين للوثنية لم يدركوا موقف الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم إزاءها، رغم أنّ المشهود تاريخيّا هو رفض الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلم العطاء السخىّ من المشركين مقابل العدول عن رسالته الإسلامية ...

أو أنّ هؤلاء المبرّرين يتجاهلون ذلك متعمّدين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۹

۳- الفرق بين الرّسول و النبى!

هناك أقوال كثيرة فى الفرق بين «الرسول» و «النبى»، و أكثرها قبولا- أنّ كلمة الرّسول تطلق على أنبياء لهم رسالات من اللّه أمروا بنشرها بين الناس، و ألّا يألوا أى جهد فى هذا الطريق، و أن يتحمّلوا الصعاب و لا يبالوا بالتضحية بأرواحهم من أجل رسالتهم.

أمّا كلمة «النبى» فقد اشتّقت من «نبأ» و هو الذى ينبأ بالوحى الإلهى رغم أنّه لم يكلّف بإبلاغه بشكل واسع. فهو كالطبيب يراجعه المرضى للعلاج و طلب الدواء، و لكلّ نبى مهمّة تختلف عن مهمة الآخر، و ذلك بمقتضى الأحوال و البيئة التى يعيشها كلّ واحد منهم ۳۰۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۰

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۵۵ الى ۵۹]

اشارة

وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (۵۵) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۵۶) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۵۷) وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۵۸) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (۵۹)

التّفسير

الرّزق الحسن:

تحدّثت الآيات السابقة عن محاولات المخالفين فى محو الآيات الإلهيّة، أمّا الآيات التى نقف فى ضوئها، فأشارت إلى هذه المحاولات من قبل أشخاص متعصّبين قساة.

تقول الآية الأولى: وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۱

بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ بديهى أنّ الآية هنا قصدت فئة من الكفّار لا الكفّار كلّهم، لأنّ الكثير منهم أسلموا و التحقوا بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بصفوف المسلمين.

قصدت الآية زعماء الكفّار و المعاندين و المتعصّبين بقوّة و الحاقدين الذين لم يؤمنوا قطّ، و استمرّوا فى عرقلة المسيرة الإسلامية.

و تعنى كلمة «مرية» الشكّ و الترديد، و تبيّن لنا الآية أنّ هؤلاء الكفرة لم يكونوا يوما على يقين ببطلان الإسلام و دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالرغم من إظهارهم لذلك فى كلماتهم، بل كانوا فى شكّ من القرآن و الإسلام، إلّا أنّ تعصّبهم كان يحول دون توصّلهم إلى الحقيقة.

أمّا «الساعة» فقد ذهب البعض إلى أنّها تعنى الموت و نظيره، إلّا أنّ الآيات اللاحقة بيّنت أنّ القصد ختام العالم و عشيّة يوم القيامة، و التى رافقت كلمة «بغتة».

و يقصد ب عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ عقاب يوم القيامة، و قد وصف يوم القيامة بالعقم لأنّه لا يوم يليه لينهض المرء للقيام بأعمال خيّرة تعوّض عمّا فاته و تؤثّر فى مصيره.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى السيادة المطلقة لربّ العالمين يوم القيامة الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ و هذا أمر ملازم للّه الحاكم الدائم و المالك المطلق، و ليس ليوم القيامة فقط، بل هو على مدى الزمان، و بما أنّ فى الدنيا مالكين و حكّاما آخرين رغم محدودية ملكياتهم و سلطانهم و رغم أنّها ملكية ظاهرية و سلطان شكلى، إلّا أنّه قد يولد تصوّرا بأنّ هناك حكّاما ملّاكا غير اللّه. و لكنّ كلّ هذا يزول و تتّضح حقيقة وحدانية المالك و الحاكم يومئذ.

و بتعبير آخر: هناك نوعان من السيادة و الملكية: السيادة الحقيقيّة، و هى للخالق على المخلوق، و السيادة الاعتبارية الناتجة عن اتّفاق بين الناس، و يوجد كلا هذا النوعان فى الدنيا، و لكن تزول الحكومات الاعتبارية كلّها يوم القيامة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۲

و تبقى السيادة الحقيقيّة لخالق العالم ۳۰۹].

و على أى حال، فإنّ اللّه هو المالك الحقيقى، فهو إذن الحاكم الحقيقى، و تعمّ حكومته على المؤمنين و الكافرين على السواء، و

نتيجة ذلك كما يقول القرآن المجيد: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ الجنّات التّى تتوفّر فيها جميع المواهب و كلّ الخيرات و البركات.

و يضيف القرآن الكريم وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ما أجمل هذا التعبير! عذاب يذلّ الكفرة و الذين كذّبوا بآيات اللّه، أولئك الذين عاندوا اللّه و استكبروا على خلقه يهينهم اللّه. و قد وصف القرآن العذاب ب «الأليم» و «العظيم» و «المهين» فى آيات مختلفة، ليلائم كلّ واحد منه الذنب الذى اقترفه المعاندون!.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن المجيد أشار فى حديثه عن المؤمنين إلى أمرين «الإيمان» و «العمل الصالح»، و فى المقابل أشار فى حديثه عن الكافرين إلى «الكفر» و «التكذيب بآيات اللّه»، و هذا يعنى أنّ كلّ منهما متركّب من إعتقاد داخلى و أثر خارجى يبرز فى عمل الإنسان، حيث إنّ لكلّ عمل إنسانى أساسا فكريا.

و بما أنّ الآيات السابقة تناولت المهاجرين من الذين طردوا من ديارهم و سلبت أموالهم، لأنّهم قالوا: ربّنا اللّه، و دافعوا عن شريعته، فقد اعتبرتهم الآية التالية مجموعة ممتازة جديرة بالرزق الحسن و قالت: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

قال بعض المفسّرين: إنّ «الرزق الحسن» هو النعم التى تشدّ نظر الإنسان إليها عند مشاهدته لها فلا يدير طرفه عنها، و إنّ اللّه وحده هو القادر على أن يمنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۳

على الإنسان بهذا النوع من الرزق ...

ذكر بعض المفسرين سببا لنزول هذه الآية خلاصته: «لمّا مات عثمان بن مظعون و أبو سلمة بن عبد الأسد، قال بعض الناس: من قتل فى سبيل اللّه أفضل ممّن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية مسوّية بينهم، و إنّ اللّه يرزق جميعهم رزقا حسنا، و ظاهر الشريعة يدلّ على أنّ المقتول أفضل. و قد قال بعض أهل العلم: إنّ المقتول فى سبيل اللّه و الميّت فى سبيل اللّه شهيد»[۳۱۰].

و عرضت الآية الأخيرة صورة من هذا الرزق الحسن «لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ» فإذا طردوا من منازلهم فى هذه الدنيا و لاقوا الصعاب، فإنّ اللّه يأويهم فى منازل طيّبة فى الآخرة ترضيهم من جميع الجهات، و تعوّضهم- على أفضل وجه- عمّا ضحّوا به فى سبيل اللّه.

و تنتهى هذه الآية بعبارة وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ أجل، إنّ اللّه عالم بما يقوم به عباده، و هو فى نفس الوقت حليم لا يستعجل فى عقابهم، من أجل تربية المؤمنين فى ساحة الامتحان هذه، و ليخرجوا منها و قد صلب عودهم و ازدادوا تقرّبا إلى اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۴

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۰ الى ۶۲]

اشارة

ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۶۰) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۶۱) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۶۲)

سبب النّزول

روى أنّ عددا من المشركين من أهل مكّة واجهوا المسلمين و لم يبق لانتهاء شهر المحرّم إلّا يومان. قال المشركون بعضهم لبعض: إنّ أصحاب محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يحاربون فى شهر المحرّم. و لهذا بدأوا بمهاجمة المسلمين، و رغم إلحاح المسلمين

علیهم بإیقاف القتال، لم یعطوا أذنا صاغیة لهذا الطلب، فاضطرّ المسلمون إلی قتالهم ببطولة فریدة فنصرهم اللّه، و هنا نزلت أوّل آیة من الآیات المذکورة آنفا[۳۱۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۵

التّفسیر

من هم المنتصرون؟

حدّثتنا الآیات السابقة عن المهاجرین فی سبیل اللّه، و ما وعدهم اللّه من رزق حسن یوم القیامة. و من أجل ألّا یتصورّ المرء أنّ الوعد الإلهی یختصّ بالآخرة فحسب، تحدّثت الآیة- موضع البحث- فی مطلعها عن انتصارهم فی ظلّ الرحمة الإلهیّة فی هذا العالم: ذلِکَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِیَ عَلَیْهِ لَیَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إشارة إلی أنّ الدفاع عن النفس و مجابهة الظلم حقّ طبیعی لکلّ إنسان.

و عبارة «بمثل» تأکید لحقیقة أنّ الدفاع لا یجوز له أن یتعدّی حدوده.

عبارة ثُمَّ بُغِیَ عَلَیْهِ هی أیضا إشارة إلی وعد اللّه بالانتصار لمن یظلم خلال الدفاع عن نفسه، و علی هذا فالساکت عن الحقّ و الذی یقبل الظلم و یرضخ له، لم یعده اللّه بالنصر، فوعد اللّه بالنصر یخصّ الذین یدافعون عن أنفسهم و یجابهون الظالمین و الجائرین، فهم یستعدّون بکلّ ما لدیهم من قوّة لمجابهة هذا الظلم.

و یجب أن تمتزج الرحمة و السماح بالقصاص و العقاب لتکسب النادمین و التائبین إلی اللّه، حیث تنتهی الآیة ب إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

و تطابق هذه الآیة آیة القصاص حیث منحت ولی القتیل حقّ القصاص من جهة و أفهمته أنّ العفو فضیلة (للجدیرین بها) من جهة أخری.

و بما أنّ الوعد بالنصر الذی یقوی القلب لا بدّ و أن یصدر من مقتدر علی ذلک.

لهذا تستعرض الآیة قدرة اللّه فی عالم الوجود التی لا تنتهی، فتقول: ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهارِ وَ یُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّیْلِ فما أن یقل من أحدهما حتّی یزداد فی الآخر وفق نظام مدروس.

کلمة «یولج» مشتقّة من «الإیلاج» و هو فی الأصل من الولوج أی الدخول.

و هذه العبارة- کما قلنا- تشیر إلی التغییرات التدریجیّة المنظّمة تنظیما تامّا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۶

کمسألة اللیل و النهار، فما یقلّ أحدهما إلّا لیزداد الآخر علی مدی فصول السنة.

و ربّما تکون إشارة إلی شروق الشمس و غروبها الذی لا یحدث فجأة بسبب الظروف الجویّة الخاصّة (بالهواء المحیط بالأرض) حیث تمتدّ أشعّة الشمس فی البدایة نحو طبقات الهواء العلیا، ثمّ تنتقل إلی الطبقات السفلی. و کأنّ النهار یلج فی اللیل و یطرد جیش قوی الظلام.

و عکس ذلک ما یقع حین الغروب، حیث تلملم أشعّة الشمس خیوطها من الطبقات السفلی للأرض، فیسودها الظلام تدریجیّا حتّی ینتهی آخر خیط من أشعّة الشمس و یسیطر جیش الظلام علی الجمیع. و لو لا هذه الظاهرة، فسیکون الشروق و الغروب علی حین غرّة، فیلحق الأذی بالإنسان جسما و روحا، و یحدث هذا التغییر السریع أیضا مشاکل کثیرة فی النظام الاجتماعی.

و لا مانع من إشارة الآیة السالفة الذکر إلی هذین التّفسیرین.

و تنتهی الآیة ب وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ أجل، إنّ اللّه یلبّی حاجة المؤمنین، و یطّلع علی حالهم و أعمالهم، و یعینهم برحمته عند اللزوم.

مثلما يطّلع على أعمال و مقاصد أعداء الحقّ.

و آخر آية من الآيات السالفة الذكر فى الواقع دليل على ما مضى حيث تقول:

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

إن شاهدتم انتصار الحقّ و هزيمة الباطل، فإنّ ذلك بلطف اللّه الذى ينجد المؤمنين و يترك الكافرين لوحدهم.

إنّ المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامّة، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء و العدم بمخالفتهم تلك القوانين. و اللّه حقّ و غيره باطل.

و جميع البشر و المخلوقات التى ترتبط بشكل ما باللّه تعالى هى حقّ أيضا. أمّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۷

غيرها فباطل بمقدار ابتعادها عنه عزّ و جلّ [۳۱۲].

و كلمة «عليّ» مشتقّة من «العلو» بمعنى ذى المنزلة الرفيعة، و تطلق أيضا على القادر و القاهر الذى لا تقف أمامه قدرة.

أمّا كلمة «الكبير» فهى إشارة إلى سعة علم اللّه و قدرته، و طبيعى أنّ من يملك هذه الصفات بإمكانه مساعدة أحبّائه و تدمير أعدائه، إذن فليطمئن المؤمنون إلى ما وعدهم اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۸

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۳ الى ۶۶]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۶۳) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۶۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۶۵) وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (۶۶)

التّفسير

دلائل اللّه فى ساحة الوجود:

تحدّثت الآيات السابقة عن قدرة اللّه غير المحدودة و أنّه الحقّ المطلق، و بيّنت هذه الآيات الأدلّة المختلفة على هذه القدرة الواسعة و الحقّ المطلق و تقول أوّلا: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً.

لقد اخضرت الأرض المرتدية رداء الحزن- من أثر الجفاف- بعد ما نزل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۹

المطر عليها. فأصبحت تسرّ الناظرين. أجل إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. و كلمة «لطيف» مشتقّة من «اللطف» بمعنى العمل الجميل الذى يمتاز برقّته. و لهذا يطلق على الرحمة الإلهيّة الخاصّة لفظ «اللطف». و كلمة «الخبير» تعنى المطّلع على الأمور الدقيقة.

و بلطف اللّه تنمو البذرة تحت الأرض، ثمّ ترتفع خلافا لقانون جاذبية الأرض، و ترى الشمس و تشمّ نسيم الهواء حتّى تصبح نباتا مثمرا أو شجرة باسقة.

و هو الذى أنزل المطر فمنح التربة الجافّة لطفا و رقة لتسمح للبذرة بالحركة و النمو. و هو خبير بجميع الاحتياجات و المراحل التى تمرّ

بها هذه البذرة حتّى ترتفع نحو السّماء. يرسل اللّه المطر بقدرة و بخبرة منه، فإن زاده صار سيلا، و إن نقصه كثيرا ساد الجفاف فى الأرض، و تقول الآية الثامنة عشرة من سورة المؤمنين: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۳۱۳].

الآية التالية تعرض علامة أخرى على قدرة اللّه غير المتناهية، و هو قوله سبحانه و تعالى: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

فهو سبحانه خالق الجميع و مالكهم، و بهذا الدليل يكون قادرا عليهم، لذا فهم يحتاجون إليه جميعا، و لا يحتاج هو إلى شىء أو إلى أحد.

و يزداد هذا المعنى إشراقا فى قوله سبحانه: وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ و التحام صفتى الغنى و الحمد جاء فى غاية الإحكام:

أوّلا: لأنّ عددا كبيرا من الناس أغنياء، إلّا أنّهم بخلاء يستغلّون الآخرين و يعملون لذاتهم فقط، و قد غرقوا فى الغفلة و الغرور. و تغلّب على أصحاب الثروة الطائلة هذه الصفات. أمّا غنى اللّه سبحانه فهو مزيج من اللطف و السماء و الجود و الكرم، لذا استحقّ الحمد و الثناء من عباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۰

ثانيا: إنّ الأغنياء غيّر اللّه تعالى غناهم ظاهرى، و إذا كانوا كرماء فإنّ كرمهم فى الواقع ليس منهم، بل من لطف اللّه سبحانه و قديم إحسانه، فكلّ إمكاناتهم إنّما هى من أنعم اللّه. فاللّه وحده هو الغنى بذاته و الجدير بكلّ حمد و ثناء.

ثالثا: لأنّ الأغنياء يعملون ما يفيدهم أو يتوخّون فائدته، أمّا ربّ العالمين سبحانه و تعالى، فيجود و يرحم و يعفو دون حساب، و لا ابتغاء فائدة، و لا سدّ حاجة، و إنّما يفعل ذلك كرما منه و رحمة، فهو أهل الحمد و الثناء بلا شريك.

و تشير الآية التالية إلى نموذج آخر من تسخير اللّه تعالى الوجود للإنسان أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ و جعل تحت اختياركم جميع المواهب و الإمكانات فيها لتستفيدوا منها بأى صورة تريدون، و كذلك جعل السفن و البواخر التى تتحرّك و تمخر عباب البحار بأمره نحو مقاصدها. الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ إضافة إلى وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ فالكواكب و النجوم تسير فى مدارات محدّدة بأمر اللّه سبحانه و تعالى، كلّ ذلك لتسير فى فاصلة محدّدة لها عن الكواكب الاخرى، و تمنع اصطدام بعضها ببعض.

و خلق اللّه طبقات جويّة حول الأرض لتحول دون وصول الأحجار السائبة فى الفضاء إلى الأرض و إلحاق الضرر بالبشر.

و ذلك من رحمة اللّه لعباده و لطفه بهم، فقد خلق الأرض آمنة لعباده، فلا تصل إليهم الأحجار السائبة فى الفضاء، و لا تصطدم الأجرام الأخرى بالأرض. و هذا ما نلمسه فى ختام الآية المباركة إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

و تتناول الآية الأخيرة أهمّ قضيّة فى الوجود، أى قضيّة الحياة و الموت فتقول:

وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ أى كنتم ترابا لا- حياة فيه فألبسكم لباس الحياة ثُمَّ يُمِيتُكُمْ و بعد انقضاء دورة حياتكم يميتكم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ أى يمنحكم حياة جديدة يوم البعث.

و تبيّن الآية ميل الإنسان إلى نكران نعم اللّه عليه قائلة: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۱

فرغم كلّ ما أغدق اللّه على الإنسان من أنعم فى الأرض و السّماء، فى الجسم و الروح، لا يحمده و لا يشكره عليها، بل يكفر بكلّ هذه النعم. و مع أنّه يرى كلّ الدلائل الواضحة و البراهين المؤكدة لوجود اللّه تبارك و تعالى، و الشاهدة بفضله عليه و إحسانه إليه ينكر ذلك. فما أظلمه و أجهله!

ملاحظات

۱- الصفات الخاصّة باللّه:

بيّنت الآيات السالفة الذكر و الآيتان اللتان سبقتها، أربع عشرة صفة من صفات اللّه (فى نهاية كلّ آية جاء ذكر صفتين من صفات اللّه) العليم و الحليم- العفو و الغفور- السميع و البصير- العلى و الكبير- اللطيف و الخبير- الغنى و الحميد- الرؤوف و الرحيم. و كلّ صفة تكمل ما يقترن بها. و تنسجم معها و تتناسب مع البحث الذى تناولته الآية، كما مرّ سابقا.

۲- الآيات تدلّ على توحيد اللّه و على المعاد

إنّ الآيات السابقة، مثلما هى دليل على قدرة اللّه تعالى و تأكيد لما وعد من نصر لعباده المؤمنين، و شاهد على حقّانيته المقدّسة التى استندت الآيات السالفة الذكر إليها، فهى دليل على توحيد اللّه و على المعاد، فإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، و نموّ النبات فيها، و كذلك حياة الإنسان و موته شاهد على البعث و النشور.

و معظم الآيات عرضت هذه الأدلّة فى البرهنة على حقيقة المعاد يوم القيامة.

و قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ تأكيد على إصرار المعاندين على الكفر، ففى صيغة المبالغة «كفور» دلالة على هذا العناد، فهذا الإنسان منكر لفضل ربّه مع مشاهدته لآياته العظيمة، و مصرّ على الانحراف عن هداه و نور رحمته الواسعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۹۲

۳- تسخير الأرض و السّماء للإنسان:

لقد سخّر اللّه هذه الموجودات للإنسان و ذلّلها لمصالحه. (و قد بيّنا هذا الموضوع مفصّلا فى تفسير الآية (۱۲) إلى (۱۴) من سورة النحل، و فى تفسير الآية الثّانية من سورة الرعد).

و جاء ذكر السفن فى البحار و المحيطات بين النعم، لأنّها كانت أهمّ وسيلة للنقل و التجارة، و لم تحلّ محلّها أيّة وسيلة أرخص منها حتّى الآن. و لو توقّفت هذه السفن يوما لا ختلّت منافع البشر، فالطرق البريّة لا تسدّ حاجة الإنسان إلى النقل و الانتقال، خاصّة فى العصر الحاضر الزاخر بالاحتياج إلى النفط المحمول فى السن التى لا تفتر عن الحركة، لتدير عجلة الصناعة فى العالم. و لقد تجلّت هذه النعمة اليوم أكثر، فما تعدل عشرات الآلاف من الصهاريج السيّارة فى البرّ ناقلة نفط عملاقة، و نقل النفط بواسطة الأنابيب النفطيّة لا يستوعب إلّا مناطق محدودة من العالم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۳۹۳

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۷ الى ۷۰]

اشارة

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (۶۷) وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (۶۸) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۶۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۷۰)

التّفسیر

لکلّ أمّة عبادة:

تناولت البحوث السابقة المشـرکین خاصّة، و مخالفی الإسـلام عامّة، ممّن جادلوا فیما أشرق به الإسلام من مبادئ نسخت بعض تعالیم الأدیان السابقة.

و کانوا یرون من ذلک ضـعفا فی الشـریعة الإسـلامیة، و قوّة فی أدیانهم، فی حین أنّ ذلک لا یشـکل ضعفا إطلاقا، بل هو نقطة قوّة و منهج لتکامل الأدیان و لذا جاء الفصل الربّانی جلّیا لِکُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَکاً هُمْ ناسِکُوهُ ۳۱۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۴

«المناسک»- کما قلنا سابقا- جمع «منسک» أی مطلق العبادات، و من الممکن أن تشـمل جمیع التعالیم الإلهیّـة. لهذا فإنّ الآیة تبیّن أنّ لکلّ امّة شـرعة و منهاجا یفی بمتطلّباتها بحسب الأحوال التی تعیشـها، لکنّ ارتقاءها یستوجب تعالیم جدیدة تلبّی مطامحها المترقّیة، و هذا ما صدعت به الآیة المبارکة و أنارته قائلة: فَلا یُنازِعُنَّکَ فِی الْأَمْرِ. فبما تقدّم لا ینبغی لهم منازعتک فی هذا الأمر.

وَ ادْعُ إِلی رَبِّکَ إِنَّکَ لَعَلی هُـدیً مُسْـتَقِیمٍ تخاطب الآیـة النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أن یا أیّها النّبی لا یؤثّر هؤلاء فی دعوتک الراشدة باعتراضاتهم الضّالة، فالمهتدی إلی الصراط المستقیم أقوی من الضارب فی التیه.

فوصف «الهدی» بالاسـتقامة، إمّا تأکیدا لها، و إمّا إشارة إلی أنّها یمکن أن تتحقّق بطرق مختلفة، قریبها و بعیدها، مسـتقیمها و ملتویها، إلّا أنّ الهدایة الإلهیّة أقربها و أکثرها استقامة.

ثمّ أضـافت الآیـة وَ إِنْ جـادَلُوکَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ فلو اسـتمرّوا فی جـدالهم و منازعتهم معک، و لم یؤثّر فیهم کلامک. فقل لهم: انّ اللّه أعلم بأعمـالکم، و ستحشـرون إلیه فی یوم یعود النـاس فیه إلی التوحیـد، و تحـلّ جمیع الاختلافات لظهور الحقائق لجمیع الناس: اللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَکُمْ (یَوْمَ الْقِیامَةِ) فِیما کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ ۳۱۵].

و بمـا أنّ القضـاء بین العباد یوم القیامـة بحاجـة إلی علم واسع بهم و اطّلاع دقیق بأعمالهم، ختمت الآیات هاهنا بقوله تعالی: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ ما فِی السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و إِنَّ ذلِکَ فِی کِتابٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۵

أجـل، إنّ جمیع ذلـک قـد ثبت فی کتـاب علم اللّه الـذی لا حـدود له، کتاب عالم الوجود و عالم العلّـة و المعلول، عالم لا یضـیع فیه شیء، فهو فی تغییر دائم، حتّی لو خرجت أمواج صوت ضـعیف من حنجرة إنسـان قبـل ألفی عـام فانّهـا لاـ تنعـدم، بـل تبقی فی هـذا الکتـاب الجـامع لکـلّ شـیء بدقّـة. أی إنّ کـلّ مـا یجری فی هـذا الکون مسـجّل فی لوح محفوظ هو لوح العلم الإلـهی، و کـلّ هـذه الموجودات حاضـرة بین یدی اللّه سـبحانه بجمیع صـفاتها و خصائصها. و هذا من معانی القدرة الإلهیّة التی نلمسها فی قوله تعالی: إِنَّ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۶

الآیات [سورة الحج (۲۲): الآیات ۷۱ الی ۷۴]

اشارة

وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ ما لَیْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ نَصِیرٍ (۷۱) وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ تَعْرِفُ فِی

وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۷۲) يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (۷۳) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۷۴)

التّفسير

معبودات أضعف من ذبابة!

تابعت هذه الآيات الأبحاث السابقة عن التوحيد و الشرك، فتحدّثت ثانية عن المشركين و أفعالهم الخاطئة، فتقول الآية الأولى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۷

يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً و هذا يبيّن بطلان عقيدة الوثنيين الذين كانوا يرون أنّ اللّه سمح لهم بعبادة الأوثان و أنّها تشفع لهم عند اللّه. و تضيف الآية وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ أى يعبدون عبادة لا- يملكون دليلا- على صحّتها لا- من طريق الوحى الإلهى، و لا من طريق الاستدلال العقلى، و من لا يعمل بدليل يظلم نفسه و غيره، و لا أحد يدافع عنه يوم الحساب، لهذا تقول الآية فى ختامها: وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ.

قال بعض المفسّرين: إنّ النصير هنا الدليل و البرهان، لأنّ المعيّن الحقيقى هو الدليل ذاته [۳۱۶].

كما يحتمل أن يكون النصير مرشدا و مكمّلا للبحث السابق، أى أنّ المشركين لا يدعمهم دليل إلهى و لا عقلى، و ليس لهم قائد و لا مرشد و لا معلّم يهديهم و يسدّدهم للحقّ الذى فقدوا حمايته و الاستنارة به، بظلمهم أنفسهم، و لا خلاف بين هذه التفاسير الثلاثة التى يبدو أنّ أوّلها أكثر وضوحا من غيره.

و تشير الآية الثّانية موضع البحث إلى عناد الوثنيين و استكبارهم عن الاستجابة لآيات اللّه تعالى، فى جملة وجيزة لكنّها ذات دلالات كبيرة: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ[۳۱۷].

و هنا يسفر التناقض بين المنطق القرآنى القويم و تعصّب الجاهلية الذى لا يرضخ للحقّ و لا يفتح قلبه لندائه الرحيم، فما تليت عليهم آيات ربّهم إلّا ظهرت علائم الاستكبار عنها فى وجوههم حتّى إنّهم يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا أى كأنّهم يريدون مهاجمة الذين يتلون عليهم آيات اللّه- عزّ و جلّ- و ضربهم بقبضات أيديهم، تنفيسا عن التكبر البغيض فى قرارة أنفسهم.

كلمة «يسطون» مشتقّة من «السطوة» أى رفع اليد و مهاجمة الطرف الآخر، و هى فى الأصل- كما قال الراغب الاصفهانى فى مفرداته- قيام الفرس على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۸

رجليه و رفع يديه، ثمّ استعملت بالمعنى الذى ذكرناه.

و لو فكّر الإنسان منطقيّا لما أغضبه حديث لا- يرضاه، و لما ثار مقطّبا متهيّئا للهجوم على محدّثه مهما خالفه. بل يحاول ردّه ببيان منطقى.

و انفعال المشركين على النحو المتقدّم دليل على انهيار تفكيرهم و غلبة الجهل و الباطل عليهم.

و عبارة يَكادُونَ يَسْطُونَ التى تتألّف من فعلين مضارعين، دليل على استمرار حالة الهجوم و السباب فى ذات المشركين و تأصّلها فيهم، فتارة يفعلونه، و أخرى تبدو علائمه على وجوههم حين لا تسمح به الأحوال.

و قد أمر القرآن المجيد الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجبه هؤلاء المتغطرسين هاتفا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ

النَّارُ[۳۱۸].

أی إن زعمتم أنّ هذه الآيات البيّنات شرّ، لأنّها لا تنسجم مع أفكاركم المنحرفة، فإنّنى أخبركم بما هو شرّ منها، ألا و هو عقاب اللّه الأليم، النّار التى أعدّها اللّه جزاء وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. أجل، إنّ النّار المحرقة لأسوإ مكان للمتشدّدين الحادّى المزاج الذين أحرقت نار عصبيّتهم و لجاجهم قلوبهم، لأنّ العقاب الإلهى يتناسب دائما مع كيفية الذنب و العصيان.

و ترسم الآية الآتية صورة معبّرة لما كان عليه الوثنيون، و ما يعبدونه من أشياء ضعيفة هزيلة تكشف عن بطلان آراء المشركين و عقيدتهم، مخاطبة للناس جميعا خطابا هاديا أن يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ و تدبّروا فيه جيدا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ

أجل، لو اجتمعت الأوثان كلّها، و حتّى العلماء و المفكّرين و المخترعين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۹

جميعا، لما استطاعوا خلق ذبابة. فكيف تجعلون أوثانكم شركاء لخالق السموات و الأرض و ما فيهنّ من آلاف مؤلّفة من أنواع المخلوقات فى البرّ و البحر، فى الصحارى و الغابات، و فى أعماق الأرض؟ اللّه الذى خلق الحياة فى أشكال مختلفة و صور بديعة و متنوّعة بحيث أنّ كلّ مخلوق من المخلوقات يثير فى الإنسان كلّ الإعجاب و التقدير، فأين هذه الآلهة الضعيفة من اللّه الخالق القادر الحكيم المتعال؟

و تستكمل الآية البيان عن ضعف الأوثان و عجزها المطلق و أنّها ليست غير قادرة على خلق ذبابة فحسب، بل وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ كأنّ الآية تهتف فيهم: ما الدافع لجعل موجود ضعيف تهزمه الذبابة حاكما عليكم و حلّالا لمشاكلكم؟! و يعلو صدى الحقّ فى تقرير ضعف الوثن و عبدته فى قوله تعالى: ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ

و قد ورد فى الرّوايات أنّ الوثنيين من قريش نصبوا أوثانهم حول الكعبة، و أغرقوها بالمسك و العنبر و أحيانا بالزعفران و العسل، و طافوا حولها و هم يردّدون (لبّيك اللهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك، إلّا شريك هو لك تملكه و ما ملك)! و الانحياز عن التوحيد واضح فى هذه التلبية، و الشرك مؤكّد فيها، فقد جعلوا هذه الموجودات التافهة شركاء للّه الواحد الأحد، و هم يرون الذّباب يحوم عليها و يسرق منها العسل و الزعفران و المسك دون أن تستطيع إعادة ما سلب منها! و قد عرض القرآن المجيد هذه الصورة ليكشف عن ضعف هذه الأوثان، و تفاهة منطق المشركين فى تسويغ عبادتهم لهذه الأوثان، و ذكرّهم بعجز آلهتهم عن استعادة ما سرقه الذباب منها و عدم قدرتها على الدفاع عن نفسها لعلّهم ينتبهون على تفاهة ما يعبدون من دون اللّه تعالى.

أمّا ما المراد من «الطالب» و «المطلوب»؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۰

الصحيح هو ما سبق أن قلناه من أنّ الطالب هو عبدة الأوثان، و المطلوب هو الأوثان ذاتها، و كلاهما لا يقدر على شىء.

و قال البعض: إنّ الطالب هو الذّباب، و المطلوب الأصنام (لأنّ الذباب يجتمع عليها ليسلب منها غذاءه).

و قال الآخرون: الطالب هو الأصنام، و المطلوب هو الذباب (لأنّه لو فكّرت الأصنام فى خلق ذبابة واحدة لما استطاعت ذلك) و أصحّ هذه التفاسير هو الأوّل.

و بعد أن عرض القرآن الكريم هذه المثال الواضح الدافع، قرّر حقيقة مهمّة، و هى ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

فالمشركون لو كانوا على أدنى معرفة باللّه تعالى لما أنزلوا قدره إلى مستوى هذه الآلهة الضعيفة العاجزة و لما جعلوا مصنوعاتهم شركاء له، تعالى عمّا يفعلون علوّا كبيرا، و لو كان لديهم أدنى معرفة بقدرة اللّه لضحكوا من أنفسهم و سخروا من أفكارهم. و تقول الآية فى النهاية: إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

أجل، إنّ اللّه قادر على كلّ شىء و لا مثيل لقدرته و لا حدّ، فهو ليس كآلهة المشركين التى لو اجتمعت لما تمكّنت من خلق ذبابة،

بل ليس لها القدرة على إعادة ما سلبه الذباب منها.

بحث

مثال واضح لبيان نقاط الضعف:

يرى عـدد من المفسّـرين أنّ القرآن جاء بمثل فى آياته المذكورة آنفا، إلّا أنّه لم يبيّن المثل بصـراحة، بل أشار إلى مواضع أخرى فى القرآن، أو أنّ المثل هنا جاء لإثبات أمر عجيب، و ليس بمعنى المثل المعروف.

و لا شكّ فى أنّ هذا خطأ، لأنّ القرآن دعا عامّة الناس إلى التفكّر فى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص: ٤٠١

المثل. و هذا المثل هو ضـعف الذبابة من ناحية، و قدرتها على سـلب ما لدى الأوثان، و عجز هذه الأوثان عن استرداد ما سـلبه الذباب منهـا، و هـذا المثـل ضـرب للمشـركين من العرب، لكنّه يعنى النـاس جميعـا و لا يخصّ الأصـنام، بل يعمّ جميع ما دون اللّه تعالى، من فراعنـة و نمـاردة، و مطامع و أهواء، و جاه و ثروة. فكلّها ينطبق عليها المثل، فلو تكاتفوا و جمعوا عساكرهم و ما يملكون من وسائل و طاقات، لما تمكّنوا من خلق ذبابة، و لا من استعادة ما سلب الذباب منهم.

سؤال و جواب:

قـد يقال: إنّ اختراعات العصـر الحـديث قـد تجاوزت أهميّة خلق ذبابة بمراتب كبيرة! فوسائل النقل السـريعة التى تسـبق الريح و تقطع المسافات الشاسـعة فى طرفة عين، و الأدمغة الألكترونية و أدقّ الأجهزة الحديثة بإمكانها حلّ المعضلات الرياضية بأسرع وقت ممكن، لا تدع قيمة لهذا المثل فى نظر إنسان العصر.

و جواب ذلك هو أنّ صـنع هذه الأجهزة- بلا شكّ- يبهر العقول، و هو دليل على تقدّم الصـناعة البشـرية تقدّما مدهشا، و لكنّه يهون مقابل خلق كائن حى مهما كان صـغيرا، فلو درسـنا حياة حشـرة كالذبابـة و نشاطها البايولوجى بدقّة، لرأينا أنّ بناء مخّ الذبابة و شـبكة أعصابها و جهاز هضمها أعلى بدرجات من أعقد الطائرات، و أكثر تجهيزا منها، و لا يمكن مقارنتها بها.

و مـا زال فى قضـيّة الحيـاة و إحسـاس و حركـة المخلوقات أسـرار غامضـة على العلماء، و هـذه المخلوقات و تركيبها البايولوجى، هى نفسها غوامض لم تحل بعد.

و قد ذكر علماء الطبيعة أنّ عينى هذه المخلوقات الصـغيرة جدّا، كالحشـرات- مثلا- تتركّب من مئات العيون! فالعينان اللتان تبدوان لنا إثنتين لا أكثر، هما مؤلّفتان من مئات العيون الدقيقة جدّا، و يطلق على مجموعها العين المركبة، فلو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٠، ص: ٤٠٢

فرضـنا أنّ الإنسان صـنع موادّ من أجزاء الخليّة التى لا حياة فيها، فكيف يتمكّن من صـنع مئات العيون الصـغيرة التى لكلّ منها ناظورها الـدقيق، و قـد رصّت طبقاتهـا بعضـها إلى بعض، و ربطت أعصابهـا بمـخّ الحشـرة لتنقـل المعلومات إليها، و لتقوم بردّ فعل مناسب لما يحدث حولها؟

لن يسـتطيع الإنسان خلق مثل هذا الكائن الذى يبدو تافها مع أنّه عالم مفعم بالأسرار البالغة الغموض. و لو فرضنا أنّ الإنسان بلغ ذلك، فلا يسمّى إنجازه المفترض خلقا، لأنّه لم يتعدّ التجميع لأجهزة متوفّرة فى هذا العالم. فمن يركّب قطع السيّارة لا يسمّى مخترعا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۳

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۷۵ الى ۷۸]

اشارة

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۷۵) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۷۶) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۷۷) وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (۷۸)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسّرين أنّ المشركين و على رأسهم «الوليد بن المغيرة»، كانوا عند ما بعث اللّه الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، يقولون مستنكرين: «أ أنزل عليه الذكر من بيننا»؟! فنزلت الآية الأولى من الآيات أعلاه لتردّ عليهم اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۴

وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[۳۱۹].

التّفسير

خمسة تعاليم بنّاءة و مهمّة:

بما أنّ الآيات السابقة تناولت بحث التوحيد و الشرك و آلهة المشركين الوهميّة. و بما أنّ بعض الناس قد اتّخذوا الملائكة أو بعض الأنبياء آلهة للعبادة، فانّ أوّل الآيات موضع البحث تقول بأنّ جميع الرسل هم عباد اللّه و تابعون لأمره:

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ

أجل، اختار اللّه من الملائكة رسلا كجبرئيل، و من البشر رسلا كأنبياء اللّه الكبار. و «من» هنا للتبعيض، و تدلّ على أنّ جميع ملائكة اللّه لم يكونوا رسلا إلى البشر، و لا يناقض هذا التعبير الآية الأولى من سورة فاطر، و هى جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا لأنّ غاية هذه الآية بيان الجنس لا العموم و الشمولية.

و ختام الآية إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أى إنّ اللّه ليس كالبشر، لا يعلمون أخبار رسلهم فى غيابهم، بل إنّه على علم بأخبار رسله لحظة بعد أخرى، يسمع كلامهم و يرى أعمالهم.

و تشير الآية الثّانية إلى مسئولية الأنبياء فى إبلاغ رسالة اللّه من جهة، و مراقبة اللّه لأعمالهم من جهة أخرى، فتقول: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ إنّه يعلم ماضيهم و مستقبلهم وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فالجميع مسئولون فى ساحة قدسه.

ليعلم الناس أنّ ملائكة اللّه سبحانه و أنبياءه عليهم السّلام عباد مطيعون له مسئولون بين يديه، لا يملكون إلّا ما وهبهم من لطفه، و قوله تعالى: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إشارة إلى واجب و مسئولية رسل اللّه و مراقبته سبحانه لأعمالهم، كما جاء فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۵

الآيتين (۲۷) و (۲۸) من سورة الجن فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ ۳۲۰].

و قد اتّضح بهذا أنّ القصد من عبارة ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هو الأحداث المستقبلة و ما خَلْفَهُمْ الأحداث الماضية.

الآيتان التاليتان هما آخر آيات سورة الحجّ حيث تخاطبان المؤمنين و تبيّنان مجموعة من التعاليم الشاملة التى تحفظ دينهم و دنياهم و انتصارهم فى جميع الميادين، و بهذه الروعة و الجمال تختتم سورة الحجّ.

فى البداية تشير الآية إلى أربعة تعليمات يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ و قد بيّنت الآية ركنين من أركان الصلاة، الركوع و السجود لأهميتهما الاستثنائية فى هذه العبادة العظيمة.

و الأمر بعبادة اللّه- بعد الأمر بالركوع و السجود- يشمل جميع العبادات.

و لفظ «ربّكم» إشارة إلى لياقته للعبادة و عدم لياقة غيره لها، لأنّه سبحانه و تعالى مالك عبيده و جميع مخلوقاته و مربيّهم.

و الأمر بفعل الخير يشمل أعمال الخير دون قيد أو شرط، و ما نقل عن ابن عبّاس من أنّ هذه الآية تتناول صلة الرحم و مكارم الأخلاق هو بيان مصداق بارز لمفهوم الآية العامّ.

ثمّ يصدر اللّه أمره الخاص بالجهاد بالمعنى الشامل للكلمة، فيقول عزّ من قائل: وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ

و معظم المفسّرين لم يخصّوا هذه الآية بالجهاد المسلّح لأعداء اللّه، بل فسّروها بما هى عليه من معنى لغوى عامّ، بكلّ نوع من الجهاد فى سبيل اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۶

و الاستجابة له و ممارسة أعمال البرّ و الجهاد مع النفس (الجهاد الأكبر) و جهاد الأعداء و الظلمة (الجهاد الأصغر).

نقل العلّامة الطبرسى رحمه اللّه فى «مجمع البيان» عن معظم المفسّرين قولهم: إنّ القصد من «حق الجهاد» الإخلاص فى النيّة و القيام بالأعمال للّه خالصة. و لا شكّ فى أنّ حقّ الجهاد له معنى واسع يشمل الكيف و النوع و المكان و الزمان و سواها، و لكن مرحلة «الإخلاص فى النيّة» هى أصعب مرحلة فى جهاد النفس، لهذا أكّدتها الآية، لأنّ عباد اللّه المخلصين فقط هم الذين لا تنفذ إلى قلوبهم و أعمالهم الوساوس الشيطانية، رغم قوّة نفاذها و خفائها.

و القرآن المجيد يبدأ تعليماته الخمسة من الخاصّ إلى العامّ، فبدأ بالركوع فالسجود، و انتهى بالعبادة بمعناها العامّ الذى يشمل أعمال الخير و الطاعات و العبادات و غيرها. و فى آخر مرحلة تحدّث عن الجهاد و المساعى الفرديّة و الجماعية باطنا و ظاهرا، فى القول و العمل، و فى الأخلاق و النيّة.

و الاستجابة لهذه التعليمات الربّانية مدعاة للفلاح.

و لكن قد يثار سؤال هو: كيف يتحمّل الجسم النحيف هذه الأعمال من المسؤوليات و التعليمات الشاملة الوسعة؟ و لهذا تجيب بقيّد الآية الشريفة ضمنا عن هذه الاستفهامات، و انّ هذه التعليمات دليل الألطاف الإلهيّة التى منّها سبحانه و تعالى على المؤمنين لتدلّ على منزلتهم العظيمة عنده سبحانه. فتقول الآية أوّلا:

هُوَ اجْتَباكُمْ

أى حمّلكم هذه المسؤوليات باختياركم من بين خلقه.

و العبارة الاخرى قوله جلّ و علا: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ أى إذا دقّقتم جيدا لم تجدوا صعوبة فى التكاليف الربّانية لانسجامها مع فطرتكم التى فطركم اللّه عليها، و هى الطريق إلى تكاملكم، و هى ألذّ من الشهد، لأنّ كلّ واحدة منها له غاية و منافع تعود عليكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۷

و ثالث عبارة مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ إنّ إطلاق كلمة «الأب» على «إبراهيم» عليه السّلام، إمّا بسبب كون العرب و المسلمين آنذاك من نسل إسماعيل عليه السّلام غالبا، و إمّا لكون إبراهيم عليه السّلام هو الأب الروحى للموحّدين جميعا على الرغم من خلط المشركين دينه الحنيف بأنواع من الخرافات الجاهلية آنذاك.

و يليها تعبير هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا أى هو سمّاكم المسلمين فى الكتب السماوية السابقة، و فى هذا الكتاب السماوى أيضا (القرآن)، و إنّ المسلم ليفتخر بأنّه قد أسلم نفسه للّه فى جميع أوامره و نواهيه.

و قد اختلف المفسّرون لمن يعود ضمير (هو) فى العبارة السابقة، فقال البعض منهم: إنّه يعود إلى اللّه تعالى، أى إنّ اللّه سمّاكم فى الكتب السماوية السابقة و القرآن بهذا الاسم الذى هو موضع فخركم، و يرى آخرون أنّ ضمير (هو) يعود إلى إبراهيم عليه السّلام و يستدلّون بالآية (١٢٨) من سورة البقرة حيث نادى إبراهيم عليه السّلام ربّه بعد إتمامه بناء الكعبة قائلا: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ

و نحن نرى أنّ التّفسير الأوّل أصوب، لأنّه ينسجم مع آخر الآية ذاتها حيث يقول: هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا أى هو سمّاكم المسلمين فى الكتب السماوية السابقة و القرآن المجيد، و هذا القول يناسب اللّه عزّ و جلّ و لا يناسب إبراهيم عليه السّلام [٣٢١].

و خامس عبارة خصّ بها المسلمين و جعلهم قدوة للأمم الاخرى، هى قوله المبارك: لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ

و «الشهيد» هو الشاهد، و هى كلمة مشتقّة من شهود، بمعنى اطلاع المرء على

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴٠٨

أمر أو حدث شهده بنفسه. و كون الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلم شاهدا على جميع المسلمين يعنى اطلاعه على أعمال أمّته، و ينسجم هذا المفهوم مع حديث (عرض الأعمال) و بعض الآيات القرآنية التى أشارت إلى ذلك، حيث تعرض أعمال أمّة محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم عليه فى نهاية كل أسبوع فتطلع روحه الطاهرة عليها جميعا، فهو شاهد على أمّته.

و ذكرت بعض الأحاديث أنّ معصومى هذه الامّة الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام هم أيضا شهود على أعمال الناس، نقرأ

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قوله: «نحن حجج اللّه فى خلقه و نحن شهداء اللّه و أعلامه فى بريته»[٣٢٢].

فى الحقيقة إنّ المخاطب فى عبارة «لتكونوا» و حسب ظاهر الكلمة هو الامّة جميعا، و قد يكون المراد قادة هذه الامّة، فمخاطبة الكلّ و إرادة الجزء أمر متعارف فى المحادثة اليومية. و مثال ذلك ما جاء فى الآية (٢٠) من سورة المائدة وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً. حيث نعلم أنّ عددا قليلا منهم أصبحوا ملوكا.

و هناك معنى آخر لكلمة شهود، هى «الشهادة العمليّة» أى كون أعمال الفرد أنموذجا للآخرين و قدوة لهم، و هكذا يكون جميع المسلمين الحقيقيين شهودا، لأنّهم أمّة تقتدى بهم الأمم بما لديهم من دين يمكنهم أن يكونوا مقياسا للسمو و الفضل بين جميع الأمم. و

جاء فى حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا بعث اللّه نبيّا جعله شهيدا على قومه، و إنّ اللّه تبارك و تعالى جعل أمّتى شهداء على الخلق، حيث يقول:

ليكون الرّسول شهيدا عليكم، و تكونوا شهداء على الناس»[٣٢٣].

أى كما يكون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قدوة و أسوة حسنة لامّته، تكونون أنتم أيضا أسوة و قدوة للناس، و هذا التّفسير لا يناقض الحديث السابق فجميع الامّة شهداء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴٠٩

و الأئمّة الطاهرین شهود ممتازون علی هذه الامّة[۳۲۴].

و إعادة الآیـة فی ختامها بشـکل مرکّز الواجبات الخمسـة فی ثلاث جمل هی فَأَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ فانّ اللّه هو قائدکم و ناصرکم و معینکم: هُوَ مَوْلاکُمْ و فَنِعْمَ الْمَوْلی وَ نِعْمَ النَّصِیرُ.

و الحقیقـة أنّ جملة فَنِعْمَ الْمَوْلی وَ نِعْمَ النَّصِیرُ دلیل علی عبارة وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاکُمْ أی إنّ اللّه أمرکم بالاعتصام به لکونه خیر الموالی و أجدر الأعوان.

ربّنا: تفضّل علینا بالتوفیق للاعتصام بـذاتک المقدّسـة، و لنکون أسوة فی الارتباط بالخالق و الخلق، و قـدوة و شاهـدا علی الآخرین، و وفّقنا لإکمال هذا التّفسیر الجامع و النموذجی لکتابک المنزل.

ربّنا: کما دعوتنا فی قرآنک الکریم و فی کتبک السماویة الاخری بالمسلمین، فوفّقنا للتسلیم لأمرک، و أمحض لنا طاعتک.

ربّنا: انصرنا علی أعدائک و أعداء دینک الذین أرادوا بالإسلام و القرآن کیدا، فأنت نعم المولی و نعم النصیر.

نهایة سورة الحجّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۱۱

سورة المؤمنین

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها مائة و ثمانی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۱۳

«سورة المؤمنون»

فضیلة سورة المؤمنون:

ذکرت أحادیث مرویة عن الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة أهل البیت علیهم السّلام فضائل لهذه السورة.

فعن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلم «من قرأ سورة المؤمنین، بشّرته الملائکة یوم القیامة بالروح و الریحان و ما تقرّ به عینه عند نزول ملک الموت»[۳۲۵].

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام «من قرأ سورة المؤمنین ختم اللّه له بالسعادة إذا کان یدمن قراءتها فی کلّ جمعة، و کان منزله فی الفردوس الأعلی مع النبیّین و المرسلین»[۳۲۶].

و نؤکّد أنّ فضیلة السورة، لیست فقط فی تلاوتها، و إنّما یجب أن یرافق ذلک التمعّن فی معانیها و العمل بما أوجبته، لأنّ هذا الکتاب یبنی الـذات الإنسانیـة و یربّیهـا، فهو برنامـج عملی لتکامل الإنسان، و لو طابق المرء برنامجه العملی مع محتوی هـذه السورة- حتّی إن طابق مع آیاتها الأولی التی تبیّن صفات المؤمنین- لنال النصیب الأوفر من لدن العلی القدیر.

لهذا ذکر

فی روایـة عن الرّسول صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّه قـال حین نزلت الآیات الأولی من هـذه السورة: «لقـد أنزل إلیّ عشـر آیات من أقامهنّ دخل الجنّة»[۳۲۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۱۴

عبارة «أقام» التی ذکرت مکان «قرء» تعبّر عن الحقیقة التی ذکرناها أعلاه، فالهدف تطبیق ما تضمنّته هذه الآیات و لیس تلاوتها فقط.

مضمون سورة المؤمنین:

القسم المهمّ من هذه السورة- کما یبدو من اسمها- تحدّث عن صفات المؤمنین البارزة، ثمّ تناولت السورة العقیدة و العمل بها، و هی تتمّة لتلک الصفات.

و یمکن إجمالا تقسیم مواضیع هذه السورة إلی الأقسام التالیة:

القسم الأوّل: یبدأ بالآیة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و ینتهی بعدد من الآیات التی تذکر صفات هی مدعاة لفلاح المؤمنین، و هذه الصفات دقیقة و شاملة تغطّی جوانب الحیاة المختلفة للفرد و المجتمع.

و بما أنّ أساسها الإیمان و التوحید، فقد أشار القسم الثّانی من هذه المواضیع إلی علائم أخری للمؤمنین، التوحید و آیات عظمة اللّه و جلاله فی عالم الوجود، فعدّدت نماذج لذلک العالم العجیب فی خلق السّماء و الأرض و الإنسان و الحیوان و النبات.

و لإتمام الجوانب العملیّة، شرح القسم الثّالث ما حدث لعدد من کبار الأنبیاء، کنوح و هود و موسی و عیسی علیهم السّلام، و بیّن شرائح من تأریخ حیاتهم للعبرة و الموعظة.

و فی القسم الرّابع وجّه الخطاب سبحانه و تعالی إلی المستکبرین یحذّرهم ببراهین منطقیّة تارة، و أخری بتعابیر دافعة عنیفة، لیعید القلوب إلی طریق الصواب بالعودة إلیه عزّ و جلّ.

و بیّن القسم الخامس- فی بحث مرکّز- المعاد.

و تناول القسم السادس سیادة اللّه علی عالم الوجود، و إطاعة العالم و لأوامره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۱۵

و أخیرا تناول القسم السابع حساب یوم القیامة، و جزاء الخیر للمحسنین، و عقاب المذنبین. و ینهی السورة ببیان الغایة من خلق الإنسان.

فالسورة مجموعة من دروس العقیدة و العمل، و قضایا التوعیة و شرح لنهج المؤمنین من البدایة حتّی النهایة.

إنّ هذه السورة- کما سبق أن ذکرنا- نزلت فی مکّة، إلّا أنّ بعض المفسّرین ذکروا أنّ عددا من آیاتها نزل فی المدینة، و کان الدافع لذلک وجود آیة الزکاة فیها، لأنّ الزکاة شرّعت لأوّل مرّة فی المدینة اثر نزول الآیة خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً التوبة (۱۰۳)، حیث أمر الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم بجمع الزکاة من المسلمین.

إلّا أنّه یجب الانتباه إلی أنّ للزکاة مفهوما واسعا یشمل الواجب و المستحبّ، و لا یتحدّد معناه بالزکاة الواجبة فقط، لهذا نقرأ فی الأحادیث أنّ الصلاة و الزکاة مترادفتان [۳۲۸].

و إضافة إلی ذلک فإنّ بعض المفسّرین یرون أنّ الزکاة کانت واجبة فی مکّة أیضا، غیر أنّها کانت بصورة مجملة أوجبت علی کلّ مسلم مساعدة المحتاجین بمقدار من ماله، ثمّ أصبحت وفق برنامج محدّد و دقیق بعد تشکیل الحکم الإسلامی فی المدینة، حیث حدّد نصابها، و عیّن العاملین علیها، و بعثهم الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المناطق الإسلامیة لجمع الزکاة[۳۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۱۶

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (۱) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (۲) وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (۳) وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (۴)
وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۵) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۶) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (۷) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (۸) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (۹)
أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (۱۰) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۱)

التّفسير

صفات المؤمنين البارزة:

إختيار اسم المؤمنين لهذه السورة- كما تقدّم- لأنّه جاء فى بدايتها آيات شرحت بعبارات وجيزة معبّرة صفات المؤمنين، و ممّا يلفت النظر أنّها أشارت إلى مستقبل المؤمنين السعيد قبل بيان صفاتهم، استنارة للشوق فى قلوب المسلمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۷

للوصول إلى هذا الفخر العظيم باكتساب صفة المؤمنين. تقول الآية قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ

كلمة «أفلح» مشتقّة من الفلح و الفلاح، و تعنى فى الأصل الحرث و الشقّ، ثمّ أطلقت على أى نوع من النصر و الوصول إلى الهدف و السعادة بشكل عام، و الحقيقة أنّ المنتصرين يزيلون من طريقهم كلّ الموانع و الحواجز لينالوا الفلاح و السعادة، و يشقّون طريقهم لتحقيق أهدافهم فى الحياة. و لكلمة الفلاح معنى واسعا بضمّ الفلاح المادّى و المعنوى، و يكون الاثنان للمؤمنين.

فالفلاح الدنيوى أن يحيا الإنسان حرّا مرفوع الرّسول عزيز النفس غير محتاج، و لا يمكن تحقيق كلّ ذلك إلّا فى ظلال الإيمان و التمسّك باللّه و برحمته.

أمّا فلاح الآخرة فهو الحياة فى نعيم خالد إلى جانب أصدقاء جديرين طاهرين، حياة العزّ و الرفعة.

و يلخّص الراغب الاصفهانى خلال شرحه هذه المفردة بأنّ الفلاح الدنيوى فى ثلاثة أشياء: البقاء و الغنى و العزّ، و أمّا الفلاح الاخروى ففى أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، و غناء بلا فقر، و عزّ بلا ذلّ، و علم بلا جهل.

ثمّ تشرح الآية هذه الصفات فتؤكّد قبل كلّ شىء على الصلاة فتقول: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ

«خاشعون» مشتقّة من خشوع، بمعنى التواضع و حالة التأدّب يتخذها الإنسان جسما و روحا بين يدى شخصيّة كبيرة، أو حقيقة مهمّة تظهر فى الإنسان و تبدو علاماتها على ظاهر جسمه.

و القرآن اعتبر الخشوع صفة المؤمنين، و ليس إقامة الصلاة، إشارة منه إلى أنّ الصلاة ليست مجرّد ألفاظ و حركات لا روح فيها و لا معنى، و إنّما تظهر فى المؤمن حين إقامة الصلاة حالة توجّه إلى اللّه تفصله عن الغير و تلحقه بالخالق، و يغوص فى ارتباط مع اللّه، و يدعوه بتضرّع فى حالة تسود جسمه كلّه، فيرى نفسه ذرّة إزاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۸

الوجود المطلق لذات اللّه، و قطرة فى محيط لا نهاية له.

لحظات هذه الصلاة درسا للمؤمن فى بناء ذاته و تربيتها، و وسيلة لتهذيب نفسه و سمو روحه.

و

قد جاء فى حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم حين شاهد رجلا يلهو بلحيته و هو يصلّى قوله: «أمّا لو خشع قلبه

لخشعت جوارحه»[۳۳۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۴۱۸

ارهٔ منه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی أنّ الخشوع الباطنی یؤثّر فی ظاهر الإنسان. و کان کبار قادهٔ المسلمین یؤدّون صلاتهم بخشوع حتّی تحسبهم فی عالم آخر، یذوبون فی اللّه، حیث نقرأ عنهم

فی حدیث عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم «إنّه کان یرفع بصره إلی السّماء فی صلاته، فلمّا نزلت الآیهٔ طأطأ رأسه و رمی ببصره إلی الأرض»[۳۳۱].

و ثانی صفهٔ للمؤمنین بعد الخشوع ممّا تذکره الآیهٔ وَ الَّذِینَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ حقّا نری جمیع حرکات و سکنات المؤمنین تتجّه لهدف واحد مفید و بنّاء، لأنّ «اللغو» یعنی الأعمال التافههٔ غیر المفیدهٔ، و کما قال بعض المفسّرین فإنّ اللغو کلّ قول أو عمل لا فائدهٔ فیه، و إذا فسّر البعض اللغو بالباطل.

و بعض فسّره بالمعاصی کلّها.

و آخر بمعنی الکذب.

و آخر: السباب أو السباب المتقابل.

و البعض الآخر قال: إنّه یعنی الغناء و اللهو و اللعب.

و آخر: إنّه الشرک. فإنّ هذه المعانی مصادیق ذلک المفهوم العام.

و طبیعی أنّ اللغو لا یشمل الأفعال و الکلام التافه فقط، و إنّما یعنی الآراء التافههٔ التی لا أساس لها، التی تنسی العبد ربّه و تشغله بها دون الأمور المفیدهٔ، إذن فاللغو یتضمّن کلّ هذا، و الحقیقهٔ أنّ المؤمنین لم یخلقوا من أجل الانشغال بآراء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۹

باطلهٔ أو کلام تافه، بل هم معرضون عنها، کما قال القرآن الکریم.

و تشیر الآیهٔ الثّالثهٔ إلی ثالث صفهٔ من صفات المؤمنین الحقیقیین، و هی ذات جانب اجتماعی و مالی حیث تقول: وَ الَّذِینَ هُمْ لِلزَّکاةِ فاعِلُونَ ۳۳۲].

ربّما تکون السورهٔ مکّیهٔ، کما قلنا سابقا، نزلت فی وقت لم تشرّع فیه الزکاهٔ بعد بمعناها المعروف، لذلک نجد اختلافا بین المفسّرین فی تفسیر هذه الآیهٔ، و لکن الذی یبدو أصوب هو أنّ الزکاهٔ لا تنحصر بالزکاهٔ الواجبهٔ الأداء، و إنّما هناک أنواع کثیرهٔ منها مستحبّهٔ، فالزکاهٔ الواجبهٔ شرعت فی المدینهٔ، إلّا أنّ الزکاهٔ المستحبّهٔ کانت موجودهٔ قبل هذا.

و ذهب مفسّرون آخرون إلی احتمال أن تکون الزکاهٔ واجبهٔ کحکم شرعی فی مکّهٔ لکن دون تحدید، حیث کان الواجب علی کلّ مسلم مساعدهٔ المحتاجین بما یتمکّن، إلّا أنّه أصبح للزکاهٔ أسلوبها الخاص عقب تشکیل الحکم الإسلامی و تأسیس بیت مال المسلمین، حیث تحدّدت أنصبتها من کلّ محصول و مال.

و أصبح لها جباهٔ یجبونها من المسلمین بأمر من الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

أمّا ما یراه بعض المفسّرین أمثال الفخر الرازی و الآلوسی فی «روح المعانی» و الراغب الاصفهانی فی مفرداته من أنّ الزکاهٔ هنا تعنی عمل الخیر أو تزکیهٔ المال أو تطهیر الروح، فبعید، لأنّ القرآن المجید کلّما ذکر الصلاهٔ مع الزکاهٔ یقصد بالزکاهٔ الإنفاق المالی، و لو فسّرناه بغیر هذا، فذلک یحتاج إلی قرینهٔ واضحهٔ لا توجد فی هذه الآیات.

و رابع صفهٔ من صفات المؤمنین هی الطهارهٔ و العفّهٔ بشکل تامّ، و اجتناب أی معصیهٔ جنسیهٔ، حیث تقول الآیهٔ: وَ الَّذِینَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ ۳۳۳] یحفظونها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۰

ممّا يخالف العفّة إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ

بما أنّ الغريزة الجنسية أقوى الغرائز عند الإنسان تمرّدا، و لضبط النفس عنها يحتاج المرء إلى التقوى و الإيمان القوى، لهذا أكدّت الآية التالية على هذه المسألة فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ

إنّ عبارة المحافظة على «الفروج» قد تكون إشارة إلى أنّ فقدان المراقبة المستمرة فی هذا المجال تؤدّی بالفرد إلى خطر التلوث بالانحرافات الكثيرة.

أمّا عبارة أَزْواجِهِمْ فهی تشمل الزوجين الذكر و الأنثى، رغم أنّ بعض مفسّری أهل السنّه وقعوا فی خطأ فی تفسير هذه الآية سنشير إليه لا حقا.

و يمكن أن تكون عبارة غَيْرُ مَلُومِينَ إشارة إلى الرأی الخاطئ عند المسيحيين الذی أصبح يشكّل انحرافا فی عقيدتهم، و هو أنّ أی اتّصال جنسی يعتبر فعلا غير لائق بالإنسان و تركه فضيلة له، حتّى نرى القساوسة الكاثوليك- نساء و رجالا- ممّن طلّق الدنيا يحيون عزّابا و يتصوّرون الزواج بأی شكل كان خلافا لمنزلة الإنسان الروحية و هذه القضيّة شكلية فحسب، حيث يختار هؤلاء لإشباع غرائزهم سبلا خفيّة متعدّدة. ذكرتها كتبهم)[۳۳۴].

و على كلّ حال فإنّ اللّه لم يخلق فی الإنسان غريزة كجزء من مكوّناته المثلى، ثمّ يعتبرها تناقض منزلة الإنسان عنده.

و كون الزوجات حلّا للأزواج فی علاقتهنّ الجنسيّة باستثناء أيّام العادة الشهرية و أمثالها، لا تحتاج إلى شرح. و كذلك كون الجواری حلالا عند ما يكنّ على وفق شروط ذكرتها الكتب الفقهيّة و ليس كما يتصوّر البعض أنّ كلّ واحدة منهنّ و دون شرط حلّ لمالكها، و فی الحقيقة لهنّ شروط الزوجة فی حالات كثيرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۱

و أشارت الآية الثامنة- موضع البحث- إلى الصفتين الخامسة و السادسة من صفات المؤمنين البارزة، حيث تقول: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ إنّ المحافظة على «الأمانة» بالمعنى الواسع للكلمة، و كذلك الالتزام بالعهد و الميثاق بين يدی الخالق و الخلق من صفات المؤمنين البارزة. و تعنی الأمانة بمفهومها الواسع أمانة اللّه و رسوله إضافة إلى أمانات الناس، و كذلك ما أنعم اللّه على خلقه. و تضمّ أيضا أمانة اللّه الدين الحقّ و الكتب السماوية و تعاليم الأنبياء القدماء، و كذلك الأموال و الأبناء و المناصب جميعها أمانات اللّه سبحانه و تعالى بيد البشر، يسعى المؤمنون فی المحافظة عليها و أداء حقّها. و يحرسونها ما داموا أحياء.

و يرثها أبناؤهم الذين تربّوا على أداء الأمانات و الحفاظ عليها.

و الدليل على عموميّة مفهوم الأمانة هنا، إضافة إلى سعة المفهوم اللغوی لهذه الكلمة، هو أحاديث عديدة وردت فی تفسير الأمانة بأنّها (أمانة الأئمّة المعصومين) أی: ينقلها كلّ إمام إلى وارثه [۳۳۵].

و أحيانا تفسير الأمانة بأنّها الولاية بشكل عامّ.

و ممّا يلفت النظر رواية زرارة أحد تلاميذ الإمام الباقر عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام عن قوله تعالى أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها[۳۳۶] «أدّوا الولاية إلى أهلها ...»[۳۳۷].

و هكذا يكشف عن أنّ الحكومة وديعة إلهيّة مهمّة جدّا يجب إيداعها بيد من هو أهلها.

و هناك تعابير قرآنية عديدة تدلّ على عمومية و شمولية العهد، منها: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ ۳۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۲

و الجدير بالملاحظة أنّ بعض آيات القرآن عبّرت عن ذلك العهد بأداء الأمانة و عدم خيانتها و المحافظة عليها، و «رعاية الأمانة» التی استعملت فی الآية السابقة تضمّ معنى الأداء و المحافظة.

فعلى هذا فانّ التفسير فى المحافظة على الأمانة و الذى يؤدّى إلى وقوع ضرر أو تعرّضها للخطر، يوجب على الأمين إصلاحها (و بهذا تترتّب ثلاثة واجبات على الأمين: الأداء، و المحافظة، و الإصلاح) فلا بدّ أن يكون الالتزام بما تعهّد به المرء و المحافظة عليه.

و أداء الأمانة من أهمّ القواعد فى النظام الاجتماعى، و دون ذلك يسود التخبّط فى المجتمع. و لهذا السبب نرى شعوبا لا تتمسّك عامّتها بالدين، إلّا أنّها- سعيا منها لمنع الاضطراب- تفرض على نفسها رعاية العهد و الأمانة، و تعتبر نفسها مسئولة أمام هذين المبدأين- فى أقلّ تقدير- فى القضايا الاجتماعية العامّة (و قد بيّنا بإسهاب أهميّة الأمانة فى تفسير الآية (۵۸) من سورة النساء. و فى تفسير الآية (۲۷) من سورة الأنفال، و شرحنا الوفاء بالعهد فى تفسير الآية الأولى من سورة المائدة و فى تفسير الآية (۹۱) من سورة النحل).

و بيّنت الآية التاسعة من الآيات موضع البحث آخر صفة من صفات المؤمنين حيث تقول: وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ

و ممّا يلفت النظر أنّ أوّل صفة للمؤمنين كانت الخشوع فى الصلاة، و آخرها المحافظة عليها، بدأت بالصلاة و انتهت به. لماذا؟ لأنّ الصلاة أهمّ رابطة بين الخالق و المخلوق، و أغنى مدرسة للتربية الإنسانية.

الصلاة وسيلة ليقظة الإنسان و خير وقاية من الذنوب.

و الخلاصة، إنّ الصلاة إن أقيمت على وفق آدابها اللازمة، أصبحت أرضية أمينة لأعمال الخير جميعا.

و جدير بالذكر إلى أنّ الآيتين الأولى و الأخيرة تضمّنت كلّ واحدة منها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۳

موضوعا يختلف عن الآخر، فالآية الأولى تضمّنت الصلاة بصورة مفردة، و الأخيرة بصورة جماعية. الأولى تضمّنت الخشوع و التوجّه الباطنى إلى اللّه. هذا الخشوع الذى يعتبر جوهر الصلاة، لأنّ له تأثيرا فى جميع أعضاء جسم الإنسان، و الآية الأخيرة أشارت إلى آداب و شروط صحّة الصلاة من حيث الزمان و المكان و العدد، فأوضحت للمؤمنين الحقيقيين ضرورة مراعاة هذه الآداب و الشروط فى صلاتهم.

و قد شرحنا أهميّة الصلاة فى المجلّدات المختلفة لهذا التّفسير. فليراجع تفسير الآية (۱۱۴) من سورة هود و كذلك تفسير الآية (۱۰۳) من سورة النساء و فى تفسير الآية (۱۴) من سورة طه.

بعد بيان هذه الصفات الحميدة، بيّنت الآية التالية حصيلة هذه الصفات فقالت:

أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ

أولئك الذين يرثون الفردوس و منازل عالية و حياة خالدة الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ

«الفردوس»- على قول- هى مفردة رومية. و ذهب آخرون إلى أنّها عربية، و قيل فارسية بمعنى «البستان». أو بستان خاص اجتمعت فيه جميع تسميتها بالجنّة العالية، و أفضل البساتين.

و يمكن أن تكون عبارة «يرثون» إشارة إلى نيل المؤمنين لها دون تعب مثلما يحصل الوارث الإرث دون تعب. و صحيح أنّ الإنسان يبذل جهودا واسعة و يضحى بوقته و يسلب راحته فى بناء ذاته و التقرّب إلى اللّه، إلّا أنّ هذا الجزاء الجميل أكثر بكثير من قدر هذه الأعمال البسيطة، و كأنّ المؤمن ينال الفردوس دون تعب و مشقّة.

كما يجب ملاحظة حديث

روى عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم «ما منكم من أحد إلّا و له منزلان: منزل فى الجنّة، و منزل فى النّار، فإن مات و دخل النّار ورث أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۴

الجنّة منزله».

کما یمکن أن تکون عبارة «یرثون» فی الآیة السابقة إشارة إلی حصیلة عمل المؤمنین، فهی کالمیراث یرثونه فی الختام، و علی کلّ حال فإنّ هذه المنزلة العالیة- حسب ظاهر الآیات المذکورة أعلاه- خاصّة بالمؤمنین الذین لهم هذه الصفات، و نجد أهل الجنّة الآخرین فی منازل أقلّ أهمیّة من هؤلاء المؤمنین.

ملاحظات

۱- إختیار الفعل الماضی «أفلح» لنجاح المؤمنین، تأکید أقوی

أی إنّ نجاحهم طبیعی و کأنّه تحقّق من قبل. و جاءت کلمة (قد) أیضا لتأکید هذا الموضوع ثانیة. و جاءت عبارات (خاشعون) و (معرضون) و (راعون) و (یحافظون) بصیغة اسم فاعل أو فعل مضارع دلیلا علی أنّ هذه الصفات البارزة لیست مؤقتة فی المؤمنین الحقیقیین، بل هی دائمة فیهم.

۲- الزوجة الدائمة و المؤقتة

یستفاد من الآیات المذکورة أعلاه علی أنّ هناک نوعین من النساء یجوز الدخول بهما: الأولی الزوجات، و الثّانیة الجواری (بشروط خاصّة)، لهذا استندت الکتب الفقهیّة علی هذه الآیة فی مواضیع عدیدة خلال بحث النکاح.

و لکن بعض المفسّرین و الفقهاء من أهل السنّة حاولوا الاستفادة من هذه الآیة فی إثبات حرمة الزواج المؤقت.

و مع ملاحظة هذه الحقیقة، و هی أنّ من الثابت المسلّم به هو أنّ الزواج المؤقت (المتعة) کان حلالا علی عهد الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم و لم ینکره أحد من المسلمین، إلّا أنّ البعض یری أنّه کان فی صدر الإسلام و عمل به الکثیر من الصحابة، إلّا أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۵

نسخ، و قال آخرون: إنّ عمر بن الخطاب منعه.

و مفهوم کلام هذه المجموعة من المفسّرین السنّة- بعد ملاحظة هذه الحقائق- هو أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم (و العیاذ باللّه) أجاز الزنا فی أقلّ تقدیر لفترة محدّدة، و هذا غیر صحیح أبدا.

إضافة إلی أنّ «المتعة» خلافا لتصوّر هؤلاء، هی نوع من الزواج المؤقت بعظم شروط الزواج الدائم، و علی هذا فإنّ عبارة: إِلَّا عَلی أَزْواجِهِمْ هی بالتأکید تتضمّنه. و لهذا السبب تستخدم صیغ الزواج الدائم (أنکحت و زوّجت) مع ذکر مدّة الزواج عند قراءة صیغة الزواج المؤقت، و هذا خیر دلیل علی کون المتعة زواجا.

و قد بیّنا بالتفصیل الأمور المتعلّقة بالزواج المؤقت و أدلّته الشرعیّة فی الإسلام، و عدم نسخ هذا الحکم الإلهی، و کذلک فلسفته الاجتماعیة، فی تفسیر الآیة (۲۴) من سورة النساء.

۳- الخشوع روح الصلاة

إذا اعتبر الرکوع و السجود و القراءة و التسبیح جسم الصلاة، فالتوجّه الباطنی إلی حقیقة الصلاة، و إلی من یناجیه المصلّی، هو روح الصلاة. و الخشوع ما هو إلّا توجّه باطنی مع تواضع. و علی هذا یتبیّن أنّ المؤمنین لا ینظرون إلی الصلاة کجسم بلا روح، بل إنّ جمیع

توجّههم إلی حقیقة الصلاة و باطنها.

و هناک عدد کبیر من الناس یودّ بشوق بالغ أن یکون خاشعا فی صلاته، إلّا أنّه لا یتمکّن من تحقیق ذلک.

و لتحقیق الخشوع و التوجّه التامّ إلی اللّه فی الصلاة و فی سائر العبادات، أوصی بما یلی:

۱- نیل معرفة تجعل الدنیا فی عین المرء صغیرة تافهة، و تجعل اللّه کبیرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۶

عظیما، حتّی لا تشغله الدنیا بما فیها عن الذوبان فی اللّه عند مناجاته و عبادته.

۲- الاهتمام بالأمور المختلفة یمنع الإنسان من ترکیز أفکاره و حواسّه، و کلّما تمکّن الإنسان من التخلّص من مشاغله حصل علی توجّه إلی اللّه فی العبادة.

۳- إختیار مکان الصلاة و سائر العبادات له أثر کبیر فی هذه المسألة، لهذا فإنّ الصلاة مع انشغال البال بغیرها تعدّ مکروهة، و کذلک فی موضع مرور الناس أو قبال المرآة و الصورة، و لهذا الأسباب تکون المساجد الإسلامیة أفضل إن کانت أبسط بناء و أقلّ زخرفة و أبّهة، لیکون التوجّه کلّه للّه فاطر السموات و الأرض.

۴- اجتناب المعاصی عامل مؤثّر فی التوجّه إلی اللّه، لأنّ المعصیة و الذنب تبعد الشقّة بین قلب المسلم و خالقه.

۵- معرفة معنی الصلاة و فلسفة حرکاتها و الذکر عامل مؤثّر کبیر علی ذلک.

۶- و یساعد علی ذلک أداء المستحبّات، سواء کانت قبل الدخول فی الصلاة أو فی أثنائها.

۷- و علی کلّ حال فإنّ هذا العمل هو کبقیّة الأعمال الأخری یحتاج إلی تمرین متواصل، و یحدث کثیرا أن یحصل الإنسان علی قدرة الترکیز الفکری فی لحظة من لحظات الصلاة، و بمواصلة هذا العمل و متابعته یحصل علی قدرة ذاتیة یمکنه بها إغلاق أبواب فکره فی أثناء الصلاة إلّا علی خالقه (فتأمّلوا جیدا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۷

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۱۲ الی ۱۶]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِینٍ (۱۲) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِی قَرارٍ مَکِینٍ (۱۳) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَکَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ (۱۴) ثُمَّ إِنَّکُمْ بَعْدَ ذلِکَ لَمَیِّتُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّکُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ تُبْعَثُونَ (۱۶)

التّفسیر

مراحل تکامل الجنین فی الرحم:

إنّ ذکر الآیات السابقة أوصاف المؤمنین الحقیقیین، و ما یمنحهم اللّه من جزاء عظیم یبعث فی القلوب الشوق للالتحاق بصفوفهم، لکن بأی طریق؟

تبیّن الآیات موضع البحث- و قسم من الآیات التالیة لها- السبیل لکسب الإیمان و المعرفة، حیث یمسک القرآن بید الإنسان لیأخذه إلی «عالم النفس» و لیکشف له أسرار باطنه و هو «السیر الأنفسی»، و تثیر الآیات التالیة لها انتباه الإنسان إلی عالم الظاهر و المخلوقات

المدهشة فی عالم الوجود و سبر عالم الآفاق، و هو «السیر الآفاقی».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۸

تقول الآیات أوّلا: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِینٍ ۳۳۹].

أجل، إنّ هذه الخطوهٔ الأولی التی خلق اللّه فیها الإنسان بکلّ عظمته و استعداده و جدارته و الذی یعتبر أفضل مخلوقاته من تراب مهین لا قدر و لا قیمهٔ له، و هکذا تجلّت قدرته سبحانه و تعالی فی هذا الخلق البدیع.

و تضیف الآیهٔ التالیهٔ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَهً فِی قَرارٍ مَکِینٍ

و فی الواقع فانّ الآیهٔ الأولی تشیر إلی بدایهٔ وجود جمع البشر من آدم و أبنائه و أنّهم خلقوا جمیعا من التراب، إلّا أنّ الآیهٔ التالیهٔ تشیر إلی تداوم و استمراریهٔ نسل الإنسان بواسطهٔ ترکیب نطفهٔ الذکر ببویضهٔ الأنثی فی الرحم.

و هذا البحث یشبه ما جاء فی الآیتین السابعهٔ و الثامنهٔ من سورهٔ السجدهٔ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِینٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ

و التعبیر عن الرحم ب «قرار مکین»، أی القرار الآمن، إشارهٔ إلی أهمیّهٔ الرحم فی الجسم، حیث یقع فی مکان أمین محفوظ من جمیع الجهات، یحفظه العمود الفقری من جهه، و عظم الحوض القوی من جهه أخری، و أغشیهٔ البطن العدیدهٔ من جهه ثالثهٔ، و دفاع الیدین یشکّل حرزا رابعا له. و کلّ ذلک شواهد علی موضع الرحم الآمن.

ثمّ تشیر الآیهٔ الثّالثهٔ إلی المراحل المدهشهٔ و المثیرهٔ لتدرّج النطفهٔ فی مراحلها المختلفهٔ، و اتّخاذها شکلا معیّنا فی کلّ منها فی ذلک القرار المکین، حیث تقول: إنّنا جعلنا من تلک النطفهٔ علی شکل قطعهٔ دم متخثّر (علقهٔ) ثمّ بدّلناها علی شکل قطعهٔ لحم ممضوغ (مضغهٔ)، ثمّ جعلنا من هذه المضغهٔ عظاما، و أخیرا ألبسنا هذه العظام لحما: ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَهَ عَلَقَهً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَهَ مُضْغَهً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَهَ عِظاماً فَکَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۹

هذه المراحل الأربعهٔ المختلفهٔ مضافا إلی مرحلهٔ النطفهٔ تشکّل خمس مراحل، کلّ منها عالم عجیب بذاته ملی بالعجائب بحثت بدقّهٔ فی علی الجنین، و ألّفت بصددها کتب و بحوث عمیقهٔ فی عصرنا، إلّا أنّ القرآن تکلّم عن هذه المراحل المختلفهٔ لجنین الإنسان، و بیّن عجائبه یوم لم یولد هذا العلم و لا یکن له أثر.

و فی الختام أشارت الآیهٔ إلی آخر مرحلهٔ و التی تعتبر- فی الحقیقهٔ- أهمّ مرحلهٔ فی خلق البشر، بعبارهٔ عمیقهٔ و ذات معنی کبیر ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ و فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ

مرحبا بهذه القدرهٔ الفریدهٔ، التی خلقت فی ظلمات الرحم هذه الصورهٔ البدیعهٔ، و صاغت من قطرهٔ ماء کلّ هذه الأمور المدهشهٔ.

طوبی لهذا العلم و الحکمهٔ و التدبیر، الذی خلق فی هذا الموجود البسیط کلّ هذه القابلیات و الجدارهٔ. تعالی اللّه فقد تجلّت قدرته فیما خلق.

و جدیر بالذکر أنّ کلمهٔ «الخالق» مشتقّهٔ من «الخلق» و تعنی بالأصل التقدیر[۳۴۰]، حیث تطلق هذه الکلمهٔ عند ما یراد تقطیع قطعهٔ من الجلد فینبغی علی الشخص أن یقیس أبعاد القطعهٔ المطلوبهٔ ثمّ یقطعها، فیستخدم لفظ «الخلق» بمعنی التقدیر، لأهمیّهٔ تقدیر أبعاد الشیء، قبل قطعه.

أمّا عبارهٔ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ فتثیر هذا التساؤل: هل یوجد خالق غیر اللّه؟! وضع بعض المفسّرین تبریرات لهذه الآیهٔ فی وقت لا حاجهٔ فیه لهذه التبریرات، لأنّ کلمهٔ «الخلق» بمعنی التقدیر و الصنع، و یصحّ ذلک بالنسبهٔ لغیر اللّه، إلّا أنّ هناک اختلافا جوهریا بین الخلقین ... یخلق اللّه المواد و صورها، بینما یصنع الإنسان أشیاءه ممّا خلق اللّه، فهو یغیّر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۰

صورها. كمن يبنى دارا حيث يستخدم موادا أوّلية كالجصّ و الآجر، أو يصنع من الحديد سيارة أو ماكنة.

و من جهة أخرى لا حدود لخلق اللّه اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سورة الرعد الآية (۱۶) فى وقت نجد ما صنعه الإنسان محدودا جدّا، و فى كثير من الأحيان يجد الإنسان فيما خلقه هو نقصا يجب سدّه فيما بعد، إلّا أنّ اللّه يبدع الخلق دون أى نقص أو عيب.

ثمّ إنّ قدرة الإنسان على صنع الأشياء جاءت بإذن من اللّه، حيث كلّ شىء فى العالم يتحرّك بإذن اللّه، حتّى الورق على الشجر، كما نقرأ فى سورة المائدة الآية (۱۱۰) عن المسيح عليه السّلام وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى

و تنتقل الآية التالية من تناول مسألة التوحيد و معرفة المبدأ- بشكل دقيق و جميل- إلى مسألة المعاد حيث تقول: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ

و من أجل أن لا يعتقد المرء بأنّ الموت نهاية كلّ شىء، تقول الآية: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ أى إنّ خلقكم بهذه الصورة المدهشة لم يكن عبثا أو لتعيشوا أيّاما معدودات، فتضيف الآية أنّكم ستبعثون يوم القيامة فى مستوى أعلى و فى عالم أوسع.

بحوث

۱- اتّباع المبدأ و المعاد بدليل واحد

استخدمت الآيات المذكورة أعلاه لإثبات وجود اللّه و قدرته و عظمته نفس الدليل الذى استخدمته سورة الحجّ لإثبات المعاد، و هو مسألة المراحل المختلفة لخلق الإنسان فى علام الجنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۳۱

كما انتقلت آخر هذه الآيات إلى بحث مسألة المعاد[۳۴۱].

أجل، يمكن أن تعرف عظمة اللّه فى خلق الإنسان فى ظلمات الرحم، و اتّخاذه فى كلّ مرحلة صورة جديدة مدهشة، و كأنّ عشرات الأشخاص من رسّامين و صنّاع مبدعين التفّوا حول هذه القطرة من الماء، و عملوا ليل نهار ليخرجوها بهذه الصورة البديعة، و لتمرّ من صورة إلى أخرى أبدع، حتّى تمرّ فى مختلف مراحل الحياة.

و إذا تمكّنا من تصوير مراحل نمو الجنين بشكل كامل فى فيلم سينمائى، و عرضناها لفهمنا مدى العجائب التى تكمن فى هذا العمل.

و بتقدّم علم الجنين فى عصرنا و دراسات العلماء و تجاربهم المختبرية على هذا الأمر، اتّضحت الكثير من الغوامض التى عند ما يطّلع عليها المرء يصرخ دون إرادته فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ هذا من جهة.

و من جهة ثانية نلاحظ الخلق المتعاقب و اتّخاذه صورة جديدة فى كلّ مرحلة، و بالتالى ظهور إنسان للوجود كامل الخلق من تلك القطرة الصغيرة من الماء ... كلّ ذلك يدلّ على قدرة اللّه على بعث الإنسان ثانية إلى الحياة. و بهذا يمكن البرهنة بدليل واحد على مسألتين [۳۴۲].

۲- آخر مرحلة فى تكامل جنين الإنسان فى الرحم

ممّا يلفت النظر استخدام الآيات السابقة لمراحل الجنين الخمسة تعبير «الخلق»، فى حين استخدمت كلمة «الإنشاء» لآخر مرحلة، و كما ذكر اللغويون فإنّ كلمة «الإنشاء» تعنى (خلق الشىء مع تربيته) و هذا التعبير يدلّ على اختلاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۳۲

هـذه المرحلـة عن المراحـل السابقـة (مرحلـة النطفـة و العلقـة و المضـغة و اللحم و العظم) اختلافا بيّنا. مرحلـة ذكرها القرآن فی عبارة مؤجزة ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ و يعقّب ذلك مباشرة بالقول: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ

ما هذه المرحلة التی تمتاز بهذه الأهميّة؟

إنّها مرحلة يدخل فيها الجنين مرحلة الحياة الإنسانيّة، يكون له إحساس و حركة، و بتعبير الأحاديث الإسلامية «نفخ الروح».

هنا يترك الإنسان حياته النباتية بقفزة واحدة ليدخل عالم الحيوان، و منه إلی عالم الإنسانية، و تتباعد الشقّة مع المرحلة السابقة بدرجة استخدمت الآيـة لها عبارة (ثمّ أنشأنا) لأنّ عبارة (ثمّ خلقنا) لم تعدّ كافية. حيث يتّخذ الإنسان فی هذه المرحلة شكلا خاصا يرفعه عن المخلوقات الأخرى، ليكون جديرا بخلافة اللّه فی الأرض، و ليحمل الأمانة التی تخلّت عنها الجبال و السموات، لعدم استطاعتها حملها.

و هنا انطوى «العالم الكبير» فی «الجرم الصغير» بكلّ عجائبه، فيكون جديرا حقّا بعبارة فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ

۳- كساء اللحم فوق العظام

ذكر مفسّر (فی ظلال القرآن) عند تفسير هذه الآية جملة مدهشة هی أنّ الجنين بعد قطعه مرحلة «العلقة» و «المضغة» تتبدّل خلاياه إلی خلايا عظميّة، ثمّ تكتسی بالتدريج بالعضلات و اللحم. لهذا فإنّ عبارة فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً معجزة علمية تكشف سرّا لم يكن يعلم به أی شخص حتّى ذلك الزمن. لأنّ القرآن لم يقل: أبدلنا المضغة عظما و لحما، بل قال: فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً أی تبدّلت المضغة إلی عظام أوّلا، ثمّ اكتست باللحم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۳

۴- اللباس صيانة للعظام!

إنّ استخدام اللباس للتعبير عن العضلات و اللحم يكشف لنا حقيقة قباحة شكل الإنسان إن فقد هذا اللباس الذی يكسوا العظام (فيصبح هيكلا عظميا مرعبا كما شاهدناه جميعا أو شاهدنا صورته) إضافة إلی ذلك فإنّ اللباس يحمی الجسم، و هكذا اللحم و العضلات تحمی العظام، و بفقدانها تتلقّی العظام ضربات تؤدّی إلی كسرها، و يؤدّی اللحم وظيفة اللباس بالنسبة للعظام فی المحافظة عليها من الحرّ و البرد. و هذا كلّه يبيّن لنا قوّة التعبير القرآنی و دقّته.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۴

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۷ الی ۲۲]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (۱۷) وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِی الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلی ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (۱۸) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۱۹) وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (۲۰) وَ إِنَّ لَكُمْ فِی الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِی بُطُونِها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۲۱) وَ عَلَيْها وَ عَلَی الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۲۲)

التّفسير

مرّة أخرى مع علائم التوحيد:

قلنا: إنّ القرآن تناول سبل كسب الإيمان بعد ذكر صفات المؤمنين، كما تحدّثت الآيات السابقة عن الآيات اللّه العظيمة فى وجودنا، و تناولت هذه الآيات بعدها عالم الظاهر و آفاق الكون، و عظمة خلق الأرض و السموات، حيث قالت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۳۵

الآية الأولى: وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ

و «الطرائق» جمع «طريقة» بمعنى سبيل أو طبقة، و لو أجزنا المعنى الأوّل للطرائق، يصبح معنى الآية، أنّنا خلقنا فوقكم سبلا سبعة، و يمكن أن تفسّر بأنّها سبل مرور الملائكة، كما يمكن أن تكون مدارات لنجوم السّماء، و بحسب المعنى الثّانى للطرائق، فإنّ الآية تعنى طبقات السّماء السبع.

و قد تحدّثنا عن السماوات السبع قبل هذا كثيرا، و إذا كان القصد من العدد «سبعة» الكثرة، فيكون معنى الآية أنّنا خلقنا فوقكم عوالم كثيرة من النجوم و الكواكب و السيارات، و عبارة الطبقة لا تعنى نظرية «بطلميوس» الذى صوّرها و كأنّها قشرة بصل الواحدة فوق الأخرى. فإنّ القرآن لم يقصد هذا المعنى أبدا، بل يقصد بالطرائق و الطبقات العوالم التى تحيط بالأرض بفواصل محدّدة، و هى بالنسبة لنا الواحدة فوق الاخرى، بعضها قريب و البعض الآخر بعيد عنّا. و إذا كان العدد «سبعة» قد استخدم فى الآية للتعداد، فتعنى الآية أنّنا خلقنا ستّة عوالم فوقكم إضافة إلى عالمكم الذى ترونه (مجموعة الثوابت و السيارات و المجرّات).

و هذه العوالم لم يبلغها الإنسان حتّى الآن.

و لو دقّقنا بخارطة المنظومة الشمسية. و تفحّصنا مواقع السيارات المختلفة حول الشمس، لعثرنا على تفسير آخر لهذه الآية، هو أنّ من هذه السيارات التسع التى تدور حول الشمس، اثنان هما عطارد و الزهرة لهما مداران تحت مدار الأرض، فى الوقت الذى تتّخذ فيه السيارات الست الاخرى مداراتها خارج مدار الأرض، و هى تشبه طبقات ستّ إحداها فوق الاخرى، و إضافة إلى مدار القمر الذى يدور حول الأرض تصبح المدارات سبعة، و كأنّها طبقات سبع ۳۴۳].

و ربّما يتوهّم أنّ العالم بهذه السعة و العظمة ألا يوجب أن يغفل اللّه تعالى عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۳۶

إدارته؟

فتجيب الآية مباشرة وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ إنّ الاستناد هنا إلى مسألة الخلق، إشارة إلى أنّ قضيّة خلق الكون بنفسها دليل على علم اللّه تعالى بمخلوقاته و توجّهه إليها: فهل يمكن أن يغفل الخالق عن مخلوقاته؟! و يمكن أن تقصد الآية أنّنا نملك سبلا كثيرة لتردّد الملائكة من فوقكم، و لسنا غافلين عنكم، كما أنّ ملائكتنا مشرفة عليكم و تشهد أعمالكم.

و أشارت الآية التالية إلى أحد مظاهر القدرة الإلهيّة، الذى يعتبر من بركات السموات و الأرض، ألا و هو المطر، حيث تقول: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ.

أنزلنا المطر بقدر لا- يغرق الأرض من كثرته، و ليس قليلا بحيث لا يكفى لرى النباتات و الحيوانات. أجل لو انتقلنا من البحث حول السّماء إلى الأرض لوجدنا الماء من أهمّ الهبات الإلهيّة، و أصل حياة جميع المخلوقات، و بهذا الصدد أشارت الآية إلى قضيّة أكثر أهميّة، هى قضيّة احتياطى المياه الجوفية فتقول: فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ

نحن نعلم أنّ القشرة السطحيّة من الأرض تتكوّن من طبقتين مختلفتين:

إحداهما نفوذية و أخرى غير نفوذية. و لو كانت القشرة الأرضية جميعا نفوذية لنفذ المطر إلى جوف الأرض فورا، ثمّ يظهر الجفاف بعد هطول المطر و إن استغرق مدّة طويلة ... حيث لا نعثر على ذرّة من الماء! و لو كان سطح الأرض من طين أحمر لبقى المطر فوق سطح الأرض و تلوّث و تعفّن و شدّة الخناق على الإنسان، و أصبح سببا لموت الإنسان فى الوقت الذى هو أصل الحياة.

إلّا أنّ اللّه الرحيم جعل القشرة الأولى من سطح الأرض نافذة، و تليها قشرة غير نافذة تحافظ على المياه الجوفية، فتكون احتياطا للبشر يستخرجها عند الحاجة عن طريق الآبار، أو تخرج بذاتها عن طريق العيون، دون أن تفسد أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۷

توجّه للإنسان أقلّ أذى ۳۴۴].

و يحتمل أن يكون هذا الماء الذى نرتوى به بعد إخراجه من أعماق الأرض من قطرات مطر نزل قبل آلاف السنين و خزن فى أعماق الأرض حتّى اليوم، دون أن يتعرّض لتلوّث أو فساد.

و على كلّ حال فإنّ الذى خلق الإنسان ليحيا، و جعل الماء أساسا لحياته، بل أكثرها أهميّة، خلق له مصادر كثيرة من هذه المادّة الحيوية و خزنها له قبل أن يخلقه! و بالطبع هناك احتياطى من هذه المادّة الحيوية فوق قمم الجبال (على شكل ثلوج). تراه يذوب خلال السنة و ينحدر إلى السهور، و قسم آخر لا زال فوق قمم الجبال منذ مئات بل آلاف السنين، ينتظر الأمر بالذوبان على أثر تغيير حرارة الجو لينحدر إلى السهول و الوديان ليروى الأرض و يزل العطش عنها.

و بملاحظة حرف الجر «فى» فى عبارة «فى الأرض» يبدو لنا أنّ الآية تشير إلى مصادر المياه الجوفية و ليس السطحية.

و تشير الآية التالية إلى الخير و البركة فى نعمة المطر، أى المحاصيل الزراعية الناتجة عنه فتقول: فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ فمضافا إلى التمر و العنب اللذين يعتبران أهمّ المحاصيل الزراعية فانّ فيها أنواع أخرى من الفواكه كثيرة.

و لعلّ عبارة وَ مِنْها تَأْكُلُونَ إشارة إلى أنّ محاصيل هذه الجنّات ذات الخيرات الواسعة لا- تنحصر بالفواكه المأكولة فقط، و أنّ المأكولات تشكّل قسما من خيراتها، فهذه البساتين (و منها بساتين النخيل) لها فوائد كثيرة أخرى لحياة الإنسان، حيث يصنع الإنسان أوراقها حصرا يجلس عليها، و أحيانا يصنع منها لباسا لنفسه، و يعمل من أخشابها منازل لسكناه. و يستخرج دواءه من بعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۸

جذورها و أوراقها و فاكهتها. كما يستخدم الكثير منها كعلف لحيواناته، و من أخشابها مادّة للوقود.

و يعطى الفخر الرازى فى تفسيره احتمال قصد الآية مِنْها تَأْكُلُونَ أنّ حياتكم و معيشتكم تعتمد على هذه البساتين، مثلما أنّ فلانا يعتاش على العمل الفلانى، أى إنّ حياته تعتمد على ذلك العمل ۳۴۵].

و ممّا يلفت النظر من الآيات أعلاه أنّ منشأ حياة الإنسان فى ماء النطفة، و منشأ حياة النبات من ماء المطر، و فى الحقيقة ينبع هذان النموذجان للحياة من الماء. أجل إنّ حكم اللّه و قانونه واحد فى كلّ شىء.

ثمّ تشير الآية التالية إلى شجرة مباركة أخرى نمت من ماء المطر، إضافة إلى بساتين النخيل و الكروم و الأشجار و الفاكهة الاخرى وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ۳۴۶].

ماذا يقصد ب طُورِ سَيْناءَ؟

ذكر المفسّرون لهذه الكلمة احتمالين: الأوّل: أنّها إشارة إلى جبل الطور المعروف فى صحراء سيناء. و إذا وصف القرآن المجيد شجرة الزيتون باعتبارها الشجرة التى تنمو فى جبل الطور، لأنّ عرب الحجاز كانوا يمرّون بهذه الأشجار المباركة عند ما كانوا يتوجّهون إلى الشمال، حيث تقع منطقة الطور فى جنوب صحراء سيناء كما يدلّ على ذلك موقعها الجغرافى بوضوح.

و الاحتمال الثّانى: طور سيناء ذات جانب و صفى يعنى الجبل ذى الخيرات، أو الجبل ذى الأشجار الكثيرة، أو الجبل الجميل (لأنّ

«الطور» یعنی الجبل، و «سیناء» تعنی ذات البرکة و الجمال و الشجر).

و کلمة «صبغ» تعنی فی الأصل اللون، و بما أنّ الإنسان یلوّن خبزه مع المرق،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۹

لهذا أطلق علی جمیع أنواع المرق اسم الصبغ. و علی کلّ حال فکلمة «الصبغ» ربّما تکون إشارة إلی زیت الزیتون الذی یؤکل مع الخبز، أو أنواع الخبز مع المرق الذی یحضر من أشجار أخری.

و هنا یواجهنا سؤال: لماذا أکّد علی ثلاث فواکه هی: التمر و العنب و الزیتون؟

فی الجواب علی ذلک لا بدّ من الاهتمام بمسألة علمیّة، هی أنّ علماء التغذیة أکّدوا أنّه من النّادر أن نجد فاکهة مفیدة لجسم الإنسان بقدر فائدة هذه الفواکه الثلاثة.

فلزیت الزیتون أهمیّة فائقة فی إنتاج الطاقة و بناء الجسم، لأنّ الحرارة الناتجة عن تناوله کبیرة، و هو صدیق حمیم للکبد، و یزیل أمراض الکلیة و یحمیها، و یقوّی الأعصاب، و أخیرا یعتبر إکسیر السلامة.

أمّا التمور فقد و صفت بدرجة لا یسعها هذا الموجز، فسکّرها من أفضل أنواع السکر و أسلمها، و یری عدد کبیر من خبراء التغذیة أنّ التمور من الأسباب التی تحول دون الإصابة بالأمراض السرطانیة، حیث کشف العلماء فی التمور ثلاث عشرة مادّة حیویة، و خمسة أنواع من الفیتامینات، و بهذا تعتبر مصدرا غنیّا بالمواد الغذائیة.

أمّا الأعناب فتعتبر- کما یراه بعض العلماء- صیدلیة طبیعیّة، فخواصها تشبه حلیب الامّ، و تولّد طاقة حراریة فی الجسم تعادل ضعف ما تولده اللحوم، و تصفّی الدم، و تدفع السموم عن البدن، و تمنح فیتاميناته الإنسان قوّة و طاقة مثلی [۳۴۷].

بعد بیان جانب من أنعم اللّه فی عالم النبات التی تنمو علی المطر، یلی ذلک بحث جانب مهمّ من أنعم اللّه و هباته فی عالم الحیوان وَ إِنَّ لَکُمْ فِی الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً[۳۴۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۰

ثمّ تشریح الآیة «العبرة» فتقول: نُسْقِیکُمْ مِمَّا فِی بُطُونِها. أجل إنّ الحیوان یدرّ حلیبا لذیذا یعتبر غذاء کاملا، و یمنح الجسم حرارة کبیرة، و یخرج الحلیب من بین الدم علی شکل دفعات کما ینزف الدم، لتعلموا قدرة اللّه حیث یتمکّن بها من خلق غذاء طاهر لذیذ من بین أشیاء تبدو ملوّثة.

ثمّ تضیف الآیة وَ لَکُمْ فِیها مَنافِعُ کَثِیرَةٌ وَ مِنْها تَأْکُلُونَ إضافة إلی اللحم الذی یعتبر من أجزاء الغذاء الرئیسیّة التی یحتاجها الجسم، یستفاد من جلود الحیوان فی صنع اللباس و الخیم القویّة ذات العمر الطویل. کما یستفاد من صوفها فی صنع الملابس و الفرش و الأغطیة. و یصنع من أجزاء بدنها الدواء، و یستفاد حتّی من روثها لتسمید الأشجار و النباتات.

کما یستفاد من الحیوانات فی الرکوب فی البرّ، و السفن فی البحر وَ عَلَیْها وَ عَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ ۳۴۹].

کلّ هذه الخصائص و الفوائد فی الحیوان تعتبر- حقّا- عبرة لنا، تعرف الإنسان علی ما خلق اللّه من أنعم، کما تثیر فیه الشعور بالشکر و الثناء علی اللّه ۳۵۰].

السؤال الوحید المتبقّی هو: کیف أصبحت الدواب و السفن فی مستوی واحد؟

إذا لا حظنا مسألة واحدة فسیکون الردّ واضحا، و هی أنّ الإنسان بحاجة إلی مرکب فی حیاته، مرّة فی البر، و أخری فی البحر و هی السفن.

و هذا التعبیر هو ذاته الذی استخدم فی الآیة (۷۰) من سورة الإسراء حین ذکر ما وهبه اللّه بنی آدم وَ حَمَلْناهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۱

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۲۳ الی ۲۵]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۲۳) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (۲۴) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (۲۵)

التّفسير

منطق الجبناء المغرورين:

تحدّثت الآيات السابقة عن التوحيد و معرفة اللّه و أسباب عظمته فی عالم الخليقة، أمّا الآيات- موضوع البحث و الآيات المقبلة- فقد تناولت نفس الموضوع على لسان كبار الأنبياء و من خلال تاريخ حياتهم.

حيث بدأت بأوّل الأنبياء أولی العزم و المنادی بالتوحيد «نوح» عليه السّلام وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ و أَ فَلا تَتَّقُونَ أی مع هذا البيان الواضح كيف لا تجتنبون عبادة الأوثان؟

أمّا الأشراف الأثرياء و المغرورون و الملأ من الناس، و هم اللذين يملأون

العين فی ظاهرهم، و الفارغون فی واقعهم من قوم نوح عليه السّلام فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ

و بهذا اعتبروا أوّل عيب له كونه إنسانا فاتّهموه بالسلطوية، و حديثه عن اللّه و التوحيد و الدين و العقيدة مؤامرة لتحقيق أهدافه، ثمّ أضافوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً و لإتمام هذا الاستدلال الخاوی قالوا: ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ

إلّا أنّ هذا الكلام الفارغ لم يؤثّر فی معنويات هذا النّبی الكبير، حيث واصل دعوته إلى اللّه، و لم يكن فی عمله دليل على رغبته فی الحصول على امتياز على الآخرين، أو أن يتسلّط عليهم، لهذا لجأوا إلى توجيه تهمة أخرى إليه، هی الجنون الذی كان يتّهم به جميع أنبياء اللّه عبر التاريخ، حيث قالوا:

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ

و استخدم المشركون تعبير بِهِ جِنَّةٌ ضدّ هذا النّبی المرسل أی به (نوع من أنواع الجنون) ليغطّوا على حقيقة واضحة، فكلام نوح عليه السّلام خير دليل على رجحان علمه و عقله، و كانوا يبغون- فی الحقيقة- أن يقولوا: كلّ هذه الأمور صحيحة، إلّا أنّ الجنون فنون له صورا متباينة قد يقترن أحدها بالعقل!! أمّا عبارة فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ فقد تكون إشارة إلى انتظار موت نوح عليه السّلام من قبل المخالفين الذين ترقّبوا موته لحظة بعد أخرى ليريحوا أنفسهم، و يمكن أن تعنی تأكيدا منهم لجنونه، فقالوا: انتظروا حتّى يشفى من هذا المرض [۳۵۱].

و على كلّ حال فإنّ المخالفين وجّهوا إلى نوح عليه السّلام ثلاثة اتّهامات واهية متناقضة، و اعتبروا كلّ واحد منها دليلا ينفی رسالته:

الأوّل: إنّ ادّعاء البشر بأنّهم رسل اللّه ادّعاء كاذب، حيث لم يحدث مثل هذا فی السابق، و لو شاء اللّه ذلك لبعث ملائكته رسلا إلى الناس!

و الثّانى: إنّه رجل سلطوى، و كلامه ادّعاء لتحقيق هدفه! و الثّالث: إنّه لا يملك عقلا سليما، و كلّ ما يقوله هو كلام عابر! و بما أنّ جواب هذه الاتّهامات الواهية أمر واضح جدّا، و قد جاء فى آيات قرآنية أخرى، لهذا لم يتطرّق إلى ردّها فى هذه الآيات. لأنّه من المؤكّد- من جهة- أن يكون قائد الناس أحدهم و من جنسهم، ليكون على علم بمشاكلهم و يحسّ بآلامهم، إضافة إلى ذلك فإنّ جميع الأنبياء كانوا من البشر. و من جهة أخرى يتّضح لنا خلال تصفّح تأريخ الأنبياء و استعراض حياتهم، أنّ قضيّة الاخوّة و التواضع، تنفى أيّة صفة سلطوية عنهم، كما ثبت رجحان عقلهم و تدبيرهم حتّى عند أعدائهم، حيث نجدهم يعترفون بذلك خلال أقوالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۴

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

قالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِما كَذَّبُونِ (۲۶) فَأَوْحَیْنا إِلَیْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنا وَ وَحْیِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُکْ فِیها مِنْ كُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۲۷) فَإِذَا اسْتَوَیْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَکَ عَلَى الْفُلْکِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی نَجّانا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِینَ (۲۸) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ (۲۹) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ وَ إِنْ كُنّا لَمُبْتَلِینَ (۳۰)

التّفسير

خاتمة حياة قوم معاندين:

أطّلعنا من الآيات السابقة على التهم التى وجّهها أعداء نوح عليه السّلام إليه. إلّا أنّه يستدلّ من آيات قرآنية أخرى- بشكل واضح- أن أذى القوم المعاندين لنوح عليه السّلام لم يتحدّد بهذه الأمور، بل شمل كلّ وسيلة يمكن بها إيذاؤه، فى حين بذل- سلام اللّه عليه- جميع ما فى وسعه فى سبيل هدايتهم و إنقاذهم من براثن الشرك و الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۵

و عند ما يئس منهم حيث لم يؤمن بما جاء به إلّا مجموعة صغيرة، دعا اللّه ليعينه، حيث نقرأ فى الآية الأولى قالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِما كَذَّبُونِ [۳۵۲].

هنا نزل الوحى الإلهى، من أجل التمهيد لإنقاذ نوح عليه السّلام و أصحابه القلّة و هلاك المشركين المعاندين فَأَوْحَیْنا إِلَیْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنا وَ وَحْیِنا.

إنّ عبارة «بأعيننا» إشارة إلى أنّ سعيك فى هذا السبيل سيكون تحت حمايتنا، فاعمل باطمئنان و راحة بال و لا تخف من أى شىء.

و استعمال عبارة «و حينا» يكشف لنا أنّ نوحا عليه السّلام تعلّم صنع السفينة بالوحى الإلهى، لأنّ التأريخ لم يذكر أنّ الإنسان استطاع صنع مثل هذه الوسيلة حتّى ذلك الوقت. و لهذا السبب صنع نوح عليه السّلام السفينة بشكل يناسب غايته فى صنعها، و لتكون فى غاية الكمال! ثمّ تواصل الآية بأنّه إذا جاء أمر اللّه، و علامة ذلك فوران الماء فى التنور، فاعلم أنّه قد اقترب وقت الطوفان، فاختر من كلّ نوع من الحيوانات زوجا (ذكر و أنثى) و اصعد به إلى السفينة: فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُکْ فِیها مِنْ كُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ إشارة إلى زوج نوح عليه السّلام و أحد أبنائه، ثمّ أضافت الآية:

وَ لا تُخاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ و هذا التحذير جاء حتّى لا يقع نوح عليه السّلام تحت تأثير العاطفة الإنسانية، عاطفة الابوّة،

أو عاطفته نحو زوجته لیشفع لهما، فی وقت افتقدا فیه لحقّ الشفاعة.

و تقول الآیة التالیة: فَإِذَا اسْتَوَیْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَکَ عَلَی الْفُلْکِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ

و بعد الحمد و الثناء علیه تعالی علی هذه النعمة العظیمة، نعمة النجاة من مخالب الظلمة، ادعوه هکذا وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلًا مُبارَکاً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۴۶

کلمة «منزل» ربّما کانت اسم مکان، أی: بعد الطوفان ندعو اللّه لینزلنا فی أرض ذات خیرات واسعة، لنحیا فیها بسعادة و هدوء.

کما یمکن أن تکون مصدرا میمیّا أی: أنزلنا بشکل لائق، لأنّ هناک أخطارا تهدّد رکّاب هذه السفینة بعد رسوها فی ختام الطوفان، کعدم مکان للسکن، أو النقص فی الغذاء، أو التعرّض للأمراض، لهذا دعا نوح علیه السّلام ربّه لینزله منزلا مبارکا.

و قد أشارت الآیة الأخیرة- من الآیات موضع البحث- إلی مجمل هذه القصّة فقالت: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ ففی هذه الحوادث التی جرت علی نوح علیه السّلام و انتصاره علی أعدائه الظالمین، و نزول أشدّ أنواع العقاب علیهم- آیات و دلائل لأصحاب العقول السلیمة.

وَ إِنْ کُنَّا لَمُبْتَلِینَ أی إنّنا نمتحن الجمیع بشکل قاطع. و قد تکون هذه الجملة إشارة إلی إمتحان اللّه لقوم نوح مرارا، و عند ما أخفقوا فی الامتحان أهلکهم إلّا المؤمنین.

کما قد تکون إشارة إلی امتحان اللّه لجمیع البشر فی کلّ زمان و مکان، و ما جاء فی هذه الآیات لم یکن خاصّا بالناس فی زمن نوح علیه السّلام، بل یشمل الناس فی جمیع الدهور. فیهلک من کان عائقا فی طریق تکامل البشریة و لیواصل الأخیار سیرهم الطبیعی.

و اکتفت الآیات هنا بقضیّة بناء السفینة و دخول نوح علیه السّلام و أصحابه إلیها، إلّا أنّها لم تشر إلی مصیر المذنبین، و لم تتحدّث عنهم بالتفصیل، و إنّما اکتفت بالقول بأنّهم لقوا ما وعدهم اللّه إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ لأنّ هذا الوعد مؤکّد لا یقبل النقض.

و لا بدّ من القول بأنّ هناک حدیثا واسعا عن قوم نوح و موقفهم إزاء هذا النّبی الکبیر، و مصیرهم المؤلم، و قصّة السفینة، و فوران الماء من التنور، و حدوث الطوفان، و غرق ابن نوح علیه السّلام. و قد بیّنا قسما کبیرا منه فی تفسیر سورة هود، و سنذکر قسما آخر فی تفسیر سورة نوح إن شاء اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۴۷

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۳۱ الی ۴۱]

اشارة

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِینَ (۳۱) فَأَرْسَلْنا فِیهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۳۲) وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یَأْکُلُ مِمَّا تَأْکُلُونَ مِنْهُ وَ یَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (۳۳) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَکُمْ إِنَّکُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (۳۴) أَ یَعِدُکُمْ أَنَّکُمْ إِذا مِتُّمْ وَ کُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّکُمْ مُخْرَجُونَ (۳۵)

هَیْهاتَ هَیْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (۳۶) إِنْ هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ (۳۷) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِینَ (۳۸) قالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِما کَذَّبُونِ (۳۹) قالَ عَمَّا قَلِیلٍ لَیُصْبِحُنَّ نادِمِینَ (۴۰)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّیْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۴۱)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۴۸

التّفسیر

المصير المؤلم لقوم ثمود:

تحدّثت هذه الآيات عن أقوام آخرين جاؤوا بعد قوم نوح عليه السّلام. و منطقهم يتناغم و منطق الكفّار السابقين، كما شرحت مصيرهم الأليم، فأكملت بذلك ما بحثته الآيات السابقة.

فهى تقول أوّلا: ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ

«القرن» مشتقّ من الاقتران، بمعنى القرب، لهذا يطلق على الجماعة التى تعيش فى عصر واحد، كما تطلق هذه الكلمة على عصر هؤلاء، و قياس زمن القرن بثلاثين أو مائة سنة يتّبع ما تعارفته الأقوام المختلفة.

و بما أنّ البشر لا يمكن أن يعيشوا دون قائد ربّانى، فقد بعث اللّه أنبياءه يدعون إلى توحيده و يقيمون عدالته بين الناس، حيث تقول الآية التالية:

فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

و هذه هى الركيزة الأساسيّة لدعوة الأنبياء، إنّها نداء التوحيد، اسّ جميع الإصلاحات الفردية و الاجتماعية، و بعدها أكّد رسل اللّه لهم القول: إنّكم و بعد هذه الدعوة الصريحة ألا تتركون الشرك و عبادة الأوثان: أَ فَلا تَتَّقُونَ

أمّا أىّ قوم كان هؤلاء؟ و من هو نبيّهم؟

قال المفسّرون بعد دراسة الآيات المشابهة لهذه الآية: هناك احتمالان:

الأوّل: أنّهم قوم ثمود الذين عاشوا شمال الحجاز، و بعث اللّه النّبى «صالح» عليه السّلام لهدايتهم، إلّا أنّهم كفروا و طغوا فأهلكهم اللّه بالصيحة السماوية (الصاعقة القاتلة) و شاهد هذا التّفسير و دليله هو الصيحة التى ذكرت فى ختام الآيات موضع البحث، و التى جاءت فى سورة هود الآية (۶۷) حيث خصّت قوم صالح عليه السّلام.

و الاحتمال الثّانى: خصها بقوم «عاد» الذين كان نبيّهم «هود» عليه السّلام، و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۹

ذكرتهم آيات قرآنية مباشرة بعد سرد قصّة نوح عليه السّلام، و هذا دليل على صحّة هذا التّفسير[۳۵۳]، إلّا أنّ عقاب قوم عاد كما جاء فى الآيتين السادسة و السابعة من سورة «الحاقة»، كان ريحا شديدا استمرّ سبعة أيّام فدمّرهم عن بكرة أبيهم، إذن فالتّفسير الأوّل هو الأصحّ.

و لننظر الآن ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم المعاندين إزاء التوحيد الذى أعلنه هذا النّبى الكبير؟

يقول القرآن فى الآية التالية: وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ

أجل إنّ القوم الذين عاشوا فى رفاه مطلق دعاهم القرآن باسم الملأ (ترى ظاهرهم يملأ العين، إلّا أنّ باطنهم خاو من النور).

و بما أنّهم كانوا يرون فى دعوة نبى اللّه خلافا لأهوائهم و منافسة لمصالحهم العدوانية و تسلّطهم الذى لا مبرّر له، و قد أترفوا فبعدوا عن ذكر اللّه، و أنكروا الآخرة، فجادلوا نبيّهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح، فقد رأوا فى بشرية القادة الربانيّين و تناولهم الطعام كباقى الناس دليلا على بطلان نبوّة هؤلاء، فى حين أنّ هذا الأمر بحدّ ذاته مؤيّد على كون هؤلاء الرجال العظام حملة رسالة من اللّه إلى الناس، و لأنّهم نهضوا من بين جماهير الناس بعد أن شعروا بآلامهم و عملوا بما يحتاجونه بشكل جيّد.

ثمّ قال بعضهم للبعض الآخر: وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ

هؤلاء الحمقى لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، و هى أنّهم يريدون من الناس بهذه الوساوس الشيطانية أن ينقادوا له فى محاربة الأنبياء، فى

الوقت الذى يعيبون فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۰

على الذين يتّبعون من كان يستمدّ العون من مركز الوحى و قد ملىء قلبه نورا و علما إلهيّا. و يرون فى هذا العمل تقييد لحريّة الإنسان.

و من ثمّ أنكروا المعاد، الذى كان دوما سدّا منيعا لاتّباع الشهوات و أرباب اللّذّات، و قالوا: أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ لتعيشون حياة جديدة هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ فقد تسائل الكفّار: هل يمكن البعث و الناس قد أصبحوا ترابا و تبعثرت ذرّاتهم هنا و هناك؟ إنّ ذلك مستحيل!! و بهذا الكلام ازدادوا إصرارا على إنكار المعاد قائلين: إنّنا نشاهد باستمرار موت مجموعة و ولادة مجموعة أخرى لتحلّ محلّهم، و لا حياة بعد الموت إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

و أخيرا لخصّوا التهم التى وجّهوها إلى نبيّهم فقالوا: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ فلا رسالة إلهيّة، و لا بعث، و لا برنامج سماوى، و عليه لا يتسنّى لعاقل الإيمان به.

و عند ما طغى عناد الكفّار، و زالت آخر قطرة من الحياء منهم، فتجاسروا على اللّه، و أنكروا رسالته إليهم، و أنكروا معاجز أنبيائه بكلّ صلافة، و قد أتمّ اللّه حجّته عليهم، عندها توجّه هذا النّبى الكبير إلى اللّه سبحانه و تعالى و قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ ربّاه: انصرنى فقد هتكوا الحرمات، و اتّهمونى بما شاؤوا و كذّبوا دعوتى.

فأجابه اللّه عزّ و جلّ كما ذكرت الآية قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ ألا إنّهم سيندمون يوم لا ينفع الندم.

و هكذا جرى فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِ حيث نزلت عليهم صاعقة الموت برعبها الهائل و دمارها الماحق، و قلبت مساكنهم و نثرتها حطاما، و كانت سريعة خاطفة إلى درجة لم تسمح لهم بالفرار، فدفنوا فى منازلهم كما بيّنت الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۱

الكريمة فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً أى جعلناهم كهشيم النبات يحمله السيل فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

تعليقات:

۱- الحياة المترفة و أثرها المشؤوم

بيّنت الآيات السابقة العلاقة بين «الترف» (حياة الأشراف المنّعمين) و بين «الكفر و إنكار لقاء اللّه» و هذه هى الحقيقة بعينها. فالذين يعيشون مترفين يطلقون العنان لشهواتهم الحيوانية. فمن الواضح أنّهم لا يقبلون برقابة إلهيّة، و لا يعترفون بيوم البعث حيث تنتظرهم محكمة العدل الإلهى، و الإقرار بذلك يؤنّب ضمائرهم و يثير الناس عليهم، لهذا فانّ هؤلاء الأشخاص لا يقرّون بالعبودية للّه، و ينكرون المبدأ و المعاد، و يرون الحياة كما ذكرت الآيات السابقة إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

هذا هو شعارهم المعبّر عن فتنتهم و ضلالهم الصارخ: فلنغتنم هذه الفرصة فلا خبر جاء و لا وحى نزل، و من يدّعى ذلك فهو كاذب! و عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة ... هكذا كانوا يبرّرون إنكارهم ليوم البعث.

إضافة إلى ذلك فتحقيق مثل هذه الحياة المترفة لا تتمّ بدأ إلّا بسلب حقوق الآخرين و ظلمهم، و هذا لا يكون إلّا بإنكار رسالة الأنبياء و القيامة و لهذا نرى الذين عاشوا فى بذخ مترف يحتقرون كلّ القيم السماوية و ينكرون كلّ شىء إلهى.

هؤلاء الحمقى أصبحوا أسرى لأهوائهم النفسيّة، فخرجوا عن طاعة اللّه و أصبحوا عبيدا لأهوائهم و شهواتهم، بل أصبحوا عبيدا لعبيد آخرين، بنفسيّة وضيعة، و قلوب سوداء قاتمة، و مستقبل موحش، على الرغم من أنّ البعض يتصوّر أنّهم متنّعمون و سيبقون كذلك، غير أنّ القلق الذى يسيطر عليهم من عقاب اللّه و زوال نعمته و الخوف من الموت لا يدع لهم راحة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۵۲

۲- «التراب» و «العظام»

یتفسّخ جسم الإنسان بعد موته حتّى یتحوّل إلى تراب، إلّا أنّ الآیة السابقة قدّمت التراب على العظام، لماذا؟

قد یکون ذلک إشارة إلى القسمین المهمّین من مکوّنات الجسم (اللحم و العظم) فاللحم یتفسّخ أوّلا و یصبح ترابا، و تبقى العظام لسنین عدیدة ثمّ تبلى أخیرا و تصبح ترابا أیضا.

و ربّما کان التراب هنا إشارة إلى الأجداد القدماء جدّا الذین أصبحوا ترابا، و العظام إشارة إلى الآباء الذین تفسّخت أجسامهم، و بقیت العظام لم تتحوّل إلى تراب ۳۵۴].

۳- ما معنى الغثاء؟

اطّلعنا على مصیر قوم ثمود و هو- کما ذکرته الآیات السابقة- أنّهم قد أصبحوا «غثاء». و الغثاء، یعنی النباتات الجافّة المتراکمة، و الطافیة على میاه السیول، کما یطلق الغثاء على الزبد المتراکم على ماء القدر حین الغلیان، و تشبیه الأجسام المیتة بالغثاء دلیل على منتهى ضعفها و انکسارها و تفاهتها، لأنّ هشیم النبات فوق میاه السیل تافه لا قیمة له، و لا أثر له بعد انتهاء السیل (و قد شرحنا بإسهاب الصیحة السماویة فی تفسیر الآیة ۶۷ من سورة هود) هذا و لم یکن هذا العقاب خاصّا- فقط- بقوم ثمود، حیث هناک أقوام أخرى أهلکت به. و قد تمّ شرحه فی حینه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۵۳

۴- مصیر عام

و ممّا یلفت النظر أنّ آخر عبارة فی الآیات- موضع البحث- أخرجت القضیّة من إطارها و جعلتها قانونا عامّا، حیث تقول: فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ و هذا استنتاج نهائی من کلّ هذه الآیات، فما قیل بصدد إنکار و تکذیب الآیات الإلهیّة و المعاد و العاقبة المؤلمة و النهایة السیّئة لا تختّص بجماعة معیّنة، بل تشمل جمیع الظلمة عبر التاریخ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۵۴

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۴۲ الى ۴۴]

اشارة

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِینَ (۴۲) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما یَسْتَأْخِرُونَ (۴۳) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا کُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها کَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِیثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ (۴۴)

التّفسیر

هلاک الأقوام المعاندين الواحد بعد الآخر:

بعـد أن تحدّث القرآن عن قصّة قوم نوح، أشار إلى أقوام أخرى جاءت بعدهم، و قبل النّبى موسـى عليه السّـلام حيث يقول: ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ لأنّ هذا أمر اللّه و سنّته فى خلقه، فالفيض الإلهى لا ينقطع عن عباده فلو سعى جماعة للوقوف فى وجه مسيرة التكامل الإنسانى للبشرية لمحقهم و دفع هذه المسيرة إلى أمام.

و لهذه الأقوام تأريخ معيّن و أجل محدود ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ فلو صدر الأمر الحتمى بنهاية حياتهم فسيهلكوا فورا، دون تأخير لحظة أو تقديم لحظة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۵

«الأجل» بمعنى العمر و مدّة الشـيء، كأن نقول: أجل هذا الصكّ ثلاثة أشـهر، أى أنّ مدّته تنتهى بعد ثلاثة أشهر، أو إلى أجل مسمّى أى إلى تاريخ محدّد.

و كمـا قلنـا سابقـا فالأجـل نوعـان: «المحتّم» و «المشـروط»، فالأجل المحتّم انتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم ما، و لا تغيير فيه. أمّا الأجل المشروط فيمكن أن يتغيّر حسب تغيّر الظروف فيزداد أو ينقص، و قد تحدّثنا عن ذلک سابقا بإسهاب [۳۵۵].

و على كلّ حال، فإنّ الآية السابقة تشير إلى «الأجل المحتّم».

و تكشف الآية التالية حقيقة استمرار بعث الأنبياء عبر التاريخ بالدعوة إلى اللّه حيث تقول: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا.

كلمة «تترا» مشتقّة من «الوتر» بمعنى التعاقب، و «تواتر الأخبار» تعنى وصولها الواحد بعد الآخر، و من مجموعها يتيقّن الإنسان بصدقها، و هـذه الكلمـة مشـتقّة فى الأصل من «الوتر» بمعنى حبل القوس حيث يتّصل الحبل بالقوس من جهتيه و يقع خلفه ليقرب رأس القوس (و من حيث التركيب فإنّ كلمة «تترا» فى الأصل «وترا» تبدّلت الواو فيه تاء).

و على كلّ حال فإنّ معلّمى السّـماء، كانوا يتعاقبون فى إرشاد الناس، إلّا أنّ الأقوام المعاندة كانوا يواصـلون الكفر و الإنكار، فإنّه: كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ

و عند ما تجاوز هذا الكفر و التكذيب حدّه و تمّت الحجّة عليهم. فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً.

أى أهلكنا الأمم المعاندة الواحدة بعد الاخرى و محوناهم من الوجود.

و قد تمّ محوهم بحيث لم يبق منهم سوى أخبارهم يتداول الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۶

وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ إشارة إلى أنّ كلّ أمّة تتعرّض للهلاک، و يبقى منهم بعض الأفراد و الآثار هنا و هناک، و أحيانا لا يبقى منهم أى أثر. و هذه الأمم المعاندة و الطاغية كانت ضمن المجموعة الثّانية[۳۵۶].

و تقول الآية فى الختام، كما ذكرت الآيات السابقة فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ أجل، إنّ هذا المصير نتيجة لعدم الإيمان باللّه، فكلّ مجموعة لا إيمان لها، معاندة و ظالمة، تبتلى بهذا المصير، فتمحق بشكلٍ لا يبقى إلّا ذكرها فى التاريخ و أحاديث الناس.

و هؤلاء لم يكونوا بعيـدين عن رحمة اللّه فى هذه الدنيا فحسب، بل بعيدون عن هذه الرحمة فى الآخرة أيضا، لأنّ تعبير الآية جاء عامّا يشمل الجميع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۷

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۴۵ الى ۴۹]

اشارة

ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۴۵) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ (۴۶) فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (۴۷) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (۴۸) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۴۹)

التّفسیر

قیام موسی و هلاک الفراعنة:

کان الحدیث حتّی الآن عن أقوام بعث اللّه لهم رسلا قبل موسی علیه السّلام، و هلکوا.

أمّا الآیات موضع البحث فقد تحدّثت باختصار جدّا عن انتفاضة موسی و هارون علی الفراعنة، و مصیر هؤلاء القوم المستکبرین فقالت: ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ

و هناک تفاسیر عدیدة لما تقصده کلمة «الآیات» و عبارة سُلْطانٍ مُبِينٍ و ما الفرق بینهما؟

۱- قال بعض المفسّرین: إنّ «الآیات» تعنی المعجزات التی أعطاها اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۸

لموسی بن عمران (الآیات التسع). و تقصد عبارة «سلطان مبین» المنطق القوی و البرهان الدافع لموسی علیه السّلام أمام الفراعنة.

۲- التّفسیر الثّانی أنّ «الآیات» تعنی جمیع معاجز موسی علیه السّلام، و یقصد بعبارة سُلْطانٍ مُبِينٍ بعض معاجز موسی المهمّة کعصاه و الید البیضاء، لأنّ لهما خصائص ساعدت موسی علی الإنتصار علی الفراعنة.

۳- و احتمل البعض أنّ کلمة «الآیات» أشارت إلی آیات «التوراة»، و بیان التعالیم و ما شاکل ذلک، و عبارة «سلطان مبین» إشارة إلی معجزات موسی علیه السّلام.

إلّا أنّه لو لا حظنا استعمالات عبارة «سلطان مبین» فی القرآن المجید لوجدنا التّفسیر الأوّل أقرب إلی الصواب، لأنّ کلمة «سلطان» أو «سلطان مبین» وردت فی القرآن بمعنی الدلیل و المنطق الواضح ۳۵۷].

أجل بعثنا موسی و أخاه هارون بهذه الآیات و سلطان مبین إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ لماذا تتحدّث الآیة فقط عن الملأ (المجتمع المترف المعاند أو ما یسمّی بطبقة الأشراف). و لم تقل أنّ رسالتهما إلی شعب مصر کلّه.

لعلّ ذلک إشارة إلی أنّ الفراعنة هم أساس الفساد، و إن صلحوا فالباقون أمرهم سهل. إضافة إلی کونهم قادة البلد، و لا یصلح أی بلد إلّا بصلاح قادته. إلّا أنّهم فَاسْتَكْبَرُوا لأنّهم لم یرضوا لآیات الحقّ و السلطان المبین و الفراعنة کانوا- أساسا- مستکبرین طاغین، کما تقول الآیة وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ و الفرق بین العبارتین فَاسْتَكْبَرُوا و كانُوا قَوْماً عالِينَ أنّ العبارة الأولی قد تکون إشارة إلی استکبارهم عن دعوة موسی علیه السّلام، و العبارة الثّانیة تشیر إلی أنّ الاستکبار یشکل دوما برنامجهم و بناءهم الفکری و الروحی.

و یحتمل أیضا أن تکون العبارة الأولی إشارة إلی تکبر الفراعنة، و الثّانیة إلی أنّهم کانوا یتمتّعون بقدرة متعالیة و حیاة متمیّزة. و هذا سبب استکبارهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۹

و من الدلائل الواضحة علی إحساسهم بالاستعلاء، قولهم: فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ ۳۵۸] فلم یکتفوا بالقول إنّنا لا ینبغی لنا اتّباع موسی و هارون، بل لا بدّ أن یکون موسی و هارون عبدین دائمین لهم. فهؤلاء الذین اتّهموا الأنبیاء علیهم السّلام بالتسلّط فی وقت هم أسوأ من کلّ متسلّط، و کلامهم یشهد علی ذلک.

و علی کلّ حال فقد تصدّوا لموسی و أخیه هارون بهذه الأدلّة الخاویة، مخالفة منهم للحقّ فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ

و هكذا انتهى أعداء بنى إسرائيل الذين كانوا سدّا مانعا لدعوة موسى و هارون إلى اللّه سبحانه.

و بدأت بعدها مرحلة تعليم و تربية بنى إسرائيل، فأنزل اللّه فى هذه المرحلة «التوراة» على موسى، الذى دعا بنى إسرائيل للاهتداء بهذا الكتاب و تطبيقه على ما ذكرته الآية الأخيرة هنا وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

و الآيات السابقة تحدّثت فى مرحلة موسى و هارون عن الفراعنة مستعملة الضمير المثنّى، و هنا تكلّمت عن نزول الكتاب السماوى (التوراة) فخصّصت الحديث بموسى عليه السّلام. لأنّه النّبى المرسل و صاحب الكتاب و الشريعة. إضافة إلى أنّ (موسى) كان يتعبّد فى جبل الطور حين نزول التوراة، بينما كان هارون بين جموع بنى إسرائيل ۳۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۰

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): آية ۵۰]

اشارة

وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ (۵۰)

التّفسير

آية أخرى من آيات اللّه:

أشارت الآية فى آخر مرحلة من شرحها لحياة الأنبياء إلى السيّد المسيح عليه السّلام و أمّه مريم، فقالت: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً. و قد استعملت «الآية» عبارة «ابن مريم» بدلا من ذكر اسم عيسى عليه السّلام، لجلب الانتباه إلى حقيقة ولادته من أمّ دون أب بأمر من اللّه، و هذه الولادة هى بذاتها من آيات اللّه الكبيرة.

و حمل مريم عليهما السّلام من غير أن يمسّها بشر، و انجابها عيسى عليه السّلام وجهان لحقيقة واحدة تشهد بعظمة اللّه سبحانه المبدعة و قدرته.

ثمّ أشارت الآية إلى الأنعم الكبيرة التى أسبغها اللّه على هذه الامّ الزكية و ابنها فتقول: وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ

«الربوة» مشتقّة من «الربا» بمعنى الزيادة و النمو. و تعنى هنا المكان المرتفع.

و «المعين» مشتقّ من «المعن» على وزن «شأن» بمعنى جريان الماء، فالماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۱

المعين هو الماء الجارى. و يرى البعض أنّ «المعين» مشتق من «العين» أى نبع الماء الظاهر الذى يمكن مشاهدته بالعين المجرّدة[۳۶۰].

و فى هذا إشارة مجملة إلى المكان الآمن الوارف البركات و الخيرات، الذى منّ اللّه عزّ و جلّ به على هذه الامّ و ابنها و جعلهما فى أمان من شرّ الأعداء، يؤدّيان واجباتهما باطمئنان.

و اختلف المفسّرون فى هذا المكان، فبعض يرى أنّ مولد السيّد المسيح عليه السّلام كان فى «الناصرة» (من مدن الشام). و قد جعله اللّه و أمّه فى مكان آمن ذى خيرات، و حافظ عليه من شرّ الأعداء الذين أرادوا أن يكيدوا بعد علمهم بولادته و مستقبله.

و يرى آخرون أنّ هذا المكان الآمن هو «مصر»، لأنّ مريم عليها السّلام و ابنها السيّد المسيح عليه السّلام عاشا فترة من حياتهما فى مصر طلبا للنجاة من شرّ الأعداء.

و قال غيرهم: إنّ المسيح عليه السّلام ولد فى «دمشق»، و ذهب سواهم إلى أنّه فى «الرملة» فى الشمال الشرقى من القدس، حيث عاش

المسیح و امّه علیهما السّلام فی کلّ من هذه المناطق فترة من حیاتهما. و یحتمل أن یکون مولد السیّد المسیح علیه السّلام فی صحراء القدس، و قد جعله اللّه أمنا لهذه الامّ و الولید، و فجرّ لهما ماء معینا و رزقهم من النخل الجافّ رطبا جنیّا.

و علی کلّ حال، فقد کانت الآیة دلیلا علی حمایة اللّه تعالی الدائمة لرسله و لمن یدافع عنهم. و تأکیدا علی أنّ إرادة اللّه هی الأقوی، فلو أراد الملأ کلّهم قتل رسوله دون إذنه لما تمکّنوا. فالوحدة و قلّة الأنصار و الأتباع لا تکون سببا لهزیمتهم إطلاقا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۲

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۵۱ الی ۵۴]

اشارة

یا أَیُّهَا الرُّسُلُ کُلُوا مِنَ الطَّیِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّی بِما تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ (۵۱) وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُکُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّکُمْ فَاتَّقُونِ (۵۲) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَیْنَهُمْ زُبُراً کُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ (۵۳) فَذَرْهُمْ فِی غَمْرَتِهِمْ حَتَّی حِینٍ (۵۴)

التّفسیر

جمیع الامّة ید واحدة:

تحدّثت الآیات السابقة عن ماضی الأنبیاء و أممهم، أمّا هذه الآیات فخاطبت الجمیع فقالت: یا أَیُّهَا الرُّسُلُ کُلُوا مِنَ الطَّیِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّی بِما تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ

الفرق بینکم أیّها الأنبیاء و بین سواکم من البشر، لیس فی أنّکم لا تتّصفون بصفاتهم کالحاجة إلی الطعام و الشراب و النوم و الراحة، و إنّما بسموّکم، ففیما یتهافت الناس علی إشباع شهواتهم بما طاب و خبث و قد جعلوا من الأکل هدفهم النهائی، زکت أنفسکم، و اختارت الطّیبات و صالح الأعمال.

بین عبارتی کُلُوا مِنَ الطَّیِّباتِ و اعْمَلُوا صالِحاً ارتباط واضح، فلنوع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۳

الغذاء أثر فی نفس الإنسان و عقله و سلوکه. و قد ذکرت الأحادیث الإسلامیة أنّ تناول الغذاء الحرام یمنع استجابة الدعاء.

و

روی عن الرّسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله لرجل سأله عن استجابة دعائه «طهّر مأکلک و لا تدخل بطنک الحرام»[۳۶۱] و[۳۶۲].

و قوله تعالی: إِنِّی بِما تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ بنفسه دلیل مستقبل علی وجوب القیام بالعمل الصالح، لأنّ الإنسان عند ما یعلم بأنّ اللّه یراقب أعماله، و لا یخفی علیه شیء و سوف نحاسبه بدقّة علی ذلک، فلا شکّ فی أنّ الالتفات إلی هذا الأمر یساعد فی إصلاح عمله.

مضافا إلی أنّ تعابیر الآیة هذه تبعث فی الإنسان الشعور بضرورة تقدیم الشکر للّه علی ما أنعم علیه من الطیّبات، و بذلک تؤثّر فی عمله أیضا.

و بهذا بیّنت الآیة ثلاثة مؤثّرات فی العمل الصالح:

الأوّل: طیب الغذاء الذی یورث صفاء القلب و نقاوته.

و الثّانی: شکر اللّه تعالی علی ما أنعم به من رحمته.

الثّالث: الشعور اليقظ بمراقبة اللّه سبحانه للأعمال كلّها.

أمّا كلمة «الطيب» فهى كما قلنا تعنى كلّ شيء نظيف و طاهر. و هى نقيض كلمة «الخبيث» قال الراغب الاصفهانى فى مفرداته: الطيب يعنى: كلّ ما يسرّ الإنسان حسيّا و روحيا، أمّا من الناحية الشرعية فهو الحلال الطاهر.

و القرآن المجيد ذكر الطيب و الطيبات فى كثير من الموارد:

يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ۳۶۳]. ثمّ لا يقصر الأمر على الرسل، بل:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۴

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ۳۶۴] بل إنّ ما يصل إلى مقام القرب هو الطيّب من الأعمال و الأقوال:

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۳۶۵].

و أحد امتيازات الإنسان الكبيرة على سائر الموجودات أنّ اللّه تعالى رزقه من الطيّبات: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا[۳۶۶].

كما

جاء فى حديث موجز ثر المعنى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم عرض لهذه الحقيقة «يا أيّها الناس، إنّ اللّه طيّب لا يقبل إلّا طيّبا»[۳۶۷].

ثمّ دعت الآية جميع الأنبياء و أتباعهم إلى توحيد اللّه و التزام تقواه وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً فالاختلافات الموجودة بينكم، و كذلك بين أنبيائكم ليست دليلا على التعدّدية إطلاقا. وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ

فنحن بين يدى دعوة واعية إلى وحدة الجماعة و القضاء على ما يثير التفرقة، ليعيش الناس أمّة واحدة، كما أنّ اللّه ربّهم واحد أحد.

و لهذا يجب أن ينتهج الناس ما نهجه الأنبياء عليهم السّلام إذ دعوا إلى اتّباع تعاليم موحّدة، ذات أساس واحد فى كلّ مكان «توحيد اللّه و معرفة الحقّ، الاهتمام بالمعاد و التكامل فى الحياة، و الاستفادة من الطيّبات و القيام بالأعمال الصالحة.

و الدفاع عن العدل و المبادئ الإنسانيّة».

و يرى بعض المفسّرين أنّ كلمة «أمّة» تعنى هنا الدين و العقيدة. و ليس المجتمع. إلّا أنّ ضمير الجمع فى جملة أَنَا رَبُّكُمْ دليل على أنّ (الامّة) تعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۵

الناس جميعا.

و قد وردت كلمة «الامّة» فى القرآن المجيد بمعنى «الجماعة» غالبا، و ندر ورودها بمعنى «الدين» مثل إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۳۶۸].

و ممّا يلفت النظر أنّ هذا المعنى تضمّنته الآية ۹۲ من سورة الأنبياء مع فارق بسيط إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ فى وقت شرحت الآيات السابقة لهذه الآية حياة كثير من الأنبياء، و «هذه» فى الحقيقة إشارة إلى أمم الأنبياء السابقين، الذين كانوا يشكّلون أمّة واحدة بحسب التعاليم الإلهيّة، حيث تحرّكوا جميعا لتحقيق هدف واحد.

و قد حذّرت الآية التالية البشر من الفرقة و الاختلاف، بعد أن تمّت فى الآية السابقة دعوتهم إلى التمسّك بالواحدة فقالت: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً و ممّا يثير الدهشة أنّ كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

«الزبر» جمع «زبرة» على وزن «لقمة» تعنى بعض شعر الحيوان خلف رأسه.

يجمعه الراعى ليفصله عن باقى الشعر. ثمّ أطلقت هذه الكلمة على كلّ شيء ينفصل عن أصله، فتقول الآية: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً.

إشارة منها إلى تفرّق الامّة إلى مجموعات و فئات مختلفة.

و احتمل البعض الآخر أنّ الزبر جمع «زبور» بمعنى كتاب، و تعنى أنّ كلّ فئة منهم كانت تمسك بكتاب منزل و تنفى ما عداه من الكتب السماوية، مع أنّ مصدرها واحد. و لكن عبارة كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ تدعم التّفسير الأوّل، فكلّ حزب يتحدّث بما تشتهى نفسه، و يصرّ على رأيه.

تستعرض الآية حقيقة نفسيّة و اجتماعية هى أنّ التعصّب الجاهلى للأحزاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۶

و الفئات يمنع وصولها إلى الحقيقة! لأنّ كلّا منها قد اتّخذ سبيلا خاصّا به، و أصبح فى قوقعة لا تسمح لنور جديد بالدخول إلى قلبه، و لا بنسيم معنوى يهبّ على روحه ليكشف لها حقيقة من الحقائق.

و هذه الحالة نتجت عن حبّ الذات المفرط و العناد، و هما أكبر عدوّ للحقيقة، و لوحدة الامّة. إنّ الاعتزاز بالنمط الذى تعيشه كلّ فئة و احتقار سواه يجعل الإنسان يصمّ أذنيه عن كلّ صوت يخالف ما اعتقده. و يغطّى رأسه بثوبه، أو يلجأ إلى الفرار خوفا من تجلّى حقيقة على خلاف ما اعتاد عليه كما يذكر القرآن المجيد عن حال المشركون زمن نوح عليه السّلام و على لسان هذا النّبى المرسل: وَ إِنِّی كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِیابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً[۳۶۹].

و لا يمكن للإنسان النجاة بنفسه و الوصول إلى الحقّ إلّا بالتخلّص من هذه الحالة و إنهاء عناده.

و لهذا تقول الآية الأخيرة هنا: فَذَرْهُمْ فِی غَمْرَتِهِمْ حَتَّی حِینٍ أى اتركهم على حالهم حتّى يأتى أجلهم، أو يأتيهم اللّه بعذاب منه، فليس لهم سوى هذا، لأنّهم أصرّوا على البقاء فى جهلهم و متاهتهم.

و كلمة «حين» قد تكون إشارة إلى وقت الموت، أو نزول العذاب، أو كليهما.

و أمّا «الغمرة» على وزن «ضربة» فهى بالأصل من «غمر» أى إتلاف كلّ شىء. ثمّ أطلق غمر و غامر على الماء الكثير الذى يزيل كلّ شىء يواجهه و يواصل جريانه، ثمّ أطلق على الجهل و البلايا التى يغرق فيها الإنسان. كما استعملته الآية السابقة بمعنى الغفلة و الضياع و الجهل و الضلال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۷

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۵۵ الى ۶۱]

اشارة

أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِینَ (۵۵) نُسارِعُ لَهُمْ فِی الْخَیْراتِ بَلْ لا یَشْعُرُونَ (۵۶) إِنَّ الَّذِینَ هُمْ مِنْ خَشْیَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۵۷) وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِ رَبِّهِمْ یُؤْمِنُونَ (۵۸) وَ الَّذِینَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا یُشْرِكُونَ (۵۹)
وَ الَّذِینَ یُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلی رَبِّهِمْ راجِعُونَ (۶۰) أُولئِكَ یُسارِعُونَ فِی الْخَیْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ (۶۱)

التّفسير

المسارعون فى الخيرات:

تعرّض ما سبق من الآيات المباركة للأحزاب و المجموعات المعاندة التى غلب عليها التعصّب و حبّ الذات، و تمسّكوا بأفكارهم الضالّة و فرحوا بما لديهم.

بينما أشارت الآيات موضع البحث إلى بعض تصوراتهم الأنانيّة: أَ یَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِینَ هو من أجل أنّنا: نُسارِعُ لَهُمْ

فِي الْخَيْراتِ

فهل يتصوّرون أنّ أموالهم الوافرة و كثرة أولادهم دليل على أنّهم على حقّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴۶۸

و دليل على قرب منزلتهم من اللّه؟ بَلْ لا يَشْعُرُونَ أنّ كثرة أموالهم و أولادهم نوع من العذاب، أو مقدّمة للعذاب و لعقاب اللّه، إنّهم لا يدركون أنّ ما أغدق عليهم ربّهم من نعم إنّما هو من أجل أن يتورّطوا فى العقاب الإلهى. و يمسى عقابهم أشدّ ألما، لأنّ الإنسان إذا أغلقت دونه أبواب النعمة ثمّ حلّ به العذاب، فقد لا يكون بتلك الدرجة موجعا و مؤلما أمّا الذين يعيشون فى أوساط مرفّهة ثمّ يلقى بهم فى دهاليز السجون و الزنزانات المرعبة، فسيكون ألم ذلك شديدا عليهم جدّا.

كما أنّ زيادة النعمة من شأنها أن تزيد حجب الغفلة و الغرور عليهم فتمنعهم من العودة إلى طريق الصواب.

و هذا هو ما أشارت إليه معظم آيات القرآن فى قضيّة (الاستدراج فى النعم)[۳۷۰].

و كلمة «نمدّ» مشتقة من «الإمداد» و هو إتمام النقص و الحيلولة دون القطع، و إيصال الشيء إلى نهايته.

و بعد نفى تصورات هؤلاء الغافلين، تستعرض هذه الآيات وضع المؤمنين و المسارعين فى الخيرات، و تبيّن صفاتهم الرئيسيّة، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ و الخشية لا تعنى مطلقا الخوف، بل تعنى الخوف المقترن بالتعظيم و التقديس.

و كلمة «المشفق» مشتقّة من «الإشفاق» و من أصل: الشفق، أى: الضياء المخالط للظلمة، و تعنى الخوف الممزوج بالمحبّة و الإجلال.

و لكون الخشية ذات جانب عاطفي، و الإشفاق ذا جانب عملي، ذكرا معا إيضاحا للعلّة و المعلول فى الآية. فهى تعنى أنّ الخوف المخلوط بتعظيم اللّه قد استقرّ فى قلوبهم، و قد بدت علائمه فى أعمالهم و التزامهم بالتعاليم الإلهيّة. أى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴۶۹

الإشفاق مرحلة تكاملية للخشية، و هوما يؤثّر فى عمل الإنسان فيجنّبه ارتكاب الذنوب، و يدفعه إلى القيام بمسؤولياته.

ثمّ تضيف الآية وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

و تأتى بعد مرحلة الإيمان بآيات اللّه، مرحلة تنزيهه عن كلّ شبهة و شريك، فتقول الآية: وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ

و نفى الشرك جاء نتيجة للإيمان بآيات اللّه تعالى، و هو معلول الإيمان، أى أنّ الإيمان باللّه يشير إلى صفاته تعالى الثبوتية، و نفى الشرك يشير إلى صفاته تعالى السلبية. و على كلّ حال فقد تضمّنت هذه العبارة نفى أنواع الشرك، سواء كانت جليّة أم خفيّة.

بعد هذا تأتى مرحلة الإيمان بالمعاد و البعث، و الاهتمام الخاص الذى يوليه المؤمنون الحقيقيّون لهذه القضيّة، التى تساعدهم عمليّا فى السيطرة على أعمالهم و أقوالهم، فتقول الآية: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ

إنّهم ليسوا كالشخص الكسول الدنىء الهمّة الذى يأتى بأقلّ الأعمال ثمّ يتصوّر انّه من المقرّبين عند اللّه. و يتملّكه العجب و الغرور بحيث يرى الآخرين صغار و حقراء، بل إنّ هؤلاء لا يطمئنّون و لا يبتهجون بأكبر عمل مهما زكا و سما، بل و ينجزون الأعمال الصالحة التى تعادل عبادة الثقلين. و مع كلّ هذا يقولون: آه من قلّة الزاد و بعد السفر! و بعد شرح الآيات السابقة لهذه الصفات الأربعة تقول الآية: أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ و الأعمال الحسنة، و السعادة الحقيقيّة ليست كما يتصوّرها المترفون الغافلون المغرورون بالحياة الدنيا. إنّما هى فى إنجاز الأعمال الصالحة قربة إلى اللّه كما يفعل المؤمنون الصادقون، المتّصفون بالخصائص الإيمانيّة و الأخلاقية السالفة الذكر الذين يسارعون فى الخيرات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴۷۰

و قد رسمت الآيات السابقة صورة واضحة لصفات هذه القدوة من المؤمنين، فبدأت أوّلا بالخوف الممتزج بتعظيم اللّه، و هو الدافع إلى الإيمان به و نفى الشرك عنه. و انتهت بالإيمان بالمعاد حيث محكمة العدل الإلهى، الذى يشكّل الشعور بالمسؤولية. و يدفع الإنسان إلى كلّ عمل طيّب. فهى تبيّن أربع خصال للمؤمنين و نتيجة واحدة. (فتأمّلوا جيدا).

قوله «يسارعون» من باب «مفاعلة» و تعنى «التسابق»، و هو تعبير جميل يصوّر حال المؤمنين و هم يتسابقون إلى هدف كبير سام. كما يبيّن تنافسهم فى إنجاز الأعمال الصالحة دون ملل و كلل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۷۱

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۶۲ الى ۶۷]

اشارة

وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۶۲) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (۶۳) حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (۶۴) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (۶۵) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (۶۶)

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (۶۷)

التّفسير

قلوب فى الجهل مغمورة!:

بما أنّ خصال المؤمنين هى سبب القيام بالأعمال الخيّرة التى أشارت إليها الآيات السابقة، فهنا يثار هذا التساؤل بأنّ هذه الخصال و القيام بهذه الأعمال لا تتيسّر لكلّ أحد.

فتجيب أوّل آية- من الآيات موضع البحث- عن ذلك فتقول: وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها و كلّ إنسان يكلّف حسب عقله و طاقته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۷۲

و هذه إشارة إلى أنّ الواجبات الشرعيّة هى فى حدود طاقة الإنسان. و أنّها تسقط عنه إذا تجاوزت هذه الحدود، و كما يقول علماء أصول الفقه: إنّ هذه القاعدة حاكمة على جميع الواجبات الشرعيّة و مقدّمة عليها.

و قد يسأل: كيف يحاسب كلّ البشر على أعمالهم كلّها صغيرها و كبيرها؟

فتجيب الآية وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ فهناك صحيفة أعمال الإنسان المحفوظة لدى اللّه العلى القدير. و هى تنطق بالحقّ عمّا اقترفه الإنسان من ذنوب، فلا يمكنه إنكارها[۳۷۱].

و ربّما كان القصد من الكتاب الذى لدى اللّه هو اللوح المحفوظ. و لفظ «لدينا» يؤكّد هذا التّفسير.

و الخلاصة أنّ الآية المذكورة آنفا تؤكّد حفظ الأعمال على أهلها من خير أو شرّ، فهى مسجّلة بدقّة، و الإيمان بهذه الحقيقة يشجّع الصالحين على القيام بأعمال الخير، و اجتناب الأعمال السيّئة.

و تعبير يَنْطِقُ بِالْحَقِ الذى وصف صحيفة أعمال البشر تشبه القول: إنّ الرسالة الفلانية ذات تعبير واضح، أى: لا يحتاج إلى شرح. و كأنّها ناطقة بذاتها، فهى تجلّى الحقيقة.

و عبارة وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ تبين أنّه لا ظلم و لا جور و لا غفلة يوم الحساب، فكلّ شىء فى سجلّ معلوم.

و لكون هذه الحقائق مؤثّرة فى الواعين من الناس فحسب، أضافت الآية التالية بأنّ هؤلاء الكفّار المعاندين غارقون فى دوّامة الجهل و الغفلة لدرجة أنّهم غافلون عمّا ينتظرهم من الوعيد: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا[۳۷۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۷۳

و هذا الانغمار فی الجهل لا یسمح بمعرفة هذه الحقائق، و یمنع الضالّین من العودة إلی أنفسهم و إلی اللّه تعالی.

و تضیف هذه الآیة وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِکَ هُمْ لَها عامِلُونَ و قد أورد المفسّرون تفاسیر لقوله سبحانه: وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِکَ فبعضهم قال: إنّها تعنی الأعمال السیّئة التی یقترفها الناس عن جهالة (فعلی هذا تکون «ذلک» إشارة إلی جهلهم)، و الأعمال هی الذنوب التی یرتکبها الإنسان عن غیر علم و وعی و قال آخرون: إنّ المراد هو أنّهم إضافة إلی کفرهم ارتکبوا أنواعا من الأعمال السیّئة.

و احتمل آخرون اختلاف برنامج الکفرة عن برنامج المؤمنین اختلافا کبیرا.

و نحن نری عدم اختلاف هذه التفاسیر فیما بینها فی نهایة الأمر، و یمکن الجمع بینها، المهمّ هو الانتباه إلی أنّ مصدر الأعمال الشریرة یکمن فی انغمار القلوب فی الجهالة.

و لکن هؤلاء المترفین یبقون فی هذه الغفلة ما داموا فی نعیمهم، فإذا جاءهم العذاب فهم یصرخون کالوحوش من شدّة العذاب الإلهی، کما تقول الآیة: حَتَّی إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِیهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ یَجْأَرُونَ

فیخاطبون لا تَجْأَرُوا الْیَوْمَ إِنَّکُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ

أمّا لماذا ورد ذکر «المترفین» هنا فحسب مع أنّ المذنبین لا یختصّون بهم؟

السبب هو إمّا لکونهم قادة للضالّین، أو لأنّ عذابهم شدید جدّا.

ثمّ إنّ هذا العذاب یحتمل أن یکون دنیویّا أو اخرویّا أو کلیهما. حیث یصیبهم العذاب فی هذه الدنیا أو فی الآخرة فیرتفع صراخهم، و یستغیثون فلا یغاثون.

و تکشف الآیة التالیة عن سبب هذا المصیر المشؤوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۴

قَدْ کانَتْ آیاتِی تُتْلی عَلَیْکُمْ فَکُنْتُمْ عَلی أَعْقابِکُمْ تَنْکِصُونَ بدلا من الاستفادة منها و الانتباه للواقع.

کلمة «تنکصون» مشتقّة من النکوص، بمعنی السیر بشکل معاکس.

و «أعقاب» جمع «عقب» علی وزن «فعل» و تعنی عقب القدم.

و هذه الجملة کنایة عن شخص یسمع کلاما غیر مرغوب فیه، فیرتعب لدرجة یسیر فیها القهقری علی عقبی قدمیه.

ثمّ إنّه لا یرجع إلی الوراء لمجرد سماعه آیات اللّه، و إنّما یصبح ممّن وصفتهم الآیة مُسْتَکْبِرِینَ بِهِ ۳۷۳].

و إضافة إلی ذلک سامِراً تَهْجُرُونَ أی یتسامرون فی لیالیهم و یتحدّثون عن النّبی و القرآن بالباطل.

و کلمة «سامرا» مشتقّة من «سمر» علی وزن «نصر» بمعنی التحدّث لیلا.

و قال البعض: إنّها تعنی ظلّ القمر فی اللیل حیث یختلط السواد مع البیاض فیه، و بما أنّ المشرکین من العرب کانوا یتسامرون حول الکعبة فی اللیالی المقمرة، و جلّ حدیثهم یتناول النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالباطل، فوردت هذه الکلمة لهذا الغرض. و یقال «سمراء» لمن اختلط بیاضها بشیء من السواد.

و تَهْجُرُونَ مشتقة من «هجر» و تعنی بالأصل الابتعاد و الانفصال، و قد وردت بمعنی الهذیان الصادر من المریض. لأنّ کلامه فی تلک الحالة غیر سلیم.

و یبعث علی النفور. کما أنّ الهجر (علی وزن کفر) یعنی السباب، و هو أیضا یبعث علی الابتعاد و القطیعة.

و قد جاءت کلمة «تهجرون» فی الآیة بالمعنی الأخیر. فتقول: إنّ المشرکین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۵

من العرب کانوا یتسامرون حتّی ساعات متأخّرة من اللیل، و هم یهذون و یکیلون السباب و الشتائم کالمرضی.

و هذا الأسلوب أسلوب الجبناء و ضعاف النفوس، الذين يلجأون إلى ظلمة الليل، ليكيلوا السباب، حيث يفتقدون المنطق السليم الذى يمكنهم من التحدّث برجولة فى وضح النهار. إنّهم اختاروا ظلام الليل بعيدين عن أنظار الناس، ليصلوا إلى أهدافهم المشئومة، فلجأوا إلى السباب و الباطل من أجل التنفيس عن أحقادهم الجاهلية. يقول القرآن الكريم: إنّ سبب تعاستكم و ما ستنالون من عذاب اللّه الأليم هو أنّكم استكبرتم عن قبول الحقّ. و لم ترضخوا بتواضع لآيات اللّه. كما لم يكن تعاملكم مع النّبى بشكل منطقى صحيح. و لولا ذلك لاهتديتم إلى طريق الحقّ و السعادة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۶

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۶۸ الى ۷۴]

اشارة

أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (۶۸) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۶۹) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۰) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (۷۱) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۷۲)

وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۳) وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (۷۴)

التّفسير

أعذار المنكرين المختلفة:

تحدّثت الآيات السابقة عن إعراض الكفّار و استكبارهم إزاء الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم. و تناولت هذه الآيات أعذارهم فى هذا المجال و الرّد عليهم، و شرحت الدوافع الحقيقيّة لإعراض المشركين عن القرآن و الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۷

و يمكن تلخيصها فى خمس مراحل:

الأول: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ

فأوّل سبب لتعاستهم هو تعطيل التفكّر فى مضمون دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لو تفكّروا مليّا لما بقيت مشكلة لديهم.

و فى المرحلة الثّانية تقول الآية: أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ سألت الآية مستنكرة: أ كانت الدعوة إلى التوحيد و المعاد، و الهدى إلى الأعمال الصالحة مختصّة بهم دون آبائهم الأوّلين، ليحتجّوا بأنّها بدعوة، و يقولوا: لماذا لم يبعثه اللّه للأوّلين، و هو لطيف بعباده؟

ليس لهم ذلك، لأنّ الإسلام من حيث المبادئ له مضمون سائر الرسالات التى حملها الأنبياء عليهم السّلام فهذا التبرير غير منطقى و لا معنى له! و فى المرحلة الثّالثة تقول الآية: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ

أى إذا كانت هذه الدعوة صادرة من شخص مجهول و مشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأنّ كلامه حقّ، إلّا أنّ هذا الرجل مشكوك و غير معروف لدينا، نخدع بكلامه. و لكنّهم يعرفون ماضيك جيدا، و كانوا يدعونك محمّدا الأمين، و يعترفون بعقلك و علمك و أمانك، و يعرفون جيدا و الديك و قبيلتك، فلا حجّة لهم! و فى المرحلة الرّابعة تقول الآية: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ أى انّه مجنون، فبعد

اعترافهم بأنّك لست مجهولا بالنسبة لهم، إلّا أنّهم يشكّكون فی سلامة عقلك و ينسبونك إلی الجنون، لأنّ ما تدعو إليه لا ينسجم مع عقائدهم، فلذلك اتّخذوا هذا دليلا علی جنونك.

يقول القرآن المجيد لنفی هذه الحجّة: بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِ و كلامه شاهد علی هذه الحقيقة، و يضيف وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ

أجل، إنّ كلمات الرّسول راشدة حكيمة، إلّا أنّهم ينكرونها لعدم انسجامها مع أهوائهم النفسيّة. فألصقوا به تهمة الجنون! فی الوقت الذی لا ضرورة فی توافق

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۸

الحقّ مع رغبات الناس وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ

لأنّه لا يوجد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافا إلی أنّها تميل إلی الشرّ و الفساد غالبا، و لو اتّبعتها قوانين الوجود لعمّت الفوضی فی الكون و لفسد العالم.

و تأكيدا لذلك تقول الآية: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ۳۷۴] أی منحناهم القرآن الذی هو أساس للذكر و التوجّه إلی اللّه، و سبب لرفعتهم و شرفهم، إلّا أنّهم أعرضوا عن هذا المنار الذی يضیء لهم درب السعادة و الشرف.

و فی المرحلة الخامسة تقول الآية: هل أنّ عذرهم فی فرارهم من الحقّ هو أنّک تريد منهم أجرا علی دعوتک: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّکَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۳۷۵].

فلو طلب قائد دينی أجرا من الناس مقابل وعظهم و دعوتهم إلی الحقّ لأعطی المتعذّرين ذريعة للإعراض عنه و الطعن عليه، فيعرضون عنه بحجّة عدم قدرتهم المالية، و يتّهمونه بأنّه ما دعاهم إلّا ابتغاء منافع خاصّة به.

مضافا إلی أنّ البشر ما يملك من شیء ليمنحه؟ أليس اللّه سبحانه و تعالی رزّاق العباد؟

و القرآن الكريم بإيضاحه هذه المراحل الخمس برهن علی أنّ هؤلاء الحمقی (المشركين) لا يرضخون للحقّ، و أنّ أعذارهم فی إنكار الحقّ أعذار واهية.

و جاءت الآية التالية باستنتاج عام لكلّ ما مضی: وَ إِنَّکَ لَتَدْعُوهُمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صراط مستقيم دلائله واضحة و استقامته معلومة، فالطريق

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۹

المستقيم أقصر الطرق بين نقطتين، و هو طريق واحد، و الطريق الملتوية علی يساره و يمينه غير متناهية.

و رغم أنّ الرّوايات الإسلامية تفسّر الصراط المستقيم بولاية علی عليه السّلام ۳۷۶] إلّا أنّها تكشف- كما قلنا مرارا- عن المصداق الأكمل لذلک، و لا تتنافی مع المصاديق الاخری كالقرآن و الإيمان بالمبدأ و المعاد و التقوی و الجهاد و العدل.

و تستعرض الآية التالية النتيجة الطبيعيّة لهذا الموضوع، فتقول: وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ

كلمة «ناكب» مشتقّة من «النكب» و «النكوب» أی الانحراف عن الطريق. و «نكبت الدنيا» تقع فی مقابل إقبال الدنيا، و تعنی إدبار الدنيا و إعراضها عن المرء.

و من الواضح أنّ الصراط يقصد به هنا ما فی الآية السابقة، و بديهی أنّ الذی ينحرف عنه فی الآخرة فمكانه النّار و بئس المصير، لأنّ المرء يثاب فی الآخرة علی أعماله فی هذه الدنيا.

و عدم إيمان المرء بالآخرة مرتبط بانحرافه عن طريق الحقّ الناجم عن عدم شعوره بالمسؤولية،

فقد روی عن أمير المؤمنين علی عليه السّلام: «إنّ اللّه جعلنا أبوابه و صراطه و سبيله و الوجه الذی يؤتی منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا فإنّهم عن الصراط لناكبون»[۳۷۷].

بحوث

۱- التمسّک بالحقّ أو بالأهواء النفسیّة

أشارت الآیات السابقة- بشکل عابر- إلی التناقض بین التمسّک بالحقّ و بین الأهواء النفسیّة، و هی إشارة ذات مدلول کبیر، حیث تقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۰

وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهِنَ و تفسیر هذه المسألة لیس صعبا للأسباب الآتیة:

الف- لا شکّ فی أنّ أهواء الناس متفاوتة، و قد ینقض بعضها بعضا، حتّی بالنسبة لشخص واحد فقد تتناقض أهواؤه.

و لو استسلم الحقّ لهذه الأهواء لنتج عن ذلک الفساد و عمّت الفوضی. لماذا؟

لأنّ کلّ فرد له صنم و معبود، فلو حکمت هذه الآلهة الکثیرة و المتضادّة هذا العالم المترامی الأطراف، لظهر الفساد و تعمّ الفوضی من جرّاء ذلک، و هذا لا یخفی علی أحد.

ب- إنّ أهواء الناس مع قطع النظر عن تناقضها، فهی تمیل نحو الفساد و الشرّ و لو سادت الوجود و المجتمع البشری، فالنتیجة لا تکون سوی الفساد و الشرّ.

ج- إنّ المیول و الأهواء ذات بعد واحد، و لا تنظر إلی الأمور إلّا من زاویة واحدة و تغفل عن بقیّة الأبعاد، و من المعلوم أنّ أحد العوامل المهمّة فی الفساد و الخراب هو المنهج ذو البعد الواحد الذی یغفل عن الأبعاد الاخری.

و الآیة محلّ البحث تشبه من بعض جوانبها ما ورد فی الآیة الثّانیة و العشرین من سورة الأنبیاء لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا.

و بدیهی أنّ الحقّ کالصراط المستقیم واحد لا نظیر له، بینما الأهواء النفسیة متعدّدة کأوثان المشرکین. فأیّما نتّبع الحقّ أم الهوی؟ أ نتّبع الهوی الذی هو مصدر الفساد فی السّماء و الأرض و فی جمیع الموجودات، أم الحقّ الذی هو رمز الواحدة، و التوحید و النظام و الانسجام؟

الجواب فی غایة الوضوح و الإشراق.

۲- صفات القائد

أوضحت الآیات السابقة عددا من صفات القادة إلی طریق الحقّ، فهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۱

المعروفون بالصلاح و الاستقامة، فلم یبق اللّه للمشرکین ذریعة فی هذا الصدد إذ قال سبحانه: أَمْ لَمْ یَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْکِرُونَ فلو کان الرسل مجهولین لتذرّع المنافقون بذلک، و لأنکروا الرسالات السماویة.

و الأمر الآخر أنّ الرسل لا یستسلمون أبدا لأهواء الناس. و لا یقرّون الناس علی ما اعتادوه من انحراف، مثلما نشاهده الیوم حیث التأیید المطلق لکلّ الرغبات العامّة (رغم انحراف الکثیر منها). و علی هذا کان الرسل یواصلون عملهم بإصرار دائم لنشر العقیدة الحقّة رغم رفض عدد کبیر من الناس لهم و حقدهم علیهم.

و الصفة الاخری للأنبیاء أنّهم لم یطلبوا أجرا من الناس، و لم یأخذوا منهم شیئا فی مقابل نشر الحقّ، فهم لا یرجون غیر اللّه، و ظلّوا یتجرّعون الفقر و البأساء دون أن یکون لأحد علیهم منّة قطّ، لیبقوا أحرارا طلیقین فی نشر دعوتهم بین الناس.

۳- لماذا لا یمیل أکثر الناس إلی الحقّ؟

لقد استنکرت آیات القرآن الکریم- کالآیات السابقة- «الأکثریة» من الناس، فی حین نری أنّ «الأکثریة» یقرّرون الیوم صلاح الشیء أو عدمه فهم معیار الحسن و القبح فی المجتمع، و هذا یثیر علامة استفهام کبیرة: و لیس الکلام فی الآیات التی تذکر الأکثریة مع إضافة ضمیر (هم) حیث یکون المراد منها أکثر الکافرین و المشرکین و أمثالهم، بل الکلام حول الآیات التی تذکر عنوان (أکثر الناس) من قبیل: وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَشْکُرُونَ ۳۷۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۸۲

وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ ۳۷۹].

وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یُؤْمِنُونَ ۳۸۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۰ ؛ ص۴۸۲

وَ ما أَکْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِینَ ۳۸۱].

فَأَبی أَکْثَرُ النَّاسِ إِلَّا کُفُوراً[۳۸۲].

وَ إِنْ تُطِعْ أَکْثَرَ مَنْ فِی الْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ ۳۸۳].

و من جهة أخری اهتمت بعض آیات القرآن بمنهج أکثریة المؤمنین باعتباره معیارا صحیحا للآخرین، فقد جاء فی الآیة الخامسة عشرة بعد المائة من سورة النساء: وَ مَنْ یُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُ الْهُدی وَ یَتَّبِعْ غَیْرَ سَبِیلِ الْمُؤْمِنِینَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّی وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِیراً و نجد فی الرّوایات الإسلامیة لدی تعارض الرّوایات أنّ أحد المعاییر للترجیح هو الشهرة بین أصحاب أئمّة الهدی و أنصارهم و أتباعهم، کما

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «ینظر إلی ما کان من روایتهما عنّا فی ذلک الذی حکما به المجمع علیه عند أصحابک، فیؤخذ به من حکمنا و یترک الشاذّ الذی لیس بمشهور عند أصحابک فإنّ المجمع علیه لا ریب فیه»[۳۸۴].

و نقرأ

فی نهج البلاغة: «و الزموا السواد الأعظم، فإنّ ید اللّه مع الجماعة، و إیّاکم و الفرقة، فإنّ الشاذّ من الناس للشیطان، کما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب»[۳۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۸۳

و نقرأ أیضا

فی نهج البلاغة: «و الزموا ما عقد علیه حبل الجماعة»[۳۸۶].

و علی هذا قد یتراءی للبعض تناقض بین هاتین المجموعتین من الآیات و الأحادیث.

و من جهة أخری یمکن أن یتصوّر مخالفة الإسلام للدیمقراطیة التی تعتمد علی آراء أکثر الناس، و هذا ما رفضه القرآن بشدّة.

و لکن بالتدقیق فی الآیات و الأحادیث السابقة و مقارنة بعضها ببعض یتّضح المفهوم الحقیقی، و هو أنّ الأکثریة لو کانت من المؤمنین الواعین الذین ینتهجون الحقّ و یرفضون الباطل، لا لاستحقّوا الاحترام، و حظی رأیهم بالتقدیر و القبول.

أمّا إذا کانوا فئة جاهلة أو واعیة لکنّها مستسلمة لرغباتها و شهواتها علی علم منها، فلا طاعة لها و لا رأی. لأنّ اتّباعها یؤدّی إلی الضلالة و الضیاع، کما یقول القرآن المجید.

و علی هذا الأساس فلو أردنا تحقیق «دیمقراطیة سلیمة» لوجب السعی أوّلا لتوعیة الناس و تکوین جماعة مؤمنة واعیة، ثمّ الاستناد علی

رأى أكثريتهم كمعيار لسلامة الأهداف الاجتماعية، و إلّا فإنّ ديمقراطية الأكثرية الضّالة لا تنتج سوى ضلال المجتمع و جرّه إلى جهنّم.

و من الضرورى التنبيه إلى انّنا نعتقد أنّ رأى الأكثرية الواعية المؤمنة إنّما يكون محترما و مقبولا فيما إذا لم يخالف الكتاب و السنّة و الأحكام الإلهيّة.

و لجوء الأمم و الشعوب فى هذا العصر إلى رأى الأكثرية مبعثه انعدام المعيار الموثوق به فى قياس ما ينفع المصلحة العامّة و ما يضرّها، فهذه المجتمعات لا تستنير بكتاب ربّانى و لا تلتزم رسالة نبى كريم، و ليس لديها سوى الرجوع إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۴

رأى العامّة. و بما أنّ المتسلّطين لا يسعون لتوعية رعاياهم، بل يجتهدون فى استدامة غفلة الناس و ضآلة اطّلاعهم على ما ينهض بتقدّمهم و ازدهار حياتهم، ليتسنّى لهؤلاء الاستمرار فى الهيمنة على الناس و العبث بمصيرهم، لذلك جعلوا الأكثرية الكميّة معيارا لإسكات الأصوات المعترضة.

و لو دقّقنا فى وضع المجتمعات المعاصرة و القوانين و الأنظمة السائدة، لوجدنا أكثر مصائبهم نابعة من اللجوء إلى ما يسمّى رأى الأكثرية.

فما أسوأ القوانين و أقبح المقرّرات التى جعلتها «الأكثرية»، و ما أكثر الفتن و الحروب التى اندلعت بسبب رأى الأكثرية الجاهلة، و ما أعظم المظالم و أشكال العدوان التى قرّرت الأكثرية صحّتها و مشروعيتها!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۵

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۷۵ الى ۸۰]

اشارة

وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۵) وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ (۷۶) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۷) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (۷۸) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۷۹)

وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۸۰)

التّفسير

طرق التوعية الإلهيّة المختلفة:

عرضت الآيات السابقة الحجج التى يتذرّع بها منكرو الحقّ فى رفض الرسالات و إيذاء الأنبياء عليهم السّلام. و تناولت هذه الآيات إتمام الحجّة عليهم من قبل اللّه تعالى و توعيتهم.

فتقول أوّلا: إنّنا تارة نشملهم برعايتنا و نرزقهم من وفير النعمة لينتبهوا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۶

و لكن: وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ

و اللّه تعالى يبتليهم لعلّهم يعون حين لا تجدى بهم رحمته سبحانه، لكنّ طائفة غالبة منهم لم يستيقظوا حتّى بالبلاء المذلّ وَ لَقَدْ

أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ ٣٨٧].

«التضرّع»- كما أسلفنا- مشتقّة من الضرع بمعنى الثدى، فالتضرّع يعنى الحلب، ثمّ استعملت بمعنى التسليم المخالط بالتواضع و الخضوع.

و تعنى هذه الآية أنّ المشركين لم يتخلّوا عن غرورهم و عنادهم و تكبرهم، و لم يستسلموا للحقّ حتّى و هم يواجهون أشدّ النكبات عصفا بهم.

و إذا ما فسّر التضرّع فى الرّوايات بأنّه رفع اليدين نحو السّماء للدعاء، فهو أحد مصاديق هذا المعنى الواسع.

فاللّه تعالى يواصل هذه الرحمة و النعمة و العقوبات، و المشركون يواصلون طغيانهم و عنادهم حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٣٨٨].

الواقع، أنّ نوعين من العقاب الإلهى: أوّلهما «عقاب الابتلاء»، و ثانيهما «عقاب الاستيصال» و الاقتلاع من الجذور، و الهدف من العقاب الأوّل وضع الناس فى صعوبات و آلام ليدركوا مدى ضعفهم و ليتركوا مركب الغرور.

أمّا هدف العقاب الثّانى الذى ينزل بالمعاندين المستكبرين فهو إزالتهم عن مجرى الحياة، و تطهيرها من عراقيلهم، لأنّه لم يبق لهم حقّ الحياة فى نظام الحقّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴٨٧

و لهذا يستوجب اقتلاع هذه الأشواك من طريق تكامل البشر.

و بيّن المفسّرين اختلاف فى قصد الآية من عبارة باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ.

فالكثيرون يرون أنّه الموت، ثمّ العذاب و عقاب يوم القيامة.

و آخرون يرونه القحط الشديد الذى واجه المشركين سنين عديدة بدعاء من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فأصبحوا لا يجدون ما يأكلون، حتّى تناولوا ما تشمئز منه الأنفس.

و غيرهم يرونه العقاب الأليم الذى نزل على المشركين بضربات سيوف جند الإسلام فى معركة بدر.

و هناك احتمال أنّ الآية لا تختّص بفئة معيّنة، بل هى استعراض لقانون شامل عامّ للعقوبات الإلهيّة، يبدأ من الرحمة، فالتنبيه و العقاب التربوى، و ينتهى بعذاب الاقتلاع من الجذور و الدمار[٣٨٩].

ثمّ تناول القرآن المجيد القضيّة من باب آخر، فعددّ النعم الإلهيّة لدفع الناس إلى الشكر وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ و التأكيد على (الأذن و العين و العقل) لأنّها الأجهزة التى بها يتعرّف الإنسان على المحسوسات و القضايا، فالأشياء الحسيّة يبلغها بالعين و الأذن، و القضايا غير الحسّية يدركها بالعقل.

و معرفة أهميّة حاسّتى النظر و السمع يكفى لتصوّر حالة الإنسان الذى يفقدهما، إذ تظلم الدنيا بعينه. و بفقدان هاتين الحاسّتين بالولادة تفقد حواسّ أخرى عملها. فالأصمّ بالولادة يكون بالبداهة أبكم، فانطلاق اللسان مرتبط بسمع الإنسان و بفقدهما يفقد الإنسان وسيلة ارتباطه مع الآخرين.

و بعد هاتين الحاسّتين اللتين هما مفتاح الإدراك لعالم المادّة، يأتى العقل الذى ينتزع الأفكار ممّا تموّنه به الحواسّ، و يجتاز الطبيعة إلى ما وراءها، و مهمّته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴٨٨

النقد و الاستنتاج و الترتيب و التعميم و تحليل محصّلة حاسّتى البصر و السمع و سواهما، أ فلا يستحقّ الذين لا يشكرونه على هذه الأدوات الثلاث للمعرفة الذمّ و اللوم؟ ألا يكفى التدقيق فى تفاصيلها دليلا على معرفة الخالق و عظيم إحسانه للعباد؟

و تقديم ذكر الاذن و العين على العقل فى الآية المذكورة له ما يسوّغه. و لكن لماذا تقدّم السمع على البصر؟ يحتمل- كما يقول

العلماء- أنّ أذن الولید تعمل أوّلا، ثمّ عینه، فالعینان مغلقتان فی عالم الرحم و لیست لـدیهما أی استعداد و قابلیة علی مشاهدة أمواج النور، و لذلک تبقیان هکذا بعد الولادة قلیلا، ثمّ تتعودان النور تدریجیّا.

و لیست الأذنان هکذا، حتّی أنّ بعضهم یری أنّها قادرة علی السماع حتّی فی الرحم ۳۹۰]. فهی تسمع صوت دقّات قلب الامّ.

إنّ بیان المواهب الثلاث أعلاه یشکّل دافعا لمعرفة واهب هذه النعم، و هو المنعم الوحید حقّا (مثلما یری علماء العقائد فی بعث شکر المنعم أساسا لوجوب معرفة اللّه عقلا).

و تناولت الآیة اللاحقة خلق اللّه سبحانه للإنسان من التراب، فتقول: وَ هُوَ الَّذِی ذَرَأَکُمْ فِی الْأَرْضِ ۳۹۱].

و بما أنّه- جلّ اسمه- خلقکم من الأرض، لذلک ستعودون إلیها مرّة ثانیة، ثمّ یبعثکم: وَ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ

و لـو فکّرتم فی خلقکم من تراب لاـ قیمـة له، لـدلّکم علی خـالق الوجود سبحانه، و عرّفکم علی کریم لطفه بکم و إحسـانه إلیکم، و قادکم إلی الإیمان به

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۹

و بالمعاد.

و بعـد ذکر خلق الإنسان، تناولت الآیـة المـذکورة آنفا دلائل أخری من بـدیع صـنع اللّه تعالی وَ هُوَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

و بهذا الترتیب بدأ البیان القرآنی من الدافع لاستیقاظ القلب و انبعاثه علی معرفة ربّه سبحانه و انتهی بذکر بعض أهمّ الآیات الأنفسیّة و الآفاقیة، فالقول المبارک استعرض مسیرة الإنسان منذ الولادة حتّی الموت و العودة إلی اللّه تعالی، التی تتمّ مراحلها جمیعا بإرادة اللّه العزیز الحکیم.

و ممّـا یلفت النظر جعـل اللّه الموت و الحیاة إلی جانب اختلاف اللیل و النهار، و ذلک لکون النور و الظلام فی عالم الوجود کالموت و الحیاة للکائنات، فمثلما یجـد الخلق حرکته و نشاطه بین أفواج النور، و یسـتخفی بین أسـتار الظلام، کـذلک تبـدأ الأحیاء حرکتها و نشاطها فی نور الحیاة، و تستخفی فی ظلمة الموت، و لکلیهما صفة التدرّج.

و سبق أن قلنـا بـأنّ «اختلاـف» اللیل و النهار قـد یعنی توالیهما حیث یخلف اللیل النهار، و یخلف النهار اللیل. و قـد یعنی اختلافهما و تفاوتهما التدریجی الذی یوجد الفصول الأربعة، و یقود دورة الحیاة فی عالم النبات فی ظلّ نظام دقیق.

و کلّ هذه المسائل یمکن أن تکون السبیل إلی معرفة اللّه، إذا انتبه لها الإنسان و تأمّلها بفطنة.

و لهذا تقول الآیة فی النهایة: أَ فَلا تَعْقِلُونَ !

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۰

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۸۱ الی ۹۰]

اشارة

بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (۸۱) قـالُوا أَ إِذا مِتْنـا وَ کُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۸۲) لَقَـدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۸۳) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیها إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۴) سَیَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَذَکَّرُونَ (۸۵)

قُـلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیم (۸۶) سَیَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۸۷) قُلْ مَنْ بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَـیْءٍ وَ هُوَ یُجِیرُ وَ لا یُجارُ عَلَیْهِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۸) سَیَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّی تُسْحَرُونَ (۸۹) بَلْ أَتَیْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ (۹۰)

التّفسیر

القرآن يدعو الضمائر إلى التحكيم:

دعت الآيات السابقة منكرى اللّه و المعاد إلى التفكّر فى خلق عالم الوجود و آيات الآفاق و الأنفس، و أضافت هذه الآيات أنّ هؤلاء تركوا عقولهم و اتّبعوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴٩١

أسلافهم و قلّدوهم تقليدا أعمى: بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ

ثمّ إنّ هؤلاء ملكهم التعجّب و: قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٣٩٢].

إنّ ذلك لا يصدق! لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ فكانت وعودا كاذبة، و إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ فإعادة الخلق أسطورة، و الحساب و الكتاب أساطير أخرى، و كذا الجنّة و النّار.

و لكون الكفّار و المشركين أشدّ خوفا من اليوم الآخر و ما فيه من هول الحساب و عدل الكتاب، تذرّعوا بالأوهام لتسويغ إعراضهم عن الحقّ و تمسّكهم بالباطل.

و لهذا سدّدت الآيات موضع البحث ضربة قويّة إلى هذا المنطق الواهى من ثلاث طرق: بتذكيرها الإنسان بمالكية اللّه لعالم الوجود المترامى الأطراف، و ربوبيته له، و سيادته عليه. و تستنتج- من جميع الأبحاث- قدرة اللّه و سهولة المعاد عليه سبحانه، و أنّ عدالته و حكمته تستلزمان أن يعقب هذا العالم عالم آخر و حياة أخرى.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يأخذ من المشركين اعترافا بكلّ مسألة، فيعيد كلامهم ليثبت إقرارهم.

يقول أوّلا: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

ثمّ تضيف الآية أنّهم يؤمنون باللّه خالق الوجود وفق نداء الفطرة النابع من ذاتهم، و سيجيبونك و: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ فأجبهم: قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ كيف تتصوّرون استحالة إحياء الموتى بعد اعترافكم الصريح؟

ثمّ يأمر رسوله مرّة ثانية أن يسألهم: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ۴٩٢

فيأتى الجواب نابعا من الفطرة التى فطرة اللّه الناس عليها، و هى الاعتراف بربوبيّته تعالى سَيَقُولُونَ لِلَّهِ و بعد هذا الاعتراف الواضح فلما ذا لا تخافون اللّه، و لا تعترفون بالمعاد و بعث الإنسان مرّة ثانية: قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ

و اسألهم مرّة أخرى عن سيادة اللّه على السماوات و الأرض قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ. و من الذى يجير اللاجئين و جميع المحرومين و لا يحتاج إلى اللجوء إلى أحد: وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

فيعترفون بأنّ العالم و مالكيته و حكومته و إجارة الآخرين يعود للّه فقط سَيَقُولُونَ لِلَّهِ

قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ أى: كيف تقولون: إنّ الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم سحركم رغم كلّ هذا الاعتراف و الإقرار منكم؟! إنّها لحقائق اعترفتم بها فى كلّ مرحلة، فقد أقررتم بأنّه سبحانه مالك الوجود و خالقه، و أنّه المدير و المدبّر و الحاكم و الملجأ، فكيف لا يستطيع من له كلّ هذه القدرة و الحكم و الحكمة، إعادة الإنسان إلى تراب و بعثه ثانية كما خلقه أوّل مرّة؟

لماذا تفرّون من الخضوع للحقيقة؟ و لماذا تتّهمون النّبى الأكرم بالسحر و قلوبكم تعترف بهذه الحقائق؟! و أخيرا يقول القرآن فى عبارة مختصرة ذات دلالة كبيرة بأنّه ليس سحرا و لا شعوذة و لا شىء آخر: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

لقد بيّن اللّه الحقائق للناس بإرساله الأنبياء و الرسل إليهم و لكنّهم عصوا أمره، و لم يستجيبوا له فيما يحييهم من عبادته و إقامة أحكامه الهادية لكلّ خير، المنقذة من كلّ شرّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۳

ملاحظات

۱- معنى عدد من الكلمات

«الأساطير» جمع «أسطورة» قال بعض اللغويين: إنّها مشتقّة من «السطر» بمعنى الصف، فيطلق على الكلمات التى اصطفّت فى خطّ واحد لفظ السطر.

فالأسطورة: الكتابة أو السطور التى تركها لنا الآخرون، و لأنّ كتابات القدماء تحتوى على أساطير خرافية، تطلق الأساطير على الحكايات و القصص الخرافية الكاذبة. و قد تكرّرت كلمة الأساطير فى القرآن المجيد تسع مرّات. و جميعها جاء على لسان الكفّار لتوجيه مخالفتهم لأنبياء اللّه تعالى.

«الربّ» تعنى- كما قلنا فى تفسير سورة الحمد- المالك المصلح، و لهذا لا يطلق على كلّ مالك، و إنّما يختّص بالمالك الذى يسعى لإصلاح و حفظ و إدارة ملكه حفظا جيّدا، و تطلق كلمة «ربّ» أحيانا على المربّى و المعلّم أيضا.

«الملكوت» مشتقّة من «الملك» (على وزن كفر)، بمعنى الحكومة و المالكية، و إضافة الواو و التاء للتأكيد و المبالغة.

«العرش» يعنى السرير ذا القوائم العالية، و يطلق أحيانا على السقف و شبهه.

و عند ما تتعلّق هذه الكلمة باللّه سبحانه، فإنّها تعنى عالم الوجود كلّه، فهو كلّه دون جلاله المقدّس و حكمه الحكيم.

و قد تطلق أحيانا على عالم ما وراء الطبيعة (ميتافيزيقيا) مقابل «الكرسى» الذى يعنى عالم الطبيعة و المادّة، مثال ذلك وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ۳۹۳][۳۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۴

۲- تأكيد المعاد بالاستناد إلى قدرة اللّه الشاملة

يستنتج من آيات القرآن أنّ معظم مخالفة المنكرين للمعاد يدور حول مسألة المعاد الجسمانى، و دهشتهم من عودة الروح و الحياة ثانية إلى الإنسان بعد أن يصير ترابا، من هنا عدّدت الآيات معالم قدرة اللّه فى عالم الوجود، و أكّدت خلقه لكلّ شىء من عدم، ليؤمنوا بالحياة بعد الموت، و تزول استحالتها من تصوّرهم.

و بحثت هذه الآيات هذه المسألة من خلال بيان قدرة اللّه على الأرض و سكّانها. و قدرته على السموات و العرش العظيم، و قدرته على إدارة عالم الخلق و النشر، و هذه السبل الثلاثة مصاديق لمفهوم واحد. و يحتمل أيضا أنّ كلا من هذه الأبحاث الثلاثة يشير إلى وجهة نظر المنكرين للمعاد، فلو كان إنكاركم للمعاد يعود إلى أنّ العظام البالية قد خرجت من دائرة حكومة اللّه و ملكيته، فهذا خطأ، لأنّكم تعترفون أنّ اللّه تعالى هو مالك الأرض و من عليها.

و إنّ كان إنكاركم لأنّ بعث الأموات يحتاج إلى إله مقتدر، فأنتم تعترفون بأنّ اللّه ربّ السماوات و العرش.

و إن كان جحودكم أنّكم فى شكّ من تدبير العالم بعد الحياة الجديدة و بعد بعث الأموات، فهو أيضا فى غير مورده، لأنّكم قبلتم تدبيره و اعترفتم بقدرته على إدارة عالم الوجود، و جوار من لا جار له (أى كلّ الموجودات) حيث يتكفّل برعايتها و تدبير أمورها، فعلى هذا لا مجال لإنكاركم أيضا. و إجابة الكفّار فى الحالات الثلاث بشكل منسجم موحّد سَيَقُولُونَ لِلَّهِ تؤكّد التّفسير الأوّل.

۳- اختلاف نهایات الآیات

و الجدیر بالاهتمام هو أنّه بعد السؤال الأوّل و إجابته جاءت عبارة:
أَ فَلا تَذَكَّرُونَ
و بعد السؤال الثّانی و إجابته جاءت عبارة أَ فَلا تَتَّقُونَ
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۹۵
و بعد السؤال الثّالث و إجابته جاءت عبارة فَأَنَّى تُسْحَرُونَ
و هذه عبارات تنبیه شدیدة للکفّار و استنکار لما هم علیه من باطل بشکل متدرّج و مرحلة بعد أخرى، و هو أسلوب متعارف ینسجم مع الأسالیب المعروفة فی التعلیم و التربیة المنطقیّة. فإذا احتاج المربّی إلى إدانة شخص، یبدأ أوّلا بتنبیهه بلطف، ثمّ بحزم، و بعد ذلک یعنّفه!
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۹۶

الآیتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۹۱ الى ۹۲]

اشارة

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (۹۱) عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۹۲)

التّفسیر

الشرک یجرّ العالم نحو الدمار:

تناولت الآیات السابقة بحوثا فی المعاد و الملک و الحکم و الربوبیّة، أمّا هذه الآیات فقد تناولت نفی الشرک، و استعرضت جانبا من انحرافات المشرکین.
وردّتها علیهم بالأدلّة الساطعة، قائلة: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ
إنّ الإعتقاد بوجود ابن للّه لا ینحصر فی المسیحیین الذین یرون النّبی عیسى علیه السّلام ابنا حقیقیّا له! فقد کان المشرکون یرون الملائکة بنات للّه، و لعلّ المسیحیین أخذوا هذه الفکرة من المشرکین القدماء، و على أساس أنّ الولد جزء من الأب، فلذلک اعتقدوا بأنّ الملائکة أو المسیح علیه السّلام لهم حصّة من الالوهیّة، و هذا أوضح مظهر للشرک.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۴۹۷
ثمّ بیّنت الآیة بطلان الشرک: أنّه لو کان هناک آلهة متعدّدة تحکم العالم، فسیکون لکلّ إله مخلوقاته الخاصّة به یحکم علیها و یدبّر أمورها.
و سیکون تبعا لذلک أنظمة متعدّدة للعالم، لأنّ کلّ واحد من الآلهة یدیر منطقته بنظام خاص إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ و هذا ینافی وحدة النظام الحاکم فی هذا العالم.

وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلی بَعْضٍ و هذه نتیجة محتومة لکلّ صراع، إذ یسعی کلّ طرف فیه لغلبة الآخرین و الهیمنة علیهم، و هذا سیکون بذاته سببا آخر لتفکّک النظام الموحّد السائد فی العالم.

و جاء فی ختام الآیة تقدیس للّه سبحانه سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا یَصِفُونَ

و زبدة الکلام ما نجده بوضوح من سیادة نظام موحّد لساحة الوجود کلّه.

فالقوانین السائدة لهذا العالم فی أرضه و سمائه واحدة، و النظام الحاکم لذرّة واحدة هو ذاته یحکم المجموعة الشمسیّة المنظومات الکبیرة، و لو أتیحت لنا صورة مکبّرة لذّرة واحدة لحصّلنا علی شکل المنظومة الشمسیّة، و العکس صحیح.

و قد برهن العلماء فی تجاربهم فی مختلف العلوم، باستخدام أدقّ الأجهزة و أحدثها علی وحدة النظام السائد لهذا العالم کلّه. هذا من جهة.

و من جهة أخری إنّ الاختلاف و التباین یلازمان التعدّد دوما. فلو تشابهت صفات شیئین تمام التشابه لکانا شیئا واحدا، إذ لا معنی لثنائیتهما عندئذ، و لو فرضنا لهذا العالم آلهة عدیدة لوقع أثر هذا التعدّد علی مخلوقات العالم و النظام الحاکم له، و لانتفت وحدة نظام الخلق.

مضافا إلی أنّ کلّ موجود لا بدّ أن یسعی لاستکمال وجوده إلّا الوجود الکامل من کلّ جهة فلا معنی للتکامل فی وجوده حینئذ، فلو فرضنا وجود مناطق خاصّة لکلّ إله من هذه الآلهة المزعومة، و طبعا لا یکون لکلّ منها کمال مطلق،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۸

و من الطبیعی أیضا أنّها سوف تسعی لاستکمال ذاتها، و تحاول ضمّ بقیّة المناطق إلی حوزتها، و هذا السعی للتکامل و التنافس فی الاقتدار مدعاة لوقوع العالم فریسة بین مخالب الناقصین الباحثین عن السیطرة علی غیرهم، و النتیجة هی فساد العالم و دماره.

و بهذا تکون کلتا الجملتین فی الآیة إشارة إلی دلیل منطقی واحد، و لا تصل النوبة إلی حصر الجملة فی جهة إقناعیة و لیست منطقیة.

السؤال الوحید الباقی فی هذا المورد هو أنّ البرهان المذکور یصحّ فیما لو فرضنا أنّ الآلهة تسعی للتغلّب و السیطرة المطلقة، أمّا لو فرضناها حکیمة و عالمة، فما المانع من أنّ تدیر العالم بالتشاور فیما بینها؟

لقد أجبنا عن هذا السؤال فی تفسیرنا للآیة الثّانیة و العشرین من سورة النساء، فی بحث برهان التمانع، و لا حاجة لتکراره هاهنا.

و الآیة التالیة تردّ علی المشرکین المغالطین فتقول: عالِمِ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ أی إنّ اللّه یعلم ظاهر الأشیاء و باطنها، فکیف تتصوّرون وجود إله آخر تعرفونه أنتم و لا یعرفه الربّ الذی خلقکم و الذی یعلم الغیب و الشهادة فی هذا العالم؟

هذا البیان یشبه ما ورد فی الآیة الثامنة عشرة من سورة یونس قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا یَعْلَمُ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ ! و بهذه العبارة یبطل تصوراتهم الخرافیّة: فَتَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ

و ختام هذه الآیة یشبه ختام الآیة الثامنة عشرة من سورة یونس و هو سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ و هذا یدلّ علی وحدة الموضوع.

کما أنّ هذه العبارة تهدید موجّه للمشرکین بأنّ اللّه الّذی یعلم السرّ و العلن، یعلم ما تقولونه. و سیحاسبکم علیه یوم القیامة فی محکمته العادلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۹

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۹۳ الی ۹۸]

اشارة

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِیَنِّی ما یُوعَدُونَ (۹۳) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِی فِی الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۹۴) وَ إِنَّا عَلی أَنْ نُرِیَکَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (۹۵) ادْفَعْ بِالَّتِی

هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (۹۶) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (۹۷)
وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (۹۸)

التّفسير

تعوّذوا باللّه من همزات الشياطين:

مع مخاطبة هـذه الآيات للرسول الأكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، واصـلت مقاصـد الآيات السابقـة فى تهديد الكفّار و المشـركين المعاندين بأنواع العذاب الإلهى قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى ما يُوعَدُونَ ۳۹۵].
رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ هاهنا دعاء بالنجاة من الهلاک، و الانفصال من الظالمين الـذين ينتظرهم سوء العـذاب، و لا شـکّ أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۰

يعمل ما يعرضه للعـذاب، و ليس من العدل الإلهى أن يأخذ البرىء بالمذنب، بل لو أنّ رجلا كان يعبد اللّه فى قوم لأنقذه اللّه سـبحانه ممّا يعمّهم به من البلاء.
فهذا الدعاء من الرّسول صـلى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما كان بأمر من اللّه تعالى، لهدفين: ليحذّر الكفّار و المشركين من سوء المنقلب الذى يتوجّب أن يسـلّم الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه إلى اللّه جلّ و علا و يطلب منه النجاة، و الآخر: ليعلّم أصحابه و أتباعه جميعا التسليم إلى الحقّ، و ألّا يتصوّروا أنّهم فى مأمن من عذابه.
أمّا ماذا يقصد بهذا العذاب؟
يرى معظم المفسّـرين أنّه العقاب الدنيوى الذى ابتلى اللّه به المشركين، و منه الهزيمة المرّة التى ألحقها بهم فى معركة بدر[۳۹۶] و مع التوجّه إلى أنّ سورة «المؤمنون» مكّيـة نزلت يوم مواجهـة المؤمنين لضـغوط كبيرة. لهـذا كـانت هـذه الآيـات بلسم لجراحهم و تسـلية لخواطرهم (و جاء بهذا المعنى أيضا فى سورة يونس الآية ۴۶).
إلّا أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّه يشمل العذاب الدنيوى و الاخروى معا[۳۹۷].
و يبدو التّفسير الأوّل أقرب لمراد الآية.
و تأكيـدا لهذا الموضوع و لنفى كلّ شکّ لدى الأعداء، و لتسـلية خاطر الرّسول صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و المؤمنين، أضافت الآية اللاحقة وَ إِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَکَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ
و لقـد تجلّت قدرة اللّه سـبحانه فى ساحات مختلفة بعد ذلک- و منها معركة بدر- حيث غلبت قلّة من المؤمنين جموع الأعداء الغفيرة بقوّة الإيمان و بنصر من اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۱

سبحانه و تعالى.
ثمّ يأمر اللّه الرّسول صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم باتّباع سياسة اللين فى الدعوة إلى الهدى و دين الحقّ ادْفَعْ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ أى ادفع عدوانهم و سيّئاتهم بالعفو و الصفح و الإحسان، و كلامهم البذىء بالكلام المنطقى الموزون: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ
و اللّه يعلم أنّ أعمالهم القبيحة و كلامهم البدىء و أذاهم القاسى يؤلم الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّه عزّ و جلّ يدعو إلى عدم الرّد بالمثل، بل يوجب أن يكون الردّ بالتى هى أحسن. و هذا خير سبيل لإيقاظ الغافلين و المخدوعين.

ثمّ نقرأ أمرا ربّانیا بالاستعاذة باللّه من مکائد الشیطان وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّیاطِینِ إنّه دعاء بالإنقاذ من تربّص الشیطان و مکره الخفی، و لا یقف الدعاء عند همزات الشیاطین بل یستمرّ فی الاستعاذة من حضورهم عنده وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ یَحْضُرُونِ أی حضور الشیاطین فی اجتماعات النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الذی یؤدّی إلی إغفال المجتمعین و إضلالهم.

ملاحظتان

۱- ما معنی همزات الشیاطین؟

«الهمزات» جمع «همزة» بمعنی التحریک بقوّة، و قد أطلقت هذه التسمیة علی حرف الهمزة، لأنّها تؤدّی إلی حرکة قویّة فی نهایة الحلق.

و قال بعض المفسّرین: إنّ «الهمز» و «الغمز» و «الرمز» بمعنی واحد. إلّا أنّ الرمز ذو مرحلة خفیفة، و الغمز أشدّ منها. و الهمز، نهایتها فی الشدّة[۳۹۸].

و بما أنّ الشیاطین صیغة جمع، فهی تضمّ شیاطین الجنّ و الإنس، ظاهرها و خفیّها. و نقرأ فی تفسیر علی بن إبراهیم أنّ الإمام علیه السّلام قال فی معنی الآیة: قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّیاطِینِ

هو ما یقع فی قلبک من وسوسة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۰۲

الشیطان»[۳۹۹].

فإذا کان الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم مع عصمته و منزلته السامیة عند اللّه، یدعوه سبحانه بهذا الدعاء، فما بالک بمسؤولیة الآخرین؟ یجب أن یدعوا اللّه ألّا یکلهم إلی أنفسهم طرفة عین. و لیس فقط ألّا یقعوا تحت تأثیر همزات الشیاطین، بل ألّا یحضرهم الشیاطین فی مجالسهم. فعلی محبّی الحقّ و الذّابین عنه و ناشدیه أن یفوّضوا أمرهم إلی اللّه، لیحفظهم من وساوس الشیاطین و مکائدهم.

۲- ردّ السّیّئة بالحسنة

من أبرز السبل المؤثّرة فی مکافحة الأعداء الأشدّاء و المعاندین ردّ السّیّئة بالحسنة، فذلک یوقظ مشاعرهم، فیحاسبون أنفسهم علی ما اقترفوه من أعمال سیّئة، و یعودون للصواب غالبا. و نجد فی سیرة الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة الهدی علیهم السّلام هذا المنهج بشکل واضح، حیث یردّون سیّئات الجنازة بالإحسان إلیهم و الإنعام علیهم، فیکسبون ودّهم، و یفجّرون فی جوارحهم استجابة للحقّ، و رفضا للباطل.

و قد ذکر القرآن المجید هذه السیرة للمسلمین مرارا باعتبارها مبدأ أساسیّا لاقتلاع السیّئات، ففی الآیة الرّابعة و الثلاثین من سورة فصّلت نقرأ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ

و الجدیر بالذکر أنّ هذا الأمر خاص بحالات لا یسیء العدو الاستفادة من هذا المبدأ، و یری إحسانهم إلیه أو عفوهم عنه ضعفا منهم، فیزداد جرأة علی العدوان و الظلم.

و هذه السیرة لا تعنی مساومة الأعداء أو التسلیم لهم. و هذا قد یکون السبب فی أنّ اللّه عزّ و جلّ أمر الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم بعد ذکر هذه التوصیة مباشرة بالتعوّذ به من همزات الشیاطین و حضورهم حوله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۰۳

الآیتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۹۹ الی ۱۰۰]

اشارة

حَتَّی إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (۹۹) لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ کَلَّا إِنَّها کَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۱۰۰)

التّفسیر

طلب المستحیل:

تابعت هاتان الآیتان ما تناولته الآیات السابقة من عناد المشرکین و المذنبین و تمسکهم بالباطل، فتناولت حالهم الوخیم حین الموت. و أنّهم یستمرّون فی باطلهم: حَتَّی إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ۴۰۰].

حینما یجبر المذنب و المشرک علی ترک الدنیا لینتقل إلی عالم آخر، تزول عنه حجب الغفلة و الغرور، فیری بأمّ عینه مصیره المؤلم، فلا مال و لا جاه، فقد عاد کلّ ما یعنیه هباء فی هباء، و هو یشاهد الیوم عاقبة أمره، و ما ارتکبه من ذنوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۰۴

و معاص، فیرتفع صراخه و عویله قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ

ارجعنی یا ربّ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ و لکن قانون الخلق العادل لا یسمح بمثل هذه العودة، لا یسمح بعودة الصالح و لا الطالح، فیأتیه النداء الدامغ کَلَّا.

إِنَّها کَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها. کلام لم یصدر من أعماقه. لم یصدر بإرادته، إنّه یشبه کلام امرئ مسیء یردّد إذا أحسّ بالعقاب، أو کلام قاتل حین إعدامه. و متی هدأت العاصفة بوجههم عادوا لسابق أعمالهم القبیحة. و هذا یشبه ما ورد فی الآیة الثامنة و العشرین من سورة الأنعام وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ

و تشیر الآیة فی نهایتها إلی عالم البرزخ الغامض بعبارة قصیرة ذات دلالة کبیرة وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ

بحوث

۱- من هو المخاطب فی قوله تعالی: رَبِّ ارْجِعُونِ

بملاحظة کلمة «ربّ» التی هی مخفّف «ربّی» بمعنی إلهی، تشیر بدایة الجملة إلی أنّ المخاطب هو اللّه سبحانه و تعالی، إلّا أنّ مجیء «ارجعون» بصیغة الجمع یمنع أن یکون المخاطب هو اللّه عزّ و جلّ. و هذا التعبیران فی الجملة السابقة یثیران سؤالا و تساؤلا.

یری عدد من المفسّرین أنّ المخاطب هو اللّه، و صیغة الجمع هنا للاحترام و التعظیم. و لکن استعمال صیغة الجمع فی مخاطبة المفرد

لیس مألوفا فی العربیة، خاصّة فیما مضی، و لا نظیر له فی القرآن المجید، و بهذا یتّضح ضعف هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۵

التّفسیر[۴۰۱].

و قال عدد آخر من المفسّرین: إنّ المخاطب هم الملائکة المکلّفون بقبض الأرواح. و کلمة «ربّ» نوع من الاستعانة باللّه، و هذا مألوف فی حیاتنا الیومیّة حیث یستغیث المرء باللّه فی الشدائد، ثمّ یستنجد الناس و یصرخ: «یا ربّ! یا ربّ! انقذونی، عجّلوا بمساعدتی» و یبدو هذا التّفسیر أقرب إلی الصواب.

۲- تفسیر عبارة فِیما تَرَکْتُ

قرأنا فی الآیات السابقة أنّ الکفّار یستنجدون باللّه لیرجعهم إلی الدنیا لیعملوا صالحا فیما ترکوا من الأعمال.

و یری البعض فی قوله تعالی: فِیما تَرَکْتُ إشارة إلی أموال ترکوها، لاستعمال تعبیر «ترکة المیت» بصورة اعتیادیة.

و

روی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام یؤکّد هذا المعنی إذ یقول: «من منع قیراطا من الزکاة فلیس بمؤمن و لا مسلم، و هو قوله تعالی: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ ۴۰۲].

بینما یری آخرون أنّ لها معنی أوسع، هو إشارة إلی جمیع الأعمال الصالحة التی ترکها الإنسان. فیکون المعنی: رباه! أرجعنی لاعوّض ما ترکته من عمل صالح.

و لا یناقض الحدیث السابق مع هذا التّفسیر الشامل و هو مصداق واضح له، علما بأنّ هؤلاء الأشخاص یندمون علی ما فاتهم من فرص، لهذا یرغبون فی الرجوع إلی الحیاة لیستفیدوا منها فی العمل الصالح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۶

و یبدو أنّ التّفسیر الثّانی أقرب إلی الصواب، و کلمة «لعلیّ» الواردة فی جملة لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً یمکن أن تکون علامة علی عدم اطمئنان هؤلاء المنحرفین من مستقبلهم، و أنّ الندامة نتیجة لظروف خاصّة، تظهر حین موتهم، و لو عادوا إلی الدنیا لواصلوا أعمالهم ذاتها. و هذا هو عین الحقیقة.

۳- ما الذی تنفیه «کلّا»؟

تأتی «کلّا» فی العربیة بمعنی الحیلولة، و إبطال أثر أقوال المخاطب. و تقابل بالضبط کلمة «أی» التی تستخدم لتصدیق الکلام.

و فی الجواب عن السؤال الوارد آنفا، قال البعض: إنّ «کلّا» تنفی طلب الکفّار الرجوع إلی الحیاة الدنیا، أی إنّ طریق العودة، مغلق، و لا یمکنکم العودة أبدا.

و قال البعض الآخر: إنّ هذه الکلمة جاءت لنفی ادّعاءاتهم القائلة: لو عدنا إلی الدنیا لعوّضنا ما فاتنا من أعمال صالحة، فیقال لهم: ما هذا إلّا ادّعاء باطل، و لو عدتم لواصلتم العمل بنفس نهجکم السابق.

و لا ضیر فی أن تکون هذه الکلمة- فی الوقت ذاته- إشارة إلی نفی إثنین من المعانی. کما یجب ملاحظة أنّ هذا الطلب- رغم وروده فی الآیة محل البحث من قبل المشرکین فقط- لیس خاصّا بهم، بل هو طلب جمیع المذنبین و الظالمین و المنحرفین، إذ یندمون علی ما فاتهم لحظة موتهم، حین یرون مصیرهم الألیم ماثلا لأعینهم، فیرجون اللّه لیعیدهم إلی الحیاة الدنیا، إلّا أنّ اللّه

یزجرهم بقوله:

«کلّا».

۴- ما هو عالم البرزخ؟

و أین هو؟

و ما هو الدلیل لإثبات وجود هذا العالم بین الدنیا و الآخرهٔ؟

و هل یکون البرزخ للجمیع، أم لمجموعهٔ معیّنهٔ؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۷

و أخیرا ماذا سیکون وضع المؤمنین و الصالحین و الکفّار و المسیئین فیه؟

هذه أسئلهٔ أشارت الآیات و الأحادیث السابقهٔ إلیها، لهذا نجیب عنها حسبما یسمح به وضع هذا الکتاب.

تعنی کلمهٔ «البرزخ» فی الأصل الشیء الذی یقع حائلاـ بین شیئین، ثمّ استعملت لکلّ ما یقع بین أمرین. و لهذا أتت کلمهٔ البرزخ للدلالهٔ علی عالم یقع بین عالم الدنیا و الآخرهٔ.

و الدلیل علی وجود عالم البرزخ، أو عالم القبر، أو عالم الأرواح، نجده فی الأدلّهٔ النقلیهٔ، فقد دلّ علیه صریح آیات القرآن أحیانا و ظاهرها أحیانا أخری.

و الآیهٔ موضع البحث وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ ظاهرهٔ فی وجود عالم البرزخ. رغم أنّ البعث رغب فی القول بأنّ کلمهٔ «البرزخ» فی هذه الآیهٔ تعنی العائق و المانع من العودهٔ إلی الدنیا، غیر أنّ هذا المعنی یبدو غریبا، لأنّ عبارهٔ إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ دلیل علی وقوع عالم البرزخ بین الدنیا و الآخرهٔ، و لیس بین الإنسان و الدنیا.

و من الآیات التی تصرّح بوجود مثل هذا العالم، الآیات الخاصّهٔ بحیاهٔ الشهداء، مثل وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ الآیهٔ (۱۶۹) من سورهٔ آل عمران، و الخطاب فیها موجّه إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم. أمّا الآیهٔ (۱۵۴) من سورهٔ البقرهٔ فإنّها خطاب لجمیع المؤمنین: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ یُقْتَلُ فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْیاءٌ وَ لکِنْ لا تَشْعُرُونَ

و عالم «البرزخ» لیس للمؤمنین ذوی الدرجهٔ الرفیعهٔ کالشهداء فقط، بل للکفّار الطغاهٔ کفرعون و أعوانه أیضا، و هذا ما صرّحت به الآیهٔ (۴۶) من سورهٔ المؤمن النَّارُ یُعْرَضُونَ عَلَیْها غُدُوًّا وَ عَشِیًّا وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَهُٔ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ

و ذکرت آیات أخری عالم البرزخ و لکن لا تصل إلی صراحهٔ و ظهور الآیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۸

السابقهٔ.

و ما یجب الانتباه إلیه فی موضع البرزخ هو أنّ الآیات- باستثناء الآیهٔ التی نحن بصددها و التی ذکرته بشکل عامّ- استعرضت البرزخ بشکل خاصّ، کما فی ذکره عن الشهداء أو آل فرعون.

إلّا أنّ الواضح أنّه لا خصوصیّهٔ لآل فرعون لأنّ فی العالم الکثیر من أمثالهم، و لا للشهداء، لأنّ القرآن الکریم اعتبر النّبیّین و الصدّیقین و الصالحین مع الشهداء، کما جاء فی الآیهٔ (۶۹) من سورهٔ النساء فَأُولئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ وَ الصِّدِّیقِینَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِینَ

و لنا حدیث عن کون البرزخ لعامّهٔ الناس أو لفئهٔ منهم، سنورده فی ختام هذا البحث إن شاء اللّه.

أمّا الرّوایات: فهناک أحادیث کثیرهٔ فی کتب الفریقین الشیعهٔ و السنّهٔ تتحدّث بعبارات مختلفهٔ عن عالم البرزخ، و عالم القبر، و عالم

الأرواح. أى تتحدّث عن العالم الذى يفصل بين الدنيا و الآخرة، و منها:

-۱

جاء فى حديث معروف ذكر فى الكلمات القصار فى نهج البلاغة أنّ عليّا عليه السّلام حينما وصل إلى جبانة الكوفة عند عودته من حرب صفين، توجّه إلى القبور و نادى الأموات قائلا: «يا أهل الديار الموحشة و المحال المقفرة و القبور المظلمة! يا أهل التربة! يا أهل القربة! يا أهل الوحدة! يا أهل الوحشة! أنتم لنا فرط سابق و نحن لكم تبع لا حق! أمّا الدور فقد سكنت، و أمّا الأزواج فقد نكحت، و أمّا الأموال فقد قسّمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم»؟

ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: «أما لو اذن لهم فى الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى»[۴۰۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۹

و بهذا يتّضح عدم إمكان حمل هذه العبارات على المجاز و الكناية، بل هى تخبرنا عن حقيقة وجود حياة البرزخ بعد الموت، و تمكّن الموتى- لو سمح لهم- من الحديث إلينا.

۲- و نقرأ حديثا آخر

رواه الأصبغ بن نباتة يذكر فيه أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه خرج من الكوفة، و مرّ حتّى أتى الغريين فجازه، فلحقناه و هو مستلق على الأرض بجسده، ليس تحته ثوب.

فقال له: قنبر: يا أمير المؤمنين ألا أبسط ثوبى تحتك؟

قال: لا، هل هى إلّا تربة مؤمن أو مزاحمته فى مجلسه؟

قال الأصبغ: فقلت: يا أمير المؤمنين، تربة مؤمن قد عرفناه كانت أو تكون.

فما مزاحمته فى مجلسه؟

فقال: «يا ابن نباتة، لو كشف لكم لرأيتم (فى المختصر المطبوع ص ۴: لألفيتم) أرواح فى هذا الظهر حلقا يتزاورون و يتحدّثون، إنّ فى هذا الظهر روح كلّ مؤمن، و بوادى برهوت نسمة كلّ كافر»[۴۰۴].

۳- و

جاء فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام قوله: «إنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّار»[۴۰۵].

۴- و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «البرزخ القبر و هو الثواب و العقاب بين الدنيا و الآخرة ... و اللّه ما نخاف عليكم إلّا البرزخ»[۴۰۶].

۵- و

جاء فى كتاب الكافى أنّه سئل الإمام: و ما البرزخ؟ فأجابه: «القبر من حين موته إلى يوم القيامة»[۴۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۰

۶- و

روى الشيخ الكلينى رحمه اللّه فى الكافى عن على بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن أبى ولّاد الحنّاط، عن أبى عبد اللّه عليه السّلام، قال: قلت له:

جعلت فداك، يروون أنّ أرواح المؤمنين فى حواصل طيور خضر حول العرش، فقال: «لا، المؤمن أكرم على اللّه من أن يجعل روحه فى حوصلة طير، و لكن فى أبدان كأبدانهم»[۴۰۸].

هذا الحديث يشير إلى مصير روح الإنسان، فهى من جهة تشبه هذا الجسم المادّى، إلّا أنّه يمتلك نوعا من التجرّد البرزخى.

۷- کما نقرأ

فی حدیث آخر جاء فی کتاب الکافی عن الإمام الصادق علیه السّلام: سألته عن أرواح المؤمنین فأجاب: «فی حجرات فی الجنّة، یأکلون من طعامها و یشربون من شرابها. و یقولون ربّنا أقم لنا الساعة و أنجز لنا ما وعدتنا»[۴۰۹].

-۸

روی صاحب الکافی عن سهل بن زیاد، عن إسماعیل بن مهران، عن درست بن أبی منصور، عن ابن مسکان، عن أبی بصیر، عن أبی عبد اللّه علیه السّلام، قال: «إنّ الأرواح فی صفة الأجساد فی شجرة فی الجنّة تعارف، فإذا تساءل قدّمت الروح علی الأرواح تقول: دعوها فإنّها قد أفلتت من هول عظیم، ثمّ یسألونها: ما فعل فلان؟ و ما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: ترکته حیّا ارتجوه، و إن قالت لهم: قد هلک، قالوا: قد هوی هوی»[۴۱۰].

تقصد الأحادیث أعلاه بالجنّة و النّار البرزخیتین، و لیس العائدتین لیوم القیامة، و الفرق بینهما کبیر.

و الأحادیث فی هذا المجال عدیدة، و قد رتّبت فی أبواب مختلفة نشیر إلی قسم منها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۱۱

أحادیث تتحدّث عن سؤال القبر و عذابه.

و أحادیث تتناول اتّصال الأرواح مع أسرها و مشاهدة وضعهم.

أحادیث تتحدّث عن لیلة المعراج و اتّصال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مع أرواح الأنبیاء و المرسلین.

أحادیث تنصّ علی ابتلاء الإنسان بنتائج أعماله سواء کانت طیّبة أمّ سیّئة.

بعد موته ... و أمثالها[۴۱۱].

البرزخ و الاتّصال بعالم الأرواح

رغم أنّ الکثیر ممّن یدّعون بأنّهم علی اتّصال بعالم الأرواح کاذبون، أو أنّهم یعانون نوعا من الوهم و الخیال، لکن ثبت أنّ الاتّصال بعالم الأرواح ممکن، و قد تحقّق فعلا لبعض العلماء، حتّی أنّهم توصّلوا إلی بعض الحقائق عن طریق الأرواح.

و هذه القضیّة بذاتها دلیل واضح علی وجود عالم البرزخ و حقیقته، فهی تبیّن أنّ بعد عالم الدنیا و الموت و قبل القیامة فی الآخرة، هناک عالم آخر قائم بذاته [۴۱۲].

کما أنّ الأدلّة العقلیّة لإثبات تجرّد الروح و بقائها بعد فناء الجسم بنفسها دلیل آخر علی وجود عالم البرزخ (فتأمّلوا جیدا).

صورة عن عالم البرزخ

یتّفق علماء الإسلام علی أصل وجود البرزخ و ما یقع فیه من نعمة و نقمة مع بعض اختلافات جزئیة بین هؤلاء العلماء، و یتّفق علماء السنّة و الشیعة علی وجود البرزخ باستثناء عدد قلیل غیر ملحوظ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۱۲

و الدلیل علی الاتّفاق بین هؤلاء العلماء واضح، و هو تصریح الآیات القرآنیة بوجود البرزخ و ما فیه من نعمة و عذاب، کما أسلفنا. و منها ما صرّح بذلک فی الحدیث عن الشهداء: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ فَرِحِینَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ یَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِینَ لَمْ یَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ ۴۱۳] و لیس فقط هذه المجموعة

من الصالحین قد أنعم اللّه علیها، بل إنّ مجموعة من أسوأ الطغاة و المجرمین یعذّبهم اللّه، کما أنّ تعذیب آل فرعون بعد الموت و قبل القیامة قد أشارت إلیه الآیة ۴۶ من سورة غافر (المؤمن).

و الأحادیث متواترة بهذا الصدد، فلا نقاش فی وجود عالم البرزخ أساسا، و المهمّ أن نعرف حیاة البرزخ و شکلها، فقد ذکرت له صورة مختلفة، أوضحها أنّ أرواح البشر بعد ترک هذه الدنیا، تدخل أجساما لطیفة سامیة عن آثار هذه المادّة القذرة، إلّا أنّها علی شکل أجسامنا، و یقال لکلّ منها (الجسم المثالی) و هو لیس مجردا تمام التجرید، و لا هو مادّیا محضا. إنّه یمتاز بتجرّد برزخی معیّن، و شبّهه بعضهم بما علیه الروح فی أثناء ما یراه النائم، إذ تسرّ الروح رؤیة النعم، و تعذّبها مشاهدة المناظر المؤلمة، و لذلک أثّر فی جسمنا هذا، إذ نبکی عند رؤیة حلم مزعج، و نفزع مذعورین من هول ما نری، أو نضحک من أعماقنا من طرافة ما نحلم به فی نومنا.

و یری جماعة أنّ الروح تقوم بنشاط فی الجسم المثالی، بل یرون أکثر من ذلک، ألا و هو قدرة الأرواح القویّة علی اکتساب حالة التجرّد البرزخی فی یقظة الإنسان أیضا. أی تنفصل الروح عن الجسم. و تتحرّک فی الجسم المثالی برغبتها أو بالتنویم المغناطیسی، تتحرّک فی العالم لتطّلع علی بعض القضایا[۴۱۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۱۳

بل إنّ البعض قال بوجود الجسم المثالی فی جسم کلّ إنسان، و إنّه ینفصل عنه فی بدایة الحیاة البرزخیة، و یمکن أن یقع ذلک کما قلنا فی هذه الدنیا.

و إذا رفضنا جمیع هذه الصفات للجسم المثالی، فلا یمکن نفی الموضوع أصلا، بسبب إشارة أحادیث عدیدة إلیه، و لانعدام المانع العقلی منه.

و بهذا یتّضح جواب الاعتراض القائل بأنّ الإعتقاد بالجسم المثالی یستوجب الإعتقاد بالتناسخ، الذی یعنی انتقال الروح من جسم إلی آخر.

لقد ردّ الشیخ البهائی هذا الإحتجاج بوضوح، فقال: إنّ التناسخ الذی یری بطلانه جمیع المسلمین، هو عودة الروح بعد تفسّخ الجسم الذی کانت فیه إلی جسم آخر فی هذه الدنیا.

أمّا اختصاص الروح بالجسم المثالی فی عالم البرزخ حتّی یوم القیامة، ثمّ عودتها إلی الجسم الأوّل بأمر من اللّه تعالی لا علاقة له بالتناسخ، و السبب أنّنا ننفی التناسخ بشدّة و نکفّر الذی یعتقد به، هو قولهم بأزلیّة الأرواح و انتقالها الدائمی من جسم إلی آخر، و إنکارهم المعاد الجسمانی فی عالم الآخرة[۴۱۵].

و القول بوجود الجسم المثالی فی باطن الجسم المادّی یجلی الجواب عن هذا الإشکال، إذ لا تنتقل الروح من جسم إلی آخر، بل تترک بعض قوالبها، و تستمرّ فی قالب آخر فی حیاتها البرزخیة.

و السؤال الآخر هو أنّه یفهم من آیات قرآنیة أن لا حیاة برزخیة لمجموعة من الناس، کما جاء فی الآیة الخامسة و الخمسین و السادسة و الخمسین من سورة الروم! یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَیْرَ ساعَةٍ کَذلِکَ کانُوا یُؤْفَکُونَ، وَ قالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِیمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِی کِتابِ اللَّهِ إِلی یَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا یَوْمُ الْبَعْثِ وَ لکِنَّکُمْ کُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۱۴

و جواب هذا الاعتراض، جاء فی أحادیث فحواها أنّ الناس ثلاث فئات:

فئة مؤمنة مخلصة فی إیمانها، و فئة مخلصة فی کفرها، و فئة متوسطة و مستضعفة.

و إنّ عالم البرزخ خاص بالفئتین الأولی و الثّانیة، أمّا الثّالثة فتعبر عالم البرزخ فی حالة من عدم الاطلاع (لاطلاع أوسع علی هذه الأحادیث یراجع المجلّد السادس من بحار الأنوار، بحث أحوال البرزخ و القبر).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۰، ص: ۵۱۵

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۴]

اشارة

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ (۱۰۱) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۲) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (۱۰۳) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ (۱۰۴)

التّفسير

جانب من عقاب المسيئين:

تحدّث الآيات السابقة عن عالم البرزخ، و أعقبتها آيات تناولت القيامة بالبحث، و تناولت كذلك جانبا من وضع المذنبين فى عالم الآخرة.

فهى تقول أوّلا: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ من المعلوم- بالاستناد إلى آيات القرآن الكريم- أنّ النفخ فى الصور يجرى مرّتين. أولاهما فى نهاية هذا العالم، حيث يموت من فى الأرض و السماوات.

و فى ثانيتهما يبدأ بعث من فى القبور، ليعودوا لحياة جديدة، و ليستعدّوا للحساب و الجزاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۶

«النفخ فى الصور» يعنى النفخ فى البوق، إلّا أنّ هذه العبارة لها مفهوم خاصّ سنبيّنه إن شاء اللّه فى شرح الآية ۶۸ من سورة الزمر.

و على كلّ حال، فإنّ الآية السابقة أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة:

أولاهما: انتهاء مسألة النسب، لأنّ رابطة الاسرة و القبيلة التى تسود حياة الناس فى هذا العالم تؤدّى فى كثير من الحالات إلى نجاة المذنبين من العقاب، إذ يستنجدون بأقربائهم فى حلّ مشاكلهم. أمّا الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كلّ إنسان و عمله، فلا معين له، و لا نفع فى ولده، أو أخيه، أو والده.

و ثانيتهما: سيطرة الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهى، هو يوم كما أطّلعنا عليه فى مطلع سورة الحجّ:

يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ كما يحتمل أن تقصد عبارة وَ لا يَتَساءَلُونَ عدم طلب أحدهم العون من الآخر، لأنّهم جميعا يعرفون عدم جدوى ذلك.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من هذه العبارة هى عدم السؤال عن الأنساب فهى تأكيد لقوله تعالى: فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ

و يبدو التّفسير الأوّل أوضح من غيره، رغم عدم التناقض فيما بينها، و يمكن أن تشير العبارة السابقة إلى هذه المعانى كلّها.

و رأى مفسّرون آخرون أنّه يستفاد من عدّة آيات تساؤل الناس يوم القيامة، كما جاء فى الآية (۲۷) من سورة الصافات، حيث تساءل المذنبون لدى مواجهة النّار وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ كما تحدّثت هذه السورة فى الآية الخمسين عن أهل الجنّة ساعة استقرارهم فى الجنّة متقابلين، فقالت: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ إنّهم تساءلوا عن رفاق لهم فى الحياة الدنيا انحرفوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۷

عن السبيل السوى فاقتيدوا إلى النّار.

كما جاء نظير هذا المعنى فى الآية (۲۵) من سورة الطور، فكيف تنسجم هذه الآيات مع الآية موضع البحث، و هى تنصّ على عدم

تساؤل الناس یوم القیامة؟.

لو دقّقنا ملیّا فی مضـمون الآیات محلّ البحث لاتّضح لنا جواب هذا السؤال، فالآیات الخاصّة بإثبات سؤال بعضـهم للآخر إنّما تتحدّث فی حالـة اسـتقرارهم فی الجنّـة، أو فی النّـار. فی وقت تنفی الآیـات محـل البحث تسـاؤل الناس حین البعث، حیث یسـیطر الرعب علی الجمیع. حتّی أنّ النـاس ینسون جمیع من حولهم و یـذهلون عنهم من هول الحشـر. و بتعبیر آخر: للقیامـة مواقف و لکـلّ موقف شـأن معیّن، و الإشکال المذکور نجم عن عدم تشخیص هذه المواقف.

و بعد وقوع القیامة تبدأ مرحلة الحساب و قیاس الأعمال بمیزان خاصّ بیوم القیامة: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

«الموازین» جمع «میزان» و هو وسـیلة للقیاس. و کما قلنا سابقا: إنّ المیزان لا یعنی ما نعرفه فی هـذه الـدنیا لوزن الموادّ، إنّ المیزان فی هـذه الآیـة یعنی وسـیلة ملائمـة لقیـاس قیمـة أعمـال الإنسـان، أی: للمیزان مفهوم واسع یشـمل جمیع وسائـل القیـاس. و کمـا ورد فی الأحادیث المختلفة أنّه میزان تقاس به الأعمال و الناس، و هم قادة الإسلام الکبار،

فی الحدیث: «إنّ أمیر المؤمنین و الأئمّة من ذریته هم الموازین»[۴۱۶].

و علی هذا فإنّ الرسل و أوصیاءهم هم الذین یقاس الناس و أعمالهم بهم، لیتبیّن إلی أی درجة یشـبهونهم. و بهذا یتمیّز الناس ثقیلهم من خفیفهم، و ثمینهم من تـافههم، و عـالمهم من جاهلهم. کما یتّضـح لنا سـرّ ذکر الموازین بصـیغة الجمع، لأنّ قادة الناس الکبار فی السابق- و هم موازین القیاس- قد تعدّدوا فی التاریخ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۸

و یمکن أن یکون الأنبیـاء و الأئمّـة و عبـاد اللّه المخلصون قـدوة فی مجـال معیّن أو أکـثر علی وفق الظروف التی مرّوا بهـا، فاشـتهروا ببعض الصفات دون أخری، فواحدهم میزان بما اشتهر به من حسنات و خصال حمیدة.

وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ و هم الذین فقدوا الإیمان و العمل الصالح، فوزنهم خفیف یوم القیامة، لأنّهم خسـروا رأسـمال وجودهم: فَأُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِی جَهَنَّمَ خالِدُونَ عبارة خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ تصریح بحقیقة خسران المذنبین لأکبر رأسمال لهم- أی وجودهم- فی سوق تجارة الدنیا دون أن یحصلوا علی مقابل.

و تشـرح الآیـات التالیـة عـذابهم الألیم تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ألسـنة النّار و لهیبها المحرق تضـرب وجوههم کضـرب السـیف وَ هُمْ فِیها کالِحُونَ و هم من شدّة الألم و عذاب النّار، فی عبوس و اکفهرار.

و کلمـة «تلفـح» مشـتقّة من «لفـح» علی وزن «فتـح» و تعنی فی الأصل ضـربة السـیف، و قـد وردت هنا کنایـة، لأنّ لهیب النّار، أو نور الشمس المحرقة، و ریح السموم، تضرب وجه الإنسان کضرب السیف.

و أمّا کلمـة «کالـح» فإنّها مشـتقّة من «کلوح» علی وزن «فعول» بمعنی التعبیس و اکفهرار الوجه. و قـد فسّـره عـدد کبیر من المفسّـرین بتقلّص فی جلد الوجه بحیث یبقی الثغر مفتوحا لا یمکن إغلاقه ۴۱۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۹

ملاحظات

۱- الیوم الذی لا یعتنی فیه بالأنساب:

المفاهیم التی تسود حیاة الإنسان المادّیة فی هذا العالم، سـتتغیّر فی عالم الآخرة، و منها العلاقات الودّیة، و الأواصـر الأسـریّة التی تحلّ مشاکل کثیرة فی هذه الحیاة، و أحیانا تشکّل النظام الذی یسیطر علی سائر العلاقات الاجتماعیة.

و إذا كـان الانتسـاب للقبائـل و الأسـر فى الـدنيا لاـ يعـارض الإيمـان بـاللّه تعالى و العمل الصالـح، فإنّه ينتفى يوم القيامـة، فلا انتساب لشـخص أو طائفـة أو قبيلة. و إذا كان الناس هاهنا يساعد أحدهم الآخر، و يحلّ له مشاكله و ينتصـر له و يفخر به، فإنّهم ليسوا كذلك يوم القيامة، فلا خبر عن الأموال الكثيرة، و لا عن الأولاد يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [۴۱۸].

حتّى من ينتسـبون إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم خاضعون لهذا الحكم، و لهذا نلاحظ أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمـة الأطهـار طردوا عنهم من كـان من المقرّبين فى النسب الهاشـمى، إمّـا لعـدم إيمانه، أو لانحرافه عن الإسـلام الأصـيل، و أظهروا تنفّرهم و براءتهم منه. رغم أنّه

روى عن الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «كل حسب [۴۱۹] و نسب منقطع يوم القيامة إلّا حسبى و نسبى»[۴۲۰].

يقول العلّامـة الطباطبائى (رضوان اللّه عليه) فى الميزان: إنّ هـذا الحديث هو نفسه الذى رواه بعض محدّثى أهل السـنّة فى كتبهم، مرّة عن عبد اللّه بن عمر، و أخرى عن عمر بن الخطاب، و أحيانا عن صحابة آخرين للرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

فى الوقت الذى نرى أنّ الآية- موضع البحث- ذات طابع عامّ، فهى تتحدّث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۰

عن انقطاع جميع الأنساب يوم القيامة، و هذا ما تؤازره المبادئ القرآنية و سـيرة النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم فى معاملة المنحرفين التى تفيد أنّه لا فرق بين الناس فى هذا المجال.

لهذا نقرأ فى حديث رواه ابن شهر آشوب فى كتابه المناقب عن طاووس اليمانى

عن الإمـام زين العابـدين عليه السّـلام أنّه قال: «خلق اللّه الجنّة لمن أطاع و أحسن و لو كان عبـدا حبشـيّا، و خلق النّار لمن عصاه و لو كان سيّدا قرشيا»[۴۲۱].

و ما ذكر لا ينفى احترام السادة المتّقين من آل الرّسول صـلى اللّه عليه و آله و سلّم، فهذا الاحترام فى حقيقته احترام للرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و ما جاء فى القرآن و الحديث فى فضلهم و منزلتهم ناظر حسب الظاهر إلى هذا المعنى.

۲- حكاية الأصمعى المؤثّرة:

و من المناسب هنا ذكر حكاية نقلها «الغزالى» فى كتابه «بحر المحبّة» عن الأصمعى، تؤيّد ما ذهبنا إليه و ذات مسائل جديرة بالاهتمام.

يقول الأصـمعى «كنت أطوف حول الكعبـة فى ليلـة مقمرة، فسـمعت صوتـا حنونـا لرجـل يناجى ربّه. بحثت عن صاحبه و إذا به شاب جميل رشيق القامة يبدو عليه الطيب. و قد تعلّق بأستار الكعبة، و كان يقول فى مناجاته:

يـا سـيّدى و مولاـى، نامت العيون و غابت النجوم، و أنت ملك حىّ قيّوم، لا تأخـذك سـنة و لا نوم، غلقت الملوك أبوابها، و أقامت عليهـا حرّاسـها و حجّابهـا، و قـد خلاـ كلّ حبيب بحبيبه، و بابك مفتوح للسائلين، فها أنّا سائلك ببابك مـذنب فقير، خاطئ مسـكين، جئتك أرجو رحمتك يا رحيم، و أن تنظر إلىّ بلطفك يا كريم! ثمّ أنشد:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۱

يا من يجيب دعا المضـطر فى الظلم* يا كاشف الكرب و البلوى مع السقم قد نام وفدك حول البيت و انتبهوا* و عين جودك يا قيّوم لم تنم إن كان جودك لا يرجوه ذو سـرف* فمن يجود على العاصين بالنعم هب لى بجودك فضل العفو عن سرف* يا من أشار إليه الخلق فى الحرم ثمّ رفع رأسه إلى السّماء و ناجى:

إلهى سيّدى و مولاى! إن أطعتك بعلمى و معرفتى فلك الحمد و المنّة علىّ، و إن عصيتك بجهلى فلك الحجّة علىّ.

و رفع رأسه ثانيـة إلى السّـماء مناجيا بـأعلى صوته: يـا إلهى و سـيّدى و مولاـى، مـا طـابت الـدنيا إلّـا بـذكرك، و ما طابت العقبى إلّا بعفوك، و ما طابت الأيّام إلّا بطاعتك، و ما طابت القلوب إلّا بمحبّتك، و ما طاب النعيم إلّا بمغفرتك.

يضـيف الأصـمعى أنّ هـذا الشـاب واصـل مناجـاة ربّه حتّى أغمى عليه، فـدنوت منه و تـأمّلت فى محيّاه فإذا هو على بن الحسـين زين العابـدين، فأخـذت رأسه فى حجرى و بكيت له كثيرا، فأعادته إلى وعيه قطرات دمع سـكبت على وجنتيه، فتـح عينيه و قال: من الـذى شغلنى عن ذكر مولـى؟ قلت: إنّـك من بيت النبوّة و معـدن الرسالـة. ألم تنزل فيكم آيـة التطهير؟ ألم يقـل اللّه فيكم: إِنَّمـا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

نهض الإمام السجّاد و قال: يا أصمعى! هيهات هيهات! خلق اللّه الجنّة لمن أطاع و أحسن و لو كان عبدا حبشيّا، و خلق النّار لمن عصاه و لو كان سيّدا قرشيا.

ألم تقرأ القرآن؟ ألم تسمع كلام اللّه: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٥٢٢

يَتَساءَلُونَ

يقول الأصمعى: عند ما وجدته على هذا الحال، تركته و مضيت لسبيلى ٤٢٢].

٣- تناسب العقاب مع الذنب

أشرنا سابقا إلى العذاب الإلهى فى القيامة، و إلى أنّ الذنوب التى ترتكب تتناسب مع العقاب بدقّة، و قد ذكرت الآيات السابقة احتراق الوجوه الشديـد بلهيب النّـار المحرقـة، حتّى تكون الوجوه معبّسـة و الثغور مفتّحـة. كـلّ ذلـك عقـاب للـذين خفّت موازينهم و انعـدم إيمانهم. و مع التوجّه لهذا المعنى، و هو أنّ هؤلاء كانوا يعبّسون حين سـماع الآيات الإلهيّة و أحيانا يسـخرون بها. و يجلسون يتحدّثون باستهزاء و تهكّم، فإنّ هذا العذاب يناسب أعمالهم هذه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص: ٥٢٣

الآيات [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠٥ الى ١١١]

اشارة

أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (١٠٦) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (١٠٧) قـالَ اخْسَؤُا فِيهـا وَ لاـ تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كـانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبـادِي يَقُولُونَ رَبَّنـا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنـا وَ ارْحَمْنـا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩)

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (١١١)

التّفسير

لا تكلّمون!

تحـدّثت الآيات السابقـة عن العذاب الأليم لأهل النّار، و تناولت الآيات- موضع البحث- اسـتعراض جانب من كلام اللّه مع أهل النّار،

إذ خاطبهم سبحانه و تعالى بعتاب أَ لَمْ تَكُنْ آياتِی تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ ۴۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۴

ألم أرسل إليكم آيات و أدلّة واضحة بواسطة رسلى! ألم أتمّ حجّتى عليكم! و مع كلّ هذا واصلتم تكذيبكم و إنكاركم.

و بملاحظة كون فعلى «تتلى» و «تكذّبون» مضارعان و هما دليل على الاستمرار، فإنّه يتّضح لنا استمرار تلاوة الآيات الإلهيّة عليهم، و كذلك هم يواصلون التكذيب!.

و هم يعترفون فى ردّهم قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ

«الشقوة» و «الشقاوة» نقيض السعادة، و تعنى توفّر وسائل العقاب و البلاء. أو بتعبير آخر: هى الشرّ و البلاء الذى يصيب الإنسان، بينما تعنى السعادة توفّر ظروف النعمة و الطيب.

و الشقاوة و السعادة ليستا إلّا نتيجة لأعمالنا و أقوالنا و مقاصدنا، و الإعتقاد بأنّ السعادة أو الشقاوة ذاتية للإنسان منذ الولادة، ما هو إلّا تصوّر يذكر لتسويغ الفرار من عبء المسؤولية و الاعتذار من الأعمال المخالفة للحقّ، أو هو تفسير لأعمال الجهل.

و لهذا نرى المذنبين أهل النّار يعترفون بصراحة أنّ اللّه أتمّ عليهم الحجّة، و أنّهم كانوا السبب فى تعاسة أنفسهم، لأنّهم قوم ضالّون.

و لعلّهم فى اعترافهم هذا يودّون نيل رضى اللّه و رحمته، لهذا يضيفون مباشرة رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ يقولون ذلك و كأنّهم لا يعلمون أنّ القيامة دار جزاء، و ليست دار عمل، و أنّ العودة إلى الدنيا أمر محال.

لهذا يردّهم اللّه سبحانه و تعالى بقوّة قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ و عبارة «اخسؤا» التى هى فعل أمر، تستعمل لطرد الكلاب، فمتى ما استخدمت للإنسان فإنّها تعنى تحقيره و معاقبته.

ثمّ يبيّن اللّه عزّ و جلّ دليل ذلك بقوله: هل نسيتم: إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِی يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ و لكنّكم كنتم تستهزئون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۵

بهم إلى درجة أنّ كثرة الاستهزاء و السخرية منهم أنساكم ذكرى:

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِی وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ على أعمالهم و عقائدهم و أخلاقهم إِنِّی جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ

و أمّا أنتم فقد ابتليتم بأسوأ حالة، و بأكثر العذاب ألما، و لا ينجدكم أحد من مصيركم الذى تستحقّونه.

و بهذا بيّنت الآيات الأربع الأخيرة السبب الرئيسى لتعاسة أهل النّار، و سبب انتصار و فلاح أهل الجنّة بشكل صريح.

الفئة الضالّة هى التى كانت وراء تعاستها، فقد هانت حتّى لم تخاطب يوم القيامة إلّا بما يخاطب به الكلب، لاستهزائهم بأهل الحقّ و الاستهانة بمعتقداتهم السامية، فما أجدر المستهزئين بالمؤمنين بهذا المصير! و أمّا الفئة الصالحة فقد نالت خير جزاء من اللّه بصبرها و استقامتها فى مواجهة العدو المعاند المغرور المتعنّت، و مواصلتهم الطريق إلى اللّه بإخلاص.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۶

الآيات [سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١١٢ الى ١١٦]

اشارة

قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِی الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (١١٣) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)

التّفسير

الدنيا، و عمرها القصير:

بما أنّ الآيات السابقة تناولت جانبا من عذاب أهل النّار الأليم، عقّبت الآيات- موضع البحث- ذلك بذكر نوع آخر من العذاب، هو العذاب النفسى الموجّه من قبل اللّه تعالى لأهل النّار للاستهانة بهم.

تقول الآية الأولى: قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ يخاطبهم سبحانه و تعالى يوم القيامة قائلا: كم سنة عشتم فوق الأرض؟

كلمة «الأرض» فى هذه الآية و كذلك القرائن التى سوف تأتى لا حقا تدلّ على أنّ السؤال هو عن مقدار عمرهم فى الدنيا بالمقارنة مع أيّام الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۷

فما ذهب إليه بعض المفسّرين: من أنّ المراد من هذا الاستفسار هو عن السؤال مقدار انتظارهم فى عالم البرزخ، بعيد حسب الظاهر، رغم وجود شواهد قليلة على ذلك فى آيات أخرى [۴۲۴].

إلّا أنّهم يرون فى هذه المقارنة أنّ الدنيا قصيرة جدّا جدّا قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

و الحقيقة أنّ الأعمار الطويلة فى الدنيا كسحابة صيف لو قارناها بحياة الآخرة، حيث النعم الخالدة و العقاب غير المحدود.

و للتأكيد أو للردّ بدقّة قالوا فَسْئَلِ الْعادِّينَ أى: ربّاه اسأل الذين يعرفون أن يعدّوا الأعداد و يحسبوها بدقّة حين مقارنة بعضها مع بعض، و يمكن أن يكون القصد من كلمة «العادّين» الملائكة الذين يحسبون أعمار الناس و أعمالهم بدقّة، لأنّ هؤلاء يجيدون الحساب أفضل من غيرهم.

و هنا يؤنّبهم اللّه و يستهزئ بهم قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فسوف يدركون يوم القيامة مدى قصر عمر الدنيا المحدود بالنسبة لعمر الآخرة الممدود، فالعمر الأوّل ما هو إلّا كلمة بصر، و لكنّهم كانوا يتصوّرونه خالدا، لأنّ حجب الغفلة و آثارها قد أسدلت على قلوبهم، فحجبتها عن رؤية الحقّ، فاستهانوا بالآخرة و حسبوها وعدا آجلا بعيدا، لهذا قال لهم اللّه عزّ و جلّ: لو أنّكم كنتم تعلمون لأدركتم هذه الحقيقة التى توصّلتم إليها يوم القيامة فى دنياكم [۴۲۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۸

و استعملت الآية أسلوبا مؤثّرا آخر لإيقاظ هذه الفئة و تعليمها أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ هذه العبارة الموجزة و العميقة تبيّن واحدا من أقوى الأدلّة على البعث و حساب الأعمال و الجزاء، و تعنى أنّ الحياة الدنيا تصبح عبثا إن لم تكن القيامة و المعاد. فالدنيا بما فيها من مشاكل و ما وضع فيها اللّه من مناهج و مسئوليات و برامج، تكون عبثا و بلا معنى إن كانت لأيّام معدودات فقط، كما سنشرح ذلك فى المسائل الآتية.

و بما أنّ عدم بثيّة الخلق أمر مهمّ يحتاج إلى دليل رصين، أضافت الآية فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فإنّ الذى يقوم بعمل تافه- فى الواقع- هو الجاهل غير الواعى أو الضعيف غير القادر، أو من هو بالذات تافه خاو.

أمّا «اللّه» الذى جمع الكمال فى صفاته.

و هو «الملك» الذى يملك جميع الكائنات و يحكم عليها و هو «الحقّ» الذى لا يصدر منه غير الحقّ، فكيف يخلق الوجود عبثا بلا غاية.

و لو توهّم أحد الأشخاص بأنّه يمكن أن يوجد من يمنعه من الوصول إلى هدفه، فإنّ عبارة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ تنفى ذلك و تؤكّد ربوبيّته و مفهومها أنّ هذا المالك مصلح و هادف فى خلقه للعالم.

و باختصار نقول: إنّه إضافة إلى ذكر كلمة «اللّه» التى هى إشارة إلى صفاته الكمالية فى ذاته، ذكرت الآية أربع صفات بشكل صريح: مالكية و حاكمية اللّه، ثمّ حقّانيّة وجوده، و كذلك عدم وجود شريك له، و أخيرا مقام ربوبيّته. و هذا كلّه دليل على أنّه تعالى لا يقوم بعمل عبثا، كما أنّه لم يخلق البشر عبثا.

كلمة «العرش» كما أشرنا سابقا، هى إشارة إلى أنّ عالم الوجود كلّه الخاضع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۹

لحكم اللّه (لأنّ العرش فى اللغة يعنى السرير ذى الأرجل العالية و الخاصّ بالحكّام، و هذه كناية عن حكم اللّه المطلق). و للاطلاع أوسع على معنى العرش فى القرآن المجيد يراجع التّفسير الأمثل تفسير الآية ۵۴ من سورة الأعراف.

و سبب توصيف العرش بالكريم، هو أنّ كلمة «الكريم» تعنى بالأصل الشريف و المفيد و الجيّد، و بما أنّ عرش اللّه سبحانه و تعالى له هذه الصفات، فقد سمّى بالكريم.

و لا بدّ من القول بأنّ صفة الكريم لا تخصّ العاقل فقط، بل تطلق على غيره فى اللغة العربية. كما نشاهد ذلك فى سورة الحجّ الآية ۵۰ الخاصّة بالمؤمنين الصالحين لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ أى رزق ذو بركة. و كما يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته: الكرم لا يقال إلّا فى المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالا فى تجهيز جيش فى سبيل اللّه، أو تحمّل حمالة ترقئ دماء قوم.

بحث

الموت ليس نهاية الحياة:

قلنا: إنّ من بين الأدلّة المطروحة لإثبات المعاد و العالم الآخر هى «مطالعة نظام هذا العالم» أو بتعبير آخر: إنّ دراسة «النشأة الأولى» شاهد على وجود «النشأة الاخرى».

و من الضرورى إيضاح ذلك بنحو أوسع هنا.

فمن جهة نرى عالم الوجود بهذه السعة و العظمة و التنظيم المدهش، حتّى اعترف كبار العلماء بأنّ أسرار العالم بقدر يقف الإنسان عاجزا إزاءها، فإنّ معلوماته مهما كانت لا تشكّل سوى صفحة من كتاب كبير جدّا. بل إنّ معلوماتنا عن هذا الوجود ما هى إلّا «ألفباء» لهذا الكتاب العظيم التأليف و الأسرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۰

فكلّ واحدة من هذه المجرّات العظيمة تضمّ مليارات من الكواكب، و عدد المجرات و الفواصل بينها كبير بدرجة تثير الدهشة حين حساب المسافة بينها بسرعة الضوء، علما بأنّ سرعة الضوء تبلغ ثلاثمائة ألف كيلومترا فى الثّانية.

و الدقّة المستخدمة فى بناء أصغر وحدة من هذا العالم هى ذاتها التى استخدمت فى أوسع بناء فيه.

و الإنسان- بحسب علمنا- أكمل المخلوقات التى نعرفها فى الوجود، و هو أسمى نتاج لهذا العالم، و من جهة أخرى يلاقى الآلام و المشاكل الكثيرة خلال عمره القصير حتّى يبلغ أشدّه!! فما يكاد ينهى مرحلة الطفولة بآلامها و مشاكلها و يتنفّس الصعداء منها حتّى يدخل مرحلة الصبا و الشباب بتقلّباتها الشديدة المدمّرة.

و ما يكاد يثبت قدميه بعد فى هذه المرحلة حتّى تدهمه مرحلة جديدة مفعمة بألوان الأذى و أنواع المصاعب، هى مرحلة الكهولة و الشيخوخة، فيتّضح له مدى ضعفه و عجزه.

فهل يصدق أن يكون هدف هذا الكائن العظيم الأعجوبة فى الخلق، الذى يسمّى الإنسان، يأتى هو أن إلى هذا العالم ليقضى عددا من

السنين، و ليمرّ بكلّ هذه المراحل بما فيها من آلام و مصاعب، و ليأكل مقدارا من الطعام و يلبس لباسا و ينام و ينهض ثمّ يموت و ينتهى كلّ شىء. و إذا كانت هذه هى الحقيقة، ألا يعنى هذا عبثا؟

أ تكون كلّ هذه التشكيلات العظيمة من أجل غاية دنيئة كالأكل و الشرب و النوم؟

افرضوا بقاء نوع الإنسان ملايين السنين فى هذه الدنيا، و تتعاقب الأجيال، و ترتقى العلوم الماديّة فتوفّر أفضل المأكل و الملبس و المسكن و أعلى مستوى من الرفاهية للبشر، أ تكون تشكيلات الوجود كلّه من أجل هذه المقاصد الدنيا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۱

و على هذا فإنّ دراسة هذا العالم العظيم لوحده دليل على كونه مقدّمة لعالم أوسع يمتاز بالدوام الخالد، و يعطى الإيمان به حياتنا معناها اللائق بها، و يخلصها من التفاهات. و لهذا لا نستغرب من تصوّر الفلاسفة الماديّين الذين لا يعتقدون بالقيامة و الآخرة أنّ هذا العالم تافه لا هدف له. و لو كنّا نحن نعتقد بمثل هذا فحسب لاتّجهنا نفس اتّجاههم. و لهذا نؤكّد أنّه إذا كان الموت نقطة النهاية فخلق الوجود يصبح أمرا تافها، لهذا نقرأ فى الآية (۶۶) من سورة الواقعة وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ !

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۲

الآيتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۱۷ الى ۱۱۸]

اشارة

وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (۱۱۷) وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۱۸)

التّفسير

المفلحون و الخائبون:

بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن قضيّة المعاد، و استعرضت الصفات الإلهيّة، فانّ الآية الأولى أعلاه تناولت التوحيد نافية الشرك مؤكّدة للمبدأ و المعاد.

فى قوله تعالى: وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۴۲۶].

أجل، إنّ المشركين يستندون إلى الأوهام، فلا دليل على ما يدّعون سوى أنّهم كالببغاء يقلّدون آباءهم فى التمسّك بالخرافات و الأساطير- التى لا أساس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۳

لها من الصحّة- و من هنا ينكرون المعاد على الرغم من وضوح أدلّته و إشراق حقيقته، و يقبلون الشرك من غير دليل صحيح عليه. و من الطبيعى أن يعاقب مثل هؤلاء الذين داسوا حكم العقل بأقدامهم، و اتّجهوا فى دروب الكفر و الشرك المظلمة بوعى منهم.

و فى النهاية تقول الآية: إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ ما أجمل بداية هذه السورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و ما أجمل نهايتها المؤكّدة لبدايتها لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ هذه هى صورة جامعة لحياة المؤمنين و الكافرين من البداية إلى النهاية.

و ختمت السورة بهذه الآية الشريفة كاستنتاج عام بأن وجّهت الكلام إلى الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ

و الآن و قد اختارت فئة الشرك سبيلا، و جارت فئة أخرى و ظلمت، فأنت- أيّها الرّسول و من معك تدعون اللّه ربّكم أن يغفر لكم و يرحمكم بلطفه الواسع الكريم.

و لا شكّ فى أنّ هذا الأمر بالدعاء شامل لجميع المؤمنين، رغم كون المخاطب به هو النّبى بذاته.

و روى «أنّ أوّل سورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و آخرها من كنوز العرش، و من عمل بثلاث آيات من أوّلها، و اتّعظ بأربع من آخرها فقد نجا و أفلح [۴۲۷]».

و يحتمل أنّه يقصد الآيات الثلاث التى تلت عبارة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و التى تدعو إحداها إلى الخشوع فى الصلاة، و تدعو الأخرى إلى اجتناب اللغو و تدعو الثّالثة إلى الزكاة. فإحداها تنظّم علاقة الإنسان بربّه، و الاخرى تنظّم هذه العلاقة مع الناس، و الثّالثة مع النفس.

و القصد من الآيات الأربع الأخيرة، هى الآية ۱۱۵ و ما يليها التى تحدّثت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۴

عن غائيّة الخلق، و المعاد، و التوحيد، و أخيرا الانقطاع إلى اللّه و التوجّه إليه.

ربّاه! ندعوك بحقّ المؤمنين الذين وعدتهم فى هذه السورة بالفلاح. و فى طليعتهم الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام أن تحشرنا مع هذه الفئة الصالحة و أن تكتبنا مع المفلحين.

ربّاه! منّ علينا برحمتك و غفرانك إنّك أرحم الراحمين.

إلهى! اجعل خاتمة أعمالنا خيرا. و احفظنا من كلّ خطأ و انحراف، إنّك على كلّ شىء قدير.

ختام تفسير سورة المؤمنين نهاية المجلّد العاشر

---

[۱] (۱)- لقد بحثنا فى معنى(لعلّ) و بأى معنى وردت فى القرآن بصورة مفصّلة فى ذيل الآية(۸۴) من سورة النساء.

[۲] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار رقم ۱۳۰.

[۳] (۱)- مريم، ۱۱

[۴] (۲)- النحل، ۶۸.

[۵] (۳)- الزلزال، ۵.

[۶] (۴)- سورة طه، ۳۸.

[۷] (۵)- النساء، ۱۶۳.

[۸] (۱)- لقد ذكر« كتاب» هنا بصيغة النكرة، و هذه إشارة إلى عظمة الكتاب الذى تثبت فيه أعمال العباد، كما نقرأ فى آية أخرى: \iلا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها\E الكهف- ۴۹.

[۹] (۱)- اصول الكافى، الجزء الثّانى، باب« المؤمن و علاماته و صفاته» الحديث ۳۲.

[۱۰] (۲)- بحار الأنوار، ج ۸۵ ص ۱۳۲

[۱۱] (۱)- النساء، ۶۶.

[۱۲] (۱)-« الضحى» فى اللغة بمعنى زيادة أشعّة الشمس، أو ارتفاع الشمس، و الواو فى جملة(و أن يحشر الناس) دالّة على المعيّة.

[۱۳] (۲)- بالرغم من أنّ(تولّى) فسّرت هنا بالافتراق عن موسى، أن عن ذلك المجلس، إلّا أنّ من الممكن أن تعكس- مع ملاحظة معناها من الناحيهٔ اللغويهٔ- حالهٔ الاعتراض و الغضب لدى فرعون. و موقفه المعادى تجاه موسى.

[۱۴] (۱)- إنّ هذه الجملة من ناحيهٔ الإعراب هى:(إن) مخفّفهٔ من(أنّ) و لذلک لم تعمل عملها فيما بعدها، إضافهٔ إلى أنّ رفع اسم(إن) ليس قليلا فى لغهٔ العرب.

[۱۵] (۲)-« الطريقهٔ» تعنى العادهٔ و الأسلوب المتبع، و المراد منها هنا المذهب. و(مثلى) من مادّهٔ(مثل). و هى هنا تعنى العالى و الأفضل، أى الأشبه بالفضيلهٔ.

[۱۶] (۱)- الأعراف، ۱۱۶.

[۱۷] (۱)- لقد قال الإمام على عليه السّلام هذا الكلام فى وقت كان قلقا من انحراف الناس، و يشير إلى هذه الحقيقهٔ، و هى أنّ قلقى ليس نابعا من شكّى فى الحقّ.

[۱۸] (۱)- من المعلوم أنّ(فى) فى جملهٔ\i وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ E تعنى(على)، أى أعلّقكم على جذوع النخل، إلّا أنّ الفخر الرازى يعتقد أنّ(فى) هنا تعطى نفس معناها، لأنّ(فى) للظرفيّهٔ، و الظرفيّهٔ تناسب كلّ شىء، و نعلم أنّ خشبهٔ الإعدام كالظرف و الوعاء بالنسبهٔ للفرد الذى يعلّق للإعدام. إلّا أنّ هذا التوجيه لا يبدو صحيحا.

[۱۹] (۱)- الأعراف، ۱۱۲.

[۲۰] (۱)- لقد بحثنا هذا الموضوع فى ذيل الآيات ۱۲۳- ۱۲۶ من سورهٔ الأعراف.

[۲۱] (۱)- الأعراف، ۸۴.

[۲۲] (۲)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۶۴. ذيل الآيهٔ(۱۲۶) من سورهٔ الأعراف.

[۲۳] (۱)- و هناک احتمال آخر فى تفسير الجملهٔ آنفهٔ الذكر، و هو أنّ الباء فى(بجنوده) قد تكون بمعنى(مع)، و يصبح مجموع الجملهٔ بهذا المعنى: إنّ فرعون قد عقّب بنى إسرائيل مع جنوده، مع أنّه لا يوجد اختلاف بين هذين التّفسيرين.

[۲۴] (۲)-« اليمّ» يعنى البحر و النهر العظيم. و يعتقد بعض المحقّقين أن هذه لغهٔ مصريهٔ قديمهٔ و ليست عربيهٔ. و لمزيد الإيضاح راجع هامش ذيل الآيهٔ(۱۳۶) من سورهٔ الأعراف.

[۲۵] (۱)- الشرح المفصل لهذه الحادثهٔ فى سورهٔ الأعراف ذيل الآيتين ۱۵۵- ۱۵۶.

[۲۶] (۱)- مجمع البيان ذيل الآيهٔ محلّ البحث.

[۲۷] (۱)- من البديهى أن لا أحد يصمّم على أن يحلّ عليه غضب اللّه، بل المراد من العبارهٔ أنّكم فى وضع كأنّكم قد صمّمتم مثل هذا التصميم فى حقّ أنفسكم.

[۲۸] (۲)-« ملک» و« ملک» كلاهما تعنى تملّک الشىء، و كأنّ مراد بنى إسرائيل أننا لم نتملّک هذا العمل، بل وقعنا تحت تأثيره حتّى اختطف قلوبنا و ديننا من أيدينا. و اعتبر بعض المفسّرين هذه الجملهٔ مرتبطهٔ بجماعهٔ قليلهٔ من بنى إسرائيل لم تعبد العجل، و يقال إنّ ستمائهٔ ألف شخص من هؤلاء أصبحوا من عبدهٔ العجل، و بقى منهم إثنا عشر ألف فقط على التوحيد. لكن يبدو أنّ التّفسير الذى قلنا أعلاه هو الأصحّ.

[۲۹] (۱)-« الخوار» صوت البقرهٔ و العجل، و يطلق أحيانا على صوت البعير.

[۳۰] (۱)-(لن نبرح) من مادّهٔ(برح) بمعنى الزوال، و إنّ ما نراه فى أنّ معنى جملهٔ(برح الخفاء) أى الظهور و الوضوح لأنّ زوال الخفاء ليس إلّا الظهور، و لمّا كانت(لن) تدلّ على النفى، فإنّ معنى جملهٔ(لن نبرح) أننا سنستمر فى هذا العمل.

[۳۱] (۱)- مجمع البيان ذيل الآيهٔ مورد البحث.

[۳۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۸۸.

[۳۳] (۱)- سورة طه، ۹۴.

[۳۴] (۱)- سورة الأعراف، ۱۴۲.

[۳۵] (۱)- نور الثقلين الجزء ۳ ص ۳۹۲.

[۳۶] (۲)- تفسير فى ظلال القرآن. المجلّد الخامس ص ۴۹۴.

[۳۷] (۱)- تفسير القرطبى، الجزء ۶، ص ۴۲۸۱.

[۳۸] (۲)-(لن تخلفه) فعل مبنى للمجهول نائب فاعله السامرى، و ضميره مفعول ثان، و فاعل الفعل فى الأصل هو اللّه، و معنى الجملة فى الجملة: إنّ لك موعدا لا يخلفه اللّه لك.

[۳۹] (۱)- نقرأ نظير هذا التعامل القاطع من أجل قلع جذور الأفكار المنحرفة فى شأن مسجد ضرار فى القرآن كإشارة سريعة، و فى التاريخ و الحديث بصورة مفصّلة، بأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم قد أمر أوّلا بحرق مسجد ضرار، و أن يهدموا الباقى منه، و يجعلوا مكانه محلّلا لأوساخ و قاذورات و فضلات الناس(و لمزيد التوضيح راجع التّفسير الأمثل فى ذيل الآيات ۱۰۷- ۱۱۰ من سورة التوبة).

[۴۰] (۱)- أعلام القرآن، ص ۳۵۹.

[۴۱] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة ۳۱. قسم الرسائل.

[۴۲] (۱)- لقد بحثنا فى مجال التاريخ و أهميته فى بداية سورة يوسف و نهايتها و كذلك فى ذيل الآية(۱۲۰) من سورة هود.

[۴۳] (۱)- العدد فى لغة العرب من ۳ إلى ۱۰ يخالف المعدود فى الجنس، فإذا كان العدد مذكّرا كان المعدود مؤنثا، فإنّ(عشرا) لما جاءت هنا بصيغة المذكّر، فإنّ المضاف إليه هو(ليال) و الذى يجب أن يكون مؤنثا حتما، أمّا لو كان المضاف إليه(أيّام) فكان يجب أن يقال: عشرة. إلّا أنّ بعض أدباء العرب نقل بأنّ العدد إذا ذكر مطلقا و حذف تمييزه فلا تجرى القاعدة السابقة، و بناء على هذا فإنّ(عشرا) هنا إشارة إلى عشرة أيّام.

[۴۴] (۱)-« نسف» فى اللغة تعنى وضع الحبوب الغذائية فى الغربال و غربلتها، أو ذرها فى الهواء لينفصل الحبّ عن القشر، و هنا إشارة إلى تلاشى الجبال و تهشّمها، ثمّ تناثرها فى الهواء.

[۴۵] (۲)- سورة المزمل، ۱۴.

[۴۶] (۳)- سورة الطور، ۱۰.

[۴۷] (۴)- سورة المزمل، ۱۴.

[۴۸] (۵)- سورة القارعة، ۵.

[۴۹] (۶)-« القاع»: الأرض المستوية، و فسّره البعض بأنّه المكان الذى يجتمع فيه الماء. و أمّا« الصفصف» فقد فسّرت أحيانا بأنّها الأرض الخالية من كلّ أنواع النباتات، و أحيانا بمعنى الأرض المستوية. و يستفاد من مجموع هذين الوصفين أنّ كلّ الجبال و النباتات ستمحى من على وجه الأرض فى ذلك اليوم و ستبقى الأرض مستوية خالية.

[۵۰] (۷)-« العوج» بمعنى الاعوجاج، و« الأمت» أى الأرض المرتفعة و الربية، و بناء على هذا فإنّ معنى الآية هو أنّه لا يرى فى ذلك اليوم أى ارتفاع و انخفاض على وجه الأرض.

[۵۱] (۱)-« الهمس»- كما يقول الراغب فى مفرداته- يعنى الصوت الخفى و المنخفض. و فسّره بعضهم بأنّه الصوت الخفى للقدم الحافية، و البعض بحركة الشفاه من دون أن يسمع معها صوت، و لا يوجد تفاوت كبير بين هذه المعانى.

[۵۲] (۱)- احتمل بعض المفسّرين أنّ ضمائر الجمع فى الجملة الأولى تعود إلى الشافعين، و احتمل البعض أيضا أنّ الضمير فى(به) يعود إلى أعمال المجرمين و نتائجها، و لكن ما ذكرناه أعلاه هو الأصحّ كما يبدو. دقّقوا ذلك.

[۵۳] (۱)-« الهضم» فی اللغة بمعنی النقص، و إذا قیل لجذب الغذاء إلی البدن: هضم، فلأنّ الغذاء یقلّ ظاهرا و تبقی فضلاته.

[۵۴] (۱)- سورة القیامة، الآیة ۱۵- ۱۶- ۱۷.

[۵۵] (۱)- تفسیر نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۹۷.

[۵۶] (۲)- تفسیر مجمع البیان، و نور الثقلین، و الصافی فی ذیل الآیات مورد البحث.

[۵۷] (۳)- سفینة البحار، الجزء ۲، ص ۲۱۹(مادّة علم).

[۵۸] (۱)-« سوءات» جمع سوءة، و هی فی الأصل کلّ شیء غیر سار و یسیء الإنسان، و لذلک تطلق أحیانا علی جسد المیّت، و أحیانا علی العورة، و المراد هنا هو المعنی الأخیر.

[۵۹] (۲)-« یخصفان» من مادّة خصف، و هی هنا تعنی خیاطة اللباس.

[۶۰] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۴۰۴.

[۶۱] (۱)- الضنک: المشقّة و الضیق، و هذه الکلمة تأتی دائما بصیغة المفرد، و لیس لها تثنیة و لا جمع و لا تأنیث.

[۶۲] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۴۰۵.

[۶۳] (۱)- الإسراء، ۱۴.

[۶۴] (۲)- الکهف، ۵۳.

[۶۵] (۱)- کما قلنا سابقا، فإنّ« قرون» جمع قرن، تعنی الناس الذین یعیشون فی عصر ما، و یقال أحیانا لنفس ذلک الزمان: قرن. و هی من مادّة المقارنة.

[۶۶] (۱)-« النهی» من مادّة نهی، و هی هنا بمعنی العقل، لأنّ العقل ینهی الإنسان عن القبائح و السیّئات.

[۶۷] (۲)- سفینة البحار- مادّة عبر- الجزء ۲ ص ۱۴۶.

[۶۸] (۱)- النحل، ۶۱.

[۶۹] (۲)- لمزید الإیضاح راجع البحث المفصّل الذی ذکرناه فی ذیل الآیة(۱ و ۲) من سورة الأنعام. و نذکر فی الضمن أنّ جملة(أجل مسمّی) من ناحیة الترکیب النحوی عطف علی(کلمة).

[۷۰] (۱)- التّفسیر الأوّل فی مجمع البیان، و الثّانی فی الظلال، و الثّالث ذکره الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر، و هذه التفاسیر و إن اختلفت إلّا أنّها لا تتضارب فیما بینها، و خاصّة التّفسیر الثّانی و الثّالث.

[۷۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین ج ۳ ص ۴۱۲.

[۷۲] (۲)- المصدر السابق.

[۷۳] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیات مورد البحث.

[۷۴] (۱)- تفسیر القرطبی. الجزء ۶ ص ۴۳۰۷.

[۷۵] (۱)- فی لغة العرب إذا کان الفعل اسما ظاهرا فیؤتی عادة بفعل مفرد، إلّا أنّ هذه لیست قاعدة عامّة و ثابتة، بل یأتون- لعلل خاصّة- بالفعل بصیغة الجمع و بالفاعل اسما ظاهرا و جملة\i وَ أَسَرُّوا النَّجْوَی الَّذِینَ ظَلَمُوا\E من هذا القبیل أیضا.

[۷۶] (۱)-« أضغاث» جمع ضغث، و هو حزمة الحطب أو الأعشاب الیابسة و ما شاکل ذلک، و« الأحلام» جمع حلم و هو المنام و الرؤیة، و لمّا کان جمع حزمة حطب یحتاج أن یجمعوا عدّة أشیاء متفرّقة إلی بعضها، فإنّ هذا التعبیر اطلق علی المنامات المضطربة المتفرّقة.

[۷۷] (۱)- نور الثقلین الجزء ۳ ص ۴۱۲.

[۷۸] (۱)- الفرقان، ۷.

[۷۹] (۱)- یونس، ۱۰۳.

[۸۰] (۱)- سورة ق، ۴۵.

[۸۱] (۱)-« الرکض» یأتی بمعنی رکض الإنسان بنفسه، أو بمعنی إرکاض المرکب و الدابّة، و یأتی أحیانا بمعنی ضرب الرجل علی الأرض مثل i ارْکُضْ بِرِجْلِکَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ E سورة ص- ۴۲.

[۸۲] (۱)- خامد من مادّة الخمود، بمعنی انطفاء النّار، ثمّ أطلقت علی کلّ شیء یفقد حرکته و فاعلیّته و نشاطه.

[۸۳] (۱)- اعتبر بعض المفسّرین الآیات إعلاء إشارة إلی نفی عقائد المسیحیین، أی اعتقدوا أنّ اللهو بمعنی الزوج و الزوجة و الولد. و قالوا: إنّ الآیة تجیب هؤلاء و تقول: إنّنا إذا کنّا نرید أن نختار الصاحبة و الولد فلم نکن ننتخبهما من جنس البشر.

إلّا أنّ هذا التّفسیر لا یبدو مناسبا من عدّة جهات، و من جملتها أنّ ارتباط الآیات أعلاه بالآیات السابقة سینقطع، و الأخری أنّ کلمة« اللهو» و خاصة إذا کانت بعد کلمة اللعب، تعنی التسلیّ لا المرأة و الولد.

[۸۴] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۱۳۱.

[۸۵] (۲)- القیامة، ۳۶

[۸۶] (۳)- المؤمنون، ۱۱۵

[۸۷] (۱)- سورة ص، ۲۷.

[۸۸] (۲)- الذاریات، ۵۶.

[۸۹] (۳)- الطلاق، ۱۲.

[۹۰] (۴)- الملک. ۲.

[۹۱] (۱)- یونس، ۹۹.

[۹۲] (۱)-« یستحسرون» فی الأصل من مادّة حسر، و فی الأصل تعنی رفع النقاب و الستار عن الشیء المغطّی، ثمّ استعملت بمعنی التعب و الضعف، فکأنّ کلّ قوی الإنسان تصرف فی مثل هذه الحالة، و لا یبقی منها شیء مخفی فی بدنه.

[۹۳] (۲)- المیزان، ذیل الآیات محلّ البحث.

[۹۴] (۳)-« ینشرون» من مادّة نشر، أی فکّ الشیء المعقّد الملفوف، و هو کنایة عن الخلق و انتشار المخلوقات فی أرجاء الأرض و السّماء. و یصرّ بعض المفسّرین علی اعتبار هذه الجملة إشارة إلی المعاد و رجوع الأموات إلی الحیاة من جدید، فی حین أنّه بملاحظة الآیات التالیة سیتّضح أنّ الکلام عن توحید اللّه و أنّه المعبود الحقیقی، و لیس عن المعاد و الحیاة بعد الموت.

[۹۵] (۱)- التوحید،« للصدوق» کما ورد فی تفسیر نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۴۱۷- ۴۱۸.

[۹۶] (۲)- المصدر السابق.

[۹۷] (۱)- توحید الصدوق، حسب نقل تفسیر نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۴۱۹.

[۹۸] (۱)- للمفسّرین فی هذه الجملة ثلاثة تفاسیر أوردناها معا فی العبارات أعلاه لعدم المنافاة فیما بینها.

[۹۹] (۱)- بحثنا فی مجال الشفاعة بصورة مفصّلة فی ذیل الآیتین(۴۸ و ۲۵۴) من سورة البقرة فراجع.

[۱۰۰] (۱)- مفردات الراغب مادّة خشیة و شفق، و تفسیر الصافی ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۰۱] (۱)- الفخر الرازی، فی التّفسیر الکبیر، و بعض المفسّرین الآخرین.

[۱۰۲] (۲)- المیزان، ذیل الآیة.

[۱۰۳] (۳)- یراجع تفسیر الصافی، و نور الثقلین، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۰۴] (۱)-« رواسی» جمع راسیة أی الجبال الثابتة، و لمّا کانت هذه الجبال تتّصل جذورها، فیمکن أن تکون إشارة إلی هذا

الارتباط، و قـد ثبت من الناحيـة العلميهٔ أن لاتصال أصول الجبال أثر عميق فى منع الزلازل الأرضيـهٔ.« و تميد» من الميد، و هو الهزّهٔ و الحركهٔ غير الموزونهٔ للأشياء الكبيرهٔ.

[۱۰۵] (۱)- يعتقد بعض المفسّـِرين أنّ الآيهٔ المذكورهٔ تنسـجم و الآيات التى وردت فى القرآن المجيد حول حفظ السّماء من صعود الشياطين بواسطهٔ الشهب، مثل i وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ\E الصافات، ۷.

إلّا أنّ من الواضح أنّ هذا التّفسير لا يناسب كلمهٔ« سقف»، لأنّ السقف غطاء لمن تحته، لا لمن فوقه. دقّقوا ذلك.

[۱۰۶] (۱)- اقتباس من الميزان، ذيل الآيهٔ.

[۱۰۷] (۱)- من كتاب« سرّ خلق الإنسان»، ص ۳۴- ۳۵.

[۱۰۸] (۱)- الأنعام، ۱۲.

[۱۰۹] (۲)- المائدهٔ، ۳۲

[۱۱۰] (۱)- الأنعام، ۹۳.

[۱۱۱] (۲)- الميزان، الجزء ۱۴، ص ۳۱۲.

[۱۱۲] (۱)- العجيب هنـا أنّ هؤلاء كانوا يقولون i أَ هـذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ E و لم يرضوا أن يـذكروا فى عبـارتهم كلمـهٔ(سوء) فيقولون:

يذكر آلهتكم بسوء!

[۱۱۳] (۲)- الإسراء، ۱۱.

[۱۱۴] (۱)- سورهٔ الهمزهٔ، ۷.

[۱۱۵] (۲)- البقرهٔ، ۲۴.

[۱۱۶] (۱)-« يصـحبون» من باب الأفعال، و فى الأصل يعنى أن يجعلوا شيئا تحت تصرّفهم بعنوان المساعدهٔ و الحمايهٔ، و هو هنا يعنى أنّ هذه الأصـنام لا تملك الدفاع ذاتيا، و لا وضعت تحت تصرفها مثل هذه القوّهٔ من قبل اللّه تعالى، و نحن نعلم أنّ أيّهٔ قوّهٔ دفاعيهٔ فى عالم الوجود إمّا أن تنبع من ذات الشىء، أو تمنح له من قبل اللّه تعالى. أى أنّها إمّا ذاتيهٔ أو عرضيهٔ.

[۱۱۷] (۱)- تفسير الفخر الرازى، تفسير فى ظلال القرآن، و مفردات الراغب ذيل الآيهٔ مادّهٔ(نفحهٔ).

[۱۱۸] (۱)- المصدر السابق.

[۱۱۹] (۲)- مع أن« موازين» جمع، و« قسط» مفرد، إلا أن(القسط) مصدر، و المصدر لا يجمع، فليس هنا إشكال.

[۱۲۰] (۱)- الزلزال، ۷.

[۱۲۱] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷، ص ۲۵۲.

[۱۲۲] (۱)- الفرقان، ۱.

[۱۲۳] (۲)- الأنفال، ۴۱.

[۱۲۴] (۳)- لقد أوضحنا الفرق بين« الضياء» و« النور» بصورهٔ أكثر تفصيلا فى ذيل الآيهٔ(۵) من سورهٔ يونس.

[۱۲۵] (۱)- إنّ التعبير ب(ما) فى مثل هذه الموارد يشـير عادهٔ إلى غير العاقل، و اسم الإشارهٔ القريب أيضا يعطى معنى التحقير أيضا، و إلّا كان المناسب الإشارهٔ إلى البعيد.

[۱۲۶] (۱)- قال كثير من المفسّـِرين: إنّ مرجع ضـمير(إليه) إلى إبراهيم، و قال البعض أنّ المراد هو الصـنم الكبير، إلّا أنّ الأوّل يبدو هو الأصحّ.

أمّا ما نقرؤه فى الآيـهٔ آنفهٔ الذكر من أنّه كان أكبرهم، فيمكن أن يكون إشارهٔ إلى كبره الظاهرى، أو إشارهٔ إلى احترامه من قبل عبّاد

الأصنام الخرافيين، أو إلى الإثنين معا.

[۱۲۷] (۲)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۲۸] (۱)- اعتبر بعض المفسّرين(من) هنا موصولة، إلّا أنّ ملاحظة الآية التالية التى هى فى حكم الجواب، فسيظهر أنّ(من) هنا استفهامية.

[۱۲۹] (۲)- كما أشرنا سابقا: إنّ الوثنيين لم يكونوا مستعدّين للقول: أنّ هذا الفتى كان يعيب الآلهة، بل قالوا فقط: إنّه كان يتحدّث عن الأصنام.

[۱۳۰] (۱)- إضافة إلى أنّ ضمير كبيرهم مع البقيّة متشابه.

[۱۳۱] (۲)- احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من i فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ E أنّهم تحدّثوا بينهم عن ذلك الكلام، و لام بعضهم بعضا.

إلّا أنّ ما قلناه يبدو هو الأصحّ.

[۱۳۲] (۱)- بحثنا فى معنى i أُفٍ E بصورة أكثر تفصيلا فى ذيل الآية(۲۳) من سورة الإسراء

[۱۳۳] (۱)- مجمع البيان، و تفسير الميزان، و تفسير الفخر الرازى، و تفسير القرطبى، فى ذيل الآيات مورد البحث. و كذلك الكامل لابن الأثير المجلّد الأوّل ص ۹۸.

[۱۳۴] (۲)- روضة الكافى، طبقا لنقل الميزان، ج ۱۴، ص ۳۳۶.

[۱۳۵] (۳)- تفسير الفخر الرّازى ذيل الآية.

[۱۳۶] (۱)- تفسير مجمع البيان، ذيل الآية.

[۱۳۷] (۲)- تفسير الفخر الرازى، ذيل الآية.

[۱۳۸] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۳۹] (۲)- تفسير القرطبى، المجلّد ۶، ص ۴۳۴۴.

[۱۴۰] (۳)- سفينة البحار، مادّة أمن، ج ۱، ص ۳۷.

[۱۴۱] (۱)- الكامل لابن الأثير، المجلد الأوّل، ص ۹۹.

[۱۴۲] (۱)- روضة الكافى، طبقا لنقل الميزان، فى ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۴۳] (۲)- عدم ذكر إسماعيل هنا مع أنّه كان أوّل ولد إبراهيم، ربّما كان من أجل أنّ ولادة إسحاق من أمّ عقيم و عجوز، كانت تبدو مسألة عجيبة للغاية، فى حين أنّ ولادة إسماعيل من أمّه هاجر لم يكن عجيبا.

[۱۴۴] (۱)- لمزيد الاطّلاع فى هذا المجال راجع ذيل الآية(۱۲۴) من سورة البقرة.

[۱۴۵] (۱)- تقديم كلمة(لنا) على(عابدين) يدلّ على الحصر، و إشارة إلى مقام التوحيد الخالص، لهؤلاء المقدّمين الكبار، أى إنّ هؤلاء كانوا يعبدون اللّه فقط.

[۱۴۶] (۱)- الآية الثّانية- و هى الآية(۴۱) من سورة القصص- تشير إلى فرعون و جنوده، و هذا الحديث جاء فى تفسير الصافى نقلا عن كتاب الكافى.

[۱۴۷] (۱)- لقد نصبت كلمة(لوط) لأنّها مفعول لفعل مقدّر، يمكن أن يكون تقديره:(آتينا) أو(اذكر).

[۱۴۸] (۱)- نوح، ۲۶، ۲۷.

[۱۴۹] (۱)- راجع ما ذكرنا عليه آنفا ذيل الآية(۲۵) سورة هود.

[۱۵۰] (۲)- هود، ۴۶.

[۱۵۱] (۳)- مجمع البیان ذیل الآیة(۴۰) من سورة هود، و نور الثقلین، المجلّد ۲، ص ۳۵۰.

[۱۵۲] (۱)- إن فعل(نصر) یعدّی عادة ب(علی) إلی مفعول ثان، فیقال مثلا: اللّهم انصرنا علیهم. أمّا هنا فقد استعملت کلمة(من)، و ربّما کان ذلک من أجل أنّ المراد النصرة المقترنة بالنجاة، لأنّ مادّة النجاة تتعدّی ب(من).

[۱۵۳] (۱)-« نفشت» من مـادّة نفش علی وزن(حرب) أی التفرّق و التبعثر فی اللیـل، و لمّـا کـان تفرق الأغنام فی اللیل، و فی مزرعة سیقترن بالتهام نباتها حتما لذا قال البعض: إنّها الرعی فی اللیل، و« نقش»(علی وزن علم) تعنی الأغنام التی تتفرّق فی اللیل.

[۱۵۴] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۵۵] (۱)- نقرأ

\i\i فی مجمع البیان فی ذیل الآیـة مورد البحث: روی عن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلم E أنّه قضـی بحفظ المواشی علی أربابها لیلا، و قضی بحفظ الحرث علی أربابه نهارا\.E

و قد نقل هذا المضمون فی تفسیر الصافی نقلا عن کتاب الکافی.

[۱۵۶] (۱)- من لا یحضره الفقیه، طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۴۴۳.

[۱۵۷] (۲)- لمزید الاطّلاع راجع تفسیر الصافی ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۵۸] (۱)- لمزید الإیضاح راجع تفسیر الآیة(۴۴) من سورة الإسراء.

[۱۵۹] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۶۰] (۱)- یظهر من الآیة ۱۲/ سورة سبأ\:i وَ لِسُلَیْمانَ الرِّیحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ\E بصورة مجملة أنّهم کانوا یسیرون صباحا مسافة أمدها شهر و یسیرون عصرا مسافة أمدها شهر« بمقیاس الحرکة فی ذلک الزمان».

[۱۶۱] (۱)- قصص القرآن، ۱۸۵، أعلام القرآن، ۳۸۶.

[۱۶۲] (۱)- سورة ص ۳۸۰.

[۱۶۳] (۱)- تفسیر القمّی، طبقا لنقل تفسیر المیزان.

[۱۶۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۴۴۸.

[۱۶۵] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۶۶] (۲)- تفسیر فی ظلال القرآن، الجلد ۵، ص ۵۵۶.

[۱۶۷] (۳)- تفسیر الفخر الرازی، ذیل الآیـة مورد البحث، و نقرأ فی التأریخ الکامل: إنّ الکفل کان أحد أولاد أیّوب، و کان اسـمه الأصلی(بشر) و کان یعیش فی أرض الشام. الکامل لابن الأثیر، ج ۱، ص ۱۳۶.

[۱۶۸] (۱)-« نقدر» من مادّة قدر بمعنی التعسیر و التضـییق، لأنّ الإنسان عند التضـییق یأخذ من کلّ شیء قدرا محدودا، لا علی نطاق واسع و بدون حساب.

[۱۶۹] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، و مجمع البیان، و نور الثقلین، ذیل الآیة محلّ البحث.

[۱۷۰] (۲)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۳۶.

[۱۷۱] (۱)- الدرّ المنثور، طبقا لنقل المیزان، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۷۲] (۱)-« رغبـا» بمعنی الرغبـة و المیـل و العلاقـة، و« رهبـا» بمعنی الخوف و الرعب، و هنـاک احتمالات متعـدّدة فی محلّهـا من الإعراب، فیمکن أن تکون حالا أو تمییزا أو مفعولا مطلقا، أو ظرفا أی فی حال الرغبـة و فی حال الرهبـة. و بالرغم من أنّ نتائـج هـذه الاحتمالات الخمسة تختلف مع بعضها، إلّا أنّ هذا التفاوت فی جزئیات مفهوم الآیة، لا فی أساسها و نتیجتها.

[۱۷۳] (۱)- تراجع الآیات الأولی من سورة مریم.

[۱۷۴] (۱)- الأعراف، ۱۸۹\i فَلَمَّا تَغَشَّاها\E.

[۱۷۵] (۲)- البقرة، ۲۲۲\i فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ E.

[۱۷۶] (۳)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، و تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآية محل البحث.

[۱۷۷] (۱)- نهج البلاغة. الرسالة ۳۱.

[۱۷۸] (۱)- آل عمران- ۵۵، و الأنعام- ۱۶۴، و النحل- ۹۲، و الحجّ- ۶۹، و ...

[۱۷۹] (۱)- بناء على هذا التّفسير فإنّ i حَرامٌ E خبر لمبتدأ محذوف، و جملة\i أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ E دليل على ذلك، و التقدير:« حرام على أهل قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا أنهم لا يرجعون»

[۱۸۰] (۱)- اعتبر البعض« الحرام» هنا بمعنى الواجب، و قالوا: إنّ هذه الكلمة قد تأتى أحيانا بهذا المعنى، فتكون(لا) زائدة، و يصبح معنى الآية: إنّ رجوع هؤلاء فى الآخرة واجب.

و قال البعض الآخر: إنّ الحرام هنا يعنى الحرام نفسه، إلّا أنّ(لا) زائدة، فيكون المعنى: إنّ رجوع هؤلاء إلى الدنيا حرام.

و اعتقد البعض الآخر أنّ المعنى عدم التوبة و الرجوع إلى اللّه(تفسير مجمع البيان، و الفخر الرازى، ذيل الآية مورد البحث).

و قال بعض آخر: إنّ هذه الآية من قبيل نفى النفى، فتقول: إنّ من المحال أن لا يرجع هؤلاء فى القيامة، أى إنّهم يرجعون(تفسير منهج الصادقين، ذيل الآية مورد البحث) إلّا أنّ ما أوردناه فى المتن هو الأنسب من الجميع.

[۱۸۱] (۱)- تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۸۲] (۲)- ينبغى الالتفات إلى أنّ اللام فى(لها) بمعنى« إلى»، و ضمير(ها) يعود إلى جهنّم فى الصورة الأولى، أمّا فى التّفسير الثّانى فإنّ اللام تعنى« إلى»، و لكن الضمير يعود إلى الأصنام.

[۱۸۳] (۱)- لمزيد الإيضاح راجع تفسير الآية(۱۰۶) من سورة هود.

[۱۸۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۳.

[۱۸۵] (۱)- السجل: الدلو العظيمة، و السّجلّ حجر كان يكتب فيه، ثمّ سمّى كلّ ما يكتب فيه سجلا- مفردات الراغب و القاموس- و ينبغى الالتفات إلى أنّه احتملت احتمالات عديدة فى تفسير جملة\i كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ E إلّا أنّ أقربها أنّ« طى» مصدر للسجل الذى أضيف مفعوله، و اللام فى(للكتب) إمّا للإضافة أو لبيان العلّة. دقّقوا ذلك.

[۱۸۶] (۱)- سورة الروم، ۲۷.

[۱۸۷] (۲)- كما قلنا سابقا، فإنّه لا يوجد صعب و سهل بالنسبة إلى قدرة اللّه اللامتناهية، بل كلّ شيء متساو مقابل قدرته، و على هذا فإنّ التعبير المستعمل فى الآية أعلاه إنّما هو بالنسبة لمحدودية فهم البشر، دقّقوا ذلك.

[۱۸۸] (۳)-« وعدا» مفعول لفعل مقدّر تقديره: وعدنا.

[۱۸۹] (۴)- هذه الجملة تتضمّن عدّة تأكيدات، فلفظة الوعد، ثمّ التعبير ب(علينا) و بعدها التأكيد ب(إنّا) ثمّ استعمال الفعل الماضى(كنّا) و كذلك كلمة(فاعلين).

[۱۹۰] (۵)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۹۱] (۱)- نقل هذا الاحتمال فى تفسير مجمع البيان، و تفسير الفخر الرازى عن عدّة من المفسّرين.

[۱۹۲] (۱)- لمزيد الاطّلاع راجع(منتخب الأثر) و(نور الأبصار).

[۱۹۳] (۱)- نقلنا هذه الجمل عموما عن الترجمة الفارسية للكتب العهد العتيق المنشورة(سنة ۱۸۷۸ تحت إشراف الكنيسة المعروفة ب مجمع الكتب البريطانية المقدّسة للخارجيين).

[۱۹۴] (۱)- ممّا يستحقّ الانتباه أنّ هذا البحث قد كتب فى ليلة الخامس عشر من شعبان سنة ۱۴۰۲، و المصادف للميلاد السعيد

للإمام المهدى صاحب الزمان عليه السّلام، فالحمد للّه على هذا التقارن.

[۱۹۵] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث.

[۱۹۶] (۱)- كما ورد فى كتاب الكافى فى باب يتعلّق بهذا الشأن أيضا.

[۱۹۷] (۱)- لا شكّ أنّ حكم اللّه سبحانه بالحقّ دائما، و على هذا فإنّ ذكر كلمة(بالحقّ) هنا له صبغة التوضيح.

[۱۹۸] (۱)- مجمع البيان بداية سورة الحجّ.

[۱۹۹] (۱)- يؤتى بعلامة التأنيث فى حالة أن يكون للكلمة تذكير و تأنيث، إلّا أنّ الحمل و الإرضاع خاصين بالنساء، لهذا لا حاجة لهما بتاء التأنيث و أمثالها.

[۲۰۰] (۲)- يراجع قاموس اللغة، و تفسير الكشّاف، و التّفسير الكبير للفخر الرازى، و تفسير الميزان.

[۲۰۱] (۳)- وقعت هذه الغزوة فى شهر شعبان فى السنة السادسة للهجرة.

[۲۰۲] (۱)- بتلخيص عن تفسير مجمع البيان، و تفسير نور الثقلين، و تفاسير أخرى.

[۲۰۳] (۱)-« السعير» مشتقّة من« سعر» بمعنى لهب النّار، و تعنى هنا نار جهنّم الحارقة. التى تمتاز بأنّها أكثر حرقا من أى نار.

[۲۰۴] (۱)- النحل، ۱۲۵.

[۲۰۵] (۱)- سورة الحجر، ۴۰.

[۲۰۶] (۲)- قال البعض: إنّ ضمير« عليه» يعود إلى الشيطان، و قال آخرون: إنّه يعود إلى اتّباع الشيطان. كما يستنتج ذلك من عبارة« و من الناس» أيضا، إلّا أنّ ظاهره يؤكّد أنّه يعود إلى الشيطان، لا سيّما و أنّ الضمير المتّصل ب« من تولّاه» يعود إلى الشيطان أيضا.

[۲۰۷] (۱)-« المضغة» مشتقة من« المضغ» و تعنى مقدارا من اللحم يمكن للإنسان مضغه فى لقمة واحدة. و هذا تشبيه رائع للجنين فى المرحلة التى تعقب مرحلة العلقة.

[۲۰۸] (۱)-« الهامدة» تعنى فى الأصل النّار التى أطفئت، و يطلق على الأرض التى جفّت نباتاتها و أصبحت دون حركة« مفردات الراغب الاصفهانى» و البعض الآخر قال: إنّ كلمة« هامدة» تطلق على الحدّ الفاصل بين الموت و الحياة(تفسير فى ظلال القرآن).

« اهتزّت» مشقّة من« الهزّ» و تعنى تحرّكت بشدّة.

« ربت» مشقّة من« الربو» و تعنى الزيادة و النمو، كما أنّ كلمة« ربا» مشتقّة أيضا من« الربو».

« بهيج» تعنى الجميل السّاحر السارّ.

[۲۰۹] (۱)- سورة ص، ۲۷.

[۲۱۰] (۲)- يرى بعض المفسّرين فى عبارة\ i أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى E إشارة إلى حياة الناس فى القيامة. مع أنّ هذا المعنى تضمّنته عبارة\ i وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ\ E أيضا، مع فارق هو أنّ العبارة الأولى إشارة إلى أصل الحياة، و الثّانية إشارة إلى كيفية إحياء الموتى. إلّا أنّ التّفسير الآخر الذى استندنا إليه بصورة أكثر، هو أنّ عبارة\ i أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى E إشارة إلى منح اللّه الحياة بشكل مستمر فى هذه الدنيا، ليكون دليلا على إمكان تحقّق ذلك يوم البعث.

[۲۱۱] (۱)- الذى يثير الانتباه أنّ تعبير القرآن i ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا\ E عن ولادة الإنسان لم يرد بصيغة الجمع(أطفال) وفقا للقاعدة، إلّا أنّ هذا التعبير(طفلا) يمكن أن يكون مصدرا يتساوى فيه المفرد و الجمع، أو أن يكون الهدف بيان النوع. و ليس خصائص الأطفال، فالفروق بين البشر فى هذه المرحلة مخفية تبرز فى المراحل اللاحقة.

[۲۱۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد الثّالث، الصفحة ۴۷۲.

[۲۱۳] (۱)- تفسير الميزان، و التّفسير الكبير للفخر الرازى، فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۲۱۴] (۱)-« ظلّام» صيغة مبالغة تعنى كثير الظلم. و طبيعى أنّ اللّه لا يظلم أبدا لا كثيرا و لا قليلا، و يمكن أن يكون استخدام هذا

التعبير هنا إشارة إلى أنّ العقاب دون مبرّر من قبل اللّه تعالى- جلّ عن ذلك و علا علوّا كبيرا- مصداق ظلم كبير.

[۲۱۵] (۱)- كلمة« انقلب» فى جملة« انقلب على وجهه» تعنى التراجع. و يمكن أن تكون إشارة إلى ترك الإيمان تماما، حتّى إنّه لا يعود إليه. فهو غريب عن الإيمان دوما.

[۲۱۶] (۲)- تفسير الفخر الرازى، المجلّد الثّالث و العشرون، ص ۱۳، و تفسير القرطبى، المجلّد السادس، ص ۴۴۰۹.

[۲۱۷] (۱)- بعض المفسّرين الأفاضل كمفسّر الميزان فسّر عبارة« يدعو» بمعنى« يقول» إلّا أنّ ذلك لا يطابق ظاهر الآية.

[۲۱۸] (۱)- أبو الفتوح الرازى، و كذلك الفخر الرازى فى تفسير هما الآيات موضع البحث.

[۲۱۹] (۱)- تراجع تفاسير« مجمع البيان» و« التبيان» و« الميزان» و« الفخر الرازى» و« أبو الفتوح الرازى» و« تفسير الصافى» و« القرطبى» فى تفسير الآية التى يدور حولها البحث.

[۲۲۰] (۱)- المبتدأ محذوف فى قوله تعالى\:i أَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ\E و تقديره« الأمر أنّ اللّه يهدى من يريد»، و يحتمل أيضا أنّ حرف(أنّ) بالفتح بمعنى(إنّ) بالكسر فلا محذوف فى البين حينئذ.

[۲۲۱] (۱)- أعلام القرآن ص ۵۵.

[۲۲۲] (۲)- تفسير الميزان المجلّد الرّابع عشر صفحة ۳۹۲.

[۲۲۳] (۱)- وسائل الشيعة المجلّد الحادى عشر- أبواب جهاد العدو- الباب ۴۹ صفحة ۹۶.

[۲۲۴] (۲)- وسائل الشّيعة، المجلد الحادى عشر، ص ۹۸، أبواب جهاد العدو الباب ۴۹، الحديث ۷.

[۲۲۵] (۳)- المصدر السابق.

[۲۲۶] (۱)- التحريم، ۶.

[۲۲۷] (۱)- ذكر ذلك الطبرسى فى« مجمع البيان» و الفخر الرازى فى« التّفسير الكبير» و الألوسى فى« روح المعانى» و السيوطى فى« أسباب النّزول» و القرطبى فى تفسيره.

[۲۲۸] (۲)- كلمة« خصمان» مثنّى أمّا فعلها« اختصموا» فجاء بصيغة جمع، و السبب يكمن فى أنّ هذين ليسا شخصين، بل فئتين، إضافة إلى كون الفئتين ليس فى صفّين و إنّما فى صفوف مختلفة، و تنهض كلّ مجموعة لمبارزة الآخرين.

[۲۲۹] (۱)- الحميم: الماء الخارق.

[۲۳۰] (۲)-« يصهر» مشتقّة من« صهر» على وزن« قهر» و تعنى تذويب الشحم. أمّا« الصهر» على وزن« فكر» فتعنى النسيب.

[۲۳۱] (۳)-« المقامع» جمع« مقمع» على وزن« منبر» و تعنى السوط أو العمود الحديدى يضرب به المذنب عقابا له.

[۲۳۲] (۴)-« أساور» جمع« أسورة» على وزن« مشورة» و هى بدورها جمع لكلمة« سوار» على وزن« كتاب» و تعنى المعضد.

[۲۳۳] (۱)- كلمة« الحميد» تعنى المحمود، و تطلق على من يستحقّ الثناء، و هنا يقصد بها اللّه تعالى، و على هذا فإنّ« الصراط الحميد» يعنى السبيل إلى مقام مقرّب من اللّه تعالى. كما قال البعض بأنّ« الحميد» وصف للصراط يشبه الإضافة البيانيّة، و على هذا يكون المعنى: إنّ هؤلاء يرشدون، إلى سبيل جدير بالثناء كلّه.(الآلوسى فى روح البيان)، إلّا أنّ المعنى الأوّل يبدو أصحّ.

[۲۳۴] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة السابعة و الستّين.

[۲۳۵] (۱)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، الصفحة ۳۳۵.

[۲۳۶] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد الثّالث، صفحة ۴۸۲ تفسير الآية.

[۲۳۷] (۲)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، صفحة ۳۳۵.

[۲۳۸] (۱)- يراجع للاطلاع على كيفية بناء الكعبة تفسير الآية(۱۲۷) من سورة البقرة. كما تناولنا ذلك بشرح مسهب فى تفسير الآية(۹۶) من سورة آل عمران.

[۲۳۹] (۲)- فی هذه الآیة جملة محذوفة تقدیرها« أوحینا» و قد أشار إلی ذلک عدد کبیر من المفسّرین.

[۲۴۰] (۱)- یراجع تفسیر الآیة موضع البحث فی تفاسیر المیزان، و فی ظلال القرآن، و التبیان، و مجمع البیان، و التّفسیر الکبیر للفخر الرازی.

[۲۴۱] (۲)- بتلخیص، عن تفسیر علی بن إبراهیم حسبما نقله تفسیر نور الثقلین، المجلّد الثّالث، ۴۸۸.

و الآلوسی فی روح المعانی، و الفخر الرازی، فی التّفسیر الکبیر فی تفسیر الآیة موضع البحث مع بعض الفارق.

[۲۴۲] (۳)- تفسیر« روح المعانی»، و« مجمع البیان»، و« الفخر الرازی».

[۲۴۳] (۱)- یقول العالم الفاضل العلامة الشعرانی رضی الله عنه: إن ذلک لیس عجیبا بالنسبة للذین یأتون إلی مکة من الأندلس أو المغرب أو من أنحاء نائیة فی الصین أو من استرالیة. حیث یستغرق سفرهم زمنا طویلا یصل إلی عدة أشهر نظرا لوسائط النقل التی کانت تستعمل آنذاک و افتقاد الطرق للأمن(إضافة إلی ذلک کان البعض من المتولهین ببیت الله یتعرضون إلی السرقة فی الطریق فیضطرون إلی العمل من أجل إعداد مؤنة باقی الطریق إلی بیت الله الحرام).

[۲۴۴] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثالث، الصفحة ۴۸۸ نقلا عن کتاب الکافی.

[۲۴۵] (۱)- فی التّفسیر الأوّل(أی ذکر اسم اللّه علی الأضحیة) تکون« علی» هنا للاستعلاء، أمّا فی التّفسیر الثّانی(أی الذکر المطلق لاسم اللّه تعالی فی هذه الأیّام) فإنّ« علی» تعنی« من أجل» فالفرق بین هذین التّفسیرین کبیر، سنشیر إلیه فی الملاحظات.

[۲۴۶] (۱)- و علیه یزول الخلاف بین هاتین المجموعتین من المفسّرین فی تفسیر عبارة« و یذکر اسم اللّه» حیث خصّصت أولاها ذکر اسم اللّه بتقدیم الأضاحی، و الأخری جعلت مفهومه عامّا، و بهذا یکون التّفسیر الأوّل مصداقا للتفسیر الثّانی، و یکون التّفسیر الثّانی ذا مفهوم واسع و عام.

[۲۴۷] (۲)- ورد الحدیث السابق عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام و قد ذکر فی بحار الأنوار، المجلّد ۹۹، صفحة ۳۰۶.

[۲۴۸] (۳)- بحار الأنوار، المجلّد ۹۹، صفحة ۳۰۷.

[۲۴۹] (۱)- بحار الأنوار، المجلّد ۹۹، الصفحة ۲۶.

[۲۵۰] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۲۵۲.

[۲۵۱] (۱)- وسائل الشیعة، المجلّد الثامن، الصفحة ۹.

[۲۵۲] (۲)- المصدر السابق.

[۲۵۳] (۱)- تفسیر العیاشی، حسبما جاء فی تفسیر المیزان، المجلّد الثّانی، ص ۸۶.

[۲۵۴] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۹، ص ۳۲.

[۲۵۵] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۸ ص ۱۴.

[۲۵۶] (۲)- نهج البلاغة، الوصیّة، ۴۷.

[۲۵۷] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۸ ص ۱۵.

[۲۵۸] (۱)- وسائل الشیعة، المجلّد العاشر، الصفحة ۱۵۰(أبواب الذبح الباب ۴۲ الحدیث ۵).

[۲۵۹] (۱)- عن قاموس اللغة، و مفردات الراغب الاصفهانی، و کنز العرفان، و تفسیر مجمع البیان، و تفاسیر أخری.

[۲۶۰] (۱)- کنز العرفان، المجلّد الأوّل، ص ۲۷۰.

[۲۶۱] (۲)- نور الثقلین، المجلّد الثّالث، صفحة ۴۹۲.

[۲۶۲] (۳)- وسائل الشیعة المجلّد، العاشر، الصفحة ۲۵۵(أبواب المزار الباب الثّانی الحدیث الثّانی عشر).

[۲۶۳] (۱)- احتمل بعض المفسّرین القصد من النذور القیام بمشاعر الحجّ، إلّا أنّه بمراجعة حالات استعمال کلمة النذر فی القرآن

المجيد، يتّضح لنا أنّه يقصد المعنى المتداول من كلمة النذر، لهذا فإنّ استخدامها فى مناسك الحجّ دون دليل، خلافا لمعناها الظاهر.

[٢٦۴] (٢)- آل عمران، ٩۶.

[٢۶۵] (١)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، الصفحة ٢٧١.

[٢۶۶] (٢)- مجمع البيان نقلها فى تفسير الآية- موضع البحث- عن بعض المفسّرين لم يذكر أسماءهم.

[٢۶٧] (٣)- وسائل الشيعة المجلّد التاسع الصفحة ٣٩٠ أبواب الطواف الباب الثّانى.

[٢۶٨] (۴)- المصدر السابق.

[٢۶٩] (١)-« حنفاء» و« غير مشركين». كلاهما حال لضمير« فاجتنبوا»، و« اجتنبوا» فى الآية السابقة.

[٢٧٠] (١)- توحيد الصدوق، حسبما نقله تفسير الصافى.

[٢٧١] (٢)-« تخطفه» مشتقّة من« الخطف» على وزن فعل، بمعنى الإمساك بالشيء، أثناء تحرّكه بسرعة و« سحيق» تعنى« البعيد» و تطلق على النخلة العالية كلمة« سحوق».

[٢٧٢] (١)- بما أنّ هناك ارتباطا بين الشرط و الجزاء، و كلاهما يخصّان موضوعا واحدا، نجد فى الآية السالفة الذكر محذوفا تقديره(و من يعظّم شعائر اللّه فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب). و يمكن أن يكون الجزاء محذوفا فتكون عبارة« فإنّها من تقوى القلوب» علّة نابت عن معلول تقديره:« و من يعظّم شعائر اللّه فهو خير له فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب».

[٢٧٣] (١)- تفسير القرطبى، المجلّد السابع، الصفحة ۴۴٨.

[٢٧۴] (٢)- التّفسير الكبير للخفر الرازى، المجلّد الثّالث و العشرين، الصفحة ٣٣.

[٢٧۵] (٣)- نور الثقلين، المجلّد الرّابع، الصفحة ۴٩٧.

[٢٧۶] (١)- ما ذكر أعلاه هو تفسير واضح للآية موضع البحث، و هنا نذكر تفسيرين آخرين:

الأوّل: إنّ ضمير« فيها» يعود إلى المناسك الحجّ جميعا، و هنا يكون تفسيرها« لكم منافع فى جميع مناسك الحجّ حتّى الزمن المحدّد بانتهاء الحجّ أو نهاية العالم، و من ثمّ تقع آخر مراسم الحجّ حيث يخلع الحاج إحرامه و يصبح مجاورا للكعبة ليؤدّى طوافى الحجّ و النساء» و بهذا تكون هذه الآية شبيهة بالآية التى فسّرناها سابقا\i لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ E.

و التّفسير الثّانى: أن يعود ضمير« فيها» إلى الشعائر الإلهيّة كلّها، إضافة إلى التعاليم الإسلامية العظيمة، و عندها يكون معنى الآية« لكم جزاء جميل و منافع كبيرة فى مجموع التعاليم الإسلامية و الشعائر الإلهيّة حتّى نهاية العالم، و من ثمّ يجزيكم خالق البيت العتيق». إلّا أنّ التّفسير الذى ذكرناه فى متن الكتاب أكثر ملاءمة و أقرب معنى إلى سائر الآيات القرآنية و الأحاديث الإسلامية و أكثر انسجاما معها.

[٢٧٧] (١)- و لهذا السبب يقال: نسكت الشاة، أى ذبحتها.

[٢٧٨] (٢)-« المخبتين» مشتقّة من« الإخبات» و أصلها« خبت» و هى الأرض المستوية الواسعة التى يمشى الإنسان فيها بكلّ سهولة. كما جاءت بمعنى الاطمئنان و الخضوع، لأنّ السير فى هذه الأرض يلازمه الاطمئنان، و لهذا تكون خاضعة مستسلمة للسائرين عليها.

[٢٧٩] (١)- بحثنا فى تفسير الآية الثّانية من سورة الأنفال بإسهاب دوافع الخوف من اللّه.

[٢٨٠] (١)- مجمع البيان فى تفسير ختام الآية، و روح المعانى فى تفسير هذه الآية باختلاف يسير.

[٢٨١] (٢)- وسائل الشيعة، المجلّد العاشر، صفحة ١٣٨- أبواب الذبح الباب(٣٧).

[٢٨٢] (١)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، صفحة ٣١۴.

[٢٨٣] (١)- تفسير مجمع البيان، و تفسير الفخر الرازى للآية موضع البحث.

[٢٨۴] (٢)- البقرة، ١٩٠.

[۲۸۵] (۳)- التوبة، ۱۱۱.

[۲۸۶] (۴)- الميزان، المجلّد الرّابع عشر، صفحة ۴۱۹.

[۲۸۷] (۱)- و بهذا يتّضح أنّ الاستثناء فى الآية المذكورة متّصل غاية الأمر إنّه كنائى مع ذكر فرد ادّعائى.(فتأمّل).

[۲۸۸] (۱)- تناولنا أهميّة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و مسائل هذين الواجبين الإسلاميين، و الجواب عن استفسارات فى هذا المجال ببحث مسهب فى تفسير الآية(۱۰۴) من سورة آل عمران.

[۲۸۹] (۱)- تناولنا فلسفة الجهاد بالبحث فى تفسير الآية ۱۹۳ من سورة البقرة.

[۲۹۰] (۱)- تفسير على بن إبراهيم(حسبما نقله تفسير نور الثقلين، المجلّد الثّالث، ص ۵۰۶).

[۲۹۱] (۱)- النكير تعنى الإنكار و هنا تعنى فرض العقاب.

[۲۹۲] (۲)-« المشيد» مشتقّة من« شيد» على وزن« عيد» ذات معنيين: أوّلهما الارتفاع، و الثّانى الجصّ، فتعنى لفظة« قصر مشيد» القصر المرتفع.

و المعنى الثّانى القصر الـذى بنى على أسس ثابتة قويّة ليصان من حوادث الزمان، و بما أنّ معظم منازل ذلك العصر تبنى من اللبن، فإنّ المنزل الذى يبنى بالجصّ يكون أقوى من هذه البيوت و يكون متميّزا عنها.

[۲۹۳] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد الثّالث، صفحة- ۳۰.

[۲۹۴] (۲)- المصدر السابق.

[۲۹۵] (۱)- شرحنا فى تفسير الآية(۱۳۷) من سورة آل عمران بإسهاب دراسة تاريخ القدماء عن طريق السياحة و السير فى الأرض.

[۲۹۶] (۲)- نور الثقلين، المجلّد الثّالث، ص ۵۰۸.

[۲۹۷] (۳)- المصدر السابق، ص ۵۰۹.

[۲۹۸] (۱)- عن تفسير الميزان، المجلّد الرّابع عشر، صفحة ۴۲۶.

[۲۹۹] (۱)- مجمع البيان، فى تفسير هذه الآية.

[۳۰۰] (۱)-« سعوا» مشتقّة من« السعى» و تعنى فى الأساس الهرولة، و هنا المحاولة فى تخريب الآيات الإلهية و محوها. أمّا« المعاجزون» فمتشقّة من« العجز» و تعنى هنا الذى يحاول الغلبة على قدرة اللّه غير المحدودة.

و تصوّر بعض المفسّرين أنّ هذا الاحتمال لا يمكنه أن يكون لأى أحد يريد تعجيز اللّه و قهر إرادته، و على هذا فإنّ كلمة« المعاجزين» نسبوها إلى النّبى و المؤمنين. فى الوقت الذى استخدم هذا التعبير فى آيات قرآنية أخرى للّه، سورة الجن الآيات(۱۲) و التوبة الآية(۲ و ۳) و تعنى عمل شخص يتظاهر بقدرته ليس إلّا.

[۳۰۱] (۱)-« الغرانيق» جمع غرنوق، على وزن بهلول، طائر يعيش فى الماء أبيض أو أسود اللون، كما جاء بمعان أخرى« قاموس اللغة».

[۳۰۲] (۲)- جاء ذكر هذا الحديث نقلا عن جماعة من حفّاظ أهل السنّة فى تفسير الميزان.

[۳۰۳] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، المجلّد الثّالث و العشرون، صفحة ۵۰.

[۳۰۴] (۲)- المصدر السابق.

[۳۰۵] (۳)- سورة الحجر، ۹.

[۳۰۶] (۱)- مجمع البيان، تفسير الفخر الرازى، القرطبى، فى ظلال القرآن، تفسير الصافى، روح المعانى، و الميزان، و تفاسير أخرى للآيات موضع البحث.

[۳۰۷] (۲)- تفسير القرطبى، المجلّد السابع، صفحة ۴۴۷- و المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان ذكره أيضا كأمر محتمل.

[۳۰۸] (۱)- تحدّثنا فى هذا أيضا فى تفسير الآية(۱۲۴) من سورة البقرة.

[۳۰۹] (۱)- الميزان، المجلّد الرّابع عشر، ص ۴۳۳.

[۳۱۰] (۱)-« الجامع لأحكام القرآن» لأبى عبد اللّه محمّد بن أحمد الأنصارى القرطبى، المجلّد ۱۱- ۱۲، ص ۸۸.

[۳۱۱] (۱)-« مجمع البيان» و« الدرّ المنثور» فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۳۱۲] (۱)- نقرأ فى« الميزان» أنّ إطلاق الحقّ على اللّه و الباطل على غيره، لأنّ الحقّ الذى لم يختلط بباطل أبدا هو اللّه سبحانه و تعالى، أو لكونه عزّ و جلّ مستقلا فى حقّانيته و الآخرون تابعين له.

[۳۱۳] (۱)- بحثنا فى تفسير الآية(۱۰۳) من سورة الأنعام حول لطف اللّه. فعلى الراغب مراجعته.

[۳۱۴] (۱)- يرى بعض المفسّرين أنّ هذه الآيات تشير إلى ردّ لما أثاره المشركون من اعتراض قائلين: لماذا لا تأكلون الميتة التى قتلها اللّه، فى وقت تأكلون فيه الميتة التى قتلتموها أنتم؟! فنزلت هذه الآيات لتردّ عليهم.

إلّا أنّه يستبعد أن تتضمّن هذه الآيات ذلك. لأنّ أكل الميتة لم تسمح به شريعة- فى الظاهر- لما فيه من ضرر، حتّى يأتى القرآن ليؤيّد ذلك و يقول: لكلّ شريعة تعاليمها.

[۳۱۵] (۱)- هذه الآية قد تخاطب المخالفين للإسلام و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و على هذا فإنّ عبارة\i اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ...\E قول اللّه على لسان نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و يمكن أن تخاطب جميع المسلمين و المخالفين، و على هذا تكون هذه الآية ذات بيان خاص موجّه من اللّه إلى الجميع.

[۳۱۶] (۱)- الميزان، و تفسير الفخر الرازى، فى تفسير الآية موضع البحث.

[۳۱۷] (۲)-« المنكر» مصدر ميمى يعنى الإنكار، و بما أنّ الإنكار أمر باطنى لا يمكن مشاهدته، فالمراد هنا علائمه و نتائجه.

[۳۱۸] (۱)- إنّ« النّار» هنا خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هى النّار، و احتمل البعض أنّ النّار مبتدأ و جملة« وعدها اللّه» خبر لها، إلّا أنّ القول الأوّل هو الأصوب.

و فعل« وعد» أخذ هنا مفعولين، الأوّل« الذين كفروا» الذى تأخّر و الثّانى« الهاء» التى تقدّمت ذلك للتخصيص.

[۳۱۹] (۱)- تفاسير القرطبى، و أبو الفتوح الرازى، و الفخر الرازى، و روح المعانى.

[۳۲۰] (۱)- العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان ذيل الآيات موضع البحث، يعتبر جملة\i يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ E إشارة إلى عصمة الأنبياء و حماية اللّه لهم، و مع ملاحظة ما ذكرناه أعلاه فإنّ هذا التّفسير يبدو بعيدا نوعا ما.

[۳۲۱] (۱)- إنّ هذا الدين سمّاه القرآن المجيد بصراحة واضحة(الإسلام) كما جاء فى الآية الثّالثة من سورة المائدة\i وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً\E. كما ذكرت آيات عديدة الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلم باعتباره i أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ E الأنعام، ۱۴. الزمر، ۱۲.

[۳۲۲] (۱)- كتاب« إكمال الدين» للشيخ الصدوق حسبما نقل عنه تفسير نور الثقلين، المجلّد الثّالث، صفحة ۵۲۶. كما أكّدت ذلك أحاديث أخرى فى هذا المجال.

[۳۲۳] (۲)- تفسير البرهان، المجلّد الثّالث، صفحة ۱۰۵.

[۳۲۴] (۱)- شرحنا ذلك بإسهاب فى آخر الآية(۱۴۳) من سورة البقرة، و كذلك فى تفسير الآية(۴۱) من سورة النساء.

[۳۲۵] (۱)- تفسير مجمع البيان، المجلّد السابع، صفحة ۹۸.

[۳۲۶] (۲)- روح المعانى، المجلّد الثامن عشر، صفحة ۲.

[۳۲۷] (۳)- روح المعانى، المجلّد الثامن عشر، صفحة ۲.

[۳۲۸] (۱)- جاء فى حديث عن الإمام الباقر و الإمام الصادق عليهما السّلام:« فرض اللّه الزكاة مع الصلاة».

[۳۲۹] (۲)- تفسير روح المعانى، المجلّد الثامن عشر، صفحة ۲.

[۳۳۰] (۱)- تفسير الصافى، و تفسير مجمع البيان، فى تفسير الآية موضع البحث.

[۳۳۱] (۲)- تفسير مجمع البيان، و تفسير الفخر الرازى، للآية موضع البحث.

[۳۳۲] (۱)- الزكاة تعنى هنا أنّ لها مصدرا، و لهذا استعملت عبارة« فاعلون» بعدها. و قال مفسّرون آخرون: إنّه يمكن أن تعنى الزكاة ذلك المعنى المعروف عنها، أى مقدار من المال، و لهذا تكون(فاعلون) بمعنى مؤدّون.

[۳۳۳] (۲)-« الفروج» جمع فرج، و هو كناية عن الجهاز التناسلى.

[۳۳۴] (۱)- يراجع بهذا المورد قصّة الحضارة لويل ديورانت.

[۳۳۵] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد الأوّل، صفحة ۳۸۰.

[۳۳۶] (۲)- سورة النساء، ۵۸.

[۳۳۷] (۳)- المصدر السابق.

[۳۳۸] (۴)- النحل، ۹۱.

[۳۳۹] (۱)-« السلالة» على وزن« عصارة» تعنى الشيء الذى يستخلص من شيء آخر، و هى فى الحقيقة خلاصة و نتيجة منه(مجمع البيان حول الآية موضع البحث).

[۳۴۰] (۱)- مختار الصحاح.

[۳۴۱] (۱)- تناولنا فى بداية سورة الحجّ خلال البحث الآيتين الخامسة و السابعة أدلّة المعاد و منها استعراض مراحل الجنين فى الرحم.

[۳۴۲] (۲)- شرحنا مراحل الجنين و عظمة الخلق فيها فى تفسير الآية السادسة من سورة آل عمران i هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ(فِى الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ\E.

[۳۴۳] (۱)- للاطلاع على السموات السبع راجع تفسير الآية(۲۹) من سورة البقرة.

[۳۴۴] (۱)- و يجب ملاحظة أنّ الماء الملوّث يصفى عند مروره من القشرة النافذة فى معظم الأوقات!

[۳۴۵] (۱)- إنّ« من» فى التّفسير الأوّل« تبعيضيّة»، و فى التّفسير الثّانى« نشوية».

[۳۴۶] (۲)- صبغ الآكلين، غذاء يؤكل مع الخبز.

[۳۴۷] (۱)- للاستزادة فى الاطلاع على فوائد هذه الفواكه الثلاثة الحيوية يراجع تفسير الآية(۱۱) من سورة النحل.

[۳۴۸] (۲)- استخدمت« عبرة» هنا بصيغة نكرة إشارة إلى عظمتها.

[۳۴۹] (۱)- تناولنا بالبحث الاستفادة من الحيوان بشكل مسهب فى تفسير الآية(۸۰) من سورة النحل.

[۳۵۰] (۲)- بحثنا فى تفسير الآية(۱۴) من سورة النحل و كذلك من تفسير الآية(۶۵) من سورة الحجّ، أهميّة السفن و ميزات المواد المختلفة التى تدخل فى استخدام السفن.

[۳۵۱] (۱)- كما قال البعض: إنّ هذه العبارة تشير إلى قولهم: ارموه فى السجن زمنا و قال آخرون: إنّهم قصدوا أن يتركوه لحاله الآن. إلّا أنّ هذين التّفسيرين لا يبدوان صحيحين.

[۳۵۲] (۱)- الباء فى« بما كذّبون» ربّما كانت سببيّة أو للمقابلة. و أمّا« ما» فيمكن أن تكون مصدرية أو موصولة، و يختلف معنى كلّ منهما. إلّا أنّ هذا الاختلاف ليس مهمّا(فتأمّلوا جيدا).

[۳۵۳] (۱)- يراجع فى ذلك سورة هود الآية(۵۰) و سورة الأعراف الآية(۶۵) و سورة الشعراء الآية(۱۲۳)

[۳۵۴] (۱)- تفسير روح المعانى حول الآيات موضع البحث.

[۳۵۵] (۱)- للاستزادة یراجع تفسیر الآیة الثانیة من سورة الأنعام.

[۳۵۶] (۱)-« الأحادیث» جمع حدیث، و تفسیرها کما مرّ أعلاه، إلّا أن البعض احتمل أن تکون جمع« أحدوثة» و تعنی الأخبار المدهشة التی یتحدّث الناس عنها.(تفسیر الفخر الرازی حول الآیة موضع البحث).

[۳۵۷] (۱)- نقرأ فی سورة النمل الآیة(۲۱):i لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِیداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَیَأْتِیَنِّی بِسُلْطانٍ مُبِینٍ E و فی الآیة(۲۳) من سورة النجم نقرأi\ إِنْ هِیَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّیْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ E.

[۳۵۸] (۱)- یطلق علی الإنسان« البشر»، لأنّ بشرته و جلده عاریة. خلافا لما علیه الحیوانات من لباس طبیعی خاص بکلّ نوع منهما. و ذلک لعدم قدرتها علی إعداد وسائل الحیاة فمنح اللّه ذلک لها بشکل طبیعی. أمّا بالنسبة للإنسان فقد أوکل ذلک إلی ذکائه و عقله،

[۳۵۹] (۲)- بحثنا بالتفصیل حول موسی علیه السّلام و کیفیة مبعثه و جهاده مع الفراعنة فی تفسیر الآیات(۱۰۳) إلی(۱۶۲) من سورة الأعراف و فی تفسیر الآیات(۸) إلی(۹۷) من سورة طه.

[۳۶۰] (۱)- فی الحالة الأولی تکون المیم جزءا من الکلمة، و هی علی وزن« فعیل»، و فی الثّانیة المیم زائدة و هی علی وزن مفعول« مثل مبیع».

[۳۶۱] (۱)- وسائل الشیعة، المجلّد الرّابع، الدعاء الباب(۶۷) الحدیث(۴).

[۳۶۲] (۲)- تناولنا شرح ذلک فی تفسیر الآیة(۱۸۶) من سورة البقرة.

[۳۶۳] (۳)- المؤمنون، ۵۱.

[۳۶۴] (۱)- البقرة، ۱۷۲.

[۳۶۵] (۲)- فاطر، ۱۰.

[۳۶۶] (۳)- الإسراء، ۷۰.

[۳۶۷] (۴)- تفسیر القرطبی، المجلّد السابع، صفحة ۴۵۱۹(حول الآیة موضع البحث).

[۳۶۸] (۱)- الزخرف، ۲۳.

[۳۶۹] (۱)- سورة نوح، ۷.

[۳۷۰] (۱)- للاطلاع بشکل أوسع علی موضوع الاستدراج یراجع تفسیر الآیة ۱۸۲ من سورة الأعراف.

[۳۷۱] (۱)- لقد شرحنا بإسهاب صحیفة أعمال الإنسان و حقیقتها فی التّفسیر الأمثل حین تفسیر الآیة(۱۳) من سورة الإسراء و کذلک حین تفسیر الآیة(۴۹) من سورة الکهف.

[۳۷۲] (۲)- یمکن أن تکون کلمة« هذا» إشارة إلی صحیفة الأعمال و یوم الحساب، أو القرآن المجید، أو أعمال الصالحین التی أشارت الآیات السابقة إلیها.

[۳۷۳] (۱)- هناک اختلاف بین المفسّرین فی من یعود إلیه الضمیر فی(به). فذهب بعض أنّه یعود إلی المسجد الحرام و الحرم المکّی، لأنّ سدنة الکعبة استکبروا لاعتبارهم أنفسهم أصحاب الحرم المکّی، و هذا الاحتمال ضعیف لأنّ الآیات السابقة لم تتناول الکعبة و الحرم. و یبدو أنّ هذا الضمیر یعود إلی القرآن المجید و النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فیکون معنی الآیة: إنّکم استکبرتم إزاء القرآن و نبی الإسلام. أو أنّها تشیر إلی سیرهم المعاکس، فهم استکبروا و لم یهتموا به.

[۳۷۴] (۱)- یمکن أن تفسّر عبارة« ذکرهم» بمعنی تذکّرهم و توقظهم، و یمکن أن تفسر بمعنی شرفهم و حیثیّتهم فی المجتمع البشری، و فی الوقت ذاته لا تناقض بین هذین المفهومین، و قد استفدنا من کلیهما فی تفسیر الآیة.

[۳۷۵] (۲)- الخرج و الخراج مشتق من الخروج، و یعنی الشیء الذی یستخرج من المال أو من حاصل الأرض الزراعیة. إلّا أنّ الخرج

ذو معنى أوسع من الخراج. و كما يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته: الخرج أعمّ من الخراج، و جعل الخرج بإزاء الدخل، و قال تعالى\:i فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً\E و الخرج مختّص فى الغالب بالضريبة على الأرض أو أجرتها.

[۳۷۶] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث صفحة ۵۴۸.

[۳۷۷] (۲)- أصول الكافى(وفق ما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحة ۵۴۹).

[۳۷۸] (۱)- البقرة، ۲۴۳.

[۳۷۹] (۱)- الأعراف، ۱۸۷.

[۳۸۰] (۲)- هود، ۱۷.

[۳۸۱] (۳)- يوسف ۱۰۳.

[۳۸۲] (۴)- الإسراء، ۸۹.

[۳۸۳] (۵)- الأنعام، ۱۱۶.

[۳۸۴] (۶)- وسائل الشيعة، المجلّد الثامن عشر، صفحة ۷۲(كتاب القضاء الباب التاسع من أبواب صفات القاضى).

[۳۸۵] (۷)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷.

[۳۸۶] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۱.

[۳۸۷] (۱)-« استكانوا» مشتقّة من السكون، بمعنى الصمت فى حالة الخضوع و الخشوع، و بهذه الصورة ستكون من باب« افتعال» التى كانت فى الأصل استكنوا. أشبعت فتحة الكاف و بدّلت إلى ألف. فأصبحت استكانوا. و قال البعض: إنّها مشتقّة من كون، و من باب« استفعال» أى طلب الإقامة فى مكان بخضوع و خشوع. و على كلّ حال فإنّها تبيّن حالة العبد الخاضع لربّه، و قد اعتبرها البعض بمعنى الدعاء بسبب كونه أحد مصاديق الخضوع و التواضع. أمّا الاحتمال الثالث، فهى مشتقّة عن« الكين» على وزن« عين» و من باب الاستفعال، لأنّها تعنى الخضوع أيضا. و جميع هذه المعانى متقاربة.

[۳۸۸] (۲)-« المبلس» كلمة مشتقّة من« الإبلاس». بمعنى الألم الشديد الناتج عن شدّة أثر الحادثة. و تدفع بالإنسان إلى الصمت و الحيرة و اليأس.

[۳۸۹] (۱)- الآية\i إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ\E التى ذكرت قبل هذه الآيات تؤيّد هذا التّفسير.

[۳۹۰] (۱)- تحدّثنا عن أجهزة التعرّف الثلاثة فى تفسير الآية(۷۸) من سورة النحل.

[۳۹۱] (۲)-« ذرأ» مشتقّة من الذرء(على وزن زرع). و هى فى الأصل بمعنى الخلق و الإيجاد و الإظهار، إلّا أنّ كلمة(ذرو) و هى أيضا على وزن فعل بمعنى البعثرة. الآية الأولى من النوع الأوّل.

[۳۹۲] (۱)- تقديم التراب على العظام إما لعودة التراب إلى الحياة الأولى هى أعجب من عودة العظام، و إما لأن الأجداد أصبحوا ترابا و الآباء عظاما نخرة، و إما لصيرورة لحم الإنسان ترابا قبل العظام، ثم تتحول العظام إلى تراب.

[۳۹۳] (۱)- بحثنا موضوع العرش بإسهاب فى تفسير الآية(۵۴) من سورة الأعراف.

[۳۹۴] (۲)- البقرة، ۲۵۵.

[۳۹۵] (۱)-« إمّا» فى الآية أعلاه مركّبة من« إنّ» الشرطية و« ما» الزائدة. و قد استعملت هنا للتأكيد. و من أجل أن ترد(إنّ الشرطية) على الفعل المقرون بنون التأكيد يجب أن تفصل بينهما« ما».

[۳۹۶] (۱)- يراجع تفاسير مجمع البيان، و الميزان، و فى ظلال القرآن، و أبو الفتوح الرازى، و روح المعانى، فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۳۹۷] (۲)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۳۹۸] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی.

[۳۹۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة ۵۵۲.

[۴۰۰] (۱)-« حتّی» هی فی الواقع غایة لجملة محذوفة، و یفهم من العبارات السابقة أن تقدیرها: إنّهم یستمرّون علی هذا الحال حتّی إذا جاء أحدهم الموت، و یستدلّ علی ذلک من عبارة« نحن أعلم بما یصفون» التی استفید منها فی الآیتین السابقتین(فتأمّلوا جیدا).

[۴۰۱] (۱)- یری بعض المفسّرین فی الآیة التاسعة من سورة القصص فی عبارة زوجة فرعون i قُرَّتُ عَیْنٍ لِی وَ لَکَ لا تَقْتُلُوهُ E التی نطقت بها حین أخرج موسی من الماء نموذجا لهذا التعبیر، حیث فی البدایة کان المخاطب فرعون و آخر العبارة خاطبت حاشیة فرعون و جنوده الذین کلّفوا بقتل أبناء بنی إسرائیل.

[۴۰۲] (۲)- الکافی، و ثواب الأعمال، و من لا یحضره الفقیه(حسبما نقله تفسیر نور الثقلین، المجلّد الثّالث، ص ۵۵۲).

[۴۰۳] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم« ۱۳۰».

[۴۰۴] (۱)- بحار الأنوار، المجلّد السادس، صفحة ۲۴۳.

[۴۰۵] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلّد الثّانی، صفحة ۵۵۳.

[۴۰۶] (۳)- المصدر السابق.

[۴۰۷] (۴)- المصدر السابق، صفحة ۵۵۴.

[۴۰۸] (۱)- کتاب الکافی، حسبما نقله بحار الأنوار، المجلّد السادس، صفحة ۲۶۸.

[۴۰۹] (۲)- بحار الأنوار، المجلّد السادس، صفحة ۲۶۹.

[۴۱۰] (۳)- المصدر السابق.

[۴۱۱] (۱)- جمع هذه الأحادیث المرحوم السیّد عبد اللّه شبّر فی کتاب سمّاه« تسلیة الفوائد فی بیان الموت و المعاد».

[۴۱۲] (۲)- للاطلاع أکثر بهذا الصدد، راجع مسألة الاتّصال بالأرواح فی کتاب(عودة الروح و الاتّصال بها) و کتاب(العالم بعد الموت).

[۴۱۳] (۱)- سورة آل عمران، ۱۶۹ و ۱۷۰.

[۴۱۴] (۲)- یصرّح العلّامة المجلسی فی تناوله هذا الموضوع فی بحار الأنوار: إنّ تشبیه البرزخ بالحلم و ما یتراءی للإنسان وارد فی أکثر من الروآیات، و یمکن أن تکون للنفوس القویة السامیة عدة أجسام مثالیة، و بهذا تفسر الأحادیث القائلة بحضور الأئمة المیامین لدی المحتضرین حین نزعهم الأخیر.(بحار الأنوار، المجلد السادس، صفحة ۲۶۱).

[۴۱۵] (۱)- بحار الأنوار، المجلد السادس، صفحة ۲۷۷.

[۴۱۶] (۱)- بحار الأنوار، المجلّد السابع، صفحة ۲۵۱(الطبعة الجدیدة).

[۴۱۷] (۱)- تفسیر القرطبی، و تفسیر الفخر الرازی، و تفسیر مجمع البیان، و تفسیر المیزان، الآیات موضع البحث.

[۴۱۸] (۱)- الشعراء، ۸۹.

[۴۱۹] (۲)- الحسب: کلّ فخر للإنسان، بالآباء و الأجداد. و یعنی أحیانا الخلق السلیم للشخص ذاته، و هنا قصد المعنی الأوّل.(یراجع لسان العرب فی کلمة حسب).

[۴۲۰] (۳)- مجمع البیان آخر الآیة موضع البحث.

[۴۲۱] (۱)- مناقب ابن شهر آشوب(وفق ما نقله تفسیر نور الثقلین، المجلّد الثّالث، ص ۵۶۴).

[۴۲۲] (۱)- بحر المحبّة- للغزالی، صفحة ۴۱ إلی ۴۴(مع التلخیص)

[۴۲۳] (۱)- إنّ هذه الجملة فی الحقیقة فیها محذوف تقدیره(یقول اللّه تعالی ألم تکن ...).

[۴۲۴] (۱)- نقرأ فی سورة الروم الآية(۵۵) و(۵۶):i وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ، وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ، وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ E تبيّن هاتان الآيتان أنّ الاستفسار و الردّ خاص بالتوقّف فی البرزخ، و إذا جعلناه دليلا على الآيات موضع البحث، فمفهومها سيكون أيضا التوقّف فی البرزخ، إلّا أنّه كما قلنا: إنّ الدلائل الموجودة- فی الآيات موضع البحث- مقدّمة عليها، و إنّها تبيّن أنّ الاستفسار و جوابه يخصّ التوقّف فی الدنيا.

[۴۲۵] (۲)- إن« لو» فی الآية السابقة شرطية كما قلنا سابقا. و هناك جملة تقديريّة محذوفة فتكون« لو أنّكم كنتم تعلمون» لعلمتم أنّكم ما لبثتم إلّا قليلا، و قال بعض المفسّرين أن« لو» تعنی هنا« ليت» و بهذا تكون الجملة بهذا الشكل« ليتكم علمتم بهذا الموضوع فی دنياكم»

[۴۲۶] (۱)- و اعتبر بعض المفسّرين عبارة« فإنّما حسابه عند ربّه» جواب الشرط لعبارة« من يدّع مع اللّه» و يعتبر جملة« لا برهان له به» جملة اعتراضية جاءت بين سؤال الشرط و جوابه. و هی لتأكيد الهدف النهائی. إلّا أنّ البعض الآخر يرى أنّ عبارة« لا برهان له» جواب الشرط و جملة« فإنّما حسابه» ... فرع عنها، لكنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع الأدب العربی، إذ يستوجب أن يقترن جواب الشرط بالفاء. أی« فلا برهان له، و ذهب آخرون إلى أنّ هذه الجملة صفة أو حالا. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل يبدو أقرب إلى الصواب رغم أنّه لا فرق فی المعنى يستحقّ الملاحظة».

[۴۲۷] (۱)- تفسير الفخر الرازی فی آخر الآيات موضع البحث المجلّد ۲۳ و ۲۴ مطبعة البهيّة المصرية- القاهرة- ص ۱۲۸.

الجزء الحادی عشر

«سورة النّور»

فضل سورة النور:

جاء فی حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «من قرأ سورة النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن و مؤمنة فيما مضى و فيما بقى».

و

جاء فی حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «حصنوا أموالكم و فروجكم بتلاوة سورة النّور و حصّنوا بها نساءكم، فإنّ من أدمن قراءتها فی كل يوم أو فی كل ليلة لم يزن أحد من أهل بيته أبدا حتى يموت»[۱].

و الاهتمام بمضمون السورة الذی دعا بطرق مختلفة إلى مكافحة عناصر الانحراف بالتزام العفّة، يوضح الغاية الاساسية فی الحديثين أعلاه و مفهومهما العملی.

محتوى سورة النّور:

اشارة

يمكن اعتبار هذه السورة خاصّة بالطهارة و العفة، و كفاح الانحطاط الخلقی، لأن محور تعاليمها ينصب على تطهير المجتمع بطرق مختلفة من الرذائل و الفواحش، و القرآن الكريم يحقق هذا الهدف عبر مراحل، هی:

المرحلة الأولى:

بيان العقاب الشديد للمرأة الزانية و الرجل الزانى، و هو ما ورد حاسما فى الآية الثّانية من هذه السورة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸

المرحلة الثّانية:

بيان حد الزنا الذى لا تنبغى إقامته إلّا بشروط مشدّدة للغاية، إذ لا بدّ من أربعة شهود يشهدون أنّهم رأوا بأمّ أعينهم رجلا غريبا يزنى بامرأة غريبة عنه، يفعل بها فعل الزوج بزوجه ساعة مباشرته إيّاها.
و لو شهد الرجل على زوجته بالزّنا للاعن القاضى بينهما، أو يقرّ أحدهما أو كلاهما بالحق.
و من اتّهم محصنة و لم يأت بأربعة شهود جلده القاضى أربعة أخماس حدّ الزّنا، أى ثمانين جلدة، لئلّا يتصوّر أحد أنّ بإمكانه الطّعن على الناس و هتك حرماتهم و هو فى منجّى عن العقاب.
ثمّ طرحت الآية بهذه المناسبة الحديث المعروف باسم الإفک، و ما فيه من اتّهام إحدى نساء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فعقّب القرآن المجيد على هذه المسألة موضحا للمسلمين مدى بشاعة الافتراء و التهمة، و فظاعة إشاعة الفاحشة عدوانا على الناس، و كاشفا عمّا ينتظر القائم بذلک من عقوبات إلهية.

و فى المرحلة الثّالثة:

تناولت الآية أحد السبل المهمّة لاجتناب التدهور الأخلاقىّ، من أجل ألا يتصوّر أنّ الإسلام يهتم فقط بمعاقبة المذنبين.
فطرحت الآية نظر الرجال إلى النساء بشهوة أو بالعكس، و حجاب المرأة المسلمة، لأنّ أحد أسباب الانحراف الجنسى المهمّة ناجم عن هاتين المسألتين.
و إذا لم تحل هاتان المسألتان جذريّا، لا يمكن القضاء على الانحطاط و التفسخ.

و فى المرحلة الرّابعة:

كخطوة للنجاة من التلوث بما يخلّ بالشرف- دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكاليف، ليحارب الإشباع الجنسى غير المشروع بإشباع مشروع.

و فى المرحلة الخامسة:

بيّنت الآيات جانبا من آداب المعاملة، و مبادئ تربية الأولاد و عدم دخول الأبناء الغرفة المخصصة للوالدين فى ساعات الخلوة و الاستراحة إلّا بإذن منهما، بغية المحافظة على أفكارهم من الانحراف. كما بيّنت
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹
آداب الحياة الأسريّة عامّة.

و فى المرحلة السادسة:

جاء ذکر مسائل خاصّیۀ بالتوحید و المبدأ و المعاد و الامتثال لتعالیم النّبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. کلّ ذلک خلال البحوث المطروحۀ. و من المعلوم أن الإعتقاد بالوحدانیۀ و النّبوّۀ و المبدأ و المعاد. یدعم مناهج التربیۀ الأخلاقیۀ فی الفرد و الجماعۀ، فذلک الإعتقاد هو الأصل، و ما عداه من أمور فروع علیه، تورق و تثمر إذا قوی الأصل و اشتدّ.

و تطرقت بحوث هذه الآیات إلی حکومۀ المؤمنین الصالحین العالمیّۀ، و أشارت إلی تعالیم إسلامیۀ أخری، و هی تشکل- بمجموعها- وحدۀ متکاملۀ شاملۀ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۰

الآیات [سورة النور (۲۴): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۱) الزَّانِیَةُ وَ الزَّانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لا تَأْخُذْکُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِی دِینِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ لْیَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۲) الزَّانِی لا یَنْکِحُ إِلَّا زانِیَةً أَوْ مُشْرِکَةً وَ الزَّانِیَةُ لا یَنْکِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِکٌ وَ حُرِّمَ ذلِکَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ (۳)

التّفسیر

حد الزانی و الزانیۀ:

سمّیت هذه السورۀ بالنّور لأنّ آیۀ النور فیها من أهم آیاتها، إضافۀ إلی أنّ مضمونها یشعشع فی جوانح الرجل و المرأۀ و الأسرۀ و البشر عفّۀ و طهارۀ، و حرارۀ تقوی، و یعمر القلوب بالتوحید و الإیمان بالمعاد و الاستجابۀ لدعوۀ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و أولی آیات هذه السورۀ المبارکۀ بمثابۀ إشارۀ إلی مجمل بحوث السورۀ سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِیها آیاتٍ بَیِّناتٍ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱

«سورۀ» کلمۀ مشتقّۀ من «السور» أی الجدار المرتفع، ثمّ أطلقت علی الجدران التی تحیط بالمدن لحمایتها من مهاجمۀ الأعداء. و بما أنّ هذه الجدران کانت تعزل المدینۀ عن المنطقۀ المحیطۀ بها، فقد استعملت کلمۀ «سورۀ» تدریجیا فی کل قطعۀ مفصولۀ عن شیء، و منها استعملت لتعنی قسما من القرآن. کما قال بعض اللغویین: إنّ «سورۀ» بناء جمیل مرتفع، و هذه الکلمۀ تطلق أیضا علی قسم من بناء کبیر، و تطلق السورۀ علی أقسام القرآن المختلفۀ المفصولۀ بعضها عن بعض ۲].

و علی کل حال فإنّ هذه العبارۀ إشارۀ إلی کون أحکام و مواضیع هذه السورۀ- من اعتقادات و آداب و أوامر إلهیۀ- ذات أهمّیّۀ فائقۀ، لأنّها کلها من اللّه.

و تؤکّد ذلک عبارۀ «فرضناها»، لأنّ «الفرض» یعنی قطع الشیء الصلب و التأثیر فیه کما یقول الراغب فی مفرداته.

و عبارۀ آیاتٍ بَیِّناتٍ قد تکون إشارۀ إلی الحقائق المنبعثۀ عن التوحید و المبدأ و المعاد و النبوّۀ، التی تناولتها هذه السورۀ. و هی إزاء «فرضنا» التی تشیر إلی الأوامر الإلهیۀ و الأحکام الشرعیۀ التی بیّنتها هذه السورۀ. و بعبارۀ أخری:

إحداها تشیر إلی الاعتقادات، و الأخری إلی الأحکام الشرعیۀ.

و یحتمل أن تغنی «الآیات البینات» الأدلة التی استندت إلیها هذه الأحکام الشرعیة.

و عبارة لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ تؤکّد أن جذور جمیع الاعتقادات الصحیحة، و تعالیم الإسلام التطبیقیة، تمکن فی فطرة البشر.

و علی هذا الأساس فإن بیانها یعتبر نوعا من التذکیر.

و بعد هذا الاستعراض العام. تناولت السورة أوّل حکم حاسم للزانی و الزانیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲

الزَّانِیَةُ وَ الزَّانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ و لتأکید هذا الحکم قالت وَ لا تَأْخُذْکُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِی دِینِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ.

و أشارت الآیة فی نهایتها إلی مسألة أخری لإکمال الاستنتاج من العذاب الإلهی وَ لْیَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

و تشتمل هذه الآیة علی ثلاثة تعالیم:

۱- الحکم بمعاقبة النساء و الرجال الذین یمارسون الزنا.

۲- إقامة هذا الحکم الإلهی بعیدا عن الرأفة بمن یقام علیه، فهذه الرأفة الکاذبة تؤدّی إلی الفساد و انحطاط المجتمع. و تضع الآیة الإیمان باللّه و یوم الحساب مقابل الرأفة التی قد یحس بها أحد تجاه الزانی و الزانیة ساعة إقامة الحدّ علیهما، لأنّ أداء الأحکام الإلهیة من غیر تأثر بالعواطف دلیل علی صدق الإیمان بالمبدأ و المعاد، و الإیمان باللّه العالم الحکیم یعنی أنّ لکل حکم من أحکامه غایة و هدف حکیم، و الإیمان بالمعاد یشعر الإنسان بالمسؤولیة إزاء کل مخالفة.

و ذکر بهذا الصدد حدیث مهم

عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یؤتی بوال نقص من الحدّ سوطا، فیقال له: لم فعلت ذلک؟ فیقول: رحمة لعبادک، فیقال له: أنت أرحم بهم منّی؟! فیؤمر به إلی النار، و یؤتی بمن زاد سوطا، فیقال له: لم فعلت ذلک؟ فیقول: لینتهوا عن معاصیک! فیقول: أنت أحکم به منّی؟! فیؤمر به إلی النّار!».[۳]

۳- أوجب اللّه حضور عدد من المؤمنین فی ساحة معاقبة الزناة لیتعظ الناس بما یرون من إقامة حکم اللّه العادل علی المذنبین، و بملاحظة النسیج الاجتماعی للبشر نری أن انحطاط الشخص لا ینحصر فیه، بل یسری إلی الآخرین، و لإتمام التطهیر یجب أن یکون العقاب علنا مثلما کان الذنب علنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳

و بهذا یتّضح الجواب عن السؤال: لم یعرّض الإسلام کرامة إنسان بین الناس إلی الخدش و الامتهان؟ فیقال: ما دام الذنب سرّا لم یطّلع علیه أحد و لم یبلغ القضاء، فلا بأس بکتمانه فی النفس و استغفار اللّه منه، فإنّه تعالی یستره بلطفه و یحبّ من یستره، أمّا إذا ظهر الجرم بالأدلّة الشرعیّة، فلا بدّ من تنفیذ العقاب بشکل یبطل آثار الذنب السیئة، و یبعث علی استفظاعه و بشاعته. و من الطبیعی أن یولی المجتمع السلیم الأحکام اهتماما کبیرا، فتکرار التحدّی للحدود الشرعیّة یفقدها فاعلیتها فی صیانة الطمأنینة و الاستقرار فی النفوس، و من هنا وجبت إقامة هذا الحدّ علنا لیمتنع الناس من تکرار فاحشة ساءت سبیلا.

و یجب أن لا ننسی أن کثیرا من الناس یهتم باطّلاع الناس علی سوء فعله أکثر من اهتمامه بما ینزل به من العقاب علی ذلک الفعل الشنیع. و لهذا وجبت إقامة الحدّ علی الزّانی بحضور الناس، و هذا الإعلان لإقامة هذا الحدّ الإلهی أمام الناس قد یمنع المفسدین من الاستمرار فی الفساد و یکون بمثابة فرامل قویة امام التمادی فی رکوب الشهوات.

و بعد بیان حدّ الزّنا، جاء بیان حکم الزواج من هؤلاء فی الآیة الثّالثة و کما یلی الزَّانِی لا یَنْکِحُ إِلَّا زانِیَةً أَوْ مُشْرِکَةً وَ الزَّانِیَةُ لا یَنْکِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِکٌ وَ حُرِّمَ ذلِکَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ

اختلف المفسّرون فی کون هذه الآیة بیانا لحکم إلهی، أو خبرا عن قضیّة طبیعیة.

فیری البعض أنّ الآیة تبیّن واقعة ملموسة فقط، فالمنحطون یختارون المنحطات، و کذلک یفعلن هن فی اختیارهن، بینما یسمو المتطهّرون المؤمنون عن ذلک. و یحرّمون علی أنفسهم اختیار الأزواج من ذلک الصنف تزکیة و تطهیرا، و هذا ما یشهد به ظاهر الآیة الذی جاء علی شکل جملة خبریة.

إلّا أنّ مجموعة أخری تری فی هذه العبارة حکما شرعیا و أمرا إلهیا یمنع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴

المؤمنین من الزواج مع الزانیات، و یمنع المؤمنات من الزواج مع الزناة، لأنّ الانحرافات الأخلاقیة کالأمراض الجسمیة المعدیة فی الغالب. فضلا عن أنّ ذلک عار یأباه المؤمن و ینأی عنه.

مضافا إلی المصیر المبهم و المشکوک للأبناء الذین ینشؤون فی احضان ملوثة و مشکوکة. ینتظر الأبناء من مثل هذا الزواج! و لهذه الأسباب و الخصوصیات منعه الإسلام.

و الشاهد علی هذا التفسیر جملة وَ حُرِّمَ ذلِکَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ الّتی تدلّ علی تحریم الزنا.

و الدلیل الآخر أحادیث عدیدة رویت عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر الأئمّة المعصومین علیهم السّلام التی فسّرت هذه الآیة باعتبارها حکما إلهیا ینص علی المنع.

و حتی أن بعض کبار المفسّرین کتب بشأن نزول هذه الآیة: إنّ رجلا من المسلمین استأذن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی أن یتزوج «أم مهزول» و هی امرأة کانت تسافح و لها رایة علی بابها، فنزلت الآیة[۴]، عن عبد اللّه بن عباس و ابن عمر و مجاهد و قتادة و الزهری، و المراد بالآیة النهی و إن کان ظاهرها الخبر.

و یؤیده ما

روی عن أبی جعفر علیه السّلام و أبی عبد اللّه علیه السّلام أنّهما قالا: «هم رجال و نساء کانوا علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مشهورین بالزنا، فنهی اللّه عن أولئک الرجال و النساء، و الناس علی تلک المنزلة، فمن شهر بشیء من ذلک و أقیم علیه الحد فلا تزوجوه حتی تعرف توبته»[۵].

و لا بد أن نذکّر أن العدید من الأحکام جاء جملا خبریة. و لا ضرورة لأن تکون إنشائیة آمرة ناهیة.

و الجدیر بالانتباه أنّ المشرکین کانوا یعطفون علی الزناة، و هذا یکشف عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵

أنّ الزّنا و الشّرک صنوان.

قال الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «لا یزنی الزانی حین یزنی و هو مؤمن، و لا یسرق السارق حسن یسرق و هو مؤمن، فإنه إذا فعل ذلک خلع عنه الإیمان کخلع القمیص»[۶].

ملاحظات

۱- الحالات التی یعدم فیها الزانی

ما ذکرته الآیة السابقة حکم عامّ یستثنی منه زنا المحصّن و المحصنة، فحدّهما القتل، إذا ثبت علیهما الجرم.

و یقصد بالمحصن الرجل الذی له زوجة تعیش معه، و المحصنة هی المرأة المتزوجة التی یعیش زوجها معها فمن توفر له السبیل المشروع لإرضاء الغریزة الجنسیة ثمّ یزنی فإنّ حدّه القتل.

كما أن الزنا بالمحرمات حكمه الإعدام.

و كذلك الزنا بالعنف و الإكراه، أى الاغتصاب فحكمه القتل أيضا. و في بعض الحالات يحكم إضافة إلى الجلد بالنفى و أحكام أخرى ذكرتها الكتب الفقهية.

۲- لماذا ذكرت الزانية أولا؟

لا شك في أنّ ممارسة هذا العمل الذى يخالف العفة، هى فى غاية القبح، و تزداد قبحا و بشاعة بالنسبة للمرأة، فحياؤها أكثر من حياء الرجل، و الخروج عليه دليل تمرد شديد جدّا. و إضافة إلى أنّ عاقبته المشؤومة بالنسبة لها أكبر رغم فداحته و وباله على الطرفين كليهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶

و يحتمل أن تكون المرأة مصدر الوساوس فى اقتراف هذا الذنب، و تعتبر فى كثير من الأحيان السبب الأصلى فيه. و لهذا كله ذكرت الآية الزانية أولا ثمّ الزانى.

إلّا أن النساء و الرجال من أهل العفّة و الإيمان يجتنبون هذه الأعمال.

۳- لماذا تكون العقوبة علنية؟

تستوجب الآية السابقة- التى جاءت بصيغة الأمر- حضور طائفة من المؤمنين حين تنفيذ حدّ الزنا، لكنّ القرآن لم يشترط أن يجرى ذلك فى الملأ العام، بل وقفه على الظروف، و يكفى حضور ثلاثة أشخاص أو أكثر وفق ما يقرر القاضى ۷].

و فلسفة هذا الحكم واضحة، لأنّه أوّلا: إنّ الهدف هو أن يكون هذا الحكم عبرة للناس جميعا، و سببا لتطهير المجتمع.

و ثانيا: ليكون خجل المذنب مانعا له من ارتكاب هذا الذنب فى المستقبل.

و ثالثا: متى نفذ الحدّ بحضور مجموعة من الناس يتبرأ القاضى و القائمين على تنفيذ الحدّ من أية تهمة كالارتشاء أو المهادنة أو التفرقة أو ممارسة التعذيب و أمثال ذلك.

و رابعا: حضور مجموعة من الناس يمنع التعنت و الإفراط فى تنفيذ الحدّ.

و خامسا: حضور الناس يمنع المجرم من نشر الشائعات و الاتهامات ضد القاضى، كما يحول هذا الحضور من نشاط المجرم التخريبى فى المستقبل و غير ذلك من الفوائد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷

۴- ماذا كان حدّ الزانى سابقا؟

يستفاد من الآيتين (۱۵) و (۱۶) من سورة النساء أنّ الحكم قبل نزول سورة النّور كان السجن المؤبّد للزانية فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ و إلحاق الأذى بالزناة غير المحصنين فَآذُوهُما و لم يحدد مقدار هذا الأذى حتى حددته هذه الآية بمائة جلدة. و على هذا حلّ الإعدام محل السجن المؤيد فى الحكم على الزانية المحصنة، و حدّد الأذى لغير المحصن بمائة جلدة (و لمزيد من الاطّلاع راجع التّفسير الأمثل فى تفسير الآيتين (۱۵) و (۱۶) من سورة النساء).

۵- منع الإفراط و التفريط عند تنفيذ الحدّ!

لا ريب فى أنّ القضايا الإنسانيـة و العاطفيـة توجب بـذل أقصـى الجهود لمنع إصابـة برىء بهـذا العقاب، و إصـدار العفو وفق الأحكام الإلهيـة، أمّـا إذا ثبت الـذنب فلاـ بـدّ من الحسم من غير تـأثر بالمشاعر الكاذبـة و العواطف البشـرية إلّا بالحقّ، فهيجانها الجارف يلحق بالنظام الاجتماعى ضررا كبيرا.
و لا سيما و قد وردت فى الآية عبارة: «فى دين اللّه» أى: عند ما يكون الحكم من اللّه فهو أبصر و أحكم بمواقع الرأفة و الرّحمة، فحين ينهى عن الانفعال العاطفىّ فى إقامة حكم شرعى من أجل أنّ أكثرية الناس تتملّكهم هذه الحالة، فيحتمل غلبة عواطفهم و احساساتهم على عقلهم و ايمانهم. و لا جـدال فى وجود فئـة قليلـة من الناس تميل إلى العنف، و هذا انحراف عمّا دعانا إليه ربّ العزّة و الحكمة- سبحانه- من العدل و الإحسان اللذين لا يظهران إلّا بإقامة أحكامه الرشيدة، فلا ينبغى لمسلم أن يزيد أو ينقص فى حكم اللّه سبحانه.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۸

۶- شروط تحريم الزواج بالزانية و الزانى:

ذكرنا أن ظاهر الآيات السابقة يحرّم الزواج من الزانية و الزانى، و خصصت الأحاديث الشريفة ذلك بالذين اشتهروا بالزنى و لم يتوبوا، و أمّا إذا لم يشتهروا بهذا العمل القبيح، أو أنّهم تركوه و طهّروا أنفسهم منه، و حافظوا على عفتهم، فلا مانع من الزواج منهم.
أمّا الـدليل على الصورة الثّانية، و هى حالة التوبة، فإنه لا ينطبق عنوان الزانى و الزانية على هؤلاء فكانت حالة مؤقّتة زالت عنهم. أمّا فى الحالة الأولى فقد ورد هذا القيد فى الروايات الإسلامية و يؤيده سبب نزول الآية السابقة. ففى حديث معتبر
عن الإمام الصادق عليه السّـلام أن الفقيه المعروف «زرارة» سأله عن تفسـير الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً. فقال الإمام عليه السّلام: «هن نساء مشـهورات بالزنا و رجال مشـهورون بالزنا، قـد شـهروا بالزنا و عرفوا به، و الناس اليوم بذلك المنزل، فمن أقيم عليه حد الزنا، أو شـهر بالزنا، لا ينبغى لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه توبته»[۸].
كما جاءت أحاديث أخرى بهذا المضمون.

۷- فلسفة تحريم الزنا:

لا يخفى على أحـد مساوئ هـذا العمل القبيح على الفرد و المجتمع، و مع ذلك نرى من اللازم بيان هذا المعنى باختصار: إنّ ممارسـة هذا العمل القبيح و انتشاره يعرّض النظام الأسرىّ إلى الدمار.
و يجعل العلاقة بين الابن و أبيه غامضة و سلبية.
و قد بيّنت لنا التجربة أنّ الأولاد المجهولى النسب يتحولون إلى جناة خطرين
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹
على المجتمع.
كما أنّ هذا العمل القبيح يؤدى إلى مصادمات بين أصحاب المطامع و الأهواء.
إضافة إلى انتشار أنواع الأمراض النفسية و الجلدية. و ذلك ليس خافيا على أحد.

و من نتـائجه المشؤومـة الإجهـاض و ارتكاب الجرائم من هـذا القبيل (و لمزيـد الاطلاع راجع التّفسـير الأمثل آخر الآيـة ۳۲ من سورة الإسراء).

الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۴ الى ۵]

اشارة

وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵)

التّفسير

عقوبة البهتان:

قد يستغلّ المعترضون ما نصّت عليه الآيات السابقة من عقوبات شديدة للزانى و الزانية فيسيئون للمتطهّرين، فبيّنت الآيات اللاحقة هنا عقوبات شديدة للذين يرمون المحصنـات، و يسخّرون هذا الحكم لأغراضـهم الدنيئة. فجاءت هاتان الآيتان لحفظ الحرمات الطاهرة و صيانة الكرامات من عبث هؤلاء المفسدين.

تقول الآيـة: وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فالأشـخاص الـذين يتّهمون النساء العفيفات بعمل ينافى العفّـة (أى الزنا)، و لم يأتوا بأربعة شهود عدول لاثبات ادعائهم. فحكمهم فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً و تضيف

الآية حكمين آخرين: وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً، وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

فهنا لا يقع مثل هؤلاء الأشـخاص تحت طائلة العقاب الفيزيقى الشديد فحسب، بل إنّ كلامهم و شـهادتهم يسـقطان عن الإعتبار أيضا، لكيلاـ يتمكنوا من التلاعب بسـمعة الآخرين و تلويث شـرفهم فى المسـتقبل، مضافا إلى أن وصـمة الفسق تكتب على جبينهم فيفتضـح أمرهم فى المجتمع. و ذلك لمنعهم من تلويث سمعة الطاهرين.

و هذا التشديد فى الحكم المشرّع لحفظ الشرف و الطهارة، ليس خاصا بهذه المسألة، ففى كثير من التعاليم الإسلامية نراه ماثلا أمامنا للأهمية البالغة التى يمنحها الإسلام لشرف المرأة و الرجل المؤمن الطاهر.

و

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح فى الماء»[۹].

و لكنّ المولى العزيز الحكيم سبحانه و تعالى لا يسدّ باب رحمته فى وجه التائبين، الـذين تابوا من ذنوبهم و طهّروا أنفسـهم، و ندموا على ما فرّطوا، و سعوا فى تعويض ما فاتهم من البرّ إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و قد اختلف المفسّرون فى كون هذا الاستثناء يعود إلى جملة أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أو إلى جملة وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً، فإذا كان الاسـتثناء عائـدا إلى الجملتين معـا، فمعنى ذلـك قبول شـهادتهم بعـد التوبـة و إزالته الحكم بفسـقهم. أمّـا إذا كـان عائـدا إلى الجملة الأـخيرة، فـإن الحكم عليهم بـالفسق سـيزول عنهم فى جميع الأحكـام الإسـلامية، إلّا أن شـهادتهم تظل باطلـة لا تقبل منهم حتى آخر أعمارهم.

إلّا أن المبادئ المعمول بها فی «أصول الفقه» تقول: «إن الاستثناء الوارد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲

بعد عدّة جمل یعود إلی الأخیرة منها، إلّا فی حالة وجود قرائن تنص علی شمول هذه الجمل بهذا الاستثناء. و هنا یوجد مثل هذه القرینة، لأنّه عند ما یزول الحکم بالفسق عن الشخص بتوبته إلی اللّه، فلا یبقی دلیل علی ردّ شهادته لأنّ عدم قبول الشهادة کان من أجل فسقه. فإذا تاب و رجعت إلیه ملکة العدالة فلا یسمی فاسقا.

و جاءت أحادیث عن أهل البیت علیهم السّلام مؤکّدة هذا المعنی،

فقد روی أحمد بن محمد عن الحسین بن سعید عن النضر بن سوید و حماد عن القاسم بن سلیمان قال: سألت أبا عبد اللّه علیه السّلام عن الرجل یقذف الرجل فیجلد حدا، ثمّ یتوب و لا نعلم منه إلّا خیرا أ تجوز شهادته؟ قال: «نعم. ما یقال عندکم؟».

قلت: یقولون: توبته فیما بینه و بین اللّه، و لا تقبل شهادته أبدا.

فقال: «بئس ما قالوا: کان أبی یقول: إذا تاب و لم نعلم منه إلّا خیرا جازت شهادته»[۱۰].

کما رویت أحادیث أخری فی هذا الباب بهذا المعنی، و لکن یوجد حدیث واحد یحمل علی التقیة.

و من الضروری أن نذکّر بأن کلمة «أبدا» فی جملة لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً دلیل علی عمومیة الحکم. و کما نعلم فإنّ کل عام یقبل الاستثناء (خاصّة الاستثناء المتصل به)، فالرأی القائل أن لفظة (أبدا) تمنع تأثیر التوبة خطأ مؤکّد.

بحوث

۱- المراد من کلمة «رمی»

«الرّمی» فی الأصل هو اطلاق السهم أو قذف الحجر و أمثالهما، و طبیعی أنه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳

یؤذی فی معظم الأوقات، و قد استخدمت الکلمة هنا کنایة عن اتهام الأشخاص و سبابهم و وصفهم بما لا یلیق، لأن هذه الکلمات کالسهم یصیب الشخص و یجرحه.

و لعل ذلک هو السبب فی استخدام هذه الآیات- و الآیات المقبلة- لهذه الکلمة بشکل مطلق، فلم ترد الآیة علی هذا النحو (و الذین یرمون المحصنات بالزنا) و إنّما جاءت وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ لأنّ مفهوم «یرمون» و خاصّة مع ملاحظة القرائن الکلامیة یستبطن معنی (الزنا)، و عدم التصریح به و لا- سیما عند الحدیث عن النساء العفیفات نوع من الاحترام لهن. و هذا التعبیر مثال بارز لإکرام المتطهرین، و نموذج لاحترام الآداب و العفة فی الکلام.

۲- لماذا أربعة شهود؟

من المعلوم أن شاهدین عادلین یکفیان- فی الشریعة الإسلامیة- لإثبات حق، أو ذنب اقترفه شخص ما، حتی و إن کان قتل النفس. أمّا فی إثبات الزنا فقد اشترط اللّه تعالی أربعة شهود. و قد یکون ذلک لأن الناس یتعجلون الحکم فی هذه المسألة، و یتطاولون بإلصاق تهمة الزنا بمجرّد الشک، و لهذا شدّد الإسلام فی هذا المجال لیحفظ حرمات الناس و شرفهم. أمّا فی القضایا الأخری- حتی قتل النفس- فإن موقف الناس یختلف.

إضافة إلى أن قتل النفس ذو طرف واحد فی الدعوى، أی إنّ المجرم واحد، أمّا الزنا فذو طرفين، حيث يثبت الذنب على شخصين أو ينفى عنهما، فإذ كان المخصص لكل طرف شاهدين، فيكون المجموع أربعة شهود.

و هذا الكلام تضمنه الحديث التالى:

عن أبى حنيفة قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام أيّهما أشدّ الزنا أم القتل؟ قال: فقال عليه السّلام: القتل: قال: فقلت: فما بال القتل جاز فيه شاهدان، و لا يجوز فى الزنا إلّا أربعة؟ فقال لى: ما عندكم فيه يا أبا حنيفة، قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٢۴

قلت: ما عندنا فيه إلّا حديث عمر، إنّ اللّه أجرى فى الشهادة كلمتين على العباد، قال: ليس كذلك يا أبا حنيفة و لكنّ الزنا فيه حدّان، و لا يجوز أن يشهد كلّ اثنين على واحد، لأنّ الرجل و المرأة جميعا عليهما الحدّ، و القتل إنّما يقام الحدّ على القاتل و يدفع عن المقتول ١١].

و هناك حالات معينة فى الزنا، ينفذ الحد فيها على طرف واحد (كالزنا بالإكراه و أمثاله) إلّا أنها حالات مستثناة و المتعارف فيه اتفاق الطرفين، و من المعلوم أن غايات الأحكام تتبع الغالب فى الأفراد.

٣- الشّرط المهم فى قبول التوبة

قلنا مرارا: إنّ التوبة ليست فقط بالندامة على ما اقترفه الإنسان و تصميمه على تركه فى المستقبل، بل تقتضى- إضافة إلى هذا- أن يقوم الشخص بالتعويض عن ذنوبه اقترفها، فإذا وجّه المرء تهمة لامرأة أو رجل طاهر ثمّ تاب، فيجب عليه أن يعيد الاعتبار إلى من تضرّر باتّهامه، و ذلك بأن يكذب هذه التهمة بين كل الذين سمعوها عنه.

فعبارة وَ أَصْلَحُوا التى أعقبت عبارة تابُوا هى إشارة إلى هذه الحقيقة، حيث أوجبت التوبة- كما قلنا- أولا، ثمّ إصلاح ما أفسده و إعادة ماء وجه الذى أساء إليه، و ليس صحيحا أن يتّهم إنسان أخاه ظلما فى ملأ عام، أو يعلن عن ذلك فى الصحّف و أجهزة الإعلام، ثمّ يستغفر فى خلوة داره- مثلا- و يطلب من اللّه الصفح عنه، و بالطبع لن يقبل اللّه مثل هذه التوبة.

لذلك

روى عن أئمّة المسلمين قال الرّاوى: سألته عن الذى يقذف المحصنات، تقبل شهادته بعد الحدّ إذا مات؟ قال: نعم، قلت، و ما توبته؟ قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٢۵

لا يجىء فيكذب نفسه عند الإمام و يقول: «قد افتريت على فلانة و يتوب ممّا قال»[١٢].

۴- أحكام القذف:

يوجد باب تحت عنوان «حد القذف» فى كتاب الحدود.

و «القذف» على وزن «فعل» يعنى لغة رمى الشىء نحو هدف بعيد، إلّا أنّه استخدمت كلمة «رمى» كناية عن اتهام شخص ما فى عرضه، أو بتعبير آخر: هو سباب يرتبط بهذه الأمور.

و «القذف» إذا جرى بلفظ صريح، و بأى لغة و أية صورة فحدّة- كما قلنا سابقا- هو ثمانون جلدة. و إذا لم يكن صريحا فيعزّر

القاذف. (و لم ترد فی الشریعة الإسلامیة حدود للتعزیر، بل و کل التعزیر إلی تقدیر القاضی، لیقرر حدودها وفق خصائص المذنب و کیفیة وقوع الذنب و الشروط الأخری).

و إذا وجه شخص اتهاما لمجموعة من الناس، و کرره بالنسبة لکل واحد منهم، فإنه یواجه حدّ القذف لکل تهمة تفوّه بها، أمّا إذا اتهمهم مرّة واحدة، فینفّذ بحقه حدّ واحد إن طالبوا القاضی جمیعا مرة واحدة. و أمّا إذا أقام کلّ واحد منهم الدعوی بصورة مستقلة، فإنه یعاقب المذنب بعدد هذه الدعاوی.

و هذا الموضوع من الأهمیة إلی درجة أنّه إذا اتهم شخصا و مات المتهم، فلورثته الحق فی المطالبة باقامة الحدّ علی الذی اتهم مورثّهم بشیء. و بما أن هذا الحکم مرتبط بحق الشخص، فلصاحب الحق العفو عن الذنب و إسقاط الحدّ عنه، باستثناء حالة تکرر هذا الذنب من شخص معین بحیث یعرض وجود و شرف المجتمع إلی الخطر، فیکون حسابه عسیرا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۶

و إذا تسابّ شخصان سقط الحد عنهما، إلّا أنّ حاکم الشرع یعزرهما، و لهذا لا یجوز للشخص ردّ السّباب بالمثل، بل له أن یطلب من حاکم الشرع معاقبة المذنب.

و علی کل حال فإنّ هذا الحکم الإسلامی یرمی إلی المحافظة علی سمعة الناس و شرفهم، و إلی الحیلولة دون انتشار المفاسد الاجتماعیة و الأخلاقیة التی یبتلی المجتمع بها عن هذا الطریق. و لو ترک المفسدون یعملون ما یحلو لهم یسبّون و یتهمون الأشخاص و المجتمع متی شاؤوا دون رادع، لتعرض شرف الناس و کرامتهم إلی الهتک، و لوصل الأمر بسبب هذه التهم الباطلة إلی وقوع الریبة بین الزوج و زوجته، و سوء ظن الأب بشرعیة ولده إلی الخطر. و یسیطر الشک و سوء الظن علی المجتمع کله. و تروّج الشائعات فتصیب الطاهرین أیضا. و هنا یستوجب العمل بحزم کبیر مثلما عامل الإسلام هؤلاء المسیئین مروّجی التهم و الشائعات.

أجل، یجب أن یضربوا ثمانین جلدة إزاء کل تهمة بالزنا لیقفوا عند حدّهم، و لتتم المحافظة علی کرامة الناس و شرفهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۷

الآیات [سورة النور (۲۴): الآیات ۶ الی ۱۰]

اشارة

وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِینَ (۶) وَ الْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَیْهِ إِنْ کانَ مِنَ الْکاذِبِینَ (۷) وَ یَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْکاذِبِینَ (۸) وَ الْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَیْها إِنْ کانَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۹) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَکِیمٌ (۱۰)

سبب النّزول

روی ابن عباس أن سعد بن عبادة (سید الأنصار) من الخزرج قال لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحضور جمع من الأصحاب: «یا رسول اللّه! لو أتیت لکاع (زوجته) و قد یفخذها رجل لم یکن لی أن أهیجه حتی آتی بأربعة شهداء، فو اللّه ما کنت لآتی باربعة شهداء حتی یفرغ من حاجته و یذهب، و إن قلت ما رأیت إن فی ظهری لثمانین جلدة، فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸

یا معشر الأنصار ما تسمعون إلی ما قال سیدکم؟

فقالوا: لا تلمه فإنّه رجل غیور. ما تزوج امرأة إلّا بکرا، و لا طلّق امرأة له فاجتری رجل منّا أن یتزوجها.

فقال سعد بن عبادة: يا رسول اللّه، بأبى أنت و أمّى، و اللّه إنّى لأعرف أنّها من اللّه، و أنّها حق، و لكن عجبت من ذلك لما أخبرتك.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: فإنّ اللّه يأبى إلّا ذاك.

فقال: صدق اللّه و رسوله.

فلم يلبثوا إلّا يسيرا حتى جاء ابن عم له، يقال له: هلال بن أمية قد رأى رجلا مع امرأته ليلا، فجاء شاكيا إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: إنّى جئت أهلى عشاء فوجدت معها رجلا رأيته بعينى و سمعته بأذنى.

فكره ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى رؤيت الكراهة فى وجهه، فقال هلال: إنّى لأرى الكراهة فى وجهك، و اللّه يعلم إنّى لصادق، و إنّى لأرجو أن يجعل اللّه لى فرجا.

فهمّ رسول اللّه بضربه، و اجتمعت الأنصار و قالوا: ابتلينا بما قال سعد، أ يجلد هلال و تبطل شهادته؟ فنزل الوحى و أمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحى قد نزل، فأنزل اللّه تعالى وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ الآيات، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أبشر يا هلال، فإنّ اللّه تعالى قد جعل فرجا.

فقال: قد كنت أرجوا ذاك من اللّه تعالى.[١٣]

و بنزول الآيات السابقة علم المسلمون الحل السليم لهذه المشكلة، و شرحها كما يأتى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٢٩

التّفسير

عقاب توجيه التهمة إلى الزوجة!

يستنتج من سبب النّزول أنّ هذه الآيات فى حكم الاستثناء الوارد على حد القذف، فلا يطبق حدّ القذف (ثمانين جلدة) على زوج يتّهم زوجته بممارسة الزنا مع رجل آخر، و تقبل شهادته لوحدها. و يمكن فى هذه الحالة أن يكون صادقا كما يمكن أن يكون كاذبا فى شهادته. و هنا يقدم القرآن المجيد حلا أمثل هو:

على الزوج أن يشهد أربع مرات على صدق ادعائه وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَ الْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ و بهذا على الرجل أن يعيد هذه العبارة «اشهد باللّه إنى لمن الصادقين فيما رميتها من الزنا» أربع مرات لإثبات ادعائه من جهة، و ليدفع عن نفسه حد القذف من جهة أخرى.

و يقول فى الخامسة: «لعنة اللّه علىّ إن كنت من الكاذبين».

و هنا تقف المرأة على مفترق طريقين، فإمّا أن تقر بالتهمة التى وجهها إليها زوجها، أو تنكرها على وفق ما ذكرته الآيات التالية.

ففى الحالة الأولى تثبت التهمة.

و فى الثّانية وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ وَ الْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ و بهذا الترتيب تشهد المرأة خمس مرات مقابل شهادات الرجل الخمس- أيضا- لتنفى التهمة عنها. بأن تكرر أربع شهادات «أشهد باللّه إنّه لمن الكاذبين فيما رمانى من الزنا» و فى الخامسة تقول «أن غضب اللّه علىّ إن كان من الصادقين».

و هذه الشهادات منهما هى ما يسمّى ب «اللعان»، لاستخدام عبارة اللعن فى الشهادة.

و ليترتب على هذين الزوجين أربعة أحكام نهائية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٣٠

أوّلها: انفصالهما دون طلاق.

و ثانيها: تحرم الزوج على الزوجة إلى الأبد، أى لا يمكنهما العودة إلى الحياة الزوجية معا بعقد جديد.

و ثالثها: سقوط حد القذف عن الرجل، و حد الزنا عن المرأة (و إذا رفض أحدهما تنفيذ هذه الشهادات يقام عليه حدّ القذف إن كان الرافض الرجل، و إن كانت المرأة يقام عليها حد الزنا.

و رابعها: الطفل الذى يولد بعد هذه القضية لا ينسب إلى الرجل، و تحفظ نسبته للمرأة فقط.

و لم ترد تفاصيل الحكم السابق فى الآيات المذكورة أعلاه، و إنّما جاء فى آخر الآية موضع البحث وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ

فهذه الآية إشارة إجمالية إلى تأكيد الأحكام السابقة، لأنّها تدل على أن اللعان فضل من اللّه، إذ يحل المشكلة التى يواجهها الزوجان، بشكل صحيح.

فمن جهة لا يجبر الرجل على التزام الصمت إزاء سوء تصرف زوجته و يمتنع من مراجعة الحاكم الشرعى.

و من جهة أخرى لا ـ تتعرض المرأة إلى حدّ الزنا الخاص بالمحصنة بمجرّد توجيه التهمة إليها، بل يمنحها الإسلام حق الدفاع عن نفسها.

و من جهة ثالثة لا يلزم الرجل البحث عن شهود أربعة إن واجه هذه المشكلة، لاثبات هذه التهمة النكراء و الكشف عن هذه الفضيحة المخزية.

و من جهة رابعة يفصل بين هذين الزوجين و لا يسمح لهما بالعودة إلى الحياة الزوجية بعقد جديد فى المستقبل أبدا، لتعذّر الاستمرار فى الحياة الزوجية إن كانت التهمة صادقة، كما أن المرأة تصاب بصدمة نفسية إن كانت التهمة كاذبة.

و تجعل الحياة المشتركة ثانية صعبة للغاية و لا تقتصر على حياة باردة و خاملة، بل ينتج عن هذه التهمة عداء مستفحل بينهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱

و من جهة خامسة توضح الآية مستقبل الوليد الذى يولد بعد توجيه هذه التهمة.

هذا كله فضل من اللّه و رحمة منّ بها على عباده. و حل هذه المشكلة بشكل عادل يعبّر عن لطف اللّه بعباده و رحمته لهم. و لو دققنا النظر فى الحكم لرأينا أنّه لا يتقاطع مع ضرورة وجود شهود أربعة فى هذه القضية. إذ أن تكرار كل من الرجل و المرأة شهادتهما أربع مرات يعوض عن ذلك.

ملاحظات

۱- لماذا استثنى الزوجان من حكم القذف؟

السّؤال الأوّل الذى يطرح نفسه هنا: ما هى خاصية الزوجين، ليصدر هذا الحكم المستثنى بحقّهما؟

و نجد جواب هذا السؤال من جهة فى سبب نزول الآية، و هو عدم تمكن الرجل من التزام الصمت إزاء مشاهدته لزوجته و هى تخونه مع رجل آخر.

كيف له أن يمتنع عن رد الفعل إزاء الاعتداء على شرفه؟ و إذا توجّه إلى القاضى و هو يصرخ و يستنجد، فقد يواجه حدّ القذف، لعدم تيقن القاضى من صدق دعواه. و إذا حاول إحضار أربعة شهود، فإن ذلك صعب عليه لمساسه بشرفه، و قد تنتهى الحادثة و لا يمكنه إحضار شهوده فى الوقت المناسب.

و من جهة أخرى، فإنّ الغرباء يتّهمون بعضهم بعضا بسهولة، و لكن الرجل و المرأة نادرا ما يتّهم أحدهما الآخر.
و لهذا السبب حكم الشارع فى هذه القضية بوجوب إحضار أربعة شهود فى غير الزوجين، و إلّا نفّذ حدّ القذف على الذى يوجه تهمة الزنا، و ليس الأمر كذلك بالنسبة للزوجين، و لهذا خصّهما الحكم المذكور لما فيهما من ميزات خاصّة فى هذه الحالة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲

۲- كيفية اللعان

توصلنا بعد الإيضاحات التى ذكرناها خلال تفسير هذه الآيات، إلى وجوب تكرار الرجل شهادته أربع مرات ليثبت صحة دعواه فى اتهامه لزوجته بالزنا، و لينجو من حدّ القذف. و بهذا فإن هذه الشهادات الأربع من الزوج بمثابة أربعة شهود، و فى الخامسة يتقبل لعنة اللّه عليه إن كان كاذبا.
و مع الالتفات إلى أن تنفيذ هذه الأحكام يتم عادة فى محيط اسلامى ملتزم و بيئة متديّنة، و يرى الزوج نفسه مضطرا للوقوف بين يدى الحاكم الشرعى، ليدلى بشهادته أربع مرات بشكل حاسم لا يقبل الشك و الترديد، و فى الخامسة يطلب من اللّه أن يلعنه إن كان كاذبا، فهذا كله يمنع الرجل من التهوّر و توجيه اتهام باطل إلى زوجته.
أمّا المرأة التى تريد الدفاع عن نفسها و ترى نفسها بريئة من هذه التهمة، فعليها تكرار شهادتها أربع مرات و تشهد أن التهمة باطلة، لإيجاد موازنة بين شهادتى الرجل و المرأة، و بما أن التّهمة موجهة للمرأة، فإنّها تدافع عن نفسها بعبارة أقوى فى المرحلة الخامسة، حيث تدعو اللّه أن ينزل غضبه عليها إن كانت كاذبة.
و كما نعلم فإنّ «اللعنة» ابتعاد عن الرحمة.
و أمّا «الغضب» فإنّه أمر أشد من اللعنة، لأنّ الغضب يستلزم العقاب، فهو أكثر من الابتعاد عن الرحمة.
و لهذا قلنا فى تفسير سورة الحمد: إنّ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هم أسوأ من الضَّالِّينَ على الرغم من أنّ الضالّين هم بالتأكيد بعيدون عن رحمة اللّه تعالى.

۳- العقاب المحذوف فى الآية:

جاءت الآية الأخيرة- ممّا نحن بصدده- جملة شرطية لم يذكر جزاءها
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳
حيث تقول: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ لكنّها لم تذكر نتيجة ذلك. و بملاحظة القرائن فيها يتّضح لنا جواب الشرط. و الصمت إزاء مسألة ما يكشف عن أهميتها البالغة، و يثير فى مخيلة المرء تصورات عديدة لها. و كل تصور منها له مفهوم جديد. فهنا قد يكون جواب الشرط: لولا فضل اللّه و رحمته عليكم، لكشف عن أعمالكم و فضحكم.
أو: لولا فضل اللّه و رحمته عليكم، لعاقبكم فورا و أهلككم.
أو: لولا هذا الفضل، لما وضع اللّه سبحانه و تعالى مثل هذه الأحكام الدقيقة من أجل تربيتكم.
و فى الواقع فإن حذف جواب الشرط يثير فى فكر القارئ كل هذه الأمور[۱۴].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۱۱ الى ۱۶]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (١۶)

سبب النّزول

اشارة

ذکر سببین لنزول الآیات السابقة:

أوّلهما: ما

روته عائشة زوجة الرّسول قالت: کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا أراد أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵

یخرج إلی سفر أقرع بین أزواجه فأیّتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم معه. قالت عائشة: فأقرع بیننا فی غزوة[۱۵] غزاها فخرج سهمی فخرجت مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد ما نزل الحجاب و أنا أحمل فی هودجی و أنزل فیه فسرنا حتی إذا فرغ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من غزوته تلک و قفل.

فدنونا من المدینة قافلین آذن لیلة بالرحیل فقمت حین آذنوا بالرحیل فمشیت حتی جاوزت الجیش فلمّا قضیت شأنی أقبلت إلی رحلی فإذا عقد لی من جزع ظفار[۱۶]. قد انقطع فالتمست عقدی و حبسنی ابتغاؤه و أقبل الرهط الذین کانوا یرحلون بی فاحتملوا هودجی فرحلوه علی بعیری الذی کنت أرکب، و هم یحسبون أنی فیه، و کانت النساء إذ ذاک خفافا لم یثقلهن اللحم إنّما تأکل المرأة العلقة[۱۷] من الطعام فلم یستنکر القوم خفة الهودج حین رفعوه و کنت جاریة حدیثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدی بعد ما استمر الجیش فجئت منازلهم و لیس بها داع و لا مجیب فیممت منزلی الذی کنت به فظننت أنّهم سیفقدونی فیرجعون إلیّ فبینا أنا جالسة فی منزلی غلبتنی عینی فنمت.

و کان صفوان بن المعطل السلمی ثمّ الذکر إنّی من وراء الجیش فأدلج ۱۸] فأصبح عند منزلی فرأی سواد إنسان نائم فأتانی فعرفنی حین رآنی و کان یرانی قبل الحجاب فاستیقظت باسترجاعه حین عرفنی فخمرت وجهی بجلبابی و اللّه ما کلمنی کلمة واحدة و لا سمعت منه کلمة غیر استرجاعه حتی أناخ راحلته فوطّی علی یدیها فرکبتها فانطلق یقود بی الراحلة حتی أتینا الجیش بعد أن نزلوا موغرین فی نحر الظهیرة فهلک فی من هلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۶

و کان الذی تولی الإفک عبد اللّه بن أبیّ بن سلول فقدمنا المدینة فاشتکیت حین قدمت شهرا و الناس یفیضون فی قول أصحاب الإفک لا أشعر بشیء من ذلک، و هو یریبنی فی وجعی أنی لا أعرف من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اللطف الذی کنت

أری منه حین اشتکی إنّما علیّ فیسلم ثمّ یقول: کیف تیکم؟ ثمّ ینصرف فذاک الذی یریبنی و لا أشعر بالشر حتی خرجت بعد ما نقهت و خرجت معی أم مسطح قبل المناصع ۱۹] و هی متبرزنا و کنّا لا نخرج إلّا لیلا إلی لیل، و ذلک قبل أن نتخذ الکنف قریبا من بیوتنا و أمرنا أمر العرب الأوّل فی التبرّز قبل الغائط فکنّا نتأذی بالکنف أن نتخذها عند بیوتنا.

فانطلقت أنا و أم مسطح فأقبلت أنا و أم مسطح قبل بیتی قد أشرعنا[۲۰] من ثیابنا فعثرت أم مسطح فی مرطها[۲۱] فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت أ تسبین رجلا شهد بدرا؟ قالت: إی هنتاه ۲۲] أو لم تسمعی ما قال؟ قلت: و ما قال:

فأخبرتنی بقول أهل الإفک فازددت مرضا علی مرضی.

فلما رجعت إلی بیتی دخل علیّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فسلم ثمّ قال: کیف تیکم؟

فقلت: أ تأذن لی أن آتی أبوی؟- قالت: و أنا حینئذ أرید أن أستیقن الخبر من قبلهما- قالت: فأذن لی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فجئت لأبوی فقلت لأمی: یا أمتاه ما یتحدث الناس؟ قالت یا بنیة هونی علیک فو اللّه لقلما کانت امرأة قط وضیئة عند رجل یحبّها و لها ضرائر إلّا أکثرن علیها فقلت: سبحان اللّه و لقد تحدث الناس بهذا؟ فبکیت تلک اللیلة حتی أصبحت لا یرقا لی دمع و لا أکتحل بنوم ثمّ أصبحت أبکی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۷

و دعا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی بن أبی طالب و أسامة بن زید حین استلبث الوحی یستأمرهما فی فراق أهله، فأمّا اسامة فأشار علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالذی یعلم من براءة أهله و بالذی یعلم لهم فی نفسه من الودّ فقال: یا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أهلک و لا- نعلم إلّا خیرا، و أمّا علی بن أبی طالب فقال: یا رسول اللّه لم یضیّق اللّه علیک، و النساء سواها کثیرة و إن تسأل الجاریة تصدقک، فدعا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بریرة فقال: أی بریرة هل رأیت شیئا یریبک؟ قال بریرة: لا- و الذی بعثک بالحق إن رأیت علیها أمرا أغمضه أکثر من أنّها جاریة حدیثة السن تنام عن عجین أهلها فیأتی الداجن فیأکله.

فقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فاستعذر یومئذ من عبد اللّه بن أبی فقال و هو علی المنبر:

یا معشر المسلمین من یعذرنی من رجل بلغنی أذاه فی أهل بیتی فو اللّه ما علمت علی أهلی إلّا خیرا، و لقد ذکروا رجلا ما علمت علیه إلّا خیرا و ما کان یدخل علی أهلی إلّا معی.

فقام سعد بن معاذ الأنصاری فقال: یا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنا أعذرک منه إن کان من الأوس ضربت عنقه و إن کان من إخواننا من بنی الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک، فقام سعد بن عبادة و هو سید الخزرج و کان قبل ذلک رجلا صالحا و لکن احتملته الحمیّة ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: کذبت لعمر اللّه ما تقتله و لا تقدر علی قتله، فقام أسید بن خضیر و هو ابن عم سعد بن عبادة، قال: کذبت لنقتلنه فإنّک منافق تجادل عن المنافقین، فتثاورا الحیّان: الأوس و الخزرج حتی همّوا أن یقتتلوا و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قائم علی المنبر فلم یزل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخفضهم حتی سکنوا و سکت.

فبکیت یومی ذلک فلا یرقا لی دمع و لا أکتحل بنوم فأصبح أبوای عندی و قد بکیت لیلتین و یوما لا أکتحل بنوم و لا یرقا لی دمع و أبوای یظنان أن البکاء فالق کبدی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸

فبینما هما جالسان عندی و أنا أبکی فاستأذنت علیّ امرأة من الأبصار فأذنت لها فجلست تبکی معی فبینما نحن علی ذلک دخل علینا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثمّ جلس و لم یجلس عندی منذ قیل فیّ ما قیل قبلها و قد لبث شهرا لا یوحی إلیه فی شأنی بشیء، فتشهد حین جلس ثمّ قال: أمّا بعد یا عائشة إنّه بلغنی عنک کذا و کذا فإن کنت بریئة فسیبرؤک اللّه، و إن کنت ألممت بذنب

فاستغفرى اللّه و توبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثمّ تاب تاب اللّه عليه.

فلمّا قضـى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مقالته قلص ۲۳] دمعى حتى مـا أحس منه قطرهٔ، فقلت لأـبى: أجب عنّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم. قـال: و اللّه ما أدرى ما أقول لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، فقلت لامى: أجيبى عنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قالت: و اللّه ما أدرى ما أقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فقلت و أنا جاريـهٔ حديثـهٔ السن لا أقرأ كثيرا من القرآن: إنّى و اللّه لقـد علمت أنّكم سـمعتم هـذا الحديث حتى اسـتقر فى أنفسـكم و صـدّقتم به فلئن قلت لكم: إنّى بريئـهٔ و اللّه يعلم أنى بريئـهٔ لا تصـدّقونى، و لئن اعترفت لكم بأمر و اللّه يعلم أنّى منه بريئهٔ لتصدّقنّى، و اللّه لا أجد لى و لكم مثلا إلّا قول أبى يوسف: فصبر جميل و اللّه المستعان على ما تصفون.

ثمّ تحوّلت فاضـطجعت على فراشـى و أنـا حينئـذ أعلم أنى بريئـهٔ و أن اللّه مـبرّئى ببراءتى و لكن و اللّه مـا كنت أظن أن اللّه منزل فى شأنى وحيا يتلى، و لشأنى فى نفسـى كان أحقر من أن يتكلم اللّه فى بأمر يتلى، و لكن كنت أرجو أن يرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رؤيا يبرّئنى اللّه بها.

قالت: فو اللّه ما رام رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مجلسه و لا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى أنه ليتحدّر منه

مثل الجمان من العرق و هو فى يوم شات من ثقل القول الـذى أنزل عليه فلمّا سـرى عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم سـرى عنه و هو يضـحك فكان أوّل كلمهٔ تكلم بها أن قال: أبشـرى يا عائشهٔ أمّا اللّه فقد برّأك، فقالت أمى: قومى إليه، فقلت: و اللّه لا أقوم اليه و لا أحمد إلّا اللّه الذى أنزل براءتى، و أنزل اللّه: «إن الذين جاؤا بالإفک عصبهٔ منكم» العشر الآيات كلها.

فلما أنزل اللّه هذا فى براءتى قال أبو بكر، و كان ينفق على مسـطح بن أثاثهٔ لقرابته منه و فقره: و اللّه لا أنفق على مسـطح شيئا أبدا بعد الـذى قال لعائشهٔ ما قال فأنزل اللّه: «و لا يأتل أولو الفضل منكم و السعهٔ أن يؤتوا أولى القربى و المساكين- إلى قوله- رحيم» قال أبو بكر: و اللّه إنّى أحبّ أن يغفر اللّه لى فرجع إلى مسطح النفقهٔ التى كان ينفق عليه، و قال: و اللّه لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشهٔ: فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسأل زينب ابنهٔ جحش عن أمرى فقال:

يـا زينب مـاذا علمت أو رأيت؟ فقـالت: يـا رسول اللّه أحمى سـمعى و بصـرى ما علمت إلّا خيرا، قالت: و هى التى كانت تسامينى من أزواج النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فعصـمها اللّه بـالورع، و طفقت أختهـا حمنـهٔ تحـارب لهـا فهلكت فيمن هلک من أصـحاب الإفک.[۲۴] إمـام بـاقر عليه السّـلام يقول: لمـا هلک إبراهيم بن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم حزن عليه حزنا شديـدا فقالت عائشهٔ: ما الذى يحزنک عليه؟ ما هو إلّا ابن جريح، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليا عليه السّلام و أمره بقتله.

فذهب على عليه السّـلام و معه السيف و كان جريح القبطى فى حائط فضرب على عليه السّلام باب البستان فأقبل جريح له ليفتح الباب فلما رأى عليّا عليه السّـلام عرف فى وجهه الغضب فأدبر راجعا و لم يفتح باب البسـتان فوثب على عليه السّـلام على الحائط و نزل إلى البستان و اتبعه و ولى جريح مدبرا فلما خشى أن يرهقه ۲۵] صعد فى نخلهٔ و صعد

على عليه السّلام فى أثره فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلهٔ فبدت عورته فإذا ليس له ما للرجال و لا له ما للنساء.

فانصـرف على عليه السّـلام إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال له: يا رسول اللّه إذا بعثتنى فى الأمر أكون كالسمار المحمىّ فى الوبر أم أثبّت؟ قال: لا بل تثبت. قال: و الـذى بعثک بالحق ما له ما للرجال و ما له ما للنساء، فقال: الحمـد اللّه الـذى صـرف عنّا السوء

أهل البيت.[۲۶]

تحقيق المسألة:

على رغم ممّا ذكرته معظم المصادر الإسلامية لهذين السببين فإن هناك أمورا غامضة فى السبب الأوّل تثير النقاش، منها:

۱- يستفاد من تعابير هذا الحديث- رغم تناقضاته- أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وقع تحت تأثير الشائعة، و أدى ذلك إلى مشاورته أصحابه و تغيير سلوكه مع عائشة حتى ابتعد عنها لمدّة طويلة.

و هذا الموضوع لا ينسجم مع عصمة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حسب، بل كل مسلم ثابت الإيمان لا ينبغى أن يقع تحت تأثير الشائعات دون مبرر، و إذا تأثّر بالشائعة فعليه ألا يغيّر سلوكه عمليا، و لا يستسلم للشائعة و أثرها فكيف بالمعصوم.

فهل يمكن التصديق أنّ العتاب الشديد الذى ذكرته الآيات التالية و تساءلت:

لماذا وقع بعض المؤمنين تحت تأثير هذه الشائعة، و لماذا لم يطلبوا شهودا أربعة، يشمل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ هذه تساؤلات تدفعنا فى أقل تقدير إلى الشك فى صحة سبب النّزول الأول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱

۲- رغم أن ظاهر الآيات يدلّ على أن حكم القذف (الاتهام بعمل مخل بالشرف و العفة) نزل قبل حديث الإفك، فلما ذا لم يستدع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عبد اللّه بن أبى سلول و عددا آخر ممّن نشروا هذه الشائعة ليجرى الحد الذى فرضه اللّه؟ (الّا أن يقال بأن آيات القذف و الافك نزلت سوية، و أن حكم القذف قد شرح حينذاك لتناسبه مع الموضوع، ففى هذه الصورة ينتفى هذا الإشكال و لكن يبقى الأوّل على قوّته).

أمّا بالنسبة لسبب النّزول الثّانى، فإنّ ما يثير فيه النقاش هو عدّة أمور، منها:

۱- إن الذى وجه التهمة- وفقا لسبب النّزول هذا- هو شخص واحد لا غير، فى الوقت الذى ذكرت الآيات فيه أنّهم مجموعة، و قد روّجوا لها لدرجة شيوعها تقريبا فى المدينة كلها. لهذا استخدمت الآيات ضمير جمع للمؤمنين الذى عاتبتهم بشدّة، و الذين تورّطوا فى تصديق و ترويج هذه الشائعة، و هذا لا ينسجم أبدا مع سبب النّزول الثّانى.

۲- يبقى سؤال هو: إذا كانت عائشة ارتكبت هذا الإثم (القذف) ثمّ ثبت خلاقة، فلما ذا لم ينفّذ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حدّ القذف بحقها؟

۳- كيف يمكن للنبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يصدر حكم القتل بحق شخص بشهادة امرأة واحدة؟ مع أنّ التنافس بين زوجات رجل واحدا أمرا اعتياديّا، و الانحراف عن الحق و العدل أو ارتكاب إحداهن لخطأ على الأقل ممكن.

و ليس مهما ما يكون سبب النّزول، بل المهم أن نعلم من مجموع الآيات هو أنه قد اتهم شخص برىء بعمل مخلّ بالعفة و الشرف حين نزول هذه الآيات، و أن الشائعات كانت منتشرة فى المدينة، كما يفهم من الدلائل الموجودة فى هذه الآية، أن هذه التهمة كانت موجهة لشخص له أهمية خاصّة فى المجتمع آنذاك. و أن مجموعة من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الإخلال بالمجتمع الإسلامى بترويجهم هذه الشائعة، فنزلت هذه الآيات، و تصدّت لهذه الحادثة بقوة، و دفعت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲

المنحرفين و المنافقين الحاقدين إلى جحورهم.

و مهما يكن سبب نزول هذه الأحكام، فإنها لا تخص سبب النّزول وحده، و لا تنصرف لزمانه و مكانه فقط، بل هى أحكام نافذة فى كلّ بيئة و زمان.

بعد هذا الحدیث نشرع فی تفسیر هذه الآیات لنری کیف یتابع القرآن بفصاحته و بلاغته هذه الحادثة الخاصّة، و کیف یبحث تفاصیلها بدقة.

التّفسیر

حدیث الافک المثیر:

تقول أوّل آیة من الآیات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادثة إِنَّ الَّذِینَ جاؤُ بِالْإِفْکِ عُصْبَةٌ مِنْکُمْ لأن من علائم الفصاحة و البلاغة، حذف الجمل الزائدة، و الاکتفاء بما تدلّ علیه الکلمات من معان شاملة.

کلمة «الإفک» علی وزن «فکر» کما یقول الراغب الأصفهانی: یقصد بها کل مصروف عن وجهه، الذی یحق له أن یکون علیه، و منه قیل للریاح العادلة عن المهاب «مؤتفکة» ثمّ أطلقت علی کل کلام منحرف عن الحق و مجانب للصواب، و من ذلک یطلق علی الکذب «أفک».

و یری «الطبرسی» فی مجمع البیان أن الإفک لا یطلق علی کل کذبة بل الکذبة الکبیرة التی تبدل الموضوع عن حالته الأصلیة، و علی هذا یستفاد أن کلمة «الإفک» بنفسها تبیّن أهمیة هذه الحادثة و کذب التهمة المطروحة.

و أمّا کلمة «العصبة» فعلی وزن «فعلة» مشتقّة من العصب، و جمعها أعصاب، و هی التی تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، و علی شکل شبکة منتشرة فی الجسم، ثمّ أطلقت کلمة «عصبة» علی مجموعة من الناس متحدة و ذات عقیدة واحدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳

و استخدام هذه الکلمة یکشف عن الارتباط الوثیق بین المتآمرین المشترکین فی ترویج حدیث الإفک، حیث کانوا یشکلون شبکة قویة منسجمة و مستعدة لتنفیذ المؤامرات.

و قال البعض: إن هذه المفردة تستعمل فی عشرة إلی أربعین شخصا[۲۷].

و علی کل حال فإن القرآن طمأن و هدّأ روع المؤمنین الذین آلمهم توجیه هذه التهمة إلی شخصیة متطهرة لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَکُمْ بَلْ هُوَ خَیْرٌ لَکُمْ لأنّه کشف عن حقیقة عدد من الأعداء المهزومین أو المنافقین الجبناء، و فضح أمر هؤلاء المرائین، و سوّد وجوههم إلی الأبد.

و لو لم تکن هذه الحادثة، لما افتضح أمرهم بهذا الشکل، و لکانوا أکثر خطرا علی المسلمین.

إنّ هذا الحادث علّم المسلمین أن اتّباع الذین یروّجون الشائعات یجرّهم إلی الشقاء، و أنّ علیهم أن یقفوا بقوّة امام هذا العمل. کما علّم هذا الحادث المسلمین درسا آخر، و هو أنّ لا ینظروا إلی ظاهر الحادث المؤلم، بل علیهم أن یتبحّروا فیه، فقد یکون فیه خیرا کثیرا رغم سوء ظاهره.

و ممّا یلفت النظر أنّ ذکر ضمیر «لکم» یعمّ جمیع المؤمنین فی هذا الحادث، و هذا حقّ، لأن شرف المؤمنین و کیانهم الاجتماعی لا ینفصل بعضه عن بعض، فهم شرکاء فی السرّاء و الضرّاء.

ثمّ تعقّب هذه الآیة بذکر مسألتین:

أوّلاهما: لِکُلِّ امْرِءٍ مِنْهُمْ مَا اکْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ إشارة إلی أنّ المسؤولیة الکبری التی تقع علی عاتق کبار المذنبین لا تحول دون تحمل الآخرین لجزء من هذه المسؤولیة، و لهذا یتحمل کلّ شخص مسئولیته إزاء أیة مؤامرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴

و المسألة الثّانية: وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ قال بعض المفسّرين: إن الشخص المقصود هو «عبد اللّه بن أبى سلول» قائد أصحاب الإفك.

و قال آخرون: إنّه مسطح بن أثاثة. و حسان بن ثابت كمصاديق لهذا الخطاب.

و على كل حال، فإنّ الذى نشط فى هذا الحادث أكثر من الآخرين، و أضرم نار الإفك، هو قائد هذه المجموعة الذى سيعاقب عقابا عظيما لكبر ذنبه. (و يحتمل أن كلمة «تولى» يقصد بها رأس مروجى حديث الإفك).

ثمّ توجّهت الآية التالية: إلى المؤمنين الذين انخدعوا بهذا الحديث فوقعوا تحت تأثير الشائعات، فلا متهم بشدّة لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً.

أى: لماذا لم تقفوا فى وجه المنافقين بقوّة، بل استمعتم إلى أقوالهم الّتى مسّت مؤمنين آخرين كانوا بمنزلة أنفسكم منكم. و لماذا لم تدفعوا هذه التهمة و تقولوا بأن هذا الكلام كذب و افتراء: وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ

أنّكم كنتم تعرفون جيدا الماضى القبيح لهذه المجموعة من المنافقين، و تعرفون جيدا طهارة الذى اتّهم، و كنتم مطمئنين من عدم صدق هذه التهمة وفق الدلائل المتوفرة لديكم.

و كنتم تعلمون أيضا بما يحاك من مؤامرات ضدّ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل الأعداء و المنافقين، لذا فإنّكم تستحقون اللوم و التأنيب لمجرد هذه الشائعات الكاذبة، و لالتزامكم الصمت إزاءها، فكيف بكم و قد اشتركتم فى نشر هذه الشائعة بوعى أو دون وعى منكم؟

و ممّا يلفت النظر أن الآية السابقة بدلا من أن تقول: عليكم أن تحسنوا الظن بالمتهم و تصدقوا تهمته، فإنها تقول ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً و هذه العبارة- كما قلنا- إشارة إلى أنّ أنفس المؤمنين كنفس واحدة، فإذا اتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ۴۵

أحدهم، فكأن التهمة موجهة لجميعهم، و مثالهم فى ذلك كمن اشتكى عضو منه فهبت بقية الأعضاء لنجدته.

و هكذا يجب أن يهب المسلم للدفاع عن إخوته و أخواته فى الدين مثلما يدافع عن نفسه ٢٨].

و قد استعملت كلمة «الأنفس» فى آيات أخرى من القرآن فى هذا المعنى أيضا- فى مثل هذه الحالات- كما هو فى الآية (١١) من سورة الحجرات وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ أمّا الاستناد إلى الرجال و النساء المؤمنين فيشير إلى قدرة الإيمان على ردع سوء الظن بالآخرين.

و حتى هذه اللحظة كانت الملامة ذات طابع أخلاقى و معنوى، و تقضى بعدم التزام المؤمنين جانب الصمت إزاء مثل هذه التهم القبيحة، أو أن يكونوا وسيلة بيد مروّجى الشائعات.

ثمّ تهتم الآيات بالجانب القضائى للمسألة فتقول: لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ أى لماذا لم تطلبوا منهم الإتيان بأربعة شهود. فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ

إنّ هذه الملامة تبيّن أن الحكم بأداء أربعة أشخاص لشهادتهم، و كذلك حد القذف فى حالة عدمه قد نزل قبل الآيات التى تناولت حديث الإفك.

و أمّا الجواب عن سؤال: كيف لم يقدم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على تنفيذ هذا الحدّ؟ فإنّه واضح، لأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يقدم على شىء ما لم يسند من قبل الناس، فالتعصب القبلى قد يؤدى إلى مقاومة سلبية لبعض أحكام اللّه و لو بصورة مؤقتة، و قد ذكر المؤرخون أنّ الأمر كان هكذا فى هذه القضية.

و أخيرا جمعت الآية التالية هذه الملامات، فقالت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ۴۶

وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ

و نظرا لأن «أفضتم» مشتقة من الإفاضة، بمعنى خروج الماء بكثرة، و استعملت فى حالات أخرى للتوغل فى الماء، نتج من هذه العبارة أنّ شائعة الاتهام توسعت بشكل شملت المؤمنين مضافا إلى مروجيها الأصليين (المنافقين).

و تبيّن الآية التالية- فى الحقيقة- البحث السابق. و هو كيف ابتلى المؤمنين بهذا الذنب العظيم نتيجة تساهلهم؟ فتقول إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ أى تذكّروا كيف رحبتم بهذه التهمة الباطلة فتناقلتموها وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ

و تشير هذه الآية إلى ثلاثة أنواع من ذنوبهم العظيمة فى هذا المجال:

الأوّل: تقبّل الشائعة: استقبالها و تناقلها.

الثّانى: نشر الشائعة دون أى تحقيق أو علم بصدقها.

الثّالث: استصغار الشائعة و اعتبارها وسيلة للّهو و قضاء الوقت، فى وقت تمس فيه كيان المجتمع الإسلامى و شرفه، إضافة إلى مساسها بشرف بعض المسلمين.

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية استعملت تعبير «بألسنتكم» تارة أخرى تعبير «بأفواهكم» على الرغم من أنّ جميع الكلام يصدر عن طريق الفم و اللسان، إشارة إلى أنّكم لم تطلبوا الدليل على الكلام الذى تقبلتموه، و لا تملكون دليلا يسوّغ لكم نشره، و الأمر الوحيد الذى كان بأيديكم هو لقلقة لسانكم و حركات أفواهكم.

و نظرا لهول هذه الحادثة التى استصغرها بعض المسلمين، أكدتها الآية ثانية، فأنّبتهم مرّة أخرى و لذعتهم بعباراتها إذ قالت وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷

و سبق لهذه الآية أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنهم بالذى وجه إليه الاتهام باطلا، و هنا تقول الآية: إضافة إلى وجوب حسن الظن بالمتهم يجب ألا تسمحوا لأنفسكم بالتحدث عنه، و لا تتناولوا التهمة الموجهة إليه، فكيف بكم و قد كنتم سببا لنشرها! عليكم أن تعجبوا لهذه التهمة الكبيرة، و أن تذكروا اللّه سبحانه و تعالى، و أن تلجأوا إلى اللّه يطهركم من نشر هذه التهمة و إشاعتها. و مع كل الأسف استصغرتموها و نشرتموها بكل يسر، فأصبحتم بذلك آلة بيد المنافقين المتآمرين المروجين للشائعات.

هذا و سنتناول بالبحث- خلال تفسير الآيات القادمة- ذنب اختلاق الشائعة و دوافعها، و السبيل إلى مكافحتها، بعون اللّه و توفيقه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

اشارة

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۸) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۲۰)

التّفسير

حرمة إشاعة الفحشاء:

تحدثت هذه الآیات أیضا عن حدیث الإفک، و النتائج المشؤومة و الألیمة لاختلاق الشائعات و نشرها، و اتهام الأشخاص الطاهرین بتهمة تمس شرفهم و عفتهم. و هذه القضیة مهمه بدرجة أن القرآن المجید تناولها عدّة مرات، و عرض لها من طرق مختلفة مؤثرة، باحثا محللا لها من أجل ألّا تتکرر مثل هذه الواقعة الألیمة فی المجتمع الإسلامی، فذکر أولا یَعِظُکُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ ۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۹

أی أن من علامات الإیمان أن لا یتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، و إذا ارتکبها فذلک یدلّ علی عدم إیمانه أو ضعفه، و الجملة المذکورة تشکل- فی الحقیقة- أحد أرکان التوبة، إذ أنّ الندم علی الماضی لا یکفی، بل یجب التصمیم علی عدم تکرار ارتکاب الذنوب فی المستقبل، لتکون توبة کاملة.

و لتأکید أکثر علی أنّ هذا الکلام لیس اعتیادیا، بل صادر عن اللّه العلیم الحکیم، و لبیان الحقائق ذات الأثر الفعّال فی مصیر الإنسان، یقول سبحانه و تعالی وَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ

فهو یعلم تفاصیل أعمالکم تمام العلم، و یصدر أحکامه بمقتضی حکمته الهادیة لکم. و بتعبیر آخر: إنه یعلم حاجاتکم و ما یضرّکم و ما ینفعکم بمقتضی علمه الواسع، و یصدر أحکامه و أوامره المتناسبة لاحتیاجاتکم بمقتضی حکمته.

و لتثبیت الأمر نقل الکلام من مورده الخاص إلی بیان عام لقانون شامل دائم، فقال: إِنَّ الَّذِینَ یُحِبُّونَ أَنْ تَشِیعَ الْفاحِشَةُ فِی الَّذِینَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ.

و ممّا یلفت النظر أنّ القرآن الکریم لم یقل «الذین یشیعون الفاحشة، بل قال:

الَّذِینَ یُحِبُّونَ أَنْ تَشِیعَ الْفاحِشَةُ و هذا یحکی عن الأهمیة القصوی التی یدلیها القرآن لذلک. و بعبارة أخری: أنّه لا ینبغی توهم أن ذلک کان من أجل زوجة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو شخص آخر بمنزلتها، بل من أجل کلّ مؤمن و مؤمنة، فلا خصوصیة فی ذلک، إنّما هی عامّة للجمیع علی الرغم من أن کل حالة لها خصائصها، و قد تزید الواحدة علی الأخری فی الخصائص أو تنقص. کما یجب الانتباه إلی أن إشاعة الفحشاء لا تنحصر فی ترویج تهمة کاذبة ضد مسلم مؤمن، یتهم بعمل مخل بالشرف، بل هذه مصداق من مصادیقها و لهذا التعبیر مفهوم واسع یضم کل عمل یساعد فی نشر الفحشاء و المنکر.

و قد وردت فی القرآن المجید کلمة «الفحشاء» غالبا للدلالة علی العمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۵۰

المخل بالعفّة و الشرف. و لکن من الناحیة اللغویة، فقد ذکر الراغب الإصفهانی مفهوما واسعا لها فقال: الفحش و الفحشاء و الفاحشة، ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال.

و یستعمل القرآن أحیانا هذا المفهوم الواسع، حیث یقول وَ الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ [۳۰] و بهذا یتّضح المفهوم الواسع للآیة:

أمّا قول القرآن الکریم: لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ فِی الدُّنْیا فقد یکون إشارة إلی الحدود و التعزیرات الشرعیة. و ردود الفعل الاجتماعیة، و ما یبتلی به الناس فی هذه الدنیا من مظاهر مشؤومة بسبب أعمالهم القبیحة، إضافة إلی عدم تقبل أیة شهادة منهم، و إدانتهم بالفسق و الفجور و افتضاح أمرهم. کل ذلک من النتائج الدنیویة التی تترتب علی أقوالهم و أعمالهم القبیحة.

و أمّا عذابهم الألیم فی الآخرة، فیکون فی ابتعادهم عن رحمة اللّه، و استحقاقهم غضب اللّه و عذاب النار.

و تختم الآیة بالقول وَ اللَّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أجل، و إن اللّه یعلم بالعاقبة المشؤومة التی تنتظر الذی یشیعون الفحشاء فی الدنیا و الآخرة، و لکنّکم لا تعلمون أبعاد هذه القضیة.

إنّه یعلم الذین یبیتون فی قلوبهم حب هذا الذنب، و یعلم الذین یمارسونه تحت واجهات خداعة، أمّا أنتم فلا تعلمون ذلک و لا تدرکونه.

أجل، یعلم اللّه کیف ینزل أحکامه لیحول دون ارتکاب هذه الأعمال القبیحهٔ.

و کررت الآیهٔ الأخیرهٔ- ممّا نحن بصدده من الآیات التی تناولت حدیث الافک و مکافحهٔ إشاعهٔ الفحشاء، و قذف المؤمنین المتطهرین- هذه الحقیقهٔ

لتؤکّد القول وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ [۳۱]

بحوث

۱- ما معنی إشاعهٔ الفحشاء؟

بما أن الإنسان مخلوق اجتماعی، فالمجتمع البشری الذی یعیش فیه له حرمهٔ یجب أن لا تقلّ عن حرمته الشخصیّهٔ، و طهارهٔ کلّ منهما تساعد فی طهارهٔ الآخر، و قبح کلّ منهما یسری إلی صاحبه. و بموجب هذا المبدأ کافح الإسلام بشدّهٔ کلّ عمل ینشر السموم فی المجتمع، أو یدفعه نحو الهاویهٔ و الانحطاط.

و لهذا السبب حارب الإسلام- بقوهٔ- الغیبهٔ و النمیمهٔ، لأن الغیبهٔ تکشف العیوب الخفیهٔ، و تسیء إلی حرمهٔ المجتمع.

أوجب الإسلام ستر العیوب و السبب فی ذلک هو ما تقدم من الحیلولهٔ دون انتشار الذنوب فی المجتمع، و اکتسابها طابع العمومیهٔ و الشمول.

و عند ما نری اختصاص الذنب العلنی بأهمیهٔ أکثر من الذنب الذی یرتکب فی الخفاء، حتی

أن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام قال: «المذیع بالسیئهٔ مخذول و المستتر بالسیئهٔ مغفور له»[۳۲].

فالسبب هو ما ذکرنا.

و هکذا لنفس السبب یدین القرآن- بشدّهٔ- ارتکاب الذنوب فی العلن، کإشاعهٔ الفحشاء التی ذکرتها الآیات السابقهٔ فارتکاب الذنوب کالنار التی تسری فی الهشیم، تأتی علی المجتمع من أساسه فتنخره حتی تهدمه و تذروه، لهذا یجب الإسراع لإطفاء هذه النار، أو لمحاصرتها علی الأقل. أمّا إذا زدنا النار لهیبا،

و نقلناها من مکان إلی آخر، فإنّها ستحرق الجمیع، و لا یمکن بعدئذ إطفاؤها أو السیطرهٔ علیها.

و إضافهٔ إلی ذلک، فإنّه لو عظم الذنب فی نظر عامّهٔ الناس، و تمّت المحافظهٔ علی سلامهٔ ظاهر المجتمع من التلوث و الفساد، فإن ذلک یمنع انتشار الفاحشهٔ بصورهٔ مؤکدهٔ. أمّا اشاعهٔ الفحشاء و الذنوب و التجاهر بالفسق، فمن نشأنها أن تحطم هذا السد الحاجز للفساد. و یستصغر شأن الذنوب من قبل الناس، و یسهل التورط فیها.

و

قد جاء فی حدیث للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله «من أذاع فاحشهٔ کان کمبتدئها»[۳۳].

و

جاء فی حدیث آخر عن محمد بن الفضیل الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام قال: قلت له: جعلت فداک الرجل من إخوانی بلغنی عنه الشیء الذی أکرهه فاسأله عنه فینکر ذلک و قد أخبرنی عنه قوم ثقات؟ فقال الإمام علیه السّلام لی: «یا محمّد کذب سمعک و بصرک عن أخیک، و إن شهد عندک خمسون قسامهٔ. و قال لک قول فصدقه و کذبهم، و لا تذیعن علیه شیئا تشینه به و تهدم به

مروءته، فتكون من الذين قال اللّه عزّ و جلّ: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ[۳۴][۳۵].

و ممّا يلزم ذكره أنّ لإشاعة الفحشاء صورا عديدة فتارة يكون من قبيل افتعال تهمة كاذبة و نقلها بين الناس.

و اخرى يكون بإنشاء مراكز للفساد و نشر الفحشاء.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۵۳

و ثالثة بتوفير وسائل المعصية للناس، أو تشجيعهم على ارتكاب الذنوب.

و رابعة يرتكب الذنب فى العلن دون ملاحظة الدين، و لا رعاية لقانون و لا التفات لآداب عامّة، و كل هذه مصاديق لإشاعة الفحشاء، لأنّ لهذه الكلمة مفهوما واسعا (فتأملوا جيدا).

۲- مصيبة الشائعات

إن اختلاق و نشر الشائعة الكاذبة يودّى إلى سيطرة القلق و استبداد الاضطراب و انعدام الثقة، و هذه من أهمّ ما ترمى إليه الحرب النفسيّة للمستعمرين بغية إثارة البلبلة و نشر الفزع، ليتسنى لهم التّغلّب العسكرىّ و السياسىّ.

فعند ما يعجز العدو عن إلحاق الضرر بصورة مباشرة، يقوم بنشر الشائعات، لبث الرعب و القلق فى الناس، ليشغلهم بأنفسهم، و ليحرفهم عن أهم قضاياهم حساسية، و ليتسنّى له الظهور عليهم و التمكّن منهم فى كل مجال. و اختلاق الشائعة من الأسلحة المخربة المستعملة ضدّ الصالحين و الطيبين، لعزلهم و إقصاء الناس عنهم.

و بحسب أسباب النّزول المعروفة بشأن الآيات موضع البحث لجأ المنافقون إلى أخسّ السبل لتلويث سمعة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الحط من شأنه المقدّس لدى الناس، باختلاق شائعة تمسّ طهارة و عفة إحدى زوجاته مستغلين فى ذلك فرصة سنحت لهم، ممّا أدى إلى تشويش أفكار المسلمين، و إدخال الحزن إلى قلوبهم، بحيث اضطرب الجميع. و أصاب المؤمنين القلق الشديد حتى نزل الوحى و أنقذهم من هذه الحالة، و مرّغ أنوف المنافقين فى الوحل بما اختلقوا هذه الشائعة.

و جعلهم عبرة للآخرين.

و رغم أن اختلاق الشائعة يعد نوعا من الكفاح فى المجتمعات التى تسودها الدكتاتورية و يفتقد الناس فيها الحرية إلّا أن من أسبابها و دوافعها الانتقام،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۵۴

و تصفية الحساب مع أشخاص معنيين، و إزالة الثقة العامّة بالشخصيات الكبيرة.

و حرف الرأى العام عن القضايا الجوهرية.

و لا يهمنا أن نعلم دوافع اختلاق الشائعات، إنّما المهم تحذير المجتمع من مغبة الوقوع فى برائن الذين يختلقون الشائعات و ينشرونها بين الناس، و بذلك يدمرون المجتمع و أنفسهم بأيديهم! و أن نعلّم الناس بأن يدفنوا الشائعة فى مهدها، و إلّا فقد أدخلنا السرور إلى قلب العدو، و عرضنا أنفسنا إلى عذاب الدنيا و الآخرة كما نصت عليه الآيات السابقة.

۳- استصغار الذنب

يستفاد من الآيات السابقة أنها استنكرت استصغار نشر البهتان و التهمة، و هو خطأ فادح و جرم عظيم و فى الحقيقة إن استصغار الذنب

بذاته ذنب آخر. فالذى يرتكب الذنب و يشعر بعظمة ذنبه، و يندم على ما فعل هو الذى يؤمل فيه التوبة و الجبران.

أمّا الـذى يستصـغر الذنب و يقول: ما أسـعدنى إن كان ذنبى هذا فقط فهذا الشـخص يسـير فى طريق خطر و قد يواصل ارتكاب ذنبه، لهذا نقرأ

فى حديث للإمام على عليه السّلام قوله: «أشد الذنوب ما استهان به صاحبه»[۳۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۵۵

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۲۱ الى ۲۶]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۱) وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۲) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۲۳) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (۲۵)

الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَ الطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۲۶)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۵۶

التّفسير

للعقوبات حساب!

على الرغم من عـدم متابعة هذه الآيات حديث الإفك بصـراحة، إلّا إنّها تعتبر مكملة لمضـمون ذلك البحث، و تحذّر المؤمنين جميعا من تأثير الأفكار الشيطانية التى تبدو أوّلا فى صورة باهتة، فلا بدّ من الانتباه إليها، و إلّا فالنتيجة سـيئة للغاية، و لا يمكن تلافيها بسهولة فعلى هذا حينما يشـعر الفرد بأوّل وسوسة شيطانية بإشاعة الفحشاء أو ارتكاب أى ذنب آخر فيجب التصدى له بقوّة حاسمة، حتى يمنع من انتشاره و توسعه.

و تخـاطب الآيـة الأولى المؤمنين، فتقول يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ[۳۷].

و إذا فسّـرنا الشيطان بأنه كل مخلوق مؤذ و فاسد و مخرّب، يتّضح لنا شمولية هذا التحذير لأبعاد حياتنا كلها، و حيث لا يمكن جرّ أى إنسان مؤمن متطهر مرّة واحدة إلى الفساد، فإنّ ذلك يتمّ خطوة بعد أخرى فى طريق الفساد:

الخطوة الأولى: مرافقة الملوثين و المنحرفين.

الخطوة الثّانية: المشاركة فى مجالسهم.

الخطوة الثّالثة: التفكير بارتكاب الذنوب.

الخطوة الرّابعة: ارتكاب الأعمال المشتبه بها.

الخطوة الخامسة: ارتكاب الذنوب الصغيرة.

و أخيرا الابتلاء بالكبائر. و كأنّ الإنسان فى هذه المرحلة يسلّم نفسه لمجرم

ليقوده نحو الهاوية، أجل هذه خُطُواتِ الشَّيْطانِ ۳۸].

ثمّ تشير الآيـة إلى أهم النعم الكبيرة التى منّ اللّه بهـا على الإنسـان فى هـدايته فتقول: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

و لا شك فى أنّ الفضل و الرحمـة الإلهيـة ينقـذان الإنسان من الانحطاط و الانحراف من الذنوب جميعا، فاللّه منحه العقل، و لطف به فأرسل إليه الرّسل، و يسّر له سبل الارتقاء و الاهتداء، و أعانه على استكمال الخير. و إضافة إلى هذه المواهب شمل اللّه الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصّة، و إمداداته التى يستحقونها، و التى تعتبر أهم عنصر فى تطهير و تزكية النفس.

و كما أسـلفنا. مرارا، فإنّ عبارة «من يشاء» لا تعنى المشيئة دون مبرّر، بل إنّ اللّه يهدى عباده الذين يسعون فى نيلها، الذين يسيرون فى الطريق إلى اللّه، و يجاهدون فى سبيله، فيمسك اللّه بيدهم و يحفظهم من وساوس الشيطان و كيده حتى يبلغهم الهدف الأسمى.

و بعبارة أخرى: إنّ الفضل و الرحمة الإلهية تارة يكون لهما جانب تشريعى عن طريق الرسل عليهم السّلام و الكتب السماوية و ما فيها من تعـاليم إلهيـة و بشارات و إنـذارات سـماوية. و أخرى يتخـذ الفضل و الرحمـة الإلهيـة جانبا تكوينيا عن طريق الإمـدادات المعنوية الإلهية.

و الآيـات موضع البحث اسـتهدفت القسم الثّانى، بـدليل عبارة «من يشاء»، و يجب الانتباه إلى أن «الزكاة» و «التزكيـة» تعنى فى الأصـل النمو، و العمل من أجل النمو، إلّا أنها وردت غالبا بمعنى التطهّر و التطهير.

و يمكن إرجاعها إلى أصل واحد، إذ أنّ النمو و الرشد لا يمكن أن يتحققا إلّا

بزوال الحواجز و التطهير من المفاسد و الرذائل.

و ذكر عـدد من المفسّرين سببا لنزول الآيـة الثّانيـة- من الآيات موضع البحث- يكشف عن تلاحمها مع الآيات السابقة، قال: إنّ هذه الآية نزلت بشأن عدد من الصحابة أقسموا على عدم تقديم مساعدة مالية إلى الذين تورّطوا فى هذه القضيـة و أشاعوا هذه التهمة بين الناس، و ألا يشاركوهم همومهم، فنزلت هذه الآية لتمنعهم من ردّ فعل قاس، و أمرتهم بالعفو و السماح.

و قد روى سـبب النّزول هذا «القرطبى» فى شأن نزول هذه الآيات فى تفسيره عن ابن عباس و الضـحاك، و رواه المرحوم «الطبرسـى» عن ابن عبّاس، و رواه آخرون لدى تفسير الآيات موضع البحث، و هو يمتاز بعموميته.

إلّا أن مجموعة من مفسّرى أهل السـنة يصرّون على أن هذه الآية نزلت بخصوص «أبى بكر» حيث أقسم بعد حادث الإفك على عدم تقديم أية مساعدة مالية ل- «مسطح بن أثاثة» الذى كان ابن خالته، أو ابن أخته، و هو الذين نشـر شائعة الإفك، فى حين أنّ الضـمائر التى استعملتها الآية، جاءت بصيغة الجمع، و تبيّن أنّ مجموعة من المسلمين اتخذوا قرارا بقطع مساعداتهم عن هؤلاء المجرمين، إلّا أنّ هذه الآية نهتهم عن العمل.

و من المعلوم أنّ الآيات القرآنية لا تختص بسـبب النّزول فقط، بل تشمل جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، فهى توصى المسلمين جميعا بألّا يستسلموا لعواطفهم، و ألّا يتخذوا مواقف عنيفة إزاء أخطاء الآخرين.

نعود الآن إلى تفسير الآية بملاحظة سبب النّزول هذا:

يقول القرآن وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

إنّ هـذا التعبير يكشف أنّ عـددا ممن تورّط فى قضـية الإفـك كانوا من المهاجرين فى سبيل اللّه إذ خـدعهم المنافقون، و لم يجز اللّه طردهم من المجتمع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۵۹

الإسلامى لماضيهم المجيد، كما لم يسمح بعقابهم أكثر ممّا يستحقونه.

كلمة «يأتل» مشتقّة من «أليّة» (على وزن عطيّة) أى اليمين، أو إنّها مشتقة من «ألو» (على وزن دلو) بمعنى التقصير و الترك.

و على هذا، فإنّ الآية تعنى وفق المعنى الأوّل النّهى عن هذا القسم بقطع مثل هذه المساعدات ۳۹]، و على المعنى الثّانى النهى على التقصير فى مساعدتهم و ترك مثل هذا العمل.

ثمّ تضيف الآية وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا لتشجيع المسلمين و ترغيبهم فى العفو و الصفح بقولها: أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ فإنّكم مثلما تأملون من اللّه العفو عنكم و أن يغفر خطاياكم، يجب عليكم العفو و الصفح عن الآخرين وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و المثير للدهشة أنّ أصحاب الإفك أدينوا بشدّة فى آيات شديدة اللهجة، إلّا أنّها تسيطر على مشاعر المفرطين لمنعهم من تجاوز الحدّ فى العقوبة بثلاث جمل ذات تشعشع أخّاد، الأول: الأمر بالعفو و السماح.

ثمّ تقول: ألا تحبّون أن يغفر اللّه لكم؟ فينبغى عليكم أن يعفوا و تصفحوا كذلك.

و لتأكيد ذلك تذكر الآية صفتين من صفات اللّه «الغفور» و «الرحيم».

و هكذا تقول الآية للناس: لا يمكنكم أن تكونوا أحرص من اللّه الذى هو صاحب هذا الحكم، و هو يأمركم بألّا تقطعوا مساعداتكم.

ممّا لا شك فيه أن جميع المسلمين الذين تورطوا فى حادثة الإفك لم يكونوا مشاركين فى التآمر بهذا الصدد، و لكن المنافقين هم الذين وضعوا أساس فتنة الإفك و تبعهم مسلمون مضلّلون.

و لا شك فى أنّهم جميعا مقصّرون و مذنبون، و لكن بين هاتين المجموعتين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۰

فرق كبير، و على هذا يجب أن لا يعامل الجميع سواسية.

و على كل حال، ففى الآيات السابقة درس كبير لحاضر المسلمين و مستقبلهم، و تذكير لهم بأن لا يتجاوزوا الحدّ المقرّر فى معاقبة المذنبين، و لا ينبغى طردهم من المجتمع الإسلامى، أو إغلاق باب المساعدة فى وجوهم، ذلك من أجل المحافظة عليهم كى لا يزدادوا انحرافا فيقعوا فى أحضان العدو، أو ينحازوا إلى جانبه.

و ترسم هذه الآيات صورة للتعادل الإسلامى فى جذبه و دفعه، و تشكل آيات الإفك و العقوبات الشديدة التى تفرض على الذين يتهمون الآخرين فى شرفهم «قوة الدفع». و أمّا الآية موضع البحث التى تتحدث عن العفو و الصفح و كون اللّه غفورا رحيما. فإنها تكشف عن «قوة الجذب»! ثمّ تعود الآية إلى قضية القذف و اتّهام النساء العفيفات المؤمنات فى شرفهن، فتقول بشكل حازم: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

ذكرت هذه الآية المباركة ثلاث صفات لهؤلاء النسوة، كلّ واحدة تشكل دليلا على مدى الظلم الذى تعرضن إليه باتهامهنّ فى شرفهنّ: «المحصنات» أى العفيفات الطاهرات الذيل و «الغافلات» البعيدات عن كل تهمة و تلوّث و «المؤمنات»، كما تكشف العذاب العظيم الذى ينتظر من يقترف هذا العمل ۴۰].

كما أنّ عبارة- «غافلات» تلفت النظر، لأنّها تكشف عن منتهى طهارتهنّ من أى انحراف و تلوّث، أى أنهن غافلات عن كل تلوث جنسى إلى درجة و كأنّهن لا يعلمن بوجود مثل هذا العمل فتارة يكون الإنسان فى مقابل الذنب أن لا يخطر على ذهنه وجود مثل هذا الذنب فى الخارج و هذه مرحلة عالية من التقوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۱

و يحتمل أن يكون المراد من «الغافلات» أنهن لا يعلمن بما ينسب اليهنّ من بهتان فى الخارج، و لهذا السن فى صدد الدفاع عن أنفسهنّ، و فى النتيجة فإنّ الآية تطرح موضوعا جديدا للبحث، لأن الآيات السابقة تحدثت عن مثيرى التهم الذين يمكن التعرف

علیهم و معاقبتهم، إلّا أنّ الحدیث هنا یدور حول مثیری الشایعات الذین أخفوا أنفسهم عن العقاب و الحدّ الشرعی: فتقول الآیة: أنّ هؤلاء لا یتصوروا أنّهم بهذا العمل سیکون بإمكانهم تجنب العقاب الإلهی دائما، لأنّ اللّه تعالی سیبعدهم عن رحمته فی هذه الدنیا. كما ینتظرهم العذاب العظیم فی الآخرة.

إن هذه الآیة رغم مجیئها بعد حدیث الإفک، و ظهورها بمظهر الارتباط بذلک الحادث، فإنها کبقیة الآیات التی تنزل لسبب خاص، و هی ذات مفهوم عامّ، لا تختص بحالة معینة.

و الذی یثیر الدهشة هو إصرار بعض المفسّرین كالفخر الرازی فی «التّفسیر الكبیر»، و آخرین، علی أنّ مفهوم هذه الآیة خاص باتهام نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یجعلون هذا الذنب بدرجة الكفر، و یستدلون بكلمة «اللعن» التی ذكرتها الآیة، فی الوقت الذی لا یمكن فیه اعتبار توجیه التهمة- حتی إن كان هذا الذنب عظیما كاتهام نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لوحده سببا للكفر. لهذا لم یعامل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أصحاب الإفک معاملة المرتدین عن دینهم. بل إن الآیات التالیة التی بیّنا شرحها توصی بعدم تجاوز الحد المقرر لهم و عدم الإفراط فی عقابهم، فذنبهم لا یوازی الكفر باللّه.

و أمّا «لعنة اللّه» فهی تصدق علی الكافرین و مرتكبی الكبائر أیضا، و علیه أوردت هذه الآیات المتحدّثة عن حدّ القذف (فی الأحكام الخاصّة باللعان) مرتین كلمة «لعن» ضد الكذابین المسیئین للناس. كما استعملت الأحادیث الإسلامیة كرارا كلمة «اللعن» ضد مرتكبی الذنوب الكبیرة. و حدیث «لعن اللّه فی الخمر عشر طوائف ...» معروف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۲

و تحدد الآیة التالیة وضع الذین یتهمون الناس بالباطل فی ساحة العدل الإلهی، قائلة یَوْمَ تَشْهَدُ عَلَیْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا یَعْمَلُونَ

تدور ألسنتهم بما لا تشتهی أنفسهم لتستعرض الحقائق. و عند ما یجد المجرمون الدلائل و الشواهد العینیة علی ما اقترفوه من أعمال إجرامیة، تراهم یعرفون بذنوبهم و یفضحون أمرهم خلافا لرغبتهم الباطنیة، حیث لا ینفع فی ذلک الیوم إنكارهم للتهم الموجهة إلیهم. و تشهد أیدیهم و أرجلهم، و كما ذكرت الآیات القرآنیة: تنطق جلودهم و كأنّها شریط مسجّل، تنطق بما اقترف صاحبها من ذنوب، حیث رسمت آثار الجرائم علیها طوال عمره، حقا إنّه یوم البروز و الافتضاح، و یوم تنكشف فیه السرائر.

و إذا وجدنا فی بعض آیات القرآن إشارة إلی یوم القیامة تذكر الْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلی أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا یَكْسِبُونَ ۴۱] فإنّه لا خلاف فیها مع هذا البحث، إذ یمكن أن تتعطل الأفواه عن الكلام أولا، فتشهد سائر أعضاء الجسم. و عندها تكشف الأیدی و الأرجل الحقائق، ینطق اللسان بما جری و یعترف بالذنوب كلّها.

بحوث

۱- من هن الخبیثات و من هم الخبیثون؟

ذكر المفسّرون تعاریف مختلفة ل «الخبیثات» و «الخبیثون» و «الطیبات» و «الطیبون».

۱- قیل أنّ المراد هو الكلام السیء و التهمة و الافتراء و الكذب الصادر عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۳

المخطئین و المذنبین من الناس، و علی العكس من ذلک الكلام الطیّب ما یصدر عن الطیّبین المتطهرین، و حسبما یقول المثل المأثور «ینضح الإناء بما فیه».

۲- و قيل إن كلمـة «الخبيثات» تعنى «السـيئات» و كل الأعمال السـيئة و غير المرغوب فيها التى تصـدر عن الخبيثات من الناس، و على العكس من ذلك «الحسنات» الخاصّة بالطيبين من الناس.

۲- «الخبيثـات» و «الخـبيثون» تعنيـان النسـاء و الرجـال السـاقطين، و هـم عكس (الطيبـات) و (الطيبـون) الخـاصتين بالنسـاء و الرجـال المتطهرين.

و ظاهر الآية قصد هذا المعنى بذاته، حيث هناك قرائن تؤكّد هذا المعنى:

أ- جاءت هـذه الآيات إثر آيات الإفك- و بعـد آيـة الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْـرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْـرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ و هذا التّفسير ينسجم مع مفهوم تلك الآيات.

ب- إن جملة أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ التى تقصد الرجال و النساء الطاهرين من الدنس دليل آخر على صحة هذا التّفسير.

ج- قرينـة المقابلـة لجمع المـذكر السـالم فى «الخبيثون» حيث يقصـد بهـا الرجـال الخبيثون، فمن ذلـك يعلم أن الخبيثات جمع مؤنث حقيقى، و تعنى النساء الساقطات.

د- إضافة إلى ذلك

روى حديث عن الإمامين الباقر و الصّادق عليهما السّـلام «إنّ هذه الآية كآية الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً همّ رجال و نساء كانوا على عهد رسول اللّه ۶ مشهورين بالزنا فنهى اللّه عن أولئك الرجال و النساء و الناس على تلك منزلة ..».[۴۲]

كما نقرأ فى روايات كتاب النكاح، كيف كان أصحاب الإمام يستفسرون منه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۴

أحيانـا عـن الزواج بالخبيثـات فيجيبهـم سـلبا. و هـذا يـدل على أن الخبيثـة تعنى المرأة الساقطـة، و ليس الكلام السـيء و لا ـ العمل المنحط[۴۳].

و السؤال الآخر: هـل أن خبث هـذه المجموعـة من النساء و الرجال أو طيبهم يراد به الشـرف و العفّـة، أو يتعلّق بانحطاط فى الفكر أو العمل أو القول؟

إنّ المفهوم الأـوّل للآيـة هو الأـصوب، لأـنّه يطـابق مـا جـاء فى الآيات و الأحاديث، لكنّ بعض الأحاديث يعطى معنى واسـعا لكلمتى الخبيث و الطيب اللتين وردتا فى هذه الآيات، و لا يحصرهما بالانحطاط الخلقى و طهارة الشخص.

و على هـذا فلا يبعـد أن يكون مفهوم الآيـة الأولى خاصا بـذلك المعنى الخاص، إلّا أنه بملاحظـة الملاك و الغاية من الحكم يمكن تعميمه و توسعته.

و بتعبير آخر: إن الآيـة السابقـة بيـان لميـل الصـنو إلى صـنوه، رغم اختصاصـها من حيث الموضوع ببحث العفّـة و الانحطـاط الخلقى، «تأملوا جيدا».

۲- هل هذا حكم تكوينى أم تشريعى؟

لا شكّ فى أن الأمثال التالية تشير إلى سنة تكوينيّة تطبق على المخلوقات جميعا، حتى على ذرات الوجود فى الأرض و السماء، و هى جذب الشيء لنظيره كما يجذب الكهرب التبن.

أصحاب النور ينجذبون إلى أصحاب النور.

و أصحاب النّار يميلون إلى أصحاب النّار.

و «السنخية علّة الانظمام» كما يقول المثل.

و على كل حال، فإن كل صنو يتبع صنوه، و كل مجموعة متجانسة ترتاح

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۵

لأفرادها، إلّا أنّ هـذه الحقيقـة لا تمنع من كون الآيـة السابقـة كما هی عليه الآيـة الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْـرِكٌ إشارة إلى حكم شرعی يمنع الزواج من النساء اللواتی اشتهرن بالعمل المخلّ بالشرف.

أليس لجميع الأحكام التشريعية جذور تكوينية؟

أليس هناك انسجام بين السنن الإلهية، التشريعية منها و التكوينية؟ (لإيضاح أكثر راجع شرح الآية التی ذكرناها).

۳- جواب استفسار:

الاستفسار هو: إننا نشاهد عبر التاريخ أو فی حياتنا حالات لا تنسجم مع القانون السابق؟ و مثال ذلك ما جاء فی القرآن المجيد ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما[۴۴] ...

و مقابل هذه الحالة ذكر القرآن المجيد زوجة فرعون مثالا للإيمان و الطهارة:

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِی عِنْدَكَ بَيْتاً فِی الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِی مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۴۵].

كما شوهد نظير هاتين الحالتين فی صدر الإسلام، حيث ابتلی بعض قادة المسلمين بنساء سيئات، و آخرون من اللّه عليهم بنساء مؤمنات جاء ذكرهن فی كتب التاريخ الإسلامی.

و فی الجواب عن ذلك نقول أنّه مضافا إلى أنّ لكل قانون استثناءات، فلا بدّ من ذكر مسألتين:

۱- قلنا خلال تفسير الآية موضع البحث: إنّ القصد من الخبث الانحطاط الخلقی و السقوط بارتكاب أعمال مخلة بالشرف، و الطيب ضد الخبث، و على

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۶

هذا فجواب السؤال السابق يكون واضحا، لأن نساء الأنبياء و الأئمة الأطهار عليهم السّلام.

لم ينحرفن و الم يخبثن أبدا، و إنّما القصد من الخيانة فی قصة نوح و لوط عليهما السّلام، التجسس لمصلحة الكفّار و ليس خيانة شرفهما، و أساسا إن هذا العيب من العيوب المنفّرة و نعلم أن المحيط العائلی للأنبياء عليهم السّلام يجب أن يكون طاهرا من أمثال هذه العيوب المنفرة للناس حتى لا يتقاطع مع هدف النّبوة فی جذب الناس إلى الرسالة الإلهية.

۲- إضافة إلى ذلك، فإنّ نساء الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام، لم يكنّ كافرات منذ البداية، بل يصبن بالضلال أحيانا فيما بعد، و لهذا تستمر علاقة الأنبياء و الأولياء بهنّ على ما كانت عليه قبل ضلالهنّ، كما أنّ امرأة فرعون لم تكن مؤمنة بربّ موسى حين زواجها، إذ أنّ موسى عليه السّلام لم يكن قد ولد بعد، و قد آمنت برسالته السماوية بعد أن بعثه اللّه، و لم يكن لها مخرج إلّا بمواصلة حياتها الزوجية و الكفاح، حتّى انتهت حياتها باستشهادها.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۷

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۲۷ الى ۲۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (٢٩)

التّفسير

لا تدخلوا بيوت الناس حتّى يؤذن لكم:

بيّنت هذه الآيات جانبا من أدب المعاشرة، و التعاليم الإسلامية الاجتماعية التى لها علاقة وثيقة بقضايا عامّة حول حفظ العفّة، أى كيفية الدخول إلى بيوت الناس، و كيفية الاستئذان بالدخول إليها.

حيث تقول أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۸

تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها. و بهذا الترتيب عند ما تعزمون على الدخول لا بدّ، من إخبار أصحاب البيت بذلك و نيل موافقتهم.

و الذى يلفت النظر فى هذه الجملة استعمالها «تستأنسوا» و لم تستعمل «تستأذنوا» لأنّ الجملة الثّانية لبيان الاستئذان بالدخول فقط، فى الوقت الذى تكون الجملة الأولى مشتقّة من «أنس» أى الاستئذان المرافق للمحبّة و اللطف و المعرفة و الإخلاص، و تبيّن كيف يجب أن يكون الاستئذان برفق و أدب و صداقة، بعيدا عن أى حدّة و سوء خلق. و لو تبحرنا فى هذه الجملة على هذا الأساس لوجدنا فيها الكثير من الأدب الذى يدور حول هذا الموضوع، و هو يعنى ألا تصرخوا و ألّا تقرعوا الباب بقوة، و ألا تستأذنوا بعبارات حادّة، و ألا تدخلوا حتى يؤذن لكم، فتسلّموا أوّلا سلاما يستبطن مشاعر السّلام و الود و رسالة المحبة و الصداقة.

و ممّا يلفت النظر فى هذا الحكم الذى يتصف بأبعاد إنسانية و عاطفية واضحة، مرافقته لجملتين أولاها: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ و ثانيها: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ و هذا بحدّ ذاته دليل على أن لهذه الأحكام جذورا فى أعماق العواطف و العقول الإنسانية، و لو دقق الإنسان النظر فيها لتذكر أن فيها الخير و الصلاح.

و تمّ هذا الحكم بجملة أخرى فى الآية التالية: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۱ ؛ ص۶۸

يكون المراد من هذه العبارة أنّه ربّما كان فى المنزل أحد، و لكن من لديه حقّ إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففى هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

أو قد لا يوجد أحد فى المنزل، و لكن صاحب المنزل على مقربة من ذلك المكان، أو فى منزل الجيران بحيث لو طرق المرء الباب أو نادى صاحبه فقد يسمعه، ثمّ يحضر ليسمح له بالدخول، و على أى حال، فالمسألة المطروحة أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۹

لا ندخل منزلا دون إذن.

ثمّ تضيف الآية وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ إشارة إلى أنّه لا لزوم لانزعاج المرء إن لم يؤذن له بالدخول، فلعلّ صاحب المنزل فى وضع غير مريح، أو أن منزله لم يهيأ لاستقبال الضيوف! و بما أن بعض الناس قد يدفعهم حبّ الاطلاع و الفضول حين رفضهم استقباله على استراق السمع، أو التجسس من ثقب الباب لكشف خفايا أهل المنزل و ليطلع على أسرارهم، لهذا قالت

الآية: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

و بما أن لكل حكم استثناء، لرفع المشكلات و الضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آية موضع البحث: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ

و تضيف فى الختام وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ و لعل ذلك إشارة إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرّع بأنّ المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونة متذرعا بعدم علمه بأنّها مسكونة، إلّا أنّ اللّه يعلم بكلّ هذه الأعمال، و يعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

بحوث

۱- الأمن و الحرية فى حريم المنزل

لا ريب فى أن لوجود الإنسان بعدين: بعد فردى، و آخر اجتماعى، و لهذا فله نوعان من الحياة: حياة خاصّة، و أخرى عامّة. و لكل واحدة خصائصها و آدابها، حيث يضطر الإنسان فى البيئة الاجتماعية إلى تحمل قيود كثيرة من حيث اللباس و الحركة، و مواصلة الإنسان حياته على هذا النسق وحده- خلال الأربع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۰

و العشرين ساعة- متعب و يبعث على الضجر، إذ أنّه يرغب فى أن يكون حرا خلال فترة من الليل و النهار ليستريح بعيدا عن هذه القيود، مع أسرته و بين أولاده، لهذا يلجأ إلى منزله الخاص به، و ينعزل بذلك عن المجتمع بشكل مؤقت، ليتخلص من قيوده، فيجب أن يكون محيط المنزل آمنا إلى حدّ كاف.

و أمّا إذا أراد كلّ عابر الدخول إلى منازل الآخرين، فلا تبقى حرمة لمنازل الناس، و يسلب منها أمنها و حريتها، و بهذا تتحول إلى بيئة عامّة كالسوق و الشارع. و لهذا السبب كانت بين الناس- على مرّ العصور- أعراف خاصّة فى هذا المجال. حتى أن جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان و تعاقب عليه، و حتى فى حالات الضرورة القصوى و لغرض حفظ الأمن و غايات أخرى أجيز عدد قليل على وفق القانون بالدخول إليها.

و نصّت الأحكام الإسلامية على تعاليم و آداب خاصّة فى هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلّا نادرا.

نقرأ

فى حديث أن الصحابى الجليل أبا سعيد الخدرى استأذن على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو مستقبل الباب فقال عليه الصلاة و السّلام: «لا تستأذن و أنت مستقبل الباب».[۴۶]

و

جاء فى حديث آخر أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب.

من تلقاء وجهه و لكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السّلام عليكم، و ذلك لأنّ الدور لم يكن عليها حينئذ ستور.

و جاء فى الأحاديث الإسلامية ضرورة استئذان المرء حين دخوله إلى منزل والده أو والدته، و حتى حين الدخول إلى منزل ولده.[۴۷]

و

جاء فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جوابا على استفسار رجل: قال: أستأذن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۱

علی امی؟ أجاب صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: نعم. قال: إنّها لیس لها خادم غیری أ فأستأذن علیها کلما دخلت؟ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أ تحب أن تراها عریانهٔ؟ قال الرجل لا، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

فاستأذن علیها[۴۸].

و

جاء فی حدیث آخر عن الامام الباقر علیه السّلام عن جابر بن عبد اللّه الانصاری قال: «خرج رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یرید فاطمهٔ علیها السّلام و أنا معه فلما انتهینا إلی الباب وضع یده فدفعه ثمّ قال: السّلام علیکم، فقالت: فاطمهٔ علیها السّلام: علیک السّلام یا رسول اللّه، قال: أدخل؟ قالت: ادخل یا رسول اللّه، قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أدخل و من معی؟ قالت:

یا رسول اللّه لیس علیّ قناع، فقال: یا فاطمهٔ خذی فضل ملحفتک فقنعی به رأسک ففعلت، ثمّ قال: السّلام علیکم، فقالت: و علیک السّلام یا رسول اللّه، قال أدخل قالت: نعم یا رسول اللّه، قال أنا و من معی؟ قالت: و من معک، قال جابر: فدخل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فدخلت ...»[۴۹]

و هذا الحدیث یبیّن لنا کیف کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو القدوهٔ للمسلمین کافهٔ، یراعی هذه الأمور بدقهٔ، و حتی جاء فی حدیث.

عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام قال: «الاستیذان ثلاثهٔ: أوّلهنّ یسمعون، و الثّانیهٔ یحذرون، و الثّالثهٔ إن شاؤوا أذنوا و إن شاؤوا لم یفعلوا فیرجع المستأذن».[۵۰]

و یری بعض المفسّرین ضرورهٔ وجود فواصل زمنیهٔ بین کل استئذان و آخر، إذ قد یکون صاحب المنزل لم یتهیأ- بعد- بلباس مناسب، أو یرید تغییر هیئهٔ أو إعداد منزله، فیجب إعطاءه فرصهٔ لیعدّ نفسه و منزله لاستقبال ضیفه، و علی الضیف الانصراف دون انزعاج أو توتّر إن لم یسمح له بالدخول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۲

۲- ما المقصود بالبیوت غیر المسکونهٔ؟

فی معرض الإجابهٔ علی هذا السؤال لا بدّ من الإشارهٔ إلی اختلاف المفسّرین فی ذلک، فقد قال البعض: یقصد بها المبانی التی لا یسکنها شخص معین، و هی لعموم الناس، کالمنازل العامّهٔ فی الطرق البریهٔ و الفنادق و الحمامات العامّهٔ و أمثالها. و قد جاء هذا المعنی بصراحهٔ فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام ۵۱].

و فسّر البعض ذلک بالخرائب التی لیست لها جدران و لا أبواب، یدخلها من یشاء، غیر أنّ هذا التفسیر یبدو بعیدا جدا عن الصواب، فلا أحد یضع متاعه فی هذه المنازل.

و قال آخرون: إنّها إشارهٔ إلی مخازن التجار و حوانیتهم، التی احتوت علی متاع الناس أمانهٔ لدیهم لغرض البیع، و یمکن لکلّ صاحب متاع الدخول إلی هذا المخزن لیأخذ متاعه، و هذا التّفسیر أیضا یبدو غیر منسجم مع ما قصدته الآیهٔ.

کما یحتمل أنّها قصدت المنازل التی لیس فیها أحد، و یضع المرء متاعه فیها أمانهٔ بعد علمه برضا صاحبها ضمنا فی حراستها و رفعها عند الحاجهٔ.

و بعض هذه التفاسیر لا یتناقض مع غیره، إلّا أنّ التّفسیر الأوّل ینسجم انسجاما أفضل مع معنی الآیهٔ و قصدها، و یتّضح بذلک أنّه لا یجوز لشخص له متاع فی منزل أن یدخل المنزل دون استئذان من صاحبه حتی لو لم یکن فی البیت أحد حینذاک.

۳- عقاب من یتلصّص علی منازل الناس:

جاء فی کتب الفقه و الحدیث. إذا تلصّص شخص علی داخل منزل و شاهد امرأة فیه لم تتحجب، فلأهل الدار أوّلا نهیه عن هذا العمل، و إن امتنع رموه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۳

بالحجارة. و إن عاود، فبإمکانهم الدفاع عن أعراضهم بآلة جارحة، فلو قتل هذا الشخص فی هذه الحالة فدمه هدر و لا دیّة له.

و طبیعی أنّه لا بدّ من تتبع هذه الخطوات أوّلا بأول. أی: علیهم أوّلا إتباع السبیل الیسیر لمنعه، ثمّ اتباع أسلوب العنف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۴

الآیتان [سورة النور (۲۴): الآیات ۳۰ الی ۳۱]

اشارة

قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِکَ أَزْکی لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِما یَصْنَعُونَ (۳۰) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ یَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها وَ لْیَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلی جُیُوبِهِنَّ وَ لا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِی إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِی أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِینَ غَیْرِ أُولِی الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِینَ لَمْ یَظْهَرُوا عَلی عَوْراتِ النِّساءِ وَ لا یَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِیُعْلَمَ ما یُخْفِینَ مِنْ زِینَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَی اللَّهِ جَمِیعاً أَیُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۳۱)

سبب النّزول

جاء فی کتاب الکافی حول سبب نزول أوّل آیة من الآیات السابقة، عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۵

الإمام الباقر علیه السّلام قال: استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدینة و کان النساء یقنعن خلف آذانهن، فنظر إلیها و هی مقبلة، فلمّا جازت نظر إلیها و دخل زقاق قد سمّاه یعنی فلان، فجعل ینظر خلفها و اعترض وجهه عظم فی الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه، فلمّا مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسیل علی ثوبه و صدره، فقال: و اللّه لاتین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لأخبرنّه، قال: فآتاه فلمّا رآه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال له: ما هذا فأخبره، مهبط جبرئیل علیه السّلام بهذه الآیة: قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِکَ أَزْکی لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِما یَصْنَعُونَ [۵۲]

التّفسیر

مکافحة السفور و خائنة الأعین:

قلنا فی البدایة: إنّ هذه السورة- فی الحقیقة- اختصت بالعفة و الطهارة و تطهیر الناس من جمیع الانحرافات الجنسیة، و بحوثها منسجمة، و هی تدور حول الأحکام الخاصّة بالنظر إلی الأجنبیة و الحجاب، و لا یخفی علی أحد ارتباط هذا البحث بالبحوث الخاصّة

بالقذف.

تقول الآية أوّلا: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ

و كلمة «يغضوا» مشتقّة من «غضّ» من باب «ردّ» و تعنى فى الأصل التنقيص، و تطلق غالبا على تخفيض الصوت و تقليل النظر. لهذا لم تأمر الآيـة أن يغمض المؤمنون عيونهم. بل أمرت أن يغضّوا من نظرهم. و هـذا التعبير الرائع جاء لينفى غلق العيون بشـكل تام بحيث لا يعرف الإنسـان طريقه بمجرّد مشاهـدته امرأة ليست من محـارمه، فـالواجب عليه أن لاـ يتبحّر فيهـا، بل أن يرمى ببصـره إلى الأرض، و يصدق فيه القول أنه غضّ من نظره و أبعد ذلك المنظر من مخيلته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٧۶

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن الكريم لم يحـدد الشـىء الـذى يسـتوجب غضّ النظر عنه. (أى أنه حذف متعلّق الفعل) ليكون دليلا على عموميته. أى غضّ النظر عن جميع الأشياء التى حرم اللّه النظر إليها.

و لكن سـياق الكلام فى هـذه الآيات، و خاصّـة فى الآيـة التالية التى تتحدث عن قضـية الحجاب، يوضح لنا جيدا أنها تقصد النظر إلى النساء غير المحارم، و يؤكّد هذا المعنى سبب النّزول الذى ذكرناه ۵٣] سابقا.

و يتّضـح لنا ممّا سـبق أن مفهوم الآيـة السابقـة ليس هو حرمة النظر الحاد إلى النساء غير المحارم، ليتصور البعض أنّ النظر الطبيعى إلى غير المحارم مسموح به، بل إن نظر الإنسان يمتدّ إلى حيّز واسع و يشمل دائره واسعة، فإذا وجد امرأة من غير المحارم عليه أن يخرجها عن دائرة نظره. و ألّا ينظر إليها، و يواصل السير بعين مفتوحة، و هذا هو مفهوم غضّ النظر. (فتأملوا جيدا).

الحكم الثّانى فى الآية السابقة: هو «حفظ الفروج». و «الفرج»- كما قلنا سابقا- يعنى الفتحة و الفاصلة بين شيئين، إلّا أنّها هنا ورد كناية عن العورة.

و القصد من حفظ الفرج- كما ورد فى الأحاديث- هو تغطيته عن الأنظار، و

قـد جـاء فى حـديث عن الإمام الصادق عليه السّـلام قوله: «كلّ آيـة فى القرآن فيها ذكر الفروج فهى من الزنا، إلّا هـذه الآيـة فإنّها من النظر»[۵۴].

إن الإسلام نهى عن هذا العمل المندفع مع الأهواء النفسية و الشهوات، لأنّ ذلك أَزْكى لَكُمْ كما نصّت عليه الآية- موضع البحث- فى ختامها.

ثمّ تحذر الآية أولئك الذين ينظرون بشهوة إلى غير محارمهم، و يبررون عملهم هذا بأنّه غير متعمّد فتقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٧٧

و تنـاولت الآيـة التاليـة شـرح واجبـات النسـاء فى هـذا المجـال، فأشـارت أوّلاـ إلى الواجبـات التى تشـابه ما على الرجال، فتقول: وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَ

و بهـذا حرم اللّه النظر بريبـة على النسـاء أيضـا مثلمـا حرّمه على الرجـال، و فرض تغطيه فروجهن عن أنظار الرجال و النساء مثلما جعل ذلك واجبا على الرجال.

ثمّ أشارت الآية إلى مسألة الحجاب فى ثلاث جمل:

١- وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها.

اختلف المفسّرون فى تفسير الزينة التى تجب تغطيتها، و الزينة الظاهرة التى يسمح باظهارها.

فقال البعض: إنّ الزينة المخفية هى الزينة الطبيعية فى المرأة (جمال جسم المرأة) فى حين أن استخدام هذه الكلمة بهذا المعنى قليل.

و قـال آخرون: إنّهـا تعنى موضع الزينـة: لأن الكشف عن أداة الزينـة ذاتها كالعضـد و القلادة مسـموح به، فالمنع يخص موضـعها، أى اليدين و الصدر مثلا.

و قال آخرون: خصّ المنع أدوات الزينـة عنـد ما تكون على الجسم، و بالطبع يكون الكشف عن هـذه الزينة مرادفا للكشف عن ذلك الجزء من الجسم. (و هذين التّفسيرين الأخيرين لهما نتيجة واحدة على الرغم من متابعة القضية عن طريقين مختلفين).

و الحق أنّنا يجب أن نفسر الآية على حسب ظاهرها و دون حكم مسبّق، و ظاهرها هو التّفسير الثّالث.

و على هـذا، فلا يحق للنساء الكشف عن زينتهن المخفية، و إن كانت لا تظهر أجسامهن، أى لا يجوز لهن الكشف عن لباس يتزيّن به تحت اللباس العادى أو العباءة، بنصّ القرآن الذى نهاهنّ عن ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ٧٨

و ذكرت الأحاديث التى رويت عن أهل البيت عليهم السّـلام هذا المعنى، فقد فسّروا الزينة المخفية بالقلادة و الدملج (حلى يشدّ أعلى الساعد) و الخلخال [۵۵].

و قـد فسّـرت أحاديث عديدة أخرى الزينة الظاهرة بالخاتم و الكحل و أمثاله، لهذا نفهم بأنّ المراد من الزينة المخفية الزينة التى تحت الحجاب (فتأملوا جيدا).

٢- و ثـانى حكم ذكرته الآيـة هو: وَ لْيَضْـرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَ و كلمـة «خمر» جمع «خمـار» على وزن «حجاب» فى الأصل تعنى «الغطاء»، إلّا أنّه يطلق بصورة اعتيادية على الشىء الذى تستخدمه النسوة لتغطية رؤوسهن.

و «الجيوب» جمع «جيب» على وزن «غيب» بمعنى ياقة القميص، و أحيانا يطلق على الجزء الذى يحيط بأعلى الصدر لمجاورته الياقة.

و يستنتج من هذه الآية أنّ النساء كنّ قبل نزولها، يرمين أطراف الخمار على أكتافهن أو خلف الرأس بشـكل يكشـفن فيه عن الرقبة و جانبـا من الصـدر، فأمرهن القرآن برمى أطراف الخمار حول أعناقهن أى فوق ياقـة القميص ليسترن بـذلك الرقبـة و الجزء المكشوف من الصدر. (و يستنتج هذا المعنى أيضا عن سبب نزول الآية الذى ذكرناه آنفا).

٣- و تشـرح الآيـة فى حكمهـا الثّالث الحالات التى يجوز للنساء فيها الكشف عن حجابهنّ و إظهار زينتهنّ، فتقول وَ لا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا.

١- لِبُعُولَتِهِنَ

٢- أَوْ آبائِهِنَ

٣- أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَ

۴- أَوْ أَبْنائِهِنَ

۵- أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ٧٩

۶- أَوْ إِخْوانِهِنَ

٧- أَوْ بَنِى إِخْوانِهِنَ

٨- أَوْ بَنِى أَخَواتِهِنَ

٩- أَوْ نِسائِهِنَ

١٠- أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ

١١- أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أى الرجال الذين لا رغبة جنسية عندهم أصلا بالعنن أو بمرض غيره.

١٢- أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ.

۴- و تـبيّن الآيـة رابع الأحكـام فتقول وَ لا يَضْـرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مـا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَ أى على النسـاء أن يتحفّظن كثيرا، و يحفظن عفّتهنّ، و يبتعدن عن كلّ شىء يثير نار الشهوة فى قلوب الرجال، حتى لا يتهمن بالانحراف عن طريق العفة.

و یجب أن یراقبن تصرفهن بشدّة بحیث لا یصل صوت خلخالهن إلی آذان غیر المحارم، و هذا کله یؤکّد دقّة نظر الإسلام إلی هذه الأمور.

و انتهت الآیة بدعوة جمیع المؤمنین رجالا و نساء إلی التوبة و العودة إلی اللّه لیفلحوا وَ تُوبُوا إِلَی اللَّهِ جَمِیعاً أَیُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ و توبوا أیّها الناس ممّا ارتکبتم من ذنوب فی هذا المجال، بعد ما اطلعتم علی حقائق الأحکام الإسلامیة، و عودوا إلی اللّه لتفلحوا، فلا نجاة لکم من کلّ الانحرافات الخطرة إلّا بلطف من اللّه و رحمته، فسلّموا أمرکم إلیه! صحیح أنّه لا معنی للذنوب و المعاصی- فی هذه المسألة- قبل نزول هذه الأحکام من اللّه، إلّا أنّنا نعلم بأنّ قسما من المسائل الخاصّة بالانحطاط الخلقی ذا جانب عقلانی و کما فی الاصطلاح أنها من «المستقلات العقلیة» و یکفی لوحده فی تحدید المسؤولیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۰

بحوث

۱- فلسفة الحجاب

اشارة

ممّا لا شکّ فیه أنّ الحدیث عن الحجاب للمتغربین فی عصرنا الذی سمّوه بعصر التعری و الحریة الجنسیة، لیس حدیثا سارّا حیث یتصوّرونه أسطورة یعود لعصور خلت.

إلّا أنّ الفساد الذی لا حدّ له، و المشاکل المتزایدة و الناتجة عن هذه الحرّیات التی لا قید لها و لا حدود، أدی بالتدریج إلی إیجاد الأذن الصاغیة لهذا الحدیث.

و قد تمّ حلّ کثیر من القضایا فی بیئات إسلامیة و دینیة أخری، خاصّة فی أجواء إیران بعد الثورة الإسلامیة، و أجیب عن الکثیر من هذه الأسئلة بشکل مقنع.

و مع کل هذا تستوجب أهمیة الموضوع بحث هذه القضیة بحثا واسعا و عمیقا.

و القضیة المطروحة (نقولها مع الاعتذار): هل من الصحیح أن تستغل النساء للتلذّذ من جانب الرجال عن طریق السمع و النظر و اللمس (باستثناء المجامعة) و أن یکن تحت تصرف جمیع الرجال، أو أن تکون هذه الأمور خاصّة لأزواجهنّ؟

إنّ النقاش یدور حول هذا السؤال: هل یجب بقاء النساء فی سباق لا نهایة له فی عرض أجسامهنّ، و تحریک شهوات و أهواء الرجال؟ أو یجب تصفیة هذه الأمور من أجواء المجتمع، و تخصیصها بالأسرة و الحیاة الزوجیة؟! الإسلام یساند الأسلوب الثّانی. و یعتبر الحجاب جزءا من هذا الأسلوب، فی الوقت الذی یساند فیه الغربیون و المتغربون الشهوانیون الأسلوب الأوّل! یقول الإسلام: إنّ الأمور الجنسیة سواء کانت مجامعة أو استلذاذا عن طریق السمع أو البصر أو اللمس خاصّ بالأزواج، و محرّم علی غیرهم، لأنّ ذلک یؤدّی إلی تلویث المجتمع و انحطاطه، و عبارة هُوَ أَزْکی لَکُمْ التی جاءت فی الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۱

السابقة تشیر إلی هذه المسألة.

إنّ فلسفة الحجاب لیست خافیة علی أحد للأسباب التالیة:

۱- إنّ تعری النساء و ما یرافقه من تجمیل و تدلل- و ما شاکل ذلک- یحرک الرجال- خاصّة الشباب- و یحطّم أعصابهم، و تراهم قد غلب علیهم الهیاج العصبی، و أحیانا یکون ذلک مصدرا للأمراض النفسیة، فأعصاب الإنسان محدودة التحمّل، و لا تتمکن من

الاستمرار فی حالة الهیجان؟

ألم یقل أطباء علم النفس بأنّ هذه الحالة من الهیجان المستمر سبب للأمراض النفسیة؟

خاصّة إذا لاحظنا أنّ الغریزة الجنسیة، أقوی الغرائز فی الإنسان و أکثرها عمقا، و کانت عبر التاریخ السبب فی أحداث دامیة و إجرامیة مرعبة، حتی قیل: إنّ وراء کلّ حادثة مهمّة امرأة! ألیس إثارة الغرائز الجنسیة لعبا بالنار؟

و هل هذا العمل عقلانی؟

الإسلام یرید للرجال و النساء المسلمین نفسا مطمئنة و أعصابا سلیمة و نظرا و سماعا طاهرین، و هذه واحدة من فلسفات الحجاب.

۲- تبیّن إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق و تفکّک الأسرة فی العالم، بسبب زیادة التعرّی، لأنّ الناس أتباع الهوی غالبا، و هکذا یتحوّل حبّ الرجل من امرأة إلی أخری، کلّ یوم، بل کل ساعة.

أمّا فی البیئة التی یسودها الحجاب (و التعالیم الإسلامیة الأخری) فالعلاقة وثیقة بین الزوج و زوجته، و مشاعرهما و حبهما مشترک.

و أمّا فی سوق التعری و الحریة الجنسیة، حیث المرأة سلعة تباع و تشتری، أو فی أقل تقدیر موضع نظر و سمع الرجال، عندها یفقد عقد الزواج حرمته، و تنهار أسس الأسر بسرعة کانهیار بیت العنکبوت، و یتحمل هذه المصیبة الأبناء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۸۲

بعد أن یفقدوا أولیاءهم و یفقدوا حنان الأسرة.

۳- انتشار الفحشاء و ازدیاد الأبناء غیر الشرعین یعتبران من أنکی نتائج إلغاء الحجاب، و لا حاجة إلی إحصائیة بهذا الصدد، فشواهدها ظاهرة فی المجتمع الغربیّ، واضحة بدرجة لا تحتاج إلی بیان.

لا نقول: إنّ السبب الرئیسی فی ازدیاد الفحشاء و الأبناء غیر الشرعیین ینحصر فی إلغاء الحجاب و عدم الستر، و لا نقول: إنّ الاستعمار المشؤوم و القضایا السیاسیة المخربة لیس لها دور قوی فیه، بل نقول: إن التعری من الأسباب القویة لذلک.

و کما نعلم فإن انتشار الفحشاء و ازدیاد الأبناء غیر الشرعیین مصدر أنواع الجرائم فی المجتمعات البشریة قدیما و حدیثا.

و بهذا تتضح الأبعاد الخطرة لهذه القضیة.

و عند ما نسمع أنّ الولادات غیر الشرعیة فی بریطانیا بلغت بحسب إحصائیاتهم خمسمائة ألف طفل کلّ عام، و أنّ علماءها حذّروا المسؤولین من مغبة هذا الوضع، لیس لأنّه- کما یقولون- بسبب مخالفته للقضایا الأخلاقیة و الدینیة، و إنّما بسبب الخطر الذی أوجده هؤلاء الأبناء لأمن المجتمع، فقد وجدوا أنّهم یمثّلون القسم الأعظم من ملفات القضایا الخاصّة بالجرائم.

و من هنا ندرک أهمیة هذه القضیة، و أنّها کارثة حتی للذین لا یؤمنون بدین و لا یهتمون بأخلاق.

و کلّما انتشر الفساد الجنسی فی المجتمعات البشریة اتّسع التهدید لهذه المجتمعات و تعاظم الخطر علیها، و قد برهنت دراسات العلماء فی التربیة علی ظهور الأعمال المنافیة للعفة، و تفشّی الإهمال فی العمل و التأخر، و عدم الشعور بالمسؤولیة، فی المدارس المختلطة و المنشئات التی یعمل فیها الرجال و النساء بشکل مختلط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۸۳

۴- قضیة «ابتذال المرأة» و سقوط شخصیتها فی المجتمع الغربی ذات أهمیة کبیرة لا- تحتاج إلی أرقام، فعند ما یرغب المجتمع فی تعری المرأة، فمن الطبیعی أن یتبعه طلبها لادوات التجمیل و التظاهر الفاضح و الانحدار السلوکی، و تسقط شخصیّة المرأة فی مجتمع یرکز علی جاذبیتها الجنسیة، لیجعلها وسیلة إعلامیّة یروّج بها لبیع سلعة أو لکسب سائح.

و هذا السقوط یفقدها کلّ قیمتها الإنسانیة، إذ یصبح شبابها و جمالها و کأنّه المصدر الوحید لفخرها و شرفها، حتی لا یبقی لها من إنسانیتها سوی أنّها أداة لاتباع شهوات الآخرین، الوحوش الکاسرة فی صور البشر! کیف یمکن للمرأة فی هذا المجتمع أن تبرز علمیا و تسمو أخلاقیا؟! و من المؤسف أن تلعب المرأة باسم الفن، و تشتهر و تکسب المال الوفیر، و تنحطّ إلی حد الابتذال فی المجتمع،

ليرحب بها مسيّر و هـذا المجتمع المنحـط خلقيّـا، فى المهرجانات و الحفلات الساهرة؟! هكـذا حال المرأة فى المجتمع الغربى، و قد كان مجتمعنا قبل انتصار الثورة الإسـلامية كـذلك، و نشـكر اللّه على إنهاء تلك المظاهر المنحطـة فى بلادنا بعـد تأسـيس الجمهورية الإسـلامية، فقد عادت المرأة إلى مكانتها السامية التى أرادها اللّه لها، و ها هى ذى تمارس دورا إيجابيا فى المجتمع مع محافظتها على حجابها الإسلامى، حتى أنها ساهمت بشكل فعّال خلف جبهات الحرب بمختلف الأعمال لدعم الجبهة و الجهاد فى سبيل اللّه.

و كان هذا جانبا من الفلسفة الحيوية لموضوع الحجاب فى الإسلام. و هو ينسجم مع تفسيرنا.

الإشكال الذى يورده معارضو الحجاب:

نصل هنا إلى الانتقادات التى يطرحها معارضو الحجاب، فنبحثها بشكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۴

مضغوط:

۱- أهم الانتقـادات التى يـذكرها معـارضو الحجـاب أنّ النسـاء يشـكلن نصف المجتمع، و الحجاب يجعلهنّ فى معزل عن المجتمع، و يكون ذلـك سـببا فى تـأخّرهنّ الثقـافى، و انعـدام الاسـتفادة من هـذه الطاقـات العظيمـة فى ازدهـار الإقتصـاد. و إذا شـغر مكانهنّ فى المنشئات الثقافية و الاجتماعية أصبحن موادّ استهلاكية ليست بذات جدوى للمجتمع.

إلّا أنّ هؤلاء المتمسّكين بهذا المنطق غفلوا عن عدّة أمور، أو تغافلوا عنها، للأسباب التالية:- أوّلا: من الذى قال: إنّ الحجاب الإسلامى يعزل المرأة عن المجتمع؟

لئن صـعب علينا الجواب عن هـذا السؤال فى السابق، فما نظن أنّنا بعد قيام الجمهورية الإسـلامية المباركة بحاجة إلى دليل على نهضـة المرأة نهضـة كريمـة و مشاركتها فى تشـييد المجتمع الإسـلامى المنشود مشاركة تحقق النفع للمرأة و الأسـرة و الحكومة و الأمة، فهى مسـئولة فى الـدوائر و المصـانع و المتـاجر، و فى النشاط السياسـى فى المسـيرات و المظاهرات، فى الإذاعـة و التلفزيون، و فى المراكز الصحيّة- خاصّة فى معالجة جرحى الحرب- و فى المدارس و الجامعات، حتّى فى ساحة الحرب و مجاهدة العدو.

و باختصـار: إنّ الواقع الاجتماعى فى بلـدنا خير جواب عن هـذا السؤال: و إذ كنّا نتحـدث فى السابق عن إمكانيـة حـدوث ذلك، فإنّنا اليوم نراه ماثلا بين أعيننا.

و كما يقول الفلاسفة: خير دليل على إمكان وجود الشيء حدوثه، و لا حاجة للبرهنة على وجود الواقع.

ثانيا: إضافة إلى ذلك، ألا تعتبر إدارة المنزل و تربيـة الأبناء الأصـحّاء رجال المسـتقبل- الـذين يـديرون عجلة الإقتصاد و السياسة فى البلاد- عملا؟

إن الذين لا يعدّون هذه المسؤولية للمرأة أمرا ايجابيا جاهلون بحقيقة دور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۵

المرأة فى الأسـرة و فى التربيـة، و فى بنـاء مجتمع سـليم فعّـال، بل لا يعترفون إلّا بمغادرة الرجال و النساء المنازل صـباحا- كالغربيين- ليلتحقوا بالدوائر و المصانع. و يجعلون أبناءهم تحت رعاية الآخرين، فى دور الحضانة، أو يغلقوا عليهم المنازل ليعيشوا فى معتقل دون رعايـة، حتى يعود الوالـدان من العمـل و قـد أرهقهمـا التعب! هؤلاء غافلون عن أنّ افتقاد الأطفال للرعايـة و العطف، يؤدى إلى تحطّم شخصيتهم و يعرض المجتمع إلى الخطر.

۲- كما يتـذرع معارضو الحجاب بادعائهم بأنّه يعوق المرأة عن نشاطها الاجتماعى و لا ينسـجم مع العصـر الحـديث، و يقولون: كيف تحفـظ المرأة حجابهـا و طفلهـا و عملهـا فى آن واحـد؟! إنّهم غـافلون عن أنّ الحجاب ليس العباءة و نحوها، بل هو غطاء الجسم، فإن تسـنى للمرأة الاحتجاب بالعباءة فـذلك حسن، و إلّا كفاها غطاء الرأس و اللباس المحتشم حجابا. و قـد لبّت نساؤنا الريفيات و خاصّـة

العاملات- فی مزارع الرز المملوکـة لعوائلهن- هذا اللباس، حیث یمارسن الحراثة و البذار و الاهتمام بالزرع ثمّ حصاده، و برهنّ عملیّا علی إمکانیة محافظة المرأة علی حجابها دون أن یمنع ذلک ممارستها لاشقّ الأعمال.

۳- یعترض المخـالفون للحجاب قـائلین: إنّ الحجـاب یفصـل بین الرجـال و النسـاء، و یزیـد فی حرص الرجـال بـدلا من إخمـاد هـذا الحرص، لأنّ (المرء حریص علی ما منع).

و هـذه سفسـطة واضـحة، فلو قـارن المرء بین مجتمعنا علی عهـد الطاغوت و الیوم لتجلّی له الحقّ صـریحا، فبالأمس کان نزع الحجاب إجباریا، و الیوم یسود الحجاب الإسـلامی مجتمعنا کله، و الفساد کان ینتشـر بالأمس فی کل أنحاء البلاد، و یسیطر التسیب علی معظم الأسر، و یزداد الطلاق بنسبة عالیة، و ترتفع نسبة

المواليـد غير الشـرعية، و آلاـف المصـائب الأـخرى. و نحن لا نجزم بأنّ كل الفساد قـد زال فی بلادنا و اقتلعت جـذوره، إلّا أنّه ممّا لا شک فیه أنّه قد انخفض بدرجة کبیرة، و استعاد مجتمعنا سلامته بدرجة کبیرة.

و إذا اسـتمر الوضع علی هـذا المنوال بعون من اللّه، فإنّنـا سـنتمکن من حـلّ جمیع المشاکل. و یبلغ مجتمعنا مرتبـة الطهارة الکاملـة، و یحفظ للمرأة مکانتها الرفیعة.

۲- استثناء الوجه و الکفلین

هناک اختلاف فی الرأی بین الفقهاء حول شمول حکم حجاب الوجه و الکفین من الرسغ إلی أطراف الأصابع، أم لا؟

الکثیر من الفقهـاء یری أنّ تغطیـة الوجه و الکفین مسـتثنی من حکم الحجـاب، فی الوقت الـذی أفتی آخرون بوجوب تغطیتهـا، أو فی الأقل احتاطوا فی وجوب تغطیتها، و طبیعی أنّ القول باسـتثناء وجوب الحجاب علی الوجه و الکفین هو فی حالـة عـدم نشوب فساد، و إلّا فیجب تغطیتها.

و هناک قرائن فی الآیة الشریفة تؤید هذا الاستثناء و یؤید الرأی الأوّل:

أ- اسـتثناء الزینة الظاهر فی الآیة السابقة، سواء دلت علی أنّها تقصد موضع الزینة أو الزینة ذاتها، تکشف عن عدم وجوب تغطیة الوجه و الکفین.

ب- إن حکم الآیـة السابقة بوجوب رمی أطراف خمار المرأة علی طرفی الیاقة یفهم منه تغطیة جمیع أجزاء الرأس و الرقبة و الصدر. و لم یتحدث هذا الحکم عن تغطیة الوجه، و هذا دلیل آخر علی هذا الرأی.

و لإیضـاح ذلـک نقـول: کـانت بعض نسـاء العرب یلبسن الخمـار و یرمین طرفیـة علی الکتفین بشـکل تبقی الرقبـة و جزء من الصـدر مکشوفین، و قد أصلح الإسلام هذه الحالة، فأمر بتغطیة الرقبة و الصدر برمی طرفی الخمار علی جانبی یاقة

الثوب، لتبقی دائرة الوجه وحدها مکشوفة.

ج- کما جاءت أحادیث إسـلامیة عدیدة فی هذا المجال تؤکّد ما ذهبنا إلیه ۵۶] مع وجود أحادیث معارضة لها، و لکنّها لیست بتلک الدرجة من الصـراحة، و الجمع بینهما بالقول باسـتحباب تغطیة الوجه و الکفین- عند خشـیة الفساد و الانحراف- أمر ممکن. کما تدل شواهـد تاریخیـة علی أنّ تغطیـة الوجه بقناع لم تکن عامّیة فی صـدر الإسـلام (ذکر شـرح مفصل فقهی و روائی عن هـذه القضیـة فی البحوث الفقهیة عن النکاح).

إلّا أنّنا نؤکّد ثانیة أنّ هذا الحکم فی وقت لا یؤدی إلی استغلال أو انحراف.

كما يجب القول: إنّ استثناء الوجه و الكفين من حكم الحجاب لا يعنى جواز النظر بشكل عمومى من قبل الرجال، و إنّما هو نوع من التسهيلات التى منحت للمرأة فى الحياة.

۳- ما المقصود من نسائهنّ؟

ذكرنا فى تفسير الآية السابقة أنّ تاسع مجموعة مستثناة بالاطلاع على زينة النساء هنّ النساء الأخريات، و بملاحظة عبارة «نسائهنّ» ندرك أنّها تقصد النساء المسلمات، و لا يكشفن عن زينتهنّ لغير المسلمات، و فلسفة ذلك، أنّه من المحتمل أن يصفن- غير المسلمات- لأزواجهنّ ما شاهدنه من زينة النساء المسلمات.

و هذا ليس عملا صائبا من قبل المسلمات.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب (من لا يحضره الفقيه): «لا ينبغى للمرأة أن تكشف بين يدى اليهودية و النصرانية فإنّهنّ يصفن ذلك لأزواجهنّ»[۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۸

۴- تفسير عبارة أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ

لظاهر هذه العبارة مفهوم واسع، و يدل على أنّه بإمكان المرأة الظهور دون حجاب بحضور عبدها، إلّا أنّ بعض الأحاديث صرّحت بأنّ ذلك يعنى فقط الظهور بين الجوارى حتى لو كنّ غير مسلمات، و لا يشمل هذا الحكم العبيد.

ففى حديث للإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام: «لا ينظر العبد إلى شعر سيّدته»[۵۸].

و يستفاد من أحاديث أخرى تعميم هذا الحكم على الجوارى و العبيد، إلّا أنّ ذلك خلافا للاحتياط.

۵- تفسير أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ

«الإربة» فى الأصل مشتقة من «أرب» على وزن «عرب» و كما يقول الراغب الأصفهانى فى مفرداته، شدّة الحاجة التى تدفع بالإنسان إلى إيجاد حلّ لها.

كما استعملت بمعنى الحاجة بشكل عامّ. و القصد هما من «أولى الإربة من الرجال» الذين لهم رغبة جنسية و هم بحاجة إلى زوجة، و على هذا، فإنّ «غير أولى الإربة» هم الرجال الذين لا رغبة جنسية لديهم أصلا.

و لكن من المقصود بذلك؟

هنالك اختلاف بين المفسّرين.

قال البعض منهم: إنّهم كبار السنّ الذين خمد لديهم دافع الشهوة الجنسية، (كالقواعد من النساء و النسوة اللاتى تجاوزت أعمارهن حدّ الزواج و هنّ كالمتقاعدات فى هذا المجال).

و قال آخرون: إنّ المقصود هو الخصى من الرجال.

و قال بعض المفسّرين: إنّه الرجل الخنثى، أى: الذى لا يمتلك آلة الرجولة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۹

إلّا أنّ التّفسير الذى يمكن الاعتماد عليه. هو الذى جاء فى أحاديث مؤكّدة

عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام: «هو الأحمق الذى لا يأتى النساء»

من أنّ القصد هنا هو الأبلة من الرجال الذى لا يحسّ برغبة جنسية أبدا، و يستفاد منهم فى الأعمال البسيطة و خدمة الأفراد، و عبارة «التابعين» تؤكّد هذا المعنى ۵۹].

و بما أن هذا الوصف- أى عدم الشعور بالرغبة الجنسية- فئة خاصّة من المسنين يصدق على. فلا نستبعد إمكانية توسعة مفهوم الآية ليشمل هذه الفئة، و قد روى حديث عن الإمام الكاظم عليه السّلام يؤكّد ذلك، بيد أنّ ذلك لا يعنى أنّهم يصبحون من المحارم، غاية الأمر هو عدم وجوب تغطية الرأس أو جزء من اليدين بحضور هذه المجموعة.

۶- أى طفل مستثنى من هذا الحكم؟

ذكرنا أنّ المجموعة الثّانية عشرة- أى الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم- مستثنون من حكم الحجاب.

و عبارة «لم يظهروا» تعنى أحيانا «لم يطلعوا» و أحيانا أخرى «لم يعتدوا» لأنّها جاءت بهذين المعنيين، حيث استعملها القرآن مرّة بهذا المعنى، و أخرى بالمعنى الثّانى، و مثال ذلك ما جاء فى الآية (۲۰) من سورة الكهف إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ

و نقرأ فى الآية الثّانية من سورة التوبة كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً.

إلّا أنّ هذا الفرق ليس له أثر كبير بالنسبة للآية موضع البحث. حيث المقصود فيها الأطفال الذين ليس لهم ميول جنسية، بسبب عدم قدرتهم و عدم اطلاعهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۰

و على هذا يجب على النساء المسلمات أن يتحجبن بحضور الأطفال الذين بلغوا مرحلة برزت فيها رغبتهم الجنسية و قدرتهم على ذلك.

۷- لماذا لم يذكر العم و الخال ضمن المحارم؟

يطرح هذا السؤال بعد دراسة الآيات السابقة: لماذا لم يذكر العم و الخال ضمن المحارم- قط- و هم من المحارم؟

ربّما كان القرآن قد استهدف البلاغة فى تعابيره بعدم ذكر أيّة كلمة إضافية، فقد دلّ استثناء ابن الأخ و ابن الأخت على أنّ العمّة و الخالة تعتبران من محارم الرجل، و يتّضح بذلك أن العم و الخال لإحدى النساء هما من محارمها.

و بعبارة أخرى: إنّ الحرمة ذات جانبين، فمن جهة بنات الأخت و بنات الأخ من محارم الرجال، و إنّه من الطبيعى سيكون من الجهة الثّانية العمّ و الخال من المحارم «فتدبّر».

۸- تحريم سبل الإثارة!

آخر كلام فى هذا المجال هو أنّ الآية السابقة نصّت على حرمة المشى بقوّة من قبل النساء ليسمعن صوت الخلخال.

و هذا يدل على دقّة الأحكام الإسلامية و مبلغ اهتمامها بالقضايا الخاصّة بعفّة الناس و شرفهم، بحيث لا يسمح معها بالقيام بمثل هذه

الأعمال.

و من البداهة أن لا يسمح الإسلام بإثارة شهوات الشباب، عن طريق نشر الصور الخلاعية، و الأفلام المثيرة للشهوات، و القصص و الروايات الجنسية، و لا ريب فى أنّ البيئة الإسلامية يجب أن تكون طاهرة سليمة من هذه الأمور التى تجرّ أفرادها إلى مهاوى الفساد و ظلماته، و تدفع بالشباب و الشابات نحو الانحطاط الخلقى و الرذيلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۱

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

اشارة

وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۳۲) وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۳) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۳۴)

التّفسير

الترغيب فى زواج يسير التكاليف:

طرحت هذه الآية- منذ بدايتها حتى الآن- سبلا أمينة متعدّدة للحيلولة دون الانحطاط الخلقى و الفساد، فكلّ واحد من هذه السبل يرتقى بالأمّة فردا و جماعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۲

إلى عالم أرحب من الطّهر و الاستقامة، و يحول دون تقهقرها أو انحدارها فى مهاوى الرّذيلة، و قد أشارت الآيات- موضع البحث- إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا و هو الزواج اليسير الذى يتمّ بعيدا عن أجواء الرياء و البذخ، لأنّ إشباع الغرائز بشكل سليم و شرعى خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب، أو بعبارة أخرى: كل مكافحة سلبية لا بدّ أن ترافقها مكافحة إيجابية.

لهذا تقول بداية الآية موضع البحث: وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ

و «الأيامى» جمع «أيّم» على وزن «قيّم» و تعنى فى الأصل المرأة التى لا- زوج لها، و كذلك تطلق هذه الكلمة على الرجل الذى لا زوجة له، فيدخل فى هذا المفهوم كلّ من ليس له زوج، سواء كان بكرا أم ثيّبا.

و عبارة «أنكحوا» أى «زوّجوا»- و بما أنّ الزواج يتمّ بالتراضى و حرية الإختيار الطرفين، فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج، عن طريق تقديم العون المالى عند الحاجة، أو العثور على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج و الاستفادة من وساطة الأشخاص لحلّ المشاكل المستجدة.

و باختصار: إنّ مفهوم الآية واسع، حتى أنّه ليضم كلّ خطوة و حديث فى هذا المجال. و لا اختلاف فى أنّ أصل التعاون الإسلامى يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

و جاء ذلك هنا بصراحة ليؤكّد أهميّة الزواج الخاصّة. و هى أهميّة بالغة المدى، إذ

ورد حديث بصددها عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قوله: «أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين فى نكاح حتى يجمع اللّه

بينهما».[۶۰]

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام موسى الكاظم عليه السّلام قوله: «ثلاثة يستظلون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۳

بظلّ عرش اللّه يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلّا ظلّه، رجل زوّج أخاه المسلم، أو خدمه، أو كتم له سرّا»[۶۱].

كما

جاء فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله فى الذى يسعى لزواج أخيه المسلم «كان له بكلّ خطوة خطاها، أو بكلّ كلمة تكلم بها فى ذلك عمل سنة قيام ليلها و صيام نهارها»[۶۲].

و بما أنّ بعض الإعذار كالفقر أو عدم وجود و توفّر الإمكانات اللازمة قد تقف حائلا دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج و تشكيل الأسرة. يقول القرآن بهذا الصدد: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

إنّ قدرة اللّه واسعة سعة تشمل عالم الوجود كلّه، و علمه واسع يحيط بما خفى و بما ظهر من المقاصد و الأفعال، خاصّة الذين يقدمون على الزواج ابتغاء المحافظة على عفتهم و طهارتهم، و بهذا يشمل اللّه الجميع بفضله و كرمه.

و لنا فى هذا المجال دراسة و تحليل، و سنذكر أحاديث عديدة فى نهاية هذا البحث.

و لكن أحيانا بالرغم من بذل الجميع جهودهم لتهيئة مستلزمات زواج إنسان ما لا يفلحون فى ذلك، ممّا يضطره إلى مضى فترة من الزمن محروما من الزواج، و لكى لا يظنّ أن إقدامه على الفساد أمرا مباحا تقتضيه الضرورة أسرعت الآية التالية لتأمره بالطهارة و العفّة فقالت: وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

فيجب عليه تجنّب التلوث و الفساد فى هذه المرحلة المتأزّمة و مواجهة الامتحان الإلهى، حيث لا يقبل أى عذر منه، فلا بدّ أن يمتحن قوّة إيمانه و شخصيته و تقواه فى هذه المرحلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۴

و يهتم الإسلام كعادته بالعبيد الضعفاء اجتماعيا من أجل تيسير حريتهم، فيتناول القرآن المجيد مسألة المكاتبة (و هى تعهد الغلام بتوقيعه اتفاقا ينص على القيام بعمل معيّن أو دفع مبلغ مقابل عتقه)، فتقول الآية وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً.

و تقصد عبارة عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً أى قد بلغوا من النمو الجسمى و وجدتم فيهم صلاحية لإبرام العقد، و قدرتهم على إنجاز ما تعهدوا به.

أمّا إذا لم يتمكنوا من الوفاء بما عاهدوا عليه، فلا ينبغى مكاتبتهم و عتقهم، لأنّ فى ذلك ضررا عليهم و على المجتمع، فيجب تأجيل ذلك إلى وقت آخر يؤهّلهم من حيث القدرة و الصلاحية، و لأجل ألا- يقع العبيد فى مشاكل لا يتمكنون من حلّها و يعجزون عن تسديد ما بذمتهم، يدعو القرآن الكريم إلى مساعدتهم فيقول: وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِى آتاكُمْ

هناك اختلاف حول هذا المال بين المفسّرين: فقال عدد كبير منهم:- إنّه حصة من الزكاة، مثلما نصت عليه الآية (۶۰) من سورة التوبة. ليتمكن العبيد من الوفاء بدينهم و انعتاقهم.

و قال آخرون: على مالك الغلام أن يتبرع بقسم من أقساط الدّين، أو يساعده بإعادته إليه، ليتمكن من الحياة الحرّة.

كما يحتمل أن المقصود هنا منح العبيد فى البداية مبلغا للإنفاق، أو جعله رأسمال لهم ليمكنهم من التجارة و العمل و إدارة شؤونهم الخاصّة، و دفع الأقساط التى بذمّتهم، و طبيعى أنّ التفاسير الثلاثة هذه غير متناقضة. و يمكن للآية السابقة أن تستوعبها جميعا.

و الهدف الحقيقى هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفة بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية: «تضع عنه من نجومه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۵

التى لم تكن تريد أن تنقصه، و لا تزيد فوق ما فى نفسك»[۶۳].

إشارة إلى مجموعة من الناس كانوا يكاتبون عبيدهم بمبالغ أكبر ممّا يعطونهم، و يتظاهرون بمساعدتهم. و قد نهى الإمام الصادق عليه السّلام عن ذلك مبيّنا أنّه يجب أن يكون التخفيض حقيقيّا.

و عقّبت هـذه الآيـة بإشارة إلى أحـد الأعمال القبيحـة التى كان يمارسـها عبّاد الدنيا إزاء جواريهم: وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا.

قال بعض المفسّرين فى سبب نزول هذه الآية: كان عبد اللّه بن أبى يملك ست جوار يجبرهن على البغاء، و عند ما نزلت آيات قرآنية تنهى عن الفحشـاء جئن إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عرضن شـكواهن على سيّدهنّ عنـده، فنزلت الآيـة أعلاه و نهت عن ارتكاب هذا الإثم ۶۴].

و هـذه الآيـة تكشف عن مـدى الرذيلة و الانحطاط الخلقى الذى كان سائدا فى عهد الجاهلية. و قد واصل البعض أعماله القبيحة هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقة، و أنهت هذه الأعمال.

و مع بالغ الأسف نجد عصـرنا الذى سـمى بجاهلية القرن العشرين، تمارس البشرية هذا العمل بقوة و على قدم و ساق فى بلدان تدّعى المدنية و الحضارة و الدفاع عن حقوق الإنسان. و كذلك كان الوضع فى بلادنا على عهد الطاغوت، إذ كان هذا العمل القبيح يمارس ببشاعـة و مرارة، و كان البعض يخدع البنات البريئات و النساء الجاهلات، و يدفع بهنّ إلى مراكز الفساد، و يجبرهنّ على القيام بأعمال الرذيلة و الفساد، و يغلق أبواب النجاة بوجوههنّ ليجنى ثروات طائلة و تفصيل الكلام فى ذلك مؤلم و خارج عن عهدة هذا الكتاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۶

و بالرغم من أن العالم المعاصـر يـدّعى التحضّـر و إزالـة معالم العبوديـة القديمـة، إلّا أنّ الجرائم و المفاسد الخلقية تشـيع بشـكل أكثر توحّشا من كلّ ما حدث فى غابر الأيّام، و نسأل اللّه أن يحفظ الإنسانية من شرّ هؤلاء الذين يدّعون التمدّن.

كما نحمده و نشكره على زوال هذه المعالم من إيران بعيد انتصار الثورة الإسلامية.

و جدير بالذكر أنّ عبارة إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لا تعنى فى مفهومها أنهنّ إن رغبن فى الفساد فلا مانع من إجبارهن، بل تعنى نفى الموضوع بشـكل تامّ من قبيل السالبـة بانتفاء الموضوع، لأنّ مسألـة الإكراه تصـدق فى حالـة عدم الرغبة فيه. و إلّا فبيع الجسد و إشاعة هذا الفعل بأية صورة كانت هو من كبائر الذنوب.

و جـاءت هـذه العبارة لتثير غيرة مالكى الجوارى إن كان لهم أدنى غيرة، و مفهومها أنّ الجوارى مع أنهنّ من الطبقـة الدانيـة و لكن لا يرغبن فى ارتكاب الفاحشة. فلما ذا ترتكبون هذه الأعمال المنحطة على الرغم من تصوركم أنّكم طبقة راقية؟

و فى الختام- على حسب الأسـلوب الذى يتبعه القرآن- يفتح طريق التوبة للمذنبين، و يشـجعهم على إصـلاح أنفسـهم: وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و يمكن أن تكون هـذه الجملـة- كما قلنا- إشارة إلى الوضع السائـد بين ملّاك الجوارى الـذين غلب عليهم الندم، و اسـتعدوا للتوبة و إصلاح أنفسهم.

أو تكون هذه الجملة إشارة إلى النسوة اللواتى يرتكبن هذا العمل القبيح بإكراه من قبل أسيادهنّ.

و على نهج القرآن، نجد آخر الآيات- موضع البحث- تستنتج و تلخّص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقة: وَ لَقَدْ

أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ و كذلك دروس و عبر من الأقوام الماضية تنفعكم في يومكم هذا: وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۷

مسائل مهمّة:

۱- الزواج سنّة إلهية

على الرغم من أن الزواج في الوقت الحاضر قد تعقد بما أحاطته الأعراف الاجتماعية من عادات خاطئة و خرافية أحيانا، فأصبح طريقا صعبا لا يتمكن الشاب من سلوكه، فإنّه لو اجتزنا هذه العراقيل لأدركنا أنّ الزواج تعبير فطرى منسجم مع قانون الخليقة و ضرورى لبقاء نسل الإنسان، و سكن لروحه، و راحة لجسمه، و حل للمشاكل النفسية و الاجتماعية. فالإسلام يخطو بانسجام مع الخلق، و له تعابير جميلة مؤثرة، و من جملتها

حديث مشهور عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «تناكحوا و تناسلوا تكثروا. فإنّى أباهى بكم الأمم يوم القيامة و لو بالسقط»[۶۵].

و نقرأ

حديثا آخر له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتق اللّه في النصف الباقى»[۶۶].

و السبب في كلّ هذا الاهتمام هو أنّ الغريزة الجنسية من أقوى و أشرس الغرائز في الإنسان، و تنافس الغرائز الأخرى بأجمعها، و انحرافها يعرّض دين المرء إلى الخطر، و لذا يعلو صوت

حديث نبوى آخر: «شراركم عزّابكم»[۶۷]

لهذا شجعت الآيات- موضع البحث- و أحاديث عديدة المسلمين على التعاون في تزويج العزّاب، و تقديم ما بوسعهم من مساعدات في هذا السبيل.

و قد حمّل الدّين الإسلامى الآباء مسئولية كبيرة عن أبنائهم، و الآباء الذين يتصرّفون دون مبالاة إزاء هذه القضية، فإنّهم يشاركون في انحراف أبنائهم. كما نقرأ

في حديث للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «من أدرك له ولد و عنده ما يزوجه فلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۸

يزوجه، فأحدث، فالإثم بينهما!»[۶۸].

و قد أكّدت تعاليم الإسلام- لهذا السبب أيضا- بالتيسير في نفقات الزواج و المهر، لإزالة الحواجز من طريق العزّاب. خاصّة إذا علمنا أنّ المهر الغالى يقف حجر عثرة في وجه زواج العزّاب.

ففى حديث للرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «من شؤم المرأة غلاء مهرها»[۶۹].

و

جاء في حديث آخر أعقب الحديث السابق: «من شؤمها شدّة مؤونتها»[۷۰].

و قد صرّحت الآية السابقة بأنّ الفقر لا يمكن أن يكون مانعا للزواج، و قد يغنى اللّه المرء بالزواج.

و بهذا حکمت الآیة و أدانت الذین یفرون من الزواج بحجّة أنّهم فقراء، و لا یتحملون هذه المسؤولیة الإلهیة و الإنسانیة، بأعذار واهیة.

و السبب فی التأکید علی الزواج، هو أنّ المرء یشعر بعد زواجه بمسؤولیته فی الحیاة، فیزج قواه للکسب الحلال. بینما نجد العزاب فی معظم الحالات مشردین! لعدم شعورهم بالمسؤولیة. و المتزوج یکتسب شخصیة اجتماعیة، حیث یجد نفسه مسئولا عن المحافظة علی زوجته، و ماء وجه أسرته، و تأمین حیاة سعیدة و مستقبل زاهر لها. و یستغلّ المتزوج جمیع طاقاته للحصول علی دخل معتبر، فتراه یقتصد فی نفقاته لیتغلّب علی الفقر بأسرع وقت ممکن، لهذا

ذکر الإمام الصادق علیه السّلام «الرزق مع النساء و العیال»[۷۱].

جاء فی حدیث للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین شکا رجل إلیه فقره فأجابه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«تزوّج».

فتزوّج فوسع له ۷۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۹

و لا جدال فی أنّ الإمدادات الإلهیة و القوی الروحیة الخفیة تساعد هذا الشخص الذی تزوج لیحفظ نفسه و یطهرها. و علی کلّ مؤمن أن یطمئن لما وعده اللّه، فقد

ذکر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «من ترک التزویج مخافة العیلة فقد ساء ظنّه باللّه، إن اللّه عزّ و جلّ یقول: إِنْ یَکُونُوا فُقَراءَ یُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۷۳].

و هناک أحادیث عدیدة فی هذا المجال، لو تناولناها جمیعا بالبحث لخرجنا عن بحثنا التّفسیری هذا.

۲- المراد من عبارة وَ الصَّالِحِینَ مِنْ عِبادِکُمْ وَ إِمائِکُمْ

ممّا یلفت النظر فی الآیات موضع البحث أنّها حین التحدّث عن زواج الرجال و النساء الأیامی تأمر بالتعجیل فی الزواج، و عدم وضع العراقیل فی وجهه، أمّا بالنسبة للعبید و الجواری، فتطلب توفر شرط الصلاح فیهم للزواج.

و ذهب عدد من المفسّرین (کالکاتب العظیم صاحب تفسیر المیزان، و کذلک صاحب تفسیر الصافی) إلی صلاحیتهم للزواج فی حین أن هذا الشرط یجب أن یتوفر فی النساء و الرجال الأحرار أیضا.

و قال البعض الآخر: إنّه یقصد الصلاح من ناحیة الأخلاق و العقیدة، لأنّ الصالحین یتمتعون بمکانة خاصّة من هذه الجهة، و لکن السؤال یبقی علی حاله:

لماذا لم یرد هذا الشرط فی الأحرار؟

و یحتمل أن یکون المراد غیر هذا:- إذ أنّ أکثر العبید فی تلک الفترة فی مستوی ثقافی و أخلاقی واطئ، فلا یشعرون بأیّة مسئولیة، و لا یقدرون المشاعر المشترکة فی الحیاة. فلو تزوجوا لترکوا زوجاتهم بسهولة، و من هنا استوجبت الآیة التأکد من صلاحیتهم للزواج.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۰

و مفهوم هذه الآیة أن یعدّوا العبید للزواج أوّلا بتهذیب أخلاقهم و زیادة صلاحهم، لیکونوا بمستوی المسؤولیة التی تقع علی عاتقهم بعد الزواج.

۳- ما هو عقد المکاتبة؟

قلنا: إنّ الإسلام وضع برنامج التحرر التدريجي للعبيد، و استفاد من كل فرصة لعتقهم، فكانت قضية «المكاتبة» حكما يجب اتباعه، كما نصّت عليه الآيات موضع البحث.

و تشتق «المكاتبة» من الكتابة، و الكتابة فى الأصل مشتقّة من «كتب» بمعنى «الجمع» أى: جمع الحروف و الكلمات. و بما أنّ العقد بين المولى و العبد يتمّ بكتابة موادّ يتفق عليها، فلذلك سمّيت «مكاتبة». فعقد المكاتبة نوع من الاتفاقات يتمّ بين المولى و عبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطا لسيّده، فإذا دفع آخر قسط ينال حريته.

و أمر الإسلام ألا تتجاوز هذه الأقساط ثمن العبد نفسه.

و إذا عجز العبد لسبب ما عن دفع الأقساط المترتبة بذمّته، وجب أن تسدّد هذه الأقساط من بيت المال أو من الزكاة ليعتق، حتّى أنّ بعض الفقهاء قال بصراحة: إذا تعلقت زكاة بذمّة السيّد، وجب عليه احتساب هذه الأقساط منها، و هذا العقد لازم التنفيذ، و لا يمكن فسخه من أيّ طرف من طرفى العقد.

و يتّضح بذلك كيف يجعل هذا المشروع عتق العبيد يسيرا، ليعيشوا أحرارا مستقلين حتى فى فترة إعداد الأقساط، كما أن أسيادهم لا يتضررون بذلك، فلا يدفعهم هذا إلى إلحاق الأذى بعبيدهم.

و لعقد المكاتبة أحكام و فروع عديدة مذكورة فى الكتب الفقهية فى باب المكاتبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۱

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۵ الى ۳۸]

اشارة

اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۳۵) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۳۶) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ (۳۷) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۸)

التّفسير

آية النور!

تحدث الفلاسفة و المفسّرون و العرفاء الإسلاميون كثيرا عن مقاصد الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۲

أعلاه، و هى مرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التى عرضت لقضية العفة و مكافحة الفحشاء بمختلف السبل.

و بما أنّ ضمانة تنفيذ الأحكام الإلهية، و خاصّة السيطرة على الغرائز الثائرة، و لا سيّما الغريزة الجنسية التى هى أقوى الغرائز، لا تتمّ دون الاستناد إلى الإيمان، و من هنا امتد البحث إلى الإيمان و أثره القوىّ، فقالت الآية أوّلا: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

ما أحلى هذه الجملة! و ما أثمنها من كلمات! أجل إنّ اللّه نور السموات و الأرض ... النور الذى يغمر كلّ شىء و يضيئه.

و يرى بعض المفسّرين أنّ كلمة «النّور» تعنى هنا «الهادى»، و ذهب البعض الآخر أنّ المراد هو «المنير». و فسّرها آخرون ب «زينة

السماوات و الأرض».

و كلّ هـذه المعانى صـحيحة، سوى أنّ مفهوم هـذه الآيـة أوسع بكثير ممّا ذكر، فالقرآن المجيـد و الأحاديث الإسـلامية فسّرت النور بأشياء عدّة منها:

۱- «القرآن المجيـد»:- ذكرت الآيـة (۱۵) من سورة المائـدة: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ و جاء فى الآيـة (۱۵۷) من سورة الأعراف وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

۲- «الإيمان» ذكرت الآية (۲۵۷) من سورة البقرة. اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

۳- «الهداية الإلهية» مثلما جاء فى الآية (۱۲۲) من سورة الأنعام أ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها؟! ۴- «الدين الإسـلامى» كما نقرأ فى الآية (۳۲) من سورة التوبـة: وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ

۵- النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- نقرأ عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية (۴۶) من سورة

الأحزاب: وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً.

۶- الأئمـة الأطهار: كما جاء فى الزيارة الجامعـة لهـم: «خلقكم اللّه أنوارا فجعلكم بعرشه محـدّقين». و كذلك فى نفس هذه الزيارة «و أنتم نور الأخيار و هداة الأبرار».

۷- «العلم و المعرفة» حيث عرّف بالنور كما جاء فى الحديث المشهور «العلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء».

كلّ هذه من جهة، و من الجهة الأخرى علينا التدقيق فى خصائص النور و ميزانه، ليتّضح أنّه يمتاز بما يلى:

۱- النور أجمل و ألطف ما فى العالم، و هو مصـدر لكلّ جمال و لطف! ۲- النور أسرع الأشياء، كما ثبت لمشهورى العلماء الكبار فى العالم، إذ تبلغ سـرعته ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثّانية. و بإمكانه الدوران حول الكرة الأرضـية سبع مرات فى طرفة عين (أقلّ من ثانية واحدة).

و لهـذا السـبب تقاس المسافات الهائلـة بين النجوم فقط بسـرعة الضوء، و الوحـدة المسـتعملة فى هـذا المجال هى السـنة الضوئية، أى: المسافة التى يقطعها الضوء و هو بتلك السرعة الهائلة- فى سنة واحدة.

۳- بالنور يمكن مشاهدة الأشياء فى العالم، و من دونه يستحيل رؤية أىّ شىء، فالنور ظاهر بنفسه و مظهر لغيره.

۴- إنّ ضوء الشـمس يعـدّ من أهم أنواع النور فى عالمنـا، فهو ينمى الأزهـار و النباتات و به تسـتمرّ الحياة، بل هو رمز بقاء المخلوقات الحيّة، و لا يمكن لموجود حىّ أن يستمرّ فى الحياة دون أن يستفيد من نور الشمس بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

۵- ثبت اليوم أن جميع الألوان يمكن مشاهدتها بنور الشمس أو الأنوار الأخرى، و لولاها لعاشت المخلوقات فى عتمة قاتمة.

۶- إنّ جميع أنواع الطاقة الموجودة فى محيطنا (باسـتثناء الطاقة النوويـة) مصـدرها الشـمس من قبيل حركـة الرياح، سـقوط المطر، و حركة الأنهر و الوسائط فيها و الشلالات و لو دققنا فى حركة جميع المخلوقات الحية لوجدناها ترتبط بنور الشمس.

مصـدر الحرارة و تدفئـة الأحيـاء كلهـا هو الشـمس، حتى أن حرارة النار المتولـدة من الخشب أو الفحم أو الفحم الحجرى أو النفط و مشـتقاته مصـدرها حرارة الشـمس. لأنّ هـذه الأشـياء بحسب الـدراسات العلميـة تعود إلى النباتـات أو الحيوانات، و هـذه بـدورها قد اسـتفادت من نور الشـمس و حرارتهـا، فخزنت الفـائض منهـا فى جسـمها، لهـذا فـإنّ حركـة المحركـات و المكـائن أيضا من بركات الشمس.

۷- نور الشـمس قاتل الميكروبات و المخلوقات المضـرّة، و بفقدان هذا النور تتبدّل الأرض إلى مستشـفى كبير قد ابتلى سكانها بأنواع

الأمراض و يصارعون الموت بين لحظة و أخرى! و كلما دققنا فى عالم النور الذى يشكل ظاهرة فريدة، يتّضح لنا أثره البالغ الأهمية و بركاته العظيمة.

و بملاحظة هاتين المقدمتين إذا أردنا تشبيه الذات المقدسة لربّ العالمين (رغم منزلته العظيمة التى لا نظير لها و لا شبيه) فلا نجد خيرا من النور؟! اللّه الذى خلق كل شيء فى عالم الوجود و نوّره، فأحيا المخلوقات الحية ببركته، و رزقها من فضل، و لو انقطعت رحمته عنها لحظة، لأصبح الجميع فى ظلمات الفناء و العدم.

و ممّا يلفت النظر أنّ كل مخلوق يرتبط باللّه بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنّه كلام اللّه.

و الدين الإسلامى نور لأنّه دينه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۵

الأنبياء أنوار لأنّهم رسله.

و الأئمّة المعصومون عليهم السّلام أنوار إلهية، لأنّهم حفظة دينه بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الإيمان نور، لأنّه رمز الالتحام به سبحانه و تعالى.

و العلم نور، لأنّه السبيل إلى معرفته- عزّ و جلّ-.

و لهذا: اللّه نور السموات و الأرض.

و إذا استعملنا كلمة «النور» بمعناها الواسع، أى الظاهر فى ذاته و المظهر لغيره فى هذه الحالة يصبح استعمال كلمة النور الذات اللّه المقدسة حقيقة و لا تشبيه فيها، لأنّه لا يوجد أظهر من اللّه تعالى فى العالم، و كلّ الأشياء تظهر من بركات وجوده.

و

جاء فى كتاب التوحيد، عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام حين سئل عن معنى قوله تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال «هاد لأهل السموات، و هاد لأهل الأرض».

و هذه فى الواقع واحدة من خصائص النور الإلهى، و لا يمكن حصره بهذه الخصيصة، و لهذا يمكن جمع كلّ ما قيل فى تفسير هذه الآية، و كلّ تفسير هو إشارة إلى أحد أبعاد هذا النور الذى لا مثيل له.

و الجدير بالذكر ما جاء فى الفقرة السابعة و الأربعين من دعاء الجوشن الكبير الذى يحتوى على صفات اللّه تعالى:

«يا نور النور، يا منور النور، يا خالق النور، يا مدبر النور، يا مقدر النور، يا نور كلّ نور، يا نورا قبل كلّ نور، يا نورا بعد كلّ نور، يا نورا فوق كلّ نور، يا نورا ليس كمثله نور»

و بهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره و تنتهى بنوره الطاهر.

و قد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفة ذلك، إذ ذكر مثالا رائعا دقيقا لكيفية النور الإلهى: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۶

الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

و لشرح هذا المثال يجب الإلمام بعدة أمور:

«المشكاة» فى الأصل تعنى الكوّة التى تخصص فى الجدار لوضع المصابيح الزيتية فيها لحفظها من الرياح، و أحيانا تبنى فى الجدار فتحة صغيرة، يغطى جانبها المشرف على ساحة الدار بالزجاج، لإضاءة داخل و خارج الغرفة كما تحفظ المصباح من الرياح. كما تطلق

هـذه الکلمـة علی وعـاء (الفانوس القـدیم) یصـنع من زجاج علی شـکل متوازی المسـتطیلات له باب و فتحـة فی أعلاه لخروج الهواء الساخن. و کانوا یضعون المصباح فیه.

و باختصار نقول: إنّ المشکاة محفظة للمصباح من الریاح الشدیدة، و غالبا ما یثبت فی الجدار لترکیز الضوء و سهولة انعکاسه.

«الزجاجة» تطلق فی الأساس علی الأحجار الشفّافة، و سمّیت الصفائح الشفافة بالزجاج لأنّها تصنع من مواد معدنیة، و الزجاجة هنا تعنی الزجاجة التی توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، و تنظّم جریان الهواء، لتزید من نور الشعلة.

«المصباح» یتألف من وعاء للزیت و فتیل.

عبارة یُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَکَةٍ زَیْتُونَةٍ لا شَرْقِیَّةٍ وَ لا غَرْبِیَّةٍ تشیر إلی الطاقة التی تجهّز هذا المصباح بوقود لا ینضب معینه. و زیت الزیتون من أجود الوقود المسـتعمل للمصابیح، ثمّ أن هذا الزیت یحصل علیه من زیتون شـجر یتعرّض للشمس من جمیع جوانبه بشکل متساو، لاـ أن تکون الشـجرة فی الجانب الشـرقی من البسـتان و بجانب حائط یمنع وصول أشـعة الشـمس إلیها، کما لا تکون فی جهـة الغرب لیتعرض جانب واحد منها علی أشعة الشمس، فلا تنضج ثمرتها بصورة جیدة و لا یکون زیتها نقیا و صافیا.

و بعد هذا الإیضاح یتبیّن أنّنا للاستفادة من نور المصباح بإشعاع قویّ نحتاج إلی توفر أربعة أشیاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۷

«محفظة للمصـباح» لا تقلل من نوره، بل ترکز هذا النور و تعکسه و «زجاجة» تنظم جریان الهواء حول الشعلة، و یجب أن تکون شفّافة بدرجة لا تمنع تشعشع النور، و «مصباح» هو مصدر النور، و هو عبارة عن إناء فیه زیت و فی أعلاه الفتیل.

و أخیرا «مادة الاحتراق» صافیة خالصة شـفّافة مسـتعدة للاشـتعال بدرجة یتصوّر فیها الإنسان إنّها سوف تشـعل لوحدها دون أن یمسّـها قبس من النار.

کلّ هذه العبارات تکشف فی الحقیقة عن ظاهر القضیة.

و من جهة أخری أورد کبار المفسّرین تفاسیر عدیدة بشأن هذا التشبیه و أنّه ما هو «المشبّه» و من أیّ نور إلهی یکون:

قـال البعض: المقصـود هنـا نور الهدایـة الـتی یجعله اللّه فی قلوب المؤمنین، و بعبـارة أخری: المقصود الإیمـان الـذی اسـتقرّ فی قلوب المؤمنین.

و قال آخرون: إنّ المشبّه یعنی هنا القرآن الذی ینیر قلوب الناس.

و آخرون: إنّه إشارة إلی شخص النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و آخرون: إنّه إشارة إلی أدلة التوحید و العدل الإلهی.

و آخرون: إنّه روح الطاعة و التقوی التی هی أساس کلّ خیر و سعادة.

و فی الحقیقة فإنّ هذه التفاسیر قد أوردت کلّ ما جاء فی القرآن و الأحادیث الإسلامیة بعنوان مصادیق للنور، و جوهرها واحد، و هو نـور الهدایـة بـذاته، و مصـدره القرآن و الـوحی و وجود الأنبیـاء، و ینهـل من أدلـة التوحیـد، و نـتیجته التسـلیم بحکم اللّه و التمسـک بالتقوی.

و توضیح ذلک: إنّ نور الإیمان الموجود فی قلوب المؤمنین یحتوی علی العناصر الأربعة المتوفرة فی المصباح المضیء، هی:

«المصباح» و هو شعلة الإیمان فی قلب المؤمن یضیء طریق الهدایة.

و «الزجاجة» هی قلب المؤمن ینظم الإیمان فی ذاته و یحفظه من کل سوء.

و «المشکاة» صدر المؤمن، أو بعبارة أخری: شخصیته بما فیها وعیه و علمه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۸

و فکره الذی یصون إیمانه من الأعاصیر و الأخطار.

«شجرة مباركة زيتونة» هى الوحى الإلهى الذى يكون بمنتهى الصفاء و الطهارة و توقد شعلة إيمان المؤمنين- فى الحقيقة- من نور اللّه الذى ينير السموات و الأرض و قد. شرق من قلوب المؤمنين، فأضاء وجودهم و نور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدلّة العقلائية بنور الوحى، فيكون مصداق «نور على نور».

و لهذا ترى القلوب المستعدة لاستقبال النور الإلهى تهتدى، و هى المقصودة بعبارة يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ و على هذا فإنّ المحافظة على النور الإلهى (نور الهداية و الإيمان) يستوجب توفر مجموعة من المعارف و العلوم و الوعى و الأخلاق و بناء الذات، من أجل أن تكون كالمشكاة تحفظ هذا المصباح.

كما تحتاج إلى قلب مستعد لينظّم هذا النور الإلهى كما تنظم الزجاجة شعلة المصباح.

و تحتاج إلى مدد من الوحى، ليمنحها طاقة مثلما تمنحها الشجرة التى سمّاها القرآن بعبارة شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ.

و تجب المحافظة على نور الوحى من التلوث و الميول المادية و الانحراف إلى الشرق أو الغرب الذى يؤدّى إلى التفسخ و الاندثار.

و لتعبئ قوى الإنسان بشكل سليم بعيدا عن كلّ فكر مستورد و انحراف، لتكون مصداقا ل يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ.

و كلّ تفسير يتضمّن حكما مسبقا و يتضمّن ذوق المفسّر و عقيدته الخاصّة به، أو رغبة يسارية أو يمنية، أو خرافة يؤدى إلى تلويث سمعة هذه الشجرة المباركة، و يقلل من تشعشع مصباحها. و أحيانا يطفئه.

هذا هو المثال الذى ذكره اللّه لنوره فى هذه الآية، و هو الذى أحاط بكلّ شىء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۹

علما.

و ممّا سلف يتّضح لنا أن ما ذكرته الرّوايات عن الأئمّة المعصومين عليهم السّلام بخصوص تفسير هذه الآية أنّ المشكاة هى قلب نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المصباح نور العلم، و الزجاجة وصية على عليه السّلام، و الشجرة المباركة إبراهيم الخليل عليه السّلام الذى يرجع نسب بيت النبوّة إليه، و عبارة لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ تعنى نفى أىّ ميل إلى اليهودية و النصرانية فهو وجه آخر لنور الهداية و الإيمان، و مصداق واضح لها، و لا يعنى أنّ هذه الآية مختصة بهذا المصداق.

كما أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ النور الإلهى هو القرآن، أو الأدلة العقلائية، أو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذاته، له جذور مشتركة بالتّفسير أعلاه.

و قد شاهدنا حتى الآن خصائص هذا النور الإلهى، نور الهداية و الإيمان من خلال تشبيهه بمصباح قوىّ الإضاءة.

و يجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، و شكل موضعه؟ ليتّضح لنا ما كان ضروريا إيضاحه فى هذا المجال. لهذا تقول الآية التالية: إنّ هذه المشكاة تقع فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ لكى تكون فى مأمن من الشياطين و الأعداء و الانتهازيين وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ و يتلى فيها القرآن و الحقائق الإلهية.

و قد اعتبر العديد من المفسّرين هذه الآية مرتبطة كما قلنا بالآية التى سبقتها[۷۴]. غير أن البعض من المفسّرين يرى أنّ هذه الجملة ترتبط بالجملة التى تليها، إلّا أنّ ذلك بعيد عن الصواب.

أمّا ما أورده البعض و تساءل عن مدى تأثير هذا النور الباهر فى البيوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۰

المذكورة بتلك الخصوصيات، فجوابه واضح، لأنّ البيوت التى ورد ذكرها فى هذه الآية و التى يحرسها رجال أشداء يقظون، هم الذين يحفظون هذه المصابيح المنيرة، إضافة إلى أن هؤلاء الرجال يبحثون عن مصدر نور، فيهرعون إليه بعد أن يتعرّفون على موضع هذا النور.

و لكن ما المقصود من هذه البيوت؟

الجواب يتّضح بما ذكرته آخر الآية من خصائص حيث تقول: أنّه فى هذه البيوت يسبّح أهلها صباحا و مساء: يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ ۷۵].

رِجالٌ لا- تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ إنّ هذه الخصائص تكشف عن أنّ هذه البيوت هى المراكز التى حصّنت بأمر من اللّه، و أنّها مركز لذكر اللّه و لبيان حقيقة الإسلام و تعاليم اللّه، و يضم هذا المعنى الواسع المساجد و بيوت الأنبياء و الأولياء خاصّة بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بيت علىّ عليه السّلام. و لا دليل يؤيّد حصرها من قبل بعض المفسّرين- بالمساجد أو بيوت الأنبياء و أمثالها.

و

فى الحديث المروى عن الإمام الباقر عليه السّلام «هى بيوت الأنبياء و بيت علىّ منها»[۷۶].

و

فى حديث آخر حيث سئل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا قرأ الآية، أى بيوت هذه؟ فقال:

«بيوت الأنبياء» فقام أبو بكر فقال: يا رسول اللّه، هذا البيت منها، يعنى بيت علىّ و فاطمة. قال: «نعم، من أفاضلها»[۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۱

و كل ذلك إشارة إلى مصاديق واضحة تذكرها الأحاديث كعادتها حين تفسير القرآن.

أجل، إنّ كلّ مركز يقام بأمر من اللّه، و يذكر فيه اسمه و يسبح له فيها بالغدو و الآصال، و فيه رجال لا تلهيهم تجارة عن ذكر اللّه، فهى مواضع لمشكاة الأنوار الإلهية و الإيمان و الهداية.

و لهذه البيوت عدّة خصائص.

أوّلها: أنّها شيّدت بأمر من اللّه.

و الأخرى: إن جدرانها رفعت و أحكم بناؤها لتمنع تسلل الشياطين.

و ثالثها: أنها مركز لذكر اللّه.

و أخيرا: فإنّ فيها رجالا يحرسونها ليل نهار، و هم يسبحون اللّه، و لا تلهيهم الجواذب الدنيوية عن ذكر اللّه.

هذه البيوت بهذه الخصائص، مصادر للهداية و الإيمان.

و لا بدّ من التنبيه إلى ورود كلمتين فى هذه الآية هما «التجارة» و «البيع» و هما كلمتان تبدوان و كأنّ لهما معنى واحدا، إلّا أنّ الفرق بينهما هو أنّ التجارة عمل مستمر، و البيع ينجز مرة واحدة، و قد تكون عابرة.

و يجب الالتفات إلى أنّ الآية لم تقل: أنّ هؤلاء لا يمارسون أبدا التجارة و البيع بل قالت: إنّهم لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه.

إنّهم يخافون يوم القيامة و العدل الإلهى الذى تتقلّب فيه القلوب و الأبصار من الخوف و الوحشة (و يجب الانتباه إلى أنّ الفعل المضارع، «يخافون» يدلّ على الاستمرار فى الخوف، و هذا الخوف هو الذى دفعهم إلى تحمل مسئولياتهم، و لبلوغ رسالتهم فى الحياة).

و أشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافى لحراس نور الهداية و عشّاق الحقّ و الحقيقة، فقالت: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۲

و لا عجب فى ذلك، لأنّ الفضل الإلهى لمن كان جديرا به غير محدود: وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ

و قال بعض المفسّرين عما تعنيه عبارة أَحْسَنَ ما عَمِلُوا فى هذه الآية، أنّها إشارة إلى جميع الأعمال الطيبة، سواء كانت واجبة أم مستحبة، صغيرة أم كبيرة.

و يرى آخرون أنّها إشارة إلى أنّ اللّه يكافئ الحسنة بعشر أمثالها، و أحيانا بسبعمائة مثلها، حيث نقرأ فى الآية (۱۶۰) من سورة الأنعام: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها. كما جاء فى الآية (۲۶۱) من سورة البقرة حول جزاء المنفقين فى سبيل اللّه أنّ المكافأة تعادل سبعمائة مرة أو ضعفها.

كما يمكن أن تفسّر العبارة السابقة بأنّ المقصود هو أنّ اللّه يكافئ جميع أعمالهم بموجب أفضلها، و يشمل ذلك أبسط أعمالهم و أوسطها، حيث يجعلها اللّه بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأة.

و ليس هذا بعيدا عن رحمة اللّه و فضله، و العدالة تقضى بمساواة المكافأة مع العمل فى سبيل اللّه، إلّا أنّ رحمة اللّه وسعت كلّ شىء، فهو يهب دون حساب و لا حدود، فذاته المقدسة غير محدودة، و أنعمه لا تنتهى، و كرمه عظيم لا حدود له.

ملاحظات

بيّنا كثيرا من مسائل هذه الآيات خلال تفسيرنا لها، و بقيت عدّة أحاديث يقتضى الأمر ذكرها بغية إتمام هذا البحث.

۱- نقرأ

فى كتاب روضة الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير آية النور: «إن المشكاة قلب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المصباح النور الذى فيه العلم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۳

و الزجاجة قلب على عليه السّلام أو نفسه»[۷۸].

۲- و

جاء حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام فى توحيد الصدوق «إن المشكاة نور العلم فى صدر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الزجاجة صدر على ... و نور على نور إمام مؤيد بنور العلم و الحكمة فى أثر الإمام من آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ذلك من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم اللّه عزّ و جلّ- خلفاء فى أرضه و حجج على خلقه، لا تخلو الأرض فى كلّ عصر من واحد منهم»[۷۹].

۳- و فسّر

حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام المشكاة بفاطمة عليها السّلام و المصباح بالحسن عليه السّلام و الزجاجة بالحسين عليه السّلام.[۸۰]

و كما أشرنا سابقا فإنّ للآيات مفهوما واسعا، و كلّ حديث من هذه الأحاديث بيان لمصداق بارز من مصاديقها دون الإخلال بعموميتها.

و بهذا لا نجد تناقضا فى الأحاديث السابقة.

۴- نقرأ

فى حديث عن أبى جعفر الثمالى قال: قال أبو جعفر عليه السّلام الباقر لقتادة: من أنت؟ قال: أنا قتادة ابن دعامّة البصرى فقال له أبو جعفر عليه السّلام: أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: نعم، فقال له الامام الباقر عليه السّلام: ويحك يا قتادة إن اللّه خلق خلقا من خلقه فجعلهم حججا على خلقه، فهم أوتاد فى أرضه قوّام بأمره نجباء فى علمه اصطفاهم قبل خلقه، أظلة عن يمين عرشه قال: فسكت قتادة طويلا ثمّ قال:

أصلحك اللّه و اللّه لقد جلست بين يدى الفقهاء و قدّامهم، فما اضطرب قلبى قدّام واحد منهم ما اضطرب قدّامك.

فقال له الإمام الباقر عليه السّلام: أ تدرى أين أنت؟ بين يدى: بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ

رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۴

فأنت ثمّ و نحن أولئك.

فقال له قتادة: «صدقت و اللّه جعلنی اللّه فداك و اللّه ما هی بیوت حجارة و لا طین ...»[۸۱].

۵- و ذکر

حدیث آخر حول رجال اللّه حماة الوحی و الهدایة: «هم التجار الذین لا تلهیهم تجارة و لا بیع عن ذکر اللّه، إذا دخل مواقیت الصلاة أدوا إلی اللّه حقّه فیها»[۸۲]

إشارة إلی أنّ هؤلاء الرجال همّهم ذکر اللّه و لا یقدمون علیه شیئا، رغم أنّهم یمارسون نشاطا اقتصادیا فی الحیاة.

۶- وصفت شجرة الزیتون فی الآیات السابقة بأنّها شجرة مبارکة.

و کان لهذه الشجرة أهمیة بالغة حین نزول القرآن، و قد اتّضح ذلك الیوم، لأنّ کبار العلماء أخبرونا بخلاصة تجاربهم و دراساتهم عن خواصّ أنواع النباتات، و حول شجرة الزیتون یقولون: إنّها مبارکة حقّا، و ثمرها مفید جدّا، و یمنحنا أجود الزیوت، و لها دور حیوی فی سلامة الجسم.

یقول ابن عباس: إنّ أجزاء هذه الشجرة مفیدة و مریحة، و حتی رماد خشبها فیه منفعة، و هی أول شجرة نبتت بعد طوفان نوح علیه السّلام، و قد دعا لها الأنبیاء و بارکوها.

۷- ذکر المفسّرون الکبار عدّة تفاسیر لعبارة «نور علی نور» فقال المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان: إنّها إشارة إلی أنبیاء من نسل واحد یتعاقبون علی النبوة و یواصلون طریق الهدایة.

و یقول الفخر الرازی فی تفسیره: إنّها إشارة إلی تجمع شعاع النور و تراکمه، حیث ذکر حول المؤمن: «یقف المؤمن بین أربعة مواقف، فإذا وهبه اللّه شکره،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۵

و إذا أصابته مصیبة صبر و صمد، و إذا تکلم صدق، و إذا حکّم بین اثنین عدل، و هو إنسان واع بین جهلة و مثله کحیّ بین أموات. إنّه یسیر بین خمسة أنوار: کلامه نور، عمله نور، إقامته نور، رحله نور، هدفه نور اللّه یوم القیامة».

و یمکن أن یکون النور الأوّل الذی ذکرته الآیة إشارة إلی نور الهدایة الإلهیة عن طریق الوحی، و النور الثّانی نور الهدایة عن طریق العقل.

أو أنّ النور الأوّل هو نور الهدایة التشریعة، و النور الثّانی نور الهدایة التکوینیة فهو نور علی نور.

و بهذا فسّرت هذه العبارة بمختلف مصادر النور، مرّة فسّرت بالأنبیاء و أخری بأنواع النور، و مرة ثالثة بمراحل النور المختلفة، و هی ممکنة جمیعا فی آن واحد، لأنّ مفهوم الآیة واسع جدا (فتأملوا جیدا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۶

الآیتان [سورة النور (۲۴): الآیات ۳۹ الی ۴۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسابِ (۳۹) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (۴۰)

التّفسير

أعمال سرابية

تحدثت الآيات السابقة عن نور اللّه، نور الإيمان و الهداية. و لإتمام هذا البحث و لتوضيح المقارنة بين الذين نوّر اللّه قلوبهم و بين الآخرين تناولت هذه الآيات عالم الكفر و الجهل و الإلحاد المظلم، و تحدثت عن الكفار و المنافقين الذين وجودهم ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ خلافا للمؤمنين الذين أصبحت حياتهم و أفكارهم نُورٌ عَلى نُورٍ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۷

الكلام فی الآیة الأولى عن الذين يبحثون عن الماء فی صحراء جاقّة حارقة، و لا يجدون غير السراب فيموتون عطشا، فی الوقت الذی عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، و منبع الهداية الرائعة، فاستراحوا بجنبها، فتقول أوّلا:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً و لكن يجد اللّه عند أعماله وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ

«السراب» مشتق من السرب على وزن «حرب» بمعنى الطريق المنحدر، و تطلق كلمة السراب على لمعان يشاهد فی الصحارى و المنحدرات من بعيد و كأنّه ماء، و ما هو إلّا انعكاس لأشعة الشمس [۸۳].

و يرى البعض أنّ «القيعة» جمع «قاعة»، بمعنى الأرض الواسعة التی لا ماء و لا نبات فيها، و يطلق ذلک على الصحارى التی يظهر فيها السراب فی معظم الأحيان، إلّا أنّ بعض المفسّرين و اللغويين يرون أنّ هذه الكلمة مفردة، و جمعها «قيعان» أو «قيعات»[۸۴].

و رغم عدم وجود الفرق من حيث المعنى، فإنّ الآية توجب أن تكون هده الكلمة مفردة، لأنّها ذكرت السراب مفردا و السراب الواحد يكون فی أرض واحدة طبعا.

ثمّ تناولت الآية الثّانية مثالا آخر لأعمال الكفار و قالت: أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ و بهذا المنوال تكون ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها.

أجل، إنّ النور الحقيقی فی حياة البشر هو نور الإيمان فقط، و من دونه تسود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۸

الحياة الظلمات، و نور الإيمان هذا إنّما هو لطف من عند اللّه وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ.

و لفهم عمق هذا المثال لا بدّ من الاهتمام بمعنى كلمة «اللجّیّ» و هو البحر الواسع و العميق. و بالأصل مشتقّة من «اللجاج» بمعنى متابعة عمل ما (التی تطلق عادة على الأعمال غير الصحيحة) ثمّ أطلقت على تتابع أمواج البحر و استقرارها الواحدة بعد الأخرى، و لقد استخدمت هذه الكلمة بهذا المعنى لأنّ البحر كلّما كان عميقا و واسعا تزداد أمواجه.

و لو تصوّرتم بحرا هائجا عميقا، و مع علمنا أنّ نور الشمس أقوى أنواع النور، لكنّه لا ينفذ إلّا بمقدار معيّن فی البحر، و آخر حدود نفوذه فی العمق لا يتجاوز سبعمائة متر، حيث يسود الظلام الدائم أعماق البحار و المحيطات.

كما نعلم أنّ الماء إذا كان هادئا يعكس النور بشكل أفضل، بينما تكسر أمواج البحر أشعة الشمس، و لا تسمح لها بالنفوذ إلى العمق إلّا بمقدار أقل. و إذا أضفنا إلى ذلک مسألة مرور سحاب داكن اللون فوق هذا البحر الهائج، فإنّ الظلام يزداد عتمة و سوادا بشكل

كبير[۸۵].

إن الظلام فى عمق البحر من جهة، و ظلمة الأمواج الهائجة من جهة أخرى، و ظلمة الغيوم السوداء من جهة ثالثة، ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض.

و فى مثل هذا الظلام لا يمكن رؤية أىّ شيء، مهما اقترب منّا، حتّى لو وضع الإنسان الشيء نصب عينيه لما استطاع مشاهدته.

و هكذا حال الكفار الذين حرموا من نور الإيمان فابتلوا بهذه الظلمات، خلافا للمؤمنين الذين نوّر اللّه قلوبهم و طريقهم و هم مصداق نُورٌ عَلى نُورٍ.

و قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الظلمات ثلاثة أقسام، قد ابتلى غير المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۹

بها، و هى: ظلمة العقيدة الباطلة، و ظلمة القول الخاطئ، و ظلمة السلوك السيء، و بعبارة أخرى: إنّ أعمال غير المؤمنين أساسها الفكرى ظلمات. و كذلك أقوالهم التى هى انعكاس لعقائدهم، ثمّ انسجامها مع أفعالهم الظلمانية.

و قال آخرون: إنّ هذه الظلمات الثلاث عبارة عن مراحل جهل غير المؤمنين، و أوّلها أنّهم لا يعلمون، و ثانيتها أنّهم لا يعلمون، بأنّهم لا يعلمون، و ثالثتها أنّهم مع كل هذا يتصوّرون أنّهم يعلمون، و بهذا يعيشون فى جهل مركّب دامس.

و قال البعض الآخر: إنّ أساس المعرفة- كما يقول القرآن المجيد- فى ثلاثة أشياء: القلب و العين و الأذن (و بالطبع يعنى بالقلب العقل). كما جاء فى الآية (۷۸) من سورة النحل: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ[۸۶]. و لكن الكفار فقدوا بكفرهم نور العقل و السمع و البصر، فصاروا فى ظلمات متراكمة.

و لا تناقض بين هذه التفاسير الثلاثة، كما هو واضح، إذ يمكن أن تشملهم هذه الآية جميعا.

و على كلّ حال، فيمكننا أن نصل إلى استنتاج عام من الآيتين السابقتين. فقد شبّهت الآية أعمال غير المؤمنين بنور كاذب كسراب يراه ظمآن فى صحراء جافة، لا يروى هذا السراب العطاشى أبدا، و إنّما يزيد فى سعيهم للحصول على الماء فيرهقهم دون نتيجة تذكر.

ثمّ ينتقل القرآن من الحديث عن هذا النور الكاذب، الذى هو عبارة عن أعمال المنافقين إلى باطن هذه الأعمال، الباطن المظلم و المخيف و الموحش حيث تتعطل فيه حواس الإنسان، و تظلم عليه الدنيا حتى لا يرى نفسه، فكيف يمكنه رؤية الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۰

و طبيعى أنّ المرء فى هذه الظلمات فى وحدة مطلقة و جهل دائم، لا يجد طريقه، و لا رفيق سفره، و لا موقف له، و لا يملك وسيلة للنجاة، لأنّه لم يكتسب شيئا من مصدر النور، أى اللّه سبحانه و تعالى، و قد ختم اللّه على قلبه بالجهل و الضلال.

و لعلكم تتذكرون أنّنا قلنا: أنّ النور مصدر أنواع الجمال و الحياة و الحركة، عكس الظلام الذى يعتبر مصدر القبائح و الموت و العدم و السكون و السكوت.

الظلام مصدر الخوف و الكراهية، و هو توأم الهمّ و الغمّ، هكذا وضع الذين افتقدوا نور الإيمان، و غرقوا فى ظلمات الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۱

الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (۴۱) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۴۲)

التّفسير

الجميع يسبّح للّه:

تحدثت الآيات السابقة عن نور اللّه، نور الهداية و الإيمان، و عن الظلمات المضاعفة للكفر و الضلال.

أمّا الآيات موضع البحث، فإنّها تتحدّث عن دلائل الأنوار الإلهية و أسباب الهداية، و تخاطب الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و كذلك الطير يسبّحن للّه فى حال أنها باسطات أجنحتهن فى السماء وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ

و بما أنّ هذا التسبيح العام دليل على خلقه تعالى لجميع المخلوقات، و خالقيته دليل على مالكيته للوجود كله، و كذلك دليل على أنّ كل ما فى الوجود يرجع إليه سبحانه، فتضيف الآية وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۲

كما يحتمل وجود رابطة بين هذه الآية و سابقتها، حيث تحدّثت الآية الأولى فى آخر جملة لها، عن علم اللّه بأعمال البشر جميعا و علمه بالمسبحين له.

أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى محكمة العدل الإلهى فى الآخرة، و أنّ للّه ما فى السموات و الأرض، و هو الحاكم و القدير العادل فى مصير الناس و ما فى الوجود.

مسائل مهمة:

١- ماذا تعنى عبارة أَ لَمْ تَرَ

حسبما يراها الكثير من المفسّرين، تعنى: ألم تعلم، حيث التسبيح العام من قبل جميع المخلوقات فى العالم لا يمكن إدراكه بالعين، بل بالقلب و العقل.

و لكون هذه القضية واضحة جدا و كأنّها ترى بالعين المجرّدة، استخدمت الآية عبارة أَ لَمْ تَرَ.

كما يجب الانتباه إلى أنّه على الرغم من كون المخاطب فى هذه الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالذات، فإنّ عددا من المفسّرين يرى أنّها تشمل الناس جميعا، لأنّ ذلك من أساليب القرآن المجيد اتبعها فى كثير من آياته.

و قال البعض: إنّ هذا الخطاب خاصّ بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مرحلة الرؤيا و المشاهدة، حيث منحه اللّه القدرة على مشاهدة تسبيح جميع المخلوقات، و كذلك منح سبحانه و تعالى هذه القدرة لجميع عباده المخلصين له المتمسّكين بهداه.

أمّا بالنسبة لعامّة الناس، فالمسألة تخصّ إدراكهم لتسبيح الموجودات عن طريق العقل، و ليس بالمشاهدة البصريّة[۸۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۳

٢- التسبيح العامّ لجميع المخلوقات

تحدّثت الآيات المختلفة فى القرآن المجيد عن أربع عبادات تمارسها مخلوقات هذا الكون العظيم، هى: التسبيح، و الحمد، و السجود،

و الصلاة، أمّا الآیة موضع البحث، فقد تناولت الصلاة و التسبیح.

و تحدثت الآیة الخامسة عشرة من سورة الرعد عن السجود العام: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

أمّا الآیة الرّابعة و الأربعون من سورة الإسراء، فقد تحدثت عن التسبیح و الحمد من قبل جمیع المخلوقات فی الوجود كله وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ و قد تناولنا حقیقة الحمد و التسبیح العامّین من قبل المخلوقات و التفاسیر المختلفة الواردة بهذا الصدد، فی تفسیرنا الآیة الرّابعة و الأربعین من سورة الإسراء، و نذكر هنا ملخصه:

هناک تفسیران جدیران بالاهتمام، و هما:- ۱- إنّ ذرات هذا العالم کلها- عاقلة أو غیر عاقلة- لها نوع من الإدراک و الشعور، و هی تسبح فی عالمها للّه و تحمده علی الرغم من عدم إدراکنا لها. و لهذا التّفسیر أدلّة قرآنیة.

۲- إن القصد من التسبیح و الحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله» أی نظام الوجود و أسراره المدهشة الكامنة فی كلّ مخلوق تتحدّث بصراحة عن عظمة الخالق و علمه و حكمته التی لا حدود لها، إذ كلّ مخلوق جمیل، و كلّ أثر فنیّ بدیع یثیر الدهشة و الإعجاب، حتّی أنّ لوحة فنیة و قطعة شعریة جمیلة، تحمد و تسبّح لمبدعها. فمن جهة تکشف عن صفاته (بحمدها له) و من جهة أخری تنفی عنه أی عیب أو نقص (فتسبحه). فکیف و هذا الکون العظیم بما فیه من عجائب و غرائب لا تنتهی! (للاطلاع أکثر علی ذلک یراجع تفسیر الآیة ۴۴ من سورة الإسراء فی تفسیرنا هذا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۴

و إذا قلنا: إنّ عبارة يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تعنی تسبیح کلّ من فی السماوات و الأرض، و نحدد کلمة «من» بذوی العقول، فإنّ التسبیح یخصّ هنا المعنی الأوّل، فهو تسبیح بوعی و إرادة و لازم هذا القول أن الطیور أیضا لها شعور، لأنّ کلمة الطیور جاءت بعد حرف «من». و لا عجب فی ذلک، لأنّ آیات قرآنیة أخری قالت بوجود مثل هذا الشعور لدی بعض الطیور (یراجع تفسیر الآیة ۳۸ من سورة الأنعام).

۳- التسبیح الخاصّ بالطیور:

ما السبب فی ذکر تسبیح الطیور من بین جمیع المخلوقات، و خاصّة فی حالة بسط جناحیها فی السماء؟

المسألة تکمن فی أنّ الطیور إضافة إلی تنوّعها الکبیر، تمتاز بصفات خاصّیة تجلب نظر کل عاقل إلیها، حیث تحلّق هذه الأجسام- و بعضها ثقیل- فی السماء خلافا لقانون الجاذبیة، و تطیر بسرعة من نقطة إلی أخری فی الجو، و ترکب أمواج الریاح و هی باسطة جناحیها دون أی تعب أو جهد. بشکل یثیر الإعجاب.

و المثیر فیها هو إدراکها لقضایا الأنواء الجویة، و معلوماتها الدقیقة لوضع الأرض الجغرافی- خلال سفرها و هجرتها من قارة إلی أخری، حتی أنّ بعضها یهاجر من القطب الشمالی إلی القطب الجنوبی.

فهی تمتلک جهاز توجیه خفی عجیب یرشدها إلی الهدف إیّان سفرها الطویل، حتی لو تلبّدت السماء بالغیوم. و هذه من أکثر الأمور إثارة للدهشة و العجب، و من أوضح أدلة التوحید.

طیور اللیل بدورها تملک رادارا مدهشا یخبرها حین الطیران فی ظلمة اللیل عن کلّ حاجز أمامها، حتی أن بعضها یری سمکّة تحت الماء، فیخطفها بسرعة البرق، و هذه میزة مدهشة فی هذه الطیور!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱۱ ؛ ص۱۲۵

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۵

و علی کل حال فإنّ هناک أمورا عجیبة فی الطیور جعلت القرآن المجید یخصّها بالذکر.

۴- عبارة کُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِیحَهُ

نسب عدد من المفسّرین ضمیر «علم» إلی کلمة «کلّ»، و بهذا یصبح معنی العبارة السابقة: کلّ من فی الأرض و السماء، و کذلک الطیور علم صلاته و تسبیحه.

و قال بعض المفسّرین: إنّ ضمیر (علم) یعود إلی اللّه تعالی، أی أنّ اللّه علم صلاة و تسبیح کلّ منهم.

و التّفسیر الأوّل یلائم الآیة بشکل أفضل.

و بهذا الترتیب یعلم کلّ مسبّح للّه أسلوب تسبیحه و طریقته و شروطه و خصائص صلاته.

فإذا کان التسبیح بوعی من هذه الکائنات یتّضح جیدا مفهوم هذا الکلام، أمّا إذا کان بلسان حالها فیکون مفهومه أنّ کلّ واحد منها له نظام خاصّ یعبّر بشکل من الأشکال عن عظمة اللّه، و کلّ واحد منها یعکس قدرة اللّه و حکمته.

۵- ما المقصود بالصلاة؟

قال بعض المفسّرین کالمرحوم «الطبرسی» فی مجمع البیان، و «الآلوسی» فی روح البیان: إنّ الصلاة هی الدعاء.

و هذا هو مفهومها اللغوی، و بهذا تمارس جمیع المخلوقات فی الأرض و السماء الدعاء إلی اللّه بلسان حالها أو مقالها و تسأله الرحمة، لأنّه أرحم الراحمین، و أنّه سبحانه و تعالی یمنّ علیها برحمته کلا بحسب قابلیته.

غایة الأمر إنّهم جمیعا یعلمون حاجتهم و مطلبهم و ما ینبغی أن یدعون،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۶

و إضافة إلی ذلک- وفق الآیات التی أشرنا إلیها سابقا- فهم خاضعون لعظمة اللّه، و قد سلّموا بقوانین الخلق، و یردّدون من الأعماق الثناء علی صفاته الکاملة سبحانه و تعالی، و نفی کلّ نقص عنه جلّ اسمه المقدّس.

و بهذا الشکل تتمّ العبادات الأربع «الحمد» و «التسبیح» و «الدعاء» و «السّجود».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۷

الآیات [سورة النور (۲۴): الآیات ۴۳ الی ۴۵]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُزْجِی سَحاباً ثُمَّ یُؤَلِّفُ بَیْنَهُ ثُمَّ یَجْعَلُهُ رُکاماً فَتَرَی الْوَدْقَ یَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِیها مِنْ بَرَدٍ فَیُصِیبُ بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ یَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ یَشاءُ یَکادُ سَنا بَرْقِهِ یَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (۴۳) یُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِی ذلِکَ لَعِبْرَةً لِأُولِی الْأَبْصارِ (۴۴) وَ اللَّهُ خَلَقَ کُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی رِجْلَیْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی أَرْبَعٍ یَخْلُقُ اللَّهُ ما یَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴۵)

التّفسیر

جانب آخر من الخلق العجيب:

نواجه ثانيـة- فى هـذه الآيات- جانبا آخر من مسألـة الخلق المدهشة، و ما احتوته من آيات العلم و الحكمة و العظمة، و كلّ ذلك من أدلّة توحيد ذات اللّه الطاهرة.

يخاطب القرآن المجيد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثانية و يقول أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحاباً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۸

ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً و بعـد أن تتراكم السـحب ترى قطرات المطر تخرج من بين السـحاب و تهبط على الجبال و السـهول و الصحارى فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ

و كلمة «يزجى» مشتقّة من «الإزجاء»، أى سوقه بأسلوب لين لترتيب المخلوقات المتبعثرة هنا و هناك بقصد جمعها.

و هـذا التعبير يصـدق بالنسبـة للسـحب، حيث ترتفع كلّ قطعة منه من جانب من البحر. ثمّ تسوقها يد القدرة الإلهية. و تجمعها، فتراكم بعضها على بعض.

و كلمة «ركام» على وزن «غلام»، بمعنى الأشياء المتراكمة بعضها فوق بعض.

و أمّا «الودق» على وزن «شـرق»، فيرى الكثيرون أنّهـا حبّات المطر، إلّا أنّ الراغب الأصـفهانى يرى فى مفرداته أنّها ذرات دقيقـة من الماء، أى: الرذاذ الذى يتناثر فى الفضاء حين هطول المطر.

و المعنى الأوّل أكثر ملاءمة هنا، فما يدلّ بشـكل أكبر على عظمة اللّه هو ذرات المطر نفسها و ليس رذاذه، إضافة إلى أنّ القرآن كلّما ذكر السـحاب و نزول بركـات اللّه من السـماء، أشار فيها إلى المطر. فهو الـذى يحيى الأرض بعـد موتها و يبعث الحياة فى الأشـجار و النباتات، و يروى عطش البشر و الحيوان.

و أشـار القرآن إلى ظاهرة أخرى من ظواهر السـماء المدهشـة، و هى السـحاب، حيث قال: وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ أى من جبال السـحب فى السـماء تنزل قطرات المطر على شـكل ثلج و برد، فتكون بلاء لمن يريد اللّه عذابه فتصيب هذه الثلوج المزارع و الثمار و تتلفها و قـد تصيب الناس و الحيوانات فتؤذيهم فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ و من لم يرد تعـذيبه دفع عنه هذا البلاء وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ.

أجل، إنّه هو الـذى ينزّل الغيث المخصب من سـحابة تارة ... و هو الذى يصـيّره بردا بأدنى تغيير بأمره فيصـيب به (بالأذى) من يشاء، و ربما يكون مهلكا أحيانا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۹

و هذا يدلّ على منتهى قدرته و عظمته- إذ جعل نفع الإنسان و ضـرره و موته و حياته متقارنة، بل مزج بعضـها ببعض! و فى نهاية الآية يشير إلى ظاهرة أخرى من الظواهر السماوية الّتى هى من آيات التوحيد فيقول سبحانه يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ.

فالسـحب المؤلفة فى الحقيقة من ذرات الماء تحمل فى طيّاتها الشحنات «الكهربائية»، و تومض إيماضا يذهل برقها (العيون) و الأبصار و يصكّ رعدها السمع من صوته، و ربّما اهتزت له جميع الأجواء.

إن هذه الطاقة الهائلة بين هذا البخار اللطيف لمثيرة للدهشة حقّا! ...

ردّ على استفسار:

السؤال الذى بقى هنا هو: ما هذا الجبل الذى فى السماء ينزل منه البرد؟

أجاب المفسّرون عن هذا الاستفسار بأجوبه مختلفهٔ، هی:

۱- قال البعض: إنّ کلمهٔ الجبال هنا کنایهٔ، مثلما نقول جبل من غذاء أو جبل من علم. و على هذا فإنّ مفهوم الآیهٔ السابقهٔ، هو أنّ هناك بردا متراكما كالجبل فی قلب السماء أوجد السحاب، و ینزل قسم منه فی المدن، و قسم آخر فی الصحراء، و یصیب به من یشاء.

۲- و قال آخرون: المقصود من الجبال السحب المتراکمهٔ بحیث تشبه الجبل.

۳- و ذکر صاحب تفسیر «فی ظلال القرآن»، بیانا آخر هو الأوفق حسب الظاهر، و هو: «إن ید اللّه تزجی السحاب و تدفعه من مکان إلی مکان، ثمّ تؤلف بینه و تجمعه فإذا هو رکام بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء و الویل الهاطل، و هو فی هیئهٔ الجبال الضخمهٔ الکثیفهٔ، فیها قطع البرد الثلجیهٔ الصغیرهٔ، و مشهد السحاب کالجبال لا ـ یبدو لنا کما یبدو لراکب الطائرهٔ و هی تعلو فوق السحب أو

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۰

تسیر بینها، فإذا المشهد مشهد جبال حقا، بضخامتها و مساقطها و ارتفاعها و انخفاضها، و إنّه لتعبیر مصور للحقیقهٔ التی لم یرها الناس إلّا بعد ما رکبوا الطائرات»[۸۸].

و یمکن أن یضاف إلی ذلک أنّ العلماء یرون فی کیفیهٔ تکون البرد فی السماء أنّ قطرات المطر تنفصل من السحاب، و إذا مرت بطبقهٔ باردهٔ من الهواء أصبحت ثلجا، ثمّ تدفعها أحیانا العواصف الموجودهٔ هناک إلی الأعلی، فتدخل قطع الثلج هذه إلی داخل السحب، و یکتسب بعضها میاها جدیدهٔ ثمّ تهبط، فتجمد ثانیهٔ عند مرورها بطبقهٔ من الهواء البارد جدّا.

و کلما تکرر وقوع هذا العمل نمت هذه القطع من الثلج و ازداد وزنها، إلی أن تقع علی الأرض بعد أن تعجز الأعاصیر عن دفعها إلی الأعلی مرّهٔ أخری. أو أنّ الإعصار یهدأ فیسقط البرد علی الأرض.

و بهذا الشرح العلمی یتّضح لنا المراد من کلمهٔ «الجبال» التی وردت فی هذه الآیهٔ، لأن تکوّن البرد بقطع کبیرهٔ و ثقیلهٔ ممکن فی حال تراکم السحب، حتی یقذف الإعصار حبّات البرد وسطها، لتکسب هذه الحبّات قدرا أکبر من میاه السحب.

و ذلک ممکن فی حالهٔ وجود جبال مرتفعهٔ من السحب، لتکون مصدرا جیدا لتکون البرد.[۸۹] و نقرأ هنا تحلیلا ـ آخر ذکره بعض الکتّاب، و خلاصته کالآتی: «أشارت

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۱

الآیات موضع البحث بصراحهٔ إلی الجبال الثلج، أی الجبال التی فیها نوع من الثلوج.

و هذا یثیر الانتباه کثیرا، لأنّ اختراع الطائرات و التمکن من التحلیق بها فی مستوی مرتفع زاد من آفاق علم البشر، فقد تمکّن العلماء من الوصول إلی سحب مستورهٔ و متکونهٔ من تراکمات ثلجیهٔ، و حقّا ممکن أن تسمی بجبال الثلج.

و ممّا یثیر الدهشهٔ أنّ أحد علماء السوفیت استخدم- لعدهٔ مرات- اسم «جبال السحب» و «جبال الثلج» خلال شرحه موضوع سحب العواصف الثلجیهٔ، و بهذا یتّضح لنا وجود جبال من الثلج فی السماء.

و أشارت الآیهٔ التالیهٔ إلی إحدی معاجز الخلق و دلائل عظمهٔ اللّه، و هو خلق اللیل و النهار بما فیهما من خصائص، حیث تقول یُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِی ذلِکَ لَعِبْرَةً لِأُولِی الْأَبْصارِ.

و ذکرت لمعنی «یقلّب» عدّهٔ تفاسیر، فقال البعض: إنّ تقلب اللیل و النهار هو أنّه إذا حلّ أحدهما محا الآخر.

و قال البعض: إنّه قصر أحدهما و طول الآخر، و یحدث ذلک بصورهٔ تدریجیهٔ و له ارتباط بالفصول الأربعهٔ.

و اعتبر آخرون تقلبات الحرّ و البرد، و حوادث أخری تقع فی اللیل و النهار[۹۰].

و لیس بین هذا التفاسیر أی تناقض، بل یمکن جمعها فی مفهوم عبارهٔ «یقلب»، و لا ریب- و قد برهن العلم علی ذلک- أنّ لتعاقب

اللیل و النهار و التغییرات التدریجیة الحاصلة منه أثر فعّال فی استدامة الحیاة و بقاء الإنسان، و فی ذلک عبرة لأولی الأبصار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳۲

و إذا کانت حرارة الشمس علی نسق واحد، فإنّها ترفع درجة حرارة الهواء، و تقتل الأحیاء و تتعب الأعصاب، لکنّ وقوع اللیل بین نهارین یعدّل من أثر الشمس القوی و یلائمه.

کما إنّ التغییرات التدریجیة فی ساعات اللیل و النهار هی السبب فی ظهور الفصول الأربعة، و عامل مؤثّر جدّا فی نمو النباتات و حیاة جمیع الأحیاء و هطول المطر و تکوین المیاه الجوفیة التی هی من کنوز الأرض [۹۱].

و أشارت آخر الآیات- موضع البحث- إلی أبرز صورة و أوضح دلیل علی التوحید، و هی مسألة الحیاة بصورها المختلفة، فقالت: وَ اللَّهُ خَلَقَ کُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ أی أنّ أصلها جمیعا من ماء، و مع هذا فلها صور مختلفة فَمِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی بَطْنِهِ کالزواحف. وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی رِجْلَیْنِ کالإنسان و الطیور وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی أَرْبَعٍ کالدواب.

و لیس الخلق محددا بهذه المخلوقات، فالحیاة لها صور أخری متعددة بشکل کبیر، سواء کانت أحیاء بحریة أو حشرات بأنواعها المتعددة التی تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآیة فی الختام یَخْلُقُ اللَّهُ ما یَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

بحوث

۱- ماذا یعنی الماء هنا؟

و إلی أی نوع من الماء أشارت الآیة موضع البحث؟

للمفسّرین بهذا الصدد ثلاثة آراء:

۱- یقصد بالماء النطفة، و قد اختار الکثیر من المفسّرین هذا المعنی، و قد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳۳

أشارت إلیه بعض الأحادیث.

و هناک مشکلة تواجه هذا التّفسیر، إذ أنّ الاحیاء جمیعا لم تخلق من ماء النطفة، فمنها أحیاء مجهریة ذات خلّیة واحدة، و أخری تخلق من انقسام الخلایا و لیس من النطفة إلّا أن یقال بالنسبة للحکم أعلاه: إنّ المراد هو الجانب النوعی و لیس عاما.

۲- و التّفسیر الثّانی یقول: إنّ المقصود هنا ظهور أوّل مخلوق، فقد ذکرت بعض الأحادیث أنّ أوّل ما خلق اللّه الماء، ثمّ خلق الإنسان من الماء.

و ینسجم هذا مع النظریات الجدیدة القائلة: إنّ أوّل عنصر حی ظهر فی البحار. و هذه ظاهرة سادت أعماق البحار و سواحلها. (و طبیعی فإنّ القدرة التی خلقت هذا الموجود الحیّ بجمیع تعقیداته و رعته فی المراحل البعدیة، هی قدرة أسمی من الطبیعة، أی إرادة اللّه تعالی).

۳- آخر تفسیر لخلق الأحیاء من الماء، هو أنّ الماء یشکّل حالیا أساس تکوینها، و أکبر نسبة من بنائها، و لا یمکن للأحیاء أن تواصل حیاتها دون الماء.

و طبیعی أن لا نجد تناقضا بین هذه التفاسیر، لکنّ التّفسیرین الأوّل و الثّانی أقرب إلی الصواب علی ما یبدو[۹۲].

۲- جواب علی استفسار

یطرح هنا سؤال یقول: إنّ الحیوانات لا تحـدد بهـذه الأنواع الثلاثـة (الزواحف و ثنائیـة الأرجل و رباعیتها) إذ أنّ هناک دوابّا لها أکثر من أربع أرجل؟

و الجواب عنه یکمن فی الآیة ذاتها، أی فی قوله تعالی یَخْلُقُ اللَّهُ ما یَشاءُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۴

فهی تتناول الحیوانات کافّة، مضافا إلی أن أهم الحیوانات التی یستخدمها الإنسان، هی هذه الأنواع الثلاثة.

و یری البعض أنّ الأحیاء التی لها أکثر من أربع أرجل، تعتمد علی أربع منها، و الباقی منها سواعد مساعدة لها[۹۳][۹۴].

۳- صورة الحیاة المختلفة:

لا ـ شک أنّ الحیـاة تعتبر أعجب ظـاهرة فی العـالم، ذلک السـرّ الـذی لم یقـدر العلماء علی فکّ رموزه حتّی الآن، فالجمیع یقول: إنّ الأحیاء خلقت من مادّة لا حیاة فیها، إلّا أنّه لا أحد یعلم کیف حدثت هذه الطفرة و فی أیّ ظرف، إذ لم یشهد أیّ مختبر تبدّل موجود عدیم الحیاة إلی آخر حی، علی الرغم من انشـغال الآلاف من العلماء طوال سـنین عدیدة فی التفکیر بذلک، و إجراء تجارب مختبریة یخطئها الحصر.

و هناک خیال من بعید یتراءی للعلماء فی هذا المجال، و لکنّه مجرّد خیال و شـبح، فانّ العلم البشری عاجز عن کشف أسرار الحیاة مع تقدّمه الهائل، و ذلک لتعقد هذه الأسرار بدرجة کبیرة.

و فی الظروف السائدة تولّد الأحیاء من أحیاء أخری، و لا یولد أیّ حیّ من غیر حیّ. و لکن المؤکّد أن هذا الحال لم یکن کذلک فی الماضی البعید. أو بعبارة أخری: أنّ الحیاة تملک تاریخا لظهورها.

و لکن کیف و تحت أیة شروط؟

إنّ ذلک لغز لم تتضح حقیقته بعد، و الأعجب من ذلک تنوع الحیاة فی هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۵

الصور الکاملة، تبدأ من الأحیاء المجهریة وحیدة الخلیة حتی تصل إلی الحیتان العظیمة التی یتجاوز طول الواحدة منها الثلاثین مترا، و تبدو إحداها کأنّها جبل من لحم طائف فی المحیط.

و من مئات الآلاف من الحشرات المختلفة إلی آلاف من الطیور الجمیلة، کلّ له عالمه الخاصّ به و أسراره الذاتیة.

و تشـغل کتب علم الحیوان الیوم حیّزا کبیرا من مکتبـات العـالم، و یسـتعرض مؤلفوها جوانب من أسـرار هـذه الأحیاء، خاصّـة الأحیاء البحریة.

و البحر دوما تکمن فیه الأسـرار التی ما تزال معلوماتنا قاصرة عن استکناهها، علی الرغم من سعة تطوّرنا العلمیّ و عمقه، حقّا اللّه أکبر، خلق کلّ هـذه الأحیاء، و منحها ما تحتاج إلیه، فما أعظم قـدرته و علمه! سـبحانه! کیف وضع کلّ واحـد منها فی ظروف مناسـبة له، و وفّر غذاءه و ما یحتاج إلیه، و الأعجب من ذلک خلقه سبحانه و تعالی جمیع هذه الکائنات، من ماء و قلیل من تراب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۶

الآیات [سورة النور (۲۴): الآیات ۴۶ الی ۵۰]

اشارة

لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیم (۴۶) وَ یَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ یَتَوَلَّی فَرِیقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ وَ ما أُولئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۴۷) وَ إِذا دُعُوا إِلَی اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ إِذا فَرِیقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (۴۸) وَ إِنْ یَکُنْ لَهُمُ الْحَقُّ یَأْتُوا إِلَیْهِ مُذْعِنِینَ (۴۹) أَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ یَخافُونَ أَنْ یَحِیفَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۵۰)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون سببين لنزول بعض هذه الآيات:

قيل نزلت الآيات فى رجل من المنافقين كان بينه و بين رجل من اليهود خصومة، فدعاه اليهودى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعاه المنافق إلى كعب بن الأشراف (اليهودى) (حتّى أنّ بعض الرّوايات ذكرت أنّ المنافق قال صراحة: يحتمل أنّ لا يعدل محمدا فينا):

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۷

و

حكى أنّه كان بين على عليه السّلام و عثمان (و حسب رواية بين على عليه السّلام و المغيرة بن وائل) منازعة فى أرض اشتراها من على عليه السّلام فخرجت فيها أحجار، و أراد ردّها بالعيب، فلم يأخذها فقال: بينى و بينك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فقال الحكم بن أبى العاص (و هو من المنافقين): إن حاكمته إلى ابن عمّه يحكم له، فلا تحاكمه إليه، فنزلت الآيات و استنكرت عليه ذلك بشدّة، و هو المروى عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام

أو قريب منه ۹۵].

التّفسير

الإيمان و قبول حكم اللّه:

تحدثت الآيات السابقة عن الإيمان باللّه و عن دلائل توحيده و علائمه فى عالم التكوين، بينما تناولت الآيات- موضع البحث- أثر الإيمان و انعكاس التوحيد فى حياة الإنسان، و إذعانه للحقّ و الحقيقة.

تقول أوّلا: لَقَدْ أَنْزَلْنا آیاتٍ مُبَیِّناتٍ آيات تنور القلوب بنور الإيمان و التوحيد، و تزيد فى فكر الإنسان نورا و بهجة، و تبدّل ظلمات حياته إلى نور على نور. و طبيعى أنّ هذه الآيات المبينات تمهد للإيمان، إلّا أنّ الهداية الإلهية هى صاحبة الدور الأساسى وَ اللَّهُ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیم

و كما نعلم فإنّ إرادة اللّه و مشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه و تعالى يدخل نور الهداية إلى القلوب المستعدة لتقبله، أى التى أبدت المجاهدة فى سبيل اللّه و قطعت خطوات للتقرب إليه، فأعانها على قدر سعيها فى الوصول إلى لطفه سبحانه.

ثمّ استنكرت الآية الثّانية و ذمّت مجموعة من المنافقين الذين يدّعون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۸

الإيمان فى الوقت الذى خلت فيه قلوبهم من نور اللّه، فتقول الآية عن هذه المجموعة وَ یَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ یَتَوَلَّی فَرِیقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ وَ ما أُولئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ

ما هذا الإيمان الذى لا يتجاوز حدود ألسنتهم، و لا أثر له فى أعمالهم؟

ثمّ تذكر الآية التى بعدها دليلا واضحا على عدم إيمانهم وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ

و لتأكيد عبادة هذه المجموعة للدنيا و فضح شركهم، تضيف الآية وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ و بكامل التسليم و الخضوع.

و الجدير بالذكر أن العبارة الأولى تحدثت عن الدعوة إلى اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أمّا العبارة التالية أى كلمة «ليحكم» فإنّها جاءت مفردة، و هى تشير إلى تحكيم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لوحده، و ذلك لأنّ تحكيم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس منفصلا عن تحكيم اللّه تعالى، حيث أنّ كلا الحكمين فى الحقيقة واحد.

كما يجب الانتباه إلى أنّ ضمير الهاء المتّصلة فى «إليه» يعود إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه، أو إلى تحكيمه. و كذلك لا بدّ من الالتفات إلى أن الآية نسبت التخلف عن هذا الحكم و الإعراض عن تحكيم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى مجموعة من المنافقين فقط.

و لعل ذلك لأن الفئات الأخرى لم تكن بهذه الدرجة من الجرأة و عدم الحياء، لأنّ للنفاق مراتب أيضا كمراتب الأيمان المختلفة.

و بيّنت الآية الأخيرة فى ثلاث جمل، الجذور الأساسية و دوافع عدم التسليم إزاء تحكيم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت أوّلا أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

هذه صفة من صفات المنافقين يتظاهرون بالإيمان، و لكنّهم لا يسلّمون بحكم اللّه و رسوله، و لا يستجيبون له، إمّا بسبب انحرافهم قلبيا عن التوحيد أو الشك و التردد أَمِ ارْتابُوا و طبيعى أنّ الذى يتردّد فى عقيدته، لن يستسلم لها أبدا.

و ثالثها فيما لو لم يلحدوا و لم يشكوا، أى كانوا من المؤمنين: أَمْ يَخافُونَ أَنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۹

يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ

فى الوقت الذى يعتبر هذا تناقضا صريحا، إذ كيف للذى يؤمن برسالة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يعتبر حكمه حكم اللّه تعالى أن ينسب الظلم إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟! و هل يمكن أن يظلم اللّه أحدا؟

أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟

إنّ اللّه تعالى مقدّس عن كلّ هذه الصفات بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إنّهم لا يقتنعون بحقّهم، و هم يعلمون أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يجحف بحق أحد، و لهذا لا يستسلمون لحكمه.

و يرى مفسّر «فى ظلال القرآن»: فى الآية: أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؟ أَمِ ارْتابُوا؟ أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ؟ أنّ السؤال الأوّل للإثبات، أى لاثبات وجود مرض النفاق فى قلوبهم فمرض القلب جدير بأن ينشئ مثل هذا الأثر.

و السؤال الثّانى للتعجب، فهل هم يشكّون فى حكم اللّه و هم يزعمون الإيمان؟ هل هم يشكّون فى مجيئه من عند اللّه؟ أو هم يشكّون فى صلاحيته لإقامة العدل؟

و السؤال الثّالث لاستنكار أمرهم الغريب، و التناقض الفاضح بين ادعائهم و عملهم.

و إنّه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف فى نفس إنسان، فاللّه خالق الجميع و ربّ العالمين، فكيف يحيف فى حكمه على أحد من خلقه لحساب مخلوق آخر[۹۶].

و ما يورده هذا المفسّر هو أنّ عبارة «أم ارتابوا» تعنى الشك فى عدالة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى صحة تحكيمه فى الوقت الذى يرى كثير من المفسّرين أنّه الشك فى أصل النّبوة كما هو الظاهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۰

بحثان

۱- مرض النفاق

لیست هـذه المرة الأـولی التی یسـتخدم فیهـا القرآن عبـارة «المرض» للنفاق، فقـد اسـتخدمها فی مطلع سورة البقرة عنـد بیانه لصـفات المنافقین فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً و کما قلنا فی المجلد الأوّل فی أثناء تفسیر الآیة المذکورة، فإنّ النفاق فی حقیقته مرض و انحراف عن الطریق السوی، فالإنسان السلیم له صورة واحدة هی انسجام روحه مع بدنه.

فإذا کان مؤمنا فکلّ أجزاء بدنه تعبر عن إیمانها، و إذا کان عدیم الإیمان فإنّ ظاهره و باطنه یکشفان عن کفره و انحرافه.

أمّا إذا کان متظاهرا بالإیمان و مبطنا للکفر، فإنّ ذلک یعتبر نوعا من المرض.

و بما أن هؤلاء الأشـخاص (المنافقین) لا یسـتحقون لطف اللّه و رحمته، بسـبب عنادهم و إصـرارهم علی المضی بمناهجهم المنحرفة، فقد ترکهم اللّه علی حالهم، لیزدادوا مرضا.

و المنافقون فی الواقع أخطر مجموعة فی المجتمع، لأنّه لا یتّضح للمؤمن بأیّ أسلوب یجب أن یعاملهم، فهم لیسوا أصدقاء و لا یبدون أنّهم أعـداء، فیسـتفیدون من إمکانـات المـؤمنین و یصونون أنفسـهم عن العقـاب المفروض علی الکفـار بالتظـاهر و إخفـاء حقـائقهم المشؤومة، فأعمالهم أتعس من أعمال الکفّار.

و لکن هؤلاـء لا یمکنهم أن یواصـلوا هـذا المنهـج لمـدّة طویلـة، فلا بـدّ أن یفتضـح أمرهم و ینکشف باطنهم. و کما ذکرت الآیات- موضع البحث- و سبب نزولها.

افتضاحهم فی عملیة تحکیم واحدة و انکشاف باطنهم الخبیث [۹۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۱

۲- الحکومة العادلة هی الحکومة الإلهیة فقط:

لا شک فی أن الإنسان مهما سعی فی تهذیب نفسه من الصـفات الرذیلة، خاصّة الکبر و البغضاء و حب الذات و الأنانیة، فإنّه قد یبتلی ببعضها دون وعی منه، إلّا المعصوم من البشر، إذ یعصمه اللّه من الخطأ و الزلل.

و لهذا السـبب نقول: اللّه وحده هو المشرّع الحقیقی، لأنّه إضافة إلی علمه المطلق بحاجات الإنسان، فإنّه یعلم سبل سدّ هذه الحاجات، و هو الذی لا یزلّ و لا ینحرف بسبب احتیاجه و میول الحب و البغض فیه سبحانه.

و قضـاء اللّه و النّبی و الإمـام المعصوم أفضـل قضـاء، و یلیهم التـابعون السـائرون علی نهجهم المتوکلون علی اللّه، إلّا أنّ البشـر الـذی یصاب بالکبر و حبّ الذات لا یرضخ لهذا القضاء، فهو یبحث عن قضاء یشبع طمعه و شـهواته. ما أجمل العبارة التی استخدمتها الآیة الکریمة بحق هؤلاء أُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ

کما أنّ المرور فی مثل هذا الامتحان، خیر دلیل علی إیمان الإنسان أو عدم إیمانه.

و یستوقفنا قول القرآن فی موضع آخر فَلاـ وَ رَبِّکَ لاـ یُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیمـا شَـجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لا یَجِـدُوا فِی أَنْفُسِـهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً[۹۸].

أجل، المؤمنون الحقیقیون لا یرتضون قضاءک فحسب، و إنّما قد سلّموا أنفسهم لک حتّی إن لحقهم ضرر.

أمّـا المنافقون، فلا یقنعون بحکم من اللّه و رسوله صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم إلّا ما یحقق مصالحهم، فهم عبیـد لها، و علی الرغم من ادعائهم الإیمان، فهم مشرکون حقّا!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۲

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشارة

إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵۱) وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (۵۲) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۵۳) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۵۴)

التّفسير

الإيمان و التسليم التام إزاء الحقّ:

لاحظنا فى الآيات السابقة ردّ فعل المنافقين، الذين اسودّت قلوبهم، و أصبحت ظلمات فى ظلمات. و كيف لم يرضخوا لحكم اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كأنّهم يخافون أن يحيف اللّه و رسوله عليهم، فيضيع حقّهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۳

أمّا الآيات- موضع البحث- فإنّها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم اللّه و رسوله، فتقول إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا.

ما أجمل هذا التعبير المختصر و المفيد سَمِعْنا وَ أَطَعْنا! و قد وردت كلمة «إنّما» فى الآية السابقة لتحصر كلام المؤمنين فى عبارة سَمِعْنا وَ أَطَعْنا و الواقع أن حقيقة الايمان يكمن فى هاتين الكلمتين فقط.

كيف يمكن أن يرجّح شخص حكم شخص آخر على حكم اللّه، و هو يعتقد بأنّ اللّه عالم بكلّ شيء، و لا حاجة له بأحد، و هو الرحمن الرحيم؟ و كيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم اللّه إلّا السمع و الطاعة؟

فما أحسن هذه الوسيلة لامتحان المؤمنين الحقيقيين و نجاحهم فى الامتحان؟! لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و لا شك فى أنّ الفلاح نصيب الذى يسلّم أمره إلى اللّه، و يعتقد بعدله و حكمه فى حياته المادية و المعنوية.

و تابعت الآية الثّانية هذه الحقيقة بشكل أكثر عمومية، فتقول: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ ۹۹].

و قد وصفت هذه الآية المطيعين المتقين بالفائزين، كما وصفت الآية السابقة الذين يرضخون لحكم اللّه و رسوله بالمفلحين.

و تفيد مصادر اللغة أنّ «الفوز» و «الفلاح» بمعنى واحد تقريبا، قال الراغب الأصفهانى فى مفرداته: «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة» و «الفلاح: الظفر و ادراك البغية» (و فى الأصل بمعنى الشق، و بما أنّ الأشخاص المفلحين يشقون طريقهم إلى مقصدهم و يزيلون العقبات منه أطلق الفلاح على الفوز أيضا) و بما أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۴

الكلام فى الآية السابقة كان عن الطاعة بشكل مطلق، و فى الآية قبلها عن التسليم أمام حكم اللّه، و أحدهما عام و الآخر خاص، فنتيجة كليهما واحدة.

و ما يستحقّ الملاحظة هو أن الآية الأخيرة ذكرت ثلاثة أوصاف للفائزين:

هى: طاعة اللّه و الرّسول، و خشية اللّه، و تقوى اللّه.

و قال بعض المفسّرين: إنّ الطاعة ذات معنى عام، و الخشية فرعها الباطنى، و التقوى فرعها الظاهرى. و قد تحدثت أوّلا عن الطاعة بشكل عامّ، ثمّ عن باطنها و ظاهرها.

و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قال: «إنّ المعنى بالآية أمير المؤمنين (على عليه السّلام)»[۱۰۰].

و لا خلاف فى أنّ عليا عليه السّلام خير مصداق لهذه الآية، و هذا هو المراد من هذا الحديث فلا يفقد الآية عموميتها.

لحن الآية التالية- و كذلك سبب نزولها الذى ذكرته بعض التفاسير- يعنى أنّ بعض المنافقين تأثروا جدا على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقة و التى وجّهت اللوم الشديد إليهم، فجاءوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقسموا يمينا مغلظة أنّنا نسلّم أمرنا إليك، و لهذا أجابهم القرآن بشكل حاسم وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَ إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم و بيوتهم فقل لهم: لا حاجة إلى القسم، و عليكم عملا اطاعة اللّه بصدق و إخلاص قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

يرى كثير من المفسّرين أنّ كلمة «ليخرجن» فى هذه الآية يقصد منها الخروج للجهاد فى سبيل اللّه، غير أنّ المفسّرين آخرين يرون أنّها تقصد عدم التهالك على المال و الحياة، و أتباع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أينما رحل و حلّ و طاعته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۵

و قد وردت كلمة «الخروج» و مشتقاتها فى القرآن المجيد بمعنى الخروج إلى ميادين الجهاد تارة، و ترك المنزل و الأهل و الوطن فى سبيل اللّه تعالى تارة أخرى، إلّا أنّ الآيات السابقة التى تحدثت عن حكم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى القضايا المختلفة يجعلنا نتقبل التّفسير الثّانى. بمعنى أن المنافقين جاءوا إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعربوا عن طاعتهم لحكمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و التسليم له، فأقسموا على إخراج قسم من أموالهم، بل أن يتركوا الحياة الدنيا إن أمرهم بذلك.

و لا مانع من الجمع بين التّفسيرين، أى إنّهم كانوا على استعدادهم لترك أموالهم و أهليهم، و الخروج للجهاد و لتضحية فى سبيل اللّه. و لكن بما أنّ المنافقين يتقلبون فى مواقفهم بحسب الظروف السائدة فى المجتمع، فتراهم يقسمون الأيمان المغلّظة حتى تشعر بأنّهم كاذبون، فقد ردّ القرآن- بصراحة- أنّه لا- حاجة إلى اليمين، و إنّما لا بدّ من البرهنة على صدق الادعاء بالعمل، لأنّ اللّه خبير بما تعملون. يعلم هل تكذبون فى يمينكم، أم تبغون تعديل مواضعكم واقعا؟

لهذا أكدت الآية التالية- التى هى آخر الآيات موضع البحث- هذا المعنى، و تقول للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ

ثمّ تضيف الآية أنّ هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ ففى صورة العصيان فقد ادّى وظيفته و هو مسئول عنها كما أنّكم مسئولون عن أعمالكم حين أن وظيفتكم الطاعة، و لكن وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا لأنّه قائد لا يدعو لغير سبيل اللّه و الحقّ و الصواب.

فى كل الأحوال وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ و إنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مكلّف بإبلاغ الجميع ما أمر اللّه به، فإن أطاعوه استفادوا، و إن لم يطيعوه خسروا. و ليس على النّبى أن يجبر الناس على الهداية و تقبّل دعوته.

و ما يلفت النظر فى الآية السابقة تعبيرها عن المسؤولية ب «الحمل» الثقيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۶

و هذا هو الواقع، فرسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تستوجب الإبلاغ عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على الناس طاعته. إنّها لمسؤولية لا يطيق حملها إلّا المخلصون.

و لذا

روى الإمام الباقر عليه السّلام حديثا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فيه «يا معشر قرّاء القرآن، اتقوا اللّه عزّ و جلّ فيما حملكم من كتابه، فإنّى مسئول، و أنتم مسئولون:

إنّى مسئول عن تبليغ الرسالة، و أمّا أنتم فتسألون عما حملتم من كتاب اللّه و سنّتى»[۱۰۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۷

الآية [سورة النور (۲۴): آية ۵۵]

اشارة

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۵۵)

سبب النّزول

روى كثير من المفسّرين. و منهم السيوطى فى «أسباب التنزيل» و الطبرسى فى «مجمع البيان» و سيد قطب فى «فى ظلال القرآن» و القرطبى فى تفسيره، مع بعض الاختلاف، سبب نزول هذه الآية أنه: عند ما هاجر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمون إلى المدينة، استقبلهم الأنصار بترحاب، و لكن العرب تحالفوا ضدهم.

لهذا كان المسلمون يبيتون ليلتهم و السلاح إلى جانبهم لا يفارقهم، إذ كانوا فى حالة تأهّب تامّ. و قد شقّ على المسلمين ذلك. حتى تساءل البعض: إلى متى يدوم هذا الوضع؟ و هل يأتى زمان نستريح و تطمئنّ أنفسنا و لا نخشى إلّا اللّه؟ فنزلت الآية السابقة تبشرهم بتحقّق ما يصبون إليه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۸

التّفسير

حكومة المستضعفين العالمية:

تحدثت الآية السابقة عن طاعة اللّه و رسوله و التسليم له، و قد واصلت الآية- موضع البحث- هذا الموضوع، و بيّنت نتيجة هذه الطاعة ألا- و هى الحكومة العالمية التى: وعدها اللّه المؤمنين به. فقالت الآية مؤكّدة وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ و يجعله متجذرا و ثابتا و قويا بين شعوب العالم.

وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً و بعد سيادة حكم التوحيد فى العالم و إجراء الأحكام الإلهية، و استقرار الأمن و اقتلاع جذور الشرك، وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

و على كلّ حال يبدو من مجمل هذه الآية أنّ اللّه يبشر مجموعة من المسلمين الذين يتصفون بالإيمان و العمل الصالح بثلاث بشائر:

۱- استخلافهم و حكومتهم فى الأرض.

۲- نشر تعالیم الحقّ بشکل جذری و فی کلّ مکان (کما یستفاد من کلمة «تمکین» ...).

۳- انعدام جمیع عوامل الخوف و الاضطراب.

و ینتج من کل هذا أن یعبد اللّه بکلّ حریة، و تطبق تعالیمه و لا یشرک به، و یتمّ نشر عقیدة التوحید فی کلّ مکان.

و یتّضح ممّا یلی متی تمّ وعد اللّه هذا؟ أو متی سیتم؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۹

بحوث

۱- تفسیر عبارة کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هناک اختلاف بین المفسّرین حول الذین أشارت إلیهم الآیة الشریفة من الذین استخلفوا فی الأرض من قبل المسلمین.

البعض من المفسّرین یری أنّهم آدم و داود و سلیمان علیهم السّلام، حیث قالت الآیة (۳۰) من سورة البقرة حول آدم علیه السّلام إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً و فی الآیة (۲۶) من سورة ص جاء بصدد داود علیه السّلام یا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناکَ خَلِیفَةً فِی الْأَرْضِ

و بما أنّ سلیمان علیه السّلام ورث حکم داود علیه السّلام بمقتضی الآیة (۱۶) من سورة النمل فإنّه قد استخلف فی الأرض.

لکن بعض المفسّرین- کالعلامة الطباطبائی فی المیزان- استبعد هذا المعنی و رأی أنّ عبارة الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ لا تناسب مقام الأنبیاء. إذ أنّ القرآن المجید لم ترد فیه هذه العبارة بخصوص الأنبیاء. و إنّما هی إشارة إلی أمم خلت، و کانت علی درجة من الإیمان و العمل الصالح بحیث استخلفها اللّه فی الأرض.

و یری مفسرون آخرون أنّ هذه الآیة إشارة إلی بنی إسرائیل، لأنّهم استخلفوا فی الحکم فی الأرض بعد ظهور موسی علیه السّلام و تدمیر حکم فرعون و الفراعنة، حیث یقول القرآن المجید فی الآیة (۱۲۷) من سورة الأعراف وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِی بارَکْنا فِیها و یضیف وَ نُمَکِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ أی جعلناهم حکاما بعد أن استضعفوا فی الأرض.

و لا شکّ فی أنّه کان فی بنی إسرائیل- حتی فی زمن موسی علیه السّلام- أشخاص عرفوا بفسقهم و کفرهم، لکنّ الحکم کان بید المؤمنین الصالحین، (و بهذا یمکن دفع ما أشکل به البعض علی هذا التّفسیر) و یظهر أن التّفسیر الثّالث أقرب إلی الصواب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۰

۲- الذین وعدهم اللّه باستخلاف الأرض:

لقد وعد اللّه المؤمنین ذوی الأعمال الصالحة بالاستخلاف فی الأرض و تمکینهم من نشر دینهم و تمتعهم بالأمن الکامل، فما هی خصائص هؤلاء الموعودین بالاستخلاف؟

هناک اختلاف بهذا الصدد بین المفسّرین: یری البعض من المفسّرین أنّ الوعد بالاستخلاف خاصّ بأصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذین استخلفهم اللّه فی الأرض فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. (و لا یقصد بالأرض جمیعها، بل هو مفهوم یطلق علی الجزء و الکل).

و یری آخرون أنّه خاصّ بالخلفاء الأربعة الذین خلفوا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و یری البعض أنّ مفهومه واسع یشمل جمیع المسلمین الذین اتصفوا بهذه الصفات.

و یری آخرون أنّه إشارة إلی حکومة المهدی (عج) الذی یخضع له الشرق و الغرب فی العالم، و یجری حکم الحقّ فی عهده فی جمیع أرجاء العالم، و یزول الاضطراب و الخوف و الحرب و تتحقق للبشریة عبادة اللّه النقیة من کلّ أنواع الشرک.

و لا ریب فی أنّ هذه الآیة تشمل المسلمین الأوائل، کما أنّ حکومة المهدی (عج) مصداق لها، إذ یتفق المسلمون کافة من شیعة و سنة علی أن المهدی (عج) یملأ الأرض عدلا و قسطا بعد أن ملئت جورا و ظلما.

و مع کل هذا لا مانع من تعمیمها. و ینتج من ذلک تثبیت أسس الإیمان و العمل الصالح بین المسلمین فی کلّ عصر و زمان، و أنّ لهم الغلبة و الحکم ذا الأسس الثابتة.

أمّا قول البعض: إنّ کلمة «الأرض» مطلقة و غیر محددة، و تشمل کلّ الأرض، و بذلک تنحصر بحکومة المهدی (أرواحنا له الفداء)، فهو لا ینسجم مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۱

عبارة کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ لأن خلافة و حکومة السابقین بالتأکید لم تشمل الأرض کلها.

و إضافة إلی ذلک فإنّ سبب نزول هذه الآیة یبیّن لنا- علی أقلّ تقدیر- وقوع مثل هذا الحکم فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (رغم حدوثه فی أواخر حیاته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم).

و نقولها ثانیة: إنّ نتیجة جهود جمیع الأنبیاء و المرسلین حصول حکم یسوده التوحید و الأمن الکامل و العبادة الخالیة من أیّ نوع من الشرک، و ذلک حین ظهور المهدی (عج)، و هو من سلالة الأنبیاء علیهم السّلام و حفید النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هو المقصود فی هذا الحدیث الذی تناقله جمیع المسلمین

عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لو لم یبق من الدنیا إلّا یوم لطوّل اللّه ذلک الیوم حتی یلی رجل من عترتی، اسمه اسمی، یملأ الأرض عدلا و قسطا کما ملئت ظلما و جورا»[۱۰۲].

و ممّا یجدر ذکره هنا قول العلّامة الطبرسی فی تفسیر هذه الآیة: روی عن أهل بیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول هذه الآیة:

«إنّها فی المهدی من آل محمد»[۱۰۳].

و ذکر تفسیر «روح المعانی» و تفاسیر عدیدة

لمؤلفین شیعة عن الإمام السجاد علیه السّلام فی تفسیر الآیة موضع البحث أنه قال: «هم و اللّه شیعتنا- أهل البیت- یفعل اللّه ذلک بهم علی یدی رجل منّا، و هو مهدی هذه الأمة یملأ الأرض عدلا و قسطا کما ملئت ظلما و جورا، و هو الذی قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیه لو لم یبق من الدنیا إلّا یوم ...».

و کما قلنا، لا تعنی هذه التفاسیر حصر معنی هذه الآیة، بل بیان مصداقها التام، و ممّا یؤسف له عدم انتباه بعض المفسّرین- کالآلوسی فی روح البیان- إلی هذه المسألة، فرفضوا هذه الأحادیث.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۲

و

روی القرطبی المفسّر المشهور من أهل السنة عن المقداد بن الأسود عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «ما علی ظهر الأرض بیت حجر و لا مدر إلّا أدخله اللّه کلمة الإسلام»[۱۰۴].

و للحصول علی إیضاح أکثر حول حکومة المهدیّ (عج) و شرح أدلتها فی کتب علماء السنة و الشیعة، یراجع تفسیر الآیة (۳۳) من سورة التوبة.

۳- الهدف النهائی عبادة خالصة:

إنّ مفهوم عبارة یَعْبُدُونَنِی لا یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً من الناحیة الأدبیة سواء کانت جملة حالیة أم مستقبلیة[۱۰۵]، هو أن الهدف النهائی إعداد حکومة عادلة راسخة الأسس، ینتشر فیها الحقّ و الأمن و الاطمئنان، و تکون ذات تحصینات أسسها العبودیة للّه و توحیده على نحو ما ذکرته آیة قرآنیة أخرى تذکر الغایة من الخلق وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ ۱۰۶].

عبادة هدفها السامی تربیة البشر و تسامی أنفسهم. عبادة لا یحتاج اللّه إلیها، و إنّما یحتاج إلیها البشر لطیّ مراحل تکاملهم الإنسانی.

و على هذا فإنّ الفکر الإسلامی لیس کالأفکار المادیة التی تتوخى مکاسب مادیة و رفاهیة فی الحیاة، بل تکون للحیاة المادیة قیمة فی الإسلام إن أصبحت وسیلة لتحقیق هدف معنوی سام، فالاهتمام بکون العبادة خالیة من شوائب الشرک نافیة للأهواء الزّائفة، یعنی أنّه لا یمکن تحقق هذه العبادة الصافیة إلّا بتشکیل حکومة عادلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۳

هذا و یمکن کسب مجموعة من الناس إلى جانب الحقّ بالتربیة و التعلیم و التبلیغ المستمر، و لا یمکن تعمیم هذه الحالة فی المجتمع إلّا بتشکیل حکومة عادلة یقودها المؤمنون الصالحون، و لهذا سعى الأنبیاء إلى تشکیل مثل هذه الحکومة خاصّة الرّسول الأکرم صلّى اللّه علیه و آله و سلّم، فبمجرّد وصوله صلّى اللّه علیه و آله و سلّم إلى المدینة المنورة، و فی أوّل فرصة، شکّل نموذجا لها.

و یمکن الاستنتاج من ذلک أنّ جمیع الجهود- من حرب و سلام و برامج تثقیفیة و اقتصادیة و عسکریة- تنصّب فی ظلّ هذه الحکومة فی مسیرة العبودیة للّه الخالیة من کل شائبة من شوائب الشرک.

و لا بدّ من القول: إنّه لا یعنی خلو الأرض من المذنبین و المنحرفین فی ظلّ حکومة الصالحین المؤمنین الذین یمکّنهم اللّه من نشر الحقّ و العدل، و عبادته عبادة خالیة من صور الشرک، بل مفهوم هذه الحکومة هو أنها تدار من قبل المؤمنین الصالحین، و الصفة السائدة فی المجتمع هی خلوه من الشرک. و بما أن الإنسان خلق حرّا، فإن مجال الانحراف موجود حتى فی أفضل المجتمعات الإنسانیة (فتأملوا جیدا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۴

الآیتان [سورة النور (۲۴): الآیات ۵۶ الى ۵۷]

اشارة

وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۵۶) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِیرُ (۵۷)

التّفسیر

استحالة الفرار من حکومته تعالى:

وعدت الآیة السابقة المؤمنین الصالحین بالخلافة فی الأرض، و تعبئ هاتان الآیتان الناس للتمهید لهذه الحکومة، و خلال نفیها وجود حواجز کبیرة لهذا العمل، تضمن هی بذاتها نجاحه. و فی الحقیقة أن إحدى هاتین الآیتین بیّنت المقتضی، بینما نفت الثّانیة المانع، فهی تقول أوّلا: وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ.

و هی الوسیلة التی توثق الصلة بین الخالق و المخلوق، و تقرّب الناس إلی بارئهم، و تمنع عنهم الفحشاء و المنکر.

وَ آتُوا الزَّکاةَ و هی الوسیلة التی تربط الإنسان بأخیه الإنسان، و تقلل الفواصل بینهما، و تقوی ارتباطهما العاطفی.

و بشکل عام یکون فی کلّ شیء تبعا للرسول: وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ طاعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۵

تکونون بسببها من المؤمنین الصالحین الجدیرین بقیادة الحکم فی الأرض لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ و تکونون لائقین لحمل رأیة الحقّ و العدل.

و إذا احتملتم أن الأعداء الأقویاء المعاندین یمنعوکم من تحقق ما وعدکم اللّه إیّاه، فذلک غیر ممکن، لأن قادر علی کلّ شیء، و لا یحجب إرادته شیء، و لهذا لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ فهؤلاء الکفار لا یستطیعون الفرار من عقاب اللّه و عذابه فی الأرض، و لا یقتصر ذلک علی الدنیا فقط، بل أنّهم فی الآخرة مَأْواهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِیرُ.

و کلمة «معجزین» جمع «معجز»، المشتقّة من الإعجاز بمعنی نفاذ القدرة، و أحیانا یتابع المرء شخصا یفر من یدیه، و لا یمکنه القبض علیه و قد خرج من سلطته فهو یعجزه، لهذا استعملت کلمة «معجز» بهذا المعنی، و کذلک تشیر الآیة السابقة إلی المعنی ذاته، و مفهومها أنّکم لا یمکنکم الفرار من حکومة اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۶

الآیات [سورة النور (۲۴): الآیات ۵۸ الی ۶۰]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِیَسْتَأْذِنْکُمُ الَّذِینَ مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ وَ الَّذِینَ لَمْ یَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْکُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِینَ تَضَعُونَ ثِیابَکُمْ مِنَ الظَّهِیرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَکُمْ لَیْسَ عَلَیْکُمْ وَ لا عَلَیْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَیْکُمْ بَعْضُکُمْ عَلی بَعْضٍ کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۵۸) وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْکُمُ الْحُلُمَ فَلْیَسْتَأْذِنُوا کَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ آیاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۵۹) وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِی لا یَرْجُونَ نِکاحاً فَلَیْسَ عَلَیْهِنَّ جُناحٌ أَنْ یَضَعْنَ ثِیابَهُنَّ غَیْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِینَةٍ وَ أَنْ یَسْتَعْفِفْنَ خَیْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۶۰)

التّفسیر

آداب الدخول إلی المکان الخاصّ بالوالدین:

إنّ أهم مسألة تابعتها هذه السورة- کما ذکرنا- هی مسألة العفاف العام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۷

و مکافحة کل انحطاط خلقی، بأبعاده المختلفة.

و قد تناولت الآیات- موضع البحث- إحدی المسائل التی ترتبط بهذه المسألة، و شرحت خصائصها، و هی استئذان الأطفال البالغین و غیر البالغین للدخول إلی الغرفة المخصصة للزوجین.

فتقول أوّلا: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِیَسْتَأْذِنْکُمُ الَّذِینَ مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ وَ الَّذِینَ لَمْ یَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْکُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فیجب علی عبیدکم و أطفالکم الاستئذان فی ثلاث أوقات مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِینَ تَضَعُونَ ثِیابَکُمْ مِنَ الظَّهِیرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ.

«الظهیرة» تعنی کما یقول «الراغب الإصفهانی» فی مفرداته «و الفیروزآبادی» فی القاموس المحیط: منتصف النهار و قریب الظهر حیث ینزع الناس عادة الملابس الإضافیة، و قد یختلی الزوج بزوجته.

ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ أی هذه ثلاث أوقات للخلوة خاصّة بکم.

«العورة» مشتقّة من «العار»، أی: العیب. و أطلق العرب علی العضو التناسلی العورة، لأنّ الکشف عنه عار.

کما تعنی العورة الشقّ الذی فی الجدار أو الثوب، و أحیانا تعنی العیب بشکل عامّ.

و علی کلّ فإنّ إطلاق کلمة (العورة) علی هذه الأوقات الثلاثة بسبب کون الناس فی حالة خاصّة خلال هذه الأوقات الثلاثة، حیث لا یرتدون الملابس التی یرتدونها فی الأوقات الأخری.

و طبیعی أنّ المخاطب هنا هم أولیاء الأطفال لیعلموهم هذه الأصول، لأنّ الأطفال لم یبلغوا بعد سنّ التکلیف لتشملهم الواجبات الشرعیة.

کما أنّ عمومیة الآیة تعنی شمولها الأطفال البنین و البنات، و کلمة «الّذین» التی هی لجمع المذکر السالم، لا تمنع أن یکون مفهوم الآیة عاما، لأنّ هذه العبارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۸

استعملت فی کثیر من الموارد و قصد بها المجموع، کما فی آیة وجوب الصوم، فلفظ «الّذین» هناک یعمّ المسلمین کافة (سورة البقرة الآیة ۸۳).

و لا بدّ من القول بأنّ هذه الآیة تتحدّث عن أطفال ممیّزین یعرفون القضایا الجنسیة، و یعلمون ماذا تعنی العورة. لهذا أمرتهم بالاستئذان عند الدخول إلی غرفة الوالدین، و هم یدرکون سبب هذا الاستئذان، و جاءت عبارة «ثلاث عورات» شاهدا آخرا علی هذا المعنی و لکن هل أن الحکم المتعلق بمن ملکت أیدیکم یختص بالعبید الذکور منهم أو یشمل الإماء و الجواری، هناک أحادیث مختلفة فی هذا المجال، و یمکن ترجیح الأحادیث التی تؤید ظاهر الآیة، أی شمولها الغلمان و الجواری.

و تختتم الآیة بالقول: لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ فلا حرج و لا إثم علیکم و علیهم إذا دخلوا بدون استئذان فی غیر هذه الأوقات الثلاثة، أجل: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

کلمة طَوَّافُونَ مشتقة من «الطواف» بمعنی الدوران حول شیء ما، و قد جاءت بصیغة مبالغة لتأکید تعدد الطواف.

و بما أنّ عبارة بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ جاءت بعد کلمة طَوَّافُونَ فإنّ مفهوم الجملة یکون: إنه مسموح لکم بالطواف حول بعضکم فی غیر هذه الأوقات الثلاثة، و لکم أن تتزاوروا فیما بینکم و یخدم بعضکم بعضا.

و کما قال «الفاضل المقداد» فی کنز العرفان، فإنّ هذه العبارة بمنزلة دلیل علی عدم ضرورة الاستئذان فی غیر هذه الأوقات، لأنّ المسألة تتعقد إن رغبتم فی الاستئذان کلّ مرّة[۱۰۷].

و بیّنت الآیة التالیة الحکم بالنسبة للبالغین، حیث تقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۹

وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

و کلمة «الحلم» علی وزن «کتب» بمعنی العقل و الکنایة عن البلوغ، الذی یعتبر توأما لطفرة عقلیة و فکریة، و مرحلة جدیدة فی حیاة الإنسان.

و قیل أنّ الحلم بمعنی الرؤیا، فهی کنایة عن احتلام الشباب حین البلوغ.

و علی کلّ حال یستفاد من الآیة السابقة، أنّ الحکم بالنسبة للبالغین یختلف عنه بالنسبة للأطفال غیر البالغین، لأنّ أولئک یجب علیهم استئذان الوالدین فی الأوقات الثلاثة فقط، لأنّ حیاتهم قد امتزجت مع حیاة والدیهم بدرجة یستحیل بها الاستئذان کلّ مرة، و کما

أنّهم لم یعرفوا المشاعر الجنسیة بعد. أمّا الشباب البالغ، فهم مکلّفون فی جمیع الأوقات بالاستئذان حین الدخول علی الوالدین.

و یخصّ هـذا الحکم المکان المخصّص لاستراحة الوالدین. أمّا إذا کان فی غرفة عامّة یجلس فیها آخرون أیضا، فلا حاجة للاستئذان منهما بالدخول.

و الجدیر بالذکر إنّ عبارة کَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ إشارة إلی الکبار الذین یستأذنون من الوالدین حین الدخول إلی غرفتهما. و قد أردفت الآیة الشباب الذین بلغوا الرشد بهؤلاء، الکبار.

و تقول الآیة فی الختام للتأکید و الاهتمام الفائق: کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ آیاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ

و هذا هو نفس التعبیر الذی جاء فی آخر الآیة السابقة دون تغییر، باستثناء استعمال الآیة السابقة کلمة «الآیات» و هذه استعملت کلمة «آیاته» و لا فرق فی معناهما.

و سنتناول بحث میزات هذا الحکم، و کذلک فلسفته فی ذیل تفسیر هذه الآیات.

و فی آخر الآیات- موضع البحث- استثناء لحکم الحجاب، حیث استثنت النساء العجائز و المسنّات من هـذا الحکم، فقال: وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِی لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶۰

یَرْجُونَ نِکاحاً فَلَیْسَ عَلَیْهِنَّ جُناحٌ أَنْ یَضَعْنَ ثِیابَهُنَّ غَیْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِینَةٍ.

و لهذا الاستثناء شرطان:

أولهما: وصول هذه العجائز إلی عمر لا یتوقع أن یتزوجن فیه، أو بعبارة أخری: أن یفقدن کلّ جاذبیة أنثویة.

و ثانیهما: ألا یتزیّن بزینـة بعد رفع حجابهنّ، و یتّضح بذلک أنّه لا ضیر فی رفع الحجاب بعد إجراء هذین الشرطین. و لهذا استثناهنّ الإسلام من حکم الحجاب.

کما أنّ- من الواضح- أنّه لا یقصد برفع العجائز للحجاب إباحة خلع الملابس کلها و التعرّی، بل خلع اللباس الفوقانی فقط. و کما عبّرت عنه بعض الأحادیث بالجلباب و الخمار.

و

جاء فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام فی شرح هـذه الآیة: «الخمار و الجلباب»، قلت: بین یدی من کان؟ قال: «بین یدی من کان غیر متبرجة بزینة».[۱۰۸]

کما وردت أحادیث أخری عن أهل البیت علیهم السّلام بهذا المضمون أو ما یقاربه ۱۰۹].

و تضیف الآیة فی ختامها وَ أَنْ یَسْتَعْفِفْنَ خَیْرٌ لَهُنَ

فالإسلام یرغب فی أن تکون المرأة أکثر عفّة و أنقی و أطهر. و لتحذیر النساء اللواتی یسئن الاستفادة من هذه الحریة، و یتحدثن أو یتصرفن بأسلوب لا یلیق بشرفهنّ، تقول الآیة محذرة إیّاهن: وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ کلّما تقولونه یسمعه اللّه، و ما تکتمون فی قلوبکم أو فی أذهانکم یعلمه اللّه أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶۱

بحثان

۱- فلسفة الاستئذان و المفاسد المترتبة علی عدم الالتزام به

لا یکفی اللجوء إلى القوة لاقتلاع جذور المفاسد الاجتماعیة کالأعمال المخلة بالشرف، و لا یرجى نتیجة مرضیة من العقاب فقط فی القضایا الاجتماعیة.

و إنّما یستوجب اتباع عدة أمور کالتثقیف الإسلامی، و تعلیم آدابه الخلقیة، و اتباع السبل الصحیحة فی القضایا العاطفیة. و إلى جانب هذه الأمور یکون العقاب کعامل لردع المنحرفین عن الطریق السوی.

و لهذا السبب بدأت سورة النور- و هی فی الواقع سورة العفاف و الشرف- بالحدیث عن جلد الرجال الزناة و النساء الزانیات، کما تحدثت فی نفس الوقت عن تسهیل الزواج و رعایة الحجاب الإسلامی، و النهی عن النظر بلذة و تحریم اتهام الآخرین بشرفهم و ناموسهم، و أخیرا استئذان الأبناء حین الدخول إلى غرفة الوالدین.

و هذا یدلّ على عدم إغفال الإسلام أی من هذه التفاصیل التی لها علاقة بمسألة العفاف و الشرف.

و على الخدم أن یستأذنوا حین الدخول إلى غرفة الزوجین الخاصّة اللذین یخدمانهما، کذلک یستوجب على الأطفال البالغین عدم الدخول إلى الغرفة المذکورة دون استئذان، و تعلیم الأطفال غیر البالغین الذین یرتبطون ارتباطا وثیقا بالوالدین، أن لا یدخلوا غرفة الوالدین دون استئذان و على الأقل فی الأوقات الثلاثة التی أشارت إلیها الآیة «قبل صلوة الفجر و حین الظهر و من بعد صلوة العشاء».

و هذا نوع من الأدب الإسلامی، رغم قلّة الالتزام به مع کلّ الأسف. و رغم بیان القرآن ذلک بصراحة فی الآیات السابقة. فإنّه من النادر أن یتناوله الخطباء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۲

و الکتّاب، و لا یعرف سبب إهمال هذا الحکم القرآنی الحاسم؟! و رغم أنّ ظاهر الآیة یوجب هذا الحکم، و حتى لو اعتبرناه مستحبا فإنّه ینبغی الحدیث عنه، و بحث جزئیاته و رغم تصور بعض السذج بأن الأطفال لا یدرکون شیئا عن هذه الأمور، و أن خدم البیت لا یهتمون بها، فإنّ الثابت هو حساسیة الأطفال بالنسبة لهذه القضیة (فکیف بالنسبة للکبار). و قد یؤدی إهمال الوالدین و رؤیة الأطفال لمشاهد ممنوعة إلى انحرافهم خلقیا و أحیانا إلى إصابتهم بأمراض نفسیة.

و قد واجهنا أشخاصا اعترفوا بأنّهم أثیروا جنسیا، أو أصیبوا بعقد نفسیة لمشاهد جنسیة من هذا القبیل و قد شبّت فی قلوب البعض منهم نار الحقد على الوالدین، إلى درجة الرغبة فی قتلهما، أو الانتحار. کلّ ذلک بسبب الأثر الذی زرعه فی نفوسهم إهمال الوالدین، و عدم حیطتهم حین الممارسة الجنسیة أو مقدماتها.

هنا تتضح لنا قیمة و أهمیة هذا الحکم الإسلامی الذی بلغه العلماء المعاصرون، بینما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرنا. و هنا نجد لزاما علینا توصیة الآباء و الأمهات بالجدیة فی الحیاة الزوجیة، و تعلیم أولادهم الاستئذان حین الدخول إلى غرفتهما، و اجتناب کلّ عمل قد یثیر الأولاد و یحرکهم. و من هذه الأعمال مبیت الزوجین بغرفة فیها أولاد بالغون، فیجب اجتناب ذلک بالقدر الممکن. و أن یعلما بأنّ هذه الأمور تؤثّر بشکل کبیر فی مستقبل أولادهما.

و ممّا یلفت النظر

حدیث للرّسول صلّى اللّه علیه و آله و سلّم یقول فیه «إیّاکم و أن یجامع الرجل امرأته و الصبی فی المهد ینظر إلیهما»[۱۱۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۳

۲- حکم الحجاب بالنسبة للنساء العجائز:

لا-خلاف فی أصل هذا الاستثناء فی حکم الحجاب بین علماء المسلمین، لأنّ القرآن صریح فی هذا الأمر. إلّا أنّ هناک أقوالا فی خصوصیات هذا الحکم.

فبالنسبة لعمر هؤلاء النسوة، و الحد الذى يجب أن يبلغنه ليكنّ من القواعد، هناك أقوال. فبعض الأحاديث الإسلامية تنص على أنّ المراد هو

«المسنّة».[۱۱۱]

بينما فسرته أحاديث أخرى ب

«القعود عن النكاح»[۱۱۲].

و لكن عدد من المفسّرين يرى أنّها تعنى «النساء اللواتى لا يطمئن، فيصلن إلى مرحلة عدم الحمل. و لا يرغب أحد فى الزواج بهنّ»[۱۱۳].

و يبدو أنّ جميع هذه التعابير تشير إلى واقع محدد، هو بلوغهن سنا لا يتزوجن عادة. و قد يحدث نادرا أن يقدم بعضهن على الزواج فى هذا العمر.

كما جاءت تعابير مختلفة فى الأحاديث الإسلامية حول المقدار من الجسم المسموح بكشفه، لأنّ القرآن الكريم ذكر المسألة بشكل عام فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ و يقصد بهذه الثياب الملابس الفوقانية.

و جاء فى بعض الأحاديث جوابا على سؤال: أى الثياب يجوز وضعها؟

يجيب الإمام الصادق عليه السّلام

«الجلباب»[۱۱۴].

بينما ذكر حديث آخر أنه

«الجلباب و الخمار»[۱۱۵].

و يبدو أنّ هذه الأحاديث غير متناقضة، و قصدها جواز الكشف عن رؤوسهن، و عدم تغطية الشعر و الرقبة و الوجه. كما قالت أحاديث أخرى- و قال فقهاء- بشمول الاستثناء إلى حدّ الرسغ. و لا سند لدينا يسمح بأكثر من ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۴

و على كلّ حال، فإنّ ذلك مسموح لهنّ بشرط أن يكنّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ و أن يخفين الزينة التى تحت الحجاب، و التى من الواجب إخفاؤها من قبل جميع النساء، و أن لا يرتدين الملابس التى تنزين بها النساء، و التى تثير انتباه الآخرين.

و بتعبير آخر: إنّه مسموح لهنّ بعدم التحجب على أن يخرجن إلى الشارع بلباس محتشم و دون تزين بزينة.

و هذا كلّه ليس حكما إلزاميا. إذ أنّ الأفضل لهن أن يخرجن محجبات كالنساء الأخريات، كما جاء فى آخر الآية المذكورة، إذ هنّ معرضات إلى الزلل- و إن كان نادرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۵

الآية [سورة النور (۲۴): آية ۶۱]

اشارة

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۱)

التّفسیر

البیوت التی یسمح بالأکل فیها:

تحدثت الآیات السابقة عن الاستئذان فی أوقات معینة، أو بشکل عام حین الدخول إلی المنزل الخاصّ بالأب و الأم.

أمّا الآیة موضع البحث فإنّها استثناء لهذا الحکم، حیث یجوز للبعض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۶

و بشروط معینة، الدخول إلی منازل الأقرباء و أمثالهم، و حتّی أنّه یجوز لهم الأکل فیها دون استئذان، حیث تقول هذه الآیة أولا لَیْسَ عَلَی الْأَعْمی حَرَجٌ وَ لا عَلَی الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَی الْمَرِیضِ حَرَجٌ

لأنّ أهل المدینة کانوا- کما ورد بصراحة فی بعض الأحادیث- و قبل قبولهم الإسلام، یمنعون الأعمی و الأعرج و المریض من المشارکة فی مائدتهم، و یتنفّرون من هذا العمل.

و علی عکس ذلک کانت مجموعة منهم بعد إسلامها، تفرد لمثل هؤلاء موائد خاصّة، لیس لاحتقارهم المشارکة معهم علی مائدة واحدة، و إنّما لأسباب إنسانیة، فالأعمی قد لا یری الغذاء الجید فی المائدة، و هم یرونه، و یأکلونه، و هذا خلاف الخلق السلیم، و کذلک الأمر بالنسبة للأعرج و المریض، حیث یحتمل تأخرهما عن الغذاء، و تقدم السالمین علیهما. و لهذا کلّه لم یشارکوهم الغذاء علی مائدة واحدة. و لهذا کان الأعمی و الأعرج و المریض یسحب نفسه حتی لا یزعج الآخرین بشیء. و یعتبر الواحد منهم نفسه مذنبا إن شارک السالمین غذاءهم فی مائدة واحدة.

و قد استفسر من الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن هذا الموضوع، فنزلت الآیة السابقة التی نصّت علی عدم وجود مانع من مشارکة الأعمی و الأعرج و المریض للصحیح غذاءه علی مائدة واحدة.[۱۱۶] و قد فسر آخرون هذه العبارة باستثناء هذه الفئات الثلاث من حکم الجهاد، أو أنّ القصد أنّه مسموح لکم استصحاب العاجزین معکم إلی الأحد عشر بیتا التی أشارت إلیها الآیة فی آخرها، لیشارکوکم فی غذائکم.

إلّا أن هذین التفسیرین- کما یبدو- بعیدان عن قصد الآیة، و لا ینسجمان مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۷

ظاهرها. (فتأملوا جیدا).

ثمّ یضیف القرآن المجید وَ لا عَلی أَنْفُسِکُمْ أَنْ تَأْکُلُوا مِنْ بُیُوتِکُمْ

و المقصود بعبارة بیوتکم الأبناء أو الزوجات.

أَوْ بُیُوتِ آبائِکُمْ

أَوْ بُیُوتِ أُمَّهاتِکُمْ

أَوْ بُیُوتِ إِخْوانِکُمْ

أَوْ بُیُوتِ إِخْوانِکُمْ

أَوْ بُیُوتِ أَعْمامِکُمْ

أَوْ بُیُوتِ عَمَّاتِکُمْ

أَوْ بُیُوتِ أَخْوالِکُمْ

أَوْ بُیُوتِ خالاتِکُمْ

أَوْ ما مَلَکْتُمْ مَفاتِحَهُ

أَوْ صَدِیقِکُمْ

بالطبع فإنّ هذا الحکم له شروط و إیضاحات سیأتی ذکرها فی آخر تفسیر الآیة.

ثمّ تضیف الآیة لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْکُلُوا جَمِیعاً أَوْ أَشْتاتاً.

ذکر أنّ مجموعة من المسلمین کانوا یمتنعون عن الأکل منفردین، بل کانوا یبقون جیاعا لمدّة حتی یجدوا من یشارکهم غذاءهم، فعلمهم القرآن المجید أن تناول الغذاء مسموح بصورة جماعیة أو فردیة.[۱۱۷] و یری البعض: إنّ مجموعة من العرب کانت تقدم غذاء الضیف علی حدة احتراما له، و لا یشارکونه الغذاء (حتی لا یخجل أثناء تناوله الطعام).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۸

لقد رفعت الآیة المذکورة هذه التقالید و اعتبروا غیر محمودة[۱۱۸].

و قال آخرون: إنّ البعض کان یری عدم جواز تناول الأغنیاء الغذاء مع الفقراء، و المحافظة علی الفروق الطبقیة حتی علی مائدة الطعام. لهذا نفی القرآن المجید هذا التقلید الخاطئ و الظالم بذکره العبارة السابقة.[۱۱۹] و لا مانع من احتواء الآیة السابقة لکلّ هذه المعانی.

ثمّ تشیر الآیة إلی أحد التعالیم الأخلاقیة فتقول: فَإِذا دَخَلْتُمْ بُیُوتاً فَسَلِّمُوا عَلی أَنْفُسِکُمْ تَحِیَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَکَةً طَیِّبَةً و اختتمت بهذه العبارة کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ

و قال بعض المفسّرین: إنّ المقصود من عبارة «بیوتا» فی هذه الآیة، هی البیوت الأحد عشرة المذکورة سابقا.

و قال آخرون: إنّها المساجد.

و لکن یبدو أنها عامّة، تشمل جمیع البیوت، سواء الأحد عشر بیتا التی یجوز للمرء الأکل فیها، أو غیرها کبیوت الأصدقاء و الأقرباء. حیث لا یوجد دلیل علی تضییق المفهوم الواسع لهذه الآیة.

و لکن ما هو المقصود من عبارة فَسَلِّمُوا عَلی أَنْفُسِکُمْ

نجد هنا عددا من التفاسیر: حیث یری البعض من المفسّرین أنّه سلام البعض علی البعض، مثلما جاء فی قصّة بنی إسرائیل (سورة البقرة الآیة ۵۴) فَاقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ

و رأی آخرون أنّه یعنی السّلام علی الزوجة و الأبناء و الأهل، حیث هم بمنزلة النفس، لهذا استخدمت الآیة تعبیر «الأنفس»، کما جاء هذا التعبیر أیضا فی آیة المباهلة (سورة آل عمران الآیة ۶۱). و هذا یبیّن لنا أن قرب الشخص من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۹

الآخر قد یصل إلی درجة أنّه یکون کنفسه، أی یکونان کنفس واحدة، مثلما کان علیّ علیه السّلام من الرّسول محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و یری بعض المفسّرین أنّ الآیة السابقة أشارت إلی بیوت لم یسکنها أحد، حیث یحیی المرء نفسه عند دخولها فیقول: السّلام علیکم من قبل ربّنا. أو: السّلام علینا و علی عباد اللّه الصالحین. و نری عدم وجود تناقض بین هذه التفاسیر. حیث یجب السّلام عند الدخول إلی أیّ منزل کان، و یجب أن یسلم المؤمنون بعضهم علی بعض، و یسلّم أهل المنزل أحدهم علی الآخر. و أمّا إذا لم یجد أحدا فی المنزل فیحیی المرء نفسه، حیث تعود هذه التحیات بالسلامة علی الإنسان ذاته.

لهذا نقرأ

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام یجیب فیه علی سؤال یخصّ تفسیر هذه الآیة فیقول: «هو تسلیم الرجل علی أهل البیت حین یدخل ثمّ یردون علیه فهو سلامکم علی أنفسکم».[۱۲۰]

و

فی حـدیث عن الباقر علیه السّـلام أیضا، یقول فیه: «إذا دخل الرجل منکم بیته فإنّ کان فیه فلیسـلم علیه، و إن لم یکن فیه أحـد فلیقل: السّلام علینا من عند ربّنا، یقول اللّه عزّ و جلّ «تحیّة من عند اللّه مبارکة طیبة»[۱۲۱].

بحوث

۱- هل أن تناول غذاء الآخرین غیر منوط بإذنهم؟

کما شاهـدنا فی الآیـة السابقـة، أنّ اللّه تعالی سـمح أن یأکل الإنسان فی بیوت أقربائه المقرّبین و بعض الأصـدقاء و أمثالهم، و أصـبح عدد هذه البیوت أحد عشر بیتا. و لم تشترط الآیة استئذانهم لتناول الطعام، و لا شک فی عدم وجوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۰

الاستئـذان. إذ أنّ بوجود الإذن بالأکل یمکن تناول الغذاء العائد لأی شـخص، و بذلک لا تبقی میزة لهذه المجموعة المؤلفة من أحد عشر بیتا.

فهل یشترط توفر الرضی القلبی بتناول الغذاء «و کما یقال من شاهد الحال».

بسبب الصلة الوثیقة بین الطرفین إن ظاهر اطلاق الآیة ینفی هذا الشرط، إذ یکفی احتمال حصول رضاه فقط و عادة یحصل الرضی.

أمّا إذا کانت الحالـة تؤکّد عدم رضـی صاحب الطعام فی تناول غذاءه، فبالرغم من اطلاق الآیة و شـمولها لهذا المورد أیضا، إلّا أنّه لا یبعد انصراف الآیة عن هذا المورد، و خاصّة أنّ مثل هذا المورد نادر الوقوع، و من المعلوم أنّ الإطلاقات لا تشمل الأفراد النادرة.

و علی هذا فإنّ الآیة المذکورة تخصص الآیات و الرّوایات التی تشترط فی التصرف بأموال الآخرین إحراز رضاهم فی دائرة محدودة. و تکرر القول بأن هذا التخصیص. فی نطاق محدد، أی تناول الغذاء بمقدار الحاجة تناولا بعیدا عن الإسراف.

و الذی ذکرناه متعارف علیه بین کبار فقهائنا. و جاء بعضه بصراحة فی الأحادیث الإسلامیة، حیث ذکر روایة معتبرة

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال عند الاستفسار منه عبارة «أو صدیقکم»

الوارد فی هذه الآیة

قال علیه السّلام: «هو و اللّه الرجل یدخل بیت صدیقه فیأکل بغیر إذنه»[۱۲۲].

کما ذکرت أحادیث أخری بهـذا المضـمون، أکّدت أنّه لا یشترط الاستئذان فی هذه الحالات. (و بالطبع لا یوجد خلاف بین الفقهاء حول عدم جواز الأکل من غذاء الآخرین دون استئذان، الذی نهت عنه الآیة بصراحة مع العلم بهذا النهی.

لهذا أهملت الآیة السابقة ذکره).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۱

و حول عبارتی «عدم الإفساد» و «عدم الإسراف» فقد صرحت بعض الأحادیث بذلک أیضا[۱۲۳].

و لا بـد من الإشارة إلی أنّه ورد حدیث فی هذا الباب یقول بأنّه یمکن الاسـتفادة فقط من غذاء خاص و لیس أیّ غذاء، إلّا أنّ الفقهاء أعرضوا عن هذا الحدیث لضعف سنده.

و استثنی بعض المفسّـرین الأطعمـة الممتـازة التی یحفظهـا صـاحب المنزل لنفسه، أو لضـیوفه المقربین، أو لمناسـبات خاصّـة. و هـذا الاستثناء غیر بعید، بسبب انصراف الآیة عنه ۱۲۴].

۲- فلسفة هذا الحکم الإسلامی:

يمكن أن يثير هذا الحكم تساؤلا بالمقارنة مع الأحكام الشديدة التى نصت عليها التعاليم فى تحريم الغصب، هو: كيف سمح الإسلام بذلك، رغم تشديده فى قضية التصرف بأموال الآخرين؟! إنّنا نرى أنّ هذا السؤال ينسجم مع طبيعة البيئات المادية تماما، كالمجتمع الغربى، حيث يطرد الأبناء من المنزل حين البلوغ! و لا يهتمون بالوالدين حين إصابتهم بالعجز أو الشيخوخة! حيث نشاهد الأبناء هناك، لا يثمنون أتعاب الوالدين و لا يشفقون عليهما، بسبب تسلط التفكير المادى على العلاقات الاجتماعية فى الغرب! و لا خبر هناك عن العاطفة الإنسانية و الشفقة! إلّا أنّ التعاليم الإسلامية و العواطف الإنسانية التى تمتد جذورها فى المجتمع الإسلامى، خاصّة بين الأهل و الأقرباء و الأصدقاء، قد ميّزت المجتمع الإسلامى عن المجتمع الغربى.

و الواقع أنّ الإسلام جعل علاقات الأقرباء و الأصدقاء أسمى من الأمور المادية، و هذا يعكسه الصفاء و الود اللذان يسودان المجتمع الإسلامى الحقيقى، حيث يبتعد أفراد هذا المجتمع عن الصفات غير المحمودة كالبخل و حب الذات.

و لا ريب أن أحكام الغصب تكون نافذة فى غير هذه الدائرة. و لكن الإسلام فى داخل هذه الدائرة يفضل القضايا العاطفية و الروابط الإنسانية، فهى التى ينبغى أن تسود العلاقات بين الأقرباء و الأصدقاء جميعا.

۳- من هو الصديق؟

لا شك أنّ للصداقة مفهوما واسعا، و هى تعنى هنا بالتأكيد الأصدقاء الخاصين الذين تربطهم علاقات وثيقة، و هذه العلاقة توجب التزاور فيما بينهم و الأكل من طعام الآخر، و لا حاجة هنا- كما أسلفنا- إلى إحراز الرضا، بل يجوز الأكل بمجرّد عدم العلم بعدم رضا صاحب الغذاء.

لهذا قال بعض المفسّرين حول هذه الآية: الصديق هو الذى يصدق فى علاقاته معك.

و قيل: الصديق هو الذى يصدّق ظاهره باطنه و كما يبدو فإن الجميع يشيرون إلى حقيقة واحدة.

و يتّضح من هذه العبارة أنّ الذى لا يسمح بمشاركة صديقة لغذائه، لا يمكن اعتباره صديقا! و من المناسب هنا أن نقرأ حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام ضمّ مفهوم الصداقة الواسع و شروطها الكاملة:

«لا تكون الصداقة إلّا بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فأنسبه إلى الصداقة، و من لم يكن فيه شيء منها فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة.

فأوّلاها: أن تكون سريرته و علانيته لك واحدة.

و الثّانى: أن يرى زينك زينه و شينك شينه.

و الثّالثة: أن لا تغيره عليك ولاية و لا مال.

و الرّابعة: أن لا تمنعك شيئا تناله مقدرته.

و الخامسة: و هى تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات».[۱۲۵]

۴- تفسير عبارة ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ

جاء فى بعض أسباب النّزول أنّ المسلمين فى صدر الإسلام كانوا يسلمون أحيانا مفاتيح منازلهم إلى الذين لا يشملهم الجهاد. حين

توجههم إلى الجهاد فى سبيل اللّه. و كانوا يسمحون له بتناول الطعام من هذه المنازل، إلّا أنّ هؤلاء كانوا يمتنعون من الأكل فى هذه المنازل خوفا من ارتكاب إثم فى ذلك.

و حسب هذه الرواية فإنّ المراد من عبارة ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ هو ما ذكرنا.[۱۲۶] و روى عن ابن عباس أيضا أن قصد الآية هو وكيل الشخص على ما يملكه من ماء و بستان و مواشى، حيث سمح له بتناول الفاكهة من بستان الموكّل بقدر حاجته و الشرب من حليب ماشيته.

كما فسّر آخرون ذلك بحارس المخزن الذى يسمح له بتناول قليل من المواد الغذائية الموجودة فى هذا المخزن.

و مع ملاحظة سائر المجموعات التى ورد ذكرها فى هذه الآية، يبدو أنّها تقصد الذين يسلمون مفاتيح منازلهم لأشخاص مؤثقين و مقربين لهم، و هذا التقارب الوثيق بينهما يؤدى إلى أن يكونوا فى صف الأقرباء و الأصدقاء المقرّبين، و سواء كان وكيلا رسميا أم لا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۴

و إذا لاحظنا أنّ بعض الأحاديث تفسر عبارة ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ بالوكيل الذى يتعهد بالإشراف على أموال شخص آخر، فإنّ ذلك مصداق للآية و ليس لتحديد معناها و حصرها بهذا التّفسير.

۵- السّلام و التحية

«التحية» مشتقّة من الحياة، بمعنى الدعاء لسلامة الآخرين، سواء كانت بشكل السّلام عليكم، أو السّلام علينا، أو قولا كحيّاك اللّه، فكل هذا إعراب عن المحبة التى يبديها الشخص عند لقائه بآخر، و تدعى بالتحية.

و يقصد بعبارة تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً. ربط التحية باللّه بشكل ما، أى «السّلام عليكم»، سلام اللّه عليكم، أو نسأل اللّه أن يسلمكم، إذ أن كل موحّد يرى ربط الدعاء باللّه، و طبيعى أنّ الدعاء بهذا الشكل يكون مباركا و طيبا. (تناولنا بحث السّلام و أهميته و وجوب الردّ على التحية، فى تفسير الآية ۸۶ من سورة النساء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۵

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۶۲ الى ۶۴]

اشارة

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶۲) لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۳) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۴)

سبب النّزول

ذكرت عدة أسباب لنزول الآية الأولى من الآيات أعلاه، فقد جاء فى بعض الأحاديث أنّ هذه الآية نزلت فى «حنظلة بن أبى عياش» الذى صادف زواجه ليلة معركة أحد، و كان الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يشاور أصحابه حول هذه المعركة، فجاءه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۶

حنظلة یستأذنه المبیت عند زوجته، فأجازه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قد بکّر حنظلة للالتحاق بصفوف المسلمین، و کان علی عجل من أمره بحیث لم یتمکن من الاغتسال. و دخل المعرکة علی هذه الحال، و قاتل حتی قتل فی سبیل اللّه.

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیه «رأیت الملائکة تغسل حنظلة بماء المزن فی صحائف فضة بین السماء و الأرض».

لهذا سمی حنظلة بعدها ب «غسیل الملائکة»[۱۲۷].

و ذکر سبب آخر لنزول هذه الآیة حیث «روی ابن إسحاق» فی سبب نزول هذه الآیات أنّه لما سمع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتجمع قریش و الأحزاب علی حربه- و ما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق علی المدینة. فعمل فیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ترغیبا للمسلمین فی الأجر، و عمل معه المسلمون فیه فدأب و دأبوا، و أبطأ عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عن المسلمین فی عملهم ذلک رجال من المنافقین لا ینجزون إلّا الیسیر من العمل، أو یتسللون إلی أهلیهم بغیر علم رسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا إذنه، و جعل الرجل من المسلمین إذا نابته النائبة من الحاجة التی لا بدّ منها، یذکر ذلک لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یسأله فی اللحوق بحاجته فیأذن له.

فإذا قضی حاجته، رجع إلی ما کان فیه من عمله رغبة فی الخیر و احتسابا له، فأنزل اللّه تعالی فی أولئک المؤمنین إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ... الآیة، ثمّ قال تعالی یعنی المنافقین الذین کانوا یتسللون من العمل و یذهبون بغیر إذن من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَیْنَکُمْ ... الآیة[۱۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۷

التّفسیر

لا تترکوا النبیّ وحده!

قال بعض المفسّرین حول علاقة هذه الآیات بسابقتها، و فیهم المرحوم «الطبرسی» فی مجمع البیان «و سید قطب» فی تفسیر فی ظلال القرآن: بما أنّ الآیات السابقة طرحت للبحث جانبا من أسلوب التعامل مع الأصدقاء و الأقرباء.

فإنّ الآیات موضع البحث تناولت کیفیة تعامل المسلمین مع قائدهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قد أکّدت التزام الوقار أمامه، و طاعته و عدم ترک الجماعة إلّا بإذنه.

و یمکن أیضا أنّ الآیات السابقة تحدثت عن ضرورة طاعة اللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و من علائم طاعته عدم ترکه أو القیام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآیات- موضع البحث- حول هذا الموضوع. فتقول أوّلا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا کانُوا مَعَهُ عَلی أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ یَذْهَبُوا حَتَّی یَسْتَأْذِنُوهُ

و المراد من «أمر جامع» کلّ عمل یقتضی اجتماع الناس فیه و یتطلب تعاونهم، سواء کان عملا استشاریا، أو مسألة حول الجهاد و مقاتلة العدو، أو صلاة جمعة فی الظروف الاستثنائیة و أمثالها.

و إذا وجدنا أنّ بعض المفسّرین، قالوا بأنّه یعنی الاستشارة أو الجهاد أو صلاة الجمعة أو العید فنقول: إنّهم عکسوا جانبا من معانی هذه الآیة. و أسباب النّزول السابقة أیضا هی من مصادیق هذا الحکم العام.

و فی الحقیقة إنّ هذا من شروط النظم و التنظیم و لا یمکن لأیة مجموعة منظمة منسجمة أن تهمله، فغیاب شخص واحد قد تترتب

عليه صعوبات و يلحق ضررا بالهدف النهائى، خاصّة إذا كان قائد الجماعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلامه مطاع.

كما يجب الانتباه إلى أنّ الإذن لا يعنى الاستئذان الشكلى لقضاء الشخص أعماله الخاصّة و التفرغ لتجارته. و إنّما أن يكون صادقا فى الاستئذان. فإذا وجد القائد أن غياب هذا الشخص يلحق ضررا، فمن حقه أن لا يأذن له، و عليه أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۸

يضحى بمصلحته من أجل هدف أسمى. لهذا تضيف الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ

و من الواضح أنّ هؤلاء المؤمنين لا يستأذن أحدهم لعمل بسيط فى حين أنّهم اجتمعوا لأمر أهم، و المقصود من عبارة «شأنهم»، الأعمال الضرورية و المهمّة فقط.

و من جهة أخرى، لا تعنى إذن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للأشخاص دون دراسة جوانب المسألة و أثر حضور و غياب الأفراد، بل جاء هذا التعبير ليطلق يد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن لا يأذن لأحد حين إحساسه بضرورة حضوره فى الجماعة.

و دليل هذا الكلام ما جاء فى الآية (۴۳) من سورة التوبة حيث يلام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لإذنه بعض الأفراد: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ

و تبيّن هذه الآية كيف أوجبت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التحقيق قبل الإذن، و أن يلاحظ أبعاد هذه المسؤولية الإلهية.

و تقول الآية فى الختام: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و هنا يطرح سؤال: ما الغرض من هذا الاستغفار؟ فهل هم مذنبون رغم أخذهم الإذن من الرّسول بالمغادرة، كى يحتاجوا إلى استغفاره لهم؟

و للجواب على هذا السؤال هناك وجهان:

أحدهما: أن يستغفر لهم تنبيها على أنّ الأولى أن لا يقع الاستئذان منهم و إن أذن لهم، لأن ذلك يعتبر تقديم الشخص لمصلحته الخاصّة على مصلحة المسلمين، و لا يخلو هذا الأمر من «الترك الاولى» و لذا يحتاج الى الاستغفار (كالاستغفار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۹

على عمل مكروه).[۱۲۹] كما تبيّن هذه العبارة ضرورة عدم الاستئذان بالقدر الممكن. و اتباع التضحية و الإيثار حتى لا يتورطوا بارتكاب عمل تركه أولى كمغادرة الجماعة لعمل بسيط.

و الوجه الثانى: يحتمل أنّه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة لتمسّكهم بآداب اللّه تعالى فى الاستئذان.[۱۳۰] و لكن نرى عدم وجود تناقض بين هذين الوجهين، كما أنّه من الطبيعى أن لا تخصّ هذه التعاليم التنظيمية الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه فقط. و إنّما هى واجبة الإتباع إزاء كلّ قائد إلهى، سواء كان نبيا أم إماما أم عالما نائبا لهما، حيث يتوقف مصير المسلمين على هذه الطاعة. كما يحتمه- إضافة إلى القرآن- العقل و المنطق، لأنّ الاستمرار التنظيم يتوقف على رعاية هذه المبادئ، و لا يمكن إدارة المجتمع بدونها.

و المدهش تفسير كبار مفسّرى أهل السنة لهذه الآية بأنّها دليل على جواز الاجتهاد و توقف الحكم على رأى المجتهد. و لا يخفى أنّ الاجتهاد المطروح فى مباحث الأصول و الفقه يخص الأحكام الشرعية، و لا يتعلق بالاجتهاد فى الموضوعات حيث أنّ الاجتهاد فى الموضوع لا يقبل الإنكار، فكل قائد جيش أو مدير دائرة أو مشرف على جماعة يجتهد فى القضايا الإجرائية الخاصّة بدائرة عمله. و ليس هذا دليلا على إمكان الاجتهاد فى الأحكام الشرعية العامّة بإيجاب حكم بدعوى المصلحة العامّة، أو نفى حكم أو تشريع آخر.

ثمّ بيّنت الآية التالية حكما آخر له علاقة بتعاليم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۸۰

تقول: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً.

إن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما يدعوكم للاجتماع، فإنه لا بدّ من أن يكون لمسألة إلهية مهمّة، لهذا يجب عليكم الاهتمام بدعوته، و الالتزام بتعاليمه، و ألّا تهملوها، فأمره من اللّه و دعوته منه سبحانه و تعالى.

ثمّ تضيف الآية قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

«يتسللون» مشتقّة من «تسلل»، و تعنى سحب الشيء من موضعه، كأنّ يقال:

سلّ السيف من غمده. كما يطلق على الذين يفرون سرّا من مكان تجمع محدد لهم، كلمة «متسللون».

«لواذا» مشتقّة من «ملاوذة» بمعنى الاختفاء، و تعنى هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار، أو بتعبير آخر: استغفال الآخرين ثمّ الفرار من مكان تجمعهم، و هذا ما كان يقوم به المنافقون حينما يوجه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الدعوة للجهاد أو لأمر مهم آخر، يقول لهم القرآن المجيد: «إنّ عملكم النفاقى هذا إن خفى على الناس فإنّه لا يخفى على اللّه، و سيعاقبكم على هذه الأعمال و مخالفتكم لاوامر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الدنيا و الآخرة».

ماذا يقصد به «فتنة» هنا؟ قال بعض المفسّرين: إنّها القتل، و آخرون قالوا: إنّها تعنى الضلال، كما قال بعضهم: إنّها السلطان الظالم، و قيل: إنّها بلاء النفاق الذى يتوغل فى قلب الإنسان.

كما يحتمل أن تعنى الفتنة الفتن الاجتماعية و مشاكلها، و أن يسود الهرج و المرج فى المجتمع، و ابتلائه بالهزيمة، و سائر الفتن الاخرى التى يبتلى بها المجتمع فى حالة عصيانه أوامر قائده.

و على كلّ حال فالفتنة ذات مفهوم واسع يضمّ جميع هذه الأمور و غيرها، مثلما يضمّ العذاب الأليم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة أو كليهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۱

و ممّا يجب الانتباه إليه فى تفسير الآية محل البحث وجود احتمالين إضافة إلى ما ذكرناه هما:

الأوّل: أنّ القصد من قوله تعالى: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً أنّكم عند ما تدعو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فينبغى أن تدعوه بأدب و احترام يليق بمنزلته، و ليس كما تدعون بعضكم بعضا، و السبب يكمن فى أنّ جماعة من المسلمين لم يتعلموا- بعد- الآداب الإسلامية فى التعامل مع الآخرين، فكانوا ينادون الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعبارة: يا محمّد! و هذا لا يليق بنداء قائد إلهى كبير.

و تستهدف الآية تعليم الناس أن يدعوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعبارات رزينة و بأسلوب مؤدب، كأن يدعوه: يا رسول اللّه، أو: يا نبىّ اللّه.

و هذا التّفسير ورد فى بعض الرّوايات أيضا إلّا أنّه لا ينسجم مع ظاهر الآية التى تحدثت عن الاستجابة لدعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وجوب عدم الغياب عن الجماعة دون استئذان منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أن نقول: إن كلا المعنيين مقصودان للآية واحدة، و أن مفهوم الآية شامل للتفسيرين الأوّل و الثّانى.

و الآخر: و يبدو أنّه ضعيف جدّا، و هو ألّا تجعلوا دعاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أحد الأشخاص و لعنه له كدعاء بعضكم على بعض [۱۳۱]، لأنّ دعاء و لعن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتمّ وفق حساب دقيق و خاضع للتعاليم الإلهية، و هو نافذ حتما. و لكن ليس لهذا التّفسير علاقة بأوّل الآية و نهايتها، و لم يرد حديث إسلامى خاصّ به، و لهذا السبب لا يمكن قبوله.

و تجدر الإشارة إلى أنّ علماء الأصول فسّروا عبارة فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ بأنّ أوامر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تدل على الوجوب، إلّا أنّ هذا الاستدلال فيه نواقص أشير إليها فى علم الأصول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۲

و آخر آيـة من الآيـات موضع البحث،- و التى هى آخر سورة النور- إشـارة بليغـة إلى قضـية المبـدأ و المعـاد التى تعتبر دافعـا لامتثال التعـاليم الإلهيـة جميعـا، و ضـمان لتنفيـذ جميع الأـوامر و النواهى، و منهـا الـتى وردت فى هـذه السورة حيث تقول: أَلا ـ إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

فـإنّ اللّه العالم بكلّ شـىء قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ أى يعلم أسـلوبكم فى التعامل و أعمالكم و اعتقادكم و مقاصـدكم، فكلّها واضـحة له سبحانه و تعالى. و ثابتة فى لوحة علمه وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا و يجازيهم بها وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

و ممّا يلفت النظر تأكيد الآية ثلاث مرات على علم اللّه بأعمال البشـر. ليشـعر الإنسان أنّه مراقب بشكل دائم، و لا يخفى على اللّه شىء من أعمال هذا الإنسان أبدا. و لهذا الإعتقاد أثره التربوى الكبير و يضمن سيطرة الإنسان على نفسه إزاء الانحرافات و الذنوب.

إلهى، نوّر قلوبنـا بنور العلم و الإيمـان، و قوّ مشـكاة وجودنـا للمحافظـة على هـذا الإيمـان، لنجتاز صـراطك المسـتقيم الـذى سار عليه أنبياؤك لكسب رضاك، و لتحفظنا بلطفك من كل انحراف.

ربّاه، نوّر أبصارنا بنور العفة، و قلوبنا بنور المعرفة، و أرواحنا بنور التقوى، و نور وجودنا كله بنور الهداية، و احفظنا من التيه و الغفلة، و أعذنا من وساوس الشيطان.

إلهى، وطّد أركان حكومـة العدل الإسـلامى من أجل تنفيذ حدودك، و احفظ مجتمعنا من الزلل و السـقوط فى هاوية الرذيلة، إنك على كل شىء قدير.

نهاية سورة النور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۸۳

سورة الفرقان

اشارة

مكيّة و عدد آياتها سبع و سبعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۸۵

«سورة الفرقان»

محتوى سورة الفرقان:

هـذه السورة بحكم كونها من السور المكية[۱۳۲]، فإن أكثر ارتكازها على المسائل المتعلقـة بالمبـدأ و المعاد، و بيان نبوة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المواجهة مع الشرك و المشركين، و الإنذار من العواقب الوخيمة للكفر و عبادة الأصنام و الذنوب.

و تتألف هـذه السورة فى مجملها من ثلاثـة أقسام:- القسم الأوّل: الـذى يشـكل مطلع هـذه السورة، يدحض منطق المشـركين بشدّة، و يسـتعرض ذرائعهم، و يردّ عليهـا، و يخوفهم من عـذاب اللّه، و حسـاب يوم القيامـة، و عقوبـات جهنم الأليمـة، و يـذكّرهم بمقاطع من قصـص الأقوام الماضيـة الـذين افترسـتهم على أثر مخالفتهم لدعوة الأنبياء- الشدائد و البلايا و العقوبات، و ذلك على سبيل الدرس و العبرة لهؤلاء المشركين المعاندين.

فى القسم الثانى: لأجل إكمال هذا البحث، تبحث الآيات بعض دلائل التوحيد و مظاهر عظمة اللّه فى الأكوان، بدءا من ضـياء الشمس إلى ظلمة و عتمة الليل، و هبوب الرياح، و نزول الأمطار، و إحياء الأراضـى الموات، و خلق السـماوات و الأرضين فى ستة أيّام، و خلق الشمس و القمر، و سيرهما المنظم فى الأفلاك السماوية، و ما شابه ذلك.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۸۶

فالقسم الأوّل فی الحقیقة- یحدد مفهوم (لا إله)، و القسم الثّانی یحدد مفهوم (إلّا اللّه).

القسم الثالث: مختصر جذاب جدّا، و جامع لصفات المؤمنین الحقیقیین (عباد الرحمن) و عباد اللّه المخلصین، فی مقایسة مع الکفار المتعصبین الذین ذکروا فی القسم الأوّل، فتتحدد منزلة کل من الفریقین تماما. کما أنّنا سنری أنّ هذه الصفات مجموعة من الاعتقادیات و الأعمال الصالحة و مکافحة الشهوات، و امتلاک الوعی الکافی، و الإحساس و الالتزام بالمسؤولیة الاجتماعیة.

و اسم هذه السورة قد أخذ من آیتها الأولی، التی تعبر عن القرآن ب «الفرقان» (الفاصل بین الحق و الباطل).

فضیلة سورة الفرقان:

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن «من قرأ سورة الفرقان (و تدبّر فی محتواها و عمل بما ورد فیها) بعث یوم القیامة و هو مؤمن أن الساعة آتیة لا ریب فیها، و أن اللّه یبعث من فی القبور».[۱۳۳]

(أی مؤمن بأن الساعة ...) و

نقل فی حدیث آخر عن إسحاق بن عمار عن الإمام أبی الحسن موسی بن جعفر علیه السّلام أنّه قال له: «یا ابن عمار، لا تدع قراءة سورة تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ فإن من قرأها فی کل لیلة لم یعذبه اللّه أبدا، و لم یحاسبه، و کان منزله فی الفردوس الأعلی».[۱۳۴]

کما أننا سنری- فی تفسیر هذه السورة- أن کلّ من تلا بحق صفات عباد اللّه المخلصین المبیّنة فی السورة کما هی، و امتزجت بقلبه و روحه، و بنی صفاته أعماله طبقا لها فإنّ منزله الفردوس الأعلی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۸۷

الآیتان [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۱ الی ۲]

اشارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۱ ؛ ص۱۸۷

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً (۱) الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً (۲)

التّفسیر

المقیاس الأعلی للمعرفة:

تبدأ هذه السورة بجملة «تبارک» من مادة «برکة»، و نعلم أنّ الشیء ذو برکة، عبارة عن أنّه ذو دوام و خیر و نفع کامل. یقول تعالی: تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً.[۱۳۵] الملفت للانتباه أنّ ثبوت البرکة لذات الخالق عزّ و جلّ بواسطة نزول

الفرقان، یعنی أنّه أنزل قرآنا فاصلا بین الحق و الباطل، و هذا یدل علی أن أعظم الخیر و البرکة هی أن یمتلک الإنسان بیده وسیلة المعرفة- معرفة الحق من الباطل.

و هنا وقفة مهمّة أیضا، و هی أنّ کلمة «الفرقان» وردت بمعنی «القرآن» تارة، و تارة بمعنی معجزات ممیزة للحق من الباطل، و وردت بمعنی «التوراة» تارة

أخری.

عن القرآن و الفرقان، أ هما شیئان، أو شیء واحد؟ فقال: «القرآن: جملة الکتاب، و الفرقان: المحکم الواجب العمل به».

و لا- منافاة بین هذا القول و بین أنّ الفرقان هو جمیع آیات القرآن، و المراد هو أنّ آیات القرآن المحکمات تعتبر مصداقا أوضح و أبرز للفرقان و للتمییز بین الحق و الباطل.

و لموهبة «الفرقان و المعرفة» أهمیة بالغة بحیث أنّ القرآن المجید ذکرها کمکافأة عظیمة للمتقین: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً ..[۱۳۶].

نعم، فبدون التقوی لا یمکن تمییز الحق من الباطل، لأنّ الأهواء و الذنوب تلقی علی وجه الحق حجابا کثیفا، و تعمی بصر ابن آدم و بصیرته.

و علی أیة حال، فالقرآن المجید هو الفرقان الأعلی.

القرآن وسیلة لتشخیص الحق من الباطل فی نظام حیاة البشر.

القرآن وسیلة لتشخیص الحق من الباطل فی مسیر الحیاة الفردیة و الاجتماعیة، و هو المیزان و المحک علی صعید الأفکار و العقائد، و القوانین، و الأحکام، و الآداب، و الأخلاق.

و هذه الوقفة مهمّة أیضا، حیث یقول تعالی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ نعم، فمقام العبودیة و الانقیاد التامّین هو الذی یحقق اللیاقة لنزول الفرقان، و لتلقی موازین الحق و الباطل.

و النکتة الأخیرة التی طرحت فی هذه الآیة، تبیّن أنّ هدف الفرقان النهائی هو إنذار العالمین، الإنذار الذی نتیجته الإحساس بالمسؤولیة تجاه التکالیف الملقاة علی عاتق الإنسان. و عبارة «للعالمین» کاشفة عن أنّ شریعة الإسلام

عالمیة لا تختص بمنطقة معینة، و لا بقوم أو عنصر معینین. بل إن بعضهم قد استدل منها علی خاتمیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و ذلک أن «العالمین» کما أنّها غیر محدودة من حیث المکان، فکذلک مطلقة من حیث الزمان أیضا، ف «العالمین» تشمل جمیع الأجیال القادمة أیضا (فتأمل!).

الآیة الثّانیة تصف اللّه الذی نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هی الأساس، و البقیة نتائج و فروع لها، فتقول أوّلا: الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۱۳۷].

نعم، إنّه الحاکم علی کل عالم الوجود، و کل السماوات و الأرض، فلا شیء خارج عن سلطة حکومته، و بالالتفات إلی تقدم «له» علی «ملک السموات» الذی هو دلیل الحصر فی اللغة العربیة یستفاد أن الحکومة الواقعیة و الحاکمیة المطلقة فی السماوات و الأرض منحصرة به تبارک و تعالی، ذلک لأن حکومته عامّة و خالدة و واقعیة، بخلاف حاکمیة غیره التی هی جزئیة و متزلزلة. و فی نفس الوقت فهی مرتبطة به سبحانه.

ثمّ یتناول تفنید عقائد المشرکین واحدة بعد الأخری، فیقول تعالی: وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً[۱۳۸].

و کما قلنا من قبل فإن الحاجة إلی الولد من حیث الأصل إمّا لأجل الاستفادة من طاقته البشریة فی الأعمال، أو لأجل الاستعانة به حال

الضعف و العجز و الشیخوخة، أو لأجل الاستئناس به فی حال الوحدة، و من المعلوم أن ذاته المقدسة عزّ و جلّ منزّهة عن أی واحد من تلک الاحتیاجات.

و بهذا الترتیب، یدحض اعتقاد النصاری بأنّ «المسیح» علیه السّلام ابن اللّه، أو ما

یعتقده الیهود أنّ «العزیر» ابن اللّه، و کذلک یدحض اعتقاد مشرکی العرب، ثمّ یضیف جل ذکره: وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ فإذا کان لمشرکی العرب اعتقاد بوجود الشریک أو الشرکاء، و یتوهمونهم شرکاء للّه فی العبادة، و یتوسلون بهم من أجل الشفاعة، و یسألونهم المعونة لقضاء حوائجهم، حتی آل بهم الأمر أنّهم کانوا یقولون بصراحة- حین التلبیة للحج- جملا قبیحة ملوثة بالشرک، مثل: «لبیک لا شریک لک، إلّا شریکا هو لک، تملکه و ما ملک». فإنّ القرآن یدین و یدحض کل هذه الأوهام.

و یقول تعالی فی العبارة الأخیرة: وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً.

لیس کمثل اعتقاد الثنویین الذین یعتقدون بأن قسما من موجودات هذا العالم مخلوقات «اللّه»، و أن قسما منها مخلوقات «الشیطان».

و بهذا الترتیب کانوا یقسمون الخلق و الخلقة بین اللّه و الشیطان، ذلک لأنّهم کانوا یتوهمون الدنیا مجموعة من «الخیر» و «الشر»، و الحال ألّا شیء فی عالم الوجود إلّا الخیر من وجهة نظر الموحد الحق. فإذا رأینا شرّا، فإمّا أن یکون ذا جنبة «نسبیة» أو «عدمیة»، أو أن یکون نتیجة لأعمالنا (فتأمل)!.

بحث

تقدیر الموجودات بدقة:

لیس نظام العالم الدقیق و المتقن- وحده- من الدلائل المحکمة علی معرفة اللّه و توحیده، فتقدیراته الدقیقة أیضا دلیل واضح آخر، أنّنا لا یمکن أن نعتبر مقادیر موجودات هذا العالم المختلفة، و کمیتها و کیفیتها المحسوبة، معلولة للصدفة التی لا تتوافق مع حساب الاحتمالات.

و قد تقصّی العلماء الأمر فی هذا الصدد، و أزاحوا الستار عن أسراره

المدهشة التی تذهل فکر الإنسان، و تترک لسانه یترنم بتمجید عظمة و قدرة الخالق بلا اختیار.

و نعرض لکم- ها هنا- جانبا من ذلک:

یقول العلماء: لو کانت قشرة الأرض أسمک ممّا هی علیه الآن بمقدار بضعة أقدام، لما وجد غاز «الاوکسجین» الذی یعتبر المادة الاصلیة للحیاة، و لو کانت البحار أعمق من عمقها الفعلی عدّة أقدام لا متصت جمیع ما فی الجو من الکاربون و الاوکسجین، و لما أمکن وجود حیاة لحیوان و نبات علی سطح الأرض، و یحتمل أن تقوم قشرة الأرض و البحار بامتصاص کل الأوکسجین، و کان علی الإنسان أن ینتظر نمو النباتات التی تلفظ الأوکسجین.

و طبقا للحسابات الدقیقة فی هذا المجال یتّضح أنّ للأوکسجین مصادر مختلفة، و لکن مهما کان مصدره فإنّ کمیته مطابقة لاحتیاجاتنا بالضبط.

و لو کانت طبقة الغلاف الجوی أرق ممّا هی علیه الآن ممّا هو، فإنّ بعض الشهب التی تحترق کل یوم بالملایین فی الهواء الخارجی، کانت تضرب جمیع أجزاء الکرة الأرضیة، و هی تسیر بسرعة تتراوح بین ستة أمیال و أربعین میلا فی الثّانیة، و کان فی إمکانها أن

تشعل كل شـىء قابل للاحتراق. و لو كانت تسير ببطء رصاصـة البندقية لارتطمت كلها بالأرض و لكانت العاقبة مروعة، و لو تعرض الإنسان للاصطدام بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، لتحول الى رماد لمجرّد حرارته.

الغلاف الجوى سـميك بالقدر اللازم بالضـبط لمرور الأشـعة ذات التأثير الكيموى التى يحتاج إليها الزرع و التى تقتل الجراثيم و تنتج الفيتامينات، دون أن تضـر بالإنسان، إلّا إذا عرّض نفسه لها مدة أطول من اللازم. و على الرغم من الانبعاثات الغازية من اعماق الأرض طول الدهور، و معظمها سام، فإنّ الهواء باق دون تلوث فى الواقع، و دون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.

إنّ الجهاز الذى يقوم بهذه الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۲

أى البحار و المحيطات التى هى مصـدر الحياة و الغذاء و المطر و المناخ المعتدل، و أخيرا اسـتمد الإنسان نفسه جميع تلك المقومات الحيويـة منهما، فدع من يدرك ذلك يقف فى روعة أمام عظمته تعالى، و يقرّ بواجباته شاكرا! إنّ التعادل العجيب بين الأوكسـجين و ثـانى أوكسـيد الكـاربون فيمـا يتعلق بالحيـاة الحيوانيـة، و عـالم النبـات كلّه، قـد استرعت أنظار كل العالم المفكر، غير أن أهميـة ثانى أوكسـيد الكاربون لم يدركها الجميع بعد، و ثانى أوكسـيد الكاربون هو الغاز المألوف فى تعبئة ماء الصودا، و هو غاز ثقيل، و لحسن الحظ يعلق بالأرض، و لا يتمّ فصـله إلى أوكسجين و كاربون إلّا بصعوبة كبيرة، و إذا أشعلت نارا، فإنّ الخشب- الذى يتكون غالبا من الأوكسـجين و الكـاربون و الهيـدروجين- يتحلل تحت تأثير الحرارة و يتحـد الكاربون مع الأوكسـجين بشـدّة، و ينتـج من ذلك ثانى أوكسـيد الكاربون. و الهيـدروجين الـذى يطلق يتحـد بمثل تلك الشـدة مع الأوكسـجين فنحصل على بخار الماء. و معظم الدخان هو كاربون خالص غير متحد مع غيره.

و حين يتنفس رجـل فإنّه يسـتنشق الأوكسـجين فيتلقاه الـدم، و يقوم بتوزيعه الى جميع أنحاء جسـمه، و يقوم هـذا الأوكسـجين يحرق طعامه فى كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة واطئة نسبيا، النتيجة هى ثانى أوكسيد الكاربون و بخار الماء.

و بـذلك يتسلل ثـانى أوكسـيد الكـاربون إلى رئـتيه، و يعـود الى الجو مرّة اخرى من خلالـ الزفير، و كـلّ كـائن حيوانى حى يمتص الاوكسجين و يلفظ ثانى اوكسيد الكاربون.

ما أعجب نظام الضوابط و الموازنات الذى منع أى حيوان- مهما يكن من وحشـيته، أو ضخامته، أو مكره- من السيطرة على العالم غير أنّ الإنسـان وحـده بامكـانه قلب هـذا التوازن الـذى للطبيعـة بنقله النباتـات و الحيوانـات من مكان إلى آخر، و سـرعان ما يلقى جزاءه القاسى على ذلك ماثلا فى تطورات آفات الحيوان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۳

و الحشرات و النبات.

و الواقعـة الآتيـة مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان، فمنذ سـنوات عديدة زرع نوع من الصـبّار (الكاكتوس) فى أستراليـا كسياج وقـائى. و لكن هـذا الزرع مضـى فى سبيله حتى غطى مساحـة تقرب من مساحـة إنجلترا، و زاحم أهالى المـدن و القرى، و أتلف مزارعهم، و حال دون الزراعـة، و لم يجـد الأهالى وسـيلة لصده عن الانتشار، و صارت أستراليا فى خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصـامت، يتقـدم فى سبيله دون عائق! و طاف علماء الحشـرات بنواحى العالم حتى وجـدوا أخيرا حشـرة لا تعيش إلّا على ذلك الصبار و لا تتغذى بغيره، و هى سريعة الانتشار و ليس لها عدو يعوقها فى أستراليا. و ما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبّار، ثمّ تراجعت، و لم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية، تكفى لصد الصبّار عن الانتشار إلى الأبد.

و هكذا توافرت الضوابط و الموازين، و كانت دائما مجدية.

و لمـاذا لم تسيطر بعوضـة الملاريـا على العـالم و تقتـل بـذلك النـوع البشـرى مع أن البعوض متوفر فى جميع أنحـاء العـالم حـتى فى القطبين؟ و مثل ذلـك أيضـا يمكن أن يقـال عن بعوضـة الحمى الصـفراء الـتى تقـدمت شـمالا فى أحـد الفصـول حـتى وصـلت إلى

نیویورک.

و لماذا لم تتطور ذبابة «تسی تسی» «الذبابة المنومة» حتی تستطیع أن تعیش فی غیر مناطقها الحارة، و تمحو الجنس البشری من الوجود؟ یکفی أن یذکر الإنسان الطاعون و الأوبئة و الجراثیم الفتاکة التی لم یکن منها وقاء حتی الأمس القریب، و أن یذکر کذلک ما کان له من جهل تام بقواعد الوقایة الصحیة، لیعلم أن بقاء الجنس البشری معها یدعو حقا إلی الدهشة![۱۳۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۴

الآیات [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۳ الی ۶]

اشارة

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ وَ لا یَمْلِکُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا یَمْلِکُونَ مَوْتاً وَ لا حَیاةً وَ لا نُشُوراً (۳) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا إِفْکٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَیْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً (۴) وَ قالُوا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَها فَهِیَ تُمْلی عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلاً (۵) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِی یَعْلَمُ السِّرَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ کانَ غَفُوراً رَحِیماً (۶)

التّفسیر

الاتهامات المتعددة الألوان:

هذه الآیات- فی الحقیقة- تتمة للبحث الذی ورد فی الآیات السابقة، فی مسألة المواجهة مع الشرک و عبادة الأوثان. ثمّ فی الادعاءات الواهیة لعبدة الأوثان، و اتهاماتهم فیما یتعلق بالقرآن، و شخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الآیة الأولی- فی الواقع- تجر المشرکین إلی المحاکمة، و لتحریک وجدانهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۵

تقول بمنطق واضح و بسیط، و فی نفس الوقت قاطع و داحض: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا یَخْلُقُونَ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ

المعبود الحقیقی هو خالق عالم الوجود، و لا یدعی المشرکون هذا الادعاء لأوثانهم، بل یعتقدون أنّها مخلوقة للّه.

و بعد، فما ذا یمکن أن تکون دوافعهم لعبادة الأوثان التی لا تملک لنفسها نفعا و لا ضرا، و لا تملک موتا و لا حیاة و لا نشورا، فما بالک بما تستطیعه للآخرین!؟

وَ لا یَمْلِکُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا یَمْلِکُونَ مَوْتاً وَ لا حَیاةً وَ لا نُشُوراً.

و الأصول المهمّة عند الإنسان هی هذه الأمور الخمسة بالذات: النفع و الضر، و الموت، و الحیاة، و النشور.

فمن یکن بحق مالکا أصیلا لهذه الأمور، یکن بالنسبة إلینا جدیرا بالعبادة.

لکن هذه الأصنام غیر قادرة أصلا علی هذه الأمور لنفسها، فکیف ترید أن توفّر هذه الأمور لمن یعبدها من المشرکین؟! أی منطق مفتضح هذا!؟ أن ینقاد الإنسان و یتذلل علی أعتاب موجود لا اختیار له فی نفسه، فما بالک باختیاره للآخرین!؟

هذه الأوثان لیست عاجزة فی الدنیا عن حل مشکلة ما لعبدتها فحسب، بل إنّها لا یؤمل منها شیء فی الآخرة أیضا.

هذا التعبیر یدل علی أنّ هذه الفئة من المشرکین، المخاطبة فی هذه الآیات، کانت تقبل بالمعاد نوعا من القبول (المعاد الروحی لا الجسدی)، أو أن القرآن- حتی مع عدم اعتقادهم بمسألة المعاد- یتناول القضیة کمسلّمة، فیخاطبهم بشکل قاطع علی هذا الصعید، و هذا مألوف، فالإنسان أحیانا یکون أمام شخص منکر للحقیقة، لکنّه یدلی بکلامه طبقا لأفکاره هو، دون اعتناء بأفکار ذلک المنکر.

خاصّة و أنّ دليلا ضمنيا على المعاد قد كمن فى نفس الآية، لأنّ خالقا حينما يبتدع مخلوقا- و هو مالك موته و حياته و ضرّه و نفعه- لا بدّ أن يكون له هدف من خلقه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۶

و لا يمكن أن يتحقق هذا الهدف فيما يخص الناس بدون الإيمان بالنشور، ذلك لأنّه إذا انتهى بموت الإنسان كل شيء، فسوف تكون الحياة فارغة بلا معنى، و هذا يدلّ على أن ذلك الخالق لم يكن حكيما.

إذا تأملنا جيدا وجدنا مسألة «الضرر» جاءت فى الآية قبل «النفع» و ذلك لأن الإنسان ينفر من الضرر بالدرجة الأولى، و لهذا كانت جملة «دفع الضرر أولى من جلب المنفعة» أحد القوانين العقلائية.

و إذا كان «الضرر» و «النفع» و «الموت» و «الحياة» و «المنشور» جاءت بصيغة النكرة، أيضا، فلأجل بيان هذه الحقيقة، و هى أن هذه الأوثان لا تملك نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا، حتى فى مورد واحد، فما بالك بالموارد كلها!؟

و إذا ذكرت «لا يملكون» و «لا يخلقون» بصيغة «جمع المذكر العاقل» (فى حال أنّ هذه الأوثان الحجرية و الخشبية ليس لها أدنى عقل أو شعور) فذلك لأنّ هذا الخطاب لا يتعلق بالأوثان الحجرية و الخشبية فحسب، بل بالجماعة التى كانت تعبد الملائكة أو المسيح، و لأن العاقل و غير العاقل مجتمعان فى معنى هذه الجملة، فذكر الجميع بصيغة العاقل من باب «التغليب» كما فى الاصطلاح الأدبى.

أو أن الخطاب فى هذه العبارة كان طبقا لاعتقاد المخاطبين به، حتى يثبت عجزهم و عدم استطاعتهم، يعنى: إذا كنتم تعتقدون أن هذه الأوثان ذات عقل و شعور، فلما ذا لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضررا، أو أن تجلب منفعة!؟

الآية التالية- تتناول تحليلات الكفار- أو حججهم على الأصح- فى مقابل دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ

فى الواقع، إنّهم من أجل أن يلقوا عن عواتقهم مسئولية تحمل الحق- شأن كل الذين أصروا على معارضة القادة الربانيين على طول التاريخ- اتهموا الرّسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۷

صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوّلا بالافتراء و الكذب، خاصّة و أنّهم قد استخدموا لفظة «هذا» ليحقروا القرآن.

ثمّ من أجل أن يثبتوا أنّه غير قادر على الإتيان بمثل هذا الكلام- لأنّ الإتيان بمثل هذا الكلام المبين مهما يكن بحاجة إلى قدرة علمية وافرة، و ما كانوا يريدون التسليم بهذا- و من أجل أن يقولوا أيضا: إنّ هذا خطّة مدبرة و محسوبة، قالوا: إنّه لم يكن وحده فى هذا العمل، بل أعانه قوم آخرون، و هذه مؤامرة بالتأكيد، و يجب الوقوف بوجهها.

بعض المفسّرين قالوا: إنّ المقصود ب قَوْمٌ آخَرُونَ جماعة من اليهود.

و قال آخرون: إنّ المقصود بذلك ثلاثة نفر كانوا من أهل الكتاب، و هم:

«عداس» و «يسار» و «حبر» أو «جبر».

على أية حال- بما أنّ هذه المواضيع لم يكن لها وجود فى أوساط مشركى مكّة، و إنّ قسما منها مثل قصص الأنبياء الأولين كان عند اليهود و أهل الكتاب- فقد كان المشركون مضطرين الى نسبة هذه المطالب الى أهل الكتاب كى يخمدوا موجة إعجاب الناس من سماع هذه الآيات.

لكن القرآن يردّ عليهم فى جملة واحدة فقط، تلك هى: فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً.[۱۴۰] «الظلم» هنا لأنّ رجلا أمينا طاهرا و صادقا مثل الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اتّهموه بالكذب و الافتراء على اللّه، و بالاشتراك مع جماعة من أهل الكتاب. فظلموا أنفسهم و الناس أيضا.

و «الزور» هنا أن قولهم لم يكن له أساس مطلقا، لأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعاهم عدّة مرات إلى الإتيان بسورة و آيات

مثل القرآن، فعجزوا و ضعفوا أمام هذا التحدی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۸

و هذا بالذات یدل علی أن هذه الآیات لیست من صنع عقل البشر، لأنّ الأمر لو کان کذلک، لکانوا یستطیعون بمعونة جماعة الیهود و أهل الکتاب أن یأتوا بمثلها. و من هنا فإنّ عجزهم دلیل علی کذبهم، و کذبهم دلیل علی ظلمهم.

لهذا فالجملة، القصیرة فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً رد بلیغ و داحض فی مواجهة ادعاءاتهم الواهیة.

کلمة «زور» فی الأصل من «زور» (علی وزن غور) أخذت بمعنی: أعلی الصدر، ثمّ أطلقت علی کل شیء یتمایل عن حدّ الوسط، و بما أنّ «الکذب» انحرف عن الحق، و مال إلی الباطل، فقد، سمّوه «زورا».

تتناول الآیة التالیة لونا آخر من التحلیلات المنحرفة و الحجج الواهیة للمشرکین فیما یتعلق بالقرآن، فتقول: وَ قالُوا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ اکْتَتَبَها.

لا- شیء عنده من قبل نفسه، لا علم و لا ابتکار، فکیف له بالنبوّة و الوحی! إنّه استعان بآخرین، فجمع عدّة من الأساطیر القدیمة، و أطلق علیها اسم الوحی و الکتاب السماوی. و هو یستلهمها من الآخرین طیلة الیوم من أجل الوصول إلی هذا الهدف فَهِیَ تُمْلی عَلَیْهِ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا.

إنّه یتلقی المعونة لأجل هدفه فی الأوقات التی یقلّ فیها تواجد الناس، أی بکرة و عشیا.

هذا الکلام- فی الحقیقة- تفسیر و توضیح للاتهامات التی نقلت عنهم فی الآیة السابقة. إنّهم فی هذه الجملة القصیرة أرادوا أن یفرضوا علی القرآن مجموعة من نقاط الضعف:

أوّلها: أن لیس فی القرآن موضوع جدید مطلقا، بل مجموعة من الأساطیر القدیمة.

و الثّانیة: أنّ نبی الإسلام لا یستطیع الاستمرار بدعوته- حتی یوما واحدا- بدون مساعدة الآخرین، فلا بدّ أن یملوا الموضوعات علیه بکرة و عشیا، و علیه أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۹

یکتبها.

و الأخری: أنّه یعرف القراءة و الکتابة. فإذا قال: إنّنی أمّی، فهی دعوی کاذبة.

إنّهم- فی الواقع- کانوا یریدون أن یفرقوا الناس عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بواسطة هذه الأکاذیب و الاتهامات، فی الوقت الذی یعلم کل العقلاء الذین عاشوا مدّة فی ذلک المجتمع، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن قد درس عند أحد، مضافا إلی أنّه لم تکن له أیة رابطة مع جماعة الیهود و أهل الکتاب. و إذا کان یستلهم من الآخرین کل یوم بکرة و عشیا، فکیف أمکن أن یخفی علی أحد؟ فضلا عن هذا، فإن آیات القرآن کانت تنزل علیه فی السفر و الحضر، بین الناس و منفردا، و فی کل حال.

مضافا إلی کل هذا، کان القرآن مجموعة من التعلیمات الاعتقادیة، و الأحکام العملیة، و القوانین، و مجموعة من قصص الأنبیاء، و لم تکن قصص الأنبیاء لتشکل کل القرآن، مضافا إلی أنّ ما ورد من قصص الأقوام الأولین فی القرآن لم یکن له شبه لما جاء فی العهدین (التوراة و الإنجیل) المحرفین، و أساطیر العرب الخرافیة، لذلک لأنّ ما فی العهدین ملیء بالخرافات، و القرآن منزّه عنها، و لو وضعنا القرآن و العهدین جنبا إلی جنب، و قایسنا بینهما، فسوف تتجلی حقیقة الأمر جیدا.[۱۴۱] لذا فالآیة الأخیرة تصرح بصیغة الرد علی هذه الاتهامات الواهیة، فتقول:

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِی یَعْلَمُ السِّرَّ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إشارة إلی أن محتوی هذا الکتاب، و الأسرار، المتنوعة فیه من علوم و معارف و تاریخ الأقوام الأولین، و القوانین و الاحتیاجات البشریة، و حتی أسرار عالم الطبیعة و الأخبار المستقبلیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۰۰

تدل على أن ليس من صنع و متناول عقل البشر، و لم ينظم بمساعدة هذا أو ذاك.

بل بعلم الذى هو جدير بأسرار السماء و الأرض، و المحيط بكل شيء علما.

لكن مع كل هـذا، فإن القرآن يترك طريق التوبة مفتوحا أمام هؤلاء المغرضـين و المنحرفين، فيقول تبارك و تعالى فى ختام الآية إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً.

فبمقتضـى رحمته أرسـل الأنبيـاء، و أنزل الكتب السـماوية، و بمقتضـى غفوريته سـيعفو فى ظـل الإيمـان و التوبـة عن ذنوبكم الـتى لا تحصى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۰۱

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

وَ قالُوا ما لِهـذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِى فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبارَكَ الَّذِى إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (١٠)

سبب النّزول

فى رواية عن الإمام الحسن العسـكرى عليه السّلام، أنّه قال: قلت لأبى على بن محمد عليهما السّلام: هل كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يناظر اليهود و المشركين إذا عاتبوه و يحاجّهم؟ قال: مرارا كثيرة و ذلك أنّ رسول اللّه كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة، فابتـدأ عبد اللّه بن أبى أمية المخزومى فقال: يا محمد لقد ادّعيت دعوى عظيمة، و قلت مقالا هائلا، زعمت أنّك رسول ربّ العالمين، و ما ينبغى لربّ العالمين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۰۲

و خـالق الخلق أجمعين أن يكون مثلـك رسوله بشـرا مثلنـا، تأكل كما نأكل و تمشـى فى الأسواق كما نمشـى، فقال رسول اللّه: اللّهمّ أنت السامع لكل صوت، و العالم بكلّ شيء، تعلم ما قاله عبادك فأنزل اللّه عليه: يا محمد: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ ... إلى قوله تعالى وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً.[۱۴۲]

التّفسير

لم لا يملك هذا الرّسول كنوزا و جنات؟!

عرض فى الآيـات السابقـة قسم من إشـكالات الكفـار فيما يخص القرآن المجيـد، و أجيب عليها، و يعرض فى هـذه الآيات قسم آخر يتعلق بشـخص الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يجـاب عنهـا، فيقول تعـالى: وَ قـالُوا مـا لِهـذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِى فِى الْأَسْواقِ

ما هـذا النّبى الـذى يحتاج إلى الغذاء كغيره من الأفراد العاديين؟ و يمشـى فى الأسواق من أجل الكسب و التجارة و شـراء احتياجاته؟

فلیست هـذه سیرة الرسل و لا طریقـة الملوک و السـلاطین! و فی الوقت الـذی یریـد هذا الرّسول التبلیغ بالدعوة الإلهیة، و یرید أیضـا السـلطنة علی الجمیع! لقـد کان المشـرکون یرون أنّه لا یلیق بـذوی الشأن الذهاب إلی الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ینبغی أن یرسـلوا خدمهم و مأموریهم من أجل ذلک.

ثمّ أضافوا: لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَـذِیراً، فلم لم یرسل إلیه- علی الأقل- ملک من عند اللّه، شاهد علی صدق دعوته، و ینذر معه الناس!؟

حسن جـدا، لنفرض أنّنـا وافقنا علی أن رسول اللّه یمکن أن یکون إنسانا، و لکن لماذا یکون فقیرا فاقـدا للثروة و المال!؟ أَوْ یُلْقی إِلَیْهِ کَنْزٌ أَوْ تَکُونُ لَهُ جَنَّةٌ یَأْکُلُ مِنْها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۰۳

و لم یکتفوا بهذا أیضا، فقد اتهموه آخر الأمر بالجنون بما ابتنوه من استنتاج خاطئ، کما نقرأ فی ختام هذه الآیة نفسها وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً. ذلـک أنّهم کـانوا یعتقـدون أن السـحرة یسـتطیعون أن یتـدخلوا فی فکر و عقول الأفراد فیسـلبونهم قوام عقولهم! من مجموع الآیات أعلاه، یستفاد أنّ المشرکین کانت لدیهم عدّة إشکالات واهیة حول الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و کانوا یتنازلون عن مقالتهم مرحلة بعد مرحلة.

أوّلا: إنّه أساسا یجب أن یکون ملکا، و هذا الذی یأکل الطعام و یمشی فی الأسواق لیس ملکا بالضرورة.

ثمّ قالوا: حسن جدّا، إن لم یکن ملکا، فیرسل اللّه- علی الأقل- ملکا یرافقه و یعینه.

ثمّ تنـازلوا عن هـذا أیضـا، فقالوا: لنفرض أن رسول اللّه بشـر، فینبغی أن یلقی إلیه کنز من السـماء، لیکون دلیلا علی أنه موضع اهتمام اللّه.

و قـالوا فی نهایـة المطـاف: لنفرض أنه لم یکن له أیّ من تلـک المیزات، فینبغی علی الأقـل ألاـ یکون إنسانا فقیرا، فلیکن کأی مزارع مرفه، له بستان یضمن منه معیشته. لکنّه فاقد لکلّ هذا مع الأسف، و یقول إنّنی نبیّ!؟

و استنتجوا فی الختام، أنّ ادعاءه الکبیر هذا، فی مثل هذه الشرائط، دلیل علی أن لیس له عقل سلیم.

الآیة التالیة تبیّن جواب جمیع هذه الإشکالات فی عبارة موجزة: انْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلًا.

هـذه العبارة الموجزة أداء بلیغ عن هـذه الحقیقـة، فهم من خلال مجموعة من الأقوال الواهیة التی لا أساس لها وقفوا أمام دعوة الحق و القرآن- الذی محتواه شاهد ناطق علی ارتباطه باللّه- لیخفوا وجه الحقیقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۰۴

حقّا، إن مثلهم کمثل من یریـد أن یقف أمام اسـتدلالاتنا المنطقیـة من خلال حفنـة من الحجـج، الواهیـة: فنقول من دون الاجابة علیها بالتفصیل: انظر بأیة ادعاءات واهیة یریدون أن یقفوا معها أمام الدلیل المنطقی.

و هکذا کانت أقوالهم فی جمیع مواردها، لأن:

أوّلا: لماذا یجب أن یکون الرّسول من جنس الملائکة؟ بل ینبغی أن یکون قائد البشر منهم، کما یحکم به العقل و العلم، حتی یدرک جمیع آلام و رغبات و حاجات و مشـکلات و مسائل حیاة الإنسان تماما، لیکون قـدوة عملیة له علی کل المسـتویات، و حتی یسـتلهم الناس منه فی جمیع المناهج، و من المسـلّم أن تأمین هذه الأهداف لم یکن لیتحقق لو کان من الملائکة، و لقال الناس إذا حدثهم عن الزهـد و عـدم الاهتمام بالـدنیا: إنّه ملک، و لیست له حاجات مادیـة تجرّه إلی الـدنیا و إذا دعا إلی الطهارة و العفـة لقال الناس: إنه لا یدری ما عاصفة الغریزة الجنسیة، و عشرات (إذا) مثل تلک.

ثانیا: ما ضـرورة أن ینزل ملک لیرافق بشرا من أجل تصدیقه؟ أ فلیست المعجزات کافیة لإدراک هذه الحقیقة، و خاصّة معجزة عظیمة کالقرآن! ثالثا: أکل الطعام کسائر الناس، و المشی فی الأسواق یکون سببا للاندماج بالناس أکثر، و الغوص فی أعماق حیاتهم، لیؤدی

رسالته بشكل أفضل.

رابعا: عظمة الرّسول و شخصيته مردهما ليس إلى الكنز و النفائس و لا بساتين النخيل و الفواكه الطازجة، هذا نمط تفكير الكفار المنحرف الذي يعتبر أن المكانة- و حتى القرب من اللّه- في الأثرياء خاصّة، في حال أنّ الأنبياء جاؤوا ليقولوا:

أيّها الإنسان، إنّ قيمة وجودك ليست بهذه الأشياء، إنّها بالعلم و التقوى و الإيمان.

خامسا: بأي مقياس كانوا يعتبرونه «مسحورا» أو «مجنونا»؟ الشخص الذي كان عقله معجزا بشهادة تأريخ حياته و انقلابه العظيم و تأسيسه الحضارة الإسلامية، كيف يمكن اتهامه بهذه التهمة المضحكة؟ أ يصح أن نقول إن تحطيم

الأصنام و رفض الإتباع الأعمى للأجداد دليل على الجنون؟! اتضح بناء على ما قلناه أن (الأمثال) هنا، خاصّة مع القرائن الموجودة في الآية، بمعنى الأقوال الفارغة الواهية، و لعل التعبير عنها ب (الأمثال) بسبب أنّهم يلبسونها لباس الحق فكأنها مثله، و أقوالهم مثل الأدلة المنطقية، في حال أنّها ليست كذلك واقعا.[۱۴۳] و ينبغي أيضا الالتفات إلى هذه النكتة، و هي أنّ أعداء النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يتهمونه- ب «الساحر» و أحيانا ب «المسحور» و إن كان بعض المفسّرين قد احتمل أن «المسحور» بمعنى «الساحر» (لأن اسم المفعول يأتي بمعنى اسم الفاعل أحيانا) و لكن الظاهر أن بينهما فرقا.

عند ما يقال عنه بأنّه ساحر، فلأن كلامه كان ذا نفوذ خارق في القلوب، و لأنّهم ما كانوا يريدون الإقرار بهذه الحقيقة، فقد لجأوا إلى اتهامه ب «الساحر».

أمّا «المسحور» فمعناه أن السحرة تدخّلوا في عقله و تصرفوا به، و عملوا على اختلال حواسه، هذا الاتّهام نشأ من أن الرّسول كان محطما لسنتهم، و مخالفا لعاداتهم و أعرافهم الخرافية، و قد وقف في وجه مصالحهم الفردية.

أمّا جواب جميع هذه الاتهامات فقد اتضح من الكلام أعلاه.

و هنا يأتي هذا السؤال، و هو أنّه لماذا قال تعالى: فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا.

الجواب هو أنّ الإنسان يستطيع أن يكتشف الطريق إلى الحق بصورة ما، إذا كان مريدا للحق باحثا عنه، أمّا من يتخذ موقفه- ابتداء- على أساس أحكام

مسبّقة خاطئة و مضلّة، نابعة من الجهل و التزمت و العناد، فمضافا إلى أنّه لا يعثر على الحق، فإنّه سيتخذ موقعه ضد الحق دائما.

الآية الأخيرة مورد البحث- كالآية التي قبلها- توجه خطابها إلى النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على سبيل تحقير مقولات أولئك، و أنّها لا تستحق الإجابة عليها، يقول تعالى:

تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً.

و إلّا، فهل أحد غير اللّه أعطى الآخرين القصور و البساتين؟ من غير اللّه خلق جميع هذه النعم و الجمال في هذا العالم؟ ترى أ يستحيل على اللّه القادر المنّان أن يجعل لك أفضل من هذه القصور البساتين؟! لكنّه لا يريد أبدا أن يعتقد الناس أن مكانتك مردّها المال و الثروة و القصور، و يكونوا غافلين عن القيم الواقعية. إنه يريد أن تكون حياتك كالأفراد العاديين و المستضعفين و المحرومين، حتى يمكنك أن تكون ملاذا لجميع هؤلاء و لعموم الناس.

أمّا لماذا يقول قصورا و بساتين أفضل ممّا أراده أولئك؟ فلأن «الكنز» وحده ليس حلّال المشاكل، بل ينبغي بعد مزيد عناء أن يستبدل بالقصور و البساتين، مضافا الى أنّهم كانوا يقولون: ليكن لك بستان يؤمن معيشتك، أمّا القرآن فيقول: إن اللّه قادر على أن يجعل لك قصورا و بساتين، لكن الهدف من بعثتك و رسالتك شيء آخر.

ورد في «الخطبة القاصعة» من «نهج البلاغة» بيان معبر و بليغ: هنالك حيث يقول الإمام عليه السّلام: «... و لقد دخل موسى بن عمران

و معه أخوه هارون علیهما السّلام علی فرعون و علیهما مدارع الصوف و بأیدیهما العصی فشرطا له إن أسلم بقاء ملکه و دوام عزّه فقال:

«ألا تعجبون من هذین یشرطان لی دوام العز و بقاء الملک و هما بما ترون من حال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۷

الفقر و الذل، فهلّا ألقی علیهما أساورة من ذهب، إعظاما للذهب و جمعه، و احتقارا للصوف و لبسه. و لو أراد اللّه سبحانه بأنبیائه حیث بعثهم أن یفتح لهم کنوز الذهبان، و معادن العقیان، و مغارس الجنان، و أن یحشر معهم طیور السماء و وحوش الأرض لفعل، و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء، و اضمحلت الأنباء، و لما وجب للقابلین أجور المبتلین، و لا استحق المؤمنون ثواب المحسنین، و لا لزمت الأسماء معانیها، و لکن اللّه سبحانه جعل رسله اولی قوّة فی عزائمهم، و ضعفة فیما تری الأعین من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب و العیون غنی، و خصاصة تملأ الأبصار و الأسماع أذی.

و لو کانت الأنبیاء أهل قوة لا ترام و عزّة لا تضام، و ملک تمتد نحوه أعناق الرجال، و تشدّ إلیه عقد الرحال، لکان ذلک أهون علی الخلق فی الإعتبار و أبعد لهم فی الاستکبار، و لآمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم، فکانت النیّات مشترکة و الحسنات مقتسمة، و لکن اللّه سبحانه أراد أن یکون الإتباع لرسله و التصدیق بکتبه و الخشوع لوجهه و الاستکانة لأمره و الاستسلام لطاعته، أمورا له خاصّة لا تشوبها من غیرها شائبة. و کلما کانت البلوی و الاختبار أعظم کانت المثوبة و الجزاء أجزل».[۱۴۴]

و الجدیر بالذکر أنّ البعض یری بأنّ المراد بالجنّة و القصور، جنّة الآخرة قصورها، لکن هذا التّفسیر لا ینسجم مع ظاهر الآیة بأی وجه.[۱۴۵]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۸

الآیات [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۱۱ الی ۱۶]

اشارة

بَلْ کَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ کَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِیراً (۱۱) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً (۱۲) وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَکاناً ضَیِّقاً مُقَرَّنِینَ دَعَوْا هُنالِکَ ثُبُوراً (۱۳) لا تَدْعُوا الْیَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً کَثِیراً (۱۴) قُلْ أَ ذلِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ کانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِیراً (۱۵)

لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ خالِدِینَ کانَ عَلی رَبِّکَ وَعْداً مَسْؤُلًا (۱۶)

التّفسیر

مقارنة بین الجنة و النار:

فی هذه الآیات- علی أثر البحث فی الآیات السابقة حول انحراف الکفار فی مسألة التوحید و النّبوة- یتناول القرآن الکریم قسما آخر من انحرافاتهم فی مسألة المعاد، و یتّضح مع بیان هذا القسم أنّهم کانوا أساری التزلزل و الانحراف فی تمام أصول الدین، فی التوحید، و فی النبوة، و فی المعاد، حیث ورد القسمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۹

الأولان منه فی الآیات السابقة، و نقرأ الآن القسم الثالث:

یقول تعالی أوّلا: بَلْ کَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ.

و بما أنّ کلمة «بل» تستعمل لأجل «الإضراب» فیکون المعنی: أن ما یقوله أولئک الکفار علی صعید نفی التوحید و النبوة، إنّما ینبع فی الحقیقة من إنکارهم المعاد، ذلک أنه إذا آمن الإنسان بهکذا محکمة عظمی و بالجزاء الإلهی، فلن یتلقی الحقائق بمثل هذا الاستهزاء و اللامبالاة، و لن یتذرع بالحجج الواهیة ضد دعوة النّبی و براهینه الظاهرة، و لن یتذلل أمام الأصنام التی صنعها و زیّنها بیده.

لکن القرآن هنا لم یتقدم برد استدلالی، ذلک لأن هذه الفئة لم تکن من أهل الاستدلال و المنطق، بل واجههم بتهدید مخیف و جسد أمام أعینهم مستقبلهم المشؤوم و الألیم، فهذا الأسلوب قد یکون أقوی تأثیرا لمثل هؤلاء الأفراد یقول أوّلا: وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ کَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِیراً.[۱۴۶] ثمّ وصف هذه النار المحرقة وصفا عجیبا، فیقول تعالی: إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً.

فی هذه الآیة، تعبیرات بلیغة متعددة، تخبر عن شدّة هذا العذاب الإلهی:

۱- إنّه لا یقول: إنّهم یرون نار جهنم من بعید، بل یقول: إن النار هی التی تراهم- کأن لها عینا و أذنا- فسمّرت عینها علی الطریق بانتظار هؤلاء المجرمین.

۲- إنّها لا تحتاج إلی أن یقترب أولئک المجرمون منها، حتی تهیج، بل إنّها تزفر من مسافة بعیدة .. من مسافة مسیرة عام، طبقا لبعض الروایات.

۳- وصفت هذه النار المحرقة ب «التغیظ» و ذلک عبارة عن الحالة التی یعبّر بها الإنسان عن غضبه بالصراخ و العویل.

۴- إن لجهنم «زفیرا» یعنی کما ینفث الإنسان النفس من الصدر بقوة، و هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۰

عادة فی الحالة التی یکون الإنسان مغضبا جدا.

مجموع هذه الحالات یدل علی أن نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمین کانتظار الحیوان المفترس الجائع لغذائه «نستجیر باللّه».

هذه حال جهنم حینما تراهم من بعید، أمّا حالهم فی نار جهنم فیصفها تعالی:

وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَکاناً ضَیِّقاً مُقَرَّنِینَ دَعَوْا هُنالِکَ ثُبُوراً.[۱۴۷] هذا لیس لأنّ جهنم صغیرة، فإنّه طبقا للآیة (۳۰) من سورة ق یَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِیدٍ فهی مکان واسع، لکن أولئک یحصرون مکانا ضیقا فی هذا المکان الواسع، فهم «یستکرهون فی النار کما یستکره الوتد فی الحائط».[۱۴۸] کما أن کلمة «ثبور» فی الأصل بمعنی «الهلاک و الفساد»، فحینما یجد الإنسان نفسه أمام شیء مخیف و مهلک، فإنّه یصرخ عالیا «وا ثبورا» التی مفهومها لیقع الموت علیّ».

لکنّهم یجابون عاجلا لا تَدْعُوا الْیَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً کَثِیراً.

علی أیة حال، فلن تنفعکم استغاثتکم فی شیء، و لن یکون ثمّة موت أو هلاک، بل ینبغی أن تظلوا أحیاء لتذوقوا العذاب الألیم.

هذه الآیة فی الحقیقة تشبه الآیة (۱۶) من سورة الطور حیث یقول تعالی اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَیْکُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

من هو المتکلم مع الکافرین ها هنا؟ القرائن تدل علی أنّهم ملائکة العذاب، ذلک لأنّ حسابهم مع هؤلاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۱

و أمّا لماذا یقال لهم هنا: لا تَدْعُوا الْیَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً کَثِیراً؟ ربّما کان ذلک لأنّ عذابهم الألیم لیس مؤقتا فینتهی بقول (وا ثبورا) واحدا، بل ینبغی أن یرددوا هذه الجملة طیلة هذه المدة، علاوة علی أنّ العقوبات الإلهیة لهؤلاء الظالمین المجرمین متعددة الألوان، حیث یرون الموت أمام أعینهم إزاء کل مجازاة، فتعلوا أصواتهم ب (وا ثبورا)، فکأنّهم یموتون ثمّ یحیون و هکذا.

ثمّ یوجه الخطاب إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یأمره أن یدعو أولئک إلی المقایسة، فیقول تعالی: قُلْ أَ ذلِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ کانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِیراً.

تلک الجنّة التی لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ

تلک الجنّة التی سیبقون فیها أبدا خالِدِینَ

أجل، إنّه وعد اللّه الذی اخذه علی نفسه: کانَ عَلی رَبِّکَ وَعْداً مَسْؤُلًا.

هذا السؤال، و طلب هذه المقایسة، لیس لأن أحدا لدیه شک فی هذا الأمر، و لیس لأن تلک العذابات الألیمة المهولة تستحق الموازنة و المقایسة مع هذه النعم التی لا نظیر لها، بل إن هذا النوع من الأسئلة و المطالبة بالمقارنة لأجل إیقاظ الضمائر الهامدة، حیث تجعلها أمام أمر بدیهی واحد، و علی مفترق طریقین:

فإذا قالوا فی الجواب: إنّ تلک النعم أفضل و أعظم (و هو ما سیقولونه حتما) فقد حکموا علی أنفسهم بأنّ أعمالهم خلاف ذلک. و إذا قالوا: إنّ العذاب أفضل من هذه النعمة، فقد وقّعوا علی وثیقة جنونهم، و هذا یشبه ما إذا حذرنا شابا ترک المدرسة و الجامعة بقولنا: اعلم أنّ السجن هو مکان الذین فروا من العلم و وقعوا فی أحضان الفساد، تری السجن أفضل أم الوصول إلی المقامات الرفیعة!؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۲

ملاحظات

۱- ینبغی الالتفات أوّلا- إلی هذه النکتة، و هی الآیات الکریمة وصفت الجنّة بالخلود تارة و صفة لأهل الجنّة تارة أخری، لیکون تأکیدا علی هذه الحقیقة، و هی کما أن الجنة خالدة، فکذلک ساکنوها.

۲- قوله تعالی لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ جاءت فی مقابل حال الجهنمیین فی الآیة (۵۴) من سورة سبأ وَ حِیلَ بَیْنَهُمْ وَ بَیْنَ ما یَشْتَهُونَ

۳- التعبیر ب «مصیر» بعد کلمة «جزاء» بالنسبة إلی الجنّة، کله تأکید علی ما یدخل فی مفهوم الجزاء، و هو بجمیعه نقطة مقابلة إزاء مکان أهل النّار، حیث ورد فی الآیات السابقة أنّهم یلقون فی مکان ضیق محدود مقرنین بالأصفاد.

۴- قوله تعالی کانَ عَلی رَبِّکَ وَعْداً مَسْؤُلًا إشارة إلی أن المؤمنین کانوا فی أدعیتهم یطلبون من اللّه الجنّة و جمیع نعمها، فهم السائلون، و اللّه «المسؤول منه» کما نقرأ قول المؤمنین فی الآیة (۱۹۴) من سورة آل عمران رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلی رُسُلِکَ ...، لسان حال جمیع المؤمنین أیضا، إنّهم یطلبون هذا الطلب من اللّه، لأن لسان حال کل من یطیع أمره تبارک و تعالی أن یطلب ذلک.

و الملائکة کذلک یسألون اللّه الجنّة و الخلود للمؤمنین، کما نقرأ فی الآیة (۸) من سورة المؤمن: رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدْتَهُمْ ....

و یوجد هنا تفسیر آخر، و هو أنّ کلمة (مسئولا) تأکید علی هذا الوعد الإلهی، الحتمی، یعنی أنّ هذا الوعد علی قدر عظیم من القطع بحیث أنّ المؤمنین یستطیعون أن یطالبوا اللّه به، و هذا یشبه ما إذا أعطینا وعدا لأحد، و أعطیناه- فی الضمن- الحق فی أن یطالبنا به. قطعا لا یوجد أی مانع من أن تجتمع کل هذه المعانی فی المفهوم الواسع ل (مسئولا).

۵- بالالتفات إلی قوله تعالی لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ ینشأ لدی البعض هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۳

السؤال: إذا أخذنا فی الإعتبار المفهوم الواسع لهذه العبارة، فنتیجة هذا أن أهل الجنّة إذا أرادوا مقام الأنبیاء و الأولیاء یعطی لهم، مثلا، أو إذا طلبوا نجاة أقربائهم و أصدقائهم المذنبین المستحقین لجهنم، یعطون سؤلهم، و ما سوی هذه الرغبات؟! و یتّضح الجواب مع الالتفات إلی هذه النکتة، و هو أنّ الحجب تزول عن أعین أهل الجنّة فیدرکون الحقائق جیدا، و یتّضح تناسبها فی نظرهم کاملا، إنّهم

لا يخطر ببالهم أبدا أن يطلبوا من اللّه طلبات كهذه، و هذا يشبه تماما أن نطلب فى الدنيا من طفل فى الابتدائية أن يكون استاذا فى الجامعة، أو أن يكون لص مجرم قاضى محكمة ... ترى هل تخطر مثل هذه الأمور فى فكر أى عاقل فى الدنيا!؟

و فى الجنّة أيضا كذلك، فضلا عن هذا فإنّ كلّ إرادتهم فى طول إرادة اللّه، و إنّ ما يريدونه هو ما يريده اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۴

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۱۷ الى ۱۹]

اشارة

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (۱۷) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً (۱۸) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لا نَصْراً وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (۱۹)

التّفسير

المحاكمة بين المعبودين و عبدتهم الضالين:

كان الكلام فى الآيات السابقة حول مصير كل من المؤمنين و المشركين فى القيامة و جزاء هذين الفريقين، و تواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبيّن السؤال الذى يسأل اللّه عنه معبودى المشركين فى القيامة و جوابهم، على سبيل التحذير، فيقول تعالى أولا: و اذكر يوم يحشر اللّه هؤلاء المشركين و ما يعبدون من دون اللّه: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فيسأل المعبودين: فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۵

ففى الإجابة: قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ.

فليس فقط أنّنا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل إنّنا كنّا نعترف بولايتك و ربوبيتك، و لم نقبل غيرك معبودا لنا و لغيرنا.

و كان سبب انحراف أولئك هو: أنّ اللّه تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا و نعيمها فتمتعوا هم و آباءهم و بدلا من شكر اللّه تعالى غرقوا فى هذه الملذات و نسوا ذكر اللّه: وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ و لهذا هلكوا و اندثروا وَ كانُوا قَوْماً بُوراً.

هنا يوجه اللّه تبارك و تعالى الخطاب إلى المشركين فيقول: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ

لأنّ الأمر هكذا، و كنتم أنتم قد أضللتم أنفسكم فليس لديكم القدرة على دفع العذاب عنكم: فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لا نَصْراً، وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً.

لا شك أنّ «الظلم» له مفهوم واسع، و مع أنّ موضوع البحث فى الآية هو «الشرك» الذى هو أحد المصاديق الجلية للظلم، إلّا أنّه لا يقدح بعمومية المفهوم.

و الملفت للنظر أن «من يظلم» جاءت بصيغة الفعل المضارع، و هذا يدل على أن القسم الأوّل من البحث و أن كان مرتبطا بمناقشات البعث، لكن الجملة الأخيرة خطاب لهم فى الدنيا، لعل قلوب المشركين تصبح مستعدة للتقبل على أثر سماعها (محاورات العابدين و المعبودين فى القيامة)، فيحول الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً.[۱۴۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۶

مسائل مهمة:

۱- من هم المقصودون بالمعبودين هنا!؟

فى الإجابة على هذا السؤال، هناک تفسيران بين المفسّرين المعروفين:

أوّلا: أن يكون المقصود بالمعبودين إنسانا (مثل المسيح) أو شيطانا (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث أن كلّ واحد منها كان قد اتخذه فريق من المشركين معبودا لهم. و لأنّهم أهل عقل و شعور و إدراک، فيمكنهم أن يكونوا موضع الاستنطاق و المحاسبة، و لإتمام الحجة، و لإثبات كذب المشركين الذين يقولون:

إنّ هؤلاء دعونا لعبادتهم! فهم يسألون عمّا إذا كان هذا الادعاء صحيحا؟ و لكنّهم يكذبون ادعاء المشركين بصراحة! التّفسير الثّانى: الذى ذكره جمع من المفسّرين هو أنّ اللّه يمنح الأصنام فى ذلک اليوم نوعا من الحياة و الإدراک و الشعور، بالشكل الذى تستطيع فيه أن تكون موضع المحاسبة، لينطقوا بالجواب اللازم: إلهنا، نحن ما أضللنا هؤلاء، بل هم أنفسهم ضلوا بسبب انغماسهم فى الشهوات و الغرور.

و هناک الاحتمال آخر، و هو أنّ المقصود يشمل جميع المعبودين، سواء كانوا ذوو عقل و شعور يخبرون بألسنتهم عن الوقائع، أم لم يكونوا من أهل العقل و الشعور، حيث يعكسون الحقيقة أيضا، بلسان حالهم.

و لكن القرائن الموجودة فى الآية تتفق أكثر مع التّفسير الأوّل، ذلک لأنّ الأفعال و الضمائر تدل جميعها على أن طرف المحاورة هم أصحاب عقل و شعور، و هذا يتناسب مع معبودين كالمسيح و الملائكة و أمثالهم.

إضافة إلى أنّ قوله تعالى فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ... يظهر أن المشركين قد ادّعوا من قبل أن هؤلاء المعبودين قد أضلونا و دعونا لعبادتهم، و بعيد أن يكون المشركون قد ادعوا هذا بالنسبة إلى الأصنام الحجرية و الخشبية، لأنّهم- كما ورد فى قصة إبراهيم- كانوا على يقين بأنّ الأصنام لا تتكلم لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۷

يَنْطِقُونَ ۱۵۰].

فى حين أنّنا نقرأ مثلا بالنسبة إلى المسيح عليه السّلام فى الآية (۱۱۶) من سورة المائدة: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ! و من المسلّم أنّ ادعاء المشركين و عبدة الأصنام كان واهيا و بلا أساس، فأولئک لم يدعوهم إلى عبادة أنفسهم.

الملفت هو أن المعبودين لم يقولوا فى الجواب: إلهنا، ما دعوناهم إلى عبادة أنفسنا، بل يقولون: نحن ما اتّخذنا لأنفسنا غيرک معبودا، يعنى فى الوقت الذى نحن نعبدک وحدک، فمن الأولى أنّنا لم ندعهم إلى أحد غيرک، خاصّة و أن هذا الكلام يقترن مع سُبْحانَكَ و مع ما كانَ يَنْبَغِي لَنا التى تكشف عن غاية أدبهم، و تأكيدهم على التوحيد.

۲- دافع الانحراف عن أصل التوحيد

المهم هو أنّ المعبودين يعدّون العامل الأصلى لانحراف هذا الفريق من المشركين هو (الحياة المرفهة) لهم، و يقولون، إلهنا، متّعت هؤلاء و آباءهم من نعم هذه الحياة، و هذا هو بالذات كان سبب نسيانهم، فبدلا من أن يعرفوا واهب هذه النعم فيشكرونه و يطيعونه، توغلوا فى دوامة الغفلة و الغرور.

فالحیاة المرفهـة لجماعـة ضـیقة الأفق، ضـعیفة الإیمان، تبعث علی الغرور من جهـة، ذلک لأنّهم فی الوقت الـذی ینالون النعم الکثیرة، ینسون أنفسهم و ینسون اللّه، حتی أنّ فرعون کان یطبّل أحیانا (أنا اللّه).

و من جهة أخری، فإنّ هؤلاء الأفراد یمیلون إلی التحرر من کل القیود التی تعیقهم فی ملذّاتهم من قبیل الحلال و الحرام، و المشروع و اللامشروع و تمنعهم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۸

الوصول إلی أهدافهم، و لهذا فهم لا یریدون أن یخضعوا أمام القوانین و المقررات الدینیة، و لا أن یقبلوا بیوم الحساب و الجزاء.

و هکذا نجد أنّ اتباع دین اللّه و تعلیمات الأنبیاء قلیل فی أوساط المرفهین دائما و لکن المستضـعفین هم الأتباع الصامدون و المحبّون الأوفیاء للدین و المذهب.

إنّ هذا الکلام له استثناءات فی کلا الطرفین قطعا، و لکن أکثریة کلّ من الفریقین هم کما قلنا.

و ممّا تتضـمنه الآیـة أعلاه، أنّها لم ترکز علی رفاهیـة حیاتهم فقط، بل رکزت علی رفاهیـة حیاة آبائهم أیضا، ذلک لأنّ الإنسان حینما ینشأ علی الـدلال و النعمـة فإنه سوف یری فارقا و امتیازا بینه و بین الآخرین، و لن یکون مستعدا لفقد المنافع المادیة و الحیاة المرفهة بسهولة.

فی حین أن التقید بأمر اللّه، و بتعالیم الدین تحتاج إلی الإیثار، و أحیانا إلی الهجرة، و تحتاج حتی إلی الجهاد و الشـهادة، و أحیانا إلی التعاطی مع أنواع المحرومیات، و عـدم التسـلیم للعدو، و هذه الأمور نادرا ما تتوافق مع مزاج المرفهین، إلّا إذا کانت نفوسـهم أرفع من حیـاتهم المادیـة، فـإذا توفرت یوما ما شـکروا اللّه، و إلّا فلن یتزلزلوا و لن ینزعجوا، و بعبارة أخری: إنّهم حاکمون علی حیاتهم المادیة غیر محکومین لها، أمراء علیها لا أساری عندها.

و یستفاد أیضا من التوضیح أنّ المقصود من قوله تعالی نَسُوا الـذِّکْرَ نسیان ذکر اللّه، حیث ورد مکان ذلک فی الآیة (۱۹) من سورة الحشـر وَ لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ نَسُوا اللَّهَ أو نسیان یوم القیامة و محکمة العدل الإلهی، کما جاء فی الآیة (۲۶) سورة ص لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ الْحِسابِ أو نسیان کل منهما، و جمیع التعالیم الإلهیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۹

۳- کلمة «بور».

«بور» من مـادة «بوار» و هی فی الأصـل بمعنی شـدّة کسـاد الشـیء، و لأنّ شـدّة الکسـاد تبعث علی الفساد، کما جاء فی المثل العربی «کسـد حتی فسـد»، فهـذه الکلمة بمعنی الفساد، ثمّ أطلقت بعد هذا علی الهلاک، و لهذا یقولون للأرض الخالیة من الشـجر و الورد و النبات، و التی هی فی الحقیقة فاسدة و میتة کلمة «بائر».

و علی هـذا فإنّ قوله تعالی: کانُوا قَوْماً بُوراً إشارة إلی أنّ هـذا الفریق علی أثر انغماسـهم فی الحیاة المادیـة المرفهـة، و نسـیانهم اللّه و الیوم الآخر، صاروا إلی الفساد و الهلکة، و صارت أراضـی قلوبهم کالصحراء جافة و بائرة، و أخلیت من أزاهیر ملکات القیم الإنسانیة، و فواکه الفضیلة و الحیاة المعنویة.

مطالعـة حال الأمم الغرقی فی الدلال و النعمة الیوم، الغافلة عن اللّه و عن الخلق، توضح عمق معنی هذه الآیة فی کیفیة غرق هذه الأمم فی بحر الفساد الأخلاقی، و کیف اجتثت الفضائل الإنسانیة من أرض وجودهم البائرة.[۱۵۱]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۰

الآیة [سورة الفرقان (۲۵): آیة ۲۰]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنَ الْمُرْسَلِینَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَیَأْکُلُونَ الطَّعامَ وَ یَمْشُونَ فِی الْأَسْواقِ وَ جَعَلْنا بَعْضَکُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ کانَ رَبُّکَ بَصِیراً (۲۰)

سبب النّزول

أورد جماعة من المفسّرین و أصحاب السیر کابن إسحاق فی سیرته فی سبب نزول هذه الآیة «أن سادات قریش «عتبة بن ربیعة» و غیره اجتمعوا معه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا: یا محمد، إن کنت تحبّ الریاسة ولیناک علینا، و إن کنت تحبّ المال جمعنا لک من أموالنا، فلما أبی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن ذلک، رجعوا فی باب الإحتجاج معه فقالوا: ما بالک و أنت رسول اللّه تأکل الطعام، و تقف بالأسواق! فعیّروه بأکل الطعام، لأنّهم أرادوا أن یکون الرّسول ملکا، و عیّروه بالمشی فی الأسواق حین رأوا الأکاسرة و القیاصرة و الملوک و الجبابرة یترفعون عن الأسواق، و کان علیه السّلام یخالطهم فی أسواقهم، و یأمرهم و ینهاهم، فقالوا: هذا یرید أن یتملک علینا، فما له یخالف سیرة الملوک؟ فأجابهم اللّه بقوله، و أنزل علی نبیّه:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۱

وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنَ الْمُرْسَلِینَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَیَأْکُلُونَ الطَّعامَ وَ یَمْشُونَ فِی الْأَسْواقِ فلا تغتم و لا تحزن، فإنّها شکاة ظاهر عنک عارها».[۱۵۲]

التّفسیر

هکذا کان جمیع الأنبیاء

فی عدّة آیات سابقة وردت واحدة من ذرائع المشرکین بهذه الصیغة: لماذا یأکل رسول اللّه الطعام، و یمشی فی الأسواق؟ و أجیب علیها بجواب إجمالی و مقتضب، أمّا الآیة مورد البحث فتعود إلی نفس الموضوع لتعطی جوابا أکثر تفصیلا و صراحة، فیقول تعالی: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنَ الْمُرْسَلِینَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَیَأْکُلُونَ الطَّعامَ وَ یَمْشُونَ فِی الْأَسْواقِ فقد کانوا من البشر و یعاشرون الناس، و فی ذات الوقت وَ جَعَلْنا بَعْضَکُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً و امتحانا.

و هذا الامتحان، قد یکون بسبب أنّ اختیار الأنبیاء من جنس البشر و من أوساط الجماهیر المحرومة هو امتحان عظیم بذاته، لأنّ البعض یأبون أن ینقادوا لمن هو من جنسهم، خاصّة إذا کان فی مستوی واطئ من حیث الإمکانات المادیة، و هم فی مستوی عال مادیا، أو أن أعمارهم أکبر، أو أنّهم أکثر شهرة فی المجتمع.

و یرد احتمال آخر فی المراد بالفتنة، و هو أنّ الناس عموما بعضهم لبعض فتنة، ذلک أن المتقاعدین و العجزة و المرضی و الأیتام و المزمنین فتنة للأقویاء و الأصحاء السالمین، و بالعکس، فإنّ الأفراد الأصحاء الأقویاء فتنة للضعفاء و العجزة.

تری هل أنّ الفریق الثّانی راض برضا اللّه! أم لا؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۲

و هل أن الفریق الأوّل یؤدی مسئولیته و تعهده إزاء الفریق الثّانی، أم لا؟! من هنا، لا تقاطع بین هذین التّفسیرین فمن الممکن أن یجتمع کلاهما فی المفهوم الواسع للآیة فی أن الناس بعضهم لبعض فتنة.

و علی أثر هذا القول، جعل الجمیع موضع الخطاب فقال تعالی:

أ تَصْبِرُونَ

ذلک لأنّ أهم رکن للنجاح فی جمیع هذه الامتحانات هو الصبر و الاستقامة و الشجاعة ... الصبر و الاستقامة أمام خیالات الغرور الذی یمنع من قبول الحق ...

الصبر و الاستقامة أمام المشکلات الناشئة من المسؤولیات و أداء الرسالات، و کذلک الجلد أمام المصائب و الحوادث الألیمة التی لا تخلو منها حیاة الإنسان علی کل حال.

و الخلاصة: أنّ من الممکن اجتیاز هذا الامتحان الإلهی العظیم بقوّة الاستقامة و الصبر.[۱۵۳] و یقول تعالی فی ختام الآیة بصیغة التحذیر: وَ کانَ رَبُّکَ بَصِیراً فینبغی ألا یتصور أحد أن شیئا من تصرفاته حیال الاختبارات الإلهیة یظل خافیا و مستورا عن عین اللّه و علمه الذی لا یخفی علیه شیء. إنّه یراها بدقة و یعلمها جمیعا.

سؤال:

یرد هنا استفسار، و هو أن ردّ القرآن علی المشرکین فی الآیات أعلاه قائم علی أن جمیع الأنبیاء، کانوا من البشر. و هذا لا یحلّ المشکلة، بل یزید من حدّتها، ذلک أن من الممکن أن یعمموا إشکالهم علی جمیع الأنبیاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۳

و الجواب:

أنّ الآیات القرآنیة المختلفة تدلّ علی أن إشکالهم علی شخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و کانوا یعتقدون أنه اتخذ لنفسه وضعا خاصا به، و لهذا کانوا یقولون: ما لهذا الرّسول ...

یقول القرآن فی جوابهم: لیس هذا منحصرا بالرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یأکل الطعام و یمشی فی الأسواق، فجمیع الأنبیاء کانت لهم مثل هذه الأوصاف، و علی فرض أنّهم سیعممون هذا الأشکال علی جمیع الأنبیاء، فقد أعطی القرآن جوابهم أیضا حیث یقول: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَکاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا «کی یستطیع أن یکون أسوة و أنموذجا للناس فی کل مجالات». إشارة إلی أن الإنسان فقط یستطیع أن یکون مرشدا للإنسان، فهو الواقف علی جمیع حاجاته و رغباته و مشکلاته و مسائله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۴

الآیات [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۲۱ الی ۲۴]

اشارة

وَ قالَ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلائِکَةُ أَوْ نَری رَبَّنا لَقَدِ اسْتَکْبَرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا کَبِیراً (۲۱) یَوْمَ یَرَوْنَ الْمَلائِکَةَ لا بُشْری یَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِینَ وَ یَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (۲۲) وَ قَدِمْنا إِلی ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (۲۳) أَصْحابُ الْجَنَّةِ یَوْمَئِذٍ خَیْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِیلًا (۲۴)

التّفسیر

الادعاءات الكبیرة:

قلنا أنّ المشركین یصرون على الفرار من ثقل التعهدات و المسؤولیات التی یضعها على عواتقهم الإیمان باللّه و الیوم الآخر، فكانوا یقولون تارة: لماذا یحتاج الرّسول إلى الطعام و یمشی فی الأسواق؟ حیث قرأنا الإجابة علیها فی الآیات السابقة.

الآیات الحالیة، تطرح شكلین آخرین من ذرائعهم و تجیب علیها، فیقول

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۵

تعالى أوّلا: وَ قالَ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا.

فعلى فرض أنّنا سنقبل أنّ النّبی یستطیع أن یعیش الحیاة العادیة مثلنا. لكن أن یتنزل الوحی علیه وحده، و لا- نراه نحن، فهذا ما لا یمكن القبول به، ما المانع من أن یظهر الملك فیؤكّد صحة نبوة الرّسول؟ أو أن یسمعنا بعضا من الوحی!؟ أو أن نرى ربّنا بأعیننا حتى لا یبقى عندنا مكان لأی شك أو شبهة!؟

هذه هی الأسئلة التی تمنعنا من قبول دعوة محمد صلّى اللّه علیه و آله و سلّم.

المهم هو أن القرآن یصنف هؤلاء المتعللین بالذرائع تحت عنوان لا یَرْجُونَ لِقاءَنا، حیث یدل على أنّ منبع هذه الأقوال الواهیة هو عدم الإیمان بالآخرة، و عدم القبول بالمسؤولیة أمام اللّه.

فی الآیة (۷) من سورة الحجر نقرأ أیضا شبیها لهذا القول، حیث قالوا لَوْ ما تَأْتِینا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ و قرأنا أیضا فی مطلع سورة الفرقان هذه أن المشركین كانوا یقولون: لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَكٌ فَیَكُونَ مَعَهُ نَذِیراً.

فی حین أن من حق أی إنسان لإثبات قضیة ما، أن یطالب بالدلیل فقط.

أمّا نوع الدلیل، فمن المسلّم أنّه لا- فرق فیه، فی الوقت الذی أثبت رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم- بإظهار المعجزات و من جملتها القرآن نفسه- حقانیة دعوته بوضوح، إذن فما معنى هذه الذرائع؟

و أفضل دلیل على أنّهم لم یكونوا یقولون هذه الأقوال من أجل التحقیق حول نبوة النّبی، هو أنّهم طلبوا أن یشاهدوا الخالق، و أنزلوه إلى حدّ جسم یمكن رؤیته، ذلك الطلب نفسه الذی طلبه مجرمو بنی إسرائیل أیضا، فسمعوا الجواب القاطع على ذلك، حیث ورد شرحه فی سورة الأعراف الآیة ۱۴۳.

لذا یقول القرآن فی الإجابة على هذه الطلبات فی آخر الآیة مورد البحث:

لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِیراً.

«العتو» على وزن «غلو»، بمعنى الامتناع عن الطاعة، و التمرد على الأمر،

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۶

مصحوبا بالعناد و اللجاجة.

و تعبیر «فی أنفسهم» من الممكن أن یكون بمعنى: أنّ هؤلاء صاروا أسارى الغرور و التكبر فی أنفسهم. و من الممكن أن یكون أیضا بمعنى أنّهم أخفوا كبرهم و غرورهم فی قلوبهم و أظهروا هذه المعاذیر.

فی عصرنا و زماننا أیضا، یوجد أشخاص یكررون منطق المشركین الغابرین، فیقولون: ما دمنا لا نرى اللّه فی مختبراتنا، و لا نشاهد الروح تحت مبضع الجراحة، فلن نصدّق! بوجودهما و منبع الإثنین واحد و هو الاستكبار و العتو.

و من حیث الأصل، فإنّ جمیع الأشخاص الذین یحصرون وسائل المعرفة فی الحس و التجربة فقط، یكررون نفس هذا القول بشكل ضمنی، فكلّ المادیین داخلون فی هذا الصنف، فی حین أنّ الحواس لا تدرك إلّا جزء ضئیلا لا یذكر من مادة هذا العالم.

ثمّ يقول تعالى بصيغة التهديد: إنّ هؤلاء الذين يطلبون أن يروا الملائكة، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ [۱۵۴] بلى سوف لن يسرّوا برؤية الملائكة فى ذلك اليوم، لأنّهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكة، و سوف يغمرهم الرعب إلى حد أنّهم سيطلقون صرخات الإستغاثة التى كانوا يطلقونها فى الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون: الأمان .. الأمان، اعفوا عنّا: وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً.

و لكن لا هذه الجملة- و لا غيرها- لها أثر على مصيرهم المحتوم، ذلك لأنّ النار التى هم أوقدوها ستلتهم أطرافهم شاءوا أم أبوا، و ستتجسد أمامهم الأعمال السيئة التى ارتكبوها، فلا يملكون شيئا لأنفسهم.

كلمة «حجر» (على وزن قشر) تقال فى الأصل للمنطقة التى حجروها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۷

و جعلوها ممنوعة الورود، و عند ما يقال «حجر إسماعيل» فلأن حائطا أنشئ حوله فحجز داخله. يقولون للعقل أيضا «حجرا» لأنّه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفة. لذا نقرأ فى الآية (۵) من سورة الفجر هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ، و أيضا «اصحاب الحجر» الذين ورد اسمهم فى القرآن (الآية ۸۰ من سورة الحجر) و هم قوم صالح الذين كانوا ينحتون لأنفسهم بيوتا حجرية محكمة فى قلوب الجبال، فكانوا يعيشون فى أمانها.

هذا فى ما يخص كلمة «حجر».

أمّا جملة «حجرا محجورا» فقد كانت اصطلاحا بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فأنّهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان.

كان هذا عرف العرب، خاصّة فى الأشهر الحرم، حيث كانت الحرب ممنوعة، فحينما يواجه شخص آخر، و يحتمل خرق هذا العرف و التعرض للأذى، فإنّه يكرر هذه الجملة، و الطرف المقابل- أيضا- مع سماعة لها كان يعطيه الأمان، فيخرجه من القلق و الاضطراب و الخوف.

على هذا فإنّ معنى الجملة المذكورة هو: «أريد الأمان، الأمان الذى لا رجعة فيه و لا تغيير».[۱۵۵] اتّضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ المجرمين هنا هم أصحاب هذا القول، و تناسب الأفعال الموجودة فى الآية، و السير التاريخى، و سابقة هذه الجملة فى أوساط العرب- أيضا- يستدعى هذا، و لكن البعض احتمل أنّ الملائكة هم أصحاب هذا القول، و هدفهم منع المشركين من رحمة اللّه.

و قال آخرون: إنّ أصحاب هذا القول هم المجرمون، يقولونه بعضهم لبعض، و لكن الظاهر هو المعنى الأول، حيث اختاره كثير من المفسّرين، أو ذكروه كأوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۸

تفسير لذلك.[۱۵۶] أمّا أى يوم ذلك اليوم الذى يلتقى فيه المجرمون بالملائكة؟ فقد ذكر المفسّرون احتمالين: أحدهما: هو يوم الموت حيث يرى الإنسان ملك الموت، كما نقرأ فى الآية (۹۳) من سورة الأنعام: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ و الثّانى: أنّ المقصود هو يوم القيامة و النشور، حيث يكون المجرمون أمام ملائكة العذاب فيشاهدونهم.

و مع الانتباه إلى الآيات الآتية التى تتكلم عن النشور، خصوصا جملة يَوْمَئِذٍ التى تشير إليه، يتبيّن أنّ التّفسير الثّانى هو الأقرب.

الآية التى بعدها تجسد مصير أعمال هؤلاء المجرمين فى الآخرة، فتقول:

وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً.

كلمة «العمل» على ما قاله «الراغب» فى المفردات بمعنى: كل فعل يكون بقصد، و لكن الفعل أعم منه، فهو يطلق على الأفعال التى تكون بقصد أو بغير قصد.[۱۵۷] جملة «قدمنا» من «القدوم» بمعنى «المجىء» أو «الذهاب على أثر شىء» و هى هنا دليل على تأكيد و جدّية المسألة، يعنى مسلّما و بشكل قاطع أن جميع أعمال أولئك التى قاموا بها عن قصد و إرادة- و إن كانت أعمال خير ظاهرا-

سنمحوها كما تمحى ذرات الغبار فى الهواء، لشركهم و كفرهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲۹

آفات العمل الصالح:

كلمة «هباء» بمعنى ذرات الغبار الصغيرة جدّا التى لا ترى بالعين المجرّدة و فى الحال العادية أبدا إلّا فى الوقت الذى يدخل نور الشمس إلى الغرفة المظلمة من ثقب أو كوّة، فيكشف عن هذه الذرات و يمكن مشاهدتها.

هذا التعبير يدل على أن أعمال أولئك لا قيمة لها و لا اثر إلى حدّ كأنّهم لم يعملوا شيئا، و إن كانوا قد سعوا و اجتهدوا سنين طويلة.

هذه الآية نظيرة الآية (١٨) من سورة إبراهيم التى تقول: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ

الدليل المنطقى لذلك واضح أيضا، لأنّ الشىء الذى يعطى عمل الإنسان الشكل و المحتوى، هو النيّة و الدافع و غاية العمل النهائية، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهى و على أساس أهداف مقدسة طاهرة، و خطط سليمة صحيحة، فى حين أن من لا إيمان لهم، فغالبا يقعون أسارى التظاهر و الرياء و الغرور و العجب، فيكون سببا فى انعدام أية قيمة لأعمالهم.

على سبيل المثال، نحن نعرف مساجد من مئات السنين، لم تترك عليها القرون الماضية أدنى تأثير، و بعكسها نرى بيوتا تظهر فيها الشروخ و علامات الضعف مع مضى شهر واحد أو سنة واحدة، فالأولى بنيت من كل النواحى بناء محكما بأفضل المواد مع توقع الحوادث المستقبلية، أمّا الثّانية فلأن الهدف من بنائها هو تهيئة المال و الثروة عن طريق المظاهر و الحيلة، فالعناية فيها كانت بالزخرفة فقط.[١٥٨] من وجهة نظر المنطق الإسلامى، فإن للأعمال الصالحة آفات، ينبغى مراقبتها بدقة، فقد يكون العمل أحيانا خرابا و فاسدا منذ البداية، كمثل العمل الذى يتخذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۰

(رياء).

و أحيانا أخرى يلحقه الفساد أثناء العمل كما لو أصاب الإنسان الغرور و العجب حينه فتزول قيمة عمله بسبب ذلك.

و قد يمحى أثر العمل الصالح بعد الانتهاء منه بسبب القيام بأعمال مخالفة و منافية، كمثل الإنفاق الذى تتبعه «منّة»، أو كالأعمال الصالحة التى يعقبها كفر و ارتداد.

حتى ارتكاب الذنوب أحيانا يترك أثره على العمل الصالح بعدها- طبقا لبعض الرّوايات الإسلامية- كما نقرأ فى مسألة شارب الخمر حيث لا تقبل أعماله عند اللّه أربعين يوما.[١٥٩] على أية حال، فللإسلام منهج فذ، دقيق و حساس فى مسألة خصوصيات العمل الصالح. نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: يبعث اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة قوما بين أيديهم نور كالقباطى، ثمّ يقول له:

هَباءً مَنْثُوراً ثمّ قال: أمّا و اللّه- يا أبا حمزة- إنّهم كانوا يصومون و يصلون، و لكن كانوا إذا عرض لهم شىء من الحرام أخذوه، و إذا ذكر لهم شىء من فضل أمير المؤمنين عليه السّلام أنكروه، قال: و الهباء المنثور هو الذى تراه يدخل البيت فى الكوة مثل شعاع الشمس».[١٦٠]

و بما أن القرآن- عادة- يضع الحسن و السىء متقابلين حتى يتّضح وضع كل منهما بالمقايسة فإنّ الآية التى بعدها تتحدث عن أهل الجنّة فتقول: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا.

ليس معنى هذا الكلام أنّ وضع أهل جهنم حسن، و وضع أهل الجنّة أحسن، لأنّ صيغة «أفعل التفضيل» تأتى أحيانا حيث يكون أحد الأطراف واجدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۱

للمفهوم، و الآخر فاقدا له كليا. مثلا نقرأ فى الآية (۴۰) من سورة فصّلت: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ.

«مستقر» بمعنى محل الاستقرار.

و «مقيل» بمعنى محل الاستراحة فى منتصف النهار، من مادة «قيلولة»، و قد جاءت بمعنى النوم منتصف النهار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۲

الآيتان [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۵ الى ۲۶]

اشارة

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا (۲۵) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (۲۶)

التّفسير

تشقق السماء بالغمام:

مرّة أخرى يواصل القرآن فى هذه الآيات البحث حول القيامة، و مصير المجرمين فى ذلك اليوم، فيقول أوّلا: إن يوم محنة و حزن المجرمين هو ذلك اليوم الذى تنشق فيه السماء بواسطة الغيوم: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا.[۱۶۱] «الغمام» من «الغم» بمعنى ستر الشيء، لذلك فالغيم الذى يغطى الشمس يقال له «الغمام»، و كذلك الحزن الذى يغطى القلب يسمّونه «الغم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۳

هذه الآية- فى الحقيقة- ردّ على طلبات المشركين، و على إحدى ذرائعهم، لأنّهم كانوا يتوقعون أن يأتى اللّه و الملائكة- طبقا لأساطيرهم و خرافاتهم من خلال الغيم، فيدعونهم إلى الحق، و فى أساطير اليهود جاء- أيضا- أنّ اللّه أحيانا يظهر ما بين الغيوم.[۱۶۲] يقول القرآن فى الردّ عليهم: نعم الملائكة (و ليس اللّه) يأتون إليهم يوما ما، لكن أى يوم؟ اليوم الذى تتحقق فيه مجازاة و عقوبة هؤلاء المجرمين، و ينهى ادعاءاتهم الباطلة.

و لكن ما هو المقصود من تشقق السماء بالغمام، مع أنّنا نعلم أن لا وجود حولنا لشيء يسمى السماء، يكون قابلا للتشقق؟

قال بعض المفسّرين مثل «العلامة الطباطبائى» فى تفسير «الميزان»:

المقصود هو تشقق سماء عالم الشهود، و زوال حجاب الجهل و الغباء و ظهور عالم الغيب، فيكون للإنسان إدراك و رؤية تختلف كثيرا عمّا هى عليه اليوم، فحينئذ تزول الحجب، فيرون الملائكة و هى تتنزل من العالم الأعلى.

ثمّة تفسير آخر، هو أنّ المقصود من السماء هو الأجرام السماوية التى تتلاشى على أثر انفجارات متوالية، فيملأ الغيم الحاصل من هذه الإنفجارات و من تلاشى الجبال صفحة السماوات، و بناء على هذا فالأفلاك السماوية تتشقق مع الغيوم الحاصلة من ذلك.[۱۶۳] آيات كثيرة من القرآن المجيد، خصوصا التى وردت فى السور القصار آخر القرآن، تبيّن هذه الحقيقة، حيث تملأ جميع عوالم الوجود تغيرات عظيمة، و انقلاب و تحول عجيب، تتلاشى الجبال و تتناثر فى الفضاء كذرات الغبار، الشمس تفقد نورها و كذلك النجوم. و يلتقى الشمس و القمر، و تملأ نواحى الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۴

زلزلة و هزّة عجيبة.

نعم، فى مثل ذلك اليوم، زوال السماء، بمعنى الأجرام السماوية، و تلبّس السماء بغيوم كثيفة، سيكون أمرا طبيعيا.

من الممكن توضيح نفس هذا التّفسير بنحو آخر:

شدّة التغيرات، و انفجارات الكواكب و السيارات يصير سببا فى تغطية السماء بغيم كثيف، و لكن توجد انشقاقات بين هذا الغيم، و على هذا فالسماء التى ترى بالعين فى الأحوال العادية، تتشقق بواسطة هذه الغيوم الانفجارية العظيمة.[۱۶۴] تفسيرات أخرى قيلت لهذه الآية أيضا لا تتوافق مع الأصول العلمية و المنطقية، و فى نفس الوقت فالتّفسيرات الثلاثة الآنفة لا تتنافى مع بعضها، فمن الممكن أن ترتفع حجب العالم المادى عن عين الإنسان من جهة، فيشاهد عالم ما وراء الطبيعة، و من جهة أخرى ستتلاشى الأجرام السماوية، و تظهر الغيوم الانفجارية، فتبرز التشققات ما بينها فى ذلك اليوم، يوم نهاية هذا العالم و بداية النشور، يوم أليم جدّا للمجرمين الظالمين المعاندين الذين لا إيمان لهم.

بعد ذلك يتناول القرآن الكريم أوضح علائم ذلك اليوم فيقول: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ

حتى أولئك الذين كان لهم فى هذا العالم نوع من الملك المجازى و المحدود و الفانى و السريع الزوال، يخرجون أيضا من دائرة الملك، فتكون الحاكمية من كلّ النواحى و جميع الجهات لذاته المقدسة خاصّة، و بهذا وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً.

نعم، فى ذلك اليوم تزول القوى الكاذبة تماما، و تكون الحاكمية للّه خاصّة، فتتداعى قلاع الكافرين، و تزول قوى الجبابرة و الطواغيت، و إن كانوا جميعا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۵

هذا العالم- أيضا- لا شىء أمام إرادته تبارك و تعالى. و إذا كان لهم فى هذه الدنيا بهرجة، فبأى ملاذ يلوذون من الجزاء الإلهى فى يوم القيامة، يوم انكشاف الحقائق و زوال المجازات و الخيالات و الأوهام، و لهذا سيكون ذلك اليوم يوما بالغ الصعوبة عليهم، فى الوقت الذى يكون على المؤمنين سهلا يسيرا و هينا جدّا.

فى حديث عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فقلت: ما أطول هذا اليوم!؟ فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «و الذى نفسى بيده إنّه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا».[۱۶۵]

و التأمل الدقيق فى سائر آيات القرآن يكشف عن دلائل صعوبة ذلك اليوم على الكافرين، ذلك أنّنا نقرأ من جهة وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ [۱۶۶] و من جهة أخرى ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ [۱۶۷] و من جهة ثالثة يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً.[۱۶۸] حتى الشفاعة التى هى وحدها طريق النجاة، تكون للمذنبين الذين كانت لهم صلة باللّه و بأولياء اللّه مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ [۱۶۹] و ايضا وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [۱۷۰] فلا يسمح لهم بالاعتذار، فما بالك بقبول الاعذار الواهية!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۶

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۷ الى ۲۹]

اشارة

وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (۲۷) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا (۲۸) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا (۲۹)

سبب النّزول

«قال ابن عباس: نزل قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ فى عقبة بن أبى معيط، و أبى بن خلف، و كانا متخالّين، و ذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاما فدعا إليه أشراف قومه، و كان يكثر مجالسة الرّسول، فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاما و دعا الناس، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى طعامه، فلما قربوا الطعام قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلّا اللّه و أنّى رسول اللّه، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّا اللّه و أشهد أن محمدا رسول اللّه. و بلغ ذلك أبى بن خلف فقال: صبئت يا عقبة؟ قال: لا- و اللّه ما صبأت، و لكن دخل علىّ رجل فأبى أن يطعم من طعامى إلّا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى و لم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال أبى: ما كنت براض عنك أبدا حتى تأتى فتبزق فى وجهه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۷

ففعل ذلك عقبة و ارتدّ، و أخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا ألقاك خارجا من مكّة إلّا علوت رأسك بالسيف، فضرب عنقه يوم بدر صبرا، و أمّا أبى بن خلف فقتله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم أحد بيده فى المبارزة».

و قال الضحاك: لما بزق عقبة فى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عاد بزاقه فى وجهه، فأحرق خديه، و كان أثر ذلك فيه حتى مات.

و قيل نزلت فى كل كافر أو ظالم تبع غيره فى الكفر أو الظلم و ترك متابعة أمر اللّه تعالى.[۱۷۱] نزلت الآيات أعلاه لترسم صورة مصير الرجل الذى يبتلى بخليل ضال، و يجره إلى الضلال.

و قلنا مرارا أنّ سبب النّزول و إن يكن خاصّا، إلّا أنّه لا يقيد مفهوم الآيات أبدا، و عمومية المفهوم تشمل جميع المصاديق.

التّفسير

أضلنى صديق السوء

يوم القيامة له مشاهد عجيبة، حيث ورد بعض منها فى الآيات السابقة، و فى هذه الآيات اشارة الى قسم آخر منها، و هى مسألة حسرة الظالمين البالغة على ماضيهم، يقول تعالى أوّلا: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا[۱۷۲].

«يعضّ» من مادة «عضّ» (على وزن سدّ) بمعنى الأزم بالأسنان، و يستخدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۸

هذا التعبير عادة بالنسبة إلى الأشخاص المهووسين من شدّة الحسرة و الأسف، كما فى المثل العربى، لأن الإنسان فى مثل هذه الحالات لا يعض الإصبع دائما، بل يعض ظاهر اليد أحيانا، و كثيرا ما يقال- كما فى الآية الآية مورد البحث- «يديه» يعنى كلتا اليدين حيث تبيّن شدّة الأسف و الحسرة بنحو أبلغ.

و هذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، و يعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الانتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب فى نفوسهم و الشعور بالراحة.

و ينبغى حقّا، أن يسمى ذلك اليوم يَوْمَ الْحَسْرَةِ كما ورد هذا الوصف بالذات فى القرآن ليوم القيامة أيضا (سورة مريم الآية ۳۹)، ذلك لأن المجرمين يرون أنفسهم فى أتعس حال بين يدى الحياة الخالدة، فى الوقت الذى كانوا يستطيعون خلال أيام من الصبر و الاستقامة و مجاهدة النفس و الإيثار أن يستبدلوا ذلك بحياة مشرفة و سعيدة، و هو يوم أسف أيضا حتى بالنسبة إلى المحسنين، فهم يأسفون على أنّهم: لماذا لم يحسنوا أكثر.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّ هذا الظالم المعتدى الغارق فى عالم الأسف، يقول: يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا.[۱۷۳] واضح أن المقصود ب «فلان» هو ذلك الذى أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال، و فرد مثل «أبى» ل «عقبة» الذى ورد فى سبب النّزول.

هذه الآية- و الآية التى قبلها- تعرضان حالتى نفى و إثبات متقابلتين فى مكان واحد، يقول تعالى: يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، و هنا يقول:

... لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا حيث كانت التعاسة كلها فى ترك الارتباط بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قبول الارتباط بهذا الخليل الضال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳۹

ثمّ يستمر و يقول: لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي

لو كانت الفاصلة كبيرة بينى و بين الإيمان و السعادة الخالدة فى الدنيا لم أكن آسف الى هذا الحد، و لكنى كنت قاب قوسين أو أدنى من السعادة الدائمة فصدّنى رفيق السوء هذا عن عين ماء الحياة ظامئا و أغرقنى فى دوامة التعاسة.

«الذكر» فى الجملة أعلاه، له معنى واسع، و يشمل كل الآيات الإلهية التى نزلت فى الكتب السماوية، بل يدخل فى إطاره كلّ ما يوجب يقظة و وعى الإنسان.

و فى ختام الآية يقول تعالى: وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا ذلك لأنّه يجر الإنسان إلى مواقع الخطر و الطرق المنحرفة، ثمّ يتركه حيران و يذهب لسبيله.

و ينبغى الانتباه إلى أنّ «خذولا» صيغة مبالغة، بمعنى كثير الخذلان.

و حقيقة الخذلان هى أى يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، و لكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته و إعانته تماما فى اللحظات الحساسة.

فى هذه الجملة الأخيرة وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا قد تكون من مقولة اللّه تعالى على سبيل الإنذار لجميع الظالمين و الظالمين، أو تتمة لمقولة هؤلاء الأفراد المتحسرين فى القيامة، ذكر المفسّرون تفسيرين، و كل منهما منسجم مع معنى الآية، غير أن كونها مقولة اللّه تعالى أكثر انسجاما.

بحث

أثر الصديق فى مصير الإنسان:

لا شك فى أن عوامل بناء شخصية الإنسان- بعد عزمه و إرادته و تصميمه- أمور مختلفة، من أهمها الجليس و الصديق و المعاشر، ذلك لأنّ الإنسان قابل للتأثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۴۰

شاء أم أبى، فيأخذ قسطا مهما من أفكاره و صفاته الأخلاقية عن طريق أصدقائه، و لقد ثبتت هذه الحقيقة من الناحية العلمية و عن طريق التجربة و المشاهدات الحسية أيضا.

قابلية التأثر هذه نالت اهتماما خاصّا لدى الإسلام إلى حدّ أنّه نقل فى الرّوايات الإسلامية،

عن نبىّ اللّه سليمان عليه السّلام أنّه قال: «لا تحكموا على رجل بشىء حتى تنظروا إلى من يصاحب، فإنّما يعرف الرجل بأشكاله و

أقرانه، و ينسب إلى أصحابه و أخدانه».[۱۷۴]

يقول الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى خطبة له: «و من اشتبه عليكم أمره و لم تعرفوا دينه، فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين اللّه فهو على دين اللّه، و إن كانوا على غير دين اللّه، فلا حظّ له من دين اللّه».[۱۷۵]

حقّا، إنّ أثر الصديق فى سعادة و شقاوة إنسان ما قد يكون من أهم العوامل أحيانا، فقد يؤدى به إلى دركات الشقاء الأبدى، و قد يرقى به أحيانا إلى غاية المجد.

الآيات الحالية و سبب نزولها، تبيّن- بوضوح- كيف أنّ الإنسان قد يقترب من السعادة، لكنّ وسوسة شيطانية واحدة من صديق سيء تقلبه رأسا على عقب و تقلب مصيره، حيث سيعضّ على يديه من الحسرة يوم القيامة، و ستتعالى منه صرخة «يا ويلتى».

فى كتاب «العشرة» وردت روايات كثيرة فى نفس هذا الموضوع، تبيّن أن الإسلام شديد و دقيق و ثاقب النظرة فى مسألة اختيار الصديق.

ننهى هذا البحث القصير بنقل حديثين فى هذا الموضوع، و من أراد الاطلاع أكثر فى هذا الموضوع فليراجع كتاب «العشرة» من بحار الأنوار، الجزء ۷۴.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۴۱

نقرأ

فى حديث عن التاسع من أئمة الإسلام العظام، الإمام محمد التقى الجواد عليه السّلام «إيّاك و مصاحبة الشرير، فإنه كالسيف المسلول، يحسن منظره و يقبح أثره».[۱۷۶]

و

قال الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب ...

و مجالسة الموتى» قيل له: يا رسول اللّه، و ما الموتى؟ قال: «كل غنى مترف».[۱۷۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۴۲

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۳۰ الى ۳۴]

اشارة

وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (۳۰) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً (۳۱) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا (۳۲) وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (۳۳) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (۳۴)

التّفسير

إلهى، إنّ الناس قد هجروا القرآن:

كما تناولت الآيات السابقة أنواعا من ذرائع المشركين و الكافرين المعاندين، تتناول الآية الأولى فى مورد البحث هنا حزن و شكاية الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين يدى اللّه عزّ و جلّ من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۴۳

وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً.[۱۷۸] قول الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا، و شكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدى اللّه أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الذى هو رمز الحياة و وسيلة النجاة، القرآن الذى هو سبب الإنتصار و الحركة و الترقى، القرآن الممتلئ ببرامج الحياة، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الاستجداء إلى الآخرين، حتى فى القوانين المدنية و الجزائية.

إلى الآن، لو تأملنا فى وضع كثير من البلدان الإسلامية، خصوصا أولئك الذين يعيشون تحت هيمنة الشرق و الغرب الثقافية، لوجدنا أنّ القرآن بينهم كتاب للمراسم و التشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، و يستخدمونه فى زخرفة المساجد بعنوان الفن المعمارى، و لافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، و شفاء مريض، و على الأكثر للتلاوة من أجل الثواب.

و يستدلون بالقرآن، أحيانا و غايتهم إثبات أحكامهم المسبّقة الخاطئة من خلال الاستعانة بالآيات، و بالاستفادة من المنهج المنحرف فى التّفسير بالرأى.

فى بعض البلدان الإسلامية، هناك مدارس فى طول البلاد و عرضها بعنوان:

مدارس «تحفيظ القرآن» و فريق عظيم من الأولاد و البنات مشغولون بحفظ القرآن، فى الوقت الذى تؤخذ أفكارهم عن الغرب حينا، و عن الشرق حينا آخر، و تؤخذ قوانينهم و قراراتهم من الأجانب، أمّا القرآن فغطاء لمخالفاتهم فقط.

نعم، اليوم أيضا يصرخ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً. مهجورا من ناحية لبّه و محتواه، متروكا من ناحية الفكر و التأمل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۴

و مهملا من ناحية برامجه البناءة.

تقول الآية التى بعدها فى مواساة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائى للخصوم: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

لست وحدك قد واجهت هذه العداوة الشديدة لهذه الفئة، فقد مرّ جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من (المجرمين) فكانوا يناصبونهم العداء.

و لكن اعلم أنّك لست وحيدا، و بلا معين وَ كَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً.

فلا وساوسهم تستطيع أن تضللك، لأنّ اللّه هاديك، و لا مؤامراتهم تستطيع، أن تحطمك، لأن الخالق معينك، الخالق الذى علمه فوق كل العلوم، و قدرته أقوى من كل القدرات.

الآية التى بعدها، تشير أيضا إلى ذريعة أخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً.

أليس القرآن جميعه من قبل اللّه!؟ أليس من الأفضل أن ينزل جميع محتوى هذا الكتاب دفعة واحدة حتى يقف الناس على عظمته أكثر؟ و لماذا تتنزل هذه الآيات تدريجيا و على فواصل زمنية مختلفة؟

و قد يأخذ هذا الإشكال فى كيفية نزول القرآن مأخذه من الأفراد السطحيين، خاصّة إذا كانوا من المتمحلين للأعذار بأن هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس و مصدر كل حياة المسلمين، و محور كل قوانينهم السياسية و الاجتماعية و الحقوقية و العبادية، لماذا لم ينزل كاملا- و دفعة واحدة على نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حتى يقرأه أتباعه من البداية إلى النهاية فيطلعون على محتواه. و أساسا فقد كان الأفضل للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعة واحدة، كيما يجيب الناس فورا على كل ما يسألونه و يريدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۵

منه.

و لكن القرآن فى تتمة نفس هذه الآية يجيبهم: كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا. و قد غفل أولئك السطحيون عن هذه الحقيقة، فلا شك أن نزول القرآن التدريجى له ارتباط وثيق بتثبيت قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و سيأتى بحث مفصل عن ذلك فى نهاية هذه الآيات.

ثمّ للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً. أى أنّهم لا يأتون بمثل أو مقولة أو بحث لاضعاف دعوتك و مقابلتها، إلّا آتيناك بكلام حقّ يقمع كلماتهم الجوفاء و أدلتهم الخاوية بأحسن بيان و أفضل تفسير.

و بما أنّ هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا- بعد مجموعة من إشكالاتهم- أن محمّدا و أصحابه مع صفاتهم هذه و كتابهم هذا و برامجهم هذه شرّ خلق اللّه (العياذ باللّه)، و لأنّ ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحة و بلاغة القرآن، فإنّ اللّه سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول فى الآية الأخيرة مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول:

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلًا.

نعم، تتضح هناك نتيجة منهاج حياة الناس، فريق لهم قامات منتصبة كشجر السرور، و وجوه منيرة كالقمر، و خطوات واسعة، يتوجهون بسرعة إلى الجنّة، فى مقابل فريق مطأطئى رؤوسهم إلى الأرض، تسحبهم ملائكة العذاب إلى جهنّم، هذا المصير المختلف يكشف عمن كان ضالا و شقيا! و من كان مهتديا و سعيدا؟!

بحوث

۱- تفسير جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا.

يفهم من هذه الجملة- أحيانا- أن اللّه من أجل مواساة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۴۶

وحدك لك عدوّ، بل لقد جعلنا لكل نبى عدوّا، و لازم هذا القول إسناد وجود أعداء الأنبياء إلى اللّه تعالى، الأمر الذى لا يتفق مع حكمته و لا مع أصل حرية و إرادة الإنسان. ذكر المفسّرون أجوبة متعددة على هذا السؤال ...

قلنا مرارا أن جميع أعمال الإنسان منسوبة إلى اللّه، لأنّ جميع متعلقاتنا، قدرتنا، قوانا، عقلنا و فكرنا، و حتى حريتنا و اختيارنا أيضا من عنده، و على هذا فمن الممكن من هذه الناحية نسبة وجود الأعداء للأنبياء إلى اللّه، دون أن يستلزم ذلك الجبر و سلب الإختيار، و لا يرد خدش فى مسئوليتهم إزاء أعمالهم (فتأمل)! مضافا إلى أن وجود هؤلاء الأعداء الأشداء و مخالفتهم للأنبياء، يكون سببا فى أن يصبح المؤمنون أقوى فى عملهم، و أثبت قدما، فيتحقق الامتحان الإلهى بالنسبة إلى الجميع.

هذه الآية فى الحقيقة مثل الآية (۱۱۲) من سورة الأنعام حيث تقول:

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ، يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً.

أمام الأزاهير تنمو الأشواك، و فى قبال المحسنين يوجد المسيئون، دون أن تنتفى مسئولية أى واحد من هاتين المجموعتين.

و قال البعض: إنّ المقصود من «جعلنا» هى أوامر و نواهى و مناهج الأنبياء البناءة التى تجر بعض الضالين إلى العداوة، شاؤوا أم أبوا.

و إذا أسند ذلك إلى اللّه فلأن الأوامر و النواهى من جهته عزّ و جلّ.

التّفسير الآخر: أن هنالك فئة يطبع اللّه على قلوبهم و يعمى أبصارهم و يصم أسماعهم بسبب الإصرار على الذنب و الإفراط فى التعصب و اللجاجة، هذه الفئة يصبحون أعداء الأنبياء فى نهاية المطاف، أمّا أسباب ذلك فهى بما قدموا لأنفسهم.

و لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة، فمن الممكن أن تجتمع كلها فى مفهوم الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۴۷

۲- الآثار العميقة لنزول القرآن التدريجى

صحيح أنّه كان للقرآن نزولان، طبقا للرّوايات (بل لظاهر بعض الآيات):

أحدهما: «نزول دفعى» مرّة واحدة فى ليلة القدر على قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الآخر:

«نزول تدريجى» فى ثلاث و عشرين سنة، لكن بلا شك أن النّزول المعترف به الذى كان النّبى و الناس يتفاعلون معه دائما هو النّزول التدريجى للقرآن.

و هذا النّزول التدريجى بالذات صار سببا لاستفهامات الأعداء: لماذا لم ينزل القرآن مرّة واحدة و يجعل دفعة واحدة بين أيدى الناس، حتى يكونوا أكثر اطلاعا و تفهما، فلا يبقى مكان للشك و الريبة؟

و لكن- كما رأينا- فإنّ القرآن أجابهم جوابا قصيرا و جامعا و بليغا من خلال جملة كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ فكلما تأملنا فيها أكثر تتجلى آثار النّزول التدريجى للقرآن أوضح.

۱- لا شك أنّ التشريعات إذا كانت تتنزل بشكل تدريجى تبعا للحاجات، و يكون لكل مسألة شاهد و مصداق عينىّ، فستكون مؤثرة جدّا من ناحية «تلقى الوحى» و كذلك «إبلاغ الناس».

مبادئ التربية تؤكّد أنّ الشخص أو الأشخاص المراد تربيتهم ينبغى أن يؤخذ بأيديهم خطوة خطوة، فينظم لهم لكل يوم برنامج، و يسلكوا من المرحلة الأدنى التى شرعوا منها إلى المراحل الأعلى و البرامج التى تتدرج بهذه الكيفية تكون أكثر مقبولية و أعمق أثرا.

۲- إنّ هؤلاء المعترضين غافلون أساسا عن أنّ القرآن ليس كتابا عاديا يبحث فى موضوع أو علم معين، بل هو منهج حياتى للأمة التى تغيرت به، و استلهمت منه فى جميع أبعاد الحياة و لا تزال.

كثير من آيات القرآن نزلت فى مناسبات تاريخية مثل معركة (بدر) و (أحد) و (الأحزاب) و (حنين)، و بذلك سنّت التشريعات و الاستنتاجات من هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۴۸

الحوادث، ترى هل يصح أن تكتب هذه مرّة واحدة و تعرض على الناس!؟

بعبارة أخرى: القرآن مجموعة من أوامر و نواه، أحكام و قوانين، تاريخ و موعظة، و مجموعة من الخطط ذات المدى الطويل أو القصير فى مواجهة الأحداث التى كانت تبرز أمام مسير الأمة الإسلامية، كتاب- كهذا- يبيّن و ينفذ جميع مناهجه حتى قوانينه الكلية عن طريق الحضور فى ميادين حياة الأمة، لا يمكن أن ينظم و يدوّن دفعة واحدة.

و هذا من قبيل أن يقوم قائد عظيم بكتابه و نشر جميع بياناته و إعلاناته و أوامره و نواهيه- التى يصدرها فى المناسبات المختلفة- دفعة واحدة من أجل تسيير الثورة، ترى هل يعتبر هذا العمل عقلائيا!؟

۳- النّزول التدريجى للقرآن كان سبب ارتباط النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الدائم و المستمر بمبدإ الوحى ممّا يجعل قلبه الشريف أقوى و إرادته أشدّ. و من غير الممكن إنكار تأثيره فى المناهج التربوية.

۴- من جهة أخرى فإنّ استمرار الوحى دليل على استمرار رسالة و سفارة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و سوف لن يترك مجالا لوسوسة الأعداء لكى يقولوا: لقد بعث هذا النّبى ليوم واحد! ثمّ تركه ربه، كما نقرأ فى التأريخ الإسلامى أن هذه الهمهمة ظهرت أثناء تأخر الوحى فى بداية الدعوة، فأنزلت سورة وَ الضُّحى لنفى ذلك.

۵- لاـ شك أنّه إذا كان مقررا لمناهج الإسلام أن تنزل جميعها دفعة واحدة، فقد كان من اللازم أن تطبّق دفعة واحدة أيضا، لأن النّزول بدون تطبيق يفقد النّزول قيمته، و من المعلوم أن تطبيق جميع المناهج أعم من العبادات كالزكاة و الجهاد، و رعاية جميع الواجبات و الامتناع عن كل المحرمات دفعة واحدة ..

عمل ثقيل جدّا قد يؤدى إلى فرار فئة كبيرة من الإسلام.

و بهذا يتبيّن أن النّزول التدريجى و بالتالى التطبيق التدريجى أفضل من جهات كثيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۹

و بعبارة أخرى: إنّ أيّ واحد من هذه التشريعات فى صورة النّزول التدريجى سيتم هضمه و استيعابه بصورة جيدة، و فى حالة تعرضه لبعض الاستفهامات يمكن طرحها و الاجابة عليها.

۶- و فائدة أخرى من فوائد النّزول التدريجى هو اتضاح عظمة و إعجاز القرآن، ذلك لأن فى كل واقعة تنزل عدّة آيات كريمة تكون لوحدها دليل العظمة و الاعجاز، و كلما يتكرر تتجلى أكثر هذه العظمة و هذا الإعجاز، فينفذ فى أعماق قلوب الناس.

۳- معنى الترتيل فى القرآن:

كلمة «ترتيل» من مادة «رتل» (على وزن قمر) بمعنى انتظم و اتسق، لذا فالعرب يقولون «رتل الإنسان» لمن تكون أسنانه جيدة و منتظمة و متسقة. و على هذا الأساس يطلق الترتيل بمعنى القراءة المتسقة للكلام أو الآيات بموجب نظام و حساب.

و على هذا فجملة وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ آيات القرآن و إن نزلت تدريجا و فى مدة ۲۳ سنة، لكنّ هذا النّزول كان على أساس نظام و حساب و منهج بحيث ادى الى رسوخه فى الأفكار و غرسه فى القلوب.

فى تفسير كلمة «ترتيل» نقلت روايات جذابة، نشير إلى بعضها كما يأتى:

فى تفسير «مجمع البيان» «نقل عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه أمر ابن عباس: «إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا» فسألته: و ما الترتيل؟ قال: «بينه تبيينا و لا تنثره نثر الدقل و لا تهزه هزّ الشعر، قفوا عند عجائبه و حركوا به القلوب، و لا يكونن همّ أحدكم آخر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵۰

السورة».[۱۷۹]

و هناك رواية بهذه المضمون رواه الشيخ الكلينى فى «أصول الكافى» عن أمير المؤمنين على عليه السّلام.[۱۸۰] و

نقل أيضا عن الإمام الصادق عليه السّلام «الترتيل أن تتمكث به و تحسن به صوتك، و إذا مررت بآية فيها ذكر النار فتعوّذ باللّه من النار، و إذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فاسأل اللّه الجنّة».[۱۸۱]

۴- تفسير يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ

أقوال كثيرة بين المفسّرين فى ما هو المقصود بحشر هذه الفئة من المجرمين على وجوههم!؟

بعضهم فسّروا ذلك بنفس معناه الحقيقى، و قالوا: إنّ ملائكة العذاب يسحبونهم إلى جهنم و هم ملقون على وجوههم إلى الأرض، و هذا علامة على مهانتهم و ذلتهم، لأنّهم كانوا فى الدنيا فى غاية الكبر و الغرور و الاستهانة بخلق اللّه، هذا من جهة.

و من جهة أخرى تجسيد لضلالتهم فى هذا العالم، ذلك أن من يسحبونه بهذه الصورة لا يرى ما أمامه بأى شكل، و غافل عما حوله.

و البعض الآخر أخذوا بمعناه الكنائى، فقالوا تارة هذه الجملة كناية عن تعلق قلوب أولئك بالدنيا، فهم يسحبون إلى جهنم لأن وجوه

قلوبهم لا زالت مرتبطة بالدنيا.[۱۸۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۱

و قالوا تارة اخرى: انها كناية مستعملة فى الأدب العربى حيث يقولون: فلان مرّ على وجهه، يعنى أنّه لم يكن يدرى أين يذهب.

لكن الواضح أنّنا مع عدم الدليل على المعنى الكنائى، لا بدّ من حملها على المعنى الأوّل، و هو المعنى الحقيقى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۲

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۳۵ الى ۴۰]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (۳۵) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (۳۶) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (۳۷) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (۳۸) وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً (۳۹)

وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (۴۰)

التّفسير

مع كل هذه الدروس و العبر، و لكن ...

أشار القرآن المجيد فى هذه الآيات إلى تاريخ الأمم الماضية و مصيرهم المشؤوم مؤكّدا على ست أمم بخاصّة (الفراعنة، و قوم نوح، و قوم عاد، و ثمود، و أصحاب الرّس، و قوم لوط) و ذلك لمواساة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة، و لتهديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۳

المشركين المعاندين الذين مرّ أنموذج من أقوالهم فى الآيات السابقة، من جهة أخرى و يجسد دروس العبرة من مصير هذه الأقوام بشكل مختصر و بليغ تماما.

يقول أوّلا: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً.

فقد ألقيت على عاتقيهما لمسؤولية الثقيلة فى جهاد الفراعنة، و يجب عليهما مواصلة هذا العمل الثورى بمساعدة أحدهما الآخر حتى يثمر فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فإنّهم قد كذبوا دلائل اللّه و آياته التى فى الآفاق و فى الأنفس و فى كل عالم الوجود، و أصروا على طريق الشرك و عبادة الأصنام من جهة .. و من جهة أخرى أعرضوا عن تعاليم الأنبياء السابقين و كذبوهم.

و لكن بالرغم من جميع الجهود و المساعى التى بذلها موسى و هارون، بالرغم من رؤية كل تلك المعجزات العظيمة و البينات المتنوعة، أصروا أيضا على طريق الكفر و الإنكار، لذا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً.

كلمة «تدمير» من مادة «دمار» بمعنى الإهلاك بأسلوب يثير العجب، حيث كان هلاك قوم فرعون فى أمواج النيل المتلاطمة بتلك الكيفية المعروفة من عجائب التاريخ حقا.

و كذلك: وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً، وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً.

الملفت للانتباه أنّه تعالى يقول: إنّ أولئك كذبوا الرسل (لا- رسولا واحدا فقط) ذلك أنه لا فرق بين أنبياء اللّه و رسله فى أصل الدعوة، و تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم، فضلا عن أنّهم كانوا مخالفين لدعوة جميع أنبياء اللّه و منكرين لجميع الأديان.

و کذلک: وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَیْنَ ذلِکَ کَثِیراً.[۱۸۳]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۴

«قوم عاد» هم قوم النّبی «هود» العظیم، الذی بعث فی منطقة (الأحقاف) أو (الیمن).

و «قوم ثمود» قوم نبی اللّه «صالح» الذی بعث فی منطقة وادی القری (بین المدینة و الشام)، أمّا ما یتعلق بمسألة «أصحاب الرس» فسنبحثها فی نهایة هذا البحث.

«قرون» جمع «قرن» و هی فی الأصل بمعنی الجماعة الذین یعیشون معا فی زمان واحد، ثمّ أطلقت علی الزمان الطویل (أربعین أو مائة سنة).

لکننا لم نجاز أولئک علی غفلة أبدا، بل وَ کُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ

أجبنا علی إشکالاتهم، مثل الإجابة علی الإشکالات التی یوردونها علیک، و بیّنا لهم الأحکام الإلهیة و حقائق الدین. أخطرناهم، أنذرناهم، کررنا علیهم مصائر و قصص الماضین، لکن حین لم ینفع أیّ من ذلک أهلکناهم و دمّرناهم تدمیرا: وَ کُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِیراً.[۱۸۴]

و فی نهایة المطاف- فی الآیة الأخیرة مورد البحث- یشیر القرآن المجید إلی خرائب مدن قوم لوط التی تقع علی بدایة طریق الحجازیین إلی الشام، و إلی الأثر الحی الناطق عن المصیر الألیم لأولئک الملوثین و المشرکین، فیقول تعالی: وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَی الْقَرْیَةِ الَّتِی أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ یَکُونُوا یَرَوْنَها.

نعم، لقد کانوا یرون مشهد الخرائب هذه، لکنّهم لم یأخذوا منها العبرة، ذلک لأنّهم بَلْ کانُوا لا یَرْجُونَ نُشُوراً.

إنّهم یعدون الموت نهایة هذه الحیاة، و إذا کان لهم اعتقاد بحیاة ما بعد الموت فهو اعتقاد ضعیف و بلا أساس، لا یطبع أثرا فی أرواحهم و لا ینعکس فی مناهج

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۵

حیاتهم، و لهذا فهم یأخذون جمیع الأشیاء مأخذ اللعب، و لا یفکرون إلّا بأهوائهم السریعة الزوال.

بحثان

۱- من هم «أصحاب الرس»

کلمة «رسّ» فی الأصل بمعنی الأثر القلیل، فیقال مثلا «رسّ الحدیث فی نفسی» (قلیل من حدیثه فی ذاکرتی) أو یقال: وجد رسّا من حمی» (یعنی: وجد قلیلا من الحمّی فی نفسه).[۱۸۵] و جماعة من المفسّرین اعتقدوا بأن «الرسّ» بمعنی البئر.

علی أیة حال فتسمیة هؤلاء القوم بهذا الاسم، إمّا لأنّ أثرا قلیلا جدا بقی منهم، أو لأنّهم کانت لهم آبار کثیرة، أو لأنّهم هلکوا و زالوا بسبب جفاف آبارهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۱ ؛ ص۲۵۵

ّا من هم هؤلاء القوم؟ هناک أقوال کثیرة بین المؤرخین و المفسّرین:

۱- یری کثیرون أن «أصحاب الرس» کانوا طائفة تعیش فی «الیمامة» و بعث لهم نبی اسمه «حنظلة» کذبوه و ألقوه فی بئر، و ذکروا أیضا: إنّهم ملأوا هذا البئر بالرماح، و أغلقوا فم البئر بعد إلقاء النّبی فیها بالحجارة حتی استشهد ذلک النبی.[۱۸۶] ۲- البعض الآخر یری أن «أصحاب الرسّ» إشارة إلی قوم «شعیب» الذین کانوا یعبدون الأصنام، و کانوا ذوی أغنام کثیرة و آبار ماء، و «الرسّ» کان

اسما لبئر عظيم، حيث أغاضه اللّه، فأهلك أهل ذلك المكان.

۳- بعض آخر يعتقد أن «الرسّ» كانت قرية فى أرض «اليمامة» حيث كان يعيش فيها جماعة من بقايا قوم ثمود، فهلكوا نتيجة طغيانهم و غرورهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۶

۴- و ذهب آخرون أنّهم كانوا جماعة من العرب الماضين، يعيشون ۱۸۷] بين الشام و الحجاز.

۵- بعض التفاسير يعرّف «أصحاب الرسّ» من بقايا عاد و ثمود، و يعتبر وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ.[۱۸۸] متعلقة بهم أيضا، و ذكر أن موطنهم فى «حضر موت» و اعتقد «الثعلبى» فى «عرائس البيان» أن هذا القول هو الأكثر اعتبارا.

البعض الآخر من المفسّرين طبقوا «الرس» على «أرس» (فى شمال آذربيجان)! ۶- العلامة الطبرسى فى مجمع البيان، و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، و الآلوسى فى روح المعانى نقلوا من جملة الاحتمالات، أنّهم قوم يعيشون فى أنطاكية الشام، و كان نبيهم «حبيب النجار».

۷- فى عيون أخبار الرضا، نقل حديث طويل حول «أصحاب الرس» خلاصته: «إنّهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبر يقال لها (شاه درخت) كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها (روشن آب) و كان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطئ نهر يقال له «الرسّ»، يسمين بأسماء: آبان، آذر، دى، بهمن أسفندار، فروردين، أردى بهشت، خرداد، مرداد، تير، مهر، شهريور، و منها اشتقّ العجم أسماء شهورهم.

و قد غرسوا فى كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبّة. أجروا عليها نهرا من العين التى عند الصنوبرة، و حرّموا شرب مائها على أنفسهم و أنعامهم، و من شرب منه قتلوه، و يقولون: إنّه حياة الآلهة فلا ينبغى لأحد أن ينقص حياتها. و قد جعلوا فى كل شهر من السنة يوما- فى كل قرية، عيدا، يخرجون فيه إلى الصنوبرة التى خارج القرية يقربون إليها القرابين و يذبحون الذبائح ثمّ يحرقونها فى النار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۷

فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها و سطوعه فى السماء و يبكون و يتضرعون، و الشيطان يكلمهم من الشجرة. و كان هذا دأبهم فى القرى حتى إذا كان يوم عيد قريتهم العظمى التى كان يسكنها ملكهم و اسمها (أسفندار) اجتمع إليها أهل القرى جميعا و عيّدوا اثنى عشر يوما، و جاءوا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين و العبادات للشجرة، و كلّمهم إبليس و هو يعدهم و يمنيهم أكثر ممّا كان من الشياطين فى سائر الأعياد من سائر الشجر.

و لما طال منهم الكفر باللّه و عبادة الشجرة، بعث اللّه إليهم رسولا من بنى إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهة إلى عبادة اللّه و ترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فيبست، فلما رأوا ذلك ساءهم، فقال بعضهم: إنّ هذا الرجل سحر آلهتنا، و قال آخرون: إنّ آلهتنا غضبت علينا بذلك لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه و شأنه من غير أن نغضب لآلهتنا. فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئرا عميقا و ألقوه فيها، و سدّوا فوهتها، فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات، فأتبعهم اللّه بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم».[۱۸۹] قرائن متعددة تؤيد مضمون هذا الحديث، لأن مع وجود ذكر «أصحاب الرسّ» فى مقابل عاد و ثمود يكون احتمال أنّهم جماعة من هاتين الأمتين بعيدا جدا.

كذلك، فإنّ وجود هؤلاء القوم فى الجزيرة العربية و الشامات و تلك الحدود- و هو الذى احتمله الكثيرون- بعيد أيضا، ذلك لأنّه يجب أن يكون له انعكاس فى تاريخ العرب بحسب العادة، فى الوقت الذى لم نر حتى انعكاسا ضئيلا لأصحاب الرس لديهم.

مضافا الى ذلك توافقه مع كثير من التفاسير الأخرى، من جملتها: أنّ «الرس»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۸

كان اسما لبئر (البئر التى ألقوا فيها نبيهم) أو أنّهم كانوا أصحاب زراعة و مواشى و أمثال ذلك.

و ما

ورد فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام: أنّ نساءهم كن منحرفات جنسيا و يمارسن «المساحقة»

لا منافاة له مع هذا الحديث أيضا[۱۹۰].

و من عبارة (نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۰) يستفاد أنه كان لهم أكثر من نبىّ واحد فقط، لأنّه عليه السّلام

يقول: «أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيّين، و أطفأوا سنن المرسلين، و أحيوا سنن الجبارين!؟».

و كلام أمير المؤمنين عليه السّلام هذا لا يتنافى مع الرواية أعلاه، لأنّ من الممكن أن الرواية تشير إلى مقطع من تاريخهم و كان قد بعث نبىّ فيهم.

۲- مجموعة من الدروس المؤثرة:

ست فئات فى الآيات أعلاه، ذكرت أسماؤهم: قوم فرعون قوم نوح المتعصبون، قوم عاد المتجبرون، ثمود، أصحاب الرس، و قوم لوط، حيث كان كل منهم أسير نوع من الانحراف الفكرى و الأخلاقى أدّى بهم إلى الهلاك و الشقاء.

الفراعنة كانوا ظالمين جائرين و مستعمرين و استثماريين و أنانيين.

قوم نوح كما هو معلوم كانوا معاندين و متكبرين و مغرورين.

قوم عاد و قوم ثمود كانوا يتكلمون على قدراتهم الذاتية.

و كان أصحاب الرس فى دوامة الفساد و الشذوذ الجنسى و خاصّة نسائهم، و كان قوم لوط غارقين فى وحل من الفحشاء، و شذوذ الرجال بخاصّة، و الجميع منحرفون عن جادة التوحيد. حيرى فى الضلالات.

و هنا يريد القرآن أن ينذر مشركى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جميع الناس على مدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۹

التاريخ: ليكن لكم من القدرات و الاستطاعة و الإمكانات كل شىء و مهما كان لكم من اموال و ثروات و حياة مرفّهة، فإن التلوث بالشرك و الظلم و الفساد سيستأصل أعماركم، و إنّ نفس أسباب تفوقكم تلك ستكون أسباب هلاككم! قوم فرعون: و قوم نوح، أهلكوا بالماء الذى هو أساس الحياة، قوم عاد بالعاصفة و الرياح التى هى أيضا فى ظروف خاصّة أساس الحياة، قوم ثمود بالسحاب الحامل للصواعق، و قوم لوط بمطر من الحجارة نزل بعد الصاعقة، أو انفجار بركان على قول بعضهم، و أصحاب الرس طبقا لذيل تلك الرواية أعلاه، أبيدوا بنار تطلع من الأرض، و بشعلة مهلكة انتشرت من السحاب، ليؤوب هذا الإنسان المغرور إلى نفسه، فيتمسك بطريق اللّه و العدالة و التقوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۶۰

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (۴۱) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۲) أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (۴۳) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ

يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۴)

التّفسير

أضلّ من الأنعام:

الملفت للانتباه أنّ القرآن المجيد لا يورد أقوال المشركين دفعة واحدة فى آيات هذه السورة، بل أورد بعضا منها، فكان يتناولها بالردّ و الموعظة و الإنذار، ثمّ بعد ذلك يواصل تناول بعض آخر بهذا الترتيب.

الآيات الحالية، تتناول لونا آخر من منطق المشركين و كيفية تعاملهم مع رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته الحقّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۶۱

يقول تعالى أولا: وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا.[۱۹۱] و هكذا نجد هؤلاء الكفار يتعجبون! أىّ ادعاء عظيم يـدعى؟ أى كلام عجيب يقول!؟ إنّها مهزلة حقّا! لكن يجب ألا ننسى أنّ رسول الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، كان هو ذلـك الشـخص الـذى عاش بينهم أربعين عاما قبل الرسالـة، و كان معروفا بالأمانـة و الصـدق و الـذكاء و الدرايـة، لكنّ رؤوس الكفر تناسوا صـفاته هـذه حينما تعرضت منافعهم الى الخطر، و تلقوا مسألـة دعوة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم- بالرغم من جميع تلك الشواهد و الدلائل الناطقة- بالسخرية و الاستهزاء حتى لقد اتّهموه بالجنون.

ثمّ يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها[۱۹۲].

لكن القرآن يجيبهم من عدّة طرق، ففى البداية من خلال جملة واحدة حاسـمة يرد على مقولات هذه الفئة التى ما كانت أهلا للمنطق: وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

يمكن أن يكون هذا العذاب إشارة إلى عذاب القيامة، كما قال بعض المفسّـرين مثل «الطبرسـى» فى مجمع البيان، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكرة يوم «بدر» و أمثالها، كما قال «القرطبى» فى تفسيره المعروف، و يمكن أن تكون الإشارة إليهما معا.

الملفت للنظر أنّ هـذه الفئـة الضالة فى مقولتها هذه، وقعت فى تناقض فاضح، فمن جهة تلقت النّبى و دعوته بالسـخرية، إشارة إلى أن ادعاءه بلا أساس و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۶۲

يسـتحق أن يؤخذ مأخذ الجد، و من جهة أخرى أنّه لو لا تمسـكهم بمذهـب أجدادهم، فمن الممكن أن- يؤثر عليهم كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يضـلّهم عن ذلك المـذهب، و هذا يدل على أنّهم كانوا يعتبرون كلامه قويا و جديا و مؤثرا و محسوبا، و هذا المنطق المضطرب ليس غريبا عن هؤلاء الأفراد الحيارى اللجوجين.

و كثيرا ما يرى أنّ منكرى الحق حينما يقفون قبالة الأمواج المتلاطمة لمنطق القادة الإلهيين، فإنّهم يختارون أسلوب الاسـتهزاء تكتيكا من أجل توهينه و دفعه، فى حين أنّهم يخالفون سلوكهم هذا فى الباطن، بل قد يأخذوه بجدية أحيانا و يقفون ضده بجميع امكاناتهم.

الجواب القرآنى الثّانى على مقولاـتهم ورد فى الآيـة الـتى بعـدها، موجهـا الخطـاب إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم على سبيل المواساة و تسلية الخاطر، و أيضا على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوة النّبى من قبل أولئك، فيقول: أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ فهل أنت قادر مع هذا الحال على هدايته و الدفاع عنه أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا.

يعنى إذا وقف أولئـك أمـام دعوتـك بالاسـتهزاء و الإنكـار و أنواع المخالفـات، فلم يكن ذلك لأن منطقك ضـعيف و دلائلك غير مقنعـة، و فى دينك شك أو ريبـة، بل لأنّهم ليسوا أتباع العقل و المنطق، فمعبودهم أهواؤهم النفسـية، ترى أ تنتظر أن يطيعك هكـذا

أشخاص، أو تستطيع أن تؤثر فيهم!؟

أقوال مختلفة للمفسرين الكبار فى معنى جملة: أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ

قال جماعة- كما قلنا آنفا-: إنّ المقصود أنّ لهم صنما، ذلك هو هواهم النفسى، و كل أعمالهم تصدر من ذلك المنبع.

فى حين أنّ جماعة أخرى ترى أنّ المراد هو أنّهم لا يراعون المنطق بأى شكل فى اختيارهم الأصنام، بل إنّهم متى ما كانت تقع أعينهم على قطعة حجر، أو شجرة جذابة، أو شيء آخر يثير هواهم، فإنّهم يتوهمونه «معبودا»، فكانوا يجثون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٢۶٣

على ركبهم أمامه، و يقدمون القربان، و يسألونه حل مشكلاتهم.

و ذكر فى سبب نزول هذه الآية رواية مؤيدة لهذا المعنى، و هى أن إحدى السنين العجاف مرّت على قريش، فضاق عليهم العيش، فخرجوا من مكّة و تفرقوا فكان الرجل إذا رأى شجرة حسنة أو حجرا حسنا هويه فعبده، و كانوا ينحرون النعم و يلطخونها بالدم و يسمونها «سعد الصخرة»، و كان إذا أصابهم داء فى إبلهم أغنامهم جاؤوا إلى الصخرة فيمسحون بها الغنم و الإبل، فجاء رجل من العرب بإبل يريد أن يمسح بالصخرة إبله و يتبرك بها، فنفرت إبله فتفرقت، فقال الرجل شعرا:

أتيت إلى سعد ليجمع شملنافشتتنا سعد فما نحن من سعد

و ما سعد إلّا صخرة مستويةمن الأرض لا تهدى لغيّ و لا رشد

و مرّ به رجل من العرب و الثعلب يبول عليه فقال شعرا:

و ربّ يبول الثعلبان برأسهلقد ذلّ من بالت عليه الثعالب ١٩٣]

التّفسيران أعلاه لا منافاة بينهما، فأصل عبادة الأصنام- التى هى وليدة الخرافات- هو اتباع الهوى، كما أنّ اختيار الأصنام المختلفة بلا أى منطق، فرع آخر عن أتباع الهوى أيضا.

و سيأتى بحث مفصل فى الملاحظات الآتية، بصدد «اتباع الهوى و الشهوات» إن شاء اللّه.

و أخيرا فإنّ الجواب القرآنى الثّالث لهذه الفئة الضالة، هو قوله: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

يعنى لا يؤذينك استهزاؤهم و مقولاتهم السيئة و غير المنطقية أبدا، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، و يستخدم عقله، فيكون مصداقا ل «يعقلون».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٢۶۴

أو أنّه فاقد للعلم و لكنّه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقا ل «يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من أولئك و لا من هؤلاء، و على هذا فلا فرق بينهم و بين الانعام.

و واضح أنّه لا يتوقع من الأنعام غير الصياح و الرفس و الأفعال اللامنطقية. بل هم أتعس من الأنعام و أعجز، إذ أن الأنعام لا تعقل و لا فكر لها، و هؤلاء لهم عقل و فكر، و تسافلوا إلى حال كهذه.

المهم هو أنّ القرآن يعبّر ب «أكثرهم» هنا أيضا، فلا يعمم هذا الحكم على الجميع، لأنّه قد يكون بينهم أفراد مخدوعون واقعا، و حينما يواجهون الحق تنكشف عن أعينهم الحجب تدريجيا، فيتقبلوا الحق، و هذا نفسه دليل على أن القرآن يراعى الإنصاف فى المباحث القرآنية.

بحثان

۱- اتباع الهوى و عواقبه الأليمة

لا شك أنّ فى كيان الإنسان غرائز و ميولا مختلفة، و جميعها ضرورى لإدامة حياته، الغيظ و الغضب، حب النفس، حب المال و الحياة المادية، و أمثالها، و لا شك أنّ مبدع الوجود خلقها جميعا لذلك الهدف التكاملى.

لكن المهم هو أنّها تتجاوز حدها أحيانا، و تخرج عن مجالها، و تتمرّد على كونها أداة طيعة بيد العقل، و تصرّ على العصيان و الطغيان، فتسجن العقل، و تتحكم بكل وجود الإنسان، و تأخذ زمام اختياره بيدها.

هذا هو ما يعبرون عنه ب «اتباع الهوى» الذى هو أخطر أنواع عبادة الأصنام، بل إن عبادة الأصنام تنشأ عنه أيضا، فليس عبثا أن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اعتبر صنم «الهوى» أعظم و أسوأ الأصنام، لذا

قال: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۵

من دون اللّه أعظم عند اللّه من هوى متبع».[۱۹۴]

و نقرأ

فى حديث آخر عن بعض أئمّة الإسلام «أبغض إله عبد على وجه الأرض الهوى».

و إذا تأملنا جيـدا فى أعماق هـذا القول، نعلم جيدا لماذا كان اتباع الهوى مصدر الغفلة، كما يقول القرآن: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ [۱۹۵] و من جهة أخرى فإن اتباع الهوى منبع الكفر و عدم الإيمان، كما يقول القرآن فَلا يَصُدَّنَّکَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ [۱۹۶] و من جهـة ثالثـة فإنّ اتباع الهوى أسوأ الضـلال، يقول القرآن الكريم: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُـدىً مِنَ اللَّهِ [۱۹۷] و من جهـة رابعة فإن اتباع الهوى نقطة مقابلة لطلب الحق، و يخرج الإنسان عن طريق اللّه، كما نقرأ فى القرآن: فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّکَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [۱۹۸] و من جهـة خامسة فإن اتباع الهوى مانع من العدل و الإنصاف كما نقرأ فى القرآن: فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْـدِلُوا.[۱۹۹] و أخيرا، فإنّ نظام السـماء و الأرض إذا دار حول محور أهواء و شـهوات الناس، فإنّ الفساد سوف يعمّ كلّ ساحة الوجود: وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ [۲۰۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۶

و فى الروايات الإسلامية أيضا، نلاحظ تعبيرات مؤثرة فى هذا الصدد:

نقرأ

فى رواية عن على عليه السّلام: «الشقى من انخدع لهواه و غروره».[۲۰۱]

و

فى حديث آخر عنه عليه السّلام، نقرأ أن: «الهوى عدو العقل».[۲۰۲]

نقرأ أيضا:

«الهوى أسّ المحن».[۲۰۳]

و

عنه عليه السّلام: «لا دين مع هوى»[۲۰۴]

و

«لا عقل مع هوى».

[۲۰۵] و الخلاصة أن اتباع الهوى ليس من الدين و ليس من العقل، و ليس عاقبة اتباع الهوى إلّا التعاسة و المحن و البلاء، و لا يثمر إلّا

المسكنة و الشقاء و الفساد.

أحداث حياتنا و التجارب المرّة التى رأيناها فى أيّام العمر بالنسبة إلينا و إلى الآخرين، شاهد حى على جميع النكات التى وردت فى الآيات و الرّوايات أعلاه بصدد اتباع الهوى.

نرى أفرادا يتجرعون المرارة إلى آخر أعمارهم، جزاء ساعة واحدة من أتباع الهوى.

و نعرف شبابا صاروا أسارى مصيدة الإدمان الخطير، و الانحرافات الجنسية و الأخلاقية، على أثر انقيادهم للهوى، بحيث تحولوا إلى موجودات ذليلة لا قيمة لها، و فقدوا كل قواهم و طاقاتهم الذاتية.

فى التأريخ المعاصر و الماضى، نلتقى بأسماء الذين قتلوا آلافا و أحيانا ملايين من الناس الأبرياء، من أجل أهوائهم، بحيث أن الأجيال تذكر أسماءهم المخزية بالسوء إلى الأبد.

هذا الأصل لا يقبل الاستثناء، فحتى العلماء و العابدون أهل السابقة مثل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ٢٦٧

(بلعم بن باعورا) سقطوا من قمة العظمة الإنسانية إلى الهاوية، نتيجة انقيادهم لهوى النفس، حيث يمثلهم القرآن بالكلب النجس الذى لا ينفك عن النباح (الآية ١٧٦ سورة الأعراف).

لهذا فلا عجب أن

يقول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين عليه السّلام: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان، اتباع الهوى و طول الأمل، أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة».[٢٠۶]

وردت أيضا فى النقطة المقابلة- يعنى ترك أتباع الهوى- آيات و روايات توضح عمق هذه المسألة من وجهة نظر الإسلام، إلى حد أن يعدّ مفتاح الجنّة الخوف من اللّه، و مجاهدة النفس: وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى [٢٠٧]

يقول على عليه السّلام: «أشجع الناس من غلب هواه».[٢٠٨]

و قد نقلت قصص كثيرة فى حالات محبى الحق و أولياء اللّه، و العلماء و العظماء، حيث نالوا المقامات العالية نتيجة ترك أتباع الهوى، هذه المقامات لم تكن ممكنة بالطرق العادية.

٢- لماذا أضلّ من الأنعام!؟

لتجسيد أهمية الموضوع فى الآيات أعلاه، يبيّن القرآن أوّلا: أن الذين اتّخذوا أهواءهم آلهة يعبدونها هم كالأنعام، و بعد ذلك يضيف مشددا: بل هم أضل! نظير هذا التعبير ورد أيضا فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف فى أهل النار الذين يؤولون إلى هذا المصير نتيجة عدم الاستفادة من السمع و البصر و العقل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ٢٦٨

يقول تعالى: أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُ

(أضل) و إن كانت واضحة إجمالا، لكن المفسّرين قدموا بحوثا جيدة فى هذه المسألة، و هى- مع تحليل و إضافات:

١- إذا لم تفهم الأنعام شيئا، و ليس لها أذن سامعة و عين باصرة، فذلك لعدم استعدادها الذاتى، لكن الأعجز منها الإنسان الذى تكمن فى وجوده خميرة جميع السعادات، و الذى أفاض اللّه عليه قدرا عظيما من الاستعدادات ليستطيع أن يكون خليفة اللّه فى الأرض، و لكن أفعاله الذميمة بلغت به حدّا أسقطته عن مستوى الأنعام، و أذهبت كل لياقاته هدرا، و هوى من رتبة مسجود الملائكة إلى حضيض الشياطين الذليلة. و هذا هو الأضل و المؤلم حقا.

۲- الأنعام غير مسئولة تقريبا، و ليست مشمولة بالجزاء الإلهى، فى حين أنّ البشر الضالين يجب عليهم أن يحملوا عبء كل أعمالهم على عواتقهم، ليروا جزاء أعمالهم بلا نقص أو زيادة.

۳- تؤدى الأنعام للإنسان خدمات كثيرة، و تنجز له أعمالا مختلفة، أمّا طغاة البشر العصاة فلا تتأتى منهم أية منفعة، بل يسببون آلافا من البلاءات و المصائب.

۴- الأنعام لا خطر منها على أحد، فإذا كان ثمة خطر منها، فخطر محدود، لكن الويل من الإنسان غير المؤمن، و المستكبر، عابد الهوى، الذى يؤجج أحيانا نار حرب يذهب ضحيتها الملايين من الناس.

۵- إذا لم يكن للأنعام قانون و منهج، فإنّها تتبع مسارا عيّنه اللّه لها على شكل غرائز، فهى تتحرك على ذلك الخط. أمّا الإنسان المتمرد، فلا يعترف بقوانين تكوينية و لا قوانين تشريعية، و يعتبر هواه و شهواته حاكما على كل شيء.

۶- الأنعام لا تبرير لديها لأعمالها أصلا، فإذا خالفت فهى المخالفة، و إذا أرادت أن تمضى فى طريقها حين تمضى فذلك هو الواقع، أمّا الإنسان المتكبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۶۹

السفاك، عابد الهوى فكثيرا ما يبرر جميع جرائمه بالشكل الذى يدعى فيه أنّه يؤدى مسئولياته الإلهية و الإنسانية.

و لهذا، فلا موجود أكبر خطرا و أشد ضررا من إنسان متبع للهوى، عديم الايمان و متمرد.

و لهذا و صمته الآية (۲۲) من سورة الأنفال بلقب شَرَّ الدَّوَابِ و كم هو مناسب هذا اللقب؟!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۷۰

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۴۵ الى ۵۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (۴۵) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (۴۶) وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (۴۷) وَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً (۴۹)

وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (۵۰)

التّفسير

حركة الظلال:

فى هذه الآيات كلام فى أقسام مهمّة من النعم الإلهية، على سبيل بيان أسرار التوحيد و معرفة اللّه، الأمور التى يزيدنا التفكر فيها معرفة بخالقنا و قربا منه، و مع الالتفات إلى أنّ المحاورات الكثيرة فى الآيات الماضية كانت مع المشركين، تتّضح صلة و ارتباط هذه الآيات بالآيات السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۷۱

فى هذه الآيات، كلام فى نعمة «الضلال» ثمّ فى آثار و بركات «الليل» و «النوم و الاستراحة» و «ضياء» النهار و «هبوب الرياح» و «نزول المطر» و «إحياء الأراضى الموات» و «سقاية» الأنعام و الناس.

يقول تعالى أولا: أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّکَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً.

لا شك أنّ هذا الجزء من الآية إشارة إلى أهمية نعمة الظلال الممتدة و المتحركة.

الظلال التى لا تثبت على حال، بل هى فى حركة و انتقال.

و لكن أى ظل هو المقصود بالآية؟ ثمّة أقوال فى أوساط المفسّرين:

بعضهم يقول: هذا الظل الممتد و المنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر و قبل طلوع الشمس، و أهنأ الظلال و الساعات هى تلك، هذا النور الشفاف، و الظل المنبسط، يبدأ عند طلوع الفجر، يتلاشى عند طلوع الشمس حيث يأخذ مكانه الضياء.

و يرى البعض الآخر أن المقصود هو ظل الليل بأجمعه، الذى يبدأ من لحظة الغروب و ينتهى عند لحظة طلوع الشمس، لأنّنا نعلم أنّ الليل فى الحقيقة هو ظل نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، و هو ظل مخروطى يكون فى الطرف الآخر و منتشرا فى الفضاء الواسع. و هذا الظل المخروطى فى حركة دائمة و مع طلوع الشمس على منطقة يزول عنها ليتشكل فى أخرى.

و قال آخرون: المقصود هو الظل الذى يظهر للأجسام بعد الظهر فينبسط شيئا فشيئا بالتدريج.

طبيعى، أنّه لو لم تكن الجمل الآتية، لكنّنا نفهم من هذه الجملة معنى واسعا يشمل جميع الظلال الشاسعة، لكن سائر القرائن التى وردت على أثرها تدل على أن التّفسير الأوّل أكثر تناسبا، لأنّه تعالى يقول على أثر ذلك: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٢٧٢

إشارة إلى أن مفهوم الظل لم يكن ليتّضح لو لم تكن الشمس، فالظل من حيث الأصل يخلق بسبب ضياء الشمس، لأنّ «الظل» يطلق عادة على الظلمة الخفيفة اللون التى تظهر الأشياء فيها، و هذا فى حالة ما إذا أضاء النور جسما مانعا لنفوذ النور، فإن الظل يبدو فى الجهة المقابلة. بناء على هذا فليس تشخيص الظل يتم بواسطة النور طبقا لقاعدة «تعرف الأشياء بأضدادها» فقط، بل إنّ وجوده أيضا من بركة النور.

بعد ذلك يبيّن تعالى: ثمّ إنّنا نجمعه جمعا وئيدا ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً.

من المعلوم أن الشمس حينما تطلع فإنّ الظلال تزول تدريجيا، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماما فى بعض المناطق، لأنّ الشمس آنئذ تستقر تماما فوق رأس كل موجود، و فى مناطق أخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، و لهذا فالظل لا يظهر و لا يختفى دفعة واحدة، و هذا نفسه حكمة الخالق، ذلك لأنّ الانتقال من النور إلى الظلمة بشكل فجائى يكون ضارا بجميع المخلوقات. لكن هذا النظام المتدرج فى هذه الحالة الانتقالية له أكبر المنفعة بالنسبة إلى الموجودات، دون أن يكون له أى ضرر.

التعبير ب «يسيرا» إشارة إلى انقباض الظل التدريجى، أو إشارة إلى أن نظام النور و الظلمة الخاص، شىء يسير هين بالنسبة إلى قدرة الخالق. و كلمة (إلينا) تأكيد على هذه القدرة أيضا.

على أية حال، لا شك أن الإنسان كما يحتاج إلى أشعة «النور» فى حياته، فهو كذلك يحتاج إلى «الظل» لتعديل و منع «النور» أوقات اشتداده، فكما أنّ أشعة النور المستديمة تربك الحياة، كذلك فإنّ الظل الدائم الساكن مهلك أيضا.

فى الحالة الأولى تحترق جميع الموجودات، و فى الحالة الثّانية تنجمد جميعا، و لكن هذا النظام المتناوب من «النور» و «الظل» هو الذى يجعل الحياة ممكنة و سائغة للإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٢٧٣

لذا فإنّ آيات قرآنية أخرى تعدّ وجود الليل و النهار، الواحد تلو الآخر، من النعم الإلهية العظيمة، ففى موضع يقول تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ، أَ فَلا تَسْمَعُونَ و يضيف مباشرة قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ [٢٠٩] و يستنتج من هذا القول أنّ هذا النظام من رحمة اللّه الذى جعل لكم الليل و النهار لتسكنوا و تستريحوا فيهما، و لتستفيدوا فى تحصيل المعاش من فضله، و لعلكم

تشكرون وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [۲۱۰] و لهذا يعد القرآن «الظل الممدود» إحدى نعم الجنّة، حيث لا نور معش مرهق، و لا ظلمة موحشة.

بعد ذكر نعمة الظلال، تناول القرآن الكريم بالشرح نعمتين أخريين متناسبتين معها تناسبا تاما، فيكشف جانبا آخر من أسرار نظام الوجود الدالة على وجود اللّه، يقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً.

كم هو تعبير جميل و رائع جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً ... هذا الحجاب الظلامى الذى لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض و يحفظها كاللباس، و يلتحفه الإنسان كالغطاء الذى يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

ثمّ يشير تعالى إلى نعمة النوم وَ النَّوْمَ سُباتاً.

«السبات» فى اللغة من «سبت» (على وزن وقت) بمعنى القطع، ثمّ جاء بمعنى تعطيل العمل للاستراحة، و لذا فإنّ أوّل أيّام الأسبوع يسمّونه فى لغة العرب «يوم السبت» و هى تسمية أخذت من طريقة اليهود، لأنّه يوم تعطيلهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ٢٧۴

هذا التعبير- فى الحقيقة- إشارة إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانية أثناء النوم، لأنّنا نعلم أن قسما مهما من الأفعال البدنية يتوقف كليا فى حال النوم، و قسما آخر مثل عمل القلب و جهاز التنفس يؤدى عمله بصورة وئيدة جدّا، و يستمر بصورة أكثر هدوء كيما يرتفع التعب و تتجدد القوى.

النوم فى وقته و بحسب الحاجة إليه، مجدد لجميع طاقات البدن، و باعث للنشاط و القوّة، و أفضل وسيلة لهدوء الأعصاب، بعكس الأرق خصوصا لفترة طويلة- فهو ضار جدّا و قد يؤدى الى الموت أيضا. و لهذا فإنّ قطع برنامج النوم واحد من أهم أساليب التعذيب حيث يحطم كل مقاومة الإنسان بسرعة.

و فى ختام الآية، أشار تعالى إلى نعمة «النهار» فقال تعالى: وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً.

كلمة «النشور» فى الأصل من النشر بمعنى البسط، فى مقابل الطى و ربّما كان هذا التعبير إشارة إلى انتشار الروح فى أنحاء البدن، حين اليقظة التى تشبه الحياة بعد الموت، أو إشارة إلى انتشار الناس فى ساحة المجتمع، و الحركة للمعاش على وجه الأرض. نقرأ فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه كان يقول كل صباح: «الحمد للّه الذى أحيانا بعد ما أماتنا و إليه النشور».[۲۱۱]

فضياء النهار من حيث روح و جسم الإنسان باعث على الحركة حقّا، كما أن الظلام باعث على النوم و الهدوء.

فى عالم الطبيعة أيضا، فإنّ الحركة و النشاط تشمل جميع الموجودات الحية و يستجد انبعاث فيها بمجرّد سطوع أوّل اشعة للشمس، فينطلق كل واحد منها إلى سبيله، و حتى النباتات تتنفس و تتغذى و تنموا و تنضج أمام النور، أمّا عند مغيب الشمس، فكأن الطبيعة تنفخ فى صور انتهاء العمل و السكون، الطيور تؤوب إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ٢٧۵

أوكارها، الموجودات الحية تفيء إلى الاستراحة و النوم، حتى النباتات تغطّ فى نوع من النوم.

بعد بيان هذه المواهب العظيمة- التى هى أهم ركائز الحياة الإنسانية- يتناول القرآن الكريم موهبة أخرى مهمّة جدّا فيقول: وَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ، وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً.

لا يخفى أن دور الرياح هو أنّها الطلائع المتقدمة لنزول الرحمة الإلهية، و إلّا فلن تنزل قطرة مطر على الأرض العطشى أبدا.

صحيح أن ضياء الشمس يبخر ماء البحار فيتصاعد فى الفضاء، و تراكم هذه الأبخرة فى طبقة عليا باردة يشكل الغيوم الممطرة، و لكن إذا لم تحمل الرياح هذه الغيوم المثقلة من أعالى المحيطات باتجاه الأراضى اليابسة، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر و ستهطل على نفس ذلك البحر.

و الخلاصـة أن وجود بشائر الرحمـة هـذه، التی تتحرک بشـكل دائم فی کل ارجاء الأرض، سـبب رواء الجفاف علی الأرض، و نزول المطر الباعث علی الحیاة و تشکیل الأنهار و العیون و الآبار، و نمو أنواع النباتات.

إنّ قسـما من هـذه الریاح المتقدمـة لقطعات الغیوم، فی حرکتها و امتزاجها برطوبـة ملائمة، تبعث النسـیم المنعش الذی تشم منه رائحة المطر، هذه الریاح مثل البشیر الذی ینبئ عن قدوم مسافر عزیز.

التعبیر ب «الریـاح» بصـیغة الجمع لعله إشـارة إلی أنـواع مختلفـة منهـا، فبعض شـمالی، و بعض جنوبی، و بعض یهب من الشـرق إلی الغرب، و منها ما یهب من الغرب إلی الشرق، فتکون سببا فی انتشار الغیوم فی کل الآفاق.[۲۱۲] المهم هنا هو أن «الماء» قد وصف ب «الطهور» التی هی صیغة مبالغة من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۶

الطهارة و النقاء و لهذا فمفهوم الطهارة و التطهیر یعنی أن الماء طاهر بذاته، و یطهر الأشیاء الملوثة ... ثمّة أشیاء کثیرة غیر الماء طاهرة، و لکنّها لا تسـتطیع أن تکون مطهرة لغیرها! و علی أیـة حال، فمضافا إلی خاصـیة الإحیاء، فإنّ للماء خاصـیة کبیرة الأهمیة هی التطهیر، فلو لاـ المـاء فـإنّ أجسامنـا و نفوسـنا و حیاتنا تتسـخ و تتلوث فی ظرف یوم واحـد و الماء و إن لم یکن قاتلا للمیکروب عادة، و لکنّه یسـتطیع إزالتها و طردها بسـبب خاصـیته الفـذة (الإذابـة). و من هـذه الناحیـة فإنّه یقدم مساعدة مؤثرة جدّا فی مسألة سـلامة الإنسان و مکافحة أنواع الأمراض.

مضافا إلی أن تنقیة الروح من التلوث بواسطة الغسل و الوضوء تکون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح و الجسم معا.

لکن خاصـیة التطهیر هـذه مع ما لها من الأهمیة، اعتبرت فی الدرجة الثّانیة، لذا یضـیف القرآن الکریم فی الآیة التی بعدها بأنّ الهدف من نزول المطر هو الإحیاء: لِنُحْیِیَ بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً[۲۱۳].

و أیضا وَ نُسْقِیَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِیَّ کَثِیراً.

ملاحظات

و هنا ملاحظات مهمّة:

۱- فی هذه الآیة ورد الکلام عن الأنعام و الأناسی الکثیرة مع أن جمیع الناس و الحیوانات تستفید من ماء المطر!! هذه إشارة إلی البدو الرحل و ساکنی الخیام الذین لیس لدیهم ماء مطلقا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۷

سوی ماء المطر حیث یسـتفیدون منه مباشـرة، هذه النعمة الکبیرة محسوسة لدیهم أکثر فحینما تظهر السحب فی السماء و یمطل علیهم المطر، و تمتلئ الأراضی المنخفضة من ماء المطر الزلال، فیرتوون منه و یسقون أنعامهم، و یشعرون بنشاط الحیاة یدبّ فی وجودهم و وجود أنعامهم.

۲- جملة «نسـقیه» من مادة «إسـقاء» و فرقها عن «سـقی» کما قال الراغب فی المفردات و آخرون من المفسّـرین، هو أنّ الإسقاء بمعنی تهیئـة المـاء و جعله للسـقایة، لیشـرب منه الإنسـان متی أراد، فی حین أن مادة «سـقی» بمعنی أن یعطی من یریـد الماء حتی یشـرب، و بعبارة أخری فإن الإسقاء له معنی أوسع و أعم.

۳- فی هذه الآیة، ورد الکلام أوّلا عن الأراضی المیتة، ثمّ الأنعام ثمّ الأناسی، و هذا التعبیر ربّما کان لأن الأراضی إذا لم تحی بالمطر، فلن یکون للأنعام طعام، و إذا لم تعش الأنعام، فلن یستطیع الإنسان إن یتعذی منها.

۴- طرح مسألـة الإحياء بالماء بعـد مسألـة التطهير، قـد يكون إشارة إلى الارتباط الوثيق بين هاتين المسألتين (حول آثار الإحياء بالماء، ثمّة بحث مفصل فى ذيل الآية ۳۰ سورة الأنبياء).

فى الآيـة الأخيرة- مورد البحث- يشـير تعالى إلى القرآن فيقول: جعلنا هذه الآيات بينهم بصور مختلفة و مؤثرة ليتذكروا و ليتعرفوا من خلاله على قدرة الخالق، لكن كثيرا من الناس لم يتخذوا موقفا إزاء ذلك إلّا الإنكار و الكفران:

وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً.

و إن أرجع كثير من المفسّرين مثل العلامة الطبرسـى فى تفسيره، و الشـيخ الطوسـى فى تفسـير التبيان، و العلامة الطباطبائى فى تفسير الميزان و آخرين، الضـمير فى جملـة «صـرفناه» إلى المطر، حيث يكون مفهومهـا هكـذا: أنزلنـا المطر فى جهـات و مناطق مختلفـة من الأرض، و وزعناه بين الناس ليتذكروا هذه النعمة العظمى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۷۸

لكن الحق أن هـذا الضـمير يرجع إلى القرآن و آيـاته، لأن هـذا التعبير (بصـيغة الفعل الماضـى و المضارع) ورد فى عشـرة مواضع من القرآن المجيـد، حيث أرجع فى تسـعة مواضع إلى آيـات القرآن و بيانـاته صـراحة، و أتبع بجملـة «ليـذكروا» أو مـا يشابههـا فى موارد متعددة. على هذا فمن البعيد جدا أن يأخذ هذا التعبير مفهوما آخر فى هذا المورد الواحد.

و من حيث الأصل فإنّ «تصريف» التى هى بمعنى التحويل من حال إلى حال، ليس لها تناسب كثير مع نزول المطر، فى وقت هى أكثر تناسبا مع آيـات القرآن التى تـأتى فى أنحـاء مختلفـة، أحيانا بصورة وعـد، و أحيانا بصورة أمر، و أخرى بصورة نهى، و أحيانا بصورة قصص الماضين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۷۹

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۵۱ الى ۵۵]

اشارة

وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (۵۱) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (۵۲) وَ هُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (۵۳) وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ كانَ رَبُّكَ قَدِيراً (۵۴) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَ لا يَضُرُّهُمْ وَ كانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (۵۵)

التّفسير

بحران متجاوران: عذب فرات و ملح أجاج:

الآية الأولى- مورد البحث- أشارت إلى عظمة مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، يقول تعالى:

لو أردنا لبعثنا نبيّا فى كل مدينـة و بلـد، لكنّنا لم نفعل هـذا و ألقينا مسـئولية هداية العالمين على عاتقك: وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً.

كمـا أنّ اللّه عزّ و جلّ- طبقا للآيات السابقـة- قادر على إرسال قطرات المطر الباعث على الحياة إلى كل الأراضـى الميتـة، فله القـدرة أيضا على إنزال الوحى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸۰

و النبوّة على قلب نبىّ فى كـل قريـة، و أن يبعث لكـل أمـة نـذيرا، لكن اللّه يختار لعباده ما هو أصـلح، لأنّ تمركز النبوّة فى وجود فرد واحد يكون باعثا على وحدة و انسجام الناس، و مانعا من كل فرقة و تشتت.

و يحتمل أن بعض المشـركين أوردوا هـذا الاشـكال و هو: ألم يكن من الأفضل أن يبعث اللّه نبيّا فى كل مدينـة و قرية؟! لكن القرآن يقول فى ردّهم: لو أراد اللّه ذلك لفعل، لكن هذا التشتت ليس فى صالح الأمم و الشعوب قطعا.

و على أيـة حال، فكما أن هـذه الآيـة دليل على عظمـة مقام النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، فهى دليل كـذلك على وجوب وحدة القائد، و على ثقل عبء مسئوليته.

و بنفس هذا الدليل، يبيّن اللّه تبارك و تعالى فى الآية التالية، أمرين إلهيين مهمين يشـكلان منهجين أساسيين للأنبياء، فيوجه الخطاب أوّلا إلى الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يقول: فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ

لاـ تخـط أيـة خطوة على طريـق التوافق مع انحرافـاتهم، فـإنّ التوافق مع المنحرفين آفـة الـدعوة إلى اللّه، قف أمـامهم بقوّة، واسع إلى إصلاحهم، لكن كن حذرا و لا تتسلم لأهوائهم و خرافاتهم.

أمّا القانون الثّانى فهو: جاهد أولئك بالقرآن: وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً.

جهادا كبيرا بعظمة رسالتك، و بعظمة جهاد كل الأنبياء الماضـين، الجهاد الذى يشمل جميع الأبعاد الروحية و الفكرية للناس، و يشمل كل الأصعدة المادية و المعنوية.

لا شك أن المقصود من الجهاد فى هذا الموضع هو الجهاد الفكرى و الثقافى و التبليغى و ليس الجهاد المسلح، ذلك لأنّ هذه السورة مكية، و الأمر بالجهاد المسـلح لم يكن قد نزل فى مكّة. و على قول العلامة «الطبرسى» فى مجمع البيان، أن هذه الآية دليل واضح على أنّ الجهاد الفكرى و التبليغى فى مواجهة وساوس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸۱

المضلين و أعداء الحق من أكبر أنواع الجهاد.

و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

و ربّما كان هـذا الحـديث إشارة إلى نفس هـذا الجهاد و إلى عظمـة ما يؤديه العلماء فى التبليغ بالـدين، هذا التعبير يجسد أيضا عظمة مقام القرآن، ذلك لأنّه وسـيلة هذا الجهاد الكبير و سلاحه القاطع، فإنّ قدرته البيانية و استدلاله و تأثيره العميق و جاذبيته فوق تصور و قدرة البشر.

الوسـيلة المؤثرة و الواضـحة كوضوح الشـمس و ضـياء النهار، و المطمئنة كطمأنينة سـتائر الليل، و المحركة كحركة الرياح الخلاقة، و العظيمة بعظمة الغيوم و فيما تبثه قطرات المطر من حياة، حيث أشارت إلى ذلك الآيات السابقة.

و بعد فاصـلة وجيزة، يتناول القرآن الكريم مجددا الاسـتدلال على عظمة الخالق عن طريق بيان نعمه فى النظام الكونى، فيشير بعد ذكر المطر فى الآيات السابقـة إلى عـدم الاختلاط بين المياه العذبة و المالحة: وَ هُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً.

«مرج» من مادة «المرج» (على وزن فلج) بمعنى الخلط أو الإرسال، و هنا بمعنى المجاورة بين الماء العذب و المالح.

«عذب» بمعنى سائغ و طيب و بارد، و «فرات» بمعنى لذيذ و هنىء.

«ملح» بمعى مالح، و «أجاج» بمعنى مرّ و حار. (بناء على هذا فملح و أجاج نقطتان مقابلتان لعذب و فرات).

«برزخ» بمعنى حجاب و حائل بين شيئين.

و جملة حِجْراً مَحْجُوراً كما أشرنا سابقا (ذيل الآية ۲۲ من هذه السورة) كانت جملة لاخذ الأمان بين العرب يقولونها عند ما يفاجؤون

بشخص یخافونه و یرهبونه، یعنی (أعف عنا، و آمنا، و ابتعد عنا).

علی أیة حال، فهذه الآیة تصور واحدا من المظاهر المدهشة لقدرة الخالق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸۲

فی عالم مخلوقاته، و کیف یستقر حجاب غیر مرئی، و حائل خفی بین البحر المالح و البحر العذب، فلا یسمح لهما بالاختلاط.

و قد اتّضح الیوم أنّ هذا الحجاب اللامرئی، هو ذلک «التفاوت بین کثافة المالح و العذب» و فی الاصطلاح «تفاوت الوزن النوعی» لهما، حیث یکون سببا فی عدم امتزاجهما إلی مدة طویلة.

و رغم أنّ جماعة من المفسّرین وقعوا فی تعب من أجل اکتشاف مثل هذین البحرین فی الکرة الأرضیة و أین یوجد بحر عذب الماء فی جوار بحر مالح الماء و لا یمتزجان!؟ لکن هذه المشکلة انحلت لنا، لأنّنا نعلم أن جمیع أنهار الماء، العذب العظیمة التی تصب فی البحار عند الساحل، تشکل بحرا من الماء العذب، فتدفع المیاه المالحة إلی الخلف، و یستمر هذا الوضع إلی مدّة طویلة، و بسبب التفاوت فی کثافتهما یمتنعان عن الامتزاج مع بعضهما، فکل واحد منهما یقول للآخر: حِجْراً مَحْجُوراً.

الملفت هو أنّ سطح البحر یرتفع و ینخفض بمقدار کبیر بسبب المد و الجزر اللذین یحصلان مرّتین فی الیوم بتأثیر جاذبیة القمر و بذلک تغمر المیاه العذبة التی شکلت بحرا الیابسة فی مصبات تلک الأنهار و أطرافها، و قد استفاد الناس من هذه الحالة منذ قدیم الزمان، فحفروا جداول کثیرة فی أطراف ملتقی الأنهار مع البحر، و زرعوا أراض شاسعة بالأشجار، حیث تتمّ سقایتها بنفس ذلک الماء العذب الذی ینتشر فی مناطق واسعة بواسطة المد و الجزر.

توجد حتی الآن فی جنوب العراق و إیران ملایین من أشجار النخیل، و قد شاهدنا عن قرب أنّ قسما منها یسقی فقط بهذه الوسیلة، و یقع علی بعد کبیر من ساحل البحر، و أحیانا یتغلب الماء المالح حیث تقل المیاه التی تصبها الأنهار الکبیرة فی البحر فی السنین المجدبة، فیقلق المزارعون من أهل هذه المنطقة، لأنّ ذلک یضرّ بزراعتهم ضررا بالغا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸۳

لکن العادة لیست کذلک، فهذا الماء «العذب الفرات» المستقر إلی جوار الماء «المالح و الأجاج» یعدّ ذخیرة عظیمة لهم.

معلوم أن وجود العلل الطبیعیة فی مثل هذه المسائل لا یقلل من قیمتها أبدا، و إلّا فما هی الطبیعة؟ لیست هی إلّا فعل اللّه و إرادته و مشیئته، و هو تعالی الذی منح هذه الخواص لهذه الموجودات.

و الملفت للنظر أنّ الإنسان حینما یجتاز هذه المناطق بالطائرة، یری جیدا هذان الماءان المختلفان فی اللون، غیر الممتزجین، فیذکّر هذا المشهد الإنسان بهذه النکتة القرآنیة.

إنّ جعل هذه الآیة وسط آیات تتعلق ب «الکفر» و «الإیمان» ربّما تکون أیضا إشارة و تمثیلا لهذا الأمر، ففی المجتمع الواحد أحیانا، و فی المدینة الواحدة، بل حتی فی البیت الواحد أحیانا، یتواجد أفراد مؤمنون کالماء العذب و الفرات، مع أفراد بلا إیمان کالماء المالح الأجاج ... مع طرازین من الفکر، و نوعین من العقیدة، و نمطین من العمل، طاهر و غیر طاهر، دون أن یمتزجا.

فی الآیة التالیة- بمناسبة البحث فی نزول المطر، و فی البحرین العذب و الأجاج المتجاورین یتحدث القرآن الکریم عن خلق الإنسان من الماء، فیقول تعالی: وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً.

حقا إن النحت فی الماء، و خلق صورة بدیعة کهذه علی الماء، دلیل علی عظمة قدرة الخالق، و کان الکلام فی الآیات السابقة حول إحیاء النباتات بواسطة المطر، و الکلام- هنا عن مرحلة أعلی، یعنی خلق الإنسان من الماء.

و بین المفسّرین أقوال فی المراد من الماء هنا:

ذهب جماعة أنّ المقصود من «بشر» هو الإنسان الأول، یعنی آدم علیه السّلام، ذلک لأنّ خلقه کان من «طین» یعنی عجینا من ماء و تراب، إضافة إلی أن الماء کان أوّل موجود خلقه اللّه تعالی طبقا للرّوایات الإسلامیة، و خلق الإنسان من ذلک الماء،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۴

و تنكير «بشر» شاهد على هذا المعنى.

و ذهب جماعـة آخرون أن المقصود من «الماء» هو ماء النطفـة، حيث يتكون جميع الناس منه بقـدرة الخالق، و مع امتزاج نطفـة الرجل «الحيمن» الذى يسبح فى الماء مع «البويضة» نطفة المرأة، تتكون أول نواة لحياة الإنسان، يعنى الخلية الإنسانية الحية الأولى.

لو تـدبّر الإنسـان و تأمل فى مراحل انعقاد النطفـة من بـدايتها إلى نهايتها، فسيشاهد الكثير من آيات عظمـة الحق و قـدرة الخالق فيها، حيث تكفى وحدها لمعرفة ذاته المقدسة تبارك و تعالى.

الشاهد على هذا التّفسير، جملة وردت فى آخر الآيه، و سنشرحها فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً.

فضـلا عن هـذا، فلاـ شـك أنّ المـاء يشـكل القسم الأكبر من وجود الإنسان، بالصورة التى يمكن القول أنّ المادة الأساس لوجود أى إنسـان هى الماء، لهـذا فإن مقاومـة الإنسان إزاء العطش قليلـة جـدّا، فى حين يسـتطيع الإنسان أن يقاوم أيّاما و أسابيع حيال قلّة المواد الغذائية.

و يحتمـل قويا أيضا، أنّ جميع هـذه المعانى تجتمع فى مفهوم الآيـة، أى أن الإنسان الأوّل خلق من ماء، و أن تكوّن جميع أفراد البشـر من ماء النطفة أيضا، و أن الماء يشـكل أهم مادة فى بناء جسم الإنسان أيضا ... الماء الذى يعتبر من أبسط موجودات هذا العالم، كيف صار مبدأ إيجاد مثل هذا الخلق الجميل!؟ و هذا دليل بيّن على قدرته تبارك و تعالى.

بعد ذكر خلق الإنسان، يورد جلّ ذكره الكلام عن انتشار الإنسان، فيقول:

فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً.

المقصود من «النسب» هو القرابـة التى تكون بين النـاس عن طريق الذريـة و الولـد، مثـل ارتبـاط الأـب و الاـبن، أو الإخوة بعضـهم مع بعض، أمّا المقصود من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۵

«صـهر» التى هى فى الأصـل بمعنى «الختن» هو الارتباط الـذى يقام بين طائفتين عن هـذا الطريق، مثل ارتباط الإنسان بأقرباء زوجته، و هذان الاثنان هما ما يعبر عنه الفقهاء فى مباحث النكاح ب «النسب» و «السبب».

فى القرآن المجيـد فى سورة النساء، أشـير إلى المحارم النسبيـة النسب فى سـبعة موارد (الأم، البنت، الأخت، العمـة، الخالة، بنت الأخ، بنت الأخت) و إلى المحارم السببية فى أربعة موارد (بنت الزوجة، أم الزوجة، زوجة الابن، زوجة الأب).

من المؤكّد أن هناك وجهات نظر أخرى لدى المفسّرين فى تفسير هذه الجملة، لكن ما قلناه أوضح و أقوى من جميعها.

فمن جملتها أنّ جماعة منهم اعتبروا «النسب» بمعنى أولاد الابن، و «الصهر» بمعنى أولاد البنت، ذلك لأن الارتباط النسبى يحسب على أساس الآباء لا على أساس الأمهات.

و كما قلنا بشـكل مفصل- فى ذيل الآية (۶۱) من سورة آل عمران- فإنّ هذا اشـتباه كبير، اسـتمدّ من سـنن أيّام ما قبل الإسلام، حيث اعتبروا النسب عن طريق الأب فقط، و ليس للأم أى أثر، فى حين أن من المسـلمات فى الفقه الإسـلامى و بين جميع علماء الإسلام أن الحرمة النسبية من ناحية الأب و من ناحية الام أيضا (و لزيادة الاطلاع، راجع التّفسير ذيل الآية (۶۱) من سورة آل عمران).

و الجدير بالذكر، أن لدينا حديثا معروفا، نقل فى كتب الشـيعة و السـنة، و طبقا لهذا الحديث فإنّ الآية أعلاه نزلت فى النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و على عليه السّـلام، و ذلك أنّ النّبى زوّج ابنته فاطمة من على عليهما السّـلام، و لهذا فقد كان على عليه السّلام ابن عمّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و زوج ابنته أيضا، و هذا معنى «نسبا و صهرا».[۲۱۴]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۶

و لكن هذه الرّوايات تعتبر بيان للمصاديق الواضـحة، و لا تقدح بعمومية مفهوم الآية، فالآية تشـمل كل ارتباط يكون عن طريق النسب

و المصاهرة، و أحد مصادیقها الواضحة كان ارتباط علی علیه السّلام من جهتین مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فی ختام الآیة یقول تبارک و تعالی بصیغة التأكید علی المسائل الماضیة:

وَ كانَ رَبُّكَ قَدِیراً.

و یبیّن القرآن الكریم فی نهایة المطاف فی الآیة الأخیرة- مورد البحث- انحراف المشركین عن أصل التوحید، من خلال المقایسة بین قدرة الأصنام و قدرة الخالق، حیث مرّت نماذج منها فی الآیات السابقة، یقول: وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَنْفَعُهُمْ وَ لا یَضُرُّهُمْ من المسلّم أنّ وجود المنفعة و الضرر لا یكون وحده معیار العبادة، لكن القرآن یبیّن من خلال هذا التعبیر هذه النكتة، و هی أنّهم یفتقدون أیة حجة فی هذه العبادة، لأنّ الأصنام موجودات عدیمة الخاصیة تماما، و فاقدة لأیة قیمة، و لأی تأثیر سلبی أو إیجابی.

و یضیف القرآن الكریم فی ختام الآیة أن الكفرة یعین بعضهم بعضا فی مواجهة خالقهم «فی طریق الكفر» وَ كانَ الْكافِرُ عَلی رَبِّهِ ظَهِیراً.

إن هؤلاء لیسوا وحدهم فی طریق الضلال، إنهم یقوی بعضهم بعضا بشكل قاطع، و یعبئون القوی و یقیمون العراقیل ضد دین اللّه و نبیّه و المؤمنین الحقیقیین.

و إذا رأینا أن بعض المفسّرین یحصر «الكافر» الوارد فی هذه الآیة فی «أبی جهل» فمن باب ذكر المصداق البارز، و إلّا فإنّ الكافر فی كل مورد له معنی واسع یشمل جمیع الكفار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸۷

مسألتان

۱- وحدة القیادة

فی الآیة الأولی- مورد البحث- قرأنا قوله تعالی: وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِی كُلِّ قَرْیَةٍ نَذِیراً و لكننا لم نفعل مثل هذا ... و من المسلّم أن علة ذلک لأن الأنبیاء قادة الأمم، و نعلم أن التعدد فی مسألة القیادة یؤدی إلی إضعاف كل أمّة و شعب، خاصّة و أنّ الكلام هنا عن خاتم الأنبیاء صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یجب أن تستمر هذه القیادة حتی نهایة العالم. لذا تتّضح- أكثر- أهمیة التمركز و الوحدة فی القیادة.

القائد الواحد یستطیع أن یوحد جمیع القوی، و یمنحها الانسجام و الوحدة.

و فی الحقیقة فإن مسألة وحدة القیادة انعكاس لحقیقة التوحید فی المجتمع الإنسانی، و یكون فی النقطة المقابلة ظواهر الشرک و التفرقة و النفاق.

و ما ورد فی الآیة (۲۴) من سورة فاطر: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِیها نَذِیرٌ فلیس ثمّة منافاة مع البحث أعلاه، لأن الكلام فیها عن الأمة، لا أهل كل مدینة و كل بلد.

فلو أغمضنا النظر عن مقام الأنبیاء، فإنّ هذا الأصل صحیح أیضا حتی فی أدنی مستویات القیادة، و الشعوب التی صارت أسیرة التعدد فی القیادة، انتهت إلی التجزئة فی سائر شؤونها، فضلا عن الضعف و العجز.

۲- القرآن وسیلة الجهاد الكبیر

«الجهاد الكبير» تعبير بليغ عن أهمية منهج الكفاح الرّبانى البنّاء.

الملفت للانتباه فى الآيات أعلاه، هو أنّ هـذا العنوان قـد أعطى للقرآن، أو بعبارة أخرى: للأشـخاص الـذين يجاهـدون بالقرآن مظاهر الضلال و الانحرافات و التلوثات.

هذا التعبير يبيّن المواجهات المنطقية و العقائدية من جهة، و يكشف عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸۸

عظمة مقام القرآن من جهة أخرى.

ورد فى بعض الرّوايات: أنّ أبا سفيان بن حرب و أبا جهل بن هشام، و الأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة ... خرجوا ليلة ليستمعوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يصلى من الليل فى بيته. فأخذ كلّ رجل منهم مجلسا يستمع فيه، و كلّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، و قال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سـفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا! ثمّ انصـرفوا. حتى إذا كـانت الليلـة الثّانيـة عـاد كـلّ رجـل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضـهم لبعض مثل ما قالوا أوّل مرّة! ثمّ انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثّالثة أخذ كلّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضـهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود! فتعاهدوا على ذلك، ثمّ تفرقوا.

فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال: أخبرنى- يا أبا حنظلة- عن رأيك فيما سمعت من محمّد. فقال: يا أبا ثعلبة، و اللّه لقد سمعت أشياء أعرفها، و أعرف ما يراد بها، و سمعت أشياء ما عرفت معناها، و لا ما يراد بها.

قال الأخنس: و أنا و الذى حلفت به.

قال: ثمّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟

فقـال: مـاذا سـمعت!؟ تنازعنـا نحن و بنو عبـد منـاف الشـرف. أطعموا فأطعمنا، و حملوا فحملنا، و أعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، و كنّا كفرسى رهان، قالوا: منّا نبى يأتيه الوحى من السماء. فمتى ندرك مثل هذه؟ و اللّه لا نؤمن به أبدا و لا نصدقه!!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸۹

قال: فقام عنه الأخنس و تركه.[۲۱۵] نعم، جاذبية القرآن ردت هؤلاء إلى أنفسـهم ليالى متوالية، و كانوا حتى بياض الصبح غرقى هذه الجاذبية الإلهية، لكن التكبر و التعصب و الحرص على المصالح المادية كان مسلطا عليهم بحيث منعهم من قبول الحق.

و لاـ شـك أنّ هـذا النّور الإلـهى له هـذه القـدرة على أن يجـذب إليه كل قلب مسـتعد أينما كان، و لهـذا كان القرآن وسـيلة «الجهاد الكبير» فى الآيات مورد البحث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۰

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۵۶ الى ۵۹]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (۵۸) الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹)

التّفسير

أجری هو هدايتكم:

كان الكلام فی الآيات السابقة حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التی لا تضرّ و لا تنفع، و فی الآية الحالية الأولی يشير القرآن إلی مهمّة النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قبالة هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالی: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً.[۲۱۶]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۱

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أديت مهمتك فی البشارة و الإنذار، و دعوت القلوب المستعدة إلی اللّه.

هـذا الخطاب، كما يشـخص مهمّـة النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم، كذلك يسـلّيه، و فيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، و عدم المبالاة بهم.

ثمّ يأمر النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم أن يقول لهم أننی لا أريـد منكم فی مقابل هـذا القرآن و ابلاغكم رسالة السـماء أی أجر و عوض: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ثمّ يضـيف: إن الأجر الوحيـد الذی أطلبه أن يهتدی الناس إلی طريق اللّه إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلی رَبِّهِ سَبِيلًا.

يعنی أجری و جزائی هو هـدايتكم فقـط، و بكامـل الإـرادة و الإختيـار أيضـا، فلاـ إكراه و لاـ إجبـار فيه، و كم هو جميـل هـذا التعبير الكاشف عن غاية لطف و محبة النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لأتباعه، ذلك لأنّه عدّ[۲۱۷] أجره و جزاءه سعادتهم.

بديهی أنّ للنّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أجرا معنويا عظيما على هداية الأمة، ذلك لأن «الدال علی الخير كفاعله».

و ذكر المفسّرون احتمالات أخری أيضا فی تفسير هذه الآية من جملتها:

يری جماعـة من المفسّـرين أنّ معنی هـذه الآيـة هكـذا «أنـا لا أريـد منكم أی جزاء إلّا ما أردتم من إنفاق الأموال على المحتاجين فی سبيل اللّه، و ذلك مرتبط برغبتكم».[۲۱۸] لكنّ التّفسير الأوّل أقرب إلی معنی الآية.

اتّضـح ممّا قلناه أعلاه، أنّ الضـمير فی «عليه» يرجع إلی القرآن و تبليغ دين الإسـلام، لأن الكلام كان فی عدم المطالبة بالأجر و الجزاء فی مقابل هذه الدعوة.

هذه الجملة بالإضافة إلی أنّها تقطع حجج المشركين، فهی توضح أن قبول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۲

هذه الدعوة الإلهية سهل و يسير جدّا لكل أحد، بلا مشقّة و لا خسارة.

و هـذا بنفسه شاهـد على صدق دعوة النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم، و نقاء فكره و منهجه، و ذلك لأنّ الأدعياء الكاذبين لا بدّ أن يدخلوا فی هذا العمل رغبتهم فی الأجر و الجزاء بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

و تبيّن الآية التی بعدها المعتمد الأساس للنّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: وَ تَوَكَّلْ عَلَی الْحَيِّ الَّذِی لا يَمُوتُ

فمع هـذا المعتمـد و الملجأ و المولی الـذی مـا زال و لن يزال حيـا دائمـا، فلاـ حاجـة لـك بأجر و جزاء هؤلاء، و لا خوف عليك من ضررهم و مؤامراتهم.

و الآن حيث الأمر على هذه الصورة فسبح اللّه تنزيها له من كل نقص، و أحمده إزاء كل هذه الكمالات وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ

من الممكن اعتبار هذه الجملة بمنزلة التعليل للجملة السابقة، لأنّ تعالی هو المنزّه من كل عيب و نقص، و أهل لكل كمال و جمال، و حقيق بالتوكل عليه.

ثمّ يضـيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان و مؤامرات الأعداء، لأنّ اللّه مطلع على ذنوب عباده و سيحاسبهم: وَ كَفی بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً.

الآیـهٔ التالیهٔ بیان لقدرهٔ الخالق فی ساحهٔ عالم الوجود، و وصف آخر لهذا الملاذ الأمین، یقول تعالی: الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما فِی سِتَّهِٔ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ فأخذ بتدبیر العالم.

إنّ من له هـذه القـدرهٔ الواسـعهٔ یسـتطیع أن یحفـظ المتوکلین علیه من کـل خطر و حادثـهٔ، فکمـا أنّ خلق العالم کان بواسـطهٔ قـدرته، کذلک فإنّ إدارهٔ و قیادهٔ و تدبیر ذلک العالم بأمر ذاته المقدسهٔ.

ضمنـا، فـإنّ خلق العـالم بشـکل تـدریجی إشارهٔ إلی أنّ اللّه لا یعجل فی أی عمل، فإذا لم یجاز أعـداءک سـریعا، فلأجل أن یمنحهم الفسحهٔ و الفرصهٔ حتی یأخذوا بإصلاح أنفسهم، فضلا عن أن من یعجل هو من یخاف الفوت، و هذا غیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۳

متصور بالنسبهٔ إلی اللّه القادر المتعال.

فی مسألهٔ خلق عالم الوجود فی سـتهٔ أیّام، فإنّ «الیوم» فی مثل هذه الموارد بمعنی «المرحلهٔ»، أو الفترهٔ الزمنیهٔ و هذه الفترهٔ من الممکن أن تسـتغرق ملایین أو ملیارات من السـنین، و شواهد هذا المعنی فی الأدب العربی و غیره کثیرهٔ، بحثناه بشـکل مفصل فی تفسیر الآیهٔ (۵۴) من سورهٔ الأعراف، و شرحنا هناک هذه المراحل الست.

و أیضا فإنّ معنی «العرش» و جملهٔ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ وردت هناک أیضا.

و فی ختام الآیهٔ یضـیف تعالی: الرَّحْمنُ من شملت رحمته العامّهٔ جمیع الموجودات، فالمطیع و العاصی و المؤمن و الکافر یغترفون من خوان نعمته التی لا انقطاع فیها.

و الآن، حیث ربّک الرحمن القادر المقتدر، فإذا أردت شیئا فاطلب منه فإنّه المطلع علی احتیاجات جمیع عباده: فَسْئَلْ بِهِ خَبِیراً.

هـذه الجملـهٔ- فی الحقیقـهٔ- نتیجهٔ لمجموع البحوث السابقهٔ. یأمر اللّه النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: أعلن لهم أنّنی لا أرید منکم أجرا، و توکل علی اللّه الجامع لکل الصفات، القادر، و الرحمن، و الخبیر، و المطلع، و أطلب منه أی شیء تریده.

للمفسّـرین أقوال أخری فی تفسـیر هـذه الجملـهٔ، فقد جعلوا السؤال هنا بمعنی الاسـتفهام (لا الطلب)، و قالوا: إن مفهوم الجملهٔ هو: إذا أردت أن تسأل فی موضوع خلق الوجود و قدرهٔ الخالق، فاسأله هو، فهو العالم بکل شیء.

بعض آخر، بالإضافهٔ إلی أنّهم فسـروا «السؤال» ب «الاسـتفهام» قـالوا: إن المقصود ب «الخـبیر» جبرئیـل، أو النّبی، یعنی: اسألهمـا عن صفات اللّه.

التّفسـیر الأخیر بعیـد جـدّا بالتأکیـد، و مـا قبله أیضـا غیر متناسب کثیرا مع الآیات السابقـهٔ، و الأقرب هو ما قلناه فی معنی الآیـهٔ من أن المقصود من السؤال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۴

هو الطلب من اللّه.[۲۱۹]

مسألتان

۱- أجر الرسالهٔ

نقرأ فی کثیر من آیات القرآن أنّ أنبیاء اللّه کانوا یبیّنون هذه الحقیقهٔ بصراحهٔ:

إنّنا لا نسأل أی أجر من أی أحد، بل إنّ أجرنا علی اللّه العظیم فقط.

الآیات ۱۰۹ و ۱۲۷ و ۱۴۵ و ۱۶۴ و ۱۸۰ سورهٔ الشعراء، و کذلک الآیات ۲۹ و ۵۱ سورهٔ هود، و الآیـهٔ ۷۲ سورهٔ یونس و ۴۷ سورهٔ

سبأ، تدل على هذا المعنى.

لا شك أن عـدم المطالبة بالأجر هذه، تدفع كل اتهام عن الأنبياء، فضـلا عن أنّهم يسـتطيعون أن يواصـلوا عملهم بحرية تامة، و ترتفع الموانع و الحواجز التى قد تحدد من حرية ألسنتهم بسبب العلاقة المادية.

أمّا الملفت للانتباه فإنّه تلاحظ ثلاثة تعابير مختلفة فيما يخص الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۱- التعبير الذى ورد فى الآيات أعلاه قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا هذا التعبير الفذ البليغ الرائع.

۲- التعبير الوارد فى الآية (۲۳) من سورة الشورى قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى

۳- التعبير الوارد فى الآية (۴۷) من سورة سبأ قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

من انضمام هذه التعابير الثلاثة إلى بعضها، تتحصل النتيجة التالية: فيما يخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۵

الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إذا عـدّت المـودة فى القربى أجر رسالته، فهـذه المودة- من جـانب- فى نفع المؤمنين أنفسهم لا بنفع النّبى. و من جانب آخر فإن هذه المودة وسيلة حصول الهداية على طريق اللّه تبارك و تعالى.

بناء على هذا، فإنّ مجموع هذه الآيات يشير إلى أن المودة فى قربى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى استمرار منهج رسالة و قيادة ذلك النّبى، و بعبارة أخرى: لمواصلة طريق النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هـدايته و قيادته يجب الارتباط بـذوى قرباه، و الاعتماد على قيادتهم، هـذا هو الأمر الـذى يـدافع عنه اتباع أهل البيت فى مسألـة الإمامـة، فإنّهم يعتقـدون أن امتـداد القيادة بعـد النّبى سيستمر إلى الأبد، لا فى شكل النبوّة، بل فى شكل الإمامة.

و من اللازم الالتفات إلى هـذه النكتـة أيضا، و هى أن المحبة عامل مؤثر فى الأتباع، كما نقرأ فى الآية (۳۱) من سورة آل عمران: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى ... ذلك لأنّى المبلغ بأمره.

و رابطـة الحب من حيث الأصـل، تأخـذ الإنسان باتجاه المحبوب و إراداته، و كلما كانت رابطـة الحب أكثر قوّة، كانت هـذه الجاذبية قويـة أكثر. خصوصا المحبّـة التى يكون دافعها كمال «المحبوب»، و يكون الإحساس بهـذا الكمال سـببا فى أن يسـعى الإنسان ليتقرب إلى مبدأ الكمال و إلى تنفيذ إراداته.[۲۲۰]

۲- على من يجب التوكل؟

فى الآيات أعلاه، يأمر اللّه تبارك و تعالى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالتوكل، و أن يصرف النظر عن جميع المخلوقات، و ينظر إلى اللّه عزّ و جلّ فقط.

و لذلك يعدد صفات لهذه الذات المقدسة، هى فى الحقيقة شرائط أساسية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۶

فيمن يستطيع أن يكون ملاذا واقعيا و آمنا للناس.

الأولى: هى أن يكون حيا، و ذلك أنّ موجودا ميتا فاقدا لخصائص الحياة- مثل الأصنام- لا يمكنه أبدا أن يكون معتمدا.

الثّانية: هى أن تكون حياته خالدة، بالشكل الذى لا يحدث احتمال موته تزلزلا فى فكر المتوكلين.

الثّالثة: هى أن يحيط بكل شىء علما، فيكون مطلعا على احتياجات المتوكلين، و على خطط و مؤامرات الأعداء أيضا.

الرّابعة: هى أن يكون على كل شىء قديرا، حيث لا وجود فيه لأى شكل من العجز و عدم الاستطاعة الموجبين لضعف هذا الملجأ.

الخامسة: هى أن تكون الحاكمية له على جميع الأمور، و إدارتها بيده المقتدرة.

و نحن نعلم أن هـذه الصـفات لیست إلّا للّه تبارک و تعالی، و لهـذا فهو وحـده الملجأ الباعث علی الاطمئنان الذی لا یتزلزل أمام کل الحوادث.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۷

الآیات [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۶۰ الی ۶۲]

اشارة

وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَ زادَهُمْ نُفُوراً (۶۰) تَبارَکَ الَّذِی جَعَلَ فِی السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِیها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِیراً (۶۱) وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ یَذَّکَّرَ أَوْ أَرادَ شُکُوراً (۶۲)

التّفسیر

البروج السماویة:

کـان الکلامـ فی الآیـات الماضـیة عن عظمـة و قـدرة اللّه، و عن رحمته أیضا، و یضـیف اللّه تعالی فی الآیـة الأولی هنا: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ

نحن لا نعرف «الرحمن» أصـلا، و هـذه الکلمـة لیس لها مفهوم واضح عندنا، أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا نحن لا نخضع لأی أحد، و سوف لن نکون أتباع أمر هذا أو ذاک وَ زادَهُمْ نُفُوراً ای أنّهم یتکلمون بهذا الکلام و یزدادون ابتعادا و نفورا عن الحقّ.

لا شکّ أنّ أنسب اسم من أسماء اللّه للدعوة إلی الخضوع و السجود بین یدیه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۸

هو ذلـک الاسم الممتلئ جاذبیـة «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامّـة الواسـعة، لکن أولئک بسـبب عمی قلوبهم و لجاجتهم، لم یظهروا تأثرا حیال هـذه الـدعوة، بل تلقوها بالسـخریة و الاسـتهزاء، و قالوا علی سبیل التحقیر: وَ مَا الرَّحْمنُ کما قال فرعون حیال دعوة موسـی علیه السّلام: وَ ما رَبُّ الْعالَمِینَ [۲۲۱] فهؤلاء لم یکونوا علی استعداد حتی لیقولوا: «و من الرحمن» أو «من ربّ العالمین».

و رغم أن بعض المفسّـِرین یری أن اسم «الرحمن» لم یکن مأنوسا بین عرب الجاهلیة، و حینما سـمعوا هذا الوصف من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم طرحوا هـذا السؤال علی سبیـل التعجب واقعـا، حتی کـان یقول البعض منهم: «مـا نعرف الرحمن إلّا رجلا بالیمامـة» (یعنون به مسیلمة الکذاب الذی ادعی النبوّة کذبا، و عرفه و قومه بهذا الاسم «الرحمن»).

لکن هذا القول بعید جدّا، لأنّ مادة هذا الاسم و صـیغته کلاهما عربیان، و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتلو- دائما- فی بدایة السور القرآنیـة، الآیـة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ و علی هـذا فلم یکن هـدف أولئک إلّا التحجج و السـخریة، و العبارة التالیة شاهد علی هذه الحقیقة أیضا لأنهم یقولون: أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا.

و بمـا أن تعـالیم القـادة الإلـهیین تؤثر فی القلوب المؤهلـة فقـط، فـإنّ عمی القلوب من المعانـدین مضافـا الی عـدم انتفاعهم بها، فإنّها تزیدهم نفورا لأنّ آیات القرآن کقطرات المطر الباعثة علی الحیاة تنمی الورد و الخضـرة فی البستان، و الشوک فی الأرض السبخة، و لذا لا مجال للتعجب حیث یقول: وَ زادَهُمْ نُفُوراً.[۲۲۲]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۹

الآیـة التالیـة إجابـة علی سؤالهم حیث کانوا یقولون: «و ما الرحمن»، و إن کانوا یقولون هذا علی سبیل السـخریة، لکن القرآن یجیبهم

إجابة جادة، يقول تعالى:

تَبارَكَ الَّذِی جَعَلَ فِی السَّماءِ بُرُوجاً.

«البروج» جمع «برج» فی الأصل بمعنی «الظهور» و لـذا یسـمون ذلک القسم الأعلی و الأظهر من جـدار أطراف المدینـة أو محل تجمع الفرقة العسکریة «برج»، و لهذا أیضا یقال حینما تظهر المرأة زینتها «تبرجت المرأة»، و هذه الکلمة تطلق أیضا علی القصور العالیة.

علی أیة حال، فالبروج السـماویة، إشارة إلی الصور الفلکیة الخاصّة حیث تسـتقر الشـمس و القمر فی کل فصل و کل موضع من السنة إزاء واحـد منهـا، یقولون مثلاـ استـقرت الشـمس فی برج «الحمل» یعنی أنّها تکون بمحاذاة «الصورة الفلکیـة»، «الحمل»، أو القمر فی «العقرب» یعنی وقفت کرة القمر أمام الصورة الفلکیـة «العقرب» (تطلق الصورة الفلکیـة علی مجموعـة من النجوم لها شـکل خاص فی نظر المشاهد).

بهذا الترتیب، أشارت الآیة إلی منازل الشمس و القمر السماویة، و تضیف علی أثر ذلک: وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً[۲۲۳].

تبیّن هـذه الآیـة النظم الـدقیق لسیر الشـمس و القمر فی السـماء (و بـدیهی أن هـذه التغییرات فی الحقیقة ترتبط بدوران الأرض حول الشـمس دائما). و النظام الفذ الدقیق الذی یحکمهما ملایین السـنین بلا زیادة أو نقصان، بالشـکل الذی یستطیع الفلکیون- أحیانا- أن یتنبئوا. قبل مئات السـنین بوضع حرکة الشـمس و القمر فی یوم معین و ساعة معینة بالنسبة إلی مئات السـنین الآتیة، هذا النظام الحاکم علی هذه الأفلاک السماویة العظیمة شاهد ناطق علی وجود الخالق المدبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۰

و المدیر لعالم الوجود الکبیر.

مع هذه الدلائل الواضحة، و مع هذه المنازل البدیعة و الدقیقة للشمس و القمر، فهل ما زلتم تجهلونه و تقولون: «و ما الرحمن»!؟

أمّا لماذا سـمیت الشـمس، «سـراجا»، و قرن القمر بصـفة «منیر»؟ فمن الممکن أن یکون دلیله أن «السـراج» بمعنی المنبع الضوئی الذی نوره مسـتمد من ذاته و هـذا ینطبق علی حـال الشـمس، حیث أنّ من المسـلمات العلمیـة طبقا للتحقیقات أن نورها من نفسـها. بخلاف القمر الذی نوره من ضـیاء الشمس، و لذا وصفه ب «المنیر» الذی یستمد نوره من غیره دائما، (فی التّفسیر الأمثل، أوردنا القول مفصلا فی هذا الصدد، ذیل الآیة ۵ و ۶ سورة یونس).

فی الآیة الأخیرة، یواصل القرآن الکریم التعریف بالخالق سبحانه، و یتحدث مرّة أخری فی قسم آخر من نظام الوجود، فیقول تعالی: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً.

هـذا النظام البـدیع الحاکم علی اللیل و النهار، حیث یعقب أحـدهما الآخر متناوبین متواصـلین علی هـذا النظم ملایین السـنین ... النظم الـذی لولاه لانعـدمت حیاة الإنسان نتیجـة لشدة النور و الحرارة أو الظلمة و العتمة، و هذا دلیل رائع للذین یریدون أن یعرفوا اللّه عزّ و جلّ.

و من المعلوم أن نشوء نظام «اللیل» و «النهار» نتیجـة لـدوران الأرض حول الشـمس، و أن تغیراتهما التدریجیـة و المنظمة، حیث ینقص من أحدهما و یزاد فی الآخر دائما بسبب میل محور الأرض عن مدارها ممّا یؤدی لوجود الفصول الأربعة.

فإذا دارت کرتنا الأرضـیة فی حرکتها الدورانیة أسـرع أو أبطأ من دورانها الفعلی ففی احدی الصور تطول اللیالی الی درجة أنّها تجمد کل شیء، و یطول النهار الی درجة أنّ الشمس تحرق کل شیء ... و فی صورة اخری فإنّ الفاصلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۱

القصـیرة بین اللیل و النهار کانت ستبطل تأثیرهما و فائدتهما. فضلا عن أنّ القوّة المرکزیة الطاردة کانت سترتفع بحیث ستقذف جمیع الموجودات الأرضیة بعیدا عن الکرة الأرضیة.

و الخلاصـة أنّ التأمـل فی هـذا النظـام یوقـظ فطرة معرفـة اللّه فی الإنسـان من جهـة (و لعل التعبیر بالتـذکر و التـذکیر إشارة إلی هـذه

الحقیقة)، و من جهة أخری یحی روح الشکر فیه، و قد أشیر إلی ذلک بقوله تعالی: أَوْ أَرادَ شُکُوراً.

الجدیر بالذکر أنّنا نقرأ فی بعض الرّوایات التی نقلت عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو الأئمّة المعصومین فی تفسیر الآیة، أن تعاقب اللیل و النهار من أجل أن الإنسان إذا أهمل أداء واجب من واجباته تجاه اللّه سبحانه و تعالی فإنّه بإمکانه جبرانه أو قضاءه فی الوقت الآخر منهما. هذا المعنی من الممکن أن یکون تفسیرا ثانیا للآیة، و ممّا سبق من کون الآیات القرآنیة ذات بطون، فلا منافاة بین هذا المعنی و المعنی الأوّل أیضا.

و فی ذلک

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «کلّ ما فاتک باللیل فاقضه بالنهار، قال اللّه تبارک و تعالی: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ یَذَّکَّرَ أَوْ أَرادَ شُکُوراً یعنی أن یقضی الرجل ما فاته باللیل بالنهار، و ما فاته بالنهار باللیل».[۲۲۴]

نفس هذا المعنی نقله «الفخر الرازی» عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۲

الآیات [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۶۳ الی ۶۷]

اشارة

وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (۶۳) وَ الَّذِینَ یَبِیتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِیاماً (۶۴) وَ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها کانَ غَراماً (۶۵) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۶۶) وَ الَّذِینَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا وَ کانَ بَیْنَ ذلِکَ قَواماً (۶۷)

التّفسیر

الصفات الخاصّة لعباد الرحمن:

هذه الآیات- فما بعد- تستعرض بحثا جامعا فذا حول الصفات الخاصّة لعباد الرحمن، إکمالا للآیات الماضیة حیث کان المشرکون المعاندون حینما یذکر اسم اللّه «الرحمن» یقولون و ملء رؤوسهم استهزاء و غرور «و ما الرحمن!؟

و رأینا أن القرآن یعرّف لهم «الرحمن» ضمن آیتین، و جاء الدور الآن لیعرّف «عباد الرحمن».

تبیّن هذه الآیات اثنتی عشرة صفة من صفاتهم الخاصّة، حیث یرتبط بعضها بالجوانب الاعتقادیة، و بعض منها أخلاقی، و منها ما هو اجتماعی، بعض منها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۳

یتعلق بالفرد، و بعض آخر بالجماعة، و هی أوّلا و آخرا مجموعة من أعلی القیم الإنسانیة.

یقول تعالی: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِینَ یَمْشُونَ عَلَی الْأَرْضِ هَوْناً.[۲۲۵] إن أوّل صفة ل: «عباد الرحمن» هو نفی الکبر و الغرور و التعالی، الذی یبدو فی جمیع أعمال الإنسان حتی فی طریقة المشی، لأنّ الملکات الأخلاقیة تظهر نفسها فی حنایا أعمال و أقوال و حرکات الإنسان بحیث أن من الممکن تشخیص قسم مهم من أخلاقه- بدقّة- من أسلوب مشیته.

نعم، إنّهم متواضعون، و التواضع مفتاح الإیمان، فی حین یعتبر الغرور و الکبر مفتاح الکفر.

لقد رأینا بأم أعیننا فی الحیاة الیومیة، و قرأنا مرارا فی آیات القرآن أیضا، أن المتکبرین المغرورین لم یکونوا مستعدین حتی لیصغوا

إلی کلام القادة الإلهیین، کانوا یتلقون الحقائق بالسخریة، و لم تکن رؤیتهم أبعد من أطراف أنوفهم، تری أ یمکن أن یجتمع الإیمان فی هذه الحال مع الکبر؟! نعم، هؤلاء المؤمنون، عباد ربهم الرحمن، و العلامة الأولی لعبودیتهم هو التواضع ... التواضع الذی نفذ فی جمیع ذرات وجودهم، فهو ظاهر حتی فی مشیتهم.

فإذا رأینا أنّ إحدی أهم القواعد التی یأمر اللّه بها نبیّه هی وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا[۲۲۶] فلنفس هذا السبب أیضا، و هو أن التواضع روح الإیمان.

حقّا إذا کان للإنسان أدنی معرفة بنفسه و بعالم الوجود، فسیعلم کم هو ضئیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۴

حیال هذا العالم الکبیر، حتی و إن کانت رقبته کالجبال، فإن أعلی جبال الأرض أمام عظمة الأرض أقل من تعرجات قشر (النارنج) بالنسبة إلیها، تلکم الأرض التی هی نفسها لا شیء بالنسبة إلی الأفلاک العظیمة.

تری أ لیست هذه الحالة من الکبر و الغرور، دلیلا علی الجهل المطلق!؟

نقرأ فی حدیث رائع عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أنّه کان یعبر أحد الأزقة یوما ما، فرأی جماعة من الناس مجتمعین، فسألهم عن سبب ذلک فقالوا: مجنون شغل الناس بأعمال جنونیة مضحکة،

فقال: رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أ تریدون أن أخبرکم من هو المجنون حقا، فسکتوا و أنصتوا بکل وجودهم فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «المتبختر فی مشیه، الناظر فی عطفیه، المحرک جنبیه بمنکبیه، الذی لا یرجی خیره و لا یؤمن شرّه، فذلک المجنون، و هذا مبتلی!».

الصفة الثّانیة ل «عباد الرحمن» الحلم و الصبر، کما یقول القرآن فی مواصلته هذه الآیة وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً.

السّلام الذی هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، و لیس الناشئ عن الضعف.

السّلام دلیل عدم المقابلة بالمثل حیال الجهلة الحمقی، سلام الوداع لأقوالهم غیر المترویة، لیس سلام التحیة الذی هو علامة المحبة و رابطة الصداقة.

و الخلاصة، أنه السّلام الذی هو علامة الحلم و الصبر و العظمة.

نعم، المظهر الآخر من مظاهر عظمتهم الروحیة، هو التحمل و سعة الصدر اللذین بدونهما سوف لا یطوی أی إنسان طریق «العبودیة للّه» الصعب الممتلئ بالعقبات، خصوصا فی المجتمعات التی یکثر فیها الفاسدون و «مفسدون» و جهلة.

و تتناول الآیة الثّانیة، خاصیتهم الثالثة التی هی العبادة الخالصة للّه، فیقول تعالی: وَ الَّذِینَ یَبِیتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِیاماً.

فی عتمة اللیل حیث أعین الغافلین نائمة، و حیث لا مجال للتظاهر و الریاء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۵

حرّموا علی أنفسهم لذة النوم، و نهضوا إلی ما هو ألذّ من ذلک، حیث ذکر اللّه و القیام و السجود بین یدی عظمته عزّ و جلّ، فیقضون شطرا من اللیل فی مناجاة المحبوب، فینورون قلوبهم و أرواحهم بذکره و باسمه.

و رغم أن جملة «یبیتون» دلیل علی أنّهم یقضون اللیل بالسجود و القیام إلی الصباح، لکن المعلوم أنّ المقصود هو شطر کبیر من اللیل، و إن کان المقصود هو کل اللیل فإنّ ذلک یکون فی بعض الموارد.

کما أن تقدیم «السجود» علی «القیام» بسبب أهمیته، و إن کان القیام مقدّم علی السجود عملیا فی حال الصلاة.[۲۲۷] الصفة الرّابعة لهم هی الخوف من العذاب الإلهی وَ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها کانَ غَراماً. أی شدیدا و مستدیما. إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً.

و مع أنّهم مشتغلون بذکر اللّه و عبادته فی اللیالی، و یقضون النهار فی إنجاز تکالیفهم، فإنّ قلوبهم أیضا مملوءة بالخوف من

المسؤوليات، ذلك الخوف الباعث على القوّة فى الحركة أكثر و أفضل باتجاه أداء التكاليف، ذلك الخوف الذى يوجه الإنسان من داخله كشرطى قوى، فينجز تكاليفه على النحو الأحسن دون أن يكون له آمر و رقيب، فى ذات الوقت الذى يرى نفسه مقصرا أمام اللّه.

كلمة «غرام» فى الأصل بمعنى المصيبة، و الألم الشديد الذى لا يفارق الإنسان. و يطلق «الغريم»[۲۲۸] على الشخص الدائن، لأنّه يلازم الإنسان دائما من أجل أخذ حقّه.

و يطلق «الغرام» أيضا على العشق و العلاقة المتوقدة التى تدفع الإنسان بإصرار باتجاه عمل أو شىء آخر، و تطلق هذه الكلمة على «جهنم» لأنّ عذابها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۶

شديد و دائم لا يزول.

و لعل الفرق بين «مستقرا» و «مقاما» أن جهنم مكان دائم للكافرين فهى لهم «مقام»، و مكان مؤقت للمؤمنين، أى «مستقر»، و بهذا الترتيب يكون قد أشير إلى كلا الفريقين الذين يردان جهنم.

و من الواضح أن جهنم محل إقامة و مستقر سىء، و شتان بين الراحة و النعيم و بين النيران الحارقة.

و من المحتمل أيضا أن تكون «مستقرا» و «مقاما» كلاهما لمعنى واحد، و تأكيد على دوام عقوبات جهنم، و هو صحيح فى مقابل الجنّة، حيث نقرأ عنها فى آخر هذه الآيات نفسها خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً.[۲۲۹] فى الآية الأخيرة يشير جل ذكره إلى الصفة الممتازة الخامسة ل «عباد الرحمن» التى هى الاعتدال و الابتعاد عن أى نوع من الإفراط و التفريط فى الأفعال، خصوصا فى مسألة الإنفاق، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً.

الملفت للانتباه أنه يعتبر أصل الإنفاق أمرا مسلما لا يحتاج إلى ذكر، ذلك لأن الإنفاق أحد الأعمال الضرورية لكل إنسان، لذا يورد الكلام فى كيفية إنفاقهم فيقول: إن إنفاقهم إنفاق عادل (معتدل) بعيد عن أى إسراف و بخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم و أولادهم جياعا، و لا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم و عطاياهم.

فى تفسير «الإسراف» و «الإقتار» كنقطتين متقابلتين، للمفسّرين أقوال مختلفة يرجع جميعها إلى أمر واحد، و هو أنّ «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، و فى غير حق، و بلا داع، و «الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۷

فى إحدى الروايات الإسلامية، ورد تشبيه رائع للإسراف و الإقتار وحد الاعتدال، تقول الرّواية:

تلا أبو عبد اللّه عليه السّلام هذه الآية: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً. قال: فأخذ قبضة من حصى و قبضها بيده، فقال: هذا الإقتار الذى ذكره اللّه عزّ و جلّ فى كتابه، ثمّ قبض قبضة أخرى فأرخى كفّه كلّها، ثمّ قال: هذا الإسراف، ثمّ أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها و أمسك بعضها و قال: هذا القوام».[۲۳۰]

كلمة «قوام» (على وزن عوام) لغة بمعنى العدل و الاستقامة و الحد و الوسط بين شيئين، و «قوام» (على وزن كتاب): الشىء الذى يكون أساس القيام و الاستقرار.

مسألتان

۱- طريقة مشى المؤمنين

قرأنا فى الآيات أعلاه أنّ التواضع أحد علائم «عباد الرحمن»، التواضع الذى يهيمن على أرواحهم بحيث يظهر حتى فى مشيتهم، التواضع الذى يدفعهم إلى التسليم أمام الحق. لكن من الممكن أحيانا أن يتوهم البعض فى التواضع ضعفا و عجزا و خورا و كسلا، و هذا النمط من التفكير خطير جدّا.

التواضع فى المشى ليس هو الضعف و الخطوة الخائرة، بل إنّ الخطوات المحكمة التى تحكى عن الجدية و القدرة هى من صميم التواضع.

نقرأ

فى سيرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن أحد أصحابه يقول: «ما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كأنّما الأرض تطوى له، و إنّا لنجهد أنفسنا و إنّه لغير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۰۸

مكترث».[۲۳۱]

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ أنّه قال: «و الرجل يمشى بسجيته التى جبل عليها لا يتكلف و لا يتبختر».[۲۳۲]

و

ورد فى حديث آخر، فى حالات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قد كان يتكفأ فى مشيه كأنّما يمشى فى صبب».[۲۳۳]

يعنى حينما كان الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يمشى فإنّه يخطو خطوات سريعة دونما استعجال، كأنّما يمشى فى منحدر.

على أية حال فإنّ طريقة المشى ليست مقصودة بذاتها، بل هى نافذة إلى معرفة الحالة الروحية للإنسان، و الآية فى الحقيقة تشير إلى نفوذ روح التواضع و الخشوع فى أرواح و قلوب «عباد الرحمن».

۲- البخل و الإسراف

لا شك أنّ «الإسراف» واحد من الأعمال الذميمة بنظر القرآن و الإسلام، و ورد ذم كثير له فى الآيات و الرّوايات، فالإسراف كان نهجا فرعونيا: وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ [۲۳۴] و المسرفون هم أصحاب جهنم و الجحيم وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ.[۲۳۵] و مع الالتفات إلى أنّه أصبح ثابتا اليوم أن منابع الثروات الأرضية ليست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۰۹

كثيرة جدا نسبة إلى زيادة الكثافة السكانية للبشرية حتى يمكن للإنسان أن يسرف، و كل إسراف سيكون سببا فى حرمان أناس لا ذنب لهم، فضلا عن أن الإسراف عادة قرين التكبر و الغرور و البعد عن خلق اللّه.

فى نفس الوقت فإنّ التقتير و البخل أيضا، ذميم و قبيح و غير مقبول بنفس الدرجة، فالأصل على أساس النظرة التوحيدية، أن اللّه تبارك و تعالى هو المالك الأصلى، و نحن جميعا مستخلفون من قبله، و كلّ نوع من التصرف دون إجازته و رضاه فهو قبيح و غير مقبول، و نحن نعلم أن اللّه لم يأذن بالإسراف و لم يأذن بالبخل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۰

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۶۸ الى ۷۱]

اشارة

وَ الَّذِینَ لا یَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا یَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لا یَزْنُونَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ یَلْقَ أَثاماً (۶۸) یُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ یَخْلُدْ فِیهِ مُهاناً (۶۹) إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِکَ یُبَدِّلُ اللَّهُ سَیِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۷۰) وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ یَتُوبُ إِلَی اللَّهِ مَتاباً (۷۱)

التّفسیر

بحث آخر فی صفات عباد الرحمن:

میزة «عباد الرحمن» السادسة التی وردت فی هذه الآیات هی التوحید الخالص الذی یبعدهم عن کل أنواع الشرک و الثنویة و التعددیة فی العبادة، فیقول تعالی: وَ الَّذِینَ لا یَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.

فقد أنار التوحید آفاق قلوبهم و حیاتهم الفردیة و الاجتماعیة، و انقشعت عن سماء أفکارهم و أرواحهم ظلمات الشرک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۱

الصفة السابعة طهارتهم من التلوث بدم الأبریاء وَ لا یَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ [۲۳۶] و یستفاد جیدا من الآیة أعلاه أن جمیع الأنفس الإنسانیة محترمة فی الأصل، و محرم إراقة دمائها إلّا إذا تحققت أسباب ترفع هذا الاحترام الذاتی فتبیح إراقة الدم.

صفتهم الثّامنة هی أن عفافهم لا یتلوث أبدا: وَ لا یَزْنُونَ

إنّهم علی مفترق طریقین: الکفر و الإیمان، فینتخبون الإیمان، و علی مفترق طریقین الأمان و اللاأمان فی الأرواح، فهم یتخیرون الأمان، و علی مفترق طریقین: الطهر و التلوث: فهم یتخیرون النقاء و الطهر. إنّهم یهیئون المحیط الخالی من کل انواع الشرک و التعدی و الفساد و التلوث، بجدهم و اجتهادهم.

و فی ختام هذه الآیة یضیف تعالی من أجل التأکید أکثر: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ یَلْقَ أَثاماً.

«الإثم» و «آثام» فی الأصل بمعنی الأعمال التی تمنع من وصول الإنسان إلی المثوبة، ثمّ أطلقت علی کل ذنب، لکنّها هنا بمعنی جزاء الذنب.

قال بعضهم أیضا: إن «إثم» بمعنی الذنب و «آثام» بمعنی عقوبة الذنب [۲۳۷] فإذا رأینا أن بعض المفسّرین ذکروها بمعنی صحراء أو جبل أو بئر فی جهنم فهو فی الواقع من قبیل بیان المصداق.

و حول فلسفة تحریم الزنا، قدمنا بحثا مفصلا فی ذیل الآیة (۳۳) سورة الإسراء.

و من الملفت للنظر فی الآیة أعلاه، أنها بحثت أولا فی مسألة الشرک، ثمّ قتل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۲

النفس، ثمّ الزنا، و یستفاد من بعض الرّوایات أن هذه الذنوب الثلاثة تکون من حیث الأهمیة بحسب الترتیب الذی أوردته الآیة.

ینقل ابن مسعود عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، قال: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أی الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل للّه ندا و هو خلقک» قال: قلت: ثمّ أیّ؟ قال: «أن تقتل ولدک مخافة أن یطعم معک» قال: قلت: ثمّ أیّ؟ قال: «أن تزانی حلیلة جارک» فأنزل اللّه تصدیقها.[۲۳۸]

و بالرغم من أن الکلام فی هذا الحدیث، ورد عن نوع خاص من القتل و الزنا، لکن مع الانتباه إلی إطلاق مفهوم الآیة یتجلی أنّ هذا

الحکم یشمل جمیع أنواع القتل و الزنا، و ما فی الرّوایة مصداق أوضح لهما.

تتکئ الآیـة التالیـة أیضا علی ما سبق، من أن لهـذه الذنوب الثّلاثة أهمیة قصوی، فیقول تعالی: یُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ یَخْلُدْ فِیهِ مُهاناً.

و یتجسد هنا سؤالان:

الأوّل: لماذا یتضاعف عذاب هذا النوع من الأشخاص؟ و لماذا لا یجازون علی قدر ذنوبهم؟ و هل ینسجم هذا مع أصول العدالة!؟

الثّانی: إنّ الکلام هنا عن الخلود فی العـذاب، فی حین أنّ الخلود هنا مرتبط بالکفار فقط. و الـذنب الأوّل من هذه الذنوب الثلاثة التی ذکرت فی الآیة یکون کفرا، فقط، و أمّا قتل النفس و الزنا فلیسا سببا للخلود فی العذاب.

بحث المفسّرون کثیرا فی الإجابـة علی السؤال الأول، و أصـح ما أوردوه هو أن المقصود من مضاعفـة العـذاب أن کل ذنب من هـذه الذنوب الثلاثة المذکورة فی هذه الآیة سیکون له عقاب منفصل، فتکون العقوبات بمجموعها عذابا مضاعفا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۳

فضـلا عن أنّ ذنبا ما یکون أحیانا مصدر الذنوب الأخری، مثل الکفر الذی یسـبب ترک الواجبات و ارتکاب المحرمات، و هذا نفسه موجب لمضاعفة العذاب الإلهی.

لهذا اتّخذ بعض المفسّرین هذه الآیة دلیلا علی هذا الأصل المعروف أن:

«الکفار مکلفون بالفروع کما أنّهم مکلفون بالأصول».

و أمّا فی الإجابـة علی السؤال الثّانی: فیمکن القول أن بعض الذنوب عظیم إلی درجة یکون عندها سـببا فی الخروج من هذه الدنیا بلا إیمان، کما قلنا فی مسألة قتل النفس فی ذیل الآیة (۹۳) سورة النساء.[۲۳۹] و من الممکن أن یکون الأمر کذلک فی مورد الزنا أیضا، خاصّة إذا کان الزنا بمحصنة.

و من المحتمل أیضا أن «الخلود» فی الآیـة أعلاه یقصد به من یرتکب هذه الذنوب الثلاثة معا، الشـرک و قتل النفس و الزنا، و الشاهد علی هذا المعنی: الآیة التالیة حیث تقول: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً.

و اعتبر بعض المفسّرین- أیضا- أن «الخلود» هنا بمعنی المدة الطویلة لا الخالدة، لکن التّفسیر الأوّل و الثّانی أصح.

و من الملفت للنظر هنا- فضـلا عن مسألـة العقوبات العادیـة- عقوبـة أخری ذکرت أیضا هی التحقیر و المهانـة، أی البعـد النفسـی من العذاب، و قد تکون بذاتها تفسیرا لمسألة مضاعفة العذاب، ذلک لأنّهم یعذبون عذابا جسدیا و عذابا روحیا.

لکن القرآن المجیـد کمـا مرّ سابقـا، لم یغلق طریق العودة أمـام المجرمین فی أی وقت من الأوقـات، بل یـدعو المـذنبین إلی التوبـة و یرغبهم فیها، ففی، الآیة التالیة یقول تعالی هکذا:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۴

إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِکَ یُبَدِّلُ اللَّهُ سَیِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ، وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً.

کما مرّ بنا فی الآیـة الماضیـة، ففی الوقت الـذی ذکرت ثلاثـة ذنوب هی من أعظم الذنوب، ترکت الآیة باب التوبة مفتوحا أمام هؤلاء الأشـخاص، و هـذا دلیل علی أن کل مذنب نادم یمکنه العودة إلی اللّه، بشـرط أن تکون توبته حقیقیة، و علامتها ذلک العمل الصالح (المعوّض) الذی ورد فی الآیة، و إلّا فإن مجرّد الاستغفار باللسان أو الندم غیر المستقر فی القلب لا یکون دلیلا علی التوبة أبدا.

المسألة المهمّة فیما یتعلق بالآیة أعلاه هی: کیف یبدل اللّه «سیئات» أولئک «حسنات»؟

تبدیل السیئات حسنات:

هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعا:

۱- حينما يتوب الإنسان و يؤمن باللّه، تتحقّق تحولات عميقة فى جميع وجوده، و بسبب هذا التحول و الانقلاب الداخلى تتبدل سيئات أعماله فى المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلا للنفس المحترمة فى الماضى، فإنّه يتبنى مكانها فى المستقبل الدفاع عن المظلومين و مواجهة الظالمين. و إذا كان زانيا، فإنّه يكون بعدها عفيفا و طاهرا، و هذا التوفيق الإلهى يناله العبد فى ظل الإيمان و التوبة.

۲- أن اللّه تبارك و تعالى بلطفه و كرمه و فضله و إنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبة، و يضع مكانها حسنات، نقرأ فى رواية عن أبى ذر: قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا صغار ذنوبه، و تخبأ كبارها، فيقال: عملت يوم كذا و كذا، و هو يقرّ ليس بمنكر، و هو مشفق من الكبائر أن تجىء، فإذا أراد اللّه خيرا قال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة، فيقول: يا ربّ لى ذنوب ما رأيتها ها هنا؟» قال: و رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ضحك حتى بدت نواجذه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۵

ثمّ تلا: فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ [۲۴۰]

۳- التّفسير الثّالث هو أن المقصود من السيئات ليس نفس الأعمال التى يقوم بها الإنسان، بل آثارها السيئة التى تنطبع بها روح و نفس الإنسان، فحينما يتوب و يؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه و نفسه، و تبدل بآثار الخير، و هذا هو معنى تبديل السيئات حسنات.

و لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة قطعا، و من الممكن أن تجتمع كل هذه التفاسير الثلاثة فى مفهوم الآية.

الآية التالية تشرح كيفية التوبة الصحيحة، فيقول تعالى: وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً.[۲۴۱] يعنى أن التوبة و ترك الذنب ينبغى ألا تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغى- إضافة إلى ذلك- أن يكون الدافع إليها خلوص النية، و العودة إلى اللّه تبارك و تعالى.

لهذا فإنّ ترك شرب الخمر أو الكذب بسبب إضرارهما مثلا، و إن كان حسنا، لكنّ القيمة الأسس لهذا الفعل لا تتحقق إلّا إذا استمدّ من الدافع الربّانى.

بعض المفسّرين ذكروا تفسيرا آخر لهذه الآية، و هو أن هذه الجملة جواب على التعجب الذى قد تسببه الآية السابقة أحيانا فى بعض الأذهان، و هو: كيف يمكن أن يبدل اللّه السيئات حسنات؟!، فتجيب هذه الآية: حينما يؤوب الإنسان إلى ربه العظيم، فلا عجب فى هذا الأمر.

تفسير ثالث ذكر لهذه الآية، و هو أن كلّ من تاب من ذنبه فإنّه يعود إلى اللّه، و مثوبته بلا حساب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۶

و بالرغم من عدم وجود منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة، لكن التّفسير الأوّل أقرب، خاصّة و أنّه يتفق مع الرّواية المنقولة فى تفسير على بن إبراهيم القمى فى ذيل هذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۷

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۷۲ الى ۷۶]

اشارة

وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (۷۲) وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً (۷۳) وَ الَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنـا هَبْ لَنـا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (۷۴) أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً (۷۵) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۷۶)

التّفسير

جزاء «عباد الرحمن»:

فی متابعة للآیات الماضیة التی کررت القول فی خصائص «عباد الرحمن»، تشرح هذه الآیات بقیة هذه الصفات:

الصفة الرفیعة التاسعة لهم، هی احترام و حفظ حقوق الآخرین: إنّ هؤلاء لا یشهدون بالباطل مطلقا: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ.

المفسّرون الکبار فسّروا هذه الآیة علی نحوین:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۸

اعتبر بعضـهم «الزور» بمعنی «الشـهادة بالباطل» کما قلنا أعلاه، لأنّ «الزور» لغة بمعنی التمایل و الانحراف، و حیث أن الکذب و الباطل و الظلم من الانحرافات، فإن «الزور» یطلق علیها.

هـذه العبـارة (شـهادة الزور) فی کتاب الشـهادات فی فقهنا، موجودة بنفس هـذا العنوان، و قـد نهی عنها فی روایات متعـددة، و إن لم نرفی تلک الرّوایات استدلالا بالآیة أعلاه.

التّفسیر الآخر: هو أنّ المقصود من «الشهود» هو «الحضور» یعنی أن عباد الرحمن لا یتواجدون فی مجالس الباطل.

و فی بعض الرّوایـات التی وردت عن طرق أئمّـة أهـل البیت علیهم السّـلام، فسّـرت ب «الغناء» أی تلک المجالس التی یتمّ فیها إنشاد اللهو مصحوبا بأنغام الآلات الموسیقیة أو بدونها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۱ ؛ ص۳۱۸

شک أنّ مراد هـذا النوع من الرّوایات لیس هو تحدیـد مفهوم «الزور» الواسع ب «الغناء»، فالغناء واحـد من مصادیقه البارزة إنه یشـمل سائر مجالس اللهو و اللعب و شرب الخمر و الکذب و الغیبة و أمثال ذلک.

و لا یستبعد أیضا أن یجتمع کلا التّفسیرین فی معنی الآیة، و علی هذا فعباد الرحمن لا یؤدون الشهادة الکاذبة، و لا یشهدون مجالس اللهو و الباطل و الخطیئة، ذلک لأنّ الحضور فی هذه المجالس- فضلا عن ارتکاب الذنب- فإنه مقدمة لتلوث القلب و الروح.

ثمّ یشـیر تعـالی فی آخر الآیـة إلی صـفتهم الرفیعـة العاشـرة، و هی امتلاـک الهـدف الإیجابی فی الحیاة، فیقول: وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً.

إنّهم لاـ یحضـرون مجالس الباطل، و لا یتلوثون باللغو و البطلان. و مع الالتفات إلی أن «اللغو» یشـمل کل عمل لا ینطوی علی هـدف عقلائی، فإن ذلک یدل علی أن «عباد الرحمن» یتحرون دائما الهدف المعقول و المفید و البناء، و ینفرون من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۱۹

اللاهدفیة و الأعمال الباطلة، فإذا اعترضهم هذا النوع من الأعمال فی مسیر حیاتهم، مروا بمحاذاتها مرور اللامبالی، و لا مبالاتهم نفسها دلیل علی عدم رضاهم الداخلی عن هذه الأعمال، فهم عظماء بحیث لا تؤثر علیهم الأجواء الفاسدة و لا تغیرهم.

و لا شک أنّ عـدم اعتنائهم بهذه الأمور من جهة أنّهم لا طریق لهم إلی مواجهة الفساد و النهی عن المنکر، و إلّا فلا شکّ أنّهم سوف یقفون و یؤدون تکالیفهم حتی المرحلة الأخیرة.

الصـفة الحادية عشر لهذه النخبة امتلاک العين الباصرة و الأذن السامعة حين مواجهتهم لآيات الخالق، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً.

من المسـلّم أنّ المقصود ليس الإشـارة إلى عمل الكفار، ذلک لأنّهم لا اعتناء لهم بآيات اللّه أصـلا، بل إن المقصود: فئـة المنافقين أو مسـلمو الظاهر، الـذين يقعون على آيات اللّه بأعين و آذان موصـدة، دون أن يتـدبروا حقائقها و يسبروا غورها، فيعرفوا ما يريـده اللّه و يتفكروا فيه، و يستهدوه في أعمالهم.

و لاـ يمكن طى طريق اللّه بعين و أذن موصـدتين، فالأذن السامعـة و العين الباصـرة لازمتان لطى هـذا الطريق، العين الناظرة في الباطن، المتعمقة في الأشياء، و الأذن المرهفة العارفة بلطائف الحكمة.

و لو تأملنـا جيـدا لأدركنـا أن ضـرر هـذه الفئـة ذات الأعين و الآذان الموصـدة و في ظنها أنّها تتبع الآيات الإلهيـة، ليس أقلّ من ضـرر الأعداء الذين يطعنون بأصل شريعة الحق عن وعى و سبق إصرار، بل أن ضررهم أكثر بمراتب أحيانا.

التلقى الواعى عن الدين هو المعين الأساس للمقاومة و الثبات و الصمود، لأن من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، و بتحريفه يتم الانحراف عن الخط الأصيل، فيهوى بهم ذلک إلى وادى الكفر و الضلالة و عدم الإيمان.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۲۰

هـذا النوع من الأفراد أداة بيـد الأعـداء، و لقمـة سائغـة للشـياطين، المؤمنون وحـدهم هم المتدبرون المبصـرون السامعون كمثل الجبل الراسخ، فلا يكونون لعبة بيد هذا أو ذاک.

نقرأ في حـديث عن أبى بصـير، قـال: سـألت أبا عبـد اللّه عليه السّـلام عن قول اللّه عزّ و جلّ: وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً، قال:

«مستبصـرين ليسوا بشكاک».[۲۴۲] الصـفة الثّانيـة عشـر الخاصّـة لهؤلاـء المؤمنين الحقيقيين، هى التوجه الخـاص إلى تربيـة أبنـائهم و عوائلهم، و إيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

بـديهى أن معنى هـذا ليس أن يقبعوا في زاويـة و يتضـرعوا بالـدعاء، بل إن الـدعاء دليل شوقهم و عشـقهم الداخلى لهذا الأمر، و رمز جدهم و اجتهادهم.

من المسـلّم أنّ أفرادا كهؤلاء لا يقصـرون في بـذل ما لـديهم من طاقـة و قدرة في تربية أبنائهم و أزواجهم، و تعريفهم بأصول و فروع الإسلام، و سبل الحق و العدالة و في ما لا تصل إليه قدرتهم و طاقتهم، فإنّهم يدعون اللّه، يسألونه التوفيق بلطفه.

فالدعاء الصحيح من حيث الأصل، ينبغى أن يكون هكذا: السعى بمقدار الاستطاعة، و الدعاء خارج حدّ الاستطاعة.

«قرّة العين» كناية عمّن يسرّ به، هذا التعبير أخذ في الأصل من كلمة «قر» التى بمعنى البرد، و كما هو معروف (و قد صـرح به كثير من المفسّرين) أن دمعة الشوق و السرور باردة، و دموع الحزن و الغم حارة حارقة، لذا ف «قرّة عين» بمعنى الشيء الذى يسبب برودة عين الإنسان، يعنى أن دمعة الشوق تنسكب من عينيه، و هذه كناية جميلة عن السرور و الفرح.[۲۴۳]

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۲۱

مسألـة تربيـة الأبنـاء و إرشـاد الزوجات، و مسـئولية الآباء و الأمهات إزاء أطفالهم من أهم المسائل التى أكـد عليها القرآن، و سنفصـل القول فيها إن شاء اللّه في ذيل الآية (۶) من سورة التحريم.

و أخيرا فالصـفة الرفيعـة الثّالثـة عشـر لعباد الرحمن التى هى أهم هذه الصـفات من وجهة نظر معينة: هى أنّهم لا يقنعون أبدا أنّهم على طريق الحق، بل أن همتهم عالية بحيث يريدون أن يكونوا أئمة و قدوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضا.

إنّهم ليسوا كالزهاد المنزوين في الزوايا، و ليس همّهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إن سعيهم هو أن ينقذوا الغرقى.

لذا يقول فى آخر الآيهٔ، إنّهم الذين يقولون: وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً.

ينبغى الالتفات إلى هـذه النكتـهٔ أيضا، إنّهم لا يدعون ليكونوا فى موقع العظماء جزافا، بل إنّهم يهيئون أسباب العظمهٔ و الإمامهٔ بحيث تجتمع فيهم الصفات اللائقهٔ بالقدوهٔ الحقيقيهٔ، و هذا عمل عسير جدا، و له شرائط صعبهٔ و ثقيلهٔ.

و لا ننس أنّ القرآن لا يذكر فى هذه الآيات صـفات جميع المؤمنين، بل أوصاف نخبهٔ ممتازهٔ من المؤمنين فى الصف المتقدم بعنوان «عباد الرحمن». نعم، إنّهم عباد الرحمن، و كما أن رحمـهٔ اللّه العامّهٔ تشـمل الجميع فإنّ رحمهٔ اللّه بهؤلاء العباد عامّهٔ أيضا من أكثر من جههٔ، فعلمهم و فكرهم و بيانهم و قلمهم و مالهم و قدرتهم تخدم بلا انقطاع فى طريق هدايهٔ خلق اللّه.

أولئك نماذج و أسوات المجتمع الإنسانى.

أولئك قدوات المتقين.

إنّهم أنوار الهدايهٔ فى البحار و الصحارى. ينادون التائهين إليهم لينقذوهم من الغرق فى الدوامهٔ، و من السقوط فى المزالق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۲

نقرأ فى روايات متعددهٔ أنّ هذه الآيهٔ نزلت فى على عليه السّلام و ائمّهٔ أهل البيت عليهم السّلام.

و نقرأ

فى روايهٔ أخرى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إيانا عنى».[۲۴۴]

و لاـ شـك أن أئمـهٔ أهـل البيت عليهم السّـلام من أوضـح مصـاديق هـذه الآيـهٔ، لكن هـذا لاـ يمنع من اتساع مفهوم الآيـهٔ، فالمؤمنون الآخرون أيضا يكون كل منهم إماما و قدوهٔ للآخرين بمستويات متفاوتهٔ.

و استنتج بعض المفسّـرين من هـذه الآيـهٔ أن طلب الرئاسـهٔ المعنويـهٔ و الروحانيـهٔ ليس غير مـذموم فقط، بل إنه مطلوب و مرغوب فيه أيضا.[۲۴۵] و ينبغى الالتفات ضمنا إلى أن كلمهٔ «إمام» و إن كانت للمفرد، إلّا أنّها تأتى بمعنى الجمع، و هكذا هى فى الآيهٔ.

بعد إكمال هذه الصـفات الثلاثهٔ عشـرهٔ، يشـير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، و فى صورهٔ الكوكبهٔ الصغيرهٔ، فيبيّن جزاءهم الإلهى أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا.

«غرفهٔ» من مادهٔ «غرف» (على وزن حرف): بمعنى رفع الشـيء و تناوله، و يقال لما يغترف و يتناول «غرفهٔ» (كاغتراف الإنسان الماء من العين بيده للشرب) ثمّ أطلقت على الأقسام العليا من البناء، و منازل الطبقات العليا، و هى هنا كنايهٔ عن أعلى منازل الجنّهٔ.

لذلك فإنّ «عباد الرحمن» بامتلاكهم هذه الصفات، يكونون فى الصف الأوّل من المؤمنين، و ينبغى أن تكون درجتهم فى الجنّهٔ أعلى درجهٔ أيضا.

المهم أنّه يقول: إن هـذا المقـام العـالى قـد أعطى لهم بسبب ما قـدموا من ضـريبهٔ الصبر و الاسـتقامهٔ فى طريق اللّه، و من الممكن أن يتصور أن هذا وصف آخر من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۳

أوصافهم، لكن هـذا فى الحقيقـهٔ ليس وصـفا جديـدا، بل هو ضـمانهٔ تطبيق جميع الصـفات السابقـهٔ، و إلّا فهل يمكن أن نتصور عبادهٔ الخالق، و مواجههٔ الطغيان و الشهوات، و ترك شهادهٔ الزور، و التواضع و الخشوع و غيرها من الصفات بدون صبر و استقامهٔ.

هذا البيان يذكّر الإنسان بالحديث المعروف

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام حيث يقول: «و الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»

فبقاء الجسد من بقاء الرأس، ذلك لأن قيادهٔ جميع أعضاء البدن تستقر فى دماغ الإنسان.

و على هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل و الصـمود أمام مشـكلات طريق الحق، و الجهاد و المواجههٔ ضد العصاهٔ، و الوقوف أمام دواعى الـذنوب، تجتمع كلهـا فى ذلـك المفهوم، و إذا فسـر فى بعض الرّوايـات بالصبر على الفقر و الحرمان المالى، فمن المسـلم أن

ذلك من قبيل بيان المصداق.

ثمّ يضيف تعالى: وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً.

أهل الجنّة يحى بعضهم بعضا، و تسلم الملائكة عليهم، و أعلى من كل ذلك أن اللّه يحييهم و يسلم عليهم، كما نقرأ فى الآية (۵۸) من سورة يس سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ و نقرأ فى الآية (۲۳ و ۲۴) من سورة يونس وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ....

ترى هل ل «التحية» و «السّلام» هنا معنيان، أم معنى واحد!؟ ثمّة أقوال بين المفسّرين، لكن مع الالتفات إلى أن «التحية» فى الأصل بمعنى الدعاء لحياة الغير، و «سلام» من مادة السلامة، و بمعنى الدعاء للغير.

على هذا نستنتج: أن الكلمة الأولى بعنوان طلب الحياة، للمخاطب و الكلمة الثّانية طلب اقتران هذه الحياة مع السلامة، و لو أن هاتين الكلمتين تأتيان بمعنى واحد أحيانا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۲۴

«التحية» فى العرف لها معنى أوسع، فهى كل ما يقولونه فى بيان اللقاء مع الآخرين، فيكون سببا فى سرورهم و احترامهم و إظهار المحبّة لهم.

ثمّ يقول تبارك و تعالى للتأكيد أكثر: خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۲۵

الآية [سورة الفرقان (۲۵): آية ۷۷]

اشارة

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (۷۷)

التّفسير

لو لا دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة:

هذه الآية التى هى الآية الأخيرة فى سورة الفرقان، جاءت فى الحقيقة نتيجة لكل السورة، و للأبحاث التى بصدد صفات «عباد الرحمن» فى الآيات السابقة، فيقول تبارك و تعالى مخاطبا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ

«يعبؤ» من مادة «عبء» بمعنى «الثقل»، و على هذا فجملة لا يعبأ يعنى لا يزن، و بعبارة أخرى لا يعتنى.

و لو أن احتمالات كثيرة ذكرت هنا فى مسألة معنى الدعاء، لكن أساس جميعها يعود إلى أصل واحد.

فذهب البعض: إن الدعاء هو نفس ذلك المعنى المعروف للدعاء.

بعض آخر فسّره بمعنى الإيمان.

و بعض بمعنى العبادة و التوحيد.

و آخر، بمعنى الشكر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۲۶

و بعض: بمعنى التضرع إلى اللّه فى المحن و الشدائد.

لكنّ أساس جميعها هو الإيمان و التوجه إلى اللّه.

و بناء على هذا، يكون مفهوم الآية هكذا: إن ما يعطيكم الوزن و القيمة و القدر عند اللّه هو الإيمان باللّه و التوجه إليه، و العبودية له.

ثمّ يضيف تعالى: فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً.

من الممكن التصور أن تضادا بين بداية الآية و نهايتها، أو أنّه لا يبدو على الأقل الارتباط و الانسجام اللازم بينهما، و لكن إذا دققنا قليلاـ يتّضح أنّ المقصود أساسا هو: أنّكم قد كذبتم فيما مضى بآيات اللّه و بأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى اللّه، و لم نسلكوا طريق الإيمان به و العبودية له، فلن تكون لكم أية قيمة أو مقام عنده، و ستحيط بكم عقوبات تكذيبكم.[۲۴۶] و من جملة الشواهد الواضحة التى تؤيد هذا التّفسير،

الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه سئل: «كثرة القراءة أفضل أو كثرة الدعاء»؟ فقال عليه السّلام: «كثرة الدعاء أفضل و قرأ هذه الآية».[۲۴۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۲۷

بحث

الدعاء طريق إصلاح النفس و معرفة اللّه:

معلوم أن مسألة الدعاء أعطيت أهمية كبيرة فى آيات القرآن و الرّوايات الإسلامية، حيث كانت الآية أعلاه أنموذجا منها، غير أن قد يكون القبول بهذا الأمر ابتداء صعبا على البعض، كأنّه يقال: الدعاء عمل سهل جدّا، و يمكن أن يؤديه الجميع أو يتوسعون أكثر فيقولون: الدعاء عمل المغلوبين على أمرهم، الأمر الذى لا أهمية له.

لكن الاشتباه هنا ينشأ من أنّهم ينظرون إلى الدعاء الخالى من شرائطه، فى حين إذا أخذت الشرائط الخاصّة للدعاء بنظر الإعتبار، فإن هذه الحقيقة تثبت بوضوح. و هى أن الدعاء وسيلة مؤثرة فى إصلاح النفس، و الارتباط القريب بين اللّه و الإنسان.

أوّل شرائط الدعاء، معرفة المدعو.

الشرط الثانى: تخلية القلب و إعداد الروح لدعائه تبارك و تعالى، ذلك لأن الإنسان حينما يذهب باتجاه أحد، ينبغى أن يملك الاستعداد للقائه.

الشرط الثّالث للدعاء: هو جلب رضاه من يدعوه الإنسان، ذلك لأنّه لا يحتمل التأثير بدون ذلك إلا نادرا.

و أخيرا فالشرط الرّابع لاستجابة الدعاء: هو أن يستخدم الإنسان كلّ قدرته، و قوته و استطاعته فى عمله، و يؤديه بأعلى درجة من الجدّ و الاجتهاد، ثمّ يرفع يديه و يوجه قلبه إلى بارئه بالدعاء فى ما وراء ذلك.

ذلك لأنّه ورد صريحا فى الرّوايات الإسلامية، أن الإنسان إذا قصّر فى العمل الذى يستطيع أن يؤديه بنفسه، ثمّ يتوسل بالدعاء فلن يستجاب دعاؤه.

من هنا، فإنّ الدعاء وسيلة لمعرفة الخالق و معرفة صفاته الجمالية و الجلالية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۲۸

و وسيلة أيضا للتوبة من الذنب، و لتطهير الروح، و سبب أيضا لأداء الحسنات للجهاد و الجدّ و الاجتهاد إلى منتهى الاستطاعة.

لهذا نجد عبارات مهمّة حول الدعاء لا يمكن فهمها إلّا على ضوء ما قلناه، مثلا:

نقرأ

فى رواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «الدعاء سلاح المؤمن، و عمود الدين، و نور السماوات و الأرض».[۲۴۸]

و نقرأ

فى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «الدعاء مفاتيح النجاح و مقاليد الفلاح، و خير الدعاء ما صدر عن صدر نقى، و قلب تقى».[۲۴۹]

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «الدعاء أنفذ من السنان».[۲۵۰]

فضلا عن كل ذلك، فإن من الطبيعى أن حوادث تقع فى حياة الإنسان، فتغرقه فى اليأس من حيث الأسباب الظاهرية، فالدعاء يمكنه أن يكون شرفة على أمل الفوز، و وسيلة مؤثرة فى مواجهة اليأس و القنوط.

لهذا فالدعاء إزاء الحوادث الصعبة المرهقة، يمنح الإنسان قدرة و قوة و أملا و طمأنينة، و أثرا لا يمكن إنكاره من الناحية النفسية.

و قدّمنا بحثا مفصلا بصدد مسألة الدعاء، و فلسفته، و شرائطه، و نتائجه، فى التّفسير الأمثل ذيل الآية (۱۸۶) من سورة البقرة، فتفضل بمراجعته هناك من أجل التوضيح أكثر.

اللّهمّ، اجعلنا من خاصّة عبادك، و ترحم علينا بتوفيق اكتساب خصائص و صفات «عباد الرحمن».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۲۹

ربّنا، افتح لنا أبواب الدعاء و اجعل ذلك سببا لتثمين وجودنا بين يديك.

اللّهمّ، تفضل علينا بتوفيقات الدعاء المطلوبة بين يديك، و لا تحرمنا من الاستجابة.

إنّك على كل شىء قدير و بالإجابة جدير.

نهاية سورة الفرقان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۳۱

سورة الشّعراء

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائتان و سبع و عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۳۳

«سورة الشعراء»

محتوى سورة الشعراء:

المعروف بين المفسّرين أنّ جميع آيات هذه السورة المائتين و سبع و عشرين نزلت فى مكّة عدا الآيات الأربع الأخيرة.[۲۵۱] إيقاع آيات هذه السورة يتناغم أيضا مع إيقاعات السور المكية الأخرى، و نعلم أنّ السور المكية التى أنزلت فى بداية دعوة الإسلام، تستند على بيان الأصول الاعتقادية: التوحيد و المعاد، و دعوة أنبياء اللّه، و أهمية القرآن.

و تدور جميع موضوعات سورة الشعراء حول هذه المسائل تقريبا.

و يمكن تلخيص محتوى هذه السورة فى عدة أقسام:

القسم الأوّل: مطلع هذه السورة الذى يتكون من الحروف المقطعة، ثمّ يتحدث فى عظمة القرآن، و تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و

سلّم فی مواجهة إصرار و حماقة المشركين، و الإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، و صفات اللّه تبارك و تعالى.

القسم الثّانی: يحكى جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام و مواجهاتهم مع أقوامهم، و فى مكابرات و حماقات أولئك حيال هؤلاء الأنبياء، حيث فصّل الحديث أكثر فى بعض منها، كما فى قصة موسى و فرعون، و اختصره فى بعض آخر منها، كما فى قصّة إبراهيم و نوح و هود و صالح و لوط و شعيب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۳۴

فى هذا القسم بخاصّة، أشير إلى منطق المشركين. الضعيف الممزوج بالتعصب فى كل عصر و زمان فى مواجهة أنبياء اللّه، و الذى يشبه كثيرا منطق مشركى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فكان هذا سببا فى تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الأوائل:، ليعلموا تاريخ هذا الصنف من الناس و منطقهم، حتى لا يتأثروا و يتراخوا، و حتى لا يفسحوا للضعف و الفتور ليجد طريقا إلى أنفسهم.

و فيه بشكل خاص أيضا، تركيز على العذاب العظيم و الابتلاءات المروعة التى حلّت بهذه الأمم، و الذى هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النّبى فى تلك الشرائط.

القسم الثّالث: و تغلب عليه جنبه الاستنتاج من القسمين الأولیين، يتناول الحديث حول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عظمة القرآن، و تكذيب المشركين، و الأوامر الصادرة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يتعلق بطريقة الدعوة، و كيفية التعامل مع المؤمنين، و يختم السورة بالبشرى للمؤمنين الصالحين، و بالتهديد الشديد للظالمين.

و بالمناسبة، فإنّ اسم هذه السورة أخذ من مجموعة الآيات الأخيرة التى تتحدّث حول الشعراء غير المؤمنين.

و هناك نكتة جديرة بالاهتمام أيضا، و هى أن هذه السورة تعتبر من أكبر السور بعد سورة البقرة من حيث عدد الآيات، و إن كانت ليست كذلك من حيث عدد الكلمات، بل هى أقصر من كثير من السور.

فضيلة سورة الشعراء:

ورد فى الحديث الشريف عن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بيان أهمية تلاوة هذه السورة أنّه قال:

«من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل من صدّق بنوح و كذب به، و هود و شعيب و صالح و ابراهيم، و بعدد كل من كذب بعيسى و صدق بمحمّد».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۳۵

و لا يخفى أن كلّ هذا الأجر و الثواب ليس على التلاوة بدون التفكر و العمل بها، بل ان القرائن المتعدد فى روايات فضائل السور تحكى عن أن المراد من التلاوة هى ما كانت مقدمة للتفكر، ثمّ العزم و العمل، و قد أشرتا الى ذلك سابقا.

و ممّا يؤيد هذا المعنى التعبير الوارد فى نفس الحديث أعلاه، لأنّ استحقاق الحسنات بعدد المصدّقين و المكذبين للأنبياء من أجل أن يكون الشخص فى صف المصدّقين و يتجنّب منهج المكذبين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۳۶

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (۱) تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْمُبِینِ (۲) لَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ أَلاّ یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۳) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَیْهِمْ مِنَ السَّماءِ آیَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِینَ (۴)

وَ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ کانُوا عَنْهُ مُعْرِضِینَ (۵) فَقَدْ کَذَّبُوا فَسَیَأْتِیهِمْ أَنْبؤُا ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۶)

التّفسیر

إنهم یعرضون عن کل جدید!

مرّة أخری نواجه فی بدایة هذه السورة مثلا آخر من الحروف المقطعة و هو:

طسم

و کان لنا فی تفسیر هـذه الحروف المقطعة بحوث مسـهبة و مسـتقلّة فی مسـتهل سورة البقرة و سورة آل عمران و سورة الأعراف! فلا نری حاجة إلی التکرار و الإعادة! إلّا أنّ ما ینبغی أن نضیفه هنا هو ما ورد من روایات متعددة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو

بعض أصـحابه فی تفسیر «طسم» و یدلّ جمیعها علی أنّ هذه الحروف علامات «مختصـرة» عن أسماء اللّه تعالی، أو أسماء القرآن، أو الأمکنة المقدسة، أو بعض أشجار الجنّة! ...

و هـذه الرّوایـات تؤیـد التّفسـیر الـذی نقلنـاه فی مسـتهلّ سورة الأـعراف فی هـذا الصـدد، کما أنّها فی الوقت ذاته لا تنافی ما قلناه فی مستهل سورة البقرة من أن المراد من هذه الحروف بیان أعجاز القرآن و عظمته، حیث أن هذا الکلام العظیم مؤلف من حروف بسیطة و صغیرة! و الآیة التالیة تبیّن عظمة القرآن بهذا النحو: تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْمُبِینِ

و بالطبع فإنّ «تلک» فی لغة العرب اسم إشارة للبعید، و یشار بها للمؤنث «المفرد» و «الجمع»، کما قد یشار بها لجمع التکسـیر.[۲۵۲] و کمـا بیّنا آنفا فقـد یعبّر فی لغـة العرب عن عظمـة الشـیء- و إن کان قریبا- باسم الإشارة (للبعیـد) فکان الموضوع لأهمیّته و ارتفاع «و علوّ» مرتبـة بعیـد عنّا، و مکانه فی السـماوات العلی! و ممّا ینبغی الالتفات إلیه و ملاحظته أنّ هـذه الآیـة بنصّـها وردت فی بدایـة سورة یوسف و سورة القصـص- أیضا- دون زیادة أو نقصان. کما أنّها وردت بعـد الحروف المقطعـة فی مسـتهلّ السور آنفـة الذکر، و هی تدل علی ارتباط هذه الحروف بعظمة القرآن.

و وصف القرآن ب «المبین» المشـتق من «البیـان»، هو إشـارة إلی کونه جلیّـا بیّنـا عظیمـا معجزا- فکلّمـا أمعن الإنسان النظر فی محتواه تعرّف علی إعجازه أکثر فأکثر ... ثمّ بعـد هذا فإنّ القرآن یبیّن الحق و یمیزه عن الباطل، و یوضّح سبیل السـعادة و النصـر و النجاة من الضلال!

و الآیة التالیة تسرّی عن قلب النّبی و تثبته فتقول: لَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ أَلَّا یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ

کلمـة «باخع» مشـتقّة من (البخع) (علی وزن الـدّمع)! و معناه إهلاک النفس من شـدة الغمّ ... و هـذا التعبیر یدلّ علی مدی تحرّق قلب النّبی و شـفقته لأمته، و أداء رسالته، و ما کان علیه من إصرار فی خطته، و تجلّد فی مواجهة شدته و محنته، لأنّه یری القلوب المتعطشة الظامئـة فی جوار النبع القرآنی الزلاـل، و لکنّهـا لاـ تزال علی ظمئهـا و لاـ ترتوی من معینه العـذب، فکان یتحرق لـذلک! کان قلقا- و باخعـا نفسه- أن یری الإنسان الـذی منحه اللّه العقل و اللبّ یسـیر فی الطریق المظالم، بالرغم من کل هـذا الضـیاء، و یهوی فی الوادی السـحیق لیکون من الهالکین! أجل، کان جمیع الأنبیاء علی هذه الشاکلة من الإشـفاق علی أممهم و لا سـیما الرّسول الأعظم صلّی اللّه

علیه و آله و سلّم الذی ورد فی شأنه هذا التعبیر القرآنی أکثر من مرّة ...

قال بعض المفسّرین: إن سبب نزول الآیة الأنفة الذکر هو أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یدعو أهل مکّة إلی توحید اللّه باستمرار، إلّا أنّهم لم یؤمنوا. فأسف النّبی و تأثر تأثرا بالغا حتی بدت أماراته فی وجهه، فنزلت الآیة آنفة الذکر لتسرّی عن قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.[۲۵۳] و لبیان أنّ اللّه علی کل شیء قدیر حتی أنّه یستطیع أن یسوقهم إلی الإیمان به سوقا و یضطرّهم إلی ذلک، فإنّ الآیة التالیة تقول: إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَیْهِمْ مِنَ السَّماءِ آیَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِینَ

و هی إشارة إلی أن اللّه قادر علی إنزال معجزة مذهلة- من السماء- أو أن یرسل علیهم عذابا شدیدا فیذعنوا له، یطأطئوا برؤوسهم خضوعا له، یستسلموا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۹

لأمره و حکمه، إلّا أن الإیمان بإکراه لا قیمة له. فالمهم أن یخضعوا للحق عن إرادة و وعی و إدراک و تفکر.

و من الواضح أنّ المراد بخضوع الأعناق خضوع أصحابها ... فاللغة العربیة تذکر الرقبة أو العنق کنایة عن الإنسان لأنّها جزء مهمّ منه، و یقال مثلا کنایة عن البغاة القساة: غلاظ الرقاب، و عن المضطهدین و الضعفاء: الرقاب الذلیلة! و بالطبع فهناک احتمالات أخر لتفسیر «أعناقهم» من جملتها أنّ الأعناق تعنی الرؤساء، کما أن من التفاسیر أن الأعناق تعنی طوائف من الناس. و جمیع هذه الاحتمالات ضعیفة.

ثمّ یتحدث القرآن عن مواقف المشرکین و الکفار من آیات القرآن فیقول:

وَ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا کانُوا عَنْهُ مُعْرِضِینَ

و التعبیر ب «ذکر» هو إشارة إلی أن القرآن موقظ و منبّه، و هذا الأمر متحقّق فی جمیع آیاته و سوره! إلّا أن هذه الجماعة معرضة عن ذکره و تنبیهه، فهی تفرّ عن کل ذلک! ...

و التعبیر ب «الرحمن» إشارة إلی أن نزول هذه الآیات من قبل اللّه إنّما هو من رحمته العامّة، إذ تدعو جمیع الناس دون استثناء إلی السعادة و الکمال! کما أن هذا التعبیر- أیضا- ربّما کان لتحریک الإحساس بالشکر للّه، فهذا الذکر من اللّه الذی عمّت نعمه وجودکم من القرن إلی القدم، فکیف یمکن الإعراض عن ولی النعمة؟! و إذا کان سبحانه لا یتعجل بإنزال العذاب علیکم، فذلک من رحمته أیضا ...

و التعبیر ب «محدث»- أی جدید- إشارة إلی أن آیات القرآن تنزل واحدة تلو الأخری، و کلّ منها ذو محتوی جدید، و لکن ما جدوی ذلک، فهم مع کل هذه الحقائق الجدیدة- معرضون ... فکأنّهم اتّفقوا علی خرافات السلف و تعلّقوا بها- فهم لا یرضون أن یودّعوا ضلالهم و جهلهم و خرافاتهم!! فأساسا مهما کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۰

الجدید موجبا للهدایة، فإنّ الجهلة و المتعصبین یخالفون الحق و لا یذعنون له ...

و نقرأ فی سورة «المؤمنون» الآیة ۶۸ منه إذ تقول: أَ فَلَمْ یَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ یَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِینَ فبذریعة ما لم یأت آباءهم تجدهم متعصبین مخالفین! ثمّ یضیف القرآن: أنّ هؤلاء لا یقفون عند حدود الإعراض، بل یتجاوزون إلی مرحلة التکذیب، بل إلی أشدّ منه لیصلوا إلی الاستهزاء به، فیقول: فَقَدْ کَذَّبُوا فَسَیَأْتِیهِمْ أَنْبؤُا ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ

«الأنباء»: جمع «انبأ»، أی الخبر المهمّ، و المراد من هذه الکلمة ما سیصیبهم من العقاب الشدید الدنیوی و الأخروی. علی أنّ بعض المفسّرین کالشیخ الطوسی فی «التبیان»، قال بأن هذا العقاب منحصر العقاب الآخرة. إلّا أن أغلب المفسّرین یعتقدون بشموله لعقاب الدارین، و هو- فی الواقع- کذلک! ... لأنّ الآیة مطلقة.

و بغض النظر عن کل ذلک فإنّ للکفر و الإنکار انعکاسات واسعة و شاملة فی جمیع حیاة الإنسان ... فکیف یمکن السکوت عنها! و

التحقیق فی هذه الآیة و الآیة السابقة یکشف أن الإنسان حین ینحرف عن الجادة المستقیمة فإنّه یفصل نفسه عن الحق- بشکل مستمر-.

ففی المرحلة الأولی یعرض عن الحق و یصرف بوجهه عنه ... ثمّ بالتدریج یبلغ مرحلة الإنکار و التکذیب .. ثمّ یتجاوز هذه المرحلة إلی السخریة و الاستهزاء ... و نتیجة لذلک ینال عقاب اللّه و جزاءه «و قد ورد نظیر هذا التعبیر فی الآیتین ۴ و ۵ من سورة الأنعام».

ملاحظتان

۱- ورد فی بعض خطب أمیر المؤمنین «فی نهج البلاغة» المعروفة بالخطبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۱

القاصعة إشارة إلی هذه الحقیقة، و هی أن اللّه أرسل الأنبیاء علی شاکلة یستطیع معها أن یؤمن الناس بدعوتهم إلی اللّه دون إکراه، بحیث لو لم یکونوا کذلک لکان الإیمان إجباریا، إذ

یقول: «و لو أراد اللّه سبحانه لأنبیائه حیث بعثهم أن یفتح لهم کنوز الذهبان و معادن العقیان و مغارس الجنان و أن یحشر معهم طیور السماء و وحوش الأرضین لفعل ... و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء ...»[۲۵۴].

و

ورد فی کتاب الکافی ذیل الآیة محل البحث «لو أنزل اللّه من السماء آیة فظلّت أعناقهم لها خاضعین. و لو فعل لسقط البلوی عن الناس أجمعین».[۲۵۵]

و ممّا یسترعی النظر أنه

ورد فی بعض الکتب المعروفة کالإرشاد للشیخ المفید، و روضة الکافی، و کمال الدین للشیخ الصدوق، و تفسیر القمی، أن الإمام الصادق علیه السّلام قال فی تفسیر الآیة: إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَیْهِمْ مِنَ السَّماءِ آیَةً ... قال:

«تخضع رقابهم- یعنی بنی أمیة- و هی الصیحة فی السماء باسم صاحب الأمر- صلوات اللّه علیه-».[۲۵۶]

و واضح أنّ المراد من هذه الرّوایات هو بیان مصداق من هذا المفهوم الواسع للآیة، إذ ستخضع أخیرا جمیع الحکومات الباغیة و المتجبرة و الظالمة التی تواصل السیر علی منهج حکومة بنی أمیة، و ذلک عند ما یظهر المصلح المهدی علیه السّلام إمام الحکومة العالمیة، فتستسلم إذعانا لقدرته و حمایة اللّه له و تنحنی له إجلالا.

۲- أحد البحوث التی کثر الکلام فیها و التعلیق علیها فی القرون الأولی- أو الصدر الأوّل- للإسلام هو البحث أو الکلام عن کون کلام اللّه قدیما أو حادثا؟! و قد انجرّ هذا الکلام إلی کتب التّفسیر أیضا، و قد استدل جماعة من المفسّرین بالتعبیر الوارد فی الآیة آنفا «محدث» علی کون القرآن حادثا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۲

إلّا أنّه- کما أشرنا من قبل أیضا- فإنّ أساس هذا البحث لا یمکن أن یکون منطقیّا بأیّ وجه، و یبدو أنّ ذوی السلطة أو أولی الأمر فی ذلک الزمان من بنی أمیة و بنی العباس، کان لهم الأثر الکبیر فی هذه البحوث المضلة لیحرفوا أفکار المسلمین عن المسائل المهمّة و الجدیّة، و لیشغلوا علماء المسلمین بهذه المسائل حفاظا علی حکومتهم و سلطتهم.

لأنّه إذا کان المراد من کلام اللّه هو محتوی القرآن، فهو من الأزل فی علم اللّه و اللّه خبیر بکل ما فیه، و إذا کان المراد منه نزول الوحی و کلمات القرآن و حروفه، فذلک حادث قطعا و لا خلاف فیه.

فبناء علی ذلک فالقرآن تارة هو قدیم بذلک النحو، و أخری هو حادث قطعا بهذه الصورة، فعلی المجتمع الإسلامی أن یکون فطنا و لا سیما العلماء، فلا یبتلوا بالبحوث المضلة الانحرافیة المبتدعة من قبل الجبابرة و أعداء الإسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۳

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۷ الى ۹]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (۷) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۹)

التّفسير

الزوجية فی النباتات:

كـان الكلام فی الآيات المتقدمة عن إعراض الكفار عن الآيات التشريعية (أی القرآن المجيـد)، أمّا فی الآيات محل البحث فالكلام عن الآيـات التكوينيـة و دلائـل اللّه فی خلقه و ما أوجـده سـبحانه، فالكفار لم يصـمّوا آذانهم و يوصـدوا أبواب قلوبهم بوجه أحاديث النّبی و كلماته فحسب، بل كانوا يحرمون أعينهم رؤية دلائل الحق المنتشرة حولهم.

فتقول الآية الأولى من هذه الآيات: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [۲۵۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۴

و التعبير ب «زوج» فی شـأن النباتـات يسـتحق الدقّـة ... فبـالرغم من أنّ أغلب المفسّـرين قـالوا بأن الزوج يعنی النوع أو الصـنف، و أن الأزواج معناها الأصـناف و الأنواع، إلّا أنّه ما يمنع أن نفسـر معنی الزوج بما يتبادر إلی الـذهن من المعنی المعروف و هو الإشارة إلی الزوجيّة فی النباتـات؟! كان الناس فيما مضـی يـدركون أن بعض النباتات لها جنسان (ذكر و أنثی) و كانوا يسـتعينون بتلقيـح النباتات لتثمر ... و كانت هذه المسألة معروفة و واضحة تماما فی النخيل ...

إلّا أنّ العالم السويـدی و الخبير بعلم النبات «لينه» وفّق لأول مرّة فی أواسط القرن الثامن عشـر الميلادی لاكتشاف هـذه الحقيقة، و هی أن الزوجية فی عالم النباتات قانون عام تقريبا، و النباتات كسائر الحيوانات تحمل عن طريق تلقيح الذكر لأنثاه ثمّ تقذف بالثمار ...

غير أنّ القرآن المجيـد أشار إلی هـذه الظاهرة «الزوجيـة فی النبات» فی آيات مختلفـة مرارا قبل هـذا العالم السويـدی بقرون، كما هی الحال فی الآيات محل البحث. و فی الآيـة الرّابعة من سورة الرعد، و الآية العاشـرة من سورة لقمان، و الآية السابعة من سورة ق. و هذه الإشارة بنفسـها إحـدی معاجز القرآن العلميـة! و كلمـة «كريم» فی الأصل تعنی كل شـیء قيّم و ثمين، فقد تسـتعمل فی الإنسان، و قد تستعمل فی النبات، و قد تسـتعمل فی الكتاب [أی الرسالة المعهودة بين المتراسـلين أيضا ... كما هی الحال فی شأن حديث ملكة سبأ عن كتاب سـليمان إليها إذا قالت: إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ [۲۵۸] و المراد من كَمْ أَنْبَتْنـا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هو النباتات المهمّة ذوات الفائدة، و طبعا ما من نبات إلّا و له فائدة أو فوائد جمّة، و مع تقدم العلم تتجلی هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۵

الحقيقة يوما بعد يوم.

و تأتی الآية التالية لتقول مؤكّدة بصراحة: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً.

أجل إن الالتفات إلی هـذه الحقيقة، و هی أن هذا التراب الذی لا قيمة له ظاهرا، بما فيه من تركيب معين هو مبدأ ظهور أنواع الأزهار الجميلـة، و الأشـجار المثمرة الظليلـة، و الفواكه ذات الألوان الزاهية، و ما فيها من خواص مختلفة. و هو- أی التراب- يبيّن منتهی قدرة

اللّه، إلّا أن أولئك الـذين طبع على قلوبهم فى غفلة و جهل إلى درجة يرون معها آيات اللّه بأعينهم، و مع ذلك يجحدونها و يكفرون بها، و يترسخ فى قلوبهم العناد و الجدل! لذلك فإنّ الآية هذه تعقّب قائلة: وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

أى إنّ عدم الإيمان لدى أولئك أمسى كالصفة الراسخة فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات، لأنّ قابليّة المحل من شرائط التأثير الأصيلة أيضا كما نقرأ قوله تعالى: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [۲۵۹] و فى آخر آية من الآيات محل البحث يرد الخطاب فى تعبير يدلّ على التهديد و الترهيب و التشويق و الترغيب، فيقول سبحانه: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ...

«العزيز» معناه المقتدر الذى لا يغلب و لا يقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمى، كما أنه قادر على إهلاك المكذبين و تدميرهم .. إلّا أنّه مع كل ذلك رحيم، و رحمته وسعت كل شيء، و يكفى الرجوع بإخلاص إليه فى لحظة قصيرة! لتشمل رحمته من أناب إليه و تاب، فيعفو عنه بلطفه و رحمته! و لعل تقديم كلمة «العزيز» على «الرحيم» لأنّه لو تقدمت كلمة الرحيم على العزيز لأشعرت الإحساس بالضعف، إلّا أنّه قدم سبحانه الوصف بالعزيز ليعلم أنّه و هو فى منتهى قدرته ذو رحمة واسعة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۶

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰ الى ۱۵]

اشارة

وَ إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ (۱۱) قالَ رَبِّ إِنِّى أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۱۲) وَ يَضِيقُ صَدْرِى وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِى فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (۱۳) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۱۴)

قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (۱۵)

التّفسير

بداية رسالة موسى:

قلنا إنّ فى هذه السورة بيانا لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامّة المسلمين، و لا سيما المسلمين الأوائل فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ...

فأوّل قصّة تتناولها هذه السورة هى قصة موسى عليه السّلام، و تشرح جوانب مختلفة من حياته و مواجهته لفرعون و اتباعه حتى هلاكهم بالغرق فى النيل! و قد جاء الكلام عن بنى إسرائيل و موسى و فرعون و قومه حتى الآن فى سور شتى «كالبقرة و المائدة و الأعراف و يونس و الإسراء و طه» كما ورد الكلام فى هذا الشأن أيضا فى بعض السور التالية! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۷

و هذه البحوث و إن تكررت- بحسب الظاهر- إلّا أن الإمعان أو التدقيق فيها يكشف عن أن كلّ بحث منها يتناول جانبا خاصّا من هذه القصّة ذات المحتوى العزيز، و يعوّل على هدف معين! ...

مثلا .. حين نزلت الآيات- محل البحث- كان المسلمون قلّة ضعافا و كان أعداؤهم كثرة أولى قوّة و بأس شديد، بحيث لا يمكن الموازنة بين الفرقتين، فكان ينبغى أن يبيّن اللّه قصص الأمم السابقة المشابهة لحال هؤلاء، ليعلم المسلمون أن هذه القوّة التى يمتلكها الأعداء و هذا الضعف الظاهرى الذى يكتنف المسلمين لن يؤدى أيّ منهما بنفسه إلى اندحار المسلمين، و لتزداد معنويات المسلمين و تثبت استقامتهم و مقاومتهم ...

و ممّا يلفت النظر تكرار عبارة: وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ بعد تمام الحديث عن كل نبى ... و هو التعبير ذاته الوارد فى بداية هذه السورة فى شأن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. و هذا الاتساق فى التعبير شاهد حيّ على أن ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنّما هو للظروف المتشابهة التى اكتنفت المسلمين من حيث الحالة النفسية و الاجتماعية كما كان عليها الأنبياء السابقون ...

فتقول الآيتان الأوليان من الآيات محل البحث وَ إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ و يتركون ظلمهم و فسادهم و عنادهم للحق.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الصفة الوحيدة المذكورة عن قوم فرعون هنا هى الظلم، و من الواضح أن الظلم له معنى جامع واسع و من مصاديقه الشرك كما تقول الآية (۱۳) من سورة لقمان إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ...

كما أنّ استعباد بنى إسرائيل و استثمارهم و ما قارنهما من زجر و تعذيب من المصاديق الأخرى أيضا، ثمّ بعد هذا كله فإن قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفة، و هكذا يمكن تلخيص أهداف دعوة الأنبياء جميعهم بمبارزة الظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۸

بجميع أبعاده! ...

و يحكى القرآن مقالة موسى الكليم لربّ العزة و ما طلبه منه من مزيد القوة و العون لحمل الرسالة العظمى، فيقول فى الآية التالية: قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ و أخشى أن أطرد قبل أن أكمل أداء رسالتى بما ألاقيه من صخب و تكذيب فلا يتحقق الهدف المنشود ...

و كان لموسى الحق فى كلامه هذا تماما، لأنّ فرعون و أتباعه و حاشيته كانوا مهيمنين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم و لو برأيه، و إذا أحسّوا بأدنى نغمة مخالفة لأى شخص بادروا إلى الإجهاز عليه فورا ..

و إضافة إلى ذلك فان صدرى لا يتّسع لاستيعاب هذه الرسالة الالهية:

وَ يَضِيقُ صَدْرِي

ثمّ بعد هذا كله فلسانى قد يعجز عن بيانها: وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي ...

فلذلك فإنى أطلب أن تشدّ أزرى بأخى فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ [۲۶۰] لنؤدى رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا فى مواجهة الظالمين و المستكبرين.

و بغض النظر عن كلّ ذلك فإنّ قوم فرعون يطاردوننى وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ كما يعتقدون لأنّى قتلت واحدا منهم- حين كان يتنازع مع إسرائيلى مظلوم- بضربة حاسمة! و أنا قلق من ذلك فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

و فى الحقيقة إنّ موسى عليه السّلام كان يرى أربع مشاكل كبرى فى طريقه، فكان يطلب من اللّه حلّها لأداء رسالته و هذه المشاكل هى ...

مشكلة التكذيب.

مشكلة ضيق الصدر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۹

مشكلة عدم الفصاحة الكافية.

و مشكلة القصاص! و يتّضح ضمنا أنّ موسى لم يكن خائفا على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف و المقصد للأسباب آنفة الذكر، لذلك فقد كان يطلب من اللّه سبحانه مزيد القوّة لهذه المواجهة! ...

طلبات موسى عليه السّلام من اللّه فى هذا الصدد خير شاهد على هذه الحقيقة، إذ طلب أن يشرح صدره و حلّ عقدة لسانه و أن يرسل

إلى هـارون للمعاضـدة فى التبليغ كمـا جاء ذلك فى سورة طه بصورة أكثر تفصيلا إذ قال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً.

فاستجاب اللّه طلب موسى و دعوة الصادقة و قالَ كَلَّا فلن يستطيعوا قتلك، أو كلّا لن يضيق صدرك و ينعقد لسانك، و قد أجبنا دعوتك أيضا فى شأن أخيك، فهو مأمور معك فى هذه المهمّة: فَاذْهَبا بِآياتِنا لتدعوا فرعون و قومه إلى توحيد اللّه.

و لا تظنّا بأنّ اللّه بعيد عنكم أو لا يسمع ما تقولان إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ...

فأنا معكما و لن أترككما أبدا، و سأنصركما فى الحوادث الصعبة، فاذهبا مطمئنى الخاطر، و امضيا فى هذا السبيل بأقدام ثابتة و عزيمة راسخة! ...

و هكذا فإنّ اللّه سبحانه أعطى لموسى الاطمئنان الكافى فى جمل ثلاث و حقّق له طلبه ... إذ طمأنه بقوله: كَلَّا على أنّ قوم فرعون لن يقتلوه و لن يستطيعوا ذلك ... و لن تحدث له مشكلة بسبب ضيق صدره أو التلكؤ فى لسانه و بقوله: فَاذْهَبا بِآياتِنا أرسل أخاه ليعينه على أمره. و بقوله: إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ وعدهما أنّهما سيكونان أبدا تحت ظل خيمته و حمايته! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۰

و ممّا ينبغى الالتفات إليه ورود الضمير فى آخر الجملة بصيغة الجمع فى قوله: إِنَّا مَعَكُمْ و لعل ذلك إشارة إلى أن اللّه حاضر مع موسى و هارون و من يواجهانهما من الطغاة و الفراعنة فى جميع المحاورات، و يسمع ما يدور بينهم جميعا، فينصر موسى و أخاه هارون على أولئك الطغاة! ...

و ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أن كلمة «مع» دالة على النصرة و الحماية فلا تشمل قوم فرعون، غير سديد، بل إن «مع» تعنى حضور الخالق الدائم فى جميع الميادين و المحاورات حتى مع المذنبين، حتى مع المذنبين، و حتى مع الموجودات التى لا روح فيها، فهو فى كل مكان و لا يخلو منه مكان.

و التعبير ب «مستمعون»، أى الإصغاء المقرون بالتوجه هو تأكيد على هذه الحقيقة أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۱

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۶ الى ۲۲]

اشارة

فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۷) قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (۱۹) قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (۲۰)
فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۲۱) وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۲۲)

التّفسير

مواجهة فرعون مواجهة منطقية و قاطعة:

انتهت فى الآيات المتقدمة المرحلة الأولى لمأمورية «موسى عليه السّلام» و هى موضوع الوحى «و الرسالة» و طلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير! ...

و تعقیبا علی المرحلة الآنفة تأتی الآیات- محل البحث- لتمثل المرحلة الثّانیة، أی مواجهة موسی و هارون لفرعون، و الکلام المصیری الذی جری بینهم! تقول الآیة الأولی من هذه الآیات مقدمة لهذه المرحلة: فَأْتِیا فِرْعَوْنَ فَقُولا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۲

إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِینَ

و جملة فَأْتِیا فِرْعَوْنَ تکشف عن أنّهما ینبغی أن یواجها فرعون نفسه بأیّة قیمة أو أیّ ثمن کان ...

و التعبیر ب «رسول» بصیغة الإفراد مع أنّهما «موسی و هارون» نبیّان مرسلان، یشیر إلی وحدة دعوتهما، فکأنّهما روحان فی بدن واحد لهما خطّة واحدة و هدف واحد.[۲۶۱] و ضمن دعوتکما لفرعون بأنّکما رسولا ربّ العالمین اطلبا منه أن یرسل بنی إسرائیل و یرفع یده عنهم: أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِی إِسْرائِیلَ

و بدیهی أن المراد من الآیة أن یرفع فرعون عن بنی إسرائیل نیر العبودیّة و القهر و الاستعباد، لیتحرروا و یأتوا مع موسی و هارون، و لیس المراد هو إرسال بنی إسرائیل معهما فحسب.

و هنا یلتفت فرعون فیتکلم بکلمات مدروسة و ممزوجة بالخبث و الشیطنة لینفی الرسالة و یقول لموسی: أَ لَمْ نُرَبِّکَ فِینا وَلِیداً ....

إذ التقطناک من أمواج النیل الهادرة فأنقذناک من الهلاک، و هیّأنا لک مرضعة، و عفونا عن الحکم الصادر فی قتل أبناء بنی إسرائیل الذی کنت مشمولا به، فتربّیت فی محیط هادئ آمن منعّما ... و بعد أن تربیت فی بیتنا عشت زمانا وَ لَبِثْتَ فِینا مِنْ عُمُرِکَ سِنِینَ

ثمّ توجه إلی موسی و ذکّره بموضوع قتل القبطی فقال: وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۳

إشارة إلی أنه کیف یمکنک أن تکون نبیّا و لدیک مثل هذه السابقة؟! ثمّ بعد هذا کله: وَ أَنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ (أی بنعمة فرعون) فلطالما جلست علی مائدتنا و تناولت من زادنا فکیف تکون نبیّا و أنت کافر بنعمتی؟! و فی الحقیقة، کان فرعون یرید أن یجعل موسی محکوما بهذه التهم المواجهة إلیه، و بهذا المنطق الاستدراجی.

و المراد من قصّة القتل المذکورة هنا هو ما جاء فی سورة القصص «الآیة ۱۵ منها» حیث جاء فیها أن موسی وجد رجلین یقتتلان هذا من شیعته و هذا من عدوّه، فاستغاثة الذی هو من شیعته علی الذی من عدوّه فوکزه موسی فقضی علیه انتصارا لشیعته! ...

و عند ما سمع موسی کلمات فرعون الممزوجة بالخبث و الشیطنة أجاب علی إشکالات فرعون الثلاثة، إلّا أنه قدّم الإجابة علی الإشکال الثّانی نظرا لأهمیته.

(أو أنه أساسا لم یجد الإشکال الأوّل یستحق الإجابة، لأن تربیة الشخص لا تکون دلیلا علی عدم جواز هدایة مربّیة إن کان المربی ضالا، لیسلک سبیل الرشاد).

و علی کل حال أجابه موسی علیه السّلام: قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّینَ

و هنا کلام طویل بن المفسّرین علی المراد من کلمة «الضالین» الواردة فی تعبیر موسی علیه السّلام ... لأنّه کما نعلم لا مجال لأن تکون للنبیّ سابقة سوء حتی قبل مرحلة النبوّة .. لأنّها تزلزل موقعه فی أفکار عامّة الناس، و یبقی الهدف من بعثته ناقصا غیر تام، و لذلک فإنّ العصمة فی الأنبیاء لازمة حتی قبل زمان نبوتهم! ... هذا من جهة ...

و من جهة أخری ینبغی أن یکون هذا الکلام جوابا مسکتا و مفحما لفرعون! لذلک فإن کثیرا من المفسّرین یعتقدون أن المراد من «الضال» هنا هو کونه أخطأ فی الموضوع، أی أن موسی کانت ضربته للرجل القبطی لا بقصد القتل، بل لکی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۴

یحمی المظلوم و یدافع عنه، و لم یدر أنّه ستؤول ضربته إلی الإجهاز علیه و قتله، فبناء علی ذلک فإنّ الضالّ هنا معناه «الغافل» و المراد منه الغافل عن العاقبة التی أدّی عمله إلیها.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من ذلك أنّه لم يكن أيّ خطأ في قتل القبطي الظالم لأنّه كان مستحقا، بل إنّ موسى عليه السّلام يريد أن يقول: إنّه لم يدر أن عاقبة عمله ستكون على هذا الوجه، و أنه لا يستطيع البقاء في مصر و عليه أن يخرج بعيدا عن وطنه، و أن يتأخر منهجه «في أداء رسالته».

و لكن الظاهر أنّ هذا لا يعدّ جوابا لفرعون، بل هو موضوع كان لموسى أن يبيّنه لأتباعه و من حوله من محبّيه! لا أنه ردّ على إشكال فرعون! و التّفسير الثّالث الذي من المحتمل أن يكون مناسبا أكثر لمقام موسى عليه السّلام- من جهات متعددة- و يتلاءم و عظمة كيانه، أن موسى عليه السّلام استخدم التورية في تعبيره جوابا على كلام فرعون، فقال كلاما ظاهره أنّه لم يعرف طريق الحق في ذلك الزمان ... لكنّ اللّه عرّفه إياه بعدئذ، و وهب له حكما- فجعله من المرسلين، إلّا أنه كان يقصد في الباطن أنه لم يدر أن عمله حينئذ سيؤدي إلى هذه النتيجة! من الجهد و العناء و اضطراب البال- مع أنّ أصل عمله كان حقا و مطابقا لقانون العدالة «أو أنه يوم كانت هذه الحادثة قد وقعت كان موسى عليه السّلام قد ضلّ طريقه فصادف أمامه هذه القضيّة» ...

و نحن نعرف أن «التورية» هي أن يقول الإنسان كلاما باطنه حق، إلّا أن الطرف الآخر يفهم من ظاهره شيئا آخر، و هذا الأمر يقع في موارد خاصّة يبتلي الإنسان فيها بالحرج أو الضيق، و لا يريد أن يكذب، و هو في الوقت ذاته على ظاهر كلامه ...[۲۶۲]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۵

ثمّ يضيف موسى قائلا: فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ و هناك اختلاف بين كلمات المفسّرين في المراد من «الحكم» في هذه الآية، أهو مقام النبوة، أم مقام العلم، أم سواهما؟! لكن مع ملاحظة ذيل الآية نفسها المذكور فيها مقام الرسالة بإزاء الحكم يتّضح أنّه غير الرسالة و النبوّة! و الشاهد الآخر على هذا الموضوع الآية (۷۹) من سورة آل عمران إذ قال:

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ....

إن كلمة «الحكم» تعني في اللغة: المنع من أجل الإصلاح، هذا هو الأصل في ما وضعت له، و لذا سمّوا لجام الحيوان «حكمة» على وزن (صدقة) ثمّ أطلقت هذه الكلمة على ما يطابق الحكمة، و من هنا سمى العقل و العلم حكما أيضا لهذا التناسب، و قد يقال: إنّه يستفاد من الآية (۱۴) من سورة القصص أن موسى عليه السّلام كان قد بلغ مقام الحكم و العلم قبل هذه القضية إذ تقول: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً.

فنجيب على ذلك أن للعلم و الحكمة مراحل مختلفة، فكان موسى عليه السّلام قد بلغ مرحلة منهما من قبل، و حين بلغ مقام النبوّة أدرك المرحلة الأكمل! ...

ثمّ يردّ موسى عليه السّلام على كلام فرعون الذي يمنّ به عليه في أنّه ربّاه و تعهده منذ طفولته و صباه، معترضا عليه بلحن قاطع فيقول: وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ

صحيح أنّ يد الحوادث ساقتني- و أنا طفل رضيع- إلى قصرك، لأتربّى في كنفك، و كان في ذلك بيان لقدرة اللّه، لكن ترى كيف جئت إليك؟ و لم لا تربيت في أحضان والديّ و في بيتهما؟! ألم يكن ذلك لأنّك عبّدت بني إسرائيل و صفّدت أيديهم بنير الأسر! حتى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۶

أمرت أن يقتل الأطفال الذكور و تستحيا النساء للخدمة؟! فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سببا لأن تضعني أمي في الصندوق حفاظا عليّ، و تلقيني في أمواج النيل، و كانت مشيئة اللّه أن تسوق الأمواج «زورقي» الصغير حتى توصله إلى قصرك ... أجل إن ظلمك الفاحش هو الذي جعلني رهين منّتك و حرمني من بيت أبي الكريم، و صيرني في قصرك الملوّث! ...

و بهذا التّفسير يتّضح ارتباط جواب موسى بسؤال فرعون تماما.

كما يحتمل فى تفسير هذه الآية أنّ مراد موسى عليه السّلام هو الاعتراض على فرعون بأنّه لو كانت تربيتى عندك نعمة من قبلك، فهى إزاء ظلمك لبنى إسرائيل بمثابة القطرة فى مقابل البحر، فأية نعمة لك علىّ مع ما عندك من الظلم و الجور على الناس؟! و التّفسير الثّالث لجواب موسى لفرعون، هو أنّه: لو تربيت فى قصرك و تمتعت بنعمك المختلفة، فلا تنس بناه قصرك الأوائل فهم أرقّاء من قومى، و الموجودون لجميع تلك النعم هم أسراؤك من بنى إسرائيل، فكيف تمنّ علىّ بجهود قومى و أتعابهم؟! و هذه التفاسير الثلاثة لا تتنافى جميعا، و إن كان التّفسير الأوّل من بعض الجهات أكثر وضوحا! و يستفاد من عبارة: «من المرسلين» ضمنا بأنّنى لست الوحيد المرسل من قبل اللّه. فمن قبلى جاء رسل عدّة، و أنا واحد منهم، إلّا أن فرعون نسيهم أو تناساهم!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۲۳ الى ۲۹]

اشارة

قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (۲۳) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ (۲۵) قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۲۶) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷)
قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (۲۹)

التّفسير

الاتهام بالجنون و التهديد بالسجن:

حين واجه موسى عليه السّلام فرعون بلهجة شديدة: و أجابه بضرس قاطع، و أفحم فرعون فى ردّه، غيّر فرعون مجرى كلامه، و سأل موسى عن معنى كلامه أنّه رسول ربّ العالمين، و قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ ..

و من المستبعد جدّا أن يكون فرعون قد سأل موسى عليه السّلام هذا السؤال لفهم الحقيقة و معرفة الموضوع، بل يبدو أنّه سأله متجاهلا و مستهزئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۸

إلّا أنّ موسى- على كل حال- لم يجد بدا كسائر الباحثين الواعين اليقظين، أن يجيب على فرعون بجدّ ... و حيث أن ذات اللّه سبحانه بعيدة عن متناول أفكار الناس، فإنّه أخذ يحدثه عن آيات اللّه فى الآفاق و آثاره الحيّة إذ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

فالسماوات بما فيهن من عظمة، و الأرض على سعتها ... و الموجودات المتعددة بألوانها بحيث لا تساوى أنت و قصرك بإزائها إلّا ذرّة فى مقابل المجرّة! كلّها من خلق ربّى، فمثل هذا الخالق المدبّر لهذا العالم جدير بالعبادة، لا الموجود الضعيف التافه مثلك! ...

و ينبغى الالتفات إلى أن عبدة الأوثان كانوا يعتقدون أنّ لكلّ موجود فى هذا العالم ربّا، و كانوا يعدّون العالم تركيبا من نظم متفرقة، إلّا أن كلام موسى عليه السّلام يشير إلى أن هذا النظام الواحد المتحكم على هذه المجموعة فى عالم الوجود دليل على أن له ربّا واحدا ...

و جملة إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لعلها إشارة إلى أنّ موسى عليه السّلام يريد أن يفهم فرعون و من حوله- و لو تلويحا- أنه يعرف أن الهدف من هذا السؤال ليس إدراك الحقيقة ... لأنّه لو أراد إدراك الحقيقة و البحث عنها لكان استدلاله كافيا ... فكأنّه يقول لهم: افتحوا

أعينكم قليلا- و تفكروا ساعة فى السماوات و الأرض بما فيهما من الآثار و عجائب المخلوقات ... لتطلعوا على معالمها و تصححوا نظرتكم نحو الكون! إلّا أن فرعون لم يتيقظ من نومة الغافلين بهذا البيان المتين المحكم لهذا المعلم الكبير الرّبانى السماوى ... فعاد لمواصلة الاستهزاء و السخرية، و اتبع طريقة المستكبرين القديمة بغرور، و قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ

و معلوم من هم الذين حول فرعون؟ فهم أشخاص من نسيجه و جماعة من أصحاب القوّة و الظلم و القهر و المال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۹

يقول ابن عباس: كان الذين حول فرعون هناك خمسمائة نفر، و هم يعدّون من خواص قومه.[۲۶۳] و كان الهدف من كلام فرعون أن لا يترك كلام موسى المنطقى يؤثر فى القلوب المظلمة لأولئك الرهط ... فعدّه كلاما بلا محتوى و غير مفهوم.

إلّا أن موسى عليه السّلام عاد مرّة أخرى إلى كلامه المنطقى دون أى خوف و لا وهن و لا إيهام، فواصل كلامه و قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

إن موسى عليه السّلام بدأ فى المرحلة الأولى ب «الآيات الآفاقية»، و فى المرحلة الثّانية أشار إلى «الآيات الانفسية»، و أشار إلى أسرار الخلق فى وجود الناس أنفسهم و آثار ربوبية اللّه فى أرواح البشر و أجسامهم، ليفكر هؤلاء المغرورون على الأقلّ فى أنفسهم و يحاولوا التعرّف عليها و بالتالى معرفة من خلقها.

إلّا أن فرعون تمادى فى حماقته، و تجاوز مرحلة الاستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، ف قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ...

و ذلك ما اعتاده الجبابرة و المستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الرّبانيين! ...

و ممّا يستجلب النظر أن هذا الضالّ المغرور لم يكن مستعدّا حتى لأنّ يقول:

«إنّ رسولنا الذى أرسل إلينا»، بل قال: «إنّ رسولكم الذى أرسل إليكم»، لأن التعبير برسولكم- أيضا- له طابع الاستهزاء المقترن بالنظرة الاستعلائية ... يعنى:

إننى أكبر من أن يدعونى رسول ... و كان الهدف من اتهامه موسى بالجنون هو إحباط و إفشال منطقه القويّ المتين لئلا يترك أثرا فى أفكار الحاضرين.

إلّا أن هذه التهمة لم تؤثر فى روح موسى عليه السّلام و معنوياته العالية، و واصل بيان آثار اللّه فى عالم الإيجاد فى الآفاق و الأنفس، مبينا خط التوحيد الأصيل ف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۶۰

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

فإذا كنت- يا فرعون- تحكم حكما ظاهريّا فى أرض محدودة تدعى مصر، فإنّ حكومة ربّى الواقعية تسع المشرق و المغرب و ما بينهما جميعا، و آثاره تشرق فى وجوه الموجودات! ... و أساسا فإنّ هذه الشمس فى شروقها و غروبها و ما يتحكم فيها من نظام، كل ذلك بنفسه آية له و دليل على عظمته ... إلّا أنّ العيب كامن فيكم، لأنّكم لا تعقلون، و لم تعتادوا التفكير (و ينبغى الالتفات إلى أن جملة إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هى إشارة إلى أنه لو كنتم تتفكرون و تستعملون العقل فى ماضى حياتكم و حاضرها لتوصلتم إلى إدراك هذه المسألة).

و فى الواقع إن موسى عليه السّلام أجاب على اتهامهم إياه بالجنون بأسلوب بليغ بأنّه ليس مجنونا، و أن المجنون هو من لا يرى كل هذه الآثار و دلائل وجود الخالق، و العجيب أنه مع وجود الآثار على باب الدار و الجدار، فانه يوجد من لا يفكر فى هذه الآثار!».

و صحيح أنّ موسى عليه السّلام أشار بادئ الأمر إلى تدبير أمر السماوات و الأرض، إلّا أنه حيث أن السماء عالية جدا، و أن الأرض ذات أسرار غريبة، فقد وضع موسى عليه السّلام أخيرا إصبعه على نقطة لا يمكن لأحد إنكارها، و يواجهها الإنسان كلّ يوم، و هى

نظام طلوع الشمس و غروبها و ما فيها من منهج دقيق ... و ليس لأحد من البشر أن يدعى أنّ بيده نظامها أبدا ...

و التعبير ب «ما بينهما» إشارة إلى الوحدة و الارتباط فى ما بين المشرق و المغرب، و هكذا كان التعبير فى شأن السماوات و الأرض.

قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا.

و يبيّن التعبير رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أيضا ارتباط النسل و الوحدة فيه ...

غير أن هذا المنطق المتين الذى لا يتزعزع غاظ فرعون بشدة، فالتجأ إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۱

استعمال «حربة» يفزع إليها المستكبرون عند الاندحار، فجابه موسى و قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ

فأنا لا أعرف كلماتك، إنّما أعرف وجود إله و معبود كبير و هو أنا ... و من قال بغيره فهو محكوم بالإعدام أو السجن! ...

و يعتقد بعض المفسّرين أن الألف و اللام فى «من المسجونين» هما للعهد، و هى إشارة إلى سجن خاص من ألقى فيه يبقى سجينا حتى تخرج جنازته.[۲۶۴] و فى الواقع كان فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الارهابى، لأن مواصلة موسى عليه السّلام بمثل هذه الكلمات ستكون سببا فى إيقاظ الناس، و ليس أخطر على الجبابرة من شىء كإيقاظ الناس! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۲

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۳۰ الى ۳۷]

اشارة

قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (۳۰) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۱) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (۳۲) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (۳۳) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (۳۴)

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (۳۵) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۳۶) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (۳۷)

التّفسير

بلادكم فى خطر:

رأينا فى الآيات المتقدمة كيف حافظ موسى عليه السّلام على تفوّقه- من حيث المنطق- على فرعون، و بيّن للحاضرين إلى أيّة درجة يعوّل مبدؤه على منطقه و عقله، و أن ادعاء فرعون واه و ضعيف، فتارة يسخر من موسى، و تارة يرميه بالجنون، و أخيرا يلجأ إلى التهديد بالسجن و الإعدام! ...

و هنا يقلب موسى عليه السّلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقة أخرى يخذل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۳

فيها فرعون و يعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوّة أيضا، القوّة الإلهية التى تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدّيا و قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ...

و هنا وجد فرعون نفسه فى طريق مغلق مسدود ... لأن موسى عليه السّلام أشار إلى خطّة جديدة! و لفت انظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتدّ بكلامه، لاعترض عليه الجميع و لقالوا: دعه ليرينا عمله المهم، فلو كان قادرا على ذلك فلنرى، و نعلم حينئذ

أنّه لا يمكن الوقوف امامه، و إلّا فستنكشف مهزلته!! و على كل حال ليس من اليسير تجاوز كلام موسى ببساطة ...

فاضطر فرعون إلى الاستجابة لاقتراح موسى عليه السّلام و قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ «بأمر اللّه».

ثمّ أظهر إعجازا آخر حيث أدخل يده فى جيبه (أعلى الثوب) و أخرجها فإذا هى بيضاء منيرة: وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ

فى الحقيقة إن هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، و الأخرى مظهر الأمل، فالأولى تناسب مقام الإنذار، و الثّانية للبشارة! و الأولى تبيّن عذاب اللّه، و الأخرى نور و آية رحمة! لأنّ المعجزة ينبغى أن تكون منسجمة مع دعوة النّبى عليه السّلام.

«الثعبان» معناه الحية العظيمة، و يحتمل الراغب فى مفرداته أن «الثعبان» من مادة (ثعب) المأخوذ معناه من جريان الماء، لأنّ حركة هذا الحيوان تشبه الأنهار المتحركة! و التعبير ب «المبين» لعله إشارة إلى هذه الحقيقة! و هى أنّ عصّا موسى عليه السّلام تبدلت إلى ثعبان عظيم فعلا، و لم يكن فى الأمر من إيهام أو سحر.

و لا بأس بذكر هذه اللطيفة الدقيقة هنا، و هى أنّ الآية محل البحث عبرت [عن تبدل العصا] ب «ثعبان». أمّا الآية العاشرة من سورة النمل، و الآية الحادية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۴

و الثلاثون من سورة القصص، فقد عبرت عنها ب «جان» «ما تجنّه ۲۶۵] الأرض و ما يمشى عليها من الأفاعى الصغار بسرعة و قفز». أمّا الآية العشرون من سورة طه فقد عبّرت عنها بأنّها «حية» «المشتقّة من الحياة».

و هذا التفاوت أو الاختلاف فى التعابير مثير للسؤال فى بدو النظر، إلّا أنّ الاختلاف أو التفاوت إنّما هو لبيان واحد من أمرين:

۱- لعله إشارة إلى حالات ذلك الثعبان المتباينة، ففى البداية تبدلت العصا إلى جانّ أو حية صغيرة، ثمّ بدأت تكبر حتى صارت ثعبانا مبينا! ...

۲- أو أنّ هذه الألفاظ الثلاثة «الثعبان، و الجان، و الحية» كلّ منها يرمز إلى بعض الخصائص الموجودة فى تلك العصا المتبدلة إلى حالة جديدة! فالثعبان إشارة إلى عظمتها، و الجان إشارة إلى سرعتها، و الحية إشارة إلى حياتها! غير أن فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول و غرق فى وحشة عميقة و لكى يحافظ على قدرته الشيطانية التى أحدق بها الخطر بظهور موسى عليه السّلام، و كذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه و الملأ من حوله فى توجيه معاجز موسى و لفت نظرهم عنها، فقد قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ

ذلك الإنسان الذى كان يدعوه مجنونا إلى لحظات آنفة، و إذا هو الآن يعبر عنه بالعليم، و هكذا هى طريقة الجبابرة و أسلوبهم، حيث تتبدل كلماتهم فى مجلس واحد عدّة مرّات، و يحاولون التشبث بأى شيء للوصول إلى هدفهم.

و كان فرعون يعتقد أن اتهام موسى بالسحر ألصق به و أكثر قبولا عند السامعين، لأنّ ذلك العصر كان عصر السحر، فإذا أظهر موسى عليه السّلام معاجزه فمن اليسير توجيهها بالسحر.

و من أجل أن يعبّئ الملأ و يثير حفيظتهم ضد موسى عليه السّلام، قال لهم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۵

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ؟.

و الغريب فى الأمر أن فرعون الذى قال هذا الكلام هو الذى كان يقول من قبل: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟! و الآن حيث يرى عرشه متزعزعا ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، و يعدّها ملك الناس، فيقول لهم: أرضكم فى خطر، إن موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم، ففكروا فى حيلة! ...

فرعون هذا لم يكن قبل ساعة مستعدا لأن يصغى لأحد، كان الآمر بلا منازع، أمّا الآن فهو فى حرج شديد يقول لمن حوله: «ماذا

تأمرون»؟! إنّها استشارة عاجزة و من موقف الضعف فحسب! ...

و يستفاد من الآية (۱۱۰) من سورة الأعراف أنّ اتباع فرعون و من حوله ائتمروا فيما بينهم و تشاوروا فی الأمر، و كانوا فی حالة من الاضطراب النفسی بحيث كان كلّ منهم يسأل الآخر قائلا: و أنت ما تقول؟ و ماذا تأمرون؟! أجل هذه سنّة الجبابرة فی كل عصر و زمان ... فحين يسيطرون على الأوضاع يزعمون أن كل شیء لهم، و يعدون الجميع عبيدهم، و لا يفهمون شيئا سوى منطق الاستبداد. إلّا أنّهم حين تهتزّ عروشهم الظالمة و يرون حكوماتهم فی خطر، ينزلون مؤقتا عن استبدادهم و يلجأون إلى الناس و يتحدثون باسم الناس، فالأرض أرض الشعب، و الحكومة تمثل الشعب و يحترمون آراء الشعب، و لكن حين يستقر الطوفان و يهدأ التيار، فإذا هم أصحاب الأمس و «عادت حليمة إلى عادتها القديمة».

و رأينا فی عصرنا بقايا السلاطين القدامى كيف يحسبون أن الدولة ملكهم المطلق حين تقبل الدنيا عليهم، و يأمرون من يرفض إتباعهم بالخروج عن تلك البلاد قائلين له: اذهب فی أرض اللّه العريضة الواسعة، ففی هذا البلد لا بدّ من تنفيذ ما نقول لا غير. و رأينا هذه الحالة عند ما بدأت هبّت رياح الثورة الإسلامية كيف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۶۶

أن الطواغيت أخذوا باحترام الشعب و تعظيمه، و حتى أنّهم أقروا بذنوبهم و طلبوا العفو، و لكن الناس الذين عرفوا سجيّتهم طوال سنين مديدة لم ينخدعوا بذلك.

و بعد المشاورة فيما بينهم التفت الملأ من قوم فرعون إليه و قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِی الْمَدائِنِ حاشِرِينَ [۲۶۶] أی أمهلهما و ابعث رسلك الى جميع المناطق و الأمصار.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ

و فی الواقع أن رهط فرعون إمّا أنّهم غفلوا، و إمّا أنّهم قبلوا اتهامه لموسى و أعين للأمر. فهيأوا خطة على أنّه ساحر، و لا بدّ من مواجهته بسحرة أعظم منه و أكثر مهارة! ...

و قالوا: لحسن الحظّ إنّ فی بلادنا العريضة سحرة كثيرين، فلا بدّ من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السّلام.

و كلمة (حاشرين) مأخوذه من مادة (الحشر) و معناه التعبئة و السوق لميدان الحرب و أمثال ذلك، و هكذا فينبغی على المأمورين أن يعبئوا السحرة لمواجهة موسى عليه السّلام بأیّ ثمن كان! ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۶۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۳۸ الى ۴۲]

اشارة

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۳۸) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (۳۹) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (۴۰) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (۴۱) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۴۲)

التّفسير

اجتماع السحرة من كلّ مكان:

فی هذه الآيات يعرض مشهدا آخر من هذه القصّة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع

السحرة و البحث عنهم، و كان الوعد المحدد فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

و بتعبير آخر: إنّهم هيئوهم من قبل لمثل هذا اليوم، كى تجتمعوا فى الوعد المقرر فى «ميدان العرض» ..

و المراد من «اليوم المعلوم» كما يستفاد من بعض الآيات فى سورة الأعراف، أنّه بعض أعياد أهل مصر، و قد اختاره موسى عليه السّلام للمواجهة و منازلة السحرة ...

و كان هدفه أن يجد الناس فرصة أوسع للاجتماع، لأنّه كان مطمئنا بأنّه سينتصر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۸

و كان يريد أن يظهر آيات اللّه و ضعف فرعون و الملأ من حوله للجميع، و ليشرق نور الإيمان فى قلوب جماعة كثيرين! ...

و طلب من الناس الحضور فى هذا المشهد: وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ و هذا التعبير يدلّ على أنّ المأمورين من قبل فرعون بذلوا قصارى جهودهم فى هذا الصدد ... و كانوا يعلمون أنّهم لو أجبروا الناس على الحضور لكان ردّ الفعل سلبيّا، لأنّ الإنسان يكره الإجبار و يعرض عنه بالفطرة! لذلك قالوا: هل ترغبون فى الحضور؟ و هل أنتم مجتمعون؟ و من البديهى أن هذا الأسلوب جرّ الكثير إلى حضور ذلك المشهد.

و قيل للناس: إنّ الهدف من هذا الحضور و الاجتماع هو أنّ السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الالهة و ينبغى علينا اتباعهم: لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ فلا بدّ من تهييج الساحة للمساعدة فى هزيمة عدو الالهة إلى الأبد.

و واضح أنّ وجود المتفرجين كلّما كان أكثر شدّ من أزر الطرف المبارز، و كان مدعاة لأن يبذل أقصى جهده، كما أنه يزيد من معنوياته و عند ما ينتصر الطرف المبارز يستطيع أن يثير الصخب و الضجيج إلى درجة يتوارى بها خصمه، كما أن وجود المتفرجين الموالين بإمكانه أن يضعف من روحيّة الطرف المواجه «الخصم» فلا يدعه ينتصر! أجل إن اتباع فرعون بهذه الآمال كانوا يرغبون أن يحضر الناس، كما أنّ موسى عليه السّلام كان يطلب- من اللّه- أن يحضر مثل هذا الجمع الحاشد الهائل! ليبيّن هدفه بأحسن وجه.

كل هذا من جهة، و من جهة أخرى كان السحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ ...

و كان فرعون قلقا مضطرب البال، لأنّه فى طريق مسدود، و كان مستعدّا لأن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۹

يمنح السحرة أقصى الامتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ اى إن فرعون قال لهم: ما الذى تريدون و تبتغون؟! المال أم الجاه، فكلاهما تحت يدىّ! ...

و هذا التعبير يدلّ على أن التقرب من فرعون فى ذلك المحيط كان مهمّا إلى درجة قصوى! بحيث يذكره فرعون للسحرة و يعدّه أجرا عظيما، و فى الحقيقة لا أجر أعظم من أن يصل الإنسان إلى مقربة من القدرة المطلوبة! ...

فإذا كان الضالّون يعدّون التقرب من فرعون أعظم أجر، فإنّ عباد اللّه لا يرون أجرا أعظم من التقرب الى اللّه تعالى حتى الجنّة بما فيها من النعيم المقيم لا تقاس بنظرة من وجهه الكريم لهم! ...

و لذلك فإنّ الشهداء فى سبيل اللّه الذين ينبغى أن ينالوا أعظم الأجر لإيثارهم الكبير، ينالون التقرب من اللّه بشهادة القرآن! و التعبير القرآنى عِنْدَ رَبِّهِمْ شاهد بليغ على هذه الحقيقة! ...

و كذلك فإنّ المؤمن السليم القلب حين يؤدى العبادة اللّه، يؤديها بهدف «قربة الى اللّه» ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۰

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۴۳ الى ۵۱]

اشارة

قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۴۳) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (۴۴) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۴۵) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۴۶) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۴۷)
رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (۴۸) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۴۹) قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۵۰) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (۵۱)

التّفسير

نور الإيمان فی قلوب السحرة:

حين اتفق السحرة مع فرعون و وعدهم بالأجر و القرب منه، و شدّ من عزمهم، فإنّهم بدأوا بتهيئة المقدمات و وفروا خلال ما سخت لهم الفرصة عصيّهم و حبالهم، و يظهر أنّهم صيّروها جوفاء و طلوها بمادة كيميائية كالزئبق- مثلا- بحيث تتحرك

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۷۱

و تلمع عند شروق الشمس عليها! و أخيرا كان اليوم الموعود و الميقات المعلوم، و انثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخيّة، ففرعون و قومه من جانب، و السحرة من جانب آخر، و موسى و أخوه هارون من جانب ثالث، كلهم حضروا هناك! و كعادة القرآن فی حذف المقدمات المفهومة من خلال الآيات المذكورة، و الشروع بذكر أصل الموضوع، فيتحدّث عن مواجهة موسى للسحرة حيث التفت إليهم و: قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ

و يستفاد من الآية (۱۱۵) من سورة الأعراف، أنّ موسى عليه السّلام قال ذلك عند ما سأله السحرة: هل تلقى أنت أوّلا أم نلقى نحن أوّلا؟

و هذا الاقتراح من قبل موسى عليه السّلام يدلّ أنّه كان مطمئنا لانتصاره، و دليلا على هدوئه و سكينته أمام ذلك الحشد الهائل من الأعداء و أتباع فرعون ... كان هذا الاقتراح يعدّ أوّل «ضربة» يدمغ بها السحرة، و يبيّن فيها أنه يتمتع بالهدوء النفسی الخاص، و أنّه مرتبط بمكان آخر و متصل به.

و أمّا السحرة الغارقون بغرورهم، و الذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم فی هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين و مؤمّلين لأن يغلبوا موسى عليه السّلام فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ [۲۶۷] أجل، لقد استندوا إلى عزّة فرعون كسائر المتملقين، و بدأوا باسمه و قدرته الواهية! و هنا- كما يبيّن القرآن فی مكان آخر من سورة و آياته- تحركت العصيّ كأنّها الأفاعی و الثعابين و يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى [۲۶۸] و قد انتخب السحرة العصی كوسائل لسحرهم، لتتغلّب حسب تصوّرهم على

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۷۲

عصی موسى، و أضافوا عليها الحبال ليثبتوا علوّهم و فضلهم عليه ...

فتهللت أسارير وجوه الناس و وجه فرعون فرحا، و أشرق الأمل فی عينی فرعون و أتباعه، و سرّوا سرورا لم يكن ليخفى على أحد، و سرت فيهم نشوة اللّذة من هذا المشهد! إلّا أنّ موسى عليه السّلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد و يدوم هذا الفصل المثير، فتقدم فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فتحولت الى ثعبان عظيم و بدأت بالتهام وسائل و أدوات السحرة بسرعة بالغة فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ [۲۶۹] و هنا طاف صمت مهيب على وجوه الحاضرين و غشّاهم الوجوم و فغرت الأفواه من الدهشة و العجب، و جمدت العيون، و

لكن سرعان ما انفجر المشهد بصراخ المتفرجين المذعورين ففر جماعة من مكانهم و بقى آخرون يترقبون نهاية المشهد، و أفواه السحرة فاغرة من الدهشة ...

و تبدّل كل شيء، و ثاب السحرة إلى رشدهم بعد أن كانوا- إلى تلك اللحظة- مع فرعون غارقين فى الشيطنة، و لأنّهم كانوا عارفين بقضايا السحر و دقائقه، فإنّهم تيقنوا أن عصا موسى لم تكن سحرا، بل هى معجزة إلهية كبرى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ

الطريف أنّ القرآن يعبر عن خضوع السحرة ب «ألقى» و هذا التعبير إشارة إلى منتهى التأثير و جاذبية معجزة موسى لهم، حتى كأنّهم سقطوا على الأرض و سجدوا دون اختيارهم ...

و اقترن هذا العمل العبادى- و هو السجود- بالقول بلسانهم ف قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ

و لئلا يبقى مجال للإبهام و الغموض و التردد، و لئلا يفسر فرعون ذلك تفسيرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۷۳

آخر فإنّهم قالوا: رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ

و هذا التعبير يدلّ على أنّه و إن كان موسى عليه السّلام متكفلا لأمر المبارزة و إلقاء العصا و محاججة السحرة، إلّا أنّ أخاه هارون كان يعاضده فى الأمر، و كان مستعدا لتقديم أى عون لأخيه.

و هذا التبدل و التغيّر المفاجئ العجيب فى نفوس السحرة بحيث خطوا فى لحظة واحدة من الظلمة المطلقة إلى النور المبين. و لم يكتفوا بذلك حتى أقحموا أنفسهم فى خطر القتل، و أعرضوا عن مغريات فرعون و مصالحهم المادية ... كلّ ذلك لما كان عندهم من «علم» استطاعوا من خلاله أن يتركوا الباطل و يتمسكوا بالحقّ! إنّهم لم يجوبوا باقى الطريق بخطى العقل فحسب، بل ركبوا خيول العشق، و قد سكروا من عطر أزهاره، حتى كأنّهم لم يفيقوا من سكرتهم، و سنرى أنّهم لهذا السبب استقاموا بشجاعة أمام تهديدات فرعون الرهيبة ...

نقرأ

حديثا عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «ما من قلب إلّا بين إصبعين من أصابع الرحمان، إن شاء أقامه، و إن شاء أزاغه»[۲۷۰]

(و بديهى أن مشيئة اللّه فى هاتين المرحلتين تتعلق باستعداد الإنسان، و هذا التوفيق أو سلب التوفيق إنّما هو لأجل قابلية القلوب المختلفة، و ليس اعتباطا).

أمّا فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوما معنويا و يرى من جانب آخر أن وجوده و سلطانه فى خطر، و خاصّة أنه كان يعرف أىّ تأثير عميق لإيمان السحرة فى قلوب سائر الناس، و من الممكن أن يسجد جماعة آخرون كما سجد السحرة، فقد تذرع بوسيلة جديدة و ابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ [۲۷۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۷۴

لقد تربع على عرش الاستبداد سنين طوالا، و لم يكن يترقب من الناس أن لا يسجدوا أو يقوموا بعمل دون إذنه فحسب، بل كان ترقّبه أن تكون قلوب الناس و أفكارهم مرهونة به و بأمره، فليس لهم أن يفكّروا دون اذنه!! و هكذا هى سنة الجبابرة و المستكبرين!.

هذا المغرور الطائش لم يكن مستعدّا لأن يذكر اسم اللّه و لا اسم موسى، بل اكتفى بالقول (آمنتم له)! و المراد من هذا التعبير هو التحقير!! إلّا أن فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين أخريين ليثبّت موقعه كما يتصوّر أوّلا، و ليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلة نياما.

فاتّهم السحرة أوّلا بأنّهم تواطؤوا مع موسى عليه السّلام و تآمروا على أهل مصر جميعا، فقال: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ.

و قد اتفقتم مع موسى من قبل أن تردوا هذه الساحة، فتضلوا أهل مصر و تجرّوهم إلى الخضوع تحت سيطرة حكومتكم، و تريدون أن

تطردوا أصحاب هذا البلد و تخرجوهم من ديارهم و تحلّوا العبيد محلهم ...

إلّا أننی لا أدعكم تنتصرون فی هـذه المؤامرة، و سأخنق المؤامرة فی مهـدها فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

أی: لا أكتفی بإعـدامكم فحسب، بل أقتلكم قتلا بالتعـذيب و الزجر بين الملأ العام، و علی جـذوع النخل، (لأن قطع الأيدی و الأرجل من خلاف يؤدی إلی الموت البطیء، فيذوق معه الإنسان التعذيب أكثر).

و هـذه هی طريقـة الجبـابرة و الحكّام الظلمـة فی كل عصـر و زمان، ففی البـدء يتهمون الرجال المصـلحين بالتآمر ضـد الناس، و بعد الاستفادة من حربة التهمة يعملون السيف فی رقاب ليضعف موقع المطالبين بالحق و لا يجدوا معاضدا لهم، فيزيحوهم من طريقهم.

إلّا أن فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأن السحرة قبل لحظة- و المؤمنين فی هذه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۷۵

اللحظة- قد غمر قلوبهم الإيمان، و أضـرمهم عشق اللّه، بحيث لم يهزّهم تهديد فرعون، فأجابوه بضـرس قاطع و احبطوا خطته و قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلی رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ

فأنت بهذا العمل لا تنقص منّا شيئا، بل توصـلنا إلی معشوقنا الحقيقی و المعبود الواقعی، فيوم كانت هذا التهديدات تؤثر فينا لم نعرف أنفسنـا و لم نعرف ربّنـا، و كنّـا، ضـالين مضـلين، إلّـا أنّنـا عثرنـا اليوم علی ضالتنا (فاقض ما أنت قاض)! ثمّ أضافوا بأنّهم واجهوا النّبی موسی عليه السّلام من قبل بالتكذيب و أذنبوا كثيرا، و لكن مع ذلك ف إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إنّنـا لاـ نسـتوحش اليوم من أی شـیء، لاـ من تهديـداتك، و لا من تقطيع الأيـدی و الأرجل من خلاف و لا من الصـلب علی جـذوع النخل.

و إذا كنّا نخاف من شـیء، فإنّما نخاف من ذنوبنا الماضـية، و نرجو أن تمحی فی ظل الإيمان و بفضل اللّه و لطفه! أية طاقة و قوّة هذه التی إن وجـدت فی الإنسـان صـغرت عنـدها أعظم القوی، و هـانت عنـده أشـد الأـمور، و كرمت نفسه بسـخاء فی موقف التضـحية و الإيثار؟! إنّها قوّة الإيمان.

إنّها شـعلة العشق النيرة، التی تجعل الشـهادة فی سبيل اللّه أحلی من الشـهد و العسل، و تصـيّر الوصال إلی المحبوب أسـمی الأهداف! هذه هی القوّة التی اسـتعان بها النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم و ربّی المسـلمين الأوائل عليها، و أوصل أمة جهلاء متأخرة إلی أوج الفخر بسـرعة مذهلـة، فكانت الأمـة المسـلمة التی أذهلت الدنيا! إلّا أن هذا المشـهد- علی كل حال- كان غاليا و صـعبا علی فرعون و قومه، بـالرغم من أنّه طبّق تهديـداته- طبقـا لبعض الروايـات- فاستشـهد علی يـديه السـحرة المؤمنون- إلّـا أن ذلك لم يطفئ عواطف الناس تجاه موسی فحسب، بل أثارها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۷۶

أكثر فأكثر! ...

ففی كل مكان كانت اصداء النّبی الجديد ... و فی كل حدب و صوب حديث عن أوائل الشـهداء المؤمنين، و هكذا آمن جماعة بهذا النحو، حتی أن جماعة من قوم فرعون و أصحابه المقربين حتی زوجته، آمنوا بموسی ايضا.

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: كيف عبر السحرة التائبون المؤمنون عن أنفسهم بأنّهم أوّل المؤمنين ...

هـل كان مرادهم أنّهم أوّل المؤمنين فی ذلك المشـهد؟! أو كان مرادهم أنّهم أوّل المؤمنين من حماة فرعون؟! أو أنّهم أوّل المؤمنين الذين وردوا «الشهادة».

كل هذه الأمور محتملة، و لا تتنافی فی ما بينها.

و هذه التفاسـير إنّما تصحّ فی صورة ما لو قلنا بأنّ جماعة من بنی إسرائيل أو من غيرهم آمنوا بموسی قبل ذلك، أما لو قلنا بأنّهم أمروا

بعد البعثة أن يتصلوا بفرعون مباشرة و أن يوردوا الضربة الأولى عليه، فلا يبعد أن يكونوا أول المؤمنين، و لا حاجة عندئذ إلى تفسير آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ٣٧٧

الآيات [سورة الشعراء (٢۶): الآيات ۵٢ الى ۵٩]

اشارة

وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۵٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۵٣) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (۵۴) وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (۵۵) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (۵۶)
فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵٧) وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۵٨) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (۵٩)

التّفسير

مصير الفراعنة:

فى الآيات المتقدمة ... رأينا كيف أنّ موسى خرج منتصرا من تلك المواجهة.
رغم عدم إيمان فرعون و قومه إلّا أن هذه القضية كان لها عدة آثار مهمّة، يعدّ كلّ منها انتصارا مهمّا:
١- آمن بنو إسرائيل بنبيّهم «موسى عليه السّلام» و التفّوا حوله بقلوب موحّدة ... لأنّهم بعد سنوات طوال من القهر و التعسف و الجور يرون نبيّا سماويا فى أوساطهم يضمن هدايتهم و على استعداد لأنّ يقود ثورتهم نحو الحرية و تحقيق النصر على فرعون.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ٣٧٨
٢- لقد شقّ موسى عليه السّلام طريقة وسط أهل مصر من الأقباط و غيرهم ... و مال إليه جمع منهم، أو على الأقل خافوا من مخالفته، و طافت أصداء دعوة موسى فى أرجاء مصر جمعاء! ٣- و أهمّ من كل ذلك أنّ فرعون لم ير فى نفسه القدرة- لا من جهة أفكار عامّة الناس، و لا من جهة الخوف على مقامة- على مواجهة رجل له عصا كهذه العصا، و لسان مؤثر كلسان موسى.
هذه الأمور هيأت أرضية ملائمة لأن ينشر موسى عليه السّلام دعوته بين الناس، و يتمّ الحجة عليهم! و مرّت سنون طوال على هذا المنوال، و موسى عليه السّلام يظهر المعاجز تلو المعاجز- كما أشارت إليها سورة الأعراف و بيّناها فى ذيل الآيات ١٣٠- ١٣۵ منها- إلى جانب منطقه المتين، حتى ابتلى اللّه أهل مصر بالقحط و الجذب لسنوات لعلهم يتّقون «لمزيد الإيضاح لا بأس بمراجعة تفسير الآيات آنفة الذكر» ...
و لمّا أتمّ موسى على أهل مصر الحجة البالغة، و امتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحى على موسى أن يخرج بقومه من مصر، و الآيات التالية تجسد هذا المشهد فتقول أوّلا: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ
و هذه خطة إلهية على موسى عليه السّلام أن يمتثلها و يسرى بقومه ليلا، و إنّ على فرعون و قومه أن يعلموا ذلك فيتبعوهم ليحدث ما يحدث بأمر اللّه.
و التعبير ب «عبادى» بضمير الإفراد، مع أن الفعل (أوحينا) فى الجملة ذاتها مسند إلى ضمير الجمع، إنّما هو لبيان منتهى محبة اللّه لعباده المؤمنين ...
و فعلا امتثل موسى عليه السّلام هذا الأمر، و عبأ بنى إسرائيل بعيدا عن أعين أعدائهم، و أمرهم بالتحرك، و اختار الليل خاصّة لتنفيذ

أمر اللّه لتكون خطته نافذة.

إلّا أن من البديهى أن حركة جماعة بهذا الشكل ليس هينا يسيرا يمكن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۷۹

إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، و كما يحدثنا القرآن عن ذلك أن فرعون أرسل رسله و أعوانه الى المدن لجمع القوات: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِی الْمَدائِنِ حاشِرِينَ

بالطبع فإنّ فى تلك الظروف، وصول إبلاغ فرعون إلى المدائن، و جميع مناطق مصر، يحتاج إلى زمان معتنى به لكن من الطبيعى أن يصل هذا البلاغ المدن القريبة بسرعة و تتحرك القوى المعدّة فورا، و تؤدى مقدمة الجيش مهمّتها، و تتبعها بقية الأفواج بالتدريج ...

و لتعبئة الناس- ضمنا- و تهيئة الأرضية لإثارتهم ضد موسى و قومه، أمر فرعون أن يعلن إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليلة حتما.

و «الشرذمة» فى الأصل تعنى القلة من الجماعة، كما تعنى ما تبقى من الشىء، و يطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناء على هذا يكون المعنى أنّ هؤلاء «أى موسى و قومه» بالإضافة إلى أنّهم قليلون فهم متفرقون، فكأن فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسم عدم انسجام بنى إسرائيل من حيث أعداد الجيش فيهم ...

ثمّ تضيف الآية الأخرى حاكية عن لسان فرعون وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ فمن يسقى مزارعنا غدا، و من يبنى لنا القصور؟ و من يخدم فى البيوت و القصور غيرهم؟! ثمّ إنّا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ و مستعدون جميعا لمواجهتهم.

و قد فسّر بعضهم «حاذرون» على أنها من الحذر، بمعنى الخوف و الخشية من التآمر، و فسّر بعضهم (حاذرون) على أنها من الحذر، بمعنى الفطنة و التهيؤ من حيث السلاح و القوّة. إلّا أن هذين التّفسيرين لا منافاة بينهما، فربّما كان فرعون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸۰

و قومه قلقين من موسى و مستعدين لمواجهته أيضا.

ثمّ يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبة فرعون و قومه و زوال حكومته، و قيام حكومة بنى إسرائيل، فيقول: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ ... وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ

أجل كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِی إِسْرائِيلَ

و هناك اختلاف بين المفسّرين فى المراد من كلمة مَقامٍ كَرِيمٍ فقال بعضهم بأنّها القصور المجللة و المساكن المظللة ...

و قال بعضهم بأنّها المجالس المنعقدة بالحبور و السرور و النشاط.

و قال بعضهم: المراد مقام الحكام و الأمراء، الذين يجلسون على كراسيهم و من حولهم أتباعهم و جنودهم يمتثلون أوامرهم ...

و قال بعضهم: بل يعنى المنابر التى كان يصعدها الخطباء «المنابر التى كانت لصالح فرعون و حكومته و جهازه فهى بمثابة أبواق إعلام له».

و بالطبع فإن المعنى الأوّل أنسب من الجميع كما يبدو، رغم أن هذه المعانى غير متباينة و من الممكن أن تجتمع هذه المعانى جميعا فى مفهوم الآية ...

فالمستكبرون (فرعون و قومه) أخرجوا من قصورهم و حكومتهم و موقعهم و قدرتهم، كما أخرجوا من مجالسهم المنعقدة بالحبور و السرور.

ملاحظتان

۱- هل حكم بنو إسرائيل فی مصر؟!

على أساس تعبير الآيات المتقدمة كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِی إِسْرائِيلَ ... فإنّ جمعا من المفسّرين يعتقدون أن بنی إسرائيل عادوا إلى مصر و سيطروا على

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸۱

الحكم، و مكثوا فی مصر حاكمين مدّة.[۲۷۲] و ظاهر الآيات المتقدمة يناسب هذا التّفسير.

فی حين أن بعض المفسّرين يعتقد أن بنی إسرائيل تحركوا نحو بيت المقدس بعد هلاك فرعون و أتباعه، إلّا أنّهم بعد مدّة مديدة رجعوا إلى مصر و شكلوا فيها حكومتهم.[۲۷۳] و تتطابق فصول التوراة الحالية المتعلقة بهذا القسم مع هذا التّفسير.

و يعتقد بعض آخر من المفسّرين أن بنی إسرائيل صاروا جماعتين أو فئتين، فجماعة منهم بقيت فی مصر و حكمت فيها، و تحركت جماعة منهم مع موسى نحو بيت المقدس.

و ذكر احتمال آخر، و هو أن بنی إسرائيل حكموا مصر بعد موسى عليه السّلام و فی زمان النّبی سليمان بن داود، و الآية كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِی إِسْرائِيلَ ناظرة إلى هذا المعنى! إلّا أنّه مع ملاحظة أن موسى عليه السّلام نبی ثائر كبير، فمن البعيد جدّا أن يترك هذه الأرض التی تهاوت أركان حكومتها و قد أصبحت مقاليد أمورها بيده فيذرها كليا دون أن يخطط لها خطة و يتجه نحو فلسطين و بيت المقدس و الصحاری الشاسعة، و لا سيما أن بنی إسرائيل قد سكنوا مصر لسنين طوال، و تعودوا على محيطها، فبناء على هذا لا يخرج الأمر من أحد حالين ... أمّا أن نقول: إن بنی إسرائيل عادوا جميعا إلى مصر و حكموا فيها، أو أن نقول: إن قسما منهم بقوا فی مصر بأمر موسى عليه السّلام و استولوا على العرش و حكموا فی مصر! ... و فی غير هاتين الحالين لا يتجلّى مفهوم لإخراج الفراعنة منها و وراثة بنی إسرائيل لها ...

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸۲

۲- ترتيب الآيات

يشرح القرآن فيما يأتی من الآيات كيفية غرق فرعون و اتباعه، و هذا الأمر يدعو إلى التساؤل: كيف يذكر القرآن إخراج فرعون و قومه من جنات و عيون و كنوز و مقام كريم و إيراثه «ذلك» بنی إسرائيل! ثمّ يذكر كيفية غرق فرعون و قومه؟ مع أن الترتيب الطبيعی للآيات ليس كذلك ...

هذا الأمر ربّما يكون من قبيل بيان الإجمال ثمّ التفصيل، أی أن القرآن ذكر الموضوع أوّلا بصورة مجملة، ثمّ وضحه فی الآيات الاخر! كما يمكن أن يكون من قبيل ذكر النتيجة، ثمّ شرح المقدمات «فتدبر».

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸۳

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۶۰ الى ۶۸]

اشارة

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (۶۰) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (۶۱) قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِی رَبِّی سَيَهْدِينِ (۶۲) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (۶۳) وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (۶۴)

وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶۷) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶۸)

التّفسير

عاقبة فرعون و أتباعه الوخيمة

فی هذه الآیات یبرز المشهد الأخیر من قصّة موسی و فرعون، و هو کیفیة هلاک فرعون و قومه، و نجاة بنی إسرائیل و انتصارهم! و کما قرأنا فی الآیات المتقدمة فإنّ فرعون أرسل المدائن حاشرین، و هیأ مقدارا کافیا من «القوّة» و الجیش، قال بعض المفسّرین: کان ما أرسله فرعون علی أنّه مقدمة الجیش ستمائة ألف مقاتل، و تبعهم نفسه بألف ألف مقاتل «أی

ملیون».[۲۷۴] تحرکوا فی جوف اللیل لیدرکوهم بسرعة، فبلغوهم صباحا کما تقول الآیة الأولی من الآیات محل البحث: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۲۷۵] فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ

فأما منا بحر خضم متلاطم بالأمواج، و من ورائنا بحر من الجیوش المتعطشة للدماء بتجهیزاتها الکاملة ... هؤلاء الغاضبون علینا و هم الذین قتلوا أطفالنا الأبریاء سنین طوالا ... و فرعون نفسه رجل دموی جبار ... فعلی هذا سیحاصروننا بسرعة، و یقتلوننا جمیعا بحدّ السیوف، أو سیأسروننا و یعذبوننا، و القرائن جمیعها تدل علی ذلک.

و هنا مرّت لحظات عسیرة علی بنی إسرائیل ... لحظات مرّة لا یمکن وصف مرارتها ... و لعل جماعة منهم تزلزل إیمانهم و فقدوا معنویاتهم و روحیاتهم.

إلّا أنّ موسی علیه السّلام کان مطمئنا هادئ البال، و کان یعرف أن وعد اللّه فی هلاک فرعون و قومه و نجاة بنی إسرائیل لا یتخلف أبدا و لن یخلف اللّه وعده رسله! ...

لذلک التفت إلی بنی إسرائیل الفزعین بکمال الاطمئنان و الثقة و قالَ کَلَّا إِنَّ مَعِی رَبِّی سَیَهْدِینِ

و لعلّ هذا التعبیر یشیر إلی وعد اللّه لموسی و أخیه هارون حین أمرهما بإنذار قومهما، إذ قال لهما: إنی معکما أسمع و أری.[۲۷۶] إذ کان موسی یعلم أن اللّه معه فی کل مکان، و خاصّة تعویله فی کلامه علی کلمة (ربّی) أی اللّه المالک و المربّی هذا یدل علی أنّ موسی علیه السّلام کان یدری أنّه

لا یطوی هذا الطریق بخطاه، بل بلطف اللّه القادر الرحیم ...

و فی هذه الحال التی قد یکون البعض سمعوا کلامه دون أن یصدقوه، و کانوا ینتظرون آخر لحظات حیاتهم، صدر أمر اللّه کما یقول القرآن: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ ....

تلک العصا التی هی فی یوم آیة إنذار، و فی یوم آخر آیة رحمة و نجاة! فامتثل موسی علیه السّلام أمر ربه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجیب، تهللت له أسارير وجوه بنی إسرائیل، إذا انشقّ البحر فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ و «انفلق» مأخوذ من «الفلق» و معناه الإنشقاق و «فرق» من مادة «فرق» علی زنة «حلق» و معناه الانفصال! و بتعبیر آخر، کما یقول الراغب فی مفرداته: أن الفرق بین (فلق) و (فرق) هو أن الأوّل یشیر إلی الإنشقاق (أو الانشطار) و الثّانی یشیر إلی الانفصال، و لذا تطلق الفرقة و الفرق علی القطعة أو الجماعة التی انفصلت عن البقیّة! ...

«الطود» معناه الجبل العظيم، و وصف الطود بالعظمة فى الآية تأكيد آخر على معناه.

و على كل حال، فإنّ اللّه الذى ينفذ أمره فى كل شىء، و بأمره تموج البحار و تتصرف الرياح و تتحرك العواصف و كل شىء فى عالم الوجود من رشحات فضله و قدرته أصدر أمره الى البحر، و أمواجه، فالتحمت الأمواج و تراكمت بعضها إلى بعض، و ظهرت ما بينها طرق سالكة، فمرّت كل فرقة من بنى إسرائيل فى إحدى الطرق! إلّا أنّ فرعون و أتباعه بالرغم من مشاهدتهم هذه المعجزة الكبرى الواضحة لم يذعنوا للحق، و لم ينزلوا عن مركب غرورهم، فاتبعوا موسى و رهطه ليبلغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن فى هذا الشأن: وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸۶

و هكذا ورد فرعون و قومه البحر أيضا، و اتبعوا عبيدهم القدماء الذين استرقّوهم بطغيانهم، و هم غافلون عن أن لحظات عمرهم تقترب من النهاية، و أن عذاب اللّه سينزل فيهم! و تقول الآية التالية: وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ

و حين خرج آخر من كان من بنى إسرائيل من البحر، و دخل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صدر أمر اللّه فعادت الأمواج إلى حالتها الأولى فانهالت عليهم فجأة، فهلك فرعون و قومه فى البحر، و صار كل منهم كالقشّة فى وسط الأمواج المتلاطمة.

و يبيّن القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متينة فيقول: ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ...

و هكذا انتهى كل شىء فى لحظة واحدة ... فالأرقاء أصبحوا أحرارا، و هلك الجبابرة، و انطوت صفحة من صفحات التأريخ، و انتهت تلك الحضارة المشيدة على دماء المستضعفين، و ورث الحكومة و الملك المستضعفون بعدهم.

أجل إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ فكأنّ فى أعينهم عمى، و فى آذانهم و قرا، و على قلوب أقفالا.

فحيث لا يؤمن فرعون و قومه مع ما رأوا من المشاهد العجيبة، فلا تعجب إذا ألّا يؤمن بك المشركون- يا محمد- و لا تحزن عليهم لعدم إيمانهم، فالتاريخ- يحمل بين طياته و ثناياه كثيرا من هذه المشاهد! و التعبير ب «أكثرهم» إشارة إلى أن جماعة من قوم فرعون آمنوا بموسى و التحقوا بأصحابه، لا آسية امرأة فرعون فحسب، و لا رفيق موسى المخلص المذكور فى القرآن على أنه مؤمن من آل فرعون، بل آخرون أيضا كالسحرة التائبين مثلا.

أمّا آخر آية من هذه الآيات فتشير فى عبارة موجزة و ذات معنى غزير إلى قدرة اللّه و رحمته المطلقة و اللامتناهية، فتقول: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸۷

فمن عزته أنه متى شاء أن يهلك الأمم المسرفة الباغية أصدر أمره فأهلكها، و لا يحتاج أن يرسل جنودا من ملائكة السماء لإهلاك أمّة جبّارة ... فيكفى أن يهلكها بما هو سبب حياتها، كما أهلك فرعون و قومه بالنيل الذى كان أساس حياتهم و ثروتهم و قدرتهم، فإذا هو يقبرهم فيه!! و من رحمته أنّه لا- يعجل فى الأمر أبدا، بل يمهل سنين طوالا. و يرسل معاجزه إتماما للحجة، و من رحمته أن يخلص هؤلاء المستعبدين من قبضة الجبابرة الظالمين.

مسائل مهمة:

۱- معبر بنى إسرائيل!

ورد التعبير فى القرآن مرارا عن موسى أنه عبر بقومه «البحر»[۲۷۷] كما جاء فى بعض الآيات لفظ «اليمّ» بدلا من البحر.[۲۷۸] و الآن ينبغى أن نعرف ما المراد من «البحر» و «اليم» هنا، أهو إشارة إلى النهر الكبير الواسع فى مصر، النيل الذى يروى جميع أراضيها؟ أم هو

إشارة إلی البحر الأحمر «المعروف ببحر القلزم فی بعض المصطلحات»؟

یستفاد من التوراة الحالیة- و کذلک من کلمات بعض المفسّرین- أنه إشارة إلی البحر الأحمر ... إلّا أن القرائن الموجودة و المتوفرة تدل علی أنّ المراد منه هو نهر النیل، لأن «البحر» کما یقول الراغب فی مفرداته یعنی فی اللغة الماء الکثیر الواسع، و الیم بهذا المعنی أیضا. فلا مانع إذا من إطلاق الکلمتین علی نهر النیل.

و أمّا القرائن المؤیدة لهذا الرأی فهی:

۱- أنّ منطقة سکن الفراعنة التی کانت مرکزا لمدن مصر العامرة کانت نقطة قریبة من النیل حتما ... و إذا أخذنا بنظر الإعتبار معیار محلهم الفعلی «الأهرام» أو ما حولها، فإنّ بنی إسرائیل لا بدّ لهم أن یعبروا نهر النیل لیصلوا إلی الأرض المقدسة، لأن هذه المنطقة تقع غرب النیل و لا- بدّ لهم من أن یتجهوا نحو الشرق للوصول إلی الأرض المقدسة! «فلا-حظوا بدقة»! ۲- أنّ الفاصلة بین المناطق العامرة[۲۷۹] من مصر و التی هی قریبة من النیل بالطبع، بعیدة عن البحر الأحمر بحیث لا یمکن أن تطوی المسافة بینها و بین البحر بلیلة أو نصف لیلة ...

و یستفاد من الآیات المتقدمة بوضوح أن بنی إسرائیل غادروا أرض الفراعنة لیلا، و طبیعی أن تکون المغادرة فی اللیل. أمّا فرعون و جیشه فقد اتبعوهم حتی بلغوهم مشرقین «عند الصباح».

۳- لم تکن حاجة لیعبر بنو إسرائیل البحر الأ-حمر حتی یصلوا الأرض المقدسة، إذ کانت هناک منطقة یابسة ضیقة قبل حفر ترعة السویس «أو ما یصطلح علیها بقناة السویس» ... إلّا أن نفترض أن البحر الأحمر کان متصلا بالبحر الأبیض المتوسط فی الزمن السابق، و لم تکن هناک منطقة یابسة، و هذا الفرض غیر ثابت بأیّ وجه! ...

۴- یعبّر القرآن عن قصة موسی بإلقائه فی «الیم» «من قبل أمه» الآیة ۳۹ من سورة طه، کما یعبر عن غرق فرعون و أتباعه بقوله: فَغَشِیَهُمْ مِنَ الْیَمِّ ما غَشِیَهُمْ الآیة ۷۸ من السورة ذاتها. و کلتا القضیتین فی قصة واحدة و سورة واحدة أیضا (طه) و کون اللفظین مطلقین- (الیم) فی الآیة السابقة و (الیم) فی الآیة اللاحقة- یشعر بأنّهما واحد ... و مع ملاحظة أن أمّ موسی لم تلق موسی فی

البحر الأحمر قطعا، بل ألقته فی النیل طبقا لما تذکره التواریخ، فیعلم أن غرق فرعون و قومه کان فی النیل «فلاحظوا بدقّة».

۲- کیفیة نجاة بنی إسرائیل و غرق فرعون و قومه

هناک بعض المفسّرین ممن لا یمیل إلی کون نجاة بنی إسرائیل و غرق فرعون و قومه معجزة، بل حادثة طبیعیة، کما یصرّون علی ذلک، فوجّهوا ذلک کله بأسباب طبیعیة.

لذلک قالوا: إنّ هذا الموضوع یمکن تطبیقه بواسطة الجسور المتحرکة المستعملة فی العصر الحدیث.[۲۸۰] و قال بعضهم: إنّ موسی علیه السّلام کان مطلعا علی طرق خاصّة، و کان یمکنه العبور من البرازخ (أو الطرق الموجودة فی بحر سوف) أی خلیج السویس، إلی جزیرة سیناء. و انفلاق البحر- فی الآیات محل البحث- إشارة إلی هذا المعنی [۲۸۱] ...

و قال بعضهم: من المحتمل جدا أن یکون وصول موسی و قومه البحر عند منتهی جزره، فاستطاع أن یعبر بهم من النقاط الیابسة و یجتازها بسرعة، و لکن عند ما ورد فرعون و قومه البحر شرع المدّ فورا فأغرقوا بالنیل حینئذ و هلکوا ...

و لکن الحق أن أیّا من هذه الاحتمالات لا ینسجم و ظاهر الآیات- إن لم نقل و صریح الآیات- و مع قبول معاجز الأنبیاء الوارد بیانها مرارا فی سور القرآن، و خاصّة معجزة عصا موسی نفسها، فلا حاجة لمثل هذه التوجیهات ...

فما یمنع أن تتراکم أمواج النیل بعد ضربها من قبل موسی بالعصا بأمر اللّه الحاکم علی قانون العلیّة فی عالم الوجود، و تنجذب متأثرة بما فیها من سرّ غامض، لتترک طریقا یبسا بیّنا (یمرّ فی وسط البحر) ثمّ تتلاشی هذه الجاذبیّة بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۹۰

مـدة، و یعود البحر إلی حالته الطبیعیـة و إلی أمواجه المتلاطمـة! ... و لیس هـذا اسـتثناء فی قانون العلیّة، بل هو اعتراف بتأثیر علل غیر معتادة، لا نعرفها لقصور علمنا أو لقلّة معلوماتنا!

۳- اللّه عزیز رحیم

ینبغی ملاحظة هـذه اللطیفـة، إذ جاءت الآیـة الأـخیرة- من الآیـات محل البحث- بمثابه اسـتنتاج لما جری من أمر موسـی و فرعون و قومهما، و انتصار جیش الحق و انهزام الباطل! إذ تصف هذه الآیة «اللّه» سبحانه بالعزیز الرحیم ...

فالوصف الأوّل إشارة إلی أنّ قدرته لا تضعف و لا تقهر، و الوصف الثّانی إشارة إلی أنه یوصل رحمته لعباده جمیعا، و خاصّة بتقدیم وصف (العزیز) علی (الرحیم) لئلا یتوهّم أن رحمته من منطلق الضعف، بل هو مع قدرته رحیم! ...

و بالطبع فإنّ من المفسّـرین من یری أن وصـفه بالعزیز إشارة إلی انـدحار أعدائه، و وصـفه بالرحیم إشارة إلی انتصار أولیائه، إلّا أنه لا مـانع أبـدا أن یشـمل الوصـفان الطـائفتین معـا ... لأـنّ الجمیع ینعمون برحمته حتی المسیئون ... و الجمیع یخـافون من سـطوته حتی الصالحون ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۹۱

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۶۹ الی ۸۲]

اشارة

وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِیمَ (۶۹) إِذْ قـالَ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُـدُونَ (۷۰) قالُوا نَعْبُـدُ أَصْـناماً فَنَظَلُّ لَها عاکِفِینَ (۷۱) قالَ هَلْ یَسْـمَعُونَکُمْ إِذْ تَدْعُونَ (۷۲) أَوْ یَنْفَعُونَکُمْ أَوْ یَضُرُّونَ (۷۳)

قالُوا بَلْ وَجَـدْنا آباءَنا کَذلِکَ یَفْعَلُونَ (۷۴) قالَ أَ فَرَأَیْتُمْ ما کُنْتُمْ تَعْبُـدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمُ الْأَقْـدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِی إِلاَّ رَبَّ الْعالَمِینَ (۷۷) الَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ (۷۸)

وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْـقِینِ (۷۹) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ (۸۰) وَ الَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ (۸۱) وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ الدِّینِ (۸۲)

التّفسیر

أعبد ربّا ... هذه صفاته:

کما ذکرنا فی بدایـة هـذه السورة، فإنّ اللّه یبیّن حال سـبعة من الأنبیاء العظام، و مواجهاتهم أقوامهم لهـدایتهم، لتکون «مـدعاة» تسـلیة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین القلّة معه فی عصره، و فی الوقت ذاته إنذار لجمیع الأعداء و المستکبرین أیضا ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۹۲

لـذلك تعقّب هـذه الآيات على قصّـة موسـى و فرعون المليئـة بالدروس لتبيّن قصة إبراهيم و مواجهاته المشـركين، و تبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر[۲۸۲] فتقول:

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ

و من بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبيّ العظيم يركّز القرآن الكريم على هذا القسم: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏۱۱ ؛ ص۳۹۲

من المسلّم به أنّ إبراهيم كان يعلم أيّ شي‏ء يعبدون، لكن كان هدفه أن يستدرجهم ليعترفوا بما يعبدون، و التعبير ب «ما» مبيّن ضمنا نوعا من التحقير! فأجابوه مباشـرة قالُوا نَعْبُـدُ أَصْـناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ و هـذا التعبير يدلّ على أنّهم يحسّوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافيا أن يجيبوه:

نعبـد أصـناما، إلّا أنّهم أضافوا هـذه العبارة: فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ التعبير ب «نظلّ» يطلق عادة على الأعمال التى تؤدى خلال اليوم، و ذكره بصيغة الفعل المضارع إشارة إلى الاستمرار و الدوام.

كلمة «عاكفين» مأخوذة من «العكوف»، و معناه التوجه نحو الشي‏ء و ملازمته باحترام، و هى تأكيد لما سبق من التعبير.

«الأصـنام» جمع الصـنم، و هو الهيكـل أو التمثال المصـنوع من الـذهب أو الخشب أو ما شاكلهما للعبادة، و كانوا يتصورون أنها مظهر للتقديس ...

و على كل حال، فإنّ إبراهيم لما سمع كلامهم رشقهم بنبال الإشكال و الاعتراض بشدّة، و قمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم فى طريق مغلق، ف قالَ هَلْ يَسْـمَعُونَكُمْ إِذْ تَـدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُـرُّونَ ! إن أقلّ ما ينبغى توفره فى المعبود هو أن يسـمع نـداء عابده، و أن ينصره فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۱۱، ص: ۳۹۳

البلاء، أو يضره عند مخالفة أمره! ...

إلّا أن هـذه الأصـنام ليس فيهـا مـا يـدلّ على أن لها أقلّ إحساس أو شـعور أو أدنى تأثير فى عواقب الناس، فهى أحجار أو فلزات «أو معادن أو خشب لا قيمة لها! و إنّما أعطتها الخرافات هذه الهالة و هذه القيمة الكاذبة! ...

إلّا أن عبـدة الأصـنام الجهلـة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القـديم الذى يكررونه دائما، ف قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ

و هـذا الجواب الـذى يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسـلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذى اسـتطاعوا أن يردّوا به على إبراهيم عليه السّـلام، و هو جواب دليـل بطلانه كامن فيه، و ليس أى عاقل يجيز لنفسه أن يقفو أثر غيره و يصم أذنيه و يغمض عينيه، و لا سـيما أن تجارب الخلف أكثر من السلف عادة، و لا يوجد دليل على تقليدهم الأعمى! ...

و التعبير ب كَذلِكَ يَفْعَلُونَ تأكيد أكثر على تقليدهم، أى نفعل كما كانوا يفعلون، سواء عبدوا الأصنام أم سواها.

فالتفت إبراهيم موبّخا لهم و مبينا موقفة منهم و قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ ...

أجل ... إنّهم جميعا أعدائى و أنا معاديهم، و لا أسالمهم أبدا ...

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أن إبراهيم الخليل عليه السّـلام يقول: «فإنّهم عـدوّ لى» و إن كان لازم هـذا التعبير أنّه عـدوّ لهم أيضا، إلّا أن هذا التعبير لعله ناشئ من أن عبادة الأصنام أساس الشقاء و الضلال و عذاب الدنيا و الآخرة «للإنسان»، و هذه الأمور فى حكم عداوتها للإنسان. أضف إلى ذلك أنه يستفاد من آيات متعددة من القرآن أن الأصنام تبرأ من عبدتها يوم القيامة و تعاديهم، و تحاججهم بأمر اللّه و تنفر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۹۴

منهم.[۲۸۳] و استثناء ربّ العالمین مع أنّه لم یکن من معبوداتهم، و کما یصطلح علیه استثناء منقطع، إنّما هو للتأکید علی التوحید الخالص.

کما یرد هذا الاحتمال و هو أن من بین عبدة الأصنام من کان یعبد اللّه إضافة إلی عبادة الأصنام، فاستثنی إبراهیم «ربّ العالمین» من الأصنام، رعایة لهذا الموضوع ...

و ذکر الضمیر «هم» الذی یستعمل عادة للجمع «فی العاقلین» و قد ورد فی شأن الأصنام، لما ذکرناه من بیان آنفا ...

ثمّ یصف إبراهیم الخلیل ربّ العالمین و یذکر نعمه المعنویة و المادیّة، و یقایسها بالأصنام التی لا تسمع الدعاء و لا تنفع و لا تضرّ، لیتّضح الأمر جلیّا ...

فیبدأ بذکر نعمة الخلق و الهدایة فیقول: الَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ فقد هدانی فی عالم التکوین، و وفر لی وسائل الحیاة المادیة و المعنویة، کما هدانی فی عالم التشریع فأوحی إلیّ و أرسل إلیّ الکتاب السماوی ...

و ذکر «الفاء» بعد نعمة الخلق، هو إشارة إلی أن الهدایة لا تنفصل عن الخلق أبدا، و جملة (یهدین) الواردة بصیغة الفعل المضارع، دلیل واضح علی استمرار هدایته، و حاجة الإنسان إلیه فی جمیع مراحل عمره! فکأن إبراهیم فی کلامه هذا یرید أن یبیّن هذه الحقیقة، و هی إنّنی کنت مع اللّه منذ أن خلقنی، و معه فی جمیع الأحوال، و أشعر بحضوره فی حیاتی، فهو ولیی حیث ما کنت و یقلبنی حیثما شاء! ...

و بعد بیان أولی مراحل الربوبیة، و هی الهدایة بعد الخلق، یذکر إبراهیم الخلیل علیه السّلام النعم المادیة فیقول: وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۹۵

أجل، إنّنی أری النعم جمیعا من لطفه، فلحمی و جلدی و طعامی و شرابی، کل ذلک من برکاته! ...

و لست مشمولا بنعمة فی حال الصحة فقط، بل فی کل حال وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ

و مع أنّ المرض أیضا قد یکون من اللّه، إلّا أن إبراهیم نسبه إلی نفسه رعایة للأدب فی الکلام ...

ثمّ یتجاوز مرحلة الحیاة الدنیا إلی مرحلة أوسع منها ... إلی الحیاة الدائمة فی الدار الآخرة، لیکشف أنه علی مائدة اللّه حیثما کان، لا فی الدنیا فحسب، بل فی الآخرة أیضا. فیقول: وَ الَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ

أجل، إنّ موتی بیده و عودتی إلی الحیاة مرّة أخری منه أیضا ..

و حین أرد عرصات یوم القیامة أعلّق حبل رجائی علی کرمه: وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ الدِّینِ

و ممّا لا شک فیه أن الأنبیاء معصومون من الذنب، و لیس علیهم وزر کی یغفر لهم ... إلّا أنّه- کما قلنا سابقا- قد تعدّ حسنات الأبرار سیئات المقرّبین أحیانا، و قد یستغفرون أحیانا من عمل صالح لأنّهم ترکوا خیرا منه ... فیقال عندئذ فی حق أحدهم: ترک الأولی.

فإبراهیم علیه السّلام لا یعوّل علی أعماله الصالحة، فهی لا شیء بإزاء کرم اللّه، و لا تقاس بنعم اللّه المتواترة، بل یعوّل علی لطف اللّه فحسب، و هذه هی آخر مرحلة من مراحل الانقطاع إلی اللّه! ...

و ملخّص الکلام أن إبراهیم علیه السّلام من أجلّ أن یبیّن المعبود الحقیقی یمضی نحو خالقیّة اللّه أولا، ثمّ یبیّن بجلاء مقام ربوبیته فی جمیع المراحل:

فالمرحلة الأولی مرحلة الهدایة.

ثمّ مرحلة النعم المادیّة، و هی أعمّ من إیجاد المقتضی و الظروف الملائمة أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۹۶

دفع الموانع ...

و المرحلة الأخيرة هى مرحلة الحياة الدائمة فى الدار الأخرى، فهناك يتجلّى وجه الرب بالهبات و الصفح عن الذنوب و مغفرتها! ...

و هكذا يبطل إبراهيم الخرافات التى كانت فى قومه، من تعدد الآلهة و الأرباب و ينحنى خضوعا للخالق العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۸۳ الى ۸۷]

اشارة

رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ (۸۳) وَ اجْعَلْ لِی لِسانَ صِدْقٍ فِی الْآخِرِینَ (۸۴) وَ اجْعَلْنِی مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِیمِ (۸۵) وَ اغْفِرْ لِأَبِی إِنَّهُ کانَ مِنَ الضَّالِّینَ (۸۶) وَ لا تُخْزِنِی یَوْمَ یُبْعَثُونَ (۸۷)

التّفسير

دعاء إبراهيم عليه السّلام:

من هنا تبدأ أدعية إبراهيم الخليل و سؤالاته من اللّه، فكأنّه بعد أن دعا قومه الضالين نحو اللّه، و بيّن آثار الربوبية المتجليّة فى عالم الوجود ... يتجه بوجهه نحو اللّه و يعرض عنهم، فكل ما يحتاجه فانه يطلبه من اللّه، ليكشف للناس و لعبدة الأصنام أنه مهما أرادوه من شؤون الدنيا و الآخرة، فعليهم أن يسألوه من اللّه، و هو تأكيد آخر- ضمنى- على ربوبيته المطلقة.

فأوّل ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسة هو رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ

فالمقام الأوّل هنا الذى يريده إبراهيم لنفسه من اللّه هو الحكم، ثمّ الإلحاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۸

بالصالحين ...

و «الحكم» و «الحكمة» كلاهما من جذر واحد ... و «الحكمة» كما يقول عنها الراغب فى مفرداته: هى الوصول إلى الحق عن طريق العلم و معرفة الموجودات و الأفعال الصالحة، و بتعبير آخر: هى معرفة القيم و المعايير التى يستطيع الإنسان بها أن يعرف الحق حيثما كان، و يميز الباطل فى أى ثوب كان، و هو ما يعبّر عنه عند الفلاسفة ب «كمال القوّة النظرية».

و هى الحقيقة التى تلقّاها لقمان من ربّه وَ لَقَدْ آتَیْنا لُقْمانَ الْحِکْمَةَ.[۲۸۴] و عبّر عنها بالخير الكثير فى الآية (۲۶۹) من سورة البقرة وَ مَنْ یُؤْتَ الْحِکْمَةَ فَقَدْ أُوتِیَ خَیْراً کَثِیراً.

و يبدو أنّ للحكم مفهوما أسمى من الحكمة ... أى إنّه العلم المقترن بالاستعداد للتنفيذ و العمل، و بتعبير آخر: إن الحكم هو القدرة على القضاء الصحيح الخالى من الهوى و الخطأ! أجل، إنّ إبراهيم عليه السّلام يطلب من اللّه قبل كل شىء المعرفة العميقة الصحيحة المقرونة بالحاكميّة، لأن أى منهج لا يتحقق دون هذا الأساس! و بعد هذا الطلب يسأل من اللّه إلحاقه بالصالحين، و هو إشارة إلى الجوانب العملية، أو كما يصطلح عليها ب «الحكمة العملية» فى مقابل الطلب السابق و هو «الحكمة النظرية»! ...

و لا شك أن إبراهيم عليه السّلام كان يتمتع بمقام «الحكم» و كان فى زمرة الصالحين أيضا ... فلم سأل اللّه ذلك؟! الجواب على هذا السؤال هو أنّه ليس للحكمة حد معين، و لا لصلاح الإنسان حدّ، فهو يطلب ذلك ليبلغ المراتب العليا من العلم و العمل يوما بعد يوم، حتى و هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۹۹

فی موقع النبوة، و أنه من أولی العزم .. لا یکتفی بهذه العناوین ...

ثمّ- إضافة إلی ذلک- فإنّ إبراهیم علیه السّلام یعلم أن کل ذلک من اللّه سبحانه، و من الممکن فی أی لحظة أن تسلب هذه المواهب أو تزل به القدم، لذا فهو یطلب دوامها من اللّه إضافة إلی التکامل، کما أننا نخطو و نسیر إن شاء اللّه فی الصراط المستقیم، و مع ذلک فکلّ یوم نسأل ربّنا فی الصلاة أن یهدینا الصراط المستقیم، و نطلب منه التکامل و مواصلة هذا الطریق! و بعد هذین الطلبین ... یطلب موضوعا مهما آخر بهذه العبارة: وَ اجْعَلْ لِی لِسانَ صِدْقٍ فِی الْآخِرِینَ

أی اجعلنی بحال تذکرنی الأجیال الآتیة بخیر، و اجعل منهجی مستمرا بینهم فیتخذونی أسوة و قدوة لهم فیتحرکون و یسیرون فی منهاجک المستقیم و سبیلک القویم ...

فاستجاب اللّه دعاء إبراهیم کما یقول سبحانه فی القرآن الکریم: وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِیًّا.[۲۸۵] و لا یبعد أن یکون هذا الطلب شاملا لما سأله إبراهیم الخلیل ربه بعد بناء الکعبة، فقال: رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِکَ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ یُزَکِّیهِمْ [۲۸۶] و نعرف أن هذا الدعاء تحقق بظهور نبیّ الإسلام. و ذکر إبراهیم الخلیل بالخیر فی هذه الأمة عن هذا الطریق، و بقی هذا الذکر الجمیل مستمرا ...

ثمّ ینظر إبراهیم إلی أفق أبعد من أفق الدنیا، و یتوجه إلی الدار الآخرة، فیدعو بدعاء رابع فیقول: وَ اجْعَلْنِی مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِیمِ

«جنة النعیم» التی تتماوج فیها النعم المعنویة و المادیة، النعم التی لا زوال لها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۰

و لا اضمحلال ... النعم التی لا یمکن أن نتصورها نحن- سجناء الدنیا- فهی ما لا عین رأت و لا أذن سمعت! ...

و قلنا سابقا: إن التعبیر بالإرث فی شأن الجنّة إمّا لأنّ معنی الإرث الحصول علی الشیء دون مشقّة و عناء، و من المسلّم أن تلک النعم التی فی الجنّة تقاس بطاعاتنا، فطاعاتنا بالنسبة لا تمثل شیئا إلیها! ... أو أنّ ذلک- طبقا لما ورد فی بعض الرّوایات- لأن کل إنسان له بیت فی الجنة و آخر فی النار، فإذا دخل النّار ورث الآخرون بیته فی الجنّة ...

و فی خامس أدعیته یتوجه نظره إلی عمّه الضالّ، و کما وعده أنّه سیستغفر له، فإنّه یقول فی هذا الدعاء: وَ اغْفِرْ لِأَبِی إِنَّهُ کانَ مِنَ الضَّالِّینَ

و هذا الوعد هو ما صرحت به الآیة (۱۱۴) من سورة التوبة إذ تحکی عنه وَ ما کانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِیَّاهُ وعده من قبل، و کان هدفه أن ینفذ إلی قلبه عن هذا الطریق، و أن یجرّه إلی طریق الإیمان، لذلک قال له مثل هذا القول و عمل به أیضا ... و طبقا لروایة عن ابن عباس أن إبراهیم علیه السّلام استغفر لعمّه آزر مرارا، إلّا أنه حین غادر آزر الدنیا کافرا و ثبت عداؤه للدین الحق، قطع إبراهیم استغفار عن عمه، کما نری فی ذیل الآیة النص التالی: فَلَمَّا تَبَیَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ [۲۸۷] و أخیرا فإنّ دعاءه السادس من ربّه فی شأن یوم التغابن، یوم القیامة، بهذه الصورة وَ لا تُخْزِنِی یَوْمَ یُبْعَثُونَ

(و لا تخزنی)، مأخوذ من مادة (خزی) علی زنة (حزب) و کما یقول الراغب فی مفرداته، معناه الذل و الانکسار الروحی الذی یظهر علی وجه الإنسان من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۱

الحیاء المفرط، أو من جهة الآخرین حین یحرجونه و یخجلونه! و هذا التعبیر من إبراهیم، بالإضافة إلی أنه درس للآخرین، هو دلیل علی منتهی الإحساس بالمسؤولیة و الاعتماد علی لطف اللّه العظیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۲

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۸۸ الی ۱۰۴]

اشارة

يَوْمَ لا ـ يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ (۸۸) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ (۸۹) وَ أُزْلِفَـتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (۹۰) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغـاوِينَ (۹۱) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۹۲)

مِنْ دُونِ اللَّهِ هَـلْ يَنْصُـرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِـرُونَ (۹۳) فَكُبْكِبُوا فِيهـا هُمْ وَ الْغـاوُونَ (۹۴) وَ جُنُـودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُـونَ (۹۵) قـالُوا وَ هُـمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (۹۶) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ (۹۷)

إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعـالَمِينَ (۹۸) وَ مـا أَضَـلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (۹۹) فَمـا لَنـا مِنْ شافِعِينَ (۱۰۰) وَ لا ـ صَـدِيقٍ حَمِيمٍ (۱۰۱) فَلَوْ أَنَّ لَنـا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۲)

إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۰۴)

التّفسير

الخصام بين المشركين و معبوداتهم:

أشير فى آخر آيـة من البحث السابق إلى يوم القيامـة و مسألـة المعاد ... أمّا فى هذه الآيات فنلحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم المتاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۳

«فى تلك السوق»، و عاقبـة المؤمنين و عاقبـة الكافرين و الضالين و جنود إبليس، و يـدلّ ظاهر الآيات أن هـذا الوصف و هذا التصوير هو من كلام إبراهيم الخليل، و أنه ختام دعائه ربّه، و هكذا يعتقد- أيضا- أغلب المفسّرين ... و إن كان هناك من يحتمل أنه هو من كلام اللّه، و أن الآيات محل البحث هى منه سبحانه جاءت مكملة لكلام إبراهيم عليه السّلام و موضحة له، إلّا أن هذا الاحتمال يبدو ضعيفا! ...

و على كل حال، فأوّل ما تبدأ به هذه الآيات هو يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ

و فى الحقيقـة إنّ هاتين الدعامتين المهمتين فى الحياة الدنيا «المال و البنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة، و كل ما كان دون هاتين الـدعامتين رتبـة من الأمور الدنيويـة- من باب أولى- لا نفع فيه، و لا فائـدة من ورائه! و بديهى أنّ المراد من المال و البنين هنا ليس هو ما يكون- من المال و البنين- فى مرضاة اللّه، بل المراد منه الاستناد إلى الأمور الماديّة، فالمراد إذا هو أن هذه الدعامات الماديـة لا تحلّ معضلا فى ذلك اليوم ... أمّا لو كان أىّ من البنين و المال فى مرضاة اللّه فلن يكون ذلك مادّيا .. إذ يصطبغ بصبغة اللّه و يعدّ من «الباقيات الصالحات»! ...

ثمّ يضيف القرآن فى ختام الآية، على سبيل الاستثناء إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

و هكـذا يتّضـح أنّ أفضل ما ينجى يوم القيامـة هو القلب السـليم، و يا له من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسد فيه الإيمان و النية الخالصة، كمـا يحتوى على كـل ما يكون من عمل صالـح! و لم لا يكون لمثل هـذا القلب من ثمر سوى العمل الصالـح؟! و بتعبير آخر: كما أن قلب الإنسان و روحه يؤثران فى أعماله، فإن أعماله لها أثر واسع فى القلب أيضا، سواء كانت أعمالا رحمانية أم شيطانية! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۴

ثمّ يبيّن القرآن الجنّة و النار بالنحو التالى فيقول: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۲۸۸] وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ أى الضالين.

و هـذا الأمر- فی الحقیقـة- قبل ورود کلّ من أهل الجنّة و النار إلیهما! فکلّ طائفة تری مکانها من قریب .. فیسرّ المؤمنون و یستولی الرعب علی الغـاوین، و هـذا أوّل جزائهمـا هنـاک! الطریف هنـا أنّ القرآن لاـ یقول: اقـترب المتقون أو أزلف المتقون إلی الجنـة، بل یقول: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِینَ و هذا یدل علی مقامهم الکریم و عظم شأنهم! ...

کما ینبغی الإشارة إلی هذه اللطیفة، و هی أن التعبیر بالغاوین هو التعبیر ذاته الوارد فی قصة الشیطان، إذ طرده اللّه عن ساحته المقدسة فقـال له: إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ [۲۸۹] ثمّ یتحـدث القرآن عن ملامة هؤلاء الضالین، و ما یقال لهم من کلمات التوبیـخ أو العتاب، فیقول: وَ قِیلَ لَهُمْ أَیْنَ ما کُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فهل یستطیعون معونتکم فی هـذه الشـدة التی أنتم فیها، أو أن یطلبوا منکم أو من غیرکم النصر و المعونة هَلْ یَنْصُرُونَکُمْ أَوْ یَنْتَصِرُونَ ۲۹۰] ...

إلّا أنّهم لا یملکون جوابا لهذا السؤال! کما لا یتوقع أحد منهم ذلک! ...

فَکُبْکِبُوا فِیها هُمْ وَ الْغاوُونَ

کما یقول بعض المفسّرین: إن کلّا منهم سیلقی علی الآخر یوم القیامة! وَ جُنُودُ إِبْلِیسَ أَجْمَعُونَ

و فی الحقیقة أن هذه الفرق الثلاث، الأصنام و العابدین لها و جنود إبلیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۵

الـدالین علی هـذا الانـحراف، یساقون جمیعا إلی النار ... و لکن بهـذه الکیفیـة ... و هی أن تلقی الفرق فرقـة بعـد أخری فی النار. لأن «کبکبوا» فی الأصـل مـأخوذة من (کبّ)، و (الکبّ) معنـاه إلقاء الشـیء بوجهه فی الحفرة و ما أشـبهها، و تکراره «کبکب» یؤدی هـذا المعنی من السـقوط، و هذا یدلّ أنّهم حین یلقون فی النار مثلهم کمثل الصخرة إذ تهوی من أعلی الجبل أو تلقی من قمة الجبل، فهی تصل أولا نقطة ما فی الوادی ثمّ تتدحرج إلی نقاط أخر حتی تستقرّ فی القعر!.

إلّا أن الکلام لا یقف عنـد هـذا الحـدّ، بل یقع النزاع و الجـدال بین هـذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فیجسم القرآن مخاصـمتهم هنا، فیقول: قالُوا وَ هُمْ فِیها یَخْتَصِمُونَ

أجـل ... إن العبـدة الضـالین الغاوین یقسـمون باللّه فیقولون: تَاللَّهِ إِنْ کُنَّا لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ ۲۹۱] إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ الْعالَمِینَ ۲۹۲] وَ ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ...

المجرمون الـذین کـانوا سـادة مجتمعاتنـا و رؤسـاءنـا و کبراءنـا، فأضـلونا حفظا لمنافعهم، و جرّونا إلی طریق الشـقوة و الغوایـة ... کما یحتمل أن یکون المراد من المجرمین هم الشیاطین أو الاسلاف الضالین الذین جرّوهم إلی هذه العاقبة الوخیمة.

فَما لَنا مِنْ شافِعِینَ وَ لا صَدِیقٍ حَمِیمٍ ...

و الخلاصة أن الأصنام لا تشفع لنا کما کنا نتصور ذلک فی الدنیا، و لا یتأتی لأی صدیق أن یعیننا هنالک ...

و ممّا ینبغی الالتفات إلیه، أنّ کلمـة (شافعین) جاءت فی الآیـة السابقـة بصیغة الجمع کما تری، إلّا أن کلمـة (صـدیق) جاءت بصیغة الإفراد، و لعلّ منشأ هذا التفاوت و الاختلاف، هو أن هؤلاء الضالین یرون بأم أعینهم المؤمنین الجانحین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۶

یشـفع لهم الأنبیاء و الأوصـیاء أو الملائکـة و بعض الأصـدقاء الصالحین، فأولئک الضالون یتمنون الشافعین أیضا، و أن یکون عنـدهم صدیق هنالک! ...

إضافة إلی ذلک فإن کلمتی (الصدیق) و (العدو) کما یقول بعض المفسّرین، تطلقان علی المفرد و الجمع أیضا ...

إلّا أنّهم ما أسـرع أن یلتفتوا إلی واقعهم المرّ، إذ لا جـدوی هناک للحسـرة و لا مجال للعمل فی تلک الدار لجبران ما فات فی دنیاهم، فیتمنون العودة إلی دار الدنیا ... و یقولون: فَلَوْ أَنَّ لَنا کَرَّةً فَنَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ ...

و صـحیح أنّهم فی ذلک الیوم و فی عرصات القیامة یؤمنون بربّهم، إلّا أن هذا الإیمان نوع من الإیمان الاضطراری غیر المؤثر، و لیس

کالایمان الاختیاری، و فی هذه الدنیا حیث یکون أساسا للهدایة و العمل الصالح.

و لکن لا یحقق هذا التمنی شیئا، و لا یحلّ معضلا، و لن تسمح سنة اللّه بذلک، و هم یدرکون تلک الحقیقة، لأنّهم یتفوّهون بکلمة «لو»[۲۹۳] ...

و أخیرا بعد الانتهاء من هذا القسم من قصة إبراهیم، و کلماته مع قومه الضالین، و دعائه ربّه، و وصفه لیوم القیامة، یکرر اللّه آیتین مثیرتین بمثابة النتیجة لعبادة جمیعا، و هاتان الآیتان وردتا فی ختام قصة موسی و فرعون، کما وردتا فی قصص الأنبیاء الآخرین من السورة ذاتها فیقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ ...

و تکرار هاتین الآیتین، هو للتسریة عن قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تسلیته و من معه من الصحابة القلة و کذلک المؤمنین فی کل عصر و مصر لئلا یستوحشوا فی الطریق من قلة أهله و کثرة الأعداء ... و لیطمئنوا إلی رحمة اللّه و عزته، کما أن هذا التکرار بنفسه تهدید للغاوین الضالین. و إشارة إلی أنه لو وجدوا الفرصة فی حیاتهم و أمهلهم اللّه إمهالا فلیس ذلک عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته و کرمه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۷

ملاحظات

۱- القلب السلیم- وحده- وسیلة النجاة

فی أثناء کلام إبراهیم الخلیل علیه السّلام قرأنا ضمن ما ساقته الآیات المتقدمة من تعابیر فی وصف القیامة، أنّه لا ینفع فی ذلک الیوم شیء إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ

(السلیم) مأخوذ من السلامة، و له مفهوم واضح، و هو السالم و البعید من أیّ انحراف أخلاقی و عقائدی، أو أیّ مرض آخر! ...

تری ... ألم یقل اللّه القرآن فی شأن المنافقین فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.[۲۹۴] و نلاحظ تعاریف للقلب السلیم فی عدد من الأحادیث الغزیرة المعنی.

۱-

ففیّ حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام- ذیل الآیة محل البحث ۲۹۵]- یقول فیه: «و کل قلب فیه شرک أو شک فهو ساقط».

۲- و نعلم من جهة أخری أن العلائق المادیة الشدیدة و حب الدنیا ... کل ذلک یجرّ الإنسان إلی کل انحراف و خطیئة، لأن «حبّ الدنیا رأس کل خطیئة»[۲۹۶].

و لذلک فالقلب السلیم هو القلب الخالی من حبّ الدنیا، کما ورد هذا المضمون فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام- ذیل محل البحث- إذ

یقول: «هو القلب الذی سلم من حبّ الدنیا».[۲۹۷]

و مع الالتفات إلی الآیة (۱۹۷) من سورة البقرة إذ تقول: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوی ... یتّضح أن القلب السلیم هو القلب الذی یکون محلا لتقوی اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۸

۳- و آخر ما نقوله- هنا- أنّ القلب السلیم هو القلب الذی لیس فیه سوی اللّه، کما یجیب الإمام الصادق علیه السّلام علی سؤال فی هذا الشأن

فیقول: «القلب السلیم الذی یلقی ربّه و لیس فیه أحد سواه».[۲۹۸]

و لا یخفی أن المراد من القلب فی مثل هذه الموارد هو روح الإنسان و نفسه.

و هناک مسائل کثیرة وردت فی الروایات الإسلامیة تتحدث حول سلامة القلب و الآفات التی تصیبه، و طریق مبارزتها و مکافحتها، و یستفاد من مجموع هذا المفهوم الإسلامی المتین أن الإسلام یهتم قبل کلّ شیء بالأساس الفکری و العقائدی و الأخلاقی، لان جمیع المناهج التطبیقیة و العملیة للإنسان هی انعکاسات لذلک الأساس و آثاره! ...

فکما أنّ سلامة القلب الظاهریة سبب لسلامة الجسم، و أن مرضه سبب لمرض أعضائه جمیعا، لأنّ تغذیة الخلایا فی البدن تتمّ بواسطة الدم الذی یتوزع و یرسل إلی جمیع الأعضاء بإعانة القلب علی هذه المهمّة ... فکذلک هی الحال بالنسبة لسلامة مناهج حیاة الإنسان و فسادها، کل ذلک انعکاس عن سلامة العقیدة و الأخلاق أو فسادهما ...

و نختتم هذا البحث

بحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام إذ قال: «إنّ القلوب أربعة:

قلب فیه نفاق و إیمان، و قلب منکوس، و قلب مطبوع، و قلب أزهر أجرد، «أجرد من غیر اللّه» إلی أن قال علیه السّلام: و أمّا الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شکر و إن ابتلاه صبر. و أمّا المنکوس فقلب المشرک أ فَمَنْ یَمْشِی مُکِبًّا عَلی وَجْهِهِ أَهْدی أَمَّنْ یَمْشِی سَوِیًّا عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ فإن القلب الذی فیه إیمان و نفاق، فهم قوم کانوا بالطائف، فإن أدرک أحدهم أجله علی نفاقه هلک، و إن أدرکه علی إیمانه نجا».[۲۹۹]

۲- و جاء فی الروایات متعددة عن الإمامین الصادقین (أبی جعفر و أبی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۹

عبد اللّه علیهما السّلام) فی تفسیر فَکُبْکِبُوا فِیها هُمْ وَ الْغاوُونَ قولهما: «هم قوم وصفوا عدلا بألسنتهم ثمّ خالفوه إلی غیره».[۳۰۰] و هذا الحدیث یدل علی أنّ القول بلا عمل قبیح و مذموم جدّا، إذ یلقی أصحابه فی النار، فأولئک قوم ضالون مضلّون، و کلامهم یهدی، الناس إلی الحق، بینما عملهم یجرّهم إلی الباطل، بل إن عملهم کاشف عن عدم إیمانهم بأقوالهم! و ینبغی الالتفات- ضمنا- إلی أن کلمة «غاوون» المأخوذة من «الغیّ» لا تعنی الضلال مطلقا، بل کما یقول الراغب فی المفردات: هو نوع من الجهل و الضلال الناشئ عن فساد العقیدة.

۳- وردت فی ذیل الآیة فَما لَنا مِنْ شافِعِینَ وَ لا صَدِیقٍ حَمِیمٍ روایات متعددة، و بعضها صریحة فی أن:

«الشافعون الأئمّة و الصدیق من المؤمنین».[۳۰۱]

و

جاء فی حدیث آخر عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری أنه سمع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: «إن الرجل یقول فی الجنّة: ما فعل صدیقی فلان؟ و صدیقه فی الجحیم، فیقول اللّه: أخرجوا له صدیقه إلی الجنّة، فیقول من بقی فی النار: فما لنا من شافعین و لا صدیق حمیم».[۳۰۲]

و بدیهی أنّه لا الشفاعة بدون معیار و ملاک، و لا السؤال فی شأن الصدیق دون حساب، فلا بد من وجود ارتباط أو علاقة بین الشفیع و المشفوع له لیتحقق هذا الهدف ... «بیّنا تفصیل هذا الموضوع فی بحث الشفاعة، فی تفسیر الآیة ۴۸ من سورة البقرة- فلیراجع فی محله».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۱۰

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۰۵ الی ۱۱۵]

اشارة

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۰۵) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۰۶) إِنِّی لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۰۷) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۰۸) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلی رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۰۹)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۱۰) قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (۱۱۱) قالَ وَ ما عِلْمِی بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۲) إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلی رَبِّی لَوْ تَشْعُرُونَ (۱۱۳) وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۴)

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۱۵)

التّفسير

يا نوح، لم يحف بک الأرذلون؟!

يتحدّث القرآن الكريم بعد الانتهاء ممّا جرى لإبراهيم و قومه الضّالين، عن قوم نوح عليه السّلام حديثا للعبرة و الاتعاظ ... فيذكر عنادهم و شدّتهم فی موقفهم من نوح عليه السّلام و عدم حيائهم و عاقبتهم الأليمة ضمن عدّة آيات ... فيقول أوّلا: كَذَّبَتْ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۱

قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ [۳۰۳] و واضح أن قوم نوح إنّما كذبوا نوحا فحسب ... و لكن لمّا كانت دعوة المرسلين واحدة من حيث الأصول، فقد عدّ تكذيب نوح تكذيبا للمرسلين جميعا ... و لذا قال القرآن كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ

كما و يحتمل أنّ قوم نوح أساسا كانوا منكرين لجميع الأديان و المذاهب، سواء قبل ظهور نوح أو بعده ...

ثمّ يشير القرآن الكريم إلی هذا الجانب من حياة نوح عليه السّلام، الذی سبق أن أشار إليه فی كلامه حول إبراهيم و موسی عليهما السّلام، فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ ...

و التعبير بكلمة «أخ» تعبير يبيّن منتهی المحبّة و العلاقة الحميمة علی أساس المساواة ... أی أن نوحا دون أن يطلب التفوق و الاستعلاء عليهم، كان يدعوهم إلی تقوی اللّه فی منتهی الصفاء.

و التعبير بالأخوة لم يرد فی شأن نوح فی القرآن فحسب، بل جاء فی شأن كثير من الأنبياء، كهود و صالح و لوط، و هو يلهم جميع القادة و الأدلاء علی طريق الحق أن يراعوا فی دعواتهم منتهی المحبة المقرونة بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق، و لا يستثقله الناس! ...

و بعد دعوة نوح قومه إلی التقوی التی هی أساس كل أنواع الهداية و النجاة، يضيف القرآن فيقول علی لسان نوح و هو يخاطب قومه: إِنِّی لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ فإن إطاعتی من إطاعة اللّه سبحانه ...

و هذا التعبير يدلّ علی أن نوحا عليه السّلام كانت له صفة ممتدة من الأمانة بين قومه،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۲

و كانوا يعرفونه بهذه الصفة السامية، فهو يقول لهم: إِنِّی لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و لهذا فإنّی أمين أيضا فی أداء الرسالة الالهية، و لن تجدوا خيانة منّی أبدا ...

و تقديم التقوی علی الإطاعة، لأنه ما لم يكن هناك إيمان و اعتقاد باللّه و خشية منه، فلن تتحقق الإطاعة لنبيّه ...

و مرّة أخری يتمسک نوح عليه السّلام بحقانية دعوته، و يأتی بدليل آخر يقطع به لسان المتذرعين بالحجج الواهية، فيقول: وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلی رَبِّ الْعالَمِينَ

و معلوم أن الـدوافع الإلهية- عادة- دليل على صدق مدعى النبوّة، فى حين أن الدوافع المادّية تدل بوضوح على أن الهدف من ورائها هو طلب المنفعة، و لا سيما أن العرب فى ذلك العصر كانوا يعرفون هذه المسألة فى شأن الكهنة و أضرابهم ...

ثمّ يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذى جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته و أمانته، إذ يقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ ...

إلّا أنّ المشـركين الحمقى، حين رأوا سبل ما تـذرّعوا به من الحجـج الواهيـة موصـدة، تمسـكوا بهـذه المسألة، ف قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَکَ وَ اتَّبَعَکَ الْأَرْذَلُونَ

إن قيمـة الزعيم ينبغى أن تعرف ممن حوله من الأتبـاع، و بعبارة أخرى «إن الولى يعرف من زوّاره- كما يقال» فحين نلاحظ قومك يا نوح، نجـدهم حفنـة من الأـراذل و الفقراء و الحفاة و الكسبة الضـعاف، قـد داروا حولـك، فكيف تتوقع أن يتبعـك الاثريـاء الأغنياء الشـرفاء و الوجهـاء و يخضـعوا لـك؟! و صـحيح أنّهم كـانوا صادقين و مصـيبين فى أنّ الزعيم يعرف عن طريق أتباعه، إلّا أن خطأهم الكـبير هو عـدم معرفتهم مفهوم الشخصـية و معيارهـا ... إذ كـانوا يرون معيـار القيم فى المـال و الثروة و الألبسـة و البيوت و المراكب الغالية و الجميلة، و كانوا غافلين عن النقاء و الصفاء و التقوى و الطهارة و طلب الحق، و الصفات العليا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٤١٣

للإنسانية الموجودة فى الطبقات الفقيرة و القلّة من الاشراف.

إن روح الطبقية كانت حاكمة على أفكارهم فى أسوأ أشكالها، و لذلك كانوا يسمّون الفقراء الحفاة بالأراذل.

و «الأـراذل» جمـع (أرذل) كمـا أنّه جمع (للرذل) و معنـاه الحقير ... و لو كـانوا يتحررون من قيود المجتمع الطبقى، لأـدركوا جيـدا أن إيمـان هـذه الطائفـة نفسـها دليل على حقانيـة دعوة النّبى و أصالتها! إلّا أنّ نوحا عليه السّـلام جابهم و ردّهم بتعبير متين، و جرّدهم من سلاحهم و قالَ وَ ما عِلْمِی بِما کانُوا یَعْمَلُونَ

فما مضى منهم مضى، و المهم هو أنّهم اليوم استجابوا لدعوة النّبى، و قالوا له:

لبّيك، و توجهوا لبناء شخصياتهم، و مكنوا الحقّ من أن ينفذ إلى قلوبهم! ...

و إذا كانوا فى ما مضى من الزمن قد عملوا صالحا أو طالحا، فلست محاسبا و لا مسئولا عنهم آنئذ إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلی رَبِّی لَوْ تَشْعُرُونَ

و يستـفاد من هذا الكلام- ضـمنا- أنّهم كانوا يريدون أن يتهموا هؤلاء الطائفة من المؤمنين، بالإضافة إلى خلوّ أيديهم، بسوء سابقتهم الأخلاقية و العملية، مع أن الفساد و الانحراف الخلقى عادة فى المجتمعات المرفهة أكثر من سواها بدرجات ... فهم الذين تتوفر لديهم كل وسائل الفساد، و هم سكارى المقام و المال، و قلّ أن يكونوا من الصالحين.

إلّا أن نوحـا عليه السّـلام- دون أن يصـطدم بهم فى مثـل هـذه الأـمور- يقول: مـا علمى بهم و بمـا كانوا يعملون، فإذا كان الأمر كما تزعمون فإنّما حسابهم على ربى لو تشعرون! و إنّما علىّ أن أبسط جناحى لجميع طلّاب الحق وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِینَ

و هـذه العبارة فى الحقيقـة جواب ضـمنى لطلب هؤلاء المثرين الأغنياء المغرورين، الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفة الفقراء من حوله، ليتقربوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ٤١٤

منه و يكونوا من أتباعه بعد طرد أولئك الفقراء ...

و لكن المسؤولية الملقاة على عاتقى هى أن أنذر الناس فحسب إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ مُبِینٌ

فمن سـمع إنذارى و عاد إلى الصـراط المستقيم بعد ضلاله، فهو من أتباعى كائنا من كان، و فى أى مستوى طبقى و مقام اجتماعى أو مـادى! و ممّـا ينبغى الالتفـات إليه أن هـذا الإيراد لم يتعرّض له نوح النّبى الـذى هو أول الرسل من أولى العزم فحسب، بل و وجه الى النّبى محمـد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و سائر الأنبياء به، فالأغنياء كانوا ينظرون بنظاراتهم الفكرية السوداء شخصـيات هؤلاء الفقراء البيضاء، فيرونها سوداء، فيطلبون طردهم دائما. و لم يقبلوا بربّ و لا نبى يتبعه مثل هؤلاء العباد الفقراء! ...

إلّا أنه ما أعذب و أحلى تعبير القرآن عنهم فى سورة الكهف، إذ يقول:

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

و هذا الإيراد أو الإشكال يوردونه حتى على قادة الحق و الأدلّاء على الهدى فى كل عصر و زمان، و هو أن معظم أتباعكم المستضعفون! أو الحفاة الجائعون.

إنّهم يريدون أن يعيبوا بكلامهم هذا الرسالة و المذهب، مع أنّهم من حيث لا يشعرون، يمدحون و يطرون ذلك المذهب و يوقّعون على أصالته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۵

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۱۶ الى ۱۲۲]

اشارة

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (۱۱۶) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (۱۱۷) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۸) فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۱۹) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (۱۲۰)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۲۱) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۲۲)

التّفسير

نجاة نوح و غرق المشركين:

كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين فى مواجهة نبيّهم نوح عليه السّلام، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ و هو الاعتماد على القوّة و التهديد بالموت و الفناء: قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ

و التعبير ب «من المرجومين» يدل على أنّ الرجم بالحجارة بينهم كان جاريا فى شأن المخالفين ... و فى الحقيقة إنّهم يقولون لنوح: إذا قررت أن تواصل دعوتك للتوحيد ... و الاستمرار على عقيدتك و دينك، فستنال ما يناله المخالفون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۶

- عامّة- و هو الرجم بالحجارة، الذى يعد واحدا من أسوأ أنواع القتل.[۳۰۴] و لما رأى نوح أن دعوته المستمرة الطويلة بما فيها من منطق بيّن ... و بما يقترن بها من اصطبار، لم تؤثر إلّا فى جماعة قلة آمنوا به ... شكا إلى ربّه أخيرا، و ضمن بيان حاله، سأل ربه أن ينجيّه من قبضة الظالمين، و أن يبعده عنهم ... إذ قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ

و صحيح أن اللّه مطّلع على كل شىء، إلّا أنه لبيان الشكوى و تمهيدا للسؤال التالى، يذكر نوح مثل هذا الكلام.

و ممّا يلفت النظر أنّ نوحا لم يشتك من المصائب التى أبتلى بها، بل اشتكى من تكذيب قومه إيّاه فحسب، إذ لم يصدقوه و لم يقبلوا رسالته الالهية لهدايتهم ...

ثمّ يلتفت إلى ربّه فيقول: و الآن حيث لم يبق طريق لهداية هؤلاء القوم فاقض بيننا و افصل بينى و بينهم: فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً.

«الفتح» معناه واضح، و هو ما يقابل الغلق و يضاده، و له استعمالان ... فتارة يستعمل فى القضايا المادية كفتح الباب مثلا، و تارة يستعمل فى القضايا المعنوية كفتح الهمّ و رفع الغم، و كفتح المستغلق من العلوم، و فتح القضية، اى بيان الحكم حسم النزاع! ثمّ

یضیف فیقول: وَ نَجِّنِی وَ مَنْ مَعِیَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

و هنا یعبر القرآن عن إدراک رحمة اللّه نوحا، و إهلاک المکذبین بعاقبة وخیمة مفجعة، إذ یقول: فَأَنْجَیْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِی الْفُلْکِ الْمَشْحُونِ ای الملیء بالناس و انواع الحیوانات ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِینَ ...

«المشحون» مأخوذ من مادة (شحن) علی وزن (صحن) و معناه الملء، و قد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۷

یستعمل بمعنی التجهیز ... و «الشحناء» تطلق علی العداوة التی تستوعب جمیع جوانب الإنسان، و المراد من «المشحون» هنا هو أنّ ذلک الفلک [أی السفینة] کان مملوءا من البشر و جمیع الوسائل ... و لم یکن فیه أی نقص ... إی أن اللّه بعد ما جهز السفینة و أعدّها للحرکة، أرسل الطوفان لئلا یبتلی نوح و جمیع من فی الفلک بأی نوع من أنواع الأذی ... و هذا بنفسه إحدی نعم اللّه علیهم! و فی ختام هذه القصة القصیرة، یقول القرآن ما قاله فی ختام قصة موسی و إبراهیم علیهما السّلام، فیکرر قوله: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً أی فی ما جری لنوح علیه السّلام و دعوته المستمرة و صبره و نجاته و غرق مخالفیه وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ

و لهذا فلا تحزن یا رسول اللّه من إعراض المشرکین و عنادهم، و استقم کما أمرت ... فإنّ عاقبتک و عاقبة أصحابک عاقبة نوح و أصحابه، و عاقبة الضالین من قومک کعاقبة الضالین من قوم نوح.

وَ اعلم إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ

فرحمته تقتضی أن یمهلهم و یتمّ علیهم الحجة بإعطاء الفرصة الکافیة، و عزته تستلزم أن ینصرک علیهم، و تکون عاقبة أمرهم خسرا! ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۸

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۲۳ الی ۱۳۵]

اشارة

کَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِینَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴) إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۲۵) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۲۶) وَ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلی رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۲۷)

أَ تَبْنُونَ بِکُلِّ رِیعٍ آیَةً تَعْبَثُونَ (۱۲۸) وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ (۱۲۹) وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِینَ (۱۳۰) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۳۱) وَ اتَّقُوا الَّذِی أَمَدَّکُمْ بِما تَعْلَمُونَ (۱۳۲)

أَمَدَّکُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِینَ (۱۳۳) وَ جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ (۱۳۴) إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۳۵)

التّفسیر

جنایات عاد و اعمالهم العدوانیة:

و الآن یأتی الکلام عن «عاد» قوم «هود» إذ یعرض القرآن جانبا من حیاتهم و عاقبتهم، و ما فیها من دروس العبر، ضمن ثمانی عشرة آیة من آیاته! ...

«عاد»- کما قلنا من قبل- جماعة کانوا یقطنون فی «الأحقاف»، و هی منطقة فی حضر موت تابعة للیمن، تقع جنوب الجزیرة العربیة ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۹

فيقول القرآن: كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ [۳۰۵] بـالرغم من أنّهم كـذبوا هودا فحسب، إلّا أنّه لمّا كانت دعوة هود هى دعوة الأنبياء جميعا، فكأنّهم كذّبوا الأنبياء جميعا ...

و بعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدّث القرآن عنهم فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ

لقد دعاهم إلى التوحيد و التقوى فى منتهى الشفقة و العطف و الحرص عليهم، لذلك عبّر عنه القرآن بكلمة «أخوهم» ...

ثمّ أضاف قائلا: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و ما سبق من حياتى بين ظهرانيكم يـدل على هـذه الحقيقة، فإنّى لم أخنكم أبدا ... و لم تجدوا منّى غير الصدق و الحق! ...

ثمّ يضيف مؤكّدا: لما كنتم تعرفوننى جيدا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ ... لأنّ إطاعتكم إيّاى إطاعة للّه سبحانه ... و لا تتصوروا بأنّى أدعوكم لانتفع من وراء دعوتى إيّاكم فى حياتى الـدنيا و أنال المال و الجاه، فلست كـذلك وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ... فجميع النعم و البركات من قبله سبحانه، و إذا أردت شيئا طلبته منه، فهو ربّ العالمين جميعا ...

و القرآن الكريم يستند فى هذا القسم من سيرة «هود» فى قومه إلى أربعة أمور على الترتيب ...

فالأمر الأوّل: هو محتوى دعوة «هود» الذى يدور حول توحيد اللّه و تقواه، و قرأنا ذلك بجلاء فى ما مضى من الآى ...

أمّا الأمور الثلاثة الأخر فيذكرها القرآن حاكيا عن لسان هود فى ثوب الاستفهام الإنكارى، فيقول: أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۰

«الريع» فى الأصل يطلق على المكان المرتفع، أمّا كلمـة (تعبثون) فمأخوذ من «العبث»، و معناه العمل بلا هدف صـحيح، و مع ملاحظة كلمـة (آيـة) الـتى تـدل على العلامـة يتّضـح معنى العبـارة بجلاـء ... و هـو أنّ هؤلاـء القـوم المـترين، كـانوا يبنون على قمم الجبـال و المرتفعـات الأـخر مبـانى عاليـة للظهور و التفـاخر على الآخرين، و هـذه المبانى [كالأبراج و ما شاكلها] لم يكن من روائها أى هـدف سوى لفت أنظار الآخرين، و إظهار قدرتهم و قوّتهم- من خلالها-!! و ما قاله بعض المفسّـرين من أنّ المراد من هذا التعبير هو المبانى و المنازل التى كانت تبنى على المرتفعات، و كانت مركزا للهو و اللعب، كما هو جار فى عصـرنا بين الطغاة ... فيبـدو بعيـدا، لأن هـذا التعبير لا ينسجم مع كلمتى (الآية) و (العبث).

كما أنّ هناك احتمال ثالث ذكره بعض المفسّرين، و هو أنّ عادا كانت تبنى هـذه البنايات للاشـراف على الشوارع العامّـة، ليسـتهزئوا منها بالمارة، إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صحة من سواه ...

و أمّا الأمر الثّالث الذى ذكره القرآن حاكيا على لسان هود منتقدا به قومه، فهو قوله: وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ

«المصـانع» جمع «مصنع» و معنـاه المكـان أو البنـاء المجلّـل المحكم، و النّبى هود لا يعترض عليهم لأنّ لـديهم هـذه البنايات المريحة الملائمـة، بل يريـد أن يقول لهم: إنّكم غارقون فى أمواج الـدنيا، و منهمكون بعبادة الزينـة و الجمال و العمل فى القصور حتى نسيتم الدار الآخرة! ... فلم تتخذوا الدنيا على أنها دار ممر، بل اتخذتموها دار مقر دائم لكم ...

أجل، إنّ مثل هذه المبانى التى تذهل أهلها، و تجعلهم غافلين عن اليوم الآخر، هى لا شك مذمومة! و

فى بعض الرّوايات عن أنس بن مالك أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج فرأى قبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۱

فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصـحابه: هذا الرجل من الأنصار فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسـلم فى الناس أعرض عنه و صـنع ذلك مرارا حتى عرف الرجـل الغضب به و بالاـعراض عنه، فشـكى ذلك إلى أصـحابه و قال: و اللّه إنّى لأنكر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما أدرى ما حدث فىّ و ما صنعت؟

قالوا: خرج رسول اللّه فرأى قبّتك فقال: لمن هـذه؟ فأخبرناه، فرجع الى قبّته فسواها بالأرض، فخرج رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التى كانت ها هنا قالوا: شكى إلينا صاحبها انحراصل عنه فأخبرناه فهدمها فقال صلّى اللّه

علیه و آله و سلّم: «إن کلّ ما یبنی و بال علی صاحبه یوم القیامة، إلّا ما لا بدّ منه».[۳۰۶]

و یعرف من هذه الرّوایة و ما شابهها من الرّوایات نظر الإسلام بجلاء، فکل بناء «طاغوتی» مشید بالإسراف و البذخ و مستوجب للغفلة ... یمقته الإسلام، و یکره للمسلمین أن یبنوا مثل هذه الأبنیة التی یبنیها المستکبرون المغرورون الغافلون عن اللّه، و لا سیما فی محیط یسکن فیه المحرومون و المستضعفون ...

إلّا أن ما ینبغی التنویه به، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یستعمل القوة للوصول إلی هذا الهدف الإنسانی أبدا، و لم یأمر بتخریب البناء، بل استطاع أن یحقق هدفه برد فعل لطیف کالإعراض و عدم الاهتمام بالبناء مثلا! ...

ثمّ ینتقد النّبی «هود» قومه علی قسوتهم و بطشهم عند النزاع و الجدال فیقول:

وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِینَ

فمن الممکن أن یعمل الإنسان عملا یستوجب العقوبة، إلّا أنّه لا یصح تجاوز الحد و الانحراف عن جادة الحق و العدل عند محاسبته و معاقبته، و أن یعامل ذو الجرم الصغیر معاملة ذی الجرم الکبیر ... و أن تسفک الدماء عند الغضب و یقع التماصع بالسیف ۳۰۷]، فذلک ما کان یلجأ إلیه الجبابرة و الظلمة و الطغاة آنئذ ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۲

و یری الراغب فی المفردات أن «البطش» علی زنة (نقش) هو أخذ الشیء بقوّة و قسّوة و استعلاء ...

و فی الحقیقة أن هودا یوبخ عبدة الدنیا عن طرق ثلاثة:

الأوّل: علاماتهم التی کانت مظهرا لحبّ الاستعلاء و حب الذات، و التی کانت تبنی علی المرتفعات العالیة لیفخروا بها علی سواهم.

ثمّ یوبخهم علی مصانعهم و قصورهم المحکمة، التی تجرهم إلی الغفلة عن اللّه، و إن الدنیا دار ممر لا مقر.

و أخیرا فإنّه ینتقدهم فی تجاوزهم الحدّ و البطش عند الانتقام ...

و القدر الجامع بین هذه الأمور الثلاثة هو الإحساس بالاستعلاء و حبّ البقاء. و یدلّ هذا الأمر علی أن عشق الدنیا کان قد همین علیهم، و أغفلهم عن ذکر اللّه حتی ادعوا الألوهیة ... فهم بأعمالهم هذه یؤکّدون هذه الحقیقة، و هی أن «حب الدنیا رأس کل خطیئة».[۳۰۸]

و القسم الثّالث من حدیث هود ممّا بیّنه لقومه، هو ذکر نعم اللّه علی عباده لیحرک فیهم- عن هذا الطریق- الإحساس بالشکر لعلهم یرجعون نحو اللّه ...

و فی هذا الصدد یتبع النّبی هود أسلوبی الإجمال و التفصیل، و هما مؤثران فی کثیر من الأبحاث، فیلتفت نحوهم أولا فیقول: وَ اتَّقُوا الَّذِی أَمَدَّکُمْ بِما تَعْلَمُونَ [۳۰۹] و بعد هذا التعبیر المجمل یذکر تفصیل نعم اللّه علیهم، فیقول: أَمَدَّکُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِینَ ...

فمن جهة وفّر لکم الأمور المادیة، و کان القسم المهم منها- خاصّة فی ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۳

العصر- الأنعام و المطایا من النیاق و غیرها. و من جهة أخری وفّر لکم القوّة الکافیة و هی «الأبناء» للحفاظ علی الأنعام و تدجینها ...

و هذا التعبیر تکرر فی آیات مختلفة، فعند عدّ النعم المادیة تذکر الأموال أولا ثمّ الأبناء ثانیا، و هم الحفظة للأموال و منمّوها، و یبدو أن هذا ترتیب طبیعی، لا أن الأموال أهم من الأبناء ... إذ نقرأ فی الآیة (۶) من سورة الإسراء ... وَ أَمْدَدْناکُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِینَ وَ جَعَلْناکُمْ أَکْثَرَ نَفِیراً ...

ثمّ یضیف بعد ذلک: وَ جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ

و هکذا فقد وفر اللّه لکم سبل الحیاة جمیعا، من حیث الأبناء أو القوّة الإنسانیة، و الزراعة و التدجین و وسائل الحمل و النقل، بشکل لا یحس الإنسان معه بأی نقص أو قلق فی حیاته!

لکن ما الـذی حدث حتی نسیـتم واهب هذه النعم جمیعا، و أنتم تجلسون علی مائدته لیل نهار، و لا تعرفون قدره؟! و أخیرا، فإنّ هودا فی آخر مقطع من حدیثه مع قومه ینذرهم و یهددهم بسوء الحساب و عقاب اللّه لهم، فیقول: إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ ... ذلک الیوم الذی ترون فیه نتائج أعمالکم و ظلمکم و غرورکم و استکبارکم، و حب الذات و ترک عبادة اللّه ... ترون کلّ ذلک بأم أعینکم.

و عادة- یستعمل لفظ (الیوم العظیم) فی القرآن، و یراد منه یوم القیامة العظیم من کل وجه ... إلّا أنّه قد یستعمل فی القرآن فی الیوم الصعب الموحش المؤلم علی الأمم ...

کما نقرأ فی هـذه السورة فی قصة «شعیب»، أن قومه بعد أن جحدوه و لم یؤمنوا به و عاندوه و استهزءوا به، أرسل اللّه علیهم صاعقة «و کانت قطعة من الغیم» فعاقبهم بها، فسمّی ذلک الیوم بالیوم العظیم، کما تقول الآیـة: فَأَخَذَهُمْ عَذابُ یَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ کانَ عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۴

فبناء علی هـذا قـد یکون التعبیر ب «یوم عظیم» فی الآیـة محـل البحث، إشـارة إلی الیوم الـذی ابتلی به المعانـدون من قوم هود (عاد) بالعذاب الألیم و هو الاعصار المدمر، و سیتجلی الشاهد علی هذا المعنی فی الآیات المقبلة ...

کما یمکن أن یکون إشارة إلی یوم القیامة و عذابه ... أو إلی العذابین معا، فیوم الاعصار یوم عظیم، و یوم القیامة یوم عظیم أیضا ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۵

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۳۶ الی ۱۴۰]

اشارة

قالُوا سَواءٌ عَلَیْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَکُنْ مِنَ الْواعِظِینَ (۱۳۶) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِینَ (۱۳۷) وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ (۱۳۸) فَکَذَّبُوهُ فَأَهْلَکْناهُمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۳۹) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۱۴۰)

التّفسیر

لا تتعب نفسک فی نصحنا:

رأینا فی الآیات المتقدمـة أحادیث النّبی هود المحترق القلب شـفقة لقومه المعانـدین «عاد» و ما حملته هذه الأحادیث من معان غریزة سامیـة ... و الآن ینبغی أن نعرف جـواب قومه الجـارح و غیر المنطقی و لا-المعقول، یقول القرآن فی هـذا الصـدد قـالُوا سَواءٌ عَلَیْنـا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَکُنْ مِنَ الْواعِظِینَ فلن یؤثر ذلک فینا، فلا تتعب نفسک.

أمّا اعتراضک علینا بهذه الأمور فلا محل له من الاعراب إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِینَ

و لیس الأمر کما تقول، فإنّه لا شیء بعد الموت وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ لا فی هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۶

العالم، و لا فی العالم الآخر.

و «الخلق»- بضم الخاء و اللام- معناه العادة و السلوک و الأخلاق لأن هذه الکلمة جاءت بصیغة الإفراد بمعنی الطبع و السجیّة و العادة الأخلاقیـة ... و هی هنـا إشارة إلی الأعمال التی کانت تصـدر منهم کعبادة الأصـنام، و بناء القصور العالیـة الجمیلـة، و حب الـذات، و

التفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعة، و كذلك البطش عند الانتقام أو الجزاء ... أى إن ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض و الانتقاد! ...

و فسّر «الخلق» بعضهم بالكذب، أى إنّ ما تقوله فى شأن اللّه و القيامة كلام باطل قيل من قبل (إلّا أن هذا التّفسير إنّما يقبل إذا قرئ النص: إن هذا إلّا خلق الأولين. فيكون الخلق فيه على وزن (الحلق) إلّا أن القراءة المشهورة ليست كذلك!).

و يبيّن القرآن عاقبة قوم هود الوبيلة فيقول: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ

و فى ختام هذه الاحداث يذكر القرآن تلكما الجملتين المعبّرتين، اللتين تكررتا فى نهاية قصص نوح و إبراهيم و موسى عليهما السّلام ... فيقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً على قدرة اللّه، و استقامة الأنبياء و عاقبة المستكبرين السيئة، و لكن مع ذلك وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

فيمهل إمهالا كافيا. و يمنح الفرصة. و يبيّن الدلائل الواضحة للمضلين ليهتدوا ... إلّا أنه عند المجازاة و العقاب، و بعد إتمام الحجة يأخذ أخذا عسيرا لا مفرّ لأحد منه أبدا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۴۱ الى ۱۵۲]

اشارة

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (۱۴۱) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۴۲) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۴۳) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۴۴) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۴۵)

أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (۱۴۶) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۴۷) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (۱۴۸) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (۱۴۹) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۵۰)

وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (۱۵۱) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (۱۵۲)

التّفسير

لا تطيعوا المسرفين المفسدين:

القسم الخامس من قصص الأنبياء فى هذه السورة، هو قصّة «ثمود» الموجزة القصيرة، و نبيّهم «صالح» الذين كانوا يقطنون فى «وادى القرى» بين المدينة و الشام، و كانت حياتهم مترفة مرفهة ... إلّا أنّهم لطغيانهم و عنادهم أبيدوا و أبيروا حتى لم يبق منهم ديّار و لم تترك لهم آثار ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۸

و بداية القصّة هذه مشابهة لبداية قصة عاد «قوم هود» و بداية قصة نوح و قومه، و هى تكشف كيف يتكرر التاريخ، فتقول: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ...

لأنّ دعوة المرسلين جميعا دعوة واحدة، فتكذيب ثمود نبيّهم صالحا تكذيب للمرسلين أيضا ...

و بعد ذكر هذا الإجمال يفصّل القرآن ما كان بين صلاح و قومه، فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ ...

لقد كان النّبى صالح هاديا و دليلا لقومه مشفقا عليهم، فهو بمثابة «الأخ» لهم، و لم يكن لديه نظرة استعلائية و لا منافع ماديّة، و لذلك

فقد عبّر القرآن عنه بكلمة «أخوهم» ... و قد بدأ دعوته إيّاهم كسائر الأنبياء بتقوى اللّه و الإحساس بالمسؤولية! ...

ثمّ يقول لهم معرفا نفسه: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و سوابقى معكم شاهد مبين على هذا الأمر فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ إذ لا أريد إلّا رضا اللّه و الخير و السعادة لكم ...

و لذلك فأنا لا- أطلب عوضا منكم فى تبليغى إيّاكم ... وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ فأنا أدعوكم له، و أرجو الثواب منه سبحانه ...

كان هذا أوّل قسم من سيرة صالح التى تلخصت فى دعوته قومه و بيان رسالته إليهم ...

ثمّ يضع «صالح» إصبعه على نقاط حساسة من حياتهم، فيتناولها بالنقد و يحاكمهم محاكمة وجدانية، فيقول: أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ

و تتصورون أن هذه الحياة المادية التى تستغفل الإنسان دائمة له و هو خالد فيها! فلذلك تأمنون من الجزاء، و أن يد الموت لا تنوشكم؟! و بالأسلوب المتين، أسلوب الإجمال و التفصيل ... يشرح النّبى صالح لقومه تلك الجملة المغلقة و المجملة بقوله: و تحسبون أنّكم مخلّدون فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ۴۲۹

وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ [۳۱۰] ثمّ ينتقدهم على بيوتهم المرفهة المحكمة فيقول: وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ

«الفاره» مشتق من (فره على وزن فرح) و معناه فى الأصل السرور المقرون باللامبالاة و عبادة الهوى ... كما يستعمل فى المهارة عند العمل أحيانا ... و مع أن المعنيين ينسجمان مع الآية، إلّا أنّه مع ملاحظة توبيخ نبيّهم صالح إيّاهم و ملامته لهم فيبدو أنّ المعنى الأوّل أنسب ...

و من مجموع هذه الآيات و بمقايستها مع ما تقدم من الآيات فى شأن عاد، يستفاد أن عادا «قوم هود» كان أكثر اهتمامهم فى حب الذات و المقام و المفاخرة على سواهم ... فى حين أن ثمود «قوم صالح» كانوا أسرى بطونهم و الحياة المرفهة» ... و يهتمون أكبر اهتمامهم بالتنعم، إلّا أنّ عاقبة الجماعتين كانت واحدة، لأنّهم جعلوا دعوة الأنبياء التى تحررهم من سجن عبادة الذات للوصول إلى عبادة اللّه، جعلوها تحت أقدامهم، فنال كلّ منهم عقابه الصارم الوبيل ...

و بعد ذكر هذه الانتقادات يتحدث النّبى صالح عليه السّلام فى القسم الثّالث من كلامه مع قومه، فيقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ۴۳۰

ملاحظة:

العلاقة بين الإسراف و الفساد فى الأرض!

نعرف أن «الإسراف» هو التجاوز عن حدّ قانون التكوين و قانون التشريع ...

و واضح أيضا أنّ أىّ تجاوز عن الحد موجب للفساد و الاختلال و بتعبير آخر: إن مصدر الفساد هو الإسراف، و نتيجة الإسراف هى الفساد أيضا.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الإسراف له معنى واسع، فقد يطلق على المسائل المادية كالأكل و الشرب، كما فى الآية (۳۱) من سورة الأعراف كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا.

و قد یرد فی الانتقام و القصاص- عند تجاوز الحد- کما فی الآیة (۳۳) من سورة الإسراء ... فَلا یُسْرِفْ فِی الْقَتْلِ إِنَّهُ کانَ مَنْصُوراً.

و قـد یسـتعمل فی الإنفاق و البذل عند التبذیر و عدم التدبیر، کما فی الآیة (۶۷) من سورة الفرقان: وَ الَّذِینَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَ لَمْ یَقْتُرُوا وَ کانَ بَیْنَ ذلِکَ قَواماً.

و قد یأتی فی الحکم أو القضاء الذی یجرّ إلی الکذب، کما فی الآیة (۲۸) من سورة غافر: إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ کَذَّابٌ و قد یستعمل فی الإعتقـاد المنتهی إلی الشـک و التردد و الارتیاب کما فی الآیـة (۳۴) من سورة غـافر إذ تقول: کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ

و قـد یـأتی بمعنی الاسـتعلاء و الاسـتکبار و الاسـتثمار کما جاء فی الآیـة (۳۱) من سـورة الـدخان فی شـأن فرعون إِنَّهُ کـانَ عالِیاً مِنَ الْمُسْرِفِینَ

و أخیرا فقـد یأتی بمعنی مطلق الـذنوب کما هو فی الآیـة (۵۳) من سورة الزمر قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِیعاً.

و بملاحظة کل ما بیّناه آنفا، تتّضح العلاقة بین الإسراف و الفساد بجلاء ...

یقول العلّامة الطباطبائی فی المیزان: «إن الکون علی ما بین أجزائه من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۱

التضـاد و التزاحم، مؤلف تألیفـا خاصا یتلائم معه أجزاؤه بعضـها مع بعض فی النتائـج و الآثار ... فالکون یسـیر بالنظام الجاری فیه إلی غایات صالحـة مقصودة، و هو بما بین أجزائه من الارتباط التام یخط لکل من أجزائه سبیلا خاصّا یسـیر فیها بأعمال خاصّة، من غیر أن یمیـل عن حاق وسـطها إلی یمین أو یسار أو ینحرف بإفراط أو تفریط، فإنّ فی المیل و الانحراف إفسادا للنظام المرسوم و یتبعه إفساد غـایته و غایـة الکـل ... و من الضـروری أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له، و إفساد النظم المفروض له و لغیره، یسـتعقب منازعة بقیة الأجزاء له، فإن اسـتطاعت أن تقیمه و ترده إلی وسط الاعتدال فهو و إلّا أفنته و عفت آثاره، حفظا لصلاح الکون و استبقاء لقوامه و الإنسان الذی هو أحد أجزاء الکون غیر مسـتثنی من هذه الکلیة، فإن جری علی ما یهدیه إلیه الفطرة فاز بالسـعادة المقدرة له، و إن تعدّی حدود فطرته و أفسد فی الأرض، أخذه اللّه سـبحانه بالسـنین و المثلات و أنواع النکال و النقمة، لعله یرجع إلی الصـلاح و السـداد، قـال اللّه تعـالی: ظَهَرَ الْفَسـادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النَّاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ [۳۱۱] و إن أقاموا مع ذلک علی الفساد- لرسوخه فی نفوسـهم- أخـذهم اللّه بعذاب الاستئصال و طهّر الأرض من قذارة فسادهم قال اللّه تعالی: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُری آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَیْهِمْ بَرَکاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ [۳۱۲][۳۱۳].

و من هنا یتّضـح بجلاء، لم ذکر اللّه سـبحانه فی الآیات المتقدمـة الإسـراف و الفساد فی الأرض و عـدم الإصـلاح، فی سـیاق واحد و منسجم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۲

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۵۳ الی ۱۵۹]

اشارة

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِینَ (۱۵۳) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآیَةٍ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۱۵۴) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَکُمْ شِرْبُ یَوْمٍ مَعْلُومٍ (۱۵۵) وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذابُ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۵۶) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِینَ (۱۵۷)

فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۵۸) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۱۵۹)

التّفسير

عناد قوم صالح و لجاجتهم:

لقد استمعتم إلى منطق صالح المتين و المحب للخير، مع قومه المضلين- فى الآيات المتقدمهٔ- و الآن لنستمع إلى جواب قومه فى هذه الآيات.

إنهم واجهوه بكلام خشن و قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ فلذلک فقدت عقلک و تتکلم بکلمات غیر موزونهٔ و لا معقولهٔ.

ثمّ بعد هذا كله ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا و كل عاقل لا يبيح لنفسه أن يطيع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۳

إنسانا مثله فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ لكى نؤمن بك و نتبعك.

كلمهٔ (المسحّر) مشتقّهٔ من (السحر) و معناها المسحور، أى المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أن السحرهٔ كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل، و هذا القول لم يتّهم به النبىّ صالحا فحسب، بل اتهم به كثير من الأنبياء، حتى أن المشركين اتّهموا نبيّنا محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم به فقالوا: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً[۳۱۴].

أجل، إنّهم كانوا يرون معيار العقل أن يكون الإنسان متوقفا مع البيئهٔ و المحيط، فيأكل الخبز- مثلا- بسعر يومه، و يطبّق نفسه على جميع المفاسد ... فلو أن رجلا مصلحا إلهيّا دعا الناس للقيام و النهوض بوجه العقائد الفاسدهٔ و إصلاحها، عدوّه- بحسب منطقهم- مجنونا «مسحّرا».

و هناك احتمالات أخر فى معنى «المسحّرين»، صرفنا النظر عنها لعدم مناسبتها ...

و على كل حال فإنّ هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزهٔ لا من أجل معرفهٔ الحق، بل تذرعا بالحجهٔ الواهيهٔ، و على نبيّهم أن يتم الحجهٔ عليهم، فاستجاب لهم- و بأمر اللّه- قال: هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

و «الناقهٔ» معروفهٔ عند العرب، و هى أنثى الجمل، و القرآن لم يذكر خصائص هذه الناقهٔ التى كان لها حالهٔ إعجازيهٔ، إلّا أنه ذكرها بنحو الإجمال ... لكننا نعرف أنّها لم تكن ناقهٔ كسائر النياق الطبيعيهٔ، فكما يقول جماعهٔ من المفسّرين: كانت هذه الناقهٔ بحالهٔ من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل. و من خصائصها أنّها كانت تشرب ماء الحىّ فى يوم، و اليوم الآخر لأهل الحى «أو القريهٔ» و هكذا دواليك ... كما أشارت الآيهٔ آنفهٔ الذكر إلى هذا المعنى، و وردت الإشارهٔ إلى هذا المعنى فى الآيهٔ (۲۸) من سورهٔ القمر أيضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۴

و قد ذكر المفسّرون لها خصائص أخر[۳۱۵].

و على كل حال، كان على صالح عليه السّلام أن يعلمهم أن هذه الناقهٔ ناقهٔ عجيبهٔ و خارقهٔ للعادهٔ، و هى آيهٔ من آيات عظمهٔ اللّه المطلقهٔ فعليهم أن يدعوها على حالها، و قال: وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ...

و بديهى أن المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظهٔ الناس ستؤدى إلى الإضرار بمنافعهم الشخصيهٔ فتآمروا على نحر الناقهٔ: فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ ۳۱۶] لأنّهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الالهى.

و لما تجاوز طغيانهم الحدّ، و أثبتوا بأعمالهم أنّهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادهٔ اللّه و مشيئته أن يطهر الأرض من وجودهم الملوّث فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ

و كما نقرأ فى الآيهٔ (۷۸) من سورهٔ الأعراف، و الآيهٔ (۶۷) من سورهٔ هود، ما جاء عن عذاب اللّه لهم إجمالا ... أن الأرض زلزلت من تحتهم ليلا، فانتبهوا من نومهم و جثوا على الركب فما أمهلهم العذاب و أخذتهم الرجفهٔ و الصيحهٔ، فاهتزت حيطانهم و هوت عليهم

فأماتتهم جاثمین علی حالهم ففارقوا الدنیا بحال موحشة رهیبة! ...

و یقول القرآن فی ختام هـذه الحادثة ما قاله فی ختام حوادث قوم هود و قوم صالح و قوم نوح و قوم إبراهیم علیه السّـلام، فیعبّر تعبیرا بلیغا موجزا یحمل بین ثنایاه عاقبة أولئک الظالمین: إن فی قصة قوم صالح، و فی صبره و تحمله و استقامته و منطقه القویم من جهة، و عناد قومه و غرورهم و انکارهم للمعجزة البیّنة، و المصیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۵

الأسود الذی آلو إلیه دروس و عبر: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ

أجل، لیس لأحد أن یغلب ربّه، فما فوق قوته من قوّة!! و هذه القوّة و هذه القدرة العظیمة لا تمنع أن یرحم أولیاءه، بل أعداءه أیضا: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ [۳۱۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۶

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۶۰ الی ۱۶۶]

اشارة

کَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِینَ (۱۶۰) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۶۱) إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۶۲) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۶۳) وَ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاَّ عَلی رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۶۴)

أَ تَأْتُونَ الذُّکْرانَ مِنَ الْعالَمِینَ (۱۶۵) وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَکُمْ رَبُّکُمْ مِنْ أَزْواجِکُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (۱۶۶)

التّفسیر

السفلة المعتدون:

سـادس نـبیّ- ورد جـانب من حیـاته و حیـاة قومه المنحرفین فی هـذه السورة- هو «لوط» علیه السّـلام، و مع أنّه کـان یعیش فی عصـر إبراهیم الخلیل، إلّا أنّ قصـته لم تأت بعد قصّة إبراهیم علیه السّلام، لأن القرآن لم یکن کتابا تاریخیا لیبیّن الحوادث بترتیب وقوعها ... بل یلفت النظر إلی جوانبه التربویة البناءة، و التی تقتضی تناسبا آخر ...

و قصّة لوط و ما جری لقومه تنسجم فی حیاة الأنبیاء الآخرین الذین ورد ذکرهم فی ما بعد ...

یقول القرآن أوّلا فی هذا الصدد: کَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۷

ورود «المرسلین» بصیغة الجمع، إمّا لأنّ دعوة الأنبیاء علیهم السّلام واحدة، فتکذیب الواحد منهم تکذیب للجمیع، أو أن قوم لوط لم یؤمنوا بأیّ نبی قبل لوط واقعا و حقیقة ...

ثمّ یشیر القرآن الکریم إلی دعوة لوط التی تنسجم مع دعوة الأنبیاء الآخرین الماضین، فیقول: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ

و لحن کلماته و قلبه المتحرق لهم، العمیق فی تودّه إلیهم، یدل علی أنّه بمثابة «الأخ» لهم.

ثمّ أضـاف لوط قائلاـ: إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ فلم تعرفوا عنّی خیانـة حتی الآن ... و سأرعی الأمانـة فی إیصال رسالـة اللّه إلیکم أبـدا ... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ فأنا زعیمکم إلی السعادة و النجاة.

و لا تتصوروا أنّ هذه الدعوة وسیلة اتخذها للحیاة و العیش، و أنّ وراءها هدفا مادّیا، کلّا: وَ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلی

رَبِّ الْعالَمِينَ

ثمّ يتناول بالنقد أعمالهم القبيحة، و قسما من انحرافاتهم الأخلاقية ...

و حيث أنّ أهم نقطة فى انحرافاتهم ... هى مسألة الانحراف الجنسى، لذلك فإنّه ركّز عليها و قال: أ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ فتختارون الذكور من بين الناس لإشباع شهواتكم!! أى، إنّكم على الرغم ممّا خلق اللّه لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشا طاهرا هادئا، إلّا أنّكم تركتم نعمة اللّه هذه وراءكم، و لوّثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزى ...

كما و يحتمل فى تفسير هذه الآية أن «من العالمين» جاء قيدا لقوم لوط أنفسهم، أى إنّكم من دون العالمين وحدكم المنحرفون بهذا الانحراف و المبتلون به ... كما أن هذا الاحتمال ينسجم مع بعض التواريخ إذ يقال أن أوّل أمّة ارتكبت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۸

الانحراف الجنسى «اللواط» بشكل واسع هى قوم لوط،[۳۱۸] إلّا أن التّفسير الأوّل مع الآية التالية- أكثر انسجاما.

ثمّ أضاف قائلا: وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ

فالحاجة و الغريزة الطبيعية، سواء كانت روحية أم جسمية لم تجرّكم إلى هذا العمل الانحرافى الشنيع ابدا، و إنّما جرّكم الطغيان و التجاوز، فتلوثتم و خزيتم به ...

إن ما تقومون به يشبه من يترك الثمر الطيب و النافع و السالم، و يمضى نحو الغذاء المسموم الملوّث المميت ... فهذا الفعل ليس حاجة طبيعية ... بل هو التجاوز و الطغيان!

بحثان

۱- الانحراف الجنسى انحراف مخجل

أشار القرآن فى سور متعددة منه- كالأعراف و هود و الحجر و الأنبياء و النمل و العنكبوت، إلى ما كان عليه قوم لوط من الوزر الشنيع ... إلّا أن تعابيره- فى السور المذكورة آنفا- يختلف بعضها عن بعض ... و فى الحقيقة إن كل تعبير من هذه التعابير يشير إلى بعد من أبعاد عملهم الشنيع:

ففى «الأعراف» نقرأ مخاطبة لوط إيّاهم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ [۳۱۹] و فى الآية (۷۴) سورة الأنبياء يتحدث القرآن عن لوط فيقول: وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِی كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ

أمّا فى الآية- محل البحث- فقد قرأنا مخاطبة لوط إياهم بقوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۹

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ

و جاء فى الآية (۵۵) من سورة النمل قوله لهم: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ «الآية ۵۵».

كما جاء فى الآية (۲۹) من سورة العنكبوت على لسان لوط مخاطبا إيّاهم إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ [۳۲۰] و هكذا فقد ذكر هذا العمل القبيح بعناوين «إسراف»، «خبيث»، «فسق»، «تجاوز»، «جهل»، و «قطع السبيل».

«الإسراف» من جهة أنّهم نسوا نظام الخلق فى هذا الأمر، و تجاوزوا عن الحد، و «التعدّى» ذكر أيضا لهذا السبب.

و «الخبيث» هو ما ينفر منه طبع الإنسان السليم، و أىّ عمل أقبح من هذا العمل الذى ينفر منه؟! «الفسق» معناه الخروج عن الطاعة-

طاعة اللّه- و التعرى عن الشخصيّة الإنسانية، و هو من لوازم هذا العمل حتما.

و «الجهل» لعدم معرفتهم بعواقب هذا الفعل الوخيمة على الفرد و المجتمع! ...

و أخيرا فإن «قطع السبيل» هو النتيجة السيئة لهذا الفعل، لأنّه سيؤدى إلى انقطاع النسل عند اتساع هذا الفعل، لأنّ العلاقة نحو الجنس المشابه ستحل محل العلاقة نحو الجنس المخالف بالتدريج (كما هى الحال بالنسبة للواط و السحاق).

٢- العواقب الوخيمة للانحراف الجنسى.

بالرغم من بحثنا لهذا الموضوع فى ذيل الآيات ٨١- ٨٣ بحثا مفصّلا فى أضرار هذا العمل القبيح، إلّا أنه- نظرا لأهميته- نرى هنا من اللازم أن نذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ۴۴٠

مطالب أخر مضافا إلى ما سبق!

فى الحديث عن النّبى (محمّد) صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «لا يجد ريح الجنّة زنوق و هو المخنث».[٣٢١]

و

فى حديث آخر عن الإمام على عليه السّلام أنه قال: «اللواط هو الكفر».[٣٢٢]

و

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا فى فلسفة تحريم اللواط و السحاق أنه قال: «علة تحريم الذكران للذكران، و الإناث للإناث، لما ركب فى الإناث و ما طبع عليه الذكران، و لما فى إتيان الذكران الذكران، و الإناث للإناث من انقطاع النسل، و فساد التدبير، و خراب الدنيا».[٣٢٣]

و هذه المسألة قبيحة جدّا فى نظر الإسلام بحيث جعل- فى أبواب الحدود- حدّة القتل دون شك ... حتى الذين يقومون بعمل أدنى من اللواط و السحاق جعل لهم عقابا صارما ...

ففى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «من قبل غلاما من شهوة، ألجمه اللّه يوم القيامة بلجام من نار».[٣٢۴]

و عقوبة من يفعل مثل هذا الفعل تتراوح من ثلاثين سوطا إلى تسعة و تسعين سوطا ...

و على كل حال، فلا شك أن الانحراف الجنسى من أخطر الانحرافات الاجتماعية ... لأنّه يلقى بظله المشؤوم على جميع المسائل الأخلاقية، و يجر الإنسان إلى الانحراف العاطفى.

«و كان لنا بحث مفصل فى هذا الصدد فى ذيل الآية ٨١ من سورة هود».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص: ۴۴١

الآيات [سورة الشعراء (٢۶): الآيات ١۶٧ الى ١٧۵]

اشارة

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١۶٧) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (١۶٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١۶٩) فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٧١)

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧۴) وَ إِنَّ

رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۷۵)

التّفسير

عاقبة قوم لوط:

إن قوم لوط الغارقين بالغرور و المتمادية بهم رياح الشهوة، بدلا من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهى، فتدخل مواعظه فى قلوبهم و يخلصوا من تلك الأمواج الرهيبة، فإنهم نهضوا لمواجهته و قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ...

إن كلامک يبلبل أفكارنا، و يسلب اطمئناننا و هدوأنا، فنحن غير مستعدين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۲

حتى للإصغاء إلى كلامک ... و إذا واصلت هذا الأسلوب و لم تنته منه، فإنّ أقل ما تجزى به هو الإبعاد و الإخراج من هذه الأرض ...

و نقرأ فى مكان آخر من القرآن أن قوم لوط سعوا لتنفيذ تهديدهم، و أمروا بإخراج لوط و أهله، فقالوا: أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ

إن فعل هؤلاء الضالّين- بلغ بهم أن يعدوا التقوى و التطهر بينهم أكبر عيب، و أن يفخروا بالرجس و عدم الطهارة، و هذه هى العاقبة المشؤومة للمجتمع المسرع نحو الفساد! و يستفاد من عبارة لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ أنّ هذه الجماعة الفاسدة كانوا قد أخرجوا أناسا طاهرين من حيّهم فهدّدوا لوطا بهذا الأمر أيضا، و هو أنه إذا لم تنته فستنال ما ناله سواک من الإبعاد و الإخراج ...

و قد صرّح فى بعض التفاسير أنّهم كانوا يخرجون المتطهرين من القرية بأسوأ الحال ۳۲۵] ...

إلّا أنّ لوطا لم يكترث بتهديدهم، و واصل نصحه لهم و قالَ إِنِّی لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ

إنّه يريد أن يقول: سأواصل انتقادى إيّاكم ... فافعلوا ما شئتم ... فأنا لا أترک مواجهة هذه الأعمال القبيحة بالاعتراض و النقد! ...

و التعبير ب «من القالين» يدلّ أيضا على أن جماعة كانوا مثل النّبى لوط يرفضون هذه الأعمال و يعترضون عليها ... رغم أن المنحرفين أخرجوهم من قريتهم آخر الأمر.

كلمة «القالين» جمع «قال» من مادة (قلى) أو (قلى) «على وزنى حلق و شرک» و معناها العداوة الشديدة التى تترک أثرها فى قلب الإنسان، و هذا التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۳

يكشف عن شدّة تنفّر لوط من أعمالهم ...

و الذى يسترعى النظر أن لوطا يقول: إنّى لعملكم من القالين. أى إنّنى لا- أعاديكم بأشخاصكم، بل أعادى أعمالكم المخزية، فلو ابتعدتم عن هذا العمل الشنيع فأنا محبّ لكم و غير قال لكم.

و أخيرا لم تؤثر مواعظ لوط و نصائحه فى قومه، فبدّل الفساد مجتمعهم كلّه إلى مستنقع عفن ... و تمّت الحجة عليهم بمقدار كاف، و بلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية ... فعليه أن يغادر هذه المنطقة العفنة، و أن ينجّى من معه ممن استجاب دعوته، لينزل عذاب اللّه على القوم الفاسقين فيهلكهم، فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، فقال: رَبِّ نَجِّنِی وَ أَهْلِی مِمَّا يَعْمَلُونَ

و بالرغم من أنّ بعضهم احتمل أن يكون المراد من الأهل من الآية جميع من آمن به ... إلّا أن الآية (۳۶) من سورة الذاريات تقول: فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

و لكن كما أشرنا من قبل- فإن بعض التعابير الواردة فى الآيات محل البحث، تشير إلى أن جماعة من المؤمنين به كانوا قد أبعدوا و

أخرجوا من القرية ...

و يستفاد ممّا قيل- ضمنا- أن دعاء لوط لأهله لم يكن بسبب العلاقة العاطفية و الارتباط النسبى القرابتى، بل لإيمانهم به ...

فاستجاب اللّه دعاوه كما تقول الآية التالية: فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ [۳۲۶] و هذه العجوز لم تكن سوى زوج النّبى لوط التى كانت منسجمة مع أفكار قومه الضالين و عقيدتهم، و لم تؤمن بلوط أبدا، و لذلك ابتليت بما أبتلى به قومه من العذاب و الهلاك.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۴

و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع فى ذيل الآيات «۸۱- ۸۳ من سورة هود».

أجل، لقد نجّى اللّه لوطا و المؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلا من تلك المدينة- أو القرية- فترك قومه الغارقين بالفسق و الفجور على حالهم، فنزل عذاب اللّه فى الغداة، فتزلزلت بهم الأرض و انهارت عليهم الأبنية و القصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها و هلكوا جميعا فى ديارهم، و قد عبّر القرآن عن كان ذلك بعبارة موجزة بليغة، فقال: ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ و لم يكف ذلك بل وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً و أىّ مطر! إنّه وابل من أحجار نزل على تلك الخرائب ليمحو أثرها من الانظار. فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ...

و الأمطار عادة تمنح الحياة، إلّا أن هذا المطر كان موحشا مهلكا مخرّبا ...

و يستفاد من الآية (۸۲) من سورة هود أن قرى قوم لوط و مدنهم قلب عاليها سافلها أوّلا، ثمّ أمطرت بالحجر النضيد المتراكم، و لعله كان إمطارهم بالحجارة لمحوا آثارهم، فلم يبق منها غير تل كبير من الأحجار و التراب بدل تلك المدن العامرة ...

ترى هل كانت هذه الأحجار قد حملت من الصحارى على أثر اعصار عظيم و سقطت على رؤوسهم؟ أو هى أحجار نزلت من السماء بأمر من اللّه عليهم؟! أو كما يقول بعض المفسّرين كان هناك بركان أو جبل نار قد خمد لفترة، ثمّ انفجر بأمر اللّه فأمطرهم بالحجارة، ليس ذلك معلوما على نحو الدقّة! إلّا أن من المسلّم به أنّ هذه الأحجار- أو هذا المطر المهلك- لم يترك للحياة فى تلك الأرض من أثر! «و تفصيل هذا الموضوع ذكرناه فى ذيل الآيات ۸۱- ۸۳ من سورة هود، كما ذكرناه فى الجزء الثامن مع «لطائف» مختلفة فلا بأس بمراجعتها» ...

و مرّة أخرى نواجه فى نهاية هذه القصّة الجملتين اللتين تكررتا فى القصص المشابهة لها فى هذه السورة، فى شأن خمسة أنبياء كرام آخرين، إذ يقول القرآن:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۵

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

و أيّة آية أجلى من هذه الآية التى تعرفكم على هذه المسائل المهمّة و البناءة، دون أن تحتاجوا إلى تجربة شخصية! أجل إن تاريخ الماضين عبرة و آية للآتين، و ليس تجربة، لأنّ التجربة ينبغى على الإنسان أن يتحمل فيها خسائر ليحصل على نتائجها ... إلّا أنّنا هنا نحصل على النتائج من خسائر الآخرين!.

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

و أية رحمة أعظم من أنّه لا- يعاقب أقواما فاسقين كقوم لوط فورا، بل يمهلهم إمهالا- كافيا لعلهم يهتدون، و يجددوا نظرهم فى أعمالهم! ...

و أية رحمة أعظم من أن لا يخلط عقابه «الأخضر باليابس» بل لو كان فى ألف ألف [۳۲۷] أسرة غير صالحة أسرة واحدة صالحة، فإنه ينجيها منها و ينزل العذاب على أولئك! و أية عزّة أعظم من أن ترى بطرفة عين واحدة ديار الفاسقين قد دمرت تدميرا و لم يبق منها أى أثر! فالأرض التى كانت مهادا لأمنهم أمرت بإقبارهم، و المطر الذى تحيا به الأرض و الناس يكون مميتا لهم!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۶

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۷۶ الى ۱۸۴]

اشارة

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (۱۷۶) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۷۷) إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۷۸) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ (۱۷۹) وَ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلی رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۸۰)
أَوْفُوا الْکَیْلَ وَ لا تَکُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِینَ (۱۸۱) وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِیمِ (۱۸۲) وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیاءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ (۱۸۳) وَ اتَّقُوا الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِینَ (۱۸۴)

التّفسير

شعيب و أصحاب الأيكة:

هذه هى القصّة السابعة، و الحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء الواردة فى هذه السورة ... و هى قصة «شعيب» عليه السّلام و قومه المعاندين.

كان هذا النّبى يقطن فى «مدين»، «و هى مدينة تقع جنوب الشامات».

و «أيكة» على وزن (ليلة) «قرية أو أرض معمورة على مقربة من مدين».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۷

و الآية (۷۹) من سورة الحجر تدل على أن «أيكة» كانت تقع فى طريق أهل الحجاز إلى الشام.

تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَیْکَةِ الْمُرْسَلِینَ

إنّهم لم يكذبوا نبيّهم شعيبا فحسب، بل كذبوا جميع الأنبياء، لأنّ دعوتهم واحدة ... أو لأنّهم لم يصدقوا و يقبلوا بأىّ رسالة سماوية أبدا ...

و الأيكة معناها فى الأصل محل مكتظ بالأشجار، و هى هنا إشارة إلى منطقة تقع على مقربة من «مدين»، سمّيت بذلك لأن فيها أشجارا كثيرة و ماء و ظلالا! ...

و القرائن تشير إلى أنّهم كانوا منعّمين مترفين ذوى حياة مرفهة و ثروة كثيرة، و ربّما كانوا لهذه الأمور غرقى الغرور و الغفلة! ...

ثمّ يتحدث القرآن إجمالا عن شعيب عليه السّلام و عنهم فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَیْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ

و فى الحقيقة فإن دعوة شعيب عليه السّلام انطلقت من النقطة التى ابتدأها سائر الأنبياء، و هى التقوى و مخافة اللّه التى تعدّ أساس المناهج الإصلاحية و التغييرات الأخلاقية و الاجتماعية جمعاء ...

و الجدير بالذكر أن التعبير «أخوهم» الوارد فى قصص صالح و هود و نوح و لوط عليهم السّلام، لم يلاحظ هنا. و لعل منشأ ذلك يعود إلى أن «شعيبا» كان من أهل مدين أصلا- و تربطه باهلها روابط نسبية، و ليس كذلك مع اصحاب الأيكة ... و لذلك نرى فى سورة هود حين يشير القرآن إلى إرسال «شعيب» إلى قومه من أهل مدين يقول: وَ إِلی مَدْیَنَ أَخاهُمْ شُعَیْباً إلّا أن الآية محل البحث لما كانت تتحدث عن أصحاب الأيكة، و شعيب عليه السّلام لا تربطه رابطة نسبية بهم لم تذكر التعبير «أخاهم» ...

ثمّ أضاف شعيب قائلا: إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ فطاعتكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۸

لى طاعة للّه.

و اعلموا أنّى أبتغى ثوابه و وجهه وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ

و هـذه التعـابير هى التعـابير ذاتها التى دعا بها سائر الأنبياء أممهم، فهى متحـدة المآل و مدروسـة، إذ تـدعو إلى التقوى، و تؤكّـد على سابقـة أمانـة النّبى بين قومه، كما أنّها تؤكّد على أن الهدف من الدعوة إلى اللّه معنوى فحسب، و ليس ورائها هدف مادى، و لا يطمع أىّ من الأنبياء بما فى يـد الآخرين، ليكون مثارا للشـكوك و ذريعـة للمتذرعين! و «شـعيب» كسائر الأنبياء الذين ورد جانب من تأريخ حيـاتهم فى هـذه السورة، فهو يـدعو قومه بعـد الـدعوة العامّـة للتقوى و طاعـة اللّه، إلى إصـلاح انحرافاتهم الأخلاقيـة و الاجتماعيـة و ينتقدهم على هذه الانحرافات، و حيث أن أهم انحراف عند قومه كان الاضطراب الاقتصادى، و الاستثمار و الظلم الفاحش فى الأثمان و السلع، و التطفيف فى الكيل، لـذلك فقـد اهتم بهـذه المسائل أكثر من غيرها، و قال لهم: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِـرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ ٣٢٨] الْمُسْتَقِيمِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

و فى هذه الآيات الأخيرة الثلاث يأمر شـعيب هؤلاء القوم الضالين بخمسة أوامر فى عبارات موجزة، و يتصور بعض المفسّـرين أن هذه العبارات بعضـها يؤكّد بعضا، إلّا أن التدقيق فيها يدلّ على أن هذه الأوامر الخمسة فى الواقع تشير إلى خمسة مطالب أساسية و مختلفة، أو بتعبير آخر: هى أربعة أوامر و نتيجة كليّة! ...

و لكى يتّضح هذه الاختلاف أو التفاوت، فإنه يلزم الالتفات إلى هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ۴۴۹

الحقيقـة ... و هى أن قوم شـعيب (أهل مـدين و أصـحاب الأيكة) كانوا مستقرين فى منطقة حساسة تجارية، و هى على طريق القوافل القادمة من الحجاز إلى الشام، أو العائدة من الشام إلى الحجاز، و من مناطق أخر.

و نحن نعرف أن هذه القوافل تحتاج فى أثناء الطريق إلى أمور كثيرة ...

و طالما يسىء أهل المنطقـة الاسـتفادة من هذه الحالة، فهم يسـتغلونها فيشترون بضائعهم بأبخس ثمن ... و يبيعون عليهم المسـتلزمات بأعلى ثمن «و ينبغى الالتفات إلى أن أكثر المعاملات فى ذلك الحين كانت قائمة على أساس المعاوضة سلعة بسلعة» ...

و ربما تذرعوا عند شـراء البضاعة بأن فيها عدة عيوب، و إذا أرادوا أن يبيعوا عليهم عرّفوها بأحسن التعاريف، و عند ما يزنون لأنفسهم يسـتوفون الوزن، و إذا كالوا الآخرين أو وزنوا لهم لا يهتمون بالميزان الصـحيح و الإستيفاء السـليم، و حيث أن الطرف المقابل محتاج إلى هذه الأمور على كل حال و مضطر إليها، فلا بدله من أن يقبلها و يسكت عليها! ...

و بغض النظر عن القوافـل التى تمرّ عليهم، فـإنّ أهـل المنطقـة نفسـها المضـطرين إلى التعامـل ببضـائعهم مع هؤلاـء المطففين، و ليسوا بأحسن حظا من أصحاب القوافل أيضا.

فقيمـة المتاع سواء كان الجنس يراد بيعه أو شـراؤه تتعين بحسب رغبـة الكسـبة هؤلاء. و الوزن و المكيال على كل حال بأيديهم، فهذا المسـكين المستضـعف عليه أن يستسـلم لهم كالميت بيد غاسله! و مع ملاحظة ما ذكرناه آنفا، نعود الآن إلى تعابير الآيات المختلفة ... فتارة يقول شعيب لقومه: أوفوا الكيل، و فى مكان آخر يقول: زنوا بالقسطاس المستقيم، و نعرف أن تقويم الأجناس و البضائع يتم عن طريق الكيل أو الوزن، فهو يشير الى كل واحد منهما و يهتم به اهتماما خاصا ... لمزيد التأكيد على أن لا يبخسوا الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ۴۵۰

أشياءهم ...

ثمّ إنّ التطفيف أن بخس النـاس له طرق شتى، فتارة يكون الميزان صـحيحا إلّا صاحبه لا يؤدى حقه، و تارة يكون اللعب أو العيب فى الميزان ... فهو يغش صاحبه بما فيه من عيب، و قد جاءت الإشارات فى الآيات الآنفة إلى جميع هذه الأمور.

و بعـد اتضـاح هـذين التعبيرين أَوْفُوا الْكَيْلَ ... وَ زِنُوا بِالْقِسْـطاسِ نأتى الى معنى (لا تبخسوا) المأخوذة من «البخس»، و هو فى الأصـل

النقص ظلما من حقوق الناس ... و قد یأتی أحیانا بمعنی الغش أو التلاعب المنتهی إلی تضییع حقوق الآخرین ... فبناء علی ما تقدم، فإن الجملة الآنفة وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیاءَهُمْ لها معنی واسع یشمل جمیع أنواع الغش و التزویر و التضلیل، و التلاعب فی المعاملات، و غمط حقوق الآخرین! و أمّا جملة وَ لا تَکُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِینَ فمع ملاحظة أن «المخسر» هو من یوقع الآخر أو الشیء فی الخسران ... فمعناه واسع أیضا، إذ یشمل بالإضافة إلی البخس و التطفیف کل ما من شأنه أن یکون سببا للخسارة و إیذاء الطرف الآخر فی المعاملة! و هکذا فإنّ جمیع ما ذکر من الاستغلال و سوء الاستفادة و الظلم، و المخالفة فی المعاملة و الغش و الإخسار، سواء کان ذلک فی الکمیة أو الکیفیة، کله داخل فی التعلیمات آنفة الذکر ...

و حیث أن الاضطراب الاقتصادی، أو الأزمة الاقتصادیة، أساس لاضطراب المجتمع، فإنّ شعیبا یختتم هذه التعلیمات بعنوان جامع فیقول: وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ فتجرّوا المجتمع الی هاویة الفساد و الانحطاط، فعلیکم أن تضعوا حدّا لأی نوع من الاستثمار و العدوان و تضییع حقوق الآخرین.

و هذه التعلیمات لیست بناءة للمجتمع الثری الظالم فی عصر شعیب فحسب،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۵۱

بل هی بناءة و نافعة لکل عصر و زمان، و داعیة إلی العدالة الاقتصادیة! ...

ثمّ إن «شعیبا» فی آخر تعلیماته- فی هذا القسم- یدعوهم مرد اخری إلی تقوی اللّه فیقول: وَ اتَّقُوا الَّذِی خَلَقَکُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِینَ فلستم أول قوم أو جماعة خلقوا علی هذه الأرض، فآباؤکم و الأمم الأخری جاءوا و ذهبوا، فلا تنسوا ماضیهم و ما تقبلون علیه ...

(الجبلة) مأخوذة من (الجبل) و هو معروف «ما ارتفع من الأرض کثیرا» و یسمی الطود أحیانا ... فالجبلة تطلق علی الجماعة الکثیرة التی هی کالجبل فی العظمة ...

قال بعضهم: الجبلة مقدار عددها عشرة آلاف! کما تطلق الجبلة علی الطبیعة و الفطرة الإنسانیة، لأنّها لا تتغیر، کما أن الجبل لا یتغیّر عادة ...

و التعبیر المتقدم لعله إشارة إلی أن شعیبا یقول: إنّما أدعوکم إلی ترک الظلم و الفساد، و أداء حقوق الناس و رعایة العدل، لأنّ ذلک موجود فی داخل الفطرة الإنسانیة منذ الخلق الأوّل، و أنا جئتکم لإحیاء هذه الفطرة ...

إلّا أنّه- و للأسف- لم تؤثر کلمات هذا النّبی المشفق، فأجابوه بمنطق «مرّ و فظ» سنقرؤه فی الآیات المقبلة ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۵۲

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۸۵ الی ۱۹۱]

اشارة

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِینَ (۱۸۵) وَ ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّکَ لَمِنَ الْکاذِبِینَ (۱۸۶) فَأَسْقِطْ عَلَیْنا کِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۱۸۷) قالَ رَبِّی أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸۸) فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ یَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ کانَ عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۸۹) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۹۰) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۱۹۱)

التّفسیر

عاقبة الحمقی:

لما رأى قوم شعيب الظالمون- أنّهم لا- يملكون دليلا- ليواجهوا به منطقه المتين ... و من أجل أن يسيروا على نهجهم و يواصلوا طريقهم، رشقوه بسيل من التهم و الأكاذيب.

فالتهمة الأولى هى ما يلصقها الجبابرة دائما و المجرمون بالأنبياء، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۵۳

السحر فاتّهموه بها و قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۳۲۹] و لا يرى فى كلامك ما هو منطقى!! و تظن أنّك بهذا الكلام تستطيع تقييد حريتنا فى التصرف فى أموالنا كما نشاء!! ثمّ ما الفارق بينك و بيننا لنتّبعك؟! و لا مزيّة لك علينا وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ

و بعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارة يدعونه (من الكاذبين) و رجلا انتهازيا، و تارة يدعونه مجنونا أو من المسحّرين، و كان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبيّا فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ حيث كنت تهددنا دائما بهذا اللون من العذاب.

و «كسف» على وزن (فرق) جمع (كسفة) على وزن (قطعة) و معناها قطعة أيضا و المراد من هذه «القطع من السماء» هى قطع الأحجار التى تهوى من السماء ...

و هكذا يبلغ بهم صلفهم و وقاحتهم و عدم حيائهم إلى هذه الدرجة، و أظهروا كفرهم و تكذيبهم فى أسوأ الصور.

إلّا أن شعيبا عليه السّلام، و هو يواجه هذه التعبيرات غير الموزونة و الكلمات القبيحة و طلبهم عذاب اللّه، كان جوابه الوحيد لهم أن قالَ رَبِّی أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ ...

و يشير إلى أنّ الأمر خارج عن يدى، و أن إنزال العذاب و إسقاط الكسف من السماء غير مخول بها ليطلب كل ذلك منّى ... فاللّه يعرف أعمالكم و يعلم بها، و ما أنتم أهل له، فمتى لم تنفع المواعظ و تمّت الحجّة اللازمة، فإنّ عذابه لا مرد له و سيقطع دابركم لا محالة! ...

و هذا التعبير و أمثاله ممّا يرد على لسان الأنبياء، و ما نلاحظه فى آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۵۴

القرآن يدل على أنّهم كانوا يوكلون جميع الأمور إلى اللّه، و إنّها بإذنه و أمره، و لم يدّعوا أنّهم قادرون على كل شىء، أو أنّهم يفعلون ما يشاءون!.

و على كل حال فإن عذاب اللّه أزف موعده- و كما يعبر القرآن عنه فى الآية التالية قائلا: فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

«الظلة» فى الأصل معناها القطعة من السحاب المظلّل: أى ذى الظل ...

يقول أغلب المفسّرين فى ذيل هذه الآية: إن حرّا شديدا محرقا حلّ فى أرضهم سبعة أيّام، و لم يهب نسيم بارد مطلقا، فإذا قطعة من السحاب تظهر فى السماء- بعد السبعة أيّام- و تحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، و استظلّوا تحت السحاب من شدّة الحرّ.

و فجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميتة بصوتها المذهل، و أحرقتهم بنارها و زلزلت الأرض و هلكوا جميعا.

و نعرف أن الصاعقة تنتج عن تلاقح القوى أو «الطاقة» الموجبة و السابقة، أو ما يعبر عنها بالشحنات الكهربائية و حين تتلاقح هذه الشحنات بين السحاب و الأرض ينتج عنها صوت مرعب و شعلة موحشة، و قد تهتز الأرض عند وقوعها فيتزلزل محل سقوطها ... و هكذا يتّضح أن اختلاف التعابير فى آيات القرآن الواردة عن عذاب قوم شعيب، يعود إلى حقيقة واحدة! ففى سورة الأعراف جاء التعبير بالرجفة (الآية ۹۱) و فى سورة هود جاء التعبير بالصيحة (الآية ۹۴) أمّا فى الآيات محل البحث فقد جاء التعبير ب عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين «كالقرطبى و الفخر الرازى و غيرهم» يحتمل أن أصحاب الأيكة و أهل مدين كانوا جماعتين أو

طائفتين، و كل طائفة نزل عليهم عذاب خاص، إلّا أنه مع ملاحظة هذه الآيات المتعلقة بهذا القسم- بدقة- يتجلّى أن هذا الاحتمال غير واردا! ...

و تختتم القصّة هذه بما ختمت القصص الست السابقة عن أنبياء اللّه الكرام، إذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۵۵

يقول القرآن: إن فى حكاية أصحاب الايكة و دعوة نبيّهم شعيب و عنادهم و تكذيبهم، و بالتالى نزول العذاب على هؤلاء المتكبرين درس و عبرة لمن اعتبر إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

و مع ذلك كله فإن اللّه رحيم ودود يمهلهم لعلهم يرجعون و يصلحون أنفسهم، فإذا تمادوا فى الغى و استوجبوا عذاب اللّه، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أجل وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

بحوث

١- الانسجام التام فى دعوات الأنبياء

فى ختام قصص هؤلاء الأنبياء السبعة نجد أن هذه القصص تشكّل حلقة كاملة من حيث الدروس التربوية ... و ينبغى أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة»[۳۳۰] و هى أن قصص هؤلاء الأنبياء جميعا جاءت فى سور أخر من القرآن أيضا. إلّا أنها لم تعرض بهذا العرض بحيث نجد أن بداية دعوتهم منسجمة، كما أنّ نهاياتها منسجمة أيضا.

و لوحظ فى خمسة أقسام من هذه القصص أن محتوى الدعوة هو تقوى اللّه، ثمّ الإشارة إلى أمانة النّبى، و عدم مطالبته قومه بالأجر على تبليغه إيّاهم ... و بعد هذه المسائل تعالج المسائل الاجتماعية، و الانحرافات الأخلاقية، من قبل الأنبياء بلغة تنمّ عن الإشفاق و المحبة ...

ثمّ يبيّن القرآن ردّ فعل الأمم المنحرفة تجاه أنبيائهم، و أخيرا عاقبتهم الوخيمة، و يذكر عذاب كل منهم و كيفيته ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۵۶

و فى نهاية كل من هذه القصص السبع يشير القرآن إلى أن فى ذلك آية و أن أكثرهم لا يؤمنون ...

ثمّ يؤكّد القرآن أيضا فى نهاية كل قصّة منها على قدرة اللّه (و عزته) و رحمته.

و هذا الانسجام- قبل كل شىء- يدلّ على تجلى مفهوم وحدة دعوات الأنبياء، بحيث كانوا ذوى منهج واحد و بداية واحدة و نهاية واحدة ... و جميعهم كانوا معلمى مدارس الإنسانية ... و بالرغم من أنّ محتوى هذه المدارس كان ينبغى أن يتغيّر بتقدم الزمن و المجتمع الإنسانى، إلّا أنّ الأصول و النتائج تبقى على حالها.

ثمّ بعد هذا كله، فإن هذه القصص كانت تسرّى عن قلب النّبى و المؤمنين القلّة فى ذلك العصر (و المؤمنون فى كل عصر) و تسلّى خاطرهم، لئلا يحزنوا و ييأسوا من كثرة المشركين و الأعداء الضالين، و أن يثقوا و يتوقعوا العاقبة لهم ... و أن يكون أملهم بذلك كبيرا ...

كما أن ذلك إنذار للجبابرة و المستكبرين و الظالين- فى كل عصر و زمان- لئلا يتصوروا بأنّ عذاب اللّه بعيد عنهم ... العذاب بأنواعه كالزلزلة و الصاعقة، و الطوفان و البركان ... و انشقاق الأرض و الخسف، و الأمطار الغزيرة التى تعقبها السيول المدمّرة، و الإنسان المعاصر ضعيف أمامها كضعف الإنسان الغابر ... لأن الإنسان المعاصر- بالرغم من جميع قواه و تقدمه الصناعى عاجز أمام

الطوفان و الصاعقة و الزلزلة ... و يبقى ضعيفا لا حول له و لا طول! ...

كل ذلك من أجل أن الهدف من قصص القرآن هو تكامل الناس و بلوغهم الرشد، و الهدف تنوير القلوب و معالجة الهوى بالتعقّل ... و أخيرا فإنّ الهدف هو مواجهة الظلم و الانحراف ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ۴۵۷

٢- التقوى، بداية دعوة الأنبياء جميعا:

ممّا يلفت النظر أن قسما مهما من قصص هؤلاء الأنبياء- الوارد ذكرهم في سورة الشعراء- ذكر في سورة هود و الأعراف، إلّا أن في بداية ذكرهم و بيان سيرتهم في اقوامهم الدعوة إلى وحدانية اللّه- عادة- و يبتدأ في تلك السور عند ذكرهم. بجملة يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إلّا أنّه في هذه السورة (الشعراء)- كما لاحظنا- كانت بداية دعوتهم قومهم أ لا تَتَّقُونَ ... و الحق أنّهما تعودان إلى نتيجة واحدة ... لأنّه إذا لم توجد في الإنسان أدنى مراتب التقوى، و هي طلب الحق، فإنه لا يؤثر فيه شيء، لا الدعوة إلى التوحيد و لا غيرها ... لذا فإنّنا نقرأ في بداية سورة البقرة قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

و بالطبع فإنّ التقوى لها مراحل- أو مراتب- و كل مرتبة هي درجة للرقي إلى المرحلة التالية أو المرتبة الأخرى ...

كما نلاحظ اختلافا آخر بين هذه السورة و سورتي الأعراف و هود، ففي سورتي الأعراف و هود كانت دعوة الأنبياء تتركز على نبذ الأصنام، أمّا المسائل الأخر فكانت تحت الشعاع، إلّا أنه في سورة الشعراء هذه تتركز الدعوة على مكافحة الانحرافات الأخلاقية و الاجتماعية، كالمفاخرة و طلب الاستعلاء، و الإسراف، و الانحراف الجنسي، و الاستثمار و التطفيف. إلخ ... و هذا الأمر يكشف بأن تكرار هذه القصص في القرآن له حساب خاص، و لكلّ هدف معين يعرف من السياق!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج١١ ؛ ص۴۵۷

٣- الانحرافات الاخلاقية

ممّا يلفت النظر أنّ الأقوام المذكورين في هذه السورة، بالإضافة إلى انحرافهم عن أصل التوحيد نحو الشرك و عبادة الأوثان، الذي يعدّ أصلا مشتركا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١١، ص: ۴۵۸

بينهم، فإنهم كانوا متورطين بانحرافات أخلاقية و اجتماعية خاصّة «و كل قوم لهم انحرافات خاصّة» ...

فبعضهم كانوا أهل مفاخرة و تكبر ... كقوم هود عليه السّلام.

و بعضهم كانوا أهل إسراف و ترف كقوم صالح عليه السّلام.

و بعضهم كانوا مبتلين بالانحراف الجنسي كقوم لوط عليه السّلام.

و بعضهم كانوا عبدة المال بحيث كانوا يتلاعبون بالمعاملات كقوم شعيب عليه السّلام.

و بعضهم كانوا مغرورين بالثروة كقوم نوح عليه السّلام.

إلّا أن عقابهم كان متشابها إلى حدّ ما، و كانت نهايتهم الهلاك ...

فبعضهم أهلكوا بالصاعقة و الزلزلة كقوم شعيب و قوم لوط و قوم صالح و قوم هود.

و بعضهم أهلكوا بالطوفان كقوم نوح عليه السّلام.

و فى الحقيقة، فإن الأرض التى هى مهد للدعة و الاطمئنان، و كانوا يمرحون عليها، أمرت بإهلاكهم! ...

و الماء و الهواء الذين هما سببا حياتهم نفذا الأمر بإماتتهم! و ما أعجب أن تكون حياة الإنسان فى قلب الموت، و موته فى قلب الحياة، و هو مع كل ذلك غافل مغرور!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۵۹

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۹۲ الى ۱۹۷]

اشارة

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۹۲) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (۱۹۳) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۱۹۴) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (۱۹۵) وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (۱۹۶)

أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۹۷)

التّفسير

عظمة القرآن فى كتب «السابقين».[۳۳۱]

بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، و العبر الكامنة فى تأريخ حياتهم، يعود القرآن مرة أخرى إلى البحث الذى شرعت به السورة، بحث عظمة القرآن و حقانية هذا الكلام الإلهى المبين، إذ يقول: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ

و أساسا فإن بيان جوانب مختلفة عن سير الأنبياء السابقين بهذه الدقة و الظرافة، و الخو من أى نوع من الخرافات و الأساطير الكاذبة، و فى محيط مليء بالأساطير و الخرافات، و من قبل إنسان لا يعرف القراءة و الكتابة، أو لم يسبق له

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۰

أن تعلمهما ... كل ذلك بنفسه دليل على أن هذا الكتاب تنزيل من ربّ العالمين، و هذا نفسه دليل على إعجاز القرآن!! لذلك تضيف الآية التالية قائلة: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

و لو كان القرآن لم ينزله ملك الوحى «الروح الأمين من قبل اللّه» لم يكن بهذا الإشراق و الصفاء و الخلو من الخرافات و الأساطير و الأباطيل ...

و ممّا يلفت النظر أن ملك الوحى وصف بوصفين فى الآية: الأوّل أنّه الروح، و الوصف الثّانى أنّه الأمين ...

فالروح هى أساس الحياة، و الأمانة، هى شرط أصيل فى الهداية و القيادة! ...

أجل، إن هذا الروح الأمين نزل بالقرآن عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ [۳۳۲] فالهدف هو أن تنذر الناس، و أن تحذرهم من مغبة الانحراف عن التوحيد، ليحذروا من سوء العاقبة ... إن الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرّد شرفا فكريا و لملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤولية و اليقظة، و الهدف هو التربية و بناء شخصية الإنسان! ...

و لئلا تبقى حجّة لأحد و لا عذر، فإنّ القرآن أنزل بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ...

فهذا القرآن نازل بلسان عربى فصيح، خال من الإبهام، للإنذار و الإيقاظ، و لا سيما أنه نزل فى محيط يتذرع أهله بالحجج الواهية، نزل بليغا واضحا ...

هذا اللسان العربى هو أكمل الألسنة و اللغات و أغناها أدبا و مقاما.

و الجدير بالذكر أن أحد معانى «عربى» هو ذو الفصاحة و البلاغة- بقطع النظر عن كيفية اللسان، و كما يقول الراغب فى المفردات: العربى: الفصيح البيّن من الكلام ...

و فى هذه الصورة فإنه ليس المعوّل على لسان العرب، بل الأساس صراحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۱

القرآن و وضوح مفاهيمه، و الآيات التالية تؤيد هذا المعنى، كما جاء فى الآية (۴۴) من سورة فصلت وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ

فالمراد من الأعجمى هنا هو الكلام غير الفصيح! ...

و الآية التالية تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانية القرآن فتقول: وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ [۳۳۳] و خاصّة أن أوصاف هذا النّبى العظيم و أوصاف هذا الكتاب السماوى الخالد، جاءت فى توراة موسى عليه السّلام بحيث أن علماء بنى إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك، حتى قيل أن إيمان قبيلتى الأوس و الخزرج بالنّبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان على أثر ما كان يتوقعه علماء اليهود عن ظهور هذا النّبى العظيم، و نزول هذا الكتاب السماوى الكريم ..

لذا فإنّ القرآن يضيف هنا قائلا: أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ

و واضح أنه مع وجود أولئك العلماء من بنى إسرائيل فى ذلك المحيط الملىء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافا» و اعتباطا ..

لأنّه كان سيردّ عليه من كل حدب و صوب بالإنكار، و هذا بنفسه دليل على أن هذا الموضوع كان جليّا فى ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات- محل البحث- و نقرأ فى الآية (۸۹) من سورة البقرة أيضا: وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ

و كل هذا شاهد جليّ على صدق آيات القرآن و حقانية دعوته! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۳

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۹۸ الى ۲۰۳]

اشارة

وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (۱۹۸) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (۱۹۹) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۲۰۰) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۲۰۱) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۲۰۲)
فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (۲۰۳)

التّفسير

لو نزّل القرآن على الأعاجم ...

فى هذه الآيات يتكلم القرآن على واحدة من الذرائع الاحتمالية من قبل الكفار و موقفه منها، و يستكمل البحث السابق فى نزول القرآن بلسان عربى مبين، فيقول: وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ

قلنا سابقا أن كلمة «عربى» قد يراد منها من ينتمى إلى العرب، و قد تطلق على الكلام الفصيح أيضا. و «عجمى» فى مقابل العربى كذلك له معنيان، فقد يراد منه من ينتمى إلى غير العرب، و قد يراد منه الكلام غير الفصيح، و كلا المعنيين فى الآية الآنفة محتمل، إلّا أن الاحتمال الأكثر هو أن المقصود غير العرب، كما يبدو.

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقية و يعبد القومية كانوا متعصبين الى درجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۴

أجل، إنّهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ [۳۳۴] لا شك أن المراد من هذا العذاب الذى يأخذهم بغتة، هو عذاب الدنيا و البلاء المهلك و عقاب الاستئصال! ...

لذا فإنّ القرآن يحكى عن حالهم فيقول: إنّهم فى هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، و يندمون على أفعالهم، و يتملكهم الخوف من المصير المرعب، و يودون بأن يعطوا فرصة لجبران ما فات و الإيمان بالرسالة الالهية: فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ...

بحوث

۱- العصبية القومية و القبلية الشديدة! ...

لا شك أن كل إنسان يرتبط بأرض أو قبيلة أو قومية فإنّه يعشقها، و هذه العلاقة بالأرض أو القبيلة، ليست غير معيبة فحسب، بل هى عامل بنّاء لأبناء المجتمع، إلّا أن لهذا الأمر حدودا، فلو تجاوز الحدود فإنه سينقلب إلى عامل مخرب، و ربّما إلى عامل مفجع.

و المراد من التعصب أو العصبية القومية أو القبلية المذمومة و السلبية، هو الإفراط فى التعصب أو العصبية ...

«التعصب» و «العصبية» فى الأصل من مادة (عصب) و معناه واضح، و هو الغضروف الذى يربط المفاصل، ثمّ أطلق التعصب و العصبية على كل ارتباط ...

إلّا أن هذا اللفظ أو هذين اللفظين يستعملان عادة فى المفهوم الإفراطى المذموم.

إن الدفاع المفرط عن القوم أو القبيلة أو الأرض و الوطن، كان مصدرا لكثير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۵

من الحروب على طول التاريخ، و عاملا على انتقال الخرافات و التقاليد السيئة على أنها آداب و سنن فى قبيلة ما أو أمّة ما! إلى امم أخر! هذا الدفاع أو الانتماء المتطرف، قد يبلغ حدا بحيث يرى أسوأ أفراد قبيلته فى نظره جميلا، و أحسن أفراد القبيلة الأخرى فى نظره سيئا ... و كذلك الحال بالنسبة إلى السنن و الآداب السيئة و الحسنة ... و بتعبير آخر: إنّ التعصب القومى يلقى ستارا من الجهل و الأنانية على أفكار الإنسان و عقله، و يلغى التقييم الصحيح! هذه الحالة من العصبية كانت لها صورة أكثر حدة بين بعض الأمم، و منهم العرب المعروفون بالتعصب.

و قد قرأنا فى الآيات الآنفة أنّه لو أنزل اللّه القرآن على غير العرب لما كانوا به مؤمنين.

و قد ورد فى الرّوايات الإسلامية التحذير من التعصب، على أنّه خلق مذموم، حتى أنّنا نقرأ

حديثا عن رسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه: «من كان فى قلبه حبّة من خردل من عصبية، بعثه اللّه يوم القيامة مع أعراب الجاهلية».[۳۳۵]

و

نقرأ حديثا آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه».[۳۳۶]

و یستفاد من الرّوایات الإسلامیة أیضا، أن إبلیس أوّل من تعصب ...

یقول الإمام علی علیه السّلام فی بعض خطبه- المعروفة بالقاصعة- فی مجال التعصب کلاما بلیغا مؤثرا، ننقل جانبا منه هنا: «أمّا إبلیس فتعصب علی آدم لأصله، و طعن علیه فی خلقته، فقال: أنا ناری

و أنت طینی).[۳۳۷]

ثمّ

یضیف الإمام علی فی خطبته هذه قائلا: «فإن کان لا بدّ من العصبیة، فلیکن تعصبکم لمکارم الخصال، و محامد الأفعال، و محاسن الأمور».[۳۳۸]

و یتّضح من هذا الحدیث- بجلاء أن التعصب و الدفاع المستمیت عن بعض الحقائق و الایجابیات لیس غیر مذموما فحسب، بل بامکانه أن یسدّ فراغا روحیا قد ینشأ من ترک بعض العادات الجاهلیة المقیتة.

لذلک نقرأ

عن الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام حین سئل عن التعصب قوله: «العصبیة التی یأثم علیها صاحبها أن یری الرجل شرار قومه خیرا من خیار قوم آخرین، و لیس من العصبیة أن یحب الرجل قومه، و لکن من العصبیة أن یعین قومه علی الظلم».[۳۳۹]

و التعبیر الآخر عن العصبیة الوارد فی بعض الروایات أو الآیات هو الحمیة (حمیة الجاهلیة).

و بالرغم من أن الأحادیث فی هذا المجال کثیرة، إلّا أننا نختم بحثنا بحدیثین منها:

یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام «إنّ اللّه یعذب ستة بست- العرب بالعصبیة، و الدهاقنة بالکبر، و الأمراء بالجور، و الفقهاء بالحسد، و التجار بالخیانة، و أهل الرستاق بالجهل).[۳۴۰] و کان رسول اللّه یتعوذ فی کل یوم من ست «من الشکّ و الشرک و الحمیّة و الغضب و البغی و الحسد».[۳۴۱]

۲- طلب الرجوع إلی الدنیا ...

من لحظة الموت تبدأ حسرات المجرمین و آهاتهم، و تشتعل فی قلوبهم رغبة الرجوع إلی الدنیا، و یصرخون و یدعون و لات حین مناص ...

و فی القرآن الکریم أمثلة کثیرة فی هذا الصدد، أکثرها بساطة هذه الآیة محل البحث هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ

أمّا فی الآیة (۲۷) من سورة الأنعام فنقرأ: یا لَیْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُکَذِّبَ بِآیاتِ رَبِّنا.

أمّا فی الآیة (۶۶) سورة الأحزاب فتقول منها: یا لَیْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا.

و نقرأ فی الآیتین ۹۹- ۱۰۰ من سورة المؤمنون: حَتَّی إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ

و هذه الحالة تستمر حتی فی صوره وقوف المجرمین علی حافة النار، کما فی الآیة ۲۷ من سورة الأنعام، إذ تقول: وَ لَوْ تَری إِذْ وُقِفُوا عَلَی النَّارِ فَقالُوا یا لَیْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُکَذِّبَ بِآیاتِ رَبِّنا وَ نَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ ...

إلّا أن هذه العودة لن تتحقق، لأنّها سنة اللّه سبحانه، و لن تجد لسنة اللّه تبدیلا، و لن تجد لسنة اللّه تحویلا، فلو قطعت ثمرة غیر ناضجة من الشجرة ثمّ عادت، و لو سقط الجنین من بطن امّه قبل اکتماله، ثمّ عاد الی الرحم ... لأمکن أن یعود هؤلاء ...

فبناء علی ذلک فإن الطریق الوحید المعقول، هو التوقّی من حسرۀ ما بعد الموت بالتوبۀ من الذنب، و الأعمال الصالحۀ، ما دامت الفرصۀ سانحۀ و إلّا فلا ینفع الندم بعد فوات الأوان! ...

۳- فضل العجم:

جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام الصادق ذیل الآیات محل البحث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۸

أنه قال: «لو نزل القرآن علی العجم ما آمنت به العرب ... و قد نزل علی العرب فآمنت به العجم، فهذه فضیلۀ العجم».[۳۴۲]

«و فی هذا الصدد کانت لنا إشارات ذیل الآیۀ ۵۴ من سورۀ المائدۀ».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۹

الآیات [سورۀ الشعراء (۲۶): الآیات ۲۰۴ الی ۲۱۲]

اشارۀ

أَ فَبِعَذابِنا یَسْتَعْجِلُونَ (۲۰۴) أَ فَرَأَیْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِینَ (۲۰۵) ثُمَّ جاءَهُمْ ما کانُوا یُوعَدُونَ (۲۰۶) ما أَغْنی عَنْهُمْ ما کانُوا یُمَتَّعُونَ (۲۰۷) وَ ما أَهْلَکْنا مِنْ قَرْیَۀٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (۲۰۸)

ذِکْری وَ ما کُنَّا ظالِمِینَ (۲۰۹) وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّیاطِینُ (۲۱۰) وَ ما یَنْبَغِی لَهُمْ وَ ما یَسْتَطِیعُونَ (۲۱۱) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (۲۱۲)

التّفسیر

تهمۀ أخری للقرآن:

حیث أن الآیات المتقدمۀ ختمت بجملۀ هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ التی یقولها المجرمون عند ما یأتیهم العذاب بغتۀ و هم علا أبواب الهلاک، طالبین الإمهال و الرجوع للتعویض عما فاتهم من الأعمال. فالآیات محل البحث تردّ علیهم عن طریقین:

الأوّل قوله تعالی: أَ فَبِعَذابِنا یَسْتَعْجِلُونَ

إشارۀ إلی أنّه طالما استهزأتم أیّها المجرمون، و سخرتم من أنبیائکم، و طلبتم منهم نزول العذاب بسرعۀ ... لکن حین أصبحتم فی قبضۀ العذاب تطلبون الإمهال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷۰

لتعوضوا عمّا فات من الأعمال، و کنتم ترون الأمر لهوا و لعبا فی یوم، لکن فی الیوم الآخر وجدتموه جدیّا- و علی کل حال فإنّ سنۀ اللّه أن لا یعذب قوما حتی یتمّ علیهم الحجّۀ البالغۀ ...

لکن إذا تمّت الحجۀ، و فسح لهم المجال، و لم یثوبوا الی رشدهم أنزل عذابه فلا ینفع الابتهال، و الرجوع نحو ساحۀ ذی الجلال.

و الآخر أنّه أَ فَرَأَیْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِینَ ثُمَّ جاءَهُمْ ما کانُوا یُوعَدُونَ ما أَغْنی عَنْهُمْ ما کانُوا یُمَتَّعُونَ

فعلی فرض أنّهم أمهلوا ثانیۀ (و لن یمهلوا بعد إتمام الحجۀ علیهم) و علی فرض أن یعمّروا سنین طوالا فی هذه الدنیا و یغرقوا فی بحر الغفلۀ و الغرور، الا یکون عملهم التمتع و التلذذ بالمواهب المادیّۀ فحسب. و هل یعوضون عما فاتهم؟! کلّا أبدا .. فمن المسلّم أنّهم لا

یعرضون عمّا فاتهم. و هل تغنی المواهب المادیة عنهم شیئا عند نزول العذاب؟ و هل تحلّ مشکلتهم أو تحدث تغییرا فی عاقبتهم؟! کما یرد هذا الاحتمال فی تفسیر الآیات الآنفة، و هو أنّهم لا یطلبون الإمهال للرجوع نحو الحق و التعویض عما فات، بل یطلبون الإمهال لمزید التمتع من النعم الزائلة فی هذه الدنیا، إلّا أن هذا التمتع لا یغنی عنهم شیئا، و لا بد أن یرحلوا- إن عاجلا و إن آجلا- من هذه الدار الفانیة إلی تلک الدار الباقیة، و أن یواجهوا أعمالهم هناک ...

و هنا یثار سؤال- و هو أنّه مع الالتفات إلی أن اللّه بمستقبل کل قوم و جماعة، فما الحاجة إلی الإمهال؟

ثمّ أن الأمم السالفة کذبت أنبیاءها واحدا بعد الآخر، و بمقتضی قوله تعالی:

وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ الوارد فی نهایة تلک القصص إن أکثرهم لم یؤمنوا، فعلام یأتی الأنبیاء منذرین و مبشرین؟! فالقرآن یجیب علی هذا السؤال بأن ذلک سنة اللّه وَ ما أَهْلَکْنا مِنْ قَرْیَةٍ إِلَّا

لَها مُنْذِرُونَ فنرسل الأنبیاء لهم لإتمام الحجّة و تقدیم النصح و الموعظة لیتذکروا و یستیقظوا من غفلتهم ذِکْری [۳۴۳] و لو کنا نأخذهم بدون إتمام الحجة، و ذلک بإرسال المنذرین و المبشرین- من قبل اللّه- لکان ظلما منّا وَ ما کُنَّا ظالِمِینَ

فمن الظلم أن نهلک غیر الظالمین، أو نهلک الظالمین دون إتمام الحجّة علیهم ...

و ما ورد فی هذه الآیات هو فی الحقیقة بیان للقاعدة العقلیة المعروفة ب «قاعدة قبح العقاب بلا بیان» و شبیه لهذه الآیة ما جاء فی الآیة (۱۵) من سورة الإسراء: وَ ما کُنَّا مُعَذِّبِینَ حَتَّی نَبْعَثَ رَسُولًا.

أجل .. إنّ العقاب بدون البیان الکافی قبیح، کما أنه ظلم، و اللّه العادل الحکیم محال أن یفعل ذلک أبدا، و هذا ما یعبر عنه فی علم الأصول ب (أصل البراءة) و معناه أن کل حکم لم یقم علیه الدلیل، فإنّه ینفی بواسطة هذا الأصل «لمزید التوضیح یراجع تفسیر الآیة ۵۷ من سورة الإسراء» ..

ثمّ یرد القرآن علی إحدی الذرائع أو التهم الباطلة من قبل اعداء القرآن و هی أن النّبی مرتبط ببعض الجن، و هو یعلمه هذه الآیات، و الحال أن القرآن یؤکّد أن هذه الآیات هی من «تنزیل ربّ العالمین».

فیضیف هنا قائلا: وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّیاطِینُ

ثمّ یبیّن جواب هذه التهمة الواهیة التی اختلقها الأعداء فیقول: وَ ما یَنْبَغِی لَهُمْ

أی أن محتوی هذا الکتاب العظیم الذی یدعو الی الحق و الطهارة و العدل و التقوی، و نفی کل أنواع الشرک، یدلّ دلالة واضحة علی أنّه لا شباهة له بأفکار الشیاطین و ما یلقونه. فالشیاطین لا یصدر منهم إلّا الشر و الفساد، و هذا کتاب خیر و صلاح، فالدقّة فی محتواه تکشف عن أصالته.

ثمّ إن الشیاطین لیست لهم القدرة علی ذلک وَ ما یَسْتَطِیعُونَ

فإذا کانت لهم القدرة فینبغی علی سائر من کان فی محیط نزول القرآن کالکهنة المرتبطین بالشیاطین (أو علی الأقل کان المشرکون یدّعون بأنّهم مرتبطون بالشیاطین) أن یأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنّهم عجزوا عن الإتیان بمثله، و هذا العجز أثبت أن القرآن فوق قدرتهم و مستوی بلاغتهم و أفکارهم! ...

و مضافا إلی کل ذلک، فإن الکهنة أنفسهم کانوا یعترفون أنّهم بعد ولادة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انقطعت علاقتهم بالشیاطین الذین کانوا یأتونهم بأخبار السماء و إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ

و یستفاد من سائر آیات القرآن أن الشیاطین کانوا یصعدون إلی السماء و یسترقون السمع من الملائکة، فینقلون ما یدور بین الملائکة من مطالب إلی أولیائهم، إلّا أنّه بظهور نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ولادته انقطع استراق السمع تماما، و زال الارتباط

الخبری بين الشياطين و أوليائهم ...

و هذا الأمر كان يعلم به المشركون أنفسهم، و على فرض أن المشركين كانوا لا يعلمون، فإن القرآن أخبرهم بذلك.[۳۴۴] و لذا فقد جعله القرآن دليلا فی الآيات الأنفة لدحض ما يتقوله الأعداء ...

و هكذا فقد أجاب القرآن على هذا الاتهام من ثلاثة طرق:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷۳

۱- عدم التناسب بين محتوى القرآن و إلقاء الشياطين.

۲- عدم قدرة الشياطين على ذلك.

۳- منع الشياطين من استراق السمع.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۲۱۳ الى ۲۲۰]

اشارة

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (۲۱۳) وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (۲۱۴) وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۱۵) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۲۱۶) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (۲۱۷)

الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (۲۱۸) وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (۲۱۹) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۲۲۰)

التّفسير

و أنذر عشيرتک الأقربين ...

تعقيبا على الأبحاث الواردة فی الآيات السابقة فی شأن مواقف المشركين من الإسلام و القرآن ... فإن اللّه سبحانه يبيّن لنبيّه- فی الآيات محل البحث- منهجه و خطّته فی خمسة أوامر، فی مواجهة المشركين ...

و قبل كل شیء فإن اللّه يدعو النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الإعتقاد التام بالتوحيد، التوحيد الذی هو أساس دعوات الأنبياء جميعا ... يقول سبحانه: فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ...

و مع أنّ النبیّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان من المقطوع به أنّه ينادی إلى التوحيد و لا يمكن أن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷۵

يتصور انحرافه عن هذا الأصل ... إلّا أنّ أهمية هذه المسألة كانت بحيث أن يكون شخص النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- قبل كل شیء- مخاطبا بها. ليعرف الآخرون موقفهم ... ثمّ إن بناء الآخرين يبدأ من بناء شخصية الإنسان نفسه ...

ثمّ يأمره اللّه فی مرحلة اخرى أن ينطلق إلى مدى أرحب فی دعوته قائلا:

وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [۳۴۵] و لا شكّ أنّه للوصول إلى منهج تغييری ثوری واسع، لا بدّ من الابتداء من الحلقات الأدنى و الأصغر، فما أحسن أن يبدأ النّبی دعوته من أقربائه و أرحامه، لأنّهم يعرفون سوابقه النزيهة أكثر من سواهم كما أن علائق القربى و المودّة تستدعی الإصغاء إلى كلامه أكثر من غيرهم، و أن يكونوا أبعد من سواهم من حيث الحسد و الحقد و المخاصمة! إضافة إلى ذلك فإنّ هذا الأمر يدلّ على أنّ النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس لديه أية مداهنة و لا مساومة مع أحد، ليستثنی أقرباءه المشركين عن

دعوته إلی التوحید و الحق و العدل! ...

و عند ما نزلت هذه الآیة، قام النّبی بما ینبغی علیه من أجل تنفیذ هذا الأمر الإلهی، و سیأتی تفصیل ذلک کله فی حقل البحوث بإذن اللّه ...

أمّا المرحلة الثّالثة، فإنّ اللّه یوصی النّبی فی دائرة أوسع فیقول: علیک أن تعامل اتباعک باللطف و المحبة: وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

و هذا التعبیر الجمیل الرائع کنایة عن التواضع المشفوع بالمحبة و اللطف، کما أن الطیور تخفض أجنحتها لأفراخها محبّة منها لها، و تجعلها تحت أجنحتها لتکون مصانة من الحوادث المحتملة، و لتحفظها من التشتت و التفرّق! فکذلک الأمر بالنسبة للنّبی إذ أمر أن یخفض جناحه للمؤمنین الصادقین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷۶

و هذا التعبیر الرائع ذو المعنی الغزیر یبیّن دقائق مختلفة فی شأن محبة المؤمنین، و یمکن إدراکها بأدنی التفاتة! ...

و ذکر هذه الجملة- ضمنا- بعد مسألة الإنذار یکشف عن هذه الحقیقة، و هی إذا کان التعویل علی الخشونة فی بعض الموارد بمقتضی الضرورات التربویة، فإنّه و بلا فاصلة یأتی التعویل علی المحبّة و العاطفة لیتوفر منهما نمط مناسب ...

ثمّ تأتی المرحلة الرّابعة و هی أن الأعداء لم یقبلوا دعوتک و عصوا أوامرک.

فلا- تبتئس و لا تحزن: فَإِنْ عَصَوْکَ فَقُلْ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ... لیعرفوا موقفک منهم! و الظاهر أنّ الضمیر فی عصوک- یعود علی عشیرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الأقربین ... أی إذا لم یذعنوا بعد دعوتک إیاهم للحق، و واصلوا شرکهم و عنادهم، فعلیک أن تبیّن موقفک منهم، و هذا التوقع الذی احتمله القرآن حدث فعلا، کما سنذکر ذلک فی البحوث القادمة، إذ امتنع الجمیع عن قبول دعوة النّبی ما عدا علیا علیه السّلام ... فبعضهم لاذ بالصمت، و بعضهم أبدی مخالفته عن طریق الاستهزاء و السخریة ...

و أخیرا فالأمر الالهی الخامس للنّبی لإکمال مناهجه السابقة، هو: وَ تَوَکَّلْ عَلَی الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ

فلا- تدع لعنادهم مجالا- للتأثیر علی عزیمتک ... و لا لقلّة الأعوان و الأنصار طریقا لتوهین ارادتک، فلست وحدک ... و سندک و ملاذک هو اللّه القادر العزیز الذی لا یقهر، و الرحیم الذی لا حدّ لرحمته ...

اللّه الذی سمعت وصفه فی ختام قصص الأنبیاء بالعزیز الرحیم! ...

اللّه الذی بقدرته أحبط ظلم فرعون و غرور نمرود، و تمرّد قوم نوح، و أنانیة قوم هود، و اتباع الشهوات لقوم لوط. و کذلک أنقذ أنبیاءه و رسله الذین کانوا قلّة، و شملهم برحمته الواسعة.

ذلک اللّه الَّذِی یَراکَ حِینَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷۷

أجل إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ ...

و هکذا تذکر الآیات ثلاث صفات للّه بعد وصفه بالعزیز الرحیم و کلّ منها یمنح الأمل و یشدّ من عزم النّبی علی مواصلة طریقة، إذ أن اللّه یری جهوده و أتعابه و حرکاته و سکناته، و قیامه و سجوده و رکعاته! ..

ذلک اللّه الذی یسمع صوته.

اللّه الذی یعلم حاجاته و طلباته حاجته ...

أجل، فعلی هذا الإله توکل، و أرکن إلیه أبدا.

بحثان

۱- تفسیر وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ

بین المفسّرین أقوال مختلفة فی معنی قوله تعالی: الَّذِی یَراکَ حِینَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ

و ظاهر الآیة هو ما ذکرناه آنفا، أن اللّه یری قیامک و انتقالک و حرکتک بین الساجدین.

و هذا القیام یمکن أن یکون قیاما للصلاة، أو القیام للعبادة من النوم، أو القیام للصلاة فرادی، و فی مقام تقلبک فی الساجدین ... الذی یشیر إلی صلاة الجماعة.

«التقلب» معناه الحرکة و الانتقال من حال إلی حال، و هذا التعبیر لعله إشارة إلی سجود النبیّ بین الساجدین فی أثناء الصلاة، أو إلی حرکة النّبی و تنقله بین أصحابه و هم مشغولون بالعبادة، و کان یتابع أحوالهم و یسأل عنهم ...

و فی المجموع فإنّ هذا التعبیر إشارة إلی أن اللّه سبحانه لا یخفی علیه شیء من حالاتک و سعیک، سواء کانت شخصیّة فردیة، أم کانت مع المؤمنین فی صورة جماعیة، لتدبیر امور العباد و لنشر مبدأ الحق مع الالتفات الی ان الأفعال الواردة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷۸

فی الآیة مضارعة و فیها معنی الحال و الاستقبال».

و هنا تفسیران آخران ذکرا فی معنی الآیة، إلّا أنّهما لا ینسجمان مع ظاهرها، و لعلهما من بطون الآیة:

الأوّل: أنّ المراد من الآیة رؤیة النّبی و نظره إلی المصلین و الساجدین خلفه، لأنّه کما یری من أمامه یری من خلفه کما

ورد فی الحدیث: «لا ترفعوا قبلی و لا تضعوا قبلی، فإنّی أراکم من خلفی کما أراکم من أمامی»[۳۴۶]

ثمّ تلا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الآیة آنفة الذکر.

الثّانی: أنّ المراد منه أنّ انتقال فی أصلاب النبیّین من لدن آدم حتی أبیه عبد اللّه، کلّه تحت نظر اللّه سبحانه، أی حین تنتقل نطفتک المبارکة من نبیّ موحد ساجد إلی ساجد آخر فإن اللّه علیم بذلک ...

و

قد جاء فی تفسیر علی بن ابراهیم عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ ما یشیر إلی هذا المعنی، قال علیه السّلام: «فی أصلاب النبیین صلوات اللّه علیهم».[۳۴۷]

و

فی تفسیر مجمع البیان فی توضیح هذه الجملة جاء عن الإمامین الباقر و الصادق علیه السّلام ما یلی: «فی أصلاب النبیین نبیّ بعد نبیّ، حتی أخرجه من صلب أبیه، عن نکاح غیر سفاح من لدن آدم».[۳۴۸]

و بالطبع فإنّه بقطع النظر عن الآیات آنفة الذکر و تفسیراتها، فإن الدلائل المتوفرة تدلّ علی أن والد النّبی و أجداده لم یکونوا مشرکین أبدا، و ولدوا فی محیط منزّه عن الشرک و الدنس «لمزید الإیضاح یراجع تفسیر الآیة، ۷۴ من سورة الأنعام» إلّا أن التفاسیر الآنفة هی من بطون الآیة ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۷۹

۲- إنذار الأقربین «حدیث یوم الدار»

وفقا لما ورد فی التواریخ الإسلامیة، أمر النّبی فی السنة الثّالثة بدعوته الأقربین من عشیرته، لأنّ دعوته حتی ذلک الحین کانت مخفیة «سریّة»، و کان الذین دخلوا فی الإسلام عددا قلیلا، لذلک حین نزلت الآیة: وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ و الآیة فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ

أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۳۴۹] أمر النّبى أن يجعل دعوته علنية، و بدأ ذلک بدعوة أهله و أقربائه ۳۵۰].

و أمّا كيفية إبلاغه و إنذاره إيّاهم، فهو بإجمال أنّه دعا النبىّ «عشيرته» إلى بيت عمّه أبى طالب، و كانوا فى ذلک اليوم حوالى أربعين رجلا، و كان ممن حضر هذه الدعوة بعض أعمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كأبى طالب و الحمزة و أبو لهب و العباس، و بعد أن تناولوا الطعام، و أراد النّبى أن يؤدى ما عليه، تكلم أبو لهب كلمات أحبط بها خطة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لذا فقد دعاهم النّبى فى اليوم التالى أيضا.

و بعد أن تناولوا الطعام،

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يا بنى عبد المطلب، إنّى و اللّه ما أعلم شابا فى العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم بخير الدنيا و الآخرة ... و قد أمرنى اللّه أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرنى على أمرى هذا، على أن يكون أخى و وصيى و خليفتى فيكم؟» فأحجم القوم عنها غير على، و كان أصغرهم (سنا)، فقال: «يا نبىّ اللّه، أنا أكون وزيرک عليه»، فأخذ رسول اللّه برقبته، و قال: «إنّ هذا وصيّ و خليفتى فيكم فاسمعوا له و أطيعوا» فقام القوم يضحكون، و يقولون لأبى طالب:

قد أمرک أن تسمع لابنک و تطيع.[۳۵۱]

و قد نقل هذا الحديث كثير من أهل السنة كابن جرير الطبرى، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و البيهقى، و الثعلبى، كما نقله «ابن الأثير» فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۰

الجزء الثّانى من كتابه «الكامل»، و أبو الفداء فى الجزء الأوّل من تأريخه، و جماعة آخرون.[۳۵۲] و هذا الحديث يوضع لنا كيف كان النّبى وحيدا حينذاک، و كيف ردّوا عليه دعوته بالسخرية و الاستهزاء، و كيف وقف على عليه السّلام إلى جانب النّبى فى وحدته ناصرا و معينا ...

و

فى حديث آخر أن النّبى دعا قريشا واحدا واحدا و حذرهم من النار فقال:

«يا بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار».

و كان يدعو أحيانا بهذا الخطاب بنى عبد شمس، و بنى عبد مناف، و بنى عبد المطلب، و بنى هاشم فيقول: «أنقذوا أنفسكم من النار».[۳۵۳] فلست قادرا على الدفاع عنكم فى حال كفركم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۱

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۲۲۱ الى ۲۲۷]

اشارة

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (۲۲۱) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (۲۲۲) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (۲۲۳) وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (۲۲۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (۲۲۵)

وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (۲۲۶) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (۲۲۷)

التّفسير

النّبی لیس شاعرا:

هـذه الآیات- محل البحث- هی آخر الآیات من سورة الشـعراء، تعود ثانیـة لتردّ علی الاتهام السابق- من قبل الأعـداء- بأن القرآن من إلقـاء الشـیاطین، تردهم ببیـان أخـاذ بلیـغ مفحم، فتقـول: هَـلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلی مَنْ تَنَزَّلُ الشَّیـاطِینُ تَنَزَّلُ عَلی کُـلِّ أَفَّاکٍ أَثِیمٍ أی الکـاذب المذنب، حیث یلقون إلیهم ما یسمعونه مع اضافة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۲

أکـاذیب کثیرة علیه یُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَکْثَرُهُمْ کـاذِبُونَ [۳۵۴] و ملخص الکلام أن ما تلقیه الشـیاطین له علائم واضـحة، و یمکن معرفته بعلائمه أیضا. فالشـیطان موجود موذ و مخرب، و ما یلقیه یجری فی مسیر الفساد و التخریب، و أتباعه هم الکذابون المجرمون، و لیس شیء من هذه الأمور ینطبق علی القرآن، و لا علی مبلّغه، و لیس فیها أی شبه بهما.

و الناس فی ذلک العصـر- و ذلک المحیط- کانوا یعرفون النّبی محمّـدا صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و أسـلوبه و طریقته، فی صدقه و أمـانته و صـلاحه فی جمیع المجالات ... و محتوی القرآن لیس فیه سوی العـدل و الحق و الإصـلاح، فکیف یمکن أن تتهموه بأنّه من إلقاء الشـیاطین؟! و المراد من (الأفاک الأثیم) هو الکاهن المرتبط بالشـیاطین فتارة یقوم الشـیاطین باستراق السـمع لأحادیث الملائکة، ثمّ بعد مزجه بأباطیل کثیرة ینقلونه الی الکهنة. و هم بدورهم یضیفون علیه عشرات الأکاذیب و ینقلونها إلی الناس ...

و بعـد نزول الوحی خاصّـة، و منع الشـیاطین من الصـعود إلی السـماء و استراق السـمع. کـان مـا یلقیه الشـیاطین إلی الکهنـة خفنـة من الأکاذیب و الأراجیف ...

فمع هذه الحال کیف یمکن أن یقاس محتوی القرآن بما تلقیه الشیاطین ...

و أن یقاس النّبی الصادق الأمین بحفنة من الکهنة الأفاکین الکاذبین! ...

و هناک تفاسیر مختلفة لجملة یُلْقُونَ السَّمْعَ

فمنها: أن الضـمیر فی (یلقون) عائد علی الشـیاطین و «السمع» المراد منه المسموعات، أی أن الشیاطین یلقون مسموعاتهم إلی أولیائهم و أکثرهم کاذبون «و یضیفون علی ما یلقیه الشیاطین أکاذیب کثیرة!» ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۳

و منها: إن الضمیر فی الفعل یعود علی الأفاکین، إذ أنّهم کانوا یلقون- ما یسمعون من الشیاطین- إلی عامّة الناس، إلّا أن التّفسیر الأوّل أصح ظاهرا[۳۵۵]! و فی الآیة الرّابعة- من الآیات محل البحث- یردّ القرآن علی اتهام آخر کان الکفار یرمون به النّبی فیدعونه شاعرا، کما فی الآیة (۵) من سورة الأنبیاء بَلْ هُوَ شاعِرٌ و ربما دعوه بالشاعر المجنون، کما جاء فی الآیـة (۳۶) من سورة الصافات وَ یَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِکُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ

فالقرآن یردهم هنا ببیان بلیغ منطقی، بأن منهج النّبی یختلف عن منهج الشـعراء. فالشعراء یتحرکون فی عالم من الخیال، و هو یتحرک علی أرض الواقع و الواقعیات، لتنظیم العالم الإنسانی ...

و الشـعراء یبحثون عن العیش و اللـذة و الغزل (کمـا هی الحـال بالنسـبة لشـعراء ذلک العصـر فی الحجاز خاصّـة حیث یظهر ذلک من أشعارهم بوضوح).

و لذا فإن أتباعهم هم الضالون: وَ الشُّعَراءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ

ثمّ یضیف القرآن علی الجملة آنفة الذکر معقّبا أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِی کُلِّ وادٍ یَهِیمُونَ [۳۵۶] فهم غارقون فی أخیلتهم و تشبیهاتهم الشعریة، حتی أن القوافی تجرهم إلی هذا الاتجاه أو ذاک، و یهیمون معها فی کل واد ...

و هم غالبا لیسوا أصـحاب منطق و اسـتدلال، و أشعارهم تنبع ممّا تهیج به عواطفهم و قرائحهم ... و هذه العواطف تسوقهم فی کل آن

من واد لآخرا! ...

فحين يرضون عن أحد يمدحونه و يرفعونه إلى أوج السماء، و إن كان حقه أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۴

يكون فى أسفل السافلين، و يلبسونه ثوب الملاك الجميل و إن كان شيطانا لعينا ...

و متى سخطوا على أحد هجوه هجوا مرا و أنزلوه فى شعرهم الى أسفل السافلين، و إن كان موجودا سماويّا.

ترى هل يشبه محتوى القرآن الدقيق المنطلقات الشعرية أو الفكرية للشعراء و خاصّة شعراء ذلك العصر، الذين لم تكن منطلقاتهم إلّا وصف الخمر و الجمال و العشق و المدح لقبائلهم و هجو أعدائهم ...

ثمّ إن الشعراء عادة هم رجال حطابة و جماهير لا أبطال قتال، و كذلك أصحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإنّ الآية التالية تضيف فتقول عنهم: وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ

غير أن النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجل عمل من قرنه إلى قدمه، و قد اعترف بعزمه الراسخ و استقامته العجيبة حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟! و ممّا تقدم من الأوصاف التى ذكرها القرآن عن الشعراء، يمكن أن يقال بأن القرآن وصفهم بثلاث علامات:

الأولى: أنّهم يتبعهم الغاوون الضالون، و يفرّون من الواقع، و يلجئون إلى الخيال.

و الثّانية: أنّهم رجال لا هدف لهم، و متقلّبون فكريّا، و واقعون تحت تأثير العواطف! و الثّالثة: أنّهم يقولون ما لا يفعلون ... و حتى فى المجال الواقعى لا يطبقون كلامهم على أنفسهم ...

إلّا أنه لا شىء من هذه الأوصاف يصدق على النّبى، فهو فى الطرف المقابل لها تماما! و لمّا كان بين الشعراء أناس مخلصون هادفون و أهل أعمال لا أقوال، و دعاة نحو الحق و الصدق «و إن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلا يومئذ». فالقرآن من أجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۵

ألّا يضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون فى شعرهم أهدافا الهية و انسانية، و لا يغرقون فى الأشعار فيغفلون عن ذكر اللّه، بل كما يقول القرآن: وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً.

و أشعارهم تذكر الناس باللّه أيضا ... و إذا ما ظلموا كان شعرهم انتصارا للحق وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا.

فإذا هجوا جماعة هجوهم من أجل الحق و دفاعا عن الحق الذى يهجوه أولئك فيذبون عنه ...

و هكذا فقد بيّن القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، و هى الإيمان، و العمل الصالح، و ذكر اللّه كثيرا، و الإنتصار للحق من بعد ما ظلموا، مستعينين بشعرهم فى الذب عنه ...

و حيث أن معظم آيات هذه السورة هو للتسلية عن قلب النّبى، و التسرية عنه، و عن المؤمنين القلّة فى ذلك اليوم فى قبال كثرة الأعداء، و حيث أن كثيرا من آيات هذه السورة فى مقام الدفاع عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ضد التهم الموجهة إليه من قبل أعدائه، و غير اللائقة به- فإن السورة تختتم بجملة ذات معنى غزير، و فيها تهديد لأولئك الأعداء الألدّاء، إذ تقول: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

و بالرغم من أن بعض المفسّرين أرادوا أن يحصروا هذا الانقلاب و العاقبة المرة للظالمين بنار جهنّم ... إلّا أنه لا دليل على تقييد ذلك و تحديده بها ... بل لعله إشارة إلى هزائمهم المتتابعة و المتلاحقة فى المعارك الإسلامية، كمعركة بدر و غيرها، و ما أصابهم من ضعف و ذلة فى دنياهم، فمفهوم هذه الآية عام، بالإضافة إلى ذلك عذابهم و انقلابهم إلى النار فى آخر المطاف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۶

بحوث

۱- لم كانوا يتهمون النّبى بالشعر

إن واحدة من التهم التى كانت توجه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى الشعر، و أنّه شاعر، فالآيات- آنفة الذكر- كانت ردا على هذا الاتهام أيضا ...

لقد كانوا يعرفون جيدا أن القرآن ليس له أقل شبه بالشعر، لا من حيث الشكل و الظاهر و لا من حيث المحتوى، فالشعر فيه وزن و قافية و أبيات مشطرة، و ليس كذلك القرآن. و الشعر فيه تخيّل و تشبيهات كثيرة و غزل ممّا ليس فى القرآن أيضا.

إلّا أنّهم حيث كانوا يرون أثر القرآن الكبير فى جذب أفكار الناس و إيقاعه الخاص فى قلوبهم، فلإلقاء الستار على هذا النور الإلهى، سموه «سحرا» تارة، لأنّه كان ذا نفوذ و تأثير «خفى» فى الأفكار. و دعوة «شعرا» تارة أخرى لأنّه كان يهزّ القلوب و يأخذها معه! لقد أرادوا أن يذموا القرآن فمدحوه بهذا الكلام، و كان كلامهم سندا و دليلا حيا على نفوذ القرآن الخارق للعادة فى أفكار الناس و فى قلوبهم.

يقول القرآن فى تنزيه النّبى عن الشعر: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ ۳۵۷].

۲- الشعر و الشاعرية فى الإسلام

لا شك أن الذوق الشعرى و الفن الشاعرى كسائر رؤوس الأموال، له قيمته فى صورة ما لو استعمل استعمالا صحيحا و له أثر إيجابى ... إلّا أنّه إذا صار وسيلة تخريب و هدم للبناء العقائدى و الأخلاقى فى المجتمع، فلا قيمة له، بل يعتبر وسيلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۷

ضارة عندئذ ...

فالشعر ينبغى أن يؤدى دورة فى وجود الإنسان ليكون ذا قيمة كبرى، و أن لا يسوق الناس نحو الخيال أو الضياع أو الإشغال دون جدوى، لأنّه سيكون وسيلة للضرر و الإضرار.

و يتّضح بهذا الجواب على السؤال التالى:

ماذا يفهم من الآيات المتقدمة، هل الشاعريّة أمر حسن أو غير حسن، و هل يوافق الإسلام الشعر أو يخالفه؟! فالجواب على ذلك أن تقويم ۳۵۸] الإسلام فى هذا المجال قائم على الأهداف و الوجوه و النتائج ... و كما

قال الإمام على عليه السّلام حين كان بعض أصحابه يتكلمون على مائدة الإفطار فى إحدى ليالى شهر رمضان، و جرى كلامهم فى الشعر و الشعراء، فخاطبهم أمير المؤمنين على عليه السّلام قائلا: «اعلموا أن ملاك أمركم الدين، و عصمتكم التقوى، و زينتكم الأدب و حصون أعراضكم الحلم».[۳۵۹]

فكلام الإمام على عليه السّلام إشارة إلى أن الشعر وسيلة ... و معيار تقويمه الهدف الذى قيل من أجله! ...

إلّا أنّه- و للأسف- استغلّ الشعر على امتداد تاريخ آداب الأمم و الملل لأغراض سيئة، و تلوّث هذا الذوق الإلهى اللطيف، فسقط فى الوحل بسبب البيئة الفاسدة، و بلغ الشعر أحيانا درجة من الانحطاط بحيث صار من أهم عوامل الفساد و التخريب، و لا سيما فى العصر الجاهلى الذى كان عصر انحطاط الفكر العربى و أخلاقه!. فكان الشعر و الشراب و الغارات بعضها إلى جنب بعض ممّا مميزات ذلك

العصر!

و لکن من یستطیع أن ینکر هذه الحقیقة، و هی أن الأشعار البنّاءة و الهادفة علی امتداد التاریخ، خلقت طاقات کثیرة و حماسة قصوی، و ربّما عبأت امة مغلوبة بوجه أعدائها، فشدتها علی العدوّ فهزمته و انتصرت «بهذه الأشعار».

و فی فترة نضوج الثورة الإسلامیة رأینا بأم أعیننا کیف أثرت الأشعار الحماسیة فی نفوس الناس، فحرکتهم و أثارتهم حتی جرت دماء الثورة فی مفاصلهم، و جعلتهم صفا واحدا و زلزلت قصور الأعداء و هزمتهم ...

کما نسأل: من یستطیع أن ینکر أن شعرا أخلاقیا ینفذ فی أعماق الإنسان و یغیّر محتواه لدرجة لا یبلغها کتاب علمی غزیر المحتوی ... أجل، إن الشعر کما

قال عنه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «إن من الشعر لحکمة و إنّ من البیان لسحرا».[۳۶۰]

و للکلمات الموزونة و إیقاعها- أحیانا- مضاء السیف و نفوذ السهم فی قلب العدو ...

ففی بعض أحادیث الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- فی مثل هذه الأشعار- أنه قال: «... و الذی نفس محمد بیده فکأنّما تنضحونهم بالنبل».[۳۶۱]

أجل ... قال النّبی ذلک حین کان العدو یهجو المسلمین لیضعف معنویاتهم و روحیّاتهم، فأمر النّبی شعراء المسلمین أن یردّوا علیهم بالهجاء المقذع، لذمهم و تقویة روحیّة المسلمین.

و

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی شأن أحد الشعراء المدافعین عن الإسلام «أهجهم فإنّ جبرئیل معک».[۳۶۲]

و خاصّة حین سأل کعب بن مالک «الشاعر المؤمن» الذی کان ینشد قصائد

فی تقویة الإسلام- و کانت الآیات قد نزلت فی ذم الشعراء- فقال یا رسول اللّه: ما أصنع؟!

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «إنّ المؤمن یجاهد بنفسه و سیفه و لسانه».[۳۶۳]

و قد ورد عن أئمة أهل البیت علیهم السّلام وصف کثیر فی الشعر و الشعراء الهادفین و الدعاء لهم و إیصال الجوائز إلیهم، بحیث یطول الکلام فی ذلک «إن أردنا نقل الروایات عنهم».

إلّا أنّه من المؤسف أنه علی طول التاریخ أسقط جماعة هذه المنحة الإلهیة و الذوق اللطیف، الذی هو من أجمل مظاهر الخلق، فأنزلوه من أوجه إلی الحضیض، و کذبوا فیه کثیرا حتی قیل فی المثل المعروف: «أعذبه أکذبه».

و ربّما سخّروه فی خدمة الجبابرة و الظالمین و تملّقوا لهم، رجاء صلة محتقرة رخیصة ...

أو أنّهم أفرطوا فی وصف الشراب و الفجور و الفسق أحیانا، إلی درجة یخجل القلم عن ذکرها! و ربّما أشعلوا الحروب بنیران أشعارهم، و جروا الناس إلی القتل و الغارات، و لطخوا الأرض بدماء الأبریاء.

إلّا أن فی الطرف الآخر- و فی قبالهم- الشعراء الذین آمنوا بمبدئهم، و اشتدت همتهم، فسخّروا هذه القریحة الملکوتیة فی سبیل حریة الناس و التقوی، و مواجهة اللصوص و المستکبرین و الجبابرة، فبلغوا أوج الفخر! و ربّما دافعوا عن الحق فاشتروا بکل بیت من أبیات شعرهم بیتا فی الجنّة.[۳۶۴] ربما وقفوا فی وجوه حکام الظلم و الجور کبنی أمیة و بنی العباس الذین کانوا یحبسون الأنفاس فی الصدور، فتجلی القلوب بقصیدة کقصیدة دعبل «مدارس

آیات خلت من تلاوة» و أماطوا عن الحقّ لثام الباطل، فکأنّما کان یجری علی لسانهم روح القدس.[۳۶۵] و ربّما أنشدوا الأشعار

لإنهاض المضطهدين الذين كانوا يحسّون فى أنفسهم الاحتقار و الازدراء من قبل الظلمة ... فهاجوهم و أثاروهم بتلك الأشعار ...

و القرآن يقول فى شأن هؤلاء: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا.

ممّا يلفت النظر أن هؤلاء الشعراء قد يتركون شعرا خالدا مؤثرا بليغا ... حتى أن أئمّة الإسلام الكرام- كما تقول بعض الرّوايات- أوصوا شيعتهم و أصحابهم بحفظ أشعارهم كما ورد ذلك فى شأن «أشعار العبدى». إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يا معشر الشيعة، علموا أولادكم شعر العبدى، فإنّه على دين اللّه».[۳۶۶]

و نختتم هذا البحث بقصيدة للعبدى، و هى من قصائده المعروفة، فى شأن خلافة الإمام على عليه السّلام وصىّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال:

و قالوا رسول اللّه ما اختار بعده‌إماما و لكنّا لأنفسنا اخترنا

أقمنا إماما إن أقام على الهدى‌أطعنا و إن ضل الهداية قوّمنا

فقلنا: إذا أنتم إمام إمامكم‌بحمد من الرحمن تهتم و لا تهنا

و لكننا اخترنا الذى اختار ربّنالنا يوم خم ما اعتدينا و لا حلنا

و نحن على نور من اللّه واضح‌فيا ربّ زدنا منك نورا و ثبتنا[۳۶۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۹۱

۳- ذكر اللّه:

قرأنا فى الآيات- آنفة الذكر- أن من خصائص الشعراء الهادفين هو أنّهم يذكرون اللّه كثيرا ...

و

نقرأ فى بعض الأحاديث المرويّة عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه يقول: قول اللّه عز و جل: وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً ما هذا الذكر الكثير؟ قال: «من سبح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السّلام فقد ذكر اللّه الذكر الكثير».[۳۶۸]

كما

جاء عنه عليه السّلام أنه قال: من أشدّ ما قرض اللّه على خلقه ذكر اللّه كثيرا ... ثمّ قال عليه السّلام: «لا أعنى سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر، و إن كان منه، و لكن ذكر اللّه عند ما أحلّ و حرّم! فإن كان طاعة عمل بها، و إن كان معصية تركها!».[۳۶۹]

ربّنا، أملأ قلوبنا بذكرك، لنختار ما يرضيك، و نترك ما يسخطك ...

ربّنا، اجعل ألسنتنا بليغة، و أقلامنا سيّالة، و قلوبنا مليئة بالإخلاص، لنستعمل ذلك فى سبيلك و ابتغاء رضوانك، آمين ربّ العالمين.

انتهاء سورة الشعراء و نهاية المجلد الحادى عشر

---

[۱] (۱)- تفسير مجمع البيان للآية موضع البحث، و كتاب ثواب الأعمال للصدوق(حسبما نقله نور الثقلين، المجلد الثّالث. صفحة ۵۶۸).

[۲] (۱)-« لسان العرب» المجلد الرّابع، مادة« سور».

[۳] (۱)- تفسير الفخر الرّازى، المجلد الثّالث و العشرين، صفحة ۱۴۸.

[۴] (۱)- مجمع البيان، تفسير الآية موضع البحث و القرطبى فى تفسيره لهذه الآية. حيث رويا هذا الحديث.

[۵] (۲)- مجمع البيان، من تفسير الآية موضوع البحث.

[۶] (۱)- الكافى، الأصول، المجلد الثانى، صفحة ۲۶(المطبعة الإسلامية عام ۱۳۸۸). حسبما نقله صاحب نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ۵۷۱.

[۷] (۱)- شكك عدد من المفسّرين فى ضرورة حضور مجموعة من المؤمنين حين تنفيذ حدّ الزنا، فى حين أن الأمر بالحضور ظاهر من الآية، و هى لا تقصد الاستحباب.

[۸] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد الرّابع عشر، ص ۳۳۵.

[۹] (۱)- أصول الكافى، المجلد الثانى، صفحة ۲۶۹، باب التهمة و سوء الظن.

[۱۰] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۸ كتاب الشهادات، الباب ۳۶ صفحة ۲۸۲.

[۱۱] (۱)- نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ۵۷۴.

[۱۲] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد الثامن عشر، صفحة(۲۸۳)(أبواب الشهادات باب ۳۶ الحديث ۴).

[۱۳] (۱)- تفاسير مجمع البيان، و فى ظلال القرآن، و نور الثقلين، و الميزان، فى تفسير الآيات موضع البحث(مع بعض الاختلاف).

[۱۴] (۱)- ذكر تفسير« الميزان» جواب الشرط بشكل يشمل التفاسير الأخرى قال:« لولا ما أنعم اللّه عليكم من نعمة الدين و توبته لمذنبيكم و تشريع الشرائع لنظم أمور حياتكم، لزمتكم الشقوة، و أهلكتكم المعصية و الخطيئة، و اختل نظام حياتكم بالجهالة».

[۱۵] (۱)- هى غزوة بنى المصطلق فى العام الخامس للهجرة.

[۱۶] (۲)- ظفار كقطام بلد باليمين قرب صنعاء، و جزع ظفارى منسوب إليها و الجزع الخرز و هو الذى فيه سواد و بياض.

[۱۷] (۳)- العلقة من الطعام ما يمسك به الرمق.

[۱۸] (۴)- أدلج القوم: ساروا الليل كله أو فى آخره.

[۱۹] (۱)- المناصع: المواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة.

[۲۰] (۲)- أى رفعنا ثيابنا.

[۲۱] (۳)- المرط- بالكسر- كساء واسع يؤتزر به و ربما تلقيه المرأة على رأسها و تتلفع به.

[۲۲] (۴)- خطاب للمرأة يقال للرجل يا هناه.

[۲۳] (۱)- قلص: اجتمع و انقبض.

[۲۴] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۵، ص ۹۶- ۱۰۰.

[۲۵] (۲)- أرهقه: أدركه.

[۲۶] (۱)- المصدر السابق، ص ۱۰۳.

[۲۷] (۱)- نقل تفسير« روح المعانى» هذا المعنى عن كتاب« الصحاح».

[۲۸] (۱)- و أما قول البعض بأن المضاف محذوف و تقديره« ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفس بعضهم خيرا» ليس صائبا و يفقد الآية جمالها و روعتها.

[۲۹] (۱)- لهذه الجملة كلمة محذوفة هى حرف« لا» و تقديرها:« يعظكم اللّه أن لا تعودوا لمثله أبدا» و إذا لم نقدّر محذوفا، فإن عبارة« يعظكم» تعنى ينهاكم. أى إن اللّه ينهاكم من العودة إلى مثل هذا العمل.

[۳۰] (۱)- سورة الشورى، ۳۷.

[۳۱] (۱)- لهذه الجملة محذوف کما یبدو فی آیات أخری سبقت، و تقدیره« لو لا فضل اللّه علیکم لمسّکم فیما أفضتم فیه عذاب عظیم».

[۳۲] (۲)- أصول الکافی، المجلد الثانی، باب ستر العیوب.

[۳۳] (۱)- أصول الکافی، المجلد الثانی، باب القبح.

[۳۴] (۲) کتاب ثواب الأعمال، حسبما ذکره تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة ۵۸۲.

[۳۵] (۳)- لهذه القضیة استثناءات، منها موضوع الشهادة فی المحکمة، أو حالات النهی عن المنکر حیث لا سبیل إلّا بکشف العمل القبیح الذی یرتکبه شخص ما و الشهادة ضده.

[۳۶] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۳۴۸.

[۳۷] (۱)- هناک محذوف لجملة\i وَ مَنْ یَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّیْطانِ فَإِنَّهُ یَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ\E و هو جواب الشرط و تقدیره« و من یتبع خطوات الشیطان ارتکب الفحشاء و المنکر فإنّه یأمر بهما»(روح المعانی، المجلد الثامن عشر، صفحة ۱۱۲ تفسیر آخر الآیات موضع البحث) و یجب الانتباه إلی أن جملة فإنه یأمر بالفحشاء، لا یمکن اعتبارها جوابا للشرط.

[۳۸] (۱)- بحثنا الفرق بین الفحشاء و المنکر فی تفسیر الآیة(۹۰) من سورة النحل.

[۳۹] (۱)- فی هذه الحالة یجب تقدیر وجود حرف« لا» قبل« یؤتوا» فیکون التقدیر« و لا یأتل ... أن لا یؤتوا».

[۴۰] (۱)- المیزان، تفسیر الآیات موضع البحث، المجلد ۱۵، صفحة ۱۲۲.

[۴۱] (۱)- سورة یس، الآیة ۶۵.

[۴۲] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیات موضع البحث.

[۴۳] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۴، صفحة ۳۳۷، الباب ۱۴ من أبواب ما یحرم بالمصاهرة.

[۴۴] (۱)- سورة التحریم، ۱۰.

[۴۵] (۲)- سورة التحریم، ۱۱.

[۴۶] (۱)- تفسیر فخر الرازی، المجلد ۲۳، ص ۱۹۸، آخر آیة موضع البحث.

[۴۷] (۲)- المصدر السابق.

[۴۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثالث، الصفحة ۵۸۶.

[۴۹] (۲)- نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة ۵۸۷.

[۵۰] (۳)- وسائل الشیعة المجلد الرّابع عشر، صفحة ۱۶۱، أبواب مقدمات النکاح، الباب ۲۳.

[۵۱] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد الرّابع عشر، صفحة ۱۶۱.

[۵۲] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد الرّابع عشر، صفحة ۳۹، تفسیر نور الثقلین، و المیزان، و روح المعانی مع بعض الاختلاف فی تفسیر الآیة موضع البحث.

[۵۳] (۱)- اختلف المفسّرون فی تعلیل وجود« من» فی جملة\i یَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ E فقال بعضهم إنّها للتبعیض و قیل: إنّها زائدة، و قیل: ابتدائیة. و لکن الظاهر هو المعنی الأوّل.

[۵۴] (۲)- أصول الکافی، و تفسیر علی بن إبراهیم(وفق ما نقله نور الثقلین المجلد الثالث، صفحة ۵۸۷، ۵۸۸).

[۵۵] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم لآخر الآیة موضع البحث.

[۵۶] (۱)- کتاب وسائل الشیعة، المجلد ۱۴، صفحة ۱۴۵، الباب ۱۰۹، من أبواب مقدمات النکاح.

[۵۷] (۲)- من لا یحضره الفقیه، حسبما ذکره تفسیر نور الثقلین، المجلد ۳، صفحة ۵۹۳.

[۵۸] (۱)- وسائل الشيعة، الباب ۱۲۴، من مقدمات النكاح، الحديث الثامن.

[۵۹] (۱)- لتوضيح أكثر يراجع جواهر الكلام، المجلد ۲۹، صفحة ۹۴، و كذلك الوسائل الباب ۱۱۱، من مقدمات النكاح(المجلد ۱۴، ص ۱۴۸) و كذلك التهذيب المجلد السابع، صفحة ۴۶۸.

[۶۰] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۴، صفحة ۲۷(الباب ۱۲ من أبواب مقدمات النكاح).

[۶۱] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۴، صفحة ۲۷(الباب ۱۲ من أبواب مقدمات النكاح).

[۶۲] (۲)- المصدر السابق.

[۶۳] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحة ۶۰۱.

[۶۴] (۲)- مجمع البيان فی تفسير آخر الآية موضع البحث، و تفسير القرطبی(مع بعض الاختلاف).

[۶۵] (۱)- سفينة البحار، المجلد الأول، صفحة ۵۶۱(مادة الزوج).

[۶۶] (۲)- المصدر السابق.

[۶۷] (۳)- مجمع البيان، فی تفسير الآية موضع البحث.

[۶۸] (۱)- مجمع البيان فی تفسير الآية موضوع البحث.

[۶۹] (۲)- وسائل الشيعة، المجلد الخامس عشر، الباب الخامس من أبواب المهور صفحة ۱۰.

[۷۰] (۳)- المصدر السابق.

[۷۱] (۴)- تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحة ۵۹۵.

[۷۲] (۵)- وسائل الشيعة، المجلّد الرّابع عشر، صفحة ۲۵، الباب ۱۱« من أبواب مقدمات النكاح».

[۷۳] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد الرّابع عشر، صفحة ۲۴، الباب ۱۰« من أبواب مقدمات النكاح».

[۷۴] (۱)- هكذا يكون تقدير الآية« هذه المشكاة فی بيوت ... أو هذا المصباح فی بيوت ... هذه الشجرة فی بيوت ... نور اللّه فی بيوت» فی الوقت الذی يرى أصحاب التّفسير الثّانی أنّ عبارة« فی بيوت» تعود إلى كلمة« يسبّح» ليكون معنى الآية\i فِی بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ E أی فی الصباح و المساء. إلّا أن هذا التّفسير لا ينسجم مع وجود كلمة« فيها» لأنّه يعد تكرارا لا داعی له، إضافة إلى عدم انسجامها مع الأحاديث الواردة بهذا الصدد(فتأملوا جيدا).

[۷۵] (۱)-« الغدو» على وزن« علو» بمعنى الصبح، و يقول الراغب الأصفهانی: الغدوة و الغداة من أوّل النهار، و قوبل فی القرآن بالآصال، نحو قوله i بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ E و قوبل الغداة بالعشیّ.

و« الآصال» جمع« الأصل» على وزن« رسل» و هو بدوره جمع للأصيل بمعنى العصر، و السبب فی ذكر الغدو مفردة و الآصال جمعا؟ يقول فخر الرازی، لأنّ الغدو ذات بعد مصدری و لا يجمع المصدر.

[۷۶] (۲)- تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ۶۰۷.

[۷۷] (۳)- تفسير مجمع البيان للآية موضع البحث.

[۷۸] (۱)- نور الثقلين فی تفسير الآيات موضع البحث(مع بعض التلخيص المجلد الثالث، صفحة ۶۰۲ و ۶۰۳).

[۷۹] (۲)- المصدر السابق.

[۸۰] (۳)- المصدر السابق.

[۸۱] (۱)- المصدر السابق، ۶۰۹.

[۸۲] (۲)- المصدر السابق.

[۸۳] (۱)- يقول علماء الفيزياء المعاصرون: عند ارتفاع درجات الحرارة فالهواء المجاور للأرض يتمدد و يزداد تخلخله فيختلف مع

الطبقة المجاورة له، و بذلك تنعكس موجة الضوء و يحدث السراب.

[۸۴] (۲)- تراجع التفاسير التالية: مجمع البيان، روح المعانی، تفسير القرطبی، تفسير الفخر الرازی، و مفردات الراغب.

[۸۵] (۱)- يجب الانتباه إلی أن« السحاب» يعنی كما جاء من« لسان العرب» الغيوم الممطرة، و عادة تكون السحب المتراكمة أكثر عتمة.

[۸۶] (۱)- تفسير الفخر الرازی، للآية موضع البحث.

[۸۷] (۱)- تفسير الصافی للآية موضع البحث.

[۸۸] (۱)- تفسير من ظلال القرآن المجلد(۱۹- ۲۰) صفحة ۱۰۹- ۱۱۰- دار إحياء الكتب العربية- الطبعة الأولی.

[۸۹] (۲)- تكرر حرف(من) ثلاث مرات فی عبارةi\ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍE\ أولاها ابتدائية، و ثانيتها لها نسبة مع ابتدائيـة، و أمّا الثّالثـة فقـد اختلف فی تفسـيرها كما ذكرنا أعلاه، فهی بحسب التّفسـير الأوّل بيانية، و يكون مفهوم الجملة هو ينزل من السـماء من جبـال من برد. و قـد حـذف مفعول الفعل(ينزل) و هو البرد، و يفهم ذلك من قرينـة فی الكلام، و علی حسب التفسـيرين الثّانی و الثّالث اللذين اخترناهما تكون« من» إمّا زائدة(حسبما نقله تفسير روح المعانی عن الأخفش) أو هی للتبعيض.

[۹۰] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازی، و تفسير مجمع البيان، و تفسير روح المعانی.

[۹۱] (۱)- بحثنا فی هذا المجال فی التّفسير الأمثل عند تفسير الآية(۶) من سورة يونس.

[۹۲] (۱)- استند البعض عن دعاة نظرية التطور إلی هذه الآية لإثبات نظريتهم، إلّا أننا ذكرنا عدم ثبوت هذه النظرية فی تفسيرنا للآية(۲۶) من سورة الحجر. و الجدير بالاهتمام هو أنّه يجب أن لا نطبق الآيات مع النظريات. فالآيات القرآنية تحكی عن حقائق لا تتغير، أمّا النظريات العلمية فتتغير.

[۹۳] (۱)- تفسير القرطبی، و تفسير الفخر الرازی للآية موضع البحث.

[۹۴] (۲)- لا بـدّ من الاهتمام بهذه المسألة لغويا، و هی أنّ الضـمير« هم» فی« منهم» رغم أنّه للجمع العاقل، فقد اسـتخدمتها الآية لغير العاقل أيضا. و كذلک حرف« من» و ذلک بسبب استخدام هذه الكلمات أحيانا لغير العاقل أيضا.

[۹۵] (۱)-« مجمع البيان» و تفسير« روح المعانی» و تفسـير« التبيان» و تفسـير« القرطبی» و تفسـير« الفخر الرازی» و تفسـير« الصافی» و تفسير« نور الثقلين»(مع بعض التصرف).

[۹۶] (۱)- تفسير فی ظلال القرآن، المجلد(۱۷- ۲۰)، صفحة ۱۱۵- طبعة دار إحياء الكتب العربية- الطبعة الأولی.

[۹۷] (۱)- لإيضاح أكثر حول صفات المنافقين يراجع التّفسير الأمثل من بداية سورة البقرة آخر الآية العاشرة و ما يليها.

[۹۸] (۱)- النساء، ۶۵.

[۹۹] (۱)- أصل« يتقه» بسـكون القاف و كسـر الهاء« يتقه» و قـد حـذفت الياء منها لأنّها فی حالة جزم و قد حذفت إحدی الكسـرتين المتاليتين لأنّها ثقيلة للفظ.

[۱۰۰] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحة ۶۱۶.

[۱۰۱] (۱)- المصدر السابق.

[۱۰۲] (۱)- احتوی كتاب« منتخب الأثر» علی مائـة و ثلاثـة و عشـرين حـديثا بهذا الصدد، من مصادر إسـلامية مختلفة خاصّة السـنّية منها. للاستزادة يراجع هذا الكتاب فی صفحة ۲۴۷، و ما يليها.

[۱۰۳] (۲)- مجمع البيان فی تفسير الآية موضع البحث.

[۱۰۴] (۱)- تفسير القرطبی، المجلد السابع، صفحة ۴۲۹۲.

[۱۰۵] (۲)- فی الصورة الأولی الجملـة الحالية للضـمير« هم» الذی جاء فی الآيات السابقة. و فی الصورة الثّانية تقدر ب« ليعبدوننی» و

احتمل آخرون أنها جملة استئنافية و هو احتمال ضعيف.

[۱۰۶] (۳)- الذاريات، ۶۵.

[۱۰۷] (۱)- كنز العرفان، المجلد الثانى، صفحة ۲۲۵.

[۱۰۸] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۴ كتاب النكاح صفحة ۱۴۷، الباب ۱۱۰.

[۱۰۹] (۲)- للاستزادة يراجع المصدر السابق.

[۱۱۰] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۱۰۳، صفحة ۲۹۵.

[۱۱۱] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۴، كتاب النكاح، الباب ۱۱۰، الحديث ۴.

[۱۱۲] (۲)- المصدر السابق، الحديث ۵.

[۱۱۳] (۳)- الجواهر، المجلد ۲۹، صفحة ۸۵ و كنز العرفان، المجلد ۲، ص ۲۲۶.

[۱۱۴] (۴)- وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ۱۱۰، الحديث ۱.

[۱۱۵] (۵)- المصدر السابق، الحديث ۲ و ۴.

[۱۱۶] (۱)- ذكرت هذا التّفسير أيضا، التفاسير التالية« الدر المنثور» و« نور الثقلين» و« مجمع البيان» و« الصافى» و« التّفسير الكبير» و« التبيان».

[۱۱۷] (۱)- تفسير التبيان، للآية موضع البحث.

[۱۱۸] (۱)- المصدر السابق.

[۱۱۹] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۰] (۱)- نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ۶۲۷.

[۱۲۱] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۲] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۶، صفحة ۴۳۴، كتاب الأطعمة و الأشربة- أبواب آداب المائدة- الباب ۲۴ الحديث ۱.

[۱۲۳] (۱)- المصدر السابق، الحديث ۴.

[۱۲۴] (۲)- لإيضاح أكثر يراجع جواهر الكلام المجلد ۳۶، صفحة ۴۰۶،(كتاب الأطعمة و الأشربة).

[۱۲۵] (۱)- أصول الكافى، المجلد الثانى، صفحة ۴۶۷.

[۱۲۶] (۲)- تفسير القرطبى، المجلد الثّانى عشر، ص ۳۱۵(و جاء فى وسائل الشيعة المجلد السادس عشر، صفحة ۴۳۶، الباب ۲۴ من أبواب المائدة حديث بهذا المضمون).

[۱۲۷] (۱)- تفسير على بن إبراهيم، حسبما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحة ۶۲۸.

[۱۲۸] (۲)- فى ظلال القرآن- طبعة دار إحياء الكتب العربية- الجزء السابع عشر، ص ۱۲۶.

[۱۲۹] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، و روح المعانى، و تفسير القرطبى للآيات موضع البحث.

[۱۳۰] (۲)- التّفسير الكبير للفخر الرازى- فى تفسيره للآية موضع البحث صفحة ۳۹ من طبعة دار الكتب العلمية بطهران- الطبعة الثّانية.

[۱۳۱] (۱)- لقد جاء بعد كلمة الدعاء« لام» فإنّها تعنى الابتهال و الدعاء، أمّا إذا جاء الحرف« على» فإنّها تعنى الدعاء على شخص لغير صالحه، و إذا افتقدت الجملة أى من هذين الحرفين فيحتمل أن تتضمّن العبارة المعنيين.

[۱۳۲] (۱)- يصر بعض المفسّرين على أن ثلاث آيات من هذه السورة(۶۸، ۶۹، ۷۰) نزلت فى المدينة، و لعل ذلك لأنّ أحكاما مثل قتل النفس و الزنا، شرّعت فى هذه الآيات، فى حين أن التدقيق فى الآيات التى قبلها و التى بعدها، يكشف جيدا عن أنّ السياق واحد

متصل و منسجم تماما حول i عِبادُ الرَّحْمنِ E و بيان أوصافهم، لذا فالظاهر أن السورة نزلت كلها فى مكّة.

[۱۳۳] (۱)- مجمع البيان آخر الآية مورد البحث.

[۱۳۴] (۲)- ثواب الأعمال للصدوق، طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۴، ص ۲.

[۱۳۵] (۱)- ورد شرح كلمة« البركة» فى ج ۵، آخر الآية(۵۴) من سورة الأعراف، شرح اصل« البركة».

[۱۳۶] (۱)- سورة الأنفال، الآية ۲۹.

[۱۳۷] (۱)- كلمة(الملك) كما يقول« الراغب» فى« المفردات» بمعنى تملك الشىء و الحاكمية عليه، فى حين أن(الملك) ليس دليلا على الحاكمية و تصرف المالك دائما. و بهذا الترتيب: فكل ملك ملكا، فى حين أنّ ليس كل ملك ملكا.

[۱۳۸] (۲)- ورد إيضاح أكثر حول نفى الولد عن اللّه تعالى، و دلائل ذلك فى تفسير الآية(۱۱۶) من سورة البقرة.

[۱۳۹] (۱)- اقتباس من كتاب« الإنسان لا يقوم وحده» تأليف كريسى موريسون، ترجمه محمود صالح الفلكى بعنوان(العلم يدعو للإيمان)، من الصفحات ۶۵، ۶۶، ۷۰، ۷۱، ۱۵۹، ۱۶۰.

[۱۴۰] (۱)-« جاؤا» من مادة« مجىء»: يراد بها عادة معنى« القدوم»، لكنّها وردت هنا بمعنى« الإتيان»، كما نقرأ أيضا فى الآية(۸۱) سورة يونس أن موسى عليه السّلام قال للسحرة« ما جئتم به السحر».

[۱۴۱] (۱)- يعتقد جماعة من المفسّرين أنّ المراد من جملة(اكتتبها): هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أراد من الآخرين أن يكتبوا له هذه الآيات، و كذلك، جملة(تملى عليه) مفهومها: هو أنّ أولئك كانوا يلقونها إليه، و كان هو يحفظها. لكنّه مع الالتفات إلى أنّنا لا- دليل لدينا على حمل هاتين الجملتين على خلاف الظاهر، يكون التّفسير الذى ورد فى المتن هو الأصح، ففى الواقع إن أولئك كانوا يريدون أن يتهموا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من هذا الطريق، بأنّه يقرأ و يكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أميا عمدا.

[۱۴۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، الجزء ۴، الصفحة ۶.

[۱۴۳] (۱)- كثير من المفسّرين اعتبروا(الأمثال) هنا بمعنى(التشبيهات) لكنّهم لم يوضحوا هنا ما هى التشبيهات التى قدمها المشركون، و بعض آخر اعتبر(الأمثال) هنا بمعنى(الصفات)، لأن أحد معانى(المثل)- طبقا لما قاله الراغب فى المفردات هو(الصفة)، فالمقصود هنا هى الصفة الواهية التى لا أساس لها، ذلك لأن ما فى صدر و ذيل الآية القرآنية أعلاه يدل على هذا المعنى، فمن جانب يقول بعنوان التعجب: انظر آية أمثال ضربوا؟ و من جانب آخر يقول: الأوصاف التى تؤدى الى ضلالهم الذى لا هداية بعده.

[۱۴۴] (۱)-« الخطبة القاصعة»، الخطبة ۱۹۲ نهج البلاغة.

[۱۴۵] (۲)- و كذلك الذين قالوا: إن المقصود هو جنات الدنيا و قصور الآخرة، فالفعلان الماضى و المضارع(جعل و يجعل) اللذان فى الآية، ينبغى ألا- يكونا باعثا على هكذا و هم أيضا، لأنّنا نعلم طبقا لقواعد الأدب العربى، أن الأفعال فى الجملة الشرطية تفقد مفهومها الزمانى.

[۱۴۶] (۱)-« سعير» من« سعر» على وزن« قعر» بمعنى التهاب النار، و على هذا يقال للسعير: النار المشتعلة و المحيطة و المحرقة.

[۱۴۷] (۱)-« مقرنين» من« قرن» بمعنى قرب و اجتماع شيئين أو أكثر مع بعضهما، و يقولون للحبل الذى يربطون به الأشياء« قرن»، و يقولون أيضا لمن تقيد يده و رجله مع بعضهما بالغل و السلاسل« مقرّن»(من أجل توضيح أكثر فى المسألة راجع آخر الآية(۴۹) من سورة إبراهيم).

[۱۴۸] (۲)- مجمع البيان، آخر الآية مورد البحث.

[۱۴۹] (۱)- و يحتمل أن تكون الجملة الأخيرة استمرارا لمحاورة اللّه مع المشركين فى القيامة، و لا يضرّ كون الفعل مضارعا، لأنّ جملة(من يظلم ..) ذكرت بصورة قانون عام(جملة شرطية)، و نعلم أنّ الأفعال فى الجملة الشرطية تفقد مفهومها الزمانى، و تبقى

وحدة الارتباط بين الشرط و جوابه معتبرة.

[۱۵۰] (۱)- الأنبياء، ۶۳.

[۱۵۱] (۱)- تعتبر بعض المصادر أنّ كلمة« بور» تأتى بمعنى اسم الفاعل، و تأتى واحدة فى المفرد و المثنى و الجمع و المذكر و المؤنث، و بعض يعدها جمع« بائر».

[۱۵۲] (۱)- و إن كان قد جاء مضمون الرواية أعلاه فى كثير من التفاسير، و لكن ما ذكرناه أعلاه مطابق للرواية التى أوردها القرطبى فى تفسيره« الجامع لأحكام القرآن» ج ۱۳، ص ۵ دار إحياء التراث العربى/ بيروت.

[۱۵۳] (۱)- من أجل توضيح أكثر فى مسألة الاختبارات الإلهية، و الغاية من هذه الاختبارات و سائر أبعاد ذلك، بحثنا ذلك بشكل مفصّل فى ذيل الآية(۵۵) من سورة البقرة.

[۱۵۴] (۱)- كلمة(لا) ها هنا، قد تكون للنفى، كما قال كثير من المفسّرين، و يحتمل أيضا أن تكون لانشاء الدعاء السلبى، حيث يصبح معنى الجملة فى هذه الصورة، هكذا:« فى ذلك اليوم لا كانت بشرى للمجرمين».

[۱۵۵] (۱)- و من الناحية الأدبية فإنّ« حجرا» مفعول لفعل مقدر و« محجورا» جاءت للتوكيد، فهى فى الأصل(أطلب منك منعا لا سبيل إلى رفعه و دفعه).

[۱۵۶] (۱)- تفسير الميزان، تفسير الفخر الرازى، فى ظلال القرآن، تفسير أبو الفتوح الرازى، ذيل آية البحث.

[۱۵۷] (۲)- يذهب(الراغب) الى هذا الفرق فى مادة« عمل»، و لو أنّ له بيانا خلاف ذلك فى مادة« فعل». لكن مع الالتفات إلى موارد استعمال هاتين الكلمتين يكون هذا الفرق صحيحا، طبعا يمكن أن يكون له استثناءات كما يقولون للثيران التى تعمل« عوامل».

[۱۵۸] (۱)- بحثنا فى هذا الصدد بصورة أكثر تفصيلا فى(ذيل الآية ۱۸ من سورة إبراهيم).

[۱۵۹] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۴۲۷، مادة« خمر».

[۱۶۰] (۲)- تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۴، ص ۹.

[۱۶۱] (۱)- جملة« يوم تشقق السماء» فى الواقع عطف على جملة« يوم يرون الملائكة» التى مرّت سابقا، و على هذا فأنّ« يوم» هنا متعلق بذلك الشيء الذى كان فى الآية السابقة، يعنى جملة« لا بشرى». و يعتقد جماعة أنّه متعلق بفعل مقدّر، مثل(أذكر) و« الباء» فى« الغمام» يمكن أن تكون بمعنى الملابسة، أو بمعنى« عن»، أو للسببية كما تقدم فى تفسير الآيات أعلاه.

[۱۶۲] (۱)- فى ظلال القرآن، ج ۶، ص ۱۵۴(ذيل الآية مورد البحث).

[۱۶۳] (۲)-« الباء» من الناحية الأدبية فى هذه الحالة للملابسة.

[۱۶۴] (۱)- فى هذه الحالة« الباء» فى« بالغمام» للسببية.

[۱۶۵] (۱)- تفسير القرطبى« الجامع لأحكام القرآن»، ج ۱۳، ص ۲۳، ج ۷، ص ۴۷۳۹.

[۱۶۶] (۲)- سورة البقرة، الآية ۱۶۶.

[۱۶۷] (۳)- سورة تبّت، الآية ۲.

[۱۶۸] (۴)- سورة الدخان، الآية ۴۱.

[۱۶۹] (۵)- سوره البقرة، الآية ۲۵۵.

[۱۷۰] (۶)- سورة المرسلات، الآية ۳۶.

[۱۷۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۷، ص ۱۶۶.

[۱۷۲] (۲)- جملة\i يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ\ ...E عطف على« يوم يرون» التى مضت قبل عدّة آيات، بعض يعتبرها أيضا متعلقة بجملة مقدرة« اذكر».

[۱۷۳] (۱)-« خلیل» تطلق بمعنی الصدیق الخاص الحمیم حیث یجعله الإنسان مشاورا لنفسه. و للخلیل معان أخری أیضا قد أوردناها فی ذیل الآیة(۱۲۵) من سورة النساء.

[۱۷۴] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۲۷ مادة(صدق).

[۱۷۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۹۷.

[۱۷۶] (۱)- بحار الأنوار ج ۷۴ ص ۱۹۸.

[۱۷۷] (۲)- الخصال، للصدوق، طبقا لنقل بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۹۵.

[۱۷۸] (۱)- الظاهر أن جملة« قال» فعل ماض، تدل علی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد ذکر هذا القول علی سبیل الشکوی فی هذه الدنیا، و أکثر المفسّرین أیضا علی هذا الإعتقاد، لکن بعضا آخر مثل« العلامة الطباطبائی» فی« المیزان» یعتقدون أن هذا القول مرتبط بیوم القیامة، و الفعل الماضی هنا بمعنی المضارع. و ذکر العلامة الطبرسی فی مجمع البیان أیضا هذا علی سبیل الاحتمال، لکن الآیة التی بعدها، و التی فیها جنبة مواساة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دلیل علی أن التّفسیر المشهور هو الأصح.

[۱۷۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۷، ص ۱۷۰ ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۸۰] (۲)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۴۴۹(باب ترتیل القرآن بالصوت الحسن).

[۱۸۱] (۳)- مجمع البحرین مادة رتل.

[۱۸۲] (۴)- طبقا لهذا التّفسیر، فإنّ عبارة« علی وجوههم» أخذت محل العلّة. فیکون مفهوم الجملة هکذا(یحشرون إلی جهنم لتعلق وجوه قلوبهم إلی الدنیا).

[۱۸۳] (۱)-« و عادا و ثمودا» عطف علی ضمیر« هم» فی جملة« دمرناهم». و احتمل بعضهم أیضا أن العطف علی« هم» فی« جعلناهم»، أو یکون عطفا علی محل« الظالمین» لکن الاحتمال الأوّل مناسب أکثر.

[۱۸۴] (۱)-« تتبیر» من مادة« تبر»(علی وزن ضرر، و علی وزن صبر) بمعنی الإهلاک التام.

[۱۸۵] (۱)- مفردات الراغب.

[۱۸۶] (۲)- أعلام القرآن ص ۱۴۹.

[۱۸۷] (۱)- شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید، ج ۱، ص ۹۴.

[۱۸۸] (۲)- سورة الحج، الآیة ۴۵.

[۱۸۹] (۱)- عیون أخبار الرضا علیه السّلام، طبقا لنقل و تلخیص تفسیر المیزان، ج ۱۵، ص ۲۱۹ و الحدیث فی العیون بإسناده عن أبی الصلت الهروی عن الإمام الرضا علیه السّلام عن أمیر المؤمنین علیه السّلام.

[۱۹۰] (۱)- الکافی، طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۹.

[۱۹۱] (۱)-« هزوا» مصدر، و جاء هنا بمعنی المفعول، و هذا الاحتمال وارد أیضا و هو أن یکون مضافا مقدارا(محل هزو)، أیضا فالتعبیر ب« هذا» للتحقیر و لتصغیر النّبی.

[۱۹۲] (۲)- کلمة(إن) فی i إِنْ کادَ لَیُضِلُّنا\E مخففة، للتوکید، و فی تقدیر« إنّه کاد» و ضمیرها ضمیر الشأن.

[۱۹۳] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم القمی، طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴، ص ۲۰.

[۱۹۴] (۱)- تفسیر الدر المنثور، فی ذیل الآیة مورد البحث، نقلا عن تفسیر المیزان، ج ۱۵، ص ۲۵۷.

[۱۹۵] (۲)- سورة الکهف، الآیة ۲۸.

[۱۹۶] (۳)- سورة طه، الآیة ۱۶.

[۱۹۷] (۴)- سورة القصص، الآیة ۵۰.

[۱۹۸] (۵)- سورة ص، الآية ۲۶.

[۱۹۹] (۶)- سورة النساء، الآية ۱۳۵.

[۲۰۰] (۷)- سورة المؤمنون، الآية ۷۱.

[۲۰۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۸۶.

[۲۰۲] (۲)- غرر الحكم، الجملة ۲۶۵.

[۲۰۳] (۳)- غرر الحكم، الجملة ۱۰۴۸.

[۲۰۴] (۴)- غرر الحكم، الجملة ۱۰۵۳۱.

[۲۰۵] (۵)- غرر الحكم، الجملة ۱۰۵۴۱.

[۲۰۶] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۷۲۸(ذيل مادة هوى) و نهج البلاغة، الخطبة ۲۸ و ۴۲.

[۲۰۷] (۲)- سورة النازعات، الآية ۴۰.

[۲۰۸] (۳)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۶۸۹(مادة شجع).

[۲۰۹] (۱)- القصص، ۷۱ و ۷۲.

[۲۱۰] (۲)- القصص، ۷۳.

[۲۱۱] (۱)- تفسير القرطبى.

[۲۱۲] (۱)- يجب الانتباه إلى أنّ« بشرا»- بسكون الشين مخفف-« بشرا»- بضم الشين- الذى هو جمع« بشور»(على وزن قبول) بمعنى مبشر و بشير.

[۲۱۳] (۱)- ينبغى الالتفات إلى أن« بلدة» هنا بمعنى الصحراء، و مع أنّ هذا اللفظ مؤنث، فصفته التى هى« ميتا» وردت بصيغة المذكر، ذلك لأن المراد بالمعنى« المكان» و هو مذكر.

[۲۱۴] (۱)- مجمع البيان، و تفسير روح المعانى، ذيل هذه الآية.

[۲۱۵] (۱)- سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۳۷، و فى ظلال القرآن، ج ۶، ص ۱۷۲.

[۲۱۶] (۱)-« نذير» فى اعتقاد البعض صيغة مبالغة، فى حين أنّ« مبشر» اسم فاعل فقط، هذا التفاوت التعبيرى يمكن أن يكون بسبب أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان فى مواجهة فئة بلا إيمان و كان لها إصرار بالغ على انحرافها، فلا بد أن يبالغ فى إنذارها.(روح المعانى ذيل الآية مورد البحث).

[۲۱۷] (۱)- بناء على هذا فالاستثناء فى الآية أعلاه« استثناء متصل» و إن بدا منقطا لأول وهلة.

[۲۱۸] (۲)- الاستثناء فى هذه الحالة« استثناء منقطع».

[۲۱۹] (۱)- طبقا لهذا التّفسير ف« الباء» فى« به» زائدة، أمّا طبقا للتفاسير الأخرى، فإن« الباء» بمعنى« عن».

[۲۲۰] (۱)- من أجل توضيح أكثر فى هذا الصدد، راجع التّفسير الأمثل(ذيل الآية ۳۱ سورة آل عمران).

[۲۲۱] (۱)- سورة الشعراء، الآية ۲۳.

[۲۲۲] (۲)- على هذا فإنّ فاعل(زاد) هو ذلك الأمر بالسجود الذى ترك أثرا معكوسا فى أولئك المرضى قلوبهم، و إن نقل بعض المفسّرين أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سجد بعد هذا الكلام و سجد المؤمنون أيضا، فسبّب هذا ابتعاد أولئك أكثر، بناء على هذا ففاعل(زاد) السجدة، لكن المعنى الأوّل أكثر صحّة.

[۲۲۳] (۱)- طبقا للتفسير أعلاه، فإنّ ضمير« فيها» يرجع إلى البروج، و ينبغى أن يكون هكذا، ذلك لأنّ الموضوع المهم هو دوران الشمس و القمر ضمن نظام خاص فى البروج: و ليس وجود البروج فى السماء فقط.

[۲۲۴] (۱)- من لا یحضره الفقیه، طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴ ذیل الآیة.

[۲۲۵] (۱)-« هون» مصدر، و هو بمعنی الناعم و الهادی المتواضع، و استعمال المصدر فی معنی اسم الفاعل هنا للتوکید، یعنی أنّهم فی ما هم علیه کأنّهم عین الهدوء و التواضع.

[۲۲۶] (۲)- سورة الإسراء، الآیة ۳۷.

[۲۲۷] (۱)- ینبغی الانتباه إلی أنّ« سجدا» جمع« ساجد»، و قیاما» جمع« قائم».

[۲۲۸] (۲)- تطلق« الغریم» علی« الدائن» و« المدین» أیضا.(لسان العرب مادة غرم).

[۲۲۹] (۱)- سورة الفرقان، الآیة ۷۶.

[۲۳۰] (۱)- الکافی: طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۲۹.

[۲۳۱] (۱)- فی ظلال القرآن، ذیل الآیة مورد البحث، و فی تفسیر القرطبی ینقل روایة أخری فی هذا الصدد أیضا لها شبه کبیر بما قلناه أعلاه.

[۲۳۲] (۲)- مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۳۳] (۳)- تفسیر روح المعانی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۳۴] (۴)- سورة یونس، الآیة ۸۳.

[۲۳۵] (۵)- سورة غافر، الآیة ۴۳.

[۲۳۶] (۱)- الاستثناء فی الجملة أعلاه« استثناء مفرغ» اصطلاحا، و کان فی التقدیر هکذا« لا یقتلون النفس التی حرم اللّه بسبب من الأسباب إلّا بالحق».

[۲۳۷] (۲)- تفسیر الفخر الرازی.

[۲۳۸] (۱)- صحیح« البخاری» و« مسلم» طبقا لنقل مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۳۹] (۱)- التفسیر الأمثل، الجزء الثالث.

[۲۴۰] (۱)- عوالی اللئالی، طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۳.

[۲۴۱] (۲)-« متاب» مصدر میمی بمعنی التوبة، و لأنّه مفعول مطلق هنا، فهو للتوکید.

[۲۴۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۴۳.

[۲۴۳] (۲)- الشاهد علی هذا القول، الشعر الذی نقله القرطبی فی تفسیره عن أحد الشعراء العرب.

فکم سخنت بالأمس عین قریرةو قرت عیون دمعها الیوم ساکب [۲۴۴] (۱)- أورد هذه الروایات فی تفسیر آخر هذه الآیة« علی بن إبراهیم»، و مؤلف کتاب نور الثقلین فی تفسیریهما.

[۲۴۵] (۲)- یراجع تفسیر« القرطبی» و تفسیر« الفخر الرازی».

[۲۴۶] (۱)- الآیة أعلاه من الآیات التی هی مورد مناقشات کثیرة بین المفسّرین، و ما قلناه فی تفسیرها هو أوضح تفسیر، لکن جماعة من المفسّرین المعروفین ذکروا لها تفسیر آخر خلاصته هکذا.

لا اعتناء للّه بکم، ذلک لأنّکم کذبتم بآیاته، إلّا أن اللّه یدعوکم إلی الإیمان(طبقا لهذا التّفسیر:« دعاؤکم» من قبیل إضافة المصدر إلی المفعول، و فاعله ضمیر یعود إلی« ربّی».

لکن طبقا للتفسیر الذی اخترناه فإن« دعاؤکم» من قبیل إضافة المصدر إلی الفاعل، و ظاهر إضافة المصدر إلی الضمیر هی أن تکون الإضافة إلی الفاعل، إلّا أن تظهر قرینة علی خلافه).

ثمّة تفسیر ثالث لهذه الآیة و هو أنّ الهدف بیان: إنّکم أیّها البشر، غالبا ما سلکتم طریق التکذیب، فلا وزن و لا قدر لکم عند اللّه، إلّا

لأجل تلک الأقلیة مثل« عباد الرحمن» الذین یتوجهون إلى اللّه و یدعونه بإخلاص(هذا التّفسیر و إن کان صحیحا من ناحیة المعنى و المضمون، لکنّه لا یوافق ظاهر الآیة کثیرا، ذلک لأنّ الضمیر فی« دعاؤکم» و« کذبتم» یعود ظاهرا إلى فئة واحدة لا فئتین(فتأمل!).

[۲۴۷] (۲)- تفسیر الصافی، ذیل هـذه الآیـة- نقلوا لهذه الرّوایة أیضا تفاسیر أخرى یتفاوت یسیر، نقلت أیضا روایات أخرى شاهدة على التّفسیر أعلاه، بعضها عن أمالی الشیخ الطوسی، و بعضها عن تفسیر على بن إبراهیم ذیل هذه الآیة.

[۲۴۸] (۱)- اصول الکافی، الجزء الثّانی، أبواب الدعاء باب أن الدعاء سلاح المؤمن.

[۲۴۹] (۲)- المصدر السابق.

[۲۵۰] (۳)- المصدر السابق.

[۲۵۱] (۱)- تفسیر« مجمع البیان» و تفسیر« الفخر الرازی» و تفسیر« القرطبی» و تفسیر« التبیان»، و استثنى فی تفسیر« روح المعانی» خمس آیات. لکن بعض المفسّرین مثل العلّامة الطباطبائی فی« المیزان» لم یقبل استثناء هذه الآیات. و سوف یکون لنا بحث أکثر إن شاء اللّه فی ذیل هذه الآیات.

[۲۵۲] (۱)- کقوله تعالى i وَ تِلْکَ الْأَیَّامُ نُداوِلُها بَیْنَ النَّاسِ E.

[۲۵۳] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۸ ذیل الآیة محل البحث.

[۲۵۴] (۱)- راجع نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، رقم ۱۹۲« تواضع الأنبیاء».

[۲۵۵] (۲)- الکافی حسب نقل تفسیر نور الثقلین ذیل الآیة محل البحث.

[۲۵۶] (۳)- تفسیر المیزان، و نور الثقلین ذیل الآیات محل البحث.

[۲۵۷] (۱)- یتعدى الفعل« یرى» عادة إلى المفعول بدون حرف الجر(إلى) و قد تتعدى إلى المفعولین، و إنّما تعدت هنا بحرف الجر(إلى) لأنّ المراد منها النظر العمیق الدقیق لا الرؤیة السطحیة ...

[۲۵۸] (۱)- النمل، ۲۹.

[۲۵۹] (۱)- البقرة، الآیة ۲.

[۲۶۰] (۱)- فی هذه الجملة حذف و تقدیره: فأرسل جبرئیل إلى هارون.

[۲۶۱] (۱)- یقول الراغب فی« المفردات»:« الرّسول» من الکلمات التی تطلق على المفرد و الجمع، و إن جمعت أحیانا على« الرسل» فمنهم من یرى أنها مصدر أیضا و معناها الرسالة، و نعرف أنه لا تثنیة و لا جمع فی المصدر. و قد ورد فی لسان العرب أنّ الرّسول بمعنى الرسالة، إلّا أن هذه الکلمة تحمل المعنى الوصفی حتما، و کثیرا ما تجمع أو تثنى و قد ورد فی سورة طه عن هذه القصة و قصة موسى و هارون:« إنّا رسولا ربک»! ...

[۲۶۲] (۱)- هذا الکلام یوافق مضمون الحدیث الوارد عن الإمام الرضا علیه السّلام فی تفسیر الآیة، راجع کتاب عیون اخبار الرضا، ج ۴، ص ۴۸ نقلا عن« نور الثقلین».

[۲۶۳] (۱)- راجع تفسیر أبی الفتوح الرازی ذیل الآیة محل البحث.

[۲۶۴] (۱)- راجع تفسیر المیزان، و الفخر الرازی، و روح المعانی ذیل الآیة محل البحث.

[۲۶۵] (۱)- جن یجن« من الأضداد فی اللغة» و الضد فی الألفاظ ما یحمل معنیین متضادین، مثل الجون یطلق على الأسود و الأبیض، و جن بمعنى ستره و أظهره.

[۲۶۶] (۱)-(أرجه) مشتقّة من« الإرجاء»، و معناها التأخیر و عدم الاستعجال فی القضاء، و الضمیر فی(أرجه) یعود على موسى، و أصل الکلمة کان(أرجئه) و حذفت الهمزة للتخفیف!

[۲۶۷] (۱)-« الحبال» جمع« حبل» على وزن(طبل) و معناها واضح، و العصی جمع العصا.

[۲۶۸] (۲)- سورة طه، الآیة ۶۶.

[۲۶۹] (۱)-(تلقف) مشتق من(اللقف) علی زنه(السقف) و معناه إمساک الشیء بسرعة، سواء کان ذلک بالید أم الفم، و معلوم أن المراد هنا الإمساک بالفم و الابتلاع، و(یأفکون) مشتق من(الإفک) و معناه الکذب، و هی إشارة إلی وسائلهم الباطلة.

[۲۷۰] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۶، ص ۲۰۸.

[۲۷۱] (۲)- جاء التعبیر فی هذه الآیة(۷۱) من سورة طه ب\i آمَنْتُمْ لَهُ E و جاء التعبیر فی الآیة(۱۲۳) من سورة الأعراف

[۲۷۲] (۱)- راجع مجمع البیان و القرطبی: ذیل الآیات محل البحث، کما أن الألوسی فسّر هذا الموضوع فی روح المعانی تفسیرا یستحق النظر!

[۲۷۳] (۲)- روح المعانی ذیل الآیات محل البحث.

[۲۷۴] (۱)- کلمة ملیون و أخواتها(ملیار، بلیون إلخ) من مصطلحات العصر و هی غیر عربیة، و کان العرب یقولون ألف ألف.

[۲۷۵] (۲)- قال بعض المفسّرین: المراد من« مشرقین»، أن بنی إسرائیل ساروا نحو الشرق، و اتّباع فرعون و قومه بالاتجاه نفسه، لأنّ بیت المقدس یقع شرق مصر!

[۲۷۶] (۳)- سورة طه، الآیة ۴۶.

[۲۷۷] (۱)- اقرأ فی سورة« یونس: الآیة ۹۰- و طه الآیة ۷۷- و الشعراء الآیة ۶۳، و الآیة محل البحث أیضا.

[۲۷۸] (۲)- اقرأ سورة طه الآیة ۷۸- و القصص الآیة ۴۰- و الذاریات الآیة ۴۰.

[۲۷۹] (۱)- العامرة هنا اسم فاعل بمعنی المفعول أی المعمورة.

[۲۸۰] (۱)- أعلام القرآن، ص ۶۲۲.

[۲۸۱] (۲)- المصدر السابق.

[۲۸۲] (۱)- بیّنا مرارا أنّ لفظ« الأب» یطلق فی لغة العرب و القرآن علی الوالد کما یطلق علی العم، و هنا استعمل هذا اللفظ بمعناه الثانی.

[۲۸۳] (۱)- لمزید الإیضاح فی هذا الصدد یراجع تفسیر الآیة(۸۲) من سورة مریم.

[۲۸۴] (۱)- سورة لقمان، الآیة ۱۲.

[۲۸۵] (۱)- سورة مریم، الآیة ۵۰.

[۲۸۶] (۲)- البقرة، الآیة ۱۲۹.

[۲۸۷] (۱)- لمزید الإیضاح یراجع تفسیر الآیة ۱۱۴ سورة التوبة.

[۲۸۸] (۱)- أزلفت: فعل مشتق من(الزلفی) علی وزن(کبری) و معنی الفعل« قربت».

[۲۸۹] (۲)- سورة الحجر، الآیة ۴۲.

[۲۹۰] (۳)- قد یکون المراد من« ینتصرون» هو أن یطلبوا العون و النصر لأنفسهم أو لغیرهم ... أو مجموعهما، لاننا سنلاحظ فی الآیات المقبلة أن العبدة و معبودیهم یساقون إلی النار.

[۲۹۱] (۱)-(إن کنا) مخففة من(إنّا کنا) ...

[۲۹۲] (۲)- یحتمل أن تکون(إذ) هنا للظرفیة، کما یحتمل أن تکون تعلیلیة ...

[۲۹۳] (۱)- تعدّ(لو) من حروف الشرط- و عادة- تستعمل حینما یکون الشرط محالا ...

[۲۹۴] (۱)- سورة البقرة، الآیة ۱۰.

[۲۹۵] (۲)- راجع مجمع البیان ذیل الآیات محل البحث.

[۲۹۶] (۳)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۲۳۹.

[۲۹۷] (۴)- تفسیر الصافی فی ذیل الآیة محل البحث.

[۲۹۸] (۱)- الکافی ... طبقا لما جاء فی تفسیر الصافی- ذیل الآیة محل البحث.

[۲۹۹] (۲)- أصول الکافی ج ۲ ص ۴۲۲ ط الرّابعة، باب فی ظلمة قلب المنافق.

[۳۰۰] (۱)- نقل هذه الروایة مؤلف تفسیر نور الثقلین عن أصول الکافی، و تفسیر علی بن إبراهیم، و المحاسن للبرقی.

[۳۰۱] (۲)- المحاسن للبرقی. ذیل الآیة محل البحث.

[۳۰۲] (۳)- مجمع البیان ذیل الآیة.

[۳۰۳] (۱)- تأنیث لفظ(کـذبت) لأن(قوم) فی معنی الجماعـة، و الجماعـة فیها تأنیث لفظی ... و قال بعضـهم: إن کلمة(قوم) بذاتها مؤنثة، لأنّهم قالوا فی تصـغیرها« قویمة» نقل الوجه الأوّل الطبرسـی فی مجمع البیان، و نقل الوجه الثّانی الفخر الرازی فی تفسـیره ... إلّا أن« الآلوسی» قال فی روح المعانی: إن لفظ« قوم» یستعمل فی المذکر و المؤنث علی السواء ...

[۳۰۴] (۱)-« الرجم» مأخوذ من(رجام) علی وزن(کتاب) و هو جمع(رجمة) علی وزن(لقمة) و معناها القطعة من الحجر التی توضع علی القبر، أو مـا یطوف حوله عبـدة الأوثـان، کمـا یعنی الرجم القـذف بالحجارة حتی القتل، کما یأتی أحیانا بمعنی القتل بأیّ شـکل کان، لأن القتل کان بالحجر سابقا.

[۳۰۵] (۱)- لمـا کـانت« عـاد» قبیلـة، و تتألف من جماعـة من الناس أنث الفعل کما یری، فجاء\i کَذَّبَتْ عادٌ\E لأنّ لفظی القبیلـة و الجماعة مؤنثان ...

[۳۰۶] (۱)- مجمع البیان: ذیل الآیة محل البحث، نور الثقلین، ج ۴، ص ۶۳.

[۳۰۷] (۲)- التماصع، التطاحن و القتال.(المصحح).

[۳۰۸] (۱)- تفسیر الفخر الرازی ذیل الآیة محل البحث.

[۳۰۹] (۲)-(أمـدّ) مأخوذ من« الإمـداد»، و یطلق فی الأصل علی أمور توضع بعضـها بعـد بعض بشـکل منظم، و حیث أن اللّه یرسـل نعمه بشکل منظم إلی عباده استعملت هذه الکلمة هنا أیضا ...

[۳۱۰] (۱)-« الطلع» مأخوذ من مادة« الطلوع» و یستعمل فی ما یکون منه الرطب بعدئذ، و هو معروف و شکله جمیل منضوم نضید، له غلاف ینشقّ عنه العـذق أول الربیع. ثمّ یلقـح بیـد الإنسـان أو بالریاح لیکون الثمر ... و قـد یسـتعمل الطلع فی الثمرة الأولی للنخل! و« الهضـیم» من مـادة« هضم»، و له معـان مختلفـة، فتارة یراد منه الثمرة الناضـجة، و تارة یطلق علی الثمر اللین القابل للهضم، و تارة یطلق علی المهضوم، و قـد یسـتعمل بمعنی المنضوم المنضد، فإذا کان الطلع فی الآیة محل البحث بمعنی العذق أوّل طلوعه، فالهضـیم معناه المنضود، و إذا کان الطلع أول الثمر فالهضیم معناه الناضج اللین اللطیف ...

[۳۱۱] (۱)- الروم، الآیة ۴۱.

[۳۱۲] (۲)- الأعراف، الآیة ۹۶.

[۳۱۳] (۳)- راجع تفسیر المیزان، الجزء ۱۵، الصفحة ۳۳۳- ۳۳۴.

[۳۱۴] (۱)- سورة الفرقان، الآیة ۸.

[۳۱۵] (۱)- لمزید الإیضاح فی هذا الصدد یراجع تفسیر الآیة(۶۱) من سورة هود ...

[۳۱۶] (۲)- کلمـة(عقروها) مأخوذة من مادة(عقر) علی زنة(قفل) و معناها فی الأصل أساس الشـیء و جذره، و قد تأتی بمعنی حز الرأس، و تأتی بمعنی قطع الأرجل من الحیوان، و ما إلی ذلک.

[۳۱۷] (۱)- تقول الروایات إن الذی قتل ناقة صالح کان واحدا لا غیر ... إلّا أن القرآن یعبر عن هذا الفعل بصیغة الجمع(فعقروها).

و هذا التعبير لأن الآخرين كانوا راضين بعمله و يضمون أصواتهم إلى صوته، و يعتقدون بمعتقده ... و تنفتح نافذة من هنا على أصل اسلامى، و هو أنّ العلائق الفكرية و المذهبيّة تجعل المنتمين إليها فى صف واحد، و تكون عاقبتهم واحدة. لمزيد الإيضاح يراجع الآية(۶۵) من سورة هود ...

[۳۱۸] (۱)- فى شأن انحراف هؤلاء القوم، يذكر التأريخ قصة يمكن مراجعتها فى تفسير الآية(۸۱) من سورة هود ...

[۳۱۹] (۲)- سورة الأعراف، الآية ۸۱.

[۳۲۰] (۱)- قيل أن المراد من(تقطعون السبيل) أى تقطعون سبيل الفطرة و تداوم النسل، و فسّره آخرون بأنّ المراد هو أن قوم لوط كانوا قطّاع طرق و سرّاقا! ...

[۳۲۱] (۱)- بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، ج ۷۹، ص ۶۷.

[۳۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۳۲۳] (۳)- المصدر السابق، ص ۶۴.

[۳۲۴] (۴)- بحار الأنوار، ج ۷۹، ص ۷۲.

[۳۲۵] (۱)- تفسير روح المعانى، و التّفسير الكبير للفخر الرازى، ذيل الآيات محل البحث.

[۳۲۶] (۱)-« الغابر» من مادة(الغبور) و معناه الباقى، و متى ما تحركت جماعة و بقى شخص فى المكان فإنّه يدعى(غابرا) و لهذا السبب سمى التراب الباقى غبارا ... و الغبرة: الباقى من اللبن فى ثدى الحيوان.

[۳۲۷] (۱)- ذكرنا آنفا أن مصطلح ألف ألف هو التعبير العربى الصحيح و أن كلمة مليون ليست عربيّة بل هى غربية فتأمل.

[۳۲۸] (۱)-« القسطاس»،« على وزن نسناس» معناه« ميزان» ... قال بعضهم: أصل هذه الكلمة روميّة، و قال بعضهم. بل هى عربية، و يعتقد بعضهم أن القسطاس ميزان كبير، أما الميزان نفسه المستعمل فى لغة العرب فهو الصغير، و قالوا: إن للقسطاس مؤشرا و لسانا فهو لذلك دقيق الوزن! ...

[۳۲۹] (۱)-« المسحّر» كما أشرنا من قبل إليه، هو المسحور ... أو الذى يقع عليه السحر من قبل السحرة، لينفذوا فى عقله و يبطلوا عمله!!

[۳۳۰] (۱)- اللطيفة، ممّا لطف و دقّ و هى الشىء الخفى الذى يحتاج إلى دقة لإدراكه.(المصحح).

[۳۳۱] (۱)- كلمة« السابقين» نعت و منعوته محذوف و تقديره الأنبياء(المصحح).

[۳۳۲] (۱)- واضح- هنا- أن المراد من القلب هو روح النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لا القلب الذى يعدّ مضخّة للدم ... و انتخاب هذا التعبير إشارة إلى أنّك يا رسول اللّه استوعبت القرآن بروحك و قلبك، و هذه المعجزة السماوية مقرّها قلبك.

[۳۳۳] (۱)-« الزبر» جمع: زبور و معناه الكتاب، و هو فى الأصل من مادة(زبر) على وزن(أسر) اى كتابة ...

[۳۳۴] (۱)- ينبغى الالتفات إلى أن جملة« فيأتيهم» منصوبة و معطوفة على« حتى يروا»، و ينبغى بيان معناها بهذه العلاقة.

[۳۳۵] (۱)- اصول الكافى، الجزء الثّانى(باب العصبية ص ۳۲).

[۳۳۶] (۲)- المصدر السابق.

[۳۳۷] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، رقمها ۱۹۲.

[۳۳۸] (۲)- المصدر السابق.

[۳۳۹] (۳)- اصول الكافى، ج ۲، باب العصبية، ص ۲۳۳.

[۳۴۰] (۴)- البحار، ج ۷۳، ص ۲۸۹.

[۳۴۱] (۵)- المصدر نفسه.

[۳۴۲] (۱)- الجزء الرّابع من تفسیر نور الثقلین، ص ۱۶۵.

[۳۴۳] (۱)- للمفسرین فی محل(ذکری) من الإعراب أربعة احتمالات ... الأوّل: أنه مفعول لأجله و العامل« منذرون» و التّفسیر المذکور آنفا فی المتن هو علی هذا الأساس.

الثّانی: أنّه مفعول مطلق لکلمة« منذرون» لأنّ معناهما واحد أو هما متقاربان فی المعنی.

الثّالث: أنّه حال من الضمیر فی منذرون.

الرّابع: أنها خبر لمبتدإ محذوف تقدیره(هذه ذکری).

[۳۴۴] (۱)- لمزید الإیضاح فی منع الشیاطین عن استراق السمع یراجع الجزء الأوّل من سیرة ابن هشام، ص ۲۱۷ فما بعد.

[۳۴۵] (۱)- العشیرة مشتقّة من« العشرة» العدد المعروف ۱۰] و حیث أن العشرة تعتبر فی نفسها عددا کاملا، فقد سمی أقرباء الرجل الذین یکمل بهم عشیرة، و لعل المعاشرة مأخوذة من هذا المعنی، لأنّها تجعل الناس بصورة مجموعة کاملة.

[۳۴۶] (۱)- مجمع البیان ذیل الآیة محل البحث.

[۳۴۷] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۶۹.

[۳۴۸] (۳)- مجمع البیان ذیل الآیات محل البحث.

[۳۴۹] (۱)- سورة الحج، الآیة ۹۴.

[۳۵۰] (۲)- راجع سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۸۰.

[۳۵۱] (۳)- المراجعات، ص ۱۳۰.

[۳۵۲] (۱)- لمزید الإیضاح یراجع کتاب المراجعات، ص ۱۳۰ فما بعد و کتاب إحقاق الحق، ج ۴، ص ۶۲.

[۳۵۳] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۴۸۵۹ ذیل الآیات محل البحث مع شیء من الاختصار.

[۳۵۴] (۱)-« أفّاک» من:« الإفک». و الإفک هو الکذب الکبیر. فمعنی الأفلاک من یکذب کثیرا أکاذیب کبیرة ... و« أثیم» من مادة« إثم» علی وزن(اسم) و معناه فی الأصل: العمل الذی یؤخر صاحبه عن الثواب، و یطلق عادة علی الذنب، فالأثیم هو المذنب ...

[۳۵۵] (۱)- لأن(یلقون) فی مثل هذه الموارد معناها نقل الأخبار و المطالب، کما جاء فی الآیة(۵۳) من سورة الحج **i** لِیَجْعَلَ ما یُلْقِی الشَّیْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ **E** و جملة\i أَکْثَرُهُمْ کاذِبُونَ **E** تتناسب مع الشیاطین، لأن الأفّاکین کلهم کاذبون لا أکثرهم(فلاحظوا بدقة).

[۳۵۶] (۲)-« یهیمون» فعل مضارع من« الهیام»، و معناه المشی بلا هدف ...

[۳۵۷] (۱)- یس، الآیة ۶۹.

[۳۵۸] (۱)-« التقویم» له معان متعددة منها تقویم الأود أی إقامة الاعوجاج، و تقویم الشیء إعطاء قیمته أو معرفتها، و هو هنا بهذا المعنی. و ما یجری علی السنة الکتاب و أقلامهم بلفظ(تقییم) خطأ مشهور و غیر صحیح(المصحح).

[۳۵۹] (۲)- شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید ج ۲۰، ص ۴۶۱.

[۳۶۰] (۱)- نقل حدیث الرّسول هذا جماعة کثیرة من علماء الشیعة و السنة فی کتبهم« یراجع کتاب الغدیر، ج ۲، ص ۹».

[۳۶۱] (۲)- مسند أحمد، ج ۲، ص ۲۶۰.

[۳۶۲] (۳)- مسند أحمد، ج ۴، ص ۲۹۹.

[۳۶۳] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۸۶۹.

[۳۶۴] (۲)- جاء عن الإمام الصادق أنّه قال:« من قال فینا بیت شعر بنی اللّه له بیتا فی الجنة»،« الغدیر، ج ۲، ص ۳».

[۳۶۵] (۱)-

\i٣\i فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه قال:\E« ما قال فينا قائل بيت شعر حتى يؤيد بروح القدس»« عيون أخبار الرضا\» ...E

[۳۶۶] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۷۱.

[۳۶۷] (۳)- الكنى و الألقاب، ج ۲، ص ۴۵۵.

[۳۶۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۷۳.

[۳۶۹] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۷۳، نقلا عن اصول الكافى.

الجزء الثانى عشر

سورة النمل

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثلاث و تسعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷

سورة النّمل

محتوى سورة النمل

هذه السورة نزلت بمكّة- كما ذكرنا آنفا- و المعروف أنّها نزلت بعد سورة الشعراء.

و محتوى هذه السورة- بصورة عامّة- كمحتوى سائر السور المكية، فأكثر اهتمامها- من الوجهة الاعتقادية- ينصبّ على المبدأ و المعاد ... و تتحدث عن الوحى و القرآن و آيات اللّه فى عالم الإيجاد و الخلق، و كيفية المعاد و القيامة؟

و أمّا من ناحية المسائل العملية و الاخلاقية، فالقسم الكبير منها يتحدث عن قصص خمسة أنبياء كرام و مواجهاتهم لأممهم المنحرفة، لتكون هذه السورة تسلية للمؤمنين القلّة بمكّة فى ذلك اليوم، و فى الوقت ذاته تكون إنذارا للمشركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم فى صفحات تاريخ الظلمة الماضين، فلعلهم يحذرون و يرجعون إلى الرشد.

و أحد خصائص هذه السورة هى بيان قسم مهم من قصّة النّبى سليمان و ملكة سبأ، و كيفية إيمانها بالتوحيد، و كلام الطير- كالهدهد، و الحشرات كالنمل- مع سليمان عليه السّلام.

و هذه السورة سمّيت سورة «النمل» لورود ذكر النمل فيها، و العجيب أنّها سمّيت بسورة «سليمان» كما فى بعض الرّوايات «و النمل أخرى» سليمان أحيانا، و كما سنلاحظ ... فإنّ هذه التسميات للسور ليست اعتباطا، بل هى مدروسة و دقيقة فى تسميتها، فهى من تعليمات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تكشف عن حقيقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸

مهمّة يغفل عنها الناس فى الظروف الاعتيادية!.

و تتحدث هذه السورة ضمنا عن علم اللّه غير المحدود، و هيمنته و سلطانه على كل شىء فى عالم الوجود، و حاكميته عالم عباده ... و الالتفات إلى ذلك له أثره الكبير فى المسائل التربوية للإنسان.

و تبدأ هذه السورة بالبشرى و تنتهى بالتهديد، فالبشرى للمؤمنين، و التهديد للناس بأنّ اللّه غير غافل عن أعمالكم.

فضیلة سورة النمل:

جاء فی بعض أحادیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ طس سلیمان کان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سلیمان و کذّب به، و هود و شعیب و صالح و إبراهیم و یخرج من قبره و هو ینادی لا إله إلّا اللّه»[۱].

و بالرغم من أنّ هـذه السورة تتحدث عن موسـی و سـلیمان و داود و صالح و لوط، و لیس فیها کلام عن هود و شـعیب و إبراهیم، إلّا أنّه حیث أنّ جمیع الأنبیاء سواء فی دعوتهم إلی اللّه- فلا مجال لأن نعجب من هذا التعبیر.

و

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سور الطواسین الثلاث «یعنی سور الشعراء و النمل و القصص» فی لیلـة جمعـة کان من أولیاء اللّه و فی جواره و کنفه، و لم یصبه فی الـدنیا بؤس أبدا، و أعطی فی الآخرة من الجنّة حتی یرضـی و فوق رضاه، و زوجه اللّه مائة زوجة من الحور العین»[۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

طس تِلْکَ آیاتُ الْقُرْآنِ وَ کِتابٍ مُبِینٍ (۱) هُدیً وَ بُشْری لِلْمُؤْمِنِینَ (۲) الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ یُوقِنُونَ (۳) إِنَّ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَیَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ یَعْمَهُونَ (۴)

أُوْلئِکَ الَّذِینَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِی الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّی الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ عَلِیمٍ (۶)

التّفسیر

القرآن منزل من لدن حکیم علیم:

نواجه مرّة أخری- فی بدایة هذه السورة- الحروف المقطّعة من القرآن (طس).

و بملاحظـة أنّ ما بعـدها مباشـرة هو الکلام عن عظمـة القرآن، فیبـدو أنّ واحدا من أسـرار هذه الحروف هو أنّ هذا الکتاب العظیم و الآیات البیّنات منه، کل ذلک یتألف من حروف بسـیطة ... و إن الجـدیر بالثناء هو الخالق العظیم الموجـد لهذا الأثر البدیع من حروف بسیطة کهذه الحروف، و کان لنا فی هذا الشأن بحوث مفصّلة فی بدایة سورة البقرة و سورة آل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰

عمران و سورة الأعراف.

ثمّ یضـیف القرآن قائلا: تِلْکَ آیاتُ الْقُرْآنِ وَ کِتابٍ مُبِینٍ و الإشارة للبعید بلفظ (تلک) لبیان عظمة هذه الآیات السماویة، و التعبیر ب (المبین) تأکید علی أنّ القرآن واضح بنفسه و موضح للحقائق أیضا[۳].

و بالرغم من أنّ بعض المفسّـرین احتمل أنّ التعبیر ب الْقُرْآنِ وَ کِتابٍ مُبِینٍ إشارة إلی معنیین مسـتقلین، و أن «الکتاب المبین» یراد منه اللوح المحفوظ ... إلّا أن ظـاهر الآیـة یـدلّ علی أنّ کلاهما لبیان حقیقـة واحـدة، فالأوّل فی ثوب الألفاظ و التلاوة، و الثّانی فی ثوب

الکتابة و الرسم.

و فی الآیـة التالیـة وصـفان آخران للقرآن إذ تقول: هُدیً وَ بُشْـری لِلْمُؤْمِنِینَ ... الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ یُوقِنُونَ

و هکـذا فـإن اعتقـاد المؤمنین راسـخ فی شـأن المبـدأ و المعـاد، و ارتبـاط متین بـاللّه و خلقه أیضـا ... فالأوصاف المتقدمـة تشـیر إلی اعتقادهم الکامل و منهجهم العملی الجامع!.

و هنا ینقـدح سؤال و هو: إذا کان هؤلاء المؤمنون قـد اختاروا الطریق السوی، من حیث المبانی الاعتقادیـة و العملیـة، فما الحاجـة لأنّ یأتی القرآن لهدایتهم؟! و یتّضح الجواب بملاحظة أنّ الهدایة لها مراحل مختلفة، و کل مرحلة مقدمة لما بعدها.

ثمّ إنّ اسـتمرار الهدایة مسألة مهمّة، و هی ما نسألها اللّه سـبحانه لیل نهار بقولنا: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ لیثبتنا فی هذا المسیر، و یجعلنا مستمرین فیه بلطفه، فلو لا لطفه لما کان ذلک ممکنا لنا ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱

و بعـد هذا کلّه، فالإفادة من آیات القرآن و الکتاب المبین هی نصـیب أولئک الذین فیهم القابلیة علی معرفة الحق و طلب الحق. و إن لم یبلغوا مرحلـة الهدایة الکاملة ... و إذا ما وجدنا التعبیر فی بعض آیات القرآن بأنّه هُدیً لِلْمُتَّقِینَ «کما فی الآیة ۲ من سورة البقرة» و فی مکان آخر لِلْمُسْلِمِینَ «کما فی الآیة ۱۰۲ من سوره النحل» و هنا هُـدیً وَ بُشْـری لِلْمُؤْمِنِینَ فإنّ ذلک ناشـئ من أنّه إذا لم یکن فی قلب الإنسان أدنی مرحلة من التقوی و التسلیم و الإیمان بالواقع، فإنّه لا یتجه نحو الحق، و لا یبحث عنه، و لا یفید من نور هذا الکتاب المبین ... لأنّ قابلیة المحل شرط أیضا.

ثمّ بعد ذلک فإن الهدی و البشری مقترنین معا .. و هما للمؤمنین فحسب، و لیس للآخرین مثل هذه المزیة ...

و من هنا یتّضح مجیء التعبیر بالهدایة بشکل واسع لعموم الناس هُدیً للناس فإن المراد منه أولئک الذین تتوفر فیهم الأرضیّة المناسبة لقبول الحق، و إلّا فأنّ المعاندین الألداء. عماة القلوب، لو أشرقت علیهم آلاف الشموس بدل شمسنا هذه لیهتدوا، لما اهتدوا أبدا.

و تتحدّث الایة التالیة عن الأشـخاص فی المقابلة للمؤمنین، و تصف واحدة من أخطر حالاتهم فتقول: إِنَّ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَیَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ یَعْمَهُونَ أی حیاری فی حیاتهم.

فهم یرون الملوّث نقیّا، و القبیح حسنا، و العیب فخرا، و الشقاء سعادة و انتصارا!.

أجـل، هـذا حال من یسـلک الطریق المنحرف و یتوغل فیها ... فواضـح أن الإنسان حین یقوم بعمل قبیـح. فإنّ قبحه یخف تـدریجا، و یعتـاد علیه، و عنـد مـا یتطبع علیه یوجهه و یبرره، حتی یبـدو له حسـنا و یعـدّه من وظـائفه! و مـا أکثر الـذین تلوثت أیـدیهم بالأعمـال الإجرامیة ... و هم یفتخرون بتلک الأعمال و یعدونها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲

أعمالا إیجابیّة.

و هذا التغیر فی القیم، أو اضطراب المعاییر فی نظر الإنسان، یؤدی إلی الحیرة فی متاهات الحیاة ... و هو من أسوأ الحالات التی تصیب الإنسان.

و الذی یلفت النظر أنّ «التزیین» فی الآیة محل البحث- و فی آیة أخری من القرآن، و هی الآیة (۱۰۸) من سورة الأنعام، نسب إلی اللّه سبحـانه، مع أنّه نسب فی ثمانیـة مواطن إلی الشـیطان، و فی عشـرة أخر جاء بصـیغ الفعـل المجهول (زیّن) و لو فکرنا بإمعان- و أمعنا النظر، لوجدنا جمیع هذه الصور کاشـفة عن حقیقة واحدة! فأمّا نسبة التزیین إلی اللّه، فلأنّه «مسبب الأسباب» فی عالم الإیجاد، و ما من موجود مؤثر إلّا و یعود تأثیره إلی اللّه.

أجل، إنّ هذه الخاصیة أوجدها اللّه فی تکرار العمل لیتطبّع علیه الإنسان ...

و يتغير حسّ التشخيص فيه دون أن تسلب المسؤولية عنه، أو أن تكون نقصا فى خلقة اللّه أو إيرادا عليه (لاحظوا بدقّة).

و أمّا نسبة التزيين إلى الشيطان (أو هوى النفس) فلأن كلّا منهما عامل قريب و بغير واسطة للتزيين.

و أمّا مجىء التزيين بصورة الفعل المبنى للمجهول، فهو إشارة إلى أنّ طبيعة العمل يقتضى أن يوجد- على أثر التكرار- حالة و ملكة و علاقة و عشقا!! ثمّ تبيّن الآية التالية نتيجة «تزيين الأعمال» و عاقبة أولئك الذين شغفوا بها فتقول: أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ فهم فى الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، و سينالون العقاب الصارم فى الآخرة وَ هُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ

و الدليل على أنّهم فى الآخرة هم الأخسرون، ما جاء فى الآية (١٠٣) من سورة الكهف قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَياةِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ١٣

الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

فأية خسارة أعظم من أن يرى الإنسان عمله القبيح حسنا!! و أن يهدر جميع طاقاته من أجله، ظنّا منه بأنّه عمل «إيجابى» مثبت، إلّا أنّه يراه فى عاقبة أمره شقاء و ذلة و عذابا.

و أمّا الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- فهى بمثابة إكمال البيانات السابقة فى صدد عظمة محتوى القرآن، و مقدمة لقصص الأنبياء التى تبدأ بعدها مباشرة فتقول: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى ۴] الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ

و بالرغم من أنّ الحكيم و العليم كلاهما إشارة إلى علم اللّه سبحانه، إلّا أنّ الحكمة تبيّن الجوانب العملية، و العلم يبيّن الجوانب النظرية ... و بتعبير آخر: إن العليم يخبر عن علم اللّه الواسع، و الحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم و إنزال القرآن على قلب النّبى (محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و مثل هذا القرآن النازل من قبل اللّه ينبغى أن يكن مبينا ... و هدى و بشرى للمؤمنين، و أن تكون قصصه خالية من أى نوع من أنواع الخرافات و التضليل و الأباطيل و التحريف.

الواقعية و الإيمان:

المسألة المهمة فى حياة الإنسان هى أن يدرك الواقعيّات بما هى عليه، و أن يكون موقفه منها صريحا ... فلا- تمنعه من فهمها و إدراكها تصوراته و أحكامه المسبقة و رغباته الانحرافية و حبّه و بغضه، و لذلك فأنّ أهم تعريف للفلسفة هو:

إدراك الحقائق كما هى!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ١۴

و لذلك فقد كان من دعاء المعصومين: (اللّهم أرنى الأشياء كما هى) أى لأعرف قيمها و أؤدى حقّها.

و هذه الحالة لا تتحقق بغير الإيمان! لأنّ الهوى و الهوس و الانحرافات أو الرغبات النفسية، تكون حجابا و سدا كبيرا فى هذا الطريق، و لا يمكن رفع هذا الحجاب أو السد إلّا بالتقوى و ضبط هوى النفس!.

لذلك فقد قرأنا فى الآيات آنفة الذكر: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ

و المثل الواضح و الجلى لهذا المعنى نراه فى حياة كثير من عبدة الدنيا فى زماننا بشكل بيّن. فهم يفتخرون ببعض المسائل و يرونها حضارة، إلّا أنّها فى الواقع ليست إلّا الفضيحة و العار و الذل.

فالتفسخ و الحماقة عندهم دليل «الحرية».

و التعرى و السفور من قبل النساء دليل «التمدن».

التكالب على بهارج الدنيا و زخارفها دليل على «الشخصيّة».

الغرق فى ألوان الفساد دليل «التحرر».

القتل و الإجرام دليل على «القوّة».

التخريب و غصب رؤوس الأموال دليل على الاستعمار، أى البناء و العمران ۵]!! استخدام اجهزة الاعلام العامة كالراديو و التلفزيون لتوكيد المفاهيم!! سحق حقوق المحرومين دليل على احترام حقوق البشر.

الأسر فى قبضة المخدرات و الفضائح و ما إلى ذلك من أشكال الحرية!.

و التزوير و الغش و اقتناء الأموال من أى طريق كان و كيف كان، دليل على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵

الجدارة و الذكاء.

رعاية أصول العدل و احترام حقوق الآخرين دليل على الضعف و عدم اللياقة!.

الكذب و الدجل و نقض العهود و ما إلى ذلك دليل على السياسة.

و الخلاصة: إنّ الأعمال السيئة و القبيحة تتزين فى نظر هؤلاء الى درجة أنّهم لا يشعرون فى أنفسهم بالخجل منها. بل و يفتخرون و يتباهون بها!! و واضح إلى اين يتجه مثل هذا العالم و ماذا سيكون مصيره!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۷ الى ۱۴]

اشارة

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ ناراً سَآتِیكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِیكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۷) فَلَمَّا جاءَها نُودِیَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِی النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۸) یا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِیزُ الْحَكِیمُ (۹) وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّی لا یَخافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ (۱۰) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱) وَ أَدْخِلْ یَدَكَ فِی جَیْبِكَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ فِی تِسْعِ آیاتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۱۲) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آیاتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۳) وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَیْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَیْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ (۱۴)

التّفسير

موسى يقتبس النّور:

يجرى الكلام فى هذه السورة- كما أشرنا من قبل- بعد بيان أهمّية القرآن، عن قصص خمسة أنبياء عظام، و ذكر أممهم، و الوعد بانتصار المؤمنين و عقاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷

الكافرين.

فأوّل نبىّ تتحدث عنه هذه السورة، هو موسى عليه السّلام أحد الأنبياء «أولى العزم» و تبدأ مباشرة بأهم نقطة من حياته و أكثرها «حسّاسية» و هى لحظة نزول الوحى على قلبه و إشراقه فيه، و تكليم اللّه إيّاه إذ تقول الآية: إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ ناراً[۶] اى

رأيت نارا من بعيد، فامكثوا هنيئة سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۷].

فى تلك الليلة الظلماء، كان موسى عليه السّلام يسير بزوجته بنت النبىّ شعيب عليه السّلام فى طريق مصر- و فى الصحراء- فهبت ريح باردة، و كانت زوجته (أهله) مقرّبا، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السّلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النّار لتصطلى المرأة بها، لكن لم يكن فى الصحراء أىّ شىء، فلمّا لاحت له النّار من بعيد سرّ كثيرا، و علم أنّها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضى و آتيكم منها بخبر أو شعلة للتدفئة.

ممّا يلفت النظر أنّ موسى عليه السّلام يقول لأهله سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس «بضمير الجمع لا الإفراد» و لعل هذا التعبير هو أنّ موسى عليه السّلام كان معه بالإضافة إلى زوجته أطفال أيضا ... لأنّه كان قد مضى على زواجه عشر حجج (عشر سنين) فى مدين .. أو أنّ الخطاب بصيغة الجمع (آتيكم) يوحى بالاطمئنان فى هذه الصحراء الموحشة!.

و هكذا فقد ترك موسى أهله فى ذلك المكان و اتّجه نحو «النّار» التى آنسها فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و هناك احتمالات مختلفة عند المفسّرين فى المراد من قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸

مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها! ... فما المقصود من هذا التعبير؟! و يبدو أنّ المراد من مَنْ فِي النَّارِ هو موسى نفسه، حيث كان قريبا منها و من الشجرة الخضراء التى عندها، فكأنّ موسى كان فى النّار نفسها، و أنّ المراد من مَنْ حَوْلَها هم الملائكة المقرّبون من ساحة القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدسة فى ذلك الوقت.

أو أنّ المراد- على عكس ما ذكرنا آنفا- فمن فى النّار: هم الملائكة المقرّبون، و من حولها هو موسى عليه السّلام.

و على كلّ حال فقد جاء فى بعض الرّوايات أنّ موسى عليه السّلام لما وصل النّار و نظر بدقّة، رأى النّار تشتعل من غصن أخضر! و تتسع الشعلة لحظة بعد أخرى، و الشجرة تزداد اخضرارا و جمالا .. فلا حرارة النّار تحرق الشجرة، و لا رطوبة الشجرة تطفئ لهب النّار، فتعجب من هذا المشهد الرائع .... و انحنى ليقتبس من هذه النّار و يشعل الغصن اليابس «الحطب» الذى كان معه، فأتته النّار فارتاع و رجع ... فمرّة يأتى موسى إلى النّار، و مرّة تأتى النّار إلى موسى، و بيّنا هو على هذه الحالة، إذا بالنداء يقرع سمعه مبشرا إيّاه بالوحى.

فالمراد أنّ موسى عليه السّلام اقترب من النّار ألى درجة عبّر عنه بأنّه «فى النّار».

و التّفسير الثّالث لهذه الجملة، هو أنّ المراد من (من فى النّار) هو نور اللّه الذى تجلّى فى تلك الشعلة، و المراد من «من حولها» هو موسى الذى كان قريبا منها. و على كل حال فمن أجل أن لا يتوهم أحد من هذه العبارة مفهوم «التجسيم» فقد ختمت الآية ب سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ تنزيها له عن كل عيب و نقص و جسميّة و ما يعترض الجسم من عوارض!.

و مرّة أخرى نودى موسى بالقول: يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

و ذلك يزول عن موسى عليه السّلام كل شك و تردّد، و ليعلم أنّ الّذى يكلمه هو ربّ العالمين، لا شعلة النّار و لا الشجرة، الربّ القوى العزيز الذى لا يغلب و لا يقهر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹

و الحكيم ذو التدبير فى جميع الأمور!.

و هذا التعبير فى الحقيقة مقدّمة لبيان المعجزة التى سيأتى بيانها فى الآية التالية لأنّ الإعجاز آت من هاتين الصفتين «قدرة اللّه» و «حكمته»، و لكن قبل أن نصل إلى الآية التالية .. ينقدح هذا السؤال و هو: من أين تيقن موسى عليه السّلام أنّ هذا النداء هو نداء اللّه و ليس سواه؟! يمكن أن يجاب على هذا السؤال بأنّ هذا النداء- أو الصوت المقرون بمعجزة جليّة، و هى إشراق النّار من الغصن الأخضر «فى الشجرة الخضراء»- دليل حى على أنّ هذا أمر إلهى!.

ثمّ إنّه- کما سنری فی الآیة التالیة- بعد هذا النداء أمر موسی علیه السّلام بإلقاء العصا و إظهار الید البیضاء، علی نحو الإعجاز، و هما شاهدان صادقان آخران علی هذه الحقیقة.

ثمّ بعد هذا کله (فعلی القاعدة) فإن نداء اللّه له خصوصیة تمیزه عن کلّ نداء آخر، و حین یسمعه الإنسان یؤثر فی روحه و قلبه تأثیرا لا یخالطه الشک أو التردد بأنّ هذا النداء هو نداء اللّه سبحانه.

و حیث أنّ الصدع بالرسالة و البلاغ (و أیة رسالة و بلاغ ... رسالة إلی جبار مستکبر ظالم کفرعون). لا بدّ له من قوّة ظاهریة و باطنیة و سند علی حقانیته ...

فلذا أمر موسی بأن یلقی عصاه: وَ أَلْقِ عَصاکَ

فألقی موسی عصاه، فتبدلت ثعبانا عظیما، فلمّا رآه موسی یتحرک بسرعة کما تتحرک الحیّات الصغار خاف و ولّی هاربا و لم یلتفت الی الوراء: فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ کَأَنَّها جَانٌّ وَلَّی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ [۸] و یحتمل أنّ عصا موسی تبدلت بادئ الأمر إلی حیّة صغیرة، ثمّ تحولت إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰

أفعی کبیرة فی المراحل الأخر! و هنا خوطب موسی مرّة أخری أن یا مُوسی لا تَخَفْ إِنِّی لا یَخافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ فهنا مقام القرب، و حرم أمن اللّه القادر المتعال.

و هنا لا معنی للخوف و الوحشة. و معنی الآیة: أن یا موسی إنّک بین یدی خالق الوجود العظیم، و الحضور عنده ملازم لأمن المطلق!.

و نقرأ نظیر هذا التعبیر فی الآیة (۳۱) من سورة القصص: یا مُوسی أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ

إلّا أنّ فی الآیة التالیة استثناء للجملة السابقة، حیث ذکره القرآن فقال: إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ.

و هناک رأیان مختلفان لدی المفسّرین فی علاقة الاستثناء بالجملة:

فالرأی الأوّل: أنّ هناک حذفا ذیل الآیة آنفة الذکر و تقدیره: إنّک من الآمنین و غیر الأنبیاء لیس آمنا. ثمّ استثنی سبحانه من ذلک «بإلّا» من ظلم ثمّ بدل حسنا، فهو من الآمنین أیضا لأن الله غفور رحیم.

و الثّانی: أنّ الاستثناء من ضمن الجملة، و الظلم إشارة إلی ترک الأولی الذی قد یقع من الأنبیاء، و هو لا ینافی مقام العصمة، و معنی الآیة علی هذا الرأی: أن الأنبیاء فی حال ترک الأولی غیر آمنین أیضا، و أنّ اللّه یحاسبهم حسابا عسیرا، کما جاء فی آیات القرآن عن قصّة آدم و قصّة یونس علیهما السّلام!.

إلّا أولئک الذین التفتوا إلی ترک الأولی، و انعطفوا نحو اللّه الرحیم، فبدلوا حسنا و عملا صالحا بعد ذلک، کما جاء فی شأن موسی علیه السّلام نفسه فی قصّة قتله الرجل القبطی، إذ اعترف موسی بترکه الأولی، فقال: رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی ۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱

أمّا المعجزة الثّانیة التی أمر موسی أن یظهرها، فهی الید البیضاء، إذ تقول الآیة: وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ.

و القید مِنْ غَیْرِ سُوءٍ إشارة إلی أن بیاض الید لیس من برص و نحوه، بل هو بیاض نورانی یلفت النظر، و هو بنفسه کاشف عن إعجاز و أمر خارق للعادة:

و من أجل أن یظهر اللّه تعالی عنایته و لطفه لموسی أکثر، و کذلک منح الفرصة للمنحرفین للهدایة أکثر، قال لموسی بأن معاجزه لیست منحصرة بالمعجزتین الآنفتین، بل فِی تِسْعِ آیاتٍ إِلی فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ ۱۰].

و یستفاد من ظاهر الآیة أن هاتین المعجزتین من مجموع تسع معاجز «آیات» موسی المعروفة، و قد استنتجنا ذلک من الآیة (۱۰۱) من سورة الإسراء، و إن المعاجز السبع الأخر هی:

۱- الطوفان ۲- الجراد ۳- کثرة الضفادع ۴- تبدل لون نهر النیل کلون الدم ۵- الآفات فی النباتات. و کل واحدة من هذه المعاجز

الخمس تعدّ إنذارا لفرعون و قومه، فكانوا عند البلاء يلجأون إلى موسى ليرفع عنهم ذلك.

أمّا المعجزتان الأخريان فهما ۶- القحط «السنين» ۷- و نقص الثمرات. إذ أشارت إليهما الآية (۱۳۰) من سورة الأعراف فقالت: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ... «و لمزيد الإيضاح يراجع الجزء التاسع من التّفسير الأمثل ذيل الآية (۱۰۱) من سورة الإسراء».

و أخيرا تعبّأ موسى بأقوى سلاح- من المعاجز- فجاء إلى فرعون و قومه يدعوهم إلى الحق، كما يصرح القرآن بذلك فى آيته التالية فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ

و معلوم أنّ هذا الاتّهام «بالسحر» لم يكن خاصّا بموسى عليه السّلام، بل اتّخذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲

المعاندون ذريعة بوجه الأنبياء، ليجعلوه سدّا فى طريق الآخرين، و الاتّهام بنفسه دليل واضح على عظمة ما يصدر من الأنبياء خارقا للعادة، بحيث اتّهموه بالسحر.

مع أنّنا نعرف أن الأنبياء كانوا رجالا صالحين صادقين طلّاب حق مخلصين، أمّا السحرة فهم منحرفون ماديّون تتوفر فيهم جميع صفات المدلّسين «أصحاب التزوير».

و إضافة إلى ذلك فإن السحرة كانت لديهم قدرة محدودة على الأعمال الخارقة، إلّا أنّ الأنبياء فقد كان محتوى دعوتهم و منهاجهم و سلوكهم يكشف عن حقانيتهم، و كانوا يقومون بأعمال غير محدودة، بحيث كان ما يقومون به معجزا لا يشبه سحر السحرة أبدا.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يضيف فى آخر الآية- محل البحث- قائلا: إنّ هذا الاتهام لم يكن لأنّهم كانوا فى شك من أمرهم و مترددين فعلا، بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقانيتها وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا.

و يستفاد من هذا التعبير أنّ الإيمان له حقيقة و واقعية غير العلم و اليقين، و يمكن أن يقع الكفر جحودا و إنكارا بالرغم من العلم بالشيء!.

و بعبارة أخرى: إنّ حقيقة الإيمان هى الإذعان و التسليم- فى الباطن و الظاهر- للحقّ، فبناء على ذلك إذا كان الإنسان مستيقنا بشيء ما، إلّا أنّه لا يذعن له فى الباطن أو الظاهر فليس له إيمان. بل هو ذو كفر جحودى، و هذا موضوع مفصل، و نكتفى هنا بهذه الاشارة.

لذلك فإنّنا نقرأ حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام يذكر فيه ضمن عدّه أقسام الكفر الخمسة

«كفر الجحود»

و يبيّن بعض شعبه بالتعبير التالى (هو أنّ يجحد الجاحد و هو يعلم أنّه حق قد استقرّ عنده).[۱۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ القرآن يعد الباعث على إنكار فرعون و قومه أمرين: الأوّل الظلم، و الثّانى العلوّ: ظُلْماً وَ عُلُوًّا.

و لعل «الظلم» إشارة إلى غصب حقوق الآخرين، و «العلوّ» إشارة إلى طلب التفوّق على بنى إسرائيل.

أى إنّهم كانوا يرون أنّهم إذا أذعنوا لموسى عليه السّلام و آمنوا به و بآياته، فإنّ منافعهم غير المشروعة ستكون فى خطر، كما أنّهم سيكونون مع رقيقهم «بنى إسرائيل» جنبا إلى جنب، و لا يمكنهم تحمل اىّ من هذين الأمرين.

أو أنّ المراد من الظلم هو ظلم النفس أو الظلم بالآيات، و أنّ المراد من العلوّ هو الظلم للآخرين، كما جاء فى الآية (۹) من سورة الأعراف بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ

و على كل حال، فإنّ القرآن يذكر عاقبة فرعون و قومه على أنّه درس من دروس العبرة، فى جملة موجزة ذات معنى كبير، مشيرا إلى هلاكهم و غرقهم فيقول: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

و القرآن هنا لا يرفع الستار عن هذه العاقبة، لأنّ قصّة هؤلاء الكفرة و نهايتهم الوخيمة ذكرها فى آيات أخرى و اكتفى هنا بالاشارة

الى تلك الآيات ليفهم من يفهم.

و القرآن يعوّل- ضمنا على كلمة (مفسد) مكان ذكر جميع صفاتهم السيئة، لأنّ الإفساد له مفهوم جامع يشمل الإفساد فى العقيدة، و الإفساد فى الأقوال و الأعمال، و الإفساد على المستوى الفردى، و المستوى الجماعى، فجمع كلّ أعمالهم فى كلمة (المفسدين).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴

الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۱۵ الى ۱۶]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (۱۶)

التّفسير

حكومة داود و سليمان عليهما السّلام:

بعد الكلام عن جانب من قصّة موسى عليه السّلام فى هذه السورة، يجرى الكلام عن نبيّين آخرين من الأنبياء العظام، و هما «داود» و «سليمان» ... و الكلام على داود لا يتجاوز الإشارة العابرة، إلّا أنّ الكلام على سليمان أكثر استيعابا.

و ذكر هذا المقطع من قصّة هذين النبيّين بعد قصّة موسى عليه السّلام، لأنّهما كانا من أنبياء بنى إسرائيل أيضا، و ما نجده من اختلاف بين تأريخهما و تاريخ الأنبياء الآخرين، هو أنّهما- و نتيجة للاستعداد الفكرى و ملائمة المحيط الاجتماعى فى عهدهما- قد وفّقا إلى تأسيس حكومة عظيمة، و أن ينشرا بالاستعانة و الإفادة من حكومتهما دين اللّه، لذلك لا نجد هنا أثرا أو خبرا عمّا عهدناه من أسلوب فى تلك الآيات التى كانت تتكلم عن الأنبياء الآخرين، و هم يواجهون قومهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵

المعاندين، و ربّما نالوا منهم الأذى و الطرد و الإخراج من مدنهم و قراهم .. فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماما.

و يدلّ هذا بوضوح أنّه لو كان المصلحون و الدعاة إلى اللّه يوفقون إلى تشكيل حكومة لما بقيت معضلة و لغدا طريقهم معبدا سالكا.

و على كل حال، فالكلام هنا عن العلم و القدرة و العظمة، و عن طاعة الآخرين حتى الجن و الشياطين لحكومة اللّه و عن تسليم الطير فى الهواء و الموجودات الأخر لحكومة اللّه!.

و أخيرا، فإنّ الكلام عن مكافحة عبادة الأصنام عن طريق الدعوة المنطقية، ثمّ الإفادة من قدرة الحكومة!.

و هذه الأمور هى التى ميّزت قصّة هذين النبيّين عن الأنبياء الآخرين.

الطريف، أن القرآن يبدأ من مسألة «موهبة العلم» التى هى أساس الحكومة الصالحة القوية، فيقول: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً.

و بالرغم من أن كثيرا من المفسّرين أجهدوا أنفسهم و أتعبوها ليعرفوا هذا العلم الذى أوتيه سليمان و داود، لأنّه جاء فى الآية بصورة مغلقة .. فقال بعضهم:

هو علم القضاء، بقرينة الآية (۲۰) من سورة ص: وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ و الآية (۷۹) من سورة الأنبياء وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً.

و قال بعضهم: إن هذا العلم هو معرفة منطق الطير بقرينة الآية عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ.

و قال بعضهم: «إن المراد من هذا العلم هو صنعة الدروع، بقرينة صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ

إلّا أن من الواضح أن العلم هنا له مفهوم واسع، بحيث يحمل في نفسه علم التوحيد و الإعتقادات المذهبية و القوانين الدينية، و كذلك علم القضاء، و جميع العلوم التي ينبغي توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القوية ... لأنّ تأسيس

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶

حكومة إلهية على أساس العدل ... و حضارة عامرة حرّة ... دون الإفادة من علم واسع غير ممكن ... و هكذا فإنّ القرآن يعدّ مقام العلم لتشكيل حكومة صالحة أوّل حجر أساس لها!.

و بعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود و سليمان من ثناء للّه: وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ

و الذي يجلب النظر هو أنّه بعد بيان هذه الموهبة الكبيرة «العلم» يجري الكلام عن «الشكر» مباشرة ... ليكون واضحا أنّ كل نعمة لا بدّ لها من شكر، و حقيقة الشكر هو أنّ يستفاد من النعمة في طريقها الذي خلقت من أجله.

و هذان النبيّان العظيمان عليهما السّلام استفادا من نعمة علمهما الاستفادة القصوى في تنظيم حكومة إلهية.

و قد جعل داود و سليمان معيار تفضيلهما على الآخرين «العلم» لا القدرة و لا الحكومة، و عدّا الشكر للعلم لا لغيره من المواهب، لأنّ كلّ قيمة هي من أجل العلم، و كلّ قدرة تعتمد أساسا على العلم.

و الجدير بالذكر أنّهما يشكران اللّه و يحمدانه لتفضيلهما و لحكومتهما على امّة مؤمنة .. لأنّ الحكومة على امّة فاسدة غير مؤمنة ليست مدعاة للفخر! و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: لم قال داود و سليمان الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ و لم يقولا على عباده المؤمنين جميعا، مع أنّهما كانا نبيّين، و هما أفضل أهل عصرهما؟

و لعلّ هذا التعبير رعاية لأصول الأدب و التواضع، إذ على الإنسان أن لا يرى نفسه أفضل من الجميع في أي مقام كان! أو لأنّهما كانا ينظران إلى جميع الأزمنة، و لم ينظرا إلى مقطع زمنيّ خاص، و نعرف أن على مدى التأريخ يوجد أنبياء كانوا أفضل منهما.

و الآية التالية تتكلم على إرث سليمان أباه داود أولا، فتقول: وَ وَرِثَ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷

سُلَيْمانُ داوُدَ.

و هناك كلام بين المفسّرين في المراد من الإرث هنا، ما هو؟

فقال بعضهم: هو ميراث العلم فحسب ... لأنّ في تصورهم أنّ الأنبياء لا يورثون.

و قال بعضهم: هو ميراث المال و الحكومة، لأنّ هذا المفهوم يتداعى إلى الذهن قبل أي مفهوم آخر.

و قال بعضهم: هو منطق الطير.

و لكن مع الالتفات إلى أنّ الآية مطلقة، و قد جاء في الجمل التالية الكلام على العلم و عن جميع المواهب أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فلا دليل على حصر مفهوم الآية و جعله محدودا، فبناء على ذلك فإنّ سليمان ورث كل شيء عن أبيه.

و في الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّهم كانوا يستدلون بهذه الآية على عدم صحة ما نسب إلى النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث و ما تركناه صدقة»

و أنّه ساقط من الإعتبار لمخالفته كتاب اللّه.

و

في بعض الأحاديث عن أهل البيت أنّه لما أجمع أبو بكر على أخذ فدك من فاطمة عليها السّلام، محتجّا بالحديث آنف الذكر، جاءته فاطمة عليها السّلام فقالت: (يا أبا بكر، أفي كتاب اللّه أن ترث أباك و لا أرث أبي؟! لقد جئت شيئا فريّا، فعلى عمد تركتم كتاب اللّه و نبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ[۱۲].

ثمّ تضیف الآیة حاکیة عن لسان سلیمان وَ قالَ یا أَیُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّیْرِ وَ أُوتِینا مِنْ کُلِّ شَیْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِینُ

و بالرغم من ادعاء بعضهم أن تعبیر النطق و الکلام فی شأن غیر الناس لا یمکن إلّا علی نحو المجاز .. إلّا أنّه إذا أظهر غیر الإنسان أصواتا من فمه کاشفا

عن مطلب ما، فلا دلیل علی عدم تسمیته نطقا، لأنّ النطق کل لفظ مبین للحقیقة و المفهوم ۱۳].

و لا نرید أنّ نقول أنّ ما یظهر من أصوات الحیوانات عند الغضب أو الرضا أو الألم أو إظهار الشوق لأطفالها هو نطق، کلّا فهی أصوات تقترن بحالات الحیوان ... إلّا أنّنا- کما سیأتی فی الآیات التالیة- سنری بتفصیل أن سلیمان تکلم مع الهدهد فی مسائل و حمّله رسالة ... و طلب منه أن یتحرّی جوابها.

و هذا الأمر یدلّ علی أن الحیوانات بالإضافة إلی أصواتها الکاشفة عن حالاتها الخاصة ... لها القدرة علی النطق فی ظروف خاصة بأمر اللّه، کما سیأتی الکلام فی شأن تکلم النمل فی الآیات المقبلة إن شاء اللّه.

و بالطبع فإن النطق استعمل فی القرآن بمعناه الوسیع، حیث یبیّن حقیقة النطق و نتیجته، و هو بیان ما فی الضمیر، سواء کان ذلک عن طریق الألفاظ أو عن طریق الحالات الأخر، کما فی قوله تعالی: هذا کِتابُنا یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِ ۱۴] إلّا أنّه لا حاجة إلی تفسیر کلام سلیمان و منطق الطیر بهذا المعنی ... بل طبقا لظاهر الآیات فإن سلیمان کان بإمکانه أن یعرف ألفاظ الطیر الخاصة الدالة علی مسائل معیّنة فیشخّصها، أو أنّه کان یتکلم معها فعلا ..

و سنتکلم فی هذا الشأن فی البحوث إن شاء اللّه تعالی.

أمّا جملة أُوتِینا مِنْ کُلِّ شَیْءٍ فهی علی خلاف ما حدده جماعة من المفسّرین، لها مفهوم واسع شامل .. فهی تشمل جمیع الأسباب اللازمة لإقامة حکومة اللّه فی ذلک الحین .. و أساسا فإن الکلام سیقع ناقصا بدونها، و لا یکون له

ارتباط واضح بما سبق.

و هنا یثیر الفخر الرازی سؤالا- فیقول: ألیس التعبیر ب (علمنا) و (أوتینا) من قبیل کلام المتکبرین؟! ثمّ یجیب علی سؤاله هذا بالقول: إن المراد من ضمیر الجمع هنا هو سلیمان و أبوه، أو هو و معاونوه فی الحکومة .. و هذا التعبیر مستعمل حین یکون الشخص فی رأس هیئة ما، أن یتکلم عن نفسه بضمیر الجمع!.

بحوث

۱- علاقة الدین بالسّیاسة

خلافا لما یتصوره أصحاب النظرة الضیقة من أن الدین مجموعة من النصائح و المواعظ، أو المسائل الخاصة بالحیاة الشخصیّة للإنسان .. بل هو مجموعة من القوانین و المناهج الحیویة التی تستوعب جمیع مسائل حیاة الإنسان و خاصة المسائل الاجتماعیة.

فقد بعث الأنبیاء لإقامة القسط و العدل کما فی الآیة (۲۵) من سورة الحدید، إذ یقول سبحانه لِیَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.

و لیضع الأنبیاء عن الناس إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ فیتمتعوا بالحریة کما أشارت إلی ذلک الآیة (۱۵۷) من سورة الأعراف.

و الدین رحمة و منجاة للمستضعفین و تخلیصهم من نیر المتکبرین الظالمین.

و الدین- أخیرا- مجموعة من التعالیم و التربیة فی مسیر تزکیة الإنسان و الرقی به نحو الکمال (کما أشارت إلیه الآیة ۲ من سورة

الجمعة).

و بديهى أن هذه الأهداف الكبرى لا يمكن أن تتحق دون إقامة الحكومة! فمن ذا يستطيع أن يقيم القسط بين الناس بمجرّد التوصيات الاخلاقيّة؟ .. أو أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰

يقطع أيدى الظالمين عن المستضعفين. و يضع الإصر و الأغلال عن يدى الإنسان و رجليه دون الاستناد الى قدرة شاملة!! و من يستطيع أن ينشر الثقافة الصحيحة و المسائل التربوية فى مجتمع يشرف عليه المفسدون، فيمنح القلوب الملكات الأخلاقيّة؟

و هذا هو ما نقوله بأنّ الدين لا ينفصل عن السياسة، فإذا انفصل الدين عن السياسة فقد فقد عضده و شلت يده، و إذا انفصلت السياسة عن الدين تبدّلت إلى عنصر مخرب يستغله أصحاب المنافع الشخصيّة! إن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما وفق لنشر هذا الدين القويم السماوى فى أرجاء العالم بسرعة، لأنّه أسس حكومته فى أوّل فرصة واتته، و تابع أهدافه الإلهية عن طريق الحكومة الإسلامية.

و هناك بعض الأنبياء ممن نال مثل هذا التوفيق فنشروا دعوتهم إلى اللّه فى الأرض أفضل بشكل ... أمّا من لم تسمح لهم الفرصة بإقامة حكومة إلهية، فإنّهم لم يحالفهم التوفيق كثيرا فى نشر رسالتهم الالهية ..

۲- آيات الحكومة الإلهية

ممّا يلفت النظر أنّنا نجد فى قصّة سليمان و داود- بصورة واضحة- أنّهما استطاعا أن يقلعا جذور الشرك و آثاره بسرعة، و أن يقيما نظاما إلهيا عادلا ..

نظاما يقوم على أسس و اركان- طبقا لما فى الآيات محل البحث- العلم و المعرفة و الاطلاع فى المجالات المختلفة.

نظاما يتوج منهجه اسم اللّه، فهو على رأس لوحته.

نظاما استعمل كل قواه حتى الطائر، من أجل الوصول إلى أهدافه.

نظاما جعل الشياطين مغلولة، و الظالمين أذلاء لا يتجاوزون حدودهم.

و أخيرا فإنّ هذا النظام كانت لديه القدرة النظامية «العسكرية» الكافية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱

و الجهاز التجسس «الأمنى»، و الأفراد المتخصصون فى المجالات الاقتصادية و الإنتاجيّة و العلمية المختلفة، و كل ذلك كان تحت خيمة «الإيمان» و مظلّة «التوحيد».

۳- منطق الطير

فى الآيات المتقدمة و الآيات التالية بعدها التى تذكر قصّة سليمان و الهدهد، إشارة صريحة إلى منطق الطير، و بعض ما يتمتع به الحيوان من شؤون.

و ممّا لا شك فيه أنّ الطيور كسائر الحيوانات تظهر أصواتا فى حالاتها المختلفة، بحيث يمكن معرفتها بدقة، أن أىّ صوت يعبّر عن الجوع؟ و أىّ صوت يعبر عن الغضب؟ و أى صوت يعبر عن الرضا؟ و أى صوت يعبّر عن التمنى؟ و أىّ صوت يدعوا الأفراخ إليه؟ و أى صوت يعبر عن القلق و الاستيحاش و الرعب؟.

فهذه الأصوات من أصوات الطيور، لا مجال للشك و التردد فيها، و كلّنا نعرفها مع اختلاف فى كثرة الاطلاع أو قلّته! إلّا أنّ آيات هذه

السورة- بحسب الظاهر- تبیّن موضوعا أوسع ممّا ذکرناه آنفا .. فالبحث هنا عن نطقها بنحو «معمّی خفیّ» بحیث ینطوی علی مسائل دقیقة، و البحث عن تکلمّها و تفاهمها مع الإنسان .. و بالرغم من أن هذا الأمر مدعاة لتعجب بعضهم، إلّا أنّه مع الالتفات إلی المسائل المختلفة التی کتبها العلماء و مشاهداتهم الشخصیة فی شأن الطیور، لا یکون الموضوع عجیبا.

فنحن نعرف عن ذکاء الطیور مسائل أعجب من هذا.

فبعضها لدیها المهارة فی صنع أعشاشها و بیوتها بشکل أنیق، قد یفوق عمل مهندسینا أحیانا.

و بعض الطیور تعرف عن وضع أفراخها فی المستقبل، و حاجاتها، و تعمل لها عملا دقیقا، بحیث تکون مثار إعجابنا جمیعا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲

و توقعها لما سیکون علیه الجوّ حتی بالنسبة لعدّة أشهر تالیة، و معرفتها بوقوع الزلازل قبل أن تقع، و قبل أن تسجلها مقاییس الزلازل المعروفة!.

و التعلیمات التی تصدر إلی الحیوانات فی «السیرک» و نشاطاتها و أعمالها الخارقة للعادة الحاکیة عن ذکائها العجیب ..

أعمال النمل و حرکاته العجیبة و تمدنه المثیر.

عجائب حیاة النحل، و ما تقوم به من أعمال محیرة.

معرفة الطیور المهاجرة بالطرق الجویّة، و قد تقطع المسافة بین القطبین الشمالی و الجنوبی! خبرة الأسماک فی مهاجرتها الجماعیة فی أعماق البحار.

کل ذلک من المسائل العلمیة المسلّم بها، کما أنّها دلیل علی وجود مرحلة مهمّة من الإدراک أو الغریزة- أو ما شئت فسمه- فی هذه الحیوانات!.

وجود الحواس غیر الطبیعیة فی الحیوانات- کالرادار للخفاش، و حاسة الشم القویة فی بعض الحشرات، و النظر الحاد عند بعض الطیور، و أمثالها، دلیل آخر علی أنّها لیست متخلفة عنّا فی کل شیء! فمع الأخذ بنظر الإعتبار جمیع ما بیّناه، لا یبقی مجال للعجب من أن لهذه الحیوانات تکلما و نطقا خاصا، و أنّها تستطیع أن تتکلم مع الإنسان الذی یعرف، «ألف باءها» ... و قد وردت الإشارة فی آیات القرآن إلی هذا المعنی، و منها الآیة (۳۸) من سورة الأنعام وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ یَطِیرُ بِجَناحَیْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُکُمْ ۱۵].

و فی الرّوایات الإسلامیة أمور کثیرة أیضا، تکشف عن نطق الحیوانات و خاصة الطیور .. و حتی أنّه نقل لکلّ «منطق» هو بمثابة الشعار، بحیث یطول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳

المقام بنا لو تعرضنا له بالتفصیل ۱۶].

ففی روایة عن الإمام أبی عبد اللّه الصادق أنّه قال: قال أمیر المؤمنین علی لابن عباس «إنّ اللّه علّمنا منطق الطیر کما علّم سلیمان بن داود و منطق کل دابة فی برّ أو بحر»[۱۷].

۴- روایة «نحن معاشر الأنبیاء لا نورّث» ..

نقل أهل السنة فی کتبهم المختلفة

حدیثا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مضمونه أنّه قال: «نحن معاشر الأنبیاء لا نورّث، ما ترکناه صدقة» ..

و ربّما نقل الحدیث فی بعض الکتب بحذف الجملة الأولی و الاکتفاء بعبارة:

«ما ترکناه صدقة».

و سند هذا الحديث ينتهى فى كتب أهل السنة المشهورة إلى «أبى بكر»- غالبا- إذ تولّى بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم زمام أمور المسلمين، و حين طلبت منه سيدة النساء فاطمة عليها السّلام أو بعض أزواج النّبىّ ميراثها منه امتنع عن دفع ميراث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليها استنادا إلى الحديث آنف الذكر.

و قد نقل هذا الحديث «مسلم» فى صحيحه «الجزء ۳- كتاب الجهاد و السير ص ۱۳۷۹» و «البخارى» فى الجزء الثامن من كتاب الفرائض ص ۱۸۵، و جماعة آخرون فى كتبهم.

ممّا يلفت النظر أن «البخارى» نقل فى صحيحه حديثا عن «عائشة» أنّها قالت: «إن فاطمة و العباس عليهما السّلام أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول اللّه، و هما حينئذ يطلبان أرضيهما من فدك و سهمهما من خيبر،

فقال أبو بكر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لا نورّث ... ما تركناه صدقة،

إنّما يأكل آل محمّد من هذا المال ...

قال أبو بكر: و اللّه لا أدع أمرا رأيت رسول اللّه يصنعه فيه إلّا صنعته «قال» فهجرته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴

فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت ۱۸]!.

و بالطبع فإنّ هذا الحديث فيه مجال للنقد و الطعن من جهات متعددة، إلّا أنّنا نقتصر فى هذا التّفسير على ذكر ما يلى:

۱- إنّ هذا الحديث لا ينسجم مع نصّ القرآن ... و وفقا للقواعد الأصولية التى عندنا، أن كلّ حديث لا يوافق كتاب اللّه ساقط عن الإعتبار، و لا يمكن التعويل على أنّه حديث شريف من أحاديث النبى أو المعصومين عليهم السّلام.

ففى الآيات آنفة الذكر، ورد «و ورث سليمان داود» و ظاهر الآية مطلق يشمل حتى الأموال .. و نقرأ فى شأن يحيى و زكريا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ «مريم الآية ۶». و لا سيما فى ما يخصّ زكريا، فإن كثيرا من المفسّرين أكّدوا على الأمور المالية!.

إضافة إلى ذلك فإنّ ظاهر آيات الإرث فى القرآن المجيد عام و يشمل جميع الموارد.

و ربّما كان لهذا السبب أن يفسر «القرطبى»- مضطرا- الحديث على أنّه غالبا ما يكون كذلك، لا أنّه عام، و قال: هذا مثل قولهم: إنّا- معشر العرب- أقرى الناس للضيف، مع أن هذا الحكم غير عام ۱۹].

إلّا أن من الواضح أن هذا الكلام ينفى «قيمة هذا الحديث ...» لأنّنا إذا توسّلنا بهذا العذر فى شأن سليمان و يحيى، فإنّ شموله للموارد الأخرى غير قطعى أيضا.

۲- إنّ الرّواية المتقدمة تعارض رواية أخرى تدلّ على أن أبا بكر صمّم على إعادة فدك إلى فاطمة عليها السّلام، إلّا أن الآخرين ما نعوه، كما نقرأ فى سيرة الحلبى: إن فاطمة قالت له: من يرثك؟! قال أهلى و ولدى! فقلت: فما لى لا أرث أبى؟. و فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵

كلام سبط بن الجوزى: إنّه كتب لها بفدك و دخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال:

كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها. فقال: فما ذا تنفق على المسلمين، و قد حاربتك العرب كما ترى؟ ثمّ أخذ عمر الكتاب فشقّه ۲۰].

ترى كيف يمنع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم موضوع الإرث و ينهى عنه بصراحة، و يجرأ أبو بكر على مخالفته؟! و لم استند عمر إلى المسائل العسكرية و حاجة المعارك، و لم يستند إلى الرواية؟! إن التحقيق الدقيق- فى الروايات الآنفة- يدل على أن الموضوع لم يكن موضوع نهى النّبى عن الإرث، كما أثاره أبو بكر، بل المهم هنا المسائل السياسية آنئذ، و هذه المسائل هى ما تدعونا إلى أن نتذكر مقالة ابن أبى الحديد المعتزلى إذ يقول: سألت أستاذى «على بن الفارقى»: أ كانت فاطمة، صادقة؟ فقال: نعم.

قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدك و هى عنده صادقة؟ يقول: المعتزلى: فتبسم أستاذى، ثمّ قال كلاما لطيفا مستحسنا مع ناموسه و

حرمته و قلّة دعابته، قال: لو أعطاها الیوم فدکا بمجرّد دعواها، لجاءت إلیه غدا و ادعت لزوجه الخلافة و لم یمکنه الاعتذار بشیء لأنّه یکون قد أسجل علی نفسه أنّها صادقة فیما تدعی کائنا ما کان من غیر حاجة الی بیّنة و لا شهود[۲۱].

۳- الروایة المعروفة عن النّبی الواردة فی کثیر من کتب أهل السنّة و الشیعة

«العلماء ورثة الأنبیاء»[۲۲].

و ما

نقل عنه صلّی اللّه علیه و آله أیضا «إن الأنبیاء لم یورثوا دینارا و لا درهما».

یستفاد من مجموع هذین الحدیثین أن الهدف الأساس للأنبیاء نشر العلم، و هم یفخرون به، و أهم ما یترکونه هو الهدایة. و من یحصل علی الحظ الکبیر من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶

العلم و المعرفة فهو وارثهم الأصیل ... بصرف النظر عن الأموال التی یرثها عنهم، ثمّ إن هذا الحدیث منقول فی المعنی، و عبّر عنه تعبیرا سیئا و یحتمل أن یکون (ما ترکناه صدقة) المستنبط من بعض الرّوایات مضاف علیه.

و لکی لا یطول بنا الکلام ننهی کلامنا ببحث للمفسر المعروف من أهل السنة «الفخر الرازی» الذی أورده ذیل الآیة (۱۱) من سورة النساء إذ یقول: من تخصیصات هذه الآیة «آیة الإرث» ما هو مذهب أکثر المجتهدین، أن الأنبیاء علیهم السّلام لا یورّثون، و الشیعة خالفوا فیه .. روی أن فاطمة علیها السّلام لما طلبت المیراث و منعوها منه احتجوا

بقوله علیه السّلام: «نحن معاشر الأنبیاء لا نورّث .. ما ترکناه صدقة» ..

فعند هذا احتجت فاطمة علیها السّلام بعموم قوله: لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ و کأنّها أشارت إلی أن عموم القرآن لا یجوز تخصیصه بخبر الواحد.

ثمّ یضیف الفخر الرازی قائلا: إنّ الشیعة قالوا: بتقدیر أن یجوز تخصیص عموم القرآن بخبر الواحد، إلّا أنّه غیر جائز هنا و بیانه من ثلاثة أوجه:

«أحدها»: أنّه علی خلاف قوله تعالی حکایة عن زکریا علیه السّلام: یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ .. و قوله تعالی: وَ وَرِثَ سُلَیْمانُ داوُدَ قالوا: و لا یمکن حمل ذلک علی وراثة العلم و الدین، لأنّ ذلک لا یکون وراثة فی الحقیقة، بل یکون کسبا جدیدا مبتدأ، إنّما التوریث لا یتحقق إلّا فی المال علی سبیل الحقیقة.

«و ثانیها»: أن المحتاج إلی معرفة هذه المسألة ما کان إلّا فاطمة و علی و العباس، و هؤلاء کانوا من أکابر الزهاد و العلماء و أهل الدین، و أمّا أبو بکر فإنّه ما کان محتاجا إلی معرفة هذه المسألة البتة، لأنّه ما کان یخطر بباله أن یرث من الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فکیف یلیق بالرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یبلغ هذه المسألة إلی من لا حاجة به إلیها؟ و لا یبلغها إلی من له إلی معرفتها أشدّ الحاجة؟! «و ثالثها»: یحتمل أن قوله: «ما ترکناه صدقة» صلة «لا نورث» و التقدیر (الذی ترکناه صدقة) فذلک الشیء (لا یورّث).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷

فإن قیل: لا یبقی للرّسول خاصیة فی ذلک! قلنا: بل تبقی الخاصیة، لاحتمال أن الأنبیاء إذا عزموا علی التصدّق بشیء فبمجرّد العزم یخرج ذلک عن ملکهم و لا یرثه وارث عنهم، و هذا المعنی مفقود فی حق غیرهم! و الجواب: أنّ فاطمة رضیت بقول أبی بکر بعد هذه المناظرة، و انعقد الإجماع علی صحة ما ذهب إلیه أبو بکر! إلخ ۲۳].

إلّا أن من الواضح أن جواب الفخر الرازی لا یناسب الاستدلالات السابقة، لأنّه کما ذکرنا آنفا و نقلناه عن المصادر المعتبرة عند أهل السنة ... فإن فاطمة لا أنّها لم ترض بکلام أبی بکر فحسب، بل ظلّت واجدة و «غاضبة» علیه، فلم تکلمه حتی آخر عمرها سلام اللّه

علیها! ثمّ بعد هذا کلّه کیف یمکن أن یدّعی الإجماع فی هذه المسألة، مع أنّ علیّا و فاطمة علیها السّلام و العباس و أضرابهم الذین تربّوا فی مهبط الوحی و مرکزه، کانوا مخالفین لهذا الرأی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۱۷ الی ۱۹]

اشارة

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (۱۹)

التّفسير

سليمان فی وادی النمل:

یستفاد من آیات هذه السورة، و آیات سورة سبأ أن «حکومة سلیمان» لم تکن حکومة مألوفة، بل حکومة مقرونة بما یخرق العادات و المعاجز المختلفة، التی ورد قسم منها فی هذه السورة، و القسم الآخر ورد فی سورة «سبأ» أمّا ما ورد فی هذه السورة من الأمور الخارقة للعادة «حکومة سلیمان علی الجن، و الطیر، و إدراکه کلام النمل، و کلامه مع الهدهد».

و فی الحقیقة فإنّ اللّه أظهر قدرته فی هذه الحکومة و ما سخّر لها من قوی، و نحن نعرف أن هذه الأمور عند اللّه- فی نظر الإنسان الموحّد- یسیرة و سهلة!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹

و أوّل ما تبدأ هذه الآیات بقوله تعالی: وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ.

و کانت جنوده من الکثرة بحیث کانوا عند التحرک و المسیر، و من أجل المحافظة علی النظم. یؤمرون بتوقف مقدمة الجیش لتلحق بها مؤخرتها فَهُمْ يُوزَعُونَ

«یوزعون» من مادة (وزع) علی وزن (جمع) و معناه الحبس و الإیقاف، و هذا التعبیر متی أطلق علی الجند أو الجیش فیعنی إیقاف أوّل الجیش لیلحق به آخره، لکی یحفظ من التشتت و التفرق.

و کلمة «وزع» معناها الحرص و العلاقة الشدیدة بالشیء، بحیث تمنع الإنسان عن الأمور الأخری.

و یستفاد من هذا التعبیر أنّ جنود سلیمان کانوا کثیرین، کما کانوا یخضعون للنظم و الانضباط.

«و حشر» فعل ماض من (الحشر) علی وزن (نشر) و معناه إخراج الجمع من المقرّ، و التحرک نحو المیدان للقتال، و ما أشبه ذلک.

و یستفاد من هذا التعبیر- و التعبیر التالی فی الآیة الأخری أنّ سلیمان علیه السّلام کان قد جمع جنوده و حرّکهم نحو نقطة ما، لکن هذه النقطة أیة نقطة هی؟ و أین کان یتجه سلیمان؟ لیس ذلک معلوما علی وجه الدقّة.

و استفاد بعضهم من الآیة التالیة التی تتحدث عن وصول سلیمان إلی وادی النمل، أنّها منطقة علی مقربة من الطائف. و قال بعضهم: بل هی منطقة علی مقربة من «الشام».

و حیث أنّ هذا الموضوع لا تأثیر له فی الأمور الأخلاقیة و التربویة «للآیة» لذلک لم تتطرق له الآیة الکریمة.

و هناک- ضمنا- جدل بین کثیر من المفسّرین فی أن الإنس و الجن و الطیر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰

هل کانوا جمیعا من جنود سلیمان؟ فتکون (من) فی الآیة بیانیة، أو أن قسما منهم کان یؤلف جیشه و جنوده فتکون (من) تبعیضیة .. و یبدو أن هذا بحث لا طائل تحته ... لأنّ سلیمان- دون أدنی شک- لم یکن حاکما علی وجه البسیطة کلها، بل کانت منطقة نفوذه و حکومته منطقة الشام و بیت المقدس، و قد یدخل بعض ما حولهما تحت سلطته و حکومته!.

کما یستفاد من الآیات التالیة أنّه لم تکن له بعد سلطة علی الیمن أیضا ..

و إنّما صارت الیمن تحت نفوذه بعد قصّة الهدهد و «تسلیم ملکة سبأ» و إذعانها له.

و جملة وَ تَفَقَّدَ الطَّیْرَ فی الآیات التالیة، تدلّ علی أن هدهدا واحدا کان ضمن الطیر التی کانت تحت أمر سلیمان، بحیث أنّه لما افتقده سأل عنه، فلو کانت الطیور جمیعها تحت أمره و فیها آلاف الهداهد، لکان هذا التعبیر غیر صحیح «فتأمّلوا بدقة».

و علی کل حال، فإنّ سلیمان تحرک بهذا الجیش العظیم حَتَّی إِذا أَتَوْا عَلی وادِ النَّمْلِ

فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذرة، کما تقول الآیة: قالَتْ نَمْلَةٌ یا أَیُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساکِنَکُمْ لا یَحْطِمَنَّکُمْ سُلَیْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ ۲۴].

و لنا کلام سیأتی- إن شاء اللّه- فی کیفیة اطّلاع النملة و معرفتها بحضور سلیمان و جنوده فی تلک المنطقة، و کیف أوصلت صوتها إلی بقیة النمل؟.

و یستفاد ضمنا من جملة لا یَشْعُرُونَ أن عدل سلیمان کان ظاهرا و واضحا حتی عند النمل، لأنّ مفهوم الجملة أن سلیمان و جنوده لو شعروا و التفتوا إلی النملة الضعیفة لما وطأوها بالأقدام، و إذا وطئوها فإنّما ذلک لعدم توجههم و التفاتهم. فَتَبَسَّمَ ضاحِکاً مِنْ قَوْلِها.

هناک کلمات مختلفة عند المفسّرین فی الشیء الذی أضحک سلیمان،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱

و الظاهر أن القضیة ذاتها کانت عجیبة عند سلیمان، بحیث تحذّر نملة صویحباتها من النمل ... تحذرهنّ من تحطیم سلیمان و جنوده إیاهن و هم لا یشعرون:

فضحک من أجلها! و قال بعضهم: کان ضحک سلیمان سرورا منه بأن عرف أن النمل تعترف بتقواه و عدالته و تقوی جنوده و عدالتهم.

و قال بعضهم: کان ضحکه و تبسمه لأنّ اللّه أعطاه هذه القدرة، و هی أنّه برغم جلجلة جیشه و لجبه فإنّه التفت إلی صوت النملة مخاطبة بقیة النمل فلم یغفل عنها.

و علی کل حال، فإن سلیمان توجه نحو اللّه .. داعیا و شاکرا مستزیدا فضله وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلی والِدَیَ ۲۵].

أی، لتکون لی القدرة أن استعمل هذه النعم جمیعها فی ما أمرتنی به و ما یرضیک، و لا أنحرف عن طریق الحقّ .. فإن أداء شکر هذه النعم لا یکون إلّا بتوفیقک و إعانتک. وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ و هو یشیر إلی أن بقاء هذا الجیش و حکومته و تشکیلاتها الواسعة غیر مهم بالنسبة إلیه، بل المهم أن یؤدی عملا- صالحا یرضی به ربّه، و حیث أن «أعمل» فعل مضارع فهو دلیل علی طلب استمرار التوفیق من قبل اللّه له.

و الطلب الثّالث الذی طلبه سلیمان من ربّه، کما حکته الآیة، هو أن یجعله فی زمرة الصالحین، إذ قال: وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبادِکَ الصَّالِحِینَ ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲

بحوث

۱– معرفة سلیمان بلغة الحیوانات و منطقها

لیس لنـا کثیر معرفـة بعالم الحیوانات ... و ما یزال الغموض أو الإبهام یکتنف هـذا العالم و یلقی علیه ظلاله، بالرغم من التقـدم العلمی فی هذا المجال.

إنّنـا نری آثـار ذکـاء الحیوانـات و مهارتهـا فی کثیر من أعمالها .. فبناء خلایا النحل بشـکلها المنظّم الـدقیق، و دقـة النمل فی جمیع ما یحتـاج للشـتاء، و کیفیـة ذخیرته و مـذخره! و دفـاع الحیوانات عن نفسـها عنـد مواجهتها العـدوّ، و حتی معرفتها بکثیر من الأمراض، و العثور علی بیوتهـا و أوکارها من الأماکن البعیـدة، و قطع المسافات الطویلـة للوصول إلی هـدفها ... و توقّعها عن حوادث المسـتقبل و أمثالها.

کل هذه الأمور تدل علی أن فی دنیا الحیوانات المجهولة کثیرا من الوسائل الغامضة التی لا نعرف حلّها!.

ثمّ بعد هذا کلّه فإنّ کثیرا من الحیوانات تقوم بأعمال مذهلة نتیجة للتعلم و التربیة ... یعجز عنها حتی الإنسان.

إلّـا أنّه لیس من الواضـح أنّ هـذه الحیوانـات إلی أیـة درجـة هی خبیرة بـدنیا الناس! .. تری هل تعلم الحیوانات واقعا: من نحن؟! و ما نعمل؟ و قد لا نعهد فی هذه الحیوانات ذکاء بهذا المستوی، إلّا أن هذا لا یعنی نفیه و سلبه عنها.

فعلی هـذا الحساب إذا کنّا قرأنا فی القصّة السابقة .. أن النمل علم بمجیء سـلیمان و جنوده، و حذر من البقاء، و أنّه یجب التوجه نحو مساکنه لئلا یحطمه سلیمان و جنوده .. و سلیمان عرف هذا الموضوع تماما .. فلا مجال للعجب.

ثمّ بعـد هـذا فإن حکومـة سـلیمان– کما قلنا آنفا– کانت خارقـة للعادات مقرونـة بالمعاجز، فعلی هـذا الأساس أبدی بعض المفسّـرین اعتقادهم بأن هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳

المستوی من الاطلاع و المعرفة– من قبل فئة من الحیوانات فی عصر سلیمان، هو بنفسه إعجاز خارق للعادة، و لا یمنع أن لا نری ذلک عینه فی سائر العصور و القرون.

و الغرض أنّه لا دلیل عندنا علی حمل قصّة سـلیمان و النمل، أو سلیمان و الهدهد، علی الکنایة أو لسان الحال، مع إمکان حفظ الظاهر و حمله علی المعنی الحقیقی ۲۶]!

۲– سلیمان و إلهامه الشکر للّه

إن واحدة من أفضل العلامات لمعرفة الحکام الإلهیین و تمییزهم عن الحکام الجبابرة، هی أن الجبابرة حین یصلون إلی القدرة یغرقون فی الغرور و الغفلـة، و ینسون القیم الإنسانیـة کلّها ... و ینـدکّون بشـدّة فی أنانیتهم! إلّا أن الحکام الإلهیین حین ینالون القدرة یحسّون بأعباء المسؤولیة ..

فیتوجهون نحو اللّه أکثر من أی وقت مضـی، و یسألونه العون و القدرة علی أداء رسالتهم ... کما أن «سلیمان» بعد أن وصل إلی تلک القدرة. کان أهم شیء عنده أن یسأل اللّه الشکر علی نعمه، و الإفادة من هذه المواهب فی مسیر رضاه و سعادة عباده!.

و ممّـا یلفت النظر أن یبـدأ طلبه بعبـارة أَوْزِعْنِی و مفهومه الإلهام الوجـدانی و إعـداد القوی الباطنیـة کلها لأداء هـذا الهـدف الکبیر. و معناهـا: اللّهم تفضـل علی بقـدرة و طاقـة تجعلنی أعبئ کـل قوای الداخلیـة لأـداء شـکرک، و أداء ما علیّ من مسـئولیة .. و دلّنی علی

السبیل إلیک، لأنّ الطریق طویل صعب محفوف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴

بالمخاوف و المخاطر .. طریق أداء حقوق جمیع الناس فی مثل هذه الحکومة الواسعة.

إنّه لا- یطلب الإیزاع علی شکر نعم اللّه علیه فحسب، بل یطلب فی الوقت ذاته أن یؤدی الشکر علی المواهب و النعم التی أنعمها اللّه علی والدیه ... لأنّ کثیرا من مواهب وجود الإنسان یرثها عن والدیه ... و ممّا لا شک فیه أن الإمکانات التی یمنحها اللّه للوالدین تعین الأبناء کثیرا فی سبیل الوصول لأهدافهم.

۳- سلیمان و العمل الصالح

ممّا یلفت النظر أن سلیمان رغم حکومته و سلطنته التی لا نظیر لها، و تلک القدرة الواسعة، إلّا أنّه یطلب من اللّه یوفقه للعمل الصالح باستمرار، و أهم من ذلک و أسمی أن یکون فی زمرة عباده الصالحین.

و یستفاد من هذا التعبیر:

أوّلا: أنّ الهدف النهائی من نیل القدرة هو أداء العمل الصالح، العمل الجدیر القیّم ... و کل ما سواه یعدّ مقدمة له!.

و العمل الصالح مقدمة- أیضا- لنیل رضا اللّه- الذی هو الهدف النهائی و غایة الغایات.

ثانیا: أنّ الدخول فی زمرة «الصالحین» مرحلة أسمی من مرحلة أداء العمل الصالح، لأنّ الأوّل یعنی صلاح الذات، و الثّانی صلاح العمل «لا حضوا بدقّة».

و بتعبیر آخر: قد یقوم الإنسان بعمل صالح، إلّا أن هذا المعنی لا یعدّ جزءا من ذاته و روحه و نسیج وجوده، فسلیمان علیه السّلام یطلب من اللّه أن یشمله بعنایته إلی درجة یتجاوز بها مرحلة کونه یعمل صالحا، لینفذ الصلاح إلی أعماق وجوده و روحه، و لا یمکن تحقق هذا إلّا برحمة اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵

فکم هو عزیز و غال أن یکون الإنسان عبدا صالحا للّه، بحیث یطلب سلیمان من ربّه أن یدخله فی عباده الصالحین، علی الرغم من جاهه و حشمته و جلاله الذی لا یشک فیها أحد، و أن یحفظه اللّه من العثرات و الزلات فی کل آن، و خاصّة ما قد یصدر من الإنسان و هو علی رأس هیئة عظیمة و تشکیلات واسعة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۲۰ الی ۲۶]

اشارة

وَ تَفَقَّدَ الطَّیْرَ فَقالَ ما لِیَ لا أَرَی الْهُدْهُدَ أَمْ کانَ مِنَ الْغائِبِینَ (۲۰) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِیداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَیَأْتِیَنِّی بِسُلْطانٍ مُبِینٍ (۲۱) فَمَکَثَ غَیْرَ بَعِیدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُکَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ یَقِینٍ (۲۲) إِنِّی وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِکُهُمْ وَ أُوتِیَتْ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِیمٌ (۲۳) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها یَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِیلِ فَهُمْ لا یَهْتَدُونَ (۲۴) أَلاَّ یَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِی یُخْرِجُ الْخَبْءَ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ یَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۲۵) اللَّهُ لا- إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ (۲۶)

التّفسير

قصّة الهدهد و ملكة سبأ:

يشير القرآن فى هذا القسم من الآيات إلى جانب آخر من حياة سليمان عليه السّلام المدهشة، و ما جرى له مع الهدهد و ملكة سبأ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷

فيقول أوّلا: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ.

و هذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، و هى أنّه كان يراقب وضع البلاد بدقّة، و كان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شيء، حتى لو كان طائرا واحدا.

و ما لا شك فيه أنّ المراد من الطير هنا هو الهدهد، لأنّ القرآن يضيف استمرارا للكلام فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ

و هناك كلام بين المفسّرين فى كيفية التفات سليمان إلى عدم حضور الهدهد.

فقال بعضهم: كان سليمان عليه السّلام عند ما يتحرك تظلل الطير بأنواعها فوق رأسه فتكون مثل الخيمة، و قد عرف غياب الهدهد من وجود ثغرة فى هذا الظل!.

و قال بعضهم: كان الهدهد مأمورا من قبل سليمان بالتقصّى عن الماء كلما دعت الحاجة إليه ... و عند ما دعت الحاجة إلى الماء فى هذه المرّة لم يجد الهدهد فعرف غيابه.

و على كل حال، فهذا التعبير ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ثمّ قوله: أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ لعله إشارة إلى أن غياب الهدهد هل كان لعذر مقبول أو لغير عذر؟

و على أيّة حال، فان حكومة منظمة و مقتدرة يجب أن تجعل كل شيء يجرى داخل اطار الدولة تحت نظرها و نفوذها .. حتى وجود طائر واحد و غيابه، لا بدّ أن لا يخفى عن علمها و نظرها ... و هذا درس كبير لمن أراد التدبير.

و من أجل أن لا يكون حكم سليمان غيابيا، و أن لا يؤثر غياب الهدهد على بقية الطيور، فضلا عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلا: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ

و المراد من «السلطان» هنا هو الدليل الذى يتسلط به الإنسان من أجل إثبات قصده، و تأكيد هذا اللفظ ب «مبين» هو أنّه لا بد لهذا الفرد المتخلف من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸

إقامة دليل واضح و عذر مقبول لتخلفه! و فى الحقيقة فإنّ سليمان قبل أن يقضى غيابيا ذكر تهديده اللازم فى صورة ثبوت التخلّف ... و حتى هذا التهديد جعله فى مرحلتين تناسبان الذنب ... مرحلة العقاب بما دون الاعدام، و مرحلة العقاب بالإعدام.

و قد برهن «سليمان» ضمنا أنّه- حتى بالنسبة للطائر الضعيف- يستند فى حكمه إلى المنطق و الدليل، و لا يعوّل على القوّة و القدرة أبدا.

و لكن غيبة الهدهد لم تطل فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ عاد الهدهد و توجه نحو سليمان: فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ

و كأن الهدهد قد رأى آثار الغضب فى وجه سليمان، و من أجل أن يزيل ذلك التهجم، أخبره أوّلا بخبر مقتضب مهم الى درجة أن سليمان نفسه كان غير مطّلع عليه، برغم ما عنده من علم، و لما سكن الغضب عن وجه سليمان، فصّل الهدهد له الخبر، و سيأتى بيانه فى الآيات المقبلة.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ جنود سليمان- حتى الطيور الممتثلة لأوامره- كانت عدالة سليمان قد أعطتهم الحرية و الأمن و الدعة

بحيث يكلمه الهدهد دون خوف و بصراحة لا ستار عليها فيقول: أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ

فتعامل الهدهد «و علاقته» مع سليمان لم يكن كتعامل الملأ المتملقين للجبابرة الطغاة .. إذ يتملقون فى البدء مدة طويلة، ثمّ يتضرعون و يعدون أنفسهم كالذرّة أمام الطود، ثمّ يهوون على أقدام الجبابرة و يبدون حاجتهم فى حالة من التضرع و التملق، و لا يستطيعون أن يصرّحوا فى كلامهم أبدا، بل يكنّون كناية أرق من الورد لئلا يخدش قلب السلطان غبار كلامهم!!.

أجل، إنّ الهدهد قال بصراحة: غيابى لم يكن اعتباطا و عبثا ... بل جئتك بخبر يقين «مهم» لم تحط به! و هذا التعبير درس كبير للجميع، إذ يمكن أن يكون موجود صغير كالهدهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹

يعرف موضوعا لا يعرفه أعلم من فى عصره، لئلا يكون الإنسان مغرورا بعلمه ...

حتى لو كان ذلك سليمان مع ما عنده من علم النبوّة الواسع.

و على كل حال، فإنّ الهدهد أخذ يفصّل لسليمان ما حدث فقال: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ

لقد بيّن الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريبا، و أسلوب حكومته! فقال أوّلا: إنّه بلد عامر فيه جميع المواهب و الإمكانات، و الآخر إنّنى وجدت امرأة فى قصر مجلل تملكهم، و الثّالث: لها عرش عظيم- و لعله أعظم من عرش سليمان- لأنّ الهدهد كان رأى عرش سليمان حتما، و مع ذلك يصف عرش هذه الملكة بأنّه عظيم.

و قد أفهم الهدهد بكلامه هذا سليمان أنّه لا ينبغى أن تتصور أن جميع العالم تحت «نفوذ أمرك و حكومتك»! و أن عرشك هو وحده العرش العظيم ...

و لما سمع سليمان عليه السّلام كلام الهدهد غرق فى تفكيره، إلّا أن الهدهد لم يمهله طويلا فأخبره بخبر جديد .. خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس و بذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

و قد غرقوا فى عبادة الأصنام حتى أنّى لا أتصور أنّهم يثوبون إلى رشدهم فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ

و هكذا فقد بين الهدهد ما هم عليه من حالة دينية و معنوية أيضا، إذ هم غارقون فى الشرك و الوثنية و الحكومة تروّج عبادة الشمس ... و الناس على دين ملوكهم.

معابدهم و أوضاعهم الأخرى تدل على أنّهم سادرون فى التيه، و يتباهون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰

بهذا الضلال و الانحراف، و فى مثل هذه الظروف التى يرى فيها الناس و الحكومة على خط واحد، فمن البعيد إمكان هدايتهم.

ثمّ أضاف الهدهد قائلا: أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ ۲۷].

و كلمة «خبء» على وزن (صبر) معناها كل شيء خفى مستور، و هى هنا إشارة إلى إحاطة علم اللّه بغيب السماوات و الأرض، أى: لم لا يسجدون للّه الذى يعلم غيب السماوات و الأرض و ما فيهما من أسرار؟! و ما فسّره بعضهم بأن الخبء فى السماوات هو الغيث، و الخبء فى الأرض هو النبات، فهو- فى الحقيقة- من قبيل المصداق البارز.

و الطريف فى الآية أنّها تتكلم أوّلا عما خفى فى السماوات و الأرض، ثمّ تتكلم عن أسرار القلوب!.

إلّا أنّه لم استند الهدهد من بين جميع صفات اللّه إلى علمه بغيب العالم و شهوده كبيره و صغيره؟! لعل ذلك لمناسبة أن سليمان- بالرغم من جميع قدرته- كان يجهل خصائص بلد سبأ، فالهدهد يقول: ينبغى الاعتماد على اللّه الذى لا يخفى عليه شيء فى السماوات و الأرض.

أو لمناسبة أنّه- طبقا لما هو معروف- للهدهد حس خاص يدرك به وجود الماء فى داخل الأرض ... لذلك يتكلم عن علم اللّه الذى

يعلم بكل خافية فى عالم الوجود.

و أخيرا يختتم الهدهد كلامه هكذا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱

و هكذا يختتم الهدهد كلامه مستندا إلى «توحيد العبادة» و «توحيد الرّبوبية» للّه تعالى. مؤكدا نفى كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

ملاحظتان

أ- الدروس التعليميّة

ما قرأناه فى هذا القسم من الآيات، فيه لطائف كثيرة و مسائل دقيقة، يمكن أن يكون لها كبير الأثر فى حياة الناس و سياسة الحكومات جميعا.

۱- فرئيس الحكومة أو المدير العام، ينبغى عليه أن يكون دقيقا فى دائرته أو تشكيلاته التنظيمية، بحيث يتابع حتى غياب الفرد الواحد و يتفقده! ۲- أن يراقب تخلف الفرد، و أن يتخذ الحكم الصارم، لكيلا يؤثر غيابه على الآخرين.

۳- لا ينبغى أن يصدر حكما غيابيا أبدا دون أن يمنح المتخلف الفرصة للدفاع عن نفسه، مع الإمكان.

۴- ينبغى أن يجعل لكل جريمة عقابا مناسبا ... و أن يكون العقاب بمقدار الذنب، و أن يراعى سلسلة مراتبه.

۵- أن على أى شخص- حتى لو كان أكبر الناس، أو بيده أعظم المسؤوليات و القدرة الاجتماعية- أن يذعن للمنطق و الدليل حتى و لو صدر من فم أضعف الخلق!.

۶- ينبغى أن تحكم الصراحة فى محيط المجتمع، و أن يتمتع أفراده بالحرية بحيث يستطيع الواحد منهم عند اللزوم أن يقول لرئيس الحكومة: أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ ۷- من الممكن أن يكون أقل الأفراد على اطلاع و معرفة، فى حين أنّ أكبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲

العلماء و أصحاب النفوذ غير مطلعين، لكيلا يغتر أىّ إنسان بعلمه! ۸- فى المجتمع البشرى حاجات و ضرورات متبادلة، بحيث قد يحتاج أكبر شخص فيه- كسليمان مثلا- إلى مساعدة أدنى شخص حتى و لو كان مثل الهدهد! ۹- بالرغم من أن فى النساء قابليات كثيرة! و قصّة سليمان نفسها حاكية عن أن ملكة سبأ كانت تتمتع بدراية كبيرة و فهم عال، إلّا أنّ قيادة الحكومة لا تتلاءم مع حالة المرأة و روحها و جسمها، بحيث يتعجب الهدهد من هذه المسألة و يقول:

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ۱۰- أغلب الناس على دين ملوكهم ... لذلك نقرأ فى هذه القصّة أن الهدهد يقول فى شأن الملكة و قومها: وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ

يتحدث الهدهد أولا عن سجودها ثمّ عن سجود قومها.

ب- الجواب على بعض الأسئلة

للمفسرين هنا بعض الأسئلة، و منها: كيف لم يحط سليمان عليه السّلام بمثل هذه البلدة مع ما لديه من علم و إمكانات و فيرة فى حكومته؟.

ثمّ كيف طوى الهدهد هذه المسافة بين اليمن و مركز حكومة سليمان الّذى كان فى الشام «على ما يظهر»؟

و هل كان الهدهد قد ضل الطريق ثمّ اهتدى إلى ذلك المكان، أو كان له غرض آخر؟! أمّا فى ما يخص السؤال الأوّل فيمكن أن يجاب عنه بأن سليمان عليه السّلام كان ذا علم بوجود هذه البلدة، إلّا أنّه لم يعرف خصائصها، ثمّ إن صحراء الحجاز كانت تفصل بين اليمن و الشام، و لم تكن و سائل المواصلات بين البلدان يومئذ كما هى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳

عليه فى يومنا هذا «و بالطبع فإنّ علمه عن طريق الغيب و الإلهام الإلهى موضوع آخر».

و أمّا قطع المسافة من قبل الهدهد، فإنّها لم يكن عسيرة عليه ... لأنّنا نعرف بعض الطيور التى تقطع المسافة بين القطبين ... و الفاصلة بين الشام و اليمن إزاء تلك المسافة لا تعدّ شيئا.

و أمّا مجيء الهدهد إلى سبأ فكان- كما تقول بعض التواريخ- أنّ سليمان عزم على زيارة بيت اللّه الحرام، فتوجه من الشام ليؤدى مناسك إبراهيم عليه السّلام «أى الحج»، و فى مسيره رغب فى السير نحو الجنوب، فواصل منطقة لا تبعد عن اليمن كثيرا ... فاغتنم الهدهد الفرصة عند ما استراح سليمان فى تلك المنطقة و جاء إلى قصر ملكة سبأ فرأى ما رأى من المشهد المثير العجيب ۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۲۷ الى ۳۵]

اشارة

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۲۷) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (۲۸) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (۲۹) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳۰) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۱)

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (۳۲) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (۳۳) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۳۴) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (۳۵)

التّفسير

الملوك مفسدون مخرّبون:

لقد أصغى سليمان عليه السّلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام ... و فكّر مليّا، و لعل سليمان كان يظنّ أن كلام الهدهد صحيح، و لا دليل على كذب بهذا الحجم ... لكن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵

حيث أن هذه المسألة لم تكن مسألة «ساذجة» بسيطة، و لها أثر كبير فى مصير بلد كامل و أمّة كبيرة! ... فينبغى أن لا يكتفى بمخبر واحد، بل ينبغى التحقيق أكثر فى هذا المجال: قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ

و هذا الكلام يثبت بصورة جيدة أنّه يجب الاهتمام فى المسائل المصيرية المهمّة، حتى لو أخبر بها «فردّ» صغير، و أن يعجّل فى التحقيقات اللازمة «كما تقتضيه السين» فى جملة «سننظر»!.

سليمان عليه السّلام لم يتهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب ... و لم يصدّق كلامه دون أىّ دليل ... بل جعله أساسا للتحقيق! و على كل حال، فقد كتب كتابا وجيزا ذا مغزى عميق، و سلّمه إلى الهدهد و قال له: اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا

يَرْجِعُونَ ٢٩].

يستفاد من التعبير فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ أن يلقى الكتاب عند ما تكون ملكة سبأ حاضرة بين قومها، لئلا تعبث به يد النسيان أو الكتمان.، و من هنا يتّضح أن ما ذهب إليه بعض المفسّرين بأن الهدهد ذهب إلى قصر ملكة سبأ و دخل مخدعها و ألقى الكتاب على صدرها أو حنجرتها- لا يقوم عليه دليل- و إن كان متناسبا مع الجملة التی وردت فی الآیة التالیة إِنِّی أُلْقِیَ إِلَیَّ کِتابٌ کَرِیمٌ

ففتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، و اطّلعت على مضمونه، و حيث أنّها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان و اسمه، و محتوى الكتاب يدلّ على إقدامه و عزمه الشديد فی شأن بلدة «سبأ»، لذلك فكّرت مليّا، و لما كانت فی مثل هذه المسائل المهمّة تستشير من حولها، لذلك فقد دعتهم و توجهت إليهم و قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّی أُلْقِیَ إِلَیَّ کِتابٌ کَرِیمٌ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥٦

ترى، حقّا أن ملكة سبأ لم تكن رأت «حامل الكتاب»، إلّا أنّها أحست بأصالة الكتاب من القرائن الموجودة فيه؟ و لم تحتمل أن يكون الكتاب مفتعلا و مفترى أبدا ...؟! أم أنّها رأت الرّسول بأم عينيها، و رأت كيفية وصول الكتاب الدهشة التی هی بنفسها دليل على أن المسألة واقعية و مهمّة، و مهما كان الأمر فإنّها عوّلت على الكتاب بكل اطمئنان؟.

و قول الملكة: إِنِّی أُلْقِیَ إِلَیَّ کِتابٌ کَرِیمٌ «أی قيم» لعله لمحتواه العميق، أو لأنّه بدئ باسم اللّه أو لأنّه ختم بإمضاء صحيح ٣٠]. أو لأنّ مرسله رجل عظيم، و قد احتمل كل مفسّر وجها منها- أو جميعها- لأنّه لا منافاة بينها جميعا. و قد تجتمع جميعها فی هذا المفهوم الجامع!.

صحيح أنّهم (قوم سبأ) كانوا يعبدون الشمس، إلّا أننا نعرف أن كثيرا من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون باللّه- أيضا- و يسمونه رب الأرباب و يعظمونه و يحترمونه.

ثمّ إن «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَیَّ وَ أْتُونِی مُسْلِمِينَ ٣١].

و من البعيد- كما يبد و- أن يكون سليمان كتب كتابه إلى ملكة سبأ بهذه العبارات «و هذه الألفاظ العربيّة». إذا فالجمل الأنفة يمكن أن تكون منقولة بالمعنى، أو أنّها خلاصة ما كان كتبه سليمان، و قد أدّتها ملكة سبأ بهذه الوجازة و الاقتضاب إلى قومها.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥٧

الطريف أن مضمون هذا الكتاب لم يتجاوز فی الواقع ثلاث جمل:

الأولى: ذكر «اسم اللّه» و بيان رحمانيّته و رحمته.

الثّانية: الأمر بترك الاستعلاء و الغرور ... لأنّ الاستعلاء مصدر المفاسد الفرديّة و الاجتماعيّة.

و الثّالثة: التسليم و الإذعان للحق.

و إذا أمعنا النظر لم نجد شيئا آخر لا بدّ من ذكره.

و بعد أن ذكرت ملكة سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها ... التفتت إليهم و قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِی فِی أَمْرِی ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ

لقد أرادت الملكة بهذه الاستشارة تقوية مركزها فی قومها، و أن تلفت أنظارهم إليها، كما أرادت ضمنا أن تعرف مدى انسجامهم و ميزان استجابتهم لما تقدم عليه من تصميم.

كلمة «أفتونی» مشتقّة من (الفتوى) معناها فی الأصل الحكم الدقيق و الصحيح فی المسائل الغامضة و الصعبة ... فملكة سبأ أرادت بهذا التعبير أن تشعرهم بصعوبة المسألة أوّلا، و أن يدققوا النظر و يجمعوا الرأی فيها ليتجنبوا الخطأ ثانيا.

«تشهدون» مأخوذ من مادة «الشهود»، و معناه الحضور ... الحضور المقرون بالتعاون و المشورة!.

فالتفت إليها أشراف قومها و أجابوها على استشارتها ف قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِی ما ذا تَأْمُرِينَ

و هكذا فقد أظهروا لها تسليمهم و إذعانهم لأوامرها ... كما أبدوا رغبتهم فى الاعتماد على القوّة و الحضور فى ميدان الحرب.

و لمّا رأت الملكة رغبتهم فى الحرب خلافا لميلها الباطنى، و من أجل إطفاء هذا الظمأ و أن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۸

قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً.

فيقتلون جماعة منهم و يأسرون آخرين و يطردون طائفة ثالثة و يخرجونهم من ديارهم و يخربون حيّهم و ينهبون ثرواتهم و أموالهم.

و لمزيد التأكيد أردفت قائلة: وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ

و فى الحقيقة ... إن ملكة سبأ التى كانت بنفسها ملكة، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، و أن سيرتهم تتلخص فى شيئين:

۱- الإفساد و التخريب.

۲- و إذلال الأعزة ...

لأنّهم يفكرون فى مصالحهم الشخصية، و لا يكترثون بمصالح الأمّة و عزتها ... و هما على طرفى نقيض دائما.

ثمّ أضافت الملكة قائلة: علينا أن نختبر سليمان و أصحابه، لنعرف منهم و ما يريدون؟ و هل سليمان نبيّ حقا أو ملك؟ و هل هو مصلح أو مفسد؟ و هل يذلّ الناس أم يحترمهم و يعزّهم؟

فينبغى أن نرسل شيئا إليه وَ إِنِّی مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ

فالملوك لهم علاقة شديدة بالهدايا، و نقطة الضعف كامنة فى هذا الأمر، فيمكن أن يذعنوا للهدايا الغالية ... فإذا أذعن سليمان بهذه الهدية فهو ملك، و ينبغى أن نواجهه بالقوّة فنحن أقوياء ... و إذا ألح على كلامه و لم يكترث بنا فهو نبيّ، و فى هذه الصورة ينبغى التعامل معه بالحكمة و التعقل! و لم يذكر القرآن أية هدية أرسلتها الملكة إلى سليمان، لكنّه بتنكيرها بيّن عظمتها، إلّا أن المفسّرين ذكروا مسائل كثيرة لا يخلو بعضها من الإغراق:

قال بعضهم: أرسلت إليه خمسمائة غلام و خمسمائة جارية ممتازة، و قد ألبست الرجال ثياب النساء و النساء ثياب الرجال، و جعلت الأقراط فى آذان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۹

الرجال و الا سورة فى أيديهم، و ألبست الجوارى تيجانا ... و كتبت فى رسالتها إلى سليمان: لو كنت نبيّا فميّز الرجال من النساء!.

و بعثت أولئك على مراكب ثمينة، و معهم جواهر و أحجار كريمة، و أوصت رسولها- فى الضمن- أن أنظر كيف يواجهك سليمان عند ورودك عليه، فإن واجهك بالغضب فاعلم بأنه سيرة الملوك، و إن واجهك بالمحبة و اللطف فاعلم أنّه نبيّ.

بحوث

۱- آداب كتابة الرسائل

ما ورد فى الآيات آنفة الذكر فى شأن كتاب «سليمان» إلى أهل سبأ، هو قدوة لكتابة الرسائل و «الكتب» و قد تكون من المسائل المهمّة و المصيرية ... إذ تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم و تبيّن روح الكلام فى جملتين مدروستين.

و يظهر من التاريخ الإسلامى و الرّوايات- بشكل واضح- أن أئمتنا الكرام عليهم الصلاة و السّلام، كانوا يعنون بالاختصار و الاقتضاب

فی إرسال الكتاب خاليا من الحشو و الزوائد، و هو مدروس أيضا.

فأمير المؤمنين عليه السّلام يكتب إلى عماله و ممثليه فی بعض كتبه:

«أدقوا أقلامكم، و قاربوا بين سطوركم، و احذفوا عنّی فضولكم، و اقصدوا قصد المعانی، و إيّاكم و الإكثار، فإن أموال المسلمين لا تحتمل الإضرار»[۳۲].

إن برى لسان القلم يجعل الكلمات أصغر، و تقارب السطور و حذف الفضول، لا يؤدی إلى الاقتصاد فی الأموال العامة أو الشخصية فحسب- بل يقتصد فی وقت الكاتب و القارئ أيضا ... و قد يضيع الفضول و التشريفات

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۰

الواردة فی أثناء جمل الكتاب الهدف من كتابته، فلا يصل الكاتب و القارئ إلى الهدف المنشود! و فی هذه الأيّام أصبح من المألوف الإكثار فی كتابة العناوين البراقة و الألقاب الفخمة و زيادة المقدمات و الحواشی و الإضافات على خلاف ما كان فی صدر الإسلام ممّا يهدر الكثير من الطاقات و الأوقات و الثروات.

و خاصة ينبغی الالتفات إلى أن الكتاب «الرسالة» فی ذلك العصر كان يتطلب زمانا طويلا لإيصاله و بذل المال لحامل الكتاب، و مع ذلك كانت الكتب موجزة مقتضبة، و يمكن ملاحظة أمثلة منها فی كتب النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى خسرو پرويز و قيصر الروم و أمثالهما.

و أساسا فإنّ رسالة الإنسان و كتابه دليل على شخصيته، كما أن حامل الكتاب و الرّسول دليل على شخصية المرسل أيضا.

يقول الإمام على عليه السّلام فی نهج البلاغة: «رسولك ترجمان عقله، و كتابك أبلغ من ينطق عنك»[۳۳].

و

يقول الإمام الصادق عليه السّلام «يستدل بكتاب الرجل على عقله و موضع بصيرته، و برسوله على فهمه و فطنته»[۳۴].

و الجدير بالذكر أنّه يستفاد من الرّوايات الإسلامية أنّ ردّ الكتاب واجب كردّ السلام، إذ نقرأ

عن الإمام الصادق أنّه قال: «ردّ جواب الكتاب واجب كوجوب ردّ السلام»[۳۵].

و حيث أن كل رسالة أو كتاب مشفوع عادة بالتحية، فلا يبعد أن يكون مشمولا بالآية الكريمة وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها[۳۶].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۱

۲- هل دعا سليمان إلى التقليد؟!

بعض المفسّرين استفادوا من كتاب سليمان أنّه دعا أهل سبأ إليه دون دليل! ثمّ أجابوا بأن مجیء الهدهد بتلك الصورة «المعجزة» بنفسه دليل على حقانية دعوته ۳۷].

إلّا أنّنا نعتقد أنّه لا حاجة إلى مثل هذه الردود و الإجابات، فوظيفة النّبی هی الدعوة. و وظيفة الآخرين التحقيق فی أمره. و بتعبير آخر: إنّ الدعوة هی الباعث على التحقيق ... كما قامت بذلك ملكة سبأ، فاختبرت سليمان و تحققت عنه، أهو ملك أم نبیّ؟!

۳- مداليل عميقة فی قصّة سليمان عليه السّلام

نلاحظ فی هذا القسم من قصّة سليمان عليه السّلام إشارات قصيرة إلى مسائل مهمّة أيضا:

أ- تتلخص «روح» دعوة الأنبياء فی نفی الاستعلاء الذی يعنی نفی كل نوع من أنواع الاستثمار و الاستعمار، و التسليم للحق و القانون الصحيح.

ب- بالرغم من أنّ أصحاب ملكة سبأ أعلنوا استعدادهم لخوض المعركة، إلّا أن الطبع النسائی الشفاف فی الملكة لم يكن موافقا على ذلك، و لذلك عطفت انظارهم الى مسائل أخرى.

ج- و لو أن الملكة أذعنت لرأيهم فی الحرب لكانت بعيدة عن الحقيقة و الصواب، و سنرى أن إقدامها على إرسال الهدية كان مثمرا، و كانت نتيجة طيبة لها و لقومها، و كان سببا لأن يهتدوا إلی طريق الحق و العدل، و يبتعدوا عن سفك

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۲

الدماء! د- و يستفاد من هذه القضية ضمنا أن المناهج التشاورية لا تنتهی إلی الحق دائما ... إذ كانت عقيدة الأكثرية هنا أن يلجأ و إلی القوّة و القتال فی حين أن ملكة سبأ كانت ترى خلاف نظرتهم، و سنرى أن الحق كان معها فی نهاية القصّة! ه- و يمكن أن يقال: إنّ هذا النوع من التشاور أو المشورة غير ما هو جار بيننا اليوم من التشاور ... فنحن نأخذ برأی الأكثرية على أنّه هو المعيار، و نعطيهم حق التصويت و التصويب. فی حين أن التشاور محل البحث هو مجرّد إبداء النظر من قبل الأكثرية، و الرأی الحاسم لقائد تلك الجماعة ... و لعل الآية وَ شاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۳۸] تشير إلی هذا القسم الثّانی من التشاور. أمّا الآية الكريمة وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ ۳۹] فناظرة إلی القسم الأوّل ۴۰].

و- قال أصحاب ملكة سبأ لها نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ و لعل هذا الاختلاف بين «القوة» و «البأس» فی التعبير، هو أنّ «القوة» إشارة إلی الكمية العظيمة من الجيش ... و «البأس الشديد» إشارة إلی كيفية العمل و روح الشجاعة و الشهامة فی الجيش، أی أن مرادهم أنّهم مستعدون للقتال من الناحية «الكمية» و من حيث «الكيفية» لمواجهة العدو أيضا.

۴- علامات الملوك

يستفاد من هذه الآيات- بصورة جيدة- أن الحكومة الاستبدادية و السلطنة فی كل مكان مدعاة للفساد و إذلال الأعزة ... لأنّ الملوك يبعدون عنهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۳

الشخصيات الفذة، و يدنون المتملقين، و يبحثون فی كل شیء عن مصالحهم و منافعهم الذاتية، و هم أهل رشوة و ذهب و مال، و بالطبع فإنّ الأمراء و الأعوان القادرين على هذه الأمور أحبّ عندهم من غيرهم.

و بينما نرى تفكير الملوك و رغباتهم تتلخص فی نيل الهدايا و الجاه و المقام و الذهب و المال ... نجد أنّ الأنبياء لا يفكرون إلّا بإصلاح أممهم!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۴

الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (۳۶) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (۳۷)

التّفسير

لا تخدعونی بالمال:

خرج رسل ملكـة سبأ بقافلـة الهـدايا و تركوا اليمن وراءهم قاصـدين مقر سـليمان «فی الشـام» ظنّا منهم أن سـليمان سـيكون مسـرورا بمشاهدته هذه الهدايا و يرحب بهم.

لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان ... فإنّ سليمان عليه السّلام مضافا الى عدم استقباله و اكتراثه بتلك الهدايا قالَ أ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ فما قيمة المال، إزاء مقام النبوّة و العلم و الهداية و التقوى بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ أجل، أنتم الذين تفرحون بمثل هذه الزخارف، فيهدى بعضكم لبعض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۶۵

فيشرق وجه تملع عيناه! إلّا أن هذه الأمور لا قيمة لها عندى و لا أكترث بها.

و هكذا فقد حقّر سليمان عليه السّلام معيار القيم عندهم، و أوضح لهم أن هناك معيارا آخر للقيمة تضمحلّ عنده معايير عبدة الدنيا و لا تساوى شيئا.

و من أجـل أن يريهم سـليمان موقفه الحاسم من الحق و الباطل، قال لرسول ملكـة سـبأ الخاص: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ

و أَذِلَّةً فی الحقيقـة حـال أولى و هُمْ صاغِرُونَ حال ثانيـة، و هما إشارة إلى أن أولئك لا يخرجون من أرضـهم فحسب، بل بالإذلال و الإحقار و الصـغار بشـكل يتركون جميع ممتلكاتهم من قصور و أموال و جاه و جلال ... لأنّهم لم يـذعنوا- و يسـلموا- للحق ... و إنّما قصدوا الخداع و المكر! و طبيعى أن هذا التهديد كان تهديدا جديّا جديرا بأن يؤخذ بنظر الإعتبار بالنسبة لرسل ملكة سبأ الذين كانوا عند سليمان!.

و مع ملاحظـة مـا قرأنـاه فی الآيات السابقـة من أنّ سـليمان طلب من أولئك شـيئين: ترك الاسـتعلاء، و التسـليم للحق أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ و كان عدم إجابتهم لهذين و توسـلهم بالهديّة دليلا على امتناعهم من قبول الحقّ و ترك الاسـتعلاء، و لذلك هدّدهم باستخدام القوة العسكرية.

و لو أنّ ملكة سبأ و قومها طلبوا من سـليمان الدليل و المعجزة (على أنّه نبىّ مطاع) لأعطاهم الحق أن يتحروا و يفحصوا أكثر ... إلّا أنّ إرسال الهدية ظاهره أنّهم فی مقام الإنكار.

و اتضح كذلك أنّ أهمّ خبر مزعج أخبر به الهدهد عن هذه الجماعة «ملكة سبأ و قومها» أنّهم كانوا يعبدون الشـمس و يسـجدون لها من دون اللّه الذى له ما فی السـماوات و الأرض فكان سـليمان عليه السّـلام قلقا من هذا الأمر ... و من المعلوم أن عبادة الأصنام ليست أمرا هيّنا تسكت عنه الأديان السماوية، أو أن تتحمل عبدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۶۶

الأصنام على أنّهم أقليّة دينية. بل تستخدم القوّة إذا لزم الأمر و تحطم الأصنام و يطوى الشرك و مريدوه من الوجود!.

و ممّا بيّناه من توضـيحات آنفا يظهر أنّه لا تنافى بين تهديدات سـليمان و الأصل الأساس لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ لأنّ عبادة الأصـنام ليسـت دينا، بل هی خرافة و انحراف.

ملاحظات

۱- ممّا ينبغى الالتفات إليه أن الزهد فى الأديان السماوية لا يعنى أن لا يتمتع الإنسان بماله و ثرواته و إمكاناته الدنيوية، بل حقيقة الزهد هى أن لا يكون أسير هذه الأمور .. بل أميرا عليها .. و قد بيّن سليمان هذا النبىّ العظيم بردّه الهدايا الثمينة على ملكة سبأ أنّه أميرها لا أسيرها.

و نقرأ

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «الدنيا أصغر قدرا عند اللّه و عند أنبيائه و أوليائه من أن يفرحوا بشىء منها، أو يحزنوا عليه، فلا ينبغى لعالم و لا لعاقل أن يفرح بعرض الدنيا»[۴۱].

۲- و مرّة أخرى نجد فى هذا القسم من قصّة سليمان دروسا جديرة بالنظر، خافية فى تعابير الآيات الكريمة:

ألف: إن الهدف من تعبئة الجيش ليس قتل الناس، بل أن يرى العدوّ نفسه ضعيفا قبالها، و لا يرى نفسه قادرا على مواجهة الطرف الآخر: بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها.

و هذا التعبير نظير ما أمر به المسلمون وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۷

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ [۴۲] ب- إنّ سليمان عليه السّلام لا يهدد مخالفيه بالقتل، بل يهددهم بالإخراج من القصور أذلة صاغرين، و هذا الأمر جدير بالملاحظة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۶۷

إنّ سليمان لا يستغفل مخالفيه، بل يحذرهم بصراحة قبل الهجوم.

د- إنّ سليمان لا يطمع فى أموال الآخرين، بل يقول: «ما آتانى اللّه خير» فهو لا يرى مواهب اللّه منحصرة بالقدرة المادية و المالية، بل يفتخر بالعلم و الإيمان و المواهب المعنوية!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۸

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (۳۸) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (۳۹) قالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۴۰)

التّفسير

حضور العرش فى طرفة عين:

و أخيرا عاد رسل ملكة سبأ بعد أن جمعوا هداياهم و أمتعتهم إلى بلدهم، و أخبروا ملكة سبأ بما شاهدوه من عظمة ملك سليمان عليه السّلام المعجز و جهازه الحكومى، و كل واحد من هذه الأمور دليل على أنّه لم يكن كسائر الأفراد و لا ملكا كسائر الملوك، بل هو مرسل من قبل اللّه حقّا، و حكومته حكومة إلهية.

و هنا اتّضح لأولئك جميعا أنّهم غير قادرين على مواجهته عكسريا، بل إذا استطاعوا- فرضا- فهم على احتمال قوى فى مواجهة نبىّ عظيم ذى سلطة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۶۹

واسعة!.

لذلك قررت الملكة أن تأتى بنفسها مع أشراف قومها إلى سليمان، و يتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر- عن أىّ طريق كان- إلى سمع سليمان عليه السّلام، فعزم على اظهار قدرته العجيبة- و الملكة و أصحابها فى الطريق إليه- ليعرفهم قبل كل شىء على إعجازه، ليذعنوا له و يسلّموا لدعوته ... لذلك التفت إلى من حوله و قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ

و بالرغم من أن المفسّرين أتعبوا أنفسهم للوقوف على علّة إحضار عرش الملكة، و ربّما ذكروا وجوها لا تنسجم مع مفاد الآيات و لا تتناسب و إيّاها!. إلّا أن من الواضح أنّ هدف سليمان عليه السّلام من هذه الخطة إنّه كان يريد أن يظهر أمرا مهما للغاية خارقا للعادة ليذعنوا له دون قيد، و يؤمنوا بقدرة اللّه من دون حاجة إلى سفك الدماء و المواجهة فى ساحات القتال.

كان يريد أن ينفذ الإيمان إلى أعماق قلب ملكة سبأ و أشراف قومها، ليستجيب الباقون لدعوته و التسليم لأمره!.

و هنا أظهر شخصان استعدادهما لامتثال طلب سليمان عليه السّلام، و كان أمر أحدهما عجيبا و الآخر أعجب! إذ قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ ۴۳]. فهذا الأمر علىّ يسير، و لا أجد فيه مشقة، كما أنّى لا أخونك أبدا، لأنّى قادر على ذلك وَ إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ

و «العفريت» ... معناه المارد الخبيث.

و جملة وَ إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ المشفوعة بالتأكيدات من عدّة جهات «إنّ و الجملة الاسميّة، و لام التوكيد» تشر الى احتمال خيانة هذا العفريت ... لذلك فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٧٠

أظهر الدفاع عن نفسه بأنه أمين و فىّ.

و على كل حال فإنّ قصّة «سليمان» مملوءة بالعجائب الخارقة للعادات فلا عجب أن يرى عفريت بهذه الحالة مبديا استعداده للقيام بهذه المهمّة خلال سويعات .. و سليمان يقضى بين الناس، أو يتابع أمور مملكته، أو يقدم نصحه و إرشاده للآخرين.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلا صالحا له علم ببعض ما فى الكتاب، و يتحدث عنه القرآن فيقول: قالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

فلمّا وافق سليمان عليه السّلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفة عين بالاستعانة بقوته المعنوية فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ.

ثمّ أضاف قائلا: وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ

و هناك اختلاف بين المفسّرين و كلام طويل فى أن هذا الشخص الذى جاء بعرش الملكة، من كان؟! و من أين له هذه القدرة العجيبة؟! و ما المراد عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ

إلّا أنّ الظاهر أنّ هذا الشخص هو أحد أقارب سليمان المؤمنين و أوليائه الخاصين، و قد جاء اسمه فى التواريخ بأنه (آصف بن برخيا) وزير سليمان و ابن أخته ۴۴].

و أمّا «علم الكتاب» فالمراد منه معرفة ما فى الكتب السماوية ... المعرفة العميقة التى تمكّنه من القيام بهذا العمل الخارق للعادة! و قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد من (علم الكتاب) هو اللوح المحفوظ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۱

الذی علم اللّه بعضه ذلک الرجل «آصف» و لذلک استطاع أن یأتی بعرش ملکهٔ سبأ بطرفهٔ عین، و یحضره عند سلیمان!.

و قال کثیر من المفسّرین: إنّ هذا الرجل المؤمن کان عارفا بالاسم الأعظم، ذلک الاسم الذی یخضع له کل شیء، و یمنح الإنسان قدرهٔ خارقهٔ للعادهٔ!.

و ینبغی القول أن «الاسم الأعظم» لیس کما یتصوره الکثیر بأنّ مفهومه أن یتلفظ الإنسان بکلمهٔ فیکون وراءها الأثر العجیب، بل المراد منه التخلق بذلک الاسم و الوصف، أی علی الإنسان أن یستوعب «الاسم» فی نفسه و روحه، و أن یتکامل علمه و خلقه و تقواه و إیمانه إلی درجهٔ یکون بها مظهرا من مظاهر ذلک الاسم الأعظم، فهذا التکامل المعنوی و الروحانی (بواسطهٔ الاسم الأعظم) یوجد فی الإنسان مثل هذه القدرهٔ الخارقهٔ للعادهٔ[۴۵].

کما أنّ للمفسّرین فی جملهٔ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ لکن بملاحظهٔ الآیات الاخر من القرآن یمکن معرفهٔ حقیقتها ... ففی الآیهٔ (۴۳) من سورهٔ إبراهیم نقرأ: لا یَرْتَدُّ إِلَیْهِمْ طَرْفُهُمْ

و نحن نعرف أن الإنسان عند ما یستوحش و یذهل، تبقی عیناه مفتوحتان علی وتیرهٔ واحدهٔ کأنّهما عینا میت لا تتحرکان.

فبناء علی ذلک فالمراد منه أنّنی سأحضر عرش ملکهٔ بلقیس قبل أن یتحرک جفناک ۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۲

مسائل مهمهٔ:

۱- الجواب علی بعض الاسئلهٔ

من الأسئلهٔ- التی تثار حول الآیات آنفهٔ الذکر- هذا السؤال: لم لم یقدم سلیمان بنفسه علی هذا العمل الخارق للعادهٔ؟ فهو نبیّ کریم من قبل اللّه و ذو معاجز! فلم حوّل هذا الأمر إلی «آصف بن برخیا»؟! لعل الوجه فی ذلک أن آصف کان وصیّه، و کان سلیمان یرید أن یبیّن موقعه فی هذه اللحظهٔ الحساسهٔ للجمیع ۴۷].

إضافهٔ إلی ذلک فإن من المهم أن یختبر الأستاذ تلامیذه فی الموارد اللازمهٔ و یعرف جدارتهم، و أساسا فإنّ جدارهٔ التلامیذ دلیل کبیر علی جدارهٔ الأستاذ.

السؤال الآخر هو: کیف جاء سلیمان بعرش ملکهٔ سبأ و أحضره عنده دون إذنها؟.

فیقال: لعل ذلک لبیان هدف أسمی، کمسألهٔ الهدایهٔ و بیان معجزهٔ کبیرهٔ. ثمّ بعد هذا کله فإننا نعرف أن الملوک لیس لهم مال من أنفسهم، بل أموالهم فی الغالب مغصوبهٔ من الآخرین!.

السؤال الآخر: کیف تکون لعفریت من الجن القدرهٔ علی أمر خارق للعادهٔ کهذه الحادثهٔ؟! و قد بیّنا الجواب علی هذا السؤال فی الأبحاث المتعلقهٔ بالإعجاز، فقلنا: إن من الناس حتی غیر المؤمنین من تکون له قدرهٔ علی بعض الأمور الخارقهٔ للعادهٔ (و ذلک للریاضهٔ المجهدهٔ و مجاهدهٔ النفس) إلّا أن الفرق بین ما یقومون به ممّا یخرق العادهٔ و بین المعجزهٔ هو أنّه لما کانت أعمالهم مستندهٔ إلی قدرهٔ بشریهٔ محدودهٔ ... فهی «أعمالهم الخارقهٔ للعادهٔ» محدودهٔ دائما، فی حین أن المعاجز تستند إلی قدرهٔ اللّه التی لا نهایهٔ لها، و قدرته کسائر صفاته غیر محدودهٔ!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۳

لذلک نری أن العفریت من الجن یحدّد قدرته- علی فترهٔ بقاء سلیمان فی مجلس القضاء و التحقیق فی أمور البلد، لیأتیه بعرش ملکهٔ

سبأ، فی حین أنّ آصف بن برخیا لم یحدد قدرته، و تحدیدها بارتداد الطرف هو فی الحقیقة إشارة إلی أدنی فترة زمنیة ممکنة ... و من المسلم به أن سلیمان علیه السّلام یشجع الأعمال التی تبیّن للناس الأشخاص الصالحین، و یبارکها، لا عمل العفریت الذی قد یوقع العوام و البساط فی الوهم، فیعدونه دلیلا علی تقواه و طهارته!.

و بدیهی أن أیّ إنسان یقوم بعمل مهم فی المجتمع و یکون عمله مقبولا فانّ أفکاره و معتقداته ستتجذّر و تتحدّد فی المجتمع بذلک «العمل» فلا ینبغی أن یأخذ العفاریت زمام المبادرة فی حکومة سلیمان الإلهیة، بل ینبغی أن یقوم به من عندهم علم من الکتاب لیؤثروا علی أفکار الناس و عواطفهم.

۲- القوة و الأمانة شرطان مهمان

جاء فی الآیات المتقدمة- و الآیة (۲۶) من سورة القصص- أن أهم شرط للعامل أو الموظف شیئان: الأوّل القوة، و الثّانی الأمانة!.

و بالطبع فإنّ المبانی الفکریة و الأخلاقیة قد تقتضی أن یکون الإنسان حاویا علی هاتین الصفتین «کما هی الحال فی شأن موسی الوارد ذکره فی سورة القصص» و قد یقتضی نظام المجتمع و الحکومة الصالحة أن یتصف بهاتین الصفتین حتی العفریت من الجن إلزاما .. و لکن- علی کل حال- فلیس من الممکن القیام بأی عمل کبیر أو صغیر فی المجتمع دون توفر هاتین الصفتین ...

سواء کان مصدرهما «التقوی» أو «النظام القانونی» .. «فتأمّلوا بدقة».

۳- الفرق بین «علم من الکتاب» و «علم الکتاب» جاء التعبیر فی الآیات- محل البحث- عن الذی أتی بعرش ملکة سبأ فی

أدنی مدّة «و بطرفة عین» ب مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ بینما جاء فی الآیة (۴۳) من سورة الرعد فی شأن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من یشهد علی حقانیته قُلْ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ

فی حدیث عن أبی سعید الخدری أنّه قال: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتابِ الوارد فی قصّة سلیمان، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: هو وصی أخی سلیمان بن داود، فقلت: و الآیة وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ عمن تتحدث؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ذاک أخی علی بن أبی طالب علیه السّلام ۴۸].

و الالتفات إلی الفرق بین «علم من الکتاب» الذی یعنی «العلم الجزئی» و (علم الکتاب) الذی یعنی «العلم الکلی»، یکشف البون الشاسع بین آصف و علی علیه السّلام.

لذلک نقرأ فی روایات کثیرة أنّ الاسم الأعظم ثلاثة و سبعون حرفا إنّما کان عند آصف منها حرف واحد فتکلم به فخسف بالأرض ما بینه و بین سریر بلقیس حتی تناول السریر بیده، ثمّ عادت الأرض کما کانت أسرع من طرفة عین- کان «حرف» واحد منه عند «آصف بن برخیا» و قام بمثل هذا العمل الخارق للعادة- و عندنا نحن الائمّة من أهل البیت- اثنان و سبعون حرفا، و حرف واحد عند اللّه تبارک و تعالی استأثر به فی علم الغیب عنده ۴۹].

۴- هذا من فضل ربّی

إن عبدة الدنیا و طلّابها المغرورین حین ینالون «القوّة» و الاقتدار ینسون کل شیء إلّا أنفسهم .. و کل ما یقع فی أیدیهم یحسبونه من عند أنفسهم لا من غیرهم،

كما كان قارون يقول: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي .. فى حين أن عباد اللّه و خاصّته كلما نالوا شيئا قالوا: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ..

الطريف أن سليمان عليه السّلام لم يقل هذا الكلام عند ما شاهد عرش ملكة سبأ عنده فحسب، بل أضاف قائلا: لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ.

و قرأنا فى هذه السورة- من قبل- أن سليمان عليه السّلام كان يرى جميع النعم التى يتمتع بها من نعم اللّه عليه، و كان يدعو ربّه خاضعا فيقول: رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ أجل .. هذا هو معيار معرفة الموحدين المخلصين من عبدة الدنيا المغرورين .. و هذه سيرة الرجال العظماء فى قبال غيرهم من الأنانيين!.

و بالرغم من أنّه اعتيد كتابة هذه العبارة المهمة هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي من قبل المتظاهرين بالشكر على أبواب قصورهم «الطاغوتية» دون أن يعتقدوا بذلك أو يكون أدنى أثر من هذه العبارة فى عملهم .. إلّا أن المهم هو أن تكتب على الباب و على جبين حياة الإنسان و فى قلبه ... أيضا، و أن يكشف عمله أن كل ذلك من فضل اللّه .. و أن يشكره عليه، لا شكرا باللسان فحسب، بل شكرا مقرونا بالعمل و فى جميع وجوده ۵۰].

۵- كيف أحضر «آصف» عرش الملكة؟!

لم يكن هذا (الأمر) أوّل خارق للعادة نراه فى قصّة سليمان عليه السّلام، أو فى حياة الأنبياء بشكل عام .. و على من يحمل هذه التعبيرات على الكناية و المجاز، و لا يؤخذ بظاهرها، أن يبينوا موقفهم من معاجز الأنبياء.

ترى هل يرون الأعمال الخارقة للعادة للأنبياء و خلفائهم محالا، و ينكرونها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۶

كلّيا؟! فهذا ما لا ينسجم مع أصل التوحيد، و لا مع قدرة اللّه الحاكمة على قوانين الوجود، و لا ينسجم مع صريح القرآن فى آيات كثيرة .. أيضا.

أمّا إذا قبلوا بإمكان المعاجز، فلا ينبغى أن يفرقوا بين أن يكون البحث عن إحياء الموتى و إبراء العمى من قبل «عيسى بن مريم» عليه السّلام، أو عن إحضار عرش ملكة سبأ من قبل آصف بن برخيا.

و لا شك أن هنا علائق مجهولة و عللا لا نعرفها فى هذا الأمر، إذ نجهل ذلك بعلمنا «المحدود»، لكننا نعرف أن هذا الأمر غير محال.

فهل استطاع «آصف» بقدرته المعنوية أن يبدل عرش بلقيس إلى أمواج من نور، و بلحظة أحضرها عند سليمان عليه السّلام ثمّ أرجعها إلى مادتها الأصليّة مرّة أخرى؟ ... هذا الأمر عندنا يلفّه الغموض.

و ما نعرف أن الإنسان يقوم اليوم بأعمال بواسطة الطرق العلمية المتداولة، كانت قبل مائتى عام تعدّ فى دائرة المحال!.

فمثلا لو كان يقال لشخص ما قبل عدّة قرون: سيأتى زمان على الناس يتكلم الرجل فى المشرق فيسمعه الآخرون و يرونه فى المغرب فى اللحظة ذاتها .. لكان يعد هذا المقال ضربا من الهذيان أو الحلم! و ليس هذا إلّا لأنّ الإنسان يريد أن يقوّم كل شىء بعلمه المحدود و قدرته القاصرة! مع أن ما وراء علمه و قدرته أسرارا خفية كثيرة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۷

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

قالَ نَکِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِی أَمْ تَکُونُ مِنَ الَّذِینَ لا یَهْتَدُونَ (۴۱) فَلَمَّا جاءَتْ قِیلَ أَ هکَذا عَرْشُکِ قالَتْ کَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِینَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ کُنَّا مُسْلِمِینَ (۴۲) وَ صَدَّها ما کانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها کانَتْ مِنْ قَوْمٍ کافِرِینَ (۴۳) قِیلَ لَهَا ادْخُلِی الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ کَشَفَتْ عَنْ ساقَیْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِیرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَیْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۴۴)

التّفسیر

نور الایمان فی قلب الملکة:

نواجه فی هذه الآیات مشهدا آخر، ممّا جری بین سلیمان و ملکة سبأ فسلیمان من أجل أن یختبر عقل ملکة سبأ و درایتها، و یهیء الجوّ لإیمانها باللّه، أمر أن یغیروا عرشها و ینکّروه ف قالَ نَکِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِی أَمْ تَکُونُ مِنَ الَّذِینَ لا یَهْتَدُونَ

و بالرغم من أن المجیء بعرشها من سبأ الی الشام کان کافیا لان لا تعرفه ببساطة .. و لکن مع ذلک فإنّ سلیمان أمر أن یوجدوا تغییرات فیه، من قبیل تبدیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۸

بعض علاماته، أو تغییر ألوانه و مواضع مجوهراته، و لکن هذا السؤال: ما الهدف الذی کان سلیمان علیه السّلام یتوخّاه من اختبار عقل (و درایة) ملکة سبأ و ذکائها؟

لعل هذا الاختبار کان لمعرفة أی منطق یواجهها به؟ و کیف یأتی لها بدلیل لإثبات المبانی العقائدیة؟

أو کان یفکر أن یتزوجها، و کان یرید أن یعرف هل هی جدیرة بأن تکون زوجة له، أم لا؟ .. أو أراد- واقعا- أن یعهد لها بمسؤولیة بعد ایمانها ... فلا بدّ من معرفة مقدار استعدادها لقبول المسؤولیة! و هناک تفسیران لجملة أَ تَهْتَدِی فقال بعضهم: المراد منها معرفة عرشها.

و قال بعضهم: المراد من هذه الجملة أنّها هل تهتدی إلی اللّه برؤیة المعجزة، أو لا؟! إلّا أنّ الظاهر هو المعنی الأوّل، و إن کان المعنی الأوّل بنفسه مقدمة للمعنی الثّانی.

و علی کل حال ... فَلَمَّا جاءَتْ قِیلَ أَ هکَذا عَرْشُکِ و الظاهر أن القائل لها لم یکن سلیمان نفسه، و الّا فلا یناسب التعبیر ب «قیل»، لأنّ اسم سلیمان ورد قبل هذه الجملة و بعدها، و عبّر عن کلامه ب «قال».

أضف إلی ذلک أنّه لا یناسب مقام سلیمان علیه السّلام أن یبادرها بمثل هذا الکلام.

و علی أی حال. فإنّ ملکة سبأ أجابت جوابا دقیقا و قالَتْ کَأَنَّهُ هُوَ.

فلو قالت: یشبه، لأخطأت .. و لو قالت: هو نفسه، لخالفت الاحتیاط، لأنّ مجیء عرشها إلی أرض سلیمان لم یکن مسألة ممکنة بالطرق الاعتیادیة، إلّا أن تکون معجزة.

و قد جاء فی التواریخ أن ملکة سبأ کانت قد أودعت عرشها الثمین فی مکان محفوظ، و فی قصر مخصوص فیه غرفة علیها حرس کثیر! و مع کل ذلک فإنّ ملکة سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم کل ما حصل له

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۹

من تغییرات .. فقالت مباشرة: وَ أُوتِینَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ کُنَّا مُسْلِمِینَ

أی، إذا کان مراد سلیمان علیه السّلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا علی معجزته لکی نؤمن به، فإنّنا کنّا نعرف حقانیته بعلائم أخر ..

كنّا مؤمنين به حتى قبل رؤية هذا الأمر الخارق للعادة فلم تكن حاجة إلى هذا الأمر.

و هكذا فأنّ سليمان عليه السّلام منعها وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۵۱] بالرغم من إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ

أجل، إنّها ودعت ماضيها الأسود برؤية هذه العلائم المنيرة، و خطت نحو مرحلة جديدة من الحياة المملوءة بنور الإيمان و اليقين.

و فی آخر آية من الآيات محل البحث يجرى الكلام عن مشهد آخر من هذه القصّة، و هو دخول ملكة سبأ قصر سليمان الخاص.

و كان سليمان عليه السّلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، و أن يجرى الماء من تحتها.

فلمّا وصلت ملكة سبأ إلى ذلك المكان قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۵۲] فلما رأته ظنته نهرا جاريا فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء و هى متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجارى، و كما يقول القرآن: فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها[۵۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۰

إلّا أنّ سليمان عليه السّلام التفت إليها و قال: إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ[۵۴].

فلا حاجة الى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

و هنا ينقدح سؤال هام، و هو أن سليمان نبىّ كبير، فلم كان لديه هذا البناء الفائق و التزيّن الرائق ... و الصرح الممرد و البساط الممهّد! .. و صحيح أنّه كان حاكما مبسوط اليد، إلّا أن الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلّا أنه، ما يمنع أن يرى سليمان ملكة سبأ التى كانت ترى قدرتها و عظمتها بالعرش و التاج و القصر العظيم و الزينة .. يريها هذا المشهد لتذعن لأمره، و لتحتقر ما عندها؟! و هذه نقطة انعطاف فی حياتها لتعيد النظر فی ميزان القيم و معيار الشخصية! ما يمنعه- بدلا من أن يغير جيشا لجبا فيسفك الدماء- أن يجعل فكر ملكة سبأ حائرا مبهوتا بحيث لم تكن تتوقع ذلك أصلا ... خاصة أنّها كانت امرأة تهتم بهذه الأمور و التشريفات! و لا سيما أنّ أغلب المفسّرين صرحوا بأن سليمان أمر أن يبنى مثل هذا الصرح و القصر قبل أن تصل ملكة سبأ إلى الشام، و كان هدفه أن يريها قدرته لتذعن لأمره و تسلم له ... و هذا الأمر يدلّ على أن سليمان عليه السّلام كان يتمتع فی سلطانه بقدرة عظيمة من حيث القوّة الظاهرية وفق بها للقيام بمثل هذا العمل!.

و بتعبير آخر: إنّ هذه النفقات المالية إزاء أمن منطقة واسعة، و قبول دين الحق، و الوقاية عن الإنفاق المفرط للحرب- لم تكن أمرا مسرفا.

و لذلك حين رأت ملكة سبأ هذا المشهد الرائع قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۱

لقد كنت فی ما مضى أسجد للشمس و أعبد الأصنام، و كنت غارقة فی الزينة و التجميل، و كنت أتصور أنّى أعلى الناس فی الدنيا.

أمّا الآن فإنّنى أفهم أنّنى ضعيفة جدّا و هذه الزخارف و الزبارج لا تروى ظمأ الإنسان و لا تبلّ غليل روحه!.

ربّاه ... أتيت إليك مسلمة مع سليمان نادمة عن سالف عمرى، خاضعة عنقى إليك. الطريف هنا أنّها تقول: أسلمت مع سليمان، فتستعمل كلمة (مع) ليتجلّى أن الجميع إخوة فی السبيل إلى اللّه! لا- كما يعتاده الجبابرة إذ يتسلط بعضهم على رقاب بعض، و ترى جماعة أسيرة فی قبضة آخر.

فهنا لا يوجد غالب و مغلوب، بل الجميع- بعد قبول الحق- فی صف واحد!.

صحيح أن ملكة سبأ كانت قد أعلنت إيمانها قبل ذلك أيضا، لأنّنا سمعنا عن لسانها فی الآيات آنفة الذكر وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ

إلّا أن إسلام الملكة هنا وصل إلى أوجه، لذلك أكّدت إسلامها مرّة أخرى.

إنها رأت دلائل متعددة على حقانية دعوة سليمان.

فمجىء الهدهد بتلك الحالة الخاصّة! و عدم قبول سليمان الهدية الثمينة المرسلة من قبلها.

و إحضار عرشها فی فترة قصیرة من مدی بعید.

و أخیرا مشاهدة قدرة سلیمان الاعجازیة، و ما لمسته فیه من أخلاق دمثة لا تشبه أخلاق الملوك!

بحثان

۱- عاقبة أمر ملكة سبأ

كان هذا كل ما ورد فی القرآن المجید عن ملكة سبأ إذ آمنت أخیرا و لحقت

بالصالحین ... لكن هل عادت إلی وطنها بعد إیمانها، و واصلت حكمها من قبل سلیمان، أو بقیت عند سلیمان و تزوجت منه؟! أو تزوجت من أحد ملوك الیمن المشهورین باسم «تبّع»؟

هذه الأمور لم یشر إلیها القرآن الكریم، لأنّها لا علاقة لها بالهدف الأصلی الذی یبتغیه القرآن من المسائل التربویة! ... إلّا أن المؤرّخین و المفسّرین كلّا منهم اختار رأیا، و لا نجد ضرورة فی الخوض فی ذلك، و إن كان المشهور- طبقا لما قاله أغلب المفسّرین- أنّها تزوّجت من سلیمان نفسه ۵۵].

إلّا أنّه ینبغی أن نذكّر بهذا الأمر المهم، و هو أنّه وردت أساطیر كثیرة حول سلیمان و جنوده و حكومته و خصوصیات ملكة سبأ. و جزئیات حیاتها أیضا، ممّا یصعب علی عامة الناس تمییزها من الحقائق التاریخیة، و ربّما یغشّی هذه الحقائق التاریخیة. ظلّ مظلم من الخرافات یشوه وجهها الناصع .. و هذه هی نتیجة الخرافات المتداخلة فی الحقائق التی ینبغی أن تراقب مراقبة تامّة!.

۲- خلاصة عامة عن حیاة سلیمان

ما ورد عن سیرة سلیمان و حالاته فی الثلاثین آیة آنفة الذكر، یكشف عن مسائل كثیرة، قرأنا قسما منها فی أثناء البحث، و نشیر إلی القسم الآخر إشارة عابرة:

۱- إنّ هذه القصّة تبدأ بالحدیث عن موهبة (العلم الوافر) التی وهبها اللّه لسلیمان بن داود، و تنتهی بالتسلیم لأمر اللّه، و ذلك التوحید أساسه العلم أیضا.

۲- هذه القصّة تدل علی أن غیاب طائر أحیانا (فی تحلیقة استثنائیة) قد یغیر مسیر تأریخ أمّة، و یجرها من الفساد إلی الصلاح، و من الشرك إلی الإیمان ...

و هذا مثل عن بیان قدرة اللّه، و مثل من حكومة الحق!.

۳- إنّ هذه القصّة تكشف عن أن نور التوحید یشرق فی جمیع القلوب، حتی الطائر الذی یبدو ظاهرا أنّه صامت، فإنّه یخبر عن أسرار التوحید العمیقة!.

۴- ینبغی من أجل لفت نظر الإنسان إلی القیمة الواقعیة له و هدایته نحو اللّه، أن یدمّر غروره و كبریاؤه أولا .. لیماط عن وجه ستار الظلام، كما فعل سلیمان، فدمر غرور ملكة سبأ و ذلك بإحضار عرشها، و إدخالها الصرح الممرد الذی حسبته لجة.

۵- إنّ الهدف النهائی فی حكومة الأنبیاء لیس التوسع فی رقعة الأرض، بل الهدف هو ما قرأناه فی آخر آیة من الآیات محل البحث،

و هو أن یعترف الظالم بذنبه، و أن یسلم لربّ العالمین، و لذلک فإن القرآن ختم بهذه «اللطیفة» القصّة المذکورة.

۶- إنّ روح الإیمان هی التسلیم، لذلک فقد أکّد سلیمان علیه فی کتابه إلی ملکة سبأ.

۷- قد یکون بعض الناس مع ما لدیه من قدرة عظیمة لا ترقی إلیه قدرة الآخرین، محتاجا إلی موجود ضعیف کالطائر مثلا، لا إلی علمه فحسب، بل قد یستعین بعلمه أیضا، و قد تحقّره نملة بما هی علیه من ضعف! ۸- إنّ نزول هذه الآیات فی مکّة حیث کان المسلمون تحت نیر العدو، و کانت الأبواب موصدة بوجوههم، هذا النّزول کان له مفهومه الخاص. و هو تقویة معنویات المسلمین و تسلیة قلوبهم، و احیاء أملهم بلطف اللّه و رحمته و الانتصارات المقبلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۴

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۴۵ الی ۴۷]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلی ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِیقانِ یَخْتَصِمُونَ (۴۵) قالَ یا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّیِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قالُوا اطَّیَّرْنا بِکَ وَ بِمَنْ مَعَکَ قالَ طائِرُکُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷)

التّفسیر

صالح فی ثمود:

بعد ذکر جانب من قصص موسی و داود و سلیمان علیه السّلام فإنّ هذه الآیات تتحدث عن قصّة رابع نبیّ- و تبیّن جانبا من حیاته مع قومه- فی هذه السورة، و هی ما جاء عن صالح علیه السّلام و قومه «ثمود»! إذ یقول القرآن: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلی ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ۵۶].

و کما قیل من قبل: إنّ التعبیر ب «أخاهم» الوارد فی قصص کثیر من الأنبیاء، هو إشارة إلی منتهی المحبّة و الإشفاق من قبل الأنبیاء لأممهم، کما أن فی بعض المواطن إشارة الی علاقة القربی «الروابط العائلیة للأنبیاء بأقوامهم».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۵

و علی کل حال، فإنّ جمیع دعوة هذا النّبی العظیم تلخصت فی جملة أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ أجل، إنّ عبادة اللّه هی عصارة کل تعلیمات رسل اللّه.

ثمّ یضیف قائلا: فَإِذا هُمْ فَرِیقانِ یَخْتَصِمُونَ ۵۷]. المؤمنون من جهة و المنکرون المعاندون من جهة أخری.

و قد عبر فی الآیتین ۷۵ و ۷۶ من سورة الأعراف عن الفریقین، بالمستکبرین و المستضعفین: قالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِی آمَنْتُمْ بِهِ کافِرُونَ

و بالطبع فإنّ هذه المواجهة بین الفریقین «الکفار و المؤمنین» تصدق فی شأن کثیر من الأنبیاء، بالرغم من أن بعض الأنبیاء بقوا محرومین حتی من هذا المقدار القلیل من الأنصار حیث وقف کل افراد قومهم ضدهم.

فأخذ صالح علیه السّلام ینذرهم و یحذرهم من عذاب اللّه الألیم ... إلّا أنّ أولئک لم یستجیبوا له و تمسکوا بعنادهم و طلبوا منه بإصرار أن إذا کنت نبیّا فلیحل بنا عذاب اللّه «و قد صرحت الآیة ۷۷ من سورة الأعراف بأنّهم سألوا نبیّهم نزول العذاب» وَ قالُوا یا

صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

إلّا أن صالحا أجابهم محذرا و قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ.

فلم تفكرون بعذاب اللّه دائما و تستعجلونه؟ أ لا تعلمون أن عذاب اللّه إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم و لا يبقى مجال للايمان؟

تعالوا و اختبروا صدق دعوتى فى البعد الايجابى و الأمل فى رحمة اللّه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۶

ظل الإيمان به لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

علام تسألون عن نزول العذاب و تصرون على السيئات؟! و لم هذا العناد و هذه الحماقة؟! لم يكن قوم صالح- وحدهم- قد طلبوا العذاب بعد انكارهم دعوة نبيّهم، فقد ورد فى القرآن المجيد هذا الأمر مرارا فى شأن الأمم الآخرين، و منهم قوم هود «كما فى الآية ۷۰ من سورة الأعراف».

و نقرأ فى شأن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما واجهه به بعض المشركين المعاندين، إذ قالوا: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [۵۸] و هذا أمر عجيب حقّا أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيّه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة! مع أنّهم يعلمون يقينا احتمال صدق دعوة هؤلاء الأنبياء «يعلمون ذلك فى قلوبهم و إن أنكروه بلسانهم».

و هذا الأمر يشبه حالة ما لو أدعى رجل بأنّه طبيب، فيقول: هذا الدواء ناجع شاف، و ذلك الدواء ضار مهلك. و نحن من أجل أن نختبر صدقه نستعمل الدواء المهلك!! فهذا منتهى الجهل و التعصب ... و لمرض الجهل الكثير من هذه الافرازات.

و على كل حال، فإنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلا من أن يصغوا لنصيحة نبيّهم و يستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية و كلمات باطلة! ... منها أنّهم قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ و لعل تلك السنة كانت سنة قحط و جدب، فقالوا: إنّ هذا البلاء و المشاكل و العقبات كلّها بسبب قدوم هذا النّبى و أصحابه ... فهم مشئومون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۷

جلبوا الشقاء لمجتمعنا!! فكانوا يحاولون مواجهة دعوة نبيّهم صالح و منطقه المتين بحربة التطير، التى هى حربة المعاندين الخرافيين.

لكنّه ردّ عليهم و قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ فهو الذى يبتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التى أدت إلى هذه العقوبات.

فى الحقيقة إن ذلك اختبار و إمتحان إلهى كبير لكم، أجل بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ

هذه امتحانات و فتن إلهية ... هذه إنذارات و تنبيهات لينتبه- من فيهم اللياقة من غفلتهم، و يصلحوا انحرافهم و يتجهوا نحو اللّه!.

بحث

«التطيّر و التفاؤل»

«التطيّر» مأخوذ من مادة «طير» و هو معروف، إذ يعنى ما يطير بجناحين فى الجوّ، و لما كان العرب يتشاءمون غالبا من بعض الطيور، سمى الفأل غير المحبوب تطيّرا، و هو فى قبال «التفأل» و معناه الفأل الحسن المحبوب.

و قد وردت فى القرآن الإشارة إلى هذا المعنى مرارا و هى أن المشركين الخرافيّين كانوا يواجهون أنبياءهم بحربة التطير، كما نقرأ ذلك فى قصّة موسى و أصحابه وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ ۵۹].

و فى الآيات- محل البحث- أظهر قوم «ثمود» المشركون رد فعلّهم فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۸

مقابل نبیّهم «صالح» بالتطیر أیضا.

و أساسا، و نقرأ فی سورة «یس» أن المشرکین تطیّروا من مجیء رسل المسیح علیه السّلام الی «انطاکیة» (یس- ۱۸).

فإنّ الإنسان لا یمکن أن یقف أمام الحوادث علی حال واحدة، فلا بدّ أن یفسّر آخر الأمر لکل حادثة علة .. فإذا کان الإنسان مؤمنا موحدا للّه، فإنّه یرجع العلل إلی ذاته المقدسة تعالی طبقا لحکمته، فکل شیء عنده بمقدار، عالم الغیب و الشهادة الکبیر المتعال. و لو استند إلی العلم فی تحلیل العلة و المعلول الطبیعیین، فستحل مشکلته ایضا، و إلّا فإنّه سینتج أوهاما و خرافات لا أساس لها .. أوهاما لا حد لها .. و أحدها «التطیر» و الفأل السیء! مثلا کان عرب الجاهلیة إذا رأوا الطائر یتحرک من الیمین نحو الشمال عدوّه فألا حسنا، و إذا رأوه یتحرک من الشمال «الیسار» نحو الیمین عدّوه فألا سیئا، و دلیلا علی الخسران أو الهزیمة! و غیرها من الخرافات الکثیرة عندهم ۶۰].

و الیوم یوجد- من قبیل هذه الخرافات و الأوهام- الکثیر فی مجتمعات لا تؤمن باللّه، و إن حققت نصرا من حیث العلم و المعرفة، بحیث لو سقطت «مملحة» علی الأرض أقلقتهم إلی حد کبیر! ... و یستوحشون من الدار أو البیت أو الکرسی المرقم ب ۱۳، و ما زالت سوق المنجمین و أصحاب الفأل رائجة غیر کاسدة! فهناک مشترون کثر «للطالع و البخت»!.

إلّا أنّ القرآن جمع کل هذه الأمور فجعلها فی جملة موجزة قصیرة فقال:

طائِرُکُمْ عِنْدَ اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۹

أجل، فطائرکم و طالعکم و انتصارکم و هزیمتکم و توفیقکم و فشلکم کله عند اللّه، اللّه الحکیم الذی یهب عطایاه لمن کانت عنده اللیاقة، و اللیاقة بدورها انعکاس تنعکس عن الایمان و الأعمال الصالحة أو الطالحة!.

و هکذا فإنّ الإسلام یدعو أتباعه لیخرجهم من وادی الخرافة إلی الحقیقة، و من المفازة[۶۱] إلی الصراط المستقیم.

«کان لنا بحث مفصل فی مجال التطیر و التفاؤل ذیل الآیة ۱۳۱ من سورة الأعراف».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۰

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۴۸ الی ۵۳]

اشارة

وَ کانَ فِی الْمَدِینَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ وَ لا یُصْلِحُونَ (۴۸) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَیِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِیِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِکَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۴۹) وَ مَکَرُوا مَکْراً وَ مَکَرْنا مَکْراً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ (۵۰) فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ مَکْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۱) فَتِلْکَ بُیُوتُهُمْ خاوِیَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۵۲)

وَ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ آمَنُوا وَ کانُوا یَتَّقُونَ (۵۳)

التّفسیر

تآمر تسعة رهط فی وادی القری:

نقرأ هنا قسما آخر من قصّة «صالح» و قومه، حیث یکمل القسم السابق و یأتی علی نهایته، و هو ما یتعلق بالتآمر علی قتل «صالح» من

قبل تسعة «رهط»[۶۲] من المنافقين و الكفار، و فشل هذا التآمر! فى وادى القرى منطقة «النّبى صالح و قومه».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۱

يقول القرآن فى هذا الشأن وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ

و مع ملاحظة أنّ «الرّهط» يعنى فى اللغة الجماعة التى تقلّ عن العشرة أو تقلّ عن الأربعين، فإنّه يتّضح أن كلّا من المجموعات الصغيرة التسع كان لها منهج خاص، و قد اجتمعوا على أمر واحد، و هو الإفساد فى الأرض و الإخلال بالمجتمع (و نظامه الاجتماعى) و مبادئ العقيدة و الأخلاق فيه.

و جملة «لا يصلحون» تأكيد على هذا الأمر، لأنّ الإنسان قد يفسد فى بعض الحالات ثمّ يندم و يتوجه نحو الإصلاح .. إنّ المفسدين الواقعيين ليسوا كذلك، فهم يواصلون الفساد و الإفساد و لا يفكرون بالإصلاح!.

و خاصّة أن الفعل فى الجملة «يفسدون» فعل مضارع، و هو يدل على الاستمرار، فمعناه أن إفسادهم كان مستمرا ... و كلّ رهط من هؤلاء التسعة كان له زعيم و قائد ... و يحتمل أن كلّا ينتسب إلى قبيلة!.

و لا ريب أن ظهور «صالح» بمبادئه السامية قد ضيّق الخناق عليهم، و لذلك تقول الآية التالية فى حقّهم: قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ

«تقاسموا» فعل أمر، أىّ اشتركوا جميعا فى اليمين، و تعهّدوا على هذه المؤامرة الكبرى تعهدا لا عودة فيه و لا انعطاف!.

الطريف أنّ أولئك كانوا يقسمون باللّه، و يعنى هذا أنّهم كانوا يعتقدون باللّه، مع أنّهم يعبدون الأصنام، و كانوا يبدأون باسمه فى المسائل المهمّة .. كما يدل هذا الأمر على أنّهم كانوا فى منتهى الغرور و «السكر» بحيث يقومون بهذه الجناية الكبرى على اسم اللّه و ذكره!! فكأنّهم يريدون أن يقوموا بعبادة أو خدمة مقبولة ...

إلّا أنّ هذا نهج الغافلين المغرورين الذين لا يعرفون اللّه و الضالين عن الحق.

و كلمة «لنبيتّنه» مأخوذة من «التبييت»، و معناه الهجوم ليلا، و هذا التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۲

يدلّ على أنّهم كانوا يخافون من جماعة صالح و أتباعه، و يستوحشون من قومه ..

لذلك و من أجل أن يحققوا هدفهم و لا يكونوا فى الوقت ذاته مثار غضب أتباع صالح، اضطروا إلى أن يبيتوا الأمر، و اتفقوا أن لو سألوهم عن مهلك النّبى- لأنّهم كانوا معروفين بمخالفته من قبل- حلفوا بأن لا علاقة لهم بذلك الأمر، و لم يشهدوا الحادثة أبدا.

جاء فى التواريخ أن المؤامرة كانت بهذه الصورة، و هى أن جبلا كان فى طرف المدينة و كان فيه غار يتعبّد فيه صالح، و كان يأتيه ليلا- بعض الأحيان يعبد اللّه فيه و يتضرع إليه، فصمّموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه فى الليل، و يحملوا على بيته بعد استشهاده ثمّ يعودوا إلى بيوتهم، و إذا سئلوا أظهروا جهلهم و عدم معرفتهم بالحادث.

فلمّا كمنوا فى زاوية و اختبئوا فى ناحية من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوى إلى الأرض، فهوت عليهم صخرة عظيمة فأهلكتهم فى الحال! لذلك يقول القرآن فى الآية التالية: وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

ثمّ يضيف قائلا: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ

و كلمة (مكر)- كما بيّناها سابقا- تستعملها العرب فى كل حيلة و تفكير للتخلص أو الاهتداء إلى أمر ما .. و لا تختص بالأمور التى تجلب الضرر، بل تستعمل بما يضر و ما ينفع .. فيصح وصف المكر بالخير إذا كان لما ينفع، و وصفه بالسوء إذا كان لما يضرّ .. قال سبحانه: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ

و قال: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ «فتأملوا بدقّة» يقول الراغب فى المفردات .. المكر صرف الغير عما يقصده .. فبناء على هذا إذا نسبت هذه الكلمة إلى اللّه فإنّها تعنى إحباط المؤامرات الضارة من قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۳

الآخرين، و إذا نسبت إلى المفسدين فهى تعنى الوقوف بوجه المناهج الإصلاحية، و الحيلولة دونها.

ثمّ يعبّر القرآن عن كيفية هلاكهم و عاقبة أمرهم فيقول: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا.

فلا صوت يسمع منها و لا حركة تتردد و لا أثر من تلك الزخارف و الزبارج و النعم و المجالس الموبوءة بالذنوب و الخطايا.

أجل، لقد أذهبهم ريح عتوّهم و ظلمهم، و احترقوا بنار ذنوبهم فهلكوا جميعا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

إلّا أن الأخضر لم يحترق باليابس، و الأبرياء لم يؤخذوا بجرم الأشقياء ... بل سلم المتقون وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ

ملاحظات

۱- عقوبة ثمود

تختلف تعابير آيات القرآن فى موضوع هلاك قوم صالح «ثمود».

فتارة يأتى التعبير عن هلاكهم بالزلزلة فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ.[۶۳] و تارة يقول: «عنهم» القرآن: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ[۶۴].

و تارة يقول: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ[۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۴

إلّا أنّه لا منافاة بين هذه التعابير الثلاثة أبدا ... لأنّ «الصاعقة» هى الشعلة الكبيرة بين السحاب و الأرض المقرونة بصيحة عظيمة و اهتزاز شديد فى الأرض «ذكرنا تفصيلا عن الصيحة السماوية فى ذيل الآية ۶۷».

۲- روى بعض المفسّرين أن أصحاب صالح الذين نجوا معه كانوا أربعة آلاف رجل، و قد خرجوا بأمر اللّه من المنطقة الموبوءة بالفساد إلى حضر موت»[۶۶].

۳- «خاوية» من (الخواء) على وزن (الهواء) معناه السقوط و الهوىّ و الانهدام، و قد يأتى الخواء بمعنى الخلو ... و هذا التعبير ورد فى سقوط النجم و هويّه، إذا قالوا «خوى النجم» أى هوى.

و يرى الراغب فى المفردات أن الأصل فى «خوى» هو الخلو ... و يرد هذا التعبير فى البطون الغرثى، و الجوز الخالى، و النجوم التى لا تعقب الغيث، كان عرب الجاهلية يعتقدون أن كل نجم يظهر فى الأفق يصحبه الغيث! «المطر».

۴- روى عن ابن عباس أنّه قال: استفدت من القرآن أن الظلم يخرب البيوت و يهدمها، ثمّ استدل بالآية الكريمة فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا[۶۷].

و فى الحقيقة فإن تأثير الظلم فى تخريب البيوت و المدن و المجتمعات لا يقاس بأى شيء، فالظلم يأتى بالصاعقة المهلكة، و الظلم يزلزل و يدمر ... و الظلم له أثر كأثر الصيحة- فى السماء- المهلكة المميتة، و قد أكد التأريخ مرارا هذه الحقيقة و أثبتها، و هى أن الدنيا قد تدوم مع الكفر، إلّا أنّها لا تدوم مع الظلم أبدا.

۵- ما لا شك فيه أن عقاب ثمود «قوم صالح» كان بعد أن عقروا الناقة «قتلوها» و كما يقول القرآن فى الآيات (۶۵)- (۶۷) من سورة هود:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۵

فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ

فبناء على هـذه الآيات لم ينزل العـذاب مباشـرة بعـد المؤامرة على قتل صالـح، بل الاحتمال القوى أن الجماعـة الـذين تآمروا على قتله أهلكوا فحسب، ثمّ أمهل اللّه الباقين، فلمّا قتلوا الناقة أهلك اللّه جميع الظالمين و الآثمين الكافرين.

و هذه هى نتيجة الجمع بين آيات هذه السورة، و الآيات الواردة فى هذا الشأن فى سورتى الأعراف و هود.

و بتعبير آخر: فى الآيـات محـل البحث جـاء بيـان إهلاكهم بعـد مؤامرتهم على قتل نبيهم صالـح، أمّا فى سورتى الأعراف و هود فبيان هلاكهم بعد عقرهم الناقة.

و نتيجـة الأـمرين أنّهم حـاولوا قتل نبيّهم، فلمّا لم يفلحوا أقـدموا على قتل الناقـة (و عقرها) التى كانت معجزته الكبرى ... و نزل عليهم العذاب بعد أن أمهلوا ثلاثة أيام.

و يحتمل أيضا أنّهم أقـدموا على قتل الناقـة أولا، فلما هـدّدهم نبيّهم صالـح بنزول العـذاب بعد ثلاثة أيّام حاولوا قتله، فأهلكوا دون أن يفلحوا فى قتله ۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۶

الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۵۴ الى ۵۵]

اشارة

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵)

التّفسير

انحراف قوم لوط!

بعد ذكر جوانب من حياة موسى و داود و سليمان و صالح عليهم السّلام مع أممهم و أقوامهم، فإنّ النّبى الخامس الذى وردت الإشارة إليه فى هذه السورة: نبىّ اللّه العظيم «لوط».

و ليست هـذه أوّل مرّة يشير القرآن إلى هـذا الموضـوع، بـل تكررت الإشـارة إليه عـدّة مرّات، كمـا فى سورة الحجر، و سورة هود، و سورة الشعراء، و سورة الأعراف.

و هذا التكرار و التشابه، لأنّ القرآن ليس كتابا تاريخيا كى يتحدث عن الموضوع مرّة و لا يعود إليه .. بل هو كتاب تربوى إنسانى .. و نعرف انّ المسائل التربويـة قـد تقتضـى الظروف أحيانا أن تكرر الحادثة و يذكر بها مرارا، و أن ينظر إليها من زوايا مختلفة، و يستنتج من جهاتها المتعددة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۷

و على كل حال فإنّ حياة قوم لوط المشـهورين بالانحراف الجنسـى و العادات السـيئة المخزيـة الأخرى، كما أنّ عاقبة حياتهم الوخيمة يمكن أن تكون لوحـة بليغـة لأولئك السادرين فى شـهواتهم ... و إن سعـة هـذا التلوث بين الناس تقتضـى أن يكرر ما جرى على قوم لوط مرارا.

يقول القرآن: فى الآيتين محل البحث أوّلا: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۶۹].

«الفاحشة» كما أشرنا إليها من قبل، تعنى الأعمال السيئة القبيحة، و المراد منها الانحراف الجنسى و عمل اللواط المخزى.

و جملة وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ إشارة إلى أنّكم- يعنى قوم لوط- ترون بأم أعينكم قبح هذا العمل و آثاره الوخيمة، و كيف تلوّث مجتمعكم

من قرنه إلى قدمه به ... و حتى الأطفال فى غير مأمن من هذا العمل القبيح، فعلام تبصرون و لا تتنبهون! و أمّا ما يحتمله بعضهم من أن جملة «تبصرون» إشارة إلى أنّهم كانوا يشهدون فعل اللواط «بين الفاعل و المفعول» فهذا المعنى لا ينسجم و ظاهر التعبير، لأنّ لوطا يريد أن يحرّك «وجدانهم» و ضمائرهم، و أن يوصل نداء فطرتهم إلى آذانهم ... فكلام لوط نابع من البصيرة و رؤية العواقب الوخيمة لهذا العمل و التنبه منه.

ثمّ يضيف القرآن قائلا: أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ.

و قد ورد التعبير عن هذا العمل القبيح بالفاحشة، ثمّ وضحه أكثر لئلا يبقى أى إبهام فى الكلام، و هذا اللون من الكلام واحد من فنون البلاغة لبيان المسائل المهمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۸

و لكى يتّضح بأن الدافع على هذا العمل هو الجهل، فالقرآن يضيف قائلا:

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

تجهلون باللّه .. و تجهلون هدف الخلق و نواميسه .. و تجهلون آثار هذا الذنب و عواقبه الوخيمة، و لو فكرتم فى أنفسكم لرأيتم أن هذا العمل قبيح جدّا، و قد جاءت الجملة بصيغة الاستفهام ليكون الجواب نابعا من أعماقهم و وجدانهم، فيكون أكثر تأثيرا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۹

بداية الجزء العشرون من القرآن الكريم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۱

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۵۶ الى ۵۹]

اشارة

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (۵۷) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۵۸) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (۵۹)

التّفسير

عند ما تعدّ الطهارة عيبا كبيرا!

لاحظنا- فى ما سبق من البحوث- منطق نبى اللّه العظيم «لوط»، ذلك المنطق المتين أمام المنحرفين الملوثين، و بيانه الاستدلالى الذى كان يعنّفهم على عملهم القبيح، و يكشف لهم نتيجة جهلهم و عدم معرفتهم بقانون الخلق و بجميع القيم الإنسانية.

و الآن، لنستمع الى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطق «لوط»؟! يقول القرآن: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۲

فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكرى و السقوط الأخلاقى البعيد!.

أجل .. إنّ الطهارة تعدّ عيبا و نقصا فى المحيط الموبوء، و ينبغى أن يلقى أمثال يوسف المتعفف فى السجن، و أن يطرد آل لوط نبىّ اللّه العظيم و يبعدوا- لأنّهم يتطهرون- خارج المدينة، و أن يبقى أمثال «زليخا» أحرارا أولى مقام ...

كما ينبغى أن يتمتع قوم لوط فى مدينتهم دون حرج!.

و هـذا هو المصـداق الجلى لكلاـم القرآن فى الضـالين، إذ يقول: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ بسـبب أعمالهم السيئة المخزية.

و يحتمـل فى جملـة إِنَّهُمْ أُنـاسٌ يَتَطَهَّرُونَ أن قوم لوط لاـنحرافهم و غرقهم فى الفساد، و تطبعهم و تعودهم على التلوّث، كانوا يقولون مثل هذا الكلام من باب السـخرية و الاستهزاء .. أى إنّهم يتصورون أن أعمالنا قبيحة و غير طاهرة! و أن تقواهم من التطهر، فما أعجب هذا الكلام! إنه لمهزلة!.

و ليس هـذا غريبا أن يتبـدل إحساس الإنسان- نتيجة تطبعه بعمل قبيح- فيتغير سـلوكه و نظرته .. فقد سـمعنا بقصّة الدباغ المعروفة، إذ ورد أن رجلا كان يـدبغ الجلود المتعفنـة دائما، و تطبعت «شامّته» برائحـة الجلود «العفنـة» فمرّ ذات يوم فى سوق العطارين، فاضـطرب حاله و أغمى عليه، لأنّ العطور لا تناسب «شامّته» فأمر رجل حكيم أن يؤخذ إلى سوق الدباغين لانقاذه من الموت ...

فهذا مثال حسىّ طريف لهذا الموضوع المنطقى.

جاء فى الرّوايات أن لوطا كان يبلغ قومه حوالى ثلاثين عاما و ينصحهم، إلّا أنّه لم يؤمن به إلّا أسرته و أهله باستثناء زوجته فإنّها كانت من المشركين و على عقيدتهم ۷۰].

بـديهى أن مثل هؤلاء القوم لا أمل فى إصـلاحهم فى عالم الـدنيا، فينبغى أن يطوى «طومار» حياتهم، لـذلك تقول الآية التالية فى هذا الشأن

فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ ۷۱].

و بعد أن خرج آل لوط فى الموعد المعين «سـحر ليلة كانت المدينة غارقة فيها بالفساد» فلمّا أصـبح الصـباح نزلت عليهم الحجارة من السـماء، و تزلزلت الأرض بهم، فدفنوا جميعا تحت الحجارة و الأنقاض، و الى هذا تشير الآية الكريمة التالية وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ

و كان لنا بحث مفصل فى قوم لوط و عاقبتهم الوخيمـة و آثار الانحراف الجنسـى، فى ذيل الآيات ۷۷- ۸۳ من سورة هود، و لا حاجة إلى تكراره.

إن قانون الخلق عيّن لنا مسيرا لو سلكناه لكان ذلك مدعاة لتكاملنا و حياتنا، و لو انحرفنا عنه لكان باعثا على سقوطنا و هلاكنا.

فقانون الخلق جعل الجاذبية الجنسـية بين الجنسـين المتخالفين عاملا لبقاء نسل الإنسان و اطمئنان روحه. و تغيير المسـير نحو الانحراف الجنسى «اللواط أو السحاق» يذهب بالاطمئنان الروحى ... و النظام الاجتماعى.

و حيث أن لهـذه القوانين الاجتماعيـة جـذرا فى الفطرة، فـالتخلف «أو الانحراف» يسـبب الاضـطراب و عـدم الانسـجام فى نظام وجود الإنسان!.

فلـوط نـبىّ اللّه العظيم نبّه قومه المنحرفين إلى هـذا الأسـاس «الفطرى» فقـال لهم: أَ تَـأْتُونَ الْفاحِشَـةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِـرُونَ ! فالجهـل و عـدم معرفتكم بقانون الحياة و السفاهة هو الذى يقودكم إلى الضلال و التيه!.

فلا عجب أن تتغير سائر قوانين الخلق فى شأن هؤلاء القوم الضالين، فبـدلا من أن يغاثوا بماء من السـماء يهب الحياة يمطرون بالحجارة .. و بـدلا من أن تكون الأـرض مهـادا وثيرا لهم تضـطرب و تتزلزل و يقلب عاليها سافلها، لئلا يقتصـر الحال على هلاكهم فحسب، بل لتمحى آثارهم!.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث، و بعد بيان ما جرى على لوط و قومه

المنحرفين، يتوجه الخطاب إلى النّبى الكريم «محمّد» صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليستنتج ممّا سبق، فيقول له: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

الحمد و الثناء الخاص للّه، لأنّه أهلك أمما مفسدين كقوم لوط، لئلا تتلوث الأرض من وجودهم!.

الحمد للّه الذى أبار قوم صالح ثمود، و فرعون و قومه المفسدين، و جعل آثارهم عبرة للمعتبرين.

و أخيرا فالحمد للّه الذى أنعم و تفضل على عباده المؤمنين ... كداود و سليمان و أمثالهما، و أولاهم القوّة و القدرة، و هدى القوم الضالين كقوم سبأ.

ثمّ يضيف قائلا: وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى

سلام على موسى و صالح و لوط و سليمان و داود، و سلام على جميع الأنبياء و المرسلين و عباد اللّه الصالحين، و من والاهم بإحسان.

ثمّ يقول: آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۷۲]!! رأينا فى قصص هؤلاء الأنبياء أن الأصنام لم تستطع عند نزول البلاء أن تسعف اتباعها، أو تقوم بأدنى مساعدة لهم! غير أن اللّه سبحانه لم يترك عباده وحدهم فى هذه الخطوب، بل أعانهم بلطفه الذى لا ينفذ!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۶۰ الى ۶۴]

اشارة

أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶۰) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۶۱) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (۶۲) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۳) أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۶۴)

التّفسير

أ مع كلّ هذه الأدلة ما تزالون مشركين؟!

فى آخر آية من آيات البحث السابق، و بعد ذكر جوانب مثيرة من حياة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۶

خمسة أنبياء عظام، ألقى هذا السؤال الوجيز المتين آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ! أمّا فى الآيات محل البحث فتفصيل السؤال .. و توجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشركين و تحاكمهم، و تكشف دلائل التوحيد فى الآيات الخمس فى اثنى عشر مثلا! فالآية الأولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات و الأرض، و نزول الماء من السماء و البركات الناشئة عنه، فتقول: هل أن معبوداتكم أفضل أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ.[۷۳][۷۴] «الحدائق» جمع «الحديقة»، و هى كما يقول كثير من المفسرين: البستان الذى يحيطه الجدار أو الحائط، و محفوظ من جميع الجهات، و منها سمّيت حدقة العين حدقة لأنّها محفوظة بين الجفنين و الهدب، أمّا الراغب فيقول فى المفردات:

إنّ الحديقة تطلق فى الأصل على الأرض المجتمع فيها الماء، كما أنّ حدقة العين فيها الماء دائما.

و يستفاد من مجموع هذين الرأيين أن الحديقة بستان له جدار و ماء كاف.

و «البهجة» على وزن (لهجة) معناها الجمال و حسن الظاهر الذى يسر الناظرين.

و يتوجه الخطاب نحو العباد فى ختام الآية فيقول: ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۷

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور و تسقوا الأرض، لكن الذى جعل الحياة فى قلب البذرة، و أمر الشمس أن تشرق على الأرض، و الماء ينزل من السماء حتى تنبت البذرة فتكون شجرا، هو اللّه فحسب.

فهذه حقائق لا يمكن إنكارها، و لا أن تنسب لغير اللّه ... فهو الذى خلق السماوات و الأرض، و هو الذى أنزل الغيث من السماء، و هو مبدأ هذه البهجة و الحسن و الجمال فى عالم الحياة!.

إن مجرّد التأمل فى لون الزهرة الجميلة، و أوراقها اللطيفة المنظمة التى تشكل حلقة رائعة .. كاف أن يجعل الإنسان عارفا بعظمة الخالق و قدرته و حكمته .. فهذه الأمور تهز قلب الإنسان و تدعوه إلى اللّه.

و بتعبير آخر فإن التوحيد فى الخلق يؤدى الى «توحيد الخالق»، و التوحيد فى الربوبيّة «توحيد مدبّر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة»!.

و لذلك فالقرآن يقول فى نهاية الآية: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ و لكن هؤلاء جهلة عدلوا عن اللّه و عبدوا ما لا ينفعهم و لا يضرهم بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۷۵].

و السؤال الثّانى بحث عن موهبة استقرار الأرض و ثباتها، و أنّها مقر الإنسان فى هذا العالم، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ ۷۶] كما تحافظ على القشرة الارضية من الزلازل، كما وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً و مانعا من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

و هكذا فقد ورد فى هذه الآية ذكر أربع نعم عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض! فتقول:

إن استقرار الأرض فى الوقت الذى تتحرك بسرعة و تدور حول نفسها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۸

و حول الشمس، و تتحرك فى المنظومة الشمسية و حركة هادئة و فى وتيرة واحدة، إلى درجة أن سكّانها لا يحسّون بحركتها أبدا ... فكأنّها أوتدت فى مكان واحد! و بقيت ثابتة فلا يرى فيها أقلّ حركة.

و النعمة الأخرى وجود الجبال، التى قلنا عنها سابقا أنّها تحيط بالأرض، و جذورها متصلة بعضها ببعض كالحاجر القوى الذى يقاوم الضغوط الداخلية للأرض، و حركات الجزر و المدّ الذين يحصلان بسبب جاذبية القمر، كما أنّها تعبر مانعا امام الأعاصير و السيول من أن تدمّر الأرض بطغيانها! و النعمة الأخرى الحجاب الحاجز بين البحرين، و الحائل الطبيعى الذى يحول بين الماء المالح و الماء العذب، و هذا الحجاب- غير المرئى- هو الاختلاف فى درجة الغلظة بين الماء العذب و الماء المالح، أو كما يصطلح عليه اختلاف «الوزن النوعى» الخاص الذى يسبب عدم انحلال مياه الأنهار العظيمة العذبة التى تنصب فى البحار المالحة لمدّة طويلة، و عند حالة «المدّ» تتمدد هذه المياه العذبة على السواحل الصالحة للزراعة فتسقيها (و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع ذيل الآية ۵۳ من سورة الفرقان).

و فى الوقت ذاته جعل اللّه خلال أجزاء الأرض المختلفة أنهارا تسقى المزارع و الأحياء ... فتخضرّ البساتين و تثمّر الأشجار و بعض مصادر هذه المياه تكمن فى قمم الجبال ... و بعضها بين الطبقات الأرضيّة!.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد ولد عن طريق الصدفة العمياء الصمّاء، و المبدأ الفاقد للعقل و الحكمة؟! و هل للأصنام تأثير فى هذا النظام البديع المثير للدهشة؟! حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الادعاء! لذلك يكرر القرآن فى ختام الآية هذا السؤال: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ ! حاش للّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

السؤال الثّالث من هذه الأسئلة الخمسة التی تحکی عن محاورة و محاکمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۹

المعنویة یتحدث عن حلّ المشکلات، و فتح الطرق الموصدة، و إجابة الدعاء، إذ تقول الآیة التالیة: أَمَّنْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ یَکْشِفُ السُّوءَ.

أجل ... عند ما تغلق جمیع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان، و یبلغ النصل إلی العظم، و یغدو مضطرا حیرانا لا حیلة له، فإنّ الذی یحلّ المعضلة، و یفتح الأقفال، و یزیل السدود عن الطرق، و ینثر فی القلوب نور الأمل، و یفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحیرین، هو اللّه لا غیر!.

و حیث أنّ الناس یدرکون هذه الحقیقة بالفطرة فی اعماق نفوسهم جمیعا، فإنّ المشرکین حین یقعون بین أمواج البحر المتلاطمة ینسون جمیع معبودیهم و یتوجهون نحو لطف اللّه، کما یقول القرآن: فَإِذا رَکِبُوا فِی الْفُلْکِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ ۷۷] لذلک تضیف الآیة قائلة: إنّه لا ینقذکم من هذه المآزق و الشدائد فحسب، بل:

وَ یَجْعَلُکُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ و لکنکم لا تتعضون بهذه الدلائل .. قَلِیلًا ما تَذَکَّرُونَ ۷۸].

و حول مفهوم المضطر، و مسألة استجابه الدعاء و شروطها، بحوث ستأتی فی نهایة هذه الآیات! و المراد من خُلَفاءَ الْأَرْضِ لعله بمعنی «سکنة الأرض» و أصحابها .. لأنّ اللّه جعل الإنسان حاکما علی هذه الأرض، مبسوط الید فیها بما أولاه من النعم و أسباب الرفاه و الدعة و الاطمئنان!.

و لا سیما حین یقع الإنسان فی شدّة، فیغدو مضطرا و یتجه نحو خالقه الکریم- فیرفع بکرمه البلایا و الموانع- فتستحکم أسس هذه الخلافة و هنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۰

تتجلی العلاقة بین شطری الآیة.

کما قد یکون المراد بهذا المعنی، و هو أنّ اللّه جعل ناموس الحیاة أن یخلف قوم قوما علی الدوام، بحیث لو لم یکن هذا التناوب لم تغد الصورة متکاملة[۷۹]!.

و یثیر القرآن فی السؤال الرّابع مسألة الهدایة فیقول: هل أن الأصنام أفضل، أَمَّنْ یَهْدِیکُمْ فِی ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بواسطة النجوم وَ مَنْ یُرْسِلُ الرِّیاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ !!.

فالریاح التی تدل علی نزول الغیث، و کأنّها رسل البشری تتحرک قبل نزول الغیث، إنّها فی الحقیقة تهدی الناس إلی الغیث أیضا.

و التعبیر ب بُشْراً فی شأن الریاح، و التعبیر ب بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ فی شأن الغیث، کلاهما تعبیران طریفان لأنّ الریاح هی التی تحمل الرطوبة فی الجو و تنقل أبخرة الماء من علی وجه المحیطات بشکل قطعات من السحب علی متونها، إلی النقاط الیابسة، و تخبر عن قدوم الغیث! و کذلک الغیث الذی ینشد نغمة الحیاة علی وجه البسیطة، و حیثما نزل حلت البرکة و الرحمة[۸۰].

(ذکرنا شرحا مفصلا فی تأثیر الریاح فی نزول الغیث فی ذیل الآیة ۵۷ من سورة الأعراف).

و یخاطب القرآن فی ختام الآیة المشرکین مرّة أخری فیقول: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ ! ثمّ یضیف دون أن ینتظر الجواب قائلا- تَعالَی اللَّهُ عَمَّا یُشْرِکُونَ

أمّا فی آخر آیة من الآیات محل البحث، فیثیر القرآن السؤال الخامس فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۱

شأن المبدأ و المعاد بهذه الصورة، فیقول: هل أنّ أصنامکم أفضل، أَمَّنْ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ .. فهل بعد ذلک تعتقدون بوجود معبود غیر اللّه قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ ! و فی الواقع فإن الآیات المتقدمة کلها

كانت تتكلم على المبدأ، و ايات عظمة اللّه فى عالم الخلق و الوجود، و مواهبه و نعمه، إلّا أنّه فى الآية الأخيرة ينتقل البحث من معبر ظريف إلى مسألة المعاد، لأنّ بداية الخلق نفسها دليل على تحققها، و القدرة على بداية الخلق تعد دليلا واضحا على المعاد.

و من هنا يتّضح الجواب على السؤال الذى يثيره كثير من المفسّرين، و هو أن المشركين المخاطبين بهذه الآيات أغلبهم لم يعتقدوا بالمعاد «المعاد الجسمانى» فكيف يمكن أن يوجه إليهم هذا السؤال مع هذه الحال و يطلب منهم الإقرار.

فالجواب عليه أن هذا السؤال مقرون بدليل يسوق الطرف الآخر للإقرار، لأنّه باعترافهم أن بداية الخلق من اللّه، و هذه المواهب و النعم كلّها منه، لكى تقبل عقولهم إمكان المعاد و الرجوع الى الحياة فى يوم القيامة مرّة أخرى.

و المراد من (الرزق السماوى) هو الغيث و نور الشمس و أمثال ذلك، أمّا (الرزق الارضى) فالنباتات و المواد الغذائية المختلفة التى تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام و المعادن و المواد المختلفة التى يتمتع بها الإنسان فى حياته!.

بحوث

۱- من المضطر الذى يجاب إذا دعاه؟

مع أنّ اللّه- يجيب دعاء الجميع عند تحقق شروط الدعاء، إلّا أنّ فى الآيات آنفة الذكر اهتماما بالمضطر، و ذلك لأنّ من شروط إجابة الدعاء أن يغمض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۲

الإنسان عينيه عن عالم الأسباب كليّا، و أن يجعل قلبه و روحه بين يدى رحمة اللّه، و أن يرى كل شىء منه و له! و أن حل كل معضلة بيده، و هذه النظرة و هذا الإدراك إنّما يتحققان فى حال الاضطرار.

و صحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب و المسببات، و المؤمن يبذل منتهى سعيه و جهده فى هذا الشأن ... إلّا أنّه لا يضيع فى عالم الأسباب أبدا ... و يرى كل شىء من بركات ذاته المقدسة، و يرى من وراء الحجاب ببصره النافذ «مسبب الأسباب» فيطلب منه ما شاء!.

أجل، إذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة، فإنه يوفّر لنفسه أهم شرط لإجابة الدعاء.

الطريف أنّه قد ورد فى بعض الرّوايات تفسير هذه الآية بقيام المهدى صلوات اللّه و سلامه عليه!

ففى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «و اللّه لكأنّى أنظر إلى القائم و قد أسند ظهره إلى الحجر ثمّ ينشد اللّه حقّه ... قال و اللّه هو المضطر فى كتاب اللّه فى قوله: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ [۸۱]!

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «نزلت فى القائم من آل محمّد عليهم السّلام هو و اللّه المضطر إذا صلى فى المقام ركعتين و دعا اللّه عزّ و جلّ فأجابه و يكشف السوء و يجعله خليفة فى الأرض»[۸۲].

و لا شك أن هذا التّفسير- كما رأينا نظائره الكثيرة- لا يحصر المراد من هذه الآية بالمهدى عليه السّلام، بل مفهوم الآية واسع، و المهدى عليه السّلام واحد من مصاديقها الجليّة ... إذ الأبواب فى زمانه موصدة، و الفساد عمّ البسيطة، و البشرية فى طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۳

مسدود، و حالة الاضطرار ظاهرة فى جميع العالم .. فعندئذ يظهر الإمام فى أقدس بقعة .. فيطلب كشف السوء، فيلبى اللّه دعوته، و يجعله بداية «الظهور» المبارك فى العالم، و يستخلفه فى الأرض هو و أصحابه، فيكون مصداقا لقوله تعالى وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ

«كان لنا بحث فى شروط إجابة الدعاء و أهميته، و فى سبب عدم الإجابة، فصّلناه فى ذيل الآية (۱۸۶) من سورة البقرة»

۲- الاستدلال المنطقی فی کلّ مکان

نقرأ فی آیات القرآن- مرارا- أنّه یطالب المخالفین بالدلیل، و خاصة بقوله:

هاتُوا بُرْهانَكُمْ و قد جاء هذا النص فی أربعة مواضع البقرة: الآیة ۱۱۵، الأنبیاء: الآیة ۲۴، النمل: الآیة ۶۴، و القصص: الآیة ۷۵ کما أنّه أکّد فی مواضع أخری علی البرهان خاصة «و المراد من البرهان: أصدق دلیل».

و هذا المنطق (المطالبة بالبرهان) للإسلام یحکی عن محتواه الغنی و القوی، لأنّه یسعی لأن یواجه مخالفیه مواجهة منطقیة، فکیف یطالب الآخرین بالبرهان و هو لا یکترث به؟! فآیات القرآن المجید مملوءة بالاستدلالات المنطقیة ...

و البراهین العلمیة فی المسائل المتعددة!.

و هذا الأمر علی خلاف ما حرفته المسیحیة الیوم- و عوّلت علیه، و تری أن الدین هو ما یوحیه القلب!! و تفصل العقل عنه إذ تراه أجنبیا عنه ... حتی أنّها تؤمن بالتناقضات العقلیة کالتوحید فی التثلیث، و من هنا فقد سمحت للخرافات أن تدخل فی الدین، مع أن الدین لو خلا من العقل و الاستدلال العقلی فسوف لا یقوم دلیل علیه، و یکون ذلک الدین و ما یضادّه سواء!.

و تبرز عظمة هذا المنهج (و هو الاهتمام بالبرهان و دعوة المخالفین إلی الاستدلال المنطقی) حین نلتفت إلی أن الإسلام ظهر فی محیط یعیش الخرافات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۴

التی لا أساس لها و المسائل غیر المنطقیة فی جمیع مفاصل منظومته الفکریة و المعرفیة!!

۳- خلاصة عامّة و مرور علی الآیات السابقة

فی الآیات السابقة کان اهتمام القرآن منصبا لإثبات «توحید المعبود» علی «توحید الخالق»، و «توحید الرب» ای (توحید الخلق و توحید التدبیر) و تحدّث عن اثنتی عشرة آیة و علامة للّه العظیم فی عالم الوجود:

۱- السماء و الأرض.

۲- نزول الغیث.

۳- برکاته فی الحیاة.

۴- قرار الأرض.

۵- الأنهار.

۶- الجبال الرواسی.

۷- الحاجز بین البحرین (العذب و المالح).

۸- إجابة دعوة العباد.

۹- هدایتهم فی ظلمات البر و البحر.

۱۰- إرسال الریاح بشرا بین یدی رحمته.

۱۱- بدء الخلق و إعادته.

۱۲- رزق الإنسان «و سائر الخلق» من السماء و الأرض.

هذه المواهب «و النعم» الاثنتا عشرة بیّنت فی خمس آیات و ضمن خمسة أسئلة!. و کانت تعالج الأمور الخمسة التالیة علی التوالی:

۱- الخلق.

۲- و الاستقرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۵

۳- كشف الضرّ.

۴- الهداية.

۵- إعادة الحياة (بعد الموت).

و قد عقّب ذيل كل واحد من الأسئلة الخمسة، بقوله تعالى: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ ! و قد أوضح القرآن فى نهاية كل سؤال أمورا، فأشار فى نهاية الآية الأولى إلى انحراف المخالفين عن الحق.

و أشار فى الآية الثّانية إلى جهلهم.

و أشار فى الآية الثّالثة إلى عدم تفكيرهم! و أشار فى الآية الرابعة إلى انحطاط أفكارهم.

و طالبهم فى نهاية الآية الخامسة بالاستدلال! و قد أبدى القرآن بشكل عام مجموعة من الأسئلة الجامعة و المنسجمة بعضها مع بعض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۶

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۶۵ الى ۶۸]

اشارة

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (۶۶) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (۶۷) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۶۸)

التّفسير

لمّا كان البحث فى آخر الآيات السابقة عن القيامة و البعث، فإن الآيات- محل البحث- تعالج هذه المسألة من جوانب شتى، فتجيب أولا على السؤال الذى يثيره المشركون دائما، و هو قولهم: متى تقوم القيامة؟ و «متى هذا الوعد»؟! فتقول: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ لا شك أن علم الغيب- و منه تاريخ وقوع القيامة- خاص باللّه، إلّا أنّه لا منافاة فى أن يجعل اللّه بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده، كما نقرأ فى الآيتين (۲۶) و (۲۷) من سورة الجن عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۷

مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

و بتعبير آخر فإنّ علم الغيب بالذات، و بصورته المستقلة و المطلقة غير المحدودة، خاصّ باللّه سبحانه، و كل علوم الآخرين مسترفدة من علمه تعالى.

و لكن مسألة تاريخ وقوع القيامة مستثناة من هذا الأمر أيضا، و لا يعلم بها أحد «إلّا اللّه»[۸۳].

ثمّ يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامة و شكهم و جهلهم، فيقول: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ

«ادّارك» فى الأصل «تدارك» و معناه التتابع أو لحوق الآخر بالأوّل، فمفهوم جملة: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أنّهم لم يصلوا إلى شيء بالرغم ممّا بذلوه من تفكير، و جمعوا المعلومات فى هذا الشأن، لذلك فإنّ القرآن يضيف مباشرة بعد هذه الجملة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ لأنّ دلائل الآخرة ظاهرة فى هذه الدنيا، فعودة الأرض الميتة إلى الحياة فى فصل الربيع، و إزهار الأشجار و إثمارها مع أنّها كانت فى فصل الشتاء جرداء! ... و مشاهدة عظمة قدرة الخالق فى مجموعة الخلق و الوجود، كلها دلائل على إمكان الحياة بعد الموت، إلّا أنّهم كالعمى الذين لا يبصرون كل شيء! و بالطبع فإنّ هناك تفاسير أخر للجملة أعلاه، منها أنّ المراد من ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أن أسباب التوصل للعلم فى شأن الآخرة متوافرة و متتابعة، إلّا أنّهم عمى عنها.

و قال بعضهم: إنّ المراد منها أنّهم عند ما تكشف الحجب فى يوم الآخرة، فإنّهم سيعرفون حقائق الآخرة بشكل كاف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۸

إلّا أنّ الأنسب من بين هذه التفاسير الثلاثة هو التّفسير الأوّل حيث يناسب بقية الجمل فى الآية، و البحوث الواردة فى الآيات الأخر!.

و هكذا فقد ذكرت ثلاث مراحل لجهل المنكرين (للآخرة).

الأولى: أنّ إنكارهم و إشكالهم هو لأنّهم يجهلون خصوصيّات الآخرة «و حيث أنّهم لم يروها فهم يظنون الحقيقة خيالا».

الثّانية: أنّهم فى شك من الآخرة أساسا، و سؤالهم عن زمان تحققها ناشئ من أنّهم فى شك منها!.

الثّالثة: أن جهلهم و شكهم ليس منشؤهما أنّهم لا يملكون دليلا أو دلائل كافية على الآخرة، بل الأدلة متوفرة إلّا أن أعينهم عمى عنها!

و الآية التالية: توجز منطق منكرى القيامة و البعث فى جملة واحدة، فتقول:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ ! فهم مقتنعون بهذا المقدار، أنّ هذه المسألة بعيدة (أن يتحول الإنسان إلى تراب ثمّ يعود إلى الحياة)! مع أنّهم كانوا أوّل الأمر ترابا و خلقوا من التراب، فما يمنع أن يعودوا إلى التراب، ثمّ يرجعون أحياء بعد أن كانوا ترابا! الطريف أنّنا نواجه مثل هذا الاستبعاد فى ثمانية مواضع من القرآن، فهم يشكون فى مسألة القيامة فى المواضع آنفة الذكر بمجرّد استبعاد عودتهم إلى الحياة من «التراب» ثانية!.

ثمّ يحكى القرآن عمّا يضيفه المشركون من قول: لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ و لكن لم نجد أثرا لهذا الوعد و لن يوجد إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ

فما هى سوى خرافات و خزعبلات القدماء.

فبناء على هذا فإنّهم يبدأون من الاستبعاد ثمّ يجعلونه أساسا للإنكار المطلق ... فكأنّهم كانوا ينتظرون أن تتحقق القيامة عاجلا، و حيث أنّهم لم يشهدوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۹

ذلك فى حياتهم فهم ينكرونه.

و على كل حال، فهذه التعبيرات جميعها تدل على غفلتهم و غرورهم!.

و يستفاد- ضمنا من هذا التعبير- أنّهم أرادوا أن يسخروا من كلام النّبى فى شأن يوم القيامة، و يطعنوا عليه، فيقولوا: إن هذه الوعود الباطلة سبقت لأسلافنا، فلا جديد فيها يستحق بذل التفكير و المراجعة!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۰

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۶۹ الى ۷۵]

اشارة

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۶۹) وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۷۰) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۷۱) قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (۷۲) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (۷۳)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (۷۴) وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۷۵)

التّفسير

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن إنكار المعاندين الكفار للمعاد، و استهزائهم و تكذيبهم باليوم الآخر.

و لما كان البحث المنطقى غير مجد لهؤلاء القوم المعاندين و الأعداء الألدّاء، بالإضافة إلى ما أقامته الآيات الأخر من الدلائل الوافرة على المعاد ممّا يرى كلّ يوم فى عالم النباتات و فى عالم الأجنّة، و ما إلى ذلك، فإنّ الآيات محل البحث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۱

بدلا من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب اللّه الّذى شمل من سبقهم من الكفّار، و أنذرتهم بعقابه المخزى ... فوجهت الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ

فأنتم تعترفون أن هذه الوعود تلقّاها أسلافكم، فلم يكترثوا بها، و لم يروا ضررا .. فهلّا سرتم فى الأرض قليلا، لتشهدوا آثار هؤلاء المجرمين المنكرين للتوحيد و المعاد، و خاصة الآثار فى المناطق القريبة من الحجاز ... لتنظروا أن الأمر ليس كما تزعمون.

و لكن سيحين موعدكم فلا تعجلوا ... فأنتم كأولئك ستواجهون المصير المحتوم و العاقبة المخزية إذا لم تصلحوا أنفسكم!.

و القرآن دعا مرارا إلى السير فى الأرض، و مشاهدة آثار الماضين، و المدن الخاوية الخربة التى حاق بأهلها سوء العذاب، و قصور الظالمين المتداعية، و القبور الدارسة و العظام النخرة، و الأموال التى خلفها أصحابها المغرورون!! إنّ مطالعة تلك الآثار التى تعبّر عن التأريخ الحىّ لأولئك الماضين، توقظ القلوب الغافلة! و تبصّرها بالحق ... و الواقع كذلك، فإن مشاهدة واحد من هذه الآثار يترك فى القلب أثرا لا تتركه مطالعة عدّة كتب تأريخية!.

(كان لنا بحث مفصل فى هذا المجال ذيل الآية ۱۳۷ من سورة آل عمران).

ممّا ينبغى ملاحظته أنّه جاء فى هذه الآية التعبير ب «المجرمين» بدلا من «المكذبين» ... و هو إشارة إلى أن تكذيبهم لم يكن لأنّهم أخطأوا فى التحقيق، بل أساسه العناد و اللجاجة. و تلوثهم بأنواع الجرائم! و حيث أن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يشفق عليهم لإنكارهم، و يحزن لعنادهم، و يحترق قلبه من أجلهم، إذ كان حريصا على هدايتهم، و كان يواجه مؤامراتهم أيضا .. فإنّ الآية التالية تسرى عن قلب النّبى فتقول له: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ و لا تقلق من مؤامراتهم وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۲

إلّا أنّ هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلا من أن يأخذوا إنذار النّبى المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظوا بوعظه و يستر شدوا بنصحه، أخذوا يسخرون منه وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و مع أنّ المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ الموضوع ذكر بصيغة الجمع «إن كنتم صادقين» لأنّ المؤمنين الصادقين كانوا قد ضموا صوتهم إلى صوت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا ... فهم مخاطبون بما خوطب به كذلك! و هنا يردّ القرآن على استهزائهم و سخريتهم بلهجة موضوعية، فيقول مخاطبا نبيّه: قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ

فعلام تستعجلون؟! و علام تستصغرون عقاب اللّه؟! أ فلا ترحمون أنفسكم؟! ترى، هل عذاب اللّه ضرب من الهزل أو المزاح؟ فعسى أن يأخذكم اللّه بعذابه لكلامكم هذا فيهلككم ... فلم هذا العناد و اللجاجة؟! «ردف» فعل مشتق من (ردف) على وزن (حرف) و معناه كون الشيء خلف الشيء الآخر، و لذا يطلق على من يركب الفرس خلف صاحبه (رديف) كما يطلق الرديف على الأشخاص أو الأشياء التي تقف صفا واحدا بعضها خلف بعض.

و هناك كلام عن المراد من العذاب الذي كانوا يستعجلون به، فقيل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمة كبرى، إذ صرع من عتاتهم سبعون رجلا و أسر سبعون رجلا!.

كما و يحتمل أنّ المراد منه العقاب العام الذي دفع أخيرا، ببركة وجود النّبي إذ كان رحمة للعالمين، و الآية (۳۳) من سورة الأنفال شاهدة عليه وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ

و التعبير ب «عسى» لعله على لسان النّبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و حتى لو كان من قبل اللّه سبحانه- فعلى خلاف ما يتصوّره بعضهم، فإنّه ليس فيه أي إشكال ... إذ هو إشارة إلى وجود مقدمات الشيء و مقتضياته، مع إمكان أن تقترن هذه المقدمات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۳

بالمانع، فلا تصل إلى النتيجة النهائية (فلاحظوا بدقّة)!.

ثمّ يتحدث القرآن في الآية التالية عن هذه الحقيقة: و هي أنّ اللّه إذا لم يعجل في عقابكم، فذلك بفضله و برحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافي لإصلاح أنفسهم، فيقول: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ

و إذا كانوا يتصورون أن تأخير العقاب لعدم علم اللّه سبحانه لما يدور في خلدهم من نيات سيئة و أفكار ضالة، فهم في غاية الخطأ: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ ۸۴].

فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم و ما يعلنون، و الغيب و الشهادة عنده سيّان.

فهذه المفاهيم هي من نتاج علمنا المحدود، و إلّا فهي في مقابل غير المحدود تفقد معانيها و تتلاشى حدودها.

و هنا ذكر «علم اللّه بما تكنّ القلوب» مقدما على علمه بالأفعال الخارجية، و لعل ذلك هو بسبب أهمية النيات و الإرادة! كما يمكن أن يكون التقديم لأنّ الأفعال الخارجية ناشئة عن النيات الداخلية، و العلم بالعلة مقدم على العلم بالمعلول!.

ثمّ يضيف القرآن قائلا: إنّه ليس علم اللّه منحصرا بما تكن القلوب و ما تعلن، بل علمه واسع مطلق! وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ ۸۵].

و واضح أن «الغائبة» لها معنى واسع، فهي تحمل في مفهومها كلّ ما خفي عن حسّنا و غاب ... و تشمل أعمال العباد الخفية و النيات الباطنية، و أسرار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۴

السماوات و الأرض و قيام الناس للحساب يوم القيامة، زمان نزول العذاب، و أمثال ذلك. و لا دليل على أن نفسّر «الغائبة» هنا بواحد من هذه الأمور المذكورة آنفا- كما ذهب إليه بعض المفسّرين-.

و المراد ب «الكتاب المبين» هو اللوح المحفوظ، و علم اللّه الذي لا نهاية له، و قد بحثنا هذا الموضوع في ذيل الآية (۵۹) من سورة الأنعام.

ملاحظات

التحقيق في الآيات المتقدمة يدل على أن منكري المعاد من أجل أن يتنصّلوا من عبء الإيمان بالقيامة و المسؤوليات الناشئة عنه، كانوا يتوسلون بثلاثة طرق:

۱- استبعاد العودة للحیاة بعد أن یغدو الإنسان ترابا، لاعتقادهم أنّ التراب لا یمکن أن یکون أساسا للحیاة! ۲- قدم هذه العقیدة و عدم الجدة فیها.

۳- عدم نزول العذاب علی منکری المعاد ... لأنّه لو کان حقّا أن یبتلی المنکرون بالعذاب فلم لا ینزل علیهم! و قد ترک القرآن الجواب علی الإشکالین الأوّل و الثانی، لأنّنا نری بأم أعیننا أنّ التراب مصدر الحیاة و أساسها، و کنا فی البدایة ترابا ثمّ صرنا أحیاء! و کون الشیء قدیما لا ینقص من أهمیّته أیضا ... لأنّ قوانین هذا العالم الأصیلة ثابتة و مستقرة من الأزل حتی الأبد ... و فی الأصول الفلسفیة و المسائل الریاضیّة و العلوم الأخر أصول کثیرة ثابتة ... فهل کون امتناع اجتماع النقیضین قدیما، أو جدول ضرب فیثاغورس قدیما، دلیلا علی ضعفه؟! و إذا رأینا العدل حسنا و الظلم سیئا منذ القدم، و لا یزال کذلک، فهل هو دلیل علی بطلانه ... فکثیرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۵

ما یتفق أن القدم دلیل علی الأصالة.

و أمّا فی شأن الإشکال الثالث، فیجیب القرآن: ألّا تعجلوا .. فعدم نزول العذاب من لطف اللّه، فهو یمهلکم و لا یعذبکم عاجلا، لکن إذا جاء عذابه فلا مفرّ منه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۶

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۷۶ الی ۸۱]

اشارة

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ یَقُصُّ عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ أَکْثَرَ الَّذِی هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ (۷۶) وَ إِنَّهُ لَهُدیً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ (۷۷) إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ بِحُکْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ (۷۸) فَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ إِنَّکَ عَلَی الْحَقِّ الْمُبِینِ (۷۹) إِنَّکَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتی وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ (۸۰)

وَ ما أَنْتَ بِهادِی الْعُمْیِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ یُؤْمِنُ بِآیاتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۸۱)

التّفسیر

عمی القلوب لا یقبلون دعوتک!

کان الکلام فی الآیات السابقة عن المبدأ و المعاد ... أمّا فی الآیات- محل البحث- فیقع الکلام علی مسألة النبوّة، و حقّانیّة القرآن، لیکتمل بهما هذا البحث!.

و من جهة أخری فقد کان الکلام فی الآیات السابقة عن علم اللّه الواسع غیر المحدود، و فی الآیات محل البحث مزید تفصیل فی هذا الشأن.

أضف إلی ذلک أنّ الخطاب کان فیما سبق من الآیات موجها للمشرکین، و هنا یوجه الخطاب نحو الکفار الآخرین کالیهود و اختلافاتهم!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۷

فتقول الآیات أوّلا: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ یَقُصُّ عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ أَکْثَرَ الَّذِی هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ

لقد اختلف بنو إسرائیل فیما بینهم فی مسائل کثیرة! فقد اختلفوا فی شأن مریم و عیسی علیهما السّلام. و فی شأن النّبی الذی بشّرت به

«التّوراة» من هو؟

کما أنّهم اختلفوا فی ما بینهم فی کثیر من المسائل الدینیة و الأحکام الشرعیة ... فجاء القرآن موضحا هذه الأمور بجلاء، و قال: إن المسیح علیه السّلام عرف نفسه بصراحة ف قالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ آتانِیَ الْکِتابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیًّا[۸۶].

و قال أیضا: إنّ المسیح ولد من دون أب، و لیس أمره محالا و إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ۸۷].

و أمّا النّبی الذی بشرت به التّوراة فتنطبق أوصافه علی نبی الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لا تنطبق علی أحد سواه!.

و علی کل حال فإنّ واحدة من مهامّ القرآن هی مواجهة الاختلافات المتولّدة من اختلاط الخرافات و حقائق التعلیمات التی جاء بها الأنبیاء ... و کل نبی مسئول أن یحسم الاختلافات الناشئة من التحریف و الخلط بین الحقّ و الباطل ... و حیث أن هذا العبء لا یمکن أن ینهض به رجل أمی لم یسبق له أن یقرأ، و فی محیط جاهلی، فیتّضح أنّه مرسل من قبل اللّه! و لما کانت مواجهة الاختلافات و الوقوف بوجهها مدعاة للهدی و الرحمة، فإنّ الآیة التالیة تشیر إلی هذا «الأصل الکلی» و تقول: وَ إِنَّهُ لَهُدیً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ

أجل، إنّه هدی و رحمة من حیث حسم الخلافات و مبارزة الخرافات، هدی و رحمة لأنّ دلیل حقانیته کامن فی عظمة محتواه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۸

هدی و رحمة لأنّه یهدی إلی سبیل الحق و یدل علیه!.

و ذکر «المؤمنین» هنا خاصّة .. هو لما ذکرناه آنفا من أنّه ما لم تتوفر مرحلة من الإیمان فی الإنسان، و هی مرحلة الاستعداد لقبول الحق و التسلیم للّه، فإنّه لا یستطیع الاستفادة من هذا المصدر الإلهی الفیّاض.

و حیث أنّ جماعة من بنی إسرائیل وقفت بوجه القرآن و الحقائق الواردة فیه، لأوامر اللّه، فإنّ الآیة التالیة تقول فی شأنهم: إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ بِحُکْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ

و بالرغم من أنّ هذه الآیة لم تصرّح بأن قضاء اللّه بینهم سیکون یوم القیامة ...

إلّا أنّه بقرینة آیتین أخریین تتحدثان عن اختلافات بنی إسرائیل، و أن اللّه یقضی بینهم یوم القیامة، یتّضح أنّ مراد الآیة محل البحث هو هذا المعنی ذاته.

ففی الآیة (۱۷) من سورة الجاثیة یقول سبحانه: إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ

کما ورد فی ذیل الآیة (۹۳) من سورة یونس، هذا النص المتقدم نفسه.

و وصف اللّه «بالعزیز» و «العلیم» إشارة إلی ما ینبغی توفره فی القاضی من هاتین الصفتین، «العلم» بصورة کافیة و «القدرة» علی إجراء الحکم، و اللّه سبحانه أعلم من الجمیع و أعزّهم.

و هذا الکلام إضافة إلی أنّه یبیّن عظمة القرآن، و هو تهدید لبنی إسرائیل، فهو فی الوقت ذاته تسلیة عن قلب النّبی و تسریة عنه، لذا فالآیة التالیة تقول: فَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ

توکل علی اللّه العزیز الذی لا یغلب، و العلیم بکل شیء .. توکل علی اللّه الذی أنزل القرآن علی عظمته فجعله عندک، فتوکل علیه و لا تقلق من المشرکین و المعاندین، لأنّه یرعاک و إِنَّکَ عَلَی الْحَقِّ الْمُبِینِ

و هنا ینقدح هذا السؤال، و هو: إذا کان القرآن حقّا مبینا فلما ذا خالفوه؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۹

فالآیات التالیة تجیب علی هذا السؤال، فتقول: إذا کان أولئک لا یذعنون للحق المبین، و لا یؤثر فی قلوبهم هذا الکلام المتین، فلا مجال للعجب .. ل إِنَّکَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتی ۸۸].

بل تسمع الأحیاء الذین یبحثون عن الحق و أرواحهم توّاقة إلیه، أمّا إحیاء الموتی- أو موتی الأحیاء- لتعصبهم و عنادهم و استمرارهم علی الذنب، فلا ترهق فکرک و نفسک من أجلهم و حتی لو کانوا احیاء فإنهم صمّ لا یسمعون فلا یمکنهم أن یسمعوا صوتک، و

خاصة إذا أداروا إليك ظهورهم و ابتعدوا عنك وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

و لعلهم لو كانوا عندك و كنت تصرخ فيهم لبلغت بعض أمواج صوتك إلى مسامعهم، إلّا أنّهم مع صممهم يبتعدون عنك.

كما أنّهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، و لو ببعض العلامات، إلّا أنّهم عمى وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ

و هكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجوههم، فقلوبهم ميتة، و آذانهم صمّ موقرة، و أعينهم عمى! فأنت يا رسول اللّه إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ و يشعرون فى أنفسهم بالإذعان للحق.

و فى الحقيقة إن الآيتين- آنفتى الذكر- تتحدثان عن مجموعة واضحة من عوامل المعرفة و ارتباط الإنسان بالعالم الخارجى و هى:

«حس التشخيص»، و العقل اليقظ، فى مقابل القلب الميت.

«الأذن الصاغية» لاكتساب الكلام الحق، عن طريق السمع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۰

«و العين الباصرة» لرؤية وجه الحق و وجه الباطل، عن طريق البصر.

إلّا أن العناد و اللجاجة و التقليد الأعمى و الذنب ... كلها تعمى العين التى بها يرى الإنسان الحقيقة، و توفر سمعه، و تميت قلبه.

و مثل هؤلاء المعاندين المذنبين، لو جاء جميع الأنبياء و الأولياء و الملائكة لهدايتهم، لما أثّروا فيهم شيئا، لأنّ ارتباطهم بالعالم الخارجى مقطوع، و هم غارقون فى «مستنقع ذواتهم» فحسب!.

و نظير هذا التعبير ورد فى سورة البقرة و سورة الروم و سور أخر من القرآن (و كان لنا بحث آخر فى نعمة «و سائل المعرفة» فى تفسير سورة النحل ذيل الآية ۷۸.

و مرّة أخرى نذكّر بهذه اللطيفة و هى أنّ المراد من الإيمان و التسليم ليس معناه أنّهم قبلوا حقائق الدين من قبل، فيكون من باب تحصيل الحاصل، بل الهدف من ذلك أن الإنسان إذا لم يكن فيه شوق للحق و خضوع لأمر اللّه، فإنه لا يصغى إلى كلام النّبى أبدا.

بحثان

۱- أسباب التوكل

«التوكل» مأخوذ من «الوكالة»، و هو فى منطق القرآن يعنى الاعتماد على اللّه و جعله وليّا وكيلا، و عدم القلق و الخوف من كثرة المشاكل و الموانع و عظم حجمها، بسبب التوكل على اللّه! و هذا الأمر واحد من دلائل الإيمان المهمّة و مدعاة للنصر و التوفيق!.

و الطريف أنّ الآيات المتقدمة عدّت التوكل فى شيئين:

أحدهما: القدرة و العلم لمن يتوكل عليه الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۱

و الآخر: وضوح الطريق الذى اختاره الإنسان!.

و فى الحقيقة فإنّ القرآن يقول: لا مدعاة للضعف و الخوف و الوحشة، فأنت تعوّل على اللّه العزيز الذى لا يقهر، و العليم الخبير بكل شيء هذا من جهة .. ثمّ إنّك على الطريق الواضح و الحق اللائح من جهة أخرى .. فالمدافع عن الحق المبين علام يخاف؟! و إذا ما رأيت جماعة خالفتك فلا تحزن أبدا ... فهى لا تملك عيونا باصرة، و لا آذانا صاغية، و لا قلوبا حيّة! ... و هى خارجة أساسا عن طريق الهداية و التبليغ ... و إنّما يلتفّ حولك طلاب الحق و عشاق اللّه، و العطاشى إلى العدل حيث يخفّون نحو منبع القرآن الزلال،

لیرتووا من نمیره العذب.

۲- الموت و الحیاة فی منطق القرآن!

هناک کثیر من الألفاظ لها مـدالیل و معان شتّی بحسب النظرات المختلفـة، و من هـذه الألفاظ، لفظا الحیاة و الموت. «فالحیاة» بالنظرة المادیـة تعنی الحیاة الطبیعـة «الفیزیائیة» فحسب، أی متی کان القلب ینبض، و الدم یجری فی العروق إلی أعضاء الجسم کافة، و کانت الحرکـة و عملیـة الجـذب و الـدفع فی البـدن، کان البـدن حیا .. أمّا إذا سـکنت هذه الحرکة، فتدل علی «الموت» القطعی الذی یعرف بالاختبار الدقیق خلال عدّة لحظات!.

إلّا أنّ النظرة القرآنیـة تختلف عن النظرة المادیـة، فکثیر من الناس یعـدون أحیاء بحسب النظرة المادیـة- إلّا أنّهم أموات بحسب النظرة القرآنیـة .. کأولئک الـذین أشارت إلیهم الآیات المتقدمة .. و علی العکس منهم الشـهداء، فهم بحسب الظاهر أموات، لکنّهم بالمنطق القرآنی أحیاء خالدون! و السبب فی هذا الاختلاف بین النظرتین، هو أنّ الإسلام بالإضافة إلی أنّه یعدّ معیار الحیاة الإنسانیة و شخصیة الإنسان فی القیم الروحانیة، فهو یری فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۲

إیصال النفع الی الآخرین و عدمه معیار الوجود الحیاة و عدمها فی الإنسان.

فالإنسان الذی یری بحسب الظاهر حیّا، إلّا أنّه غارق فی الشـهوات، فلا یسـمع صـرخة لمظلوم، و لا صوتا لمنادی الحق، و لا ینظر بعین بصیرة فیری آثار اللّه فی خلقه، و لا یفکر و لو لحظة واحدة فی مستقبله و ماضیه .. فمثل هذا الإنسان میّت فی منطق القرآن. أمّا الذین ما تزال آثارهم تملأ الدنیا بعد موتهم، و أفکارهم أسوة و قدوة للآخرین، فهؤلاء أحیاء خالدون ۸۹].

و بغض النظر عن هـذه الأـمور کلّهـا .. فالإسـلام- حسب مـا لـدینا من المـدارک- یؤمن بالحیاة البرزخیـة للناس .. و العجب أن بعض الوهابیین الجهلة یصرون علی نفی أی نوع من أنواع الحیاة و العلم بعد الوفاة، حتی للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یمنعون التوسل به، لأـنّه بزعمهم میّت و لاـ أثر للمیت، و الأـعجب من ذلـک أنّهم یستندون إلی الآیـات- محل البحث- لتأییـد دعواهم!! فی حین أنّ بعضـهم الآخر یصـرّح علی أنّ للنبیّ نوعا من الحیاة البرزخیة، حیاة أشـرف من حیاة الشـهداء المصرّح بها فی القرآن، و قال: إنّه یسمع سلام المسلّم علیه ۹۰].

و الرّوایات فی هذا الشأن کثیرة وافرة عن الفریقین الشـیعة و السـنة، أن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمة المعصومین یسمعون من یسلّم علیهم من بعید أو قریب، و یردّون علیه سلامهم، کما أنّ أعمال الأمّة تعرض علیهم ۹۱].

و نقرأ فی حدیث ورد فی صـحیح البخاری فی قصّة معرکة بدر أن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله مع بعض أصحابه وقف علی «القلیب» و قد ألقیت فیه أجساد قتلی المشرکین، فناداهم بأسمائهم، و

قال: هلّا أطعتم اللّه و رسوله، لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۳

فهـل وجـدتم مـا وعـد ربّکم حقـا .. فقـال عمر: یا رسول اللّه، تکلم أجسادا لا روح فیها ... فقال صـلّی اللّه علیه و آله: «و الـذی نفس محمّد بیده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[۹۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۱۳۳

نقرأ فی قصّة الجمل عن الأصبغ بن نباتة، أنّه لما انهزم أصحاب الجمل ركب علی علیه السّلام بغلة رسول اللّه الشهباء و سار فی القتلی یستعرضـهم فمرّ ب «کعب بن سور» قاضـی البصرة و هو قتیل، فقال: أجلسوه، فأجلس. فقال: و یلمّک یا کعب بن سور، لقد کان لک علم لو نفعک .. و لکن الشیطان أضلک فأزلّک فعجلک إلی النّار[۹۳].

و نقرأ فی نهج البلاغة- أیضا- أنّه علیه السّـلام بعد رجوعه من صـفین بلغ مقبرة کانت خلف سور الکوفة، فخاطب الموتی فقال کلاما فی تقلب الدنیا ثمّ

قال: «هذا ما عندنا فما خبر ما عندکم ثمّ أضاف علیه السّلام أمّا لو أذن لهم فی الکلام لأخبروکم أن خیر الزاد التقوی»[۹۴].

و هذا بنفسه دلیل علی أنّهم یسمعون إلّا أنّهم لا یسمح لهم بالردّ .. و لو أذن لهم لأجابوا!.

فجمیع هذه التعبیرات «إشارة» إلی حیاة الإنسان البرزخیة.

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۸۲ الی ۸۵]

اشارة

وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنـا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (۸۲) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (۸۳) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸۴) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (۸۵)

التّفسير

لمّا کانت الآیـة السابقة تتحدث عن اسـتعجال الکفّار بالعذاب و نزوله، أو تحقق القیامة و انتظارهم بفارغ الصبر و وقوع ذلک، و کانوا یقولون للنّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: مَتی هـذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ و متی یوم القیامة؟! فإنّ الآیات- محل البحث- تشـیر إلی بعض الحـوادث الـتی تقـع بین یـدی القیامـة، و تجسـد عاقبـة المنکرین الوخیمـة، فتقـول: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنـا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُکَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ کانُوا بِآیاتِنا لا یُوقِنُونَ

و المراد من قوله تعالی: وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ هو صدور أمر اللّه و ما وعدهم من العقاب و الجزاء .. أو وقوع یوم القیامة و حضور علائمها، العلائم التی یخضع لها کل من یراها، و یستسلم لأمر اللّه، و یحصل عنده الیقین بأنّ وعد اللّه حق، و أن

القیامة قد اقتربت ... و حینئذ توصد أبواب التوبة ... لأنّ الإیمان فی مثل هذه الظروف یقع اضطرارا.

و بالطبع فإنّ هذین المعنیین متلازمان لأنّ اقتراب القیامة یقترن بنزول العذاب و مجازاة الکافرین.

و لکن مـا هی «دابـة الأـرض»؟ و مـا مصـداقها؟ و أیـة مهمّـة تحملهـا؟ .. فالقرآن یجمل و لا یفصل، و کأنّه یریـد أن یترک الموضوع مجملا غامضا، لیکون الکلام فیه أکثر تأثیرا و باعثا علی التهویل.

فیقول مختصرا: یخرج اللّه موجودا یتحرک «أو دابة من الأرض» بین یدی القیامة، فیتکلم مع الناس و یقول: «إنّ الناس کانوا لا یؤمنون بآیات اللّه».

و بتعبیر آخر: إنّ مهمّة هذه الدابة هی تفریق الصفوف و تمییز المنافقین و المنکرین من المؤمنین.

و بدیهی أن المنکرین یرجعون إلی أنفسـهم عند مشاهدة هذه الآیات، و یندمون علی ما سلف منهم و علی أیّامهم المظلمة، و لکن ما

عسى أن ينفعهم الندم و أبواب التوبة موصدة؟! و هناك مسائل كثيرة و مطالب و فيرة فى خصوصيات «دابة الأرض» و جزئياتها و صفاتها فى الرّوايات الإسلامية الواردة فى كتب الفريقين، الشيعة و أهل السنة، و سنتعرض إليها ذيل هذه الآيات فى باب البحوث إن شاء اللّه.

ثمّ تشير الآيات إلى علامة أخرى من علامات القيامة، فتقول: وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ

«و الحشر» معناه إخراج جماعة ما من مقرّها و السير بها نحو ميدان الحرب أو غيره! و «الفوج»، كما يقول الراغب فى المفردات: الجماعة التى تتحرك بسرعة.

و أمّا «يوزعون» فمعناه حبس الجماعة و إيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأوّل .. و هذا التعبير يطلق- عادة- على الجماعات الكثيرة، نظير ما قرأنا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ١٣۶

شأن جنود سليمان فى هذه السورة ذاتها.

فبناء على هذا يستفاد من مجموع الآية أن يوما سوف سيأتى يحشر اللّه فيه من كل أمّة جماعة، و يهيؤهم للحساب و الجزاء على أعمالهم!.

و الكثير من الأعاظم يعتقدون بأنّ هذه الآية تشير إلى مسألة الرجعة و عودة جماعة من الصالحين و جماعة من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة .. لأنّ التعبير لو كان عن القيامة لم يكن قوله «نحشر من كل أمّة فوجا» صحيحا .. إذ فى القيامة يكون الحشر عاما للجميع، كما جاء فى الآية (۴٧) من سورة الكهف قوله تعالى: وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً.

و الشاهد الآخر على أنّ الآيات هذه تتحدث عمّا يقع قبيل القيامة، هو أن الآيات التى قبلها كانت تتحدث عن الحوادث التى تقع قبل القيامة، و الآيات التى تلى الآيات محل البحث تتحدث عن الحوادث التى تقع قبيل القيامة أيضا ... فمن البعيد أن تتحدث الآيات السابقة و اللاحقة عن ما يقع قبل القيامة، و هذه الآيات محل البحث- فقط- تتحدث عن ما يقع فى يوم القيامة.

و هناك روايات كثيرة فى هذا الصدد عن مسألة الرجعة سنتناولها فى البحوث القادمة إن شاء اللّه، إلّا أن المفسّرين من أهل السنة يعتقدون أن الآية ناظرة إلى يوم القيامة، و قالوا: إنّ المراد بالفوج هو إشارة إلى رؤساء الجماعات و أئمتهم! و أمّا عدم الانسجام بين الآيات الذى يحدثه هذا التّفسير، فقالوا: إنّ الآيات بحكم التأخير و التقديم، فكأن الآية (٨٣) حقّها أن تقع بعد الآية (٨۵).

إلّا أننا نعلم أن تفسير الفوج بالمعنى الآنف الذكر خلاف الظاهر، و كذلك عدم انسجام الآيات بأنّها فى حكم التأخير و التقديم هو خلاف الظاهر أيضا.

حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِى وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٩۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ١٣٧

و قائل هذا الكلام هو اللّه سبحانه، و المراد من «الآيات» هى المعاجز التى يأتى بها الأنبياء، أو أوامر اللّه، أو الجميع!.

و المراد من جملة وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً هو أنّكم بدون أن تتحققوا و تطّلعوا على حقيقة الأمر، كذبتم الآيات، و هذا منتهى الجهل و عدم المعرفة أن ينكر الإنسان شيئا دون أن يتحقق منه!.

و فى الحقيقة فإنّهم يسألون عن شيئين.

الأوّل: تكذيبهم دون أن يفحصوا عن الحق.

و الآخر: عن أعمالهم التى كانوا يقومون بها.

و إذا كانت الآية- آنفة الذكر- تتحدث عن القيامة، فمفهومها واضح. و أمّا إذا كانت تشير إلى مسألة الرّجعة- كما يقتضيه انسجام الآيات- فهى إشارة إلى أنّه عند ما يرجع إلى هذه الدنيا طائفة من المجرمين ... فولى الأمر الذى يمثل اللّه، و هو خليفته فى الأرض،

یتحقق منهم و یسألهم عمّا فعلوه فی حیاتهم، ثمّ یجازیهم حسب ما یستحقون من الجزاء الدنیوی، و لا یمنع هذا من عذاب الآخرة، کما أن کثیرا من المجرمین ینالون الحدّ الشرعی فی هذه الدنیا، و یستوفون جزاءهم، فإذا لم یتوبوا فإنّ ما یستحقون من العقاب ینتظرهم فی الآخرة.

و بدیهی أنّ هؤلاء المجرمین لا یستطیعون الإجابة علی أیّ من هذین السؤالین، لذلک فإنّ الآیة الأخیرة من الآیات محل البحث تضیف قائلة: وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا یَنْطِقُونَ

و هذا القول أو العذاب دنیوی، إذا فسّرنا الآیة بالرجعة، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآیة بیوم القیامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۸

بحوث

۱- ما هی دابة الأرض؟!

«الدّابة» معناها ما یدب و یتحرک، و «الأرض» معناها واضح .. و خلافا لما یتصوّره بعضهم بأنّ الدّابة تطلق علی غیر الإنسان ... بل الحق أنّها ذات مفهوم واسع یشمل الإنسان أیضا، کما نقرأ فی الآیة (۶) من سورة هود وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَی اللَّهِ رِزْقُها، و فی الآیة (۶۱) من سورة النحل وَ لَوْ یُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَکَ عَلَیْها مِنْ دَابَّةٍ.

و فی الآیة (۲۲) من سورة الأنفال إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُکْمُ الَّذِینَ لا یَعْقِلُونَ

إلّا أنّه- کما ذکرنا فی تفسیر الآیة آنفا- فإنّ القرآن لا یفصّل فی بیان هذه الکلمة و إنّما یذکرها علی إجمالها، فکأنّ البناء کان علی الإجمال و الإبهام، و الوصف الوحید المذکور لها بأنّها تکلم الناس و تمیز المؤمن من غیر المؤمن ...

إلّا أنّ هناک کلاما طویلا فی الرّوایات الإسلامیة و أقوال المفسّرین فی الشأن، و یمکن تلخیص مجموعها فی تفسیرین:

۱- فطائفة تعتقد بأنّ هذه «الدابة» حیوان غیر مألوف و من غیر جنس الإنسان له شکل عجیب، و نقلوا له عجائب شبیهة بما یخرق العادات و المعاجز!.

هذه الدابة تخرج فی آخر الزمان، و تتحدث عن الإیمان و الکفر، و تفضح المنافقین و تسمهم بمیسمها! ۲- و طائفة تعتقد- حسب الرّوایات الإسلامیة الواردة فی هذا الشأن- أنّها إنسان فوق العادة- إنسان متحرک فعّال! و واحد من أفعاله الأصلیة تمییز المؤمنین عن المنافقین و وسمهم .. حتی أنّه یستفاد من بعض الرّوایات أن معه عصا موسی علیه السّلام و خاتم سلیمان .. و نحن نعرف أن عصا موسی رمز للقدرة و الإعجاز، و خاتم سلیمان رمز للحکومة و السلطة الإلهیة! فإذا هذا الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۹

رجل قویّ ذو سلطة و هیمنة! و

قد جاء فی حدیث عن «حذیفة بن الیمان» عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فی وصف هذه الدابة قوله: «لا یدرکها طالب و لا یفوتها هارب، فتسم المؤمن بین عینیه و یکتب بین عینیه مؤمن، و تسم الکافر بین عینیه و یکتب بین عینیه کافر، و معها عصا موسی و خاتم سلیمان»[۹۶].

و قد طبق هذا المفهوم فی روایات کثیرة علی «أمیر المؤمنین» علیه السّلام

ففی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ رجلا قال لعمار بن یاسر: فی القرآن آیة شغلت بالی و جعلتنی فی شک قال عمار: أیّة آیة هی؟ قال: آیة وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُکَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ کانُوا بِآیاتِنا لا یُوقِنُونَ

فیقول عمـار: و اللّه لاـ أجلس علی الأرض و لا آکل طعاما و لا أشـرب ماء حتی أریکها. ثمّ یأخـذه عمار إلی الإمام علی، و هو یأکل طعاما فلما بصر به الإمام علی ناداه فجاء عمار عنده و أکل معه!.

فتعجب الرجل و لم یصـدق هـذا المشـهد، إذ کان عمار قـد حلف و وعده أن لا یجلس علی الأرض و لا یأکل و لا یشـرب حتی یریه دابة الأرض، فکأنّه نسی وعده!.

فلمّـا قـام عمـار و ودّع علیّـا .. قال له الرجل: عجیب منک أن تقسم باللّه أن لا تأکل و لا تشـرب و لا تجلس علی الأرض، حتی ترینی دابة الأرض! ... فقال له عمار: أریتکها لو کنت تعقل ۹۷].

و نظیر هذا المعنی فی تفسیر العیاشی، إلّا أنّه ورد اسم «أبی ذر» مکان عمار[۹۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۰

و

ینقل العلّامة المجلسـی رحمه اللّه فی بحار أنواره بسـند معتبر عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: انتهی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله إلی أمیر المؤمنین علیه السّـلام و هو نـائم فی المسـجد قـد جمع رملاـ و وضع رأسه علیه، فحرّک برجله، ثمّ قـال: قم یا دابـة اللّه، فقال رجل من أصحابه: یا رسول اللّه أ نسمّی بعضنا بعضا بهذا الاسم؟

فقال لهم: «لا و اللّه ما هو إلّا له خاصّـة و هو الدابـة التی ذکر اللّه فی کتابه وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُکَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ کـانُوا بِآیاتِنـا لاـ یُوقِنُـونَ ثـمّ قـال: یـا علی إذا کـان آخر الزمـان أخرجـک اللّه فی أحسـن صـورة، و معـک میسـم تسـم به أعداءک»[۹۹].

و بناء علی هذه الرّوایة، فالآیة تنطبق علی الرجعة و تنسجم هی و الآیة التی تلیها فی الرجعة!.

و یقول المرحوم «أبو الفتوح الرازی» فی تفسیره فی ذیل الآیة: طبقا للأخبار التی جاءتنا عن طریق أصحابنا، فإن دابة الأرض کنایة عن المهدی «صاحب الزمان علیه السّلام»[۱۰۰].

و مع الأخـذ بنظر الإعتبـار لهـذا الحـدیث و الأحادیث المتقدمـة، یمکن أن یسـتفاد من دابـة الأرض مفهوم واسع، ینطبق علی أی إمام عظیم یخرج فی آخر الزمان و یمیز الحق عن الباطل.

و هذا التعبیر الوارد فی الرّوایات الاسـلامیة بأن معه عصا موسی علیه السّلام التی هی رمز القوة و الإنتصار، و خاتم سلیمان علیه السّلام الذی یرمز للحکومة الإلهیة، قرینة علی أن دابة الأرض إنسان نشط فعال فوق العادة!.

کمـا أنّ مـا ورد فی الرّوایات الإسـلامیة من أنّها تسم المؤمن بین عینیه فیکتب مؤمنا، و تسم الکافر فیکتب کافرا ینسـجم و القول بأنّها إنسان!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۱

إضافة إلی ذلک فالتصریح فی القرآن بأنّها تکلم الناس یساعد علی هذا المعنی!.

و من مجموع ما مرّ نصل هنا إلی أنّ الدّابة تطلق فی الأغلب علی غیر الناس، و قد اسـتعملها القرآن فی الأعم من الإنسان و غیره أو فی خصوص الإنسان، هذا من جهة. و من جهة أخری فالقرائن المتعددة الموجودة فی الآیة ذاتها، و الرّوایات الکثیرة فی تفسیر الآیة، تدل علی أنّ المراد من «دابة الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذکرنا له من خصائص آنفا، فهو یمیز الحق من الباطل و المؤمن من المنافق و الکافر.

إنسان یخرج فی آخر الزمان قبیل یوم القیامة، و هو بنفسه آیة من آیات عظمة الخالق!.

۲- الرجعة فی الکتاب و السنة!

من المسائل التی تجدر بالملاحظة، فی الآیات- محل البحث- ظهور بعض من هذه الآیات فی مسألة الرجعة!.

و «الرجعة» من عقائد الشیعة المعروفة، و تفسیرها فی عبارة موجزة بهذا النحو: «بعد ظهور المهدی علیه السّلام و بین یدی القیامة، یعود طائفة من المؤمنین الخلّص، و طائفة من الکفار الأشرار، إلی هذه الدنیا .. فالطائفة الأولی تصعد فی مدارج الکمال ... و الطائفة الثّانیة تنال عقابها الشدید!.

یقول «الشریف المرتضی» الذی هو من أعاظم الشیعة: إنّ الذی تذهب الشیعة الإمامیة إلیه، أن اللّه تعالی یعید عند ظهور الإمام المهدی علیه السّلام أقواما ممن کان قد تقدم موته من شیعته لیفوز بثواب نصرته و معونته و مشاهدة دولته، و یعید أیضا قوما من أعدائه لینتقم منهم، فیلتذوا بما یشاهدون من ظهور الحق و علوّ کلمة أهله!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۲

ثمّ یضیف السید المرتضی قائلا: و الدلالة علی صحة هذا المذهب أن الذی ذهبوا إلیه ممّا لا شبهة علی عاقل فی أنّه مقدور للّه تعالی غیر مستحیل فی نفسه، فإنا نری کثیرا من مخالفینا ینکرون الرجعة إنکار من یراها مستحیلة غیر مقدورة، و إذا ثبت جواز الرجعة و دخولها تحت المقدور، فالدلیل إلی إثباتها إجماع الإمامیة علی وقوعها[۱۰۱].

و یظهر بالطبع- من کلمات بعض قدماء علماء الشیعة و کذلک من کلام العلامة «الطبرسی» فی مجمع البیان- أن «الأقلیّة» القلیلة من الشیعة لا تؤمن بهذه العقیدة، أی «الرجعة» و فسّروها بعودة حکومة أهل البیت علیهم السّلام، لا رجوع الأشخاص و حیاتهم بعد موتهم فی هذه الدنیا، إلّا أنّ مخالفة هذه القلة لا تؤثر فی الإجماع.

و علی کل حال، فهنا مطالب کثیرة، و من أجل ألّا نخرج عن أسلوب بحثنا نشیر إلیها بإیجاز فی ما یلی:

۱- لا ریب أنّ إحیاء جماعة من الموتی فی هذه الدنیا لیس محالا! ... کما أن إحیاء جمیع البشر فی یوم القیامة ممکن، و التعجب من هذه المسألة کتعجب المشرکین «من أهل الجاهلیة» من مسألة المعاد، و السخریة منها کالسخریة من المعاد! ... لأنّ العقل لا یحکم علی مثل هذا الأمر بالاستحالة ... و قدرة اللّه واسعة بحیث أنّ هذه الأمور عندها سهلة یسیرة هیّنة!.

۲- جاء ذکر الرجعة فی القرآن المجید إجمالا، و وقوعها فی خمسة مواطن فی شأن الأمم السالفة.

ألف: فی ما یتعلق بالنّبی الذی مرّ علی قریة و هی خاویة علی عروشها، و عظام أهلها نخرة متفرقة هنا و هناک. فتساءل فی نفسه و قال: أَنَّی یُحْیِی هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فأماته اللّه مائة عام ثمّ أحیاه فقال له: کم لبثت؟! قال: لبثت یوما أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۳

بعض یوم قال: بل لبثت مائة عام «مؤدّی الآیة ۲۵۹- من سورة البقرة».

و سواء کان هذا النّبی عزیرا أم سواه، فلا فرق فی ذلک، المهم أنّ القرآن صرح بحیاته بعد موته فی هذه الدنیا فأماته اللّه مائة عام ثمّ بعثه!.

ب- یتحدث القرآن- فی الآیة (۲۴۳) من سورة البقرة ذاتها- عن جماعة أخری خرجت من دیارها خوفا من الموت، و امتنعت من الذهاب إلی سوح القتال بحجّة مرض الطاعون، فأماتها اللّه ثمّ أحیاها أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْیاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَشْکُرُونَ

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین لم یتحملوا وقوع مثل هذه الحادثة غیر المألوفة، و عدوها مثالا فحسب، إلّا أنّ من الواضح أنّ مثل هذه التأویلات إزاء ظهور الآیة- بل صراحتها- لا یمکن المساعدة علیه!.

ج- و فی الآیتین ۵۵ و ۵۶ من سورة البقرة أیضا، یتحدث القرآن عن بنی إسرائیل فیقول: وَ إِذْ قُلْتُمْ یا مُوسی لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی نَرَی اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْکُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْناکُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ

د- و نقرأ فی الآية (۱۱۰) ضمن معاجز عيسى قوله تعالى: وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِی

و يدل هذا التعبير على أنّ المسيح عليه السّلام أحيا الموتى فعلا، بل التعبير بالفعل المضارع (تخرج) يدلّ على أنّه أحيا الموتى مرارا، و هـذا الأمر بنفسه يعـد نوعا من الرجعة لبعضـهم! ه- و أخيرا ففی الآيتين (۷۲) و (۷۳) من سورة البقرة، إشـارة إلى مقتـل رجل من بنی إسـرائيل و وقوع الجدال و النزاع فی شأن قاتله، و ما أمرهم اللّه أن يفعلوه بضرب القتيل ببعض البقرة- الواردة خصائصها فی الآية ۷۲- إذ يقول سبحانه:

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۴

كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

و بالإضافة إلى هـذه المواطن الخمسة التی أشـرنا إليها، فهناك مواطن أخر فی القرآن، منها قصّة أصـحاب الكهف، و هی قصّة تشـبه الرجعة. و قصّة الأربعة من الطير التی أمر إبراهيم أن يذبحها فأتينه سعيا بعد ذبحهن و تفريقهن على رأس كل جبل جزءا منهنّ، ليتّضح له إمكان المعاد للناس و يكون مجسدا برجوع هذه الطيور إلى الدنيا.

و على كـل حـال! كيف يمكن أن يؤمن الشـخص بـالقرآن و أنّه كتـاب سـماوی، ثمّ ينكر هـذه الآيـات الواضـحة فی الرجعة؟ و هل الرجعة- أساسا- إلّا العودة للحياة بعد الموت؟! أو ليست الرجعة مثلا مصغرا من القيامة فی هذه الدنيا.

فمن يؤمن بالقيامـة بمقياسـها الواسع، كيف يمكنه أن يعـترض على مسألـة الرجعـة و أن يسـخر منهـا؟! و أن يقول قائـل كأحمـد أمين المصـری فی كتابه «فجر الإسلام» اليهودية ظهرت بالتشيع بالقول بالرجعة[۱۰۲].!! و أی فرق بين كلام أحمـد أمين هذا، و إنكار عرب الجاهلية لمسألة المعاد الجسمانی؟! ۳- ما ذكرناه- إلى هنا- يثبت إمكان الرجعة، و أمّا ما يؤيد وقوعها فروايات كثيرة نقلها الثقات عن أئمّـة أهل البيت عليهم السّـلام و حيث لا يسع بحثنا نقلها و التحقيق فيها، فيكفی أن نـذكر ما عـدّه المرحوم العلّامة المجلسـی فی بحار أنواره و ما جمعه منها، إذ يقول: و كيف يشك مؤمن بحقيّـة الأئمـة الأطهار عليهم السّـلام فيما تواتر عنهم فی قريب من مائتی حديث صريح ۱۰۳]، رواها نيّف و أربعون من الثقات العظام و العلماء الأعلام، فی أزيد من خمسين من مؤلفاتهم .. فإذا لم يكن مثل هذا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۵

متواترا ففی أیّ شیء يمكن دعوى التواتر[۱۰۴]؟!

۴- فلسفة الرجعة!

إنّ أهم سؤال يثار فی هـذا الصدد، هو: ما الهدف من الرجعة قبل يوم القيامة؟! و مع ملاحظة ما يسـتفاد من الرّوايات الإسـلامية من أنّ هـذا الموضوع ليس عامّا بل يختصّ بالمؤمنين الخلّص الـذين هم فی مرحلـة عاليـة من الإيمان، و الكفار و الطغاة الظلمة الذين هم فی مرحلـة منحطة من الكفر و الظلم .. فيبدو أن الرجعة لهاتين الطائفتين للدنيا ثانية هی من أجل إكمال الطائفة الأولى حلقتها التكاملية، و أن تذوق الطائفة الثّانية جزاءها الدنيوی.

و بتعبير آخر: إن الطائفة المؤمنة «خالصة الإيمان» الذين واجهوا الموانع و العوائق فی مسير تكاملهم المعنوی فی حياتهم و لم يتكاملوا الكمال اللائق باسـتعدادهم، فإنّ حكمـة اللّه تقتضـی أن يتكاملوا عن طريق الرجعـة لهـذه الـدنيا و أن يكونوا شـهداء الحكومة العالميّة للحقّ و العدل، و أن يساهموا فی بناء هذه الحكومة، لأنّ المساهمة فی بناء مثل هذه الحكومة من أعظم الفخر!.

و على عكس الطائفـة الآنفـة الـذكر، هناك طائفـة من المنافقين و الجبابرة المعانـدين، ينبغی أن ينالوا جزاءهم الـدنيوی بالإضافـة إلى جزاءهم الأخروی، كما ذاق- قوم فرعون و ثمود و عاد و قوم لوط جزاءهم- و لا طريق لأن يذوقوا عذاب الدنيا إلّا بالرجعة!.

یقول الإمام الصادق علیه السّلام فی بعض أحادیثه «إن الرجعة لیست بعامة، و هی خاصّة، لا یرجع الّا من محض الإیمان محضا، أو محض الشرک محضا»[۱۰۵].

و لعل الآیة (۹۵) من سورة الأنبیاء وَ حَرامٌ عَلی قَرْیَةٍ أَهْلَکْناها أَنَّهُمْ لا یَرْجِعُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۶

تشیر إلی هذا المعنی أیضا، لأنّها تتحدث عن عدم رجوع أولئک الذین ذاقوا عذابهم الشدید فی هذه الدنیا، فیتّضح منها أن أولئک الذین لم یذوقوا مثل هذا الجزاء ینبغی أن یرجعوا، فیذوقوا عذابهم «فلاحظوا بدقة».

کما یرد هذا الاحتمال أیضا، و هو أنّ رجعة «الطائفتین هاتین» فی ذلک المقطع الخاص من الزمان هی بمثابة درسین کبیرین و آیتین مهمتین من آیات عظمة اللّه- و مسألة القیامة و «المبدأ و المعاد»- للناس، لیبلغوا أسمی درجات الکمال المعنوی بمشاهدتهما و یزداد إیمانهم ... و لا یکونوا مفتقرین إلی شیء أبدا.

۵- و یتصور بعضهم أنّ الإعتقاد بالرجعة لا ینسجم و أصل حریة الإرادة و الإختیار عند البشر!.

و ممّا بیّناه آنفا یتّضح أنّ هذا اشتباه محض، لأنّ رجوع من یرجع إلی هذه الدنیا سیکون فی ظروف طبیعیة، و یتمتع بحریة کاملة.

و ما یقوله بعضهم بأنّه من الممکن أن یتوب الجبابرة و الکفار المعاندون بعد الرجعة و یعودوا إلی الحق، فجوابه أنّ هؤلاء الأفراد غارقون فی الظلم و الفساد و الکفر بحیث أن هذه الأمور مندمجة مع روحهم و نسیجهم و لا یتصور توبتهم!.

کما أنّ القرآن یحکی فی ردّه علی طلب أهل النّار یوم القیامة الرجوع إلی الدنیا، لیقضوا ما فاتهم و لا یعملوا السیئات ... فیقول: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ [۱۰۶] کما یتّضح الجواب علی إشکال بعضهم من أنّ الرجعة لا تنسجم مع الآیة (۱۰۰) من سورة المؤمنون لأنّه طبقا لهذه الآیة فإن المشرکین یطلبون الرجوع إلی هذه الدنیا لیعملوا صالحا، و یقول کل منهم: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ فیرد علیه بالقول: کَلَّا إِنَّها کَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۷

فالجواب علی هذا الإشکال، أن هذه الآیة عامة و الرجعة خاصة «فلاحظوا بدقة».

۶- و آخر الکلام هنا أنّ الشیعة مع اعتقادهم بالرجعة التی أخذوها عن أهل البیت علیهم السّلام فإنّهم لا یحکمون علی منکری الرجعة بالکفر، لأنّ الرجعة من ضروریّات المذهب الشیعی لا من ضروریات الإسلام.

فبناء علی ذلک فإنّ هذه المسألة لا تقطع وشائج الأخوة الإسلامیة مع الآخرین .. إلّا أن الشیعة تواصل دفاعها المنطقی عن عقیدتها هذه.

و ینبغی الالتفات إلی أن هناک خرافات تمتزج أحیانا بالرجعة فتشوّه وجهها فی نظر البعض، فینبغی أن نعول علی الأحادیث الإسلامیة الصحیحة فی الشأن، و أن نتجنب الأحادیث المطعون فیها أو المشکوکة.

و ما ذکرناه هنا خلاصة موجزة عمّا یتعلق بالرجعة، و ینبغی مراجعة الکتب التی تتحدث عن هذا الشأن لمن أراد أن یستزید و یعرف خصائص أخر للرجعة أو جزئیاتها.

و مع ملاحظة هذا المقدار الذی بیّناه یتّضح الجواب علی الحملات المسعورة من قبل أولئک الذین لم یطّلعوا علی هذا الموضوع من إخواننا أهل السنة «کما فعل «الآلوسی» فی تفسیره روح المعانی ذیل الآیات محل البحث» و أن إشکالهم علی مسألة الرجعة ناشئ من عدم تعقلهم لها حتی عدّوها أسطورة!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۸

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۸۶ الی ۸۸]

اشارة

أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۸۶) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (۸۷) وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (۸۸)

التّفسير

حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلميّة:

مرّة أخرى تتحدث هذه الآيات عن مسألة المبدأ و المعاد، و آثار عظمة اللّه، و دلائل قدرته فى عالم الوجود، و حوادث القيامة، فتقول: أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً و فى ذلك علائم و دلائل واضحة على قدرة اللّه و حكمته لمن كان مستعدا للايمان إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

و هذه ليست أوّل مرّة يتحدث فيها القرآن عن الليل و النهار الحيويّة، و نظامى النور و الظلمة، كما أنّها ليست آخر مرّة أيضا .. و ذلك لأنّ القرآن كتاب تعليم و تربية، و هو يهدف إلى بناء الشخصية الإنسانية ... و نحن نعرف أن أصول التعليم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۹

و التربية تقتضى أحيانا أن يتكرر الموضوع فى «فواصل» مختلفة، و أن يذكّر الناس به ليبقى فى الذهن كما يقال.

فالسكن أو الهدوء الذى يحصل من ظلمة الليل، مسألة علمية و حقيقة مسلّم بها، فسدل الليل ليست أسبابا إجبارية لتعطيل النشاطات اليومية فحسب، بل لها أثر عميق على سلسلة الأعصاب فى الإنسان و سائر الحيوانات، و يجرها إلى الراحة و النوم العميق، أو كما يعبر القرآن عنه بالسكون!.

و كذلك العلاقة بين ضوء النهار و السعى و الحركة التى هى من خصائص النور من الناحية العلمية- أيضا- و لا مجال للتردد فيها. فنور الشمس لا يضىء محيط الحياة ليبصر الإنسان به مأربه فحسب، بل يوقظ جميع ذرات وجود الإنسان و يوجهه إلى الحركة و النشاط!.

فهذه الآية توضح جانبا من التوحيد الرّبوبى، و لما كان المعبود الواقعى هو ربّ «عالم الوجود» و مدبّره، فهى تشطب بالبطلان على وجوه الأوثان! ... و تدعو المشركين إلى إعادة النظر فى عبادتهم.

و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة، و هى أنّ على الإنسان أن يجعل نفسه منسجما مع هذا النظام، فيستريح فى الليل و يسعى فى النهار، ليبقى نشطا صحيحا دائما ... لا كالمنقاد لهواه الذى يطوى الليل يقظا ساهرا و ينام النهار حتى الظهر!.

و الطريف أن كلمة «مبصر» نسبت إلى النهار و وصف بها، مع أنّها وصف للإنسان فى النهار، و هذا نوع من التأكيد الجميل للاهتمام بالنشاط فى النهار، كما يوصف الليل أحيانا بأنه «ليل نائم»[۱۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۰

و هذا التفاوت فى التعبير فى الآية، هو لبيان فائدة الليل و النهار، إذ جاء فى شأن الليل لِيَسْكُنُوا فِيهِ و عبر عن النهار ب (مبصر) فلعل هذا الاختلاف فى التعبير إشارة إلى أن الهدف الأصلى من وجود الليل هو السكون و الهدوء، و الهدف من الضوء و النهار ليس النظر فحسب، بل رؤية الوسائل الموصلة إلى مواهب الحياة و الاستمتاع بها «فلاحظوا بدقة».

و على كل حال، فهذه الآية و إن كانت تتكلم مباشرة عن التوحيد و تدبير عالم الوجود، إلّا أنها ربّما كانت إشارة لطيفة إلى مسألة

المعاد، لأنّ النوم بمثابة الموت، و اليقظة بمثابة الحياة بعد الموت!.

و الآيـة التاليـة تتحـدث عن مشاهـد القيامة و مقدماتها، فتقول: و اذكر يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ أى خاضعين.

و يستفاد من مجموع آيات القرآن أنّ النفخ فى الصور يقع مرّتين أو ثلاث مرات.

فالمرّة الأولى يقع النفـخ فى الصور عند نهاية الدنيا و بين يدى القيامة! و بها يفزع من فى السـماوات و الأرض إلّا من شاء اللّه! و الثّانية «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحة، و لعل هاتين النفختين واحدة.

و المرّة الثّالثة ينفخ فى الصور عند البعث و قيام القيامة .. إذ يحيا الموتى جميعا بهذه النفخة، و تبدأ الحياة الجديدة معها.

و هناك كلام بين المفسّـرين الى أنّ الآية محل البحث هل تشير الى النفخة الأولى أم الثّانية أم الثّالثة؟! .. القرائن الموجودة فى الآية و ما بعدها من الآيات تنطبق على النفختين، و قيل: بل هى تشمل الجميع.

إلّا أن الظاهر من الآية يدل على أن النفخة هنا إشارة إلى النفخة الأولى التى

تقع فى نهايـة الدنيا، لأنّ التعبير ب (فزع) و هو يعنى الخوف أو الاستيحاش الذى يسـتوعب جميع القلوب، يعدّ من آثار هذه النفخة ... و نعلم أن الفزع فى يوم القيامة هو بسبب الأعمال لا من أثر النفخة!.

و بتعبير آخر: إن ظاهر «فاء» التفريع فى «ففزع» أن الفزع ناشـئ من النفخـة فى الصور، و هـذا خاص بالنفخة الأولى، لأنّ النفخة الأخيرة ليست لا تثير الفزع فحسب، بل هى مدعاة للحياة و الحركة، و إذا حصلت حالة فهى من أعمال الإنسان نفسه!.

و أمّا ما المراد بالنفخ فى الصور،؟ هناك كلام طويل بين المفسّرين سنتناوله فى ذيل الآية (۶۸) من سورة «الزمر» بإذن اللّه!.

و أمّـا جملـة إِلَّا مَنْ شـاءَ اللَّهُ المـذكورة للاسـتثناء من الفزع العـام، فهى إشـارة للمؤمنين الصـالحين سواء كـانوا من الملائكـة أو سـائر المؤمنين فى السـماوات و الأرض، فهم فى اطمئنان خاص! لا تفزعهم النفخـة فى الصور الأولى و لا الأخرى .. إذ نقرأ فى الآيات التى تلى هذه الآيات قوله تعالى: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ

و أمّـا جملـة وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ فظاهرها عام و ليس فيه أى استثناء، حتى الأنبياء و الأولياء يخضـعون للّه و يـذعنون لمشـيئته، و إذا ما لاحظنا قوله تعالى فى الآية (۱۲۷) من سورة الصافات: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فلا منافاة بينها و بين عموم الآية محل البحث، فالآية محل البحث إشارة إلى أصل الحضور فى المحشر، و أمّا الثّانية فهى إشارة إلى الحضور للمحاسبة و مشاهدة الأعمال!.

و الآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة اللّه فى هذا العالم الواسع، فتقول:

وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَ

شَيْءٍ[۱۰۸].

فمن يكون قادرا على كل هذا النظم و الإبداع فى الخلق، لا ريب فى علمه و إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ

يعتقـد كثير من المفسّـرين أن هذه الآية تشـير إلى الحوادث التى تقع بين يدى القيامة، لأننا نعرف أن فى نهاية هذه الدنيا تقع زلازل و انفجارات هائلة، و تتلاشى الجبال و تنفصل بعضها عن بعض، و قد أشير الى هذه الحقيقة فى السور الأخيرة من القرآن كرارا.

و وقوع الآية فى سياق آيات القيامة دليل و شاهد على هذا التّفسير.

إلّا أن قرائن كثيرة فى الآيـة تؤيـد تفسيرا آخر، و هو أن الآيـة آنفـة الذكر من قبيل آيات التوحيد و دلائل عظمة اللّه فى هذه الدنيا، و تشير إلى حركة الأرض التى لا نحس بها.

و توضیح ذلک:

۱- إنّ الآیة تقول: تحسب الجبال ساکنة و جامدة مع أنّها تمرّ مرّ السحاب ..

و هذا التعبیر واضح أنّه لا ینسجم مع الحوادث التی تقع بین یدی القیامة .. لأنّ هذه الحوادث من الوضوح بمکان بحیث یعبر عنها القرآن یَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ کُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ کُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَی النَّاسَ سُکاری وَ ما هُمْ بِسُکاری [۱۰۹] ۲- تشبیه حرکة الجبال بحرکة السحاب یتناسب مع الحرکات المتناسقة الهادئة، و لا یتناسب و الإنفجارات العظیمة التی تصطک منها المسامع!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۳

۳- التعبیر الآنف الذکر یدلّ علی أنّه فی الوقت الذی تری الجبال بحسب الظاهر جامدة، إلّا أنّها فی الواقع تتحرک بسرعة «علی حالتها التی تری فیها جامدة» أی أن الحالتین تبینان شیئا واحدا.

۴- و التعبیر ب «الإتقان» الذی یعنی الإحکام و التنظیم، یتناسب زمان استقرار نظام العالم، و لا یتناسب و زمان انهیاره و تلاشیه.

۵- جملة إِنَّهُ خَبِیرٌ بِما تَفْعَلُونَ مع ملاحظة أنّ «تفعلون» فعل مضارع، تدل علی أنّها تتعلق بهذه الدنیا، لأنّها تقول: إن اللّه خبیر بأعمالکم التی تصدر فی الحال و المستقبل. و لو کانت ترتبط بانتهاء العالم، لکان ینبغی أن یقال: إنّه خبیر بما فعلتم. «فتأملوا بدقّة».

و یستفاد من مجموع هذه القرائن أنّ هذه الآیة تکشف عن إحدی عجائب الخلق، و هی فی الواقع تشبه ما جاء فی الآیتین آنفتی الذکر: أَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّیْلَ لِیَسْکُنُوا فِیهِ

و بناء علی ذلک فالآیات محل البحث قسم منها فی التوحید، و قسم منها فی المعاد!.

و ما نستنتجه من هذا التّفسیر، هو أن هذه الجبال التی نتصورها ساکنة «جامدة» هی فی سرعة مطرّدة فی حرکتها ... و من المقطوع به أنّه لا معنی لحرکة الجبال من دون حرکة الأرض المتصلة بها، فیتّضح من الآیة أنّ الأرض تتحرک کما یتحرک السحاب!.

و وفقا لحسابات علماء الیوم فإنّ سرعة حرکة الأرض حول نفسها تقرب من (۳۰) کیلومتر فی کل دقیقة، و سرعة سیرها فی حرکتها الانتقالیة حول الشمس أکثر من هذا المقدار ...

لکن علام عنی بالجبال دون غیرها؟ لعل ذلک إنّما هو لأنّ الجبال یضرب بها المثل لثقلها و قرارها، و تعدّ مثلا حسنا لبیان قدرة اللّه سبحانه، فحیث أن هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۴

الجبال علی عظمتها و ما فیها من ثقل، تتحرک کالسحاب بأمر اللّه «مع الأرض» فقدرته علی کل شیء «بینة، و ثابتة»!.

و علی کل حال، فالآیة آنفة الذکر تعدّ من معاجز القرآن العلمیة ... لأننا نعلم أن أوّل العلماء الذین اکتشفوا حرکة کرة الأرض هو «غالیو» الإیطالی و «کبرنیک» اللذین أظهرا هذه الحقیقة للملأ فی أواخر القرن السادس عشر و أوائل القرن السابع عشر! بالرغم من أن رجال الکنیسة حکموا علیهما حکما صارما، و تعرضا لمضایقات کثیرة ..

إلّا أنّ القرآن کشف الستار عن وجه هذه الحقیقة قبل ذلک بألف عام تقریبا و بیّن حرکة الأرض بالأسلوب الآنف الذکر علی أنّها بعض أدلة التوحید! و یری بعض فلاسفة الإسلام، فی الوقت الذی یقبلون فیه التّفسیر الثانی، و هو الإشارة إلی حرکة الجبال فی هذا العالم، أن الآیة ناظرة إلی «الحرکة الجوهریة» فی الأشیاء، و اعتقدوا أنّ الآیة منسجمة و النظریة المعروفة بالحرکة الجوهریة و مؤیدة لها[۱۱۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۵

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۸۹ الی ۹۳]

اشارة

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

التّفسير

آخر ما أمر به النّبی!

کان الکلام فی الآیات السابقة عن أعمال العباد و علم اللّه بها .. أمّا الآیات محل البحث فیقع الکلام فی مستهلّها عن جزائهم و ثواب أعمالهم و أمنهم من فزع یوم القیامة، إذ یقول سبحانه: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ

و هناک اختلاف بین تعبیرات المفسّرین فی المراد من «الحسنة» فی هذه الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۶

ففسّرها بعضهم بکلمة التوحید «لا إله إلّا اللّه» و الإیمان باللّه.

و فسّرها بعضهم بولایة أمیر المؤمنین علیه السّلام و الأئمّة من أهل البیت علیهم السّلام، و قد ورد التأکید علی هذا المعنی فی الرّوایات المتعددة عن أهل البیت، و من جملتها ما

جاء فی روایة عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه دخل أبو عبد اللّه الجدلی علی أمیر المؤمنین علیه السّلام فقال: یا أبا عبد اللّه أ لا أخبرک بقول اللّه عزّ و جلّ: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال: بلی یا أمیر المؤمنین جعلت فداک، فقال: «الحسنة معرفة الولایة حبّنا أهل البیت، و السیئة إنکار الولایة و بغضنا أهل البیت ثمّ قرأ علیه السّلام الآیة»[۱۱۱].

و بالطبع فإنّ معنی الآیة واسع- و قد أشرنا إلی ذلک مرارا- کما أنّ الحسنة هنا معناها واسع أیضا ... فهی تشمل الصالحات و الأعمال الخالصة، و من ضمنها الإیمان باللّه و برسوله و ولایة الأئمّة من أهل البیت علیهم السّلام، التی تعدّ فی طلیعة الأعمال الحسنة، و لا یمنع أن تکون هناک أعمال صالحة أخری تشملها الآیة.

أمّا ما أورده بعضهم بأنّه: علی فرض العموم فی «الحسنة» فسوف تشمل الإیمان باللّه و هل هناک خیر من الإیمان حتی یقول سبحانه: من جاء بالحسنة فله خیر منها؟

فالجواب علی هذا الإشکال واضح ... لأنّ رضا اللّه خیر من الإیمان. و بتعبیر آخر: جمیع هذه الأمور مقدمة له ... و ذو المقدمة خیر من المقدمة!.

و هناک سؤال آخر یثار هنا، و هو أن ظاهر بعض الآیات- کالآیة ۲ من سورة الحج- أنّ الفزع یعمّ الجمیع فی یوم القیامة، فکیف أستثنی أصحاب الحسنات منه؟.

فالآیة (۱۰۳) من سورة الأنبیاء توضح الجواب علی هذا السؤال فتقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۷

لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكَمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

و «الفزع الأكبر»- هو كما نعلم- فزع يوم القيامة، و فزع الدخول فى نار جهنّم- أعاذنا اللّه منها- لا الفزع الحاصل من النفخة فى الصور «فلاحظوا بدقّة».

ثمّ يتحدث القرآن عن الطائفة الأخرى التى تقابل أصحاب الحسنات فتقول: وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ.

و ليس لهذه الطائفة أىّ توقع غيرها هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و «كبت» مأخوذ من «كبّ» على وزن «جدّ» و معناه فى الأصل إلقاء الشيء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإنّ ذكر «وجوههم» فى الآية هو من باب التوكيد!.

و إلقاء هذه الطائفة على وجوهها فى النّار من أسوأ أنواع العذاب. إضافة إلى ذلك، فإنّ أولئك حين كانوا يواجهون الحقّ يلوون وجوههم و رؤوسهم، و كانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين ... فالآن لا بدّ أن- يبتلوا بمثل هذا العذاب.

و جملة هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لعلها جواب على سؤال يلقى هنا، و هو ما لو قيل: إنّ هذا الجزاء «العقاب» شديد، فيجاب: بأنّ هذا الجزاء إن هو إلّا عملك فى الدنيا، فهل تجزون إلّا ما كنتم تعلمون «فلاحظوا بدقة».

ثمّ يوجه الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآيات الثلاث من آخر هذه السورة، و يؤكّد له هذه الحقيقة و هى أن يخبر أولئك المشركين بأن عليه أن يؤدى رسالته و وظيفته ... سواء آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآية الأولى من هذه الآيات: إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ.

هذه البلدة المقدسة التى يتلخّص كل وجودكم و شرفكم بها ... البلدة المقدسة التى كرمها اللّه و كرّمكم بما أنزل فيها من البركات .. إلّا أنّكم بدل أن تشكروا نعمة اللّه كفرتم بها! البلدة المقدسة التى هى حرم أمن اللّه، و أشرف بقعة على وجه الأرض، و أقدم معبد للتوحيد!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۸

أجل ... أعبد ربّ هذه البلدة المقدسة الَّذِى حَرَّمَها و جعل لها خصائص و أحكاما و حرمة، و أمورا أخر لا تتمتع بها أية بلدة أخرى فى الأرض!.

لكن لا تتصوروا أن هذه البلدة وحدها للّه، بل له كل شى فى عالم الوجود وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ.

و الأمر الثّانى الذى أمرت به هو أن أسلم وجهى له وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

و هكذا فإن الآية بيّنت وظيفتين أساسيتين على النّبى و هما (عبادة الواحد الأحد، و التسليم المطلق لأمره).

و الآية التالية تبيّن أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ

أتلوه فأستضىء بنوره، و أنتهل من عذب معينه الذى يهب الحياة! و أن أعول فى جميع مناهجى على هديه. أجل .. فالقرآن وسيلتى للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، و المواجهة لكل أنواع الشرك و الانحراف و الضلال و مكافحتها، ثمّ تعقب الآية لتحكى عن لسان الرسول و هو يخاطب قومه: لا تتصوروا أنّكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسى، كما أن اللّه غنى عنكم، بل فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ

و كل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية، كانت أم أخروية فهى عائدة للمهتدى نفسه و العكس صحيح وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ

و عواقبه الوخيمة لا تصيبنى ... فوظيفتى البلاغ و الإنذار و إراءة سبيل الحق، و الإصرار على أن تسلكوا سبيل الحق، إلّا أنّ من أراد أن يبقى فى طريق الضلال، فإنّما يشقى وحده، فيكون من الخاسرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۹

الطريف أنّ القرآن يقول في شأن الهداية: فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ و لكنّه لا يقول في شأن الضلال: و من ضل فضرره عليه، بل يقول: فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ

و هذا الاختلاف في التعبير لعله إشارة إلى أنّ النّبي عليه السّلام يقول: إنّي لا أسكت بوجه الضالين أبدا، و لا أتركهم على حالهم، بل أظلّ أنذرهم و أواصل الإنذار و لا أعيا عن ذلك، لأنني من المنذرين (بالطبع هناك آيات وردت في القرآن في شأن الهداية و الضلالة، و فيها التعبير «لنفسه و عليها» للموضوعين ... كقوله تعالى:

فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فعليها لكننا نعلم أنّ هذا الاختلاف في التعبيرات منسجم مع اختلاف المقامات، و ربّما جاء لإلقاء المعاني المختلفة و المتفاوتة)! و الجدير بالذكر أنّ هذه السورة شرعت ببيان أهمية القرآن، و انتهت بالأمر بتلاوته، فبدايتها و نهايتها عن القرآن.

و الأمر الأخير- في آخر آية من هذه السورة- موجه للنبيّ أن يحمد اللّه على هذه النعم الكبرى، و لا سيما نعمة الهداية فيقول: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ هذا الحمد أو الثناء يعود لنعمة القرآن، كما يعود للهداية أيضا، و يمكن أن يكون مقدمة للجملة التالية سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها.

و هذا التعبير إشارة إلى أنّه مع مرور الزمان و تقدم العلم و المعرفة، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، و يرفع ستار جديد عنها .. و ستعرفون نعم اللّه و عظمة قدرته و عمق حكمته يوما بعد يوم .. و إراءة الآيات هذه مستمرّة دائما و لا تنقطع مدى عمر البشر. إلّا أنّكم إذا واصلتم طريق الخلاف و الانحراف، فلن يترككم اللّه سدى و ما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۰

و لا تتصوروا بأنّ اللّه إذا أخر عقابكم بلطفه، فهو غير مطلع على أعمالكم، و أنّها لا تسجل في اللوح المحفوظ.

و جملة وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ الواردة بنفسها أو مع شيء من التفاوت اليسير في تسع آيات من القرآن جملة موجزة، و هي تهديد ذو معنى عميق، و إنذار لجميع الناس.

و الحمد للّه رب العالمين نهاية سورة النمل

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۱

سورة القصص

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثمان و ثمانون آية

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۳

«سورة القصص»

محتوى سورة القصص:

المعروف أنّ هذه السورة نزلت بمكّة، و بإمكاننا ملاحظة أنّ محتواها الكلي و خطوطها العامّة الأساسيّة على شاكلة السور المكّية[۱۱۲] غير أن بعض المفسّرين استثنوا الآية ۸۵ أو الآيات ۵۱- ۵۵ من هذه السورة معتقدين أن الآية الأولى «۸۵» نزلت بالجحفة- و هي منطقة بين مكّة و المدينة- و أمّا الآيات الأربع الأخرى فيقولون: إنّها نزلت بالمدينة. و لا يوجد دليل واضح على كلامهم ..

و لعل محتوى الآيات الخمس التي تتحدث عن أهل الكتاب. (و كان أكثر أهل الكتاب يقطنون في المدينة). كان سببا لمثل هذا

التصور. فى حين أن نزول الآيات القرآنية فى مكّة لا يعنى إنّها لا بدّ أن تتحد عن المشركين فى مكّة فحسب، و خاصّة أن أهالى مكّة و المدنيّة كانت لهم رحلات متقابلة و علاقات و روابط قبلية و تجارية. و بالطبع فإن المفسّرين ذكروا سببا آخر لنزول الآيات ۵۲- ۵۵ يتناسب مع كونها مدينة، و سنتحدث، عن ذلك فى محله إن شاء اللّه ..

أمّا الآية (۸۵) التى تتحدث عن عودة النّبى إلى موطنه الأصلى، أى «مكّة» فلا مانع من أن تكون نزلت حين خروجه و هجرته من مكّة على مقربة من هذه الأرض المقدسة ... لأنّ النبى كان فى غاية الشوق و الحنين لمكّة بلد اللّه الحرام الآمن، و اللّه سبحانه يبشره فى هذه الآية بأنّه سيردّه إلى معاده «مكّة المكرمة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۴

فعلى هذا الأساس يمكن أن تكون هذه الآية- المشار إليها آنفا- مكيّة، و لو فرضنا أنّها نزلت «بالجحفة» فهى إلى مكّة أقرب منها إلى المدينة.

و على هذا الأساس- أيضا- لا يمكن- فى تقسيم الآيات إلى مكّية و مدنية- إلّا أنّ نعد هذه الآية (۸۵) مكّية! ..

أجل .. هذه السورة نزلت فى مكّة ... و فى ظروف كان المؤمنون فى قبضة الأعداء الأقوياء و بين مخالبهم .. الأعداء الذين كانوا أكثر عددا و أشدّ قدرة و قوّة و نفيرا ..

فهؤلاء الأقلية من المؤمنين و المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأة هذا التصور بحيث كان جماعة من المسلمين قلقين على مستقبل الإسلام و خائفين من أجله. و بما أنّ هذه الحالة كانت كثيرة الشبه بالحالة التى كان عليها بنو إسرائيل و هم بين مخالب الفراعنة، فإنّ قسما من محتوى هذه السورة يتحدث عن قصّة بنى إسرائيل و موسى عليه السّلام و الفراعنة ..

و لعل هذا القسم يستوعب نصف هذه السورة تقريبا .. خاصة أنّها تتحدث عن فترة كان موسى طفلا ضعيفا رضيعا فى قبضة الفراعنة ... و لكنّ تلك القدرة التى تستوعب عالم الوجود كلّه- و لا تقف أية قوّة أمامها- تكفلت هذا الطفل الضعيف و رعته و هو فى أحضان أعدائه الأقوياء، حتى منحته قدرة و قوّة قصوى قهرت سلطان الفراعنة و نكّست تيجانهم و قلبت قصورهم!!.

هكذا تتحدث هذه السورة ليطمئن المسلمون إلى لطف اللّه و قدرته، و لا يرهبوا كثرة الأعداء و قوّتهم، و لا يخافوا من الطريق ذاته! ..

أجل .. القسم الأوّل من هذه السورة يتضمن هذا التاريخ المليء بالدروس و العبر و يبشر المستضعفين فى بداية السورة بحكومة الحق و العدل لهم و كسر شوكة الظالمين، بشرى تمنحهم الاطمئنان و القدرة.

تتحدث هذه السورة عن أن بنى إسرائيل كانوا مصفدين بأغلال أعدائهم ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۵

داموا بعيدين عن خيمة الإيمان و التوحيد، و فاقدين لأى نوع من أنواع الحركة و النهوض و السعى الذى يتحدّون به أعداءهم، لكن ما إن وجدوا قائدهم و نوّروا قلوبهم بنور العلم و التوحيد حتى أغاروا على الفراعنة و سيطروا على الحكم و حرروا أنفسهم من نير الفراعنة.

و «القسم الآخر» من هذه السورة يتحدّث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثرى الذى كان يعتمد على علمه و ثروته ... حتى لقى أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود! أحدهما غريق فى الماء و الآخر دفين فى الأرض .. و ذلك معتمد على سلطانه و جيشه فى حكمه، و هذا معتمد على ماله و ثروته! ليتّضح أنّه لا يمكن لتجار مكّة و أثريائهم و لا لأقويائهم من المشركين، و لا سياسيّيهم فى ذلك المحيط، أن يقاوموا إرادة اللّه فى انتصار المستضعفين على المستكبرين.

و هذا القسم جاء فى أواخر السورة.

و بين هذين القسمين دروس حيّة و قيّمة من التوحيد و المعاد و أهمية القرآن، و بيان حال المشركين فى يوم القيامة، و مسألة الهداية و الضلالة، و الإجابة على حجج الأفراد الضعاف، و هى فى الحقيقة «نتيجة» الأوّل و «مقدمة» للقسم الثاني.

فضيلة تلاوة سورة القصص:

نقرأ فى بعض الأحاديث الواردة عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «من قرأ طسم القصص أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسى و كذب به، و لم يبق ملك فى السماوات و الأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقا»[۱۱۳].

كما

ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الطواسين الثلاث فى ليلة الجمعة كان من أولياء اللّه، و فى جواره و كنفه، لم يصبه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۶

فى الدنيا بؤس أبدا، و أعطى فى الآخرة حتى يرضى و فوق رضاه، و زوجه اللّه مائة زوجة من الحور العين»[۱۱۴].

و بديهى أن كلّ هذا الأجر و الثواب هو لأولئك الذين يقفون جنبا إلى جنب مع أصحاب موسى عليه السّلام و المؤمنين الصادقين- عند قراءة هذه السورة- ليبارزوا فراعنة عصرهم و قارون زمانهم، و لا يقبعون فى الأجحار أو يطأطئون رؤوسهم.

عند مواجهتهم الأخطار و المشاكل و الأعداء، و لا يضيّعون مواهبهم ليستغلّها الآخرون ..

هذا الأجر خاص لمن يقرءون و يتفكرون، و على ضوء هذه السورة يخططون لحياتهم و عملهم ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۷

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (۱) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۳) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (۴)

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (۵) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (۶)

التّفسير

المشيئة الالهية تقتضى انتصار:

هذه هى المرّة الرابعة عشرة التى نواجه بها بدايات السورة «بالحروف المقطعة» فى القرآن، و قد تكررت فيها طسم ثلاث مرات، و هى هنا- أى «طسم»- ثالث المرات و آخرها ..

و قد بيّنا مرارا و تكرارا أنّ للحروف المقطعة من القرآن تفاسير متعددة و مختلفة، و قد ذكرناها و بحثناها بحثا وافيا فى بدايات سور «البقرة» و «آل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۸

عمران» و «الأعراف».

و علاوة على ذلك كلّه فإنّه يظهر من كثير من الرّوايات فى شأن طسم أن هذه الحروف إشارات موجزة عن صفات اللّه سبحانه و تعالى، أو أنّها أماكن مقدسّة .. و لكنّها فى الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التّفسير المعروف الذى أكّدنا عليه مرارا، و هو أنّ اللّه تعالى يريد أن يوضح هذه الحقيقة للجميع، و هى أنّ هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس التغيير الكبير فى تأريخ البشرية و حامل المنهج المتكامل للحياة الكريمة للإنسانيّة يتشكّل من أمور بسيطة كهذه الحروف «ألف باء ...» التى يستطيع أن يتلفظ بها كل صبّى.

و من هنا تتجلى عظمة القرآن و أهميته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطة التى هى فى اختيار الجميع.

و لعل هذا السبب كان داعيا لأن يكون الحديث بعد «الحروف المقطّعة» مباشرة عن عظمة القرآن، إذ يقول: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ و بالرغم من أن الْكِتابِ الْمُبِينِ جاء بمعنى اللوح المحفوظ كما قد ورد فى الآية (۶۱) من سورة يونس وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ و الآية السادسة من سورة هود كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ و لكنّه جاء بمعنى القرآن فى الآية محل البحث بقرينة ذكر «الآيات» و كذلك جملة نَتْلُوا عَلَيْكَ الواردة فى الآية التى بعدها ..

و قد وصف القرآن هنا بكونه «مبين» و كما يستفاد من اللغة فإنّ كلمة «مبين» تستعمل فى المعنيين «اللازم و المتعدى»، فهو واضح فى نفسه و موضّح لغيره، و القرآن المجيد بمحتواه المشرق يميّز الحق عن الباطل، و يبيّن الطريق اللاحب من الطريق المعوّج ١١٥].

و القرآن بعد ذكر هذه المقدّمة القصيرة يحكى قصّة «فرعون» و «موسى» فيقول: نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۹

التعبير ب «من» التى هى للتبعيض إشارة إلى هذه اللطيفة الدقيقة، و هى أن ما ورد- هنا فى القرآن- من هذه القصّة ذات الأحداث الكبيرة يتناسب و ما تقتضيه الضرورة فحسب ..

و التعبير «بالحق» إشارة إلى أنّ ما ورد هنا خال من كل خرافة و أسطورة، و بعيد عن الأباطيل و الأكاذيب .. فهى إذن تلاوة مقترنة بالحق و الواقعية ..

و التعبير ب لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هو تأكيد على هذه الحقيقة، و هى أنّ مؤمنى ذلك العصر الذين كانوا يرزخون تحت ضغوط المشركين و الأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، و هى أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم و تزايدوا عددا و عددا، و أن المؤمنين مهما قلّوا و كانوا تحت ضغط أعدائهم و كانوا ضعافا بحسب الظاهر، فلا ينبغى أن يهنوا و ينكصوا عن طريق الحق، فكل شيء عند اللّه سهل يسير!

..

اللّه الذى ربّى «موسى» فى أحضان «فرعون» لإبادته و تدميره .. اللّه الذى أوصل العبيد و المستضعفين إلى أن يكونوا حاكمين فى الأرض، و أذل الجبابرة و المستكبرين و أبادهم.

اللّه الذى رعى الطفل الرضيع بين أمواج النيل فحفظه و نجاه و أغرق آلاف الفراعنة الأقوياء فى تلك الأمواج .. هو قادر على أن ينجيكم «أيّها المؤمنون» ..

أجل، إنّ الهدف الأصل من هذه الآيات هم المؤمنون و هذه التلاوة لأجلهم، و المؤمنون الذين يستلهمون من معانى هذه الآيات و يشقّون طريقهم- وسط زحام المشاكل و الأخطار- باطمئنان.

كان ذلك فى الحقيقة بيانا إجماليا، ثمّ يفصّل القرآن ما أجمله بقوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ

فقد كان عبدا ضعيفا، و على أثر جهله و عدم معرفته أضاع شخصيته و وصل إلى مرحلة من الطغيان حتى أنّه ادّعى الرّبوبية .. و التعبير ب «الأرض» إشارة إلى أرض مصر و ما حولها .. و حيث أن القسم المهم العامر من الأرض فى ذلك العصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۰

كان «مصرا» فقد جاء التعبير بالأرض بصورة مطلقة.

و يحتمل أيضا أنّ الألف و اللام للعهد أى «أرض مصر».

و على كل حال فإنّ فرعون- من أجل تقوية قواعده الاستكبارية- قد أقدم على عدّة جرائم كبرى! ..

فالجريمة الأولى، أنّه فرّق بين أهل مصر وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً و هى سياسة معروفة و متبعة على امتداد التاريخ، و عليها يستند المستكبرون فى حكمهم، فلا يمكن أن تحكم الأقلية- التى لا تعدّ شيئا- على الأكثرية إلّا بالخطة المعروفة «فرّق تسد» فهم مستوحشون من «كلمة التوحيد» و «توحيد الكلمة» و يخافون منهما أبدا- و يخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض، و لذلك يلجأون إلى الطبقية فى الحكم، فهذه الطريقة وحدها تتكفل بقاءهم فى الحكم، كما صنعه فرعون فى أهل مصر، و يصنعه الفراعنة فى كل عصر و مصر.

أجل، إنّ فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتى «الأقباط» و «الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه و الراحة، و كانت فى أيديهم القصور و دوائر الدولة و الحكومة.

و «الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بنى إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد و الخدم «فى قبضة الأقباط»! و كانوا محاطين بالفقر و الحرمان، و يحملون أشدّ الأعباء دون أن ينالوا من وراء ذلك نفعا [و التعبير بالأهل فى شأن الطائفتين الأقباط و الأسباط هو لأنّ بنى إسرائيل كانوا قد سكنوا مصر مدّة طويلة فكانوا يعدّون من أهلها حقيقة!].

و حين نسمع أن بعض الفراعنة يستعمل مائة ألف مملوك من العبيد لتشييد مقبرة خلال عشرين سنة (كما هى الحال بالنسبة إلى هرمخوفو المعروف الكائن بمقربة من القاهرة عاصمة مصر) و يموت فى سبيل ذلك آلاف العبيد و المماليك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۱

على أثر الضرب بالأسواط و تحت ضغط العمل الشاق، ندرك جيدا الحالة الارهابية السائدة فى ذلك المجتمع ...

و الجريمة الثّانية هى استضعافه لجماعة من أهل مصر بشكل دموى سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ

فقد كان أصدر أمرا بأن يراقبوا الأطفال الذين يولدون من بنى إسرائيل، فإن كانوا ذكورا فإنّ حظهم الذبح، و إن كانوا إناثا فيتركن للخدمة فى المستقبل فى بيوت الأقباط.

و ترى ماذا كان يهدف فرعون من وراء عمله هذا؟! المعروف أنّه رأى فى منامه أن شعلة من النّار توهجت من بيت المقدس و أحرقت جميع بيوت مصر، و لم تترك بيتا لأحد من الأقباط إلّا أحرقته، و لكنّها لم تمسّ بيوت بنى إسرائيل بسوء، فسأل الكهنة و المعبرين للرؤيا عن تأويل ذلك، فقالوا له: يخرج رجل من بيت المقدس يكون على يديه هلاكك و زوال حكومة الفراعنة[۱۱۶].

و أخيرا كان هذا الأمر سببا فى عزم فرعون على قتل الرضّع من الأطفال الذكور من بنى إسرائيل ۱۱۷].

كما يحتمل- أيضا- أنّ الأنبياء السابقين بشّروا بظهور موسى عليه السّلام و خصائصه، و قد أحزن الفراعنة خبره، فلمّا اطّلعوا على هذا الأمر أقدموا على التصدى له ۱۱۸].

و لكون ورود جملة يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ بعد جملة يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۲

فإنّ مسألة أخرى تتجلّى أمامنا، و هى أنّ الفراعنة اتّخذوا خطة لاستضعاف بنى إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنوا إسرائيل أن يواجهوا الفراعنة و يحاربوهم، و كانوا يتركون النساء اللاتى لا طاقة لهن على القتال و الحرب، ليكبرن ثمّ يخدمن فى بيوتهم.

و الشاهد الآخر هو الآية (۲۵) فى سوره المؤمن، إذ يستفاد منها- بصورة جيدة- أن خطة قتل الأبناء و استحياء النساء كانت موجودة

حتى بعد ظهور موسى عليه السّلام [و مجيئه إلى الفراعنة]. إذ تقول: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ

و جملة يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ يظهر منها أنّهم كانوا يصرّون على إبقاء البنات و النساء، إمّا لكى يخدمن فى بيوت الأقباط، أو للاستمتاع الجنسى، أو لكلا الأمرين جميعا.

و فى آخر جملة تأتى الآية بتعبير جامع، و فيه بيان العلة أيضا فتقول: إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

و باختصار فإنّ عمل فرعون يتلخص فى الفساد فى الأرض، فاستعلاؤه كان فسادا، و إيجاد الحياة الطبقية فى مصر فساد آخر، و تعذيب بنى إسرائيل و استضعافهم و ذبح أبنائهم و استحياء نسائهم ليخدمن فى بيوت الأقباط فساد ثالث، و سوى هذه المفاسد كانت لديه مفاسد كثيرة أخرى أيضا.

و التعبير ب «يذبح» المشتق من مادة «المذبح» تدل على معاملة الفراعنة لبنى إسرائيل كمعاملة القصابين للأغنام و الأنعام الأخرى، إذ كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء و يحتزون رؤوسهم![۱۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۳

و فى هذه الخطة الإجرامية من قبل الفراعنة ضد الحوامل قصص مذكورة، إذ قال بعضهم: إنّ فرعون كان قد أمر برقابة مشددة على النساء الحوامل من بنى إسرائيل، و أن لا يلى إيلادهن إلّا قابلة من القبطيّات و الفرعونيّات، فإذا كان المولود ذكرا فإنّ جلاوزة القصر الفرعونى يأتون ليتسلموا «قربانهم»[۱۲۰].

و لا يعرف بدقّة كم بلغ عدد «ضحايا الحوامل» من أطفال بنى إسرائيل على أثر هذه الخطة الإجرامية؟ قال بعضهم: كان الضحايا من الأطفال المواليد تسعين ألفا، و أوصلها بعضهم إلى مئات الآلاف! ..

لقد كانوا يظنون أنّهم سيقفون بوجه إرادة اللّه الحتمية بهذه الجرائم الوحشية، فلا ينهض بنوا إسرائيل ضدهم و لا يزول سلطانهم.

ثمّ تأتى الآية الأخرى لتقول: إنّ إرادتنا و مشيئتنا اقتضت احتواء المستضعفين بلطفنا و كرمنا وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ و أن تشملهم رعايتنا و مواهبنا تكون بيد الحكومة و مقاليد الأمور: وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ

و يكونون اولى قوّة و قدرة فى الأرض وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ ما أبلغ هاتان الآيتان، و ما أعظم ما فيهما من رجاء و أمل! .. إذ جاءتا بصورة الفعل المضارع و الاستمرار، لئلا يتصور أنّهما مختصتان بالمستضعفين من بنى إسرائيل و حكومة الفراعنة، إذ تبد آن بالقول: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ....

أى إنّ فرعون أراد أن يجعل بنى إسرائيل شذر مذر و يكسر شوكتهم و يبير قواهم و قدرتهم، و لكننا أردنا- و نريد- أن ينتصروا و يكونوا أقوياء! فرعون يريد أن تكون الحكومة بيد المستكبرين إلى الأبد. و لكنّا أردنا أن تكون بيد المستضعفين، فكان كما أردنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۴

و التعبير ب «نمنّ» كما أشرنا إلى ذلك من قبل، معناه منح الهبات و النعم، و هو يختلف تمام الاختلاف مع «المنّ» المراد به عدّ النعم لتحقير الطرف المقابل، و هو مذموم قطعا.

و يكشف اللّه فى هاتين الآيتين الستار عن إرادته و مشيئته بشأن المستضعفين، و يذكر فى هذا المجال خمسة أمور بعضها مرتبط ببعض و متقاربة أيضا:

الأوّل: قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ... لنشملهم بالمواهب و النعم .. إلخ.

الثّانى: قوله: وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً.

الثّالث: قوله: وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ أى المستخلفين بعد الفراعنة و الجبابرة.

الرّابع: قوله: وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أى نجعلهم يحكمون فى الأرض و تكون السلطة و القدرة و غيرهما لهم و تحت تصرفهم ..

و الخامس: إن ما كان يحذره الأعداء منهم و ما عبأوه لمواجهتهم يذهب أدراج الرياح، و تكون العاقبة لهم وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ

هكذا لطف اللّه و عنايته فى شأن المستضفين، أمّا من هم أولئك المستضعفون؟! و ما هى أوصافهم؟! فسنتحدث عن كل ذلك بعد قليل بأذن اللّه و كان «هامان» وزير فرعون المعروف يتمتع بنفوذ و سلطة إلى درجة أن الآية المتقدمة إذ تتحدث عن جنود مصر فإنّها تعزوهم إلى فرعون و هامان معا (و سيأتى مزيد إيضاح و شرح عن حال هامان بإذن اللّه فى ذيل الآية (۳۸) من هذه السورة ذاتها).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۵

بحوث

۱- حكومة المستضعفين العالمية

قلنا: إنّ الآيات المتقدمة لا تتحدث عن فترة خاصة أو معينة، و لا تختص ببنى إسرائيل فحسب، بل توضح قانونا كليا لجميع العصور و القرون و لجميع الأمم و الأقوام، إذ تقول: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ

فهى بشارة فى صدد انتصار الحق على الباطل و الإيمان على الكفر.

و هى بشارة لجميع الأحرار الذين يريدون العدالة و حكومة العدل و انطواء بساط الظلم و الجور.

و حكومة بنى إسرائيل و زوال حكومة الفراعنة ما هى إلّا نموذج لتحقق هذه المشيئة الإلهية و المثل الأكمل هو حكومة نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه بعد ظهور الإسلام .. حكومة الحفاة العفاة و المؤمنين المظلومين الذين كانوا موضع تحقير فراعنة زمانهم و استهزائهم و يرزخون تحت تأثير الضغوط «الظالمة» لائمّة الكفر و الشرك.

و كانت العاقبة أن اللّه فتح على أيدى هؤلاء المستضعفين أبواب قصور الأكاسرة و القياصرة، و أنزل أولئك من أسرّة الحكم و القدرة و أرغم أنوفهم بالتراب.

و المثل الأكبر و الأوسع هو ظهور حكومة الحق و العدالة على جميع وجه البسيطة- و الكرة الأرضية- على يد «المهدىّ» أرواحنا له الفداء.

فهذه الآيات هى من جملة الآيات التى تبشّر- بجلاء- بظهور مثل هذه الحكومة، و نقرأ عن أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير هذه الآية أنّها إشارة إلى هذا الظهور العظيم.

فقد ورد فى نهج البلاغة عن على عليه السّلام قوله: «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۶

عطف الضروس على ولدها، و تلا عقيب ذلك: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ [۱۲۱].

و

فى حديث آخر نقرأ عنه عليه السّلام فى تفسير الآية المتقدمة قوله: «هم آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله يبعث اللّه مهدّيهم بعد جهدهم فيعزّهم و يذل عدوّهم»[۱۲۲].

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام قوله: «و الذى بعث محمّدا بالحقّ بشيرا و نذيرا، إنّ الأبرياء منّا أهل البيت و شيعتهم بمنزلة موسى و شيعته، و إن عدونا و أشياعهم بمنزلة فرعون و أشياعه»[۱۲۳]

(أی سننتصر أخیرا و ینهزم أعداؤنا و تعود حکومة العدل و الحق لنا).

و من الطبیعی أن حکومة المهدی علیه السّلام العالمیّة فی آخر الأمر لا تمنع من وجود حکومات إسلامیة فی معاییر محدودة قبلها من قبل المستضعفین ضد المستکبرین، و متی ما تمّت الظروف و الشروط لمثل هذه المحکومات الإسلامیة فإنّ وعد اللّه المحتوم و المشیئة الإلهیة سیتحققان فی شأنها، و لا بدّ أن یکون النصر حلیفها بإذن اللّه.

۲- من هم المستضعفون و من هم المستکبرون؟!

کلمة «المستضعف» مشتقّة من مادة «ضعف»، و لکنّها لما استعملت فی باب «الاستفعال» دلت علی من یکبّل بالقید و الغلّ و یجرّ إلی الضعف.

و بتعبیر آخر: لیس المستضعف هو الضعیف و الفاقد للقدرة و القوّة .. بل المستضعف من لدیه قوی بالفعل و بالقوة، و لکنّه واقع تحت ضغوط الظلمة و الجبابرة، و برغم أنّه مکبل بالأغلال فی یدیه و رجلیه فإنّه غیر ساکت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۷

و لا یستسلم، و یسعی دائما لتحطیم الأغلال و نیل الحریة، و التصدی للجبابرة و المستکبرین، و نصرة مبدأ العدل و الحق.

فاللّه سبحانه و عد أمثال هؤلاء بالمنّ و بالحکومة علی الأرض، لا الأفراد الجبناء الذین لا یجرؤن علی ادنی اعتراض فکیف إذا حمی الوطیس و حان أوان التضحیة و الفداء؟! فبنوا إسرائیل استطاعوا أن یأخذوا الحکومة و یرثوها من الفراعنة لأنّهم التفوا حول موسی علیه السّلام و عبؤوا قواهم و شکّلوا صفا واحدا، و استکملوا بقایا إیمانهم الذی ورثوه عن جدّهم إبراهیم الخلیل، و نفضوا الخرافات عن أفکارهم و نهضوا مع موسی علیه السّلام.

و بالطبع فإنّ المستضعفین أنواع، فهناک مستضعف فکریّ، و هناک مستضعف ثقافیّ، و هناک مستضعف اقتصادی، و آخر مستضعف سیاسی، أو أخلاقی، و أکثر ما أکّد علیه القرآن هو الاستضعاف السیاسی و الأخلاقی!.

و ما من شک أنّ المستکبرین الجبابرة یسعون أبدا لأن یجرّوا قرابینهم إلی الاستضعاف الفکری و الثقافی، ثمّ إلی الاستضعاف الاقتصادی، لئلا تبقی لهم قوّة و لا قدرة، و لئلا یفکروا بالنهوض و تولی زمام الحکومة.

و فی القرآن المجید ورد الکلام عن المستضعفین فی خمسة موارد، و علی العموم فإنّ هذا الکلام یدور حول المؤمنین الذین یرزخون تحت ضغوط الجبابرة.

ففی مکان من القرآن الکریم یدعو إلی الجهاد و المقاتلة فی سبیل اللّه و المستضعفین إذ یقول: وَ ما لَکُمْ لا تُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْیَةِ الظَّالِمِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۸

أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ نَصِیراً[۱۲۴].

و فی مکان واحد فقط ورد الکلام عن الذین أعانوا الکفار و ظلموا أنفسهم، و ادعوا أنّهم مستضعفون، و لم یهاجروا فی سبیل اللّه، فالقرآن ینفی عنهم هذا الاستضعاف فیقول: إِنَّ الَّذِینَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنَّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِیها فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً[۱۲۵].

و علی کل حال فإنّه القرآن فی کل مکان منه یدافع عن المستضعفین و یذکرهم بخیر، و یعبّر عنهم بالمؤمنین الذین یرزخون تحت ضغوط المستکبرین ... المؤمنون المجاهدون و الساعون بجدّهم المشمولون بعنایة اللّه و لطفه.

۳- أسلوب المستكبرين على مدى التأريخ

لم يكن فرعون وحده يذبح أبناء بنى إسرائيل و يستحيى نساءهم لإذلالهم، فعلى مدى التاريخ نجد أسلوب الجبابرة على هذه الشاكلة، حيث يسعون لتعطيل القدرات و القوى بأية وسيلة كانت، فحيث لم يستطيعوا قتل «الرجال» يلجأون إلى قتل «الرجولة»، و يذوّبون روح الشهامة بنشر الفساد و المخدّرات و الفحشاء و المنكر و الانحراف الجنسى و كثرة الشراب و القمار، ليستطيعوا براحة بال و اطمئنان خاطر أن يواصلوا حكمهم و حكومتهم.

و لكنّ أنبياء اللّه، و خاصّة نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله كانوا يسعون لإيقاظ قوى الفتوة النائمة و يشحنوا قدرات الشباب الهائلة، و يحرروهم من أسر الذلة، و كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۹

يعلمون حتى النساء دروسا من الشجاعة و الشهامة، ليقفن فى صفوف الرجال ضد المستكبرين.

و الشواهد على هذين المنهجين فى البلاد الإسلامية فى التأريخ المعاصر و التأريخ القديم كثيرة و واضحة جيّدا، فلا حاجة لسردها و ذكرها بتفصيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۰

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷ الى ۹]

اشارة

وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَ لا تَخافِى وَ لا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (۸) وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِى وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۹)

التّفسير

فى قصر فرعون!

من أجل رسم مثل حىّ لانتصار المستضعفين على المستكبرين، يدخل القرآن المجيد فى سرد قصّة موسى و فرعون، و يتحدث بالخصوص عن مراحل يكون فيها موسى فى أشدّ حالات الضعف، أمّا فرعون فهو فى أقوى الحالات و أكثرها هيمنة ... ليتجسّد انتصار مشيئة اللّه على إرادة الجبابرة فى أعلى الصور و أحسن الوجوه ..

يقول القرآن: وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۱

فِى الْيَمِّ وَ لا تَخافِى وَ لا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

و هذه الآية على ايجازها تشتمل على أمرين و نهيين و بشارتين، و هى خلاصة قصّة كبيرة و ذات أحداث و مجريات ننقلها بصورة مضغوطة:

كانت سلطة فرعون و حكومته الجائرة قد خططت تخطيطا واسعا لذبح «الأطفال» من بنى إسرائيل حتى أن القوابل [من آل فرعون كن

يراقبن النساء الحوامل [من بنى إسرائيل .

و من بين هؤلاء القوابل كانت قابلة لها علاقة مودّة مع أمّ موسى عليه السّلام «و كان الحمل خفيّا لم يظهر أثره على أم موسى» و حين أحست أم موسى بأنّها مقرّب و على أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة و أخبرتها بالواقع، و أنّها تحمل جنينا فى بطنها و توشک أن تضعه، فهى بحاجة- هذا اليوم- إليها.

و حين ولد موسى عليه السّلام سطع نور بهىّ من عينيه فاهتزّت القابلة لهذا النور و طبع حبّه فى قلبها، و أنار جميع زوايا قلبها.

فالتفتت القابلة إلى أم موسى و قالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعونى بهذا الوليد ليأتى الجلاوزة فيقتلوه «و أنال بذلک جائزتى» و لكن ما عسى أن أفعل و قد وقع حبّه الشديد فى قلبى، و أنا غير مستعدة لأن تنقص و لو شعرة واحدة من رأسه، فاهتمى بالمحافظة عليه، و أظنّ أن عدوّنا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيرا.

ثمّ خرجت القابلة من بيت أمّ موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزة فرعون و صمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى أمّها و أخبرتها بأن تتهيأ للأمر، فارتبكت و لم تدر ما ذا تصنع؟! و فى هذه الحالة من الارتباک و هى ذاهلة لفت وليدها «موسى» بخرقة و ألقته فى التنور فإذا بالمأمورين و الجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئا إلّا التنور المشتعل نارا ... فسألوا أم موسى عن سبب دخول القابلة عليها فقالت: إنّها صديقتى و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۲

جاءت زائرة فحسب، فخرجوا ءايسين.

ثمّ عادت أمّ موسى إلى رشدها و صوابها و سألت «أخت موسى» عن أخيها فأظهرت عدم معرفتها بمكانه، و إذا البكاء يعلو من داخل التنور، فركضت إلى التنور فرأت موسى مسالما و قد جعل اللّه النّار عليه بردا و سلاما «اللّه الذى نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالما من التنور.

لكن الأمّ لم تهدأ إذ أن الجواسيس يمضون هنا و هناک و يفتشون البيوت يمنة و يسرة، و كان الخطر سيقع لو سمعوا صوت هذا الطفل الرضيع.

و فى هذه الحال اهتدت أم موسى بإلهام جديد، إلهام ظاهره أنّه مدعاة للخطر، و لكن مع ذلک أحسّت بالاطمئنان أيضا.

كان ذلک من اللّه و لا بدّ أن يتحقق، فلبست ثياب عملها و صممت على أن تلقى وليدها فى النيل.

فجاءت إلى نجّار مصرى «و كان النجار من الأقباط و الفراعنة أيضا» فطلبت منه أن يصنع صندوقا صغيرا.

فسألها النجار قائلا: ما تصنعين بهذا الصندوق مع هذه الأوصاف؟ و لكن الأمّ لما كانت غير متعودة على الكذب لم تستطع دون أن تقول الحق و الواقع، و أنّها من بنى إسرائيل و لديها طفل تريد إخفاءه فى الصندوق.

فلمّا سمع النجّار القبطى هذا الخبر صمم على أن يخبر الجلاوزة و الجلّادين، فمضى نحوهم لكن الرعب سيطر على قلبه فارتج على لسانه و كلّما حاول أن يفهمهم و لو كلمة واحدة لم يستطع، فأخذ يشير إليهم إشارات مبهمة، فظن أولئک أنّه يستهزئ بهم فضربوه و طردوه، و لما عاد إلى محله عاد عليه وضعه الطبيعى، فرجع ثانية إليهم ليخبرهم فعادت عليه الحالة الأولى من الارتجاج و العىّ، و أخيرا فقد فهم أن هذا أمر إلهى و سرّ خفى، فصنع الصندوق و أعطاه لأم موسى.

و لعلّ الوقت كان فجرا و الناس- بعد- نيام، و فى هذه الحال خرجت أم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۳

موسى و فى يديها الصندوق الذى أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل و أرضعت موسى حتى ارتوى، ثمّ ألقت الصندوق فى النيل فتلقفته الأمواج و أخذت تسير به مبتعدة عن الساحل، و كانت أم موسى تشاهد هذا المنظر و هى على الساحل .. و فى لحظة أحست أن قلبها انفصل عنها و مضى مع الأمواج، فلو لا لطف اللّه الذى شملها و ربط على قلبها لصرخت و لانكشف الأمر و اتضح

كل شىء.

و لا أحد يستطيع أن يصور- فى تلك اللحظات الحساسة- قلب الأم بدقّة.

لا يستطيع أىّ أحد أن يصور حال أم موسى و ما أصابها من الهلع و الفزع ساعة ألقت طفلها فى النيل و لكنّ هذه الأبيات المترجمة عن الشاعرة «پروين اعتصامى»- بتصرف- تحكى صورة «تقريبية» عن ذلك الموقف:

أمّ موسى حين ألقت طفلهاللذى رب السما أوحى لها

نظرت للنيل يمضى مسرعاآه لو تعرف حقا حالها

و دوى الموج فيه صاخبو فتاها شاغل بلبالها

و تناغيه بصمت: ولدى كيف يمضى بك هذا الزورق

دون ربان، و إن ينسك من‌هو ذو لطف فمن ذا يشفق

فأتاها الوحى: مهلا، و دعى‌باطل الفكر و وهما يزهق

إن موسى قد مضى للمنزل‌فاتق اللّه و لا تستعجلى

قد تلقينا الذى ألقيته‌بيد ترعى الفتى لا تجهلى

و خرير الماء أضحى مهده‌فى اهتزاز مؤنس إن تسألى

و له الموج رؤوما حدبافاق من يحدب أمّا و أبا

كل نهر ليس يطغى عبثاإن أمر اللّه كان السببا

يأمر البحر فيغدو هائجاو له الطوفان طوعا مائجا

عالم الإيجاد من آثاره‌كل شى‌ء لعلاه عارجا

أين تمضين دعيه فله‌خير ربّ يرتضيه لا هجا

كل هذا من جهة! ..

و لكن تعالوا لنرى ما يجرى فى قصر فرعون؟! ورد فى الأخبار أنّ فرعون كانت له بنت مريضة، و لم يكن له من الأبناء سواها، و كانت هذه البنت تعانى من آلام شديدة لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: نتكهّن و نتوقع أن إنسانا يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها، و كان فرعون و زوجه «آسية» فى انتظار هذا «الحادث» و فى يوم من الأيّام .. فجأة لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عمّاله أن يأتوا به ليعرفوا ما به؟! و مثل الصندوق «المجهول» الخفىّ أمام فرعون، و لم يتمكن أحد أن يفتحه.

بلى كان على فرعون أن يفتحه لينجو موسى على يد فرعون نفسه، و فتح الصندوق على يده فعلا!.

فلمّا وقعت عين آسية عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، و دخل حبّه فى قلوب الجميع، و لا- سيما قلب امرأة فرعون «آسية» .. و حين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبّته أكثر فأكثر[۱۲۶].

و لنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصة القصّة من لسانه! يقول القرآن

فى هذا الصدد: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً.

كلمة «التقط» مأخوذة من مادة «التقاط» و معناها فى الأصل الوصول إلى الشى‌ء دون جهد و سعى، و إنّما سميت الأشياء التى يعثر

عليها «لقطة» للسبب نفسه أيضا ..

و بديهى أنّ الفراعنة لم يجلبوا الصندوق الذى فيه الطفل الرضيع من الماء ليربوه فى أحظانهم فيكون لهم عدوا لدودا، بل أرادوه- كما قالت امرأة فرعون- قرة عين لهم.

و لكن النتيجة و العاقبة .. كان ما كان و حدث ما حدث .. و كما يقول علماء الأدب: إنّ اللام فى الآية هنا فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ .. هى «لا العاقبة» ليست «لام العلة» و لطافة التعبير كامنة فى أنّ اللّه سبحانه يريد أن يبيّن قدرته، و كيف أن هذه الجماعة «الفراعنة» عبّأت جميع قواها لقتل بنى إسرائيل، و إذا الذى أرادوا قتله- و كانت كل هذه المقدمات من أجله- يتربى فى أحضانهم كأعزّ أبنائهم.

و التعبير- ضمنا- بآل فرعون يدل على أنّ الملتقط لم يكن واحدا، بل اشترك فى التقاط الصندوق جماعة من آل فرعون، و هذا بنفسه شاهد على أنّهم كانوا ينتظرون مثل هذا الحدث!.

ثمّ تختتم الآية بالقول: إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ

كانوا خاطئين فى كل شىء، و أى خطأ أعظم من أن يحيدوا عن طريق العدل و الحقّ، و أن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم و الجور و الشرك!.

و أى خطأ أعظم أن يذبحوا آلاف الأطفال ليقتلوا موسى عليه السّلام، و لكن اللّه سبحانه أودعه فى أيديهم و قال لهم: خذوا عدوّكم هذا و ربّوه ليكبر عندكم؟![۱۲۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۶

و يستفاد من الآية التالية أن شجارا حدث ما بين فرعون و امرأته، و يحتمل أن بعض أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأنّ القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ...

و يلوح للنظر أنّ فرعون وجد فى مخايل الطفل و العلائم الأخرى و من جملتها إيداعه فى التابوت «الصندوق» و إلقاءه بين أمواج النيل، و ما إلى ذلك- أن هذا الطفل من بنى إسرائيل، و أن زوال ملكه على يده، فجثم كابوس ثقيل على صدره من الهم و ألقى على روحه ظلّه، فأراد أن يجرى قانون إجرامه عليه.

فأيده أطرافه و أتباعه المتملّقون على هذه الخطة، و قالوا: ينبغى أن يذبح هذا الطفل، و لا دليل على أن لا يجرى هذا القانون عليه.

و لكن آسية امرأة فرعون التى لم ترزق ولدا ذكرا، و لم يكن قلبها منسوجا من قماش عمال قصر فرعون، وقفت بوجه فرعون و أعوانه و منعتهم من قتله.

و إذا أضفنا قصّة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى- على ما قدمناه- فسيكون دليلا آخر يوضح كيفية انتصار آسية فى هذه الازمة.

و لكن القرآن- بجملة مقتضبة و ذات مغزى كبير- ختم الآية قائلا: وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ!.

أجل، إنّهم لم يشعروا أنّ أمر اللّه النافذ و مشيئته التى لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل فى أهم المراكز خطرا ... و لا أحد يستطيع أن يردّ هذه المشيئة، و لا يمكن مخالفتها أبدا ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۷

ملاحظة

تخطيط اللّه العجيب ..

إظهار القدرة .. ليس معناه أن اللّه إذا أراد أن يهلك قوما جبارين، يرسل عليهم جنود السماوات و الأرض، فيهلكهم و يدمرهم تدميرا.

إظهار القدرة هو أن يجعل الجبابرة و المستكبرين يدمرون أنفسهم بأيديهم، يلهم قلوبهم بالإلقاء أنفسهم فى البئر التى حفروها لغيرهم، و أن يصنعوا لأنفسهم سجنا يموتون فيه! و أن يرفعوا أعواد المشانق ليعدموا عليها! ..

و فى قضية الفراعنة الجبابرة المعاندين حدث مثل هذا، و تمّت تربية موسى و نجاته فى جميع المراحل على أيديهم.

فالقابلة التى أولدت موسى كانت من الأقباط.

و النجار الذى صنع الصندوق الذى أخفى فيه موسى كان قبطيّا.

و الذين التقطوا الصندوق كانوا من آل فرعون!.

و الذى فتح باب الصندوق كان فرعون بنفسه أو امرأته آسية.

و أخيرا فإن المكان الآمن و الهادىء الذى تربّى فيه موسى- البطل الذى قهر فرعون- هو قصر فرعون ذاته.

و بهذا الشكل يظهر اللّه تعالى قدرته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۸

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱۰ الى ۱۳]

اشارة

وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۱) وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (۱۲) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳)

التّفسير

عودة موسى إلى حضن أمّه:

فى هذه الآيات تتجسد مشاهد جديدة .. فأمّ موسى التى قلنا عنها: إنّها ألقت ولدها فى أمواج النيل، بحسب ما فصّلنا آنفا .. اقتحم قلبها طوفان شديد من الهمّ على فراق ولدها، فقد أصبح مكان ولدها الذى كان يملأ قلبها خاليا و فارغا منه.

فأوشكت أن تصرخ من أعماقها و تذيع جميع أسرارها، لكن لطف اللّه تداركها، و كما يعبّر القرآن الكريم وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۹

«الفارغ» معناه الخالى، و المقصود به هنا أن قلب أم موسى أصبح خاليا من كل شىء إلّا من ذكر موسى .. و إن كان بعض المفسّرين يرون أن المقصود به هو خلوّ القلب من الهمّ و الغمّ، أو أنّه خال من الإلهام و البشائر التى بشرت بها أم موسى من قبل، و لكن مع الالتفات لهذه الجمل و التدقيق فيها يبدوا هذا التّفسير غير صحيح.

و طبيعىّ تماما أنّ أمّا تفارق ولدها بهذه الصورة يمكن أن تنسى كل شىء إلّا ولدها الرضيع، و يبلغ بها الذهول درجة لا تلتفت معها إلى ما سيصيبها و ولدها من الخطر لو صرخت من أعماقها و أذاعت أسرارها.

و لكن اللّه الذى حمّل أم موسى هذا العبء الثقيل ربط على قلبها لتؤمن بوعد اللّه، و لتعلم أنّه بعين اللّه، و أنّه سيعود إليها و سيكون نبيّا.

كلمة «ربطنا» من مادة «ربط» و معناها فى الأصل شدّ وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظا فى مكانه، و لذلك يدعى هذا المحلّ الذى تربط فيه الحيوانات ب «الرباط» ثمّ توسعوا فى اللغة فصار معنى الربط: الحفظ و التقوية و الاستحكام، و المقصود من «ربط القلب» هنا تقويته .. أى تثبيت قلب أم موسى، لتؤمن بوعد اللّه و تتحمل هذا الحادث الكبير.

و على أثر لطف اللّه أحست أم موسى بالاطمئنان، و لكنّها أحبت أن تعرف مصير ولدها، و لذلك أمرت أخته أن تتبع أثره و تعرف خبره وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ

كلمة «قصّيه» مأخوذة من مادة «قصّ» على زنة «نصّ» و معناها البحث عن آثار الشىء، و إنّما سميّت القصّة قصّة لأنّها تحمل فى طياتها أخبارا مختلفة يتبع بعضها بعضا.

فاستجابت «أخت موسى» لأمر أمّها، و أخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيد، و رأت صندوقه الذى كان فى الماء يتلقفه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۰

آل فرعون .. و يقول القرآن فى هذا الصدد: فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ

و لكن أولئك لم يلتفتوا إلى أن أخته تتعقبه وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

قال البعض: إن خدم فرعون كانوا قد خرجوا بالطفل من القصر بحثا عن مرضعة له، فرأتهم أخت موسى.

و يبدوا أنّ التّفسير الأوّل أقرب للنظر، فعلى هذا بعد رجوع أم موسى إلى بيتها أرسلت أخته للبحث عنه، فرأت- من فاصلة بعيدة- كيف استخرجه آل فرعون من النيل لينجو من الخطر المحدق.

هناك تفاسير أخرى لجملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ أيضا.

فالعلامة «الطبرسى» لا يستعبد أن يكون تكرار هذه الجملة فى الآية السابقة و الآيات اللاحقة إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى أن فرعون جاهل بالأمور الى هذه الدرجة فكيف يدعى الرّبوبية؟ و كيف يريد أن يحارب مشيئة اللّه التى لا تقهر!؟.

و على كل حال، فقد اقتضت مشيئة اللّه أن يعود هذا الطفل إلى أمّه عاجلا ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم: وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ ١٢٨].

و طبيعى أن الطفل الرضيع حين تمر عليه عده ساعات فإنه يجوع و يبكى و لا يطيق تحمل الجوع، فيجب البحث عن مرضع له، و لا سيما أن ملكة مصر «امرأة فرعون» تعلق قلبها به بشدّة، و أحبّته كروحها العزيزة.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثا عن مرضع له، و العجيب فى الأمر أنّه كان يأبى أثداء المرضعات.

لعل ذلك آت من استيحاشه من وجوه المرضعات، أو أنّه لم يكن يتذوق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۱

ألبانهن، إذ يبدو لبن كلّ منهن مرّا فى فمه، فكأنّه يريد أن يقفز من أحضان المراضع، و هذا هو التحريم التكوينى من قبل اللّه تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعا.

و لم يزل الطفل لحظة بعد أخرى يجوع أكثر فأكثر و هو يبكى و عمال فرعون يدورون به بحثا عن مرضع بعد أن ملأ قصر فرعون بكاء و ضجيجا، و ما زال العمال فى مثل هذه الحال حتى صادفوا بنتا أظهرت نفسها بأنّها لا تعرف الطفل، فقالت: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ

إنّنى أعرف امرأة من بنى إسرائيل لها ثديان مملوءان لبنا، و قلب طافح بالمحبّة، و قد فقدت وليدها، و هى مستعدة أن تتعهد الطفل الذى عندكم برعايتها.

فسّر بها هؤلاء و جاءوا بأمّ موسى إلى قصر فرعون، فلمّا شمّ الطفل رائحة أمّه التقم ثديها بشغف كبير، و أشرقت عيناه سرورا، كما أن

عمّال القصر سرّوا كذلك لأنّ البحث عن مربية له أعياهم، و امرأة فرعون هى الأخرى لم تكتم سرورها للحصول على هذه المرضع أيضا.

و لعلهم قالوا للمرضع: أين كنت حتى الآن، إذ نحن نبحث عن مثلك منذ مدّة .. فليتك جئت قبل الآن، فمرحبا بك و بلبنك الذى حلّ هذه المشكلة.

تقول بعض الرّوايات: حين استقبل موسى ثدى أمّه، قال هامان وزير فرعون لأم موسى: لعلك أمّه الحقيقية، إذ كيف أبى جميع هذه المراضع و رضى بك، فقالت: أيّها الملك، لأنّى امرأة ذات عطر طيب و لبنى عذب، لم يأتى طفل رضيع إلّا قبل بى، فصدّقها الحاضرون و قدموا لها هدايا ثمينة[۱۲۹].

و نقرأ فى هذا الصدد

حديثا قال الراوى: فقلت للإمام الباقر عليه السّلام؛ فكم مكث موسى غائبا من أمّه حتى ردّه اللّه؟ قال «ثلاثة أيّام»[۱۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۲

و قال بعضهم: هذا التحريم التكوينى لأنّ اللّه لم يرد لموسى أن يرتضع من الألبان الملوثة بالحرام .. الملوّثة بأموال السرقة، أو الملوّثة بالإجرام و الرشوة و غصب حقوق الآخرين، و إنّما أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن أمّه ليستطيع أن ينهض بوجه الأرجاس و يحارب الآثمين.

و تم كل شىء بأمر اللّه فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۱۳۱].

هنا ينقدح سؤال مهم و هو: هل أودع آل فرعون الطفل «موسى» عند أمّه لترضعه و تأتى به كل حين- أو كل يوم- إلى قصر فرعون لتراه امرأة فرعون؟! أم أنّهم أودعوا موسى فى القصر و طلبوا من المرضع «أم موسى» أن تأتى بين فترات متناسبة إلى القصر لترضعه؟! لا يوجد دليل قوى لأىّ من الاحتمالين، إلّا أن الاحتمال الأوّل أقرب للنظر كما يبدو! و هناك سؤال آخر أيضا، و هو: هل انتقل موسى إلى قصر فرعون بعد إكماله فترة الرضاعة، أم أنّه حافظ على علاقته بأمّه و عائلته و كان يتردد ما بين القصر و بيته؟! قال بعضهم: أودع موسى بعد فترة الرضاعة عند فرعون و امرأته، و تربى موسى عندهما، تنقل فى هذا الصدد قصص عريضة حول موسى و فرعون، و لكن هذه العبارة التى قالها فرعون لموسى عليه السّلام بعد بعثته أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟![۱۳۲]، تدل بوضوح على أن موسى عاش فى قصر فرعون مدة، بل مكث هناك سنين طويلة.

و يستفاد من تفسير على بن إبراهيم أن موسى عليه السّلام بقى مع كمال الاحترام فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۳

قصر فرعون حتى مرحلة البلوغ، إلّا أنّ كلامه عن توحيد اللّه أزعج فرعون بشدة إلى درجة أنّه صمّم على قتله، فترك موسى القصر و دخل المدينة فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من الأقباط و الآخر من الأسباط، فواجه النزاع بنفسه «و سيأتى تفصيل ذلك فى شرح الآيات المقبلة إن شاء اللّه»[۱۳۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۴

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱۴ الى ۱۷]

اشارة

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۱۴) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ

عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١۵) قالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (١۶) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ (١٧)

التّفسير

موسى عليه السّلام و حماية المظلومين:

فى هذه الآيات نواجه المرحلة الثّالثة من قصّة موسى عليه السّلام و ما جرى له مع فرعون، و فيها مسائل تتعلق ببلوغه، و بعض الأحداث التى شاهدها و هو فى مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثمّ سبب هجرته إلى مدين.

تقول الآيات فى البداية وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ١٩۵

وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

كلمة «أشدّ» مشتقّة من مادة «الشدّة» و هى القوّة.

و كلمة «استوى» مشتقة من «الاستواء» و معناها كمال الخلقة و اعتدالها.

و هناك كلام بين المفسّرين فى الفرق بين المعنيين:

فقال بعض المفسّرين: المقصود من بلوغ الأشد هو أن يصل الإنسان الكمال من حيث القوى الجسمانية، و غالبا ما يكون فى السنة الثامنة عشرة من العمر ..

أمّا الإستواء فهو الاستقرار و الاعتدال فى أمر الحياة، و غالبا ما يحصل ذلك بعد الكمال الجسمانى.

و قال بعضهم: إنّ المقصود من بلوغ الأشد هو الكمال الجسمانى، و أمّا الاستواء فهو الكمال العقلى و الفكرى.

و نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب معانى الأخبار قال: فلمّا بلغ أشدّه و استوى قال: «أشدّه ثمان عشر سنة و استوى، التحى»[١٣۴].

و ليس بين هذه التعابير فرق كبير، و من مجموعها- مع ملاحظة المعنى اللغوى للكلمتين «الأشدّ و الاستواء»- يستفاد منهما أنّهما يدلان على التكامل فى القوى الجسمية و العقلية و الروحية.

و لعل الفرق بين «الحكم» و «العلم» هو أنّ الحكم يراد منه العقل و الفهم و القدرة على القضاء الصحيح، و العلم يراد به العرفان الذى لا يصحبه الجهل.

أمّا التعبير كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ فيدل بصورة جليّة على أن موسى عليه السّلام كان جديرا بهذه المنزلة، نظرا لتقواه و طهارته و أعماله الصالحة، إذ جازاه اللّه «بالعلم و الحكم» و واضح أنّ المراد بالحكم و العلم هنا ليس النبوّة و الوحى و ما إليهما .. لأنّ موسى عليه السّلام يومئذ لم يبعث بعد، و بقى مدّة بعد ذلك حتى بعث نبيّا.

بل المقصود و المراد من الحكم و العلم هما المعرفة و النظرة الثاقبة و القدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ١٩۶

على القضاء الصحيح و ما شابه ذلك، و قد منح اللّه هذه الأمور لموسى عليه السّلام لطهارته و صدقه و أعماله الصالحة كما ذكرنا آنفا.

و يفهم من هذا التعبير- إجمالا- أنّ موسى عليه السّلام لم يتأثر بلون المحيط الذى عاشه فى قصر فرعون، و كان يسعى إلى تحقيق

العدل و الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلا .. رغم أنّ جزئيات تلك الأعوام غير واضحة.

و على كل حال فإن موسى دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها.

فما هى المدينة المذكورة فى الآية المتقدمة؟ لا نعرفها على وجه التحقيق ..

لكن الاحتمال القوى أنّها عاصمة مصر .. و كما يقول بعض المفسّرين فإنّ موسى عليه السّلام على أثر المشاجرات بينه و بين فرعون، و مخالفاته له و لسلطته التى كانت تشتدّ يوما بعد يوم حتى بلغت أوجها، حكم عليه بالتبعيد عن العاصمة ..

لكنّه برغم ذلك فقد سنحت له فرصة خاصّة و الناس غافلون عنه أن يعود إلى المدينة و يدخلها.

و يحتمل أيضا، أنّ المقصود دخوله المدينة من جهة قصر فرعون .. لأنّ القصور يومئذ كانت تشاد على أطراف المدينة ليعرف الداخل إليها و الخارج منها.

و المقصود من جملة عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها هو الزمن الذى يستريح الناس فيه من أعمالهم، و لا تراقب المدينة فى ذلك الحين بدقّة، و لكن أى حين و أى زمن هو؟! قال بعضهم: هو أوّل الليل، لأنّ الناس يتركون أعمالهم و يعطلون دكاكينهم و محلاتهم ابتغاء الراحة و النوم، و جماعة يذهبون للتنزه، و آخرون لأماكن أخرى .. هذه الساعة هى المعبر عنها بساعة الغفلة فى بعض الرّوايات الإسلامية.

و هناك حديث شريف

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى هذا الشأن يقول: «تنفّلوا فى ساعة الغفلة و لو بركعتين خفيفتين».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۷

و قد ورد فى ذيل هذا الحديث الشريف هذه العبارة

«و ساعة الغفلة ما بين المغرب و العشاء»[۱۳۵].

و الحق أنّ هذه الساعة ساعة غفلة و كثيرا ما تحدث الجنايات و الفساد و الانحرافات الأخلاقية فى مثل هذه لساعة من أوّل الليل .. فلا الناس مشغولون بالكسب و العمل، و لا هم نائمون، بل هى حالة غفلة عمومية تغشى المدينة عادة، و تنشط مراكز الفساد أيضا فى هذه الساعة.

و احتمل البعض أن ساعة الغفلة هى ما بعد نصف النهار، حيث يستريح الناس من أعمالهم استراحة مؤقتة، و لكن التّفسير الأوّل أقرب للنظر كما يبدو.

و على كل حال، موسى دخل المدينة، و هنالك واجه مشادّة و نزاعا، فاقترب من منطقة النزاع فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ

و التعبير ب «شيعته» يدل على أن موسى قبل أن يبعث كان له أتباع و أنصار و شيعة من بنى إسرائيل، و ربّما كان قد اختارهم لمواجهة فرعون و حكومته كنواة اساسية.

فلمّا بصر الإسرائيلى بموسى استصرخه فَاسْتَغاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ

فجاءه موسى عليه السّلام لاستنصاره و تخليصه من عدوّه الظالم .. الذى يقال عنه أنّه كان طباخا فى قصر فرعون، و كان يريد من الإسرائيلى أن يحمل معه الحطب إلى القصر، فضرب موسى هذا العدو بقبضة يده القوية على صدره، فهوى إلى الأرض ميتا فى الحال تقول الآية: فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ ۱۳۶].

و ممّا لا شك فيه، فإنّ موسى لم يقصد أن يقتل الفرعونى، و يتّضح ذلك من خلال الآيات التالية أيضا .. و لا يعنى ذلك أن الفراعنة لم يكونوا يستحقون القتل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۸

و لکن لاحتمال وقوع المشاکل و التبعات المستقبلیة علی موسی و جماعته.

لذلک فإنّ موسی علیه السّلام أسف علی هذا الأمر قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِینٌ

و بتعبیر آخر: فإنّ موسی علیه السّلام کان یرید أن یبعد الفرعونی عن الرجل الإسرائیلی، و إن کان الفرعونیون یستحقون أکثر من ذلک. لکن ظروف ذلک الوقت لم تکن تساعد علی مثل هذا العمل، و کما سنری فإن ذلک الأمر دعا موسی علیه السّلام إلی أن یخرج من مصر إلی أرض مدین و حرمه من البقاء فی مصر.

ثمّ یتحدث القرآن عن موسی علیه السّلام فیقول: قالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ

و من المسلم به أنّ موسی علیه السّلام لم یصدر منه ذنب هنا، بل ترک الأولی، فکان ینبغی علیه أن یحتاط لئلا یقع فی مشکلة، و لذلک فإنّه استغفر ربّه و طلب منه العون، فشمله اللطیف الخبیر بلطفه.

لذلک فإنّ موسی علیه السّلام حین نجا بلطف اللّه من هذا المأزق قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَیَّ من عفوک عنی و انقاذی من ید الأعداء و جمیع ما أنعمت علی منذ بدایة حیاتی لحدّ الآن فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ و معینا للظالمین.

بل سأنصر المؤمنین المظلومین، و یرید موسی علیه السّلام أن یقول: إنّه لا یکون بعد هذا مع فرعون و جماعته أبدا .. بل سیکون إلی جانب الإسرائیلیین المضطهدین ..».

و احتمل بعضهم أن یکون المقصود ب «المجرمین» هو هذا الإسرائیلی الذی نصره موسی، إلّا أن هذا الاحتمال بعید جدّا، حسب الظاهر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۹

مسألتان

۱- أ لم یکن عمل موسی هذا مخالفا للعصمة!

للمفسّرین أبحاث مذیّلة و طویلة فی شأن المشاجرة التی حدثت بین القبطی و الإسرائیلی و قتل موسی للقبطی.

و بالطبع فإنّ أصل هذا العمل لیس مسألة مهمّة .. لأنّ الظلمة الأقباط و الفراعنة المفسدین الذین قتلوا آلاف الأطفال من بنی إسرائیل و لم یتأبوا یحجموا عن أیة جریمة ضد بنی إسرائیل، لم تکن لهم حرمة عند بنی إسرائیل.

إنّما المهم عند علماء التّفسیر هو تعبیرات موسی علیه السّلام التی ولّدت إشکالات عندهم.

فهو تارة یقول: هذا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطانِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۱۹۹

فی مکان آخر یقول: رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی

فکیف تنسجم أمثال هذه التعابیر مع عصمة الأنبیاء حتی قبل بعثتهم و رسالتهم.

و لکن هذه الإشکالات تزول بالتوضیح المتقدم فی تفسیر الآیة الآنفة، و هو أن ما صدر من موسی علیه السّلام هو من قبیل «ترک الأولی» لا ـ أکثر، إذ کان علیه أن یحتاط قبل أن یضرب القبطی، فلم یحتط، فأوقع نفسه فی مشاکل جانبیة، لأنّ قتل القبطی لم یکن أمرا هینا حتی یعفو عنه الفراعنة.

و نعرف أن ترک الأولی لا یعنی أنّه عمل حرام ذاتا، بل یؤدی الی ترک عمل أهم و أفضل، دون أن یصدر منه عمل مخالف و مناف

لذلك العمل!.

و نظير هـذه التعابير ما ورد فى بعض قصـص الأنبياء من جملتهم أبو البشـر آدم عليه السّـلام التى تقـدم شـرحه فى ذيل الآيـة (۱۹) من سورة الأعراف.

و نقرأ

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى تفسير الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۰

المتقدمـة: «قـالَ هـذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» يعنى الاقتتال الـذى وقع بين الرجل لا ما فعله موسـى عليه السّـلام من قتله «إنه» يعنى الشـيطان «عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ»-

و أمّا المراد من جملـة- «رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِـی فَاغْفِرْ لِی» يعنى ان موسـى يريـد أن يقول وضـعت نفسـى غير موضـعها بـدخول هـذه المدينة «فَاغْفِرْ لِی» أى استرنى من أعدائك لئلا يظفروا بى فيقتلونى ...».[۱۳۷]

۲- دعم المجرمين و إسنادهم من أعظم الآثام:

هناك باب مفصل فى الفقه الإسـلامى فيه أحاديث وافرة تتحدث حول «الإعانة على الإثم» و «معاونة الظلمة» و تدل على أن واحدا من أسوأ الآثام إعانة الظالمين و المجرمين، و تكون سببا لأن يشترك المعين فى مصيرهم الأسود.

و أساسـا فإنّ الظلمـة و المجرمين- أمثال فرعون- فى المجتمع أيّا كان هم أفراد معـدودون، و إذا لم يساعـد المجتمع هؤلاء لم يكونوا فراعنة، فهؤلاء القلّة المتفرعنون .. إنّما يعتمدون على الناس الضـعاف أو الانتهازيين و عبدة الدنيا، الذين يلتفّون حولهم و يكونون لهم أجنحة و أذرعا، أو على الأقل يكثّرون السواد ليوفروا لهم القدرة الشيطانية.

و فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشـير إلى هـذا الأصل الإسـلامى، فنحن نقرأ فى الآيـة الثّانيـة من سورة المائـدة قوله تعالى: وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ

كما أنّ القرآن يصرّح فى بعض آياته بالقول: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۱

[۱۳۸] و سواء كان «الرّكون» هنا بمعنى الميل القلبى، أو بمعنى الإعانـة الظاهريـة، أو إظهار الرضا و المحبّـة، أو طلب الخير لهم .. هذه المعـانى التى ذكرهـا المفسّـرين «للركون» يجمعهـا مفهوم جـامع لها، و هو الاتكاء و الاعتماد و التعلق و ما إلى ذلك، و هـذا المفهوم شاهد حى على مقصودنا.

و نقرأ فى هـذا الصـدد حـديثا للإمام على بن الحسين عليه السّـلام مع «محمّـد بن مسلم الزهرى» الـذى كان رجلا عالما، إلّا أنّه كان يتعاطف و يتعاون مع الجهاز الأموى و لا سـيما مع هشام بن عبـد الملك، يحـذّره الإمام فى حـديثه هـذا من إعانـة الظالمين و الركون إليهم، و هو حديث مثير جدّا .. و قد جاء فيه:

«أو ليس بـدعائهم إيّاك حين دعـوك جعلوك قطبـا أداروا بـك رحى مظـالمهم، و جسـرا يعبرون عليـك إلى بلايـاهم، سلّما إلى ضلالـتهم، داعيـا إلى عينهم سالكـا سبيلهم، يـدخلون بك الشك على العلماء و يقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فما أقل ما أعطوك فى قدر ما أخذوا منك، و ما أيسـر ما عمروا لك فى جنب ما خرّبوا عليك! فانظر لنفسك فإنّه لا ينظر إليها غيرك، و حاسـبها حساب رجل مسئول»[۱۳۹].

و الحقّ أنّ هذا المنطق البليغ المؤثر للإمام عليه السّـلام لكل عالم من وعّاظ السـلاطين مرتبط بالظالمين راكن إليهم، يمكن أن يبصّـره

بمصیره المشؤوم عاقبته المخزیة.

و یذکر ابن عباس أن آیة رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ من جملة الآیات التی تؤکّد على أن الرکون للمجرمین ذنب عظیم، و إعانة المؤمنین إطاعة لأمر اللّه سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۲

قالوا لبعض العلماء: إنّ فلانا أصبح کاتبا للظالم الفلانی، و لا یکتب له إلّا الـدخل و الخرج. و حیاته و حیاة عائلته مرهونـة بما یحصـل علیه من مال لقاء هذا العمل، و إلّا فسیقع هو و أسرته فی فقر مدقع.

فکان جواب هذا العالم: أمّا سمع قول العبد الصالح «موسى» رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ ۱۴۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۳

الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۱۸ الى ۲۲]

اشارة

فَأَصْبَحَ فِی الْمَدِینَةِ خائِفاً یَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِی اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ یَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ (۱۸) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ یا مُوسى أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِیدُ إِلاَّ أَنْ تَکُونَ جَبَّاراً فِی الْأَرْضِ وَ ما تُرِیدُ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْمُصْلِحِینَ (۱۹) وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِینَةِ یَسْعى قالَ یا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النَّاصِحِینَ (۲۰) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً یَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۲۱) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْیَنَ قالَ عَسى رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَواءَ السَّبِیلِ (۲۲)

التّفسیر

موسى یتوجّه إلى مدین خفیة:

نواجه فی هذه الآیات المقطع الرّابع من هذه القصّة ذات المحتوى الکبیر.

حیث أن مقتل الفرعونی فی مصر انتشر بسرعة، و القرائن المتعددة تدلّ على

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۴

أن القاتل من بنی إسرائیل، و لعل اسم موسى علیه السّلام کان مذکورا من بین بنی إسرائیل المشتبه فیهم.

و بالطبع فإنّ هـذا القتل لم یکن قتلا عادیا، بل کان یعـد شـرارة لانفجار ثورة مقدمـة للثورة .. و لا شک أن جهاز الحکومة لا یسـتطیع تجاوز هذه الحالة ببساطة لیعرّض أرواح الفرعونیین للقتل على أیدی عبیدهم من بنی إسرائیل.

لذلک یقول القرآن فی بدایة هذا المقطع فَأَصْبَحَ فِی الْمَدِینَةِ خائِفاً یَتَرَقَّبُ ۱۴۱].

و هو على حال من الترقب و الحذر، فوجئ فی الیوم التالی بالرجل الإسـرائیلی الذی آزره موسـى بالأمس یتنازع مع قبطی آخر و طلب من موسى أن ینصره فَإِذَا الَّذِی اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ یَسْتَصْرِخُهُ ۱۴۲].

و لکن موسـى تعجب منه و اسـتنکر فعله و قـالَ لَهُ مُوسـى إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ إذ تحـدث کـل یوم نزاعـا و مشـادة مع الآـخرین، و تخلق مشاکل لیس أوانها الآن، إذ نحن نتوقع أن تصیبنا تبعات ما جرى بالأمس، و أنت الیوم فی صـراع جدیـد أیضا!! و لکنّه کان على کل حال مظلوما فی قبضة الظالمین (و سواء کان مقصـرا فی المقدمات أم لا) فعلى موسـى علیه السّلام أنّ یعینه و ینصره و لا یترکه وحیدا

فى الميدان، فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما ج صاح ذلك القبطى: قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ و يبدو من عملك هذا أنّك لست إنسانا منصفا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۵

إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۱۴۳].

و هـذه العبـارة تـدلّ بوضوح على أن موسـى عليه السّـلام كان فى نيّته الإصـلاح من قبل، سواء فى قصـر فرعون أو خارجه، و نقرأ فى بعض الرّوايات أن موسـى عليه السّلام كانت له مشادات كلامية مع فرعون فى هذا الصدد، لذا فإن القبطى يقول لموسى: أنت كل يوم تريد أن تقتل إنسانا، فأىّ إصـلاح هذا الذى تريده أنت؟! فى حين أن موسـى عليه السّـلام لو كان يقتل هذا الجبار، لكان يخطو خطوة أخرى فى طريق الإصلاح ..

و على كل حال فإنّ موسـى التفت إلى أن ما حدث بالأمس قد انتشر خبره، و من أجل أن لا تتسع دائرة المشاكل لموسى فإنّه أمسك عن قتل الفرعونى فى هذا اليوم.

و من جهة أخرى فإنّ الأخبار وصـلت إلى قصـر فرعون فأحسّ فرعون و من معه فى القصر أن تكرار مثل هذه الحوادث ينذره بالخطر، فعقد جلسة شورى مع وزرائه و انتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسـى، و كان فى القصـر رجل له علاقة بموسـى فمضـى إليه و أخبره بالمؤامرة .. و كما يقول القرآن الكريم: وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ

و يبدو أنّ هذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذى كان يكتم إيمانه و يدعى «حزقيل» و كان من أسرة فرعون، و كانت علاقته بفرعون وثيقة بحيث يشترك معه فى مثل هذه الجلسات.

و كان هذا الرجل متألما من جرائم فرعون، و ينتظر أن تقوم ثورة «إلهية»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۶

ضده فيشترك معها.

و يبـدو أنّه كان له أمل كبير بموسـى عليه السّـلام إذ كان يتوسم فى وجهه رجلا ربّانيا صالحا ثوريّا، و لـذلك فحين أحسّ بأن الخطر محـدق بموسـى أوصل نفسه بسـرعة إليه و أنقـذه من مخالب الخطر، و سـنرى بعدئذ أن هذا الرجل لم يكن فى هذا الموقف فحسـب سندا و ظهيرا لموسى، بل كان يعدّ عينا لبنى إسرائيل فى قصر فرعون فى كثير من المواقف و الأحداث.

أمّا موسى عليه السّلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجدّية و قبل نصحه و وصيته فى مغادرة المدينة فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ و تضرع إلى اللّه بإخلاص و صفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

فأنا أعلم يا ربّ أنّهم ظلمة و لا يرحمون، و قد نهضت- دفاعا عن المحرومين- بوجه الظالمين، و لم آل جهدا و وسعا فى ردع الأشرار عن الإضرار بالطيبين، فأسألك- يا ربّى العظيم- أن تدفع عنّى أذاهم و شرّهم.

ثمّ قرر موسى عليه السّلام أن يتوجه إلى مدينة «مدين» التى كانت تقع جنوب الشام و شمال الحجاز، و كانت بعيدة عن سيطرة مصر و الفراعنـة .. و لكنه شاب تربّى فى نعمـة و رفاه و يتجه إلى سـفر لم يسـبق له فى عمره أن يسافر إليه، فلا زاد و لا متاع و لا صـديق و لا راحلة و لا دليل، و كان قلقا خائفا على نفسه، فلعل أصـحاب فرعون سيدركونه قبل أن يصل إلى هدفه «مدين» و يأسرونه ثمّ يقتلونه .. فلا عجب أن يظل مضـطرب البال! أجل، إن على موسـى عليه السّـلام أن يجتاز مرحلة صـعبة جدّا، و أن يتخلص من الفخ الذى ضربه فرعون و جماعته حوله ليصـطادوه، ليسـتقرّ أخيرا إلى جانب المستضـعفين و يشاطرهم آلامهم بأحاسـيسه و عواطفه، و أن يتهيأ لنهضـة إلهية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۷

لصالحهم و ضد المستكبرين.

إلّا أنّه كان لـديه فى هـذا الطريق و عواطفه رأس مال كبير و كثير لا ينفـد أبـدا، و هو الإيمان باللّه و التوكل عليه، لـذا لم يكترث بأى شىء و واصل السير .. وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَواءَ السَّبِیلِ ۱۴۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۸

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْیَنَ وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ یَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَیْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُکُما قالَتا لا نَسْقِی حَتَّی یُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَیْخٌ کَبِیرٌ (۲۳) فَسَقی لَهُما ثُمَّ تَوَلَّی إِلَی الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ (۲۴) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِی عَلَی اسْتِحْیاءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِی یَدْعُوکَ لِیَجْزِیَکَ أَجْرَ ما سَقَیْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۲۵)

التّفسير

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير:

نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصّة، و هى قضيّة ورود موسى عليه السّلام إلى مدينة مدين.

هـذا الشاب الطاهر الـذى لا يغش أحـدا أمضـى عـدّة أيّام فى الطريق، الطريق التى لم يتعود المسير فيها من قبل أبدا، و لم يكن له بها معرفة، و كما يقول بعضهم:

اضطر موسى إلى أن يمشى فى هذا الطريق حافيا، و قيل: إنّه قطع الطريق فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۹

ثمانية أيّام، حتى لقى ما لقى من النصب و التعب، و ورمت قدماه من كثرة المشى.

و كـان يقتـات من نبات الأرض و أوراق الشـجر دفعا لجوعه، و ليس له أمام مشاكل الطريق و أتعابه إلّا قلبه المطمئن بلطف اللّه الـذى خلّصه من مخالب الفراعنة.

و بـدأت معالم «مـدين» تلوح له من بعيد شـيئا فشـيئا، و أخذ قلبه يهدأ و يأنس لاقترابه من المدينة، و لما اقترب ثمّ عرف بسـرعة أنّهم أصحاب أغنام و أنعام يجتمعون حول الآبار ليسقوا أنعامهم و أغنامهم.

يقول القرآن فى هذا الصدد: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْیَنَ وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ یَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَیْنِ تَذُودانِ ۱۴۵].

فحركه هذا المشـهد ... حفنة من الشـبان الغلاظ يملأون الماء و يسـقون الأغنام، و لا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم .. بينما هناك امرأتان تجلسان فى زاويـة بعيـدة عنهم، و عليهم آثار العفّـة و الشـرف، جاء إليهما موسـى عليه السّـلام ليسألهما عن سـبب جلوسهما هناك و قالَ ما خَطْبُكُما[۱۴۶].

و لم لا تتقدمان و تسـقيان الأغنام؟! لم يرق لموسى عليه السّلام أن يرى هذا الظلم، و عدم العدالة و عدم رعاية المظلومين، و هو يريد أن يـدخل مدينـة مدين، فلم يتحمل ذلك كله، فهو المدافع عن المحرومين و من أجلهم ضـرب قصـر فرعون و نعمته عرض الحائط و خرج من وطنه، فهو لا يستطيع أن يترك طريقته و سيرته و أن يسكت أمام الجائرين الذين لا ينصفون المظلوم! ..

فقالت البنتان: إنّهما تنتظران تفرق الناس و أن يسقى هؤلاء الرعاة اغنامهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۰

قالَتا لا نَسْقِی حَتَّی یُصْدِرَ الرِّعاءُ[۱۴۷].

و من أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ و لماذا رضى بإرسال بناته للسقى مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما وَ أَبُونا شَیْخٌ کَبِیرٌ فلا هو يستطيع أن يسقى الأغنام، و ليس عندنا أخ يعينه على الأمر فلا حيلة لنا إلّا أن نؤدى نحن هذا الدور.

فتأثر موسى عليه السّلام من سماعه حديثهما بشدة. فأى أناس هؤلاء لا ينصفون المظلوم، و لا هم لهم غير أنفسهم.

فتقدم و أخذ الدلو و ألقاها فى البئر .. يقال: إن هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلّا أن موسى عليه السّلام استخرجها بقوته و شكيمته و همّته بنفسه دون أن يعينه أحد فَسَقی لَهُما أغنامهما.

و يقال: إنّ موسى عليه السّلام حين اقترب من البئر لام الرعاء، قال: أى أناس أنتم لا همّ لكم إلّا أنفسكم! و هاتان البنتان جالستان؟! ففسحوا له المجال و قالوا له:

هلمّ و املأ الدلو، و كانوا يعلمون أن هذه الدلو حين تمتلئ لا يستخرجها إلّا عشرة أنفار من البئر.

و لكن موسى عليه السّلام بالرغم من تعب السير فى الطريق و الجوع ملأ الدلو و سحبها بنفسه و سقى أغنام المرأتان جميعها .. ثُمَّ تَوَلَّی إِلَی الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ.

أجل .. إنّه متعب و جائع، و لا أحد يعرفه فى هذه المدينة، فهو غريب، و فى الوقت ذاته كان مؤدبا و إذا دعا اللّه فلا يقول: ربّ إنّى أريد كذا و كذا، بل يقول:

رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ أى إنّه يكشف عن حاجته فحسب، و يترك الباقى إلى لطف اللّه سبحانه.

لكن هلمّ إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود! و كم له من بركات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۱

عجيبة! خطوة نحو اللّه ملء دلو من أجل إنصاف المظلومين، فتح لموسى فصلا جديدا، و هيأ له. من عالم عجيب من البركات المادية و المعنوية .. و وجد ضالته التى ينبغى أن يبحث عنها سنين طوالا.

و بداية هذا الفصل عند ما جاءته احدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء و العفة و يظهر منها أنّها تستحى من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتا عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِی عَلَی اسْتِحْیاءٍ فلم تزد على أن قالَتْ إِنَّ أَبِی یَدْعُوکَ لِیَجْزِیَکَ أَجْرَ ما سَقَیْتَ لَنا.

فلمع فى قلبه إشراق من الأمل، و كأنّه أحس بأنّ واقعة مهمّة تنتظره و سيواجه رجلا كبيرا! .. رجلا عارفا بالحق و غير مستعد أن يترك أى عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه، هذا الرجل ينبغى أن يكون إنسانا نموذجيا و رجلا سماويا و إلهيّا .. ربّاه .. ما أروعها من فرصة.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب» النّبى الذى كان يدعو الناس لسنين طوال نحو اللّه، كان مثلا لمن يعرف الحق و يطلب الحق، و اليوم إذ تعود بنتاه بسرعة يبحث عن السبب، و حين يعرف الأمر يقرر أن يؤدى ما عليه من الحق لهذا الشاب كائنا من كان.

تحرك موسى عليه السّلام و وصل منزل شعيب، و طبقا لبعض الروايات، فإنّ البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلّا أن الهواء كان يحرّك ثيابها و ربّما انكشف ثوبها عنها، و لكن موسى لما عنده من عفة و حياء طلب منها أن تمشى خلفه و أن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله و تخبره من أى طريق يمضى إلى دار أبيها شعيب:[۱۴۸] دخل موسى عليه السّلام منزل شعيب عليه السّلام، المنزل الذى يسطع منه نور النبوّة .. و تشع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۲

فیه الروحانیة من کل مکان .. و إذا شیخ و قور یجلس ناحیة من المنزل یرحب بقدوم موسی علیه السّلام، و یسأله:

من أین جئت؟! و ما عملک؟! و ما تصنع فی هذه المدینة. و ما مرادک و هدفک هنا؟! و لم أراک وحیدا؟! و أسئلة من هذا القبیل ..

یقول القرآن فی هذا الصدد: فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ فأرضنا بعیدة عن سیطرتهم و سطوتهم و لا- تصل أیدیهم إلینا، فلا تقلق و لا تشعر نفسک الوحشة، فأنت فی مکان آمن و لا تفکر بالغربة، فکل شیء بلطف اللّه سیتیسر لک! ..

فالتفت موسی إلی أنّه وجد استاذا عظیما .. تنبع من جوانبه عیون العلم و المعرفة و التقوی، و تغمر وجوده الروحانیّة .. و یمکن أن یروی ظمأه منه.

کما أحسّ شعیب أنّه عثر علی تلمیذ جدیر و لائق، و فیه استعداد لأن یتلقی علومه و ینقل إلیه تجارب العمر! أجل .. کما أن موسی شعر باللذة حین وجد أستاذا عظیما .. کذلک أحس شعیب بالفرح و السرور حین عثر علی تلمیذ مثل موسی.

مسألتان

۱- أین کانت مدین؟!

«مدین»: اسم مدینة کان یقطنها «شعیب» و قبیلته، هذه المدینة کانت تقع فی شرق خلیج العقبة [و شمال الحجاز و جنوب الشامات و أهلها من أبناء إسماعیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۳

«الذبیح» ابن إبراهیم الخلیل علیهما السّلام، و کانت لهم تجارة مع مصر و فلسطین و لبنان.

أمّا الیوم فیطلق علی «مدین» اسم «معان».

کما أن بعضا من المفسّرین یعتقدون أن مدین اسم لجماعة کانت تعیش ما بین خلیج العقبة و جبل سینا المعروف بطور سیناء، و جاء اسمها فی التوراة ب «مدیان» أیضا[۱۴۹].

کما یری البعض: إنّ أساس تسمیة هذه المدینة «بمدین» هو لأنّ أحد أبناء إبراهیم الخلیل و اسمه «مدین» کان یعیش فی هذه المدینة[۱۵۰].

و فی الوقت الحاضر یبدو فی الخرائط الجغرافیة للأردن أن إحدی مدنها فی الجنوب الغربی منها، و اسمها «معان» تحمل الأوصاف ذاتها التی کانت فی مدین ..

و تنطبق علیها تماما.

۲- دروس کثیرة توحی بالعبر:

فی هذا القسم من قصّة موسی علیه السّلام دروس کثیرة توحی بالعبر:

أ- إنّ أنبیاء اللّه هم حماة المظلومین دائما، فموسی سواء کان فی مصر أو کان فی مدین کان یسیئه أن یری ظلما و تجاوزا علی حقوق الآخرین، و کان ینهض لنصرة المظلوم .. و لم لا یکون کذلک، و أحد أهداف بعثة الأنبیاء نصرة المظلوم.

ب- أداء عمل صغير للّه له بركات كثيرة! لم يفعل موسى سوى أنّه جلب دلوا من الماء و سقى الأغنام للبنتين، و لم يكن له هدف سوى مرضاة اللّه الخالق سبحانه! و لكن كم كان لهذا العمل الصغير من خير و بركة؟! لأنّه صار سببا لأن يصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٢١۴

إلى منزل شعيب نبى اللّه، و أن يتخلّص من الغربة، و أن يجد مأوى يطمئن إليه، و صار من نصيبه الأكل الهنيء و الثياب و الزوجة الصالحة، و أهم من كل ذلك .. إنّه وصل إلى شعيب، ذلك الشيخ الكبير الذى يتمتع بضمير حى و له دين سماوى، فعاش معه عشر سنين و أصبح مهيأ لقيادة الأمة فى ذلك الوقت ..

ج- إنّ رجال اللّه لا يتركون أى عمل سدى- و خاصّة ما يعمله المخلصون- دون أن يؤدوا أجره .. و لهذه السبب فإنّ شعيبا حين بلغه ما قدمه موسى عليه السّلام من عمل- و هو شاب لم يكن معروفا لم يكن معروفا هناك- لم يقرّ حتى أرسل خلفه ليعطيه أجره.

د- و هذه المسألة تثير الانتباه، و هى أن موسى كان يذكر اللّه دائما، و يطلب منه العون فى كل أمر، يوكل حل مشاكله إليه.

فحين قتل القبطى و عرف أنّه «ترك الأولى» استغفر ربّه فورا و قالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی

و حين خرج من مصر سأل اللّه أن يحفظه و قالَ رَبِّ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ

و حين وصل أرض مدين قالَ عَسى رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَواءَ السَّبِیلِ!.

و حين سقى أغنام «شعيب» و تولى إلى الظل دعا ربّه فَقالَ رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ.

و هذا الدعاء الأخير- خاصة- الذى دعا به في وقت تحوط فيه الأزمات و هو فى أشدّ الحاجات، دعا به و هو فى غاية التأدب و الخشوع، و لم يسأل اللّه أن يحقق له ما يحتاج، بل سأل المزيد و قال: رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ.

ه- لا ينبغى التصور أن موسى عليه السّلام إنّما كان يذكر اللّه فى الشدائد فحسب، فهو لم ينس ذكر اللّه حتى حين كان فى نعمة و رفاهية من العيش، إذ كان يعيش فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٢١۵

قصر فرعون- لذلك ورد فى الرّوايات ..

«درج موسى كان يوما عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد للّه ربّ العالمين. فأنكر فرعون ذلك عليه و لطمه و قال:

ما هذا الذى تقول؟ فوثب موسى على لحيته- و كان طويل اللحية- فهلبها أى قلعها، فآلمه ألما شديدا، فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته، هذا غلام حدث لا يدرى ما يقول و قد لطمته بلطمه إيّاك. فقال فرعون: بلى يدرى ...» إلخ [١۵١].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٢١۶

الآيات [سورة القصص (٢٨): الآيات ٢۶ الى ٢٨]

اشارة

قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِیُّ الْأَمِینُ (٢۶) قالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَى ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ وَ ما أُرِیدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَیْکَ سَتَجِدُنِی إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِینَ (٢٧) قالَ ذلِکَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ أَیَّمَا الْأَجَلَیْنِ قَضَیْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَیَّ وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَکِیلٌ (٢٨)

التّفسير

موسى فى دار شعيب:

هذا هو المقطع السادس من قصّة حياة موسى عليه السّلام المثيرة، جاء موسى إلى منزل شعيب، منزل قروىّ بسيط، منزل نظيف و ملىء بالروحيّة العالية، و بعد أن قصّ عليه قصّته، بادرت إحدى بنتى شعيب بالقول- و بعبارة موجزة-: إنّنى أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام و رعايتها: و قالت يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ

هذه البنت التى تربّت فى حجر النّبى الكبير، ينبغى أن تتحدث بمثل هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۷

الحديث الوجيز الكريم، و أن تؤدى الكلام حقّه بأقلّ العبارات.

ترى من أين عرفت هذه البنت أنّ هذا الشاب قوىّ و أمين أيضا؟ مع أنّها لم تره الّا لأوّل مرّة على البئر، و لم تتّضح لها سوابق حياته! و الجواب على هذا السؤال واضح و جلىّ .. إذ لاحظت قوته و هو ينحىّ الرعاء عن البئر و يملأ القربة الثقيلة لوحده و يطالب بحق المظلوم، و أمّا أمانته و صدقه فقد اتّضحا لها منذ أن سارت أمامه إلى بيت أبيها، فطلب منها أن تتأخر و يتقدمها، لئلا تضرب الريح ثيابها!.

أضف إلى ذلك .. من خلال نقله قصته لشعيب فقد اتّضحت قوته فى دفعه القبطى عن الإسرائيلى و قتله إيّاه بضربة واحدة .. و أمانته و صدقه .. فى عدم مساومته الجبابرة.

فرضى شعيب عليه السّلام باقتراح ابنته، و توجه إلى موسى و قالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمانِيَ حِجَجٍ ثمّ أضاف قائلا: فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ۱۵۲].

و على كل حال، فلا أريد إيذاءك وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

فأنّا ألتزم بالعهد و الميثاق و أفى بما نتعاقد عليه، و لا أشدّد عليك فى الأمور، و أتعامل معك معاملة حسنة و صالحة .. إن شاء اللّه.

و من خلال هذا الاقتراح هناك أسئلة كثيرة حول الزواج من ابنة شعيب و المهر و سائر الخصوصيات، و سنبحث عنها فى البحوث القادمة إن شاء اللّه.

و استجابة لهذا القرار و العقد الذى أنشأه شعيب مع موسى .. وافق موسى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۸

و قالَ ذلِكَ بَيْنِى وَ بَيْنَكَ ..

ثمّ أردف مضيفا بالقول: أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَ أى سواء قضيت عشر سنين أو ثمانى سنين «حجج» فلا عدوان على ..

و من أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السّلام اللّه كفيلا و قال: وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ!.

و بهذه البساطة أصبح موسى صهرا لشعيب على ابنته.

بحوث

۱- شرطان أساسيان للإدارة الصحيحة

فى العبارة القصيرة التى وردت فى الآيات المتقدمة على لسان بنت شعيب فى شأن استئجار موسى، كان من أهم الشروط و أكثرها أصالة شرطان لخّصا فى «القوّة» و «الأمانة».

و من البديهى أنّ القوّة المذكورة- آنفا- ليس المراد منها قوّة الجسم فحسب، بل القدرة على تحمّل المسؤولية أيضا.

فالطبيب «القوى الأمين» هو الطبيب الذى له معرفة جيدة و كافية فى عمله، و له تسلّط عليه أيضا.

و المدير القوى هو الذى يعرف «أصول الإدارة» و يعرف الأهداف المطلوبة ..

و له تسلط فى وضع الخطط و «البرامج»، و له سهم وافر فى الابتكار و تنظيم الأعمال .. و يعبئ القوى فى سبيل الوصول للهدف المعين.

و فى الوقت ذاته يكون مشفقا و ناصحا و أمينا و صادقا فى العمل.

و الأشخاص الذين يقنعون فى تحمل المسؤولية وجود الأمانة و الطهارة فحسب، هم مخطئون بمقدار خطأ من يعتمد على سمة التخصص و العلم فحسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۹

فالمتخصصون الخونة و العلماء المنحرفون يضربون ضربتهم كما يضربها المخلصون الذين لا- حظ لهم من الاطلاع و المهارة فى العمل.

و إذا أردنا أن نخرّب دولة ما فينبغى أن نوكل الأمور إلى إحدى هاتين الطائفتين .. إلى مدراء خائنين ل «الأمانة»، إلى المخلصين الذين لاحظ لهم من العلم و الإدارة و النتيجة واحدة.

إنّ منطق الإسلام هو أن يوكل كل عمل إلى شخص قوى أمين مقتدر، ليصل نظام المجتمع إلى الكمال، و إذا ما تأمّلنا فى سبب زوال الحكومات فى طول التأريخ، و فكّرنا فى الأمر، وجدنا العامل الأصلى هو إيكال الأمر إلى إحدى هاتين الطائفتين اللتين تكلمنا عنهما آنفا.

و من الطريف أنّ منهج الإسلام فى جميع الأمور أنّه يقرن «العلم مع التقوى» جنبا إلى جنب.

فمرجع التقليد لا بدّ أن يكون «مجتهدا عادلا» و القاضى و كذلك القائد يجب أن يكون «مجتهدا عادلا» .. و بالطبع فإن شروطا أخرى ينبغى توفرها أيضا، و لكن أساس هذه الشروط جميعا شرطان هما «العلم المقترن بالتقوى و العدل».

۲- اسئلة عن زواج موسى من بنت شعيب! ...

ذكرنا- آنفا- أنّ الآيات المتقدمة تحمل بين ثنايها أسئلة متعددة، و علينا أن نجيب عليها و لو باختصار:

أ- هل يجوز من الناحية الشرعية و الفقهية، أن تكون الزوجة غير معلومة، بل يقال عند إجراء صيغة العقد «أزوّجك إحدى البنتين مثلا»؟ ...

و الجواب: ليس من المعلوم أن العبارة السابقة أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ ذكرت عند إجراء صيغة العقد .. بل الظاهر أنّه جرى كلام و مقدمات للعقد و الزواج، و بعد موافقة موسى على الزواج، ثمّ تجرى صيغة العقد على واحدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۰

بعينها.

ب- هل يمكن أن يكون المهر مجهولا- أو مرددا بين النقصان و التمام؟! و الجواب: يفهم من لغة الآية أن المهر الواقعى كان ثمانى سنوات خدمة .. أمّا السنتان الأخريان فموكلتان لرغبة موسى، إن شاء أدّاهما، و إلّا فلا! ج- و هل يجوز أساسا أن يكون المهر «خدمة و عملا»؟! و كيف يمكن الزواج من امرأة على هذا المهر و الدخول بها، و المهر بعد لم يتمّ، و لا يمكن إتمامه فى مكان واحد! و الجواب: إنّه لا دليل على عدم جواز مثل هذا المهر، بل إطلاقات الأدلة على المهر فى شريعتنا- أيضا- تشمل كل شىء ذى قيمة! كما أنّه لا يلزم أداء المهر فى مكان واحد، بل يكفى أن يكون فى ذمّة الرجل، و المرأة مالكة له.

و أصل السلامة و الاستصحاب يقضيان أنّ هذا الرجل يحيا مدّة و يستطيع أداء هذا المهر.

د- أساسا كيف يمكن جعل الخدمة للأب مهرا للبنت؟! فهل المرأة بضاعة تباع في مقابل الخدمة[۱۵۳]؟! ..

و الجواب: لا شكّ أن شعيبا كان يحرز رضا ابنته على مثل هذا المهر، و لديه وكالة منها على هذا العقد، و بتعبير آخر: إن المالك الأصلي لما في ذمّة موسى، هي زوجته «بنت شعيب».

و لكن .. حيث أنّهم كانوا يعيشون في بيت واحد و في غاية الصفاء و النقاء، و لم تكن بينهم فرقة و انفصال «كما هي الحال بالنسبة إلى كثير من الأسر القروية

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۱

القديمة التي تبدو حياتها منسجمة تمام الانسجام» فلم تكن هذه المسألة- مسألة أداء الدين- محل بحث و لا كيف يوفّى المهر.

المهم هنا أن المالك للمهر البنت وحدها لا الأب، و الخدمات التي قدمها موسى كانت في هذا السبيل أيضا.

ه- كان مهر بنت شعيب مهرا ثقيلا نسبيا- لأنّنا إذا أردنا أن نلاحظ أجرة العامل العادي خلال شهر ثمّ خلال سنة، و بعدئذ نضاعف ذلك الأجر إلى ثماني مرات فسيكون مبلغا كثيرا جدّا.

الجواب: أولا لم يكن هذا الزواج زواجا بسيطا، بل كان مقدمة لبقاء موسى عند «شعيب» متبعا شاكلته و مذهبه، و مقدمة لأن يدرس موسى عليه السّلام في جامعة علمية كبرى خلال هذه الفترة الطويلة، و اللّه العالم كم تعلم موسى من «شيخ مدين» في هذه المدّة من امور؟! ثمّ بعد ذلك كله، لو قلنا: إنّ هذه المدة الطويلة كان يقضيها موسى في خدمة شعيب، ففي مقابل ذلك سيؤمن له شعيب مصرفه و نفقات زوجه من هذا الطريق أيضا .. فإذا جردنا مصرف موسى و نفقاته من أجرة عمله لم يكن المهر غاليا- بل سيبقى مبلغ زهيد و خفيف! ..

۳- يستفاد ضمنا من هذه القصّة أن ما يشيع في عصرنا من أن اقتراح الأب على إختيار البعل لابنته أمر مصيب، لا مانع منه و ليس معيبا، فإذا وجد الأب شخصا لائقا و جديرا، فله الحق أن يقترح عليه الزواج من ابنته، كما فعل شعيب عليه السّلام مع موسى في شأن ابنته عليه السّلام و الزواج منها.

۴- اسما ابنتي شعيب: واحدة «صفورة» أو «صفورا» و هي التي تزوجت من موسى عليه السّلام، أمّا الثّانية فاسمها «ليا»[۱۵۴].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۲

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۲۹ الى ۳۵]

اشارة

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۲۹) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۳۰) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (۳۱) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۳۲) قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۳۳)

وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۳۴) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (۳۵)

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۳

التّفسير

الشّرارة الأولى للوحى:

نصل الآن- إلى المقطع السابع- من هذه القصّة ..

لا يعلم أحد- بدقّة- ما جرى على موسى فى سنواته العشر مع شعيب ١٥٥]، و لا شكّ أن هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السّلام سنوات عذبة هادئة، سنوات هيأته للمسؤولية الكبرى.

فى الحقيقة كان من الضرورى أن يقطع موسى عليه السّلام مرحلة عشر سنين من عمره فى الغربة إلى جانب النّبى العظيم شعيب، و أن يكون راعيا لغنمه؛ ليغسل نفسه ممّا تطبّعت عليه من قبل أو ما قد أثرت عليه حياة القصر من خلق و سجية.

كان على موسى عليه السّلام أن يعيش إلى جوار سكنة الأكواخ فترة ليعرف همومهم و آلامهم، و أن يتهيأ لمواجهة سكنة القصور.

و من جهة أخرى كان موسى بحاجة الى زمن طويل ليفكر فى أسرار الخلق و عالم الوجود و بناء شخصيته. فأىّ مكان أفضل له من صحراء مدين، و أفضل من بيت شعيب؟!.

إنّ مسئولية نبى من أولى العزم، ليست بسيطة حتى يمكن لكل فرد أن يتحملها، بل يمكن أن يقال: إنّ مسئولية موسى عليه السّلام- بعد مسئولية النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله- من بين الأنبياء جميعا، كانت أثقل و أهم، بالنظر لمواجهته الجبابرة على الأرض، و تخليص أمّة من أسرهم، و غسل آثار الأسر الثقافى من أدمغتهم.

نقرأ فى «التوراة» و فى بعض الروايات الإسلامية- أيضا- أنّ شعيبا قرر تكريما لأتعاب موسى و جهوده معه أن يهب له ما تلده الأغنام فى علائم خاصة، فاتفق أن ولدت جميع الأغنام أو أغلبها- فى السنة الذى ودّع فيها موسى شعيبا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٢٢۴

أولادها بتلك العلائم التى قررها شعيب ١۵۶]، و قدمها شعيب مع كامل الرغبة إلى موسى.

و من البديهى أنّ موسى عليه السّلام لا يقنع فى قضاء جميع عمره برعى الغنم، و إن كان وجود «شعيب» الى جانبه يعدّ غنيمة كبرى.

فعليه أن ينهض إلى نصرة قومه، و أن يخلصهم من قيود الأسر، و ينقذهم من حالة الجهل و عدم المعرفة.

و عليه أن ينهى وجود الظلمة و حكام الجور فى مصر، و أن يحطّم الأصنام، و أن يجد المظلومون العزة باللّه معه، هذا الإحساس كان يدفع موسى للسفر إلى قومه.

و أخيرا جمع موسى أثاثه و متاعه و أغنامه و تهيأ للسفر.

و يستفاد ضمنا من التعبير ب «الأهل» التى وردت فى آيات كثيرة فى القرآن أن موسى عليه السّلام كان عنده هناك غير زوجته ولد أو أولاد، كما تؤيد الرّوايات الإسلامية هذا المضمون، و كما صرّح بهذا المعنى فى «التوراة» فى سفر الخروج، و إضافة إلى كل ذلك فإنّ زوجته كانت حاملا أيضا.

و عند عودته من مدين إلى وطنه أضاع الطريق، و لئلا يقع أسيرا بيد الظلمة من أهل الشام اختار طريقا غير مطروق.

و على كل حال فإنّ القرآن يقول فى أوّل من آية هذا المقطع: فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً ثمّ التفت إلى أهله و قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أى (تتدفؤون).

«آنست»: مشتقّة من مادة «إيناس» و معناها المشاهدة و الرؤية المقترنة بالهدوء و الراحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٢٢۵

«جذوة» هى القطعة من النّار، و قال بعضهم: بل هى القطعة الكبيرة من الحطب.

و يستفاد من قوله لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أنّه کان أضاع الطریق، کما یستفاد من جملهٔ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ أن الوقت کان لیلا باردا.

و لم یرد فی الآیـهٔ کلام عن حالـهٔ زوجـهٔ موسـی، و لکن المشـهور أنّها کانت حاملا- کما فی کثیر من التفاسـیر و الرّوایات- و کانت تلک اللحظهٔ قد أحست بالطلق و ألم الولادهٔ .. و کان موسی قلقا لحالها أیضا.

فَلَمَّا أَتاها أی أتی النّار التی آنسها و رآها، وجدها نارا لا کمثل النیران الأخر فهی غیر مقترنهٔ بالحرارهٔ و الحریق، بل هی قطعهٔ من النور و الصفاء، فتعجب موسی من ذلک نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَهِٔ الْمُبارَکَهِٔ مِنَ الشَّجَرَهِٔ أَنْ یا مُوسی إِنِّی أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ

«الشاطئ» معناه الساحل.

و «الوادی» معناه الطریق بین الجبلین، أو ممر السیول.

و «الأیمن» مشتق من «الیمین» خلاف الیسار، و هو صفهٔ للوادی.

و «البقعهٔ» القطعهٔ من الأرض المعروفهٔ الأطراف.

و لا شک أن اللّه سـبحانه قادر علی أن یجعل الأمواج الصوتیهٔ فی کل شـیء، فأوجد فی الوادی شجرهٔ لیکلّم موسی .. و موسی بشر له جسم و أذنان و لا بدّ له لیسـمع الکلام من أمواج صوتیهٔ .. و طبیعی أن کثیرا من الأنبیاء کان الوحی بالنسبهٔ لهم إلهاما داخلیا، و أحیانا یرون ما یوحی إلیهم فی «النوم» کما کان الوحی یأتیهم. أحیانا- عن طریق سماع الأمواج الصوتیهٔ.

و علی کل حال فلا مجال للتوهم بأنّ اللّه جسم، تعالی اللّه عن ذلک.

و فی بعض الرّوایـات ورد أن موسـی علیه السّـلام حین اقترب من النّار، دقق النظر فلاحظ أن النّار تخرج من غصن أخضـر و تضـیء و تزداد لحظهٔ بعد لحظهٔ و تبدو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۶

أجمل، فانحنی موسی و فی یده غصن یابس لیوقده من النّار، فجاءت النّار من ذلک الغصن الأخضر إلیه فاستوحش و رجع إلی الوراء .. ثمّ رجع إلیها لیأخـذ منها قبسا فأتته ثانیـهٔ .. و هکـذا مرّهٔ یتجه بنفسه إلیها و مرّهٔ تتجه النّار إلیه، و إذا النداء و البشارهٔ بالوحی إلیه من قبل اللّه سبحانه.

و من هنا و مع ملاحظهٔ قرائن لا تقبل الإنکار اتّضح لموسی علیه السّلام أنّ هذا النداء هو نداء إلهی لا غیر.

و مع الالتفات إلی أنّ موسـی علیه السّـلام سیتحمل مسـئولیهٔ عظیمـهٔ و ثقیلـهٔ .. فینبغی أن تکون عنده معاجز عظیمهٔ من قبل اللّه تعالی مناسبهٔ لمقامه النبوی، و قد أشارت الآیات إلی قسمین مهمین من هذه المعاجز:

الأولی قوله تعالی: وَ أَنْ أَلْقِ عَصاکَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ کَأَنَّها جَانٌّ وَلَّی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ

و یوم اختار موسـی علیه السّـلام هذه العصا لیتوکأ علیها للاستراحهٔ، و یهشّ بها علی غنمه، و یرمی لها بهذه العصا أوراق الأشـجار، لم یکن یعتقـد أنّ فی داخلهـا هـذه القـدرهٔ العظیمـهٔ المودعـهٔ من قبل اللّه. و أن هـذه العصا البسـیطهٔ سـتهز قصور الظالمین، و هکـذا هی موجودات العالم، نتصور أنّها لا شیء، لکن لها استعدادات عظیمهٔ مودعهٔ فی داخلها بأمر اللّه تتجلی لنا متی شاء.

فی هذه الحال سمع موسی علیه السّلام مرّهٔ أخری النداء من الشجرهٔ أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ

«الجـانّ» فی الأصـل معنـاه الموجود غیر المرئی، کمـا یطلق علی الحیـات الصـغار اسم (جان) أیضا؛ لأنّها تعبر بین الأعشاب و الأحجار بصورهٔ غیر مرئیهٔ ..

کما عبر فی بعض الآیات عن العصا ب ثُعْبانٌ مُبِینٌ [سورهٔ الأعراف الآیهٔ ۱۰۷ و سورهٔ الشعراء الآیهٔ ۳۲].

و قد قلنا سابقا: إنّ هذا التفاوت فی التعابیر ربّما لبیان الحالات المختلفهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۷

لتلک الحیهٔ .. التی کانت فی البدایهٔ حیهٔ صغیرهٔ، ثمّ ظهرت کأنّها ثعبان مبین.

كما و يحتمل أن موسى عليه السّلام رآها في الوادي بصورة حية، ثمّ في المرات الأخرى بدأت تظهر بشكل مهول ثُعْبانٌ مُبِينٌ و على كل حال، كان على موسى عليه السّلام أن يعرف هذه الحقيقة، و هي أنّه لا ينبغي له الخوف في الحضرة الإلهية؛ لأنّ الأمن المطلق حاكم هناك، فلا مجال للخوف إذا.

كانت المعجزة الأولى آية «من الرعب»، ثمّ أمر أن يظهر المعجزة الثّانية و هي آية أخرى «من النور و الأمل» و مجموعهما سيكون تركيبا من «الإنذار» و «البشارة» إذ جاءه الأمر اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ.

فالبياض الذي يكون على يده للناس لم يكن ناشئا عن مرض- كالبرص و نحوه- بل كان نورا الهيا جديدا.

لقد هزّت موسى عليه السّلام مشاهدته لهذه الأمور الخارقة للعادات في الليل المظلم و في الصحراء الخالية .. و من أجل أن يهدأ روع موسى من الرهب، فقد أمر أن يضع يده على صدره وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ

قال بعضهم: هذه العبارة وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ كناية عن لزوم القاطعية و العزم الراسخ في أداء المسؤولية بالنسبة لرسالته، و أن لا يخاف أو يرهب شيئا أو أحدا أو قوّة مهما بلغت.

و قال بعضهم: حين ألقى موسى عليه السّلام عصاه فرآها كأنّها «جان» أو ثُعْبانٌ مُبِينٌ رهب منها، فمدّ يده ليدافع عن نفسه و يطردها عنه، لكن اللّه أمره أن يضم يده إلى صدره، إذ لا حاجة للدفاع فهي آية من آياته.

و التعبير ب «الجناح» [الذي يستعمل للطائر مكان اليد للإنسان بدلا عن اليد في غاية الجمال و الروعة .. و لعل المراد منه تشبيه هذه الحالة بحالة الطائر حين يدافع عن نفسه و هو أمام عدوّه المهاجم، و لكنه يعود إلى حالته الأولى و يضم

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۸

جناحه إليه عند ما يزول عنه العدو و لا يجد ما يرهبه!.

و جاء موسى النداء معقّبا: فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ

فهم طائفة خرجت عن طاعة اللّه و بلغ بهم الطغيان مرحلة قصوى .. فعليك- يا موسى- أن تؤدي وظيفتك بنصحهم، و إلّا واجهتهم بما هو أشد.

هنا تذكر موسى عليه السّلام حادثة مهمة وقعت له في حياته بمصر، و هي قتل القبطي، و تعبئة القوى الفرعونية لإلقاء القبض عليه و قتله.

و بالرغم من أنّ موسى عليه السّلام كان يهدف عندها الى انقاذ المظلوم من الظالم الذي كان في شجار معه، فكان ما كان .. إلّا أن ذلك لا معنى له في منطق فرعون و قومه، فهم مصممون على قتل موسى إن وجدوه .. لذلك فإنّ موسى: قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

و بعد هذا كلّه فإنّي وحيد و لساني غير فصيح وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

كلمة «أفصح» مشتقّة من «الفصيح» و هو في الأصل كون الشيء خالصا، كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو و زيادة كلمة «الفصيح» أيضا.

و «الردء» معناه المعين و المساعد.

و على كل حال فلأن هذه المسؤولية كانت كبيرة جدّا، و لئلا يعجز موسى عن أدائها، سأل ربّه أن يرسل معه أخاه هارون أيضا.

فأجاب اللّه دعوته، و طمأنه بإجابة ما طلبه منه و قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فالسلطة و الغلبة لكما في جميع المراحل.

و بشرهما بالنصر و الفوز، و أنّه لن يصل إليهما سوء من أولئك: إذ قال سبحانه:

فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا فبهذه الآيات و المعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الإضرار بكما أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۹

فكان ما أوحى اللّه إلى موسى أملا- كبيرا و بشارة عظمى اطمأن بها قلبه، و أصبح راسخ العزم و الحزم، و سنجد آثار ذلك فى الصفحات المقبلة حين نقرأ الجوانب الأخرى من قصّة موسى عليه السّلام إن شاء اللّه [۱۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۰

الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (۳۶) وَ قالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۳۷)

التّفسير

موسى فى مواجهة فرعون:

نواجه المقطع الثامن من هذه القصّة العظيمة .. لقد تلقى موسى عليه السّلام من ربّه الأمر بأن يصدع بالنبوّة و الرسالة فى تلك الليلة المظلمة و الأرض المقدسة، فوصل إلى مصر، و أخبر أخاه هارون بما حمّل .. و أبلغه الرسالة الملقاة عليهما ..

فذهبا معا إلى فرعون ليبلغاه رسالة اللّه، و بعد عناء شديد استطاعا أن يصلا إلى فرعون و قد حف به من فى القصر من جماعته و خاصته، فأبلغاه الدعوة إلى اللّه و وحدانيّته .. و لكن لنر ما جرى هناك- فى قصر فرعون- مع موسى و أخيه.

يقول القرآن فى أوّل آية من هذا المقطع: فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۱

و أنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ

فواجهوا موسى متوسّلين بحربة توسّل بها جميع الجبابرة و الضالّون على طول التاريخ، حين رأوا المعاجز من أنبيائهم .. و هى حربة «السحر» لأنّ الأنبياء يأتون بأمور خارقة للعادات، و «السحر» خارق للعادة «لكن اين هذا من هذه»؟

السحرة أناس منحرفون و أهل دنيا و عبيد لها و أساس عملهم قائم على تحريف الحقائق، و يمكن معرفتهم جيدا بهذه العلامة .. فى حين أنّ دعوة الأنبياء و محتواها شاهد على صدق معاجزهم ..

ثمّ إنّ السحرة طالما يعتمدون على القدرة البشرية فإنّ عملهم محدود، أمّا الأنبياء الذين يعتمدون على قوّة الهية، فإن معاجزهم عظيمة و غير محدودة! ..

التعبير ب «الآيات البيّنات» عن معاجز موسى عليه السّلام بصيغة الجمع، ربّما يراد به أن معاجز أخرى غير المعجزتين هاتين، أو أن كل معجزة من معجزتيه مركبة من عدّة معاجز.

فتبديل العصا إلى ثعبان عظيم معجزة، و عودة الثعبان إلى عصا معجزة أخرى.

و التعبير ب «مفترى» مأخوذة من «فرية» بمعنى التهمة و الكذب لأنّهم قصدوا أنّ موسى يكذب على اللّه!.

و التعبير ب ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ مع أن نداء الأنبياء و دعوتهم من أمثال نوح و إبراهيم و يوسف عليهم السلام كانا من قبل موسى عليه السّلام فى هذه الأرض، فجميعهم دعوا إلى عبادة اللّه سبحانه. هذا التعبير أساسه طول المدّة و بعد العهد عليهم، أو أنّهم

يريدون أن يقولوا: إنّ آباءنا- أيضا- لم يذعنوا لدعوة الأنبياء قبلك!.

لكن موسى عليه السّلام أجابهم بلهجة التهديد و الوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار وَ قالَ مُوسى رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۲

الدَّارِ.

إشارة إلى أنّ اللّه يعلم حالى، و هو مطلع علیّ بالرغم من اتهامكم إيّاى بالكذب .. فكيف يمكن أن يمكننى اللّه من الأمور الخارقة للعادات لكى أضل بها عباده؟

فعلمه بحالى و منحه لى هذه القدرة على الإتيان بالمعجزات دليل على حقانية دعوتى.

ثمّ بعد هذا، الكاذب قد يقضى فترة بين الناس بالكذب و الخديعة، لكن سرعان ما يفتضح أمره، فانتظروا لتشهدوا من تكون له العاقبة و الإنتصار .. و لمن يكون الخزى و الاندحار!؟

و لو كان كلامى كذبا فأنا ظالم و إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

و هذا التعبير يشبه تعبيرا آخر فى الآية (۶۹) من سورة «طه» إذ جاء بهذه الصيغة «وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى .

و هذه الجملة لعلها إشارة إلى الفراعنة المعاندين و المستكبرين ضمنا، و هى أنّكم مقتنعون بمعاجزى و دعوتى الحقّة، و لكنّكم تخالفوننى ظلما .. فعليكم أن تعرفوا أنّكم لن تنتصروا أبدا، و العاقبة لى فحسب.

و التعبير ب عاقِبَةُ الدَّارِ ربّما كان إشارة لعاقبة الدار الدنيا، أو لعاقبة الدار الآخرة، أو لعاقبة الدارين جميعا، و بالطبع فإنّ المعنى الثّالث أجمع و أنسب حسب الظاهر.

بهذا المنطق المؤدب أنذر موسى عليه السّلام فرعون و قومه بالهزيمة فى هذه الدنيا و فى الأخرى!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۳

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۳۸ الى ۴۲]

اشارة

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِی فَأَوْقِدْ لِی يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (۳۸) وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِی الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۴۰) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (۴۱) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِی هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (۴۲)

التّفسير

كيف كان عاقبة الظالمين؟

نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ الملىء بالأحداث و العبر.

هذا المقطع يعالج مسألة صنع فرعون البرج- أو بنائه الصرح المعروف- للبرهنة على وهمية دعوة موسى عليه السّلام.

و نعرف أن من سنن الساسة القدماء فى أعمالهم أنّه كلما وقعت حادثة مهمّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۴

علی خلاف رغباتهم و میولهم (و من أجل التمویه و إیهام الناس) یبادرون إلی خلق جوّ جدید لیلفتوا أنظار الناس إلیه، و لیصرفوهم عن تلک الحادثة المطلوبة.

و یبدو أنّ بناء «الصرح العظیم» حدث بعد ما جری لموسی من مواجهته السحرة ما جری .. لأنّه یستفاد من سورة «المؤمن» أن هذا العمل «بناء البرج» تمّ حین کان الفراعنة یخططون لقتل موسی علیه السّلام، و کان مؤمن آل فرعون یدافع عنه ..

و نعرف أنّه قبل أن یواجه موسی علیه السّلام السحرة لم یکن مثل هذا العمل و لا مثل هذا الحدیث، و حیث أن القرآن الکریم تحدّث عن مواجهة موسی علیه السّلام للسحرة فی سورة «طه، و الأعراف، و یونس، و الشعراء» فإنّه لم یتطرق إلیها هنا. و إنّما تحدث هنا و فی سورة المؤمن عن بناء البرج.

و علی کل حال فقد شاع خبر انتصار موسی علیه السّلام علی السحرة فی مصر، و إیمان السحرة بموسی زاد فی الأمر أهمیة، کما أن موقع الحکومة الفرعونیة أصبح فی خطر جدیّ شدید.

و احتمال تیقظ الجماهیر التی فی أسر الذل کان کبیرا جدّا .. فیجب صرف أفکار الناس بأیة قیمة کانت، و اشغالهم بسلسلة من المشاغل الذهنیة مقرونة ببذل من الجهاز الحکومی، لإغفال الناس و تحمیقهم! و فی هذا الصدد یتحدث القرآن الکریم عن جلوس فرعون للتشاور فی معالجة الموقف، إذ نقرأ فی أوّل آیة من هذا المقطع: وَ قالَ فِرْعَوْنُ یا أَیُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی فأنا إلهکم فی الأرض .. أمّا إله السماء فلا دلیل علی وجوده، و لکننی سأتحقق فی الأمر و لا أترک الاحتیاط، فالتفت إلی وزیره هامان و قال: فَأَوْقِدْ لِی یا هامانُ عَلَی الطِّینِ ثمّ أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جدّا لأصعد علیه و استخبر عن إله موسی.

فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلی إِلهِ مُوسی وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْکاذِبِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۵

لم لم یذکر فرعون اسم الآجر، و اکتفی بالقول: فَأَوْقِدْ لِی یا هامانُ عَلَی الطِّینِ قال بعضهم: هذا دلیل علی أن الآجر لم یکن متداولا حتی ذلک الحین، و إنّما ابتکره الفراعنة من بعد .. فی حین أن بعضهم یری أن هذا التعبیر أو هذا البیان فیه نوع من التکبر و موافق لسنّة الجبابرة.

و قال بعضهم: إنّ کلمة «آجر» لیست فصیحة، لذلک لم یستعملها القرآن، و إنّما استعمل هذا التعبیر المتقدم علی لسان فرعون!.

هنا ناقش جماعة من المفسّرین کالفخر الرازی و الآلوسی مسألة «الصرح»، و هل بنی فرعون «الصرح» حقّا أم لا؟! و یبدو أن الذی شغل فکر المفسّرین هو أن هذا العمل لم یکن متزّنا بأیّ وجه و أی حساب.

تری .. أ لم یکن الناس قد صعدوا الجبال من قبل فرأوا منظر السماء کما هو علی الأرض؟.

و هل البرج الذی یبنیه البشر أکثر ارتفاعا من الجبل؟.

و أی أحمق یصدق أنّه یمکن الوصول إلی السماء بواسطة مثل هذا البرج؟! و لکن أولئک الذین یفکرون مثل هذا التفکیر غفلوا عن هذه المسألة، و هی أن مصر لم تکن أرضا جبلیة، و بعد هذا کلّه نسوا أنّ الطبقة العامّة لأهل مصر بسطاء و یخدعون بشتی الوسائل.

حتی فی عصرنا الذی یسمی عصر العلم و عصر النور، نجد مسائل تشبه ما وقع فی العصور الماضیة ینخدع بها الناس.

و علی کل حال، فطبقا لما ورد فی بعض التواریخ، فإنّ هامان أمر بأرض واسعة لیبنی علیها الصرح أو البرج، و هیّأ خمسین ألف رجل من العمال و المهندسین لهذا العمل المضنی، و آلاف العمال لتهیئة الوسائل اللازمة لهذا البناء، و فتح أبواب الخزائن و صرف أموالا طائلة فی هذا السبیل، و اشغل عمالا کثیرین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۶

فی هذا البناء .. حتی أنّه ما من مکان إلّا و تسمع فیه أصوات هذا البناء أو أصداؤه!.

و کلما اعتلى البناء أكثر فأكثر كان الناس يأتون للتفرج، و ما عسى أن يفعل فرعون بهذا البناء و هذا البرج.

صعد البناء إلى مرحلة بحيث أصبح مشرفا على جميع الأطراف. و كتب بعضهم: إنّ المعمارين بنوا هذا البرج بناء بحيث جعلوا حوله سلالم حلزونية يمكن لراكب الفرس أن يرتقى الى أعلى البرج.

و لمّا بلغ البناء تمامه و لم يستطع البناؤون أن يعلوه أكثر من ذلك .. جاء فرعون بنفسه يوما و صعده بتشريفات خاصة .. فنظر إلى السماء فوجدها صافية كما كان ينظرها من الأرض لم تتغير و لم يطرأ عليها جديد.

المعروف أنّه رمى سهما إلى السماء، فرجع السهم مخضبا بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنّها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل .. فنزل فرعون من أعلى القصر و قال للناس: اذهبوا و اطمأنوا فقد قتلت إله موسى ۱۵۸].

و من المسلم به أن جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعا أعمى و أصم، صدّقوا ما قاله فرعون و نشروه فى كل مكان، و شغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق!.

و نقلوا هذا الخبر أيضا، و هو أنّ البناء لم يدم طويلا «و طبعا لا يدوم» أجل لقد تهدم البناء و قتل جماعة من الناس .. و نقلوا فى هذا الصدد قصصا أخرى، و حيث أن لم تتّضح صحتها لنا فقد صرفنا عنها النظر.

و الذى يلفت النظر أن فرعون فى كلامه هذا ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى كان قد استعمل نهاية الخبث و منتهى الشيطنة .. إذ كان يرى من المسلّم به أنّه إله!! .. و كان مدار بحثه: هل يوجد إله غيره؟!! .. ثمّ ينفى أن يكون هناك إله سواه إله؛ لعدم وجود الدليل!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۷

و فى المرحلة الثّالثة و الأخيرة، و من أجل أن يقيم الدليل على عدم وجود إله غيره بنى ذلك الصرح!.

كل هذه الأمور تؤكّد جيدا أنّه كان يعرف تلك المسائل، إلّا أنّه كان يضلل الناس و يصرف أفكارهم عن الحق، ليحفظ موقعه و حكومته!.

بعد هذا كلّه يتحدث القرآن عن استكبار فرعون و من معه، و عدم إذعانهم لمسألتى «المبدأ و المعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام و جنايات بسبب انكار هذين الأصلين فيقول: وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ هذا الإنسان الضعيف الذى لا يستطيع أن يبعد عن نفسه بعوضة، و ربّما قتله ميكروب لا يرى بالعين المجرّدة كيف يمكن له أن يدعى العظمة و الألوهيّة!؟.

ورد فى الحديث القدسى أنّ اللّه سبحانه يقول: «الكبرياء ردائى، و العظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النّار»[۱۵۹].

و من البديهى أنّ اللّه لا يحتاج إلى أوصاف كهذه .. و لكن حالة الطغيان و العدوان تستولى الإنسان حينما ينسى نفسه، و تملأ ريح الكبر و الغرور فكره! لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون و جنوده؟! يقول القرآن الكريم: فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ أجل، لقد جعلنا سبب موتهم فى مصدر معيشتهم، و جعلنا النيل الذى هو رمز عظمتهم و قوّتهم مقبرة لهم!.

من الطريف أنّ القرآن يعبّر ب «نبذناهم» من مادة «نبذ» على زنة «نبض» و معناه رمى الأشياء التى لا قيمة لها و طرحها بعيدا، ترى ما قيمة هذا الإنسان الأنانى المتكبر المتجبّر الجانى المجرم؟! أجل، لقد نبذنا هؤلاء الذين لا قيمة لهم من المجتمع البشرى، و طهّرنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۸

الأرض من لوث وجودهم.

ثمّ، يختتم الآية بالتوجه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله قائلا: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

هذا النظر ليس بعين «البصر» بل هو بعين «البصيرة»، و هو لا يخص ظلمة الماضى و فراعنة العهد القديم، بل إن ظلمة هذا العصر ليس لهم من مصير سوى هذا المصير المشؤوم!.

ثمّ يضيف القرآن قائلا فى شأنهم: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ

هذا التعبير أوجد إشكالا لدى بعض المفسّرين، إذ كيف يمكن أن يجعل اللّه أناسا أئمة للباطل؟! و لكن هذا الأمر ليس معقدا .. لأنّه أولا .. إن هؤلاء هم فى مقدمة جماعة من أهل النّار، و حين تتحرك الجماعات من أهل النّار، فإنّ هؤلاء يتقدمونهم إلى النّار! فكما أنّهم كانوا فى هذه الدنيا أئمّة الضلال، فهم فى الآخرة- أيضا- أئمّة النّار، لأنّ ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم!.

ثانيا .. كونهم أئمّة الضلال- فى الحقيقة- نتيجة أعمالهم أنفسهم، و نعرف أن تأثير كل سبب هو بأمر اللّه، فهم اتخذوا طريقا يؤدى بهم إلى الضلال و ينتهى بهم إلى أن يكونوا أئمّة الضالين، فهذه حالهم فى يوم القيامة!.

و لمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم و ماهيتهم فى الدنيا و الآخرة! وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ![۱۶۰] لعنة اللّه معناها طردهم من رحمته، و لعنة الملائكة و المؤمنين هى الدعاء عليهم صباحا و مساء .. و فى كل وقت. و أحيانا تشملهم اللعنة العامة. و أحيانا يأتى اللعن خاصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۹

لبعضهم. حيث أنّ كل من يتصفح تأريخهم يلعنهم، و يتنفّر من أعمالهم.

و على كل حال فإنّ سوء أعمالهم فى هذه الدنيا، هو الذى قبّح وجوههم فى الدار الآخرة «يوم القيامة»، لأنّه يوم البروز و يوم هتك الحجب.

ملاحظة!

أئمّة «النّور» و أئمّة «النّار»

هناك طائفتان من الأئمة فى منطق القرآن الكريم، فأئمة للمتقين يهدونهم إلى الخيرات، كما ورد فى شأن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ ۱۶۱].

فهؤلاء أئمّة أصحاب مناهج واضحة، لأنّ التوحيد الخالص و الدعوة إلى الخير و العمل الصالح و الحق و العدالة، تشكّل متن مناهجهم .. فهم أئمّة النور، و خطهم متصل بسلسلة الأنبياء و الأوصياء الى خاتم النّبيين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أوصيائه عليهم السلام.

و هناك أئمّة للضلال .. و قد عبّرت عنهم الآيات محل البحث بأنّهم: أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ!.

و من خصائص هاتين الطائفتين من الأئمّة، كما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام ما يلى: «إنّ الأئمة فى كتاب اللّه إمامان، قال اللّه تبارك و تعالى: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لا بأمر الناس يقدمون أمر اللّه قبل أمرهم، و حكم اللّه قبل حكمهم، قال: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ يقدمون أمرهم قبل أمر اللّه، و حكمهم قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۰

حكم اللّه، و يأخذون بأهوائهم خلاف كتاب اللّه»[۱۶۲].

و بهذا المعيار يتّضح معرفة هاتين الطائفتين من الأئمة .. ففى يوم القيامة الذى تتمايز فيه الصفوف، كل جماعة تمضى خلف إمامها، فأهل النار إلى النّار، و أهل الجنّة إلى الجنّة .. كما يقول القرآن الكريم: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ ۱۶۳].

و قلنا مرارا: إنّ يوم القيامة تجسم عظيم عن هذا العالم «الصغير» و أولئك الذين ارتبطوا بإمام معين و اقتفوا أثره، فهم سائرون خلفه

هناک أیضا.

ینقل «بشر بن غالب» عن الإمام أبی عبد اللّه الحسین علیه السّلام أنّه سأله عن تفسیر الآیة یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فقال علیه السّلام: «إمام دعا إلی هدی فأجابوه إلیه، و إمام دعا إلی ضلالة فأجابوه إلیها، هؤلاء فی الجنّة، و هؤلاء فی النّار .. و هو قوله عزّ و جلّ فَرِیقٌ فِی الْجَنَّةِ وَ فَرِیقٌ فِی السَّعِیرِ[۱۶۴].

من الطریف أن فرعون الـذی تقدّم قومه فی هذه الدنیا و أغرقهم بمعیّته فی أمواج النیل، یقدم قومه یوم القیامة- أیضا- یخزیهم بمعیته فی نار جهنم، إذ یقول القرآن فی شأنه: یَقْدُمُ قَوْمَهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ.[۱۶۵] و نختم هذا البحث بحـدیث الإمام علی علیه السّـلام فی شأن المنافقین حیث یقول علیه السّـلام: «ثمّ بقوا بعده فتقربوا إلی أئمّة الضـلالة و الدعاة إلی النّار بالزور و البهتان، فولّوهم الأعمال، و جعلوهم حکاما علی رقاب الناس»[۱۶۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۱

الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۴۳ الی ۴۶]

اشارة

وَ لَقَـدْ آتَیْنـا مُوسَـی الْکِتابَ مِنْ بَعْـدِ ما أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ الْأُولی بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُـدیً وَ رَحْمَـةً لَعَلَّهُمْ یَتَـذَکَّرُونَ (۴۳) وَ مـا کُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِیِّ إِذْ قَضَـیْنا إِلی مُوسَی الْأَمْرَ وَ ما کُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِینَ (۴۴) وَ لکِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَیْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما کُنْتَ ثاوِیاً فِی أَهْلِ مَـدْیَنَ تَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِنا وَ لکِنَّا کُنَّا مُرْسِـلِینَ (۴۵) وَ ما کُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَیْنا وَ لکِنْ رَحْمَـةً مِنْ رَبِّکَ لِتُنْـذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَـذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۴۶)

التّفسیر

الأخبار الغیبیّة هی من عند اللّه وحده ..

نصل فی هذا القسم من الآیات إلی «المقطع العاشر» و هو القسم الأخیر من الآیات التی تتعلق بقصّة موسی و ما تحمله من معان کبیرة!. و هی تتحدث عن نزول الأحکام، و التوراة، أی إنّها تتحدث عن انتهاء الدور السلبی «الطاغوت» و بدایة «الدور الإیجابی» و البناء!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۲

یبدأ هذا المقطع بالآیة التالیة وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ الْأُولی بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدیً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ و الکلام فی أنّ المقصود من «القرون الأولی» أی الأقوام السابقین .. من هم؟! قال بعض المفسّـرین: هو إشارة إلی الکفّار من قوم نوح و عـاد و ثمود و أمثـالهم .. لأنّه بتقـادم الزمان و مضیّه تمحی اثار الأنبیاء السابقین، و یلزم من ذلک وجود کتاب سـماویّ جدیـد فی أیدی البشر!.

و قال بعض المفسّرین: هو إشارة إلی هلاک قوم فرعون الذین کانوا بقایا الأقوام السابقین، لأنّ اللّه سبحانه آتی موسی کتاب «التّوراة» بعد هلاکهم.

و لکنّه لا مانع من أن یکون المقصود بالقرون الأولی فی الآیة شاملا لجمیع الأقوام.

و «البصـائر» جمع «بصـیرة» و معناهـا الرؤیـة، و المقصود بهـا هنا الآیات و الـدلائل التی تسـتوجب إنارة قلوب المؤمنین .. و «الهـدی» و «الرحمة» أیضا من لوازم البصیرة .. و علی أثرها تتیقظ القلوب ۱۶۷].

ثمّ يبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة، و هى أنّ ما ذكرناه لك «يا رسول اللّه، فى شأن موسى و فرعون و ما جرى بينهما بدقائقه، هو فى نفسه دليل على حقانيّة القرآن، لأنّك لم تكن «حاضرا» فى هذه «الميادين» التى كان يواجه موسى فيها فرعون و قومه! و لم تشهدها بعينيك .. بل هو من الطاف اللّه عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهداية الناس .. يقول القرآن: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ أى الأمر بالنبوّة وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ

الذى يجلب الانتباه و يستلفت النظر هنا أنّ موسى عليه السّلام حين سار من مدين إلى مصر مرّ فى طريق سيناء، و كان بهذا الاتجاه يسير من الشرق نحو الغرب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۳

و على العكس من ذلك مسير بنى إسرائيل حين جاءوا من مصر إلى الشام و مرّوا عن طريق سيناء، فإنّهم يتجهون بمسيرهم من الغرب نحو الشرق .. و لذلك يرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الآية «۶۰» فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فى سورة الشعراء التى تتحدث عن متابعة فرعون و قومه لبنى إسرائيل، هو إشارة إلى هذا المعنى! ثمّ يضيف القرآن وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ و تقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء و هدايتهم فى قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن و بيّنا فيه قصص الماضين ليكون نورا و هدى للناس.

ثمّ يضيف القرآن الكريم وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ [أى على أهل مكة] آياتِنا[۱۶۸] وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .. و أوحينا إليك هذه الأخبار الدقيقة التى تتحدث عن آلاف السنين الماضية .. لتكون عبرة للناس و موعظة للمتقين ۱۶۹].

و تأكيدا على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلا: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ[۱۷۰] إِذْ نادَيْنا اى نادينا موسى بأمر النبوّة، و لكننا أنزلنا إليك بهذه الاخبار رحمة من اللّه عليك وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

و خلاصة الكلام: أنّ اللّه أخبرك يا محمّد بالحوادث التى فيها إيقاظ و إنذار لما جرى فى الأقوام السابقين، و لم تكن فيهم من الشاهدين، لتتلو كل ذلك على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۴

قومك الذين هم على ضلال لعلهم يهتدون و لعلهم يتذكرون.

هنا ينقدح هذا السؤال: كيف يقول القرآن: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ [أى العرب المعاصرين للنبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله فى حين أنّنا نعرف أن الأرض لا تخلو من حجّة للّه، و كان بين العرب أوصياء للأنبياء السابقين (كأوصياء عيسى عليه السّلام).

و فى الجواب على ذلك نقول: المقصود من ذلك هو إرسال رسول يحمل إلى قومه كتابا سماويّا بيّنا .. لأنّ بين عصر عيسى عليه السّلام و ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله قرونا مديدة، و لم يأت بين عيسى و النبىّ محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نبىّ من أولى العزم، و لذلك فقد كان هذا الموضوع ذريعة للملحدين و المفسدين.

يقول الإمام على عليه السّلام فى هذا الصدد «إن اللّه بعث محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا و لا يدعى نبوة، فساق الناس حتى بوأهم محلتهم و بلغهم منجاتهم»[۱۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۵

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۴۷ الى ۵۰]

اشارة

وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ

(۴۸) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۰)

التّفسير

ذريعة للفرار من الحق:

حيث أن الآيات- آنفة الذكر- كانت تتحدث عن إرسال النّبى صلّى اللّه عليه و آله لينذر قومه، ففى هذه الآيات يبيّن القرآن ما ترتب من لطف اللّه على وجود النّبى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۶

قومه فيقول: إنّنا و قبل أن نرسل إليهم رسولا إذا أردنا إنزال العذاب عليهم بسبب ظلمهم و سيئاتهم قالوا: لما ذا لم ترسل لنا رسول يبيّن لنا أحكامك لنؤمن به وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۱۷۲].

هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، و هو أن طريق الحقّ واضح و بيّن ... و كل «عقل» حاكم ببطلان الشرك و عبادة الأصنام .. و قبح كثير من الأعمال التى تقع نتيجة الشرك و عبادة الأصنام- كالمظالم و ما شاكلها- هى من مستقلات حكم العقل، و حتى مع عدم إرسال الرسل، فإنّ العقوبة على مثل هذه الأمور ممكنة.

و لكن اللّه سبحانه حتى فى هذا المجال و مع وضوح حكم العقل فيه أرسل الرسل مع الكتب السماوية و المعاجز الساطعة، إتماما للحجّة و نفيا للعذر، لئلا يقول أحد: إنّما كان شقاؤنا بسبب عدم وجود الدليل، إذ لو كان فينا قائد إلهى لكنّا من أهل الهداية و من الناجين.

و على كل حال فإنّ هذه الآية من الآيات التى فيها دلالة على لزوم اللطف عن طريق إرسال الأنبياء و الرسل! و تدل على أن سنة اللّه قائمة على عدم تعذيب أية أمة قبل إرسال الرسل إليها، و نقرأ فى سورة النساء الآية (۶۵) أيضا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

ثمّ تتحدّث الآيات عن معاذير أولئك، و تشير إلى أنّهم- بعد إرسال الرسل- لم يكفّوا عن الحيل و الذرائع الواهية، و استمروا على طريق الانحراف، فتقول الآية: فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۷

فلم لم تكن عصا موسى فى يده؟ و لم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ و لم لا ينشقّ البحر له كما انشقّ لموسى؟! و لم لم ... إلخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، و يقول: أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا أى موسى و هارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ

و التعبير ب «سحران» بدلا عن «ساحران» هو لشدة التأكيد، لأنّ العرب حين تريد التأكيد على شخص فى خصلة ما تقول: هو العدل بعينه، أو بعينه، أو السحر و هكذا.

كما يرد هذا الاحتمال- أيضا- و هو: إنّ مقصودهم المعجزتين العظيمتين لموسى عليه السّلام و هما عصاه و يده البيضاء! و إذا قيل: ما علاقة هذا الإنكار بمشركى مكّة، فهذه الأمور متعلقة بفرعون و قومه السابقين؟

فالجواب على ذلك واضح .. و هو أن التذرع بالحجج الواهية ليس أمرا جديدا .. فجميعهم من نسيج واحد، و كلامهم يشبه كلام

السابقین تماما، و خطهم و طریقتهم و منهجهم علی شاکلهٔ واحدهٔ.

التفسیر الواضح للآیهٔ ما قلناه آنفا، إلّا أن بعض المفسّرین فسّروا الآیهٔ تفسیرا آخر و قالوا: إنّ المقصود بقوله تعالی: سِحْرانِ تَظاهَرا هو «النّبی موسی و نبی الإسلام العظیم محمّد صلّی اللّه علیه و آله» لأنّ مشرکی العرب کانوا یقولون: إن کلیهما ساحران ... و إنّا بکلّ کافرون.

و قد نقلوا فی هذا الصدد حادثهٔ تاریخیهٔ، و هی أنّ أهل مکّهٔ بعثوا جماعهٔ منهم إلی الیهود فی بعض أعیادهم، و سألوهم عن نبی الإسلام «محمّد» صلّی اللّه علیه و آله أ هو نبیّ حقّا؟! فأجابوا: إنّهم وجدوا مکتوبا عندهم فی التوراهٔ «بأوصافه»!. فرجع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۸

المبعوثون إلی مشرکی مکّهٔ و نقلوا لهم ما جری بینهم و بین الیهود، فقالوا:

سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِکُلٍّ کافِرُونَ

و لکن بملاحظهٔ هاتین النقطتین یبدو هذا التّفسیر بعیدا جدّا:

الأولی: أنّه قلّ أن یری فی التاریخ و الرّوایات أن مشرکی العرب یتهمون موسی بکونه ساحرا.

الثّانیهٔ: کیف یمکن لأحد أن یدعی أن موسی و محمّدا صلّی اللّه علیه و آله ساحران یعین أحدهما الآخر مع وجود فاصلهٔ زمنیهٔ بینهما تقدّر بالفی عام.

تری هل یمکن لساحر قبل آلاف السنین أن یعرف من سیأتی فی المستقبل؟! و ماذا سیقول؟! و علی کل حال فإنّ مشرکی مکّهٔ المعاندین کانوا یصرّون علی أنه لم لم یأت النّبی صلّی اللّه علیه و آله بمعاجز کمعاجز موسی، و من جهة أخری لم یکونوا یعترفون بما یجدونه فی «التوراهٔ» من علائمه و أوصافه و لا یؤمنون بالقرآن المجید و آیاته العظیمهٔ ... لذا یخاطب القرآن النّبی محمّدا صلّی اللّه علیه و آله لیتحداهم بأن یأتوا بکتاب أسمی من القرآن!! قُلْ فَأْتُوا بِکِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدی مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ

و بتعبیر آخر: إنّهم کانوا یبحثون عن کتاب هدایهٔ و عن معاجز!! فأی کتاب هدایهٔ أعظم من القرآن؟! و أیهٔ معجزهٔ أسمی منه؟! و لو لم یکن عند النّبی شیء آخر سوی القرآن لکان کافیا فی إثبات دعوته الحقهٔ! و لکنّهم لم یکونوا طلّاب حق، بل أصحاب حجج واهیهٔ فحسب! ثمّ یضیف القرآن فَإِنْ لَمْ یَسْتَجِیبُوا لَکَ فَاعْلَمْ أَنَّما یَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ لأنّ أی إنسان إذا لم یتبع هواه فإنّه سیذعن لهذا الاقتراح، لکن أولئک لم یکونوا علی صراط مستقیم، و لذلک یرفضون کل مقترح بذریعهٔ جدیدهٔ!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۹

و لکن من أضیع منهم وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَیْرِ هُدیً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ

و لو کانوا طلّاب حقّ و قد أضلوا سبیلهم، فإنّ لطف اللّه سیشملهم بمقتضی الآیهٔ الکریمهٔ وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا و لکنّهم ظالمون لأنفسهم و لمجتمعهم الذی یعیشون فیه، فلا هدف لهم سوی اللجاجهٔ و العناد ... فکیف یهدیهم اللّه و یعینهم؟!

ملاحظهٔ

اتباع الهوی مدعاهٔ للظلال:

فی الآیات المتقدمهٔ بیّنت العلاقهٔ بین الهوی و الضلال بصراحهٔ، و قد عبّر فیها عن المتبعین هواهم بأضلّ النّاس، و أنّهم لم یحظو بهدایهٔ اللّه.

هوی النفس حجاب کبیر أمام نظر العقل.

هوى النفس يشدّ الإنسان بالشيء و يجعل قلبه متعلقا به إلى درجة تفقده القدرة على فهم الحقائق و دركها .. لأنّ التسليم المطلق إزاء الواقعيات، و ترك التعلق بالشيء و التسرّع بالحكم، شرط لدرك الحقائق .. التسليم دون قيد أو شرط إزاء الواقع الخارجى، مرا كان أم عذبا، موافقا لرغبات النفس أم مخالفا، منسجما مع المصالح و المنافع الشخصية أم غير منسجم ... لكن هوى النفس لا يتفق مع هذه الأصول!.

و فى هذا المجال كان لنا بحث مسهب فى ذيل الآية (۴۳) من سورة الفرقان.

و من الطريف هنا أنّ روايات عديدة تفسّر الآية بأنّ المراد منها من ترك إمامه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۰

و قائده الإلهى و اتبع هواه ۱۷۳].

و هذه الرّوايات المنقولة عن الإمام الباقر عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام و بعض الائمّة الطاهرين عليهم السّلام .. هى من قبيل المصداق البارز .. و بتعبير آخر: إنّ الإنسان محتاج لهداية اللّه ... هذه الهداية تارة تنعكس فى كتاب اللّه، و اخرى فى وجود النّبى و سنته، و أخرى فى و أوصيائه المعصومين، و أخرى فى منطق العقل.

المهم أن يكون الإنسان فى خطّ الهداية الإلهية غير متبع لهواه، ليستطيع أن يستضىء بهذه الأنوار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۱

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۵۱ الى ۵۵]

اشارة

وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۱) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (۵۲) وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (۵۳) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (۵۵)

سبب النّزول

نقل المفسّرون و رواة الأخبار روايات كثيره و مختلفة فى شأن نزول الآيات المتقدمة، و الجامع المشترك فيها واحد، و هو إيمان طائفة من علماء اليهود و النصارى و الأفراد الذين يتمتعون بقلوب طاهرة- بالقرآن و نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.

فعن «سعيد بن جبير» أن هذه الآيات نزلت فى سبعين قسّا مسيحيا بعثهم النجاشى من الحبشة إلى مكّة للتحقيق و الاطلاع على دين النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله، فلمّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۲

قرأ عليهم نبيّ الإسلام سورة «يس» دمعت عيونهم شوقا و أسلموا[۱۷۴].

و قال بعضهم: هذه الآيات نزلت فى نصارى نجران «مدينة فى شمال اليمن» جاءوا إلى النّبى فسمعوا آيات القرآن فآمنوا به ۱۷۵].

و قال آخرون: بل نزلت فى النجاشى و قومه.[۱۷۶] كما يرى بعضهم أنّها نازلة فى «سلمان الفارسى» و جماعة من علماء اليهود، كعبد اللّه بن سلام و تميم الدارى و الجارود العبدى و أضرابهم ۱۷۷].

و أخيرا فإنّ بعضهم يرى أنّ الآيات تشير إلى أربعين عالما مسيحيا من ذوى الضمائر حيّة و النيرة، جاء اثنان و ثلاثون منهم مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة، و ثمانية آخرون من الشام، من بينهم «بحيرا» الراهب الى النّبى صلّى اللّه عليه و آله فأسلموا.[۱۷۸] و بالطبع

فإنّ الرّوايات الثلاث تتناسب مع نزول الآيات فى مكّة، كما أنّها تدعم قول من يرى بأن جميع آيات هذه السورة مكية. و لكن الرواية الرابعة و الرواية الخامسة تدلّان على أن هذه الآيات الآنفة نزلت بالمدينة استثناء، كما أنّهما تدعمان قول القائلين على أنّ الآيات المتقدمة مدنية لا مكية.

و على كل حال فإن هذه الآيات «شواهد بليغة» تدل على أن جماعة من علماء أهل الكتاب أعلنوا إسلامهم حين سمعوا آيات القرآن ... لأنّه لا يمكن لنبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله أن يقول مثل هذا. و لم يكن أحد من أهل الكتاب قد آمن به بعد لأنّ المشركين كانوا ينهضون فورا و يقومون بالصياح و الضجيج لتكذيب النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۳

التّفسير

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن:

حيث أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهية أمام الحقائق التى يقدّمها القرآن الكريم، فإنّ هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهيّأة لقبول قول الحق و التى سمعت هذه الآيات اهتدت الإسلام و بقى أصحابها متمسكين بالإسلام أوفياء له فى حين أنّ قلوب الجاهليين المظلمة لم تتأثر بها.، يقول القرآن فى هذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعا وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۱۷۹].

هذه الآيات نزلت عليهم نزول المطر المتصلة قطراته و جاءت الآيات على أشكال متنوعة، و كيفيات متفاوتة، فتارة تحمل الوعد بالثواب، و تارة الوعيد بالنّار، و أخرى الموعظة و النصيحة، و أخرى تنذر و تهدد. و أحيانا تحمل استدلالات عقلية، و أحيانا تحمل قصص الماضين و تأريخهم الملىء بالعبر، و خلاصة كاملة من الأحداث المتجانسة التى يؤمن بها أى قلب فيه أقل استعداد للإيمان، حيث أنّها تجذب القلوب إليها ... إلّا أن عمى القلوب لم يذعنوا لها.

إلّا أنّ (اليهود و النصارى) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ لأنّهم يرونه منسجما مع ما ورد فى كتبهم السماوية من علامات و دلائل!.

و من الطريف هنا أنّهم كانوا جماعة من «أهل الكتاب»، إلّا أن الآيات المتقدمة تحدثت عنهم بأنّهم «أهل الكتاب» دون قيد أو تبعيض أو أى شىء آخر، و لعلها تشير إلى أنّهم أهل الكتاب حقّا، أمّا سواهم فلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۴

ثمّ يضيف القرآن فى وصفهم قائلا: وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا.

أجل: كانت تلاوة الآيات عليهم كافية لأن يقولوا «آمنا» ... ثمّ يضيف القرآن متحدثا عنهم: إنّنا مسلمون لا فى هذا اليوم فحسب، بل إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ إنّنا وجدنا علائم النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى كتبنا السماوية و تعلقت قلوبنا به، و انتظرناه بفارغ الصبر- و فى أوّل فرصة وجدنا بها ضالتنا أمسكنا بها- و قبلناه «بقلوبنا و أرواحنا».

ثمّ يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعة التى آمنت بالنّبى من غير تقليد أعمى، و إنّما طلبا للحق، فيقول: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا.

فمرّة لإيمانهم بكتابهم السماوىّ الذى كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه ...

و مرّة أخرى لإيمانهم بنبىّ الإسلام العظيم صلّى اللّه عليه و آله النّبى الموعود المذكور عندهم فى كتبهم السماوية.

و یحتمل- أیضا- کما هو مستفاد من الآیات المتقدمة، إنّما یؤتون أجرهم مرتین؛ لأنّهم آمنوا بنبی الإسلام قبل ظهوره، و حین ظهر لم یکفروا به بل آمنوا به کذلک.

و هؤلاء بذلوا جهدا و صبروا زمانا طویلا- لیؤدوا ما علیهم من وظیفة و مسئولیة ... و لم یرض بأعمالهم المنحرفون من الیهود و لا النصاری، و لم یسمح لهم تقلید السابقین و الجوّ الاجتماعی أن یترکوا دینهم و یسلموا، إلّا أنّهم وقفوا و صبروا و تجاوزوا هوی النفس و المنافع الذاتیة، فنالوا ثواب اللّه و أجره مرّتین.

ثمّ یشیر القرآن الکریم إلی بعض أعمالهم الصالحة من قبیل «دفع السیئة بالحسنة» و «الإنفاق ممّا رزقهم اللّه» و «المرور الکریم باللغو و الجاهلین» و کذلک الصبر و الاستقامة، و هی خصال أربع ممتازة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۵

حیث یقول فی شأنهم القرآن الکریم: وَ یَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ.

یدرءون بالکلام الطیب الکلام الخبیث، و بالمعروف المنکر، و بالحلم الجهل و الجاهلین، و بالمحبّة العداوة و البغضاء، و بصلة الرحم من یقطعها، و الخلاصة أنّهم بدلا من أن یدفعوا السیئة بالسیئة فإنّهم یَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ!.

و هذا أسلوب مؤثر جدّا فی مواجهة المفاسد و مبارزتها، و لا سیما فی مواجهة اللجوجین و المعاندین.

و قد أکّد القرآن الکریم علی هذا الأسلوب مرارا و کرارا، و قد سبق أن بحثنا فی هذا المجال بشرح مبسّط فی ذیل الآیة (۲۲) من سورة الرعد و ذیل الآیة (۶۹) من «سورة المؤمنون».

و الخصلة الأخری فی هؤلاء الممدوحین بالقرآن أنّهم وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ

و لیس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من کل ما رزقهم اللّه من العلم و القوی الفکریة و الجسمیّة و الوجاهة الاجتماعیة، و جمیع هذه الأمور من مواهب اللّه و رزقه- فهم ینفقون منها فی سبیل اللّه!.

و آخر صفة ممتازة بیّنها القرآن فی شأنهم قوله: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ

و لم یردّوا الجهل بالجهل و اللغو باللغو، بل قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَکُمْ أَعْمالُکُمْ

فلا تحاسبون بجریرة أعمالنا، و لا نحاسب بجرمکم و جریرة أعمالکم، و لکن ما أسرع ما سیجد کل منّا نتیجة عمله.

ثمّ یضیف القرآن فی شأنهم حین یواجهون الجاهلین الذین یتصدون لإثارة المؤمنین باللغو و ما شاکله، حیث یقولون: سَلامٌ عَلَیْکُمْ لا نَبْتَغِی الْجاهِلِینَ

فلسنا أهلا للکلام البذیء، و لا أهلا للجهل و الفساد، و لا نبتغی ذلک، إنّما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۶

نبتغی العلماء و أصحاب الضمائر الحیّة و العاملین المؤمنین الصادقین.

و علی هذا فبدلا من أن یهدروا قواهم فی مواجهة الجاهلین عمی القلوب و أهل الکلام البذی، یمرون علیهم کراما لیؤدوا أهدافهم و مناهجهم الأساسیة.

الجدیر بالذکر أنّ هؤلاء حین یواجهون الجاهلین، لا یسلّمون علیهم سلام تحیة و استقبال، بل سلام وداع.

ملاحظة!

القلوب المهیّأة للإیمان:

رسمت الآیات المتقدمة للقلوب التی تقبّلت بذور الإیمان رسما جمیلا و بلیغا.

فهی لیست من نسیج الأشخاص الانتهازیین الذین ملئت قلوبهم من التعصب و الجهل، و الکلام البذیء السیء الفارغ، و البخل و الحقد، و ما إلی ذلک!!.

إنّ هؤلاء العظماء من الرجال و النساء حطموا قبل کلّ شیء القیود التی فرضها التقلید الأعمی، ثمّ أصغوا بکلّ دقّة إلی نداء التوحید، و حین وجدوا الدلائل الحقة بقدر کاف استجابوا له!.

و لا شکّ أن علی هؤلاء أن یدفعوا ثمنا غالیا، لأنّهم خرجوا عن طوق التقلید الأعمی و حطموا أغلاله، و تحرروا عن محیطهم المنحرف، و علیهم أن یتحملوا الکثیر من المشاکل و المتاعب فی هذا السبیل و لکنّهم یتمتعون بصبر و استقامة فی سبیل هدفهم الکبیر ما یعینهم علی تحمل تلک الشدائد و المصاعب ..

فهؤلاء لیسوا حاقدین، و لا یردون السوء بالسوء، و لا هم بخلاء و لا خسیسون، لیجعلوا المواهب الإلهیة خاصة بهم!.

إنّهم أناس عظام بعیدون عن الکذب و الانشغال غیر الصحیح، و الکلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۷

الفارغ الرکیک، و المزاح و غیره.

لهم ألسنة طیبة و قلوب أطیب، و لا یضیعون طاقاتهم فی الردّ علی الجهلاء ..

بل فی کثیر من الأحیان یفضلون السکوت علی الکلام و الردّ علی الجهّال!.

و یفکرون فی أعمالهم و مسئولیاتهم، و یمضون کأنهم الظماء إلی النبع.

الظماء إلی العلم و المتشوّقون لحضور مجالس العلماء و الفقهاء.

أجل هؤلاء العظام هم الذین یستطیعون أن یستوعبوا رسالة الإیمان فی نفوسهم، لیؤتوا أجرهم .. لا مرّة واحدة، بل یؤتیهم اللّه أجرهم مرّتین بما صبروا!.

هؤلاء أمثال سلمان الفارسی و النجاشی و بحیرا الراهب الذین هم فی خط واحد و فی جبهة واحدة، و الذین بذلوا جهدا و قاوموا أنواع الصعاب لیصلوا إلی معنی «الإیمان».

و من الطریف أنّنا نقرأ

حدیثا للإمام الصادق علیه السّلام فی هذا الصدد یقول: «نحن صبر و شیعتنا أصبر منّا و ذلک أنا صبرنا علی ما نعلم و صبروا علی ما لا یعلمون»

تأملوا لو أن شخصین من المؤمنین توجها إلی میدان الجهاد، أحدهما یعلم بانتهاء الأمر و أن عاقبة جهاده النصر، و الآخر لا یعلم، أ لا یکون صبر الثّانی أکثر من صبر الأول؟!.

أو نقول- مثلا- أنّ القرائن تدل علی أن کلا منهما سیشرب من کأس الشهادة، لکن أحدهما یعلم ما فی شهادته من أسرار خفیة و ماذا ستحرک من أمواج علی مدی الأعصار و القرون المتمادیة، و أنّه سیکون أسوة و قدوة للأحرار ... أمّا الثّانی فلا یعرف شیئا عن ذلک، فلا شک أن الثّانی أصبر من الأوّل فی هذا الصدد.

و فی حدیث آخر ورد فی تفسیر علی بن ابراهیم قال: «اللغو» الکذب، «اللهو» الغناء، و المعرضون عن اللغو و «المتقون» هم الأئمّة علیهم السّلام یعرضون عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۸

ذلک کلّه ۱۸۰].

و واضح أنّ الحدیثین من قبیل المصداق البارز، و إلّا فإنّ مفهوم «اللغو» أوسع و یشمل غیر ما ذکرنا، و «المعرضون عن اللغو» أیضا هم

جميع المؤمنين الصادقين، و إن كان الأئمّة عليهم السّلام فى طليعتهم!

الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۵۶ الى ۵۷]

اشارة

إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۵۶) وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۵۷)

التّفسير

الهداية بيد اللّه وحده! ..

بالرغم من أن بحوثا كثيرة و روايات وردت فى الآية الأولى من هاتين الآيتين المتقدمتين و شأن نزولها، إلّا أنّها- كما سنرى- روايات غير معتبرة و لا قيمة لها، حتى كأنّها رويت لأغراض و مقاصد خاصّة، و لذلك رأينا أن نفسّر الآية من القرآن نفسه ثمّ نعالج الرّوايات المشكوكة أو المجعولة.

و مع الالتفات إلى أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن طائفتين: طائفة من مشركى أهل مكّة المعاندين، كان رسول صلّى اللّه عليه و آله شديد الإصرار على هدايتهم، لكنّهم لم يهتدوا و لم يذعنوا لنور الإيمان. و طائفة من أهل الكتاب و الأفراد البعيدين عن مكّة، تلقوا هداية اللّه برحابة صدر و بعشق وضحوا فى سبيل الإسلام، و آثروا

على أنفسهم مصلحة الإسلام، و لم يكترثوا بعناد قومهم الجاهلين الأنانيين، و لم يستوحشوا من الضغوط و العزلة و ما إلى ذلك!.

فمع الالتفات إلى كل هذه الأمور، نلاحظ أن الآية الأولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقة فتقول: إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ

فاللّه يعلم من هم الجديرون بالإيمان .. و أيّة قلوب تطلب الحقّ و هو يعرف العاشقين له.

أجل، هو يعرف هؤلاء و يوفقهم بلطفه ليسيروا نحو الإيمان.

أمّا الذين أظلمت قلوبهم و ساءت سيرتهم و عادوا الحق فى الخفاء و نهضوا بكل ما عندهم من قوة بوجه رسل اللّه، و قد تلوثت قلوبهم فى حياتهم إلى درجة لم يكونوا جديرين بنور الإيمان فاللّه سبحانه لا يضع مصباح التوفيق فى طريقهم أبدا.

إذن، و بناء على ما تقدم، ليس المقصود من الهداية «إراءة الطريق»، لأنّ إراءة الطريق هى من وظيفة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و تشمل جميع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهداية هنا هو «الإيصال للمطلوب و الهدف»، و الإيصال إلى المطلوب و إلى الهدف هو بيد اللّه وحده، الذى يغرس الإيمان فى القلوب، و ليس هذا العمل اعتباطا و دون حساب، فهو تعالى ينظر إلى القلوب المهيأة و المستعدة ليهبها نور السماء! و على كل حال، فإنّ هذه الآية بمثابة التسلية و التثبيت لقلب النّبى ليطمئن إلى هذه الحقيقة، و هى إنّه لا إصرار المشركين و عنادهم و إن كانوا من أهل مكّة، و لا إيمان أهل الحبشة و نجران و غيرهما أمثال سلمان الفارسى و بحيرا الراهب من دون دليل و سبب.

فعليه أن لا يكترث لعدم إيمان الطائفة الأولى، فإن اللّه يقذف نوره فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۱

القلوب المهیأة للنور و یبسط علیها خیمته!.

و نظیر هذا المضمون کثیر فی آیات القرآن!.

إذ نقرأ فی الآیة (۲۷۲) من سورة البقرة قوله تعالی: لَیْسَ عَلَیْکَ هُداهُمْ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ.

و فی الآیة (۳۷) من سورة النمل إِنْ تَحْرِصْ عَلی هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی مَنْ یُضِلُ

و فی الآیة (۴۳) من سورة یونس أَ فَأَنْتَ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ لَوْ کانُوا لا یُبْصِرُونَ

کما نقرأ أیضا فی الآیة (۴) من سورة إبراهیم ما هو بمثابة القانون العام فَیُضِلُّ اللَّهُ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

فالآیة الأخیرة تدلّ دلالة واضحة علی أن المشیئة الإلهیة فی شأن هاتین الطائفتین «جماعة الهدی و جماعة الضلال» لیست دون حساب، بل هی طبقا للجدارة و اللیاقة و سعی الأفراد أنفسهم ... فاللّه یهب توفیقه علی هذا الأساس، و یهدی من یشاء إلی صراط مستقیم، و یسلب الهدی ممن یشاء فیضلون السبیل.

و فی الآیة الثّانیة- من الآیتین محل البحث- یتحدث القرآن الکریم عن طائفة اعترفوا بالإسلام فی واقعهم و أیقنت به قلوبهم، إلّا أنّهم لم یظهروا إیمانهم بسبب منافع شخصیة و ملاحظات ذاتیة، حیث یقول: وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا[۱۸۱].

ورد فی کتب التّفسیر أن الذی قال: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَکَ إلخ .. هو «الحارث بن نوفل»، حیث قال للنّبی صلّی اللّه علیه و آله: إنّنا نعرف أن ما تقوله حق، لکن الذی یمنعنا من اتباعک و الإیمان بک، خوفنا من هجوم العرب علینا لیطردونا من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۲

أرضنا، و لا طاقة لنا علی ردّهم ۱۸۲].

هذا الکلام لا یقوله إلّا من یستضعف قدرة اللّه و یری أن قدرة حفنة من العرب الجاهلیین عظیمة!! و هذا الکلام لا یصدر إلّا من قلب لا یعرف عنایة اللّه و حمایته، و لا یعرف کیف ینصر اللّه أولیاءه و یخذل أعداءه، لذلک یقول القرآن ردّا علی مثل هذه المزاعم أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ[۱۸۳] ... وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ

اللّه الذی جعل هذه الأرض المالحة و الملیئة بالصخور و الخالیة من الأشجار و الأنهار، جعلها حرما تهفوا إلیه القلوب، و یؤتی إلیه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، کل ذلک بید قدرته القاهرة.

فإنّ من له هذه القدرة علی اقرار «الأمن» و جبایة «النعم» إلی هذا المکان و هؤلاء یرون ذلک بأعینهم، کیف لا یکون قادرا علی أن یحفظکم من هجوم حفنة من الجاهلیین عبّاد الأوثان؟! فقد کنتم فی زمان الکفر مشمولین بنعمتی اللّه العظیمتین «الأمن و المواهب المعاشیة» فکیف یمکن أن یحرمکم اللّه منهما بعد الإسلام؟! لتکن قلوبکم قویة و آمنوا بما انزل إلیکم فإنّ ربّ الکعبة و ربّ مکّة معکم.

هنا، ینقدح هذا السؤال، و هو: إن التأریخ یدل علی أن حرم مکّة لم یکن آمنا للمسلمین للغایة، أ لم تعذب طائفة من المسلمین فی مکّة؟ أ لم یرموا النّبی صلّی اللّه علیه و آله بالأحجار الکثیرة؟! أ لم یقتل بعض المسلمین فی مکّة؟! أ لم یهاجر جماعة من المسلمین من مکّة مع جعفر بن أبی طالب رضی اللّه عنه و جماعة آخرون مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله آخر الأمر لعدم الأمن فی مکّة؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۳

فنقول جوابا علی ذلک:

أوّلا: مع جمیع هذه الأمور ما تزال مکّة أکثر أمنا من النقاط الأخری .. و کان العرب یحترمونها و یقدسونها، و بالرغم من أنّهم کانوا یقدمون علی جرائم متعددة فی أماکن أخری، إلّا أنّهم کانوا یحجمون عن الإتیان بمثلها فی مکّة.

و الخلاصة: فمع عدم الأمن العام و الکلی کانت مکّة تتمتع بالأمن النسبی و لا سیما أن الأعراب خارجها کانوا یراعون أمنها و

قداستها.

ثانيا: صحيح أن هذه الأرض التى جعلها اللّه حرما آمنا أضحت لفترة وجيزة غير آمنة على أيدى جماعة ... إلّا أنّها سرعان ما تحولت إلى مركز كبير للأمن و تواتر النعم الكثيرة المتعددة، فعلى هذا لم يكن تحمل هذه الصعاب المؤقتة من أجل الوصول للنعم العظيمة، أمرا عسيرا و معقدا.

و على كل حال، فإنّ كثيرا ممن يقلقون على منافعهم الشخصية، كالحارث بن نوفل، لا يسلكون سبيل الهداية و الإيمان ... فى حين أنّ الإيمان باللّه و التسليم لأمره، لا يؤمن المنافع المعنوية لهم فحسب، بل يؤمن لهم المحيط الصحيح و المنافع المادية المشروعة و ما إلى ذلك. و عدم الأمن و الغارات و الحروب التى نجدها فى عصر التمدن- كما يصطلح عليه- و فى الدنيا البعيدة عن الإيمان و الهداية، كل هذه الأمور شاهد حى على هذا المدّعى!.

و من الضرورى الالتفات إلى هذه النقطة الأساسية، و هى أنّ اللّه سبحانه أوّل ما يذكر من نعمه نعمة الأمن، ثمّ يذكر جلب الثمرات و الأرزاق و غير ذلك من جميع الأنحاء إلى مكّة، و يمكن أن يكون هذا التعبير مبيّنا هذا الواقع، و هو: طالما كان الأمن حاكما فى بلد كان اقتصاده جيدا، و إلّا فلا، «قد بيّنا هذا الأمر فى بحثنا للآية ۳۵ سورة إبراهيم».

كما أنّ الجدير بالذكر أنّ «يجبى» جاءت على صيغة الفعل المضارع الذى يدل على الاستمرار فى الحال و الاستقبال، و نحن اليوم و بعد مرور أربعة عشر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۲، ص: ۲۶۴

قرنا، نرى بأم أعيننا مفهوم هذا الكلام و استمرار جباية جميع أنواع المواهب إلى هذه الأرض المباركة، فالذين يحجّون مكّة و يزورون بيت اللّه الحرام، يرون بأعينهم هذه الأرض الجرداء الحارة التى لا تنبت شيئا، كم فيها من النعم! فكأن مكّة غارقة بها، و لعل أية نقطة من العالم ليس فيها ما فى مكّة من هذه النعم الوفيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۲ ؛ ص ۲۶۴

ملاحظة

إيمان أبى طالب و الضجيج حوله:

هذا الموضوع يبدو عجيبا لمن كان من أهل البحث و المطالعة .. فكيف يصرّ جماعة من رواة الأخبار على أن يزعموا أنّ أبا طالب عليه السّلام عم النّبى كان مشركا و غير مؤمن و أنّه مات كافرا!! و هو بإجماع المسلمين كان من الذين بذلوا تضحيات منقطعة النظير، و حمى نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و ضحّى من أجله؟! و لم لا يكون هذا الإصرار بالنسبة للآخرين الذين لا حظّ لهم فى تأريخ الإسلام؟! هنا نعرف أنّ المسألة ليست مسألة عادية .. ثمّ بأقل ملاحظة و تدقيق نصل إلى هذه النتيجة، و هى أنّ وراء هذه البحوث التاريخية و الروائية لعبة سياسيّة خطيرة من أعداء على عليه السّلام و مناوئيه! فقد كانوا يصرّون على سلب كل فضيلة له، حتى جعلوا أباه المضحّى و الفادى للنبى و المؤثر له على نفسه يموت كافرا بزعمهم!!.

و من المؤكّد أنّ بنى أمية و مريديهم فى عصرهم، و قبل أن يصلوا إلى دفة الحكومة، سعوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا لإثبات مدعاهم بالشواهد و الحجج الواهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۲، ص: ۲۶۵

و نحن بقطع النظر عن هذه الأمواج السیاسیة المنحرفة و الملوثة، التی هی بنفسها تستحق المطالعة من جهات متعددة ... نبحث المسألة على أساس أنّها مسألة بنفسها تستحق المطالعة من جهات متعددة ... نبحث المسألة على أساس أنّها مسألة تأریخیة و تفسیریة بحتة، بشکل موجز و مضغوط (کما یقتضیه وضع الکتاب) لیتّضح أن لیس وراء هذا الضجیج أی سند معتبر، بل هناک شواهد حیّة ضده!.

۱- إن الآیة محل البحث إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ لیس لها علاقة بأبی طالب کما بیّنا، و قلنا: إن الآیات التی جاءت قبلها تدل بصورة واضحة أنّها فی شأن جماعة من أهل الکتاب المؤمنین، فی مقابل مشرکی مکّة.

الطریف أن الرازی الذی یزعم أن الآیة نزلت فی أبی طالب علیه السّلام بإجماع المسلمین!! یصرّح بأن الآیة لیس فیها أقل دلالة على کفر أبی طالب ۱۸۴].

و لکن مع هذه الحال فلما ذا یصرون فیها على أن یکون أبو طالب علیه السّلام مشرکا؟ فهذه مسألة غریبة و مدعاة للدهشة! ..

۲- و أهم دلیل لدیهم فی هذا المجال أنّهم ادعوا إجماع المسلمین على أن أبا طالب مات مشرکا!.

فی حین أن مثل هذا الإجماع کذب محض لا أساس له، و هو عار عن الصحة.

فالمفسّر المعروف «الآلوسی»- و هو من علماء السنة- صرح فی تفسیر روح المعانی أنّ هذه المسألة لیست إجماعیة، و حکایة الإجماع من قبل المسلمین أو المفسّرین على أنّ الآیة المتقدمة نزلت فی أبی طالب تبدو غیر صحیحة ... لأنّ علماء الشیعة و جمع کثیر من المفسّرین یعتقدون بإسلام أبی طالب، و ادّعى أئمّة أهل البیت علیهم السّلام الإجماع على ذلک، إضافة إلى أن أکثر قصائد

أبی طالب تشهد على إیمانه ۱۸۵].

۳- التدقیق و البحث یدل على أن هذا الإجماع المزعوم هو من قبل أخبار الآحاد الذین لا اعتبار لهم، و فی سند هذه الروایات أفراد مشکوک فیهم کذابون.

و من هذه الرّوایات ما نقله ابن «مردویه» بسنده عن ابن عباس أن آیة إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ نزلت فی شأن أبی طالب، و قد أصرّ النّبی صلّى اللّه علیه و آله علیه أن یؤمن فلم یؤمن ۱۸۶].

فی حین أنّ فی سند هذه الروایة «أبو سهل السری» الذی عرف بین کبار أصحاب علم الرجال بأنّه من الکذابین الوضّاع السارقین للحدیث. کما أنّ فی سند هذه الرّوایة «عبد القدوس أبو سعید الدمشقی» و هو من الکذابین أیضا[۱۸۷].

و ظاهر تعبیر الحدیث یدل على أن ابن عباس ینقل هذا الحدیث من غیر واسطة و کان شاهدا على ذلک، فی حین أنّنا نعرف أن ابن عباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، فعلى هذا کان لا یزال رضیعا عند ما مات أبو طالب علیه السّلام ... و من هنا نستنتج أنّ واضعی الحدیث حتى فی هذا العمل کانوا مبتدئین و ناشئین!!.

و هناک حدیث آخر فی هذا المجال

ینقله «أبو هریرة» إذ یقول: حین دنت وفاة أبی طالب قال له النّبی صلّى اللّه علیه و آله: یا عم قل: لا إله إلّا اللّه، لأشهد لک یوم القیامة عند اللّه بالتوحید، فقال أبو طالب: لو لا- أن قریشا تقول إن أبا طالب أظهر الإیمان حال الموت خوفا، لکنت أشهد بالتوحید و أقرّ عینیک، فنزل قوله تعالى: إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ ۱۸۸].

و یبدو من ظاهر هذا الحدیث أن أبا هریرة کان شاهدا على هذه القضیة، فی حین أنّنا نعرف أن أبا هریرة أسلم سنة فتح خیبر، بعد الهجرة بسبع سنین، فأین

أبو هریرة من وفاة أبی طالب التی حدثت قبل الهجرة ...؟!! و إذا قیل أن ابن عباس و أبا هریرة لم یکونا شاهدین على هذه القضیة، و سمعا هذه القصّة من شخص آخر فإننا نسأل من هو هذا الشخص؟! فالذی نقل هذا الحدیث لهذین الشخصین- إذا- مجهول، و مثل

هذا الحدیث یعرف عند أهل الحدیث بالمرسل، و الجمیع یعلمون بأن لا اعتبار للمراسیل! و من المؤسف أنّ جماعة من رواة الأخبار و المفسّرین نقلوا هذا الحدیث بعضهم عن بعض دون تدقیق فی کتبهم، و شیئا فشیئا کوّنوا إجماعا لهذا الحدیث! و لکن أیّ إجماع هذا؟ أم أی حدیث معتبر!؟! ۴- و بعد هذا کلّه، فإنّ متن هذه الأحادیث الموضوعة یدل علی أن أبا طالب علیه السّلام کان مؤمنا بحقانیة النّبی، غایة ما فی الأمر لم یجر ذلک علی لسانه لملاحظات خاصة ... و نحن نعرف أن الإیمان هو بالقلب، و أمّا اللسان فهو طریق القلب، و فی بعض الأحادیث الإسلامیة شبه أبو طالب بأصحاب الکهف الذین کانوا مؤمنین و إن لم یقدروا علی إظهار الإیمان علی ألسنتهم ۱۸۹].

۵- ثمّ هل یمکن القناعة بروایة مرسلة عن أبی هریرة أو ابن عباس فی مثل هذه المسألة المهمة، فلم لا یؤخذ بإجماع أئمة أهل البیت علیهم السّلام و إجماع علماء الشیعة، و هم أعرف بحال أسرة النّبی و أهله!! إنّنا الیوم نحتفظ بأشعار کثیرة لأبی طالب توضح إیمانه بالإسلام و رسالة النّبی (محمّد) صلّی اللّه علیه و آله، و قد نقل هذه الأشعار طائفة من العلماء و الأفاضل فی کتبهم (و قد نقلنا طائفة منها فی ذیل الآیة ۲۶ من سورة الأنعام من مصادر سنیة معروفة)!.

۶- و مع غض النظر عن جمیع ما تقدم، فإنّ تأریخ حیاة أبی طالب و تضحیاته العظیمة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و علاقة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و المسلمین الشدیدة به إلی درجة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۸

أنّ النّبی سمی عام وفاته ب «عام الحزن» کل ذلک یدل علی أنّه کان یعشق الإسلام، و لم یکن دفاعه عن النّبی علی أنّه أحد أرحامه، بل دفاع رجل مؤمن مخلص و عاشق نظیف و جندی مضحّ عن قائده و إمامه .. فمع هذه الحالة، کم یبلغ الجهل و الغفلة و الظلم و عدم الشکر بطائفة أن تصرّ علی أنّ هذا الرجل المخلص المؤمن الموحّد مات مشرکا[۱۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۹

الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۵۸ الی ۶۰]

اشارة

وَ کَمْ أَهْلَکْنا مِنْ قَرْیَةٍ بَطِرَتْ مَعِیشَتَها فَتِلْکَ مَساکِنُهُمْ لَمْ تُسْکَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِیلاً وَ کُنَّا نَحْنُ الْوارِثِینَ (۵۸) وَ ما کانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُری حَتَّی یَبْعَثَ فِی أُمِّها رَسُولاً یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِنا وَ ما کُنَّا مُهْلِکِی الْقُری إِلاَّ وَ أَهْلُها ظالِمُونَ (۵۹) وَ ما أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ زِینَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ وَ أَبْقی أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۰)

التّفسیر

لا تخدعنکم علائق الدنیا:

کان الحدیث فی الآیات المتقدمة یدور حول ما یدعیه أهل مکّة، و قولهم: إن نتبع الهدی معک نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علینا، و تتکدر حیاتنا و یختل وضعنا المعاشی و الاقتصادی .. و قد أجابت الآیات السابقة علی هذا الکلام بردّ بلیغ.

و فی هذه الآیات مورد البحث ردّان آخران علی کلامهم:

الأوّل: یقول .. علی فرض أنّکم لم تؤمنوا، و حییتم فی ظل الشرک مرفهین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۰

ماديّا، و لكن لا تنسوا أن تعتبروا بحياة من قبلكم ف كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها.

أجل، إنّ الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، و البطر أساس الظلم، و الظلم يجرّ حياتهم إلى النّار ... فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا.

بلى ... بقيت بيوتهم خالية خربة متهدمة مظلمة لم يزرها و لم يسكنها أحد إلّا لفترة قليلة وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ

فيا مشركى مكّة ... أ تريدون أن تعيشوا حياة البطر و الكفر كما عاشه أولئك، و تكون عاقبتكم كعاقبتهم، فأى نفع فى ذلك؟! كلمة «بطرت» مشتقّة من «بطر» على زنة «بشر» و معناه الطغيان و الغرور على أثر وفرة النعم.

و التعبير ب «تلك» التى هى اسم إشارة للبعيد، و تستعمل غالبا للأمور التى يمكن مشاهدتها، و يحتمل أن يكون المقصود بها أرض «عاد و ثمود و قوم لوط» التى لا تبعد كثيرا عن أهل مكّة، و هى فى أرض الأحقاف بين اليمن و الشام، أو فى وادى القرى، أو فى أرض سدوم، و جميع هذه المناطق فى مسير قوافل التجار العرب الذين كانوا يمضون من مكّة إلى الشام، و كانوا يرون تلك البيوت بأم أعينهم خالية خاوية لم تسكن إلّا قليلا.

و جملة إِلَّا قَلِيلًا التى جاءت بصيغة الاستثناء، فيها ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأوّل: أن الاستثناء عن الساكنين.

و الاحتمال الثّانى: أنّه عن المساكن.

و الاحتمال الثّالث: أنّه عن السكن.

ففى الصورة الأولى يكون مفهومها أن جماعة قليلة سكنتها «أى سكنت تلك المساكن».

و فى الصورة الثّانية يكون مفهومها أن فترة قليلة كان بها السكن فى هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۱

«المساكن» لأنّ من يسكن فى هذه المساكن المشؤومة سرعان ما تنطوى فيها صفحة حياته.

و بالطبع فإنّ إرادة المعانى الثلاثة من النصّ السابق لا يوجد لنا أى مشكلة، و إن كان المفهوم الأوّل أظهر.

كما أن بعض المفسّرين قال: إنّ المقصود من هذه الآية هو الإشارة إلى السكن المؤقت للمسافرين الذاهبين و الآئبين حيث يستريحون فيها لا أكثر، و فسرها آخرون بأنّها إشارة لسكن الحيوانات الوحشية.

و القدر المسلم به أن هذه المساكن التى كانت ملوّثة بالإثمّ و الشرك أصبحت غير صالحة للسكن فهى خاوية و خالية! و التعبير ب وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ إشارة إلى خلّوها من الساكنين، كما هى إشارة إلى أنّ مالكها الحقيقى هو اللّه سبحانه المالك لكل شىء، و إذا ما أعطى ملكا «اعتباريا» لأحد، فإنّه لا يدوم له طويلا حتى يرثه اللّه أيضا.

و الآية الثّانية فى الحقيقة جواب عن سؤال مقدر، و هو: إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك اللّه الطغاة، فلم لم يهلك المشركين من أهل مكّة و الحجاز، الذين بلغوا حدّا عظيما من الطغيان، و لم يكن إثم و لا جهل إلّا و ارتكبوه، و لم لم يعذبهم اللّه بعذابه الأليم؟ يقول القرآن فى هذا الصدد وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا.

أجل .. لا يعذب اللّه قوما حتى يتمّ عليهم حجّته و يرسل إليهم رسله، و حتى بعد إتمام الحجّة، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإنّ اللّه لا يعذبهم، و هو يراقب أعمالهم، وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ

و التعبير ب ما كُنَّا أو وَ ما كانَ رَبُّكَ دليل على أن سنة اللّه الدائمة و الأبدية التى كانت و لا زالت، هى أن لا يعذب أحدا إلّا بعد إتمام الحجة الكافية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۲

و التعبير ب حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا إشارة إلى عدم لزوم إرسال الرسل إلى جميع المدن، بل يكفى أن يبعث فى مركز كبير من

مراکزها التی تنشر العلوم و الأخبار رسولا- یبلغهم رسالاته! لأنّ أهل تلک المناطق فی ذهاب و إیاب مستمر إلی المرکز الرئیسی، لحاجتهم الماسة، و ما أسرع أن ینتشر الخبر الذی یقع فی المرکز إلی بقیة الأنحاء القریبة و البعیدة، کما انتشرت أصداء بعثة النّبی صلّی اللّه علیه و آله التی کانت فی مکّة- و بلغت جمیع أنحاء الجزیرة العربیة فی فترة قصیرة! لأنّ مکّة کانت أم القری، و کانت مرکزا روحانیا فی الحجاز، کما کانت مرکزا تجاریا أیضا .. فانتشرت أخبار النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و وصلت جمیع المراکز المهمّة فی ذلک الحین و فی فترة قصیرة جدّا.

فعلی هذا تبیّن الآیة حکما کلیا و عامّا، و ما یدّعیه بعض المفسّرین من أنّها إشارة إلی «مکّة» لا دلیل علیه، و التعبیر ب فِی أُمِّها هو تعبیر عام کلی أیضا ..

لأنّ کلمة «أم» تعنی المرکز الأصلی، و لا یختص هذا بمکّة فحسب ۱۹۱].

و أخر آیة من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثّالث علی أصحاب الحجج الواهیة، الذین کانوا یقولون للنّبی صلّی اللّه علیه و آله: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا و یبعدنا العرب من دیارنا، و هو قوله تعالی: وَ ما أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْ‌ءٍ فَمَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ زِینَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ وَ أَبْقی ممّا عندکم من النعیم الفانی .. إذ أنّ نعم الدنیا تشوبها الأکدار و المشاکل المختلفة، و لس من نعمة مادیة خالیة من الضرر و الخطر أبدا.

إضافة إلی ذلک فإنّ النعم التی عند اللّه «الباقیة» لا تقاس مع النعم الدنیویة الزائلة، فنعم اللّه- إذن- خیر و أبقی!.

فبموازنة بسیطة یعرف کل إنسان عاقل أنّه لا ینبغی أن یضحی بنعم الآخرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۳

من أجل نعم الدنیا، و لذلک تختتم الآیة بالقول: أَ فَلا تَعْقِلُونَ .

یقول «الفخر الرازی» نقلا- عن أحد الفقهاء أنّه قال: لو أوصی أحد بثلث ماله إلی أعقل الناس، فإنی أفتی أن یعطی هذا المال لمن یطیع أمر اللّه، لأن أعقل الناس من یعطی المتاع القلیل، (الفانی) لیأخذ الکثیر (الباقی) و لا یصدق هذا، إلّا فی من یطیع اللّه.

ثمّ یضیف الفخر الرازی .. قائلا: فکأنّما استفاد هذا الحکم من الآیة محل البحث ۱۹۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۴

الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۶۱ الی ۶۴]

اشارة

أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِیهِ کَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَیاةِ الدُّنْیا ثُمَّ هُوَ یَوْمَ الْقِیامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِینَ (۶۱) وَ یَوْمَ یُنادِیهِمْ فَیَقُولُ أَیْنَ شُرَکائِیَ الَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۶۲) قالَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِینَ أَغْوَیْنا أَغْوَیْناهُمْ کَما غَوَیْنا تَبَرَّأْنا إِلَیْکَ ما کانُوا إِیَّانا یَعْبُدُونَ (۶۳) وَ قِیلَ ادْعُوا شُرَکاءَکُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ کانُوا یَهْتَدُونَ (۶۴)

التّفسیر

أنّهم عبدة الهوی:

کان الحدیث فی الآیات المتقدمة عن الذین فضّلوا الکفر علی الإیمان بسبب منافعهم الشخصیّة- و رجّحوا الشرک علی التوحید، و فی الآیات التی بین أیدینا یبیّن القرآن حال هذه الجماعة یوم القیامة قبال المؤمنین الصادقین.

ففی بدایة هذه الآیات یلقی القرآن سؤالا یقارن فیه بین المؤمنین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۵

و الکافرین، و یثیر الوجدان و یجعله حکما فیقول: أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِیهِ کَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَیاةِ الدُّنْیا ثُمَّ هُوَ یَوْمَ الْقِیامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِینَ

و لا شک أن وجدان یقظ یرجّح وعود اللّه و مواهبه العظیمة الخالدة، على نعم الدنیا التی لا تطول إلّا أیّاما و تتبعها آلام و شقاء خالد؟! جملة فَهُوَ لاقِیهِ تأکید على أن وعد اللّه لا یتخلف أبدا و لا بدّ أن یکون کذلک، لأنّ تخلف الوعد إمّا ناشئ عن الجهل أو العجز، و کلاهما مستحیل على ذات اللّه المقدسة.

و جملة هُوَ یَوْمَ الْقِیامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِینَ إشارة إلى الإحضار فی محضر اللّه یوم القیامة للحساب، و فسرها البعض بالإحضار فی نار جهنّم، و لکن التّفسیر الأوّل أنسب کما یبدو، و على کل حال فإنّ هذا التعبیر یدل بصورة واضحة على أنّ المجرمین یساقون مکرهین، و على غیر رغبة منهم إلى تلک العرصات المخوفة، و ینبغی أن یکون الأمر کذلک ... لأنّ وحشة الحساب و القضاء یوم القیامة و مشاهدها تغمر وجودهم هناک!.

و التعبیر ب الْحَیاةِ الدُّنْیا التی تکررت فی سور مختلفة من القرآن الکریم، إشارة إلى حقارة هذه الحیاة بالنسبة للحیاة الأخرى و الخلود فیها و عدم الزوال و الاضمحلال، لأنّ کلمة «دنیا» فی الأصل مأخوذة من «دنو» على زنة «غلو» و معناها القرب فی المکان أو الزمان أو المنزلة و المقام، ثمّ توسّع هذا المفهوم لیطلق بلفظ «دنیا أو أدنى» على الموجودات الصغیرة التی تحت الید فی مقابل الموجودات الکبیرة، و قد یطلق هذا اللفظ على الموضوعات التی لا قیمة لها فی مقابل الأشیاء ذات القیمة العالیة، و ربّما استعمل فی القرب فی مقابل البعد.

و حیث أن هذه «الحیاة» فی مقابل العالم الآخر صغیرة و لا قیمة لها و قریبة أیضا، فإنّ تسمیتها بالحیاة الدنیا تسمیة مناسبة جدّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۶

بعد هذا، یأتی الکلام عن عرصات یوم القیامة و مشاهدها لیجسّده أمام الکفار، مشاهد یقشعر منها البدن حین یتصورها الإنسان، فیقول القرآن: وَ یَوْمَ یُنادِیهِمْ فَیَقُولُ أَیْنَ شُرَکائِیَ الَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

و بدیهی أنّ هذا السؤال سؤال توبیخ و إهانة، لأنّ یوم القیامة یوم کشف الحجب و الأستار، فلا مفهوم للشرک، و لا المشرکون فی ذلک الیوم باقون على عقیدتهم و «شرکهم».

فهذا السؤال فی الحقیقة فیه نوع من الإهانة و التوبیخ و العقوبة! و لکنّهم بدلا من أن یجیبوا بأنفسهم، فإنّ معبودیهم هم الذین یردّون الجواب، و یتبرءون منهم، و یتنفرون من عبادة المشرکین إیّاهم.

و نعرف أن معبودات المشرکین و آلهتهم على ثلاثة أنواع: فإمّا أن یکونوا أصناما «و أحجارا و خشبا» أو من المقدسین کالملائکة و المسیح، و إمّا أن یکونوا من الشیاطین و الجنّ. فالذین یردّون على السؤال و یجیبون هم النوع الثالث، کما حکى عنهم القرآن قالَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِینَ أَغْوَیْنا أَغْوَیْناهُمْ کَما غَوَیْنا تَبَرَّأْنا إِلَیْکَ ما کانُوا إِیَّانا یَعْبُدُونَ

فعلى هذا تکون الآیة السابقة شبیهة بالآیة (۲۸) من سورة یونس إذ تقول:

وَ قالَ شُرَکاؤُهُمْ ما کُنْتُمْ إِیَّانا تَعْبُدُونَ

فعلى هذا یرد المعبودون الغواة على عبدتهم و یتبرءون منهم، کما یبرأ فرعون و نمرود و الشیاطین و الجن من عبدتهم و قومهم و یتنفرون منهم، و یدافعون عن أنفسهم، حتى أنّهم ینسبون الضلالة لمن تبعهم و یقولون: إنّهم تبعونا طوعا ... إلخ.

و لکن- من البدیهی- لیس لهذا النفی أثر، و لا تنفع البراءة منهم، فالعابد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۷

و المعبود معا شریکان «فی النّار»[۱۹۳].

الطریف الـذی یسـتلفت النظر، هو أنّ کـل واحـد من المنحرفین یتبرأ فی ذلـک الیوم من الآخر و کل یسـعی لأن یلقی تبعـة ذنبه علی صاحبه.

و هـذا یشـبه تماما ما قـد نراه فی هـذه «الدنیا» من اجتماع رهط علی أمر ما حتی إذا وقعوا فی مخالفة القانون، و ألقی القبض علیهم، و أحضـروا إلی المحکمـة، یتبرأ کلّ واحـد من الآخر و یلقی بعضـهم الجریمـة علی صاحبه، فهکـذا هی عاقبـة المنحرفین و الضالین فی الدنیا و الآخرة! کما نجد مثل هذا فی الآیة (۲۲) من سورة إبراهیم وَ قالَ الشَّیْطانُ لَمَّا قُضِیَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُکُمْ فَأَخْلَفْتُکُمْ وَ ما کانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی فَلا تَلُومُونِی وَ لُومُوا أَنْفُسَکُمْ

و نقرأ فی الآیة (۳۰) من سورة الصافات فی شأن المشـرکین الـذین یتحاجون فی یوم القیامـة مع أتباعهم فیقولون: وَ ما کانَ لَنا عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ کُنْتُمْ قَوْماً طاغِینَ

و علی کل حال، فتعقیبا علی السؤال عن آلهتهم. و عجز المشـرکین عن الجواب. یطلب أن یدعوهم لنصـرتهم وَ قِیلَ ادْعُوا شُـرَکاءَکُمْ [۱۹۴].

و حیث یعلم المشـرکون أن دعاءهم غیر نافع، و أن المعبودین «الشـرکاء» لا یمکن أن یفعلوا شیئا من شدّة الهلع و الوحشة، أو استجابة لأمر اللّه الذی یرید

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۸

أن یفضح المشرکین و الشرکاء أمام أعین الخلق، یتوجهون إلی الشرکاء و یدعونهم کما یقول القرآن الکریم: فَدَعَوْهُمْ

و من الواضح أنّه لا أثر لهذا النداء و الطلب، و لا یقال لهم «لبیک» .. فَلَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُمْ

فحینئذ لا ینفعهم شیء وَ رَأَوُا الْعَذابَ

و یتمنون لَوْ أَنَّهُمْ کانُوا یَهْتَدُونَ!.[۱۹۵]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۹

الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۶۵ الی ۷۰]

اشارة

وَ یَوْمَ یُنادِیهِمْ فَیَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِینَ (۶۵) فَعَمِیَتْ عَلَیْهِمُ الْأَنْباءُ یَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا یَتَساءَلُونَ (۶۶) فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسی أَنْ یَکُونَ مِنَ الْمُفْلِحِینَ (۶۷) وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ ما یَشاءُ وَ یَخْتارُ ما کانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ (۶۸) وَ رَبُّکَ یَعْلَمُ ما تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما یُعْلِنُونَ (۶۹)

وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْأُولی وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۷۰)

التّفسیر

تعقب الآیات محل البحث، علی ما کان فی الآیات السابقة فی شأن المشرکین و ما یسألون یوم القیامة.

فبعـد أن یسـألوا عن شـرکائهم و معبودیهم، یسـألون عن مواقفهم و مـا أبـدوه من عمـل إزاء أنبیـائهم وَ یَوْمَ یُنادِیهِمْ فَیَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِینَ

و من المسلم به أنّ هؤلاء «المشرکین» لا یملکون جوابا لهذا السؤال، کما لم یملکوا للسؤال السابق جوابا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۰

تری: أ یقولون بأنّنا لبّینا دعوة المرسلین؟ فهذا کذب محض! و الکاذب خاسر فی ذلک الیوم، أم یقولون بأنّنا کذّبناهم، و اتهمناهم، و قلنا لهم بأنّکم سحرة و مجانین و حاربناهم و قتلناهم مع اتباعهم؟ ...

ما عسی أن یقولوا هناک؟! فکلّ ما یقولون کاشف عن فضیحتهم و شقائهم!.

حتی أنّ الأنبیاء و المرسلین فی ذلک الیوم یجیبون ربّهم حین یسألون ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّکَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُیُوبِ [۱۹۶] ما الذی یقوله فی ذلک الیوم و فی ذلک المکان عمی القلوب من المشرکین؟! لذلک یکشف القرآن عن حالهم هناک فیقول: فَعَمِیَتْ عَلَیْهِمُ الْأَنْباءُ یَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا یَتَساءَلُونَ أی یسأل بعضهم بعضا و لا یعرفون جوابا!.

و الذی یستلفت النظر أن العمی نسب فی الآیة للأنباء لا للمشرکین فلا یقول عمی المشرکون هناک بل یقول: «عمیت علیهم الأنباء» .. لأنّه کثیرا ما یحدث أن یکون الإنسان غیر عالم بالخبر، لکنّه یصله بانتشاره علی أفواه الناس، کما یتفق لنا أن نکون جاهلین بالشیء أحیانا فنعرف به حین ینتشر بین المجتمع، لکن فی یوم القیامة، لا الناس مطّلعون، و لا الأخبار تنتشر!.

فعلی هذا تعمی الأخبار، فلا یملکون جوابا هناک علی قوله تعالی: ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِینَ فیحیط بهم الصمت من قرنهم إلی أقدامهم.

و حیث أنّ أسلوب القرآن هو ترک الأبواب مفتوحة بوجه الکافرین و الآثمین دائما، لعلهم یتوبون و یرجعون إلی الحق فی أی مرحلة کانوا من الإثم، فإنّه یضیف فی الآیة التی بعدها: فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسی أَنْ یَکُونَ مِنَ الْمُفْلِحِینَ

فسبیل النجاة- حسب ما یوضحه القرآن- یتلخّص فی ثلاث جمل هی العودة و التوبة إلی اللّه، و الإیمان، و العمل الصالح، و عاقبتهما النجاة و الفلاح حتما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۱

و التعبیر بعسی «من أفعال الرجاء» مع أن الذی آمن و عمل صالحا فهو من أهل الفلاح حتما- ربّما کان لأنّ الإیمان و العمل الصالح مشروطان بالبقاء و الدوام علیهما، و حیث أن التائبین لا یبقی جمیعهم علی التوبة، بل قد یعود بعضهم لعمله السابق، عبر القرآن بقول: فَعَسی .. إلخ.

قال بعض المفسّرین: التعبیر ب «عسی» حین یکون من شخص کریم، فإنّه یدل علی المفهوم القطعی، و اللّه سبحانه أکرم الأکرمین.

و الآیة التی بعدها فی الحقیقة دلیل علی نفی الشرک و بطلان عقیدة المشرکین، إذ تقول: وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ ما یَشاءُ وَ یَخْتارُ ما کانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ[۱۹۷].

فالخلق بیده، و التدبیر و الإختیار بیده أیضا، و هو ذو الإرادة، و لیس لأحد سواه أن یفعل ما یشاء، فکیف بالأصنام؟! فاختیار الخلق بیده، و الشفاعة بیده، و إرسال الرسل بیده أیضا. و الخلاصة أنّ اختیار کل شیء متعلق بمشیئته و إرادته المقدسة، فعلی هذا لا یمکن للأصنام أن تعمل شیئا، و لا حتی الملائکة و الأنبیاء، إلّا أن یأذن اللّه لمن یشاء و یرضی! و علی کل حال فإطلاق الإختیار دلیل علی عمومیته .. بمعنی أن اللّه سبحانه صاحب الإختیار فی الأمور التکوینیة و الأمور التشریعیة أیضا .. فجمیعها یتعلقان به.

فمع هذه الحال، کیف یسلک هؤلاء طریق الشرک و یتجهون نحو غیر اللّه؟

لذلک فإنّ الآیة تنزه اللّه عن الشرک و تقول: سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ

و فی الرّوایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام فسرت الآیة المتقدمة باختیار الأئمّة المعصومین من قبل اللّه سبحانه- و جملة ما کانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ أیضا وردت فی هذا المعنی، و هی فی الواقع من قبیل بیان المصداق الواضح، لأنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۲

مسألة حفظ الدین و المذهب و اختیار القائد المعصوم لأجل هذا الهدف، لا تکون إلّا من قبل اللّه تعالی ۱۹۸].

أمّا الآیة التی بعدها فتتحدث عن علم اللّه الواسع، و هی فی الحقیقة تأکید أو دلیل علی الإختیار الواسع فی الآیة السابقة، إذ تقول هذه

الآية: وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ

فإحاطته بكل شيء دليل على اختياره لكل شيء، كما هي- ضمنا- تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أن اللّه غير مطلع على سرائرهم و نيّاتهم و «مؤامراتهم».

و الآية الأخيرة من هذا المقطع- هي نتيجة الحكم، و توضيح للآيات السابقة في مجال نفي الشرك، و هي ذات أربعة أوصاف من أوصاف اللّه، و جميعها فرع على خالقيته و اختياره.

فالأول: أنّه هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

فكيف يمكن أن يكون معبود آخر سواه، و هو الخالق وحده و جميع الإختيارات بأمره و بيده. فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند اللّه فهو من المضلين الخاطئين.

و الثّاني: أن جميع النعم دنيوية كانت أم أخروية هي منه، و هي من لوازم خالقيته المطلقة، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَ الْآخِرَةِ.

الثّالث: أنّه وَ لَهُ الْحُكْمُ فهو الحاكم في هذا العالم، و في العالم الآخر.

و الرّابع: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للحساب و الثواب و العقاب.

فاللّه الخالق، و هو المطّلع، و هو الحاكم يوم الجزاء، و بيده الحساب و الثواب و العقاب.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۳

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۱ الى ۷۵]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (۷۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۷۲) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۳) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۷۴) وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۷۵)

التّفسير

نعمتا «الليل و النهار» العظيمتان:

هذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم كبير من مواهب اللّه سبحانه، التي تدل على التوحيد و نفي الشرك من جهة، كما أنّها تكمّل البحث السابق ..

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۴

و تذكر مثلا للنعم التي تستوجب الحمد و الثناء .. الحمد المشار إليه في الآيات المتقدمة، كما هي في الوقت ذاته شاهد على اختيار اللّه و تدبيره في نظام الخلق من جهة أخرى!.

ففي الآية الأولى من هذه الآيات إشارة إلى نعمة النهار و النور الذي هو أساس لأية حركة، فتقول الآية: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ ۱۹۹].

هنا عبر عن النهار بالضياء، لأنّ الهدف الأصلى من النهار هو الضياء و الانبلاج، ذلك الضياء الذى تتعلق به حياة كل الموجودات الحية، فلولا ضياء الشمس لما تنسمت «زهرة» و لا نمت «شجرة» و لا طار «طائر» و لا بقى «إنسان» و لا هطل مطر.

«السرمد» معناه الدائم المتواصل، و يرى البعض بأنه المتتابع، و أصله «سرد» و يرون أن ميمها زائدة .. لكن الظاهر أنّها كلمة مستقلة تعطى معنى الدوام و الاستمرار.[۲۰۰] كما تتحدث الآية الأخرى عن نعمة الظلمة فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ

أمّا الآية الثّالثة فتحكى عن نتيجة النعمة المشار إليها فى الآيتين السابقتين فيقول وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أجل، إنّ سعة رحمة اللّه تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم، فأنتم-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۵

من جانب- بحاجة إلى السعى و الحركة، و كل ذلك لا بدّ لهما من الليل! لقد ثبت- فى هذا العصر- علميّا أن جميع أجهزة البدن تكون فعالة و نشطة مع وجود النور، إذ تنشط الحركة الدموية و الجهاز التنفسى و حركة القلب و سائر الأجهزة، و إذا استمر النور أكثر من المعتاد تعبت خلايا الجسم و تحول النشاط إلى خمول! و بالعكس فإنّ الخلايا تهدأ فى الليل و تستريح استراحة عميقة تستعيد نشاطها و قواها «شرحنا هذا المعنى فى الجزء السادس ذيل الآية ۶۷ من سورة يونس و الآية (۱۲) من سورة الاسراء»، الطريف هنا أن الآية حين تتحدث عن سرمديّة الليل تخاطب الناس قائلة:

أَ فَلا تَسْمَعُونَ ... و حين تتحدث عن سرمدية النهار تخاطبهم قائلة: أَ فَلا تُبْصِرُونَ و لعل هذا التعبير لأجل أن الحسّ المناسب لليل هو السمع و الأذن، و ما يناسب النهار هو البصر و العين .. إلى هذه الدرجة نلاحظ الدقّة فى القرآن الكريم.

كما أنّ من الجدير الالتفات إلى أنّ الآية هنا بعد ذكر مسألتى السمع و البصر أو الليل و النهار، تختتم الحديث بالقول: لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ الشكر إزاء النظام المحسوب النور و الظلمة، الشكر الذى يوصل الإنسان إلى معرفة المنعم و الشكر الذى يكون باعثا على الإيمان فى المباحث الاعتقادية!.

و مرّة أخرى- بعد ذكر جانب من دلائل التوحيد و نفى الشرك- يعود القرآن الكريم على السؤال الأوّل الذى أثير فى الآيات السابقة ليقول: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

و هذه الآية مكررة فى السورة نفسها، إذ وردت بنصّها فى الآية ۶۲، و لعل هذا التكرار ناشئ عن السؤال مرتين فى يوم القيامة، مرّة بصورة انفرادية ليعودوا إلى وجدانهم فيخجلوا من أنفسهم، و مرّة بصورة عامّة فى محضر الشهود، و هو ما أشير إليه فى الآية التى بعدها .. ليخجلوا أيضا من حضورهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۶

لذلك تأتى الآية التى بعدها فتقول: وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً[۲۰۱] فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ أيّها المشركون الضالون.

و حين تنكشف المسائل و تتجلى الأمور لا تبقى خافية فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

هؤلاء الشهود هم الأنبياء بقرينة الآيات الأخرى فى القرآن، إذ أن كل نبى شاهد على أمته، و نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله الذى هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء و الأمم، كما نقرأ ذلك فى الآية (۴۱) من سورة النساء فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً.

فعلى هذا، ينعقد يوم القيامة مجلس كبير بحضور الأنبياء، و يؤتى بالمشركين المعاندين عمى القلوب، و هناك يعرفون الفاجعة العظمى للشرك، و حقانية اللّه، و ضلال الأصنام ... بجلاء.

و من الطريف أن القرآن يعبر ب ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى إن تصوراتهم و اعتقاداتهم فى الأصنام تمحى عنهم يوم القيامة، لأنّ عرصة القيامة عرصة الحق، و لا مكان للباطل هناك، فالباطل يضل هناك و يمحى من الوجود!.

فإذا کان الباطل یغطی وجهه هنا (فی هذا العالم) بستار من الحق لیخدع الناس أیّاما، فهناک تنکشف الحجب و لا یبقی سوی الحق.

نقرأ فی روایهٔ عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر وَ نَزَعْنا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ شَهِیداً

قوله: «و من هذه الأمهٔ إمامها»[۲۰۲].

و هـذا الکلام إشارهٔ إلی أنّه لا بـدّ فی کل عصـر و زمان من شاهـد معصوم للأمـهٔ، و الحـدیث آنف الـذکر من قبیل بیان مصداق هذا المفهوم القرآنی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۷

الآیات [سورهٔ القصص (۲۸): الآیات ۷۶ الی ۷۸]

اشارهٔ

إِنَّ قارُونَ کانَ مِنْ قَوْمِ مُوسی فَبَغی عَلَیْهِمْ وَ آتَیْناهُ مِنَ الْکُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِی الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْفَرِحِینَ (۷۶) وَ ابْتَغِ فِیما آتاکَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیا وَ أَحْسِنْ کَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَیْکَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ (۷۷) قالَ إِنَّما أُوتِیتُهُ عَلی عِلْمٍ عِنْدِی أَ وَ لَمْ یَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَکَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَکْثَرُ جَمْعاً وَ لا یُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (۷۸)

التّفسیر

الثّری الاسرائیلی البخیل:

جاء تفصیل قصّهٔ موسی علیه السّلام العجیبهٔ و مواجهاته و مواقفه مع فرعون فی قسم کبیر من الآیات السابقهٔ فی هذه السورهٔ .. و ذکرنا الأقوال فیها، و کان الکلام إلی حد ما کافیا علیها.

و فی القسم الآخر من آیات هذه السورهٔ، وقع الکلام علی مواجههٔ بنی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۸

إسرائیل مع رجل ثری منهم یدعی «قارون».

قارون هذا کان مظهرا للثراء المقرون بالکبر و الغرور و الطغیان.

و أساسا، فإنّ موسی علیه السّلام واجه فی طول حیاته ثلث قوی استکباریهٔ طاغوتیهٔ:

۱- «فرعون» الذی کان مظهرا للقوّهٔ «و القدرهٔ فی الحکومهٔ».

۲- «قارون» الذی کان مظهرا للثروهٔ و المال! ۳- «السامری» الذی کان مظهرا للنفاق و الصناعهٔ.

و بـالرغم من أنّ أهم مواجهـات موسـی علیه السّـلام هی مواجهته لفرعون و «حکومته» إلّـا أنّ مواجهتیه الأـخیرتین لهمـا أهمیّـهٔ کبیرهٔ أیضا، و فیهما دروس ذات عبر و محتوی کبیر!.

المعروف أن «قارون» کان من أرحام موسـی و أقاربه «ابن عمه أو ابن خالته» و کان عارفا بالتوراهٔ، و کان فی بدایـهٔ أمره مع المؤمنین، إلّا أنّ غرور الثروهٔ جرّه إلی الکفر و دعاه إلی أن یقف بوجه موسـی علیه السّلام و أماته میتهٔ ذات عبرهٔ للجمیع، حیث نقرأ شرح ذلک فی الآیات التالیهٔ:

یقول القرآن فی شـأنه أوّلاـ: إِنَّ قـارُونَ کـانَ مِنْ قَوْمِ مُوسـی فَبَغی عَلَیْهِمْ و سـبب بغیه و ظلمه إنّه کـان ذا ثروهٔ عظیمـهٔ، و لأنّه لم یکن

يتمتع بإيمان قوى و شخصية متينة فقد غرّته هذه الثروة الكبيرة و جرّته إلى الانحراف و الاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروة فيقول: وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ.

«المفاتح» جمع «مفتح» على زنة «مكتب» معناه المكان الذى يدخّر فيه الشيء، كالصندوق الذى يحفظ فيه المال، و هو ما يسميه بعض التجار ب «القاصة».

فيكون المعنى: إنّ قارون كان ذا مال كثير و وفير من الذهب و الفضّة، بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۹

كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء أُولِي الْقُوَّةِ.

و مع ملاحظة كلمة «عصبة» التى تعنى الجماعة المتآزرة يدا بيد على الأمر المهم، يتّضح حجم الذهب و الفضة و المعادن الثمينة التى كانت عند قارون، قال بعضهم: العصبة هى من عشرة رجال إلى أربعين رجلا.

و كلمة «تنوء» مشتقّة من «النوء» و معناه القيام بمشقّة و ثقل، و تستعمل فى حمل الأثقال التى لها ثقل و وزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه!.

و هذا الذى بيّناه فى «المفتاح» اتفق عليه جماعة من المفسّرين.

فى حين أنّ بعضهم يرى أنّها جمع «مفتح» على زنة «منبر» و هو المفتاح الذى تفتح به الخزائن، يقولون: إن خزائن قارون كانت من الكثرة إلى درجة إن مفاتيحها ينوء بحملها الرجال الأشداء.

و الذين ذهبوا إلى هذا المعنى أتعبوا أنفسهم كثيرا فى توجيهه، إذ كيف يمكن تصور عدد هذه «المفتاح» بشكل هائل حتى لا يمكن حملها إلّا بمشقّة و عناء بالغين .. و على كل حال فإنّ التّفسير الأوّل أقرب للنظر و أوضح بيانا. لأنّنا و إن سلّمنا على أن «مفتح، بكسر الميم» تعنى آلة الفتح أى «المفتاح» فإنّ أهل اللغة ذكروا لهذا الوزن (مفتح) معانى أخرى منها «الخزانة» التى يجمع فيها المال، فالمعنى الأوّل أقرب للواقع و بعيد عن المبالغة. فلا ينبغى الخلط بين «المفاتح» التى تعنى الخزائن. و «المفاتيح» التى تعنى آلات الفتح، و هى جمع «مفتاح»[۲۰۳].

فلنتجاوز هذا البحث لنرى ما قال بنوا إسرائيل لقارون، يقول القرآن فى هذا الصدد: إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ [۲۰۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۰

ثمّ يقدمون له أربع نصائح قيّمة أخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسية من النصائح مع ما تقدم من قولهم له:

لا تَفْرَحْ فالنصيحة الأولى قولهم له: وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ و هذا إشارة إلى أن المال و الثروة ليس أمرا سيئا كما يتصوره بعض المتوهّمين، المهم أن تعرف فيم يستعمل المال، و فى أى طريق ينفق، فإذا ابتغى به الدار الآخرة فما أحسنه! أو كان وسيلة للعب و الهوى و الظلم و التجاوز، فلا شيء أسوأ منه! و هذا هو المنطق الذى

ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السّلام فى كلام معروف «من أبصر بها بصّرته و من أبصر إليها أعمته»[۲۰۵].

و كان قارون رجلا ذا قدرة على الأعمال الاجتماعية الكبيرة بسبب أمواله الطائلة، و لكن ما الفائدة منها و قد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

و النصيحة الثّانية قولهم له: وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا و الآية تشير إلى مسألة واقعيّة، و هى أنّ لكل فرد منّا نصيبا من الدنيا، فالأموال التى يصرفها على بدنه و ثيابه ليظهر بمظهر لائق هى أموال محدودة، و ما زاد عليها لا تزيد مظهره شيئا، و على الإنسان أن لا ينسى هذه الحقيقة! ... فالإنسان ... كم يستطيع أن يأكل من الطعام؟ و لم يستطيع أن يلبس من الثياب؟ و كم يمكن أن يحوز من المساكن و

المراكب؟! و إذا مات و كم يستطيع أن يأخذ معه من الأكفان؟! فالباقى- إذن- رضى أم أبى هو من نصيب الآخرين.

و ما أجمل

قول الإمام على عليه السّلام: «يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك»[٢٠٦].

و هناك تفسير آخر لهذه الجملة فى الرّوايات الإسلامية و كلمات المفسّرين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٢٩١

و يمكن التوفيق بين هذا التّفسير و التّفسير السابق (لأنّ استعمال اللفظ فى أكثر من معنى جائز).

إذ ورد فى تفسير وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا

عن الإمام على ابن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «لا تنس صحتك و قدرتك و فراغك و شبابك و نشاطك أن تطلب بها الآخرة»[٢٠٧].

و طبقا لهذا التّفسير فالعبارة المتقدمة بمثابة التنبيه لجميع الناس، لئلا يضيعوا أوقاتهم و فرصهم فإنّها تمر مرّ السحاب.

و النصيحة الثّالثة هى وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ

و هذه حقيقة أخرى، و هى أن الإنسان يرجو دائما نعم اللّه و إحسانه و خيره و لطفه، و ينتظر منه كل شىء. فبمثل هذه الحال كيف يمكن له التغاضى عن طلب الآخرين الصريح أو لسان حالهم .. و كيف لا يلتفت إليهم!.

و بتعبير آخر: كما أنّ اللّه تفضل عليك و أحسن، فأحسن أنت إلى الناس.

و شبيه هذا الكلام نجده فى الآية (٢٢) من سورة النور فى شأن العفو و الصفح، إذ تقول الآية: وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

و يمكن تفسير هذه الجملة بتعبير آخر، و هو أنّ اللّه قد يهب الإنسان مواهب عظيمة لا يحتاج إليها جميعا فى حياته الشخصيّة فقد و هبه العقل و القدرة التى لا تدير فردا واحدا فحسب، بل تكفى لإدارة بلد أيضا و وهبه علما لا يستفيد منه إنسان واحد فقط، بل ينتفع به مجتمع كامل.

أعطاه مالا و ثروة لتنفيذ المناهج الاجتماعية.

فهذه المواهب الإلهية مفهومها الضمنى أنها لا تتعلق بك وحدك- أيّها الإنسان- بل أنت وكيل مخوّل من قبل اللّه لنقلها إلى الآخرين، أعطاك اللّه هذه المواهب لتدير بها عباده!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٢٩٢

و النصيحة الرابعة و الأخيرة أن لا تغرّنك هذه الأموال و الامكانات المادية فتجرّك الى الفساد. وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

و هذا أيضا حقيقة واقعية أخرى، إنّ كثيرا من الأثرياء و على أثر جنون زيادة المال- أحيانا- أو طلبا للاستعلاء، يفسدون فى المجتمع، فيجرّون إلى الفقر و الحرمان، و يحتكرون جميع الأشياء فى أيديهم، و يتصورون أنّ الناس عبيدهم و مماليكهم، و من يعترض عليهم فمصيره الموت، و إذا لم يستطيعوا اتهامه أو الإساءة إليه بشكل صريح، فإنّهم يجعلونه معزولا عن المجتمع بأساليبهم و طرائقهم الخاصة ...

و الخلاصة: إنّهم يجرون المجتمع إلى الفساد و الانحراف.

و فى كلام جامع موجز نصل إلى أن هؤلاء الناصحين سعوا أولا إلى أن يكبحوا غرور قارون!

ثمّ نبهوه أن الدنيا إنّما هى وسيلة- لا هدف- فى مرحلتهم الثّانية.

و فى المرحلة الثّالثة أنذروه بأن ما عندك تستفيد من قسم قليل منه، و الباقى لغيرك.

و فی المرحلـة الرابعـة أفهموه هـذه الحقیقـة، و هی أن لا ینسـی اللّه الـذی أحسن إلیه فعلیه أن یحسن إلی الآخرین .. و إلّا فإنّه یسـلب مواهبه منک.

و فی المرحلة الخامسة حذروه من أن مغبة الفساد فی الأرض الذی یقع نتیجة نسیان الأصول الأربعه آنفة الذکر.

و لیس من المعلوم بدقّة من هم الناصـحون لقـارون یومئـذ و لکن القـدر المسـلم به أنّهم رجـال علمـاء متقون، أذکیـاء، ذوو نجـدة و شهامة، عارفون للمسائل الدقیقة الغامضة!.

و لکن الاعتقاد بأنّ الناصح لقارون هو موسـی علیه السّـلام نفسه بعید جدّا، لأنّ القرآن یعبّر عن من قدم النصح بصـیغة الجماعة إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۳

و الآن لنلاحظ ما کان جواب هذا الإنسان الباغی و الظالم الإسرائیلی لجماعته الواعظین له!.

فأجابهم قارون بتلک الحالة من الغرور و التکبر الناشئة من ثروته الکبیرة، و قالَ إِنَّما أُوتِیتُهُ عَلی عِلْمٍ عِنْدِی

هذا لا یتعلق بکم، و لیس لکم حق أن ترشدونی إلی کیفیة التصرف بمالی، فقد أوجدته بعلمی و اطلاعی.

ثمّ إنّ اللّه یعرف حالی و یعلم أنّی جدیر بهذا المال الذی أعطانیه، و علمنی کیف أتصرف به، فلا حاجة إلی تدخلکم!.

و بعد هذا کله فقد تعبت و بذلت جهودا کبیرة فی سبیل جمع هذا المال، فإذا کان الآخرون جدیرین بالمال، فلم لا یتعبون و یجهدون أنفسهم؟ فلست مضایقا لهم، و إذا لم یکونوا جدیرین، فلیجوعوا و لیموتوا فهو أفضل لهم ۲۰۸].

هذا المنطق العفن المفضوح طالما یردده الأثریاء الذین لا حظّ لهم من الإیمان أمام من ینصحهم.

و هـذه اللطیفـة جـدیرة بالالتفات و هی أن القرآن لم یصـرّح بالعلم الـذی کان عند قارون و أبقاه مبهما، و لم یذکر أی علم کان عند قارون حتی استطاع بسببه علی هذه الثروة الطائلة!.

أهو علم الکیمیاء، کما فسّره بعضهم.

أم هو علم التجارة و الصناعة و الزراعة.

أم علم الإدارة الخاص به، الذی استطاع بواسطته أن یجمع هذه الثروة العظیمة.

أم جمیع هذه العلوم!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۴

لا یبعـد أن یکون مفهوم الآیة واسـعا و شاملا لجمیع هذه العلوم «بالطبع بصـرف النظر عن أن علم الکیمیاء علم یسـتطاع بواسـطته قلب النحاس و أمثاله ذهبا، و هل هو خرافة أم حقیقة واقعیة»؟

و هنا یجیب القرآن علی قول قارون و أمثاله من المتکبرین الضالین، فیقول:

أَ وَ لَمْ یَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَکَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَکْثَرُ جَمْعاً.

أتقول: إِنَّما أُوتِیتُهُ عَلی عِلْمٍ عِنْدِی و نسیت من کان أکثر منک علما و أشدّ قوّة و أثری مالا، فهل استطاعوا أن یفروا من قبضة العذاب الإلهی؟! لقد عبّر أولو الألباب و الضمائر الحیّة عن المال بقولهم لقارون: فِیما آتاکَ اللَّهُ و لکن هذا الغافل غیر المؤدّب ردّ علی قولهم بأنّ ما عنده من مال فهو بواسـطة علمه!! لکن اللّه سبحانه عبّر عن حقارة قوّته و قدرته أمام إرادته و مشیئته جلّ و علا بالعبارة المتقدمة آنفا.

و فی ختام الآیة إنذار ذو معنی کبیر آخر لقارون، جاء فی غایة الإیجاز:

وَ لا یُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

فلا مجال للسؤال و الجواب، فالعذاب واقع- لا محالة- بصورة قطعیّة و مؤلمة، و هو عذاب فجائی مدمّر!.

و بعبارة أخرى أن العلماء من بنى إسرائيل نصحوا قارون هذا اليوم و كان لديه مجال و الجواب، لكن بعد إتمام الحجة و نزول العذاب الإلهى، عندئذ لا مجال للتفكير و الجواب، فإذا حلّ العذاب الالهى بساحته فهو الهلاك الحتمى.

هنا يرد سؤال حول الآيـة التى تقول: وَ لا يُسْـئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أى سؤال هـذا الـذى نفاه اللّه أهو فى الدنيا أم فى الآخرة؟! قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بعدم السؤال هو فى الدنيا، و قال بعضهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۵

بل المقصود أنّه فى الآخرة! لكن لا مانع من أن يكون عدم السؤال فى الدارين «الدنيا و الآخرة».

أى لا يسألون حال نزول العـذاب فى الدنيا، لئلا يدافعوا عن أنفسـهم و يبرئوا ساحتهم، و يظهروا الأعذار تلوا الأعذار. و لا يسألون يوم القيامـة- أيضـا- لأـنّ يوم القيامـة لاـ يبقى فيه شـىء خافيـا، فكل شـىء واضـح، و كما يعبّر القرآن تعبيرا دقيقا فى هـذا الصـدد يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ [۲۰۹] و كـذلك فإنّ الآيـة- محل البحث- وَ لا يُسْـئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ منسـجمة تمام الانسـجام مع الآية من سورة الرحمن إذ تقول: فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ

هنـا ينقـدح سؤال آخر، و هو كيف ينسـجم هـذا التعبير فى القرآن مع قوله تعالى: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْـئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [۲۱۰] و يمكن الإجابة على هذا السؤال عن طريقين:

الأـوّل: إنّ المواقـف فى يوم القيامـة متعـددة، ففى بعضـها يقع السؤال و الجواب و فى بعض المواقف لاـ حاجـة للسؤال، لأـنّ الحجب مكشوفة، و كل شىء واضح هناك.

الثّـانى: إنّ السؤال عـادة نوعان .. «سؤال تحقيق» و «سؤال توبيـخ» فليس فى يوم القيامـة سؤال للتحقيق، لأنّ كل شـىء هناك مكشوف عيانا و واضح دون لبس.

و لكن يوجد هناك سؤال توبيخ و هو بنفسه نوع من العذاب النفسى للمجرمين.

و ينطبق هـذا تماما فى ما لو سأل الأب ابنه غير المؤدب: أ لم أقـدم لك كل هذه الخدمات ... أ هذا جزاء ما قدمت؟! فى حين أن كلا من الأب و الابن يعرفان الحقيقة، و أن قصد الأب من سؤاله لابنه هو التوبيخ لا غير!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۶

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۹ الى ۸۲]

اشارة

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قـالَ الَّذِينَ يُرِيـدُونَ الْحَيـاةَ الـدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِىَ قارُونُ إِنَّهُ لَـذُو حَظٍّ عَظِيم (۷۹) وَ قـالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِـلَ صالِحـاً وَ لاـ يُلَقَّاهـا إِلاَّـ الصَّابِرُونَ (۸۰) فَخَسَـفْنا بِهِ وَ بِـدارِهِ الْـأَرْضَ فَمـا كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (۸۱) وَ أَصْـبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (۸۲)

التّفسير

جنون الثّروة:

المعروف أن أصـحاب الـثروة يبتلون بـأنواع الجنون ... و واحـد منهـا «جنون عرض الثروة و إظهارهـا» فهؤلاـء يشـعرون باللـذة عنـد ما

يعرضون ثروتهم على الآخرين، و حين يعبرون على مركب غال وثير و يمرّون بين حفاة الأقدام فيتصاعد الغبار و الاتربة لينتشر على وجوههم، و يحقّرونهم بذلك، فحينئذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۷

يشعرون بالراحة النفسية و النشوة تدغدغ قلوبهم ..

و بالرغم من أن عرض الثروة هذا غالبا ما يكون سببا للبلاء عليهم، لأنّه يربى الأحقاد فى الصدور و يعبئ الحساسيّات ضده، و كثيرا ما ينهى هذا العمل الردىء حياة الإنسان، أو يزيل ثروته مع الريح!.

و لعل هذا الجنون يحمل هدفا من قبيل إغراء الطامعين و تسليم الأفراد المعاندين و لكن الأثرياء غالبا ما يقومون بهذا العمل دون هدف، لأنّه نوع من الهوى و الهوس و ليس خطة أو برنامجا معينا.

و على كل حال فإن قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون، بل كان يعدّ مثلا بارزا له، و القرآن يتحدث عنه فى جملة موجزة فى بعض آياته فيقول: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ امام قومه من بنى إسرائيل.

و التعبير ب «فى زينته» ناطق عن هذه الحقيقة، و هى أنّه أظهر جميع قدرته و قوته ليبدى ما لديه من زينة و ثروة.

و معلوم طبعا إنّ رجلا بهذه المثابة من الثروة ما ذا يستطيع أن يفعل!؟

و ينقل فى التاريخ- فى هذا الصدد قصص كثيرة- مقرونة بالأساطير أحيانا، فإنّ بعضهم يكتب أنّ قارون خرج فى استعراض كبير، و قد أركب أربعة آلاف نفر على أربعة آلاف فرس حمر «غالية القيمة» مغطاة بالقماش الفاخر، و قد ملأها زينة من الذهب و الجواهر الأخرى، فمرّ بهذا الاستعراض على بنى إسرائيل ..

و قد أثار هذا المنظر الناس، إذ رأوا أربعة آلاف من الخدم ابيض يلبسون ثيابا حمرا مع زينتهم.

و قال بعضهم: بل بلغ عدد هؤلاء «الخدم و الحشم» سبعة آلاف نفر، و ذكروا أخبارا أخرى فى هذا الصدد.

و لو فرضنا أن كل ذلك مبالغ فيه، إلّا أنّه لا يمكن إنكار هذه الحقيقة، و هى أن قارون لديه ثروات مهمّة أظهرها فى زينته!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۸

هنا أصبح الناس طائفتين- بحسب العادة فطائفة و هم الأكثرية- من عبدة الدنيا- أثارهم هذا المشهد، فاهتزت قلوبهم و تأوهوا بالحسرات و تمنوا لو كانوا مكان قارون و لو يوما واحدا و لو ساعة واحدة و حتى و لو لحظة! واحدة ...

فأيّة حياة عذبة جميلة هذه الحياة التى تهب اللذات و النشاط ... قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

هنيئا لقارون و لثروته العظيمة! .. و ما أعظم جلاله و عزّته .. و لا نظن فى التاريخ أحدا أعطاه اللّه ما أعطى قارون .. و ما إلى ذلك من الكلمات.

و هنا جاء دور الامتحان الالهى العظيم فمن جانب نجد قارون عليه أن يؤدى امتحانه فى غروره و طيشه! و من جانب آخر من بهرهم مشهده الذين أحاطوا به- من بنى إسرائيل-.

و بالطبع فإنّ العقاب الأليم هو العقاب الذى سيقع بعد هذا العرض المثير، و هو أن يهوى قارون من أوج العظمة إلى قعر الأرض إذ تنخسف به الأرض على حين غرّة!.

لكن أمام هذه الطائفة التى ذكرناها آنفا طائفة أخرى من العلماء و المتقين الورعين، سمت آفاقهم عن مثل هذه المسائل، و كانوا حاضرين حينئذ و «المشهد» يمرّ من أمامهم.

هؤلاء الرجال لا يقوّمون الشخصية بالذهب و القوّة، و لا يبحثون عن القيم فى الأمور الماديّة. لا تبهرهم هذه المظاهر، بل يسخرون منها و يتبسمون تبسم استهزاء و ازدراء! و يحقّرون هذه الرؤوس الفارغة.

فهؤلاء کانوا هناک، و کان لهم موقف آخر من قارون، و کما یعبر عنهم القرآن وَ قالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَیْلَکُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَیْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثمّ أردفوا مؤکّدین وَ لا یُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ

أولئک الذین لا تهزّهم زخارف الدنیا و زبارجها، و یقفون فی استقامهٔ-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۹

برجولهٔ و شهامهٔ- امام الحرمان، و لا یطأطئون رؤوسهم للأراذل و یقفون کالجبال الرواسی فی الامتحان الإلهی- امتحان الثروهٔ و المال و الخوف و المصیبهٔ ...

و هؤلاء هم الجدیرون بثواب اللّه سبحانه!.

و من المسلم به أنّه المقصود بجملهٔ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ هم علماء بنی إسرائیل، و من بینهم «یوشع» و هو من کبار رجالهم.

غیر أنّ الطریف فی الأمر أن القرآن عبّر عن الطائفهٔ الأولی بجملهٔ الَّذِینَ یُرِیدُونَ الْحَیاهَٔ الدُّنْیا لکنّه لم یعبر عن الطائفهٔ الثّانیهٔ بأنّهم «الذین یریدون الحیاهٔ الاخرهٔ» بل عبر عنهم ب الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ فحسب، لأنّ العلم هو أساس کل شیء و جذر الإیمان و الاستقامهٔ و العشق للثواب الإلهی و الدار الآخرهٔ ..

کما أن التعبیر ب الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ هو جواب دامغ- ضمنا- لقارون الذی یدّعی العلم، فالقرآن یرید أن یبیّن أن العلماء هم هؤلاء الذین لا یریدون الحیاهٔ الدنیا، أمّا أنت یا قارون فمغرور و طائش!.

و هکذا نری مرّهٔ أخری أنّ أساس البرکات و الخیرات هو العلم الحقیقی.

لقد أوصل قارون بعمله هذا طغیانه و عناده إلی الدرجهٔ القصوی غیر أن ما ورد فی التواریخ حکایهٔ منقولهٔ عن قارون تدل علی منتهی الخسهٔ و عدم الحیاء! ننقلها هنا حسب تفصیلها!.

فقال له موسی علیه السّلام إنّ اللّه أمرنی أن آخذ الزکاهٔ فأبی فقال: إنّ موسی یرید أن یأکل أموالکم جاءکم بالصلاهٔ و جاءکم بأشیاء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالکم؟ قالوا: لا نحتمل فما تری؟ فقال لهم: أری أن أرسل إلی بغی من بغایا بنی إسرائیل فنرسلها الیه فترمیه بأنّه أرادها علی نفسها فأرسلوا إلیها فقالوا لها:

نعطیک حکمک علی أن تشهدی علی موسی أنّه فجر بک قالت نعم.

فجاء قارون إلی موسی علیه السّلام قال: اجمع بنی إسرائیل فأخبرهم بما أمرک ربّک قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: بم أمرک ربّک؟ قال: أمرنی أن تعبدوا اللّه و لا تشرکوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۰

به شیئا و أن تصلوا الرحم و کذا و کذا و قد أمرنی فی الزانی إذا زنی و قد أحصن أن یرجم. قالوا: و إن کنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنّک قد زنیت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلی المرأهٔ فجاءت فقالوا: ما تشهدین علی موسی؟ فقال لها موسی علیه السّلام أنشدتک باللّه إلّا ما صدقت. قالت: أمّا إذا نشدتنی فإنّهم دعونی و جعلوا لی جعلا علی أن أقذفک بنفسی و أنا أشهد أنّک بریء و أنّک رسول اللّه.

فخرّ موسی علیه السّلام ساجدا یبکی فأوحی اللّه إلیه: ما یبکیک؟ قد سلطناک علی الأرض فمرها فتطیعک، فرفع رأسه فقال: خذیهم فأخذتهم إلی أعقابهم فجعلوا یقولون: یا موسی یا موسی فقال: خذیهم فأخذتهم إلی أعناقهم فجعلوا یقولون:

یا موسی یا موسی فقال: خذیهم فغیّبتهم فأوحی اللّه:

«یا موسی سألک عبادی و تضرّعوا إلیک فلم تجبهم فوعزّتی لو أنّهم دعونی لأجبتهم».

یقول القرآن الکریم فی هذا الصدد فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ

أجل حین یبلغ الطغیان و الغرور و تحقیر المؤمنین الأبریاء و المؤامرهٔ ضد نبی اللّه أوجها، تتجلی قدرهٔ اللّه تعالی و تطوی حیاهٔ الطغاهٔ

... و تدمرهم تدميرا يكون عبرة للآخرين.

مسألة «الخسف» هنا التى تعنى انشقاق الأرض و ابتلاع ما عليها، حدثت على مدى التاريخ عدّة مرات ... إذ تتزلزل الأرض ثمّ تنشقّ و تبتلع مدينة كاملة أو عمارات سكنية داخلها، لكن هذا الخسف الذى حدث لقارون يختلف عن تلك الموارد ... هذا الخسف كان طعمته قارون و خزائنه فحسب!.

يا للعجب! .. ففرعون يهوى فى ماء النيل! .. و قارون فى أعماق الأرض!.

الماء الذى هو سرّ الحياة و أساسها يكون مأمورا بهلاك فرعون.

و الأرض التى هى مهاد الاطمئنان و الدعة تنقلب قبرا لقارون و اتباعه! و من البديهى أنّ قارون لم يكن لوحده فى ذلك البيت فقد كان معه أعوانه و ندماءه و من أعانه على ظلمه و طغيانه، و هكذا توغلوا فى اعماق الأرض جميعا.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۱

فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ...

فلم يخلصه أصدقاؤه، و لا الذين كانوا يحملون أمتعته و لا أمواله و لا أى أحد من عذاب اللّه، و مضى قارون و أمواله و من معه فى قعر الأرض! أمّا آخر آية- محل البحث- فتحكى عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس و يقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون، و ما شابه ذلك!. و إذا هم اليوم يقولون: واها له، فإنّ الرزق بيد اللّه وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ.

لقد ثبت عندنا اليوم أن ليس لأحد شىء من عنده! فكلّ ما هو موجود فمن اللّه، فلا عطاؤه دليل على رضاه عن العبد، و لا منعه دليل على تفاهة عبده عنده!.

فاللّه تعالى يمتحن بهذه الأموال و الثروة عباده أفرادا و أقواما، و يكشف سريرتهم و نيّاتهم.

ثمّ أخذوا يفكرون فى ما لو أجيب دعاؤهم الذى كانوا يصرون عليه، و أعطاهم اللّه هذا المال، ثمّ هووا كما هوى قارون، فما ذا يكون قد نفعهم المال؟

لذلك شكروا اللّه على هذه النعمة و قالوا: لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ

فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، و عاقبة الغرور و الغفلة و نهاية الكفر و الشهوة!.

و نعرف أن أمثال هذه الحياة المثيرة للقلوب بمظاهرها الخداعة، ما أوحشها! و ما أسوأ عاقبتها!.

و يتّضح من الجملة الأخيرة فى هذه القصّة- ضمنا- أنّ قارون المغرور مات كافرا غير مؤمن، بالرغم من أنّه كان يعدّ عارفا بالتوراة قارئا لها، و عالما من بنى إسرائيل و من أقارب موسى.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۲

بحوث

۱- نماذج قارونية بالأمس و اليوم!

قصّة قارون- هذا الثرى المغرور- التى ذكرها القرآن فى سبع آيات بينات- بأسلوب جذّاب- تكشف الحجب عن حقاق كثيرة فى حياة الناس! هذه القصّة النّيرة توضح هذه الحقيقة، و هى أن غرور الثروة و نشوتها قد ينجر بهما الإنسان- أحيانا- إلى أنواع الجنون .. جنون إظهار الثروة و عرضها ..

و لفت أنظار الآخرین .. إلی التلذذ من تحقیر الفقراء و المساکین.

کما أن هذا الغرور و هذه النشوة و العشق المطلق للفضة و الذهب، قد تکون سببا لأنّ یجرأ الإنسان أحیانا إلی ارتکاب أقبح الذنوب و أخسها، کالإساءة إلی النّبی و مناهظة الحق و الحقیقة .. و اتهام أطهر الأفراد، و استخدام الثروة لإنفاقها علی الفواحش فی سبیل الوصول إلی الغرض المطلوب.

أن الغرور و النشوة الناشئین من کثرة الثروة، لا یسمحان للإنسان أن یسمع نصیحة الآخرین، و یستجیب لمن یرید له الخیر!.

و هؤلاء المغرورون الجهلة یتصورون أنّهم أعلم الناس و أکثرهم اطلاعا، و فی اعتقادهم أن ثروتهم التی وقعت فی أیدیهم، و ربّما تقع عن طریق الغصب أحیانا، هی دلیل علی عقلهم و ذکائهم ... و أن جمیع الناس جهلة کما یظنون، و أنّهم- وحدهم- العلماء فحسب!.

و یبلغ بهم الأمر حدّا أن یظهروا قدرتهم أمام الخالق، و کأنّهم مستقلّون، و یدّعون أنّ ما وصلهم هو عن طریق ابتکارهم و ذکائهم، و استعدادهم و خلّاقیتهم و معرفتهم التی لا- نظیر لها! و رأینا عاقبة هؤلاء المغرورین المنحرفین، و کیف ینتهون، و إذا کان قارون و أتباعه و ثروته جمیعا قد خسفت بهم الأرض فهووا إلی قعرها، فإنّ الآخرین یفنون بأشکال مختلفة .. و أحیانا تبتلع الأرض حتی ثروتهم العظیمة بشکل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۳

آخر .. أو یبدّلون ثروتهم الکبیرة بالقصور و البساتین و الأراضی الشاسعة ثمّ لا یستفیدون منها أبدا .. و قد یشترون الأراضی الموات و البائرة، علی أمل تقسیمها صغیرة لتباع کل قطعة بسعر باهض! ... و هکذا تبتلع الأرض ثروتهم.

أمثال هؤلاء الأفراد من سقیمی العقول حین لا یجدون طریقا لصرف ثروتهم العظیمة یتوجهون إلی القیم الخیالیة ... و ینفقون أموالهم علی الخزف المتکسّر علی أنّه من التراث القدیم کالأکواز و الأقداح الخزفیة، و الطوابع، و الأوراق النقدیة المتعلقة بالسنوات القدیمة، و یحافظون علیها فی مکان حریز من بیوتهم علی أنّها أغلی التحف، و هی لا- تستحق أن توضع إلّا فی المزابل لو نظرنا إلیها بعین البصیرة و الاعتبار! أولئک الذین یحیون مثل هذه الحیاة الناعمة الخیالیة قد یتفق أن یری فی مدینتهم أو فی مناطقهم- و أحیانا فی جیرانهم- من لا عهد له بالشبع، و یسهرون لیالیهم علی الطوی جائعین، و من العجیب أنّهم یرون هذه الحالة فلا تهتز لها ضمائرهم، و لا یتأثر لأجلها وجدانهم!.

کما یتفق لحیواناتهم أن تعیش حیاة الرفاه، و تستفید من رعایة الأطباء و الأدویة الخاصّة! فی حین أن أناسا محرومین یعیشون فی ظروف صعبة و سیئة إلی جوارهم، و ربّما یرقدون فی المستشفی، و یئنّون و لا من مصرخ لهم، و لا من علاج لمرضهم!.

جمیع هذه البحوث تنطبق أحیانا علی بعض الأفراد فی مجتمع ما، و قد تنطبق علی دولة معینة قبال دول الدنیا کلها، أی قد نجد دولة قارونیة مستکبرة أمام الدول الضعیفة، کما نلاحظ فی العصر الحاضر فی شأن الدول الاستکباریة کأمریکا و کثیر من الدول الأوروبیة.

لقد هیأ هؤلاء حیاة التنعّم و الرفاه- فی أرقی صورها- باستثمار أبناء العالم الثّالث و الدول الفقیرة العزلاء ... بحیث أنّهم یرمون فضلات طعامهم فی المزابل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۴

و لو قدر أن تجمع بصورة صحیحة، لأمکن عندئذ تغذیة الملایین المحرومة الجائعة من هذه المواد الغذائیة الإضافیة.

و ما نقوله من أن بعض الدول فقیرة هی فی الحقیقة لیست دولا فقیرة، بل هی دول منیت بسرقة خیراتها و أغیر علیها ... و ربّما کان لدیها أغلی المصادر و المعادن تحت الأرض، لکن هؤلاء المغیرین ینهبون هذه الخیرات و یترکون أهلها علی الأرض السوداء الجرداء.

فهؤلاء القارونیون یشیدون قواعد قصورهم الظالمة علی أکواخ المستضعفین المهدّمة .. و إذا لم یتّحد المستضعفون یدا بید لیقذفوا

بالمستكبرين إلى قعر الأرض كما فعل بقارون، فإنّ حالة الدنيا ستبقى هكذا.

فأولئك يشربون الخمور و يضحكون منتشين، و هؤلاء يجلسون على بساط الفقر و الحرمان باكين.

۲- من أين جاء قارون بهذه الثروة العريضة؟

الطريف أنّنا نقرأ فى الآيتين (۲۳) و (۲۴) من سورة المؤمن ما نستفيد منه بوضوح أنّ رسالة موسى عليه السّلام كانت من البداية لمبارزة ثلاثة أشخاص! «فرعون»، و وزيره «هامان»، و «قارون» الثرى المغرور. وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ

و نستفيد من النصّ القرآنى المتقدم أن قارون كان من جماعة فرعون، و كان على خطه؛ كما أنّنا نقرأ فى التواريخ أنّه كان ممثلا لفرعون فى بنى إسرائيل من جهة[۲۱۱]، و أنّه كان أمين الصندوق عند فرعون، و المسؤول على خزائنه من جهة أخرى ۲۱۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۵

و من هنا تتّضح هويّة قارون .. فإنّ فرعون من أجل إذلال بنى إسرائيل و سلب أموالهم اختار رجلا منافقا منهم، و أودعه أزمّة أمورهم، ليستثمر أموالهم لخدمة نظامه الجبار، و ليجعلهم حفاة عراة، و يكتسب من هذه الطريقة ثروة ضخمة منهم!.

و القرائن تشير إلى أنّ مقدارا من هذه الثروة العظيمة و كنوز الأموال بقيت بعد هلاك فرعون عند قارون، و لم يطلع موسى عليه السّلام- إلى تلك الفترة- على مكان الأموال لينفقها على اتباعه الفقراء.

و على كل حال، فسواء كانت هذه الثروة قد حصل عليها قارون فى عصر فرعون، أو حصل عليها عن طريق الإغارة على خزائنه بعد هلاكه، أو كما يقول البعض قد حصل عليها عن طريق علم الكيمياء أو التجارة ... أو معرفته بأصول استثمار أموال المستضعفين.

مهما يكن الأمر فإنّ قارون آمن بموسى بعد انتصار موسى على فرعون، و بدّل وجهه بسرعة، و أصبح من قرّاء التوراة و علماء بنى إسرائيل ... فى حين أنّ من البعيد أن تدخل ذرة من الإيمان فى مثل قلب هذا المنافق!.

و أخيرا فحين أراد موسى عليه السّلام أن يأخذ من قارون زكاة المال، خدع به الناس، و عرفنا كيف كانت عاقبته.

۳- موقف الإسلام من الثّروة!

لا ينبغى أن نستنبط من المسائل التى ذكرناها آنفا أنّ الإسلام يقف من الثروة موقفا سلبيا، و أنّه يخالف خط الثراء، و لا ينبغى أن نتصور أنّ الإسلام يريد حياة الفقر و الفقراء، و يعدّ حياة الفقر من الكلمات المعنوية!.

بل على العكس من ذلك، فإنّ الإسلام يعد الثروة عاملا مهمّا نحو الآخرة! و قد عبّر القرآن عن المال بالخير فى الآية (۱۸۰) من سورة البقرة إِنْ تَرَكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۶

خَيْراً أى مالا.

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى هذا الصدد «نعم العون الدنيا على طلب الآخرة»[۲۱۳].

بل حتى الآيات- محل البحث- التى تذم قارون أشدّ الذم، لأنّه اغتر بالمال، هى شاهد بليغ على هذا الموضوع .. غاية ما فى الأمر أنّ الإسلام يقبل بالثروة التى بواسطتها تبتغى الدار الآخرة، كما قال علماء بنى إسرائيل لقارون وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ.

و الإسلام يرضى بالثروة التي نرى فيها «أحسن كما أحسن اللّه إليك» و لكن للجميع!.

و الإسلام يوافق على ثروة يتحقق فيه القول «لا تنس نصيبك من الدنيا» و يمدحها.

و أخيرا فإنّ الإسلام لا- يطلب ثروة ينبغى بها الفساد فى الأرض و تنسى بها القيم الإنسانية .. و تكون نتيجتها الابتلاء بمسابقة جنون التكاثر، أو أن ينفصل الإنسان عن ذاته و يحتقر الآخرين، و ربّما تجرّه إلى مواجهة الأنبياء كما فعل قارون فى مواجهته لموسى عليه السّلام!.

يريد الإسلام الثروة لتكون وسيلة لملء الفراغ الاقتصادى، و أن يستفيد منها الجميع، و لتكون ضمادا لجراح المحرومين، و للوصول بها إلى إشباع الحاجات الاجتماعية و حلّ مشاكل المستضعفين ...

فالعلاقة بين هذه الثروة و هذه الأهداف المقدّسة ليست علاقة دنيوية، أو ارتباطا بالدنيا، بل هى علاقة أخروية.

كما نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أن أحد أصحابه جاءه شاكيا أمره، و قال: و اللّه إنّا لنطلب الدنيا و نحبّ أن نؤتاها. فقال عليه السّلام: «تحبّ أن تصنع بها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۷

ما ذا؟» قال: أعود بها على نفسى و عيالى، و أصل بها و أتصدق بها و أحج و أعتمر فقال الامام الصادق عليه السّلام: «ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»[۲۱۴].

و من هنا يتّضح فساد عقيدة طائفتين فى هذا المجال:

طائفة من المسلمين، أو بتعبير أدق: ممن يتظاهرون بالإسلام، و بعيدون عن تعاليمه، فيعرّفون الإسلام على أنّه محام عن المستكبرين.

و طائفة من الأعداء المغرضين الذين يريدون أن يمسخوا وجه الإسلام الأصيل، و يجعلوه معاديا للثروة، و أنّه يقف الى جانب الفقراء فحسب.

و أساسا فإنّ أمّة فقيرة لا تستطيع أن تعيش وحدها مرفوعة الرأس حرّة كريمة!.

فالفقر وسيلة للارتباط بالاجنبى و التبعية و الفقر أساس الخزى فى الدنيا و الآخرة! و الفقر يدعو الإنسان إلى الإثم و الخطيئة.

كما نقرأ

فى حديث للإمام الصادق فى هذا الصدد «غنى يحجزك عن الظلم، خير من فقر يحملك على الإثم»[۲۱۵].

إنّ على المجتمعات الإسلامية أن تسعى- مهما استطاعت- نحو التقدم لتكون غنيّة غير محتاجة، و لتبلغ مرحلة الاكتفاء الذاتى، و أن تقف على أقدامها و أن لا تضحّى باستقلالها و عزّتها و شرفها من أجل الفقر المذلّ الموجب للتبعية و تعلم أن منهج الإسلام الأصيل هو هذا لا غير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۸

الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۸۳ الى ۸۴]

اشارة

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۸۳) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۸۴)

التّفسير

نتيجة حبّ التسلط و الفساد فى الأرض:

بعد البيان المثير لما حدث لثرى مستكبر و متسلط، و هو قارون، تبدأ الآية الأولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلى لهذا الواقع و هذا الحدث، إذ تقول الآية تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً.

أجل، فهم غير مستكبرين و لا مفسدين فى الأرض و ليس هذا فحسب، بل قلوبهم مطهّرة من هذه المسائل، و أرواحهم منزهة من هذه الأوساخ! فلا يريدون ذلك و لا يرغبون فيه.

و فى الحقيقة إنّ ما يكون سببا لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة فى العلو» أىّ الاستكبار و «الفساد فى الأرض» و هما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۹

الذنوب .. لأنّ كل ما نهى اللّه عنه فهو على خلاف نظام خلق الإنسان و تكامل وجوده حتما، فارتكاب ما نهى اللّه عنه يدمر نظام حياة الإنسان، لذا فهو أساس الفساد فى الأرض! حتى مسألة الاستعلاء- بنفسها- هى أيضا واحدة من مصاديق الفساد فى الأرض، إلّا أن أهميته القصوى دعت إلى أن يذكر بالخصوص من بين جميع المصاديق للفساد فى الأرض!.

و قد رأينا فى قصّة «قارون» و شرح حاله أنّ السبب الأساس فى شقوته و هلاكه هو العلوّ و «الاستكبار».

و نجد فى الرّوايات الإسلامية اهتماما بهذه المسألة حتى أنّنا نقرأ

حديثا عن الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام يقول: «إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها»[۲۱۶].

(و هذا أيضا فرع صغير من الاستعلاء).

و من الطريف أنّ صاحب «تفسير الكشاف» يعلق بعد ذكر هذا الحديث فيقول: بعض الطامعين ينسبون «العلوّ» فى الآية محل البحث لفرعون بمقتضى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ [۲۱۷] و الفساد لقارون بمقتضى قوله: تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ [۲۱۸] و يدعون بأن من لم يكن كمثل فرعون و قارون فهو من أهل الجنّة و الدار الآخرة، و على هذا فهم يبعدون فرعون و قارون و أمثالهما من الجنّة فحسب، و يرون الباقين من أهل الجنّة، إلّا أنّهم لم يلاحظوا ذيل الآية وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ بدقة- كما لاحظها الإمام على عليه السّلام ۲۱۹].

و ما ينبغى إضافته على هذا الكلام هو أن هؤلاء الجماعة أخطئوا حتى فى معرفة قارون و فرعون .. لأنّ فرعون كان عاليا فى الأرض و كان من المفسدين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۰

إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [۲۲۰] و قارون أيضا كان مفسدا و كان عاليا بمقتضى قوله: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ [۲۲۱] و نقرأ فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه كان يسير فى الأسواق أيام خلافته الظاهرية، فيرشد التائهين إلى الطريق و يساعد الضعفاء، و كان يمرّ على الباعة و الكسبة و يتلوا الآية الكريمة تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً.

ثمّ يضيف سلام اللّه عليه:

«نزلت هذه الآية فى أهل العدل و التواضع من الولاة و أهل القدرة من الناس»[۲۲۲].

و معنى هذا الكلام، أنّه كما لم يجعل الخلافة و الحكومة وسيلة للاستعلاء، فلا ينبغى أن تجعلوا أموالكم و قدرتكم وسيلة للتسلط على الآخرين، فأنّ العاقبة لأولئك الذين لا يريدون علوا فى الأرض و لا فسادا و كما يقول القرآن فى نهاية الآية وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

و «العاقبة» بمفهومها الواسع هی النتیجة الصالحة، و هی الانتصار فی هذه الدنیا، و الجنّة و نعیمها فی الدار الأخری ... و قد رأینا أنّ قارون و أتباعه إلی أین وصلوا و أیّة عاقبة تحمّلوا! مع أنّهم کانوا مقتدرین و لکن حیث کانوا غیر متقین فقد ابتلوا بأسوأ العاقبة و المصیر!.

و نختم کلامنا فی شأن هذه الآیة بحدیث للإمام الصادق علیه السّلام و هو

أنّ الإمام الصادق حین تلا هذه الآیة أجهش بالبکاء و قال: «ذهبت و اللّه الأمانی عند هذه الآیة»[۲۲۳].

و بعد ذکر هذه الحقیقة الواقعیة، و هی أن الدار الآخرة لیست لمن یحب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۱

السلطة و المستکبرین، بل هی للمتقین المتواضعین و طلبة الحق، تأتی الآیة الثّانیة لتبیّن قانونا کلیا و هو مزیج بین العدالة و التفضل، و لتذکر ثواب الإحسان فتقول: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْها.

و هذه هی مرحلة التفضل، أی أنّ اللّه سبحانه لا یحاسب الناس کما یحاسب الإنسان نظیره بعین ضیّقة، فإذا أراد الإنسان أن یعطی أجر صاحبه فإنّه یسعی أن یعطیه بمقدار عمله، إلّا أنّ اللّه قد یضاعف الحسنة بعشر أمثالها و قد یضاعفها بمئات الأمثال و ربّما بالآلاف، إلّا أن أقلّ ما یتفضل اللّه به علی العبد أن یجازیه عشرة أضعاف حسناته، حیث یقول القرآن فی الآیة (۱۶۰) من سورة الأنعام:

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.

أمّا الحدّ الأکثر من ثواب اللّه و جزائه فلا یعلمه إلّا اللّه، و قد جاءت الإشارة إلی جانب منه- و هو الإنفاق فی سبیل اللّه- فی الآیة ۲۶۱ من سورة البقرة ... إذ یقول سبحانه فی هذا الصدد ... مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ کَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ

و بالطبع فإنّ مضاعفة الأجر و الثواب لیس أمرا اعتباطیا، بل له ارتباط وثیق بنقاء العمل و میزان الإخلاص و حسن النیّة و صفاء القلب، فهذه هی مرحلة التفضل الإلهی فی شأن المحسنین.

ثمّ یعقّب القرآن لیذکر جزاء المسیئین فیقول: وَ مَنْ جاءَ بِالسَّیِّئَةِ فَلا یُجْزَی الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئاتِ إِلَّا ما کانُوا یَعْمَلُونَ

و هذه هی مرحلة العدل الإلهی، لأنّ المسیء لا یجازی إلّا بقدر إساءته، و لا تضاف علی إساءته أیة عقوبة!.

الطریف هنا عند ذکر جزاء السیئة أن القرآن یعبر عن الجزاء بالعمل نفسه إِلَّا ما کانُوا یَعْمَلُونَ أی إن أعمالهم التی هی طبقا لقانون بقاء الموجودات فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۲

عالم الوجود، تبقی و لا تتغیر، و تبرز فی یوم القیامة متجسمة دون خفاء، فهو (یوم البروز) فی شکل یناسب العمل، و هذا الجزاء یرافق المسیئین و یعذبهم!.

ملاحظات

۱- لم تکرر ذکر «السیئة» فی هذه الآیة مرتین؟

من المحتمل أن یکون ذکر السیئة مرتین فی الآیة، لأن اللّه یرید أن یؤکّد علی هذه المسألة، و هی أن السیئة لا جزاء لها إلّا نفسها.

۲- هل تشمل الحسنة الإیمان و التوحید؟ فإذا کان کذلک فما معنی هذه الجملة مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْها؟! و هل هناک خیر من الإیمان و التوحید؟! و فی الإجابة علی هذا السؤال نقول- بدون شک و تردّد- إن للحسنة معنی واسعا فهی تشمل المناهج الاعتقادیة و الأقوال و الأعمال الخارجیة، و ما هو أفضل من الاعتقاد بتوحید اللّه فهو رضا اللّه سبحانه الذی یکون ثوابا للمحسنین، فنحن نقرأ فی الآیة (۷۲) من سورة التوبة قوله تعالی: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَکْبَرُ! ۳- لم عبّر القرآن عن الحسنة بصیغة الإفراد، و عن السیئات بصیغة

الجمع؟! يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذا التعبير عائد إلى كثرة المسيئين و قلة المحسنين [۲۲۴].
كما و يحتمل أيضا أن الحسنات تتلخص فى حقيقة التوحيد، و أنّ جميع الحسنات تعود إلى «جذر» واحد و هو توحيد اللّه، فى حين أن السيئات ترجع إلى الشرك الذى هو مصداق التشتت و التعدد و الكثرة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۳

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۸۵ الى ۸۸]

اشارة

إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدی وَ مَنْ هُوَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۸۵) وَ ما کُنْتَ تَرْجُوا أَنْ یُلْقی إِلَیْکَ الْکِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ فَلا تَکُونَنَّ ظَهِیراً لِلْکافِرِینَ (۸۶) وَ لا یَصُدُّنَّکَ عَنْ آیاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَیْکَ وَ ادْعُ إِلی رَبِّکَ وَ لا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۸۷) وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ کُلُّ شَیْءٍ هالِکٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۸)

سبب النّزول

نقل جماعة من المفسّرين- سببا لنزول الآية الأولى من الآيات أعلاه عن ابن عباس مضمونه ما يلى:
حين كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله متوجها من مكّة إلى المدينة فى سفر الهجرة و بلغ «الجحفة» و هى لا تبعد عن مكّة كثيرا ... تذكر و طنه «مكّة» هذه البقعة التى هى حرم اللّه و أمنه و فيها البيت العتيق «الكعبة» التى تعلق بها قلب النّبى و روحه تعلقا لا يقبل الانفكاك .. ظهرت آثار الشوق على وجه النّبى الكريم مزيجة بالحزن
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۴
و التأثر، فنزل أمين الوحى جبريل على رسول اللّه و قال: أ تشتاق الى بلدك و هو مولدك؟! فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نعم ... فقال جبرئيل عليه السّلام: فإن اللّه يقول: إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ[۲۲۵] يعنى مكّة ...
و نعلم أنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيرا، و دخل النّبى صلّى اللّه عليه و آله بجيشه القوى و قدرته و عظمته الكبيرة مكّة ظافرا، و استسلمت مكّة و الحرم الآمن دون حرب للنّبى صلّى اللّه عليه و آله.
فعلى هذا تعدّ الآية آنفة الذكر من الإخبار الإعجازى السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن عن رجوع النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى مكّة بصورة قطعيّة و دون أى قيد و شرط، و لم تطل المدّة حتى تحقق هذا الوعد الإلهى الكبير!.

التّفسير

الوعد بعودة النّبى إلى حرم اللّه الآمن:

هذه الآيات التى هى آخر الآيات فى سورة القصص تخاطب نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و تبشره بالنصر، بعد أن جاءت الآيات الأولى لتبيّن قصّة موسى و فرعون و ما جرى له مع قومه، كما أنّ هذه الآيات فيها ارشادات و تعليمات مؤكّدة لرسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.
قلنا: إنّ الآية الأولى من هذه الآيات طبقا لما هو مشهور بين المفسّرين نزلت فى «الجحفة» فى مسير النّبى صلّى اللّه عليه و آله، إلى

المدينة إذ كان متوجها إلى يثرب لتتحول بوجوده إلى «مدينة الرّسول» ... و أن يبذر النّواة الأصيلة ... «لحكومة إسلامية» فيها و يجعلها مقرّا لحكومة إلهية واسعة، و يحقق فيها أهدافها.

لكن هذا الحنين و الشوق و التعلق بمكّة يؤلمه كثيرا، و ليس من اليسير عليه الابتعاد عن حرم اللّه الآمن.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣١۵

و هنا يشرق فی قلبه الطاهر نور الوحی، و يبشّره بالعودة إلى وطنه الذی ألفه فيقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ.

فلا تكترث و لا تذهب نفسك حسرات، فاللّه الذی أعاد موسى إلى أمّه هو الذی أرجعه أيضا إلى وطنه بعد غياب عشر سنوات فی مدين، ليشعل مصباح التوحيد و يقيم حكومة المستضعفين و يقضی على الفراعنة و دولتهم و قوّتهم.

هو اللّه سبحانه الذی يردك إلى مكّة بكلّ قوّة و قدرة، و يجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقا فی هذه الأرض المباركة.

و هو اللّه الذی أنزل عليك القرآن، و فرض عليك إبلاغه، و أوجب عليك أحكامه.

أجل، إنّ ربّ القرآن و ربّ السماء و الأرض العظيم، يسير عليه أن يردّك إلى معادك و وطنك «مكّة».

ثمّ يضيف القرآن فی خطابه للنّبی صلّى اللّه عليه و آله، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علّمه اللّه قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

إنّ طريق الهداية واضح، و ضلالهم بيّن، و هم يتعبون أنفسهم عبثا، فاللّه يعرف ذلك جيدا، و القلوب التی تعشق الحق تعرف هذه الحقيقة أيضا.

و بالطبع فإنّ التّفسير الواضح للآية كما بيّناه آنفا، إلّا أن جمعا من المفسّرين لديهم احتمالات أخرى فی كلمة «معاد» .. من قبيل «العودة للحياة بعد الموت» «المحشر» او «الموت». كما فسّروه «بالجنّة» أو مقام «الشفاعة الكبرى» ... أو «بيت المقدس» الذی عرج النّبی منه أوّل مرة، و غير هذه المعانی.

إلّا أنّه مع الالتفات إلى محتوى مجموع هذه السورة- القصص- و ما جاء فی قصّة موسى و فرعون و بنی إسرائيل، و ما سقناه من شأن نزول الآية، فيبعد تفسير المعاد بغير العودة إلى مكّة كما يبدو!.

أضف إلى ذلك أن المعاد فی يوم القيامة لا يختصّ بالنّبی وحده، و الحال أن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣١۶

الآية تتحدث عن النّبی- هنا- و تخاطبه وحده. و وجود هذه الآية بعد الآية التی تتحدث عن الثواب و الجزاء فی يوم القيامة، لا دلالة فيها على هذا المعنى، بل على العكس من ذلك، لأنّ الآية السابقة تتحدث عن الانتصار فی الدار الآخرة، و من المناسب أن يكون الحديث فی هذه الآية عن الانتصار فی هذه الدنيا.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن نعمة أخرى من نعم اللّه العظيمة على النّبی صلّى اللّه عليه و آله فتقول: وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ٢٢۶].

كان كثير من الناس قد سمعوا بالبشارة بظهور الدين الجديد، و لعل طائفة من أهل الكتاب و غيرهم كانوا ينتظرون أن ينزل عليهم الوحی و يحمّلهم اللّه هذه المسؤولية، و لكنّك- أيّها النّبی- لم تكن تظن أنّه سينزل عليك الوحی وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ .. إلّا أن اللّه رآك أجدر بالأمر، و أن هذا الدين الجديد ينبغی أن ينتشر و يتسع على يدك فی هذا العالم الكبير!.

و بعض المفسّرين يرون هذه الآية منسجمة مع آيات سابقة كانت تتحدث عن موسى عليه السّلام، و تخاطب النّبی- أيضا- كقوله تعالى: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ .. وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ... وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

فعلى هذا يكون المقصود بالكتاب هنا هو قصص الأنبياء السابقين .. إلّا أن هذا التفسير لا منافاة فيه مع التفسير المتقدم! بل يعدّ قسما

منه فى الواقع!.

ثمّ يضيف القرآن فى خطابه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله أن طالما كنت فى هذه النعمة فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ

و من المسلّم به أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن ظهيرا للكافرين أبدا، إلّا أن الآية جاءت فى مقام التأكيد على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بيان المسؤولية للآخرين، و أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۷

وظيفتهم أن يتأسوا بالنّبى و لا يكون أىّ منهم ظهيرا للكافرين.

و هذا الموضوع ينسجم تماما مع الموضوع الذى قرأناه فى شأن موسى عليه السّلام، إذ قال: رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ .. و بيّنا معناه فى شأن إعانة الظالمين فى الآية (۱۷) من سورة القصص، أمّا الآيتان اللتان تختتم بهما سورة القصص، فهما تأكيد على مسألة التوحيد بتعابير و استدلالات متعددة- و مختلفة.

التوحيد الذى هو أساس جميع المسائل الدينية ... التوحيد الذى هو الأصل و هو الفرع و هو الكلّ و هو الجزء!.

و فى هاتين الآيتين أربعة أوامر من اللّه لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله، و أربعة صفات للّه تعالى، و بها يكتمل ما ورد فى هذه السورة من أبحاث.

يقول أوّلا: وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ و بالرغم من أن النهى موجه إلى الكفار، إلّا أن مفهوم الآية عدم تسليم النّبى صلّى اللّه عليه و آله أمام صدّ الكافرين، و إحباطهم و مؤامراتهم، و هذا تماما يشبه ما لو قلنا مثلا: لا ينبغى أن يوسوس لك فلان، فمعناه: لا تستسلم لوسوسته!.

و بهذا الأسلوب يأمر اللّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يقف راسخ القدم عند نزول الآيات و لا يتردد فى الأمر، و أن يزيل الموانع من قارعة الطريق مهما بلغت، و ليسر نحو هدفه مطمئنا، فإنّ اللّه حاميه و معه أبدا.

و يقول ابن عباس: و إن كان المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله، إلّا أنّ المراد عموم الناس، و هو من قبيل المثل العربى المعروف «إيّاك أعنى و اسمعى يا جارة!».

و بعد هذا الخطاب الذى فيه جنبة نهى، يأتى الخطاب الثّانى و فيه سمة إثبات فيقول: وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ .. فاللّه الذى خلقك و هو الذى ربّاك و رعاك ...

و الأمر الثالث، بعد الأمر بتوحيد اللّه، هو نفى جميع أنواع الشرك و عبادة الأصنام وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... فإن طريق التوحيد واضحة بينة، و من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۸

ساروا عليها فهم على صراط مستقيم!.

و الأمر الرّابع تأكيد آخر على نفى جميع أنواع الشرك، إذ يقول تعالى:

وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.

و هذه الأوامر المتتابعة كل واحد منها يؤكّد الآخر، يوضح أهمية التوحيد فى المنهج الإسلامى، إذ بدونه يكون كل عمل زيفا و وهما.

و بعد هذه الأوامر الأربعة تأتى أوصاف أربعة للّه سبحانه، و هى جميعا تأكيد على التوحيد أيضا.

فالأوّل قوله: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

و الثّانى قوله: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

و الوصف الثالث: لَهُ الْحُكْمُ و الحاكمية فى عالمى التشريع و التكوين.

و الرابع: أن معادنا إليه وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و الأوصاف الثلاثة الأخيرة يمكن أن تكون دليلا على إثبات التوحيد و ترك جميع أنواع عبادة الأصنام، الذى أشير إليه فى الوصف الأول! لأنّه طالما كنّا هالكين جميعا و هو الباقى.

و طالما كان التدبير لنظام الوجود بيده و الحكم له! و طالما كان معادنا إليه و إليه نرجع! ... فما عسى أن يكون دور المعبودات غيره، و أى أحد يستحق العبادة سواه!؟

و المفسّرون الكبار لديهم آراء مختلفة فى تفسير جملة كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ تدور حول محور كلمتى «وجه» و «هالك».

لأنّ الوجه يطلق- من حيث اللغة- على المحيّا أو ما يواجهه الإنسان من الشخص المقابل، و لكن الوجه حين يطلق على الخالق فإنّه يعنى عندئذ ذاته المقدسة!.

و كلمة «هالك» مشتقّة من مادة «هلك» و معناه الموت و العدم، فعلى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۹

يكون معنى الجملة المتقدمة فناء جميع الموجودات عدا ذات الخالق المقدسة ...

و هذا الفناء بالنسبة للموجودات الممكنة غير منحصر بفناء هذا العالم و انتهائه، فالموجودات الآن فانية قبال الذات المقدسة، و هى تحتاج إلى فيضه لحظة بعد لحظة، و ليس لديها فى ذاتها أى شىء، و كلّ ما لديها فمن اللّه! ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ موجودات هذا العالم جميعها متغير و فى معرض التبدل، و حتى طبقا لفلسفة «الحركة الجوهرية» فذاتها هى التغيير بعينه، و نحن نعرف أن الحركة و التغيير معناهما الفناء و العودة الدائمية، فكل لحظة تموت موجودات العالم و تحيا!.

فعلى هذا فإنّ الموجودات هالكة و فانية الآن- أيضا- غير أن الذات التى لا طريق الفناء إليها و لا تهلك، هى الذات المقدسة! كما نعلم أنّ الفناء أو العدم يتجلى بصورة واضحة فى نهاية هذا العالم، و كما يقول القرآن: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ [۲۲۷] و لا يخصّ الفناء ما على الأرض، بل يشمل حتى أهل السماء وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ [۲۲۸] فهذا التّفسير منسجم مع ظاهر الآية و الآيات الأخرى فى القرآن، غير أن بعض المفسّرين ذكروا تفاسير أخرى غير ما تقدم بيانه، و منها:

۱- أنّ المقصود من كلمة (وجه) هو العمل الصالح، و مفهوم هذه الآية يكون حينئذ أن جميع الأعمال تمضى مع الرياح سوى ما يكون خالصا للّه.

و قال بعضهم: إنّ المراد بالوجه هو انتساب الأشياء إلى اللّه، فيكون مفهوم الآية أنّ كل شىء معدوم ذاتا إلّا من ناحية انتمائه إلى اللّه!

و قال بعضهم: المراد بالوجه هو الدين، فيكون مفهوم الآية أن المذاهب كلها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۰

باطلة سوى دين اللّه.

و جملة لَهُ الْحُكْمُ هى كما فسّروها بأنّها الحاكمية التشريعية. و هو تأكيد على التّفسير السابق!.

كما أن جملة وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فسّروها بالرجوع إلى اللّه فى أخذ الشريعة عنه! و هذا تأكيد آخر على هذا المعنى [۲۲۹].

و هذه التفاسير مع ما بيّناه آنفا لا نجد بينها منافاة فى الحقيقة! ... لأنّنا حين عرفنا أن الشىء الوحيد الذى يبقى فى هذا العالم هو الذات المقدسة للّه فحسب! فيتّضح أن ما يرتبط بذات اللّه بنحو من الأنحاء فإنه يستحق البقاء و الابدية.

فدين اللّه الصادر منه أبدىّ، و العمل الصالح الذى له أبدىّ ... و القادة الإلهيّون الذين يرتبطون يتّسمون بالخلود.

و الخلاصة، كل ما هو مرتبط باللّه- و لو بنحو من الأنحاء- فهو غير فان «فلاحظوا بدقّة».

مسألتان

١- كيف تفنى جميع الأشياء؟!

من جملة الأسئلة التى أثيرت فى ذيل الآية، هو أنّه إذا كان لا بدّ من فناء جميع الأشياء فى نهاية العالم، فلا محيص من أن تتلاشى الأتربة التى تكونت من أبدان الناس، فى حين أن القرآن يصرّح مرارا بأن اللّه سيجمع هذه الاتربة و ينشر الناس منها، و أن الناس سينشرون فى يوم القيامة من قبورهم!.

و طبقا لظاهر الآيات- أيضا- فإن الجنّة معدّة، و النّار معدّة و مهيأة من قبل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٢١

كما جاء التعبير عن الجنّة أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ أو ما شابه ذلك، و هى إشارة لخلق الجنّة و أنّها مهيأة للمتقين .. و قد ورد هذا التعبير فى موضعين من آيات القرآن «الآية ١٢٣ من سورة آل عمران و الآية ٢١ من سورة الحديد».

كما ورد التعبير عن النّار ب أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ فى موضعين من القرآن أيضا «البقرة الآية ٢۴ و آل عمران الآية ١٣١».

فهل ستفنى الجنّة و النار فى انتهاء العالم؟! ثمّ بعد هذا كلّه فنحن نعتقد بالحياة البرزخية للإنسان، و نستفيد ذلك من آيات القرآن فى شأن الأرواح، فهل ستفنى تلك أيضا؟! و الجواب على جميع الأسئلة يتّضح بما يلى:

إنّ كثيرا ما يتفق أن يكون المراد من الهلاك و العدم هو تخلخل النظام و دماره، لا تلاشيه و فنائه فلو أن عمارة مثلا تهدمت بسبب الزلزلة فهنا يصدق عليها الفناء و الهلاك، فى حين أنّ مواد العمارة لا تزال موجودة، غير أن نظامها قد أختل و انعدم فحسب!.

و نعرف أن فى نهاية هذا العالم ستنطفئ الشمس، و يظلم القمر، و تندك الجبال، و تموت الموجودات الحيّة، فهذا معنى هلاكها! هذا من جهة!.

و من جهة أخرى فإنّ الفناء متعلق بهذه الدنيا، و ما فى هذه الدنيا ... أمّا الجنّة و النّار فسواء كانتا داخل هذا العالم أو خارجه، فليستا جزءا من هذه الدنيا ليشملهما حكم الفناء و العدم لنظامهما، فهما متعلقتان بالآخرة لا بالدنيا! و من جهة ثالثة، فإنّا ذكرنا آنفا أنّ الهلاك- أو الفناء- بالنسبة للموجودات الممكنة غير منحصر بانتهاء هذا العالم .. فهى هالكة و فانية الآن أيضا، لأنّها لا تملك شيئا فى داخل ذاتها، و كل ما عندها فمن غيرها، فهى متغيرة و دائمة الحركة، و معنى ذلك الفناء التدريجى و المركب من الوجود و العدم! و مع بيان ما تقدم يتّضح الجواب على الأسئلة السابقة تماما!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٢٢

٢- التّفسير المنحرف لجملة وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ!

يستدل جماعة من الوهّابيين أحيانا على أن مسألة «التوسل و الشفاعة» لا تنسجم مع حقيقة التوحيد، بالآية الآنفة و آيات أخرى مشابهة لها.

إذ يقول أولئك: إنّ القرآن نهى عن عبادة غير اللّه بصريح العبارة، كما نهى أن ندعو أسماء سوى اللّه، إذ قال: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً.[٢٣٠] و الحال أنّ المقصود من هذه الآيات ليس هو أن لا ندعو أشخاصا آخرين، بل المقصود كما هو مستفاد من الآية مَعَ اللَّهِ أى أن من يعتقد أن ما كان للّه يمكن طلبه من غير اللّه و يراه مستقلا فى إنجازه، فإنه مشرك.

و لكننا إذا اعتقدنا بأن جميع القدرات هى خاصة باللّه، و لا نعتقد بأن أحدا معه يكون مبدأ الأثر ... و نعتقد بأن للّه أولياء يشفعون بإذنه و أمره، فنتوسل بهم إلى اللّه ليشفعوا لنا عند اللّه، فهذا هو التوحيد بعينه، و هذا هو ما أشارت إليه آيات القرآن مرارا.

ترى هل كان قول إخوة يوسف لأبيهم: يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا شركا؟! (سورة يوسف الآية ٩٧).

و هل- حین یقول القرآن: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً،[۲۳۱] یکون قول القرآن هذا دعوة نحو الشرک؟!! إنّ حقیقة الشفاعة و التوسل- أیضا- لیس شیئا سوی ما أشرنا إلیه آنفا[۲۳۲]! ربّنا ألهم قلوبنا نور التوحید و المعرفة، لئلا نری سواک، و لا نطلب سواک، و لا نرجو سواک!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۳

اللّهم وثّق ارتباطنا بذاتک المقدسة یوما بعد یوم أرواحنا تحظی بقبس من بقاء و خلود ذاتک الخالدة! اللّهم أبعد حبّ الدنیا و الاستعلاء و الفساد فی الأرض عن أرواحنا، و اجعلنا فی صفوف المتقین، وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِینَ

آمین ربّ العالمین انتهاء سورة القصص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۵

سورة العنکبوت

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها تسع و ستون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۷

«سورة العنکبوت»

محتوی سورة العنکبوت!

المشهور بین جمع من المحققین أنّ جمیع آیات هذه السورة نازلة بمکّة، فیکون محتواها منسجما مع محتوی السور المکیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۳۲۷

ورد فیها الکلام علی المبدأ و المعاد، و قیام الأنبیاء السابقین العظام، و وقوفهم بوجه المشرکین و عبدة الأصنام و الجبابرة و الظالمین، و انتصارهم و انهزام هذه الجماعة الظالمة! و کذلک تتحدث هذه السورة عن الدعوة الی الحق و الامتحان الالهی للبشر، و ذرائع الکفار فی مجالات مختلفة.

غیر أنّ جماعة من المفسّرین یرون بأن إحدی عشرة آیة منها نازلة بالمدینة، و هی الآیات الأولی من السورة، و لعلّ ذلک- کما سنری- ناتج عن سبب نزول بعض الآیات التی تتحدث عن الجهاد، و الإشارة إلی موضوع المنافقین، و هذا ما یناسب السور المدنیة!.

و لکن سنری بعدئذ أنّ هذه الأمور لا تنافی کون السورة مکیة.

و علی کل حال، فتسمیة السورة هذه ب «العنکبوت» مأخوذة من الآیة (۴۱) من هذه السورة، التی تشبّه عبدة الأوثان من دون اللّه بالعنکبوت، التی تبنی بیتها من نسیجها، و هو أوهن البیوت!!.

و بصورة إجمالیة، یمکن أن یقال: إن أبحاث هذه السورة تتلخص فی أربعة أقسام:

۱- فالقسم الأوّل من السورة یتحدث عن مسألة «الامتحان»، و موضوع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۸

«المنافقین»، و هذان الأمران متلازمان لا یقبلان الانفکاک!! لأنّ معرفة المنافقین غیر ممکنة إلّا فی طوفان الامتحانات.

۲- و القسم الثّانی من هذه السورة- فی الحقیقة- هو لتسلیة قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و المؤمنین القلّة الأوائل، عن طریق بیان

جوانب من حياة الأنبياء العظام السابقين، أمثال نوح و إبراهيم و لوط و شعيب عليهم السّلام و عواقبهم!. إذ واجهوا أعداء ألدّاء أمثال نمرود و طواغيت المال البخلاء.

و قد بيّن هذا القسم من السورة كيفية المواجهة، و عدّتها، و عاقبتها للمؤمنين لتطمئن قلوبهم، و لتكون هذه الآيات إنذارا للمشركين و عبدة الأوثان، الذين لهم قلوب كالحجارة أو أشدّ قسوة، و الظالمين الذين عاصروا النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

۳- و القسم الثّالث من هذه السورة، و هو ما ورد فى نهاية السورة بوجه خاص، يتحدث عن التوحيد و دلائل اللّه فى عالم خلقه، و المواجهة مع المشركين، و يدعوا الفطرة و الوجدان إلى الاحتكام و القضاء الحق!.

۴- أمّا القسم الرّابع من هذه السورة، ففيه مباحث متنوعة عن عجز الأصنام المصنوعة التى تعبد من دون اللّه، و عبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت، و بيان عظمة القرآن، و دلائل حقانية نبىّ الإسلام، و لجاجة المخالفين، كما تتعرض لسلسلة من المسائل التربوية أمثال: الصلاة، و العمل الصالح، و الإحسان إلى الوالدين، و أسلوب مناقشة المخالفين، و ما إلى ذلك.

فضيلة هذه السورة!

ورد فى تفسير مجمع البيان عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله فى فضيلة هذه السورة ما يلى: «من قرأ سورة العنكبوت كان له عشر حسنات بعدد كل المؤمنين و المنافقين».

و لتلاوة سورتى العنكبوت و الروم فى شهر رمضان فى الليلة الثّالثة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۹

و العشرين منه فضيلة قصوى، حتى أنّنا نقرأ فى هذا الصدد

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول: «من قرأ سورة العنكبوت و الروم فى شهر رمضان ليلة ثلاث و عشرين فهو و اللّه من أهل الجنّة، لا استثنى فيه أبدا ... و لا أخاف أن يكتب اللّه على فى يمينى إثما، و إن لهاتين السورتين من اللّه مكانا».[۲۳۳]

و لا شك أن محتوى هاتين السورتين الغزير، و الدروس العملية المهمّة منها فى التوحيد، و ما إلى ذلك، كلّه كاف لأن يسوق أىّ إنسان ذى لب و فكر و عمل إلى الجنّة و الخلود فيها.

بل لو استلهمنا من بداية سورة العنكبوت و آياتها الأولى العظة فلعلنا نكون مشمولين فى قسم الإمام الصادق عليه السّلام ... تلك الآية التى تعرض الامتحان لعامّة الناس دون استثناء ليفتضح المبطلون و الكاذبون ... فكيف يمكن أن يصدّق الإنسان بهذا الامتحان العظيم و هو لم يهيء نفسه له!؟. و لم يكن من أهل التقوى و الورع!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۰

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الم (۱) أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ (۲) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (۳)

سبب النّزول

طبقا لما نقل بعض المفسّرين، أنّ الآيات الإحدى عشرة الأولى من بداية سورة العنكبوت نزلت فى المدينة فى شأن المسلمين الذين كانوا فى مكّة و غير راغبين بالهجرة إلى المدينة .. و كانوا قد تلقوا رسائل من إخوة لهم فى المدينة جاء فيها: «إن اللّه لا يقبل إقراركم بالإيمان حتى تهاجروا إلى المدينة» فصمموا على الهجرة و خرجوا من مكّة، فتبعهم جماعة من المشركين و التحموا بالقتال فقتل منهم جماعة و جرح آخرون «و ربّما سلّم بعضهم نفسه و رجعوا إلى مكّة».

و قال بعض: إنّ الآية الثّانية من هذه السورة فى شأن «عمار بن ياسر» و جماعة من المسلمين الأوائل، الذين آمنوا برسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و لاقوا صنوف التعذيب من الأعداء.

كما قال بعضهم: إنّ الآية الثامنة نزلت فى إسلام «سعد بن أبى وقاص»! غير أنّ التدقيق فى الآيات يكشف عن أنّه لا دليل على ارتباط الآيات مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٣١

هجرة أولئك، سوى أنّ الآيات تبيّن الضغوط على المؤمنين فى ذلك الوقت من قبل أعدائهم و أحيانا من الآباء المشركين و الأمهات المشركات ضدّ أبنائهم المؤمنين.

فهذه الآيات تشجّع المسلمين على الثبات و الرجولة و الاستقامة أمام أمواج الضغوط من قبل الأعداء .. و إذا ورد الحديث فيها على الجهاد فالمراد منه- أيضا- الجهاد فى هذا المجال، لا الجهاد المسلّح الذى تقوم به الجماعة، فذلك شرّع فى المدينة.

و إذا ورد الحديث عن المنافقين فى هذه الآيات، فلعلّه إشارة إلى المسلمين الضعاف فى إيمانهم، الذى كان يتفق وجودهم بين المسلمين فى مكّة أحيانا ...

فتارة هم مع المسلمين و تارة مع المشركين، و كانوا يميلون مع الكفة الراجحة منهما.

و على كل حال، فارتباط الآيات بعضها ببعض و انسجامها توجب أن تكون هذه السورة «جميعها» مكية، و ما ذكرناه من الرّوايات المتقدمة المتناقضة فى ما بينها، لا يمكن أن تقطع هذا الارتباط!

التّفسير

الامتحان الإلهى سنة خالدة:

نواجه فى بداية هذه السورة الحروف المقطعة [ألف- لام- ميم أيضا .. و قد بيّنا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة[٢٣۴].

و بعد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشرية، و هى مسألة الشدائد و الضغوط و الامتحان الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٣٢

فيقول أوّلا: أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ [٢٣۵] ثمّ يذكر القرآن هذه الحقيقة- بعد الآية المتقدمة مباشرة، و هى أن الامتحان سنة الهية دائمية، فالامتحان لا يختص بكم- أيّها المسلمين- بل هو سنة جارية فى جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

و هكذا ألقينا بهم أيضا فى أفران الامتحانية الشديدة الصعبة ... و وقعوا أيضا- تحت تأثير ضغوط الأعداء القساة و الجهلة المعاندين .. فساحة الامتحان كانت مفتوحة دائما، و اشترك فيها جماعة كثيرون.

و ينبغى أن يكون الأمر كذلك، لأنّه فى مقام الادعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنّه أشرف مجاهد و أفضل مؤمن و أكثر

الناس تضحیهٔ .. فلا بـدّ من معرفـهٔ قیمـهٔ هـذه الادعاءات بالامتحان، و ینبغی أن تعرف النیات و السرائر إلی أی مدی تنسجم مع هذه الادعاءات.؟! أجل فَلَیَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ الْکاذِبِینَ

من البـدیهی أنّ اللّه یعرف جمیع هـذه الأـمور جیـدا- قبل أن یخلق الإنسان- إلّا أنّ المراد من العلم هنا هو التحقق العینی للمسائل .. و وجودهـا الخـارجی، و بتعبیر آخر: ظهور الآثـار و الشواهـد العملیـهٔ .. و معنـاه أنّه ینبغی أن یری علم اللّه فی هـذه المجموعـهٔ عملیا فی الخـارج، و أن یکون لهـا تحقق عینی، و أن یکشف کـلّ عمّـا فی نفسه و داخله ... هـذا هو العلم حین یطلق علی مثل هـذه المسائل و ینسب إلی اللّه!.

و الـدلیل علی هـذه المسألـهٔ واضـح- أیضـا- لإـنّ النیّات و الصـفات الباطنیـهٔ إذا لم تحقق فی عمل الإنسان و تکون عینیّـهٔ، فلا مفهوم للثواب و الجزاء و العقاب!.

و بعبارهٔ أخری: فإنّ هذا العالم مثله کمثل «المدرسهٔ» أو «المزرعهٔ»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٣٣

(و التشبیهات هـذه واردهٔ فی متون الأـحادیث الإسـلامیهٔ) و المنهـج هو أن تتفتـح الاسـتعدادات و تربّی القابلیات و تکون فعلیـهٔ بعد ما کانت بالقوّهٔ.

و ینبغی أن تنمو البـذور فی هـذه المدرسـهٔ و أن تطلع البراعم من تحت الأرض فتحاط بالرعایـهٔ و العنایهٔ لتکون شـجیرات صـغیرهٔ، ثمّ تکون أشجارا ذوات أصول قویهٔ و أغصان و مثمرّهٔ علی تعاقب الزمن .. و هذه الأمور لا تکون إلّا بالامتحان و الاختبار.

و من هنـا نعرف أن الامتحانـات الإلهیـهٔ لیست لمعرفـهٔ الأفراد، بل هی من أجل تربیـهٔ الاسـتعدادات و رعایتها، لتتفتـح و تکون بصورهٔ أحسن.

فعلی هذا .. لو أردنا نحن أن نمتحن شـیئا، فهو لأجل کشف المجهول، لکنّ امتحان اللّه لیس لکشف المجهول، لأنّه أحاط بکل شیء علما ... بل هو لتربیهٔ الاستعدادات و إیصال مرتبهٔ «القوهٔ» إلی «الفعل»[٢٣٦].

بحث

الامتحانات فی وجوه مختلفهٔ:

و بالرّغم من أن بیان عمومیهٔ الامتحان لجمیع الأمم و الأقوام کان له أثر کبیر فعّال بالنسـبهٔ لمؤمنی مکّهٔ، الذین کانوا یمثلون الأقلیهٔ فی ذلـک العصـر، و کان التفاتهم إلی هـذه الحقیقـهٔ سـببا فی وقوفهم بوجه الأعـداء بصبر و اسـتقامهٔ ... إلّا أن ذلک لم یکن منحصـرا فی مؤمنی مکّـهٔ، بل إن کل جماعـهٔ و طائفـهٔ لها نصـیب من هذه السـنهٔ الإلهیهٔ فهم شـرکاء فیها، إلّا أن الامتحانات الإلهیهٔ لهم تأتی بصور مختلفهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٣۴

فالجماعهٔ الـذین یعیشون فی محیـط ملوث بالمفاسـد و الوسـاوس تحیط بهم من کل جانب، فإن امتحانهم الکبیر فی مثل هـذا الجو و الظروف، هو أن لا یتأثروا بلون المحیط و أن یحفظوا أصالتهم و نقاءهم.

و الجماعهٔ الذین یعیشون تحت ضـغط الحرمان و الفقر، یرون بأنّهم لو صـمموا علی ترک رأس مالهم الأصـیل «الإیمان» فإنّهم سرعان ما یتخلصوا من الفقر و الحرمان لکن ثمن ذلک هو فقدانهم للإیمان و التقوی و الکرامهٔ و الحریهٔ و الشرف، فهنا یکمن امتحانهم ..

و جماعـهٔ آخرون علی عکس أولئـک غرقی فی اللذائـذ و النعم، و الإمکانـات المادیـهٔ متوفرهٔ لـدیهم من جمیع الوجوه ... تری هل

يؤدون في مثل هذه الظروف الشكر على النعم .. أم سيبقون غرقى في اللذائذ و الغفلة و حب الذات و الأنانية ...
غرقى الشهوات و الاغتراب عن المجتمع و عن أنفسهم! و جماعة منهم كالمتغربين في عصرنا، يرون بعض الدول بعيدة عن اللّه و الفضيلة و الأخلاق حقّا، و لكنّها تتمتع بالتمدن المادي المذهل و الرفاه الاجتماعي. هنا تجذب هؤلاء المتغرّبين قوّة خفية إلى سلوك هذا النوع من الحياة أو سحق جميع القيم و الأصول و الأعراف التي يعتقدون بها، و يبيعون أنفسهم أذلاء عملاء لتلك الدول، ليوفروا لهم و لمجتمعهم مثل هذه الحياة ... و هذا نوع آخر من الامتحان.
المصائب، و الآلام و الهموم، و الحروب و النزاعات، و القحط و الغلاء، و ما تثيره الحكومات الأنانية لتجذبهم إليها و تستعبدهم به و أخيرا الأمواج النفسية القوية و الشهوات، كلّ منها وسيلة للامتحان في طريق عباد اللّه، و السائرين في الميادين التي تتميز فيها شخصية الأفراد و تقواهم و إيمانهم و طهارتهم و أمانتهم و حريتهم .. إلخ.
و لكن لا طريق للانتصار في هذه الامتحانات الصعبة لاجتيازها إلّا الجدّ
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۵
السعي المستمر، و الاعتماد على لطف اللّه سبحانه.
و من الطريف أنّنا نقرأ حديثا عن أحد المعصومين في أصول الكافي في تفسير الآية أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ يقول فيه:
«يفتنون كما يفتن الذهب، ثمّ قال يخلصون كما يخلص الذهب»[۲۳۷].
و على كل حال، فإن طالبي العافية الذين يظنون أنّ إظهار الإيمان كاف بهذا المقدار ليكونوا في صفوف المؤمنين و في أعلى عليين في الجنّة مع النّبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين، فهم في خطأ كبير.
و على حدّ تعبير
أمير المؤمنين عليه السّلام في نهج البلاغة: «و الذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة و لتغربلن غربلة، و لتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم و أعلاكم أسفلكم»[۲۳۸].
قال عليه السّلام: هذا الكلام و الناس جديد و عهد ببيعته، و ينتظرون ما سيفعل ببيت المال، أ يقسمه حسب الجاه و المقامات بحسب المعايير السابقة، فيبعّض في المال، فيعطي الكثير لبعضهم بحسب المقام، و القليل للبعض الآخر! .. أم سيسير معهم بالعدل المحمّدي؟
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۶

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۴) مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (۷)

التّفسير

لا مهرب من سلطان اللّه:

كـان الكلام فى الآيات السابقـة عن امتحان المؤمنين الشامل، و الآيـة الأولى من الآيات أعلاه تهديـد شديـد للكفار و المـذنبين، لئلا يتصوروا أنّهم حين يضـيّقون على المؤمنين و يضـغطون عليهم و لاـ يعـاقبهم اللّه فورا، فإنّ اللّه غافل عنهم أو عاجز عن عـذابهم، تقول الآيةُ هذه: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ

فلا ينبغى أن يغرّهم إمهال اللّه إيّاهم فهو امتحان لهم، كما أنّه فرصة للتوبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۷

و العودة إلى ساحة اللّه تعالى.

و ما ذهب إليه بعض المفسّـرين من أنّ هذه الآية هى إشارة إلى المؤمنين المذنبين، فلا يناسب هذا التّفسـير سياق الآيات بأى وجه، بل جميع القرائن تدل على أنّ المقصود بالآية هم المشركون و الكفار.

ثمّ يتحـدث القرآن مرّة أخرى عن سـير المؤمنين و مناهجهم، و يقدم النصح لهم، فيقول: مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فعليه أن يعمل ما فى وسعه على امتثال الأوامر الإلهية و الأحكام الشرعية، لأنّ الوقت المعيّن سيأتى حتما فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۲۳۹].

أجل، إنّ وعـد اللّه هـذا لا يقبل التخلّف، هو طريق لا بدّ من اجتيازه، ثمّ إنّ اللّه سـبحانه يسـمع أحاديثكم، و هو مطلع على أعمالكم و نيّاتكم ... لأنّه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

و فى معنى قوله تعالى: لِقاءَ اللَّهِ و ما المقصود منه؟ فسّره بعض المفسّرين بملاقاة الملائكة، كما فسّره البعض بملاقاة الحساب و الجزاء .. و بعض بملاقـاة الحكم و أمر الحق .. و آخرون بـأنّه كنايـة عن يوم القيامـة .. فى حين أنّه لاـ دليـل على أن تفسّـر هـذه الآيـة بهـذه المعانى المجازية.

و ينبغى القول أن «لقاء اللّه» فى يوم القيامة ليس لقاء حسيّا بل نوعا من الشـهود الباطنى، لأنّ الستائر الضخمة لعالم المادة تنكشف عن عين روح الإنسان، و تبـدو فى حالـة الشـهود للإنسان! و كما يقول العلامة الطباطبائى فى تفسـير الميزان: إنّ المقصود من لقاء اللّه، هو أنّ العبـاد يكونون فى موقف لاـ يكون بينهم و بين اللّه حجاب، لأنّ طبيعـة يوم القيامـة هى ظهور الحقائق كما يقول القرآن: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۸

سورة النور الآية ۲۵[۲۴۰].

أمّا الآيـة التى تليهـا، فهى- فى الحقيقـة- تعليـل لما سـبق بيانه فى الآيـة الآنفـة، إذ تقول: إن على المؤمنين الـذين يرغبون فى لقاء اللّه السـعى بما أوتوا من قـدرة و قابلية من أجل ذلك فإن نتيجة كل ذلك السـعى و الجهاد و تحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ

إن خطـة الامتحـان الالهى هى الجهاد، جهاد النفس و هواها، و جهاد الأعـداء الألـداء، لحفظ الإيمان و التقوى و الطهارة، و نفع ذلك يعود للإنسـان ... و إلّـا فـإنّ اللّه وجود غير متنـاه من جميع الوجوه، و غير مفتقر لأـى شـىء حتى يتم بواسـطة طاعـة النـاس أو عبادتهم جبرانه، و لا ينقصه شىء حتى يكمله الآخرون، فكل ما عندهم فمنه، و ليس لهم شىء من أنفسهم!

و يتّضح هنا من هذا البيان أن الجهاد لا يعنى بالضـرورة جهاد العدوّ المسلّح، بل يحمل معناه اللغوى الذى يشـمل كل أنواع السـعى و الجد لحفظ الإيمان و التقوى، و تحمل أنواع الشدائد، و المواجهات «الموضعية» للأعداء الألدّاء و الحاقدين.

و الخلاصة أنّ جميع منافع هذا الجهاد ترجع للشخص المجاهد نفسه، و هو الذى يفوز بخير الدنيا و الآخرة فى جهاده، و حتى إذا كان المجتمع يستفيد من بركات هذا الجهاد، فهو فى مرحلة أخرى بعده.

فعلى هذا، متى ما وفّق أى إنسان إلى الجهاد فنال نصيب منه، فعليه أن يشكر اللّه على هذه النعمة!

و آخر آية- محل البحث- توضيح لما تقدم ذكره فى الآية السابقة بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقة الجهاد

فیقول: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُکَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۹

إذن أوّل فائدهٔ کبیرهٔ لهذا الجهاد الکبیر و هو الإیمان و العمل الصالح هی تکفیر الذنوب و سترها علی الإنسان، کما أن الثواب سیکون من نصیبهم، کما یقول القرآن فی نهایهٔ هذه الآیهٔ أیضا: وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِی کانُوا یَعْمَلُونَ

کلمهٔ «نکفّر» مشتقهٔ من مادهٔ «تکفیر» و معناها فی الأصل التغطیهٔ و الستر، و المقصود بتغطیهٔ الذنوب هنا عفو اللّه و صفحه! و التعبیر ب أَحْسَنَ الَّذِی کانُوا یَعْمَلُونَ مع أن اللّه یجزی علی الأعمال الصالحهٔ- حسنهٔ کانت أم أحسن لعله إشارهٔ إلی أنّنا نجازی جمیع أعمالهم الصالحهٔ و الحسنهٔ بأحسن الجزاء، أی إذا کانت بعض أعمالهم أحسن و بعضها حسنا، فنحاسب الجمیع بالأحسن، و هذا هو معنی تفضل اللّه سبحانه.

و فی آیات أخری من القرآن، کالآیهٔ (۳۸) من سورهٔ النور وردت الإشارهٔ إلی ذلک أیضا لِیَجْزِیَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۰

الآیتان [سورهٔ العنکبوت (۲۹): الآیات ۸ الی ۹]

اشارهٔ

وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداکَ لِتُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸) وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِی الصَّالِحِینَ (۹)

سبب النّزول

وردت روایات مختلفهٔ فی شأن نزول الآیهٔ الآنفهٔ الذکر، و مضمون الجمیع واحد و هی أنّ بعض الرجال الذین کانوا فی مکّهٔ و أسلموا[۲۴۱]، حین سمعت أمهاتهم بذلک صممن علی أن لا یتناولن طعاما و لا یشربن ماء حتی یرجع أبناؤهن عن الإسلام، و بالرغم من أن أیهٔ واحدهٔ من هؤلاء الأمهات لم تف بقولها، و رجعت عن إضرابها عن الطعام، إلّا أنّ الآیهٔ المتقدمهٔ نزلت لتوضح للجمیع أسلوب المعاملهٔ بین الأبناء و الآباء و الأمهات، فی مجال الکفر و الإیمان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۱

التّفسیر

أفضل الوصایا بالنسبهٔ للوالدین:

إنّ واحدا من أهم الامتحانات الإلهیهٔ، هی مسألهٔ «التضاد» بین خط الإیمان و التقوی و بین علاقهٔ العاطفیهٔ و القرابهٔ .. و القرآن فی هذا المجال- یوضح وظیفهٔ المسلمین بجلاء! فی البدایهٔ یتحدث عن قانون کلّی یستمد من جذور العواطف الإنسانیهٔ وردّ الجمیل فیقول: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ

و بالرغم من أنّ هذا حکم تشریعی، و لکن هذه المسألهٔ قبل أن تکون «لازما» تشریعیا، لها وجود فی فطرهٔ الإنسان بشکل قانون

تکوینی. و خاصّیة أن التعبیر ب «الإنسان» هنا یلفت النظر .. فهذا القانون لا یختصّ بالمؤمنین، بل کلّ من کان جدیرا بأن یحمل اسم الإنسان ینبغی أن یکون عارفا بحق الأبوین ...

و أن لا ینسی تکریمهما و احترامهما و الإحسان إلیهما طیلة عمره .. و إن کان کل ذلک لا یفی بحقوقهما!.

بعد ذلک، و من أجل أن لا یتبادر إلی الذهن أنّ العلاقة العاطفیة بالوالدین یمکن أن تکون حاکمة علی العلاقة بین الإنسان و ربّه و إیمانه، یأتی استثناء صریح- لیوضّح هذا الموضوع فی الآیة، فیقول تعالی: وَ إِنْ جاهَداکَ لِتُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما.

و التعبیر ب جاهَداکَ مفهومه بذل قصاری جهدهما و إصرارهما و منتهی سعیهما للحیلولة بین الولد و بین الإیمان باللّه.

و التعبیر ب ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إشارة إلی عدم منطقیة الشرک، لأنّ الشرک لو کان صحیحا واقعا لکان علیه دلیل بیّن.

و بتعبیر آخر: متی ما لم یعلم الإنسان بشیء فلا ینبغی أن یتبعه فکیف إذا کان یعلم ببطلانه؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۲

فهذا الاتباع هو اتّباع للجهل، فلو أن الوالدین أمراک باتباع الجهل فلا تطعهما.

و أساسا فإنّ التقلید الأعمی خطأ حتی و لو کان فی مورد الإیمان، فکیف إذا کان هذا التقلید للکفر و الشرک!.

و هذه الوصیة وردت- أیضا- فی سورة لقمان مع اضافة وَ صاحِبْهُما فِی الدُّنْیا مَعْرُوفاً فمع عدم قبول دعوتهما للشرک، ینبغی علیک احترامهما و الإحسان إلیهما و الارفاق بهما.

و لا- ینبغی أن یتصور أحد أن وجوب مخالفة الأبوین فیما لو دعوا ولدیهما الی الشرک دلیل علی جواز الاساءة لهما، فهذا یؤکّد منتهی تأکید الإسلام علی احترام الأبوین.

و بهذا- یستفاد من هذا المنطلق أصل کلی: أی إن شیئا لا یمکن أن یکون حاکما علی علاقة الإنسان باللّه، لأنّها مقدمة علی کل شیء، حتی علی علاقته بأبویه التی هی أقرب العلائق إلیه.

و

الحدیث المعروف «لا طاعة لمخلوق فی معصیة الخالق»[۲۴۲].

.. الذی نقل عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام یعطینا معیارا واضحا لهذه المسائل!.

ثمّ یضیف تعالی فی نهایة الآیة إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و أجازیکم دون غمط و نقص فی الثواب أو العقاب.

و هذه الجملة- فی الحقیقة تهدید لأولئک الذین یسیرون فی طریق الشرک، و الذین یدعون الآخرین إلی هذا الطریق .. لأنّها تقول بصراحة: إنّ اللّه یری أعمالکم و یحفظهما ثمّ یعیدها إلیکم «فی معادکم».

و الآیة التی بعدها تؤکّد الحقیقة فی أولئک المؤمنین الذین یعملون الصالحات، و تکرر هذا المضمون أیضا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۳

وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِی الصَّالِحِینَ

و أساسا فإنّ عمل الإنسان یترک فی الإنسان أثره .. فالعمل الصالح یصبغ الإنسان بلونه و یدخله فی زمرة «الصالحین».

کما أنّ العمل السیء یدخله فی زمرة «الخاطئین و المسیئین».

و لکن ما الغایة من هذا التکرار؟! قال بعضهم: فی الآیات السابقة إشارة إلی أولئک الذین یسلکون طریق الحق، أمّا هذه الآیة فهی إشارة إلی أولئک الذین هم الأدلاء و الهداة الی طریق التوحید، لأنّ التعبیر ب «الصالحین» ورد فی کثیر من الأنبیاء، إذ کانوا یطلبون من اللّه أن یدخلهم فی الصالحین.

کما یحتمل أیضا، أنّ الکلام فی الآیات المتقدمة کان عن غفران الذنوب و تکفیر السیئات و ما یستحقه المؤمنون من الجزاء، إلّا أنّه هنا إشارة عن مقامهم الرفیع الذی هو فی نفسه ثواب آخر! فهم فی صف الصالحین، صف الأنبیاء و الصدیقین و الشهداء، و هم

جلساؤهم و رفقاؤهم فی الجنان.

ملاحظة

الإحسان إلى الوالدين:

ليست هـذه هى المرّة الأولى التى يشـير فيها القرآن إلى هـذه المسألة الإنسانية المهمّة، فقد أشار إليها فى سورة الإسـراء الآية (٢٣) من قبل، و سترد الإشارة إليها بعد فى سورة لقمان الآيتين (١۴) و (١۵) و سورة الأحقاف الآية (١۵) أيضا.

و فى الحقيقة إنّ الإسـلام يدعو إلى احترام الوالدين فى أسـمى مراتبه، حتى مع كونهما مشـركين، أو عند دعوتهما إلى الشـرك الذى هو أبغض الأشياء فى نظر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣۴۴

الإسلام، فإنّ الإسلام يوجب احترامهما فى الوقت الذى يمنع من إطاعتهما فى قبول الشرك و الاستجابة إلى ذلك!.

و هذا فى الواقع واحد من الامتحانات الإلهية العظيمة .. التى أشـير إليها فى بداية هذه السورة، لأنّهما قد يبلغان من العمر أحيانا يصعب معه تحمّلهما .. فهنا ينبغى على الأبناء أن يؤدوا امتحانهم فى مجال ردّ الإحسان و إطاعة أمر اللّه .. و أن يحافظوا على والديهما بأحسـن وجه!.

نقرأ

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّ رجلا جاء إليه فقال: «يا رسول اللّه، من أبرّ؟

قال: أمّك: قلت: ثمّ من؟ قال: أمّك. قلت: ثمّ من؟ قال: ثمّ أمّك. قلت: ثمّ من؟ قال: ثمّ أباك ثمّ الأقرب فالأقرب»[٢۴٣].

و

فى حديث آخر- و هو وارد فى كثير من الكتب- أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «الجنّة تحت أقدام الأمّهات»[٢۴۴].

فلا بدّ للوصول إلى الجنّة من الخضوع و التذلل فى مقابلها كتراب الأقدام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣۴۵

الآيات [سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٠ الى ١٣]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (١١) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٢) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

التّفسير

شركاء فى الانتصار أمّا فى الشدّة فلا!

حیث أنّ الآیات المتقدمة تحدثت عن المؤمنین الصالحین و المشرکین بشکل صریح، ففی الآیات الأولی من هذا المقطع یقع الکلام علی الفریق الثّالث- أی المنافقین- فیقول القرآن فیهم: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِیَ فِی اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ کَعَذابِ اللَّهِ فلا یصبرون علی الأذی و الشدائد،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۶

و یحسبون تعذیب المشرکین لهم و أذی الناس أنّه عذاب من اللّه وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ إِنَّا کُنَّا مَعَکُمْ فنحن معکم فی هذا الافتخار و الفتح.

تری هل یظنون أن اللّه خفیّ علیه ما فی أعماق قلوبهم فلا یعرف نیاتهم أَ وَ لَیْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِی صُدُورِ الْعالَمِینَ

و لعل التعبیر ب «آمنا» بصیغة الجمع، مع أنّ الجملة التی تلیه جاءت بصیغة المفرد، هو من جهة أنّ هؤلاء المنافقین یریدون أن یقحموا أنفسهم فی صف المؤمنین، فلذلک یقولون «آمنا» أی آمنا کسائر الناس الذین آمنوا.

و التعبیر ب أُوذِیَ فِی اللَّهِ معناه أوذی فی سبیل اللّه، أی إنّهم قد یتعرض لهم العدوّ- أحیانا- و هم فی سبیل اللّه و الإیمان فیؤذیهم.

الطریف هنا أنّ القرآن یعبر عن مجازاة اللّه ب «العذاب» و عن إیذاء الناس ب «الفتنة» و هذا التعبیر إشارة إلی أنّ إیذاء الناس لیس عذابا- فی حقیقة الأمر- بل هو امتحان و طریق إلی التکامل.

و بهذا فإنّ القرآن یعلمهم أن لا یقایسوا بین هذین النوعین «العذاب» و «الإیذاء» و لا ینبغی أن یتنصّلوا من «الإیمان» بحجّة أن المشرکین و المخالفین یؤذیهم فإن هذا الإیذاء جزء من منهج الامتحان الکلی فی هذه الدنیا.

و هنا ینقدح سؤال و هو: أی نصر جعله اللّه حلیف المسلمین و نصیبهم، لیدعی المنافقون أنّهم شرکاء فی هذا النصر مع المسلمین؟! و نقول فی الجواب: إنّ الجملة الآنفة الذکر جاءت بصیغة «الشرط» و نعلم أنّ الجملة الشرطیة لا دلیل فیها علی وجود الشرط، بل مفهومها هو أنّه لو اتفق أن کان النصر حلیفکم فی المستقبل، فإنّ هؤلاء المنافقین- ضعاف الإیمان- یرون أنفسهم شرکاء فی هذا النصر! إضافة إلی کل ذلک فإنّ المسلمین فی مکّة کانت لهم انتصارات علی المشرکین غیر عسکریة بل انتصارات فی التبلیغ و «الإعلام» و نفوذ فی الأفکار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۷

العامة و توغّل الإسلام فی طبقات المجتمع ...

ثمّ بعد هذا کله فإنّ التعبیر بالإیذاء مناسب لمحیط مکّة ... و إلّا فقلّ أن اتفق مثل هذا الإیذاء فی محیط المدینة.

و قد تنوّر و اتضح- ضمنا- هذا الموضوع الدقیق، و هو أن التعبیر بالمنافق لا یختص بمن لیس فی قلبه ایمان إطلاقا و یدعی الإیمان، بل حتی الافراد من ضعاف الإیمان الذین یتراجعون عن عقیداتهم نتیجة الضغوط و التأثیر بفلان و فلان فهؤلاء أیضا یعدون من المنافقین .. و الآیة محل البحث- کما یظهر- تتحدث عن هذا النوع من المنافقین، و تصرح بأنّ اللّه مطلع علی نیّاتهم و علیم بسرائرهم.

و فی الآیة التالیة- لمزید التأکید- یضیف القرآن قائلا: وَ لَیَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِینَ

فلو تصوروا أنّهم إذا أخفوا الحقائق فإنّهم سیکونون فی منأی عن علم اللّه فهم فی خطأ کبیر جدّا.

و نکرر هنا- مرّة اخری أنّ التعبیر بالمنافقین لیس دلیلا علی أنّ هذه الآیات نزلت فی المدینة، صحیح أنّ مسألة النفاق تقع عادة بعد انتصار جماعة و الاستیلاء علی الحکومة .. حیث یغیر المخالفون أقنعتهم و یعملون فی الخفاء حینئذ، إلّا أن للنفاق- کما قلنا- معنی واسع، و یشمل حتی الأفراد ضعاف الإیمان الذین یبدّلون عقیدتهم لأدنی مکروه یصیبهم.

و الآیة الأخری بعدها تشیر إلی منطق المشرکین الخاوی و الملتوی، الذی لا یزال موجودا فی طبقات المجتمع الواسعة فتقول: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِیلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطایاکُمْ ۲۴۵].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۸

و اليوم نرى كثيرا من الخبثاء يقولون للآخرين عند دعوتهم إلى أمر: إن كان فيه ذنب فعلى رقابنا!.

فی حين أنّنا نعلم أنّه لا يمكن لأحد أن يتحمل وزر أحد، و أساسا فإنّ هذا العمل ليس معقولا و ليس منطقيا .... فاللّه عادل سبحانه و لا يؤاخذ أحدا بجرم الآخر.

ثمّ بعد كل ذلك فإنّ الإنسان لا تسقط عنه المسؤولية فی العمل بمثل هذه الكلمات، و لا يمكن له التنصّل منها ... و خلافا لما يتوهمه بعض الحمقى فإنّ مثل هذه التعبيرات لا تنقص من عقابهم حتى بمقدار رأس الإبرة.

و لذلك فلا يعتدّ بمثل هذا الكلام فی أية محكمة كانت و لا يقبل من المذنب أن يقول: إن فلانا تحمّل عنّی الوزر و جعله فی رقبته!.

صحيح أن ذلك الإنسان حثه على الإجرام و دفعه إلى اقترافه، فهو شريكه، إلّا أن هذا الاشتراک فی الجريمة لا يخفّف عنه المسؤولية!

لذلک فإنّ القرآن يقول بصراحة فی الجملة التالية وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

هنا ينقدح السؤال التالی .. «إنّ الصدق و الكذب هما فی موارد الجمل الخبرية، فی حين أن هذه الجملة إنشائية «و لنحمل خطاياكم» و ليس فی الجملة الإنشائية صدق أو كذب، فلم عبّر القرآن عنهم بأنّهم «كاذبون»؟! و الجواب على هذا السؤال يتّضح من البيان الذی ذكرناه سابقا، و هو أن الجملة الأمرية هنا تتحول إلى جملة شرطية، و مفهومها أنّه إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم و آثامكم، و مثل هذه الجملة تقبل الصدق و الكذب ۲۴۶].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۹

و بعد ذلک، و من أجل أن لا- يتصور أن هؤلاء الدعاة للكفر و الشرک و عبادة الأصنام و الظلم، لا شیء عليهم من العقاب لهذا العمل، فإنّ القرآن يضيف فی الآية التالية قائلا: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ

و ثقل الذنب هذا ... هو ثقل ذنب الإغراء و الإغواء و حث الآخرين على الذنب، و هو ثقل السنّة التی عبّر عنها النّبی صلّى اللّه عليه و آله فقال: «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شیء!»[۲۴۷].

المهم أنّهم شركاء فی آثام الآخرين، و إن لم ينقص من وزر الآخرين و إثمهم مقدار من رأس الإبرة.

و تختتم الآية بالقول: وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ

و ينقدح هنا سؤال آخر و هو: ما المراد من هذا الافتراء الذی يسألون عنه؟! و لعل ذلک إشارة إلى الافتراءات التی نسبوها إلى اللّه، و كانوا يقولون: «إن اللّه أمرنا أن نعبد الأصنام!».

أو أنّه إشارة إلى كلامهم الذی كانوا يقولون: «و لنحمل خطاياكم».

لأنّهم كانوا يدّعون أن مثل تلک الأعمال لا- يترتب عليها إثم ... و إن هذا الكلام كان افتراء، و ينبغی أن يجيبوا على ما يسألون بصدده! أو أنّه يقال لهم على نحو الحقيقة و الواقع يوم القيامة: هلموا لتحملوا أثقال الآخرين، فيمتنعون من ذلک و يظهر كذبهم و افتراءهم .... أو أنّ ظاهر كلامهم كان يعنی أن كلّ إنسان يمكن أن يتحمل وزر الأخر و يكون مسئولا عنه، فی حين أن هذا الكلام كذب و افتراء محض أيضا، و كل إنسان مسئول عن عمله!.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۰

مسألتان

۱- السنن الحسنة و السنن السيئة:

التخطیط لعمل ما- أو لمنهج ما- فی المنطق الإسلامی له أثره .. و یحمل صاحبه المسؤولیة عنه- شاء أم أبی- و یکون مشارکا للآخرین الذین یعملون بما خططه و سنّه، لأنّ أسباب العمل هی من مقدمات العمل، و نعرف أن کل شخص یکون دخیلا فی مقدمة عمل إنسان آخر فهو شریکه أیضا، فحتی لو کانت المقدمة بسیطة، إلّا أن ذلک الشخص شریک مع ذی المقدمة.

و الشاهد علی هذا الکلام حدیث منقول عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و هو أن سائلا جاء و النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی طائفة من صحابته فطلب العون فلم یجبه أحد، ثمّ قام الیه رجل و ناوله شیئا فقام: الآخرون و رغّبوا فی إعانته

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «من سنّ خیرا فاستن به کان له أجره و من أجور من تبعه غیر منتقص من أجورهم شیئا، و من سنّ شرّا فاستن به کان علیه وزره و من أوزار من تبعه غیر منتقص من أوزارهم شیئا»[۲۴۸].

و قد ورد نظیر هذا الحدیث بعبارات مختلفة فی مصادر الحدیث عند الشیعة و السنة و هو حدیث مشهور.

۲- جواب علی سؤال:

أثار بعضهم هنا هذا السؤال، و هو أنّنا نلاحظ أحیانا فی القوانین الإسلامیة أن الدیة تقع علی شخص آخر ... فمثلا فی حالة قتل «الخطأ المحض» تقع الدیة علی العاقلة «و المراد بالعاقلة أقارب الرجل الذکور من طرف الأب ... الذین تتوزع فیما بینهم دیة قتل الخطأ المحض، و یدفع کلّ منهم قسما حتی تتمّ الدیة!».

أو لیست هنا منافاة بین هذه المسألة و بین الآیات المتقدمة؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۱

و فی الجواب علی هذا السؤال نقول: إنّ «ضمان العاقلة» فی الحقیقة نوع من التأمین الإلزامی المتقابل بین أعضاء العشیرة الواحدة.

فالإسلام- من أجل أن لا یتحمل الفرد الواحد العبء الثقیل للدیة- ألزم أفراد العشیرة بأن یضمن بعضهم بعضا فی دیّة قتل الخطأ، و أن یقسموا المبلغ فیما بینهم فیدفع کل فرد منهم حصّة.

فقد یخطئ الیوم أحدهم، و غدا قد یرتکب هذا الخطأ شخص آخر من العشیرة ... «لمزید الإیضاح نوکل المراجعة إلی الکتب الفقهیة، بحث الدیات».

و علی کل حال، فإنّ هذا المنهج نوع من التعاون فی سبیل حفظ المنافع المتقابلة، و لا یعنی بأی وجه تحمل وزر الآخرین، خاصة و أنّ دیة قتل الخطأ لیست أصلا جریمة ذنب، بل هی تعویض عن الخسارة! «فتأمل بدقّة».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۲

الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۱۴ الی ۱۹]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِیهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِینَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱۴) فَأَنْجَیْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِینَةِ وَ جَعَلْناها آیَةً لِلْعالَمِینَ (۱۵) وَ إِبْراهِیمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۶) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْکاً إِنَّ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا یَمْلِکُونَ لَکُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْکُرُوا لَهُ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۱۷) وَ إِنْ تُکَذِّبُوا فَقَدْ کَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ ما عَلَی الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِینُ (۱۸)

أَ وَ لَمْ یَرَوْا کَیْفَ یُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ إِنَّ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیرٌ (۱۹)

التّفسیر

إشارة لقصتی نوح و إبراهیم:

لما کان الکلام فی البحوث السابقة عن الامتحانات العامّة فی الناس، فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۳

الکلام هنا- و فی ما بعد- یقع علی الامتحانات الشدیدة للأنبیاء، و کیف أنّهم کانوا تحت ضغط الأعداء و إیذائهم، و کیف صبروا و کانت عاقبة صبرهم النصر! لیکون هذا الکلام تسلیة لقلوب أصحاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله الذین کانوا تحت وطأة التعذیب الشدید من قبل الأعداء- من جانب- و تهدیدا للأعداء لینتظروا عاقبتهم الوخیمة من جانب آخر.

تبدأ الآیات أوّلا بالکلام علی أوّل نبی من أولی العزم و هو «نوح» علیه السّلام، و تتحدث عنه بعبارات موجزة، لتجمل قسما من حیاته التی تناسب- کثیرا- الواقع الراهن للمسلمین- آنئذ- فتقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِیهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِینَ عاماً.

کان نوح مشغولا لیل نهار بالتبلیغ و دعوة قومه إلی توحید اللّه- فرادی و مجتمعین، مستفیدا من جمیع الفرص فی هذه المدة الطویلة (أی تسعمائة و خمسین عاما) یدعوهم إلی اللّه .. و لم یشعر بالتعب و النصب من هذا السعی المتتابع و لم یظهر علیه الضعف و الفتور.

و مع کل هذا الجهد الجهید لم یؤمن به إلّا جماعة قلیلة فی حدود الثمانین شخصا کما تنقل التواریخ (أی بمعدّل نفر واحد لکل اثنتی عشرة سنة!).

فعلی هذا لا تظهروا الضعف و التعب فی سبیل الدعوة إلی الحق و مواجهة الانحرافات، لأنّ منهجکم أمام منهج «نوح» سهل للغایة.

لکن لاحظوا کیف کانت عاقبة قوم نوح الظالمین الألدّاء: فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ

و هکذا انطوی «طومار» حیاتهم الذلیلة، و غرقت قصورهم و أجسادهم و آثارهم فی الطوفان و أمواجه.

و التعبیر ب أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِینَ عاماً مع إمکان القول «تسعمائة و خمسین سنة» من البدایة، هو إشارة إلی عظمة المدة و طول الزمان، لأنّ عدد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۴

«الألف» و أیّ ألف؟ ألف سنة! یعدّ مهما و عددا کبیرا بالنسبة لمدّة التبلیغ.

و ظاهر الآیة الآنفة أنّ هذا المقدار لم یکن هو عمر نوح علیه السّلام بتمامه (و إن ذکر ذلک فی التوراة الحدیثة، فی سفر التکوین الفصل التاسع) بل عاش بعد الطوفان فترة أخری، و طبقا لما قاله بعض المفسّرین فقد کانت الفترة هذه ثلاثمائة سنة! طبعا ... هذا العمر الطویل بالقیاس إلی أعمار زماننا کثیر جدا و لا یعدّ طبیعیّا أبدا، و یمکن أن یکون میزان العمر فی ذلک العصر متفاوتا مع عصرنا هذا ... و بناء علی المصادر التی وصلت إلی أیدینا فإنّ قوم نوح کانوا معمرین، و عمر نوح بینهم أیضا کان أکثر من المعتاد، و یشیر هذا الأمر ضمنا إلی هیئة ترکیب أجسامهم کانت تمکّنهم من أن یعمّروا طویلا.

إنّ دراسات العلماء فی العصر الحاضر تدلّ علی أن عمر الإنسان لیس له حد ثابت، و ما یقوله بعضهم بأنّه محدود بمائة و عشرین سنة، و أکثر أو أقل، فلا أساس له ... بل یمکن أن یتغیر بحسب اختلاف الظروف.

و الیوم و بواسطة التجارب استطاع العلماء أن یضاعفوا عمر قسم من النباتات أو الموجودات الحیّة، إلی اثنی عشر ضعفا علی العمر الطبیعی، و حتی فی بعض الموارد- و لا تتعجبوا- أو صلوا هذه الفترة للنباتات أو غیرها إلی تسعمائة مرّة ضعف عمرها الطبیعی ... و إذا حالفهم التوفیق فیمکنهم أن یضاعفوا عمر الإنسان، فیمکن أن یعمّر الإنسان عندئذ آلاف السنین.[۲۴۹] و ینبغی الالتفات ضمنا إلی أن کلمة «الطوفان» فی الأصل معناها کل حادثة تحیط بالإنسان، و هی مشتقّة من مادة «الطواف»، ثمّ استعمل هذا التعبیر للماء الغزیر أو

السيل الشديـد الذى يسـتوعب مساحة كبيرة من الأرض و يغرقها، كما يطلق على كل شـىء كثير و شديد و فيه حالة الاستيعاب، سواء كان ريحا أو نارا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۵

أو ماء، فيسمى كلّ منها طوفانا ... كما قد يرد بمعنى ظلمة الليل الشديدة أيضا.[۲۵۰] الطريف أنّ القرآن يقول: وَ هُمْ ظالِمُونَ أى إنّهم حين وقوع العذاب «الطوفان» كانوا لا يزالون فى ظلمهم أيضا.

و هذا إشارة إلى أنّهم لو تركوا تلك الأعمال، و ندموا على ما فعلوا، و توجّهوا إلى اللّه، لما ابتلوا بمثل هذه العاقبة أبدا.

و يضيف القرآن الكريم فى الآية الأخرى فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ ۲۵۱].

ثمّ يعقّب على قصّـة نوح و قومه التى وردت بشـكل مضـغوط، و يـأتى بقصّـة إبراهيم عليه السّـلام، ثـانى الأنبياء الكبار من أولى العزم فيقول: وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۲۵۲].

هنا بيّن القرآن منهجين مهمّين من مناهـج الأنبياء العمليـة و الاعتقاديـة، و هما الـدعوة إلى توحيـد اللّه و التقوى- فى مكان واحد- ثمّ يختتم القول: أن لو فكرتم جيدا لكان ذلك خيرا لكم عند اتباعكم لمذهب التوحيد و التقوى، إذ ينجيكم من دنياكم الملوّثة بالذنوب و الشقاء، و تكون آخرتكم هى السعادة الأبديّة.

ثمّ يذكر إبراهيم عليه السّـلام أدلة بطلان عبادة الأصنام و الأوثان، و يبيّن فى تعابير مختلفة يتضمّن كل منها دليلا على فساد مذهبهم و بطلانه فيقول أوّلا: إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً.

هذه الأوثان هى الأصنام الخالية من الروح .. الأصنام التى ليس لها إرادة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۶

و لا عقل، و هى فاقـدة لكل شـىء، بحيث أن شـكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان» (لاحظوا أن «الأوثان» هى جمع لكلمة «وثن» على زنة «صنم» و معناها «الحجارة المنحوتة» الموضوعة للعبادة!).

ثمّ يتوسع فى حـديثه و يمضـى إلى مـدى أبعـد فيقول: ليست هـذه الأوثـان بهيئتهـا تـدل على أنّهـا لا تسـتحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنّكم تكذبون و تضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً.

فأى دليل لديكم على هذا الكذب سوى حفنة من الأوهام و الخرافات الباطلة.

و حيث أن كلمـة «تخلقون» مشـتقّة من الخلق، و تعنى أحيانا الصـنع و الإبداع، و أحيانا تأتى بمعنى الكذب، فإنّ بعض المفسّـرين ذكر تفسـيرا آخر لهـذه الجملـة غير مـا بيّنـاه آنفا ... و قالوا إنّ المقصود من هـذا التعبير هو أنّكم تنحتون هـذه الأوثان ... المعبودات الباطلة المزوّرة بأيديكم، و تصنعونها (فيكون المراد من الإفك هنا هو المعبودات المزورّة) و الخلق هو النحت هنا[۲۵۳].

ثمّ يبيّن الـدليل الثّـالث و هو أن عبادتكم لهـذه الأوثان إمّا لأجل المنافع الماديـة، أو لعاقبتكم فى «الأخرى» و كلا الهـدفين باطل ... و ذلك: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً.

و أنتم تعتقدون بأنّ هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو اللّه، فالذى يتكفل بالرزق هو اللّه فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ

و لأنّه هو الذى يرزقكم فتوجهوا إليه وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ

و بتعبير آخر، فإن واحدا من أسباب العبادة و بواعثها هو الإحساس بالشكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۷

للمنعم الحقيقى، و تعرفون أن المنعم الحقيقى هو اللّه، فالشكر و العبادة يختصان- أيضا- بذاته المقدسة.

و إذ كنتم تبتغون الدار الأخرى فإنّه إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

فالأصنام لا تصنع شيئا هنا و لا هناك!

و بهذا الأدلّة الموجزة و الواضحة ألجم منطقهم الواهى و أفحمهم.

ثمّ يلتفت إبراهيم عليه السّلام مهدّدا لهم و مبديا عدم اكتراثه بهم قائلا: وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزى بتكذيبهم و العاقبة الوخيمة وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ سواء استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته و بلاغه! و المقصود بالأمم قبل أمة إبراهيم عليه السّلام، أمة نوح عليه السّلام و ما بعده من الأمم و بالطبع فإنّ ارتباط هذه الآيات يوجب أن تكون هذه الجملة من كلمات إبراهيم عليه السّلام، و هذا ما يذهب إليه كثير من المفسّرين عند تفسيرهم للنص، أو يحتملون ذلك!.

و الاحتمال الآخر: إنّ الخطاب فى هذه الآية للمشركين من أهل مكّة المعاصرين للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و جملة كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ فيها تتناسب أكثر مع هذا الاحتمال.

أضف إلى ذلك، فإنّ نظير هذا التعبير الذى ورد فى الآية ۲۵ من سورة الزمر، و الآية (۲۵) من سورة فاطر، هو أيضا فى شأن نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و المشركين العرب فى مكّة. و لكن- و على أى حال- أيّا من التّفسيرين كان ذلك، فليس هناك تفاوت فى النتيجة!.

و القرآن يترك قصّة إبراهيم هنا مؤقتا، و يكمل البحث الذى كان لدى إبراهيم فى صدد التوحيد و بيان رسالته بدليل المعاد، فيقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۸

و المراد بالرؤية هنا هى الرؤية «القلبية» و العلم، أى كيف لا يعرف هؤلاء خلق اللّه؟ فالذى له القدرة على الإيجاد أولا قادر على إعادته أيضا، فالقدرة على شيء ما هى قدرة على أمثاله و أشباهه أيضا.

كما يأتى هذا الاحتمال، و هو أنّ الرؤية هنا هى الرؤية «البصيريّة» و المشاهدة بالعين ... لأنّ الإنسان يرى بعينيه كيف تحيا الأرض و تنمو النباتات، و تتولد الدجاجة من البيض، و الأطفال من النطف ... فمن له القدرة على هذا الأمر قادر على أن يحيى الموتى من بعد أيضا.

و يضيف فى آخر الآية على سبيل التأكيد إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لأنّ تجديد الحياة قبال الإيجاد الأوّل يعدّ أمرا بسيطا.

و طبيعى أنّ هذا التعبير يناسب منطق الناس و فهمهم، و إلّا فإن اليسير و العسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدودة و المطلقة ... فهذه قدراتنا التى أوجدت مثل هذا «المفهوم»، و مع الالتفات إلى إنجازها ... ظهرت لدينا أمور يسيرة و أخرى عسيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۹

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۰ الى ۲۳]

اشارة

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۰) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (۲۱) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۲۲) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۳)

التّفسير

الآيسون من رحمة اللّه:

هذه الآيات تواصل البحث فى المعاد أيضا، على صورة جمل معترضة فى قصّة إبراهيم عليه السّلام.

و ليست هـذه أوّل مرّة نواجه فيها مثل هـذا الأسـلوب ... فهـذه هى طريقـة القرآن دائما، فعنـد ما يبلغ مرحلـة حساسة من ذكر قصّة ما، يترك بقيّة القصّة مؤقتا للاستنتاج أكثر، ثمّ يعطى النتائج اللازمة.

و على كل حال، فإنّ القرآن يدعو فى الآية الأولى من هذا المقطع الناس إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۰

«السير فى الآفاق» فى مسألة المعاد ... فى حين أن الآية السابقة كانت السمة فيها «السير فى الأنفس» أكثر! يقول القرآن: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ انظروا الى أنواع الموجودات الحية، و الأقوام و الأمم المتنوعة و المختلفة، و كيف أنّ اللّه تعالى خلقها أولا، ثمّ أن اللّه نفسه الذى أوجدها فى البداية من العدم قادر ايضا على إيجادها فى الآخرة ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ.

و لأنّه أثبت قدرته على كل شىء حين خلق الخلق أولا، إذن ف إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فهـذه الآية و الآية التى قبلها- أيضا- أثبتتا بواسـطة قدرته الواسـعة إمكان المعاد .. مع فرق أن الآية الأولى تتحدث عن الإنسان نفسه و خلقه و ما حوله! و الآيـة الثّانية تأمر بمطالعة حالات الأمم و الموجودات الأخرى، ليروا الحياة الأولى فى صور مختلفة و ظروف متفاوتة تماما، و ليطّلعوا على عموميّة قدرة اللّه، و ليستيقنوا قدرته على إعادة هذه الحياة!.

كما أن إثبات التوحيـد يتمّ- أحيانا- عن طريق مشاهدة «الآيات فى الأنفس» و أحيانا عن طريق «الآيات فى الآفاق» فكذلك يتمّ إثبات المعاد عن هذين الطريقين أيضا.

و فى عصـرنا هذا يمكن أن تبيّن هذه الآيات للعلماء معنى أعمق و أدق، و هو أن يمضوا و يلاحظوا الموجودات الحيّة الأولى التى هى فى أعمـاق البحار على شـكل فسائل و نباتات و غيرها، و فى قلب الجبال، و بين طبقات الأرض، و يطلعوا على جانب من أسـرار بـداية الحياة على وجه الأرض، و يدركوا عظمة اللّه و قدرته، و ليعلموا أنّه قادر على إعادة الحياة أيضا[۲۵۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۱

هذا و إن كلمة «النشأة» فى الأصل، تعنى إيجاد الشـىء و تربيته، و قد يعبر أحيانا عن الدنيا بالنشأة الأولى، كما يعبر عن الأخرى بالنشأة الآخرة!.

و هـذه اللطيفـة جديرة بالملاحظة، و هى أنّ فى ذيل الآيات السابقة ورد التعبير «إن ذلك على اللّه يسـير» و ورد التعبير هنا إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و لعل منشأ التفاوت و الاختلاف هو أن الآية الأولى تعالج مطالعة محدودة، أمّا الثّانية فتعالج و تبيّن مطالعة وسيعة جدّا.

ثمّ يتعرض القرآن الكريم إلى إحـدى المسائل المتعلقـة بالمعاد، و هى مسألـة الرحمـة و العـذاب، فيقول: يُعَـذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ

و مع أنّ رحمـة اللّه مقدمـة على غضـبه، إلّا أن الآيـة هنا تبـدأ أولا بـذكر العـذاب ثمّ الرحمة، لأنّها فى مقام التهديد، و ما يناسب مقام التهديد هو هذا الأسلوب!.

هنا ينقدح السؤال التالى:

كيف يتحـدث القرآن أوّلا عن العـذاب و الرحمـة، ثمّ يتحدث عن معاد الناس إليه وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ فى حين أن القضـية على العكس من ذلك، ففى البدايـة يحضـر الناس عنـد ساحته، ثمّ يشـملهم العـذاب أو الرحمـة .. و ربّما كان هذا هو السبب فى أن يعتقد بعضـهم أن العذاب و الرحمة المذكورين هنا هما فى هذه الدنيا.

و نقول جوابا على مثل هـذا السؤال: إن العـذاب و الرحمـة- بقرينـة الآيات السابقة و اللاحقة- هما عذاب القيامة و رحمتها، و جملة وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ إشـارة إلى الـدليل على ذلـك: أى: بما أنّ معادكم إليه و كتابكم و حسابكم لـديه، فالعـذاب و الرحمـة- أيضا- بإرادته و

تحت أمره!.

و لا يبعد أن يكون العذاب و الرحمة فى هذه الآية لهما معنى واسع، بحيث

يشمل العذاب و الرحمة فى الدارين.

كما يتّضح أنّ المراد بقول: مَنْ يَشاءُ هو المشيئة الإلهية المقرونة بحكمته، أى كل من كان جديرا و مستحقا لذلك .. فإن مشيئة اللّه ليست عبثا، بل منسجمة مع الاستحقاق و الجدارة!.

و جملة «تنقلبون» من مادة «القلب» و معناها فى الأصل: تغيير الشيء من صورة إلى صورة أخرى، و حيث أن الإنسان فى يوم القيامة يعود إلى هيئة الموجود الحى الكامل بعد أن كان ترابا لا روح فيه، فقد ورد هذا التعبير فى إيجاده ثانية أيضا.

و يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى هذه اللطيفة الدقيقة- أيضا- و هى أن الإنسان يتبدل فى الدار الأخرى و يتغيّر تغيرا ينكشف باطنه به و تتجلى أسراره الخفية، و بهذا فهى تنسجم مع الآية (۹) من سورة الطارق يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ.

و إكمالا لهذا البحث الذى يبيّن أن الرحمة و العذاب هما بيد اللّه و المعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان اللّه و حكومته و لا يمسّكم عذابه، فأنتم فى خطأ كبير ... فليس الأمر كذلك! وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ[۲۵۵].

و إذا كنتم تتصورون أنّكم تجدون من يدافع عنكم و ينصركم هناك، فهذا خطأ محض أيضا وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

و فى الحقيقة، فإنّ الفرار من قبضة اللّه و عذابه، إمّا بأن تخرجوا من حكومته، و إمّا بأن تعتمدوا مع بقائكم فى حكومته على قدرة الآخرين لتدافعوا عن أنفسكم، فلا الخروج ممكن، لأنّ البلاد كلّها له و عالم الوجود كلّه ملكه الواسع،

و لا يوجد أحد يستطيع أن يقف أمام قدرته و ينهض للدفاع عنكم.

يبقى هنا سؤالان:-

أوّلا: مع الالتفات إلى هذه الحقيقة، و هى أن مقصود الآية هو فى الكفار و المشركين، و هم سكنة الأرض، فما معنى قوله تعالى: وَ لا فِي السَّماءِ و أى مفهوم له هنا؟! و ينبغى أن يقال فى الجواب، أن هذا التعبير هو نوع من التأكيد و المبالغة، أى إنكم لا تستطيعون أن تخرجوا من قدرة اللّه و سلطانه فى هذه الأرض، و لا فى السماوات، إذ حتى لو فرضنا أنّكم تستطيعون أن تصعدوا فى السماء، فما زلتم تحت قدرته و سلطانه.

أو إنّه: لا تستطيعون أن تعجزوا اللّه فى مشيئته بواسطة من فى الأرض، و لا بواسطة من تعبدون فى السماوات، من أمثال الملائكة و الجن (و التّفسير الأوّل أكثر مناسبة- طبعا-) ثانيا: ما الفرق بين الولى و النصير؟! يرى العلامة «الطبرسى» فى «مجمع البيان» و قيل: إن الولى الذى يتولى المعونة بنفسه و النصير يتولى النصرة تارة بنفسه بأن يأمره غيره به»[۲۵۶].

بل يمكن القول مع ملاحظة الكلمتين هاتين، أن الولى إشارة إلى من يعيّن دون طلب (من عليه الولاية)، و النصير هو المستصرخ الذى يأتى لإعانة الإنسان بعد استصراخه.

و هكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين ..

لذلك يقول فى الآية التى بعدها بشكل قاطع: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۴

ثمّ یضیف مؤکدا: وَ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ

هذا «العذاب الألیم» هو لزم الیأس من رحمهٔ اللّه.

و المراد ب «ایات اللّه» إمّا هی «الآیات التکوینیـهٔ» أی آثار عظمهٔ اللّه فی نظام خلقه و إیجاده، و فی هذه الصورهٔ فهی إشارهٔ إلی مسألهٔ التوحید، فی حین أن کلمهٔ «لقائه» إشارهٔ إلی مسألهٔ المعاد، أی إنّهم منکرون للمبدأ و للمعاد کلیهما.

أو أنّ المراد من آیات اللّه هی «الآیات التشریعیهٔ» أی هی الآیات التی أنزلها اللّه علی أنبیائه، التی تتحدث عن المبدأ و عن النبوهٔ و عن المعاد، و فی هذه الحال یکون التعبیر ب «لقائه» من قبیل ذکر الخاص بعد العام.

کما یمکن أن یکون المقصود من آیات اللّه هی جمیع الآیات فی عالم الوجود و التشریع.

و ینبغی ذکر هـذه المسألـهٔ- أیضـا- و هی أن «یئسوا» فعـل ماض و الهـدف منه هو الاسـتقبال- أی فی یوم القیامـهٔ- و العرب عادهٔ إذا تحدثوا عن أمر مستقبلی بصورهٔ التأکید عبروا عنه بصیغهٔ الماضی، للدلالهٔ علی تحققه قطعا و حتما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۵

الآیات [سورهٔ العنکبوت (۲۹): الآیات ۲۴ الی ۲۷]

اشارهٔ

فَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۲۴) وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّهَ بَیْنِکُمْ فِی الْحَیاهِٔ الـدُّنْیا ثُمَّ یَوْمَ الْقِیامَهِٔ یَکْفُرُ بَعْضُـکُمْ بِبَعْضٍ وَ یَلْعَنُ بَعْضُـکُمْ بَعْضاً وَ مَأْواکُمُ النَّارُ وَ ما لَکُمْ مِنْ ناصِـرِینَ (۲۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قـالَ إِنِّی مُهـاجِرٌ إِلی رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۲۶) وَ وَهَبْنـا لَهُ إِسْـحاقَ وَ یَعْقُـوبَ وَ جَعَلْنـا فِی ذُرِّیَّتِهِ النُّبُوَّهَ وَ الْکِتابَ وَ آتَیْناهُ أَجْرَهُ فِی الدُّنْیا وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِٔ لَمِنَ الصَّالِحِینَ (۲۷)

التّفسیر

أسلوب المستکبرین فی جوابهم لإبراهیم:

و الآـن علینـا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضّالون لإبراهیم علیه السّـلام ردّا علی أدلته الثّلاثـهٔ فی مجال التوحیـد و النّبوهٔ و المعاد؟! إنّهم- قطعا- لم یکن لدیهم جواب منطقی و کجمیع الأقویاء المسـتکبرین فقد توسّـلوا بقدراتهم الشـیطانیهٔ و أصدروا أمرا بقتله، حیث یصرّح بذلک القرآن الکریم فیقول: فَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۶

و یستفاد من هـذا التعبیر أن جماعهٔ کانوا یمیلون إلی حرق إبراهیم بالنّار، فی حین کانت جماعهٔ أخری تقترح أن یقتل بالسـیف أو ما شاکله! و أخیرا رجح الرأی الأوّل، لأنّهم کانوا یعتقدون أنّ أشدّ حالات الإعدام هو الإحراق بالنّار.

کما و یحتمل أیضا أنّهم جمیعا کانوا یفکرون فی قتله بالوسائل الطبیعیـهٔ، غیر أنّهم اتفقوا أخیرا علی إحراقه بالنّار، و أن یبذلوا قصاری جهدهم فی هذا الأمر.

و فی هذه الآیهٔ الکریمهٔ لم یرد کلام عن کیفیهٔ إحراق إبراهیم علیه السّلام بالنّار سوی هذا المقدار الذی استکملت به الآیهٔ الکریمهٔ، و هو فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ.

غير أن تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد في سورة الأنبياء (الآيات ۶۸- ۷۰) و قد بيّنا ذلك هناك، فلا بأس بمراجعته! و يضيف القرآن في الختام إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

و لم تكن علامة و آية واحدة في هذا الصدد و في هذه الحادثة، بل علائم و آيات ... فمن جانب فإنّ عدم تأثير النّار في جسد إبراهيم بنفسه معجزة واضحة، و تبدل النّار إلى روضة و «سلام» على إبراهيم كما هو معروف معجزة أخرى، و عدم استطاعة هذه الجماعة القوية التغلب على شخص واحد- و هو أعزل من كل وسيلة بحسب الظاهر- كان معجزة ثالثة أيضا.

كما أنّ عدم تأثير هذا الحادث العجيب الخارق للعادة في أولئك المظلمة قلوبهم، آية من آيات اللّه، إذ يسلب التوفيق من أمثال هؤلاء الأفراد المعاندين الألدّاء، بحيث لا تؤثر فيهم أعظم الآيات!.

و قد ورد في بعض الرّوايات أنّه لما القي بإبراهيم الخليل مكتوف اليدين و الرجلين في النّار، فإن الشيء الوحيد الذي احترق منه هو الحبل الذي كان مشدودا و موثقا به [۲۵۷].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۷

أجل، إنّ نار الجهل و جناية المنحرفين إنّما أحرقت وسائل الأسر، فتحرر إبراهيم عليه السّلام منها ... و هذه بنفسها تعدّ آية أخرى.

و ربّما كان- لهذه الأسباب- أن عبّر القرآن عن قصّة نوح و سفينته بقوله:

جَعَلْناها آيَةً بصيغة الإفراد، و لكنّه عبّر هنا بقوله: لَآياتٍ بصيغة الجمع!.

و على كل حال فإنّ ابراهيم عليه السّلام نجّى من النّار بصورة خارقة للعادة و بلطف اللّه سبحانه، غير أنّه لم يترك أهدافه .. بل نهض بالأمر و ازداد همّة و أعطى لأهدافه حرارة أكثر.

ثمّ توجه إبراهيم إلى المشركين وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا و لكن هذه المودّة و المحبّة تتلاشى في الآخرة ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ

كيف تكون الأوثان أساسا للمودّة بين عبدة الأوثان؟! هذا السؤال يمكن الإجابة عليه من عدّة طرق:

الأوّل: أن عبادة الصنم أو الوثن كانت رمزا للوحدة لكل قوم و لكل قبيلة، لأنّ كل جماعة اختارت لنفسها وثنا، كما ذكروا في شأن أصنام الجاهلية، إذ كان كل صنم يعود لقبيلة من القبائل العربية، فصنم «العزّى» كان لقريش، و «اللّات» كان خاصا بثقيف، أمّا «منات» فكان خاصا بالأوس و الخزرج!.

الثّاني: أن عبادة الأوثان تربط بينهم و بين أسلافهم و غالبا ما كانوا يعتذرون بمثل هذا العذر و يقولون: إنّ هذه الأوثان كان عليها السلف و نحن نتبع السلف و نمضي على دين آبائنا.

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ سراة[۲۵۸] الكفار كانوا يدعون أتباعهم إلى عبادة الأوثان، و كان هذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بين السراة و الأتباع.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۸

و لكن هذه العلائق و الوشائج و الارتباطات الخاوية تتقطع جميعها يوم القيامة، و كل فرد يلقى التبعة و الذنب على رقبة الآخر، و يلعنه و يتبرأ منه و من عمله، حتى المعبودات التي كانوا يتصورون أنّها الوسيلة إلى اللّه، و كانوا يقولون في شأنها ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى [۲۵۹]- تتبرأ منهم.

و كما يصوّر القرآن هذه الحالة في سورة مريم الآية ۸۲ يقول: كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

فعلى هذا، يكون المراد من قوله تعالى: يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً هو أنّهم يتبرأ بعضهم من بعض في ذلك اليوم، و ما كان أساسا لعلاقة المودة الكاذبة في الدنيا يكون مدعاة للعداوة و البغضاء في الآخرة .. كما يعبّر القرآن عن ذلك في الآية (۶۷) من سورة الزخرف فيقول: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ هذا الحكم غير مختص بعبدة أوثان، بل هو لجميع أولئك الذين اختاروا «إماما باطلا» لأنفسهم، فاتبعوه و تعاهدوا معه على المودة، ففى يوم القيامة يكونون أعداء فيما بينهم، و يتبرأ بعضهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا.[٢٦٠] فى حين أنّ علاقة المحبّة بين المؤمنين قائمة على أساس التوحيد و عبادة اللّه و إطاعة أمر الحق فى هذه الدنيا و هذه العلاقة سيكتب لها الدوام، و فى الآخرة تكون أكثر تماسكا .. حين إنّه يستفاد من بعض الروايات أنّ المؤمنين يستغفر بعضهم لبعض و يتشفع بعضهم لبعض فى يوم القيامة .. فى وقت يتبرأ فيه المشركون بعضهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا[٢٦١].

و فى الآية التى بعد تلك الآية إشارة إلى إيمان لوط و هجرة إبراهيم، إذ تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٦٩

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ.

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، و كانت له مع إبراهيم علاقة قربى «يقال إنّه كان ابن أخت ابراهيم عليه السّلام» و حيث أن اتّباع شخص عظيم- لإبراهيم- بمنزلة أفراد امّة كاملة فقد تحدث سبحانه- خاصة- عن إيمان «لوط» و شخصيته الكبرى المعاصرة لإبراهيم عليه السّلام، ليتّضح أنّه إذ لم يؤمن الآخرون، فإنّ ذلك ليس مهمّا.

و يبدوا أنّه كانت فى أرض بابل قلوب مهيأة لقبول دعوة إبراهيم الخليل عليه السّلام، و قد التفوا حوله بعد مشاهدة تلك المعجزة العظيمة، غير أنّه من المسلّم به أنّهم كانوا «أقليّة».

ثمّ تضيف الآية عن هجرة إبراهيم عليه السّلام فتقول: وَ قالَ إِنِّی مُهاجِرٌ إِلی رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

و من الوضوح بمكان أنّه حين يؤدى القادة الإلهيون رسالتهم فى محيط ما، و يكون هذا المحيط ملوّثا و تحت تأثير الجبابرة، بحيث لا تتقدّم دعوتهم أكثر، فينبغى أن يهاجروا إلى منطقة أخرى لتتسع دعوة اللّه فى الأرض!.

فلذلك تحرك ابراهيم عليه السّلام و زوجه سارة- بمعيّة لوط- من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء و التوحيد، ليستطيع أن يكتسب جماعة هناك و يوسع دعوة التوحيد!.

من الطريف أنّ إبراهيم عليه السّلام يقول فى هذا الصدد: إِنِّی مُهاجِرٌ إِلی رَبِّی لأنّ ذلك الطريق كان طريق اللّه، طريق رضاه، و طريق دينه و منهاجه.

و بالطبع فإنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون الضمير فى قوله تعالى: وَ قالَ إِنِّی مُهاجِرٌ عائد على لوط عليه السّلام، أى إنّ لوطا قال: إنّى مهاجر إلى ربّى، و ظاهر الجملة منسجم مع هذا المعنى أيضا، إلّا أن الشواهد التاريخية تدلّ على أن الضمير يعود على إبراهيم عليه السّلام، و كانت هجرة لوط بمعية إبراهيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٧٠

و الشاهد على هذا الكلام قول إبراهيم عليه السّلام فى الآية (٩٩) من سورة الصافات إِنِّی ذاهِبٌ إِلی رَبِّی سَیَهْدِینِ [٢٦٢] و فى آخر آية من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التى منحها اللّه لإبراهيم عليه السّلام بعد الهجرة العظيمة:

الموهبة الأولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسحاق و يعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان و النّبوة فى بيته و أسرته و يحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ و هما نبيّان كبيران واصل كلّ منهما السير على منهاج إبراهيم عليه السّلام محطم الأصنام.

الموهبة الثّانية: وَ جَعَلْنا فِی ذُرِّیَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْکِتابَ و لم تكن النّبوة فى إسحاق بن إبراهيم و يعقوب حفيده فحسب، بل استمر خط النّبوة فى ذريّة إبراهيم عليه السّلام و أسرته حتى نبوّة خاتم الأنبياء محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم متعاقبون من ذرية إبراهيم، نوّروا العالم بضياء التوحيد.

الموهبة الثّالثة: وَ آتَیْناهُ أَجْرَهُ فِی الدُّنْیا فما هو هذا الأجر الذى لم يوجهه القرآن؟ لعله إشارة إلى أمور مختلفة مثل الاسم الحسن، و لسان الصدق و الثناء بين جميع الأمم، لأنّ الأمم كلها تحترم ابراهيم عليه السّلام على أنّه نبى عظيم الشأن، و يفتخرون بوجوده و

یسمونه «شیخ الأنبیاء».

عمارة أرض مکّة کانت بدعائه، و جذب قلوب الناس جمیعا نحوه، لتتذکر ذکریات التجلی و الإیمان کل سنة فی مناسک الحج، کل ذلک من هذا الأجر المشار الیه فی القرآن.

الموهبة الرّابعة: هی إِنَّهُ فِی الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِینَ و هکذا تشکّل هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۱

المواهب مجموعة کاملة من المفاخر.

ملاحظتان

۱- أکبر الفخر! ...

«الدخول فی الصالحین» بالشکل الذی یستنتج من کثیر من آیات القرآن هو أوج الفخر، و قد یحظی به انسان معین فیکون من نصیبه. و لذلک فإنّ کثیرا من الأنبیاء کانوا یسألون اللّه أن یدخلهم فی زمرة عباده الصالحین.

فیوسف علیه السّلام بعد وصوله إلی أبرز الانتصارات الظاهریة یسأل اللّه فیقول:

تَوَفَّنِی مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ [۲۶۳] و کذلک نبیّ اللّه سلیمان علیه السّلام مع ما لدیه من جاه و حشمة و جلالة، یطلب من اللّه أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبادِکَ الصَّالِحِینَ ۲۶۴] و شعیب علیه السّلام، ذلک النّبی العظیم، حین وقع العقد علی استئجار موسی قال له: سَتَجِدُنِی إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِینَ [۲۶۵] و إبراهیم علیه السّلام أیضا یطلب لنفسه من اللّه أن یکون فی زمرة الصالحین رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ [۲۶۶] کما یطلب من اللّه أن یرزقه أبناء صالحین فیقول: رَبِّ هَبْ لِی مِنَ الصَّالِحِینَ [۲۶۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۲

کما نلاحظ فی کثیر من الآیات أن اللّه سبحانه حین یمدح أنبیاءه العظام فی کتابه، یصفهم بأنّهم «من عباده الصالحین».

و یستفاد من مجموع هذه الآیات- بصورة جیدة- أن أسمی مراحل تکامل الإنسان هو أن یکون عبدا صالحا.

ما معنی الصلاح؟! و بعبارة أجلی: ما معنی أن یکون الإنسان صالحا؟! معناه: أن یکون جدیرا بالاعتقاد و الإیمان، جدیرا بالعمل، جدیرا بالقول، جدیرا بالأخلاق! أمّا ما یقابل الصالح فهو الفاسد، و نعرف أن «الفساد فی الأرض» تعبیر یشمل جمیع أنواع الظلم و الأعمال السیئة.

و فی القرآن الکریم یستعمل الصلاح- أحیانا- فی مقابل الفساد، و یستعمل- أحیانا- فی مقابل السیئة، و تعنی «الذنب» و ما لا یلیق.

۲- مواهب إبراهیم العظیمة

قال بعض المفسّرین: إنّ فی الآیة الآنفة لطیفة دقیقة .. هی أنّ اللّه بدل جمیع الأمور و الأحوال التی تؤدی بإبراهیم إلی الاستیاء، إلی الضدّ.

فعبدة الأوثان فی بابل أرادوا إحراقه بالنّار، فتبدلت روضة و سلاما.

و أرادوه أن یبقی منفردا معزولا عن الناس، فوهب اللّه له أمّة عظیمة و جعل النّبوة فی ذراریه.

و کان بعض أقاربه ضالا و عابدا للصنم کما هی الحال فی «آزر» فأعطاه اللّه مکانه أبناء مهتدین و هادین للآخرین.

و لم يكن لإبراهيم عليه السّلام فى بداية حياته مال و لا جاه، فوهب له اللّه مالا و جاها عظيما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۳

و كـان إبراهيم عليه السّـلام فى بدايـة أمره مجهولاـ لا يعرفه الناس حتى أن عبـدة الأوثان فى بابل حين أرادوا تعريفه قالُوا سَـمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ

لكن اللّه سبحانه رفع مقامه و أعلى صيته، حتى أنّه إذا ذكر قيل فى حقّه «شيخ الأنبياء» أو «شيخ المرسلين»[۲۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۴

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

اشارة

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۲۸) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نـادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمـا كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَـذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۹) قالَ رَبِّ انْصُـرْنِی عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (۳۰)

التّفسير

المنحرفون جنسيا:

بعد بيان جانب ممّا جرى لإبراهيم عليه السّلام يتحدث القرآن عن قسم من قصّة حياة النّبى المعاصر لإبراهيم «لوط» عليه السّلام فيقول: وَ لُوطـاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَـةَ ما سَـبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَـدٍ مِنَ الْعالَمِينَ [۲۶۹] «الفاحشـة» كما بيناها من قبل، مشـتقّة من مادة «فحش» و هى فى الأصل تعنى كل فعل أو كلام سيء للغاية، و المراد بها هنا الانحراف الجنسى. (اللواط).

و يستفاد من جملة ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ بصورة جليّة أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۵

هذا العمل السيء و المخزى لم يسبق له- على الأقل بشكل عام و جماعى- أن يقع فى أية أمة أو قوم كما وقع فى قوم لوط.

ذكروا فى أحوال قوم لوط أن واحـدا من عوامـل تلوثهم بهـذا الـذنب هو أنّهم كانوا قوما بخلاء جـدا، و لمّا كانت مـدنهم على قارعة الطريق التى تمرّ بها قوافل الشام، فقـد كانوا يظهرون هذا العمل «الانحراف» لبعض ضـيوفهم أو العابرين لينفروهم و كى لا يضـيفوهـم، إلّا أنّهم تعودوا على هذا العمل القبيح، و قويت فيهم رغبة اللواط، فسقطوا فى الوحل المخزى شيئا فشيئا.

على كـل حـال، سيئوون بحمـل ذنوبهم و ذنوب من يعمل عملهم، دون أن ينقص من ذنوب الآخرين شـىء أبـدا و ليحملن أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم!.

لأنّهم كانوا مؤسسى هذه السنة المشؤومة، و نحن نعرف أن من سنّ سنة ما فهو شريك فى عمل من يعمل بها أيضا.

لوط عليه السّـلام هـذا النّبى العظيم، كشف أخيرا ما فى نفسه و قال لقومه أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ أ فتريدون أن تقطعوا النسل وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ۲۷۰].

و لا ترعوون عن الأعمال المخزية فى مجالسكم العامة وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ.

«النـادى» مشـتق من «النـداء» و هو يعنى المجلس العـام، كمـا يـأتى أحيانا بمعنى مكان التنزّه، لأنّ الأفراد هناك ينادى بعضـهم بعضا و

ترتفع أصواتهم.

و القرآن لم يبيّن هنا بتفصيل أية منكرات كانوا يأتونها فى مجالسهم و نواديهم .. لكنّها قطعا كانت متناسبة مع عملهم السيء المخزى .. و كما ورد فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۶

بعض التواريخ، فإنّهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش و الابتذال، أو يضرب أحدهم الأخر على ظهره. أو يلعبون القمار، و أو يعبثون كالأطفال و خاصة الترامى بالحجارة الصغيرة فيما بينهم أو على العابرين، و يستعملون أنواع الآلات الموسيقية، و يكشفون عوراتهم فى مجتمعهم و يغدون عراة ... إلخ [۲۷۱].

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله كما تنقله «أم هانى» أنّه قال مفسرا لمعنى:

وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ أنّهم «كانوا يخذفون من يمرّ بهم و يسخرون منه»[۲۷۲] أى يرمون من يمرّ بهم بالحجارة و يسخرون منه.

و الآن فلنلاحظ ما ذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النّبى لوط عليه السّلام المنطقية.

يقول القرآن: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

أجل هكذا، كان جواب هؤلاء المفتونين فاقدى العقل و الدراية إذ أجابوا به من منطلق السخرية و الاستهزاء إزاء دعوة لوط عليه السّلام المنطقية و المعقولة.

كما يستفاد جيدا من هذا الجواب أنّ لوطا عليه السّلام كان قد هدّدهم بعذاب اللّه، بالإضافة إلى كلامه البيّن ذى الدليل الواضح فى ما لو استمروا بهذا العمل القبيح، إلّا أنّهم تركوا جميع مواعظه و تمسكوا بتهديده بالعذاب، فقالوا: ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ على سبيل الاستهزاء و السخرية!! ... كما أشير إلى هذا الموضوع فى سورة القمر الآية (۳۶) بقوله تعالى: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ.

و يستشف- ضمنا- من تعبير هؤلاء القوم أنّهم كانوا يريدن أن يستنتجوا من عدم نزول العذاب على كذب لوط عليه السّلام، فى حين أن رحمة اللّه هى التى تمهلهم و تعطيهم الفرصة لمراجعة أنفسهم و إعادة النظر!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۷

و هنا لم يكن للوط عليه السّلام بدّ إلّا أن يلتفت إلى اللّه بقلب حزين مهموم ... و قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ

القوم المنحرفين، المتمادين فى الأرض فسادا، و الذين تركوا تقواهم و أخلاقهم الإنسانية و ألقوا العفة و الطهارة خلف ظهورهم، و سحقوا العدل الاجتماعى تحت أقدامهم، و مزجوا عبادة الأوثان بفساد الأخلاق و الظلم، و هددوا نسل الإنسان بالفناء و الزوال، فيا ربّ انصرنى على هؤلاء القوم المفسدين.

ملاحظة

بلاء الانحراف الجنسى:

الانحراف الجنسى- سواء كان فى أوساط الرجال «اللواط» أم فى أوساط النساء «المساحقة»- لهو من أسوأ الانحرافات الأخلاقية، و مصدر المفاسد الكثيرة فى المجتمع.

و أساسا فإنّ طبيعة «كلّ من الرجل و المرأة» مخلوقة بشكل يمنح الهدوء و الإشباع الصحيح السالم فى العلاقة الجنسية بين الرجل و المرأة «عن طريق الزواج المشروع» و أى نوع من الميول الجنسية فى غير هذه الصورة هو انحراف عن طبع الإنسان الصحيح، و هو نوع من الأمراض النفسيّة الذى لو قدّر له أن يستمرّ لاشتد خطره يوما بعد يوم، و تكون نتيجته البرود الجنسى بالنسبة ما بين الرجل و المرأة،

و الإشباع غير الصحيح من «الجنس المماثل» أى «اللواط» أو «السحاق».

و لهذا النوع من العلائق غير المشروعة أثر مدمّر فى جهاز البدن، بل حتى فى سلسلة الأعصاب و الروح. إذ يسقط الرجل من رجولته و المرأة من أنوثتها!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۸

بحيث أن أمثال هؤلاء الرجال و النساء المنحرفين جنسيا يبتلون بضعف جنسى شديد، و لا يستطيعون أن يكونوا آباء و أمهات صالحين لأبنائهم فى المستقبل، و ربّما كانوا غير قادرين حتى على الإنجاب بصورة كلية «بسبب هذا الانحراف».

إن المنحرفين جنسيا يغدون بالتدريج منزوين منعزلين عن المجتمع، و يحسون بالغربة فى مجتمعهم و فى أنفسهم أيضا، كما يبتلون بنفصام الشخصية، و إذا لم يهتموا بإصلاح أنفسهم، فمن الممكن أن يبتلوا بأمراض جسمية و نفسية مختلفة.

و لهذا السبب- و لأسباب أخلاقية و اجتماعية أخرى- حرّم الإسلام الانحراف الجنسى تحريما شديدا بأى شكل كان و فى أية صورة، كما قرر للذى يقوم بهذا العمل عقابا صارما يبلغ أحيانا إلى درجة الإعدام و القتل!.

و الموضوع المهم هو أن الانفلات الاخلاقى و التميّع الجنسى و الابتذال للعالم المتمدن و الحضارة المادية قد جرّت كثيرا من الفتيان و الفتيات إلى الانحراف الكبير.

فى البداية يرغّبون الفتيان فى أن يلبسوا ثياب النساء و أن يظهروا بمظهر خاص، و يدعون النساء أن يلبسن ثياب الرجال، و تبدأ من هنا قضية الانحراف الجنسى حتى تصل إلى أقبح الأعمال الوقحة فى هذا المجال، و تأخذ شكلا قانونيا بحيث يعدون هذا الأمر عاديا لا يستحق أى نوع من العقاب أو التبعة، و لا يسع القلم إلّا أن يستحى و يخجل من وصف ذلك ۲۷۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۹

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۳۱ الى ۳۵]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (۳۱) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۲) وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۳) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۳۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۳۵)

التّفسير

و هذه هى عاقبة المنحرفين:

لقد أستجيب دعاء لوط أخيرا، و صدر الأمر من اللّه تعالى بالعقاب الصارم و الشديد لهؤلاء القوم المنحرفين و المفسدين، فمرّ الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التى فيها إبراهيم عليه السّلام لأداء رسالة أخرى قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط، و هذه الرسالة التى سبقت العذاب، هى بشارتهم لإبراهيم عليه السّلام بالولد:

«بشروه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۰

و الآيات المتقدمة تذكر أوّلا قصّة مرورهم بإبراهيم عليه السّلام فتقول: وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ

و التعبير ب «هذه القرية» يدل على أن مدن قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيم عليه السّلام و التعبير بالظالمين هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك و الفساد الأخلاقى و عدم العفة، و ظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين و القوافل التى كانت تمرّ على طريقهم.

فلمّا سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النّبى العظيم و قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً.

فما عسى أن تكون عاقبته؟! إلّا أنّهم أجابوه على الفور، قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها فلا تحزن عليه، لأننا لا نحرق «الأخضر و اليابس» معا، و خطتنا دقيقة و محسوبة تماما ... ثمّ أضافوا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ

و يستفاد من هذه الآية جيدا أنّ أسرة واحدة فقط فى جميع تلك المدن و القرى كانت مؤمنة و غير مدنّسة، و قد نجاها اللّه فى ذلك الحين أيضا ... كما نقرأ مثل ذلك فى الآية (٣۶) من سورة الذاريات: فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ و مع ذلك فإنّ امرأة لوط كانت خارجة عن جماعة المؤمنين، فشملها العذاب.

و التعبير ب «الغابرين» جمع «غابر» و معناه المتخلف عن جماعته الماضين فى الطريق، فالمرأة التى كانت فى عائلة النبوّة لا ينبغى لها أن تنفصل عن المؤمنين و المسلمين ... غير أنّ الكفر و الشرك و عبادة الأوثان- كل ذلك- دعاها إلى الانفصال!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٨١

و يتّضح من هنا أن انحرافها كان من جهة العقيدة، و لا يبعد أن يكون هذا الانحراف متأثرا بسبب محيطها ... و كانت فى بداية الأمر مؤمنة موحدة، و بهذا فلن يرد أى إشكال على لوط عليه السّلام فى أنّه لم تزوّج بمثل هذه المرأة؟! و إذا كان جماعة من المؤمنين الآخرين قد آمنوا بلوط، فمن المؤكّد أنّهم كانوا قد هاجروا عن تلك الأرض المدنّسة قبل هذا الحادث، ما عدا لوطا و أهله، فإنّه كان عليه أن يبقى إلى آخر ساعة هناك، لاحتمال تأثير تبليغه و إنذاره.

هنا ينقدح هذا السؤال: ترى هل كان «إبراهيم» يحتمل أن عذاب اللّه سيشمل لوطا، فأظهر تأثره أمام الملائكة، غير أنّهم طمأنوه بنجاة لوط؟! و الجواب الواضح على هذا السؤال، و هو أن إبراهيم كان يعرف الحقيقة، و إنّما سأل ليطمئن قلبه، نظير هذا السؤال ما كان من هذا النّبى العظيم فى شأن المعاد و إحياء الموتى، إذ جسد له اللّه ذلك فى إحياء أربعة من الطير «ليطمئن قلبه».

إلّا أنّ المفسّر الكبير العلّامة الطباطبائى يعتقد أنّ المراد من سؤال إبراهيم هو أن وجود «لوط» بين هؤلاء القوم سيكون دليلا على رفع العذاب عنهم ...

و يستعين بالآيات (٧۴)- (٧۶) من سورة هود على هذا المقصد، لأنّ هذه الآيات تبيّن: أنّه عليه السّلام كان يريد بقوله: إِنَّ فِيها لُوطاً أن يصرف العذاب بأن فيها لوطا و إهلاك أهلها يشمله، فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشملهم العذاب و هم أهله إلّا امرأته.[٢٧۴] لكننا نعتقد أنّ هذا الجواب من الملائكة- فى صدد نجاة لوط و أهله- يدلّ بوضوح أن الكلام فى هذه الآيات هو على لوط فحسب، و لكن آيات سورة هود تتحدث عن موضوع منفصل، و كما قلنا آنفا فإنّ إبراهيم كان ليطمئن قلبه أكثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٨٢

«فلاحظوا بدقة».

انتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، و توجهوا إلى ديار لوط عليه السّلام و قومه، يقول القرآن فى هذا الشأن: وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً.

و كان كلّ استيائه و عدم ارتياحه بسبب أنّه لم يعرفهم ... فقد جاؤوا إليه بهيئة فتيان ذى وجوه مليحة، و مجىء أمثال هؤلاء الضيوف فى مثل هذا المحيط الملوّث، ربّما كان يجرّ على لوط الوبال، و أن يذهب ماء وجهه أمامهم، لذلك فكر مليّا: ما عسى أن يكون ردّ

فعل هؤلاء القوم الضالين الوقحين الذين لا حياء لهم قبال هؤلاء الضيوف؟! «سىء» مشتقّة من «ساء» و معناه سوء الحال، و «الذرع» معناه «القلب» «الخلق»، فعلى هذا يكون معنى ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أى ضاق قلبه و انزعج.

و قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الكلمة فى الأصل تعنى «الفاصلة بين أطراف البعير أثناء السير» و حيث أنّهم إذا وضعوا على البعير حملا ثقيلا قصّر خطاه و ضيّق الفاصلة، عبروا بجملة «ضاق ذرعا» كناية عن الحادثة الثقيلة «الصعبة» التى لا تطاق! إلّا أنّ الضيوف حين أدركوا عدم ارتياحه كشفوا عن «هويّتهم» و عرفوا أنفسهم و رفعوا عنه الحزن: وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ

و يستفاد بالطبع من الآيات التى فى سورة هود أن أولئك القوم الأراذل، حين عرفوا بوجود الضيوف عند لوط عليه السّلام أسرعوا إليه، و كان فى نيّتهم أن يعتدوا عليهم، و حيث أن لوطا كان لا يزال غير عارف بحقيقة الملائكة فقد كان متأثرا جدّا، و كان تارة ينصحهم و اخرى يهدّدهم و مرّة يقول لهم: أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ فيحرك ضمائرهم و تارة يقترح عليهم الزواج من بناته، و أراد أن يمنعهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٨٣

من الوصول إلى أضيافه، لكن هؤلاء المنحرفين الذين لا حياء لهم لم يقتنعوا بأى شىء و لم يفكروا إلّا بهدفهم المخزى.

و لكن رسل اللّه عرفوا أنفسهم للوط عليه السّلام، و أعموا أبصار هؤلاء القوم الذين أرادوا الهجوم على الملائكة و اثلجوا قلب ذلك النّبى العظيم عليه السّلام.[٢٧٥] و ما ينبغى الالتفات إليه أن رسل اللّه قالوا للوط: لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ فما الفرق بين كلمتى «الخوف» و «الحزن»؟

ورد فى تفسير الميزان أن الخوف يقع على الحوادث غير المستساغة احتمالا .. أمّا الحزن فيقع فى الموارد القطعية.

و قال بعضهم: الخوف يطلق على الحوادث المستقبلية، أمّا الحزن فعلى ما مضى! كما يرد هذا الاحتمال و هو أن الخوف فى المسائل الخطرة، أمّا الحزن فهو فى المسائل الموجعة، و إن لم يكن فيها أى خطر! ..

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو أنّه طبقا لآيات سورة هود فإنّ لوط و خوفه لم يكن على نفسه، بل كان يخشى أن يضايقوا «ضيفه»[٢٧٦] غير أن جواب الملائكة يتعلق بنجاة لوط و أهله، و هذان الأمران غير منسجمين.

و الجواب على هذا السؤال يستفاد إجمالا من الآية (٨١) من سورة هود، لأنّ القوم المنحرفين حين مدّوا أيديهم إلى الضيوف قال الملائكة: يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ أى مسألتنا سهلة ... و لن يصل إليك سوء و أذى منهم أيضا، فعلى هذا كان الملائكة يرون النجاة بالنسبة لهم من المسلّم بها، و إنّما ركزوا على البشارة للوط و أهله فحسب.

و بعد هذا، و لكى تتضح خطة عملهم فى شأن عاقبة هؤلاء القوم المنحرفين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٨٤

أكثر، أضافوا: إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

و المراد بالقرية هى «سدوم» و ما جاورها من القرى و المدن التى كان يسكنها قوم لوط، و قد أوصل بعضهم عدد هؤلاء إلى سبعمائة ألف نفر[٢٧٧].

و المراد من «الرجز» هنا هو العذاب، و معناه الأصلى الاضطراب، ثمّ عبروا عن كل شىء يوجب الاضطراب بالرجز، و لذلك استعمل العرب كلمة الرجز فى كثير من المعانى كالبلايا الشديدة، و الطاعون أو البرد، و الأصنام، و وساوس الشيطان، و العذاب الإلهى .. إلخ.

و جملة بِما كانُوا يَفْسُقُونَ هى سبب عقابهم الشديد، لأنّهم لم يطيعوا اللّه، و التعبير بالفعل المضارع «يفسقون» دليل على استمرارهم و دوامهم على العمل القبيح!.

و هذا التعبير يبيّن هذه الحقيقة، و هى لو أن أولئك لم يستمروا على الذنب، و كانوا يتوبون و يعودون إلى طريق الحق و التقوى، لم

يبتلوا بمثل هذا العذاب و كانت ذنوبهم الماضية مغفورة.

و هنا لم يذكر القرآن كيفية العذاب الأليم، سوى أنّه قال: وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

إلّا أنّ فى سورة هود الآية (۸۲) منها، و كذلك سورة الأعراف الآية ۸۴ منها، تفصيلا فى بيان العذاب، و هو أنّه أصابت قراهم فى البداية زلزلة شديدة فجعلت عاليها سافلها، ثمّ أمطرت عليها حجارة من السماء بحيث توارت بيوتهم و قراهم و أجسادهم تحتها!.

و التعبير ب «الآية البينة» أى العلامة الواضحة، هو إشارة إلى الآثار الباقية من مدينة «سدوم» التى كانت فى طريق قوافل أهل الحجاز طبقا «لآيات القرآن» ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۵

و كانت باقية حتى ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و آله. كما نقرأ فى الآية (۷۶) من سورة الحجر وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ و كما نقرأ فى سورة الصافات الآيتين (۱۳۷) و (۱۳۸):

وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۳۶ الى ۴۰]

اشارة

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۳۶) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (۳۷) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (۳۸) وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (۳۹) فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۰)

التّفسير

تنوع العذاب للظالمين:

بعد بيان قصّة لوط و قومه يقع الكلام عن أقوام آخرين أمثال قوم شعيب و عاد و ثمود، و قارون و فرعون، و قد أشير فى هذه الآيات- محل البحث- إلى كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۷

منهم إشارة موجزة «مكثفة» للاستنتاج و العبرة! فى البداية تقول الآية: وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً[۲۷۸].

و التعبير بكلمة «أخاهم» كما قلنا مرارا، هو إشارة إلى منتهى محبّة هؤلاء الأنبياء إلى أممهم، و إلى عدم طلبهم السلطة، و بالطبع فإنّ هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقة قرابة بقومهم أيضا.

و «مدين» مدينة واقعة جنوب غربى الأردن، و تدعى اليوم ب «معان» و هى فى شرق خليج العقبة، و كان شعيب عليه السّلام و قومه يقطنون فيها[۲۷۹].

و شعيب كسائر أنبياء اللّه العظام، بدأ بالدعوة الى الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و هما أساس كل دين و طريقة فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ

ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ.

فالإيمان بالمبدأ يكون سببا لإحساس الإنسان بأن اللّه يراقبه مراقبة دقيقة بشكل دائم و يسجّل أعماله؛ و الإيمان بالمعاد يذكر الإنسان بمحكمة عظيمة يحاسب فيها عن كل شيء و كل عمل مهما كان تافها ... و من المسلم أنّ الإعتقاد بهذين الأصلين له أثره البالغ على تربية الإنسان و إصلاحه!.

و المبدأ الثّالث هو بمثابة خطّة عمل جامعة، تحمل بين طياتها جميع الخطط الاجتماعية، إذ قال: وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

و للفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، و تدمير، و ظلم .. إلخ .. و يقابله الصلاح و الإصلاح، و مفهومهما يشمل جميع الخطط البنّاءة!.

أمّا كلمة «تعثوا» فهي من مادة «عثى» و معناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما في الأمر أن هذا التعبير كثيرا ما يستعمل في الموارد التي تكون فيها «مفاسد أخلاقية»، فعلى هذا يكون ذكر كلمة «مفسدين» بعدها تأكيدا على هذا

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۸

المفهوم.

إلّا أنّ تلك الجماعة بدلا من أن تصغي لمواعظه و نصائحه بآذان القلوب، خالفته و لم تصغ إليه «فكذبوه».

و كان هذا التكذيب سببا في أن تصيبهم زلزلة شديدة فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ أي مكبوبين على وجوههم ميتين.

و «الجاثم» مشتق من «جثم» على زنة «سهم» و معناه الجلوس على الركبة و التوقف في مكان ما .. و لا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة .. فهذا التعبير إشارة إلى أنّهم عند وقوع هذه الحادثة نهضوا و جثوا على الركب، إلّا أنّ الحادثة لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم و نزلت عليهم الصاعقة التي تزامنت معها فماتوا[۲۸۰].

أمّا الآية التي بعده فتتحدث عن «عاد» و «ثمود» قومي (هود و صالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيّاهما لهما، و ما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنّهما مذكوران في آيات عديدة من القرآن، و هما أي قوم هود و قوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآية: وَ عاداً وَ ثَمُودَ[۲۸۱].

ثمّ تضيف الآية وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ المتهدمة و التي هي على طريقكم في منطقة الحجر و اليمن.

فأنتم في كل سنة تمرون في أسفاركم للتجارة بأرض «الحجر» التي تقع شمال جزيرة العرب، و بالأحقاف التي تقع قريبا من اليمن و جنوبها، و ترون آثار المساكن المتهدمة و بقاياها من عاد و ثمود، فعلام لا تعتبرون؟! ثمّ تشير الآية إلى السبب الأصلي لشقائهم و سوء حظّهم، إذ تقول:

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۹

وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

و كانت فطرتهم على فطرة اللّه و تقواه، و لم يأل الأنبياء جهدا في هدايتهم، و بذلوا قدرا كافيا من النصح و الإرشاد لهم، لكنّهم حادوا

وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ

قال بعض المفسّرين: إنّ جملة وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ تعني أنّهم كانوا ذوي أعين بصيرة، و عقل كاف.

و قال بعضهم: إنها تعني أنّهم كانوا على الفطرة السليمة.

كما قال آخرون: إنّها تعني هداية الأنبياء لهم.

و لا يمنع اجتماع جميع هذه المعاني في الآية الكريمة، فهي إشارة إلى أنّهم لم يكونوا جاهلين قاصرين، بل كانوا يعرفون الحق جيدا من قبل، و كانت ضمائرهم حية و لديهم العقل الكافي، و أتمّ الأنبياء عليهم الحجّة البالغة، و لكن ...

مع كل ما تقدم ... من نداء العقل و الضمير، و دعوة الأنبياء، فقد انحرفوا عن السبيل و وسوس لهم الشيطان، و يوما بعد يوم يرون

أعمالهم القبیحة حسنة، و بلغوا مرحلة لا سبیل لهم إلی الرجوع منها، فأحرق قانون الخلق و الإیجاد هذه العیدان الیابسة .. و هی جدیرة بـذلک! و الآیة الأخری تذکر أسـماء ثلاثة من الجبابرة الذین کان کل واحد منهم بارزا للقدرة الشـیطانیة، فتقول: وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ ۲۸۲].

فقارون کان مظهر الثروة المقرونة بالغرور و عبادة «الذات» و الأنانیة و الغفلة.

و فرعون کان مظهر القدرة الاستکباریة المقرونة بالشیطنة.

و أمّا هامان، فهو مثل لمن یعین الظالمین المستکبرین!.

ثمّ یضـیف القرآن وَ لَقَـدْ جاءَهُمْ مُوسـی بِالْبَیِّناتِ و الـدلائل فَاسْـتَکْبَرُوا فِی الْأَرْضِ فاعتمد قارون علی ثروته و خزائنه و علمه، و اعتمد فرعون و هامان علی جیشهما و علی القدرة العسکریة، و علی قوة إعلامهم و تضلیلهم لطبقات

الناس المغفّلین الجهلة.

لکن .. برغم کل ذلک لم یفلحوا وَ ما کانُوا سابِقِینَ

فأمر اللّه الأرض التی هی مهد الاطمئنان و الدعة بابتلاع قارون.

و أمر الماء الذی هو مصدر الحیاة بابتلاع فرعون و هامان.

و عبأ جنود السماوات و الأرض لإهلاکهم جمیعا، بل ما کان مصدر حیاتهم أمر اللّه أن یکون هو نفسه سببا لفنائهم ۲۸۳].

کلمة «سابقین» تعنی من یتقدم و یکون أمام الآخرین، فمفهوم قوله تعالی:

وَ ما کانُوا سابِقِینَ أی إنّهم لم یستطیعوا أن یهربوا من سلطان اللّه برغم ما کان عنـدهم من إمکانات، بل أهلکهم اللّه فی اللحظـة التی أراد، و أرسلهم إلی دیار الفناء و الذلة و الخزی.

کما یذکر فی الآیة التی بعدها فَکُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ

و حیث أنّ القرآن ذکر «الطوائف الأربع» فی الآیتین المتقدمتین، و لم یبیّن عذابهم، و هم:

۱- قوم هود «عاد».

۲- و ثمود «قوم صالح».

۳- قارون.

۴- فرعون و هامان.

فإنه یذکر فی هذه الآیة بحسب الترتیب أنواع عذابهم. فیقول: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَیْهِ حاصِباً.

و «الحاصب» معناه الاعصار الذی یحمل حصی کثیرة معه، و «الحصباء» «الحصی الصغیرة».

و المقصود ب «منهم» هنـا هم «عـاد» قوم هود، و حسب مـا جاء فی بعض السور کالـذاریات و الحاقـة و القمر، أصابهم اعصار شـدید مهلک خلال ثمانیة أیّام و سبع لیال فدمرهم تدمیرا.

یقول القرآن: سَخَّرَها عَلَیْهِمْ سَبْعَ لَیالٍ وَ ثَمانِیَةَ أَیَّامٍ حُسُوماً فَتَرَی الْقَوْمَ فِیها صَرْعی کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِیَةٍ فَهَلْ تَری لَهُمْ مِنْ باقِیَةٍ «الحاقة».

وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّیْحَةُ و قلنـا: إن الصـیحة السـماویة التی هی نتیجـة الصاعقـة التی تقترن مع الزلزلـة فی زمـان الوقوع، و هـذا هو العـذاب الـذی عـذب اللّه به ثمود «قوم هود» کما عذب آخرین ... و یقول القرآن فی الآیة (۶۷) من سورة هود فی شأن ثمود وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیارِهِمْ جاثِمِینَ

وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ و هذا هو عقاب قارون الثرى المغرور المستكبر من بنى إسرائيل، و قد أشير إليه فى الآية (۸۱) من سورة القصص.

وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا و نعرف أنّ هذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون و هامان و جنودهما، و قد ذكرت هذه القصّة فى سور متعددة من القرآن الكريم.

و على كل حال، فمع الالتفات لهذا البيان فإن أنواع العذاب الأربعة ذكرت هنا للطوائف الأربع المذكورين فى الآيتين المتقدمتين. حيث اشارتا إلى ضلالهم و انحرافهم و ذنوبهم دون أن تذكرا عقابهم.

و لكن من البعيد أن تشمل هذه الأنواع الأربعة من العذاب الواردة فى هذه الآية أقواما آخرين، كما يقول بعض المفسّرين. «كالغرق لقوم نوح، و إمطار الحجارة و الحصباء على قوم لوط» لأنّ عقابهم مذكور هناك و فى موارد ذكرهم و لا حاجة للتكرار هنا، و أمّا عقاب الفئات الأربع فلم يذكر فى هذه السلسلة من الآيات، و لذا بينه اللّه سبحانه فى الآيتين الأخيرتين.

و يبيّن فى ختام الآية التأكيد على هذه الحقيقة، و هى أنّ ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، و هم زرعوا فحصدوا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۲

يَظْلِمُونَ

أجل، إنّ عقاب هذه الدنيا و الآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح فى وجوههم. فاللّه أكثر عدلا و أسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم!.

و هذه الآية- كسائر كثير من آيات القرآن- تثبت أصل الحرية فى الإرادة و الإختيار عند الإنسان، و تقرر أن التصميم فى كل مكان يصدر من الإنسان نفسه. و قد خلقه اللّه حرّا و يريده حرّا .. فعلى هذا يبطل اعتقاد أتباع مذهب «الجبر» الذين لهم وجود بين المسلمين- مع الأسف- بهذا المنطق القوى للقرآن الكريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۳

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۴۱) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۴۲) وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ (۴۳) خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۴۴)

التّفسير

دعامة واهية كبيت العنكبوت:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۳۹۳

ّنت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون و المفسدون الظلمة و الأنانيون من مصير وخيم و عاقبة سوداء و عذاب أليم ... و بهذه

المناسبة، ففى الآيات التى بين أيدينا، يبيّن القرآن الكريم مثالا بليغا و مؤثرا يعبدون غير اللّه و يتخذون من دونه أولياء! و كلما أمعنا النظر فى هذا المثال و فكرنا فيه مليّا انقدحت فى أذهاننا منه لطائف دقيقة، يقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

كم هو بديع هذا المثال و طريف، و كم هو بليغ و دقيق هذا التشبيه!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٩۴

تأمّلوا بدقّة ... إنّ كل حيوان- و كل حشرة- له بيت أو وكر و ما أشبه ذلك، لكن ليس فى هذه البيوت بيت أوهن من بيت العنكبوت! فكل بيت- عادة- يحتوى على سقف و باب و جدار، و هو يحفظ صاحبه من الحوادث، و يكون مكانا أمينا لإيداع الأطعمة و الأشياء الأخرى و حفظها ... فبعض البيوت لا سقف لها إلّا أنّها على الأقل لها جدار، كما أنّ هناك بيوتا لا جدار لها إلّا أن لها سقفا.

لكن بيت العنكبوت المنسوج من خيوط دقيقة واهية، ليس له سقف و لا جدار و لا ساحة و لا باحة و لا باب، هذا من جانب ... و من جانب آخر فإنّ مواد بنائه واهية جدّا و سرعان ما تتلاشى إزاء أية حادثة بسيطة، فهى لا تقدر على المقاومة.

فلو هبّ نسيم عليل لتمزق هذا النسيج.

و لو سقطت عليه قطرات المطر لتلاشى و تلف.

و لو لامسته شعلة خفيفة لاحرقته.

و حتى لو تراكم عليه الغبار لتركه أشلاء ممزقة معلقة.

فآلهة هؤلاء الجماعة و معبوداتهم «الكاذبة» كمثل هذا البيت لا تنفع و لا تضر و لا تحلّ مشكلة، و لا تكون ملجأ لأحد فى المحنة و الشدّة!.

صحيح .. إن هذا البيت للعنكبوت- مع ما لها من أرجل طويلة- هو محل استراحتها، و شرك لاصطياد الحشرات و الحصول على الغذاء إلّا أن هذا البيت- بالقياس إلى البيوت الأخرى للحيوانات و الحشرات- فى منتهى الوهن و الانهيار!.

فمن يعتمد على غير اللّه و يتخذ من دونه وليا، فقد اعتمد على بيت العنكبوت!!.

و الذين اختاروا سوى اللّه، اعتمدوا على بيوت العناكب، كعرش فرعون و تاجه، و الأموال المتراكمة عند قارون، و قصور الملوك و خزائنهم، جميع هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٩۵

الأمور المذكورة كمثل بيت العنكبوت!.

فهى لا تدوم، و لا يمكن الاعتماد عليها، و لا أساس لها حتى تكون راسخة أمام طوفان الحوادث.

و التاريخ يدل على أنّه لا يمكن الاعتماد على أىّ من هذه الأمور حقّا.

أمّا الذين اعتمدوا على اللّه و توكلوا عليه، فقد اعتمدوا على سدّ حصين منيع.

و الجدير بالذكر، أنّ بيت العنكبوت و نسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، و التدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمة الخالق أكثر.، فخيوط العنكبوت «مصنوعة» و منسوجة من مائع لزج، هذا المائع مستقر فى حفر دقيقة و صغيرة كرأس الإبرة تحت بطن العنكبوت، و لهذا المائع خصوصية أو تركيب خاص هو أنّه متى ما لامس الهواء جهد و تصلّب.

و العنكبوت تخرج هذا المائع بواسطة آليات خاصة و تصنع خيوطها منه.

يقال: إن كلّ عنكبوت يمكن لها أن تصنع من هذا المائع القليل جدّا ما مقداره خمسمائة متر من خيطها المفتول!.

و قال بعضهم: إنّ الوهن فى هذه الخيوط منشؤه دقتها القصوى، و لولا هذه الدقة فإنها أقوى من الفولاذ «لو قدر أن تفتل بحجم الخيط الفولاذى».

العجيب أنّ هذه الخيط تنسج أحيانا من أربع جدائل كل جديلة هی أيضا منسوجة أو مصنوعة من ألف جديلة! و كل جديلة تخرج من ثقب صغير جدّا فی بدن العنكبوت، ففكروا الآن فی هذه الخيوط التی تتكون منها هذه الجديلة كم هی ناعمة و دقيقة و ظريفة؟! و إضافة إلى العجائب الكامنة فی بناء بيت العنكبوت و نسجه، فإنّ شكل بنائه و هندسته طريف أيضا، فلو دققنا النظر فی بيوت العنكبوت لرأينا منظرا طريفا مثل الشمس و أشعتها مستقرة على قواعد هذا «البناء النسيجی»، و بالطبع فإن هذا البيت مناسب للعنكبوت و كاف، و لكنّه فی المجموع لا يمكن تصور بيت

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٩٦

أوهن منه، و هكذا بالنسبة إلى آلهة الضالين و معبوديهم، إذ تركوا عبادة اللّه و التجأوا إلى الأصنام و الأحجار و الأوثان!!.

و مع الالتفات إلى أن العناكب ليست نوعا واحدا، بل- كما يدعى بعض العلماء- عرف منها حتى الآن عشرون ألف نوع، و كل نوع له خصوصياته التی تبين عظمة الخالق و قدرته فی خلق هذا الموجود الصغير بوضوح و جلاء.

التعبير ب «الأولياء» جمع ولی مكان التعبير بالأصنام، ربّما كان إشارة ضمنية إلى هذه اللطيفة، و هی أنّه ليس الحكم مختصا بالأصنام و الآلهة المزعومة، بل حتى الأئمة و القادة الارضيين مشمولون بهذا الحكم أيضا.

و جملة لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ تتعلق بالأصنام و المعبودين من دون اللّه و لا ترتبط بوهن بيت العنكبوت ... لأنّ وهن بيت العنكبوت معلوم عند الجميع، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة كالتالی: لو كانوا يعلمون وهن المعبودين من دون اللّه و ما ركنوا إليه من دونه و اختاروه، لعلموا أنّهم فی الوهن و الضعف كما هی الحال فی بيت العنكبوت من الوهن!.

أمّا الآية التالية ففيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفلة الجهلة .. إذ تقول: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ! و لا يخفى على اللّه شركهم الظاهر و لا شركهم الخفی وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ على الإطلاق! و إذا أمهلهم، فليس بسبب العجز و الضعف، أو عدم العلم، أو أن قدرته محدودة، بل كل ذلك من حكمته التی توجب أن يمنحوا الفرصة الكافية لتتم الحجة البالغة للّه عليهم، فيهتدی من هو جدير بالهدى!.

قال بعض المفسّرين: إن هذه الجملة إشارة إلى حجج المشركين و إلى ادّعائهم أنّهم فی عبادتهم للأصنام لا يريدون بها الأصنام ذاتها، بل إنّ الأصنام عندهم مطهر و رمز للنجوم السماوية و الأنبياء و الملائكة، فهم- كما يزعمون- يسجدون لأولئك لا للأصنام و خيرهم و شرهم و نفعهم و ضررهم بيدها أيضا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٣٩٧

فالقرآن يبيّن أن اللّه يعلم الأشياء التی تدعونها- كائنا من كان، و أی شیء كان- فكل أولئك المعبودين إزاء قدرته كمثل بيت العنكبوت، و لا يملكون لأنفسهم شيئا كی يعطوه لكم.، و الآية الثّالثة- من الآيات محل البحث- لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النّبی صلّى اللّه عليه و آله فی هذه الأمثلة التی ضربها اللّه، و كانوا يقولون: اللّه الذی خلق السماوات و الأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت و الذباب و الحشرات و ما شاكلها؟

فيردّ القرآن بقوله: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ

إنّ أهميّة المثال و ظرافته لا تكمن فی كبره و صغره، بل تظهر أهميته فی انطباق المثال على المقصود، فقد يكون صغر الشیء الممثل به أكبر نقطة فی قوته.

قالوا فی ضرب الأمثال: ينبغی عند الكلام عن الأشياء الضعيفة و التی فيها وهن أن يمثل لها فی ما لو اعتمد عليها ببيت العنكبوت، فهو أحسن شیء ينتخب لهذا الوهن و عدم الثبات، فهذا المثال هو الفصاحة بعينها و البلاغة ذاتها، و لذا قيل:

إنّه لا يعلم دقائق أمثلة القرآن و لا يدركها إلّا العلماء!.

و فی آخر آية- من الآيات محل البحث- يضيف القرآن الكريم: خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ليس

فی عمل اللّه باطل أو عبث ... فإذا التشبیه بالعنکبوت و بیته الخاوی هو أمر محسوب بدقّة. و إذا ما اختار موجودا صغیرا للتمثیل به فهو لبیان الحقّ، و إلّا فهو خالق أعظم المجرّات و المنظومات الشمسیّة و غیرها.

و من الطریف- هنا- أن نهایة هذه الآیات تنتهی بالعلم و الإیمان، ففی مکان یقول القرآن: لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ و فی مکان آخر یقول: وَ ما یَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ و فی الآیة التی نحن فی صددها یقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِلْمُؤْمِنِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۸

و هی إشارة إلی أن وجه الحق مشرق جلی دائما و لکنّه یثمر فی الموارد المستعدة ... فی قلب مطّلع باحث، و عقل یقظ مذعن للحق ... و إذا کان هؤلاء الذین عمیت قلوبهم لا یرون جمال الحق، فلیس ذلک لخفائه، بل لعماهم! و ضلالهم!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۹

الآیة [سورة العنکبوت (۲۹): آیة ۴۵]

اشارة

اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (۴۵)

التّفسیر

إن الصلاة تنهی عن الفحشاء و المنکر:

بعد الفراغ من بیان أقسام مختلفة من قصص الأمم السابقة و أنبیائهم العظام و ما عاملهم به قومهم من معاملة سیئة مذمومة، و بیان نهایة هؤلاء الظالمین الالیمة، یتوجه الخطاب- علی سبیل تسلیة الخاطر، و تقویة الروحیة، و إراءة الخط الکلّی أو الخطوط العامة- للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و یأمره بما ینبغی علیه أن یفعل.

فیبدأ أوّلا- بقوله: اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ ... أی اقرأ هذه الآیات فسوف تجد فیها ما تبتغیه و تطلبه من العلم و الحکمة و النصح، و معیار معرفة الحق من الباطل، و سبل تنویر القلب و الروح، و مسیر حرکة کل طائفة، أو مجموعة و اتجاهها!.

اقرأ .. و امض علی نهجها فی حیاتک، اقرأها و استلهم منها ... اقرأها و نوّر قلبک بتلاوتها.

و بعد بیان هذا الأمر الذی یحمل- فی الحقیقة- طابعا تعلیمیا، یأتی الأمر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۰

الثّانی الذی هو محور أصیل للتربیة فیقول تعالی: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ ...

ثمّ یبیّن فلسفة الصلاة الکبری فیقول: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ[۲۸۴].

طبیعة الصلاة- حیث أنّها تذکر بأقوی رادع للنفس، و هو الاعتقاد بالمبدأ و المعاد- فإنّها تردع عن الفحشاء و المنکر، فالإنسان الذی یقف للصلاة، و یکبر، یری اللّه أعلی من کل شیء و أسمی من کل شیء، و یتذکر نعمه فیحمده و یشکره، و یثنی علیه و ینعته بأنّه رحمان رحیم، و یذکر یوم الجزاء «یوم الدین» و یعترف بالعبودیة له، و یطلب منه العون، و یستهدیه الصراط المستقیم، و یتعوذ به من طریق المغضوب علیهم، و یلتجئ إلیه (مضمون سورة الحمد).

فلا شک أنّ قلب مثل هذا الإنسان و روحه سوف تدبّ فیها حرکة نحو الحقّ، و اندفاع نحو الطهارة، و نهوض نحو التقوی.

یرکع للّه .. و یضع جبهته علی الأرض ساجدا لحضرته، و یغرق فی عظمته، و ینسی أنانیته و ذاتیّاته جمیعا.

و يشهد بوحدانيته و برسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

و يصلى و يسلم على نبيّه، و يرفع يديه متضرعا بالدعاء ليجعله فى زمرة عباده الصالحين.

جميع هذه الأمور تمنح وجوده موجا من المعنوية، و تكون سدا منيعا بوجه الذنوب.

و يتكرر هذا العمل عدة مرّات «ليل نهار» فحين ينهض صباحا يقف بين يدى ربّه و خالقه ليناجيه ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۱

و عند منتصف النهار و بينما هو غارق فى حياته المادية يفاجأ بصوت تكبير المؤذن، فيقطع عمله و يسرع إلى حضرته، بل فى آخر النهار بداية الليل أيضا و قبل أن يدلف إلى فراش الدعة و الراحة، يدعوه و يطلب منه حاجته، و يجعل قلبه مركز أنواره.

و بغض النظر عن كل ما تقدم فإنّ الإنسان حين يتهيأ لمقدمات الصلاة، يطهّر بدنه و يبعد عنه مسائل الحرام و الغصب، و يتجه إلى الحبيب، فكلّ هذه الأمور لها تأثير رادع لنوازع الفحشاء و المنكر.

غاية ما فى الأمر أنّ كل صلاة- بحسب شروط الكمال و روح العبادة لها- أثر رادع ناه عن الفحشاء و المنكر، فتارة تنهى نهيا كليّا و أخرى جزئيا ..

و محدودا.

و لا يمكن لأحد أن يصلى و لا تدع الصلاة فيه أثرا حتى لو كانت الصلاة صورية، و حتى لو كان ملوّثا بالذنب! و بالطبع فإنّ مثل هذه الصلاة قليلة الفائدة و مثل هؤلاء الأفراد لو لم يصلّوا صلاة كهذه لكانوا أسوأ ممّا هم عليه.

و لنوضّح أكثر فنقول: النهى عن الفحشاء و المنكر له سلسلة درجات و مراتب كثيرة، و كل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

و ممّا بيّناه آنفا يتّضح أن تخبط بعض المفسّرين فى تفسير هذه الآية، و انتخاب تفسيرات غير مناسبة لا وجه له! و ربّما فسّروها بتفسير غير مناسب، لأنّهم رأوا بعض الناس يصلون و يرتكبون الذنوب، ففسّروا الآية فى معناها المطلق دون سلسلة المراتب، و أخذوا يشكّون و يترددون، فاختاروا طرقا أخرى فى تفسير الآية.

فمنها ما قاله بعضهم: من أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر ما دام الإنسان مشغولا بها. و هذا كلام عجيب، إذ لا تتميز الصلاة بهذا وحدها، فكثير من الأعمال على هذه الشاكلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۲

و قال بعضهم: إنّ أعمال الصلاة و أذكارها بمثابة عبارات و جمل، كل جملة تنهى الإنسان عن الفحشاء و المنكر، فمثلا كل من التكبير و التهليل و التسبيح .. كلّ منها يقول للإنسان: لا تذنب و لكن هل أنّ هذا الإنسان يصغى لهذا النهى أم لا ...

فهذا أمر آخر.

و لكن من ذهب الى هذا التّفسير، غفل عن هذه الحقيقة، و هى أن النهى هنا ليس نهيا تشريعيا فحسب، بل هو نهى تكوينى، فظاهر الآية أنّ الصلاة لها أثر ناه، و التّفسير الأصيل هو ما قدمناه ذكره و بيانه آنفا.

و بالطبع فلا مانع من القول أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر نهيا تكوينيا و نهيا تشريعيا أيضا.

«أحاديث» ينبغى الالتفات إليها

-۱

فى حديث عن النّبى الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله ورد أنّه قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد من اللّه إلّا

بعدا».[۲۸۵]

۲- و

فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله أيضا: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، و طاعة الصلاة أن ينتهى عن الفحشاء و المنكر»[۲۸۶].

۳- كما نقرأ

فى حديث ثالث عنه صلّى اللّه عليه و آله أنّ شابا من الأنصار أدّى الصلاة معه، و لكنّه كان ملوثا بالذنوب القبيحة، فأخبروا النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقال: «إن صلاته تنهاه يوما»[۲۸۷].

۴- هذا الأثر للصلاة له أهمية قصوى إلى درجة أنّنا نجده فى الرّوايات الإسلامية معيارا لقبول الصلاة و عدمها، إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال:

«من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء و المنكر؟! فبقدر ما منعته قبلت منه!»[۲۸۸].

و يقول القرآن تعقيبا على ما ذكره و من شأن الصلاة وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.

و ظاهر الجملة هو بيان غاية و حكمة أخرى فى الصلاة، أى أن أثرا آخر من آثار الصلاة و بركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء و المنكر هو تـذكير الإنسـان بربّه، هـذا الـذكر هو أساس السـعادة و الخير، بل العامل الأصـلى للنهى عن الفحشاء و المنكر أيضا هو ذكر اللّه، و كونه أكبر لأنّه العلّة و الأساس للصلاة!.

و أساسا ... فإنّ ذكر اللّه فيه حياة القلوب و دعتها، و لا شىء يبلغ مبلغه أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۲۸۹].

و لا ريب أنّ روح العبادة بجميع أقسامها- صلاة كانت أم غيرها- هو ذكر اللّه، فأذكار الصلاة، و أفعالها و مقدماتها، جميعها فى الواقع تحيى ذكر اللّه فى قلب الإنسـان.! و ممّـا يلفت النظر أن فى الآيـة (۱۴) من سورة طه إشارة إلى هذه الحكمة الأساسـية من الصـلاة، إذ نلاحظ فيها الخطاب لموسى قائلا: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى

إلّا أنّ المفسّـرين الكبار ذكروا للجملة المتقدمة تفسيرات أخرى، و قد ورد فى الرّوايات الإسـلامية إشارة إليها أيضا ... من ضمنها: إنّ المراد من الجملة المتقدمة، أن ذكر اللّه لكم برحمته أكبر من ذكركم للّه بطاعته ۲۹۰].

و منها: إنّ ذكر اللّه أكبر من الصلاة و أعلى، لأنّ روح كل عبادة «ذكر اللّه».

و هذا التّفاسير التى ورد بعضها فى الرّوايات الإسلامية، ربّما كانت إشارة إلى

بطون الآيـة، و إلّـا فـإنّ ظاهرهـا منسـجم مع المعنى الأـوّل، لأنّه فى أغلب الموارد التى يرد التعبير فيها ب «ذكر اللّه» أو «ذكروا اللّه» أو «اذكروا اللّه» ... إلـخ، يقصـد بها ذكر الناس للّه! و الآية المذكورة آنفا، يتداعى لها هذا المعنى، إلّا أنّ ذكر اللّه لعباده يمكن أن يكون نتيجة مباشرة لذكر العباد للّه، و بهذا يرتفع التضاد بين المعنيين.

فى حـديث عن معـاذ بن جبـل أنّه قـال: لا شـىء من أعمال ابن آدم لنجاته من عـذاب اللّه أكبر من ذكر اللّه، فسألوه: حتى الجهاد فى سبيل اللّه؟! فقال: أجل، فاللّه يقول: وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.

و الظاهر أنّ «معاذ بن جبل» سـمع هذا الكلام من رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله: لأنّه نفسه ينقل إنّه سأل رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أىّ الأعمال أفضل؟

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أن تموت و لسانك رطب من ذكر اللّه».

و حيث أنّ نيّات النـاس، و ميزان حضور القلب منهم فى الصـلاة و سائر العبادات، كل ذلك متفاوت جـدّا، فإنّ الآيـة تختتم بالقول: وَ

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ

أی يعلم ما تصنعون من أعمال فی الخفاء أو العلن، و النيّات التی فی قلوبكم أو الكلمات التی تجری على ألسنتكم!.

بحث

تأثير الصلاة فی تربية الفرد و المجتمع:

بـالرغم من أن فائـدة الصـلاة لا تخفى على أحـد، لكن التـدقيق فی متون الروايات الإسـلامية يـدلنا على لطائف و دقائق أكثر فی هـذا المجال!.

۱- إنّ روح الصلاة و أساسها و هدفها و مقدمتها و نتيجتها ... و أخيرا حكمتها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۵

و فلسفتها[۲۹۱]، هی ذكر اللّه، كما بيّنت فی الآية على أنّها أكبر النتائج.

و بالطبع فإنّ الـذكر المراد هنا، هو الذكر الذی يكون مقدمة للفكر، و الفكر الذی يكون باعثا على العمل، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السّـلام فی تفسـير جملة وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ قال: «ذكر اللّه عند ما أحلّ و حرّم» أی على أن يتذكر اللّه فيتبع الحلال و يغضى أجفانه عن الحرام «بحار الأنوار، ج ۸۲، ص ۲۰۰».

۲- إنّ الصـلاة وسـيلة لغسل الـذنوب و التطهر منها، و ذريعة إلى مغفرة اللّه، لأنّ الصـلاة- كيف ما كانت- تدعوا الإنسان إلى التوبة و إصلاح الماضی، و لذلك فإننا نقرأ فی حديث عن النّبی الأكرم صلّى اللّه عليه و آله إذ سأل بعض أصحابه:

«لو كان على باب دار أحـدكم نهر و اغتسل فی كل يوم منه خمس مرات أ كان يبقى فی جسـده من الدرن شـیء؟! قلت لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاری كلما صلّى كفرت ما بينهما من الذنوب»[۲۹۲].

و على هذا فإنّ الجراح التی تخلفها الذنوب فی روح الإنسان، و تكون غشاوة على قلبه، تلتئم بضماد الصلاة و ينجلی بها صدأ القلوب!

۳- إنّ الصـلوات سدّ أمام الذنوب المقبلة، لأنّ الصـلاة تقوی روح الإيمان فی الإنسان، و تربّی شجيرة التقوى فی قلب الإنسان، و نحن نعرف أن الإيمـان و التقوى هما أقوى سـدّ أمام الـذنوب، و هـذا هو ما بيّنته الآيـة المتقدمـة عنوان «النهی عن الفحشاء و المنكر»، و ما نقرؤه فی أحاديث متعددة من أن أفرادا كانوا مذنبين، فذكر حالهم لأئمّة الإسلام فقالوا: لا تكترثوا فإنّ الصلاة تصلح شأنهم ... و قد أصلحتهم.

۴- إن الصـلاة توقظ الإنسان من الغفلة، و أعظم مصيبة على السائرين فی طريق الحقّ أن ينسوا الهدف من إيجادهم و خلقهم، و يغرقوا فی الحياة المادية

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۶

و لذائـذها العابرة! إلّا أنّ الصـلاة بما أنّها تؤدى فی أوقات مختلفـة، و فی كل يوم و ليلـة خمس مرات، فإنّها تخطر الإنسان و تنـذره، و تبيّن له الهدف من خلقه، و تنبهه إلى مكانته و موقعه فی العالم بشكل رتيب، و هذه نعمة كبرى للإنسان بحيث أنّها فی كل يوم و ليلة تحثه و تقول له: كن يقظا.

۵- إنّ الصـلاة تحطّم الأنانية و الكبر، لأنّ الإنسان فی كلّ يوم و ليلة يصـلی سـبع عشرة ركعة، و فی كل ركعة يضع جبهته على التراب تواضعا للّه، و يرى نفسه ذرة صغيرة أمام عظمة الخالق، بل يرى نفسه صفرا بالنسبة إلى ما لا نهاية له!.

و لأـمير المؤمنين على عليه السّـلام كلاـم معروف تتجسـد فيه، فلسـفة العبـادات الإسـلامية بعـد الإيمان باللّه، فبيّن أوّل العبادات و هی

الصلاة مقرونة بهذا الهدف إذ

قال: «فرض اللّه الإيمان تطهيرا من الشرك، و الصلاة تنزيها عن الكبر»[۲۹۳].

۶- الصلاة وسيلة لتربية الفضائل الخلقية و التكامل المعنوى للإنسان، لأنّها تخرج الإنسان عن العالم المحدود و تدعوه إلى ملكوت السماوات، و تجعله مشاركا للملائكة بصوته و دعائه و ابتهاله، فيرى نفسه غير محتاج إلى واسطة إلى اللّه أو أن هناك «حاجبا» يمنعه ... فيتحدث مع ربّه و يناجيه!.

إن تكرار هذا العمل فى اليوم و الليلة- و بالاعتماد على صفات اللّه الرحمن الرحيم العظيم، خاصة بالاستعانة بسور القرآن المختلفة بعد سورة الحمد التى هى خير محفّز للصالحات، و الطهارة- له الأثر فى تربية الفضائل الخلقية فى وجود الإنسان! لذلك نقرأ فى تعبير الإمام على أمير المؤمنين عليه السّلام عن حكمتها

قوله: «الصلاة قربان كل تقىّ!»[۲۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۷

۷- إن الصلاة تعطى القيمة و الروح لسائر أعمال الإنسان؛ لأنّ الصلاة توقظ فى الإنسان روح الإخلاص ... فهى مجموعة من النية الخالصة و الكلام الطاهر «الطيب» و الأعمال الخالصة ... و تكرار هذه المجموعة فى اليوم و الليلة ينثر فى روح الإنسان بذور سائر الأعمال الصالحة و يقوّى فيه روح الإخلاص.

لذلك فإنّنا نقرأ فى بعض ما

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى ضمن وصاياه المعروفة بعد أن ضربه ابن ملجم بالسيف ففلق هامته، أنّه قال: «اللّه اللّه فى صلاتكم فإنها عمود دينكم»[۲۹۵].

و نعرف أنّ عمود الخيمة إذا انكسر أو هوى، فلا أثر للأوتاد و الطنب مهما كانت محكمة ... فكذلك ارتباط عباد اللّه به عن طريق الصلاة، فلو ذهبت لم يبق لأى عمل آخر أثر.

و نقرأ

عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل سائر عمله، و إن ردّت ردّ سائر عمله!».

و لعل الدليل على هذا الحديث هو أن الصلاة رمز للعلاقة و الارتباط بين الخالق و المخلوق! فإذا ما أدّيت بشكل صحيح، و كان فيها قصد القربة و الإخلاص «حيّا» كان وسيلة القبول لسائر الأعمال، و إلّا فإنّ بقية أعماله تكون مشوبة و ملوّثة و ساقطة من درجة الاعتبار.

۸- إنّ الصلاة- بقطع النظر- عن محتواها، و مع الالتفات إلى شرائط صحتها، فإنّها تدعوا إلى تطهير الحياة! لأنّنا نعلم أن مكان المصلى، و لباس المصلى، و بساطه الذى يصلى عليه، و الماء الذى يتوضأ به أو يغتسل منه، و المكان الذى يتطهر فيه «وضوء أو غسلا» ينبغى أن يكون طاهرا من كل أنواع الغصب و التجاوز على حقوق الآخرين. فإنّ من كان ملوّثا بالظلم و الغصب و البخس فى الميزان و البيع و آكلا للرشوة و يكتسب أمواله من الحرام ... كيف يمكن له أن يهىء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۸

مقدمات الصلاة!؟ فعلى هذا فإنّ تكرار الصلاة خمس مرات فى اليوم و الليلة- هو نفسه- دعوة إلى رعاية حقوق الآخرين! ۹- إنّ للصلاة- بالإضافة إلى شرائط صحتها- شرائط لقبولها، أو بتعبير آخر:

شرائط لكمالها، و رعايتها- أيضا- عامل مؤثر و مهم لترك كثير من الذنوب!.

و قد ورد فى كتب الفقه و مصادر الحديث روايات كثيرة تحت عنوان موانع قبول الصلاة، و منها «شرب الخمر» إذ

جاء فى بعض الرّوايات: لا تقبل صلاة شارب الخمر أربعين يوما إلّا أن يتوب ۲۹۶].

كما نقرأ فى روايات متعددة أنّ من جملة «من لا تقبل صلاته «الإمام الظالم»[۲۹۷].

كما صرّح فى بعض الرّوايات بأنّ الصلاة لا تقبل من «مانع الزكاة».

كما أنّ هناك بعض الرّوايات تقول: «إنّ الصلاة لا تقبل ممن يأكل السحت و الحرام، و لا ممن يأخذه العجب و الغرور» و هكذا تتّضح الحكمة و الفائدة الكبيرة من وجود هذه الشروط.

۱۰- إنّ الصلاة تقوى فى الإنسان روح الانضباط و الالتزام، لأنّها ينبغى أن تؤدى فى أوقات معينة، لأنّ تأخيرها عن وقتها أو تقديمها عليه موجب لبطلانها.

و كذلك الآداب و الأحكام الأخرى فى موارد النية و القيام و الركوع و السجود و ما شابهها، إذ أن رعايتها تجعل الاستجابة للالتزام فى مناهج الحياة ممكنا و سهلا.

كل هذه من فوائد الصلاة- بغض النظر عن صلاة الجماعة- و إذا أضفنا إليها خصوصية الجماعة، حيث أنّ روح الصلاة هى الجماعة، ففيها بركات لا تحصى و لا تعدّ، و لا مجال هنا لشرحها و بيانها، مضافا الى أن الجميع يدرك خيراتها و فوائدها على الإجمال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۹

و نختم كلامنا فى مجال حكمة الصلاة و فلسفتها و أسرارها بحديث جامع منقول عن الإمام الرضا عليه السّلام إذ سئل عنها فأجاب بما يلى:

«إن علة الصلاة أنّها إقرار بالربوبية للّه عزّ و جلّ، و خلع الأنداد، و قيام بين يدى الجبار جل جلاله بالذل و المسكنة و الخضوع و الاعتراف، و الطلب للإقالة من سالف الذنوب، و وضع الوجه على الأرض كل يوم إعظاما للّه عزّ و جلّ و أن يكون ذاكرا غير ناس و لا بطر، و يكون خاشعا متذللا، راغبا طالبا للزيادة فى الدين و الدنيا مع ما فيه من الإيجاب و المداومة على ذكر اللّه عزّ و جلّ بالليل و النهار، لئلا ينسى العبد سيده و مديره و خالقه فيبطر و يطغى، و يكون فى ذكره لربّه و قيامه بين يديه زاجرا له عن المعاصى و مانعا له عن أنواع الفساد».[۲۹۸]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۱

بداية الجزء الحادى و العشرون من القرآن الكريم و يبدأ من بداية الآية ست و أربعون سورة العنكبوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۳

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۴۶ الى ۴۹]

اشارة

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۴۶) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ (۴۷) وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (۴۸) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ (۴۹)

التّفسير

اتّبعوا أحسن الأساليب فى البحث و الجدال:

كان أكثر الكلام فى الآيات المتقدمة فى كيفية التعامل مع المشركين المعاندين و كان مقتضى الحال أن يكون الكلام شديد اللهجة

حادّا، و أن یعدّ ما یعبدون من دون اللّه أوهی من بیت العنکبوت، أمّا فی هذه الآیات- محل البحث- فیقع الکلام فی شأن مجادلة أهل الکتاب الذین ینبغی أن یکون الکلام معهم لطیفا، إذ أنّهم- علی الأقل- قد سمعوا قسما ممّا جاء به الأنبیاء و الکتب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۴

السماویة، و لدیهم استعداد أکثر للتعامل المنطقی، إذ ینبغی أن یکلم کل شخص بمقدار علمه و عقله و أخلاقه.

فیقول القرآن فی هذا الصدد: لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْکِتابِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ ۲۹۹].

«تجادلوا» مشتق من «جدال» و معناه فی الأصل فتل الحبل و إحکامه، کما تستعمل هذه المفردة فی البناء المحکم و ما أشبهه، و حین یتناقش اثنان فی بحث معین فکل واحد منهما- فی الحقیقة- یرید أن یلوی صاحبه عن عقیدته و فکرته .. لذا فقد سمّی هذا النقاش جدالا. کما یرد هذا التعبیر فی النزاع أیضا، و علی کل حال فإنّه المراد من قوله وَ لا تُجادِلُوا المناقشات المنطقیة.

و التعبیر ب بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ تعبیر جامع یشمل الأسالیب و الطرق الصحیحة و المناسبة للتباحث أجمع، سواء کان ذلک فی الألفاظ أو المحتوی، و سواء کان فی طریقة الکلام، أو الحرکات و الإشارات المصاحبة له.

فعلی هذا یکون مفهوم الجملة المتقدمة: إنّ ألفاظکم ینبغی أن تکون بطریقة مؤدبة، و الکلام ذا مودّة، و المحتوی مستدلا، و صوتکم هادئا غیر خشن، و لا متجاوزا لحدود الأخلاق أو لهتک الحرمة، و کذلک بالنسبة لحرکات الأیدی و العیون و الحواجب التی تکمل البیان، ینبغی أن تکون هذه الحرکات ضمن هذه الطریقة المؤدبة ... و کم هو جمیل هذا التعبیر القرآنی، إذ أوجز عالما من المعانی الدقیقة فی جملة قصیرة.

کل هذه الأمور لأجل أن الهدف من وراء النقاش و البحث لیس هو طلب التفوق و دحر الطرف الآخر، بل الهدف أن یکون الکلام حتی ینفذ فی القلب و فی أعماق الطرف الآخر ... و خیر السبل للوصول إلی هذا الهدف هو هذا الأسلوب القرآنی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۵

و کثیرا ما یتفق أنّه لو استطاع الإنسان أن یبیّن قول الحق بصورة یراه الطرف الآخر متطابقا لفکره و رأیه، فسرعان ما ینعطف إلیه و ینسجم معه، لأنّ الإنسان ذو علاقة بفکره کعلاقته بأبنائه.

و هکذا فإنّ القرآن الکریم یثیر الکثیر من المسائل علی صورة «السؤال و الاستفهام» لینتزع جوابه من داخل فکر المخاطب فیراه منه! و بالطبع فإنّ لکل قانون استثناء، و منها هذا القانون أو الأصل الکلی فی البحث و المجادلة الإسلامیة، فقد یعدّ فی بعض الموارد ضعفا، أو یکون الطرف الآخر مغرورا الی درجة أن هذا التعامل الإنسانی یزیده جرأة و عدوانا و تکبرا، لذلک فإنّ القرآن یضیف مستثنیا: إِلَّا الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

و هم الذین ظلموا أنفسهم و ظلموا الآخرین، و کتموا کثیرا من الآیات، لئلا یطلع الناس علی أوصاف النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله.

الظالمون الذین جعلوا أوامر اللّه التی لا تنسجم مع منافعهم الشخصیة تحت أقدامهم.

الظالمون الذین آمنوا بالخرافات فکانوا کالمشرکین فی عقیدتهم إذ قالوا:

إن المسیح ابن اللّه، أو العزیر ابن اللّه.

و أخیرا فهم أولئک الذین ظلموا و تذرعوا بالسیف و القوّة بدلا من البحث المنطقی، و توسّلوا بالشیطنة و التآمر علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و علی الإسلام.

و یختتم الآیة بمصداق بارز من «المجادلة بالتی هی أحسن» و یمکنه أن یکون قدوة لأی بحث؛ فیقول القرآن الکریم: وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُکُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

کم هو جمیل هذا التعبیر! و کم هو رائع هذا النغم و اللهجة! لهجة الوحدة و الإیمان بکل ما أنزل اللّه الواحد، و حذف جمیع

العصبيّات، و نحن و أنتم جميعا موحدون للّه مسلمون له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۶

و هذا مثل واحد من المجادلة بالتى هى أحسن التى ينجذب إليها كل من يسمعها، و يدلّ على أن الإنسان يجب أن يكون بعيدا عن التحزب أو طلب التفرقة، فنداء الإسلام هو نداء الوحدة و التسليم لكل كلام حق.

و أمثلة هذا البحث كثيرة فى القرآن، و من ضمنها ما أشار إليه

الإمام الصادق عليه السّلام إذ قال: «أمّا الجدال بالتى هى أحسن فهو ما أمر اللّه تعالى نبيّه أن يجادل به من جحد البعث بعد الموت و إحياءه له، فقال اللّه حاكيا عنه: قل (يا محمّد)» يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۳۰۰].

و الآية الأخرى تؤكّد على الأصول الأربعة التى سبق ذكرها فى الآية المتقدمة، فتقول: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ أى القرآن.

أجل ... نزل هذا القرآن على أساس توحيد المعبود، و توحيد دعوة جميع الأنبياء إلى الحق، و التسليم دون قيد أو شرط لأمر اللّه؛ و المجادلة بالتى هى أحسن!.

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من جملة وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ هو تشبيه نزول القرآن على النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله أى كما أنزلنا كتبا من السماء على الأنبياء الماضين، فكذلك أنزلنا إليك الكتاب!.

إلّا أنّ التّفسير السابق يبدو أكثر دقّة، و إن كان الجمع بين التّفسيرين ممكنا أيضا.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ و يعتقدون بصدقه .. إذ أنّهم وجدوا علائمه فى كتبهم، كما أن محتواه من حيث الأصول العامّة و الكلية منسجم مع كتبهم!.

و من المعلوم أن جميع أهل الكتاب (اليهود و النصارى) لم يؤمنوا بنبوّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۷

محمّد صلّى اللّه عليه و آله «نبى الإسلام» فتكون هذه الجملة فى خصوص تلك الجماعة المؤمنة منهم، و التى تبتغى الحق دون تعصب، فتكون جديرة أن يطلق عليها «أهل الكتاب».

و يضيف القرآن بعدئذ: وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۳۰۱] أى أهل مكّة و المشركون العرب.

ثمّ يقول القرآن فى كفر الطائفتين من اليهود و النصارى وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ

و مع الالتفات إلى أنّ مفهوم الجحود، هو أن يعتقد الإنسان بشىء بقلبه و ينكره بلسانه، فإنّ مفهوم الجملة المتقدمة أن الكفار يعترفون فى قلوبهم بعظمة هذه الآيات، و يرون علامات الصدق عليها، و منهج النّبى و طريقته و حياته النقية، و أن أتباعه هم المخلصون، و يعدّون كل ذلك دليلا على أصالته، إلّا أنّهم ينكرون ذلك عنادا و تعصبا، و تقليدا أعمى لأسلافهم و لآبائهم، و لحفظ منافعهم الشخصية.

و على هذا فإنّ القرآن يحدد مواقف الأمم المختلفة إزاء هذا الكتاب و يصنفهم إلى قسمين:

فقسم هم أهل الإيمان، سواء من علماء اليهود و النصارى، أو المؤمنين بصدق، أو المشركين العطاشى إلى الحقّ الذين عرفوا الحق فتعلقت قلوبهم به.

و قسم آخر هم المنكرون المعاندون، الذين رأوا الحق إلّا أنّهم أنكروه و أخفوا أنفسهم عنه كالخفاش، لأنّ ظلمة الكفر كانت جزءا من نسيج وجودهم، فهم يستوحشون من نور الإيمان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۸

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ هذا القسم- أو هذا الطائفة- كانوا كفرة من قبل، و لكن التأكيد على كفرهم ممكن أيضا، و ذلك لأنّهم

لم تتمّ الحجّة علیهم من قبل، و لکنّهم بعد أن تمّت علیهم الحجّة، فقد أصبحوا کافرین کفرا حقیقتا، و حادوا بعلمهم و اطلاعهم عن الصراط المستقیم، و خطوا فی دروب الضلال!.

ثمّ یضیف القرآن مشیرا إلی علامة أخری من علائم حقانیة دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله الجلیة و الواضحة، و هی تأکید علی محتوی الآیة السابقة، فیقول: وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ و قالوا إنّ ما جاءنا به هذا النّبی هو حصیلة مطالعاته لکتب الماضین.

و معنی هذه الآیة أنّک لم تذهب إلی مدرسة قط، و لم تکتب من قبل کتابا قط، لکنّک باشارة من وحی السماء أصبحت تعرف المسائل أفضل من مائة مدرس!.

کیف یمکن أن یصدق أن شخصا لم یقرأ کتابا و لم یر أستاذا و لا مدرسة، أن یأتی بکتاب یتحدی به جمیع البشر أن یأتوا بمثله، فیعجز جمیعهم عن الإتیان بما طلب.

أ لیس هذا دلیلا- علی أن قوّتک تستمدّ من قوة الخالق غیر المحدودة، و أن کتابک وحی السماء ألقاه اللّه إلیک؟! و ینبغی الإشارة إلی أنّه لو سأل سائل: من أین نعرف أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یذهب إلی مدرسة قط؟!.

فنجیب أنّه صلّی اللّه علیه و آله قد عاش فی بیئة المثقفون و المتعلمون فیها معدودون و محدودون ... حتی قیل أن لیس فی مکّة أکثر من سبعة عشر رجلا یجیدون القراءة و الکتابة، ففی مثل هذا المحیط و هذه البیئة، لو قدّر لأحد أن یمضی إلی المدرسة فیتعلم القراءة و الکتابة، فمن المستحیل أن یکون مجهولا، بل یکون معروفا فی کل مکان. کما یعرف الناس أستاذه و درسه أیضا.

فکیف یمکن لمثل هذا الشخص أن یدعی أنّه نبیّ صادق و مع ذلک یکذب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۹

هذه الکذبة المفضوحة و المکشوفة؟ خاصة أن هذه الآیات نزلت فی مکّة، مهد نشأة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و کذلک فی قبال الأعداء الألدّاء الذین لا تخفی علیهم أقل نقطة ضعف!!.

و فی الآیة التالیة علامة أخری أیضا علی حقانیة القرآن، إذ تقول: بَلْ هُوَ آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ

و التعبیر ب «الآیات البینات» کاشف عن هذه الحقیقة و هی أن دلائل حقانیة القرآن تتجلی بنفسها عیانا، و تشرق فی أرجائه، فدلیلها معها.

و فی الحقیقة، إنّها مثل الآیات التکوینیة التی تجعل الإنسان یذعن بحقیقتها عند مطالعتها دون حاجة إلی شیء آخر، هذه الآیات التشریعیة- أیضا- من حیث ظاهرها و محتواها کذلک، إذ هی دلیل علی صدقها.

ثمّ بعد هذا کلّه، فإنّ أتباع هذه الآیات و طلابها المشدودة قلوبهم إلیها هم أولوا العلم و الاطلاع، بالرغم من أن أیدیهم خالیة و أرجلهم حافیة!.

و بتعبیر أوضح: إنّ واحدا من طرق معرفة أصالة مذهب ما دراسة حال المؤمنین به، فإذا کان الجهال المحتالون قد التفوا حول الشخص، فهو أیضا من نسیجهم، و لکن إذا کان من التفّ حول الشخص هم الذین امتلأت صدورهم بأسرار العلوم و هم أوفیاء له، فیکون هذا الأمر دلیلا- علی حقانیة ذلک الشخص، و نحن نری أن جماعة من علماء أهل الکتاب، و رجالا متقین أمثال أبی ذر و سلمان و المقداد و عمار بن یاسر، و شخصیة کبیرة کعلی بن أبی طالب علیه السّلام، هم حماة هذا المبدأ.

و فی روایات کثیرة منقولة عن أهل البیت علیهم السّلام، إنّ المراد بالذین أوتوا العلم هم الأئمّة من أهل البیت علیهم السّلام و طبعا ... فلیس هذا المعنی منحصرا فیهم، بل هم المصداق الجلی لهذه الآیة[۳۰۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۰

و إذا ما لاحظنا أن بعض الرّوایات تصرّح أنّ المراد من هذه العبارة المتقدمة هم الأئمّة علیهم السّلام، فإنّ ذلک فی الحقیقة إشارة إلی

المرحلة الكاملة لعلم القرآن الذی عندهم، و لا يمنع أن يكون للعلماء ... بل لعامّة الناس الذين لهم نصيب من الفهم، أن يحظوا بقسط من علوم القرآن أيضا.

كما أنّ هذه الآية تدلّ ضمنا على أن العلم ليس منحصرا بالكتاب، أو بما يلقيه الأستاذ على تلاميذه ... لأنّ النّبی صلّى اللّه عليه و آله- طبقا لصريح الآيات المتقدمة- لم يدرس فی مدرسة و لم يكتب من قبل كتابا ... إلّا أنّه كان خير مصداق للذين «أوتوا العلم».

فإذا فما وراء العلم «الرسمی» الذی نعهده، علم أوسع و أعظم، و هو علم يأتی من قبل اللّه تعالى على شكل نور يقذف فی قلب الإنسان، كما ورد فی الحديث «العلم نور يقذفه اللّه فی قلب من يشاء». و هذا هو جوهر العلم، أمّا ما سواه فهو الصدف و القشر! و تختتم الآية بقوله تعالى: وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ ... لأنّ دليلها واضح، فالنّبی الأمّیّ الذی لم يقرأ و لم يكتب، هو الذی جاء بها ... و العلماء المطلعون هم المؤمنون بها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ الآيات نفسها مجموعة من الآيات البينات «كلمات ذوات محتوى جلی مشرق».

و قد وردت علائمها فی الكتب المتقدمة.

و مع كل هذا ترى هل ينكر هذه الآيات إلّا الذين ظلموا أنفسهم و ظلموا مجتمعهم «و نكرر أن التعبير ب «بالجحد» يكون فی مورد ما لو أن الإنسان يعتقد بالشیء و ينكره على خلاف ما يعلمه»!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۱

بحوث

۱- الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. الأمی

صحيح أن القراءة و الكتابة تعدّان- لكل إنسان- كمالا.. إلّا أنّه يتفق أحيانا- و فی ظروف معينة- أن يكون من الكمال فی عدم القراءة و الكتابة ... و يصدق هذا الموضوع فی شأن الأنبياء، و خاصة فی نبوّة خاتم الأنبياء «محمّد» صلّى اللّه عليه و آله.

إذ يمكن أن يوجد عالم قدير و فيلسوف مطّلع، فيدّعی النبوّة و يظهر كتابا عنده على أنّه من السماء، ففی مثل هذه الظروف قد تثار الشكوك و الاحتمالات أو الوساوس فی أنّ هذا الكتاب- أو هذا الدين- هو من عنده لا من السماء!.

إلّا أنّنا إذا رأينا إنسانا ينهض من بين أمّة متخلفة، و لم يتعلم على يد أی أستاذ، و لم يقرأ كتابا و لم يكتب ورقة- فيأتی بكتاب عظيم عظمة عالم الوجود، بمحتوى عال جدا ... فهنا يمكن معرفة أن هذا الكتاب ليس من نسج فكره و عقله، بل هو وحی السماء و تعليم إلهی، و يدرك هذا بصورة جيدة!.

كما أنّ هناك تأكيدا على أمية النّبی صلّى اللّه عليه و آله فی آيات القرآن الأخرى، و كما أشرنا آنفا فی الآية (۱۵۷) من سورة الأعراف إلى أن هناك ثلاثة تفاسير لمعنى «الأمیّ»، و أوضحها و أحسنها هو أنّه من لا يقرأ و لا يكتب.

و لم يكن فی محيط الحجاز و بيئته- أساسا- درس ليقرأ النّبی صلّى اللّه عليه و آله، و لا معلم ليحضر عنده و يستفيد منه، و قلنا: إنّ عدد المثقفين الذين كانوا يقرءون و يكتبون فی مكّة لم يتجاوز سبعة عشر نفرا فحسب، و يقال أن من النساء كانت امرأة واحدة تجيد القراءة و الكتابة[۳۰۳].

و طبيعی فی مثل هذا المحيط الذی تندر فيه أدنى مرحلة للعلم و هی القراءة و الكتابة، لا يوجد شخص يعرف القراءة و الكتابة و لا يعرف عنه الناس شيئا ...

و إذا ظهر مدع و قال- بضرس قاطع- إنّنی لم أقرأ و لم أكتب، لم ينكر عليه أحد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۲

دعاءه، فیکون عدم الإنکار دلیلا جلیّا علی صدق مدّعاه، و علی کل حال فإنّ هذه الکیفیة الخاصة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله التی نوهت عنها الآیات المتقدمة، إنّما هی لإکمال إعجاز القرآن، و لقطع السبیل أمام حجج المتذرعین بالأباطیل الواهیة، و فیها تأثیر بالغ و نافع جدّا.

أجل، إنّه عالم منقطع النظیر، لکنّه لم یدرس فی مدرسة، بل تعلّم من وحی السماء!.

تبقی هناک ذریعة واحدة یحتج بها المتذرعون، و هی أنّ النّبی سافر إلی الشام مرّة أو مرتین «لفترة وجیزة و لغرض التجارة» .. قبل نبوته، فیقولون: ربّما اتصل فی بعض هاتین السفرتین بعلماء أهل الکتاب و تعلّم منهم هذه المسائل!.

و الدلیل علی ضعف هذا الادّعاء منطو فی نفسه، فکیف یمکن أن یسمع إنسان جمیع هذه الدروس و تواریخ الأنبیاء و الأحکام و المعارف الجلیلة، و هو لم یمض إلی مدرسة و لم یقرأ شیئا، فیحفظ کل ذلک بهذه السرعة، و یودعه فی ذهنه، ثمّ یبیّنه و یفصله خلال مدّة ثلاث و عشرین سنة؟! و أن یبدی موقفا مناسبا للحوادث غیر المتوقعة و التی لم یسبق لها مثیل.

و هذا یشبه تماما أن نقول مثلا: إنّ فلانا تعلم قائمة العلوم و الفنون الطبیة کلّها فی عدّة أیّام، و أنّه کان مشرفا علی معالجة المرضی فی المستشفی الفلانی، و مستشارا للأطباء، هذا کلام أقرب إلی المزاح و الهزل منه إلی الجد.

و ینبغی الالتفات إلی هذه المسألة، هی أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله بعد أن بلغ مرحلة النبوّة، یحتمل أن یکون قادرا علی القراءة و الکتابة، حینئذ و ذلک بواسطة التعلیم الالهی و إن لم یرد فی التواریخ أنّه استفاد من هذه الطریقة! و لم یقرأ شیئا بنفسه أو یکتب شیئا بیده، و لعل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تجنب کل ذلک فی طول عمره لئلا یتذرع المتذرعون فیثیروا الشکوک بنبوّته! الشیء الوحید الذی جاء فی کتب التأریخ أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله کتبه بنفسه، هو صلح الحدیبیة الذی جاء فی مسند أحمد أن «النّبی أمسک القلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۳

بیده و کتب معاهدة الصلح»[۳۰۴].

إلّا أنّ جماعة من علماء الإسلام أنکروا هذا الحدیث، و قالوا: إنّ هذا مخالف لصریح الآیات، و إن اعتقد البعض بأنّه لیس فی الآیات صراحة، لأنّ الآیات ناظرة لحال النّبی قبل بعثته، فما یمنع أن یکتب النّبی علی وجه الاستثناء بعد أن نال مقام النبوّة .. فی مورد واحد .. و یکون ذلک بنفسه معجزة أخری من معاجزه!.

إلّا أن الاعتماد فی مثل هذه المسألة علی خبر الواحد مجانب للحزم و الاحتیاط، و مخالف لما ثبتت فی علم الأصول حتی لو قلنا أنّ هذا الخبر لا اشکال فیه.[۳۰۵]

۲- طریق النفوذ فی الآخرین

لا- یکفی الاستدلال القوی المتین للنفوذ إلی قلوب الآخرین و اکتسابهم بالکلام الحق، فانّ أسلوب التعامل مع الطرف الآخر و طریقة البحث و المناظرة تترک أعمق الأثر فی هذه المرحلة .. فکثیرا ما یتفق أن یوجد أناس مطّلعون و لهم ید طولی فی البحوث العلمیة الدقیقة، إلّا أنّهم قلّما یوفقون للنفوذ إلی قلوب الآخرین، بسبب عدم معرفتهم بکیفیة المجادلة بالتی هی أحسن، و عدم معرفتهم بالبحوث البنّاءة!.

و بتعبیر آخر فإنّ النفوذ الی مرحلة الوعی- فی المخاطب- غیر کاف وحده، بل ینبغی الدخول إلی مرحلة عدم الوعی الذی یمثل القسم الأکبر لروح الإنسان أیضا.

و يستفاد من مطالعة أحوال الأنبياء، و لا سيما حال النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و أئمّة الهدى عليهم السّلام- بصورة جيدة أن هؤلاء العظام سلكوا أحسن سبل الأخلاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۴

الاجتماعية و أسس المعارف النفسية و الإنسانية، لأجل تحقيق أهدافهم التبليغية و التربوية!.

و كانت طريقة تعاملهم مع الناس أن يكتسبوهم إليهم بشكل سريع فينجذبوا إليهم، و إن كان بعض الناس يميل إلى أن يضفى على مثل هذه الأمور ثوب الإعجاز دائما، إلّا أنّه ليس كذلك، فلو اتبعنا سنتهم و طريقتهم لاستطعنا بسرعة أن نترك فى الناس عظيم الأثر، و أن ننفذ إلى أعماق قلوبهم.

و القرآن يخاطب نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله بصراحة فيقول: وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۳۰۶] أو كثيرا ما يرى أنّ بعضهم بعد ساعات من الجدال و المناظرة، لا أنه لا يحصل على تقدم فى مناقشاته فحسب، بل على العكس يجعل الطرف الآخر متعصبا و متشددا فى عقيدته الباطلة بصورة أكثر ... و ذلك دليل على أنّه لم يتبع أسلوب المجادلة بالتى هى أحسن.

فالخشونة فى البحث، و طلب الاستعلاء، و تحقير الطرف المقابل، و إظهار التكبر و الغرور، و عدم احترام أفكار الآخرين، و عدم الجدية فى المناقشات و البحوث، كلها من الأمور التى تبعث على انهزام الإنسان فى بحثه، و عدم انتصاره على الطرف الآخر. لذلك فإنّنا نرى فى مباحث الأخلاق الإسلامية بحثا تحت عنوان «تحريم الجدال و المراء» و المراد منه الأبحاث التى لا- يطلب من ورائها الحق، بل المراد منها الاستعلاء و إبراز العضلات لا غير!.

و تحريم الجدال و المراء- بالإضافة إلى الجوانب المعنوية و الأخلاقية- إنّما هو لأنّه لا يحصل من ورائهما على نتيجة فكرية ملحوظة.

و الجدال و المراء فى حرمتهما متقاربان، إلّا أن العلماء من المسلمين جعلوا فرقا بين كلّ منهما ... «فالمراء» معناه إظهار الفضل و الكمال، «و الجدال» يراد منه تحقير الطرف المقابل!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۵

و قالوا: إنّ الجدال هى المراحل الهجومية الأولى فى البحث ... و أمّا المراء فيراد منه الصدّ الدفاعى فى الكلام.

كما أنّ هناك قولا بأن الجدال فى المسائل العلمية، أمّا المراء فهو فى الأعم منها «و بالطبع فإنه لا تضادّ بين هذه التفاسير جميعا».

و على كل حال، فإنّ الجدال أو البحث مع الآخرين، تارة يقع بالتى هى أحسن، و ذلك ما بيّناه بالشرائط المتقدمة آنفا، و ينبغى رعايتها بدقّة. و تارة يكون بغير الأحسن، و ذلك فى ما لو أهملت الأمور التى ذكرناها فى مستهل كلامنا على الجدال، و جعلت فى طىّ النسيان.

و نختتم هذا الكلام بعدة روايات بليغة و نافعة لنتعلم منها:

ففى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء و إن كان محقا»[۳۰۷].

و نقرأ

فى حديث آخر أن سليمان النّبى عليه السّلام قال لولده «يا بنى إيّاك و المراء، فإنّه ليست فيه منفعة، و هو يهيج بين الأخوان العداوة»[۳۰۸].

۳- الكافرون و الظالمون

نواجه فى الآيات المتقدمة آنفا هذا التعبير وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ و مرّة أخرى نواجه المضمون ذاته مع شىء من التفاوت فبدلا من كلمة «الكافرون» جاءت كلمة «الظالمون» وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ

و الموازنـة بین التعبیرین تـدلّ علی أن المسألـة لیست من قبیـل التکرار، بـل هی لبیـان موضوعین، أحـدهما یشـیر إلی جانب عقائـدی «الکافرون» و الآخر یشیر إلی جانب عملی «الظالمون».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۶

فالآیة الأولی تقول: إنّ الذین اختاروا الشـرک و الکفر بأحکامهم المسبّقة الباطلة و تقلیدهم الأعمی لأسلافهم، لا یرون آیة من آیات اللّه إلّـا أنکروها و إن تقبلتها عقولهم»! أمّا التعبیر الثّانی فیقول: إنّ الـذین اختاروا بظلمهم أنفسـهم و مجتمعهم طریقا یرون فیه منافعهم الشخصـیة، و عزموا علی الاستمرار فی هذه الطریق، لا یذعنون لآیاتنا. لأنّ آیاتنا کما أنّها لا تنسجم مع خططهم الفکری، فهی لا تنسجم مع خططهم العملی أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۷

الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۵۰ الی ۵۵]

اشارة

وَ قـالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیـاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآیاتُ عِنْـدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَـذِیرٌ مُبِینٌ (۵۰) أَ وَ لَمْ یَکْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنـا عَلَیْـکَ الْکِتابَ یُتْلی عَلَیْهِمْ إِنَّ فِی ذلِـکَ لَرَحْمَـةً وَ ذِکْری لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۵۱) قُـلْ کَفی بِـاللَّهِ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ شَـهِیداً یَعْلَمُ مـا فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ کَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِکَ هُمُ الْخاسِـرُونَ (۵۲) وَ یَسْـتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّی لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَیَأْتِیَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ (۵۳) یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ (۵۴)

یَوْمَ یَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ یَقُولُ ذُوقُوا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)

التّفسیر

أ لیس القرآن کافیا فی إعجازه؟!

الأشـخاص الذین لم یذعنوا و یسلّموا للبیان الاسـتدلالی و المنطقی الذی جاء به القرآن بسبب عنادهم و إصرارهم علی الباطل، و لم یقبلوا بکتاب کالقرآن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۸

الذی جاء به إنسان أمی کالنّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله دلیلا جلیّا علی حقانیة دعوته ...

تـذرعوا بحجّـة أخری علی سبیـل الاسـتهزاء و السـخریة، و هی أنّه لم لا- تأت- یا محمّـد- بمعجزة من المعاجز التی جاء بها موسی و عیسی وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیاتٌ مِنْ رَبِّهِ

و لم لم یکن لدیه مثل عصـی موسـی و یده البیضاء و نفخة المسیح؟! و لم لا یهلک أعداءه بمعاجزه، کما فعل موسی و شعیب و هود و نوح بأممهم المعاندین؟!.

أو کما یعبر علی لسانهم القرآن فی الآیات ۹۰- ۹۳ من سورة الإسراء وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً، أَوْ تَکُونَ لَـکَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِیـلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهـارَ خِلالَهـا تَفْجِیراً، أَوْ تُسْـقِطَ السَّمـاءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَـفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِکَـةِ قَبِیلًا، أَوْ یَکُونَ لَـکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّمـاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَـتَّی تُنَزِّلَ عَلَیْنـا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُـلْ سُـبْحانَ رَبِّی هَـلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَـراً رَسُولًا.

و من دون شك فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كانت لـديه معاجز غير القرآن الكريم، كما أن التواريخ تصـرح بذلك أيضا ... إلّا أن أولئك لم يكن قصـدهم من وراء كلامهم الحصول على معجزة، بل كان قصـدهم- من جهـة- أن لا يعتبروا القرآن شـيئا مهما و كتابا إعجازيا، و من جهـة أخرى كانوا يريـدون معجزات مقترحـة «و المراد من المعجزات المقترحـة هو أن يأتى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله طبقـا لرغبـات هـذا و ذاك بمعاجز خارقـة للعادة يقترحونها عليه، فمثلا يريـد منه بعضـهم أن يفجّر له الأرض ينابيع من الماء الزلال، و يريد الآخر منه أن يقلب له الجبال التى فى مكّة ذهبا، و يتذرع الثّالث بأن هذا لا يكفى أيضا بل ينبغى أن يصـعد إلى السـماء، و هكذا يجعلون المعجزة على شكل ألعوبة لا قيمة لها، و آخر الأمر .. و بعد رؤية كل هذه الأمور يتهمونه بأنه ساحر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۹

لذلك فإن القرآن يقول فى الآية (۱۱۱) من سورة الأنعام وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا.

و على كل حال فإنّ القرآن، للرد على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوى الحجج الواهية، يدخل من طريقين:

فيقول أوّلا فى خطابه لنبيه قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ أى قل لأولئك المعانـدين أن اللّه يـدرى أيـة معجزة تناسب أى زمان و أى قوم، و هـو يعلم أى الأفـراد هم أتبـاع الحق، و ينبغى أن يريهم المعـاجز الخارقـة للعـادة، و أى الأفـراد المتـذرعون و أتبـاع هوى النفس؟! ثمّ يضـيف القرآن معقبـا أن قـل وَ إِنَّمـا أَنَـا نَـذِيرٌ مُبِينٌ ... فمسؤوليتى الإنـذار- فحسب- و الإبلاـغ و بيـان كلام اللّه، أمّا المعاجز و الأمور الخارقة للعادة فهى بأمر اللّه.

و الجواب الآخر هو قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ

فهم يطلبون معاجز مادية «جسمانية»، و القرآن بحد ذاته أعظم معجزة معنوية ..

و هم يريدون معجزة عابرة لا تمكث طويلا، فى حين أن القرآن معجزة خالدة تتلى آياته ليل نهار عليهم و على الأجيال من بعدهم.

ترى هل يعقل أن يأتى إنسان أمى و حتى لو كان يقرأ و يكتب فرضا بكتاب بهـذا المحتوى العظيم و الجاذبيـة العجيبـة، التى هى فوق قـدرة الإنسـان و البشـر، ثمّ يـدعوا أهـل العلم متحـديا لهم للإتيـان بمثله فيعجزون عن الإتيان بمثله؟! فلو كانوا حقا طلاب معجزة، فقد آتيناهم بنزول القرآن أكثر ممّا طلبوه إلّا أنّهم لم يكونوا طلاب معجزة، بل هم متذرعون بالأباطيل!.

و ينبغى الالتفات إلى أن التعبير أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ إنّما يستعمل- غالبا- فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۰

موارد يكون الإنسان قد أدّى عملا فوق ما ينتظره الطرف الآخر، و هو غافل عنه أو يتغافل عنه، كأن يقول مثلا: لم أحصل على الخدمة الفلانيـة، فى حين أن الخدمـة التى قـدمت إليه- كما فى هـذه الحال- أكبر خدمـة، إلّا أنّه لا يعتبرها شيئا، و نقول له: أو لم يكفك ما قـدمناه؟! ثمّ بعـد هـذا كله ينبغى أن تكون المعجزة منسـجمة مع ظروف «الزمان و المكان و كيفية دعوة النّبى» فالنّبى الذى يدعوا إلى مبدأ خالد، ينبغى أن تكون معجزته خالدة أيضا.

و النّبى الذى تسـتوعب دعوته العالم و تستوعب القرون و الأعصار المقبلة، لا بدّ له من أن يأتى بمعجزة نيّرة «روحية و عقلانية» ليجلب إليه أفكار جميع العلماء و المفكرين، و من المسلّم به أن مثل هذا الهدف يتناسب مع القرآن، لا عصى موسى و لا يده البيضاء.

و فى نهاية الآية يضيف القرآن للتأكيد و التوضيح بصورة أجلى، فيقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

«ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، و هو القرآن.

أجـل، إن القرآن رحمـة «وسيلة» للـذكرى و التـذكر أيضـا، فهو للمؤمنين الـذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقـة، و الـذين يبتغون النور و الطريق السوىّ هو لهم رحمـة إلهيـة يحسونها بكل وجودهم، و يشـعرون بالاطمئنان و الدعـة عنـده .. و كلّما قرءوا آياته تذكروا، فهى لهم ذكرى و أيـة ذكرى؟! و لعـل الفرق بين «الرحمـة» و «الـذكرى» أنّ القرآن ليس معجزة و ذكرى فحسب، بـل هـو إضافـة إلى كل

ذلک یحتوی علی القوانین التی تمنح الرحمة و المناهج التربویة و الإنسانیة.

فمثلاـ کـانت عصـی موسـی معجزة فحسب، إلّا أنّها لم یکن لها أثر فی حیاة الناس الیومیـة، غیر أن القرآن معجزة، هو فی الوقت ذاته منهج کامل الحیاة و رحمة أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۱

أیضا.

و لمّا کان کل مدع بحاجة إلی الشاهد، فالقرآن یبیّن فی الآیة الأخری أن خیر شاهد هو اللّه قُلْ کَفی بِاللَّهِ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ شَهِیداً.

و بـدیهی أنّه کلّما کان اطلاع الشاهـد و شـهادته أکثر، فإنّ قیمـة الشـهادة تکون أهم، لـذلک یضـیف القرآن بعدئذ قائلا: یَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و الآن لنعرف کیف شـهد اللّه علی حقانیة نبیّه صـلّی اللّه علیه و آله؟! یحتمل أن تکون هذه الشهادة شهادة عملیة، لأنّه حین یؤتی اللّه نبیّه معجزة کبری کالقرآن، فقد وقع علی سند حقانیته و أمضاه.

تری هل یمکن أن یأتی اللّه الحکیم العادل بمعجزة علی ید کذّاب، و العیاذ باللّه! فعلی هذا کانت طریقة إعطاء المعجزة لشخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله- بنفسها- أعظم شهادة علی نبوته من قبل اللّه.

و إضافة للشـهادة العملیة المتقدمة، نقرأ فی آیات کثیرة من القرآن شـهادة قولیة فی نبوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله، کما فی الآیة (۴۰) من سورة الأحزاب ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَـدٍ مِنْ رِجالِکُمْ وَ لکِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِیِّینَ و فی الآیـة (۲۹) من سورة الفتح أیضا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِـدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَمـاءُ بَیْنَهُمْ قـال بعض المفسّـرین: إنّ هـذه الآیـة کـانت جوابـا علی ما قاله بعض رؤوساء الیهود من أهل المدینـة، أمثال «کعب بن الأشـرف» و أتباعه، إذ قالوا: یا محمّـد، من یشـهد علی أنّک مرسل من قبل اللّه، فنزلت هـذه الآیة قُلْ کَفی بِاللَّهِ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ شَـهِیداً! کما یمکن أن تفسّـر الآیة المتقدمة بتفسـیر آخر و بیان ثان، و ذلک أنّ المراد من شـهادة اللّه فی الآیة هی ما سبق من الوعد و الذکر فی کتب اللّه السابقة «کالتّوراة و الإنجیل» و یعلم بذلک علماء أهل الکتاب بصورة جیدة!.

و فی الوقت ذاته لا منافاة بین التّفسیرات الثلاثة الآنفة الذکر، و من الممکن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۲

أن تجتمع هذه التفاسیر فی معنی الآیة أیضا.

و تختتم الآیة بنحو من الوعید و التهدید لأولئک الکفار باللّه، فیقول: وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ کَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ

و أی خسران أعظم من أن یعطی الإنسان جمیع وجوده فی سبیل لا شیء؟! کما فعله المشرکون، فقد أعطوا قلوبهم و أرواحهم للأوثان و الأصـنام .. و وظّفوا جمیع قواهم الجسـمانیة و الإمکانـات الاجتماعیـة و الفردیـة فی سبیل الإعلام و التبلیغ لمـذهبهم الوثنی و أهملوا ذکر اللّه، فلم یعد علیهم هذا إلّا بالضرر و الخسران!.

و غالبا ما یشـیر القرآن إلی هـذا الخسـران فی آیاته، و فی بعض الآیات یرد التعبیر بکلمـة «أخسـر» و هی إشارة إلی أنّه لیس فوق هذا الخسران من خسارة و لا أعظم منه! .. (راجع آیات السور «هود ۲۲ و النمل ۵ و الکهف ۱۰۳»).

و المثل الأهمّ هو أنّه قد یتفق للإنسان أحیانا أن یتضـرر فی معاملته و یخسر رأس ماله و یغلب علی أمره، و قد تتسع هذه الدائرة أحیانا فیقـل کـاهله بالـدیون، و هـذه الحالـة أسوأ الحالات و المشـرکون هم فی مثـل هـذه الحالـة، بل قـد یکونون سـببا لضـلال الآخرین و خسرانهم، و کما یصطلح علیه: «الفشل سلسلة متصلة»[۳۰۹].

فی الآیات المتقدمة عرض قسمان من ذرائع الکفار قبال دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و قد أجیب عنهما:

الأوّل: کان قولهم: لم لا یأتی بمعجزة؟! فأجاب القرآن: إن هذا الکتاب المنزل من السماء هو أعظم معجزة.

و الثّانی: سؤالهم: من الشاهد علی صدق دعواک و حقانیة النبوة عندک؟

فأجاب القرآن: كفى بالله شهيدا بينى و بينكم يعلم ما فى السماوات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۳

و الأرض.

أمّا فى الآية التالية فإشارة إلى الذريعة الثّالثة إذ تقول: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ إذ يقولون: لو كان عذاب اللّه حقا على الكافرين فلم لا يأتينا!؟

فيجيب القرآن على هذه الذريعة بثلاثة أجوبة.

الأوّل: وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ

و هذا الزمان المعين «الأجل» إنّما هو لهدف أصلى، للارعواء عن باطلهم و تيقظهم، أو إتمام الحجة عليهم، فاللّه لا يستعجل أبدا فى أمره، لأنّ العجلة خلاف حكمته.

و الثّانى: إن أولئك الذين يتذرعون بهذا القول ما يدريهم لعل العذاب يأخذهم على حين غرة من أنفسهم وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ [۳۱۰].

و بالرغم من أن موعد العذاب- فى الواقع- معين و مقرّر إلّا أن المصلحة تقتضى ألّا يطّلعوا عليه، و أن يأتيهم دون مقدمات، لأنّه لو عرف وقته لكان باعثا على تجرؤ الكفار و المذنبين و جسارتهم .. و كانوا يواصلون الذنب و الكفر إلى آخر لحظة .. و حين يأزف الوعد بالعذاب فإنهم سيتجهون بالتوبة- جميعا- الى اللّه و ينيبون إليه.

و الحكمة التربوية لمثل هذا العقاب تقتضى أن يكتم موعده، لتكون كل لحظة ذات أثر بنفسها، و يكون الخوف و الاستيحاش منها عاملا على الردع، و يتّضح ممّا قلناه- ضمنا- أنّ المراد من جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ لا تعنى أنّهم لا يدركون أصل وجود العذاب. و إلّا فإنّ فلسفة العذاب و الحكمة منه لا يكون لها أثر، بل المراد أنّهم لا يعرفون اللحظة التى ينزل فيها العذاب و لا مقدماته، و بتعبير آخر: إنّ العذاب ينزل عليهم كالصاعقة و هم غافلون.

و يظهر من آيات متعددة من القرآن أن التذرع بالحجج الواهية لم يكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۴

منحصرا بأهل مكّة، بل كثير من الأمم السابقين يلتجئون إلى مثل هذه الذريعة، و يصرون على تعجيل العقوبة و العذاب!.

و أخيرا فإنّ الجواب القرآنى الثّالث يتبيّن فى الآية إذ يقول: يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ

فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا، فإن عذاب الآخرة واقع لا محالة، و محيط بهم تماما و سيصيبهم حتما بحيث أنّ القرآن يذكره بصورة أمر فعلىّ (و كأن جهنّم الآن محيطة بهم).

و يوجد تفسير آخر أكثر دقّة لهذه الآية، و هو أنّ جهنم محيطة، الآن فعلا بالكافرين، من جهتين- بالمعنى الواقعى للكلمة.

الجهة الأولى: إنّها جهنم الدنيا، إذ هم على أثر شركهم و تلوثهم بالذنب يحترقون بجهنم التى أعدّوها لأنفسهم، جهنم الحرب و سفك الدماء، جهنم النزاع و الشقاق و الاختلافات، جهنم القلق و الفزع، جهنم الظلم، و جهنم الهوى و الهوس و العناد.

و الجهة الثّانية: طبقا لظاهر الآيات فى القرآن فإنّ جهنم موجودة فعلا، و كما تقدم سابقا فإنّ جهنّم موجودة فى باطن الدنيا، و بهذا فهى محيطة بهم على نحو الحقيقة .. و فى سورة التكاثر إشارة لها أيضا كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ الآيات ۵- ۷ من سورة التكاثر[۳۱۱].

ثمّ يضيف القرآن يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [۳۱۲].

يمكن أن تكون هذه الآية توضيحا لإحاطة عذاب جهنّم فى يوم القيامة بالكفار، و يمكن أن تكون بيانا مستقلا لذلك العذاب الأليم لهم الذى يحيط بهم

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۵

اليوم على أثر أعمالهم، و في غد يتجلى هذا العذاب بوضوح و يكون محسوسا ظاهرا.

و على كل حال فـذكره لإحاطة العذاب مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ و عدم ذكره لبقية الجهات- في الحقيقة- هو لوضوح المطلب، و إضافة إلى ذلك فإن نار العذاب إذا امتدت ألسنتها من تحت الأرجل و نزلت على الرؤوس، فإنها تحيط بجميع البدن أيضا و تغشى جميع أطرافه و جوانبه.

و أساسا فإنّ هـذا التعبير مستعمل في اللغـة العربية، إذ يقال مثلا: إن فلانا غارق من قرنه إلى قدمه في مستنقع الفسق و عدم العفة، أي إن جميع وجوده غارق في هذا الذنب، و بهذا يرتفع الإشكال عند المفسّرين في ذكر القرآن للجهة العليا «من فوقهم» و الجهة السفلى «من تحتهم» و السكوت عن الجهات الأربع الأخرى، و يتّضح المراد منه بالتقرير الذي بيّناه! أمّا جملة ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ التي يظهر أن قائلها هو اللّه تعالى، فهي بالإضافة إلى أنّها نوع من العقوبة النفسية لمثل هؤلاء الأشخاص، فهي كاشفة عن هذه الحقيقة، و هي أن عذاب اللّه ليس إلّا انعكاسا للأعمال التي يقوم بها الإنسان نفسه في النشأة الآخرة!.

ملاحظات

۱- دلائل إعجاز القرآن:

لا شك أنّ القرآن أعظم معجزة للإسلام ... معجزة بليغة، خالدة و باقية، مناسبة لكل عصر و زمان و لجميع الطبقات الاجتماعية، و قد ذكرنا بحثا مفصلا عن إعجاز القرآن في ذيل الآية ۲۳ من سورة البقرة، و لا حاجة إلى إعادته هنا.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۶

۲- التشبث بالحيل لإنكار المعجزات:

يصرّ بعض العلماء المتأثرين بالغرب- الذين يميلون إلى أن لا يعتدّوا بظواهر الأنبياء الخارقة للعادة- أنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله ليس له معجزة غير القرآن، و ربّما يرون القرآن ليس معجزا، في حين أنّ مثل هـذا الكلام مخالف لآيات القرآن، و للرّوايات المتواترة، و للتأريخ الإسلامي أيضا.

«و قد بيّنا تفصيل هذا الكلام في ذيل الآيات ۹۰- ۹۳ من سورة الإسراء».

۳- المعجزات الاقتراحيّة:

كانت أساليب المخالفين للأنبياء دائما هي اقتراحهم المعجزات التي يرتؤونها، و كانوا بعملهم هذا يحاولون أن يحطّوا من قيمة المعجزات و عظمتها و يجروها إلى الابتذال من جهة، و أن تكون في أيديهم ذريعة إلى عدم قبول دعوة الأنبياء من جهة أخرى، لكن الأنبياء لم يستسلموا لهذه المؤامرات أبدا .. و كما رأينا في إجابتهم آنفا، فإن المعجزة ليست باختيارهم لتكون مطابقة «لميلكم و هوسكم» كل يوم و كل ساعة نأتي بمعجزة كما تريدون ... بل المعاجز هي بأمر اللّه فحسب، و هي خارجة عن أمرنا.

«و قد ذكرنا شرحا حول المعجزة الاقتراحية في ذيل الآية ۲۰ من سورة يونس».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۷

الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۵۶ الی ۶۰]

اشارة

یا عِبادِیَ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِی واسِعَةٌ فَإِیَّایَ فَاعْبُدُونِ (۵۶) کُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَیْنا تُرْجَعُونَ (۵۷) وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِینَ (۵۸) الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۵۹) وَ کَأَیِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ یَرْزُقُها وَ إِیَّاکُمْ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۶۰)

سبب النّزول

یعتقد کثیر من المفسّرین أنّ الآیة- من هذا المقطع- نزلت فی شأن المؤمنین الذین کانوا تحت ضغط الکفار الشدید، حتی أنّهم لم یستطیعوا أن یؤدوا وظائفهم الإسلامیة، فجاءت هذه الآیة لتأمرهم بالهجرة من هذه الأرض.

کما یعتقد بعض المفسّرین أیضا أنّ الآیة وَ کَأَیِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا و هی الآیة الأخیرة- من المقطع محل البحث نزلت فی شأن بعض المؤمنین الذین کانوا یتعرضون لأذی أعدائهم فی مکّة! و کانوا یقولون لو هاجرنا إلی المدینة فلیست لدینا دار و لا أرض، من یطعمنا و یسقینا هناک؟ فنزلت الآیة وَ کَأَیِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ یَرْزُقُها وَ إِیَّاکُمْ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۸

التّفسیر

لا بدّ من الهجرة:

حیث أنّ الآیات السابقة کانت تتحدث عن مواقف المشرکین المختلفة من الإسلام و المسلمین، ففی الآیات محل البحث یقع الکلام عن حال المسلمین و مسئولیاتهم قبال المشاکل المختلفة، أی مشاکل أذی الکفار و ضغوطهم و قلّة عدد المسلمین و ما إلی ذلک، فتقول الآیة الأولی: یا عِبادِیَ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِی واسِعَةٌ فَإِیَّایَ فَاعْبُدُونِ

و بدیهی أنّ هذا لیس قانونا خاصا بمؤمنی أهل مکّة، و لا یحدد سبب النّزول مفهوم الآیة الواسع المنسجم مع الآیات الأخری ... فعلی هذا لو سلب الإنسان حریته فی أی عصر أو زمان و مکان بشکل کامل، فإنّ بقاءه هناک لا یجلب علیه إلّا الذل «و الخسران و الضرر» و الابتعاد عن أداء المناسک الإلهیة، فوظیفة الإنسان المسلم عندئذ الهجرة إلی منطقة «حرّة» یستطیع أن یؤدی فیها وظائفه الإسلامیة بحریة تامّة أو حریة نسبیة.

و بتعبیر آخر: إنّ الهدف من خلق الإنسان أن یکون عبدا للّه، عبودیة هی فی الواقع سبب للحریة و الکرامة و الإنتصار فی جمیع الجهات ... و جملة فَإِیَّایَ فَاعْبُدُونِ إشارة إلی هذا المعنی، کما ورد هذا التعبیر فی الآیة (۵۶) من سورة الذاریات وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ

فمتی ما أصبح هذا الهدف الأساسی و النهائی مستحیلا، فلا سبیل عندئذ إلّا الهجرة، فأرض اللّه واسعة، و ینبغی أن یهاجر الفرد نحو منطقة أخری، و لا یکون أسیرا لمفاهیم «القبلیة و القومیة و الوطنیة و البیت و الأهل» فی مثل هذه الموارد، و لا یذل الإنسان نفسه من

أجلها، فإنّ احترام هذه الأمور هو فيما لو كان الهدف الأصلى قائما غير مخاطر به، أمّا إذا أصبح الهدف الأصلى «عبادة اللّه» مخاطرا به فلا سبيل إلّا الهجرة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۹

و فى مثل هذه الموارد

يقول الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام: «ليس بلد بأحق بك من بلدك، خير البلاد ما حملك»[۳۱۳].

صحيح أنّ حب الوطن و العلاقة بمسقط الرأس جزء من طبيعة كل إنسان، و لكن قد يتفق أن تحدث فى حياة الإنسان مسائل أهم من تلك الأمور، فتجعلها تحت شعاعها و تكون أولى منها.

و فى مجال موقف الإسلام و نظرته من مسألة الهجرة و الرّوايات الواردة فى هذا الصدد، كان لنا بحث مفصل فى ذيل الآية (۱۰۰) من سورة النساء.

و التعبير ب يا عِبادِيَ هو أكثر التعابير رأفة و حبّا للناس من قبل خالقهم.

و تاج للفخر أعلى حتى من مقام الرسالة و الخلافة، كما نذكر ذلك فى التشهد حيث نقدم العبودية على الرسالة دائما «أشهد أن محمّدا عبده و رسوله».

من الطريف أنّه حين خلق اللّه آدم لقبه ب «خليفة اللّه»، و هو فخر لآدم، إلّا أن الشيطان لم ييأس من التسويل و الوسوسة له، فكان ما كان، و لكن حين بوأه مقام العبودية أذعن الشيطان له و يئس من إغوائه و قال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [۳۱۴] و اللّه سبحانه ضمن هذا الأمر فقال: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ [۳۱۵] و يتّضح ممّا ذكرناه- بصورة جيدة- أنّ المراد بالعباد ليس جميع الناس- فى الآية محل البحث- بل هم المؤمنون منهم فحسب، و جملة الَّذِينَ آمَنُوا جاءت للتأكيد و التوضيح ۳۱۶].

و حيث أنّ البعض بقوا فى ديار الشرك، و لم يرغبوا بالهجرة بذريعة أنّهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۰

يخشون الخروج من ديارهم و يخافون أن يحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الأخرى التى تهددهم ... إضافة إلى فراق الأحبّة و المتعلقين و الأبناء و الأصدقاء، فإنّ القرآن يردّهم بجواب جامع قائلا: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ

فهذه الدنيا ليست بدار بقاء لأى أحد، فبعض يمضى عاجلا، و بعض يتأخر، و لا بدّ أن يذهبوا جميعا، و على كل حال ففراق الأحبة و الأبناء و الأقارب لا- بدّ أن يقع و يتحقق، فعلام يبقى الإنسان فى ديار الشرك من أجل المسائل العابرة .. و أن يحمل عبء الذل و الأسر على كاهله، أكلّ ذلك من أجل أن يبقى بضعة أيّام أو أكثر؟! ثمّ بعد هذا كلّه ينبغى أن تخافوا أن يدرككم الموت فى ديار الكفر و الشرك قبل أن تبلغوا دار الإسلام، فما أشد ألم مثل هذا الموت و ما أتعسه! ثمّ لا تظنوا أن الموت نهاية كل شىء، فالموت بداية لحياة الإنسان الأصلية، لأنّكم جميعا إِلَيْنا تُرْجَعُونَ .. إلى اللّه العظيم، و إلى نعمه التى لا حدّ لها و لا انتهاء لأمدها.

و الآية التالية تبيّن جانبا من هذه النعم فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ[۳۱۷].

فهم فى قصور تحيط بها أشجار الجنّة من كلّ جانب، الأنهار المختلفة التى لكلّ منها طعمه و لونه، طبقا لآيات القرآن الاخر، و هى ما بين الأشجار و تحت تلك القصور جارية أبدا .. (لاحظوا أن «غرف» جمع غرفة، و معناها البناء المرتفع المشرف على أطرافه).

و الامتياز الآخر لغرف الجنّة أنّها ليست كغرف الدنيا و قصورها و منازلها التى ما أن يضع الإنسان فيها قدمه حتى يسمع نداء «الرحيل»، فغرف الجنّة دائمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۱

خالِدِينَ فِيها.

و يضيف القرآن معقبا فى ختام الآية نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ

و بموازنة بسيطة بين ما ذكر آنفا فى شأن الكفّار و المذنبين فى الآيات السابقة، و ما ورد فى هذه الآية، تتّضح عظمة ثواب المؤمنين.

فالكفّار غارقون فى نار جهنّم من قرنهم إلى قدمهم، و يقال لهم على سبيل التوبيخ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أمّا المؤمنون فهم مقيمون فى نعيم الجنّة و تحيط بهم رحمة اللّه من كلّ جانب، و بدلا من كلمات التوبيخ يكلمون بكلام طيب ملؤه المحبّة و اللطف الإلهى الكريم، أجل يقال لهم: نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ

و بديهى أنّ المراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقة، هم الذين يعملون الصالحات المقرونة بإيمانهم، و إن كانت كلمة العاملين مطلقة.

و

فى حديث عن نبيّ الإسلام العظيم صلّى اللّه عليه و آله يصف الجنّة فيقول: «إنّ فى الجنّة لغرفا يرى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها» فنهض بعض أصحابه فقال:

يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لمن هذه الغرف؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله: «هى لمن أطاب الكلام، و أطعم الطعام، و صلى لله بالليل و الناس نيام»[۳۱۸].

و الآية التالية تصف أهمّ ما يتحلّى به المؤمنون العاملون فتقول: الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

إذ يبتعدون عن الزوجة و الأولاد و الأهل و البيت و الأحباب و الأصدقاء و كل شيء عزيز عليهم، لكنّهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مرارة الغربة و التهجير عن أوطانهم و يصبرون، و تتلقى أنفسهم العذاب و الأذى من أعدائهم من أجل حفظ إيمانهم، و يواجهون الصعاب فى جهادهم الأكبر «جهادهم مع النفس» و جهادهم أعداءهم بشدّة، و يتحملون أنواع المشاكل فيصبرون!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۲

أجل، هذا الصبر و هذه الاستقامة هما رمز انتصارهم و عامل فخرهم الكبير، و بدونه لا يتحقق عمل إيجابى فى الحياة.

ثمّ بعد هذا كلّه، فهم لا يعتمدون على أموالهم و لا على أصدقائهم، بل يعتمدون على اللّه و يتوكلون على ذاته المقدسة، و إذ ابتغى ألف عدو هلاكهم تمثلوا قائلين: «امتحانك رحمة فلا أكترث بالأعداء».

و إذ أمعنا النظر و فكّرنا جيدا رأينا أن الصبر و التوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانية، فالصبر هو عامل الاستقامة أمام العوائق و المشاكل، و التوكل هو الهدف و الباعث على الحركة فى هذا الطريق المديد الملتوى.

و فى الحقيقة ينبغى الاستمداد من هاتين الفضيلتين (الصبر و التوكل) للأعمال الصالحة، إذ بدونهما لا- يمكن أن تؤدى الأعمال الصالحة بالمقياس الواسع ۳۱۹].

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- جواب لأولئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا و أهلينا، فمن سيطعمنا و يرزقنا؟ يخاطبهم القرآن أن لا تحزنوا على الرزق و لا تحملوا ثقل الذلة و الأسر، فالرازق هو اللّه، لا لكم فحسب بل وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ

قليل من الدواب و الحيوانات و الحشرات- و كذلك الإنسان- يأتى برزقه من الصحراء و الشجر إلى وكره و مسكنه كالنحل- التى تنتج العسل- و النمل، و غالبا ما تكون الحيوانات بمثابة «طائر اليوم» أى كل يوم عليها أن تمضى لرزقها و تبحث عنه من جديد. و هكذا فإنّ ملايين الملايين من الحيوانات التى من حولنا، فى النقاط القريبة و البعيدة، و فى الصحارى و أعماق البحار و أعالى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۳

الجبال و الأماكن الأخرى، فإنّها كلّها تقتات من مائدة اللّه السرمدية.

و أنت أيّها الإنسان أقوى من تلك الحيوانات و أذكى فى جلب الرزق، فلم كلّ هذا الخوف من انقطاع الرزق؟! و لم الركون إلى حياة الذل و الاستكانة و الفجور؟! و لم تظل سادرا تحت وطأة الظلم و القهر و الهوان و الذل؟! اخرج أنت أيضا من داخل هذه الدائرة

المظلمة، و اجلس على مائدة خالقك الواسعة و لا تفكر بالرزق!.

فأنت يوم كنت جنينا محبوسا فى بطن أمّك، و لا تصل إليك أية يد حتى من أبيك و أمك الرؤوم، لم ينسك اللّه الذى خلقك، و هيأ ما كنت تحتاج إليه لك بكل دقّة، فكيف و أنت اليوم كائن قوى و رشيد؟! و حيث أن إيصال الرزق للمحتاجين هو فرع علمه تعالى بحاجاتهم، فالقرآن يؤكّد فى نهاية الآية قائلا: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يسمع كلامكم كلّه، و يعرف لسان حالكم، و لسان حال جميع الدواب، و هو خبير بحاجات الجميع، و لا يخفى على علمه الذى لا حد له شيء أبدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۴

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۶۱ الى ۶۶]

اشارة

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۶۱) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۲) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۶۳) وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۶۴) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (۶۵)

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۶۶)

التّفسير

الإقرار بالتوحيد فى الباطن و الشرك فى الظاهر:

كان الحديث فى الآيات السابقة موجّها إلى المشركين الذين أدركوا حقانية الإسلام، إلّا أنّهم لم يكونوا مستعدين للإيمان و الهجرة، خوفا من انقطاع الرزق عليهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۵

أمّا فى هذه الآيات، فالحديث موجه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله، و فى الواقع لجميع المؤمنين، و هو يبيّن دلائل التوحيد عن طرق «الخلقة»، و «الربوبيّة»، و «الفطرة»، أى عن ثلاث طرائق متفاوتة، و يريهم أن مصيرهم و عاقبة أمرهم بيد اللّه الذى يجدون آثاره فى الآفاق و فى أنفسهم، لا بأيدى الأصنام و الأوثان التى لا تضر و لا تنفع.

فتبدأ الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث- مشيرة إلى خلق السماوات و الأرض و تستعين باعتقاداتهم الباطنية ... فتقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لأنّ من المسلم به أنّه لا عبدة الأصنام و لا غيرهم و لا أى أحد آخر يقول: إنّ خالق السماوات و الأرض و مسخر الشمس و القمر حفنة من الأحجار و الخشب المصنوعة بيد الإنسان.

و بتعبير آخر: لا يشك فى «توحيد الخالق» حتى عبدة الأصنام حيث كانوا مشركين فى عبادة الخالق، و كانوا يقولون: إنّما نعبد أوثانا ليقربونا إلى اللّه زلفى، فهم الوسطاء بيننا و بين اللّه، كما نقرأ فى الآية (۱۸) من سورة يونس وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ .. فنحن غير جديرين أن نرتبط باللّه مباشرة، بل ينبغى أن نرتبط به عن طريق الأصنام ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى [۳۲۰] و هم غافلون عن أنّه لا تفصل بين الخالق و المخلوق أية فاصلة، و هو أقرب إلينا من حبل الوريد، زد على ذلك: إذا كان الإنسان- الذى هو بمثابة

الدرّة اليتيمة فى تاج الموجودات- لا يستطيع أن يرتبط باللّه مباشرة، فأى شىء يكون واسطة الإنسان إلى اللّه؟! و على كلّ حال، فإنّ الآية بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أى مع هذا المال كيف يعرضون عن عبادة خالقهم و يستبدلونها بعبادة مجموعة من الأحجار و الأخشاب؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۶

كلمة «يؤفكون» مشتقّة من «إفك» على زنة «فكر» و معناها إعادة الشىء من صورته الواقعية و الحقيقية، و بهذه المناسبة تطلق الكلمة على الكذب و على الرياح المخالفة «للاتجاه» أيضا.

و التعبير ب «يؤفكون» بصيغة المجهول إشارة إلى أنّهم لا قدرة لهم على التصميم، فكأنّهم منجذبون إلى عبادة الأوثان دون إرادة.

و المراد من تسخير الشمس و القمر النظم التى أقرها اللّه تعالى، و جعل الشمس و القمر فى دائرة هذه النظم فى خدمة الإنسان، و منافعه.

ثمّ يضيف القرآن تأكيدا لهذا المعنى، و هو أن اللّه خالق الخلق و رازقهم، فيقول: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ ... فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس و لا بيد الأصنام.

و ما ورد بيانه فى الآيات السابقة من أنّ المؤمنين حقّا هم وحدهم يتوكلون عليه، فلأجل هذا المعنى، و هو أن شىء بيده و بأمره، فعلام يخشون من إظهار الإيمان، و يرون حياتهم فى خطر من جهة الأعداء.

و إذا كانوا يتصورون أنّ اللّه قادر، إلّا أنّه غير مطّلع على حالهم، فهذا خطأ كبير ل إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

ترى هل يمكن لخالق مدبر يصل فيضه لحظة بعد أخرى لموجوداته، و فى الوقت ذاته يكون جاهلا بحالها؟.

و فى المرحلة الثّانية يقع الكلام عن «التوحيد الربوبى» و نزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم، فيقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

فهذا هو ما يعتقده عبدة الأصنام فى الباطن، و لا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم! فهم يعرفون أن الخالق هو اللّه، و أنّه ربّ العالم و مدبره.

ثمّ يضيف القرآن مخاطبا نبيّه قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فالحمد و الثناء لمن أنعم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۷

جميع النعم، إذ لمّا كان الماء الذى هو مصدر الحياة لجميع الحيوانات من رزق اللّه فيكون واضحا أن الأرزاق جميعها صادرة من قبله أيضا.

قل الحمد للّه «و اشكره»، لأنّهم يعترفون بهذه الحقائق.

و قل الحمد للّه، فمنطقنا قوى متين حىّ إلى درجة لا- يستطيع أى أحد إبطاله أو تفنيده. و حيث أنّ أقوال المشركين من جهة، و أعمالهم و أفعالهم و كلماتهم من جهة أخرى، يناقض بعضها بعضا، فإنّ الآية تختتم بإضافة الجملة التالية بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ

و إلّا فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يتناقض فى كلماته، فتارة يرى أن الخالق و الرازق و المدبّر للعالم هو اللّه، و تارة يسجد للأوثان التى لا تأثير لها بالنسبة لعواقب الناس!. فمن جهة يعتقدون بتوحيد الخالق و الرب، و من جهة أخرى يظهرون الشرك فى العبادة.

و من الطريف أنّ الآية لا- تقول: «أكثرهم لا- عقل لهم» بل تقول: لا يَعْقِلُونَ و معناها أنّهم لديهم العقول، إلّا أنّهم لا يستوعبون و لا يتعقلون! و من أجل أن يحوّل القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياة المحدودة إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنّه يبيّن فى الآية التالية كيفية الحياة الدنيا قياسا إلى الحياة الأخرى الخالدة، فى عبارة موجزة و مليئة بالمعانى، فيقول: وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

كم هو تعبير بليغ و بديع! لأنّ «اللهو» معناه الانشغال .. أو كل عمل يصرف الإنسان إليه و يشغله عن مسائل الحياة الأساسية.

أمّا «اللعب» فيطلق على الأعمال التى فيها نوع من النظم الخيالى، و الهدف الخيالى أيضا، ففى اللعب يكون أحد اللاعبين ملكا، و الآخر وزيرا، و الثّالث قائدا للجيش، و الرابع- السارق أو «الحرامى»، و الخامس يمثل القافلة و هكذا، و بعد انتهاء اللعب المؤقت يعود كل شيء إلى مكانته، و كأن المسألة لا تعدوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۸

طيفا .. أو خيالا .. فلا أثر و لا خبر.

فالقرآن فى هذا الصدد يشرح حال الدنيا و حال الآخرة، مبينا أن الحياة الدنيا هى نوع من الانشغال و اللعب يجتمع الناس فيها و ينشدّون إلى تصورات قلوبهم و أنفسهم، و بعد أيّام يتفرقون و يختفون تحت التراب، ثمّ يطوى كل شيء و يغدو فى سلة النسيان.

أمّا الحياة الحقيقية التى لا فناء بعدها، و لا ألم فيها، و لا قلق و لا خوف و لا تضاد و لا تزاحم، فهى الحياة الآخرة فحسب ... لو كان الإنسان يعرف ذلك، و كان أهلا للتدقيق و التحقيق! أمّا الذين تعلقت قلوبهم بهذه الحياة، و فتنوا برزقها و زخرفها و زبرجها، و يأنسون بها، فهم أطفال لا غير و إن امتدت أعمارهم سنين طويلة.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ المراد من «الحيوان» على زنة «خفقان» هو الحياة، فهذه الكلمة تحمل معنى مصدريا[۳۲۱] ..

و هذا التعبير وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ إشارة إلى أن الحياة الحقيقية هى فى الأخرى، لا فى هذه الدار الدنيا- فكأنّ الحياة فى الأخرى تفور من جميع أبعادها، و لا شيء هناك إلّا الحياة.

و بديهى أن القرآن لا يريد أن ينسى و ينفى مواهب اللّه فى هذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمة هذه الدنيا بالقياس إلى الأخرى قياسا صريحا و واضحا ...

و إضافة إلى كل ذلك فإنّه ينذر الإنسان لئلا يكون أسيرا لهذه المواهب، بل ينبغى أن يكون أميرا عليها، و لا يؤثرها على القيم الأصيلة أبدا.

و فى المرحلة الثّالثة ... يتجه القرآن نحو الفطرة و الجبلّة الإنسانية، و نحو تجلّى نور التوحيد فى أشدّ الأزمات فى أعماق روح الإنسان، و ضمن مثال بديع جدّا و بليغ فيقول: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۹

أجل، إنّ الشدائد و الأزمات هى التى تهيء الارضية لتفتح الاجتماعية «الفطرة» الإنسانية، لأنّ نور التوحيد مخفى فى أرواح الناس جميعا، إلّا أن الآداب و المسائل الخرافية و التربية الخاطئة و التلقينات السيئة تلقى عليه ظلالا و أستارا، و لكن حين تحدق بالإنسان الشدائد و تحيط به دوّامات المشاكل، و يرى يده قاصرة عن الأسباب الظاهرية، يتجه بدون اختياره إلى عالم ما وراء الطبيعة، و يخلص قلبه من كل نوع من أنواع الشرك و الكفر، و ينصهر فى تنور الحوادث، و يكون مصداقا لقوله تعالى: مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

و ملخص الكلام: إنّه توجد فى داخل قلب الإنسان دائما نقطة نورانية، و هى خطّ ارتباطه بما وراء عالم الطبيعة، و أقرب طريق إلى اللّه.

إلّا أنّ التعليمات الخاطئة و الغفلة و الغرور- و خاصة عند السلامة و وفور النعمة- تلقى عليها أستارا، غير أن طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، و تتجلى نقطة النور آنذاك.

و على هذا، فإنّ أئمّة المسلمين العظام كانوا يرشدون المترددين فى مسألة «معرفة اللّه» و يغرقون فى الشك و الحيرة .. بهذا الأمر.

و قصّة الرجل المتحيّر المبتلى بالشك فى معرفة اللّه، و الذى أرشده الإمام الصادق عليه السّلام عن طريق الفطرة و الوجدان، سمعناها جميعا إذ

قال: يا ابن رسول اللّه، دلّنى على اللّه ما هو؟! فقد أكثر على المجادلون و حيّرونى! فقال له الإمام عليه السّلام: «يا عبد اللّه، هل ركبت سفينة قطّ؟

قال: نعم.

قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك و لا سباحة تغنيك؟! قال: نعم! قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أن شيئا من الأشياء قادر على أن يخلصك من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۴۵۰

ورطتك؟! قال: نعم.

قال الصادق عليه السّلام: فذلك الشيء هو اللّه القادر على الإنجاء حيث لا منجى، و على الإغاثة حيث لا مغيث».[٣٢٢]

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- و بعد ذكر جميع هذه الدلائل على التوحيد و عبادة اللّه، يواجه القرآن المشركين و الكفار بتهديد شديد فيقول: إن هؤلاء أنكروا آياتنا و كفروا بما رزقناهم من النعم فليتمتعوا بها أيّاما قلائل:

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة كفرهم و شركهم إلى أين ستبلغ بهم؟

و أى ابتلاء و مصير مشؤوم سيقعون فيه؟! و بالرغم من أنّ ظاهر الآية هنا هو الأمر بالكفر و إنكار آيات اللّه ... إلّا أن من البديهى أنّ المراد منه التهديد ... و هذا تماما ينطبق مثلا على ما لو قلنا لمذنب جان: افعل ما بدا لك من إجرام، إلّا أنّك سرعان ما تذوق مرارة عملك؟

ففى مثل هذه العبارات، و إن استعملت صيغة الأمر فيها، إلّا أنّ الهدف من ورائها هو التهديد و ليس الطلب.

و الطريف أن جملة فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ جاءت بصورة مطلقة، فهى لا تقول:

أى شيء يعلمون ... بل تقول: سيعلمون عاجلا، هذا هو معنى فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

إطلاق الكلام هذا ليكون مفهومه واسعا و لا يتحدد ذهن السامع بأى شيء فنتيجة الأعمال السيئة هى عذاب اللّه، الافتضاح فى الدارين، و كل أنواع الشقاء و سوء العاقبة!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۴۵۱

ملاحظة

الشدائد و اشراق القطرة:

سنتحدث بإذن اللّه فى ذيل الآية الثلاثين من سورة الروم حول «فطريّة» أصل التوحيد و معرفة اللّه بشكل مفصّل، و ما يلزم ذكره هنا هو أنّ القرآن المجيد يتحدث فى آيات كثيرة عن المشاكل و الصعاب على أنّها باعثة على ظهور الفطرة الإنسانية و بروزها «فالمشاكل و الصعاب وسيلة لاشراق الفطرة».

يقول القرآن فى بعض آياته: وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ [٣٢٣] و يأتى هذا المعنى فى سورة يونس، و لكن بأسلوب آخر، إذ يقول القرآن إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ ٣٢۴] كما ورد هذا المعنى فى سورة الروم الآية (٣٢) و سورة الزمر الآية (۴٩) و سورة الإسراء الآيات (٦٧)- (٦٩) بعبارات أخرى و إشارات مليئة بالمعانى.

و فى الآيات- محل البحث- قرأنا أيضا أن المشركين فى الحالات العادية يتجهون إلى الأصنام، و لكن إذا سافروا فى البحر و أحاطت بهم الأمواج و الطوفان، و أضحت سفينتهم كالقشة فى وسط الأمواج المتلاطمة تتقاذفها هنا و هنا، و انقطعت بهم السبل تتنور قلوبهم بنور التوحيد و يلقون جانبا جميع المعبودات المصنوعة، و يخلصون قلوبهم كاملا- لكن خلوصا إجباريا لا قيمة له- فما أن يهدأ

الطوفان و تتلاشى الأمواج و تعود الحالة الاعتيادية، حتى تنزل الأسدال على الفطرة و تظهر أشواك الشرك و الوثنية على هذه «الوردة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۴۵۲

قد يقال: إنّ هذه الحالة من التوجه تحصل على أثر التلقين و الرسوبات الفكرية من الثقافة الاجتماعية و أفكار المحيط.

و يمكن قبول مثل هذا الكلام فيما إذا كانت هذه المسألة تحدث خاصّة فى موارد المتدينين أو الذين نشؤوا فى محيط دينى، و لكن مع الالتفات إلى أن هذه الحالة تظهر حتى عند أشد المنكرين للّه، و فى المجتمعات غير المذهبية، فيتّضح حينئذ أن جذرها كامن فى الضمير (غير الواعى) للإنسان، و فى داخل فطرته و جبلّته!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۴۵۳

الآيات [سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ۶۷ الى ۶۹]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۶۸) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (۶۹)

سبب النّزول

نقل فى تفسير «الدر المنثور» عن ابن عباس- ذيل الآية محل البحث- أن جماعة من المشركين قالوا: يا محمّد ما يمنعنا أن ندخل فى دينك إلّا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلّتنا و العرب أكثر منّا فمتى بلغهم أنا قد دخلنا فى دينك اختطفنا فكنّا أكلة رأس، فانزل اللّه: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً و كانت جوابا لهم.

التّفسير

أشارت الآيات- التى سبق ذكرها- إلى بعض الحجج الواهية للمشركين، و هى أنّنا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الإيمان ثمّ هاجرنا معك يا رسول اللّه، و قد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۴۵۴

و فى الآيات- محل البحث- يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً أى أرض مكّة المكرمة.

فى حين أن العرب كانوا يعيشون فى حالة غير آمنة خارج مكّة، و كانت قبائلهم مشغولة بالنهب و السلب و الغارات، إلّا أن هذه الأرض باقية على أمنها وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

فاللّه المقتدر على أن يجعل فى هذا البحر المتلاطم و الطوفان المحدق بأرض الحجاز «من الفتن» حرم مكّة كالجزيرة الهادئة الآمنة وسط البحر. كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! و كيف يخافون الناس الضعاف قبال قدرة اللّه العظيمة جلّ و علا؟ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ

و ملخص الكلام، إنّ اللّه القادر على أن يجعل فى أرض مضطربة فى وسط جماعة من الناس أنصاف وحشيين منطقة صغيرة آمنة،

فكيف لا يقدر على حفظ جماعة المؤمنين القلائل بين جماعات كثيرة من الكفار.

و بعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهى القرآن الى هذه النتيجة فى الآية التالية وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ

لقد قدمنا دلائل واضحة لكم على أنّه لا شىء أحق بالعبادة و أحرى بها من اللّه، لكنّكم كذبتم على اللّه، و صنعتم له شركاء بأيديكم، و تدعون أن هذا هو منهج إلهى.

و من جهة أخرى، فإنّ القرآن الذى أنزلناه عليكم فيه دلائل الحق لائحة واضحة، إلّا أنّكم لم تكترثوا به، و ألقيتموه وراءكم ظهريا! فهل يتصور ظلم أشدّ من هذا؟! لقد ظلمتم أنفسكم و ظلمتم الناس جميعا، لأنّ الشرك ظلم عظيم.

و بتعبير آخر: هل الظلم بمعناه الوسيع إلّا الانحراف و إخراج الشىء عن محلّه الجدير به، و هل يرى أسوأ من أن يعدّ الإنسان حفنة من الأحجار المصنوعة التى لا قيمة لها أو الخشب المصنوع شركاء للخالق سبحانه الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۵

خلق السماوات و الأرض.

إضافة إلى ذلك فإنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الاجتماعية، و فى الواقع إن المظالم الأخرى تسترفد منه، عبادة الهوى، عبادة المقام، عبادة الدنيا، كل منها نوع من الشرك.

و لكن اعلموا أنّ عاقبة الشؤم و الخزى للمشركين أ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ

من الجدير ذكره أنّ فى القرآن الكريم ۱۵ موردا عبّر فيها القرآن عن بعض الأفراد بأنّهم الأظلم، و جميع هذه الموارد بدأت بجملة استفهامية وَ مَنْ أَظْلَمُ طبعا الاستفهام هنا استنكارى.

و التدقيق فى هذه الآيات يدل على أنّ الآيات المذكورة و إن عالجت مسائل متنوعة، إلّا أنّها جميعا تعود إلى الشرك، فعلى هذا لا تضاد بينها أبدا. «لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية (۲۱) من سورة الأنعام».

و آخر آية- من الآيات محل البحث- و هى فى الوقت ذاته آخر آية سورة العنكبوت، تبيّن واقعا مهما، و هى عصارة جميع هذه السورة، و تنسجم مع بدايتها.، تقول الآية .. بالرغم من أن المشاكل المتعددة تحيط بطريق المسير إلى اللّه، من قبيل مشكلة معرفة الحق، و مشكلة وساوس الشياطين من الإنس و الجن، و مشكلة عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا يرحمون، و مشكلة الانحرافات الاحتمالية، لكن هنا حقيقة ثابتة، و هى أن اللّه يمنحكم القوّة و الاطمئنان قبال المشاكل و يدافع عنكم، تقول الآية: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

و فى معنى «الجهاد» هنا و المراد منه احتمالات متعددة. أ هو جهاد الأعداء؟

أم جهاد النفس؟ أم الجهاد فى سبيل معرفة اللّه عن الطرق العلمية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۶

للمفسّرين آراء فى هذا المجال.

و كذلك فى معنى «فينا» الذى ورد تعبيره فى الآية، هل المراد منه فى سبيل اللّه؟! أم فى سبيل الجهاد للنفس، أم فى سبيل العبادة، أم مواجهة الأعداء؟

و لكن من الواضح أنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، و مثله التعبير بكلمة «فينا» فالتعبير يشمل كل سعى و جهاد فى سبيل اللّه و من أجله، و للوصول إلى الأهداف الإلهية، كل ذلك يصدق عليه جاهَدُوا فِينا سواء كان فى سبيل كسب المعرفة! أو جهاد النفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصبر على الطاعة، أو الصبر على المعصية، أو فى إعانة الضعفاء، أو فى الإقدام على أى عمل حسن و صالح! و يتّضح ممّا قلناه ضمنا أنّ المراد ب «السبل» الطرق المتعددة التى تنتهى إلى اللّه، سبيل جهاد النفس، سبيل جهاد الأعداء، سبيل العلم و

الثقافة. و الخلاصة، فإن الجهاد فى كل طريق من هذه الطرق و السبل سبب لهداية المسير المنتهى إلى اللّه.

و هـذا وعد وعده اللّه لجميع المجاهدين فى سبيله، و أكده بأنواع التأكيدات ك «لام التأكيد و النون الثقيلة» و جعل التوفيق و الإنتصار و الرقى فى محور شيئين هما «الجهاد» و «خلوص النية».

و يعتقـد جماعـة من الفلاسـفة أنّ التفكر و المطالعـة لا ـ يوجـدان العلم، بـل يهيئـان روح الإنسان لقبول صور المعقولات، و حين تتهيأ الروح الإنسانية للقبول يتنزّل «الفيض» من قبل الخالق المتعال و واهب الصور بالعلم و «الحكمة».

فعلى هذا ينبغى على الإنسان أن يجاهد فى هذا الطريق، إلّا أن الهداية بيد اللّه تعالى.

و ما

ورد فى الحديث أنّه «ليس العلم بكثرة التعلم و التعليم، بل هو نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء»

، فلعله إشارة إلى هذا المعنى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۷

ملاحظتان

۱- الجهاد و الإخلاص

يستفاد من الآية المتقدمة بصورة جيدة أنّنا إذا أصـبنا بأى نوع من الهزيمة عدم الموفقية، فسبب ذلك و علته أحد أمرين: إمّا أنا قصّرنا فى جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص فى العمل، و إذا اجتمع الجهاد و الإخلاص- فبناء على وعد اللّه- فإن النصر و الهداية حتميّان.

و لو فكّرنا جيـدا لاسـتطعنا أن نعزو جميع المشاكل و المصائب فى المجتمع الإسـلامى الى التقاعـد عن الجهاد و عدم الإخلاص، فهما مصدرها.

فلم تأخر المسلمون، الذين كانوا متقدمين بالأمس!؟

و لم يمدون يد الحاجة إلى الأجانب فى كل شيء، حتى فى الثقافة و القوانين، و حتى نظمهم الخاصة.

و لم يعتمدون على غيرهم من أجل حفظ أنفسهم من التيارات السياسية و الهجومات العسكرية.

لم كـان الآـخرون جالسـين يومـا على مائـدة المسـلمين التى كان خوانها مبسوطا بالعلم و الثقافـة و المعرفـة، و اليوم أصـبح المسـلمون جالسين على مائدة الآخرين؟!! و أخيرا، لم نرى المسلمين أسرى فى قبضة الآخرين، و أراضيهم مغصوبة من قبل الظالمين؟

الإجابة على جميع هذه الأسئلة منحصرة فى سبب واحد، هو «نسيانهم الجهاد» أو «عدم الخلوص فى النية».

أجل، لقـد أهملوا الجهاد فى الميادين العلمية و الثقافية و السياسـية و الاقتصادية و العسـكرية، و تغلّب عليهم حب النفس و عشق الدنيا او طلب الراحة و النظرة الضيقة و الأغراض الشخصيّة، حتى أصبح قتلاهم على أيديهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۸

أكثر من قتلاهم على أيدى أعدائهم!.

إنّ اسـتغراب بعض المسـلمين الذى انبهروا بحضارة الغرب الرأسمالى أو الشرق الاشتراكى، و عمالة بعض الرؤساء و الزعماء، و يأس و انزواء العلماء و المفكرين كل ذلك سلبهم التوفيق الى الجهاد، و كذلك حرمهم من الإخلاص.

و متى ما ظهر قليل من الإخلاص بين صـفوفنا، و تحرك مجاهـدونا حركة ذاتية، فإن النصـر يكون حليفنا واحدا بعد الآخر ... و تتقطع غلال الأسـر ... و يتبـدل اليأس إلى أمل مشـرق، و سوء الحظ الى حسن الحظ، و الذلـة إلى العزة و رفعـة الرأس، كما تتبـدل الفرقـة و

الشتات إلى الوحدة و الانسجام.

و ما أعظم ما قاله القرآن! و ما أبلغ إلهامه! إذ جمع فی جملة واحدة الداء و الدواء معا.

أجل إن الذین یجاهدون فی سبیل اللّه تشملهم هدایته، و من البدیهی أنّه مع هدایة اللّه، فلا ضلال و لا خسران، و لا انهزام.

و إذا لاحظنا أن الآیة مفسرة فی بعض روایات أهل البیت علیهم السّلام بآل محمّد صلّى اللّه علیه و آله و أتباعهم، فهی مصداق کامل لذلک «التّفسیر» لأنّهم کانوا السابقین و المتقدمین فی طریق الجهاد، و لیس فی الآیة دلیل على تحدید مفهومها أبدا.

و على کل حال، فإنّ کل إنسان یلمس هذه الحقیقة القرآنیة .. فی سعیه و اجتهاده، حیث یجد الأبواب مفتوحة عند ما یعمل للّه و فی سبیل اللّه، و تنتهی مشاکله السهلة و الصعبة و تضحی بسیطة متحملة.

۲- الناس ثلاثة أصناف:

فصنف لجوج معاند لا تنفعه أیة هدایة.

و صنف مجد دؤوب مخلص، و هذا الصنف یصل إلى الحق.

و صنف ثالث أعلى من الصنف الثانی، فهذا الصنف لیس بعیدا حتى یقترب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۹

من الحق، و لا منفصلا عنه حتى یتصل به، لأنّه معه أبدا.

فالآیة المتقدمة وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى إشارة إلى الصنف الأوّل.

و جملة وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا إشارة إلى الصنف الثّانی.

و جملة إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ إشارة إلى الصنف الثّالث.

و یستفاد- ضمنا- من هذا التعبیر أن مقام «المحسنین» أسمى من مقام «المجاهدین»، لأنّ المحسنین إضافة إلى جهادهم فی سبیل اللّه لنجاة أنفسهم، فهم مؤثرون غیرهم على أنفسهم، و یحسنون إلى الآخرین، و یسعون لإعانتهم.

ربّنا وفقنا توفیقا ترحمنا به، فلا نکفّ أیدینا عن الجد و الاجتهاد.

إلهنا .. ارزقنا الإخلاص حتى لا نفکر فی سواک، و لا نخطوا لغیرک.

إلهنا .. ارفع درجاتنا حتى نعلو على مقام المجاهدین و ننال درجة المحسنین، و ارزقنا هدایتک فی جمیع أعمارنا.

آمین یا ربّ العالمین انتهاء سورة العنکبوت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۱

سورة الروم

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ستون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۳

«سورة الروم»

محتوى سورة الروم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۴۶۳

ث أنّ هـذه السورة جمیعها نزلت بمکّة- کما هو المشـهور- فإنّ محتوی السور المکیـة، و روحها باد علیها ... أی إنّها تبحث قبل کل شیء عن المبدأ و المعاد، لأنّ فترة مکّة هی فترة تعلم الإعتقادات الإسـلامیة الأصـلیة الأساسـیة، کالتوحید و مواجهة الشـرک و التوجه لیوم المعاد و محکمة العدل الإلهی و البعث و النشور .. إلخ ... کما تثار خلال هذه المباحث مسائل أخری ترتبط بها.

و یمکن تلخیص مضامین هذه السورة فی سبعة أقسام:

۱- التنبؤ بانتصار الروم علی الفرس فی معرکة تحدث فی المستقبل، و ذلک لما جری من الحدیث بین المسلمین و المشرکین فی هذا الصدد، و سیأتی تفصیل ذلک فی الصفحات المقبلة بإذن اللّه.

۲- جانب من طریقة التفکیر عند غیر المؤمنین و کیفیة أحوالهم، ثمّ التهدیدات لهم بالعذاب و الجزاء (الإلهی) فی یوم القیامة.

۳- قسم مهم من آیـات «عظمـة اللّه» فی الأـرض و السـماء، و فی وجود الإنسان، من قبیل خروج الحی من المیت، و خروج المیت من الحیّ .. و خلق الإنسـان من تراب، و نظـام الزوجیـة بالنسبـة للنـاس، و علاقـة المودة بین کل من الزوجین، خلق السـماوات و الأرض و اختلاف الألسن، نعمة النوم فی اللیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۴

و الحرکة فی النهار، و ظهور البرق و الرعد و الغیث و حیاة الأرض بعد موتها، و تدبیر اللّه لأمر السماء و الأرض.

۴- الکلام عن التوحید «الفطری» بعد بیان دلائله فی الآفاق و فی الأنفس لمعرفة اللّه سبحانه.

۵- العودة إلی شرح أحوال غیر المؤمنین و المذنبین و تفصیل حالاتهم، و ظهور الفساد فی الأرض نتیجة لآثامهم و ذنوبهم.

۶- إشارة إلی مسألة التملک، و حق ذوی القربی، و ذم الربا.

۷- العودة- مرّة أخری- إلی دلائل التوحید، و آیات اللّه و آثاره، و المسائل المتعلقة بالمعاد.

و بشـکل عـام فـإنّ فی هـذه السورة- کبـاقی سور القرآن الأخری مسائل اسـتدلالیة و عاطفیـة و خطابیـة ممزوجـة مزجا .. حتی غـدت «مزیجا» کاملا لهدایة النفوس و تربیتها.

فضیلة سورة الروم:

ورد فی حـدیث للإمـام الصادق علیه السّـلام کما أشـرنا إلیه من قبل، فی فضـیلة هـذه السورة و سورة العنکبوت ما یلی: «من قرأ سورة العنکبوت و الروم فی شـهر رمضان لیلـة ثلاث و عشـرین فهو و اللّه- (یا أبا محمّد)- من أهل الجنّة لا أسـتثنی فیه أبدا، و لا أخاف أن یکتب اللّه علی فی یمینی إثما، و إن لهاتین السورتین من اللّه مکانا»[۳۲۵].

و

فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله ورد ما یلی «من قرأها کان له من الأجر عشر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۵

حسنات بعدد کل ملک سبح اللّه بین السماء و الأرض، و أدرک ما ضیع فی یومه و لیلته»[۳۲۶].

و من البـدیهی أن من جعل محتوی هـذه السورة التی هی درس عام للتوحیـد و محکمـة القیامة الکبری، فی روحه و قلبه، و راقب اللّه فی کل لحظة، و اعتقد بیوم الجزاء حقا، فإن تقوی اللّه تملأ قلبه حتی یکون حقیقا بهذا الأجر و الثواب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۶

الآیات [سورة الروم (۳۰): الآیات ۱ الی ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ (۳) فِی بِضْعِ سِنِینَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ یَوْمَئِذٍ یَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴)
بِنَصْرِ اللَّهِ یَنْصُرُ مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۵) وَعْدَ اللَّهِ لا یُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۶) یَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (۷)

سبب النّزول

یتفق المفسّرون الکبار علی أن الآیات الأولی من هذه السورة نزلت فی أعقاب الحرب التی دارت بین الروم و الفرس، و انتصر الفرس علی الروم، و کان النّبی حینئذ فی مکّة، و المؤمنون یمثلون الأقلیة.
فاعتبر المشرکون هذا الإنتصار للفرس فألا حسنا، و عدّوه دلیلا علی حقانیة المشرکین و «الشرک»، و قالوا: إن الفرس مجوس مشرکون، و أمّا الروم فهم مسیحیون «نصاری» و من أهل الکتاب .. فکما أن الفرس غلبوا «الروم» فإن
الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۷
الغلبة النهائیة للشرک أیضا، و ستنطوی صفحة الإسلام بسرعة و یکون النصر حلیفنا.
و بالرغم من أن مثل هذا الاستنتاج عار من أی أساس، إلّا أنّه لم یکن خالیا من التأثیر فی ذلک الجوّ و المحیط للتبلیغ بین الناس الجهلة، لذلک کان هذا الأمر عسیرا علی المسلمین.
فنزلت الآیات الآنفة و قالت بشکل قاطع: لئن غلب الفرس الروم لیأتینّ النصر و الغلبة للروم خلال فترة قصیرة. و قد حدّدت الفترة لانتصار الروم علی الفرس فی بِضْعِ سِنِینَ
و هذا الکلام السابق لأوانه، هو من جهة دلیل علی إعجاز القرآن، هذا الکتاب السماوی الذی یستند علمه إلی الخالق غیر المحدود، و من جهة أخری کان فألا حسنا للمسلمین فی مقابل فأل المشرکین، حتی أن بعض المسلمین عقدوا مع المشرکین رهانا علی هذه المسألة المهمّة، و لم یکن فی ذلک الحین قد نزل الحکم بتحریم مثل هذا الشرط[۳۲۷].

التّفسیر

تنبؤ عجیب!

هذه السورة ضمن مجموع تسع و عشرین سورة تبدأ بالحروف المقطعة الم
و قد بحثنا مرارا فی تفسیر هذه الحروف المقطعة «و خاصة فی بدایة سورة البقرة و آل عمران و الأعراف».
الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۸
و الفارق الوحید الذی نلاحظه هنا عن بقیة السور، و یلفت النظر، هو أنّه خلافا لکثیر من السور التی تبدأ بالحروف المقطعة، التی یأتی

الحديث بعدها على عظمة القرآن الكريم، بل بحثا عن انحدار الروم و انتصارهم فى المستقبل، و لكن مع التدقيق يتّضح أن هذا البحث يتحدث عن عظمة القرآن الكريم أيضا ...

لأنّ هذا الخبر الغيبى المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، و عظمة هذا الكتاب السماوى!.

يقول القرآن بعد الحروف المقطعة غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ و هم قريب منكم يا أهل مكّة، إذ أنّهم فى شمال جزيرة العرب، فى أراضى الشام فى منطقة بين «بصرى» و «أذرعات».

و من هنا يعلم بأنّ المراد من الروم هنا هم الروم الشرقيون، لا الروم الغربيون.

و يرى بعض المفسّرين كالشيخ الطوسى فى تفسير «التبيان»- أن من المحتمل أن يكون المراد بأدنى الأرض المكان القريب من بلاد فارس، أى إن المعركة وقعت فى أقرب نقطة بين الفرس و الروم.[۳۲۸] و صحيح أن التّفسير الأوّل معه الألف و اللام للعهد- فى «الأرض» مناسب أكثر، و لكن و من جهات متعددة- كما سنذكرها- يبدوا أن التّفسير الثّانى أصحّ من الأول! و يوجد هنا تفسير ثالث، و لعلّه لا يختلف من حيث النتيجة مع التّفسير الثانى، هو أنّ المراد من هذه الأرض- هى أرض الروم، أى إنّهم غلبوا فى أقرب حدودهم مع بلاد فارس، و هذا يشير إلى أهمية هذا الانحدار و عمقه، لأنّ الانحدار فى المناطق البعيدة و الحدود المترامية البعد ليس له أهمية بالغة، بل المهم أن تندحر دولة فى أقرب نقاطها من حدودها مع العدو، إذ هى فيها أقوى و أشدّ من غيرها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۹

فعلى هذا سيكون ذكر جملة فِي أَدْنَى الْأَرْضِ إشارة إلى أهمية هذا الانحدار.

و بالطبع فإن التنبؤ عن انتصار البلد المغلوب خلال بضع سنين فى المستقبل، له أهمية أكبر، إذ لا يمكن التوقع له إلّا عن طريق الإعجاز.

ثمّ يضيف القرآن: وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ و هم أىّ الروم. و مع أن جملة «سيغلبون» كافية لبيان المقصود، و لكن جاء التعبير مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ بشكل خاص لتتّضح أهمية هذا الإنتصار أكثر، لأنّه لا ينتظر أن تغلب جماعة مغلوبة و فى أقرب حدودها و أقواها فى ظرف قصير، لكن القرآن يخبر بصراحة عن هذه الحادثة غير المتوقعة.

ثمّ يبيّن الفترة القصيرة من هذه السنين بهذا التعبير فِي بِضْعِ سِنِينَ ۳۲۹] و المعلوم أن «بضع» ما يكون أقله الثلاث و أكثره التسع.

و إذا أخبر اللّه عن المستقبل، فلأنّه لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ.

و بديهىّ أن كون الأشياء جميعها بيد اللّه- و بأمره و إرادته- لا يمنع من اختيارنا فى الإرادة و حريتنا و سعينا و جهادنا فى مسير الأهداف المنظورة.

و بتعبير آخر: إن هذه العبارة لا تريد سلب الإختيار من الآخرين، بل تريد أن توضح هذه اللطيفة، و هى أن القادر بالذات و المالك على الإطلاق هو اللّه، و كل من لديه شىء فهو منه!.

ثمّ يضيف القرآن، أنّه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنه ستغلب الروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ

أجل، يفرحون بِنَصْرِ اللَّهِ ... يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

و لكن ما المراد من فرح المؤمنون؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۰

قال جماعة: المراد منه فرحهم بانتصار الروم، و إن كانوا فى صفوف الكفار أيضا، إلّا أنّهم لكونهم لديهم كتاب سماوى فانتصارهم على المجوس يعدّ مرحلة من انتصار «التوحيد» على «الشرك».

و أضاف آخرون: إن المؤمنين إنّما فرحوا لأنّهم تفألوا من هذه الحادثة فألا حسنا، و جعلوها دليلا على انتصارهم على المشركين.

أو أن فرحهم كان لأنّ عظمة القرآن و صدق كلامه المسبق القاطع- بنفسه- انتصار معنوى للمسلمين و ظهر فى ذلك اليوم.

و لا يبعد هذا الاحتمال و هو أن انتصار الروم كان مقارنا مع بعض انتصارات المسلمين على المشركين، و خاصة أن بعض المفسّرين أشار إلى أن هذا الإنتصار كان مقارنا لانتصار بدر أو مقارنا لصلح الحديبية. و هو بنفسه يعدّ انتصارا كبيرا، و خاصة إن التعبير بنصر اللّه أيضا يناسب هذا المعنى.

و الخلاصة: إنّ المسلمين «المؤمنين» فرحوا فى ذلك اليوم لجهات متعددة:

۱- من انتصار أهل الكتاب على المجوس، لأنّه ساحة لانتصار الموحدين على المشركين.

۲- من الإنتصار المعنوى لظهور إعجاز القرآن.

۳- و من الإنتصار المقارن لذلك الإنتصار، و يحتمل أن يكون صلح الحديبية، أو بعض فتوحات المسلمين الأخرا!

و لزيادة التأكيد يضيف أيضا وَعْدَ اللَّهِ ۳۳۰] لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ و السبب فى عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم باللّه و قدرته، فهم لم يعرفوا اللّه حق معرفته، فهم لا يعلمون هذه الحقيقة، و هى أن اللّه محال عليه أن يتخلف عن وعده، لأنّ التخلف عن الوعد إمّا للجهل، أو لأنّ الأمر كان مكتوما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۱

ثمّ اتضح و صار سببا لتغيير العقيدة، أو للضعف و عدم القدرة، إذ لم يرجع الذى وعد عن عقيدته لكنّه غير قادر، لكن اللّه لا يتخلف عن الوعد، لأنّه يعرف عواقب الأمور، و قدرته فوق كل شىء.

ثمّ يضيف القرآن معقبا: يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ

إنّهم لا يعلمون إلّا الحياة الدنيا فحسب، بل يعلمون الظاهر منها و يقنعون به! فكلّ ما تمثله نظراتهم و نصيبهم من هذه الحياة هو اللهو و اللذة العابرة و النوم و الخيال ... و ما ينطوى فى هذا الأدران السطحى للحياة من الغفلة و الغرور، غير خاف على أحد.

و لو كانوا يعلمون باطن الحياة و واقعها فى هذه الدنيا، لكان ذلك كافيا لمعرفة الآخرة! لأنّ التدقيق فى هذه الحياة العابرة، يكشف أنّها حلقة من سلسلة طويلة و مرحلة من مسير مديد كبير، كما أن التدقيق فى مرحلة تكوين الجنين يكشف عن أن الهدف النهائى ليس هو هذه المرحلة من حياة الجنين فحسب! بل هى مقدمة لحياة أوسع!.

أجل، هم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا فحسب، و لكنّهم غافلون عن مكنونها و محتواها و مفاهيمها!.

و من الطريف هنا أن تكرار الضمير «هم» يشير إلى هذه الحقيقة، و هى أن علة هذه الغفلة و سرّها تعود إليهم «فهم الغفلة و هم الجهلة» و هذا يشبه تماما قول القائل لك مثلا: لقد أغفلتنى عن هذا الأمر، فتجيبه: أنت كنت غافلا عن هذا الأمر، أى إن سبب الغفلة يعود إلى نفسك أنت!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۲

بحوث

۱- إعجاز القرآن من جهة «علم الغيب»

إن واحدا من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، و مثله الواضح فى هذه الآيات- محل البحث- ففى عدّة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن انتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين .. و يعدّ ذلك وعدا إلهيّا غير مكذوب و لا يتخلف أبدا.

فمن جهة يتحدث مخبرا عن أصل الإنتصار و الغلب وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

و من جهة يتحدث عن خبر لانتصار آخر للمسلمين على الكفار مقترنا لزمان الإنتصار الذى يتحقق للروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ

اللَّهِ

و من جهة ثالثة يصرّح أنّ هذا الأمر سيقع خلال عدّة سنوات فِي بِضْعِ سِنِينَ

و من جهة رابعة يسجّل قطعية هذا الوعد الإلهى بتأكيدين بالوعد وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ

و يحدثنا التأريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان ...

فقد انتصر الروم فى حربهم الجديدة على الفرس، و اقترن زمان هذا الإنتصار ب «صلح الحديبية» و طبقا لرواية أخرى أنّه كان مقارنا لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون انتصارا ملحوظا على الكفار.

و الآن ينقدح هذا السؤال، و هو: هل يستطيع إنسان أن يخبر بعلم عادى بسيط، عن مثل هذه الحادثة المهمة بضرس قاطع؟ .. حتى لو فرضنا أن الأمر كان مع تكهّن سياسى- و لم يكن- فينبغى أن يذكر هذا الأمر بقيد «الاحتياط» و الاحتمال، لا بمثل هذه الصراحة و القطع، إذ لو ظهر خلافه لكان أحسن دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۳

و سند على إبطال دعوى النبوة بيد الأعداء!.

و الحقيقة هى أنّ مسائل من قبيل توقّع انتصار دولة كبيرة كالروم، أو مسألة المباهلة، تدل بصورة جيدة على أنّ نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله كان قلبه متعلقا بمكان آخر، و كان له سند قوى، و إلّا فلا يمكن لأى أحد- فى مثل هذه الظروف- أن يجرأ على مثل هذا الأمر!.

و خاصة، إنّ مطالعة سيرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله تكشف أنّه لم يكن إنسانا يتصيد بالماء العكر، بل كانت أعماله محسوبة ... فمثل هذا الادعاء من مثل هذا الشخص يدل على أنّه كان يعتمد على ما وراء الطبيعة، و على وحى اللّه و علمه المطلق.

و سنتحدث عن تطبيق هذا التنبؤ التاريخى فى القريب العاجل إن شاء اللّه.

۲- السطحيّون «أصحاب الظاهر»

تختلف نظرة الإنسان المؤمن الإلهى أساسا مع نظرة الفرد المادى المشرك، اختلافا كبيرا.

فالأوّل طبقا لعقيدة التوحيد- يرى أن العالم مخلوق لربّ عليم حكيم، و جميع أفعاله وفق حساب و خطة مدروسة، و على هذا فهو يعتقد أن العالم مجموعة أسرار و رموز دقيقة، و لا شيء فى هذا العالم بسيط و اعتيادى، و جميع كلمات هذا الكتاب «التكوينى» ذات محتوى و معنى كبير.

هذه النظرة التوحيدية تقول لصاحبها: لا تمرّ على أية حادثة و أى موضوع ببساطة، إذ يمكن أن يكون أبسط المسائل أعقدها .. فهو ينظر دائما إلى عمق هذا العالم و لا يقنع بظواهره، قرأ الدرس فى مدرسة التوحيد، و يرى للعالم هدفا كبيرا، و ما من شيء إلّا يراه فى دائرة هذا الهدف غير خارج عنها.

فى حين أن الإنسان المادى غير المؤمن يعدّ الدنيا مجموعة من الحوادث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۴

العمى و الصمّ التى لا هدف لها، و لا يفكر بغير ظاهرها، و لا يرى لها باطنا و عمقا أساسا.

ترى هل يعقل أن يكون لكتاب رسم طفل على صفحاته خطوطا عشوائية، أهمية تذكر؟! و كما يقول بعض العلماء الكبار فى علوم الطبيعة: إن جميع علماء البشر من أية فئة كانوا و أية طبقة، حين نهضوا للتفكير فى نظام هذا العالم، كانوا ينطلقون من تفكير دينى «فتأملوا بدقّة».

«انشتاین» العالم المعاصر یقول: من الصعب العثور بین المفکرین فی العالم شخص لا یحس بدین خاص ... و هذا الدین یختلف مع دین الإنسان العامی، إنّه یدعو هذا العالم إلی التحیّر من هذا النظام العجیب و الدقیق للکائنات، إذ تکشف عن وجهها أسرارا لا تقاس مع جمیع تلک الجهود و الأفکار المنظمة للبشر[۳۳۱]!.

و یقول فی مکان آخر: إن الشیء الذی دعا العلماء و المفکرین و المکتشفین- فی جمیع القرون و الأعصار- أن یفکروا فی أسرار العالم الدقیقة، هو اعتقادهم الدینی.

و من جهة أخری کیف یمکن أن یساوی بین من یعتبر هذه الدنیا مرحلة نهائیة و هدفا أصلیّا، و من یعدّها مزرعة و میدانا للامتحان للحیاة الخالدة التی تعقب هذه الحیاة الدنیا، فالأوّل لا یری أکثر من ظاهر هذه الحیاة، و الآخر یفکر فی أعماقها!.

و هذا الاختلاف فی النظر یؤثر فی حیاتهم بأجمعها، فالذی یعیش حیاة سطحیة و ظاهریة یعتبر الإنفاق سببا للخسران و الضرر، فی حین أن هذا «الموحد» یعدّها تجارة رابحة لن تبور.

و ذلک المادی یعتبر «أکل الربا» سببا للزیادة و وفرة المال. و أمّا الموحد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۵

فیعده وبالا و شقاء و ضررا.

و ذلک یعتبر الجهاد ضنی و شقاء و یعتبر الشهادة فناء و انعداما، و أمّا الموحد فیعد الجهاد رمزا للرفعة، و الشهادة حیاة خالدة! أجل، إن غیر المؤمنین لا یعرفون إلّا الظواهر من الدنیا، و هم فی غفلة عن الحیاة الأخری یَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ

۳- المطابقة التاریخیة

لکی نعرف المقطع التاریخی الذی حدثت فیه المعارک بین الروم و الفرس، یکفی أن نعرف فی ذلک التاریخ أن حربا طویلة حدثت فی عهد «خسرو پرویز» ملک الفرس مع الروم استمرت زهاء أربع و عشرین سنة، حیث دامت من سنة «۶۰۴ میلادیة إلی سنة ۶۲۸».

و فی حدود سنة ۶۱۶ میلادیة هجم قائدان عسکریان فی الجیش الفارسی هما: (شهر براز» و (شاهین) علی الحدود الشرقیة للروم، فهزما الروم هزیمة نکراء، و سیطرا علی منطقة الشامات و مصر و آسیا الصغری، فواجهت الروم الشرقیة بسبب هذه الهزیمة حالة الانقراض تقریبا، و استولی الفرس علی جمیع ما کان تحت ید الروم من آسیا و مصر.

و کان ذلک فی حدود السنة السابعة للبعثة! غیر أنّ ملک الروم «هرقل» بدأ هجومه علی بلاد فارس سنة ۶۲۲ میلادیة و ألحق هزائم متتابعة بالجیش الفارسی، و استمرت هذه المعارک حتی سنة ۶۲۸ لصالح الروم، و غلب خسرو پرویز، و انکسر انکسارا مریرا، فخلعه الفرس عن السلطنة و أجلسوا مکانه ابنه «شیرویه».

و بملاحظة أنّ مولد النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان سنة ۵۷۱ میلادیة و کانت بعثته سنة ۶۱۰ میلادیة، فإن هزیمة الروم وقعت فی السنة السابعة للبعثة، و کان انتصارهم بین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۶

سنتی خمس و ست للهجرة النبویة، و من المعلوم أن السنة الخامسة حدثت فیها معرکة الخندق، و تم فی السنة السادسة صلح الحدیبیة، و بطبیعة الحال فإن تنقّل الأخبار عن حرب فارس و الروم إلی منطقة الحجاز و مکّة کانت تستوعب عادة فترة من الزمان، و بهذا ینطبق هذا الخبر القرآنی علی هذه الفترة التاریخیة بوضوح «فلاحظوا بدقة».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۷

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (۸) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۹) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰)

التّفسير

عاقبة المسيئين:

كان الكلام فى آخر آية من البحث السابق عن السطحيين و أصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا و العالم المادى .. و كانوا جاهلين بما وراء الطبيعة و يوم القيامة.

أمّا فى هذه الآيات- محل البحث- و الآيات المقبلة، فيقع الكلام على مطالب متنوعة حول المبدأ و المعاد، فتبدأ هذه الآيات أولا على صورة استفهام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۸

فتقول: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى

أى: لو أنّهم فكروا جيدا و رجعوا إلى عقلهم فى الحكم و وجدانهم، لكانوا يطلعون جيدا على هذين الأمرين:

أوّلا: إنّ العالم خلق على أساس الحق، و تحكمه أنظمة هى دليل على أنّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق و قدرة كاملة.

و ثانيا: هذا العالم يمضى إلى الزوال، و حيث أن الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثا، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا، و إلّا فلا مفهوم لخلق هذا العالم، و هذا الخلق الطويل العريض لا يعقل أن يكون من أجل أيّام معدودات فى الحياة الدنيا، و بذلك يذعنون بوجود الآخرة!.

فعلى هذا يكون التدقيق فى نظم هذا العالم و حقانيته دليلا على وجود المبدأ، و التدقيق فى أن هناك «أجلا مسمى» دليل على المعاد «فلاحظوا بدقة».

لذلك يضيف القرآن فى نهاية الآية قائلا: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ فينكرون لقاء اللّه.

أو إنّهم ينكرون المعاد أصلا، كما نقلنا عن قول المشركين مرارا فى آيات القرآن، إذ كانوا يقولون: أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ إنّ هذا .. إنّ هذا .. إلخ .. و بتعابير مختلفة «كما ورد فى سورة الرعد الآية (۵)، و سورة المؤمنون الآية (۳۵)، و سورة النمل الآية (۶۷)، و سورة ق الآية (۳) و فى غيرها من السور».

أو إنّهم لا ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثة» و مخزية تدل على أنّهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين!.

و التعبير ب فِي أَنْفُسِهِمْ لا يعنى أن يطالعوا فى أسرار وجودهم، كما يدّعى الفخر الرازى فى تفسيره، بل المراد منه أن يفكروا فى داخل أنفسهم عن طريق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۹

العقل و الوجدان بخلق السماوات و الأرض.

و التعبیر بِالْحَقِ له معنیان: الأوّل: أنّ الخلق کان توأما مع الحق و القانون و النظم، و الآخر: أن الهدف من الخلق کان بالحق، و لا منافاة بین هذین التّفسیرین طبعا[۳۳۲].

و التعبیر بِلِقاءِ رَبِّهِمْ کما قلنا مرارا، هو إشارة إلی یوم القیامة و النشور، حیث تنکشف الحجب، و الإنسان یعرف عظمة اللّه بالشهود الباطنیین.

و حیث أنّ التعبیر ب أَجَلٍ مُسَمًّی کاشف عن أن هذه الحیاة علی کل حال لا تدوم، و هذا إنذار لجمیع عبدة الدنیا، فإنّ القرآن یضیف فی الآیة التالیة قائلا:

أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَکْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ أی بالدلائل الواضحات ... إلّا أنّهم أهملوا ذلک، و لووا رؤوسهم، و لم یستسلموا للحق، فابتلوا بعقاب اللّه الألیم! وَ ما کانَ اللَّهُ لِیَظْلِمَهُمْ وَ لکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ

فی الواقع إنّ القرآن یشیر إلی أمم کانت لهم- فی نظر مشرکی مکّة- عظمة ملحوظة من حیث القدرة و القوّة الجسمیة و الثروة المالیة، و کان مصیرهم الألیم یمثل درسا من العبرة لهؤلاء المشرکین.

و یمکن أن تکون جملة أَثارُوا الْأَرْضَ إشارة إلی حرث الأرض للزراعة و التشجیر، أو حفر الأنهار، أو تأسیس العمارات علی الأرض، أو جمیع هذه الأمور، لأنّ جملة أَثارُوا الْأَرْضَ لها مفهوم واسع یشمل جمیع هذه الأمور التی هی مقدمة للعمارة و البناء[۳۳۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۰

و حیث کانت أکبر قدرة- فی ذلک العصر- تعنی التقدم فی الزراعة و الرقی الملحوظ من حیث البناء و العمارات، فإنّه یتّضح رفعة الأمم السالفة و علوهم علی مشرکی مکّة الذین کانت قدرتهم فی هذه المجالات محدودة جدّا.

إلّا أنّ أولئک مع کل قدراتهم حین أنکروا آیات اللّه و کذبوا الأنبیاء، لم یستطیعوا الفرار من مخالب العقاب، فکیف تستطیعون الفرار من عذاب اللّه؟! و هذا العقاب و الجزاء الألیم هو نتیجة أعمالهم المهلکة أنفسهم، إذ ظلموا أنفسهم، و لا یظلم ربّک أحدا.

أمّا آخر آیة من الآیات محل البحث، فتبیّن آخر مرحلة من کفرهم فتقول:

ثُمَّ کانَ عاقِبَةَ الَّذِینَ أَساؤُا السُّوای أَنْ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ وَ کانُوا بِها یَسْتَهْزِؤُنَ

أجل، إنّ الذنب أو الإثم یقع علی روح الإنسان کالمرض الخبیث، فیأکل إیمانه و یعدمه، و یبلغ الأمر حدّا یکذب الإنسان فیه آیات اللّه، و أبعد من ذلک أیضا إذ یحمل الذنب صاحبه علی الاستهزاء بالأنبیاء، و السخریة بآیات اللّه، و یبلغ مرحلة لا ینفع معها وعظ و نصیحة أبدا، و لا تؤثر فیه أیة حکمة و أیّة آیة، و لا یبقی طریق سوی أسواط عذاب اللّه المؤلمة له.

إنّ نظرة واحدة فی صفحات تاریخ کثیر من الجناة و البغاة تکشف أنّهم لم یکونوا هکذا فی بدایة الأمر، إذ کان لدیهم علی الأقل نور إیمان ضعیف یشع فی قلوبهم، و لکن ارتکابهم للذنوب المتتابعة سبّب یوما بعد آخر أن ینفصلوا عن الإیمان و التقوی، و أن یبلغوا آخر الأمر إلی المرحلة النهائیة من الکفر.

و نلاحظ فی خطبة العقیلة زینب علیها السّلام أمام یزید بن معاویة فی الشام، النتیجة ذاتها التی أشرنا إلیها آنفا ... لأنّها حین رأت یزید یسخر بکل شیء و یتکلم بکلمات الکفر و أنشد أشعارا من ضمنها:

لیت أشیاخی ببدر شهدواجزع الخزرج من وقع الأسل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۱

لعبت هاشم بالملک فلاخبر جاء و لا وحی نزل

و هذه الکلمات تکشف عن عدم إیمانه بأساس الإسلام، فحمدت زینب اللّه تعالی و صلّت و سلّمت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و قالت: «صدق اللّه، کذلک یقول: ثُمَّ کانَ عاقِبَةَ الَّذِینَ أَساؤُا السُّوای أَنْ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ وَ کانُوا بِها یَسْتَهْزِؤُنَ .

أی إذا أنکرت الإسلام و الإیمان هذا الیوم بأشعارک المشوبة بالکفر، و تقول لأسلافک المشرکین الذین قتلوا علی أیدی المسلمین فی معرکة بدر: لیتکم تشهدون انتقامی من بنی هاشم، فلا مجال للتعجب، فذلک ما قاله اللّه سبحانه: ثُمَّ کانَ عاقِبَةَ الَّذِینَ أَساؤُا السُّوای أَنْ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ وَ کانُوا بِها یَسْتَهْزِؤُنَ ..

و قد ذکرت فی هذا الصدد مطالب کثیرة.

و لمزید من الإیضاح یراجع الجزء الخامس و الأربعون من بحار الأنوار الصفحة ۱۵۷.[۳۳۴]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۲

الآیات [سورة الروم (۳۰): الآیات ۱۱ الی ۱۶]

اشارة

اللَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (۱۲) وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَکائِهِمْ شُفَعاءُ وَ کانُوا بِشُرَکائِهِمْ کافِرِینَ (۱۳) وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یَوْمَئِذٍ یَتَفَرَّقُونَ (۱۴) فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِی رَوْضَةٍ یُحْبَرُونَ (۱۵) وَ أَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِکَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (۱۶)

التّفسیر

مصیر المجرمین و مآلهم یوم القیامة!

کان الکلام فی الآیات المتقدمة عن الذین یکذّبون و یستهزءون بآیات اللّه، و فی الآیات- محل البحث- تستکمل البحوث السابقة عن المعاد، مع بیان جوانب منه، و مآل المجرمین فی القیامة! فتبدأ الآیات بالقول: اللَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ و یبیّن فی هذه الآیة استدلال قصیر موجز، و ذو معنی کبیر، علی مسألة المعاد. و قد ورد هذا المعنی بعبارة أخری فی بعض آیات القرآن الأخری و منها قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۳

فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَ وَ لَیْسَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلی أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلی وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِیمُ ۳۳۵] و جملة ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ إشارة إلی أنّه بعد النشور و القیامة یعود الجمیع إلی محکمة اللّه، و الأسمی من ذلک أن المؤمنین یمضون فی تکاملهم نحو ذات اللّه المقدسة إلی ما لا نهایة ..

و الآیة الأخری تجسد حالة المجرمین یوم القیامة یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ

«یبلس» مأخوذ من مادة «إبلاس» و تعنی فی الأصل الغم و الحزن المترتبان علی أثر شدة الیأس و القنوط.

و بدیهی أنّه إذا یئس الإنسان من شیء غیر ضروری، فهذا الیأس غیر مهم، لکن الحزن و الغم یکشف فی هذه الموارد عن أمور ضروریة مأیوس منها، لذلک یری بعض المفسّرین أنّ «الضرورة» جزء من «الإبلاس» و إنّما سمّی «إبلیس» بهذا الاسم، فلأنّه أبلس من رحمة اللّه و استولی علیه الهم.

و على كل حال فيحق للمجرمين أى ييأسوا و يبلسوا فى ذلك اليوم، إذ ليس لديهم إيمان و عمل صالح فيشفع لهم فى عرصات المحشر، و لا صديق حميم، و لا مجال للرجوع إلى الدنيا و تدارك ما مضى!.

لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ.

فتلك الأصنام و المعبودات المصنوعة التى كانوا يتذرعون بها عند ما يسألون: من تعبدون؟ فيقولون: هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ٣٣٦]، سيتّضح لهم جيدا حينئذ أنّه لا قيمة لها و لا تنفعهم أبدا .. فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۴۸۴

و يبرأون منها وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ

و لم لا يكفرون بهذه الأصنام؟ و هم يرونها ساكنة عن الدفاع عنهم بل كما يعبّر القرآن تقوم بتكذيبهم و تقول: يا رب ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ ٣٣٧] بل كانوا يعبدون هوى أنفسهم؟! و أكثر من هذا، فقد عبر القرآن عن هذا المعبودات فى الآية (۶) من سورة الأحقاف أنّها ستكون معادية لهم و كافرة بهم وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ

ثمّ يشير القرآن إلى الجماعات المختلفة من الناس فى يوم القيامة، فيقول:

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ

كلمة «يحبرون» مأخوذة من مادة «حبر» على زنة «قشر» و معناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حالة السرور و الفرح التى يظهر أثرها على الوجه أيضا، و حيث أن قلوب أهل الجنّة فى غاية السرور و الفرح بحيث أن آثارها تظهر فى وجودهم قاطبة، فقد استعمل هذا التعبير لهذه الحالة أيضا.

و «الروضة» معناها المكان الذى تكثر فيه الأشجار و الماء، و لذلك تطلق هذه الكلمة على البساتين النضرة بأشجارها و اخضرارها .. و قد جاءت هذه الكلمة هنا بصيغة التنكير لغرض التعظيم و المبالغة، أى إنّهم فى أفضل الجنان و أعلاها التى تبعث السرور، فهم منعمون، بل غارقون فى نعيم الجنّة.

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ

الطريف هنا أنّه فى شأن أهل الجنّة استعملت كلمة «يحبرون» و تدلّ على منتهى الرضا من جميع الجوانب لدى أهل الجنّة .. و لكن استعملت كلمة «محضرون» فى أهل النّار، و هى دليل على منتهى الكراهة و عدم الرضا لما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ۴۸۵

يتلقونه و يستقبلونه، لأنّ الإحضار يطلق فى موارد تكون على خلاف الرغبات الباطنيّة للإنسان.

اللطيفة الأخرى أن أهل الجنّة ذكروا بقيد الإيمان و العمل الصالح، و لكن أهل النّار اكتفى من ذكرهم بعدم الإيمان «إنكار المبدأ و المعاد». و هى إشارة أن ورود الجنّة- لا بد له من الإيمان و العمل الصالح- فلا يكفى الإيمان وحده، و لكن يكفى لدخول النّار عدم الإيمان- و إن لم يصدر من ذلك «الكافر» ذنب- لأنّ الكفر نفسه أعظم ذنب!.

ملاحظة

لم كان أحد أسماء القيامة «الساعة»؟!

ينبغى الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة ... و هى أنّه فى كثير من آيات القرآن، و من ضمنها الآيتان من الآيات محل البحث، عبر عن قيام «القيامة» بقيام «الساعة» و ذلك لأنّ «الساعة» فى الأصل جزء من الزمان، أو لحظات عابرة، و حيث أنّه من جهة تكون القيامة

بصورة مفاجئة و كالبرق الخاطف، و من جهة أخرى بمقتضى أن اللّه سريع الحساب فإنه ينهى حساب عباده بسرعة، فقد استعمل هذا التعبير فى شأن يوم القيامة ليفكر الناس بيوم القيامة و يكونوا على «أهبة الاستعداد».

يقول «ابن منظور» فى «لسان العرب» اسم للوقت الذى تصعق فيه العباد و الوقت الذى يبعثون فيه و تقوم فيه القيامة، سمّيت ساعة لأنّها تفاجئ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلّهم عند الصيحة الاولى التى ذكرها اللّه عزّ و جلّ فقال:

إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ ۳۳۸] .. و أشار إلى الثّانية بقوله:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۶

إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۳۳۹].

و ينقل «الزبيدى» فى «تاج العروس» عن بعضهم أن الساعة ثلاث «ساعات»:

فساعة كبرى: و هى يوم القيامة، و إحياء الموتى للحساب.

و ساعة وسطى: و هى يوم الموت الفجائى لأهل زمان واحد «بالعذاب و العقوبة الإلهية للاستيصال».

و ساعة صغرى: و هى يوم الموت الطبيعى لكل إنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۷

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۱۷ الى ۱۹]

اشارة

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (۱۷) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (۱۸) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۹)

التّفسير

التسبيح و الحمد فى جميع الأحوال للّه!

بعد الأبحاث الكثيرة التى وردت فى الآيات السابقة فى شأن المبدأ و المعاد، و قسم من ثواب المؤمنين، و جزاء المشركين و عقابهم ... ففى الآيات محل البحث يذكر التسبيح و الحمد و التقديس و التنزيه للّه من جميع أنواع الشرك و النقص و العيب، إذ تقول الآية:

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ

و على هذا فقد ورد فى هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسبيح اللّه:

۱- بداية الليل حِينَ تُمْسُونَ

۲- و طلوع الفجر حِينَ تُصْبِحُونَ

۳- و عصرا عَشِيًّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۸

۴- و عند الزوال- فى الظهر- حِينَ تُظْهِرُونَ ۳۴۰].

أمّا «الحمد» من حيث المكان فهو عام و شامل لجميع السماوات و الأرض.

و ذكر هذه الأوقات الأربعة فى الآيات المتقدمة لعله كناية عن الدوام و الاستمرار فى التسبيح، «أى كل وقت و كل زمان».

كما احتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من هذه الأوقات الأربعة الإشارة إلى أوقات الصلاة، إلّا أنّهم لم يجيبوا على هذا السؤال، و هو: لم ذكر فى القرآن أربعة أوقات بدلا من خمسة أوقات؟ «و لم يرد الكلام على صلاة العشاء»! و لكن يمكن الجواب على هذا السؤال بأن وقت صلاة المغرب مقارب لوقت صلاة العشاء نسبيا، و الفاصلة بينهما حدود الساعة إلى الساعة و النصف، فجاءت الصلاتان فى مكان واحد، غير أنّ الفاصلة بين الظهر و العصر أطول نسبيا، حيث تطول أكثر من ساعتين.

لكننا لو أخذنا التسبيح و الحمد بمفهومهما الوسيع فى الآية، لوجدنا أنّهما لا يتحدّدان بالصلوات الخمس، و إن كانت هذه الصلوات من مصاديقهما الواضحة.

و ينبغى أن نذكر هذه المسألة «اللطيفة» و هى: إن كلا من جملتى فَسُبْحانَ اللَّهِ و لَهُ الْحَمْدُ يمكن أن تكونا إنشاء لتسبيح اللّه و حمده من قبل اللّه سبحانه، كما قال فى الآية (۱۴) من سورة المؤمنون فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ

و يمكن أن يكون هذا الحمد و التسبيح بمعنى الأمر، أى «سبّحوه و احمدوا له».

و هذا التّفسير يبدو أقرب للنظر، إذ الآيات المتقدمة هى بمثابة دستور لجميع العباد لمحو آثار الشرك و الذنب من الروح و القلب كل صباح و مساء و كل ظهر و عصر، فسبحوا اللّه و احمدوا له فى الصلاة و فى غير الصلاة.

و نقرأ

حديثا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله يقول فيه: «من قال حين يمسى ثلاث مرات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۹

فسبحان اللّه حين تمسون و حين تصبحون (الآيات الثلاث إلى .. تخرجون) أدرك ما فاته فى يومه، و إن قالها حين يمسى أدرك ما فاته ليلته»[۳۴۱].

و فى الآية التالية عودة إلى المعاد، و يرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ

أى إنّ ميدان «المعاد» و ميدان «نهاية الدنيا» المتمثّل أحدهما بخروج «الحى من الميت» و الآخر «خروج الميت من الحى» يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعا، و يعود الناس فى يوم القيامة إلى الحياة مرّة أخرى! أمّا التعبير ب «يخرج الحى من الميت» المستعمل للأراضى الموات، فقد ذكره القرآن مرارا فى مسألة المعاد و واضح أنّ الأرض تبدوا ميتة فى فصل الشتاء، فلا خضرة و لا أزهار تضحك و لا براعم تتفتح، و لكن فى فصل الربيع مع سقوط الغيث و اعتدال الهواء، تدبّ الحركة فى الأرض، و تنمو الخضرة فى كل مكان، و تتبسّم الأزهار و تنمو البراعم على الأغصان و هذا ميدان المعاد الذى نراه فى هذه الدنيا.

و أمّا مسألة «إخراج الميت من الحىّ» فهى ليست شيئا خافيا و لا مستترا، فدائما تموت الأشجار على الأرض و تتبدل إلى أخشاب، و يفقد الإنسان و الحيوان حياتهما، و يتبدل كل منهما إلى جسد هامد لا روح فيه.

و أمّا ما يتعلق ب «إخراج الحىّ من الميت» ففسّره بعضهم بخروج الإنسان و الحيوان من النطفة، و قال بعضهم: بل المراد منه تولد المؤمن من الكافر، و قال بعضهم: المراد منه تيقظ النائمين و الراقدين.

و الظاهر أنّه ليس أيّا من هذه المعانى هو المعنى الأصلى، لأنّ النطفة بنفسها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۰

موجود حى، و مسألة «الكفر و الإيمان» هى من بطون الآية، لا من ظواهر الآية، و أمّا موضوع التيقظ و النوم فهو أمر مجازى، إذ ليس النوم و التيقظ موتا و حياة حقيقيين.

إنّما ظاهر الآية هو أنّ اللّه يخرج الموجودات الحية دائما من الموجودات الميتة، و يبدل الموجودات الهامدة التى لا روح فيها إلى

موجودات حيّة.

و بالرغم من أنّه من المسلّم به- في العصر الحاضر على الأقل- أنّه لم ير في المختبرات و المشاهدات اليوميّة أن موجودا حيّا يتولد من موجود ميّت، بل تتولد الموجودات الحية دائما من البيوض أو البذور أو نطف الموجودات الحية الأخرى، غير أن الثابت علميا و المسلّم به أنّه كانت الأرض في البداية قطعة ملتهبة من النّار، و لم يوجد عليها أي موجود حي، ثمّ وفقا لظروف خاصة لم يكتشفها العلم- حتى الآن- بصورة دقيقة، تولدت الموجودات الحية من مواد لا- روح فيها بقفزة كبيرة .. لكن هذا الموضوع و في الظروف الفعلية للكرة الأرضية.

و حيث أنّ العلم البشري لم يتوصل إليه، فلم يشاهد هذا الموضوع (و بالطبع يحتمل أن تتحقق هذه القفزة الكبرى في أعماق البحار و المحيطات في بعض الظروف الحالية).

لكن الذي نلمسه و ندركه، هو أنّ الموجودات الميتة دائما تكون جزءا من الموجودات الحية و تكسى ثوب الحياة! فالماء و الطعام اللذان نتناولهما ليسا من الموجودات الحية، لكنّهما حين يكونان في البدن و يصيران جزءا منه يتحولان إلى موجود حيّ و تضاف كريات جديدة و خلايا جديدة إلى كريات البدن و خلاياه، كما يتبدل الطفل الرضيع عن هذا الطريق إلى شاب قوي متين.

أ ليس هذا إخراج الحياة من قلب الموت، أو «الحي من الميت»؟! فعلى هذا يمكن القول بأن في نظام الطبيعة دائما يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي، و بهذا الدليل فإنّ اللّه الذي خلق الطبيعة قادر على إحياء

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۱

الموتى في العالم الآخر.

و بالطبع فإنّ الآية الآنفة من جهة البعد المعنوي لها تفاسير أخر .. منها تولد المؤمن من الكافر، و تولد الكافر من المؤمن، و العالم من الجاهل، و الجاهل من العالم، و الصالح من المفسد، و المفسد من الصالح، كما أشير إلى كل ذلك في الروايات الإسلامية أيضا.

و يمكن أن تكون هذه المعاني من بطون الآية، لأنّنا نعرف أنّ آيات القرآن لها ظاهر و باطن، كما يمكن أن يكون للموت و الحياة معنى جامع واسع يشمل الجانب المادي و الجانب المعنوي.

هذا و

قد جاء في رواية عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام في تفسير الآية يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ما يلي: «ليس يحييها بالقطر، و لكن يبعث اللّه رجالا فيحيون العدل، فتحيي الأرض لإحياء العدل و لإقامة العدل فيه أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحا»[۳۴۲].

و واضح أنّ مراد الإمام عليه السّلام أن معنى الآية لا ينحصر بنزول الغيث، و لا ينبغي تفسير الآية بالغيث فحسب، لأنّ الإحياء المعنوي للأرض بالعدل أهم من إحيائها بالغيث عند نزوله.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۲

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۰ الى ۲۲]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (۲۰) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۱) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (۲۲)

التّفسير

آیات اللّه فی الآفاق و فی الأنفس:

تحدثت هذه الآیات- و بعض الآیات الأخر التی تلیها- عن طرائف و لطائف من دلائل التوحید، و آیات اللّه و آثاره فی نظام عالم الوجود، و هی تکمل البحوث السابقة، و یمکن القول بأن القسم المهم بشکل عام من آیات التوحید فی القرآن تمثله هذه الآیات! هذه الآیات التی تبدأ جمیعها بقوله تعالی: وَ مِنْ آیاتِهِ و لها وقع خاص و لحن بلیغ جاذب و تعبیرات مؤثرة و عمیقة، مجموعة من سبع آیات، ست منها متتابعات، و واحدة منفصلة «و هی الآیة السادسة و الأربعون».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۳

هذه الآیات مقسمة تقسیما طریفا من حیث «آیات الآفاق» و «آیات الأنفس» إذ تتحدث ثلاث منها عن آیات الأنفس (دلائل الخالق فی وجود الإنسان نفسه) و ثلاث منها عن آیات الآفاق (دلائل الخالق خارج وجود الإنسان) و واحدة من هذه الآیات تتحدث عن الآیات فی الأنفس و فی الآفاق معا.

و ممّا ینبغی الالتفات إلیه أنّ الآیات التی تبدأ بهذه العبارة: وَ مِنْ آیاتِهِ مجموعها إحدی عشرة آیة فحسب، فی سائر سور القرآن، سبع منها فی هذه السورة، و اثنتان فی سورة فصلت هما «الآیة ۳۷ و الآیة ۳۹» و آیتان أخریان فی سورة الشوری هما الآیة ۲۹ و الآیة ۳۲- و مجموعها کما ذکرنا آنفا إحدی عشرة لا غیر. و هی تشکل دورة متکاملة فی التوحید.

و یجدر التنبیه- قبل الدخول إلی تفسیر هذه الآیات- علی هذه «اللطیفة» و هی أن ما أشار إلیه القرآن فی هذه الآیات، و إن کانت تبدو للنظر محسوسة و ملموسة، یمکن أن یدرکها عامّة الناس، إلّا أنّه مع تطور العلم و تقدمه تبدو للبشر لطائف جدیدة فی هذا المجال، و تتّضح للعلماء أمور ذات أهمیة کبری، و سنشیر إلی قسم منها خلال تفسیرنا لهذه الآیات إن شاء اللّه.

و یتحدث القرآن هنا أوّلا عن خلقة الإنسان التی تعد أوّل موهبة إلهیة له، و أهمهما أیضا، فیقول: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ فی هذه الآیة إشارة دلیلین من أدلة عظمة اللّه.

الأوّل: خلق الإنسان من التراب، و ربّما کان إشارة إلی الخلق الأوّل للإنسان، أی آدم علیه السّلام، أو خلق جمیع الناس من التراب، لأنّ المواد الغذائیة التی تشکل وجود الإنسان، جمیعها من التراب بشکل مباشرة أو غیر مباشر! الثّانی: کثرة النسل «الآدمی» و انتشار أبناء «آدم» علی سطح المعمورة، فلو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۴

لم تخلق خصوصیة التناسل فی آدم، لانطوی نسله من الوجود بسرعة!.

تری أین التراب و أین الإنسان بهذا الهندام و الرشاقة؟! فلو وضعنا خلایا و أستار العین التی هی أدق من ورق الزهور و ألطف و أکثر حساسیة، و کذلک الخلایا الدقیقة للدماغ و المخ إلی جانب التراب و قارناهما بالقیاس إلی بعضهما البعض، نعرف حینئذ کم لخالق العالم من قدرة عجیبة، بحیث أوجد من مادة کدرة سوداء لا قیمة لها هذه الأجهزة الظریفة و الدقیقة القیّمة.

فالتراب لیس فیه نور، و لا حرارة، و لا جمال، و لا طراوة، و لا حس، و لا حرکة و مع ذلک فقد أضحی عجینة الإنسان و لها جمیع هذه الصفات، فالذی أوجد من هذا الموجود المیت التافه موجودا حیّا عجیبا، لحقیق بکل حمد و ثناء علی هذه القدرة الباهرة و العلم المطلق فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ

و الآیة محل البحث تبیّن ضمنا هذه الحقیقة، و هی أنّه لا تفاوت بین بنی الإنسان، و یعود جذرهم إلی شیء واحد، و أصل واحدة و هو التراب و بالطبع فنهایتهم إلی ذلک التراب أیضا.

و ممّا ینبغی الالتفات إلیه، أن کلمة «إذا» تستعمل فی لغة العرب فی الموارد الفجائیة و لعل هذا التعبیر هنا إشارة إلی أنّ اللّه له القدرة

البالغة علی أن یخلق مثل آدم أعدادا هائلة بحیث ینتشر نسلها فی فترة قصیرة- فجأة- و یملأ سطح الأرض .. و یکون مجتمعا إنسانیا کاملا.

و الآیة الثّانیة من الآیات محل البحث تتحدث أیضا عن قسم آخر من الآیات فی الأنفس، التی تمثل مرحلة ما بعد خلق الإنسان، فتقول: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها. أی من جنسکم و الغایة هی السکینة الروحیة و الهدوء النفسی و حیث أن استمرار العلاقة بین الزوجین خاصة، و بین جمیع الناس عامة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۵

یحتاج إلی جذب قلبی و روحانی، فإنّ الآیة تعقب علی ذلک مضیفة وَ جَعَلَ بَیْنَکُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً.

و لمزید التأکید تختتم الآیة بالقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ

الطریف هنا أن القرآن- فی هذه الآیة- جعل الهدف من الزواج الاطمئنان و السکن، و أبان مسائل کثیرة فی تعبیر غزیر المعنی «لتسکنوا» کما ورد نظیر هذا التعبیر فی سورة الأعراف الآیة ۱۸۹.

و الحقّ أن وجود الأزواج مع هذه الخصائص للناس التی تعتبر أساس الاطمئنان فی الحیاة، هو أحد مواهب اللّه العظیمة.

و هذا السکن أو الاطمئنان ینشأ من أن هذین الجنسین یکمل بعضهما بعضا، و کل منهما أساس النشاط و النماء لصاحبه، بحیث یعد کل منهما ناقصا بغیر صاحبه، فمن الطبیعی أن تکون بین الزوجین مثل هذه الجاذبیّة القویة.

و من هنا یمکن الاستنتاج بأنّ الذین یهملون هذه السنة الإلهیة وجودهم ناقص، لأنّ مرحلة تکاملیة منهم متوقفة، (إلّا أن توجب الظروف الخاصة و الضرورة فی بقائهم عزّابا).

و علی کل حال، فإنّ هذا الاطمئنان أو السکن یکون من عدّة جهات «جسمیا و روحیّا و فردیا و اجتماعیّا».

و لا یمکن إنکار الأمراض التی تصیب الجسم فی حالة عدم الزواج، و کذلک عدم التعادل الروحی و الاضطراب النفسی عند غیر المتزوجین.

ثمّ أنّ الأفراد العزّاب لا یحسّون بالمسؤولیة- من الناحیة الاجتماعیة- کثیرا .. و لذلک فإن الانتحار تزداد بین أمثال هؤلاء أکثر .. کما تصدر منهم جرائم مهولة أکثر من سواهم أیضا.

و حین یخطو الإنسان من مرحلة العزوبة الی مرحلة الحیاة الأسریة یجد فی نفسه شخصیة جدیدة، و یحس بالمسؤولیة أکثر، و هذا السکن و الاطمئنان فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۶

ظل الزواج.

و أمّا مسألة «المودة و الرحمة» فهما فی الحقیقة «ملاط» البناء فی المجتمع الإنسانی، لأنّ المجتمع یتکون من افراد متفرقین کما أن البناء العظیم یتألف من عدد من الطابوق و «الآجر» أو الأحجار. فلو أن هؤلاء الأفراد المتفرقین اجتمعوا، أو أن تلک الأجزاء المتناثرة وصلت بعضها ببعض، لنشأ من ذلک المجتمع أو البناء حینئذ.

فالذی خلق الإنسان للحیاة الاجتماعیة جعل فی قلبه و روحه هذه الرابطة الضروریة.

و الفرق بین «المودة» و «الرحمة» قد یعود إلی الجهات التالیة:

۱- المودة هی الباعثة علی الارتباط فی بدایة الأمر بین الزوجین، و لکن فی النهایة، و حین یضعف أحد الزوجین فلا یکون قادرا علی الخدمة، تأخذ الرحمة مکان المودة و تحلّ محلها.

۲- المودة تکون بین الکبار الذین یمکن تقدیم الخدمة لهم، أمّا الأطفال و الصبیان الصغار، فإنهم یتربون فی ظلّ الرحمة.

۳- المودّة، غالبا ما یکون فیها «تقابل بین الطرفین»، فهی بمثابة الفعل ورد الفعل، غیر أنّ الرحمة من جانب واحد لدیه إیثار و عطف،

لأنّه قد لا- يحتاج إلى الخدمات المتقابلة أحيانا، فأساس بقاء المجتمع هو «المودة» و لكن قد يحتاج إلى الخدمات بلا عوض، فهو الإيثار و الرحمة.

و بالطبع فإنّ الآية تبيّن المودة و الرحمة بين الزوجين، و لكن يحتمل أن يكون التعبير «بينكم» إشارة إلى جميع الناس .. و الزوجان مصداق بارز من مصاديق هذا التعبير، لأنّه ليست الحياة العائلية وحدها لا تستقيم إلّا بهذين الأصلين (المودّة و الرحمة) بل جميع المجتمع الإنسانى قائم على هذين الأصلين و زوالهما من المجتمع- و حتى نقصانهما يؤدى الى أنواع الارباك و الشقاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۷

و الاضطراب الاجتماعى.

أمّا آخر آية- من هذه الآيات محل البحث- فهى مزيج من آيات الآفاق و آيات الأنفس، فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء و الأرض، فتقول: وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

السماوات بجميع ما فيها من كرات، و بجميع ما فيها من منظومات و مجرّات، السماوات التى مهما حلّق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها و مطالعتها .. و كلّما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديدة من عظمتها.

كان الإنسان يرى الكواكب فى السماء بهذا العدد الذى تراه العين (و قد أحصى العلماء الكواكب التى ترى بالعين المجرّدة، فوجدوها تتراوح بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف كوكب).

و لكن كلما تقدم العلم فى صناعة المجهر و التلسكوب، فإنّ عظمة و كثرة الكواكب تزداد أكثر ... إلى درجة بلغ الإعتقاد اليوم أن مجرتنا لوحدها من بين مجاميع المجرات فى السماء تحتوى على أكثر من مائة مليون كوكب و تعد الشمس على عظمتها المذهلة واحدة من النجوم المتوسطة، و لا- يعلم عدد المجرات و لا- يحصيها إلّا اللّه، إذ هو وحده يعلم كم من كوكب و نجمة فى هذا المجرات! و كذلك كلما تقدم العلم الطبيعى و الجيولوجيا، و علم النبات و العلوم البيلوجية «و الحيوانية» و علم التشريح و الفيزياء، و العلوم النفسية و غيرها، فستتضح عجائب فى خلق الأرض كانت خافية، كل واحدة تعدّ آية من آيات اللّه.

ثمّ ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول: وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ

و بلا شك فإنّ الحياة الاجتماعية للبشر، لا تقوم بغير معرفة و تشخيص الأفراد و الأشخاص، إذ لو كان الناس جميعا فى يوم ما على صورة واحدة و لباس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۸

واحد، فإن أسلوب حياتهم يضطرب فى ذلك اليوم، إذ لا يعرف الأب و الابن و الزوج من الغرباء، و لا يميز المجرم من البرىء، و لا الدائن من المدين، و لا الآمر من المأمور، و لا الرئيس من المرؤوس، و لا الضيف من المضيف و لا العدوّ من الصديق، و أى ارباك عجيب كان سيحدث لو كانوا على هذه الشاكلة!.

و على سبيل الاتفاق قد تحدث هذه المسألة بين الإخوة التوائم، أو الشقيقين التوأمين المتشابهين من جميع الوجوه، و كم تحدث من المشاكل بين الناس و بينهم، و قد سمعنا ذات مرّة أن امرأة كان لديها توأمان متشابهان تماما، و كان أحدهما مريضا، فأعطت الدواء لمعافى دون السقيم!!.

لذلك خلق اللّه الأصوات و الألون لتنظيم المجتمع البشرى، على حد تعبير «الرازى» فى تفسيره فى ذيل الآية محل البحث: إن معرفة الإنسان للإنسان تحصل إمّا عن طريق العين أو الأذن، فخلق اللّه الألوان و الصور و الأشكال المختلفة لتعرفها العين و تشخصها، و أوجد اختلاف الأصوات لتشخصها الأذن، حتى أنّه لا يمكن العثور فى جميع العالم على إنسانين متشابهين فى الوجه و الصوت معا، أى إن وجه الإنسان الذى هو عضو صغير، و صوته الذى هو موضوع بسيط، بقدرة اللّه جاءا على مليارات الأشكال و الأصوات المختلفة، و ما ذلك الاختلاف إلّا من آيات عظمة اللّه.

كما يحتمل أن المراد باختلاف الألسنة كما أشار إليه كبار المفسّرين هو اختلاف اللغات، من قبيل العربية و الفارسية و اللغات الأخرى.

و لكن يمكن أن يستفاد من كلمة «اختلاف» معنى واسع بحيث يشمل هذا التّفسير و ما قبله، و أى تفسير آخر، فهذا التنوع فى الخلقة شاهد على عظمة الخالق و قدرته.

يقول «فريد وجدى» فى دائرة معارفه، نقلا عن قول «نيوتن» العالم الغربى المعروف (لا تشكوا فى الخالق، فإنه ممّا لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۹

قائدة الوجود، لأنّ ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان و فى كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات، و لا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه و تناسبها، مع تغيرات الأزمنة و الأمكنة، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلّا من كائن أزلى له حكمة و إرادة)[۳۴۳].

و يقول القرآن فى نهاية الآية الآنفة الذكر إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۰

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۲۳) وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۲۴) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (۲۵)

التّفسير

آيات عظمته- مرّة أخرى:

تعقيبا على الأبحاث السابقة حول آيات اللّه فى الآفاق و فى الأنفس، تتحدث هذه الآيات- محل البحث- حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة.

فتتحدث فى البداية عن ظاهرة «النوم» على أنّها ظاهرة مهمة من ظواهر الخلق و مثل بارز من نظام الحكيم الخالق، فتقول: وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ

و تختتم الآية بإثارة العبرة بالقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

و هذه الحقيقة غير خافية على أحد، هى أن جميع «الموجودات الحية»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۱

تحتاج إلى الراحة و الدعة، و ذلك لتجديد قوتها و تهيئة الاستعداد اللازم لإدامة العمل و الفعالية، الراحة التى لا بدّ منها حتى لأولئك الأفراد الحريصين و الجادّين.

فأى شـىء يتصور أحسن من النوم للوصول إلى هذا الهدف، و هو يأتيه بشـكل إلزامى، و يدعوه إلى تعطيل نشاطه الجسـمانى، و قسـم مهم من نشاطه الفكرى و الـذهنى، بينما تسـتمر أجهزهٔ خاصـهٔ فى العمل فى جسم الإنسان كالقلب الرئـهٔ و بعض النشاط الـذهنى، و ما إلى ذلک ممّا يستلزمه استمرار الحياهٔ فى الإنسان فحسب، أمّا البقيهٔ فتهدأ و تتعطل عن العمل.

هـذه الموهبهٔ العظيمهٔ تؤدى الى أن يحصل جسم الإنسان و روحه على الراحهٔ اللازمهٔ، فيرتفع التعب بطرو النوم الذى بمثابهٔ وقفهٔ لعمل البدن، و نوع من التعطيل له. و يجد الإنسان على أثرها قوهٔ و نشاطا جديدا فى حياته.

و من المسلّم به أنّه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان و ذبل جسمه و انهار بسرعهٔ، و لعجل عليه العجز و الشيخوخهٔ ... و بهذا فإن النوم المناسب و الهادىء مدعاهٔ للسلامهٔ و طول العمر، و دوام «الشباب» و نشاطه.

و ممّا يجـدر التنبيه عليه أوّلا: أنّ النوم ورد قبل عبارهٔ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ التى تعنى السـعى وراء الرزق، و هذا التعبير هو إشارهٔ إلى أن النوم أساس السعى لأنّه- من دون النوم الكافى- يصعب الابتغاء من فضل اللّه.

ثانيا: صـحيح أنّ النوم يقع فى الليل، و الابتغاء من فضل اللّه فى النهار، إلّا أنّه ليس صـعبا على الإنسان أن يغيّر هـذا المنهج إذا اقتضـت الضـرورهٔ. بـل اللّه خلق الإنسـان بصورهٔ يسـتطيع معهـا تغيير منهجيـهٔ النوم، و يجعلها وفقا للضـرورات و الحاجات، فكأنّ التعبير مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ إشارهٔ إلى هذه «اللطيفهٔ» الدقيقهٔ.

و لا شک أنّ المنهج الأصل للنوم متعلق بالليل، و لأنّ الليل هادئ بسبب الظلمهٔ، فله أولويهٔ خاصهٔ فى هذا المورد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۲

و لكن قـد يتفق للإنسـان و لظروف خاصـهٔ يكون مجبرا على السـفر ليلاـ و أن يستريـح نهارا ... فلو كان منهـج تنظيم النوم خارجا عن اختيار الإنسان فسيواجه العديد من الصعوبات حتما.

و أهميهٔ هذا الموضوع، خاصهٔ فى عصرنا الذى تضطر فيه بعض المؤسسات الصناعيهٔ و الطبيهٔ و العلاجيهٔ أن تعمل ليل نهار، و لا يمكن لها أن تعطل منهجها بحيث يتناوب عمالها فى ثلاث مراحل للعمل فيها، هـذه الأهميهٔ فى هذا العصـر أجلى منه فى أى عصـر مضـى! و حاجهٔ جسم الإنسان و روحه إلى النوم كثيرهٔ إلى درجهٔ لا يستطيع الفرد أن يتحمل السهر المتواصل أكثر من يومين أو ثلاثهٔ.

و لذلک فإنّ المنع من النوم يعتبر من أشد أنواع التعذيب الذى يمارسه الطغاهٔ و الجبابرهٔ مع سجنائهم.

و كـذلک يعدّ النوم واحدا من الطرق العلاجيهٔ لكثير من الأمراض، حيث يوصـى الأطباء المريض بأن يغطّ فى نوم عميق فتزداد بذلک قوّهٔ المريض و مناعته.

و بـالطبع لاـ يمكن لأحـد أن يحـدد مقـدارا معينا للنوم على أنّه «مقـدار النوم اللازم» لعموم الناس لأنّ ذلک يرتبط بسنّ الأشـخاص و وضعهم و مزاجهم و كيفيهٔ البناء الفيسيولوجى و السيكلوجى «الجسيمى و الروحى»، بل المهم النوم الكافى بمقدار يحسّ الإنسان بعده بأنّه شبع منه ... كما هى الحال بالنسبهٔ للشبع من الغذاء و الماء تماما.

و ينبغى الالتفات إلى هـذه المسألـهٔ، و هى أنّه بالإضافـهٔ إلى «طول» زمان النوم، فلعمقه خصوصـيهٔ و أهميـهٔ أخرى أيضا ... فرب ساعهٔ ينام فيها الإنسان نوما عميقا تسد عن عدد من الساعات التى ينامها نوما سطحيا فى إعادهٔ بناء روح الإنسان و جسمه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۳

و بالطبع، فحيث لا يمكن النوم العميق، فالنعاس أيضا من النعم الإلهيـهٔ، كما أشارت إليه الآيهٔ الحاديهٔ عشـرهٔ من سورهٔ الأنفال فى شأن المجاهدين يوم بدر إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَهً مِنْهُ لأنّه لا يمكن النوم العميق فى ميدان الحرب، و ليس مفيدا- أيضا- و لا نافعا.

و على كـل حـال فإن نعمـهٔ النوم و الهـدوء و الاطمئنان الناشـئ منه، و ما يحصل عليه الإنسان من قوهٔ و نشاط بعـد النوم، هى من النعم التى لا يمكن وصفها بأى بيان!.

و الآيـهٔ التى تلتهـا، و التى تبيّن خـامس آيـهٔ من آيـات عظمـهٔ اللّه، تتجه أيضا إلى «الآيات فى الآفاق» و تتحـدث عن البرق و الرعـد و

الغيث و حياة الأرض بعد موتها فتقول: وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً.

«الخوف» ممّا يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقة مع البرق فتحرق كل شيء تقع عليه و تحيله رمادا.

«و الطمع» من جهة نزول الغيث الذى ينزل بعد البرق و الرعد على هيئة قطر أو مزنة.

و على هذا فإنّ البرق السماوى مقدمة لنزول الغيث (بالإضافة إلى فوائد البرق المختلفة المهمة و التى كشف العلم عنها أخيرا و قد تحدثنا عنه فى بداية سورة الرعد»[۳۴۴].

ثمّ يضيف القرآن معقبا يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها.

الأرض الميتة التى لا يؤمل فيها الحياة و النبات، تهتز بنزول الغيث الذى يمنحها الحياة، فتحيا و تظهر آثار الحياة عليها على هيئة الأزهار و النباتات، بحيث لا تصدق أحيانا أنّها الأرض الميتة سابقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۴

و يؤكّد القرآن فى نهاية هذه الآية مضيفا: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ و يفهمون أن وراء هذه الخطة المدروسة يدا قادرة تقودها و تهديها، و لا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة و الضرورة العمياء الصّماء أبدا.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث، يقع الكلام عن آية أخرى من الآيات الآفاقية، و ذلك عن تدبير نظام السماء و الأرض و بقائهما و دوامهما، إذ تقول:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ

أى إنّ خلق السماوات- المشار إليه فى الآيات السابقة- ليس آية وحدة فحسب، بل بقاؤها و دوام نظامها أيضا آية أخرى، فهذه الأجرام العظيمة فى دورانها المنظّم حول نفسها تحتاج إلى أمور كثيرة، و أهمّها المحاسبة المعقدة للقوّة الجاذبة و الدافعة! إنّ الخالق الكبير جعل هذا التعادل دقيقا، بحيث لا يعترض الأجرام أدنى انحراف فى مسيرها و دورانها حول نفسها إلى ملايين السنين.

و بتعبير آخر: إنّ الآية السابقة كانت إشارة إلى «توحيد الخلق» و أمّا هذه الآية فهى إشارة إلى «توحيد الربوبية و التدبير».

و التعبير بقيام السماء و الأرض، تعبير لطيف مأخوذ من حالات الإنسان، لأنّ أحسن حالات الإنسان لأجل استدامة نشاطه هى حالة قيامه، إذ يستطيع فيها أداء جميع حوائجه، و تكون له السيطرة و التسلط الكامل على أطرافه.

و التعبير ب «أمره» هنا إشارة إلى منتهى قدرة اللّه، إذ يكفى أمر واحد من قبله لاستمرار الحياة، و نظم هذا العالم الوسيع.

و فى نهاية الآية و بالاستفادة من عامل التوحيد لإثبات المعاد، ينقل القرآن البحث إلى هذه المسألة فيقول: ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

و لقد رأينا- مرارا- فى آيات القرآن أن اللّه سبحانه يستدل على المعاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۵

بآيات قدرته فى السماء و الأرض، و الآية محل البحث واحدة من تلك الآيات.

و التعبير ب «دعاكم» اشارة إلى أنّه كما أنّ أمرا واحدا منه كاف للتدبير و لنظم العالم، فإنّ دعوة واحدة منه كافية لأن تبعثكم من رقدتكم و تنشركم من قبوركم ليوم القيامة، و خاصة إذا لاحظنا جملة إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ فإنّ كلمة «إذا» تبين بوضوح مؤدى هذه الجملة، حيث أنّها «فجائية» كما يصطلح عليها أهل النحو و اللغة، و معناها: إذا دعاكم اللّه تخرجون بشكل سريع و فجائى.

و التعبير ب دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ دليل واضح على المعاد الجسمانى، إذ يثب الإنسان فى يوم القيامة من هذه الأرض «فلاحظوا بدقّة».

بحوث

۱- دورة دروس کاملة لمعرفة اللّه

تناولت الآیات الست المتقدمة بحوثا مختلفة فی معرفة اللّه، و هی بمجموعها تمثل حلقات متصلة و دورة کاملة طریفة، بدءا بخلق السماء إلی خلق البشر من التراب، و من رباط الحب فی الأسرة، إلی النوم الذی یمنح الدعة و الاطمئنان فی اللیل و النهار، و من تدبیر النظام و العالم متدرجا، إلی البرق و الغیث و اختلاف الألسنة و الألوان ... فهی مجموعة مناسبة من آیات الآفاق و آیات الأنفس!.

الطریف هنا أن کلّ آیة من الآیات الست یذکر فیها قسمان من دلائل التوحید، لیهیّئ الأوّل الأرضیة المناسبة، و الآخر للتحکیم و التأکید، و هذا یشبه تماما الإتیان بشاهدین عدلین لإثبات المدّعی، فیکون المجموع اثنی عشر شاهدا صادقا علی قدرة اللّه الحق، التی لا نهایة و لا أمد لها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۶

۲- من هم المستلهمون من هذه الآیات

ورد فی أربع آیات من هذه الآیات الست التأکید علی أن فی هذه الأمور دلائل واضحة «للعالمین، المتفکرین، السمیعین، العاقلین» إلّا أنّ هذا التأکید لم یرد فی الآیة الأولی، و لا الآیة الأخیرة.

و یوضح الفخر الرازی فی هذا المجال فیقول: لعل عدم ذکر ذلک، فی الآیة الأولی لأنّ الآیة الأولی و الثّانیة جاءتا متصلتین فی سیاق واحد، و کلتاهما من الآیات التی تتحدث فی الأنفس.

و أمّا فی الآیة الأخیرة فإنّ الأمر واضح إلی درجة لا یحتاج بعدها إلی مزید إیضاح، و لا تأکید علی التعقل و التفکر[۳۴۵]! الطریف هنا أن الحدیث عن التفکر ورد قبل الحدیث و الکلام عن «العلم» لأنّ التفکر مقدمة و قاعدة للعلم، ثمّ یأتی الکلام علی من یسمع، لأنّ الإنسان یستعد للاستماع و تقبل الحق، إذا کان فی صدد العلم و الاطلاع، کما یقول القرآن فی هذا المجال: فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۳۴۶] و فی آخر مرحلة کان الکلام عن العقل، لأنّ أولئک کانوا یسمعون، فلا بدّ أن یبلغوا مرحلة العقل الکامل! کما ینبغی الالتفات إلی هذه اللطیفة، هی أنّه وقع الکلام فی ذیل الآیة الأولی عن خلق الإنسان و انتشار نسله فی الأرض ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ

و وقع الکلام فی آخر آیة أیضا عن خروج الناس و نشورهم فی یوم القیامة إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

فالآیة الأولی لبدایة الخلق، و الأخیرة للنهایة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۷

۳- عجائب عالم النوم

بالرغم من جمیع الأبحاث التی کتبها العلماء حول النوم و خصائصه، یبدو أن زوایا هذا العالم لم تنکشف جمیعها، و لم یرفع النقاب عن أسراره و حقائقه الغامضة! فما زال البحث یدور بین العلماء: أی فعل و انفعال یکون فی البدن بحیث یتوقف- خلال لحظة مفاجئة- قسم من نشاطات المخ و البدن، و یظهر تحول فی عامّة الروح و الجسد؟! قال بعضهم: إنّ العامل الأصلی للنوم هو «عامل فیزیاوی» و یعتقدون أن انتقال الدم من المخ إلی أجزاء البدن الأخری، یوجد هذه الظاهرة، و لأجل إثبات معتقدهم عمدوا إلی صنع سریر للنوم علی شکل خاص یدعی «سریر النوم المعیاری» یبیّن کیفیة انتقال الدم من المخ إلی سائر أعضاء البدن!.

و قال جماعـة: إنّ العامل الأصـلی للنوم هو «عامل کیمیاوی» و یعتقـدون أن الإنسان فی حالة السـعی و العمل تزداد فیه السـموم بحیث تؤدی الی تعطیـل قسم من المـخ عن عمله، فینـام الإنسـان علی أثر ذلک، و حین تتلاشـی السـموم و تسـیطر علیها کریات الـدم یتیقظ الإنسـان مرّة أخری! و قـال جماعـة آخرون: إنّ العامل الأصـلی للنوم هو «عامل عصبی» و یعتقـدون أن للنشاط العصبی خصوصـیة فی المخ لها حکم وقود السیارة، فعند ما تتعب ینطفئ المخ و یتوقف عن العمل مؤقتا.

و لکن هنـاک أسـئلة و نقـاط مبهمـة حول جمیع هـذه النظریـات، لم نحصـل إلی الآن علی جواب واضـح لها، و ما یزال النوم محتفظا بوجهه الملیء بالأسرار.

من عجائب عالم النوم ما أماط العلماء النقاب عنه أخیرا، و هو حین یتعطل قسم کبیر من المخ عن العمل تبقی بعض خلایاه التی ینبغی أن تسمی ب «الخلایا الحارسة» متیقظة و لا تنسی الوصایا التی یوصیها الإنسان قبل النوم عند ساعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۸

التیقظ ... و عنـد الحاجة توقظ هذه الخلایا جمیع المخ و یتحرک نحو العمل مرّة أخری! فمثلا: الأم المرضـعة المتعبة حین تنام اللیل و إلی جنبهـا رضـیعها فی المهـد، یوصـی عقلهـا البـاطنی الخلایا الحارسـة التی تربط بین الروح و الجسم، أنّه متی ما سـمعت أقل صوت لطفلی فأیقظینی، و لکن لا یهمنی أی صوت آخر، فقـد لا تتیقظ المرأة من صوت الرعد المهول، و لکنّها تتیقظ لأقل صوت من ولدها الرضیع، فهذه المهمّة هی وظیفة الخلایا الحارسة.

و نحن أیضـا جرّبنا هـذا الموضوع کثیرا، فمتی ما کان لـدینا تصـمیم أن نستیقظ مبکرین أو فی منتصف اللیل لنسافر أو لأداء مهمّـة، و نحدث أنفسنا بذلک، فإننا غالبا ما نستیقظ فی الوقت المطلوب، فی حین أن من الممکن أن نغرق فی النوم لساعات طوال فی غیر هذه الحالـة! و الخلاصـة، حیث أنّ النوم هو من الظواهر الروحیـة، و للروح عـالم ملیء بالأسـرار، فلیس عجیبـا أن تبقی کثیر من زوایا هـذه المسألة غامضة ... و لکن کلما سبرنا غور هذا العالم نتعرف علی عظمة خالق هذه الظاهرة.

هذا عن ظاهرة النوم، و أمّا عن الرؤیا و الأحلام، فقد بحثنا عنه بحوثا کثیرة، و لا بأس بمراجعة تفسیر سورة یوسف علیه السّلام.

۴- علاقة الحب بین الزوجین

بـالرّغم من أنّ العلاقـة أو الارتباط بین الإنسان و أبیه و أمه و إخوته هی علاقـة نسبیـة، تمتـد جـذورها العمیقـة بالقرابـة. و العلاقـة بین الزوجین علاقة قانونیة.

و «معاقـدة بینهما» لکن کثیرا ما تتغلب هـذه العلاقـة حتی علی علاقـة الإنسان بأبیه و أمه، و فی الحقیقـة هـذا هو ما أشارت إلیه الآیات الآنفة بالتعبیر وَ جَعَلَ بَیْنَکُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۹

و نقرأ حـدیثا عن الرّسول الأـعظم صلّی اللّه علیه و آله أنّه أخبر ابنـة جحش باستشـهاد خالهـا حمزة، فقالت: إنا للّه و إنا إلیه راجعون. فأخبرها باستشهاد أخیها فقالت مرّة أخری: «إنا للّه و إنا إلیه راجعون» (و طلبت له الأجر و الثواب من اللّه).

و لکن حین أخبرها باستشهاد زوجها، وضعت یدها علی رأسها و صرخت،

فقال النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما یعدل الزوج عند المرأة شیء»[۳۴۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۰

الآیات [سورة الروم (۳۰): الآیات ۲۶ الی ۲۹]

اشارة

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (٢۶) وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩)

التّفسير

المالكية للّه وحده:

كانت الآيات المتقدمة تتحدث حول توحيد الخالق، و توحيد الرّب، أمّا الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحيد، و هو توحيد الملك فتقول: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و لأنّهم ملك يده ف كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ و خاضعون.

و واضح أنّ المراد من المالكية و خضوع المخلوقات و قنوتها، الملك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥١١

و القنوت التكوينيان ... أى إن زمام أمر الجميع من جهة القوانين التكوينية كلّه فى يده، و هم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئة اللّه، شاؤوا أم أبوا.

حتى العتاة الطغاة الألدّاء و المتمردون على القانون و الجبابرة، هم مضطرون أيضا أن يحنوا رؤوسهم لأمر اللّه فى القوانين التكوينية.

و الدليل على هذه «المالكية» هو الخالقية و الربوبية، فإنّ من خلق الموجودات فى البداية و تكفلها بالتدبير، فمن المسلم أنّه هو المالك الأصلى لها لا سواه! و بما أنّ جميع موجودات الدنيا سواسية فى هذا الأمر، فمن الواضح أن لا يكون معه أى شريك فى الملك حتى الأوثان و المعبودات المصطنعة التى يتصورها المشركون أنّها أربابهم، هى أيضا مملوكة لمالك «الملك» و الملوك، و هى طوع أمره.

و ينبغى الالتفات- ضمنا- إلى أنّ كلمة «قانت» تعنى- كما يقول الراغب فى مفرداته- فى الأصل: الطاعة الملازمة للخضوع! و نقرأ حديثا

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال «كل قنوت فى القرآن فهو طاعة».

غاية ما فى الأمر، تارة تأتى هذه الطاعة «تكوينية» و أخرى «تشريعية».

و ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ كلمة «قانتون» معناها هنا «قائمون بالشهادة على وحدانيته»[٣۴٨] فهو فى الحقيقة بيان لأحد مصاديق الطاعة، لأنّ الشهادة على وحدانية اللّه نوع من الطاعات.

و حيث أنّ المسائل المرتبطة بالمبدأ و المعاد هى كالنسيج الواحد فى انسجامها فى سلسلة الآيات الآنفة، و التى ستأتى فى ما بعد، ففى الآية التالية يعود القرآن إلى موضوع المعاد، فيقول: وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥١٢

[٣۴٩].

إنّ القرآن يثبت فى هذه الآية- بأوجز الاستدلال- مسألة إمكان المعاد، إذ يقول لهم: إنكم تعتقدون أن بداية الخلق من قبل اللّه،

فعودة الخلق مرّة أخرى أيسر و أهون من بداية الخلق!.

و الدليل على أن عودة الخلق أهون من البداية، هو أنّه فى البداية لم يكن شـيء و لكن اللّه هو الذى أبدعه، و فى الإعادة توجد المواد الأصلية على الأقل، فبعضها فى طيّات التراب، و بعضها متناثر فى الفضاء، و إنّما تحتاج إلى نظم و إلى إعطائها صورتها الأولى فحسب، فهى أهون! و لكن من الضـرورى أن نلتفت إلى هـذه «اللطيفة»، و هى أنّ التعبير بالهيّن و الصـعب، هو من خلال نافذتنا الفكرية، و أمّا بالنسبة للقادر المطلق فلا فرق عنده بين «الصعب و السهل».

و أساسا فإنّ «الصـعب و السـهل» يصدقان مفهوما فى مكان يكون الكلام عن قدرة محدودة، كأن يسـتطيع أحد أن يؤدى عملا بصورة جيـدة، و الآخرة لا يؤديه بصورة جيـدة، بل بمشـقّة، أمّا حين يكون الكلام على قـدرة لا حـدّ لها، فلا معنى للصـعب و الهيّن هناك! و بتعبير آخر: إنّ حمـل «أعظم الجبال» على الأرض بالنسـبة إلى اللّه و حمل أخف الأشـياء عليها عنـده سواء، لقـدرته التى لا يعظم عليها شى‌ء.

و ربّما كان لهذا السبب أن عقّب القرآن فى ذيل الآية مباشرة بالقول: وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

لأننا لو تصورنا أى وصف كمالى لأى موجود فى السماء و الأرض، من علم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۳

و قـدرة و ملك و عظمة و جود و كرم، فمصداقه الأتم و الأكمل هو عند اللّه، لأنّ الجميع لديهم المحدود من الصـفات، إلّا هو وحده فإنّ لديه الأوصاف غير المحدودة، و الجميع لديهم أوصاف عارضة، أمّا أوصاف اللّه فذاتية، و هو مصدر الكمالات و أساسها.

حتى الألفاظ التى تجرى على ألسـنتنا لبيان مقاصـدنا يوميّا .. لا يمكن أن تكون مبينة لأوصافه ... كما هو فى تعبير «أهون» الذى نجده مثلا عندنا.

و الجملة الآنفة هى كالآية (۱۸۰) فى سورة الأعراف، إذ ورد فيها وَ لِلَّهِ الْأَسْـماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها و الآية (۱۱) فى سورة الشورى إذ يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‌ءٌ.

و تنتهى الآية- بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل، إذ يقول سبحانه: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

هو عزيز لا يقهر، إلّا أنّه و فى منتهى قدرته غير المحدودة لا يصدر منه فعل غير دقيق، فكل أفعاله وفق حكمته.

و بعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد و المعاد فى الآيات المتقدمة، يتناول القرآن موضوع «نفى الشـرك» فى مثال بيّن فيقول: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ

هـذا المثال هو لو كان لـديكم- أيّها المشـركون- عبيد و مماليك ف هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُـرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ أى أن عبيدكم هؤلاء يشاركونكم فى أموالكم و فى ما رزقناكم. بحيث تكونون أنتم و عبيدكم سواء فى مالكية هذه الأموال و النعم و تخافون أن يتصرفوا فى هذه الأموال بشكل مستقل كما هو الحالة فى تصرف شركاءكم الأحرار فيها أو فى الميراث مثلا ... فأنتم غير مستعدين لأن يتصرفوا فى أموالكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۴

فلو كان لكم عبيـد و ملك يمين «و هو ملك مجازى» لما رضـيتم بمثل هـذا الفعل منهم، فكيف تتصورون المخلوقات التى هى ملك حقيقى للّه شـركاءه! أو تزعمون أن بعض الأنبياء كالمسـيح أو ملائكة اللّه أو بعض المخلوقات الأخرى كالجن أو الأصـنام الحجرية و الخشبيّـة شـركاءه، ألاـ سـاء مـا تحكمـون!! المملوكـات المجازيـة الـتى يمكن أن تتحرر و تنعتق بسـرعة، و تكون فى صـفوفكم و من أمثـالكم «كما جرى ذلك فى الإسـلام»- لا تكون حالـة كونها مملوكـة- فى صف مالكها، و ليس لها حق التـدخل فى منطقـة نفوذه، فكيف تجعلون العبيـد الحقيقيين أو المملوكات الحقيقية شـركاء اللّه، فى حين أنّهم متعلقون باللّه ذاتا و وجودا، و لا يمكن أن يسـلب هذا التعلق باللّه و الارتباط به منهم، و كل ما عندكم فمن عنده، و ما أنتم بشى‌ء من دونه!.

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية ناظرة لما قاله المشركون من قريش، عند التلبية فى مناسك الحج، إذ كانوا يقولون عند التلبية ... «لبيك، اللّهم لا شريك لك، إلّا شريكا هو لك، تملكه و ما ملك» ... هكذا كان محتوى تلبية المشركين [۳۵۰].

و بديهى أن شأن نزول هذه الآيات شأن سائر الآيات فى نزولها، إذ لا يحدد معنى الآية، كما هى فى الوقت ذاته جواب لجميع المشركين، هى مستقاة من حياتهم أنفسهم التى تدور حول الرق و المملوكين، و تحتج عليهم احتجاجا متينا.

و التعبير ب ما رَزَقْناكُمْ يشير إلى هذه اللطيفة، و هى أنّكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد و المماليك، و لا المالكين الواقعيين للمال، لأنّ كل ذلك للّه وحده، و لكنّكم غير مستعدين لأن تخوّلوا مماليككم المجازيين بالتصرف فى أموالكم المجازية و تعدّوهم شركاءكم، فى حين أنّه لا يستلزم محالا و لا مشكلة من الناحية التكوينية لأنّ الكلام يدور مدار الاعتباريّات.

غير أن التفاوت بين اللّه و مخلوقاته تفاوت تكوينى و لا يتغيّر، و جعل هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۵

المخلوقات شريكة للّه من سابع المستحيلات.

و من جهة أخرى فإنّ عبادة أحد الموجودات، إمّا لعظمته، أو لأنّه ينفع و يضر الإنسان، إلّا أن هذه المعبودات لا تنفع و لا تضر[۳۵۱].

و يعقب القرآن فى ختام الآية للتأكيد و الدقة على مضمون السؤال، فيقول:

كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

أجل، نذكر لكم الحقائق من الأمثلة الواضحة فى حياتكم لتفكروا فيها، و لكيلا تنسبوا للّه- على الأقل- ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم!.

غير أنّ هذه الآيات البينات و هذه الأمثلة الواضحة هى لأولى الألباب، لا للظالمين عبدة الهوى الجهلة الذين قلوبهم أسدال الجهل، و استوعبت آفاقهم الخرافات و العصبيات، لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

و لذلك فإنّ اللّه خلّى بينهم و بين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئة، فتاهوا فى وادى الضلالة فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ! و التعبير ب «ظلموا» مكان «أشركوا» إشارة إلى أن الشرك بعد أعظم الظلم:

فهو ظلم للخالق، إذ جعله مخلوقه إلى جانبه و أشركه معه (و نعرف أن الظلم أن تضع الشىء فى غير موضعه).

و ظلم للخلق، إذ منعوهم عن طريق الخير و السعادة «طريق التوحيد».

و ظلم لأنفسهم، لأنّهم أطلقوا جميع وجودهم و كيانهم للريح، و ظلوا فى مفازة عمياء! و بيداء قفراء.

و هذا التعبير- ضمنا- مقدمة للجملة التالية، و هو إنّما أضلهم اللّه عن طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۶

الحق فبظلمهم، كما جاء مثل هذا التعبير فى سورة إبراهيم الآية (۲۷) وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ

و لا شك أن من يتركهم اللّه و يخلّى بينهم و بين أنفسهم ف ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ

و بهذا يوضح القرآن عاقبة هذه الجماعة المشؤومة، و لم لا تكون كذلك؟! و هم يرتكبون «أعظم الذنوب و أعظم الظلم»، إذ عطلوا عقولهم و أفكارهم عن العمل، و تركوا شمس العلم خلف ظهورهم، و توجهوا إلى ظلمة الجهل و الهوى.

فمن الطبيعى أن يسلب اللّه منهم التوفيق، و يتركهم فى ظلماتهم، و ما لهم من ناصرين و لا معينين!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۷

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۰ الى ۳۲]

اشارة

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۰) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۳۱) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۳۲)

التّفسير

كـان لـدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيـد و معرفـة اللّه، عن طريق مشاهـدة نظام الخلق، و الاستفادة منه لإثبات مبـدأ العلم و القـدرة فى ما وراء عالم الطبيعـة، بالاستفادة من آيات التوحيد فى هذه السورة! و تعقيبا على الآيات الآنفة الذكر، فإن الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث- تتحدث عن التوحيد الفطرى، أى الاسـتدلال على التوحيد عن طريق المشاهدة الباطنية و الدرك الضـرورى و الوجدانى، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً لأنّها فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

«الوجه» معناه معروف، و هو مقدم الرأس. و المراد به هنا الوجه الباطنى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۸

و وجه القلب و الروح فعلى هـذا ليس المراد هنا من الوجه أو المحيّا وحـده، بل التوجه بجميع الوجود، لأنّ الوجه أهم أعضاء البدن! و كلمة «أقم» مشتقة من الإقامة، و معناه الاستقامة و الوقوف بثبات (على قدم راسخة) ...

و كلمة «حنيف» مشـتقة من «حنف»، و معناها الميل من الباطل نحو الحق، و من الاعوجاج نحو الإسـتواء و الاستقامة، على العكس من «جنف» على وزن «حنف» أيضا، و معناها الميل من الإستواء إلى الضلالة و الاعوجاج.

فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل و الإستواء عن كل انحراف و باطل و خرافة و ضلال.

فيكون معنى هـذه الجملـة بمجموعها، أن وجّه نفسك دائما نحو مبدأ و مذهب خال من أى أنواع الاعوجاج و الانحراف، و ذلك هو مبدأ الإسلام و دين اللّه الخالص و الطاهر[۳۵۲].

إنّ الآيـة المتقدمـة تؤكّـد على أن الـدين الحنيف الخالص الخالى من كل أنواع الشـرك، هو الـدين الـذى ألهمه اللّه سبحانه فى كل فطرة، الفطرة الخالدة التى لا تتغير، و إن كان كثير من الناس غير ملتفت لهذه الحقيقة.

و الآية المتقدمة تبين عدة حقائق:

۱- إنّ معرفـة اللّه- ليست وحـدها- بل الدين و الإعتقاد بشـكل كلى و فى جميع أبعاده هو أمر فطرى، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ الدراسات التوحيدية تؤكّد أن بين جهاز التكوين و التشريع انسجاما لازما، فما ورد فى الشرع لا بدّ أن يكون له جذر فى الفطرة، و ما هو فى التكوين و فطرة الإنسان متناغم مع قوانين الشرع!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۹

و بتعبير آخر: إنّ التكوين و التشـريع عضدان قويان يعملان بانسـجام فى المجالات كافة، فلا يمكن أن يدعو الشـرع إلى شيء ليس له أسـاس و لاـ جـذر فى أعمـاق فطرة الإنسان، و لا يمكن أن يكون شـيء فى أعماق وجود الإنسان مخالف للشـرع! و بـدون شك فإنّ الشـرع يعين حـدودا و قيودا لقيـادة الفطرة لئلاـ تقع فى مسـار منحرف، إلّـا أنّه لاـ يعـارض أصل مشـيئة الفطرة، بل يهـديها من الطريق المشروع، و إلّا فسيقع التضاد بين التشريع و التكوين، و هذا لا ينسجم مع أساس التوحيد.

و بعبارة أخرى: إنّ اللّه لا يفعل أعمالا متناقضة أبدا، بحيث يقول أمره التكوينى: افعل! و يقول أمره التشريعى: لا تفعل.

۲- إنّ الـدين له وجود نقى خـالص من كـل شائبـة داخل نفس الإنسان، أمّا الانحرافات فأمر عارض، و وظيفـة الأنبياء إذن إزالـة هـذه

الأمور العارضة، و فسح المجال لفطرة الإنسان فى الإشراق.

۳- إنّ جملة لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ و بعدها جملة ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ تأكيدان آخران على مسألة كون الدين فطريا، و عدم إمكان تغيير هذه الفطرة! ...

و إن كان كثير من الناس لا يدركون هذه الحقيقة بسبب عدم رشدهم كما ينبغى! و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة، و هى أن الفطرة فى الأصل من مادة «فطر» على زنة «بذر» و معناها شق الشىء من الطول، و هنا معناها الخلقة، فكأن ستار العدم ينشق عند خلق الموجودات و يبرز كل شىء منها.

و على كل حال فمنذ أن وضع الإنسان قدمه فى عالم الوجود، كان هذا النور متوقدا فى داخله، من أوّل يوم و من ذلك الحين! و الرّوايات المتعددة التى وردت فى تفسير الآية تؤيد ما ذكرناه آنفا، و سنتحدث عن ذلك لاحقا إن شاء اللّه، بالإضافة إلى الأبحاث الأخرى فى مجال كون التوحيد فطريا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۰

و يضيف القرآن فى الآية التالية: ينبغى أن يكون التفاتكم للدين الحنيف و الفطرى حالة كونكم مُنِيبِينَ إِلَيْهِ فأصلكم و أساسكم على التوحيد، و ينبغى أن تعودوا إليه أيضا.

و كلمة «منيبين» من مادة «إنابة» و هى فى الأصل تعنى الرجوع المكرر، و تعنى هنا الرجوع نحو اللّه و العودة نحو الفطرة (التوحيدية) و معناها متى ما حصل عامل يحرف الإنسان عقيدته و عن أصل التوحيد فينبغى أن يعود إليه ..

و مهما تكرر هذا الأمر فلا مانع من ذلك الى أن تغدو أسس الفطرة متينة و راسخة، و تغدو الموانع و الدوافع خاوية و يقف الإنسان بصورة مستديمة فى جبهة التوحيد، و يكون مصداقا للآية فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أن أقم وجهك جاءت بصيغة الإفراد، و كلمة «منيبين» جاءت بصيغة الجمع، و هذا يدل على أنّه و إن كان الأمر الأوّل مخاطبا به النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلّا أن الخطاب- فى الحقيقة- لعموم المؤمنين و جميع المسلمين.

و يعقب على الأمر بالإنابة و العودة إليه، بالأمر بالتقوى، و هى كلمة تجمع معانى أوامر اللّه و نواهيه، إذ يقول: وَ اتَّقُوهُ أى اتقوا مخالفة أوامره!.

ثمّ يؤكّد القرآن على موضوع الصلاة من بين جميع الأوامر فيقول: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ.

لأنّ الصلاة فى جميع أبعادها، هى أهم منهج لمواجهة الشرك، و أشد الوسائل تأثيرا فى تقوية أسس التوحيد و الإيمان باللّه سبحانه.

كما أنّه يؤكّد فى نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهى فيقول:

وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

لأنّ الشرك أعظم الذنوب و أكبر الكبائر، إذ يمكن أن يغفر اللّه جميع الذنوب إلّا الشرك باللّه، فإنّه لا يغفره. كما نقرأ فى الآية (۴۸) من سورة النساء إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۱

و واضح أن الأوامر الأربعة الواردة فى هذه الآية، هى تأكيد على مسألة التوحيد و آثاره العملية، فالمسألة أعمّ من التوبة و العودة إليه تعالى و إلى تقواه و إقامة الصلوة و عدم الشرك به.

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- يبيّن القرآن واحدا من آثار الشرك و علائمه فى عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا فى دينهم على فرق و احزاب كثيرة: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً.

و العجيب فى الأمر أنّهم على تضادّهم و اختلافهم فإنّ كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

أجل، إن واحدة من علائم الشرك هى التفرقة، لأنّ المعبودات المختلفة هى منشأ الأساليب المتفاوتة و هى أساس الانفصال و التفرق،

خاصة و أنّ الشرك هو توأم عادة لهوى النفس و التعصّب و الكبر و الأنانية و عبادة الذات، أو متولد عنها، لذلك لا يمكن أن تتحقق الوحدة و الاتحاد إلّا فى ظل عبادة اللّه، و العقل و التواضع و الإيثار!.

فعلى هذا، حيثما وجدنا تفرقة و اختلافا فينبغى أن نعرف أن نوعا من الشرك حاكم هناك، و يمكن أن نستنتج من هذا الموضوع أن نتيجة الشرك هى تفرق الصفوف، و التضاد، و هدر القوى، و أخيرا الضعف و عدم القدرة.

و أمّا مسألة كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فهى واضحة و دليلها بيّن، حين يعتقدون أن ما لديهم حق، لأنّ الهوى يزيّن للنفس عملها فى نظر الإنسان و هذا التزيين نتيجته التعلق أكثر فأكثر، و الفرح بالطريق الذى اختارته النفس، و إن كان هذا الطريق يؤدى إلى الضلال و الانحراف.

إنّ عبادة الهوى لا تسمح للإنسان أن يرى وجه الحقيقة كما هو، و لا يمكنه أن يقضى قضاء صحيحا خاليا من الحبّ و الحقد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۲

يقول القرآن المجيد فى الآية (۸) من سورة فاطر: فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً .. كالذى يمضى فى طريق الحق، و يرى الحقائق كما هى، و يعرفها حق المعرفة؟!

بحثان

۱- التوحيد باعث داخلى قوى:

كما أنّ الدلائل العقلية و المنطقية توجّه الإنسان، فإنّ فى داخله دوافع و موانع أيضا .. بحيث تعين له الجهة «أحيانا» من حيث يدرى أو لا يدرى! و فلسفة وجودها فى داخل الإنسان، هى أنّ الإنسان لا يستطيع- دائما- أن ينتظر إيعاز العقل و المنطق، لأنّ هذا العمل قد يعطل الأهداف «الحياتية» بعض الأحيان.

فمثلا- لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطق «لزوم بدل ما يتحلل» ضرورة تناول الطعام .. أو «لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد و التناسل» ضرورة الممارسة الجنسية، و أن يعمل و يتحرك وفق المنطق فى كل ذلك، لكان ينبغى أن ينقرض الإنسان- قبل هذا الزمان بكثير- إلّا أن الغريزة الجنسية من جهة و جاذبيتها، و الاشتهاء للطعام من جهة أخرى، يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى.

و كلما كانت الأهداف حياتية أكثر و عمومية، كانت هذه «الدوافع» أشد و أقوى أيضا.

لكن ينبغى الالتفات إلى أن هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنية (غير واعية) لا تحتاج إلى وساطة العقل و الشعور، كما ينجذب الحيوان نحو الطعام و الجنس دون الحاجة إلى التفكير.

و قد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعى، أى إن هذه الدوافع الداخلية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۳

تترك أثرها فى العقل و التفكير و تدفعه إلى انتخاب الطريق! و عادة يطلق على النوع الأوّل من هذه الدوافع «الغريزة» و على النوع الثّانى «الفطرة» (فلاحظوا بدقّة).

عبادة اللّه و الاتجاه نحوه لهما مكانه فى نفوس جميع الناس، و هو ما يصطلح عليه ب «الفطرة».

و يمكن أن يعدّ بعض الناس هذا الكلام ادعاء محضا، يدّعيه المؤمنون، إلّا أن لدينا دلائل و شواهد مختلفة توضح بجلاء كون «الميل إلى اللّه» فطريا، بل تؤكّد هذا الميل فى جميع اصول الدين و أبعاده:

۱- إنّ دوام الإعتقاد الدينى و الإيمان باللّه على امتداد التاريخ البشرى بنفسه دليل على الفطرة! لأنّه إذا كان ذلك على سبيل العادة،

لما كانت له جنبة عمومية و لا جنبة دائمية، فهذا العموم و هذا الدوام دليل على فطرية الحالة.

يقول المؤرخون الكبار: لم ير فى المجتمعات الإنسانية فى أعماق التاريخ البشرى، و فى عصر ما قبل التاريخ أن أقواما بشرية عاشت بلا دين إلّا بشكل استثنائى.

و يقول «ويل دورانت» المؤرخ المعاصر:

«إذا عرّفنا الدين على أنّه عبادة القوى التى هى أسمى من الطبيعة، فينبغى أن نأخذ بنظر الإعتبار هذه المسألة الدقيقة، و هى أن بعض الأمم البدائية لم يكن لها أى دين ظاهرا» ثمّ يضيف بعد ذكر أمثلة لهذا الموضوع: فما ذكر من الأمثلة هو فى عداد الحالات النادرة، و الرأى القائل: التدين يشمل عموم أفراد البشر، يوافق الحقيقة»! ثمّ يضيف قائلا: «تعدّ هذه القضية فى نظر الفيلسوف واحدة من القضايا الأساسية فى التاريخ و الدراسات النفسيّة، فهو لا يقنع بهذه المسألة: إنّ جميع الأديان محشوّة بالباطل و اللغو و الخرافات، بل هو ملتفت إلى هذه المسألة، و هى

أن الدين منذ قديم الأيّام كان مرافقا للتاريخ البشرى»[۳۵۳].

و يختتم كلامه بهذا الاستفهام الكبير معنى و مغزى «ترى أين هو مصدر التقوى التى لا يخلوا القلب منها بأى وجه»؟! و هذا المؤرخ نفسه يقول فى تحقيقاته حول وجود الدين فى فترات ما قبل التاريخ «و إذا لم نتصور للدين جذورا فى فترات ما قبل التاريخ، فلا يمكن أن نعرفها فى الفترة التاريخية كما هى عليه»[۳۵۴].

و التنقيبات عن إنسان ما قبل التاريخ التى تمت عن طريق الحفر، تؤيد هذا الموضوع أيضا، كما يصرح بذلك العالم الاجتماعى «ساموئيل كنيج» فى كتابه «دراسة المجتمع»: إن الأسلاف الماضين للإنسان المعاصر «ممن ينتمون إلى إنسان نئاندرتال» كان لديهم دين حتما، و يستدلّ بعدئذ لإثبات هذا الموضوع بالآثار التى عثر عليها عن طريق التنقيب و الحفر، و منها أنّهم كانوا يدفنون موتاهم بكيفية خاصة، و يدفنون معهم أشياء تدل على اعتقادهم بيوم القيامة».[۳۵۵] و على كل حال، فإنّ فصل الدين عن التاريخ البشرى لا يمكن أن يقبله أى محقق و باحث.

۲- إنّ المشاهدات عيانا فى العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاة و المستبدون- و أنظمتهم الجائرة من جهود و سعى لمحو الدين و آثاره و عن طرق مختلفة- لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين و جذوره من أعماق هذه المجتمعات.

و نعرف جيدا أنّ الحزب الشيوعى الحاكم فى الاتحاد السوفياتى، و منذ أكثر من ستين سنة، و بوسائل الإعلام و «الدعايات» المختلفة، حاول أن يغسل

الأذهان و العقول و القلوب من الإعتقادات الدينية مستعينا بالخلايا التنظيمية الجماعية، إلّا أنّ الأخبار التى تسربت و تهربت من ذلك المحيط المغلق، و ما نقرؤه فى الصحف و الجرائد، تكشف أنّهم «أى الحزب الحاكم فى روسيا» مضافا الى عدم تحقيقهم هدفهم بالرغم من تشددهم فى وسائل الإعلام، فإنّه تبدو هذه الأيّام حالة من التطلع المتزايد الى المسائل الدينية فى بعض الدول الاشتراكية و جمهوريات روسيا ممّا أقلق قادة النظام، و هذا يدل على أنّه لو رفعوا الضغوط و لو يوما واحدا، لعاد الدين إلى مكانه بسرعة فائقة، و هذا بنفسه شاهد آخر على فطرية الدافع الدينى أيضا.

۳- الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين و علماء النفس فى مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنّهم يقولون: «إنّ التحقيقات فى المجالات النفسيّة تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الدينى» أو بتعبير آخر «بعد قدسى» أو «ربانى» و ربّما عدّوا هذا البعد أساسا للأبعاد الثلاثة الأخرى و هى «البعد العلمى»، و «البعد الجمالى»، و «البعد الخيّر».

إذ يدّعون بأن البواعث الأساسية للروح البشرية هى هذه:

۱- دافع البحث عن الحقیقـة (الشـعور العلمی) و هو مصـدر أنواع العلوم، و الأهـداف التحقیقیة المسـتمرة، و المتابعات فی معرفة عالم الوجود! ۲- حس «الإحسان و العمل الصالـح» الـذی یجذب الإنسان نحو المفاهیم الأخلاقیة کالتضـحیة و الإیثار و العدل و الشـهامة و أمثالها. حتی أنّه لو کان الإنسان غیر واجـد لهـذه الصـفات، فإنّه یعشق من تتوفر فیهم هـذه الصـفات، و هذا یدل علی أن العشق للعمل الصالح و الإحسان کامن فی جذور النفس.

۳- الحس «الجمالی»: و هو یجذب الإنسان نحو الفن الأصـیل و الأدب و المسائل الذوقیة، و ربّما أصـبح مصدر التحول فی حیاة الفرد أو المجتمع أحیانا.

۴- الحس «الدینی»، أی الإیمان بمبدإ عال و عبادته و اتّباعه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۶

و نقرأ فی مقالة کتبها «کوونتایم» فی هذا المجال ما یلی:

«إنّ معرفة النفس بالبحث داخل النفس البشـریة غیر الواعیة- التی بوشـر بها بواسـطة فروید «فی البدایة» استمرّت بالاستعانة ب «آدلر» و «یونک»- فی أعماق روح الإنسان وصـلت إلی عالم جدیـد من القوی المسـتورة، و أنحاء الـدرک و المعرفـة وراء العقل، و یمکن أن یکون الحسّ الدینی مفتاحا من مفاتیح حل هذه الأحجیة.

و بالرغم من أنّنا بعیـدون للآن عن اتفاق الآراء، إلّا أنّه و مع هـذه الحال فما یزال «مسیر فکری» فی ازدیاد یوما بعد یوم، إذ یعتقد کثیر من المفکرین بالتعریف الذی نورده ذیلا:

«إنّ الحس الـدینی واحد من العناصـر الأولیة الثابتة و الطبیعیة لروح الإنسان، و هو أکثرها أصالة و ماهویّة، و لا یمکن مطابقته لأی من الأحاسیس و الـدوافع الأـخری، حیث یمـدّ جـذوره الی أعماق اللاوعی و یعـدّ «المفهوم الـدینی» أو بتعبیر أصـح «المفهوم المقـدس» بالنسبة لمفاهیم الجمال و الإحسان و الحقیقة، مقولة رابعة، و لها أصالة المفاهیم الثلاثة ذاتها و استقلالها أیضا[۳۵۶].

کما نقرأ فی المقالـة المترجمـة المقتبسـة عن المحقق «تان کی دو- کنتن» ما یلی «کما أن من مزایا العصـر الحاضـر- فی عالم الطبیعة- هو اکتشاف البعـد الرابع، الـذی أطلق علیه اسم «بعـد» الزمان مضافا الی الأبعاد الثّلاثة للجسم، و هو فی الوقت ذاته جامع لها، فکذلک اکتشـفت فی هـذا العصـر المقولـة الرابعـة «المقدسـة» أو المقولـة الإلهیـة «الربانیـة» بموازاة المفـاهیم الثلاثـة «الجمـال، الإحسان، طلب الحقیقـة» و هی البعد الرّابع لروح الإنسان، ففی هذا المقام أیضا فان هذا البعد الرّابع الروحی منفصل عن الأبعاد الثلاثة الأخری، و ربّما کان هذا البعد منشأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۷

ولادة الأبعاد الثلاثة الأخری»[۳۵۷].

۴- إن التجاء الإنسان فی الشدائـد و المحن إلی قوة خفیـة وراء الطبیعة، و طلب حل المشاکل و الأزمات من قبل هذه القوة، لهو أیضـا شاهـد آخر علی أصالة هذا الدافع الباطنی و الإلهام الفطری، و یمکن- بضـمها إلی مجموع الشواهد التی ذکرناها آنفا- أن توقفنا علی مثل هذا الدافع الباطنی فی داخلنا نحو اللّه سبحانه.

و بالطبع فمن الممکن أن یعـدّ بعضـهم هذا التوجه من آثار التلقینات أو الإعلام الدینی فی المحیط الاجتماعی المتدین! إلّا أن عمومیة هـذه الظواهر فی جمیع النـاس، حتی فی أولئـک الـذین لاـ علاقـة لهم بالمسائل الدینیـة عادة، تـدلّ علی أن لها جـذرا أعمق من هـذه الفرضیة.

۵- و فی حیـاة الإنسان حوادث و ظواهر لا یمکن تفسیرها إلّا عن طریق أصالـة الحسّ الـدینی ... فکثیر من الناس نجـدهم قـد ضـحوا بجمیع ما لدیهم من الإمکانات المادیة، و لا یزالون یضحون أیضا، و یصبّون کل ما عندهم مع ما لدیهم من سوابق تحت قدم الدین، و ربّما قدّموا أنفسهم فی سبیله أیضا.

الشـهداء الـذين شـربوا كأس الشـهادة- من أجل تقدم الأهداف الإلهية و تحقّقها- بشوق و عشق بالغين، بحيث نرى أمثالهم فى تاريخ جهاد الإسـلام الطويل، بل فى تأريـخ الأمم الأخرى أيضا، يكشـفون عن هـذه الحقيقة، و هى أن الحس الدينى له جذر عميق فى روح الإنسان.

لكن قـد يرد على هذا الكلام إشـكال، و هو أنّ أفرادا- كالشـيوعيين مثلا- لهم موقع إلحادىّ- ضد الأيدلوجية و الدين- و لا يكتمون موقعهم هـذا أبـدا .. كما أن لهم مواقف تضـحوية فى سبيل حفظ فكرتهم و اعتقادهم! إلّا أنّ هذا الإشـكال ينحل تماما بملاحظة هذه المسألة، و هى أنّه حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۸

الشـيوعيون الـذين ينفون الـدين كليّا- بحسب الظاهر- و يعتقـدون أن الدين مرتبط بالتأريخ القديم، و لا يمكن أن يكون له مكان فى المجتمعات الشيوعية .. أجل، إن هؤلاء أنفسهم قد قبلوا بالدين بشكل آخر عن طريق العقل الباطنى «و اللاوعى».

فهم يقـدّسون زعماءهم و قادتهم بالنظرة التى ينظرها المصـريون القـدماء أوثانهم، و صـفوفهم الطويلـة عنـد جسـد «لينين» لزيارته هى شاهد آخر على هذا الموضوع أيضا.

و هم عادة يعتبرون الأصول الماركسـية كوحى السماء لا تقبل النقد و الخدش، فهى مقدّسة عندهم، و يتصورون أن ماركس و لينين و انجلس كـالمعصومين من الأخطـاء و السـهو، و يعـدون مراجعـة العقـل لاتخـاذ موقف جديـد من هـذه الأـصول ذنبا لا يغتفر أبـدا .. و يخاطبون مخالفيهم بتعبيرنا الدينى على أنّهم «مرتدون» و على هذا فهم يعتقدون بكثير من المفاهيم و المسائل الدينية، غاية ما فى الأمر هو أن تفكير هم نوع من الفكر الدينى فى شكل منحرف!

۲- فطرة التوحيد فى الأحاديث الإسلامية

موضوع «معرفـة اللّه الفطريـة» لم يختص به القرآن الكريم فحسب، بل هو وارد فى الأحـاديث الإسـلامية بشـكل يسترعى الانتباه، حيث أن بعضـها يؤكّد على التوحيد بالفطرة، و بعضـها يؤكّد على المعرفة، و قسم يتناول الفطرة «على الإسـلام» و أخيرا فإن قسما منها تناول عنوان الولاية أيضا.

ففى حديث معتبر يرويه المحدث الكبير الشيخ الكلينى فى أصول الكافى، و هو ما نقله

عن هشـام بن سـالم، قـال: سـألت الإمـام الصـادق عليه السّـلام: ما المراد من قوله تعالى: فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها ... فقال «هى التوحيد»[۳۵۸].

كما

ورد فى الكافى نفسه نقلا عن بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۹

حين سأله عن تفسير الآية المتقدمة فقال الإمام عليه السّلام «هى الإسلام»[۳۵۹].

كما نقرأ حديثا متشابها لما سبق-

عن الإمـام البـاقر عليه السّـلام جوابـا لزرارة أحـد أصـحابه العلمـاء حين سـأله عن تفسـير الآيـة فقـال عليه السّـلام «فطرهم على المعرفة به»[۳۶۰].

و

الحدیث المنقول عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله «کل مولود یولد علی الفطرة حتی لیکون أبواه هما اللذان یهودانه و ینصرانه» یؤکّد هذا المضمون أیضا[۳۶۱].

و أخیرا فإننا نقرأ

فی أصول الکافی حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا فی تفسیر الآیة قال: «هی الولایة»[۳۶۲].

و

قد ورد فی الخطبة الأولی لنهج البلاغة عن أمیر المؤمنین علیه السّلام حدیث موجز العبارة غزیر المعنی، إذ یقول علیه السّلام «فبعث فیهم رسوله، و واتر إلیهم أنبیاءه لیستأدوهم میثاق فطرته، و یذکروهم منسی نعمته، و یحتجوا علیهم بالتبلیغ، و یثیروا لهم دفائن العقول».

و طبقا للرّوایات المتقدمة، فلیست معرفة اللّه هی الفطریة فحسب، بل مجموع الإسلام بشکل موجز «مضغوط» کامن فی داخل الفطرة الإنسانیة بدءا من التوحید و انتهاء بالقادة الإلهیین و خلفائهم الصادقین، و کذلک فروع الأحکام أیضا.

فعلی هذا، و طبقا للتعبیر الوارد فی نهج البلاغة، فإن عمل الأنبیاء هو رعایة الفطرة حتی تفتح، و تذکر الناس نعم اللّه المنسیة، و من جملة هذه النعم الفطرة علی التوحید، و استخراج کنوز المعرفة الدفینة فی روح الإنسان و أفکاره! و ممّا یسترعی الانتباه أن القرآن الکریم- فی آیات متعددة- یتخذ من الشدائد و المشاکل و الحوادث المؤلمة التی یمر بها الإنسان فی حیاته مناخا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‏۱۲ ؛ ص۵۲۹

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‏۱۲، ص: ۵۳۰

ملائما للحس الدینی، إذ یقول فی واحدة من هذه الآیات: فَإِذا رَکِبُوا فِی الْفُلْکِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَی الْبَرِّ إِذا هُمْ یُشْرِکُونَ ۳۶۳].

و سنتحدث بإذن اللّه فی هذا المجال ذیل الآیات المقبلة التی تشبه الآیات من سورة العنکبوت أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‏۱۲، ص: ۵۳۱

الآیات [سورة الروم (۳۰): الآیات ۳۳ الی ۳۶]

اشارة

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِیبِینَ إِلَیْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِیقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ یُشْرِکُونَ (۳۳) لِیَکْفُرُوا بِما آتَیْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۴) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَیْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ یَتَکَلَّمُ بِما کانُوا بِهِ یُشْرِکُونَ (۳۵) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ إِذا هُمْ یَقْنَطُونَ (۳۶)

التّفسیر

إنّ الآیة الأولی من المقطع الذی بین أیدینا، هی فی الحقیقة استدلال و تأکید علی البحث السابق فی مجال کون التوحید فطریا، و تفتح هذا النور الإلهی عند الشدائد و الصعاب! إذ تقول الآیة: وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِیبِینَ إِلَیْهِ

إلّا أنّهم الی درجة من السطحیة و الغباء التعصب و التقلید الأعمی لأسلافهم المشرکین، بحیث أنّه بمجرّد انتهاء المشکلة و هبوب نسیم الرحمة الالهیة .. ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِیقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ یُشْرِکُونَ

و التعبير ب مَسَّ النّاسَ ضُرٌّ إشارة إلى اصابتهم بقليل من الضـرر ... كما أنّ التعبير أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إشارة إلى بلوغ شـيء من النعمة، لأنّ التعبير ب «مسّ»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥٣٢

أو «ذاق» فى مثل هذه الموارد يطلق على الأمور القليلة و الجزئية، و خاصّة باستعمال كلمتى «ضر» و «رحمة» نكرتين.

أى إنّ طائفة تبلغ بهم الحال إلى أن يفزعوا إلى اللّه عند حدوث أقل مشكلة لهم، و تنكشف الحجب عن فطرتهم التوحيدية، و لكن إذا رأوا نعمة و لو بأقل ما يتصوّر، فإنّهم يغفلون عن واقعهم كليّا، و ينسون كل شيء! و بالطبع ففى الحالة الأولى يبيّن القرآن أنّ الناس يفزعون جميعا إلى اللّه عند الضر و الشدائد، لأنّ فطرة التوحيد موجودة فى الجميع.

و لكن فى الحالة الثّانية يتحدث القرآن عن جماعة تسلك طريق الشرك فحسب، لأنّ طائفة من عباد اللّه يذكرون اللّه فى الشدائد و فى الرخاء و فى السراء و الضراء. فلا تنسيهم المتغيّرات ذكر اللّه أبدا.

و التعبير ب مُنِيبِينَ إِلَيْهِ كما رأينا فى مفهوم الإنابة سابقا- من مادة «النوب» و تعنى العودة ثانية إلى الشيء، هذا التعبير إشارة لطيفة للمعنى التالى، و هو أنّ الأساس فى الفطرة هو توحيد اللّه و عبادته، و الشرك أمر عارض، حيث متى ما يئسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان و التوحيد، شاؤوا أم أبوا!.

و الطريف هنا أنّ «الرحمة» فى الآية مسندة إلى «اللّه»، فهو سبحانه مصدر الرحمة للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلّا أن الضرّ لم يسند إليه سبحانه، لأنّ كثيرا من الابتلاءات و المشاكل التى تحوطنا هى من نتائج أعمالنا و ذنوبنا.

و كلمة «ربّهم» التى تكررت فى الآية تكررت فى الآية مرّتين، تؤكّد على أنّ الإنسان يحسّ بالتدبير الإلهى و ربوبية اللّه على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئة فتسوقه نحو الشرك و الضلال.

و ينبغى ذكر هذه المسألة الدقيقة، و هى أنّ الضمير فى كلمة «منه» يعود إلى اللّه، و هذا تأكيد على أن جميع النعم من اللّه سبحانه. و قد اختار كثير من المفسّرين هذا المعنى أمثال «الطباطبائى» فى الميزان، و «الطوسى» فى التبيان، و «أبو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥٣٣

الفتوح الرازى» فى تفسيره و غيرهم، و إن ذهب غيرهم كالفخر الرازى الى إن الضمير فى كلمة «منه» يعود على الضرّ، و فسّروا الآية هكذا «حين يذيق اللّه عباده بعد الضرّ رحمة. إذا فريق منهم يشركون باللّه». (فيكون معنى «من» هنا البدلية). إلّا أنّه من الواضح أن التّفسير الأوّل أكثر انسجاما مع ظاهر الآية! أمّا الآية الأخرى فجاءت بعنوان التهديد لأولئك المشركين، الذين ينسون ربّهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ و ليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا! ثمّ يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم و المواهب الدنيوية الفانية. و سوف يرون العاقبة السيئة لذلك: فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٦٤] و بالرغم من أنّ المخاطبين بالآية هم المشركون، إلّا أنّه لا يبعد أن يكون لها مفهوم واسع بحيث يشمل جميع الذين ينسون اللّه عند إقبال النعم، و ينشغلون بالتمتع بهذه النعم فحسب، دون أن يذكروا واهب النعم.

و بديهى أن صيغة الأمر استعملت هنا للتهديد!.

و القرآن فى الآية الأخرى يصوغ الكلام فى صيغة الاستفهام المقرون بالتوبيخ فيقول: أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ

«أم» هنا للاستفهام، و يحمل الاستفهام هنا غرضا استنكاريا و توبيخا ... أى إن سلوك هذا الطريق و الخطة يجب أن يكون إمّا لنداء الفطرة، أو بحكم العقل، أو بأمر اللّه، لكن حين يصرخ الوجدان و الفطرة فى الشدائد و الملمات بالتوحيد ....

فإن العقل يقول أيضا: ينبغى التوجه نحو واهب النعم.

يبقى أن حكم اللّه فى هذه الآية هو فى مورد النفى، أى: لم يؤمروا من قبل اللّه بمثل هذا الأمر، فعلى هذا فإن هؤلاء فى اعتقادهم هذا

لم يستندوا إلى أى أصل

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۴

مقبول!.

و «السلطان» معناه ما يدل على السلطة و ينتهى إلى الإنتصار عادة، و معناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

و التعبير ب «يتكلم» هو نوع من التعبير المجازى، إذ ترانا نعبر عند وضوح الدليل قائلين «كأن هذا الدليل يتكلم مع الإنسان»! و احتمل بعض المفسّرين أن المراد بالسلطان هنا هو أحد الملائكة المقتدرين، فيكون استعمال «يتكلم» هنا على نحو الحقيقة، أى لم نرسل عليهم ملكا يتكلم بالشرك فيتبعوه!.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أوضح كما يبدو! أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فهى ترسم طريقة تفكير و روحية هؤلاء الجهلة الأغبياء الذين يقنطون و يحزنون لأقل مصيبة، فتقول: وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ فى حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر اللّه عند النعم، و لا يقنطون عند الشدائد و المصيبة، إذ هم يشكرون اللّه على نعمه، و يرون المصيبة امتحانا و اختبارا، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون و يتّجهون إلى اللّه تعالى.

فالمشركون يعيشون دائما بين «الغرور» و «اليأس»، أمّا المؤمنون فهم بين «الشكر» و «الصبر».

و يستفاد ضمنا من هذه الآية بصورة جيدة أنّ قسما من المصائب و الابتلاءات التى تحل بالإنسان هى- على الأقل- نتيجة أعماله و ذنوبه، فاللّه يريد أن ينبههم و يطهرهم و يلفتهم إليه.

و ينبغى الالتفات الى أنّ جملة فَرِحُوا بِها ليس المراد منها هنا السرور بالنعمة فحسب، بل السرور المقرون بالغرور و نوع من السكر و النشوة، و هى الحالة التى يكون عليها الأراذل عند ما تتهيأ لهم وسائل العيش و الحياة، و إلّا فإن

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۵

السرور المقرون بالشكر و التوجه نحو اللّه ليس أمرا سيئا، بل هو مأمور به قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا[۳۶۵].

و التعبير بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ الذى ينسب المعاصى إلى الأيدى، هو لأنّ أكثر الذنوب و الأعمال يكون على يد الإنسان، و إن كانت هناك ذنوب يكتسبها القلب أو البصر أو السمع، إلّا أن كثرة الأعمال التى تصدر عن اليد استدعى هذا التعبير.

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: أ لا تخالف هذه الآية، الآية الثّالثة و الثلاثين «ما قبل آيتين» لأنّ الكلام فى هذه الآية عن يأسهم عند المصائب، فى حين أن الآية السابقة تتحدث عن توجههم إلى اللّه عند بروز المشاكل و الشدائد.

و الخلاصة، إن واحدة من الآيتين تتحدث عن «الرجاء» و الأخرى عن «اليأس»؟

لكن مع الالتفات إلى مسألة دقيقة يتّضح جواب هذا السؤال، و ذلك أن الآية المتقدمة كان الكلام فيها عن «الضر» أى الحوادث الضارة كالطوفان و الزلزلة و الشدائد الأخرى التى تصيب عامة الناس «الموحدين منهم و المشركين».

فيتذكرون اللّه فى هذه الحال، و هذا واحد من دلائل الفطرة على التوحيد.

أمّا فى الآية محل البحث فالكلام على نتائج المعاصى و اليأس الناشئ منها، لأنّ بعض الأفراد إذا عملوا صالحا أصبحوا مغرورين و حسبوا أنفسهم مصونين من عذاب اللّه، و حين يعملون السيئات و تحلّ بهم العقوبة فيغم وجودهم اليأس من رحمة اللّه، فكلتا الحالين «العجب و الغرور» و «اليأس و القنوط من رحمة اللّه» مذمومتان! فعلى هذا تكون كلّ آية من الآيتين قد تناولت موضوعا منفصلا عن الآخر.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۶

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)

التّفسير

الآية الأولى من الآيات محل البحث- تتحدث عن التوحيد و الربوبيّة أيضا، و انسجاما مع سياق الآيات السابقة التي كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماديين عند إقبال النعمة عليهم، و يأسهم و قنوطهم عند مواجهتهم الشدائد و البلاء، فإنّها تقول: أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ.

فلا- ينبغي أن يكون إقبال النعم مدعاة للغرور و نسيان اللّه و الطغيان، و لا إدبارها سببا لليأس و القنوط، لأنّ سعة الرزق و ضيقه بيد اللّه، فتارة يرى المصلحة

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥٣٧

للعبد في الحالة الأولى «سعة الرزق»، و تارة يراها في الثّانية، أي «الضيق».

و صحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب، فمن جدّ و جد، و من سعى قاوم الصعاب ينل فائدة أكثر و يربح عادة، و أمّا أولئك الكسالى فلا ينالون إلّا قليلا ...

لكن هذه القاعدة في الوقت ذاته ليست دائمية و لا كلية، إذ يتفق أن نرى أناسا جديرين و جادّين يركضون من هنا و هناك، إلّا أنّهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، و على العكس منهم قد نشاهد أناسا لا يسعون و لا يجدّون و تتفتح عليهم أبواب الرزق من كل حدب و صوب.

و هذه الاستثناءات كأنّها لبيان أنّ اللّه بالرغم من جميع ما جعل للأسباب من تأثير، لا ينبغي أن ينسى في عالم الأسباب، و لا ينبغي للإنسان أن يغفل أن وراء هذا العالم يدا قوية أخرى تديره كيف شاءت! فأحيانا- و وفق مشيئته- توصد جميع الأبواب بوجه الإنسان مهما سعى و جدّ في الأمر، و قد يرحم الإنسان و ييسّر له الأمور الى درجة انه ما أن يخطو خطوة ... و إذا الأبواب متفتحة أمامه! فما نرى في حياتنا من هذه المفارقات، بالإضافة إلى أنّه يحدّ من الغرور المتولد من وفور النعمة، و اليأس الناشئ من الفقر، فهو في الوقت ذاته دليل على أن وراء إرادتنا و مشيئتنا يدا قوية أخرى «تسيّر أعمالنا».

لذلك يقول القرآن في نهاية الآية: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

و ينقل بعض المفسّرين كلاما بهذا المضمون و هو: سئل أحد العلماء: ما الدليل على أنّ للعالم صانعا واحدا؟

فقال هناك ثلاثة أدلة: «ذل اللبيب، و فقر الأديب، و سقم الطبيب».[٣٦٦] أجل إن وجود هذه المستثنيات و المفارقات دليل على أن الأمور بيد قادر آخر، كما

ورد في كلام الإمام علي عليه السّلام أيضا «عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزائم،

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥٣٨

و حلّ العقود، و نقض الهمم».[٣٦٧]

و حیث أن کل نعمة و موهبة ینالها الإنسان تحمّله وظائف و مسئولیّات و علیه أداؤها، فإن القرآن یوجه الخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیة التالیة قائلا: فَآتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ وَ الْمِسْکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ

و ینبغی أن لا- تتصور عند سعة الرزق أن ما عندک هو لک فقط، بل إنّ للآخرین فی مالک حقّا أیضا، و من هؤلاء الأقارب و المساکین الذین باتوا متربین لشدة الفقر، و کذلک الأعزة الذین ابتعدوا عن الوطن و انقطع بهم الطریق نتیجة حوادث معینة و هم محتاجون! ...

و التعبیر ب «حقّه» کاشف عن أنّهم شرکاء فی أموال الإنسان، و إذا دفع المرء شیئا من ماله إلیهم فإنّما یؤدی حقهم، و لیس له منّ علیهم!.

و هناک جماعة من المفسّرین یرون أنّ المخاطب فی هذه الآیة هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فحسب، و أن «ذا القربی» أرحامه، و

قد ورد فی روایة عن أبی سعید الخدری و غیره ما یلی: «لما نزلت هذه الآیة علی النّبی أعطی فاطمة فدکا و سلّمها إلیها».[۳۶۸]

و بالمضمون نفسه نقل عن الإمام الباقر و الصادق علیهما السّلام أیضا.[۳۶۹] و قد ورد المعنی نفسه مفصلا فی احتجاج فاطمة الزهراء علیها السّلام علی أبی بکر فی قضیة فدک، و ذلک فی روایة عن الإمام الصادق علیه السّلام.[۳۷۰] غیر أنّ جماعة من المفسّرین قالوا: إنّ الخطاب فی هذه الآیة عام، و هو یشمل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و غیره، و طبقا لهذا التّفسیر فإنّ جمیع الناس علیهم أن لا ینسوا حق ذوی القربی أیضا.

و بالطبع فإنه لا منافاة فی الجمع بین التّفسیرین، و علی هذا فإن مفهوم الآیة مفهوم واسع، و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قرباه و خاصة فاطمة الزهراء علیها السّلام هم المصداق الأتم لهذه الآیة.

و من هنا یتّضح أن لا منافاة لأی من التفاسیر الآنفة مع کون السورة مکّیة، لأنّ مفهوم الآیة مفهوم جامع ینبغی العمل به فی مکّة و فی المدینة أیضا، و حتی خبر إعطاء «فدک» لفاطمة علیها السّلام علی أساس هذه الآیة مقبول جدّا.

الشیء الوحید الذی یبقی هنا، هو جملة «لما نزلت هذه الآیة ...» فی روایة أبی سعید الخدری، إذ أن ظاهرها أن إعطاء فدک کان بعد نزول الآیة، و لکن لو أخذنا کلمة «لما» به معنی العلة، لا بمعنی الزمان الخاص، ینحل هذا الإشکال، و یکون مفهوم الآیة أن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أعطی فاطمة فدکا لأمر اللّه إیاه، أضف إلی ذلک فإن بعض آیات القرآن یتکرر نزولها!.

و لکن لم ذکر هؤلاء الثلاثة من بین جمیع المحتاجین و أصحاب الحق؟

لعل ذلک لأهمیتهم، لأنّ حق ذی القربی أهم و أعلی من أی حق سواه، و من بین المحرومین و المحتاجین فإنّ المساکین و أبناء السبیل أحوج من الجمیع!.

أو أن ذلک لما أورده «الفخر الرازی» هنا إذ یقول: «فی تخصص الأقسام الثلاثة بالذکر دون غیرهم، مع أن اللّه ذکر الأصناف الثمانیة فی الصدقات، فنقول:

أراد هاهنا بیان من یجب الإحسان إلیه علی کل من له مال، سواء کان زکویا أم لم یکن، و سواء کان بعد الحول أو قبله، لأنّ المقصود هاهنا الشفقة العامة، و هؤلاء الثلاثة یجب الإحسان إلیهم و إن لم یکن للمحسن مال زائد، أمّا القریب فتجب نفقته و إن کان لم تجب علیه زکاة کمال القاصرین أو مال لم یحل علیه الحول، و المسکین کذلک فإنّ من لا شیء له إذا بقی فی ورطة الحاجة حتی بلغ الشدة، یجب علی من له مقدرة دفع حاجته و إن لم یکن علیه زکاة، و کذلک من انقطع فی مفازة و مع آخر دابة یمکنه بها إیصاله إلی مأمن، یلزمه ذلک، و إن لم تکن علیه

زكـاة، و الفقير داخل فى المسـكين، لأنّ من أوصـى للمساكين شيئا يصـرف إلى الفقراء أيضا «فما ذكرته الآيـة من ترتيب لهؤلاء إنّما يناسب شأنهم».[٣٧١] و على كل حال فإنّ القرآن يبيّن فى نهايهٔ الآيهٔ ترغيبا للمحسنين، و شرط القبول ضمنا، فيقول: ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

أولئـك المفلحون فى هـذه الـدنيا، لأنّ الإنفاق يجلب معه البركات العجيبـة، و فى الآخرة أيضا، لأنّ الإنفاق هو أكثر الأعمال ثقلا فى ميزان اللّه يوم القيامة.

و مع الالتفات إلى أن المراد من وَجْهَ اللَّهِ ليس هو المحيّا الجسمانى، إذ ليس له تعالى وجه جسمانى، بل هو بمعنى ذاته المقدّسة، فإن هـذه الآيـة تشير إلى أن الإنفـاق و إيتـاء حق الأقارب و أصحاب الحق الآخرين ليس كافيا، بل المهم هو الإخلاص و النيـة الطاهرة و الخالية من أى أنواع الرياء و المنة و التحقير و انتظار الأجر و الثواب.

و خلافا لمـا ذهب إليه بعض المفسّرين. من أنّ الإنفـاق لغرض الوصول إلى الجنّة ليس مصـداقا لوجه اللّه، فـان جميع الأعمـال التى يؤديهـا الإنسـان و فيهـا نوع من الارتباط باللّه، سواء كانت لمرضاته أو ابتغاء ثوابه أو للنجاة من جزائه، فكلها مصـداق لوجه اللّه، و إن كانت المرحلة العليا و الكاملة من ذلك أن لا يبتغى الإنسان من وراء عمله إلّا الطاعة و العبودية المحضة!.

و تشير الآيـة التالية- بمناسـبة البحث المتقدم عن الإنفاق الخالص- إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما للّه، و الآخر يراد منه الوصول إلى مال الدنيا، فتقول:

وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ

مفهوم الجملـة «الثّانيـة» و هى إعطـاء الزكـاة و الإنفـاق لوجه اللّه و الثواب واضـح، إلّا أن الجملـة الأولى وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً مختلف فى تفسيرها مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص: ٥٤١

الالتفات إلى أنّ «الربا» معناه فى الأصل «الزيادة».

فالتّفسير الأوّل، و هو أوضـح من جميع التفاسير، و منسـجم مع مفهوم الآيـة أكثر، و متناسق مع الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام، أن المراد من الربا هو الهدايا التى يقدمها بعض الأفراد للآخرين، و لا سـيما إلى أصـحاب الثروة و المال، كى ينالوا منهم أجرا أحسن و أكثر! و بـديهى أنّه فى مثـل هـذه الهـدايا لا يؤخـذ بنظر الاعتبار اسـتحقاق الطرف الآخر و لا الجـدارة و الأولويـة، بل كل ما يهـدف اليه أن تصل الهديـة إلى مكان، تعود على مهـديها بمبلغ أوفر و من الطبيعى أن مثل هذه الهدايا ليس فيها «جنبة» إخلاص، فلا قيمة لها من الجهة الأخلاقية، و المعنوية!.

فعلى هـذا يكون معنى «الربـا» فى هـذه الآيـة هو «الهديـة و العطيـة» و المراد من جملـة لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ هو أخـذ الأجر الوافر من الناس! و لا شك أن أخـذ مثل هـذه الأجرة ليس حراما، إذ ليس فيه شـرط أو قرار، إلّا أنّه فاقد للقيمة الأخلاقية و المعنوية ... و لذلك فقـد ورد التعبير عن هـذا الربا- فى روايات متعـددة عن الإمام الصادق عليه السّلام فى مصادر معروفة، ب «الربا الحلال» فى قبال «الربا الحرام» الذى يستلزم الشرط و العقد أو الاتفاق.

و نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب تهذيب الأحكام، فى تفسير الآية هو

قوله عليه السّلام: «هو هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منهما، فذلك ربا يؤكل»!

كما نقرأ حديثا آخر

عنه عليه السّلام «الربـا ربـاءان، أحـدهما حلال و الآخر حرام، فأمّا الحلال فهو أن يقرض الرجل أخاه قرضا يريـد أن يزيـده و يعوضـه بأكثر ممّا يأخذه بلا شـرط بينهما، فإن أعطاه أكثر ممّا أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له، و ليس له عند اللّه ثواب فيما أقرضه، و هو قوله: فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ و أمّا الحرام فالرجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۲

يقرض قرضا و يشترط أن يردّ أكثر ممّا أخذه فهذا هو الحرام».[۳۷۲]

و هناك تفسير آخر لهذه الآية، و هو أن المراد من الربا فى هذه الآية هو الربا الحرام، و طبقا لهذا التّفسير فإن القرآن يريد أن يقيس الربا بالإنفاق الخالص لوجه اللّه، و يبين أن الربا و إن كان ظاهره زيادة المال، إلّا أنّه ليس زيادة عند اللّه، فالزيادة الحقيقية و الواقعية هى الإنفاق فى سبيل اللّه.

و على هذا الأساس فقد عدّوا الآية مقدمة لمسألة «تحريم الربا» التى ذكرها القرآن فى بداية الأمر و قبل الهجرة على سبيل الإرشاد الأخلاقى و النصح، و لكن تمّ تحريم الربا بعد الهجرة فى ثلاث سور «البقرة و آل عمران و النساء» بصورة تدريجية «و كانت لنا إشارة أيضا فى الجزء الثّانى من التّفسير الأمثل على هذا الأساس».

و بالطبع ليس بين المعنيين أىّ تضاد، و يمكن أن تؤخذ الآية بمعناها الواسع الذى يجمع «الربا الحلال» و «الربا الحرام» و يقاس كلاهما بالإنفاق فى سبيل اللّه، إلّا أن تعبيرات الآية أكثر انسجاما مع التّفسير الأول، لأنّ الظاهر من الآية هنا أن عملا قد صدر ليس فيه ثواب، و هو مباح، لأنّ الآية تقول: إن هذا العمل لا يربو عند اللّه، و هذا يتناسب مع الربا الحلال الذى ليس فيه وزر و لا ثواب، و ليس شيئا يستوجب مقت اللّه و غضبه ... و قد قلنا: إن الروايات الإسلامية ناظرة إلى هذا المعنى.

و ينبغى الإشارة إلى هذه اللطيفة اللغوية، و هى أنّ كلمة «مضعفون» التى هى صيغة لاسم الفاعل، لا تعنى أنّهم يزيدون و يضعفون بأنفسهم للمال، بل معناها أنّهم أصحاب الثواب المضاعف، لأنّ اسم الفاعل قد يأتى فى لغة العرب و يراد منه اسم المفعول، مثل «الموسر» أى: صاحب المال الكثير.

و ينبغى أيضا أن يعرف بالنظرة البعيدة أن المراد من الضعف و المضاعف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۳

ليس معناه «مثل الشيء مرّتين» بل يشمل المثل مرتين و يشمل أمثال الشيء، و الحدّ الأقل فى الآية هنا عشرة أمثال، لأنّ القرآن يقول: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.[۳۷۳] و تبلغ الزيادة أحيانا كما فى القرض إلى ثمانية عشر كما نقرأ فى هذا حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «على باب الجنّة مكتوب: القرض بثمانية عشر و الصدقة بعشر».[۳۷۴]

و قد تبلغ الزيادة إلى سبعمائة «ضعف» كما هو فى شأن الإنفاق فى سبيل اللّه، إذ تقول الآية: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ[۳۷۵] و فى الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- عودة أخرى إلى مسألة المبدأ و المعاد، و هى الموضوع الأساس الذى ورد فى كثير من آيات هذه السورة ...

و تصف الآية «اللّه» بأربعة أوصاف لتكون إشارة للتوحيد و مواجهة الشرك، و دليلا على المعاد أيضا فتقول: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ

و من المسلّم به أن المشركين لم يكن أىّ منهم يعتقد بأن الخلق كان من قبل الأوثان، أو أن أرزاقهم بيد الأوثان و الأصنام، أو أن نهاية حياتهم بأيدى هذه الأوثان كذلك!! بل لأنّهم جعلوا هذه الأوثان المصنوعة واسعة و شفعاء بينهم و بين اللّه، فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئلة هو النفى، و الاستفهام هنا استفهام إنكارى!.

الموضوع الآخر الذى يثير السؤال هنا هو أن أولئك المشركين لم يكونوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۴

يعتقدون بالحياة بعد الموت، فكيف يستند القرآن فى آخر وصف للّه تعالى إلى ذلك؟! لعل هذا التعبير هو لأنّ مسألة المعاد و الحياة بعد الموت- كما ذكرناها فى بحوثنا المتقدمة- لها «جنبة» فطريّة، و القرآن هنا لا يستند إلى معتقداتهم، بل إلى فطرتهم.

إضافة إلى ذلك فقد يتفق أن متكلما ذلقا حين يواجه شخصا آخر ينكر موضوعا ما، فيستدرجه بما لديه من حقائق يتقبلها ذلك الآخر

و یستند إلیها بشکل قطعی لیظهر أثرها، و ینزل صاحبه من مرکب الإنکار.

ثمّ بعد هذا کله فإن بین الحیاة الأولی من قبل اللّه و قدرته علی ذلک، و الحیاة بعد الموت رابطة لا تقبل الانفصام، و مع ملاحظة هذه الرابطة المنطقیة فإن «کلا الأمرین» جاءا فی عبارة واحدة.

و علی کل حال فإن القرآن یقول: عنـد ما یکون الخلق و الرزق و الموت و الحیاة بید اللّه، فالعبادة ینبغی أن تکون له فقط، و یکشف هذه الحقیقة بقوله:

سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ و هی أنّ المشرکین أهانوا کثیرا مقام رب العزة إذ أشرکوه فی العبادة مع أوثانهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۵

الآیات [سورة الروم (۳۰): الآیات ۴۱ الی ۴۵]

اشارة

ظَهَرَ الْفَسادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النَّاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۴۱) قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلُ کانَ أَکْثَرُهُمْ مُشْرِکِینَ (۴۲) فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ الْقَیِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ یَوْمَئِذٍ یَصَّدَّعُونَ (۴۳) مَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ یَمْهَدُونَ (۴۴) لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْکافِرِینَ (۴۵)

التّفسیر

أساس الفساد و مصدره أعمال الناس أنفسهم:

کان الکلام فی الآیات السابقة عن الشرک، و نعلم أنّ أساس جمیع المفاسد هو الغفلة عن أصل التوحید و التوجه نحو الشرک، لذلک فإنّ القرآن- فی هذه الآیات محل البحث- یتحدث عن ظهور الفساد فی الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فیقول: ظَهَرَ الْفَسادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النَّاسِ

و اللّه یرید أن یریهم ما قدموه و لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۶

یَرْجِعُونَ

و الآیة الآنفة الذکر تبیّن المعنی الواسع حول ارتباط الفساد بالذنب، الذی لا یختصّ بأرض «مکّة» و الحجاز، و لا بعصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله، بل هو من قبیل القضیة الحقیقیة التی تبیّن العلاقة بین الموضوع و المحمول! و بعبارة أخری: حیثما ظهر الفساد فهو انعکاس لأعمال الناس و فیه- ضمنا- هدف تربوی، لیذوق الناس «طعم العلقم» نتیجة أعمالهم، لعلهم ینتهون و یثوبون إلی رشدهم! و یقول بعضهم: إنّ هذه الآیة ناظرة إلی القحط و «الجدب» الذی أصاب المشرکین بسبب دعاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله علی مشرکی مکّة! ... فانقطعت المزن و یبست الصحاری، و صار من الصعب علیهم الصید من البحر الأحمر أیضا.

و علی فرض أن یکون هذا الکلام صحیحا تاریخیا، إلّا أنّه بیان لأحد المصادیق و لا یحدد معنی الآیة فی مسألة ارتباط الفساد بالذنب، فهی لیست محدّدة بذلک الزمان و المکان، و لا بالجدب و انقطاع «الغیث».

و ممّا ذکرناه آنفا یتّضح جیدا أنّ کثیرا من التّفاسیر المحدودة و الضیقة التی نقلها بعض المفسّرین فی ذیل الآیة غیر مقبولة بأی وجه.

کما فسّروا الفساد فی الأرض بأنّه قتل «هابیل» علی ید «قابیل»، أو أن المراد بالفساد فی البحر هو غصب السفن فی عصر موسی، و الخضر علیهم السّلام.

أو أنّ المراد من الفساد فی البر و البحر هو ظهور الحکّام المتسلطین الفاسدین الذین یشیعون الفساد فی جمیع هذه المناطق!.

و بالطبع فإنّ الممکن أن تکون مصادیق الآیة مثل هؤلاء الأفراد الذین یتسلطون علی الناس نتیجة الدنیا و المجاملة و جرّ الناس للذل، و لکن من المسلّم به أن هذا المصداق لا یعنی تخصیص مفهوم الآیة!.

کما أنّ جماعة من المفسّرین بحثوا فی معنی الفساد فی البحر أیضا، فقال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۷

بعضهم: المراد بالبحر هو المدن التی إلی جانب البحر، و قال بعضهم: إنّ المراد بالبحر هو «المناطق المخصبة ذات البساتین و الأثمار».

و لا نجد دلیلا علی هذه التمحّلات، لأنّ البحر معناه معروف، و الفساد فیه لعله قلّة المواهب البحریة، أو عدم الأمن فیه، أو الحروب البحریة.

و نقرأ

حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام فی هذا الصدد «حیاة دواب البحر بالمطر، فإذا کفّ المطر ظهر الفساد فی البحر و البرّ، و ذلک إذا کثرت الذنوب و المعاصی»[۳۷۶].

و بالطبع فإنّ ما ورد فی هذه الروایة هو مصداق واضح للفساد و ما ورد فی شأن نزول المطر «و حیاة دواب البحر به» فهو موضوع دقیق، تؤکّد علیه التجربة، فکلما قلّ ماء السماء «المطر» قل السمک فی البحر، حتی أنّنا سمعنا ممن یقطنون ساحل البحر یقولون: إن فائدة الغیث للبحر أکثر من فائدته للصحراء!.

و فی الآیة التالیة یأمر اللّه الناس بالسیر فی الأرض لیروا شواهد کثیرة «حیّة» من مسألة ظهور الفساد فی الأرض بسبب المعاصی و الذنوب من قبل الناس. و یوصی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله أن یأمرهم بذلک، فیقول: قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلُ

انظروا قصور «الظالمین» المتهدمة، و أبراجها المتداعیة و الخزائن المطموسة، و جماعاتهم المتفرقة، ثمّ انظروا إلی قبورهم المدروسة و عظامهم النخرة! و انظروا عاقبة أمر الظلم و الشرک و ما آلی إلیه.

أجل کانَ أَکْثَرُهُمْ مُشْرِکِینَ

و الشرک أساس الفساد و الانحراف و الضلال! ممّا یستلفت الانتباه، أنّه حین کان الکلام فی الآیات السابقة عن نعم اللّه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۸

کانت بدایته حول خلق الإنسان ثمّ رزقه من قبل اللّه اللَّهُ الَّذِی خَلَقَکُمْ ثُمَّ رَزَقَکُمْ إلّا أن الکلام فی الآیات محل البحث التی تتحدث عن العقاب یبدأ الکلام فیها أوّلا بالإشارة إلی زوال النعم علی أثر المعاصی و الذنوب، ثمّ الهلاک علی أثر الشرک، لأنّه عند الهبة و العطاء «أوّل الأمر یذکر الخلق ثمّ الرزق» .. و عند الاسترجاع، «فأوّل الأمر زوال النعمة ثمّ الهلاک».

و التعبیر ب کانَ أَکْثَرُهُمْ مُشْرِکِینَ مع الالتفات إلی أنّ هذه السورة مکّیة و کان المسلمون فی ذلک الوقت قلّة، فلعل ذلک إشارة إلی أن لا تخافوا من کثرة المشرکین، لأنّ اللّه أهلک من قبلهم من هو أشدّ منهم، و اکثر جمعا، و هو فی الوقت ذاته إنذار للطغاة لیسیروا فی الأرض فینظروا بأم أعینهم عاقبة الظالمین من قبلهم!.

و حیث أن التصور و الوعی و الانتباه، ثمّ العودة و الإنابة إلی اللّه، کل ذلک لا یکون- دائما- مفیدا و مؤثرا، ففی الآیة التالیة یوجه القرآن الخطاب للنبیّ الأکرم صلّی اللّه علیه و آله قائلا: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ الْقَیِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ یَوْمَئِذٍ یَصَّدَّعُونَ ۳۷۷] أی یتفرقون «فریق فی الجنّة و فریق فی السعیر».

و وصف الـدين بأنه «قيم» مع ملاحظـة أن «القيّم معناه الثابت و القائم» هو إشارة إلى أن هـذا التوجه المسـتمر «أو الإقامة» هى للدين .. أى لأنّ الإسـلام دين ثـابت و مستقيم و ذو نظام قائم فى الحياة الماديـة و المعنويـة للناس، فلا تمل عنه أبـدا، بل أقم وجهك للـدين القيم! و إنّما وجه الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله ليعرف الآخرون واجبهم و وظيفتهم أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۹

و التعبير ب «يصدعون» من مادة «صدع» معناه فى الأصل: كسـر الإناء، ثمّ انتقل بالتدريج إلى أى نوع من أنواع التفرق و التشتت. و هنا إشارة إلى انفصال صـفوف أهل الجنان عن صـفوف أهل النيران، و كل من هذه الصـفوف يتفرق إلى عدة صـفوف، و ذلك لسلسـلة المراتب فى الجنان، و دركات النيران «و العياذ باللّه».

و الآية التالية- بيان لهذا الانفصال فى يوم القيامة، إذ تقول: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ

كلمـة «يمهـدون» مشـتقّة من «المهـد» على زنـة «عهـد» و كما يقول الراغب فى مفرداته فإنّ معناه السـرير المعدّ للطفل، ثمّ توسـعوا فى المعنى فصـار المهـد و المهـاد لكـل مكان مهيأ و معـد «و فيه منتهى الدعـة و الراحـة» و قـد انتخب هـذا التعبير لأهل الجنّـة و المؤمنين الصالحين، من هذه الجهة.

و الخلاصـة: لا تحسـبوا أن إيمانكم و كفركم و أعمالكم الصالحـة و الطالحـة لها أثر على اللّه، بل أنتم الـذين تفرحون بها أو تساءون يَوْمَ تَرَوْنَها.

و مـن الطريـف أنّ القرآن اكتفى فى شـأن الكفـار بـالتعبير ب مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ و لكن بالنسـبة للمـؤمنين تضـيف الآيـة التاليـة: أن المؤمنين لا يرون أعمالهم فحسب، بل يوليهم اللّه من مواهبه و فضله فيقول: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ

و من المسلّم به أن هذا الفضل لا يشمل الكفار إذ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ ...

و لا شكّ أنّ اللّه يعاملهم وفق عدالته، و يجزيهم ما يستحقون، لا أكثر، لكن لا ينالهم منه فضل و موهبة أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۰

بحوث

۱- العلاقة بين الذنب و الفساد

ممّا لا شك فيه أن كل ذنب يترك أثره فى المجتمع، كما يترك أثره فى الأفراد عن طريق المجتمع أيضا ... و يسبب نوعا من الفساد فى التنظيم الاجتماعى، فالذنب و العمل القبيح، و تجاوز القانون، مثلها كمثل الغذاء السـيء و المسـموم، إذ يترك أثره غير المطلوب و السيء فى البدن شئنا أم أبينا، و يقع الإنسان فريسة للآثار الوضعية لذلك الغذاء المسموم.

«الكذب» يسلب الاعتماد.

و «خيانة الأمانة» تحطّم الروابط الاجتماعية.

و «الظلم» يسبب إيذاء الآخرين و ظلمهم.

و الإفراط فى الحرية يجرّ إلى الديكتاتورية، و الديكتاتورية تجر إلى الإنفجار.

و «ترك حقوق المحرومين» يورث العداوة و الحقد و البغضاء، و «تراكم الأحقاد و العداوات» يزلزل أساس المجتمع!.

و الخلاصة، أن كلّ عمل غير صـحيح له أثره السـيّء سواء كان ذلك فى دائرة محدودة أم واسـعة، و أحد تفاسير الآية ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ هو هذا (و هذا يبيّن العلاقة الطبيعية بين الذنب و الفساد- «هنا»).

إلّا أنّه يستفاد من الروايات الإسلامية أنّ كثيرا من الذنوب- إضافة لما ذكرنا- تجلب معها سلسلة من الآثار السيئة، و علاقتها و ارتباطها مع تلك الآثار- من الناحية الطبيعية على الأقل- غير معروفة.

فمثلاـ ورد فى الرّوايات الإسلامية أن قطع الرحم يقصر العمر، و أن أكل المال الحرام يورث ظلمة القلب، و أن كثرة الزنا يورث فناء الناس و يقلل الرزق [۳۷۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۱

حتى أنّنا لنقرأ

حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال»[۳۷۹]

و

قد ورد فى القرآن نظير هذا المعنى فى تعبير آخر، حيث يقول القرآن: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ۳۸۰].

إذن فالفساد- فى الآية محل البحث- هو الفساد الأعمّ «الذى يشمل المفاسد الاجتماعية، و البلايا، و سلب النعم و البركات».

و ممّا يستلفت الانتباه أن الآية المتقدمة يستفاد منها ضمنا أن واحدا من حكم الآفات و البلايا تأثيرها التربوى على الناس، إذ عليهم أن يروا رد الفعل الناتج من أعمالهم .. ليفيقوا من نومهم و غفلتهم، و يعودوا إلى الطهارة و التقوى! و لا نقول: إنّ جميع الشرور و الآفات هى من هذا القبيل، و لكننا نقول: إن قسما منها- على الأقل- فيه هذه الحكمة و الغاية و بالطبع فإنّ له حكمة أخرى بحثناها فى محلها.

۲- فلسفة السير فى الأرض

لقد وردت مسألة «السير فى الأرض» ست مرات فى القرآن المجيد، (فى سورة آل عمران و الأنعام و النحل و النمل و العنكبوت و الروم) حيث وردت مرّة بقصد التفكر فى أسرار الخلق (سورة العنكبوت الآية ۲۰) و خمس مرات بقصد العبرة من العواقب الوخيمة التى نالها الظالمون و الجبابرة و الطغاة الآثمون!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۲

و القرآن يهتمّ بالمسائل العينية و الحسية- التى يمكن لمس آثارها فى الأمور التربوية- اهتماما خاصا، و لا سيما أنّه يأمر المسلمين أن ينطلقوا من محيطهم المحدود إلى المدى الأرحب، و يسيروا و يسيحوا فى هذا العالم، و ليفكروا فى أعمال الآخرين و سجاياهم و عواقب أمورهم، و أن يستوحوا من هذه «الحياة» العابرة «و يدخروا ذخيرة قيمة» من العبرة و الاطلاع! إنّ القوى الشيطانية فى العصر الحاضر- من أجل سعة استثمارها فى العالم كافة- مشطت و فحصت جميع الدول و البلدان و الأمم و طريقة حياتهم و ثقافتهم و نقاط القوّة و الضعف فيهم بصورة جيدة.

إنّ القرآن يقول: بدلا من هؤلاء المستكبرين سيروا أنتم فى أرجاء الأرض و بدلا من خططهم و مؤامراتهم الشيطانية تعلموا دروسا رحمانية.

العبرة و الإعتبار من حياة الآخرين أهم من التجارب الشخصية و أكثر قيمة، لأنّ الإنسان ينبغى أن يتحمل خلال تجاربه أضرارا ليتعلم مسائل جديدة إلّا أن الإنسان عند استلهام العبرة من الآخرين يربح معارف جمة و ثمينة دون أن يتحمل ضررا.

و أمر القرآن بالسير فى الأرض ينطبق على أكمل الأساليب و الطرق التى حصل عليها البشر فى العصر الحاضر، و ذلك بأن يأخذوا بأيدى التلاميذ- بعد استيعاب المسائل فى الكتب- و يسيروا فى الأرض، و يطالعوا الشواهد العينية التى قرءوها فى الكتب! و بالطبع

فهنـاک الیوم نوع آخر من السـیر فی الأرض بعنوان «السـیاحة» فی العالم، و ذلک من قبل «الحضارة الشـیطانیة» لجلب الأموال و الثروة «الحرام» التی راجت سوقها، و غالبا ما تکون فیها أهداف منحرفة و تضـلیلیة، کنقل الثقافة السقیمة و إشاعة الهوی و السفاهة و الحماقة و اللهو هذه هی «السیاحة المخربة»!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۳

و لکن الإسـلام یؤید السیاحة التی تکون وسیلة لنقل الثقافات الصحیحة و التجارب المتراکمة، و استکناه أسرار الخلق فی عالم البشر و عالم الطبیعة، و استلهام دروس العبرة من عواقب المفسدین و الظالمین الوخیمة.

و لا بأس بالإشارة إلی أنّ هناک سیاحة منعها الإسلام و نقرأ

حدیثا یقول:

«لا سیاحة فی الإسلام»[۳۸۱].

و المراد من هذا الحدیث هو فی جمیع سـنوات حیاتهم- أو بعضـها- منفصلین عن الحیاة الاجتماعیة تماما، و دون أن یکون لهم نشاط ملحوظ، فهم یسیحون فی الأرض و یعیشون کالرهبان! فیکونون عالة علی الآخرین.

و بتعبیر آخر: إنّ عمل هؤلاء بمثابـة «الرهبانیـة السـیارة» مقابل الرهبان الثابتین المنزوین فی الـدیر و المنعزلین عن المجتمع، و حیث أن الإسلام یخالف هذا الاتجاه و الانزواء الاجتماعی، فهو یعد هذه «السیاحة» غیر مشروعة أیضا.

۳- الدین القیّم

کـان الخطـاب فی الآیـات المتقدمـة للنّبی صـلّی اللّه علیه و آله أن یجعـل تمام توجهه نحو الـدین المسـتقیم و الثابت، الـذی لیس فیه اعوجاج و لا انحراف و لا تزلزل فی قواعده أبدا.

و من الطریف أن تعبیرات أخری فی آیات القرآن المتعددة جاءت بصدد هذا الدین، ففی الآیة (۱۰۵) من سورة یونس جاء التعبیر عنه بالحنیف فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً.

و فی الآیة (۳) من سورة الزمر وصف بالخالص أَلا لِلَّهِ الدِّینُ الْخالِصُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۴

و فی الآیة (۵۲) من سورة النحل، وصف بأنّه واصب، أی لا یتغیر وَ لَهُ الدِّینُ واصِباً.

و فی الآیة (۷۸) من سورة الحـج وصف بأنه خال من الحرج و الشـدة وَ ما جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الـدِّینِ مِنْ حَرَجٍ و نظائر هذه الآیات کثیرة فی القرآن! و کل واحد من هذه الأمور یمثل بعدا من أبعاد الدین الإسلامی، و هو فی الوقت ذاته من باب اللازم و الملزوم.

أجل ینبغی أن ینتخب مثل هذا الدین، و أن یسعی فی معرفته، و أن یحفظ حتی آخر رمق!

۴- لا عودة فی یوم القیامة!

قرأنـا فی الآیـات المتقدمـة عن یوم القیامـة قوله تعـالی: یَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ و لا طریق للعودة إلی الـدنیا! و یلاحظ فی آیات القرآن الأخر ما یشبه هذا التعبیر، و من ذلک الآیة (۴۴) من سورة الشوری- حین یری الظالمون العذاب یقولون: هَلْ إِلی مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ

کما وصف یوم القیامة فی الآیة (۴۷) من سورة الشوری- أیضا- بقوله تعالی: یَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ

و الحقيقة أن عالم الوجود له مراحل لا عودة فيها إلى مرحلة سابقة، و هذه سنة اللّه التى لا تتبدل و لا تتحول! ترى، هل يرجع الطفل- سواء ولد كاملا أو ناقصا- جنينا مرّة أخرى إلى رحم أمه؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۵

و هل ترجع الثمرة المقطوفة من الشجرة- ناضجة كانت أم لا- إلى أغصانها؟! فانتقال الإنسان من هذا العالم إلى العالم الآخر على هذه الشاكلة، أى لا طريق للعودة أبدا ... و هذه حقيقة تخيف الإنسان و تهزّه و تنذره ليكون يقظا!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۶

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۴۶ الى ۵۰]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۴۶) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۸) وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۴۹) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۵۰)

التّفسير

انظر إلى آثار رحمة اللّه:

قلنا: إن فى هذه السورة قسما مهمّا «يستلفت النظر» من دلائل التوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۷

و آيات اللّه، مبينا فى سبع آيات تبدأ كل منها بقوله: وَ مِنْ آياتِهِ قرأنا ست آيات منها بصورة متتابعة، و الآية الأولى من الآيات أعلاه هى سابع الآيات التى مرت.

و آخرها.

و حيث كان الكلام فى الآيات السابقة عن الإيمان و العمل الصالح، فبيان دلائل التوحيد- أيضا- تأكيدا على ذلك! تقول هذه الآية: وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ فهى تمضى سابقة للغيث فى حركتها، فتجمع القطع المتفرقة من الغيوم و تربط بينها و تؤلفها و تحملها إلى الأرض اليابسة العطشى، و تغطى صفحة السماء، و مع تغير درجة حرارة الجو تهيء المطر للنزول من هذه الغيوم.

و لعلّ أهمية قدوم الرياح المبشرات- لأهل المدن المتنعمة- ليست جليّة واضحة .. إلّا أن أهل الصحارى اليابسة الظمأى إلى المطر، ما إن تتحرك الرياح مصحوبة بالسحاب التى هطلت فى نقطة أخرى- و النسيم يحمل رائحة الطلّ و الرطوبة منها، حتى يلمع و ميض الأمل فى قلوبهم.

و بالرغم من أنّ آيات القرآن تستند إلى البشارة فى نزول الغيث أكثر من غيرها، إلّا أنّه لا يمكن تحديد كلمة «مبشرات» فى هذا المضمون فحسب، لأنّ الرياح تصحب بشائر أخر أيضا.

فالرياح تبدل حرارة الجو و برودته الشديدة إلى «الاعتدال».

و الرياح تستهلك العفونة فی الفضاء الكبير و تصفی الهواء.

و الرياح تخفف من وطء حرارة الشمس علی الأوراق و النباتات، و تمنع من احتراقها بحرارة الشمس.

كما أنّ الرياح تنقل غاز الأوكسجين المتولد من النباتات و أوراق الشجر- إلی الإنسان، و تهب غاز ثانی أوكسيد الكاربون الخارج مع زفير الإنسان و تنفسه إلی النباتات أيضا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۸

و هی كذلك تؤدی وظيفة أخری، فقد أرسلها اللّه لواقح تنقل معها لقاح الأزهار الذكور للإناث.

و الرياح تحرك الطواحين الهوائية و تصفی البيادر.

و الرياح تنقل البذور من المناطق التی قد تجمعت فيها و تنثرها و تبسطها علی الصحراء، كأنّها فلاح مشفق، فتغدو خضراء ممرعة بعد أن كانت يبابا.

و الرياح تنقل السفن مع مسافريها و أثقالهم إلی نقاط مختلفة.

و حتی فی هذا العصر الذی حلت الوسائل الحديثة «الماكنات» مكان الرياح، فما تزال الرياح ذات أثر بالنسبة للسفن فی اتجاهاتها المخالفة لها أو الموافقة لها ... سرعة و بطأ! أجل، أنّ الرياح مبشرات من جهات شتی.

و لذلك فنحن نقرأ فی تعقيب الآية قوله تعالی: وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أجل، إنّ الرياح هی وسيلة لتكاثر النعم العديدة فی مجال الزراعة و التدجين، و هی وسيلة للحمل و النقل أيضا، و أخيرا فهی سبب للازدهار التجاری.

و قد أشير إلی الموضوع الأوّل بجملة وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ و إلی الثّانی بجملة وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ و للثالث بجملة وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ و الطريف هنا أن جميع هذه البركات منشؤها الحركة، الحركة فی ذرات الهواء فی الفضاء الجوی لكن لا يعرف قدر أية نعمة حتی تسلب عن الإنسان! فيعرفها حينذاك. فما لم تتوقف هذه الرياح و النسائم، فلا يعرف الإنسان ما ذا يحلّ به من بلاء؟! فتوقف الهواء يجعل الحياة فی أفضل الحقول كالحياة فی أشد المطامير و السجون ظلمة! و علی العكس فلو أن نسيما عليلا هب فی خلايا السجون

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۹

الانفرادية لجعلها كالفضاء الرحب «المفتوح»، و عادة فإنّ واحدا من أساليب التعذيب فی السجون هو سدّ منافذ الهواء!.

حتی أنّ الهواء لو توقف فی المحيطات و هدأت الأمواج، لأصبحت حياة الحيوانات البحرية مهددة بالخطر علی أثر قلّة الأوكسجين، و يتحول البحر حينذاك إلی مستنقع متعفن موحش! يقول «الفخر الرازی» إن جملة وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مع ملاحظة أن الإذاقة تستعمل فی الشیء القليل، فهی إشارة أن جميع الدنيا و نعمها لا تتجاور الرحمة القليلة، أمّا الرحمة الواسعة (من قبل اللّه) فهی خاصة بالحياة الأخری!.

و فی الآية التالية يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلی قومهم، فی حين أن الآية التی بعدها تتحدث عن هبوب الرياح مرّة أخری، و لعل وجود هذه الآية بين آيتين تتحدثان عن نعمة هبوب الرياح له جانب اعتراضی، كما يذهب إلی ذلك بعض المفسّرين.

و لعل ذكر النبوّة إلی جانب هذه المسائل، إنّما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ و المعاد، إذ ورد البحث عنهما مرارا فی هذه السورة كما قاله بعض المفسّرين.

و يمكن أن يكون وجود هذه الآية إنذارا لأولئك الذين يتمتعون بجميع هذه النعم الكثيرة و يكفرون بها.

و علی كل حال، فإنّ الآية تقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلی قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أی المعجزات و الدلائل الواضحة و البراهين العقلية، فاستجاب جماعة منهم لهذه الدلائل، و لم يستجب آخرون لها برغم النصائح فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا و نصرنا

المؤمنين وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

و التعبير ب «كان» التى تدل على أن هذه السنة لها جدر عميق، و التعبير ب «حقّا» و بعده التعبير ب «علينا» هو بنفسه مبين للحق و مشعر به، جميع هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۰

الألفاظ تأكيدات متتابعة فى هذا المجال و تقديم «حقا علينا» على «نصر المؤمنين» الذى يدل على الحصر، هو تأكيد آخر. و بالمجموع تعطى الآية هذا المعنى «إن نصر المؤمنين من المسلّم به هو فى عهدتنا و هذا الوعد سنجعله عمليا دون الحاجة إلى نصر من الآخرين».

و هذه الجملة- ضمنا- فيها تسلية و طمأنة لقلوب المسلمين، الذين كانوا حينئذ فى مكّة تحت ضغوط الأعداء و اضطهادهم و كان الأعداء أكثر عددا و عددا.

و أساسا فإنّ أعداء اللّه طالما كانوا غرقى فى الآثام و الذنوب، فإنّ ذلك بنفسه أحد عوامل انتصار المؤمنين، لأنّ الذنب سيدمرهم آخر الأمر و يهيء وسائل هلاكهم بأيديهم، و يرسل عليهم نقمة اللّه.

أمّا الآية الأخرى فتعود ثانية لذكر نعمة هبوب الرياح فتقول: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً[۳۸۲] أى القطع الصغيرة المتراكمة ثمّ تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيرة فَتَرَى الْوَدْقَ ۳۸۳] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ

أجل، إن واحدا من الآثار المهمة عند نزول الغيث، يقع على عاتق الرياح، إذ تحمل قطعات السحاب من البحر إلى الأرض العطشى و اليابسة، و الرياح هى المأمورة ببسط السحاب و الغيوم فى السماء جعلها متراكمة بعضها فوق بعض، و بعد أن تلطف الجو و تصيره رطبا تهيء الغيث للنزول.

إن مثل الرياح كمثل راعى الغنم المحنّك، الذى يجمع قطيع الغنم عند الاقتضاء من أطراف الصحراء، و يسير بها فى مسير معيّن ليقوم بالتالى على حلب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۱

لبنها!.

و جملة فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ لعلها إشارة إلى أن غلظة الغيوم و شدة هبوب الرياح، ليستا فى تلك الدرجة التى تمنع خروج قطرات الغيث الصغيرة من الغيم و نزولها على الأرض، بل إن هذه الذرات الصغيرة- على الرغم من الغيوم المغطاة بها صفحة السماء- تجد طريقها من خلال الغيوم إلى الأرض، و تتناثر ناعمة على الأراضى العطشى حتى ترويها بصورة جيدة و فى الوقت ذاته لا تدمر الثمر.

إن الرياح الشديدة و الأعاصير التى تقلع الشجرة من أصلها أحيانا- على عظمتها و تحرك الصخور، تأذن للقطرة الناعمة أن تمرّ من خلالها و تستقر على الأرض! و ينبغى الالتفات الى أن كون السحاب قطعات متراكمة «كسفا»- و إن لم يكن لنا جليا بهذه الصورة- فى اليوم الغائم، حيث تغطى هذه القطع صفحة السماء، فلا نحس بأنّها على شكل قطع، بل نراه سحابا مبسوطا .. لكن حين تقلّنا الطائرة و تحلق بنا فوق السحاب أو من خلاله، نلمس هذه الظاهرة بوضوح! و يضيف القرآن فى نهاية الآية قائلا: فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

ثمّ تأتى الآية الأخرى بعدها فتقول: وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۳۸۴].

و إنّما يدرك هذا اليأس أو تلك البشارة أمثال العرب الذين يعيشون فى رحلاتهم و تنقّلهم فى الصحراء، و لحياتهم علاقة و صلة قريبة مع هذه القطرات، فأولئك يتفق أحيانا أن يلقى اليأس ظلاله السوداء على أنفسهم الظمأى، كما أن أراضيهم و مزارعهم تبدو عليها آثار العطش، و فجأة تهب الرياح المبشرة بنزول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۲

المطر، الرياح التى يشمّ من خلالها رائحة «الغيث»! و تمرّ لحظات، فتتسع الغيوم فى السماء ثمّ تغلظ و تكون أكثر كثافة، ثمّ ينزل «القطر» و الغيث، و تمتلئ الحفر بالماء الزلازل، و تفيض الروافد و السواقى الصغيرة و الكبيرة من هذه المائدة السماوية، و تعود الحياة النضرة إلى الأرض اليابسة، كما تتبر عم الآمال فى قلوب الرحّل فى الصحراء و يشرق الأمل فى قلوبهم، و تنجلى عنها غيوم الظلمة و اليأس و القنوط! و يبدو أن تكرار كلمة «من قبل» فى الآية للتأكيد، إذ تبيّن الآية أن الوجوه كانت عابسة متجهمة من قبل المطر بلحظات، أجل ... لحظات قبل المطر، و هم قلقون و لكن حين ينزل عليهم الغيث ... تشرق فجأة الوجوه و تبتسم الشفاه، فكم هو موجود ضعيف هذا الإنسان! و كم هو رحيم هذا الربّ.

و مثل هذا التعبير وارد فى كلماتنا العرفية حيث نقول مثلا: إن فلانا كان بالأمس، نعم بالأمس صديقا لنا، و اليوم هو من أعدائنا ... و الهدف من هذا التكرار هو التأكيد على تغيير حالات الإنسان.

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- يتوجه الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله قائلا:

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها.

و الاهتمام أو الاعتماد على كلمة «انظر» هو إشارة إلى أن آثار رحمة اللّه فى إحياء الأرض بالمطر، هى من الوضوح بمكان بحيث تكفى نظرة واحدة لمشاهدة هذه الآثار، دون حاجة للبحث و التدقيق.

و التعبير ب رَحْمَةِ اللَّهِ فى شأن المطر هو إشارة الآثار المباركة فيه من جهات مختلفة!.

فالمطر يسقى الأرض و يرعى بذور النباتات ... و يهب الأشجار الحياة الجديدة! و هو ينقىّ الجو و المحيط من الغبار المتراكم أو المتناثر فى الفضاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۳

و هو يغسل النباتات و يمنحها النضرة و الطراوة!.

و هو يمضى إلى أعماق التربة و الأرض، و بعد فترة يعود على شكل عيون و قنوات إلى سطح الأرض.

و المطر يدفع الأنهار و السيول و بعد تجمعها خلف السدود يتولد منها «الكهرباء» أو الطاقة و النور و الحركة!.

و أخيرا فإنّ قطر السماء يحسّن الجوّ إذ يخفف من شدّة الحر، و يهدئ من شدّة البرودة.

و التعبير ب «الرحمة» عن المطر مذكور فى عدة آيات من القرآن كما فى الآية (۴۸) من سورة الفرقان، و الآية (۶۳) من سورة النمل، و نقرأ كذلك فى سورة الشورى الآية (۲۸) قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ

و مع الالتفات إلى العلاقة بين المبدأ و المعاد فى المسائل المختلفة فإن «القرآن» يضيف قائلا فى نهاية الآية: إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و التعبير ب «محيى» بصيغة اسم الفاعل مكان الفعل المضارع، و خاصّة مع كونه مسبوقا بلام التوكيد، دليل على منتهى التأكيد.

و لقد رأينا مرارا فى آيات القرآن الكريم، أن هذا الكتاب السماوى- من أجل إثبات مسألة المعاد- ينتخب نزول الغيث و إحياء الأرض بعد موتها شاهدا على ذلك!.

ففى سورة (ق) الآية (۱۱) يعقب القرآن بعد التعبير بحياة الأرض بعد موتها قائلا: كَذلِكَ الْخُرُوجُ و يشبه هذا التعبير فى الآية (۹) من سورة فاطر إذ يقول القرآن: كَذلِكَ النُّشُورُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۴

و الواقع أن قانون الحياة و الموت فى كل مكان متشابه .. فالذى يحى الأرض الميتة بقطرات السماء، و يهبها الحركة و البهجة، و يتكرر هذا العمل على طول السنة، و أحيانا فى كل يوم، فإن له هذه القدرة على إحياء الناس بعد الموت، فالموت بيده فى كل مكان، كما أن الحياة بأمره أيضا.

صحيح أن الأرض الميتة لا تحيى ظاهرا، بل تنمو البذور التى فى قلب الأرض، و لكننا نعلم أن هذه البذور الصغيرة تجذب مقدارا عظيما من أجزاء الأرض إلى نفسها، و تحوّل الموجودات الميتة إلى موجودات حية! و حتى بقايا هذه النباتات المتلاشية- أيضا- تمنح القدرة و القوة للأرض لكى تحيى من جديد.

و فى الحقيقة لم يكن لمنكرى المعاد أى دليل على مدعاهم سوى الاستبعاد، و القرآن المجيد إنّما يستشهد بهذه الأمثال لإحباط هذا الاستبعاد منهم أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۵

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشارة

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (۵۱) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۵۲) وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۵۳) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (۵۴)

التّفسير

الموتى و الصّمّ لا يسمعون كلامك:

حيث أنّ الكلام كان- فى الآيات السابقة- عن الرياح المباركة التى كانت مبشرات بالغيث و الرحمة، ففى أوّل آية من الآيات أعلاه إشارة إلى الرياح المدمّرة و التى تجلب الضرر، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ

أولئك هم الضعفاء الحمقى فهم قبل نزول الغيث مبلسون آيسون، و بعد نزوله مستبشرون، و إذا هبت ريح صفراء فى بعض الأيّام و ابتلوا مؤقتا تراهم يتصارخون و بالكفر يجأرون و يتجرءون!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۶

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمة اللّه مستبشرون و عليها يشكرون، و عند نزول المصائب و المشاكل تراهم صابرون، و لا يؤثر التغيير المعاشى و الحياتى المادى فى إيمانهم أبدا، و ليسوا كعمى القلوب ضعيفى الإيمان، الذين يظهرون إيمانهم بمجرّد هبوب الريح، و يكفرون مرّة أخرى إذا هبت الريح بشكل آخر! و كلمة «مصفرا» مشتقّة من «الصفرة» على زنة «سفرة» و هى لون معروف، و يعتقد أكثر المفسّرين أن الضمير فى «رأوه» يعود على الشجر و النباتات التى تصفر و ذبل على أثر هبوب الرياح المخربة.

و احتمل بعضهم أنّ الضمير يعود على السحاب، و السحاب المصفّر طبعا سحاب خفيف، و هو عادة لا يحمل قطرا، على العكس من الغيوم السود الكثيرة، فإنّها تولد الغيث و القطر.

كما يعتقد بعضهم أنّ الضمير فى «رأوه» يعود على الريح، لأنّ الرياح الطبيعية عادة لا لون فيها (فهى عديمة اللون) إلّا أن الرياح التى تهب و هى مصفرة، فهى ريح سموم و هجير، و فى كثير من الأحيان تحمل معها الغبار.

و هناك احتمال رابع، و هو أنّ «المصفّر» معناه الخالى، لأنّه كما يقول الراغب فى مفرداته، يطلق على الإناء الخالى، و البطن الخالية

من الطعام، و الأوردة من الدم أنّها (صفر) على وزن (سفر)، فعلى هذا يكون هذا التعبير آنف الذكر في شأن الرياح الخالية من القطر و الغيث.

و في هذه الصورة يعود الضمير في «رأوه» على الريح (فلاحظوا بدقة).

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أشهر من الجميع! و ما يستلفت النظر، هو أنّ الرياح النافعة ذات الغيث جاءت هنا بصيغة الجمع، و لكن على العكس منها الريح التي تجلب الضرر فقد جاءت بصيغة المفرد، و هي إشارة إلى أنّ معظم الرياح نافعة و مفيدة، غير أن ريح السموم هي من

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۷

الحالات الاستثنائية التي تهب أحيانا في السنة مرّة أو في الشهر مرّة .. لكن الرياح المفيدة تهب دائما (ليل نهار).

أو أنّها إشارة إلى أنّ الرياح النافعة إنّما تكون كذلك و يكون لها أثرها المفيد، إذا تتابعت، غير أن الريح السيئة تترك أثرها عند هبوبها في المرّة الأولى.

و آخر ما ينبغي الإشارة إليه من اللطائف الضرورية في ذيل هذه الآية، هو التفاوت ما بين يَسْتَبْشِرُونَ في شأن الرياح النافعة التي ذكرتها الآية المتقدمة، و جملة لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ الواردة في الآية محل البحث.

و هذا الاختلاف أو التفاوت يدل على أنّهم يرون هذه النعم العظيمة المتتابعة التي أنعمها اللّه عليهم فيفرحون و يستبشرون، غير أنّهم لو أصيبوا مرّة واحدة أو يوما واحدا بمصيبة، فإنّهم يضجون و يكفرون حتى كأنّهم غير تاركين للكفر، حل بهم!.

و هذا تماما يشابه حال أولئك الذين يعيشون عمرا بسلامة و لا- يشكرون اللّه، لكنّهم إذا مرضوا ليلة واحدة بالحمى «و اشتعلوا بحرارتها» فإنّهم يظهرون الكفر و هذه هي حال الجهلة من ضعفاء الإيمان.

و كان لنا في هذا الصدد في الآية (۳۵) من هذه السورة، و الآيتين (۹) و (۱۰) من سوره هود، و الآية (۱۱) من سورة الحج بحوث أخر أيضا.

و في الآيتين التاليتين- بمناسبة البحث الوارد في الآية السابقة- فإن الناس يقسمون إلى أربعة طوائف:

۱- طائفة «الموتى» الذين لا يدركون أية حقيقة، و إن كانوا أحياء في الظاهر! ۲- و طائفة «الصم» الذين هم غير مستعدين للاستماع إلى الكلام الحق.

۳- و طائفة «العمى» الذي حرموا من رؤية وجه الحق! ۴- و أخيرا طائفة المؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها، و لهم

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۸

أعين يبصرون بها، و لهم آذان يسمعون بها.

فتقول الآية الأولى: فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى و لذلك لا تؤثر مواعظك في أصحاب القلوب الميتة.

و كذلك وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

و تأتي الآية الثّانية لبيان بقية الطوائف فتقول: وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ

و كما قلنا من قبل، فإنّ القرآن لديه ما هو أفضل من «الحياة و الموت الماديين و الجسمانيين» و أفضل من السمع و البصر الظاهريين فلديه نوع اسمى من هذه الحياة و الموت و السمع و البصر، و تكمن فيها سعادة الإنسان أو شقاؤه! فالقرآن لديه معيار لتقييم هذه الأمور، لا بالقيمة المادية و الفيزيائية، بل القيمة المعنوية و الإنسانية.

و الشرط الأوّل لإدراك الحقيقة أن يكون للإنسان قلب مهيأ و مستعد، و عين باصرة و أذن سميعة، و إلّا فلو اجتمع جميع الأنبياء و الأولياء و تلوا جميع الآيات الإلهية على من لا يدرك الحقيقة لما اقترفه من الذنوب و اللجاجة و العناد، فإنها لن تؤثر فيه!.

و إنّما أشار القرآن إلى هاتين الحاستين الظاهرتين، بالإضافة إلى الإدراك الباطني فحسب، فلأجل أن أكثر معلومات الإنسان، إمّا أن

يكون عن طريق هاتين الحاستين العين و الأذن، أو عن طريق الوجدان و التحليل العقلى! و الطريف هنا أنّ المراحل الثلاث- الواردة فى الآيات الآنفة الذكر- هى ثلاث مراحل مختلفة من الانحراف و عدم درك الحقيقة، و هى تبدأ من شديدها و تنتهى بالخفيف منها! فالمرحلة الأولى: هى موت القلوب المعبر عنها ب «الموتى» و هذه المرحلة ليس للحقيقة أى طريق للنفوذ فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۹

و المرحلة الثّانية: مرحلة «الصمم» و عدم السمع، و لا سيما عند أولئك الذين يديرون ظهورهم و هم فى حالة الفرار، فقد يؤثر فيهم الصراخ الشديد لو كانوا قريبين، لكن فى مثل هذه الحال و هم يفرون، فلا! و بالطبع فإنّ هذه الطائفة ليست كالموتى، فمن الممكن أحيانا أن يتمّ تفهيمهم بالإشارة أو العلامة، إلّا أنّنا نعرف أن كثيرا من الحقائق لا يمكن بيانها و إيصالها إلى الذهن بالإشارة! و خاصة حين يدير الطرف الآخر ظهره و يكون بعيدا.

المرحلة الثّالثة: (العمى)، و بالطبع فإن الحياة مع العمى أسهل بمراتب من الحياة مع «الصم» أو الحياة مع «الموتى»، فعلى الأقل لديهم آذان سميعة، و يمكن إيصال كثير من المفاهيم إليهم ... لكن اين السمع فى إدراك الحقائق من البصر؟! ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ تبيين المسائل غير كاف وحده، فلنفرض أن يقال للأعمى سر باتجاه اليمين أو اليسار، فإنّ تطبيق هذا الأمر ليس سهلا، و ربّما بأقل خطأ- أحيانا- فى تحديد المقدار، يؤدى بالأعمى إلى السقوط! و فى بحثنا المفصل فى ذيل الآيتين (۸۰) و (۸۱) من سورة النمل، بيّنا- ضمن التحليل لحقيقة الحياة و الموت- الإشكال الواهى الذى أثاره جماعة من الوهابيين، إذ يستعينون بمثل هذه الآيات- محل البحث و غيرها- لإثبات عدم جواز التوسل بالنّبى و الأئمّة الطاهرين، و يقولون: إنّ الموتى (حتى النّبى) لا يفهمون شيئا.

غير أنّنا أثبتنا هناك أن الإنسان- خاصّة من هو بمستوى الأئمة الكرام و الشهداء العظام- له نوع من الحياة البرزخية بعد الموت، و هناك وثائق كثيرة و أدلة متعددة من القرآن و الأحاديث تشهد بذلك و تؤيده، و فى هذه الحياة البرزخية إدراك و بصر أوسع من الحياة الدنيوية (لمزيد الإيضاح يراجع التّفسير الأمثل، ذيل الآيات المشار إليها آنفا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۰

و هنا ينبغى أن نضيف هذه الجملة، و هى أن جميع المسلمين فى صلاتهم- دائما- يخاطبون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و يسلمون عليه بهذه الجملة «السّلام عليك أيّها النّبى و رحمة اللّه و بركاته» و نعرف أنّ المخاطبة الحقيقة لا المجازية يجب أن تكون- حتما- مع إنسان يسمع و يدرك! فعلى هذا الأساس لازم السلام على النّبى بهيئة المخاطبة من بعيد أو قريب، أن روحه المقدسة تسمع جميع هذه التحيات، و لا دليل يقودنا إلى أن نحمل هذه التحيات على المجاز!.

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- يشير القرآن إلى دليل آخر من أدلة التوحيد، و هو دليل الفقر و الغنى، و يكمل البحوث التى تدور حول التوحيد فى هذه السورة، فيقول: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً.

كنتم فى البداية ضعافا إلى درجة أنّكم لم تكن لكم القدرة على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحية الجسمية، أمّا من الناحية الفكرية فمصداقة قوله تعالى: لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشفقين عليكم.

لكن- قليلا- قليلا- صرتم ذوى رشد و قوّة، و صار لكم جسم قوى، و فكر جيد، و عقل مقتدر إدراك واسع! و مع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوّة، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثمّ يبدأ بالانحدار من القمة إلى قعر الوادى، الذى يمثل «مرحلة ضعف الجسم و الروح».

هذا التغير و الصعود و النّزول خير دليل لهذه الحقيقة، و هى أنّه لم تكن القوّة من عندكم و لا- الضعف، فكل منهما كان من جهة أخرى، و هذا بنفسه دليل على أن وراءكم من يدبّر أموركم و يسيّر حياتكم و ما عندكم فهو أمر عارض!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۱

و هذا هو ما

أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام فى كلامه النّير إذ قال: «عرفت اللّه بفسخ العزائم و حل العقود و نقض الهمم»[۳۸۵].

لقد عرفت من هذا الاختلاف و التغير أن القوة الأصلية ليست بأيدينا، فهى بيد اللّه، و ليس لدينا بنحو مستقل أى شىء سوى ما وهبنا إيّاه! و من الطريف أنّ القرآن يضيف- عند بيان الضعف الثّانى للإنسان- كلمة وَ شَيْبَةً غير أنّه لم يذكر «الطفولة» فى الضعف الأول ... و هذا التعبير ربّما كان إشارة إلى أن ضعف الشيخوخة و الشيب أشدّ ألما، لأنّه على العكس من ضعف الطفولة، إذ يتجه نحو الفناء و الموت ... هذا أوّلا.

و ثانيا فإن ما يتوقع من الشيبة و المسنين مع ما لهم تجارب ليس كما يتوقع من الأطفال، على حين أن ضعف كل منهما مشابه للآخر، و هذا الموضوع يدعوا إلى الإعتبار كثيرا.

فهذه المرحلة هى التى تدفع الأقوياء و الطغاة إلى الانحناء، و تجرهم إلى الضعف و الذلة! أمّا آخر جملة فى الآية فهى إشارة إلى علم اللّه الواسع و قدرته المطلقة:

يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ و هى بشارة و إنذار فى الوقت ذاته، أى إن اللّه مطلع على جميع نيّاتكم، و هو قدير على مجازاتكم و ثوابكم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۲

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۵۵ الى ۶۰]

اشارة

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۵۶) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵۷) وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (۵۸) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۵۹)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (۶۰)

التّفسير

يوم لا ينفع الاعتذار:

قلنا إن فى هذه السورة أبحاثا منسجمة و متناغمة تتعلق بالمبدأ و المعاد ..

و فى الآيات- محل البحث- يعقب القرآن على البحوث التى كانت حول المبدأ و المعاد أيضا، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامة الأليمة، و ذلك بتجسيمه حالة المجرمين فى ذلك اليوم، إذ يقول: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۳

الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ فى عالم البرزخ أجل كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ فإنّهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق و مصروفين عنها.

و التعبير ب «الساعة» عن يوم القيامة- كما أشرنا إليه سابقا- هو إمّا لأنّ يوم القيامة يقع فى لحظة مفاجئة، أو لأنّه من جهة أن أعمال

العباد تحاسب بسرعة هناك، لأنّ اللّه سريع الحساب، و نعرف أنّ «الساعة» فى لغة العرب تعنى جزءا أو لحظة من الزمن ۳۸۶].

و بالرغم من أنّ الآيـة المتقدمـة لم تشـر إلى مكان (اللبث) حتى احتمل بعضـهم أنّ المراد منه هو لبثهم فى الـدنيا، الذى هو فى الواقع بمثابة لحظة عابرة لا أكثر، إلّا أنّ الآية التى بعدها دليل واضح على أن المراد منه هو اللبث فى عالم البرزخ .. و عالم ما بعد الموت .. و ما قبل القيامـة، لأنّ جملـة لَقَـدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ تنهى هـذا اللبث إلى يوم القيامـة، و لا يصـح هذا إلّا فى شأن البرزخ (فلاحظوا بدقة).

و نعرف- هنـا أيضـا- أن «البرزخ» ليس للجميع على شاكلـة واحـدة، فقسم له فى البرزخ حيـاة واعيـة، و قسم مثلهم كمن يغط فى نوم عميق- فى عالم البرزخ- و يستيقظون فى يوم القيامة، و يتصورون آلاف السنين ساعة واحدة[۳۸۷].

مسألتان

الأوّل: كيف يقسم المجرمون مثل هذا القسم الكاذب؟

و الجواب واضح، فهم يتصورون- واقعا- مثل هذا التصور، و يظنون أن فترة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۴

البرزخ كانت قصيرة جدّا، لأنّهم كانوا فى حالة تشبه النوم، أ لا ترى أن أصحاب الكهف الذين كانوا صالحين مؤمنين، حين أفاقوا بعد نوم طويل، تصوروا أنّهم لبثوا يوما أو بعض يوم فى منامهم.

أو أن أحد الأنبياء الواردة قصته فى سورة البقرة (الآية ۲۵۹) بعد أن أماته اللّه مائة عامة ثمّ بعثه للحياة ثانية، لم يظهر فى تصوره غير أنّه لبث يوما أو بعض يوم.

فما يمنع أن يتصور المجرمون- مع ملاحظة حالتهم الخاصة فى عالم البرزخ و عدم اطلاعهم- مثل هذا التصور!؟

لـذا يقول المؤمنون الـذين أوتوا العلم- كما تـذكره الآيـة التى تأتى بعـد هـذه الآيـة-: إنّكم غير مصـيبين فى قولكم، إذ لبثتم فى عالم البرزخ إلى يوم القيامة، و هذا هو يوم القيامة!.

و من هنا تتّضح المسألة الثّانية. أى تفسـير جملة كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ لأنّ «الإفك» فى الأصل معناه تبدل الوجه الحقيقى و الانصراف عن الحق، و هذه الجماعة ابتعدت عن الواقع لحالتها الخاصة فى عالم البرزخ، فلم تستطع أن تحدد لبثها فى عالم البرزخ.

و مع ملاحظة أنّه لا حاجة لنا إلى الأبحاث الطويلة التى بحثها جمع من المفسّرين، و فى أنّه لم يكذب المجرمون عمدا فى يوم القيامة، لأنّه ليس فى الآية دليل على كذبهم العمد فى هذه المرحلة!.

و بالطبع فإنّنا نرى فى آيات القرآن الأخر أمثلـة من أكاذيب المجرمين يوم القيامـة، و قـد بيّنا الإجابة المفصلـة على كل ذلك فى ذيل الآية (۲۳) من سـورة الأنعـام، لكن ذلـك البحث لا ـ علاقـة له بموضوع هـذه الآيـات! أمّا الآيـة التاليـة فتتحـدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حالـة البرزخ و القيامة فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۵

تَعْلَمُونَ

و تقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

و التعبير فِي كِتـابِ اللَّهِ لعله إشارة إلى الكتاب التكوينى، أو إلى الكتاب السـماوى، أو إشارة إليهما معا، أى كان- بأمر اللّه التكوينى و التشريعى- مقدّرا أن تلبثوا مثل هذه المدّة فى البرزخ، ثمّ تحشرون فى يوم القيامة[۳۸۸].

و فى أن المقصـود ب الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمـانَ من هم؟! قـال بعض المفسّـِرين: هى إشـارة إلى ملائكـة اللّه الـذين لهم علم و هم

مؤمنون أيضا.

و قال بعضهم: المقصود هم المؤمنين العالمون، و المعنى الثّانى أظهر طبعا.

و ما ورد فى بعض الرّوايات من تفسير هذه الآية بالأئمّة الطاهرين، فهو من قبيل المصداق الواضح لها، و لا يحدد معناها الوسيع.

و هذه اللطيفة جديرة بالالتفات، و هى أن بعض المفسّرين قالوا: إنّ ما قاله المجرمون مقسمين بأنّهم ما لبثوا غير ساعة، و ما ردّه عليهم الـذين أوتوا العلم و الإيمان بـأنّهم لبثوا إلى يوم البعث، هـذه المحاورة و الكلام منشؤهما أنّ الطائفة الأولى- لأنّهم كانوا يتوقعون العذاب- كانوا يرغبون فى تأخيره، و كانت الفاصلة و إن طالت بالنسبة لهم قصيرة جدّا عندهم.

أمّا الطائفة الثّانية فلأنّهم كانوا ينتظرون الجنّة و نعمها الخالدة و راغبين فى تقديمها، فكانوا يرون الفاصلة طويلة جدّا[۳۸۹].

و على كل حال، فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۶

نـدمهم و يتوبون و يعتـذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول فى هـذا الصـدد: فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۳۹۰] و تجـدر الإشارة إلى هـذه المسألـة، و هى أن فى بعض آيات القرآن تصـريحا بعـدم الإذن للمجرمين أن يعتذروا وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۳۹۱] غير أنّ الآية محل البحث تقول: لا ينفعهم الاعتذار هناك، و ظاهرها أنّهم يعتذرون، إلّا أنّه لا أثر لاعتذارهم.

و بـالطبع فـإنّه لا تضاد بين هـذه الآيات، لأنّ يوم القيامـة فيه مراحل مختلفـة، و فى بعض المراحل لا يؤذن للمجرمين بالاعتـذار أبـدا و يختم على أفواههم ...

و إنّما تتحـدث الجوارح بما أساءت فحسب ... و فى بعض المراحل تنطلق ألسـنتهم بالاعتذار، إلّا أنّه ... لا ينفعهم الاعتذار أبدا ...؟! و واحـد من أعـذارهم أنّهم يلقون تبعـات ذنوبهم على أشـياخهم فى الكفر و النفـاق، فيقولون لهـم: لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۳۹۲]، إلّا أن أولئـك يردون عليهم بـالقول: أ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ ۳۹۳] و أحيانـا يلقون اللوم على الشـيطان فى تضـليلهم و انحرافهم و أنّه وسوس لهم، إلّا أن الشـيطان يجيبهم فَلا تَلُومُونِى وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۳۹۴]، أى لم أكرهكم على الكفر، إلّا أنّكم استجبتم لى برغبتكم.

و فى الآيـة التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها فى هذه السورة ... إذ تقول: وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِى هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لقد ذكرنا فيه الوعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۷

و الوعيـد، الأمر و النهى، البشارة و الإنذار، الآيات الآفاقية و الأنفسـية، دلائل المبدأ و المعاد و الأخبار الغيبية و الخلاصة ذكرنا فيه كل شىء يمكن أن يؤثر فى نفوس الناس.

و فى الحقيقة، إنّ فى القرآن- بشكل عام- و سورة الروم- بشكل خاص- حيث نحن الآن فى مراحلها النهائية، مجموعة من المسائل و الدروس الموقظة لكل فئة، و لكل طبقة، و لكل جماعة، و لكل فكر و أسلوب ... مجموعة من العبر، و المسائل الأخلاقية، و الخطط و المناهـج العملية، و الأمور الاعتقادية، بحيث اسـتفيد من جميع الطرق و الأساليب المختلفة للنفوذ فى أفكار الناس و دعوتهم إلى طريق السعادة! و مع هـذه الحال، فهناك طائفة لا يؤثر فى قلوبهم المظلمة السوداء أى من هذه الأمور، لذلك يقول القرآن فى شأنهم: وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ

و التعبير ب «مبطلون» تعبير جامع يحمل كل معانى الـدجل و الافتراء و النسب الكاذبـة و الفاسـدة من قبل المشـركين، كنسبة الكـذب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و السـحر و الجنون و الأساطير الخرافيـة، إذ أن كل واحد من هذه الأمور يمثل وجها من وجوه الباطل، و قد جمعت كل هذه الأمور تحت كلمة «مبطلون».

أجل، إنّهم كانوا يتهمون الأنبياء دائما بواحد من هذه الأمور الباطلة، ليشغلوا عنهم الناس الطيبين الطاهرين و لو لعدّة أيّام- بما ينسبونه

للأنبياء ممّا أشرنا إليه.

و المخاطب فى كلمة «أنتم» يمكن أن يكون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الحقيقيين، و يمكن أن يكون جميع أصحاب الحق من الأنبياء و الائمّة المعصومين عليهم السّلام و أتباعهم، لأنّ هذه المجموعة من الكفار تخالف جميع اتباع الحق.

و الآية التى بعدها تبيّن السبب فى مخالفة هذه الطائفة، فتقول: إن لجاجة هؤلاء التى لا حدّ لها و عداءهم للحق، إنّما هو لفقدانهم الإحساس و الإدراك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۸

بسبب كثرة ذنوبهم، و لأنّهم لا يعلمون شيئا ... إذ تقول: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ

و كلمة «يطبع» مأخوذة من الطبع، و معناها ختم الشىء، و هى إشارة إلى ما كان يجرى فى السابق، و هو جار أيضا اليوم إذ يختم على الشىء كيلا يتصرف به و يغلق بإحكام، و قد يضعون عليه القفل و يضربون عليه مادة لزجة مختومة بإشارة معينة كما بيّنا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشىء إلّا بكسره، فيفتضح أمره بسرعة.

و كان القرآن استعمل هذا التعبير كناية عن القلوب التى لا ينفذ إليها النصح، و الذين فقدوا الوجدان و العقل و العلم، و لا أمل فى هدايتهم.

و ممّا يسترعى الانتباه أنّ فى الآيات السابقة ذكر العلم أساسا للإيمان، و فى هذه الآية ذكر الجهل أساسا للكفر و عدم التسليم للحق.

أمّا آخر آية- من الآيات محل البحث- التى تقع فى آخر سورة الروم، فهى تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أمرين مهمين، و تبشره بشارة كبرى، لتحثه على مواصلة الوقوف و التصدى للمشركين و الجاهلين و السفهاء بالاستقامة و الصبر.

تقول أوّلا: إذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر و الاستقامة امام الحوادث المختلفة، و فى مقابل انواع الأذى و البهتان و المصاعب فَاصْبِرْ.

لأنّ الصبر و الاستقامة هما مفتاح النصر الأصيل.

و ليكون النّبى صلّى اللّه عليه و آله أكثر اطمئنانا، فإنّ الآية تضيف إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فقد وعدك و المؤمنين بالنصر، و الاستخلاف فى الأرض، و غلبة الإسلام على الكفر، و النور على الظلمة، و العلم على الجهل. و سوف يلبس هذا الوعد ثوب العمل!.

و كلمة «الوعد» هنا إشارة إلى الوعود المكررة التى وعدها القرآن فى انتصار المؤمنين، و من ضمنها الآية (۴۷) من هذه السورة وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

و الآية (۵۱) من سورة غافر إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۹

وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ!.

و تقول الآية (۵۶) من سورة المائدة أيضا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ

و تأمر ثانيا بضبط الأعصاب و الهدوء و عدم الانحراف فى المواجهة الشديدة و المتتابعة، حيث تقول الآية: وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ

إنّ مسئوليتك أن تتحمل كل شىء، و أن يتسع صدرك و خلقك لجميع الناس فهذا هو الجدير بقائد و زعيم لأمثال هؤلاء.

كلمة لا يَسْتَخِفَّنَّكَ مشتقّة من «الخفة» و هى خلاف الثقل، أى كن رزينا قائما على قدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد و يحركوك من مكانك، و كن ثابتا و مواصلا للمسيرة باطمئنان، إذ أنّهم فاقدو اليقين، و أنت مركز اليقين و الإيمان!.

هذه السورة بدأت بوعد انتصار المؤمنين على الأعداء، و انتهت أيضا بهذا الوعد، إلّا أن شرطها الأساس هو الصبر و الاستقامة!.

ربّنا، هب لنا صبرا و استقامة حتى لا يهزنا طوفان الحوادث و المشاكل من مكاننا أبدا.

إلهنا، نلتجئ إلى ذاتک المقدسة، ألّا نکون من زمرة الذین لا تؤثر فی قلوبهم الموعظة و النصح و الإرشاد و العبر و النذر!.

إلهنا، إن أعداءنا متحدون، و هم مسلّحون بأنواع الأسلحة الشیطانیة، فانصرنا- ربّنا- على أعدائنا فی الخارج، و شیطاننا فی الداخل.

آمین یا رب العالمین انتهاء سورة الروم و نهایة المجلد الثانی عشر

---

[۱] (۱)- مجمع البیان ذیل الآیات و تفسیر الثقلین، ج ۴، ص ۷۴.

[۲] (۲)-« ثواب الأعمال» نقلا، نور الثقلین، ج ۴، ص ۷۴.

[۳] (۱)-« المبین» مشتق من(الإبانة) و کما یقول بعض المفسّرین« کالآلوسی فی روح المعانی»: إنّ هذه المادة قد یأتی فعلها لازما، و قد یأتی متعدیا ففی الصورة الأولى یکون مفهوم المبین هو الواضح و البیّن، و فی الصورة الثّانیة یکون مفهومه الموضح!

[۴] (۱)-« تلقى» فعل مضارع مبنی للمفعول، و هو من باب التفعیل، و الفعل الثلاثی المجرّد من هذه المادة(لقی) و هو یتعدى إلى مفعول واحد. أمّا المزید فیتعدى إلى مفعولین. و فی الآیة محل البحث(اللّه) هو الفاعل و ملقی القرآن، و النّبی(مفعول به أول)، و القرآن مفعول ثان، و حیث أنّ الفعل بنی للمجهول یقوم المفعول الأوّل مقام الفاعل فرفع، و أمّا المفعول الثّانی فعلى حالة.

[۵] (۱)- المفهوم اللغوی للاستعمار مفهوم جمیل، یعنی الإعمار کما جاء فی القرآن i وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِیها\E إلّا أن المفهوم السیاسی للاستعمار هو التسلط من قبل الأجنبی و استثماره لخیرات الشعوب(المصحح).

[۶] (۱)-« آنست» فعل ماض مأخوذ من(الإیناس) و هو الرؤیة المقرونة بالراحة النفسیة و السکینة و إنما یطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

[۷] (۲)-« الشهاب» هو النور الذی ینبثق من النار کالعمود، و کل نور له عمود یدعى شهابا، و فی الأصل یطلق الشهاب على واحد النیازک التی تهوی من السماء بسرعة مذهلة فتحترق بسبب اصطدامها بالغلاف الجوی فیکون لها عمود من نار،« و القبس» شعلة من النار تنفصل عنها.« و تصطلون» من الاصطلاء و هو الدفء(بالنار) ..

[۸] (۱)- یعتقد بعض المفسّرین أنّ« الجان» مأخوذ من الجن، و هو الموجود غیر المرئی، لأنّ الحیّات الصغیرة تتحرک بین العشب فی الأرض و تخفی نفسها.

[۹] (۱)- القصص، ۱۶.

[۱۰] (۱)- الجار و المجرور« فی تسع آیات» إمّا متعلقان بجملة(اذهب) أو بأحد أفعال العموم المقدرة .. و قد تکون(فی) بمعنى(مع) و(إلى فرعون) متعلق بالجملة ذاتها، أو بجملة أنت مرسل بها المفهومة من السیاق تقدیرا.

[۱۱] (۱)- الکافی، ج ۲، باب وجوه الکفر ص ۲۸۷.

[۱۲] (۱)- راجع کتاب الإحتجاج للطبرسی طبقا لما جاء فی تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۷۵.

[۱۳] (۱)- یقول ابن منظور فی لسان العرب:« النطق» هو التکلم، ثمّ یضیف« و کلام کل شیء منطقه. و منه قوله تعالى\:i عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّیْرِ\E ثمّ ینقل عن بعض علماء العرب- و هو ابن سیده- أنّه« خلافا لما قال بعضهم: إن النطق خاص بالإنسان. فقد یستعمل النطق فی غیر الإنسان». و ینبغی الالتفات إلى أن الفلاسفة و علماء المنطق أطلقوا النطق على القدرة على التفکیر الذی یعطی الإنسان التمکن من الکلام ...

[۱۴] (۲)- الجاثیة، الآیة ۲۹.

[۱۵] (۱)- كان لنا بحث آخر ذيل الآية(۳۸) من سورة الأنعام.

[۱۶] (۱)- لمزيد الاطلاع يراجع تفسير القرطبى ذيل الآيات محل البحث و تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۷۷، فما بعد ..

[۱۷] (۲)- المصدر السابق، ص ۸۱.

[۱۸] (۱)- صحيح البخارى- الجزء الثامن، ص ۱۸۵.

[۱۹] (۲)- تفسير القرطبى، ج ۷، ذيل الآيات محل البحث، ص ۴۸۸۰.

[۲۰] (۱)- سيرة الحلبى، ج ۳، ص ۴۸۸.

[۲۱] (۲)- شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۲۸۴.

[۲۲] (۳)- صحيح الترمذى، باب العلم، الحديث ۱۹، و سنن ابن ماجة مقدمة الحديث ۱۷.

(،)- أصول الكافى، ج ۱، باب صفة العلم، الحديث ۲.

[۲۳] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۹، ص ۲۱۰.

[۲۴] (۱)- قال بعض المفسّرين: إن(التاء) فى النملة للوحدة، و تأنيث الفعل مراعاة لظاهر الكلمة! ..

[۲۵] (۱)-« أوزعنى» من مادة(إيزاع) و معناه« الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق و التعلق، إلّا أن أغلب المفسّرين اختاروا المعنى الأوّل.

[۲۶] (۱)- تحدثنا فى تفسير الآية(۳۸) من سورة الأنعام عن هذا الشأن أيضا ..

[۲۷] (۱)- كلمة« ألّا» مركبة من(أن و لا) كما يذهب إلى ذلك كثير من المفسّرين، و هى متعلقة بجملة(فصدهم) أو« زين لهم الشيطان» و قدروا لها اللام فتكون الجملة هذا النحو من التقدير« صدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا للّه» إلّا أن الظاهر أن(ألّا) حرف تحضيض و معناه(هلّا) و كما قلنا فى المتن فإنّ هذه الجملة من كلام الهدهد تعقيبا على ما سبق، و إن كان هناك من يقول بأنها استئنافية و إنها من كلام اللّه.

[۲۸] (۱)- لا بأس بمراجعة دائرة المعارف لمحمّد فريد و جدى، ج ۱۰، ص ۴۷۰ مادة« الهدهد» بالرغم من أن الرّواية المذكورة هناك لم تخل من المبالغات! ...

[۲۹] (۱)- قال بعض المفسّرين: إن جملة« ثمّ تول عنهم» مؤخرة معنى، و إن تقدمت فى العبارة، و أصلها هكذا: فانظر ماذا يرجعون ثمّ تولّ عنهم ... و إنّما قدروا ذلك لأنّ تولّ عنهم معناه العودة و الرجوع، مع أن ظاهر الآية أنّه ألق الكتاب و اعرض عنهم و انظر فى مكان مشرف لترى رد فعلهم! ...

[۳۰] (۱)- ورد فى الحديث أن كون الكتاب كريما هو بخاتمه« تفسير مجمع البيان و الميزان و القرطبى». و جاء فى حديث آخر أن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أراد أن يكتب رسالة للعجم، فقيل له: إنّهم لا يقبلونها إلّا بالخاتم، فأمر النّبى أن يصنع له خاتم و نقشه« لا اله إلّا اللّه محمّد رسول اللّه» و ختم الرسالة أو الكتاب بذلك الخاتم« القرطبى ذيل الآيات محل البحث».

[۳۱] (۲)- جملة« ألّا تعلوا على» يمكن أن تكون بمجموعها بدلا من(كتاب) و بيان لمحتواه. كما يمكن أن تكون(أن) تفسيرية فهى هنا بمعنى(أى)- كما يحتمل أن(أن) تكون متعلقة بمحذوف و تقديره: أوصيكم ألا تعلوا إلخ.

[۳۲] (۱)- الخصال- للصدوق، طبقا لما جاء فى البحار، ج ۷۶، ص ۴۹.

[۳۳] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار- الجملة ۳۰۱.

[۳۴] (۲)- البحار، ج ۷۶، ص ۵۰.

[۳۵] (۳)- وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۴۲۷« كتاب الحج أبواب العشرة باب ۳۲».

[۳۶] (۴)- النساء، الآية ۸۶.

[۳۷] (۱)- تفسير الرازى، ذيل الآية مورد البحث.

[۳۸] (۱)- آل عمران، الآية ۱۵۹.

[۳۹] (۲)- الشورى، الآية ۳۸.

[۴۰] (۳)- لمزيد الإيضاح فى موضوع الشورى يراجع تفسير الآية(۱۵۹) من سورة آل عمران.

[۴۱] (۱)- تفسير روح البيان ذيل الآية محل البحث.

[۴۲] (۱)- الأنفال، الآية ۶۰.

[۴۳] (۱)- كلمة« آتيك» ربّما كانت اسم فاعل مضاف إلى(الكاف) و يمكن أن تكون فعل؛ مضارعا من(أتى) إلّا أن الاحتمال الأوّل يبدو أقرب للنظر!

[۴۴] (۱)- و ما قاله بعضهم بأنه سليمان أو جبرئيل فلا دليل عليه ... و كونه سليمان نفسه(فهو) مخالف لظاهر الآيات قطعا!

[۴۵] (۱)- كان لنا فى ذيل الآية(۱۸۰) من سورة الأعراف بحث فى شأن الاسم الأعظم، فلا بأس بمراجعته.

[۴۶] (۲)- ما يقوله بعضهم: إن المراد من(يرتد إليك طرفك) هو إلقاء النظرة على شيء ما و عودة النظرة للإنسان لا دليل عليه، كما أن هذا التعبير لا يكون شاهدا على النظرية القائلة بخروج الشعاع من العين الواردة فى الفلسفة- القديمة.

[۴۷] (۱)- هذا الجواب نفسه أجاب به الإمام الهادى يحيى بن أكثم كما جاء فى رواية عن تفسير العياشى ذيل الآية محل البحث.

[۴۸] (۱)- نقل هذا الحديث جماعة من المفسّرين و علماء السنة بالعبارة ذاتها أو ما يقرب منها، و لمزيد الإيضاح يراجع الجزء الثّالث من إحقاق الحق، ص ۲۸۰ و ۲۸۱.

[۴۹] (۲)- راجع اصول الكافى و تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۹۰.

[۵۰] (۱)- كان لنا بحث مفصّل فى أهميّة الشكر، و تأثيره على زيادة النعمة، و أقسام الشكر« التكوينى و التشريعى» فى ذيل الآية السابقة من سورة إبراهيم.

[۵۱] (۱)- للمفسّرين أقوال مختلفة فى فاعل(صدّ) و أنّ(ما) هل هى موصولة أو مصدرية، فقال جماعة من المفسّرين. إن الفاعل هو سليمان كما بيّناه فى المتن، و بعضهم قال: بل هو اللّه، و النتيجة تكاد تكون واحدة و طبقا لهذين التّفسيرين تكون« ها» مفعولا أوّلا و(ما كانت) مكان المفعول الثّانى، و إن كان أصلها جارا و مجرورا، أى و صدها سليمان أو اللّه عما كانت تعبد من دون اللّه. إلّا أن جماعة ذهبوا إلى أن فاعل صدّ، هو(ما كانت)، لكن حيث أن الكلام عن إيمانها لا كفرها فالتّفسير الأوّل أنسب .. و أمّا كلمة(ما) فقد تكون موصولة .. أو مصدرية.

[۵۲] (۲)-« صرح» معناه الفضاء الواسع، و قد يأتى بمعنى البناء العالى و القصر و فى الآية المشار إليها آنفا معناه ساحة القصر أى فضاءه الواسع ظاهرا.

[۵۳] (۳)-« اللّجة» فى الأصل مأخوذة من اللجاج، و معناه الشدّة، ثمّ أطلق على ذهاب الصوت و إيابه فى الحنجرة تعبير(لجة) على وزن(ضجة)، أمّا الأمواج المتلاطمة فى البحر فتسمى(لجة) على وزن(جبة) و هى هنا فى الآية بهذا المعنى الأخير.

[۵۴] (۱)-« الممرد» معناه الصافى ... و(القوارير) جمع قارورة و هى الزجاجة.

[۵۵] (۱)- الآلوسى فى روح المعانى.

[۵۶] (۱)- جملة(أن اعبدوا اللّه) مجرورة بحرف جر مقدر و أصلها: و لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا بعبادة اللّه.

[۵۷] (۱)- كلمة(فريقان) تثنية، و فعلها مسند إلى ضمير الجميع، و ذلك لأنّ كل فريق يتألف من جماعة ... فأخذ الجمع بنظر الإعتبار ..

[۵۸] (۱)- الأنفال، الآية ۳۲.

[۵۹] (۱)- الأعراف، ۱۳۱.

[۶۰] (۱)- یشیر الکمیت الأسدی إلی بعض هذه الخرافات فی قصیدته البائیة فیقول:

و لا أنا ممن یزجر الطیر همّهأ صاح غراب أم تعرض ثعلب

و لا السانحات البارحات عشیةأمرّ سلیم القرن أم مرّ أعضب (المصحح).

[۶۱] (۱)- المفازاة تأتی بمعنی الفوز، و تأتی بمعنی الهلاک ... فهی من الأضداد فی اللغة- و هنا معناها الصحراء المهلکة(المصحح).

[۶۲] (۱)-« الرهط» من الناس ما لا یقل عن الثلاثة و لا یزید عن العشرة، و هو اسم جنس لا مفرد له من نوعه و یجمع علی أراهط و أرهاط- و لا یکون فی الرهط امرأة(المصحح).

[۶۳] (۱)- الأعراف، الآیة ۷۸.

[۶۴] (۲)- الذاریات، ۴۴.

[۶۵] (۳)- هود، ۶۷.

[۶۶] (۱)- راجع الطبرسی فی مجمع البیان، و الآلوسی فی روح المعانی، و القرطبی فی تفسیره المعروف، ذیل الآیات محل البحث.

[۶۷] (۲)- مجمع البیان ذیل الآیة محل البحث ..

[۶۸] (۱)- تفسیر روح البیان ذیل الآیة محل البحث ..

[۶۹] (۱)- یحتمل أن« و لوطا» منصوب بالفعل(أرسلنا) الذی سبق ذکره فی الآیات المتقدمة، و یحتمل أن یکون منصوبا بفعل محذوف تقدیره(اذکر) و حیث جاء بعد الکلمة(إذ قال) فالاحتمال الثّانی أنسب ...

[۷۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۳۸۲.

[۷۱] (۱)-« الغابرین» جمع الغابر و معناه هنا الباقی من الذاهبین من المکان.

[۷۲] (۱)(آللّه) أصلها(أ اللّه) فانقلبت إحدی الهمزتین ألفا ثمّ صارت مدة کما هی علیه الآن .. و جملة(أمّا یشرکون) أصلها(أم ما یشرکون) إذ أدغمت(أم) المعادلة الاستفهامیة بما الموصولة فصارت(أمّا).

[۷۳] (۱)- کلمة(ذات) فی« ذات بهجة» جاءت مفردة، مع أن حدائق جمع و هی موصوفها، و ذلک لأنّ الحدائق جمع تکسیر، و جمع التکسیر قد یأتی أحیانا بمعنی الجماعة، و هی- أی لفظة الجماعة- مفرد و صفتها مفردة أیضا ..

[۷۴] (۲)- هذه الآیة فی الحقیقة فیها حذف و تقدیره: ما یشرکون خیر أم من خلق السماوات و الأرض؟ و فی الحقیقة إن السؤال فی الآیة السابقة کان هکذا: اللّه خیر أم الشرکاء؟ و هنا یبدأ السؤال بالعکس: ما یشرکون خیر أم من خلق السماوات و الأرض.

[۷۵] (۱)- قد یکون(یعدلون) من مادة(العدول) أی الانحراف و الرجوع من الحق إلی الباطل، أو أنّه مادة(عدل) علی وزن(قشر) و معناه المعادل و النظیر .. ففی الصورة الأولی مفهوم الآیة أنّهم ینحرفون عن اللّه الواحد إلی غیره، و فی الصورة الثّانیة مفهومها أنّهم یجعلون له عدیلا.

[۷۶] (۲)-« الخلال» فی الأصل معناه الشق بین الشیئین. و« الرواسی» جمع« راسیة»، و هی الثابتة.

[۷۷] (۱)- العنکبوت، الآیة ۶۵.

[۷۸] (۲)(ما) فی قوله تعالی\:i قَلِیلًا ما تَذَکَّرُونَ E زائدة ظاهرا، و نعرف أن الحروف الزائدة فی کثیر من المواطن للتأکید، و(قلیلا) صفة لمصدر محذوف و تقدیره: تتذکرون تذکرا قلیلا.

[۷۹] (۱)- فبناء علی هذا المعنی یکون(خلفاء الأرض) بمعنی: خلفاء فی الأرض.

[۸۰] (۲)-« بشر» علی وزن« عشر»- کما ذکرنا آنفا- مخفف بشر علی وزن« کتب»، و هی جمع« بشور» علی وزن« قبول» و معناه

المبشر.

[۸۱] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۹۴.

[۸۲] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۹۴.

[۸۳] (۱)- كان لنا بحوث مفصلة فى علم الغيب فى الأجزاء السابقة فى هذا التّفسير.

[۸۴] (۱)-« تكنّ» مأخوذ من كنّ على وزن جنّ، و هذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء و تحفظ، و هنا كناية عن ما يخطر فى قلوب الكفّار من خواطر و أفكار عدوانية! ..

[۸۵] (۲)-« الغائبة» اسم فاعل مشتق يدل على الوصف، و كما يعتقد بعضهم« التاء» ليست فى هذه الكلمة للتأنيث، بل هى إشارة للأشياء المخفية، فهى للمبالغة فى الخفاء ... إلا أنّه لا مانع من أن نحتمل أن التاء للتأنيث، و أن موصوفها محذوف، و تقديره: و ما من خصلة غائبة. أو أشياء غائبة، و اللّه العالم ..

[۸۶] (۱)- سورة مريم، الآية ۳۰.

[۸۷] (۲)- آل عمران، الآية ۵۹.

[۸۸] (۱)- قال جماعة من المفسّرين: إن هذه الجملة و الجمل الأخر التى تليها بمثابة الدليل على لزوم توكل النّبى على اللّه و عدم يأسه ... مع أن الظاهر أنّها جواب على سؤال يثار فى شأن القرآن و كونه هو« الحق المبين».

[۸۹] (۱)- كان لنا بحث مفصل« فى الموت و الحياة الروحيين» فى ذيل الآية(۲۴) من سورة الأنفال.

[۹۰] (۲)- الرسالة الثّانية من الهديّة السنية لمحمّد بن عبد الوهاب، ص ۴۱.

[۹۱] (۳)- لمزيد من الإيضاح يراجع كتاب كشف الارتياب ص ۱۰۹ للسيد محسن الأمين العاملى.

[۹۲] (۱)- صحيح البخارى، ج ۵، ص ۹۷، باب قتل أبى جهل.

[۹۳] (۲)- شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱، ص ۲۴۸.

[۹۴] (۳)- نهج البلاغة- الكلمات القصار رقم ۱۳۰.

[۹۵] (۱)- جملة(أمّا ذا كنتم تعملون) جملة استفهاميّة و(أما) مركبة من(أم) التى هى حرف عطف و تأتى بعد همزة الاستفهام عادة، و تسمّى بالمعادلة، و(ما) الاستفهامية. و معنى الآية: أو أىّ شىء كنتم تعملون.

[۹۶] (۱)- مجمع البيان ذيل الآية محل البحث.

[۹۷] (۲)- مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث ..

[۹۸] (۳)- المصدر السابق.

[۹۹] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵۳، ص ۵۲، خ ۳.

[۱۰۰] (۲)- تفسير الرازى، ج ۸ ص ۴۲۳.

[۱۰۱] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۵۱۱، مادة رجع.

[۱۰۲] (۱)- انظر عقائد الإمامية- للشيخ محمّد رضا المظفر ص ۷۱.

[۱۰۳] (۲)- يعنى« بالرجعة».

[۱۰۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵۳، ص ۱۲۲.

[۱۰۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۵۳، ص ۳۹.

[۱۰۶] (۱)- الأنعام، الآية ۲۸.

[۱۰۷] (۱)- هذا النوع من التعبير يسمّى عند البلاغيين ب« المجاز العقلى»، و يراد منه إسناد الفعل أو ما فى معناه« كاسم الفاعل و اسم

المفعول» لغير ما وضع له لعلاقة، منها العلاقة الزمانية، فيقال مثلا: نهار الزاهد صائم و ليله قائم.(المصحح)

[۱۰۸] (۱)-« صنع اللّه» منصوب بفعل محذوف تقدير(أنذر صنع اللّه) أو ما شاكله.

[۱۰۹] (۲)- سورة الحج، الآية ۲.

[۱۱۰] (۱)- المراد من« الحركة الجوهرية» هو أنّ أشياء عالم المادة بالإضافة إلى ما يحصل فيها من تغييرات مختلفة فى الكيفية و الكمية و المكان و ما أشبه ذلك! فيها حركة فى داخلها« و جوهرها» أى أنّها وجود سيال و متحرك، و التغيرات الظاهرية هى انعكاس عن التغييرات الداخلية لها .. و بتعبير آخر: إن لدينا وجودين مختلفين ذاتا ..

الوجود الثابت« الوجود ما وراء المادى»، و وجود سيال و متحرك« الوجود المادى» و أهم دليل على إثبات هذه النظرية مسألة وجود الزمان للموجودات المادية و عدم انفصال التغييرات الظاهرية عن التغييرات الباطنية، و يطول بنا البحث فى هذا الصدد و هو خارج عن موضوعنا هنا.

[۱۱۱] (۱)- اصول الكافى، وفقا لما جاء فى تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۰۴.

[۱۱۲] (۱)- يراجع فى هذا الشأن« تاريخ القرآن» لأبى عبد اللّه الزنجانى و« الفهرست» لابن النديم، و كتب التّفسير الأخرى ..

[۱۱۳] (۱)- تفسير مجمع البيان فى بداية سورة القصص.

[۱۱۴] (۱)- ثواب الأعمال طبقا لنقل تفسير نور الثقلين فى بداية سورة القصص.

[۱۱۵] (۱)- و نذكر ضمنا أنّ التعبير ب« تلك» المستعملة للإشارة للبعيد- كما بيّنا سابقا- لبيان عظمة هذه الآيات أيضا ..

[۱۱۶] (۱)- راجع فى ذلك مجمع البيان، ج ۷، ص ۲۳۹، و التّفسير الكبير للفخر الرازى ذيل الآيات.

[۱۱۷] (۲)- المصدر السابق.

[۱۱۸] (۳)- راجع التّفسير الكبير للفخر الرازى- ذيل الآية محل البحث.

[۱۱۹] (۱)- ممّا يلفت النظر أنّ مادة(ذبح) فى الفعل الثلاثى مجرّدة، و فعلها متعدّ بنفسه، و لكنّها هنا استعملت بصيغة التفعيل لتدلّ على الكثرة، كما تستفاد من صيغة المضارع الاستمرار على هذه الجناية[فلاحظوا بدقة].

[۱۲۰] (۱)- التّفسير الكبير الفخر الرازى ذيل الآيات محل البحث.

[۱۲۱] (۱)- نهج البلاغة- الكلمات القصار رقم ۲۰۹.

[۱۲۲] (۲)- الغيبة للشيخ الطوسى حسب نقل تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۱۰.

[۱۲۳] (۳)- مجمع البيان ذيل الآية.

[۱۲۴] (۱)- النساء، الآية ۷۵.

[۱۲۵] (۲)- النساء، الآية ۹۷.

[۱۲۶] (۱)- ورد هذا القسم من الرّواية عن ابن عباس فى تفسير الفخر الرازى كما هناك روايات آخرها فى تفسير« أبو الفتوح» و« مجمع البيان».

[۱۲۷] (۱)- يقول الراغب فى مفرداته: إن الفرق بين« الخاطئ»« و المخطئ» هو أنّ الخاطئ هو من يقدم على عمل لا- يخرج من عهدته و يطوى طريق الخطأ بنفسه ..

أمّا المخطى فيقال فى من يقدم على عمل و يخرج من عهدته، إلّا أنّه يخطئ فى الأثناء صدفة، فيتلف العمل.

[۱۲۸] (۱)-« المراضع» جمع« مرضع» على زنة« مخبر» و معناها المرأة التى تسقى الطفل لبنها من ثديها، و قال البعض:

(المراضع) جمع(مرضع) على زنة(مكتب) أى مكان الإرضاع، أى،« الأثداء» و قال البعض: يحتمل أن تكون الكلمة جمعا للمصدر الميمى« مرضع» بمعنى الرضاع، و لكن المعنى الأوّل أنسب كما يبدو ..

[۱۲۹] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۴، ص ۲۳۱.

[۱۳۰] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۱۶.

[۱۳۱] (۱)- تحدثنا عن الجذر اللغوى لمادة« تقرّ عينها» فى ذيل الآية« ۷۴» من سورة الفرقان- فيراجع هناك.

[۱۳۲] (۲)- الشعراء، الآية ۱۸.

[۱۳۳] (۱)- لاحظ تفسير على بن إبراهيم طبقا لما ورد فى نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۱۷.

[۱۳۴] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۱۷.

[۱۳۵] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۴۹[باب ۲۰ من أبواب الصلوات المندوبة].

[۱۳۶] (۲)-« وكز» مأخوذ من« الوكز» على زنة« رمز» و معناه الضرب بقبضة اليد، و هناك معان اخرى لا تناسب المقام ..

[۱۳۷] (۱)- عيون أخبار الرضا طبقا لما ورد فى تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۱۹.

[۱۳۸] (۱)- سورة هود، الآية ۱۱۴.

[۱۳۹] (۲)- تحف العقول، ص ۶۶.

[۱۴۰] (۱)- كان لنا بحثان مستوفيان فى مجال إعانة الظالمين فى ذيل الآية(۲) من سورة المائدة و ذيل الآية(۱۱۲) من سورة هود، فلا بأس بمراجعتهما.

[۱۴۱] (۱)- كلمة« يترقب» مأخوذة من« الترقب»، و معناه الانتظار، و موسى هنا فى انتظار نتائج هذه الحادثة، و محل الجملة إعرابا- خبر بعد خبر، و إن قيل أنها حال، إلا أن هذا القول ضعيف.

[۱۴۲] (۲)- كلمة« يستصرخ» مشتقة من مادة« الاستصراخ»، و معناها الإستغاثة، و لكنها فى الأصل تعنى الصياح أو طلب الصياح من الآخر، و هذا عادة ملازم للإعانة ...

[۱۴۳] (۱)- يعتقد جماعة من المفسّرين أن هذه الجملة قالها الإسرائيلى لموسى، لأنّه ظن أن موسى يريد قتله، و لكن القرائن الكثيرة فى الآية تنفى هذا الاحتمال!

[۱۴۴] (۱)-« تلقاء» مصدر أو اسم مكان، و معناه هنا: الجهة و الصوب الذى قصده.

[۱۴۵] (۱)-« تذودان» مشتقة من« ذود» على زنة« زرد» و معناها المنع، فهما إذا كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الأخرى.

[۱۴۶] (۲)- ما خطبكما: أى ما شأنكما و ما شغلكما هنا؟!

[۱۴۷] (۱)-« يصدر» مأخوذ من مادة« صدر» و معناه الخروج من الماء،« و الرعاء» جمع راع، و هو سائس الغنم.

[۱۴۸] (۱)- انظر: أبو الفتوح الرازى- ذيل الآيات.

[۱۴۹] (۱)- راجع أعلام القرآن، ص ۵۷۲.

[۱۵۰] (۲)- راجع روح المعانى، ج ۲۰، ص ۵۱.

[۱۵۱] (۱)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۱۷.

[۱۵۲] (۱)- هذا المضمون نفسه ورد فى رواية منقولة فى تفسير على بن إبراهيم، فقال لها شعيب: أمّا قوته فقد عرفتنيه إنّه يستقى الدلو وحده، فبم عرفت أمانته؟ فقالت:« إنّه لمّا قال لى تأخرى عنّى و دلينى على الطريق فإنّا من قوم لا ينظرون فى أدبار النساء عرفت أنّه ليس من الذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته».

[۱۵۳] (۱)- قال المحقق الحلى فى الشرائع« يصح العقد على منفعة كتعليم الصنعة و السورة من القرآن و كل عمل محلل، و على إجارة الزوج نفسه مدّة معينة» و يضيف الفقيه الكبير الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر بعد ذكر تلك العبارة قوله:« وفاقا للمشهور»(جواهر الكلام، ج ۳۱، ص ۴).

[۱۵۴] (۱)- مجمع البيان، ج ۷، ص ۲۴۹.

[۱۵۵] (۱)- يظهر من الرّوايات الإسلامية أنّ موسى عليه السّلام عمل مع شعيب عشر سنوات، و هذا الموضوع موجود فی كتاب وسائل الشيعة، ج ۱۵، الصفحة ۳۴(كتاب النكاح .. أبواب المهور. الباب ۲۲- الحديث الرابع).

[۱۵۶] (۱)- راجع أعلام القرآن، ص ۴۰۹.

[۱۵۷] (۱)- كانت لنا بحوث عديدة فی هذا المجال، فراجعها إن شئت فی« تفسير سورة الأعراف» و« تفسير سورة طه» و« تفسير سورة الشعراء». و فی بعض السور الأخرى.

[۱۵۸] (۱)- مقتبس من تفسير أبی الفتوح الرازی ذيل الآيات محل البحث، ج ۸، ص ۳۶۲.

[۱۵۹] (۱)- تفسير روح المعانی، التّفسير الكبير، للفخر الرازی، تفسير الميزان و تفاسير أخر ذيل الآية محل البحث.

[۱۶۰] (۱)-« المقبوح» مشتق من« القبح» و معناه السوء. ما فسّره بعضهم بأنّ المقبوح معناه المطرود أو المفضوح أو المغضوب عليه و ما شاكلها، فهو من التّفسير بلازم المعنى، و إلّا فالمقبوح معناه واضح.

[۱۶۱] (۱)- سورة الأنبياء، الآية ۷۳.

[۱۶۲] (۱)- تفسير الصافی ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۶۳] (۲)- الإسراء، ۷۱.

[۱۶۴] (۳)- أمالی الصدوق لما ورد فی نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۹۲.

[۱۶۵] (۴)- سورة هود، ۹۸.

[۱۶۶] (۵)- راجع نهج البلاغة، الخطبة ۲۱۰.

[۱۶۷] (۱)-« البصائر» جمع« بصيرة» و أمّا« البصر» فجمعه« أبصار».

[۱۶۸] (۱)-« ثاوی» مشتق من(ثوى) و معناه الإقامة المقرونة بالاستقرار، و لذا سمّی المستقر و المكان الدائم بالمثوى.

[۱۶۹] (۲)- كان بين ظهور موسى عليه السّلام و ظهور النّبی(محمّد) صلّى اللّه عليه و آله حدود ألفی عام.

[۱۷۰] (۳)- قال بعض المفسّرين: يحتمل أن يكون المراد من« نادينا» هنا هو النداء الثّانی عند ما جاء موسى و سبعون رجلا من قومه إلى الطور، فجاءه النداء من اللّه، و لكن هذا الاحتمال بعيد جدا؛ لأنّ هذه الآيات تشير إلى المسائل التی أخبر عنها النّبی فی الآيات المتقدمة فی حين أنّه لم يكن حاضرا هناك و لم يكن من الشاهدين، و نعرف أن الآيات المتقدمة تتحدث عن حركة موسى من مدين باتجاه مصر، و سماعه النداء من قبل اللّه لأول مرّة فی وادی الطور« فلاحظوا بدقة».

[۱۷۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۳۳.

[۱۷۲] (۱)- يصرّح كثير من المفسّرين أنّ جواب« لولا» الأولى محذوف و تقديره« لما أرسلنا رسولا» أو« لما وجب إرسال الرسل» .. و بديهیّ أنّ التعبير الثّانی أكثر دقّة و وضوحا .. و على كل حال فهذا الكلام مربوط بأحكام يدركه العقل مستقلا .. و إلّا فإن إرسال الرسل ضروریّ بدلائل أخرى، على أنّ واحدا من فوائد إرسال الرسل- أيضا- هو تأكيد الأحكام العقلية كبطلان الشرك و قبح الظلم و الفساد ..« فلاحظوا بدقّة».

[۱۷۳] (۱)- هذه الرّوايات فی أصول الكافی و بصائر الدرجات طبقا لما فی نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۳۲.

[۱۷۴] (۱)- تفسير فی ظلال القرآن، ج ۶، ص ۳۵۷، و ۳۵۸.

[۱۷۵] (۲)- المصدر السابق.

[۱۷۶] (۳)- المصدر السابق.

[۱۷۷] (۴)- مجمع البيان، ج ۷، ص ۲۵۸.

[۱۷۸] (۵)- المصدر السابق.

[۱۷۹] (۱)-« وصّلنا» مأخوذ من مادة« وصل» أى ربط، و حيث أنّها جاءت من باب التفعيل، فهى تدل على الكثرة، و يستفاد منها التأكيد أيضا ..

[۱۸۰] (۱)- تفسير القمى، ج ۲، ص ۱۴۲.

[۱۸۱] (۱)- كلمة« معك» فى الآية الآنفة متعلقة ب« نتبع»، و يحتمل أن تكون كلمة« معك» متعلقة ب« الهدى» و يكون التفاوت فى المعنى يسيرا ..

[۱۸۲] (۱)- مجمع البيان- ذيل الآية محل البحث ...

[۱۸۳] (۲)-« يجبى» مشتق من مادة« جباية»[« و نمكن» فى الآية بمعنى نجعل و الجباية معناها الجمع، لذلك يطلق على الحوض الذى يجمع فيه الماء جابية ... و نصب كلمة« حرم» على أنها مفعول لنمكن.

[۱۸۴] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، ج ۲۵، ص ۳.

[۱۸۵] (۱)- روح المعانى، ج ۲، ص ۸۴ ذيل الآية محل البحث.

[۱۸۶] (۲)- الدر المنثور، ج ۵، ص ۱۳۳.

[۱۸۷] (۳)- الغدير، ج ۸، ص ۲۰.

[۱۸۸] (۴)- الدر المنثور، ج ۵، ص ۱۳۳.

[۱۸۹] (۱)- راجع فى هذا الصدد تفسير الصافى و تفسير البرهان ذيل الآية محل البحث.

[۱۹۰] (۱)- هناك بحث مفصل أوردناه لدى تفسير الآية ۳۶ من سورة الأنعام.

[۱۹۱] (۱)- فى أن الآية هل تشمل المستقلات العقلية أم لا، بحثنا فى ذلك بحثا مناسبا فى ذيل الآية(۱۵) من سورة الإسراء.

[۱۹۲] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، ج ۲۵، ص ۶.

[۱۹۳] (۱)- و يحتمل فى الآية الآنفة- أيضا- أنّ القائلين جوابا على سؤال اللّه هم رؤوساء المشركين« أى جماعة من عبدة الأصنام» فهم من أجل أن يفروا عن الجواب يتحدثون عن أتباعهم، و يقولون: ربّنا إنّنا غوينا فمضينا فى طريق الشرك، و هؤلاء اتبعونا طوعا فأغويناهم، و لكنّهم لم يطيعونا« العبادة فى الآية الآنفة معناها الطاعة» و إنّما أطاعوا هواهم، و لكن التّفسير السابق أظهر.

[۱۹۴] (۲)- التعبير ب« شركاءكم» مع أن هؤلاء الشركاء كانوا قد جعلوا شركاء اللّه سبحانه، هو اشارة إلى أنّ هؤلاء الشركاء من صنعكم و هم متعلقون بكم لا باللّه ...

[۱۹۵] (۱)- بحث المفسّرون فى الآية\ i لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ E بحوثا شتى، فكثير منهم قالوا بأن« لو» حرف شرط هنا، فبحثوا عن الجزاء، فقالوا: يستفاد من جملة\ i رَأَوُا الْعَذابَ E و تقدير الجملة يكون هكذا:« لو أنّهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب فى الدنيا بعين اليقين».

و هذا يشبه قوله تعالى i لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ E فى سورة التكاثر الآية السادسة.

كما يرى البعض أن التقدير هكذا لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا لما رأوا العذاب فى الآخرة.

و زعم بعضهم أن الجزاء غير ما تقدم« يطول بها البحث هنا».

لكنّ بعضهم يعتقد أن جواب الشرط« الجزاء» غير محذوف أساسا، و جملة\ i وَ رَأَوُا الْعَذابَ E هى الجواب المتقدم، و ما بعده جملة الشرط، فيكون المعنى هكذا: لو كانوا يرون و يهتدون لرأوا العذاب لكنهم لم يهتدوا! ...

لكن وراء كل هذه المعانى معنى آخر ذكرناه فى بيان الآية آنفا، و هو أن نفسر معنى لو ب« تمنّوا، فلا بأس بمراجعة الكتب اللغوية و الأدبية« كمغنى اللبيب» و غيره!.

[۱۹۶] (۱)- المائدة، الآية ۱۰۹.

[۱۹۷] (۱)-« ما» فى جملة« ما كان لهم الخيرة» نافية، و لكن البعض يحتمل أنّها موصولة و معطوفة على المفعول المحذوف« ليختار» لكن هذا الاحتمال بعيد جدا ...

[۱۹۸] (۱)- اصول الكافى. و تفسير على بن إبراهيم« طبقا لتفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۳۶».

[۱۹۹] (۱)-« أ رأيتم» جملة تأتى بمعنى« أخبرونى» عادة، كما فسّروها، و لكن كما قلنا سابقا تأتى أحيانا بمعنى: هل علمتم؟!

[۲۰۰] (۲)- قال أهل اللغة: إن كلمة« سرمدى» تطلق على ما ليس له بداية و لا نهاية، و« الأزلى» ما ليس له بداية، و« الأبدى» ما ليس له نهاية ...

[۲۰۱] (۱)- التعبير ب« نزعنا» التى تعنى جذب الشيء من مقرّه، هى إشارة إلى إحضار الشهود من بين كل جماعة و أمة ...

[۲۰۲] (۲)- تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۲۰.

[۲۰۳] (۱)- فسّر بعضهم« المفتاح» تفسيرا آخر، و هو أنّ الإتيان بالمفتاح لحفظ الأموال و جمعها كان صعبا على الرجال الأشداء، و لكن هذا التفسير بعيد جدّا« فلا بأس بمراجعة لسان العرب لزيادة الإيضاح».

[۲۰۴] (۲)- كلمة« الفرحين» جمع الفرح، و تعنى من يكون مغرورا على أثر تملكه الشيء و متكبرا بطرا منتشيا من ريح النّصر.

[۲۰۵] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۸۲.

[۲۰۶] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار جملة ۱۹۲.

[۲۰۷] (۱)- معانى الأخبار، مطابق تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۳۹.

[۲۰۸] (۱)- جملة\i إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي E تصلح للمعانى الثلاثة المتقدمة جميعا، كما أنّها تصلح لاى واحد منها كما فسروا(فتأملوا بدقّة).

[۲۰۹] (۱)- سورة الرحمن، الآية ۴۱.

[۲۱۰] (۲)- سورة الحجر، الآية ۹۲.

[۲۱۱] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۵، ص ۱۳، و تفسر مجمع البيان، ج ۷، ص ۲۶۶- ذيل الآية محل البحث ...

[۲۱۲] (۲)- مجمع البيان، ج ۸، ص ۵۲۰ ذيل الآية ۲۴ من سورة المؤمن.

[۲۱۳] (۱)- وسائل الشيعة: ج ۱۲، ص ۱۷، الحديث ۵ من الباب ۱۶ من أبواب مقدمات التجارة.

[۲۱۴] (۱)-« وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۱۹ الحديث الثّالث الباب السابع من أبواب مقدمات التجارة.

[۲۱۵] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۱۷، الحديث السابع الباب السادس من أبواب مقدمات التجارة.

[۲۱۶] (۱)- تفسير جوامع الجامع، ذيل الآية محل البحث.

[۲۱۷] (۲)- سورة القصص، الآية ۴.

[۲۱۸] (۳)- سورة القصص، الآية ۷۷.

[۲۱۹] (۴)- تفسير الفخر الرازى، ذيل الآية محل البحث.

[۲۲۰] (۱)- سورة القصص، الآية ۴.

[۲۲۱] (۲)- سورة القصص، الآية ۷۹.

[۲۲۲] (۳)- نقل هذه الرواية زاذان عن أمير المؤمنين« مجمع البيان(ذيل الآية محل البحث)».

[۲۲۳] (۴)- تفسير على بن إبراهيم ذيل الآية محل البحث.

[۲۲۴] (۱)- روح المعانى، الآلوسى ذيل الآية.

[۲۲۵] (۱)- راجع تفسير الميزان، تفسير القرطبى، و مجمع البيان« التّفسير الكبير» للفخر الرازى، و تفاسير غيرها.

[۲۲۶] (۱)- قال بعضهم: إن« إلّا» هنا تفيد الاستثناء، فاضطروا إلى أن يقولوا بحذف كلمة و التقدير لها من عندهم و هو تحكّم ... إلّا أن البعض الآخر فسّر« إلّا» بمعنى« لكن» و أنّها تفيد الإستدراك، و هذا الوجه أقرب للنظر! ...

[۲۲۷] (۱)- سورة الرحمن، الآيتان ۲۶ و ۲۷.

[۲۲۸] (۲)- سورة الزمر، الآية ۶۸.

[۲۲۹] (۱)- وردت روايات متعددة فى تفسير« نور الثّقلين» فى ذيل الآيات فسّرت بعضها الوجه بدين اللّه، و بعضها برسل اللّه و ما هو منسوب للّه.

[۲۳۰] (۱)- سورة الجن، الآية ۱۸.

[۲۳۱] (۲)- سورة النساء، الآية ۶۴.

[۲۳۲] (۳)- لمزيد التوضيح يراجع تفسير الآية ۳۵ المائدة، و تفسير ذيل الآية(۴۸) من سورة البقرة!

[۲۳۳] (۱)-« ثواب الأعمال»« طبقا لتفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۴۷» من الجدير بالذكر أنّنا نكتب هذا القسم من هذا التّفسير فى بداية ليلة ۲۳ من شهر رمضان لسنة ۱۴۰۳ هجرية ...

[۲۳۴] (۱)- يراجع بداية تفسير سورة البقرة و بداية سورة آل عمران و بداية تفسير سورة الأعراف من التّفسير الأمثل.

[۲۳۵] (۱)-« يفتنون» مشتق من« الفتنة» و هى فى الأصل وضع الذهب فى النّار لمعرفة مقدار خلوصه، ثمّ أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهرى و معنوى ..« لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية(۱۹۳) من سورة البقرة».

[۲۳۶] (۱)- لمزيد الإيضاح فى مسألة الامتحان الإلهى و جوانبها المختلفة، يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية(۱۵۷) من سورة البقرة حيث بيّناه بتفصيل! ...

[۲۳۷] (۱)- أصول الكافى، طبقا لما نقل فى تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۴۸.

[۲۳۸] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۱۶.

[۲۳۹] (۱)- هذه الجملة- فى الحقيقة- فيها حذف، و التقدير« من كان يرجو لقاء اللّه فيبادر بالطاعة قبل أن يلحقه الأجل» أو« من كان يرجو لقاء اللّه و يقول آمنت باللّه فليقله مستقيما صابرا عليه فإنّ أجل اللّه لآت».

[۲۴۰] (۱)- بحثنا المراد من لقاء اللّه فى الجزء الأوّل ذيل الآية(۴۶) من سورة البقرة فليراجع هناك أيضا.

[۲۴۱] (۱)- ورد فى بعض الروايات اسم(سعد بن أبى وقاص) و فى بعضها اسم(عياش بن أبى ربيعة المخزومى).

[۲۴۲] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار- الجملة ۱۶۵.

[۲۴۳] (۱)- مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث ...

[۲۴۴] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۵] (۱)- جملة« و لنحمل» فعل دالّ على الأمر، و قد ولّد هذا التعبير إشكالا عند بعض المفسّرين، و هو: هل يمكن أن- يأمر الإنسان نفسه؟! ثمّ قالوا فى رد هذا الإشكال. إنّ هذا الأمر فى حكم القضية الشرطية أى« إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم»- كما فى تفسير الرّازى- إلّا أنّه فى اعتقادنا لا يمنع أن يأمر الإنسان نفسه، و الآمر و المأمور شخص واحد، إلّا أنّه ذو اعتبارين ...« فتأمل بدقّة».

[۲۴۶] (۱)- لدينا طريق آخر على الجواب على هذا السؤال، لأنّنا نعتقد وجود الصدق و الكذب فى الجملة الإنشائية أيضا،- و يلاحظ هذا فى التعبيرات العرفية أيضا ... لأنّ الشخص- مثلا- إذا أمر بشىء ما فهو دليل على تعلقه به، و حين نقول: إنّه يكذب، فمعناه أنّه لم يطلبه« فلاحظوا بدقّة».

[۲۴۷] (۱)- التّفسير الكبير للرازى، ج ۲۵، ص ۴۰.

[۲۴۸] (۱)- تفسير الدر المنثور ...

[۲۴۹] (۱)- لمزيد التوضيح فى مسألة طول العمر، بمناسبة الأبحاث المتعلقة بطول عمر المهدى عليه السّلام، يراجع كتاب« المهدى تحول كبير».

[۲۵۰] (۱)- المفردات للراغب.

[۲۵۱] (۲)- القول فى ما هو مرجع الضمير فى« جعلناها» للمفسّرين احتمالات كثيرة، فبعضهم قال: هو إشارة إلى مجموع هذه الواقعة و الحادثة، و قال بعضهم: هى نجاة نوح عليه السّلام فحسب- مع أصحابه- و أشار بعضهم إلى أن المراد من« جعلناها» هى السفينة، و ظاهر العبارة المتقدمة- أيضا- تؤيد هذا الاحتمال الأخير، و حقا كانت هذه السفينة آية من آيات اللّه فى ذلك العصر، و فى تلك الحادثة العظيمة.

[۲۵۲] (۳)- الظّاهر أنّ« إبراهيم» معطوف على كلمة« نوح» و فعله« أرسلنا»، و بعضهم عطفه على مفعول(أنجيناه) و بعضهم جعله مفعولا لفعل محذوف تقديره« اذكر».

[۲۵۳] (۱)-« الإفك» يطلق فى الأصل على كل شىء مختلف عن حقيقته، و لذلك يطلق على الكذب- خاصة الكذب الكبير- أنّه إفك، كما تطلق هذه الكلمة على الرياح المخالفة لاتجاهها و مسيرها فيقال« رياح مؤتفكة».

[۲۵۴] (۱)- سبق أن تعرضنا إلى بحث حول« السير فى الأرض» و آثاره، غير أنّ البحث الفائت كانت فيه جوانب من دروس العبرة فى مجال قصص الأمم الماضية و طغاتها. التّفسير الأمثل ذيل الآية(۱۳۷) سورة آل عمران، فلا بأس بمراجعتها.

[۲۵۵] (۱)- كلمة« معجزين» مشتقّة من مادة« عجز»، و معناها فى الأصل التخلّف و التأخر عن الشىء، و لذلك تستعمل هذه الكلمة فى الضعف الباعث على التخلف و التأخر،« المعجزة» معناه الذى يجعل الآخر عاجزا، و حيث أن الأفراد الذين يفرون من سلطان أحد و قدرته، يعجزونه عن ملاحقتهم، لذلك استعملت كلمة« معجز» فى هذا الصدد أيضا ...

[۲۵۶] (۱)- مجمع البيان، ج، ص ۳۵۲.

[۲۵۷] (۱)- تفسير روح المعانى، ج ۲۰، ص ۱۳۰.

[۲۵۸] (۱)-« السراة» جمع مفردها سرىّ- كبير القوم.(المصحح)

[۲۵۹] (۱)- سورة الزمر، الآية ۳.

[۲۶۰] (۲)- أصول الكافى، طبقا لما ورد فى تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۵۴.

[۲۶۱] (۳)- كتاب الصدوق، طبقا لما ورد فى تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۵۴.

[۲۶۲] (۱)- هناك بحث مفصل فى هجرة إبراهيم عليه السّلام من بابل إلى الشام فى ذيل الآية(۷۱) من سورة الأنبياء من التّفسير الأمثل، فلا بأس بمراجعته.

[۲۶۳] (۱)- سورة يوسف، الآية ۱۰۱.

[۲۶۴] (۲)- سورة النمل، الآية ۱۹.

[۲۶۵] (۳)- سورة القصص، الآية ۳۷.

[۲۶۶] (۴)- سورة الشعراء، الآية ۸۳.

[۲۶۷] (۵)- سورة الصافات، الآية ۱۰۰.

[۲۶۸] (۱)- تفسير الرازى، بشىء من التصرف.

[۲۶۹] (۱)- يمكن أن تكون كلمة« لوطا» عطفا على كلمة(نوحا) فتكون بمنزلة المفعول« لأرسلنا» و يمكن أن يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره« و اذكر لوطا».

[۲۷۰] (۱)- یرى جماعهٔ من المفسّرین وجوها و احتمالات أخرى لجملهٔ« و تقطعون السبیل» منها ما فسّروه بقطع الطریق على الناس فى سفرهم مع الالتفات إلى ماضیهم و تأریخهم المعروف، لأنّ القوافل تضطر أن تأخذ طریقا غیر مطروق من أجل أن تسلم من شرّ هؤلاء و لئلا تبتلى بهم، کما فسّره بعضهم بسرقهٔ أموال المسافرین فى القافلهٔ و لکن التّفسیر الأوّل المشار إلیه فى المتن أنسب للآیهٔ کما یبدوا للنظر، لأنّ واحدا من أسرار تحریم اللواط و فلسفته هو خطر قطع النسل کما صرحت به الرّوایات.

[۲۷۱] (۱)- سفینهٔ البحار، ج ۲، ص ۵۱۷.

[۲۷۲] (۲)- تفسیر القرطبى ذیل الآیات محل البحث.

[۲۷۳] (۱)- کان لنا فى صدد الانحراف الجنسى بحث مفصل فى ذیل الآیهٔ(۸۱) سورهٔ هود ...

[۲۷۴] (۱)- المیزان، ج ۱۶، ص ۱۲۴.

[۲۷۵] (۱)- ذکرنا تفصیل هذا الحادث فى ذیل الآیات ۷۷- ۸۱ من سورهٔ هود فلا بأس بمراجعتها.

[۲۷۶] (۲)-« الضیف» یطلق على المفرد و الجمع، و جمعه: ضیوف و أضیاف.(المصحح).

[۲۷۷] (۱)- روح البیان، ج ۶، ص ۴۶۷.

[۲۷۸] (۱)- هذه الجملهٔ معطوفهٔ على جملهٔ« و لقد أرسلنا نوحا».

[۲۷۹] (۲)- ورد الکلام على مدین فى ذیل الآیهٔ(۲۳) من سورهٔ القصص فى هذا الجزء بإسهاب.

[۲۸۰] (۱)- بیان هذه الحادثهٔ المؤلمهٔ فصلناه فى تفسیر« سورهٔ هود» ذیل الآیات فى شرح قصهٔ« شعیب و قومه».

[۲۸۱] (۲)-« و عادا و ثمودا» مفعولان لفعل مقدر و هو« أهلکنا» و هو یستفاد من الآیهٔ السابقهٔ. و قال بعضهم: فعلهما المحذوف تقدیره« اذکر».

[۲۸۲] (۱)- هذه الکلمات الثلاث مفاعیل للفعل المقدر« أهلکنا» أو کما قال البعض: هى مفاعیل لفعل تقدیره« اذکر»!

[۲۸۳] (۱)- شرح قصّهٔ حیاهٔ قارون فى الآیات السبع ۷۶- ۸۲ سورهٔ القصص، و هلاک فرعون و جماعته فى تفسیر سورهٔ القصص، کما ورد فى سورهٔ الأعراف أیضا.

[۲۸۴] (۱)- بیّنا الفرق بین الفحشاء و المنکر فى تفسیر الآیهٔ(۹۰) من سورهٔ النحل فى عبارهٔ موجزهٔ، و قلنا: إنّه یمکن التفریق بینهما بأن الفحشاء هى إشارهٔ للذنوب الکبیرهٔ الخفیهٔ، و أمّا المنکر فهو الذنوب الکبیرهٔ الظاهرهٔ، أو أن الفحشاء هى الذنوب التى تنتج بغلبهٔ القوى الشهوانیهٔ، و المنکر من أثر القوى الغضبیهٔ.

[۲۸۵] (۱)- مجمع البیان ذیل الآیهٔ مح البحث« و الحدیث الثّانى یشعر بالنهى التشریعى».

[۲۸۶] (۲)- المصدر السابق.

[۲۸۷] (۳)- المصدر السابق.

[۲۸۸] (۱)- المصدر السابق.

[۲۸۹] (۲)- الرعد، الآیهٔ ۲۸.

[۲۹۰] (۳)- على ضوء هذا التّفسیر یکون لفظ الجلالهٔ« اللّه» فاعلا فى المعنى، و على التّفسیر السابق یکون مفعولا.

[۲۹۱] (۱)-« الفلسفهٔ» کلمهٔ یونانیهٔ معناها« الحکمهٔ» فهى لیست عربیهٔ لکنّها شاعت فى العربیهٔ أیضا.

[۲۹۲] (۲)- وسائل الشیعهٔ، ج ۳، ص ۷(الباب الثّانى من أبواب أعداد الفرائض الحدیث ۳).

[۲۹۳] (۱)- نهج البلاغهٔ، الکلمات القصار ۲۵۲.

[۲۹۴] (۲)- نهج البلاغهٔ، الکلمات القصار، الجملهٔ ۱۳۶.

[۲۹۵] (۱)- نهج البلاغهٔ، و من کتاب له« وصیهٔ له» ۴۷.

[۲۹۶] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸۴، ص ۳۱۷ و ۳۲۰.

[۲۹۷] (۲)- بحار الأنوار، ج ۸۴ ص ۳۱۸.

[۲۹۸] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۳، ص ۴.

[۲۹۹] (۱)-« التى» هنا صفة لموصوف محذوف تقديره الطريقة أو ما شاكلها ...

[۳۰۰] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۶۳.

[۳۰۱] (۱)- قال بعض المفسّرين: إنّ جملة« الذين آتيناهم الكتاب» إشارة إلى المسلمين، و جملة\i« مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ\E» إشارة إلى أهل الكتاب، إلّا أنّ هذا التّفسر بعيد- كما يبدو- جدّا لأنّ التعبير ب\i فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ E و ما شابهه لم يأت فى القرآن- بحسب الظاهر- إلّا فى خصوص اليهود و النصارى.

[۳۰۲] (۱)- هذه الرّوايات وردت فى تفسير البرهان الجزء الثالث، ص ۲۵۴ فما بعد بشكل مفصل.

[۳۰۳] (۱)- فتوح البلدان للبلاذرى طبع مصر، ص ۴۵۹.

[۳۰۴] (۱)- مسند أحمد، ج ۴، ص ۲۹۸.

[۳۰۵] (۲)- ورد فى صدد« النّبى الأمى» شرح مفصل آخر ذيل الآية(۱۵۷) من سورة الأعراف.

[۳۰۶] (۱)- آل عمران- الآية ۱۵۹.

[۳۰۷] (۱)- سفينة البحار مادة مرأ.

[۳۰۸] (۲)- إحياء العلوم.

[۳۰۹] (۱)- لنا فى هذا الصدد بحث مفصل بيناه فى ذيل الآية(۱۰۳) من سورة الكهف.

[۳۱۰] (۱)-« البغتة» مشتقة من« البغت» على زنة« وقت» و معناه التحقق المفاجئ و غير المنتظر لأمر.

[۳۱۱] (۱)- لمزيد الإيضاح يراجع- فى هذا الصدد تفسير الآية(۱۲۳) من سورة آل عمران.

[۳۱۲] (۲)- يرى بعض المفسّرين أن كلمة« يوم» متعلقة بفعل محذوف مقدر، و قال بعضهم: هو متعلق ب« محيطة».

[۳۱۳] (۱)- الكلمات القصار، رقم ۴۴۲.

[۳۱۴] (۲)- سورة ص الآيتان ۸۲، ۸۳.

[۳۱۵] (۳)- سورة الحجر، الآية ۴۲.

[۳۱۶] (۴)- جملة« فإياى فاعبدون» عطف على جزاء جملة الشرط المحذوف و التقدير« إن ضاقت بكم الأرض فهاجروا منها إلى غيرها و إيّاى فاعبدون».

[۳۱۷] (۱)-« لنبوئنهم» من مادة« تبوئة» على زنة« تذكرة» معناها إعطاء السكنى للإقامة و البقاء الدائم.

[۳۱۸] (۱)- تفسير القرطبى ذيل الآيات محل البحث، ج ۷، ص ۵۰۷۵.

[۳۱۹] (۱)- تحدثنا عن حقيقة التوكل و حكمته و فلسفته بإسهاب فى ذيل الآية(۱۲) سورة إبراهيم، و عن حقيقة الصبر لدى تفسير الآية(۱۲) من سورة إبراهيم و الآية(۲۴) من سورة الرعد و الآية(۲۶) من سورة الأعراف.

[۳۲۰] (۱)- الزمر، الآية ۳.

[۳۲۱] (۱)- أصل الكلمة مشتق من« حيى» و مصدرها« حييان» ثم أبدلت الياء الثانية واوا فصارت حيوان.

[۳۲۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۴۱» الطبعة الجديدة.

[۳۲۳] (۱)- النحل، الآيتان ۵۳- ۵۴»

[۳۲۴] (۲)- يونس، الآية ۱۲.

[۳۲۵] (۱)- ثواب الأعمال للصدوق، طبقا لنقل تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۶۴.

[۳۲۶] (۱)- مجمع البيان، بداية سورة الروم.

[۳۲۷] (۱)- جاء سبب النّزول هذا فى كتب التفاسير المختلفة بشىء من الاختلاف البسيط فى التعابير، فراجع مجمع البيان و الميزان و نور الثقلين و تفسير الفخر الرازى و أبو الفتوح الرازى، و تفسير الآلوسى و فى ظلال القرآن و التفاسير الأخرى.

[۳۲۸] (۱)- تفسير التبيان، ج ۸، ص ۲۰۶.

[۳۲۹] (۱)- توجد احتمالات كثيرة فى معنى« بضع» فقيل: إنّها تتراوح بين ثلاث و عشر، أو أنّها تتراوح بين واحدة و تسع، و قيل: أقلّها ست و أكثرها تسع. إلّا أن ما ذكرناه فى المتن هو المشهور.

[۳۳۰] (۱)- نصب« وعد اللّه» على أنّه مفعول مطلق و عامله محذوف، و يعلم من الجملة التى قبله أى« سيغلبون» التى هى مصداق الوعد الإلهى، و يكون تقديره: وعد اللّه ذلك وعدا!.

[۳۳۱] (۱)- نقلا عن كتاب« الدنيا التى أراها».

[۳۳۲] (۱)- فى صورة ما لو قلنا بالتّفسير الأوّل، فإن« الباء» فى كلمة« بالحق» للمصاحبة، و فى التّفسير الثّانى تكون الباء بمعنى اللام، أى للحق.

[۳۳۳] (۲)-« آثار» مأخوذة من مادة(ثور) على زنة(غور) و معناها التفريق و النثر، و إنّما سمى الثور ثورا لأنّه يثير الأرض و يفرّقها.

[۳۳۴] (۱)- طبقا لما ذكرنا فى التّفسير تكون كلمة« السوءى» مفعولا لأساءوا و جملة\ أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ E مكان اسم كان و خبرها« عاقبة الذين».

و يذكر العلّامة الطباطبائى ذلك فى الميزان بصورة احتمال، و إن لم ينتخبه هو نفسه، و يرى« أبو البقاء» فى كتاب« إملاء ما منّ به الرحمن» الصفحة ۱۸۵ الجزء الثانى، أنّه واحد من احتمالين مقبولين.

إلّا أن أغلب المفسّرين كالطبرسى و صاحب الميزان، و الفخر الرازى، و الآلوسى، و أبو الفتوح الرازى و القرطبى و سيد قطب فى ظلاله، و الطوسى فى تبيانه» يقوّون احتمالا آخر فى تفسير الآية .. و هو أن كلمة« السوءى» اسم كان، و جملة« إن كذبوا» فى مقام التعليل.

و طبقا لهذا التّفسير يكون معنى الآية: و أخيرا فإن عاقبة أعمال المسيئين كانت السوء، لأنّهم كذبوا بآياتنا. و هذا المعنى شبيه بقوله تعالى\:i لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى E.

إلّا أن الأنصاف أن هذا التفسير خلاف ما يستظهر من الآية، و انتخاب المفسّرين لهذا الرأى و التفسير لا يصرفنا عما هو منسجم مع الآية، و خاصة أنّهم اضطروا إلى أن يقدروا اللام فى جملة« أن كذبوا» و التقدير خلاف الظاهر« فلاحظوا بدقة».

[۳۳۵] (۱)- سورة يس، ۷۹- ۸۱.

[۳۳۶] (۲)- سورة يونس، الآية ۱۸.

[۳۳۷] (۱)- سورة القصص، الآية ۶۳.

[۳۳۸] (۱)- سورة يس، الآية ۲۹- و ما بعدها ...

[۳۳۹] (۱)- المصدر السابق.

[۳۴۰] (۱)- يرجى ملاحظة أن« عشيا» و« حين تظهرون» قد عطفتا على« حين تمسون» و يرجع الجميع للتسبيح ...

[۳۴۱] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۷۲.

[۳۴۲] (۱)- نقلا عن كتاب الكافى و طبقا لتفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۷۳.

[۳۴۳] (۱)- دائرة المعارف، محمّد فريد وجدى، ج ۱ ص ۴۹۶(مادة اله).

[۳۴۴] (۱)- راجع تفسير« سورة الرعد» الآيات الأولى منها.

[۳۴۵] (۱)- التفسير الكبير الفخر الرازى- ذيل الآيات محل البحث.

[۳۴۶] (۲)- الزمر، الآية ۱۸.

[۳۴۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۷۴.

[۳۴۸] (۱)- نقل« الآلوسى» فى تفسيره« روح المعانى» ذيل الآية محل البحث هذا الكلام عن بعض المفسرين المتقدمين.

[۳۴۹] (۱)- ينقل« الفخر الرازى» عن« الزمخشرى» فى تفسير الكشّاف أن اللّه قال فى شأن ولادة عيسى عليه السّلام دون أب« هو على هين» و لأنّ كلمة« علىّ» مقدمة، فهى دليل على الحصر، أى إن هذا العمل سهل على فحسب لا على سواى، أمّا فى هذه الآية محل البحث فقد قال: سبحانه\:i وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ E فلا يستفاد منها الحصر، و هى إشارة إلى أن كل من يستطيع أن يؤدى عملا فى البداية فهو قادر على إعادته أيضا« فلاحظوا بدقة».

[۳۵۰] (۱)- تفسير الميزان و تفسير مجمع البيان و تفسير نور الثقلين ذيل الآية محل البحث.

[۳۵۱] (۱)- فسّر بعض المفسّرين جملة« تخافونهم كخيفتكم أنفسكم» بهذه المناسبة تفسيرا آخر، حاصله أنّ هؤلاء المعبودين ليست لديهم القدرة حتى تخافوهم كما تخافون من بعضكم، فكيف إذا كان الخوف أكثر!« إلّا أن التّفسير الذى ذكرناه فى البداية يبدو أقرب للنظر».

[۳۵۲] (۱)- الألف و اللام فى كلمة« الدين» هما للعهد، و هما هنا إشارة إلى الدين الذى أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يبلغه، أى دين« الإسلام».

[۳۵۳] (۱)- تاريخ التمدن، ج ۱، ص ۸۷- ۸۹.

[۳۵۴] (۲)- تاريخ التمدن، ج ۱، ص ۱۵۶.

[۳۵۵] (۳)- دراسة المجتمع، ص ۱۹۲ أصله بالفارسية و عنوانه جامعه شناسى.

[۳۵۶] (۱)- يراجع كتاب الحسّ المذهبى أو البعد الرّابع ترجمه مهندس بيانى(للكاتب كوونتايم).

[۳۵۷] (۱)- المصدر نفسه الطبعة الثّانية، ص ۳۹.

[۳۵۸] (۱)- أصول الكافى، ج ۲، ص ۱۰، باب« فطرة الخلق على التوحيد».

[۳۵۹] (۱)- المصدر السابق.

[۳۶۰] (۲)- المصدر السابق.

[۳۶۱] (۳)- تفسير« جمع الجوامع» للمرحوم الطبرسى ذيل الآية محل البحث.

[۳۶۲] (۴)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۸۴.

[۳۶۳] (۱)- العنكبوت، الآية ۶۵.

[۳۶۴] (۱)- إنّ« اللام» فى جملة« ليكفروا» هى لام الأمر، و هذا الأمر للتهديد، و كذلك جملة« تمتعوا» إذ هى للتهديد أيضا.

و إن كانت الأولى جاءت بصيغة« الغائب» و الثّانية بصيغة« الخطاب» ... فكأنّما افترض فى الحالة الأولى أنّهم غيّاب ثمّ من أجل التشدّد بالتهديد جعلهم مواجهين للتهديد و الخطاب، إلّا أنّ بعض المفسّرين عدّوا« اللام» للعاقبة، أى كان عاقبة أمرهم الكفر بنعم اللّه، إلّا أن المعنى الأوّل أكثر انسجاما مع ظاهر الآية.

[۳۶۵] (۱)- يونس، الآية ۵۸.

[۳۶۶] (۱)- تفسير روح البيان، ج ۷، ص ۲۹، ذيل الآية محل البحث.

[۳۶۷] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار الجملة ۲۵۰

[۳۶۸] (۲)- مجمع البيان.

[۳۶۹] (۳)- مجمع البيان.

[۳۷۰] (۴)- تفسير على بن إبراهيم، طبقا لنقل نور الثقلين عنه، ج ۴، ص ۱۸۶.

[۳۷۱] (۱)- ذيل الآيات محل البحث« الفخر الرازى».

[۳۷۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۹۱.

[۳۷۳] (۱)- الأنعام، الآية ۱۶۰.

[۳۷۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۹۰.

[۳۷۵] (۳)- البقرة، الآية ۲۶۱.

[۳۷۶] (۱)- تفسير القمى: طبقا لنقل تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۲۱۰.

[۳۷۷] (۱)- كلمـة« مردّ» فى جملة« لا مرد له من اللّه» مصدر ميمى و هو هنا بمعنى اسم الفاعل فيكون معنى الجملة: لا رادّ له من اللّه. و الضـمير فى« له» يعـود إلى« يوم» و يكون المفهوم العـام للجملـة. لاـ يسـتطيع أى كـان أن يعيـد ذلـك اليوم من اللّه، أى يقف بوجه القضاء و المحاكمة بتأخير ذلك اليوم و« تعطيله».

و الخلاصـة: إنّه لاـ يخلف اللّه وعـده ليعيـد ذلك اليوم، و ليس لأحـد سواه القـدرة على ذلك؛ فوقوع ذلك اليوم لا بـدّ منه و هو يوم محتوم»(فلاحظوا بدقة).

[۳۷۸] (۱)-

\i\i فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال\:E« للزنا عقوبات ثلاث منها فى الـدنيا و ثلاث فى الآخرة، فأمّا العقوبات فى E

-

\i الدنيا فإنه يسلب النور من الإنسان، و يبتله بموت الفجأة، و يقطع الرزق. و أمّا التى فى الآخرة فهو على سوء الحساب و غضب اللّه و الخلود فى نار جهنم»(سفينة البحار- مادة زنى\).E

[۳۷۹] (۱)- سفينة البحار(مادة ذنب).

[۳۸۰] (۲)- الأعراف، الآية ۹۶.

[۳۸۱] (۱)- مجمع البحرين مادة« سيح»، و

\i\i فى حديث آخر عن النّبى العظيم صلّى اللّه عليه و آله فى هذا الكتاب نفسه نقرأ قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم E« سياحة أمتى الغزو و الجهاد\».E

[۳۸۲] (۱)-« الكسـف» جمع« كسـفة» على وزن« حجلـة» و معناهـا القطعـة، و هى هنـا- كمـا يبـدو- إشـارة إلى القطعـات من الغيوم المتراكمة بعضها فوق بعض فتجعلها غليظة و شديدة، و ذلك حين تكون الغيوم مهيأة لنزول المطر.

[۳۸۳] (۲)-« الودق» على وزن(الحلق) و تطلق على ذرات المـاء الصـغيرة كمثـل الغبار أحيانا، إذ تتناثر عنـد نزول الغيث فى السـماء، كما تطلق على قطرات« المطر» المتفرقة أحيانا ...

[۳۸۴] (۱)-« مبلس» مأخوذة من مادة الإبلاس، و معناها اليأس و عدم الرجاء.

[۳۸۵] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الجملة ۲۵۰.

[۳۸۶] (۱)- كان لنا فى هذا الصدد بحث مفصّل ذيل الآية(۱۴) من هذه السورة.

[۳۸۷] (۲)- بيّنا هـذا البحث« المتعلق بموضوع البرزخ» فى ذيل الآية ۱۰۰، من سورة المؤمنون، كما نوّهنا عن هـذه اللطيفة و المسألة

الدقيقة هناك.

[۳۸۸] (۱)- في كون الآية، هل فيها تقديم و تأخير، أم لا؟ هناك كلام و نقاش بين المفسّرين و العلماء، فقال بعضهم« في كتاب اللّه» متعلق بجملة« أوتوا العلم و الإيمان» فيكون معنى الآية هكذا: الذين أوتوا العلم فى كتاب اللّه و يؤمنون به قالوا مثل هذا الكلام، و قال بعضهم« فى كتاب اللّه» متعلق بجملة« لبثتم» و نحن اخترنا هذا الرأى أيضا فى شرحنا للآية، لأنّ الحكم بالتقديم و التأخير يحتاج إلى قرينة واضحة و لا نجد هنا قرينة على ذلك!.

[۳۸۹] (۲)- تفسير الفخر الرازى ذيل الآيات محل البحث.

[۳۹۰] (۱)- كلمة« يستعتبون» مشتقة من« عتب» على وزن« حتم» و معناها فى الأصل الاضطراب النفسى« الداخلى» و حين يصاغ هذا الفعل من باب الإفعال فيكون معناه ازالة هذا الأثر و الاضطراب، كما جاء فى لسان العرب أن الاستفعال يؤدى معنى الإفعال هنا، لذلك يقال فى شأن الاسترضاء معناه طلب الرضا و التوبة، و معنى الكلمة هنا فى الآية هو بمثل ما ذكرناه، و معنى ذلك أنّ المجرمين فى يوم القيامة ليس لهم القدرة على التوبة.

[۳۹۱] (۲)- المرسلات، الآية ۳۶.

[۳۹۲] (۳)- سبأ، الآية ۳۱.

[۳۹۳] (۴)- سبأ، الآية ۳۲.

[۳۹۴] (۵)- إبراهيم، الآية ۲۲.

الجزء الثالث عشر

سورة لقمان

اشارة

مكّية و عدد آياتها أربع و ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷

«سورة لقمان»

محتوى السورة:

المعروف و المشهور بين المفسّرين أنّ هذه السورة نزلت فى مكّة، و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد استثنى بعض آيات هذه السورة كالشيخ الطوسى فى (التبيان) حيث استثنى الآية الرّابعة التى تتحدّث عن الصلاة و الزكاة، أو الفخر الرازى الذى استثنى مضافا إلى هذه الآية، و الآية (۲۷) التى تبحث فى علم اللّه الواسع، إلّا أنّه لا يوجد دليل واضح لهذه الاستثناءات، لأنّ الصلاة و الزكاة- الزكاة بصورة عامّة طبعا- كانتا موجودتين فى مكّة أيضا، و قضيّة البحث عن سعة علم اللّه لا تصلح لأن تكون دليلا على كونها مدنية.

بناء على هذا، فإنّ سورة لقمان بحكم كونها مكّية تشتمل على محتوى السور المكّية العام، أى أنّها تبحث حول العقائد الإسلامية الأساسية، و خاصّة المبدأ و المعاد، و كذلك النبوّة. و بصورة عامّة فإنّ محتوى هذه السورة يتلخّص فى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: يشير- بعد ذكر الحروف المقطّعة- إلى عظمة القرآن و كونه هدى و رحمة للمؤمنين الذين يتمتّعون بصفات خاصّة، و يتحدّث فى الطرف المقابل عن الذين يظهرون التعصّب و العناد أمام هذه الآيات البيّنات بحيث يبدون و كأنّهم صمّ الآذان، بل يسعون أيضا إلى صرف الآخرين عن القرآن عن طريق إيجاد وسائل لهو غير صحيحة.

القسم الثّانی: یتحدّث عن آیات اللّه فی خلق السماء و رفعها بدون أی عمد، و خلق الجبال، و الاحیاء المختلفة، و نزول المطر، و نموّ النباتات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸

القسم الثّالث: ینقل جانبا من کلام لقمان الحکیم و المتألّه فی وصیّته لابنه، و یبدأ من التوحید و محاربة الشرک، و ینتهی بالوصیّة بالإحسان إلی الوالدین، و الصلاة، و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و الثبات أمام الحوادث الصعبة.

و البشاشة و الطلاقة مع الناس، و التواضع و الاعتدال فی الأمور.

فی القسم الرّابع: تعود السورة إلی أدلّة و علامات التوحید مرّة اخری فتتحدّث عن تسخیر السماء و الأرض و نعم اللّه الوفیرة، و ذمّ منطق الوثنیین الذین سقطوا فی وادی الضلال و الانحراف نتیجة التقلید و اتّباع الآباء و الأجداد، و تجعلهم یقرّون بمسألة کون اللّه خالقا التی هی أساس العبودیة له.

و تکشف الستار عن علم اللّه المطلق بذکر مثال واضح، و تبحث فی هذا الباب- إضافة إلی ذکر آیات الآفاق- عن التوحید الفطری الذی یتجلّی عند الوقوع فی عواصف البلاء، و تطرح ذلک بشکل رائع.

أمّا القسم الخامس: فإنّه یشیر إشارة قصیرة مؤثّرة تهزّ الوجدان إلی مسألة المعاد و الحیاة بعد الموت، و تحذّر الإنسان من الاغترار بهذه الدنیا، و تحثّه علی أن یفکّر بتلک الحیاة الخالدة و یتهیّأ لها.

ثمّ تنهی هذا المبحث بذکر جانب من علم اللّه بالغیب بما یتعلّق بالإنسان، و من جملة ذلک لحظة موته، و حتّی علی الجنین فی بطن امّه، و بذلک تنتهی السورة.

و من الواضح أنّ تسمیة هذه السورة بسورة «لقمان» بسبب البحث المهمّ العمیق المحتوی الذی ورد فی هذه السورة عن مواعظ لقمان، و هی السورة الوحیدة التی تتحدّث عن هذا الرجل الحکیم.

فضل سورة لقمان:

وردت روایات عدیدة عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و بعض أئمّة أهل البیت علیهم السّلام فی فضل هذه السورة، و من جملتها ما

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «من قرأ سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹

لقمان کان لقمان له رفیقا یوم القیامة، و أعطی من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف و نهی عن المنکر»[۱].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام: «من قرأ سورة لقمان فی لیلة و کّل اللّه به فی لیلته ثلاثین ملکا یحفظونه من إبلیس و جنوده حتّی یصبح، فإذا قرأها بالنهار لم یزالوا یحفظونه من إبلیس و جنوده حتّی یمسی»[۲].

و قلنا مرارا، بأنّ کلّ هذا الفضل و الثواب و الامتیاز لتلاوة سورة من القرآن لأنّ التلاوة مقدّمة للتفکّر، و التفکّر مقدّمة للعمل، و یجب أن لا یتوقّع الإنسان کلّ هذا الفضل بلقلقة اللسان فقط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰

الآیات [سورة لقمان (۳۱): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴)
أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵)

التّفسير

من هم المحسنون؟

الم تبدأ هذه السورة بذكر أهميّة و عظمة القرآن، و بيان الحروف المقطّعة فى بدايتها إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ هذه الآيات التى تتركّب من حروف الألف باء البسيطة، لها محتوى و مفهوم سام يغيّر مصير البشر بصورة تامّة. و لذلك فإنّها تقول بعد ذكر الحروف المقطّعة: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ
تِلْكَ فى لغة العرب إشارة للبعيد، و قلنا مرارا أنّ هذا التعبير بالخصوص كناية عن عظمة و أهمّية هذه الآيات، و كأنّها فى أعالى السماء و فى نقطة بعيدة المنال.

إنّ وصف «الكتاب» ب «الحكيم» إمّا لقوّة و متانة محتواه، لأنّ الباطل لا يجد إليه طريقا و سبيلا، و يطرد عن نفسه كلّ نوع من الخرافات و الأساطير، و لا يقول إلّا الحقّ، و لا يدعو إلّا إليه، و هذا التعبير فى مقابل لَهْوَ الْحَدِيثِ الذى يأتى فى الآيات التالية تماما.
أو بمعنى أنّ القرآن كالعالم الحكيم الذى يتكلّم بألف لسان فى الوقت الذى هو صامت لا ينطق، فيعلّم، و يعظ و ينصح، و يرغّب و يرهّب، و يحذّر و يتوعّد، و يبيّن القصص ذات العبرة، و خلاصة القول فإنّه حكيم بكلّ معنى الكلمة. و لهذه البداية علاقة مباشرة بكلام لقمان الحكيم الذى ورد البحث فيه فى هذه السورة.
و لا مانع- طبعا- من أن يكون المعنيان مرادين فى الآية أعلاه.
ثمّ تذكر الآية التالية الهدف النهائى من نزول القرآن، فتقول: هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ
إنّ الهداية فى الحقيقة مقدّمة لرحمة اللّه، لأنّ الإنسان يجد الحقيقة أوّلا فى ظلّ نور القرآن، و يعتقد بها و يعمل بها، و بعد ذلك يكون مشمولا برحمة اللّه الواسعة و نعمه التى لا حدّ لها.
و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ هذه السورة اعتبرت القرآن سببا لهداية و رحمة «المحسنين»، و فى بداية سورة النمل: هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ
و فى بداية سورة البقرة: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ
و هذا الاختلاف فى التعبير ربّما كان بسبب أنّ روح التسليم و قبول الحقائق لا تحيا فى الإنسان بدون التقوى، و عند ذلك سوف لا تتحقّق الهداية، و بعد مرحلة قبول الحقّ نصل إلى مرحلة الإيمان التى تتضمّن البشارة بالنعم الإلهية علاوة على الهداية، و إذا تقدّمنا أكثر فسنصل إلى مرحلة العمل الصالح، و عندها تتجلّى رحمة اللّه أكثر من ذى قبل.
بناء على هذا فإنّ الآيات الثلاث أعلاه تبيّن ثلاث مراحل متعاقبة من مراحل

تكامل عباد اللّه: مرحلة قبول الحقّ، ثمّ الإيمان، فالعمل، و القرآن فى هذه المراحل مصدر الهداية و البشارة و الرحمة على الترتيب- تأمّلوا ذلك-.

ثمّ تصف الآية التالية المحسنين بثلاث صفات، فتقول: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ فإنّ ارتباط هؤلاء بالخالق عن طريق الصلاة، و بخلق اللّه عن طريق الزكاة، و يقينهم بمحكمة القيامة باعث قوى على الابتعاد عن الذنب و المعصية، و دافع لأداء الواجبات.

و تبيّن الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- عاقبة عمل المحسنين، فتقول:

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

جملة أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ توحى بأنّ هداية أولئك قد ضمنت من قبل ربّهم من جهة، و من جهة اخرى فإنّ التعبير ب (على) دليل على أنّ الهداية كأنّها مطيّة سريعة السير، و أولئك قد ركبوها و أخذوا بزمامها، و من هنا يتّضح التفاوت بين هذه الهداية، و الهداية التى وردت فى بداية السورة، لأنّ الهداية الاولى هى الاستعداد لقبول الحقّ، و هذه الهداية برنامج للوصول إلى الغاية و الهدف.

ثمّ إنّ جملة أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ التى تدلّ على الحصر وفقا للقواعد العربية، توحى بأنّ هذا الطريق هو الطريق الوحيد إلى الإخلاص، طريق المحسنين، طريق أولئك المرتبطين باللّه و خلقه، و طريق أولئك الذين يؤمنون إيمانا كاملا بالمبدأ و المعاد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳

الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۶ الى ۹]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (۸) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ الآية الاولى من هذه الآيات نزلت فى «النضر بن الحارث»، فقد كان تاجرا يسافر إلى ايران، و كان يحدّث قريشا بقصص الإيرانيين و أحاديثهم، و كان يقول: إذا كان محمّد يحدّثكم بقصص عاد و ثمود فإنّى أحدّثكم بقصص رستم و إسفنديار و أخبار كسرى و سلاطين العجم، فكانوا يجتمعون حوله و يتركون استماع القرآن.

و قال البعض الآخر: إنّ هذا المقطع من الآيات نزل فى رجل اشترى جارية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴

مغنّية، و كانت تغنّيه ليل نهار فتشغله عن ذكر اللّه.

يقول المفسّر الكبير الطبرسى رحمه اللّه، بعد ذكر سبب النّزول هذا: و

قد روى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى هذا الباب يؤيّد سبب النّزول أعلاه، لأنّه صلّى اللّه عليه و آله قال: «لا يحلّ تعليم المغنّيات و لا بيعهن، و أثمانهنّ حرام، و قد نزل تصديق ذلك فى كتاب اللّه: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ ...

التّفسير

الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيرة.

الكلام فى هذه الآيات عن جماعة يقعون تماما فى الطرف المقابل لجماعة المحسنين و المؤمنين الذين ذكروا فى الآيات السابقة.

الكلام و الحديث هنا عن جماعة يستخدمون طاقاتهم من أجل بثّ اللاهدفية و إضلال المجتمع، و يشترون شقاء و بؤس دنياهم و آخرتهم! فتقول أوّلا: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً[۳] ثمّ تضيف أخيرا: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ

إنّ شراء لهو الحديث و الكلام الأجوف إمّا أن يتمّ عن طريق دفع المال فى مقابل سماع الخرافات و الأساطير، كما قرأنا ذلك فى قصّة النضر بن الحارث.

أو أن يكون عن طريق شراء المغنّيات لعقد مجالس اللهو و الباطل و الغناء. أو صرف المال بأىّ شكل كان و فى أى طريق للوصول إلى هذا الهدف غير المشروع، أى لهو الحديث و الكلام الفارغ.

و العجيب أنّ عمى القلوب هؤلاء، كانوا يشترون الكلام الباطل و اللهو بأغلى القيم و الأثمان، و يعرضون عن الآيات الإلهية و الحكمة التى منحهم اللّه إيّاها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵

مجّانا! و يحتمل أيضا أن يكون للشراء هنا معنى كنائى، و المراد منه كلّ أنواع السعى للوصول إلى هذه الغاية.

و أمّا (لهو الحديث) فإنّ له معنى واسعا يشمل كلّ نوع من الكلام أو الموسيقى أو الترجيع الذى يؤدّى إلى اللهو و الغفلة، و يجرّ الإنسان إلى اللاهدفيّة أو الضلال، سواء كان من قبيل الغناء و الألحان و الموسيقى المهيّجة المثيرة للشهوة و الغرائز و الميول الشيطانية، أو الكلام الذى يسوق الإنسان إلى الفساد عن طريق محتواه و مضامينه، و قد يكون عن كلا الطريقين كما هو الحال فى أشعار و تأليفات المغنّين الغراميّة العاديّة المضلّلة فى محتواها و ألحانها.

أو يكون كالقصص الخرافية و الأساطير التى تؤدّى إلى انحراف الناس عن الصراط المستقيم.

أو يكون كلام الاستهزاء و السخرية الذى يطلق بهدف محو الحقّ و تضعيف أسس و دعائم الإيمان، كالذى ينقلونه عن أبى جهل أنّه كان يقف على قريش و يقول: أ تريدون أن أطعمكم من الزقّوم الذى يتهدّدنا به محمّد؟ ثمّ يبعث فيحضرون الزبد و التمر، فكان يقول: هذا هو الزقّوم! و بهذا الأسلوب كان يستهزئ بآيات اللّه.

و على كلّ حال، فإنّ للهو الحديث معنى واسعا يتضمّن كلّ هذه المعانى و أمثالها، و إذا أشارت الروايات الإسلامية و كلمات المفسّرين إلى إحداها، فإنّ ذلك لا يدلّ مطلقا على انحصار معنى الآية فيه.

و تلاحظ فى الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام تعبيرات تبيّن سعة معنى هذه الكلمة، و من جملتها ما نراه

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «الغناء مجلس لا ينظر اللّه إلى أهله، و هو ممّا قال اللّه عزّ و جلّ: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [۴].

و التعبير ب لَهْوَ الْحَدِيثِ بدلا من (حديث اللهو) ربّما كان إشارة إلى أنّ الهدف الأساس لهؤلاء هو اللهو و العبث، و الكلام و الحديث وسيلة للوصول إليه.

و لجملة لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مفهوم واسع أيضا، يشمل الإضلال العقائدى، كما قرأنا ذلك فى قصّة النضر بن الحارث و أبى جهل، و كذلك يشمل الإفساد الأخلاقى كما جاء فى أحاديث الغناء.

و التعبير ب بِغَيْرِ عِلْمٍ إشارة إلى أنّ هـذه الجماعـة الضالّة المنحرفة لا تؤمن حتّى بمذهبها الباطل، بل يتّبعون الجهل و التقليد الأعمى لا غير، فإنّهم جهلاء يورطون و يشغلون الآخرين بجهلهم.

هـذا إذا اعتبرنا بِغَيْرِ عِلْمٍ وصـفا للمضـلّين، إلّا أنّ بعض المفسّـرين اعتبر هـذا التعبير وصـفا للضالّين، أى أنّهم يجرّون الناس الجهلة إلى وادى الانحراف و الباطل دون أن يعلموا بذلك لجهلهم.

إنّ هؤلاء المغفّلين قـد يتمـادون فى غيّهم فلا يقنعون بلهو هـذه المسائل، بـل إنّهم يجعلون كلامهم الأجوف و لهو حـديثهم وسيلة للاستهزاء بآيات اللّه، و هذا هو الذى أشارت إليه نهاية الآية حيث تقول: وَ يَتَّخِذَها هُزُواً.

أمّا وصف العذاب ب (المهين) فلأنّ العقوبة متناغمة مع الذنب، فإنّ هؤلاء قد استهزءوا بآيات اللّه و أهانوها، و لذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أعدّ لهم عذابا مهينا، إضافة إلى كونه أليما.

و أشارت الآيـة التاليـة إلى ردّ فعل هـذه الفئـة أمام آيات اللّه، و توحى بالمقارنـة بردّ فعلهم تجاه لهو الحـديث، فتقول: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً أى ثقلا يمنعه من السماع ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷

ثمّ تذكر أخيرا عقاب مثل هؤلاء الأفراد الأليم فتقول: فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ

إنّ التعبير ب وَلَّى مُسْتَكْبِراً إشارة إلى أنّ إعراضه لم يكن نابعا من تضرّر مصالحه الدنيويّة و الحدّ من رغباته و شهواته فحسب، بل إنّ الأمر أكبر من ذلك، فإنّ فيه دافع التكبر أمام عظمة اللّه و آياته، و هو أعظم ذنب فيه.

و الرائع فى تعبير الآيـة أنّهـا تقول أوّلاـ إنّه لم يعبأ بآيات اللّه كأنّه لم يسـمعها قطّ، و يمرّ عليها دون اكتراث بها، ثمّ تضـيف: بل كأنّه أصمّ لا يسـمع أىّ كلام قطّ! إنّ جزاء مثل هؤلاء الأفراد يناسب أعمالهم، فكما أنّ أعمالهم كانت مؤلمـة و مؤذية لأهل الحقّ، فإنّ اللّه سبحانه قد جعل عقابهم و عذابهم أليما أيضا.

و ينبغى الالتفـات إلى أن تعبير (بشّـر) فى مورد العـذاب الإلـهى الأليم، يتناسب مع عمل المسـتكبرين الـذين كانوا يتّخـذون آيات اللّه هزوا، و التشبّه بصـفات أبى جهـل، حيث كـانوا يفسّـرون «زقّوم جهنّم» بالزبـد و التمر! ثمّ تعود الآيـات التاليـة إلى شـرح و تبيان حال المؤمنين الحقيقيّين، و قـد بـدأت السورة فى مقارنتها هذه بذكر حالهم أوّلا ثمّ ختمت به فى نهاية هذا المقطع أيضا، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ

أجل، إنّ هذه الفئة على عكس المسـتكبرين و الضالّين المضلّين الذين لا يرون آثار قدرة اللّه فى عالم الوجود، و لا يصغون إلى كلام أنبياء اللّه.

إنّ هؤلاء يؤمنون بحكم العقل الواعى، و العين البصيرة، و الاذن السامعة التى منحهم اللّه إيّاها، يؤمنون بآيات اللّه و يعملون بها صالحا، فمـا أجـدر أن يكون لأولئـك العـذاب الألـيم، و لهؤلاـء جنّات النعيم! و الأهـمّ من ذلـك أنّ هـذه الجنان الوافرة النعم خالـدة لهؤلاء خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا و اللّه سبحانه لا يعد كذبا، و ليس عاجزا عن الوفاء بوعوده وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

و ثمّة مسألة تستحقّ الدقّة، و هى أنّه قد ورد العذاب فى حقّ المستكبرين بصيغة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸

المفرد، و فى شأن المؤمنين الذين يعملون الصالحات جاءت «الجنّات» بصيغة الجمع، و ذلك لأنّ رحمة اللّه عزّ و جلّ وسعت غضبه.

و التأكيد على الخلود و وعد اللّه الحقّ، تأكيد أيضا على سعة هذه الرحمة، و تفوّقها على الغضب.

و للنعيم معنى واسع يشـمل كلّ أنواع النعم الماديّة و المعنوية، و حتّى النعم التى لا يمكن أن ندركها، فنحن أسارى شـهوات البدن فى هذه الدنيا، و الراغب فى (مفرداته) يقول: النعيم: النعمة الكثيرة.

بحوث

۱- تحريم الغناء

لا شكّ فى أنّ الغناء بصورة إجمالية حرام على المشهور بين علماء الشيعة، و تصل هذه الشهرة إلى حدّ الإجماع.

و أكّد كثير من علماء أهل السنّة على هذه الحرمة، و إن كان بعضهم قد استثنوا بعض الأمور، و ربّما لا يعدّ بعضها استثناء فى الحقيقة، بل تعتبر خارجة عن موضوع الغناء، أو كما يقال: خارج تخصّصا.

يقول «القرطبى» فى ذيل الآيات مورد البحث فى هذا الباب: «و هو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذى يحرّك النفوس و يبعثها على الهوى و الغزل، و المجون الذى يحرّك الساكن و يبعث الكامن، فهذا النوع إذا كان فى شعر يشبّب فيه بذكر النساء و وصف محاسنهن و ذكر الخمور و المحرّمات لا يختلف فى تحريمه، لأنّه اللهو و الغناء المذموم بالاتّفاق، فامّا ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح، كالعرس و العيد و عند التنشيط على الأعمال الشاقّة كما كان فى حفر الخندق و حدو أنجشة و سلمة بن الأكوع، فامّا ما ابتدعته الصوفية اليوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹

من الإدمان على سماع الأغانى بالآلات المطربة من الشبابات و الطار و المعازف و الأوتار فحرام»[۵].

إنّ ما ذكره القرطبى و بيّنه كاستثناء، من قبيل الحداء للإبل، أو الأشعار الخاصّة التى كان يقرؤها المسلمون أثناء حفر الخندق، يحتمل قويّا أنّه لم يكن من الغناء أساسا، فهو شبيه بالأشعار التى يقرؤها جماعة بلحن خاصّ فى المسيرات أو مجالس الفرح و مجالس العزاء الدينيّة.

و فى أيدينا أدلّة كثيرة على تحريم الغناء فى المصادر الإسلامية، و من جملتها الآية أعلاه: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ و بعض آيات أخر من القرآن التى تنطبق- على الأقلّ طبق الروايات الواردة فى تفسير هذه الآيات- على الغناء، أو أنّ الغناء اعتبر من مصاديقها:

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير آية: وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ[۶] قال:

«قول الزور الغناء»[۷].

و

عنه عليه السّلام فى تفسير الآية: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ[۸] قال: «الغناء»[۹].

و

قد رويت فى تفسير هذه الآية روايات عديدة عن الإمام الباقر و الصادق و الرضا عليهم السّلام أوضحوا فيها أنّ أحد مصاديق لهو الحديث الموجب للعذاب المهين هو «الغناء»[۱۰].

إضافة إلى هذا فإنّه تلاحظ فى المصادر الإسلامية روايات كثيرة اخرى- عدا ما ورد فى تفسير الآيات- تبيّن تحريم الغناء بصورة مؤكّدة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰

ففى حديث مروى عن جابر بن عبد اللّه، عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «كان إبليس أوّل من تغنّى»[۱۱].

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «بيت الغناء لا تؤمن فيه الفجيعة، و لا تجاب فيه الدعوة، و لا يدخله الملك»[۱۲].

و

فی حدیث آخر علیه السّلام: «الغناء یورث النفاق، و یعقب الفقر»[۱۳].

و

فی حدیث آخر عن الصادق علیه السّلام: «المغنّیة ملعونة، و من أدّاها ملعون، و آکل کسبها ملعون»[۱۴].

و قد نقلت روایات کثیرة فی هذا المجال فی کتب أهل السنّة المعروفة أیضا، و من جملتها الروایة التی

نقلها فی (الدرّ المنثور) عن جماعة کثیرة من المحدّثین، عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله، أنّه قال: «لا یحلّ تعلیم المغنّیات و لا بیعهنّ، و أثمانهنّ حرام»[۱۵].

و نقل نظیر هذا المعنی کاتب (التاج) عن الترمذی و الإمام أحمد[۱۶].

و

یروی ابن مسعود عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «الغناء ینبت النفاق فی القلب کما ینبت الماء البقل»[۱۷].

و بالجملة، فإنّ الرّوایات الواردة فی هذا الباب کثیرة جدّا بحیث تصل إلی حدّ التواتر، و لهذا فإنّ أکثر علماء الإسلام قد أفتوا بالحرمة، علاوة علی علماء الشیعة، الذین یتّفقون بالرأی فی هذا الموضوع تقریبا، و قد نقل تحریمه عن أبی حنیفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱

أیضا، و عند ما سألوا «أحمد»- إمام السنّة المعروف- عن الغناء قال: ینبت النفاق.

و قال «مالک»- إمام أهل السنّة المعروف- مجیبا عن هذا السؤال: یفعله الفسّاق.

و صرّح «الشافعی» بأنّ شهادة أصحاب الغناء غیر مقبولة، و هذا بنفسه دلیل علی فسق هؤلاء.

و نقل عن أصحاب الشافعی أیضا أنّهم اعتبروا فتوی الشافعی تحریما، علی خلاف ما اعتقده البعض ۱۸].

۲- ما هو الغناء؟

لا یواجهنا إشکال مهم فی حرمة الغناء، إنّما الإشکال الصعب هو تشخیص موضوع الغناء، فهل أنّ کلّ صوت حسن غناء؟

من المسلّم أنّ الأمر لیس کذلک، لأنّه قد ورد فی الرّوایات الإسلامیة، و سیرة المسلمین تحکی أیضا، أن اقرؤوا القرآن و أذّنوا بصوت حسن.

هل أنّ الغناء کلّ صوت فیه ترجیع- و هو تردّد الصوت فی الحنجرة-؟ هذا أیضا غیر ثابت.

و الذی یمکن استفادته من مجموع کلمات فقهاء و أقوال أهل السنّة فی هذا المجال، أنّ الغناء هو کلّ لحن و صوت یطرب، و یشتمل علی اللهو و الباطل.

و بعبارة أوضح: الغناء هو الأصوات و الألحان التی تناسب مجالس الفسق و الفجور، و أهل المعصیة و الفساد.

و بتعبیر آخر: الغناء یقال للصوت الذی یحرّک القوی الشهوانیة فی الإنسان، بحیث یشعر الإنسان فی تلک الحال بأنّه لو کان إلی جانب هذا الصوت خمر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲

و مسکر و إباحة و فساد جنسی، لکان ذلک مناسبا جدّا! و هناک مسألة تستحقّ الانتباه، و هی أنّ بعض الألحان تعدّ أحیانا غناء و لهوا باطلا بذاتها و محتواها، مثال ذلک أشعار العشق و الغرام و الأشعار المفسدة التی تقرأ بألحان و موسیقی راقصة.

و قد تکون الألحان بذاتها غناء أحیانا اخری، مثال الأشعار الجیدة، أو آیات القرآن و الدعاء و المناجاة التی تقرأ بلحن یناسب مجالس

الفاسدين و الفسّاق، و هو حرام فى كلام الصورتين «فتأمّل».

و ثمّـة مسألـة ينبغى ذكرهـا، و هى أنّه يـذكر للغنـاء معنيـان: معنى عـامّ، و معنى خـاصّ، و المعنى الخـاصّ هـو مـا ذكرنـاه أعلاه، أى الموسيقى و الألحان التى تحرّك الشهوات، و تناسب مجالس الفسق و الفجور.

و المعنى العامّ هو كلّ صوت حسن، فمن فسّر الغناء بالمعنى العامّ قسّمه إلى قسمين: غناء حلال، و غناء حرام.

و المراد من الغناء الحرام: هو ما قيل أعلاه، و المراد من الغناء الحلال: الصوت الحسن الجميل و الـذى لا يكون باعثا على الفساد، و لا يناسب مجالس الفسق و الفجور.

و بناء على هذا فلا يوجد اختلاف- تقريبا- فى أصل تحريم الغناء، بل الاختلاف فى كيفية تفسيره.

و من الطبيعى أن يكون للغناء موارد شكّ- ككلّ المفاهيم الاخرى- و أنّ الإنسان لا يعلم حقّا هل أنّ الصوت الفلانى يناسب مجالس الفسق و الفجور، أم لا؟ و فى هذه الصورة يحكم بالحلّية بحكم أصل البراءة، و هذا- طبعا- بعد الإحاطة الكافية بالمفهوم العرفى للغناء طبق التعريف أعلاه.

و من هنا يتّضح أنّ الأصوات و الموسيقى الحماسية التى تناسب ساحات الحرب أو الرياضة و أمثالها لا دليل على حرمتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳

و من الطبيعى أنّ هنـاك بحوثـا أخرى فى باب الغناء، من قبيل بعض الاسـتثناءات التى قبلها جماعـة و أنكرها آخرون، و مسائل أخرى ينبغى الكلام عنها فى الكتب الفقهيّة.

و الكلام الأخير هو أنّ ما ذكر أعلاه يتعلّق بالغناء، و أمّا استعمال الآلات الموسيقية و حرمتها، فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

۳- فلسفة تحريم الغناء:

إنّ التدقيق فى مفهوم الغناء- مع الشروط التى قلناها فى شرح هذا المفهوم- تجعل الغاية من تحريم الغناء واضحة جدّا.

فبنظرة سريعة إلى معطيات الغناء سنواجه المفاسد أدناه:

أوّلا: الترغيب و الدعوة إلى فساد الأخلاق.

لقـد بيّنت التجربـة- و التجربـة خير شاهـد- أنّ كثيرا من الأفراد الواقعين تحت تأثير موسـيقى و ألحان الغناء قـد تركوا طريق التقوى، و اتّجهوا نحو الشهوات و الفساد.

إنّ مجلس الغناء- عادة- يعدّ مركزا لأنواع المفاسد، و الدافع على هذه المفاسد هو الغناء.

و نقرأ فى بعض التقارير التى وردت فى الصـحف الأجنبية أنّه كان فى مجلس جماعة من الفتيان و الفتيات فعزفت فيه موسـيقى خاصّة و على نمـط خاص من الغناء، فهيّجت الفتيان و الفتيات إلى الحـدّ الـذى هجم فيه بعضـهم على البعض الآخر، و عملوا من الفضائح ما يخجل القلم عن ذكره.

و ينقل فى تفسير (روح المعانى) حديثا عن أحد زعماء بنى أميّة أنّه قال لهم:

إيّاكم و الغناء فإنّه ينقص الحياء، و يزيد فى الشهوة، و يهدم المروءة، و إنّه ينوب عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴

الخمر، و يفعل ما يفعل السكر[۱۹]. و هذا يبيّن أنّه حتّى أولئك كانوا مطّلعين على مفاسده أيضا.

و عند ما نرى فى الرّوايات الإسلامية:

أنّ الغناء ينبت النفاق،

فإنّه إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ روح النفاق هى روح التلوّث بالفساد و الابتعاد عن التقوى.

و إذا جاء فى الرّوايات أنّ الملائكة لا تدخل البيت الذى فيه غناء، فبسبب التلوّث بالفساد، لأنّ الملائكة طاهرة تطلب الطهارة، و تتأذّى من هذه الأجواء الملوّثة.

ثانيا: الغفلة عن ذكر اللّه:

إنّ التعبير باللهو الذى فسّر بالغناء فى بعض الرّوايات الإسلامية إشارة إلى حقيقة أنّ الغناء يجعل الإنسان عبدا ثملا من الشهوات حتّى يغفل عن ذكر اللّه.

و فى الآيات أعلاه قرأنا أنّ «لهو الحديث» أحد عوامل الضلالة عن سبيل اللّه، و موجب للعذاب الأليم.

فى حديث عن على عليه السّلام: «كلّ ما ألهى عن ذكر اللّه (و أوقع الإنسان فى و حل الشهوات) فهو من الميسر»[۲۰]

- أى فى حكم القمار-.

ثالثا: الإضرار بالأعصاب:

إنّ الغناء و الموسيقى- فى الحقيقة- أحد العوامل المهمّة فى تخدير الأعصاب، و بتعبير آخر: إنّ الموادّ المخدّرة ترد البدن عن طريق الفمّ و الشرب أحيانا كالخمر، و أحيانا عن طريق الشمّ و حاسّة الشمّ كالهيروئين، و أحيانا عن طريق التزريق كالمورفين، و أحيانا عن طريق حاسّة السمع كالغناء.

و لهذا فإنّ الغناء و الموسيقى المطربة قد تجعل الأفراد منتشين أحيانا إلى حدّ يشبهون فيه السكارى، و قد لا يصل إلى هذه المرحلة أحيانا، و لكنّه يوجد تخديرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵

خفيفا، و لهذا فإنّ كثيرا من مفاسد المخدّرات موجودة فى الغناء، سواء كان تخديره خفيفا أم قويّا.

«إنّ الانتباه بدقّة إلى سيرة مشاهير الموسيقيين يبيّن أنّهم قد واجهوا تدريجيّا مصاعب و صدمات نفسية خلال مراحل حياتهم حتّى فقدوا أعصابهم شيئا فشيئا، و ابتلى عدد منهم بأمراض نفسية، و جماعة فقدوا مشاعرهم و ساروا إلى دار المجانين، و بعضهم أصيبوا بالشلل و العجز، و بعضهم أصيب بالسكتة، حيث ارتفع ضغط الدم عندهم أثناء عزف الموسيقى»[۲۱].

و قد جاء فى بعض الكتب التى كتبت فى مجال لآثار المضرّة للموسيقى على أعصاب الإنسان، حالات جمع من الموسيقيين و المغنّين المعروفين الذين أصيبوا بالسكتة و موت الفجأة أثناء أداء برامجهم، و زهقت أرواحهم فى ذلك المجلس ۲۲].

و خلاصة القول فإنّ الآثار المضرّة للغناء و الموسيقى على الأعصاب تصل إلى حدّ إيجاد الجنون، و تؤثّر على القلب و تؤدّى إلى ارتفاع ضغط الدم و غير ذلك من الآثار المخرّبة.

و يستفاد من الإحصاءات المعدّة للوفيات فى عصرنا الحالى بأنّ معدّل موت الفجأة قد إزداد بالمقارنة مع السابق، و قد ذكروا أسبابا مختلفة كان من جملتها الغناء و الموسيقى.

رابعا: الغناء أحد وسائل الاستعمار:

إنّ مستعمرى العالم يخافون دائما من وعى الشعوب، و خاصّة الشباب، و لذلك فإنّ جانبا من برامجهم الواسعة لاستمرار و إدامة الاستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفلة و الجهل و الضلال، و توسعة وسائل اللهو المفسدة.

إنّ المخدّرات لا تتّصف اليوم بصفة تجارية فقط، بل هى أحد الوسائل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶

السياسية المهمّة، فإنّ السياسات الاستعمارية تسعى إلى إيجاد مراكز الفحشاء و نوادى القمار و وسائل اللهو الفاسدة الاخرى، و من جملتها توسعة و نشر الغناء و الموسيقى، و هى من أهمّ الوسائل التى يصرّ عليها المستعمرون لتخدير أفكار الناس، و لهذا فإنّ

الموسیقی تشکّل القسم الأکبر من وقت إذا عات العالم و وسائل الإعلام الأساسیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷

الآیتان [سورة لقمان (۳۱): الآیات ۱۰ الی ۱۱]

اشارة

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقی فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ وَ بَثَّ فِیها مِنْ کُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ (۱۰) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِینَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۱۱)

التّفسیر

هذا خلق اللّه:

مواصلة للبحث حول القرآن و الإیمان به فی الآیات السابقة، تتحدّث الآیتان أعلاه عن أدلّة التوحید الذی هو أهمّ الأصول العقائدیة.

تشیر الآیة الاولی إلی خمسة أقسام من مخلوقات اللّه التی ترتبط مع بعضها ارتباطا وثیقا لا ینفصل، و هی: خلق السماء، و کون الکواکب معلّقة فی الفضاء، و خلق الجبال لتثبیت الأرض، ثمّ خلق الدواب، و بعد ذلک الماء و النباتات التی هی وسیلة تغذیتها، فتقول: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها.

(العمد) جمع (عمود)، و تقیید بنائها و إقامتها ب تَرَوْنَها دلیل علی أنّه لیس لهذه السماء أعمدة مرئیّة، و معنی ذلک أنّ لها أعمدة إلّا أنّها غیر قابلة للرؤیة، و کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸

قلنا قبل هذا فی تفسیر سورة الرعد أیضا، فإنّ هذا التعبیر إشارة لطیفة إلی قانون الجاذبیّة الذی یبدو کالعمود القویّ جدّا، إلّا أنّه غیر مرئیّ، یحفظ الأجرام السماویة.

و قد صرّح

فی حدیث رواه حسین بن خالد، عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام، أنّه قال: «سبحان اللّه! ألیس اللّه یقول: بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها؟ قلت: بلی، قال: «ثمّ عمد و لکن لا ترونها»[۲۳][۲۴].

و علی کلّ حال، فإنّ الجملة أعلاه أحد معاجز القرآن المجید العلمیّة، و قد أوردنا تفصیلا أکثر عنها فی ذیل الآیة (۲) من سورة الرعد.

ثمّ تقول الآیة فی الغایة من خلق الجبال: وَ أَلْقی فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ ۲۵].

إنّ هذه الآیة التی لها نظائر کثیرة فی القرآن، توضّح أنّ الجبال وسیلة لتثبیت الأرض، و قد تثبت هذه الحقیقة الیوم من الناحیة العلمیّة من جهات عدیدة:

فمن جهة أنّ أصولها مرتبطة مع بعضها، و هی کالدرع المحکم یحفظ الکرة الأرضیة أمام الضغوط الناشئة من الحرارة الداخلیة، و لو لا هذه الجبال فإنّ الزلازل المدمّرة کانت ستبلغ حدّا ربّما لا تدع معه للإنسان مجالا للحیاة.

و من جهة أنّ هذه السلسلة المحکمة تقاوم جاذبیة القمر و الشمس الشدیدة، و إلّا فسیحدث جزر و مدّ عظیمان فی القشرة الأرضیة أقوی من جزر و مدّ البحار، و تجعل الحیاة بالنسبة للإنسان مستحیلة.

و من جهة أنّها تقف سدّا أمام العواصف و الرياح العاتية، و تقلّل من تماسّ الهواء

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹

المجاور للأرض عنـد دوران الأرض حول نفسـها إلى أقلّ حـدّ، و لو لم تكن هـذه الجبال لكان سـطح الأرض كالصـحارى اليابسة، و عرضة للأعاصير و الزوابع المهلكة، و العواصف الهوجاء المدمّرة ليل نهار[۲۶].

و بعـد ذكر نعمـة اسـتقرار السـماء بأعمـدة الجاذبية. و اسـتقرار و ثبات الأرض بواسـطة الجبال، تصل النوبة إلى خلق الكائنات الحيّة و استقرارها، بحيث تستطيع أن تضع أقدامها فى محيط هادئ مطمئن، فتقول: وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ.

إنّ التعبير ب مِنْ كُلِّ دابَّةٍ إشارة إلى تنوّع الحياة فى صور مختلفـة، ابتداء من الكائنات الحيّة المجهرية و التى ملأت جميع الأرجاء إلى الحيوانات العملاقة و المخوفة.

و كذلك الحيوانات المختلفة الألوان، و المتفاوتة الأشـكال التى تعيش فى الماء و الهواء من الطيور و الزواحف، و الحشرات المختلفة و أمثالها، و التى لكلّ منها عالمها الخاصّ تعكس الحياة فى مئات الآلاف من المرايا.

إلّا أنّ من المعلوم أنّ هـذه الحيوانات تحتاج إلى الماء و الغذاء، و لذلك فإنّ الجملة التالية أشارت إلى هذا الموضوع، فقالت: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

و بهذا فإنّ الآية تبيّن أساس حياة كلّ الحيوانات- و خاصّة الإنسان- و الذى يكوّنه الماء و النبات، فالكرة الأرضـية تعتبر سـماطا واسـعا ذا أغذية متنوّعة يمتدّ فى جميع أنحائها، و يصلح لكلّ نوع منها حسب خلقته، ممّا يدلّ على عظمة الخالق جلّ و علا.

و ممّـا يسـتحقّ الانتبـاه هو أنّه فى بيان خلق الأقسام الثلاثـة الاولى ذكرت الأفعال بصـيغة الغائب، و حين وصل الأمر إلى نزول المطر و نمو النباتات أتت

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰

الأفعال بصيغة المتكلّم، فيقول: نحن أنزلنا من السماء ماء، و نحن أنبتنا النباتات فى الأرض.

و هذا بنفسه أحد فنون الفصاحة، حيث إنّهم عند ما يريدون ذكر امور مختلفة، فإنّهم يبيّنونها بشكلين أو أكثر، كى لا يشعر السامع بأىّ نوع من الضجر و الرتابة، إضافة إلى أنّ هذا التعبير يوضّح أنّ نزول المطر و نمو النبات كانا محطّ اهتمام خاصّ.

ثمّ تشير هـذه الآية مرّة أخرى إلى مسألة (الزوجيّة فى عالم النباتات) و هى أيضا من معجزات القرآن العلميّة، لأنّ الزوجيّة- أى وجود الـذكر و الأنثى- فى عالم النباتات لم تكن ثابتة فى ذلك الزمان بصورة واسـعة، و القرآن كشف السـتار عنها. و لزيادة التفصـيل حول هذه المسألة يمكنكم مراجعة ذيل الآية (۷) من سورة الشعراء.

ثمّ إنّ وصف أزواج النباتات ب «الكريم» إشارة ضمنية إلى أنواع المواهب الموجودة فيها.

بعد ذكر عظمة اللّه فى عالم الخلقة، و ذكر صور مختلفة من المخلوقات، وجّهت الآية الخطاب إلى المشركين، و جعلتهم موضع سؤال و استجواب، فقالت: هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ! من المسـلّم أنّ أولئك لم يكونوا يسـتطيعون ادّعاء كون أىّ من المخلوقات من خلق الأصـنام، و على هذا فإنّهم كانوا يقرّون بتوحيد الخالق، مع هذا الحال كيف يستطيعون تعليل الشرك فى العبادة؟! لأنّ توحيد الخالق دليل على توحيد الربّ و كون مدبّر العالم واحدا، و هو دليل على توحيد العبوديّة.

و لذلك اعتبرت الآية عمل أولئك منطبقا على الظلم و الضلال، فقالت: بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و معلوم أنّ «الظلم» له معنى واسعا يشمل وضع كلّ شىء فى غير موضعه، و لمّا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱

كان المشركون يربطون العبادة، و تدبير العالم أحيانا بالأصنام، فإنّهم كانوا مرتكبين لأكبر ظلم و ضلالة.

ثمّ إنّ التعبير أعلاه يتضـمّن إشارة لطيفـة إلى ارتباط «الظلم» و «الضـلال»، لأنّ الإنسان عنـد ما لا يعرف مكانة الموجودات الموضوعية

فی العالم، أو یعرفها و لا یراعیها، و لا یری کلّ شیء فی مکانه، فمن المسلّم أنّ هذا الظلم سیکون سببا للضلالة و الضیاع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲

الآیات [سورة لقمان (۳۱): الآیات ۱۲ الی ۱۵]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۱۲) وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۱۳) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۱۴) وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۵)

التّفسیر

احترام الوالدین:

لتکمیل البحوث السابقة حول التوحید و الشرک، و أهمیّة و عظمة القرآن، و الحکمة التی استعملت و اتّبعت فی هذا الکتاب السماوی، فقد ورد الکلام فی هذه الآیات التی نبحثها و الآیات الاخری التالیة عن لقمان الحکیم، و عن جانب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳

من المواعظ المهمّة لهذا الرجل المتألّه فی باب التوحید و محاربة الشرک، و قد انعکست المسائل الأخلاقیّة المهمّة فی مواعظ لقمان لابنه.

إنّ هذه المواعظ العشرة التی ذکرت ضمن ستّ آیات، قد بیّنت بأسلوب رائع المسائل العقائدیة، إضافة إلی أصول الواجبات الدینیّة و المباحث الأخلاقیة.

و سنبحث فیما بعد- فی بحث الملاحظات- إن شاء اللّه تعالی، من هو لقمان؟

و أیّة خصائص کان یمتلکها؟ و لکنّ ما نذکره هنا هو أنّ القرائن تبیّن أنّه لم یکن نبیّا، بل کان رجلا ورعا مهذّبا انتصر فی میدان جهاد هوی النفس، فکان أن فجّر اللّه تعالی فی قلبه ینابیع العلم و الحکمة.

و یکفی فی عظمة مقامه أنّ اللّه قد قرن مواعظه بکلامه، و ذکرها فی طیّات آیات القرآن.

أجل .. عند ما یتنوّر قلب الإنسان بنور الحکمة نتیجة للطهارة و التقوی، فإنّ الکلام الإلهی یجری علی لسانه، و یقول ما یقوله اللّه، و یفکّر بالشکل الذی یرضاه اللّه! بعد هذا التوضیح الموجز نعود إلی تفسیر الآیات:

تقول الآیة الاولی: وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[۲۷].

فما هی الحکمة؟

فی معرض الحدیث عن ماهیة الحکمة ینبغی القول: إنّهم قد ذکروا للحکمة معانی کثیرة، مثل: معرفة أسرار عالم الوجود، و الإحاطة و العلم بحقائق القرآن،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴

و الوصول إلی الحقّ من جهة القول و العمل، و معرفة اللّه.

إلّا أنّ کلّ هـذه المعانی یمکن جمعها فی تعریف واحـد، فالحکمـة التی یتحـدّث عنها القرآن، و التی کان اللّه قد آتاها لقمان، کانت مجموعة من المعرفة و العلم، و الأخلاق الطاهرة و التقوی و نور الهدایة.

و

فی حدیث عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام، أنّه قال لهشام بن الحکم فی تفسیر هذه الآیة: «إنّ الحکمة هی الفهم و العقل»[۲۸].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة، أنّه قال: «أوتی معرفة إمام زمانه»[۲۹].

و من الواضح أنّ کلّا من هذه المفاهیم یعتبر أحد فروع معنی الحکمة الواسع، و لا منافاة بینها.

و علی کلّ حال، فإنّ لقمان بامتلاکه هذه الحکمة کان یشکر اللّه، فقد کان یعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهیّة، و کیفیّة استغلالها و الاستفادة منها، و کان یضعها بدقّة و صواب کامل فی مکانها المناسب لتحقیق الهدف الذی خلقت من أجله، و هذه هی الحکمة، هی وضع کلّ شیء فی موضعه، و بناء علی هذا فإنّ الشکر و الحکمة یعودان إلی نقطة واحدة.

و قد اتّضحت نتیجة الشکر و الکفران للنعم بصورة ضمنیة فی الآیة، و هی أنّ شکر النعمة سیکون من صالح الإنسان و فی منفعته، و أنّ کفران النعمة سیکون سببا لضرره أیضا، لأنّ اللّه سبحانه غنیّ عن العالمین، فلو أنّ کلّ الممکنات قد شکرته فلا یزید فی عظمته شیء، و لو أنّ کلّ الکائنات کفرت فلا ینقص من کبریائه شیء! إنّ «اللام» فی جملة أَنِ اشْکُرْ لِلَّهِ لام الإختصاص، و «اللام» فی لِنَفْسِهِ لام النفع، و بناء علی هذا، فإنّ نفع الشکر، و الذی هو دوام النعمة و کثرتها، إضافة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵

إلی ثواب الآخرة یعود علی الإنسان نفسه، کما أنّ مضرّة الکفر تحیق به فقط.

و التعبیر ب غَنِیٌّ حَمِیدٌ إشارة إلی شکر الناس للأفراد العادیین أمّا أن یؤدّی إلی النفع المادّی للمشکور، أو زیادة مکانة صاحبه فی أنظار الناس، إلّا أنّ أیّا من هذین الأمرین لا- معنی له و لا مصداق فی حقّ اللّه تعالی، فإنّه غنیّ عن الجمیع، و هو أهل لحمد کلّ الحامدین و ثنائهم، فالملائکة تحمده، و کلّ ذرّات الوجود و الموجودات مشغولة بتسبیحه، و إذا ما نطق إنسان بالکفر فلیس له أدنی تأثیر، فحتّی ذرّات وجوده مشغولة بحمده و ثنائه بلسان الحال! و ممّا یجدر ذکره أنّ الشکر قد ذکر بصیغة المضارع، و الذی یدلّ علی الاستمرار، أمّا الکفر فقد جاء بصیغة الماضی الذی یصدق حتّی علی المرّة الواحدة، و هذا إشارة إلی أنّ الکفران و لو لمرّة واحدة یمکن أن یؤدّی إلی عواقب و خیمة مؤلمة، أمّا الشکر فإنّه لازم، و یجب أن یکون مستمرّا لیطوی الإنسان مسیره التکاملی.

و بعد تعریف لقمان و مقامه العلمی و الحکمی، أشارت الآیة التالیة إلی اولی مواعظه، و هی فی الوقت نفسه أهمّ وصایاه لولده، فقالت: وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ یَعِظُهُ یا بُنَیَّ لا تُشْرِکْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ

إنّ حکمة لقمان توجب علیه أن یتوجّه قبل کلّ شیء إلی أهمّ المسائل الأساسیة، و هی مسألة التوحید .. التوحید فی کلّ المجالات و الأبعاد، لأنّ کلّ حرکة هدّامة ضدّ التوجّه الإلهی تنبع من الشرک، من عبادة الدنیا و المنصب و الهوی و أمثال ذلک، و الذی یعتبر کلّ منها فرعا من الشرک.

کما أنّ أساس کلّ الحرکات الصحیحة البنّاءة هو التوحید و التوجّه إلی اللّه، و إطاعة أوامره، و الابتعاد عن غیره، و کسر کلّ الأصنام فی ساحة کبریائه! و ممّا یستحقّ الإشارة أنّ لقمان الحکیم قد جعل علّة نفی الشرک هو أنّ الشرک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶

ظلم عظیم، و قد احیط بالتأکید من عدّة جهات [۳۰].

و أىّ ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا قيمة لها فى مصافّ اللّه و درجته، هذا من جانب، و من جانب آخر يجرّون الناس إلى الضلال و الانحراف، و يظلمونهم بجناياتهم و جرائمهم، و هم يظلمون أنفسهم أيضا حيث ينزلونها من قمّة عزّة العبودية للّه و يهوون بها إلى منحدر ذلّة العبودية لغيره.

و الآيتان التاليتان جمل معترضة ذكرها اللّه تعالى فى طيّات مواعظ لقمان، لكنّ هذا الاعتراض لا يعنى عدم الاتّصال و الارتباط، بل يعنى الصلة الواضحة لكلام اللّه عزّ و جلّ بكلام لقمان، لأنّ فى هاتين الآيتين بحثا عن نعمة وجود الوالدين و مشاقّهما و خدماتهما و حقوقهما، و جعل شكر الوالدين فى درجة شكر اللّه.

إضافة إلى أنّهما تعتبران تأكيدا على كون مواعظ لقمان لابنه خالصة، لأنّ الوالدين مع هذه العلاقة القويّة و خلوص النيّة لا يمكن أن يذكرا فى مواعظهما إلّا ما فيه خير و صلاح الولد، فتقول أوّلا: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ و عندئذ تشير إلى جهود و متاعب الامّ العظيمة، فتقول: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ ۳۱].

و هذه المسألة قد ثبتت من الناحية العلمية، إذ أوضحت التجارب أنّ الامّهات فى فترة الحمل يصبن بالضعف و الوهن، لأنّهنّ يصرفن خلاصة وجودهنّ فى تغذية و تنمية الجنين، و يقدّمن له من موادهنّ الحياتية أفضلها، و لذلك فإنّ الامّهات أثناء فترة الحمل يبتلين بنقص أنواع الفيتامينات و فى حالة عدم تعويض هذا النقص فسيؤدّى إلى آلام و متاعب كثيرة.

و هذا الأمر يستمر حتّى فى فترة الرضاعة، لأنّ اللبن عصارة وجود الامّ، و لهذا تضيف بعد ذلك فترة رضاعه سنتان وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ كما أشير إلى ذلك فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷

موضع آخر من القرآن: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ ۳۲]، و المراد فترة الرضاعة الكاملة، و إن كانت تتمّ أحيانا بفترة أقلّ.

و على كلّ حال، فإنّ الامّ فى هذه ال (۳۳) شهرا- فترة الحمل، و فترة الرضاع- تبدى و تقدّم أعظم تضحية لولدها، سواء كان من الجانب الروحى و العاطفى، أو الجسمى، أو من جهة الخدمات و الرعاية.

و الملفت للنظر هنا أنّها توصى فى البداية بالوالدين معا، إلّا أنّها عند بيان المشاقّ و المتاعب تؤكّد على متاعب الامّ، لتنبّه الإنسان إلى إيثارها و تضحياتها و حقّها العظيم.

ثمّ تقول: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ فاشكرنى لأنّى خالقك و المنعم الأصلّى عليك، و منحتك مثل هذين الأبوين العطوفين الرحيمين، و اشكر والديك لأنّهما واسطة هذا الفيض و قد تحمّلا مسئولية إيصال نعمى إليك. فما أجمل أن يجعل شكر الوالدين قرين شكر اللّه! و ما أعمق مغزاه! و يقول اللّه تعالى فى نهاية الآية بنبرة لا تخلو من التهديد و العتاب: إِلَيَّ الْمَصِيرُ. نعم، فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كلّ هذه الحقوق و المصاعب و الخدمات بدقّة فيجب على الإنسان أن يؤدّى ما عليه من شكر مواهب اللّه.

و كذلك شكر نعمة وجود الأبوين و عواطفهما الصادقة الطاهرة لينجح فى ذلك الحساب و تلك المحكمة.

و فى هذا المجال التفت بعض المفسّرين إلى مسألة لطيفة، و هى أنّه قد ورد التأكيد على رعاية حقوق الأبوين مرارا فى القرآن المجيد، إلّا أنّ التوصية بالأولاد تلاحظ قليلا- ما عدا مورد النهى عن قتل الأولاد، و التى كانت عادة مشؤومة قبيحة و استثنائية فى عصر الجاهلية- و ذلك لأنّ الوالدين، و بحكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸

عواطفهما القويّة، قلّ ما يهملوا أولادهما بيد النسيان، فى حين يلاحظ بكثرة أنّ الأولاد ينسون الأبوين، و خاصّة عند الكبر و العجز، و تعتبر هذه آلم و أشدّ حالة لهما، و أسوأ صور كفران النعمة بالنسبة للأولاد[۳۳].

إنّ الوصيّة بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الاشتباه و الوهم عند البعض و ذلك حينما يظنّ أنّه يجب مداراتهما و اتّباعهما حتّى فى

مسألة العقيدة و الكفر و الإيمان، لكنّ الآية التالية تقول: وَ إِنْ جاهَداکَ عَلى أَنْ تُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما فيجب أن لا تكون علاقة الإنسان بأمّه و أبيه مقدّمة على علاقته باللّه مطلقا، و أن لا تكون عواطف القرابة حاكمة على عقيدته الدينيّة أبدا.

جملة جاهَداکَ إشارة إلى أنّ الأبوين قد يظنّان أحيانا أنّهما يريدان سعادة الولد، و يسعيان إلى جرّه إلى عقيدتهما المنحرفة و الإيمان بها، و هذا يلاحظ لدى كلّ الآباء و الامّهات.

إنّ واجب الأولاد أن لا يستسلموا أبدا أمام هذه الضغوط، و يجب أن يحافظوا على استقلالهم الفكرى، و لا يساوموا على عقيدة التوحيد، أو يبدّلوها بأىّ شيء.

ثمّ إنّ جملة ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ تشير ضمنا إلى أنّنا لو نتجاهل أدلّة بطلان الشرك، و لم نقم لها وزنا، فإنّه لا يوجد دليل على إثباته، و لا يستطيع أىّ متعنّت إثبات الشرك بالدليل.

و إذا تجاوزنا ذلك، فإنّ الشرك إن كانت له حقيقة، فينبغى أن يكون هناك دليل على إثباته، و لمّا لم يكن هناك دليل على إثباته، فإنّ هذا بنفسه دليل على بطلانه.

و لمّا كان من الممكن أيضا أن يوجد هذا الأمر توهّم وجوب استخدام الخشونة مع الوالدين المشركين و عدم احترامهما، و لذلك أضافت الآية أنّ عدم طاعتهما فى مسألة الشرك ليس دليلا على وجوب قطع العلاقة معهما، بل تأمره الآية أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٩

وَ صاحِبْهُما فِی الدُّنْیا مَعْرُوفاً.

فلاطفهما و أظهر المحبّة لهما فى الحياة الدنيويّة و المعاشرة، و لا تستسلم لأفكارهما و اقتراحاتهما من الناحية العقائدية و البرامج الدينيّة، و هذه بالضبط نقطة الاعتدال الأصليّة التى تجمع فيها حقوق اللّه و الوالدين، و لذا يضيف بعد ذلك وَ اتَّبِعْ سَبِیلَ مَنْ أَنابَ إِلَیَ لأنّ المصير إليه سبحانه ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

إنّ سبب النفى و الإثبات المتلاحق، و الأوامر و النواهى المتتابعة فى الآيات أعلاه هو أن يجد المسلمون الخطّ الأصلى و يشخّصوه فى مثل هذه المسائل، حيث يبدو فى أوّل الأمر أنّ هناك تناقضا فى أداء هذين الواجبين، فإن تفكّروا قليلا فإنّ المسير الصحيح سيكون نصب أعينهم، و سيسيرون فيه دون أدنى إفراط و لا تفريط، و هذه الدقّة و اللطافة القرآنية فى أمثال هذه الدقائق من صور فصاحة القرآن و بلاغته العميقة.

و على كلّ حال، فإنّ الآية أعلاه تشبه ما جاء فى الآية (٨) من سورة العنكبوت، حيث تقول: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداکَ لِتُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و قد أوردنا فى ذيل الآية (٨) من سورة العنكبوت سبب نزول لها ذكر فى بعض التفاسير.

بحثان

١- من هو لقمان؟

لقد ورد اسم «لقمان» فى آيتين من القرآن فى هذه السورة، و لا يوجد فى القرآن دليل صريح على أنّه كان نبيّا أم لا، كما أنّ أسلوب القرآن فى شأن لقمان يوحى بأنّه لم يكن نبيّا، لأنّه يلاحظ فى القرآن أنّ الكلام فى شأن الأنبياء عادة يدور حول الرسالة و الدعوة إلى التوحيد و محاربة الشرك و انحرافات البيئة، و عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٤٠

المطالبة بالأجر و المكافأة، و كذلك بشارة الأمم و إنذارها، فى حين أنّ أيّا من هذه الأمور لم يذكر فى شأن لقمان، و الذى ورد هو مجموعة مواعظ خاصّة مع ولده (رغم شموليتها و عموميتها)، و هذا دليل على أنّه كان رجلا حكيما و حسب.

و

فى حديثه عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «حقّا أقول: لم يكن لقمان نبيّا، و لكن كان عبدا كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبّ اللّه فأحبّه و منّ عليه بالحكمة».

و جاء فى بعض التواريخ: أنّ لقمان كان عبدا أسود من سودان مصر، و لكنّه إلى جانب وجهه الأسود كان له قلب مضىء و روح صافية، و كان يصدق فى القول من البداية، و لا يمزج الأمانة بالخيانة، و لم يكن يتدخّل فيما لا يعنيه [۳۴].

و احتمل بعض المفسّرين نبوّته، لكن- كما قلنا- لا يوجد دليل على ذلك، بل لدينا شواهد واضحة على نقيض ذلك.

و

جاء فى بعض الرّوايات: أنّ شخصا سأل لقمان: ألم تكون ترعى معنا؟ قال:

نعم.

قال الرجل: فمن أين أتاك كلّ هذا العلم و الحكمة؟

قال: قدر اللّه، و أداء الأمانة، و صدق الحديث، و الصمت عمّا لا يعنينى [۳۵].

و

ورد كذلك فى ذيل الحديث الذى نقلناه عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «كان لقمان نائما نصف النهار، إذ جاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك اللّه خليفة تحكم بين الناس بالحقّ؟ فأجاب الصوت: إن خيّرنى ربّى قبلت العافية، و لم أقبل البلاء، و إن عزم علىّ فسمعا و طاعة، فإنّى أعلم أنّه إن فعل بى ذلك أعاننى و عصمنى.

فقالت الملائكة: دون أن يراهم: لم يا لقمان؟

قال: لأنّ الحكم أشدّ المنازل و آكدها، يغشاه الظلم من كلّ مكان، إن وقى فبالحرى أن ينجو، و إن أخطأ أخطأ طريق الجنّة، و من يكن فى الدنيا ذليلا و فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱

الآخرة شريفا خير من أن يكون فى الدنيا شريفا و فى الآخرة ذليلا، و من يخيّر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا و لا يصيب الآخرة.

فتعجّبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فاعطى الحكمة، فانتبه يتكلّم بها»[۳۶].

۲- صور من حكمة لقمان

لقد ذكر بعض المفسّرين بعضا من كلمات لقمان الحكيمة مناسبة للمواعظ التى وردت فى آيات هذه السورة، و نحن نذكر هنا مختصرا منها:

أ- كان لقمان يقول لابنه: يا بنى، إنّ الدنيا بحر عميق، و قد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان باللّه، و اجعل شراعها التوكّل على اللّه، و اجعل زادك فيها تقوى اللّه، فإن نجوت فبرحمة اللّه، و إن هلكت فبذنوبك [۳۷].

و

قد ورد نفس هذا المطلب ضمن كلام الإمام الكاظم عليه السّلام مع هشام بن الحكم بصورة أكمل، نقلا عن لقمان الحكيم: «يا بنىّ،

إنّ الـدنيا بحر عميق، قـد غرق فيهـا عالم كثير، فلتكن سـفينتك فيها تقوى اللّه، و حشوها الإيمان، و شـراعها التوكّل، و قيّمها العقل، و دليلها العلم، و سكّانها الصبر»[۳۸].

ب- و فى حوار آخر مع ابنه حول آداب السفر يقول:

يا بنىّ، سافر بسيفك و خفّك و عمامتك، و خبائك و سقائك، و خيوطك و مخرزك، و تزوّد معك من الأدوية ما تنتفع به أنت و من معك، و كن لأصحابك موافقا إلّا فى معصية اللّه عزّ و جلّ.

يا بنىّ، إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم فى أمرك و أمورهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲

و أكثر التبسّم فى وجوههم.

و كن كريما على زادك بينهم.

و إذا دعوك فأجبهم، و إذا استعانوا بك فأعنهم.

و استعمل طول الصمت، و كثرة الصلاة، و سخاء النفس بما معك من دابّة أو ماء أو زاد.

و إذا استشهدوك على الحقّ فاشهد لهم.

و اجهد رأيك إذا استشاروك، ثمّ لا تعزم حتّى تتثبت و تنظر، و لا تجب فى مشورة حتّى تقوم فيها و تقعد، و تنام و تأكل و تصلّى، و أنت مستعمل فكرتك و حكمتك فى مشورته، فإنّ من لم يمحض النتيجة من استشاره سلبه اللّه رأيه.

و إذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم.

و اسمع لمن هو أكبر منك سنّا.

و إذا أمروك بأمر، و سألوك شيئا فقل: نعم، و لا تقل: لا، فإنّ (لا) عى و لؤم.

يا بنىّ، إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشىء، صلّها و استرح منها فإنّها دين.

و صلّ فى جماعة و لو على رأس زجّ.

و إن استطعت أن لا تأكل طعاما حتّى تبتدئ فتتصدّق منه فافعل.

و عليك بقراءة كتاب اللّه ۳۹].

ج- و ثمّة قصّة معروفة أيضا عن لقمان، و هى أنّ مولاه دعاه- يوم كان عبدا- فقال: اذبح شاة، فأتنى بأطيب مضـغتين منها، فذبح شاة، و أتاه بالقلب و اللسان.

و بعد عدّة أيام أمره أن يذبح شاة، و يأتيه بأخبث أعضائها، فذبح شاة و أتاه بالقلب و اللسان، فتعجّب و سأله عن ذلك فقال: إنّ القلب و اللسان إذا طهّرا فهما أطيب من كلّ شىء، و إذا خبثا كانا أخبث من كلّ شىء[۴۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳

و ننهى هذا البحث بحديث

عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام أنّه قـال: «و اللّه مـا اوتى لقمـان الحكمـة لحسب و لا مال و لا بسط فى جسم و لا جمال، و لكنّه كان رجلا قويّا فى أمر اللّه، متورّعا فى اللّه، ساكتا سكينا عميق النظر، طويل التفكّر، حديد البصر.

و لم ينم نهـارا قـطّ- أى أوّله- و لم يتكئ فى مجلس قـطّ- و هو عرف المتكبرين- و لم يتفـل فى مجلس قوم قـطّ، و لم يعبث بشـىء قطّ، و لم يره أحد من الناس على بول و لا غائط قطّ، و لا على اغتسال لشدّة تستّره و تحفّظه فى أمره.

و لم يمرّ بين رجلين يقتتلان أو يختصـمان إلّا أصلح بينهما، و لم يسمع قولا استحسنه من أحد قطّ إلّا سأله عن تفسيره و عمّن أخذه، و كان يكثر مجالسـة الفقهاء و العلماء، و يتعلّم من العلوم ما يغلب به نفسه، و يجاهـد به هواه، و كان لا يظعن إلّا فيما ينفعه، و لا ينظر إلّا

فیما یعنیه، فبذلک اوتی الحکمة و منح القضیّة»[۴۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴

الآیات [سورة لقمان (۳۱): الآیات ۱۶ الی ۱۹]

اشارة

یـا بُنَیَّ إِنَّها إِنْ تَکُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فِی صَـخْرَةٍ أَوْ فِی السَّماواتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ یَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ (۱۶) یا بُنَیَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ اصْبِرْ عَلی ما أَصابَکَ إِنَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۷) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اقْصِدْ فِی مَشْیِکَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِکَ إِنَّ أَنْکَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِیرِ (۱۹)

التّفسیر

أثبت کالجبل، و عامل الناس بالحسنی!

کانت اولی مواعظ لقمان عن مسألـة التوحیـد و محاربـة الشـرک، و ثانیتها عن حساب الأعمال و المعاد، و التی تکمّل حلقـة المبـدأ و المعـاد، فیقول: یـا بُنَیَّ إِنَّهـا إِنْ تَـکُ مِثْقـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فِی صَـخْرَةٍ أَوْ فِی السَّمـاواتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ یَأْتِ بِهَا اللَّهُ أی فی یوم القیامة و یضعها للحساب إِنَّ اللَّهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵

«الخردل»: نبات له حبّات سوداء صـغیرة جدّا یضرب المثل بصغرها، و هذا التعبیر إشارة إلی أنّ أعمال الخیر و الشرّ مهما کانت صغیرة لا قیمـة لها، و مهما کانت خفیّـة کخردلـة فی بطن صـخرة فی أعماق الأرض، أو فی زاویـة من السـماء، فإنّ اللّه اللطیف الخبیر المطّلع علی کـلّ الموجودات، صـغیرها و کبیرهـا فی جمیع أنحـاء العـالم، سیحضـرها للحساب و العقاب و الثواب، و لا یضـیّع شـیء فی هـذا الحساب.

و الضمیر فی «إنّها» یعود إلی الحسنات و السیّئات، و الإحسان و الإساءة[۴۲].

إنّ الالتفـات و التوجّه إلی هـذا الاطّلاع التامّ من قبل الخالق سبحانه علی أعمال الإنسان و علمه بها، و بقاء کلّ الحسـنات و السیّئات محفوظة فی کتاب علم اللّه، و عدم ضـیاع و تلف شـیء فی عالم الوجود هذا، هو أساس کلّ الإصـلاحات الفردیّة و الاجتماعیة، و هو قوّة و طاقـة محرّکـة نحو الخیرات، و سدّ منیع من الشـرور و السـیّئات. و ذکر السـماوات و الأرض بعد بیان الصـخرة، هو فی الواقع من قبیل ذکر العامّ بعد الخاصّ.

و

فی حدیث روی عن الإمام الباقر علیه السّـلام: «اتّقوا المحقّرات من الذنوب، فإنّ لها طالبا، یقول أحدکم: أذنب و أستغفر، إنّ اللّه عزّ و جلّ یقول: نَکْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ کُلَّ شَـیْءٍ أَحْصَـیْناهُ فِی إِمامٍ مُبِینٍ و قال عزّ و جلّ: إِنَّها إِنْ تَکُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فِی صَخْرَةٍ أَوْ فِی السَّماواتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ یَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ[۴۳].

و بعـد تحکیم أسـس المبـدأ و المعـاد، و التی هی أسـاس کلّ الإعتقادات الدینیّـة، تطرّق لقمان إلی أهمّ الأعمال، أی مسألـة الصـلاة، فقال: یا بُنَیَّ أَقِمِ الصَّلاةَ لأنّ الصلاة أهمّ علاقة و ارتباط مع الخالق، و الصلاة تنوّر قلبک، و تصفّی روحک، و تضیء حیاتک، و تطهّر

روحک من آثار الذنب، و تقذف نور الإیمان فی أنحاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶

وجودک، و تمنعک عن الفحشاء و المنکر.

و بعد الصلاة یتطرّق لقمان إلی أهمّ دستور اجتماعی، أی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، فیقول: وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْکَرِ.

و بعد هذه الأوامر العملیّة المهمّة الثلاثة، ینتقل إلی مسألة الصبر و الاستقامة، و التی هی من الإیمان بمنزلة الرأس من الجسد، فیقول: وَ اصْبِرْ عَلی ما أَصابَکَ إِنَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

من المسلّم أنّه توجد مشاکل و عقبات کثیرة فی سائر الأعمال الاجتماعیة، و خاصّة فی مسألة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و من المسلّم أیضا أنّ أصحاب المصالح و المتسلّطین، و المجرمین و الأنانیّین لا یستسلمون بهذه السهولة، بل یسعون إلی إیذاء و اتّهام الآمرین بالمعروف و الناهین عن المنکر، و لا یمکن الإنتصار علی هذه المصاعب و العقبات بدون الصبر و التحمّل و الاستقامة أبدا.

«العزم» بمعنی الإرادة المحکمة القویّة، و التعبیر ب عَزْمِ الْأُمُورِ هنا إمّا بمعنی الأعمال التی أمر اللّه بها أمرا مؤکّدا، أو الأمور و الأعمال التی یجب أن یمتلک الإنسان فیها إرادة فولاذیة و تصمیما راسخا، و أیّا من هذین المعنیین کان فإنّه یشیر إلی أهمیّة تلک الأعمال.

و التعبیر ب «ذلک» إشارة إلی الصبر و التحمّل، و یحتمل أیضا أن یعود إلی کلّ الأمور و المسائل التی ذکرت فی الآیة أعلاه، و من جملتها الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، إلّا أنّ هذا التعبیر قد ورد بعد مسألة الصبر فی بعض الآیات القرآنیة الاخری، و هذا یدعم و یقوّی الاحتمال الأوّل.

ثمّ انتقل لقمان إلی المسائل الأخلاقیة المرتبطة بالناس و النفس، فیوصی أوّلا بالتواضع و البشاشة و عدم التکبر، فیقول: وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ أی لا تعرض بوجهک عن الناس وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷

«تصعّر»: من مادّة (صعّر)، و هی فی الأصل مرض یصیب البعیر فیؤدّی إلی اعوجاج رقبته.

و «المرح»: یعنی الغرور و البطر الناشئ من النعمة.

و «المختال»: من مادّة (الخیال) و (الخیلاء)، و تعنی الشخص الذی یری نفسه عظیما و کبیرا، نتیجة سلسلة من التخیّلات و الأوهام.

و «الفخور»: من مادّة (الفخر) و یعنی الشخص الذی یفتخر علی الآخرین.

و الفرق بین کلمتی المختال و الفخور، أنّ الاولی إشارة إلی التخیّلات الذهنیة للکبر و العظمة، أمّا الثّانیة فهی تشیر إلی أعمال التکبّر الخارجی.

و علی هذا، فإنّ لقمان الحکیم یشیر هنا إلی صفتین مذمومتین جدّا و أساس توهین و قطع الروابط الاجتماعیة الصمیمیّة: إحداهما التکبر و عدم الاهتمام بالآخرین، و الاخری الغرور و العجب بالنفس، و هما مشترکتان من جهة دفع الإنسان إلی عالم من التوهّم و الخیال و نظرة التفوّق علی الآخرین، و إسقاطه فی هذه الهاویة، و بالتالی تقطعان علاقته بالآخرین و تعزلانه عنهم، خاصّة و أنّه بملاحظة الأصل اللغوی ل «صعّر» سیتّضح أنّ مثل هذه الصفات مرض نفسی و أخلاقی، و نوع من الانحراف فی التشخیص و التفکیر، و إلّا فإنّ الإنسان السالم من الناحیة الروحیة و النفسیة لا یبتلی مطلقا بمثل هذه الظنون و التخیّلات.

و لا یخفی أنّ مراد لقمان لم یکن مسألة الإعراض عن الناس، أو المشی بغرور و حسب، بل المراد محاربة کلّ مظاهر التکبر و الغرور، و لمّا کانت هذه الصفات تظهر فی طلیعة الحرکات العادیّة الیومیّة، فإنّه وضع إصبعه علی مثل هذه المظاهر الخاصّة.

ثمّ بیّن فی الآیة التالیة أمرین و سلوکین أخلاقیین إیجابیّین فی مقابل النهیین عن سلوکین سلبیین فی الآیة السابقة فیقول: ابتغ الاعتدال فی مشیک: وَ اقْصِدْ فِی مَشْیِکَ و ابتغ الاعتدال کذلک فی کلامک و لا ترفع صوتک عالیا وَ اغْضُضْ مِنْ

صَوْتِکَ إِنَّ أَنْکَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِیرِ[۴۴].

إنّ هاتین الآیتین فی الحقیقة أمرتا بصفتین، و نهتا عن صفتین:

فالنهی عن «التکبّر» و «العجب»، فإنّ أحدهما یؤدّی إلی أن یتکبر الإنسان علی عباد اللّه، و الآخر یؤدّی إلی أن یظنّ الإنسان أنّه فی مرتبة الکمال و أسمی من الآخرین، و بالتالی سیغلق أبواب التکامل بوجهه، و إن کان لا یقارن بینه و بین الآخرین.

و بالرغم من أنّ هاتین الصفتین مقترنتان غالبا، و لهما أصل مشترک، إلّا أنّهما قد تفترقان أحیانا.

أمّا الأمر بصفتین، فهما رعایة الاعتدال فی العمل و الکلام، لأنّ التأکید علی الاعتدال فی المشی أو إطلاق الصوت هو من باب المثال فی الحقیقة.

و الحقّ أنّ الإنسان الذی یتّبع هذه النصائح الأربع موفّق و سعید و ناجح فی الحیاة، و محبوب بین الناس، و عزیز عند اللّه.

و ممّا یستحقّ الانتباه أنّ من الممکن أن نسمع أصواتا أزعج من أصوات الحمیر فی محیط حیاتنا، کصوت سحب بعض القطع الفلزّیة إلی بعضها الآخر، حیث یحسّ الإنسان عند سماعه بأنّ لحمه یتساقط، إلّا أنّ هذه الأصوات لا تمتلک صفة عامّة، إضافة إلی وجود فرق بین المزعج و القبیح من الأصوات، و الحقّ هو أنّ صوت الحمار أقبح من کلّ الأصوات العادیّة التی یسمعها الإنسان، و به شبّهت صرخات و نعرات المغرورین البله.

و لیس القبح من جهة ارتفاع الصوت و طریقته فحسب، بل من جهة کونه بلا سبب أحیانا، لأنّ بعض المفسّرین یقولون: إنّ أصوات الحیوانات تعبّر غالبا عن حاجة، إلّا أنّ هذا الحیوان یطلق صوته أحیانا بدون مبرّر أو داع، و بدون أیّ

حاجة أو مقدّمة! و ربّما کان ما ورد فی بعض الرّوایات من أنّ الحمار کلّما أطلق صوته فقد رأی شیطانا، لهذا السبب.

و قال البعض: إنّ صراخ کلّ حیوان تسبیح إلّا صوت الحمار! و علی کلّ حال، فإنّنا إذا تجاوزنا کلّ ذلک، فإنّ کون هذا الصوت قبیحا من بین الأصوات لا یحتاج إلی بحث، و إذا رأینا فی الرّوایات المرویّة عن الإمام الصادق علیه السّلام، و التی فسّرت هذه الآیة بالعطسة بصوت عال، أو الصراخ عند التکلّم و التحدّث، فإنّه فی الحقیقة مصداق واضح لذلک[۴۵].

تعلیقات

۱- آداب المشی

صحیح أنّ المشی مسألة سهلة و بسیطة، إلّا أنّ نفس هذه المسألة السهلة یمکن أن تعکس أحوال و أوضاع الإنسان الداخلیة و الأخلاقیة، و قد تحدّد ملامح شخصیته، لأنّ روحیّة الإنسان و أخلاقه تنعکس فی طیّات کلّ أعماله، کما قلنا سابقا، و قد یکون العمل الصغیر حاکیا عن روحیة متأصّلة أحیانا. و لمّا کان الإسلام قد اهتمّ بکلّ أبعاد الحیاة، فإنّه لم یهمل شیئا فی هذا الباب أیضا.

ففی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «من مشی علی الأرض اختیالا لعنته الأرض و من تحتها و من فوقها»[۴۶].

و

فی حدیث آخر عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه نهی أن یختال الرجل فی مشیه، و قال: «من لبس ثوبا فاختال فیه خسف اللّه به من شفیر جهنّم، و کان قرین قارون

لأنّه أوّل من اختال!»[۴۷].

و کذلک

ورد عن الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارک و تعالی فرض الإیمان علی جوارح ابن آدم و قسّمه علیها و فرّقه فیها- إلی أن قال- و فرض علی الرجلین أن لا تمشی بهما إلی شیء من معاصی اللّه، و فرض علیهما المشی إلی ما یرضی اللّه عزّ و جلّ، فقال تعالی: وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً و قال: وَ اقْصِدْ فِی مَشْیِکَ ۴۸].

و قد نقل ذلک عن نبی الإسلام العزیز صلّی اللّه علیه و آله، و ذلک أنّه

کان قد مرّ من طریق، فرأی مجنونا قد اجتمع الناس حوله ینظرون إلیه، فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟» فقالوا: علی مجنون یصرع، فنظر إلیهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و قال: «ما هذا بمجنون! ألا أخبرکم بالمجنون حقّ المجنون؟» قالوا: بلی یا رسول اللّه، فقال: «إنّ المجنون: المتبختر فی مشیه، الناظر فی عطفیه، المحرّک جنبیه بمنکبیه، فذلک المجنون و هذا المبتلی»[۴۹].

۲- آداب الحدیث

لقد وردت إشارة إلی آداب الحدیث فی مواعظ لقمان، و قد فتح فی الإسلام باب واسع لهذه المسألة، و ذکرت فیه آداب کثیرة من جملتها:

- طالما لم تکن هناک ضرورة للحدیث و التکلّم، فإنّ السکوت خیر منه، کما نری ذلک

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «السکوت راحة للعقل»[۵۰].

- و

جاء فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیهما السّلام: «من علامات الفقه: العلم و الحلم و الصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحکمة»[۵۱].

- و قد ورد التأکید فی روایات اخری علی أنّه لا ینبغی للمؤمن أن یسکت فی

المواضع التی یلزم فیها الکلام، و أنّ الأنبیاء بعثوا بالکلام لا بالسکوت، و أنّ وسیلة الوصول إلی الجنّة و الخلاص من النار هی الکلام فی الموضع المناسب ۵۲].

۳- آداب العشرة

لقد اهتمّت الروایات الإسلامیة الواردة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أئمّة أهل البیت علیهم السّلام بمسألة التواضع و حسن الخلق و الملاطفة فی المعاملة، و ترک الخشونة و الجفاء فی المعاشرة، اهتماما قلّ نظیره فی الموارد الاخری، و أفضل و أبلغ شاهد فی هذا الباب هی الروایات الإسلامیة نفسها، و نذکر منها هنا نماذج:

-

جاء رجل إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فقال: یا رسول اللّه، أوصنی، فکان فیما أوصاه أن قال: «الق أخاک بوجه منبسط»[۵۳].

و

فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «ما یوضع فی میزان امرئ یوم القیامة أفضل من حسن الخلق»[۵۴].

- و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «البرّ و حسن الخلق یعمران الدیار، و یزیدان فی الأعمار»[۵۵].

و

نقل عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «أکثر ما تلج به امّتی الجنّة تقوی اللّه و حسن الخلق»[۵۶].

و

عن علی علیه السّلام فی شأن التواضع: «زینة الشریف التواضع»[۵۷].

- و أخیرا نطالع

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «التواضع أصل کلّ خیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۲

نفیس، و مرتبة رفیعة، و لو کان للتواضع لغة یفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما فی مخفیات العواقب .. و من تواضع للّه شرّفه اللّه علی کثیر من عباده .. و لیس للّه عزّ و جلّ عبادة یقبلها و یرضاها إلّا و بابها التواضع»[۵۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۳

الآیات [سورة لقمان (۳۱): الآیات ۲۰ الی ۲۴]

اشارة

أ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَیْکُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ (۲۰) وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَیْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ کانَ الشَّیْطانُ یَدْعُوهُمْ إِلی عَذابِ السَّعِیرِ (۲۱) وَ مَنْ یُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَی اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقی وَ إِلَی اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (۲۲) وَ مَنْ کَفَرَ فَلا یَحْزُنْکَ کُفْرُهُ إِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۲۳) نُمَتِّعُهُمْ قَلِیلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلی عَذابٍ غَلِیظٍ (۲۴)

التّفسیر

بعد انتهاء مواعظ لقمان العشر حول المبدأ و المعاد و طریقة الحیاة، و خطط و برامج القرآن الأخلاقیة و الاجتماعیة، و لأجل إکمال البحث، تتّجه الآیات إلی بیان نعم اللّه تعالی لتبعث فی الناس حسن الشکر .. الشکر الذی یکون منبعا لمعرفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۴

اللّه و طاعة أوامره ۵۹]، فیوجّه الخطاب لکلّ البشر، فیقول: أ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ

إنّ لتسخیر الموجودات السماویة و الأرضیّة للإنسان معنی واسعا یشمل الأمور التی فی قبضته و إختیاره، و یستخدمها برغبته و إرادته فی طریق تحصیل منافعه ککثیر من الموجودات الأرضیّة، کما تشمل الأمور التی لیست تحت تصرّفه و إختیاره، لکنّها تخدم الإنسان بأمر اللّه جلّ و علا- کالشمس و القمر. و بناء علی هذا فإنّ کلّ الموجودات مسخّرة بإذن اللّه لنفع البشر، سواء کانت مسخّرة بأمر الإنسان أم لا، و علی هذا فإنّ اللام فی (لکم) لام المنفعة[۶۰].

ثمّ تضیف الآیة: وَ أَسْبَغَ عَلَیْکُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً.

«أسبغ» من مادّة (سبغ) و هى فى الأصل بمعنى الثوب أو الدرع العريض الكامل، ثمّ اطلق على النعم الكثيرة الوفيرة أيضا.

هناك اختلاف بين المفسّرين فى المراد من النعم الظاهرة و الباطنة فى هذه الآية ..

فالبعض اعتقد أنّ النعمة الظاهرة هى الشيء الذى لا يمكن لأيّ أحد إنكاره كالخلق و الحياة و أنواع الأرزاق، و النعم الباطنة إشارة إلى الأمور التى لا يمكن إدراكها من دون دقّة و مطالعة ككثير من القوى الروحية و الغرائز المهمّة.

و البعض عدّ الأعضاء الظاهرة هى النعم الظاهرة، و القلب هو النعمة الباطنة.

و البعض الآخر اعتبر حسن الصورة و الوجه و القامة المستقيمة و سلامة الأعضاء النعمة الظاهرة، و معرفة اللّه هى النعمة الباطنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۵

و

فى حديث عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله أنّ ابن عبّاس سأله عن النعم الظاهرة و الباطنة فقال صلّى اللّه عليه و آله: «يا بن عبّاس، أمّا ما ظهر فالإسلام و ما سوّى اللّه من خلقك، و ما أفاض عليك من الرزق، و أمّا ما بطن فستر مساوئ عملك و لم يفضحك به»[۶۱].

و

فى حديث آخر عن الباقر عليه السّلام: «النعمة الظاهرة: النّبى صلّى اللّه عليه و آله و ما جاء به النّبى من معرفة اللّه، و أمّا النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت و عقد مودّتنا»[۶۲].

إلّا أنّه لا توجد أيّة منافاة بين هذه التفاسير فى الحقيقة، و كلّ منها يبيّن مصداقا بارزا للنعمة الظاهرة و النعمة الباطنة دون أن يحدّد معناها الواسع.

و تتحدّث الآية فى النهاية عمّن يكفر بالنعم الإلهية الكبيرة العظيمة، و التى تحيط الإنسان من كلّ جانب، و يهبّ إلى الجدال و محاربة الحقّ، فتقول: مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ و بدل أن يعرف و يقدّر هبة و عطاء كلّ هذه النعم الظاهرة و الباطنة، فإنّه يتّجه إلى الشرك و الجحود نتيجة الجهل.

و لكن ما هو الفرق بين «العلم» و «الهدى» و «الكتاب المنير»؟

لعلّ أفضل ما يمكن أن يقال فى ذلك هو أنّ «العلم»: إشارة إلى الإدراكات التى يدركها الإنسان عن طريق عقله، و «الهدى»: إشارة إلى المعلّمين و القادة الربّانيين و السماويين، و العلماء الذين يأخذون بيده فى هذا المسير و يوصلونه إلى الغاية و الهدف، و المراد من «الكتاب المنير»: الكتب السماوية التى تملأ قلب الإنسان نورا عن طريق الوحى.

إنّ هذه الجماعة العنيدة فى الحقيقة لا يمتلكون علما، و لا يتّبعون مرشدا و هاديا، و لا يستلهمون من الوحى الإلهى، و لمّا كانت طرق الهداية منحصرة بهذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۶

الأمور الثلاثة فإنّ هؤلاء لمّا تركوها سقطوا فى هاوية الضلال و الضياع و وادى الشياطين.

و تشير الآية التالية إلى المنطق الضعيف السقيم لهذه الفئة، فتقول: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا و لمّا لم يكن اتّباع الآباء الجهلة المنحرفين جزءا من أيّ واحد من الطرق الثلاثة المذكورة أعلاه للهداية، فإنّ القرآن ذكره بعنوان الطريق الشيطانى، و قال: أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ[۶۳].

إنّ القرآن- فى الحقيقة- يزيح هنا الغطاء عن اتّباع سنّة الآباء و الأجداد الزائفة، و يبيّن الوجه الحقيقى لعمل هؤلاء و الذى هو فى حقيقته اتّباع الشيطان فى مسير جهنّم.

أجل، إنّ قيادة الشيطان بذاتها تستوجب أن يخالفها الإنسان و إن كانت مبطّنة بالدعوة إلى الحقّ، فمن المسلّم أنّه غطاء و خدعة، و

الـدعوة إلى النار كافية لوحدها أيضا للمخالفة بالرغم من أنّ الداعی مجهول الحال، فإذا كان الداعی الشيطان، و دعوته إلى نار جهنّم المستعرة، فالأمر واضح.

هـل يوجـد عاقـل يـترك دعوة أنبيـاء اللّه إلى الجنّة، و يلهث وراء دعوة الشـيطان إلى جهنّم؟! ثمّ تطرّقت الآيـة التاليـة إلى بيـان حـال مجموعتين: المؤمنين الخلّص، و الكفّار الملوّثين، و تجعلهم مورد اهتمامها فی المقارنـة بينهم، فقالت: وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى

و المراد من تسـليم الوجه إلى اللّه سـبحانه، هو التوجّه الكامل و بكلّ الوجود إلى ذات اللّه المقدّسة، لأنّ الوجه لمّا كان أشـرف عضو فی البدن، و مركزا لأهمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۷

الحواسّ الإنسانية، فإنّه يستعمل كناية عن ذاته.

و التعبير ب وَ هُوَ مُحْسِنٌ من قبيل ذكر العمل الصالح بعد الإيمان.

و الاسـتمساك بالعروة الوثقى تشبيه لطيف لهـذه الحقيقة، و هی أنّ الإنسان يحتاج لنجاته من منحدر الماديّة و الارتقاء إلى أعلى قمم المعرفـة و المعنويات و تسامی الروح، إلى واسـطة و وسـيلة محكمة مسـتقرّة ثابتة، و ليست هذه الوسـيلة إلّا الإيمان و العمل الصالح، و كلّ سبيل و متّكأ غيرهما متهرّئ متخرّق هاو و سبب للسقوط و الموت، إضافة إلى أنّ ما يبقى هو هذه الوسيلة، و كلّ ما عداها فان، و لذلك فإنّ الآية تقول فی النهاية: وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ.

جاء فی حديث نقل فی تفسير البرهان عن طرق العامّة عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السّلام عن النّبی الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «و سـيكون بعـدى فتنـة مظلمـة، الناجی منها من تمسّك بالعروة الوثقى، فقيل: يا رسول اللّه، و ما العروة الوثقى؟ قال: ولايـة سـيّد الوصيّين، قيل: يا رسول اللّه، و من سيّد الوصيّين؟ قال: أمير المؤمنين، قيل:

يا رسول اللّه و من أمير المؤمنين؟ قال: مولى المسلمين و إمامهم بعدى، قيل:

يا رسول اللّه، و من مولى المسلمين و إمامهم بعدك؟ قال: أخی على بن أبی طالب»[۶۴].

و قد رويت روايات اخرى فی هذا الباب تؤيّد أنّ المراد من العروة الوثقى مودّة أهل البيت عليهم السّلام، أو حبّ آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله، أو الأئمّة من ولد الحسين عليهم السّلام ۶۵].

و قد قلنا مرارا: إنّ هذه التفاسير بيان للمصاديق الواضحة، و لا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالتوحيد و التقوى و أمثال ذلك.

ثمّ تطرقت الآيـة التالية إلى بيان حال الفئة الثّانية، فقالت: وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ لأنّك قد أدّيت واجبك على أحسن وجه، و هو الذی قد ظلم نفسه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۸

و مثـل هـذه التعبيرات التی وردت مرارا فی القرآن، تبيّن أنّ النّبی الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله كان يتألّم و يتعـذّب كثيرا عنـد ما يرى الجاهلين العنودين يتركون سبيل اللّه مع تلك الـدلائل البيّنة و العلامات الواضـحة، و يسـلكون سبيل الغیّ و الضـلال، و كان يغتمّ إلى درجة أنّ اللّه تعالى كان يسلّى خاطره فی عدّة مرّات، و هذا دأب و حال المرشد و القائد الحريص المخلص.

فلاـ تحزن أن تكفر جماعـة من النـاس، و يظلموا و يجوروا و هم متنعّمون بـالنعم الإلهيّـة و لاـ يعـاقبون، فلاـ عجلـة فی الأـمر، إذ: إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا فإنّنا مطّلعون على أسرارهم و نيّاتهم كاطّلاعنا على أعمالهم، ف: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

إنّ تعبير: إنّ اللّه ينـبّئ النـاس فی القيامـة بأعمـالهم، أو أنّه تعـالى ينبّئهم بمـا كـانوا فيه يختلفون، قـد ورد فی آيـات كثيرة من القرآن المجيـد، و بملاحظـة أنّ (ننبّئكم) من مـادّة (نبأ) و النبـأ- على مـا أورده الراغب فی مفرداته- يقال للخبر الـذی ينطوی على محتوى و فائدة مهمّة، و هو صـريح و خال من كلّ أشـكال الكذب، سـيتّضح أنّ هذه التعبيرات تشـير إلى أنّ اللّه سـبحانه يفشی و يفضح أعمال

البشر بحيث لا يبقى لأحد أيّ اعتراض و إنكار، فهو يظهر ما عمله الناس فى هذه الدنيا و نسوه أو تناسوه، و يهيّؤه للحساب و الجزاء، و حتّى ما يخطر فى قلب الإنسان و لم يطّلع عليه إلّا اللّه تعالى، فإنّه سبحانه سيذكرهم بها.

ثمّ يضيف بأنّ تمتّع هؤلاء بالحياة لا ينبغى أن يثير عجبك، لأنّا نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ ذلك العذاب الأليم المستمر.

إنّ هذا التعبير لعلّه إشارة إلى أنّ هؤلاء لا يتصوّروا أنّهم خارجون عن قبضة قدرة اللّه سبحانه، بل إنّه يريد أن يمهل هؤلاء للفتنة و إتمام الحجّة و الأهداف الاخرى، و إنّ هذا المتاع القليل من جانبه أيضا، و كم يختلف حال هؤلاء الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۹

يجرّون و يسحبون بذلّة و إكراه إلى العذاب الإلهى الغليظ، و حال أولئك الذين وضعوا كلّ وجودهم فى طريق العبودية للّه سبحانه، و استمسكوا بالعروة الوثقى، فهم يعيشون فى هذه الدنيا طاهرين صالحين، و فى الآخرة يتنعّمون بجوار رحمة اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۰

الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۲۵ الى ۳۰]

اشارة

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۲۵) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۲۶) وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۷) ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۲۸) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۹)

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۳۰)

التّفسير

عشر صفات للّه سبحانه:

بيّنت الآيات السّتّة أعلاه مجموعة من صفات اللّه سبحانه، و هى عشر صفات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۱

رئيسيّة، أو عشرة أسماء من الأسماء الحسنى:

الغنى، الحميد، العزيز، الحكيم، السميع، البصير، الخبير، الحقّ، العلىّ، و الكبير.

هذا من جهة، و من جهة اخرى فإنّ الآية الاولى تتحدّث عن «خالقية» اللّه، و الآية الثّانية عن «مالكيته» المطلقة، و الثالثة عن «علمه» اللامتناهى، و الآية الرّابعة و الخامسة عن «قدرته» اللامتناهية. و الآية الأخيرة تخلص إلى هذه النتيجة، و هى أنّ الذى يمتلك هذه الصفات و يتمتّع بها هو اللّه تعالى، و كلّ ما دونه باطل أجوف حقير.

مع ملاحظة هذا البحث الإجمالى نعود إلى شرح الآيات، فتقول الآية الاولى:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

هذا التعبير- و الذى يلاحظ فى آيات القرآن الاخرى، كالآية (۶۱- ۶۳) من سورة العنكبوت، و الآية (۳۸) من الزمر، و الآية (۹) من

الزخرف- يدلّ من جهة على أنّ المشركين لم يكونوا منكرين لتوحيد الخالق مطلقا، و لم يكونوا يستطيعون ادّعاء كون الأصنام خالقة، إنّما كانوا معتقدين بالشرك فى عبادة الأصنام و شفاعتها فقط. و من جهة اخرى يدلّ على كون التوحيد فطريّا و أنّ هذا النور كامن فى طينة و طبيعة كلّ البشر.

ثمّ تقول: إذا كان هؤلاء معترفين بتوحيد الخالق ف قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

ثمّ تتطرّق إلى «مالكية» اللّه، لأنّه بعد ثبوت كونه خالقا لا حاجة إلى دليل على كونه مالكا، فتقول: لِلَّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و من البديهى أنّ الخالق و المالك يكون مدبّرا لأمر العالم أيضا، و بهذا تثبت أركان التوحيد الثلاثة، و هى:

«توحيد الخالقية» و «توحيد المالكية» و «توحيد الربوبية». و الذى يكون على هذا الحال فإنّه غنىّ عن كلّ شىء، و أهل لكلّ حمد و ثناء، و لذلك تقول الآية فى النهاية: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۲

إنّه غنىّ على الإطلاق، و حميد من كلّ جهة، لأنّ كلّ موهبة فى هذا العالم تعود إليه، و كلّ ما يملكه الإنسان فإنّه صادر منه و خزائن كلّ الخيرات بيده، و هذا دليل حىّ على غناه.

و لمّا كان «الحمد» بمعنى الثناء على العمل الحسن الذى يصدر عن المرء باختياره، و كلّ حسن نراه فى هذا العالم فهو من اللّه سبحانه، فإنّ كلّ حمد و ثناء منه، فحتّى إذا مدحنا جمال الزهور، و وصفنا جاذبية العشق الملكوتى، و قدّرنا إيثار الشخص الكريم، فإنّنا فى الحقيقة نحمده، لأنّ هذا الجمال و الجاذبية و الكرم منه أيضا .. إذن فهو حميد على الإطلاق.

ثمّ تجسّد الآية التالية علم اللّه اللامحدود من خلال ذكر مثال بليغ جدّا، و قبل ذلك نرى لزوم ذكر هذه المسألة، و هى- طبقا لما جاء فى تفسير على بن إبراهيم:

إنّ قوما من اليهود عند ما سألوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله حول مسألة الروح، و أجابهم القرآن بأن قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا صعب هذا الكلام عليهم، و سألوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله: هل أنّ هذا فى حقّنا فقط؟ فأجابهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله:

«بل الناس عامّة»،

قالوا: فكيف يجتمع هذا يا محمّد؟! أ تزعم أنّك لم تؤت من العلم إلّا قليلا، و قد أوتيت القرآن و أوتينا التوراة، و قد قرأت: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ- و هى التوراة- فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً هنا نزلت الآية وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ...- الآية مورد البحث- و أوضحت أنّ علم الإنسان مهما كان واسعا فإنّه فى مقابل علم اللّه عزّ و جلّ ليس إلّا ذرّة تافهة، و الذى يعدّ كثيرا فى نظركم، هو قليل جدّا عند اللّه ۶۶].

و قد بيّنا نظير هذه الرواية عن طريق آخر فى ذيل الآية (۱۰۹) من سورة الكهف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۳

و على كلّ حال، فإنّ القرآن الكريم و لأجل تجسيد علم اللّه اللامتناهى يقول:

وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

«يمدّه» من مادّة (المداد) و هى بمعنى الحبر أو المادّة الملوّنة التى يكتبون بها، و هى فى الأصل من (مدّ) بمعنى الخطّ، لأنّ الخطوط تظهر على صفحة الورق بواسطة جرّ القلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۶۳

نقل بعض المفسّرين معنى آخر لها، و هو الزيت الذى يوضع فى السراج و يسبّب إنارة السراج. و كلا المعنيين فى الواقع يرجعان إلى

أصل واحد.

«الکلمات» جمع «کلمة»، و هی فی الأصل الألفاظ التی یتحدّث و یتکلّم بها الإنسان، ثمّ أطلقت علی معنی أوسع، و هو کلّ شیء یمکنه أن یبیّن المراد و المطلب، و لمّا کانت مخلوقات هذا العالم المختلفة یبیّن کلّ منها ذات اللّه المقدّسة و عظمته، فقد أطلق علی کلّ موجود (کلمة اللّه)، و استعمل هذا التعبیر خاصّة فی الموجودات الأشرف و الأعظم، کما نقرأ فی شأن المسیح فی الآیة (۱۷۱) من سورة النساء إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ کَلِمَتُهُ ثمّ استعملت کلمات اللّه بمعنی علم اللّه لهذه المناسبة.

و الآن یجب أن نفکّر بدقّة و بشکل صحیح بأنّه قد یکفی أحیانا قلم واحد مع مقدار من الحبر لکتابة کلّ المعلومات التی تتعلّق بإنسان ما، بل قد یکون من الممکن أن یسجّل أفراد آخرون مجموعة معلوماتهم علی الأوراق بنفس ذلک القلم، إلّا أنّ القرآن یقول: لو أنّ کلّ الأشجار الموجودة علی سطح الأرض تصبح أقلاما- و نحن نعلم أنّه قد تصنع من شجرة ضخمة، من ساقها و أغصانها، آلاف، بل ملایین الأقلام، و مع الأخذ بنظر الإعتبار المقدار العظیم للأشجار الموجودة فی الأرض، و الغابات التی تغطّی الکثیر من الجبال و السهول، و عدد الأقلام الذی سینتج منها ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۴

و کذلک لو کانت کلّ البحار و المحیطات الموجودة، و التی تشکّل ثلاثة أرباع الکرة الأرضیّة تقریبا، بذلک العمق الساحق، تصبح حبرا، عند ذلک یتّضح عظمة ما سیکتب، و کم من العلوم یمکن کتابتها بهذا المقدار من الأقلام و الحبر! سیّما مع ملاحظة مضاعفة ذلک بإضافة سبعة أبحر اخری، و کلّ واحد منها یعادل کلّ محیطات الأرض، و بالأخصّ إذا علمنا أنّ عدد السبعة هنا لا یعنی العدد، بل للکثرة و الإشارة إلی البحار التی لاعدّ لها، فعند ذلک ستّتضح سعة علم اللّه عزّ و جلّ و ترامی أطرافه، و مع ذلک فإنّ کلّ هذه الأقلام و المحابر تنتهی و لکنّ علومه سبحانه لا تعرف النهایة.

هل یوجد تجسید و تصویر للّانهایة أروع و أبلغ و أجمل من هذا التجسید؟ إنّ هذا العدد حیّ و ناطق إلی الحدّ الذی یصطحب معه أمواج فکر الإنسان إلی الآفاق اللامحدودة، و یغرقها فی الحیرة و الهیبة و الجلال.

إنّ الإنسان یشعر مع هذا البیان البلیغ الواضح أنّ معلوماته مقابل علم اللّه کالصفر مقابل اللانهایة، و یلیق به أن یقول فقط: إنّ علمی قد أوصلنی إلی أن أطّلع علی جهلی، فحتّی التشبیه بالفطرة من البحر لتبیان هذه الحقیقة لا یبدو صحیحا.

و من جملة المسائل اللطیفة التی تلاحظ فی الآیة: أنّ الشجرة قد وردت بصیغة المفرد، و الأقلام قد وردت بصیغة الجمع، و هذا تبیان لعدد الأقلام الکثیرة التی تنتج من شجرة واحدة بساقها و أغصانها.

و کذلک التعبیر ب (البحر) بصیغة المفرد مع (الف و لام) الجنس لیشمل کلّ البحار و المحیطات علی وجه الأرض، خاصّة و أنّ کلّ بحار العالم و محیطاته متّصلة ببعضها، و هی فی الواقع بحکم بحر واسع.

و الطریف فی الأمر أنّه لا یتحدّث فی مورد الأقلام عن أقلام إضافیة و مساعدة، أمّا فیما یتعلّق بالبحار فإنّه یتحدّث عن سبعة أبحر اخری، لأنّ القلم یستهلک قلیلا أثناء الکتابة، و الذی یستهلک أکثر هو الحبر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۵

انتخاب کلمة (سبع) للکثرة فی لغة العرب، ربّما کان بسبب أنّ السابقین کانوا یعتقدون أنّ عدد کواکب المنظومة الشمسیة سبعة کواکب- و فی أنّ ما یری الیوم بالعین المجرّدة من المنظومة الشمسیة سبعة کواکب لا أکثر- و مع ملاحظة أنّ الأسبوع دورة زمانیة کاملة تتکوّن من سبعة أیّام لا أکثر، و أنّهم کانوا یقسّمون کلّ الکرة الأرضیة إلی سبع مناطق، و کانوا قد وضعوا لها اسم الأقالیم السبعة، سیتّضح لماذا انتخب عدد السبعة کعدد کامل من بین الأعداد، و استعمل لبیان الکثرة[۶۷].

بعد ذکر علم اللّه اللامحدود، تتحدّث الآیة الاخری عن قدرته اللامتناهیة، فتقول: ما خَلْقُکُمْ وَ لا بَعْثُکُمْ إِلَّا کَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ.

قال بعض المفسّرين: أنّ جمعا من كفّار قريش كانوا يقولون من باب التعجّب و الاستبعاد لمسألة المعاد: إنّ اللّه قد خلقنا بأشكال مختلفة، و على مدى مراحل مختلفة، فكنّا يوما نطفة، و بعدها صرنا علقة، و بعدها صرنا مضغة، ثمّ أصبحنا تدريجيّا على هيئات و صور مختلفة، فكيف يخلقنا اللّه جميعا خلقا جديدا فى ساعة واحدة؟! فنزلت الآية مورد البحث فأجابتهم.

إنّ هؤلاء كانوا غافلين فى الحقيقة عن مسألة مهمّة، و هى أنّ هذه المفاهيم كالصعوبة و السهولة، و الصغير و الكبير يمكن تصوّرها من قبل موجودات لها قدرة محدودة كقدرتنا، إلّا أنّها أمام قدرة اللّه اللامتناهية تكون متساوية، فلا يختلف خلق إنسان واحد عن خلق جميع البشر مطلقا، و خلق موجود ما فى لحظة واحدة أو على مدى سنين طوال بالنسبة إلى قدرته المطلقة.

و إذا كان تعجّب كفّار قريش من أنّه كيف يمكن فصل الأجساد عن بعضها و إرجاع كلّ منها إلى محلّه بعد أن كانت الطبائع مختلفة، و الإشكال متغايرة، و الشخصيات متنوّعة، و ذلك بعد أن تحوّل بدن الإنسان إلى تراب و تطايرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۶

ذرّات ذلك التراب؟! فإنّ علم اللّه اللامتناهى، و قدرته اللامحدودة تجيبهم عن سؤالهم، فإنّه قد جعل بين الموجودات روابط و علاقات بحيث أنّ الواحد منها كالمجموعة، و المجموعة كالواحد.

و أساسا فإنّ انسجام و ترابط هذا العالم بشكل ترجع كلّ كثرة فيه إلى الوحدة، و خلقة مجموع البشر تتّبع خلقة إنسان واحد.

و إذا كان تعجّب هؤلاء من قصر الزمان، لأنّه كيف يمكن أن تطوى المراحل التى يطويها الإنسان خلال سنين طوال من كونه نطفة إلى مرحلة الشباب، فى لحظات قصيرة؟! فإنّ قدرة اللّه تجيب على هذا التساؤل أيضا، فإنّنا نرى فى عالم الأحياء أنّ أطفال الإنسان يحتاجون لمدّة طويلة ليتعلّموا المشى بصورة جيّدة، أو يصبحوا قادرين على الاستفادة من كلّ أنواع الأغذية، فى حين أنّنا نرى الفراخ بمجرّد أن تخرج من البيضة تنهض و تسير، و تأكل دونما حاجة حتّى للامّ، و هذه الظاهرة تبيّن أنّ هذه الأمور لا تعنى شيئا أمام قدرة اللّه عزّ و جلّ.

إنّ ذكر كون اللّه «سميعا و بصيرا» فى نهاية الآية قد يكون جوابا عن إشكال آخر من جانب المشركين، و هو على فرض أنّ جميع البشر على اختلاف خلقتهم، و بكلّ خصوصياتهم يبعثون و يحيون فى ساعة واحدة، لكن كيف ستخضع أعمالهم و كلامهم للحساب، فإنّ الأعمال و الأقوال امور تفنى بعد الوجود؟! فيجيب القرآن بأنّ اللّه سميع و بصير، قد سمع كلّ كلامهم، و رأى كلّ أعمالهم، علاوة على أنّ الفناء المطلق لا معنى و لا وجود له فى هذا العالم، بل إنّ أعمالهم و أقوالهم موجودة دائما.

و إذا تجاوزنا ذلك فإنّ الجملة أعلاه تهديد لهؤلاء المعاندين، بأنّ اللّه سبحانه مطّلع على أقوالكم و مؤامراتكم، بل و حتّى على ما فى قلوبكم و ضمائركم.

الآية التالية تأكيد و بيان آخر لقدرة اللّه الواسعة، و قد وجّهت الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقالت: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ وَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۷

سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لخدمة الناس و تأمين احتياجاتهم كُلٌّ يَجْرِى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

«الولوج» فى الأصل بمعنى «الدخول»، و دخول الليل فى النهار و النهار فى الليل قد يكون إشارة إلى طول و قصر الليل و النهار التدريجى على مدار السنة، حيث ينقص شىء من أحدهما تدريجيّا، و يضاف على الآخر بصورة غير محسوسة، لتتكوّن الفصول الأربعة للسنة بخصائصها و آثارها المباركة. (و ليست هناك إلّا نقطتان على سطح الأرض لا يوجد فيهما هذا التغيير التدريجى و الفصول الأربعة: إحداهما: النقطة الحقيقيّة للقطب الشمالى و الجنوبى حيث يكون الليل هناك ستّة أشهر، و النهار ستّة أشهر طوال السنة، و الاخرى خطّ الإستواء الدقيق حيث يتساوى ليله و نهاره كلّ السنة).

أو إشارة إلى أنّ تبديل الليل بالنهار و النهار بالليل لوجود الغلاف الجوّى لا يحدث بصورة مفاجئة فيتعرّض الإنسان و كلّ الموجودات

الحيّة للأخطار المختلفة حينئذ، بل إنّ أشعّة الشمس تتوغّل من حيث طلوع الفجر فی أعماق الظلام أوّلا، ثمّ يتّسع و يزداد ضوء النهار حتّى يعمّ كلّ أرجاء السماء، و على العكس تماما ممّا يحدث عند انتهاء النهار و دخول الليل.

و هذا الانتقال التدريجی و المنظّم بدقّة متناهية من مظاهر قدرة اللّه تعالى.

و من الطبيعی أنّ هذين التّفسيرين لا يتنافيان، و يمكن أن يجتمعا فی معنى الآية و تفسيرها.

أمّا فی مورد تسخير الشمس و القمر و سائر الكواكب السماوية للبشر، فإنّ المراد- و كما قلنا سابقا أيضا- تسخيرها فی سبيل خدمة الإنسان، و بتعبير آخر فإنّ اللام فی سَخَّرَ لَكُمْ لام النفع لا الإختصاص، و قد ورد هذا التعبير فی القرآن المجيد فی شأن الشمس و القمر، و الليل و النهار، و الأنهار و البحار و السفن، و كلّ هذه مبيّنة لعظمة شخصيّة الإنسان، و سعة نعم اللّه عليه حيث أنّ كلّ الموجودات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۸

الأرضية و السماوية مسخّرة و مطيعة له بأمر اللّه تعالى، و مع كلّ هذا التسخير فليس من الإنصاف أن يعصى اللّه سبحانه و لا يطيع أوامره [۶۸].

و جملة كُلٌّ يَجْرِی إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إشارة إلى أنّ هذا النظام الدقيق لا يستمرّ إلى الأبد، بل إنّ له نهاية بانتهاء الدنيا، و هو ما ذكر فی سورة التكوير: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ....

إنّ ارتباط جملة أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ بهذا البحث سيتّضح بملاحظة ما قلناه آنفا، لأنّ اللّه الذی جعل الشمس و القمر العظيمين خاضعين لنظام دقيق، و عاقب بين الليل و النهار بذلك النظام الخاصّ آلاف و ملايين السنين، كيف يمكن أن تخفى عليه أعمال البشر؟ نعم .. إنّه يعلم الأعمال، و كذلك يعلم النيّات و الأفكار.

و تقول الآية الأخيرة، كاستخلاص نتيجة جامعة كليّة ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [۶۹].

إنّ مجموع البحوث التی وردت فی الآيات السابقة حول كون اللّه خالقا و مالكا، و عن علمه و قدرته اللامتناهيين، أثبتت هذه الأمور، و أنّ الحقّ هو اللّه وحده، و كلّ شیء غيره زائل و باطل و محدود و محتاج، و العلی و الكبير الذی يسمو على كلّ شیء، و يجلّ عن كلّ وصف، هو ذاته المقدّسة، و على قول الشاعر:

ألا كلّ شیء ما خلا اللّه باطل و كلّ نعيم لا محالة زائل

و يمكن إيضاح هذا الكلام بالتعبير الفلسفی كما يلی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۹

إنّ الحقّ إشارة إلى الوجود الحقيقی الثابت، و فی هذا العالم فإنّ الوجود الحقيقی القائم بذاته و الثابت المستقرّ الخالد هو اللّه فقط، و كلّ ما عداه لا وجود له بذاته و هو عين البطلان، حيث إنّه يستمدّ وجوده عن طريق الارتباط بذلك الوجود الحقّ الدائم، فإذا انقطع الفيض عنه لحظة فإنّه سيفنى و يمحى فی ظلمات الفناء و العدم، و بهذا فإنّه كلّما قوى ارتباط الموجودات الاخرى بوجود اللّه تعالى فإنّها تكتسب بتلك النسبة حقّا أكبر.

و على كلّ حال، و كما قلنا سابقا، فإنّ هذه الآيات مجموعة من عشر صفات من صفات اللّه تعالى، و عشرة أسماء من أسمائه، و تشتمل على أدلّة قويّة- لا يمكن إنكارها- و على بطلان كلّ أنواع الشرك، و لزوم التوحيد فی كلّ مراحل العبودية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۰

الآيتان [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

أ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْکَ تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِیُرِیَکُمْ مِنْ آیاتِهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَبَّارٍ شَکُورٍ (۳۱) وَ إِذا غَشِیَهُمْ مَوْجٌ کَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَی الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلَّا کُلُّ خَتَّارٍ کَفُورٍ (۳۲)

التّفسیر

فی دوّامة البلاء!

یدور البحث و الحدیث فی هاتین الآیتین أیضا عن نعم اللّه سبحانه، و أدلّة التوحید فی الآفاق و الأنفس، فالحدیث فی الآیة الاولی عن دلیل النظام، و فی الآیة الثّانیة عن التوحید الفطری، و هما فی المجموع تکمّلان البحوث التی وردت فی الآیات السابقة.

تقول الآیة الاولی: أ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْکَ تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ۷۰] لِیُرِیَکُمْ مِنْ آیاتِهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَبَّارٍ شَکُورٍ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۱

لا شکّ أنّ حرکة السفن علی سطح المحیطات تتمّ بمجموعة من قوانین الخلقة:

- فحرکة الریاح المنتظمة من جهة.
- و الوزن الخاصّ للخشب أو المواد التی تصنع منها تلک السفینة من جانب آخر.
- و مستوی کثافة الماء من جانب ثالث.
- و مقدار ضغط الماء علی الأجسام التی تسبح فیه من جهة رابعة.

و حینما یحدث اختلال فی واحد من هذه الأمور فإنّ السفینة إمّا أن تغرق و تنزل إلی قعر البحر، أو تنقلب، أو تبقی حائرة لا تهتدی إلی سبیل نجاتها فی وسط البحر.

غیر أنّ اللّه جلّ و علا الذی أراد أن یجعل البحار الواسعة أفضل السبل و أهمّها لسفر البشر، و نقل المواد التی یحتاجونها من نقطة إلی اخری، قد هیّأ و یسّر هذه الشروط و الظروف، و کلّ منها نعمة من نعمه تعالی.

إنّ عظمة قدرة اللّه سبحانه فی میدان المحیطات، و صغر الإنسان مقابلها، تبلغ حدّا بحیث إنّ کلّ البشر فی العالم القدیم- الذی کانت السفن تعتمد علی الریاح فی حرکتها- لو اجتمعوا لیحرّکوا سفینة وسط البحر عکس اتّجاه ریح عاصف قویّة لما استطاعوا.

و الیوم أیضا، حیث حلّت المولّدات و المکائن العظیمة محلّ الهواء، فإنّ هبوب العواصف قد یبلغ من الشدّة أحیانا بحیث یحرّک و یهزّ أعظم السفن، و قد یحطّمها أحیانا.

و التأکید الذی ورد فی نهایة الآیة علی أوصاف (صبّار) و (شکور) إمّا أن یکون من باب أنّ الحیاة الدنیا مجموعة من البلاء و النعمة، و کلاهما طریق و محلّ للاختبار، حیث إنّ الصمود و التحمّل أمام الحوادث الصعبة، و الشکر علی النعم یشکّلان مجمل ما یجب علی الإنسان، و لذا نقل کثیر من المفسّرین

عن الرّسول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۲

الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «الإیمان نصفان: نصف صبر، و نصف شکر»[۷۱].

أو أن یکون إشارة إلی لزوم وجود هدف لأجل إدراک آیات اللّه العظیمة فی میدان الخلقة، و هذا الهدف هو شکر المنعم المقترن بالصبر و التحمّل من أجل دقّة و تفحّص أکبر.

و بعد بيان نعمة حركة السفن فى البحار، و التى كانت و لا تزال أكبر و أنفع وسائل حمل و نقل البضائع و البشر، أشارت هذه الآية إلى صورة اخرى لهذه المسألة، فقالت: وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

«الظلل» جمع ظلّة، و قد ذكر المفسّرون لها عدّة معان:

- فيقول الراغب فى مفرداته: الظلّة سحابة تظلّ، و أكثر ما تقال لما يستوخم و يكره.

- و البعض اعتبرها بمعنى المظلّة الكبيرة، من مادّة الظلّ.

- و البعض اعتبرها بمعنى الجبل.

و بالرغم من أنّ هذه المعانى- من حيث تعلّقها بالآية مورد البحث- لا تختلف كثيرا عن بعضها، إلّا أنّه بملاحظة أنّ هذه الكلمة قد وردت مرارا فى القرآن بمعنى السحاب الذى يظلّ، و بملاحظة أنّ تعبير (غشيهم) يناسب معنى السحاب أكثر، فيبدو أنّ هذا التّفسير هو الأقرب.

أى إنّ أمواج البحر العظيمة تهيج فتحيط بهم كأنّ سحابا قد أظلّهم بظلّ مرعب مهول.

هنا يجد الإنسان نفسه ضعيفا و عاجزا رغم كلّ تلك القوى و الإمكانيات الظاهرية التى أعدّها لنفسه، و يجد يده قاصرة عن كلّ شيء و مكان، و تقف كلّ الوسائل العادية و الماديّة عن العمل، و لا يبقى له أى بصيص أمل إلّا النور الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۳

يشعّ من أعماق روحه و فطرته، فيزيح عن قلبه حجب الغفلة، و يقول له: هل يوجد أحد يستطيع إنقاذك؟

نعم، إنّه الذى تطيع أوامره أمواج البحر .. أنّه خالق الماء و الهواء و التراب.

هنا يحيط التوحيد الخالص بكلّ قلبه و يغمره، و يعتقد بأنّ الدين و العبادة مختصّة به سبحانه.

ثمّ تضيف الآية إنّ اللّه سبحانه لمّا نجّاهم من الهلكة انقسم الناس قسمين: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ[۷۲]. و هؤلاء وفوا بعهدهم و لم ينقضوه، و لم ينسوا منّة اللّه عليهم فى تلك اللحظات الحسّاسة.

أمّا القسم الثّانى فإنّهم نسوا كلّ ذلك، و استولى جيش الشرك و الكفر على معسكر قلوبهم.

و اعتبر بعض المفسّرين الآية أعلاه إشارة إلى إسلام «عكرمة بن أبى جهل»، إذ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله عفا عن جميع الناس عند فتح مكّة غير أربعة نفر أحدهم عكرمة بن أبى جهل، إذ أهدر دمهم، و أمر بقتلهم حيثما وجدوا، لأنّهم لم يتركوا أىّ سيّئة أو جريمة ضدّ الإسلام و المسلمين إلّا عملوها، و لذلك اضطرّ عكرمة إلى الفرار من مكّة، فتوجّه إلى البحر الأحمر و ركب السفينة، فأخذت بأطرافه ريح عاصف، فقال بعض أهل السفينة لبعضهم الآخر: تعالوا نترك الأصنام و نتضرّع إلى اللّه وحده و نسأله لطفه، فإنّ آلهتنا هذه لا تنفع شيئا! فقال عكرمة: إذا لم ينقذنا غير توحيدنا فى البحر، فلن ينقذنا فى البرّ سواه أيضا، اللهمّ إنّ أعطيك عهدا- إذا نجّيتنى من هذه المحنة- لآتينّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و أبايعه، فإنّى أعلم أنّه كريم عفوّ.

و أخيرا نجا، و أتى إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله ۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۴

و قد ورد فى التواريخ الإسلامية أنّ عكرمة قد أصبح فى صفّ المسلمين الحقيقيين، و استشهد فى معركة اليوموك أو أجنادين.

و تضيف الآية فى النهاية وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ.

(ختّار) من الختر، بمعنى نقض العهد، و هذه الكلمة صيغة مبالغة، لأنّ المشركين و العاصين يتوجّهون إلى اللّه مرارا، و يقطعون على أنفسهم العهود، و ينذرون النذور، إلّا أنّهم بمجرّد أن يهدأ طوفان الحوادث ينقضون عهودهم بصورة متلاحقة، و يكفرون بنعم اللّه عليهم.

إنّ تعبير «ختّار» و «كفور» الذى ورد فى نهاية هذه الآية، هو فى الحقيقة مقابل تعبير «صبّار» و «شكور» الذى ورد فى نهاية الآية

السابقة- فالكفران فى مقابل الشكر، و نقض العهد فى مقابل الصبر و الثبات على العهد- لأنّ الوفاء بالعهد لا يتمّ إلّا من قبل الثابتين الصامدين .. أولئك الذين إذا توهّج الإيمان الفطرى فى أعماق أرواحهم فلا يدعون هذا النور الإلهى ينطفئ مرّة اخرى و تتكاثف عليه الحجب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۵

الآيتان [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۳۳ الى ۳۴]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۳۳) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۳۴)

التّفسير

سعة علم اللّه:

فى هاتين الآيتين اللتين هما آخر آيات سورة لقمان، تلخيص للمواعظ و النصائح السابقة و لأدلّة التوحيد و المعاد، و توجيه الناس إلى اللّه و اليوم الآخر و تحذير من الغرور الناشئ من الدنيا و الشيطان، ثمّ الحديث عن سعة علم اللّه سبحانه و شموله لكلّ شىء، فتقول: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۶

إنّ الدستور الأوّل هو التوجّه إلى المعاد، فالدستور الأوّل يحيى فى الإنسان قوّة المراقبة، و الثّانى ينمّى روح الثواب و العقاب، و لا شكّ أنّ الإنسان الذى يعلم أنّ شخصا خبيرا و مطّلعا على كلّ أعماله يراه و يعلم به و يسجّل كلّ أعماله، و من ناحية اخرى يعلم أنّ محكمة عادلة ستتشكّل للتحقيق فى كلّ جزئيات أعماله، لا يمكن أن يتلوّث بأدنى فساد و معصية.

جملة لا يَجْزِي من مادّة الجزاء، و «الجزاء» ورد بمعنيين من الناحية اللغوية:

أحدهما: المكافأة و المعاقبة مقابل شىء، كما يقال: جزّاه اللّه خيرا.

و الآخر: الكفاية و النيابة و التحمّل للشىء عن الآخرين، كما جاء فى الآية مورد البحث: لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

و من الممكن أن يعود كلا المعنيين إلى أصل واحد، لأنّ الثواب و العقاب يحلّان محلّ العمل و ينوبان عنه، و هما بمقداره أيضا- تأمّلوا ذلك-.

على كلّ حال، فإنّ كلّ إنسان فى ذلك اليوم مشغول بنفسه، و مبتلى بمعطيات أعماله و آثارها إلى درجة أنّه لا ينظر إلى أحد و لا يهتمّ به، حتّى و إن كان أبوه، أو ابنه الذى كانت تربطه به أقرب الروابط، فلا يفكّر أحد بآخر مطلقا.

و هذه الآية نظير ما ورد فى بداية سورة الحجّ فى الحديث حول القيامة و الزلزلة: يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّه يعبّر ب لا يَجْزِي فى مورد الأب، و هى صيغة المضارع، أمّا فى شأن الابن فإنّه يعبّر باسم الفاعل (جاز) و هذا التفاوت فى التعبير لعلّه من باب التنوّع فى الكلام، أو إشارة إلى واجب و مسئولية الابن تجاه الأب، لأنّ اسم الفاعل يؤدّى معنى الدوام و التكرار أكثر.

و بتعبیر آخر، فإنّ المتوقّع من العواطف الأبویة أن یتحمّل الأب مقدارا من العذاب عن ابنه، کما کان فی الدنیا یتحمّل المصاعب و المشاکل فی سبیله، لکن من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۷

الابن أن یتحمّل مصائب الأب أکثر وفاء لحقوق الابوّة المترتّبة علیه، فی حین أن أیّا منهما لا یتحمّل أدنی مشکلة عن الآخر، و کلّ منهما مشغول بأعماله، و حائر فی أمره و نفسه.

و تحذّر الآیة فی النهایة البشر من شیئین، فتقول: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا وَ لا یَغُرَّنَّکُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ أی الشیطان.

فی الواقع، یلاحظ هنا نهیان فی مقابل الأمرین اللذین کانا فی بدایة الآیة، فإنّ الإنسان إذا نمت فیه مسألة التوجّه إلی اللّه، و الخوف من الحساب و الجزاء، فلا یخاف علیه من الانحراف و الفساد، إلّا من طریقین:

أحدهما: أن تغلب زخارف الدنیا و زبرجها الحقائق فی عینیه بصور اخری، و تسلب منه القدرة علی التشخیص، لأنّ حبّ الدنیا رأس کلّ الخطایا و أساسها.

و الآخر: أن تخدعه وساوس الشیطان و تغرّه، و تبعده عن المبدأ و المعاد.

فإذا أغلق طریقی نفوذ المعصیة و الذنب هذین، فسوف لا یهدّده أیّ خطر، و علی هذا فإنّ الدساتیر و البنود الأربعة أعلاه تمثّل مجموعة کاملة من برنامج نجاة و خلاص الإنسان.

و فی آخر آیة من هذه السورة، و بمناسبة البحث الذی جاء فی الآیة السابقة حول یوم القیامة، یدور الکلام عن العلوم المختّصة باللّه سبحانه، فتقول: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ یُنَزِّلُ الْغَیْثَ و مطّلع علی جمیع جزئیاته و تفاصیله ...

وَ یَعْلَمُ ما فِی الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ ما ذا تَکْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ.

فکأنّ مجموع هذه الآیة جواب عن سؤال یطرح فی باب القیامة، و هو نفس السؤال الذی سأل المشرکون به النّبی صلّی اللّه علیه و آله مرارا و تکرارا، و قالوا: مَتی هُوَ؟[۷۴]، فیجیبهم القرآن عن سؤالهم، و یقول: لا یعلم أحد بموعد قیام القیامة إلّا اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۸

سبحانه، و طبقا لصریح آیات اخری، فإنّ اللّه أخفی هذا العلم عن الجمیع: إِنَّ السَّاعَةَ آتِیَةٌ أَکادُ أُخْفِیها[۷۵]، و ذلک کی لا یحیط الغرور و الغفلة بأطراف البشر.

ثمّ تقول الآیة: إنّ مسألة القیامة لیست هی المسألة الوحیدة الخافیة علیکم، ففی حیاتکم الیومیة، و من بین أقرب المسائل المرتبطة بحیاتکم و مماتکم، مسائل کثیرة تجهلونها ..

أنتم لا- تعلمون زمان نزول قطرات المطر، و التی ترتبط بها حیاة کلّ الکائنات الحیّة، و إنّما تتوقّعونها علی أساس الحدس و الظنّ و التخمین.

و کذلک زمان تکوّنکم فی بطون الامّهات و خصائص الجنین فلا علم لأحد منکم بذلک.

و مستقبلکم القریب، أی حوادث الغد، و کذلک مکان موتکم و تودیعکم للحیاة، خاف علی الجمیع.

فإذا کنتم جاهلین بهذه المسائل القریبة من حیاتکم و المتّصلة بها، فلا مجال للعجب من عدم علمکم بلحظة قیام القیامة[۷۶].

و نقل فی الدرّ المنثور: أنّ رجلا- یقال له «الوراث»، من بنی «مازن بن حفصة»، جاء إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله، فقال: یا محمّد، متی تقوم الساعة؟ و قد أجدبت بلادنا فمتی تخصب؟ و قد ترکت امرأتی حبلی فمتی تلد؟ و قد علمت ما کسبت الیوم فما ذا أکسب غدا؟ و قد علمت بأی أرض ولدت فبأی أرض أموت؟ فنزلت هذه الآیة[۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۹

بحوث

۱- أنواع الغرور و الخدع!

إنّ الآيات أعلاه تحـذّر من الانخداع و الاغترار بزخارف الحياة الدنيا و بهارجها، ثمّ تتحدّث عن خدع الشـيطان و مكائده، و تعلن عن خطورته، لأنّ الناس عدّة أقسام:

فبعضهم ضعيف و عاجز إلى الحدّ الذى يكفى لخداعه و التغرير به مجرّد رؤية زخارف الدنيا.

أمّا القسم الـذى يمتلك مقاومـة أكثر، فلا بـدّ أن تزداد الوساوس الشـيطانية لازدياد مقاومتهم، و يتّحد لإضـلالهم و خداعهم الشـيطان الداخلى و الخارجى.

و تعبيرات الآية أعلاه تحذير لأفراد كلا الفئتين.

و ممّا يجدر ذكره أنّ (الغرور) على وزن «جسور» يعنى كلّ موجود خدّاع، و إنّما فسّـروها بالشيطان لأنّه مصداقها الواضح فى الحقيقة، و إلّـا فـإنّ كلّ إنسان خـدّاع، و كلّ كتاب مضلّ، و أىّ مقام و منصب يوسوس، و كلّ موجود يخـدع الإنسان و يضـلّه فإنّه يـدخل فى المفهوم الواسع لهـذه الكلمة، اللهمّ إلّا أن نعطى للشـيطان من سـعة المعنى بحيث يشـمل كلّ المعانى المتقدّمة، و لهذا فإنّ الراغب فى مفرداته يقول: فالغرور كلّ ما يغرّ الإنسان من مال و جاه و شهوة و شيطان، و قد فسّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين.

و قد فسّرها البعض بالدنيا لخداعها و غرورها، كما نقرأ فى نهج البلاغة: «تغرّ و تضرّ و تمرّ»[۷۸].

۲- خداع الدنيا

لا شكّ أنّ كثيرا من مظاهر الحياة الدنيا غارّة و مضلّة، و قد تشغل الإنسان بها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۰

أحيانا حتّى يغفل عن كلّ شىء، و لا يشتغل إلّا بها، و لذلك نقرأ

فى بعض الروايـات عن أمير المؤمنين عليه السّـلام حينمـا سـأله بعضـهم: أىّ النـاس أثبت رأيا؟ قال: «من لم يغرّه الناس من نفسه، و لم تغرّه الدنيا بتشويقها»[۷۹].

و لكن، و مع هـذه الحال، فإنّ فى طيّات مشاهـد هـذه الـدنيا الخدّاعـة المختلفـة، مشاهد و حوادث ناطقة معبّرة عن زوال هذا العالم، و كون زخـارفه و زبـارجه جوفـاء خاليـة بـأبلغ تعبير و أوضـحه، تلـك الحوادث تسـتطيع أن توقـظ كلّ إنسان عاقل، بل و تجعل الأغبياء عاقلين حكماء.

ففى حديث: أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّـلام سـمع رجلا يذمّ الدنيا و كان يعدّها خدّاعة، فقال عليه السّـلام: «أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أ تغترّ بالدنيا ثمّ تذمّها؟

أنت المتجرّم عليها، أم هى المتجرّمة عليك؟

متى استهوتك؟ أم متى غرّتك؟ أ بمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع امّهاتك تحت الثرى ...؟! إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار عافية لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزوّد منها، و دار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء اللّه، و مصلّى ملائكة اللّه، و مهبط وحى اللّه، و متجر أولياء اللّه ...»[۸۰].

۳- هذه العلوم الخمسة مختصّة باللّه

إنّ أسلوب الآية أعلاه يحكى أنّ العلم بالقيامة، و نزول المطر، و وضعيّة الجنين فى رحم الامّ، و الأمور التى سيقوم بها الإنسان فى المستقبل، و محلّ موته منحصر باللّه، و لا سبيل للآخرين إلى العلم بذلك، إضافة إلى هذا فإنّ الرّوايات الواردة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۱

تفسير هذه الآية تؤكّد هذه الحقيقة، و من جملتها ما

ورد فى حديث: «إنّ مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلّا اللّه، و قرأ هذه الآية»[۸۱].

و

جاء فى رواية اخرى وردت فى نهج البلاغة: أنّ عليّا عليه السّلام كان يوما يخبر بحوادث المستقبل، فقال له أحد أصحابه: يا أمير المؤمنين، أ تتحدّث عن الغيب و تعلم به؟

فتبسّم الإمام، و قال له: «يا أخا كلب (لأنّ الرجل كان من بنى كلب)، ليس هو بعلم غيب، و إنّما هو تعلّم من ذى علم، و إنّما علم الغيب علم الساعة و ما عدده اللّه سبحانه بقوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... فيعلم اللّه سبحانه ما فى الأرحام، من ذكر أو أنثى، و قبيح أو جميل، و سخىّ أو بخيل، و شقىّ أو سعيد، و من يكون فى النار حطبا، و فى الجنان للنبيين مرافقا، فهذا علم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلّا اللّه، و ما سوى ذلك فعلم علّمه اللّه نبيّه فعلّمنيه و دعا لى بأن يعيه صدرى و تضطمّ عليه جوانحى»[۸۲].

و يظهر من هذه الروايات جليّا أنّ المراد من عدم علم الناس بهذه الأمور، جهلهم بكلّ خصوصياتها و جزئياتها، فمثلا: إذا وضعت تحت تصرّف الإنسان يوما ما وسائل معيّنة- و لم يحلّ ذلك اليوم إلى الآن- بحيث يطّلع تماما على كون الجنين ذكرا أو أنثى، فإنّ هذا الأمر برغم كونه تطوّرا علميّا هامّا لا يعدّ شيئا، لأنّ الاطّلاع على الجنين و العلم به يعنى أن نعلم كلّ خصائصه الجسمية، القبح و الجمال، الصحّة و المرض، الاستعدادات الداخلية، الذوق العلمى و الفلسفى و الأدبى، و سائر الصفات و الكيفيّات الروحية، و هذا الأمر لا يتمّ لغير اللّه سبحانه.

و كذلك ما يتعلّق بالمطر، فمتى ينزل؟ و أيّة منطقة يصيب و يهطل عليها؟ و أىّ مقدار- على وجه الدقّة- سينزل فى البحر؟ و ما مقدار ما ينزل فى الصحراء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۲

و المنحدرات و الجبال؟ لا يعلم بذلك إلّا اللّه تعالى.

و كذلك شأن حوادث الغد، و الأيّام التالية، و خصوصياتها و جزئيّاتها.

و من هنا يتّضح جيّدا جواب السؤال الذى يطرح هنا غالبا، حيث يقولون: إنّنا نقرأ فى التواريخ و الروايات المتعدّدة أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، بل و حتّى بعض أولياء اللّه من غير الأئمّة، قد أخبروا بموتهم، أو بيّنوا و حدّدوا مكان دفنهم، و من جملتها الحوادث المتعلّقة بكربلاء، فقد قرأنا مرارا فى الروايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله، أو أمير المؤمنين عليه السّلام و الأنبياء السابقين قد أخبروا بشهادة الإمام الحسين عليه السّلام و أصحابه بأرض كربلاء.

و فى كتاب اصول الكافى يلاحظ باب فى علم الأئمّة بزمان و فاتهم ۸۳].

و الجواب هو: إنّ العلم بجزء من هذه الأمور، علما إجماليا- و هذا العلم أيضا عن طريق التعليم الإلهى- لا ينافى مطلقا اختصاص العلم التفصيلى بها بذات اللّه المقدّسة.

ثمّ إنّ هذا الإجمال أيضا- و كما قلنا- ليس ذاتيا و مستقلا، بل هو عرضى و حصل بالتعليم الإلهى، بالمقدار الذى يريده اللّه و يرى فيه الصلاح، و لذلك نرى

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ أحد أصحابه سأله: هل یعلم الإمام الغیب؟

قال: «لا، و لکن إذا أراد اللّه أن یعلم الشیء أعلمه اللّه ذلک»[۸۴].

و قد وردت فی باب علم الغیب، و کیفیّة علم الأنبیاء و الأئمّة به روایات کثیرة سنبحثها فی نهایة الآیات المناسبة، إلّا أنّ من المسلّم أنّ هناک علوما لم یطّلع علیها و لا یعلم بها أحد إلّا اللّه عزّ و جلّ ۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۳

اللهمّ نوّر قلوبنا بنور العلم، وهب لنا من علمک اللامتناهی.

اللهمّ اعصمنا زخارف هذه الدنیا، و لا یغرّنا الشیطان و هوی أنفسنا.

إلهنا اجعلنا منتبهین دائما إلی إحاطة علمک، و جنّبنا أن نعمل بین یدیک ما یخالف رضاک و یجلب سخطک.

نهایة سورة لقمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۵

سورة السّجدة

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها ثلاثون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۷

سورة السجدة

أسماء هذه السورة:

المعروف أنّ هذه السورة نزلت فی مکّة، إلّا أنّ البعض الآخر یری أنّ الآیات ۱۸- ۲۰ مدنیّة، فی حین لا تلاحظ أیّة قرینة أو علامة فی هذه الآیات علی کونها مدنیة.

اسم هذه السورة فی بعض الرّوایات، و کذلک المشهور علی لسان المفسّرین:

(سورة السجدة)، أو (الم السجدة)، و یسمّونها أحیانا (سجدة لقمان) لتمییزها عن سورة (حم السجدة)، لأنّها جاءت بعد سورة لقمان.

و ذکرت فی بعض الرّوایات باسم (الم تنزیل).

و ذکر «الفخر الرازی» و «الآلوسی» أنّ من جملة أسمائها (سورة المضاجع)، و هو إشارة إلی الآیة (۱۶) من هذه السورة: تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۸

فضل تلاوة سورة السجدة:

ورد فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «من قرأ الم تنزیل، و تبارک الذی بیده الملک، فکأنّما أحیی لیلة القدر»[۸۶].

و

روی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فی حدیث آخر: «من قرأ سورة السجدة فی کلّ لیلة جمعة أعطاه اللّه کتابه بیمینه،

و لم يحاسبه بما كان منه، و كان من رفقاء محمّد صلّى اللّه عليه و آله و أهل بيته»[۸۷].

و لمّا كانت قد وردت فى هذه السورة بحوث واسعة عن المبدأ و المعاد، و عقاب المجرمين فى يوم القيامة، و دروس محذّرة ترتبط بالمؤمنين و الكافرين، فلا شكّ أنّ تلاوتها- التلاوة التى تكون مصدرا و منبعا للتفكير، و بالتالى مبدءا للتصميم و الحركة- قادرة على أن تصنع من الإنسان مثالا- متكاملا- تشمله كلّ هذه الفضيلة و الفخر، و أن يكون أثرها كإحياء ليلة القدر، و نتيجتها أن يكون فى مصافّ أصحاب اليمين، و نيل افتخار محبّة النّبى و آله صلوات اللّه عليهم.

محتوى سورة السجدة:

هذه السورة بحكم كونها من السور المكّية تتابع بقوّة الخطوط الأصلية للسور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۹

المكّية، أى البحث فى المبدأ و المعاد، و البشارة و الإنذار، و على العموم تنقسم مباحثها إلى عدّة أقسام:

۱- الكلام عن عظمة القرآن، و نزوله من قبل ربّ العالمين، و نفى اتّهامات الأعداء عنه.

۲- ثمّ البحث حول آيات اللّه سبحانه فى السماء و الأرض، و تدبير هذا العالم.

۳- بحث آخر حول خلق الإنسان من «التراب» و «النطفة» و «الروح الإلهيّة»، و منحه وسائل تحصيل العلم، أى العين و الاذن و العقل من قبل اللّه تعالى.

۴- ثمّ تتحدّث بعد ذلك عن القيامة و الحوادث التى تسبقها، أى الموت، و ما بعدها، أى السؤال و الحساب.

۵- ۶- بحوث مؤثّرة تهزّ الوجدان عن البشارة و الإنذار، تبشّر المؤمنين بجنّة المأوى، و تهدّد الفاسقين بعذاب جهنّم الشديد.

۷- و فى السورة إشارة قصيرة إلى تأريخ بنى إسرائيل، و قصّة موسى عليه السّلام و انتصارات هذه الامّة.

۸- و كذلك تشير- مناسبة لبحث البشارة و الإنذار- إلى أحوال قوم آخرين من الأمم السابقة، و مصيرهم المؤلم.

۹- ۱۰- ثمّ تعود مرّة اخرى إلى مسألة التوحيد و آيات عظمة اللّه، و تنهى السورة بتهديد الأعداء المعاندين.

و بهذا فإنّ الهدف الأصلى للسورة تقوية أسس الإيمان بالمبدأ و المعاد، و إيجاد دفعة قويّة فى المحتوى الداخلى للإنسان نحو التقوى، و الابتعاد عن العصيان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۰

و التمرّد و الطغيان، و التوجّه إلى مقام الإنسان الرفيع، و هذا المعنى كان يحظى بالأهميّة القصوى خاصّة فى بداية حركة الإسلام، و فى محيط مكّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۱

الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (۴)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۵)

التّفسیر

عظمة القرآن، و المبدأ و المعاد:

مرّة اخری نواجه الحروف المقطّعة (الف- لام- میم) فی هذه السورة، و هذه هی المرّة الخامسة عشرة التی نری فیها مثل هذه الحروف فی بدایة السور القرآنیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۲

و لقد بحثنا بصورة مفصّلة فی بدایة سورة البقرة، و آل عمران و الأعراف التفاسیر المختلفة لهذه الحروف. و البحث الذی جاء بعد هذه الحروف مباشرة حول أهمیّة القرآن یبیّن مرّة اخری هذه الحقیقة، و هی أنّ الم إشارة إلی عظمة القرآن، و القدرة علی إظهار عظمة اللّه سبحانه، و هذا الکتاب العظیم الغنیّ المحتوی، و الذی هو معجزة محمّد صلّی اللّه علیه و آله الخالدة یتکوّن من حروف المعجم البسیطة التی یعرفها الجمیع.

تقول الآیة: تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ۸۸]. هذه الآیة- فی الواقع- جواب عن سؤالین: الأوّل عن محتوی هذا الکتاب السماوی، فتقول فی الجواب: إنّ محتواه حقّ و لا مجال لأدنی شکّ فیه. و السؤال الثّانی یدور حول مبدع هذا الکتاب، و فی الجواب تقول: إنّ هذا الکتاب من قبل ربّ العالمین.

و یحتمل فی التّفسیر أیضا أنّ جملة مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ جاءت دلیلا و برهانا لجملة لا رَيْبَ فِيهِ فکأنّ سائلا یسأل: ما هو الدلیل علی أنّ هذا الکتاب حقّ، و لا مجال للشکّ فیه؟ فتقول: الدلیل هو أنّه من ربّ العالمین الذی یصدر منه کلّ حقّ و حقیقة.

ثمّ إنّ التأکید علی صفة رَبِّ الْعالَمِينَ من بین صفات اللّه سبحانه قد یکون إشارة إلی أنّ هذا الکتاب مجموعة من عجائب عالم الخلقة، و عصارة حقائق عالم الوجود، لأنّه من ربّ العالمین.

و ینبغی الالتفات أیضا إلی أنّ القرآن لا یرید هنا الاکتفاء بالادّعاء الصرف، بل یرید أن یقول: إنّ الشیء الظاهر للعیان لا یحتاج إلی البیان، فإنّ محتوی هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۳

الکتاب شاهد بنفسه علی صحّته و أحقّیته.

ثمّ یشیر إلی التهمة التی طالما وجهها المشرکون و المنافقون إلی هذا الکتاب السماوی العظیم حیث قالوا: إنّ هذا الکتاب من تألیف محمّد. و قد ادعی کذبا بأنّه من اللّه: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ۸۹] فیقول جوابا علی ادّعاء هؤلاء الزائف: بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ و أدلّة أحقّیته واضحة و بیّنة فیه من خلال آیاته.

ثمّ یتطرّق إلی الهدف من نزوله، فیقول: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ

فبالرغم من أنّ دعوة النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله مبشّرة و منذرة، و أنّه بشیر قبل أن یکون نذیرا، إلّا أنّه یجب التأکید علی الإنذار أکثر مع القوم الضالّین المعاندین.

و جملة لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إشارة إلی أنّ القرآن یهیّء أرضیة الهدایة، إلّا أنّ التصمیم و اتّخاذ القرار النهائی موکول و مرتبط بنفس الإنسان.

و هنا یطرح سؤالان:

۱- من هم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم أى نذير قبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله؟

۲- ألم يقل القرآن الكريم: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ.[۹۰] قال جمع من المفسّرين فى جواب السؤال الأوّل: المراد قبيلة قريش التى لم يكن لها نذير قبل نبىّ الإسلام.

و قال البعض الآخر: المراد مرحلة الفترة و الفاصلة الزمنية بين نبوّة عيسى عليه السّلام و ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.

إلّا أنّ أيّا من هذين الجوابين لا يبدو صحيحا، لأنّ الأرض لا تبقى خالية من حجّة اللّه مطلقا، و فى كلّ عصر و زمان لا بدّ من وجود نبى أو وصى نبىّ لإتمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۴

الحجّة.

بناء على هذا، يبدو أنّ المراد من «النذير» هنا النّبى الكبير الذى يوضّح و يبيّن دعوته مقرونة بالمعجزات و فى محيط واسع، و معلوم أنّ مثل هذا النذير لم يقم فى الجزيرة العربية و بين قبائل مكّة.

و فى الإجابة عن السؤال الثّانى ينبغى أن يقال: إنّ معنى جملة: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ هو أنّ كلّ امّة كان لها نذير، إلّا أنّه لا يلزم حضوره بنفسه فى كلّ مكان، بل يكفى أن يصل صوت دعوة أنبياء اللّه العظام بواسطة أوصيائهم إلى أسماع كلّ البشر فى العالم.

و هذا يشبه قولنا: إنّ كلّ امّة كان لها نبى من اولى العزم، و لها كتاب سماوى، فمعنى هذا الكلام أنّ صوت هذا النّبى و كتابه السماوى قد وصل عن طريق وكلائه و أوصيائه لكلّ تلك الامّة على طول التاريخ.

بعد بيان عظمة القرآن و رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله تطرّقت الآية التالية إلى أساس آخر من أهم أسس و دعائم العقائد الإسلامية، فتقول: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ [۹۱].

و قلنا مرارا: إنّ المراد من سِتَّةِ أَيَّامٍ فى هذه الآيات: ستّ مراحل، لأنّ أحد معانى اليوم فى المحادثات اليومية: المرحلة، كما نقول: كان النظام المستبدّ يحكمنا بالأمس، و اليوم يحكمنا نظام الشورى، فى حين أنّ الحكومات المستبدّة كانت تحكم آلاف السنين، إلّا أنّهم يعبّرون عن تلك المرحلة باليوم.

و من جهة اخرى، فقد مرّت فترات و مراحل مختلفة على السماء و الأرض:

- فيوما كانت كلّ كواكب المنظومة الشمسية كتلة واحدة مذابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۵

- و فى يوم آخر انفصلت السيارات عن الشمس و بدأت تدور حولها.

- و فى يوم كانت الأرض كتلة نار ملتهبة.

- و فى يوم آخر أصبحت باردة و جاهزة لحياة النباتات و الحيوانات، ثمّ وجدت الكائنات الحيّة عبر مراحل مختلفة.

و قد أوردنا شرحا مفصّلا لهذا المعنى و المراحل الستّ بصورة مفصّلة فى ذيل الآية (۵۴) من سورة الأعراف.

و من البديهى أنّ قدرة اللّه اللامتناهية كافية لإيجاد كلّ هذا العالم فى لحظة، بل و فى أقلّ منها، إلّا أنّ هذا النظام التدريجى يبيّن عظمة اللّه و علمه و تدبيره فى جميع المراحل بصورة أفضل.

فمثلا: إذا طوى الجنين فى لحظة واحدة كلّ مراحل تكامله و ولد، فإنّ عجائبه ستبقى بعيدة عن نظر الإنسان، أمّا عند ما نراه يطوى فى كلّ يوم و أسبوع- طوال هذه التسعة أشهر- أشكالا عجيبة جديدة، فسنتعرّف أكثر على عظمة اللّه سبحانه.

و بعد مسألة الخلق تتطرّق الآية إلى مسألة حاكميّة اللّه سبحانه على عالم الوجود، فتقول: إنّ اللّه تعالى بعد ذلك استوى على عرش قدرته و سيطر على جميع الكائنات: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ

كلمة (العرش) كما قلنا سابقا، تعنى فى الأصل الكراسى الطويلة القوائم، و تأتى عادة كناية عن القدرة، كما نقول فى تعبيراتنا اليومية:

تکسّرت قوائم عرش فلان، أی إنّ قدرته و حکومته قد زالت.

بناء علی هذا، فإنّ استواء اللّه علی العرش لا یراد منه المعنی الجسمی بأن یکون للّه عرش کالملوک یجلس علیه، بل بمعنی أنّه خالق عالم الوجود، و کذلک الحاکم علی کلّ العالم ۹۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۶

و تکمّل الآیة مراحل التوحید بالإشارة إلی توحید «الولایة» و «الشفاعة»، فتقول: ما لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا شَفِیعٍ

فمع هذا الدلیل الواضح، بأنّ کونه سبحانه خالقا دلیل علی کونه حاکما، و الحاکمیّة دلیل علی توحید الولی و الشفیع و المعبود، فلما ذا تنحرفون و تضلّون و تتمسّکون بالأصنام؟ أَ فَلا تَتَذَکَّرُونَ فی الحقیقة، إنّ المراحل الثلاث للتوحید التی انعکست فی الآیة أعلاه یعتبر کلّ منها دلیلا علی الاخری، فتوحید الخالقیة دلیل علی توحید الحاکمیة، و توحید الحاکمیة دلیل علی توحید الولیّ و الشفیع و المعبود.

و هنا طرح بعض المفسّرین سؤال، و هو أنّ الجملة الأخیرة تقول: ما لکم من دون اللّه من ولیّ و لا شفیع، و معناها أنّ ولیّکم و شفیعکم الوحید هو اللّه سبحانه وحده، فهل من الممکن أن یشفع أحد عنده؟

و یمکن الإجابة علی هذا السؤال من ثلاثة جوانب:

۱- بملاحظة أنّ جمیع الشفعاء لا یشفعون إلّا بإذنه تعالی: مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۹۳]، یمکن القول بأنّ الشفاعة بالرغم من کونها من قبل الأنبیاء و أولیاء اللّه، إلّا أنّها تعود إلی اللّه سبحانه، سواء کانت الشفاعة لغفران الذنوب و العفو عن العاصین، أم للوصول إلی النعم الإلهیّة، و الشاهد علی هذا الکلام الآیة التی وردت فی بدایة سورة «یونس» بمضمون هذه الآیة تماما، حیث تقول:

یُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِیعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ [۹۴] ۲- إنّنا عند التوسّل باللّه نتوسّل بصفاته، فنستمدّ من رحمته و رحمانیّته، من کونه غفّارا غفورا، و من فضله و کرمه، فکأنّنا قد جعلناه شفیعا إلی نفسه، و نعتبر هذه الصفات واسطة بینها و بین ذاته المقدّسة، و إن کانت صفاته عین ذاته فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۷

الحقیقة، و هذا هو نفس الشیء الذی جاء فی دعاء کمیل فی عبارة علی علیه السّلام العمیقة المعنی: «و استشفع بک إلی نفسک».

۳- المراد من «الشفیع» هنا: الناصر و المعین، و نحن نعلم أنّ الناصر و الولیّ و المعین هو اللّه وحده، و ما قیل من أنّ الشفاعة هنا بمعنی الخلق و تکمیل النفوس یعود فی الحقیقة إلی نفس هذا المعنی.

و تشیر الآیة الأخیرة من الآیات مورد البحث إلی توحید اللّه سبحانه فی البدایة، ثمّ إلی مسألة «المعاد»، و بهذا تکمل هنا فروع و أرکان التوحید الثلاثة التی اتّضحت فی الآیات السابقة- (توحید الخالقیة و الحاکمیة و العبودیة)- بذکر توحید الربوبیة، أی تدبیر عالم الوجود من قبل اللّه سبحانه فقط، فتقول: إنّ اللّه یدبّر امور العالم من مقام القرب منه إلی الأرض: یُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَی الْأَرْضِ و بتعبیر آخر، فإنّ اللّه سبحانه قد جعل عالم الوجود من السماء إلی الأرض تحت أمره و تدبیره، و لا یوجد مدبّر سواه فی هذا العالم ۹۵].

ثمّ تضیف: ثُمَّ یَعْرُجُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ و المراد من هذا الیوم یوم القیامة.

و توضیح ذلک: أنّ المفسّرین قد تحدّثوا کثیرا فی تفسیر هذه الآیة، و احتملوا احتمالات عدیدة مختلفة:

۱- فاعتبرها بعضهم إشارة إلی قوس الصعود و النّزول لتدبیر العالم فی هذه الدنیا.

۲- و ذهب آخرون إلی أنّها إشارة إلی ملائکة اللّه الذین یطوون المسافة بین السماء و الأرض فی خمسمائة سنة، و یرجعون بهذه المدّة أیضا، و هو مشغولون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۸

بتدبير هذا العالم بأمر اللّه سبحانه.

۳- و يعتبرها البعض الآخر إشارة إلى مراحل التدبير الإلهى فى هذا العالم، و يعتقدون أنّ مراحل التدبير الإلهى فى هذا العالم كلّ ألف سنة، و يأمر اللّه سبحانه ملائكته بتدبير أمر السماء و الأرض فى كلّ الف سنة، و بعد انتهاء مرحلة الألف سنة هذه تبدأ مرحلة اخرى.

إنّ هذه التفاسير علاوة على أنّها تطرح مطالب غامضة و مبهمة، فإنّها لا تمتلك قرينة و شاهدا من نفس الآية أو من آيات القرآن الاخرى.

و فى اعتقادنا أنّ المراد من الآية- بقرينة آيات اخرى من القرآن، و كذلك الروايات الواردة فى تفسير الآية- شىء آخر، و هو أنّ اللّه سبحانه خلق هذا العالم، و نظّم و دبّر السماء و الأرض بتدبير خاصّ، و ألبس البشر و الموجودات الحيّة الاخرى لباس الحياة، إلّا أنّه يطوى هذا التدبير فى نهاية العالم، فتظلم الشمس، و تفقد النجوم أشعّتها، و بتعبير القرآن ستطوى السماوات حتّى ترجع إلى حالتها قبل توسّع هذا العالم يَوْمَ نَطْوِی السَّماءَ کَطَیِّ السِّجِلِّ لِلْکُتُبِ کَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِیدُهُ ۹۶]، و بعد طىّ هذا العالم سيبدأ إبداع برنامج و مشروع عالمى جديد أوسع، أى سيبدأ عالم آخر بعد انتهاء هذه الدنيا.

و هذا المعنى قد ورد فى آيات القرآن الاخرى، و من جملتها الآية (۱۵۶) من سورة البقرة: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَیْهِ راجِعُونَ

و جاء فى الآية (۲۷) من سورة الروم: وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ

و نقرأ فى الآية (۳۴) من سورة يونس: قُلِ اللَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۹

بملاحظة هذه التعبيرات، و التعبيرات الاخرى التى تقول: وَ إِلَیْهِ یُرْجَعُ الْأَمْرُ کُلُّهُ ۹۷]، يتّضح أنّ الآية مورد البحث تتحدّث أيضا عن بداية و نهاية العالم و قيام يوم القيامة، و الذى يعبّرون عنه أحيانا ب «قوس النّزول» و «قوس الصعود».

بناء على هذا فإنّ معنى الآية يصبح: إنّ اللّه سبحانه يدبّر أمر هذا العالم من السماء إلى الأرض- يبدأ من السماء و ينتهى بالأرض- ثمّ يعود كلّ ذلك إليه فى يوم القيامة.

و نطالع فى تفسير على بن إبراهيم فى ذيل هذه الآية: يعنى الأمور التى يدبّرها، و الأمر و النهى الذى أمر به، و أعمال العباد، كلّ هذا يظهر يوم القيامة فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سنىّ الدنيا.

و هنا سؤال، و هو: إنّنا نرى فى الآية (۴) من سورة المعارج فى شأن طول يوم القيامة: تَعْرُجُ الْمَلائِکَةُ وَ الرُّوحُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کانَ مِقْدارُهُ خَمْسِینَ أَلْفَ سَنَةٍ فكيف يمكن الجمع بين الآية مورد البحث، و التى عيّنت مقداره بألف سنة فقط، و آية سورة المعارج؟! و

قد ورد الجواب عن هذا السؤال فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام روى فى (أمالى الشيخ الطوسى) أنّه قال: «إنّ فى القيامة خمسين موقفا، كلّ موقف مثل الف سنة ممّا تعدّون، ثمّ تلا هذه الآية: فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة»[۹۸].

و من الطبيعى أنّ هذه التعبيرات لا تنافى عدم كون المراد من عدد الألف و الخمسين ألفا، العدد و الحساب هنا، بل كلّ منهما لبيان الكثرة و الزيادة، أى إنّ فى القيامة خمسين موقفا يجب أن يتوقّف الإنسان فى كلّ موقف مدّة طويلة جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۰

بحث

إساءة الاستفادة من آية یُدَبِّرُ الْأَمْرَ

لقد اتّخذ بعض أتباع المذاهب المصطنعة المبتدعة[۹۹] الآية أعلاه وسيلة و دليلا لتوجيه مسلكهم و مذهبهم، و أرادوا أن يطبّقوا هذه الآية على مرادهم بارتكاب المغالطات و الاشتباهات و ادّعوا أنّ المراد من «الأمر» فى الآية: الدين و المذهب، و «التدبير»: يعنى إرسال الدين، و «العروج»: يعنى رفع و نسخ الدين! و استنادا إلى هذا فإنّ كلّ مذهب أو دين لا يمكنه أن يعمّر أكثر من ألف سنة، و يجب أن يترك مكانه لدين آخر، و بهذا فإنّهم يقولون: إنّنا نقبل القرآن، لكن، و استنادا إلى نفس هذا القرآن فإنّ دينا آخر سيأتى بعد مرور الف سنة! و الآن نريد أن نبحث و نحلّل الآية المذكورة بحثا محايدا، لنرى هل يوجد فيها ارتباط بما يدّعيه هؤلاء، أم لا؟ و نغضّ النظر عن أنّ هذا المعنى بعيد عن مفهوم الآية إلى الحدّ الذى لا يخطر على ذهن أىّ قارئ خالى الذهن.

إنّنا نرى- بعد الدقّة- أنّ ما يقولونه لا ينسجم مع مفهوم الآية، بل إنّه مشكل بصورة واضحة من جهات كثيرة:

۱- إنّ تفسير كلمة «الأمر» بالدين لا دليل عليه، بل تنفى آيات القرآن الاخرى ذلك، لأنّ كلمة الأمر قد استعملت فى آيات اخرى بمعنى أمر الخلق، مثل إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۱۰۰].

و قد استعملت كلمة الأمر فى هذه الآية، و آيات اخرى مثل: الآية ۵۰/ سورة القمر، الآية (۲۷) من سورة المؤمنون، الآية (۵۴) من سورة الأعراف، (۳۲) من سورة إبراهيم، (۱۲) من سورة النحل، (۲۵) من سورة الروم، (۱۲) من سورة الجاثية، بمعنى الأمر التكوينى، لا بمعنى تشريع الدين و المذهب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۱

و أساسا فإنّ كلّ مورد يأتى الكلام فيه عن السماء و الأرض، و الخلق و الخلقة و أمثال ذلك، فإنّ «الأمر» يأتى بهذا المعنى (فتأمّل).

۲- كلمة «التدبير» تستعمل أيضا فى مورد الخلقة و الخلق و تنظيم وضع عالم الوجود، لا بمعنى إنزال الدين و الشريعة، و لذلك نرى فى آيات القرآن الاخرى- و الآيات يفسّر بعضها بعضا- أنّ هذه الكلمة لم تستعمل مطلقا فى مورد الدين و المذهب، بل استعملت كلمة «التشريع» أو «التنزيل» أو «الإنزال»:

- شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً.[۱۰۱]- وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ۱۰۲].

- نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ [۱۰۳] ۳- إنّ الآيات التى قبل و بعد هذه الآية مرتبطة بالخلقة و خلق العالم، و لا ترتبط بتشريع الأديان، لأنّ الكلام فى الآية السابقة كان عن خلق السماء و الأرض فى ستّة أيّام- و بعبارة اخرى ستّ مراحل- و الكلام فى الآية التالية عن خلق الإنسان.

و لا يخفى أنّ تناسب و انسجام الآيات يوجب أن تكون هذه الآية المتوسّطة لآيات الخلقة مرتبطة بمسألة الخلقة و تدبير أمر الخلق، و لهذا فإنّنا إذا طالعنا كتب التّفسير التى كتبت قبل مئات السنين فإنّنا لا نجد أحدا قد احتمل أن تكون الآية متعلّقة بتشريع الأديان، بالرغم من أنّهم احتملوا احتمالات مختلفة، فمثلا: مؤلّف تفسير «مجمع البيان»- و هو من أشهر التفاسير الإسلامية، و مؤلّفه عاش فى القرن السادس الهجرى- لم ينقل عن أحد علماء الإسلام قولا يدّعى فيه أنّ الآية ترتبط بتشريع الأديان، مع أنّه ذكر أقوالا مختلفة فى تفسير الآية أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۲

۴- إنّ كلمة «العروج» تعنى الصعود و الارتفاع، لا نسخ الأديان و زوالها، و لا يلاحظ العروج فى أى موضع من القرآن بمعنى النسخ- و هذه الكلمة قد ذكرت فى خمس آيات من القرآن، و لا تؤدّى هذا المعنى فى أىّ منها- بل تستعمل كلمة النسخ أو التبديل و أمثالهما فى مورد الأديان.

إنّ الأديان و الكتب السماوية فى الأساس ليست كأرواح البشر تعرج إلى السماء مع الملائكة بعد انتهاء العمر، بل إنّ الأديان المنسوخة، موجودة فى الأرض، إلّا أنّها تسقط عن الإعتبار فى بعض مسائلها، فى حين أنّ أصولها تبقى على قوّتها.

و الخلاصة: فإنّ كلمة العروج علاوة على أنّها لم تستعمل فى أىّ موضع من القرآن بمعنى نسخ الأديان، فهى لا تتناسب مع مفهوم

نسخ الأديان، لأنّ الأديان المنسوخة لا تعرج إلى السماء.

۵- إضافة إلى كلّ ما مرّ فإنّ هـذا المعنى لا ينطبق على الواقع الحقيقى العينى، لأنّ الفاصلة بين الأديان السابقة لم تكن ألف سنة فى أيّ مورد! فمثلا: الفاصلة بين ظهور موسى و المسيح عليهم السّلام أكثر من (۱۵۰۰) سنة، و الفاصلة بين المسيح عليه السّلام و ظهور نبى الإسلام العظيم صلّى اللّه عليه و آله أقلّ من (۶۰۰) سنة، و كما تلاحظون فإنّ أيّا من هـذين الموردين لا ينطبق على الألف سنة التى يقول بها هؤلاء، بل إنّ الفاصلة بين الواقع و ما يدّعون كبيرة.

و ذكروا أنّ الفترة الزمنية بين ظهور نوح عليه السّلام الذى كان من أنبياء اولى العزم، و واضع دعائم الدين و الشريعة الخاصّة، و بين محطّم الأصنام الصنديد إبراهيم عليه السّلام الذى كان نبيّا آخر من ذوى الشرائع أكثر من (۱۶۰۰) سنة، و الفترة بين إبراهيم و موسى عليهما السّلام أقلّ من (۵۰۰) سنة.

من هذا الموضوع نخلص إلى هذه النتيجة، و هى أنّه لم تكن هناك فترة و لا فاصلة، و لو من باب المثال، بين أحد الأديان و المذاهب و بين الدين الذى يليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۳

بمقدار ألف سنة.

۶- و إذا غضضنا النظر عن كلّ ما مرّ، فإنّ بدعة «السيّد على محمّد باب» و التى تحمل أتباعه لأجل الدفاع عنها كلّ هذه التوجيهات الباطلة لا تتناسب مع هذا الحساب، لأنّه باعترافهم ولد سنة ۱۳۲۵ هجرى، و كان بدء دعوته سنة ۱۲۶۰ هجرى قمرى، و بملاحظة أنّ بداية دعوة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله التى كانت بثلاثة عشر عاما قبل الهجرة، فإنّ الفاصلة بين الإثنين تكون (۱۲۷۳) أى بإضافة (۲۷۳) فما ذا نصنع بهذا الفارق الكبير؟ و بأيّة خطّة سنتجاهله؟

۷- و لو تركنا جانبا كلّ هذه الإيرادات الستّة، و صرفنا النظر عن هذه الردود الواضحة، و جعلنا أنفسنا مكان القرآن، و أردنا أن نقول للبشرية: كونوا بانتظار نبيّ جديد بعد مرور ألف سنة، فهل هـذا يصحّ طرح هذا المفهوم بالشكل الذى ذكرته الآية، حتّى لا ينتبه و يطّلع أحد من العلماء و غير العلماء أدنى اطّلاع على معنى الآية على مدى الإثنى أو الثلاثة عشر قرنا، ثمّ يأتى جماعة بعد مرور (۱۲۷۳) عام ليدّعوا أنّهم اكتشفوا اكتشافا جديدا، و أزاحوا الغطاء عنه، و هو مع ذلك لا يتجاوز إطار قبولهم أنفسهم لا قبول الآخرين؟! ألم يكن الأحسن و الأكثر حكمة و عقلا أن يقال مكان هذه الجملة: ابشّركم بأنّ نبيّا بهذا الاسم سيظهر بعد ألف سنة، كما قال عيسى عليه السّلام فى شأن نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله:

وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ.[۱۰۴] و على كلّ حال، فهذه المسألة قد لا تستحقّ بحثا بهذا المقدار إلّا أنّه لتنبيه و إيقاظ جيل الشباب المسلم، و اطلاعهم على المكائد التى هيّأها الاستعمار العالمى، و المسالك و المذاهب التى ابتدعها لتضعيف جبهة الإسلام، لم يكن لنا سبيل إلّا أن يعلموا و يطّلعوا على جانب من منطق هؤلاء، و عليهم الباقى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۴

الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۶ الى ۹]

اشارة

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (۸) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (۹)

التّفسير

مراحل خلق الإنسان العجيبة!

إنّ الآيات- مورد البحث- إشارة و تأكيد فى البداية على بحوث التوحيد التى مرّت فى الآيات السابقة، و التى كانت تتلخّص فى أربع مراحل: توحيد الخالقية، و الحاكمية، و الولاية، و الربوبية، فتقول: ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
من البديهى أنّ من يريد أن يدبّر امور السماء و الأرض، و أن يكون حاكما عليها، و يتعهّد و يقوم بمهام مقام الولاية و الشفاعة و الإبداع، يجب أن يكون مطّلعا على كلّ شيء، الظاهر و الباطن، حيث لا يمكن أن يتمّ أىّ من هذه الأمور بدون الاطّلاع و سعة العلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۵

و فى نفس الوقت الذى يجب أن يكون هذا المدبّر عزيزا قويّا لا يقهر ليقوى على القيام بهذه الأعمال المهمّة، ينبغى أن تقترن هذه العزّة باللطف و الرحمة، لا الخشونة و الغلظة.

ثمّ تشير الآية التالية إلى نظام الخلقة الأحسن و الأكمل بصورة عامّة، و مقدّمة لبيان خلق الإنسان و مراحل تكامله بشكل خاصّ: الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ و أعطى كلّ شىء ما يحتاجه، و بتعبير آخر: فإنّ تشييد صرح الخلقة العظيم قد قام على أساس النظام الأحسن، أى قام على نظام دقيق سالم لا يمكن تخيّل نظام أكمل منه.

لقد أوجد سبحانه بين كلّ الموجودات علاقة و انسجاما، و أعطى كلّا منها ما يطلبه على لسان الحال.

إذا نظرنا إلى وجود الإنسان، و أخذنا بنظر الإعتبار كلّ جهاز من أجهزته، فسنرى أنّها خلقت من ناحية البناء و الهيكل، و الحجم، و وضع الخلايا، و طريقة عملها، بشكل تستطيع معه أن تؤدّى وظيفتها على النحو الأحسن، و فى الوقت ذاته فقد وضعت بين الأعضاء روابط قويّة بحيث يؤثّر و يتأثّر بعضها بالبعض الآخر بدون استثناء.

و هذا المعنى هو الحاكم تماما فى العالم الكبير مع المخلوقات المتنوّعة، و خاصّة فى عالم الكائنات الحيّة، مع تلك التشكيلات و الهيئات المختلفة جدّا.

و الخلاصة: فإنّه هو الذى أودع أنواع العطور البهيجة فى الأزهار المختلفة، و هو الذى يهبّ الروح للتراب و الطين و يخلق منه إنسانا حرّا ذكيا عاقلا، و من هذا التراب المخلوط يخلق أحيانا الأزهار، و أحيانا الإنسان، و أحيانا اخرى أنواع الموجودات الاخرى، و حتّى التراب نفسه خلق فيه ما ينبغى أن يكون فيه.

و نرى نظير هذا الكلام فى الآية (۵۰) من سورة «طه» من قول موسى و هارون عليهما السّلام: رَبُّنَا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۶

و هنا يطرح سؤال حول خلق الشرور و الآفات، و كيفية انسجامها مع النظام العالم الأحسن، و سنبحثه إن شاء اللّه تعالى فيما بعد.

بعد هذه المقدّمة الآفاقية يدخل القرآن بحث الأنفس، و كما تحدّث فى بحث الآيات الآفاقية عن عدّة أقسام للتوحيد، فإنّه يتحدّث هنا عن عدّة مواهب عظيمة فى مورد البشر:

يقول أوّلا: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ليبيّن عظمة و قدرة اللّه سبحانه حيث خلق مثل هذا المخلوق الجليل العظيم من مثل هذا الموجود البسيط الحقير، هذا من جانب، و من جانب آخر يحذّر الإنسان و يذكّره من أين أتيت، و إلى أين ستذهب؟! و من المعلوم أنّ هذه الآية تتحدّث عن خلق آدم، لا كلّ البشر، لأنّ استمرار نسله قد ذكر فى الآية التالية، و ظاهر هذه الآية دليل واضح على خلق الإنسان بشكل مستقل، و نفى فرضيّة تحوّل الأنواع (و على الأقل فى مورد نوع الإنسان).

و بالرغم من أنّ البعض أراد أن يفسّر هذه الآية بحيث تناسب و تلائم فرضية تكامل الأنواع، بأنّ خلق الإنسان يرجع إلى أنواع سافلة، و هى تنتهى أخيرا إلى الماء و الطين، إلّا أنّ ظاهر الآية ينفى وجود أنواع اخرى من الموجودات الحيّة- و هم يدّعون أنّها أنواع لا

تحصی- تفصل بین آدم و الطین، بل إنّ خلق الإنسان قد تمّ من الطین مباشرة و بدون واسطة. و لم یتحدّث القرآن عن أنواع الکائنات الحیّة الاخری.

و هذا المعنی یتّضح أکثر عند ملاحظة الآیة (۵۹) من سورة آل عمران، حیث تقول: إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ

و یقول فی الآیة (۲۶) من سورة الحجر: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

و یستفاد من مجموع الآیات أنّ خلق آدم قد تکوّن من التراب و الطین کخلق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۷

مستقل، و من المعلوم أنّ فرضیة تطور الأنواع لم تکن مسألة علمیة قطعیة لنحاول تفسیر الآیات أعلاه بشکل آخر بسبب تضادّها و تعارضها مع هذه الفرضیة، و بتعبیر آخر: طالما لا توجد قرینة واضحة علی خلاف ظواهر الآیات فیجب أن نطبّقها بمعناها الظاهر، و کذلک الحال فی مورد خلق آدم المستقلّ.

ثمّ تشیر الآیة بعدها، إلی خلق نسل الإنسان، و کیفیة تولّد أولاد آدم فی مراحل، فتقول: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ

«جعل» هنا بمعنی الخلق، و «النسل»: بمعنی الأولاد و الأحفاد فی جمیع المراحل.

«السلالة» فی الأصل، بمعنی العصارة الخالصة لکلّ شیء، و المراد منها هنا نطفة الإنسان التی تعتبر عصارة کلّ وجوده، و مبدأ حیاة و تولّد الذریّة و استمرار النسل.

إنّ هذا السائل الذی یبدو تافها لا قیمة له و لا مقدار فإنّه یعدّ من الناحیة البنائیة و الخلایا الحیویة التی تسبح فیه، و کذلک ترکیب السائل الخاصّ الذی تسبح فیه الخلایا رقیقا و دقیقا و معقّدا إلی أبعد الحدود، و یعتبر من آیات عظمة اللّه سبحانه، و علمه و قدرته. و کلمة «مهین» التی تعنی الضعیف إشارة إلی وضعه الظاهری، و إلّا فإنّه من أعمق أسرار الموجودات.

و تشیر الآیة التالیة إلی مراحل تکامل الإنسان المعقّدة فی عالم الرحم، و کذلک المراحل التی طواها آدم عند خلقه من التراب، فتقول: ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِیهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِیلًا ما تَشْکُرُونَ

«سوّاه» من التسویة، أی الإکمال، و هذه إشارة إلی مجموع المراحل التی یطویها الإنسان من حال کونه نطفة إلی المرحلة التی تتّضح فیها جمیع أعضاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۸

بدنه، و کذلک المراحل التی طواها آدم بعد خلقه من التراب حتّی نفخ الروح ۱۰۵].

و التعبیر ب «النفخ» کنایة عن حلول الروح فی بدن الإنسان، فکأنّه شبّه الحال بالهواء و التنفّس، بالرغم من أنّه لا هذا و لا ذاک.

فإن قیل: إنّ نطفة الإنسان منذ استقرارها فی الرحم- بل و قبل ذلک- کانت کائنا حیّا و علی هذا فأیّ معنی لنفخ الروح؟

قلنا فی الجواب: إنّ النطفة عند ما تنعقد فی البدایة لیس لها إلّا نوعا من «الحیاة النباتیة»، أی التغذیة و النمو فقط، أمّا الحسّ و الحرکة التی هی علامة «الحیاة الحیوانیة»، و کذلک قوّة الإدراکات التی هی علامة الحیاة الإنسانیة، فلا أثر عن کلّ ذلک.

إنّ تکامل النطفة فی الرحم تصل إلی مرحلة تبدأ عندها بالحرکة، و تحیا و تنبعث فیها القوی الإنسانیة الاخری تدریجیا، و هذه هی المرحلة التی یعبّر عنها القرآن بنفخ الروح.

أمّا إضافة «الروح» إلی «اللّه» فهی «إضافة تشریفیة»، أی إنّ روحا ثمینة و شریفة بحیث أنّ من المناسب أن تسمّی «روح اللّه» قد دبّت فی الإنسان و نفخت فیه، و هذا یبیّن حقیقة أنّ الإنسان و إن کان من ناحیة البعد المادّی یتکوّن من الطین و الماء، إلّا أنّه من البعد المعنوی و الروحی یحمل «روح اللّه».

إنّ أحد طرفی وجوده ینتهی إلی التراب، و طرفه الآخر یتّصل بعرش اللّه، فإنّه خلیط من الملائکة و الحیوان، و لوجود هذین البعدین فإنّ منحنی صعوده و نزوله، و تکامله و انحطاطه واسع جدّا[۱۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۹

و أشار القرآن فى آخر مرحلة- و التى تعتبر المرحلة الخامسة فى خلق الإنسان- إلى نعمة الاذن و العين و القلب، و من الطبيعى أنّ المراد هنا ليس خلقة هذه الأعضاء، لأنّ هذه الخلقة تتكوّن قبل نفخ الروح، بل المراد حسّ السمع و البصر و الإدراك و العقل.

و التأكيد على هذه الحواس الثلاث فقط من بين كلّ الحواس «الظاهرة» و «الباطنة»، لأنّ أهمّ حسّ ظاهرى يربط الإنسان بالعالم الخارجى رابطة قويّة هو السمع و البصر، فالأذن تدرك الأصوات، و خاصّة أنّ التربية و التعليم يتمّ بواسطتها، و العين وسيلة النظر إلى العالم الخارجى و مشاهدة مشاهد هذا العالم المختلفة، و قوّة العقل أهمّ حسّ باطنى لدى الإنسان، و بتعبير آخر فإنّه حاكم على وجود البشر.

و الجدير بالذكر أنّ «أفئدة» جمع «فؤاد» بمعنى «قلب» و لكن مفهومها أدقّ من القلب حين يقصد بها عادة الحنكة و الفطانة فى الفرد، و بهذا يبيّن اللّه تعالى فى هذه الآية أهمّ وسائل المعرفة و الإدراك الظاهرية و الباطنية فى الإنسان، لأنّ العلوم و المعارف إمّا أن يحصل عليها الإنسان بواسطة «التجربة» فالوسيلة هى السمع و البصر، أو عن طريق التحليل و الاستدلال العقلى، و الوسيلة لذلك هو العقل و الفؤاد كما ورد التعبير عنه فى هذه الآية، و حتّى الإدراك الحاصل من الوحى أو الإشراق و الشهود القلبى يتمّ بواسطة هذه الوسيلة أيضا، أى «الأفئدة».

و لو فقد الإنسان هذه الوسائل للمعرفة، فسوف يخسر قيمته تماما و يصبح مجرّد كميّة مهملة من المادّة و التراب، و لهذا نجد الآية الشريفة محل البحث تؤكّد فى ختامها على مسألة الشكر لهذه النعم العظيمة على الإنسان و تقول قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ و ذلك إشارة إلى أنّ الإنسان مهما سعى فى أداء شكر هذه النعم و المواهب العظيمة، فمع ذلك لا يؤدّى حقّ الشكر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۰

بحث

كيفية خلق آدم من التراب:

رغم أنّ الآيات القرآنية تحدّثت أحيانا عن خلق الإنسان من «طين» (كالآيات محلّ البحث)، و كما ورد فى قصّة آدم و إبليس فى قوله تعالى:

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً[۱۰۷].

و أحيانا اخرى عن الخلق من الماء مثل: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ [۱۰۸] إلّا أنّ من المعلوم أنّ هذه جميعا تعود إلى مطلب واحد، و حتّى عند الكلام عن خلق آدم من التراب، مثل إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ [۱۰۹] لأنّ المراد: التراب الممتزج بالماء، أى الطين.

و من هنا تتّضح عدّة نقاط:

۱- أنّ الذين احتملوا أنّ المراد من خلق الإنسان من التراب، هو أنّ أفراد البشر يتغذّون على النباتات- سواء كانت التغذية بصورة مباشرة أو غير مباشرة- و أنّ النباتات كلّها من التراب- قد جانبوا الصواب، لأنّ آيات القرآن يفسّر بعضها بعضا، و الآيات أعلاه إشارة إلى شخص آدم الذى خلق من التراب.

۲- أنّ کلّ هذه الآیات دلیل علی نفی فرضیة التکامل- و علی الأقل فی مورد الإنسان، و أنّ نوع البشر الذی ینتهی بآدم له خلق مستقلّ.

و ما قیل من أنّ آیات الخلق من التراب إشارة إلی نوع الإنسان الذی یعود إلی الموجودات أحادیة الخلیّة بآلاف الوسائط، و هی أیضا قد جاءت- طبقا للفرضیات الأخیرة- من الطین الموجود علی جانب المحیطات، أمّا نفس آدم فقد کان فردا انتخب من بین نوع البشر، و لم یکن له خلق مستقلّ، بل إنّ امتیازه کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۱

فی صفاته الخاصّة .. هذه الفرضیة لا تتناسب مع ظواهر آیات القرآن بأیّ وجه من الوجوه.

و تؤکّد مجدّدا أنّ مسألة تحوّل الأنواع لیست قانونا علمیّا مسلّما، بل هی مجرّد فرضیّة- لأنّ الشیء الذی امتدّ أصله إلی ملایین السنین و خفی فیها، فمن المسلّم أنّه لا یخضع للتجربة و المشاهدة، و لا یمکن أن یکون فی مصاف القوانین العلمیة الثابتة- بل هی فرضیة لتوجیه ظاهرة تنوّع الأجناس التی ظهرت إلی الوجود توجیها تخمینیا، و نحن نعلم أنّ الفرضیات فی حالة تغیّر و تحوّل دائما حیث تخلی الساحة أمام الفرضیات الجدیدة.

بناء علی هذا، فإنّه لا یمکن الاعتماد علیها مطلقا فی المسائل الفلسفیة التی تحتاج إلی أسس مسلّمة قطعیة.

و قد أوردنا إیضاحا مفصّلا حول أسس فرضیة تکامل الأنواع، و عدم صحّتها، تحت عنوان (القرآن و خلق الإنسان) فی ذیل الآیة (۲۸) من سورة الحجر.

و فی نهایة هذا البحث نری لزاما ذکر هذه المسألة، و هی أنّه لیس لفرضیة التکامل أی ارتباط بمسألة التوحید و معرفة اللّه، و لا تعتبر دلیلا علی نفی عالم ما وراء الطبیعة، لأنّ الإعتقاد التوحیدی یقول: إنّ العالم قد خلق من قبل اللّه سبحانه، و إنّه هو الذی أعطی کلّ خواص الموجودات، و یشملها بفیضه فی جمیع المراحل.

إنّ هذا المعنی یمکن أن یقبله المعتقد بنظریة (ثبوت الأنواع) کما یقبله من یذهب إلی (تطور الأنواع)، غیر أنّ المشکلة الوحیدة التی یواجهها المعتقد بفرضیة تحوّل الأنواع هی أنّ هذه الفرضیّة لا تتناسب مع التفصیل الذی بیّنه القرآن الکریم حول خلق آدم، حیث یذکر کیفیّة خلقه من التراب و الطین.

بناء علی هذا فإنّنا ننفی فرضیة التکامل لهذا السبب فقط، لا بسبب مخالفتها لمسألة التوحید. هذا من الناحیة التّفسیریة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۲

أمّا من الناحیة العلمیة- أی العلوم الطبیعیة- فإنّنا ننفی فرضیة التکامل- و کما أشیر إلی ذلک- من جهة عدم امتلاکها الأدلّة القطعیّة علی ثبوتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۳

الآیات [سورة السجده (۳۲): الآیات ۱۰ الی ۱۴]

اشارة

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ کافِرُونَ (۱۰) قُلْ یَتَوَفَّاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ لَوْ تَری إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (۱۲) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَیْنا کُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لکِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ (۱۳) فَذُوقُوا بِما نَسِیتُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هذا إِنَّا نَسِیناکُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۴)

التّفسير

الندم و طلب الرجوع:

تبدأ هذه الآيات ببحث واضح جلى حول المعاد، ثمّ تبيّن و تبحث حال المجرمين فى العالم الآخر، و هى فى المجموع تتمّة للبحوث السابقة التى تحدّثت حول المبدأ، إذ أنّ البحث عن المبدأ و المعاد مقترنان غالبا فى القرآن المجيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ١١۴

فتقول: إنّ هؤلاء الكفّار يتساءلون باستغراب بأنّنا إذا متنا و تحوّلت أبداننا إلى تراب و اندثرت تماما فهل سوف نخلق من جديد: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

إنّ التعبير ب ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ إشارة إلى أنّ الإنسان يصبح ترابا بعد موته كسائر الأتربة و يتفرّق هذا التراب نتيجة العوامل الطبيعية و غير الطبيعية، و لا يبقى منه شىء حتّى يعيده اللّه سبحانه فى القيامة مرّة اخرى.

إلّا أنّ هؤلاء ليسوا بمنكرين قدرة اللّه فى الحقيقة بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ فإنّهم ينكرون مرحلة لقاء اللّه و الحساب و الثواب و العقاب و لتبرير حرية العمل و ليعملوا ما يريدون! و هذه الآية تشبه كثيرا الآيات الاولى من سورة القيامة التى تقول: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ.[١١٠] بناء على هذا، فإنّ هؤلاء ليسوا قاصرين من ناحية الاستدلال، و لكن شهواتهم حجبت قلوبهم، و نيّاتهم السيّئة منعتهم من قبول مسألة المعاد، و إلّا فإنّ اللّه الذى أعطى قطعة المغناطيس القوّة التى تجذب إلى نفسها ذرّات الحديد الصغيرة جدّا و المتناثرة فى طيّات أطنان من تراب الأرض من خلال جولة سريعة فى تلك الأرض، و تجمعها بكلّ بساطة، هو الذى يجعل بين ذرّات بدن الإنسان مثل هذه الجاذبية المتقابلة.

من الذى يستطيع أن ينكر أنّ المياه الموجودة فى جسم الإنسان- و أكثر جسم الإنسان ماء- و كذلك المواد الغذائية، كانت ذرّاتها متناثرة فى زاوية من العالم قبل ألف عام مثلا، و كلّ قطرة فى محيط، و كلّ ذرّة فى إقليم، إلّا أنّها تجمّعت عن طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ١١۵

السحاب و المطر و العوامل الطبيعية الاخرى، و كوّنت الوجود الإنسانى فى النهاية، فأى داع للعجب من أن تجتمع و ترجع إلى حالها الأوّل بعد تلاشيها و تبعثرها؟! و تجيب الآية هؤلاء عن طريق آخر، فتقول: لا- تتصوّروا أنّ شخصيتكم بأبدانكم و أجسامكم، بل بأرواحكم، و هى باقية و محفوظة: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ

إذا لا حظنا أنّ معنى «يتوفّاكم»- من مادة «توفّى» (على وزن تصدّى)، هو الإستيفاء، فإنّ الموت سوف لا يعنى الفناء، بل نوع من قبض الملائكة لروح الإنسان التى تشكّل أهمّ من وجود الإنسان.

صحيح أنّ القرآن يتحدّث عن المعاد الجسمانى، و يعتبر رجوع الروح و الجسم المادّى فى المعاد حتميّا، إلّا أنّ الهدف من الآية أعلاه هو بيان أنّ هذه الأجزاء المادّى التى شغلتم بها فكركم تماما ليست هى أساس شخصيّة الإنسان، بل الأساس هو الجوهر الروحى الذى جاء من قبل اللّه تعالى و إليه يرجع.

و فى المجموع يمكن أن يقال: إنّ الآيتين أعلاه تجيبان منكرى المعاد بهذا الجواب: إذا كان إشكالكم فى تفرّق الأجزاء الجسمية، فإنّكم تقرّون بقدرة اللّه سبحانه و لا تنكرونها، و إذا كان إشكالكم فى اضمحلال و فناء شخصية الإنسان على أثر تناثر تلك الذرّات، فلا يصحّ ذلك لأنّ أساس شخصيّة الإنسان يستند إلى الروح.

و هذا الإيراد لا يختلف عن شبهة (الآكل و المأكول) المعروفة، كما أنّ جوابه فى الموردين يشبه جواب تلك الشبهة[١١١].

و ثمّة مسألة ينبغى التوجّه إليها، و هى أنّ فى بعض آيات القرآن نسب التوفّى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۶

إلى اللّه سبحانه: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها،[۱۱۲] و فى بعضـها إلى مجموعة من الملائكة: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ ...[۱۱۳]. و فى الآيات مورد البحث نسب قبض الأرواح إلى ملك الموت، إلّا أنّه لا منافاة بين هذه التعبيرات مطلقا، فإنّ لملك الموت معنى الجنس، و هو يطلق على كـلّ الملائكـة، أو هو إشـارة إلى كبير الملائكـة و زعيمها، و لمّا كان الجميع يقبضون الأرواح بأمر اللّه سبحانه، فقد نسب الفعل إلى اللّه عزّ و جلّ.

ثمّ تجسّـد وضع هؤلاء المجرمين الكـافرين و منكرى المعـاد الـذين ينـدمون فى القيامـة أشـدّ النـدم على ما كان منهم لـدى مشاهـدة مشاهدها و مواقفها المختلفة.

فتقول: وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ۱۱۴].

ستعجب حقّا! أ هؤلاء النادمون الناكسو الرؤوس هم أولئك المتكبّرون العتاة العصاة الـذين لم يكونوا يـذعنون فى الـدنيا لأيّة حقيقة؟! إلّا أنّهم الآن يتغيّرون تماما عنـد رؤيـة مشاهـد القيامـة و يصـلون إلى مسـتوى الشـهود، لكنّ هذا الوعى و تغيير الموقف سـريع الزوال، فإنّهم- و طبقا لآيات القرآن الاخرى- لو رجعوا إلى هذه الدنيا لعادوا إلى حالتهم الأولى، الأنعام/ الآية ۲۸.

«الناكس» من مادّة (نكس) على وزن (كلب) بمعنى انقلاب الشىء، و هنا يعنى خفض الرأس إلى الأسفل و طأطأته.

تقديم «أبصرنا» على «سمعنا» لأنّ الإنسان يرى المشاهد و المواقف أوّلا، ثمّ يسمع استجواب اللّه و الملائكة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۷

و يتبيّن ممّا قلناه أنّ المراد من «المجرمين» هنا الكافرون، و خاصّة منكرى القيامة.

و على كلّ حال، فليست هـذه المرّة الاولى التى نواجه فيها هـذه المسألـة فى آيات القرآن، و هى أنّ المجرمين يندمون أشدّ الندم عند مشاهدة نتائج الأعمال و العذاب الإلهى، و يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فى حين أنّ مثل هذا الرجوع غير ممن فى السـنّة الإلهيّة، كما أنّ رجوع الطفل إلى رحم الأمّ، و الثمرة المقطوفة إلى الشجرة غير ممكن.

و الجدير بالذكر أنّ طلب المجرمين الوحيد هو الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا، و من هنا يتّضح جيّدا أنّ رأس مال النجاة الوحيد فى القيامة هو الأعمال الصالحة .. تلك الأعمال التى تنبع من قلب طاهر ملىء بالإيمان، و تتمّ بخالص النيّة.

و لمّا كان كلّ هذا الإصـرار و التأكيد على قبول الإيمان قد يوهم عجز اللّه سبحانه عن أن يلقى نور الإيمان فى قلوب هؤلاء، فإنّ الآية التالية تضيف: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها.

فمن المسـلّم أنّ اللّه تعالى يمتلك مثل هذه القدرة، إلّا أنّ الإيمان الذى يتحقّق و يتمّ بالإجبار لا قيمة له، و لذا فالمشيئة الإلهيّة أرادت أن ينال الإنسان شـرف كونه مختارا، و أن يسـير فى طريق التكامل بحريته و إختياره، و لـذلك تضـيف فى النهاية لقد قرّرت أن أخلق الإنسان مختارا وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

أجل .. إنّ المجرمين سـلكوا هذا الطريق بسوء اختيارهم، و لذلك فهم مسـتحقّون للعقاب، و نحن قد قطعنا على أنفسـنا أن نملأ جهنّم منهم.

و بملاحظـة مـا قلنـاه، و بملاحظـة مئـات الآيـات القرآنيـة التى تعتبر الإنسان موجودا مختارا ذا إرادة، و مكلّفا بتكاليف، و مسـئولا عن أعماله، و قابلا للهداية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۸

بواسـطة الأنبيـاء و تهـذيب النفس و تربيتهـا، فإنّ كلّ توهّم يبتنى على أنّ الآيـة أعلاه دليل على الجبر- كما ظنّ ذلك الفخر الرازى و أمثاله- واضح البطلان.

و لعلّ الجملـة الشديدة القاطعة أعلاه إشارة إلى أن لا تتصوّروا أنّ رحمة اللّه الواسـعة تمنع من عقاب المجرمين الفسـقة و الظالمين، و

أن لا تغترّوا بآيات الرحمهٔ و تعدّوا أنفسكم بمأمن من العذاب الإلهی، فإنّ لرحمته موضعا، و لغضبه موضعا.

إنّه عزّ و جلّ سيفی بوعيده حتما- و خاصّهٔ بملاحظهٔ لام القسم فی جملهٔ (لأملأنّ) و نون التوكيد فی آخرها- و سيملأ جهنّم من أصحابها هؤلاء، و إن لم يفعل فذلك خلاف الحكمهٔ، و لذلك تقول الآيهٔ التاليهٔ: إنّا سنقول لأصحاب النار فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

مرّهٔ اخری يستفاد من هذه الآيهٔ أنّ نسيان محكمهٔ القيامهٔ العادلهٔ هو الأساس لكلّ تعاسهٔ و شقاء للإنسان، لأنّه سيری نفسه فی هذه الصورهٔ حرّا إزاء ارتكاب القبائح و الظلم و العدوان.

و كذلك يستفاد من الآيهٔ بوضوح أنّ العقاب الأبدی للفرد معلول لما ارتكبه من أعمال فی دار الدنيا، لا لشیء آخر.

و ضمنا يتّضح أنّ المراد من «نسيان اللّه» هو عدم رعايته و نصرته لهم، و إلّا فإنّ جميع العالم حاضر دوما عند اللّه، و لا معنی للنسيان بالنسبهٔ له عزّ و جلّ.

مسألتان

۱- استقلال الروح و أصالتها

الآيهٔ الاولی من الآيات مورد البحث، و التی لها دلالهٔ علی قبض الأرواح بواسطهٔ ملك الموت، من أدلّهٔ استقلال روح الإنسان، لأنّ التعبير بالتوفّی (و الذی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۹

يعنی القبض) يوحی بأنّ الروح تبقی بعد انفصالها عن البدن و لا تفنی.

و التعبير عن الإنسان فی الآيهٔ بالروح أو النفس فی الآيهٔ أعلاه شاهد آخر علی هذا المعنی، لأنّ الروح- وفق نظريهٔ المادّيين- ليست إلّا الخواص الفيزيائيهٔ و الكيميائيهٔ للخلايا المخيّهٔ، و هی تفنی بفنائها، تماما كما تفنی حركات عقارب الساعهٔ بعد فنائها و تحطّمها. و طبقا لهذه النظريهٔ فإنّ الروح ليست هی المحافظهٔ علی شخصيهٔ الإنسان، بل هی جزء من خواصّ جسمه تتلاشی عند تلاشی جسمه.

و لدينا أدلّهٔ فلسفيهٔ عديدهٔ علی أصالهٔ الروح و استقلالها، ذكرنا بعضا منها فی ذيل الآيهٔ (۸۵) من سورهٔ الإسراء، و المراد هنا بيان الدليل النقلی علی هذا الموضوع، حيث تعتبر الآيهٔ أعلاه من الآيات الدالّهٔ علی هذا المعنی.

۲- ملك الموت

يستفاد من آيات القرآن المجيد أنّ اللّه سبحانه يدبّر امور هذا العالم بواسطهٔ مجموعهٔ من الملائكهٔ، كما فی الآيهٔ (۵) من سورهٔ النازعات حيث يقول:

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً و نعلم أنّ السنّهٔ الإلهيّهٔ قد جرت علی أن تمضی الأمور بأسبابها.

و قسم من هؤلاء الملائكهٔ هم الملائكهٔ الموكّلون بقبض الأرواح، و الذين أشارت إليهم الآيات (۲۸ و ۳۳) من سورهٔ النحل، و بعض الآيات القرآنيهٔ الاخری، و علی رأسهم ملك الموت.

و قد رويت أحاديث كثيرهٔ فی هذا الباب، تبدو الإشارهٔ إلی بعضها لازمهٔ من جهات:

۱-

فی حدیث روی عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «الأمراض و الأوجاع کلّها برید الموت و رسل الموت! فإذا حان الأجل أتی ملک الموت بنفسه فقال: یا أیّها العبد، کم خبر بعد خبر؟ و کم رسول بعد رسول؟ و کم برید بعد برید؟ أنا الخبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۰

الذی لیس بعدی خبر! و أنا الرّسول أجب ربّک طائعا أو مکرها.

فإذا قبض روحه و تصارخوا علیه، قال: علی من تصرخون؟ و علی من تبکون؟

فو اللّه ما ظلمت له أجلا، و لا أکلت له رزقا، بل دعاه ربّه، فلیبک الباکی علی نفسه، و إنّ لی فیکم عودات و عودات حتّی لا ابقی فیکم أحدا»[۱۱۵].

طالعوا هذا الحدیث المروّع مرّة اخری، فقد أخفیت فیه حقائق کثیرة.

۲- و

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السلام: «دخل رسول اللّه علی رجل من الأنصار یعوده، فإذا ملک الموت عند رأسه، فقال رسول اللّه: یا ملک الموت، ارفق بصاحبی فإنّه مؤمن، فقال: أبشر یا محمّد، فإنّی بکلّ مؤمن رفیق، و اعلم یا محمّد، أنّی لأقبض روح ابن آدم فیصرخ أهله، فأقوم فی جانب الدار فأقول: و اللّه، ما لی من ذنب، و إنّ لی لعودة و عودة، الحذر الحذر، و ما خلق اللّه من أهل بیت و لا مدر و لا شعر و لا وبر، فی برّ و لا بحر إلّا و أنا أتصفّحهم فی کلّ یوم و لیلة خمس مرّات حتّی أنّی لأعرف بصغیرهم و کبیرهم منهم بأنفسهم»[۱۱۶].

و قد وردت روایات اخری بهذا المضمون فی مختلف المصادر الإسلامیة، تحذّر جمیعا کلّ البشر أنّ المسافة بینهم و بین الموت لیست کبیرة! و من الممکن جدّا أن ینتهی کلّ شیء فی لحظة قصیرة.

أ یحسن بالإنسان و الحال هذه أن یغترّ و ینخدع بزخارف هذه الدنیا و زبرجها، و یتلوّث بأنواع المعاصی و الظلامات، و یبقی غافلا عن عاقبة أعماله؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۱

الآیات [سورة السجده (۳۲): الآیات ۱۵ الی ۲۰]

اشارة

إِنَّما یُؤْمِنُ بِآیاتِنَا الَّذِینَ إِذا ذُکِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا یَسْتَکْبِرُونَ (۱۵) تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ (۱۶) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْیُنٍ جَزاءً بِما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۷) أَ فَمَنْ کانَ مُؤْمِناً کَمَنْ کانَ فاسِقاً لا یَسْتَوُونَ (۱۸) أَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوی نُزُلًا بِما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۹)

وَ أَمَّا الَّذِینَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ کُلَّما أَرادُوا أَنْ یَخْرُجُوا مِنْها أُعِیدُوا فِیها وَ قِیلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تُکَذِّبُونَ (۲۰)

التّفسیر

جوائز عظیمة لم یطّلع علیها أحد!

إنّ طریقة القرآن هی أنّه یبیّن کثیرا من الحقائق من خلال مقارنتها مع بعضها، لتکون مفهومة و مستقرّة فی القلب تماما، و هنا أیضا بعد الشرح و التفصیل الذی مرّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۲

فی الآیات السابقة حول المجرمین و الکافرین، فإنّه یتطرّق إلی صفات المؤمنین الحقیقیین البارزة، و یبیّن أصولهم العقائدیة، و برامجهم العملیة بصورة مضغوطة ضمن آیتین بذکر ثمان صفات ۱۱۷]، فیقول أوّلا: إِنَّما یُؤْمِنُ بِآیاتِنَا الَّذِینَ إِذا ذُکِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا یَسْتَکْبِرُونَ

التعبیر ب (إنّما) الذی یستعمل عادة لإفادة معنی الحصر، یبیّن أنّ کلّ من یتحدّث عن الإیمان و یتمشدق به، و لا یمتلک الخصائص و الصفات التی وردت فی هذه الآیات، فإنّه لا یکون فی صفّ المؤمنین الواقعیین، بل هو شخص ضعیف الإیمان.

لقد بیّنت فی هذه الآیة أربع صفات:

۱- أنّهم یسجدون بمجرّد سماعهم آیات اللّه، و التعبیر ب خَرُّوا بدل سُجَّداً إشارة إلی نکتة لطیفة، و هی أنّ هؤلاء المؤمنین ینجذبون إلی کلام اللّه لدی سماعهم آیات القرآن و یهیمون فیها بحیث یسجدون لا إرادیا[۱۱۸].

نعم .. إنّ أوّل خصائص هؤلاء هو العشق الملتهب، و العلاقة الحمیمة بکلام محبوبهم و معشوقهم.

لقد ذکرت هذه الصفة و الخاصیة فی بعض آیات القرآن الاخری کأحد أبرز صفات الأنبیاء، کما یقول اللّه سبحانه فی شأن جمع من الأنبیاء العظام: إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُکِیًّا.[۱۱۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۳

و بالرغم من أنّ الآیات هنا ذکرت بصورة مطلقة، و لکن من المعلوم أنّ المراد منها غالبا الآیات التی تدعو إلی التوحید و محاربة الشرک.

۲- ۳- علامتهم الثّانیة و الثالثة تسبیح اللّه و حمده، فهم ینزّهون اللّه تعالی عن النقائص من جهة، و من جهة اخری فإنّهم یحمدونه و یثنون علیه لصفات کماله و جماله.

۴- و الصفة الاخری لهؤلاء هی التواضع و ترک کلّ أنواع التکبّر، لأنّ الکبر و الغرور أوّل درجات الکفر و الجحود، و التواضع أمام الحقّ و الحقیقة أولی خطوات الإیمان! إنّ الذین یسیرون فی طریق الکبر و العجب لا یسجدون للّه، و لا یسبّحونه و لا یحمدونه، و لا یعترفون بحقوق عباده! إنّ لهؤلاء صنما عظیما، و هو أنفسهم! ثمّ أشارت الآیة الثّانیة إلی أوصاف هؤلاء الاخری، فقالت: تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ۱۲۰] فیقومون فی اللیل، و یتّجهون إلی ربّهم و محبوبهم و یشرعون بمناجاته و عبادته.

نعم .. إنّ هؤلاء یستیقظون و یحیون قدرا من اللیل فی حین أنّ عیون الغافلین تغطّ فی نوم عمیق، و حینما تتعطّل برامج الحیاة العادیة، و تقلّ المشاغل الفکریة إلی أدنی مستوی، و یعمّ الهدوء و الظلام کلّ الأرجاء، و یقلّ خطر التلوّث بالریاء فی العبادة، و الخلاصة: عند توفّر أفضل الظروف لحضور القلب، فإنّهم یتّجهون بکلّ وجودهم إلی معبودهم، و یطأطئون رؤوسهم عند أعتاب معشوقهم، و یخبرونه بما فی قلوبهم، فهم أحیاء بذکره، و کؤوس قلوبهم طافحة بحبّه و عشقه.

ثمّ تضیف: یَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۴

و هنا تذکر الآیة صفتین أخریین لهؤلاء هما: «الخوف» و «الرجاء»، فلا یأمنون غضب اللّه عزّ و جلّ، و لا ییأسون من رحمته، و التوازن بین الخوف و الرجاء هو ضمان تکاملهم و توغّلهم فی الطریق إلی اللّه سبحانه، و الحاکم علی وجودهم دائما، لأنّ غلبة الخوف تجرّ الإنسان إلی الیأس و القنوط، و غلبة الرجاء تغری الإنسان و تجعله فی غفلة، و کلاهما عدوّ للإنسان فی سیره التکاملی إلی اللّه سبحانه.

و ثامن صفاتهم، و آخرها فی الآیة أنّهم وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ

فهم لا یهبون من أموالهم للمحتاجین و حسب، بل و من علمهم و قوّتهم و قدرتهم و رأیهم الصائب و تجاربهم و رصیدهم الفکری، فیهبون منها ما یحتاج إلیه الغیر.

إنّهم ینبوع من الخیر و البرکة، و عین فوّارة من ماء الصالحات العذب الصافی الذی یروی العطاشی، و یغنی المحتاجین بحسب استطاعتهم.

نعم .. إنّ أوصاف هؤلاء مجموعة من العقیدة الرصینة الثابتة، و الإیمان القویّ و العشق الملتهب للّه، و العبادة و الطاعة، و السعی و الحرکة الدؤوبة، و معونة عباد اللّه فی کلّ المجالات.

ثمّ تطرّقت الآیة التالیة إلی الثواب العظیم للمؤمنین الحقیقیین الذین یتمتّعون بالصفات المذکورة فی الآیتین السابقتین، فتقول بتعبیر جمیل یحکی الأهمیّة الفائقة لثوابهم: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْیُنٍ جَزاءً بِما کانُوا یَعْمَلُونَ

التعبیر ب فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ و کذلک التعبیر ب قُرَّةِ أَعْیُنٍ مبیّن لعظمة هذه المواهب و العطایا التی لا عدّ لها و لا حصر، خاصّة و أنّ کلمة (نفس) قد وردت بصیغة النکرة فی سیاق النفی، و هی تعنی العموم و تشمل کلّ النفوس حتّی ملائکة اللّه المقرّبین و أولیاء اللّه.

و التعبیر ب قُرَّةِ أَعْیُنٍ من دون الإضافة إلی النفس، إشارة إلی أنّ هذه النعم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۵

الإلهیّة التی خصّصت کثواب و جزاء للمؤمنین المخلصین فی الآخرة، فی هیئة تکون معها قرّة لعیون الجمیع.

(قرّة) مادّة القرّ، أی البرودة، و من المعروف أنّ دموع الشوق باردة دائما، و أنّ دمع الغمّ و الحسرة حارّ محرق، فالتعبیر ب قُرَّةِ أَعْیُنٍ یعنی فی لغة العرب الشیء الذی یسبّب برودة عین الإنسان، أی أنّ دموع الشوق و الفرح تجری من أعینهم، و هذه کنایة لطیفة عن منتهی الفرح و السرور و السعادة.

و

فی حدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «إنّ اللّه یقول: أعددت لعبادی الصالحین ما لا عین رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر علی قلب بشر»[۱۲۱].

و ثمّة سؤال طرحه المفسّر الکبیر العلّامة «الطبرسی» فی (مجمع البیان) و هو:

لماذا اخفی هذا الثواب و الجزاء؟

ثمّ یذکر ثلاثة أجوبة لهذا السؤال:

۱- أنّ الأمور المهمّة و القیّمة لا یمکن إدراک حقیقتها بسهولة من خلال الألفاظ و الکلام، و لذلک فإنّ إخفاءها و إبهامها یکون أحیانا أکثر تحفیزا، و أبعث علی النشاط، و هو أبلغ من ناحیة الفصاحة.

۲- أنّ الشیء الذی یکون قرّة للأعین، یکون عادة مترامی الأطراف إلی الحدّ الذی لا یصل علم ابن آدم إلی جمیع خصوصیاته.

۳- لمّا کان هذا الجزاء قد جعل لصلاة اللیل المستورة، فإنّ المناسب أن یکون ثواب هذا العمل عظیما و مخفیّا أیضا. و ینبغی الالتفات إلی أنّ جملة تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ فی الآیة السابقة إشارة إلی صلاة اللیل.

و

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «ما من حسنة إلّا و لها ثواب مبین فی القرآن، إلّا صلاة اللیل، فإنّ اللّه عزّ اسمه لم یبیّن ثوابها لعظم خطرها، قال: فلا تعلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۶

نفس ما اخفی لهم من قرّة أعین»[۱۲۲].

و بغضّ النظر عن کلّ ذلک، فإنّ عالم القیامة- و کما أشرنا إلی ذلک سابقا- عالم أوسع من هذا العالم سعة لا تحتمل المقارنة، فهو أوسع حتّی من الحیاة الدنیا بالقیاس إلی حیاة الجنین فی رحم الامّ، و أبعاد ذلک العالم لا یمکن إدراکها عادة بالنسبة لنا نحن السجناء

داخل الجدران الأربعة للدنيا، و لا يمكن تصوّره من قبل أحد.

إنّنا نسمع كلاما عنه فقط، و نرى شبحه من بعيد، لكنّنا ما لم ندرك و لم نر ذلك العالم، فإنّ من المحال إدراك أهمّيّته و عظمته، كما أنّ إدراك الطفل فى بطن الامّ لنعم هذه الدنيا- على فرض امتلاكه العقل و الإحساس الكامل- غير ممكن.

و قد ورد نفس هذا التعبير فى شأن الشهداء فى سبيل اللّه، ذلك أنّ الشهيد عند ما يقع على الأرض تقول له الأرض: مرحبا بالروح الطيّبة التى خرجت من البدن الطيّب، أبشر فإنّ لك ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر[۱۲۳].

و تبيّن الآية التالية المقارنة التى مرّت فى الآيات السابقة بصيغة أكثر صراحة، فتقول: أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً.

لقد وردت الجملة بصيغة الاستفهام الإنكارى، ذلك الاستفهام الذى ينبعث جوابه من عقل و فطرة كلّ إنسان بأنّ هذين الصنفين لا يستويان أبدا، و فى الوقت نفسه، و للتأكيد، فقد أوضحت الآية عدم التساوى بصورة أوضح بذكر جملة: لا يَسْتَوُونَ

لقد جعل «الفاسق» فى مقابل «المؤمن» فى هذه الآية، و هذا دليل على أنّ للفسق مفهوما واسعا يشمل الكفر و الذنوب الاخرى، لأنّ هذه الكلمة أخذت فى الأصل من جملة (فسقت الثمرة) إذا خرجت من قشرها، ثمّ أطلقت على الخروج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۷

على أوامر اللّه و العقل و عصيانها، و نعلم أنّ كلّ من كفر، أو ارتكب معصية فقد خرج على أوامر اللّه و العقل.

و ممّا يجدر ذكره أنّ الثمرة ما دامت فى قشرها فهى سالمة، و بمجرّد أن تخرج من القشر تفسد، و بناء على هذا فإنّ فسق الفاسق كفسق الثمرة، و فساده كفسادها.

و نقل جمع من المفسّرين الكبار ففى ذيل هذه الآية

أنّ «الوليد بن عقبة» قال يوما لعلى عليه السّلام: أنا أبسط منك لسانا، و أحدّ منك سنانا! إشارة إلى أنّه- بظنّه- يفوق عليا فى الفصاحة و الحرب، فأجابه على عليه السّلام: «ليس كما تقول يا فاسق»، إشارة إلى أنّك أنت الذى اتّهمت بنى المصطلق بوقوفهم ضدّ الإسلام فى قصّة جمع الزكاة منهم، فكذّبك اللّه و عدّك فاسقا فى الآية (۶) من سورة الحجرات: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ...[۱۲۴].

و أضاف البعض هنا بأنّ آية: أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً نزلت بعد هذه المحاورة، لكن يبدو من ملاحظة أنّ السورة مورد البحث (سورة السجدة) نزلت فى مكّة، و قصّة الوليد و بنى المصطلق وقعت فى المدينة، فهذا من قبيل تطبيق الآية على مصداق واضح لها.

و بناء على ما ذهب بعض المفسّرين من أنّ الآية أعلاه و الآيتين بعدها مدنية، لا يبقى إشكال من هذه الجهة، و لا مانع من أن تكون هذه الآيات الثلاث قد نزلت بعد المحاورة أعلاه.

و على كلّ حال، فلا بحث و لا جدال فى إيمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام العميق المتأصّل، و لا فى فسق الوليد، حيث أشير فى آيات القرآن لكلا الإثنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۸

و تبيّن الآية التالية عدم المساواة هذه بصورة أوسع و أكثر تفصيلا، فتقول: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى ۱۲۵] ثمّ تضيف الآية بأنّ هذه الجنّات قد أعدّها اللّه تعالى لاستقبالهم فى مقابل أعمالهم الصالحة: نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

إنّ التعبير ب «نزلا»، و الذى يقال عادة للشىء الذى يهيّئونه لاستقبال و إكرام الضيف، إشارة لطيفة إلى أنّ المؤمنين يستقبلون و يخدمون دائما كما هو حال الضيف، فى حين أنّ الجهنّميين- كما سيأتى فى الآية الآتية- كالسجناء الذين يأملون الخروج منها فى كلّ حين، ثمّ يعادون فيها! و ما ورد فى الآية (۱۰۲) من سورة الكهف: إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا فإنّه من قبيل فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ و هو كناية عن أنّه يعاقب و يعذّب هؤلاء بدل إكرامهم، و يهدّدون مكان بشارتهم.

و يعتقد البعض أنّ «النزل» أوّل شيء يستقبل به الضيف الوارد لتوّه- كالشاى و العصير فى زماننا- و بناء على هذا فإنّه إشارة لطيفة إلى أنّ جنّات المأوى بتمام نعمها و بركاتها هى أوّل ما يستقبل به ضيوف الرحمن، ثمّ تتبعها المواهب فى بركات اخرى لا يعلمها إلّا اللّه سبحانه.

و التعبير ب فَلَهُمْ جَنَّاتُ لعلّه إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه لا يعطيهم بساتين الجنّة عاريةً، بل يملّكهم إيّاها إلى الأبد، بحيث لا يعكّر هدوء فكرهم احتمال زوال هذه النعم مطلقا.

و تطرّقت الآية التالية إلى النقطة التى تقابل هؤلاء، فتقول: وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ فهؤلاء مخلّدون فى هذا المكان المرعب بحيث أنّهم كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۹

مرّة اخرى نرى هنا العذاب الإلهى قد جعل فى مقابل «الكفر و التكذيب»، و الثواب و الجزاء فى مقابل «العمل»، و هذا إشارة إلى أنّ الإيمان لا يكفى لوحده، بل يجب أن يكون حافزا و باعثا على العمل، إلّا أنّ الكفر كاف لوحده للعذاب، و إن لم يرافقه و يقترن به عمل.

بحث

أصحاب الليل!

ورد لجملة: تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ تفسيران فى الروايات الإسلامية:

أحدهما: تفسيرها بصلاة «العشاء»، و هو يشير إلى أنّ المؤمنين الحقيقيين لا ينامون بعد صلاة المغرب و قبل صلاة العشاء مخافة أن يغلب عليهم النوم فتفوتهم صلاة العشاء (لأنّ المعتاد فى ذلك الزمان أنّهم كانوا يستريحون فى أوّل الليل- و كانوا يفرّقون بين صلاتى المغرب و العشاء، طبقا لاستحباب التفريق بين الصلوات الخمس، و كانوا يؤدّون كلا منهما فى وقت فضيلتها) فربّما لم يستيقظوا لصلاة العشاء إذا ما ناموا بعد صلاة المغرب مباشرة.

و قد روى هذا التّفسير ابن عبّاس عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله طبقا لنقل الدرّ المنثور، و كذلك روى فى أمالى الصدوق عن الإمام الصادق عليه السّلام [۱۲۶].

و ثانيهما: أنّها فسّرت بالقيام و النهوض من النوم و المضجع لأداء صلاة الليل فى أغلب الرّوايات و كلمات المفسّرين:

ففى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال لأحد أصحابه: «ألا أخبرك بالإسلام أصله و فرعه و ذروة سنامه»؟ قال: بلى، جعلت فداك، قال: «أمّا أصله فالصلاة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۰

و فرعه الزكاة، و ذروة سنامه الجهاد»! ثمّ قال: «إن شئت أخبرتک بأبواب الخير»؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: «الصوم جنّة، و الصدقة تذهب بالخطيئة، و قيام الرجل فى جوف الليل بذكر اللّه، ثمّ قرأ:

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ [۱۲۷].

و

روى فى (تفسير مجمع البيان) عن معاذ بن جبل، قال: بينما نحن مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى غزوة تبوك، و قد أصابنا الحرّ

فتفرّق القوم، فإذا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله أقربهم منّی، فدنوت منه، فقلت: یا رسول اللّه، أنبئنی بعمل یدخلنی الجنّة، و یباعدنی من النار، قال: «لقد سألت عن عظیم و إنّه لیسیر علی من یسّره اللّه علیه: تعبد اللّه و لا تشرک به شیئا، و تقیم الصلاة المکتوبة، و تؤدّی الزکاة المفروضة، و تصوم شهر رمضان».

قال: «و إن شئت أنبأتک بأبواب الخیر» قال: قلت: أجل یا رسول اللّه، قال:

«الصوم جنّة، و الصدقة تکفّر الخطیئة، و قیام الرجل فی جوف اللیل یبتغی وجه اللّه» ثمّ قرأ هذه الآیة تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ [۱۲۸].

و بالرغم من عدم وجود المانع من أن یکون للآیة معنی واسعا یشمل البقاء علی الیقظة فی أوّل اللیل لصلاة العشاء، إضافة إلی النهوض فی السحر لصلاة اللیل، إلّا أنّ الدقّة فی مفهوم (تتجافی) تعکس المعنی الثّانی فی الذهن أکثر، لأنّ ظاهر الجملة أنّ الجنوب قد اضطجعت و هدأت فی المضاجع، ثمّ تجافت و ابتعدت عنها، و هذا یناسب القیام آخر اللیل لأداء الصلاة، و بناء علی هذا فإنّ المجموعة الاولی من الروایات من قبیل شمولیة المفهوم و إلغاء الخصوصیة.

و بالرغم من أنّ هذه الروایات القلیلة تبدو کافیة حول أهمیّة هذه الصلاة المبارکة، إلّا أنّ الروایات الإسلامیة قد أولت هذه العبادة اهتماما عظیما قلّ أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص ۱۳۰

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۱

تحدّثت بهذا المقدار عن عبادة اخری.

لقد اهتمّ أنصار الحقّ و محبّوه و سالکو طریق الفضیلة کثیرا بهذه العبادة الخالیة من الریاء، و التی تنیر القلب و تصفّیه من کلّ الشوائب.

و من الممکن أن لا- یوفّق البعض إلی هذه العبادة المبارکة دائما، و لکن ما المانع من أن یسعی الفرد إلی نیل هذا التوفیق فی بعض اللیالی، و فی الوقت الذی یرخی اللیل سدوله، و تهدأ الأصوات و تنام العیون یکون الجوّ مهیئا لحضور القلب، یهبّ إلی مناجاة اللّه و ینوّر قلبه بنور عشق الحبیب و محبّته [۱۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۲

الآیتان [سورة السجده (۳۲): الآیات ۲۱ الی ۲۲]

اشارة

وَ لَنُذِیقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنی دُونَ الْعَذابِ الْأَکْبَرِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۲۱) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُکِّرَ بِآیاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِینَ مُنْتَقِمُونَ (۲۲)

التّفسیر

عقوبات تربویة:

بعد البحث الذی مرّ فی الآیات السابقة حول المجرمین و عقابهم الألیم، فإنّ الآیات مورد البحث تشیر إلی أحد الألطاف الإلهیة الخفیّة

و هی موارد العذاب الخفیف فی الدنیا لیتّضح أنّ اللّه سبحانه لا یرید أن یبتلی عبد بالعذاب الخالد أبدا، و لذلک یستخدم کلّ وسائل التوعیهٔ لنجاته، فیرسل الأنبیاء، و ینزل الکتب السماویهٔ، و ینعم و یبتلی بالمصائب، و إذا لم تنفع أیّهٔ وسیلهٔ منها فلیس إلّا نار الجحیم.

تقول الآیهٔ: وَ لَنُذِیقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنی دُونَ الْعَذابِ الْأَکْبَرِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ

من المسلّم أنّ «العذاب الأدنی» له معنی واسعا یتضمّن أغلب الاحتمالات التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۳

کتبها المفسّرون بصورهٔ منفصلهٔ:

فمن جملتها، أنّ المراد المصائب و الآلام و المشقّهٔ.

أو القحط و الجفاف الشدید الذی دام سبع سنین و ابتلی به المشرکون فی مکّهٔ حتّی اضطروا إلی أکل أجساد الموتی! أو الضربهٔ القاصمهٔ التی نزلت علیهم فی غزوهٔ بدر، و أمثال ذلک.

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد عذاب القبر، أو العقاب فی الرجعهٔ فلا یبدو صحیحا، لأنّه لا یناسب جملهٔ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ أی عن أعمالهم.

من البدیهی أنّ العذاب موجود فی هذه الدنیا أیضا، بحیث إذا نزل أغلقت أبواب التوبهٔ، و هو عذاب الاستئصال، أی العذاب و العقوبات التی تنزل لفناء الأقوام العاصین حینما لا تنفع و لا تؤثّر فیهم أیّ وسیلهٔ توعیهٔ و تنبیه.

و أمّا «العذاب الأکبر» فیعنی عذاب یوم القیامهٔ الذی یفوق کلّ عذاب حجما و ألما.

و هناک التفاتهٔ أشار إلیها بعض المفسّرین فی أنّه لما ذا جعل «الأدنی» فی مقابل «الأکبر»، فی حین أنّه یجب إمّا أن یقع الأدنی مقابل الأبعد، أو الأصغر فی مقابل الأکبر؟

و ذلک أنّ لعذاب الدنیا صفتین: کونه صغیرا، و قریبا، و لیس من المناسب التأکید علی صغره عند التهدید، بل یجب التأکید علی قربه. و لعذاب الآخرهٔ صفتان أیضا:

کونه بعیدا و کبیرا، و المناسب فی شأنه التأکید علی کبره و عظمته لا بعده- تأمّلوا جیدا-.

و تقدّم أنّ التعبیر ب (لعلّ) فی جملهٔ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ بسبب أنّ الإحساس بالعقوبات التحذیریهٔ لیس علّهٔ تامّهٔ للوعی و الیقظهٔ، بل هو جزء العلّهٔ، و یحتاج إلی أرضیّهٔ مهیّأهٔ، و بدون هذا الشرط لا یحقّق النتیجهٔ المطلوبهٔ، و کلمهٔ (لعلّ) إشارهٔ إلی هذه الحقیقهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۴

و تتّضح من هذه الآیهٔ إحدی حکم المصائب و الابتلاءات و الآلام التی تعتبر من المسائل الملحّهٔ و المثیرهٔ للجدل فی بحث التوحید و معرفهٔ اللّه و عدله.

و لیس فی هذه الآیهٔ فحسب، بل أشیر فی آیات اخری من القرآن إلی هذه الحقیقهٔ، و من جملتها فی الآیهٔ (۹۴) من سورهٔ الأعراف وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْیَهٍٔ مِنْ نَبِیٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ یَضَّرَّعُونَ

و لمّا لم تنفع أیّهٔ وسیلهٔ من وسائل التوعیهٔ و التنبیه، حتّی العذاب الإلهی، لم یبق طریق إلّا انتقام اللّه من هؤلاء القوم الذین هم أظلم الناس، و کذلک تقول الآیهٔ التالیهٔ: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُکِّرَ بِآیاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِینَ مُنْتَقِمُونَ

فلم تؤثّر فیهم النعمهٔ الإلهیّهٔ، و لا العذاب و الابتلاءات التحذیریهٔ، و علی هذا فلا أحد أظلم منهم، و إذا لم ینتقم من هؤلاء فممّن الانتقام؟

من الواضح- و بملاحظهٔ الآیات السابقهٔ- أنّ المراد من «المجرمین» هنا هم منکرو المبدأ و المعاد الذین لا إیمان لهم.

و قد وصف جماعهٔ من الناس فی آیات القرآن مرارا بأنّهم (أظلم) من الباقین، و بالرغم من تعبیراتها المختلفهٔ إلّا أنّها تعود جمیعا إلی أصل الکفر و الشرک، و بناء علی هذا فإنّ معنی (أظلم) الذی یعتبر صیغهٔ تفضیل یتطابق مع هذه المصادیق.

و التعبير ب (ثمّ) فى الآية، و الذى يدلّ عادة على التراخى، لعلّه إشارة إلى أنّ أمثال هؤلاء يعطون فرصة و مجالا- كافيا للتفكير و البحث، و لا تكون معاصيهم الابتدائية سببا لانتقام اللّه أبدا، إلّا أنّهم سيستحقّون انتقام اللّه عزّ و جلّ بعد انتهاء الفرصة اللازمة.

و يجب الالتفات إلى أنّ التعبير ب «الانتقام» يعنى العقوبة فى لسان العرب، و مع أنّ معنى الكلمة أصبح فى المحادثات اليومية يعنى تشفّى القلب و إبراد الغليل من العدو، إلّا أنّ هذا المعنى لا وجود له فى الأصل اللغوى، و لذلك فإنّ هذا التعبير قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۵

استعمل مرارا فى شأن اللّه عزّ و جلّ فى القرآن المجيد، فى حين أنّه سبحانه أسمى و أعلى من هذه المفاهيم، فهو لا يفعل شيئا إلّا وفق الحكمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۶

الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (۲۳) وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (۲۴) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۲۵)

التّفسير

شرط الإمامة: الصبر و الإيمان:

تشير الآيات مورد البحث إشارة قصيرة و عابرة إلى قصّة «موسى» عليه السّلام و بنى إسرائيل لتسلّى نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين الأوائل و تطيّب خواطرهم، و تدعوهم إلى الصبر و التحمّل و الثبات أمام تكذيب و إنكار المشركين التى أشير إليها فى الآيات السابقة، و لتكون بشارة للمؤمنين بانتصارهم على القوم الكافرين العنودين كما انتصر بنو إسرائيل على أعدائهم و أصبحوا أئمّة فى الأرض.

و لمّا كان موسى عليه السّلام نبيّا جليلا- يؤمن به كلّ من اليهود و النصارى، فإنّه يكون حافزا على توجّه أهل الكتاب نحو القرآن و الإسلام.

تقول الآية أوّلا: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ أى فلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۷

تشكّ أو تتردّد فى أنّ «موسى» قد تلقّى آيات اللّه، و قد جعلنا كتاب موسى «التوراة» وسيلة لهداية بنى إسرائيل وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ

ثمّة اختلاف بين المفسّرين فى عودة الضمير فى قوله: مِنْ لِقائِهِ و قد احتملوا فى ذلك سبعة احتمالات أو أكثر، إلّا أنّ أقربها هو عودته إلى الكتاب- كتاب موسى السماوى، أى «التوراة»- كما يبدو، و له معنى المفعول و فاعله موسى، و بناء على هذا فإنّ المعنى الكلّى لهذه الجملة يصبح: لا تشكّ فى أنّ موسى عليه السّلام تلقّى الكتاب السماوى الذى القى إليه من قبل اللّه تعالى.

و الشاهد القوىّ على هذا التّفسير هو أنّه قد وردت فى الآية أعلاه ثلاث جمل، تتحدّث الجملتين الاولى و الأخيرة عن التوراة قطعا، فمن المناسب أن تتابع الجملة الوسط هذا المعنى أيضا، لا أن تتحدّث عن القيامة أو القرآن المجيد حيث ستكون جملة معترضة فى

هذه الصورة، و نعلم أنّ الجملة المعترضة خلاف الظاهر، و ما دمنا فی غنی عنها فلا ینبغی التوجّه إلیها.

السؤال الوحید الذی یبقی فی هذا التّفسیر هو استعمال کلمة (لقاء) فی مورد الکتاب السماوی، حیث إنّ هذه الکلمة قد استعملت فی القرآن الکریم غالبا بإضافتها إلی اللّه أو الربّ أو الآخرة و أمثالها، و هی إشارة إلی القیامة. و لهذا السبب رجّح البعض کون الآیة أعلاه تتحدّث أوّلا عن نزول التوراة علی موسی، ثمّ تأمر نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله أن لا تشکّ فی لقاء اللّه و مسألة المعاد، ثمّ تعود إلی مسألة التوراة، لکن فی هذه الصورة ینهار الانسجام بین جمل هذه الآیة و یزول التناسب فیما بینها.

غیر أنّه ینبغی الالتفات إلی أنّ تعبیر «لقاء» و إن لم یستعمل فی القرآن فی مورد الکتب السماویة، إلّا أنّ الإلقاء و التلقّی قد استعمل مرارا فی هذا المعنی، کما فی الآیة (۲۵) من سورة القمر: أَ أُلْقِیَ الذِّکْرُ عَلَیْهِ مِنْ بَیْنِنا.

و نقرأ فی قصّة سلیمان و ملکة سبأ أنّها قالت عند ما وصلتها رسالة سلیمان: إِنِّی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۸

أُلْقِیَ إِلَیَّ کِتابٌ کَرِیمٌ

و فی نفس هذه السورة «سورة سلیمان» فی الآیة (۶) نقرأ فی شأن القرآن الکریم وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّی الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ عَلِیمٍ

بناء علی هذا فإنّ فعل الإلقاء و التلقّی قد استعمل مرارا فی هذا المورد، بل و حتّی نفس فعل اللقاء قد استعمل فی مورد صحیفة أعمال الإنسان، فنقرأ فی الآیة (۱۳) من سورة الإسراء: وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ کِتاباً یَلْقاهُ مَنْشُوراً.

و من مجموع ما قلناه یتّضح ترجیح هذا التّفسیر علی سائر الاحتمالات التی احتملت فی الآیة أعلاه ۱۳۰].

لکن ینبغی الالتفات إلی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یشکّ فی مثل هذه المسائل مطلقا، بل إنّ مثل هذه التعبیرات تستعمل عادة لتأکید المطلب، و لیکون نموذجا للآخرین.

ثمّ تشیر الآیة التالیة إلی الأوسمة و المفاخر التی حصل علیها بنو إسرائیل فی ظلّ الاستقامة و الإیمان لتکون درسا للآخرین، فتقول: وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ کانُوا بِآیاتِنا یُوقِنُونَ

لقد ذکرت الآیة هنا شرطین للإمامة: أحدهما: الإیمان و الیقین بآیات اللّه عزّ و جلّ، و الثّانی: الصبر و الاستقامة و الصمود. و هذا الأمر لیس مختصّا ببنی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۹

إسرائیل، بل هو درس لکلّ الأمم، و لجمیع مسلمی الأمس و الیوم و الغد بأن یحکموا أسس یقینهم، و لا یخافوا من المشاکل التی تعترضهم فی طریق التوحید، و أن یتحلّوا بالصبر و المقاومة لیکونوا أئمّة الخلق و قادة الأمم و مرشدیها فی تاریخ العالم.

التعبیر ب (یهدون) و (یوقنون) بصیغة الفعل المضارع دلیل علی استمرار هاتین الصفتین طیلة حیاة هؤلاء، لأنّ مسألة القیادة لا تخلو لحظة من المشکلات، و یواجه شخص القائد و إمام الناس مشکلة جدیدة فی کلّ خطوة، و یجب أن یهبّ لمواجهتها مستعینا بقوّة الیقین و الاستقامة المستمرّة، و یدیم خطّ الهدایة إلی اللّه سبحانه.

و الجدیر بالانتباه أنّ الآیة تقیّد الهدایة بأمر اللّه، فتقول: یَهْدُونَ بِأَمْرِنا و هذا هو المهمّ فی أمر الهدایة بأن تنبع من الأوامر الإلهیّة، لا من أمر الناس، أو تقلید هذا و ذاک، أو بأمر من النفس و المیول القلبیة.

یقول الإمام الصادق علیه السّلام فی حدیثه العمیق المحتوی، بالاستناد إلی مضامین القرآن المجید: «إنّ الأئمّة فی کتاب اللّه عزّ و جلّ إمامان: قال اللّه تبارک و تعالی:

و جعلناهم أئمّة یهدون بأمرنا، لا بأمر الناس، یقدّمون أمر اللّه قبل أمرهم، و حکم اللّه قبل حکمهم، و قال: و جعلناهم أئمّة یدعون إلی النار، یقدّمون أمرهم قبل أمر اللّه، و حکمهم قبل حکم اللّه، و یأخذون بأهوائهم خلاف ما فی کتاب اللّه عزّ و جلّ»[۱۳۱].

ثمّ أنّ المراد من الأمر هنا هل هو الأمر التشریعی، أم الأمر التکوینی؟ ظاهر الآیة یعطی المعنی الأوّل، و تعبیرات الرّوایات و المفسّرین

تؤيّد ذلك، إلّا أنّ بعض كبار المفسّرين اعتبروه بمعنى الأمر التكوينى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۰

و توضيح ذلك: أنّ الهداية قد وردت فى الآيات و الروايات بمعنيين: «تبيان الطريق»، و «الإيصال إلى المطلوب»، و كذلك هداية الأئمّة الإلهيين نتّخذ صورتين: فيكتفون أحيانا بالأمر و النهى، و أحيانا اخرى ينفذون إلى أعماق القلوب المستعدّة و الجديرة بالهداية ليوصلوها إلى الأهداف التربوية و المقامات المعنوية.

و قد استعملت كلمة «الأمر» فى بعض آيات القرآن بمعنى «الأمر التكوينى»، مثل: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [۱۳۲]، و جملة يَهْدُونَ بِأَمْرِنا فى الآية مورد البحث إشارة إلى هذا المعنى أيضا، أى إنّ أولئك كانوا أئمّة ينفذون إلى النفوس المستعدّة بقدرة اللّه، و يسوقونها إلى الأهداف التربوية و الإنسانية العالية[۱۳۳].

إنّ هذا المعنى يستحقّ الملاحظة و الانتباه، و هو أحد شؤون الإمامة، و فروع و طرق الهداية، إلّا أنّ حصر جملة: يَهْدُونَ بِأَمْرِنا بهذا المعنى لا يوافق ظاهر الآية، لكن لا مانع من أن نفسّر كلمة الأمر فى هذه الجملة بمعناها الواسع الذى يتضمّن الأمر التكوينى و التشريعى، و يجمع كلا معنيى الهداية فى الآية، و هذا المعنى ينسجم مع بعض الأحاديث الواردة فى تفسير هذه الآية.

و لكن، و على كلّ حال، لا يمكن أن يصل الإمام و الهادى إلى هذا المقام إلّا فى ظلّ اليقين و الاستقامة فقط.

و يبقى سؤال، و هو: هل المراد من هؤلاء الأئمّة فى بنى إسرائيل هم الأنبياء الذين بعثوا إليهم، أم أنّ العلماء الذين كانوا يهدون الناس إلى الخيرات بأمر اللّه يدخلون فى هذه الزمرة؟

الآية ساكتة عن ذلك، و اكتفت بالقول بأنّنا قد جعلنا منهم أئمّة، لكن بملاحظة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۱

جملة: (جعلنا) يرجّح فى رأينا أنّ المراد هم الأنبياء الذين نصبوا بأمر اللّه فى هذا المنصب.

و لمّا كانوا بنوا إسرائيل- كسائر الأمم- قد اختلفوا بعد هؤلاء الأئمّة الحقيقيين، و سلكوا مسالك مختلفة، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تقول بلحن التهديد: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

أجل .. إنّ مصدر و منبع الاختلاف دائما هو مزج الحقّ بالأهواء و الميول، و لمّا كانت القيامة يوما لا معنى فيه للأهواء و الميول، حيث تمحى و يتجلّى الحقّ بأجلى صوره، فهناك ينهى اللّه سبحانه الاختلافات بأمره، و هذه أيضا إحدى فلسفات المعاد. تأمّلوا ذلك.

ملاحظة

صمود و استقامة القادة الإلهيين

قلنا: إنّه قد ذكر فى الآيات مورد البحث شرطان للأئمّة: الأوّل: الصبر و الثبات، و الآخر: الإيمان و اليقين بآيات اللّه.

و لهذا الصبر و الثبات فروعا و أشكالا كثيرة:

فيكون أحيانا أمام المصائب التى تحلّ بالإنسان.

و اخرى مقابل الأذى الذى يحيق بأصحابه و مؤيّديه.

و ثالثة فى مقابل التعديات و الألسن البذيئة التى تنال مقدّساته.

و اخرى فى مقابل المنحرفين فكريا.

و اخرى أمام الجاهلين الحمقى.

و اخری أمام العلماء الخبثاء.

و الخلاصة: فإنّ القائد الواعی الرشید یجب أن یصمد أمام کلّ هذه المشاکل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۲

و غیرها، و لا ینسحب من میدان الصراع و الحوادث، و لا یجزع و ییأس، و لا یفقد زمام الأمور من یده، و لا یضطرب و لا یندم حتّی یحقّق هدفه الکبیر.

و قد روی فی هذا الباب حدیث جامع و رائع عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث قال لأحد أصحابه: إنّ من صبر صبر قلیلا (و بعده الظفر) و إنّ من جزع جزع قلیلا (و من بعده الخسران).

ثمّ قال: علیک بالصبر فی جمیع أمورک، فإنّ اللّه عزّ و جلّ بعث محمّدا فأمره بالصبر و الرفق، فقال: وَ اصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِیلًا و قال: ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ وَ ما یُلَقَّاها إِلَّا الَّذِینَ صَبَرُوا وَ ما یُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ

فصبر رسول اللّه حتّی نالوه بالعظائم و رموه بها- فسمّوه ساحرا و مجنونا و شاعرا، و کذّبوه فی دعوته- فضاق صدره، فأنزل اللّه عزّ و جلّ علیه: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِما یَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ کُنْ مِنَ السَّاجِدِینَ أی إنّ هذه العبادة تمنحک الاطمئنان و الهدوء-.

ثمّ کذّبوه و رموه فحزن لذلک، فأنزل اللّه عزّ و جلّ: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَیَحْزُنُکَ الَّذِی یَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا یُکَذِّبُونَکَ وَ لکِنَّ الظَّالِمِینَ بِآیاتِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ. وَ لَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ فَصَبَرُوا عَلی ما کُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّی أَتاهُمْ نَصْرُنا.

فألزم النّبی نفسه الصبر، فتعدّوا فذکروا اللّه تبارک و تعالی و کذّبوه، فقال: قد صبرت فی نفسی و أهلی و عرضی و لا صبر لی علی ذکر إلهی، فأنزل اللّه عزّ و جلّ:

وَ اصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ فصبر النّبی فی جمیع أحواله.

ثمّ بشّر فی عترته بالأئمّة و وصفوا بالصبر، فعند ذلک قال: الصبر من الإیمان کالرأس من الجسد، فشکر اللّه عزّ و جلّ ذلک له، فأباح له قتال المشرکین، فقتلهم اللّه علی یدی رسول اللّه و أحبّائه، و جعل له ثواب صبره مع ما ادّخر له فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۳

الآخرة».

ثمّ

أضاف الإمام الصادق علیه السّلام: «فمن صبر و احتسب لم یخرج من الدنیا حتّی یقرّ اللّه له عینه فی أعدائه مع ما یدّخر له فی الآخرة»[۱۳۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۴

الآیات [سورة السجده (۳۲): الآیات ۲۶ الی ۳۰]

اشارة

أَ وَ لَمْ یَهْدِ لَهُمْ کَمْ أَهْلَکْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ یَمْشُونَ فِی مَساکِنِهِمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ أَ فَلا یَسْمَعُونَ (۲۶) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَی الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْکُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا یُبْصِرُونَ (۲۷) وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْفَتْحُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۲۸) قُلْ یَوْمَ الْفَتْحِ لا یَنْفَعُ الَّذِینَ کَفَرُوا إِیمانُهُمْ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ (۲۹) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (۳۰)

التّفسير

يوم انتصارنا:

كانت الآيات السابقة ممزوجة بتهديد المجرمين من الكفّار، و تقول الآية الاولى من الآيات مورد البحث إكمالا لهذا التهديد: أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ ١٣٥] فهؤلاء يسيرون بين الخرائب و يرون آثار أولئك الأقوام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ١٤٥

الذين هلكوا من قبلهم يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ١٣۶].

نقع مساكن «عاد» و «ثمود» المدمّرة، و مدن «قوم لوط» الخربة فى طريق هؤلاء إلى الشام، و كانت هذه المساكن مقرّا و مركزا للأقوام الأقوياء المنحرفين، و طالما حذّرهم الأنبياء فلم يؤثّر فيهم ذلك، و أخيرا طوى العذاب الإلهى ملفّ حياتهم، و كان المشركون يمرّون على تلك الخرائب فكأنّ لكلّ بيوت هؤلاء و قصورهم المتهدّمة مائة لسان، تصيح بهؤلاء أن يتنبّهوا، و تبيّن لهم و تحدّثهم بنتيجة الكفر و الانحطاط، لكنّهم لم يعبئوا بها و يلتفتوا إليها، و كأنّهم فقدوا أسماعهم تماما، و لذلك تضيف الآية فى النهاية: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ

و تشير الآية التالية إلى أحد أهمّ النعم الإلهية التى هى أساس عمران كلّ البلدان، و وسيلة حياة كلّ الكائنات الحيّة، ليتّضح من خلالها أنّ اللّه سبحانه كما يمتلك القدرة على تدمير بلاد الضالّين المجرمين، فإنّه قادر على إحياء الأراضى المدمّرة و الميّتة، و منح عباده كلّ نوع من المواهب، فتقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ

«الجرز» تعنى الأرض القاحلة التى لا ينبت فيها شىء قطّ، و هى فى الأصل من مادّة (جرز) على وزن (مرض) بمعنى «القطع»، فكأنّ النباتات قد اجتثّت من مثل هذه الأرض، أو أنّ الأرض نفسها قد قطعت تلك النباتات.

و الطريف هنا أنّه قد عبّر ب: (نسوق الماء) و هو إشارة إلى طبيعة الماء توجب- بحكم ثقله- أن يكون على الأرض و فى المنخفضات، و بحكم كونه مائعا يجب أن ينزل إلى أعماق الأرض، إلّا أنّه عند ما يصله أمرنا يفقد طبيعته، و يتحوّل إلى بخار خفيف يتحرّك إلى كلّ الجهات بهبوب النسيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ١۴۶

نعم، إنّ هذه السحب السابحة فى السماء بحار كبيرة من المياه العذبة ترسل إلى الأراضى اليابسة بأمر اللّه و معونة الرياح.

و الواقع أنّه لو لا المطر فإنّ كثيرا من الأراضى لا ترى حتّى القطرة الواحدة من الماء، و إذا افترضنا أنّ هناك أنهارا غزيرة المياه فإنّ تلك المياه لا تصل إلى أغلب الأراضى، إلّا أنّنا نرى أنّه ببركة هذه الرحمة الإلهيّة قد نبتت و نمت الأعشاب و الغابات و الأشجار الكثيرة جدّا على قمم كثير من الجبال و الوديان الوعرة و التلال المرتفعة، و هذه القدرة العجيبة للمطر على الرى لا يستطيع القيام بها شىء آخر.

«زرعا» له هنا معنى واسعا يشمل كلّ أنواع العشب و الشجر، و إن كان يستعمل أحيانا فى مقابل الشجر.

و يمكن أن يكون تقديم الدوابّ و الأنعام على البشر فى هذه الآية لأنّ تغذية الحيوانات تعتمد على النبات، فى حين أنّ البشر يتغذّى على النبات و على لحوم الحيوانات.

أو من جهة أنّ النبات بمجرّد نموّه يصبح غذاء للحيوانات، و تستطيع الاستفادة منه و هضمه، فى حين أنّ استفادة الإنسان من النباتات، تتأخّر حتّى تحمل الشجرة و تنضج الثمرة.

و الطريف هنا أنّ جملة: أَ فَلا يُبْصِرُونَ قد وردت فى نهاية الآية مورد البحث، فى حين أنّ الآية السابقة التى كانت تتحدّث عن أطلال

قصور الأقوام الغابرة قد ختمت بجملة: أَ فَلا يَسْمَعُونَ

و علّة هذا الاختلاف هو أنّ الجميع يرون بأمّ أعينهم منظر الأراضى الميّتة و هى تحيا على أثر نزول الأمطار و نموّ نباتها و ينع ثمرها، فى حين أنّهم يسمعون المسائل المرتبطة بالأقوام السابقين كإخبار غالبا.

و يستفاد من مجموع الآيتين أعلاه أنّ اللّه تعالى يقول لهؤلاء العصاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۷

المتمرّدين: انتبهوا جيّدا، و افتحوا عيونكم و أسماعكم، فاسمعوا الحقائق، و انظروا إليها، و تفكّروا كيف أمرنا الرياح يوما أن تحطّم قصور قوم عاد و مساكنهم و تجعلها أطلالا و آثارا، و فى يوم آخر نأمر ذات الرياح أن تحمل السحاب الممطر إلى الأراضى الميّتة البور لتحيى تلك الأراضى و تجعلها خضراء نضرة، ألا تستسلمون و تذعنون لهذه القدرة؟! و لمّا كانت الآيات السابقة تهدّد المجرمين بالانتقام، و تبشّر المؤمنين بالإمامة و النصر، فإنّ الكفّار يطرحون هذا السؤال غرورا و استكبارا و تعلّلا بأنّ هذه التهديدات متى ستتحقّق؟ كما يذكر القرآن ذلك: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

فيجيبهم القرآن مباشرة، و يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ أى: إذا كان مرادكم أن تروا صدق الوعيد الإلهى الذى سمعتموه من النّبى لتؤمنوا، فإنّ الوقت قد فاتكم، فإذا حلّ ذلك اليوم لا ينفعكم إيمانكم فيه شيئا.

و ممّا قلنا يتّضح أنّ المراد من «يوم الفتح» يوم نزول «عذاب الاستئصال»، أى العذاب الذى يقطع دابر الكافرين، و لا يدع لهم فرصة الإيمان. و بتعبير آخر فإنّ عذاب الاستئصال نوع من العذاب الدنيوى، لا من عذاب الآخرة، و لا من العقوبات الدنيوية المعتادة، بل هو العذاب الذى ينهى حياة المجرمين بعد إتمام الحجّة.

و الشاهد على هذا القول امور:

أ: إذا كان المراد العقوبات الدنيوية المعتادة، أو الانتصارات الشبيهة بانتصار المسلمين فى معركة بدر و يوم فتح مكّة- كما قال ذلك بعض المفسّرين- فإنّ جملة: لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ لا تصحّ حينئذ، لأنّ الإيمان كان مفيدا حينذاك، و أبواب التوبة كانت مفتّحة يوم الإنتصار فى بدر، و فى يوم فتح مكّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۸

ب: إذا كان المراد من يوم الفتح يوم القيامة- كما ارتضى ذلك بعض المفسّرين- فإنّ ذلك لا يناسب جملة: وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ لأنّ إعطاء الفرصة و عدمه يرتبط بالحياة الدنيا، إضافة إلى أنّ «يوم الفتح» لم يستعمل بمعنى يوم القيامة فى أىّ موضع من القرآن الكريم.

ج: إنّ التعبير بالفتح فى مورد عذاب الاستئصال يلاحظ مرارا فى القرآن، مثل الآية (۱۱۸) من سورة الشعراء، حيث يقول نوح: فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و هو إشارة إلى عقوبة الطوفان.

و ورد نظير هذا المعنى فى الآية (۷۷) من سورة المؤمنون أيضا.

إلّا أنّ المراد إذا كان عذاب الاستئصال فى الدنيا فإنّه يتّفق مع ما قلناه أعلاه، و ينسجم مع كلّ القرائن، و هو فى الواقع تهديد للكافرين و الظالمين بأن لا تطلبوا تحقّق الوعد بالفتح للمؤمنين و وقوع عذاب الاستئصال على الكافرين، فإنّ طلبكم إذا تحقّق فسوف لا تجدون الفرصة للإيمان، و إذا وجدتم الفرصة و آمنتم فإنّ إيمانكم سوف لا يقبل.

و هذا المعنى خاصّية يتلاءم كثيرا مع الآيات السابقة التى تحدّثت عن هلاك الأقوام المتمرّدين الطاغين الذين كانوا يعيشون فى القرون الماضية، و ابتلوا بالعذاب الإلهى و الفناء، لأنّ كفّار مكّة إذا سمعوا الكلام الذى ورد فى الآيتين السابقتين فإنّهم سيطلبون تحقّق مثل هذا الموضوع فى حقّهم، إلّا أنّ القرآن الكريم يحذّرهم بأن لا يطلبوا مثل هذا الطلب، فإنّ العذاب إذا نزل لا يبقى لهم شىء.

و أخيرا تنهى الآية الأخيرة هذه السورة- سورة السجدة- بتهديد بليغ عميق المعنى، فتقول: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ الآن، حيث لم تؤثّر فى هؤلاء البشارة و لا الإنـذار، و لا هم أهل منطق و استدلال ليعرفوا اللّه سبحانه بمشاهدة الآثار الإلهيّة فى خفايا الخلقة فيعبدوه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۹

و ليس لهم وجدان حىّ يترنّم فى أعماقهم بنغمة التوحيد فيسمعونها، فأعرض عنهم، و انتظر رحمة اللّه سبحانه، و لينتظروا عذابه فإنّهم لا يستحقّون سواه.

اللهمّ اجعلنا ممّن يسلّم و يؤمن عند رؤية أوّل علامات الحقّ و آياته.

اللهمّ أبعد عنّا روح الكبر و الغرور و العناد و نجّنا منها.

اللهمّ عجلّ بنصر جند الإسلام على جنود الكفر و الاستكبار و الاستعمار.

نهاية سورة السجدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۱

سورة الأحزاب

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها ثلاث و سبعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۳

سورة الأحزاب

سبب التسمية و فضلها:

هـذه السورة نزلت فى المدينـة باتّفـاق علماء الإسـلام، و مجموع آياتها (۷۳) آيـة، و لمّـا كان جزء مهمّ من هـذه السورة يتحدّث عن أحداث غزوة الأحزاب (الخندق) فإنّ هذا الاسم قد اختير لها.

و يكفى فى فضل هذه السورة أن نقرأ

فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «من قرأ سورة الأحزاب و علّمها أهله ... اعطى الأمان من عذاب القبر»[۱۳۷].

و

روى عن الإمـام الصـادق عليه السّلام: «من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامـة فى جوار محمّـد صـلّى اللّه عليه و آله و أزواجه»[۱۳۸].

و قـد قلنا مرارا: إنّ هـذه الفضائل لا تنال بالتلاوة الخاليـة من الروح، و العارية من كلّ أنواع الفكر و العمل، بل التلاوة التى تكون مبدأ للتفكّر الذى يضىء آفاق الإنسان يظهر آثاره فى أعماله و سلوكه.

محتوى سورة الأحزاب:

إنّ هذه السورة من أغنى سور القرآن المجيد و أجناها ثمارا، و تتابع و تبحث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۴

مسائل متنوّعة و کثیرة جدّا فی باب اصول الإسلام و فروعه.

و یمکن تقسیم الأبحاث التی وردت فی هذه السورة إلی سبعة أقسام:

الأوّل: بدایة السورة التی تدعو الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله إلی طاعة اللّه و ترک اتّباع الکافرین و مقترحات المنافقین، و تبشّره بأنّ اللّه سبحانه سیدعمه و ینصره فی مقابل استنکار هؤلاء.

الثّانی: أشار إلی بعض خرافات زمان الجاهلیة، کالظهار، حیث کانوا یعتبرونه سببا للطلاق و افتراق الرجل عن امرأته، و کذلک مسألة التبنّی، و أکّدت علی بطلانها، و حصرت العلاقات و الروابط العائلیة و السببیة بالروابط الواقعیة و الطبیعیة.

الثّالث: و هو أهمّ أقسام هذه السورة، و یرتبط بمعرکة «الأحزاب» و حوادثها المرعبة، و انتصار المسلمین المعجز علی الکفّار، و إعاقات و تخرّصات و تعذّر المنافقین، و نقضهم لعهودهم، و قد بیّنت فی هذا المجال قوانین رائعة و جامعة.

الرّابع: یرتبط بزوجات النّبی، حیث یجب أن یکنّ أسوة و أنموذجا أسمی لکلّ نساء المسلمین، و یصدر لهنّ فی هذا الباب أوامر مهمّة.

الخامس: یتطرّق إلی قصّة «زینب بنت جحش» التی کانت یوما زوجة لزید، و هو ابن النّبی بالتبنّی، و افترقت عنه، فتزوّجها النّبی صلّی اللّه علیه و آله بأمر اللّه سبحانه، فأصبح هذا الزواج حربة بید المنافقین، فأجابهم القرآن الجواب الکافی الشافی.

السّادس: یتحدّث عن مسألة الحجاب، و التی ترتبط بالبحوث السابقة، و یوصی کلّ النساء المؤمنات بمراعاة هذا القانون الإسلامی.

السّابع: الذی یشکّل الجزء الأخیر، و یشیر إلی مسألة المعاد المهمّة، و طریق النجاة فی ذلک الموقف العظیم، و کذلک یشرح و یبیّن مسألة أمانة الإنسان العظمی، أی مسألة التعهّد و التکلیف و المسؤولیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۵

آیات [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْکافِرِینَ وَ الْمُنافِقِینَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً (۱) وَ اتَّبِعْ ما یُوحی إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ إِنَّ اللَّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۲) وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلاً (۳)

سبب النّزول

لقد ذکر المفسّرون هنا أسباب نزول مختلفة، تبحث کلّها تقریبا موضوعا واحدا.

و من جملتها: إنّ هذه الآیات نزلت فی شأن أبی سفیان و بعض آخر من رؤوس الکفر و الشرک الذین أخذوا الأمان من الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله بعد معرکة أحد و دخلوا المدینة، و أتوا مع عبد اللّه بن أبی و جماعة من أصحابه، إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و قالوا:

یا محمّد، لا تذکر آلهتنا اللات و العزی و مناة بسوء و قل: إنّ لها شفاعة لمن عبدها و ندعک و ربّک، فشقّ ذلک علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله، فقال عمر بن الخطّاب: ائذن لنا- یا رسول اللّه- فی قتلهم،

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «إنّی أعطیتهم الأمان»

و أمر فأخرجوا من المدینة و نزلت الآیة: وَ لا تُطِعِ الْکافِرِینَ و أمرته أن لا یصغی لمثل هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۶

الاقتراحات ۱۳۹].

التّفسير

اتّبع الوحى الإلهى فقط:

إنّ من أخطر المنعطفات و المنحدرات التى تعترض طريق القادة الكبار قضيّة اقتراحات الصلح و التنازل و الوفاق التى تطرح من قبل المخالفين، و تضع الخطوط الملتوية و الطرق المنحرفة إلى جانب طريق القادة، و تسعى لحرفهم عن مسيرهم الأصلى، و هذا إمتحان صعب و عسير لهؤلاء.

لقد بذل مشركو «مكّة» و منافقو «المدينة» كلّ ما فى وسعهم ليحرّفوا الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله عن خطّ التوحيد من خلال طرح مقترحات السلام و الاتّفاق، و من جملتها ما قرأناه فى سبب النّزول، إلّا أنّ أولى آيات سورة الأحزاب نزلت فأنهت مؤامراتهم، و دعت النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى الاستمرار فى أسلوبه الحاسم فى خطّ «التوحيد» بدون أدنى تراجع و تنازل و مسالمة.

إنّ هذه الآيات بمجموعها تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأربعة أوامر مهمّة:

الأوّل: فى مجال التقوى، و التى تهيّء الأرضية لكلّ برنامج آخر، فتقول:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ

إنّ حقيقة التقوى هى ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤولية، و لو لا هذا الإحساس فإنّ الإنسان لا يندفع و لا يتحرّك باتّجاه أى برنامج بنّاء.

التقوى هى الهدف الأسمى للهداية و الانتفاع بآيات اللّه، كما جاء فى الآية الثّانية من سورة البقرة: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

صحيح أنّ المرحلة النهائية للتقوى تحصل بعد الإيمان و العمل طبق أوامر اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۷

سبحانه، إلّا أنّ مرحلتها الابتدائية تقع قبل كلّ هذه المسائل، لأنّ الإنسان إذا لم يحسّ بالمسؤولية داخليا، فإنّه لا يسعى للتحقّق من دعوة الأنبياء و التثبّت منها، و لا يصغى إليها، و حتّى مسألة (دفع الضرر المحتمل) التى عدّها علماء الكلام و العقائد أساس و دعامة السعى إلى معرفة اللّه، فإنّها فى الحقيقة فرع التقوى.

الثّانى: نفى و رفض طاعة الكافرين: وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ و تقول الآية فى النهاية تأكيدا لهذا الموضوع: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً فإنّه تعالى حينما يأمرك بعدم إتّباع هؤلاء، فإنّ ذلك صادر عن حكمته اللامتناهية، لأنّه يعلم ما اخفى فى هذا الإتّباع و المهادنة من المصائب، الأليمة، و المفاسد الجمّة.

و على كلّ حال، فإنّ أوّل وظيفة بعد التقوى و الإحساس بالمسؤولية، هى غسل القلب و تصفيته من الغير، و اقتلاع الأشواك الضارّة المؤذية من هذه الأرض المعنوية.

الثّالث: نثر بذور التوحيد و اتّباع الوحى الإلهى، فيقول: وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ و احذر ف إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً و بناء على هذا فإنّ الواجب الأوّل هو طرد الشياطين من أعماق الروح لتحلّ محلّها الملائكة، و أن تقلع الأشواك لتبذر محلّها الورود، و يجب أن تطهّر الأرض من الطواغيت لتخلّفهم حكومة اللّه و نظامه المقدّس.

و لمّا كانت هناك مشاكل كثيرة، و تهديدات و مؤامرات، و معوّقات فى الاستمرار فى سلوك هذا الطريق، فإنّه تعالى يصدر الأمر

الرابع بأن وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا فلو أنّ الف عدوّ يسعى لقتلك، فلا تخش و لا تخف منهم لأنّي ناصرك و معينك.

و مع أنّ المخاطب فى هذه الآيات هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله، إلّا أنّه خطاب لكلّ المؤمنين، و لعامّة المسلمين، و هو و صفة طبية تمنح الحياة، و دواء لبث النشاط و الحيوية فى كلّ عصر و زمان.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۸

و قال بعض المفسّرين: إنّ الخطاب ب يا أَيُّهَا خاصّ بالموارد التى يراد منها جلب انتباه العموم لمطلب ما، و إن كان المخاطب واحدا، بخلاف الخطاب ب (يا) و الذى يستعمل فى الموارد التى يراد منها شخص المخاطب ۱۴۰]. و لمّا كانت هذه الآيات قد بدأت ب يا أَيُّهَا فإنّها تؤكّد كون الهدف من هذه الآيات هو العموم.

و الشاهد الآخر للتعميم، هو أنّ جملة: إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً قد وردت بصيغة الجمع، و إذا كان المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله، فينبغى أن تقول الآية: إنّ اللّه كان بما تعمل خبيرا-.

و لا يخفى أنّ هذه الأوامر الموجّهة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله لا تعنى أنّه كان مقصّرا فى التقوى أو أنّه يتّبع الكافرين و المنافقين، بل إنّ لهذه الأوامر صفة التأكيد على واجبات النّبى صلّى اللّه عليه و آله من جهة، و هى درس و عبرة لكلّ المؤمنين من جهة اخرى.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۹

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (۴) ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (۶)

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۰

التّفسير

ادّعاءات جوفاء:

تعقيبا للآيات السابقة التى كانت تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يتّبع الوحى الإلهى فقط، و لا يتّبع الكافرين و المنافقين، تعكس هذه الآيات التى نحن بصددها عاقبة اتّباع هؤلاء و أنّه يدعو الإنسان إلى مجموعة من الخرافات و الأباطيل، و قد ذكرت الآية الاولى من الآيات مورد البحث ثلاث منها، فتقول أوّلا: ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ

و قد ذكر جمع من المفسّرين فى سبب نزول هذا القسم من الآية: أنّ رجلا فى الجاهلية يدعى «جميل بن معمّر» كان عجيب الحفظ، و كان يدّعى أنّ فى جوفه قلبين كلّ منهما أفهم من محمّد صلّى اللّه عليه و آله، و لذلك كان مشركو قريش يسمّونه: ذا القلبين! فلمّا كان يوم بدر و هزم المشركون، و فيهم جميل بن معمّر، تلقّاه أبو سفيان و هو آخذ بيده إحدى نعليه، و الاخرى فى رجله، فقال له: يا أبا معمّر، ما حال الناس؟

قـال: انهزموا، قـال: فما بالک إحـدی نعلیک فی یـدک، و الاخری فی رجلک؟ فقال أبو معمّر: ما شـعرت بـذلک، و کنت أظنّهما فی رجلی، فعرفوا یومئـذ أنّه لم یکن له إلّـا قلب واحـد لمـا نسـی نعله فی یـده ۱۴۱]. بـل لم یکن یعقـل و یفهم حتّی بمقـدار ذی القلب الواحد.

و المراد من «القلب» فی مثل هذه الموارد «العقل».

و علی کلّ حال فإنّ اتّباع الکفّار و المنافقین، و عدم اتّباع الوحی الإلهی یدعو الإنسان إلی مثل هذه الإعتقادات الخرافیة.

و بغضّ النظر عن ذلک، فإنّ للجملـة معنی أعمق، و هو: أنّه لیس للإنسان إلّا قلب واحـد، و لا یحتوی هذا القلب و لا یختزن إلّا عشـق معبود واحد، و علی هذا فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۱

أولئک الذین یدعون إلی الشـرک و الآلهة المتعدّدة ینبغی أن تکون لهم قلوب متعدّدة، لیجعلوا کلّ واحد منها بیتا لعشق معبود واحد!

مـن المسـلّم أنّ شخصـیّة الإنسـان السـلیم شخصـیة واحـدة، و خطّه الفکری واحـد، و یجب أن یکـون واحـدا فی وحـدته و اختلاـطه بـالمجتمع، فی الظـاهر و البـاطن، فی الـداخل و الخـارج، و فی الفکر و العمـل، فإنّ کلّ نوع من أنواع النفاق أز ازدواج الشخصـیة أمر مفروض علی الإنسان و علی خلاف طبیعته.

إنّ الإنسان بحکم امتلاکه قلبا واحدا یجب أن یکون له کیان عاطفی واحد، و أن یخضع لقانون واحد ..

و لا یدخل قلبه إلّا حبّ معشوق واحد ..

و یسـلک طریقا معیّنا فی حیاته، بأن یتآلف مع فریق واحـد، و مجتمع واحـد، و إلّا فإنّ التعـدّد و التشـتّت و الطرق المختلفة و الأهداف المتفرّقة ستقوده إلی اللاهدفیة و الانحراف عن المسیر التوحیدی الفطری.

و لهذا نری

فی حـدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام فی تفسـیر هـذه الآیة: «لا یجتمع حبّنا و حبّ عدوّنا فی جوف إنسان، إنّ اللّه لم یجعل لرجل قلبین فی جوفه، فیحبّ بهـذا و یبغض بهذا، فأمّا محبّنا فیخلص الحبّ لنا کما یخلص الذهب بالنار لا کدر فیه، فمن أراد أن یعلم فلیمتحن قلبه، فإن شارک فی حبّنا حبّ عدوّنا فلیس منّا و لسنا منه»[۱۴۲].

و بناء علی هذا فإنّ القلب مرکز الإعتقاد الواحد، و ینفّذ برنامجا عملیا واحدا، لأنّ الإنسان لا یسـتطیع أن یعتقد بشـیء حقیقة و ینفصل عنه فی العمل، و ما یـدّعی بعض المعاصـرین من أنّهم یمتلکون شخصـیات متعـدّدة، و یقولون: إنّنا قـد قمنا بالعمل الفلانی سیاسـیا، و بذلک العمل دینیا، و الآخر اجتماعیا، و یوجّهون بذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۲

أفعالهم المتناقضة، فهو ناشئ من نفاقهم و سوء سریرتهم حیث یریدون أن یسحقوا بهذا الکلام قانون الخلقة.

صحیح أنّ أبعاد حیاة الإنسان مختلفة، و لکن یجب أن یحکمها خطّ واحد، و تسیر ضمن منهاج واحد.

ثمّ یتطرّق القرآن إلی خرافـة اخری من خرافات الجاهلیـة، و هی خرافة «الظهار»، حیث أنّ المشـرکین کانوا إذا غضـبوا علی نسائهم، و أرادوا أن یبـدوا تنفّرهم و عدم ارتیاحهم، قالوا للزوجة: أنت علیّ کظهر أمّی فیعتبرها بمثابة أمّه، و کان یعدّ هذا الکلام بمنزلة الطلاق! یقول القرآن الکریم فی تتمّة هذه الآیة: وَ ما جَعَلَ أَزْواجَکُمُ اللَّائِی تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِکُمْ فلم یمض الإسلام هذا القانون الجاهلی، و لم یصادق علیه، بل جعل عقوبة لمن یتعاطاه، و هی: أنّ من نطق بهذا الکلام فلا یحقّ له أن یقرب زوجته حتّی یدفع الکفّارة، و إذا لم یـدفعها و لم یـأت زوجته فـإنّ لهـا الحقّ فی أن تسـتعین بحاکم الشـرع لیجبره علی أحـد أمرین: إمّا أن یطلّقها وفقا لأحکام الإسـلام و یفارقها، أو أن یکفّر و یستمرّ فی حیاته الزوجیة کالسابق ۱۴۳].

أی منطق هذا الذی تصبح فیه زوجة الإنسان بمنزلة أمّه بمجرّد أن یقول لها:

أنت علیّ کظهر أمّی؟! إنّ ارتباط و علاقة الامّ و الولد علاقة طبیعیة لا تتحقّق بمجرّد الکلام مطلقا، و لذلک تقول الآیة ۲- سورة المجادلة بصراحة: إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِی وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَیَقُولُونَ مُنْکَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً.

و إذا کان هدف هؤلاء من إطلاق هذه الکلمات هو الإفتراق و الانفصال عن المرأة- (و هکذا کان فی عصر الجاهلیة، حیث کانوا یقولون هذه الکلمات بدل لفظ الطلاق)- فإنّ الانفصال عن المرأة لا یحتاج إلی مثل هذا الکلام القبیح السیّء. ألا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۳

یمکن أن یصرّح بالطلاق بتعبیر صحیح بعید عن کلّ ذلک القبح؟

و قال بعض المفسّرین: إنّ «الظهار» فی الجاهلیة لم یکن یؤدّی إلی انفصال الرجل عن المرأة، بل إنّه کان یجعل المرأة کالمعلّقة لا یعرف حالها و مصیرها، و إذا کانت المسألة کذلک، فإنّ جنایة هذا العمل و قبحه ستکون أوضح، لأنّ کلمة لا معنی لها کانت تحرّم علی الرجل علاقته الزوجیة مع زوجته من دون أن تکون المرأة مطلّقة[۱۴۴].

ثمّ تطرّقت الآیة إلی ثالث خرافة جاهلیة، فقالت: وَ ما جَعَلَ أَدْعِیاءَکُمْ أَبْناءَکُمْ

و توضیح ذلک: أنّه کان من المتعارف فی زمن الجاهلیة أنّهم کانوا ینتخبون بعض الأطفال کأولاد لهم، و یسمّونهم أولادهم، و بعد هذه التسمیة یعطونه کلّ الحقوق التی یستحقّها الولد من الأب، فیرث الولد من تبنّاه، کما یرث المتبنّی الولد، و یجری علیهما تحریم امرأة الأب أو زوجة الابن.

و قد نفی الإسلام هذه العادات غیر المنطقیة و الخرافیة أشدّ النفی، بل- و کما سنری- أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله أقدم- لمحو هذه السنّة المغلوطة- علی الزواج من زوجة ولده المتبنّی «زید بن حارثة» بعد أن طلّقها زید، لیتّضح من خلال هذه السنّة النبویة أنّ هذه الألفاظ الجوفاء لا یمکن أن تغیّر الحقائق و الواقع، لأنّ علاقة البنوّة و الابوّة علاقة طبیعیة لا تحصل أبدا من خلال الألفاظ و الاتّفاقیات و الشعارات.

و مع أنّنا سنقول فیما بعد: أنّ زواج النبی بزوجة زید المطلّقة قد أثار ضجّة عظیمة بین أعداء الإسلام، و أصبح حربة بیدهم للإعلام المضادّ السیء، إلّا أنّ هذا العمل کان یستحقّ تحمّل کلّ ذلک الصخب الإعلامی لتحطیم هذه السنّة الجاهلیة، و لذلک یقول القرآن الکریم بعد هذه الجملة: ذلِکُمْ قَوْلُکُمْ بِأَفْواهِکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۴

إنّکم تقولون: إنّ فلانا ولدی، و أنتم تعلمون علم الیقین أنّ الأمر لیس کذلک، فإنّ الأمواج الصوتیة فقط هی التی تخرج من أفواهکم و لا تنبع مطلقا من إعتقاد قلبی، و هذا کلام باطل لیس إلّا وَ اللَّهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ

إنّ «قول الحقّ» یطلق علی القول الذی ینطبق علی الواقع الموضوعی تماما، أو أن یکون من الأمور الاعتباریة التی تنسجم مع مصالح کلّ أطراف القضیّة، و نعلم أنّ مسألة «الظهار» فی الجاهلیة، أو «التبنّی» الذی کان یستحق حقوق الأبناء الآخرین إلی حدّ کبیر- لم یکونا من الموضوعات العینیة، و لا من الاعتباریات الحافظة لمصلحة عامّة الناس.

ثمّ یضیف القرآن مؤکّدا و موضّحا الخطّ الصحیح و المنطقی للإسلام: ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ

إنّ التعبیر ب (أقسط) لا یعنی أنّهم إن دعوهم بأسماء المتبنّین لهم فإنّه عدل، و إن دعوهم بأسماء آبائهم الواقعیین فإنّه أعدل، بل- و کما قلنا سابقا مرارا- إنّ صیغة (أفعل التفضیل) تستعمل فی بعض الموارد و لا تدلّ علی الوصف المقابل لصفة ما، فمثلا نقول: من الأفضل أن یحتاط الإنسان و لا یلقی بنفسه فی الخطر، فلا یعنی هذا أنّ إلقاء النفس فی الخطر و التهلکة حسن، إلّا أنّ الاحتیاط أفضل منه، بل إنّ المراد المقارنة بین الحسن و القبح.

و تقول الآیة لرفع الأعذار و الحجج: فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ وَ مَوالِیکُمْ أی إنّ عدم معرفة آبائهم لا یکون دلیلا علی أن تضعوا اسم شخص آخر کأب لهذا الابن، بل یمکنکم أن تخاطبوهم کإخوانکم فی الدین أو أصدقائکم و موالیکم.

(الموالی) جمع «مولی»، و قد ذکر المفسّرون له معانی عدیدة، فالبعض فسّره هنا بمعنی الصدیق و الصاحب، و البعض الآخر بمعنی الغلام المعتق و المحرّر، لأنّ بعض الأدعیاء کانوا عبیدا یشترون ثمّ یتحرّرون، و لمّا کان أصحابهم قد اهتّموا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۵

بهم و أحبّوهم فإنّهم کانوا یدعونهم کأبناء لهم.

و ممّا یجدر الإشارة إلیه أنّ تعبیر (مولی) فی مثل هذه الموارد کان یرتبط بالعبید المحرّرین من جهة أنّهم کانوا یحتفظون بعلاقاتهم مع مالکیهم بعد تحرّرهم، تلک العلاقات التی کانت تنوب عن اولی الأرحام فی بعض الجهات من الناحیة الحقوقیة، و کانوا یعبّرون عن ذلک ب (ولاء العتق) و لذلک نقرأ فی الروایات الإسلامیة أنّ «زید بن حارثة» بعد أن أعتقه النّبی کان یدّعی زید بن محمّد، حتّی نزل القرآن بالأمر أعلاه، فمن ذلک الحین

قال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «أنت زید بن حارثة»،

و کان الناس یدعونه بعد ذلک: مولی رسول اللّه ۱۴۵].

و قالوا أیضا: کان لأبی حذیفة غلام یدعی «سالما» فأعتقه و ادّعاه، فلمّا نزلت هذه الآیة کانوا یسمّونه: سالما مولی أبی حذیفة[۱۴۶].

و لکن ربّما یدعو الشخص إنسانا لغیر أبیه لاعتیاده ذلک سابقا، أو لسبق لسانه، أو لاشتباهه فی تشخیص نسب الأفراد، و هذا خارج عن حدود إختیار الإنسان، فإنّ اللّه العادل الحکیم لا یعاقب مثل هذا الإنسان، و لذا أردفت الآیة: وَ لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ فِیما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لکِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُکُمْ ۱۴۷] وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً.

إنّه تعالی یغفر لکم ما سبق، و یعفو عن السهو و النسیان و الاشتباه، أمّا بعد نزول هذا الحکم فإنّ اللّه عزّ و جلّ سوف لا یغفر لکم مخالفتکم إن صدرت عن عمد و قصد، فتدعون أفرادا بغیر أسماء آبائهم، و تستمرّون علی اتّباع هذا العرف السیء بالدعوة لغیر الأب.

و قال بعض المفسّرین: إنّ موضوع الخطأ یشمل الموارد التی یقول فیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۶

الإنسان لآخر تحبّبا: ولدی، أو یا بنیّ، أو یقول فیها لآخر احتراما: یا أبت! و هذا الکلام صحیح- طبعا- و هذه التعبیرات لا تعدّ ذنبا، لکن لا لأجل عنوان الخطأ، بل لأنّ لهذه التعبیرات صفة الکنایة و المجاز، و قرینتها معها عادة، و القرآن ینفی التعبیرات الحقیقیة فی هذا الباب، لا المجازیة.

ثمّ تتطرّق الآیة التالیة إلی مسألة مهمّة اخری، أی إبطال نظام «المؤاخاة» بینهم.

و توضیح ذلک: أنّ المسلمین لمّا هاجروا من مکّة إلی المدینة و قطع الإسلام کلّ روابطهم و علاقاتهم بأقاربهم و أقوامهم المشرکین الذین کانوا فی مکّة تماما، فقد أجری النّبی صلّی اللّه علیه و آله بأمر اللّه عقد المؤاخاة بینهم و عقد عهد المؤاخاة بین «المهاجرین» و «الأنصار»، و کان یرث أحدهم الآخر کالأخوین الحقیقیین، إلّا أنّ هذا الحکم کان مؤقّتا و خاصّا بحالة استثنائیة جدّا، فلمّا اتّسع الإسلام و عادت العلاقات السابقة تدریجیّا لم تکن هناک ضرورة لاستمرار هذا الحکم، فنزلت الآیة أعلاه و ألغت نظام المؤاخاة الذی کان یحلّ محلّ النسب، و جعل حکم الإرث و أمثاله مختّصا بأولی الأرحام الحقیقیین.

و بالرغم من أنّ نظام المؤاخاة کان نظاما إسلامیا- علی خلاف نظام التبنّی الذی کان نظاما جاهلیا- و لکن کان من الواجب أن یلغی بعد ارتفاع الحالة الموجبة له، و هکذا حصل، غایة ما فی الأمر أنّ الآیة قبل أن تذکر هذا الحکم ذکرت حکمین آخرین- أی کون النّبی صلّی اللّه علیه و آله أولی بالمؤمنین من أنفسهم، و کون نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله کامّهاتهم- کمقدّمة، فقالت: النَّبِیُّ أَوْلی بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ

و مع أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله بمنزلة الأب، و أزواجه بمنزلة امّهات المؤمنین إلّا أنّهم لا یرثون منهم مطلقا، فکیف ینتظر أن یرث الابن المتبنّی؟! ثمّ تضیف الآیة: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۷

وَ الْمُهاجِرِينَ و لكن مع ذلك، و من أجل أن لا تغلق الأبواب بوجه المسلمين تماما و ليكون بإمكان المؤمنين تعيين شيئا من الإرث لإخوانهم- و إن كان بأن يوصوا بثلث المال- فإنّ الآية تضيف في النهاية: إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً.

و تقول في آخر جملة تأكيدا لكلّ الأحكام السابقة، أو الحكم الأخير: كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً- في اللوح المحفوظ أو في القرآن الكريم-.

كان هذا خلاصة تفسير الآية أعلاه، و الآن يجب أن نتطرّق إلى تفصيل كلّ واحد من الأحكام الأربعة التي وردت في هذه الآية:

۱- ما هو المراد من كون النّبي أولى بالمؤمنين؟

لقد ذكر القرآن في هذه الآية أولوية النّبي صلّى اللّه عليه و آله بالمسلمين بصورة مطلقة، و معنى ذلك أنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله أولى بالإنسان المسلم من نفسه في جميع الصلاحيات التي يمتلكها الإنسان في حقّ نفسه.

و مع أنّ بعض المفسّرين فسّروها بمسألة «تدبير الأمور الاجتماعية»، أو «الأولوية في مسألة القضاء»، أو «طاعة الأمر»، إلّا أنّنا في الواقع لا نمتلك أي دليل على انحصار الآية في أحد هذه الأمور الثلاث.

و إذا لاحظنا في بعض الروايات الإسلامية تفسير الأولوية ب «الحكومة»، فهو في الحقيقة بيان لأحد فروع هذه الأولوية[۱۴۸].

لذلك يجب أن يقال: إنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله أولى من كلّ إنسان مسلم في المسائل الاجتماعية و الفردية، و كذلك في المسائل المتعلّقة بالحكومة و القضاء و الدعوة، و إنّ إرادته و رأيه مقدّم على إرادة أي مسلم و رأيه.

و لا ينبغي العجب من هذه المسألة، لأنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله معصوم و وكيل للّه سبحانه، و لا يفكّر و يقرّر إلّا في صالح المجتمع و الفرد، و لا يتّبع الهوى أبدا، و لا يعتبر

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۸

مصالحه مقدّمة على مصالح الآخرين و أهمّ منها، بل على العكس من ذلك، فهو يؤثّر و يقدّم مصالح الامّة على مصالحه دائما عند تعارض المصلحتين.

إنّ هذه الأولوية فرع من أولوية المشيئة الإلهيّة، لأنّ كلّ ما لدينا من اللّه سبحانه. إضافة إلى أنّ الإنسان لا يصل إلى أوج الإيمان إلّا عند ما يضحّي بأقوى العلائق و الدوافع فيه، و هو عشقه لذاته في طريق عشقه لذات اللّه و خلفائه، و لذلك نقرأ في حديث: «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعا لما جئت به»[۱۴۹].

و

جاء في حديث آخر: «و الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه و ماله و ولده و الناس أجمعين»[۱۵۰].

و كذلك

روي عنه صلّى اللّه عليه و آله: «ما من مؤمن إلّا و أنا أولى الناس به في الدنيا و الآخرة»[۱۵۱].

و يقول القرآن الكريم في الآية (۳۶) من سورة الأحزاب هذه: ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

و نؤكّد مرّة اخرى على أنّ هذا الكلام لا يعني أنّ اللّه قد جعل أمر الناس تبعا لأهواء و رغبات شخص ما، بل من جهة أنّ للنّبي صلّى اللّه عليه و آله مقام العصمة، و بمصداق: ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى فإنّ كلّ ما يقوله هو كلام اللّه و من اللّه، و هو أحرص و أرحم حتّى من الأب بهذه الامّة.

إنّ هذه الأولوية في الحقيقة تقع في مسير منافع الناس في جوانب الحكومة و تدبير المجتمع الإسلامي، و كذلك في المسائل الشخصية و الفردية.

و يتبيّن من هـذه الأدلّـة أنّ هذه الأولوية تضع على عاتق النّبى صـلّى اللّه عليه و آله مسـئوليات ثقيلة ضـخمة، و لذلك نقرأ فى الرواية المشهورة الواردة فى مصادر الشيعة و السنّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۹

أنّ النّبى صـلّى اللّه عليـه و آله قـال: «أنـا أولى بكـلّ مـؤمن من نفسه، و من ترك مالا ـ فللوارث، و من ترك دينـا أو ضـياعا فـإلىّ و علىّ»[۱۵۲].

ينبغى الالتفات إلى أنّ «الضـياع» هنا بمعنى الأولاد أو العيال الـذين بقوا بـدون معيل، و التعبير ب «الدّين» قبلها قرينة واضـحة على هذا المعنى، لأنّ المراد بقاء الدّين بدون مال يسدّد به.

۲- الحكم الثّـانى فى هـذا الباب يتعلّق بأزواج النّبى حيث يعتبرن كامّهات لكلّ المؤمنين، و هى طبعا أمومـة معنويـة و روحيـة، كما أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أب روحى و معنوى للأمّة.

إنّ تأثير هذا الارتباط المعنوى كان منحصرا فى مسألة حفظ احترام أزواج النّبى و حرمة الزواج منهنّ، كما جاء الحكم الصريح بتحريم الزواج منهنّ بعـد وفـاة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله فى آيـات هـذه السورة، و إلّا فليس لهـذه العلاقـة أدنى أثر من ناحيـة الإرث و سائر المحرّمات النسبيـة و السـببية، أى إنّ المسـلمين كان من حقّهم أن يتزوّجوا بنات النّبى، فى حين أنّ أىّ أحد لا يسـتطيع الزواج من ابنة امّه. و كذلك مسألة كونهنّ أجنبيات، و عدم جواز النظر إليهن إلّا للمحارم.

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ امرأة قالت لعائشة: يا امّه! فقالت:

لست لك لامّ إنّما أنا أمّ رجالكم»[۱۵۳]

و هو إشارة إلى أنّ الهدف من هذا التعبير هو حرمة التزويج، و هذا صادق فى رجال الامّة فقط.

و ثمّة مسألة مطروحة، و هى احترامهنّ و تعظيمهنّ- كما قلنا- إضافة إلى قضـيّة عدم الزواج، و لذلك فإنّ نساء المسلمين كنّ قادرات على مخاطبة نساء النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۰

بالامّ بعنوان احترامهنّ.

و الشاهـد لهـذا القول، أنّ القرآن الكريم يقول: النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ و هـذا يعنى أولويـة النّبى بكـلّ النسـاء و الرجال، و ضمير الجملـة التاليـة يعود إلى هـذا العنوان الواسع المعنى، و لـذلك نقرأ فى العبارة التى نقلت عن «امّ سـلمة»- و هى من أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله- أنها قالت: أنا امّ الرجال منكم و النساء[۱۵۴].

و هنا يطرح سؤال، و هو: هل أنّ تعبير وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ يتناقض مع ما ورد فى الآية (۲) من سورة المجادلة: الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِی وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً فكيف تعتبر نساء النّبى- و الحال هـذه- امّهات المسلمين و لم يولدوا منهنّ؟

و ينبغى فى الإجابة على هذا السؤال الالتفات إلى أنّ مخاطبة امرأة ما بالامّ إمّا أن تكون من الناحية الجسمية أو الروحية ..

فأمّا من الناحيـة الجسـمية: فإنّ هـذه المخاطبـة تكون واقعيـة فى حالـة كون الإنسان مولودا منها فقط، و هـذا هو الـذى جاء فى الآيات السابقة بأنّ الامّ الجسمية للإنسان هى التى تلده فقط.

و أمّا الأب أو الامّ الروحيين، فهو الـذى له حقّ معنوىّ على الإنسـان كالنّبى صـلّى اللّه عليه و آله الـذى يعتبر الأب الروحى للامّـة، و لأجله اكتسبت أزواجه منزلة و احترام الامّ.

و الإشـكال الـذى كان يوجّه إلى عرب الجاهليـة فى مورد «الظهار» أنّهم عند ما كانوا يخاطبون أزواجهم بخطاب الامّ فمن المسلّم أنّ مرادهم ليس الامّ المعنويـة، بـل المقصود أنّهنّ كالامّ الجسـمية، و لـذلك كانوا يعـدّونه نوعا من الطلاق، و نعلم أنّ الامّ الجسـمية لا

تتحقّق بمجرّد الألفاظ، بل إنّ شرط ذلك الولادة الجسمية، و بناء على هذا فإنّ كلامهم كان منكرا و زورا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۱

أمّا فی مورد أزواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله، فبالرغم من أنّهنّ لسن امّهات جسميا، إلّا أنّهنّ امّهات روحيات اكتسابا من مقام و احترام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و لهنّ وجوب الاحترام كأمّهات. و إذا رأينا القرآن قد حرّم الزواج من أزواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی الآيات القادمة، فإنّ ذلك شأن آخر من شؤون احترامهنّ و احترام النّبی صلّی اللّه علیه و آله كما سيأتی توضيح ذلك بصورة مفصّلة إن شاء اللّه تعالی.

و هناك نوع ثالث من الامّهات فی الإسلام و هی الامّ المرضعة، و التی أشير إليها فی الآية (۲۳) من سورة النساء: وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِی أَرْضَعْنَكُمْ إلّا أنّها فی الحقيقة فرع من فروع الامّ الجسمية.

۳- الحكم الثالث: مسألة أولوية أولی الأرحام فی الإرث بالنسبة إلی الآخرين، لأنّ قانون الإرث فی بداية الإسلام- حيث قطع المسلمون علاقتهم بأقوامهم و أقاربهم علی أثر الهجرة- نظّم علی أساس الهجرة و المؤاخاة، أی أنّ المهاجرين كانوا يرثون بعضهم من بعض أو مع الأنصار الذين تآخوا معهم و لكن لم تكن هناك ضرورة للاستمرار عليه بعد توسّع الإسلام و إعادة كثير من العلاقات القومية و الرحمية السابقة نتيجة إسلام أقوامهم- (و ينبغی الالتفات إلی أنّ سورة الأحزاب قد نزلت فی السنة الخامسة للهجرة، و هی سنة «حرب الأحزاب») لذلك ثبتت أولوية أولی الأرحام بالنسبة إلی الآخرين.

و هناك قرائن علی أنّ المراد من الأولوية هنا هی الأولوية الإلزامية لا الاستحبابية، لأنّ إجماع علماء الإسلام علی هذا المعنی، إضافة إلی الروايات الكثيرة الواردة فی المصادر الإسلامية، و التی تثبت هذا الموضوع.

و يجب هنا الالتفات إلی هذه المسألة بدقّة، و هی: أنّ هذه الآية بصدد بيان أولوية اولی الأرحام فی مقابل الأجانب، لا بيان أولوية طبقات الإرث الثلاث بالنسبة إلی بعضها البعض، و بتعبير آخر، فإنّ المفضّل عليهم هنا هم المؤمنون و المهاجرون الذين ورد ذكرهم فی متن القرآن: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۲

بناء علی هذا فإنّ مفهوم الآية يصبح: إنّ أولی الأرحام أولی من الأجانب من ناحية الإرث، أمّا كيف يرث هؤلاء الأرحام؟ و علی أی أساس و معيار؟ فإنّ القرآن سكت عن ذلك فی هذا الموضع، مع أنّه بحث الموضوع مفصّلا فی آيات سورة النساء[۱۵۵].

۴- الحكم الرّابع الذی ورد فی الآية أعلاه كاستثناء، هو استفادة و انتفاع الأصدقاء و الأفراد المعينين الذين يخصّهم الأمر من الأموال التی يتركها الإنسان كذكری، و الذی بيّن بجملة: إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلی أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً و مصداقه الواضح هو حكم الوصيّة، حيث يستطيع الإنسان أن يتصرّف فی ثلث أمواله و يضعه حيث يشاء، أو يوصی به لمن يشاء.

و بهذا فإنّ الإسلام عند ما وضع أساس الإرث علی دعامة القرابة و الرحم بدل الروابط و العلاقات السابقة، لم يقطع وشائج الصلة بين الإنسان و رفقائه الذين يعزّهم و باقی إخوته المسلمين تماما، فالإنسان حرّ فی التصرّف فی ماله من ناحية الكميّة و الكيفيّة، إلّا أنّ هذه الحرية مشروطة بأن لا تزيد علی الثلث، و من الطبيعی أنّ الإنسان إذا لم يوص بشیء فإنّ كلّ أمواله تقسّم بين أقاربه و ذوی رحمه طبقا لقانون الإرث، و لا يترك له ثلث فی هذه الحالة[۱۵۶].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۳

ملاحظة

وردت روايات كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فی تفسير الآية أعلاه فيما يتعلّق بأولی الأرحام، حيث فسّرت هذه الآية فی بعض منها بمسألة «إرث الأموال»، كما هو المعروف بين المفسّرين، فی حين فسّرت فی البعض الآخر بمسألة «إرث الخلافة و

الحكومة» فى آل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام.

و من جملتها ما نقرؤه

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام حينما سئل عن تفسير هذه الآية، أنّه قال: «نزلت فى ولد الحسين عليه السّلام» .. قيل: فى المواريث؟ قال: «لا، نزلت فى الإمرة»[۱۵۷].

من البديهى أنّه ليس المراد من هذه الأحاديث نفى مسألة إرث الأموال، بل المراد لفت الانتباه إلى أنّ للإرث معنى واسعا يشمل إرث الأموال و إرث الولاية و الخلافة.

و ليس لهذا التوارث أى وجه شبه مع مسألة توارث السلطنة فى سلسلة الملوك و السلاطين، فإنّ التوارث هنا نتيجة للأهلية و اللياقة، و لذلك فإنّه يشمل من بين أولاد الأئمّة من كانت له هذه الأهلية، و يشبه تماما ما يريده إبراهيم عليه السّلام من اللّه سبحانه لذريّته، فيقول اللّه له: إنّ الإمامة و الولاية لا تنال الظالمين، بل هى خاصّة بالطاهرين لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ

و يشبه أيضا ما نقوله فى الزيارات أمام قبور الشهداء فى سبيل اللّه، و من جملتها ما نقوله أمام قبر الإمام الحسين عليه السّلام:

السّلام عليك يا وارث آدم، و وارث نوح، و وارث إبراهيم، و وارث موسى و عيسى و محمّد ...

فإنّ هذا الإرث فى الجوانب العقائدية و الأخلاقية و المعنوية و الروحية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۴

الآيتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۷ الى ۸]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۷) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (۸)

التّفسير

ميثاق اللّه الغليظ:

لمّا كانت الآيات السابقة قد بيّنت الصلاحيات الواسعة للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله تحت عنوان (النّبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فإنّ هذه الآيات تبيّن واجبات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سائر الأنبياء العظام الثقيلة العظيمة، لأنّا نعلم أنّ الصلاحيات تقترن دائما بالمسؤوليات، و حيثما وجد «حقّ» كان إلى جانبه «تكليف» و مسئولية، فإنّ هذين الأمرين لا يفترقان أبدا. بناء على هذا فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله إن كان له حقّ و صلاحية واسعة، فإنّ عليه فى المقابل مسئوليات ضخمة.

تقول الآية الأولى: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً و على هذا فإنّها تذكر أوّلا جميع الأنبياء فى مسألة الميثاق، ثمّ تخصّ بالذكر منهم خمسة أنبياء هم أولو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۵

العزم، و على رأسهم نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله لعظمته و جلالته و شرفه، و بعده الأنبياء الأربعة من أولى العزم حسب ترتيب ظهورهم، و هم: «نوح و إبراهيم و موسى و عيسى» عليهم السّلام.

و هذا يوحى بأنّ الميثاق المذكور كان ميثاقا عامّا أخذ من جميع الأنبياء، و إن كان أولو العزم متعهّدين بذلك الميثاق و مسئولين عنه

بصورة أشدّ. ذلك الميثاق الذى بيّن بتأكيد شديد جدّا بجملة: وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً[١٥٨].

المهمّ أن نعلم أىّ ميثاق هذا الذى أخذ من كلّ الأنبياء؟! للمفسّرين هنا أقوال مختلفة يمكن القول أنّها جميعا فروع مختلفة لأصل واحد، و هو تأدية مسئولية التبليغ و الرسالة و القيادة و هداية الناس فى كلّ الأبعاد و المجالات.

إنّ الأنبياء كانوا مكلّفين جميعا بدعوة كلّ البشر إلى التوحيد قبل كلّ شىء، و كانوا مكلّفين أيضا بأن يؤيّد بعضهم بعضا، كما أنّ الأنبياء اللاحقين يصدّقون و يؤكّدون صحّة دعوة الأنبياء السابقين. و الخلاصة: أن تكون الدعوة إلى جهة واحدة، و أن يبلغ الجميع حقيقة واحدة، و يوحّدوا الأمم تحت راية واحدة.

و يمكن ملاحظة الشاهد على هذا الكلام فى سائر آيات القرآن أيضا، فنقرأ فى الآية (٨١) من سورة آل عمران: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِى قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

و ورد نظير هذا المعنى فى الآية (١٨٧) من سورة آل عمران، حيث تقول بصراحة: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ و على هذا فإنّ اللّه سبحانه قد أخذ الميثاق المؤكّد من الأنبياء بأن يدعوا الناس إلى توحيد اللّه، و توحيد دين الحقّ و الأديان السماوية، و كذلك أخذه من علماء أهل

الكتاب بأن لا يقصّروا فى تبيان الدين الإلهى بكلّ ما فى وسعهم، و أن لا يكتموا ذلك أبدا.

و تبين الآية التالية الهدف من بعثة الأنبياء و الميثاق الغليظ الذى أخذ منهم، فتقول: لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً.

للمفسّرين تفسيرات كثيرة لكلمة «الصادقين»، و من هم المقصودون بها؟ و أىّ سؤال هذا السؤال؟ إلّا أنّ الذى يبدو منسجما مع آيات هذه السورة و آيات القرآن الاخرى، هو: أنّ المراد منهم المؤمنون الذين صدّقوا ادّعاءهم بالعمل، و أثبتوا صدقه بترجمته عمليّا، و بتعبير آخر: فإنّهم خرجوا من ساحة الاختبار و الامتحان الإلهى مرفوعى الرؤوس.

و الشاهد لهذا القول:

أوّلا: إنّ «الصادقين» هنا وضعوا فى مقابل الكافرين، فيستفاد هذا المعنى بوضوح من قرينة المقابلة.

ثانيا: نقرأ فى الآية (٢٣) من هذه السورة: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ثمّ تقول الآية (٢۴) مباشرة: لِيَجْزِىَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

ثالثا: عرّفت الآية (١۵) من سورة الحجرات، و الآية (٨) من سورة الحشر (الصادقين) جيّدا، ففى آية الحجرات نقرأ: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

و تقول آية الحشر: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

و بهذا يتّضح أنّ المراد من الصادقين: هم الذين أثبتوا صدقهم و إخلاصهم فى ميادين حماية دين اللّه و الجهاد و الثبات و الصمود أمام المشاكل و بذل الأرواح

و الأموال ١۵٩].

أمّا ما هو المراد من سؤال الصادقين عن صدقهم؟ فيتّضح بملاحظة ما قلناه آنفا أنّ المراد هو: هل يثبتون إخلاص نيّتهم فى أعمالهم و يصدقون فى ادّعائهم .. فى الإنفاق و الجهاد و الثبات أمام الصعاب و المشاكل، و خاصّة صعوبات ميدان الحرب، أم لا؟

و أين سأل هـذا السؤال؟ ظاهر الآيـة أنّه فى القيامـة، فى محكمـة العـدل الإلهيّة، و آيات القرآن العديدة أيضا تخبر عن وقوع مثل هذا السؤال فى القيامة بصورة عامّة.

إلّا أنّه يحتمل أيضا أن يكون لهذا السؤال جانب عملى و يقع فى الدنيا، حيث يخضع كلّ من يدّعى الإيمان للسؤال عن بعثة الأنبياء، و عمله هو الجواب على هذا السؤال، لأنّه سيقرّر فيما إذا كان صادقا فى ادّعائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۸

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۹ الى ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۹) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (۱۰) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (۱۱)

التّفسير

الامتحان الإلهى العظيم فى مواجهة الأحزاب:

تتحـدّث هـذه الآيات و الآيات الاخرى التاليـة، و التى تشـكّل بمجموعها سـبع عشـرة آيـة، عن أعسـر الامتحانات و الاختبارات الإلهية للمؤمنين و المنافقين، و اختبار مدى صدقهم فى العمل، الذى بحث فى الآيات السابقة.

إنّ هـذه الآيات تبحث أحد أهمّ حوادث تاريخ الإسـلام، أى عن «معركة الأحزاب»، تلك المعركة التى كانت فى الواقع نقطة انعطاف فى تاريـخ الإسـلام، و قلبت موازين القوى بين الإسـلام و الكفر لصالح المسـلمين، و كان ذلك النصـر مفتاحا للانتصارات المسـتقبلية العظيمة، فقد انقصم ظهر الأعداء فى هذه الغزوة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۹

و لم يقدروا بعد ذلك على القيام بأىّ عمل مهمّ.

إنّ حرب الأـحزاب- و كمـا يـدلّ عليها اسـمها- كانت مجابهـة شاملـة من قبل عامّـة أعـداء الإسـلام و الفئات المختلفـة التى تعرّضـت مصالحها و منافعها اللامشروعة للخطر نتيجة توسّع و انتشار هذا الدين.

لقد اشـعلت أوّل شـرارة للحرب من قبل يهود «بنى النظير» الذين جاؤوا إلى مكّة و أغروا «قريش» بحرب النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و وعدوهم بأن يساندوهم و يقفوا إلى جانبهم حتّى النفس الأخير، ثمّ أتوا قبيلة «غطفان» و هيّئوهم لهذا الأمر أيضا.

ثمّ دعت هـذه القبائـل حلفاءهـا كقبيلـة «بنى أسـد» و «بنى سـليم»، و لمّا كان الجميع قـد أحسّ بالخطر فإنّهم اتّحـدوا و اتّفقوا على أن يقضـوا على الإسـلام إلى الأبـد، و يقتلـوا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، و يقضوا على المسـلمين، و يغيروا على المدينـة و يطفئوا مشـعل الإسلام و نوره.

أمّا المسـلمون الـذين رأوا أنفسـهم أمام هـذا الجحفل الجرّار، فإنّهم اجتمعوا للتشاور بأمر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، و قبل كلّ شـىء أخـذوا برأى «سـلمان الفارسـى» و حفروا حول المدينـة خندقا حتّى لا يسـتطيع العدو عبوره بسـهولة و يهجم على المدينة، و لهذا كان أحد أسماء هذه المعركة «معركة الخندق».

لقد مرّت لحظات صعبة و خطرة جدّا علی المسلمین، و کانت القلوب قد بلغت الحناجر، و کان المنافقون من جهة أخری قد شمّروا عن السواعد و جدّوا فی تآمرهم علی الإسلام، و کذلک ضخامة عدد الأعداء و قلّة عدد المسلمین- (ذکروا أنّ عدد الکفّار کان عشرة آلاف، أمّا المسلمون فکانوا ثلاثة آلاف) و استعداد الکفّار من ناحیة المعدّات الحربیة و تهیئة کافّة المستلزمات، کلّ ذلک قد رسم صورة کالحة للمصیر المجهول فی أعین المسلمین.

إلّا أنّ اللّه سبحانه أراد أن ینزل هنا آخر ضربة بالکفر، و یمیّز صفّ المنافقین عن صفوف المسلمین، و یفضح المتآمرین، و یضع المسلمین الحقیقیین فی موضع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۰

الاختبار العسیر.

و أخیرا انتهت هذه الغزوة بانتصار المسلمین- کما سیأتی تفصیل ذلک- فقد هبّت بأمر اللّه عاصفة هو جاء اقتلعت خیام الکفّار و أتلفت وسائلهم، و ألقت فی قلوبهم الرعب الشدید، و أرسل سبحانه قوی الملائکة الغیبیة لعون المسلمین.

و قد أضیف إلی ذلک تجلّی قدرة و عظمة أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أمام عمرو بن عبد ودّ، فلاذ المشرکون بالفرار من دون القدرة علی القیام بأیّ عمل.

نزلت الآیات السبع عشرة من هذه السورة، و استطاعت بتحلیلاتها الدقیقة و الفاضحة أن تستفید من هذه الحادثة المهمّة من أجل انتصار الإسلام النهائی و قمع المنافقین بأفضل وجه.

کان هذا عرضا لمعرکة الأحزاب التی وقعت فی السنة الخامسة للهجرة[۱۶۰]، و من هنا نتوجّه إلی تفسیر الآیات و نؤجّل سائر جزئیات هذه الغزوة إلی بحث الملاحظات.

یلخّص القرآن الکریم هذه الحادثة فی آیة واحدة أوّلا، ثمّ یتناول تبیان خصوصیاتها فی الستّ عشرة آیة الاخری، فیقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ جاءَتْکُمْ جُنُودٌ (کثیرة جدا) فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ رِیحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ کانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیراً و یعلم أعمال کلّ جماعة و ما قامت به فی هذا المیدان الکبیر.

و هنا جملة مطالب تستحقّ الدقّة:

۱- إنّ تعبیر (اذکروا) یوحی بأنّ هذه الآیات نزلت بعد انتهاء الحرب و مضی فترة من الزمن أتاحت للمسلمین أن یحلّلوا فی عقولهم و أفکارهم ما کانوا قد رأوه لیکون التأثیر أعمق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۱

۲- إنّ التعبیر ب «الجنود» إشارة إلی مختلف الأحزاب الجاهلیة کقریش و غطفان و بنی سلیم و بنی أسد و بنی فزارة و بنی أشجع و بنی مرّة، و کذلک إلی طائفة الیهود فی داخل المدینة.

۳- إنّ المراد من جُنُوداً لَمْ تَرَوْها و التی نزلت لنصرة المسلمین، هو «الملائکة» التی ورد نصرها للمؤمنین فی غزوة بدر فی القرآن المجید بصراحة، و لکن کما بیّنا فی ذیل الآیة (۹) من سورة الأنفال، فإنّا لا نمتلک الدلیل علی أنّ هذه الجنود الإلهیة اللامرئیة نزلت إلی المیدان و حاربت، بل إنّ القرائن الموجودة تبیّن أنّ الملائکة نزلت لرفع معنویات المؤمنین و شدّ عزیمتهم و إثارة حماسهم [۱۶۱].

و تقول الآیة التالیة تجسیدا للوضع المضطرب فی تلک المعرکة، و قوّة الأعداء الحربیة الرهیبة، و القلق الشدید لکثیر من المسلمین: إِذْ جاؤُکُمْ مِنْ فَوْقِکُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْکُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا.

یعتقد کثیر من المفسّرین أنّ کلمة (فوق) فی هذه الآیة إشارة إلی الجانب الشرقی للمدینة، و هو المکان الذی دخلت منه قبیلة غطفان،

و (أسفل) إشارة إلى غربها حيث دخلت منه قريش و من معها.

إذا لا حظنا أنّ «مكّة» تقع فى جنوب المدينة تماما، فمن الطبيعى أنّ قبائل المشركين أتت من الجنوب، لكن ربّما كان وضع الطريق و مدخل المدينة فى حالة بحيث إنّ هؤلاء قد داروا قليلا حول المدينة و دخلوا من الغرب. و على كلّ حال فإنّ الجملة أعلاه إشارة إلى محاصرة هذه المدينة من قبل مختلف أعداء الإسلام.

إنّ جملة زاغَتِ الْأَبْصارُ- بملاحظة أن «زاغت» من مادّة الزيغ، أى الميل إلى جانب واحد- إشارة إلى الحالة التى يشعر بها الإنسان عند الخوف و الاضطراب، حيث تميل عيناه إلى جهة واحدة، و تتسمّر و تثبت على نقطة معيّنة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۲

و يبقى متحيّرا حينذاك.

و جملة بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ كناية جميلة عن حالة القلق و الاضطراب، و إلّا فإنّ القلب المادّى لا يتحرّك من مكانه مطلقا، و لا يصل فى أى وقت إلى الحنجرة.

و جملة وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا إشارة إلى أنّ بعض المسلمين كانوا قد خطرت على أفكارهم ظنون خاطئة، لأنّهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الكمال فى الإيمان، و هؤلاء هم الذين تقول عنهم الآية التالية: إنّهم زلزلوا زلزالا شديدا.

ربّما كان بعضهم يفكّر و يظنّ بأنّنا سننهزم فى نهاية المطاف، و ينتصر جيش العدوّ بهذه القوّة و العظمة، و قد حانت نهاية عمر الإسلام، و أنّ و عود النّبى صلّى اللّه عليه و آله بالنصر سوف لا تتحقّق مطلقا.

من الطبيعى أنّ هذه الأفكار لم تكن عقيدة راسخة، بل كانت وساوس حدثت فى أعماق قلوب البعض، و هذا شبيه بما ذكره القرآن فى معركة أحد، حيث يقول:

وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ.[۱۶۲] و لا شكّ أنّ المخاطب فى هذه الآية محل البحث هم المؤمنون، و جملة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا التى وردت فى الآية السابقة دليل واضح على هذا المعنى، و ربّما لم يلتفت الذين اعتبروا المنافقين هم المخاطبون هنا إلى هذه المسألة، أو لعلّهم ظنّوا أنّ مثل هذه الظنون لا تتناسب مع الإيمان و الإسلام، فى حين أنّ ظهور مثل هذه الأفكار لا يتعدّى كونها وسوسة شيطانية، خاصّة فى تلك الظروف الصعبة المضطربة جدّا، و هذا أمر طبيعى بالنسبة لضعفاء الإيمان، و الحديثى العهد بالإسلام ۱۶۳].

هنا كان الامتحان الإلهى قد بلغ أشدّه كما تقول الآية التالية:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۳

هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً.

من الطبيعى أنّ الإنسان إذا احيط بالعواصف الفكرية، فإنّ جسمه لا يبقى بمعزل عن هذا الابتلاء، بل ستظهر عليه آثار الاضطراب و التزلزل، و كثيرا ما نرى أنّ الأشخاص المضطربين فكريا لا يستطيعون الاستقرار فى مجلسهم و تنعكس و بشكل واضح اضطراباتهم الفكرية من خلال حركاتهم و صفقهم يدا بيد.

و أحد شواهد هذا القلق و الاضطراب الشديد ما نقلوه من أنّ خمسة من أبطال العرب المعروفين- و كان على رأسهم «عمرو بن عبد ودّ»- نزلوا إلى الميدان بغطرسة متميّزة و اعتداد بالنفس كبير، فقالوا: هل من مبارز؟ سيّما عمرو بن عبد ودّ الذى كان يرتجز و يسخر من المسلمين و يستهزئ بالجنّة و الآخرة، و كان يقول:

أيّها المسلمون ألم تزعموا أنّ قتلاكم فى الجنّة؟ فهل فيكم من يشتاق إلى الجنّة؟

إلّا أنّ السكوت ساد على معسكر المسلمين أمام سخريته و استهزائه و دعوته للبراز، و لم يجرأ أحد على مناجزته، إلّا على بن أبى طالب عليه السّلام الذى هبّ لمبارزته، و حقّق نصرا كبيرا للمسلمين، و سيأتى ذلك مفصّلا فى البحوث.

نعم ... إنّ الحديـد يزداد صـلابة و جودة إذا عرض على النار، و المسـلمون الأوائل كان يجب أن يوضـعوا فى بوتقة الحوادث الصـعبة المرّة، و خاصّة فى غزوات كغزوة الأحزاب، ليصبحوا أشدّ مقاومة و صلابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۴

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱۲ الى ۱۷]

اشارة

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً (۱۳) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً (۱۴) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا (۱۵) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۶)

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۱۷)

التّفسير

المنافقون فى عرصة الأحزاب:

فار تنّور إمتحان حرب الأحزاب، و ابتلى الجميع بهذا الامتحان الكبير العسير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۵

و من الواضـح أنّ الناس الـذين يقفون ظاهرا فى صفّ واحد فى الظروف العاديهٔ، ينقسـمون إلى صـفوف مختلفهٔ فى مثل هذه الموارد المضـطربهٔ الصعبهٔ، و هنـا أيضـا انقسم المسـلمون إلى فئـات مختلفـهٔ: فمنهم المؤمنـون الحقيقيون، و فئـهٔ خواصّ المؤمنين، و جمـاعهٔ ضعاف الإيمان، و فرقهٔ المنافقين، و جمع المنافقين العنودين المتعصّبين، و بعضـهم كان يفكّر فى بيته و حياته و الفرار، و جماعهٔ كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد، و البعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أواصر الودّ مع المنافقين.

و الخلاصهٔ: فإنّ كلّ واحد قد أظهر أسراره الباطنيهٔ و ما ينطوى عليه فى هذه القيامهٔ العجيبهٔ، و فى يوم البروز هذا.

كان الكلام فى الآيات السابقهٔ عن جماعهٔ المسلمين ضعفاء الإيمان، و الذين وقعوا تحت تأثير الوساوس الشيطانيهٔ و الظنون السيّئهٔ، و تعكس اولى الآيات مورد البحث مقالهٔ المنافقين و مرضى القلوب، فتقول: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً.

جاء فى تأريخ حرب الأحزاب: أنّه خلال حفر الخندق، و بينما كان المسلمون مشغولين بحفر من الخندق، اصطدموا بقطعهٔ حجر كبيرهٔ صلـدهٔ لم يؤثّر فيها أى معول، فأخبروا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله بـذلك، فأتى بنفسه إلى الخنـدق و وقف إلى جنب الصـخرهٔ، و أخذ المعول، فضرب الحجر أوّل ضربهٔ قويّهٔ فانصدع قسم منه و سطع منه برق، فكبّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و كبّر المسلمون.

ثمّ ضرب الحجر ضربهٔ أخرى فتهشّم قسم آخر و ظهر منها برق، فكبّر النّبى و كبّر المسلمون، و أخيرا ضرب النّبى ضربته الثالثهٔ، فتحطّم الباقى من الحجر و سطع برق، فكبّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و رفع المسلمون أصواتهم بالتكبير، فسأل سلمان النّبى عن ذلك

فقـال صـلّى اللّه عليه و آله «أضـاءت الحيرهٔ و قصور كسـرى فى البرقـهٔ الاولى، و أخبرنى جبرئيل أنّ امّتى ظاهرهٔ عليها، و أضاء لى فى الثّانيهٔ القصور الحمر من أرض الشام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۶

و الروم، و أخبرنى أنّ امّتى ظاهرة عليها، و أضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء، و أخبرنى أنّ أمّتى ظاهرة عليها، فأبشروا» فاستبشر المسلمون.

فنظر المنافقون إلى بعضهم و قالوا: أ لا تعجبون؟ يعدكم الباطل و يخبركم أنّه ينظر من يثرب إلى الحيرة و مدائن كسرى و أنّها تفتح لكم، و أنتم لا تستطيعون أن تبرزوا؟ فأنزل اللّه: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً[۱۶۴].

و الحقّ أنّ مثل هذه الأخبار و البشارات اعتبرها المنافقون فى ذلك اليوم خدعة و غرورا، إلّا أنّ عين النّبى صلّى اللّه عليه و آله الملكوتية كانت قادرة على رؤية فتح أبواب قصور ملوك ايران و الروم و اليمن من خلال الشرر المتطاير من ذلك الحجر، و يبشّر هذه الامّة المضحّية التى حملت القلوب على الأكفّ، و يزيح الستار عن أسرار المستقبل.

و ربّما لا- نحتاج إلى التذكير بأنّ المراد من الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم المنافقون، و ذكر هذه الجملة توضيح فى الواقع لكلمة «المنافقين» التى وردت من قبل، و أىّ مرض أسوأ و أضرّ من مرض النفاق؟! لأنّ الإنسان السليم الذى له فطرة إلهيّة سليمة ليس له إلّا وجه واحد، أمّا أولئك الذين لهم وجهان أو وجوه متلوّنة عديدة فإنّهم مرضى، حيث إنّهم مبتلون دائما بالاضطراب و التناقض فى الأقوال و الأفعال.

و الشاهد لهذا الأمر ما ورد فى بداية سورة البقرة فى وصف المنافقين، حيث تقول: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.[۱۶۵]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۷

ثمّ تتطرّق الآية الاخرى إلى بيان حال طائفة اخرى من هؤلاء المنافقين مرضى القلوب، و الذين كانوا أخبث و أفسق من الباقين، فمن جانب تقول الآية عنهم: و اذكر إذ قالت مجموعة منهم للأنصار: يا أهل المدينة (يثرب) ليس لكم فى هذا المكان موقع فلا تتوقّفوا هنا و ارجعوا إلى بيوتكم: وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا.

و خلاصة الأمر أنّكم لا تقدرون على عمل أىّ شىء فى مقابل جحفل الأعداء اللجب، فانسحبوا من المعركة و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة و بنسائكم و أطفالكم إلى ذلّ الأسر، و بذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

و من جانب آخر: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً.

كلمة (عورة) مأخوذة من مادّة (عار)، و تقال للشىء الذى يوجب ظهوره العار، و تقال أيضا للشقوق و الثقوب التى تظهر فى اللباس أو جدران البيت، و كذلك للثغور الضعيفة و النقاط الحدودية التى يمكن اختراقها و تدميرها، و على ما يخافه الإنسان و يحذره، و المراد هنا البيوت التى ليس لها جدار مطمئن و باب محكم، و يخشى عليها من هجوم العدوّ.

و المنافقين بتقديمهم هذه الأعذار كانوا يريدون الفرار من ساحة الحرب و اعتزال القتال، و اللجوء إلى بيوتهم.

و جاء فى رواية: أنّ طائفة «بنى حارثة» أرسلوا رسولا منهم إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالوا: إنّ بيوتنا غير مأمونة، و ليس هناك بيت من بيوت الأنصار يشبه بيوتنا، و لا مانع بيننا و بين «غطفان» الذين هجموا من شرق المدينة، فائذن لنا أن نرجع إلى بيوتنا و ندافع عن نسائنا و أولادنا، فأذن لهم النّبى.

فبلغ ذلك «سعد بن معاذ» كبير الأنصار، فقال للنبى صلّى اللّه عليه و آله: لا تأذن لهم، فإنّى اقسم باللّه أنّ هؤلاء القوم تعذّروا بذلك كلّما عرضت لنا مشكلة، إنّهم يكذبون،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۸

فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أن يرجعوا.

و «يثرب» هو الاسم القديم للمدينة قبل أن يهاجر إليها النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و بعد هجرته أصبح اسمها تدريجيا «مدينة الرّسول»، و مخفّفها المدينة.

و لهـذه المدينـة أسـماء عديدة، ذكر لها الشـريف المرتضـى (رحمة اللّه عليه) أحد عشـر اسـما آخر إضافة إلى هذين الاسـمين، و من جملتها: طيبة، و طابة، و سكينة، و المحبوبة، و المرحومة، و القاصمة. و يعتقد البعض أنّ «يثرب» اسم لأرض هذه المدينة[۱۶۶].

و

جاء فى بعض الروايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «لا تسمّوا هذه المدينة يثرب»

و ربّما كان ذلك بسبب أنّ يثرب فى الأصل من مادّة «ثرب» (على وزن حرب) أى اللوم، و لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله ليرضى مثل هذا الاسم لهذه المدينة المباركة.

و على كلّ حال فإنّ خطاب المنافقين لأهل المدينة ب (يا أهل يثرب) لم يكن خطابا عشوائيا، و ربّما كان الباعث لخطابهم بهذا الاسم أنّهم كانوا يعلمون أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله يشـمئز من هـذا الاسم، أو أنّهم كانوا يريـدون إعلان عدم اعترافهم بالإسـلام و اسـم مدينـة الرّسول، أو أن يعودوا بأهلها إلى مرحلـة الجاهليـة! و تشـير الآيـة التاليـة إلى ضـعف إيمان هـذه الفئة، فتقول: إنّ هؤلاء بلغ بهم ضعف الإيمان إلى درجـة أنّ جيش الكفر لو دخل المدينـة من كلّ جانب و صوب، و اسـتولى عليها، ثمّ دعاهم إلى الشـرك و الكفر فسوف يقبلون ذلك و يسارعون إليه:

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً.

من المعلوم أنّ أناسـا بهـذا الضـعف و التزلزل و عـدم الثبات غير مسـتعدّين للقاء العـدوّ و محاربته، و لا هم متأهّبون لتقبّل الشـهادة فى سبيل اللّه، بل يستسلمون بسرعة و يغيّرون مسيرهم، و بناء على هذا، فإنّ المراد من كلمة «الفتنة» هنا هى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۹

الشرك و الكفر، كما جاء فى آيات القرآن الاخرى، كالآية (۱۹۳) من سورة البقرة:

غير أنّ بعض المفسـرين احتملوا أن يكون المراد من «الفتنـة» هنـا: الحرب ضـدّ المسـلمين، بحيث إنّها لو عرضت على هؤلاء المنافقين لأجابوا إليها بسـرعة، و يعينوا أصـحاب الفتنة! إلّا أنّ هذا التّفسـير لا يتلاءم مع ظاهر جملة: وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها و ربّما اختار أكثر المفسّرين المعنى الأوّل لهذا السبب.

ثمّ يستدعى القرآن الكريم فئة المنافقين إلى المحاكمة، فيقول: وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا و عليه فإنّهم مسئولون أمام تعهّدهم.

و قـال البعض: أنّ المراد من هـذا العهـد و الميثـاق هو ذلـك العهـد الـذى عاهـد «بنو حارثـة» عليه اللّه و رسوله يوم احـد حينما قرّروا الرجوع عن ميـدان القتال ثمّ نـدموا بعـد ذلك، فقطعوا العهد على أنفسـهم أن لا يرتكبوا مثل هذه الأمور، إلّا أنّهم فكّروا مرّة ثانية فى معركة الأحزاب فى نقض عهدهم و ميثاقهم ۱۶۷].

و يعتقد البعض أنّه إشارة إلى العهد الذى عاهدوا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى غزوة بدر، أو فى العقبة قبل هجرة النّبى ۱۶۸].

و لكن يبدو أنّ للآية أعلاه مفهوما واسعا يشمل هذه العهود و المواثيق، و كلّ عهودهم الاخرى.

إنّ كلّ من يؤمن و يبايع النّبى صلّى اللّه عليه و آله يعاهده على أن يدافع عن الإسلام و القرآن و لو كلّفه ذلك حياته.

و التأكيـد على العهـد و الميثاق هنا من أجل أنّه حتّى عرب الجاهلية كانوا يحترمون مسألة العهد، فكيف يمكن أن ينقض إنسان عهده و يضعه تحت قدميه بعد ادّعائه الإسلام؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۰

و بعد أن أفشى اللّه سبحانه نيّة المنافقين و بيّن أنّ مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب، يجيبهم بأمرين:

الأوّل: أنّه يقول للنّبى صلّى اللّه عليه و آله: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

فـافرضوا أنّكم اسـتطعتم الفرار، فلاـ يعـدو الأـمر حـالين: إمّـا أن يكون أجلكم الحتمىّ و موتكم قـد حان، فأينما تكونوا يأخـذ الموت

بتلابيبكم، حتّى و إن كنتم فى بيوتكم و بين زوجاتكم و أولادكم.

و إن لم يكن أجلكم قد حان فستعمّرون فى هذه الدنيا أيّاما قليلة اخرى تكون مقترنة بالذلّ و الهوان، و ستصبحون تحت رحمة الأعداء و فى قبضتهم، و بعدها ستلقون العذاب الإلهى.

إنّ هذا البيان يشبه ما ورد فى غزوة أحد، حيث أشار القرآن إلى فئة اخرى من المنافقين المثبطين للعزائم، و المفرّقين لوحدة الصفّ: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ [۱۶۹] و الثّانى: ألم تعلموا أنّ كلّ مصائركم بيد اللّه، و لن تقدروا أن تفرّوا من حدود حكومة اللّه و قدرته و مشيئته: قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

بناء على هذا، فإنّكم إذا علمتم أنّ كلّ مقدّراتكم بيده سبحانه، فأطيعوا أمره فى الجهاد الذى هو أساس العزّة و الكرامة و الشموخ فى الدنيا و عند اللّه، و حتّى إذا تقرّر أن تنالوا و سام الشهادة فعليكم أن تستقبلوا ذلك برحابة صدر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۱

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱۸ الى ۲۰]

اشارة

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (۱۸) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۱۹) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (۲۰)

التّفسير

فئة المعوّقين:

أشارت هذه الآيات إلى وضع فئة اخرى من المنافقين الذين اعتزلوا حرب الأحزاب، و كانوا يدعون الآخرين أيضا إلى اعتزال القتال، فقالت: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۲

«المعوّقين» من مادّة (عوق) على زنة (شوق) تعنى منع الشيء و محاولة صرف الآخرين عنه، و «البأس» فى الأصل يعنى (الشدّة)، و المراد منه هنا الحرب.

و يحتمل أن تكون الآية أعلاه مشيرة إلى فئتين: فئة من المنافقين الذين كانوا بين صفوف المسلمين- و تعبير (منكم) شاهد على هذا- و كانوا يسعون إلى صرف ضعاف الإيمان من المسلمين عن الحرب، و هؤلاء هم «المعوّقون».

و الفئة الاخرى هم (المنافقون أو اليهود) الذين تنحّوا جانبا، و عند ما كانوا يلتقون بجنود النّبى صلّى اللّه عليه و آله كانوا يقولون: هلمّ إلينا و تنحّوا عن القتال، و هؤلاء هم الذين أشارت إليهم الجملة الثّانية.

و يحتمل أن تكون هذه الآية بيانا لحالتين مختلفتين لفئة واحدة، و هم الذين يعوّقون الناس عن الحرب عند ما يكونون بينهم، و عند ما يعتزلونهم يدعون الناس إليهم.

و نقرأ فی روایة: أنّ أحد أصحاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله جاء من میدان حرب الأحزاب إلی داخل المدینة لحاجة، فرأی أخاه قد وضع أمامه الخبز و اللحم المشوی و الشراب، فقال له: أنت فی هذه الحال تلتذّ و رسول اللّه مشغول بالحرب، و هو بین الأسنّة و السیوف؟! فقال أخوه: یا أحمق! ابق معنا و شارکنا مجلسنا، فو الذی یحلف به محمّد إنّه لن یرجع من هذه المعرکة! و سوف لن یدع هذا الجیش العظیم الذی اجتمع علیه محمّدا و أصحابه أحیاء! فقال له الأوّل: أنت تکذب، و اقسم باللّه لأذهبنّ إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و أخبره بما قلت، فجاء إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أخبره بما جری، فنزلت الآیة.

و بناء علی سبب النّزول هذا، فإنّ کلمة (إخوانهم) وردت هنا بمعنی الإخوة الحقیقیین، أو بمعنی أصحاب المذهب و المسلک الواحد، کما سمّت الآیة (۲۷) سورة الإسراء المبذّرین إخوان الشیاطین: إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کانُوا إِخْوانَ الشَّیاطِینِ

و تضیف الآیة التالیة: إنّ الدافع لکلّ تلک العراقیل التی وضعوها أمامکم هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۳

أنّهم بخلاء: أَشِحَّةً عَلَیْکُمْ ۱۷۰] لا- فی بذل الأرواح فی ساحة الحرب، بل هم بخلاء حتّی فی المعونات المادیّة لتهیئة مستلزمات الحرب، و فی المعونة البدنیة فی حفر الخندق، بل و یبخلون حتّی فی المساعدة الفکریة، بخلا یقترن بالحرص المتزاید یومیا! و بعد تبیان بخل هؤلاء و امتناعهم عن أیّ نوع من المساعدة و الإیثار، تتطرّق الآیة إلی بیان صفات اخری لهم، و التی لها صفة العموم فی کلّ المنافقین، و فی کلّ العصور و القرون، فتقول: فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَیْتَهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ تَدُورُ أَعْیُنُهُمْ کَالَّذِی یُغْشی عَلَیْهِ مِنَ الْمَوْتِ فلأنّهم لما لم یذوقوا طعم الإیمان الحقیقی، و لم یستندوا إلی عماد قویّ فی الحیاة، فإنّهم یفقدون السیطرة علی أنفسهم تماما عند ما یواجهون حادثا صعبا و مأزقا حرجا، و کأنّهم یواجهون الموت.

ثمّ تضیف الآیة: فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوکُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَی الْخَیْرِ فیأتون إلیکم کأنّهم هم الفاتحون الأصلیون و المتحمّلون أعباء الحرب، فیعربدون و یطلبون سهمهم من الغنائم، و هم کانوا أبخل من الجمیع فی المشارکة فی الحرب و الثبات فیها.

«سلقوکم» من مادّة (سلق)، و هی فی الأصل بمعنی فتح الشیء بعصبیة و غضب، سواء کان هذا الفتح بالید أو اللسان، و هذا التعبیر یستعمل فی شأن من یطلب الشیء بالزجر و أسلوب الأمر. و «الألسنة الحداد» تعنی الألسنة الجارحة المؤذیة، و هی هنا کنایة عن الخشونة فی الکلام.

و تشیر الآیة فی النهایة إلی آخر صفة لهؤلاء، و التی هی فی الواقع أساس کلّ شقائهم و تعاستهم، فقالت: أُولئِکَ لَمْ یُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ لأنها لم تکن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۴

منبعثة عن الإخلاص و الدافع الدینی الإلهی: وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً.

و ممّا مرّ نخلص إلی هذه النتیجة، و هی: أنّ المعوّقین کانوا منافقین یتمیّزون بالصفات التالیة:

۱- أنّهم لم یکونوا أهل حرب أبدا، إلّا بنسبة قلیلة جدّا.

۲- لم یکونوا من أهل التضحیة و الإیثار سواء بالمال و النفس، و لم یکونوا یتحمّلون أقلّ المصاعب و المتاعب.

۳- کانوا یفقدون توازنهم و شخصیتهم فی اللحظات الحرجة العاصفة من شدّة الخوف.

۴- یظنّون أنّهم سبب کلّ الانتصارات، و لهم کلّ الفخر عند الإنتصار.

۵- أنّهم کانوا أناسا بلا إیمان، و لم یکن لأعمالهم أیّة قیمة عند اللّه تعالی.

و هذه الصفات هی التی تعرفنا بالمنافقین فی کلّ عصر و زمان، و فی کلّ مجتمع و فئة.

و هذا الوصف الدقیق الذی وصفهم القرآن به یمکن من خلاله معرفة من یشارکهم فی الفکر و السلوک، و کم نری بأمّ أعیننا فی عصرنا من أمثالهم!! و تجسّد الآیة التالیة بتصویر أبلغ جبن و خوف هذه الفئة، فتقول: یَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ یَذْهَبُوا من شدّة خوفهم و

رعبهم، فقد خيّم عليهم كابوس مخيف، فكأنّ جنود الكفر يمرّون دائما أمام أعينهم و قد سلّوا السيوف و مالوا عليهم بالرماح! إنّ هؤلاء المحاربين الجبناء، و المنافقين خائرى القلوب و القوى يخافون حتّى من ظلالهم، و ينطوون على أنفسهم من الخوف لدى سماع صهيل الخيل و رغاء البعير، ظنّا أنّ جيوش الأحزاب قد عادت! ثمّ تضيف الآية: وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ أى منتشرون فى الصحراء بين أعراب البادية، فيختفون هناك و يتتبّعون أخباركم و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۵

يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ فيسألون لحظة بلحظة من كلّ مسافر آخر الأخبار لئلّا تكون الأحزاب قد اقتربت منهم، و هم مع ذلك يمنّون عليكم بأنّهم كانوا يتابعون أخباركم دائما!! و تضيف الآية فى آخر جملة: و على فرض أنّهم لم ينهزموا و يفرّوا من الميدان، بل بقوا معكم: وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا.

فلا تحزنوا و تقلقوا لذهابهم، و لا تفرحوا بوجودهم بينكم، فإنّهم أناس لا قيمة لهم و لا صفة تحمد، و عدمهم أفضل من وجودهم! و حتّى هذا القدر المختصر من العمل لم يكن للّه أيضا، بل هو نتيجة الخوف من ملامة و تقريع الناس، و للتظاهر و الرياء، لأنّه لو كان للّه لكانوا يقفون و يثبتون فى ساحة الحرب ما دام فيهم عرق ينبض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۶

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۱ الى ۲۵]

اشارة

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (۲۱) وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً (۲۲) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (۲۳) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۴) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (۲۵)

التّفسير

دور المؤمنين المخلصين فى معركة الأحزاب:

يستمرّ الكلام إلى الآن عن الفئات المختلفة و مخطّطاتهم و أدوارهم فى غزوة الأحزاب، و قد تقدّم الكلام عن ضعفاء الإيمان و المنافقين و رؤوس الكفر و النفاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۷

و المعوّقين عن الجهاد.

و يتحدّث القرآن المجيد فى نهاية المطاف عن المؤمنين الحقيقيين، و معنوياتهم العالية و رجولتهم و ثباتهم و سائر خصائصهم فى الجهاد الكبير.

و يبدأ مقدّمة هذا البحث بالحديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله، حيث كان إمامهم و قدوتهم، فيقول: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً.

فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله خير نموذج لكم، لا فى هذا المجال و حسب، بل و فى كلّ مجالات الحياة، فإنّ كلّا من معنوياته العالية،

و صبره و استقامته و صموده، و ذكائه و درايته، و إخلاصه و توجّهه إلى اللّه، و تسلّطه و سيطرته على الحوادث، و عدم خضوعه و ركوعه أمام الصعاب و المشاكل، نموذج يحتذى به كلّ المسلمين.

إنّ هذا القائد العظيم لا يدع للضعف و العجلة إلى نفسه سبيلا عند ما تحيط بسفينته أشدّ العواصف، و تعصف بها الأمواج المتلاطمة، فهو ربّان السفينة، و مرساها المطمئن الثابت، و هو مصباح الهداية، و مبعث الراحة و الهدوء و الاطمئنان الروحى لركابها.

إنّه يأخذ المعول بيده ليحفر الخندق مع بقيّة المؤمنين، فيجمع ترابه بمسحاة و يخرجه بوعاء معه، و يمزح مع أصحابه لحفظ معنوياتهم و التخفيف عنهم، و يرغّبهم فى إنشاد الشعر الحماسى لإلهاب مشاعرهم و تقوية قلوبهم، و يدفعهم دائما نحو ذكر اللّه تعالى و يبشّرهم بالمستقبل الزاهر و الفتوحات العظيمة.

يحذّرهم من مؤامرات المنافقين، و يمنحهم الوعى و الاستعداد اللازم.

و لا يغفل لحظة عن التجهيز و التسلّح الحربى الصحيح، و انتخاب أفضل الأساليب العسكرية، و لا يتوانى فى الوقت نفسه عن اكتشاف الطرق المختلفة التى تؤدّى إلى بثّ التفرقة و إيجاد التصدّع فى صفوف الأعداء.

نعم إنّه أسمى مقتدى، و أحسن أسوة للمؤمنين فى هذا الميدان، و فى كلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۸

الميادين.

«الاسوة» تعنى فى الأصل الحالة التى يتلبّسها الإنسان لدى اتّباعه لآخر، و بتعبير آخر: هى التأسّي و الاقتداء، و بناء على هذا فإنّ لها معنى المصدر لا الصفة، و معنى جملة: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ هو أنّ لكم فى النّبى صلّى اللّه عليه و آله تأسّيا و اقتداء جيّدا، فإنّكم تستطيعون بالاقتداء به و اتباعه أن تصلحوا أموركم و تسيروا على الصراط المستقيم.

و الطريف أنّ القرآن الكريم يعتبر هذه الاسوة الحسنة فى الآية أعلاه مختّصة بمن لهم ثلاث خصائص: الثقة باللّه، و الإيمان بالمعاد، و أنّهم يذكرون اللّه كثيرا.

إنّ الإيمان بالمبدأ و المعاد هو سبب و باعث هذه الحركة فى الحقيقة، و ذكر اللّه يعمل على استمراره، إذ لا شكّ أنّ من لم يمتلئ قلبه بهكذا إيمان لا يقدر أن يضع قدمه موضع قدم النّبى، و إذا لم يدم ذكر اللّه و يعمّر قلبه به فى أثناء استمراره فى هذا الطريق، و يبعد الشياطين عنه، فسوف لا يكون قادرا على إدامة التأسّى و الاقتداء.

و تجدر الإشارة إلى أنّ عليا عليه السّلام مع شهامته و شجاعته فى كلّ ميادين الحرب، و التى تمثّل معركة الأحزاب نموذجا منها، و سيشار إليها فيما بعد،

يقول فى نهج البلاغة فيما روى عنه: «كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه»[۱۷۱].

بعد ذكر هذه المقدّمة تطرّقت الآية التالية إلى بيان حال المؤمنين الحقيقيين، فقالت: وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً.

و لكن ما هذا الوعد الذى كان اللّه و رسوله قد وعدهم به؟

قال البعض: إنّه إشارة إلى الكلام الذى كان رسول اللّه قد تكلّم به من قبل بأنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۹

قبائل العرب و مختلف أعدائكم سيتّحدون ضدّكم قريبا و يأتون إليكم، لكن اعلموا أنّ النصر سيكون حليفكم فى النهاية، فلمّا رأى المؤمنون هجوم الأحزاب أيقنوا أنّ هذا ما وعدهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و قالوا: ما دام الجزء الأوّل من الوعد قد تحقّق، فمن المسلّم أنّ جزأه الثّاني- أى النصر- سيتحقّق بعده، و لذلك زاد إيمانهم و تسليمهم.

و قال البعض الآخر: إنّ هذا الوعد هو ما ذكره اللّه سبحانه فى الآية (۲۱۴) من سورة البقرة حيث قال: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ

أى إنّهم قيل لهم من قبل: إنّكم ستخضعون لامتحان عسير، فلمّا رأوا الأحزاب تيقّنوا صدق إخبار اللّه و رسوله، و زاد إيمانهم و تسليمهم.

و من الطبيعى أنّ هذين التّفسيرين لا يتنافيان، خاصّة بملاحظة أنّ أحد الوعدين كان فى الأساس وعد اللّه، و الآخر وعد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله، و قد جاءا معا فى الآية مورد البحث، و يبدو أنّ الجمع بينهما مناسب تماما.

و تشير الآية التالية إلى فئة خاصّة من المؤمنين، و هم الذين كانوا أكثر تأسّيا بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله من الجميع، و ثبتوا على عهدهم الذى عاهدوا اللّه به، و هو التضحية فى سبيل دينه حتّى النفس الأخير، و إلى آخر قطرة دم، فتقول: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ من دون أن يتزلزل أو ينحرف و يبدّل العهد و يغيّر الميثاق الذى قطعه على نفسه وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا.

إنّهم لم ينحرفوا قيد أنملة عن خطّهم، و لم يألوا جهدا فى سبيل اللّه، و لم يتزلزلوا لحظة، بعكس المنافقين أو ضعاف الإيمان الذين بعثرتهم عاصفة الحوادث هنا و هناك و أفرزت الشدائد فى أدمغتهم الخاوية أفكارا جوفاء خبيثة ... إنّ المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۰

وقفوا كالجبل الأشمّ و أثبتوا أنّ العهد الذى عاهدوا به لا يقبل النقض أو التراجع عنه.

إنّ لفظة (نحب) على زنة (عهد) تعنى العهد و النذر و الميثاق، و وردت أحيانا بمعنى الموت، أو الخطر، أو سرعة السير، أو البكاء بصوت مرتفع [۱۷۲].

و هناك اختلاف بين المفسّرين فى المعنىّ بهذه الآية.

يروى العالم المعروف (الحاكم أبو القاسم الحسكانى)- و هو من علماء السنّة- بسند عن على عليه السّلام أنّه قال: «فينا نزلت رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فأنا- و اللّه- المنتظر و ما بدّلت تبديلا، و منّا رجال قد استشهدوا من قبل كحمزة سيّد الشهداء»[۱۷۳].

و قال آخرون: إنّ جملة مَنْ قَضى نَحْبَهُ إشارة إلى شهداء بدر و أحد، و جملة:

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ إشارة إلى المسلمين الصادقين الآخرين الذين كانوا بانتظار إحدى الحسنيين: النصر، أو الشهادة.

و روى عن «أنس بن مالك» أيضا: أنّ عمّه «أنس بن النضر» لم يكن حاضرا فى غزوة بدر، فلمّا علم فيما بعد، و كانت الحرب قد وضعت أوزارها، أسف لعدم اشتراكه فى الجهاد، فعاهد اللّه على أن يشارك فى الجهاد إن وقعت معركة اخرى و يثبت فيها و إن زهقت روحه، و لذلك فقد شارك فى معركة احد، و حينما فرّ جماعة لم يفرّ معهم، و قاوم و صمد حتّى جرح ثم استشهد[۱۷۴].

و روى عن «ابن عبّاس» أنّه قال: إنّ جملة: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ إشارة إلى حمزة بن عبد المطّلب و باقى شهداء احد، و أنس بن النضر و أصحابه ۱۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۲۰۰

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۱

و لا منافاة بين هذه التفاسير مطلقا، لأنّ للآية مفهوما واسعا يشمل كلّ شهداء الإسلام الذين استشهدوا قبل معركة الأحزاب، و كلّ من كان منتظرا للنصر أو الشهادة، و كان على رأسهم رجال كحمزة سيّد الشهداء و على عليهما السّلام، و لذلك ورد فى تفسير الصافى: أنّ أصحاب الحسين بكربلاء كانوا كلّ من أراد الخروج للقتال ودّع الحسين عليه السّلام و قال: السلام عليك يا ابن رسول اللّه، فيجيبه: و عليك السلام و نحن خلفك، و يقرأ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ[۱۷۶].

و يستفاد من كتب المقاتل أنّ الإمام الحسين عليه السّلام تلا هذه الآية عند أجساد شهداء آخرين كمسلم بن عوسجة، و حين بلغه خبر شهادة «عبد اللّه بن يقطر»[۱۷۷].

و من هنا يتّضح أنّ للآية مفهوما واسعا يشمل كلّ المؤمنين المخلصين الصادقين فى كلّ عصر و زمان، سواء من ارتدى منهم ثوب الشهادة فى سبيل اللّه، أم من ثبت على عهده مع ربّه و لم يتزعزع، و كان مستعدّا للجهاد و الشهادة.

و تبيّن الآية التالية النتيجة النهائية لأعمال المؤمنين و المنافقين فى جملة قصيرة، فتقول: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ فلا يبقى صدق و إخلاص و وفاء المؤمنين بدون ثواب، و لا ضعف و إعاقات المنافقين بدون عقاب.

و مع ذلك، و لكى لا يغلق طريق العودة و الإنابة بوجه هؤلاء المنافقين العنودين، فإنّ اللّه سبحانه قد فتح أبواب التوبة أمامهم بجملة: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إذا تابوا- و وصف نفسه بالغفور و الرحيم إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ليحيى فيهم الحركة نحو الإيمان و الصدق و الإخلاص و الوفاء بالتزاماتهم أمام اللّه و العمل بمقتضاها.

و لمّا كانت هذه الجملة قد ذكرت كنتيجة لأعمال المنافقين القبيحة، فإنّ بعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۲

كبار المفسّرين رأى على أساسها بأنّ الذنب الكبير فى القلوب التى لها قابلية الهداية ربّما كان دفعا للحركة المضادّة و الرجوع إلى الحقّ و الحقيقة، و قد يكون الشرّ مفتاحا للخير و الرشاد[۱۷۸].

و تطرح الآية الأخيرة من هذه الآيات- و التى تتحدّث عن غزوة الأحزاب و تنهى هذا البحث- خلاصة واضحة لهذه الواقعة فى عبارة مختصرة، فتقول فى الجملة الاولى: وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً.

«الغيظ» يعنى (الغضب) و يأتى أحيانا بمعنى (الغمّ)، و هنا جاء مزيجا من المعنيين، فإنّ جيوش الأحزاب قد بذلت قصارى جهدها للانتصار على جيش الإسلام، لكنّها خابت، و رجع جنود الكفر إلى أوطانهم يعلوهم الغمّ و الغضب.

و المراد من «الخير» هنا الإنتصار فى الحرب، و لم يكن انتصار جيش الكفر خيرا أبدا، بل إنّه شرّ، و لمّا كان القرآن يتحدّث من وجهة نظرهم الفكرية عبّر عنه بالخير، و هو إشارة إلى أنّهم لم ينالوا أىّ نصر فى هذا المجال.

و قال البعض: إنّ المراد من «الخير» هنا (المال) لأنّ هذه الكلمة أطلقت فى مواضع اخرى بهذا المعنى، و من جملتها ما فى آية الوصية (۱۸۰) من سورة البقرة:

إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ

و مع أنّ أحد الأهداف الأصليّة لمعسكر الكفر كان الحصول على غنائم المدينة و الإغارة على هذه الأرض، و هذا الباعث كان أهمّ البواعث فى عصر الجاهلية، لكنّنا لا نمتلك الدليل على حصر معنى (الخير) هنا بالمال، بل يشمل كلّ الانتصارات التى كانوا يطمحون إليها، و كان المال أحدها لكنّهم حرموا من الجميع.

و تضيف فى الجملة التالية: وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ فقد هيّأ عوامل بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۳

انتهت الحرب من دون حاجة إلى التحام واسع بين الجيشين، و من دون أن يتحمّل المؤمنون خسائر فادحة، لأنّ العواصف الهوجاء القارصة قد مزّقت أوضاع المشركين من جهة، و من جهة اخرى فإنّ اللّه تعالى قد ألقى الرعب و الخوف فى قلوبهم من جنود اللّه التى لا ترى، و من جهة ثالثة فإنّ الضربة التى أنزلها على بن أبى طالب عليه السّلام بأعظم بطل من أبطالهم، و هو «عمرو بن عبد ودّ»، قد تسبّبت فى تبدّد أحلامهم و آمالهم، و دفعتهم إلى أن يلملموا أمتعتهم و يتركوا محاصرة المدينة و يرجعوا إلى قبائلهم تقدمهم الخيبة و الخسران.

و تقول الآية فى آخر جملة: وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً فمن الممكن أن يوجد أناس أقوياء، لكنّهم ليسوا بأعزّاء لا يقهرون، بل هناك من

يقهرهم و من هو أقوى منهم، إلّا أنّ القوى العزيز الوحيـد فى العالم هو اللّه عزّ و جلّ الـذى لا حدّ لقدرته و قوّته و لا انتهاء، فهو الذى أنزل على المؤمنين النصر فى مثل هذا الموقف العسير و الخطير جدّا بحيث لم يحتاجوا حتّى إلى النزال و تقديم التضحيات!

بحوث

۱- ملاحظات هامّة فى معركة الأحزاب

أ- إنّ معركـة الأـحزاب- و كمـا هو معلوم من اسـمها- كـانت حربا اتّحـدت فيها كلّ القبائل و الفئات المختلفـة التى تعادى الإسـلام، للقضاء على الإسلام اليافع.

لقد كانت «حرب الأحزاب» آخر سعى للكفر، و آخر سعى للكفر، و آخر سهم فى كنانته، و آخر استعراض لقوى الشرك، و لهذا قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»[۱۷۹]

عند ما تقابل أعظم أبطال العدوّ، و هو عمرو بن عبد ودّ، و بطل الإسلام الأوحد أمير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۴

المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّـلام، لأنّ انتصار أحـدهما على الآخر كان يعنى انتصار الكفر على الإيمان، أو الإيمان على الكفر، و بتعبير آخر: كان عملا مصيريا يحـدّد مستقبل الإسـلام و الشـرك، و لذلك فإنّ المشـركين لم تقم لهم قائمة بعد انهزامهم فى هذه المواجهة العظيمة، و كانت المبادرة و زمامها بيد المسلمين بعدها دائما.

لقد أفل نجم الأعداء، و انهدمت قواعد قوّتهم، و لذلك نقرأ فى حديث

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال بعد نهاية غزوة الأحزاب: «الآن تغزوهم و لا يغزوننا»[۱۸۰].

ب- ذكر بعض المؤرخّين أنّ عدد أفراد جيوش الكفر كان أكثر من عشـرة آلاف محارب، و يقول «المقريزى» فى «الإمتاع»: إنّ قريشـا أتت لوحدها بأربعة آلاف رجل، و ألف و ثلاثمائة فرس، و ألف و خمسـمائة من الإبل، و نزلت عند حافّة الخندق، و جاءت قبيلة بنى سليم بسبعمائة رجـل و التقـوا بهم فى مرّ الظهران، و جـاء «بنو فزارة» بـألف، و كـلّ من «بنى أشـجع» و «بنى مرّة» بأربعمائـة، و القبـائل الاخرى أرسلت عددا من الرجال، فتجاوز مجموع كلّ من حضر عشرة آلاف رجل.

فى حين أنّ عـدد المسـلمين لم يكن يتجاوز الثلاثـة آلاف رجل، و كانوا قـد جعلوا مخيّمهم الأصـلى أسـفل جبل سـلع، و كانت نقطة مرتفعة جنب المدينة مشرفة على الخندق، و كانوا يستطيعون عن طريق رماتهم السيطرة على حركة المرور من الخندق.

على كلّ حال، فإنّ جيش الكفّار قد حاصـر المسلمين من جميع الجهات، و طالت هذه المحاصرة عشرين يوما، و قيل خمسة و عشرين يوما، و على بعض الرّوايات شهرا[۱۸۱].

و مع أنّ العدوّ كان متفوقا على المسلمين من جهات مختلفة، إلّا أنّه خاب فى النهاية كما قلنا، و رجع إلى دياره خالى الوفاض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۵

ج- إنّ مسألة حفر الخندق قد تمّت- كما نعلم- بمشورة «سـلمان الفارسـى»، و كانت هذه المسألة أسـلوبا دفاعيا معتادا فى بلاد فارس آنـذاك، و لم يكن معروفـا فى جزيرة العرب إلى ذلـك اليوم، و كان يعتبر ظاهرة جديـدة، و كانت لإقامته فى أطراف المدينـة أهميّة عظيمة، سواء من الناحية العسكرية، أم من جهة إضعاف معنويات العدوّ و رفع معنويات المسلمين.

و لا توجـد لدينا معلومات دقيقة عن صـفات الخندق و دقائقه، فقد ذكر المؤرخّون أنّه كان من العرض بحيث لا يسـتطيع فرسان العدو عبوره بالقفز، و من المحتّم أنّ عمقه أيضا كان بالقدر الذى إذا سقط فيه أحد لم يكن يستطيع أن يخرج من الطرف المقابل بسهولة.

إضافهٔ إلی أنّ سیطرهٔ رماهٔ المسلمین علی منطقهٔ الخندق کان یمکّنهم من جعل کلّ من یحاول العبور هدفا و غرضا لسهامهم فی وسط الخندق و قبل عبوره.

و أمّا من ناحیهٔ الطول فإنّ البعض قد قدّره باثنی عشر ألف ذراع (ستّهٔ آلاف متر) استنادا إلی الروایهٔ المعروفهٔ التی تقول بأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان قد أمر أن یحفر کلّ عشرهٔ رجال أربعین ذراعا من الخندق، و بملاحظهٔ أنّ عدد جنود المسلمین- طبقا للمشهور- بلغ ثلاثهٔ آلاف رجل.

و لا بدّ من الاعتراف بأنّ حفر مثل هذا الخندق، و بالآلات البدائیهٔ المستعملهٔ فی ذلک الیوم کان أمرا مضنیا و جهدا، خاصّهٔ و أنّ المسلمین کانوا فی ضیق شدید و حاجهٔ ملحّهٔ من ناحیهٔ الزاد و الوسائل الاخری.

و من المسلّم أنّ حفر الخندق قد استغرق مدّهٔ لا یستهان بها، و هذا یوحی بأنّ جیش المسلمین کان قد قدّر و خمّن و توقّع التوقّعات اللازمهٔ بدقّهٔ کاملهٔ قبل أن یهجم العدوّ بحیث أنّ حفر الخندق کان قد تمّ قبل ثلاثهٔ أیّام من وصول جیش الکفّار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۶

د- ساحهٔ إمتحان عظیمهٔ إنّ غزوهٔ «الأحزاب» کانت محکّا و امتحانا عجیبا لکلّ المسلمین، و لمن کانوا یدّعون الإسلام، و کذلک لأولئک الذین کانوا یدّعون الحیاد أحیانا، و کان لهم فی الباطن ارتباط و تعامل مع أعداء الإسلام و یتعاونون معهم ضدّ دین اللّه.

لقد تبیّن بوضوح تامّ موقع الفئات الثلاث- المؤمنون الصادقون، و ضعفاء الإیمان، و المنافقون- من خلال عملهم، و اتّضحت تماما القیم و المفاهیم الإسلامیهٔ، فقد عکست کلّ من الفئات الثلاث فی أتون الحرب الملتهبهٔ حسن إیمانها أو قبحه، و إخلاص نیّاتها أو عدمه.

لقد کانت العاصفهٔ هو جاء شدیدهٔ لم تدع المجال لأیّ شخص أن یخفی ما فی قلبه، و ظهرت امور فی أقلّ من شهر، و کان یحتاج کشفها إلی سنین ربّما تکون طویلهٔ فی الظروف الطبیعیّهٔ.

و هنا مسألهٔ تستحقّ الانتباه، و هی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله أثبت عملیّا إیمانه الکامل بما جاء به من التعلیمات الإلهیّهٔ و وفاءه التامّ لها من خلال مقاومته و صلابته، و رباطهٔ جأشه، و توکّله علی اللّه، و اعتماده علی نفسه، و کذلک أثبت للناس أنّه یطبّق قبل الآخرین ما یأمرهم به من خلال مواساته للمسلمین و مساعدتهم فی حفر الخندق، و تحمّله لمصاعب الحرب و مشاکلها.

ه- نزال علی علیه السّلام التاریخی لعمرو بن عبد ودّ من المواقف الحسّاسهٔ و التاریخیهٔ لهذه الحرب مبارزهٔ علی علیه السّلام لبطل معسکر العدوّ العظیم «عمرو بن عبد ودّ»، فقد جاء فی التواریخ أنّ جیش الأحزاب کان قد دعا أشدّاء شجعان العرب للاشتراک و المساهمهٔ فی هذه الحرب، و کان الأشهر من بین هؤلاء خمسهٔ: عمرو بن عبد ودّ، و عکرمهٔ بن أبی جهل، و هبیرهٔ، و نوفل، و ضرار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۷

لقد استعدّ هؤلاء فی أحد أیّام الحرب للمبارزهٔ الفردیهٔ، و لبسوا عدّهٔ الحرب، و استطاعوا اختراق الخندق و العبور بخیولهم إلی الجانب الآخر من خلال نقطهٔ ضیّقهٔ فیه، کانت بعیدهٔ نسبیا عن مرمی الرماهٔ المسلمین، و أن یقفوا أمام جیش المسلمین، و کان أشهرهم «عمرو بن عبد ودّ».

فتقدّم و قد رکبه الغرور و الاعتداد بالنفس، و کانت له خبرهٔ طویلهٔ فی الحرب، و رفع صوته طالبا من یبارزه.

لقد دوّی نداؤه (هل من مبارز) فی میدان الأحزاب، و لمّا لم یجرأ أحد من المسلمین علی قتاله اشتدّت جرأته و بدأ یسخر من معتقدات المسلمین، فقال: أین جنّتکم التی تزعمون أنّ من قتل منکم دخلها؟ هل فیکم من أرسله إلی الجنّهٔ، أو یدفعنی إلی النار؟

و هنا أنشد أبیاته المعروفهٔ:

و لقد بححت من النداء بجمعکم هل من مبارزو وقفت إذ جبن المشجّع موقف البطل المناجز

إنّ السماحهٔ و الشجاعهٔ فی الفتی خیر الغرائز

فأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله عند ذلك أن يخرج إليه رجل و يبعد شرّه عن المسلمين، إلّا أنّ أحدا لم يجب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إلّا على بن أبى طالب عليه السّلام،

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «إنّه عمرو» فقال على عليه السّلام: «و إن كان عمروا» فدعاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و عمّمه، و قلّده سيفه الخاصّ ذا الفقار، ثمّ دعا له فقال: «اللهمّ احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته».

فمشى على عليه السّلام إلى الحرب و هو يرتجز:

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجزذو نيّة و بصيرة و الصدق منجى كلّ فائز

إنّى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۸

من ضربة نجلاء يبقى صوتها بعد الهزاهز

و هنا

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله كلمته المعروفة: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»[۱۸۲].

فلمّا التقيا دعاه أمير المؤمنين على عليه السّلام إلى الإسلام أوّلا، فأبى، ثمّ دعاه إلى اعتزال الحرب، فرفض ذلك، و اعتبره عارا عليه، و فى الثالثة دعاه إلى أن ينزل عن ظهر جواده و يقاتله راجلا، فغضب عمرو قال: ما كنت أحسب أحدا من العرب يدعونى إلى مثل ذلك، فنزل من على ظهر فرسه و ضرب عليا عليه السّلام على رأسه، فتلقّاها على عليه السّلام بمهارة خاصّة بدرعه، إلّا أنّ السيف قدّه و شجّ رأس على عليه السّلام.

هنا استعمل على عليه السّلام أسلوبا خاصّا، فقال لعمرو: أنت بطل العرب، و أنا أقاتلك، فعلام حضر من خلفك؟ فلمّا التفت عمرو، ضربه على عليه السّلام على ساقه بالسيف، فسقط عمرو إلى الأرض، فثارت غبرة ظنّ معها المنافقون أنّ عليا عليه السّلام قد قتل بسيف عمرو، غير أنّهم لمّا سمعوا التكبير قد علا علموا بانتصار على، و رأوا فجأة عليا عليه السّلام يرجع إلى معسكره رويدا رويدا و الدم ينزم من رأسه، و على شفتيه ابتسامه النصر، و كانت جثّة عمرو قد سقطت فى جانب من الميدان.

لقد أنزل مقتل بطل العرب المعروف ضربة قاصمة بجيش الأحزاب بدّدت آمالهم و حطّمت معنوياتهم، و هزمتهم نفسيا هزيمة منكرة، و خابت آمالهم فى النصر و الظفر، و لذلك

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى حقّها: «لو وزن اليوم عملك بعمل جميع امّة محمّد لرجح عملك على عملهم، و ذاك أنّه لم يبق بيت من المشركين إلّا و قد دخله ذلّ بقتل عمرو، و لم يبق بيت من المسلمين، إلّا و قد دخله عزّ يقتل عمرو»[۱۸۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۹

و قد أورد العالم السنّى المعروف «الحاكم النيسابورى» هذا القول، لكن بتعبير آخر:

«لمبارزة على بن أبى طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال امّتى إلى يوم القيامة»[۱۸۴].

و الغاية من هذا الكلام واضحة، لأنّ كلّا من الإسلام و القرآن كان على حافّة الهاوية ظاهرا، و كان يمرّ بأحرج لحظاته و أصعبها، و لذلك كانت التضحية فى هذه الحرب أعظم التضحيات بعد تضحيات النّبى صلّى اللّه عليه و آله، حيث حفظت الإسلام من السقوط و درأت عنه الخطر، و ضمنت بقاءه إلى يوم القيامة، و ببركة تضحية الإمام عليه السّلام تجذّر الإسلام و تأصّل و شملت غصونه و أوراقه

العالمين، و بناء على هذا فإنّ عبادة الجميع مرهونة بعمله.

و ذكر البعض: أنّ المشركين أرسلوا رسولا- منهم ليشترى جثّة عمرو بعشرة آلاف درهم- و ربّما كانوا يتصوّرون أنّ المسلمين سيفعلون بجثّة عمرو ما فعله قساة القلوب بجسد حمزة يوم أحد-

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى»!

و هناك موقف يستحقّ الذكر و الانتباه، و هو: أنّ اخت عمرو لمّا وصلت إلى جسد أخيها، و رأت أنّ عليا عليه السّلام لم يسلبه درعه الثمينة قالت: ما قتله إلّا كفؤ كريم ۱۸۵].

و- إجراءات النبى العسكرية و السياسية فى هذه الحرب كانت هناك مجموعة من العوامل المختلفة، و الأساليب العسكرية و السياسية، و كذلك عامل العقيدة و الإيمان، ساهمت فى انتصار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المسلمين فى معركة الأحزاب، إضافة إلى التأييد الإلهى. عن طريق الرياح و العواصف الهوجاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۰

التى مزّقت جيوش الأحزاب شرّ ممزّق، و كذلك جنود اللّه الغيبيين، و من جملة هذه العوامل و الإجراءات:

۱- أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أدخل بقبوله اقتراح حفر الخندق أسلوبا جديدا لم يكن موجودا و معروفا بين العرب إلى ذلك اليوم، و كان عاملا مهمّا فى رفع معنويات المسلمين و كسر شوكة الكفّار.

۲- المواقف و الحسابات الدقيقة للمسلمين، و الأساليب و المناورات العسكرية كانت عاملا مؤثّرا فى عدم نفوذ العدوّ إلى داخل المدينة.

۳- قتل عمرو بن عبد ودّ على يد بطل الإسلام العظيم على بن أبى طالب عليه الصلاة و السّلام، و تبديد آمال الأحزاب بقتله يعدّ عاملا مؤثّرا آخر.

۴- الإيمان باللّه، و التوكّل عليه، و الذى غرسه النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى قلوب المسلمين، و سقاه المسلمون على امتداد الحرب بتلاوة القرآن و كلمات النّبى صلّى اللّه عليه و آله المؤثّرة.

۵- أسلوب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و روحه الكبيرة، و اعتماده على نفسه الذى يمنح المسلمين قوّة و اطمئنانا.

۶- إضافة إلى ذلك، فإنّ عمل «نعيم بن مسعود» كان أحد العوامل المهمّة فى إيجاد الفرقة بين جيوش الأحزاب.

ز- نعيم بن مسعود و بثّ الفرقة فى جيش العدوّ! جاء «نعيم» إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و كان قد أسلم لتوّه، و لم تعلم قبيلته (غطفان) بإسلامه، فقال: أسلمت و لم يعلم بى أحد من قومى فمرنى بأمرك،

فقال له النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «إنّما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنّا ما استطعت، فإنّما الحرب خدعة».

فانطلق نعيم بخطّة رائعة، و أتى يهود بنى قريظة، و كانت له معهم صداقة فى الجاهلية، فقال لهم: إنّى لكم صديق، و أنتم تعلمون ذلك، فقالوا: صدقت، و نحن لا نتّهمك أبدا، فقال: إنّ البلد بلدكم و به أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم، و إنّما قريش

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۱

و غطفان بلادهم غيرها، و إنّما جاءوا حتّى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها، و إن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم و خلوا بينكم و بين الرجل، و لا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا حتّى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا يبرحوا حتّى يناجزوا محمّدا، فقالوا: قد أشرت برأى، فقبل بنو قريظة قوله.

ثمّ أتى أبا سفيان و أشراف قريش متخفّيا، فقال: يا معشر قريش، إنّكم قد عرفتم ودّى إيّاكم و فراقى محمّدا و دينه، و إنّى قد جئتكم بنصيحة فاكتموا علىّ، فقالوا: نفعل، قال: تعلمون أنّ بنى قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم و بين محمّد فبعثوا إليه: أنّه لا يرضيك عنّا إلّا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم و ندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثمّ نكون معك عليهم حتّى نخرجهم من بلادك، فقالوا:

بلی، فإن بعثوا إلیکم یسألونکم نفرا من رجالکم فلا تعطوهم رجلا واحدا و احذروا.

ثمّ جاء إلی غطفان قبیلته، فقال: تعلمون حسبی و نسبی، و أنا أودّکم، و لا أظنّکم تشکّون فی صدقی، فقالوا: نعلم ذلک، فقال: لکم عندی خبر فاکتموه علیّ، فقالوا: نفعل، فقال لهم ما قال لقریش. و کان ذلک لیلة السبت من شوّال سنة خمس من الهجرة.

فأرسل أبو سفیان و رؤساء غطفان جماعة إلی بنی قریظة فقالوا: إنّ الکراع و الخفّ قد هلکا، و إنّا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلی محمّد حتّی نناجزه.

فأجابهم الیهود: إنّ غدا السبت، و هو یوم لا نعمل فیه، و لسنا مع ذلک بالذین نقاتل معکم حتّی تعطونا رهنا من رجالکم نستوثق بهم لا تذهبوا و تدعونا حتّی نناجز محمّدا.

فلمّا بلغ ذلک قریشا و غطفان قالوا: و اللّه لقد حذّرنا هذا نعیم، فبعث إلیهم أبو سفیان: إنّا لا نعطیکم رجلا واحدا فإن شئتم أن تخرجوا و تقاتلوا، و إن شئتم فاقعدوا.

و لمّا علمت الیهود بذلک قالوا: هذا و اللّه الذی قال لنا نعیم، فإنّ فی الأمر حیلة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۲

و هؤلاء لا یریدون القتال، و یریدون أن یغیروا و یرجعوا إلی دیارهم و یذروکم و محمّدا.

فأرسلوا إلی قریش و غطفان: إنّا و اللّه لا نقاتل حتّی تعطونا رهنا، فأصرّت قریش و غطفان علی قولهما فوقع الاختلاف بینهم، و بعث اللّه سبحانه علیهم الریح فی لیال شاتیة قارصة البرد، قلعت خیامهم، و کفأت قدورهم.

لقد اتّحدت هذه العوامل، فحزم الجمیع أمتعتهم و رجّحوا الفرار علی القرار، و لم یبق منهم رجل فی ساحة الحرب [۱۸۶].

ح- قصّة حذیفة جاء فی کثیر من التواریخ أنّ «حذیفة الیمانی» قال: و اللّه، لقد رأیتنا یوم الخندق و بنا من الجهد و الجوع و الخوف ما لا یعلمه إلّا اللّه، و فی لیلة من اللیالی- بعد أن وقع الاختلاف بین جیش الأحزاب-

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «ألا رجل یأتینا بخبر القوم یجعله اللّه رفیقی فی الجنّة».

قال حذیفة: فو اللّه ما قام منّا أحد ممّا بنا من الخوف و الجوع، فلمّا رأی النّبی صلّی اللّه علیه و آله ذلک دعانی، فقلت: لبّیک،

قال: «اذهب فجئنی بخبر القوم و لا تحدثنّ شیئا حتّی ترجع»

، فأتیت القوم فإذا ریح اللّه و جنوده تفعل بهم ما تفعل، ما یستمسک لهم بناء، و لا تثبت لهم نار، و لا یطمئن لهم قدر، فإنّی لکذلک إذ خرج أبو سفیان من رحله، ثمّ قال: یا معشر قریش، لینظر أحدکم من جلیسه لئلّا یکون هنا غریب، فبدأت بالذی عن یمینی، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، فقلت: حسنا.

ثمّ عاد أبو سفیان براحلته، فقال: یا معشر قریش- و اللّه- ما أنتم بدار مقام، هلک الخفّ و الحافر، و أخلفتنا بنو قریظة، و هذه الریح لا یستمسک لنا معها شیء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۳

ثمّ عجّل فرکب راحلته و إنّها لمعقولة ما حلّ عقالها إلّا بعد ما رکبها.

فقلت فی نفسی: لو رمیت عدوّ اللّه و قتلته کنت قد صنعت شیئا، فوترت قوسی ثمّ وضعت السهم فی کبد القوس، فلمّا أردت أن أطلقه ذکرت

قول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «لا تحدثنّ شیئا حتّی ترجع»

و إنّه طلب منّی أن آتیه بالخبر و حسب، حططت القوس ثمّ رجعت إلی رسول اللّه فأخبرته الخبر،

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «اللهمّ أنت منزل الکتاب، سریع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهمّ أهزمهم و زلزلهم»[۱۸۷].

ط- نتائج حرب الأحزاب لقد کانت حرب الأحزاب نقطة انعطاف فی تاریخ الإسلام، قلبت کفّة التوازن العسکری و السیاسی لصالح

المسلمین إلی الأبد. و یمكن تلخیص النتائج المثمرة لهذه المعركة فی عدّة نقاط:

أ- فشل مساعی العدو، و تحطّم قواه.

ب- كشف المنافقین، و فضح الأعداء الداخلیین الخطرین.

ج- جبران الذكری الألیمة لهزیمة أحد.

د- قوّة المسلمین، و ازدیاد هیبتهم فی قلوب الأعداء.

ه- ارتفاع معنویات المسلمین نتیجة للمعجزات العظیمة التی رأوها فی هذه المعركة.

و- تثبیت مركز النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی داخل المدینة و خارجها.

ر- تهیؤ الأرضیة لتصفیة المدینة و إنقاذها من شرّ بنی قریظة.

۲- النّبی أسوة و قدوة

نعلم أنّ إختیار رسول اللّه من بین البشر إنّما هو من أجل أن یكونوا قدوة عملیة

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۴

للأمم، لأنّ أهمّ جانب من جوانب دعوة الأنبیاء و أكثرها تأثیرا هی الدعوة العملیة، و لذلك فإنّ علماء الإسلام اعتبروا العصمة شرطا لمقام النبوّة، و إحدی أدلّتها و براهینها هی أنّهم یجب أن یكونوا «قدوة» للناس، و «أسوة» للبشر.

و ممّا یسترعی الانتباه أنّ التأسّی بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله الوارد فی هذه الآیة قد جاء بصورة مطلقة، و هذا یشمل التأسّی فی كافّة المجالات بالرغم من أنّ سبب نزول هذه الآیات هی معركة الأحزاب، و نعلم أنّ أسباب النّزول لا تحدّد مفاهیم الآیات بها مطلقا، و لذلك نری فی الأحادیث الشریفة أنّ أهمّ المسائل و أبسطها قد طرحت فی مسألة التأسّی.

ففی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «إنّ الصبر علی ولاة الأمر مفروض لقول اللّه عزّ و جلّ لنبیّه: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إیجابه مثل ذلك علی أولیائه و أهل طاعته لقوله: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[۱۸۸].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ رسول اللّه كان إذا صلّی العشاء الآخرة أمر بوضوئه و سواكه فوضع عند رأسه مخمرا»

ثمّ یبیّن كیفیة صلاة اللیل التی كان یصلّیها النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و یقول فی آخر الحدیث: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[۱۸۹].

و إذا ما اتّخذنا النّبی صلّی اللّه علیه و آله أسوة لنا فی حیاتنا حقّا، فی إیمانه و توكّله، فی إخلاصه و شجاعته، فی تنظیم أمره و نظافته، و فی زهده و تقواه، فإن أسلوب حیاتنا سیختلف تماما، و سیعمّ الضیاء و السعادة كلّ زوایا حیاتنا و نواحیها.

یجب الیوم علی كلّ المسلمین، و خاصّة الشباب المؤمن، أن یقرءوا سیرة نبیّنا الأكرم صلّی اللّه علیه و آله، بدقّة متناهیة و یحفظوها، و یجعلوه قدوة و أسوة لهم فی كلّ شیء، فإنّ هذا التأسّی و الاقتداء به سبیل السعادة، و مفتاح النصر و العزّة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۵

۳- اذكروا اللّه كثیرا

لقـد وردت الوصـیّهٔ بـذکر اللّه- و خاصّـهٔ الـذکر الکثیر- مرارا فی الآیات القرآنیـهٔ، و قد أولته الروایات الإسـلامیهٔ اهتماما کبیرا أیضا، حتّی أنّنا نقرأ

فی حدیث عن أبی ذرّ أنّه قال: دخلت المسجد فأتیت النّبی صلّی اللّه علیه و آله ... فقال لی: «علیک بتلاوهٔ کتاب اللّه و ذکر اللّه کثیرا فإنّه ذکر لک فی السماء و نور لک فی الأرض»[۱۹۰].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إذا ذکر العبد ربّه فی الیوم مائهٔ مرّهٔ کان ذلک کثیرا»[۱۹۱].

و

فی حدیث آخر عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال لأصحابه: «أ لا أخبرکم بخیر أعمالکم و أزکاها عند ملیککم، و أرفعها فی درجاتکم، و خیر لکم من الـدینار و الـدرهم، و خیر لکم من أن تلقوا عدوّکم فتقتلونهم و یقتلونکم؟ قالوا: بلی یا رسول اللّه، قال: ذکر اللّه کثیرا»[۱۹۲].

لکن لا ینبغی أن یتصوّر أنّ المراد من ذکر اللّه بکلّ هذه الفضیلهٔ هو الذکر اللسانی فقط، بل قد صرّحت الروایات الإسلامیهٔ أنّ المراد منه إضافهٔ لما مرّ هو الذکر القلبی و العملی، أی أنّ الإنسان یذکر اللّه عند ما یواجه حراما فیترکه.

إنّ الهـدف أن یجعـل الإنسـان اللّه نصب عینیه دائمـا، و یشـعر بحضوره و شـهادته الدائمـهٔ، و أن یغمر نور اللّه کلّ حیاته، فیفکّر فیه و یذکره دائما، و لا یغفل عن أوامره بل یطیعها.

إنّ مجـالس الـذکر لیست تلـک المجالس التی یجتمع فیها جماعـهٔ من المغفّلین و یشـرعون فی الطعام و الشـراب، و تتخلّل مجالسـهم تلک مجموعهٔ من الأذکار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۶

المخترعهٔ، و البدع التی یروجونها،

فقد ورد فی حدیث أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال: «بادروا إلی ریاض الجنّهٔ، قالوا: و ما ریاض الجنّهٔ؟ قال: حلق الذکر»[۱۹۳]، و المراد منهـا الحلقـات التی تحیـا فیهـا العلوم الإسـلامیهٔ، و تطرح البحوث التربویـهٔ التی تؤدّی إلی تهـذیب الناس و تطهیر المـذنبین و تدفعهم إلی سبیل اللّه ۱۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۷

الآیتان [سورهٔ الأحزاب (۳۳): الآیات ۲۶ الی ۲۷]

اشارهٔ

وَ أَنْزَلَ الَّذِینَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ مِنْ صَیاصِیهِمْ وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِیقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِیقاً (۲۶) وَ أَوْرَثَکُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِیارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ کانَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیراً (۲۷)

التّفسیر

غزوهٔ بنی قریظهٔ انتصار عظیم آخر:

کان فی المدینهٔ ثلاث طوائف معروفهٔ من الیهود، و هم: بنو قریظهٔ، و بنو النضـیر، و بنو قینقاع، و کانت هذه الطوائف قد عاهدت النّبی صلّی اللّه علیه و آله علی أن لاـ تعین عـدوّا له و لا یتجسّـسوا لـذلک العـدوّ، و أن یعیشوا مع المسـلمین بسـلام، إلّا أنّ «بنی قینقاع» قد

نقضوا عهدهم فی السنة الثّانية للهجرة، و «بنو النضير» فی السنة الرّابعة للهجرة بأعذار شتّی، و صمّموا علی مواجهة النّبی صلّی اللّه عليه و آله و انهارت مقاومتهم فی النهاية، و طردوا إلی خارج المدينة، فذهب «بنو قينقاع» إلی أذرعات الشام، و ذهب بعض

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۸

«بنی النضير» إلی خيبر، و بعضهم الآخر إلی الشام ۱۹۵].

بناء علی هذا فإنّ «بنی قريظة» كانوا آخر من بقی فی المدينة إلی السنة الخامسة للهجرة حيث وقعت غزوة الأحزاب، و كما قلنا فی تفسير الآيات السبع عشرة المتعلّقة بمعركة الأحزاب، فإنّهم نقضوا عهدهم فی هذه المعركة، و اتّصلوا بمشركی العرب، و شهروا السيوف بوجه المسلمين.

بعد انتهاء غزوة الأحزاب و التراجع المشين و المخزی لقريش و غطفان و سائر قبائل العرب عن المدينة، فإنّ النّبی صلّی اللّه عليه و آله- طبقا للرّوايات الإسلامية- عاد إلی منزله و خلع لامة الحرب و ذهب يغتسل، فنزل عليه جبرئيل بأمر اللّه و قال: لماذا ألقيت سلاحك و هذه الملائكة قد استعدّت للحرب؟ عليك أن تسير الآن نحو بنی قريظة و تنهی أمرهم.

لم تكن هناك فرصة لتصفية الحساب مع بنی قريظة أفضل من هذه الفرصة، حيث كان المسلمون فی حرارة الإنتصار، و بنو قريظة يعيشون لوعة الهزيمة المرّة، و قد سيطر عليهم الرعب الشديد، و كان حلفاؤهم من قبائل العرب متعبين منهكی القوی خائری العزائم، و هم فی طريقهم إلی ديارهم يجرّون أذيال الخيبة، و لم يكن هناك من يحميهم و يدافع عنهم.

هنا نادی مناد من قبل رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله بأن توجّهوا إلی بنی قريظة قبل أن تصلّوا العصر، فاستعدّ المسلمون بسرعة و تهيّئوا للمسير إلی الحرب، و ما كادت الشمس تغرب إلّا و كانت حصون بنی قريظة المحكمة محاصرة تماما.

لقد استمرت هذه المحاصرة خمسة و عشرين يوما، و أخير سلّموا جميعا- كما سيأتی فی البحوث- فقتل بعضهم، و أضيف إلی سجل انتصارات المسلمين انتصار عظيم آخر، و تطهّرت أرض المدينة من دنس هؤلاء المنافقين و الأعداء اللدودين

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۹

إلی الأبد.

و قد أشارت الآيات- مورد البحث- إشارة مختصرة و دقيقة إلی هذه الحادثة، و كما قلنا فإنّ هذه الآيات نزلت بعد الإنتصار، و أوضحت أنّ هذه الحادثة كانت نعمة و موهبة إلهيّة عظيمة، فتقول الآية أوّلا: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ «الصياصی» جمع (صيصية)، أی: القلعة المحكمة، ثمّ أطلقت علی كلّ وسيلة دفاعية، كقرون البقر، و مخالب الديك. و يتّضح هنا أنّ اليهود كانوا قد بنوا قلاعهم و حصونهم إلی جانب المدينة فی نقطة مرتفعة، و التعبير ب (أنزل) يدلّ علی هذا المعنی.

ثمّ تضيف الآية: وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ و أخيرا بلغ أمرهم أنّكم فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ

إنّ هذه الجمل تمثّل مختصرا و جانبا من نتائج غزوة بنی قريظة، حيث قتل جمع من أولئك الخائنين علی يد المسلمين، و أسر آخرون، و غنم المسلمون منهم غنائم كثيرة من جملتها أراضيهم و ديارهم و أموالهم.

و التعبير عن هذه الغنائم ب «الإرث» لأنّ المسلمين لم يبذلوا كثير جهد للحصول عليها، و سقطت فی أيديهم بسهولة كلّ تلك الغنائم التی كانت حصيلة سنين طويلة من ظلم و جور اليهود و استثماراتهم فی المدينة.

و تقول الآية فی النهاية: وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلی كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً.

هناك اختلاف بين المفسّرين فی المقصود من أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها و أیّ أرض هی؟

فاعتبرها البعض إشارة إلی أرض خيبر التی فتحت علی أيدی المسلمين فيما بعد.

و اعتبرها آخرون إشارة إلی أرض مكّة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۰

و آخرون یعتقدون أنّها إشارة إلی أرض الروم و فارس.

و یری البعض أنّها إشارة إلی جمیع الأراضی و البلدان التی وقعت فی ید المسلمین من ذلک الیوم و ما بعده إلی یوم القیامة.

إلّا أنّ أیّا من هـذه الاحتمالات لا یناسب ظاهر الآیـة، لأنّ الآیـة- بقرینة الفعل الماضـی الذی جاء فیها (أورثکم)- شاهدة علی أنّ هذه الأرض قد أصـبحت تحت تصرّف المسلمین فی حادثة غزوة بنی قریظة، إضافة إلی أنّ أرض مکّة- و هی إحدی التفاسیر السابقة- لم تکن أرضا لم یطأها المسلمون، فی حین أنّ القرآن الکریم یقول: وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها.

و الظاهر أنّ هـذه الجملة إشارة إلی البساتین و الأراضـی الخاصّة ببنی قریظة، و التی لم یکن لأحد الحقّ فی دخولها، لأنّ الیهود کانوا یبذلون قصاری جهودهم فی سبیل الحفاظ علی أموالهم و حصرها فیما بینهم.

و لو أغمضـنا، فإنّها تتناسب کثیرا مع أرض «خیبر» التی أخـذت من الیهود بعـد مـدّة لیست بالبعیـدة، و أصـبحت فی حوزة المسـلمین، حیث إنّ معرکة «خیبر» وقعت فی السنة السابعة للهجرة.

بحوث

۱- غزوة بنی قریظة و دوافعها

إنّ القرآن الکریم یشـهد بأنّ الـدافع الأساس لهـذه الحرب هو دعم یهود بنی قریظـة لمشـرکی العرب و مساندتهم فی حرب الأحزاب، لأنّه یقول: الَّذِینَ ظاهَرُوهُمْ

إضافـة إلی أنّ الیهود فی المدینـة کـانوا یعتبرون الطـابور الخـامس لأعـداء الإسـلام، و کـانوا مجـدّین فی الإعلام المضادّ للإسـلام، و یغتنمون کلّ فرصة مناسبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۱

للبطش بالمسلمین و الفتک بهم.

و کما قلنا سابقا، فإنّ هذه الطائفة هی الوحیدة من الطوائف الثلاث (بنو القینقاع، و بنو النضـیر، و بنو قریظة) التی بقیت فی المدینة عند نشوب معرکـة الأـحزاب، فقـد طردت الطائفتـان الأوّلیان فی السـنة الثّانیـة و الرّابعـة للهجرة، و کان یجب أن تعاقب هـذه الطائفـة علی أعمالها الخبیثة و جرائمها، لأنّها کانت أوقح من الجمیع و أکثر علانیة فی نقضها لمیثاقها و اتّصالها بأعداء الإسلام.

۲- أحداث غزوة بنی قریظة

قلنا: إنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قد امر بعد انتهاء معرکة الأحزاب مباشرة أن یحاسب بنی قریظة علی أعمالهم، و یقال: إنّ المسلمین قـد تعجّلوا الوصول إلی حصون بنی قریظـة بحیث إنّ البعض قـد غفل عن صـلاة العصـر فاضـطّروا إلی قضائها فیما بعد، فقد أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله أن تحاصـر حصونهم، و دام الحصـار خمسـة و عشـرین یومـا، و قـد ألقی اللّه عزّ و جلّ الرعب الشدیـد فی قلوب الیهود، کما یتحدّث القرآن عن ذلک.

فقـال «کعب بن أسـد»- و کان من زعماء الیهود-: إنّی علی یقین من أنّ محمّـدا لن یترکنا حتّی یقاتلنا، و أنا أقترح علیکم ثلاثـة امور اختاروا أحدها:

إمّـا أن نبـایع هـذا الرجـل و نؤمن به و نتّبعه، فـإنّه قـد ثبت لکم أنّه نبی اللّه، و أنتم تجـدون علاماته فی کتبکم، و عنـد ذلک سـتصان

أرواحكم و أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم، فقالوا: لا نرجع عن حكم التوراة أبدا، و لا نقبل بدلها شيئا.
قال: فإذا رفضتم ذلك، فتعالوا نقتل نساءنا و أبناءنا بأيدينا حتّى يطمئن بالنا من قبلهم، ثمّ نسلّ السيوف و نقاتل محمّدا و أصحابه و نرى ما يريده اللّه، فإن قتلنا لم نقلق على أبنائنا و نسائنا، و إن انتصرنا فما أكثر النساء و الأولاد. فقالوا: أ نقتل هؤلاء المساكين بأيدينا؟! إذن لا خير في حياتنا بعدهم.
قال كعب بن أسد: فإن أبيتم هذا أيضا فإنّ الليلة ليلة السبت، و أنّ محمّدا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۲

و أصحابه يظنون أنّنا لا نهجم عليهم الليلة، فهلمّوا نبيّتهم و نباغتهم و نحمل عليهم لعلّنا ننتصر عليهم. فقالوا: و لا نفعل ذلك، لأنّا لا نهتك حرمة السبت أبدا.
فقال كعب: ليس فيكم رجل يعقل ليلة واحدة منذ ولدته امّه.
بعد هذه الحادثة طلبوا من النّبي صلّى اللّه عليه و آله أن يرسل إليهم «أبا لبابة» ليتشاوروا معه، فلمّا أتاهم و رأى أطفال اليهود يبكون أمامه رقّ قلبه، فقال الرجال: أ ترى لنا أن نخضع لحكم محمّد صلّى اللّه عليه و آله؟ فقال أبو لبابة: نعم، و أشار إلى نحره، أي إنّه سيقتلكم جميعا! يقول أبو لبابة: ما إن تركتهم حتّى انتبهت لخيانتي، فلم آت النّبي صلّى اللّه عليه و آله مباشرة، بل ذهبت إلى المسجد و أوثقت نفسي بعمود فيه و قلت: لن أبرح مكاني حتّى يقبل اللّه توبتي، فقبل اللّه توبته لصدقه و غفر ذنبه و أنزل وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ [۱۹۶] و أخيرا اضطرّ بنو قريظة إلى أن يستسلموا بدون قيد أو شرط،
فقال النّبي صلّى اللّه عليه و آله: «أ لا ترضون أن يحكم فيكم سعد بن معاذ»؟ قالوا: بلى،
فقال سعد: قد آن لسعد أن لا تأخذه في اللّه لومة لائم.
ثمّ أخذ سعد الإقرار من اليهود مجدّدا بأنّهم يقبلون بما يحكم، و بعدها التفت إلى حيث كان النّبي صلّى اللّه عليه و آله واقفا فقال: حكمي فيهم نافذ؟ قال: نعم، فقال: انّني أحكم بقتل رجالهم المحاربين، و سبي نسائهم و ذراريهم، و تقسيم أموالهم.
و قد أسلم جمع من هؤلاء فنجوا[۱۹۷].

۳- نتائج غزوة بني قريظة

إنّ الإنتصار على أولئك القوم الظالمين العنودين قد حمل معه نتائج مثمرة للمسلمين، و من جملتها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۳

أ- تطهير الجبهة الداخلية للمدينة، و اطمئنان المسلمين و تخلّصهم من جواسيس اليهود.
ب- سقوط آخر دعامة لمشركي العرب في المدينة، و قطع أملهم من إثارة القلاقل و الفتن داخليا.
ج- تقوية بنية المسلمين المالية بواسطة غنائم هذه الغزوة.
د- فتح آفاق جديدة للانتصارات المستقبلية، و خاصة فتح «خيبر».
ه- تثبيت مكانة الحكومة الإسلامية و هيبتها في نظر العدوّ و الصديق، في داخل المدينة و خارجها.

۴- الآيات و تعبيراتها العميقة!

إنّ من جملة التعبيرات التي تلاحظ في الآيات أعلاه أنّها تقول في مورد قتلى هذه الحرب: فَرِيقاً تَقْتُلُونَ أي أنّها قدّمت (فريقا) على

(تقتلون) فى حين أنّها أخّرت (فريقا) عن الفعل «تأسرون»! و قال بعض المفسّرين فى تفسير ذلك: إنّ سبب هذا التعبير هو التأكيد على الأشخاص فى مسألة القتلى، لأنّ رؤساءهم كانوا فى جملة القتلى، أمّا الأسرى فإنّهم لم يكونوا أناسا معروفين ليأتى التأكيد عليهم. إضافة إلى أنّ هذا التقديم و التأخير أدّى إلى أن يقترن «القتل و الأسر»- و هما عاملا الإنتصار على العدو- و يكون أحدهما إلى جنب الآخر، مراعاة للانسجام بين الأمرين أكثر.

و كذلك ورد إنزال اليهود من «صياصيهم» قبل جملة: وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فى حين أنّ الترتيب الطبيعى على خلاف ذلك، أى أنّ الخطوة الاولى هى إيجاد الرعب، ثمّ إنزالهم من الحصون المنيعة. و سبب هذا التقديم و التأخير هو أنّ المهمّ بالنسبة للمسلمين، و المفرّح لهم، و الذى كان يشكّل الهدف الأصلى هو تحطيم هذه القلاع المحصّنة جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۴

و التعبير ب أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ يبيّن حقيقة أنّ اللّه سبحانه قد سلّطكم على أراضيهم و ديارهم و أموالهم دون أن تبذلوا كثير جهد فى هذه الغزوة.

و أخيرا فإنّ التأكيد على قدرة اللّه عزّ و جلّ فى آخر آية: وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً إشارة إلى أنّه سبحانه قد هزم الأحزاب بالرياح و العواصف و الجنود الغيبيين يوما، و هزم ناصريهم- أى يهود بنى قريظة- بجيش الرعب و الخوف يوما آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۵

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۸ الى ۳۱]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا (۲۸) وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (۲۹) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۳۰) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (۳۱)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسباب نزول عديدة للآيات أعلاه، و هى لا تختلف عن بعضها كثيرا من جهة النتيجة.

و يستفاد من أسباب النّزول هذه أنّ نساء النّبى قد طلبن منه طلبات مختلفة فيما يتعلّق بزيادة النفقة، أو لوازم الحياة المختلفة، بعد بعض الغزوات التى و فّرت للمسلمين غنائم كثيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۶

و طبقا لنقل بعض التفاسير فإنّ «أمّ سلمة» طلبت من النّبى صلّى اللّه عليه و آله خادما لها، و طلبت «ميمونة» حلّة، و أرادت «زينب بنت جحش» قماشا يمنيا خاصّا، و «حفصة» لباسا مصريا، و «جويرية» لباسا خاصّا، و «سودة» بساطا خيبريا! و النتيجة أنّ كلا منهنّ طلبت شيئا. فامتنع النّبى صلّى اللّه عليه و آله عن تلبية طلباتهنّ، و هو يعلم أنّ الاستسلام أمام هذه الطلبات التى لا تنتهى سيحمل معه عواقب وخيمة، و اعتزلهنّ شهرا، فنزلت الآيات أعلاه و خاطبتهنّ بنبرة التهديد و الحزم الممتزج بالرأفة و الرحمة، بأنكنّ إن كنتنّ تردن حياة مملوءة بزخارف الدنيا و زبارجها فبإمكانكن الانفصال عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و الذهاب إلى حيث تردن، و إن فضّلتنّ علاقتكنّ باللّه و رسوله و اليوم الآخر، و اقتنعتنّ بحياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله البسيطة و الباعثة على الفخر، فابقين معه، و تنعمنّ

بمواهب اللّه العظيمة.

بهذا الجواب القاطع أجابت الآيات نساء النّبى اللائى كن يتوقّعن رفاهية العيش، و خيّرتهنّ بين «البقاء» مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و «مفارقته».

التّفسير

أمّا السعادة الخالدة أو زخارف الدنيا!

لم يعزب عن أذهانكم أنّ الآيات الاولى من هذه السورة قد توّجت نساء النّبى بتاج الفخر حيث سمّتهنّ ب (أمهات المؤمنين) و من البديهى أنّ المناصب و المقامات الحسّاسة التى تبعث على الفخر تصاحبها مسئوليات ثقيلة، فكيف يمكن أن تكون نساء النّبى امّهات المؤمنين و قلوبهنّ و أفكارهنّ مشغولة بحبّ الدنيا و مغرياتها؟

و هكذا ظننّ، فإنّ الغنائم إذا سقطت فى أيدى المسلمين فلا شكّ أنّ نصيبهنّ سيكون أفخرها و أثمنها كبقيّة نساء الملوك و السلاطين، و يعطى لهنّ ما ناله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۷

المسلمون بتضحيات الفدائيين الثائرين و دماء الشهداء الطاهرة، فى الوقت الذى يعيش هنا و هناك أناس فى غاية العسرة و الشظف.

و بغضّ النظر عن ذلك، فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يجب أن لا يكون لوحده أسوة للناس بحكم الآيات السابقة، بل يجب أن تكون عائلته أسوة لباقى العوائل أيضا، و نساؤه قدوة للنساء المؤمنات حتّى تقوم القيامة، فليس النّبى صلّى اللّه عليه و آله ملكا و إمبراطورا ليكون له جناح خاصّ للنساء، و يغرق نساءه بالحلىّ و المجوهرات الثمينة النفيسة.

و ربّما كان هناك جماعة من المسلمين المهاجرين الذين وردوا المدينة لا يزالون يقضون ليلهم على الصفّة (و هى مكان خاصّ كان إلى جنب مسجد النّبى) حتّى الصباح، و لم يكن لهم فى تلك المدينة أهل و لا دار، و فى مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يسمح النّبى صلّى اللّه عليه و آله لأزواجه أن يتوقّعن كلّ تلك الرفاهية و التوقّعات الاخرى.

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ بعض أزواجه قد كلّمنه بكلام خشن جاف، حتّى أنّهنّ قلن: لعلّك تظنّ إن طلّقتنا لا نجد زوجا من قومنا غيرك ۱۹۸]. هنا امر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يواجه هذه المسألة بحزم تامّ، و يوضّح لهنّ حاله الدائمى، فخاطبت الآية الاولى من الآيات أعلاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالت: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا.

«امتّعكن» من مادّة متعة، و كما قلنا فى الآية (۲۳۶) من سورة البقرة، فإنّها تعنى الهدية التى تلائم أحوال المرأة. و المراد هنا المقدار المناسب الذى يضاف على المهر، و إن لم يكن المهر معيّنا فإنّه يعطيها هدية لائقة بحالها بحيث ترضيها و تسرّها، و يتمّ طلاقها و فراقها فى جوّ هادئ مفعم بالحبّ.

«السراح» فى الأصل من مادّة (سرح) أى الشجرة التى لها ورق و ثمر، و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۸

«سرّحت الإبل»، أى: أطلقتها لتأكل من الأعشاب و أوراق الشجر، ثمّ أطلقت بمعنى أوسع على كلّ نوع من السراح و لكلّ شىء و شخص، و تأتى أحيانا كناية عن الطلاق، و يطلق (تسريح الشعر) على تمشيط الشعر و ترجيله، و فيه معنى الإطلاق أيضا. و على كلّ حال فإنّ المراد من «السراح الجميل» فى الآية طلاق النساء و فراقهنّ فراقا مقترنا بالإحسان، و ليس فيه جبر و قهر.

و للمفسّرين و فقهاء المسلمين هنا بحث مفصّل فى أنّه هل المراد من هذا الكلام أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد خيّر نساءه بين البقاء و الفراق، و إذا ما انتخبن الفراق فإنّه يعتبر طلاقا بحدّ ذاته فلا يحتاج إلى إجراء صيغة الطلاق؟ أم أنّ المراد هو أنّهنّ يخترن أحد السبيلين، فإن أردن الفراق أجرى النّبى صلّى اللّه عليه و آله صيغة الطلاق، و إلّا يبقين على حالهنّ؟

و لا شكّ أنّ الآية لا تدلّ على أىّ من هذين الأمرين، و ما تصوّره البعض من أنّ الآية شاهد على تخيير نساء النّبى، و عدّوا هذا الحكم من مختصّات النّبى صلّى اللّه عليه و آله، لأنّه لا يجرى فى سائر الناس، لا يبدو صحيحا، بل إنّ الجمع بين الآية أعلاه و آيات الطلاق يوجب أن يكون المراد الفراق عن طريق الطلاق.

و هذه المسألة مورد نقاش بين فقهاء الشيعة و السنّة، إلّا أنّ القول الثّانى- أى الفراق عن طريق الطلاق- يبدو أقرب لظواهر الآيات، إضافة إلى أنّ لتعبير (أسرحكنّ) ظهورا فى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان يقدّم على تسريحهنّ، خاصّة و أنّ مادّة «التسريح» قد استعملت بمعنى الطلاق فى موضع آخر من القرآن الكريم (سورة البقرة/ الآية ۲۲۹)[۱۹۹].

و تضيف الآية التالية: وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۹

لقد جمعت هذه الآية كلّ أسس الإيمان و سلوكيات المؤمن، فمن جهة عنصر الإيمان و الإعتقاد باللّه و الرّسول و اليوم الآخر، و من جهة اخرى البرنامج العملى و كون الإنسان فى صفّ المحسنين و المحسنات، و بناء على هذا فإنّ إظهار عشق اللّه و حبّه، و التعلّق بالنّبى و اليوم الآخر لا يكفى لوحده، بل يجب أن تنسجم البرامج العملية مع هذا الحبّ و العشق.

و بهذا فقد بيّن اللّه سبحانه تكليف نساء النّبى و واجبهنّ فى أن يكنّ قدوة و أسوة للمؤمنات على الدوام، فإن هنّ تحلين بالزهد و عدم الاهتمام بزخارف الدنيا و زينتها، و اهتممن بالإيمان و العمل الصالح و تسامى الروح، فإنّهن يبقين أزواجا للنبى و يستحقّنّ هذا الفخر، و إلّا فعليهنّ مفارقته و البون منه.

و مع أنّ المخاطب فى هذه الآية هو نساء النّبى إلّا أنّ محتوى الآيات و نتيجتها تشمل الجميع، و خاصّة من كان فى مقام قيادة الناس و إمامتهم و أسوة لهم، فإنّ هؤلاء على مفترق الطرق دائما، فإمّا أن يستغلّوا المنصب الظاهرى للوصول إلى الحياة المادية المرفّهة، أو البقاء على حرمانهم لنوال رضى اللّه سبحانه و هداية خلقه.

ثمّ تتناول الآية التالية بيان موقع نساء النّبى أمام الأعمال الصالحة و الطالحة، و كذلك مقامهنّ الممتاز، و مسئولياتهنّ الضخمة بعبارات واضحة، فتقول: يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.

فأنتنّ تعشن فى بيت الوحى و مركز النبوّة، و علمكنّ بالمسائل الإسلامية أكثر من عامّة الناس لارتباطكنّ المستمر بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و لقائه، إضافة إلى أنّ الآخرين ينظرون إليكنّ و يتّخذون أعمالكنّ نموذجا و قدوة لهم. بناء على هذا فإنّ ذنبكنّ أعظم عند اللّه، لأنّ الثواب و العقاب يقوم على أساس المعرفة، و معيار العلم، و كذلك مدى تأثير ذلك العمل فى البيئة، فإنّ لكنّ حظّا أعظم من العلم، و لكنّ موقع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۰

حسّاس له تأثيره فى المجتمع.

و يضاف إلى ذلك أنّ مخالفتكنّ تؤذى النّبى صلّى اللّه عليه و آله من جهة، و من جهة اخرى توجّه ضربة إلى كيانه و مركزه، و يعتبر هذا بحدّ ذاته ذنبا آخر، و يستوجب عذابا آخر.

و المراد من «الفاحشة المبيّنة» الذنوب العلنية، و نعلم أنّ المفاسد التى تنجم عن الذنوب التى يقترفها أناس مرموقون تكون أكثر حينما تكون علنية.

و لنا بحث فى مورد «الضعف» و «المضاعف» سيأتى فى البحوث.

أمّا قوله عزّ و جلّ: وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً فهو إشارة إلی أن لا تظنّن أنّ عذابکنّ و عقابکنّ عسیر علی اللّه تعالی، و أنّ علاقتکنّ بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله ستکون مانعة منه، کما هو المتعارف بین الناس حیث یغضّون النظر عن ذنوب الأصدقاء و الأقرباء، أو یعیرونها أهمیّة قلیلة .. کلّا، فإنّ هذا الحکم سیجری فی حقّکنّ بکلّ صرامة.

أمّا فی الطرف المقابل، فتقول الآیة: وَ مَنْ یَقْنُتْ مِنْکُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَیْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً کَرِیماً.

«یقنت» من القنوت، و هو یعنی الطاعة المقرونة بالخضوع و الأدب ۲۰۰]، و القرآن یرید بهذا التعبیر أن یأمرهنّ بأن یطعن اللّه و رسوله، و یراعین الأدب مع ذلک تماما.

و نواجه هنا هذه المسألة مرّة اخری، و هی أنّ مجرّد ادّعاء الإیمان و الطاعة لا یکفی لوحده، بل یجب أن تلمس آثاره بمقتضی وَ تَعْمَلْ صالِحاً.

«الرزق الکریم» له معنی واسع یتضمّن کلّ المواهب المادیة و المعنویة، و تفسیره بالجنّة باعتبارها مجمعا لکلّ هذه المواهب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۱

بحث

لما ذا یضاعف ثواب و عقاب المرموقین؟

قلنا: إنّ هذه الآیات و إن کانت تتحدّث عن نساء النّبی بأنّهنّ إن أطعن اللّه فلهنّ أجر مضاعف، و إن ارتکبن ذنبا مبیّنا فلهنّ عذاب الضعف بما اکتسبن، إلّا أنّ الملاک و المعیار الأصلی لما کان امتلاک المقام و المکانة المرموقة، و الشخصیة الاجتماعیة البارزة، فإنّ هذا الحکم صادق فی حقّ الأفراد الآخرین الذین لهم مکانة و مرکز اجتماعی مهمّ.

إنّ مثل هؤلاء الأفراد لا یرتبط سلوکهم و تصرفاتهم بهم خاصّة، بل إنّ لوجودهم بعدین: بعد یتعلّق بهم، و بعد یرتبط بالمجتمع، و یمکن أن یکون نمط حیاتهم سببا لهدایة جماعة من الناس، أو ضلال اخری.

بناء علی هذا فإنّ لأعمالهم أثرین: أحدهما فردی، و الآخر اجتماعی، و لکلّ منهما ثواب و عقاب بهذا اللحاظ، و لذلک نقرأ فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «یغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن یغفر للعالم ذنب واحد»[۲۰۱]!

و مضافا إلی ذلک، فإنّ العلاقة وثیقة بین مستوی العلمیة و مقدار الثواب و العقاب، کما ورد ذلک فی بعض الأحادیث الشریفة، حیث نقرأ:

«إنّ الثواب علی قدر العقل»[۲۰۲].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام: «إنّما یداقّ اللّه العباد فی الحساب یوم القیامة علی قدر ما آتاهم من العقول فی الدنیا»[۲۰۳].

بل

ورد فی روایة عن الإمام الصادق علیه السّلام: إذا بلغت النفس هاهنا- و أشار بیده إلی حلقه- لم یکن للعالم توبة، ثمّ قرأ: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَی اللَّهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۲

[۲۰۴].

و من هنا يتّضح أنّه ربّما كان معنى المضاعف و المرتين هنا هو الزيادة، فقد تكون ضعفين حينا، و تكون أضعافا مضاعفة حينا آخر، تماما كما فى الأعداد التى لها صفة التكثير، خاصّة و أنّ الراغب يقول فى مفرداته فى معنى الضعف:

ضاعفته: ضممت إليه مثله فصاعدا- تأمّلوا بدقّة- و الرواية التى ذكرناها قبل قليل حول التفاوت بين ذنب العالم و الجاهل إلى سبعين ضعفا شاهد آخر على هذا الادّعاء.

إنّ تعدّد مراتب الأشخاص و اختلاف تأثيرهم فى المجتمع نتيجة اختلاف مكاناتهم الاجتماعية، و كونهم أسوة يوجب أن يكون الثواب و العقاب الإلهى بتلك النسبة.

و ننهى هذا البحث بحديث

عن الإمام السجّاد علىّ بن الحسين عليهما السّلام، و ذلك أنّ رجلا قال له: إنّكم أهل بيت مغفور لكم، فغضب الإمام و قال: «نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى اللّه فى أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله من أن نكون كما تقول، إنّا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر، و لمسيئنا ضعفين من العذاب، ثمّ قرأ الآيتين»[۲۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۳

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

اشارة

يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۳۲) وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (۳۳) وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (۳۴)

التّفسير

هكذا يجب أن تكون نساء النّبى!

كان الكلام فى الآيات السابقة عن موقع نساء النّبى و مسئولياتهنّ الخطيرة، و يستمرّ هذا الحديث فى هذه الآيات، و تأمر الآيات نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله بسبعة أوامر مهمّة.

فيقول سبحانه فى مقدّمة قصيرة: يا- نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۴

اتَّقَيْتُنَّ فإنّ انتسابكنّ إلى النّبى من جانب، و وجودكنّ فى منزل الوحى و سماع آيات القرآن و تعليمات الإسلام من جانب آخر، قد منحكن موقعا خاصّا بحيث تقدرن على أن تكن نموذجا و قدوة لكلّ النساء، سواء كان ذلك فى مسير التقوى أم مسير المعصية، و بناء على هذا ينبغى أن تدركن موقعكنّ، و لا تنسين مسئولياتكنّ الملقاة على عاتقكنّ، و اعلمن أنّكنّ إن اتقيتنّ فلكنّ عند اللّه المقام المحمود.

و بعد هذه المقدّمة التى هيّأتهنّ لتقبّل المسؤوليات و تحمّلها، فإنّه تعالى أصدر أوّل أمر فى مجال العفّة، و يؤكّد على مسألة دقيقة لتتّضح المسائل الاخرى فى هذا المجال تلقائيا، فيقول:

فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ بل تكلّمن عند تحدثكنّ بجدّ و بأسلوب عادیّ، لا كالنساء المتميّعات اللائی يسعين من خلال حديثهنّ المليء بالعبارات المحرّكة للشهوة، و التی قد تقترن بترخيم الصوت و أداء بعض الحركات المهيّجة، أن يدفعن ذوی الشهوات إلى الفساد و ارتكاب المعاصی.

إنّ التعبير ب الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ تعبير بليغ جدّا، و مؤدّ لحقيقة أنّ الغريزة الجنسية عند ما تكون فی حدود الاعتدال و المشروعية فهی عين السلامة، أمّا عند ما تتعدّى هذا الحدّ فإنّها ستكون مرضا قد يصل إلى حدّ الجنون، و الذی يعبّرون عنه بالجنون الجنسی، و قد فصّل العلماء اليوم أنواعا و أقساما من هذا المرض النفسی الذی يتولّد من طغيان هذه الغريزة، و الخضوع للمفاسد الجنسية و البيئات المنحطّة الملوّثة.

و يبيّن الأمر الثّانی فی نهاية الآية فيقول عزّ و جلّ: يجب عليكنّ التحدّث مع الآخرين بشكل لائق و مرضی للّه و رسوله، و مقترنا مع الحقّ و العدل: وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً.

إنّ جملة فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ إشارة إلى طريقة التحدّث، و جملة: وَ قُلْنَ قَوْلًا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۵

مَعْرُوفاً إشارة إلى محتوى الحديث.

«القول المعروف» له معنى واسع يتضمّن كلّ ما قيل، إضافة إلى أنّه ينفی كلّ قول باطل لا فائدة فيه و لا هدف من ورائه، و كذلك ينفی المعصية و كلّ ما خالف الحقّ.

ثمّ إنّ الجملة الأخيرة قد تكون توضيحا للجملة الأولى لئلّا يتصوّر أحد أنّ تعامل نساء النّبی مع الأجانب يجب أن يكون مؤذيا و بعيدا عن الأدب الإسلامی، بل يجب أن يتعاملن بأدب يليق بهنّ، و فی الوقت نفسه يكون خاليا من كلّ صفة مهيّجة.

ثمّ يصدر الأمر الثالث فی باب رعاية العفّة، فيقول: وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى

«قرن» من مادّة الوقار، أی الثقل، و هو كناية عن التزام البيوت. و احتمل البعض أن تكون من مادّة (القرار)، و هی لا- تختلف عن المعنى الأوّل كثيرا[۲۰۶].

و «التبرّج» يعنی الظهور أمام الناس، و هو مأخوذ من مادّة (برج)، حيث يبدو و يظهر لأنظار الجميع.

لكن ما هو المراد من «الجاهلية»؟

الظاهر أنّها الجاهلية التی كانت فی زمان النّبی صلّى اللّه عليه و آله، و لم تكن النساء محجّبات حينها كما ورد فی التواريخ، و كنّ يلقين أطراف خمرهن على ظهورهنّ مع إظهار نحورهنّ و جزء من صدورهنّ و أقراطهنّ و قد منع القرآن الكريم أزواج النّبی من مثل هذه الأعمال.

و لا شكّ أنّ هذا الحكم عامّ، و التركيز على نساء النّبی من باب التأكيد الأشدّ، تماما كما نقول لعالم: أنت عالم فلا تكذب، فلا يعنی هذا أنّ الكذب مجاز و مباح

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۶

للآخرين، بل المراد أنّ العالم ينبغی أن يتّقی هذا العمل بصورة آكد.

إنّ هذا التعبير يبيّن أنّ جاهلية اخرى ستأتی كالجاهلية الاولى التی ذكرها القرآن، و نحن نرى اليوم آثار هذا التنبّؤ القرآنی فی عالم التمدّن المادّی، إلّا أنّ المفسّرين القدامى لم يتنبّؤوا و يعلموا بمثل هذا الأمر، لذلك فقد جهدوا فی تفسير هذه الكلمة، و لذلك اعتبر البعض منهم الجاهلية الاولى هی الفاصلة بين «آدم» و «نوح»، أو الفاصلة بين عصر «داود» و «سليمان» حيث كانت النساء تخرج بثياب يتّضح منها البدن، و فسّروا الجاهلية العربية قبل الإسلام بالجاهلية الثّانية! و لكن لا حاجة إلى هذه الكلمات كما قلنا، بل الظاهر أنّ الجاهلية الاولى هی الجاهلية قبل الإسلام، و التی أشير إليها فی موضع آخر من القرآن الكريم- فی الآية (۱۴۳) من سورة آل عمران،

و الآية (۵۰) من سورة المائدة، و الآية (۲۶) من سورة الفتح- و الجاهلية الثّانية هى الجاهلية التى ستكون فيما بعد، كجاهلية عصرنا. و سنبسط الكلام حول هذا الموضوع فى بحث الملاحظات.

و أخير يصدر الأمر الرابع و الخامس و السادس، فيقول سبحانه: وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

إذا كانت الآية قد أكّدت على الصلاة و الزكاة من بين العبادات، فإنّما ذلك لكون الصلاة أهمّ وسائل الاتّصال و الارتباط بالخالق عزّ و جلّ، و تعتبر الزكاة علاقة متينة بخلق اللّه، و هى فى الوقت نفسه عبادة عظيمة. و أمّا جملة: أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فإنّه حكم كلّى يشمل كلّ البرامج الإلهية.

إنّ هذه الأوامر الثلاثة تشير إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست مختّصة بنساء النّبى، بل هى للجميع، و إن أكّدت عليهنّ.

و يضيف اللّه سبحانه فى نهاية الآية: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

إنّ التعبير ب (إنّما) و الذى يدلّ على الحصر عادة- دليل على أنّ هذه المنقبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۷

خاصّة بأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله. و جملة (يريد) إشارة إلى إرادة اللّه التكوينية، و إلّا فإنّ الإرادة التشريعية- و بتعبير آخر لزوم تطهير أنفسهم- لا تنحصر بأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله، فإنّ كلّ الناس مكلّفون بأن يتطهّروا من كلّ ذنب و معصية.

من الممكن أن يقال: إنّ الإرادة التكوينية توجب أن يكون ذلك جبرا، إلّا أنّ جواب ذلك يتّضح من ملاحظة البحوث التى أوردناها فى مسألة كون الأنبياء و الأئمّة معصومين، و يمكن تلخيص ذلك هنا بأنّ للمعصومين أهلية اكتسابية عن طريق أعمالهم، و لهم لياقة ذاتية موهوبة لهم من قبل اللّه سبحانه، ليستطيعوا أن يكونوا أسوة للناس.

و بتعبير آخر فإنّ المعصومين نتيجة للرعاية الإلهية و أعمالهم الطاهرة، لا يقدمون على المعصية مع امتلاكهم القدرة و الإختيار فى إتيانها، تماما كما لا نرى عاقلا يرفع جمرة من النار و يضعها فى فمّه، مع أنّه غير مجبر و لا مكره على الامتناع عن هذا العمل، فهذه الحالة تنبعث من أعماق وجود الإنسان نتيجة المعلومات و الاطلاع، و المبادئ الفطرية و الطبيعية، من دون أن يكون فى الأمر جبر و إكراه.

و لفظة «الرجس» تعنى الشيء القذر، سواء كان نجسا و قذرا من ناحية طبع الإنسان، أو بحكم العقل أو الشرع، أو جميعها[۲۰۷]. و ما ورد فى بعض الأحيان من تفسير «الرجس» بالذنب أو الشرك أو البخل و الحسد، أو الإعتقاد بالباطل، و أمثال ذلك، فإنّه فى الحقيقة بيان لمصاديقه، و إلّا فإنّ مفهوم هذه الكلمة عامّ و شامل لكلّ أنواع الحماقات بحكم (الألف و اللام) التى وردت هنا، و التى تسمّى بألف و لام الجنس.

و «التطهير» الذى يعنى إزالة النجس، هو تأكيد على مسألة إذهاب الرجس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۸

و نفى السيّئات، و يعتبر ذكره هنا بصيغة المفعول المطلق تأكيدا آخر على هذا المعنى.

و أمّا تعبير أَهْلَ الْبَيْتِ فإنّه إشارة إلى أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله باتّفاق علماء الإسلام و المفسّرين، و هو الشيء الذى يفهم من ظاهر الآية، لأنّ البيت و إن ذكر هنا بصيغة مطلقة، إلّا أنّ المراد منه بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله بقرينة الآيات السابقة و اللاحقة[۲۰۸].

إلّا أنّ هناك اختلافا فى المقصود بأهل بيت النّبى هنا؟

اعتقد البعض أنّ هذا التعبير مختصّ بنساء النّبى، لأنّ الآيات السابقة و اللاحقة تتحدّث حول أزواج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، فاعتبروا ذلك قرينة على مدّعاهم.

غير أنّ الانتباه إلى مسألة فى الآية ينفى هذا الادّعاء، و هى: أنّ الضمائر التى وردت فى الآيات السابقة و اللاحقة، جاءت بصيغة ضمير

النسوة، فى حين أنّ ضمائر هذه القطعة من الآية قد وردت بصيغة جمع المذكر، و هذا يوحى بأنّ هناك معنى آخر هو المراد، و لذلك خطا جمع آخر من المفسّرين خطوة أوسع و اعتبر الآية شاملة لكلّ أفراد بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله رجالا و نساء.

و من جهة اخرى فإنّ الرّوايات الكثيرة جدّا الواردة فى كتب الفريقين تنفى شمول الآية لكلّ أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و تقول: إنّ المخاطبين فى الآية هم خمسة أفراد فقط، و هم: محمّد صلّى اللّه عليه و آله و على و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام و مع وجود النصوص الكثيرة التى تعتبر قرينة على تفسير الآية، فإنّ التّفسير الذى يمكن قبوله هو التّفسير الثالث فقط، أى اختصاص الآية بالخمسة الطيّبة.

و السؤال الوحيد الذى يبقى هنا هو: كيف يمكن أن يطرح مطلب فى طيّات البحث فى واجبات نساء النّبى و لا يشملهنّ هذا المطلب؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۹

و قد أجاب المفسّر الكبير العلّامة «الطبرسى» فى مجمع البيان عن هذا السؤال فقال: ليست هذه المرّة الاولى التى نرى فيها فى آيات القرآن أن تتّصل مع بعضها و تتحدّث عن مواضيع مختلفة، فإنّ القرآن مليء بمثل هذه البحوث، و كذلك توجد شواهد كثيرة على هذا الموضوع فى كلام فصحاء العرب و أشعارهم.

و أضاف المفسّر الكبير صاحب الميزان جوابا آخر ملخّصه: لا دليل لدينا على أنّ جملة: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ... قد نزلت مع هذه الآيات، بل يستفاد جيّدا من الرّوايات أنّ هذه القطعة قد نزلت منفصلة، و قد وضعها الإمام مع هذه الآيات لدى جمعه آيات القرآن فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أو بعده.

و الجواب الثالث الذى يمكن أن يجاب به عن هذا السؤال هو: أنّ القرآن يريد أن يقول لزوجات النّبى: إنكنّ بين عائلة بعضها معصومون، و الذى يعيش فى ظلّ العصمة و منزل المعصومين فإنّه ينبغى له أن يراقب نفسه أكثر من الآخرين، و لا تنسين أنّ انتسابكنّ إلى بيت فيه خمسة معصومين يلقى على عاتقكنّ مسئوليات ثقيلة، و ينتظر منه اللّه و عباده انتظارات كثيرة.

و سنبحث فى الملاحظات القادمة- إن شاء اللّه تعالى- روايات السنّة و الشيعة الواردة فى تفسير هذه الآية.

و بيّنت الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- سابع وظيفة و آخرها من وظائف نساء النّبى، و نبّهتهن على ضرورة استغلال أفضل الفرص التى تتاح لهنّ فى سبيل الإحاطة بحقائق الإسلام و العلم بها و بأبعادها، فتقول: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ.

فإنكنّ فى مهبط الوحى، و فى مركز نور القرآن، فحتّى إذا جلستن فى البيوت فأنتنّ قادرات على أن تستفدن جيّدا من الآيات التى تدوّى فى فضاء بيتكنّ، و من تعليمات الإسلام و حديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله الذى كان يتحدّث به، فإنّ كل نفس من أنفاسه درس، و كلّ لفظ من كلامه برنامج حياة! و فيما هو الفرق بين «آيات اللّه» و «الحكمة»؟ قال بعض المفسّرين: إنّ كليهما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۰

إشارة إلى القرآن، غاية ما فى الأمر أنّ التعبير ب (الآيات) يبيّن الجانب الإعجازى للقرآن، و التعبير ب (الحكمة) يتحدّث عن المحتوى العميق و العلم المخفى فيه.

و قال البعض الآخر: إنّ «آيات اللّه» إشارة إلى آيات القرآن، و «الحكمة» إشارة إلى سنّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله مواعظه و إرشاداته الحكيمة.

و مع أنّ كلا التّفسيرين يناسب مقام و ألفاظ الآية، إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب، لأنّ التعبير بالتلاوة يناسب آيات اللّه أكثر، إضافة إلى أنّ تعبير النّزول قد ورد فى آيات متعدّدة من القرآن فى مورد الآيات و الحكمة، كالآية (۲۳۱) من سورة البقرة: وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ و يشبهه ما جاء فى الآية (۱۱۳) من سورة النساء.

و أخيرا تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً و هى إشارة إلى أنّه سبحانه مطّلع على أدقّ الأعمال و أخفاها، و يعلم نيّاتكم تماما، و هو

خبير بأسراركم الدفينة فى صدوركم.

هذا إذا فسّرنا «اللطيف» بالمطّلع على الدقائق و الخفيات، و أمّا إذا فسّر بصاحب اللطف، فهو إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه لطيف و رحيم بكنّ يا نساء النّبى، و هو خبير بأعمالكنّ أيضا.

و يحتمل أيضا أن يكون التأكيد على «اللطيف» من جانب إعجاز القرآن، و على «الخبير» باعتبار محتواه الحكمى. و فى الوقت نفسه لا منافاة بين هذه المعانى و يمكن جمعها.

بحوث

۱- آية التطهير برهان واضح على العصمة:

اعتبر بعض المفسّرين «الرجس» فى الآية المذكورة إشارة إلى الشرك أو الكبائر- كالزنا- فقط، فى حين لا يوجد دليل على هذا التحديد، بل إنّ إطلاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۱

الرجس- و خاصّة بملاحظة ألفه و لامه، و هى ألف لام الجنس- يشمل كلّ أنواع الذنوب و المعاصى، لأنّ كلّ المعاصى رجس، و لذلك فإنّ هذه الكلمة أطلقت فى القرآن على الشرك و الخمور و القمار و النفاق و اللحوم المحرّمة و النجسة و أمثال ذلك.

انظر الآيات: الحجّ- ۳۰، المائدة- ۹۰، التوبة- ۱۲۵، الأنعام- ۱۴۵.

و بملاحظة أنّ الإرادة الإلهيّة حتمية التنفيذ و الوقوع، و أنّ جملة: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ دليل على إرادته الحتمية، و خاصّة بوجود كلمة (إنّما) الدالّة على الحصر و التأكيد، سيتّضح أنّ إرادة اللّه سبحانه قد قطعت بأن يكون أهل البيت منزّهين عن كلّ رجس و خطأ، و هذا هو مقام العصمة.

و ثمّة مسألة تستحقّ الانتباه، و هى أنّه ليس المراد من الإرادة الإلهيّة فى هذه الآية الأوامر و الأحكام الإلهيّة فى مسائل الحلال و الحرام، لأنّ هذه الأحكام تشمل الجميع، و لا تختّص بأهل البيت، و بناء على هذا فإنّها لا تتناسب مع مفهوم (إنّما).

إذن، فهذه الإرادة المستمرّة نوع من الإمداد الإلهى الذى يعيّن أهل أهل البيت على العصمة و الاستمرار فيها، و هى فى الوقت نفسه لا تنافى حرية الإرادة و الإختيار، كما فصّلنا ذلك سابقا.

إنّ مفهوم هذه الآية فى الحقيقة هو عين ما

جاء فى الزيارة الجامعة: «عصمكم اللّه من الزلل، و آمنكم من الفتن، و طهّركم من الدنس و أذهب عنكم الرجس و طهّركم تطهيرا».

و ينبغى أن لا نشكّ بعد هذا الإيضاح فى دلالة الآية المذكورة على عصمة أهل البيت عليهم السّلام.

۲- فيمن نزلت آية التطهير؟

قلنا: إنّ هذه الآية بالرغم من أنّها وردت ضمن الآيات المتعلّقة بنساء النّبى، إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۲

أنّ تغيير سياقها- حيث تبدّل ضمير الجمع المؤنث إلى ضمير الجمع المذكّر- دليل على أنّ لهذه الآية معنى و محتوى مستقلا عن تلك الآيات، و لهذا فحتّى أولئك الذين لم يعتبروا الآية مختّصة بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و على و فاطمة و الحسن و الحسين

عليهم السّلام، فإنّهم اعتقدوا أنّ لها معنى واسعا يشمل هؤلاء العظام و نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

إلّا أنّ الرّوايات الكثيرة التى بين أيـدينا تبيّن أنّ هـذه الآيـة خاصّـة بهؤلاء الأجلّاء، و لا تـدخل الزوجات ضـمن الآيـة، بالرغم من أنهنّ يتمتّعن باحترام خاصّ، و نضع بين أيديكم بعضا من هذه الروايات:

أ: الرّوايـات التى رويت عن أزواج النّبى صـلّى اللّه عليه و آله أنفسـهنّ، و التى حـدثن فيها: إنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله عنـد ما كل يتحدّث عن هذه الآية الشريفة سألناه: أ نحن من أصحاب هذه الآية؟ فكان يجيب: بأنكنّ إلى خير، و لكن لستنّ من أصحابها.

و من جملتها الرواية التى

رواها «الثعلبى» عن «امّ سلمة» فى تفسيره، و ذلك أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان فى بيتها إذ أتته فاطمة عليها السّلام بقطعة حرير، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «ادعى لى زوجك و ابنيك- الحسن و الحسين-» فأتت به فطعموا، ثمّ ألقى عليهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله كساء له خيبريا و قال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتى و عترتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا» فنزلت آية التطهير، فقلت: يا رسول اللّه و أنا معهم؟ قال: «إنّك إلى خير» و لكنّك لست منهم ۲۰۹].

و يروى «الثعلبى» أيضا عن «عائشة» أنّها عند ما سئلت عن حرب الجمل و تدخّلها فى تلك الحرب المدمّرة الطاحنة، قالت بأسف: كان ذلك قضاء اللّه.

و

عند ما سئلت عن على عليه السّلام قالت: تسألنى عن أحبّ الناس كان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و زوج أحبّ الناس كان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله؟ لقد رأيت عليا و فاطمة و حسنا و حسينا عليهم السّلام، و جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بثوب عليهم ثمّ قال: «اللهمّ هؤلاء أهل

بيتى و حامتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا» قالت: فقلت: يا رسول اللّه، أنا من أهلك! قال: «تنحّى فإنّك إلى خير»[۲۱۰]- إلّا أنّك لست جزءا منهم-.

إنّ هذه الرّوايات تصرّح أنّ زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله لسن جزءا من أهل البيت فى هذه الآية.

ب: لقد

وردت روايات كثيرة جدّا بصورة مجملة فى شأن حديث الكساء، يستفاد منها جميعا أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله دعا عليا و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام- أو أنّهم أتوا إليه- فألقى عليهم عباءة و قال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا»، فنزلت الآية: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ....

و قد روى العالم المعروف «الحاكم الحسكانى النيسابورى» هذه الروايات فى (شواهد التنزيل) بطرق مختلفة عن رواة مختلفين ۲۱۱].

و هنا سؤال يلفت النظر، و هو: ماذا كان الهدف من جمعهم تحت الكساء؟

كأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان يريد أن يحدّد هؤلاء و يعرّفهم تماما، و يقول: إنّ الآية أعلاه فى حقّ هؤلاء خاصّة، لئلّا يرى أحد أو يظنّ ظانّ أنّ المخاطب فى هذه الآية كلّ من تربطه بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله قرابة، و كلّ من يعدّ جزءا من أهله، حتّى جاء فى بعض الرّوايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد كرّر هذه الجملة ثلاث مرّات:

«اللهمّ هؤلاء أهل بيتى و خاصّتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا»[۲۱۲].

ج: نقرأ فى روايات عديدة اخرى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله بقى ستّة أشهر بعد نزول هذه الآية ينادى عند مروره من جنب بيت فاطمة سلام اللّه عليها و هو ذاهب إلى صلاة الصبح:

«الصلاة يا أهل البيت! إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا». و قد روى الحاكم الحسكانى هذا الحديث عن أنس بن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۴

مالك ۲۱۳].

و روى ابن عبّاس أيضا هذا الحديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله ۲۱۴].

و هنا مسألة تستحقّ الانتباه، و هى أنّ تكرار هذه الأمر ستّة أشهر أو ثمانية أو تسعة أشهر بصورة مستمرّة جنب بيت فاطمة إنّما هو لبيان هذه المسألة تماما لئلّا يبقى مجال للشكّ لدى أىّ شخص بأنّ هذه الآية قد نزلت فى شأن هؤلاء النفر فقط، خاصّة و أنّ الدار الوحيدة التى بقى بابها مفتوحا إلى داخل المسجد بعد أن أمر اللّه نبيّه بأن تغلق جميع أبواب بيوت الآخرين، هى دار فاطمة عليها السّلام، و لا شكّ أنّ جماعة من الناس كانوا يسمعون ذلك القول من النّبى صلّى اللّه عليه و آله حين الصلاة هناك- تأمّلوا ذلك-.

و مع ذلك، فإنّ ممّا يثير العجب أنّ بعض المفسّرين يصرّون على أنّ للآية معنى عامّا تدخل فيه أزواج النّبى، بالرغم من أنّ أكثر علماء الإسلام، السنّة منهم و الشيعة، قد حدّدوها بهؤلاء الخمسة.

و ممّا يستحقّ الالتفات أنّ عائشة- زوجة النّبى لم تكن تدع شيئا فى ذكر فضائلها، و دقائق علاقتها بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله بشهادة الروايات الإسلامية، فإذا كانت هذه الآية تشملها فلا بدّ أنّها كانت ستتحدّث بها فى المناسبات المختلفة، فى حين لم يرو شىء من ذلك عنها مطلقا.

د: رويت روايات عديدة عن الصحابى المعروف «أبى سعيد الخدرى» تشهد بصراحة بأنّ هذه الآية قد نزلت فى شأن هؤلاء الخمسة الأطهار: «نزلت فى خمسة: فى رسول اللّه، و على، و فاطمة، و الحسن، و الحسين»[۲۱۵]. و هذه الرّوايات كثيرة بحيث عدّها بعض المحقّقين متواترة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۵

و ممّا قلناه نستنتج أنّ المصادر و رواة الأحاديث التى تدلّ على اختصاص الآية بالخمسة المطهّرة و حصرها بهم كثيرة بحيث لا تدع لأحد المجال للشكّ فى هذه الدلالة، حتّى أنّه ذكر فى شرح (إحقاق الحقّ) أكثر من سبعين مصدرا من مصادر العامّة المعروفة، و أمّا مصادر الشيعة فى هذا الباب فتربو على الألف ۲۱۶]. و قد روى صاحب كتاب (شواهد التنزيل)- و هو من علماء الإخوة السنّة المشهورين- أكثر من (۱۳۰) حديثا فى هذا الموضوع ۲۱۷].

و بغضّ النظر عن كلّ ذلك، فإنّ بعض أزواج النّبى قد قمن بأعمال طوال حياتهنّ تخالف مقام العصمة، و لا تناسب كونهنّ معصومات، كحادثة «حرب الجمل» التى كانت ثورة و خروجا على إمام الزمان، و التى تسبّبت فى إراقة دماء كثيرة، فقد بلغ عدد القتلى فى هذه الحرب- عند بعض المؤرخّين- سبعة عشر ألف قتيل.

و لا شكّ أنّ هذه المعركة لا يمكن توجيهها، بل إنّنا نرى أنّ عائشة نفسها قد أظهرت الندم بعدها، و قد مرّ نموذج من هذا الندم فى البحوث السابقة.

إنّ انتقاص عائشة من خديجة- و التى هى من أعظم نساء المسلمين، و أكثر هنّ تضحية و إيثارا، و أجلّهنّ فضيلة و قدرا- مشهور فى تاريخ الإسلام، و قد آلم هذا الكلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله حتّى ظهرت على وجهه الشريف آثار الغضب و

قال: «لا و اللّه ما أبدلنى اللّه خيرا منها، آمنت بى إذ كفر الناس، و صدّقتنى إذ كذّبنى الناس، و واستنى فى مالها إذ حرمنى الناس»[۲۱۸].

۳- هل أن الإرادة الإلهية هنا تكوينية أم تشريعية؟

مرّت الإشارة فى طيّات تفسير هذه الآية إلى هذا الموضوع، و قلنا: إنّ الإرادة

فى جملة: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ إرادة تكوينية لا تشريعية.

و لمزيد التوضيح ينبغى أن نذكّر بأنّ المراد من «الإرادة التشريعية» هى أوامر اللّه و نواهيه، فنعلم مثلا أنّ اللّه سبحانه يريد منّا أداء الصلاة و الصوم و الحجّ و الجهاد، و هذه إرادة تشريعية. و من المعلوم أنّ الإرادة التشريعية تتعلّق بأفعالنا لا بأفعال اللّه عزّ و جلّ. فى حين أنّ الآية أعلاه تتعلّق بأفعال اللّه سبحانه، فهى تقول:

إنّ اللّه أراد أن يذهب عنكم الرجس، و بناء على هذا فإنّ مثل هذه الإرادة يجب أن تكون تكوينية، و مرتبطة بإرادة اللّه سبحانه فى عالم التكوين.

إضافة إلى ذلك، فإنّ مسألة الإرادة التشريعية فيما يتعلّق بالتقوى و العفّة لا تنحصر بأهل البيت عليهم السّلام، لأنّ اللّه قد أمر الجميع بالتقوى و التطهّر من الذنوب، و بذلك لا تكون لهم مزيّة و خاصيّة، لأنّ كلّ المكلّفين مشمولون بهذا الأمر.

و على أيّة حال، فإنّ هذا الموضوع- أى الإرادة التشريعيّة- مضافا إلى أنّه لا يناسب ظاهر الآية، فانّه لا يتناسب مع الأحاديث السابقة بأىّ وجه من الوجوه، لأنّ كلّ تلك الأحاديث تتحدّث عن فضيلة سامية و هبة مهمّة خاصّة بأهل البيت عليهم السّلام.

و من المسلّم أيضا أنّ «الرجس» هنا لا يعنى الرجس الظاهرى، بل هو إشارة إلى الأرجاس الباطنية، و إطلاق هذه الكلمة ينفى انحصارها و كونها محدودة بالشرك و الكفر و الأعمال المنافية للعفّة و أمثال ذلك، فإنّها تشمل كلّ الذنوب و المعاصى و المفاسد العقائدية و الأخلاقية و العملية.

و المسألة الاخرى التى ينبغى الالتفات إليها بدقّة هى أنّ الإرادة التكوينية التى تعنى الخلقة و الإيجاد، تعنى هنا «المقتضى» لا العلّة التامّة لتكون موجبة للجبر و سلب الإختيار.

و توضيح ذلك، إنّ مقام العصمة يعنى حالة تقوى اللّه التى توجد عند الأنبياء و الأئمّة بمعونة اللّه سبحانه، لكن وجود هذه الحالة لا يعنى أنّهم غير قادرين على

ارتكاب المعصية، بل إنّهم قادرون على إتيانها، غير أنّهم يعفّون أنفسهم و يجلّونها عن التلوّث بها باختيارهم، و يغضّون الطرف عنها طوعا، تماما كالطبيب الحاذق الذى لا يتناول مطلقا مادّة سمّية جدّا و هو يعلم الأخطار التى تنجم عن تناولها، و مع أنّه قادر على تناولها، إلّا أنّ علومه و اطلاعه و مبادئه الفكرية و الروحية تدفعه إلى الامتناع إراديا و اختيارا عن هذا العمل.

و يجب التذكير بهذه المسألة، و هى أنّ هذه التقوى موهبة خاصّة منحت للأنبياء لا للآخرين، لكن اللّه سبحانه قد منحهم إيّاها للمسؤوليات الثقيلة الخطيرة الملقاة على عاتقهم فى قيادة الناس و إرشادهم، و بناء على هذا فإنّه امتياز يعود نفعه على الجميع، و هذه عين العدالة، تماما كالامتياز الخاصّ الذى منحه اللّه لطبقات العين و أغشيتها الرقيقة و الحسّاسة جدّا، و التى يستفيد منها جميع البدن.

إضافة إلى أنّ الأنبياء تعظم مسئولياتهم و واجباتهم بنفس المقدار الذى يتمتّعون بهذا المواهب الإلهية و الامتيازات، فإنّ ترك الاولى من قبلهم يعادل ذنبا كبيرا يصدر من الناس العاديين، و هذا معيار و تشخيص لخطّ العدالة.

و النتيجة أنّ هذه الإرادة إرادة تكوينية فى حدود المقتضى- و ليست علّة تامّة- و هى فى الوقت نفسه لا توجب الجبر و لا تسلب الإختيار و الإرادة الإنسانية.

۴- جاهلية القرن العشرين!

مرّت الإشارة إلى أنّ جمعا من المفسّرين تورّطوا فى تفسير (الجاهلية الاولى) و كأنّهم لم يقدروا أن يصدّقوا ظهور جاهلية اخرى فى العالم بعد ظهور الإسلام، و أنّ جاهلية العرب قبل الإسلام ضئيلة تجاه الجاهلية الجديدة، إلّا أنّ هذا الأمر قد تجلّى للجميع اليوم، حيث نرى مظاهر جاهلية القرن العشرين المرعبة، و يجب أن تعدّ تلك إحدى تنبؤات القرآن الإعجازية.

إذا كان العرب فى زمان الجاهلية يغيرون و يحاربون، و إذا كان سوق عكاظ-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۸

مثلا- ساحة لسفك الدماء لأسباب تافهة عدّة مرّات، و قتل على أثرها أفراد معدودون، فقد وقعت فى جاهلية عصرنا حروب ذهب ضحيّتها عشرون مليون إنسان، و جرح و تعوّق أكثر من هذا العدد! و إذا كانت النساء «تتبرّج» فى زمن الجاهلية و يلقين خمرهنّ عن رؤوسهن بحيث كان يظهر جزء من صدورهنّ و نحورهنّ، و قلائدهنّ و أقراطهنّ، ففى عصرنا تشكّل نواد تسمّى بنوادى العراة- و نموذجها مشهور فى بريطانيا- حيث يتعرّى أفرادها كما ولدتهم امّهاتهم، و فضائح البلاجات على سواحل البحار و المسابح، بل و حتّى فى الأماكن العامّة و على قارعة الطريق يخجل القلم من ذكرها.

و إذا كانت فى الجاهلية «زانيات من ذوات الأعلام»، حيث كنّ يرفعن أعلاما فوق بيوتهنّ ليدعين الناس إلى أنفسهنّ، فى جاهلية قرننا أناس يطرحون أمورا و مطالب فى هذا المجال عبر صحف خاصّة، يندى لها الجبين، و لجاهلية العرب مائة مرتبة من الشرف على هذه الجاهلية.

و الخلاصة: ماذا نقول عن وضع المفاسد التى توجد فى عصرنا الحاضر .. عصر التمدّن المادّى الآلى الخالى من الإيمان، فعدم الحديث عنها أولى، و لا ينبغى أن نلوّث هذا التّفسير بذكرها.

إنّ ما قلناه كان جانبا من العبء الملقى على عاتقنا لبيان حياة الذين يبتعدون عن اللّه تعالى، فإنّهم و إن امتلكوا آلاف الجامعات و المراكز العلمية و العلماء المعروفين، فهم غارقون فى و حل الفساد و مستنقع الرذيلة، بل إنّهم قد يضعون هذه المراكز العلمية و علماءها فى خدمة هذه الفجائع و المفاسد أحيانا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۹

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۳۵]

اشارة

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۳۵)

سبب النّزول

أورد جمع من المفسّرين فى سبب نزول هذه الآية انّه عند ما رجعت «أسماء بنت عميس» زوجة «جعفر بن أبى طالب» من الحبشة مع زوجها، جاءت إلى زوجات النّبى، فسألتهن: هل نزل فينا شىء من القرآن؟ فقلن: لا، فأتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فقالت: «يا رسول اللّه إنّ النساء لفى خيبة و خسار. فقال: و ممّ ذلك؟ قالت: لأنّهنّ لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال. فأنزل اللّه تعالى هذه

الآیة

(التی طمأنت النساء بأنّ

لهنّ درجة عند اللّه مساویة للرجال، و أكّدت على أنّ المعیار هو العقیدة و العمل و الأخلاق الإسلامیة).

التّفسیر

شخصیة المرأة و مكانتها فی الإسلام:

بعد البحوث التی ذكرت فی الآیات السابقة حول واجبات أزواج النّبی صلّى اللّه علیه و آله، فقد ورد فی هذه الآیة كلام جامع عمیق المحتوى فی شأن كلّ النساء و الرجال و صفاتهم، و بعد أن ذكرت عشر صفات من صفاتهم العقائدیة و الأخلاقیة و العملیة، بیّنت الثواب العظیم المعدّ لهم فی نهایتها.

إنّ بعض هذه الصفات العشر تتحدّث عن مراحل الإیمان (الإقرار باللسان، و التصدیق بالقلب و الجنان، و العمل بالأركان).

و القسم الآخر یبحث فی التحكّم باللسان و البطن و الشهوة الجنسیة، و التی تشكّل ثلاثة عوامل مصیریة فی حیاة البشر و أخلاقهم.

و تحدّثت فی جانب آخر عن مسألة الدفاع عن المحرومین، و الاستقامة أمام الحوادث الصعبة، أی الصبر الذی هو أساس الإیمان.

و أخیرا تتحدّث عن عامل استمرار هذه الصفات، أی «ذكر اللّه تعالى».

تقول الآیة: إِنَّ الْمُسْلِمِینَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتِینَ وَ الْقانِتاتِ أی المطیعین لأوامر اللّه و المطیعات.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین قد اعتبر الإسلام و الإیمان فی الآیة بمعنى واحد، إلّا أنّ من الواضح أنّ هذا التكرار یوحی بأنّ المراد منهما شیئان مختلفان، و هو إشارة إلى المطلب الذی ورد فی الآیة (۱۴) من سورة الحجرات: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا یَدْخُلِ الْإِیمانُ فِی قُلُوبِكُمْ و هو إشارة إلى أنّ «الإسلام» هو الإقرار باللسان الذی یجعل الإنسان فی صفّ

المسلمین، و یصبح مشمولا بأحكامهم، إلّا أنّ «الإیمان» هو التصدیق بالقلب و الجنان.

و قد أشارت الرّوایات الإسلامیة إلى هذا التفاوت فی المعنى،

ففی روایة أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق علیه السّلام سأله عن الإسلام و الإیمان، و هل أنّهما مختلفان؟

فقال الإمام علیه السّلام: «إنّ الإیمان یشارك الإسلام، و الإسلام لا یشارك الإیمان»، فاستوضح الرجل الإمام أكثر فقال علیه السّلام: «الإسلام شهادة أن لا إله إلّا اللّه و التصدیق برسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله، به حقنت الدماء، و علیه جرت المناكح و المواریث، و على ظاهره جماعة الناس، و الإیمان الهدى و ما یثبت فی القلوب، و ما ظهر من العمل به»[۲۱۹].

«قانت» من مادّة (القنوت)، و هی- كما قلنا سابقا- الطاعة المقترنة بالخضوع، الطاعة التی تنبع من الإیمان و الإعتقاد، و هذه إشارة إلى الجوانب العملیة للإیمان و آثاره.

ثمّ تطرقت إلى أحد أهمّ صفات المؤمنین الحقیقیین، أی حفظ اللسان، فتقول:

وَ الصَّادِقِینَ وَ الصَّادِقاتِ

و یستفاد من الرّوایات أنّ استقامة إیمان الإنسان و صدقه باستقامة لسانه و صدقه:

«لا یستقیم إیمان امرئ حتّى یستقیم قلبه، و لا یستقیم قلبه حتّى یستقیم لسانه»[۲۲۰].

و لمّا کان الصبر و التحمّل و الصلابة أمام المشاکل و العقبات هو أساس الإیمان، و دوره و منزلته فی معنویات الإنسان بمنزلة الرأس من الجسد، فقد وصفتهم الآیة بصفتهم الخامسة، فقالت: وَ الصَّابِرِینَ وَ الصَّابِراتِ

و نعلم أنّ أحد أسوأ الآفات الأخلاقیة هو الکبر و الغرور و حبّ الجاه، و النقطة التی تقع فی مقابله هی «الخشوع»، لذلک کانت الصفة السادسة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۲

وَ الْخاشِعِینَ وَ الْخاشِعاتِ

و إذا تجاوزنا حبّ الجاه، فإنّ حبّ المال أیضا آفة کبری، و عبادته و التعلّق به ذلّة خطیرة مرّة، و یقابله الإنفاق و مساعدة المحتاجین، لذلک کانت صفتهم السابعة: وَ الْمُتَصَدِّقِینَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ

قلنا: إنّ ثلاثة أشیاء إذا تخلّص الإنسان من شرّها، فإنّه سیبقی فی مأمن من کثیر من الآفات و الشرور الأخلاقیة، و هی: اللسان و البطن و الشهوة الجنسیة، و قد أشیر إلی الأوّل فی الصفة الرّابعة، أمّا الشیء الثّانی و الثالث فقد أشارت إلیهما الآیة فی الصفتین الثامنة و التاسعة، فقالت: وَ الصَّائِمِینَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظِینَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ

و أخیرا تطرّقت الآیة إلی الصفة العاشرة التی یرتبط بها الاستمرار فی کلّ الصفات السابقة و المحافظة علیها، فقالت: وَ الذَّاکِرِینَ اللَّهَ کَثِیراً وَ الذَّاکِراتِ

أجل .. إنّ هؤلاء یجب أن یکونوا مع اللّه و یذکروه فی کلّ حال، و فی کلّ الظروف، و أن یزیحوا عن قلوبهم حجب الغفلة و الجهل، و یبعدون عن أنفسهم همزات الشیاطین و وساوسهم، و إذا ما بدرت منهم عثرة فإنّهم یهبون لجبرانها فی الحال لئلّا یحیدوا عن الصراط المستقیم.

و قد ذکرت تفاسیر مختلفة ل «الذکر الکثیر» فی الرّوایات و کلمات المفسّرین، و کلّها من قبیل ذکر المصداق ظاهرا، و یشملها جمیعا معنی الکلمة الواسع. و من جملتها ما نقرؤه

فی حدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «إذا أیقظ الرجل أهله من اللیل فتوضّئا و صلّیا کتبا من الذاکرین اللّه کثیرا و الذاکرات»[۲۲۱].

و

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من بات علی تسبیح فاطمة علیها السّلام کان من الذاکرین اللّه کثیرا و الذاکرات»[۲۲۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۳

و قال بعض المفسّرین: إنّ «الذکر الکثیر» هو الذکر حال القیام و القعود، و ذکر اللّه عند ما یأوی المرء إلی فراشه.

و علی أی تقدیر، فإنّ الذکر علامة الفکر، و الفکر مقدّمة للعمل، فلیس الهدف هو الذکر الخالی من الفکر و العمل مطلقا.

ثمّ تبیّن الآیة فی النهایة الأجر الجزیل لهذه الفئة من الرجال و النساء الذین یتمتّعون بهذه الخصائص العشرة بأنّهم قد أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِیماً فإنّه تعالی قد غسل ذنوبهم التی کانت سببا فی تلوّث أرواحهم، بماء المغفرة، ثمّ کتب لهم الثواب العظیم الذی لا یعرف مقداره إلّا هو.

و الواقع إنّ أحد هذین الأمرین یطرد کلّ المنغّصات، و الآخر یجلب کلّ الخیرات.

إنّ التعبیر ب «أجرا» دلیل بنفسه علی عظمته، و وصفه ب «العظیم» تأکید علی هذه العظمة، و کون هذه العظمة مطلقة دلیل آخر علی سعة أطرافها و ترامیها، و من البدیهی، أنّ الشیء الذی یعده اللّه عظیما یکون خارقا فی عظمته.

و ثمّة مسألة تستحقّ الانتباه، و هی أنّ جملة أَعَدَّ قد وردت بصیغة الماضی، و هو بیان لحتمیة هذا الأجر و الجزاء و عدم إمکان خلفه و عدم الوفاء به، أو أنّه إشارة إلی أنّ الجنّة و نعمها معدّة منذ الآن للمؤمنین.

بحث

مساواة الرجل و المرأة عند اللّه:

يتصوّر البعض أحيانا أنّ الإسلام قد رجّح كفّة شخصية الرجال، و لا مكانة مهمّة للنساء فى برامج الإسلام، و ربّما كان منشأ هذا الاشتباه هو بعض الاختلافات الحقوقية، و التى لكلّ منها فلسفة خاصّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۴

و مع غضّ النظر عن مثل هذه الاختلافات التى لها علاقة بالمكانات و المراكز الاجتماعية و ظروفها الطبيعية- فلا شكّ فى عدم وجود أى فرق بين الرجل و المرأة فى تعليمات الإسلام من الناحية الإنسانية و المقامات المعنوية، و الآية المذكورة دليل واضح على هذه الحقيقة، لأنّها وضعت المرأة و الرجل فى مرتبة واحدة ككفّتى ميزان لدى تبيانها خصائص المؤمنين، و أهمّ المسائل العقائدية و الأخلاقية و العملية، و وعدت الإثنين بمكافاة متكافئة و ثواب متساو بدون أى تفاوت و اختلاف.

و بتعبير آخر: لا- يمكن إنكار التفاوت الجسمى بين الرجل و المرأة، كما لا يمكن إنكار التفاوت النفسى بينهما أيضا، و من البديهى أنّ هذا التفاوت ضرورى لإدامة نظام المجتمع الإنسانى، كما أنّه يفرز آثارا و نتائج فى بعض القوانين الحقوقية للمرأة و الرجل، إلّا أنّ الإسلام لم يطرح شخصية المرأة الإنسانية للمناقشة- كما فعل ذلك بعض القساوسة المسيحيين فى القرون الماضية- بأنّ المرأة هل هى إنسان فى الواقع؟ و هل لها روح إنسانية أم لا؟! و لم يكتف بذلك فحسب، بل أكّد على عدم الفرق بين الجنسين من ناحية الروح الإنسانية، و لذلك نقرأ فى الآية (۹۷) من سورة النحل مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

لقد أقرّ الإسلام للمرأة نفس الاستقلال الاقتصادى الذى أقرّه للرجل، على عكس كثير من قوانين العالم السابقة، بل و حتّى قوانين عالم اليوم التى لم تبح للمرأة الاستقلال الاقتصادى مطلقا.

من هنا، فإنّنا نلاحظ فى علم الرجال الإسلامى جانبا خاصّا يتعلّق بالنساء العالمات اللواتى كنّ فى مصافّ الرواة و الفقهاء، و قد ذكرن كشخصيات مؤثّرة و فاعلة فى التاريخ الإسلامى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۵

و إذا رجعنا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، و حقّقنا فى وضع النساء فى ذلك المجتمع، و رأينا كيف أنهنّ كنّ محرومات من أبسط حقوق الإنسان، بل لم يكن المشركون يعتقدون بأنّ لهنّ حقّ الحياة أحيانا، و لذلك كانوا يئدونهنّ و هنّ أحياء بعد ولادتهنّ!! و كذلك إذا نظرنا إلى وضع المرأة فى عالمنا المعاصر حيث أصبحت العوبة لا إختيار لها و لا إرادة فى أيدى مجموعة من المتلبّسين بلباس الإنسانية و يدعون التمدّن، فسوف ندرك جيدا بأنّ الإسلام قد خدم المرأة أيّما خدمة، و له حقّ عظيم عليهنّ [۲۲۳]؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۶

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۶ الى ۳۸]

اشارة

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (۳۶) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ

وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (۳۷) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (۳۸)

سبب النّزول

نزلت هـذه الآيات- على قول أغلب المفسّرين- فى قضيّة زواج «زينب بنت جحش»- بنت عمّة الرّسول الأكرم- بزيد بن حارثة مولى النّبى صلّى اللّه عليه و آله المعتق، و كانت القصّة كما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۷

كانت خديجة قد اشترت قبل البعثة و بعد زواجها بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله عبدا اسمه زيد، ثمّ و هبته للنّبى صلّى اللّه عليه و آله فأعتقه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، فلمّا طردته عشيرته و تبرّأت منه تبنّاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

و بعد ظهور الإسلام أصبح زيد مسلما مخلصا متفانيا، و أصبح له موقع ممتاز فى الإسلام، و كما نعلم فإنّه أصبح فى النهاية أحد قوّاد جيش الإسلام فى معركة مؤتة و استشهد فيها.

و عند ما صمّم النّبى صلّى اللّه عليه و آله على أن ينتخب زوجة لزيد، خطب له «زينب بنت جحش»- و التى كانت بنت «أميّة بنت عبد المطّلب»، أى بنت عمّته- فكانت زينب تظنّ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يريد أن يخطبها لنفسه، فسرّت و رضيت، و لكنّها لمّا علمت فيما بعد أن خطبته كانت لزيد تأثّرت تأثّرا شديدا و امتنعت، و كذلك خالف أخوها عبد اللّه هذه الخطبة أشدّ مخالفة.

هنا نزلت الآية الاولى من الآيات مورد البحث و حذّرت زينب و عبد اللّه و أمثالهما بأنّهم لا يقدرون على مخالفة أمر يراه اللّه و رسوله ضروريا، فلمّا سمعا ذلك سلّما لأمر اللّه.

إنّ هذا الزواج لم يكن زواجا بسيطا- كما سنرى ذلك- بل كان مقدّمة لتحطيم سنّة جاهلية مغلوطة، حيث لم تكن أيّة امرأة لها مكانتها و شخصيتها فى المجتمع مستعدّة للاقتران بعبد فى زمن الجاهلية، حتّى و إن كان متمتّعا بقيم إنسانية عالية.

غير أنّ هذا الزواج لم يدم طويلا، بل انتهى إلى الطلاق نتيجة عدم الانسجام و اختلاف أخلاق الزوجين، بالرغم من أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله كان مصرّا على أن لا يتمّ هذا الطلاق.

بعد ذلك اتّخذ النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأمر اللّه «زينب» زوجة له لتعوّض بذلك فشلها فى زواجها، فانتهت المسألة هنا، إلّا أنّ همهمات و أقاويل قد ظهرت بين الناس، و قد اقتلعها القرآن و عالجها فى هذه الآيات التى نبحثها، و سيأتى تفصيل ذلك، إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۸

شاء اللّه تعالى ۲۲۴].

التّفسير

تمرّد عظيم على العرف:

نعلم أنّ روح الإسلام التسليم، و يجب أن يكون تسليما لأمر اللّه تعالى بدون قيد أو شرط، و قد ورد هذا المعنى فى آيات مختلفة من القرآن الكريم، و بعبارات مختلفة، و من جملتها الآية أعلاه، و التى تقول: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ بل يجب أن يجعلوا إرادتهم تبعا لإرادة اللّه تعالى، كما أنّ كلّ وجودهم من الشعر حتّى أخمص القدمين

مرتبط به و مذعن له.

(قضـى) هنا تعنى القضاء التشريعى، و القانون و الأمر و الحكم و القضاء، و من البديهى أنّ اللّه تعالى غنى عن طاعة الناس و تسليمهم، و لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله ينظر بعين الطمع لهذه الطاعة، بل هى فى الحقيقة لمصلحتهم و منفعتهم، فإنّهم قد يجهلونها لكون علمهم و آفاقهم محدودة، إلّا أنّ اللّه تعالى يعلمها فيأمر نبيّه بإبلاغها.

إنّ هذه الحالة تشبه تماما حالة الطبيب الماهر الذى يقول للمريض: إنّنى أبدا بعلاجك إذا أذعنت لأوامرى تماما، و لم تبد أى مخالفة تجاهها، و هذه الكلمات تبيّن غاية حرص الطبيب على علاج مريضه، و اللّه تعالى أسمى و أرحم بعباده من مثل هذا الطبيب، و لذلك أشارت الآية إلى هذه المسألة فى نهايتها، حيث تقول:

وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً.

فسوف يضلّ طريق السعادة، و يسلك طريق الضلال و الضياع، لأنّه لم يعبأ بأمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٢٥٩

ربّ الكون الرحيم، و بأمر رسوله، ذلك الأمر الضامن لخيره و سعادته، و أيّة ضلالة أوضح من هذه؟! ثمّ تناولت الآية التالية قصّة «زيد» و زوجته «زينب» المعروفة، و التى هى إحدى المسائل الحسّاسة فى حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و لها ارتباط بمسألة أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله التى مرّت فى الآيات السابقة، فتقول: وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ

و المراد من نعمة اللّه تعالى هى نعمة الهداية و الإيمان التى منحها لزيد بن حارثة، و من نعمة النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه كان قد أعتقه و كان يعامله كولده الحبيب العزيز.

و يستفاد من هذه الآية أنّ شجارا قد وقع بين زيد و زينب، و قد استمرّ هذا الشجار حتّى بلغ أعتاب الطلاق، و بملاحظة جملة تَقُولُ حيث إنّ فعلها مضارع، يستفاد أنّ النّبى كان ينصحه دائما و يمنعه من الطلاق.

هل أنّ هذا الشجار كان نتيجة عدم تكافؤ الحالة الاجتماعية بين زينب و زيد، حيث كانت من قبيلة معروفة، و كان هو عبدا معتق؟

أم كان ناتجا عن بعض الخشونة فى أخلاق زيد؟

أو لا هذا و لا ذاك، بل لعدم وجود انسجام روحى و أخلاقى بينهما، فإنّ من الممكن أن يكون شخصان جيدين، إلّا أنّهما يختلفان من ناحية السلوك و الفكر و الطباع بحيث لا يستطيعان أن يستمرا فى حياة مشتركة؟

و مهما يكن الأمر فإنّ المسألة إلى هنا ليست بذلك التعقيد.

ثمّ تضيف الآية: وَ تُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ

لقد أسهب المفسّرون هنا فى الكلام، و كان تسامح بعضهم فى التعبيرات قد منح الأعداء حربة للطعن، فى حين يفهم من القرائن الموجودة فى نفس الآية، و سبب نزول الآيات، و التأريخ، أنّ معنى الآية ليس مطلبا و مبحثا معقّدا، و ذلك:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٢٦٠

إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان قد قرّر أن يتّخذ «زينب» زوجة له إذا ما فشل الصلح بين الزوجين و وصل أمرهم إلى الطلاق لجبران هذه النكسة الروحية التى نزلت بابنة عمّته زينب من جرّاء طلاقها من عبده المعتق، إلّا أنّه كان قلقا و خائفا من أن يعيبه الناس و يثير مخالفيه ضجّة و ضوضاء، من جهتين:

الاولى: أنّ زيدا كان ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بالتبنّى، و كان الابن المتبنّى- طبقا لسنّة جاهلية- يتمتّع بكلّ أحكام الابن الحقيقى، و من جملتها أنّهم كانوا يعتقدون حرمة الزواج من زوجة الابن المتبنّى المطلّقة.

و الاخرى: هى كيف يمكن للنبى صلّى اللّه عليه و آله أن يتزوّج مطلّقة عبده المعتق و هو فى تلك المنزلة الرفيعة و المكانة السامية؟

و یظهر من بعض الروایات أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قد صمّم علی أن یقدم علی هذا الأمر بأمر اللّه سبحانه رغم کلّ الملابسات و الظروف، و فی الجزء التالی من الآیة قرینة علی هذا المعنی.

بناء علی هذا، فإنّ هذه المسألة کانت مسألة أخلاقیة و إنسانیة، و کذلک کانت وسیلة مؤثّرة لکسر سنّتین جاهلیتین خاطئتین، و هما: الاقتران بمطلّقة الابن المتبنّی، و الزواج من مطلّقة عبد معتق.

من المسلّم أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لا ینبغی أن یخاف الناس فی مثل هذه المسائل، و لا یدع للضعف و التزلزل و الخشیة من تألیب الأعداء و شایعاتهم إلی نفسه سبیلا، إلّا أنّ من الطبیعی أن یبتلی الإنسان بالخوف و التردّد فی مثل هذه المواقف، خاصّة و أنّ أساس هذه المسائل کان إختیار الزوجة، و أنّه کان من الممکن أن تؤثّر هذه الأقاویل و الضجیج علی انتشار أهدافه المقدّسة و توسّع الإسلام، و بالتالی ستؤثّر علی ضعفاء الإیمان، و تغرس فی قلوبهم الشکّ و التردّد.

لهذا تقول الآیة فی متابعة المسألة: إنّ زید لمّا أنهی حاجته منها و طلّقها زوجناها لک: فَلَمَّا قَضی زَیْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناکَها لِکَیْ لا یَکُونَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۱

حَرَجٌ فِی أَزْواجِ أَدْعِیائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً و کان لا بدّ أن یتمّ هذا الأمر وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا.

«الأدعیاء» جمع «دعی»، أی الابن المتبنّی، و «الوطر» هو الحاجة المهمّة، و إختیار هذا التعبیر فی مورد طلاق زینب للطف البیان، لئلّا یصرّح بالطلاق الذی یعدّ عیبا للنساء، بل و حتّی للرجال، فکأنّ کلا من هذین الشخصین کان محتاجا للآخر لیحیا حیاة مشترکة لمدّة معیّنة، و افتراقهما کان نتیجة لانتفاء هذه الحاجة و نهایتها.

و التعبیر ب زَوَّجْناکَها دلیل علی أنّ هذا الزواج کان زواجا بأمر اللّه، و لذلک ورد فی التواریخ أنّ زینب کانت تفتخر بهذا الأمر علی سائر زوجات النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و کانت تقول: زوّجکنّ أهلوکنّ و زوّجنی اللّه من السماء[۲۲۵].

و ممّا یستحقّ الانتباه أنّ القرآن الکریم یبیّن بمنتهی الصراحة الهدف الأصلی من هذا الزواج، و هو إلغاء سنّة جاهلیة کانت تقضی بمنع الزواج من مطلّقات الأدعیاء، و هذا بنفسه إشارة إلی مسألة کلّیة، و هی أنّ تعدّد زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یکن أمرا عادیا بسیطا، بل کان یرمی إلی أهداف کان لها أثرها فی مصیر دینه.

و جملة کانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا إشارة إلی وجوب الحزم فی مثل هذه المسائل، و کلّ عمل ینبغی فعله یجب أن ینجز و یتحقّق، حیث لا معنی للاستسلام أمام الضجیج و الصخب فی المسائل التی تتعلّق بالأهداف العامّة و الأساسیة.

و یتّضح من التّفسیر الواضح الذی أوردناه فی بحث الآیة أعلاه أنّ الادّعاءات التی أراد الأعداء أو الجهلاء إسنادها لهذه الآیة لا أساس لها مطلقا، و سنعطی فی بحث الملاحظات توضیحا أکثر فی هذا الباب إن شاء اللّه تعالی.

و تقول الآیة الأخیرة فی تکمیل المباحث السابقة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۲

ما کانَ عَلَی النَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِیما فَرَضَ اللَّهُ فحیث یأمره اللّه سبحانه لا تجوز المداهنة فی مقابل أمره تعالی، و یجب تنفیذه بدون أیّ تردّد.

إنّ القادة الربانیین یجب أن لا یصغوا إلی کلام هذا و ذاک لدی تنفیذ الأوامر الإلهیّة، أو یراعوا الأجواء السیاسیة و الآداب و الأعراف الخاطئة السائدة فی المحیط، و ربّما کان هذا الأمر قد صدر لتمزیق هذه الأعراف المغلوطة، و لتحطیم البدع القبیحة.

إنّ القادة الإلهیین یجب أن ینفّذوا أمر اللّه بدون خوف من الملامة و العتاب و الضجّة و الغوغاء، و أن کونوا مصداق وَ لا یَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ [۲۲۶] إنّنا إذا أردنا أن نجلس و ننتظر رضا الجمیع و سرورهم ثمّ ننفّذ أمر اللّه سبحانه، فلنعلم أنّ هذا الأمر لا یمکن تحقّقه، لأنّ بعض الفئات لا ترضی حتّی نستسلم لما ترید و نتّبع دینها و فکرها، کما یقول القرآن الکریم ذلک: وَ لَنْ تَرْضی عَنْکَ الْیَهُودُ وَ لَا

النَّصاری حَتَّی تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ [۲۲۷] و کـذلک کان الأمر فی مورد الآیـة التی نبحثها، لأنّ زواج النّبی صـلّی اللّه علیه و آله من زینب کان یکتنفه فی أفکار الناس العامّة إشکالان کما قلنا:

الأوّل: أنّ الزواج بمطلّقة المدّعی کان فی نظر أولئک کالزواج بزوجة الابن الحقیقی، و کانت هذه بدعة یجب أن تلغی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۲۶۲

الآخر: أنّ زواج رجل مرموق له مکانته فی المجتمع کالنّبی صلّی اللّه علیه و آله من مطلّقة غلام محرّر کان یعدّ عیبا و عارا، لأنّه یجعل النّبی و العبـد فی مرتبـة واحـدة، و هـذه الثقافـة الخاطئـة کان یجب أن تقلع و تجتث من الجـذور لتزرع مکانها القیم الإنسانیة، و کون الزوجین کفؤین لبعضهما إنّما یستقیم و یقاس علی أساس الإسلام و الإیمان و التقوی و حسب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۳

و أساسا فانّ مخالفة السنن و الأعراف، و اقتلاع الآداب و العادات الخرافیة و غیر الإنسانیة یقترن عادة بالضجیج و الغوغاء و الصخب، و ینبغی أن لا یهتمّ الأنبیاء بهذا الضجیج و الصخب مطلقا، و لذلک تعقب الجملة التالیة فتقول: سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فلست الوحید المبتلی بهذه المشـکلة، بل إنّ الأنبیاء جمیعا کانوا یعانون هذه المصاعب عند مخالفتهم سـنن مجتمعاتهم، و عند سعیهم لاجتثاث اصول الأعراف الفاسدة منها.

و لم تکن المشـکلة الکبری منحصـرة فی محاربـة هاتین السـّنّتین الجاهلیتین، بل إنّ هذا الزواج لمّا کان مرتبطا بالنّبی صـلّی اللّه علیه و آله فإنّه یمکن أن یعطی الأعداء حربة اخری لیعیبوا علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فعله، و یطعنوا فی دینه، و سیأتی تفصیل ذلک.

و یقول اللّه سبحانه فی نهایة الآیة تثبیتا لاتّباع الحزم فی مثل هذه المسائل الأساسیة: وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

إنّ التعبیر ب قَدَراً مَقْدُوراً قد یکون إشارة إلی کون الأمر الإلهی حتمیا، و یمکن أن یکون دالا علی رعایة الحکمة و المصلحة فیه، إلّا أنّ الأنسب فی مورد الآیة أن یراد منه کلا المعنیین، أی أنّ أمر اللّه تعالی یصدر علی أساس الحساب الدقیق و المصـلحة، و کذلک لا بدّ من تنفیذه بدون استفهام أو تلکّؤ.

و الطریف أنّنا نقرأ فی التواریـخ أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله قـد أولم للناس و ولیمة عامّة لم یکن لها نظیر فیما سـبق اقترانه بزوجاته ۲۲۸]، فکأنّه أراد بهذا العمل أن یبیّن للناس أنّه غیر قلق و لا خائف من السـنن الخرافیة التی کانت سائدة فی تلک البیئة، بل إنّه یفتخر بتنفیذ هذا الأمر الإلهی، إضافة إلی أنّه کان یطمح إلی أن یصل صوت إلغاء هذه السـّنّة الجاهلیة إلی آذان جمیع من فی جزیرة العرب عن هذا الطریق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۴

بحثان

۱- أساطیر کاذبة

مع أنّ القرآن الکریم کان غایـة فی الصـراحة فی قصّـ ة زواج النّبی الأکرم صـلّی اللّه علیه و آله من زینب، و فی تبیان هـذه المسألة، و الهـدف من هـذا الزواج، و أعلن أنّ الهـدف هو محاربـة سـنّة جاهلیـة فیما یتعلّق بالزواج من مطلّقـة الابن المدّعی، إلّا أنّها ظلّت مورد اسـتغلال جمع من أعـداء الإسـلام، فحـاولوا اختلاـق قصّـ ة غرامیـة منهـا لیشوّهوا بهـا صورة النّبی المقدّسـة، و اتّخـذوا من الأحـادیث المشکوک فیها أو الموضوعة فی هذا الباب آلة و حربة یلوّحون بها.

و من جملة ذلک ما کتبوه من أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله جاء إلی دار زید لیسأل عن حاله، فما إن فتح الباب حتّی وقعت عینه علی جمال زینب، فقال: «سبحان اللّه خالق النور! تبارک اللّه أحسن الخالقین» و اتّخذوا هذه الجملة دلیلا علی تعلّق النّبی صلّی اللّه علیه و آله بزینب.

فی حین أنّ هناک دلائل واضحة- بغضّ النظر عن مسألة العصمة و النبوّة- تکذّب هذه الأساطیر:

الاولی: أنّ زینب کانت بنت عمّة النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و قد تربیّا و کبرا معا فی محیط عائلی تقریبا، و النّبی صلّی اللّه علیه و آله هو الذی خطبها بنفسه لزید، و إذا کان لزینب ذلک الجمال الخارق، و علی فرض أنّه استرعی انتباهه، فلم یکن جمالها أمرا خافیا علیه، و لم یکن زواجه منها قبل هذه الحادثة أمرا عسیرا، بل إنّ زینب لم تبد أی رغبة فی الاقتران بزید، بل أعلنت مخالفتها صراحة، و کانت ترجّح تماما أن تکون زوجة للنبی صلّی اللّه علیه و آله، بحیث أنّها سرّت و فرحت عند ما ذهب النّبی صلّی اللّه علیه و آله لخطبتها ظنّا منها بأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله یخطبها لنفسه، إلّا أنّها رضخت لأمر اللّه و رسوله بعد نزول هذه الآیة القرآنیة و تزوّجت زیدا.

مع هذه المقدّمات هل یبقی مجال لهذا الوهم بأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یکن عالما بحال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۵

زینب و جمالها؟ و أیّ مجال لهذا الظنّ الخاطئ بأن یکون راغبا فی الزواج منها و لا یستطیع الإقدام علیه؟

و الثّانیة: أنّ زیدا عند ما کان یراجع النّبی صلّی اللّه علیه و آله لطلاق زوجته زینب، کان النّبی ینصحه مرارا بصرف النظر عن هذا الأمر، و هذا بنفسه شاهد آخر علی بطلان هذه الادّعاءات و الأساطیر.

و من جهة اخری فإنّ القرآن الکریم قد أوضح الهدف من هذا الزواج بصراحة لئلّا یبقی مجال لأقاویل اخری.

و من جهة رابعة قرأنا فی الآیات المذکورة أعلاه أنّ اللّه تعالی یقول: قد کان فی حادثة زواج النّبی بمطلّقة زید أمر کان النّبی یخشی الناس فیه، فی حین أنّ خشیته من اللّه أحقّ من الخشیة من الناس.

إنّ مسألة خشیة اللّه سبحانه توحی بأنّ هذا الزواج قد تمّ کتنفیذ لواجب شرعی، یجب عنده طرح کلّ الاعتبارات الشخصیة جانبا من أجل اللّه تعالی لیتحقّق هدف مقدّس من أهداف الرسالة، حتّی و إن کان ثمن ذلک جراحات اللسان التی یلقیها جماعة المنافقین فی اتّهاماتهم للنبی، و کان هذا هو الثمن الباهض الذی دفعه النّبی صلّی اللّه علیه و آله- و لا زال یدفعه إلی الآن- فی مقابل طاعة أمر اللّه سبحانه، و إلغاء عرف خاطئ و سنّة مبتدعة.

إلّا أنّ هناک لحظات حرجة فی حیاة القادة المخلصین تحتّم علیهم أن یضحّوا و یعرّضوا أنفسهم فیها الاتّهام أمثال هؤلاء الأفراد لیتحقّق هدفهم! أجل .. لو کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یر زینب من قبل مطلقا، و لم یکن یعرفها، و لم یکن لدی زینب الرغبة فی الاقتران به، و لم یکن زید مستعدّا لطلاقها- و بغضّ النظر عن مسألة النبوّة و العصمة- لکان هناک مجال لمثل هذه الأقاویل و التخرّصات، لکن بملاحظة انتفاء کلّ هذه الظروف یتّضح کون هذه الأکاذیب مختلفة.

إضافة إلی أنّ تاریخ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یعکس أی دلیل أو صورة تدلّ علی وجود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۶

رغبة خاصّة لدیه صلّی اللّه علیه و آله فی الزواج من زینب، بل هی کسائر الزوجات، بل ربّما کانت أقل من بعض الزوجات من بعض الجهات، و هذا شاهد تأریخی آخر علی نفی هذه الأساطیر.

و نری فی نهایة المطاف ضرورة الإشارة إلی احتمال أن یقول شخص: إنّ محاربة مثل هذه السنّة الخاطئة واجب، و لکن أیّة ضرورة تدعو إلی أن یقتحم النّبی صلّی اللّه علیه و آله هذا المیدان بنفسه؟ فقد کان بإمکانه أن یطرح هذه المسألة و یبیّنها کقانون، و یرغب الآخرین فی الزواج من مطلّقة المتبنّی.

غیر أنّ مخالفة سنّة جاهلیة خاطئة- خاصّة و أنّها تتعلّق بالزواج من أفرادهم دون شأن المقابل ظاهرا- قد تکون غیر مقبولة بالکلام و التقنین أحیانا، إذ یقول الناس: إذا کان هذا الأمر حسنا فلما ذا لم یفعله هو؟ لم لم یتزوّج بمطلّقة عبده المعتق و ابنه المتبنی؟
فی مثل هذه الموارد ینهی الإقدام و الإجراء العملی کلّ هذه الأسئلة و الإشکالات، و عندها ستتکسّر و تتلاشی تلک السنّة الخاطئة.
إضافة إلی أنّ هذا العمل کان بنفسه تضحیة و إیثارا.

۲- روح الإسلام التسلیم أمام اللّه

لا شکّ أنّ استقلال الإنسان الفکری و الروحی لا یسمح له أن یستسلم لأحد بدون قید أو شرط، لأنّه إنسان مثله، و من الممکن أن تکون له أخطاء و اشتباهات فی المسائل.
أمّا إذا انتهت المسألة إلی اللّه العالم و الحکیم، و النّبی الذی یتحدّث عنه و یسیر بأمره، فإنّ عدم التسلیم المطلق دلیل علی الضلال و الانحراف، حیث لا یوجد أدنی اشتباه فی أوامره سبحانه. إضافة إلی أنّ أمره حافظ لمنافع الإنسان نفسه، و لا یعود شیء علی ذاته المقدّسة، فهل یوجد إنسان عاقل یسحق مصالحه برجله
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۷
بعد تشخیص هذه الحقیقة؟
و مضافا إلی ذلک فإنّنا منه تعالی، و کلّ ما لدینا منه، و لا یمکن أن یکون لنا أمر و قرار إلّا التسلیم لإرادته و أمره، و لذلک تری بین دفّتی القرآن آیات کثیرة تشیر إلی هذه المسألة:
فمرّة تقول آیة: إِنَّما کانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِینَ إِذا دُعُوا إِلَی اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ أَنْ یَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [۲۲۹] و تقول اخری: فَلا وَ رَبِّکَ لا یُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لا یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً.[۲۳۰] و یقول القرآن فی موضع آخر: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِیناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ [۲۳۱] إنّ «الإسلام» أخذ من مادّة «التسلیم»، و هو یشیر إلی هذه الحقیقة، و بناء علی هذا فإنّ کلّ إنسان یتمتّع بروح الإسلام بمقدار تسلیمه للّه سبحانه.
ینقسم الناس عدّة أقسام من هذه الناحیة: فقسم یسلّمون لأمر اللّه فی الموارد التی تنفعهم فقط، و هؤلاء فی الحقیقة مشرکون انتحلوا اسم الإسلام، و عملهم تجزئة لأحکام اللّه تعالی، فهم مصداق نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَکْفُرُ بِبَعْضٍ فإیمانهم فی الحقیقة إیمان بمصالحهم لا باللّه تعالی.
و آخرون جعلوا إرادتهم تبعا لإرادة اللّه، و إذا تعارضت منافعهم الزائلة مع أمر اللّه سبحانه، فإنّهم یغضّون الطرف عنها و یسلّمون لأمر اللّه، و هؤلاء هم المؤمنون و المسلمون الحقیقیون.
و القسم الثالث أسمی من هؤلاء، فهم لا یریدون إلّا ما أراد اللّه، و لیس فی
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۸
قلوبهم إلّا ما یشاؤه سبحانه، فقد بلغوا مرتبة من التسامی لا یحبّون معها إلّا ما یحبّه اللّه، و لا یبغضون إلّا ما أبغضه اللّه عزّ و جلّ.
هؤلاء هم الخاصّة و المخلصون و المقرّبون لدیه، فقد صبغ التوحید کلّ وجودهم، و غرقوا فی حبّه، و فنوا فی جماله [۲۳۲].
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۹

الآیة [سورة الأحزاب (۳۳): آیة ۳۹]

اشارة

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (۳۹)

التّفسير

من هم المبلّغون الحقيقيون؟

تشير الآية مورد البحث، و مناسبة للبحث الـذى مرّ حول الأنبياء السابقين فى آخر آية من الآيات السابقة، إلى أحد أهم برامج الأنبياء العامّة، فتقول: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ

و كـذلك الحال بالنسبة إليك، فينبغى أن لا تخش أحـدا فى تبليغ رسالات اللّه، و عنـد ما يأمرك اللّه سبحانه أن حطّم سنّة جاهلية خاطئة فى مسألة زواج مطلّقة المتبنّى، و تزوّج بزينب مطلّقة زيد، فيجب أن لا تدع لأدنى قلق و خوف من قول هذا و ذاك فى تأدية هذا التكليف إلى نفسك سبيلا، فإنّ هذه سنّة جميع الأنبياء عليهم السّلام.

إنّ عمل الأنبياء عليهم السّلام فى كثير من المراحل هو كسر مثل هذه السنن و الأعراف عادة، و لو أنّهم سمحوا لأقلّ خوف و تردّد أن ينفذ إلى نفوسهم فسوف يفشلون فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۰

أداء رسالاتهم، فيجب على هـذا أن يسيروا بحزم و ثبات، و يستوعبوا كلمات المسيئين الجارحة غير المتزنة، و يستمرّوا فى طريقهم دون أن يهتّموا باصطناع الأجواء ضدّهم، و ضجيج العوام، و تآمر الفاسدين و المفسدين و تواطئهم، لأنّ كلّ الحسابات بيد اللّه سبحانه، و لذلك تقول الآية فى النهاية: وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً.

إنّه يحسب إيثار الأنبياء و تضحياتهم فى هذا الطريق و يجزيهم عليها، كما يحفظ كلمات الأعداء البذيئة و ثرثرتهم ليحاسبهم عليها و يجازيهم.

إنّ جملة: وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً دليل فى الحقيقة على أنّ القادة الإلهيين يجب أن لا يخشوا شيئا أو أحدا فى إبلاغ الرسالات، لأنّ اللّه سبحانه هم المحصى لجهودهم، و هو المثيب عليها.

ملاحظات

[۱- المراد من «التبليغ»]

المراد من «التبليغ» هنا هو الإبلاغ و الإيصال، و عند ما يرتبط الأمر ب «رسالات اللّه» فإنّه يعنى أن يعلّم الأنبياء الناس ما علّمهم اللّه عن طريق الوحى، و أن ينفذوه إلى القلوب عن طريق الاستدلال و الإنذار و التبشير و الموعظة و النصيحة.

[۲- المراد من «الخشية»]

«الخشية» تعنى الخوف المقترن بالتعظيم و الاحترام، و يختلف عن الخوف المجرّد من هذه الخاصية من هذه الجهة. و قد تستعمل أحيانا بمعنى مطلق الخوف.

و قد ورد فى مؤلّفات المحقّق «الطوسى» كلام فى الفرق بين هذين اللفظين، و هو فى الحقيقة يشير إلى المعنى العرفانى لا اللغوى، فانّه يقول: إنّ الخشية و الخوف و إن كانا فى اللغة بمعنى واحد- أو يقربان من معنى واحد- إلّا أنّ بينهما فرقا لدى أهل البصائر، و هو: إنّ «الخوف» يعنى القلق و الاضطراب الداخلى من العواقب التى ينتظرها الإنسان نتيجة ارتكابه المعاصى و الذنوب، أو تقصيره فى

الطاعة، و هذه الحالة تحصل لأغلب الناس و إن اختلفت درجاتها، أمّا أعلى مراتبها فلا تحصل إلّا لفئة قليلة منهم.

أمّا «الخشية» فهى الحالة التى تحصل للإنسان لدى إدراكه عظمة اللّه و هيبته، و الخوف من بقائه مبعدا عن أنوار فيضه، و هذه الحالة لا تحصل إلّا لأولئك الذين وقفوا على عظمة ذاته المقدّسة و جلال كبريائه، و تذوّقوا طعم قربه، و لذلك عدّ القرآن هذه الحالة خاصّة بعباد اللّه العلماء فقال: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ[۲۳۳].

۳- جواب عن سؤال؟

قد يقال: إنّ هذه الآية تتناقض مع ما مرّ فى الآيات السابقة، فهى تقول هنا: إنّ أنبياء اللّه لا يخشون إلّا اللّه، و لا يخشون أحدا غيره، إلّا أنّه قد ورد فى الآيات السابقة: وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ

إلّا أنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بتأمّل النقطتين التاليتين:

الاولى: أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله إنّما كان خائفا من عدم تحمّل عدد كبير من الناس لنقض هذه السنّة، و من عدم استيعابهم للمسألة، و بذلك ستتزعزع أسس إيمانهم من هذه الجهة، و مثل هذه الخشية ترجع فى الحقيقة إلى خشية اللّه سبحانه.

و الاخرى: أنّ الأنبياء لا يعيشون حالة الخوف و القلق من شخص ما فى تبليغهم رسالات اللّه، أمّا فى ما يتعلّق بأمور الحياة الشخصية و الخاصّة فلا مانع من أن يخافوا من أمر خطير كاتّهام و طعن الناس، أو أن يكونوا كموسى عليه السّلام إذ خاف- حسب الطبيعة البشرية- عند ما ألقى العصا و تحوّلت إلى ثعبان عظيم، فإنّ مثل هذا الخوف و الاضطراب إذا لم يكن مفرطا لا يعدّ عيبا و نقصا، بل قد يواجه هذه

المسألة أشجع الناس أحيانا، إنّما العيب و النقص هو الخوف من أداء التكليف الإلهى فى الحياة الاجتماعية.

۴- هل كان الأنبياء يستعملون التقيّة؟

استفاد جماعة من هذه الآية أنّ التقيّة حرام مطلقا للأنبياء فى تبليغ الرسالة، لأنّ القرآن يقول: وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ

غير أنّه يجب الانتباه إلى أنّ للتقيّة أنواعا، و لم تنف الآية فى مورد دعوة الأنبياء و إبلاغ الرسالة إلّا نوعا واحدا، و هو التقيّة خوفا، فى حين أنّ للتقيّة أنواعا منها التقيّة مداراة و تورية.

و المراد من التقيّة المداراتية أن يكتم الإنسان عقيدته أحيانا لجلب محبّة الطرف المقابل ليقوى على استمالته للتعاون فى الأهداف المشتركة.

و المراد من تقيّة «التورية» و الإخفاء هو أنّه يجب أن تخفى المقدّمات و الخطط للوصول إلى الهدف، فإنّها إن أفشيت و انتشرت بين الناس و أصبحت علنية، و أطلع العدوّ عليها فمن الممكن أن يقوم باجهاضها.

إنّ حياة الأنبياء- و خاصّة نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله- مليئة بموارد التقيّة هذه، لأنّا نعلم أنّه صلّى اللّه عليه و آله كان كثيرا ما

یخفی أهدافه و مقاصده عند ما کان یتوجّه إلی میدان الحرب، و کان یرسم خططه الحربیة بخفاء تامّ، و کان یستخدم أسلوب الاستتار و التخفّی- و الذی هو نوع من التقیّة- فی جمیع المراحل.

و کان یتّبع أحیانا أسلوب «المراحل»- و هو نوع من التقیّة- لبیان حکم ما، فمثلا نری أنّ مسألة تحریم الربا أو شرب الخمر لم تبیّن فی مرحلة واحدة، بل تمت فی مراحل متعدّدة بأمر اللّه سبحانه، أی أنّها تبدأ من المراحل الأبسط و الأسهل حتّی تنتهی بالحکم النهائی الأساسی.

و علی أیّة حال، فإنّ للتقیّة معنی واسعا، و هو: (إخفاء الحقائق و الواقع للحفاظ

علی الأهداف من التعرّض للخطر و الانهیار) و هذا الشیء متعارف بین عقلاء العالم، و القادة الربّانیون یفعلون ذلک فی بعض المراحل للوصول إلی أهدافهم المقدّسة، کما نقرأ ذلک فی قصّة «إبراهیم» علیه السّلام بطل التوحید، حیث أخفی هدفه من البقاء فی المدینة فی الیوم الذی یخرج فیه عبدة الأصنام خارج المدینة لإجراء مراسم العید لیستغلّ فرصة مناسبة فینهال علی الأصنام و یحطّمها.

و کذلک أخفی «مؤمن آل فرعون» إیمانه لیستطیع أن یعیّن موسی علیه السّلام فی اللحظات الحسّاسة و ینقذه من القتل، و لهذا السبب ذکر القرآن له تسعة مواقف و صفات عظیمة.

و من هنا نعلم أنّ التقیّة خوفا فقط غیر جائزة علی الأنبیاء، لا الأنواع الاخری للتقیّة.

و بالرغم من أنّ الکلام فی هذا الباب کثیر، إلّا أنّنا ننهی هذا البحث بحدیث جامع غنیّ المحتوی

عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّه قال: «التقیّة دینی و دین آبائی، و لا دین لمن لا تقیّة له، و التقیّة ترس اللّه فی الأرض، لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل»[۲۳۴].

و کان لنا بحث مفصّل حول التقیّة فی ذیل الآیة (۱۰۶) من سورة النحل.

۵- شرط الإنتصار فی التبلیغ:

إنّ الآیة المذکورة دلیل واضح علی أنّ الحزم و الإخلاص و عدم الخوف من أی أحد إلّا اللّه تعالی، شرط أساسی فی التقدّم و الرقی فی مجال الإعلام و التبلیغ.

الأشخاص الذین یراعون رغبات و میول هذا و ذاک فی مقابل أمر اللّه، و یوجّهون الحقّ و العدالة بما یناسب أهواءهم، سوف لا یحصلون علی نتیجة

مطلقا، فلا نعمة أسمی من نعمة الهدایة، و لا خدمة أنفع من إهداء هذه النعمة للبشریة، و لذلک کان جزاء و ثواب هذا العمل أعظم من کلّ ثواب و عطاء، و من هنا نقرأ

فی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال: «بعثنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله إلی الیمن و قال لی: یا علی لا تقاتلن أحدا حتّی تدعوه، و أیم اللّه لئن یهدی اللّه علی یدیک رجلا خیر ممّا طلعت الشمس و غربت»[۲۳۵].

و لهذا السبب أیضا یجب أن یستغنی المبلّغون الحقیقیون عن الناس، و لا یخافون أی مقام و منصب، فإنّ تلک الحاجة و الخوف سیترکان أثرا علی أفکارهم و إرادتهم شاءوا أم أبوا.

إنّ المبلّغ الإلهی یفکّر فقط- بمقتضی وَ کَفی بِاللَّهِ حَسِیباً- بأنّ محصی الأعمال و المحاسب علیها هو اللّه تعالی، و بیده جزاؤه و ثوابه، و هذا الوعی و العرفان هو الذی یمدّه و یعینه فی هذا الطریق الملیء بالعقبات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۵

الآیة [سورة الأحزاب (۳۳): آیة ۴۰]

اشارة

ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِکُمْ وَ لکِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِیِّینَ وَ کانَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً (۴۰)

التّفسیر

مسألة الخاتمیة:

هذه الآیة هی آخر ما بیّنه اللّه سبحانه فیما یتعلّق بمسألة زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله بمطلّقة زید لکسر عرف جاهلی خاطئ، و هی جواب مختصر کآخر جواب یقال هنا، و تبیّن فی نهایتها حقیقة مهمّة اخری- و هی مسألة الخاتمیة- بمناسبة خاصّة.

تقول أوّلا: ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِکُمْ لا زید و لا غیره، و إذا ما أطلقوا علیه یوما انّه «ابن محمّد» فإنّما هو مجرّد عادة و عرف لیس إلّا، و ما إن جاء الإسلام حتّی اجتثّت جذوره، و لیس هو رابطة طبیعیّة عائلیة.

طبعا کان للنبی صلّی اللّه علیه و آله أولاد حقیقیون، و أسماؤهم «القاسم» و «الطیّب» و «الطاهر» و «إبراهیم»، إلّا أنّهم- طبقا لنقل المؤرّخین- جمیعا قد و دّعوا هذه الدنیا و ارتحلوا عنها قبل البلوغ، و لذلک لم یطلق علیهم أنّهم «رجال»[۲۳۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۶

و الإمامان الحسن و الحسین علیهما السّلام اللذان کانوا یسمّونهم أولاد النّبی رغم أنّهما بلغا سنین متقدّمة فی العمر، إلّا أنّهما کانا لا یزالان صغیرین عند نزول هذه الآیة.

بناء علی هذا فإنّ جملة: ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِکُمْ و التی وردت بصیغة الماضی، کانت صادقة فی حقّ الجمیع قطعا.

و إذا ما رأینا فی بعض تعبیرات النّبی صلّی اللّه علیه و آله نفسه أنّه یقول: «أنا و علی أبوا هذه الامّة» فمن المسلّم أنّ المراد لم یکن الابوّة النسبیة، بل الابوّة الناشئة من التعلیم و التربیة و القیادة و الإرشاد.

مع هذه الحال، فإنّ الزواج من مطلّقة زید- و الذی بیّن القرآن فلسفته بصراحة بأنّه إلغاء للسنن الخاطئة- لم یکن شیئا یبعث علی البحث و الجدال بین هذا و ذاک، أو أنّهم یریدون أن یتّخذوه وسیلة للوصول إلی نوایاهم السیّئة.

ثمّ تضیف: بأنّ علاقة النّبی صلّی اللّه علیه و آله معکم إنّما هی من جهة الرسالة و الخاتمیة فقط وَ لکِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِیِّینَ و بهذا قطع صدر الآیة الارتباط و العلاقة النسبیة بشکل تامّ و قطعی، و أثبت ذیلها العلاقة المعنویة الناشئة من الرسالة و الخاتمیة، و من هنا یتّضح ترابط صدر الآیة و ذیلها.

هذا إضافة إلی أنّ الآیة تشیر إلی حقیقة هی: أنّ علاقته معکم فی الوقت نفسه أشدّ و أسمی من علاقة والد بولده، لأنّ علاقته علاقة الرّسول بالامّة، و یعلم أنّ سوف لا یأتی رسول بعده، فکان یجب علیه أن یبیّن لهذه الامّة و یطرح لها کلّ ما تحتاجه إلی یوم القیامة فی منتهی الدقّة و غایة الحرص علیها.

و لا شکّ أنّ اللّه العلیم الخبیر قد وضع تحت تصرّفه کلّ ما کان لازما فی هذا الباب، من الأصول و الفروع، و الکلیّات و الجزئیات فی جمیع المجالات، و لذلک یقول سبحانه فی نهایة الآیة: وَ کانَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً.

و ینبغی الالتفات إلی أنّ کونه «خاتم الأنبیاء» یعنی أیضا أنّه خاتم المرسلین، و ما ألصقه بعض مبتدعی الأدیان لخدش کون مسألة الخاتمیة بهذا المعنی، من أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۷

القرآن قد اعتبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله خاتم الأنبياء لا خاتم المرسلين، إنّما هو اشتباه كبير، لأنّ من كان خاتما للأنبياء يكون خاتما للرسل بطريق أولى، لأنّ مرحلة «الرسالة» أسمى من مرحلة «النبوّة»- تأمّلوا ذلك-.

إنّ هذا الكلام يشبه تماما أن نقول: إنّ فلانا ليس فى بلاد الحجاز، فمن المسلّم أنّ هذا الشخص سوف لا يكون موجودا فى مكّة، أمّا إذا قلنا: إنّه ليس فى مكّة، فمن الممكن أن يكون فى مكان آخر من الحجاز.

بناء على هذا، فإنّه تعالى لو كان قد سمّى النّبى خاتم المرسلين، فمن الممكن أن لا يكون خاتم الأنبياء، أمّا و قد سمّاه «خاتم الأنبياء» فمن المسلّم أنّه سيكون خاتم الرسل أيضا، و بتعبير المصطلحات فإنّ النسبة بين النّبى و الرّسول نسبة العموم و الخصوص المطلق.

بحوث

۱- ما هو الخاتم؟

«الخاتم»- على زنة حاتم- لدى أرباب اللغة: هو الشىء الذى تنهى به الأمور، و كذلك جاء بمعنى الشىء الذى تختم به الأوراق و ما شابهها.

و كان هذا الأمر متداولا فيما مضى- و لا يزال إلى اليوم- حينما يريدون إغلاق الرسالة أو غطاء الوعاء أو باب المنزل لئلّا يفتحها أحد، فإنّهم كانوا يضعون مادّة لاصقة على الباب أو القفل و يختمون عليها. و يكون هذا الخاتم من الصلابة بحيث إنّه لا بدّ من كسره إذا ما أريد فتح الباب، و هذه المادّة التى توضع على مثل هذه الأشياء تسمّى «خاتما».

و لمّا كانوا فى السابق يستعملون لهذا الأمر الطين الصلب الذى يلصق، فإنّنا نقرأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۸

فى متون بعض كتب اللغة المعروفة أنّ معنى الخاتم هو «ما يوضع على الطينة»[۲۳۷].

كلّ ذلك بسبب أنّ هذه الكلمة مأخوذة من مادّة «الختم» أى النهاية، و لمّا كان هذا العمل- أى الختم- يجرى فى الخاتمة و النهاية فقد اطلق عليه اسم الخاتم لذلك.

و إذا ما رأينا أنّ أحد معانى الخاتم هو الخاتم الذى يوضع فى اليد، فبسبب أنّهم كانوا يضعون إمضاءهم و توقيعهم على خواتيمهم و يختمون الرسائل بها، و لذلك فإنّ من جملة الأمور التى تذكر فى أحوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و أئمّة الهدى عليهم السّلام و الشخصيات الاخرى هو نقش خاتمهم.

و

يروى «الكلينى»- رحمه اللّه- فى الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ خاتم رسول اللّه كان من فضّة نقشه محمّد رسول اللّه»[۲۳۸].

و جاء فى بعض التواريخ أنّ إحدى حوادث السنة السادسة للهجرة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله اختار لنفسه خاتما نقش فيها، و ذلك أنّهم أخبروه أنّ الملوك لا يقرءون الرسائل إذا لم تكن مختومة[۲۳۹].

و جاء فى كتاب «الطبقات»: أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لمّا صمّم أن ينشر دعوته فى الآفاق، و يكتب الرسائل إلى ملوك الأرض و سلاطينها أمر أن يصنعوا له خاتما كتب عليه (محمّد رسول اللّه) و كان يختم به رسائله ۲۴۰].

بهذا البيان يتّضح جيدا أنّ الخاتم و إن اطلق اليوم على خاتم الزينة أيضا، إلّا أنّ أصله مأخوذ من الختم، أى النهاية، و كان يطلق ذلك

اليوم على الخواتيم التى كانوا يختمون بها الرسائل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۹

إضافة إلى أنّ هذه المادّة قد استعملت فى القرآن فى موارد متعدّدة، و كلّها تعنى الإنهاء أو الختم و الغلق، مثل: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ [۲۴۱] خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ، وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ[۲۴۲].

و من هنا يعلم أنّ الذين شكّكوا فى دلالة هذه الآية على كون نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله خاتم الأنبياء، و انتهاء سلسلة الأنبياء به، غير مطّلعين على معنى هذه الكلمة تماما، أو أنّهم تظاهروا بعدم الإحاطة و الاطلاع عليها، و إلّا فإنّ من له أدنى إحاطة بآداب العرب يعلم أنّ كلمة «خاتم النّبيين» تدلّ على الخاتمية.

و إذا قيل- عند ذاك- فى تفسير هذه الآية غير هذا التّفسير فإنّه تفسير متطفّل غير متّزن، كأن نقول: إنّ نبى الإسلام كان خاتم الأنبياء، أى أنّه زينة الأنبياء، لأنّ الخاتم آلة زينة للإنسان، و لا يمكن أن يوازى الإنسان فى المرتبة مطلقا، و إذا فسّرنا الآية بهذا التّفسير فسنكون قد حططنا من مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و أنزلنا منزلته إلى أدنى المستويات، مع إنّه لا يناسب المعنى اللغوى، و لذلك فإنّ هذه الكلمة حيثما استعملت فى القرآن الكريم- فى ثمانية موارد- فإنّها أعطت معنى الإنهاء و الإغلاق.

۲- أدلّة كون نبىّ الإسلام خاتما للأنبياء:

بالرغم من أنّ الآية المذكورة كافية لوحدها فى إثبات هذا المطلب، إلّا أنّ الدليل على كون نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله خاتما للأنبياء لا ينحصر بها، فإنّ آيات اخرى فى القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى، إضافة إلى الروايات الكثيرة الواردة فى هذا الباب:

فمن جملتها فى الآية (۱۹) من سورة الأنعام:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۰

وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ فإنّ سعة مفهوم تعبير وَ مَنْ بَلَغَ توضّح رسالة القرآن و نبى الإسلام العالمية من جهة، و مسألة الخاتمية من جهة اخرى.

و هناك آيات اخرى تثبت عمومية دعوة نبى الإسلام لكلّ البشر، مثل: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً.[۲۴۳] و كقوله تعالى: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً.[۲۴۴] و الآية: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً.[۲۴۵] إنّ ملاحظة سعة مفهوم «العالمين» و «الناس» و «الكافّة» تؤيّد هذا المعنى أيضا. إضافة إلى أنّ إجماع علماء الإسلام من جهة، و كون هذه المسألة ضرورية لدى المسلمين من جانب آخر، و الروايات الكثيرة الواردة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و باقى أئمّة الهدى عليهم السّلام من جانب ثالث توضّح هذا المطلب، و نكتفى هنا بذكر بعضها من باب الشاهد و المثال:

-۱

ورد فى الحديث المعروف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «حلالى حلال إلى يوم القيامة، و حرامى حرام إلى يوم القيامة»[۲۴۶].

إنّ هذا التعبير مبيّن لاستمرار هذه الشريعة حتّى نهاية العالم و فنائه.

و

قد روى هذا الحديث بهذه الصيغة أحيانا: «حلال محمّد حلال أبدا إلى يوم القيامة، و حرامه حرام أبدا إلى يوم القيامة، لا يكون غيره، و لا يجىء غيره»[۲۴۷].

۲- حديث المنزلة المعروف، و الذى ورد فى مختلف كتب الشيعة و السنّة، و هو فى شأن على عليه السّلام و بقائه مكان النّبى فى المدينة عند ما توجّه صلّى اللّه عليه و آله إلى غزوة تبوك.

فإنّه یوضّح مسألة الخاتمیة تماما، لأنّا نقرأ فی هذا الحدیث

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال

لعلی علیه السّلام: «أنت منّی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبی بعدی»[۲۴۸].

۳- و ثمّة حدیث مشهور أیضا، و قد روی فی کثیر من مصادر العامّة، و ذلک

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال: «مثلی و مثل الأنبیاء کمثل رجل بنی بنیانا فأحسنه و أجمله، فجعل الناس یطیفون به یقولون ما رأینا بنیانا أحسن من هذا إلّا هذه اللبنة، فکنت أنا تلک اللبنة».

لقد ورد هذا الحدیث فی صحیح مسلم بعبارات مختلفة، و روی عن رواة عدیدین، و قد وردت هذه الجملة «و أنا خاتم النّبیین» فی ذیل الحدیث الآنف الذکر فی أحد الموارد.

و نری فی نهایة حدیث آخر: «جئت فختمت الأنبیاء»[۲۴۹].

و قد ورد هذا الحدیث أیضا فی صحیح البخاری- کتاب المناقب- و مسند أحمد بن حنبل، و سنن الترمذی و النسائی و کتب اخری، و هو من الأحادیث المعروفة و المشهورة جدّا، و قد أورده مفسّر و الفریقین کالطبرسی فی مجمع البیان، و القرطبی فی تفسیره، فی ذیل الآیة مورد البحث.

۴- لقد ورد کون نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله خاتما للنبیین صریحا فی کثیر من خطب نهج البلاغة، و من جملة ذلک ما نراه فی الخطبة ۱۷۳ فی وصف نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله، حیث یقول علیه السّلام: «أمین وحیه، و خاتم رسله، و بشیر رحمته، و نذیر نقمته».

و

جاء فی الخطبة ۱۳۳: «أرسله علی حین فترة من الرسل، و تنازع من الألسن.

فقفّی به الرسل، و ختم به الوحی».

و

قال علیه السّلام فی الخطبة الاولی من نهج البلاغة، بعد أن عدّد تعلیمات الأنبیاء

الماضین: «إلی أن بعث اللّه سبحانه محمّدا رسول لإنجاز عدته، و إتمام نبوّته».

۵- و قد وردت مسألة الخاتمیة فی ختام خطبة الوداع، تلک الخطبة التی ألقاها نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله فی آخر حجّة له، و فی آخر سنة من عمره المبارک، کوصیّة جامعة للناس، حیث

قال: «ألا فلیبلّغ شاهدکم غائبکم لا نبیّ بعدی، و لا امّة بعدکم» ثمّ رفع یدیه إلی السماء حتّی بان بیاض إبطیه، فقال: «اللهمّ اشهد أنّی قد بلّغت»[۲۵۰].

۶- و

جاء فی حدیث آخر ورد فی «الکافی» عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه ختم بنبیّکم النبیّین فلا نبیّ بعده أبدا، و ختم بکتابکم الکتب فلا کتاب بعده أبدا»[۲۵۱].

إنّ الأحادیث الواردة فی هذا الباب کثیرة جدّا، بحیث جمع منها فی کتاب (معالم النبوّة) ۱۳۵ حدیثا من کتب علماء الإسلام عن النّبی

صلّى اللّه عليه و آله و أئمّة الإسلام العظام ۲۵۲].

۳- إجابة عن عدّة أسئلة:

۱- كيف تتناسب الخاتمية مع سير الإنسان التكاملى؟

السوال الأوّل الذى يطرح فى هذا البحث هو: هل يمكن أن يتوقّف المجتمع الإنسانى؟ أ ترى يوجد لسير البشر التكاملى حدّ محدود؟ أ لسنا نرى بامّ أعيننا أنّ بشر اليوم قد وصلوا فى العلم و الثقافة إلى مرحلة تفوّق مستوى سابقيهم؟ فمع هذا الحال كيف يمكن أن يغلق سجل النبوّة مطلقا، فيحرم الإنسان من قيادة أنبياء جدد فى سيره التكاملى؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتّضح بالالتفات إلى مسألة واحدة، و هى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۳

الإنسان يصل أحيانا إلى مرتبة من النضج الفكرى و الثقافى بحيث يكون قادرا على الاستمرار فى طريقه بالاستعانة المستمرة بالأصول و التعليمات التى تركها له النّبى الخاتم بصورة جامعة، دون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

و هذا الأمر يشبه تماما أن يكون الإنسان محتاجا لمعلّم جديد و مربّ آخر فى كلّ مرحلة من مراحل الدراسة المختلفة، حتّى يقضى المراحل المختلفة، أمّا إذا حصل على الدكتوراه، أو أصبح مجتهدا له رأيه فى العلم أو العلوم المختلفة فإنّه لا يحتاج فى دراسته إلى أستاذ جديد، بل يباشر البحث و المطالعة و التحقيق استنادا إلى ما اكتسبه من الأساتذة السابقين، و خاصّة استاذه الأخير.

و بتعبير آخر، فإنّه يحلّ المشاكل و العقبات التى تعترضه بالاستعانة بتلك الأصول الكليّة التى تعلّمها من استاذه الأخير، و بناء على هذا فلا حاجة لأنّ يظهر دين جديد على مرّ الزمان (تأمّلوا ذلك).

و ببيان آخر، فإنّ كلّ واحد من الأنبياء السابقين قد مهّد جانبا من مسير التكامل ليكون الإنسان قادرا على سلوك هذا الطريق الصعب نحو التكامل و ينال الأهلية لاستقبال منهج كامل و جامع لهذا الطريق على يد آخر نبى أرسل من قبل اللّه تعالى.

من البديهى أنّه مع استلام الخريطة الكاملة و المخطّط الجامع سوف لا تكون هناك حاجة إلى مخطّط آخر، و هذا فى الحقيقة هو التعبير الذى ورد فى الرّوايات الدالة على كونه صلّى اللّه عليه و آله خاتما، و التى عدّت نبيّ الإسلام آخر لبنة، أو واضع آخر لبنة فى قصر الرسالة البديع المحكم. و كلّ ذلك يؤكّد عدم الحاجة إلى دين جديد و شريعة مستحدثة.

أمّا فيما يتعلّق بمسألة القيادة و الإمامة، و التى تعنى الإشراف التامّ على تنفيذ هذه الأصول، و الأخذ بأيدى الناس فى هذا الطريق، فهى مسألة اخرى لا يمكن أن يستغنى الإنسان عنها فى أيّ حين، و لذلك فإنّ ختام سلسلة النبوّة لا يعنى أبدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۴

نهاية سلسلة الإمامة، لأنّ «تبيين» و «توضيح» هذه الأصول و «تحقّقها فى الخارج» لا يمكن أن يتمّ من دون الاستعانة بوجود قائد و إمام معصوم.

۲- كيف تتلاءم القوانين الثابتة مع الحاجات المتغيّرة؟

بغضّ النظر عن مسألة السير التكاملى للبشر، فإنّ هناك سؤالا آخر يطرح هنا، و هو: أنّنا نعلم أنّ مقتضيات الأزمنة و الأمكنة و متطلباتها متفاوتة، و بتعبير آخر فإنّ حاجات الإنسان فى تغيّر مستمر، فى حين أنّ للشريعة الخاتمة قوانين ثابتة، فهل تقوى هذه القوانين الثابتة على أن تؤمّن حاجات الإنسان المتغيّرة على مدى الزمان؟

و يمكن الإجابة على هذا السؤال جيدا بملاحظة المسألة التالية، و هى: أنّه لو كانت لكلّ قوانين الإسلام صفة الجزئية، و أنّها قد عيّنت

لكلّ موضوع حكما جزئيا معينا لكان هناك مجال لهذا السؤال، أمّا إذا عرفنا بأنّ فى تعليمات الإسلام سلسلة من الأصول الكلية الواسعة جدّا، و التى تقدر على أن تطابق الحاجات المتغيّرة و تؤمّنها، فلا يبقى مجال لهذا الإشكال.

إنّنا نرى استحداث سلسلة من الاتّفاقيات الجديدة و الروابط الحقوقية بين البشر لم يكن لها وجود فى عصر نزول القرآن بتاتا، فمثلا لم يكن فى ذلك العصر شيء اسمه «الضمان» بفروعه المتعدّدة[۲۵۳]، و كذلك أنواع الشركات التى ظهرت فى عصرنا و زماننا حسب الاحتياج اليومى، لكن يوجد لدينا فى الإسلام أصل عامّ ورد فى بداية سورة «المائدة» بعنوان «لزوم الوفاء بالعهد و العقد»: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ و هو قادر على احتواء كلّ هذه الاتفاقيات.

و طبعا هناك قيود و شروط بصورة عامّة وضعت لهذا الأصل العامّ فى الإسلام،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۵

يجب أن تؤخذ بنظر الإعتبار أيضا.

بناء على هذا فالقانون الكلّى ثابت فى هذا الباب بالرغم من أنّ مصاديقه متغيّرة، فلا مانع من أن يظهر مصداق جديد له فى كلّ يوم.

و نضرب مثالا آخر، و هو: لدينا فى الإسلام قانون مسلّم به، و هو قانون (لا ضرر) يمكن من خلاله تحديد أىّ حكم يكون منبعا و مصدرا للضرر و الخسارة فى المجتمع، و عن هذا الطريق ترفع كثير من الاحتياجات. إضافة إلى أنّ مسائل «لزوم حفظ المجتمع»، و «وجوب مقدّمة الواجب»، و «تقديم الأهمّ على المهمّ» يمكن أن تكون حلا للمشاكل فى كثير من الموارد.

و علاوة على كلّ ذلك فإنّ الصلاحيات التى تمنح للحكومة الإسلامية عن طريق «ولاية الفقيه» تضع تحت تصرفها إمكانيات واسعة لحلّ المشاكل فى إطار اصول الإسلام العامّة.

إنّ بيان كلّ واحد من هذه الأمور، مع الأخذ بنظر الإعتبار كون باب الاجتهاد- أى استنباط الأحكام الإلهية من المصادر الإسلامية- يحتاج إلى بحث واسع يبعدنا تناوله عن الموضوع و لكن مع ذلك فإنّ ما أوردناه هنا من باب الإشارة يمكن أن يكون جوابا للإشكال المذكور.

۳- كيف يحرم البشر من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الآخر هو: إنّ نزول الوحى و الاتّصال بعالم الغيب و ما وراء الطبيعة يعتبر نافذة أمل لكلّ المؤمنين الحقيقيين، إضافة إلى أنّه موهبة و فخر لعالم البشرية، ألا يعتبر قطع طريق الاتّصال هذا، و غلق نافذة الأمل هذه حرمانا عظيما للبشر الذين يعيشون بعد وفاة خاتم الأنبياء؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بملاحظة النقطتين أدناه، و هما:

الاولى: إنّ الوحى و الارتباط بعالم الغيب وسيلة لإدراك الحقائق و لمّا بيّنت كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۶

الاحتياجات و الحقائق إلى يوم القيامة فى الأصول العامّة و التعليمات الجامعة التى وضعها خاتم النّبيين، و لذلك فإنّ قطع طريق الاتّصال هذا لا يوجد مشكلة.

الثّانية: إنّ ما يقطع إلى الأبد بعد ختم النبوّة هو الوحى لشريعة جديدة، أو لتكميل شريعة سابقة، لا كلّ أنواع الاتّصال بما وراء عالم الطبيعة، لأنّ للأئمّة ارتباطا بعالم الغيب، و كذلك المؤمنون الحقيقيون الذين أزالوا الحجب عن قلوبهم و وصلوا إلى مقام المكاشفة و الشهادة نتيجة تهذيبهم أنفسهم.

يقول الفيلسوف الشهير «صدر المتألّهين الشيرازى» فى مفاتيح الغيب:

«و اعلم، أنّ الوحى إذا انقطع، و باب الرسالة إذا انسدّ استغنى الناس عن الرسل و إظهار الدعوة بعد تصحيح الحجّة و إكمال الدين،

کما قال اللّه تعالی: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکَمْ دِینَکَمْ و أمّا باب الإلهام فلا ینسدّ، و مدد نور الهدایة لا ینقطع لاحتیاج الناس لاستغراقهم فی هذه الوساوس إلی التنبیه و التذکیر، و اللّه تعالی غلق باب الوحی و فتح باب الإلهام رحمة منه علی عباده»[۲۵۴].

إنّ هذا الارتباط یتولّد عادة من سموّ النفس و ارتقاء الروح و تصفیتها و صفاء الباطن، و لا علاقة لها بمسألة النبوّة و الرسالة، و بناء علی هذا فمتی ما تحقّقت مقدّماته و شروطه وجدت هذه الرابطة المعنویة، و بذلک فلم یکن أیّ بشر محروما من هذا الفیض العظیم، و لن یکون- تأمّلوا ذلک-.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۷

الآیات [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۴۱ الی ۴۴]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً کَثِیراً (۴۱) وَ سَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا (۴۲) هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَ مَلائِکَتُهُ لِیُخْرِجَکُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ کانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً (۴۳) تَحِیَّتُهُمْ یَوْمَ یَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً کَرِیماً (۴۴)

التّفسیر

تحیّة اللّه و الملائکة فرج للمؤمنین:

لمّا کان الکلام فی الآیات السابقة عن مسئولیات نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و واجباته الثقیلة الملقاة علی عاتقه، فإنّ الآیات مورد البحث تبیّن جانبا من وظائف المؤمنین من أجل تهیئة الأرضیة اللازمة لهذا التبلیغ، و توسعة أطرافه فی جمیع الأبعاد، فوجّهت الخطاب إلیهم جمیعا و قالت: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا اللَّهَ ذِکْراً کَثِیراً و نزّهوه صباحا و مساء وَ سَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا.

أجل .. لمّا کانت عوامل الغفلة فی الحیاة المادیة کثیرة جدّا، و سهام وسوسة الشیاطین ترمی من کلّ جانب صوب الإنسان، فلا طریق لمحاربتها إلّا بذکر اللّه الکثیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۸

إنّ «الذکر الکثیر»- بالمعنی الواقعی للکلمة- یعنی التوجّه إلی اللّه سبحانه بکلّ الوجود، لا بلقلقة اللسان و حسب.

«الذکر الکثیر» هو الذی یقذف النور فی کلّ أعمال الإنسان، و یغمرها بالضیاء، و لهذا فإنّ القرآن أمر کلّ المؤمنین فی هذه الآیة أن یذکروا اللّه علی کلّ حال:

فاذکروه أثناء العبادة، فاحضروا قلوبکم و أخلصوا فیها.

و اذکروه عند إقدامکم علی المعصیة و تجنّبوها و إذا ما بدرت منکم عثرة و هفوة فبادروا إلی التوبة، و ارجعوا إلی طریق الحقّ.

و اذکروه عند النعم و اشکروه علیها.

و اذکروه عند البلایا و المصائب و اصبروا علیها و تحمّلوها.

و الخلاصة: لا تنسوا ذکره فی کلّ مشهد من مشاهد الحیاة و الابتعاد عن سخطه، و التقرّب لما یجلب رضاه.

و نطالع

فی حدیث مروی فی «سنن الترمذی» و «مسند أحمد» عن أبی سعید الخدری عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: أنّه سئل: أی العباد أفضل درجة عند اللّه یوم القیامة؟ فقال: «الذاکرون اللّه کثیرا».

قال أبو سعيد: فقلت: يا رسول اللّه، و من الغازى فى سبيل اللّه؟! قال: «لو ضرب بسيفه فى الكفّار و المشركين حتّى ينكسر و يختضب دما لكان الذاكرون أفضل درجة منه»[۲۵۵]،

و ذلك لأنّ الجهاد المخلص لا يمكن أن يتمّ بدون ذكر اللّه الكثير.

و من هنا يعلم أنّ للذكر الكثير معنى واسعا، و إذا ما فسّر فى بعض الرّوايات بتسبيح فاطمة عليها السّلام- و هو ۳۴ مرّة (اللّه أكبر) و ۳۳ مرّة (الحمد للّه) و ۳۳ مرّة (سبحان اللّه)- و فى كلمات بعض المفسّرين بذكر الصفات العليا و الأسماء الحسنى، و تنزيه اللّه سبحانه عمّا لا يليق به، فإنّ كلّ ذلك من باب ذكر المصداق الواضح، لا تحديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۹

المعنى بخصوص هذه المصاديق.

و كما يظهر بوضوح من سياق الآيات، فإنّ المراد من «تسبيح اللّه» فى كلّ غداة و عشى هو استمرار التسبيح، و ذكر هذين الوقتين بالخصوص باعتبارهما بداية اليوم و نهايته، و ما فسّرهما به البعض من أنّ المراد صلاتى الصبح و العصر، أو أمثال ذلك، فهو من قبيل ذكر المصداق أيضا.

لهذا فإنّ ذكر اللّه الكثير، و تسبيحه بكرة و أصيلا لا يحصل إلّا باستمرار التوجّه إلى اللّه، و تنزيهه عن كلّ عيب و نقص، و تقديسه المتّصل، فذكر اللّه غذاء لروح الإنسان كما أنّ الطعام و الشراب غذاء للبدن.

و جاء فى الآية (۲۸) من سورة الرعد أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و نتيجة هذا الاطمئنان القلبى هو ما ورد فى الآيات ۲۷- ۳۰ من سورة الفجر، حيث تقول:

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي

و الآية التالية بمثابة نتيجة و علّة غائيّة للتسبيح فى الواقع، فهى تقول: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ أى من ظلمات الشرك و الكفر و الجهل إلى نور الإيمان و العلم و التقوى وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً و بسبب هذه الرحمة كتب على نفسه هداية البشر و إرشادهم، و أمر ملائكته أن تعينهم فى ذلك.

«يصلّى» من مادة (صلاة) و هى هنا تعنى الرعاية و العناية الخاصّة، و هذه العناية بالنسبة للّه تعنى نزول الرحمة، و بالنسبة للملائكة تعنى الاستغفار و طلب الرحمة، كما نقرأ ذلك فى الآية (۷) من سورة غافر: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

و على أيّة حال، فإنّ هذه الآية تتضمّن بشارة عظيمة للمؤمنين الذاكرين اللّه على الدوام، فهى تقول بصراحة: إنّ هؤلاء ليسوا وحدهم فى سيرهم إلى اللّه، بل إنّهم- بمقتضى (يصلّى) و هو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار- يسيرون فى ظلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۰

رحمة اللّه و ملائكته، و فى ظلّ هذه الرحمة تزاح حجب الظلمة، و يغمر قلوبهم و أرواحهم نور العلم و الحكمة و الإيمان و التقوى.

نعم .. إنّ هذه الآية بشارة كبرى لكلّ سالكى طريق الحقّ بأنّ هناك جاذبية قوية من جانب المعشوق تجذب العاشق إليها لينتهى سعى هذا العاشق الصبّ إلى نتيجة و لا يذهب سدى! إنّ هذه الآية ضمان لكلّ المجاهدين فى سبيل اللّه أن لا ينالهم قسم الشيطان على إغواء بنى آدم، لأنّهم فى زمرة المخلصين المخلصين، و قد أظهر الشيطان عجزه عن إضلال هذه الزمرة منذ الوهلة الاولى فقال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [۲۵۶] إنّ جملة وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً و بملاحظة أنّ (كان) فعل ماض يدلّ على أنّ اللّه كان رحيما بالمؤمنين رحمة خاصّة على الدوام، تأكيد مجدّد على ما جاء فى بداية السورة.

أجل .. هذه هى رحمة اللّه الخاصّة التى تخرج المؤمنين من ظلمات الأوهام و الشهوات و الوساوس الشيطانية، و تهديهم إلى نور اليقين و الاطمئنان و السيطرة على النفس، و لو لا رحمته سبحانه فإنّ هذا الطريق المليء بالمنعطفات و العراقيل لا يكون سالكا.

و تجسّد الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث مقام المؤمنين و ثوابهم بأروع تجسيد و أقصر عبارة، فتقول: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ

«التحيّة» من مادّة «حياة»، و هى تعنى الدعاء لسلامة و حياة اخرى. و لمزيد التوضيح راجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (۸۵) من سورة النساء.

هذا السّلام يعنى السلامة من العذاب، و من كلّ أنواع الألم و العذاب و المشقّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۱

سلام ممتزج بالهدوء و الاطمئنان.

و مع أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ «تحيتهم» إشارة إلى سلام المؤمنين و تحية بعضهم بعضا، إلّا أنّ ملاحظة الآيات السابقة التى كان الكلام فيها عن الصلاة و رحمة اللّه و الملائكة فى هذه الدنيا، تظهر أنّ هذه التحية أيضا من الملائكة فى الآخرة، كما نقرأ ذلك فى الآية (۲۳) من سورة الرعد: وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ

ممّا قلناه اتّضح بصورة ضمنية أنّ المراد من جملة يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ هو يوم القيامة الذى سمّى بيوم «لقاء اللّه»، و هذا التعبير يستعمل عادة فى القرآن بهذا المعنى.

بعد هذه التحيّة، التى ترتبط ببداية الأمر، أشارت الآية إلى نهايته فقالت:

وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً.

إنّها جملة جمع فيها كلّ شىء على اختصارها، و أخفيت فيها كلّ النعم و المواهب.

بحوث

۱- ذكر اللّه على كلّ حال:

عند ما يذكر اسم اللّه تعالى يتجلّى فى قلب الإنسان عالم من العظمة و القدرة و العلم و الحكمة، لأنّ له الأسماء الحسنى و الصفات العليا، و ربّ كلّ الكمالات، و منزّه عن كلّ عيب و نقص.

إنّ التوجّه المستمر لمثل هذه الحقيقة التى لها تلك الصفات، يسوق روح الإنسان إلى الخيرات و الأعمال الصالحة و الطهارات، و يبعده عن السيّئات و القبائح، و بعبارة اخرى فإنّ نور صفاته عزّ و جلّ يتجلّى فى روح الإنسان.

إنّ التوجّه إلى هكذا معبود عظيم يبعث على الإحساس الدائم بحضوره بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۲

يديه تعالى، و هذا الإحساس يؤدّى إلى زيادة الفاصلة كثيرا بين الإنسان و بين الذنب و المعصية.

ذكر اللّه يعنى تذكر مراقبته .. ذكر حسابه و جزائه .. ذكر محكمته العادلة .. نعيمه و جحيمه .. و هذا هو الذكر الذى يصفّى الروح، و يغمر القلب نورا و حيوية.

لهذا ورد فى الروايات الإسلامية أنّ لكلّ شىء حدّا، إلّا ذكر اللّه فإنّه لا حدّ له!

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى الرواية التى وردت فى اصول الكافى: «ما من شىء إلّا و له حدّ ينتهى إليه، إلّا الذكر فليس له حدّ ينتهى إليه».

ثمّ يضيف: «فرض اللّه عزّ و جلّ الفرائض، فمن أدّاهنّ فهو حدّهنّ، و شهر رمضان فمن صامه فهو، و الحجّ فمن حجّ حدّه، إلّا الذكر، فإنّ اللّه عزّ و جلّ لم يرض منه بالقليل، و لم يجعل له حدّا ينتهى إليه، ثمّ تلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا[۲۵۷].

و

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى ذيل هذه الرواية، «و كان أبى كثير الذكر، لقد كنت أمشى معه و إنّه ليذكر اللّه، و آكل معه الطعام و إنّه ليذكر اللّه، و لقد كان يحدث القوم و ما يشغله ذلك عن ذكر اللّه».

و أخيرا ينتهى هذا الحديث الغنى المحتوى بهذه الجملة:

«و البيت الذى يقرأ فيه القرآن، و يذكر اللّه عزّ و جلّ فيه تكثر بركته، و تحضره الملائكة، و تهجره الشياطين، و يضىء لأهل السماء كما يضىء الكوكب الدرّى لأهل الأرض»[۲۵۸].

إنّ هذا الموضوع من الأهميّة بمكان بحيث عدّ «ذكر اللّه» فى حديث يعدل خير الدنيا و الآخرة،

فقد روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «من أعطى لسانا ذاكرا فقد اعطى خير الدنيا و الآخرة»[۲۵۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۳

و الروايات الواردة فى أهميّة «ذكر اللّه» تبلغ من الكثرة حدّا بحيث أنّا لو أردنا إيرادها جميعا هنا لخرجنا عن وضع الكتاب وحدّه، و لذلك نختم هذا الحديث بحديث آخر قصير عميق المعنى

عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث يقول: «من أكثر ذكر اللّه عزّ و جلّ أظلّه اللّه فى جنّته»[۲۶۰].

و لمزيد الاطلاع فى هذا المجال يراجع المجلّد الثّانى من اصول الكافى- الأبواب التى تتعلّق بذكر اللّه، و خاصّة الأبواب التى تقول: إنّ الآفات و البلايا و المصائب لا تحيط بمن يذكرون اللّه).

و هناك مطلب ينبغى التأكيد عليه، و هو أنّ كلّ هذه البركات و الخيرات لا ترتبط قطعا بالذكر اللفظى و حركة اللسان الخالية من الفكر و العمل، بل الهدف هو الذكر الذى يكون مصدرا و منبعا للفكر .. ذلك الفكر الذى يتجلّى نوره فى أعمال الإنسان، كما صرّحت الروايات بهذا المعنى ۲۶۱].

۲- توضيح حول «لقاء اللّه»:

قلنا: إنّ هذا التعبير فى القرآن المجيد يشير إلى القيامة عادة، و لمّا كان اللقاء الحسّى لا يصدق فى شأن اللّه، إذ ليس هو بجسم، و ليس له العوارض الجسمية، و لذلك اضطر بعض المفسّرين إلى تقدير شىء هنا، فقالوا: إن المراد هو «لقاء ثواب اللّه»، أو «لقاء ملائكة اللّه».

غير أنّ «اللقاء» يمكن أن يؤخذ هنا بمعنى اللقاء الحقيقى بعين القلب، حيث أنّ الحجب تزال فى القيامة و تتجلّى عظمة اللّه و آياته أكثر من أىّ وقت مضى، و يصل الإنسان إلى مقام المشاهدة الباطنية و الرؤية القلبية، و ينال كلّ شخص من هذه المشاهدة مرتبة تتناسب مع مقدار معرفته و عمله الصالح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۴

و للفخر الرازى فى تفسيره هنا بيان جميل يمكن جمعه مع ما قلناه، فهو يقول:

إنّ الإنسان يغفل فى هذه الدنيا عن اللّه غالبا نتيجة لغرقه فى الأمور المادية، و السعى لتحصيل المعاش، إلّا أنّه يتوجّه يوم القيامة بكلّ وجوده إلى ربّ العالمين، لأنّ كلّ هذه المشاغل الفكرية ستزول، و هذا هو معنى لقاء اللّه ۲۶۲].

ثمّ إنّه اتّضح ممّا قلناه أنّ قول بعض المفسّرين بأنّ هذا التعبير إشارة إلى لحظة الموت و اللقاء بملك الموت لا يناسب الآيات مورد البحث، و لا التعبيرات المشابهة الواردة فى آيات القرآن الاخرى، و خاصّة و أنّ ضمير المفعول الذى فى جملة «يلقونه» جاء بصيغة المفرد، و هو إشارة إلى ذات اللّه المقدّسة فى حين أنّ الملائكة التى تقبض الأرواح جمع، و جاءت كلمة «الملائكة» بصيغة الجمع فى

الآية السابقة أيضا (إلّا اللهمّ أن تقدّر كلمة ما).

۳- أجور المؤمنين معدّة منذ الآن!

إنّ جملـة أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً توحى بأنّ الجنّة و نعمها قد خلقت، و هى بانتظار المؤمنين. و يمكن أن يتبادر هذا السؤال إلى الأذهان: إنّ التهيئـة و الإعداد يليقان بالشـخص المحدود القدرة، حيث أنّه ربّما لا يسـتطيع فى بعض الأحيان أن يهيء وقت الحاجة ما يريد، إلّا أنّ مثل هذه الحاجة إلى الاسـتعداد لا تصدق فى شأن اللّه سبحانه، إذ أنّ قدرته لا تحدّ، و إذا أراد شيئا فى أيّة لحظة فإنّه يقول له: كن فيكون، فما هو المراد من التأكيـد على التهيئة و الإعداد فى هذه الآية و سائر آيات القرآن الاخرى؟! و بملاحظة نقطة واحدة يحلّ هذا الإشكال، و هى أنّ تهيئة الشيء ليس نابعا من كون القدرة محدودة دائما، بل قد يكون أحيانا من أجل تهدئة الخاطر و اطمئنان

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۵

النفس أكثر، و قـد يكون أحيانـا من أجـل زيـادة الاحترام و الإكرام، و لـذلك فإنّنا إذا دعونا ضـيفا، و بـدأنا بتهيئـة وسائل اسـتقباله و ضيافته، فسـنكون قـد اهتممنا به و احترمناه أكثر، على عكس ما إذا قمنا بهذا الاسـتعداد لاسـتقباله يوم مجيئه، و فى ساعة وصوله، فإنّ هذا كاف لوحده فى الدلالة على عدم اهتمامنا و قلّة احترامنا لهذا الضيف.

و فى الوقت نفسه، لا ـ يمنع هـذا الكلام من تعاظم الأجر و الثواب و زيادته وفق العمل، و أنّ المؤمنين كلّما اجتهـدوا أكثر فى تهـذيب أنفسهم و تطهيرها، فإنّ الأجور الإلهيّة المعدّة لهم تتكامل أكثر و تعظّم، و تسير نحو الكمال بنفس النسبة التى يتكاملون فيها.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۶

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۵ الى ۴۸]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَـلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵) وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً (۴۷) وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۴۸)

التّفسير

السّراج المنير!

الخطاب فى هـذه الآيات موجّه إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، إلّا أنّ نتيجته لكلّ المؤمنين، و بـذلك فإنّها تكمل الآيات السابقة التى كانت تبحث فى بعض وظائف المؤمنين و واجباتهم.

لقـد جـاءت فى الآـيتين الأـوليين من هـذه الآيـات الأـربع «خمس صـفات» للنبى صـلّى اللّه عليه و آله و جاء فى الآيتين الأخريين بيان خمس واجبات يرتبط بعضها ببعض، و تكمل إحداها الاخرى.

تقول الآيـة أوّلا ـ إِنَّا أَرْسَـلْناکَ شاهِـداً فهو من جانب شاهـد على أعمال أمّته، لأنّه يرى أعمالهم كما نقرأ ذلك فى موضع آخر: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۷

وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ [۲۶۳] و هذا العلم یمکن تحقّقه عن طریق عرض أعمال الامّة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و الأئمّة علیهم السّلام، و قد مرّ تفصیل ذلک فی ذیل الآیة المذکورة (۱۰۵ من سورة التوبة).

و هو من جانب آخر شاهد علی الأنبیاء الماضین الذین کانوا شهودا علی أممهم: فَکَیْفَ إِذا جِئْنا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِیدٍ وَ جِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً.[۲۶۴] و من جهة ثالثة فإنّ وجودک بما لک من الصفات و الأخلاق و البرامج و التعلیمات البنّاءة، إضافة إلی تاریخک المشرق و أعمالک المشرفة، شاهد علی أحقّیة دینک، و شاهد علی عظمة اللّه و قدرته.

ثمّ تطرّقت الآیة إلی الصفتین الثّانیة و الثالثة فقالت: وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً فهو مبشّر للمحسنین بثواب اللّه اللامتناهی .. بالسلامة و السعادة الخالدة .. بالظفر و التوفیق الملیء بالفخر و الاعتزاز .. و نذیر للکافرین و المنافقین من عذاب اللّه الألیم .. من خسران کلّ رأسمال الوجود، و من السقوط فی شراک التعاسة فی الدنیا و الآخرة.

و کما قلنا سابقا، فإنّ البشارة و الإنذار یجب أن یقترنا فی کلّ مکان، و أن یکون أحدهما معادل للآخر، لأنّ نصف وجود الإنسان عبارة عن حبّه لجلب المنفعة، و نصفه الآخر سعیه لدفع المضرّة عنه، فالبشارة تشکّل الدافع علی القسم الأوّل، و الإنذار علی النصف الثانی، فالمناهج التی تعتمد علی جانب واحد لم تدرک حقیقة الإنسان، و لم تدرک دوافعه و میوله ۲۶۵].

و أشارت الآیة التالیة إلی الصفة الرّابعة و الخامسة، فقالت: وَ داعِیاً إِلَی اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِیراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۸

ملاحظات

و هنا ینبغی الانتباه إلی عدّة ملاحظات:

۱- لقد ذکر مقام «الشهادة»، و کون النّبی صلّی اللّه علیه و آله شاهدا قبل جمیع صفاته الاخری، و ذلک لأنّ هذا المقام لا یحتاج إلی مقدّمة سوی وجود النّبی و رسالته، فعند ما یتمّ نصبه فی هذا المقام یکون شاهدا من جمیع الجهات التی ذکرناها سابقا، غیر أنّ مقام «البشارة» و «الإنذار» أمر یتحقّق بعد ذلک.

۲- إنّ الدعوة إلی اللّه سبحانه مرحلة تأتی بعد البشارة و الإنذار، لأنّ البشارة و الإنذار وسیلة لتهیئة الأفراد لقبول الحقّ، فعند ما تتهیّأ هذه الأرضیة عن طریق الترغیب و الترهیب، تبدأ مرحلة الدعوة إلی اللّه سبحانه، و ستکون مؤثّرة فی هذه الحالة فقط.

۳- مع أنّ کلّ أعمال النّبی صلّی اللّه علیه و آله بإذن اللّه و أمره، إلّا أنّ الدعوة هی الوحیدة التی قیّدت بإذن اللّه هنا، و ذلک لأنّ أشقّ أعمال الأنبیاء و أهمّها هی الدعوة إلی اللّه سبحانه، حیث یجب علیهم أن یسوقوا الناس فی طریق یخالف میولهم و شهواتهم، فیجب أن تستبطن إذن اللّه و أمره و نصرته فی هذه المرحلة لیتمّ تنفیذها، و من هنا یتّضح أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لا یملک شیئا من عند نفسه، بل کلّ ما یقوله بإذن اللّه ۲۶۶].

۴- إنّ کون النّبی صلّی اللّه علیه و آله (سراجا منیرا) إشارة إلی المعجزات و أدلّة أحقّیة دعوة الرّسول، و علامة صدقها، فهو سراج منیر شاهد بنفسه علی نفسه، یزیح الظلمات و یلفت الأنظار و یجذب القلوب إلیه، فکما أنّ بزوغ الشمس دلیل علی وجود الشمس، فکذلک وجوده صلّی اللّه علیه و آله دلیل علی کونه حقّا، و دلیل علی أحقّیته.

و ممّا یستحقّ الانتباه أنّ لفظة «السراج» قد وردت فی القرآن المجید أربع مرّات، ثلاث منها فی شأن الشمس، و من جملتها ما ورد فی الآیة (۱۶) من سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۹

نوح حيث تقول: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً.

«السراج» فى الأصل يعنى المصباح الذى يضاء سابقا بواسطة الفتيلة و الزيت، و بواسطة الطاقة الكهربائية و أمثالها فى العصر الحاضر، فينبعث ضياؤه و نوره، إلّا أنّه اطلق- على قول الراغب فى مفرداته- على كلّ مصدر للنور فيما بعد، و إطلاقه على الشمس من أجل أنّ نورها ينبع من داخلها، و لا تكتسب نورها من مصدر آخر كالقمر.

إنّ وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله كالشمس المنيرة التى تزيح ظلمات الجهل و الشرك و الكفر عن سماء روح البشر، لكن كما لا ينتفع العمى بنور الشمس، و كما تخفى الخفافيش أنفسها عنه حيث لا طاقة لعيونها برؤية هذا النور، فإنّ عمى القلوب العنودين المتعصّبين لم يستفيدوا و لن يستفيدوا من هذا النور مطلقا، و كان أبو جهل و أمثاله يضعون أصابعهم فى آذانهم حتّى لا يسمعوا صوت قرأنه و نغمته.

إنّ الظلام يبعث على الخوف و الوحشة دائما، و النور يبعث الاطمئنان و الراحة، فالسرّاق و اللصوص يستغلّون ظلام الليل للسطو على الدور و نهب ما يقدرون عليه، و الحيوانات المفترسة تخرج من حجورها فى ظلمة الليل غالبا.

الظلام يسبّب الفرقة، و النور يسبّب الاجتماع، و لذلك فإنّنا إذا أسرجنا سراجا فى ليلة مظلمة فستجتمع حوله أنواع الحشرات فى فترة قصيرة.

إنّ النور و الضياء أساس نمو الأشجار، و نضج الفواكه و الأثمار، و الخلاصة: كلّ نشاطات الحياة، و تشبيه وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله بمصدر للنور يبعث على تداعى كلّ هذه المفاهيم فى الذهن.

إنّ وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله أساس الهدوء و الاطمئنان، و فرار لصوص الدين و الإيمان، و هرب الذئاب الضارية الظالمة لمجتمعاتها، و يوجب هدوء الخاطر، و نمو روح الإيمان و الأخلاق، و الخلاصة: أساس الحياة و الحركة، و تأريخ حياته شاهد حى على هذا الموضوع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۰

و فى الآيتين الأخريين من الآيات مورد البحث بيانا لخمسة واجبات من واجبات النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله المهمّة بعد بيان صفاته الخمس، فتقول أوّلا: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً و هى إشارة إلى أنّ مسألة تبشير النّبى صلّى اللّه عليه و آله لا يحدّ بالثواب الإلهى بمقدار أعمال المؤمنين الصالحة، بل إنّ اللّه سبحانه يفيض عليهم من فضله بحيث تضطرب المعادلة بين العمل و الجزاء تماما كما تشهد بذلك الآيات القرآنية.

فتقول فى موضع: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.[۲۶۷] و تقول فى موضع آخر: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ.[۲۶۸] و قد تذهب أبعد من ذلك فتقول: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [۲۶۹] و بهذا فإنّ أبعاد الفضل الإلهى الكبير أوسع و أسمى ممّا يخطر فى التصوّر و الأوهام.

ثمّ تناولت الواجب الثّانى و الثالث، فقالت: وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ

لا شكّ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لم يطع الكافرين و المنافقين مطلقا، إلّا أنّ هذا الموضوع من الأهمّية بمكان، و لذلك أكّدت الآية على هذا الموضوع بالخصوص من باب التأكيد على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و التحذير و القدوة للآخرين، فهى تحذّرهم من الأخطار و العقبات المهمّة التى تعترض طريق القادة المخلصين، و التى تجرّهم إلى المساومة و التسليم أثناء المسيرة، و تهيّأ أرضية هذا التسليم عن طريق التهديد تارة، و عن طريق منح الامتيازات تارة اخرى، حتّى أنّ الإنسان قد يشتبه أحيانا فيظنّ أنّ الخضوع و الامتثال لمثل لهذه المساومة و الاستسلام هو طريق الوصول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۱

إلى الهدف. فى حين أنّ نتيجة هذا الاستسلام هى إجهاض كلّ الجهود و المساعى، و إحباط كلّ جهاد و كفاح.

إنّ تأريخ الإسلام يبيّن أنّ الكافرين و المنافقين سعوا مرارا إلى جرّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى هذا الموضع، فاقترحوا مرّة أن لا يذكر الأصنام بسوء و لا ينتقدها و ينتقصها، و قالوا مرّة اخرى: ائذن لنا أن نعبد ربّك سنة، و اعبد آلهتنا سنة، و كانوا يقولون أحيانا: أمهلنا سنة نقيم فيها على ديننا ثمّ نؤمن بك. و اقترحوا عليه مرّة أن أبعد عنك فقراء المؤمنين و مساكينهم لنضمّ صوتنا- نحن الأثرياء ذوى المكانة- إليك.

و كانوا يعلنون أحيانا استعدادهم لبذل الامتيازات المالية و المركز و المنصب الحسّاس، و النساء الجميلات و أمثال ذلك.

من المسلّم أنّ كلّ هذه كانت شراك خطيرة فى طريق انتشار الإسلام السريع، و اقتلاع جذور الكفر و النفاق، و لو كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد أظهر الليونة و الميل إلى المساومة أمام واحد من هذه الاقتراحات فإنّ دعائم الثورة الإسلامية كانت ستنهار، و لم تكن الجهود لتصل إلى نتيجة مطلقا.

ثمّ تقول فى الأمر الرابع و الخامس: وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

إنّ هذا الجزء من الآية يوحى بأنّهم قد وضعوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله تحت ضغط شديد لحمله على الاستسلام، و استخدموا ضدّه و ضدّ أصحابه كلّ أنواع الأذى، سواء كان عن طريق جرح اللسان و الكلام الفاحش و الإهانة، أم عن طريق الأذى الجسمى، أو عن طريق الحصار الاقتصادى. و كان لهذا الأذى صورة و أسلوبا فى مكّة، و أسلوبا آخر فى المدينة، لأنّ «الأذى» جاء مطلقا فى الآية و يشمل كلّ أنواع الأذى.

و يرى «الراغب» فى المفردات أنّ «الأذى» هو كلّ ضرر يصيب الكائن الحى، سواء فى روحه، أو جسمه، أو يصيب من يرتبط به، سواء فى الدنيا أم الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۲

و قد استعملت هذه الكلمة فى الآيات القرآنية فى «الأذى اللسانى» تارة كالآية (۶۱) من سورة التوبة، حيث تقول: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ

و استعملت أيضا بمعنى «الأذى البدنى» فى آيات اخرى، كالآية (۱۶) من سورة النساء: وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما أى يرتكبان الفاحشة، فأقيموا عليهما الحدّ الشرعى.

يقول التاريخ: إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين الأوائل قد وقفوا كالجبل الأشمّ أمام أنواع الأذى، و لم يقبلوا عار الاستسلام و الهزيمة قطّ، و أخيرا انتصروا فى حركتهم.

و كان أساس هذه المقاومة و معينها هو «التوكيل على اللّه» و الاعتماد على ذاته المقدّسة .. اللّه الذى تتيسّر كلّ الصعاب و المشاكل أمام إرادته .. أجل يكفى الإنسان أن يكون معينه و ناصره هذا الربّ الجليل.

و ممّا قلناه اتّضح أنّ محتوى الآية المذكورة لم يكن نسخ لحكم الجهاد- كما يظنّ ذلك بعض المفسّرين- بل الظاهر أنّ هذه الآيات قد نزلت بعد مدّة من نزول حكم الجهاد، و هى فى مصافّ الحوادث المتعلّقة بسورة الأحزاب.

إنّ هذا حكم لكلّ العصور و القرون، بأن لا يصرف الأئمّة الإلهيون طاقاتهم الحيوية فى الاهتمام بإيذاء مخالفيهم، فإنّهم إن فعلوا ذلك و صرفوا قواهم و طاقاتهم فى هذا المجال، يكون عدوّهم قد حقّق هدفه، لأنّه يريد أن يشغل فكر من يقابله، و يهدر طاقاته عن هذا الطريق .. هنا يكون أمر دَعْ أَذاهُمْ هو الحلّ الوحيد.

و هنا أمر يستحقّ الانتباه أيضا، و هو: أنّ الأوامر الخمسة المذكورة، التى وردت فى الآيتين الأخيرتين، يكمل بعضها بعضا، و يرتبط بعضها ببعض، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۳

تبشير المؤمنين لجذب القوى المؤمنة، و عدم الاستسلام للكفّار و المنافقين، و عدم الاهتمام بأذاهم، و التوكّل على اللّه تشكّل

مجموعة مبادئ تؤدّی إلی الهدف، و دستور عمل جامع لکلّ سالکی طریق الحقّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۴

الآیة [سورة الأحزاب (۳۳): آیة ۴۹]

اشارة

یـا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَکُمْ عَلَیْهِنَّ مِنْ عِـدَّةٍ تَعْتَـدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَـرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِیلًا (۴۹)

التّفسیر

جانب من أحکام الطلاق:

إنّ آیات هذه السورة- الأحزاب- جاءت علی شـکل مجموعات مختلفة، و الخطاب فی بعضها موجّه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و فی بعضـها الآـخر إلی کـلّ المؤمنین، و لـذلک تقول أحیانـا: یـا أَیُّهَا النَّبِیُّ و أحیانـا اخری: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قـد وردت فیها الأوامر اللازمـة یوازی بعضـها بعضا، و هـذا یعنی أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله کان مرادا بهذه التعلیمات، کما أنّ عموم المؤمنین یرادون بها أیضا.

و الآیـة التی نبحثهـا من الآیـات التی توجّه خطابها إلی کلّ المؤمنین، و لـذلک تقول أحیانا: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ و أحیانا اخری: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قد وردت فیها الأوامر اللازمة یوازی بعضـها بعضا، و هذا یعنی أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله کان مرادا بهذه التعلیمات، کما أنّ عموم المؤمنین یرادون بها أیضا.

و الآیة التی نبحثها من الآیات التی توجّه خطابها إلی کلّ المؤمنین، فی حین أنّ الآیات السابقة خاطبت شـخص النّبی صـلّی اللّه علیه و آله ظاهرا، و یتوجّه الخطاب إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی الآیات القادمة مرّة اخری، و بهذا فإنّ قسما من هذه السورة یتّبع أسلوب «اللفّ و النشر المرتّب».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۵

تقول الآیة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَکُمْ عَلَیْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها.

لقد بیّن اللّه سبحانه هنا حکما استثنائیا من حکم عدّة النساء المطلّقات، و هو أنّ الطلاق، إن وقع قبل الدخول فلا تلزم العدّة، و من هذا التعبیر یفهم أنّ حکم العدّة کان قد بیّن قبل هذه الآیة.

إنّ التعبیر ب «المؤمنـات» لاـ یـدلّ علی أنّ الزواج مـن غیر المسـلمات ممنـوع تمامـا، بـل مـن الممکـن أن یکـون إشـارة إلی أولـویة المؤمنات، و بناء علی هذا فإنّه لا ینافی الروایات و مشهور فتاوی الفقهاء بجواز الزواج المؤقّت من الکتابیات.

ثمّ إنّه یسـتفاد من تعبیر (لکم) و کـذلک جملـة (تعتـدونها) أنّ انتظار عـدّة المرأة یعتبر حقّا للرجل، و یجب أن یکون هکـذا، لأنّ من الممکن أن تکون المرأة حاملاـ فی الواقع، و ترکهـا العـدّة و زواجها برجل آخر یجعل حال الولـد غیر معلوم، و یؤدّی إلی ضـیاع حقّ الرجل إضافة إلی أنّ انتظار العـدّة یمنـح الرجل و المرأة فرصـة لتجدید النظر و الرجوع إلی بعضـهما، فقد یقع الطلاق نتیجة انفعالات شدیدة، و مثل هذه الفرصة و التفکیر حقّ للرجل و المرأة معا.

و أمّا ما أورده البعض علی هذا الحکم، بأنّ العدّة إن کانت حقّا للرجل، فبإمکانه أن یسـقط حقّه، فلا یصحّ، لأنّ فی الفقه حقوقا کثیرة

لا يمكن إسـقاطها، كالحقّ الـذى لورثة الميّت فى أمواله، أو الحقّ الذى للفقراء فى الزكاة، إذ لا يقدر أى أحد على إسـقاط هذا الحقّ الشرعى.

ثمّ تتطرّق الآيـة إلى حكم آخر من أحكـام النسـاء اللاـتى يطلقن قبل المباشـرة الجنسـيـة- و الـذى سـبقت الإشارة إليه فى سورة البقرة أيضا- فتقول: فَمَتِّعُوهُنَ أى اعطوهنّ هدية مناسبة.

و لا شكّ أنّ تقديم هديّة مناسـبة إلى المرأة يكون واجبا فى حالة عدم تعيين المهر من قبل، كما جاء فى الآية (۲۳۶) من سورة البقرة لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٠۶

النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَ

بنـاء على هـذا، فإنّ الآيـة مورد البحث و إن كانت مطلّقـة، و تشـمل الموارد التى عين فيها المهر، و التى لم يعيّن فيها، إلّا أنّنا نحـدّدها بالمورد الـذى لم يعيّن فيه المهر بقرينـة آيـة سورة البقرة، لأنّه فى حالـة تعيين المهر و عـدم الدخول يجب دفع نصف المهر، كما جاء ذلك فى الآية (۲۳۷) من سورة البقرة.

و احتمل بعض المفسّرين و الفقهاء أنّ حكم تقديم هديّة مناسبة عام فى الآية مورد البحث، و يشمل حتّى الموارد التى عيّن فيها المهر، غايـة مـا هناك أنّ له صـفة الاسـتحباب فى هـذه الموارد، و له صـفة الوجوب فى الموارد التى لم يعيّن فيها المهر. و تلاحظ فى بعض الآيات و الروايات إشارة إلى هذا المعنى أيضا[۲۷۰].

أمّا كم هو مقـدار هـذه الهديـة؟ فقد بيّنه القرآن المجيد فى سورة البقرة إجمالا بقوله: مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ [۲۷۱] و كذلك قال فى نفس تلك الآية: عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ

بناء على هذا، فإن ذكرت فى الروايات الإسـلامية موارد من قبيل البيت و الخادم و اللباس و أمثال ذلك، فإنّها من قبيل المصاديق لهذا الكلّى و هى تتفاوت بحسب إمكانيات الزوج و شؤون المرأة.

و آخر حكم فى الآية مورد البحث هو: وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا.

«السـراح الجميل» هو الطلاق المقترن بالمحبّـة و الاحترام، و ترك كلّ خشونـة و ظلم و جور و احتقار، و الخلاصة هو ما ورد فى الآية (۲۹) من سورة البقرة:

فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ فإنّ الاسـتمرار فى الحياة الزوجيـة يجب أن يكون قائما على أساس المعايير الإنسانيـة، و الطلاق كذلك، فلا يجوز للرجل- إذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٠٧

صمّم على طلاق زوجته- هضـم حقّ الزوجـة و مهرها، و بذاءة الكلام و الخشونة معها، فإنّ هذا السـلوك غير إسـلامى قطعا، و لا يمتّ إلى الإسلام بصلة.

و اعتبر بعض المفسّـرين «السـراح الجميل» بمعنى إجراء الطلاق طبقا للسـنّة الإسـلامية، و جاء هذا المعنى فى الرّواية الواردة فى تفسير على بن إبراهيم و عيون الأخبار. إلّا أنّ من المسلّم أنّ «السراح الجميل» لا يتحدّد بهذا المعنى، بالرغم من أنّه أحد مصاديقه.

و اعتقد بعض آخر من المفسّـرين أنّ السراح الجميل هنا يعنى إذن الخروج من المنزل، لأنّ المرأة ليست مكلّفة هنا بالعدّة، و بناء على هذا فيجب إطلاق سراحها لتذهب حيث شاءت.

إلّا أنّ هـذا المعنى يبـدو بعيـدا بملاحظـة أنّ تعبير السـراح الجميل، أو أمثاله فى الآيات القرآنيـة الاخرى قـد ورد حتّى فى شأن النساء اللاتى يجب أن يعتددن.

و قـد كان لنا بحث مفصّل حول المعنى الأصـلى للسـراح، و أصـله اللغوى، و لما ذا يسـتعمل فى الإطلاقات المتعارفـة بمعنى الطلاق و

الإطلاق فی ذيل الآية (۲۸) من سورة الأحزاب هذه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۸

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۰]

اشارة

يـا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِی آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِی هاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَـها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْـتَنْكِحَها خالِصَـةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِی أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۰)

التّفسير

يمكنك الزواج من هذه النّسوة:

قلنـا: إنّ بعض مقاطع هـذه السورة تبحث واجبات النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و المؤمنين علی طريقـة اللفّ و النشـر المرتّب، و لـذلك فبعد ذكر جانب من الأحكام المتعلّقة بطلاق النساء، وجّهت الخطاب هنا إلی النّبی صـلّی اللّه عليه و آله، و فصّـلت الموارد السبعة التی يجوز للنبی الزواج فيها من تلك النسوة:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۹

۱- فقالت أوّلا: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِی آتَيْتَ أُجُورَهُنَ

و المراد من هؤلاء النساء- بقرينـة الجمل التاليـة- النساء اللاتی لم يكنّ يرتبطن بالنّبی صـلّی اللّه عليه و آله برابطة قرابة و قد تزوّجنه، و ربّما كانت مسألـة دفع المهر لهـذا السـبب، لأنّ العرف المتّبع آنـذاك هو أنّهم كانوا يـدفعون المهر نقـدا عنـد زواجهم من الأجنبيات، إضافة إلی أفضـلية التعجيل فی هذا الدفع، و خاصّة إذا كانت الزوجة بحاجة إليه. إلّا أنّ هذا الأمر ليس من الواجبات علی أی حال، إذ يمكن أن يبقی المهر دينا فی ذمّة الزوج إذا ما اتّفق الطرفان علی ذلك.

۲- وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ

أَفاءَ اللَّهُ من مادّة (الفیء)، و تقال للأموال التی يحصل عليها الإنسان بـدون جهد و مشـقّة، و لذلك يطلق (الفیء) علی الغنائم الحربية، و كذلك الأنفال، و هی الثروات الطبيعية التی تعود إلی الحكومة الإسلامية و لا يملكها مالك بالخصوص.

يقول الراغب فی مفرداته: الفیء بمعنی الرجوع إلی حالـة محمودة، و منه فاء الظلّ. (لحالة رجوع الظلّ) ثمّ قال: و قيل للغنيمة من دون مشقّة فیء. قال بعضهم:

سمّی ذلك بالفیء تنبيها علی أنّ أشرف أعراض الدنيا يجری مجری ظلّ زائل.

صحيـح أنّ الغنـائم الحربيـة لا تنال فی بعض الأحيان إلّا بشقّ الأنفس و بـذل الجهـد المضـنی، إلّا أنّ مشـقّتها أقلّ من مشـقّة تحصـيل الأموال الاخری. و قد يطلق «الفیء» أحيانا علی الأموال الطائلة التی يحصل عليها من خلال هجوم واحد.

لكن من من نساء النّبی يصدق عليها هذا الحكم؟

قـال بعض المفسّـرين: إنّ إحـدی نسـاء النّبی و هی «ماريـة القبطيـة»- كـانت من الغنـائم، و كـانت زوجتـان أخريان- و هما «صـفيّة» و «جويرية»- من الأنفال أعتقهما النّبی صلّی اللّه عليه و آله ثمّ تزوّجهما، و كان هذا الفعل بنفسه جزءا من خطّة الإسلام العامّة فی تحرير

العبيد التدريجى، و إرجاع الشخصية الإنسانية لهم.

۳- وَ بَناتِ عَمِّکَ وَ بَناتِ عَمّاتِکَ وَ بَناتِ خالِکَ وَ بَناتِ خالاتِکَ اللّاتِی هاجَرْنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۰

مَعَکَ و بهذا فإنّ اللّاتى يحلّ للنّبى الزواج منهنّ من بين جميع الأقارب: بنات العمّ و العمّة، و بنات الخال و الخالة، و بشرط أن يكنّ قد هاجرن مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

إنّ التحديد بهذه الفئات الأربع واضح، إلّا أنّ شرط الهجرة من أجل أنّها كانت دليلا على الإيمان فى ذلك اليوم، و عدم الهجرة دليل على الكفر، أو لأنّ الهجرة تمنحهنّ امتيازا أكبر و فخرا أعظم، و الهدف من الآية هو بيان النساء الفاضلات المؤهّلات لأن يصبحن زوجات للنّبى صلّى اللّه عليه و آله.

و هل لهذه الفئات الأربع التى ذكرت كحكم كلّى فى الآية، مصداق خارجى من بين نساء النّبى أم لا؟ إنّ المورد الوحيد الذى يمكن ذكره كمصداق هو زواجه صلّى اللّه عليه و آله بزينب بنت جحش، الذى مرّت قصّته المثيرة فى طيّات هذه السورة، لأنّ زينب كانت بنت عمّة النّبى و كان «جحش» زوج عمّته [۲۷۲].

۴- وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِي (من دون مهر) إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أى أنّ هذا الحكم خاص للنبى صلّى اللّه عليه و آله و لا يشمل سائر المؤمنين قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ و بناء على هذا فإذا كنّا قد حدّدنا بعض المسائل فيما يتعلّق بالزواج من هؤلاء النسوة، فقد كان ذلك استنادا إلى مصلحة حاكمة فى حياتك و حياتهن، و لم يكن أىّ من هذه الأحكام و المقرّرات اعتباطيا و بدون حساب.

ثمّ تضيف الآية لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ و بالتالى ستكون قادرا على أداء المسؤوليات الملقاة على عاتقك فى القيام بهذا الواجب وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

و فى مورد القسم الأخير- أى النساء اللّاتى لا مهر لهنّ- ينبغى الالتفات إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۱

النقاط أدناه:

۱- لا شكّ أنّ جواز اتّخاذ زوجة من دون مهر كان من مختصّات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و الآية صريحة فى هذه المسألة، و لذلك فهى من مسلّمات الفقه الإسلامى، و بناء على هذا فلا يحقّ لأىّ امرئ أن يتزوّج امرأة بدون مهر، قلّ أم كثر، و حتّى إذا لم يرد ذكر المهر أثناء إجراء صيغة العقد، و لم تكن هناك قرينة تعيّنه، فيجب أن يدفع مهر المثل، و المراد من مهر المثل: المهر الذى تجعله النساء اللاتى تشابهها فى الأوصاف و الخصوصيات لأنفسهنّ عادة.

۲- هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه هل لهذا الحكم الكلّى مصداق فى مورد زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله أم لا؟

يعتقد البعض- كابن عبّاس و بعض آخر من المفسّرين- أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يتزوّج بأيّه امرأة على هذه الحال، و بناء على هذا فإنّ الحكم أعلاه كان إذنا عاما للنّبى صلّى اللّه عليه و آله إلّا أنّه لم يطبّق عمليا مطلقا.

فى حين أنّ آخرين ذكروا أسماء ثلاث أو أربع نسوة من زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله اللّاتى تزوجهنّ بدون مهر، و هنّ: «ميمونة» بنت الحارث، و «زينب» بنت خزيمة، و كانتا من الأنصار، و امرأة من بنى أسد، و اسمها «امّ شريك» بنت جابر، و «خولة» بنت حكيم.

و من جملة ما ورد فى الروايات أنّ «خولة» عند ما وهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و آله اعترضت عائشة، فقالت: ما بال النساء يبذلن أنفسهنّ بلا مهر؟! فنزلت الآية أعلاه، غير أنّ عائشة التفتت إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالت: أرى اللّه يسارع فى هواك- و كان هذا نوع من التعريض بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله-

فقال لها النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «و إنّک إن أطعت اللّه سارع فی هواک»[۲۷۳].

لا ـ شکّ أنّ أمثال هؤلاء النسوة کنّ لا یطمعن إلّا فی الفخر المعنوی عن طریق الاقتران بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله، و لذلک کنّ علی استعداد للزواج منه بدون أیّ مهر، إلّا أنّ وجود مثل هذا المصداق للحکم أعلاه غیر مسلّم من الناحیة التأریخیة کما قلنا، بل المسلّم أنّ اللّه سبحانه کان قد أذن لنبیّه بذلک للغایة التی سنشیر إلیها فیما بعد.

۳- یستفاد من هذه الآیة جیّدا أنّ إجراء صیغة عقد الزواج بلفظ «الهبة» کان مختّصا بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله فقط، و لا یستطیع أیّ فرد آخر أن یجری عقد الزواج بهذا اللفظ، و یجوز إجراء العقد بلفظ الزواج أو النکاح، حتّی و إن لم یجر للمهر ذکر فیه، حیث یجب دفع مهر المثل عند عدم ذکر المهر کما قلنا آنفا، فکأنّه فی الحقیقة قد صرّح بمهر المثل.

بحث

جانب من حکمة تعدّد زوجات النّبی:

إنّ الجملة الأخیرة فی الآیة أعلاه إشارة فی الواقع إلی فلسفة هذه الأحکام الخاصّة بنبیّنا الأکرم، حیث تقول: إنّ للنبی صلّی اللّه علیه و آله ظروفا لا یعیشها الآخرون، و هذا التفاوت فی الظروف أصبح سببا للتفاوت فی الأحکام.

و بتعبیر أوضح، إنّ الهدف من هذه الأحکام رفع بعض المشاکل و الصعوبات من کاهل النّبی صلّی اللّه علیه و آله. و هذا تعبیر لطیف یبیّن أنّ زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله من عدّة نساء کان لحلّ سلسلة من المشاکل الاجتماعیة و السیاسیة فی حیاته، لأنّا نعلم أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان وحیدا حینما صدع بنداء الإسلام و رفع شعاره، و لم یؤمن به بعد مدّة طویلة سوی عدّة معدودة، فإنّه ثار ضدّ کلّ معتقدات عصره و بیئته الخرافیة، و أعلن الحرب ضدّ

الجمیع، فمن البدیهی أن تتّحد کلّ الأقوام و القبائل ضدّه.

فی هذا الوضع کان لا بدّ من أن یستعین بکلّ الوسائل و یستغلّها لکسر اتّحاد الأعداء اللامشروع، و کانت إحدی هذه الوسائل هو الزواج من القبائل المختلفة لإیجاده علاقة قرابة و نسب، لأنّ رابطة القرابة کانت تعدّ أقوی الروابط بین عرب الجاهلیة، و کانوا یعتبرون الصهر من نفس القبیلة، و الدفاع عنه واجبا، و ترکه وحیدا جریمة و ذنبا.

إنّ لدینا قرائن کثیرة تبیّن أنّ زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله المتعدّد کان له صبغة سیاسیّة فی کثیر من الموارد علی أقلّ تقدیر. و أحدها- کزواجه بزینب- کان لکسر سنّة جاهلیة، و قد بیّنا تفصیله فی ذیل الآیة (۳۷) من هذه السورة. و بعضه لتقلیل العداوة، أو لجلب محبّة أشخاص أو أقوام متعصّبین عنودین.

من الواضح أنّ شخصا یتزوّج و هو فی سنّ الخامسة و العشرین، حیث کان فی عنفوان شبابه، بامرأة أیم لها أربعون سنة، و یکتفی بها حتّی الثالثة و الخمسین من عمره، و بهذا یکون قد قضی مرحلة الشباب و بلغ سنّ الکهولة، ثمّ یقدم علی الزواج المتعدّد، لا بدّ أن یکون له سبب و فلسفة، و لا یمکن أن یفسّر بأیّ وجه من الوجوه بأسباب العلاقة و الرغبة الجنسیة، لأنّه لم یکن هناک مانع اجتماعی، أو ظروف مالیة صعبة، أو أدنی نقص یمنع النّبی صلّی اللّه علیه و آله من الزواج المتعدّد فی سنّی شبابه، خاصّة و أنّ تعدّد الزوجات کان أمرا طبیعیا بین العرب آنذاک، بل ربّما کانت الزوجة الاولی تذهب لخطبة الزوجة الثّانیة، و لم یکونوا یعترفون بأیّ حدّ فی اتّخاذ الزوجات.

و الطريف أنّه قد ورد فى التواريخ أنّ النّبى لم يتزوّج إلّا بكرا واحدة، و هى عائشة، و باقى نسائه كنّ أيامى جميعا و من الطبيعى أن لا يتمتعنّ بإثارة جنسية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۴

ملحوظة[۲۷۴].

بل نقرأ فى بعض التواريخ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله تزوّج بعدّة زوجات، و لم يجر إلّا مراسم العقد، و لم يباشرهنّ أبدا، و لم يباشرهنّ أبدا، بل إنّه اكتفى فى بعض الموارد بخطبة بعض نساء القبائل فقط[۲۷۵].

و قد كان هؤلاء يفرحون و يسرّون و يفتخرون بأنّ امرأة من قبيلتهم قد سمّيت بزوجة النّبى صلّى اللّه عليه و آله فحصل لهم هذا الفخر، و بذلك فإنّ علاقتهم الاجتماعية بالنّبى كانت تشتدّ و تقوى، و يصبحون أكثر تصميما على الدفاع عنه.

و من جانب آخر، فمع أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يكن رجلا عقيما، إلّا أنّه لم يكن له من الأولاد إلّا القليل، فى حين أنّ هذا الزواج المتعدّد لو كان بسبب جاذبية هذه النسوة، و إثارتهنّ الجنسية، فينبغى أن يكون له من الأولاد الكثير.

و كذلك ينبغى الالتفات إلى أنّ بعض هذه النساء- كعائشة- كانت صغيرة جدّا عند ما أصبحت زوجة للنبى صلّى اللّه عليه و آله، و قد مرّت سنين حتّى استطاعت أن تكون زوجة حقيقية له، و هذا يوحى بأنّ الاقتران بمثل هذه البنت الصغيرة كانت له أهداف اخرى، و كان الهدف الأصلى هو ما أشرنا إليه قبل قليل.

و بالرغم من أنّ أعداء الإسلام أرادوا أن يتّخذوا من تعدّد زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله حربة لأشدّ هجماتهم المغرضة، و يحوكون منها أساطير أو هى من خيط العنكبوت للطعن فى نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله إلّا أنّ سنّ النّبى المتقدّمة عند إقدامه على تكرار الزواج من جهة، و الظروف الخاصّة المتعلّقة بالنساء من ناحية العمر و القبيلة من جانب آخر، و القرائن المختلفة التى أشرنا إلى قسم منها آنفا من جهة ثالثة تجعل الحقيقة واضحة كالشمس، و تحبط مؤامرات المغرضين و تفضحها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۵

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۱]

اشارة

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱)

سبب النّزول

قلنا فى تفسير الآيتين ۲۸ و ۲۹ من هذه السورة و بيان سبب النّزول: إنّ جمعا من نساء النّبى- بناء على ما نقله المفسّرون- قلن للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله: زد فى نفقتنا و امور معاشنا- طمعا فى الغنائم الحربية، فكنّ يحسبن أنّ قسما كبيرا منها من نصيبهنّ فنزلت الآيات المذكورة و خاطبتهنّ بصراحة بأنهنّ إن أردن الحياة الدنيا و زينتها فليفارقن النّبى إلى الأبد، و إن أردن اللّه و رسوله و اليوم الآخر فليعشن معه حياة بسيطة.

إضافة إلى أنّه كانت بينهنّ منافسة فى كيفية تقسيم أوقات حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله بينهنّ، و كنّ يحرجن النّبى و يضايقنه مع كلّ المشاكل و المشاغل التى كانت لديه، و مع أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان يراعى العدالة بينهنّ و يبذل الجهد اللازم لتحقيقها تماما، فقد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۶

کان لغطهنّ وجد الهنّ مستمرّا، فنزلت هذه الآیة و جعلت النّبی صلّی اللّه علیه و آله حرّا فی تقسیم أوقاته، ثمّ أعلنت الآیة لهنّ أنّ هذا حکم إلهی لئلّا یتولّد فی أنفسهن أی قلق و سوء ظنّ ۲۷۶].

التّفسیر

حلّ مشکلة اخری فی حیاة النّبی:

إنّ قائدا ربّانیا عظیما کالنّبی صلّی اللّه علیه و آله خاصّة و أنّه ابتلی بسیل من الحوادث الصعبة المرّة، و کانوا یحوکون له الدسائس و المؤامرات داخلیا و خارجیا، لا یقدر أن یشغل فکره بحیاته الخاصّة کثیرا، بل یجب أن یکون له هدوء نسبی فی حیاته الداخلیة لیقوی علی التفرّغ لحلّ سیل المشاکل التی أحاطت به من کلّ جانب.

إنّ اضطراب الحیاة الشخصیة، و کون قلبه و فکره مشغولین بوضعه العائلی فی هذه اللحظات المضطربة الحسّاسة کان أمرا خطیرا للغایة.

و مع أنّ زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله المتعدّد- و طبقا للبحوث السابقة، و الوثائق و المستندات التی أوردناها فی تفسیر الآیة السابقة- کانت له أبعاد سیاسیة و اجتماعیة و عاطفیة غالبا، و کان فی الحقیقة جزءا من تنفیذ و تطبیق رسالة اللّه سبحانه، إلّا أنّ الاختلاف بین زوجات النّبی، و المنافسة النسویة المعروفة بینهنّ، قد أثار فی الوقت نفسه عاصفة من الاضطراب داخل بیت النّبی ممّا شغل فکره و زاد فی همّه.

هنا منح اللّه سبحانه نبیّه إحدی الخصائص الاخری، و أنهی هذه الحوادث و الأخذ و العطاء فی الجدل إلی الأبد، و أراح فکر النّبی صلّی اللّه علیه و آله من هذه الجهة، و هدأ خاطره و روعه، فقال سبحانه فی هذه الآیة تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَیْکَ مَنْ تَشاءُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۷

«ترجی» من (الإرجاء)، أی: التأخیر، و «تؤوی»، من (الإیواء) و یعنی استضافة شخص فی بیتک.

و نعلم أنّ أحکام الإسلام فی شأن الزوجات المتعدّدة تقضی بأن یقسم الزوج أوقاته بینهنّ بصورة عادلة، فإن بات لیلة عند واحدة، فیجب أن یبیت اللیلة الاخری عند غیرها، إذ لا فرق و لا اختلاف بین النساء من هذه الجهة، و یعبّرون عن هذا الموضوع فی الکتب الفقهیّة الإسلامیة ب «حقّ القسم».

فکانت إحدی مختصّات النّبی صلّی اللّه علیه و آله هی سقوط رعایة حقّ القسم منه بحکم الآیة أعلاه، و ذلک نتیجة للظروف الخاصّة التی کان یعیشها، و الأوضاع المضطربة التی کانت تحیط به من کلّ جانب، و خاصّة أنّ الحرب کانت تفرض علیه کلّ شهر تقریبا، و کان له فی نفس الوقت زوجات متعدّدة، و بسقوط هذا الواجب عنه فقد کان قادرا علی أن یقسم أوقاته کیف یشاء، غیر أنّه صلّی اللّه علیه و آله کان یراعی تحقیق العدالة ما أمکن رغم هذه الظروف، کما جاء ذلک فی التواریخ الإسلامیة صریحا.

إلّا أنّ وجود هذا الحکم الإلهی قد منح نساء النّبی الراحة و الاطمئنان، و أضفی علی حیاته الداخلیة الهدوء و السکینة.

ثمّ تضیف الآیة: و عند ما ترغب عن إحداهن و تعتزلها، ثمّ ترغب فیها فلا تثریب علیک: وَ مَنِ ابْتَغَیْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَیْکَ

و بهذا فلیس الخیار بیدک فی البدایة و حسب، بل إنّه بیدک حتّی فی الأثناء أیضا، و هو فی الاصطلاح «تخییر استمراری» لا ابتدائی، و بهذا الحکم الواسع ستقطع کلّ الحجج من برنامج حیاتک فیما یتعلّق بأزواجک، و تستطیع أن تسخّر فکرک لمسؤولیات الرسالة العظیمة الثقیلة.

و من أجل أن تعلم نساء النّبى بأنهنّ إن أذعنّ لأمر اللّه تعالى فى مسألـة تقسيم أوقات النّبى صلّى اللّه عليه و آله فإنّه يعتبر و سام فخر لهنّ يضاف إلى الفخر بكونهنّ أزواج النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۸

صلّى اللّه عليه و آله، إذ أنّ هـذا التسليم نوع من التضحية و الإيثـار، و ليس فيه أىّ عيب و انتقاص، و لـذلك يضيف سبحانه: ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَ

و ذلـك أوّلا: لأنّ هـذا الحكم عامّ يشملهنّ جميعا و لا يتفاوتن فيه، و ثانيا: إنّ الحكم الـذى يشرع من جانب اللّه سبحانه إنّما يشرع لمصلحة مهمّة، و بناء على هذا فيجب الإذعان له برغبة و رضا، فينبغى مضافا إلى عدم القلق و التأثّر أن يفرحن لذلك.

لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله- و كما أشرنا إلى ذلـك- كـان يراعى تقسيم أوقـاته بينهنّ بعدالـة قـدر المستطاع، إلّا فى الظروف الخاصّة التى كانت توجب عدم التسوية و تحتّمه، و كان هذا بحدّ ذاته مطلبا آخر يبعث على ارتياحهنّ، لأنّهنّ كنّ يرين أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يسعى للتسوية بينهنّ مع كونه مخيّرا.

و أخيرا ينهى المطلب بهذه الجملة: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً لا يستعجل فى إنزال العقاب بالمذنبين.

أجل .. إنّ اللّه يعلم بأىّ حكم قد رضيتم، و له أذعنتم بقلوبكم، و عن أى حكم لم ترضوا.

و هـو سبحانه يعلـم إلى مـن أكـثر مـن أزواجكـم، و من منهنّ تحظى باهتمـام أقـل، و يعلم كيـف تراعـون حكمه و تنفّـذوه مـع هـذا الاختلاف فى الميول و الرغبات.

و كـذلك يعلم سبحانه من هم الـذين يجلسون جانبـا، و يعترضون على أحكـام اللّه فى شأن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، و يعارضونها بقلوبهم، و يعلم من هو الذى يرضى عن هذه الأحكام و يتقبّلها بدون اعتراض.

بناء على هذا فإنّ تعبير (قلوبكم) واسع يشـمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و أزواجه، و يشمل كلّ المؤمنين الذين يقبلون بهذه الأحكام، أو الذين يعترضون عليها و ينكرونها و إن لم يبدوا هذا الاعتراض و الإنكار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۹

ملاحظة

هل كان هذا الحكم فى حقّ كلّ نساء النّبى:

لقد كانت هذه المسألة موضع بحث فى الفقه الإسـلامى فى باب خصائص النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأنّ تقسيم الأوقات بين الزوجات المتعـدّدة بالتسـاوى هـل يجـب على النّبـى صـلّى اللّـه عليـه و آله كمـا يجب على عامّـة المسـلمين، أم أنّ النّبى كـان له حكم التخيير الاستثنائى؟

المعروف و المشـهور بين فقهائنـا و عنـد جمع من فقهاء العامّـة أنّه صـلّى اللّه عليه و آله كان مستثنى من هـذا الحكم، و يعـدّون الآية المذكورة أعلاه دليلا على ذلك، فهى تقول:

تُرْجِي مَنْ تَشـاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْـكَ مَنْ تَشـاءُ لأنّ جعل هـذه الجملـة بعـد البحث حول كلّ نساء النّبى يوجب أن يعود ضـمير (هنّ) عليهنّ جميعا، و هذا مطلب مقبول من جانب الفقهاء و كثير من المفسّرين.

إلّا أنّ البعض يرى أنّ الضـمير أعلاه يتعلّق بالنساء اللاتى وهبن أنفسـهنّ للنبى بـدون مهر. فى حين أنّه لم يثبت تاريخيا أنّ هذا الحكم قد تحقّق فى الخارج، و أنّ له موضوعا و مصداقا أم لا. و البعض يرى أنّ النّبى لم يتزوّج على هذه الشاكلة إلّا امرأة واحدة. و على كلّ

حال، فإنّ أصل المسألة لم يثبت من الناحية التاريخية هذا أوّلا.

ثانيا: إنّ هذا التّفسير خلاف الظاهر، و لا يتناسب مع سبب النّزول الذى ذكروه لهذه الآية، و بناء على هذا فيجب قبول الحكم المذكور عاما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۰

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۲]

اشارة

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲)

التّفسير

حكم مهمّ آخر فيما يتعلّق بأزواج النّبى:

لقد بيّن اللّه سبحانه فى هذه الآية حكما آخر من الأحكام المتعلّقة بزوجات النّبى، فقال عزّ و جلّ: لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ فالآية منعت الرّسول من الزواج الجديد إلّا الماء و الجوارى وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً.

للمفسّرين و فقهاء الإسلام بحوث كثيرة فى هذه الآية، و وردت فى المصادر الإسلامية روايات مختلفة فى هذا الباب، و نحن نذكر أوّلا ما يبدو من ظاهر الآية أنّه مرتبط بالآيات السابقة و اللاحقة- بغضّ النظر عن أقوال المفسّرين- ثمّ نتناول المطالب الأخرى.

الظاهر من تعبير مِنْ بَعْدُ أنّ الزواج محرّم عليك بعد هذا، و بناء على هذا فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۱

(بعد) إمّا أن تعنى (بعد) الزمانية، أى لا تتّخذ زوجة بعد هذا الزمان، أو أنّ المراد أنّك بعد أن خيّرت أزواجك بين البقاء معك و الحياة حياة بسيطة فى بيتك، و بين فراقهنّ، و قد رجّحن البقاء معك عن رغبة منهنّ، فلا ينبغى أن تتزوّج بعدهنّ بامرأة اخرى.

و كذلك لا يمكنك أن تطلّق بعضهنّ و تختار مكانهنّ زوجات أخر. و بتعبير آخر:

لا تزد فى عددهنّ، و لا تبدّل الموجود منهنّ.

مسائل مهمّة:

۱- فلسفة هذا الحكم:

إنّ هذا التحديد للنبى صلّى اللّه عليه و آله لا يعتبر نقصا، بل هو حكم له فلسفة دقيقة جدّا، فطبقا للشواهد التى تستفاد من التأريخ، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان تحت ضغط شديد من قبل مختلف الأفراد و القبائل بأن يتزوّج بنساء أخر منهم، و كلّ واحدة من القبائل المسلمة كانت تفتخر على قبائل العرب بأنّ النّبى قد صاهرهم و حتّى أنّ بعض النساء كنّ على استعداد أن يهبن أنفسهنّ للنبى

بدون مهر- کما مرّ ذلک- و یتزوّجنه بدون أیّ قید أو شرط.

کانت هذه العلاقة الزوجیة مع تلک القبائل و الأقوام حلّا لمشاکل النبی صلّی اللّه علیه و آله و محققة لأهدافه الاجتماعیة و السیاسیة، غیر أنّها إذا تجاوزت الحدّ، فمن الطبیعی أن تخلق له المشاکل بنفسها، و بما أنّ کلّ قبیلة کانت تأمل أن یتزوّج النّبی منها، فلو أراد النّبی صلّی اللّه علیه و آله أن یحقّق آمال الجمیع، و یختار منهم أزواجا، حتّی و إن کانت بمجرّد العقد و لا یدخل بها، فإنّ ذلک سیوجد له مصاعب جمّة. و لذلک فإنّ اللّه الحکیم قد منع هذا الأمر و وقف دونه بإصدار قانون محکم، فنهاه عن الزواج الجدید، و عن تبدیل أزواجه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۲

لقد کان هناک أفراد فی هذا الوسط یتوسّلون للوصول إلی هدفهم بحجّة أنّ أغلب أزواجک أیامی، و من بینهنّ من لاحظ لها من الجمال، فاللائق بک أن تتزوّج بامرأة ذات جمال، و لذلک فإنّ القرآن أکّد علی هذه المسألة بأنّه لا یحقّ لک أن تتزوّج النساء فیما بعد و إن أعجبک حسنهنّ و کنّ ذوات جمال.

إضافة إلی أنّ أداء الجمیل و رعایته کان یوجب أن یسنّ اللّه تعالی مثل هذا القانون، و یأمر به نبیّه لحفظ مقام أزواجه بعد أن أبدین وفاءهن، و رجّحن الحیاة البسیطة المعنویة مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله علی أی شیء آخر.

و أمّا فیما یتعلّق بالجواری و المملوکات بالیمین حیث أبیح الزواج منهنّ، فإنّما هو من أجل أنّ مشکلة النّبی کانت من ناحیة الحرائر، و لذلک لم تکن هناک ضرورة تدعو إلی تحدید هذا الحکم فی طرف الجواری، مع أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یستفد من هذا الاستثناء طبق الشواهد التأریخیة.

هذا هو الشیء الذی یبدو من ظاهر الآیة.

۲- الروایات المخالفة:

اعتبرت جملة: لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ فی روایات عدیدة- بعضها ضعیفة من ناحیة السند، و بعضها یستحقّ الملاحظة- إشارة إلی النساء اللواتی بیّن تحریمهم فی الآیتین (۲۳ و ۲۴) من سورة النساء- و هنّ الامّ و البنت و الاخت و العمّة و الخالة و ..، و صرّح فی ذیل بعض هذه الأخبار بأنّه: کیف یمکن أن تکون النساء حلال علی الآخرین و حرام علی النّبی؟ فلم تکن أیّة امرأة محرّمة علیه سوی ما حرّم علی الجمیع ۲۷۷].

طبعا، یبدو بعیدا جدّا أن تکون الآیة تشیر إلی الآیات الواردة فی سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۳

النساء، إلّا أنّ المشکلة هنا أنّ بعض الروایات قد صرّحت بأنّ المراد من مِنْ بَعْدُ: بعد المحرّمات فی آیة سورة النساء.

بناء علی هذا، فإنّ الأفضل هو أن نغضّ النظر عن تفسیر روایات الآحاد هذه، أو کما یقال: ندع علم ذلک إلی أهله، أی المعصومون علیهم السّلام، لأنّها لا تنسجم مع ظاهر الآیة، و نحن مکلّفون بظاهر الآیة، و الأخبار المذکورة أخبار ظنّیة.

و المطلب الآخر هو أنّ جماعة کثیرة تعتقد بأنّ الآیة مورد البحث قد حرّمت کلّ زواج جدید علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله إلّا أنّ هذا الحکم قد نسخ فیما بعد، و اذن له بالزواج، و إن کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یتزوّج بعد ذلک. حتّی الآیة إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ اللَّاتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ .. و التی نزلت قبل الآیة مورد البحث، فإنّهم یعتبرونها ناسخة لهذه الآیة. و یعتقدون بأنّ هذه الآیة و إن کانت قد کتبت فی القرآن بعد آیة إِنَّا أَحْلَلْنا .. إلّا أنّ الأخیرة قد نزلت قبلها! بل و ینقل «الفاضل المقداد» فی کنز العرفان بأنّ هذه هی الفتوی المشهورة بین الأصحاب ۲۷۸].

و هذا الرأی یتعارض مع الروایات أعلاه بوضوح، و کذلک لا ینسجم مع ظاهر الآیات أیضا، لأنّ ظاهر الآیات یوحی بأنّ آیة إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ قد نزلت قبل الآیة مورد البحث، و مسألة النسخ تحتاج إلی دلیل قطعی.

و علی کلّ حال، فلیس لدینا شیء أکثر اطمئنانا و وضوحا من ظاهر الآیة نفسها، و طبقا لذلک فإنّ کلّ زواج جدید، أو تبدیل زوجات قد حرّم علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله بعد نزول هذه الآیة، و کان لهذا الحکم مصالح و منافع هامّة أشرنا إلیها فیما سبق.

۳- هل یمکن النظر إلی زوجة المستقبل قبل الزواج؟

اعتبر جمع من المفسّرین جملة وَ لَوْ أَعْجَبَکَ حُسْنُهُنَ دلیلا علی حکم معروف أشیر إلیه فی الروایات الإسلامیة أیضا، و هو: أنّ من أراد من أن یتزوّج

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۴

بامرأة یستطیع النظر إلیها من قبل نظرة تبیّن له هیکلها و أوصافها.

و حکمة هذا الحکم أن یختار الإنسان زوجته عن بصیرة تامّة و لا یندم و یأسف فی المستقبل و هو ما یهدّد العلاقة الزوجیة و الکیان العائلی بالخطر، کما ورد ذلک فی حدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال لأحد أصحابه حینما أراد أن یتزوّج:

«انظر إلیها، فإنّه أجدر أن یدوم بینکما»[۲۷۹].

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال فی جواب هذا السؤال: هل یستطیع الرجل أن یدقّق النظر إلی المرأة إذا أراد الزواج منها و ینظر إلی وجهها و خلفها: «نعم، لا بأس أن ینظر الرجل إلی المرأة إذا أراد أن یتزوّجها، ینظر إلی وجهها و خلفها»[۲۸۰].

و الأحادیث الواردة فی هذا الباب کثیرة، و قد صرّح بعضها بأنّ هذه النظرة یجب أن لا تکون بدافع الشهوة و طلب اللذّة.

و واضح أیضا أنّ هذا الحکم خاصّ بالموارد التی یرید فیها الإنسان أن یتحقّق فعلا من المرأة التی یرید الزواج منها، بحیث لو کانت الشروط مجتمعة فیها لتزوّجها، أمّا الذی لم یصمّم علی الزواج بعد، بل یحتمله، أو أنّه یرید مجرّد البحث، فلا یجوز له النظر إلی النساء.

و احتمل البعض فی هذه الآیة أنّها إشارة إلی النظر للنساء صدفة و لا إرادیا، و علی هذا فإنّ الآیة لا تدلّ فی هذه الحالة علی الحکم المذکور آنفا، و ستکون الروایات هی الدلیل الوحید علیه. إلّا أنّ جملة: وَ لَوْ أَعْجَبَکَ حُسْنُهُنَ لا تنسجم مع نظرة الصدفة السریعة، و بناء علی هذا فإنّ دلالتها علی الحکم المذکور تبدو بعیدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۵

الآیتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۵۳ الی ۵۴]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتَ النَّبِیِّ إِلاَّ أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ إِلی طَعامٍ غَیْرَ ناظِرِینَ إِناهُ وَ لکِنْ إِذا دُعِیتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِینَ لِحَدِیثٍ إِنَّ ذلِکُمْ کانَ یُؤْذِی النَّبِیَّ فَیَسْتَحْیِی مِنْکُمْ وَ اللَّهُ لا یَسْتَحْیِی مِنَ الْحَقِّ وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِکُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِکُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما کانَ لَکُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لا أَنْ تَنْکِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِکُمْ کانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِیماً (۵۳) إِنْ تُبْدُوا شَیْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً (۵۴)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون فى سبب نزول هذه الآية: أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لمّا تزوّج «زينب بنت جحش» أولم للناس وليمة فخمة تقريبا. و قلنا سابقا: إنّ هذه الأحكام ربّما كانت من أجل تحطيم سنّة جاهلية فى مجال تحريم مطلّقات الأدعياء بحزم تامّ، و ليكون لهذا التحطيم شعاع أوسع، و لتمحى هذه السنّة الجاهلية التى كانت تعتبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۶

الزواج بأيامى العبيد المحرّرين عيبا و عارا.

يقول «أنس»، و كان خادما خاصّا للنبى: أمرنى النّبى أن أدعو أصحابه للغداء فدعوتهم، فكانوا يأتون جماعة يأكلون و يخرجون، حتّى قلت: يا رسول اللّه، لم يبق أحد لم أدعه، فأمر برفع السماط، فرفعوا السماط و تفرّق القوم، إلّا ثلاثة نفر بقوا فى بيت النّبى و كانوا مشغولين بالحديث.

فلمّا رأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله حديثهم قد طال، نهض و نهضت معه لعلّ القوم يلتفتون و يذهبون إلى أعمالهم، فخرج النّبى حتّى أتى حجرة عائشة، ثمّ رجع مرّة اخرى و كنت معه، فرأيت القوم على جلستهم و حالهم، فنزلت الآية أعلاه و أفهمتهم كيفية التعامل مع هذه المسائل ۲۸۱].

و يستفاد من بعض الرّوايات أيضا أنّ الجيران و سائر الناس كانوا يأتون إلى بعض نساء النّبى و يستعيرون أشياء حسب المتعارف و المعتاد، و بالرغم من أنّهم لم يكونوا يرتكبون معصية و ذنبا طبقا لبساطة الحياة آنذاك، إلّا أنّ الآية أعلاه نزلت لحفظ حيثيّة زوجات النّبى و أمرت المؤمنين أنّهم إن أرادوا أن يأخذوا من نساء النّبى شيئا فليأخذوه من وراء حجاب.

و جاء فى رواية اخرى أنّ بعض مخالفى النّبى قالوا: كيف تزوّج النّبى بعض نسائنا، أما و اللّه لئن مات لنتزوجنّ نساءه، فنزلت الآية أعلاه و حرّمت الزواج بنساء النّبى من بعده مطلقا، و أنهت هذه المؤامرة[۲۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‌۱۳ ؛ ص۳۲۶

التّفسير

مرّة اخرى يوجّه الخطاب إلى المؤمنين، لتبيّن الآية جانبا آخر من أحكام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۷

الإسلام ضمن جمل قصيرة بليغة و صريحة، و خاصّة ما كان مرتبطا بآداب معاشرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و بيت النبوّة، فتقول أوّلا: لا ينبغى لكم دخول بيوت النّبى إلّا إذا دعيتم إلى طعام و اذن لكم بالدخول بشرط أن تدخلوا فى الوقت المقرّر، لا أن تأتوا قبل ذلك بفترة و تجلسون فى انتظار وقت الغذاء يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ ۲۸۳].

بهذا تبيّن الآية أحد آداب المعاشرة المهمّة، و التى كانت قلّما تراعى فى تلك البيئة، و مع أنّ الكلام يدور حول بيت النّبى إلّا أنّ من المسلّم أنّ هذا الحكم لا يختصّ به، إذ ينبغى أن لا تدخل دار أى إنسان بدون إذنه (كما جاء ذلك فى الآية ۲۷ من سورة النور) بل نقرأ فى أحوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه عند ما كان يريد دخول بيت ابنته فاطمة (سلام اللّه عليها)، كان يقف خارجا و يستأذن. و كان معه «جابر بن عبد اللّه» يوما، فاستأذن له بعد أن استأذن لنفسه ۲۸۴].

إضافة إلى أنّهم إذا دعوا إلى طعام فينبغى أن يكونوا عارفين بالوقت، لئلّا يوقعوا صاحب البيت فى جهد و إحراج فى غير مكانه.

ثمّ تناولت الحكم الثّانى فقالت: وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا.

و هـذا الحکم مکمّـل و مؤکّـد للحکم السـابق فی الواقع، فلاـ تـدخلوا الـبیت الـذی دعیتم إلیه فی غیر زمـان الـدعوة، و فی وقت غیر مناسب، و لا تهملوا إجابة الدعوة أو أن لا تعبؤوا بها، و لا تتأخّروا بعد تناول الطعام مدّة طویلة.

من البدیهی أنّ مخالفة هذه الأمور و عدم اتّباعها سیؤدّی إلی أذی و اشمئزاز المضیف، و هی لا تلائم الأصول الأخلاقیة.

و تقول فی الحکم الثالث: وَ لا مُسْتَأْنِسِینَ لِحَدِیثٍ فلا تجلسوا حلقا تتحدّثون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۸

بعد تناول الطعام، سواء کان ذلک فی بیت النّبی، أم فی بیت أی صاحب دعوة.

طبعا، قـد یرغب المضـیفون فی مثل هـذه الحلقات و المجالس، فهـذه الحالة مسـتثناة، إنّما الکلام فی ما لو کانت الدعوة لتناول الطعام فقط، لا لتشـکیل مجالس الانس، حیث تجب مغادرته بعـد تناول الطعام، خاصّة إذا کان البیت کبیت رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله، مقرّ أداء أکبر رسالات اللّه و أعظمها، فیجب أن لا یهدر وقته بأمور جانبیة تعوقه مدّة عن تأدیة رسالته.

ثمّ تبیّن الآیة علّة هذا الحکم فتقول: إِنَّ ذلِکُمْ کانَ یُؤْذِی النَّبِیَّ فَیَسْتَحْیِی مِنْکُمْ وَ اللَّهُ لا یَسْتَحْیِی مِنَ الْحَقِ

من المسلّم أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یکن یتردّد لحظة، و لا یخشی شیئا، أو یستحیی من شیء فی بیان الحقّ فی الموارد التی لم یکن لها بعد شخصـی و خاصّ، إلّا أنّ بیان الحقّ إذا کان یعود علی القائل نفسه لیس بالأمر الجمیل الحسن، أمّا تبیانه من قبل الآخرین فانّه رائع و مسـتحسن، و مورد الآیة من هذا القبیل أیضا، فإنّ اصول الأخلاق و الأدب کانت توجب علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله أن لا یدافع عن نفسه، بل یدافع اللّه سبحانه عنه.

ثمّ تبیّن الآیة الحکم الرابع فی باب الحجاب، فتقول: وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ

قلنا: إنّ هذا الأمر کان و لا یزال متعارفا بین العرب و کثیر من الناس أنّهم إذا احتاجوا شـیئا من لوازم الحیاة و وسائلها فإنّهم یستعیرونها من جیرانهم مؤقتا، و لم یکن بیت النّبی مسـتثنی من هـذا القـانون، بـل کـانوا یـأتون إلیه سـواء کـان الوقت مناسـبا أم غیر منـاسب، و یسـتعیرون من نساء النّبی شـیئا، و من الواضح أن جعل نساء النّبی عرضة لأنظار الناس- و إن کن یرتدین الحجاب الإسلامی- لم یکن بالأمر الحسن، و لذلک صدر الأمر إلی الناس أن یأخذوا الأشیاء من خلف حجاب أو من خلف الباب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۹

و المسألـة التی ینبغی الانتبـاه إلیهـا هنـا هی أنّه لیس المراد من الحجـاب فی هـذه الآیـة لبـاس النساء، بل هو حکم یضاف إلی ما کان خاصّـا بنساء النّبی، و هو: أنّ الناس مکلّفون إذا أرادوا شـیئا من نساء النّبی أن یأخـذوه من وراء حجاب لظروف نساء النّبی الخاصّـة، و یجب علیهنّ أن لا یخرجن إلی الناس و یظهرن لهم فی مثل هـذه الموارد حتّی و إن کن محجّبات، و هذا الحکم لم یرد طبعا فی شأن النساء الاخریات، بل یکفیهنّ أن یراعین الحجاب الإسلامی.

و الشاهـد علی ذلک أنّ کلمـة «الحجاب»، و إن کانت تسـتعمل فی المحادثات الیومیة بمعنی حجاب المرأة، إلّا أنّها لیس لها مثل هذا المعنی لا فی کتب اللغة، و لا فی تعبیرات فقهائنا.

«الحجاب» فی اللغـة هو الشـیء الـذی یحول بین شـیئین ۲۸۵]، و لـذلک اطلق علی الغشـاء الموجود بین الأمعـاء و القلب و الرئـة اسم «الحجاب الحاجز».

و قـد اسـتعمل القرآن الکریم هـذه الکلمـة بمعنی الحائل أو الساتر فی عدّة مواضع، کالآیة (۴۵) من سورة الإسـراء حیث تقول: جَعَلْنا بَیْنَکَ وَ بَیْنَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً.

و نقرأ فی الآیة (۳۲) من سورة ص: حَتَّی تَوارَتْ بِالْحِجابِ

و جاء فی الآیة (۵۱) من سورة الشوری: وَ ما کانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْیاً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ

أمّا فی کلمات الفقهاء فقـد اسـتعملت کلمـة «الستر» فیما یتعلّق بلباس النساء منذ قدیم الأیّام و إلی یومنا هذا، و ورد أیضا فی الرّوایات

الإسلامية هذا التعبير أو ما يشبهه، و استعمال كلمة «الحجاب» فى شأن لباس المرأة اصطلاح ظهر فى عصرنا على الأكثر، و إذا وجد فى التواريخ و الرّوايات فقليل جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٣٠

و الشاهد الآخر هو ما نقرؤه فى

الحديث المروى عن «أنس بن مالك» خادم النّبى الخاص، حيث يقول: أنا أعلم الناس بهذه الآية- آية الحجاب- لمّا أهديت زينب إلى رّسول اللّه كانت معه فى البيت- صنع طعاما، و دعا القوم فقعدوا يتحدّثون، فجعل النّبى يخرج ثمّ يرجع و هم قعود يتحدّثون، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِ إلى قوله- مِنْ وَراءِ حِجابٍ فضرب الحجاب و قام القوم ٢٨٦].

و فى رواية اخرى عن «أنس» أنّه قال: أرخى الستر بينى و بينه، فلمّا رأى القوم ذلك تفرّقوا[٢٨٧].

بناء على هذا فإنّ الإسلام لم يأمر النساء المسلمات بأن يجلسن خلف الستور، و لا يبرحن دورهن، و ليس لكلمة «المستورات» أو «المحجّبات» و أمثال ذلك من التعبيرات صفة إسلامية أو بعد إسلامى بالنسبة للنساء، بل إنّ ما يلزم المرأة المسلمة هو محافظتها على الحجاب الإسلامى، إلّا أنّ نساء النّبى قد أمرن بهذا الأمر الخاص بسبب وجود أعداء كثيرين، و متتبعين للعيوب و المغرضين، و كان من الممكن أن يصبحن عرضة للتهم، و حربة تقع بيد الانتهازيين.

و بتعبير آخر: إنّ الناس قد أمروا أن يسألوا نساء النّبى ما يبتغونه من وراء حجاب. خاصّة و أنّ التعبير ب «وراء» يشهد لهذا المعنى.

و لذلك بيّن القرآن فلسفة هذا الحكم فقال: ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَ

و بالرغم من أنّ مثل هذا التعليل لا ينافى الحكم الاستحبابى، إلّا أنّ ظهور الأمر فى جملة فَسْئَلُوهُنَ لا يتزلزل فى دلالته على الوجوب، لأنّ مثل هذا التعليل قد ورد أحيانا فى موارد أحكام واجبة اخرى.

ثمّ تبيّن الآية الحكم الخامس بأنّه وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ فبالرغم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٣١

من أنّ هذا العمل قد ذكر فى نفس الآية، و هو الذهاب إلى بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى وقت غير مناسب، و الجلوس بعد تناول الطعام، فقد ورد فى روايات سبب النّزول أنّ بعض المنافقين كانوا قد أقسموا على أن يتزوّجوا نساء النّبى من بعده، و قد آلم ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله. و لكن معنى الآية عام على كلّ حال، فهو يشمل كلّ نوع من الأذى.

و أخيرا تبيّن الآية الحكم السادس و الأخير فى مجال حرمة الزواج بنساء النّبى من بعده، فقالت: وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً.

و هنا يأتى سؤال، و هو: كيف حرّم اللّه نساء النّبى من اتّخاذ زوج لهنّ بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و قد كان بعضهنّ شابات تقريبا؟

و جواب هذا السؤال يتّضح بملاحظة الغاية من هذا التحريم، و ذلك لأنّه:

أوّلا: كما علمنا من سبب النّزول، فإنّ البعض صمّم على هذا العمل كانتقام من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و إهانة لقدسيته، و كانوا يريدون أن ينزلوا ضربة بكيانه صلّى اللّه عليه و آله عن هذا الطريق.

ثانيا: لو كانت هذه المسألة جائزة، فإنّ جماعة كانوا سيتّخذون زوجان النّبى أزواجا لهم من بعده، و كان من الممكن أن يستغلّوا هذا الزواج لتحقيق مآربهم و الوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة. أو أنّهم يبدؤون بتحريف الإسلام على أساس أنّهم يمتلكون معلومات خاصّة صادرة من داخل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و أهل البيت أدرى بالذى فيه، أو أن يبثّ المنافقون بين الناس مطالب عن هذا الطريق تخالف مقام النبوّة- تأمّلوا ذلك-.

و نلمس ذلك بصورة أوضح عند ما نعلم أنّ جماعة هيؤوا أنفسهم للقيام بهذا العمل، و صرّح بذلك بعضهم، و كتمه البعض الآخر

فی قلبه. و كان من جملة من

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٣٢

ذكره بعض مفسّرى العامّة هنا هو «طلحة»[٢٨٨].

إنّ اللّه المطّلع على الأسرار الخفيّة و المعلنة، و الخبير بها، قد أصدر حكما قاطعا لإحباط هذه الخطّة الخبيثة، و ليمنع من وقوع هذه الأمور، و لتحكيم دعائم هذا الحكم فقد أطلق لقب (امّهات المؤمنين) على أزواج النّبى ليعلم أولئك بأنّ الزواج منهنّ كالزواج من امّهاتهم! و بملاحظة ما قيل يتّضح لماذا وجب على نساء النّبى أن يتقبّلن هذا الحرمان بكلّ رحابة صدر؟

قد تطرح أحيانا مسائل مهمّة على مدى حياة الإنسان، يجب أن يظهر تجاهها التضحية و الإيثار، و أن يغضّ النظر عن بعض الحقوق التى ثبتت له، خاصّة و أنّ الافتخارات العظيمة تصاحبها مسئوليات خطيرة، و لا شكّ أنّ أزواج النّبى قد اكتسبن فخرا لا يضاهى و عزّا لا يسامى بزواجهنّ من النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و اكتساب هذا الفخر يحتاج إلى مثل هذه التضحية.

لهذا السبب كانت نساء النّبى يعشن من بعده بكلّ احترام و تقدير بين الامّة الإسلامية، و كن راضيات جدّا عن حالهنّ، و يعتبرن ذلك الحرمان مقابل هذه الافتخارات أمرا تافها.

و حذّرت الآية الثّانية الناس بشدّة، فقالت: إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً فلا تظنّوا أنّ اللّه سبحانه لا يعلم ما خططتم له فى سبيل إيذاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله سواء ما ذكر تموه، أو الذى أضمر تموه، فإنّه تعالى يعلم كلّ ذلك جيدا، و يعامل كلّ إنسان بما يناسب عمله.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ٣٣٣

بحوث

اشارة

مناسبة للبحث الذى ورد فى الآيات المذكورة فى شأن واجبات المسلمين عند ما يدعون إلى ضيافة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، نورد جانبا من تعليمات الإسلام فيما يتعلّق بأصل مسألة «الضيافة»، و حقّ الضيف، و واجبات المضيف:

١- الضيافة:

لقد أولى الإسلام مسألة الضيافة أهميّة خاصّة، حتّى أنّه

ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «الضيف دليل الجنّة»[٢٨٩].

إنّ أهميّة الضيف و وجوب احترامه و تقديره، بلغ حدّا اعتبر فيه هدية سماوية،

فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يقول: «إذا أراد اللّه بقوم خيرا أهدى إليهم هدية، قالوا: و ما تلك الهدية؟ قال: الضيف ينزل برزقه، و يرتحل بذنوب أهل البيت»[٢٩٠].

و الطريف أنّ رجلا حضر عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقال: فداك أبى و امّى، إنّى أسبغ الوضوء، و أقيم الصلاة، و أؤتى الزكاة فى حينها، و ارحّب بالضيف و اقريه فى اللّه،

فقال صلّى اللّه عليه و آله: «بخ بخ بخ! ما لجهنّم عليك سبيل! إنّ اللّه قد برأك من الشحّ إن كنت كذلك».

الكلام فى هذا الباب كثير، و نكتفى بهذا القدر رعاية للاختصار.

۲- مراعاة البساطة فى الضيافة:

مع كلّ الأهمية التى يتمتّع بها الضـيف، فإنّ الضـيافة إذا اتّسمت بالتكلّف فإنّها غير راجحة من وجهة نظر الإسلام، بل و نهى عنها، فإنّ الإسلام يوصى بأن تكون الضيافة بسيطة، و جعل معيارا عادلا بين الضيف و المضيف، و هو: أن لا يبخل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۴

المضيف بما عنده و يحضره، و أن لا يتوقّع الضيف أكثر من ذلك!

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «المؤمن لا يحتشم من أخيه، و ما أدرى أيّهما أعجب؟! الـذى يكلّف أخاه إذا دخل عليه أن يتكلّف له، أو المتكلّف لأخيه؟»[۲۹۱].

و

يروى سلمان الفارسى عـن النّبى الأـكرم صـلّى اللّـه عليه و آله أنّه قـال: «أن لاـ نتكلّـف للضـيف مـا ليس عنـدنا، و أن نقـدّم إليه ما حضرنا»[۲۹۲].

۳- حقّ الضيف:

قلنا: إنّ الضـيف كالهدية السـماوية من وجهة نظر الإسـلام، و يجب أن يرحّب به و يكرم غاية الإكرام، و يحترم أقصى ما يمكن، حتّى أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام

يروى عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «من حقّ الضيف أن تمشى معه فتخرجه من حريمك إلى البر»[۲۹۳].

و يجب تهيئة مستلزمات راحته إلى الحدّ الذى لا يبلغ التكلّف، حتّى أنّه ورد فى حديث أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: «إنّ من حقّ الضيف أن يعد له الخلال»[۲۹۴].

و قد يكون الضيوف خجولين أحيانا، و لذلك فقد صدر أمر بعدم سؤالهم عمّا إذا كانوا قد تناولوا الطعام أم لا، بل يمدّ لهم السـماط فإن شاءوا و أكلوا، كما

يقول الإمـام الصـادق عليه السّـلام: «لاـ تقـل لأخيـك إذا دخل عليك أكلت اليوم شيئا؟ و لكن قرّب إليه ما عنـدك، فإنّ الجواد كلّ الجواد من بذل ما عنده»[۲۹۵].

و من جملة واجبات المضيف أمام اللّه سبحانه أن لا يحقّر الطعام الذى أعدّه، لأنّ نعمة اللّه سبحانه عزيزة و محترمة مهما كانت، إلّا أنّ المتعارف بين المترفين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۵

و أهل التكلّف أنّهم مهما نوّعوا السـماط و ملؤوه بأنواع الأطعمة فإنّهم يقولون: هذا شـىء بسـيط لا يليق بمقامكم! و فى المقابل يجب أن لا يحتقر الضيف ما قدّم إليه،

ففى حـديث عـن الإمـام الصـادق عليـه السّـلام أنّه قـال: «هلـك امرؤ احتقر لأـخيه مـا يحضـره، و هلـك امرؤ احتقر من أخيه مـا قـدّم إليه»[۲۹۶].

إنّ الإسلام دقيق النظرة فى إكرام الضيف، فهو يقول: استقبل الضيف و أعنه عند ما يدخل إلى بيتك، أمّا إذا أراد الخروج فلا تعنه لئلّا

یتصوّر بأنّک راغب فی خروجه ۲۹۷].

۴- واجبات الضیف:

إنّ المسؤولیات تکون متقابلـة دائما، فکما أنّ علی المضـیف واجبات تجاه الضـیف، فکـذلک توجـد علی الضـیف واجبات ینبغی أن یراعیها.

فعلاوة علی ما ذکر فی الأحادیث السابقة، فإنّ علی الضیف أن ینفّذ ما یطلبه منه صاحب البیت و یقترحه علیه فی شأن منزله، فإذا طلب منه أن یجلس فی مکان ما مثلا فلیفعل، فإنّ الإمام الصادق علیه السّـلام یقول: «إذا دخل أحدکم علی أخیه فی رحله فلیقعد حیث یأمر صاحب الرحل، فإنّ صاحب الرحل أعرف بعورة بیته من الداخل علیه»[۲۹۸].

و ملخّص الکلام أنّ مسألة الضـیافة و آدابها قد خصّص لها بحث واسع فی آداب المعاشرة الإسلامیة، و لیراجع لمزید الإیضاح فی هذا الباب «بحار الأنوار»، الأبواب ۸۸- ۹۴ من أبواب العشرة، المجلّد ۱۷ و «المحجّة البیضاء»، المجلّد ۳

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۶

الباب الرابع فضیلة الضیافة.

إلّا أنّ هذه السـنّة الإنسانیة القدیمة قد تقلّصت و للأسف الشدید فی عصرنا الحاضر .. عصر غلبة المادیة و طغیانها فی العالم، و هیمنتها علیه، بل إنّها قـد اجتّثت تقریبا فی بعض المجتمعات الغربیـة، و قـد سـمعنا أنّ بعض أولئک عند ما یأتون إلی البلاد الإسـلامیة و یرون انتشار مسألـة الضـیافة التی لا زالت قائمـة فی البیوتات الأصـیلة، و مـدی العواطف التی تکتنفها، فإنّهم یتعجّبون کیف یمکن أن یقـدّم النـاس أفضل الوسائل الموجودة فی البیت، و أنفس الأطعمـة و ألـذّها للضـیوف الـذین ربّما تربطهم بهم رابطـة ضـعیفة أحیانا، و ربّما کانوا قـد تعارفوا فی سـفرة قصـیرة؟! إلّا أنّ ملاحظـة الأحادیث الإسـلامیة- التی ورد قسم منها قبل قلیل- تبیّن سـبب هـذه التضـحیة و الإیثار، و توضّح الحسابات المعنویة فی هذا المجال .. تلک الحسابات التی لا تعنی شیئا لدی عبّاد المادّة و الغارقین فی بحرها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۷

الآیة [سورة الأحزاب (۳۳): آیة ۵۵]

اشارة

لاـ جُناحَ عَلَیْهِنَّ فِی آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَّ وَ اتَّقِینَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیداً (۵۵)

سبب النّزول

یروی بعض المفسّـرین أنّ آبـاء نسـاء النّبی و أبنـاءهنّ و عوائلهنّ سألوا رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله بعـد نزول آیـة الحجاب- الآیـة السابقة-: یا رسول اللّه، و نحن أیضا نحدّثهنّ من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآیة بأنّها لا تشملکم.

التّفسیر

الموارد المستثناة من قانون الحجاب:

لمّا کان الحکم الذی ورد فی الآیة السابقة حول حجاب نساء النّبی مطلقا، و یمکن أن یوهم هذا الإطلاق بأنّ المحارم مکلّفون بتنفیذه أیضا، و أن یحدّثوهنّ من وراء حجاب کالأجانب، فقد نزلت هذه الآیة و فصلت حکم هذه المسألة.

تقول الآیة: لا جُناحَ عَلَیْهِنَّ فِی آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۸

إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَ و بتعبیر آخر: فإنّ محارمهنّ الذین استثنوا فی الآیة هم هؤلاء الستّة فقط، و إذا قیل: إنّ هناک أفرادا من المحارم أیضا لم یجر لهم ذکر فی الآیة کالأعمام و الأخوال، فیجاب علی هذا السؤال بأنّه:

لمّا کان القرآن یراعی الفصاحة و البلاغة فی أجلی صورها و أسماها، و أحد اصول الفصاحة هو أن لا تکون فی الکلام أی کلمة زائدة، فقد امتنع عن ذکر الأعمام و الأخوال هنا، و ذلک لأنّه حینما ذکر أولاد الأخ و أولاد الاخت، فسوف یتّضح حکم الأعمام و الأخوال من المحارم، لأنّ لهذه المحرمیة جانبان، فکما أنّ ابن الأخ محرم بالنسبة إلی المرأة، فإنّها ستکون محرما أیضا بالنسبة إلی ابن أخیها- و نحن نعلم أنّ مثل هذه المرأة تعتبر «عمّة»- و لأنّ ابن الاخت کما هو محرم علیها فإنّها ستکون محرما بالنسبة إلی ابن الاخت، و نعلم أنّ مثل هذه المرأة هی «الخالة».

و عند ما تکون العمّة و الخالة محرما بالنسبة إلی ابن الأخ و ابن الاخت، فإنّ العمّ و الخال سیکونان أیضا محرما بالنسبة إلی ابنة الأخ و ابنة الاخت، حیث لا فرق بین العمّ و العمّة، و الخال و الخالة، و هذه إحدی دقائق القرآن الکریم. (تدبّر ذلک).

و هنا یطرح سؤال آخر، و هو: إنّ أبا الزوج و ابن الزوج بعض محارم المرأة، فلما ذا لم یذکرا هنا؟ فی حین أنّهما ذکرا من جملة المحارم فی الآیة (۳۱) من سورة النور.

و الإجابة عن هذا السؤال واضحة، لأنّ الکلام فی هذه الآیة منحصر فی حکم نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و نحن نعلم أنّ أبا النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یکن موجودا حال حیاته، و لا امّه، و لم یکن له ابن ۲۹۹]. «فتأمّل».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۹

إنّ عدم ذکر الإخوة و الأخوات من الرضاعة، و أمثالهم بسبب أنّ هؤلاء فی حکم الأخ و الاخت و سائر المحارم، و لا یحتاجون إلی ذکر مستقل.

و یتغیّر أسلوب الآیة فی نهایتها من الغائب إلی المخاطب، فتخاطب نساء النّبی و تقول: وَ اتَّقِینَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیداً فإنّ الحجاب و الستر و أمثالهما وسائل للحفظ و الإبعاد عن الذنب و المعصیة لیس إلّا، و الدعامة الأساسیة هی التقوی فحسب، و لولاها فسوف لا تنفع کلّ هذه الوسائل.

و الجدیر بالذکر أنّ نِسائِهِنَ إشارة إلی النساء المسلمات، و ذلک لأنّ من غیر اللائق بالنساء المسلمات- و کما قلنا فی تفسیر سورة النور- أن یکنّ بدون حجاب أمام غیر المسلمات، إذ أنّ من الممکن أن تصفهنّ غیر المسلمات لأزواجهنّ ۳۰۰].

و أمّا جملة: وَ لا ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَ فلها معنی واسع- کما قلنا ذلک فی تفسیر سورة النور أیضا- یشمل الجواری و الغلمان، إلّا أنّها تختّص بالجواری طبقا لبعض الرّوایات الإسلامیة، و بناء علی هذا فإن ذکرهنّ بعد ذکر «النساء» قد یکون من جهة شمولها للجواری غیر المسلمات عموما. (دقّقوا ذلک).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۰

الآیات [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۵۶ الی ۵۸]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (۵۷) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸)

التّفسير[۳۰۱]

الصلاة على النّبى و السلام عليه:

بعد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة حول وجوب حفظ حرمة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و عدم إيذائه، فإنّ هذه الآيات تتحدّث أوّلا عن محبّة اللّه و ملائكته للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و تعظيمهم له، و بعد ذلك تأمر المؤمنين بذلك، ثمّ تذكر العواقب المشؤومة الأليمة لأولئك الذين يؤذون النّبى صلّى اللّه عليه و آله ثمّ تبيّن أخيرا عظم ذنب الذين يؤذون المؤمنين باتّهامهم و الافتراء عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۱

تقول أوّلا: إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ

إنّ مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و منزلته من العظمة بمكان، بحيث أنّ خالق عالم الوجود، و كلّ الملائكة الموكّلين بتدبير أمر هذا العالم بأمر اللّه سبحانه يصلّون عليه، و إذا كان الأمر كذلك فضمّوا أصواتكم إلى نداء عالم الوجود هذا، ف يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً.

إنّه جوهرة نفيسة لعالم الخلقة، و قد جعل بينكم بلطف اللّه، فلا تستصغروا قدره، و لا تنسوا مقامه و منزلته عند اللّه و ملائكة السماوات .. إنّه إنسان ظهر من بينكم، لكنّه ليس إنسانا عاديا، بل هو إنسان يتلخّص عالم الوجود فى وجوده.

و هنا امور يجب الالتفات إليها:

۱- (الصلاة) و جمعها «صلوات»، كلّما نسبت إلى اللّه سبحانه فإنّها تعنى «إرسال الرحمة»، و كلّما نسبت إلى الملائكة فإنّها تعنى «طلب الرحمة»[۳۰۲].

۲- إنّ التعبير ب (يصلّون) و هو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار، يعنى أنّ اللّه و ملائكته يصلّون عليه دائما و باستمرار صلاة دائمة خالدة.

۳- اختلف المفسّرون فى الفرق بين (صلّوا) و (سلّموا) و الذى يبدو أنسب للأصل اللغوى للكلمتين، و أوفق لظاهر الآية القرآنية، هو: أن (صلّوا) أمر بطلب الرحمة و الصلاة على النّبى، أمّا (سلّموا) فتعنى التسليم لأوامر نبى الإسلام الأكرم، كما ورد فى الآية (۶۵) من سورة النساء ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً.

و كما نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ أبا بصير سأله فقال: قد عرفت صلاتنا على النّبى، فكيف التسليم؟ قال: «هو التسليم له فى الأمور»[۳۰۳].

أو أن يكون بمعنى «السلام» على النّبى صلّى اللّه عليه و آله ب (السلام عليك يا رسول اللّه) و ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۲

أشبه ذلك، و الذى يعنى طلب سلامة النّبى صلّى اللّه عليه و آله من اللّه سبحانه.

يروى «أبو حمزة الثمالى» عن «كعب»- و هو أحد أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال:

لمّا نزلت هذه الآیة قلنا: قد عرفنا السلام علیک، فکیف نصلّی علیک؟ فقال: «قولوا:

اللهمّ صلّ علی محمّد و آل محمّد، کما صلّیت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید، و بارک علی محمّد و آل محمّد کما بارکت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید»[۳۰۴].

و من هذا الحدیث تتّضح کیفیة الصلاة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و کذلک یتّضح معنی «السلام».

و بالرغم من أنّ هذین المعنیین للسلام یبدوان مختلفین تماما، إلّا أنّه یمکن عطفهما و إرجاعهما إلی نقطة واحدة إذا دقّقنا فیهما، و هی: التسلیم القولی و الفعلی للنبی صلّی اللّه علیه و آله، لأنّ من یسلّم علیه و یرجو من اللّه سلامته، یعشقه و یعرفه کنبی مفترض الطاعة.

۴- ممّا یلفت النظر أنّه قد ورد صریحا فی کیفیة الصلاة علی النّبی و فی روایات لا تحصی من طرق العامّة و أهل البیت، أن یضاف (آل محمّد) عند الصلوات علی محمّد صلّی اللّه علیه و آله.

فقد روی فی «الدرّ المنثور» عن صحیح البخاری و مسلم و سنن أبی داود و الترمذی و النسائی و ابن ماجة و ابن مردویه و رواه آخرین عن کعب بن عجرة: أنّ رجلا أتی إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فقال: أمّا السلام علیک فقد علمناه، فکیف الصلاة علیک؟ فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «قل اللهمّ صلّ علی محمّد و علی آل محمّد کما صلّیت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید. اللهمّ بارک علی محمّد و علی آل محمّد کما بارکت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید».

و قد أورد صاحب تفسیر الدرّ المنثور ثمانیة عشر حدیثا آخر إضافة إلی هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۳

الحدیث، صرّحت جمیعا بوجوب ذکر «آل محمّد» عند الصلوات.

و قد رویت هذه الأحادیث عن کتب أهل السنّة المعروفة المشهورة عن جماعة من الصحابة منهم: ابن عبّاس، و طلحة، و أبو سعید الخدری، و أبو هریرة، و أبو مسعود الأنصاری، و بریدة، و ابن مسعود، و کعب بن عجرة، و أمیر المؤمنین علی علیه السّلام ۳۰۵].

و قد رویت فی صحیح البخاری (و هو أشهر مصادر الحدیث عند أهل السنّة) روایات عدیدة فی هذا الباب یستطیع من یرید مزید الإیضاح أن یرجع إلیه ۳۰۶].

و کذلک وردت فی صحیح مسلم روایتان فی هذا الباب ۳۰۷].

و العجیب فی هذا الکتاب أنّه بالرغم من ورود (آل محمّد) عدّة مرّات فی هذین الحدیثین، فإنّه اختار هذا العنوان لهذا الباب: (باب الصلاة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله) بدون ذکر «الآل»!! و ثمّة مسألة تستحقّ الانتباه و هی: أنّ فی بعض روایات أهل السنّة، و فی کثیر من روایات أهل البیت لم ترد حتّی کلمة (علی) لتفرّق بین محمّد و آل محمّد، بل کیفیة الصلاة هی: اللهم صلّ علی محمّد و آل محمّد.

و ننهی هذا البحث بحدیث آخر عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله فإنّ

«ابن حجر» یروی فی الصواعق: أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال: «لا تصلّوا علیّ الصلاة البتراء، فقالوا: و ما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللهمّ صلّ علی محمّد و تمسکون، بل قولوا: اللهمّ صلّ علی علی محمّد و آل محمّد»[۳۰۸].

و لهذه الرّوایات فقد اعتبر جمع من کبار فقهاء العامّة إضافة (آل محمّد) إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۴

اسم «محمّد» فی تشهد الصلاة واجبا[۳۰۹].

۵- هل أنّ الصلاة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله واجبة أم لا؟ و إذا کانت واجبة فأین تجب؟

یقول الفقهاء فی الإجابة عن هذا السؤال: إنّ جمیع فقهاء أهل البیت یعتبرونها واجبة فی التشهّد الأوّل و الثّانی من الصلاة، و مستحبة

فی غیرهما.

و علاوة علی الأحادیث الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام فی هذا الباب، فإنّ الروایات الواردة فی کتب أهل السنّة، و الدالّة علی الوجوب، لیست بالقلیلة، و من جملتها ما ورد عن عائشة أنّها قالت: سمعت رسول اللّه یقول: «لا یقبل صلاة إلّا بطهور و بالصلاة علیّ».

و یعتبر «الشافعی»- و هو من فقهاء العامّة- الصلاة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله واجبة فی التشهّد الثانی، و «أحمد» فی إحدی الروایتین المرویتین عنه، و جمع آخر من الفقهاء، غیر أنّ «أبا حنیفة» لا یعتبرها واجبة.

و الطریف أنّ «الشافعی» قد نظّم فتواه هذه شعرا و ذکرها بصراحة حیث یقول:

یا أهل بیت رسول اللّه حبّکمفرض من اللّه فی القرآن أنزله

کفاکم من عظیم القدر أنّکممن لم یصلّ علیکم لا صلاة له [۳۱۰]

ثمّ تبیّن الآیة التالیة النقطة المقابلة للآیة السابقة، فتقول: إِنَّ الَّذِینَ یُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِیناً.

ماذا یراد من أذی اللّه سبحانه؟

قال البعض: إنّ المراد منه هو الکفر و الإلحاد الذی یغضب اللّه عزّ و جلّ، لأنّ «الأذی» لا یعنی فی شأن اللّه تعالی إلّا إغضابه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۵

و یحتمل أیضا أن یکون إیذاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و المؤمنین هو إیذاء اللّه تعالی، و ذکر اللّه فی الآیة لأهمیة المطلب و تأکیده.

و أمّا إیذاء نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله فله معنی واسع، و یشمل کلّ عمل یؤذیه، سواء کان الکفر و الإلحاد و مخالفة أوامر اللّه و الافتراءات و التّهم، أم الأذی الذی یراه حین یدعوهم إلی بیته، کما مرّ فی الآیة (۵۳) من هذه السورة إِنَّ ذلِکُمْ کانَ یُؤْذِی النَّبِیَ

أو الموضوع الذی ورد فی الآیة (۶۱) من سورة التوبة عند ما اتّهموا النّبی صلّی اللّه علیه و آله بأنّه «اذن» نتیجة إصغائه لکلام الناس و رعایته لأدب المحادثة وَ مِنْهُمُ الَّذِینَ یُؤْذُونَ النَّبِیَّ وَ یَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ و أمثال ذلک.

بل و یستفاد من الروایة الواردة فی ذیل الآیة أنّ إیذاء أهل بیت النّبی و خاصّة علی و فاطمة علیهما السّلام، یدخل ضمن الآیة، و قد جاء فی المجلّد الخامس من صحیح البخاری، أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله قال: «فاطمة بضعة منّی فمن أغضبها أغضبنی»[۳۱۱].

و

ورد هذا الحدیث فی «صحیح مسلم» بهذه العبارة: «إنّ فاطمة بضعة منّی یؤذینی ما آذاها»[۳۱۲].

و روی هذا المعنی فی حقّ علیّ علیه السّلام عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله ۳۱۳].

و أمّا «اللعن» الوارد فی الآیة أعلاه، فإنّه بمعنی الطرد عن رحمة اللّه، و هو فی مقابل الرحمة و الصلوات التی وردت فی الآیة السابقة تماما.

إنّ اللعن و الطرد عن رحمة اللّه سبحانه .. تلک الرحمة الواسعة التی لا تعرف الحدود، یعدّ أسوأ أنواع العذاب، خاصّة إذا کان هذا الطرد فی الدنیا و الآخرة کما هو فی الآیة مورد البحث، و لعلّ ذکر مسألة اللعن قبل العذاب المهین لهذا السبب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۶

و التعبیر ب (أعدّ) دلیل علی تأکید هذا العذاب و شدّته.

و تتحدّث الآیة الأخیرة عن إیذاء المؤمنین، و تهتمّ به جدّا بعد إیذاء اللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله، فتقول: وَ الَّذِینَ یُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَیْرِ مَا اکْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِیناً لأنّ للمؤمن علاقة باللّه و رسوله عن طریق الإیمان، و لهذا جعل فی مرتبة اللّه و رسوله هنا.

و تعبیر بِغَیْرِ مَا اکْتَسَبُوا إشارة إلی أنّ هؤلاء لم یرتکبوا ذنبا حتّی یؤذوا.

و من هنا یتّضح أنّهم إن بدر منهم ذنب یستوجب الحدّ و القصاص فلا مانع من إجرائه و تنفیذه فی حقّهم، و کذلک لا یشمل هذا الکلام الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

إنّ تقدیم «البهتان» علی «الإثم المبین» لأهمیّته، لأنّ البهتان یعتبر من أکبر الذنوب، و الجراحات التی تنجم عنه أشدّ ألما من جراحات السنان، کما قال الشاعر العربی:

جراحات السنان لها التیامو لا یلتام ما جرح اللسان

و قد أولت الرّوایات الإسلامیة هذه المسألة اهتماما فائقا،

ففی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ یقول: «لیأذن بحرب منّی من آذی عبدی المؤمن»[۳۱۴].

و قال بعض المفسّرین: یستفاد من أسلوب الآیة أنّ جماعة فی المدینة کانوا یطلقون الشائعات و یثیرون الشبهات حول المؤمنین، و یتّهمونهم بما لیس فیهم، و حتّی نبی اللّه لم یکن بمنأی عن ألسن أولئک المؤذین. و هذه الفئة لیست قلیلة فی المجتمعات الاخری، و خاصّة فی مجتمعات الیوم، و لیس لها عمل إلّا التآمر ضدّ الصالحین و المحسنین، و اختلاق الأکاذیب و التّهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۷

لقد هاجم القرآن الکریم هؤلاء الأشخاص أشدّ هجوم، و وصفت أعمالهم بالبهتان و الإثم المبین. و الشاهد لهذا الکلام سیأتی فی الآیات التالیة.

و

جاء فی حدیث آخر یرویه الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام عن جدّه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «من بهت مؤمنا أو مؤمنة، أو قال فیه ما لیس فیه أقامه اللّه تعالی یوم القیامة علی تلّ من نار حتّی یخرج ممّا قاله فیه»[۳۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۸

الآیات [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۵۹ الی ۶۲]

اشارة

یـا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ وَ بَناتِکَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِینَ یُدْنِینَ عَلَیْهِنَّ مِنْ جَلابِیبِهِنَّ ذلِکَ أَدْنی أَنْ یُعْرَفْنَ فَلا یُؤْذَیْنَ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِی الْمَدِینَةِ لَنُغْرِیَنَّکَ بِهِمْ ثُمَّ لا یُجاوِرُونَکَ فِیها إِلاَّ قَلِیلاً (۶۰) مَلْعُونِینَ أَیْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِیلاً (۶۱) سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِیلاً (۶۲)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر «علی بن إبراهیم» فی سبب نزول الآیة الاولی: فإنّه کان سبب نزولها أنّ النساء کن یخرجن إلی المسجد و یصلّین خلف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و إذا کان باللیل خرجن إلی صلاة المغرب و العشاء الآخرة و الغداة، یقعد الشبّان لهنّ فی طریقهنّ فیؤذونهن و یتعرّضون لهنّ فأنزل اللّه: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ وَ بَناتِکَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِینَ إلی قوله- ذلِکَ أَدْنی أَنْ یُعْرَفْنَ فَلا یُؤْذَیْنَ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۹

رَحِیماً[۳۱۶].

و جاء فی نفس الکتاب فی شأن نزول الآیـة الثانیـة، أنّها نزلت فی قوم منافقین کانوا فی المدینـة یرجفون برسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله إذا خرج فی بعض غزواته یقولون قتل و أسر فیغتمّ المسـلمون لذلک و یشـکون إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فأنزل اللّه فی ذلک: لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ إلی قوله- ثُمَّ لا یُجاوِرُونَکَ فِیها إِلَّا قَلِیلًا[۳۱۷] فبذلک هدّدت مختلقی الشایعات بشدّة.

التّفسیر

تحذیر شدید للمؤذین و مختلقی الإشاعات!

بعـد النهی عن إیذاء رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و المؤمنین الذی ورد فی الآیة السابقة، أکّدت الآیة هنا علی أحد موارد الأذی، و من أجل الوقوف أمامه سلکت طریقین:

فـأمرت المؤمنـات أوّلا- أن لا- یـدعن فی یـد المفسـدین و العابثین حجّـهْ یتشـبّثون بها فی سبیل تحقیق أذاهم، ثمّ هاجمت المنافقین و مختلقی الإشاعات و هدّدتهم بتهدید قلّ نظیره فی آیات القرآن.

فتقول الآیـة فی الجزء الأوّل: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ وَ بَناتِکَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِینَ یُدْنِینَ عَلَیْهِنَّ مِنْ جَلَابِیبِهِنَّ ذلِکَ أَدْنی أَنْ یُعْرَفْنَ فَلا یُؤْذَیْنَ

هناک رأیان لدی المفسّرین فی المراد من «المعرفة» لا یتناقضان:

الأوّل: أنّه کان من المتعارف ذلک الیوم أن تخرج الجواری من المنازل مکشوفات الرأس و الرقبة، و لمّا لم یکن مقبولات من الناحیة الأخلاقیـة، فقـد کـان بعض الشـباب المتهوّر یضـایقوهنّ، فـأمرت المسـلمات الحرائر أن یلتزمن الحجاب التامّ لیتمیّزن عن الجواری، و بالتالی لا یقدر أن یؤذیهنّ أولئک الشباب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۰

و من البدیهی أنّ هذا الکلام لا یعنی أنّه کان لأولئک الطائشین حقّ أذی الجواری، بل المراد سلب الحجّة من الأفراد الفاسدین.

و الآـخر: أنّ الهـدف هو أن لا- تتساهـل المسـلمات فی أمر الحجـاب کبعض النسـاء المتحلّلاـت و المتبرجات المسـلوبات الحیاء رغم التظاهر بالحجاب، هذا التبرّج یغری السفلة و الأراذل و یلفت انتباههم.

أمّا المراد من «الجلباب» فقد ذکر المفسّرون و أرباب اللغة عدّة معان له:

۱- أنّه «الملحفة»، و هی قماش أطول من الخمار یغطّی الرأس و الرقبة و الصدر.

۲- أنّه المقنعة و الخمار.

۳- أنّه القمیص الفضفاض الواسع ۳۱۸].

و مع أنّ هذه المعانی تختلف عن بعضها، إلّا أنّ العامل المشترک فیها أنّها تستر البدن.

و تجدر الإشارة إلی أنّ «الجلباب» یقرأ بکسر الجیم و فتحها.

إلّا أنّ الأظهر أنّ المراد هو الحجاب الذی یکون أکبر من الخمار و أقصر من العباءة، کما ذکر ذلک صاحب لسان العرب.

و المراد من (یدنین) أن یقربن الجلباب إلی أبدانهن لیکون أستر لهنّ، لا أن یدعنه کیف ما کان بحیث یقع من هنا و هناک فینکشـف البدن، و بتعبیر أبسط أن یلاحظن ثیابهنّ و یحافظن علی حجابهنّ.

أمّا ما اسـتفاده البعض من أنّ الآیـة تدلّ علی وجوب ستر الوجه أیضا، فلا دلیل علیه، و النادر من المفسّـرین من اعتبر ستر الوجه داخلا فی الآیة[۳۱۹].

و علی کلّ حال، فیستفاد من هذه الآیة أنّ حکم الحجاب بالنسبة للحرائر کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۱

قد نزل من قبل، إلّا أنّ بعض النسوة کنّ یتساهلن فی تطبیقه، فنزلت الآیة المذکورة للتأکید علی الدقّة فی التطبیق.

و لمّا کان نزول هـذا الحکم قـد أقلق بعض المؤمنات ممّا کان منهن قبل ذلک، فقـد أضافت الآیـة فی نهایتها وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً فکلّ ما بدر منکنّ إلی الآن کان نتیجة الجهل فإنّ اللّه سیغفره لکنّ، فتبن إلی اللّه و ارجعن إلیه، و نفذن واجب العفّة و الحجاب جیدا.

بعـد الأمر الـذی صـدر فی الآیـة السابقة للمؤمنات، تناولت هذه الآیة بعدا آخر لهذه المسألة، أی أسالیب الأراذل و الأوباش فی مجال الإیـذاء، فقـالت: لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنـافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُـوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِی الْمَدِینَهِٔ لَنُغْرِیَنَّکَ بِهِمْ ثُمَّ لا ـ یُجاوِرُونَکَ فِیهـا إِلَّا قَلِیلًا[۳۲۰].

(المرجفون) من مادّهٔ «إرجاف»، و هی إشاعهٔ الأباطیل بقصد إیذاء الآخرین و إحزانهم، و أصل الإرجاف: الاضـطراب و التزلزل، و لمّا کانت الإشاعات الباطلهٔ تحدث اضطرابا عامّا، فقد أطلقت هذه الکلمهٔ علیها.

و (نغرینّک) من مادّهٔ «الإغراء»، و یعنی الدعوهٔ إلی تنفیذ عمل، أو تعلّم شیء، دعوهٔ تقترن بالترغیب و التحریض.

و یستفاد من سیاق الآیـهٔ أنّ ثلاث فئات فی المدینـهٔ کانت مشـتغلهٔ بأعمال التخریب و الهـدم، و کلّ منها کان یحقّق أهدافه بأسـلوب خاصّ، فظهر ذلک کتیار و مخطّط جماعی، و لم تکن له صبغهٔ فردیهٔ:

فالفئهٔ الاولی: هم «المنافقون» الذین کانوا یسعون لاقتلاع جذور الإسلام عبر مؤامراتهم ضدّه.

و الثّانیهٔ: هم «الأراذل» الذین یعبّر عنه القرآن: الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۲

أنّ هـذا التعبیر قـد ورد فی الآیهٔ (۳۲) من سورهٔ الأـحزاب فی شـأن من یتّبع أهواءه و شـهواته فَلا تَخْضَـعْنَ بِالْقَوْلِ فَیَطْمَعَ الَّذِی فِی قَلْبِهِ مَرَضٌ

و الفئهٔ الثالثهٔ: هم الذین کانوا یبثّون الإشاعات فی المدینهٔ، و خاصّهٔ عند ما کان النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و جیش المسلمین یتّجهون إلی الغزوات، لإضـعاف معنویـاتهم، و کـانوا ینشـرون الأخبـار الکاذبـهٔ عن هزیمـهٔ النّبی و المؤمنین، و هؤلاـء هم «الیهود» برأی بعض المفسّرین.

و بهذا فإنّ القرآن الکریم هدّد هذه الفئات الثلاثهٔ جمیعا.

و یحتمل فی تفسیر الآیهٔ أیضا، أنّ کلّ أعمال التخریب للفئات الثلاثهٔ کانت من عمل المنافقین، و فصلها عن بعضها هو فصل الصفات لا الأشخاص.

و مهما کان، فإنّ القرآن یقول: إنّ هؤلاء إن اسـتمروا فی أعمالهم القبیحهٔ المشـینهٔ فسنصدر أمرا بالهجوم العام علیهم، لنقتلع جذورهم من المدینهٔ بحرکهٔ المؤمنین الشعبیهٔ، و لا یقدرون علی البقاء فی المدینهٔ بعد ذلک.

و عند ما یطردون من هذه المدینهٔ، و یخرجون عن حمایهٔ الحکومهٔ الإسلامیهٔ، فإنّهم سیکونون مَلْعُونِینَ أَیْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِیلًا.

«ثقفوا» من مادّهٔ «ثقف» و «ثقافـهٔ»، و هی: السیطرهٔ علی الشـیء بدقّهٔ و مهارهٔ، و لهذا یقال للعلم و تحصـیله و الإحاطهٔ به «ثقافهٔ». و هذا التعبیر إشارهٔ إلی أنّهم سوف لا یجـدون مکانا آمنا بعـد هذا الهجوم، بل سـیبحث عنهم المؤمنون بدقّهٔ حتّی یجدوهم و یرسـلوهم إلی دیار الفناء.

و هناک احتمالان فی المراد من الآیهٔ: فامّا أنّه سـیطاردون المنافقین و یتعقّبونهم خارج المدینهٔ و یقتلونهم، أو أنّهم إذا بقوا فی المدینهٔ بعد حکم الإبعاد العام سـیلاقون هذا المصـیر، و لا منافاهٔ بینهما، إذ أنّ المعنی هو أنّ هؤلاء المنافقین و المخرّبین و المرجفین و مرضی القلوب سوف لا یکونون بمأمن من سطوهٔ المسلمین الشجعان بعد أن هدرت دماؤهم، و سحبت الحمایهٔ عنهم، و صدر الحکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۳

بإخراجهم من المدينة، سواء بقوا فيها أم خرجوا.

ثمّ تضيف الآية الأخيرة من هذه الآيات أنّ هذا الأمر ليس جديدا، بل سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فكلّما زادت صلافة المفسدين و تجاوزت مؤامراتهم الحدود، يصدر الأمر بالهجوم عليهم.

و لمّا كان هذا الحكم سنّة إلهيّة، فإنّه سوف لا يتغيّر و لا يتبدّل أبدا، حيث أنّ سنّة اللّه ثابتة وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

إنّ هذا التعبير يجسّد كون هذا التهديد حقيقيا و جديا، ليعلموا أنّ هذا المطلب و المصير حتمى، و له جذوره و نظائره فى التأريخ، و لا سبيل إلى تغييره و تبديله، فإمّا أن ينتهوا عن أعمالهم المخزية، أو أن ينتظروا هذا المصير المؤلم.

تعليقات

١- ابدأ بنفسك!

الأمر الذى ورد فى الآيات مورد البحث حول وجوب رعاية الحجاب الإسلامى بدقّة، و أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يبلغ هذا الأمر، أوّل ما بدأ بنساء النّبى، ثمّ بناته، ثمّ المؤمنات، و هو إشارة إلى أنّك يجب أن تبدأ بنفسك و أهل بيتك فى أيّ برنامج إصلاحى، و هذا خطّ لكلّ مصلحى البشر.

و بدأ بالزوجات عند ما دار الأمر بين الزوجات و البنات، و ذلك لأنّهنّ أقرب إلى الرجل، لأنّ البنات يتزوجنّ و ينتقلن إلى بيوت الأزواج.

٢- العلاج من طريقين:

لمّا كانت المفاسد الاجتماعية لا تنبعث من علّة واحدة غالبا، فلذلك يجب أن تبدأ مكافحتها من جميع الجوانب. و الطريف فى الأمر أنّ الآيات المذكورة، و من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۴

أجل الوقوف أمام مضايقات الطائشين قد أمرت المؤمنات أوّلا أن لا يتركن ذريعة بيد الطائشين، ثمّ أوقفتهم عند حدّهم بتهديدهم أشدّ تهديد.

و هذا أيضا برنامج دائمى للجميع، بأنّ الصديق لا بدّ من إصلاحه، و يوقف العدوّ عند حدّه بالقوّة.

٣- موقع المسلمين القوى:

يستفاد جيّدا من تهديدات الآيات القويّة و الشديدة أنّه بعد انتهاء حادثة «بنى قريظة»، و اجتثاث جذور هذه الفئة من الأعداء الداخليين الخطرين، فإنّ موقع المسلمين قد قوى فى المدينة تماما، و لم تكن المخالفات تأتى إلّا من جانب المنافقين المندسّين بين صفوف المسلمين، أو من جانب جماعة من الأوباش و المتهوّرين و مطلقى الإشاعات، فتعامل النّبى صلّى اللّه عليه و آله معهم من موقع القوّة، و حذّرهم بشدّة بأنّهم إن لم يكفوا عن مؤامراتهم و نفثهم للسموم، فإنّه سيقوم بتصفية الحساب معهم بهجوم واحد و يقضى عليهم! و

قد أثّر هذا التعامل الحازم و الدقيق أثره بوضوح تامّ.

۴- اجتثاث جذور الفساد:

هل أنّ ما ورد فى الآيات أعلاه عن اقتلاع جذور المفاسد كمؤامرات المنافقين، و ملاحقة أعراض المسلمين و أذاهم، و إطلاق الإشاعات يصلح علاجا فى سائر الأعصار و القرون، و لكلّ الحكومات الإسلامية؟

قليل من المفسّرين من بحث ذلك، إلّا أنّه يبدو أنّ هذا الحكم كسائر الأحكام الإسلامية لا يختّص بزمان أو مكان أو أشخاص.

إذا كان نفث السموم و التآمر قد تجاوز الحدّ على أرض الواقع، و أصبح كتيار جارف يهدّد المجتمع الإسلامى بأخطار حقيقية، فما المانع من أن تنفذ الحكومة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۵

الإسلامية أوامر الآيات أعلاه، و التى أنزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و منحته هذه الصلاحية، و تعبئ الناس للقضاء على جذور الفساد؟

إلّا أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الأعمال و أمثالها، خاصّة و أنّها مطروحة كسنّة لا تقبل التغيير، لا يسمح بها كتصرّف شخصى، و تمسّك برأى خاصّ، بل تجوز فقط بعد إذن ولى أمر المسلمين و حكّام الشرع بها.

۵- سنن اللّه الثابتة:

قرأنا فى الآيات السابقة أنّ القرآن ذكر أنّ إحدى سنن اللّه التى لا تقبل التغيير هى اقتلاع جذور التآمر بهجوم عامّ، و قد كانت هذه السنّة جارية فى الأمم السابقة.

و قد ورد نظير هذا التعبير فى مواضع اخرى من القرآن، و من جملتها ما ورد فى الآية (۳۸) من سورة الأحزاب هذه، فبعد أن أجاز سبحانه مخالفة سنّة جاهلية خاطئة و إلغاءها فى مسألة مطلقة الابن بالادّعاء، يقول: ليس للنبى أىّ ذنب إذا ما نفّذ أوامر اللّه مهما كانت.

ثمّ يضيف تعالى: سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

و فى الآية (۴۳) من سورة فاطر، و بعد أن هدّد الكافرين و المجرمين بالفناء و الهلاك، يقول سبحانه: فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِینَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِیلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِیلًا.

و فى الآية (۸۵) من سورة غافر، و بعد أن صرّح بأنّ إيمان الكفّار العنودين من الأقوام الماضين عند مشاهدتهم عذاب الاستئصال لم ينفعهم شيئا، يضيف: سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ

و فى الآية (۲۳) من سورة الفتح، و بعد أن ذكر انتصار المؤمنين و هزيمة الكفّار فى الحروب، و أن ليس لهم ولى و لا نصير، يضيف: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۶

وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِیلًا.

و كذلك فى الآية (۷۷) من سورة الإسراء عند ما يبيّن مؤامرة إبعاد النّبى أو قتله، يضيف: وَ إِذاً لا یَلْبَثُونَ خِلافَکَ إِلَّا قَلِیلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِیلًا.

يستفاد من مجموع هذه الآيات جيّدا أنّ المراد من السنّة فى مثل هذه الموارد:

القوانين الإلهيّة الثابتة و الأساسية، سواء التكوينية منها أم التشريعية، التى لا تتغيّر مطلقا.

و بتعبير آخر: فإنّ للّه سبحانه فى عالم التكوين و التشريع قوانين و أصولا ثابتة، كالقوانين الأساسية و الدساتير المسنونة بين شعوب العالم و التى لا تتبدّل، و لا تكون عرضة للتغيير، و هذه القوانين الإلهية كانت حاكمة على الأقوام الماضين، و تحكّمنا اليوم، و ستكون حاكمة فى المستقبل على الأجيال الآتية.

إنّ نصرة النّبى، و هزيمة الكفّار، و وجوب تنفيذ أوامر اللّه و العمل بموجبها، حتّى و إن أدّت إلى إثارة سخط الناس و عدم رضاهم، عدم جدوى التوبة حين نزول العذاب الإلهى، و أمثال ذلك هى جزء من هذه السنن الخالدة.

إنّ هذه التعبيرات تسلّى خواطر كلّ السائرين فى طريق الحقّ، و تمنحهم الهدوء و الطمأنينة من جهة، و توضّح من جهة اخرى وحدة دعوة الأنبياء و انسجامها، و تناسق القوانين الحاكمة على نظام الخلقة و نظام الحياة الإنسانية و اتّحادها، و هى فى الحقيقة فرع من فروع التوحيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۷

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۶۳ الى ۶۸]

اشارة

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (۶۳) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (۶۴) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۶۵) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولا (۶۶) وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (۶۷)

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (۶۸)

التّفسير

يسألون أيّان يوم القيامة؟!

كانت الآيات السابقة تتحدّث عن مؤامرات المنافقين و الأشرار، و قد أشير فى هذه الآيات التى نبحثها إلى واحدة اخرى من خططهم الهدّامة، و أعمالهم المخرّبة، حيث كانوا يطرحون أحيانا هذا السؤال: متى تقوم القيامة التى يخبر بها محمّد و يذكر لها كلّ هذه الصفات؟ و ذلك إمّا استهزاء، أو لزرع الشكّ فيها فى قلوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۸

البسطاء، فتقول الآية: يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ.

و يحتمل أيضا أن يكون بعض المؤمنين قد سأل النّبى صلّى اللّه عليه و آله هذا السؤال بدافع من حبّ الاستطلاع، أو للحصول على معلومات أكثر حول هذا الموضوع.

غير أنّ ملاحظة الآيات التى تلى هذه الآية ترجّح التّفسير الأوّل، و الشاهد الآخر لهذا الكلام ما ورد فى الآيتين ۱۷- ۱۸/ سورة الشورى فى هذا الباب، حيث تقولان: وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ. يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها.

ثمّ تقول الآية- مورد البحث- فى مقام جوابهم: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ و لا يعلمها حتّى المرسلون و الملائكة المقرّبون.

ثمّ تضيف بعد ذلک: وَ ما يُدْرِيکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَکَونُ قَرِيباً.

و بناء على هـذا يجب أن نكون مستعدّين دائما لقيام القيامـة، و هـذه هى الحكمة من كونها خافية مجهولة لئلّا يظنّ أحد أنّه فى مأمن منها، و يتصوّر أنّ القيامة بعيدة فعلا، و يعتبر نفسه فى معزل عن عذاب اللّه و عقابه.

ثمّ تطرّقت الآية إلى تهديد الكافرين، و تناولت جانبا من عقابهم الأليم، فقالت:

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

الفرق بين «الولى» و «النصـير» هنـا هو: أنّ «الولى» من يتولّى القيام بكلّ الأعمال و تنفيـذها، أمّا «النصـير» فهو الـذى يعين على الوصول إلى الهدف المطلوب. إلّا أنّ هؤلاء الكافرين لا ولىّ لهم فى القيامة و لا نصير.

ثمّ بيّنت جزءا آخر من عـذابهم الألـيم فى القيامـة فقـالت: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ و هـذا التقليب إمّـا أن يكون فى لون البشـرة و الوجه حيث تصبح حمراء أو سوداء أحيانا، أو من جهة تقلّبهم فى النار و لهيبها حيث تكون وجوههم فى مواجهة النار أحيانا، و أحيانا جوانب اخرى (نعوذ باللّه من ذلک).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۹

هنا ستنطلق صرخات حسرتهم، و يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا فإنّا لو كنّا أطعناهما لم يكن ينتظرنا مثل هذا المصير الأسود الأليم.

وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا[۳۲۱].

(السادة) جمع «سيّد»، و هو المالک العظيم الـذى يتولّى إدارة المدن المهمّة أو الدول، و «الكبراء» جمع «كبير» و هو الفرد الكبير سواء من ناحيـة السنّ، أو العلم، أو المركز الاجتماعى و أمثال ذلک. و بهـذا فإنّ السادة إشارة إلى رؤساء البلاد العظام، و الكبراء هم الـذين يتولّون إدارة الأمور تحت إشراف أولئک السادة، و يعتبرون معاونين و مشاورين لهم، و كأنّهم يقولون: إنّنا قد جعلنا طاعة السادة محل طاعة اللّه، و طاعة الكبراء مكان طاعة الأنبياء، فابتلينا بأنواع الانحرافات و التعاسة و الشقاء.

من البديهى أنّ معيار السـيادة و كون الشـخص كبيرا بين أولئک الأقوام هو القوّة و السيطرة، و المال و الثروة الغير مشروعة، و المكر و الخـداع. و ربّما كان إختيار هـذين التعبيرين هنا من أجل أنّهم يحاولون توجيه عـذرهم و يقولون: لقد كنّا تحت تأثير العظمة الظاهرية لأولئک.

هنا تثور ثائرة هؤلاء الجهنميين الضالّين، و يطلبون من اللّه سبحانه أن يزيد فى عذاب مضلّيهم و عقابهم أشدّ عقاب فيقولون: رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً- عذاب لإضلالهم-.

من المسـلّم أنّ هؤلاـء يستحقّون العـذاب و اللعن، و اسـتحقاقهم للعـذاب المضـاعف و اللعن الكبير بسـبب سـعيهم فى سبيـل إضـلال الآخرين، و دفعهم إلى طريق الانحراف.

و الطريف ما ورد فى الآية ۳۸ من سورة الأعراف، من أنّ هؤلاء المتّبعين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۰

الضالّين عند ما يطلبون عذاب الضعف لسادتهم و أئمّتهم، يقال: لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ ۳۲۲].

إنّ كون عذاب أئمّة الكفر و الضلال مضاعفا واضح، لكن لما ذا يكون عذاب من اتّبعهم مضاعفا؟

إنّ سـبب ذلـک هو أنّهم اسـتحقّوا عـذابا لضـلالتهم، و العـذاب الآخر لمعونـة الظالمين و مؤازرتهم، لأنّ الظالمين لا يقـدرون على أن يستمرّوا فى عمـل مـا لوحـدهم مهمـا كانت لهم من قوّة، إلّا أنّ أتباعهم هم الـذين يؤجّجون نار حروبهم، و يسـجرون أتون ظلمهم و كفرهم، و إن كان عذاب أئمّة الكفر- إذا ما قورن بعذاب المتّبعين- أشدّ و آلم بدون شکّ.

و قد كان لنا بحث مفصّل فى هذا الباب فى الآية (۳۰) من هذه السورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۱

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۶۹ الى ۷۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (۶۹) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (۷۰) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۱)

التّفسير

بما ذا رموا موسى عليه السّلام و اتّهموه؟

بعد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة حول وجوب احترام مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و ترك كلّ ما يؤذيه و الابتعاد عنه، فقد وجّهت هذه الآيات الخطاب للمؤمنين، و قالت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً.

إنّ إختيار موسى عليه السّلام من جميع الأنبياء الذين طالما أوذوا، بسبب أنّ المؤذين من بنى إسرائيل قد آذوه أكثر من أى نبى آخر، إضافة إلى أنّ بعض أنواع الأذى التى رآها كانت تشبه أذى المنافقين لنبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.

و هناك بحث بين المفسّرين فى المراد من إيذاء موسى عليه السّلام هنا؟ و لماذا ذكره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۲

القرآن بشكل مبهم؟ و قد ذكروا احتمالات عديدة فى تفسير الآية، و من جملتها:

۱- إنّ موسى و هارون عليهما السّلام قد ذهبا إلى جبل- طبق رواية- و ودّع هارون الحياة، فأشاع المرجفون من بنى إسرائيل أنّ موسى عليه السّلام قد تسبّب فى موته، فأبان اللّه سبحانه حقيقة الأمر، و أسقط ما فى يد المرجفين.

۲- كما أوردنا مفصّلا فى ذيل الآيات الأخيرة من سورة القصص، فإنّ قارون المحتال أراد أن يتملّص من قانون الزكاة، و لا يؤدّى حقوق الضعفاء و الفقراء، فعمد إلى بغىّ و اتّفق معها على أن تقوم بين الناس و تتّهم موسى عليه السّلام بأنّه زنى بها، إلّا أنّ هذه الخطّة قد فشلت بلطف اللّه سبحانه، بل و شهدت تلك المرأة بطهارة موسى عليه السّلام و عفته، و بما أراده منها قارون.

۳- إنّ جماعة من الأعداء اتّهموا موسى عليه السّلام بالسحر و الجنون و الافتراء على اللّه، و لكن اللّه تعالى برّأه منها بالمعجزات الباهرات.

۴- إنّ جماعة من جهّال بنى إسرائيل قد اتّهموه بأنّ فيه بعض العيوب الجسمية كالبرص و غيره، لأنّه كان إذا أراد أن يغتسل و يستحمّ لا يتعرّى أمام أحد مطلقا، فأراد أن يغتسل يوما بمنأى عن الناس، فوضع ثيابه على حجر هناك، فتدحرج الحجر بثيابه، فرأى بنو إسرائيل جسمه، فوجدوه مبرّأ من العيوب.

۵- كان المعذرون من بنى إسرائيل أحد عوامل إيذاء موسى عليه السّلام، فقد كانوا يطلبون تارة أن يريهم اللّه عزّ و جلّ «جهرة»، و اخرى يقولون: إنّ نوعا واحدا من الطعام- و هو «المنّ و السلوى»- لا يناسبنا، و ثالثة يقولون: إنّنا غير مستعدّين للدخول إلى بيت المقدس و محاربة «العمالقة». اذهب أنت و ربّك فقاتلا، و افتحاه لنا لندخله بعد ذلك! الّا أنّ الأقرب لمعنى الآية، هو أنّها بصدد بيان حكم كلّى عام جامع، لأنّ بنى إسرائيل قد آذوا موسى عليه السّلام من جوانب متعدّدة .. ذلك الأذى الذى لم يكن يختلف عن أذى

بعض أهل المدينة (لنبيّنا صلّى اللّه عليه و آله) كإشاعة بعض الأكاذيب و اتّهام زوج النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۳

بتهم باطلة، و قد مرّ تفصيلها فى تفسير سورة النور- ذيل الآيات ۱۱- ۲۰- و الاعتراضات التى اعترضوا بها على النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى زواجه بزينب، و أنواع الأذى و المضايقات التى كانوا يضايقونه بها فى بيته، أو مناداته بأسلوب خال من الأدب و الأخلاق، و غير ذلك.

و أمّا الاتّهام بالسحر و الجنون و أمثال ذلك، أو العيوب البدنية، فإنّها و إن اتّهم موسى بها، إلّا أنّها لا تتناسب مع يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بالنسبة لنبيّنا صلّى اللّه عليه و آله إذ لم يتّهم المؤمنون موسى عليه السّلام و لا نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله بالسحر و الجنون. و كذلك الاتّهام بالعيوب البدنية، فإنّه على فرض كونه قد حدث بالنسبة لموسى عليه السّلام، و أنّ اللّه تعالى قد برّأه، فليس له مصداق أو حادثة تؤيّده فى تاريخ نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله.

و على أيّة حال، فيمكن أن يستفاد من هذه الآية أنّ من كان عند اللّه وجيها و ذا منزلة، فإنّ اللّه سبحانه يدافع عنه فى مقابل من يؤذيه و يتّهمه بالأباطيل، فكن طاهرا و عفيفا، و احفظ وجاهتك عند اللّه، فإنّه تعالى سيظهر عفّتك و طهارتك للناس، حتّى و إن سعى الأشقياء و المسيؤون إلى اتّهامك و تحطيم منزلتك و تشويه سمعتك بين الناس.

و قد قرأنا نظير هذا المعنى فى قصّة «يوسف» الصدّيق الطاهر، و كيف برّأه اللّه سبحانه من تهمة امرأة عزيز مصر الكبيرة و الخطيرة.

و كذلك فى شأن «مريم» بنت عمران أمّ عيسى عليه السّلام، حيث شهد وليدها الرضيع بطهارتها و عفّتها، و قطع بذلك ألسن المتربّصين بها من بنى إسرائيل، و الذين كانوا يسعون لاتّهامها و تلويث سمعتها.

و الجدير بالذكر أنّ هذا الخطاب لم يكن مختّصا بالمؤمنين فى زمان النّبى صلّى اللّه عليه و آله، بل من الممكن أن تشمل الآية حتّى أولئك الذين سيولدون بعده و يقومون بعمل يؤذون روحه الطاهرة به، فيحتقرون دينه و يستصغرون شأنه، و ينسون مواريثه، و لذلك جاء فى بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام: «يا أيّها الذين آمنوا لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۴

تؤذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى على و الأئمّة صلوات اللّه عليهم ...»[۳۲۳].

و آخر كلام فى تفسير هذه الآية هو: أنّه بعد ملاحظة أحوال الأنبياء العظام الذين لم يكونوا بمأمن من جراحات ألسن الجاهلين و المنافقين، يجب أن لا نتوقّع أن لا يبتلى المؤمنون و الطاهرون بمثل هؤلاء الأفراد،

فإنّ الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «إنّ رضى الناس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط ..» ثمّ يضيف الإمام فى نهاية هذا الحديث: «أ لم ينسبوا إلى موسى أنّه عنين و آذوه حتّى برّأه اللّه ممّا قالوا، و كان عند اللّه وجيها»[۳۲۴].

قولوا الحقّ لتصلح أعمالكم:

بعد البحوث السابقة حول ناشرى الإشاعات و الذين يؤذون النّبى، تصدر الآية التالية أمرا هو فى الحقيقة علاج لهذا المرض الاجتماعى الخطير، فتقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً.

«القول السديد» من مادّة (سد) أى المحكم المنيع الذى لا يعتريه الخلل، و الموافق للحقّ و الواقع، و يعنى القول الذى يقف كالسدّ المنيع أمام أمواج الفساد و الباطل. و إذا ما فسّره بعض المفسّرين بالصواب، و البعض الآخر بكونه خالصا من الكذب و اللغو و خاليا منه، أو تساوى الظاهر و الباطن و وحدتهما، أو الصلاح و الرشاد، و أمثال ذلك، فإنّها فى الواقع تفاسير ترجع إلى المعنى الجامع أعلاه.

ثمّ تبیّن الآیة التالیة نتیجة القول السدید، فتقول: یُصْلِحْ لَکُمْ أَعْمالَکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ

إنّ التقوی فی الواقع هی دعامة إصلاح اللسان و أساسه، و منبع قول الحقّ، و القول الحقّ أحد العوامل المؤثّرة فی إصلاح الأعمال، و إصلاح الأعمال سبب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۵

مغفرة الذنوب، و ذلک ل إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ [۳۲۵] یقول علماء الأخلاق: إنّ اللسان أکثر أعضاء البدن برکة، و أکثر الوسائل تأثیرا فی الطاعة و الهدایة و الصلاح، و هو فی الوقت نفسه یعدّ أخطر أعضاء البدن و أکثرها معصیة و ذنبا، حتّی أنّ ما یقرب من الثلاثین کبیرة تصدر من هذا العضو الصغیر[۳۲۶].

و

فی حدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «لا یستقیم إیمان عبد حتّی یستقیم قلبه، و لا یستقیم قلبه حتّی یستقیم لسانه»[۳۲۷].

و من الرائع جدّا ما

ورد فی حدیث آخر عن الإمام السجّاد علیه السّلام: «إنّ لسان ابن آدم یشرف کلّ یوم علی جوارحه فیقول: کیف أصبحتم؟ فیقولون: بخیر إن ترکتنا.

و یقولون: اللّه اللّه فینا، و یناشدونه و یقولون: إنّما نثاب بک و نعاقب بک»[۳۲۸].

هناک روایات کثیرة فی هذا الباب تحکی جمیعا عن الأهمیّة الفائقة للّسان و دوره فی إصلاح الأخلاق و تهذیب النفوس الإنسانیة، و لذلک نقرأ

فی حدیث: «ما جلس رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله علی هذا المنبر قطّ إلّا تلا هذه الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۶

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِیداً[۳۲۹].

ثمّ تضیف الآیة فی النهایة: وَ مَنْ یُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِیماً و أی فوز و ظفر أسمی من أن تکون أعمال الإنسان صالحة، و ذنوبه مغفورة، و هو عند اللّه من المبیضة وجوههم الذین رضی اللّه عنهم؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۷

الآیتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۷۲ الی ۷۳]

اشارة

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَیْنَ أَنْ یَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ کانَ ظَلُوماً جَهُولاً (۷۲) لِیُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِینَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِکِینَ وَ الْمُشْرِکاتِ وَ یَتُوبَ اللَّهُ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۷۳)

التّفسیر

حمل الأمانة الإلهیة أعظم افتخارات البشر:

تکمل هاتان الآیتان- اللتان هما آخر آیات سورة الأحزاب- المسائل المهمّة التی وردت فی هذه السورة فی مجالات الإیمان، و العمل

الصالح، و الجهاد، و الإيثار، و العفّة و الأدب و الأخلاق، و تبيّن كيف أنّ الإنسان يحتل موقعا ساميا جدّا بحيث يستطيع أن يكون حامل رسالة اللّه العظيمة، و كيف أنّه إذا ما جهل قيمه الحياتية و الوجودية سيظلم نفسه غاية الظلم، و ينحدر إلى أسفل سافلين! تبيّن الآية أوّلا أعظم امتيازات الإنسان و أهمّها فى كلّ عالم الخلقة، فتقول:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۸

مِنْها.

ممّا لا شكّ فيه أنّ إباءها تحمل المسؤولية و امتناعها عن ذلك لم يكن استكبارا منها، كما كان ذلك من الشيطان، حيث تقول الآية (۲۴) من سورة البقرة: أَبى وَ اسْتَكْبَرَ، بل إنّ إباءها كان مقترنا بالإشفاق، أى الخوف الممتزج بالتوجّه و الخضوع.

إلّا أنّ الإنسان، اعجوبة عالم الخلقة، قد تقدّم وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا.

لقد تحدّث كبار مفسّرى الإسلام حول هذه الآية كثيرا، و سعوا كثيرا من أجل الوصول إلى حقيقة معنى «الأمانة»، و أبدوا وجهات نظر مختلفة، نختار أفضلها بتقصّى القرائن الموجودة فى طيّات الآية.

و يجب التأكيد فى هذه الآية العميقة المحتوى على خمس موارد:

۱- ما هو المراد من الأمانة؟

۲- ما معنى عرضها على السماوات و الأرض و الجبال؟

۳- لماذا و كيف أبت هذه الموجودات حمل هذه الأمانة؟

۴- كيف حمل الإنسان ثقل الأمانة هذا؟

۵- لماذا و كيف كان ظلوما جهولا؟

لقد ذكرت تفاسير مختلفة للأمانة و من جملتها:

أنّ المراد من الأمانة: هى الولاية الإلهية، و كمال صفة العبودية، و الذى يحصل عن طريق المعرفة و العمل الصالح.

أنّ المراد: صفة الإختيار و الحرية و الإرادة التى تميّز الإنسان عن سائر الموجودات.

أنّ المراد: العقل الذى هو ملاك التكليف، و مناط الثواب و العقاب.

أنّ المراد: أعضاء جسم الإنسان، فالعين أمانة اللّه، و يجب الحفاظ عليها و عدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۹

استعمالها فى طريق المعصية، و الاذن و اليد و الرجل و اللسان كلّها أمانات يجب حفظها.

أنّ المراد: الأمانات التى يأخذها الناس بعضهم من بعض، و الوفاء بالعهود.

أنّ المراد: معرفة اللّه سبحانه.

أنّ المراد: الواجبات و التكاليف الإلهيّة كالصلاة و الصوم و الحجّ.

لكن يتّضح من خلال أدنى دقّة أن هذه التفاسير لا تتناقض مع بعضها، بل يمكن إدغام بعضها فى البعض الآخر، فبعضها أخذت جانبا من الموضوع، و بعضها الآخر كلّه.

و من أجل الحصول على جواب جامع كاف، يجب أن نلقى نظرة على الإنسان لنرى أى شىء يمتلكه و تفتقده السماوات و الأرضون و الجبال؟

إنّ الإنسان موجود له استعدادات و قابليات يستطيع من خلال استغلالها أن يكون أتمّ مصداق لخليفة اللّه، و يستطيع أن يصل إلى قمّة العظمة و الشرف باكتساب المعرفة و تهذيب النفس و تحصيل الكمالات، و أن يسمو حتّى على الملائكة.

إنّ هـذا الاسـتعداد المقترن بالحريـة و الإرادة و الإختيار يعنى أنّ الإنسان يطوى هـذا الطريق بإرادته و إختياره، و يبدأ فيه من الصـفر و يسير إلى ما لا نهاية.

إنّ السـماء و الأرض و الجبـال تمتلـك نوعا من المعرفـة الإلهيـة، و هى تـذكر اللّه سـبحانه و تسبّحه، و تخضع لعظمته و تخشع لها و تسـجد، إلّا أنّ كلّ ذلك ذاتى و تكوينى و إجبارى، و لذلك ليس فيه تكامل ورقى، و الموجود الوحيد الذى لا ينتهى منحنى صعوده و نزوله، و هو قادر على ارتقاء قمّـة التكامل بصورة لا تعرف الحـدود، و يقوم بكلّ هذه الأعمال بإرادته و إختياره، هو الإنسان، و هذه هى «الأمانة الإلهيّة» التى امتنعت من حملها كلّ الموجودات، و حملها الإنسان! و لذلك نرى الآية التالية قسّمت البشر إلى ثلاث فئات: «المؤمنين» و «الكفّار» و

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۰

«المنافقين».

بنـاء على هـذا يجب القول فى عبارة مختصـرة أنّ الأمانـة الإلهيـة هى قابليـة التكامل غير المحـدودة و الممتزجـة بالإرادة و الإختيار، و الوصول إلى مقام الإنسان الكامل، و عبودية اللّه الخاصّة و تقبّل ولاية اللّه.

لكن لماذا عبّر عن هذا الأمر بالأمانة، مع أنّ كلّ وجودنا و كلّ ما لدينا أمانة اللّه؟

لقد عبّر بهذا التعبير لأهميّة امتياز البشر العظيم هذا، و إلّا فإنّ بقية المواهب أمانات اللّه أيضا، غير أنّ أهميّتها تقلّ أمام هذا الامتياز.

و يمكن أن نعبّر هنا عن هذه الأمانة بتعبير آخر و نقول: إنّها التعهّد و الالتزام و قبول المسؤولية.

بناء على هـذا فإنّ أولئك الـذين فسّـروا الأمانة بصـفة الإختيار و الحرية فى الإرادة، قد أشاروا إلى جانب من هذه الأمانة العظمى، كما أنّ أولئك الذين فسّروها بالعقل، أو أعضاء البدن، أو أمانات الناس لدى بعضهم البعض، أو الفرائض و الواجبات، أو التكاليف بصورة عامّة، قد أشار كلّ منهم إلى غصن من أغصان هذه الشجرة العظيمة المثمرة، و اقتطف منها ثمرة.

لكن ما هو المراد من عرض هذه الأمانة على السموات و الأرض؟

هل المراد: أنّ اللّه سبحانه قد منح هذه الموجودات شيئا من العقل و الشعور ثمّ عرض عليها حمل هذه الأمانة؟

أو أنّ المراد من العرض هو المقارنـة؟ أى أنّها عنـد ما قارنت حجم هـذه الأمانـة مع ما لديها من القابليات و الاسـتعدادات أعلنت عدم لياقتها و استعدادها عن تحمّل هذه الأمانة العظيمة.

طبعا، يبدو أنّ المعنى الثّانى هو الأنسب، و بهذا فإنّ السماوات و الأرض و الجبال قد صرخت جميعا بأنّا لا طاقة لنا بحمل هذه الأمانة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۱

و من هنا يتّضـح جواب السؤال الثالث أيضا، بأنّ هـذه الموجودات لما ذا و كيف رفضت و أبت حمل هـذه الأمانة العظمى، و أظهرت إشفاقها من ذلك؟

و من هنا تتّضح كيفية حمل الإنسان لهذه الأمانة الإلهية، لأنّ الإنسان كان قد خلق بشـكل يسـتطيع معه تحمّل المسؤولية و القيام بها، و أن يتقبّـل ولايـة اللّه، و يسير فى طريـق العبوديـة و الكمـال و يتّجه نحـو المعبـود الـدائم، و أن يطـوى هـذا الطريق بقـدمه و إرادته، و بالاستعانة بربّه.

أمّا ما ورد فى روايات عديدة وردت عن أهل البيت عليهم السّـلام من تفسير هذه الأمانة بقبول ولاية أمير المؤمنين على عليه السّلام و ولـده، فمن أجل أنّ ولاية الأنبياء و الأئمّة نور ساطع من تلك الولاية الإلهية الكليّة، و الوصول إلى مقام العبودية، و طى طريق التكامل لا يمكن أن يتمّ من دون قبول ولاية أولياء اللّه.

جاء فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه سئل عن تفسير آية عرض الأمانة، فقال: «الأمانة الولاية، من ادّعاها بغير حقّ كفر»[۳۳۰].

و

فى حـديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال عنـد ما سئل عن تفسير هـذه الآيـة: «الأمانة الولاية، و الإنسان هو أبو الشرور المنافق»[۳۳۱].

و المسألـة الاخرى التى يلزم ذكرها هنا، هى أنّنا قلنا فى ذيل الآيـة (۱۷۲) من سورة الأعراف فيما يتعلّق بعالم الـذرّ بأن أخـذ ميثاق اللّه على التوحيد كان عن طريق الفطرة، و استعداد و طبيعة الآدمى، و إنّ عالم الذرّ هو عالم الاستعداد و الفطرة.

و فى مورد قبول الأمانة الإلهيّة يجب القول بأنّ هذا القبول لم يكن قبول اتّفاق و عقد، بل كان قبولا تكوينيا حسب عالم الاستعداد.

السؤال الوحيد الذى يبقى هو مسألة كون الإنسان «ظلوما جهولا»، فهل أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۲

وصف الإنسان بهاتين الصفتين- و ظاهرهما ذمّه و توبيخه- كان نتيجة قبوله لهذه الأمانة؟

من المسلّم أنّ النفى هو جواب هذا السؤال، لأنّ قبول هذه الأمانة أعظم فخر و ميزة للإنسان، فكيف يمكن أن يذمّ على قبوله مثل هذا المقام السامى؟

أم أنّ هـذا الوصف بسبب نسيان غالب البشر و ظلمهم أنفسهم، و عـدم العلم بقـدر الإنسان و منزلته .. و بسبب الفعل الذى بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قبل قابيل و أتباعه، و لا يزال إلى اليوم.

إنّ الإنسـان الـذى ينـادى من العرش، و بنى آدم الـذين وضع على رؤوسـهم تـاج (كرّمنـا بنى آدم) و البشـر الـذين هم و كلاء اللّه فى الأرض بمقتضى قوله سبحانه:

إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً و الإنسان الذى كان معلّما للملائكة و سجدت له، كم يجب أن يكون ظلوما جهولا لينسى كلّ هذه القيم السامية الرفيعة، و يجعل نفسه أسيرة هذه الدنيا، و تابعا لهذا التراب، و يكون فى مصاف الشياطين، فينحدر إلى أسفل سافلين؟! أجل ..

إنّ قبول هـذا الخطّ المنحرف- و الـذى كان و لا يزال له أتباع و سالكون كثيرون جـدّا- خير دليل على كون الإنسان ظلوما جهولا، و لذلك نرى أنّه حتّى آدم نفسه، و الذى كان رأس السلسلة و متمتّعا بالعصـمة، يعترف بأنّه قد ظلم نفسه رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنـا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِـرِينَ [۳۳۲] لقـد كان «ترك الأولى» الـذى صـدر منه ناشـئا فى الحقيقة عن نسيان جزء من عظمة هذه الأمانة الكبرى! و على أى حال، فيجب الاعتراف بأنّ الإنسان الضـعيف و الصـغير فى الظاهر، هو اعجوبة علم الخلقة، حيث اسـتطاع أن يتحمّل أعباء الأمانة التى عجزت السماوات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۳

و الأرضون عن حملها إذا لم ينس مقامه و منزلته ۳۳۳].

و تبيّن الآية التالية علّة عرض هذه الأمانة على الإنسان، و بيان حقيقة أنّ أفراد البشـر قد انقسموا بعد حمل هذه الأمانة إلى ثلاث فئات: المنـافقين و المشـركين و المؤمنين، فتقول: لِيُعَـذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْـرِكِينَ وَ الْمُشْـرِكاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

يوجد هناك احتمالان فى معنى «اللام» فى لِيُعَذِّبَ

الأوّل: أنّها «لام الغاية» التى تذكر لبيان عاقبة الشيء و نهايته، و بناء على هذا يكون معنى الآية: كانت عاقبة حمل هذه الأمانة أن سلك جماعة طريق النفاق، و جماعة سبيل الشـرك، و هؤلاء سيبتلون بعذاب اللّه لخيانتهم أمانته، و جماعة هم أهل الإيمان الذين ستشملهم رحمته لأدائهم هذه الأمانة و القيام بواجباتهم.

و الثانى: أنّها «لام العلّة»، فتكون هناك جملة مقدرة، و على هذا يكون تفسير الآية: كان الهدف من عرض الأمانة أن يوضع كلّ البشر فى بوتقة الاختبار، ليظهر كلّ إنسان باطنه فيرى من الثواب و العقاب ما يستحقّه.

و هنا امور ینبغی الالتفات إلیها:

۱- إنّ سبب تقدیم أهل النفاق علی المشرکین هو أنّ المنافق یتظاهر بأنّه أمین فی حین أنّه خائن، إلّا أنّ خیانة المشرک ظاهرة مکشوفة، و لذلک فإنّ المنافق یستحقّ حظّا أکبر من العذاب.

۲- یمکن أن یکون سبب تقدیم هاتین الفئتین علی المؤمنین هو أنّ الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۴

السابقة قد ختمت ب ظَلُوماً جَهُولًا و هاتان الصفتان تناسبان المنافق و المشرک، فالمنافق ظالم، و المشرک جهول.

۳- لقد وردت کلمة (اللّه) مرّة واحدة فی شأن المنافقین و المشرکین، و مرّة فی شأن المؤمنین، و ذلک لأنّ مصیر الفئتین الاوّلیین واحد، و حساب المؤمنین یختلف عنهما.

۴- یمکن أن یکون التعبیر بالتوبة بدل الجزاء و الثواب فی شأن المؤمنین بسبب أنّ أکثر خوف المؤمنین من الذنوب و المعاصی التی تصدر عنهم أحیانا، و لذا فإنّ الآیة تطمئنهم و تمنحهم السکینة بأنّ ذنوبهم ستغفر.

أو لأنّ توبة اللّه علی عباده تعنی رجوعه علیهم بالرحمة، و نعلم أنّ کلّ الهبات و العطایا و المکافآت قد أخفیت فی کلمة «الرحمة».

۵- إنّ وصف اللّه بالغفور و الرحیم ربّما کان فی مقابل الظلوم و الجهول. أو لمناسبته ذکر التوبة بالنسبة للمؤمنین و المؤمنات.

الآن و قد بلغنا نهایة سورة الأحزاب بفضل اللّه سبحانه، نری لزاما ذکر هذه المسألة، و هی: أنّ انسجام بدایة هذه السورة مع نهایتها یستحقّ الدقّة و الانتباه، لأنّ هذه السورة- سورة الأحزاب- قد بدأت بخطاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أمره بتقوی اللّه، و نهیه عن طاعة الکافرین و المنافقین، و التأکید علی کون اللّه علیما حکیما، و انتهت بذکر أعظم مسألة فی حیاة البشر، أی حمل أمانة اللّه. ثمّ بتقسیم البشر إلی ثلاث فئات: المنافقین، و الکافرین، و المؤمنین، و التأکید علی کون اللّه غفورا رحیما.

و بین هذین البحثین طرحت بحوثا کثیرة حول هذه الفئات الثلاثة، و أسلوب تعاملهم مع هذه الأمانة الإلهیة، و کلّ هذه البحوث یکمل بعضها بعضا، و یوضّح بعضها بعضا.

اللهمّ اجعلنا ممّن قبلوا أمانتک بإخلاص، و حملوها بعشق و لذّة، و قاموا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۵

بواجباتهم تجاهها.

اللهمّ اجعلنا من المؤمنین الذین وسعتهم رحمتک، لا من المنافقین و المشرکین الذین استحقّوا العذاب لکونهم ظلومین جهولین.

اللهمّ انزل غضبک و سخطک علی أحزاب الکفر التی اتّحدت مرّة اخری، و احتّلت مدینة الإسلام فی عصرنا الحاضر، و اهدم قصورهم علی رؤوسهم. اللهمّ و هب لنا من الثبات و الاستقامة ما نقف به کالجبل لندافع عن مدینة الإسلام و نحرسها فی هذه اللحظات الحسّاسة.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة الأحزاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۷

سورة سبأ

اشارة

مكيّة و عدد آياتها أربع و خمسون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۹

«سورة سبأ»

محتوى سورة سبأ:

سمّيت السورة بهذا الاسم (سبأ) لذكرها قصّة قوم سبأ، و هى من السور المكيّة، التى تشتمل عادة على بحوث المعارف الإسلامية و اصول الإعتقادات، خصوصا «المبدأ» و «المعاد» و «النبوّة». فأغلب بحوثها تحوم حول تلكم الموضوعات، لحاجة المسلمين لبلورة امور العقيدة فى مكّة، و إعدادهم للانتقال إلى فروع الدين، و تشكيل الحكومة، و تطبيق كافّة البرامج الإسلامية.

و بشكل إجمالى يمكن القول بأنّ محتوى هذه السورة يندرج فى خمسة مواضيع:

۱- «التوحيد»، و بعض الآثار الدالّة عليه فى عالم الوجود، و بعض صفات اللّه المقدّسة كالوحدانية، و الربوبية، و الالوهية.

۲- قضيّة المعاد التى نالت النصيب الأوفى من العرض فى هذه السورة، باستعراضها ضمن بحوث منوّعة و من زوايا مختلفة.

۳- نبوّة الأنبياء السابقين و بالأخص رسول الإسلام الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و الردّ على تخرصات أعدائه حوله، و ذكر جانب من معجزات من سبقه من الأنبياء.

۴- التعرّض لذكر بعض النعم الإلهية العظيمة، و مصير الشاكرين و الجاحدين من خلال استعراض جانب من حياة النّبى سليمان عليه السّلام و حياة قوم سبأ.

۵- الدعوة إلى التفكّر و التأمّل و الإيمان و العمل الصالح، و بيان تأثير هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۰

العوامل فى سعادة و موفقية البشر.

و على كلّ حال، فانّها تشكّل برنامجا تربويا شاملا لتربية الباحثين عن الحقّ.

فضيلة هذه السورة:

يلاحظ فى الروايات تعبيرات ملفتة حول أهميّة هذه السورة و أهميّة قراءتها.

من جملتها ما

ورد فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «من قرأ سورة سبأ لم يبق نبىّ و لا رسول إلّا كان له يوم القيامة رفيقا و مصافحا»[۳۳۴].

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ الحمدين جميعا، سبأ و فاطر، فى ليلة لم يزل ليلته فى حفظ اللّه تعالى و كلاءته، فإن قرأهما فى نهاره لم يصبه فى نهاره مكروه، و اعطى من خير الدنيا و خير الآخرة ما لم يخطر على قلبه و لم يبلغ مناه»[۳۳۵].

و نذكّر- كما فى بداية كلّ سورة- بأنّ من الطبيعى أنّ هذا الثواب العظيم لا يكون نصيب من يكتفى من قراءته بلقلقة اللسان و حسب، بل يجب أن تكون القراءة مقدّمة للتفكير الذى يكون بدوره باعثا على العمل الصالح.

فإنّ من يقرأ هذه السورة مثلا، سيعلم بأنّ الدمار الذى حلّ بقوم سبأ و جعل من مصرعهم عبرة للعالمين، و مصيرهم مضربا للأمثال، إنّما كان لكفرانهم النعم الإلهية الوافرة.

و من یطّلع علی ذلک فسیؤدّی شکر النعمة بطریقة عملیة. و الشاکر بنعمة اللّه سیکون فی حفظه و أمانه تعالی.

و قد ذکرنا شرحا أوفی حول هذا الموضوع فی أوّل تفسیرنا لسورة النور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۱

الآیتان [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۱ الی ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ (۱) یَعْلَمُ ما یَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ ما یَخْرُجُ مِنْها وَ ما یَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما یَعْرُجُ فِیها وَ هُوَ الرَّحِیمُ الْغَفُورُ (۲)

التّفسیر

هو المالک لکلّ شیء و العالم بکلّ شیء:

خمس سور من القرآن الکریم افتتحت «بحمد اللّه»، و ارتبط (الحمد) فی ثلاثة منها بخلق السموات و الأرض و هی (سبأ و فاطر و الأنعام) بینما کان مقترنا فی سورة الکهف بنزول القرآن علی قلب الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله، و جاء فی سورة الفاتحة تعبیرا جامعا شاملا لکلّ هذه الاعتبارات الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ علی کلّ حال، الحمد و الشکر للّه تعالی فی مطلع سورة سبأ هو فی قبال مالکیته و حاکمیته تعالی فی الدنیا و الآخرة.

یقول تعالی: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۲

الْآخِرَةِ.

لذا فإنّ الحاکمیة و المالکیة فی الدنیا و الآخرة له سبحانه، و کلّ موهبة، و کلّ نعمة، و منفعة و برکة، و کلّ خلقة سویة عجیبة مذهلة، تتعلّق به تعالی، و لذا فإنّ «الحمد» الذی حقیقته «الثناء علی فعل اختیاری حسن» کلّه یعود إلیه تعالی، و إذا کانت بعض المخلوقات تستحقّ الحمد و الثناء، فلأنّها شعاع من وجوده عزّ و جلّ و لأنّ أفعالها و صفاتها قبس من أفعاله و صفاته تعالی. و علیه فکلّ مدح و ثناء یصدر من أحد علی شیء فی هذا العالم، فإنّ مرجعه فی النهایة إلی اللّه سبحانه و تعالی.

ثمّ یضیف تعالی قائلا: وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ.

فقد اقتضت حکمته البالغة أن یخضع الکون لهذا النظام العجیب، و أن یستقرّ- بعلمه و إحاطته- کلّ شیء فی محلّه من الکون، فیجد کلّ مخلوق- کلّ ما یحتاج إلیه- فی متناوله.

و قد تحدّث المفسّرون کثیرا فی هذه الآیة عن المقصود من الحمد و الشکر فی الآخرة ..

فذهب بعضهم: إنّ الآخرة و إن لم تکن دار تکلیف، إلّا أنّ عبّاد الرحمن الذین تسامت أرواحهم بعشق بارئهم هناک، یشکرونه و یحمدونه و ینتشون بلذّة خاصّة من ذلک.

و قال آخرون: إنّ أهل الجنّة یحمدونه علی فضله، و أهل النار یحمدونه علی عدله.

و قیل: إنّ الإنسان- نتیجة وجود الحجب المختلفة علی قلبه و عقله فی الدنیا- لا یمکنه أن یحمد اللّه حمدا خالصا، و عند ما ترتفع

هـذه الحجب یوم القیامـة تتّضـح مالکیته تعالی و هیمنته علی عالم الوجود للجمیع مصـداقا لقوله تعالی الْمُلْکَ یَوْمَئِذٍ لِلَّهِ و حینها تلهج الألسن بحمده و الثناء علیه بکامل خلوص النیّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۳

و کـذلک فإنّ الإنسان قـد یغفل فی هـذه الـدنیا فیحمد بعض المخلوقات، متوهما اسـتقلالها، إلّا أنّه فی الآخرة، و حیث یتّضح ارتباط الکلّ به تعالی کارتباط أشعّة الشمس بقرصها، فإنّ الإنسان لن یؤدّی الحمد و الثناء إلّا للّه سبحانه.

فضـلا عن کـلّ هـذا، فقـد ورد مرارا فی القرآن الکریم- أیضا- أنّ أصـحاب الجنّـة یحمـدون اللّه حین دخولهم جنّات الخلـد: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ [۳۳۶] وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعـالَمِینَ [۳۳۷] علی کلّ حال فإنّ هـذا الحمـد و الثناء لا ینطلق من ألسـنة النـاس و الملائکـة فقط، بل تسـمع همهمـة الحمـد و التسبیـح من کلّ ذرّة فی عالم الوجود بإدراک العقل، فلیس من موجود إلّا و یحمده و یسبّحه تعالی.

تنتقل الآیـة التی بعدها إلی التوسّع فی إظهار جانب من علم اللّه اللامحدود، تناسـبا مع وصف الآیة السابقة له تعالی بالحکیم و الخبیر، فیقول سبحانه: یَعْلَمُ ما یَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ ما یَخْرُجُ مِنْها.

نعم، فقـد أحاط علما بکلّ حبّـة مطر و قطرة ماء تنفذ و تلج فی أعماق الأرض حتّی إذا وصـلت طبقة صـلدة تجمّعت هناک و صارت ذخیرة للإنسان.

و یعلم بالبذور التی تنتقل علی سطح الأرض بواسطة الریح أو الحشرات، لتنبت فی مکان ما و تصبح شجرة باسقة أو عشبا طریّا.

یعلم بجذور الأشجار عند توغلها فی أعماق التربة بحثا عن الماء و الغذاء.

یعلم بالموجـات الکهربائیـة و الغـازات المختلفـة، بـذرّات الهواء التی تنفـذ فی الأرض، یعلم بالکائنات الحیّـة التی تشقّ طریقها فیها، و یعطیها الحیاة.

و کذلک، یعلم بالکنوز و الدفائن و أجساد الموتی من الإنسان و غیره .. نعم إنّه

.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۴

مطّلع علی کلّ هذا.

و کذلک فهو عارف و عالم بالنباتات التی تخرج من الأرض، و الناس الذین یبعثون منها، بالعیون التی تفور بالماء منها، بالغازات التی تتصاعد منها، بالبراکین التی تلوّح بجحیمها، بالحشرات التی تتّخذ أو کارا فیها، و تخرج منها.

و الخلاصة، فهو عالم بکلّ الموجودات التی تلج الأرض و تخرج منها أعمّ ممّا نعلمه أو ما لا نعلمه.

ثمّ یضیف قائلا: وَ ما یَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما یَعْرُجُ فِیها.

فهو یعلم بحبّات المطر، و بأشـعّة الشـمس التی تنثر الحیـاة، بـأمواج الوحی و الشـرائع السـماویة العظیمـة، و بالملائکـة التی تهبط إلی الأـرض لإبلاـغ الرسالات أو أداء الأوامر الإلهیّـة المختلفـة. بالأشـعة الکونیـة التی تـدخل جو الأرض من الفضاء الخارجی، بالشـهب و الذرّات المضطربة فی الفضاء و التی تهوی نحو الأرض، فهو تعالی محیط بهذا کلّه.

و کـذلک فإنّه یعلم بأعمال العباد التی تعرج إلی السـماء، و الملائکـة التی تقفل صاعـدة إلی السـماء بعـد أداء تکالیفها، و بالشـیاطین الذین یرتقون إلی السـماء لاستراق السـمع، و بفروع الأشـجار التی تتطلّع برؤوسـها إلی السـماء، و بالأبخرة التی تتصاعد من البحار إلی أعالی السماء لتتکاثف مکونة سحبا. و بالآهات التی تنطلق من قلب المظلوم متصاعدة إلی السماء ... نعم هو عالم بکلّ ذلک.

فهل هناک من مطّلع علی کلّ ذلک غیره تعالی؟ و هل یمکن لعلوم جمیع العلماء مجتمعة أن تحیط و لو بجزء من هذه المعلومات؟

و فی ختام الآیة یضیف تعالی: وَ هُوَ الرَّحِیمُ الْغَفُورُ.

لقد وصف اللّه تعالى نفسه بهاتين الصفتين إمّا لأجل أنّه من جملة الأمور التى تعرج إلى السماء أعمال العباد و أرواحهم فيشملها برحمته ...

أو لأنّ نزول البركات و العطايا السماوية تترشّح من رحمته، و الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۵

الصالحة المتصاعدة من العباد مشمولة بغفرانه بمقتضى وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

أو لكون «الرحمة» تشمل من يشكر هذه النعم، و «الغفران» يشمل المقصّرين فى ذلك.

و الخلاصة: أنّ الآية أعلاه، لها معان واسعة من جميع الوجوه، و لا يجب حصر مؤدّاها فى معنى واحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳ الى ۵]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِى السَّماواتِ وَ لا فِى الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتابٍ مُبِينٍ (۳) لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۵)

التّفسير

أقسم باللّه لتأتينكم القيامة:

تتعرّض الآيات مورد البحث إلى موضع التوحيد و صفات اللّه فى نفس الوقت الذى تهىء أرضيّة لموضوع المعاد، لأنّ مشكلات (بحث المعاد) لا يمكن حلّها إلّا عن طريق العلم اللامتناهى للبارئ عزّ و جلّ، كما سنرى.

لذا فإنّ الآيات مورد البحث تبدأ أوّلا بقوله تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ. فما هو إلّا كذب و افتراء، بل إنّ القيامة لا تأتى أحدا من الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۷

و يريدون بذلك الفكاك و التحرّر من قيود هذه الإعتقادات، الحساب و الكتاب و العدل و الجزاء، ليرتكبوا ما يحلوا لهم من الأعمال.

و لكنّ القرآن بناء على وضوح أدلّة القيامة يخاطب الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله بصورة حاسمة و فى معرف بيان النتيجة، فيقول: قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ

و التركيز على كلمة «ربّ» لأنّ القيامة فى الأصل من شؤون الربوبية. فكيف يمكن أن يكون اللّه مالكا و مربيا للبشر يقودهم فى سيرهم التكاملى، ثمّ يتخلّى عنهم فى منتصف الطريق لينتهى بالموت كلّ شىء، فتكون حياتهم بلا هدف و خلقهم هباء و بلا معنى.

و قد ركّز القرآن فى الآية السابعة من سورة التغابن أيضا على هذا الوصف، فقال تعالى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ

و بما أنّ أحد إشكالات الكافرين بالمعاد، هو شكّهم- من جانب- فى إمكانية جمع و إعادة بناء أعضاء الإنسان الميّت بعد تبعثرها و تفسّخها فى التراب. و كذلك- من جانب آخر- فى إمكانية وجود من يمكنه النظر فى جميع أعمال العباد التى عملوها فى السرّ و

العلن و الظاهر و الباطن، لـذا فإنّ اللّه تعالى يضـيف فى تتمّـة الآيـة الكريمـة عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ ۳۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏۱۳ ؛ ص‏۳۸۷

لـذا، فلاـ يغيب عن علمه تبعثر ذرّات جسم الإنسـان فى التراب، و لاـ اختلاطهـا بسـائر الموجودات، و لاـ حتّى حلولها فى أبـدان أناس آخرين عن طريق الغـذاء، و لا يشـكّل مشـكلة أمام إعادة بنائه من جديـد .. و أعمالهم فى هـذه الـدنيا تبقى محفوظـة أيضا، و إن تغيّر شكلها، فهو سبحانه المحيط بها علما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۱۳، ص: ۳۸۸

و قـد ورد نظير هـذا التعبير فى الآيات الثالثـة و الرّابعـة من سورة (ق) فى قوله تعالى: أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ، قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ.

و لكن ما هو المقصود من «الكتاب المبين»؟

أغلب المفسّرين قـالوا بـأنّه «اللوح المحفوظ» و لكن السؤال هو: مـا هو اللوح المحفوظ؟! و كمـا ذكرنا سابقا فإنّ أقرب تفسير (للّوح المحفوظ)، هو «لوح العلم الإلهى اللامتناهى» نعم فى ذلك اللوح ضبط و قيّد كلّ شي‏ء، بدون أن يجد التغيير و التبديل طريقه إليه.

و عـالم الوجود المترامى الأـطراف، هو الآـخر انعكاس عن ذلك اللوح المحفوظ، بلحاظ أنّ كلّ ذرّات وجودنا و كلّ أقوالنا و أفعالنا، تبقى محفوظة فيه، و إن كانت الظواهر تتغيّر، لكنّها لا تخرج عن حدّها أبدا.

ثمّ يوضّـح تعالى الهـدف من قيام القيامة فى آيتين، أو بتعبير آخر إعطاء الدليل على لزوم مثل ذلك العالم بعد عالمنا الحالى لمنكرى القيامة، فيقول تعالى:

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

فـإن لم يجـاز المؤمنين بصالـح عملهم ثوابا، أ فلا يعنى ذلك تعطيل أصل العدالـة الـذى هو أهم أصل من اصول الخلقـة؟ و هل يبقى معنى لعدالـة اللّه بـدون ذلـك المفهوم؟! فى الوقت الـذى نرى أنّ أغلب هؤلاء الأفراد الصالحين، لا يتلقون جزاء أعمالهم الحسـنة فى هذه الدنيا أبدا، إذن لا بدّ من عالم آخر لكى يتحقّق فيه هذا الأصل.

تقـديم «المغفرة» على «الرزق الكريـم» ربّمـا كـان سببه: أنّ أشـدّ مـا يقلق المؤمنين هو الـذنوب التى ارتكبوها، لـذا فإنّ الآيـة تطمئنهم بعرض المغفرة عليهم أوّلا، فضلا عن أنّ من لم يغتسل بماء المغفرة الإلهية لن يكون أهلا (للرزق الكريم) و المقام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۱۳، ص: ۳۸۹

الكريم! (الرزق الكريم) يشـمل كلّ رزق ذى قيمة، و مفهوم ذلك واسع إلى درجة أنّه يشمل كلّ المواهب و العطايا الإلهية، و منها ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

و بتعبير آخر فإنّ «الجنّة» بكلّ نعمها المعنويـة و الماديّـة جمعت فى هـذه الكلمـة، و البعض فسّر «الكريم» بأمرين: الجيد و الخالى من المنغّصات، و لكن يبدو أنّ مفهوم الكلمة أوسع من ذلك بكثير.

ثمّ تضـيف الآيـة الكريمة التالية، موضّحة نوعا آخر من العدالة فيما يخصّ عقاب المذنبين و المجرمين، فيقول تعالى: إنّ الذين كذّبوا آياتنا وسعوا فى إنكارها و إبطالها و تصوّروا أنّهم يستطيعون الخلاص من دائرة قدرتنا .. وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ

فهناك كان الحديث عن «الرزق الكريم» و هنا عن «الرجز الأليم».

«الرّجز»: فى الأصـل بمعنى الاضـطراب و عـدم القـدرة على حفـظ التوازن، و منه قيل «رجز البعير رجزا» فهو أرجز، و ناقـة «رجزاء» إذا

تقارب خطوها و اضطرب لضعف فیها. و أجبرت علی تقصیر خطواتها لحفظ توازنها، ثمّ أطلقت الکلمة علی کلّ ذنب و رجس. کذلک فإنّ إطلاق کلمة «الرجز» علی المقاطع الشعریة الخاصّة بالنزال فی الحرب، من باب قصر مقاطعها و تقاربها.

علی کلّ حال فالمقصود من (الرجز) هنا، أسوأ أنواع العذاب- الذی یتأکّد بإرداف کلمة «الألیم» أیضا و أنواع العقوبات البدنیة و الروحیة الألیمة.

و التفت البعض إلی هذه النکتة، و هی أنّ القرآن الکریم حین ذکر نعم أهل الجنّة لم یستعمل کلمة «من» لیدلّل علی سعتها، بینما جاءت هذه الکلمة عند ذکر العذاب لتکون دلیلا علی محدودیته النسبیة، و لتتضح رحمته تبارک و تعالی.

«سعوا»: من السعی، بمعنی کلّ جهد و جدّ فی أمر، و المقصود منها هنا، الجدّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۰

و الجهد فی تکذیب و إنکار آیات الحقّ و صدّ الناس عن طریق اللّه سبحانه و تعالی.

معاجزین: من المعاجزة، بمعنی معجّزین، أی مثبطین، و فی مثل هذه الموارد تطلق علی من یفرّ من شخص آخر بحیث لا یمکّنه من التسلّط علیه، و بدیهی أنّ هذا الوصف یستخدم للمجرمین لتوهمّهم الذی یظهرونه عملیا بهذا الاتّجاه، و عملهم یشبه إلی حد کبیر من یتصوّر أنّه یستطیع القیام بأیّة جنایة یشاء، ثمّ یستطیع الفرار من سلطة القدرة الإلهیّة!!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۱

الآیات [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۶ الی ۹]

اشارة

وَ یَرَی الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ هُوَ الْحَقَّ وَ یَهْدِی إِلی صِراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ (۶) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلی رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ (۷) أَفْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِی الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِیدِ (۸) أَ فَلَمْ یَرَوْا إِلی ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَیْهِمْ کِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِکُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ (۹)

التّفسیر

العلماء یرون دعوتک إنّها حقّ:

کان الحدیث فی الآیات السابقة عن عمی البصائر، المغفّلین الذین أنکروا المعاد مع کلّ تلک الدلائل القاطعة، و سعوا سعیهم لتکذیب الآیات الإلهیة، و إضلال الآخرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۲

و علی هذا، فإنّ الآیات مورد البحث، تتحدّث عن العلماء و المفکّرین الذین صدّقوا بآیات اللّه و سعوا سعیهم لتشجیع الآخرین علی التصدیق بها، یقول تعالی:

وَ یَرَی الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ هُوَ الْحَقَّ وَ یَهْدِی إِلی صِراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ.

فسّر بعض المفسّرین عبارة الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ بتلک المجموعة من علماء أهل الکتاب الذین یتّخذون موقف الخضوع و الإقرار للحقّ عند مشاهدة آثار حقّانیة القرآن الکریم.

و لیس هنـاک مـانع من اعتبـار علماء أهل الکتاب أحـد مصادیق الآیـة، و لکن تحدیـدها بهم یفتقـد إلی الـدلیل، بل مع الالتفات إلی الفعل المضارع (یری) وسعهٔ مفهوم الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ یتّضح شمول الآیهٔ لکلّ العلماء و المفکّرین فی کلّ عصر و زمان و مکان.

و إذا فسّـِرت بکونهـا إشارهٔ إلی «أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه الصـلاهٔ و السـلام»، کما فی تفسـیر علی بن إبراهیم، فإنّ ذلک توضیح و إشارهٔ إلی أتمّ و أکمل مصادیق الآیهٔ.

نعم، فأی عالم موضوعی و غیر متعصّب إذا تأمّل فی ما ورد فی هـذا الکتاب السـماوی، و تدبّر فی معارفه العمیقهٔ، و أحکامه المتینهٔ، و نصائحه الحکیمهٔ، و مواعظه المؤثّرهٔ فی الوجدان إلی قصـصه التأریخیهٔ المشـعّهٔ بالعبرهٔ، و بحوثه العلمیهٔ الإعجازیهٔ، فسیعلم بأنّها جمیعا دلیل علی حقّانیهٔ هذه الآیات.

و الیوم، فإنّ هناک کتبا متنوّعهٔ کتبها مفکّرون غربیون و شـرقیون حول الإسلام و القرآن، تحوی اعترافات ظاهرهٔ علی عظمهٔ الإسلام و صدق الآیهٔ مورد البحث.

التعبیر ب «هو الحقّ» تعبیر جامع ینطبق علی جمیع محتوی القرآن الکریم، حیث أنّ «الحقّ» هو تلک الواقعهٔ العینیهٔ و الوجود الخارجی، أی إنّ محتوی القرآن یتساوق و ینسجم مع قوانین الخلق و حقائق الوجود و عالم الإنسانیهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۳

و لکونه کذلک فهو یهدی إلی صـراط اللّه، اللّه «العزیز» و «الحمید» أی أنّه تعالی الأهل لکلّ حمد و ثناء و فی ذات الوقت فانّ قدرته غایـهٔ القـدرهٔ و الغلبـهٔ، و لیس هو کأصـحاب القدرهٔ من البشـر الذی یتعامل منطلقا من کونه علی عرش القدرهٔ بالدکتاتوریهٔ و الظلم و التجاوز و التلاعب.

و قـد جـاء نظیر هـذا التعبیر فی الآیـهٔ الاولی من سورهٔ «إبراهیم» حیث قال جلّ من قائل: کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلی صِراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ.

و واضـح أنّ من کـان مقتـدرا و أهلاـ للحمـد و الثناء، و من هو عالم و مطّلع رحیم و عطوف، من المحتّم أن یکون طریقه أکثر الطرق اطمئنان و استقامهٔ. فمن یسلک طریقه إنّما یقترب من منبع القدرهٔ و کلّ الأوصاف الحمیدهٔ.

و یعود تعالی إلی مسألـهٔ القیامهٔ و البعث فی الآیهٔ التی بعدها، و یکمل البحوث السابقهٔ بطریقهٔ اخری، فیقول تعالی: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلی رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ.

یبـدو أنّ إصـرار- هؤلاـء الکفّـار- علی إنکـار مسألـهٔ المعـاد یعتمـد علی أمرین:- الأوّل: توهمّهم أنّ المعاد الـذی تحـدّث عنه رسول الإسـلام صـلّی اللّه علیه و آله و هو «المعاد الجسـمانی»، أمر یسهل الإشکال علیه و الطعن فیه، و أنّ بإمکانهم تنفیر الناس منه فینکرونه بسهولهٔ.

الثّانی: أنّ الإعتقـاد بالمعاد، أو حتّی القبول باحتماله- علی کلّ حال- إنّما یفرض علی الإنسان مسئولیات و تعهّـدات، و یضـعه وجها لوجه أمام الحقّ، و هذا ما اعتبره رؤوس الکفر خطرا حقیقیّا، لذا فقد أصرّوا علی إلغاء فکرهٔ المعاد و الجزاء الاخروی علی الأعمال من أذهان الناس. فقالوا: أ یمکن لهـذه العظام المتفسّـخهٔ، و هذه الذرّات المبعثرهٔ، التی تعصف بها الریح من کلّ جانب، أن تجمع فی یوم و تلبس ثوب الحیاهٔ من جدید؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۴

و استخدامهم لکلمهٔ (رجل) بصیغهٔ النکرهٔ فی تعبیرهم عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله یقصد منه التحقیر «و حاشاه».

و لکن فاتهم أنّنا فی بـدء الخلیقـهٔ لم نکن إلّا أجزاء مبعثرهٔ، فکلّ قطرهٔ ماء فی أبداننا إنّما کانت قطرهٔ فی زاویهٔ من بحر أو ینبوع ماء، و کـلّ ذرّهٔ من مواد أجسامنا، کانت فی جانب من جوانب هـذه الأرض المترامیـهٔ، و سـیجمعها اللّه تبارک و تعالی فی النهایـهٔ أیضا کما جمعها فی البدء، و هو علی کلّ شیء قدیر.

و العجيب أنّهم اعتبروا ذلك دليلا على كذب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله أو جنونه، و حاشاه أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ.

و إلّا فكيف يمكن لرجل عاقل أو صادق أن يتفوّه بمثل هذا الحديث!!؟

و لكن القرآن يردّ عليهم بشكل حاسم قائلا: بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ.

فأى ضلال أوضح من أن يرى منكر المعاد بامّ عينيه مثالا لهذا المعاد فى عالم الطبيعة فى كلّ عام بإحياء الأرض الميتة بالزرع.

المعاد الذى لو لا وجوده لما كان للحياة فى هذا العالم أى معنى أو محتوى.

و أخيرا فإنكار المعاد مساو لإنكار قدرة و عدل و حكمة اللّه جلّ و علا.

و لكن لماذا يؤكّد تعالى أنّهم الآن فى العذاب و الضلال؟

ذلك لأنّ الإنسان يواجه فى حياته مشاكل و أحداثا لا يمكنه- بدون الإيمان بالآخرة- تحمّلها، و الحقيقة أنّ الحياة لو حدّت بهذه الأيّام القليلة من عمر الدنيا لكان تصوّر الموت بالنسبة لكلّ إنسان كابوسا مرعبا، لهذا السبب نرى أنّ منكرى المعاد فى قلق دائم منغّص و عذاب أليم، فى حال المؤمنين بالمعاد يعتبرون الموت قنطرة إلى عالم البقاء، و وسيلة لكسر القيود و التحرّر من سجن الدنيا.

نعم، فالإيمان بالمعاد، يغمر قلب الإنسان بالطمأنينة، و يهوّن عليه المشكلات، و يجعله أكثر قدرة على الإيثار و الفداء و التضحية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۵

أمّا الذين يرون المعاد- لجهلهم و كفرهم- دليلا على الكذب أو الجنون، إنّما يأسرون أنفسهم فى عذاب العمى، و الضلال البعيد.

و مع أنّ بعض المفسّرين اعتبروا هذا العذاب إشارة إلى عذاب الآخرة، و لكنّ ظاهر الآية يدلّل على أنّهم أسرى هذا العذاب و الضلال الآن و فى هذه الدنيا.

ثمّ ينتقل القرآن الكريم لتقديم دليل آخر عن المعاد، مقترن بتهديد الغافلين المعاندين فيقول تعالى: أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

فإنّ هذه السماء العظيمة بكلّ عجائبها، بكواكبها الثابتة و السيّارة، و بالأنظمة التى تحكمها، و كذلك الأرض بكلّ مدهشاتها و أنواع موجوداتها الحيّة، و بركاتها و مواهبها، لأوضح دليل على قدرة الخلّاق العظيم.

فهل أنّ القدير على كلّ هذه الأمور، عاجز عن إعادة الإنسان بعد الموت إلى الحياة؟

و هذا هو «برهان القدرة» الذى استدلّ به القرآن الكريم فى آيات اخرى فى مواجهة منكرى المعاد، و من جملة هذه الآيات، الآية (۸۲) من سورة يس. الآية (۹۹) من سورة الإسراء و الآيتين (۶ و ۷) من سورة ق.

و نشير إلى أنّ هذه الجملة كانت مقدّمة لتهديد تلك الفئة المتعصّبة من ذوى القلوب السوداء، الذين يصّرون على عدم رؤية كلّ هذه الحقائق. لذا يضيف تعالى قائلا: إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ فنأمر الأرض فتنشقّ بزلزلة مهولة و تبتلعهم، أو نأمر السماء فترميهم بقطعات من الحجر و تدمّر بيوتهم و تهلكهم أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أجل، إنّ فى هذا الأمر دلائل واضحة على قدرة اللّه تعالى على كلّ شيء، و لكن يختّص بإدراك ذلك كلّ إنسان يتدبّر فى مصيره و يسعى فى الإنابة إلى اللّه إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ

لا بدّ أن سمع أو شاهد كلّ منّا نماذج من الزلازل أو الخسف فى الأرض، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۶

سقوط النيازك من السماء، أو بتساقط و تناثر صخور الجبال بسبب صاعقة أو انفجار بركان، و كلّ عاقل يدرك إمكانية حصول مثل هذه الأمور فى أيّة لحظة و فى أىّ مكان من العالم، فإذا كانت الأرض هادئة تحت أقدامنا، و السماء آمنة فوق رؤوسنا، فلأنّها كذلك بقدرة اخرى و بأمر من آمر، فكيف نستطيع- و نحن المحكومون بقدرته فى كلّ طرفة عين- إنكار قدرته على البعث بعد الموت، أو كيف نستطيع الفرار من سلطة حكومته!!.

هنا یجب الالتفات إلی جملة امور:

۱- یعبّر القرآن الکریم هنا عن السماء التی فوق رؤوسنا، و الأرض التی تحت أقدامنا ب ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ و ما خَلْفَهُمْ و هو المورد الوحید الذی یلاحظ فیه مثل هذا التعبیر. و هذا التعبیر لعلّه إشارة إلی أنّ قدرة و عظمة اللّه أظهر فی السماء وقت طلوع أو غروب الشمس و ظهور القمر و النجوم فیها. و نعلم أنّ من یقف غالب باتّجاه الأفق تکون السماء بین یدیه، و الأرض التی تأتی بالدرجة الثّانیة من الأهمیّة اطلق علیها ما خَلْفَهُمْ

کذلک هی إشارة إلی هؤلاء المغرورین أنّهم إن لم یجیزوا لأنفسهم النظر إلی ما فوق رؤوسهم، فلا أقل من أن ینظروا إلی ما بین أیدیهم فی جوار الأفق.

۲- نعلم بأنّنا نعیش بین مصدرین عظیمین من مصادر الخطر علی حیاتنا:

أوّلهما: باطن الکرة الأرضیة المشتعل الذی هو عبارة عن صخور مذابة و مشتعلة و فی حالة من الفوران، و فی الحقیقة فإنّ حیاة جمیع البشر فوق مجموعة من البراکن- بالقوّة- و بمجرّد صدور أمر إلهی صغیر ینطلق أحد هذه البراکین لیهزّ منطقة عظیمة من الأرض و ینثر علیها الأحجار الملتهبة و المواد المعدنیة المذابة المشتعلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۷

و ثانیهما: مئات الآلاف من الأحجار الصغیرة و الکبیرة السابحة فی الفضاء الخارجی تنجذب نحو الأرض یومیا بفعل جاذبیتها، و لو لا احتراقها نتیجة اصطدامها بالغلاف الغازی، لکنّا هدفا «لمطر حجری» بشکل متواصل لیل نهار، و أحیانا تکون أحجامها و سرعتها و قوّتها إلی درجة أنّها تتخطّی ذلک المانع و تنطلق باتّجاه الأرض لتصطدم بها. و هذا واحد من الأخطار السماویة، و علیه فإذا کنّا نعیش وسط هذین المصدرین الرهیبین للخطر، بمنتهی الأمن و الأمان بأمر اللّه، أ فلا یکفی ذلک لأن نتوجّه إلی جلال قدرته العظیمة و نسجد تعظیما و طاعة له!!.

۳- من الجدیر بالملاحظة أنّ الآیة الأخیرة من الآیات مورد البحث أشارت إلی إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً و لکنّها حدّدت لِکُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ و الإشارة تستبعد ذلک المتمرّس بالعصیان الذی خلع عن رقبته طوق العبودیة للّه سبحانه و تعالی، و الغافلین الذین أداموا السیر فی الطریق الخاطئة الملوّثة بالخطایا و استبعدوا عن أذهانهم- کلیا- التوبة و الإنابة، فهؤلاء أیضا لا یمکنهم الانتفاع من هذه الآیة المشرقة، لأنّ وجود الشمس الساطعة لا یکفی وحده لتحصل الرؤیة، بل یستلزم أیضا العین المبصرة و ارتفاع الحجاب بینهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۸

الآیتان [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۱۰ الی ۱۱]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَیْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا یا جِبالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ الطَّیْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِیدَ (۱۰) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِی السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّی بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۱۱)

التّفسیر

المواهب الإلهیة العظیمة لداود:

بناء علی ما مرّ ذکره فی آخر المجموعة السابقة من الآیات و ما قلناه حول «العبد المنیب» و الثواب. و لعلمنا بأنّ هذا الوصف قد ذکر للنبی داود علیه السّلام (فی الآیة ۲۴ من سورة ص)- کما سیرد شرحه بإذن اللّه- فالأفضل من أن نتعرّض لجانب من حیاة هذا النّبی علیه السّلام کمثال للإنابة و التوبة و إکمال البحث السابق. و هی أیضا تنبیه لکل من یغمط نعم اللّه و یتناساها، و یتخلّی عن عبودیته للّه عند جلوسه علی مسند القدرة و السلطة.

فی الآیة الاولی یقول تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا.

مفردة «فضل» ذات معنی وسیع، یشمل کلّ المواهب التی تفضّل اللّه بها علی داود، و زادها التنکیر سعة و دلّل علی عظمة تلک المواهب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۹

فقد شمل داود بالمواهب العظیمة سواء من الناحیة المادیة أو المعنویة، و قد تعرّض القرآن الکریم مرارا لذکرها.

ففی موضع یقول تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنا داوُدَ وَ سُلَیْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی فَضَّلَنا عَلی کَثِیرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِینَ [۳۳۹] و فی موضع آخر یقول تعالی علی لسان داود یا أَیُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّیْرِ وَ أُوتِینا مِنْ کُلِّ شَیْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِینُ [۳۴۰] و سترد ضمن حدیثنا حول آخر هذه الآیات، معجزات مختلفة تمثّل جزءا من هذا الفضل العظیم، و کذلک الصوت الباهر، و القدرة العالیة علی القضاء العادل التی أشیر إلیها فی سورة (ص) تمثّل لونا آخر من ذلک الفضل الإلهی، و أهمّ من ذلک کلّه النبوّة و الرسالة التی شرّف بها داود.

و علی کلّ حال، فبعد هذه الإشارة الإجمالیة العامّة، تبدأ الآیة بشرح و توضیح جوانب من الفضائل المعنویة و المادیة التی تمتّع بها داود، فیقول تعالی: یا جِبالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ الطَّیْرَ.

کلمة «أوّبی» فی الأصل من «التأویب» بمعنی الترجیع و إعادة الصوت فی الحلق. و هذا الأصل یستعمل أیضا بمعنی «التوبة» لأنّ حقیقتها الرجوع إلی اللّه.

و مع أنّ کلّ ذرّات الوجود تذکر اللّه و تسبّح بحمده، سواء سبّح داود علیه السّلام معها أو لم یسبّح، و لکن المیزة التی خصّ بها داود هی أنّه ما إن یرفع صوته و یبدأ التسبیح، إلّا و یظهر ما کان خفیّا و کامنا فی الموجودات، و تتبدل الهمهمة الباطنیة إلی نغمة علنیة منسجمة، کما ورد فی الروایات من تسبیح الحصاة فی ید الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله.

و

قد ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام عند ذکره لقصّة داود «إنّه خرج یقرأ الزبور،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۰

و کان إذا قرأ الزبور لا یبقی جبل و لا حجر و لا طائر إلّا أجابه»[۳۴۱].

و بعد ذکر هذه الفضیلة المعنویة، تذکر الآیة فضیلة مادیة اخری فتقول: وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِیدَ.

یمکن القول، بأنّ اللّه تعالی علّم داود- إعجازا- ما استطاع بواسطته تلیین الحدید حتّی یمکنه من صنع أسلاک رقیقة و قویة لنسج الدروع منها، أو أنّه کان قبل داود یستفاد من صفائح الحدید لصناعة الدروع و الإفادة منها فی الحروب، ممّا کان یسبّب حرجا و إزعاجا للمحاربین نتیجة ثقل الحدید من جهة، و عدم قابلیة تلک الدروع للانحناء أو الالتواء حین ارتدائها، و لم یکن أحد قد استطاع حتّی ذلک الیوم نسج الدروع من أسلاک الحدید الرفیعة المحکمة، لیکون لباسا یمکن ارتداؤه بسهولة و الإفادة من قابلیته علی التلوّی و الانحناء مع حرکة البدن برقّة و إنسیاب [۳۴۲].

و لكن ظاهر الآيـة يـدلّل على أنّ ليونة الحديد تمّت لداود بأمر إلهى، فما يمنع الذى أعطى لفرن النار خاصـية إلانة الحديد، أن يعطى هذه الخاصية لداود بشكل آخر، و قد أشارت بعض الروايات أيضا إلى هذا المعنى.

فقـد روى عن الإمام الصادق عليه السّـلام، أنّه قال: «إنّ اللّه أوحى إلى داود: نعم العبـد أنت إلّا أنّك تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صبـاحا، فألان اللّه له الحديـد، و كـان يعمـل كلّ يوم درعا فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائـة و ستّين درعا فباعها بثلاثمائة و ستّين ألفا فاستغنى عن بيت المال»[۳۴۳].

صحيـح أنّ بيت المال يؤمّن مصارف الأشـخاص الذين يقدّمون خدمة مجانية للامّة، و يتحمّلون الأعباء التى لا يتحمّلها غيرهم، و لكن ما أروع أن يستطيع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۱

الإنسان تقديم هذه الخدمة، و تأمين معاشه- فى حال الاستطاعة- من كدّ يمينه، و داود عليه السّلام أراد أن يكون ذلك العبد الممتاز.

على كلّ حال، فإنّ داود وجّه هذه القدرة التى و هبها إيّاه اللّه فى أفضل الطرق و هى صناعة وسائل الجهاد و الدفاع ضدّ الأعداء، و لم يحاول الاسـتفادة منها فى صناعة وسائل الحياة العادية، و علاوة على الاستفادة من دخله منها فى تصريف امور حياته المعاشية البسيطة، فقد هيّأ جزءا منه للإنفاق على المحتاجين ۳۴۴]. و فوق كلّ هذا، فقد كان عمله بحدّ ذاته معجزة ارتبطت به.

نقل بعض المفسّـرين قال «حكى أنّ لقمان حضـر داود عند أوّل درع عملها فجعل يتفكّر فيها و لا يدرى ما يريد، و لم يسأله حتّى فرغ منها ثمّ قام فلبسها و قال: نعم جنة الحرب هذه. فقال لقمان: الصمت حكمة و قليل فاعله!»[۳۴۵].

الآية التى بعدها تتعرّض لشرح صناعة داود للدروع و الأمر الإلهى العميق المعنى بهذا الخصوص. يقول تعالى: أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ.

«سابغات»: جمع (سابغ) و هو الدرع التامّ الواسع، و «إسباغ النعمة» أيضا بمعنى توسيعها.

«سـرد»: فى الأصل بمعنى حياكـة ما يخشن و يغلظ كنسج الدرع و خرز الجلد، و اسـتعير لنظم الحديد. و جملة وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ معناها مراعـاة المقـاييس المتناسـبة فى حلقات الـدرع و طريقـة نسـجها. و فى الواقع فإنّ اللّه تعالى قـد أمر داود بأن يكون مثالا يحتـذى لكل الحرفيين و العمّـال المؤمنين فى العالم، بمراعاته للإتقان و الدقّة فى العمل من حيث الكمّ و الكيف فى المصنوعات، ليستطيع بالتالى مستهلكوها استعمالها براحة و بشكل جيّد، و الإفادة من متانتها.

يقول تعالى لداود: أن اصنع الدروع واسعة و مريحة، حتّى لا تكون سجنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۲

للمقاتل وقت ارتدائها .. لا تجعل حلقاتها صـغيرة و ضيّقة أكثر من اللازم فتفقد بذلك خاصيّة الانثناء و التطوّى، و لا كبيرة إلى درجة يمرّ منها حدّ السيف و الخنجر و السنان، فكلّ شيء يجب أن يكون ضمن مقياس معيّن و تناسب محدّد.

الخلاصة: هى أنّ اللّه تعالى قد قيّض لداود «المادّة» بمقتضى وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ.

و كذلك علّمه بطريقة تحويلها و صناعتها، حتّى يكون الناتج كاملا باجتماع «المادّة» و «الصورة».

ثمّ تختم الآية بخطاب لداود و أهل بيته وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

و يلاحـظ أنّ المخاطب كان فى صـدر الآيـة داود وحـده، بينما تحوّل الخطاب فى آخر الآيـة ليشـمل داود و أهل بيته أو داود و قومه، ذلك لأنّ هـذه الأمور مقدّمة للعمل الصالح، فالهدف ليس صـناعة الدروع و تحقيق الربح، بل إنّ ذلك كلّه وسـيلة فى المسير باتّجاه العمـل الصالـح. و ليسـتفيد أيضا داود و أهل بيته. و إحـدى خصائص العمل الصالـح هى مراعاة الدقّة الكافيـة فى الصـناعات من كلّ الجوانب و تقديم نتاج كامل و مفيد خال من أى عيب أو تقصير.

و من المحتمل أيضا أن يكون الخطاب لداود و كلّ من تحقّقت له الاسـتفادة من جهده و نسـيجه، إشارة إلى أنّ هذه الوسيلة الدفاعية

ينبغى أن تستخدم فى طريق العمل الصالح، و ليس فى طريق المعاصى و الجور و الظلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۳

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشارة

وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (۱۲) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (۱۳) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (۱۴)

التّفسير

هيبة سليمان و موته العبرة!!

بعد الحديث عن المواهب التى أغدق اللّه بها على داود عليه السّلام تنتقل الآيات إلى الحديث عن ابنه سليمان عليه السّلام، و فى حين أنّ الآيات السابقة أشارت إلى موهبتين تخصّان داود، فهذه الآيات تشير إلى ثلاث مواهب عظيمة خصّ بها ابنه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۴

سليمان عليه السّلام يقول تعالى: وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ[۳۴۶].

الملفت هنا أنّ اللّه تبارك و تعالى حينما سخّر للأب جسما خشنا و صلبا جدّا و هو الحديد، نرى أنّه قد سخّر للابن موجودا لطيفا للغاية، و لكنّ العملين كانا نافعين و إعجازيين، جسم صلب يلين لداود، و أمواج الهواء اللطيفة تجعل محكمة و فعّالة لسليمان!! و لطافة الريح لا- تمنع من أدائه أعمال هامّة، فمن الرياح ما يحرّك السفن الكبيرة على ظهر المحيطات، و منها ما يدير أحجار الطاحونات الهوائية الثقيلة، و منها ما يرفع البالونات إلى عنان السماء و يحرّكها كالطائرات.

نعم، هذا الجسم اللطيف بهذه القدرة الإيجابية سخّر لسليمان.

أمّا كيف تحمل الريح مقعد سليمان، (سواء أ كانت كرسيا أم بساطا)؟ فليس بواضح لنا. و القدر المتيقّن هو أن لا شيء يمثّل مشكلة أو عقبة أمام قدرة اللّه، لقد استطاع الإنسان بقدرته- الحقيرة أمام قدرة اللّه- أن يحرّك البالونات و الطائرات التى تحمل مئات بل آلاف المسافرين و الأحمال الاخرى فى عنان السماء، فهل أنّ تحريك بساط سليمان بواسطة الريح يشكّل أدنى مشكلة للبارى جلّت قدرته!؟

ما هى العوامل التى تحفظ سليمان و وسيلة نقله من السقوط أو من ضغط الهواء و المشكلات الاخرى الناشئة من الحركة فى السماء؟ هذه أيضا من المسائل التى خفيت عنّا تفصيلاتها. و لكن ما نعلمه أنّ تأريخ الأنبياء حافل بخوارق العادة و التى- مع الأسف- امتزجت نتيجة جهود بعض الجهلة أو أعداء المعرفة بالخرافات حتّى أضحت الصورة الحقيقية لهذه الأمور مشوشة و قبيحة، و نحن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۵

نقتنع بهذا الخصوص بالمقدار الذى أشار إليه القرآن الكريم.

«غدو»: بمعنى وقت الصبح من النهار، يقابله «الرواح» بمعنى وقت الغروب من النهار، و يطلق على الحيوانات عند عودتها إلى مساكنها

فی آخر النهار للاستراحة، و یبدو من القرائن فی الآیة مورد البحث أنّ «الغدو» هنا بمعنی النصف الأوّل من النهار، و «الرواح» النصف الثّانی منه، لذا یحتمل فی معنی الآیة أنّ سلیمان علیه السّلام یقطع فی وقت مقداره من الصبح إلی الظهر- بمرکبه- ما یعادل المسافة التی یقطعها المسافرون فی ذلک الزمان بشهر کامل، و کذا نصف النهار الثانی.

بعدئذ تنتقل الآیة إلی الموهبة الثّانیة التی خصّ اللّه بها سلیمان علیه السّلام فتقول الآیة الکریمة: وَ أَسَلْنا لَهُ عَیْنَ الْقِطْرِ.

«أسلنا» من مادّة «سیلان» بمعنی الجریان، و «القطر» بمعنی النحاس، و المقصود أنّنا أذبنا له هذا الفلز و جعلناه کعین الماء، و ذهب البعض إلی أنّ «القطر» یعنی أنواع الفلزات أو «الرصاص»، و علی هذا یکون قد ألین الحدید للأب، و أذیبت الفلزات بأجمعها للابن، و لکن المشهور هو المعنی الأوّل.

کیف یکون النحاس أو الفلزات الاخری کعین الماء بین یدی سلیمان علیه السّلام؟ هل أنّ اللّه علّم هذا النّبی کیفیة إذابة هذه الفلزات بکمیات کبیرة بطریقة الإعجاز؟ أو جعل عینا من هذا الفلز المائع تحت تصرفه، تشبه عیون البراکین وقت فعالیتها، حیث تنحدر منها علی أطراف الجبل بصورة إعجازیة، أو بأی شکل آخر؟ لیس واضحا لدینا و ما نعلمه هو أنّ ذلک أیضا کان من الألطاف الإلهیة علی هذا النّبی العظیم.

أخیرا تنتقل الآیة إلی بیان الموهبة الإلهیة الثالثة لسلیمان علیه السّلام و هی تسخیر مجموعة کبیرة من الجنّ لخدمته فتقول الآیة: وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ یَعْمَلُ بَیْنَ یَدَیْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ یَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِیرِ.

«الجنّ»: و کما هو معلوم من اسمه، ذلک المخلوق المستور عن الحسّ البشری،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۶

له عقل و قدرة و مکلّف بتکالیف إلهیة- کما یستفاد من آیات القرآن-.

لقد صیغت حول «الجنّ» أساطیر و حکایات و قصص خرافیة کثیرة، لو حذفناها لکان أصل وجودهم و الصفات الخاصّة بهم التی وردت فی القرآن موضوعا لا یخالف العلم و العقل مطلقا، و سوف نتعرّض إن شاء اللّه لتفصیل هذا الموضوع أکثر عند تفسیر سورة «الجنّ».

و علی کلّ حال، یستفاد من تعبیر الآیة أعلاه، أنّ تسخیر هذه القوّة العظیمة کان- أیضا- بأمر اللّه، و أنّهم کانوا یتعرّضون للعقاب لدی تقصیرهم فی أداء مهامهم.

قال بعض المفسّرین: إنّ المقصود من «عذاب السعیر» هنا، عقوبة یوم القیامة، فی حین أنّ ظاهر الآیة یشیر إلی أنّها عقوبة فی الدنیا.

و کذلک یستفاد من الآیات ۳۷ و ۳۸ من سورة «ص» بأنّ اللّه قد سخّر لسلیمان علیه السّلام مجموعة من الشیاطین لإنجاز أعمال عمرانیة هامّة له، و أنّهم کانوا یکبلون بالسلاسل بأمر من سلیمان عند ظهور أی تخلّف منهم وَ الشَّیاطِینَ کُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ وَ آخَرِینَ مُقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفادِ.

و الجدیر بالملاحظة. هو أنّه لإدارة حکومة کبیرة، و دولة واسعة کدولة سلیمان یلزم وجود عوامل عدیدة، و لکن أهمّها ثلاثة عوامل ذکرتها الآیة أعلاه و هی:

الأوّل: توفّر واسطة نقل سریعة مهیّأة علی الدوام، لکی یستطیع رئیس الحکومة تفقّد جمیع أطراف دولته بواسطتها.

الثانی: مواد أوّلیة یستفاد منها لصناعة المعدّات اللازمة لحیاة الناس و الصناعات المختلفة.

الثالث: قوّة عاملة فعّالة، تستطیع الإفادة من تلک المواد بدرجة مناسبة، و تصنیعها بالکیفیة اللازمة، و سدّ حاجة البلاد من هذه الجهة.

و نری أنّ اللّه تعالی قد قیّض لسلیمان هذه العناصر الثلاثة، و قد حقّق سلیمان منها أحسن الفائدة فی ترقیة الناس و تعمیر البلاد و تحقیق الأمن فیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۷

و هذا الموضوع لا يختّص فقط بعصر سليمان عليه السّلام و حكومته، فالالتفات إليه و مراعاته من الضروريات اليوم و غدا، و فى كلّ مكان لأجل إدارة الدول بطريقة صحيحة.

الآية التالية، تشير إلى جانب من الأعمال الإنتاجية الهامّة، التى كان يقوم بها فريق الجنّ بأمر سليمان.

يقول تعالى: يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ

فكلّ ما أراده سليمان من معابد و تماثيل و أوانى كبيرة للغذاء و التى كانت كالأحواض الكبيرة، و قدور واسعة ثابتة، كانت تهيّأ له، فبعضها يرتبط بالمسائل المعنوية و العبادية، و بعضها الآخر يرتبط بالمسائل الجسمانية، و كانت متناسبة مع أعداد جيشه و عمّاله الهائلة.

«محاريب» جمع محراب، و يعنى «مكان العبادة» أو «القصور و المبانى الكبيرة» التى بنيت كمعابد. كذلك أطلقت أيضا على صدر المجلس، و عند ما بنيت المساجد سمّى صدر المسجد به، قيل: سمّى محراب المسجد بذلك لأنّه موضع محاربة الشيطان و الهوى ۳۴۷]. و قيل: سمّى بذلك لأنّ الإنسان فيه يكون حريبا من أشغال الدنيا و من توزّع الخواطر[۳۴۸].

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء العمّال النشطين المهرة، قاموا ببناء المعابد الضخمة و الجميلة فى ظلّ حكومته الإلهية و العقائدية، حتّى يستطيع الناس أداء وظائفهم العبادية بسهولة.

«تماثيل»: جمع تمثال، بمعنى الرسم و الصورة و المجسمة، و قد وردت تفاسير عديدة حول ماهية هذه التماثيل و لأى الموجودات كانت؟ أو لما ذا أمر سليمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۸

بصنعها؟.

يمكن أن تكون صنعت لتزيين المبانى، كما نلاحظ ذلك فى المبانى المهمّة القديمة فى عصرنا الحالى، أو حتّى فى بعض المبانى الجديدة.

أو لإضفاء الأبّهة و الهيبة على المبانى التى بنيت، حيث أنّ رسم بعض أنواع الحيوانات كالأسد مثلا يضفى نوعا من الابّهة فى أفكار غالبية الناس.

ثمّ، هل كان صنع تماثيل ذوات الأرواح مباحا فى شريعة سليمان عليه السّلام مع كونه حراما فى الشريعة الإسلامية؟ أو أنّ التماثيل التى كانت تصنع لغير ذوات الروح من الموجودات كالأشجار و الجبال و الشمس و القمر و النجوم؟

أو أنّها كانت مجرّد نقوش و رسوم على الجدران- كما تلاحظ فى الآثار القديمة- و هى غير محرّمة كما هو الحال فى حرمة التماثيل المجسّمة.

كلّ ذلك محتمل، لأنّ تحريم صناعة المجسّمات فى الإسلام، كان بقصد مكافحة قضيّة عبادة الأوثان و اقتلاعها من الجذور، فى حين أنّ ذلك لم يكن بتلك الدرجة من الضرورة فى زمن سليمان، لذا لم تحرم فى شريعته! و لكنّنا نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «و اللّه ما هى تماثيل الرجال و النساء و لكنّها الشجر و شبهه»[۳۴۹].

و بالاستناد إلى هذه الرّواية فإنّ صنع التماثيل من ذوات الروح فى شريعة سليمان كان حراما أيضا.

«جفان» جمع «جفنة» بمعنى إناء الطعام.

«جوابى» جمع «جابية» بمعنى حوض الماء.

و هنا يستفاد أنّ المقصود من التعبير الوارد فى الآية الكريمة، أنّ هؤلاء العمّال قد صنعوا لسليمان عليه السّلام أوانى للطعام كبيرة جدّا، بحيث أنّ كلّا منها كان كالحوض،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۹

لكى يستطيع عدد كبير من الأفراد الجلوس حوله و تناول الطعام منه. و الاستفادة من الأوانى الجماعية الكبيرة لتناول الطعام كانت موجودة إلى أزمنة ليست بالبعيدة. و فى الحقيقة فإنّ مائدتهم كانت تلك الأوانى الكبيرة التى لا تشبه ما نستعمله هذه الأيّام من أوان صغيرة و مستقلّة.

«قدور»: جمع «قدر» على وزن «قشر». بنفس معناه الحالى، أى الإناء الذى يطبخ فيه الطعام.

«راسيات»: جمع «راسية» بمعنى ثابتة، و المقصود أنّ القدور كانت من العظمة بحيث لا يمكن تحريكها من مكانها.

و تعرج الآية فى الختام و بعد ذكر هذه المواهب الإلهية، إلى آل داود فتخاطبهم:

اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ.

و بديهى أنّ (الشكر) الذى أشارت إليه الآية، لو كان مقصودا به الشكر باللسان لما كانت هناك أدنى مشكلة و لمّا كان العاملون به قليلين، و لكن المقصود هو (الشكر العملى). أى الاستفادة من تلك المواهب فى طريق الأهداف التى خلقت لأجلها. و المسلّم به أنّ الذين يستفيدون من المواهب الإلهية فى طريق الأهداف التى خلقت لأجلها هم الندرة النادرة.

قال بعض العلماء: إنّ للشكر ثلاثة مراحل: الشكر بالقلب، بتصوّر النعمة و الرضى و السرور بها. و الشكر باللسان، و بالحمد و الثناء على المنعم. الشكر بسائر الأعضاء و الجوارح، و ذلك بتطبيق الأعمال مع متطلّبات تلك النعمة.

«شكور»: صيغة مبالغة. يعبّر بها عن كثرة الشكر و دوامه بالقلب و اللسان و الأعضاء و الجوارح.

و هذه الصفة تطلق أحيانا على اللّه سبحانه و تعالى، كما ورد فى الآية (١٧) من سورة التغابن: اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ و المقصود به أنّ اللّه سبحانه و تعالى، يشمل العباد المطيعين بعطاياه و ألطافه، و يشكرهم، و يزيدهم من فضله أكثر ممّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ۴١٠

يستحقّون.

كذلك يمكن أن يكون التعبير ب قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ إشارة إلى تعظيم مقام هذه المجموعة النموذجية، أو بمعنى حثّ المستمع ليكون من أفراد تلك الزمرة و يزيد جمع الشاكرين.

آخر آية من هذه الآيات، و هى آخر حديث عن النّبى سليمان عليه السّلام، يخبرنا اللّه سبحانه و تعالى فيها بطريقة موت ذلك النّبى العجيبة و الداعية للاعتبار، فيوضّح تلك الحقيقة الساطعة، و هى كيف أنّ نبيّا بتلك العظمة و حاكما بكلّ تلك القدرة و الابّهة، لم يستطع حين أخذ الموت بتلابيبه من أن يستلقى على سرير مريح، و انتزعت روحه من بدنه بتلك السهولة و السرعة. يقول تعالى: فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ٣٥٠].

يستفاد من تعبير الآية و من الروايات المتعدّدة الواردة فى تفسيرها، أنّ سليمان كان واقفا متّكئا على عصاه حين فاجأه الموت و استلّ روحه من بدنه، و بقى جثمان سليمان مدّة على حالته، حتّى أكلت الأرضة- التى عبّر عنها القرآن ب «دابّة الأرض»- عصاه، فاختلّ توازنه و هوى على الأرض، و بذا علم بموته.

لذا تضيف الآية بعد ذلك فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ

جملة «تبيّنت» من مادّة «بيّن» عادة بمعنى (اتّضح) (و هو فعل لازم). و أحيانا يأتى أيضا بمعنى «العلم و الاطلاع» (فعل متعد). و هنا يتناسب الحال مع المعنى الثانى. بمعنى أنّ الجنّ لم يعلموا بموت سليمان إلى ذلك الوقت، ثمّ علموا و فهموا أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب لما بقوا حتّى ذلك الحين فى تعب و آلام الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ۴١١

الشاقّة التى كلّفوا بها.

جمع من المفسّرين أخذ المعنى بالحالة الأولى، و قال: إنّ مقصود الآية هو أنّه بعد أن هوى جثمان سليمان عليه السّلام إلى الأرض

اتّضحت حقیقة الجنّ للناس، و أنّهم لا یعلمون شیئا من الغیب، و عبثا کان إعتقاد البعض باطّلاع الجنّ علی الغیب ۳۵۱].

(العـذاب المهین) هذا التعبیر قد یکون إشارة إلی الأعمال الشاقّة التی کان سـلیمان علیه السّـلام یعهد بها إلی مجموعة من الجنّ کنوع من العقاب، و إلّا فإنّ نبیّ اللّه لا یمکن أن یضع أحدا فی العذاب عبثا، و هو علی ما یبدو عذاب مذلّ.

بحوث

۱- صور من حیاة سلیمان علیه السّلام:

علی عکس «التوراة» الموجود الیوم و التی صوّرت «سـلیمان» أحد السـلاطین الجبابرة و بانی معابد الأوثان الضـخمة و مسـتهتر النساء- یعـدّ القرآن الکریم «سـلیمان» من أنبیـاء اللّه العظام و نموذج للحکومـة و القـدرة المنقطعـة النظیر، و قـد أعطی القرآن الکریم بعرضـه البحوث المختلفة المتعلّقة بسلیمان دروسا للبشر هی الأساس من ذکر قصّته.

قرأنا فی هـذه الآیات الکریمة، أنّ اللّه تعالی أعطی لهذا الرّسول العظیم مواهب عظیمة، فمن وسـیلة النقل السـریعة جدّا و التی اسـتطاع بواسـطتها التنقّل فی مملکته الواسـعة فی مـدّة قصـیرة، إلی المواد المعدنیـة المختلفـة الکثیرة، إلی القوی العاملة الفعّالة الکافیة لتصـنیع تلک المعادن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۲

و قـد قام سـلیمان علیه السّـلام بالاسـتفادة من المواهب المذکورة، ببناء المعابد الضـخمة، و ترغیب الناس بالعبادة، و کذلک فقد نظّم برامج واسعة لاستضافة أفراد جیشه و عمّاله و سائر الناس فی مملکته. و من الأوانی التی مرّ ذکرها یمکننا تخیّل أکثر من ذلک.

و فی قبال ذلک طالبه اللّه تعالی بأداء الشکر علی هذه النعم، مع تأکیده سبحانه علی أنّ أداء شکر النعم یتحقّق من فئة قلیلة نادرة.

ثمّ اتّضـح کیف أنّ رجلا بکلّ هـذه القـدرة و العظمة کان أمام الموت ضـعیفا لا حول له و لا قوّة، بحیث فارق الدنیا فجأة و فی لحظة واحدة. نعم .. کیف أنّ الأجل لم یعطه حتّی فرصة الجلوس أو الاسـتلقاء علی سـریره. ذلک حتّی لا یتّوهم المغرورون العاصون حینما یبلغون مقاما أو منصـبا أن قـد أصـبحوا مقتدرین حقیقة، فإنّ المقتدر الحقیقی الذی کان الجنّ و الإنس و الشـیاطین خدما بین یدیه، و الذی کان یجول فی الأرض و السماء و قد بلغ قمّة الهیبة و الحشمة .. ثمّ فی لحظة قصیرة فارق الدنیا.

و اتّضـح کـذلک کیف أنّ عصـا تافهـة، أقـامت جثمـانه مـدّة، و جعلت الجنّ یعملون بجـد و اجتهاد و هم یلحظون جثمانه الواقف أو الجالس. ثمّ کیف أسـقطته الأرضة علی الأرض، و کیف اضطربت بسقوطه الدولة بکلّ مسئولیها. نعم، عصا تافهة أقامت دولة عظیمة، ثمّ حشرة صغیرة أوقفت تلک الدولة!! الجمیل هو ما

ورد فی الروایة عن الإمام الباقر علیه السّـلام إذ قال: «أمر سـلیمان بن داود الجنّ فصـنعوا له قبّة من قواریر فبینا هو متکئ علی عصاه فی القبّـة ینظر إلی الجنّ کیف ینظرون إلیه إذ حـانت منه التفاتـة فإذا رجل معه فی القبّـة قال له: من أنت، قال: أنا الـذی لا أقبل الرشا و لا أهـاب الملوک أنـا ملـک الموت. فقبضه و هو قائم متکئ علی عصاه فی القبّـة و الجنّ ینظرون إلیه. قال: فمکثوا سـنة یـدأبون له حتّی بعث اللّه عزّ و جلّ الأرضة فأکلت منسأته- و هی العصا- فلمّا خرّ تبیّنت الجنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۳

أن لو کانوا یعلمون الغیب ما لبثوا فی العذاب المهین» الحدیث ۳۵۲].

و یجب أن نذکّر هنا أیضا، بأنّ قصّة النّبی سـلیمان علیه السّـلام ککثیر من قصص الأنبیاء، اختلطت مع الأسف بروایات کثیرة موضوعة و خرافـات شوّهت صورة هـذا النّبی العظیم، و أکثر هـذه الخرافـات أخـذت من التوراة الرائجـة الیوم، و لو اقتنعنـا بمـا ورد فی القرآن

الكريم حول هذا النّبى لما واجهتنا أيّة مشكلة.

۲- لماذا خفى موت سليمان مدّة من الزمن؟

كم هى المدّة التى ظلّ فيها موت سليمان مخفيا عن حكومته، هل كانت سنة، أم شهرا، أم عدّة أيّام؟ اختلف المفسّرون حول هذا الموضوع.

هل أنّ الكتمان كان من قبل مقربيه الذين قصدوا من وراء ذلك تمشية امور الدولة، أم أنّهم هم الآخرون قد خفى عليهم ذلك؟

يبدو من المستبعد تماما أن يخفى أمر وفاته عن حاشيته لمدّة طويلة، لا بل حتّى لأكثر من يوم واحد، لأنّ من المسلّم أنّ هناك أفرادا كانوا مكلّفين بإيصال احتياجاته و غذائه إليه، و هؤلاء سيعلمون بموته حتما، و عليه فلا يستبعد- كما قال بعض المفسّرين- أنّهم علموا بأمر موته، لكنّهم أخفوا ذلك الأمر لغايات معيّنة، لذا فقد ورد فى بعض الروايات بأنّ «آصف بن برخيا» وزير سليمان الخاص، هو الذى كان يدير امور الدولة.

ألم تشكّل مسألة عدم تناول الطعام و الماء لمدّة طويلة تساؤلا لدى ناظريه؟

مع اليقين بأنّ كلّ أعمال سليمان عليه السّلام كانت عجيبة، فيمكن اعتبار هذه المسألة من عجائبه أيضا، و حتّى أنّه ورد فى بعض الروايات أنّه بعد مدّة من بقاء سليمان عليه السّلام على حاله كثر الهمس بين البعض فى وجوب عيادة سليمان، لأنّه على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۴

حاله منذ مدّة لم يتحرّك و لم يأكل و لم يشرب و لم ينم ۳۵۳]. و لكن حينما تحطّمت العصا، و سقط الجثمان على الأرض تبدّدت كلّ هذه الأفكار و الأوهام.

على كلّ حال، فإنّ تأخير إعلان موت سليمان عليه السّلام كشف كثيرا من الأمور:

۱- اتّضح للجميع أنّ الإنسان حتّى إذا بلغ أوج القدرة و القوّة، فلا يزال هو الموجود الضعيف قبال الحوادث، كالقشّة فى خضمّ الطوفان يتقاذفها فى كلّ جانب.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه أفضل الصلاة و السّلام) فى إحدى خطبه «فلو أنّ أحدا يجد إلى البقاء سلما أو لدفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان بن داود عليهما السّلام الذى سخّر له ملك الجنّ و الإنس مع النبوّة و عظيم الزلفة»[۳۵۴].

۲- اتّضح للجميع أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب، و المغفّلين من البشر الذين كانوا يعبدونهم كانوا على خطأ فادح.

۳- اتّضحت لجميع الناس أيضا حقيقة إمكان أن يرتبط نظام دولة بموضوع صغير، بوجوده يمكن أن يقوم هذا النظام، و بانهياره ينهار هذا النظام، و من وراء ذلك تجلّت القدرة اللامتناهية للبارى عزّ و جلّ.

۳- سليمان فى القرآن و التوراة الحالية

يصوّر القرآن سليمان بصورة نبى عظيم، ذى علم وافر، و تقوى عالية، لم يأسره المقام و المال أبدا، مع كلّ ما كان له من سلطة فى حكومة عظيمة، و قال حينما أرسلت ملكة سبأ- لخداعه- هدايا نفيسة و ثمينة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۵

أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ ۳۵۵] لم يكن لهم من هم سوى أداء الشكر للّه على نعمه وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ ...[۳۵۶].

قائد لم يسمح بظلم نملة حينما قالت و هم فى وادى النمل: يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ ۳۵۷].

كان «عابدا» إذا غفل عن ذكر ربّه أو شغل بالدنيا عاد منيبا و هو يقول: إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ..[۳۵۸].

كان «حكيما» لم يجانب المنطق فى قول، حتّى فى حديثه مع الهدهد، لم يتخلّ عن الحقّ و العدالة.

كان «حاكما» له من المعاونين من له من علم الكتاب ما استطاع به إحضار عرش بلقيس فى أقلّ من طرفة عين.

و قد وصفه القرآن الكريم ب «الأوّاب» و «نعم العبد».

شخص أعطاه اللّه «الحكم» و «العلم» و شمله بهدايته، و لم يشرك باللّه طرفة عين أبدا.

لكنّنا نجد أنّ التوراة الحالية المحرّفة، قد لوّثت صفحة هذا النّبى العظيم بالشرك و غيره، فقد نسبت إليه أسوأ الأوصاف فيما يخصّ بناء المعابد الوثنية، و الترويج لعبادة الأوثان، و الوالع المفرط بالنساء، و تعبيرات قبيحة جدّا من أوصاف العشّاق المبتذلين، التى نخجل عن ذكرها.

و نكتفى بذكر بعض ما ورد فى التوراة من الأساطير الأهون قبحا، ففى الكتاب الأوّل للملوك من التوراة نقرأ ما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۶

«و أولع سليمان بنساء غريبات كثيرات فضلا عن ابنة فرعون، فتزوّج نساء موابيات و عمّونيّات و أدوميات و صيدونيات و حثيات، و كلّهنّ من بنات الأمم التى نهى الربّ بنى إسرائيل عن الزواج منهنّ قائلا لهم: «لا تتزوّجوا منهم و لا هم منكم لأنّهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم» و لكن سليمان التصق بهنّ لفرط محبّته لهنّ، فكانت له سبع مائة زوجة، و ثلاث مائة محضية، فانحرفن بقلبه عن الربّ فاستطعن فى زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة اخرى، فلم يكن قلبه مستقيما مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه، و ما لبث أن عبد عشتاروت آلهة الصيدونيين و ملكوم إله العمونيين البغيض، و ارتكب الشرّ فى عينى الربّ، و لم يتّبع سبيل الربّ بكمال كما فعل أبوه داود، و أقام على تلّ شرقى أورشليم مرتفعا تكموش إله الموآبيين الفاسق. و لمولك إله بنى عمون البغيض، و شيّد مرتفعات لجميع نسائه الغريبات، اللواتى رحن يوقدن البخور عليها، و يقربن المحرّقات لآلهتهنّ فغضب الربّ على سليمان لأنّ قلبه ضلّ عنه مع أنّه تجلّى له مرّتين و نهاه عن الغواية وراء آلهة اخرى، فلم يطع وصيّته، لهذا قال اللّه لسليمان! لأنّك انحرفت عنّى و نكثت عهدى، و لم تطع فرائضى التى أوصيتك بها، فانّى حتما امزّق أوصال مملكتك و أعطيها لأحد عبيدك، إلّا أنّنى لا أفعل ذلك فى أيّامك، من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك امزّقها، غير أنّى ابقى له سبطا واحدا يملك عليه إكراما لداود عبدى ...»[۳۵۹].

و من مجموع هذه القصّة الخرافية للتوراة يتّضح ما يلى:

۱- إنّ سليمان كان يحبّ كثيرا النساء الوثنيات، و تزوّج بكثير منهنّ على خلاف أوامر اللّه تعالى، و تدريجيّا مال إلى دينهنّ، و بالرغم من كثرة نسائه (۷۰۰ زوجة و ۳۰۰ محضية) فانّ حبّه لهنّ أدّى إلى انحرافه عن طريق الحقّ (نعوذ باللّه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۷

۲- إنّ سليمان أمر بصراحة ببناء معابد للأوثان فوق الجبل المقابل لأورشليم المركز الدينى المقدّس لبنى إسرائيل، و أحد المعابد كان لصنم «كموش» الذى يعبده الموآبيون، و الآخر لصنم «عشترون» الذى كان يعبده الصيداويون. و كلّ ذلك حدث فى أيّام شيخوخته.

۳- إنّ اللّه تعالى قرّر عقوبة سليمان بسبب انحرافه و ذنوبه الكبيرة بأن يفقد مملكته، و لكن لا من يده، بل من يد ابنه «رحبعام» و يتركه إلى آخر عمره يلعب و يعبث كيفما شاء من أجل أبيه داود العبد المخلص، أى ذلك العبد الذى تقول التوراة عنه انّه ارتكب قتل النفس وزنا المحصنة و الاستيلاء على زوجة قائد جيشه المتفانى!! فهل يمكن تصديق مثل هذه التّهم ضدّ رجل مقدّس مثل سليمان؟! و لو فرضنا أنّ سليمان لم يكن نبيّا- كما يصرّح القرآن بذلك- و قلنا بأنّه من ملوك بنى إسرائيل، فمع ذلك لا يمكن تصديق مثل هذه التّهم فى حقّه، لأنّه لو لم يكن نبيّا فلا أقل من أنّ مرتبته كانت تالية لمرتبة النّبى، لأنّ له كتابين من كتب العهد

القديم أحدها يدعى: «مواعظ سليمان» و الآخر «أشعار سليمان».

و أساسا كيف يجيب اليهود و النصارى الذين يعتقدون بهذه التوراة الحالية على هذه الأسئلة و الإشكالات؟ و كيف يتسنّى لهم قبول مثل هذه الفضائح؟!

۴- و قليل من عبادى الشكور

قبل كلّ شيء يلزم البحث فى الأصل اللغوى لكلمة «شكر».

الراغب الأصفهانى يقول فى مفرداته، الشكر: تصوّر النعمة و إظهارها، قيل و هو مقلوب عن «الكشر» أى الكشف، و يضادّه الكفر، و هو نسيان النعمة و سترها، «و دابة شكور» مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها. و قيل أصله عين شكرى، أى ممتلئة فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۸

و الشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب، و هو تصوّر النعمة. و شكر اللسان، و هو الثناء على المنعم، و شكر سائر الجوارح، و هو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها.

التعبير القرآنى فى الآية اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً يشير إلى أنّ الشكر أكثر من مقولة، إنّه «عمل»، و يجب أن يظهر من بين أعمال الإنسان، و عليه فقد يكون القرآن الكريم قد عدّ الشاكرين الحقيقيين قلّة لهذا السبب. و فضلا عمّا ورد فى هذه الآيات فإنّ فى الآية (۲۳) من سورة الملك، ذكر بعد تعداد بعض النعم الإلهية العظيمة، كخلق السمع و البصر و القلب، ذكر قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ و كذا فى الآية (۷۳) من سورة النمل ورد وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ و هذا من جانب.

و من جانب آخر فمع الالتفات إلى أنّ الإنسان غارق من رأسه حتّى أخمص قدميه بنعم اللّه التى لا تعدّ و لا تحصى، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها يتّضح لما ذا يمتنع الشكر كما ينبغى للّه قبال جميع النعم التى أفاضها البارى جلّ و علا.

بتعبير آخر، و كما ورد على لسان بعض كبار المفسّرين، فإنّ «الشكر المطلق»، هو أن يكون الإنسان على ذكر دائم للّه بلا أدنى نسيان، سائرا فى طريقه تعالى بدون أيّة معصية، طائعا لأوامره بلا- أدنى لفّ أو دوران، و مسلّم بأنّ هذه الأوصاف لا تجتمع إلّا فى القلّة النادرة، و لا يصغى إلى قول من يقول: إنّه أمر بما لا يطاق، فإنّه ناشئ من قلّة التدبّر فى هذه الحقائق و البعد من ساحة العبودية[۳۶۰].

قد يقال: إنّ أداء حقّ الشكر للّه سبحانه و تعالى قضيّة معقّدة بلحاظ إنّه فى الوقت الذى يقف فيه الإنسان فى مقام الشكر و يوفّق لذلك، بأن تتوفّر لديه أسباب أداء الشكر، فإنّ ذلك بحدّ ذاته نعمة جديدة تحتاج إلى شكر آخر، و بذا يستمرّ هذا الموضوع بشكل متتابع، و كلّما بذل الإنسان جهدا أكثر فى طريق الشكر سيكون مشمولا بنعمة متزايدة لا يمكنه معها أداء شكرها. لكن إذا انتبهنا أنّ أحد طرق أداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۹

الشكر للّه هو بإظهار العجز عن أدائه كما بيّن القرآن الكريم يتّضح حقيقة قلّة الشاكرين و ملاحظة الأحاديث التالية تساعد فى توضيح هذا المطلب.

فعن أبى بصير قال: قلت لأبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام: هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكرا؟ قال: «نعم» قلت: ما هو؟ قال: يحمد اللّه على كلّ نعمة عليه فى أهل و مال، و إن كان فيما أنعم عليه فى ماله حقّ أدّاه»[۳۶۱].

و

عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: «شکر النعمة اجتناب المحارم»[۳۶۲].

و

عن الإمام أبو عبد اللّه الصادق علیه السّلام أیضا قال: «فیما أوحی اللّه عزّ و جلّ إلی موسی علیه السّلام: یا موسی اشکرنی حقّ شکری، فقال: یا ربّ و کیف أشکرک حقّ شکرک و لیس من شکر أشکرک به إلّا و أنت أنعمت به علیّ؟ قال: یا موسی الآن شکرتنی حین علمت أنّ ذلک منّی»[۳۶۳].

نلفت النظر کذلک إلی أنّ شکر الإنسان الذی یکون وسیلة للنعمة لشخص آخر، هو شعبة من شکر اللّه، و کما

ورد عن علی بن الحسین السجّاد علیه السّلام قوله: إنّ اللّه یحبّ کلّ قلب حزین و یحبّ کلّ عبد شکور، یقول اللّه تبارک و تعالی لعبد من عبیده یوم القیامة: أشکرت فلانا؟ فیقول: بل شکرتک یا ربّ، فیقول: لم تشکرنی إذ لم تشکره، ثمّ قال: أشکرکم للّه أشکرکم للناس»[۳۶۴].

و فیما یخصّ موضوع (حقیقة الشکر) و کیف یکون الشکر سببا فی زیادة النعمة، و کیف یکون الکفر سببا فی ذهابها و فنائها، هناک شرح مفصّل فی تفسیر الآیة السابعة من سورة إبراهیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۰

الآیات [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۱۵ الی ۱۷]

اشارة

لَقَدْ کانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْکَنِهِمْ آیَةٌ جَنَّتانِ عَنْ یَمِینٍ وَ شِمالٍ کُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّکُمْ وَ اشْکُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَیِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (۱۵) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ سَیْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَیْهِمْ جَنَّتَیْنِ ذَواتَیْ أُکُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَیْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِیلٍ (۱۶) ذلِکَ جَزَیْناهُمْ بِما کَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِی إِلَّا الْکَفُورَ (۱۷)

التّفسیر

المدینة الراقیة التی أضاعها الکفران:

بعد أن تطرّقت الآیات السابقة إلی توضیح النعم الإلهیة العظیمة التی أولاها اللّه داود و سلیمان علیهما السّلام، و أداء هذین النّبیین العظیمین وظیفتهما بالشکر، تنتقل الآیات أعلاه إلی الحدیث عن قوم آخرین یمثّلون الموقف المقابل للموقف السابق، و یحتمل أن یکونوا قد عاصروا داود و سلیمان أو عاشوا بعدهما بفترة قلیلة .. قوم شملهم اللّه بأنواع النعم، و لکنّهم سلکوا طریق الکفران، فسلبهم اللّه ذلک، و مزّقهم شرّ ممزّق، حتّی أصبح ما حلّ بهم عبرة للعالمین، أولئک کانوا «قوم سبأ».

عرض القرآن المجید تأریخ «قوم سبأ» من خلال خمس آیات، و أشار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۱

باختصار إلی بعض خصوصیات و جزئیات حیاتهم.

یقول تعالی: لَقَدْ کانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْکَنِهِمْ آیَةٌ.

و کما سنری فإنّ عظمة هذه الآیة تنبع من أنّهم بالاستفادة من خصوصیات موقعهم و طریقة إحاطة الجبال بمنطقة سکناهم و بالذکاء العالی الذی وهبهم اللّه، استطاعوا حصر میاه السیول- التی لا تخلف وراءها إلّا الدمار- خلف سدّ عظیم، و بذا عمّروا دولة رفیعة

التمدّن، فكانت آية عظيمة أن يتحوّل سبب الخراب و الدمار إلى عامل رئيسى من عوامل العمران و التمدّن!! «سبأ» اسم من؟ و ما هى؟. الموضوع مورد أخذ وردّ بين المؤرخين، و لكن المشهور هو أنّ «سبأ» اسم «أبى العرب» فى اليمن، و طبقا للرواية الواردة عن «فروة بن مسيك» أنّه قال: «سألت رسول اللّه عن «سبأ» أرجل هو أم امرأة؟ فقال:

هو رجل من العرب ولد له عشرة، تيامن منهم ستّة و تشاءم منهم أربعة، فأمّا الذين تيامنوا فالأزد و كندة و مذحج و الأشعرون و أنمار و مجد. فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم و بجيلة، و أمّا الذين تشاءموا فعاملة و جذام و لخم و غسان. فالمراد بسبإ هاهنا القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[۳۶۵].

و بعضهم ذهب إلى أنّ «سبأ» اسم لأرض اليمن أو لإحدى مناطقها. و ظاهر الآيات القرآنية التى تحدّثت فى قصّة سليمان عليه السّلام و (الهدهد) أشارت إلى هذا المعنى أيضا ففى الآية (۲۲) من سورة النمل، يقول تعالى على لسان الهدهد:

وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ يعنى لقد جئتك من أرض سبأ بنبإ يقين.

فى حال أنّ ظاهر الآية مورد البحث هو أنّ «سبأ» كانوا «قوما» عاشوا فى تلك المنطقة، بلحاظ أنّ ضمير «هم» فى «مساكنهم» يعود عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۲

و لا منافاة بين التّفسيرين لأنّ من الممكن أن يكون «سبأ» اسم شخص ابتداء، ثمّ بعدئذ سمّى كلّ أولاده و قومه من بعده باسمه، ثمّ انتقل الاسم ليشمل مكان سكناهم.

تنتقل الآية بعد ذلك لتجلّى الموقف عن تلك الموهبة الإلهية التى وضعت بين يدى قوم سبأ. فيقول تعالى: جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ

ما حصل هو أنّ قوم سبأ استطاعوا- ببناء سدّ عظيم بين الجبال الرئيسية فى منطقتهم- حصر مياه السيول المدمّرة أو الضائعة هدرا على الأقل، و الإفادة منها ..

و بإحداث منافذ فى ذلك السدّ سيطروا تماما على ذلك الخزّان المائى الهائل، و بالتحكّم فيه تمكّنوا من زراعة مساحات شاسعة من الأرض.

الإشكال الذى أثاره (الفخر الرازى) هو: ما هى أهميّة وجود مزرعتين لكى يذكر ذلك فى آية مستقلّة؟ ثمّ يقول فى الجواب أنّ هاتين المزرعتين لم تكونا عاديتين، بل إنّهما عبارة عن سلسلة من رياض المترابطة مع بعضها البعض و الممتدة على جانبى نهر عظيم يتغذّى من ذلك السدّ العظيم. و كانت تلك الرياض مليئة بالبركات إلى درجة أنّه ورد فى كتب التأريخ عنها، أن لو مرّ شخص يحمل على رأسه سلّة فارغة من تحت أشجار تلك المزارع فى فصل نضوج الأثمار فانّها تمتلئ بسرعة نتيجة ما يتساقط من تلك الأثمار الناضجة. أليس من العجيب إذا أن يتحوّل سبب الخراب و الدمار إلى سبب رئيسى للعمران بذلك الشكل المدهش؟ ثمّ ألا يعدّ ذلك من عجائب آيات اللّه سبحانه و تعالى؟

و علاوة على كلّ ذلك- و كما سترد الإشارة إليه فى الآيات الآتية- فإنّ من آيات اللّه أيضا ذلك الأمن و الأمان غير العاديين اللذين شملا تلك الأرض.

ثمّ يضيف القرآن: كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۳

غَفُورٌ[۳۶۶][۳۶۷].

هذه الجملة القصيرة تصوّر مجموعة النعم المادية و المعنوية بأجمل تعابير، فبلحاظ النعم المادية أرض طيّبة خالية من الأمراض المختلفة، من السراق و الظلمة، من الآفات و البلايا، من الجفاف و القحط، من الخوف و الوحشة، و قيل خالية حتّى من الحشرات المؤذية.

هواء نقی، و نسیم یبعث علی السرور، أرض معطاءة و أشجار وافرة الثمر.

و أمّا بلحاظ النعم المعنویة فمغفرة اللّه التی شملتهم، و التغاضی عن تقصیرهم، و صرف البلاء و العذاب عنهم و عن بلدتهم.

و لکن هؤلاء الجاحدین غیر الشکورین. لم یقدّروا تلک النعمة حق قدرها. و لم یخرجوا من بوتقة الامتحان بسلام، سلکوا طریق الإعراض و الکفران، فقرّعهم اللّه أیّما تقریع!! قال تعالی: فَأَعْرَضُوا استهانوا بنعمة اللّه، توهّموا بأنّ العمران و المدنیة و الأمن أشیاء عادیة، نسوا اللّه، و أسکرتهم النعمة، و تفاخر الأغنیاء علی الفقراء، و ظنّوا أنّهم یزاحمونهم فی أرزاقهم- کما سیرد فی الآیات اللاحقة-.

و هنا مسّهم سوط الجزاء، یقول تعالی: فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ سَیْلَ الْعَرِمِ فدمّر بیوتهم و مزارعهم و حوّلها إلی خرائب ..

«العرم»: من «العرامة» و هی شراسة و صعوبة فی الخلق تظهر بالفعل، و وصف «السیل» بالعرم إشارة إلی شدّته و قابلیته علی التدمیر. و تعبیر «سیل العرم» من قبیل إضافة الموصوف إلی الصفة.

و قیل: «العرم» الجرذان الصحراویة، و هی التی سبّبت انهیار السدّ بنفوذها فیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۴

(قصّة نفوذ الجرذان الصحراویة فی السدّ، مع کونها ممکنة- کما سیرد شرحه فیما بعد- لکن تعبیر الآیة لیس فیه أدنی تناسب مع هذا المعنی).

فی «لسان العرب»، مادّة «عرم» وردت معان مختلفة من جملتها «السیل الذی لا یطاق» و منه قوله تعالی «الآیة»، و قیل: إضافة إلی المسنّاة أو السدّ، و قیل: إلی الفأر[۳۶۸].

و لکن أنسب التفاسیر هو الأوّل، و هو الذی اعتمده- أیضا- علی بن إبراهیم فی تفسیره.

بعدئذ یصف القرآن الکریم عاقبة هذه الأرض کما یلی: وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَیْهِمْ جَنَّتَیْنِ ذَواتَیْ أُکُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَیْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِیلٍ

«أکل»: بمعنی الطعام.

«خمط»: بمعنی النبات المرّ و هو «الأراک».

«أثل»: شجر معروف.

و بذا یکون قد نبت محلّ تلک الأشجار الخضراء المثمرة، أشجار صحراویة غلیظة لیست ذات قیمة، و التی قد یکون «السدر» أهمّها، و هذا أیضا کان نادرا بینها. و لک- أیّها القارئ- أن تتخیّل أی بلاء حلّ بهؤلاء و بأرضهم؟! و لعلّ ذکر هذه الأنواع الثلاثة من الأشجار التی بقیت فی تلک الأرض المدمّرة إشارة إلی ثلاثة امور: أحدها قبیح المنظر، و الثّانی لا نفع فیه، و الثالث له منفعة قلیلة جدّا.

یقول تعالی فی الآیة التالیة بصراحة و کتلخیص و استنتاج لهذه القصّة ذلِکَ جَزَیْناهُمْ بِما کَفَرُوا.

و یجب أن لا یتبادر إلی الذهن بأنّ هذا المصیر یخصّ هؤلاء القوم، بل إنّ من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۵

المسلّم أنّه یعمّ کلّ من کانت لهم أعمال شبیهة بأعمال هؤلاء. و هکذا تضیف الآیة وَ هَلْ نُجازِی إِلَّا الْکَفُورَ.

کان هذا مختصرا عن مصیر «قوم سبأ» الذی سنفصّله أکثر فی تفسیر الآیات اللاحقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۶

الآیتان [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۱۸ الی ۱۹]

اشارة

وَ جَعَلْنـا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنـا فِيها قُرىً ظـاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

التّفسير

فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ!!

تعود هذه الآيات إلى قصّة قوم سبأ مرّة اخرى، و تعطى شرحا و تفصيلا أكثر حولهم و حول العقاب الذى حلّ بهم. ليكون درسا بليغا و تربويا لكلّ سامع.

يقول تعالي: لقد عمّرنا أرضهم إلى حدّ أنّ النعمة لم تغطّها وحدها، بل وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً. فقد جعلنا بينهم و بين الأرض المباركة مدائن و قرى اخرى متّصلة بفواصل قليلة إلى درجة أنّ القرية ترى من القرية الثّانية.

بعض المفسّرين قالوا فى تفسير «قرى ظاهرة» بأنّها إشارة إلى القرى التى كانت تظهر للعيان من جادّة المسير بشكل واضح، و يستطيع المسافرون التوقّف فيها، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ۴٢٧

أنّها القرى التى كانت على مرتفعات من الأرض فكانت واضحة للعابرين.

أمّا ما هى «الأرض المباركة»؟ فقد أجمع أغلب المفسّرين على أنّها «أرض الشام» (سوريا و فلسطين و الأردن)، لأنّ هذا التعبير اطلق على نفس هذه المنطقة فى الآية الاولى من سورة الإسراء، و الآية (٨١) من سورة الأنبياء.

و لكن بعض المفسّرين احتمل أنّ المقصود منها هو «صنعاء» أو «مأرب» و كلتاهما كانتا فى اليمن، و لا يستبعد هذا التّفسير، لأنّ المسافة بين (اليمن) الواقعة فى أقصى جنوب الجزيرة العربية، و (الشام) الواقعة فى أقصى شمالها، شاسعة و مليئة بالصحارى اليابسة المقفرة ممّا يجعل تفسير الأرض المباركة هنا (بالشام) بعيدا جدّا، و لم ينقل فى التواريخ ما يشير إلى ذلك.

بعضهم احتمل أيضا أن يكون المقصود (بالأرض المباركة). (مكّة) و هو بعيد أيضا.

هذا من جهة العمران، و لكن العمران وحده لا يكفى، بل إنّ شرطه الأساسى هو «الأمان»، و لذلك تضيف الآية وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أى جعلنا بينها فواصل معتدلة. سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ

و بهذا فإنّ الفواصل و المسافات بين القرى كانت متناسقة محسوبة، و كذلك فإنّها طرق محفوظة من حملات الضوارى أو السرّاق أو قطّاع الطرق. بحيث أنّ الناس كانوا يسافرون خلال هذه الطرق. بلا زاد أو دواب و بلا استفادة من الحراس المسلّحين، و لم يكونوا يخافون من حوادث الطريق أو قلّة الماء و الزاد لديهم.

أمّا بأيّة وسيلة تمّ إبلاغ هذه الرسالة للناس سِيرُوا فِيها الآية، يرد أيضا الاحتمالان بأن يكون ذلك بواسطة أحد الأنبياء عليهم السّلام، أو أنّ ظاهر حال المنطقة كان يوصل هذا المعنى إلى وجدانهم.

تقديم «الليالى» على «الأيّام» قد يكون بلحاظ أنّ وجود الأمن فى الليل من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٣، ص: ۴٢٨

السرّاق او الوحوش اهمّ منه فى النهار الذى تسهل معه مهمّة الأمن.

و لكن هؤلاء جحدوا نعم اللّه العظيمة التى شملت كلّ مناحى حياتهم- كما هو الحال بالنسبة لغيرهم من الأقوام المتنعّمة- و لبسهم الغرور، و أحاطت بهم الغفلة و نشوة النعيم و عدم لياقتهم له، فأسلكتهم طريق الكفران و عدم الشكر، و انحرفوا عن الصراط و تركوا

أوامر اللّه خلف ظهورهم.

فمن جملة مطالبهم العجيبة من اللّه، فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا.

أى طلبوا أن يجعل اللّه المسافات بين قراهم طويلة، كى لا يستطيع الفقراء السفر جنبا إلى جنب مع الأغنياء، و مقصودهم هو أن تكون بين القرى- كما أسلفنا- فواصل صحراوية شاسعة، حتّى لا يستطيع الفقراء و متوسّطو الحال الإقدام على السفر بلا زاد أو ماء أو مركّب، و بذا يكون السفر أحد مفاخر الأغنياء و علامة على القدرة و الثروة، و وجوب أن يظهر هذا الامتياز و يثبت لدى الجميع.

أو أنّهم ملّوا من الراحة و الرفاه، كما ملّ بنو إسرائيل من (المنّ و السلوى) (الغذاء السماوى) و طلبوا من اللّه البصل و الثوم و العدس.

بعضهم احتمل أيضا أن يكون المقصود بعبارة باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا أنّهم أصبحوا كسالى إلى درجة لم يكونوا معها حاضرين للسفر لغرض رعى الحيوانات أو التجارة أو الزراعة، و لذا طلبوا من اللّه أن يبقيهم فى وطنهم دائما و يباعد بين السفرة و الاخرى. و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أفضل.

على كلّ حال فإنّهم بهذا العمل أوقعوا الظلم على أنفسهم وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

نعم، فإن كانوا يظنّون أنّهم إنّما يظلمون غيرهم فقد اشتبهوا، إذ أنّهم قد استلّوا خنجرا و مزّقوا به صدورهم، و دخّان النار التى أسعروها أعمى عيونهم.

و ياله من تعبير رائع، ذلك الذى أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم، حيث يقول: إنّنا جازيناهم و دمّرنا بلادهم و معيشتهم بحيث: فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ

نعم فلم يبق من تلك الحياة المرفّهة، و التمدّن العريض المشرق، إلّا أخبار على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۹

الألسن، و ذكريات فى الخواطر، و كلمات على صفحات التاريخ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ

كيف دمّرنا أرضهم بحيث سلبت منهم معها قدرة البقاء فيها، و بذا أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كلّ مجموعة إلى جهة لإدامة حياتهم، و نثروا كما تنثر أوراق الخريف التى عصفت بها الريح حتّى أضحى تفرّقهم مثلا يضرب فقيل:

«تفرّقوا أيادى سبأ»[۳۶۹].

و كما قال بعض المفسّرين، فقد ذهبت قبيلة (غسّان) إلى الشام، و (أسد) إلى عمان، و (خزاعة) إلى جهة تهامة، و (أنمار) إلى يثرب [۳۷۰].

و فى ختام الآية يقول تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، لأنّ الصابرين و الشاكرين وحدهم يستطيعون الإعتبار ممّا جرى، خصوصا مع ملاحظة أنّ كلّا من (صبّار) و (شكور) هى صيغة مبالغة. ذلك لكونهم بصبرهم و استقامتهم يتمكّنون من الإمساك بزمام مركب الهوى و الهوس الجموح، و يقفون بوجه المعاصى، و بشكرهم للّه تعالى فى طريق طاعته فإنّهم مرتبطون به و يبقظون، و عليه فإنّهم يأخذون العبرة بشكل جيّد، أمّا أولئك الذين ركبوا سفينة الهوى و تجاهلوا نعم اللّه عليهم فكيف يمكنهم أخذ العبرة ممّا جرى؟

بحوث

۱- المصير المذهل لقوم سبأ!!

يستفاد ممّا ورد فى القرآن الكريم و الروايات، و كذلك كتب التاريخ، بأنّ «قوم سبأ» كانوا يقطنون جنوب الجزيرة، و كانت لهم

حكومة راقية، و حضارة خلّابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۰

و رغم أنّ أرض (اليمن) كانت واسعة و صالحة للزراعة، إلّا أنّه من استغلالها لعدم وجود نهر مهمّ فى تلك المنطقة، كما أنّ مياه الأمطار- التى كانت تهطل بغزارة على قمم الجبال كانت تذهب هدرا فى هضاب و صحارى تلك المنطقة. و لكن أهل تلك المنطقة الأذكياء فكّروا فى كيفية الاستفادة من تلك المياه المهدورة، فبنوا لهذا الغرض عددا من السدود فى النقاط الحسّاسة كان أهمّها و أكثرها مخزونا «سدّ مأرب».

«مأرب» بلدة صغيرة تقع عند انتهاء إحدى ممرّات السيول تلك، و كانت تمرّ سيول جبال «صراة» العظيمة من جنبها، و فى فم هذا المضيق و بين جبلى «بلق» بنوا سدّا عظيما قويا، و أوجدوا فيه منافذ كثيرة للماء، و قد استطاع هذا السدّ خزن كميّات هائلة من الماء خلفه إلى درجة أنّهم استطاعوا- بالاستفادة من ذخيرته- إحداث جنّات جميلة جدّا، و بساتين مملوءة بالبركة على طرفى النهر الوارد ابتداء من مصبّ السدّ.

و كما ذكرنا سابقا فإنّ القرى المأهولة فى تلك الأرض كانت شبه متّصلة ببعضها، بحيث أنّ ظلال الأشجار كانت تتواصل مع بعضها البعض، و كانت الأشجار محمّلة بكميّات كبيرة من الثمار حتّى أنّ من يمرّ تحتها بسلّته الخالية يخرج بعد مدّة قصيرة بسلّة ممتلئة تلقائيا، و فور النعمة- ممزوجا بالأمان- هيّأ محيطا مرفّها لحياة طاهرة، محيطا نموذجيا لطاعة اللّه، و التكامل المعنوى، و لكنّهم لم يقدّروا النعمة حقّ قدرها، فنسوا اللّه، و جحدوا النعمة، و انشغلوا بالتفاخر و العناوين و المستوى الاجتماعى.

ورد فى بعض كتب التاريخ بأنّ الجرذان الصحراوية، بعيدا عن مرأى هؤلاء المغرورين السكارى، كانت تتّخذ لها جحورا فى ذلك السدّ الترابى، و تنخره من الداخل، و فجأة هطلت أمطار غزيرة و تجمّعت لتشكّل سيولا عظيمة، تراكمت خلف ذلك السدّ الذى لم يعدّ حينها مؤهّلا لتحمّل الضغط الشديد من تلك الكمّيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۱

الهائلة، و ما هى إلّا لحظة حتّى انهار هذا السدّ ليضع النهاية لتلك الحياة الزاهية، و دمّر القرى المعمورة، الجنان، المزارع، المحاصيل، قضى على الحيوانات، هدّم القصور و البيوت الجميلة الجذّابة، و تحوّلت تلك الأرض الحيّة إلى صحراء جافّة لا ماء فيها و لا كلأ، و لم يبق من تلك الجنان و الأشجار المثمرة إلّا شجر (الأراك) المرّ، و (شجر المنّ) و قليل من (السدر)، و هاجرت الطيور المغردة ليحلّ محلّها البوم و الغربان ...[۳۷۱].

نعم، حينما يريد اللّه سبحانه و تعالى إظهار قدرته، فإنّه يدمّر مدينة راقية بعدد من الفئران حتّى يتّضح للعباد مدى ضعفهم و لا يغترّوا بقدرتهم مهما بلغت.

۲- الإعجاز القرآنى التأريخى

أورد القرآن الكريم قصّة «قوم سبأ» فى الوقت الذى كان المؤرخّون لا يعلمون شيئا عن وجود هؤلاء القوم، و عن مثل تلك المدنيّة. و الملفت للنظر أنّ المؤرخّين قبل الاكتشافات الحديثة، لم يذكروا شيئا حول سلسلة ملوك سبأ و المدنية العظيمة لهم، و اعتقدوا فقط بأنّ (سبأ) هو شخص افتراضى، عرف كأب مؤسّس لدولة «حمير»، فى حين أنّ القرآن الكريم أفرد سورة كاملة باسم هؤلاء القوم و أشار إلى أحد مظاهر مدينتهم و هو بناؤهم (لسدّ مأرب) التأريخى.

و لكن بعد الكشوف عن الآثار التأريخية لهؤلاء القوم فى اليمن، تغيّرت أفكار علماء التأريخ. و السبب فى تأخّر الكشف عن الآثار التأريخية لهؤلاء القوم يعود إلى:

۱- صعوبة الطریق المؤدّیة إلی مناطق التنقیب و شدّة حرارة الجو هناک.

۲- تنفّر سکنة المنطقة حالیا من الأجانب، ممّا جعل الأوربیین غیر المطّلعین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۲

و غیر العارفین یطلقون صفة «التوحّش» علی هذه الأحاسیس الصادرة من أهل المنطقة، حتّی استطاع عدّة معدودة من علماء الآثار یدفعهم التعلّق الشدید بکشف الأسرار الأثریة النفوذ إلی قلب مدینة «مأرب» و ما حولها. و اکتشفوا مجموعة من الأحجار الحاویة للخطوط و النقوش الکثیرة، و بعد ذلک تعاقبت مجامیع المنقّبین فی القرن التاسع عشر المیلادی ناقلین معهم فی کلّ مرّة مجموعة من النقوش و الخطوط و الآثار، و بالاستفادة من تلک الآثار، التی ناهزت الألف أثر، أطلع العلماء علی جزئیات و خصوصیات حضارة هؤلاء القوم، و علی تأریخ بناء «سدّ مأرب» و خصوصیات اخری، و ثبت للغربیین بأنّ ما ذکره القرآن الکریم بهذا الخصوص لم یکن اسطورة، بل واقع تاریخی لم یکونوا قد اطّلعوا علیه، و بعد ذلک استطاعوا رسم مخطّط کامل لذلک السدّ العظیم و تشخیص منافذ عبور المیاه فیه، و الجداول الخاصّة بالبساتین و المزارع یمینا و شمالا و سائر خصوصیات المنطقة الاخری.

۳- لفتات هامّة للعبرة فی قصّة قصیرة

إنّ التعرّض لسرد قصّة قوم سبأ بعد قصّة سلیمان علیه السّلام له مفهوم خاصّ:

۱- إنّ داود و سلیمان علیهما السّلام کانا نبیّین عظیمین استطاعا تشکیل حکومة قویّة، و إیجاد حضارة مشرقة تلاشت بوفاتهم، و کذلک الحضارة الکبری التی أقامها قوم سبأ تلاشت بانهیار سدّ مأرب!! و الجدیر بالملاحظة أنّ الروایات تشیر إلی أن عصا سلیمان علیه السّلام أکلتها حشرة «الأرضة»، کما أنّ سدّ مأرب نخرته الجرذان الصحراویة، کی یعلم هذا الإنسان المغرور بأنّ النعم المادیة مهما کانت عظیمة و مصدرا للخیر، فإنّها أحیانا تتلاشی بواسطة حشرة أو حیوان ضعیف یقلب عالیها أسفلها. و بالنتیجة ینتبه المؤمنون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۳

و العارفون و لا یقعوا أسری فی شراک هذه النعم، و یفیق المغرورون من سکر غفلتهم و لا یسلکوا طریق الظلم و العدوان.

۲- نلاحظ هنا حضارتین عظیمتین، إحداهما رحمانیة، و الاخری شیطانیة المصیر، لکنّهما واجهتا الفناء و لم تخلدا.

۳- و ممّا یستحقّ الانتباه، هو أنّ المغرورین من قوم سبأ الذین لم یستطیعوا تحمّل وجود المستضعفین بینهم، و تمنّوا حاجزا منیعا بین الأقلیّة الأشراف و الأکثریة الفقراء یحول دون اختلاطهم، و دعوا اللّه أن یباعد بین قراهم حتّی یشقّ السفر علی الفقراء، و قد استجاب اللّه سبحانه و تعالی دعاءهم و فرّق جمعهم، و مزّقهم أیادی سبأ، حتّی أنّهم لو أرادوا الالتقاء لتطلّب منهم ذلک أن یصرفوا عمرا کاملا فی السفر.

۴- حینما یدقّق المتأمّل فی وضع تلک الأرض قبل هجوم «سیل العرم» و بعده، لا یمکنه أن یصدّق بسهولة أنّ هذه الأرض بعد السیل هی تلک الأرض الخضراء الملیئة بالأشجار المورقة المثمرة، و کیف أضحت الآن صحراء موحشة لیس فیها إلّا بضعة أشجار مبعثرة من الشجر المرّ و الأراک و قلیل من شجر السدر تتراءی من بعید کمسافرین أضاعوا طریقهم و تبعثروا هنا و هناک.

و هذا یجسّد بلسان الحال: أنّ «کیان الإنسان» کهذه الأرض، فإذا استطاع السیطرة علی قواه الخلّاقة و استخدمها بالشکل الصحیح، فإنّه ینبت بساتین ملیئة بالطراوة من العلم و العمل و الفضائل الأخلاقیة، و لکن إذا کسر سدّ التقوی، و انهالت الغرائز کالسیل المدمّر، و غطّت أرض حیاة الإنسان، فلن یبقی غیر الخراب، و أحیانا فإنّ أعمالا ظاهرها أنّها بسیطة تبدأ بالتأثیر تدریجیا علی الاسس، حتّی ینهار کلّ شیء، لذا یجب الخوف و الحذر حتّی من هذه الأمور الصغیرة التافهة ظاهرا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۴

۵- آخر ما نروم الإشارة إليه، هو أنّ ذلك المصير العجيب يثبت مرّة اخرى حقيقة أنّ (الموت) مخفى فى جوهر حياة الإنسان، و نفس الشىء الذى يكون سببا لحياة الإنسان و عمرانها يوما، يكون عامل موته و هلاكه فى يوم آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۵

الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۰ الى ۲۱]

اشارة

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۰) وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِى شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۲۱)

التّفسير

لا أحد مجبر على اتّباع الشّيطان:

هذه الآيات فى الحقيقة تمثّل نوعا من الاستنتاج العام من قصّة «قوم سبأ» التى مرّت فى الآيات السابقة، و رأينا كيف أنّهم باستسلامهم لهوى النفس و وسوسة الشيطان، أصبحوا معرضا لكلّ تلك الخيبة و سوء التوفيق.

يقول تعالى فى الآية الاولى من هذه الآيات: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

بتعبير آخر، فإنّ إبليس بعد امتناعه من السجود لآدم و طرده من محضر الكبرياء الإلهى، توقّع و قال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۳۷۲] و إنّ هذا التوقّع قد صحّ بالنسبة لهؤلاء القوم. فمع أنّه (لعنه اللّه) قد قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۶

حديثه هذا تخمينا و توقّعا، و لكن هذا التخمين أصبح واقعا فى النتيجة. و اتّبعه ضعفاء الإيمان و الإرادة و سقطوا فى فخاخه زرافات و وحدانا، إلّا مجموعة صغيرة من المؤمنين استطاعت تحطيم سلاسل الوساوس الشيطانية، و تفادت الوقوع فى مصيدته، جاءوا أحرارا و عاشوا أحرارا و رحلوا أحرارا، و مع أنّهم كانوا قلّة من حيث العدد، إلّا أنّ كلّ واحد منهم كان يعدل دنيا بأسرها من حيث القيمة المعنوية

«أولئك هم الأقلّون عددا و الأكثرون عند اللّه قدرا»[۳۷۳].

و تشير الآية التالية إلى مطلبين فيما يخصّ الوساوس الشيطانية، و الأشخاص الذين يقعون تحت سلطته، و الأشخاص الذين ليس له عليهم سلطان، فتقول الآية المباركة: وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ

إذن فنحن الذين نجيز له الدخول و نعطيه تأشيرة العبور من حدود دولة الفردية إلى داخل قلوبنا. و ذلك هو عين ما ينقله القرآن عن لسان الشيطان نفسه وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۳۷۴]، و لكن من الواضح أنّه بعد إجابة دعوته من قبل عديمى الإيمان، و عبيد الهوى، لا يهدأ له بال، بل يسعى إلى إحكام سلطته على وجودهم.

لذا فإنّ الآية تؤكّد أنّ الهدف من إطلاق يد إبليس فى وسوساته، إنّما هو لأجل معرفة المؤمنين من غيرهم ممّن هم فى شكّ: إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ۳۷۵].

بديهى أنّ اللّه تعالى مطّلع تماما على كلّ ما يقع فى هذا العالم منذ الأزل حتّى الأبد، و عليه فإنّ جملة «لنعلم» ليس مفهومها أنّ اللّه تعالى يقول: «بأنّنا لم نكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۷

نعلم بالمؤمنين بالآخرة من الذين هم فى شكّ منها، و يجب أن تكون هناك للشيطان وسوسة حتّى نعلم ذلك» كلّا، بل المقصود من هذه الجملة هو التحقّق العينى لعلم اللّه، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى لا يعاقب أحدا بناء على علمه بالبواطن، و الأعمال المستقبلية لذلك الشخص، بل يجب توفّر ميدان للامتحان، و من خلال وساوس الشياطين و هوى النفس يظهر الإنسان ما بداخله- بكامل الإرادة و الإختيار إلى الواقع الفعلى، و يتحقّق علم اللّه سبحانه و تعالى عينا، لأنّه لو لا تحقّق الأعمال بالفعل لا يحصل الاستحقاق للثواب و العقاب.

و بتعبير آخر: فإنّ الثواب و العقاب لا يقع على حسن الباطن أو سوئه، فلا بدّ لما هو موجود بالقوّة أن يتحقّق بالفعل.

ثمّ تختتم الآية بتنبيه للعباد وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ. حتّى لا يتصوّر أتباع الشيطان بأنّ أعمالهم و أقوالهم تتلاشى فى هذه الدنيا، أو أنّ اللّه ينسى، كلّا، بل إنّ اللّه يحتفظ بكلّ ذلك إلى يوم الجزاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۸

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۲ الى ۲۷]

اشارة

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (۲۲) وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۲۳) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۴) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۲۵) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (۲۶)

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷)

التّفسير

نبئونى لماذا؟

قلنا فى بداية السورة بأنّ هناك مجموعة من آياتها تتحدّث حول المبدأ و المعاد و الإعتقادات الحقّة، و من ربطها مع بعضها نحصل على حقائق جديدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۹

فى هذا المقطع من الآيات يجرّ القرآن المشركين فى الواقع إلى المحاكمة، و بالضربات الماحقة للأسئلة المنطقية، يحشرهم فى زاوية ضيّقة، ثمّ يبيّن تفسّخ منطقهم الواهى بخصوص شفاعة الأصنام.

فى هذه المجموعة من الآيات، خوطب الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله خمس مرّات، و قيل له: (قل) لهم ... و فى كلّ مرّة تعرض الآيات مطلبا جديدا يتعلّق بمصير الأصنام و عبّادها، بشكل يشعر معه بأن ليس هناك عقيدة أفرغ و لا أجوف من عبادة الأصنام، بل لا يمكن أساسا تسمية هذه العبادة (عقيدة) أو (مذهبا).

فى الآية الاولى يقول تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۳۷۶] و لكن اعلموا أنّ هذه الأصنام أو الشركاء لا يستجيبون لدعائكم أبدا، و لا يحلّون لكم مشكلة، ثمّ تنتقل الآية إلى عرض الدليل على هذا القول، فيقول تعالى:

لأنّهم لا یَمْلِکُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِیهِما مِنْ شِرْکٍ وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِیرٍ.

فلو کانوا یستطیعون شیئا لکان لهم أحد هذه الأوصاف الثلاثة: إمّا مالکیة مستقلّة لشیء فی السماء أو الأرض، أو علی الأقل مشارکة مع اللّه فی أمر الخلق، أو معاونة الخالق فی شیء من هذه الأمور.

فی حال أنّ الواضح هو أنّ «واجب الوجود» واحد لا ـ غیر، و الباقون جمیعهم «ممکن الوجود» مرتبطون به. و لو قطع اللّه تعالی نظر لطفه عنهم لحظة لأحلّهم دار البوار و العدم.

و اللطیف هو قوله تعالی: مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ فموجودات لا تملک فی هذه السماء اللامحدودة، و هذه الأرض المترامیة الأطراف ما یعادل مِثْقالَ ذَرَّةٍ، فأی مشکلة یمکنها حلّها لنفسها، ناهیک عن سواها!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۰

هنا یتبادر إلی الذهن فورا السؤال التالی: إذا کانت الأمر کذلک، فما ذا تکون قضیّة شفاعة الشفعاء؟

و للإجابة علی هذا التساؤل تقول الآیة التی بعدها: لو کان هناک شفعاء لدی اللّه تعالی فانّهم لا یشفعون إلّا بإذنه و أمره وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ

و علیه فإنّ العذر الذی یتعلّل به الوثنیون بقولهم: هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ۳۷۷]، ینتهی بهذا الجواب، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالی، لم یجز شفاعتها أبدا.

أمّا جملة إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ فهی إشارة إلی الشافعین أو إلی المشفوع لهم.

احتمل المفسّرون الاحتمالین، و إن کان یناسب ما ورد فی الآیة السابقة من الحدیث حول الأصنام و أولئک الذین توهّموا أنّها شفعاؤهم، أن تکون الإشارة إلی «الشافعین».

ثمّ هل أنّ المقصود من «الشفاعة» هنا شفاعة الدنیا، أم الآخرة؟ کلّا الاحتمالین واردان، و لکن الجملة التی تلی ذلک تدلّل علی أنّ المقصود هو شفاعة الآخرة.

لذا تقول العبارة بعدها بأنّه فی ذلک الیوم تهیمن الوحشة و الاضطراب علی القلوب، و یستولی القلق علی الشافعین و المشفوع لهم بانتظار أن یروا لمن یأمر اللّه بجواز الشفاعة؟ و علی من ستجوز تلک الشفاعة؟ و تستمر حالة القلق و الاضطراب، حتّی حین .. فیزول ذلک الفزع و الاضطراب عن القلوب بصدور الأمر الإلهی. حَتَّی إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ۳۷۸].

علی کلّ حال فذلک یوم الفزع، و عیون الذین یطمعون بالشفاعة تعلّقت بالشفعاء، ملتمسة منهم الشفاعة بلسان الحال أو بالقول. و لکن الشفعاء أیضا ینتظرون أمر اللّه، کیف؟ و لمن سیجیز الشفاعة؟ و یبقی ذلک الفزع و ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۱

الاضطراب عاما، إلی أن یصدر عن الحکیم المتعالی أمره بخصوص المتأهّلین للشفاعة.

هنا و حینما یتواجه الفریقان و یتساءلان، (أو أنّ المذنبین یسألون الشافعین) قالُوا: ما ذا قالَ رَبُّکُمْ فیجیبونهم: قالُوا: الْحَقَ و ما الحقّ إلّا جواز الشفاعة لمن لم یقطعوا ارتباطهم تماما مع اللّه، لا للذین قطعوا کلّ حلقات الارتباط، و أضحوا غرباء عن و رسوله و أحبّائه.

و تضیف الآیة فی الختام وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْکَبِیرُ و هذه العبارة متمّمة لما قاله «الشفعاء»، حیث یقولون: لأنّ اللّه علیّ و کبیر فأی أمر یصدره هو عین الحقّ، و کلّ حقّ ینطبق مع أوامره.

ما عرضناه هو أقرب تفسیر یتساوق و ینسجم مع تعابیر الآیة، و للمفسّرین بهذا الخصوص تفسیرات اخری، و العجیب أنّ بعضها لم یأخذ بنظر الإعتبار الترابط بین صدر الآیة و ذیلها و ما قبلها و ما بعدها.

فی الآیة التالیة یلج القرآن الکریم طریقا آخر لإبطال عقائد المشرکین، و یجعل مسألة «الرازقیة» عنوانا بعد طرحه لمسألة «الخالقیة» التی مرّت معنا فی الآیات السابقة. و هذا الدلیل- أیضا- یطرحه القرآن بصیغة السؤال و الجواب من أجل إیقاظ وجدان هؤلاء و

الفاتهم إلى اشتباههم من خلال تثوير الجواب فى ذواتهم.

يقول تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

بديهى أن لا- أحد منهم يستطيع القول بأنّ هذه الأصنام الحجرية و الخشبية هى التى تنزل المطر من السماء، أو تنبت النباتات فى الأرض، أو تسخّر المنابع الأرضية و السماوية لنا.

الجميل أنّه- بدون انتظار الجواب منهم- يردف تعالى قائلا: قُلِ اللَّهُ

قل اللّه الذى هو منبع كلّ هذه البركات، أى أنّ الأمر واضح إلى درجة لا يحتاج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۲

إلى جواب من طرف آخر، بل إنّ للسائل و المجيب رأيا واحدا، لأنّ المشركين يعتقدون بأنّ اللّه هو الخالق و الرازق، و الأصنام لها مقام الشفاعة فقط.

من الجدير بالملاحظة- أيضا- أنّ الأرزاق التى تصل إلى الناس من السماء ليست محصورة بالغيث، بل إنّ النور و الحرارة الصادرة عن الشمس، و الهواء الموجود فى جوّ الأرض، هى الاخرى لا تقلّ أهميّة عن قطرات المطر.

كما أنّ بركات الأرض كذلك، ليست محصورة فى النباتات، بل إنّ المنابع المائية تحت سطح الأرض، و المعادن المختلفة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت و التى عرفت بعد مرور الزمان تندرج تحت هذا العنوان أيضا.

آخر الآية تشير إلى موضوع يمكنه أن يكون أساسا لدليل واقعى و متوائم مع غاية الأدب و الإنصاف، بطريقة تستنزل الطرف المقابل من مركب الغرور و العناد الذى يمتطيه، و تدفعه إلى التفكّر و التأمّل، يقول تعالى: وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۳۷۹].

و هذا إشارة إلى: أنّ عقيدتنا و عقيدتكم متضادّتان، و عليه- بناء على استحالة الجمع بين النقيضين- فلا يمكن أن تكون الدعوتان على حقّ، لذا فمن المحتّم أن يكون أحد الفريقين أهل هدى، و الثّانى أسير الضلال.

و الآن عليكم أن تفكّروا فى أىّ الفئتين على هدى، و أيّهما على ضلال؟ ..

انظروا إلى علامات و خصائص كلّ منهما، و مدى تطابقها مع علامات الهدى و الضلال.

و هذا أحد أفضل أساليب المناظرة و البحث، بأن يضع الطرف الآخر فى حالة من التفكّر و التفاعل، و ما يتوهّمه البعض أنّ ذلك نوع من التقيّة فهو منتهى الاشتباه.

الملفت للنظر هو ذكر «على» من «الهدى» و «فى» مع «الضلال»، إشارة إلى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۳

المهتدين كأنّهم يركبون مركبا سريعا، أو يستعلون منارا عاليا و يتسلّطون على كلّ شىء، فى حال كون الضالّين مغمورين فى ظلمة جهلهم.

و من الجدير بالملاحظة كذلك هو أنّه تعالى تحدّث عن «الهدى» أوّلا ثمّ «الضلال»، و ذلك أنّه قال: «إنّا» فى بداية الجملة أوّلا، ثمّ قال «إيّاكم»، لتكون تلميحا إلى هدى الفريق الأوّل، و ضلالة الفريق الثانى.

و رغم أنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ وصف «المبين» يرتبط فقط (بالضلال)، بلحاظ أنّ الضلال أنواع و ضلال الشرك أوضحها. و لكن يحتمل أيضا أن يكون هذا الوصف للهدى و الضلال على حدّ سواء، لأنّ «الصفة» فى مثل هذه الموارد لا تتكرّر لتكون أكثر بلاغة، و عليه فيكون (الهدى) مبنيا و (الضلال) مبنيا، كما ورد فى كثير من آيات القرآن ۳۸۰].

و تستمرّ الآية التى بعدها بالاستدلال بشكل آخر- و لكن بنفس النمط المنصف الذى يستنزل الخصم من مركب العناد و الغرور. يقول تعالى: قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ

و العجيب هنا أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله مأمور باستعمال تعبير «جرم» فيما يخصّه، و تعبير «أعمال» فيما يخصّ الطرف الآخر، و

بذا تتّضح حقيقة أنّ كلّ شخص مسئول أن يعطى تفسيرا لأعماله و أفعاله، لأنّ نتائج أعمال أى إنسان تعود عليه، حسنها و قبيحها، و فى الضمن إشارة لطيفة إلى إنّنا إنّما نصرّ على إرشادكم و هدايتكم، لا لأنّ ذنوبكم تقيّد فى حسابنا، و لا لأنّ شرّكم يضرّ بنا، نحن نصرّ على ذلك بدافع الغيرة عليكم و طلبا للحقّ.

الآية التالية- فى الحقيقة- توضيح لنتيجة الآيتين السابقتين، فبعد أن نبّه إلى أنّ أحد الفريقين على الحقّ و الآخر على الباطل، و إلى أنّ كلّا منهما مسئول عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۴

أعماله، انتقل إلى توضيح كيفية التحقّق من وضع الجميع، و التفريق بين الحقّ و الباطل و مجازاة كلّ فريق طبق مسئوليته، فيقول تعالى، قل لهم بأنّ اللّه سوف يجمعنا فى يوم البعث، و يحكم بيننا بالحقّ، و يفصل بعضنا عن بعض، حتّى يعرف المهتدون من الضالّين، و يبلغ كلّ فريق بنتائج أعماله. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِ

و إذا كنتم اليوم ترون أنّكم مخلوطون بعضكم البعض، و كلّا يدّعى بأنّه على الحقّ و بأنّه من أهل النجاة، فإنّ هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد، و لا بدّ أن يأتى يوم التفريق بين الصفوف. فربوبية اللّه اقتضت فصل «الطيب» من «الخبيث» و «الخالص» من «المشوب» و «الحقّ» عن «الباطل» فى النهاية. و يستقرّ كلّ منهما فى مكانه اللائق.

فكّروا الآن ماذا ستعملون فى ذلك اليوم؟ و فى أى صفّ ستقفون؟ و هل أحضرتم إجابة لمساءلة اللّه فى ذلك اليوم؟.

و فى آخر الآية يضيف ليؤكّد حتمية ذلك التفريق فيقول: وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ

هذان الاسمان- و هما من أسماء اللّه الحسنى- أحدهما يشير إلى قدرة اللّه تعالى على عملية فصل الصفوف، و الآخر إلى علمه اللامتناهى. إذ أنّ عملية تفريق صفوف الحقّ عن الباطل لا يمكن تحقّقها بدون هاتين الصفتين. و استخدام كلمة «الربّ» فى الآية أعلاه إشارة إلى أنّ اللّه هو المالك و المربّى للجميع، و ذلك ممّا يقتضى أن يكون برنامج مثل ذلك اليوم معدّا، و فى الحقيقة هى إشارة لطيفة إلى إحدى دلائل «المعاد».

لفظة «فتح»، كما يشير الراغب فى مفرداته «الفتح إزالة الإغلاق و الإشكال، و ذلك ضربان: أحدهما يدرك بالبصر كفتح الباب و نحوه، و كفتح القفل، و الغلق و المتاع. و الثّانى: يدرك بالبصيرة كفتح الهم و هو إزالة الغمّ، و ذلك ضروب: أحدها: فى الأمور الدنيوية كغمّ يفرج و فقر يزال بإعطاء المال و نحوه، و الثانى: فتح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۵

المستغلق من العلوم، ... إلى أن يقول: و «فتح القضيّة فتاحا» فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها». و عليه فإنّ استخدام هذه المفردة هنا لأنّ الحكم و القضاء يتمّ أيضا هناك، فضلا عن الفصل و التفريق بينهما الذى هو أحد معانى كلمة «فتح»- و مجازاة كلّ بما يستحق.

الجدير بالملاحظة، هو أنّ بعض الرّوايات أشارت إلى ذكر «يا فتّاح» فى الأدعية لحلّ بعض المعضلات، لأنّ هذا الاسم الإلهى العظيم و هو بصيغة المبالغة من الفتح- يدلّل على قدرة اللّه على حلّ أى مشاكل و رفع أى حسرة و غمّ، و تهيئة أسباب أى فتح و نصر، و فى الواقع فإنّه هو وحده (الفتّاح)، و مفتاح كلّ الأبواب المغلقة فى يد قدرته تعالى.

فى الآية الأخيرة من هذه الآيات و التى هى عبارة عن الأمر الخامس للرسول صلّى اللّه عليه و آله يعود القرآن إلى الحديث مرّة اخرى فى مسألة التوحيد التى ابتدأ بها ليختمه بها، يقول تعالى: قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ.

فما هى قيمة هؤلاء و قابلياتهم؟ فإن كان مقصودكم حفنة الحجر و الخشب الجامدة الميتة. فإنّ ذلك لممّا يدعو إلى الخجل و يدلّل على سوء التوفيق أن تتوهّموا تشابه أحقر الموجودات- و هى الجمادات ممّا صنعت أيديكم- مع اللّه تعالى. و إن اعتقدتم بأنّها تمثّل الأرواح و الملائكة فالمصيبة أعظم، لأنّ هؤلاء أيضا مخلوقات له سبحانه و تعالى، و منفذة لأوامره.

لذا فبعد هذه الجملة مباشرة، و بكلمة واحدة يشطب على هذه الأباطيل فيقول:

كَلّا فهـذه الأشـياء لا تسـتحقّ أن تعبـد أبـدا و هـذه الأوهام و التصورات ليس لها شـىء من الواقعيـة، فإلى متى تسـلكون هـذه الطريقة الخاطئة.

و كلمة «كلّا» مع صغرها استبطنت كلّ هذه المعانى.

ثمّ لأجل تأكيد و تثبيت هذا المعنى يقول مختتما الحديث بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فعزّته و قدرته الخارقة، تقتضـى الدخول فى حريم ربوبيته، و حكمته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۶

تقتضى توجيه هذه القدرة فى محلّها.

نعم، فـإنّ امتلاـك هـذه الصـفات علامـة كونه واجب الوجود، و واجب الوجود وجود لاـ نهايـة له و لاـ حـدّ، و غير قابل للتعـدّد، و لا شريك له و لا شبيه، لأنّ أى تعدّد له يعنى حدّه و إمكانيته، بينما «الوجود اللامتناهى» دائما و أبدا و احد لا غير «تأمّل».

بحث

طريق تسخير القلوب:

كثيرا مـا يلاحـظ أفراد فضـلاء و على مسـتوى من العلم و المعرفـة، لاـ يمكنهم النفوذ فى أفكـار الآـخرين، لعـدم اطّلاعهم على الفنون الخاصّـ ة بالبحث و الاسـتدلال، و عـدم رعايتهم للجوانب النفسـية، على عكس البعض الآخر الـذين ليسوا على و فرة من العلم، إلّا أنّهم موفّقين من ناحية جذب القلوب و تسخيرها و النفوذ فى أفكار الآخرين.

و العلّـة الأساسـية لذلك هى أنّ طريقة البحث، و أسلوب التعامل مع الطرف المقابل يجب أن تكون مقرونة بأصول و قواعد تتّسق مع الخلق و الروح، فلاـ تسـتثار الجوانب السـلبية فى الطرف المقابـل، كى لاـ ينـدفع إلى العنـاد و الإصـرار، إذ أنّ مراعـاة الجانب النفسـى ستؤدّى إلى إيقاظ وجدانه و إثارة روح البحث عن الحقيقة و إحيائها فيه.

و المهمّ هنـا أن نعلم أنّ الإنسـان ليس فكرا و عقلاـ صـرفا كى يستسـلم أمام قـدرة الاسـتدلال، بل علاوة على ذلك فإنّ مجموعـة من العواطف و الأحاسيس التى تشكّل جانبا مهمّا من روحه مطوية فى وجوده، و التى يجب إشباعها بشكل صحيح و معقول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۷

و القرآن الكريم علّمنا كيفية مزج البحوث المنطقية بالأصول الأخلاقية فى المحاورة، حتّى تنفذ فى أرواح الآخرين.

شرط التأثير و النفوذ فى روح الطرف المقابل هو إحساس الطرف المقابل بأنّ المتحدّث يتحلّى بالصفات التالية:

۱- مؤمن بما يقول، و ما يقوله صادر من أعماقه.

۲- هدفه من البحث طلب الحقّ، و ليس التفوّق و التعالى.

۳- لا يقصد تحقير الطرف المقابل، و إعلاء شأن نفسه.

۴- ليس له مصلحة شخصية فيما يقول، بل إنّ ما يقوله نابع من الإخلاص.

۵- يكنّ الاحترام للطرف المقابل، لذا فهو يستخدم الأدب و الرقّة فى تعبيراته.

۶- لا يريد إثارة العناد لدى الطرف المقابل، و يكتفى من البحث فى موضوع بالمقدار الكافى، دون الإصـرار على إثبات أنّ الحقّ إلى جانبه. ليعرض حديثه.

۷- منصف، لا يفرط بالإنصاف أبدا، حتّى و إن لم يراع الطرف المقابل هذه الأصول.

۸- لا یقصد تحمیل الآخرین أفکاره، بل یرغب فی إیجاد الدافع لدی الآخرین حتّی یوصلهم إلی الحقیقة بمنتهی الحریة.

الدقّة المتناهیة فی هذه الآیات، و أسلوب تعامل الرّسول صلّی اللّه علیه و آله- بأمر اللّه- مع المخالفین، المقترن بکثیر من اللفتات الجمیلة، تعتبر دلیلا حیّا علی ما ذکرناه. فهو أحیانا یصل إلی حدّ لا یشیر بدقّة إلی المهتدی أو المضلّ فی أحد الفریقین، بل یقول: وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ حتّی یثیر فی الذهن التساؤل عن علامات الهدی أو الضلال فی أی الفریقین.

أو یقول: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِ

طبعا لا یمکن إنکار أنّ کلّ ذلک بالنسبة إلی الأشخاص المؤمّل اهتداؤهم، و إلّا فإنّ القرآن یتعامل مع الأعداء المعاندین و الظلمة القساة الذین لا یؤمّل منهم القبول بذلک بطریقة اخری. أسلوب محاورات الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و الأئمّة علیهم السّلام مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۸

مخالفیهم یمثّل نموذجا حیّا فی هذا المجال، و کمثال علی ذلک لاحظوا ما ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام بهذا الخصوص فی کتب الحدیث:

ففی أوائل کتاب توحید المفضّل نقرأ «روی محمّد بن سنان قال: حدّثنی المفضّل بن عمر قال: کنت ذات یوم بعد العصر جالسا فی الروضة الشریفة بین القبر و المنبر، و أنا مفکّر فیما خصّ اللّه تعالی به سیّدنا محمّدا صلّی اللّه علیه و آله، من الشرف و الفضائل، و ما منحه و أعطاه و شرّفه و حباه، ممّا لا یعرفه الجمهور من الامّة و ما جهلوه من فضله و عظیم منزلته، و خطیر مرتبته، فإنّی لکذلک إذ أقبل «ابن أبی العوجاء» «رجل ملحد معروف». إلی أن یذکر أحادیث هذا الرجل التی سمعها المفضّل ... إلی أن (قال المفضّل): فلم أملک نفسی غضبا و غیظا و حنقا، فقلت:

یا عدوّ اللّه ألحدت فی دین اللّه، و أنکرت الباری جلّ قدسه الذی خلقک فی أحسن تقویم و صوّرک فی أتمّ صورة، و نقلک فی أحوالک حتّی بلغ إلی حیث انتهیت. فلو تفکّرت فی نفسک و صدقک و لطیف حسّک، لوجدت دلائل الربوبیة و آثار الصنعة فیک قائمة، و شواهده جلّ و تقدّس فی خلقک واضحة، و براهینه لک لائحة، فقال:

یا هذا إن کنت من أهل الکلام کلّمناک فإن ثبتت لک حجّة تبعناک، و إن لم تکن منهم فلا کلام لک، و إن کنت من أصحاب جعفر بن محمّد الصادق فما هکذا تخاطبنا، و لا بمثل دلیلک تجادل فینا، و لقد سمع من کلامنا أکثر ممّا سمعت، فما أفحش فی خطابنا، و لا تعدّی فی جوابنا، و إنّه الحلیم الرزین، العاقل الرصین، لا یعتریه خرق و لا طیش و لا نزق، یسمع کلامنا، و یصغی إلینا و یتعرّف حجّتنا، حتّی إذا استفرغنا ما عندنا، و ظننا أنّا قطعناه، دحض حجّتنا بکلام یسیر، و خطاب قصیر یلزمنا به الحجّة، و یقطع العذر، و لا نستطیع لجوابه ردّا، فإن کنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه»[۳۸۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۹

الآیات [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۲۸ الی ۳۰]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۸) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۹) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ (۳۰)

التّفسیر

الدّعوة العالمیة:

الآية الاولى من هذه الآيات، تتحدّث فى نبوّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله، و الآيات التى تليها تتحدّث حول الميعاد، و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد، نصبح أمام مجموعة كاملة من بحوث العقائد، تتناسب مع كون السورة مكية.

أشارت الآيات ابتداء إلى شمولية دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و عمومية نبوّته لجميع البشر فقالت: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

«كافّة» من مادّة «كفّ» و تعنى الكفّ من يد الإنسان، و بما أنّ للإنسان يقبض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۰

على الأشياء بكفّه تارة و يدفعها عنه بكفّه تارة اخرى، فلذا تستخدم هذه الكلمة للقبض أحيانا، و للمنع اخرى.

و قد احتمل المفسّرون الاحتمالين هنا، الأوّل بمعنى «الجمع» و فى هذه الحالة يكون مفهوم الآية «إنّنا لم نرسلك إلّا لجميع الناس». أى عالمية دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله. و يقوّى هذا المعنى روايات عديدة وردت فى تفسير الآية من طرق الفريقين.

و عليه فمحتوى الآية شبيه بالآية (۱) سورة الفرقان تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً. و كذلك الآية (۱۹) من سورة الأنعام وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ

جاء فى حديث عن ابن عبّاس ينقله المفسّرون بمناسبة هذه الآية، أنّ عمومية دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله ذكرت كواحدة من مفاخره العظيمة.

فعنه صلّى اللّه عليه و آله يقول: «أعطيت خمسا و لا أقول فخرا، بعثت إلى الأحمر و الأسود، و جعلت لى الأرض طهورا و مسجدا، و أحلّ لى المغنم و لا يحلّ لأحد قبلى، و نصرت بالرعب فهو يسير أمامى مسيرة شهر، و أعطيت الشفاعة فادّخرتها لامّتى يوم القيامة»[۳۸۲].

و إن كان لم يرد فى الحديث أعلاه تصريح بتفسير الآية، فثمّة أحاديث اخرى بهذا الخصوص، إمّا أن تصرّح بأنّها فى تفسير الآية، أو يرد فيها تعبير «للناس كافّة» الذى ورد فى نفس الآية[۳۸۳]. و جميعها تدلّل على أنّ مقصود الآية أعلاه، هو عالمية دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله.

و ذكر للآية تفسير آخر مأخوذ من المعنى الثّانى لكلمة «كفّ» و هو (المنع)، و طبقا لهذا التّفسير تكون «كافّة» صفة للرسول صلّى اللّه عليه و آله ۳۸۴] و يكون المقصود أنّ اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۱

سبحانه و تعالى أرسل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله كمانع و رادع و كافّ للناس عن الكفر و المعصية و الذنوب، و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

على كلّ حال- كما أنّ لكلّ الناس غريزة جلب النفع و دفع الضرر- فقد كان للرسل أيضا مقام «البشارة» و «الإنذار». لكى يوظّفوا هاتين الغريزتين و يحرّكوهما، و لكن أكثر المغفّلين الجهّال- بدون الالتفات إلى مصيرهم- ينهضون للوقوف فى وجههم و يتنكّرون تلك المواهب الإلهية العظيمة.

و بناء على ما أشارت إليه الآيات السابقة من أنّ اللّه سبحانه و تعالى يجمع الناس و يحكم بينهم تورد هذه الآية سؤال منكرى المعاد كما يلى: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

لقد طرح هذا السؤال من قبل منكرى المعاد على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله أو الأنبياء الآخرين مرارا، حينا لفهم و إدراك هذا المطلب، و أغلب الأحيان للاستهزاء و السخرية من قبيل: أين هذه القيامة التى تؤكّدون على ذكرها مرارا و تكرارا، لو كانت حقّا فقولوا متى ستأتى؟ إشارة منهم إلى أنّ الإنسان الصادق فى إخباره يجب أن يعلم بجميع جزئيات الموضوع الذى يخبر عنه.

و لکن القرآن الکریم یمتنع دائما عن الإجابة الصریحة علی هذا السؤال و تعیین زمان وقوع البعث، و یؤکّد أنّ هذه الأمور هی من علم اللّه الخاصّ به سبحانه و تعالی، و لیس لأحد غیره الاطلاع علیها.

لذا فقد تکرّر فی الآیة التی بعدها، هذا المعنی بعبارة اخری، یقول تعالی: قُلْ لَکُمْ مِیعادُ یَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ

إنّ إخفاء تأریخ قیام الساعة- حتّی علی شخص الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله- کما أسلفنا- لأنّ اللّه سبحانه و تعالی أراد لعباده نوعا من حریة العمل مقترنة بحالة من التهیّؤ الدائم، لأنّه لو کان تأریخ قیام القیامة معلوما فإنّ الجمیع سیغطّون فی الغفلة و الغرور و الجهل حینما یکون بعیدا عنهم، أمّا حین اقترابه منهم فستکون أعمالهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۲

ذات جنبة اضطراریة، و فی کلتا الحالتین تتحجّم الأهداف التربویة للإنسان، لذا بقی تأریخ القیامة مکتوما، کما هو الحال بالنسبة إلی «لیلة القدر» تلک اللیلة التی هی خیر من ألف شهر، أو تاریخ قیام المهدی علیه السّلام، و عبّر عن ذلک المعنی بلطف ما ورد فی الآیة (۱۵) من سورة طه إِنَّ السَّاعَةَ آتِیَةٌ أَکادُ أُخْفِیها لِتُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعی

أمّا أولئک الذین یتصوّرون أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله یجب أن یکون علی علم بالتأریخ الدقیق لیوم القیامة لأنّه یخبر عنها، فإنّ ذلک غایة الاشتباه، و دلیل علی عدم معرفتهم بوظیفة النبوّة، فالنّبی مکلّف بالإبلاغ و البشارة و الإنذار، أمّا مسألة القیامة فمرتبطة باللّه سبحانه و تعالی، و هو وحده الذی یعلم تمام تفاصیلها، و ما یراه اللّه لازما لأغراض تربویة، أطلع علیه الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله.

هنا یثار سؤال، و هو أنّ القرآن الکریم فی مقام تهدید المخالفین یقول: لا تَسْتَأْخِرُونَ و لکن لماذا یقول أیضا: لا تَسْتَقْدِمُونَ فما هو تأثیر ذلک فی هدف القرآن.

للإجابة یجب الالتفات إلی نکتتین:

الاولی: أن ذکر ذینک الإثنین معا إشارة إلی قطعیة و دقّة تأریخ أی أمر، تماما کما تقول: «فلان قطعی الموعد، و لیس لدیه تقدیم أو تأخیر».

الثّانیة: أنّ جمعا من الکفّار المعاندین یلحّون علی الأنبیاء دائما، بقولهم: لماذا لا تأتی القیامة؟ و بتعبیر آخر، کانوا یستعجلون ذلک الأمر سواء کان ذلک من قبیل الاستهزاء أو غیر ذلک. و القرآن یقول لهم: «لا تستعجلوا فإنّ تأریخ ذلک الیوم هو عینه الذی قرّره اللّه سبحانه و تعالی».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۳

الآیات [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۳۱ الی ۳۳]

اشارة

وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَ لَوْ تَری إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ یَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ الْقَوْلَ یَقُولُ الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَکُنَّا مُؤْمِنِینَ (۳۱) قالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا لِلَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناکُمْ عَنِ الْهُدی بَعْدَ إِذْ جاءَکُمْ بَلْ کُنْتُمْ مُجْرِمِینَ (۳۲) وَ قالَ الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا بَلْ مَکْرُ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَکْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِی أَعْناقِ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ یُجْزَوْنَ إِلاَّ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۳۳)

التّفسیر

لمناسبة البحث الوارد فى الآيات السابقة، حول مواقف المشركين إزاء مسألة المعاد، تعرّج هذه الآيات إلى تصوير بعض فصول المعاد المؤلمة لهؤلاء المشركين كى يقفوا على خاتمة أعمالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۴

أوّلا، يقول تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ أى و لا بالكتب السماوية السابقة.

كلمة «لن» للنفى الأبدى، و عليه فهم يريدون القول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: انّك حتّى لو بقيت تدعونا للإيمان إلى الأبد فلن نؤمن لك، و هذا دليل على عنادهم، بحيث أنّهم صمّموا على موقفهم إلى الأبد، فى حين أنّ من يطلب الحقّ و يسعى له، إذا لم يقتنع بدليل ما لا يمكنه أن ينكر جميع الأدلّة الممكن ظهورها مستقبلا قبل أن يسمعها، فيقول: إنّى أردّ جميع الأدلّة الأخرى أيضا.

أمّا من المقصود ب «الذين كفروا»؟ فقد أشار جمع من المفسّرين إلى أنّهم «المشركون»، و بعضهم أشار إلى أنّهم «اليهود و أهل الكتاب»، و لكن القرائن الواردة فى الآيات اللاحقة، و التى تتحدّث عن الشرك، تدلّل على أنّ المقصود هم المشركون.

و المقصود من «الذى بين يديه» هو تلك الكتب السماوية التى نزلت قبل القرآن على أنبياء سابقين، و قد ورد هذا التعبير فى كثير من آيات القرآن مشيرا إلى هذا المعنى- خصوصا بعد ذكر القرآن- و ما احتمله البعض من أنّ المقصود منه هو «المعاد» أو «محتوى القرآن» فيبدو بعيدا جدّا.

على كلّ حال فإنّ إنكار الإيمان بكتب الأنبياء السابقين، يحتمل أن يكون المقصود به. نفى نبوّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله من خلال نفى الكتب السماوية الاخرى، باعتبار أنّ القرآن أكّد على موضوع ورود دلائل على نبوّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله فى التوراة و الإنجيل، و لهذا يقولون: نحن لا نؤمن لا بهذا الكتاب و لا بالكتب التى سبقته.

ثمّ تنتقل إلى الحديث حول وضع هؤلاء فى القيامة من خلال مخاطبة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله فيقول تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۵

إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ ۳۸۵].

و مرّة اخرى يستفاد من الآية أعلاه أنّ من أهمّ مصاديق «الظلم» هو «الشرك و الكفر».

التعبير «عند ربّهم» إشارة إلى أنّهم حاضرون بين يدى مالكهم و ربّهم، و ما أكثر و أشدّ خجلا من أن يكون الإنسان حاضرا بين يدى من كفر به، فى حين أنّ كلّ وجوده غارق بنعمه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۴۵۵

حين أنّ «المستضعفين» الذين اتّبعوا بجهلهم «المستكبرين» و هم الذين سلكوا طريق الغرور و التسلّط على الآخرين و رسموا لهم منهجهم الشيطانى، هناك: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ

إنّهم يريدون بذلك إلقاء مسئولية ذنوبهم على عاتق هؤلاء «المستكبرين»، مع أنّهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعية فى دار الدنيا، لأنّ الضعف و الخور و الذلّة كانت حاكمة على وجودهم، و قد فقدوا حريتهم، أمّا هناك و بعد أن تبعثرت تلك المفاهيم الطبقية التى كانت سائدة فى دار الدنيا، و انكشفت نتائج أعمال الجميع، فهم يقفون وجها لوجه مقابل هؤلاء و يتحدّثون بصراحة و يتلاومون معهم.

لكن «المستكبرين» لا يبقون على صمتهم بل قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ كلّا، فلسنا بمسؤولين، فمع امتلاككم حرية الإرادة، استسلمتم لأحاديثنا الباطلة، و كفرتم و ألحدتم متناسين أحاديث الأنبياء المنطقية، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ

صحيح أنّ المستكبرين ارتكبوا ذنبا كبيرا بوسوستهم، و لكن حديثهم الذى تذكره الآية الكريمة له حقيقة أيضا، حيث أنّ المتملّقين لم يكن عليهم أن يصمّوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۶

أسماعهم و أبصارهم و يلهثوا وراءهم، و إنّما عليهم أيضا مسئولية ذنوبهم.

و لكن المستضعفين لا يقتنعون بهذا الجواب، و يعاودون القول مرّة اخرى لإثبات جرم المستكبرين: وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا، بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً.

نعم، فأنتم الذين لم تكفوا عن بثّ السموم، و لم تفرطوا بأى فرصة من الليل أو النهار من أجل تحقيق أهدافكم المشؤومة، فصحيح أنّنا كنّا أحرارا فى القبول بذلك، و بذا نكون مقصّرين و جناة، و لكن باعتباركم عامل الفساد فأنتم مسئولون و مجرمون، بل إنّكم واضعو حجر الأساس لذلك، خاصّة و أنّكم كنتم تتحدّثون معنا دائما من موقع القدرة و السلطة، (التعبير ب «تأمروننا» شاهد على هذا المعنى).

بديهى أنّ المستكبرين لا يملكون جوابا لهذا القول، و لا يمكنهم إنكار جرمهم الكبير ذاك، لذا فإنّ الفريقين يندمون على ما قدّمت أيديهم، المستكبرون على إضلالهم للآخرين، و المستضعفون على إيمانهم و قبولهم بتلك الأباطيل المشؤومة، و لكن لكى لا يفتضحوا أكثر فانّهم يكتمون الندم حينما يواجهون العذاب الإلهى ..

وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

فمع أنّ الكتمان لا ينفع فى «يوم البروز» هناك، و مع عدم إمكانية إخفاء شىء، إلّا أنّهم- جريا على ما تعوّدوه فى الدنيا من قبل- يتوهّمون أنّ فى استطاعتهم كتمان حالتهم، فيلجئون إلى ذلك.

نعم، فهم فى الدنيا حينما يلتفتون إلى اشتباههم و يندمون لم يكونوا يمتلكون الشجاعة لإظهار ندمهم الذى هو أوّل طريق التوبة و إعادة النظر، و تلك هى الخصلة الأخلاقية الخاصّة بهم و التى يمارسونها فى الآخرة أيضا. و لكن ما الفائدة؟

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون ذلك الكتمان للندامة بسبب الرهبة الشديدة من مشاهدة العذاب الإلهى، و انحباس أنفاسهم فى صدورهم و انعقاد ألسنتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۷

نتيجة الأغلال التى غلّت بها رقابهم و السلاسل التى لفّتهم. مع أنّهم يطلقون صرخاتهم فى مواقف اخرى من القيامة يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ ۳۸۶].

و قال آخرون: إن «أسرّوا» بمعنى «أظهروا» بناء على أنّ هذه اللفظة تستعمل لمعنيين متضادّين فى اللغة العربية، و لكن من ملاحظة الموارد التى استعملت فيها هذه اللفظة فى القرآن و غير القرآن، يبدو هذا المعنى مستبعدا، بلحاظ أنّ «سرّ» عادة تستخدم للإشارة إلى ما يقابل «العلن». و قد ضعّف الراغب هذا المعنى أيضا مع أنّ بعض علماء اللغة أشار إلى كلا المعنيين ۳۸۷].

و على كلّ حال، فإنّ هؤلاء قد وجدوا نتائج أعمالهم هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ

نعم، فأعمال و جنايات الكفّار و المجرمين هى التى أضحت قيودا و سلاسل تلفّ أعناقهم و أيديهم و أرجلهم، لقد كانوا فى هذه الدنيا أسارى هوى النفس و الطمع و الظلم و الرغبة فى المقام، و فى يوم القيامة حيث تتجسّد الأعمال، يظهر ذلك الأسر بشكل آخر ... إذن، فالآية تشير أيضا إلى قضيّة تجسّم الأعمال التى أشرنا إليها مرارا. لأنّها تقول: هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ و أى تعبير أكثر وضوحا و حيوية من ذلك التعبير عن تجسّم الأعمال.

التعبير ب «الذين كفروا» يشير إلى أنّ فريقى الغاوين و المغويين المستضعفين و كلّ الكفّار يلقون ذلك المصير، و عادة فإنّ ذكر ذلك الوصف هو إشارة إلى أنّ علّة عقابهم إنّما هى «كفرهم».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۸

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۴ الى ۳۸]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۳۴) وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۳۵) قُلْ إِنَّ رَبِّی يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِی تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِی الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِی آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (۳۸)

التّفسير

الأموال و الأولاد ليست دليلا على القرب من الله ..

بعد أن كان الحديث فی الآيات السابقة فی الغاوين من المستكبرين، فإنّ جانبا آخر من هذا المبحث تعكسه الآيات أعلاه بطريقة اخرى، و تقدّم المواساة أيضا للرسول صلّى اللّه عليه و آله ضمن إشارتها بأن لا تعجب إذا خالفك المخالفون، فإنّ المستكبرين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۹

المرفّهين طبعوا على مخالفة أنبياء الحقّ، فتقول الآية المباركة: وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ

«نذير» من «الإنذار» و هو الإخبار الذی فيه تخويف، و إشارة إلى أنبياء اللّه الذين ينذرون الناس من عذاب اللّه فی قبال الانحرافات و الظلامات و الذنوب و الفساد.

«مترفوها» جمع «مترف» من مادّة «ترف» بمعنى «التوسّع فی النعمة» و (المترف) الذی قد أبطرته النعمة و سعة العيش. و أترفته النعمة أی أطغته ۳۸۸].

نعم، فإنّ هذه الفئة المترفة الغافلة الطاغية كانت الصف المتقدّم من مخالفی الأنبياء عادة، لأنّهم يرون أنّ تعليمات الأنبياء تتضارب مع أمانيهم و أهوائهم من جهة، و لأنّ الأنبياء يدافعون عن حقوق المحرومين التی اغتصبها هؤلاء المترفين و نالوا هذا النعيم، من جهة ثانية، و لأنّهم دائما يستخدمون عامل التسلّط لحماية مصالحهم و أموالهم من جهة ثالثة، و الأنبياء يقفون قبالهم فی كلّ هذه الحالات، لذا فإنّهم يهبّون فورا لمخالفة الأنبياء.

العجيب أنّهم لا يشيرون إلى حكم أو فقرة خاصّة ليخالفوها، بل إنّهم فورا و مرّة واحدة يقولون (نحن كافرون بكلّ ما بعثتم به) و لن نخطوا معكم خطوة واحدة، و هذا بعينه أحسن دليل على عنادهم و تعصّبهم إزاء الحقّ.

و قد كشف القرآن فی آيات مختلفة عن مسألة مهمّة، و هو أنّ المحرومين هم أوّل من يلبّی دعوة الأنبياء، و المتنعّمين المغرورين أيضا هم أوّل مجموعة ترفع لواء المخالفة.

و رغم أنّ منكری دعوة الأنبياء لا ينحصرون فی هذه المجموعة فقط، و لكنّهم غالبا عامل الفساد الأوّل و الدعاة إلى الشرك و الخرافات، و يسعون دوما إلى إكراه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۰

الآخرين لسلوك طريقهم. و ردّ هذا المعنى أيضا فی الآيات ۲۳- الزخرف، و ۱۱۶- هود، و ۳۳- المؤمنون.

هـذه المجموعـة لم تقف فقط فی وجه الأنبياء فحسب، بل قبال أيّة خطوة إصـلاحية من قبل أى عالم أو مصـلح أو مفكّر مجاهد، فقد كانوا السبّاقين للمخالفة، و لا يتورّعون فى ارتكاب أيّة جريمة و تآمر ضدّ هؤلاء المصلحين.

تشير الآيـة التاليـة إلى المنطق الأجوف الـذى يتمسّك به هؤلاء لإثبات أفضـليتهم و لاسـتغفال العوام فتقول: وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً.

إنّ اللّه يحبّنا، فقـد أعطانا المال الوفير، و القوّة البشـرية، و ذلك دليل على لطفه بحقّنا و إشارة إلى مقامنا و موقعنا عنـده، و لـذلك لن نعاقب أبدا وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فلو كنّا مطرودين من رحمته فلم سخّر لنا كلّ هذه النعم؟ الخلاصة، إنّ وفرة النعيم فى دنيانا دليل واضح على كونه كـذلك آخرتنا!! بعض المفسّـرين احتملوا أن يكون قولهم: وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ دليلا على إنكارهم الكلّى للقيامة و العذاب. و لكن الآيات اللاحقة تدلّل على عدم قصد هذا المعنى، بل المراد هو (القرب من اللّه بسبب الثروة التى يملكونها).

الآية التى بعدها تردّ بأرقى أسلوب على هذا المنطق الأجوف الخدّاع و تنسفه من الأساس، و بطريق مخاطبة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله تقول الآيـة الكريمـة: قل لهم: إنّ ربّى يرزق من يشاء و يقـدر لمن يشاء، و ذلك أيضا طبق مصالـح مرتبطة بامتحان الخلق و بنظام حياة الإنسان، و ليس له أى ربط بقدر و مقام الإنسان عند اللّه سبحانه و تعالى: قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ.

و عليه فلا يجب اعتبار سعة الرزق دليلا على السعادة، و قلّته على الشقاء.

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ طبعا أكثر الجهّال المغفّلين هم كذلك، و إلّا فإنّ هذا الأمر واضح للعارف.

ثمّ تتابع الآيات هذا المعنى بصراحة أكثر. تقول: وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۱

بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى ۳۸۹] لقـد عمّ هـذا الاشـتباه الخطير بعضـا من البسـطاء، و تصوّروا بـأنّهم مـا داموا محرومين فى الـدنيا فهم مغضوب عليهم و مطرودون من رحمة اللّه، و هؤلاء المرفّهون هم المحبوبون المقبولون لديه.

ما أكثر المحرومين الذين امتحنوا بالحرمان، فنالوا أرقى الدرجات و المراتب الروحية.

و ما أكثر المرفّهين الذين أصبحت أموالهم و ثرواتهم وبالا عليهم و مقدّمة لعقابهم.

أليس قد ذكرت الآية (۱۵) من سورة التغابن بصراحة إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

و لكن ليس معنى هـذا هو حثّ الإنسـان على ترك السـعى و الـدأب اللازم لإقامـة الأود، بـل المقصود هو التأكيـد على أنّ امتلاك الإمكانات الاقتصادية و القوّة البشرية الواسعة لا يمثّل أبدا أيّة قيمة معنوية للإنسان عند اللّه.

ثمّ تتنـاول الآيـة موضوع المعيار الأصـلى لتقييم الناس، و ما يسبّب قربهم منه (على شـكل اسـتثناء منفصل) فتقول: إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِى الْغُرُفاتِ آمِنُونَ ۳۹۰].

و عليه فجميع المعايير تعود أصـلا إلى هذين الأمرين «الإيمان» و «العمل الصالح». و يسـتوعب هذا المعيار جميع الأفراد و فى أى زمان أو مكان، و من أى طبقة أو مجموعة كان. و اختلاف مراتب البشـر أمام اللّه إنّما هو بتفاوت درجات إيمانهم و مراتب عملهم الصالح، و لا شىء سوى ذلك. حتّى طلب العلم أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۲

الانتساب إلى أفراد عظماء، بل حتّى للأنبياء، إذا لم يكن مقترنا بهذين الأمرين فإنّه وحده لا يضيف إلى قيمة الإنسان شيئا.

هنـا يشـطب القرآن و بصـراحة قـلّ نظيرهـا على كلّ الظنون المنحرفـة و الخرافات بخصوص عوامل القرب من اللّه، و ما يرفع من قيمة الإنسان، و يخلص إلى أنّ المعيار الأصـيل هو فى شـيئين فقط، يسـتطيع كلّ الناس تحصيلها، و أنّ الإمكانات و المحروميات المادية لا أثر لها فى ذلك.

أجـل، فـإنّ الأـموال و الأولاـد أيضا إذا وجّهت بهـذا المسـير، صـبغت بتلك الصـبغة الإلهيّـة و تقبّلت لون الإيمان و العمل الصالـح، و

أصبحت سببا فی القرب من اللّه. أمّا الأموال و الأولاد التی تبعد الإنسان عن اللّه، و تکون له صنما یعبد من دون اللّه و سببا للفساد و الإفساد، فهی جواذب جهنّم، و کما قال القرآن الکریم: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِکُمْ وَ أَوْلادِکُمْ عَدُوًّا لَکُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [۳۹۱] کلمة «ضعف» لیست بمعنی «مضاعفة الشیء مرتین» فقط، بل بمعنی «أضعاف مضاعفة لأکثر من مرتین». و قد وردت فی هذه الآیة بهذا المعنی. لأنّنا نعلم أنّ أی عمل حسن یحسب عند اللّه بعشرة أمثاله علی الأقل مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.[۳۹۲] و أحیانا أکثر من ذلک بکثیر.

«غرفات» جمع «غرفة» بمعنی الحجرات العلویة من البناء، و التی غالبا ما تکون إضاءتها أکثر و هواؤها أفضل. و بعیدة عن الآفات، لذا عبّر القرآن عن أفضل منازل الجنّة (بالغرف). و هذه اللفظة من مادّة «غرف»، علی زنة (بحر) بمعنی رفع الشیء و تناوله.

التعبیر ب «آمنون» فیما یخصّ أهل الجنّة، تعبیر جامع یعکس حالة الطمأنینة الروحیة و الجسدیة لهم من کافّة النواحی، فلا خوف من هجوم عدوّ، أو مرض، أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۳

آفة أو ألم، و لا خوف حتّی من الخوف!، و لیس أغلی من هذه النعمة بأن یکون الإنسان آمنا من کلّ جانب، فلا بلاء أشدّ من الإحساس بعدم الأمن فی مختلف جوانب الحیاة.

الآیة التالیة تصف الفریق المقابل لهؤلاء، فتقول: أمّا هؤلاء الذین یسعون و یجتهدون لتسفیه آیاتنا، لا یؤمنون و لا یترکون غیرهم یسیرون فی طریق الإیمان، و یتوهّمون أنّهم یستطیعون الفرار من ید قدرتنا، هؤلاء یحضرون فی عذاب ألیم یوم القیامة وَ الَّذِینَ یَسْعَوْنَ فِی آیاتِنا مُعاجِزِینَ أُولئِکَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ

هؤلاء هم الذین اعتمدوا علی أموالهم و أولادهم و کثرة عددهم لتکذیب الأنبیاء، و عملوا علی إغواء عباد اللّه، حتّی بلغ غرورهم درجة أن توهّموا أنّهم یفلتون من قبضة العذاب الإلهی، و لکن هیهات فانّ مصیرهم فی قلب جهنّم.

و بما أنّ جملة أُولئِکَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ لیس فیها ما یدلّل علی الزمان الآتی- فقد تکون إشارة إلی کون هؤلاء مأسورین بالعذاب حتّی فی الوقت الحاضر، و أی عذاب أشدّ من هذا السجن الذی صنعوه لأنفسهم من أموالهم و أولادهم.

کذلک یحتمل أن یکون التعبیر للتدلیل علی أنّ وعد اللّه مسلّم به إلی درجة یمکن القول بأنّهم حالیا فیه، کما هو الحال بالنسبة إلی قوله: وَ هُمْ فِی الْغُرُفاتِ آمِنُونَ

«معاجزین»: کما ذهب بعض أرباب اللغة إلی أنّ معناه أنّ هؤلاء تصوّروا أنّهم یستطیعون الفرار من دائرة قدرة اللّه تعالی و جزائه و عقابه، إلّا أنّ هذا التوهّم باطل و سراب خادع ۳۹۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۴

بحث

معاییر التقییم:

من القضایا المهمّة فی حیاة الأفراد و المجتمعات هی قضیّة «معاییر التقییم» و «نظام القیم» الذی یتحکّم بثقافة ذلک المجتمع. لأنّ کلّ الحرکات الصادرة عن الأفراد و الجماعات فی حیاتهم إنّما تنبع من هذا النظام و تهدف إلی خلق تلک القیم.

و اشتباه قوم من الأقوام و امّة من الأمم فی هذه القضیّة و التعامل بقیم خیالیة لا أساس لها قد یؤدّی إلی طبع تأریخهم بطابع الغرور. و إدراک القیم الواقعیة و المعاییر الحقیقیة یشکّل أساسا متینا لبناء سعادتهم.

عبید الدنیا المغرورون یتصوّرون بأنّ القیم تنحصر فقط فی المال و القدرة المادیة و التعداد البشری، و حتّی القیمة أمام اللّه ینظرون إلیها من داخل هذا الإطار، کما لاحظنا نموذجا من ذلک فی الآیات السابقة، و هناک نماذج کثیرة من هذا القبیل تلاحظ فی القرآن الکریم، منها:

۱- فرعون، الطاغیة المتجبّر، الذی کان یقول لمن حوله بأنّه لا یصدق أنّ موسی علیه السّلام رسول من اللّه، فإن کان حقّا ما یقول فلم لم یعطه اللّه سوارا من الذهب فَلَوْ لا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ [۳۹۴] و حتّی انّه یری عدمها دلیل هی المهانة و الدونیة، فیقول: أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هـذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ [۳۹۵] ۲- مشرکو عصر الرسالة المحمّدیة، تعجّبوا من نزول القرآن علی رجل فقیر کرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و قالوا: لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلی رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ [۳۹۶]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۵

۳- بنو إسرائیل اعترضوا علی نبی زمانهم «أشموئیل» فی قضیّة انتخاب «طالوت» کقائد للجیش و قالوا: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْکِ مِنْهُ وَ لَمْ یُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ [۳۹۷] ۴- مشرکو زمان نوح علیه السّلام الأثریاء اعترضوا علیه بأن اتّبعه أراذلهم، و هم الفقراء فی نظرهم قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَکَ وَ اتَّبَعَکَ الْأَرْذَلُونَ ۳۹۸] ۵- أثریاء مکّة أوردوا نفس هذا الاعتراض علی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله بقولهم:

لقد أحاط بک الحفاة، و نحن نشمئزّ حتّی من رائحتهم، فلا نتبعک إلّا بابتعادهم عنک. و قد حقّرهم القرآن الکریم فی سورة الکهف بشدّة، و هدّدهم، و أمر الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله بأن یکون مع الذین عشقوا اللّه، و یدعونه صباحا و مساء و إن کانوا فقراء وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَیْناکَ عَنْهُمْ [۳۹۹] لهذه الأسباب، کان أوّل عمل إصلاحی یقوم به الأنبیاء هو تحطیم اطر التقییم الکاذبة تلک، و استبدالها بالقیم الإلهیة الأصیلة و القیام ب «ثورة ثقافیة» أبدلوا أساس الشخصیة و محورها من الأموال و الأولاد و الثروة و الجاه و الشهرة القبلیة و العائلة إلی التقوی و الإیمان و العمل الصالح.

و قد مرّ نموذج لذلک فی الآیات السابقة، فبعد شجب الأموال و الأولاد کوسیلة للتقرّب من اللّه تعالی، و الآیة وَ ما أَمْوالُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ بِالَّتِی تُقَرِّبُکُمْ عِنْدَنا زُلْفی أعطت بعدها مباشرة القیم الأصیلة کبدیل بالقول: إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً.

و الآیة الشریفة إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ و التی أضحت شعارا إسلامیا بعد استبعاد القیم المرتبطة بالقبیلة و العشیرة، تشیر إلی هذه الثورة الفکریة و الاعتباریة. فاستنادا إلی هذه الآیة (الحجرات- ۱۳) فلیس هناک شیء غیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۶

التقوی، و الإیمان المقترن بالشعور بالمسؤولیة، و صلاح العمل، لیس سوی ذلک معیارا لتقییم شخصیة الإنسان و قربه من اللّه تعالی. و کلّ من کان له نصیب أکبر من ذلک کان إلی اللّه أقرب و عنده أکرم.

و الملفت للنظر أنّ محیط الجزیرة العربیة کان قبل نزول التعالیم الإسلامیة القرآنیة السامیة- بتأثیر هیمنة القیم الظالمة- خاضعا لأصحاب الأموال و الکذبة من أمثال أبی سفیان و أبی جهل و أبی لهب. و لکن بعد ثورة القیم ظهر من نفس ذلک المحیط أمثال أبی ذرّ و عمّار و المقداد (رضوان اللّه علیهم).

الجمیل أنّ القرآن المجید فی سورة «الزخرف» و بعد ذکر الآیات التی أوردناها آنفا یقول: وَ لَوْ لا أَنْ یَکُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَیْها یَظْهَرُونَ وَ لِبُیُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَیْها یَتَّکِؤُنَ وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ کُلُّ ذلِکَ لَمَّا مَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ ۴۰۰].

هذا کلّه لکی لا تحلّ القیم المزیّفة محلّ القیم الإنسانیة الواقعیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۷

الآیات [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۳۹ الی ۴۲]

اشارة

قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ (۳۹) وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ یَقُولُ لِلْمَلائِکَةِ أَ هؤُلاءِ إِیَّاکُمْ کانُوا یَعْبُدُونَ (۴۰) قالُوا سُبْحانَکَ أَنْتَ وَلِیُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ کانُوا یَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَکْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَالْیَوْمَ لا یَمْلِکُ بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِی کُنْتُمْ بِها تُکَذِّبُونَ (۴۲)

التّفسیر

نفور المعبودین من عابدیهم:

تعود هـذه الآیات لتؤکّـد مرّة اخری خطأ الذین یتوهمون بأنّ أموالهم و أولادهم سبب لقربهم من اللّه فتقول: قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ

ثمّ تضیف الآیة: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۸

فمع أنّ محتوی هذه الآیة یؤکّد ما عرضته الآیات السابقة إلّا أنّ هناک ما هو جدید من جهتین:

الاولی: أنّ الآیـة السابقـة التی عرضت نفس المفهوم، کانت تتحـدّث عن أموال و أولاد الکفّار، بینما الآیـة محلّ البحث باحتوائها علی کلمـة «عبـاد» تشـیر إلی المؤمنین، و المعنی أنّه حتّی فیمـا یخصّ المؤمنین فـإنّه قـد یتّسع الرزق- لأنّه الأصـلح بالنسـبة للمؤمن- و قد یضیق- لأنّ المصلحة تقتضی ذلک- علی کلّ حال، فإنّ سعة و ضیق الرزق لا یمکن أن یشکّل دلیلا علی أی شیء.

الثّانیة: الآیة السابقة أشارت إلی سعة الرزق و ضیقه بالنسبة إلی مجموعتین مختلفتین، فی حین أنّ هذه الآیة تشیر إلی حالتین مختلفتین بالنسبة لشخص واحد، حینا یتّسع رزقه و حینا یضیق.

إضافة إلی أنّ ما جاء فی بدایة هذه الآیة هو فی الحقیقة مقدّمة لما جاء فی آخرها، و هو الترغیب فی الإنفاق فی سبیل اللّه.

جملة «فهو یخلفه» تعبیر جمیل یشـیر إلی أنّ ما ینفق فی سبیل اللّه إنّما هو فی الحقیقة تجارة وافرة الربح، لأنّ اللّه سبحانه و تعالی تعهّد بـأن یخلفه، و نعلم أنّه فی الـوقت الـذی یتعهّـد فیه الکریم بـأداء العـوض فـإنّه لاـ یراعی المقـدار الـذی یریـد تعویضه، بـل إنّه یعوّض بأضعاف مضاعفة، بل بمئات الأضعاف.

طبعا فإنّ هذا الوعد الإلهی لا ینحصر بالآخرة، فإنّ ذلک مسلّم به، و لکن فی الدنیا أیضا فإنّه یخلف ما أنفق بمختلف البرکات.

جملة هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ ذات معنی واسع، و یمکن الإفادة منها من وجوه مختلفة.

هو خیر من یعطی رزقا، لأنّه یعلم ماذا یعطی و إلی أی حدّ، بحیث لا یکون ما یعطیه عاملا للفساد و الغرور، لأنّه عالم بکلّ شیء.

هو یعطی أی شیء یرید أن یعطیه لأنّه قادر علی کلّ شیء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۹

و لا یریـد جزاء علی ما یعطیه لأنّه غنی بـذاته. و یعطی ابتـداء، لأنّه حکیم و عالم بکلّ شـیء. بل الحقیقـة أنّه لیس من رزّاق غیره، لأنّ أی معط إنّما یعطی ممّا رزقه اللّه، و بذا فهو لیس سوی «واسطة انتقال» لا رزّاقا.

و کذلک فهو تعالی یعطی النعم الباقیة قبال المال الفانی، و الکثیر مقابل القلیل.

و لأنّ فریقا من الأثریاء الظالمین الطغاة کانوا فی صفّ المشـرکین، و ادّعوا بأنّهم یعبـدون الملائکـة و أنّهم شـفعاؤهم یوم القیامة، فقد ردّ القرآن علی هذا الادّعاء الباطل فقال: وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ یَقُولُ لِلْمَلائِکَةِ أَ هؤُلاءِ إِیَّاکُمْ کانُوا یَعْبُدُونَ

بـديهى أنّ هـذا السؤال ليس من باب الاسـتفهام عن الجواب، لأنّ اللّه تعالى عالم بكلّ شـىء، و لكن الهدف هو أن تظهر الحقائق من إجابة الملائكة، لكى يخسأ هؤلاء الضالّون و يخيب ظنّهم، و يعلموا بأنّ الملائكة متنفّرين من أعمالهم، فيصيبهم اليأس إلى الأبد.

ذكر (الملائكة) من بين المعبودات التى كان المشـركون يعبدونها، إمّا لأنّ الملائكة أشرف المخلوقات التى عبدها الضالّون، و التى لم يحصلوا على شفاعتها يوم القيامة، فما ذا يستطيعون الحصول عليه من حفنة من الحجر أو الأخشاب أو الجنّ أو الشياطين!؟

أو أنّه من قبيل أنّ عبـدة الأوثان كانوا يعتقـدون بأنّ الأحجار و الأخشاب هى مظهر و نموذج لموجودات علويـة (كالملائكـة و أرواح الأنبياء)، و لذا عبدوها.

فكمـا ورد فى تاريـخ الوثنيـة عنـد العرب «إنّ سـبب حـدوث عبـادة الأصـنام فى العرب، هو أنّ «عمرو بن لحى» مرّ بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام فسألهم فقالوا له: هذه أرباب نتّخذها على شكل الهياكل العلوية فنستنصر بها و نستسقى.

فتبعهم و أتى بصنم معه إلى الحجاز و سوّل للعرب فعبدوه و استمرّت عبادة الأصنام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۰

فيهم إلى أن جاء الإسلام»[۴۰۱][۴۰۲].

و الآـن لننظر مـاذا تقول الملائكـة للإجابـة على سؤال البـارى عزّ و جلّ؟ لقـد اختارت الملائكـة فى الحقيقـة أكثر الأجوبـة شـمولية و أعظمها أدبا قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

أمّا مـا هو المقصود من الجواب الـذى أجـابت به الملائكـة؟ فللمفسّـرين أقوال، و يبـدو أنّ أقربها هو القول بأنّ المقصود (بالجنّ) هو (الشـيطان) و سائر الموجودات الخبيثـة التى شـجّعت عبـدة الأوثان على ذلك العمل، و زينته فى أنظارهم، و عليه فإنّ المراد من عبادة الجنّ هى تلك الطاعة و الانقياد لأوامرها و الرضى بأضاليلها.

فالملائكة إذا يقولون ضـمن إعلان تنفّرهم و عدم رضاهم على هذه الأعمال: إنّ العامل الأساسـى لهذا الفساد هم الشياطين، و إن كان الظاهر أنّهم يعبدوننا، فالمهمّ هو الكشف عن الوجه الحقيقى لهذا العمل أمام الملأ.

و قد ورد نظير هذا المعنى فى سورة يونس- الآية (۲۸) حيث يقول تعالى:

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ أى إنّكم فى الحقيقـة لم تعبدونا نحن، بل تعبدون أهواءكم و أوهامكم و خيالاتكم، ناهيك عن أنّ هذه العبادة لم تكن بأمرنا و رضانا. و عبادة هذا شكلها ليست بعبادة أصلا.

و بهذه الطريقة يتبدّل أمل المشـركين فى ذلك اليوم إلى يأس كامل، و تتجلّى لهم بذلك حقيقة أنّ معبوديهم لن يحلّوا من مشاكلهم عقدة صغيرة واحدة، بل على العكس فهم منهم متنفّرون مستاءون.

لذا- و كاستخلاص للنتيجة- تقول الآية الكريمة التى بعدها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۱

فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا. و بناء على ذلك فلا الملائكة- الذين هم ظاهرا معبودون- يستطيعون الشفاعة لهم، و لا هم يستطيعون مساعدة بعضهم البعض.

وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِى كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ

ليست هذه هى المرّة الاولى التى يعبّر فيها القرآن عن المشركين ب «الظلم» بل ورد ذلك فى الكثير من آيات القرآن.

التعبير عن «الكفر» ب «الظلم». أو عن «الكافرين و المشركين» ب «الظالمين».

ذلـك لأـنّهم قبـل كـلّ شـىء ظلموا أنفسـهم بخلعهم تـاج العبوديـة للّه عن رؤوسـهم، و لفّوا طوق الذلّـة للأوثان على رقابهم. و دمّروا شخصيتهم و مصيرهم.

و فی الحقیقة فإنّهم سیعاقبون یوم القیامة علی شرکهم و علی إنکارهم للمعاد، و جملة وَ نَقُولُ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِی کُنْتُمْ بِها تُکَذِّبُونَ تشتمل علی المعنیین.

بحوث

۱- الإنفاق سبب النماء لا النقصان

التعبیر الوارد فی الآیة السابقة یحتوی علی معان جمّة:

أوّلا: فمن جهة أنّ کلمة «شیء» بمعناها الواسع تشمل کلّ أنواع الإنفاق، المادّی و المعنوی القلیل و الکثیر، لأیّ من المحتاجین کان الإنفاق، صغیرا أو کبیرا، المهمّ أن یعطی الإنسان شیئا ممّا یملک فی سبیل اللّه بأی کیفیة کان و بأی کمیّة کانت.

ثانیا: لقد أخرجت الآیة (الإنفاق) بمفهومه من «الفناء»، و لوّنته بلون «البقاء» لأنّ اللّه ضمن إخلاف ما ینفق فی سبیله بمواهبه المادیة و المعنویة، بمرّات مضاعفة، مئات الآلاف، أقلّها عشرة أضعاف، و بذا فإنّ المنفق- و بهذه الروحیة

و هذا الإعتقاد- سیلج میدان الإنفاق بید و قلب أکثر انفتاحا، و لن یخطر علی باله إحساس بالقلّة، و لن یفکّر بالفقر، بل إنّه سیشکر اللّه علی حسن توفیقه له علی هذه التجارة الوفیرة الربح.

و قد عبّر القرآن فی الآیات (۱۰) و (۱۱) من سورة الصفّ عن هذا المعنی فقال: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلی تِجارَةٍ تُنْجِیکُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ- تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

و نقرأ

فی الحدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: ینادی مناد کلّ لیلة: لدوا للموت.

و ینادی مناد: ابنوا للخراب.

و ینادی مناد: اللهمّ هب للمنفق خلفا.

و ینادی مناد: اللّهمّ هب للممسک تلفا.

و ینادی مناد: لیت الناس لم یخلقوا.

و ینادی مناد: لیتهم إذ خلقوا فکّروا فیما له خلقوا!!»[۴۰۳].

و المقصود من هؤلاء المنادین هم الملائکة الذین یدبّرون أمور هذا العالم بأمر اللّه.

و

فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله: «من أیقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة»[۴۰۴].

و قد نقل نفس المعنی عن الإمامین الباقر و الصادق علیهما السّلام.

و الجدیر بالتذکیر هو أنّ الإنفاق یجب أن یکون من المال الحلال و الکسب المشروع، و إلّا فلا قبول لغیره عند اللّه و لا برکة فیه.

لذا

فقد ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام حینما سأله أحدهم قال: قلت: آیتان فی

کتاب اللّه عزّ و جلّ أطلبهما فلا أجدهما.

قال علیه السّلام «و ما هما؟».

قلت: قول اللّه عزّ و جلّ: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ فندعوه و لا نری إجابهٔ.

قال علیه السّلام: أفتری اللّه عزّ و جلّ أخلف وعده؟».

قلت: لا.

قال: فممّ ذلک؟

قلت: لا أدری.

قال علیه السّلام: «لکنّی أخبرک، من أطاع اللّه عزّ و جلّ فیما أمره من دعائه من جهۀ الدعاء أجابه».

قلت: و ما جهۀ الدعاء.

قال: «تبدأ فتحمد اللّه و تذکر نعمه عندک ثمّ تشکره ثمّ تصلّی علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله، ثمّ تذکر ذنوبک فتقرّ بها، ثمّ تستعیذ منها فهذا جهۀ الدعاء».

ثمّ قال علیه السّلام: «و ما الآیۀ الاخری؟».

قلت: قول اللّه عزّ و جلّ: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ و إنّی أنفق و لا أری خلفا؟

قال: «أفتری اللّه عزّ و جلّ أخلف وعده؟

قلت: لا.

قال: «فممّ ذلک؟».

قلت: لا أدری؟

قال: لو أنّ أحدکم اکتسب المال من حلّه و أنفقه فی حلّه لم ینفق درهما إلّا أخلف علیه»[۴۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۴

۲- أمنوا علی أموالکم بتأمین إلهی!!

لأحد المفسّرین تحلیل جمیل بهذا الخصوص، یقول: «ثمّ إنّ من العجب أنّ التاجر إذا علم أنّ مالا من أمواله فی معرض الهلاک یبیعه نسیئهٔ و إن کان من الفقراء، و یقول بأنّ ذلک أولی من الإمهال إلی أن یهلک المال، فإن لم یبع حتّی یهلک ینسب إلی الخطأ، ثمّ إن حصل به کفیل ملیء و لا یبیع ینسب إلی قلّهٔ العقل.

فإن حصل به رهن و کتب به وثیقهٔ و لا یبیعه ینسب إلی الجنون، ثمّ إنّ کلّ أحد یفعل هذا و لا یعلم أنّ ذلک قریب من الجنون، فإنّ أموالنا کلّها فی معرض الزوال المحقّق، و الإنفاق علی الأهل و الولد إقراض، و قد حصل الضامن الملیء و هو اللّه العلی و قال تعالی: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ ثمّ رهن عند کلّ واحد إمّا أرضا أو بستانا أو طاحونهٔ، أو حمّاما أو منفعهٔ، فإنّ الإنسان لا بدّ أن یکون له صفهٔ أو جههٔ یحصل له منها مال، و کلّ ذلک ملک اللّه، و هو فی ید الإنسان بحکم العاریهٔ، فکأنّه مرهون بما تکفّل اللّه من رزقه لیحصل له الوثوق التامّ، و مع هذا لا ینفق و یترک ماله لیتلف لا مأجورا و لا مشکورا»[۴۰۶].

۳- سعهٔ مفهوم الإنفاق:

لأجل فهم الحدّ لمفهوم الإنفاق فى الإسلام، نطالع الحديث التالى

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله إذ يقول: «كلّ معروف صدقة، و ما أنفق الرجل على نفسه و أهله كتب له صدقة، و ما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة، و ما أنفق الرجل من نفقة فعلى اللّه خلفها، إلّا ما كان من نفقة فى بنيان أو معصية»[۴۰۷].

يبدو أنّ استثناء البنيان من قانون الإخلاف، لأنّ عين البناء باقية، أو لأنّه يكثر توجّه الناس إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۵

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۴۳ الى ۴۵]

اشارة

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هـذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۴۳) وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (۴۴) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۴۵)

التّفسير

بأىّ منطق ينكرون آيات اللّه:

تعود هـذه الآيات لتكمل البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول المشـركين الكفّار و أقوالهم يوم القيامة، فتتحدّث حول وضع هؤلاء فى الـدنيا و مواقفهم عنـد سـماعهم القرآن حتّى يتّضـح أنّ مصـيرهم الاـخروى المشؤوم إنّمـا هو نتـاج تلـك المواقف الخاطئـة الـتى اتّخذوها إزاء آيات اللّه فى الدنيا.

تقول الآية الكريمة الاولى: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا رَجُلٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۶

يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ

فهذا أوّل ردّ فعل لهم إزاء «الآيات البيّنات» و هو السعى إلى تحريك حسّ العصبية فى هؤلاء القوم المتعصّبين.

خاصّـة مع ملاحظـة اسـتخدامهم تعبير «آباؤكم» بـدل «آباؤنا»، يفهم منه أنّهم يريـدون القول لقومهم بأنّ تراث الأجداد فى خطر، و إنّ عليكم النهوض و التصدّى لهذا الرجل عن العبث بذلك الميراث.

ثمّ تعبير «ما هـذا إلّا رجل» إنّما يقصـد به تحقير النّبى صـلّى اللّه عليه و آله من جهتين الاولى كلمة «هذا» و الثّانية «رجل» بهيئة النكرة، مع العلم بأنّهم يعرفون النّبى صلّى اللّه عليه و آله جيّدا، و يعلمون بأنّ له ماضيا مشرقا.

من الجـدير بالملاحظـة أيضـا أنّ القرآن وصف «الآيـات» ب «البيّنـات»، أى أنّهـا تحمل دلائل حقّانيتها معها، و ما هو قابل للمعاينـة لا يحتاج إلى توضيح أو بيان.

ثمّ توضّح الآية مقولتهم الثّانية التى قصدوا بها إبطال دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله فتقول:

وَ قالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً

«إفك» كما ذكرنا سابقا بمعنى كلّ مصـروف عن وجهه الـذى يحقّ أن يكون عليه، و منه قيل للرياح العادلـة عن المهابّ «مؤتفكة»، و أى صـرف عن الحقّ فى الإعتقـاد إلى الباطل، و من الصـدق فى المقال إلى الكـذب، و من الجميل فى الفعل إلى القبيـح. و لكن كما

قال البعض، فإنّ «الإفك» يطلق على الأكاذيب الكبيرة.

و كـان يكفى اسـتخدامهم لكلمـة «الإفـك» فى اتّهـام الرّسـول صـلّى اللّه عليـه و آلـه بالكـذب، لكنّهـم أرادوا تأكيـد ذلـك المعنى باستخدامهم لكلمة «مفترى»، دون أن يكون لهم أدنى دليل على ذلك الادّعاء.

و أخيرا، كان الاتّهام الثالث الـذى ألصـقوه بالرّسول صـلّى اللّه عليه و آله هو (السـحر) كما نرى ذلك فى آخر هـذه الآية وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

العجيب أنّ هؤلاء الضالّين يطلقون هذه التّهم الثلاث المذكورة بأصرح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۷

التأكيـدات، ففى موضع يقولون إنّه سـحر، و فى آخر يقولون: إنّه مجرّد كـذب، ثمّ يقولون فى موضع ثالث، إنّه يريـد أن يصدّكم عن مـآثر أجـدادكم! طبعا هـذه الصـفات الذميمـة الثلاثـة ليست متضادّة فيما بينها- مع أنّ هؤلاء لا يأنفون من الكلام المتضادّ- و على فلا داعى- كما يقول المفسّرين- لاعتبار أنّ كلّ واحدة من هذه الصفات تنسب إلى مجموعة مستقلّة من الكفّار.

كذلك فمن الجدير بالملاحظة أنّ القرآن الكريم اسـتخدم فى المرتين الاولى و الثّانية جملة «قالوا»، ثمّ اسـتخدم فى المرّة الثالثة جملة «قـال الـذين كفروا»، إشـارة إلى أنّ كـلّ التعاسـة التى أصـابتهم إنّما منشأها الكفر و إنكار الحقّ و معاداة الحقيقـة، و إلّا فكيف يمكن لأحد أن يتّهم رجلا تظهر دلائل حقّانيته من حديثه و عمله و ماضيه بهذه التّهم المتلاحقة و بلا أدنى دليل.

فكأنّهم يواصـلون بهـذه التّهم الثلاث برنامجا مـدروسا لمواجهة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله فقد لاحظوا من جانب أنّ الدين جديد و له جاذبية، و من جانب آخر، فقد أخافت إنذارات الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله بالعذاب الإلهى فى الدنيا و الآخرة فئة من المجتمع شاءوا أم أبوا، و من جـانب ثـالث فـإنّ معجزات الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله تركت أثرها الإيجابى فى نفوس عامّـة المجتمع- شاءوا أم أبوا كذلك.

لذا فإنّهم- لأجل إبطال مفعول هذه الأمور الثلاثة- فكّروا بالدعوة إلى حفظ تراث السـلف فى قبال الدين الجديد، فى حين أنّ السلف كـان مصـداقا لمـا ذكره القرآن الكريم لاـ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَـدُونَ البقرة- ۱۷۰. فلاـ جرم أن يتخلّى النـاس عن مثل تلك الهياكل الخرافية التى كانت إرث هؤلاء الجهلة و الحمقى.

و أمّا فى قبال إنذارات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بالعذاب الإلهى، فقد طرحوا قضيّة الاتّهام بالكذب لكى يريحوا العامّة.

و فى قبال المعجزات، طرحوا تهمة (السحر). ظنّا منهم أنّ المعجزات لن تترك أثرا فى نفوس الناس بسبب هذا التوجيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۸

و لكن تاريخ الإسلام شاهد على أنّ أيّا من هذه المخطّطات الشيطانية لم تكن ذات أثر، و كانت النتيجة أن دخل الناس فى هذا الدين العظيم فوجا بعد فوج.

فى الآية التى بعدها، يشطب القرآن الكريم على جميع تلك الادّعاءات الواهية، مع أنّها واضحة البطلان، فيقول: وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها، وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ.

و هى إشارة إلى أنّ هـذه الادّعاءات يمكنها أن تكون مقبولـة فيما لو جاءهم رسول من قبل بكتاب سـماوى يخالف مضـمونه الـدعوة الجديـدة، فلاـ بـأس أن ينبروا لتكـذيبها، و ينـادوا بتراث الأجـداد تـارة، و بتكـذيب الـدعوة الجديـدة تارة اخرى، أو اتّهام من جاء بها بالسحر. أمّا من لا يعتمد إلّا على فكره الشخصى- بدون أى وحى من السماء- و بدون أن يكون له نصيب من علم، فلا يحقّ له الحكم لمجرّد تلفيق الخرافات و الأوهام.

و يستفاد من هـذه الآيـة أيضا أنّ الإنسان لا يمكنه أن يطوى طريق الحياة بعقله فقط، بل لا بـدّ أن يستمدّ المعونة من وحى السـماء و يتقدّم إلى الأمام بالاستعانة بالشرائع، و إلّا فهى الظلمات و الخوف من التيه.

الآیـة الأخیرة من هـذه الآیات، تهدّد تلک المجموعة المتمردّة بکلمات بلیغة مؤثّرة فتقول: وَ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فی حین أنّ هؤلاء لم یبلغوا فی القوّة و القدرة عشر ما کان لأولئک الأقوام وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَیْناهُمْ فَکَذَّبُوا رُسُلِی فَکَیْفَ کانَ نَکِیرِ.

فمـدنهم المـدمّرة بضـربات العقوبـة الإلهیـة الساحقـة لیست ببعیـدة عنکم .. فهی فی الشـام القریب منکم، فلیکونوا لکم مرآة للعبرة، و استمعوا إلی النصائح التی یقولها الدمار، و قارنوا مصیرکم بمصیرهم، فلا السنّة الإلهیّة قابلة للتغییر و لا أنتم أقوی منهم!.

«معشار»: بمعنی واحد إلی عشرة. البعض اعتبرها «عشر العشر» أیّ واحد إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۹

مائة، و لکن أکثر کتب اللغة و التفاسیر ذکرت المعنی الأوّل. و إن کان مثل تلک الأعداد لا یقصد بها التعداد، و تسـتخدم للتقلیل فی مقابل سـبعة و سـبعین و ألف و أمثالها التی تسـتخدم للتکثیر، و بـذا یکون المعنی المقصود من الآیة، إنّنا دمّرنا عصاة أقویاء لا یمتلک هؤلاء إلّا جزءا صغیرا من قدرتهم.

و قـد ورد نظیر هـذا المعنی فی آیـات کثیرة من آیات القرآن الکریم، من جملتها ما ورد فی الآیـة (۶) من سورة الأنعـام أ لَمْ یَرَوْا کَمْ أَهْلَکْنـا مِـنْ قَبْلِهِـمْ مِـنْ قَرْنٍ مَکَّنَّاهُـمْ فِی الْـأَرْضِ مـا لَـمْ نُمَکِّنْ لَکُمْ وَ أَرْسَـلْنَا السَّمـاءَ عَلَیْهِمْ مِـدْراراً وَ جَعَلْنَـا الْأَنْهـارَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَکْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِینَ و کذا ورد نظیر هذا المعنی فی الآیات ۲۱- المؤمن، ۹- الروم.

لفظة «نکیر» من مادّة «نکر» و الإنکار ضدّ العرفان، و المقصود أنّ إنکار اللّه هو تلک المجازاة و العذاب الصادر عنه تعالی.

بعض المفسّـرین احتملوا تفسیرا آخر لهذه الآیة، و هو أنّ المقصود من وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَیْناهُمْ و هو عشر الآیات التی أنزلناها علی مشـرکی قریش لإتمام الحجّة علیهم، لم ننزّله علی الأقوام السابقین، فإذا کان العذاب الذی عذّبناهم به بتلک الشدّة، فما بالک بمصـیر مشـرکی قریش الذین نالهم عشـرة أضـعاف الآیات لإتمام الحجّة! و لکن یبدو أنّ التّفسـیر الأوّل أنسب (و بناء علی التّفسـیر الأوّل فإنّه من أربعة ضـمائر موجودة فی الآیة، یعود الضمیران الأوّل و الثّانی علی کفّار قریش، و الضمیر الثالث و الرابع علی الکفّار السالفین، أمّا بناء علی التّفسیر الثّانی فإنّ الضمیر الأوّل یعود علی کفّار قریش، و الثّانی علی الکفّار السالفین، و الثالث علی کفّار قریش و الرابع علی الکفّار السابقین- تأمّل).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۰

الآیة [سورة سبإ (۳۴): آیة ۴۶]

اشارة

قُلْ إِنَّما أَعِظُکُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنی وَ فُرادی ثُمَّ تَتَفَکَّرُوا ما بِصاحِبِکُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِیرٌ لَکُمْ بَیْنَ یَدَیْ عَذابٍ شَدِیدٍ (۴۶)

التّفسیر

الثّورة الفکریة أساس لأیّ ثورة أصیلة:

فی هـذا المقطع من الآیـات و الآیات التالیـة، و التی تشـکّل أواخر سورة سـبأ المبارکـة، یؤمر الرّسول الأکرم صـلّی اللّه علیه و آله مرّة اخری بدعوة هؤلاء بالأدلّة المختلفة لیؤمنوا بالحقّ، و یرجعوا عن ضلالهم، و کما مرّ فی البحوث السابقة فقد خوطب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله خمس مرّات بأن قیل له (قل ...).

ففی الآیـة الاولی إشارة إلی اللبنـة الأساسـیة فی کلّ التحوّلات و التبـدلات الاجتماعیـة و الأخلاقیة و السیاسـیة و الاقتصادیة و الثقافیة،

فتقول و بجمل قصيرة و عميقة المعنى قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ.

كلمات و تعبيرات هذه الآية يشير كلّ منها إلى موضوع هامّ، نجملها فى عشرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۱

نقاط كما يلى:

۱- جملة «أعظكم» توضّح فى الحقيقة واقع أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله يريد القول بأنّى ألحظ فيما أقول لكم خيركم و صلاحكم دون أىّ شىء آخر.

۲- التعبير ب «واحدة» مع ارتباطه بالتأكيد بواسطة «إنّما» إشارة معبّرة إلى أنّ أصل جميع الإصلاحات الفردية و الجماعية، إنّما هى بإعمال الفكر، فما دام تفكير الامّة فى سبات فستكون هدفا لسرّاق و لصوص الذين و الإيمان و الحرية و الاستقلال، و لكن حينما تصحوا الأفكار فإنّها تقطع الطريق أمام هؤلاء.

۳- التعبير ب «قيام» ليس معناه مجرّد الوقوف على القدمين، بل معناه الاستعداد لإنجاز العمل، بلحاظ أنّ الإنسان بوقوفه على قدميه إنّما يكون مستعدّا لإتمام البرامج الحياتية المختلفة، و عليه فإنّ التفكّر يحتاج إلى استعداد قبلى، لكى يوجد السبب و المحرّك فى الإنسان الذى يدفعه بالإرادة و التصميم إلى التفكّر.

۴- تعبير «للّه» يوضّح أنّ القيام و الاستعداد يجب أن يكون باعثه إلهيا، و التفكّر الذى يكون صادرا عن هذا الدافع له قيمة عالية، فالإخلاص فى العمل عادة- و حتّى فى التفكّر- هو الأساس للنجاة و السعادة و البركة.

و الملفت للنظر هو اعتبار الإيمان باللّه هنا أمرا مسلّما، و عليه فالتفكّر المطلوب إنّما هو فى مسائل اخرى، و تلك إشارة إلى أنّ التوحيد إنّما هو أمر فطرى واضح يدرك حتّى بدون تفكّر.

۵- التعبير ب «مثنى و فرادى» إشارة إلى أنّ التفكّر يجب أن يكون بعيدا عن الغوغائية و الفوضى، بأن يقوم الناس آحادا أو على الأكثر مثنى و يتفكّرون، لأنّ التفكّر وسط الضوضاء و الغوغائية لا يمكنه أن يكون عميقا، خصوصا و أنّ عوامل الذاتية و التعصّب فى طريق الدفاع عن الإعتقادات الشخصية ستكون أشدّ فعلا فى التجمّعات الأكبر.

بعض المفسّرين احتمل أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الإفادة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۲

المشورة بالخلط بين الأفكار الفردية و الجماعية، فالإنسان يجب أن يتفكّر منفردا و كذلك يستفيد من أفكار الآخرين، لأنّ الاستبداد بالرأى و الفكر سبب للعجب، و التشاور و التعاون لأجل حلّ المشكلات العلمية- و الذى لا يؤدّى إلى الغوغاء- سيعطى حتما- أثرا أفضل، و يمكن أن يكون تقديم «مثنى» على «فرادى» فى الآية لهذا السبب.

۶- الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول هنا «تتفكّروا» دون أن يذكر بماذا؟

فحذف المتعلّق دليل على العموم، أى فى كلّ شىء، فى الحياة المعنوية و المادية، فى الأمور الكبيرة و الصغيرة. و بكلمة: فى كلّ أمر يجب التفكّر أوّلا، و أهمّ من ذلك كلّه هو التفكّر للعثور على الإجابة للأسئلة الأربعة التالية: من أين جئت؟ لأى شىء أتيت؟ إلى أين أذهب؟ و أين أنا الآن؟

و لكن بعض المفسّرين ذهبوا إلى أن «تتفكّروا» تتعلّق بالجملة التى تليها و هى «ما بصاحبكم من جنّة» بمعنى أنّكم لو تفكّرتم قليلا لوجدتم أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله منزّه عن اتّهامكم الواهى له بالجنون. و الظاهر أنّ المعنى الأوّل أوضح.

و من البديهى أنّ من الأمور التى يجب التفكّر بها هى مسألة النبوّة و الصفات العالية التى كان يتمتّع بها شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله دون أن تكون منحصرة بذلك.

۷- تعبير «صاحبكم» إشارة إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و إنّه ليس نكرة بالنسبة لكم، فقد كان بينكم لسنوات طويلة. لقد عرفتموه بالأمانة و الصدق و الاستقامة، و لم تجدوا حتّى الآن نقطة ضعف واحدة فى مسيرة حياته، لذا فعليكم بالإنصاف قليلا، فالتّهم التى تلصقونها به لا أساس لها جميعا.

۸- «جنّة» بمعنى «جنون» و فى الأصل من مادّة «جن» بمعنى ستر الشىء عن الحاسّة، و من كون أنّ (المجنون) ستر عقله، فقد اطلق عليه هذا التعبير، و الجدير بالملاحظة هنا هو أنّ العبارة تريد الكشف عن هذه الحقيقة، و هى أنّ من يدعو إلى التفكّر و الانتباه كيف يكون هو مجنونا، و الحال أنّ مناداته بالتفكّر إنّما هى دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۳

على تمام عقله و درايته.

۹- جملة إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ تلخّص رسالة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله فى مسألة «الإنذار» أى: التحذير من المسؤولية، و من المحكمة الإلهية، و العقاب الإلهى، صحيح أنّ للرسول صلّى اللّه عليه و آله رسالة فى «التبشير» أو «البشارة» و لكن الذى يدفع الإنسان أكثر إلى التحرّك هو «الإنذار»، لذا فقد ذكرت مسألة «الإنذار» فى آيات اخرى من القرآن الكريم على أنّها وظيفة الرّسول الأكرم الأساسية، كما فى الآية (۹) من سورة الأحقاف وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ كما ورد كذلك شبيه هذا المعنى فى الآية ۶۵ من سورة (ص) و آيات اخرى.

۱۰- التعبير ب بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ إشارة إلى أنّ القيامة قريبة إلى درجة و كأنّها أمام العين، و الحقّ أنّها كذلك بالنسبة إلى عمر الدنيا، كذلك فقد ورد فى الروايات الإسلامية نظير هذا المعنى كما

فى الأثر عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله قال: «بعثت أنا و الساعة كهاتين»

و ضمّ صلّى اللّه عليه و آله الوسطى و السبّابة.

بحث

الدين أصل التحوّلات:

بسبب إحساس العقائد المادية و الشيوعية بالخطر من المذاهب السماوية الحقّة، فهى تدعوها ب (أفيون الشعوب) أى أنّها عامل تخدير لأفكار الجماهير!! و قد سعى المستعمرون فى الغرب و الشرق إلى تلقين مثل هذا الرأى عن طريق علماء الاجتماع و علماء النفس، و ذلك لتضليل الجماهير و إبعادها عن فطرتها، و الذى دفعهم إلى هذا هو خوفهم و حذرهم من نهضة الشعوب المؤمنة المسلّحة بالأفكار الدينية السماوية، و من استقبالها الشهادة فى سبيل اللّه بصدور رحبة! ..

و الأنكى من ذلك أنّهم أو عزوا منشأ الدين لجهل البشر بالعوامل الطبيعيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۴

و الجواب على مثل الكلام مرّ فى محلّه، و لسنا هنا فى معرض سرد الردود جميعا، و لكن الآيات التى نحن بصددها تدعو الإنسان إلى التفكّر و التدبّر، و اعتبرت طريق التفكّر هو الأساس لتطور و تكامل البشرية.

كيف يمكن أن يكون الإسلام داعية لتخدير أفكار الناس، أو أنّه نشأ بفعل جهل البشر بالعوامل الطبيعيّة، و يدعو الناس إلى النهضة و التفكّر و العيش بصفاء فى محيط بعيد عن الضوضاء و الضجيج الإعلامى المسموم، بعيدا عن التعصّب و العناد؟! هل يمكن اتّهام الدين الذى يدعو الناس لمثل هذه الأفكار بكونه أفيون الشعب، أو عامل تخدير لها؟! و يمكن هنا القول: إنّ على الإنسان أن لا يفكّر

لوحده و بشکل انفرادی، بل علیه مشاورة الآخرین و أن تتعاضد آراؤه معهم، لسماع دعوة الأنبیاء الصادقة، و مطالعة الدلائل و الآیات التی جاؤوا بها .. عند ذلک یمکن للإنسان الإذعان للحقّ.

إنّ الأحداث التی مرّت فی عصرنا الحالی سیّما نهضة المسلمین الثوریین فی مختلف البلدان الإسلامیة بوجه القوی الکبری و عملائها فی الشرق و الغرب، و التی جعلت الدنیا ظلاما دامسا فی وجوههم، و هزّت کیاناتهم، تشیر جمیعا إلی أنّ الخطر الکبیر الذی یتهدّد هذه القوی هو العقائد الدینیة الأصلیة، و من هنا یفهم هدف الاتّهامات الموجّهة ضدّ العقائد الدینیة.

و ممّا یثیر العجب و الغرابة أنّ علماء الاجتماع فی الغرب قالوا بعدم وجود عالم ما وراء الطبیعة، و اعتبروا الدین ظاهرة من صنع البشر، کما قالوا بوجود عوامل مختلفة لنشوء الدین، کالعامل الاقتصادی، و خوف الإنسان، و عدم اطّلاعه، و العقد النفسیة ... إلخ!! کما أنّهم غیر مستعدّین للتفکّر و لو للحظة واحدة بعالم ما وراء الطبیعة و بالدلائل المدهشة و الواضحة لتوحید الخالق جلّ و علا، و العلامات الصریحة لنبوّة الأنبیاء کنبیّنا الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و غیر مستعدّین أیضا للتنصّل عن أحکامهم التی أثبتت فشلها.

لا یمکن أن نماثل بین هؤلاء و بین مشرکی عصر الجاهلیة بالتعصّب و العناد و عدم الاطّلاع، نعم، هؤلاء متعصّبون و معاندون و لکنّهم مطّلعون، و لهذا فهم أکثر خطرا و ضلالة من مشرکی عصر الجاهلیة.

و ممّا یجدر ذکره أنّ ذیل أکثر الآیات القرآنیة یدعو الإنسان إلی التفکّر و التعقّل و التذکّر: فأحیانا تقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (النحل- ۱۱ و ۶۹) و اخری تقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (الرعد- ۳، و الزمر- ۴۲، و الجاثیة- ۱۳) و ثالثة تقول: لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (الحشر- ۲۱، و الأعراف- ۱۷۶)، و أحیانا تطرح الآیات القرآنیة نفس المفهوم وجها لوجه کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ (البقرة- ۲۱۹ و ۲۶۶).

و قد ورد فی القرآن الکریم الکثیر من هذا القبیل، منه الدعوة إلی الفقه- أی الفهم- و الدعوة إلی العقل و التعقّل، و مدح الناس المتعلّقین، و الندم الشدید لأولئک المتعصّبین، و قد جاء ذلک فی (۴۶) آیة من آیات القرآن المجید، و قد قال الکثیر من العلماء: إنّنا لو أردنا جمع هذه الآیات و تفسیرها لاحتجنا إلی کتاب مستقل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۵

و فی هذا المجال ذکر القرآن الکریم أنّ أحد صفات أهل النار هو عدم التفکّر و التعقّل کقوله تعالی: وَ قالُوا لَوْ کُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما کُنَّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ و منه قوله تعالی: وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا یَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْیُنٌ لا یُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا یَسْمَعُونَ بِها أُولئِکَ کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِکَ هُمُ الْغافِلُونَ

۲- جانب من الروایات الإسلامیة فی التفکّر و التأمّل:

اهتّمت الروایة الإسلامیة- و علی خطی القرآن الکریم- بمسألة التفکّر إلی حدّ أن جعلتها فی المقام الأوّل من الأهمیّة، و یلاحظ المطالع للروایات تعبیرات جمیلة و معبّرة أوردنا نماذج منها هنا:

ألف- التفکّر أعظم عبادة: نقرأ

عن الإمام الرضا علیه السّلام «لیس العبادة کثرة الصلاة و الصوم إنّما العبادة التفکّر فی أمر اللّه عزّ و جلّ»[۴۰۸].

و نقرأ

فی روایة اخری: «کان أکثر عبادة أبی ذکر التفکّر»[۴۰۹].

ب- ساعة تفکّر أفضل من لیلة من العبادة:

عن الحسن الصیقل قال: سألت أبا عبد اللّه الصادق علیه السّلام: عمّا یروی الناس أنّ تفکّر ساعة خیر من قیام لیلة، قلت: کیف یتفکّر؟

قال: «یمرّ بالخربة أو بالدار فیقول: أین ساکنوک و أین بانوک، ما لک لا تتکلّمین؟»[۴۱۰].

ج- التفکّر مصدر العمل:

قال أمیر المؤمنین علیه السّلام: «إنّ التفکّر یدعو إلی البرّ و العمل به»[۴۱۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۶

الآیات [سورة سبإ (۳۴): الآیات ۴۷ الی ۵۰]

اشارة

قُلْ ما سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۴۷) قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُیُوبِ (۴۸) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما یُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما یُعِیدُ (۴۹) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلی نَفْسِی وَ إِنِ اهْتَدَیْتُ فَبِما یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی إِنَّهُ سَمِیعٌ قَرِیبٌ (۵۰)

التّفسیر

و ما یبدئ الباطل و ما یعید:

قلنا أنّ اللّه تعالی أمر رسوله الکریم صلّی اللّه علیه و آله فی هذه السلسلة من الآیات الکریمة خمس مرّات بأن یخاطب هؤلاء الضالّین و یقطع علیهم طریق الاعتذار من کلّ جانب.

فالآیة السابقة کانت دعوة للتفکّر و نفی أی حالة من عدم التوازن الروحی عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله.

و فی مطلع هذه الآیات، یتحدّث القرآن فی عدم مطالبة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله بأی أجر مقابل تبلیغ الرسالة. تقول الآیة الاولی: قُلْ ما سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ، إِنْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۷

أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ

و ذلک إشارة إلی أنّ العاقل حینما یتصرّف أی تصرّف یجب أن یکون لتصرفه باعث، فحینما یثبت لکم بأنّ لدی عقل کامل، و ترون بأن لیس لی هدف مادّی، فیجب أن تعلموا بأنّ هناک دافعا و محرّکا إلهیا و معنویا هو الذی دفعنی إلی ذلک التصرّف أو العمل.

بتعبیر آخر: أنا دعوتکم للتفکّر، و الآن تأمّلوا، و اسألوا وجدانکم، أی سبب یدعونی لأن أنذرکم من العذاب الإلهی الشدید؟، و أی ربح سوف أجنیه من هذا العمل؟، و أی فائدة مادیة لی فیه؟. إضافة إلی ذلک فإن کانت حجّتکم فی هذا الإعراض و مخالفة الحقّ، هو أنّکم ستدفعون لی أجرا علیه، فسیضیع جزافا، لأنّی أساسا لم أطالبکم بأی أجر أو جزاء.

کذلک فقد ورد هذا المعنی بصراحة أیضا فی الآیة (۴۶) من سورة القلم أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ

أمّا ما هو تفسیر جملة فَهُوَ لَکُمْ فهناک تفسیران:

الأوّل: أنّ الجملة کنایة عن عدم المطالبة بأی أجر کما لو قلت «کلّ ما أردته منک فهو لک» کنایة عن أنّک لا ترید شیئا مطلقا. و الدلیل علی ذلک هو الجملة التالیة و التی تقول: إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ

الثانی: أنّکم إن لاحظتم أنّی فی بعض ما أخبرتکم به عن اللّه سبحانه و تعالی، قلت لکم: لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی ۴۱۲]، فهذا أیضا یعود نفعه إلیکم، لأنّ مودّة ذی القربی ترتبط بمفهوم (الإمامة و الولایة) و «استمرار خطّ النبوّة، الذی هو ضروری

لإدامة هدایتکم.

الدلیل علی هذا القول هو ما ورد فی أسباب النّزول الذی نقله بعضهم هنا، ففی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۸

تفسیر روح البیان، ورد أنّه عند نزول الآیة قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله لمشرکی مکّة: «لا تؤذوا ذوی قربای»

و هم قبلوا بهذا الطلب، و لکن عند ما نال الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله من أصنامهم، قالوا: إنّ محمّدا لم ینصفنا، فهو من جانب یدعونا لعدم التعرّض لذوی قرباه بالأذی، و لکنّه من جانب آخر یمسّ أربابنا بالأذی، و هنا نزلت الآیة موضوع بحثنا قُلْ ما سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ فما أردته منکم بهذا الخصوص هو بنفعکم، سواء آذیتموهم أو لم تؤذوهم.

ثمّ تختم الآیة بالقول: وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ. فإن کنت أرید أجری من اللّه وحده فلأنّه وحده عالم بکلّ أعمالی و مطّلع علی نوایای. علاوة علی أنّه هو سبحانه و تعالی شاهد صدقی و حقّانیة دعوتی، لأنّه هو سبحانه سخّر لی کلّ هذه المعجزات و الآیات البیّنات، و الحقّ أنّه سبحانه و تعالی نعم الشاهد، فهو الذی قد أحاط بکلّ شیء علما و هو أفضل من یستطیع الأداء، و لا یصدر عنه إلّا الحقّ و هو خیر الشاهدین. و هو اللّه سبحانه و تعالی.

بالالتفات إلی ما قیل حول حقّانیة دعوة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله، تضیف الآیة التی بعدها قائلة أنّ القرآن واقع غیر قابل للإنکار لأنّه ملقی من اللّه سبحانه و تعالی علی قلب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله: قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُیُوبِ

کلمة «یقذف» من مادّة (قذف) و هو الرمی البعید، و ثمّة تفسیرات متعدّدة لهذه الآیة، یمکن جمعها مع بعضها البعض.

أوّلا: المقصود ب «یقذف بالحقّ» هو الکتب السماویة و الوحی الإلهی علی قلوب الأنبیاء و المرسلین، و لأنّه سبحانه و تعالی هو علّام الغیوب، فهو یعلم بالقلوب المهیّأة، فینتخبها و یقذف الوحی فیها حتّی ینفذ إلی أعماقها.

و علی ذلک فالمعنی شبیه بما ورد فی الحدیث المعروف «العلم نور یقذفه اللّه فی قلب من یشاء».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۹

و التعبیر ب «علّام الغیوب» یؤیّد هذا المعنی.

الآخر: إنّ المقصود من «قذف الحقّ علی الباطل و زهوق الباطل»، یعنی أنّ للحقّ قوّة تجعله قادرا علی تجاوز أی عائق فی طریقه، و لیس لأحد طاقة علی الوقوف بوجهه، و بهذا تکون الآیة تهدیدا للمخالفین لکی لا یقفوا بوجه القرآن، و أن یعلموا أنّ حقّانیة القرآن ستسحقهم.

و بذا تکون الآیة تعبیرا مشابها لما ورد فی الآیة (۱۸) من سورة الأنبیاء بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَی الْباطِلِ فَیَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ

و یحتمل أن یکون المقصود بتعبیر «القذف» هنا هو نفوذ حقّانیة القرآن إلی نقاط العالم القریبة و البعیدة، و هی إشارة إلی أنّ هذا الوحی السماوی سیضیء جمیع العالم بنوره فی نهایة الأمر.

بعدئذ و لزیادة التأکید یضیف سبحانه و تعالی: قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما یُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما یُعِیدُ[۴۱۳]. و علیه فلن یکون للباطل أی دور مقابل الحقّ، لا خطّة اولی جدیدة، و لا خطّة معادة، إذ أنّ خطط الباطل نقش علی الماء، و لهذا السبب فلم یتمکّن الباطل من طمس نور الحقّ و محو أثره من القلوب.

مع أنّ بعض المفسّرین أرادوا حصر مصادیق «الحقّ» و «الباطل» فی هذه الآیة فی حدود معیّنة، لکن الواضح أنّ مفهوم الإثنین واسع و شامل جدّا، القرآن، الوحی الإلهی، تعلیمات الإسلام، جمیعها مصادیق لمفهوم «الحقّ». و الشرک و الکفر، و الضلال، و الظلم و الذنوب، و وساوس الشیطان، و البدع الطاغوتیة کلّها تندرج تحت معنی «الباطل»، و فی الحقیقة فإنّ هذه الآیة شبیهة بالآیة (۸۱) من سورة الإسراء، وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ کانَ زَهُوقاً.

و قد ورد أنّ ابن مسعود قال: دخل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله مکّهٔ و حول البیت ثلاثمائهٔ

و ستّون صنما فجعل یطعنها بعود فی یدیه و

یقول: «جاء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل کان زهوقا- جاء الحقّ و ما یبدئ الباطل و ما یعید»[۴۱۴].

سؤال:

یثار هنا سؤال و هو أنّ الآیهٔ أعلاه تقول: إنّه بظهور الحقّ، یمحق الباطل، و یفقد کلّ خلّاقیته، و الحال أنّنا نری أنّ الباطل له جولات وصیت إلی الآن، و یسیطر علی مناطق کثیرهٔ؟

و للإجابهٔ علی هذا السؤال، یجب الالتفات إلی ما یلی:

أوّلا: إنّه بظهور الحقّ و إشراقه. فإنّ الباطل- و الذی هو الشرک و النفاق و الکفر و کلّ ما ینبع عنها- یفقد بریقه، و إذا استمرّ وجوده فبالقوّهٔ و الظلم و الضغط، و إلّا فإنّ النقاب قد ازیل عن وجهه، و ظهرت صورته القبیحهٔ لمن یطلب الحقّ، و هذا هو المقصود من مجیء الحقّ و محو الباطل.

ثانیا: لأجل تحقّق حکومهٔ الحقّ و زوال حکومهٔ الباطل فی العالم، فإضافهٔ إلی الإمکانیات التی یضعها اللّه فی خدمهٔ عباده، هناک شرائط اخری مرتبطهٔ بالعباد أنفسهم، و التی أهمّها «القیام بترتیب المقدّمات للاستفادهٔ من تلک الإمکانات الإلهیهٔ». و بتعبیر آخر، فإنّ انتصار الحقّ علی الباطل لیس فقط فی المناحی العقائدیهٔ و المنطقیهٔ و فی الأهداف، بل فی المناحی الإجرائیهٔ علی أساسین، «فاعلیهٔ الفاعل» و «قابلیهٔ القابل» و إذا لم یصل الحقّ إلی النصر علی الباطل فی المرحلهٔ العملیهٔ نتیجهٔ عدم تحقّق (القابلیهٔ) فلیس ذلک دلیلا علی عدم انتصاره.

و لنضرب لذلک مثلا قرآنیا، فالآیهٔ الکریمهٔ تقول: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ ۴۱۵]، و لکن المعلوم لدینا بأنّ استجابهٔ الدعاء لیست بدون قید أو شرط، فإن تحقّقت شرائط

الدعاء فهو مستجاب قطعا، و فی غیر هذه الحالهٔ ینبغی عدم انتظار الاستجابهٔ، (شرح هذا المعنی جاء فی تفسیر الآیهٔ ۱۸۶- من سورهٔ البقرهٔ).

و ذلک بالضبط کما لو أنّنا أتینا بطبیب حاذق لمریض ممدّد علی فراشه، و عندها نقول له: زادت فرصهٔ النجاهٔ لک، و فی أی وقت أحضرنا له دواء نذکره بأنّنا قد حللنا له مشکلا آخر، فی حین أنّ کلّ هذه الأمور هی من مقتضیات الشفاء و لیست (علّهٔ عامّهٔ)، فیجب أن یکون الدواء مؤثّرا فی المریض، و أن تراعی توصیات الطبیب، کما أنّه یجب أن لا ننسی الحمیهٔ و أثرها، لکی یتحقّق الشفاء العینی و الواقعی (تأمّل).

ثمّ یضیف تعالی: لأجل إیضاح أنّ ما یقوله صلّی اللّه علیه و آله هو من اللّه، و أنّ کلّ هدایهٔ منه، و أن لیس هناک أدنی خطأ أو نقص فی الوحی الإلهی، قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلی نَفْسِی وَ إِنِ اهْتَدَیْتُ فَبِما یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی ۴۱۶].

أی إنّنی لو اتّکلت علی نفسی فسوف أضلّ، لأنّ الاهتداء إلی طریق الحقّ من بین أکداس الباطل لیس ممکنا بغیر إمداد اللّه، و نور الهدایهٔ الذی لیس فیه ضلال و تیه هو نور الوحی الإلهی.

صحیح أنّ العقل هو مصباح مضیء، غیر أنّ الإنسان لیس معصوما، و شعاع هذا المصباح لا یمکنه کشف جمیع حجب الظلام، إذا تعالوا و تعلّقوا بنور الوحی الإلهی هذا حتّی تخرجوا من الظلمات، و تضعوا أقدامکم علی أرض النور.

و فى ختام الآية يضيف تعالى: إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

فلعلّكم تعتقدون أنّه تعالى لا يسمع ما نقول و ما تقولون، أو أنّه يسمع ذلك و لكنّه بعيد، كلّا، فهو (سميع) و (قريب)، فلا تعزب عنه ذرّة ممّا نقول أن ندعو.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۲

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشارة

وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (۵۱) وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (۵۲) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (۵۴)

التّفسير

ليس للكافرين مفرّ:

الآيات الأخيرة من سورة سبأ تعود إلى الحديث فى المشركين المعاندين الذين مرّ الحديث فيهم فى الآيات السابقة عن طريق مخاطبة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله فتصوّر حال تلك المجموعة عند وقوعها فى قبضة العذاب الإلهى، كيف تفكّر فى الإيمان، حين لا يكون لإيمانهم أدنى فائدة.

يقول تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ

ثمّة آراء بين المفسّرين فى: متى يكون ذلك الصراخ و الفزع و الاضطراب؟

فبعضهم يرى أنّه عذاب الدنيا أو عذاب الموت، و بعضهم يرى أنّه يخصّ عقاب يوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۳

القيامة، غير أنّ آخر هذه الآية، يشير إلى أنّ هذه الآيات جميعها تتحدّث عن الدنيا و عذاب الاستئصال، أو لحظة تسليم الروح، إذ يقول تعالى فى الآية الأخيرة من هذا المقطع وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ و هذا التعبير لا ينسجم مع يوم القيامة. لأنّ الجميع يجمعون فى ذلك اليوم للحساب، كما تشير إلى ذلك الآية (۱۰۲) من سورة هود ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.

و فى الآيتين ۴۹- ۵۰ من سورة الواقعة أيضا نقرأ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

و عليه فإنّ المقصود من جملة أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ هو أنّ هؤلاء الأفراد الكافرين و الظالمين، ليس فقط لا يمكنهم الفرار من يد القدرة الإلهيّة فحسب، بل إنّ اللّه سبحانه و تعالى يأخذهم بالعذاب من مكان قريب منهم جدّا.

ألم يدفن الفراعنة فى أمواج النيل الذى كان المصدر الأساس لفخرهم، ألم تنخسف الأرض بقارون و كنوزه، و «قوم سبأ» الذين مرّت بنا قصّتهم فى هذه السورة ألم يحيق بهم الهلاك أقرب الأمكنة لهم، و هو ذلك السدّ العظيم الذى كان سبب عمران بلادهم و سبب حياتهم و حركتهم؟ لذا فإنّه اللّه يأخذ بالعذاب من أقرب الأماكن حتّى يعلم مدى قدرته و سطوته.

فأكثر السلاطين الظلمة قتلوا على أيدى أقرب أفراد حواشيهم، و أغلب المتسلّطين الجبابرة تلقّوا الضربة الأخيرة من داخل قصورهم.

و لو لا حظنا ما ورد فى الكثير من الروايات من طرق السنّة و الشيعة، لرأينا أنّ لهذه الآية مصداقا فى أحاديث «السفيانى» (مجموعة

على خطّ أبى سفيان و عصارة عصر الجاهلية يخرجون على أتباع الحقّ فى عصر ظهور المهدى عليه السّلام).

حيث أنّ السفيانى و جيشه تخسف بهم الصحراء وسط الطريق إلى مكّة، و ذلك فى الحقيقة واحد من مصاديق الآية وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ حيث أنّهم وقعوا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۴

العذاب الإلهى من أقرب النقاط لهم، و هى الأرض التى تحت أقدامهم. و قد وردت أحاديث كثيرة بهذا المضمون عن ابن عبّاس و ابن مسعود و أبى هريرة و حذيفة و امّ سلمة و عائشة، كما يلاحظ فى كتب السنّة، و كلّهم ينقلون عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله ۴۱۷].

و قد أوردت تلك الأحاديث فى تفسير هذه الآية فى الكثير من كتب التّفسير الشيعية من أمثال تفسير القمّى، و مجمع البيان، و نور الثقلين، و الصافى، و الكثير من كتب التّفسير السنّية كتفسير روح المعانى، و روح البيان، و القرطبى.

كذلك فإنّ العلّامة المجلسى- أعلى اللّه مقامه- أورد العديد من الروايات عن الإمام الباقر عليه السّلام بهذا الخصوص، و التى تشير إلى كونها أحد مصاديق هذه الآيات، باعتبار أنّ الخسف الذى يحلّ بالسفيانى و جيشه هو مصداق للأخذ من مكان قريب ۴۱۸].

و كما أشرنا مرارا فإنّ الرّوايات التى يوردها المفسّرون للتدليل على معنى الآية، إنّما هى المصاديق الأوضح، و ليس معناها تحديد معنى الآية فى ذلك.

الآية التى بعدها، تعرض وضع هؤلاء بعد أن أخذهم العذاب الإلهى تقول الآية الكريمة وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ ۴۱۹] و لكن أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ.

نعم فبحلول الموت و عذاب الاستئصال أغلقت أبواب العودة كليّا، و حيل كالسدّ المحكم بين الإنسان و بين أن يكفّر عن ذنوبه، لذا فإنّ إظهار الإيمان فى ذلك الحين، كأنّه كائن من مكان بعيد، و هو إيمان اضطرارى بسبب الخوف الشديد من العذاب الذى يعاين هناك، مثل ذلك الإيمان أصلا لا قيمة له، لذا فإنّ الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۵

(۲۸) من سورة الأنعام تعبّر عنهم قائلة: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

«التناوش» من مادّة «نوش»- على زنة خوف- بمعنى التناول، و بعضهم اعتبروا أنّها بمعنى «التناول بسهولة» أى كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد و لم يكونوا يتناولونه من قريب؟

كيف يستطيعون الآن و بعد أن انتهى كلّ شيء، أن ينبروا لجبران خطاياهم و يؤمنوا، فى حين أنّهم قبل هذا كفروا مع أنّهم كانوا يتمتّعون بالاختيار و الإرادة:

وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

و لم يكتفوا بالكفر فقط، بل إنّهم ألصقوا بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و بتعاليمه مختلف أنواع التّهم، و حكموا أحكاما خاطئة فيما يخصّ (عالم الغيب- و القيامة- و النبوّة):

وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ.

«القذف»- كما قلنا- الرمى من بعيد، و «الغيب» هو عالم ما وراء الحسّ، و الجملة كناية لطيفة عمّن يطلق أحكامه على عالم ما وراء الطبيعة بلا سابق علم أو معرفة، كمن يرمى شيئا من نقطة بعيدة، فقلّما يصيب الهدف، فظنونهم و أمانيهم و أحكامهم لا تصيب أهدافها أيضا. فقد عدّوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله (ساحرا) حينا، و حينا (مجنونا) و آخر (كذّابا)، و حينا اعتبروا القرآن «نتاجا فكريا بشريا».
و مرّة أنكروا الجنّة و النار و القيامة بشكل كلّى، كلّ هذه أنواع «للرجم بالغيب» أو «اصطياد الطيور فى ظلام الليل» أو بعبارة اخرى «القذف من مكان بعيد».

ثمّ یضیف تعالی: وَ حِیلَ بَیْنَهُمْ وَ بَیْنَ ما یَشْتَهُونَ کَما فُعِلَ بِأَشْیاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ففی لحظهٔ مؤلمهٔ، فصل بینهم و بین کلّ ثرواتهم و أموالهم، و قصورهم و مقاماتهم، و أمانیهم، فکیف سیکون حالهم؟ هؤلاء الذین کانوا یعشقون الدرهم و الدینار، و الذین کانت قلوبهم لا تطاوعهم فی التخلّی عن أبسط الإمکانات المادیهٔ .. کیف سیکون حالهم فی تلک اللحظهٔ التی یجب علیهم فیها أن یودّعوا کلّ ذلک وداعا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۶

أخیرا، ثمّ یغمضون عیونهم و یسیرون باتّجاه مستقبل مظلم موحش.

جملهٔ حِیلَ بَیْنَهُمْ وَ بَیْنَ ما یَشْتَهُونَ فسّرت بتفسیرین:

الأوّل: هو ما عرضناه سابقا.

الثانی: أنّه حیل بینهم و بین رغبتهم فی الإیمان و جبران ما فاتهم .. غیر أنّ التّفسیر الأوّل ینسجم أکثر مع جملهٔ ما یَشْتَهُونَ

فضلا عن أنّ جملهٔ أَنَّی لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ قد تعرّضت إلی قضیّهٔ عدم تمکّنهم من الإیمان عند الموت و عذاب الاستئصال کما ذکرنا، فلا یبدو أنّ هناک داعیا للتکرار.

من الجدیر بالذکر أیضا أنّ کثیرا من مفسّری هذه الآیهٔ اعتبروا هذه الآیات ممّا یخصّ الحدیث فی عقوبات الآخرهٔ و ندامهٔ المسیئین فی المحشر، و لکن الآیهٔ الأخیرهٔ و بالأخصّ جملهٔ کَما فُعِلَ بِأَشْیاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ لا تنسجم مع هذا المعنی، بل إنّ المقصود هو لحظهٔ الموت و مشاهدهٔ عذاب الفناء.

و ما أجمل ما یقول أمیر المؤمنین علی (علیه أفضل الصلاهٔ و السّلام) حینما یصوغ بکلماته النورانیهٔ وصفا للحظات فراق الروح لعالم الدنیا، و مفارقهٔ نعمها:

«اجتمعت علیهم سکرهٔ الموت، و حسرهٔ الفوت، ففترت لها أطرافهم و تغیّرت لها ألوانهم! ثمّ زاد الموت فیهم و لوجا، فحیل بین أحدهم و بین منطقه، و إنّه لبین أهله، ینظر ببصره و یسمع باذنه ...

یفکّر فیم أفنی عمره؟ و فیم أذهب دهره؟ و یتذکّر أموالا جمعها، أغمض فی مطالبها، و أخذها من مصرحاتها و مشبهاتها! ...

فهو یعضّ یده ندامهٔ علی ما أصحر له عند الموت من أمره، و یزهد فیما کان یرغب فیه أیّام عمره، و یتمنّی أنّ الذی کان یغبطه بها و یحسده علیها قد حازها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۷

دونه»![۴۲۰].

اللهمّ اجعلنا من الذین ینتبهون قبل فوات الفرص، و یجبرون ما فاتهم.

شباک الدنیا و مغریاتها مشرعهٔ لنا، و العدوّ شدید المراس، و لو لا لطفک، فإنّ أعمالنا تافههٔ حقیرهٔ ...

اللهمّ!! جعلنا من الذین یشکرون النعم حین حلولها، و أعذنا من الغفلهٔ و الغرور، و اجعلنا من الذین لا- یجزعون حین المصائب و الشدائد ..

... إنّک علیّ سمیع نهایهٔ تفسیر سورهٔ سبأ نهایهٔ المجلّد الثالث عشر

---

[۱] (۱)- مجمع البیان: ج ۸، ص ۳۱۲.

[۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۹۳.

[۳] (۱)- ضمير« يتّخذها» يعود إلى(آيات الكتاب) التى وردت فى الآيات السابقة. و احتمل البعض أنّه يعود إلى(السبيل).

لأنّ كلمة(السبيل) قد وردت فى آيات القرآن بصيغة المذكّر تارة، و بصيغة المؤنث تارة اخرى.

[۴] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۲۲۸ باب تحريم الغناء.

[۵] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۷، ص ۵۱۳۶.

[۶] (۲)- الحجّ، ۳۰.

[۷] (۳)- وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۲۲۵- ۲۲۷، ۲۳۱ باب تحريم الغناء.

[۸] (۴)- الفرقان، ۷۲.

[۹] (۵)- المصدر السابق.

[۱۰] (۶)- المصدر السابق.

[۱۱] (۱)- المصدر السابق.

[۱۲] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۲۲۵- ۲۳۰.

[۱۳] (۳)- المصدر السابق.

[۱۴] (۴)- سفينة البحار، ج ۲، صفحة ۳۳۸.

[۱۵] (۵)- الدرّ المنثور ذيل الآية مورد البحث.

[۱۶] (۶)- التاج، المجلّد، ج ۵، ص ۲۸۷.

[۱۷] (۷)- تفسير روح المعانى، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۸] (۱)- تفسير روح المعانى، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۹] (۱)- تفسير روح المعانى، الجزء ۲۱، صفحة ۶۰.

[۲۰] (۲)- وسائل الشيعة، الجزء ۱۲، صفحة ۲۳۵.

[۲۱] (۱)- تأثير الموسيقى على النفس و الأعصاب، صفحة ۲۶.

[۲۲] (۲)- يراجع المصدر السابق صفحة ۹۲ و ما بعدها.

[۲۳] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد ۲، صفحة ۲۷۸.

[۲۴] (۲)- إنّ الذين اعتبروا الآية أعلاه دليلا على نفى العمد مطلقا لا بدّ لهم من التقديم و التأخير فى الآية ليقولوا: إنّ أصل الجملة كانت: خلق السماوات ترونها بغير عمد، و هذا خلاف الظاهر قطعا.

[۲۵] (۳)-« تميد» من(الميد) أى تزلزل الأشياء و اضطرابها اضطرابا عظيما، و جملة(أن تميد بكم) فى تقدير: لئلّا تميد بكم.

[۲۶] (۱)- لمزيد الاطلاع حول فوائد الجبال راجع ذيل الآية(۳) من سورة الرعد.

[۲۷] (۱)- هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه هل يوجد لجملة(أن اشكر للّه) شىء مقدّر أم لا؟ فالبعض يعتقد أنّ جملة(قلنا له) مقدّرة قبلها، و البعض يقولون: لا تحتاج إلى تقدير، و(أنّ) فى جملة(أن اشكر) تفسيرية، لأنّ الشكر بنفسه عين الحكمة، و الحكمة عينه. و كلا التّفسيرين يمكن قبوله.

[۲۸] (۱)- أصول الكافى، ج ۲، ص ۱۳. كتاب العقل و الجهل حديث ۱۲.

[۲۹] (۲)- نور الثقلين، الجزء ۴، صفحة ۱۹۶.

[۳۰] (۱)- إنّ كلّا من(أن) و« اللام»، و كون الجملة اسميّة من أدوات التأكيد.

[۳۱] (۲)- إنّ جملة(وهنا على وهن) يمكن أن تكون حالا للام بتقدير كلمة« ذات»، فكان تقديرها(حملته أمّه ذات وهن على

وهن). و احتمل أيضا أن تكون مفعولا مطلقا لفعل مقدّر من مادّة(وهن) فكان تقديره:(تهن و هنا على وهن).

[۳۲] (۱)- البقرة، ۲۳۳.

[۳۳] (۱)- تفسير فى ظلال القرآن، الجزء ۶، ص ۴۸۴.

[۳۴] (۱)- قصص القرآن. شرح أحوال لقمان.

[۳۵] (۲)- مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث.

[۳۶] (۱)- مجمع البيان الجزء ۸ صفحة ۳۱۶ ذيل الآية مورد البحث.

[۳۷] (۲)- مجمع البيان. ذيل الآية مورد البحث.

[۳۸] (۳)- اصول الكافى، المجلّد الأوّل، صفحة ۱۳ كتاب العقل و الجهل.

[۳۹] (۱)- المصدر السابق.

[۴۰] (۲)- تفسير البيضاوى و الثعلبى، و لكن نقل فى مجمع البيان جزءه الأوّل فقط.

[۴۱] (۱) مجمع البيان بتلخيص.

[۴۲] (۱) احتمل البعض أنّ الضمير أعلاه ضمير الشأن و القصّة، أو يعود إلى مفهوم الشرك، و كلا الاحتمالين بعيد.

[۴۳] (۲) نور الثقلين، الجزء ۴، صفحة ۲۰۴.

[۴۴] (۱)« أنكر» أفعل التفضيل، و مع أنّه لا يأتى عادة فى مورد المفعول، إلّا أنّ هذه الصيغة وردت بصورة نادرة فى باب العيوب.

[۴۵] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۴۶] (۲) ثواب الأعمال و أمالى الصدوق، طبقا لنقل تفسير نور الثقلين، الجزء ۴، صفحة ۲۰۷.

[۴۷] (۱) المصدر السابق.

[۴۸] (۲) اصول الكافى، الجزء الثّانى، صفحة ۲۸ باب(أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها).

[۴۹] (۳) بحار الأنوار، ج ۷۶، صفحة ۵۷.

[۵۰] (۴) الوسائل، الجزء صفحة ۵۳۲.

[۵۱] (۵) المصدر السابق.

[۵۲] (۱) المصدر السابق.

[۵۳] (۲) بحار الأنوار، الجزء ۷۴، صفحة ۱۷۱.

[۵۴] (۳) اصول الكافى، الجزء ۲، باب حسن الخلق و ما بعده صفحة ۸۱، ۸۲.

[۵۵] (۴) المصدر السابق.

[۵۶] (۵) المصدر السابق.

[۵۷] (۶) بحار الأنوار، الجزء ۷۵، صفحة ۱۲۰.

[۵۸] (۱) بحار الأنوار، الجزء ۷۵، صفحة ۱۲۱.

[۵۹] (۱) اعتقد بعض المفسّرين كالآلوسى فى روح المعانى، و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، بأنّ هذه الآيات مرتبطة بالآيات التى سبقت مواعظ لقمان، حيث تخاطب المشركين\:i هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ E و تقول فى الآيات مورد البحث\:i أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ E. إلّا أنّ آخر هذه الآية و الآيات التى بعدها، و الروايات الواردة فى تفسيرها تتناسب مع عموميّة الآية.

[۶۰] (۲) كانت لنا بحوث اخرى حول تسخير الموجودات للإنسان فى ذيل الآية(۲) من سورة الرعد.

[۶۱] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۶۲] (۲) المصدر السابق.

[۶۳] (۱) اعتبر المفسّرون(لو) هنا شرطیة کالمعتاد، و جزاؤها محذوف، و التقدیر: لو کان الشیطان یدعوهم إلی عذاب السعیر أ یتبعونه.

[۶۴] (۱) تفسیر البرهان، الجزء ۳، صفحة ۲۷۹ ذیل الآیة مورد البحث.

[۶۵] (۲) لمزید الإیضاح راجع تفسیر البرهان، الجزء ۳، صفحة ۲۷۸ و ۲۷۹.

[۶۶] (۱) تفسیر البرهان، الجزء ۳، صفحة ۲۷۹.

[۶۷] (۱) تحدّثنا حول(علم اللّه المطلق) فی ذیل الآیة(۱۰۹) من سورة الکهف.

[۶۸] (۱) کان لنا بحث مفصّل حول تسخیر الشمس و القمر و الموجودات الاخری للإنسان فی ذیل الآیة(۲) من سورة الرعد، و الآیة(۳۲) من سورة إبراهیم.

[۶۹] (۲)« الباء» فی(بأنّ اللّه هو الحقّ) بالرغم من أنّها تبدو فی بادئ الأمر سببیة، و ربّما اعتبر بعض المفسّرین کالآلوسی فی روح المعانی مضمون هذه الآیة سببا للمطالب السابقة، إلّا أنّ سیاق الآیات و ذکر الصفات السابقة- أی الخالقیة و المالکیة و العلم و القدرة و علاماتها فی عالم الخلقة- ظاهر فی أنّها جمیعا کانت شاهدة علی هذه النتیجة، و بناء علی هذا، فإنّ محتوی هذه الآیة نتیجة للآیات السابقة لا سببا لها.

[۷۰] (۱)« الباء» فی(بنعمة اللّه) یمکن أن تکون باء السببیة، أو باء المصاحبة، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب.

[۷۱] (۱) تفسیر مجمع البیان، و القرطبی، و الفخر الرازی، و الصافی.

[۷۲] (۱)« مقتصد» من مادّة قصد، بمعنی الاعتدال فی العمل، و الوفاء بالعهد.

[۷۳] (۲) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث، و وردت هذه الحادثة فی(اسد الغابة فی معرفة الصحابة) ج ۴، صفحة ۵ بتفاوت یسیر.

[۷۴] (۱) الإسراء، ۵۱.

[۷۵] (۱) سورة طه، ۱۵.

[۷۶] (۲) صحیح أنّ جملة(ینزل الغیث) فی الآیات أعلاه لا تتحدّث عن مسألة علم اللّه- و لهذا السبب فإنّ البعض اعتبر هذه الجملة استثناء من بین هذه الجمل، و جعلها مبیّنة لقدرة اللّه لا علمه، إلّا أنّ انسجام الجمل الخمس مع بعضها من جهة، و الروایات المتعدّدة التی وردت فی نهج البلاغة و کتب اخری- و سنشیر إلیها قریبا- من جهة اخری، قرینة علی أنّها ترتبط بعلم اللّه أیضا.

[۷۷] (۳) تفسیر الدرّ المنثور، طبقا لنقل تفسیر المیزان، الجزء، ۱۶ صفحة ۲۴۱.

[۷۸] (۱) وردت جملة(تغرّ و تضرّ و تمرّ) فی شأن الدنیا فی نهج البلاغة فی باب الحکم القصار لأمیر المؤمنین علیه السّلام: ۴۱۵.

[۷۹] (۱) من لا یحضره الفقیه، وفقا لنقل نور الثقلین، المجلّد ۴، صفحة ۲۱۷.

[۸۰] (۲) نهج البلاغة، الحکم القصار، جملة ۱۳۱.

[۸۱] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۸۲] (۲) نهج البلاغة. الخطبة ۱۲۸.

[۸۳] (۱) اصول الکافی، المجلّد الأوّل، ص ۲۰۲ باب أنّ الأئمّة یعلمون متی یموتون.

[۸۴] (۲) اصول الکافی، المجلّد الثّانی، ص ۲۰۱ باب نادر فیه ذکر الغیب.

[۸۵] (۳) لدینا فی کتاب الکافی روایات عدیدة فی أنّ للّه علما لا یعلمه إلّا هو، و علما علّمه الملائکة و الأنبیاء و الأئمّة. المجلّد الأوّل، صفحة ۱۹۹ باب أنّ الأئمّة علیهم السّلام یعلمون جمیع العلوم التی خرجت إلی الملائکة.

[۸۶] (۱) مجمع البيان، الجزء ۸، صفحة ۳۲۴.

[۸۷] (۲) مجمع البيان، الجزء ۸، صفحة ۳۲۵.

[۸۸] (۱)-« تنزيل الكتاب» خبر لمبتدأ محذوف تقديره(هذا) و جملة\i لا رَيْبَ فِيهِ E صفته، و(من ربّ العالمين) صفة اخرى. و احتمل البعض أن تكون الجمل الثلاث أخبارا متعاقبة. إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب. و على كلّ حال فإنّ(تنزيل) مصدر جاء بمعنى اسم المفعول، و إضافته إلى الكتاب من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف. و يحتمل أيضا أن يكون المصدر بمعناه الأصلى و يؤدّى معنى المبالغة.

[۸۹] (۱)« أم» هنا بمعنى« بل»، و احتمل البعض أنّ فى الجملة تقديرا، و كانت فى الأصل: أ يعترفون به أم يقولون افتراه- تفسير« الفخر الرازى و أبى الفتوح-» إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا.

[۹۰] (۲) فاطر، ۲۴.

[۹۱] (۱) لفظ الجلالة فى هذه الجملة مبتدأ، و(الذى) خبره. و احتملت فى تركيب هذه الجملة احتمالات اخرى، من جملتها، أنّ لفظ الجلالة خبر لمبتدأ محذوف، أو أنّ لفظ الجلالة مبتدأ و خبره(ما لكم من دونه من ولى) إلّا أنّ هذين الاحتمالين لا يبدوان مناسبين بتلك الدرجة.

[۹۲] (۱) لمزيد التوضيح حول هذا الكلام راجع ذيل الآية(۵۴) من سورة الأعراف.

[۹۳] (۱) البقرة، ۲۵۵.

[۹۴] (۲) يونس، ۳.

[۹۵] (۱) طبقا للتعبير الأوّل فإنّ« السماء» بمعنى مقام القرب من اللّه، و طبقا للتعبير الثّانى فإنّ« السماء» تعنى نفس هذه السماء- تأمّلوا ذلك-.

[۹۶] (۱) الأنبياء، ۱۰۴.

[۹۷] (۱) سورة هود، ۱۲۳.

[۹۸] (۲) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۲۲۱، و تفسير الصافى ذيل الآية مورد البحث.

[۹۹] (۱)« البهائية و البابية».

[۱۰۰] (۲) سورة يس، ۸۲.

[۱۰۱] (۱) الشورى، ۱۳.

[۱۰۲] (۲) المائدة، ۴۴.

[۱۰۳] (۳) آل عمران، ۳.

[۱۰۴] (۱) سورة الصف، ۶.

[۱۰۵] (۱) البعض يعتبر هذه الآية إشارة إلى مراحل التكامل الجنينى فقط، و البعض الآخر احتمل أن تكون إشارة إلى مراحل تكامل آدم بعد خلقه من التراب، لأنّ عين هذه التعبيرات قد جاء فى آيات اخرى من القرآن. إلّا أنّه لا مانع من أن تعود إلى الإثنين، لأنّ خلق آدم من التراب، و نسله من منى، طوى و يطوى هذه المراحل.

[۱۰۶] (۲) بحثنا فى هذا الباب فى ذيل الآية(۲۹) من سورة الحجر.

[۱۰۷] (۱) سورة الإسراء، الآية ۶۱.

[۱۰۸] (۲) سورة الأنبياء، الآية ۳۰.

[۱۰۹] (۳) آل عمران، ۵۹.

[۱۱۰] (۱) سورة القيامة، ۳- ۶.

[۱۱۱] (۱) لمزيد الإيضاح حول شبهة(الآكل و المأكول) و جوابها المفصّل راجع التّفسير الأمثل، ذيل الآية(۲۶۰) من سورة البقرة.

[۱۱۲] (۱) الزمر، ۴۲.

[۱۱۳] (۲) النحل، ۲۸.

[۱۱۴] (۳)(لو) فى الآية الشريفة شرطية، شرطها جملة(و ترى ..) و جزاؤها محذوف، و التقدير:« و لو ترى إذ المجرمون ... لرأيت عجبا». و فى جملة(ربّنا أبصرنا) حذف تقديره: يقولون ربّنا أبصرنا.

[۱۱۵] (۱) مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، و تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۲۲۵.

[۱۱۶] (۲) تفسير الدرّ المنثور طبقا لنقل الميزان، الجزء ۱۶، صفحة ۲۵۵.

[۱۱۷] (۱) ينبغى الالتفات إلى أنّ الآية الاولى هى اولى السجدات الواجبة فى القرآن الكريم، و إذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعا لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الاحتياط فى وضع الجبهة على ما يصحّ السجود عليه.

[۱۱۸] (۲) يقول الراغب فى المفردات:(خرّوا) فى الأصل من مادّة الخرير، أى صوت الماء و أمثاله حين انحداره من مرتفع إلى منخفض، و استعماله هذا التعبير فى شأن الساجدين إشارة إلى أنّ هؤلاء ترتفع أصواتهم بالتسبيح فى لحظة هويّهم إلى الأرض للسجود.

[۱۱۹] (۳) سورة مريم، الآية ۵۸.

[۱۲۰] (۱)« تتجافى» من مادّة« جفا»، و هى فى الأصل بمعنى القطع و الحمل و الإبعاد، و(الجنوب) جمع جنب، و هو الجانب، و(المضاجع) جمع مضجع، و هو محل النوم، و إبعاد الجانب عن محلّ النوم كناية عن النهوض من النوم و التوجّه إلى عبادة اللّه فى جوف الليل.

[۱۲۱] (۱) نقل هذا الحديث كثير من المفسّرين، و من جملتهم الطبرسى فى مجمع البيان، و الآلوسى فى روح المعانى، و القرطبى فى تفسيره. و قد أورده المحدّثان المشهوران البخارى و مسلم فى كتبهما أيضا.

[۱۲۲] (۱) مجمع البيان. ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۲۳] (۲) مجمع البيان، ج ۲ ذيل الآية(۱۷۱) من آل عمران، و التّفسير الأمثل، ذيل نفس الآية.

[۱۲۴] (۱) أورد هذه الرواية العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان، و القرطبى فى تفسيره، و الفاضل البرسوئى فى روح البيان. و ممّا يستحقّ الانتباه أنّنا نقرأ فى كتاب(اسد الغابة فى معرفة الصحابة) أنّه لا خلاف بين المطلعين على تفسير القرآن و العالمين به فى أنّ آية\i إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ\E قد نزلت فى حقّ الوليد بن عقبة فى قصّة بنى المصطلق.

[۱۲۵] (۱)« المأوى» من مادّة(أوى) بمعنى انضمام شىء إلى شىء آخر، ثمّ قيلت للمكان و المسكن و المستقرّ.

[۱۲۶] (۱) الدرّ المنثور و أمالى الشيخ طبقا لنقل تفسير الميزان الجزء ۱۶ صفحة ۲۶۸.

[۱۲۷] (۱) اصول الكافى، الجزء ۲، باب دعائم الإسلام صفحة ۲۰ حديث ۱۵، و المصدر السابق.

[۱۲۸] (۲) مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث، و تفسير نور الثقلين، الجزء ۴، صفحة ۲۲۹.

[۱۲۹] (۱) كان لنا بحث آخر حول أهميّة صلاة الليل و طريقتها فى ذيل الآية(۷۹) من سورة الإسراء.

[۱۳۰] (۱) ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ مرجع الضمير فى(لقائه) إلى موسى، و بناء على هذا يصبح المعنى: لا شكّ يا محمّد بأنّك ستلتقى بموسى، و اعتبروا ذلك إشارة إلى لقائه به فى ليلة المعراج أو فى يوم القيامة. و هذا المعنى لا يبدو منسجما مع مفهوم الجملة. و قال البعض الآخر: إنّ الضمير يرجع إلى الكتاب، و المراد منه القرآن، أى: لا تدع أيّها النّبى للشكّ فى أنّ هذا القرآن وحى إلهى إلى نفسك سبيلا، و هذا المعنى و إن كان يتلائم مع آيات بداية السورة، إلّا أنّه لا يتلاءم كثيرا مع الجمل الاخرى الموجودة فى نفس

هـذه الآیـة. إضافة إلی أنّ الکتاب فی الآیة مورد البحث بمعنی التوراة، فلا ینسـجم معه عود الضـمیر إلی القرآن- و توجیه هذا المعنی بأنّ المراد مطلق الکتاب السماوی لا یقلّل من کونه خلاف الظاهر.

و قال بعض المفسّـرین: إنّ الضـمیر فی(لقائه) یعود إلی اللّه، و هذه الجملة إشارة إلی أنّه لا شکّ أبدا فی مسألة المعاد، و هذا المعنی و إن کان یتّفق و ینسجم مع الآیات السابقة، إلّا أنّه لا یتلاءم من أی وجه تقریبا مع نفس الآیة مورد البحث.

و من هنـا یتّضـح أنّ مـا ورد فی بعض التفاسـیر من أنّ الآیـة إشارة إلی التقاء خطّی و برنامجی موسـی و نبی الإسـلام، مطلب ذوقی لا یناسب المفهوم الواقعی لألفاظ الآیة، و بناء علی هذا فإنّ أوضح التفاسیر و أجلاها ما أوردناه أعلاه.

[۱۳۱] (۱) الکافی، المجلّد الأوّل، صفحة ۱۶۸ باب أنّ الأئمّة فی کتاب اللّه إمامان.

[۱۳۲] (۱) سورة یس، الآیة ۸۲.

[۱۳۳] (۲) تفسیر المیزان، المجلّد الأوّل، صفحة ۲۷۵.

[۱۳۴] (۱) اصول الکافی، الجزء ۲، صفحة ۷۲ باب الصبر باختصار قلیل.

[۱۳۵] (۱) فاعل(لم یهد) یفهم من جملة\ i کَمْ أَهْلَکْنا مِنْ قَبْلِهِمْ E و التقدیر: أو لم یهد لهم کثرة من أهلکنا.

[۱۳۶] (۱) ذکر أغلب المفسّـرین فی تفسـیر الآیـة مـا ذکرنـاه أعلاـه، إلّـا أنّ البعض احتمـل أن تکون جملـة\ i یَمْشُونَ E بیانا لحال المهلکین، أی أنّ أولئک الأقوام کانوا فی غفلة تامّة عن العذاب الإلهی، و کانوا یسیرون فی مساکنهم و یتنعّمون بها، إذ أتاهم عذاب اللّه بغتة و أهلکهم. إلّا أنّ هذا الاحتمال یبدو بعیدا.

[۱۳۷] (۱) مجمع البیان، المجلّد ۸، صفحة ۳۳۴. بدایة سورة الأحزاب.

[۱۳۸] (۲) المصدر السابق.

[۱۳۹] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث، و تفاسیر اخری.

[۱۴۰] (۱) تفسیر الفخر الرازی، المجلّد ۱۵، صفحة ۱۹۰ ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۴۱] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث، و تفسیر القرطبی.

[۱۴۲] (۱) تفسیر علی بن إبراهیم، طبقا لنقل نور الثقلین، المجلّد ۴، صفحة ۲۳۴.

[۱۴۳] (۱) سیأتی- إن شاء اللّه تعالی- توضیح أکثر حول المسائل المرتبطة بالظهار فی ذیل الآیات المناسبة فی سورة المجادلة.

[۱۴۴] (۱) تفسیر فی ظلال القرآن، المجلّد ۶، صفحة ۵۳۴، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۴۵] (۱) روح المعانی، المجلّد ۲۱، صفحة ۱۳۱ ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۴۶] (۲) روح البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۴۷] (۳) قال المفسّـرون: إنّ کلمـة(ما) هنا موصولـة، و هی من ناحیـة الإعراب مبتـدأ، و خبرها محـذوف، و تقدیر الجملة: لکن ما تعمّدت قلوبکم فإنّکم تؤاخذون علیه.

[۱۴۸] (۱) وردت هذه الروایات فی اصول الکافی، و کتاب علل الشرائع. راجع تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، صفحة ۲۳۸- ۲۳۹.

[۱۴۹] (۱) تفسیر فی ظلال القرآن، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۵۰] (۲) المصدر السابق.

[۱۵۱] (۳) صحیح البخاری، المجلّد ۶، صفحة ۱۴۵ تفسیر سورة الأحزاب، و مسند أحمد، الجزء ۲، صفحة ۳۳۴.

[۱۵۲] (۱) نقل هذا الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله فی وسائل الشیعة، الجزء ۷، صفحة ۵۵۱، و ورد هـذا المضـمون بتفـاوت یسیر فی تفسیر القرطبی، و روح المعـانی فی ذیل الآیات مورد البحث، و ورد أیضا فی صـحیح البخاری، المجلّد ۶، صفحة ۱۴۵ تفسیر سورة الأحزاب.

[۱۵۳] (۲) مجمع البيان، و روح المعانى، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۵۴] (۱) روح المعانى، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۵۵] (۱) بناء على هذا، فإنّ استدلال بعض الفقهاء بهذا التعبير على أولوية طبقات الإرث بالنسبة إلى بعضها البعض لا يبدو صحيحا، و ربّما سبّب حرف الباء فى(أولى ببعض) مثل هذا الاشتباه، فظنّوا أنّ المفضّل عليهم هنا هم البعض، فى حين أنّ القرآن الكريم ذكر صريحا أنّ المفضّل عليهم هم من المؤمنين و المهاجرين.

نعم .. إنّ تعبير(أولو الأرحام) لا يستطيع أن يشعر بمفرده أنّ المعيار هو الرحم و القرابة، و أنّ درجة القرابة كلّما قويت و ارتفعت فستكون أحقّ بالتقدّم- لاحظوا ذلك-.

[۱۵۶] (۲) يعتقد جمع من المفسّرين أنّ الاستثناء فى جملة(إلّا أن تفعلوا ..) استثناء منقطع، لأنّ حكم الوصيّة غير حكم الإرث، و لكنّا نعتقد أن لا مانع من أن يكون الاستثناء هنا متّصلا، لأنّ جملة(و أولو الأرحام ...) دليل على أن الأقارب أولى من الأجانب بالنسبة إلى الأموال التى يتركها الميّت، إلّا أن يكون قد أوصى، فإنّ الموصى له يكون حينئذ أولى من الأرحام فى إطار الثلث، و هذا فى الحقيقة شبيه بالاستثناءات التى وردت فى آيات الإرث بصيغة(من بعد وصيّة ...).

[۱۵۷] (۱) أخرج هذه الأحاديث العلّامة السيّد هاشم البحرانى فى تفسير البرهان، المجلّد ۳، صفحة ۲۹۲- ۲۹۳، و من جملتها الحديث أعلاه، و الحديث(۱۶) من سلسلة الأحاديث هذه.

[۱۵۸] (۱) الميثاق- كما يقول الراغب فى مفرداته- هو العقد المؤكّد بيمين و عهد، و بناء على هذا فإن ذكر(غليظا) فى الآية تأكيد يضاف على هذا المعنى.

[۱۵۹] (۱) احتمل جمع من المفسّرين احتمالا آخر فى معنى هذه الآية، و هو أنّ المراد من« الصادقين» هنا هم الأنبياء، حيث يسألون يوم القيامة عن مدى قيامهم و وفائهم بعهدهم و ميثاقهم؟ إلّا أنّ الشواهد الثلاثة التى ذكرناها أعلاه تنفى هذا التّفسير.

و احتمل أيضا أن يكون المراد أعمّ من الأنبياء و المؤمنين، إلّا أنّ التّفسير الذى ذكر أعلاه أكثر انسجاما مع آيات هذه السورة و سائر آيات القرآن.

[۱۶۰] (۱) ما ذكرناه أعلاه كان اختصارا لبحث مفصّل أورده المؤرخّون، و من جملتهم ابن الأثير فى الكامل.

[۱۶۱] (۱) لمزيد الإيضاح فى هذا الباب راجع التّفسير الأمثل ذيل الآية(۹) من سورة الأنفال.

[۱۶۲] (۱) آل عمران، الآية ۱۵۴.

[۱۶۳] (۲) فسر جمع من المفسرين(الظنون) هنا بالمعنى الأعم من الظن السيء و الحسن، إلا أن القرائن الموجودة فى هذه الآية و الآية التالية تبين أن المراد من الظنون هنا السيئة منها.

[۱۶۴] (۱)

\i\i الكامل لابن الأثير، الجزء ۲، صفحة ۱۷۹. و ورد هذا الحادث بتفاوت يسير فى سيرة ابن هشام\E،\ و هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال: أمّا الاولى فإنّ اللّه فتح على بها اليمن، و أمّا الثّانية فإنّ اللّه فتح علىّ بها الشام و المغرب، و أمّا الثالثة فإنّ اللّه فتح علىّ بها المشرق». و هذا الترتيب ينسجم مع التسلسل التاريخى لفتح هذه المناطق الثلاث\E.\

[۱۶۵] (۲) البقرة، الآية ۱۰.

[۱۶۶] (۱) مجمع البيان، المجلّد ۸، صفحة ۳۴۶.

[۱۶۷] (۱) تفسير القرطبى، و تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۶۸] (۲) نقل هذا القول الآلوسى فى روح المعانى.

[۱۶۹] (۱) آل عمران- ۱۵۴.

[۱۷۰] (۱)« أشحّة» جمع شحيح، من مادّة(الشحّ)، أى البخل المقترن بالحرص، و محلّ الكلمة من الإعراب هنا برأى أكثر المفسّرين(حال)، لكن ذلك لا ينافى أن تكون حالا فى مقام بيان العلّة. تأمّلوا ذلك.

[۱۷۱] (۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، فصل الغرائب جملة ۹.

[۱۷۲] (۱)- مفردات الراغب، و مجمع البيان، و لسان العرب مادّة نحب.

[۱۷۳] (۲) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۷۴] (۳) أورد هذه الرّوايات بتفاوت يسير أصحاب تفاسير القرطبى و فى ظلال القرآن، و مجمع البيان فى كتبهم.

[۱۷۵] (۴) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۷۶] (۱) تفسير الصافى ذيل الآية مورد البحث.

[۱۷۷] (۲) نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۲۵۹.

[۱۷۸] (۱) تفسير الميزان، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۷۹] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۲۰، صفحة ۲۱۵، و نقل هذا الحديث عن الكراجكى.

[۱۸۰] (۱) التاريخ الكامل لابن الأثير الجزء ۲ صفحة ۱۸۴.

[۱۸۱] (۲) بحار الأنوار، الجزء ۲۰، صفحة ۲۲۸.

[۱۸۲] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۲۰، صفحة ۲۱۵، ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة، المجلّد ۴، صفحة ۳۴۴ طبقا لنقل إحقاق الحقّ، الجزء ۶، صفحة ۹.

[۱۸۳] (۲) بحار الأنوار الجزء ۲۰ صفحة ۲۱۶.

[۱۸۴] (۱) مستدرك الحاكم، الجزء ۳، صفحة ۳۲.

[۱۸۵] (۲) اعتمدنا فى هذا الجانب على كتب: إحقاق الحقّ، بحار الأنوار، المجلّد ۶، بحار الأنوار، المجلّد ۲۰، تفسير الميزان، المجلّد ۱۶.

[۱۸۶] (۱) سيرة ابن هشام، المجلّد ۳، صفحة ۲۴۰ باختصار.

[۱۸۷] (۱) بحار الأنوار، ج ۲۰، صفحة ۲۰۸.

[۱۸۸] (۱) إحتجاج الطبرسى طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۴، ص ۲۵۵.

[۱۸۹] (۲) وسائل الشيعة، المجلّد ۱، صفحة ۳۵۶.

[۱۹۰] (۱) الخصال، طبقا لنقل نور الثقلين، المجلّد ۴، ص ۲۵۷.

[۱۹۱] (۲) سفينة البحار، المجلّد ۱، صفحة ۴۸۴.

[۱۹۲] (۳) المصدر السابق.

[۱۹۳] (۱) سفينة البحار، المجلّد ۱، ص ۴۸۶.

[۱۹۴] (۲) كان لنا بحث آخر حول أهميّة ذكر اللّه و مفهومه ذيل الآية(۱۲۰) من سورة الرعد.

[۱۹۵] (۱) الكامل لابن الأثير، المجلّد ۲، صفحة ۱۳۷- ۱۷۳.

[۱۹۶] (۱) سورة التوبة، الآية ۱۰۲.

[۱۹۷] (۲) سيرة ابن هشام، المجلّد ۳، صفحة ۲۴۴ و ما بعدها، و الكامل لابن الأثير، ج ۲، ص ۱۸۵ و ما بعدها بتلخيص.

[۱۹۸] (۱) كنز العرفان، المجلّد ۲، ص ۲۳۸.

[۱۹۹] (۱) طالع التوضيح الأكثر فى هذا الباب فى الكتب الفقهية، و خاصة كتاب الجواهر، المجلّد ۲۹، صفحة ۱۲۲ و ما بعدها.

[۲۰۰] (۱) المفردات للراغب، مادّة قنوت.

[۲۰۱] (۱) اصول الکافی، المجلد الأول، ص ۳۷ باب لزوم الحجة علی العالم.

[۲۰۲] (۲) اصول الکافی، الجزء الأول، صفحة ۹ کتاب العقل و الجهل.

[۲۰۳] (۳) المصدر السابق.

[۲۰۴] (۱) اصول الکافی، المجلّد الأوّل، صفحة ۳۸ باب لزوم الحجّة علی العالم، و الآیة(۱۷) من سورة النساء.

[۲۰۵] (۲) مجمع البیان، المجلّد ۸، صفحة ۳۵۴ ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۰۶] (۱) طبعا یکون فعل الأمر(أقررن) فی صورة کونها من مادّة القرار، و حذفت الراء الاولی للتخفیف، و انتقلت فتحة الراء إلی القاف، و مع وجودها لا نحتاج إلی الهمزة، و تصبح(قرن)- تأمّلوا جیّدا-

[۲۰۷] (۱) ذکر الراغب فی مفرداته، فی مادّة(رجس) المعنی المذکور أعلاه، و أربعة أنواع کمصادیق له.

[۲۰۸] (۱) ما ذکره البعض من أنّ« البیت» هنا إشارة الی بیت اللّه الحرام، و أهله هم« المتّقون» لا یتناسب مطلقا مع سیاق الآیات. لأنّ الکلام فی هذه الآیات عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أزواجه، لا عن بیت اللّه الحرام، و لا یوجد أیّ دلیل علی قولهم.

[۲۰۹] (۱) روی الطبرسی فی مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث، هذا الحدیث بهذا المضمون بطرق متعدّدة عن أمّ سلمة. راجع شواهد التنزیل، للحاکم الحسکانی، المجلّد ۲، صفحة ۵۶ و ما بعدها.

[۲۱۰] (۱) مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۱۱] (۲) شواهد التنزیل، المجلّد ۲، صفحة ۳۱ و ما بعدها.

[۲۱۲] (۳) الدرّ المنثور ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۱۳] (۱) شواهد التنزیل، المجلّد ۲، صفحة ۱۱.

[۲۱۴] (۲) الدرّ المنثور، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۱۵] (۳) شواهد التنزیل، الجزء ۲، صفحة ۲۵.

[۲۱۶] (۱) یراجع الجزء الثّانی، من إحقاق الحقّ و هوامشه.

[۲۱۷] (۲) یراجع المجلّد الثّانی، من شواهد التنزیل، صفحة ۱۰- ۹۲.

[۲۱۸] (۳) الإستیعاب، و صحیح البخاری، و صحیح مسلم. طبقا لنقل المراجعات صفحة ۲۲۹ الرسالة ۷۲.

[۲۱۹] (۱) اصول الکافی، المجلد الثانی، صفحة ۲۱ باب أن الإیمان یشرک الإسلام.

[۲۲۰] (۲) المحجة البیضاء، المجلد ۵، ص ۱۹۳.

[۲۲۱] (۱) تفسیر مجمع البیان و تفسیر القرطبی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۲۲] (۲) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۲۳] (۱) کان لنا بحث آخر فی هذا المجال فی ذیل الآیة(۲۲۸) من سورة البقرة، و کذلک ورد بحث آخر فی ذیل الآیة(۹۷) من سورة النحل.

[۲۲۴] (۱) اقتباس من تفسیر مجمع البیان، و القرطبی، و المیزان، و الفخر الرازی، و فی ظلال القرآن، و تفاسیر اخری فی ذیل الآیات مورد البحث، و کذلک سیرة ابن هشام، المجلّد الأوّل، صفحة ۲۶۴، و الکامل لابن الأثیر، المجلّد الثّانی، صفحة ۱۷۷.

[۲۲۵] (۱) الکامل لابن الأثیر، المجلد ۲، ص ۱۷۷. و مما یستحق الالتفات أن زواج النبی صلی الله علیه و آله من زینب قد تم فی السنة الخامسة للهجرة، المصدر السابق.

[۲۲۶] (۱) المائدة، ۵۴.

[۲۲۷] (۲) البقرة، ۱۲۰.

[۲۲۸] (۱) يروى المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: فتزوّجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله ... و ما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها، ذبح شاة، و أطعم الناس الخبز و اللحم حتّى امتدّ النهار. مجمع البيان، ج ۸، ص ۳۶۱.

[۲۲۹] (۱) النور، ۵۱.

[۲۳۰] (۲) النساء، ۶۵.

[۲۳۱] (۳) النساء، ۱۲۵.

[۲۳۲] (۱) لقد أوردنا بحثا آخر فى هذا الباب فى ذيل الآية(۶۵) من سورة النساء.

[۲۳۳] (۱) مجمع البحرين مادّة خشى.

[۲۳۴] (۱) مجمع البيان، المجلّد ۸، صفحة ۵۲۱ ذيل الآية(۲۸) من سورة المؤمن.

[۲۳۵] (۱) الكافى، طبقا لنقل البحار، الجزء ۲۱، صفحة ۳۶۱.

[۲۳۶] (۱) تفسير القرطبى، و تفسير الميزان ذيل الآية مورد البحث.

[۲۳۷] (۱) لسان العرب، و قاموس اللغة مادّة ختم: الخاتم ما يوضع على الطينة.

[۲۳۸] (۲) أورد هذا الخبر أيضا البيهقى فى سننه، المجلّد ۱۰، ص ۱۲۸.

[۲۳۹] (۳) سفينة البحار، المجلّد ۱، صفحة ۳۸۶.

[۲۴۰] (۴) الطبقات الكبرى، المجلّد ۱، صفحة ۲۵۸.

[۲۴۱] (۱) سورة يس، ۶۵.

[۲۴۲] (۲) سورة البقرة، ۷.

[۲۴۳] (۱) سورة الفرقان- ۱.

[۲۴۴] (۲) سورة سبأ، ۲۸.

[۲۴۵] (۳) سورة الأعراف، ۱۵۸.

[۲۴۶] (۴) بحار الأنوار، المجلّد الثّانى، صفحة ۲۶۰ باب ۳۱ حديث ۱۷.

[۲۴۷] (۵) اصول الكافى، المجلّد الأوّل، باب البدع و الرأى و المقاييس حديث ۱۹.

[۲۴۸] (۱) روى هذا الحديث محبّ الدين الطبرى فى ذخائر العقبى: ص ۷۹ طبعة مكتبة القدس، و ابن حجر فى الصواعق المحرقة، ص ۱۷۷ طبعة مكتبة القاهرة، و فى تاريخ بغداد، المجلّد ۷، ص ۴۵۲ طبعة السعادة، و كتب اخرى ككنز العمّال، و منتخب كنز العمال، و ينابيع المودّة.

لمزيد الإيضاح حول حديث المنزلة راجع هذا التّفسير ذيل الآية(۱۴۴) من سورة الأعراف.

[۲۴۹] (۲) صحيح مسلم، الجزء ۴، ص ۱۷۹۰- ۱۷۹۱ باب ذكر كونه صلّى اللّه عليه و آله خاتم النبيّين من كتاب الفضائل.

[۲۵۰] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۲۱، ص ۳۸۱.

[۲۵۱] (۲) اصول الكافى، المجلّد الأوّل.

[۲۵۲] (۳) معالم النبوّة. فصل نصوص كونه صلّى اللّه عليه و آله خاتما.

[۲۵۳] (۱) طبعا يوجد فى الإسلام موضوعات تشبه الضمان فى حدود خاصّة، كمسألة ضمان الجريرة، أو تعلّق ديّة الخطأ المحض بالعاقلة، إلّا أنّ لها مجرّد شبه بالمسألة كما قلنا.

[۲۵۴] (۱) مفاتيح الغيب، ص ۴۱- ۴۲.

[۲۵۵] (۱) الدرّ المنثور، طبقا لنقل الميزان، المجلّد ۱۶، صفحة ۳۵۳.

[۲۵۶] (۱) سورة ص- ۸۲، ۸۳.

[۲۵۷] (۱) الكافى، المجلّد الثّانى، كتاب الدعاء. باب ذكر اللّه عزّ و جلّ كثيرا.

[۲۵۸] (۲) المصدر السابق.

[۲۵۹] (۳)- المصدر السابق.

[۲۶۰] (۱) المصدر السابق.

[۲۶۱] (۲) خصال الصدوق، طبقا لنقل تفسير الميزان، المجلّد ۱۶، صفحة ۳۵۳.

[۲۶۲] (۱) التّفسير الكبير للفخر الرازى ذيل الآية مورد البحث.

[۲۶۳] (۱) التوبة، ۱۰۵.

[۲۶۴] (۲) النساء، ۴۱.

[۲۶۵] (۳) لقد أوردنا بحثا مفصّلا فى هذا الباب تحت عنوان أصلان تربويان مهمّان، فى ذيل الآية(۱۱۹) من سورة البقرة.

[۲۶۶] (۱) يحتمل أيضا أنّ قيد(بإذنه) يعود إلى جميع الأوصاف السابقة، إلّا أنّ ظاهر الآية هو أنّ الضمير يعود إلى مسألة الدعوة إلى اللّه.

[۲۶۷] (۱) الأنعام، ۱۶۰.

[۲۶۸] (۲) البقرة، ۲۶۱.

[۲۶۹] (۳) الم السجدة، ۱۷.

[۲۷۰] (۱) كالآية(۲۴۱) من سورة البقرة، و وردت روايات متعدّدة فى هذا الباب ذكرت فى وسائل الشيعة، الجزء ۱۵، ص ۵۹ الباب ۵۰ من أبواب المهور من كتاب النكاح، و من جملتها ما
\i'\i ورد عن على عليه السّلام E« لكلّ مطلّقة متعة إلّا المختلعة\».E

[۲۷۱] (۲) البقرة، ۲۳۶.

[۲۷۲] (۱) ذكر بعض المفسّرين وجوها أوردها« الفاضل المقداد» فى كنز العرفان، فى أنّه لماذا ورد العمّ بصيغة المفرد و العمّات بصيغة الجمع، و كذلك الخال بصيغة المفرد و الخالات بصيغة الجمع، إلّا أنّ أفضلها هو أنّ العمّ و الخال يستعملان كاسم للجنس فى لغة العرب، و ليس كذلك العمّات و الخالات، و قد ذكر ابن العربى عرف أهل اللغة هذا(كنز العرفان، المجلّد ۲، ص ۲۴۱).
و قد رجّح الآلوسى هذا الاحتمال فى روح المعانى على كلّ الوجوه الاخرى.

[۲۷۳] (۱) مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، و فى تفسير القرطبى جملة:(و اللّه ما أرى بك إلّا يسارع فى هواك). و أوردها الآلوسى فى روح المعانى أيضا فى ذيل الآية مورد البحث. إنّ قبح هذا التعبير، و المعنى الذى اخفى فيه لا يخفى على أحد، إلّا أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يمرّ عليه و يتجاوزه بشكل رائع.

[۲۷۴] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۲۲، صفحة ۱۹۱- ۱۹۲.

[۲۷۵] (۲) المصدر السابق.

[۲۷۶] (۱) اقتباس من مجمع البيان و تفاسير اخرى.

[۲۷۷] (۱) تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۲۹۴- ۲۹۵.

[۲۷۸] (۱) كنز العرفان، المجلّد ۲، صفحة ۲۴۴.

[۲۷۹] (۱) تفسير القرطبى، المجلّد ۸ صفحة ۵۳۰۳.

[۲۸۰] (۲) وسائل الشيعة، المجلّد ۱۴، الباب ۳۶ من أبواب مقدّمات النكاح الحديث ۳.

[۲۸۱] (۱) مجمع البيان، المجلّد ۸ صفحة ۳۶۶ ذيل الآية مورد البحث.

[۲۸۲] (۲) المصدر السابق، ص ۳۶۶ و ۳۶۸.

[۲۸۳] (۱)« إناه» من مادّة« أنّى يأنى» أى حلول وقت الشيء، و تعنى هنا تهيئة الطعام للتناول.

[۲۸۴] (۲) الكافى، المجلّد ۵، ص ۵۲۸.

[۲۸۵] (۱) لسان العرب مادّة حجب.

[۲۸۶] (۱) صحيح البخارى، ج ۶، ص ۱۴۹.

[۲۸۷] (۲) المصدر السابق.

[۲۸۸] (۱) تفسير القرطبى، المجلّد ۸، صفحة ۵۳۱۰.

[۲۸۹] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۶۰ باب ۹۳ حديث ۱۴.

[۲۹۰] (۲) المصدر السابق.

[۲۹۱] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۳.

[۲۹۲] (۲) المحجّة البيضاء، المجلّد ۳، صفحة ۲۹ الباب الثالث.

[۲۹۳] (۳) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۱.

[۲۹۴] (۴) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۵.

[۲۹۵] (۵) المصدر السابق.

[۲۹۶] (۱) المحجّة البيضاء، المجلّد ۳، صفحة ۳۰.

[۲۹۷] (۲) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۵ حديث ۲۷.

[۲۹۸] (۳) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۱.

[۲۹۹] (۱) ذكر المؤرخّون ثلاثة أولاد للنبى صلّى اللّه عليه و آله: القاسم و عبد اللّه(الملقّب بالطيّب و الطاهر)، و كانا من خديجة، و قد ودّعا الحياة فى طفولتهما، و إبراهيم الذى ولد فى السنة الثامنة للهجرة، و لم يعش أكثر من ۱۸ أو ۱۶ شهرا و لم يكن أى منهم حيّا عند نزول سورة الأحزاب، و إبراهيم ولد بعد ذلك و مات فى طفولته. يراجع: اسد الغابة، و سائر كتب التأريخ و الرجال.

[۳۰۰] (۱) يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية(۳۱) من سورة النور.

[۳۰۱] (۱) الطريف أنّ البدء بهذه الآيات صادف ليلة ميلاد النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى شهر ربيع الأوّل سنة الف و أربعمائة و أربع للهجرة.

[۳۰۲] (۱) أورد الراغب هذا المعنى بعبارات اخرى فى المفردات.

[۳۰۳] (۲) مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

[۳۰۴] (۱) المصدر السابق. و روى الحديث الثّانى فى كتب الفريقين بطرق متعدّدة، و بعبارات قريبة الألفاظ.

[۳۰۵] (۱) تفسير الدرّ المنثور ذيل الآية مورد البحث، طبقا لتفسير الميزان، ج ۱۶، صفحة ۳۴۴.

[۳۰۶] (۲) صحيح البخارى، المجلّد ۶، صفحة ۱۵۱.

[۳۰۷] (۳) صحيح مسلم، المجلّد ۱، صفحة ۳۰۵ باب الصلاة على النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

[۳۰۸] (۴) الصواعق المحرقة، صفحة ۱۴۴.

[۳۰۹] (۱) أورد العلّامة الحلّى هذا القول فى بحث التشهّد من التذكرة- إضافة إلى كلّ علماء الشيعة- عن الإمام أحمد و بعض

الشافعية.

[۳۱۰] (۲) ذكر العلّامة الأميني في كتاب« الغدير» النفيس نسبة هذه الأشعار إلى الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني و جماعة آخرين.

[۳۱۱] (۱) صحيح البخاري، الجزء ۵، صفحة ۲۶.

[۳۱۲] (۲) صحيح مسلم، المجلّد ۴، صفحة ۱۹۰۳ باب فضائل فاطمة.

[۳۱۳] (۳) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

[۳۱۴] (۱) أصول الكافي، المجلّد ۲، صفحة ۳۵.

[۳۱۵] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۱۹۴.

[۳۱۶] (۱) تفسير القمّي ج ۲ ص ۱۹۶.

[۳۱۷] (۲) المصدر السابق طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۰۷.

[۳۱۸] (۱) لسان العرب، مجمع البحرين، مفردات الراغب القطر المحيط، و تاج العروس.

[۳۱۹] (۲) كان لنا بحث حول فلسفة الحجاب و أهميّته، و كذلك حول استثناء الوجه و الكفّين في ذيل الآيتين ۳۱ و ۳۲ من سورة النور.

[۳۲۰] (۱)(قليلا) هنا مستثنى من محذوف، و التقدير: لا يجاورونك زمانا إلّا زمانا قليلا.

[۳۲۱] (۱) إنّ الألف في« الرسولا» و« السبيلا» هي ألف الإطلاق، و لتناسق آخر الآيات، و إلّا فإنّ التنوين لا يجتمع مع الألف و اللام مطلقا.

[۳۲۲] (۱) ممّا يستحقّ الانتباه أنّه قد ورد« الضعفان» في الآيات مورد البحث، و« الضعف» في آية سورة الأعراف، إلّا أنّه بالتدقيق في معنى الضعف يتّضح أنّ لكليهما معنى واحدا.

[۳۲۳] (۱) نور الثقلين، المجلّد ۴، ص ۳۰۸.

[۳۲۴] (۲) نور الثقلين، المجلّد ۴، ص ۳۰۹.

[۳۲۵] (۱) سورة هود، الآية ۱۱۴.

[۳۲۶] (۲) عد الغزالي في إحياء العلوم عشرين كبيرة أو معصية تصدر عن اللسان، و هي: ۱- الكذب ۲- الغيبة ۳- النميمة ۴- النفاق في الكلام، أي كون الإنسان ذا لسانين و وجهين ۵- المدح في غير موضعه ۶- بذاءة الكلام ۷- الغناء و الأشعار غير المرضية ۸- الإفراط في المزاح ۹- السخرية و الاستهزاء ۱۰- إفشاء أسرار الآخرين ۱۱- الوعد الكاذب ۱۲- اللعن في غير موضعه ۱۳- التخاصم و النزاع ۱۴- الجدال و المراء ۱۵- البحث في امور الباطل ۱۶- الثرثرة ۱۷- البحث في الأمور التي لا تعني الإنسان ۱۸- وصف مجالس الشراب و القمار و المعصية ۱۹- السؤال عن المسائل الخارجة عن إدراك الإنسان و البحث فيها ۲۰- التصنع و التكلف في الكلام.

و نزيد عليها عشرة مواضيع مهمة اخرى، و هي: ۱- الاتهام ۲- شهادة الزور ۳- إشاعة الفحشاء، و نشر الإشاعات التي لا أساس لها ۴- مدح الإنسان نفسه ۵- الإصرار في غير محله ۶- الغلظة و الخشونة في الكلام ۷- الأذى باللسان ۸- ذم من لا يستحق الذم ۹- كفران النعمة اللسان ۱۰- الإعلام الباطل.

[۳۲۷] (۳) بحار الأنوار، المجلد ۷۱، صفحة ۷۸.

[۳۲۸] (۴) بحار الأنوار، المجلد ۷۱، صفحة ۲۷۸.

[۳۲۹] (۱) الدرّ المنثور، طبقا لنقل تفسير الميزان، الجزء ۱۶، صفحة ۳۷۶.

[۳۳۰] (۱) تفسير البرهان، المجلّد ۳، صفحة ۳۴۱ ذيل الآية مورد البحث.

[۳۳۱] (۲) المصدر السابق.

[۳۳۲] (۱) الأعراف، ۲۳.

[۳۳۳] (۱) اتّضح ممّا قلناه فی تفسیر الآیة أن لا حاجة مطلقا إلی أن نقدر شیئا فی الآیة، کما قال ذلک جمع من المفسّرین، ففسّروا الآیة بأنّ المراد من عرض أمانة اللّه علی السماء و الأرض و الجبال هو عرضها علی أهلها، أی الملائکة! و لذلک قالوا بأنّ أولئک الذین أبوا أن یحملوها قد أدّوها، و أولئک الذین حملوها خانوها.

إنّ هذا التّفسیر لیس مخالفا لظاهر الآیة من ناحیة الاحتیاج إلی التقدیر و حسب، بل یمکن أن یناقش و یورد علی اعتقاده بأنّ علی الملائکة نوع تکلیف، و أنّها حاملة لجزء من هذه الأمانة. و بغضّ النظر عن کلّ ذلک فإنّ تفسیر أهل الجبال بالملائکة لا یخلو من غرابة، دقّقوا ذلک.

[۳۳۴] (۱) مجمع البیان، بدایة سورة سبأ، المجلّد ۸، صفحة ۳۷۵.

[۳۳۵] (۲) المصدر السابق.

[۳۳۶] (۱) فاطر، ۳۴.

[۳۳۷] (۲) یونس، ۱۰

[۳۳۸] (۱)« یعزب»: من مادة« عزوب» و تعنی المتباعد فی طلب الکلأ عن أهله، یقال عزب یعزب و یعزب ثمّ اطلق علی کلّ غائب، یقال رجل عزب، و امرأة عزبة إذا غاب عنها زوجها.

[۳۳۹] (۱) النمل، ۱۵.

[۳۴۰] (۲) النمل، ۱۶.

[۳۴۱] (۱) المیزان، ج ۱۶، ص ۳۶۷.

[۳۴۲] (۲) انظر تفسیر البرهان، ج ۳، ص ۳۴۳. و تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۱۵.

[۳۴۳] (۳) مجمع البیان- ج ۸ ص ۳۸۱.

[۳۴۴] (۱) راجع تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۹، ص ۱۹۲.

[۳۴۵] (۲) مجمع البیان، ج ۸، ص ۳۸۲.

[۳۴۶] (۱)« لسلیمان» جار و مجرور متعلّق بفعل مقدّر تقدیره« سخّرنا» کما یفهم بقرینة الآیات السابقة، و قد صرّح بذلک فی الآیة(۳۶) من سورة ص. التی قال فیها سبحانه و تعالی\:i فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّیحَ E. و بعض المفسّرین یعتقد بأنّ(اللام) فی(لسلیمان) للتخصیص، إشارة إلی أنّ المعجزة اختصّ بها سلیمان و لم یشارکه فیها أحد من الأنبیاء.

[۳۴۷] (۱) مفردات الراغب، مادّة(حرب).

[۳۴۸] (۲) المصدر السابق.

[۳۴۹] (۱) وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۲۱۹- ۲۲۰، ب ۹۴، ح ۱.

[۳۵۰] (۱)« منسأته»: من مادّة(نسأ) و هو التأخیر فی الوقت، و المنسأة: عصا ینسأ بها الشیء، أی یؤخّر. قال بعض المفسّرین: إنّ هذه اللفظة من کلمات أهل الیمن، و بما أنّ سلیمان علیه السّلام حکم تلک المنطقة فقد استخدمها القرآن حین حدیثه عن ذلک النّبی. راجع مفردات الراغب و تفسیر القرطبی و روح البیان.

[۳۵۱] (۱) فی الحالة الاولی یکون إعراب الآیة کما یلی:« تبیّنت» فعل و« الجنّ» فاعل و جملة« أن لو کانوا ...» فی محل مفعول به، و فی الحالة الثّانیة« تبیّنت» فعل و« أمر الجنّ» فاعل ثمّ حذف المضاف و أصبح« المضاف إلیه» فی محلّه، و أن لو کانوا ... بیان و توضیح للجملة.

[۳۵۲] (۱) علل الشرائع، طبقا لنقل الميزان، ج ۱۶، ص ۳۶۶.

[۳۵۳] (۱) تفسير البرهان، ج ۳، ص ۳۴۵.

[۳۵۴] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۲.

[۳۵۵] (۱) النمل، ۳۶.

[۳۵۶] (۲) النمل، ۱۹.

[۳۵۷] (۳) النمل- ۱۸.

[۳۵۸] (۴) سورة ص، ۳۲.

[۳۵۹] (۱) التوراة كتاب الملوك الأوّل- الفصل ۱۱- ۱۲- زوجات سليمان.

[۳۶۰] (۱) تفسير الميزان، ج ۴، ص ۳۸.

[۳۶۱] (۱) الكافى، ج ۲، باب الشكر، ص ۹۵، ح ۱۲ و ح ۱۰.

[۳۶۲] (۲) المصدر السابق.

[۳۶۳] (۳) الكافى، ج ۲، باب الشكر، ص ۹۸، ح ۲۷.

[۳۶۴] (۴) الكافى، ج ۲، باب الشكر، ص ۹۹، ح ۳۰.

[۳۶۵] (۱) مجمع البيان، ج ۸، ص ۳۸۵- ۳۸۶.

[۳۶۶] (۱)« بلدة»: خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: هذه بلدة طيّبة و هذا ربّ غفور.

[۳۶۷] (۲) يمكن أن يكون هذا الخطاب الإلهى لهؤلاء القوم على أحد احتمالين، فإمّا أن يكون قد أبلغ ذلك بواسطة الأنبياء المبعوثين منهم، كما قال به بعض المفسّرين، أو أنّ هذه النعم كانت توصل إلى إدراكهم مثل هذا الخطاب.

[۳۶۸] (۱) لسان العرب مادّة« عرم» ج ۱۲، ص ۳۹۶.

[۳۶۹] (۱) نقل هذا المثل على صورتين« تفرّقوا أيدى سبأ» و« أيادى سبأ»، ففى الشكل الأوّل إشارة إلى التمزّق البشرى، و الشكل الثّانى إشارة إلى تمزّق الأموال و النعم و الإمكانات، لأنّ« أيادى» عادة تستعمل بمعنى النعم.

[۳۷۰] (۲) تفسير القرطبى و تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآيات مورد البحث.

[۳۷۱] (۱) اقتباس من تفسير مجمع البيان و قصص القرآن و تفاسير اخرى.

[۳۷۲] (۱) النمل، ۱۹

[۳۷۳] (۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار.

[۳۷۴] (۲) إبراهيم، ۲۲.

[۳۷۵] (۳) على هذا المعنى الذى ذكرناه فى تفسير الآية، فإنّ الاستثناء هنا« استثناء متّصل» بقرينة ما ورد فى الآية(۴۲) من سورة الحجر\:i إِنَّ عِبادِی لَیسَ لَکَ عَلَیهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ E، بلحاظ أنّ ظاهر هذه الآية أنّ للشيطان سلطة على الغاوين- طبعا بعض المفسّرين احتملوا أن يكون« الاستثناء منقطعا أيضا».

[۳۷۶] (۱) فى الحقيقة إنّ فى الجملة مستترين: الأوّل بعد« زعمتم» تقديره« أنّهم آلهة» و الثّانى بعد« من دون اللّه» تقديره« لا يستجيبون دعاءكم» و الجملة تكون هكذا« قل ادعوا الذين زعمتم أنّهم آلهة من دون اللّه لا يستجيبون لكم».

[۳۷۷] (۱) يونس، ۱۸.

[۳۷۸] (۲)(فزع) من مادّة« فزع»، و فى وقت تعدّيها بحرف الجرّ(عن) تكون بمعنى إزالة الفزع و الوحشة و الاضطراب، كذلك لو وردت بصورة الثلاثى المجرّد و تعدّت بحرف الجرّ(عن) يكون لها نفس المعنى أيضا.

[۳۷۹] (۱) هذه الجملة تقديرا تعود إلى جملتين كما يلى« و انّا لعلى هدى أو فى ضلال مبين، و إنّكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين»(مجمع البيان، مجلّد ۷، ص ۳۸۸).

[۳۸۰] (۱) راجع الآيات التالية: النمل: ۱، النور: ۱۲، هود: ۶، القصص: ۲، النمل: ۷۹.

[۳۸۱] (۱) توحيد المفضّل- أوائل الكتاب.

[۳۸۲] (۱) تفسير مجمع التبيان، مجلّد ۸، ص ۳۹۱.

[۳۸۳] (۲) انظر تفسير نور الثقلين، مجلّد ۴، ص ۲۵۵ و ۲۵۶.

[۳۸۴] (۳) أحيانا تلحق(التاء) اسم الفاعل لتكون صيغة مبالغة لا علامة للتأنيث كما فى« رواية».

[۳۸۵] (۱)(يرجع): تأتى كفعل لازم و كفعل متعدّى، و قد وردت هنا بالحالة الثّانية لتعطى معنى العودة، و مجيئها بعد« بعضهم إلى بعض» معناه فى النتيجة بمعنى« مفاعلة».

[۳۸۶] (۱) الأنبياء، ۱۴.

[۳۸۷] (۲) انظر لسان العرب ذيل مادّة(سرّ) فهناك بحث مفصّل بهذا الخصوص مع اختلافات أهل اللغة و الأدب، مجلّد ۴، ص ۳۵۷.

[۳۸۸] (۱) لسان العرب، مجلّد ۹، ص ۱۷.

[۳۸۹] (۱)« زلفى» و« زلفة» بمعنى المنزلة و الحظوة(مفردات الراغب)، و لهذا السبب عبّر عن(منازل الليل) ب(زلف الليل)- و التعبير ب« التى» لأجل أنّه فى كثير من الموارد يعود الضمير المفرد المؤنث إلى جمع التكسير، و عليه فلا حاجة إلى التقدير هنا.

[۳۹۰] (۲) التعبير ب« جزاء الضعف» من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة.

[۳۹۱] (۱) التغابن، ۱۴.

[۳۹۲] (۲) أنعام، ۱۶۰.

[۳۹۳] (۱) الحقيقة أن تعبير« معاجزين» الذى أوردنا تفسيره من مفردات الراغب، شبيه بتعبير(يخادعون الله و رسوله) البقرة- ۹، لأنّ باب مفاعلة يمكن أن يأتى على هذه الصورة.

[۳۹۴] (۱) الزخرف، ۵۳.

[۳۹۵] (۲) الزخرف، ۲۵.

[۳۹۶] (۳) الزخرف، ۳۱.

[۳۹۷] (۱) البقرة، ۲۴۷.

[۳۹۸] (۲) الشعراء، ۱۱۱.

[۳۹۹] (۳) الكهف، ۲۸.

[۴۰۰] (۱) الزخرف، ۳۳- ۳۵.

[۴۰۱] (۱) تفسير روح المعانى، مجلد ۲۲، ص ۱۴۰- كذلك ورد هذا المعنى بتفاوت يسير فى سيرة ابن هشام، مجلد ۱، ص ۷۹- و هناك نقرأ أنه جلب معه الصنم« هبل».

[۴۰۲] (۲) عمرو بن لحى: أحد الشخصيات المعروفة فى مكة قبل الإسلام.

[۴۰۳] (۱)- مجمع البيان: ذيل الآيات مورد البحث.

[۴۰۴] (۲) نور الثقلين، المجلّد ۴، ص ۳۴۰، ح ۷۷.

[۴۰۵] (۱) تفسير البرهان، مجلّد ۳، ص ۳۵۳.

[۴۰۶] (۱) تفسير الفخر الرازى، مجلّد ۲۵، ص ۲۶۳(ذيل الآيات مورد البحث).

[۴۰۷] (۲) الجامع لأحكام القرآن(القرطبى)، مجلّد ۱۴، ص ۳۰۷.

[۴۰۸] (۱) اصول الكافى، المجلّد ۲، كتاب الكفر و الإيمان- باب التفكّر- صفحة ۵۵ حديث ۴.

[۴۰۹] (۲) سفينة البحار، المجلّد الثّانى، صفحة ۳۸۲.

[۴۱۰] (۳) المصدر السابق.

[۴۱۱] (۴) المصدر السابق.

[۴۱۲] (۱) الشورى، ۲۳.

[۴۱۳] (۱)(يبدئ) من مادّة« بدء» بمعنى الإيجاد الابتدائى، و(يعيد): من مادّة(عود) بمعنى التكرار، الباطل: فاعل، و المفعول محذوف، و التقدير« ما يبدئ الباطل شيئا و ما يعيد شيئا».

[۴۱۴] (۱) مجمع البيان، مجلّد ۸، صفحة ۳۹۷.

[۴۱۵] (۲) المؤمن، ۶۰

[۴۱۶] (۱) فيما يخصّ لما ذا أورد فى الجملة الاولى i عَلى نَفْسِي E و فى الجملة الثّانية\i فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي E قال بعض المفسّرين: كلّ واحدة من هاتين الجملتين تحتوى على محذوف مقدّر، و التقدير كاملا« إن ضللت فإنّما أضلّ نفسى و إن اهتديت فإنّما أهتدى لنفسى بما يوحى إلىّ ربّى»(تأمّل!!)- تفسير روح المعانى- تفسير الآية مورد بحثنا.

[۴۱۷] (۱) تفسير الميزان، المجلّد ۱۶، صفحة ۴۱۹.

[۴۱۸] (۲) بحار الأنوار، مجلّد ۵۲، صفحة ۱۸۵ فيما بعد.

[۴۱۹] (۳) الضمير فى كلمة« به» يعود على« الحقّ» على اعتبار أنّه أقرب مرجع له، و نعلم بأنّ الحقّ الآيات السابقة يشير إلى« القرآن و محتواه و المبدأ و المعاد و رسول الإسلام».

[۴۲۰] (۱) نهج البلاغة، خطبة ۱۰۹.

الجزء الرابع عشر

سورة فاطر

محتوى السورة:

سمّيت هذه السورة ب «فاطر» أو «الملائكة» لابتداء آياتها بآية ذكر فيها «فاطر» و «الملائكة». و هى من السور المكيّة، مع أنّ البعض يستثنى منها الآيات (۲۹ و ۳۲) و يعتبرها مدنية، إلّا أنّنا لم نجد دليلا على صحّة هذا الاستثناء.

و لكونها مكية النّزول، فانّ محتواها العام يعكس الملامح العامّة للسور المكية، كالحديث فى المبدأ و المعاد و التوحيد، و دعوة الأنبياء، و ذكر نعم اللّه عزّ و جلّ و مصير المجرمين يوم الجزاء.

و يمكن تلخيص آيات هذه السورة فى خمسة أقسام:

۱- قسم مهم من آيات هذه السورة يتحدّث حول آثار عظمة اللّه فى عالم الوجود، و أدلّة التوحيد.

۲- قسم آخر من آياتها يبحث فى ربوبية اللّه و تدبيره لجميع امور العالم، بالأخصّ امور الإنسان، و عن خالقيته و رزاقيته، و خلق الإنسان من التراب و مراحل تكامل الإنسان.

۳- قسم آخر يتحدّث حول المعاد و نتائج الأعمال فى الآخرة، و رحمة اللّه الواسعة فى الدنيا، و سنّته الثابتة فى المستكبرين.

۴- قسم من الآيات يشير إلى مسألة قيادة الأنبياء و جهادهم الشديد و المتواصل ضدّ الأعداء المعاندين. و مواساة الرّسول الأكرم صلّى

اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا الخصوص.

۵- القسم الأخیر منها یتعرّض للمواعظ و النصائح الإلهیة فیما یخصّ المواضیع المذکورة أعلاه، و یعتبر مکمّلا لها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸

بعض المفسّرین لخصّ جمیع هذه السورة فی موضوع واحد و هو: هیمنة و قهّاریة اللّه فی جمیع الأمور[۱].

هذا الإعتبار و إن کان منسجما مع القسم الأعظم من آیات السورة، إلّا أنّه لا یمکن إنکار وجود موضوعات مختلفة اخری فیها.

فضیلة هذه السورة:

ورد فی الحدیث الشریف عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «من قرأ سورة الملائکة، دعته یوم القیامة ثلاثة أبواب من الجنّة أنّ ادخل من أی الأبواب شئت»[۲].

و مع الالتفات إلی ما نعلمه من أنّ أبواب الجنّة هی تلک العقائد و الأعمال الصالحة التی سبّبت الوصول إلی الجنّة، کما ورد فی بعض الروایات من أنّ هناک بابا باسم «باب المجاهدین» أو أمثاله، فیمکن أن تکون الروایة السالف ذکرها إشارة إلی أبواب القاعدة الاعتقادیة الثلاثیة الأساس «التوحید- المعاد- النبوّة».

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ «الحمدین: حمد سبأ، و حمد فاطر، من قرأهما فی لیلة لم یزل فی لیلته فی حفظ اللّه و کلاءته، فمن قرأهما فی نهاره لم یصبه فی نهاره مکروه، و أعطی من خیر الدنیا و خیر الآخرة ما لم یخطر علی قلبه و لم یبلغ مناه»[۳].

و نقول کما قلنا سابقا بأنّ القرآن برنامج عمل، و تلاوته بدایة للتفکّر و الإیمان الذی هو بدوره وسیلة للعمل بمحتوی الآیات، و کلّ هذا الثواب العظیم یتحقّق بهذه الشروط «فتأمّل!!».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹

الآیات [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِکَةِ رُسُلًا أُولِی أَجْنِحَةٍ مَثْنی وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ ما یَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱) ما یَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِکَ لَها وَ ما یُمْسِکْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۲) یا أَیُّهَا النَّاسُ اذْکُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَیْرُ اللَّهِ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ (۳)

التّفسیر

فاتح مغالیق الأبواب!

تبدأ هذه السورة- کما هو الحال فی سورة الفاتحة و سبأ و الکهف- بحمد اللّه و الثناء علیه لخلقه هذا الکون الفسیح، یقول تعالی:

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

«فاطر» من مادّة «فطر» و أصله الشقّ طولا، لأنّ خلق الموجودات يشبه شقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰

ظلمة العدم و ظهور نور الوجود، استخدم هذا التعبير فيما يخصّ الخلق، خصوصا إذا لا حظنا ما يقوله العلم الحديث من نظريات تشير إلى أنّ مجموعة عالم الوجود كانت فى البدء كومة واحدة ثمّ انشقّت تدريجيّا عن بعضها.

و إطلاق كلمة «فاطر» على اللّه سبحانه و تعالى، يعطى للكلمة مفهوما جديدا و أكثر وضوحا. نعم فنحن نحمد اللّه و نشكره على خالقيته، لأنّ كلّ ما هو موجود منه تعالى، و ليس لأحد ممّن سواه شيء من ذاته [۴].

و لأنّ تدبير امور هذا العالم قد نيطت من قبل البارى عزّ و جلّ- بحكم كون عالمنا عالم أسباب- بعهدة الملائكة، فالآية تنتقل مباشرة إلى الحديث فى خلق الملائكة و قدراتها العظيمة التى وهبها اللّه إيّاها! جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هنا تطرح ثلاثة أسئلة:

الأوّل: ما هى رسالة الملائكة التى ورد ذكرها فى الآية؟ هل هى رسالة تشريعية و جلب الأوامر من البارى إلى الأنبياء، أم أنّها رسالة تكوينية، أى تحمّل مسئولية المأموريات المختلفة فى عالم الخلق، كما ستردِ الإشارة إليه لاحقا، أم يقصد منه الاحتمالان؟

يتّضح من ملاحظة ما ورد فى الجملة الاولى، من الحديث حول خلق السموات و الأرض، و ما ورد فى الجملة الأخيرة من الحديث حول الأجنحة المتعدّدة للملائكة، و التى تدلّ على قدرتهم، و كذلك بملاحظة إطلاق مفهوم «الرسالة» بالنسبة إلى جميع الملائكة (يلاحظ أنّ الملائكة لفظة جمع لاقترانها بالألف و اللام و تدلّ على العموم) يتّضح من ذلك كلّه أنّ المقصود من الرسالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱

مفهوم واسع يشمل كلا من «الرسالة التشريعيّة» و «الرسالة التكوينية».

إنّ إطلاق لفظه الرسالة على «الرسالة التشريعية» و إبلاغ الوحى إلى الأنبياء ورد فى القرآن بكثرة، و إطلاق هذه اللفظة أيضا على «الرسالة التكوينية» ليس بالقليل كذلك.

فى الآية (۲۱) من سورة يونس نقرأ إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ

و فى الآية (۶۱) من سورة الأنعام نقرأ حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا.

و فى الآية (۳۱) من سورة العنكبوت ورد وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ

و فى آيات اخرى من القرآن نرى أنّه قد عهد إلى الملائكة أيضا بمأموريات مختلفة عدّت من رسالاتهم أيضا، و عليه فإنّ للرسالة مفهوما واسعا.

الثانى: ما هو المقصود بالأجنحة التى عبّر عنها ب مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ

ليس من المستبعد أن يكون المقصود بالأجنحة هنا هو القدرة على الانتقال و التمكّن من الفعل، بحيث يكون بعضهم أفضل من بعض و له قدرة أكبر.

و عليه فقد ذكرت لهم سلسلة من المراتب بالأجنحة، فبعضهم له أربعة أجنحة (مثنى اثنان اثنان)، و البعض له ستّة أجنحة، و البعض ثمانية، و هكذا.

«أجنحة» جمع (جناح) ما يستعين به الطائر على الطيران، و هو بمثابة اليد فى الإنسان، و لأنّ الجناح فى الطائر يستخدم كوسيلة مساعدة على الانتقال و الحركة و الفعّالية، فقد استخدمت هذه الكلمة كناية عن وسيلة الحركة ذاتها و عامل القدرة و الاستطاعة، فمثلا يقال: إنّ فلانا احترقت أجنحته، كناية عن فقدانه قدرة الحركة أو الإمكانية، أو أنّ الإنسان يجب أن يطير بجناحى العلم و العمل، و الكثير

من هذه التعبيرات التى تشير إلى المعنى المستعار لهذه الكلمة.

كما يلاحظ أنّ المقصود من تعبيرات مثل «العرش» و «الكرسى» و «اللوح» و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲

«القلم» هى المفاهيم المعنوية لها، و ليس واقعها المادّى.

من الطبيعى أنّه لا يمكن حمل ألفاظ القرآن على غير معانيها الظاهرية بدون قرينة، و لكن حيثما ظهر أثر لتلك القرائن فليس هناك مشكلة.

ورد فى بعض الروايات أنّ «جبرئيل» رسول الوحى الإلهى، له ستمائة جناح، و كان يملأ ما بين الأرض و السماء حينما يلتقى به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۵].

أو ما

ورد فى «نهج البلاغة» حينما تحدّث أمير المؤمنين عن عظمة الملائكة.

فقال: «و منهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، و المارقة من السماء العليا أعناقهم، و الخارجة من الأقطار أركانهم، و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم»[۶].

أو أنّ هناك ملائكة ما بين شحمة آذانهم و عيونهم مسيرة خمسمائة عام من الطيران ۷].

و من الواضح انّ هذه التعبيرات لا يمكن حملها على البعد الجسمانى و المادّى، بل المراد بيان العظمة المعنوية و أبعاد القدرة.

و نعلم أنّ الجناح- عادة- يستفاد منه فى جو الأرض، لأنّ الأخيرة محاطة بغلاف غازى من الهواء الضاغط، و الطيور إنّما تستفيد من أمواج الهواء للطيران، و الارتفاع و الانخفاض، و لكن بمجرد خروجنا من المحيط الغازى للأرض حيث ينعدم الهواء فانّ الجناح ليس له أدنى تأثير فى تحقيق الحركة، و يكون حاله حال سائر الأعضاء.

ناهيك عن أنّ الملك الذى تكون أقدامه فى أعماق الأرض و رأسه أعلى من أعلى السموات، ليس له حاجة إلى الطيران الجسمانى!!

البحث فى هل أنّ «الملائكة» أجسام لطيفة أو من المجردات بحث آخر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳

سنشير له فى البحوث ان شاء اللّه. المقصود الآن هو أن نعلم أنّ الجناح و الريش بالنسبة لها وسيلة الفعّالية و الحركة و القدرة، و الذى عبّرت عنه القرائن المشار إليها أعلاه بقدر كاف، بالضبط كما قلناه بالنسبة ل «العرش» و «الكرسى»، فانّ هاتين الكلمتين تشيران إلى قدرة اللّه فى العالم من أبعاد مختلفة!! و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام «الملائكة لا يأكلون و لا يشربون و لا ينكحون، و إنّما يعيشون بنسيم العرش»[۸].

السؤال الثالث: هل أنّ عبارة يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إشارة إلى زيادة أجنحة الملائكة؟ كما قال به بعض المفسّرين؟ أم أنّ لها معنى أوسع من ذلك بحيث يشمل عدا الزيادة فى أجنحة الملائكة الزيادات التى تحصل فى خلق الموجودات الاخرى؟

إطلاق الجملة من جهة، و دلالة بعض الروايات التى جاءت فى تفسير هذه الآيات من جهة اخرى، يشير إلى أنّ المعنى الثانى هو الأنسب.

فمن جملة ما

ورد، حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الجملة أنّه قال: «هو الوجه الحسن، و الصوت الحسن، و الشعر الحسن».

و نقر

فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «حسّنوا القرآن بأصواتكم فإنّ الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» و قرأ يَزِيدُ فِي

الْخَلْقِ ما یَشاءُ.

بعد الحدیث عن خالقیة اللّه سبحانه و تعالی، و رسالة الملائکة الذین هم واسطة الفیض الإلهی، تنتقل الآیات إلی الحدیث عن رحمة اللّه سبحانه، و التی هی الأساس لکلّ عالم الوجود، تقول الآیـة الکریمة: ما یَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِکَ لَها وَ ما یُمْسِکْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

الخلاصة أنّ تمام خزائن الرحمة عنده، و هو یشمل بها کلّ من یراه أهلا لها، و یفتح أبوابها حیثما اقتضت حکمته، و لن یستطیع الناس بأجمعهم أن یغلقوا ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴

فتح و لو کـان بعضـهم لبعض ظهیرا، أو أن یفتحوا بابا أغلقه سبحانه و تعالی، و هـذا المفهوم فی الحقیقـة فرع مهم من بحث التوحید حیث یتفرّع عنه فروع اخری «تأمّل».

و قد ورد شبیه هذا المعنی فی الآیات القرآنیة الاخری، ففی الآیة ۱۰۷- سورة یونس یقول تعالی: وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلا کاشِفَ لَهُ إِلّا هُوَ وَ إِنْ یُرِدْکَ بِخَیْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ یُصِیبُ بِهِ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ

ملاحظات

۱- التعبیر ب «یفتـح»- من مـادّة «فتـح»- إشـارة إلی وجود خزائن الرحمـة الإلهیـة التی ورد ذکرهـا أیضـا فی آیـات اخری من القرآن الکریم، و الملفت للنظر أنّ هذه الخزائن بمجرّد فتحها تجری الرحمة علی الخلائق بلا أدنی حاجة إلی شـیء آخر، و بدون أن یستطیع أحد منعها من ذلک.

و تقدّم مفهوم «فتح الرحمة» علی «إمساکها»، لأنّ رحمة اللّه تسبق غضبه دوما.

۲- تعبیر «الرحمة» له معنی واسع و شامل، لکلّ المواهب الإلهیّة فی الکون، معنویة و مادیة، و لهذا السبب یحسّ المؤمن عند ما توصد أمامه جمیع الأبواب بأنّ الرحمة تنساب فی قلبه و روحه، فیکون مسرورا و قانعا هادئا و مطمئنا، حتّی و إنّ کان مأسورا فی السجن.

و تـارة ینعکس الحـال، و ذلـک حینمـا تکون جمیع الأبواب الظاهریـة مفتوحـة أمام الإنسان، و مع ذلک یحسّ فی أعماقه بالضـیق و الضـغط و یری الدنیا علی سعتها سجنا مظلما موحشا، لمجرد عدم انفتاح باب الرحمة الإلهیة فی أعماقه. و هذا أمر محسوس و ملموس للجمیع.

۳- استعمال صفتی «العزیز» و «الحکیم» لتوضیح قدرة اللّه سبحانه و تعالی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵

علی «إرسـال» و «إمسـاک» الرحمـة، و فی عین الحـال إشـارة إلی أنّ الفتـح و الإغلاـق فی أیّ وقت شـاء تعـالی إنّمـا هو علی أسـاس الحکمة، لأنّ قدرة الباری و حکمته مقرونتان.

و علی کلّ حال فإنّ الانتفاع من محتوی هـذه الآیـة، یمنـح الإنسان المؤمن هدوءا و سـکینة، و یجعله مقاوما لکلّ أنواع الحوادث، و لا یخاف من المشاکل، و یبعده عن الغرور فی حال النجاح و الفوز.

و تشیر الآیـة التالیـة إلی «توحیـد العبادة» علی أساس «توحیـد الخالقیة و الرازقیة» فتقول الآیة الکریمة: یا أَیُّهَا النّاسُ اذْکُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَیْکُمْ

فکّروا ملیا ما هو منشأ کلّ هـذه المواهب و البرکات و الإمکانیات الحیاتیة التی قیّضت لکم .. هَلْ مِنْ خالِقٍ غَیْرُ اللّهِ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ فمن الـذی یرسـل علیکم من الشـمس نورهـا الـذی ینشـر الحیـاة، و حبّات المطر التی تحیی الموات، و النسیم الـذی ینعش الروح؟ و من الذی یخرج لکم من الأرض معادنها و ذخائرها و غذاءها و أنواع نباتاتها و ثمارها و برکاتها الأخری؟

فإذا علمتم أنّ مصدر كلّ هذه البركات هو اللّه، فاعلموا أنّ: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

و عليه فكيف تنحرفون عن طريق الحقّ إلى الباطل، و تسجدون للأصنام بدلا من السجود للّه سبحانه؟ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

«تؤفكون»: من مادّة «إفك»، بمعنى «كلّ مصروف عن وجهه الذى يحقّ أن يكون عليه» و لذا قيل لكلّ حديث ينصرف عن الصدق فى المقال إلى الكذب «إفك» و إن كان البعض يرى أنّ هذه الكلمة تطلق على الكذب الفاحش و التهمة الشنيعة.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶

«بحث»

الملائكة فى القرآن الكريم:

تعرّض القرآن الكريم كثيرا لذكر الملائكة .. فقد تحدّثت آيات عديدة عن صفات، خصائص، مأموريات، و وظائف الملائكة. حتّى أنّ القرآن الكريم جعل الإيمان بالملائكة مرادفا للإيمان باللّه و الأنبياء و الكتب السماوية، ممّا يدلّل على أهميّة هذه المسألة الأساسية. آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ [۹] و ممّا لا شكّ فيه أنّ وجود الملائكة من الأمور الغيبية التى لا يمكن إثباتها بتلك الصفات و الخصائص إلّا بالأدلّة النقلية، و يجب الإيمان بها على أنه إيمان بالغيب.

و بالجملة يطرح القرآن الكريم خصائص الملائكة كما يلى:

۱- الملائكة موجودات عاقلة لها شعور، و هم عباد مكرمون من عباد اللّه بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ۱۰].

۲- مطيعون لأوامر اللّه و لا يعصونه أبدا: لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۱۱].

۳- أنّ لهم وظائف مهمّة و كثيرة التنوّع كلّفوا بها من قبل البارى عزّ و جلّ.

مجموعة تحمّل العرش وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ[۱۲].

مجموعة تدبّر الأمر فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً[۱۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷

و اخرى لقبض الأرواح ... حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ...[۱۴].

و آخرون يراقبون أعمال البشر وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ* كِراماً كاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ ۱۵].

مجموعة تحفظ الإنسان من المخاطر و الحوادث وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ ۱۶].

و اخرى مأمورة بإحلال العذاب و العقوبة على أقوام معيّنة وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۱۷] و آخرون يمدّون المؤمنين حال الحرب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً[۱۸].

و أخيرا مجموعة لتبليغ رسالات الوحى و إنزال الكتب السماوية للأنبياء يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ [۱۹] و لو أردنا الاسترسال فى ذكر وظائف الملائكة لطال البحث و اتّسع.

۴- الملائكة دائمو التسبيح و التقديس للّه سبحانه و تعالى وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۲۰].

۵- و بناء على أنّ الإنسان بحسب استعداده للتكامل يمكنه أن يكون أعلى مقاما و أشرف موضعا من الملائكة فقد سجدت الملائكة بدون استثناء لخلق آدم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸

و عدّوا آدم معلّما لهم «الآیات ۳۰- ۳۴ سورة البقرة».

۶- إنّ الملائکة یظهرون بصورة الإنسان للأنبیاء و غیر الأنبیاء، کما نقرأ فی الآیة (۱۷) من سورة مریم: فَأَرْسَلْنا إِلَیْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِیًّا.

کذلک یذکر القرآن الکریم تجلّیهم بصورة إنسان لإبراهیم و لوط (هود- ۶۹ و ۷۷) کما أنّه یستفاد من أواخر تلک الآیات أنّ قوم لوط أیضا رأوهم بتلک الصورة الإنسانیة السویة «هود- ۷۸».

فهل أنّ ذلک الظهور بالشکل الإنسانی، له واقع عینی، أم هو بصورة تمثّل و تصرّف فی قوّة الإدراک؟ ظاهر الآیات القرآنیة یشیر إلی المعنی الأوّل، و إن کان بعض من کبار المفسّرین قد اختار المعنی الثانی.

۷- یستفاد من الروایات أنّ أعداد الملائکة کثیرة بحیث انّه لا یمکن مقایسة أعدادهم بالبشر بأی شکل من الأشکال، فحینما سئل الإمام الصادق علیه السّلام: هل الملائکة أکثر أم بنو آدم؟ قال: «و الذی نفسی بیده لملائکة اللّه فی السموات أکثر من عدد التراب فی الأرض، و ما فی السماء موضع قدم إلّا و فیها ملک یسبّحه و یقدّسه، و لا فی الأرض شجرة و لا مدر إلّا و فیها ملک موکّل بها یأتی اللّه کلّ یوم بعملها و اللّه أعلم بها، و ما منهم أحد إلّا و یتقرّب کلّ یوم إلی اللّه بولایتنا أهل البیت، و یستغفر لمحبّینا و یلعن أعداءنا، و یسأل اللّه أن یرسل علیهم العذاب إرسالا»[۲۱].

۸- الملائکة لا یأکلون و لا یشربون، و لا یتزوجون،

فقد ورد عن الإمام الصادق فی حدیث طویل قوله: «إنّ الملائکة لا یأکلون و لا یشربون و لا ینکحون، و إنّما یعیشون بنسیم العرش»[۲۲].

۹- لا ینامون و لا یضعفون و لا یغفلون،

ففی الحدیث عن أمیر المؤمنین علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹

بن أبی طالب علیه أفضل الصلاة و السلام «و ملائکة خلقتهم و أسکنتهم سماواتک، فلیس فیهم فترة و لا عندهم غفلة، و لا فیهم معصیة هم أعلم خلقک بک، ... و لا یغشاهم نوم العیون و لا سهو العقول، و لا فترة الأبدان، لم یسکنوا الأصلاب و لم تضمّهم الأرحام» الحدیث ۲۳].

۱۰- إنّ لهم مقامات، و مراتب متفاوتة ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۲۴].

و کذلک نقرأ

فی الحدیث المذکور عن الإمام الصادق علیه السّلام: «و إنّ للّه ملائکة رکعا إلی یوم القیمة، و إنّ للّه ملائکة سجدا إلی یوم القیامة»[۲۵].

و لمزید نقرأ

فی الحدیث المذکور عن الإمام الصادق علیه السلام: «و إنّ للّه ملائکة رکعا إلی یوم القیامة، و إنّ اللّه ملائکة سجدا إلی یوم القیامة» ۳.

و لمزید الاطلاع علی أوصاف الملائکة و أصنافهم یراجع کتاب «السماء و العالم» من بحار الأنوار، أبواب الملائکة (المجلد ۵۹- الصفحات ۱۴۴- إلی ۳۲۶) و کذلک نهج البلاغة الخطب (۱ و ۹۱- خطبة الأشباح- و ۱۰۹ و ۱۷۱).

هل أنّ الملائکة بتلک الأوصاف التی ذکرناها، موجودات مجردة أم مادیة؟

لاـ شـکّ أنّ من غیر الممکن أن تکون الملائکـة بهـذه الأوصـاف من هـذه المادّة الکثیفـة، و لکن لا مانع من أن تکون أجساما لطیفة الخلق، أجساما فوق هذه المادّة المألوفة لنا.

إثبات (التجرد المطلق) للملائکة من الزمان و المکان و الجزئیة، لیس بالأمر الهیّن، و الوصول إلی تلک النتیجة لیس وراءه کثیر فائدة، المهمّ هو أن نعرف الملائکـة بالصـفات التی وردت فی القرآن و الروایـات الثابتـة. و أنّها من الموجودات العلویـة الراقیـة عنـد اللّه فی مقامهـا و مکانتهـا، و لاـ نعتقـد لها بغیر مقام العبودیـة للّه سـبحانه، و أن نعلم بأنّ الإعتقاد بأنّها شـریکة مع اللّه فی أمر اللّه الخلق أو فی العبادة کفر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰

محض و شرک بیّن.

نکتفی بهذا القدر من التفصیل حول الملائکة و نوکّل التفاصیل الأکثر إلی الکتب التی کتبت بهذا الشأن.

و نری فی الکـثیر من عبـارات «التـوراة» لـدی الحـدیث عن الملائکـة عبـارة «الآلهـة» و هو تعـبیر مشـرک و من علاـئم تحریف التوراة الحالیـة، و لکن القرآن الکریم نقی من هـذه التعبیرات، لأنّه لا یری لها سوی مقام العبودیـة و العبادة للّه تعالی و إطاعة أوامره، و حتّی أنّ القرآن یصرّح فی بعض آیاته یتفوّق الإنسان الکامل علی الملائکة فی المرتبة و المقام.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱

الآیات [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۴ الی ۷]

اشارة

وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴) یـا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیاةُ الـدُّنْیا وَ لا یَغُرَّنَّکُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۵) إِنَّ الشَّیْطانَ لَکُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما یَدْعُوا حِزْبَهُ لِیَکُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِیرِ (۶) الَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ (۷)

التّفسیر

لا یغرنکم الشیطان و الدنیا

ینتقل القسم الثانی من هـذه المجموعـة من الآیات- و بعد أن کان الحدیث حول توحید الخالقیة و الرازقیة- إلی الحدیث فی تفصیل البرامج العملیة للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یوجّه الخطاب إلیه أوّلا، ثمّ لعموم الناس و بیان المناهج العملیة لهم بعد تفصیل البرامج العقائدیة سابقا.

فی البدایة تقدّم الآیات للرسول درس الاستقامة علی الصراط السوی، و الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲

هو أهمّ الـدروس له، فتقول الآیة الکریمة: وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ فهؤلاء الرسل الذین سبقوک قاوموا، و لم یهدأ لهم بال فی أداء رسالتهم، و أنت أیضا یجب أن تقف بصلابة، و تؤدّی رسالتک، و البقیة بعهدة اللّه. وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فهو الناظر و الرقیب علی کلّ شیء، و سوف یحاسب علی جمیع الأعمال.

فهو تعـالی لا یتغافل عن المشاق التی تتحمّلها فی هـذا الطریق، کما أنّه لن یترک هؤلاء المکـذّبین المخالفین المعانـدین یمضون دون

عقاب، فقـد يكون للقلق محلّ لو لم يكن ليوم القيامـة وجود، أمّا مع وجود تلك المحكمـة الإلهيـة العظيمـة، و تلك الكتابة لكلّ أعمال البشر لذلك اليوم العظيم، فأىّ داع للقلق بعد؟

ثمّ تنتقل الآيات لتوضيح أهم البرامج للبشرية، فتقول الآية الكريمة: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فالقيامة و الحساب و الكتاب و الميزان و الجزاء و العقاب و الجنّة و النار كلّها و عود إلهية لا يمكن أن يخلفها اللّه تعالى.

و مع الانتبـاه إلى هـذه الوعود الحقّـة: فَلاـ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيـاةُ الـدُّنْيا وَ لاـ يَغُرَّنَّكُمْ بِـاللَّهِ الْغَرُورُ فلاـ ينبغى أن تخـدعكم الحيـاة الـدنيا، و لا يخدعكم الشيطان بعفو اللّه و رحمته ..

أجل، إنّ عوامل الإثارة، و زخارف الـدنيا و زبارجها، إنّما تريد أن تملأ قلوبكم، و تلهيكم عن تلك الوعود الإلهيّة العظيمة، و كذلك فإنّ شـياطين الجنّ و الإنس دائمة السـعى بوساوسها و إغرائها و بمختلف وسائل الخداع و الاحتيال، و هى أيضا تريد إلفات اهتمامكم إليهـا، و إلهائكم عن التفكير فى ذلك اليوم الموعود، فإن تمكّنت أضاليلهم و خـدعهم منكم، فقـد ضاعت عليكم حياتكم بأكملها، و كـانت سـعادتكم و آمـالكم نقشا على المـاء، فالحـذر الحـذر!! إنّ تكرار التنبيه للنـاس لكى لا يغترّوا بوساوس الشـياطين أو بزخارف الدنيا- فى الحقيقة- إشارة إلى أنّ للذنوب طريقين للولوج إلى النفس الإنسانية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳

۱- مظاهر الدنيا الخدّاعة، كالجاه و المقام و المال و الكبرياء و أنواع الشهوات.

۲- الاغترار بعفو اللّه و كرمه، و هنا فإنّ الشيطان يزيّن الدنيا فى نظر الإنسان و يصوّرها له متاعا مباحا و جذّابا و محبّبا و قيّما من جهة. و من جهـة اخرى فإنّه كلّما أراد الإنسان أن يتـذكّر الآخرة و محكمـة العـدل الإلهى و مقاومـة الجاذبيـة الشديـدة للدنيا و خدعها، فانّه يغريه بعفو اللّه و رحمته، فيـدفعه بالنتيجـة إلى التسويف و الطغيـان و ارتكـاب الـذنوب. غافلا عن أنّ اللّه سـبحانه مع كونه فى موضـع الرحمة و «أرحم الراحمين» فهو تعالى فى موضع العقوبة «أشدّ المعاقبين»، فإنّ رحمته لا يمكن أن تكون أبدا باعثا على المعصـية، كما أنّ غضبه لا يمكن أن يكون سببا لليأس و القنوط.

«غرور» صـيغة مبالغـة بمعنى الخـدّاع أو المضـلّل غير العادى، و الظاهر أنّه إشارة إلى جميع عوامل الإغواء و الخداع، كما أنّه قد يكون إشارة إلى خصوص الشيطان. و إن كان المعنى الثانى أكثر مناسبـة للآيـة الثانية، خاصّة إذا علمنا أنّ القرآن الكريم نسب «الغرور» إلى الشيطان فى آيات مختلفة.

بعض المفسّرين، لهم تحليل خاص هنا ملخّصه: أنّ الناس الذين يتعرضون لعوامل الخداع و الإغراء ثلاثة أصناف:

۱- صنف ضعيف و ليس له قدرة بحيث أنّه يخدع بأبسط الحيل.

۲- صـنف أقوى من الأـوّل، لاـ يخـدعون فقـط بزخرف الـدنيا و زبرجهـا، بل مع ضمّ وساوس الشـياطين الـذين يعملون على تحريك شهواتهم و يهوّنون لهم مفاسـد أعمالهم عنـدها يمكن خـداعهم. فالملـذّات الدنيويـة من جهة، و الوساوس الشـيطانية من جهة اخرى، تدفعهم إلى ارتكاب أعمال قبيحة و سيّئة.

۳- أمّا الصنف الثالث و هو الأقوى و الأعلم، فهم لا يغتّرون بأنفسهم و لا يمكن لأحد خداعهم.

و جملة فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا إشارة إلى الصنف الأوّل، و جملة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴

وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ إشارة إلى الصنف الثانى، و أمّا الصنف الثالث فهم مصداق قوله: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ۲۶].

الآية التالية تنذر و تنبّه جميع المؤمنين فيما يخصّ مسألة وساوس الشيطان و مكائده و التى تعرّضت لها الآية السابقة فتقول: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا.

تلك العداوة التى شـرع بها الشيطان من أوّل يوم خلق فيه آدم عليه السّلام، و أقسم حين طرد من قرب اللّه و جواره بسبب عدم تسليمه

للأمر الإلهى بالسجود لآدم، أقسم و توعّد بأن يسلك طريق العداء لآدم و بنيه، و حتّى أنّه دعا من اللّه أن يمهله و يطيل فى عمره لذلك الغرض.

و قد التزم بما قال، و لم يفوّت أدنى فرصة لإبراز عدائه و إنزال الضربات بأفراد بنى آدم، فهل يصحّ منكم يا بنى آدم أن لا تعتبروه عدوّا لكم، أو أن تغفلوا عنه و لو لحظة واحدة، فكيف الحال باتّباعه و اقتفاء خطواته، أو تعدونه وليّا شفيقا و صاحبا ناصحا أ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ[۲۷].

مضافا إلى أنّه عدو يهاجم من كلّ طرف و جانب، فهو نفسه «لعنه اللّه» يقول:

على ما نقله القرآن الكريم: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ [۲۸] و هو يكمن لكم و يراكم و لا ترونه: إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ [۲۹] و مع ذلك، فهذا لا يعنى أنّكم لا تقدرون على الدفاع عن أنفسكم أمام مكائده و وساوسه، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلوات و السلام): أنّ اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵

سبحانه و تعالى أوصى موسى عليه السّلام أربع وصايا و طالبه بحفظها:

أولاهنّ ما دمت لا ترى ذنوبك تغفر فلا تشتغل بعيوب غيرك! و الثانية: ما دمت لا ترى كنوزى قد نفذت فلا تهتم برزقك! و الثالثة: ما دمت لا ترى زوال ملكى فلا ترج أحدا غيرى! و الرابعة: ما دمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكره ۳۰]! على كلّ حال، فقد وردت فى آيات كثيرة الإشارة إلى عداوة الشيطان لبنى آدم، و أطلقت عليه مرارا و تكرارا عبارة عَدُوٌّ مُبِينٌ ۳۱] لذا يجب الحذر الدائم من هذا العدوّ.

فى آخر الآية يضيف تعالى للتأكيد أكثر: إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ.

«حزب» فى الأصل بمعنى الجماعة التى لها فعالية، و لكنّها تطلق عادة على كلّ مجموعة تتبع برنامجا و هدفا خاصا.

و المقصود (بحزب الشيطان) أتباعه.

طبيعى أنّ الشيطان لا يمكنه إدخال أىّ أحد من الناس ليكون عضوا رسميا فى حزبه و يقوده إلى جهنّم، فأعضاء حزبه هم الذين يتّصفون بالصفات المذكورة فى بعض الآيات القرآنية ..

* فهم الذين طوّقوا أنفسهم بطوق العبودية للشيطان إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ [۳۲]* و هم الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ [۳۳] و الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم ذكر «حزب اللّه» فى ثلاثة مواضع و كذلك ذكر «حزب الشيطان» فى ثلاثة مواضع أيضا، حتّى يتّضح من الذين يقيّدون أسماءهم فى حزب اللّه، و من هم أعضاء حزب الشيطان؟

و لكن من الطبيعى أنّ الشيطان يدعو حزبه إلى المعاصى و الذنوب و لوث الشهوات .. إلى الشرك و الطغيان و الاضطهاد، و بالنتيجة إلى جهنّم و بئس المصير.

و سوف نستوفى الشرح حول خصائص «حزب اللّه» و خصائص «حزب الشيطان» فى تفسير الآية (۲۲) من سورة «المجادلة» إن شاء اللّه.

آخر آية من هذه الآيات توضّح عاقبة «حزب اللّه» السعيدة و خاتمة «حزب الشيطان» المريرة، فتقول: الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

من الجدير بالملاحظة هنا أنّ القرآن الكريم اكتفى بذكر «الكفر» كسبب لاستحقاق العذاب، و لكنّه لم يكتف بذكر (الإيمان) وحده كسبب «للمغفرة و الأجر الكبير» بل أردف مضيفا له «العمل الصالح». لأنّ الكفر وحده يكفى للخلود فى عذاب السعير، بينما الإيمان بدون العمل لا يكفى لتحقيق النجاة، فإنّهما مقترنان.

و قد ورد فى الآية ذكر (المغفرة) ثمّ ذكر «الأجر الكبير» بعدها، باعتبار أنّ (المغفرة) تغسل المؤمنين فى البدء و تهيؤهم لتلقّى «الأجر الكبير».***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (۸) وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (۹) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (۱۰)

التّفسير

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

ممّا مرّ من تقسيم الناس إلى مجموعتين «المجموعة المؤمنة» و «المجموعة الكافرة» أو «حزب اللّه» و «حزب الشيطان»، تنتقل هذه الآيات إلى بيان إحدى الخصائص المهمّة لهاتين المجموعتين و التى هى فى الواقع المصدر لسائر برامجهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸

تقول الآية الاولى: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً كمن يرى الحقائق كما هى من حيث الحسن و القبح؟! فى الحقيقة إنّ هذه القضيّة هى المفتاح لكلّ مصائب الأقوام الضالّة و المعاندة، الذين يرون أعمالهم القبيحة أعمالا جميلة، و ذلك لانسجامها مع شهواتهم و قلوبهم المعتمة.

بديهى أنّ شخصا كهذا، لا يتقبّل نصيحة، و ليس لديه الاستعداد لسماع النقد و ليس بحاضر أبدا لتغيير مسيره. كما أنّه لا يناقش أعماله و لا يفكّر بعواقبها الوخيمة.

و أدهى من ذلك و أمرّ أنّهم حينما يدور حديث حول المحسنين و المسيئين، يعتقدون بأنّ الضمير فى الأوّل يعود عليهم، بينما يعود فى المسيئين على المؤمنين الصلحاء! و العجب من هؤلاء الكفّار المعاندين أنّهم عند ما يسمعون هذه الآيات تتلى عليهم و هى تتحدّث عن حزب الشيطان و مصيرهم الأسود طبّقوا ذلك على المؤمنين الصالحين، و عدّوا أنفسهم مصداقا لحزب اللّه!! و تلك مصيبة و فاجعة عظيمة! أمّا من الذى زيّن سوء أعمال هؤلاء فى أنظارهم؟ هل هو اللّه، أم هوى النفس، أم الشيطان؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ العامل الأصلى لذلك هو الهوى و الشيطان، و لكن لأنّ اللّه هو الخالق لذلك الأثر فى أعمالهم، فيمكن نسبة ذلك إلى اللّه تعالى، لأنّ الإنسان و فى بداية طريق المعاصى يشعر بعدم الارتياح حين ارتكاب المعصية، لسلامة فطرته و حيوية وجدانه و سلامة عقله، و لكن بتكرار تلك الأعمال يقلّ عدم الارتياح إلى أن يصل إلى درجة عدم الاكتراث. ثمّ إذا استمرّ فى ذلك الطريق يمسى القبيح جميلا فى نظره، حتّى يصل إلى أن يتوهّم أنّ ذلك من مفاخره و فضائله، و الحال أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹

يغطّ فى بركة آسنة من التعاسة و الشقاء.

و الملفت للنظر أنّ القرآن عند ما يتساءل أ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ....

لا- يتعرّض إلى ما يقابل ذلك صراحة، و كأنّه يريد أن يفسح المجال أمام المستمع لكى يتصوّر أمورا مختلفة يمكنها أن تكون ما يقابل ذلك و يفهم أكثر و أكثر، و كأنّه يريد أن يقول: هل أنّ شخصا كهذا هو كمن أبصر الحقيقة؟

هل أنّ شخصا كهذا كمن هو نقى القلب و مشغول دوما بمحاسبة نفسه؟.

و هل أنّ هناك أملا بالنجاة لهكذا شخص ۳۴]؟.

ثمّ يضيف القرآن موضّحا علّة الفرق بين الفريقين فيقول: فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ.

فإذا زيّنت الأعمال السيّئة بنظر المجموعة الاولى، فإنّ ذلك نتيجة الإضلال الإلهى، فاللّه سبحانه و تعالى هو الذى جعل تلك الخاصية فى النفس البشرية عند تكرارها للأعمال السيّئة، بأن تتطبّع عليها و تعتادها و تنسجم معها و تنطبع بطبيعتها.

و هو سبحانه الذى أعطى للمؤمنين الطاهرى القلوب نفاذ البصر و البصيرة، و سمعا واعيا لإدراك الحقائق كما هى.

و واضح أنّ هذه المشيئة الإلهيّة توأم لحكمته تعالى، و إنّما تعطى لكلّ ما يناسبه.

لذا فإنّ الآية تضيف فى الختام: فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ و هذا التعبير يشابه ما ورد فى الآية (۳) من من سورة الشعراء: لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۳۵].

التعبير ب «حسرات» الذى هو «مفعول لأجله» لما قبله فى الجملة، إشارة إلى أنّه ليس عندك عليهم حسرة واحدة، بل حسرات:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰

«حسرة» على تضييع نعمة الهداية. «حسرة» على تضييع جوهر الإنسانية، «حسرة» على تضييع حاسّة التشخيص إلى حدّ رؤية القبيح جميلا، و أخيرا «حسرة» على الوقوع فى نار الغضب و القهر الإلهى.

و لكن لماذا لا ينبغى أن تتحسّر عليهم؟! ذلك لأجل إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ

واضح من نبرة الآية شدّة تحرّق الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم على الضّالين و المنحرفين، و كذلك هى حال القائد الإلهى المخلص يتألّم لعدم تقبّل الناس الحقّ و تسليمهم للباطل، و ضربهم بكلّ أسباب السعادة عرض الجدار، إلى حدّ كأنّ روحه تريد أن تفارق بدنه.

و استنادا إلى البحوث التى سبقت حول الهداية و الضلالة و الإيمان و الكفر، تنتقل الآية التالية إلى بحث المبدأ و المعاد بعبارات مضغوطة، و تقرن آيات المبدأ بإثبات المعاد بدليل واحد ملفت للنظر، تقول الآية الكريمة: وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً[۳۶] فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ.

نظام دقيق يتحكّم فى حركة الرياح، ثمّ فى حركة السحاب، ثمّ فى نزول قطرات المطر الباعثة للحياة، ثمّ فى حياة الأرض الميتة، و هو أحسن دليل على أنّ يد القدرة الحكيمة هى من وراء ذلك النظام تقوم على تدبير أموره.

أوّلا، تؤمر الرياح الحارة بالتحرّك من المناطق الإستوائية إلى المناطق الباردة، و فى مسيرها تحمل معها بخار الماء من البحار و تطلقه فى السماء، بعدئذ تتحرّك بجريانات منظّمة للبرد القطبى الذى يعاكس دوما اتّجاه الحركة الأوّل، و تؤمر بتجميع البخار الحاصل لتشكيل الغيوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱

ثمّ تؤمر نفس تلك الريح بحمل تلك الغيوم و إرسالها إلى الصحارى الميتة، لتلقى قطرات المطر الباعثة للحياة فيها.

بعد ذلك- بشروط خاصّة- تؤمر الأرض و البذور التى نثرت عليها بقبول الماء و النمو و الاخضرار، و من موجودات حقيرة و عديمة القيمة ظاهرا تنبت موجودات حيّة و كثيرة التنوّع و الجمال، طريّة خضراء، مفيدة و مثمرة .. تدلّل بدورها على قدرته سبحانه و تعالى، و تشهد على حكمته، و تكون نموذجا من البعث الكبير.

فی الحقیقة إنّ الآیة أعلاه تدعو إلی التوحید فی عدّة جوانب:

«برهان النظم» دلیل علی الوحدانیة، و «الحرکة» تقتضی وجود محرّک لکلّ متحرّک، و من جانب آخر فإنّ النعم تدعو إلی شکر المنعم فطریا.

و کذلک فهی دلیل علی مسألة المعاد من جهات أیضا:

فتکامل الموجودات فی حرکتها و مسارها و انبعاث الحیاة من الأرض المیتة تقول للإنسان: أیّها الإنسان إنّک تری مشهد المعاد فی فصول کلّ عام أمام ناظریک و تحت قدمیک.

من اللازم أیضا الالتفات إلی أن (تثیر) من مادّة (إثارة) بمعنی النشر و التفریق، و هی إشارة إلی أنّ تولید الغیوم ناتج عن هبوب الریاح علی سطح المحیطات، لأنّ مسألة حرکة الغیوم وردت فی الجملة التی بعدها فَسُقْناهُ إِلی بَلَدٍ مَیِّتٍ

و اللطیف ما نقرأ

فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین سأله أحد الصحابة قائلا: یا رسول اللّه، کیف یحیی اللّه الموتی، و ما آیة ذلک فی خلقه؟

قال: «أما مررت بوادی أهلک ممحلا ثمّ مررت به یهتزّ خضرا»؟

قلت: نعم! یا رسول اللّه.

قال: «فکذلک یحیی اللّه الموتی، و تلک آیته فی خلقه»[۳۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲

و لنا بحث آخر حول نفس الموضوع أوردناه عند تفسیر الآیة (۴۸) من سورة الروم.

الآن، و بعد هذا المبحث التوحیدی، تشیر الآیة إلی الاشتباه الخطیر الذی وقع فیه المشرکون لاعتقادهم بأنّ العزّة تأتیهم من أصنامهم، و بأنّ الإیمان بالرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سیکون سببا فی تخطّف الناس إیّاهم إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا.[۳۸] فتقول الآیة: مَنْ کانَ یُرِیدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِیعاً.

«العزّة»: علی ما یقول الراغب فی مفرداته: حالة مانعة للإنسان من أن یغلب ..

من قولهم: أرض عزاز، أی صلبة.

و لأنّ اللّه سبحانه و تعالی هو الذات الوحیدة التی لا تغلب، و جمیع المخلوقات بحکم محدودیتها قابلة لأن تغلب، و علیه فإنّ العزّة جمیعها من اللّه، و کلّ من اکتسب عزّة فمن بحر عزّته اللامتناهی.

فی حدیث ینقل عن أنس عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ ربّکم یقول کلّ یوم:

أنا العزیز، فمن أراد عزّ الدارین فلیطع العزیز».

و فی الحقیقة إنّ الإنسان العاقل یجب أن یتزوّد بالماء من منبعه، لأنّ الماء الصافی و الوافر متوفّر هناک، لا فی الأوانی الصغیرة المحدودة أو الملوّثة فی ید هذا و ذاک.

و

فی حدیث عن الإمام الحسن بن علی علیهما السّلام نقرأ بأنّ «جنادة بن أبی أمیّة» قال:

دخلت علی الحسن بن علی بن أبی طالب علیهما السّلام فی مرضه الذی توفّی فیه و بین یدیه طست یقذف علیه الدم و یخرج کبده قطعة قطعة، من السم الذی سقاه معاویة (لعنه اللّه)، فقلت: یا مولای ما لک لا تعالج نفسک؟

فقال: «یا عبد اللّه، بماذا أعالج الموت؟

قلت: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَیْهِ راجِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳

ثمّ التفت إليّ و قال: ضمن وصايا عديدة: «.. و إذا أردت عزّا بلا عشيرة، و هيبة بلا سلطان، فاخرج من ذلّ معصية اللّه إلى عزّ طاعة اللّه عزّ و جلّ» ... الحديث.

و لو لا حظنا بعض الآيات الكريمة فى القرآن، فإنّها تذكرة العزّة للّه و لرسوله و للمؤمنين وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ [۳۹] إذ أنّ الرّسول و المؤمنين اكتسبوا عزّتهم من شعاع عزّة البارى عزّ و جلّ، و ساروا فى طريق طاعته.

ثمّ توضّح الآية طريق الوصول إلى (العزّة) فيقول تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

الْكَلِمُ الطَّيِّبُ طيّب بمحتواه، و ذلك لأجل المفاهيم التى تنطبق على الواقع العينى الظاهر المشرق، و ما هو أطهر و أكثر واقعية من ذات اللّه تعالى، و مرآة حقّه و عدالته، و هؤلاء الصلحاء الذين يسلكون طريق نشر ذلك؟

لذا فقد فسّر «الكلم الطيّب» بأنّه العقائد الصحيحة فيما يخصّ المبدأ و المعاد و النبوّة، نعم .. فعقيدة صحيحة هكذا تصعد إلى اللّه، و تجعل المعتقد بها يحلق هو الآخر، حتّى يكون فى قرب جوار الحقّ تعالى، و تغمره فى عزّة اللّه ليكون عزيزا.

بديهى أن ينبت من هذا الجذر الطاهر، ساق و فروع، ثمرها العمل الصالح، و كلّ عمل لائق و بنّاء و مفيد، سواء كانت دعوة إلى الحقّ، أو حماية لمظلوم، أو جهادا للظلم و الطغيان، أو تقويم النفس و العبادة، أو تعلّم، و بالجملة فكلّ عمل خير يدخل فى هذا المفهوم الشامل الواسع، إذا كان لأجله سبحانه- فقط- و لأجل كسب رضاه فهو يصعد إليه، و يعرج فى سماء لطفه سبحانه و يكون سببا فى تكامل و معراج صاحبه حتّى يجعله أهلا للتعزّز بعزّة الحقّ تعالى.

و ذلك هو ما أشارت إليه الآية (۲۴) من سورة إبراهيم: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴

و ممّا ذكرنا، يتّضح أنّ ما قال به بعض المفسّرين من أنّ «الكلمة الطيّبة» هى «لا إله إلّا اللّه» أو «سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر» أو «إثبات الرسالة للرسول محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الولاية و الخلافة لعلى عليه السّلام بعد التوحيد» أو ما ورد فى بعض الروايات من أنّ «الكلم الطيّب» و «العمل الصالح» هو «ولاية أهل البيت عليهم السّلام» أو أمثال هذه التفاسير، فإنّها جميعا من قبيل بيان المصاديق الأكثر وضوحا لذلك المفهوم الواسع الشامل، و ليس من قبيل وضع الحدود لذلك المفهوم. إذ أنّ كلّ كلام طيّب و صالح المحتوى يدخل تحت هذا العنوان.

على كلّ حال هو اللّه سبحانه و تعالى الذى يحيى الأرض الميتة بقطرات المطر- بمقتضى الآية السابقة- هو سبحانه الذى ينمى «الكلام الطيّب» و «العمل الصالح» و يوصله إلى جوار قربه تعالى.

ثمّ تنتقل الآية إلى ما يقابل كلّ ذلك فتقول: وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ.

فمع أنّ هؤلاء الفاسدين المفسدين توهّمون أنّهم بالظلم و الكذب و التزوير يستطيعون كسب العزّة و المال و الثروة و القدرة، إلّا أنّهم فى النهاية يضعون أنفسهم فى قبضة العذاب الإلهى من جهة، و كلّ جهودهم تذهب أدراج الرياح من جهة اخرى.

أشخاص قال عنهم القرآن: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا[۴۰].

و منافقون اعتقدوا بعزّتهم، و ذلّة المؤمنين يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ [۴۱] و آخرون اعتقدوا بأنّ القرب من الفراعنة سبب لعزّتهم، و أراد غيرهم الكرامة بالظلم و الاضطهاد، لكنّهم يتساقطون دوما، و الإيمان و العمل الصالح فقط هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵

الذى يصعد إلى اللّه سبحانه! (مكر): مع أنّ هذه الكلمة لغويا بمعنى التفكّر فى حلّ المشكل، و لكنّها جاءت فى موارد كثيرة بمعنى

التفكّر بالحلّ مع اقترانها بالإفساد، كما فى هذه الآية.

(السيّئات): كلّ القبائح و المذمومات، أعمّ من القبائح الاعتقادية أو العملية، و ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ المعنى هو المؤامرات التى قام بها المشركون لقتل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو إبعاده عن مكّة، فليس هو إلّا أحد مصاديق الكلمة دون مفهومها العامّ.

جملة «يبور» من مادّة «بوار» و «بوران» فى الأصل بمعنى الكساد المفرط، و لأنّ مثل هذا الكساد يكون سببا للهلاك، فقد استخدمت هذه الكلمة للتعبير عن الهلاك و الفناء، و كما قيل «كسد حتّى فسد».***

ملاحظتان

۱- العزّة جميعا من اللّه عزّ اسمه

ما هى حقيقة العزّة؟ هل هى سوى بلوغ مرحلة المنعة؟ و إن كان كذلك فأين يجب البحث عن العزّة؟ و أى شىء يمكنه أن يعطى للإنسان العزّة؟!.

يتّضح لنا بالتحليل أنّ حقيقة العزّة بالدرجة الأولى- قدرة تتجلّى فى قلب و روح الإنسان، و تبعده عن الخضوع و التسليم و الاستسلام أمام الطغاة و العصاة، قدرة بامتلاكها لا يخضع الإنسان للشهوات أبدا، و لن يجد الهوى و الهوس طريقا للتسلّط عليه.

قدرة ترتقى به إلى مستوى الصلابة أمام تأثير زخارف الدنيا.

فهل أنّ هذه القدرة لها منبع آخر غير الايمان باللّه، أى الارتباط بالمنبع الأصلى للقدرة و العزّة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶

هذا فى مرحلة الفكر و الإعتقاد و الروح، أمّا فى مرحلة العمل فإنّ «العزّة» تنبع من الأعمال السليمة الأصل و الدقيقة الأسلوب، و بتعبير آخر يمكن تلخيص ذلك ب «العمل الصالح» هذان الاثنان يعطيان الإنسان العظمة و الرفعة و العزّة و المنعة.

«السحرة» المعاصرون لفرعون، شرعوا بحيلهم باسم فرعون و بعزّته وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ [۴۲] و لكنّهم هزموا بسرعة أمام عصى موسى عليه السّلام. و بمجرّد أن خرجوا من ذلّة فرعون، و لجأوا إلى ظلّ التوحيد و آمنوا، أصبحوا أقوياء لا يمكن هزيمتهم بحيث لم تؤثّر بهم أشدّ تهديدات فرعون، و قدّموا أيديهم و أرجلهم و حتّى أرواحهم العاشقة الوالهة و تجرّعوا كأس الشهادة، و دلّلوا بذلك العمل على عدم استسلامهم أمام الترغيب و الترهيب، و عدم انهزامهم، و أصبح تأريخهم اليوم بالنسبة لنا عالما من الدروس البليغة.

۲- الفرق بين «الكلام الطيّب» و «العمل الصالح»

قد يطرح سؤال هو: لماذا تقول الآية السالفة الذكر حول «الكلام الطيّب» إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ بينما بالنسبة إلى «العمل الصالح» قالت وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

يمكن الإجابة على هذا السؤال بأنّ «الكلم الطيّب» إشارة إلى الإيمان و الإعتقاد السليم، و ذلك هو عين الصعود إلى اللّه، و حقيقة الإيمان ليس سوى ذلك، و لكن «العمل الصالح» الذى يتقبّله اللّه تعالى و يضاعف الأجر عليه، و يعطيه الدوام و البقاء ثمّ يرفعه (دقّق النظر)!!.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷

الآیتان [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشارة

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۱۱) وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲)

التّفسیر

و ما یستوی البحران!!

مع الالتفات إلی ما کان من حدیث فی الآیات السابقة حول التوحید و المعاد و صفات اللّه، تتعرّض هذه الآیات أیضا إلی قسم آخر من آیات «الأنفس و الآفاق» التی تدلّل علی قدرة اللّه من جانب، و علی علمه من جانب آخر، و قضیّة إمکانیة المعاد من جانب ثالث.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸

فی البدایة تشیر إلی خلق الإنسان فی مراحله المختلفة فتقول: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً.

و هذه ثلاث مراحل من مراحل خلق الإنسان: الطین- و النطفة- و مرحلة الزوجیة.

بدیهی أنّ الإنسان من التراب، إذ أنّ آدم علیه السّلام خلق من تراب، کما أنّ جمیع المواد سواء التی یتشکّل منها جسم الإنسان، أو التی یتغذّی علیها، أو التی تنعقد منها نطفته، جمیعها تنتهی إلی مواد هی ذاتها التی یحتویها التراب.

احتمل البعض أنّ الخلق من التراب، إشارة إلی الخلق الأوّل فقط، أمّا الخلق من النطفة فهو إشارة إلی المراحل التالیة التی أوّلها مرحلة الخلقة الإجمالیة للبشر (بلحاظ أنّ وجود الجمیع یتلخّص بوجود آدم علیه السّلام) و ثانیها المرحلة التفضیلیة بانفصال الإنسان من الآخر.

و علی کلّ حال فإنّ مرحلة «الزوجیة» هی مرحلة إدامة نسل الإنسان و حفظ نوعه، و أمّا ما احتمله البعض من أنّ معنی «أزواجا» هنا «الأصناف» أو «الروح و الجسم» و أمثالها، فیبدو بعیدا.

ثمّ ینتقل إلی المرحلة الرابعة و الخامسة، «حمل النساء» و «الولادة» فیقول تعالی: وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

نعم، الحمل و التحوّلات و التغیّرات المذهلة و المعقّدة فی الجنین، ثمّ بلوغ مرحلة وضع الحمل و الاضطرابات و التغیّرات المحیّرة للامّ من جهة، و للجنین من جهة ثانیة، بشکل و بمقدار منظّم و دقیق لا یمکن تعقّله بدون إسناده إلی العلم الإلهی اللامتناهی، فلو أصیب النظام الذی یحکم هذه العملیة باختلال و لو بمقدار رأس الإبرة لأدّی إلی عسر أو اختلال الحمل أو عملیة الولادة، ثمّ إلی ضیاع الجنین و هلاکه.

هذه المراحل الخمس من حیاة الإنسان، إحداها أعجب من الاخری و أکثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹

إثارة للدهشة. فأین الثری من الثریّا .. أین ذلک التراب المیّت الجامد من الإنسان الحی العاقل الفطن المبتکر؟! و أین تلک النطفة الحقیرة التی تتکوّن من بضع قطرات من الماء المتعفّن من ذلک الإنسان الراشد الجمیل و المجهّز بالحواس و الأجهزة العضویة

المختلفة[۴۳].

بعد هذه المرحلة، تأتى مرحلة تقسيم النوع البشرى إلى جنسين «المذكّر» و «المؤنّث» بالفروقات الكثيرة فى الجسم و الروح، و الأمور الفسلجية التى تبدأ بالتحدّد منذ اللحظات الاولى لانعقاد النطفة، و اتّخاذ مسيرها الخاص و التكامل فى كلّ جنس باتّجاه الرسالة التى انيطت به.

ثمّ تظهر مسألة رسالة الامّ فى قبول و تحمّل ذلك الحمل و حفظه و تغذيته و تربيته و التى حيّرت العلماء لقرون طويلة، حتّى اعترفوا بأنّها من أعجب مسائل الوجود.

و آخر مرحلة فى هذا المسير هى مرحلة الولادة، و هى مرحلة تحوّل كامل تقترن بعجائب كثيرة.

فما هى العوامل التى تدفع الجنين إلى الخروج من بطن امّه؟

كيف يتمّ التنسيق بين هذا الأمر و بين إعداد جسم الامّ لتحقّق ذلك الأمر؟

كيف يتمكّن الجنين بعد تعوّده على وضع ما لمدّة تسعة أشهر، أن يلبس وضعا جديدا و يطبّق كلّ مفرداته الجديدة بلحظة واحدة، ففى لحظة واحدة يقطع صلته بامّه، و يتنفّس الهواء الطلق! يتناول طعامه من فمه بدلا من الحبل السرّى! يخرج إلى محيط غارق فى النور و الإشراق بدلا من محيط بطن امّه المظلم؟! أ ليست هذه أعظم الدلائل على قدرة اللّه و علمه اللامحدودين؟

و هل أنّ هذه المادّة الجامدة الميتة و هذه الطبيعة غير الهادفة يمكنها أن تنظّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰

حلقة واحدة صغيرة من آلاف الحلقات فى سلسلة الخلق بالاستفادة من المصادفات العمياء؟

فيا للأسف كيف يتعقّل الإنسان مثل هذا الاحتمال الموهوم فيما يخصّ خلقته؟! ثمّ .. تشير الآية إلى المرحلتين السادسة و السابعة من هذا البرنامج المذهل بانتقالها إلى حلقة اخرى، فتذكر مراحل العمر المختلفة و العوامل المؤثّرة فى زيادته و نقصانه فتقول الآية الكريمة: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ ۴۴] و يخضع لقوانين و مناهج مدروسة يتحكّم فيها علم اللّه و قدرته المطلقة.

فما هى العوامل المؤثّرة فى إدامة حياة الإنسان؟ و ما هى العوامل التى تهدّد إدامتها؟

و باختصار ما هى العوامل التى يجب أن تتظافر مع بعضها حتّى يستطيع الإنسان أن يعمّر مائة سنة أو أكثر أو أقل؟ و أخيرا ما هى العوامل الموجبة لتفاوت أعمار الناس؟ كلّ ذلك له حسابات دقيقة و معقّدة لا- يعلمها إلّا اللّه. و ما نعلمه نحن اليوم حول هذه الموضوعات بالقياس إلى ما لا نعلمه يعتبر شيئا تافها.

«معمّر» من مادّة «عمر» فى الأصل من «العمارة» نقيض الخراب، و العمر اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة خلال مدّة معيّنة.

«معمر» أى الشخص الطويل العمر.

و أخيرا تختم الآية بهذه الجملة إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

فخلق هذا الموجود العجيب من التراب، و بدء خلق إنسان كامل من «ماء النطفة» و كذلك المسائل المرتبطة بتحديد الجنس، ثمّ الزوجية، و الحمل، و الولادة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱

و زيادة أو نقص العمر سواء بلحاظ القدرة أو بلحاظ العلم و الحسابات كلّها بالنسبة إليه تعالى سهلة و بسيطة. و ذلك بمجموعه يمثّل جانبا من «آيات الأنفس» التى تربطنا ببداية عالم الوجود و التعرّف عليه من جهة، كما تعتبر أدلّة حيّة على مسألة إمكانية المعاد من جهة اخرى.

فهل أنّ القادر على الخلق الأوّل من التراب و النطفة غير قادر على إعادة الحياة للناس مرّة اخرى!؟

و هل أنّ العالم بکلّ دقائق و تفاصیل الأمور المرتبطهٔ بتلک القوانین، یواجه مشکلهٔ فی حفظ أعمال العباد لیوم المعاد.
تشیر الآیـهٔ التالیـهٔ– التی تعتبر قسـما آخر من آیـات الآفاق الدالّـهٔ علی عظمته و قـدرته سـبحانه و تعالی– إلی خلق البحار و برکاتها و فوائدها، فتقول الآیهٔ الکریمهٔ: وَ ما یَسْتَوِی الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ [۴۵].
فمع أنّ کلا ـ البحرین فی الأصـل کانـا بصورهٔ قطرات من المـاء الصافی و السائغ نزلت من السـماء إلی الأرض، و أنّ کلیهما من أصـل واحد، إلّا أنّهما یظهران علی هیئتین متفاوتین تماما بشکل کامل و بفوائد متفاوتهٔ أیضا.
و العجیب أنّ الإنسان یحصل علی السمک الطازج من کلّ منهما: وَ مِنْ کُلٍّ تَأْکُلُونَ لَحْماً طَرِیًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْیَهً تَلْبَسُونَها علاوهٔ علی إمکانیهٔ الإفادهٔ من کلیهما للنقل و الانتقال وَ تَرَی الْفُلْکَ فِیهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ

تأمّل الأمور التالیهٔ:

۱– «فرات»: علی ما ذکر فی لسان العرب هو الماء العذب جدّا.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲
«سائغ»: الماء الذی یستمرأ بسهولهٔ لعذوبته، علی عکس الماء المالح– أو الأجاج– و هو الماء المرّ الذی یمجّه الإنسان.
۲– بعض المفسّـرین قـالوا بـأنّ هـذه الآیـهٔ مثال للفرق بین المؤمن و الکافر، و لکن الآیات السابقـهٔ و اللاحقـهٔ لها، و التی تتحـدّث عن الخلقـهٔ، و حتّی نفس هـذه الآیـهٔ، شاهـدهٔ علی حقیقهٔ أنّ هذه الجملهٔ أیضا تبحث فی أسـرار التوحید، و تشیر إلی تنوّع المیاه و آثارها المتفاوتهٔ و فوائدها المشترکهٔ.
۳– ذکرت الآیهٔ ثلاث فوائد من فوائد البحار الکثیرهٔ و هی: المواد الغذائیهٔ، و وسائل الزینهٔ، و مسألهٔ الحمل و النقل.
و نعلم بـأنّ البحر یشـکّل منبعا مهمّا من المنابع الغذائیـهٔ للبشـر، و کلّ عام یسـتخرج منه ملایین الأطنان من اللحوم الطازجـهٔ، بـدون أن یتحمّـل الإنسـان فی سبیل ذلک تعبا أو مشـقّهٔ، فإنّ نظام التوازن فی الطبیعـهٔ یشـتمل علی برنامـج دقیق محسوب بحیث یسـتطیع الناس الإفادهٔ من تلک المائدهٔ الإلهیّهٔ بدون اعتراض و بأقل زحمهٔ و مشقّهٔ.
کذلک یسـتخرج من البحار أیضا وسائل الزینهٔ المختلفهٔ من أمثال (اللؤلؤ– و المرجان– و الصدف– و الدرّ)، و ترکیز القرآن علی ذکر هـذه المسألـهٔ لأـنّ روح الإنسـان تختلف عن الحیوان باحتوائهـا علی أبعـاد مختلفـهٔ منهـا «الحسّ الجمالی» الـذی هو منبع ظهور جمیع المسائل الذوقیـهٔ و الفنیّـهٔ و الأدبیـهٔ التی یؤدّی إشـباعها بصورهٔ صـحیحهٔ بعیـدا عن الإفراط و التفریط و الإسـراف و التبـذیر إلی إشاعهٔ السرور فی النفس، و إعطاء الإنسان النشاط و الهدوء، و تساعد الإنسان علی إنجاز أعمال الحیاهٔ الشاقّهٔ.
و أمّا مسألهٔ الحمل و النقل و التی تعدّ واحدهٔ من أهم أسس التمدّن الإنسانی و الحیاهٔ الاجتماعیهٔ، فمع ملاحظهٔ أنّ البحار تشکّل القسم الأعظم من الکرهٔ الأرضیهٔ و أنّها مرتبطهٔ مع بعضها، فإنّها تستطیع أن تقدّم للإنسان أهمّ الخدمات
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳
بهـذا الخصوص. إذ أنّ البضائع التی یتمّ حملها و نقلها عبر البحار، و کـذا أعـداد المسافرین الذین یتمّ نقلهم من مکان إلی آخر، علی درجهٔ من الکثرهٔ بحیث لا یمکن مقایستها مع أیّهٔ من وسائل النقل الاخری، و علی سبیل المثال فإنّ سفینهٔ واحدهٔ تستطیع حمل عشرات الآلاف من السیارات علی ظهرها[۴۶].
۴– بـدیهی أنّ فوائـد البحـار لاـ یمکن حصـرها بالأمور التی ذکرت أعلاه، و القرآن الکریم لا یریـد بـذلک أن یحـدّدها ضـمن تلک الأقسام الثلاثـهٔ المـذکورهٔ، فهناک مسألهٔ تکون الغیوم، الأدویهٔ النفط، الألبسهٔ، الأسـمدهٔ للأراضـی البور، التأثیر فی إیجاد الریاح .. إلی غیر ذلک من برکات البحار الاخری.

۵- تأكيد القرآن الكريم على مفهوم «لحما طريّا» إشارة عميقة المحتوى لفوائد التغذية بهذه اللحوم فى مقابل أضرار اللحوم القديمة و المعلّبة و أمثال ذلك.

۶- هنا يثار سؤال و هو أنّ البحار المالحة تملأ الكرة الأرضية فى انتشارها، فأين تقع بحور الماء العذب؟

و للإجابة يجب القول أنّ بحر و بحيرات الماء العذب أيضا ليست قليلة فى الكرة الأرضية مثل بحيرات الماء العذب فى الولايات المتحدة و غيرها، إضافة إلى أنّ الأنهر الكبيرة تسمّى بحارا أيضا فى بعض الأحيان، فقد ورد استعمال كلمة «البحر» ل (نهر النيل) فى قصّة موسى، كما فى سورة البقرة- الآية ۵۰ و الشعراء- ۶۳ و الأعراف- ۱۳۸).

كذلك فإنّه يمكن اعتبار مصبّات الأنهار فى البحار و المحيطات عبارة عن بحيرات عذبة، لأنّ مياه الأنهار عند انصبابها فى المحيط تدفع مياه البحار و تبقى غير قابلة للاختلاط لمدّة قصيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴

۷- جملة لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لها معنى واسع و شامل لكلّ فعّالية اقتصادية تعتمد على البحر.***

بحث

العوامل المعنوية المؤثّرة فى طول العمر

قام المفسّرون ببحوث مختلفة بما يتناسب مع البحث الوارد فى هذه الآيات حول إطالة و إقصار العمر بأمر اللّه، و ذلك بما يتوافق مع الروايات الواردة فى هذا الخصوص.

طبيعى أنّ هناك سلسلة من العوامل الطبيعية التى تؤثّر على طول أو قصر العمر، و التى أصبح أكثرها معروفا عند الناس، كالتغذية الصحيحة بعيدا عن الإفراط و التفريط، العمل و إدامة الحركة، تحاشى المواد المخدّرة، و الإدمانات الخطرة و المشروبات الكحولية، الابتعاد عن المهيّجات المستمرة، التمسّك بإيمان قوى يساعد الإنسان على العيش باطمئنان و هدوء فى الملمّات، و يعطيه القدرة على مواجهة ذلك.

و إضافة إلى ذلك، فإنّ هناك عوامل اخرى غير واضحة الارتباط ظاهرا بقضيّة طول العمر، و لكن الروايات أكّدت عليها، و كنموذج نورد الروايات التالية:

أ-

عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ الصدقة و صلة الرحم تعمران الديار و تزيدان فى الأعمار»[۴۷].

ب- و

عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من سرّه أن يبسط فى رزقه و ينسئ له فى أجله فليصل رحمه»[۴۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵

ج- و فيما يخصّ بعض المعاصى مثل الزنا و أثرها فى تقصير عمر الإنسان نقرأ

فى الرواية المشهورة عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يا معشر المسلمين إيّاكم و الزنا فإنّ فيه ستّ خصال، ثلاث فى الدنيا و ثلاث فى الآخرة، أمّا التى فى الدنيا فإنّه يذهب بالبهاء، و يورث الفقر، و ينقص العمر»[۴۹].

د-

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «البر و صدقة السرّ ينفيان الفقر و يزيدان فى العمر، و يدفعان عن سبعين ميتة سوء»[۵۰].

كذلك فقد وردت الإشارة إلى المعاصى و الذنوب الاخرى كالظلم، بل مطلق المعاصى.

بعض المفسّرين الذين لم يتمكّنوا من التفريق بين «الأجل المحتوم» و «الأجل المعلّق» اعترضوا على مثل هذه الأحاديث و اعتقدوا بأنّها مخالفة لنصّ القرآن و أنّ عمر الإنسان له حدّ ثابت لا يتغيّر.

توضيح المسألة:- لا شكّ أن للإنسان أجلا محتوما و أجلا معلّقا.

الأجل المحتوم الذى هو نهاية استعداد الجسم للبقاء، و بحلوله ينتهى كلّ شىء بأمر اللّه.

الأجل المعلّق أو المخروم الذى ينتفى بانتفاء شرائطه، مثلا إنسان ينتحر فلو أنّه لم يقم بتلك الكبيرة فإنّه سيبقى لسنوات اخرى يواصل حياته. أو أنّه نتيجة تعاطى المشروبات الكحولية و المواد المخدّرة و ممارسة الشهوات بدون قيد أو شرط، يفقد الجسم قدراته فى مدّة قصيرة. فى حال أنّه بالابتعاد عن هذه الأمور يستطيع أن يعيش لسنوات طويلة اخرى.

هذه امور قابلة للإدراك و التجربة بالنسبة إلى الجميع، و لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶

كذلك فإنّه فيما يخصّ الأقدار فإنّ هناك أمورا ترتبط بالأجل المخروم، و هى أيضا غير قابلة للإنكار.

و عليه فإذا ورد فى الروايات أنّ الإنفاق فى سبيل اللّه أو صلة الرحم تطيل العمر و تدفع أنواعا من البلاء، فهى فى الحقيقة تقصد هذه العوامل.

و إذا لم نفصل بين الأجل المخروم و الأجل المحتوم لا- يمكننا إدراك كثير من الأمور المتعلّقة بالقضاء و القدر، و تأثير الجهاد و السعى و العمل الدائب فى الحياة، و سوف تبقى هذه الأمور غير قابلة للحلّ.

هذا البحث يمكن توضيحه بمثال واحد بسيط و هو الآتى:

لو اشترى أحدهم سيارة جديدة بحيث يتوقّع من صناعتها أن تدوم عشرين عاما، بشرط المحافظة عليها و صيانتها، و فى هذه الحالة فإنّ الأجل الحتمى لهذه السيارة هو عشرون عاما، و لكن لو لم تتحقّق لها الصيانة المطلوبة و قام صاحبها بتسليمها إلى أشخاص لا مبالين و غير عارفين بقيادة السيارات، أو أن يحملها فوق طاقتها، أو أن يقودها بعنف فى طرق و عرة يوميا، فإنّ أجلها المحتوم ذلك يمكن أن يهبط إلى النصف أو العشر، و ذلك هو الأجل المخروم، و نحن نعجب كيف أنّ بعض المفسّرين لم يلتفتوا إلى هذه القضية الواضحة.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷

الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۳ الى ۱۴]

اشارة

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (۱۳) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (۱۴)

التّفسير

الأصنام لا تسمع دعاءكم!!

تعاود هـذه الآيات الإشارة إلى قسم آخر من آيات التوحيـد و النعم الإلهيـة اللامتناهيـة، لكى تـدفع الإنسان مع تعريفه بتلك النعم إلى شكرها و معرفة المعبود الحقيقى، و ليرجع عن أىّ شرك أو عبادة خرافية، يقول تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ «يولـج» من مـادّة «إيلاـج» بمعنى الـدخول فى مضـيق. و يمكن أن يكـون إشـارة إلى أحـد المعنيين أو كليهمـا، أى: الزيـادة و النقص التدريجى فى الليل و النهار على مدار السنة. ممّا يؤدّى إلى حصول الفصول المختلفة بكلّ آثارها و بركاتها، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸

الانتقال التـدريجى من الليل إلى النهار و بالعكس، و ذلك بواسـطة الشـفق و الغسق الـذى يقلّل من مخاطر الانتقال المفاجئ من النور إلى الظلام و بالعكس ۵۱].

ثمّ يشير إلى مسألة تسخير الشمس و القمر فيقول تعالى: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ. و أىّ تسخير أفضل من حركة هذين الكوكبين باتّجاه تحقيق المنافع المختلفـة للبشـر، و هـذا التسـخير يعتبر مصـدرا لمختلف أنواع البركات فى حياة البشـر، فإنّ السـحاب و الريح و القمر و الشـمس و الأفلاك فى حركة دائبة لكى يسـتطيع الإنسان إدامة حياته، و ليفيق من غفلته فيذكر الواهب الأصـلى لهذه المواهب بالنسبة إلى تسخير الشمس و القمر عرضنا شرحا فى تفسير الآية الثانية من سورة الرعد و الآية ۳۳ من سورة إبراهيم).

و مع ما تتمتّع به الشـمس و القمر فى أفلاكها من مسير دقيق و منتظم لتؤدّى المنفعة المناسبة و الجيّدة للبشر، فإنّ النظام الذى يحكمها ليس بخالد، فحتّى هذه السـيارات العظيمة بكلّ ذلك النور و الإشـراق ستصـيبها العتمة فى النهاية. و تتوقّف عن العمل. لذا يشير تعالى إلى ذلك بعد ذكر التسخير فيقول: كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى

فبمقتضى إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۵۲]، فإنّها جميعا ستواجه مصير الانطفاء و الفناء.

بعض المفسّـِرين ذكر تفسيرا آخر لجملة لِأَجَلٍ مُسَمًّى و ذلك أنّها تعبير عن حركة دوران الشمس و القمر حول محوريهما، و التى تتمّ فى الاولى فى عام، و فى الثانية فى شهر واحد[۵۳].

و لكن بملاحظة الموارد التى استعمل فيها هذا التعبير فى القرآن الكريم- بمعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹

انتهاء العمر- يتّضح أنّ التّفسير المشار إليه صحيحا، كما أنّ التّفسير الأوّل أيضا- أى نهاية عمر الشمس و القمر- ورد فى الآيات (۶۱- النحل و ۴۵- فاطر ۴۲- الزمر ۴- النور ۶۷- غافر).

ثمّ يقول تعالى مسلّطا الضوء على نتيجة هـذا البحث التوحيـدى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ اللّه الذى قرّر نظام النوم و الظلام و الحركات الدقيقة للشمس و القمر بكلّ بركاتها. لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ[۵۴].

«قطمير»: على ما يقول الراغب: هو الأثر فى ظهر النواة، و ذلك مثل للشـىء الطفيف، و يقول «الطبرسى» فى مجمع البيان و القرطبى فى تفسيره: هو الغشاء الرقيق الشفّاف الذى يغلف نواة التمر بكاملها. و على كلّ حال فهو كناية عن موجودات حقيرة تافهة.

نعم فهذه الأصـنام لا تضـرّ و لا تنفع، لا تدفع عنكم و لا حتّى عن نفسـها، لا تحكم و لا تملك حتّى غلاف نواة تمر! فإذا كانت حالها كذلك، فكيف تعبدونها أيّها المغفّلون، و تريدون منها حلا لمشكلاتكم.

ثمّ تضـيف الآية: إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ لأنّها قطع من الحجر و الخشب لا أكثر، جمادات لا شعور لها، وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ

إذ اتّضح أنّها لا تملك نفعا و لا ضرّا حتّى بمقدار (قطمير) و على هذا فكيف تنتظرون منها أن تعمل لكم شيئا أو تحلّ لكم عقدة.

و أدهى من ذلك وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ و يقولون: اللّهم إنّهم لم يعبدوننا، بل إنّهم عبدوا أهواءهم فى الحقيقة.

هـذه الشـهادة إمّا بلسان الحال الـذى يدركه كلّ شـخص بآذان وجدانه، أو أنّ اللّه فى ذلك اليوم يعطى فيه جوارح الإنسان و أعضاءه إمكانية التكلّم فتنطق هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰

الأصنام أيضا، و يشهدن بأنّ هؤلاء المشركين المنحرفين إنّما عبدوا فى الحقيقة أوهامهم و شهواتهم.

ما ورد فى هذه الآية شبيه بما ورد فى الآية (۲۸) من سورة يونس حيث يقول تعالى: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ

احتمل جمع من المفسّرين أنّ أمثال هذه التعبيرات وردت بخصوص معبودات من أمثال الملائكة أو حضرة المسيح عليه السّلام، لأنّ الحديث و التكلّم من خصوصية هؤلاء فقط، و جملة إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ إشارة إلى أنّهم مشغولون بأنفسهم إلى درجة أنّكم لو خاطبتموهم لا يسمعون دعائكم ۵۵].

و لكن- مع الالتفات إلى سعة مفهوم الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ يظهر أنّ المقصود هو الأصنام، و أنّ جملة إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ترتبط بالدنيا خاصّة. ثمّ يقول تعالى فى ختام الآية من أجل تأكيد أكثر: أن لا أحد يخبرك عن جميع الحقائق كما يخبرك اللّه تعالى: وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ.

فإذا قالت الآية أنّ الأصنام تتنكّر لكم فى يوم القيامة، و تتضايق منكم، فلا تتعجّبوا من هذا القول، فإنّ من يخبركم هو الذى يعلم بكلّ ما فى هذا الكون بالتفصيل، فهو المحيط علما بالمستقبل و الماضى و الحاضر.***

بحوث

۱- استقلال آيات القرآن الكريم و تفسيرها المنحرف.

لقد اتّضح لدينا من خلال تفسير الآية الأخيرة بأنّ الأصنام و الأوثان و ما يعبد من دون اللّه تعالى ليس لها آذان صاغية لما يطلب منها، و إن كان لها فهى غير قادرة على حلّ مشكلة ما، و ليس لها فى هذا العالم أىّ ملك و لو بقدر رأس الإبرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱

إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ و على هذا الأساس اتّخذ الوهّابيون هذه الآية ذريعة لهم للادّعاء بأنّ كلّ شيء ما خلا اللّه جلّ و علا- و إن كان نبيّا- لا يسمع دعاء، و إن سمع فلا يجيب! كما رفضوا أى نوع من التوسّل بأرواح الأنبياء و الأئمّة و الأولياء. و اعتبروا ذلك مخالفا للتوحيد محتجّين بقوله تعالى: وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

و لو أمعنا النظر فى الآيات السابقة و اللاحقة لهذه الآية للاحظنا أنّ المقصود من قوله: مِنْ دُونِهِ هى الأصنام لا غير، و ذلك يصدق على مجموعة الأحجار و الأخشاب و غيرها و التى كانت فى نظر مشركى الجاهلية بأنّها ذات قدرة إزاء قدرة الخالق الكريم جلّ و علا، كما أنّ الأنبياء و الأولياء و حتّى الشهداء فى سبيل اللّه أحياء فى البرزخ، و حياة البرزخ- كما هو معلوم- مجرّدة من الحجب المادية و متعلّقات الدنيا ممّا يجعلها أوسع منها. يضاف إلى ذلك فإنّ التوسّل بالأرواح الطاهرة للأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام لا يعنى إقرارنا لهم بالاستقلالية إزاء الخالق الكريم، بل إنّنا إنّما نطلب العون و المدد من مقامهم و جاههم فى حضرة البارئ العزيز، و هذا هو عين التوحيد (تأمّلوا جيدا).

و قد صرّح القرآن الكريم بأنّ الشفيع إنّما يشفع بإذن اللّه تعالى: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فمن يستطيع إنكار مثل هذه الآيات الصريحة غير الجهلة المغرورين الذين هتفوا بمثل هذه الادّعاءات لزرع الفرقة بين المسلمين؟! و فى كثير من الحالات نقرأ فى سيرة الصحابة أنّهم حينما تحيق بهم المشكلات يأتون إلى قبر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و يتوسّلون إليه، و يطلبون العون من اللّه عزّ و جلّ بشفاعة روحه الطاهرة.

مثالنا علی ذلک ما ذکره «البیهقی» من محدّثی العامّة، قال: فی زمن الخلیفة الثّانی مرّ فی الناس قحط و جدب، ممّا حدا ببلال و عدد من الصحابة إلی الذهاب لقبر رسول اللّه و قالوا عنده: «یا رسول اللّه، استق لامّتک ... فإنّهم قد هلکوا»[۵۶].

کما نقل «الآلوسی» فی (روح المعانی) الکثیر من الأحادیث فی هذا الصدد، و بعد المناقشة لهذه الأحادیث یخرج بالقول: إنّنی لا أری مانعا من التضرّع للّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲

جلّ و علا بمقام الرّسول الأکرم فی حیاته أو بعد مماته ... ثمّ انّ الآخرین الذین یمتلکون مقاما و قربا من الخالق الکریم یجوز التوسّل باللّه سبحانه بواسطتهم.

و لمزید من الاطلاع راجع تفسیرنا هذا، ذیل الآیة ۳۵ من سورة المائدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳

الآیات [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۱۵ الی ۱۸]

اشارة

یا أَیُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَی اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ (۱۵) إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ (۱۶) وَ ما ذلِکَ عَلَی اللَّهِ بِعَزِیزٍ (۱۷) وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلی حِمْلِها لا یُحْمَلْ مِنْهُ شَیْءٌ وَ لَوْ کانَ ذا قُرْبی إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ مَنْ تَزَکَّی فَإِنَّما یَتَزَکَّی لِنَفْسِهِ وَ إِلَی اللَّهِ الْمَصِیرُ (۱۸)

التّفسیر

اشارة

لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری

بعد الدعوة المؤکّدة إلی التوحید و محاربة أی شکل من أشکال الشرک و عبادة الأوثان، یحتمل أن یتوهّم البعض فیقول: ما هی حاجة اللّه لأن یعبد بحیث یصرّ کلّ هذا الإصرار، و یؤکّد کلّ هذا التأکید علی عبادته وحده؟ لذا فإنّ هذه الآیات توضّح هذه الحقیقة و هی أنّنا نحن المحتاجون لعبادته لا- هو سبحانه و تعالی، فتقول الآیة الکریمة: یا أَیُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَی اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴

فیا له من حدیث مهمّ و قیم ذلک الذی یوضّح موقعنا فی عالم الوجود من خالق الوجود، و یکشف الکثیر من الغموض، و یجیب علی الکثیر من الأسئلة.

نعم، فالقائم بذاته غیر المحتاج لسواه، واحد أحد، و هو اللّه تعالی، و کلّ البشر بل کلّ الموجودات محتاجة إلیه فی جمیع شؤونها و فقیرة إلیه و مرتبطة بذلک الوجود المستقل بحیث لو قطع ارتباطها به لحظة واحدة لأصبحت عدم فی عدم، فکما أنّه غیر محتاج مطلقا، فإنّ البشر یمثّلون الفقر المطلق، و کما أنّه قائم بذاته، فالمخلوقات کلّها قائمة به تعالی، لأنّه وجود لا متناهی من کلّ ناحیة، و واجب الوجود فی الذات و الصفات.

و مع حال کهذه، ما حاجته تعالی لعبادتنا؟! فنحن المحتاجون و الفقراء إلی اللّه و نسلک سبیل تکاملنا عن طریق عبادته و طاعته، و

نقترب بذلک من مصدر الفيض اللامتناهى، و نغترف من أنوار ذاته و صفاته.
و فى الحقيقة فإنّ هذه الآية توضيح للآيات السابقة حيث يقول تعالى: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ.
و عليه فإنّ البشر محتاجون له لا لسواه، لذا فيجب عليهم أن لا يطأطئوا رؤوسهم لغيره تعالى، و أن لا يطلبوا حاجاتهم إلّا منه تبارک اسمه، لأنّ ما سوى اللّه محتاج إلى اللّه كحاجتهم إليه، و حتّى أنّ تعظيم أنبياء اللّه و قادة الحقّ إنّما هو لأنّهم رسله تعالى و ممثّلوه، لا لذواتهم مستقلّة.
و عليه فهو «غنى» كما أنّه «حميد» أى إنّه فى عين استغنائه عن كلّ أحد، فهو رحيم و عطوف و أهل بكلّ حمد و شكر، و فى عين انّه أرحم الراحمين، فهو غير محتاج لأحد مطلقا.
الالتفات إلى هذه الحقيقة له أثران إيجابيان على المؤمنين، فهى تستنزلهم من مركب الغرور و الأنانية و الطغيان من جانب، و تنبههم إلى أنّهم لا يملكون شيئا من أنفسهم يستقلّون به، و أنّهم مؤتمنون على كلّ ما فى أيديهم من جانب آخر، لكى لا
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵
يمدّوا يد الحاجة إلى غيره، و لا يضعوا طوق العبودية لغير اللّه فى أعناقهم، و أن يتحرّروا من كلّ تعلّق آخر، و يعتمدوا على همّتهم، و بهذه النظرة الشمولية يرى المؤمنون أنّ كلّ موجود فى هذا العالم إنّما هو من أشعّة وجوده تعالى، و أن لا ـ ينشغلوا عن (مسبّب الأسباب) بالأسباب ذاتها.
جمع من الفلاسفة عدّوا هذه الآية إشارة إلى البرهان المعروف «الإمكان و الفقر» أو «الإمكان و الوجوب» لإثبات واجب الوجود، مع أنّ الآية ليست فى مقام بيان الاستدلال على إثبات وجود اللّه، بل إنّها شرح لصفاته تعالى، و لكن يمكن اعتبار البرهان المذكور من لوازم مفاد هذه الآية.

شرح برهان الإمكان و الوجوب «الفقر و الغنى»:

إنّ جميع الموجودات التى نراها فى هذا العالم كانت كلّها ذات يوم «عدما»، ثمّ اكتست بلباس الوجود، أو بتعبير أدقّ: كان يوم لم تكن شيئا فيه، ثمّ صارت وجودا، و هذا بحدّ ذاته دليل على أنّها معلولة فى وجودها لوجود آخر، و ليس لها وجود من ذاتها.
و نعلم بأنّ أى وجود معلول، مرتبط و قائم بعلّته و كلّه احتياج، و إذا كانت تلك (العلّة) أيضا معلولة لعلّة اخرى فإنّها بدورها ستكون محتاجة، و لو تسلسل هذا الأمر إلى ما لا ـ نهاية فسوف تكون الحصيلة مجموعة من الموجودات المحتاجة الفقيرة، و بديهى أنّ مجموعة كهذه لن يكون لها وجود أبدا، لأنّ منتهى الاحتياج احتياج، و منتهى الفقر فقر، و ما لا نهاية له من الأصفار لا يمكن أن يحصل منه أى عدد، كما أنّه ممّا لا نهاية له من المرتبطات بغيرها لا تنتج أى حالة استقلال.
من هنا نستنتج أنّنا فى النهاية يجب أن نصل إلى وجود قائم بذاته، و مستقل من جميع النواحى، و هو علّة لا معلول، و هو واجب الوجود.
هنا يثار السؤال التالى: لماذا تتعرّض الآية أعلاه للإنسان و حاجته إلى اللّه
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶
فقط؟ بينما جميع الموجودات تشترک فى هذا الفقر؟
و الجواب: إذا كان الإنسان- الذى يعتبر سيّد المخلوقات- غارقا فى الحاجة و الفقر إلى اللّه، فإنّ حال بقيّة الموجودات واضحة، و بتعبير آخر فإنّ بقيّة الموجودات تشترک مع الإنسان فى الفقر الذى هو «إمكان الوجود».

و تخصيص الحديث فى الإنسان إنّما هو لأجل كبح جماح غروره، و إلفات نظره إلى حاجته إلى اللّه فى كلّ حال، و فى كلّ شىء و كلّ مكان، ليكون ذلك أساس الصفات الحسنة و الفضائل و الملكات الأخلاقية، ذلك الالتفات الذى يؤدّى إلى التواضع و ترك الظلم و الغرور و الكبر و العصبية و البخل و الحرص و الحسد، و يبعث على التواضع أمام الحقّ.

و لتأكيد هذا الفقر و الحاجة فى الإنسان يقول تعالى فى الآية التالية: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

و عليه فهو سبحانه و تعالى ليس بحاجة إليكم أو إلى عبادتكم، و إنّما أنتم الفقراء إليه.

و هذه الآية شبيهة بما ورد فى الآية (۱۳۳) من سورة الأنعام حيث يقول تعالى:

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ

فهو تعالى ليس محتاجا لطاعتكم و لا خائفا من معصيتكم، و فى نفس الوقت فإنّ رحمته الواسعة تشملكم جميعا، و لا ينقص من عظمته شيئا ذهاب العالم بأسره، كما أنّ خلق هذا العالم لا يضيف إلى مقام كبريائه شيئا.

و فى الآية الثالثة أيضا يعود التأكيد مرّة ثانية فيقول تعالى: وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ نعم، فإنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، و هذا يصدق على جميع عالم الوجود.

على كلّ حال، فإنّه تعالى إذا أمركم بالإيمان و الطاعة و العبادة فإنّما ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۷

لأجلكم أنتم، و كلّ ما ينشأ عن ذلك من فائدة أو بركة إنّما يعود عليكم.

الآية الأخيرة من هذه الآيات تشير إلى خمسة مواضيع فيما يتعلّق بما سبق بحثه فى الآيات السابقة:

الأوّل: من الممكن أن يثير ما ورد فى الآية الماضية من قوله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ سؤالا فى أذهان البعض من أنّ المقصودين فى هذه الآية ليس المذنبين فقط، إذ أنّ المؤمنين الصالحين موجودون فى كلّ عصر و زمان، فهل يمكن أن يكون هؤلاء أيضا معرضين للعقوبات المترتبة على أعمال الطالحين، و يحكمون بالفناء على حد سواء؟

هنا يجيب وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى

«وزر» بمعنى الثقل، و قد أخذ من «وزر» (على زنة كرب) بمعنى الملجأ فى الجبل، و أحيانا يأتى بمعنى المسؤولية و يعبّر بذلك عن الإثم كما يعبّر عنه بالثقل، و الوزير المتحمّل ثقل المسؤولية من أميره، و الموازرة: المعاونة[۵۷]، لأنّ الشخص عند المعاونة يتحمّل قسطا من الثقل عن رفيقه.

و هذه الجملة تعتبر واحدة من الاسس الهامّة فى الإعتقادات الإسلامية، و الحقيقة أنّها ترتبط من جانب بالعدل الإلهى، بحيث يرتهن كلّ بعمله. و هو تعالى إنّما يثيب الشخص على سعيه و اجتهاده فى طريق الخير، و يعاقبه على ذنبه.

و من جانب آخر فإنّ فيها إشارة إلى شدّة العقوبة يوم القيامة، بحيث لا يكون أحد مستعدّا لتحمّل وزر عمل غيره على عاتقه مهما كان قريبا منه.

و الالتفات إلى هذا المعنى له الأثر الفعّال فى البناء الروحى للإنسان، حيث يكون مراقبا لنفسه، و لا يسمح لها بالفساد بحجّة فساد الأقران أو المحيط، ففساد المحيط لا يمكن اعتباره مسوغا لإفساد النفس، إذ أنّ كلا يحمل وحده وزر ذنبه.

و من جانب آخر فإنّه يفهم الناس و يبصرهم بأنّ حساب اللّه للمجتمع لا يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۸

حسابا جميعا، بل إنّ كلّ فرد يحاسب بشكل مستقل، أى إنّ الفرد إذا أدّى ما عليه من تطهير نفسه، و محاربة الفساد، فليس عليه أدنى بأس أو خوف إذا كان العالم بأسره ملوّثين بالكفر و الشرك و الظلم و المعصية.

و أساسا فلن يكون لأى برنامج تربوى أثر ما لم يولّ اهتماما لهذا الأصل المهمّ (دقّق النظر)!! هذه المسألة تطرح فى الجملة الثانية من

الآية بشكل آخر، يقول تعالى: وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى ۵۸].

فى حديث عن ابن عبّاس أو غيره، أنّ امّا و ابنها يأتيان فى يوم القيامة و كلّا منهما عليه ذنوب كثيرة، و تطلب الامّ من ابنها أن يحمل عنها بعض تلك المسؤوليات فى قبال تربيتها له و حملها به، فيقول لها ابتعدى عنّى فأنا أسوأ منك حالا[۵۹].

و يبرز هنا السؤال التالى: هل أنّ هذه الآية تنافى ما ورد فى الروايات الكثيرة حول السنّة السيّئة و السنّة الحسنة؟ حيث أنّ الروايات تقول:

«من سنّ سنّة حسنة كان له أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شىء، و من سنّ سنّة سيّئة كان له وزرها و وزر من عمل بها».

و لكنّنا إذا التفتنا إلى نكتة واحدة، يتّضح الجواب على هذا السؤال، و هى أنّ عدم تسجيل ذنب أحد على آخر، إنّما هو فى صورة أن لا يكون له سهم فى ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۹

العمل، و لكن إذا كان له سهم فى إيجاد سنّة، أو الإعانة و المساعدة أو الترغيب و التشجيع، فمن المسلّم أنّه يحسب من عمله و يكون شريكا و مساهما فى ذلك العمل.

و أخيرا، فى الجملة الثالثة من الآية، ترفع الستارة عن حقيقة أنّ إنذارات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لها أثرها فى القلوب المهيّأة لذلك فقط، تقول الآية الكريمة: إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ.

فإن لم يكن خوف اللّه متمكّنا من القلب، و لم يكن هناك إحساس بمراقبة قوّة غيبية فى السرّ أو العلن، و لم تنفع الصلاة التى تؤدّى إلى إحياء القلب و التذكير باللّه فى تقوية ذلك الإحساس ... فلن يكون لإنذارات الأنبياء أثر يذكر.

و حين لا يكون الإنسان قد اعتنق عقيدة ما و لم يؤمن، فلو لم تكن لديه روح البحث عن الحقّ، و إحساس بالمسؤولية تجاه معرفة الحقيقة، فلن يصغى لدعوة الأنبياء، و لن يتفكّر فى آيات اللّه فى هذه الدنيا.

و فى الجملة الرابعة يعود مرّة اخرى إلى حقيقة (إنّ اللّه غير محتاج لأحد) فتضيف: وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ

و فى الختام ينبّه فى الجملة الخامسة إلى أنّ المحسنين و المسيئين إن لم ينالوا جزاء أعمالهم فى الدنيا فليس لذلك أهمّية ما دام المصير إلى اللّه وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ و بالتالى فانّه سيحاسب الجميع على أعمالهم.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۰

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۹ الى ۲۳]

اشارة

وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ (۱۹) وَ لا الظُّلُماتُ وَ لا النُّورُ (۲۰) وَ لا الظِّلُّ وَ لا الْحَرُورُ (۲۱) وَ ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَ لا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (۲۲) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (۲۳)

التّفسير

و ما تستوى الظلمات و لا النّور:

تذكر الآيات مورد البحث- بما يتناسب مع البحوث التى مرّت حول الإيمان و الكفر فى الآيات السابقة- أربعة أمثلة جميلة للمؤمن و

الكافر، توضّح بأجلى شكل آثار الإيمان و الكفر.

فى المثال الأوّل: شبّه «الكافر و المؤمن» ب «الأعمى و البصير» حيث تقول الآية الكريمة: وَ ما يَسْتَوِى الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ.

الإيمان نور و إشراق، يعطى البصيرة و المعرفة للإنسان فى النظرة إلى العالم، و فى الإعتقاد، و العمل و فى كلّ الحياة، أمّا الكفر فظلمة كالحة، فلا إعتقاد صحيح و نظرة سليمة عن العالم، و لا عمل صالح.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۱

تشير الآية (۲۵۷) من سورة البقرة إلى هذا الموضوع فتقول: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و بما أنّ العين المبصرة وحدها لا تكفى لتحقّق الرؤية، فيجب توفّر النور و الإضاءة أيضا لكى يستطيع الإنسان- الإبصار بمساعدة هذين العاملين- تضيف الآية التالية: وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ.

لأنّ الظلام منشأ الضلال، الظلام سبب السكون و الركود، الظلام مسبّب لكلّ أنواع المخاطر، أمّا النور و الضياء فهو منشأ الحياة و المعيشة و الحركة و الرشد و النمو و التكامل، فلو زال النور لتوقّفت كلّ حركة و تلاشت جميع الطاقات فى العالم، و لعمّ الموت العالم المادّى- بأسره، و كذلك نور الإيمان فى عالم المعنى، فهو سبب الرشد و التكامل و الحياة و الحركة.

ثمّ تضيف الآية وَ لَا الظِّلُّ وَ لَا الْحَرُورُ فالمؤمن من يستظلّ فى ظلّ إيمانه بهدوء و أمن و أمان، أنمّا الكافر فلكفره يحترق بالعذاب و الألم.

يقول «الراغب» فى مفرداته: الحرور: (على وزن قبول) الريح الحارّة.

و اعتبرها بعضهم «ريح السموم» و بعضهم قال بأنّها «شدّة حرارة الشمس».

و يقول «الزمخشرى» فى الكشّاف: «السموم يكون بالنهار، و الحرور بالليل و النهار، و قيل بالليل خاصّة»[۶۰]، على أيّة حال، فأين الحرور من الظلّ البارد المنعش الذى يبعث الارتياح فى روح و جسم الإنسان.

ثمّ يقول تعالى فى آخر تشبيه: وَ ما يَسْتَوِى الْأَحْياءُ وَ لَا الْأَمْواتُ المؤمنون حيويون، سعاة متحرّكون، لهم رشد و نمو، لهم فروع و أوراق و ورود و ثمر، أمّا الكافر فمثل الخشبة اليابسة، لا فيها طراوة و لا ورق و لا ورد و لا ظلّ لها، و لا تصلح إلّا حطبا للنار.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۲

فى الآية (۱۲۲) من سورة الأنعام نقرأ: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها.

و فى ختام الآية يضيف تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ لكى يسمع دعوة الحقّ و يلبّى نداء التوحيد و دعوة الأنبياء وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

فمهما بلغ صراخك، و مهما كان حديثك قريبا من القلب، و مهما كان بيانك معبّرا، فإنّ الموتى لا يسعهم إدراك شىء من ذلك، و من فقد الروح الإنسانية نتيجة الإصرار على المعاصى، و غرق فى التعصّب و العناد و الظلم و الفساد، فبديهى أنّ ليس لديه الاستعداد لقبول دعوتك.

و عليه فلا تقلق من عدم إيمانهم، و لا تجزع، فليس عليك من وظيفة إلّا الإبلاغ و الإنذار إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ.

***

بحوث

۱- آثار الإيمان و الكفر

نعلم أنّ القرآن لا يعير اهتماما للحواجز الجغرافية و العرقية و الطبقية و أمثالها ممّا يفرّق بين الناس، فالقرآن الكريم يعتبر أنّ الحدّ هو الحدّ بين [الإيمان و الكفر]، و عليه فإنّه يقسّم المجتمع البشرى إلى قسمين «المؤمنين» و «الكافرين».

و لتعريف «الإيمان» شبّهه القرآن الكريم ب «النور»، كما أنّه شبّه الكفر ب «الظلام» و هذا التشبيه أحسن مؤشّر على ما يستخلصه القرآن الكريم من مسألة الكفر و الإيمان ۶۱].

فالإيمان نوع من الإحساس و النظرة الباطنية، و نوع من العلم و المعرفة متوائمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۳

مع عقيدة قلبية و حركة، و نوع من التصديق الذى ينفذ فى أعماق روح الإنسان ليكون منبعا لكلّ الفعّاليات البنّاءة.

أمّا الكفر، فجهل و عدم معرفة و تكذيب يؤدّى إلى تبلّد، بل فقدان الإحساس بالمسؤولية، كما يؤدّى إلى كلّ أنواع الحركات الشيطانية و التخريبية.

كذلك نعلم أيضا بأنّ «النور» منشأ لكلّ حياة و حركة و نمو و رشد فى الحياة، بالنسبة إلى الإنسان و الحيوان و النبات، على عكس الظلام فهو عامل الصمت و النوم و الموت و الفناء فى حال استمراره. لذا فلا عجب حينما يشبه القرآن الكريم «الإيمان و الكفر» «بالنور و الظلمة» تارة و «بالحياة و الموت» تارة اخرى، و فى مكان آخر يشبّههما (بالظلّ الظليل و الريح السموم)، أو حينما يشبّه (المؤمن و الكافر) (بالبصير و الأعمى). و قد أوضحنا كلّ ما يتعلّق بهذه التشبيهات الأربعة.

و لا نبتعد كثيرا، فعند ما نجالس (مؤمنا) نحسّ أثر ذلك النور فى كلّ وجوده، أفكاره تنير لمن حوله، و حديثه مليء بالإشراق، أعماله و أخلاقه تعرّفنا حقيقة الحياة و حياة الحقيقة.

أمّا الكافر فكلّ وجوده مليء بالظلمة، لا يفكّر إلّا بمنافعه الماديّة و كيفية الترقّى فى الحياة الماديّة، أفقه و فضاء فكره لا يتجاوز حدود حياته الشخصية، غارق فى الشهوات، لا يدفع روح و قلب جليسه إلّا إلى أمواج الظلمات.

و عليه فإنّ ما أوضحه القرآن فى هذه الآيات، قابل للإدراك و التعقّل بشكل محسوس و ملموس.

۲- هل أنّ الموتى واقعا لا يدركون؟

من ملاحظة ما ورد فى الآيات أعلاه، يطرح هنا سؤالان:

الأوّل: كيف يقول تعالى فى القرآن الكريم مخاطبا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ؟ مع أنّه جاء فى الحديث المعروف أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۴

أمر يوم بدر بأربعة و عشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوىّ من أطواء بدر خبيث مخبث، و كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلمّا كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته، فشدّ عليها رحلها ثمّ مشى و اتّبعه أصحابه و قالوا: ما نراه ينطلق إلّا لبعض حاجته، حتّى قام على شفة الركى مجفل يناديهم بأسمائهم و أسماء آبائهم: يا فلان بن فلان و يا فلان بن فلان أ يسّركم أنّكم أطعتم اللّه و رسوله؟ فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا؟ قال:

فقال عمر: يا رسول اللّه ما تكلّم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و الّذى نفس محمّد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[۶۲].

أو ما ورد فی آداب دفن الموتی من تلقینهم عقائد الحقّ.

فکیف یمکن التوفیق بین هذه الأمور و الآیات مورد البحث أعلاه.

یتّضح الجواب علی هذا السؤال إذا أخذنا بنظر الإعتبار ما یلی: إنّ الحدیث فی الآیات کان حول عدم إدراک الموتی بالشکل الطبیعی و الاعتیادی، أمّا الروایهٔ التی ذکرناها أو تلقین المیّت فإنّما ترتبط بظروف خاصّهٔ و غیر عادیّهٔ، حیث أنّ اللّه سبحانه مکّن حدیث الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تلک الحالهٔ من الوصول إلی أسماع الموتی.

و بتعبیر آخر فإنّ الإنسان فی عالم البرزخ ینقطع ارتباطه مع عالم الدنیا، إلّا فی الموارد التی یأذن اللّه فیها أن یوصل هذا الارتباط، و لذا فإنّنا لا نستطیع عادهٔ الاتّصال بالموتی فی الظروف العادیهٔ.

السؤال الآخر: هو إذا کان حدیثنا غیر بالغ أسماع الموتی فما معنی لسلامنا علی الرّسول الأکرم و الأئمّهٔ علیهم السّلام و التوسّل بهم، و زیارهٔ قبورهم، و طلب الشفاعهٔ منهم عند اللّه؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۵

و قد استندت جماعهٔ من الوهّابیین المعروفین بجمودهم الفکری علی هذا التوهّم الباطل، و بالتمسّک بظواهر الآیات القرآنیهٔ، دون الاهتمام بمحتواها العمیق، أو الالتفات إلی الأحادیث الشریفهٔ الکثیرهٔ الواردهٔ فی هذا المجال، سعوا إلی نفی و ردّ مفهوم «التوسّل» و إثبات بطلانه.

الجواب علی هذا السؤال أیضا یتّضح ممّا ذکرناه کمقدّمهٔ فی الإجابهٔ علی السؤال الأوّل، من أنّ التعامل مع الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أولیاء اللّه یختلف عنه مع الآخرین، فهؤلاء کالشهداء (بل إنّهم یحتلّون الصفّ الأوّل أمام الشهداء) و هم أحیاء و خالدون، و هم مصداق لقوله: أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ و بأمر من اللّه فإنّهم یحتفظون بارتباطهم بهذا العالم، کما أنّهم یستطیعون و هم فی هذه الدنیا أن یتّصلوا بالموتی- کما فی حالهٔ قتلی بدر-.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۶۵

تنادا إلی ذلک نقرأ فی روایات کثیرهٔ وردت فی کتب الفریقین أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّهٔ علیهم السّلام یسمعون سلام من یسلّم علیهم سواء کان قریبا أو بعیدا، بل إنّ أعمال الامّهٔ تعرض علیهم [۶۳].

الجدیر بالملاحظهٔ أنّنا مأمورون بالسلام علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی التشهّد الأخیر للصلوات الیومیهٔ، و هذا إعتقاد المسلمین عامّهٔ، أعمّ من کونهم شیعهٔ أو سنّهٔ، فکیف یمکن مخاطبهٔ من لا یمکنه السماع أصلا؟

کذلک

وردت روایات متعدّدهٔ فی صحیح مسلم عن أبی سعید الخدری و أبی هریرهٔ، عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لقّنوا موتاکم لا إله إلّا اللّه»[۶۴].

کذلک وردت الإشارهٔ فی نهج البلاغهٔ إلی مسألهٔ الارتباط مع أرواح الموتی، فعند ما کان أمیر المؤمنین صلوات اللّه و سلامه علیه قال راجعا من صفّین أشرف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۶

علی القبور بظاهر الکوفهٔ:

«یا أهل الدیار الموحشهٔ ... إلی أن قال: أما لو أذن لهم فی الکلام لأخبروکم أنّ خیر الزاد التقوی»[۶۵].

۳- تنویع التعبیرات جزء من الفصاحهٔ

لوحظ فی التشبیهات الأربعة الواردة فی الآیات أعلاه، تعبیرات متفاوتة تماما مثلا (أعمی- بصیر) و (ظلّ- حرور) جاءت بصورة المفرد فی حال أنّ (أحیاء- أموات) بصورة الجمع، و جاءت (ظلمات- نور) بصورة جمع و الثانیة بصورة مفرد .. هذا من جانب.

و من جانب آخر فقد قدمت التشبیهات ذات المنحی السلبی علی غیرها فی التشبیه الأوّل و الثانی (أعمی- ظلمات) فی حال قدمت التشبیهات ذات المنحی الإیجابی فی التشبیه الثالث و الرابع (ظلّ- أحیاء).

و من جانب ثالث تکرّرت أداة النفی فی التشبیهات الثانی و الثالث و الرابع فی حین أنّها لم تتکرّر فی التشبیه الأوّل.

و أخیرا، فإنّ جملة ما یَسْتَوِی وردت فقط فی التشبیه الأوّل و الأخیر، و لا أثر لها فی التشبیهات الاخری.

بعض المفسّرین علّلوا هذه الاختلافات بتعلیلات کثیرة بعضها جدیر بالاهتمام و بعضها الآخر مورد مساءلة.

و ضمن جملة التعلیلات اللطیفة أنّ جمع «الظلمات» و إفراد «النور» للتدلیل علی أنّ الظلمة- التی تعنی الکفر- ذات تشعّبات کثیرة، بینما حقیقة «الإیمان» و التوحید واحدة لیس إلّا. فالإیمان کالخطّ المستقیم الذی یوصل بین نقطتین لا وجود لسواه بینهما، فی حین أنّ ظلمة الکفر مثل آلاف الآلاف من الخطوط المتعرّجة المنحرفة التی یمکن إیجادها بین نقطتین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۷

کذلک فإنّ تقدیم التشبیهات ذات المنحی السلبی فی المثالین الأوّلیین إنّما هو للإشارة إلی الإسلام نقل الناس من الجاهلیة و ظلمات الشرک إلی نور الهدایة.

و أمّا المثالان الأخیران فإشارة إلی المراحل الاخری التی أحکم الإسلام فیها جذوره فی القلوب، و وسّع المناحی الإیجابیة فی المجتمع.

و إذا تجاوزنا کل ذلک فإنّ التنوّع أصلا فی البیان یمنح الحدیث طراوة و روحا خاصّة، ممّا یجعل ذلک مؤثّرا و جمیلا و جذّابا، فی حال إنّ التکرار علی نمط واحد یسلب الحدیث لطافته- إلّا فی موارد استثنائیة- و بناء علی هذا فإنّ الفصحاء و البلغاء یسعون دائما إلی تنویع تعبیراتهم و جعلها مؤثّرة، و نعلم أنّ القرآن علی أعلی درجات الفصاحة و البلاغة.

و علیه، فلو لم یکن غیر مراعاة الفصاحة أمر آخر لکفی، مع أنّ من الممکن أن یتوصّل غیرنا من الأجیال القادمة إلی کشف أسرار اخری غیر ما ذکرنا ممّا هو محجوب عنّا الآن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۸

الآیات [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۲۴ الی ۲۶]

اشارة

إِنَّا أَرْسَلْناکَ بِالْحَقِّ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِیها نَذِیرٌ (۲۴) وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فَقَدْ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْکِتابِ الْمُنِیرِ (۲۵) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَکَیْفَ کانَ نَکِیرِ (۲۶)

التّفسیر

لا عجب من عدم إیمان:

توصّلنا فی الآیات السابقة إلی أنّ هناک أفرادا کالأموات و العمیان لا تترک مواعظ الأنبیاء فی قلوبهم أدنی أثر، و علی ذلک فإنّ

الآيات مورد البحث تقصد مواساة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الخصوص و تخفيف آلامه لكى لا يغتمّ كثيرا.

أوّلا تقول الآية الكريمة: إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ. فيكفيك من أداء وظيفتك أن لا تقصّر فيها، أوصل نداءك إلى مسامعهم، بشّرهم بثواب اللّه، و أنذرهم عقابه، سواء استجابوا و لم يستجيبوا.

الملفت للنظر أنّه تعالى قال فى آخر آية من الآيات السابقة مخاطبا الرّسول الأكرم إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ، و لكنّه فى الآية الاولى من هذه الآيات يقول: إِنَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۹

أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً إشارة إلى أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يقوم بهذا العمل من عند نفسه، و إنّما هو مأمور من قبل اللّه تعالى.

و إذا كانت الآية السابقة قد ركّزت على الإنذار فقط، فلأنّ الحديث كان حول الجاهلين المعاندين الذين هم كالأموات المقبورين الذين لا يتقبّلون أى حديث، أمّا هذه الآية فإنّها توضّح بشكل كامل، وظيفة الأنبياء الثنائية الهدف «البشارة» و «الإنذار»، مؤكّدة فى آخرها من جديد على «الإنذار» لأنّ الإنذار هو القسم الأساس من دعوة الأنبياء فى قبال المشركين و الظلمة.

«خلا»: من (الخلاء) و هو المكان الذى لا ساتر فيه من بناء و مساكن و غيرهما، و الخلوّ يستعمل فى الزمان و المكان، و لأنّ الزمان فى مرور، قيل عن الأزمنة الماضية «الأزمنة الخالية» لأنّه لا أثر منها، و قد خلت الدنيا منها.

و عليه فإنّ جملة وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ بمعنى أن كلّ امّة من الأمم السالفة كان لها نذير.

و الجدير بالملاحظة، طبقا للآية أعلاه، أنّ كلّ الأمم كان فيها نذير إلهى، أى كان فيها نبى، مع أنّ البعض تلقّى ذلك بمعنى أوسع، بحيث يشمل العلماء و الحكماء الذين ينذرون الناس أيضا، و لكن هذا المعنى خلاف ظاهر الآية.

على كلّ حال، فليس معنى هذا الكلام أن يبعث فى كلّ مدينة أو منطقة رسول، بل يكفى أن تبلّغ دعوة الرسل و كلامهم أسماع المجتمعات المختلفة، إذ أنّ القرآن يقول: خَلا فِيها نَذِيرٌ و لم يقل «خلا منها نذير».

و عليه فلا منافاة بين هذه الآية التى تقصد وصول دعوة الأنبياء إلى الأمم، مع الآية (۴۴) من سورة سبأ و التى تقول: وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ و التى يقصد منها كون المنذر منهم.

و يضيف تعالى فى الآية التالية: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فلا عجب من ذلك، و لا تحزن بسبب ذلك، لأنّه فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۰

وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ.

فلست وحدك الذى أصبحت موضع تكذيب هؤلاء القوم الجاهلين بما عندك من معجزات و كتاب سماوى، فقد واجه الرسل السابقون هذه المشكلة أيضا، لذا فلا تغتمّ و واصل سيرك بحزم، و اعلم أنّ من كتبت له الهداية فسوف يهتدى.

أمّا ما هو الفرق بين (البيّنات- و الزبر- و الكتاب المنير)؟ المفسّرين أظهروا وجهات نظر مختلفة، أوضحها تفسيران:

۱- «البيّنات» بمعنى الدلائل الواضحة و المعجزات التى تثبت حقّانية النبى، أمّا «الزبر» فجمع «زبور» بمعنى الكتب التى كتبت بإحكام (مثل الكتابة على الحجر و أمثالها) و هى كناية عن استحكام مطالبها[۶۶]. و إشارة إلى الكتب النازلة قبل موسى عليه السلام. فى حين أنّ «الكتاب المنير» إشارة إلى كتاب موسى عليه السّلام و الكتب السماوية الاخرى التى نزلت بعده، (لأنّه وردت الإشارة فى القرآن المجيد فى سورة المائدة- الآيات ۴۴ و ۴۶ إلى التوراة و الإنجيل على أنّهما (هدى و نور و فى نفس السورة- الآية ۱۵ عبّر عن القرآن الكريم بالنور أيضا).

۲- المقصود ب «الزبر» ذلك القسم من كتب الأنبياء التى تحتوى على العبرة و الموعظة و النصيحة و المناجاة (كزبور داود)، و أمّا

«الكتاب المنير» فتلك المجموعة من الكتب السماوية التى تحتوى على الأحكام و القوانين و التشريعات الاجتماعية و الفردية المختلفة مثل التوراة و الإنجيل و القرآن. و يبدو أنّ هذا التّفسير أنسب.

تشير الآية الأخيرة من هذه الآيات إلى العقاب الأليم لتلك المجموعة فتقول:

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا[۶۷] فهم لم يكونوا بمنأى عن العقاب الإلهى، و إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۱

استطاعوا أن يستمروا بتكذيبهم إلى حين.

فبعض عاقبناهم بالطوفان، و بعض بالريح العاصفة المدمّرة، و آخرون بالصيحة و الصاعقة و الزلزلة.

أخيرا لتأكيد و بيان شدّة و قسوة العقوبة عليهم يقول: فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ذلك تماما مثلما يقوم شخص بإنجاز عمل مهمّ ثمّ يسأل الحاضرين: كيف كان عملى؟

على أيّة حال فإنّ هذه الآيات تواسى و تطمئن من جانب كلّ سالكى طريق اللّه و القادة و الزعماء المخلصين منهم بخاصّة، من كلّ امّة و فى أى عصر و زمان، لكى لا- ييأسوا و لا يفقدوا الأمل عند سماعهم استنكار المخالفين، و لكى يعلموا أنّ الدعوات الإلهية واجهت دائما معارضة شديدة من قبل المتعصّبين الجاحدين الظلمة، و فى نفس الوقت وقف المحبّون العاشقون المتولّهون إلى جنب دعاة الحقّ وفدوهم بأنفسهم أيضا.

و من جانب آخر فهى تهديد للمعاندين الجاحدين، لكى يعلموا أنّهم لن يستطيعوا إدامة أعمالهم التخريبية القبيحة إلى الأبد، فعاجلا أو آجلا ستحيط بهم العقوبة الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۲

الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۲۷ الى ۲۸]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ (۲۷) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (۲۸)

التّفسير

العجائب المختلفة للخلقة:

مرّة اخرى تعود هذه الآيات إلى مسألة التوحيد، و تفتح صفحة جديدة من كتاب التكوين أمام ذوى البصائر من الناس، لكى ترد بعنف على المشركين المعاندين و منكرى التوحيد المتعصّبين.

لفتت هذه الصفحة المشرقة من كتاب الخلق العظيم إلى تنوّع الجمادات و المظاهر المختلفة و الجميلة للحياة فى عالم النبات و الحيوان و الإنسان، و كيف جعل اللّه سبحانه من الماء العديم اللون الآلاف من الكائنات الملوّنة، و كيف خلق من عناصر معيّنة و محدودة موجودات متنوّعة أحدها أجمل من الآخر.

فهذا النقاش الحاذق أبدع بقلم واحد و حبر واحد أنواع الرسوم و الأشكال التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۳

تجذب الناظرين و تحيّرهم و تدهشهم.

أوّلا تقول الآية الكريمة: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها.

شروع هذه الجملة بالاستفهام التقريرى، و بتحريك حسّ التساؤل لدى البشر، إشارة إلى أنّ هذا الموضوع جلى إلى درجة أنّ أى شخص إذا نظر أبصر، نعم، يبصر هذه الفواكه و الزهور الجميلة و الأوراق و البراعم المختلفة بأشكال مختلفة تتولّد من ماء و تراب واحد.

«ألوان»: قد يكون المراد «الألوان الظاهرية للفواكه» و التى تتفاوت حتّى فى نوع الفاكهة الواحد كالتفّاح الذى يتلوّن بألوان متنوعة ناهيك عن الفواكه المختلفة.

و قد يكون كناية عن التفاوت فى المذاق و التركيب و الخواص المتنوّعة لها، إلى حدّ أنّه حتّى فى النوع الواحد من الفاكهة توجد أصناف متفاوتة، كما فى العنب مثلا حيث أنه أكثر من ۵۰ نوعا، و التمر أكثر من سبعين نوعا.

و الملفت للنظر هو استخدام صيغة الغائب فى الحديث عنه عزّ و جلّ، ثمّ الانتقال إلى صيغة المتكلّم، و هذا النوع من التعابير، غير منحصر فى هذه الآية فقط، بل يلاحظ فى مواضع اخرى من القرآن المجيد أيضا، و كأنّ الجملة الاولى تعطى للمخاطب إدراكا و معرفة جديدة، و تستحضره بهذا الإدراك و المعرفة بين يدى البارى عزّ و جلّ، ثمّ عنده حضوره يلقى عليه الحديث مباشرة.

ثمّ تشير الآية إلى تنوّع أشكال الجبال و الطرق الملوّنة التى تمرّ من خلالها و تؤدّى إلى تشخيصها و تفريقها الواحدة عن الاخرى. فتقول: وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ[۶۸].

هذا التفاوت اللونى يضفى على الجبال جمالا خاصّا من جهة، و من جهة

اخرى، يكون سببا لتشخيص الطرق و عدم الضياع فيما بين طرقها المليئة بالالتواءات و الانحدارات، و أخيرا فهو دليل على أنّ اللّه على كلّ شىء قدير.

«جدد» جمع «جدّة»- على وزن غدّة- بمعنى الجادّة و الطريق.

«بيض» جمع «أبيض» كما أنّ «حمر» جمع «أحمر» و هو إشارة إلى الألوان.

«غرابيب» جمع «غربيب»- على وزن كبريت- و هو المشبّه للغراب فى السواد، كقولك أسود كحلك الغراب. و عليه فإنّ ذكر كلمة «سود» بعدها و التى هى أيضا جمع «أسود» تأكيد على شدّة و حلك السواد فى بعض الطرق الجبلية[۶۹].

و احتمل أيضا أن يكون التّفسير: ألم تر أنّ الجبال نفسها مثل طرائق بيضا و حمرا و سودا مختلفا ألوانها خطّت على سطح الأرض، و خاصّة إذا نظر إليها الشخص من فاصلة بعيدة، فانّها ترى على شكل خطوط مختلفة ممدودة على وجه الأرض بيض و حمر و سود مختلف ألوانها[۷۰].

على كلّ حال فإنّ تشكيل الجبال بألوان مختلفة من جهة، و تلوين الطرق الجبلية بألوان متفاوتة، من جهة اخرى، دليل آخر على عظمة و قدرة و حكمة اللّه سبحانه و تعالى و التى تتجلّى و تتزيّن كلّ آن بشكل جديد.

و فى الآية التالية تطرح مسألة تنوّع الألوان فى البشر و الأحياء الاخرى، فيقول تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ أجل، فالبشر مع كونهم جميعا لأب و أمّ واحدين، إلّا أنّهم عناصر و ألوان متفاوتة تماما، فالبعض أبيض البشرة كالوفر، و البعض الآخر أسود كالحبر، و حتّى فى العنصر الواحد فإنّ التفاوت فى اللون شديد أيضا، بل إنّ التوأمين الذين يطويان المراحل الجنينية معا، و اللذين يحتضن أحدهما الآخر منذ البدء، إذا دقّقنا

النظر نجدهما ليسا من لون واحد، مع أنّهما من نفس الأبوين، و تمّ انعقاد نطفتيهما فى وقت واحد، و تغذّيا من غذاء واحد.

ناهيك عن التفاوت و الاختلاف الكامل فى بواطنهم عدّ أشكالهم الظاهرية، و فى خلقهم و رغباتهم و خصوصيات شخصياتهم و استعداداتهم و ذوقهم، بحيث يتكوّن بذلك كيان مستقل منسجم بكلّ احتياجاته الخاصّة.

فى عالم الكائنات الحيّة أيضا يوجد آلاف الآلاف من أنواع الحشرات، الطيور، الزواحف، الحيوانات البحرية، الوحوش الصحراوية، بكلّ خصائصها النوعية و عجائب خلقتها. كدلالة على قدرة و عظمة و علم خالقها.

حينما نضع قدمنا فى حديقة كبيرة من حدائق الحيوان فسوف نصاب بالذهول و الحيرة و الدهشة بحيث أنّنا- بلا وعى منّا- نتوجّه بالشكر و الثناء للّه المبدع لكلّ هذا الفن الخلّاب على صفحة الوجود. مع أنّنا لا نرى أمامنا فى تلك الحديقة إلّا جزء من آلاف الأجزاء من الموجودات الحيّة فى العالم.

و بعد عرض تلك الأدلّة التوحيدية يقول تعالى فى الختام جامعا: نعم إنّ الأمر كذلك كَذلِكَ ۷۱].

و لأنّ إمكانية الانتفاع من آيات الخلق العظيمة هذه تتوفّر أكثر عند العباد العقلاء و المفكّرين يقول تعالى فى آخر الآية: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ.

نعم فالعلماء من بين جميع العباد، هم الذين نالوا المقام الرفيع من الخشية «و هى الخوف من المسؤولية متوافق مع إدراك لعظمة اللّه سبحانه»، حالة (الخشية) هذه تولّدت نتيجة سبر أغوار الآيات الآفاقية و الأنفسية، و التعرّف على حقيقة علم و قدرة اللّه و غاية الخلق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۶

الراغب فى مفرداته يقول: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، و لذلك خصّ العلماء بها».

قلنا تكرارا بأنّ الخوف من اللّه بمعنى الخوف من المسؤولية التى يواجهها الإنسان، الخوف من أن يقصّر فى أداء رسالته و وظيفته، ناهيك عن أنّ إدراك جسامة تلك المسؤولية يؤدّى أيضا إلى الخشية، لأنّ اللّه المطلق قد عهد بها إلى الإنسان المحدود الضعيف، (تأمّل بدقّة)!! كذلك يستفاد من هذه الجملة ضمنا بأنّ العلماء الحقيقيين هم أولئك الذين يستشعرون المسؤولية الثقيلة حيال وظائفهم، و بتعبير آخر: أهل عمل لا كلام، إذ أنّ العلم بدون عمل دليل على عدم الخشية، و من لا يستشعر الخشية لا تشمله الآية أعلاه.

هذه الحقيقة

وردت فى حديث عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام حيث يقول: «و ما العلم باللّه و العمل إلّا إلفان مؤتلفان فمن عرف اللّه خافه، و حثّه الخوف على العمل بطاعة اللّه، و إنّ أرباب العلم و أتباعهم (هم) الذين عرفوا اللّه فعملوا له و رغبوا إليه، و قد قال اللّه: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ»[۷۲].

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية «يعنى بالعلماء من صدق قوله فعله و من لم يصدق قوله فعله فليس بعالم»[۷۳].

و

فى حديث آخر جاء «أعلمكم باللّه أخوفكم للّه»[۷۴].

ملخّص القول أنّ العلماء- بالمنطق القرآنى- ليسوا أولئك الذين تحوّلت أدمغتهم إلى صناديق للآراء و الأفكار المختلفة من هنا و هناك و مليئة بالقوانين و المعادلات العلميّة للعالم و تلهج بها ألسنتهم، أو الذين سكنوا المدارس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۷

و الجامعات و المكاتب، بل إنّ العلماء هم أصحاب النظر الذين أضاء نور العلم و المعرفة كلّ وجودهم بنور اللّه و الإيمان و التقوى، و الذين هم أشدّ الناس ارتباطا بتكاليفهم مع ما يستشعرونه من عظمة المسؤولية إزاءها.

نقرأ فی سورة القصص أیضا أنّه حینما اغترّ «قارون» و استشعر الرضی عن نفسه و ادّعی لها مقام العلم، قام یعرض ثروته أمام الناس، و تمنّی عبّاد الدنیا الذین أسرتهم تلک المظاهر البرّاقة أن تکون لهم مثل تلک الثروة و الإمکانیة الدنیویة، و لکن علماء بنی إسرائیل قالوا لهم: إنّ ثواب اللّه خیر و أبقی لمن آمن و عمل صالحا، و لا یفوز بذلک إلّا الصابرون المستقیمون: وَ قالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَیْلَکُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَیْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا یُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ ۷۵].

و فی ختام الآیة یقول تعالی، کدلیل موجز علی ما مرّ: إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ غَفُورٌ.

«عزّته» و قدرته اللامتناهیة منبع للخوف و الخشیة عند العلماء، و (غفرانه)، سبب فی الرجاء و الأمل عندهم، و بذا فإنّ هذین الاسمین المقدسین یحفظان عباد اللّه بین الخوف و الرجاء، و نعلم بأنّه لا یمکن إدامة الحرکة باتّجاه التکامل بدون الاتّصاف بهاتین الصفتین بشکل متکافئ.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۸

الآیتان [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۲۹ الی ۳۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ یَتْلُونَ کِتابَ اللَّهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِیَةً یَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (۲۹) لِیُوَفِّیَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَکُورٌ (۳۰)

التّفسیر

التجارة المربحة مع اللّه:

بعد أن أشارت الآیات السابقة إلی مرتبة الخوف و الخشیة عند العلماء، تشیر الآیات مورد البحث إلی مرتبة «الأمل و الرجاء» عندهم أیضا، إذ أنّ الإنسان بهذین الجناحین- فقط- یمکنه أن یحلّق فی سماء السعادة، و یطوی سبیل تکامله، یقول تعالی أوّلا: إِنَّ الَّذِینَ یَتْلُونَ کِتابَ اللَّهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِیَةً یَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ[۷۶].

بدیهی أنّ «التلاوة» هنا لا تعنی مجرّد القراءة السطحیة الخالیة من التفکّر و التأمّل، بل قراءة تکون سببا و باعثا علی التفکّر، الذی یکون بدوره باعثا علی العمل الصالح، الذی یربط الإنسان باللّه من جهة، و مظهر ذلک الصلاة، و یربطه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۹

بخلق اللّه من جهة ثانیة، و مظهر ذلک الإنفاق من کلّ ما تفضّل به اللّه تعالی علی الإنسان، من علمه، من ماله و ثروته و نفوذه، من فکره الخلّاق، من أخلاقه و تجاربه، من جمیع ما وهبه اللّه.

هذا الإنفاق تارة یکون (سرّا)، فیکون دلیلا علی الإخلاص الکامل. و تارة یکون (علانیة) فیکون تعظیما لشعائر اللّه و دافعا للآخرین علی سلوک هذا الطریق.

و مع الالتفات إلی ما ورد فی هذه الآیة و الآیة السابقة نستنتج أنّ العلماء حقّا هم الذین یتّصفون بالصفات التالیة:

* قلوبهم ملیئة بالخشیة و الخوف من اللّه المقترن بتعظیمه تعالی.

* ألسنتهم تلهج بذکر اللّه و تلاوة آیاته.

* یصلّون و یعبدون اللّه.

* ينفقون فى السرّ و العلانية ممّا عندهم.

* و أخيرا و من حيث الأهداف، فإنّ أفق تفكيرهم سام إلى درجة أنّهم أخرجوا من قلوبهم هذه الدنيا الماديّة الزائلة، و يتأمّلون ربحا من تجارتهم الوافرة .. الربح مع اللّه وحده، لأنّ اليد التى تمتدّ إليه لا تخيب أبدا.

و الجدير بالملاحظة أيضا أنّ «تبور» من «البوار» و هو فرط الكساد، و لمّا كان فرط الكساد يؤدّى إلى الفساد كما قيل «كسد حتّى فسد» عبّر بالبوار عن الهلاك، و بذا فإنّ «التجارة الخالية من البوار» تجارة خالية من الكساد و الفساد.

ورد فى حديث رائع أنّه جاء رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: يا رسول اللّه، ما لى لا أحبّ الموت؟ قال: «أ لك مال» قال: نعم. قال: «فقدّمه» قال: لا أستطيع. قال:

«فإنّ قلب الرجل مع ماله، إن قدّمه أحبّ أن يلحق به، و إن أخّره أحبّ أن يتأخّر معه»[۷۷].

إنّ هذا الحديث فى الحقيقة يعكس روح الآية أعلاه، لأنّ الآية تقول إنّ الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۰

يقيمون الصلاة، و ينفقون فى سبيل اللّه لهم أمل و تعلّق بدار الآخرة، لأنّهم أرسلوا الخيرات قبلهم و لهم الميل للحوق به.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، توضّح هدف هؤلاء المؤمنين الصادقين فتقول:

انّهم يعملون الخيرات و الصالحات لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ[۷۸].

هذه الجملة فى الحقيقة تشير منتهى إخلاصهم، لأنّهم لا ينظرون إلّا إلى الأجر الإلهى، أى شيء يريدونه من اللّه يطلبونه، و لا يقصدون به الرياء و التظاهر و توقّع الثناء من هذا و من ذاك، إذ أنّ أهمّ قضيّة فى الأعمال الصالحة هى «النيّة الخالصة».

التعبير ب «أجور» فى الحقيقة لطف من اللّه، فكأنّ العباد يطلبون من اللّه مقابل أعمالهم أجرا!! فى حال أنّ كلّ ما يملكه العباد منه تعالى، حتّى القدرة على إنجاز الأعمال الصالحة أيضا هو الذى أعطاهم إيّاها.

و ألطف من هذا التعبير قوله وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الذى يبشّرهم بأنّه علاوة على الثواب الذى يكون عادة على الأعمال و الذى يكون مئات أو آلاف الأضعاف المضاعفة للعمل، فإنّه يزيدهم من فضله، و يعطيهم من سعة فضله ما لم يخطر على بال، و ما لا يملك أحد فى هذه الدنيا القدرة على تصوره.

جاء فى حديث عن ابن مسعود عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال فى قوله:

وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن صنع إليه معروفا فى الدنيا[۷۹].

و بذا فإنّهم ليسوا فقط من أهل النجاة، بل إنّهم يكونون سببا فى نجاة الآخرين بفضل اللّه و لطفه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۱

و قال بعض المفسّرين بأنّ جملة: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إشارة إلى مقام «الشهود» الذى يكون للمؤمنين فى يوم القيامة بأن يمكّنهم اللّه من النظر إلى جماله و جلاله و الالتذاذ من ذلك بأعظم اللذّات. و لكن يظهر أنّ الجملة المذكورة لها معنى واسع و شامل بحيث يشمل محتوى الحديث المذكور و عطايا و مواهب اخرى غير معروفة أيضا.

جملة إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تدلّل على أنّ أوّل لطف اللّه معهم، هو «العفو» عن ذنوبهم و زلّاتهم التى تبدر منهم أحيانا، لأنّ أشدّ قلق المؤمن يكون من هذا الجانب.

و بعد أن يهدأ بالهم من تلك الجهة، فانّه تعالى يشملهم ب «الشكر» أى انّه يشكر لهم أعمالهم و يعطيهم أفضل الجزاء و الثواب.

نقل تفسير «مجمع البيان» مثلا تضربه العرب و هو «أشكر من بروقة» و تزعم العرب أنّها- أى بروقة- شجرة عارية من الورق، تغيم السماء فوقها فتخضر و تورق من غير مطر[۸۰]. و هو مثل يضرب للتعبير عن منتهى الشكر، ففى قبال أقل الخدمات، يقدّم أعظم الثواب. بديهى أنّ خالق مثل هذه الشجرة أشكر منها و أرحم.***

تعليقة

شروط تلك التجارة العجيبة:

الملفت للنظر أنّ كثيرا من الآيات القرآنيـة الكريمة تشبّه هذا العالم بالمتجر الذى تجّاره الناس، و المشترى هو اللّه سبحانه و تعالى، و بضاعته العمل الصالح،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۲

و القيمة أو الأجر: الجنّة و الرحمة و الرضا منه تعالى ۸۱].

و لو تأمّلنا بشكل جيّد فسوف نرى أنّ هـذه التجارة العجيبة مع اللّه الكريم ليس لها نظير، لأنّها تمتاز بالمزايا التالية التى لا تحتويها أيّة تجارة اخرى:

۱- إنّ اللّه سبحانه و تعالى أعطى للبائع تمام رأسماله، ثمّ كان له مشتريا!.

۲- إنّ اللّه تعالى مشتر فى حال أنّه غير محتاج- إلى شى‏ء تماما- فلديه خزائن كلّ شى‏ء.

۳- إنّه تعالى يشترى «المتاع القليل» بالسعر «الباهض» «يا من يقبل اليسير و يعفو عن الكثير»، «يا من يعطى الكثير بالقليل».

۴- هو تعالى يشترى حتّى البضاعة التافهة فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ

۵- أحيانا يعطى قيمة تعادل سبعمائة ضعف أو أكثر «البقرة- ۲۶۱».

۶- علاوة على دفع الثمن العظيم فإنّه أيضا يضيف إليه من فضله و رحمته وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (الآية موضوع البحث).

و يا له من أسف أنّ الإنسان العاقل الحرّ، يغلق عينيه عن تجارة كهذه، و يشرع بغيرها، و أسوأ من ذلك أن يبيع بضاعته مقابل لا شى‏ء. أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه أفضل الصلاة و السلام) يقول: «ألا حرّ يـدع هـذه اللّماظة لأهلها، إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنّة، فلا تبيعوها إلّا بها»[۸۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۳

الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (۳۱) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (۳۲)

التّفسير

الورثة الحقيقيّون لميراث الأنبياء:

بعـد أن كان الحـديث فى الآيات السابقـة عن المؤمنين المخلصـين الذين يتلون الكتاب الإلهى و يطبّقون وصاياه، تتحدّث هذه الآيات عن ذلك الكتاب السـماوى و أدلّـة حقّانيّـة، و كـذلك عن الحملـة الحقيقيين لـذلك الكتاب، و بـذا يسـتكمل الحديث الذى افتتحته

الآيات السابقة حول التوحيد، بالبحث الذى تثيره هذه الآيات حول النبوّة.

تقول الآية الكريمة: وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُ

مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ (الحقّ) يعنى كلّ ما ينطبق مع الواقع و ينسجم معه، فإنّ هذا التعبير دليل على إثبات أنّ هذا الكتاب السماوى نازل من اللّه تعالى، لأنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۴

كلّما دقّقنا النظر فى هذا الكتاب السماوى وجدناه أكثر انسجاما مع الواقع.

فليس فيه تناقض، أو كذب أو خرافة، بل فمبادئه و معارفه تنسجم مع منطق العقل. قصصه و تواريخه منزّهة عن الأساطير و الخرافات، و قوانينه تتساوق مع احتياجات البشر، فتلك الحقّانية دليل واضح على أنّه نازل من اللّه سبحانه و تعالى.

هنا و لأجل توضيح موقع القرآن الكريم، تمّت الاستفادة هنا من كلمة «الحقّ»، فى حال أنّه فى آيات اخرى من القرآن الكريم ورد التعبير عنه ب «النور» و «البرهان» و «الفرقان» و «الذكر» و «الموعظة» و «الهدى»، و كلّ واحدة منها تشير إلى واحدة من بركات القرآن و أبعاده، بينما كلمة (الحقّ) تشمل جميع تلك البركات.

يقول الراغب فى (مفرداته): أصل الحقّ المطابقة و الموافقة، و الحقّ يقال على أوجه:

الأوّل: يقال لمن يوجد الشيء على أساس الحكمة، و لهذا قيل فى اللّه تعالى هو الحقّ، لذا قال اللّه: فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُ [۸۳] الثّانى: يقال للشيء الذى وجد بحسب مقتضى الحكمة، و لهذا يقال فعل اللّه تعالى كلّه حقّ، قال تعالى: ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ [۸۴] أى الشمس و القمر و غير ذلك.

الثّالث: فى العقائد المطابقة للواقع. قال تعالى: فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِ [۸۵] و الرّابع: يقال للأقوال و الأفعال الصادر وفقا لما يجب، و بقدر ما يجب، و فى الوقت المقرّر، كقولنا: فعلك حقّ، و قولك حقّ [۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۵

و بناء عليه، فإنّ حقّانية القرآن المجيد هى من حيث كونه حديثا مطابقا للمصالح و الواقعيات من جهة، كما أنّ العقائد و المعارف الموجودة فيه تنسجم مع الواقع من جهة اخرى، و من جهة ثالثة فإنّه من نسج اللّه و صنعه الذى صنعه على أساس الحكمة، و اللّه ذاته تعالى الذى هو الحقّ يتجلّى فى ذلك الكتاب العظيم، و العقل يصدق و يؤمن بما هو حقّ.

جملة مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ دليل آخر على صدق هذا الكتاب السماوى، لأنّه ينسجم مع الدلائل المذكورة فى الكتب السماوية السابقة فى إشارتها إليه و إلى حامله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

جملة إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ توضّح علّة حقّانية القرآن و انسجامه مع الواقع و الحاجات البشرية، لأنّه نازل من اللّه سبحانه و تعالى الذى يعرف عباده خير معرفة، و هو البصير الخبير فيما يتعلّق بحاجاتهم.

لكن ما هو الفرق بين «الخبير» و «البصير»؟

قال البعض: «الخبير» العالم بالبواطن و العقائد و النيّات و البعد الروحى فى الإنسان، و «البصير» العالم بالظواهر و البعد الجسمانى للإنسان.

و قال آخرون: «الخبير» إشارة إلى أصل خلق الإنسان، و «البصير» إشارة إلى أعماله و أفعاله.

و طبيعى أنّ التّفسير الأوّل يبدو أنسب و إن كان شمول الآية لكلا المعنيين ليس مستبعدا.

الآية التّالية تتحدّث فى موضوع مهم بالنسبة إلى حملة هذا الكتاب السماوى العظيم، أولئك الذين رفعوا مشعل القرآن الكريم بعد نزوله على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فى زمانه و بعده على مرّ القرون و العصور، و هم يحفظونه و يحرسونه، فتقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا.

واضح أنّ المقصود من «الكتاب» هنا، هو نفس ما ذكر فى الآية السابقة و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۶

«القرآن الكريم» و الألف و اللام فيه «للعهد». و القول بأنّ المراد هو الإشارة للكتب السماوية، و أنّ اللام هنا «للجنس» يبدو بعيد الاحتمال، و ليس فيه تناسب مع ما ورد فى الآيات السابقة.

التعبير ب «الإرث» هنا و فى موارد اخرى مشابهة فى القرآن الكريم، لأجل أنّ «الإرث» يطلق على ما يستحصل بلا مشقّة أو جهد، و اللّه سبحانه و تعالى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم للمسلمين هكذا بلا مشقّة أو جهد.

لقد وردت روايات كثيرة هنا من أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير عبارة الَّذِينَ اصْطَفَيْنا بالأئمّة المعصومين عليهم السّلام [۸۷].

هذه الروايات- كما ذكرنا مرارا- ذكر لمصاديق واضحة و فى الدرجة الاولى.

و لكن لا- مانع من اعتبار العلماء و المفكّرين فى الامّة، و الصلحاء و الشهداء، الذين سعوا و اجتهدوا فى طريق حفظ هذا الكتاب السماوى، و المداومة على تطبيق أوامره و نواهيه، تحت عنوان الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا.

ثمّ تنتقل الآية إلى تقسيم مهمّ بهذا الخصوص، فتقول: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.

ظاهر الآية هو أنّ هذه المجامع الثلاثة هى من بين الَّذِينَ اصْطَفَيْنا أى:

ورثة و حملة الكتاب السماوى.

و بتعبير أوضح، إنّ اللّه سبحانه و تعالى قد أوكل مهمّة حفظ هذا الكتاب السماوى، بعد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى هذه الامّة، الامّة التى اصطفاها اللّه سبحانه، غير أنّ فى تلك الامّة مجاميع مختلفة: بعضهم قصّروا فى وظيفتهم العظيمة فى حفظ هذا الكتاب و العمل بأحكامه، و فى الحقيقة ظلموا أنفسهم، و هم مصداق ظالِمٌ لِنَفْسِهِ

و مجموعة اخرى، أدّت وظيفتها فى الحفظ و العمل بالأحكام إلى حدّ كبير، و إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۷

كان عملها لا يخلو من بعض الزلّات و التقصيرات أيضا، و هؤلاء مصداق «مقتصد».

و أخيرا مجموعة ممتازة، أنجزت وظائفها العظيمة بأحسن وجه، و سبقوا الجميع فى ميدان الاستباق، و الذين أشارت إليهم الآية بقولها: سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ

و هنا يمكن أن يقال بأنّ وجود المجموعة «الظالمة» ينافى أنّ هؤلاء جميعا مشمولون بقوله «اصطفينا»؟

و فى الجواب نقول: إنّ هذا شبيه بما ورد بالنسبة إلى بنى إسرائيل فى الآية (۵۳) من سورة المؤمن: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ فى حال أنّنا نعلم أنّ بنى إسرائيل جميعهم لو يؤدّوا وظيفتهم إزاء هذا الميراث العظيم.

أو نظير ما ورد فى الآية (۱۱۰) من سورة آل عمران: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

أو ما ورد فى الآية (۱۶) من سورة الجاثية بخصوص بنى إسرائيل أيضا وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ

و كذلك فى الآية (۲۶) من سورة الحديد نقرأ: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ

و خلاصة القول: إنّ الإشارة فى أمثال هذه التعبيرات ليست للامّة بأجمعها فردا فردا، بل إلى مجموع الامّة، و إن احتوت على طبقات، و مجموعات مختلفة[۸۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۸

و قد ورد فى روايات كثيرة عن أهل بيت العصمة عليهم السّلام فى تفسير «سابق بالخيرات» بالمعصوم عليه السّلام، و «ظالم لنفسه» بمن

لا یعرف الإمام، و «المقتصد» العارف بالإمام ۸۹].

هذه التّفسیرات شاهد واضح علی ما اخترناه لتفسیر الآیة، و هو أنّه لا مانع من کون هذه المجامیع الثلاثة ضمن ورثة الکتاب الإلهی.

و لا نحتاج إلی التذکیر بأنّ تفسیر الروایات أعلاه هو من قبیل بیان المصادیق الأوضح للآیة، و هم الأئمّة المعصومون، إذ هم الصفّ الأوّل، بینما العلماء و المفکّرون و حماة الدین الآخرون فی صفوف اخری.

کذلک فإنّ التّفسیر الوارد فی تلک الروایات للظالم و المقتصد، هو أیضا من قبیل بیان المصادیق، و إذا لاحظنا أنّ بعض الرّوایات تنفی شمول الآیة للعلماء فی مقصودها فإنّ ذلک فی الحقیقة لإلفات النظر إلی وجود الإمام فی مقدّمة تلک الصفوف.

و من الجدیر بالذکر أنّ جمعا من المفسّرین القدماء و المعاصرین احتملوا الکثیر من الاحتمالات فی تفسیر هذه المجامیع، و التی هی فی الحقیقة جمیعا من قبیل بیان المصادیق ۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۹

و هنا یطرح السؤال التالی: لماذا ابتدأ الحدیث بذکر الظالمین کمجموعة اولی، ثمّ المقتصد، ثمّ السابقین بالخیرات، فی حین أنّ العکس یبدو أولی من عدّة جهات؟

بعض کبار المفسّرین قالوا للإجابة علی هذا السؤال: إنّ الهدف هو بیان ترتیب مقامات البشر فی سلسلة التکامل، لأنّ أوّل المراحل هی مرحلة العصیان و الغفلة، و بعدها مقام التوبة و الإنابة، و أخیرا التوجّه و الاقتراب من اللّه سبحانه و تعالی، فحین تصدر المعصیة من الإنسان فهو «ظالم لنفسه»، و حین یلج مقام التوبة فهو «مقتصد»، و حین تقبل توبته و یزداد جهاده فی طریق الحقّ، ینتقل إلی مقام القرب لیرقی إلی مقام «السابقین بالخیرات»[۹۱].

و قال آخر: بأنّ هذا الترتیب لأجل الکثرة و القلّة فی العدد و المقدار، فالظالمون یشکّلون الأکثریة، و المقتصدون فی المرتبة التالیة، و السابقون للخیرات و هم الخاصّة و الأولیاء من الناس هم الأقلّیة و ان کانوا أفضل من الناحیة الکیفیّة.

الملفت للتأمّل ما

نقل فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: (ما مؤدّاه): «قدّم الظالم لکی لا ییأس من رحمة اللّه، و أخّر السابقون بالخیرات لکی لا یأخذهم الغرور بعملهم»[۹۲].

و یمکن أن یکون کلّ من هذه المعانی الثلاثة مقصودا.

و آخر کلام فی تفسیر هذه الآیة حول المشار إلیه فی جملة ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ؟

قال البعض، بأنّه میراث الکتاب الإلهی، و قال آخرون بأنّه إشارة إلی التوفیق التی شمل حال السابقین بالخیرات، و طیّهم لهذا الطریق بإذن اللّه، لکن یبدو أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۰

المعنی الأوّل أنسب و أکثر انسجاما مع ظاهر الآیة.

***

ملاحظة

من هم حرّاس الکتاب الإلهی؟

علی ما ذکر القرآن الکریم فإنّ اللّه سبحانه و تعالی یشمل الامّة الإسلامیة بمواهب عظیمة، من أهمّها ذلک المیراث الإلهی العظیم و

هو «القرآن».

و قد اصطفيت الامّة الإسلامية من باقى الأمم، و تلك نعمة أعطيت لها، و مسئولية ثقيلة أسندت إليها بنفس النسبة التى فضّلت بها و أصبحت بسببها مشمولة باللطف الإلهى، و ستكون هذه الامّة فى صف «السابقين بالخيرات» ما أدّت حقّ حفظ و حراسة هذا الميراث العظيم. أى أن تسبق جميع الأمم فى الخيرات، فى تطوير العلوم، فى التقوى و الزهد، فى العبادة و خدمة البشرية، فى الجهاد و الاجتهاد، فى التنظيم و الإدارة، فى الفداء و الإيثار و التضحية، فتتقدّم و تسبق فى كلّ هذه الأمور، و إلّا فإنّها لا تكون قد أدّت حقّ حفظ ذلك الميراث العظيم. خاصّة إذا علمنا أنّ تعبير «السابقين بالخيرات» مفهوم واسع إلى درجة أنّه يشمل التقدّم فى جميع الأمور ذات المنحى الإيجابى من امور الحياة.

نعم، فحملة مثل هذا الميراث هم- فقط- أولئك الذين يتّصفون بتلك الصفات، بحيث أنّهم لو أعرضوا عن تلك الهدية السماوية العظيمة و لم يراعوا حرمتها، فسيكونون مصداقا ل «ظالم لنفسه»، إذ أنّ محتوى تلك الهدية الإلهية ليس سوى نجاتهم و توفيقهم و انتصارهم، فإنّ من يضرب عرض الحائط بنسخة الدواء التى كتبها له الطبيب، فإنّه يساعد على استمرار الألم و العذاب لنفسه. و إنّ من يحطّم مصباحه الوحيد و هو يسير فى طريق مظلم، إنّما يسوق نفسه إلى التيه و الضياع، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى غنى عن الجميع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۱

و على المذنبين أيضا أن لا- ينسوا حقيقة أنّهم كانوا مشمولين بمضمون الآية الكريمة فى زمرة الَّذِينَ اصْطَفَيْنا و إنّ لهم ذلك الاستعداد بالقوّة، فعليهم أن يتجاوزوا مرحلة «الظالم لنفسه» و ينتقلوا إلى مرحلة «المقتصد» و ليرتقوا من هناك حتّى ينالوا فخر «السابقين بالخيرات»، حيث أنّهم من جهة الفطرة و البناء الروحى من الذين اصطفاهم الحقّ.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۲

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۳ الى ۳۵]

اشارة

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (۳۳) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (۳۴) الَّذِی أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (۳۵)

التّفسير

الحمد للّه الذى أذهب عنّا الحزن:

هذه الآيات فى الحقيقة نتيجة لما ورد ذكره فى الآيات الماضية، يقول تعالى:

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها[۹۳].

«جنّات» جمع «جنّة» بمعنى (الروضة) و كلّ بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۳

و «عدن» بمعنى الاستقرار و الثبات، و منه سمّى المعدن لأنّه مستقر الجواهر و المعادن. و عليه فإنّ «جنّات عدن» بمعنى «جنّات الخلد و الدوام و الاستقرار».

علی کلّ حال فإنّ هـذا التعبیر یشیـر إلی أنّ نعم الجنّـة العظیمـة خالدة و ثابتة، و لیست کنعم الدنیا ممزوجة بالقلق الناجم عن زوالها و عدم دوامها، و أهل الجنّة لیست لهم جنّة واحدة، بل جنّات متعدّدة تحت تصرّفهم.

ثمّ تشیـر الآیة إلی ثلاثة أنواع من نعم الجنّة، بعضـها إشارة إلی جانب مادّی و بعضـها الآخر إلی جانب معنوی و باطنی، و بعض أیضـا یشیر إلی عدم وجود أی نوع من المعوّقات، فتقول الآیة: یُحَلَّوْنَ فِیها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِیها حَرِیرٌ.

فهؤلاء لم یلتفتوا فی هذه الدنیا إلی بریقها و زخرفها، و لم یجعلوا أنفسـهم أسـری لزبرجها، و لم یکونوا أسری التفکیر باللباس الفاخر، و اللّه سبحانه و تعالی یعوّضهم عن کلّ ذلک، فیلبسهم فی الآخرة أفخر الثیاب.

هؤلاء زیّنوا حیاتهم الدنیا بالخیرات، فزیّنهم اللّه سبحانه و تعالی فی یوم تجسّد الأعمال یوم القیامة بأنواع الزینة.

لقـد قلنا مرارا بأنّ الألفاظ التی وضـعت لهـذا العالم المحـدود لا یمکنها أن توضّـح مفاهیم و مفردات عالم القیامة العظیم، فلأجل بیان نعم ذلک العالم الآخر نحتاج إلی حروف اخری و ثقافة اخری و قاموس آخر، علی أیّة حال، فلأجل توضیـح صورة و إن کانت باهتة عن النعم العظیمة فی ذلک العالم لا بدّ لنا أن نستعین بهذه الألفاظ العاجزة.

بعد ذلک تلک النعمة المادیّة، تنتقل الآیة مشیرة إلی نعمة معنویة خاصّة فتقول:

وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ

فهؤلاـء یحمـدون اللّه بعـد أن أصـبحت تلـک النعمـة العظیمـة من نصـیبهم، و تلاـشت عن حیاتهم جمیع عوامل الغمّ و الحسـرة ببرکة اللطف الإلهی، و تبدّدت سحب الهمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۴

المظلمـة عن سـماء أرواحهم، فلاـ خوف من عـذاب إلهی، و لاـ وحشـة من موت و فنـاء، و لاـ قلق، و لا أذی الماکرین، و لا اضـطهاد الجبابرة القساة الغاصبین.

اعتبر بعض المفسّـرین ذلـک الغمّ و الحسـرة إشـارة إلی نظیر مـا یتعرّض له فی الـدنیا، و اعتبره البعض الآـخر إشـارة إلی الحسـرة فی المحشر علی نتائج أعمالهم، و لا تضادّ بین هذین التّفسیرین، و یمکن جمعهما فی إطار المفهوم العام للآیة.

«الحزن»: (علی وزن عـدم)، و «الحزن»- علی وزن عسـر- کلیهما لمعنی واحد کما ذهب إلیه أرباب اللغة، و أصـله الوعورة و الخشونة فی الأرض و اطلق علی الخشونة فی النفس لما یحصل فیها من الغمّ و یضادّه الفرح ۹۴].

ثمّ یضیف أهل الجنّة هؤلاء إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَکُورٌ.

فبغفرانه أزال عنّـا حسـرة الزلّـات و الـذنوب، و بشـکره و هبنـا المواهب الخالـدة التی لن یلقی علیها الغمّ بظلاله المشؤومـة. غفر و ستر بغفرانه الکثیر الکثیر من ذنوبنا، و بشکره أعطانا الکثیر علی أعمالنا البسیطة القلیلة القلیلة! أخیرا تنتقل الآیة مشیرة إلی آخر النعم، و هی عدم وجود عوامل الإزعاج و المشقّة و التعب و العذاب، فتحکی عن ألسنتهم الَّذِی أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا یَمَسُّنا فِیها نَصَبٌ وَ لا یَمَسُّنا فِیها لُغُوبٌ

الـدار الآـخرة هنـاک دار إقامـة لا کما فی الـدنیا حیث أنّ الإنسان ما أن یألف محیطه و یتعلّق به حتّی یقرع له جرس الرحیل! هـذا من جانب .. و من جانب آخر فمع أنّ العمر هناک متّصل بالأبد، إلّا أنّ الإنسان لا یصیبه الملل أو الکلل، أو التعب أو النصب مطلقا، لأنّهم فی کلّ آن أمام نعمة جدیدة، و جمال جدید.

«النصب» بمعنی التعب، و «اللغوب» بمعنی التعب و النصب أیضا. هذا علی ما تعارف علیه أهل اللغة و التّفسیر، فی حین أنّ البعض فرّق بین اللفظتین فقال بأنّ (النصب) یطلق علی المشاقّ الجسمانیة، و «اللغوب» یطلق علی المشاقّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۵

الروحیة[۹۵]. أو أنّه الضعف و النحول الناجم عن المشقّة و الألم، و بذا یکون «اللغوب» ناجما عن «النصب»[۹۶].

و بذا فلا وجود هناک لعوامل التعب و المشقّة، سواء کانت نفسیة أو جسمانیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۶

الآیات [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۳۶ الی ۳۸]

اشارة

وَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا یُقْضی عَلَیْهِمْ فَیَمُوتُوا وَ لا یُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها کَذلِکَ نَجْزِی کُلَّ کَفُورٍ (۳۶) وَ هُمْ یَصْطَرِخُونَ فِیها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَیْرَ الَّذِی کُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْکُمْ ما یَتَذَکَّرُ فِیهِ مَنْ تَذَکَّرَ وَ جاءَکُمُ النَّذِیرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِینَ مِنْ نَصِیرٍ (۳۷) إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَیْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۳۸)

التّفسیر

ربّنا أخرجنا نعمل صالحا!

القرآن الکریم یقرن (الوعید) (بالوعود) و یذکر «الإنذارات»، إلی جانب «البشارات» لتقویة عاملی الخوف و الرجاء الباعثین للحرکة التکاملیة فی الإنسان، إذ أنّ الإنسان بمقتضی «حبّ الذات» یقع تحت تأثیر غریزتی «جلب المنفعة» و «دفع الضرر».

و علیه فمتابعة للحدیث الذی کان فی الآیات السابقة عن المواهب الإلهیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۷

العظیمة و صبر «المؤمنین السابقین فی الخیرات» ینتقل الحدیث هنا إلی العقوبات الألیمة للکفّار، و الحدیث هنا أیضا عن العقوبات المادیة و المعنویة.

تبتدئ الآیات بالقول: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ فکما أنّ الجنّة دار المقامة و الخلد للمؤمنین، فإنّ النار أیضا مقام أبدی للکافرین.

ثمّ تضیف لا یُقْضی عَلَیْهِمْ فَیَمُوتُوا[۹۷]، فمع أنّ تلک النار الحامیة و ذلک العذاب المؤلم یستطیع القضاء علیهم فی کلّ لحظة، إلّا أنّهم و لعدم صدور الأمر الإلهی- و هو المالک لکلّ شیء- بموتهم لا یموتون، یجب أن یبقوا علی قید الحیاة لیذوقوا عذاب اللّه. فالموت بالنسبة إلی هؤلاء لیس سوی منفذ للخلاص من العذاب، لکن اللّه تعالی أوصد دونهم ذلک المنفذ.

یبقی منفذ آخر هو أن یبقوا علی قید الحیاة و یخفّف عنهم العذاب شیئا فشیئا، أو أن یزداد تحمّلهم للعذاب فینتج عن ذلک تخفیف العذاب عنهم، و لکن تتمّة الآیة أغلقت هذا المنفذ أیضا وَ لا یُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها.

ثمّ تضیف الآیة و للتأکید علی قاطعیة هذا الوعد الإلهی کَذلِکَ نَجْزِی کُلَّ کَفُورٍ.

فقد کفر هؤلاء فی بادئ الأمر بنعمة وجود الأنبیاء و الکتب السماویة، ثمّ أتلفوا رصیدهم الذی سخّره اللّه لمساعدتهم علی نیل السعادة، نعم، فجزاء الکفّار لیس سوی الحریق و العذاب الألیم، الحریق بالنار التی أشعلوها بأیدیهم فی الحیاة الدنیا و احتطبوا لها من أفکارهم و أعمالهم و وجودهم.

و بما أنّ کلمة «کفور» صیغة مبالغة، فإنّ لها معنی أعمق من «کافر»، علاوة علی أنّ لفظة «کافر» تستخدم فی قبال «مؤمن» و لکن «کفور» إشارة إلی أولئک الذین کفروا بکلّ نعم اللّه، و أغلقوا علیهم جمیع أبواب الرحمة الإلهیّة فی هذه الدنیا، لذا فإنّ اللّه یغلق علیهم جمیع أبواب النجاة فی الآخرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۸

و تنتقل الآية التالية إلى وصف نوع آخر من العذاب الأليم، و تشير إلى بعض النقاط الحسّاسة فى هذا الخصوص، فتقول الآية الكريمة: وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۹۸].

نعم، فهم بمشاهدة نتائج أعمالهم السيّئة، يغرقون فى ندم عميق، و يصرخون من أعماق قلوبهم و يطلبون المحال، العودة إلى الدنيا للقيام بالأعمال الصالحة.

التعبير ب «صالحا» بصيغة النكرة إشارة إلى أنّهم لم يعملوا أقلّ القليل من العمل الصالح، و لازم هذا المعنى أنّ كلّ هذا العذاب و الألم إنّما هو لمن لم تكن لهم أيّة رابطة مع اللّه سبحانه فى حياتهم، و كانوا غرقى فى المعاصى و الذنوب، و عليه فإنّ القيام بقسم من الأعمال الصالحة أيضا يمكن أن يكون سببا فى نجاتهم.

التعبير بالفعل المضارع «نعمل» أيضا له ذلك الإشعاع، و يؤيّد هذا المعنى، و هو تأكيد أيضا على «أنّنا كنّا مستغرقين فى الأعمال الطالحة».

قال بعض المفسّرين: إنّ الربط بين وصف «صالحا» و اللاحق لها «كنّا نعمل» يثير نكتة لطيفة، و هى أنّ المعنى هو «إنّنا كنّا نعمل الأعمال التى عملنا بناء على تزيين هوى النفس و الشيطان، و كنّا نتوّهم أنّها أعمال صالحة، و الآن قرّرنا أن نعود و نعمل أعمالا صالحة فى حقيقتها غير التى ارتكبناها».

نعم فالمذنب فى بادئ الأمر- و طبق قانون الفطرة السليمة- يشعر و يشخص قباحة أعماله، و لكنّه قليلا قليلا يتطبّع على ذلك فتقل فى نظره قباحة العمل، و يتوغّل أبعد من ذلك فيرى القبيح جميلا، كما يقول القرآن الكريم: زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ ۹۹].

و فى مكان آخر يقول تعالى: وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.[۱۰۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۹

على كلّ حال، ففى قبال ذلك الطلب الذى يطلبه أولئك من اللّه سبحانه و تعالى، يصدر ردّ قاطع عنه سبحانه و تعالى حيث يقول: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فإذا لم تنتفعوا بكلّ ما توفّر بين أيديكم من وسائل النجاة تلك و من كلّ الفرص الكافية المتاحة فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ.

هذه الآية تصرّح: لم يكن ينقصكم شىء، لأنّ الفرصة أتيحت لكم بما يكفى، و قد جاءتكم نذر اللّه بالقدر الكافى، و بتحقّق هذين الركنين يحصل الانتباه و النجاة، و عليه فليس لكم أى عذر، فلو لم تكن لكم المهلة كافية لكان لكم العذر، و لو كانت لكم مهلة كافية و لم يأتكم نذير و مرشد و معلّم فكذلك لكم العذر، و لكن بوجود ذينك الركنين فما هو العذر؟! «نذير» عادة ترد فى الآيات القرآنية للإشارة إلى وجود الأنبياء، و بالأخصّ نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكن بعض المفسّرين ذكروا لهذه الكلمة هنا معنى أوسع، بحيث تشمل الأنبياء و الكتب السماوية و الحوادث الداعية إلى الانتباه كموت الأصدقاء و الأقرباء، و الشيخوخة و العجز، و كما يقول الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المناياالصاحبه و حسبك من نذير[۱۰۱]

من الجدير بالملاحظة أيضا أنّه قد ورد فى بعض الروايات أنّ هناك حدّا من العمر يعتبر إنذارا و تذكيرا للإنسان، و ذلك بتعبيرات مختلفة، فمثلا

فى حديث عن ابن عبّاس مرفوعا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من عمّره اللّه ستّين سنة فقد أعذر إليه»[۱۰۲].

و

عن أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام أنّه قال: «العمر الذى أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستّون سنة»[۱۰۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۰

و

عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا أنّه قال: «إذا کان یوم القیامة قیل: أین أبناء الستّین؟

و هو العمر الذی قال اللّه: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْکُمْ ما یَتَذَکَّرُ فِیهِ مَنْ تَذَکَّرَ[۱۰۴].

و لکن

ورد عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: إنّ الآیة «توبیخ لابن ثمانی عشرة سنة»[۱۰۵].

طبعا، من الممکن أن تکون الروایة الأخیرة إشارة إلی الحدّ الأقل، و الروایات السابقة إشارة إلی الحدّ الأعلی، و علیه فلا منافاة بینها، و حتّی أنّه یمکن انطباقها علی سنین اخری أیضا- حسب التفاوت لدی الأفراد- و علی کلّ حال فإنّ الآیة تبقی محتفظة بسعة مفهومها.

فی الآیة الأخیرة- من هذه الآیات- یرد الجواب علی طلب الکفّار فی العودة إلی الدنیا فتقول الآیة: إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَیْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

الجملة الاولی فی الحقیقة دلیل علی الجملة الثانیة، أی إنّه کیف یمکن لعالم أسرار السموات و الأرض و غیب عالم الوجود أن لا یکون عالما بأسرار القلوب؟! نعم، فهو سبحانه و تعالی یعلم أنّه لو استجاب لما طلبه منه أهل جهنّم، و أعادهم إلی الدنیا فسوف یعاودون نفس المسیرة المنحرفة التی کانوا علیها، کما أشارت إلی ذلک الآیة (۲۸) من سورة الأنعام: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ

إضافة إلی ذلک فالآیة تنبیه للمؤمنین علی أن یسعوا لتحقیق الإخلاص فی نیّاتهم، و أن لا یأخذوا بنظر الإعتبار غیر اللّه سبحانه و تعالی، لأنّ أقلّ شائبة فی نوایاهم سیکون معلوما لدیه و باعثا لمجازاتهم علی قدر ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۱

ملاحظتان

۱- ما هو المقصود من «ذات الصدور»؟

ورد هذا اللفظ بتفاوت یسیر فی أکثر من عشرة آیات من القرآن الکریم إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

لفظة «ذات» التی مذکّرها «ذو» فی الأصل بمعنی «الصاحب» مع أنّها وردت لدی الفلاسفة بمعنی «العین و الحقیقة و جوهر الأشیاء»، و لکن علی ما قاله (الراغب) فی مفرداته فإنّ هذا الاصطلاح لا وجود له فی کلام العرب.

و بناء علی ذلک فإنّ المقصود من جملة إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أنّ اللّه یعلم صاحب و مالک القلوب، و هی کنایة لطیفة عن عقائد و نوایا الناس، إذ أنّ الإعتقادات و النوایا عند ما تستقر فی القلب تکون کأنّها مالک القلب، و الحاکم فیه، و لهذا السبب تعدّ تلک العقائد و النوایا صاحبا و مالکا للقلب الإنسانی.

و ذلک تماما ما صاغه بعض کبار العلماء استفادة من هذا المعنی فقالوا: الإنسان آراؤه و أفکاره، لا صورته و أعضاؤه»[۱۰۶].

۲- لا سبیل للرجوع!

من المسلّم به أنّ القیامة و الحیاة بعد الموت مرحلة تکاملیة نسبة إلی الدنیا، و أنّ الرجوع إلی هذه الدنیا لیس معقولا، فهل یمکننا العودة إلی الأمس؟ هل یمکن للولید أن یعود إلی طی الأدوار الجنینیة من جدید؟ و هل یمکن للثمرة التی قطفت من غصنها أن تعاد إلیه مرّة ثانیة؟ لهذا السبب فإنّ العودة إلی الدنیا غیر ممکنة لأهل الآخرة.

و على فرض إمكانية تلك العودة فإنّ هذا الإنسان الكثير النسيان سوف لن يقوم بغير إدامة أعماله السابقة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۲

و لا نذهب بعيدا، فنحن مرّات عديدة و فى شرائط بعض الضائقات الحياتية، نتّخذ قرارا مخلصا بيننا و بين اللّه على القيام بعمل ما أو ترك عمل ما، و لكن بمجرّد تغيير تلك الشرائط يتغيّر قولنا و ننسى قراراتنا، إلّا إذا تحقّق لشخص ما تحوّل جدّى حقيقى، لا تحوّل مشروط بتلك متعدّدة الشرائط التى بتغيّرها يعود إلى سابق حاله.

هذه الحقيقة وردت فى آيات متعدّدة من القرآن المجيد، من جملتها ما ورد فى الآية (۲۸) من سورة الأنعام التى أشرنا إليها قبل قليل، حيث تكذّب هؤلاء و تردّهم.

و لكن الآية (۵۳) من سورة الأعراف تكتفى فقط بأنّ هؤلاء الأفراد خاسرون، و لكن لم تردّ بصراحة على طلبهم للعودة: فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِی کُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ

نفس هذا المعنى ورد بشكل آخر فى الآيات (۱۰۷) و (۱۰۸) من سورة المؤمنون: رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُکَلِّمُونِ

على كلّ حال، فتلك مطالب غير ذات جدوى، و أمانى عديمة التحقّق، و يحتمل أنّهم هم أيضا يعلمون ذلك، و لكنّهم لشدّة العذاب و انسداد جميع المنافذ أمامهم يكرّرون هذه المطالب.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۳

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۹ الى ۴۱]

اشارة

هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلائِفَ فِی الْأَرْضِ فَمَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ لا یَزِیدُ الْکافِرِینَ کُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَ لا یَزِیدُ الْکافِرِینَ کُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (۳۹) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ شُرَکاءَکُمُ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِی ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّماواتِ أَمْ آتَیْناهُمْ کِتاباً فَهُمْ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ یَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (۴۰) إِنَّ اللَّهَ یُمْسِکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَکَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ کانَ حَلِیماً غَفُوراً (۴۱)

التّفسير

السماوات و الأرض بيد القدرة الإلهية:

تنتقل الآيات إلى مرحلة اخرى من تشخيص عوامل ضعف و بطلان مناهج الكفّار و المشركين فى التعامل أو التفكير لتكمل البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة، فتقول أوّلا: هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلائِفَ فِی الْأَرْضِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۴

«خلائف» هنا سواء كانت بمعنى خلفاء و ممثّلى اللّه فى الأرض، أم بمعنى خلفاء الأقوام السابقين (و إن كان المعنى الثانى هنا أقرب على ما يبدو) فهى دليل على منتهى اللطف الإلهى على البشر حيث أنّه قيّض لهم جميع إمكانات الحياة.

أعطاهم العقل و الشعور و الإدراك، أعطاهم أنواع الطاقات الجسدية، ملأ للإنسان صفحة الأرض بمختلف أنواع النعم و البركات، و علّمه طريقة الاستفادة من تلك الإمكانات، فكيف نسى الإنسان و الحال هذه ولى نعمته الأصلى، و راح يعبد آلهة خرافية و مصنوعة؟!

هـذه الجملة فى الحقيقة بيان ل «توحيد الربوبية» الذى هو دليل على «توحيد العبادة». و هذه الجملة أيضا تنبيه للبشـر جميعا ليعلموا بأن مكثهم ليس أبـديّا و لا خالـدا، فكما أنّهم خلائف لأقوام آخرين، فما هى إلّا مدّة حتّى ينتهى دورهم و يكون غيرهم خلائف لهم، لذا فإنّ عليهم أن يتأمّلوا و يفكّروا ماذا يعملون خلال هذه المدّة القصيرة، و كيف سيذكرهم التأريخ فى هذا العالم؟

لذا تردف الآية قائلة: فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً.

الجملتان الأخيرتان فى الواقع تفسير الجملة فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ فهما تقيمان دليلين على رجوع الكفر على صاحبه كالآتى:

الأوّل: إنّ هذا الكفر يؤدّى إلى غضب اللّه الذى أعطى كلّ هذه المواهب.

و الثانى: أنّه علاوة على هـذا الغضب الإلهى فإنّ هـذا الكفر سوف لن يزيـد الظالمين إلّا خسارة و ضـررا بإتلافهم رأس مالهم المتمثّل بأعمارهم و وجودهم، و شرائهم للشقاء و الانحطاط و الظلمة، و أى خسارة أكثر من هذه.

و كلّ واحد من هذين الدليلين كاف لشجب و إبطال ذلك المنهج الباطل فى التعامل مع الحياة.

تكرار لا يَزِيدُ بصيغة المضارع، إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ الإنسان

الميّال بـالطبع إلى البحث عن الزيـادة، إذا سـار فى طريق التوحيـد فسيزداد سـعادة و كمالا، و إذا سـلك طريق الكفر فسوف يتعرّض لمزيد من غضب البارى عزّ و جلّ و يكون نصيبه الضرر و الخسارة.

من الجـدير بالـذكر أيضا أنّ الغضب الإلهى ليس بمعنى الغضب الذى يحصل للإنسان، لأنّ هذا الغضب فى الإنسان عبارة عن نوع من الهيجان و الانفعال الداخلى الذى يكون سببا فى صدور أفعال قويّة و حادّة و خشنة، و فى تعبئة كافّة طاقات الإنسان للدفاع أو الانتقام، و أمّا بالنسبـة إلى اللّه سبحانه و تعالى فليس لأىّ من هـذه الآثار التى هى من خواص الموجودات المتغيّرة و الممكنـة أثر فى غضبـه، فغضبه بمعنى رفع الرحمة و منع اللطف الإلهى من شمول أولئك الذين ارتكبوا السيّئات.

الآيـة التاليـة ترد على المشـركين بجواب قـاطع حـازم، و تـذكّرهم بـأنّ الإنسان إذا اتّبع أمرا أو تعلّق بأمر، فيجب أن يكون هناك دليل عقلى على هذا الأمر، أو دليل نقلى ثابت، و أنتم أيّها الكفّار حيث لا تملكون أيّا من الدليلين فليس لديكم سوى المكر و الغرور.

تقول الآية الكريمة: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ۱۰۷] فهل خلقوا شيئا فى الأرض.

أم شـاركوا اللّه فى خلق السـماوات؟! و مع هـذا الحـال فمـا هو سـبب عبادتكم لها، لأنّ كون الشـىء معبودا فرع كونه خالقا، فما دمتم تعلمـون أنّ خـالق السـماوات و الأرض هو اللّه تعـالى وحـده، فلن يكون هنـاك معبود غيره، لأنّ توحيـد الخالقيـة دليـل على توحيد العبودية.

و الآن بعد أن ثبت أنّكم لا تملكون دليلا عقليا على ادّعائكم، فهل لديكم دليل

نقلى؟ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ

كلّا، فليس لـديهم أى دليل أو بيّنـة أو برهان واضـح من الكتب الإلهيـة، إذا فليس لـديهم سوى المكر و الخديعـة بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً.

و بتعبير آخر، إذا كان لعبدة الأوثان و سائر المشـركين من كلّ مجموعة و كلّ صـنف ادّعاء بقدرة الأصـنام على تلبية مطالبهم، فعليهم أن يعرضوا نموذجا لخلقهم من الأرض، و إذا كانوا يعتقـدون أنّ تلك الأصـنام مظهر الملائكـة و المقدّسـين فى السـماء- كما يـدّعى البعض- فيجب أن يقيموا الدليل على أنّهم شـركاء فى خلق السـماوات .. و ان كانوا يعتقدون بأنّ هؤلاء الشـركاء ليس لهم نصـيب فى الخلقة، بل لهم مقام الشفاعة- كما يدّعى البعض- فيجب أن يأتوا بدليل على إثبات ذلك الادّعاء من الكتب السماوية.

و الحال أنّهم لا يملكون أيّا من هذه البيّنات، فهم مخادعون ظالمون ليس لهم سوى المكر و خديعة بعضهم البعض.

الجدير بالملاحظة أيضا هو المقصود ب «الأرض و السموات» هنا هو مجموعة المخلوقات الأرضية و السماوية، و التعبير ب ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ و شِرْكٌ فِی السَّماواتِ إشارة إلی أنّ المشاركة فی السماوات إنّما يجب أن تكون عن طريق الخلق.

و تنكير «كتابا»، مع استناده إلی اللّه سبحانه، إشارة إلی أنّه ليس هنا أدنی دليل علی ادّعائهم فی أی من الكتب السماوية.

«بيّنة» إشارة إلی دليل واضح من تلك الكتب السماوية.

«ظالمون» تأكيد مرّة اخری علی أنّ «الشرك» «ظلم» واضح.

«غرور» إشارة إلی أنّ عبدة الأوثان أخذوا هذه الخرافات بعضهم من بعض، و تلاقفوها إمّا علی شكل شائعات، أو تقاليد من بعضهم الآخر.

و تنتقل الآية التی بعدها إلی الحديث عن حاكمية اللّه سبحانه و تعالی علی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۷

مجموعة السماوات و الأرض، و فی الحقيقة فإنّها تنتقل إلی إثبات توحيد الخالقية و الربوبية بعد نفی شركة أی من المعبودات الوهمية فی عالم الوجود فتقول: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا[۱۰۸].

فليس بدء الخلق- فقط- مرتبطا باللّه، فإنّ حفظ و تدبير الخلق مرتبط بقدرته أيضا، بل إنّ الخلق له فی كلّ لحظة خلق جديد، و فيض الوجود يغمر الخلق لحظة بعد اخری من مبدأ الفيض. و لو قطعت الرابطة بين الخلق و بين ذلك المبدأ العظيم الفيّاض، فليس إلّا العدم و الفناء.

صحيح أنّ الآية تؤكّد علی مسألة حفظ نظام الوجود الموزون، و لكن- كما ثبت من الأبحاث الفلسفيّة- فإنّ الممكنات محتاجة فی بقائها إلی موجدها كاحتياجها إليه فی بدء إيجادها، و بذلك فإنّ حفظ النظام ليس سوی إدامة الخلق الجديد و الفيض الإلهی.

الملفت للنظر أنّ الأجرام و الكرات السماوية، مع كونها غير مقيّدة بشیء آخر، إلّا أنّها لم تبرح أماكنها أو مداراتها التی حدّدت لها منذ ملايين السنين، دون أن تنحرف عن ذلك قيد أنملة، كما نلاحظ ذلك فی المجموعة الشمسية، فالأرض التی نعيش عليها تواصل دورانها حول الشمس منذ ملايين بل مليارات السنين فی مسيرها المحدّد و المحسوب بدقّة و الذی يتحقّق من التوازن بين القوی الدافعة و الجاذبة، كما أنّها تدور فی نفس الوقت حول نفسها، ذلك بأمر اللّه.

و للتأكيد تضيف الآية قائلة: وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ

فلا الأصنام التی صنعتموها و لا الملائكة، و لا غير ذلك، لا أحد غير اللّه قادر علی ذلك.

و فی ختام الآية- لكی يبقی طريق الأوبة و الإنابة أمام المشركين الضالّين مفتوحا يقول تعالی محبّذا لهم التوبة فی كلّ مرحلة من الطريق

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۸

إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً.

فبمقتضی (حلمه) لا يتعجّل عقابهم، و بمقتضی (غفرانه) يتقبّل توبتهم- بشرائطها- فی أی مرحلة من مراحل مسيرهم، و عليه فإنّ ذيل الآية يشير إلی وضع المشركين و شمول الرحمة الإلهية لهم فی حال توبتهم و إنابتهم.

اعتبر بعض المفسّرين أنّ هذين الوصفين ذكرا لارتباطهما بموضوع حفظ السموات و الأرض، إذ أنّ زوالهما مصيبة عظيمة، و بمقتضی حلم اللّه و غفرانه فإنّه لا يشمل الناس بمثل ذلك العذاب و تلك المصيبة، و إن كانت أقوال و أعمال الكثير من هؤلاء الكفّار موجبة لإنزال ذلك العذاب، كما ورد فی الآيات ۸۸ إلی ۹۰ من سورة مريم وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا.

و الجدير بالملاحظة أيضا أنّ جملة وَ لَئِنْ زالَتا ليست بمعنى أنّه «إذا زالت فليس أحد غير اللّه يحفظها»، بل بمعنى «أنّها إذا شارفت على السقوط و الزوال فإنّ اللّه وحده يستطيع حفظها، و إلّا فلا معنى للحفظ بعد الزوال».

و قد حدث- على طول التاريخ البشرى- مرارا أنّ علماء الفلك توقّعوا أنّ «النجم الفلانى» المذنّب أو غير المذنّب سيمرّ بمحاذاة الكرة الأرضية و يحتمل أن يصطدم بها، هذه التوقّعات تدفع جميع الناس إلى القلق، و فى هذه الشرائط يحسّ الجميع بأنّه فى مثل حادث كهذا، ليس فى إمكان أحد أن يؤثّر شيئا، بحيث لو انطلقت إحدى الكرات السماوية باتّجاه الكرة الأرضية و اصطدمتا فيما بينهما بتأثير الجاذبية فلن يبقى للتمدّن البشرى أثر، و حتّى الموجودات الاخرى سوف لن يبقى لها أثر على سطح الأرض، و لن تستطيع أيّة قدرة عدا قدرة اللّه منع مثل هذه الكارثة من الوقوع.

فى مثل تلك الحالات يحسّ الجميع بالحاجة الماسّة و المطلقة إلى اللّه سبحانه و تعالى، و لكن بمجرّد أن تزول احتمالات الخطر، يلقى النسيان بظلاله على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۹

الإنسان.

هذه الكارثة لا تقع فقط من مجرّد اصطدام السيارات مع بعضها، بل إنّ أيّ انحراف بسيط لأيّ من السيارات- كالأرض مثلا- عن مسارها يؤدّى إلى وقوع فاجعة عظيمة.

***

ملاحظة

الصغير و الكبير سيّان أمام قدرة اللّه!

الملفت للنظر أنّ الآيات أعلاه ذكرت أنّ السماوات تستند إلى قدرة اللّه فى ثباتها و بقائها، و فى آيات اخرى من القرآن ورد نفس التعبير فيما يخصّ حفظ الطيور حال طيرانها فى السماء. أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

ففى موضع يشير إلى أنّ خلق السموات الواسعة دليل على وجوده تعالى، و فى موضع آخر يعتبر خلق حشرة صغيرة كالبعوضة دليلا على ذلك.

حينا يقسم بالشمس لأنّها منبع عظيم للطاقة فى عالم الوجود، و حينا يقسم بفاكهة مألوفة كالتين.

كلّ ذلك إشارة إلى أنّه لا فرق بين كبير و صغير أمام قدرة اللّه.

أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات و السلام يقول: «و ما الجليل و اللطيف و الثقيل و الخفيف و القوى و الضعيف فى خلقه إلّا سواء».

إنّ هذه الأشياء جميعها تشير إلى شىء واحد، و هو أنّ وجود اللّه سبحانه و تعالى، وجود لا متناه من جميع الجهات، و التدقيق فى مفهوم «اللامتناهى» يثبت هذه الحقيقة بشكل تامه، و هى أنّ مفاهيم مثل «الصعب» و «السهل» و «الصغير» و «الكبير» و «المعقّد» و «البسيط» لها معنى بحدود الموجودات المحدودة- فقط-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۰

و لكن حينما يكون الحديث عن قدرة اللّه تعالى المطلقة فإنّ هذه المفاهيم تتغيّر بشكل كلّى و تقف جميعا فى صفّ واحد بدون أدنى تفاوت فيما بينها «دقّق النظر!!».

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۱

الآیات [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۴۲ الی ۴۴]

اشارة

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِیرٌ لَیَکُونُنَّ أَهْدی مِنْ إِحْدَی الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِیرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (۴۲) اسْتِکْباراً فِی الْأَرْضِ وَ مَکْرَ السَّیِّئِ وَ لا یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِینَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِیلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِیلاً (۴۳) أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ کانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُعْجِزَهُ مِنْ شَیْءٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ إِنَّهُ کانَ عَلِیماً قَدِیراً (۴۴)

سبب النّزول

ورد فی تفسیر «الدرّ المنثور» و «روح المعانی» و «مفاتیح الغیب» و تفاسیر اخری: «بلغ قریشا قبل مبعث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ أهل الکتاب کذّبوا رسلهم فقالوا: لعن اللّه الیهود و النصاری أتتهم الرسل فکذّبوهم، فو اللّه لئن أتانا رسول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۲

لنکوننّ أهدی من إحدی الأمم»[۱۰۹]. فلمّا أشرقت شمس الإسلام من أفق بلادهم، و جاءهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالکتاب السماوی، رفضوا، بل کذّبوا، و حاربوا، و مارسوا أنواع المکر و الخدیعة.

فنزلت الآیات أعلاه تلومهم و توبّخهم علی ادّعاءاتهم الفارغة.

التّفسیر

استکبارهم و مکرهم سبب شقائهم:

تواصل هذه الآیات الحدیث عن المشرکین و مصیرهم فی الدنیا و الآخرة.

الآیة الاولی تقول: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِیرٌ لَیَکُونُنَّ أَهْدی مِنْ إِحْدَی الْأُمَمِ ۱۱۰].

«أیمان» جمع «یمین» بمعنی القسم، و فی الأصل فإنّ معنی الیمین هو الید الیمنی، و الیمین فی الحلف مستعار منها اعتبارا بما یفعله المعاهد و المحالف و غیره من المصافحة بالیمین عندها.

«جهد»: من «الجهاد» بمعنی السعی و المشقّة، و بذا یکون معنی جَهْدَ أَیْمانِهِمْ حلفوا و اجتهدوا فی الحلف علی أن یأتوا به علی أبلغ ما فی وسعهم.

نعم، فعند ما طالعوا صفحات التأریخ، و اطّلعوا علی عدم وفاء و عدم شکر تلک الأقوام و جنایاتهم بالنسبة إلی أنبیائهم و خصوصا الیهود، تعجّبوا کثیرا و ادّعوا لأنفسهم الادّعاءات و تفاخروا علی هؤلاء بأن یکون حالهم أفضل منهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۳

و لکن بمجرّد أن واجهوا محکّ التجربة، و دخلوا کورة الامتحان المشتعلة، و تحقّق طلبهم ببعثة نبیّ منهم، تبیّن أنّهم من نفس تلک

الطینة، حیث أشار القرآن إلی ذلک بعد تلک الجملة الاولی من الآیة بالقول: فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِیرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً.

هذا التعبیر یدلّل علی أنّهم کانوا قبل بعثة النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- و علی خلاف ما یدّعون- بعیدین عن دین اللّه سبحانه و تعالی، فقد کانت حنیفیة إبراهیم معروفة بینهم، إلّا أنّهم لم یکونوا یحترمونها، کذلک لم یکن لدیهم أی اعتبار لما کان یملیه العقل من تصرفات. و بقیام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و نیله من عقائدهم و أعرافهم و عصبیتهم الجاهلیة، و وقوع مصالحهم غیر المشروعة فی الخطر، زادت الفاصلة بینهم و بین الحقّ، نعم کانوا بعیدین عن الحقّ، لکنّهم ازدادوا بعدا عن الحقّ بعد بعثة النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الآیة التالیة توضیح لما فی الآیة السابقة، تقول: إنّ بعدهم عن الحقّ لأنّهم سلکوا طریق الاستکبار فی الأرض، و لم تکن لدیهم أهلیة الخضوع لمنطق الحقّ اسْتِکْباراً فِی الْأَرْضِ ۱۱۱] و کذلک لأنّهم کانوا یحتالون و یسیئون وَ مَکْرَ السَّیِّئِ ۱۱۲].

و لکن وَ لا یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

جملة «لا- یحیق»: الفعل (یحیق) من (حاق) بمعنی نزل و أصاب، و الجملة معناها «لا- ینزل و لا- یصیب و لا- یحیط» إشارة إلی أنّ الاحتیال قد یؤدّی- مؤقتا-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۴

إلی الإحاطة بالآخرین، و لکنّه فی النهایة یعود علی صاحبه، فهو مفضوح و ضعیف و عاجز أمام خلق اللّه، و سیندمون حتما أمام اللّه سبحانه و تعالی، و ذلک هو المصیر المشؤوم الذی انتهی إلیه مشرکو مکّة.

هذه الآیة فی الحقیقة ترید القول بأنّهم لم یکتفوا فقط بالابتعاد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل إنّهم استعانوا بکلّ قدرتهم و استطاعتهم لأجل إنزال ضربة قویّة به و بدعوته، و السبب فی کلّ ذلک لم یکن سوی الکبر و الغرور و عدم الرضوخ للحقّ.

ختام الآیة تهدید لتلک المجموعة المستکبرة الماکرة و الخائنة، و بجملة عمیقة المعنی و بکلمات تهزّ المشاعر، یقول تعالی: فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِینَ ۱۱۳].

هذه الجملة القصیرة تشیر إلی جمیع المصائر المشؤومة التی أحاقت بالأقوام السالفة کقوم نوح، و عاد، و ثمود، و قوم فرعون، حیث أصاب کلا- منهم بلاء عظیم، و القرآن الکریم أشار مرارا إلی جوانب من مصائر هؤلاء الأقوام المشؤومة و الألیمة. و هنا و بتلک الجملة القصیرة جسّد جمیع ذلک أمام بصیرة تلک الفئة فی مکّة.

ثمّ تضیف الآیة لزیادة التأکید قائلة: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِیلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِیلًا. فکیف یمکن للّه سبحانه و تعالی أن یعاقب قوما علی أعمال معیّنة، ثمّ لا یعاقب غیرهم الذین یسلکون نفس سلوکهم؟ أ لیس هو العدل الحکیم، و کلّ ما یفعله بناء علی حکمة و عدل تامیین؟! فإنّ تغییر السنن یمکن تصوّره بالنسبة إلی من یمتلک اطّلاعا أو معرفة محدودة، إذ یزداد معرفة بمرور الزمان یعرض عن سنّة سابقة، أو یکون الإنسان عالما، إلّا أنّه لا یتصرّف طبقا للحکمة و العدالة، بل طبقا لمیول خاصّة فی نفسه، و لکن اللّه سبحانه و تعالی منزّه عن جمیع تلک الأمور، و سنّته حاکمة علی من یأتی کما کانت تحکم من مضی، و لا تقبل التغییر أبدا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۵

و قد أکّد القرآن الکریم فی مواضع عدیدة علی قضیّة ثبات سنن اللّه و عدم تغیّرها، و قد فصّلنا الحدیث فی ذلک فی تفسیر الآیة (۶۲) من سورة الأحزاب، و بالجملة فإنّ فی هذا العالم- عالم التکوین التشریع- ثمّة قوانین ثابتة لا تتغیّر، عبّر عنها القرآن الکریم «السنن الإلهیّة» و التی لا سبیل إلی تغیّرها.

هذه القوانین کما أنّها حکمت فی الماضی فإنّها حاکمة الیوم و غدا. و مجازات المستکبرین الکفرة الذین لم تنفع بهم الموعظة الإلهیة من هذه السنن، و منها أیضا نصرة أتباع الحقّ الذین لا ینثنون عن جدّهم و سعیهم المخلص، هاتان السنّتان کانتا و لا تزالان ثابتتین أمس و الیوم و غدا[۱۱۴].

الجدير بالملاحظة أنّه ورد في بعض الآيات القرآنية الحديث عن «عدم تبديل» السنن الإلهيّة، الأحزاب- ۶۲، و في البعض الآخر الحديث عن «عدم تحويل» السنن الإلهيّة، سورة الإسراء- ۷۷، و لكن الآية مورد البحث أكّدت على الحالتين معا.

فهل أنّ هاتين الحالتين تعبير عن معنى واحد، بحيث أنّهما ذكرتا معا للتأكيد، أم أنّ كلا منهما يشير إلى معنى مستقل؟

بمراجعة أصل اللفظين يتّضح أنّهما إشارة إلى معنيين مختلفين: (تبديل) الشيء، تعويضه بغيره كاملا بحيث يرفع الأوّل و يوضع الثاني، و لكن (تحويل) الشيء، هو تغيّر بعض صفات الشيء الأوّل من ناحية كيفية أو كمية مع بقائه.

و عليه فإنّ السنن الإلهية لا تقبل الاستبدال و لا التعويض الكامل، و لا التغيير النسبي من حيث الشدّة و الضعف أو القلّة و الزيادة. من جملتها أنّ اللّه سبحانه و تعالى يوقع عقوبات متشابهة بالنسبة إلى الذنوب و الجرائم المتشابهة و من جميع الجهات، لا أن يوقع العقاب على مجموعة و لا يوقعه على مجموعة اخرى. و لا أن يوقع عقابا أقلّ شدّة على مجموعة دون اخرى، و هكذا قانون يستند إلى أصل

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۶

ثابت، لا يقبل التبديل و لا التحويل ۱۱۵].

آخر ما نريد التوقّف عنده هو أنّ الآية تضيف «سنّة» إلى لفظ الجلالة «اللّه» و في موضع آخر من نفس الآية تضيف «سنّة» إلى «الأوّلين» و يظهر في بادئ الأمر وجود تنافي بين الحالتين، و لكن الأمر ليس كذلك، لأنّه في الحالة الاولى أضيفت «سنّة» إلى «الفاعل»، و في الحالة الثانية أضيفت «سنّة» إلى «المفعول به».

ففي الحالة الاولى تعبير عن مجرى السنّة، و في الثانية عمّن أجريت عليه السنّة.

الآية التالية تدعو هؤلاء المشركين و المجرمين إلى مطالعة آثار الماضين و المصير الذي وصلوا إليه، حتّى يروا بأمّ أعينهم في آثارهم و مواطنهم السابقة جميع ما سمعوه، و بذا يتحوّل البيان إلى العيان. فتقول الآية الكريمة: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

فإذا كانوا يتصوّرون أنّهم أشدّ قوّة من أولئك فهم على اشتباه عظيم تلك، لأنّ الأقوام السالفة كانت أقوى منهم: وَ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً.

فالفراعنة الذين حكموا مصر، و نمرود الذي حكم بابل و دولا اخرى بمنتهى القدرة، كانوا أقوياء إلى درجة لا يمكن قياسها مع قوّة مشركي مكّة.

إضافة إلى أنّ الإنسان مهما بلغ من القوّة و القدرة، فإنّ قدرته و قوّته لا شيء إزاء قوّة اللّه، لماذا؟ لأنّه وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ ۱۱۶] فهو العليم القدير، لا يخفى عليه شيء، و لا يستعصى على قدرته شيء، و لا يغلبه أحد، فلو تصوّر هؤلاء المستكبرون الماكرون أنّهم يستطيعون

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۷

الفرار من يد قدرته تعالى فهم مشتبهون أشدّ الاشتباه. و إذا لم ينفضوا أيديهم من تلك الأعمال السيّئة، فسوف يلاقون نفس المصير الذي لقيه من كان قبلهم.

يمرّ بنا مرارا التعرّض لهذا الأمر في القرآن الكريم، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى يدعو الكفّار و العاصين إلى «السير في الأرض» و مشاهدة آثار الأقوام الماضين و مصائرهم الأليمة.

و رد في الآية (۹) من سورة الروم أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

و ورد شبيه هذا المعنى في سورة يوسف- ۱۰۹، و الحجّ- ۴۶، و غافر ۲۱ و ۸۲، و الأنعام- ۱۱ إلى غير ذلك.

هذا التأكيد المتكرّر دليل على التأثير الخاصّ لتلك المشاهدات في النفس الإنسانية، فإنّ عليهم أن يروا بأعينهم ما قرءوه في التأريخ أو

سمعوه، لیذهبوا و ینظروا عروش الفراعنة المحطّمة. و قصور الأکاسرة المدمّرة، و قبور القیاصرة الموحشة، و عظام نمرود المتفسّخة، و أرض قوم لوط و ثمود الخالیة، ثمّ لیستمعوا إلی نصائحهم الصامتة، و أنینهم من تحت التراب، و ینظروا بامّ أعینهم ماذا حلّ بهؤلاء.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۸

الآیة [سورة فاطر (۳۵): آیة ۴۵]

اشارة

وَ لَوْ یُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما کَسَبُوا ما تَرَکَ عَلی ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَ لکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِعِبادِهِ بَصِیراً (۴۵)

التّفسیر

لو لا لطف اللّه و رحمته!

الآیة مورد البحث و هی الآیة الأخیرة من آیات سورة فاطر، و بعد تلک البحوث الحادّة و التهدیدات الشدیدة التی مرّت فی الآیات المختلفة للسورة، تنهی هذه الآیة السورة ببیان اللطف و الرحمة الإلهیّة بالبشر، تماما کما ابتدأت السورة بذکر افتتاح اللّه الرحمة للناس. و علیه فإنّ البدء و الختام متّفقان و منسجمان فی توضیح رحمة اللّه.

زیادة علی ذلک، فإنّ الآیة السابقة التی تهدّد المجرمین الکفّار بمصیر الأقوام الغابرین، تطرح کذلک السؤال التالی، و هو إذا کانت السنّة الإلهیة ثابتة علی جمیع الطغاة و العاصین، فلما ذا لا یعاقب مشرکو مکّة؟! و تجیب علی السؤال قائلة: وَ لَوْ یُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما کَسَبُوا و لا یمنحهم فرصة لإصلاح أنفسهم و التفکّر فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۹

مصیرهم و تهذیب أخلاقهم ما تَرَکَ عَلی ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ.

نعم لو أراد اللّه مؤاخذتهم علی ذنوبهم لأنزل علیهم عقوبات متتالیة، صواعق، و زلازل، و طوفانات، فیدمّر المجرمین و لا یبقی أثرا للحیاة علی هذه الأرض.

وَ لکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی و یعطیهم فرصة للتوبة و إصلاح النفس.

هذا الحلم و الإمهال الإلهی له أبعاد و حسابات خاصّة، فهو إمهال إلی أن یحلّ أجلهم فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ کانَ بِعِبادِهِ بَصِیراً[۱۱۷] فانّه تعالی یری أعمالهم و مطّلع علی نیّاتهم.

هنا یطرح سؤالان، جوابهما یتّضح ممّا ذکرناه أعلاه:

الأوّل: هل أنّ هذا الحکم العام ما تَرَکَ عَلی ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ یشمل حتّی الأنبیاء و الأولیاء و الصالحین أیضا؟

الجواب واضح، لأنّ المعنی بأمثال هذا الحکم هم الأغلبیة و الأکثریة منهم، و الرسل و الأئمّة و الصلحاء الذین هم أقلّیة خارجون عن ذلک الحکم، و الخلاصة أنّ کلّ حکم له استثناءات، و الأنبیاء و الصالحون مستثنون من هذا الحکم. تماما مثلما نقول: إنّ أهل الدنیا غافلون و حریصون و مغرورون، و المقصود الأکثریة منهم، فی الآیة (۴۱) من سورة الروم نقرأ ظَهَرَ الْفَسادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النَّاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ فبدیهی أن الفساد لیس نتیجة لأعمال جمیع البشر، بل هو نتیجة لأعمال

أكثريتهم.

و كذلك فإنّ الآية (٣٢) من نفس هذه السورة، التى قسّمت الناس إلى ثلاث مجموعات «ظالم» و «مقتصد» و «سابق بالخيرات» شاهد آخر على هذا المعنى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۰

و عليه فإنّ الآية أعلاه ليس فيها ما ينافى عصمة الأنبياء إطلاقا.

الثانى: هل أنّ التعبير ب «دابّة» فى الآية أعلاه يشير إلى شمول غير البشر، أى أنّ تلك الدواب أيضا سوف تتعرّض للفناء نتيجة إيقاع الجزاء على البشر؟! الجواب على هذا السؤال يتّضح إذا علمنا أنّ أصل فلسفة وجود الدواب هو تسخيرها لمنفعة الإنسان، فإذا انعدم الإنسان من سطح الكرة الأرضية فليس من داع لوجود تلك الدواب ١١٨].

و أخيرا نختم هذا البحث بالحديث التالى الوارد

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «سبق العلم، و جفّ القلم، و مضى القضاء، و تمّ القدر بتحقيق الكتاب و تصديق الرسل، و بالسعادة من اللّه لمن آمن و اتّقى، و بالشقاء لمن كذّب و كفر، و بالولاية من اللّه عزّ و جلّ للمؤمنين، و بالبراءة منه للمشركين» ثمّ قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: يا ابن آدم، بمشيتى كنت أنت الذى تشاء لنفسك ما تشاء، و بإرادتى كنت أنت الذى تريد لنفسك ما تريد، و بفضل نعمتى عليك قويت على معصيتى، و بقوّتى و عصمتى و عافيتى أدّيت إلىّ فرائضى، و أنا أولى بحسناتك منك، و أنت أولى بذنبك منّى، الخير منّى إليك واصل بما أوليتك به، و الشرّ منك إليك بما جنيت جزاء، و بكثير من تسلّطى لك انطويت على طاعتى، و بسوء ظنّك بى قنطت من رحمتى، تلى الحمد و الحجّة عليك بالبيان، ولى السبيل عليك بالعصيان، و لك الجزاء الحسن عندى بالإحسان. لم أدع تحذيرك و لم آخذك عند غرّتك، و هو قوله عزّ و جلّ: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ لم اكلّفك فوق طاقتك، و لم احمّلك من الأمانة إلّا ما قرّرت بها على نفسك، و رضيت لنفسى منك ما رضيت به لنفسك منّى، ثمّ قال عزّ و جلّ:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۱

وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً[١١٩].

إلهى، اجعلنا ممّن ينتفعون من الفرصة قبل فواتها، فيرجعون إلى وجهك الكريم، و نوّر ما مضى من أيّامنا بنور حسناتك و رضاك.

إلهى، إذا لم تشملنا برحمتك فإنّ جهنّم التى أشعلناها بأعمالنا السيّئة ستمتدّ بألسنتها إلينا و تلقى بنا فى لهواتها، و إن لم تضىء قلوبنا بنور غفرانك فإنّ قلوبنا ستصبح مرتعا للشيطان اللعين.

إلهى، أعذنا من كلّ شرك، و أسرج مصباح الإيمان و التوحيد الخالص فى أعماق قلوبنا و زوّدنا بالتقوى فى أقوالنا و أعمالنا، إنّك مجيب الدعاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۳

سورة يس

اشارة

مكّية و عدد آياتها ثلاث و ثمانون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۵

سورة یس

محتوى السورة:

هـذه السورة من السور المكّيـة، لـذا فهی من حيث النظرة الإجمالية لها نفس المحتوى العام للسور المكّية، فهی تتحدّث عن التوحيد و المعاد و الوحی و القرآن و الإنذار و البشارة، و يلاحظ فی هذه السورة أربعة أقسام رئيسيّة:

۱- تتحدّث السورة أوّلا عن رسالة النّبی الأكرم صلّی اللّه عليه و اله و سلّم و القرآن المجيد و الهدف من نزول ذلك الكتاب السماوی العظيم و عن المؤمنين به، و تستمر بذلك حتّى آخر الآية الحادية عشرة.

۲- قسم آخر من هذه السورة يتحدّث عن رسالة ثلاثة من أنبياء اللّه، و كيف كانت دعوتهم للتوحيد، و جهادهم المتواصل المرير ضدّ الشـرك، و هذا فی الحقيقة نوع من التسـلية و المواساة لرسول الإسلام صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و توضيح الطريق أمامه لتبليغ رسالته الكبرى.

۳- قسم آخر منها، و الـذی يبدأ من الآية ۳۳ و حتّى الآية ۴۴، مملوء بالنكات التوحيديـة الملفتة للنظر، و هو عرض معبّر عن الآيات و الـدلائل المشـيرة إلى عظمـة اللّه فی عـالم الوجود، كـذلك فـإنّ أواخر السورة أيضـا تعود إلى نفس هـذا البحث التوحيـدی و الآيات الإلهية.

۴- قسم مهمّ آخر من هذه السورة، يتحدّث حول المواضيع المرتبطة بالمعاد و الأدلّة المختلفة عليه، و كيفية الحشر و النشر، و السؤال و الجواب فی يوم القيامة، و نهاية الدنيا، ثمّ الجنّة و النار، و هذا القسم يتضمّن مطالب مهمّة و دقيقة جدّا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۶

و خلال هذه البحوث الأربعة ترد آيات محرّكة و محفّزة لأجل تنبيه و إنذار الغافلين و الجهّال، لها الأثر القوی فی القلوب و النفوس.

الخلاصـة، أنّ الإنسـان يواجه فی هـذه السورة بمشاهـد مختلفـة من الخلق و القيامـة، الحياة و الموت، الإنـذار و البشارة، بحيث تشـكّل بمجموعها نسخة الشفاء و مجموعة موقظة من الغفلة.

فضيلة سورة «يس»:

سورة يس- بشـهادة الأحاديث المتعـدّدة التی وردت بهـذا الخصوص- من أهمّ السور القرآنيـة، إلى حدّ أنّ الأحاديث لقّبتها ب «قلب القرآن»

ففی حديث عن رسول الإسلام صلّی اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ «إنّ لكلّ شیء قلبا، و قلب القرآن يس»[۱۲۰].

و

فی حديث عن أبی بصـير عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ لكلّ شیء قلبا و قلب القرآن يس، فمن قرأ يس فی نهاره قبل أن يمسی كان فی نهاره من المحفوظين و المرزوقين حتّى يمسـی، و من قرأها فی ليلة قبل أن ينام و كلّ به ألف ملك يحفظونه من كلّ شـيطان رجيم و من كلّ آفة ...» الحديث ۱۲۱].

كذلك نقرأ

عن الرسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أيضا «سورة تدعى فی التوراة المعمة! قيل:

و ما المعمة؟ قال: تعم صاحبها خير الدنيا و الآخرة» الحديث ۱۲۲].

و هناك روايات اخرى عديدة بهذا الخصوص، وردت فی كتب الفريقين أعرضنا عن ذكرها حذرا من الإطالة.

لذا يجب الإقرار بأنّه ربّما لم تنل سورة من سور القرآن الاخرى كلّ هذه الفضائل الخاصّة بسورة يس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۷

و کما أشرنا سابقا فإنّ هذه الفضیلة و الثواب لا ینالهما من یکتفی بقراءة الألفاظ- فقط- مشیحا عن مفاهیم السورة، بل إنّ عظمة فضیلة هذه السورة إنّما هی لعظمة محتواها ..

محتوی یوقظ من الغفلة و یضخّ فی النفس الإیمان، و یولد روح المسؤولیة و یدعو إلی التقوی، بحیث أنّ الإنسان إذا تفکّر فی هذه الآیة و جعل ذلک التفکّر یلقی بظلاله علی أعماله، فإنّه یفوز بخیر الدنیا و الآخرة.

فمثلا، الآیة (۶۰) من هذه السورة تتحدّث حول عهد اللّه فی التحذیر من عبادة الشیطان أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یا بَنِی آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّیْطانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ

و من الواضح أنّه حینما ینشغل الإنسان بهذا العهد الإلهی- تماما مثلما ورد فی الأحادیث التی ذکرناها- سیکون فی أمان من أی شیطان رجیم، و لکن لو قرئت هذه الآیة بلا رویّة، و فی مقام العمل یکون من الأصدقاء المخلصین و الأوفیاء للشیطان، فإنّه لن ینال ذلک الفخر الذی ذکرناه، و هذا یصدق علی آیات هذه السورة آیة آیة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۸

الآیات [سورة یس (۳۶): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یس (۱) وَ الْقُرْآنِ الْحَکِیمِ (۲) إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ (۳) عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۴)

تَنْزِیلَ الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلی أَکْثَرِهِمْ فَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۷) إِنَّا جَعَلْنا فِی أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِیَ إِلَی الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنا مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَیْناهُمْ فَهُمْ لا یُبْصِرُونَ (۹)

وَ سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۱۰)

التّفسیر

هذه السورة تبدأ- کما هو الحال فی ثمان و عشرین سورة اخری- بحروف مقطّعة و هی (یاء) و (سین).

و قد فصّلنا الحدیث فیما یخصّ الحروف المقطّعة فی بدایة سورة (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف)، و لکن فیما یخصّ سورة (یس) فتوجد تفسیرات اخری أیضا لهذه الحروف المقطّعة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۹

من جملتها أنّ هذه الکلمة (یس) تتکوّن من «یاء» حرف نداء و «سین» أی شخص الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و علیه فیکون المعنی أنّه خطاب للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لتوضیح قضایا لاحقة.

و قد ورد فی بعض الأحادیث أنّ هذه الکلمة تمثّل أحد أسماء الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ۱۲۳].

و منها أنّ المخاطب هنا هو الإنسان و «سین» إشارة له، و لکن هذا الاحتمال لا یحقّق الانسجام بین هذه الآیة و الآیات اللاحقة، لأنّ هذه الآیات تتحدّث إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده.

لذا نقرأ

فى روايـة عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام أنّه قال: «يس اسم رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و الـدليل على ذلك قوله تعالى: إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ۱۲۴].

بعد هذه الحروف المقطّعة- و كما هو الحال فى أغلب السور التى تبتدى بالحروف المقطّعة- يأتى الحديث عن القرآن المجيد، فيورد هنـا قسـما بـالقرآن، إذ يقـول: وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ الملفت للنظر أنّه وصف «القرآن» هنـا ب «الحكيم»، فى حين أنّ الحكمـة عـادة صـفة للعاقـل، كأنّه سـبحانه يريـد طرح القرآن على أنّه موجود حى و عاقل و مرشـد، يسـتطيع فتـح أبواب الحكمـة أمام البشـر، و يؤدّى إلى الصراط المستقيم الذى تشير إليه الآيات التالية.

بديهى أنّ اللّه سـبحانه و تعالى ليس بحاجة لأنّ يقسم، و لكن الأقسام القرآنية تتضـمّن- دائما- فائدتين أساسيتين: الاولى التأكيد على الموضوع اللاحق للقسم، و الثانية بيان عظمة الشىء الذى يقسم به اللّه تعالى، إذ أنّ القسم لا يكون عادة بأشياء ليست ذات قيمة.

الآية التى بعدها توضّح الأمر الذى من آجله أقسم اللّه تعالى فى مقدّمة السورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۰

الكريمة: إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ۱۲۵].

بعد ذلك تضيف الآية تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۱۲۶].

التأكيـد على «العزيز» كصـفة للّه سـبحانه و تعـالى، لأجـل بيان قـدرته سبحانه و تعالى فى قبال كتاب كبير كهـذا، كتاب يقف معجزة شامخة على مرّ العصور و القرون، و لن تستطيع أيّة قدرة مهما كانت أن تمحو أثره العظيم من صفحة القلوب.

و التأكيد على «رحيميته» لأجل بيان هذه الحقيقة و هى أنّ رحمته أوجبت أن تقيّض للبشر نعمة عظيمة كهذه.

بعض المفسّـرين قـالوا بأنّ هاتين الصـفتين ذكرتا للإشارة إلى نوعين من ردود الفعل المحتملـة من قبل الناس إزاء نزول ذلك الكتاب السـماوى و إرسال النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، فلو أنكروا و كذّبوا، فإنّ اللّه سـبحانه و تعالى يهدّدهم بعزّته، و لو دخلوا من باب التسليم و القبول، فإنّ اللّه يبشّرهم برحمته الخاصّة.

و عليه فإنّ عزّته و رحمته إحداهما مظهر للإنذار و الاخرى للبشارة، و باقترانهما جعل هذا الكتاب السماوى العظيم فى متناول البشرية.

هنا يطرح سؤال: هل يمكن إثبات حقّانية الرّسول أو الكتاب السماوى، بواسطة قسم أو تأكيد؟

الجواب تسـتبطنه الآيـات المـذكورة، لأنّهـا من جانب تصف القرآن بالحكيم، مشـيرة إلى أنّ حكمته ليست مخفيـة عن أحـد، و ذلك دليل على حقّانيته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۱۳۰

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۱

و من جانب آخر فإنّ وصف الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بأنّه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بمعنى أنّ محتوى دعوته يتّضح من سبيله القويم، و ماضيه أيضا دليل على أنّه لم يسلك فى حياته سوى الطريق المستقيم.

و قـد أشـرنا فى البحوث التى أوردناها حول أدلّة حقّانية الرسل، إلى أنّ أحد أهمّ الطرق لإدراك حقّانية الرسل، هو التحقّق و الاطلاع على محتوى دعواتهم بشـكل دقيق، الأمر الـذى يؤكّـد دائما أنّها متوافقة و منسـجمة مع الفطرة و العقل و الوجدان، و قابلة للإدراك و التعقّل البشرى، إضافة إلى أنّ تأريخ حياة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يدلّل على أنّه رجل أمانة و صدق، و ليس رجل كذب و تزوير .. هـذه الأمور قرائن حيّة على كونه رسول اللّه، و الآيات أعلاه فى الحقيقة تشـير إلى كلا المطلبين، و عليه فإنّ القسم و الدعوى أعلاه لم يكونا بلا سبب أبدا.

ناهيـك عن أنّه من حيث أدب المنـاظرة، فـإنّه لأجل النفوذ فى قلوب المنكرين و المعانـدين يجب أن تكون العبارات فى طرحها أكثر

إحكاما و حسما و مصحوبة بتأكيد أقوى، كيما تستطيع التأثير فى هؤلاء.

يبقى سؤال: و هو لماذا كان المخاطب فى هذه الجملة شخص الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس المشركين أو عموم الناس؟

الجواب هو التأكيد على أنّك يا أيّها النّبى على الحقّ و على الصراط المستقيم، سواء استجاب هؤلاء أو لم يستجيبوا، لذا فإنّ عليك الاجتهاد فى تبليغ رسالتك العظيمة، و لا تعر المخالفين أدنى اهتمام.

الآية التالية تشرح الهدف الأصلى لنزول القرآن كما يلى لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ ۱۲۷] أى إنّه لم يأت نذير لآبائهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۲

من المسلّم أنّ المقصود بهؤلاء القوم هم المشركون فى مكّة، و إذا قيل أنّه لم تخل امّة من منذر، و أنّ الأرض لا تخلو من حجّة للّه، علاوة على أنّه تعالى يقول فى الآية (۲۴) من سورة فاطر وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ؟

فنقول: إنّ المقصود من الآية- مورد البحث- هو المنذر الظاهر و النّبى العظيم الذى ملأ صيته الآفاق، و إلّا فإنّ الأرض لم تخل يوما من حجّة للّه على عباده، و إذا نظرنا إلى الفترة من عصر المسيح عليه السّلام إلى قيام الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نجدها لم تخل من الحجّة الإلهية، بل إنّها فترة من قيام اولى العزم،

يقول أمير المؤمنين عليه الصلاة و السّلام بهذا الخصوص «إنّ اللّه بعث محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا و لا يدّعى نبوّة!»[۱۲۸].

و على كلّ حال فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم كان تنبيه الناس الغافلين، و إيقاظ النائمين، و تذكيرهم بالمخاطر المحيطة بهم، و الذنوب و المعاصى التى ارتكبوها، و الشرك و أنواع المفاسد التى تلوّثوا بها، نعم فالقرآن أساس العلم و اليقظة، و كتاب تطهير القلب و الروح.

ثمّ يتنبأ القرآن الكريم بما يؤول إليه مصير الكفّار و المشركين فيقول تعالى:

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

احتمل المفسّرون هنا العديد من الاحتمالات فى المراد من «القول» هنا.

الظاهر أنّه ذلك الوعيد الإلهى لكل أتباع الشيطان بالعذاب فى جهنّم، فمثله ما ورد فى الآية (۱۳) من سورة السجدة وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۳

الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ كذلك فى الآية (۷۱) من سورة الزمر نقرأ وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ

على كلّ حال فإنّ ذلك يخصّ أولئك الذين قطعوا كلّ ارتباط لهم باللّه سبحانه و تعالى، و أغلقوا عليهم منافذ الهداية بأجمعها، و أوصلوا عنادهم و تكبرهم و حماقتهم إلى الحدّ الأعلى، نعم فهم لن يؤمنوا أبدا، و ليس لديهم أى طريق للعودة، لأنّهم قد دمّروا كلّ الجسور خلفهم.

فى الحقيقة فإنّ الإنسان القابل للإصلاح و الهداية هو ذلك الّذى لم يلوّث فطرته التوحيدية تماما بأعماله القبيحة و أخلاقه المنحرفة، و إلّا فإنّ الظلمة المطلقة ستتغلّب على قلبه و تغلق عليه كلّ منافذ الأمل.

فاتّضح أنّ المقصود هم تلك الأكثرية من الرؤوس المشركة الكافرة الّتى لم تؤمن أبدا، و كذلك كان، فقد قتلوا فى حروبهم ضدّ الإسلام و هم على حال الشرك و عبادة الأوثان، و ما تبقى منهم ظلّ على ضلاله إلى آخر الأمر.

و إلّا فإنّ أكثر مشركى العرب أسلموا بعد فتح مكّة بمفاد قوله تعالى: يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً.[۱۲۹] و يشهد بذلك ما ورد فى الآيات التالية التى تتحدّث عن وجود سدّ أمام و خلف هؤلاء و كونهم لا يبصرون. و أنّه لا ينفع معهم الإنذار أو عدمه ۱۳۰].

الآيـة التى بعـدها تواصـل وصف تلـك الفئـة المعانـدة، فتقول: إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ أى مرفوعى الرأس لوجود الغلّ حول الأعناق.

«أغلال» جمع «غل»: من مادّة «غلل» و يعنى تدرع الشيء و توسطه، و منه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۴

الغلل (على وزن عمل) للماء الجارى بين الشجر. و «الغل» الحلقـة حول العنق أو اليـدين و تربط بعـد ذلك بسلسـلة، و بما أنّ العنق أو اليدين تقع فى ما بينها فقد استعملت هذه المفردة فى هذا المورد، و حينا تكون الأغلال فى العنق مربوطة بسلسلة مستقلّة عمّا تربط به أغلال الأيـدى، و حينا تكون جميعها مربوطـة بسلسلة واحـدة فيكون الشـخص بـذلك تحت ضـغط شديـد و فى محدوديـة و عـذاب شديدين.

و إذا قيل لحالـة العطش الشديـد أو الحسرة و الغضب «غلة» فإنّ ذلك لنفوذ تلك الحالة فى داخل قلب و جسم الإنسان، و أساسا فإنّ مادّة «غل»- على وزن جدّ- بمعنى الدخول أو الإدخال، لذا قيل عن حاصل الكسب أو الزراعة و أمثالها «غلة»[۱۳۱].

و قد تكون حلقة «الغل» حول الرقبة عريضة أحيانا بحيث تضغط على الذقن و ترفع الرأس إلى الأعلى، من هنا فإنّ المقيّد يتحمّل عذابا فوق العذاب الذى يتحمّله من ذلك القيد بأنّه لا يستطيع مشاهدة أطرافه.

و يـا له من تمثيل رائع حيث شبّه القرآن الكريم حال عبـدة الأوثان المشـركين بحال هـذا الإنسان، فقـد طوّقوا أنفسـهم بطوق «التقليد الأعمى»، و ربطوا ذلك بسلسـلة «العادات و التقاليد الخرافية» فكانت تلك الأغلال من العرض و الاتّساع أنّها أبقت رؤوسـهم تنظر إلى الأعلى و حرمتهم بذلك من رؤية الحقائق، و بذلك فإنّهم أسرى لا يملكون القدرة و الفعّالية و الحركة، و لا قدرة الإبصار[۱۳۲].

على أيّة حال فإنّ الآيـة الذى أعلاه، تعتبر شـرحا لحال تلك الفئة الكافرة فى الدنيا و حالهم فى عالم الآخرة الذى هو تجسـيد لمسائل هذا العالم، و ليس من الغريب استخدام صيغة الماضى فى تصوير حال الآخرة هنا، فإنّ الكثير من الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۵

القرآنيـة الكريمـة تتكلّم بصـيغة الماضـى حينما تتعرّض إلى الحوادث المسـلّم بها فى المسـتقبل للدلالة على مضارع متحقّق الوقوع، و بذلك يمكن أن تكون إشارة إلى كلا المعنيين حالهم فى الدنيا و حالهم فى الآخرة.

جمع من المفسّـرين ذكروا فى أسباب نزول هـذه الآيـة و الآيـة التاليـة لهـا أنّهما نزلتا فى (أبى جهل) أو (رجل من مخزوم) أو قريش، الذين صـمّموا مرارا على قتل الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و لكن اللّه سـبحانه و تعالى منعهم من ذلك بطريقة إعجازية فكلّما أرادوا إنزال ضربة بالنّبى عميت عيونهم عن الإبصار أو أنّهم سلبوا القدرة على التحرّك تماما[۱۳۳].

و لكن سبب النّزول ذلك لا يمنع من عمومية مفهوم الآية وسعة معناها، بحيث يشمل جميع أئمّة الكفر و المعاندين، و فى الضمن فهى تعتبر تأييدا لما قلناه فى تفسير فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ فى أنّ المقصود بهم هم أئمّة الكفر و النفاق و ليس أكثرية المشركين.

الآيـة التاليـة تتناول وصـفا آخر لحالة تلك المجموعة، و تمثيلا ناطقا عن عوامل و أسـباب عدم تقبّلهم الحقائق فتقول: وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا و حوصـروا بين هذين السدّين و أمسوا لا يملكون طريقا لا إلى الأمام و لا إلى الوراء، آنئذ فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ

و يـا له من تشبيه رائع!! فهم من جهـة كالأسـرى فى الأغلال و السـلاسل، و من جهـة اخرى فـإنّ حلقـة الغـلّ عريضـة بحيث أنّها ترفع رؤوسـهم إلى السـماء، و تمنعهم من أن يبصـروا شـيئا ممّا حولهم، و من جهـة ثالثـة فهم محاصـرون بين سدود من أمامهم و خلفهم و ممنوعون من سلوك طريقهم إلى الأمام أو إلى الخلف. و من جهة رابعة فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ إذ فقدت عيونهم كلّ قدرة على الإبصار.

تأمّلوا مليّا ماذا ينتظر ممّن هو على تلك الحال؟ ما هو مقدار إدراكه للحقائق؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۶

ماذا یمکنه أن یبصر؟ و کیف یمکنه أن ینقل خطاه؟ فکـذلک حال المسـتکبرین المعانـدین العمی الصمّ فی قبال الحقائق!! لهـذا فإنّه تعالی یقول فی آخر آیـهٔ من هذه المجموعهٔ وَ سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا یُؤْمِنُونَ فمهما کان حدیثک نافذا فی القلوب و مهما کان أثر الوحی السـماوی، فإنّه لن یؤثّر ما لم یجد الأرضیهٔ المناسبهٔ، فلو سطعت الشمس آلاف السنین علی أرض سبخهٔ، و نزلت علیها میاه الأمطار المبارکهٔ، و هبّت علیها نسائم الربیع علی الدوام، فلیس لها أن تنبت سوی الشوک و التبن، لأنّ قابلیهٔ القابل شـرط مع فاعلیهٔ الفاعل.

***

بحوث

۱- فقدان وسائل المعرفهٔ

یحتاج الإنسان للتعرّف علی العالم الخارجی إلی الاستفادهٔ من وسائل و أدوات تسمّی «وسائل المعرفهٔ».

قسم منها «باطنیهٔ» و القسم الآخر «ظاهریهٔ».

العقل و الوجدان و الفطرهٔ من وسائل المعرفهٔ الباطنیهٔ، و الحواس الظاهریهٔ کالأبصار و الأسماع و أمثالها وسائل المعرفهٔ الظاهریهٔ.

و قـد أعطی اللّه هـذه الوسائل القدرهٔ علی الاشـتداد شـیئا فشـیئا إذا اسـتفید منها علی وجه صـحیح حتّی تتمکّن من تشـخیص الحقائق بصورهٔ أفضل و أدق.

أمّا إذا استغلّت بطریقـهٔ خاطئـهٔ، أو لم یتمّ الاسـتفادهٔ منها أصـلا، فإنّها تضـطرب بشـکل کلّی و تعکس الحقائق بشـکل مقلوب، تماما کالمرآهٔ الصافیهٔ إذا غطّاها غبار غلیظ أو أنّها تخرّشت بحیث أضحت لا تعکس الصورهٔ علیها، أو أنّها تعکس ما لا ینطبق علی الواقع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۷

هذه الأعمال المغلوطهٔ و المواقف المنحرفهٔ هی التی تصادر وسائل المعرفهٔ من الإنسان، و لهذا السبب فإنّ المقصّر الأصلی هو الإنسان، و هو الذی جنی علی نفسه.

الآیات أعلاه تشبیه معبّر عن هـذه المسألـهٔ المهمّـهٔ و المصـیریهٔ، فهی تشبه المسـتکبرین و المتعصّبین و الأنانیین و المنافقین بالمقیدین بالأغلال و السـلاسل من جهـهٔ، سـلاسل الکبر و الهوس و الغرور و التقلیـد الأعمی الـذی وضـعوه علی أعناقهم و أیادیهم. و بأولئک المحاصرین بین سدّین منیعین لا یمکن عبورهما.

و من جهۀ اخری فإنّ أعینهم مغلقهٔ و لا تبصر.

الغلّ و السـلاسل وحـدها تکفی لمنعهم من الحرکهٔ، و السدّان العظیمان أیضا وحدهما کافیان لمنعهم من الفعّالیهٔ، انعدام البصـر وحده أیضا عامل مستقل.

هذان السدّان عالیان و متقاربان إلی حدّ أنّهما وحدهما کافیان لسـلبهم القدرهٔ علی الإبصار، کما أنّهما کافیان لسـلبهم قدرهٔ الحرکهٔ. و قد کرّرنا القول بأنّ الإنسان تبقی هدایته ممکنهٔ ما لم یصل إلی تلک المرحلهٔ، أمّا حینما یبلغ تلک المرحلهٔ، فلو اجتمع جمیع الأنبیاء و الأولیاء علیهم السّلام أیضا و قرءوا له جمیع الکتب السماویهٔ، فلن یؤثّر ذلک فیه.

و ذلـک مـا تمّ التأکیـد علیه، سواء فی آیات القرآن أو الروایات، و هو أنّ الإنسان إذا زلّت قـدمه أو ارتکب ذنبا فعلیه أو یتوب فورا و یتوجّه إلی اللّه، و أن یبتعد عن التسویف و التأخیر، و الإصرار و التکرار، و من أجل أن لا یصل إلی تلک المرحلهٔ علیه أن ینظف صدأ القلب، و یدمّر السدود و الموانع الصغیرهٔ قبل أن تتحوّل إلی سدود کبیرهٔ و عظیمهٔ، و یحتفظ بمساره و تکامله و ینفض الغبار عن عینیه

لكى يتمكّن من الإبصار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۸

۲- السدود من الأمام و الخلف

طرح بعض المفسّرين هذا السؤال، و هو أنّ المانع الأساسى من استمرار الحركة هو السدّ الذى يكون أمام الإنسان، فما معنى السدّ من الخلف؟

و أجاب بعضهم قائلا: «إنّ الإنسان له هداية فطرية و وجدانية- و هداية نظرية استدلالية- فكأنّه تعالى يقول: جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا» أى: حرمناهم من سلوك سبيل الهداية النظرية و جعلنا مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا أى: منعناهم من العودة إلى الهداية الفطرية[۱۳۴].

و قال البعض الآخر: انّ السدّ من بين أيديهم إشارة إلى الموانع التى تمنعهم من الوصول إلى الآخرة و سلوك طريق السعادة الخالدة، و أمّا السدّ من خلفهم فهو الذى يصدّهم عن تحصيل السعادة الدنيوية[۱۳۵].

كذلك يحتمل التّفسير التالى أيضا، و هو إنّ السالك إذا انسدّ الطريق الذى قدّامه فقد فاته المقصد و لكنّه يرجع ليبحث عن طريق آخر يوصله إلى المقصد، فإذا أغلق الطريق من خلفه و من قدّامه فسوف يكون محروما من الوصول إلى المقصد حتما.

و فى الثنايا يتّضح الجواب أيضا على السؤال التالى: و هو لماذا لم يذكر السدود عن اليمين و الشمال؟ ذلك لأنّ الإنسان لا يصل إلى المقصد الذى أمامه بالسير يمينا أو شمالا، إضافة إلى أنّ السدّ عادة يبنى فى مكان يكون طرفاه الأيمن و الأيسر مغلقين، و الممر الوحيد هو مكان السدّ الذى ينغلق هو الآخر بوجوده، فيكون الإنسان فى حصار كامل عمليّا.

۳- الحرمان من السير الآفاقى و الأنفسى

هناك طريقان معروفان لمعرفة اللّه، الأوّل التأمّل و التفكّر فى آثار اللّه فى جسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۹

الإنسان و روحه، و تلك «الآيات الأنفسية»، و الثانى التأمّل فى الآيات الخارجية الموجودة فى الأرض و السماء و الثوابت و السيارات من الكواكب، و الجبال و البحار. و تلك تسمّى «الآيات الآفاقية» و قد أشار القرآن إليهما فى الآية (۵۳) من سورة فصّلت سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ

و حينما يفقد الإنسان قدرة المعرفة، فإنّه يغلق عليه طريق مشاهدة الآيات الأنفسية و الآفاقية على حدّ سواء.

فى الآيات الماضية و فى جملة إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ إشارة إلى المعنى الأوّل، لأنّ الأغلال ترفع رؤوسهم إلى الأعلى بحيث أنّهم لا يملكون القدرة على رؤية أنفسهم، و كذلك فإنّ السدود أمامهم و خلفهم تمنعهم من رؤية ما حولهم، بحيث أنّهم مهما نظروا فلن يبصروا غير السدود، و بذا يحرمون من مشاهدة الآيات الآفاقية.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۰

الآيتان [سورة يس (۳۶): الآيات ۱۱ الى ۱۲]

اشارة

إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (۱۱) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (۱۲)

التّفسير

من هم الذين يتقبّلون إنذارك؟

كان الحديث فی الآيات السابقة عن مجموعة لا تملک أی استعداد لتقبّل الإنذارات الإلهيّة و يتساوی عندهم الإنذار و عدمه، أمّا هذه الآيات فتتحدّث عن فئة اخری هی علی النقيض من تلک الفئة، و ذلک لكی يتّضح المطلب بالمقارنة بين الفئتين كما هو أسلوب القرآن.

تقول الآية الاولی من هذه المجموعة إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ

هنا ينبغی الالتفات إلی امور:

۱- ذكرت فی هذه الآية صفتان لمن تؤثّر فيهم مواعظ و إنذارات النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:

و هی «أتباع الذكر» و «الخشية من اللّه فی الغيب». لا شکّ أنّ المقصود من هاتين

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۱

الصفتين هو ذلک الاستعداد الذاتی و ما هو موجود فيهم «بالقوّة». أی أنّ الإنذار يؤثّر فقط فی أولئک الذين لهم أسماع واعية و قلوب مهيّأة، فالإنذار يترک فيهم أثرين: الأوّل إتّباع الذكر و القرآن الكريم، و الآخر الإحساس بالخوف بين يدی اللّه و المسؤولية.

و بتعبير آخر فإنّ هاتين الحالتين موجودتان فيهم بالقوّة، و إنّها تظهر فيهم بالفعل بعد الإنذار، و ذلک علی خلاف الكفّار عمی القلوب الغافلين الذين لا يملكون اذنا صاغية و ليسوا أهلا للخشية من اللّه أبدا.

هذه الآية كالآية من سورة البقرة حيث يقول تعالی: ذلِکَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

۲- باعتقاد الكثير من المفسّرين أنّ المقصود من «الذكر» هو «القرآن المجيد».

لأنّ هذه الكلمة جاءت بهذه الصورة مرارا فی القرآن الكريم لتعبّر عن هذا المعنی ۱۳۶]، و لكن لا- مانع من أن يكون المقصود من هذه الكلمة أيضا المعنی اللغوی لها بمعنی مطلق التذكير، بحيث يشمل كلّ الآيات القرآنية و سائر الإنذارات الصادرة عن الأنبياء و القادة الإلهيين.

۳- «الخشية» كما قلنا سابقا، بمعنی الخوف الممزوج بالإحساس بعظمة اللّه تعالی، و التعبير ب «الرحمن» هنا و الذی يشير إلی مظهر رحمة اللّه العامّة يثير معنی جميلا- و هو أنّه فی عين الوقت الذی يستشعر فيه الخوف من عظمة اللّه، يجب أن يكون هنالک أمل برحمته، لموازنة كفّتی الخوف و الرجاء، اللذين هما عاملا الحركة التكاملة المستمرة.

الملفت للنظر أنّه ذكرت كلمة «اللّه» فی بعض من الآيات القرآنية فی مورد

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۲

«الرجاء» و التی تمثّل مظهر الهيبة و العظمة لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ[۱۳۷] إشارة إلی أنّه يجب أن يكون الرجاء ممزوجا بالخوف، و الخوف ممزوجا بالرجاء علی حد سواء (تأمّل!!).

۴- التعبير ب «الغيب» هنا إشارة إلی معرفة اللّه عن طريق الاستدلال و البرهان، إذ أنّ ذات اللّه سبحانه و تعالی غيب بالنسبة إلی حواس الإنسان، و يمكن فقط مشاهدة جماله و جلاله سبحانه ببصيرة القلب و من خلال آثاره تعالی.

كـذلك يحتمل أيضا أنّ «الغيب» هنا بمعنى «الغياب عن عيون الناس» بمعنى أنّ مقام الخشـية و الخوف يجب أن لا يتّخـذ طابعا ريائيا، بل إنّ الخشية و الخوف يجب أن تكون فى السرّ و الخفية.

بعضهم فسّر «الغيب» أيضا ب «القيامة» لأنّها من المصاديق الواضحة للأمور المغيبة عن حسّنا، و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

۵- جملـة «فبشّره» فی الحقيقـة تكميل للإنذار، إذ أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى البدء ينذر، و حين يتحقّق للإنسان اتّباع الذكر و الخشية و تظهر آثارها على قوله و فعله، هنا يبشّره البارى عزّ و جلّ.

بماذا يبشّر؟ أوّلا يبشّره بشىء قد شغل فكره أكثر من أى موضوع آخر، و هو تلك الزلّات التى ارتكبها، يبشّره بأنّ اللّه العظيم سيغفر له تلك الزلّات جميعها، و يبشّره بعدئذ بأجر كريم و ثواب جزيل لا يعلم مقداره و نوعه إلّا اللّه سبحانه.

الملفت للنظر هو تنكير «المغفرة» و «الأجر الكريم» و نعلم بـأنّ اسـتخدام النكرة فى مثـل هـذه المواضع إنّمـا هو للتـدليل على الوفرة و العظم.

۶- يرى بعض المفسّرين أنّ (الفاء) فى جملـة «فبشّره» للتفريع و التفصـيل، إشارة إلى أنّ (اتّباع التذكر و الخشـية) نتيجتها «المغفرة» و «الأجر الكريم» بحيث أنّ الاولى و هى المغفرة تترتّب على الأوّل، و الثانية على الثانى.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۳

بعـد ذلك و بما يتناسب مع البحث الـذى كان فى الآيـة السابقـة حول الأجر و الثواب العظيم للمؤمنين و المصدّقين بالإنذارات الإلهية التى جاء بها الأنبياء، تنتقل الآيـة التاليـة إلى الإشارة إلى مسألة المعاد و البعث و الكتاب و الحساب و المجازاة، تقول الآية الكريمة: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى

الاسـتناد إلى لفظـة «نحن» إشارة إلى القـدرة العظيمـة التى تعرفونها فينا! و كـذلك قطع الطريق أمام البحث و التساؤل فى كيف يحيى العظـام و هى رميم، و يبعث الروح فى الأبـدان من جديـد؟ و ليس نحيى المـوتى فقـط، بـل وَ نَكْتُبُ مـا قَدَّمُوا وَ آثـارَهُمْ و عليه فـإنّ صحيفة الأعمال لن تغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا و تحفظها إلى يوم الحساب.

جملـة «ما قدّموا» إشارة إلى الأعمال التى قاموا بها و لم يبق لها أثر، أمّا التعبير «و آثارهم» فإشارة إلى الأعمال التى تبقى بعد الإنسان و تنعكس آثارها على المحيط الخارجى، من أمثال الصـدقات الجاريـة (المبانى و الأوقاف و المراكز التى تبقى بعد الإنسان و ينتفع منها الناس).

كذلك يحتمل أيضا أن يكون المعنى هو أنّ «ما قدّموا» إشارة إلى الأعمال ذات الجنبة الشخصية، و «آثارهم» إشارة إلى الأعمال التى تصـبح سـننا و توجب الخير و البركـات بعـد موت الإنسان، أو تؤدّى إلى الشـرّ و المعاصـى و الـذنوب. و مفهوم الآيـة واسع يمكن أن يشمل التّفسيرين.

ثمّ تضيف الآية لزيادة التأكيد وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ

أغلب المفسّرين اعتبروا أنّ معنى «إمـام مـبين» هنـا هـو «اللـوح المحفوظ» ذلـك الكتـاب الـذى أثبتت فيه و حفظت كـلّ الأعمـال و الموجودات و الحوادث التى فى هذا العالم.

و التعبير ب «إمام» ربّما كان بلحاظ أنّ هـذا الكتاب يكون فى يوم القيامـة قائـدا و إماما لجميع المأمورين بتحقيق الثواب و العقاب، أو لكونه معيارا لتقييم الأعمال

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۴

الإنسانية و مقدار ثوابها و عقوبتها.

الجدير بالملاحظة أنّ تعبير (إمام) ورد فى بعض آيات القرآن الكريم للتعبير عن «التوراة» حيث يقول سبحانه و تعالى: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً.

و إطلاق كلمة «إمام» فى هذه الآية على «التوراة» يشير إلى المعارف و الأحكام و الأوامر الواردة فى التوراة، و كذلك للدلائل و الإشارات المذكورة بحقّ نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ففى كلّ هذه الأمور يمكن للتوراة أن تكون قائدا و إماما للخلق، و بناء على ذلك فإنّ الكلمة المزبورة لها معنى متناسب مع مفهومها الأصلى فى كلّ مورد استعمال.

***

مسألتان

۱- أنواع الكتب التى تثبت بها أعمال الناس

يستفاد من الآيات القرآنية الكريمة أنّ أعمال الإنسان تدون و تضبط فى أكثر من كتاب، حتّى لا يبقى له حجّة أو غدر يوم الحساب.
أوّلها: «صحيفة الأعمال الشخصية» التى تحصى جميع أعمال الفرد على مدى عمره اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً[۱۳۸].
هناك حيث تتعالى صرخات المجرمين يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها.[۱۳۹] و هو الكتاب الذى يأخذه المحسنون فى أيمانهم و المسيئون فى شمائلهم- الحاقّة ۱۹ و ۲۵.
ثانيا: «صحيفة أعمال الامّة» و التى تبيّن الخطوط الاجتماعية لحياتها، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۵

يقول القرآن الكريم: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا.[۱۴۰] و ثالثها: «اللوح المحفوظ» و هو الكتاب الجامع، ليس لأعمال جميع البشر من الأوّلين و الآخرين فقط، بل لجميع الحوادث العالمية، و شاهد آخر على أعمال بنى آدم فى ذلك المشهد العظيم، و فى الحقيقة فهو إمام لملائكة الحساب و ملائكة الثواب و العقاب.

۲- كلّ شىء أحصيناه

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: «ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول اللّه، نحن بأرض قرعاء! قال:
فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه. فجاءوا به حتّى رموا بين يديه، بعضه على بعض، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. هكذا تجمع الذنوب، ثمّ قال: إيّاكم و المحقّرات من الذنوب، فإنّ لكلّ شىء، طالبا، ألا و إنّ طالبها يكتب ما قدّموا و آثارهم و كلّ شىء أحصيناه فى إمام مبين»[۱۴۱].
هذا الحديث المؤثّر، صورة معبّرة عن أنّ تراكم صغائر الذنوب و المعاصى يمكنه أن يولد نارا عظيمة اللهب.
فى حديث آخر ورد أنّ «بنى سلمة» كانوا فى ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ
فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ آثاركم تكتب»-
أى خطواتكم التى تخطونها إلى المسجد، و سوف تثابون عليها- فلم ينتقلوا[۱۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۶

اتّضح إذا أنّ مفهوم الآیة واسع و شامل، و له فی کلّ من تلک الأمور التی ذکرناها مصداق.

و قد یبدو عدم انسجام ما ذکرنا مع ما ورد من «أهل البیت» علیهم السّلام حول تفسیر «إمام مبین» بأمیر المؤمنین علی علیه أفضل الصلاة و السلام. کما

ورد عن الإمام الباقر علیه السّلام عن آبائه علیهم السّلام: «لمّا أنزلت هذه الآیة علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْناهُ فِی إِمامٍ مُبِینٍ قام أبو بکر و عمر من مجلسهما فقالا: یا رسول اللّه، هو التوراة؟ قال: لا، قالا: فهو الإنجیل؟ قال: لا، قالا: فهو القرآن؟ قال: لا، قال: فأقبل أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: هو هذا، إنّه الإمام الذی أحصی اللّه تبارک و تعالی فیه علم کلّ شیء»[۱۴۳].

و

فی تفسیر علی بن إبراهیم عن ابن عبّاس عن أمیر المؤمنین علیه أفضل الصلاة و السلام أنّه قال: «أنا و اللّه الإمام المبین، أبیّن الحقّ من الباطل، ورثته من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم»[۱۴۴].

فمع أنّ بعض المفسّرین من أمثال «الآلوسی»، قد إستاء کثیرا من عملیة نقل أمثال هذه الروایات من طرق الشیعة، و نسبهم لذلک إلی عدم المعرفة و الاطلاع و عدم التمکّن من التّفسیر، إلّا أنّه بقلیل من الدقّة یتّضح أنّ أمثال هذه الروایات لا تتنافی مع تفسیر «الإمام المبین» ب «اللوح المحفوظ». بلحاظ أنّ قلب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالمقام الأوّل، ثمّ یلیه قلب ولیّه، و یعتبران مرآة تعکس ما فی اللوح المحفوظ، و إنّ اللّه سبحانه و تعالی یلهمهم القسم الأعظم ممّا هو موجود فی اللوح المحفوظ، و بذا یصبحان نموذجا من اللوح المحفوظ، و علیه فإنّ إطلاق «الإمام المبین» علیهما لیس بالأمر العجیب، لأنّهما فرع لذلک الأصل، ناهیک عن أنّ وجود الإنسان الکامل- کما نعلم- یعتبر عالما صغیرا ینطوی علی خلاصة العالم

الکبیر، و طبقا للشعر المنسوب إلی أمیر المؤمنین علیه الصلاة و السلام.

أ تزعم أنّک جرم صغیر؟و فیک انطوی العالم الأکبر

و العجیب أنّ «الآلوسی» لا یستبعد هذا التّفسیر مع إنکاره للرّوایات السالفة الذکر، و علی کلّ حال فلیس من شکّ فی کون المقصود من «الإمام المبین» هو «اللوح المحفوظ» فإنّ الروایات السالفة الذکر یمکن تطبیقها علیه «دقّق النظر!!».***

الآیات [سورة یس (۳۶): الآیات ۱۳ الی ۱۹]

اشارة

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْیَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (۱۳) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَیْهِمُ اثْنَیْنِ فَکَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَیْکُمْ مُرْسَلُونَ (۱۴) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَیْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَکْذِبُونَ (۱۵) قالُوا رَبُّنا یَعْلَمُ إِنَّا إِلَیْکُمْ لَمُرْسَلُونَ (۱۶) وَ ما عَلَیْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِینُ (۱۷)

قالُوا إِنَّا تَطَیَّرْنا بِکُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّکُمْ وَ لَیَمَسَّنَّکُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِیمٌ (۱۸) قالُوا طائِرُکُمْ مَعَکُمْ أَ إِنْ ذُکِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۱۹)

التّفسیر

و اضرب لهم مثلا أصحاب القریة:

لمتابعة البحوث الماضیة فی الآیات السابقة حول القرآن و نبوّة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و المؤمنین الصادقین، و الکفّار المعاندین، تطرح هذه الآیات نموذجا من موقف الأمم السابقة بهذا الصدد، إنّ هذه الآیات و بعضا من الآیات التالیة لها،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۹

و التی تشکّل بمجموعها ثمانی عشرة آیة، تتحدّث حول تأریخ عدد من الأنبیاء السابقین الذین بعثوا لهدایة المشرکین عبّاد الأوثان الذین سمّاهم القرآن الکریم أَصْحابَ الْقَرْیَةِ و کیف أنّهم نهضوا لمخالفة أولئک الأنبیاء، و تکذیبهم، و کانت خاتمتهم أن أخذهم العذاب الألیم، لتکون تنبیها لمشرکی مکّة من جهة، و تسلیة للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فئة المؤمنین القلیلة به فی ذلک الیوم. علی کلّ حال فإنّ التأکید علی إیراد هذه القصّة فی قلب هذه السورة التی تعتبر هی بدورها قلب القرآن الکریم، بسبب تشابه ظروف تلک القصّة مع ظروف المسلمین فی ذلک الیوم.

أوّلا تقول الآیات الکریمة: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْیَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۱۴۵].

«القریة» فی الأصل اسم للموضع الذی یجتمع فیه الناس، و تطلق أحیانا علی نفس الناس أیضا، لذا فمفهومها یتّسع حتّی یشمل المدن و النواحی، و أطلقت فی لغة العرب و فی القرآن المجید مرارا علی المدن المهمّة مثل «مصر» و «مکّة» و أمثالهما.

لکن ما اسم هذه القریة أو المدینة التی ذکرت فی هذه الآیة؟

المشهور بین المفسّرین أنّها «أنطاکیة» إحدی مدن بلاد الشام. و هی إحدی المدن الرومیة المشهورة قدیما، کما أنّها ضمن منطقة نفوذ ترکیا جغرافیا فی الحال الحاضر، و سنتعرض إلی تفصیل الحدیث عنها فی البحوث الآتیة إن شاء اللّه، و علی کلّ حال فإنّه یظهر جیدا من آیات هذه السورة الکریمة أنّ أهل تلک المدینة کانوا یعبدون الأصنام، و أنّ هؤلاء الرسل جاؤوا یدعونهم إلی التوحید و نبذ الشرک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۰

بعد ذلک العرض الإجمالی العام، تنتقل الآیات إلی تفصیل الأحداث التی جرت فتقول: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَیْهِمُ اثْنَیْنِ فَکَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَیْکُمْ مُرْسَلُونَ ۱۴۶].

أمّا من هم هؤلاء الرسل؟ هناک أخذ و ردّ بین المفسّرین، بعضهم قال: إنّ أسماء الإثنین «شمعون» و «یوحنا» و الثالث «بولس»، و بعضهم ذکر أسماء اخری لهم.

و کذلک هناک أخذ ورد فی أنّهم رسل اللّه تعالی، أم أنّهم رسل المسیح علیه السّلام (و لا منافاة مع قوله تعالی: إِذْ أَرْسَلْنا إذ أنّ رسل المسیح رسله تعالی أیضا)، مع أنّ ظاهر الآیات أعلاه ینسجم معه التّفسیر الأوّل، و إن کان لا فرق بالنسبة إلی النتیجة التی یرید أن یخلص إلیها القرآن الکریم.

الآن لننظر ماذا کان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالّین قبال دعوة الرسل، القرآن الکریم یقول: إنّهم تعلّلوا بنفس الأعذار الواهیة التی یتذرّع بها الکثیر من الکفّار دائما فی مواجهة الأنبیاء قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَیْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَکْذِبُونَ

فإذا کان مقرّرا أن یأتی رسول من قبل اللّه سبحانه، فیجب أن یکون ملکا مقرّبا و لیس إنسانا مثلنا. هذه هی الذریعة التی تذرّعوا بها لتکذیب الرسل و إنکار نزول التشریعات الإلهیة، و المحتمل أنّهم یعلمون بأنّ جمیع الأنبیاء علی مدی التاریخ کانوا من نسل آدم، من جملتهم إبراهیم الخلیل علیه السّلام، الذی عرف برسالته، و من المسلّم أنّه کان إنسانا، و ناهیک عن أنّه هل یمکن لغیر الإنسان أن یدرک حاجات الإنسان و مشکلاته و آلامه؟

و ثمّ لماذا أکّدت الآیة أیضا علی صفة «الرحمانیة» للّه؟ لعلّ ذلک لأنّ اللّه سبحانه و تعالی ضمن نقله هذه الصفة فی کلامهم یشعر

بأنّ الجواب كامن فی كلامهم، إذ أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۱

اللّه الذی شملت رحمته العالم بأسره لا بدّ أن يبعث الأنبياء و الرسل لتربية النفوس و الدعوة إلى الرشد و التكامل البشرى.

كذلك يحتمل أيضا أن يكونوا قد أكّدوا على وصف الرحمانية للّه ليقولوا بذلك أنّ اللّه الرحمن العطوف لا يثير المشاكل لعباده بإرسال الرسل و الأنبياء، بل إنّه يتركهم و شأنهم! و هذا المنطق الخاوى المتهاوى يتناسب مع مستوى تفكير هذه الفئة الضالّة.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء الأنبياء لم ييأسوا جرّاء مخالفة هؤلاء القوم الضالّين و لم يضعفوا، و فى جوابهم قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ و مسئوليتنا إبلاغ الرسالة الإلهية بشكل واضح و بيّن فحسب.

وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

من المسلّم به أنّهم لم يكتفوا بمجرّد الادّعاء، أو القسم بأنّهم من قبل اللّه، بل إنّ ممّا يستفاد من تعبير «البلاغ المبين» إجمالا أنّهم أظهروا دلائل و معاجز تشير إلى صدق ادّعائهم، و إلّا فلا مصداقية (للبلاغ المبين)، إذ أنّ البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقة تجعل من الميسّر للجميع أن يدركوا مراده، و ذلك لا يمكن تحقّقه إلّا من خلال بعض الدلائل و المعجزات الواضحة.

و قد ورد فى بعض الرّوايات أيضا أنّ هؤلاء الرسل كانت لهم القدرة على شفاء بعض المرضى المستعصى علاجهم- بإذن اللّه- كما كان لعيسى عليه السّلام.

و لكن الوثنيين لم يسلموا أمام ذلك المنطق الواضح و تلك المعجزات، بل إنّهم زادوا من عنفهم فى المواجهة، و انتقلوا من مرحلة التكذيب إلى مرحلة التهديد و التعامل الشديد قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ ۱۴۷].

و يحتمل حدوث بعض الوقائع السلبية لهؤلاء القوم فى نفس الفترة التى بعث فيها هؤلاء الأنبياء، و كانت إمّا نتيجة معاصى هؤلاء القوم، أو كإنذارات إلهية لهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۲

فكما نقل بعض المفسّرين فقد توقّف نزول المطر عليهم لملمدّة[۱۴۸]، و لكنّهم لم يعتبروا من ذلك، بل إنّهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطة ببعثة هؤلاء الرسل. و لم يكتفوا بذلك، بل إنّهم أظهروا سوء نواياهم من خلال التهديد الصريح و العلنى، و قالوا:

لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ

هل أنّ «العذاب الأليم» هو تأكيد على مسألة الرجم، أو زيادة المجازاة أكثر من الرجم وحده؟

يوجد احتمالان، و لكن يبدو أنّ الاحتمال الثانى هو الأقرب، لأنّ الرجم من أسوأ أنواع العذاب الذى قد ينتهى أحيانا بالموت، و من الممكن أن ذكر العذاب الأليم إشارة إلى أنّنا سنرجمكم إلى حدّ الموت، أو أنّه علاوة على الرجم فإنّنا سنمارس معكم أنواعا اخرى من التعذيب التى كانت تستعمل قديما كإدخال الأسياخ المحمّاة فى العيون أو صبّ الفلز المذاب فى الفمّ و أمثالها.

بعض المفسّرين احتملوا أيضا أنّ (الرجم) هو تعذيب جسمانى أمّا «العذاب الأليم» فهو عذاب معنوى روحى ۱۴۹]. و لكن الظاهر أنّ التّفسير الأوّل هو الأقرب.

أجل، فلأنّ أتباع الباطل و حماة الظلم و الفساد لا يملكون منطقا يمكنهم من المنازلة فى الحوار، فإنّهم يستندون دائما إلى التهديد و الضغط و العنف، غافلين عن أنّ سالكى طريق اللّه لن يستسلموا أمام أمثال هذه التهديدات، بل سيزيدون من استقامتهم على الطريق، فمنذ اليوم الأوّل الذى سلكت فيها أقدامهم طريق الدعوة إلى اللّه وضعوا أرواحهم على الأكف، و استعدوا لأى نوع من الفداء و التضحية.

هنا ردّ الرسل الإلهيون بمنطقهم العالى على هذيان هؤلاء: قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۳

فإذا أصابكم سوء الحظّ و حوادث الشؤم، و رحلت بركات اللّه عنكم، فإنّ سبب ذلك فی أعماق أرواحكم، و فی أفكاركم المنحطّة و أعمالكم القبيحة المشؤومة، و ليس فی دعوتنا، فها أنتم ملأتم دنياكم بعبادة الأصنام و أتباع الهوى و الشهوات، و قطعتم عنكم بركات اللّه سبحانه و تعالى.

جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ جملة أ إِنْ ذُكِّرْتُمْ جملة مستقلّة و قالوا: إنّ معناها هو «هل أنّ الأنبياء إذا جاءوا و ذكروكم و أنذروكم يكون جزاؤهم تهديدهم بالعذاب و العقوبة و تعتبرون وجودهم شؤما عليكم؟ و ما جلبوا لكم إلّا النور و الهداية و الخير و البركة. فهل جواب مثل هذه الخدمة هو التهديد و الكلام السيء؟![۱۵۰].

و فی الختام قال الرسل لهؤلاء بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ

فإنّ مشكلتكم هی الإسراف و التجاوز، فإذا أنكرتم التوحيد و أشركتم فسبب ذلك هو الإسراف و تجاوز الحقّ، و إذا أصاب مجتمعكم المصير المشؤوم فبسبب ذلك الإسراف فی المعاصی و التلوّث بالشهوات، و أخيرا ففی قبال الرغبة فی العمل الصالح تهدّدون الهادفين إلى الخير بالموت، و هذا أيضا بسبب التجاوز و الإسراف.

و سوف نعود إلى شرح قصّة أولئك القوم، و ما جرى لهؤلاء الرسل، بعد تفسير الآيات الباقية التی تكمل القصّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۴

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۲۰ الى ۳۰]

اشارة

وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (۲۰) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۲۱) وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۲) أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ (۲۳) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۴)

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (۲۵) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (۲۶) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (۲۷) وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ (۲۸) إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (۲۹)

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۰)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۵

التّفسير

المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف!

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر من جهاد الرسل الذی وردت الإشارة إليه فی هذه القصّة. و الإشارة تتعلّق بالدفاع المدروس للمؤمنين القلائل و بشجاعتهم فی قبال الأكثرية الكافرة المشركة .. و كيف وقفوا حتّى الرمق الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل.

تشرع هذه الآيات بالقول: وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ

هذا الرجل الذی يذكر أغلب المفسّرين أنّ اسمه «حبيب النجّار» هو من الأشخاص الذين قيّض لهم الاستماع إلى هؤلاء الرسل و الإيمان و أدركوا بحقّانية دعوتهم و دقّة تعليماتهم، و كان مؤمنا ثابت القدم فی إيمانه، و حينما بلغه بأنّ مركز المدينة مضطرب و يحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء، أسرع- كما يستشفّ من كلمة يسعى- و أوصل نفسه إلى مركز المدينة و دافع عن الحقّ بما

استطاع. بل إنّه لم یدّخر وسعا فی ذلک.

التعبیر ب «رجل» بصورة النکرة یحتمل انّه إشارة إلی أنّه کان فردا عادیا، لیس له قدرة أو إمکانیة متمیّزة فی المجتمع، و سلک طریقه فردا وحیدا. و کیف أنّه فی نفس الوقت دخل المعرکة بین الکفر و الإیمان مدافعا عن الحقّ، لکی یأخذ المؤمنین فی عصر الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم درسا بأنّهم و إن کانوا قلّة فی عصر صدر الإسلام، إلّا أنّ المسؤولیة تبقی علی عواتقهم، و أنّ السکوت غیر جائز حتّی للفرد الواحد.

التعبیر ب «أقصی المدینة» یدلّل علی أنّ دعوة هؤلاء الأنبیاء وصلت إلی النقاط البعیدة من المدینة، و أثّرت علی القلوب المهیّأة للإیمان، ناهیک عن أنّ أطراف المدن عادة تکون مراکز للمستضعفین المستعدین أکثر من غیرهم لقبول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۶

الحقّ و التصدیق به، علی عکس ساکنی مراکز المدن الذین یعیشون حیاة مرفّهة تجعل من الصعب قبولهم لدعوة الحقّ.

التعبیر ب «یا قوم» یوضّح حرقة هذا الرجل و تألمّه علی أهل مدینته، و دعوته إیّاهم إلی اتّباع الرسل، تلک الدعوة التی لم تکن لتحقّق له أی نفع شخصی.

و الآن لننظر إلی هذا الرجل المجاهد، بأی منطق و بأی دلیل خاطب أهل مدینته؟

فقد أشار أوّلا إلی هذه القضیّة اتَّبِعُوا مَنْ لا یَسْئَلُکُمْ أَجْراً. فتلک القضیّة بحدّ ذاتها الدلیل الأوّل علی صدق هؤلاء الرسل، فهم لا یکسبون من دعوتهم تلک أیّة منفعة مادیّة شخصیة، و لا یریدون منکم مالا و لا جاها و لا مقاما، و حتّی أنّهم لا یریدون منکم أن تشکروهم. و الخلاصة: لا یریدون منکم أجرا و لا أی شیء آخر.

و هذا ما أکّدت علیه الآیات القرآنیة مرارا فیما یخصّ الأنبیاء العظام، کدلیل علی إخلاصهم و صفاء قلوبهم، و فی سورة الشعراء وحدها تکرّرت هذه الجملة خمس مرّات وَ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ[۱۵۱].

ثمّ یضیف: إنّ هؤلاء الرسل کما یظهر من محتوی دعوتهم و کلامهم انّهم أشخاص مهتدون: وَ هُمْ مُهْتَدُونَ إشارة إلی أنّ عدم الاستجابة لدعوة ما إنّما یکون لأحد سببین: إمّا لأنّ تلک الدعوة باطلة و تؤدّی إلی الضلال و الضیاع، أو لأنّها حقّ و لکن الدعاة لها یکتسبون من تلک الدعوة منافع شخصیة لهم ممّا یؤدّی إلی تشویه النظرة إلی تلک الدعوة، و لکن حینما لا یکون هذا و لا ذاک فما معنی التردّد و التباطؤ عن الاستجابة.

ثمّ ینتقل إلی ذکر دلیل آخر علی التوحید الذی یعتبر عماد دعوة هؤلاء الرسل، فیقول: وَ ما لِیَ لا أَعْبُدُ الَّذِی فَطَرَنِی

فإنّ من هو أهل لأن یعبد هو الخالق و المالک و الوهّاب، و لیس الأصنام التی لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۷

تضرّ و لا تنفع، الفطرة السلیمة تقول: یجب أن تعبدوا الخالق لا تلک المخلوقات التافهة.

و التأکید علی «فطرنی» لعلّه إشارة إلی هذا المعنی أیضا و هو: إنّنی حینما أرجع إلی الفطرة الأصیلة فی نفسی ألاحظ بوضوح أنّ هناک صوتا یدعونی إلی عبادة خالقی، دعوة تنسجم مع العقل، فکیف أغضّ الطرف إذا عن دعوة تؤیّدها فطرتی و عقلی؟! و الملفت للنظر أنّه لا یقول: و ما لکم لا تعبدون الذی فطرکم؟ بل یقول: وَ ما لِیَ لا أَعْبُدُ الَّذِی فَطَرَنِی لکی یکون بشروعه بالحدیث عن نفسه أکثر تأثیرا فی النفوس و بعد ذلک ینبّه إلی أنّ المرجع و المآل إلی اللّه سبحانه فیقول: وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ

أی: لا تتصوّروا أنّ اللّه له الأثر و الفاعلیة فی حیاتکم الدنیا فقط، بل إنّ مصیرکم فی العالم الآخر إلیه أیضا، فتوجّهوا إلی من یملک مصیرکم فی الدارین.

و فی ثالث استدلال له ینتقل إلی الحدیث عن الأصنام و إثبات العبودیة للّه بنفی العبودیة للأصنام، فیکمل قائلا: أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ یُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّی شَفاعَتُهُمْ شَیْئاً وَ لا یُنْقِذُونِ

هنا أيضا يتحدّث عن نفسه حتّى لا يظهر من حديثه أنّه يقصد الإمرة و الاستعلاء عليهم، و فى الحقيقة هو يحدّد الذريعة الأساس لعبدة الأوثان حينما يقولون: نحن نعبد الأصنام لكى تكون شفيعا لنا أمام اللّه، فكأنّه يقول: أيّة شفاعة؟

و أى معونة و نجاة تريدون منها؟ فهى بذاتها محتاجة إلى مساعدتكم و حمايتكم، فما ذا يمكنها أن تفعل لكم فى الشدائد و الملمّات؟

التعبير ب «الرحمن» هنا علاوة على أنّه إشارة إلى سعة رحمة اللّه و أنّه سبب لكلّ النعم و المواهب، و ذلك بحدّ ذاته دليل على توحيد العبادة، فإنّه يوضّح أنّ اللّه الرحمن لا يريدون أحدا بضرّ، إلّا إذا أوصلت الإنسان مخالفاته إلى أن يخرج من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۸

رحمة اللّه و يلقى بنفسه فى وادى غضبه.

ثمّ يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد و التوضيح أكثر: إنّى حين أعبد هذه الأصنام و أجعلها شريكا للّه فإنّى سأكون فى ضلال بعيد: إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ فأى ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامدة جنبا إلى جنب خالق السموات و الأرض!! و عند ما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من استعراض تلك الاستدلالات و التبليغات المؤثّرة أعلن لجميع الحاضرين إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ

أمّا من هو المخاطب فى هذه الجملة فَاسْمَعُونِ و الجملة السابقة لها إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ

ظاهر الآيات السابقة يشير إلى أنّهم تلك المجموعة من المشركين و عبدة الأوثان الذى كانوا فى تلك المدينة، و التعبير ب «ربّكم» لا ينافى هذا المعنى أيضا، إذ أنّ هذا التعبير ورد فى الكثير من آيات القرآن الكريم التى تتحدّث عن الكفّار حينما تستعرض الاستدلالات التوحيدية[۱۵۲].

و جملة «فاسمعون» لا تنافى ما قلنا، لأنّ هذه الجملة كانت دعوة لهم لاتّباع قوله، بالضبط كما ورد فى قصّة مؤمن آل فرعون حيث قال: يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ غافر- ۳۸.

و من هنا يتّضح أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ المخاطب فى هذه الجملة هم أولئك الرسل، و التعبير ب «ربّكم» و جملة «فاسمعون» قرينة على ذلك- لا يقوم عليه دليل سليم.

لكن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟

القرآن لا يصرّح بشىء حول ذلك، و لكن يستفاد من طريقة الآيات التالية بأنّهم ثاروا عليه و قتلوه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۹

نعم فإنّ حديثه المثير و الباعث على الحماس و المليء بالاستدلالات القويّة الدامغة، و اللفتات الخاصّة و النافذة إلى القلب، ليس لم يكن لها الأثر الإيجابى فى تلك القلوب السوداء المليئة بالمكر و الغرور فحسب، بل إنّها على العكس أثارت فيها الحقد و البغضاء و سعرت فيها نار العداوة، بحيث أنّهم نهضوا إلى ذلك الرجل الشجاع و قتلوه بمنتهى القسوة و الغلظة. و قيل انّهم رموه بالحجارة، و هو يقول:

اللهمّ اهد قومى، حتّى قتلوه [۱۵۳].

و فى رواية اخرى أنّهم وطؤوه بأرجلهم حتّى مات [۱۵۴].

و لقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بعبارة جميلة مختصرة هى قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ و هذا التعبير ورد فى خصوص شهداء طريق الحقّ فى آيات أخرى من القرآن الكريم وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [۱۵۵] و الجدير بالذكر و الملاحظة أنّ هذا التعبير يدلّل على أنّ دخوله الجنّة كان مقترنا باستشهاده شهادة هذا الرجل المؤمن، بحيث أنّ الفاصلة بين الإثنين قليلة إلى درجة أنّ القرآن المجيد بتعبيره اللطيف ذكر دخوله الجنّة بدلا عن شهادته، فما أقرب طريق الشهداء إلى السعادة الدائمة!! و

واضح أنّ المقصود من الجنّة هنا، هى (جنّة البرزخ) لأنّه يستفاد من الآيات و من الرّوايات أنّ الجنّة الخالدة فى يوم القيامة ستكون نصيب المؤمنين، كما أنّ جهنّم ستكون نصيب المجرمين.

و عليه فإنّ هناك جنّة و جهنّم أخريين فى عالم البرزخ، و هما نموذج من جنّة و جهنّم يوم القيامة، فقد ورد عن أمير المؤمنين على عليه أفضل الصلاة و السلام أنّه قال: «و القبر روضة من رياض الجنّة، أو حفرة من حفر النار»[۱۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۰

و ما احتمله البعض من أنّ هذه الجملة إشارة إلى خطاب يخاطب به هذا المؤمن الشهم فى يوم القيامة، و أنّها تحوى جنة مستقبلية، فهو خلاف لظاهر الآية.

على كلّ حال فإنّ روح ذلك المؤمن الطاهرة، عرجت إلى السماء إلى جوار رحمة اللّه و فى نعيم الجنان، و هناك لم تكن له سوى امنية واحدة قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ

يا ليت قومى يعلمون بأى شيء بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۱۵۷].

أى: ليست أنّ لهم عين تبصر الحقّ، لهم عين غير محجوبة بالحجب الدنيوية الكثيفة و الثقيلة، فيروا ما حجب عنهم من النعمة و الإكرام و الاحترام من قبل اللّه، و يعلموا أى لطف شملنى به اللّه فى قبال عدوانهم علىّ ..

لو أنّهم يبصرون و يؤمنون، و لكن يا حسرة!!

فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يخصّ هذا المؤمن «إنّه نصح لهم فى حياته و بعد موته»[۱۵۸].

و من الجدير بالملاحظة أنّه تحدّث أوّلا- عن نعمة الغفران الإلهى، ثمّ عن الإكرام، إذ يجب أوّلا غسل الروح الإنسانية بماء المغفرة لتنقيتها من الذنوب، و حينها تأخذ محلّها على بساط القرب و الإكرام الإلهى.

و الجدير بالتأمّل أنّ الإكرام و الاحترام و التجليل، و إن كان من نصيب الكثير من العباد، و أصولا- فإنّه- أى الإكرام- يتعاظم مع «التقوى» جنبا إلى جنب، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ ۱۵۹]. و لكن (الإكرام) بشكل مطلق و بدون أدنى قيد أو شرط جاء فى القرآن الكريم خاصا لمجموعتين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۱

الاولى: «الملائكة المقرّبون» بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [۱۶۰] و الثانية: الأشخاص الذين بلغوا بإيمانهم أكمل الإيمان و يسمّيهم القرآن «المخلصين» فيقول عنهم: أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ۱۶۱][۱۶۲].

و على كلّ حال، فقد كان هذا مآل ذلك الرجل المؤمن المجاهد الصادق الذى أدّى رسالته و لم يقصّر فى حماية الرسل الإلهيين، و ارتشف فى النهاية كأس الشهادة، و قفل راجعا إلى جوار رحمة ربّه الكريم.

و لكن لننظر ما هو مصير هؤلاء القوم الطغاة الظلمة؟.

مع أنّ القرآن الكريم لم يورد شيئا فى ما انتهى إليه عمل هؤلاء الثلاثة من الرسل الذين بعثوا إلى هؤلاء القوم، لكن جمعا من المفسّرين ذكروا أنّ هؤلاء قتلوا الرسل أيضا إضافة إلى قتلهم ذلك الرجل المؤمن، و فى حال أنّ البعض الآخر يصرّح بأنّ هذا الرجل الصالح شاغل هؤلاء القوم بحديثه و بشهادته لكى يتسنّى لهؤلاء الرسل التخلّص ممّا حيك ضدّهم من المؤامرات، و الانتقال إلى مكان أكثر أمنا، و لكن نزول العذاب الإلهى الأليم على هؤلاء القوم قرينة على ترجيح القول الأوّل، و إن كان التعبير «من بعده» (أى بعد شهادة ذلك المؤمن) يدلّل- فى خصوص نزول العذاب الإلهى- على أنّ القول الثانى أصحّ «تأمّل بدقّة!!».

رأينا كيف أصرّ أهالى مدينة أنطاكية على مخالفة الإلهيين، و الآن لننظر ما ذا كانت نتيجة عملهم؟

القرآن الكريم يقول فى هذا الخصوص: وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۳

بداية الجزء الثالث و العشرون من القرآن الكريم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۵

فلسنا بحاجة إلى تلك الأمور، و أساسا فانّه ليس من سنّتنا لإهلاك قوم ظالمين أن نستخدم جنود السماء، لأنّ إشارة واحدة كانت كافية للقضاء عليهم جميعا و إرسالهم إلى ديار العدم و الفناء، إشارة واحدة كانت كافية لتبديل عوامل حياتهم و معيشتهم إلى عوامل موت و فناء، و في لحظة خاطفة تقلب حياتهم عاليها سافلها.

ثمّ يضيف تعالى إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ

هل أنّ تلك الصيحة كانت صدى صاعقة نزلت من الغيوم على الأرض و هزّت كلّ شيء، و دمّرت كلّ العمران الموجود، و جعلت القوم من شدّة الخوف و الوحشة يستسلمون للموت؟

أو أنّها كانت صيحة ناتجة عن زلزلة خرجت من قلب الأرض فضجّت في الفضاء بحيث أنّ موج انفجارها أهلك الجميع.

أيّا كانت فإنّها لم تكن سوى صيحة لم تتجاوز اللحظة الخاطفة في وقوعها، صيحة أسكتت جميع الصيحات، هزّة أوقفت كلّ شيء عن التحرّك، و هكذا هي قدرة اللّه سبحانه و تعالى، و هكذا هو مصير قوم ضالّين لا نفع فيهم.

الآية الأخيرة تتعرّض إلى طريقة جميع متمرّدي التاريخ إزاء الدعوات الإلهية لأنبياء اللّه بلهجة جميلة تأسر القلوب فتقول: يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

وا أسفاه عليهم أن أغلقوا نافذة الرحمة الإلهية عليهم! وا أسفاه عليهم أن كسّروا مصباح هدايتهم!!، هؤلاء الضالّون المحرومون من السعادة لم يكتفوا بعدم الاستماع بآذان قلوبهم لنداء قادة البشرية العظام فقط، بل إنّهم أصرّوا على السخرية و الاستهزاء منهم ثمّ بادروا إلى قتلهم. مع أنّهم علموا المصير المشؤوم للطغاة الكفّار من قبلهم، و سمعوا أو قرءوا على صفحات التأريخ كيف كانت خاتمتهم الأليمة، و لكنّهم لم يعتبروا بالمواعظ و سلكوا نفس المسير، و صاروا إلى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۶

نفس المصير.

و من الواضح أنّ هذه الجملة هي قول اللّه تعالى، لأنّ جميع هذه الآيات توضيح منه تعالى، غير أنّ من الطبيعي أن الحسرة هنا- بمعناها المتعارف و هو الغمّ على ما فات- لا تنطبق على اللّه سبحانه و تعالى، كما أنّ (الغضب) و أمثاله أيضا لا يصدر بمفهومه المتعارف من اللّه سبحانه، بل المقصود أنّ حال تلك الفئة التعيسة سيء إلى حدّ أنّ كلّ إنسان يطّلع عليه يتأسّف و يتحسّر متسائلا: لماذا غرقوا في تلك الدوامة مع توفّر كلّ وسائل النجاة؟

التعبير ب «عباد» إشارة إلى أنّ العجب أن يكون هؤلاء العباد غارقين بنعم اللّه سبحانه و تعالى ثمّ يرتكبون مثل تلك الجنايات.

***

بحوث

۱- قصّة رسل أنطاكية

(أنطاكية) واحدة من أقدم مدن الشام التي بنيت- على قول البعض- بحدود ثلاثمائة سنة قبل الميلاد. و كانت تعدّ من أكبر ثلاث مدن رومية في ذلك الزمان من حيث الثروة و العلم و التجارة.

تبعد (أنطاكية) مائة كيلومتر عن مدينة حلب، و ستّين كيلومترا عن الإسكندرية.

فتحت من قبل (أبى عبيدة الجراح) فى زمن الخليفة الثانى، و قبل أهلها دفع الجزية و البقاء على ديانتهم.

احتلّها الفرنسيون بعد الحرب العالمية الاولى، و حينما أراد الفرنسيون ترك الشام ألحقوها بالأراضى التركية خوفا على أهالى أنطاكية من أن يمسّهم سوء بعد خروجهم لأنّهم نصارى مثلهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۷

(أنطاكية) تعتبر بالنسبة إلى النصارى كالمدينة المنورة للمسلمين، المدينة الثانية فى الأهمية بعد بيت المقدس، التى ابتدأ المسيح عليه السّلام منها دعوته، ثمّ هاجر بعض من آمن بالمسيح عليه السّلام- بولس و برنابا-[۱۶۳] إلى أنطاكية و دعوا الناس هناك إلى المسيحية، و بذا انتشرت المسيحية هناك، و بهذا اللحاظ أشار القرآن الكريم إلى هذه المدينة لأهميّتها[۱۶۴].

«الطبرسى»- أعلى اللّه مقامه- فى تفسير مجمع البيان يقول: قالوا بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية، فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له و هو (حبيب) صاحب (يس) فسلّما عليه.

فقال الشيخ لهما: من أنتما؟

قالا: رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن.

فقال: أ معكما آية؟

قالا: نعم، نحن نشفى المريض و نبرئ الأكمه و الأبرص بإذن اللّه.

فقال الشيخ: إنّ لى ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين.

قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلّع حاله، فذهب بهما فمسحا ابنه فقام فى الوقت بإذن اللّه صحيحا، ففشا الخبر فى المدينة و شفى اللّه على أيديهما كثيرا من المرضى.

و كان لهم ملك يعبد الأصنام فانتهى الخبر إليه، فدعاهما فقال لهما: من أنتما؟

قالا: رسولا عيسى، جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع و لا يبصر إلى عبادة من يسمع و يبصر.

فقال الملك: و لنا إله سوى آلهتنا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۸

قالا: نعم، من أوجدك و آلهتك.

قال: قوما حتّى أنظر فى أمركما، فأخذهما الناس فى السوق و ضربوهما.

و روى أنّ عيسى عليه السّلام بعث هذين الرّسولين إلى أنطاكية فأتياها و لم يصلا إلى ملكها، و طالت مدّة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبّروا و ذكرا اللّه فغضب الملك و أمر بحبسهما، و جلد كلّ واحد منهما مائة جلدة، فلمّا كذب الرسولان و ضربا، بعث عيسى (شمعون الصفا) رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلدة متنكّرا فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضى عشرته و أنس به و أكرمه، ثمّ قال له ذات يوم: أيّها الملك بلغنى أنّك حبست رجلين فى السجن و ضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما. قال الملك حال الغضب بينى و بين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتّى نتطلّع ما عندهما فدعاهما الملك.

فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى هاهنا.

قالا: اللّه الذى خلق كلّ شىء لا شريك له.

قال: و ما آيتكما.

قالا: ما تتمنّاه.

فأمر الملك أن يأتوا بغلام مطموس العينين و موضع عينيه كالجبهة. فما زالا يدعوان حتّى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين

فوضعاها فى حديقته فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك.

فقال شمعون للملك: أ رأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع صنيعا مثل هذا فيكون لك و لإلهك شرفا؟

فقال الملك: ليس لى عنك سرّ، إنّ إلهنا الذى نعبده لا يضرّ و لا ينفع.

ثمّ قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنّا به و بكما.

قالا: إلهنا قادر على كلّ شيء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۹

فقال الملك: إنّ هاهنا ميّتا مات منذ سبعة أيّام لم ندفنه حتّى يرجع أبوه- و كان غائبا- فجاءوا بالميّت و قد تغيّر و أروح، فجعلا يدعوان ربّهما علانية، و جعل شمعون يدعو ربّه سرّا، فقام الميّت و قال لهم: إنّى قدمتّ منذ سبعة أيّام، و أدخلت فى سبعة أودية من النار و أنا احذّركم ممّا أنتم فيه، فآمنوا باللّه فتعجّب الملك.

فلمّا علم شمعون أنّ قوله أثّر فى الملك، دعاه إلى اللّه فآمن و آمن من أهل مملكته قوم و كفر آخرون.

و نقل «العياشى» فى تفسيره مثل هذه الرواية عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام مع بعض التفاوت ۱۶۵].

و لكن بمطالعة الآيات السابقة، يبدو من المستبعد أنّ أهل تلك المدينة كانوا قد آمنوا، لأنّ القرآن الكريم يقول: إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ

و يمكن أن يكون هناك اشتباه فى الرواية من جهة الراوى.

و من الجدير بالملاحظة أيضا أنّ التعبير ب «المرسلون» فى الآيات أعلاه يدلّل على أنّهما أنبياء مرسلون من اللّه تعالى، علاوة على أنّ القرآن الكريم يقول: بأنّ أهالى تلك المدينة قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ، و مثل هذه التعبيرات ترد فى القرآن الكريم عادة فيما يخصّ الأنبياء، و إن كان قد قيل بأنّ رسل الأنبياء هم رسل اللّه، و لكن هذا التوجيه يبدو بعيدا.

۲- ما نتعلّمه من هذه القصّة

نتعلّم من القصّة التى عرضتها الآيات السابقة أمورا عديدة منها:

الف- أنّ المؤمنين لا يستوحشون أبدا من سلوك طريق اللّه سبحانه و تعالى منفردين كما هو حال المؤمن «حبيب النجّار» الذى لم ترهبه كثرة المشركين فى مدينته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۰

يقول أمير المؤمنين على عليه أفضل الصلاة و السلام: «لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله»[۱۶۶].

ب- المؤمن عاشق لهداية الناس، و يتألّم لضلالهم، و حتّى بعد شهادته يتمنّى أن يرى الآخرون مقامه ليكون سببا فى إيمانهم! ج- محتوى دعوة الأنبياء بحدّ ذاتها دليل على هدايتهم و حقّانيتهم وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

د- الدعوة إلى اللّه يجب أن تكون خالية من أى ترقّب للأجر لكى تكون مؤثّرة.

ه- تارة يكون الضلال مكشوفا و واضحا، أى أنّه ضلال مبين، و عبادة الأوثان تعدّ مصداقا واضحا ل «الضلال المبين».

و- أهل الحقّ يستندون إلى الواقعيات، و الضالّون يستندون إلى أوهام و ظنون.

ز- إذا كان هناك شؤم و نكبات فإنّ سببها نفس الإنسان و أعماله.

ح- الإسراف سبب لكثير من الانحرافات و النكبات.

ط- وظيفة الأنبياء و أتباعهم «البلاغ المبين» و الدعوة العلنية، سواء استجاب الناس أو لم يستجيبوا.

ی- التجمّع و الکثرة من العوامل المهمّة للنصرة و العزّة و القوّة فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ

ک- إنّ اللّه لا یحتاج لتدمیر أئمّة التمرّد و العصیان إلی تجنید طاقات الأرض و السماء، بل تکفی الإشارة.

ل- لا فاصلة بین الشهادة و الجنّة، و الشهید قبل أن یغادر الدنیا یقع فی أحضان الحصور العین [۱۶۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۱

م- إنّ اللّه یطهّر الإنسان من الذنوب أوّلا ثمّ یقربه إلی جوار رحمته بِما غَفَرَ لِی رَبِّی وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُکْرَمِینَ

ن- یجب علی مرید الحقّ أن لا یستوحش من مخالفة الأعداء، لأنّ ذلک دیدنهم علی مدی الدهور یا حَسْرَةً عَلَی الْعِبادِ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ

و أی حسرة أکبر و أشدّ من أن یغلق الإنسان- لمجرّد تعصّبه و غروره- عینیه، فلا یبصر الشمس المضیئة الساطعة.

س- کان المستضعفون یؤمنون بالأنبیاء قبل جمیع الناس وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِینَةِ رَجُلٌ ....

ع- و هم الذین لم یتعبوا و لم یکلّوا من طریق الحقّ، و لم یکن لسعیهم و اجتهادهم حدّ. یَسْعی

ف- یجب تعلّم طریقة التبلیغ و الدعوة إلی اللّه من الرسل الإلهیین الذین استفادوا من جمیع الأسالیب و الطرائق المؤثّرة لأجل النفوذ فی قلوب الغافلین، و فی الآیة أعلاه و الروایات التی أدرجناها نموذج علی ذلک.

۳- ثواب و عقاب البرزخ

ورد فی الآیات الماضیة أنّ (المؤمن حبیب النجّار) بعد شهادته دخل الجنّة و تمنّی أن لو یعلم قومه بمصیره. و من المسلّم أنّ هذه الآیات- کما هو الحال فی الآیات الاخری التی تتحدّث عن الشهداء- لیست مربوطة بالجنّة المقصودة بعد یوم القیامة و التی تکون بعد البعث و الحساب فی المحشر.

من هنا یتّضح أنّ وراءنا جنّة و جحیما فی البرزخ أیضا، یتنعّم فیها الشهداء و یحترق فیها الطغاة من أمثال «آل فرعون» و مع الالتفات إلی هذا المعنی، تنحلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۲

کثیر من الإشکالات فیما یخصّ الجنّة و النار، من أمثال ما ورد فی روایات الإسراء و المعراج و أمثالها.

۴- قادة الأمم

نقل فی تفسیر الثعلبی عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «سبّاق الأمم ثلاثة لم یکفروا باللّه طرفة عین: علی بن أبی طالب و صاحب یس، و مؤمن آل فرعون، فهم الصدّیقون و علی أفضلهم»[۱۶۸].

کما

ورد هذا المعنی تقریبا فی روایة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أوردها صاحب تفسیر «الدرّ المنثور» عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «الصدّیقون ثلاثة: حبیب النجّار مؤمن آل یاسین الذی قال: یا قوم اتّبعوا المرسلین، و حزقیل مؤمن آل فرعون الذی قال: أ تقتلون رجلا أن یقول ربّی اللّه، و علی بن أبی طالب و هو أفضلهم»[۱۶۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۳

الآیتان [سورة یس (۳۶): الآیات ۳۱ الی ۳۲]

اشارة

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (۳۱) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (۳۲)

التّفسير

الغفلة الدائمة:

تتحدّث هاتان الآيتان- استنادا إلى ما مرّ في الآيات السابقة- عن الغفلة المستمرّة لمجموعة كبيرة من البشر في هذا العالم على مرّ العصور و القرون، فتقول الآية: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ۱۷۰].

فهؤلاء الكفّار ليسوا بدعا من الأمر، فقد كان قبلهم أقوام آخرون تمرّدوا على الحقّ مثلهم عاشوا في هذه الدنيا، و مصائرهم الأليمة التي ملأت صفحات التأريخ، و الآثار المعبّرة التي بقيت في مدنهم المدمّرة، كلّها شاخصة أمام العيان، فهل يكفي ذلك المقدار لتحقّق العبرة و الإعتبار؟

و لكن على من يعود ضمير الجمع في أَ لَمْ يَرَوْا؟

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۴

احتمل المفسّرون عدّة وجوه:

الأوّل: أنّه يعود على «أصحاب القرية» الذين تحدّثت الآيات السابقة حولهم.

و الثاني: أنّه يعود على «أهل مكّة» الذين نزلت هذه الآيات لتنبيههم.

و لكن يستدلّ من الآية السابقة يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ... على أنّ المقصود هو جميع البشر، إذ أنّ كلمة «العباد» في الآية المذكورة تشمل جميع البشر على طول التاريخ، الذين ما إن جاءهم الأنبياء حتّى هبّوا لمخالفتهم و تكذيبهم و الاستهزاء بهم، و على كلّ حال فهي دعوة لجميع البشر بأن يتأمّلوا في تأريخ القدماء، و يعتبروا من آثارهم التي خلّفوها، بفتح قلوبهم و بصائرهم.

في آخر الآية يضيف تعالى: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ۱۷۱].

أي أنّ المصيبة الكبرى في استحالة رجوعهم إلى هذه الدنيا لجبران ما فاتهم و تبديل ذنوبهم حسنات، لأنّهم دمّروا كلّ الجسور خلفهم، فلم يبق لهم سبيل للرجوع أبدا.

هذا التّفسير يشبه بالضبط ما

قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه أفضل الصلاة و السلام) حينما تحدّث في أخذ العبرة من الموتى فقال: «لا عن قبيح يستطيعون انتقالا و لا في حسن يستطيعون ازديادا».[۱۷۲]

و تضيف الآية التالية وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ ۱۷۳].

أي أنّ المسألة لا تنتهي بهلاكهم و عدم استطاعتهم العودة إلى هذه الدنيا، كلّا فانّ الموت في الحقيقة بداية الشوط و ليس نهايته، فعاجلا سيحضر الجميع في

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۵

عرصة المحشر للحساب، ثمّ العقاب الإلهي المتلاحق و المستمر في انتظارهم.

إذا كانت الحال كذلك أ فلا ينبغي عليهم الإعتبار من مصير هؤلاء السابقين لهم، و الاستفادة من الفرصة قبل الفوت للابتعاد عن

مواجهة ذلك المصير المشؤوم.

نعم، فلو كان الموت خاتمة لكلّ شيء، لكان ممكنا أن يقولوا بأنّه بداية راحتهم، و لكن يا حسرة!! و كما يقول الشاعر:

و لو أنّا إذا متنا تركنالكان الموت راحة كلّ حيّ

و لكنّا إذا متنا بعثناو نسأل بعده عن كلّ شيء

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۶

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۳۳ الى ۳۶]

اشارة

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (۳۳) وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (۳۴) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (۳۵) سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ (۳۶)

التّفسير

آيات اخرى!!

ممّا مرّ بحثه فى الآيات السابقة حول جهاد الرسل ضدّ الشرك و عبادة الأوثان، و كذلك التعرّض إلى مسألة المعاد فى الآية الأخيرة من المقطع السابق، توضّح الآيات- مورد البحث- مسألتى التوحيد و المعاد معا لإيقاظ المنكرين لهاتين المسألتين و دفعهم إلى الإيمان.

تتعرّض الآية الاولى إلى قضيّة إحياء الأرض الميتة و البركات التى تعود على الإنسان من ذلك فتقول: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۷

يَأْكُلُونَ ۱۷۴].

قضيّة الحياة و البقاء من أهمّ دلائل التوحيد، و هى قضيّة فى واقعها معقّدة و مليئة بالألغاز و باعثة على الدهشة، إذ أنّها حيّرت عقول العلماء جميعا، فبرغم التطور و التقدّم الحاصل فى وسائل الدراسة و فى العلوم بشكل عام، لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحلّ! و حتّى الآن لم يعلم تحت تأثير أى العوامل تتحوّل موجودات ميتة إلى خلايا حيّة؟

حتّى الآن، لم يعرف كيف تتكوّن طبقات خلايا البذور؟ و ما هى القوانين المعقّدة التى تحكمها؟ بحيث أنّها بمجرد توفّر الشرائط المساعدة تبدأ بالتحرّك و النمو و الرشد. و تستلّ من ذرّات التراب الميتة وجودها، و بهذا الطريق تتحوّل الموجودات الميتة إلى أنسجة موجودات حيّة فتعكس فى كلّ يوم مظهرا مختلفا من مظاهر حياتها و نموّها.

قضيّة الحياة فى عالم النباتات و الحيوانات و إحياء الأرض الميتة تعتبر من جانب دليلا على وجود معلومات و قوانين دقيقة سخّرت فى خلق ذلك العالم، و من جانب آخر تعتبر دليلا على البعث بعد الموت.

و من الواضح أنّ الضمير فى «لهم» يعود على كلمة «العباد» التى ورد ذكرها فى الآيات السابقة، و المقصود من «العباد» هنا هم جميع

الذين وقعوا فى خطأ فى تقدير مسألة المبدأ و المعاد، و الذى عدّ القرآن الكريم وضعهم باعثا على الحسرة و الأسف.

تنكير «آية»، إشارة إلى عظمة و أهميّة و وضوح تلك الآية التوحيدية.

جملة فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ إشارة من جانب إلى أنّ الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذية، بينما بعضها غير قابل للأكل، و لكن له فوائد اخرى كتغذية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۸

الحيوانات، و صناعة الأصباغ، و الأدوية، و الأمور الاخرى التى لها أهميّة فى حياة الإنسان.

و من جانب آخر فإنّ تقديم «منه» على «يأكلون» و الذى يدلّ عادة على الحصر، هو لبيان أنّ أكثر و أفضل تغذية للإنسان هى من المواد النباتية إلى درجة أنّه يمكن القول أنّ جميع غذاء الإنسان يتشكّل منها.

الآية التالية توضيح و شرح للآية الاولى من هذه الآيات، فهى توضّح كيفية إحياء الأرض الميتة، فتقول: وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ

كان الحديث فى الآية الاولى عن الحبوب الغذائية، بينما الحديث هنا عن الفواكه المقوّية و المغذّية و التى يعدّ «التمر» و «العنب» أبرز و أهمّ نماذجها حيث يعتبر كلّ منهما غذاء كاملا.

و كما أشرنا سابقا فقد دلّت دراسات العلماء و بحوثهم على أنّ هاتين الفاكهتين تحتويان على الفيتامينات و المواد الحياتية المختلفة و اللازمة لجسم الإنسان، إضافة إلى أنّ هاتين الفاكهتين يمكن حفظهما و تناولهما طازجتين أو مجفّفتين على مدار العام.

«أعناب» جمع «عنب» و «النخيل»- كما يقول الراغب فى مفرداته- جمعه «نخل» و لكن باختلاف بين الكلمتين، (فالعنب) يطلق على الثمرة نفسها، و من النادر إطلاقه على شجرة العنب و لكن «النخل» اسم للشجرة، و (الثمرة) يقال له «الرطب» أو «التمر».

يرى البعض بأنّ هذا الاختلاف فى التعبير عن الفاكهتين بالإشارة إلى الشجرة مرّة و إلى الثمرة مرّة اخرى، بسبب أنّ النخلة- و كما هو معروف- كلّها مفيدة و قابلة للاستفادة، جذعها و جريدها و سعفها و أخيرا ثمرها، فى حين أنّ شجرة (الكرم) غالبا ما يستفاد من «عنبها» فقط، و أمّا ساقها و أوراقها فلا يستفاد منها إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۹

قليلا.

و أمّا ما ورد من ذكر الاثنتين بصيغة الجمع، فيبدو أنّه إشارة إلى الأنواع المختلفة لكلّ منهما، إذ أنّ كلا منهما لها عشرات الأنواع تختلف فى أشكالها و خصائصها و مذاقها.

و الجدير بالملاحظة- أيضا- أنّ الحديث فى هذه الآية تعرّض إلى إحياء الأرض الميتة دون أن يقرن ذلك بذكر المطر الذى عادة ما يذكر فى مثل هذه المواضع، و ورد الحديث هنا عن «العيون»، و ذلك لأنّ المطر كاف لزراعة الكثير من المحاصيل و النباتات، فى حين أنّ الأشجار المثمرة تحتاج إلى الماء الجارى أيضا.

«فجّرنا» من مادّة «تفجير» و هو شقّ الشيء شقّا واسعا، و من هنا استخدمت الكلمة للتعبير عن العيون، لأنّها تشقّ الأرض و تدفع ماءها إلى سطح الأرض [۱۷۵].

الآية التالية تشرح و توضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركة المثمرة فتقول: إنّ الغرض من خلقها لكى يأكلوا من ثمارها دون حاجة إلى بذل جهد فى ذلك و دون تدخّل الإنسان فى صناعتها .. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ

نعم، ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها، قابلة للأكل بمجرّد جنيها من أغصانها، و لا تحتاج إلى طبخ أو أيّة تغييرات اخرى، ذلك إشارة إلى غاية لطف اللّه بهذا الإنسان و كرمه.

حتّى أنّ ذلك الطعام الجاهز اللذيذ، يمكن تجميعه و تعليبه لكى يحفظ لمدّة طويلة بدون أن ينقص من قيمته الغذائية شيء، على

خلاف الأغذية التى يصنعها الإنسان من المواد الطبيعية التى أعطاها اللّه له، فهى غالبا ما تكون سريعة التلف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۰

و الفساد.

و يوجد تفسير آخر أيضا لمعنى الآية، و هو جدير بالنظر، و ذلك أنّ القرآن الكريم يريد الإشارة إلى الفواكه التى يمكن الاستفادة منها دون إدخال تغيير عليها، و كذلك إلى أنواع الأغذية المختلفة التى يمكن الحصول عليها من تلك الفواكه، بالقيام ببعض الأمور (فى التّفسير الأوّل تكون (ما) فى الجملة نافية، بينما فى التّفسير الثانى تكون موصولة).

و على كلّ حال، فالهدف هو تحريك حسّ تشخيص الحقّ، و الشكر فى الإنسان، لكى يضعوا أقدامهم على أوّل طريق معرفة اللّه عن طريق الشكر، لأنّ شكر المنعم أوّل قدم فى طريق معرفته.

الآية الأخيرة من الآيات موضع البحث، تتحدّث عن تسبيح اللّه و تنزيهه، و تشجب شرك المشركين الذى ذكرته الآيات السابقة، و توضّح طريق التوحيد و عبادة الأحد الصمد للجميع فتقول: سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ ۱۷۶].

نعم، فاللّه الذى خلق كلّ هذه الأزواج فى هذا العالم الواسع، لا حدّ لعلمه و قدرته و منزّه عن كلّ نقص و عيب، لذا فلا شريك و لا شبيه له، و إن عدّ بعض الناس الحجر و الخشب الجامد الميّت نظائر له، فإنّ تلك النسبة الباطلة لا تنقص من مقام كبريائه شيئا.

بديهى أنّ اللّه سبحانه و تعالى ليس بحاجة إلى أن يسبّحه أحد، إنّما ذلك تعليم للعباد و منهاج عملى من أجل طى طريق التكامل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۱

أمّا ما هو المقصود من «أزواج» هنا، فللمفسّرين أقوال كثيرة.

ما هو مسلّم به أنّ «أزواج» جمع «زوج» عادة، تطلق على الذكر و الأنثى من أى نوع، سواء كان ذلك فى عالم الحيوان أو فى غيره، ثمّ شمل المعنى كلّ إثنين يقترنان مع بعضهما البعض أو حتّى إذا تضادّا، حتّى الغرفتين المتشابهتين فى البيت يقال لهما زوج، و دفّتى الباب و هكذا، فالمتصوّر أنّ لكلّ مخلوق زوج.

على كلّ حال فليس من المستبعد أن يكون المعنى المقصود هنا هو المعنى الخاصّ، أى جنس المذكر و المؤنث، و القرآن الكريم يخبر من خلال هذه الآية عن وجود ظاهرة الزوجية فى جميع عوالم النبات و الإنسان و الموجودات الاخرى التى لم يطّلع عليها البشر.

هذه الموجودات يمكن أن تكون النباتات التى لم تحدّد سعة دائرة الزوجية فيها حتّى الآن. أو إشارة إلى الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار، و هذه الحقيقة لم تعرف سابقا، و ما عرف منها فى العصر الحاضر إلّا جانب يسير.

أو أنّها إشارة إلى موجودات اخرى تقطن كواكب اخرى فى هذا الكون المترامى. أو موجودات حيّة لا- ترى بالعين المجرّدة، و إن كان العلماء فى وقتنا الحاضر يشيرون إلى أنّ ليس فى تلك الموجودات الحيّة ذكر و أنثى، و لكن عالم هذه الموجودات الحيّة غامض و معقّد إلى درجة أنّ العلم البشرى حتّى الآن لم يلج كلّ غوامضها و مكنوناتها.

و حتّى وجود الزوجية فى عالم النبات- كما قلنا- لم يكن معلوما منها فى عصر نزول القرآن سوى بعض الحالات المحدودة كما فى النخل و أمثاله، و قد كشف القرآن الكريم الستار عن ذلك كلّه، و قد ثبت أخيرا من البحوث العلمية أنّ الزوجية قضيّة عامّة و شاملة فى عالم النبات.

كذلك احتمل أيضا أن تكون قضيّة الزوجية هنا إشارة إلى وجود البروتونات الموجبة و الالكترونات السالبة فى الذرّة التى تعتبر الأساس فى تشكيل كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۲

الموجودات فى عالم المادّة و لم يكن الإنسان مطّلعا على هذه الحقيقة و الزوجية قبل تفجير الذرّة، و لكن بعد ذلك ثبت علميا وجود

الأزواج السالبة و الموجبة فى نواة الذرّة و الالكترونات التى تدور حولها.

البعض اعتبر «الزوجية» هنا إشارة إلى تركيب الأشياء من «مادّة» و «صورة» أو «جوهر» و «عرض»، و البعض الآخر قالوا: إنّها كناية عن «الأصناف و الأنواع المختلفة» للنباتات و البشر و الحيوانات و سائر موجودات العالم.

و لكن الواضح أنّه حينما نستطيع حمل هذه الألفاظ على المعنى الحقيقى (جنس المذكّر و المؤنّث) و لا نجد قرينة على خلاف ذلك، فلا داعى لأن نبحث بعد ذلك عن المعانى الكنائية، و كما لا حظنا فإنّ هناك عدّة تفاسير جميلة للزوجية بالمعنى الحقيقى لها.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآية واحدة من الآيات التى توضّح محدودية علم الإنسان، و تدلّل على أنّ هناك الكثير من الحقائق الخافية علينا و عن معلوماتنا حتّى الآن.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۳

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷) وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (۳۹) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۴۰)

التّفسير

هذه الآيات تتحدّث فى قسم آخر من آثار عظمة اللّه فى عالم الوجود، و حلقة اخرى من حلقات التوحيد التى مرّ منها فى الآيات السابقة ما يتعلّق بالمعاد و إحياء الأرض الميتة، و نمو النباتات و الأشجار.

تقول الآية الكريمة الاولى وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ

«نسلخ» من مادّة (سلخ) و تعنى فى الأصل نزع جلد الحيوان، و التعبير فى الآية تعبير لطيف، فكأنّ نور النهار لباس أبيض ألبسه جسد الليل، ينزع عنه إذا حلّ الغروب ليبدو لونه الذاتى، و التأمّل فى هذا التعبير يوضّح هذه الحقيقة، و هى أنّ الظلام هو الطبيعة الأصل للكرة الأرضية، و أنّ النور و الإضاءة صفة عارضة عليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۴

تأتيها من مصدر آخر، فهو كاللباس الذى يرتدى، و حينما يخلع ذلك الثوب، يظهر اللون الطبيعى للبدن [۱۷۷].

هنا يشير القرآن الكريم إلى ظلمة الليل، و كأنّه يريد- بعد أن تعرّض إلى كيفية إحياء الأرض الميتة كآية من آيات اللّه فى الآيات السابقة- أن يعرض نموذجا عن الموت بعد الحياة من خلال مسألة تبديل النور بظلمة الليل.

على كلّ حال، فعند ما يستغرق الإنسان فى ظلمة الليل، و يتذكّر النور و بركاته و نشاطه و منبعه يتعرّف- بتأمّل يسير- على خالق النور و الظلام.

الآية التى بعدها تتعرّض إلى النور و الإضاءة و تذكر الشمس فتقول:

وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها [۱۷۸].

هذه الآية تبيّن بوضوح حركة الشمس بشكل مستمر، أمّا ما هو المقصود من تلك الحركة؟ فللمفسّرين أقوال متعدّدة:

قال بعضهم: إنّ ذلك إشارة إلى حركة الشمس الظاهرية حول الأرض، تلك الحركة التى ستستمر إلى آخر عمر العالم الذى هو نهاية

عمر الشمس ذاتها.

و قال آخرون: إنّه إشارة إلى ميل الشمس فى الصيف و الشتاء نحو الشمال و الجنوب على التوالى، لأنّنا نعلم بأنّ الشمس تميل عن خطّ اعتدالها فى بدء الربيع بطرف الشمال، لتدخل فى مدار (۲۳) درجة شمالا، و تعود مع بدء الصيف قليلا قليلا حتّى تنتهى إلى خطّ اعتدالها عند بداية الخريف و تستمر على خطّ سيرها ذلك باتّجاه الجنوب حتّى بدء الشتاء، و من بدء الشتاء تتحرّك باتّجاه خطّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۵

اعتدالها حتّى تبلغ ذلك عند بدء الربيع. و بديهى أنّ جميع تلك الحركات فى الواقع ناجمة عن حركة الأرض حول الشمس و انحرافها عن خطّ مدارها، و ان كانت ظاهرا تبدو و كأنّها حركة الشمس.

و آخرون اعتبروا الآية إشارة إلى حركة الشمس الموضعية بالدوران حول نفسها، حيث أثبتت دراسات العلماء بشكل قطعى أنّ الشمس تدور حول نفسها[۱۷۹].

و آخر و أحدث التفاسير التى ظهرت بخصوص هذه الآية، هو ما كشفه العلماء أخيرا من حركة الشمس مع منظومتها باتّجاه معيّن ضمن المجرة التى تكون المجموعة الشمسية جزءا منها، و قيل أنّ حركتها باتّجاه نجم بعيد جدّا أطلقوا عليه اسم «وجا».

كلّ هذه المعانى المشار إليها لا تتضارب فيما بينها، و يمكن أن تكون جملة «تجرى» إشارة إلى جميع تلك المعانى و معانى اخرى لم يصل العلم إلى كشفها، و سوف يتمّ كشفها فى المستقبل.

و على كلّ حال، فإنّ حركة كوكب الشمس الذى يعادل مليون و مائتى الف مرّة حجم الأرض، بحركة دقيقة و منظمة فى هذا الفضاء اللامتناهى، ليس مقدورا لغير اللّه سبحانه الذى تفوق قدرته كلّ قدرة و بعلمه اللامتناهى، لذا فإنّ الآية تضيف فى آخرها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم

أمّا آخر ما قيل فى تفسير هذه الآية فهو أنّ تعبير الآية يشير إلى نظام السنّة الشمسية الناشئ عن حركة الشمس عبر الأبراج المختلفة، ذلك النظام الذى يعطى لحياة الإنسان نظاما و برنامجا معيّنا يؤدّى إلى تنظيم حياته من مختلف النواحى.

لذا فإنّ الآية التالية تتحدّث عن حركة القمر و منازلة التى تؤدّى إلى تنظيم أيّام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۶

الشهر، و ذلك لأجل تكميل البحث السابق، فتقول الآية: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيم

المقصود ب (المنازل) تلك المستويات الثمانية و العشرون التى يطويها القمر قبل الدخول فى «المحاق» و الظلام المطلق. لأنّ القمر يمكن رؤيته فى السماء إلى اليوم الثامن و العشرين، و لكنّه يكون فى ذلك اليوم هلالا ضعيفا مائلا لونه إلى الاصفرار، و يكون نوره قليلا- و شعاعه ضعيفا جدّا، و فى الليلتين الباقيتين من الثلاثين يوما تنعدم رؤيته تماما و يقال: إنّه فى دور (المحاق)، ذلك إذا كان الشهر ثلاثين يوما، أمّا إذا كان تسعة و عشرين يوما، فإنّ نفس هذا الترتيب سيبدأ من الليلة السابعة و العشرين ليدخل بعدها القمر فى (المحاق).

تلك المنازل محسوبة بدقّة كاملة، بحيث أنّ المنجّمين منذ مئات السنين يستطيعون أن يتوقّعوا تلك المنازل ضمن حساباتهم الدقيقة.

هذا النظام العجيب ينظّم حياة الإنسان من جهة، و من جهة اخرى فهو تقويم سماوى طبيعى لا- يحتاج إلى تعلّم القراءة و الكتابة لمتابعته. بحيث أنّ أىّ إنسان يستطيع بقليل من الدقّة و الدراية فى أوضاع القمر خلال الليالى المختلفة ..

يستطيع بنظرة واحدة أن يحدّد بدقّة أو بشكل تقريبى أيّة ليلة هو فيها.

ففى الليلة الاولى يظهر الهلال الضعيف و طرفاه إلى الأعلى، و يزداد حجمه ليلة بعد ليلة حتّى الليلة السابعة حيث تكتمل نصف دائرة القمر، ثمّ تستمر الزيادة حتّى تكتمل الدائرة الكاملة للقمر فى الليلة الرابعة عشرة و يسمّى حينئذ «بدرا». ثمّ يبدأ بالتناقص تدريجيا حتّى الليلة الثامنة و العشرين حيث يصبح هلالا باهتا يشير طرفاه إلى الأسفل.

نعم، فإنّ النظم يشكّل أساس حياة الإنسان، و النظم بدون التعيين الدقيق للزمن ليس ممكنا، لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالى قد وضع لنا هذا التقويم الدقيق للشهور و السنين فى كبد السماء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۷

بعد استعراضنا لأشكال القمر و منازله يتّضح تماما معنى الجملة التالية حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۱۸۰].

و فى الحقيقة فإنّ الشبه بين العرجون و الهلال من جوانب عديدة: من ناحية الشكل الهلالى، و من ناحية اللون الأصفر، و الذبول، و إشارة الأطراف إلى الأسفل، و كونه فى وسط دائرة مظلمة تكون فى حالة العرجون منسوبة إلى سعف النخل الأخضر، و بالنسبة للهلال منسوبة إلى السماء المظلمة.

و الوصف ب (القديم) إشارة إلى كون العرجون عتيقا، فكلّما مرّ عليه زمن و تقادم أكثر أصبح ضعيفا و ذابلا و اصفّر لونه و أصبح يشبه الهلال كثيرا قبل دخوله المحاق.

و سبحان اللّه فقد تضمّن تعبير واحد قصير كلّ تلك الظرافة و الجمال؟

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تتحدّث عن ثبات و دوام ذلك النظم فى السنين و الشهور، و النهار و الليل، فقد وضع اللّه سبحانه و تعالى لها نظاما و برنامجا لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو اختلال فى وضعها و حركتها، و بذا ثبت تاريخ البشر و انتظم بشكل كامل، تقول الآية: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

من المعلوم أنّ الشمس تطوى فى دورانها خلال العام الأبراج الإثنى عشر، فى حين أنّ القمر يطوى منازله خلال شهر واحد، و عليه فحركة القمر أسرع من حركة الشمس فى مدارها اثنتى عشرة مرّة، لذا فإنّ الآية تقول بأنّ الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرك القمر فى حركته فتقطع فى شهر واحد ما تقطعه فى سنة واحدة.

و بذا يختلّ النظام السنوى لها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۸

كما أنّ الليل لا يتقدّم على النهار، بحيث يدخل جزء منه فى النهار، فيختلّ النظام الموجود، بل إنّهما- على مدى ملايين السنين- ثابتان على مسيرهما دون أدنى تغيير.

يتّضح ممّا قلنا أنّ المقصود من حركة الشمس فى هذا البحث، هى الحركة بحسب حسّنا بها، و الملفت للنظر هنا، هو أنّ هذا التعبير عن حركة الشمس ظلّ يستعمل حتّى بعد أن ثبت للجميع بأنّ الشمس هى المركز الثابت لحركة الأرض حولها، فمثلا يقال: إنّ الشمس قد تحوّلت إلى برج الحمل، أو يقال: وصلت الشمس إلى دائرة نصف النهار، أو أنّ الشمس بلغت الميل الكامل (الميل الكامل هو بلوغ الشمس إلى أقصى نقطة ارتفاع لها فى نصف الكرة الأرضية الشمالى فى بداية الصيف أو بالعكس أدنى نقطة انخفاض فى بداية الشتاء).

هذه التعبيرات تدلّل دوما على أنّه حتّى بعد أن تمّ الكشف عن دوران الأرض حول الشمس و ثبات الأخيرة ظلّت تستخدم، لأنّ النظر الحسّى يستشعر حركة الشمس و ثبات الأرض، و من هنا تستعمل هذه التعبيرات، و على هذا أيضا يكون قوله تعالى: وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

كذلك يحتمل أن يكون المقصود من (السباحة) هنا حركة الشمس فى فلكها مع المنظومة الشمسية و المجرّة التى نحن فيها، حيث أنّ الثابت علميا حاليا أنّ المنظومة الشمسية التى نعيش فيها جزء من مجرّة عظيمة هى بدورها فى حالة دوران. إذ أنّ «فلك» كما يقول أرباب اللغة بمعنى: بروز و استدارة ثدى البنت، ثمّ أطلقت على القطعة المدوّرة من الأرض أو الأشياء المدوّرة الاخرى أيضا، و منه اطلق على مسير الكواكب الدورانى.

جملة كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ فى إعتقاد الكثير من المفسّرين، إشارة إلى كلّ من الشمس و القمر و النجوم الاخرى التى تتّخذ لنفسها

مسارات و مدارات، و إن لم يرد ذكر النجوم فى الآية، و لكن بملاحظة ذكر «الليل» و اقتران ذكر النجوم مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۹

القمر و الشمس، لا يستبعد المعنى المذكور، خاصّة و أنّ «يسبّحون» ورد بصيغة الجمع.

و كذلك يحتمل أن تكون الجملة إشارة إلى كلّ من الشمس و القمر و الليل و النهار، لأنّ كلا من الليل و النهار له مدار خاص، و يدور حول الأرض بدقّة، فالظلام يغطّى نصف الكرة الأرضية دوما، و النور يغطّى النصف الآخر منها، و هما يتبادلان المواضع خلال أربع و عشرين ساعة و يتمّان دورة كاملة حول الأرض.

«يسبّحون» من مادة «سباحة» و هى كما يقول «الراغب» فى المفردات: المرّ السريع فى الماء و الهواء. و استعير لحركة النجوم فى الفلك و التسبيح تنزيه اللّه تعالى، و أصله المرّ السريع فى عبادة اللّه!» و لذا فإنّها فى الآية إشارة إلى الحركة السريعة للأجرام السماوية، و الآية تشبهها بالموجودات العاقلة المستمرة فى دورانها، و قد ثبت حاليا أنّ الأجرام السماوية تنطلق بسرعة هائلة فى الفضاء.

***

بحوث

۱- حركة الشمس (الدورانية) و (الجريانية)

«الدوران» لغة يطلق على الحركة المغزلية، فى حال أنّ «الجريان» يطلق على الحركة الطولية، و الملفت للنظر أنّ الآيات أعلاه، نسبت الحركتين إلى الشمس، فقالت: وَ الشَّمْسُ تَجْرِی ... و كُلٌّ فِی فَلَكٍ یَسْبَحُونَ

كانت المحافل العلمية أيّام نزول الآية متمسّكة بنظرية «بطليموس» التى كانت تقول بأنّ الأجرام السماوية ليس فيها حركة دورانية، بل إنّ باطن الأفلاك التى تتكوّن من أجسام بلّورية متراكمة على بعضها البعض كتراكم طبقات البصلة و ثابتة، و حركتها تتبع حركة أفلاكها، و عليه فلم يكن فى تلك الأيّام معنى لا لجريان الشمس و لا غيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۰

أمّا بعد أن تداعت الاسس التى تقوم عليها فرضية بطليموس فى ضوء الاكتشافات الجديدة فى القرون الأخيرة، و تحرّرت الأجرام السماوية من قيد الأفلاك البلورية، فقد قويت نظرية كون الشمس هى مركز المنظومة الشمسية، و هى ثابتة و جميع المنظومة الشمسية تدور حولها.

هنا أيضا لم تكن تعبيرات الآيات أعلاه مفهومة فيما يتعلّق بحركة الشمس الطولية و الدورانية حتّى أثبت العلم بتطوّره عدّة حركات للشمس فى العقود الأخيرة. و هى:

حركة الشمس الموضعية حول نفسها.

حركة الشمس الطولية مع المنظومة الشمسية باتّجاه نقطة محدّدة فى السماء.

و حركتها الدورانية مع المجرّة التى تتبعها و بذا ثبتت معجزة علمية اخرى للقرآن.

و لتوضيح هذه المسألة نورد ما ورد فى إحدى دوائر المعارف حول حركة الشمس:

للشمس حركة ظاهرية و اخرى واقعية، و تشترك الشمس فى الحركة الظاهرية- اليومية- فهى تشرق من مشرق نصف الكرة الأرضى الذى نعيش فيه، و تمرّ فى طرف الجنوب من نصف النهار ثمّ تغرب من المغرب، و عبورها من نصف النهار يشخّص الظهر الحقيقى- الزوال-.

و للشمس أیضا حرکة ظاهریة اخری- سنویة- حول الأرض بحیث أنّها تقترب من المشرق درجة واحدة کلّ یوم، و فی هذه الحرکة تمرّ الشمس مقابل الأبراج مرّة واحدة کلّ عام، و مدار هذه الحرکة یقع علی صفحة «دائرة البروج» و لهذه الحرکة أهمیّة عظمی فی علم الفلک، فظاهرة «الاعتدالین» و «الانقلاب» و «المیل الکلّی» کلّها مرتبطة بهذا العلم، و علی أساس ذلک یحسب العام الشمسی.

علاوة علی هذه الحرکات الظاهریة فإنّ للشمس حرکة دورانیة فی المجرّة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۱

فالشمس تنطلق بسرعة دورانیة فی الفضاء تعادل ملیون و مائة و ثلاثین ألف کیلومتر فی الساعة!! و فی داخل المجرّة فهی لیست ثابتة أیضا، بل إنّها أیضا تدور بسرعة تقارب إثنین و سبعین الف کیلومتر فی الساعة ضمن المجموعة النجمیة المسمّاة «الجاثی علی رکبتیه»[۱۸۱].

و عدم علمنا بتلک الحرکة السریعة للشمس هو بعد الأجرام السماویة، و الذی هو المانع من تشخیص تلک الحرکة الموضعیة أیضا.

دورة الحرکة الوضعیة للشمس علی محورها تستغرق حدود الخمسة و عشرین یوما بلیالیها[۱۸۲].

۲- تعبیر «تدرک» و «سابق»

إنّ التعبیرات القرآنیة استعملت بدقّة متناهیة لا یمکن الإحاطة بجمیع أبعادها.

ففی الآیات أعلاه حینما تتحدّث عن الحرکة الظاهریة للقمر و الشمس خلال المسیرة الشهریة و السنویة تقول: لَا الشَّمْسُ یَنْبَغِی لَها أَنْ تُدْرِکَ الْقَمَرَ. إذ أنّ القمر ینهی مسیرته فی شهر واحد بینما الشمس فی عام کامل.

أمّا حینما تحدّثت عن اللیل و النهار قالت: وَ لَا اللَّیْلُ سابِقُ النَّهارِ لعدم وجود فاصلة بینهما و لتعاقبهما. فالتعابیر غایة فی الدقّة.

۳- نظام النور و الظلام فی حیاة البشر:

تعرّضت الآیات أعلاه إلی موضوعین من أهمّ المواضیع المتعلّقة بحیاة البشر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۲

علی أنّهما آیتان من آیات اللّه و هما مسألة ظلمة اللیل و مسألة الشمس و نورها.

قلنا سابقا أنّ النور من ألطف و أکثر موجودات العالم المادّی برکة. و لیس لإضاءتنا و معیشتنا فقط فکلّ حرکة و نشاط مرتبط بنور الشمس، نزول قطرات المطر، نمو النباتات، تفتّح البراعم، نضوج الثمار و الفواکه، خریر الجداول، تلوین مائدة الطعام بأنواع المواد الغذائیة، و حتّی حرکة عجلة المصانع العظیمة، و تولید الطاقة الکهربائیة، و أنواع المنتجات الصناعیة، کلّها تعود فی أصلها إلی هذا المنبع العظیم للطاقة، أی نور الشمس.

و خلاصة القول فإنّ جمیع الطاقات علی سطح الکرة الأرضیة- عدا الطاقة الناجمة عن تفجیر الذرّة- جمیعها تستمدّ وجودها من نور الشمس، و لو لا الأخیر لخیّم الصمت و الموت علی کلّ مکان.

ظلمة اللیل مع أنّها تذکر بالموت و الفناء، فإنّها تعدّ من الأمور الحیاتیة الهامّة فی حیاة البشر، لأنّها تعدل نور الشمس و تؤثّر عمیقا فی راحة جسم و روح الإنسان، و المنع من المخاطر الناجمة عن تسلّط أشعّة الشمس بشکل متواصل و مستمر، بحیث لو لم یکن اللیل عقیب النهار لارتفعت درجة الحرارة علی سطح الأرض إلی درجة أنّ الأشیاء جمیعا تأخذ بالاشتعال و الاحتراق، کذلک فی القمر حیث اللیالی و الأیّام طویلة (کلّ لیلة هناک تعادل حوالی خمسة عشر یوما بلیالیها علی الأرض، کذلک الحال بالنسبة للنهار) فحرارة

النهار قاتلة، و برودة مجمّدة.

و علیه فإنّ کلا من «النور و الظلام» آیة إلهیة عظیمة.

ناهیک عن أنّ النظام المتناهی الدقّة الذی یحکمهما، أدّی إلی تنظیم تأریخ حیاة البشر، ذلک التأریخ الذی لو لا وجوده لتفتتت الروابط الاجتماعیة، و أصبحت الحیاة بالنسبة إلی البشر أشبه بالمستحیل، و بذا فإنّ کلا من «النور و الظلام» آیتان إلهیتان من هذه الناحیة أیضا.

و الملفت للنظر هنا هو قول القرآن الکریم: وَ لَا اللَّیْلُ سابِقُ النَّهارِ. و هذا

التعبیر یدلّل علی أنّ النهار خلق قبل اللیل، و اللیل بعده تماما، فلو أنّ أحدا نظر من خارج الکرة الأرضیة فسیری موجودین أسود و أبیض یدوران بشکل مرتّب حول الأرض، و فی مثل هذه الحرکة الدائریة لا یمکن تصوّر القبل و البعد فیها.

و لکن إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّ الأرض التی نعیش علیها کانت یوما ما جزءا من الشمس، و فی ذلک الوقت لم یکن سوی النهار، و لا وجود للیل، ثمّ بعد أن انفصلت الکرة الأرضیة عن الشمس و ابتعدت تکون لها ظلّ مخروطی الشکل من الجهة المخالفة للشمس فکأنّ اللیل، اللیل الذی أصبحت حرکته بعد النهار، نعم، لو توجّهنا لکلّ ذلک لاتّضحت دقّة و لطافة هذا التعبیر.

و کما قلنا سابقا فلیس الشمس و القمر وحدهما یسبحان فی هذا الفضاء المترامی، بل إنّ اللیل و النهار أیضا یسبحان حول الکرة الأرضیة، و کلّ منهما له مدار و مسیر دائری.

و قد ورد فی روایات متعدّدة عن أهل البیت علیهم السّلام التصریح بأنّ اللّه سبحانه و تعالی خلق النهار قبل اللیل.

فعن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال جوابا علی سؤال فی حدیث طویل: «نعم خلق النهار قبل اللیل، و الشمس و القمر و الأرض قبل السماء»[۱۸۳].

و

عن الإمام الرضا علیه السّلام أنّه قال: «فالنهار خلق قبل اللیل و فی قوله تعالی: لَا الشَّمْسُ یَنْبَغِی لَها أَنْ تُدْرِکَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّیْلُ سابِقُ النَّهارِ أی قد سبقه النهار»[۱۸۴].

و ورد نفس المعنی

عن الإمام الباقر علیه السّلام حین قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق الشمس قبل القمر، و خلق النور قبل الظلمة»[۱۸۵].

الآیات [سورة یس (۳۶): الآیات ۴۱ الی ۴۴]

اشارة

وَ آیَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّیَّتَهُمْ فِی الْفُلْکِ الْمَشْحُونِ (۴۱) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما یَرْکَبُونَ (۴۲) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِیخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ یُنْقَذُونَ (۴۳) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلی حِینٍ (۴۴)

التّفسیر

حرکة السفن فی البحار آیة إلهیّة:

رغم أنّ بعض المفسّرين أمثال القرطبى اعتبر الآية الاولى من هذه الآيات من أعقد و أصعب آيات هذه السورة، إلّا أنّه و بتدقيق النظر فى هذه الآيات و ربطها بالآيات السابقة، يتّضح أن ليس هناك تعقيد فى هذه الآيات، لأنّ الآيات السابقة تحدّثت عن دلالة قدرة البارى عزّ و جلّ فى خلق الشمس و القمر و الليل و النهار و كذلك الأرض و بركاتها، و فى هذه الآيات التى أمامنا يتحدّث البارى عزّ و جلّ عن البحار و قسم من بركات و نعم و مواهب البحار، يعنى حركة السفن التجارية و السياحية على سطحها.

علاوة على أنّ حركة السفن فى خضمّ المحيطات ليست بعيدة فى الشبه عن حركة الكواكب السماوية فى خضمّ المحيط الفضائى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۵

لذا فإنّ الآيات الكريمة تقول أوّلا: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

الضمير «لهم» لا يعود فقط على مشركى مكّة، بل على جميع العباد الذين أشارت لهم الآيات السابقة.

«ذرّية»: كما يقول الراغب فى مفرداته، أصلها الصغار من الأولاد، و إن كان يقع على الصغار و الكبار معا عرفا، و يستعمل للواحد و الجمع.

و ما تذكره الآية من حمل ذريّاتهم و ليس هم ربّما لأنّ الأولاد هم أكثر حاجة لركوب مثل ذلك المركب السريع، بلحاظ أنّ الكبار أكثر استعدادا للسير على سواحل البحار و طى الطريق من هناك!! فضلا عن أنّ هذا التعبير أنسب لتحريك عواطفهم.

«مشحون» أى مملوء، إشارة إلى أنّ السفن لا تحملهم هم فقط، بل أموالهم و تجارتهم و أمتعتهم و ما أهمّهم أيضا.

و ما قاله البعض من أن «الفلك» إشارة إلى سفينة نوح، و «ذريّة» بمعنى الآباء من مادّة «ذرأ» بمعنى خلق، فيبدو بعيدا، إلّا إذا كان من قبيل ذكر المصداق البارز.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۱۹۵

ى كلّ حال فإنّ حركة السفن و البواخر التى هى من أهمّ و أضخم وسائل الحمل و النقل البشرى، و ما يمكنها إنجازه يعادل آلاف الأضعاف لما تستطيعه المركّبات الاخرى، كلّ ذلك ناجم عن خصائص الماء و وزن الأجسام التى تصنع منها السفن، و الطاقة التى تحرّكها، سواء كانت الريح أو البخار أو الطاقة النووية.

و كلّ هذه القوى و الطاقات التى سخّرها اللّه للإنسان، كلّ واحدة منها و كلّها معا آية من آيات اللّه سبحانه و تعالى.

و لكى لا يتوهّم أنّ المركّب الذى أعطاه اللّه للإنسان هو السفينة فقط، تضيف الآية التالية قائلة: وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ

المراكب التى تسير على الأرض، أو فى الهواء و تحمّل البشر و أثقالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۶

و مع أنّ البعض فسّر هذه الآية بخصوص «الجمل» الذى لقّب ب «سفينة الصحراء»، و البعض الآخر ذهب إلى شمولية الآية لجميع الحيوانات، و البعض فسّرها بالطائرات و السفن الفضائية التى اخترعت فى عصرنا الحالى تعبير «خلقنا» يشملها بلحاظ أنّ موادّها و وسائل صنعها خلقت مسبقا) و لكن إطلاق تعبير الآية يعطى مفهوما واسعا يشمل جميع ما ذكر و كثيرا غيره.

فى بعض آيات القرآن الكريم ورد مرارا الاقتران بين «الأنعام» و «الفلك» مثل قوله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ زخرف- ۱۲، و كذلك قوله تعالى: وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ المؤمن- ۸۰.

و لكن هذه الآيات أيضا لا تنافى عمومية مفهوم الآية مورد البحث.

الآية التالية- لأجل توضيح هذه النعمة العظيمة- تتعرّض لذكر الحالة الناشئة من تغيير هذه النعمة فتقول: وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ

فنصدّر أمرنا لموجة عظيمة فتقلب سفنهم، أو نأمر دوّامة بحرية واحدة ببلعهم، أو يتقاذفهم الطوفان بموجة فى كلّ اتّجاه بأمرنا، و إذا

أردنا فنستطیع بسلبنا خاصّیة الماء و نظام هبوب الریح و هدوء البحر و غیر ذلک أن نجعل الاضطراب صفة عامّة تؤدّی إلی تدمیر کلّ شیء، و لکنّنا نحفظ هذا النظام الموجود لیستفیدوا منه. و إذا وقعت بین الحین و الحین حوادث من هذا القبیل فإنّ ذلک لینتبهوا إلی أهمیّة هذه النعمة الغامرة.

«صریخ» من مادّة «صرخ» بمعنی الصیاح. و «ینقذون» من مادّة «نقذ» بمعنی التخلیص من ورطة.

و أخیرا تضیف الآیة لتکمل الحدیث فتقول: إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلی حِینٍ

نعم فهم لا یستطیعون النجاة بأیّة وسیلة إلّا برحمتنا و لطفنا بهم.

«حین» بمعنی «وقت» و هی فی الآیة أعلاه إشارة إلی نهایة حیاة الإنسان و حلول أجله، و ذهب البعض إلی أنّها تعنی نهایة العالم بأسره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۷

نعم، فالأشخاص الذین رکبوا السفن أیّا کان نوعها و حجمها یدرکون عمق معنی هذه الآیة، فإنّ أعظم السفن فی العالم تکون کالقشّة حیال الأمواج البحریة الهائلة أو الطوفانات المفجعة للمحیطات، و لو لا شمول الرحمة الإلهیة فلا سبیل إلی نجاة أحد منهم إطلاقا.

یرید اللّه سبحانه و تعالی بذلک الخیط الرفیع بین الموت و الحیاة أن یظهر قدرته العظیمة للإنسان، فلعلّ الضالّین عن سبیل الحقّ یعودون إلی الحقّ و یتوجّهون إلی اللّه و یسلکون هذا الطریق.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۸

الآیات [سورة یس (۳۶): الآیات ۴۵ الی ۴۷]

اشارة

وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَیْنَ أَیْدِیکُمْ وَ ما خَلْفَکُمْ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵) وَ ما تَأْتِیهِمْ مِنْ آیَةٍ مِنْ آیاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ کانُوا عَنْها مُعْرِضِینَ (۴۶) وَ إِذا قِیلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَکُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ یَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۴۷)

التّفسیر

الإعراض عن جمیع آیات اللّه:

بعد أن کان الحدیث فی الآیات السابقة عن الآیات الإلهیّة فی عالم الوجود، تنتقل هذه الآیات لتتحدّث عن ردّ فعل الکفّار المعاندین فی مواجهة هذه الآیات الإلهیّة، و کذلک توضّح دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهم و إنذارهم بالعذاب الإلهی الألیم.

یفتتح هذا المقطع بالقول: وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَیْنَ أَیْدِیکُمْ وَ ما خَلْفَکُمْ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ ۱۸۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۹

للمفسّرین أقوال عدیدة حول ما هو معنی قوله: ما بَیْنَ أَیْدِیکُمْ و ما خَلْفَکُمْ منها: أنّ المقصود ب «ما بین أیدیکم» العقوبات الدنیویة التی أوردت الآیات السابقة نماذج منها، و المقصود ب «ما خلفکم» عقوبات الآخرة، و کأنّه یراد القول بأنّها خلفهم و لم تأت إلیهم و سوف تصل إلیهم فی یوم ما و تحیط بهم، و المقصود ب «التقوی» من هذه العقوبات، هو عدم إیجاد العوامل التی تؤدّی إلی وقوع هذه العقوبات، و الدلیل علی ذلک أنّ التعبیر ب «اتّقوا» یرد فی القرآن إمّا عند ذکر اللّه سبحانه و تعالی أو عند ذکر یوم القیامة و

العقوبات الإلهيّة، و هذان الذكران وجهان لحقيقة واحدة، إذن أنّ الاتّقاء من اللّه هو اتّقاء من عقوباته.

و ذلك دليل على أنّ الآية تشير إلى الاتقاء من عذاب اللّه و مجازاته فى الدنيا و فى الآخرة.

و من هذه التّفسيرات أيضا عكس ما ورد فى التّفسير الأوّل، و هو أنّ «ما بين أيديكم» تعنى عقوبات الآخرة و «ما خلفكم» تعنى عذاب الدنيا، لأنّ الآخرة أمامنا (و هذا التّفسير لا يختلف كثيرا عن الأوّل من حيث النتائج).

و ذهب آخرون إلى أنّ المقصود من «بين أيديكم» الذنوب التى ارتكبت سابقا، فتكون التقوى منها بالتوبة و جبران ما تلف بواسطتها، و «ما خلفكم» الذنوب التى سترتكب لا حقا.

و البعض يرى بأنّ «بين أيديهم» الذنوب الظاهرة، و «ما خلفكم» الذنوب الباطنة و الخفيّة.

و قال البعض الآخر: «ما بين أيديكم» إشارة إلى أنواع العذاب فى الدنيا، و «ما خلفكم» إشارة إلى الموت (و الحال أنّ الموت ليس ممّا يتّقى منه!!).

و البعض- كصاحب تفسير «فى ظلال القرآن»- اعتبر هذين التعبيرين كناية عن إحاطة موجبات الغضب و العذاب الإلهى التى تحيط بالكافر من كلّ جانب.

و «الآلوسى» فى «روح المعانى» و «الفخر الرازى» فى «التّفسير الكبير» كلّ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۰

منهما ذكر احتمالات متعدّدة، ذكرنا قسما منها.

و «العلّامة الطباطبائى» فى «الميزان» يرى أنّ «ما بين أيديكم» الشرك و المعاصى فى الحياة الدنيا، و «ما خلفكم» العذاب فى الآخرة[۱۸۷]. فى حين أنّ ظاهر الآية هو أنّ كلا الإثنين من جنس واحد، و ليس بينهما سوى التفاوت الزمنى، لا أنّ إحداهما إشارة إلى الشرك و الذنوب، و الاخرى إشارة إلى العقوبات الواقعة نتيجة ذلك.

على كلّ حال فأحسن تفسير لهذه الجملة هو ما ذكرناه أوّلا، و آيات القرآن المختلفة شاهد على ذلك أيضا، و هو أنّ المقصود من «ما بين أيديكم» هو عقوبات الدنيا و «ما خلفكم» عقوبا الآخرة.

الآية التالية تؤكّد نفس المعنى و تشير إلى لجاجة هؤلاء الكفّار و إعراضهم عن آيات اللّه و تعاليم الأنبياء، تقول الآية الكريمة: وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ

فلا الآيات الأنفسية تؤثّر فيهم، و لا الآفاقية، و لا التهديد و الإنذار، و لا البشارة و التطمين بالرحمة الإلهيّة، لا يتقبّلون منطق العقل و لا أمر العواطف و الفطرة، فهم مبتلون بالعمى الكلّى بحيث لا يتمكّنون حتّى من رؤية أقرب الأشياء إليهم، و حتّى أنّهم لا يفرّقون بين ظلمة الليل و شمس الظهيرة.

ثمّ يشخّص القرآن الكريم أحد الموارد المهمّة لعنادهم و إعراضهم فيقول:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

ذلك المنطق الضعيف الذى يتمسّك به الأنانيون و البخلاء فى كلّ عصر و زمان و يقولون: إنّ فلانا أصبح فقيرا بسبب عمل ارتكبه و أدّى به إلى الفقر، مثلما أنّنا أغنياء بسبب عمل عملنا فشملنا لطف اللّه و رحمته، و عليه فليس فقره و لا غنانا

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۱

كانا بلا حكمة. غافلين عن أنّ الدنيا إنّما هى دار إمتحان و ابتلاء، و اللّه سبحانه و تعالى إنّما يمتحن البعض بالفقر كما يمتحن البعض الآخر بالغنى و الثروة، و ربّما يضع اللّه الإنسان و فى وقتين مختلفين فى بوتقة الامتحان الغنى و الفقر، و ينظر هل يؤدّى الأمانة حال فقره و يتمتّع بمناعة الطبع و يلج مراتب الشكر اللائقة، أم أنّه يطأ كلّ ذلك بقدمه و يمرّ؟ و فى حال الغنى هل ينفق ممّا تفضّل اللّه به عليه، أم لا؟

و رغم أنّ البعض قد حصر الآية من حيث التطبيق فى مجموعة خاصّة كاليهود، أو المشركين فى مكّة، أو جميع الملاحدة الذين أنكروا الأديان الإلهيّة، و لكن يبدو أنّ للآية مفهوما عامّا يمكن أن تكون له مصاديق فى كلّ عصر و زمان، و إن كان مصداقها حين نزولها هم اليهود أو المشركون فتلك ذريعة عامّة يتشبّثون بها على مرّ العصور، و هى قولهم: إذا كان اللّه هو الرازق إذا لماذا تريدون منّا أن نعطى الفقراء من أموالنا؟ و إذا كان اللّه يريد أن يرى هؤلاء محرومين فلما ذا تريدون منّا إغناء من أراد اللّه حرمانه؟ غافلين عن أنّ نظام التكوين قد يوجب شيئا، و يوجب نظام التشريع شيئا غيره.

فنظام التكوين- بإرادة اللّه- أوجب أن تكون الأرض بجميع مواهبها و عطاياها مسخّرة للبشر، و أن يعطى البشر حريّة انتخاب الأعمال لطى طريق تكاملهم، و فى نفس الوقت خلق الغرائز التى تتنازع الإنسان من كلّ جانب.

و نظام التشريع أوجب قوانين خاصّة للسيطرة على الغرائز و تهذيب النفوس، و تربية الإنسان عن طريق الإيثار و التضحية و التسامح و الإنفاق، و ذلك الإنسان الذى لديه الأهلية و الاستعداد لأن يكون خليفة اللّه فى الأرض، إنّما يبلغ ذلك المقام الرفيع من هذا الطريق، فبالزكاة تطهر النفوس، و بالإنفاق ينتزع البخل من القلوب، و يتحقّق التكافؤ، و تقلّ الفواصل الطبقية التى تفرز آلاف العلل و المفاسد فى المجتمعات.

و ذلك تماما كما يقول شخص: لماذا ندرس؟ أو لماذا نعلّم غيرنا؟ فلو شاء اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۲

سبحانه و تعالى لأعطى العلم للجميع، فلا تكون هنالك حاجة إلى التعلّم! فهل يقبل ذلك عاقل ۱۸۸]؟

جملة قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا و التى ورد التأكيد فيها على صفة الكفر، فى حين يمكن أن يكتفى بالضمير، إشارة إلى أنّ هذا المنطق الخرافى و التعلّل إنّما ينبع من الكفر! و لسان حال المؤمنين بقولهم: أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ إشارة إلى أنّ المالك الأصلى فى الحقيقة هو اللّه سبحانه و تعالى، و إن كانت تلك الأموال أمانة فى أيدينا أو أيديكم لأيّام، و يا لهم من بخلاء أولئك الذين لم يكونوا حاضرين لأن يحولوا المال إلى آخرين بأمر صاحب المال؟! أمّا جملة: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ فلتفسيرها توجد احتمالات ثلاثة:

الأوّل: أنّها تتمّة ما قاله الكفّار للمؤمنين.

الثانى: أنّه كلام اللّه سبحانه و تعالى يخاطب به الكفّار.

الثالث: أنّه تتمّة ما قاله المؤمنون للكفّار.

و لكن التّفسير الأوّل هو الأنسب، لأنّه يتّصل مباشرة بحديث الكفّار السابق، و فى الحقيقة إنّهم يريدون معاملة المؤمنين بالمثل و نسبتهم إلى الضلال المبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۳

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۴۸ الى ۵۳]

اشارة

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (۴۹) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (۵۰) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (۵۱) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (۵۲)

إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (۵۳)

التّفسير

صیحة النشور!

بعد ذکر المنطق الأجوف و الذرائع التی تشبّث بها الکفّار فی مسألة الإنفاق فی الآیات السابقة، تتعرّض هذه الآیات إلی الحدیث عن استهزائهم بالقیامة، لتنسف بجواب قاطع منطقهم الفارغ حول إنکار المعاد.

مضافا إلی أنّها تکمل بحوث التوحید التی مرّت فی الآیات السابقة بالبحث حول المعاد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۴

تقول الآیة الکریمة الاولی: وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ فإذا لم تستطیعوا تشخیص زمان دقیق لقیام الساعة، فمعنی هذا أنّکم لستم صادقین فی حدیثکم.

الآیة التالیة ترد علی هذا التساؤل المقرون بالسخریة بجواب قاطع حازم، و تخبرهم بأنّ قیام الساعة لیس بالأمر المعقّد أو المشکل بالنسبة إلی اللّه سبحانه و تعالی: ما یَنْظُرُونَ إِلَّا صَیْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ یَخِصِّمُونَ

فکلّ ما یقع هو صیحة سماویة کافیة لأن تقبض فیها أرواح جمیع المتبقّین من الناس علی سطح الأرض بلحظة واحدة و هم علی حالهم، و تنتهی هذه الحیاة الملیئة بالصخب و الدعاوی و المعارک و الحروب، لیتخلّف وراءها صمت مطبق، و تخلو الأرض من أی صوت أو إزعاج.

و

فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «تقوم الساعة و الرجلان قد نشرا ثوبهما یتبایعانه فما یطویانه حتّی تقوم، و الرجل یرفع أکلته إلی فیه فما تصل إلی فیه حتّی تقوم، و الرجل یلیط حوضه لیسقی ماشیته فما یسقیها حتّی تقوم»[۱۸۹].

جملة «ما ینظرون» هنا بمعنی «ما ینتظرون»، فکما یقول (الراغب) فی مفرداته «النظر تقلیب البصر و البصیرة لإدراک الشیء و رؤیته، و قد یراد به التأمّل و الفحص، و قد یراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، و هو الرویّة، و النظر الانتظار».

«صیحة» صاح: رفع الصوت، و أصله تشقیق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشقّ فسمع منه صوت، و صیح الثوب کذلک، و یقال: بأرض فلان شجر قد صاح، إذا طال فتبیّن للناظر لطوله، و دلّ علی نفسه بصوته.

«یخصّمون» من مادّة «خصم» بمعنی النزاع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۵

أمّا فیم کانوا یختصمون؟ لم تذکر الآیة ذلک، و لکن من الواضح أنّ المقصود هو التخاصم علی أمر الدنیا و الأمور المعیشیة الاخری، و لکن البعض یری: إنّه تخاصم فی أمر «المعاد»، و المعنی الأوّل أنسب علی ما یبدو، و إن کان اعتبار شمول الآیة لکلا المعنیین، و أی نوع من النزاع و الخصومة لیس ببعید.

و من الجدیر بالملاحظة أنّ الضمائر المتعدّدة فی الآیة جمیعها تعود علی مشرکی مکّة الذین کانوا یشکّکون فی أمر المعاد، و یستهزئون بذلک بقولهم: متی تقوم الساعة؟

و لکن المسلّم به أنّ الآیة لا تقصد أشخاص هؤلاء، بل نوعهم «نوع البشر الغافلین عن أمر المعاد» لأنّهم ماتوا و لم یسمعوا تلک الصیحة السماویة أبدا «تأمّل بدقّة»!! علی کلّ حال، فإنّ القرآن بهذا التعبیر القصیر و الحازم إنّما أراد تنبیههم إلی أنّ القیامة ستأتی و بشکل غیر متوقّع، و هذا أوّلا- و أمّا ثانیا فإنّ قیام الساعة لیس بالموضوع المعقّد بحیث یختصمون و یتنازعون فیه، فبمجرّد صیحة واحدة ینتهی کلّ شیء و تنتهی الدنیا بأسرها.

لذا فهو تعالی یضیف فی الآیة التالیة قائلا: فَلا یَسْتَطِیعُونَ تَوْصِیَةً وَ لا إِلی أَهْلِهِمْ یَرْجِعُونَ

فی العادة فإنّ الإنسان حینما تلم به حادثة و یحسّ بعدها بقرب أجله، یحاول جاهدا أن یوصل نفسه إلی أهله و منزله و یستقرّ بین عیاله، ثمّ یقوم بإنجاز بعض الأمور المعلّقة، و یعهد بأبنائه أو متعلّقیه إلی من یثق به عن طریق الوصیّة أو غیر ذلک. و یوصی بإنجاز بعض الأمور الاخری.

و لکن هل تترک الصیحة السماویة فرصة لأحد؟ و لو سنحت الفرصة فرضا فهل بقی أحد حیّا لیستمع الوصیّة؟ أو یجتمع الأولاد مع امّهم علی سریر الأب- مثلا- و یحتضنونه و یحتضنهم لکی یسلم الروح بطمأنینة؟ لا أبدا، فلا إمکان لأی من هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۶

الأمور.

و ما نلاحظه من تنکیر التوصیة فی التعبیر القرآنی هنا إنّما هو إشارة إلی أنّ الفرصة لا تسنح حتّی لوصیة صغیرة أیضا.

ثمّ تشیر الآیات إلی مرحلة اخری، مرحلة الحیاة بعد الموت. فتقول: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

التراب و العظام الرمیم تلبس الحیاة من جدید، و تنتفض من القبر بشرا سویّا، لیحضر المحاکمة و الحساب فی تلک المحکمة العظیمة المهولة، و کما أنّهم ماتوا جمیعا بصیحة واحدة، فبنفخة واحدة یبعثون أحیاء من جدید، فلا هلاکهم یشکّل عقبة أمام قدرة اللّه سبحانه و تعالی، و لا حیاتهم کذلک، تماما کما هو الحال فی جمع الجنود فی الجیوش، بنفخة بوق واحدة ینهضون جمیعا من فرشهم و یخرجون من خیمهم، و یقفون فی صفّ واحد، و إحیاء الموتی و بعثهم بالنسبة إلی اللّه سبحانه بهذه البساطة و السرعة.

«أجداث» جمع «جدث» و هو القبر، و التعبیر یشیر بوضوح إلی أنّ للمعاد جنبة جسمانیة بالإضافة إلی الجنبة الروحیة، و أنّ الجسد یعاد بناؤه جدیدا من نفس المواد السابقة.

و استخدام صیغة الماضی فی الفعل «نفخ» إشارة إلی عدم وجود أدنی شکّ فی وقوع مثل هذا الأمر، و کأنّه لثباته و حتمیته قد وقع فعلا.

«ینسلون» من مادّة «نسل» و النسل الانفصال عن الشیء- کما یقول الراغب فی المفردات و یضیف- یقال: نسل الوبر عن البعیر و القمیص عن الإنسان، و ..

و منه نسل إذا عدا، و النسل الولد لکونه ناسلا عن أبیه.

و قوله تعالی: رَبِّهِمْ کأنّها تلمیح إلی أنّ ربوبیة و مالکیة و تربیة اللّه کلّها توجب أن یکون هناک حساب و کتاب و معاد.

و علی کلّ حال، فإنّه یستفاد من الآیات القرآنیة أنّ نهایة هذا العالم و بدایة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۷

العالم الآخر یکون کلاهما علی شکل حرکة عنیفة و غیر متوقّعة، و سوف نتعرّض إلی تفصیل هذا الموضوع فی تفسیر الآیة (۶۸) من سورة الزمر إن شاء اللّه.

تضیف الآیة التالیة: قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

نعم فإنّ المشهد مهول و مذهل إلی درجة أنّ الإنسان ینسی جمیع الخرافات و الأباطیل و لا یتمکّن إلّا من الاعتراف الواضح الصریح بالحقائق، الآیة تصوّر القبور «بالمراقد» و النهوض من القبور (بالبعث) کما

ورد فی الحدیث المعروف «کما تنامون تموتون و کما تستیقظون تبعثون».

ففی البدء یستغربون انبعاثهم و یتساءلون عمّن بعثهم من مرقدهم؟ و لکنّهم یلتفتون بسرعة و یتذکّرون بأنّ أنبیاء اللّه الصادقین، و عدوهم بمثل هذا الیوم، فیجیبون أنفسهم قائلین: هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ و لکن وا أسفاه إنّنا کنّا نستهزئ بکلّ ذلک!!

و علیه فإنّ هذه الجملة هی بقیّة حدیث هؤلاء المتکبرین الکفرة بالمعاد و البعث، و لکن البعض ذهب إلی أنّ حدیث الملائکة أو المؤمنین، و ذلک علی ما یبدو خلاف ظاهر الآیة، و لا داعی و لا ضرورة له، لأنّ اعتراف الکفّار و المنکرین للمعاد فی ذلک الیوم لا

ینحصر بهذه الآیة، ففی الآیة (۹۷) من سورة الأنبیاء وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِیَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِینَ کَفَرُوا یا وَیْلَنا قَدْ کُنَّا فِی غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ کُنَّا ظالِمِینَ

و علی کلّ حال، فإنّ التعبیر ب «مرقد»[۱۹۰] یوضّح أنّهم فی عالم البرزخ کانوا بحالة شبیهة بالنوم العمیق، و کما ذکرنا فی تفسیر الآیة (۱۰۰) من سورة «المؤمنون»، فإنّ البرزخ بالنسبة إلی أکثر الناس الذین هم علی الوسط من الإیمان أو الکفر هو حالة شبیهة بالنوم، و فی حال المؤمنین أصحاب المقامات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۸

الرفیعة، أو الکفّار الموغلین فی الکفر و الجحود فإنّ البرزخ بالنسبة إلیهم عالم واضح المعالم، و هم فیه أیقاظ یهنأون فی النعیم أو یصطرخون فی العذاب.

احتمل بعضهم أیضا أنّ هول و دهشة القیامة شدیدان إلی درجة أنّ العذاب فی البرزخ یکون شبه النوم بالنسبة إلی ما یرونه فی القیامة.

ثمّ تقول الآیة لبیان سرعة النفخة: إِنْ کانَتْ إِلَّا صَیْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِیعٌ لَدَیْنا مُحْضَرُونَ

و علیه فإحیاء الموتی و بعثهم من القبور و إحضارهم فی محکمة العدل الإلهی لا یحتاج إلی مزید وقت، کما کان الأمر عند هلاکهم، فالصیحة الاولی للموت، و الصیحة الثانیة للحیاة و الحضور فی محکمة العدل الإلهی.

و استخدام تعبیر «الصیحة» و التأکید علیها ب «واحدة» و کذلک التعبیر ب «إذا» فی مثل هذه الموارد، إنّما هو للإشارة إلی وقوع غیر المتوقّع، و التعبیر ب هُمْ جَمِیعٌ لَدَیْنا مُحْضَرُونَ بصیغة الجملة الاسمیة دلیل علی الوقوع السریع لهذا المقطع من القیامة.

و اللهجة الحازمة لهذه الآیات تترک أعمق الأثر فی القلوب، و کأن هذه الصیحة تقول: یا أیّها الناس النائمون، أیّتها الأتربة المتناثرة، أیّتها العظام المهترئة! انهضوا .. انهضوا و استعدّوا للحساب و الجزاء ... فما أجمل الآیات القرآنیة، و ما أروع إنذاراتها المعبّرة!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۹

الآیات [سورة یس (۳۶): الآیات ۵۴ الی ۵۸]

اشارة

فَالْیَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۴) إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْیَوْمَ فِی شُغُلٍ فاکِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِی ظِلالٍ عَلَی الْأَرائِکِ مُتَّکِؤُنَ (۵۶) لَهُمْ فِیها فاکِهَةٌ وَ لَهُمْ ما یَدَّعُونَ (۵۷) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِیمٍ (۵۸)

التّفسیر

أصحاب الجنّة فاکهون!

هنا یبدأ البحث حول کیفیة الحساب فی المحشر، ثمّ ینتقل فی الختام إلی تفصیل وضع المؤمنین الصلحاء و الکفّار الطالحین، فتقول الآیة الکریمة الاولی:

فَالْیَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً.

فلا ینقص من أجر و ثواب أحد شیئا، و لا یزاد علی عقوبة أحد شیئا، و لن یکون هنالک أدنی ظلم أو اضطهاد لأحد حتّی بمقدار رأس الإبرة.

ثمّ تنتقل الآیهٔ لتوضّح تلک الحقیقهٔ و تعطی دلیلا حیّا علیها فتقول: وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

إنّ ظاهر الآیهٔ- و من دون تقدیر مضمر- یهدف إلی القول بأنّ جزاءکم جمیعا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۰

هو نفس أعمالکم، فأی عدالـهٔ أفضل و أعلی من هـذه العدالـهٔ؟! و بعبارهٔ اخری: فإنّ الأعمال الحسـنهٔ و السیّئهٔ التی قمتم بها فی هـذه الـدنیا سترافقکم فی ذلک العالم أیضا، و نفس تلک الأعمال سـتتجسّد هناک و ترافقکم فی جمیع مراحل الآخرهٔ، فی المحشـر و بعد نهایهٔ الحساب.

فهل أنّ تسلیم حاصل عمل إنسان إلیه أمر مخالف للعدالهٔ؟

و هل أنّ تجسید الأعمال و قرنها بعاملها ظلم؟

و من هنا یتّضـح أن لا معنی للظلم أساسا فی مشـهد یوم القیامـهٔ، و إذا کان یحـدث فی الـدنیا بین البشـر أن تتحقّق العدالـهٔ حینا و یقع الظلم أحیانا کثیرهٔ، فذلک لعدم إمکان ربط الأعمال بفاعلیها.

جمع من المفسّـِرین تصوروا أنّ الجملـهٔ الأخیرهٔ أعلاه تتحـدّث عن الکفّار و المسـیئین الذین سـیرون عقابا علی قدر أعمالهم، دون أن تشمل المؤمنین، بلحاظ أنّ اللّه سبحانه و تعالی قد جزاهم و أثابهم بأضعاف ما یعادل أعمالهم.

و لکن بملاحظـهٔ ما یلی ینحلّ هـذا الاشـتباه، و هو أنّ الحـدیث هنا هو حـدیث عن العدالـهٔ فی الثواب و العقاب و أخذ الجزاء حسـب الاستحقاق، و هذا لا ینافی أنّ اللّه سبحانه و تعالی یرید أن یزید المؤمنین من فضله، فهذه مسألهٔ «تفضل» و تلک مسألهٔ «استحقاق».

ثمّ تنتقل الآیات لتتعرّض إلی جانب من مثوبـهٔ المؤمنین العظیمـهٔ، و قبل کلّ شـیء تشـیر إلی مسألـهٔ الطمأنینـهٔ و راحـهٔ البال فتقول: إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْیَوْمَ فِی شُغُلٍ فاکِهُونَ

«شـغل»:- علی وزن سـرر- و «شغل»- علی وزن لطف-: کلیهما بمعنی العارض الذی یذهل الإنسان و یصرفه عن سواه، سواء کان ممّا یبعث علی المسرّهٔ أو الحزن، و لکن لإلحاقه کلمهٔ «فاکهون» التی هی جمع «فاکه» و هو المسـرور الفرح الضاحک، یمکن استنتاج أنّ المعنی إشارهٔ إلی الإنسان المشغول بنفسه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۱

و المنصـرف تماما عن التفکیر فی أی قلق أو ترقّب، و الغارق فی السرور و السعادهٔ و النشاط بشکل لا یترک أی مجال للغمّ و الحسرهٔ أن تعکّر علیه صـفوه، و حتّی أنّه ینسـی تماما هول قیام القیامـهٔ و الحضور فی محکمـهٔ العدل الإلهیهٔ، تلک المواقف التی لو لا نسـیانها فإنّها حتما سـتلقی بظلالها الثقیلـهٔ من الغمّ و القلق علی القلب، و بناء علی ذلک فإنّ أحد الآثار المترتبهٔ علی انشـغال الذهن بالنعمهٔ هو نسیان أهوال المحشر[۱۹۱].

و بعـد التعرّض إلی نعمـهٔ الطمأنینـهٔ و راحـهٔ البـال التی هی أسـاس جمیع النعم الاـخری و شـرط الاسـتفادهٔ من جمیع المواهب و النعم الإلهیهٔ الاخری، ینتقل إلی ذکر بقیّهٔ النعم فیقول تعالی: هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِی ظِلالٍ عَلَی الْأَرائِکِ مُتَّکِؤُنَ ۱۹۲].

«أزواج» تشیر إلی الزوجهٔ التی یعطیها اللّه فی الجنّهٔ، أو الزوجهٔ المؤمنهٔ التی کانت معه فی الدنیا.

و أمّـا مـا احتمله البعض من أنّها بمعنی «النظائر» کما فی الآیـهٔ- ۲۲ سورهٔ الصافات احْشُـرُوا الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ الآیـهٔ فیبدو بعیدا. خصوصا أنّ (أرائک) جمع «أریکهٔ» و هی الحجلهٔ علی السریر. کما یقول أرباب اللغهٔ[۱۹۳].

التعبیر ب «ظلال» إشـارهٔ إلی أنّ أشـجار الجنّـهٔ تظلّـل الأسـرهٔ و التخوت التی یجلس علیهـا المؤمنون فی الجنّـهٔ، أو إشـارهٔ إلی ظلال قصورهم، و کـلّ ذلک یـدلّل علی وجود الشـمس هناک، و لکنّها لیست شـمسا مؤذیـهٔ، نعم فإنّ لهم فی ذلک الظلّ الملائم لأشـجار الجنّهٔ سرورا و نشاطا عظیمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۲

إضافة إلى ذلك فإنّ لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ

يستفاد من آيات القرآن الاخرى أنّ غذاء أهل الجنّة ليس الفاكهة فقط، و لكن تعبير الآية يدلّل على أنّ الفاكهة- و هى فاكهة مخصوصة تختلف كثيرا عن فاكهة الدنيا- هى أعلى غذاء لهم، كما أنّ الفاكهة فى الدنيا- كما يقول المتخصّصون- أفضل و أعلى غذاء للإنسان.

«يدعون» أى يطلبون، و المعنى أنّ كلّ ما يطلبونه و يتمنّونه يحصلون عليه، فما يتمنّوه من شىء يحصل و يتحقّق على الفور.

يقول العلّامة «الطبرسى» فى مجمع البيان: العرب يستخدمون هذا التعبير فى حالة التمنّى، فيقول: «ادع علىّ ما شئت» أى تمنّ علىّ ما شئت ...

و عليه فإنّ كلّ ما يخطر على بال الإنسان و ما لا يخطر من المواهب و النعم الإلهية موجود هناك معدّ و مهيّأ، و اللّه عنده حسن الثواب.

و أهمّ من كلّ ذلك، المواهب المعنوية التى أشارت إليها آخر آية بقولها: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ۱۹۴].

هذا النداء الذى تخفّ له الروح، فيملؤها بالنشاط، هذا النداء المملوء بمحبّة اللّه، يجعل الروح الإنسانية تتسلّق الأفراح نشوى بالمعنويات التى لا يرقى إليها وصف و لا تعادلها أيّة نعمة اخرى. نعم فسماع نداء المحبوب، النداء الندى بالمحبّة، المعطّر باللطف، يغمر سكّان الجنّة بالحبور ... الحبور الذى تعادل اللحظة منه جميع ما فى الدنيا، بل و يفيض عليه.

ففى رواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «بينا أهل الجنّة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنّة، و ذلك قول اللّه تعالى: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ قال فينظر إليهم و ينظرون إليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۳

فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتّى يحتجب عنهم و يبقى نوره و بركته عليهم فى ديارهم»[۱۹۵].

نعم فإنّ جذبة مشاهدة المحبوب، و رؤية لطفه، تبعث اللذّة و الشوق فى النفس بحيث أنّ لحظة واحدة من تلك المشاهدة العظيمة لا يمكن مقارنتها بأيّة نعمة، بل بالعالم أجمع، و عشّاق رؤيته و النظر إليه هائمون فى ذلك إلى درجة أنّه لو قطعت عنهم تلك الإفاضة المعنوية فإنّهم يحسّون بالحسرة و الألم، و كما

ورد فى حديث لأمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام «لو حجبت عنه ساعة لمتّ»[۱۹۶].

الملفت للنظر أنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّ سلام اللّه الذى ينثره على المؤمنين فى الجنّة، هو سلام مستقيم بلا واسطة، سلام منه تعالى، و أى سلام ذلك الذى يمثّل رحمته الخاصّة! أى أنّه ينبعث من مقام رحيميته و جميع ألطافه و كراماته مجموعة فيه، و يا لها من نعمة عظيمة!!***

ملاحظة

أنواع «السلام» المنثور على أهل الجنّة

الجنّة هى «دار السلام» كما ورد فى الآية (۲۵) من سورة يونس حيث نقرأ:

وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ

و أهل الجنّة الذين يسكنون هناك، يقابلون بسلام الملائكة حينما يدخلون عليهم الجنّة وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، سَلامٌ

عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ[۱۹۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۴

و ینادیهم ساکنو الأعراف و یسلّمون علیهم وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ [۱۹۸] و عند ما یدخلون الجنّة یقابلون بسلام و تحیّة الملائکة.

و حینما تقبض الأرواح یتلقّی المؤمن هذا السلام من ملائکة الموت: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [۱۹۹] و یسلّم بعضهم علی بعض تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ [۲۰۰] و أخیرا، أسمی و أعظم سلام هو سلام اللّه عزّ و جلّ سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ

الخلاصة: لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً.[۲۰۱] و السلام لیس لفظا فحسب، بل سلام یؤدّی إلی خلق الهدوء و السلامة، و ینفذ فی أعماق الروح الإنسانیة و یغمرها بالهدوء و السلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۵

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۵۹ الى ۶۲]

اشارة

وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (۵۹) أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۰) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶۲)

التّفسير

لماذا عبدتم الشيطان؟!

مرّ فی الآیات السابقة جانب من المصیر المشوّق لأهل الجنّة، و فی هذه الآیات مورد البحث جانب بئیس من مصیر أهل النار و عبدة الشیطان.

أوّلا: یخاطبون فی ذلک الیوم خطابا تحقیریا وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ

فأنتم ربّما دخلتم فی صفوف المؤمنین فی الدنیا و تلونتم بلونهم تارة، و استفدتم من حیثیتهم و اعتبارهم، أمّا الیوم «فامتازوا عنهم» و أظهروا بشکلکم الأصلی الحقیقی.

هذا فی الحقیقة هو تحقّق للوعد الإلهی الوارد فی الآیة (۲۸) من سورة ص حیث یقول الباری عزّ و جلّ: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۶

فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ.

و علی کلّ حال، فظاهر الآیة هو التمییز فی العرض بین المجرمین و المؤمنین، و إن کان بعض المفسّرین قد احتمل احتمالات اخری من جملتها: تفریق صفوف المجرمین أنفسهم إلی مجموعات فیما بینهم، أو انفصال المجرمین عن شفعائهم و معبوداتهم، أو انفصال المجرمین کلّ واحد عن الآخر، بحیث یکون ذلک العذاب الناتج عن الفراق مضافا علی عذاب الحریق فی جهنّم.

و لکن شمولیة الخطاب لجمیع المجرمین، و محتوی جملة «و امتازوا» تقوّی المعنی الأوّل الذی أشرنا إلیه.

الآیة التالیة تشیر إلی لوم اللّه تعالی و توبیخه المجرمین فی یوم القیامة قائلا:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یا بَنِی آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّیْطانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ

إنّ هذا العهد الإلهی أخذ علی الإنسان من طرق مختلفة، و کرّر علی مسمعه مرّات و مرّات: یا بَنِی آدَمَ لا یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیْطانُ کَما أَخْرَجَ أَبَوَیْکُمْ مِنَ الْجَنَّةِ یَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِیُرِیَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ یَراکُمْ هُوَ وَ قَبِیلُهُ مِنْ حَیْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّیاطِینَ أَوْلِیاءَ لِلَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ ۲۰۲] جری هذا التحذیر و بشکل متکرّر علی لسان الأنبیاء و الرسل: وَ لا یَصُدَّنَّکُمُ الشَّیْطانُ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ ۲۰۳].

و کذلک فی الآیة (۱۶۸) من سورة البقرة نقرأ: وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّیْطانِ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ

و من جانب آخر فإنّ هذا العهد أخذ علی الإنسان فی عالم التکوین، و بلسان إعطاء العقل له، إذ أنّ الدلائل العقلیة تشیر بشکل واضح إلی أنّ علی الإنسان أن لا یطیع من تصدّی لعداوته منذ الیوم الأوّل و أخرجه من الجنّة، و أقسم علی إغواء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۷

أبنائه من بعده.

و من جانب ثالث فقد أخذ هذا العهد علی الإنسان بالفطرة الإلهیّة للناس علی التوحید، و انحصار الطاعة فی اللّه سبحانه، و بهذا لم تتحقّق التوصیة الإلهیة هذه بلسان واحد، بل بعدّة ألسنة و أسالیب، و امضی هذا العهد و المیثاق.

و الجدیر بالملاحظة أیضا أنّ «العبادة» الواردة الإشارة إلیها فی جملة لا تَعْبُدُوا الشَّیْطانَ بمعنی «الطاعة»، لأنّ العبادة لا تنحصر بمعنی الرکوع و السجود فقط، بل إنّ من مصادیقها الطاعة. کما ورد فی الآیة (۴۷) من سورة «المؤمنون» أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَیْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ و فی الآیة (۳۱) من التوبة نقرأ:

اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً.

و الجمیل أنّه

ورد فی روایة عن الصادق علیه السّلام تعلیقا علی الآیة بقوله: «أما و اللّه ما دعوهم إلی عبادة أنفسهم و لو دعوهم ما أجابوهم، و لکن أحلّوا لهم حراما و حرّموا علیهم حلالا فعبدوهم من حیث لا یشعرون»[۲۰۴].

و

عن الصادق علیه السّلام أیضا أنّه قال: «من أطاع رجلا فی معصیة فقد عبده»[۲۰۵].

و

عن الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من أصغی إلی ناطق فقد عبده، فإن کان الناطق یؤدّی عن اللّه فقد عبد اللّه، و إن کان الناطق یؤدّی عن الشیطان فقد عبد الشیطان»[۲۰۶].

الآیة التالیة تأکید أشدّ و بیان لوظیفة بنی آدم، تقول الآیة الکریمة: وَ أَنِ اعْبُدُونِی هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ

أخذ علی الإنسان العهد بأن لا یطیع الشیطان، إذ أنّه أعلن له عن عداوته بشکل واضح منذ الیوم الأوّل، فهل یطیع عاقل أوامر عدوّه!؟ .. هذا من جانب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۸

و من جانب آخر، أخذ علیه العهد بطاعة اللّه سبحانه و تعالی، لأنّ سبیله هو الصراط المستقیم، و هذا فی الحقیقة أعظم محرّک للبشر، لأنّ الإنسان- مثلا- لو کان فی وسط صحراء قاحلة محرقة، و کانت حیاته و حیاة عیاله فی معرض خطر قطّاع الطرق و الضواری، فأهمّ ما یفکّر به هو العثور علی الطریق المستقیم الآمن الذی یؤدّی إلی المقصد، الطریق السریع و الأسهل للوصول إلی منزل النجاة.

و یستفاد کذلک من هذا التعبیر ضمنا بأنّ الدنیا لیست بدار القرار، إذ أنّ الطریق لا یرسم لأحد إلّا لمن یرید الذهاب إلی مقصد آخر.

و للتعریف بهذا العدو القدیم أکثر فأکثر یضیف تعالی: وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْکُمْ جِبِلًّا کَثِیراً أَ فَلَمْ تَکُونُوا تَعْقِلُونَ

ألا ترون ماذا أحلّ بأتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تأريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أی مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟ آثار مدنهم المدمّرة أمام أعينكم، و العاقبة المؤلمة التی وصلوا إليها واضحة لكلّ من يمتلك القليل من التعقّل و التفكّر.

إذن لماذا أنتم غير جادّين فی معاداة من أثبت أنّه عدو لكم مرّات و مرّات؟

و لا زلتم تتّخذونه صديقا بل قائدا و وليّا و إماما!! «الجبلّ» الجماعة تشبيها بالجبل فی العظم (كما يقول الراغب فی مفرداته).

و «كثيرا» للتأكيد على كثرة من اتّبع الشيطان من كافّة المستويات الاجتماعية فی كلّ مجتمع.

ذكر بعضهم أنّ «الجبلّ» بحدود عشرة آلاف نفر، أو أكثر، و ما دون ذلك لا يكون جبلّا[۲۰۷]، و لكن البعض الآخر لم يلتزم بتلك الأرقام ۲۰۸].

و على كلّ حال، فإنّ العقل السليم يوجب على الإنسان أن يحذر بشدّة من عدوّ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۹

خطر كهذا، لا يتورّع عن أی شیء، و لا يرحم أی إنسان أبدا، و قرابينه فی كلّ زاوية و مكان هلكى صرعى، فلا ينبغی له أن يغفل عنه طرفة عين أبدا، و لنقرأ ما

يقول أمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه أفضل الصلاة و السلام: «فاحذروا- عباد اللّه- عدوّ اللّه، أن يعديكم بدائه، و أن يستفزّكم بندائه، و أن يجلب عليكم بخيله و رجله، فلعمری لقد فوق لكم سهم الوعيد، و أغرق إليكم بالنزع الشديد، و رماكم من مكان قريب، فقال: ربّ بما أغويتنی لازيّنن لهم فی الأرض و لأغوينّهم أجمعين»[۲۰۹].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۰

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۶۳ الى ۶۸]

اشارة

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِی كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶۳) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۶۴) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۶۵) وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ (۶۷)

وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِی الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (۶۸)

التّفسير

يوم تسكت الألسن و تشهد الأعضاء!!

تعرّضت الآيات السابقة، إلى قسم من التوبيخات و التقريعات الإلهيّة و إلى مخاطبته سبحانه المجرمين فی يوم القيامة.

هذه الآيات تواصل البحث حول الموضوع نفسه أيضا.

نعم، ففی ذلك اليوم و حينما تظهر جهنّم للمجرمين الكافرين يذكّرهم اللّه بوعده، و الآية تشير إلى ذلك فتقول: هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِی كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۱

فقد بعث إليكم الأنبياء واحدا بعد واحد، و حذّروكم من مثل هذا اليوم و من مثل هذه النار، و لكنّكم لم تأخذوا أقوالهم إلّا على محمل السخرية و الاستهزاء اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۲۱۰].

ثمّ يشير تعالى إلى شهود يوم القيامة ... الشهود الذين هم جزء من جسد الإنسان، حيث لا مجال لإنكار شهادتهم، فيقول تعالى: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

نعم ففى ذلك اليوم لا تكون أعضاء الإنسان طوع إرادته و ميوله، فهى بأجمعها تتخلّى عن امتثال أمره و تستسلم لأمر اللّه سبحانه، و يا لها من محكمة عجيبة تلك المحكمة التى شهودها نفس أعضاء الإنسان. تلك الأعضاء التى كانت الوسائل لارتكاب المعاصى و الذنوب.

و يحتمل أن تكون شهادة الأعضاء، بسبب أنّ المجرمين حينما يرون بأنّهم سيصلون جهنّم جزاء أعمالهم، يميلون إلى إنكار ما ارتكبوا ظنّا منهم أنّه يمكن الإفلات بإخفاء الحقائق و الإنكار، إلّا أنّ الأعضاء تبدأ هنا بالشهادة، الأمر الذى يثير عجب أولئك المجرمين و وحشتهم و يغلق عليهم جميع طرق الفرار و الخلاص.

أمّا عن كيفية نطق تلك الأعضاء، فثمّة تفسيرات و احتمالات عديدة:

۱- إنّ اللّه سبحانه و تعالى يجعل فى كلّ واحد من تلك الأعضاء القدرة على التكلّم و الشعور، و هى تقوم بنقل الحقيقة بصدق، و ما هو العجب فى ذلك؟ فمن جعل فى قطعة من اللحم المسمّاة «لسان» أو «مخ الإنسان» القدرة على النطق، يستطيع أن يجعل هذه القدرة فى سائر أعضاء البدن أيضا.

۲- أنّ تلك الأعضاء لا تعطى الإدراك و الشعور، و لكن اللّه سبحانه و تعالى ينطقها، و فى الحقيقة فإنّ تلك الأعضاء ستكون محلا لظهور الكلام، و انكشاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۲

الحقائق بإذن اللّه.

۳- أنّ أعضاء البدن الإنسانى تحتفظ بآثار الأعمال التى قامت بها فى الدنيا، إذ أنّ أى عمل فى هذه الدنيا لا يفنى، بل إنّ آثاره ستبقى على كلّ عضو من البدن، و فى الفضاء المحيط بها، و فى ذلك اليوم الذى هو يوم الظهور و التجلّى، ستظهر هذه الآثار على اليد و القدم و سائر الأعضاء، و ظهور تلك الآثار هو منزلة الشهادة.

و هذا تماما كما يرد فى لغتنا المعاصرة حينما نقول: «عينك تشهد على سهرك»، أو «الجدران تبكى صاحب الدار».

و على كلّ حال، فإنّ من المسلّمات شهادة الأعضاء فى يوم القيامة، و لكن هل أنّ كلّ عضو يكشف عن فعله فحسب، أو يكشف عن كلّ الأعمال؟ فلا شكّ أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب، لذا فإنّ الآيات القرآنية الكريمة الاخرى تذكر شهادة الاذن و العين و الجلد، كما فى الآية (۲۰) من سورة فصلت حين يقول تعالى: حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أو ما ورد فى الآية (۲۴) من سورة النور من قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

و الجدير بالملاحظة أنّه تعالى فى سورة النور يقول: تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ و فى الآية مورد البحث يقول: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ و من الممكن أن يكون ما يحصل هناك هو أن يختم على فم المجرم أوّلا لتشهد أعضاؤه، و بعد أن يرى بنفسه شهادة أعضائه، يفتح لسانه، و لأنّه لا مجال للإنكار فإنّ لسانه أيضا يقرّ بالحقيقة.

و كذلك يحتمل أن يكون المقصود من كلام اللسان هو الكلام الداخلى الذى ينبعث منه كما فى سائر الأعضاء، و ليس نطقه العادى.

آخر ما نريد قوله بخصوص موضوع تكلّم الأعضاء هو أنّ ذلك خاص بالمجرمين، و إلّا فالمؤمنون حسابهم واضح، لذا

ورد فى الحديث عن الباقر عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۳

«لیست تشـهد الجوارح علی مؤمن، إنّما تشـهد علی من حقّت علیه کلمـة العـذاب، فأمّا المؤمن فیعطی کتابه بیمینه، قال اللّه عزّ و جلّ: فَمَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَأُولئِکَ یَقْرَؤُنَ کِتابَهُمْ وَ لا یُظْلَمُونَ فَتِیلًا[۲۱۱].

الآیـة التالیـة تشـیر إلی أحـد ألوان العـذاب التی یمکن أن یبتلی اللّه تعالی بها المجرمین فی هـذه الدنیا، تقول الآیة الکریمة: وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلی أَعْیُنِهِمْ ۲۱۲].

و فی تلک الحالـة التی یبلغ فیها الرعب الذروة عندهم: فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّی یُبْصِرُونَ فهم عاجزون حتّی عن العثور علی الطریق إلی بیوتهم، ناهیک عن العثور علی طریق الحقّ و سلوک الصراط المستقیم! و عقوبة مؤلمة اخری لهم: انّنا لو أردنا لمسخناهم فی مکانهم علی شکل تماثیل حجریـة فاقدة للروح و الحرکة، أو علی أشکال الحیوانات بحیث لا یستطیعون التقدّم إلی الأمام، و لا الرجوع إلی الخلف: لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلی مَکانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِیًّا وَ لا یَرْجِعُونَ ۲۱۳].

«فاستبقوا الصـراط» یمکن أن تکـون بمعنی التسـابق فیمـا بینهم للعثور علی الطریق الـذی یـذهبون منه عـادة، أو بمعنی الانـحراف عن الطریق و عدم العثور علیه، علی ضوء ما قاله بعض أرباب اللغة من أن «فاستبقوا الصراط» بمعنی «جاوزوه و ترکوه حتّی ضلّوا»[۲۱۴].

و علی کلّ حال، فطبقا للتفسیر الـذی قبل به أغلب المفسّرین الإسـلامیین، فإنّ الآیتین أعلاه، تتحدّثان عن عذاب الدنیا، و عن تهدید الکفّار و المجرمین بأنّ اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۴

سبحـانه و تعـالی قـادر علی تعریضـهم لمثـل هـذا العـذاب فی الـدنیا، و لکـن للطفه و رحمته فـإنّه یمتنـع عن ذلـک، فقـد ینتبه هؤلاء المعاندین و یرجعوا عن غیّهم إلی طریق الحقّ.

و لکن یوجـد احتمال آخر أیضا، و هو أنّ الآیات تشیر إلی العقوبات الإلهیّـة فی یوم القیامة لا فی الدنیا، و فی الحقیقة فهو تعالی بعد أن أشار إلی «الختم علی أفواههم» فی الآیة السابقة، یشیر هنا إلی نوعین آخرین من العقوبات التی لو شاء لأجراها علیهم:

الأوّل: الطمس علی عیونهم بحیث لا یمکنهم رؤیة «الصراط» أی طریق الجنّة.

الثانی: أنّ هؤلاء الأفراد بعد أن کانوا فاقدین للحرکة فی طریق السعادة فإنّهم یتحوّلون إلی تماثیل میتة فی ذلک الیوم و یظلّون حیاری فی مشـهد المحشـر، و لیس لهم طریق للتقدّم أو للتراجع، إنّ تناسب الآیات- طبعا- یؤیّد هذا التّفسیر الأخیر، و إن کان أکثر المفسّرین قد اتّفقوا علی قبول التّفسیر السابق ۲۱۵].

الآیة الأخیرة من هذه المجموعة تشیر إلی وضع الإنسان فی آخر عمره من حیث الضعف و العجز العقلی و الجسمی، لتکون إنذارا لهم و لیختاروا طریق الهدایة عاجلا، و لتکون جوابا علی الذین یلقون بمسؤولیة تقصیرهم علی قصر أعمارهم، و کذلک لتکون دلیلا علی قـدرة اللّه سبحانه و تعـالی، فالقـادر علی أن یعیـد ذلـک الإنسـان القوی إلی ضـعف و عجز الولیـد الصـغیر .. قادر علی مسألـة المعاد بالضـرورة، و علی الطمس علی عیون المجرمین و منعهم عن الحرکـة، کـذلک تقول الآیة الکریمة: وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَکِّسْهُ فِی الْخَلْقِ أَ فَلا یَعْقِلُونَ

«ننکّسه» من مادّة «تنکیس» و هو قلب الشیء علی رأسه. و هی هنا کنایة عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۵

الرجوع الکامل للإنسان إلی حالات الطفولة. فالإنسان منذ بدء خلقته ضـعیف، و یتکامل تدریجیّا و یرشد، و فی أطواره الجنینیة یشـهد فی کلّ یوم طورا جدیدا و رشدا جدیدا، و بعد الولادة- أیضا- یسـتمرّ فی مسـیره التکاملی جسـمیا و روحیا و بسـرعة، و تبدأ القوی و الاسـتعدادات التی أخفاها اللّه فی أعماق وجوده بالظهور تدریجیّا الواحدة تلو الاخری، فی طور الشباب، ثمّ طور النضج، لیبلغ الإنسان أوج تکامله الجسمی و الروحی.

و هنا تنفصل الروح عن الجسد فی تکاملها و نموّها، فتسـتمر فی تکاملها فی حال أنّ الجسد یشـرع بالنکوص، و لکن العقل فی النهایة

يبـدأ هو الآـخر بالتراجع أيضا، فيعود تـدريجيّا- و أحيانا بسـرعة- إلى مراحل الطفولـة، و يتساوق ذلك مع الضـعف البـدنى أيضا، مع الفـارق طبعـا، فالآثـار التى تتركهـا حركات و روحيات الأطفال على النفس هى الراحـة و الجمال و الأمل و لهـذا فهى مقبولـة منهم، و لكنّها من أهل الشـيخوخة، قبيحـة و منفّرة، و فى بعض الأحيان قد تثير الشـفقة و الترحّم، فالشـيخوخة أيّام عصـيبة حقّا، يصـعب تصوّر عمق آلامها.

فى الآية (۵) سورة الحجّ أشار القرآن المجيد إلى هذا المعنى، قائلا: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً. لذا فقد ورد فى بعض الروايات أنّ من جاوز السبعين حيّا فهو «أسير اللّه فى الأرض»[۲۱۶].

و على كـلّ حال فإنّ جملـة أَ فَلا يَعْقِلُونَ تشعّ تنبيها عجيبا بهـذا الخصوص، و تقول للبشـر: إنّ هـذه القـدرة و القوّة التى عنـدكم لو لم تكن على سبيل «العاريـة» لما أخـذت منكم بهذه البساطة. اعلموا أنّ فوقكم يد قدرة اخرى قادرة على كلّ شـىء، فقبل أن تصـلوا إلى تلك المرحلة خلّصوا أنفسكم، و قبل أن يتبدّل هذا النشاط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۶

و الجمال إلى موت و ذبول. اجمعوا الورد من هـذا الروض، و تزوّدوا بالزاد من هـذه الـدنيا لطريق الآخرة البعيـد، لأنّه لم يمكنكم أداء أى عمل ذى قيمة فى وقت الشيب و الضعف و المرض. و لذا فإنّ من ضمن ما

أوصـى به النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أبا ذرّ أنّه قال: «اغتنم خمسا: قبل خمس: شبابك قبل هرمك، و صحّتك قبل سقمك، و غناك قبل فقرك، و فراغك قبل شغلك، و حياتك قبل موتك»[۲۱۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۷

الآيتان [سورة يس (۳۶): الآيات ۶۹ الى ۷۰]

اشارة

وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶۹) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (۷۰)

التّفسير

انّه ليس بشاعر .. بل نذير!!

قلنـا أنّ فى هـذه السورة بحوثـا حيّـة و جامعـة حول اصول الإعتقادات: التوحيـد، و المعاد، و النبوّة، و تنتقل الآيات من بحث إلى آخر ضمن مقاطع مختلفة من الآيات.

طرحت فى الآيات السابقـة بحوث مختلفـة حول التوحيـد و المعاد، و تعود هاتان الآيتان إلى البحث فى مسألـة النبوّة، و قـد أشارتا إلى أكثر الاتّهامات رواجا و التى أثيرت بوجه الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، وردّت عليهم ردّا قويّا، منها اتّهام الرّسول بكونه شاعرا، فقالت: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ

لماذا اتّهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الاتّهام مع أنّه لم يقل الشعر أبدا؟

كان ذلك بسـبب الجاذبيـة الخاصّـة للقرآن الكريم و نفوذه فى القلوب، الأمر الـذى كان محسوسا للجميع، بالإضافة إلى عدم إمكانية إنكار جمال ألفاظه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۸

و معانيه و فصاحته و بلاغته، و قد كانت جاذبية القرآن الكريم الخاصّة قد أثّرت حتّى فى نفوس الكفّار الذين كانوا أحيانا يأتون إلى جوار منزل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشكل خفى ليلا لكى يستمعوا إلى تلاوته للقرآن فى عمق الليل.

و كم من الأشخاص الذين تولّعوا و عشقوا الإسلام لمجرّد سماعهم القرآن الكريم و أعلنوا إسلامهم فى نفس المجلس الذى استمعوا فيه إلى بعض آياته.

و هنا حاول الكفّار من أجل تفسير هذه الظاهرة العظيمة، و لغرض استغفال الناس و صرف أنظارهم من كون ذلك الكلام و حيا إلهيّا، فأشاعوا تهمة الشعر فى كلّ مكان، و التى كانت بحدّ ذاتها تمثّل اعترافا ضمنيا بتميّز كلام القرآن الكريم.

و أمّا لماذا لا يليق بالرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يكون شاعرا، فلأنّ طبيعة الشعر تختلف تماما عن الوحى الإلهى، للأسباب التالية:

۱- إنّ أساس الشعر- عادة- هو الخيال و الوهم، فالشاعر غالبا ما يحلّق بأجنحة الخيال، و الحال أنّ الوحى يستمدّ وجوده من مبدأ الوجود و يدور حول محور الحقيقة.

۲- الشعر يفيض من العواطف الإنسانية المتغيّرة، و هى فى حال تغيّر و تبدّل مستمرين، أمّا الوحى الإلهى فمرآة الحقائق الكونية الثابتة.

۳- لطافة الشعر تنبع فى الغالب من الإغراق فى التمثيل و التشبيه و المبالغة، إلى درجة أن قيل «أحسن الشعر أكذبه»، أمّا الوحى فليس إلّا الصدق.

۴- الشاعر فى أغلب الموارد و جريا وراء التزويق اللفظى يكون مجبرا على السعى وراء الألفاظ، ممّا يضيع الكثير من الحقائق فى الأثناء.

۵- و أخيرا يقول أحد المفسّرين: إنّ الشعر مجموعة من الأشواق التى تحلّق منطلقة من الأرض باتّجاه السماء، بينما الوحى حقائق نازلة من السماء إلى الأرض، و هذان الاتّجاهان واضح تفاوتهما.

و هنا يجب أن لا ننسى تقدير مقام أولئك الشعراء الذين يسلكون هذا الطريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۹

باتّجاه أهداف مقدّسة، و يصونون أشعارهم من كلّ ما لا يرضى اللّه، و على كلّ حال فإنّ طبيعة أغلب الشعراء كما أوردناه أعلاه.

لذا فإنّ القرآن الكريم يقول فى آخر سورة الشعراء: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ [۲۱۸] طبعا فإنّ نفس هذه الآيات تشير فى آخرها إلى الشعراء المؤمنين الذين يسخّرون فنّهم فى سبيل أهدافهم السامية، و هم مستثنون من ذلك التعميم و لهم حساب آخر.

و لكن على أيّة حال فإنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يمكن أن يكون شاعرا، و عند ما يقول تعالى: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ فمفهومه أنّه مجانب للشعر لأنّ جميع التعاليم النازلة إليه هى من اللّه تعالى.

و الملفت للنظر أنّ التأريخ و الروايات تنقل كثيرا من الأخبار التى تشير إلى أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما يريد الاستشهاد ببيت من الشعر، فإنّه غالبا ما يقوله بطريقة منثورة.

فعن عائشة أنّها قالت: كان رسول اللّه يتمثّل ببيت أخى بنى قيس فيقول:

ستبدى لك الأيّام ما كنت جاهلا* و يأتيك من لم تزوّد بالأخبار فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول اللّه فيقول: إنّى لست بشاعر و ما ينبغى لى [۲۱۹].

ثمّ يضيف تعالى فى آخر الآية لنفى الشعر عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ

و الهدف هو الإنذار و إتمام الحجّة: لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۰

[۲۲۰].

نعم، هذه الآيات «ذكر» و وسيلة تنبيه، هذه الآيات «قرآن مبين» يوضّح الحقّ بلا أدنى تغطية أو غمط، بل بقاطعية و صراحة، و لذا فهو عامل انتباه و حياة و بقاء.

مرّة اخرى نرى القرآن الكريم يجعل (الإيمان) هو (الحياة) و (المؤمنين) هم (الأحياء) و (الكفّار) هم «الموتى»، ففى جانب يذكر عنوان «حيّا» و فى الطرف المقابل عنوان «الكافرون»، فهذه هى الحياة و الموت المعنوى اللذان هما أعلى بمراتب من الموت و الحياة الظاهريين. و آثارهما أوسع و أشمل، فإذا كانت الحياة و المعيشة بمعنى «التنفّس» و «أكل الطعام» و «الحركة»، فإنّ هذه الأعمال كلّها تقوم بها الحيوانات، فهذه ليست حياة إنسانية، الحياة الإنسانية هى تفتّح أزهار العقل و الفهم و الملكات الرقيقة فى روح الإنسان، و كذلك التقوى و الإيثار و التضحية و التحكّم بالنفس، و التحلّى بالفضيلة و الأخلاق، و القرآن ينمى هذه الحياة فى وجود الإنسان.

و الخلاصة: أنّ الناس ينقسمون حيال دعوة القرآن الكريم إلى مجموعتين:

مجموعة حيّة يقظة تلبّى تلك الدعوة، و تلتفت إلى إنذاراتها، و مجموعة من الكفّار ذوى القلوب الميتة، الذين لا تؤمل منهم أيّة استجابة أبدا، و لكن هذه الإنذارات سبب فى إتمام الحجّة عليهم، و تحقّق أمر العذاب بحقّهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۱

بحث

حياة و موت القلوب:

فى الإنسان أنواع من الحياة و الموت:

الأوّل: الحياة و الموت النباتى الذى مظهره النمو و الرشد و التغذية و التوالد، و هو فى هذا الشأن يشابه جميع النباتات.

الثانى: الحياة و الموت الحيوانى. و أبرز مظاهرها «الإحساس» و «الحركة»، و هو مشترك فى هاتين الصفتين مع جميع الحيوانات.

أمّا النوع الثالث من الحياة الخاصّ بالإنسان فقط، فهو (الحياة الإنسانية و الروحية). و هو ما قصدته الروايات بقولها «حياة القلوب».

حيث أنّ المقصود بالقلب هنا «الروح و العقل و العواطف» الإنسانية.

ففى حديث أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام حول القرآن يقول:

«و تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، و تفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب»[۲۲۱].

و

فى حديث آخر له عليه أفضل الصلاة و السلام يقول عن الحكمة و التعلّم:

«و اعلموا أنّه ليس من شىء إلّا و يكاد صاحبه يشبع منه و يملّه إلّا الحياة، فإنّه لا يجد فى الموت راحة، و إنّما ذلك بمنزلة الحكمة التى هى حياة للقلب الميّت و بصر للعين العمياء»[۲۲۲].

و

قال عليه الصلاة و السلام: «ألا و إنّ من البلاء الفاقة، و أشدّ من الفاقة مرض البدن، و أشدّ من مرض البدن مرض القلب، ألا و إنّ من صحّة البدن تقوى القلوب»[۲۲۳].

و

يقول عليه الصلاة و السلام: «و من كثر كلامه كثر خطؤه، و من كثر خطؤه قلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۲

حياؤه، و من قلّ حياؤه قلّ ورعه، و من قلّ ورعه مات قلبه»[۲۲۴].

و من جهة اخرى فإنّ القرآن الكريم يشخّص للإنسان نوعا خاصّا من الإبصار و السماع و الإدراك و الشعور، غير النظر و السماع و الشعور الظاهرى، ففى الآية (۱۷۱) من سورة البقرة نقرأ: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ

و فى موضع آخر يقول تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.[۲۲۵] كذلك يقول سبحانه: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً.[۲۲۶] و حول مجموعة من الكافرين يعبّر تعبيرا خاصا فيقول تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ [۲۲۷] و فى موضع أخر يقول تعالى: إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ [۲۲۸] من مجموع هذه التعبيرات و تعبيرات كثيرة اخرى شبيهة لها يظهر بوضوح أنّ القرآن يعدّ محور الحياة و الموت، هو ذلك المحور الإنسانى و العقلانى، إذ أنّ قيمة الإنسان تكمن فى هذا المحور.

و فى الحقيقة فإنّ الحياة و الإدراك و الإبصار و السماع و أمثالها، تتلخّص فى هذا القسم من وجود الإنسان، و إن اعتبر بعض المفسّرين هذه التعبيرات مجازية، إذ أنّ ذلك لا ينسجم مع روح القرآن هنا، لأنّ الحقيقة فى نظر القرآن هى هذه التى يذكرها، و الحياة و الموت الحيوانيان هما المجازيان لا غير.

إنّ أسباب الموت و الحياة الروحية كثيرة جدّا، و لكن القدر المسلّم به هو أنّ النفاق و الكبر و الغرور و العصبية و الجهل و الكبائر، كلّها تميت القلب، ففى مناجاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۳

التائبين التى تروى

عن الإمام السجّاد عليه السّلام فى الصحيفة السجادية ورد «و أمات قلبى عظيم جنايتى».

و الآيات مورد البحث تأكيد على هذه الحقيقة.

فهل أنّ من يرضى من حياته فقط بأن يعيش غير عالم بشىء فى هذه الدنيا، و يجرى دائما مدار العيش الرغيد الرتيب، لا يعبأ بظلامة المظلوم، و لا يلبّى نداء الحقّ، يفكّر فى نفسه فقط، و يعتبر نفسه غريبا حتّى عن أقرب الأقرباء، هل يعتبر مثل هذا إنسانا حيّا؟

و هل هى حياة تلك التى تكون حصيلتها كميّة من الغذاء المصروف، و إبلاء بعض الألبسة، و النوم و الاستيقاظ المكرور؟ و إذا كانت تلك هى الحياة فما هو فرقها عن حياة الحيوان؟

إذا يجب أن نقرّ و نعترف بأنّ وراء هذه الحياة الظاهرية يكمن عقل و حقيقة أكّد عليها القرآن و تحدّث عنها.

الجميل أنّ القرآن يعتبر الموتى الذين كان لموتهم آثار الحياة الإنسانية أحياء، و لكن الأحياء الذين ليس فيهم أى من آثار الحياة الإنسانية فانّهم فى منطق القرآن الكريم أموات أذلّاء.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۴

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۷۱ الى ۷۶]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ فِيها

مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧۴) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧۵)

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (٧۶)

التّفسير

فوائد الأنعام للإنسان!!

يعود القرآن الكريم مرّة اخرى فى هذه الآيات إلى مسألة التوحيد و الشرك، و يشير- ضمن تعداد قسم من آثار عظمة اللّه فى حياة البشر، و حلّ مشكلاتهم و رفع حاجاتهم- إلى ضعف و عجز الأصنام، و بمقارنة واضحة يشطب على الشرك و يثبت بطلانه، و فى نفس الوقت يثبت حقّانية خطّ التوحيد.

تقول الآية الكريمة الاولى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۵

لَها مالِكُونَ ٢٢٩].

و لكى يستفيدوا بشكل جيّد من هذه الحيوانات: وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ

و لا تنتهى منافعها إلى هذا الحدّ، بل وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ و عليه أَ فَلا يَشْكُرُونَ الشكر الذى هو وسيلة معرفة اللّه و تشخيص ولىّ النعمة.

هنا يجب الالتفات إلى بعض الأمور:

١- من بين النعم المختلفة التى تغمر الإنسان، أشارت الآية إلى نعمة وجود الأنعام، لأنّها تشكّل حضورا دائما فى حياة الإنسان اليومية، إلى حدّ أنّ حياة الإنسان اقترنت بها، بحيث لو أنّها حذفت من صفحة حياة الإنسان فإنّ ذلك سيشكّل عقدة و مشكلة بالنسبة إلى معيشته و أعماله، غير أنّ الإنسان لا يلتفت إلى أهمّيتها لأنّه تعوّد رؤيتها يوميا.

٢- جملة عَمِلَتْ أَيْدِينا كناية عن إعمال القدرة الإلهيّة بشكل مباشر، إذ أنّ أهمّ الأعضاء التى يمارس بها الإنسان قدرته و يعبّر عنها هى يداه، لهذا السبب كانت «اليد» كناية عن القدرة، كأن يقول أحدهم: «إنّ المنطقة الفلانية فى يدى» كناية عن أنّها تحت سيطرته و نفوذه، و يقول القرآن فى هذا الصدد يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [٢٣٠] و ذكر «الأيدى» هنا بصيغة الجمع إشارة إلى مظاهر متنوّعة لقدرة البارى عزّ و جلّ.

٣- جملة فَهُمْ لَها مالِكُونَ المبتدأ بفاء التفريع، إشارة إلى أنّ الخلق مرتبط بقدرتنا، و أمّا المالكية فقد فوّضناها إلى الإنسان، و ذلك منتهى اللطف الإلهى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۶

و عليه فلا محلّ للإشكال الذى ظهر لبعض المفسّرين نتيجة وجود «فاء التفريع»، فالمعنى تماما كما نقول لشخص: هذا البستان زرعناه و أعمرناه، استفد منه أنت، و هذا منتهى إظهار المحبّة و الإيثار.

۴- جملة وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ إشارة إلى مسألة فى غاية الأهمية، و هى تذليل هذه الحيوانات للإنسان. فتلك الحيوانات القوية و التى تنسى فى بعض الأحيان ذلك التذليل الإلهى، و تثور و تغضب و تعاند فتصبح خطرة إلى درجة أنّ عشرات الأشخاص لا يمكنهم الوقوف أمامها. و فى حالاتها الاعتيادية فإنّ قافلة كاملة من الجمال يقودها تارة صبى لم يبلغ الحلم، و يدفعها فى الطريق الذى يرتئيه! إنّه لأمر

عجيب حقّا، فإنّ الإنسان غير قادر على خلق ذبابة، و لا- حتّى ترويضها و تذليلها لخدمته، أمّا اللّه القادر المنّان فإنّه خلق ملايين الملايين من الحيوانات المختلفة، و ذلّلها للإنسان لتكون فى خدمته دوما.

۵- جملة فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ مع الالتفات إلى أنّ (ركوبهم) صفة مشبّهة بمعنى (مركوبهم)- إشارة إلى أنّ الإنسان ينتخب قسما منها للركوب و قسما آخر للتغذّى. و إن كان لحم أغلب الحيوانات المشهورة حلال بنظر الإسلام، إلّا أنّ الإنسان استفاد عمليّا من بعضها فقط للتغذية، فمثلا لحم الحمير لا يستفاد منه إلّا فى الضرورة القصوى.

و من الواضح انّ ذلك إذا اعتبرنا «منها» فى كلا- الجملتين «للتبعيض الإفرادى»، أمّا لو اعتبرنا الاولى «للتبعيض الافرادى» و الثانية «للتبعيض الأجزائى» يكون معنى الآية (بعض الحيوانات تنتخب للركوب و ينتخب جزء من أجسامها للتغذية (إذ أنّ العظام و أمثالها غير قابلة للأكل).

۶- لَهُمْ فِيها مَنافِعُ إشارة إلى فوائد الحيوانات الكثيرة الاخرى التى تتحقّق للإنسان، و من جملتها الأصواف و الأوبار التى تصنع منها مختلف الملابس و الخيم و الفرش، و الجلود التى تصنع منها الحقائب و الملابس و الأحذية و وسائل اخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۷

مختلفة، و حتّى فى عصرنا الحاضر الذى تميّزت فيه الصناعات التقليدية من منتجات الطبيعة لا زال الإنسان فى مسيس الحاجة إلى الحيوانات من حيث التغذية و من حيث الفوائد الاخرى كالألبسة و وسائل الحياة الاخرى. و حتّى بعض أنواع الأمصال و اللقاحات ضدّ الأمراض التى يستفاد فيها من دماء بعض الحيوانات، بل حتّى أنّ أتفه الأشياء الحيوانية و هى روثها أصبح و منذ وقت طويل مورد استفادة الإنسان لتسميد المزارع و تغذية النباتات المثمرة.

۷- مَشارِبُ إشارة إلى الحليب الذى يؤخذ من تلك الدواب و يؤمّن مع منتجاته قسما مهمّا من المواد الغذائية للإنسان، بشكل أضحّت فيه صناعة الحليب و منتجاته تشكّل اليوم رقما مهمّا فى صادرات و واردات الكثير من الدول، ذلك الحليب الذى يشكّل غذاء للإنسان، و يخرج من بين دم و فرث لبنا سائغا يلتذّ به الشاربون، و يكون عاملا لتقوية الضعفاء.

۸- جملة أَ فَلا يَشْكُرُونَ جاءت بصيغة الاستفهام الاستنكارى، و تهدف إلى تحريك الفطرة و العواطف الإنسانية لشكر هذه النعم التى لا تحصى، و التى ورد جانب منها فى الآيات أعلاه، و كما نعلم فإنّ «لزوم شكر المنعم» أساس لمعرفة اللّه، إذ أنّ الشكر لا يمكن أن يكون إلّا بمعرفة المنعم، إضافة إلى أنّ التأمّل فى هذه النعم و إدراك أنّ الأصنام ليس لها أدنى تأثير أو دخل فيها، سيؤدّى إلى إبطال الشرك.

لذا فإنّ الآية التالية، تنتقل إلى الحديث عن المشركين و وصف حالهم فتقول:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ

فيا له من خيال باطل و فكر ضعيف؟ ذلك الذى يعتقد بهذه الموجودات الضعيفة التافهة التى لا تملك لنفسها- ناهيك عن الآخرين- ضرّا و لا نفعا، و يجعلونها إلى جانب اللّه سبحانه و تعالى و يقرنونها به تعالى، و يلجأون إليها لحلّ مشاكل حياتهم؟

نعم، فهم يلجأون إليها لتكون عزّا لهم: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۸

عِزًّا.[۲۳۱] و يتوهّمون أنّها تشفع لهم عند اللّه وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ

على كلّ حال، فإنّ جميع هذه الأوهام نقش على الماء، و كما يقول القرآن الكريم فى الآية (۱۹۲) من سورة الأعراف: وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

و عليه تضيف الآية التالية: إنّ المعبودات لا تستطيع نصرة المشركين، و سيكون هؤلاء المشركون جنودا مجنّدة يتقدّمونها إلى جهنّم: لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ

و يا له من أمر أليم أن يصطف هؤلاء المشركون بصفوف تتقدّمها تلك الأصنام ليدخلوا جهنّم زمرا فى ذلك اليوم العظيم، دون أن يستطيعوا حلّ عقدة مشكلة واحدة من مشكلات هؤلاء المشركين فى ذلك الموقف الرهيب.

التعبير ب مُحْضَرُونَ يكون عادة للتحقير، لأنّ إحضار الأفراد دون أن يكون لموافقتهم أو عدمها أثر إنّما يدلّل على حقارتهم، و بناء على هذا التّفسير فإنّ الضمير الأوّل «هم» فى جملة وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ يعود على «المشركين»، و الضمير الثانى يعود على «الأصنام»، فى حال أنّ بعض المفسّرين احتملوا العكس بحيث تكون الأصنام و الأوثان هى التابعة للمشركين فى يوم القيامة. و فى نفس الوقت فإنّهم- المشركين- ليس لهم فى الأوثان أدنى أمل، و الظاهر أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و على كلّ حال، فإنّ هذه التعابير تصدق- فقط- على المعبودات الحيّة ذات الشعور كالشياطين و العصاة من الجنّ و الإنس، و لكن يحتمل أيضا أنّ اللّه سبحانه و تعالى يبعث الروح فى تلك الأصنام و الأوثان و يعطيها العقل و الشعور لكى توبّخ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۹

هى أولئك الذين عبدوها فى الدنيا، و ضمنا نقول إنّ هذه الأوثان الحجرية و الخشبية ستكون هى الحطب الذى يؤجّج على أولئك المشركين نار جهنّم إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ [۲۳۲] أخيرا- و فى آخر آية من هذه الآيات، و لمواساة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تثبيت فؤاده إزاء مكر المشركين، و الفتن و الأعمال الخرافية- تقول الآية الكريمة:

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ تارة يقولون شاعر، و اخرى ساحر و أمثال ذلك من التهم إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ

فلا تخفى علينا نواياهم، و لا مؤامراتهم فى الخفاء، و لا جحودهم و تكذيبهم لآياتنا فى العلن، نعلم بكلّ ذلك، و نحفظ لهم جزاءهم إلى يوم الحساب، و ستكون أنت أيضا فى أمان من شرّهم فى هذه الدنيا.

و بهذا الحديث الإلهى المواسى يمكن لكلّ مؤمن أيضا- مضافا إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أن يكون مطمئن القلب بأنّ كلّ شىء فى هذا العالم هو بعين اللّه، و سوف لن يصيبه شىء من مكائد الأعداء، فهو تعالى لا يترك عباده المخلصين فى اللحظات و المواقف العصيبة، و هو دوما حام لهم و حافظ.

***

بحث

الثقافة التوحيدية تمنح عباد اللّه المؤمنين طريقة خاصّة فى الحياة، تبعدهم عن السبل الملوثة بالشرك القائمة على أساس عبادة الأوثان، أو اللجوء إلى بعض البشر الضعاف.

و بصراحة و وضوح أكثر نقول: فى عالمنا اليوم و حيث تتحكّم فى البشرية قدرتان من الشرق و الغرب، فإنّ الدول الصغيرة- عادة- و كلّ ما عدا تلكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۰

القدرتين ستفكّر لأجل حفظ نفسها و البقاء بالاتّكاء على إحدى تلك القدرتين الصنمين، و تطلب حمايتها و الإفادة من قدرتها، فى حال أنّ التجارب أثبتت أنّ هاتين القدرتين عند بروز المشاكل و الحوادث المستعصية و الاضطرابات لا تستطيع حلّ مشكلاتها و لا مشكلات من يدور فى فلكها.

و ما أجمل ما يقوله القرآن واصفا هذه الحالة: وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ و هذا تحذير لجميع المسلمين و سالكى طريق التوحيد الخالص، بأن يبتعدوا عن تلك الأصنام، و يلجأوا إلى ظلّ اللطف الإلهى، و أن يعتمدوا على أنفسهم، و على طاقة الإيمان، و أن لا يدعوا طريقا لهذه الأفكار الإشراكية الملوّثة تصل إلى فكرهم بحيث يلجأون إلى تلك القدرات و يستنجدونها فى

الملمّات، و أن يطهّروا الثقافة الإسلامية و المجتمعات الإسلامية من هذه الأفكار، و أن يعلموا بأنّهم قد نالوا ضربات عديدة حتّى الآن نتيجة هذا المنطق- سواء أمام إسرائيل الغاصبة أو الأعداء الآخرين- فى حال أنّه لو كان هذا الأصل القرآنى الأصيل يحكم فيهم فإنّ حالهم لم تكن لتبلغ هذا المستوى من الهزيمة و الانكسار، آملين أن نصل إلى اليوم الذى نعيد فيه بناء أفكارنا حسب المفاهيم و المبادئ القرآنية، و أن نعتمد على أنفسنا، و نلجأ إلى ظلّ اللطف الإلهى فنعيش أعزّاء مرفوعى الرؤوس أحرارا إن شاء اللّه.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۱

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۷۷ الى ۷۹]

اشارة

أ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۷۷) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (۷۸) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (۷۹)

سبب النّزول

نقلت أغلب التفاسير

عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام أنّه قال: «جاء أبيّ بن خلف (أو العاص بن وائل) فأخذ عظما باليا من حائط ففته ثمّ قال: إذا كنّا عظاما و رفاتا إنّا لمبعوثون خلقا؟» فأنزل اللّه: قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

التّفسير

قلنا أنّ البحوث المختلفة حول المبدأ و المعاد و النبوّة فى سورة (يس) التى هى قلب القرآن وردت بشكل مقاطع مختلفة، فهذه السورة ابتدأت بمسألة النبوّة، و اختتمت بسبعة آيات تمثّل أقوى البيانات حول المعاد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۲

فى البدء تأخذ بيد الإنسان و تشير له إلى بدء حياته فى ذلك اليوم حيث كان نطفة مهينة لا غير و تدعوه إلى التأمّل و التفكّر، فتقول: أ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۲۳۳]. يا له من تعبير حيوى؟ فالآية تؤكّد أوّلا على مخاطبة الإنسان، أيّا كان و أيّ إعتقاد كان يعتقد، و على أيّ مستوى كان من العلم، فهو يستطيع إدراك هذه الحقيقة.

ثمّ تتحدّث عن «النطفة» و التى هى لغويا بمعنى «الماء المهين» لكى يعلم هذا الإنسان المغرور المتكبّر- بقليل من التأمّل- ماذا كان فى البدء؟ كما أنّ هذا الماء المهين لم يكن هو السبب فى نشوئه و ظهوره، بل خليّة حيّة متناهية فى الصغر، لا ترى بالعين المجرّدة، من ضمن آلاف بل ملايين الخلايا الاخرى التى كانت تسبح فى ذلك الماء المهين، و باتّحادها مع خلية صغيرة اخرى مستقرّة فى رحم المرأة تكوّنت الخليّة البشرية الاولى، و دخل الإنسان إلى عالم الوجود! و تتواصل مراحل التكامل الجنينى الواحدة بعد الأخرى و التى هى ستّة مراحل كما نقلها القرآن الكريم فى بداية سورة «المؤمنون» (النطفة، العلقة، المضغة، العظام، اكتساء العظام باللحم، و تمثّل الخلق السوى). ثمّ إنّ الإنسان بعد الولادة كائن ضعيف جدّا، لا يملك القدرة على شىء، ثمّ يقطع مراحل نموّه بسرعة حتّى بلوغ الرشد الجسمانى و العقلى.

نعم، فهذا الموجود الضعيف العاجز، يصبح قويّا إلى درجة أن يجيز لنفسه النهوض لمحاربة الدعوات الإلهيّة، و ينسى ماضيه و مستقبله، ليكون مصداقا حيّا لقوله تعالى: فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ و اللطيف أنّ هذا التعبير يتضمّن جنبتين، إحداهما تمثّل جانب القوّة، و الاخرى جانب الضعف، و يظهر أنّ القرآن الكريم أشار إليهما جميعا.

إنّ هذا العمل لا يكون إلّا من إنسان يملك عقلا و فكرا و شعورا و استقلالا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۳

و إرادة، و نعلم بأنّ أهمّ مسألة فى حياة الإنسان هى التكلّم و الحديث الذى يهيّأ محتواه مسبقا فى الذهن، ثمّ يصبّ فى قالب من العبارات و يطلق باتّجاه الهدف كالرصاص المنطلق من فوهة البندقية، و هذا العمل لا يمكن حدوثه فى أى كائن حى عدا الإنسان.

و بذلك فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يجسّد قدرته فى إعطاء هذا الماء المهين هذه القوّة العظيمة .. هذا من جانب.

و من جانب آخر فإنّ الإنسان مخلوق مغرور و كثير النسيان، فهو يستغلّ كلّ هذه النعم التى أولاها إيّاه ولى نعمته ضدّه فى المجادلة و المخاصمة، فيا له من مغفّل أحمق!! و يكفى لمعرفة مدى غفلته و حمقه أنّه جاء: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ ۲۳۴].

المقصود من ضرب المثل هنا، نفس المعنى بدون التشبيه و الكناية. فالمقصود هو الاستدلال و ذكر مصداق لإثبات مطلب معيّن. نعم فإنّ (أبيّ بن خلف أو اميّة بن خلف. أو العاص بن وائل) كان قد وجد قطعة متفسّخة من عظم لم يكن معلوما لمن؟ و هل مات موتا طبيعيا؟ أو فى واحدة من حروب العصر الجاهلى المهولة؟

أو مات جوعا؟ و ظنّ أنّه وجد فيه دليلا- قويّا لنفى المعاد! فحمل تلك القطعة من العظم و ذهب حانقا و فرحا فى نفس الوقت و هو يقول: لأخصمن محمّدا.

فذهب إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو فى عجلة من أمره ليقول له: قل لى من ذا الذى يستطيع أن يلبس هذا العظم البالى لباس الحياة من جديد؟ و فتّ بيده قسما من العظم و ذرّه على الأرض، و اعتقد بأنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سيتحيّر فى الجواب و لا يملك ردّا!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۴

و الجميل أنّ القرآن الكريم أجابه بجملة وجيزة مقتضبة و هى قوله تعالى:

وَ نَسِيَ خَلْقَهُ و إن كان قد أردف مضيفا توضيحا أكثر.

فكأنّه يقول: لو لم تنس بدء خلقك لما استدللت بهذا الاستدلال الواهى الفارغ أبدا.

أيّها الإنسان الكثير النسيان، عد قليلا إلى الوراء و انظر فى خلقك، كيف كنت نطفة تافهة و كلّ يوم أنت فى لبس جديد من مراحل الحياة، فأنت فى حال موت و بعث مستمرين، فمن جماد أصبحت رجلا بالغا، و بكميّة من عالم النبات الجامد، و من عالم الحيوان الميّت أيضا أصبحت إنسانا، و لكنّك نسيت كلّ ذلك و صرت تسأل: من يحيى العظام و هى رميم؟ ألم تكن أنت فى البدء ترابا كما هو حال هذه العظام بعد تفسّخها؟! لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يقول لهذا المغرور الأحمق الناسى قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ.

فإذا كان بين يديك اليوم بقيّة من العظام المتفسّخة تذكّرك به، فقد مرّ يوم لم تكن فيه شيئا و لا حتّى ترابا، نعم، أ فليس سهلا على من خلقك من العدم أن يعيد الحياة إلى العظام المهترئة؟! و إذا كنت تعتقد بأنّ هذه العظام بعد تفسّخها تصبح ترابا و تنتشر فى الأصقاع، فمن يستطيع عند ذلك أن يجمع تلك الأجزاء المبعثرة من نقاط انتشارها؟ فإنّ الجواب على ذلك أيضا واضح: وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

فمن كان له مثل هذا (العلم) و هذه (القدرة) فإنّ مسألة المعاد و إحياء الموتى لا تشكّل بالنسبة إليه أيّة مشكلة. فنحن نستطيع بقطعة

من «المغناطیس» جمع برادة الحدید المبثوثة فی کمیّة من التراب و فی لحظات، و اللّه العالم القادر یستطیع کذلک بأمر واحد أن یجمع ذرّات بدن الإنسان من کلّ موضع کانت فیه من الکرة الأرضیة. فهو العالم لیس بخلق الإنسان فقط، بل هو العالم بنوایاه و أعماله أیضا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۵

المحیط بکلّ شیء علما و هو علی کلّ شیء قدیر و علیه فإنّ الحساب علی الأعمال و النوایا و الإعتقادات المضمرة لا یشکلّ له.

و علیه فإنّ الحساب علی الأعمال و النوایا و الإعتقادات المضمرة لا یشکّل له تعالی أدنی مشکلة أیضا، فکما ورد فی الآیة (۲۸۴) من سورة البقرة: وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِی أَنْفُسِکُمْ أَوْ تُخْفُوهُ یُحاسِبْکُمْ بِهِ اللَّهُ

و کذلک حینما أظهر فرعون شکّا فی قدرة اللّه علی المعاد و إحیاء القرون السابقة، أجابه موسی علیه السّلام: قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی فِی کِتابٍ لا یَضِلُّ رَبِّی وَ لا یَنْسی [۲۳۵]***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۶

الآیة [سورة یس (۳۶): آیة ۸۰]

اشارة

الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰)

التّفسیر

تتابع هذه الآیة البحوث المختلفة حول المعاد و الإشارات العمیقة المعنی حول مسألة إمکان المعاد و رفع أی استبعاد لذلک، و الآیة أعلاه شرح أوسع و أوضح حول هذه المسألة، تقول: الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ و یا له من تعبیر رائع ذلک الذی کلّما دقّقنا فیه أفاض علینا معانی أعمق و أدقّ؟! و کما نعلم فإنّ الآیات القرآنیة لها معان متعدّدة من أبعاد مختلفة- فبعض معانیها واضح للغالبیة من الناس فی کلّ زمان و مکان، و بعضها عمیق یختصّ بفهمه البعض، و أخیرا فإنّ بعضها الآخر یتمثّل فیه العمق الذی لا یستطیع سبر غوره إلّا الخواص من العبّاد، و فی نفس الوقت فإنّ تلک المعانی لا تنافی بعضها البعض، بل إنّها تجمع کلّها فی قالب واحد و فی آن واحد. و الآیة مورد البحث هکذا تماما.

التّفسیر الأوّل الذی قال به الکثیر من المفسّرین القدماء. و هو بسیط و واضح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۷

یمکن فهمه و استیعابه من قبل الغالبیة و هو: أنّ المراد هو شجر «المرخ و العفار» الذی کان العرب قدیما یأخذون منهما علی خضرتهما، فیجعل العفار زندا أسفل و یجعل المرخ زندا أعلی، فیسحق الأعلی علی الأسفل فتنقدح النار بإذن اللّه.

و فی الواقع فهو یمثّل الکبریت فی عصرنا الحالی. و اللّه سبحانه و تعالی یرید القول بأنّ الذی یستطیع إشعال النار من هذا الشجر الأخضر له القدرة علی إلباس الموتی لباس الحیاة.

فالماء و النار شیئان متضادّان، فمن یستطیع جعلهما معا فی مکان واحد، قادر علی جعل الحیاة و الموت معا فی مکان واحد. فالذی یخلق (النار) فی قلب (الماء) و (الماء) فی قلب (النار) فمن المسلّم أنّ إحیاء بدن الإنسان المیّت لا یشکّل بالنسبة له أدنی صعوبة.

و إذا خطونا خطوة أبعد من هذا التّفسیر فسوف نصل إلی تفسیر أدقّ و هو: أنّ خاصیّة تولید النار بواسطة خشب الأشجار، لا تنحصر بخشب شجرتی «المرخ و العفار» بل إنّ هذه الخاصیة موجودة فی جمیع الأشجار و جمیع الأجسام الموجودة فی هذا العالم و إن کان

لشجرتى المرخ و العفار- لتوفّر خصائص فيها- استعداد أكثر من غيرهما على هذا الأمر.

خلاصة القول، إنّ جميع خشب الأشجار إذا حكّ ببعضه بشكل متواصل فإنّه سيطلق شرر النار و حتّى (خشب الشجر الأخضر).

لهذا السبب تقع فى بعض الأحيان حرائق هائلة فى بعض الغابات المليئة بالأشجار، لا يعرف لها سبب من قبل الإنسان، إلّا أنّ هبوب الريح الشديدة التى تضرب أغصان الأشجار ببعضها بشدّة ممّا يؤدّى إلى انقداح شرر منها يؤدّى إلى اشتعال النار فيها، و تساعد الريح الشديدة على سرعة انتشارها، فالعامل الأصلى كان تلك الشرارة الناتجة عن الاحتكاك.

هذا التّفسير الأوسع، هو الذى يوضّح عملية جمع الأضداد فى الخلق. و يبسط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۸

مفهوم وجود (البقاء) فى (الفناء) و بالعكس.

لكن ثمّة تفسير ثالث يعتبر أعمق بكثير من التّفسيرين السابقين. و الذى ظهر إلى الواقع نتيجة جهود العلماء فى عصرنا الحاضر و قد اخترنا أن نطلق عليه تسمية «انبعاث الطاقة».

و توضيح ذلك كما يلى: إنّ من أهمّ الوظائف التى تقوم بها النباتات هى عملية «التركيب الضوئى» و التى تعتمد أساسا على أخذ غاز «ثانى اوكسيد الكربون» من الهواء، و الإفادة منه بواسطة «المادّة الخضراء» أو ما يسمّى «بالكلورفيل» لصنع الغذاء بمساعدة الماء و ضوء الشمس. ذلك الغذاء الذى يؤدّى إلى تكوّن حلقات السليلوز فى النباتات من ذوات الفلقتين، و يكون ناتج عملية التركيب الضوئى الأوكسجين الذى يطلق فى الهواء مرّة اخرى.

و لو نظرنا إلى العملية بطريقة اخرى فإنّ النباتات تأخذ الغاز (ثانى أوكسيد الكاربون) و تجزّئه أثناء عملها لتحتفظ بالكاربون مركّبا مع غيره من الماء لتكوّن الخشب و تطلق الأوكسجين.

و المهمّ هنا أنّ العلماء يقولون: بأن أيّة عملية تركيب كيمياوى تحتاج إلى طاقة ما لكى يتمّ ذلك التفاعل الكيمياوى، أو أنّ ذلك التفاعل يؤدّى إلى إطلاق طاقة كناتج عنه. و بناء عليه فإنّ التفاعل الذى يتمّ نتيجة التركيب الضوئى إنّما يستفيد من الشمس كمصدر للطاقة لإتمام التفاعل.

و عليه فالشجرة إنّما تقوم بادّخار هذه الطاقة فى الخشب الذى يتكوّن نتيجة لهذه العملية. و عند ما نقوم نحن بحرق هذا الخشب فإنّنا إنّما نقوم بإطلاق عقال هذه الطاقة المدّخرة. و بذا فإنّنا نقوم بإعادة تركيب (الكاربون) مع (الأوكسجين) لينتج (ثانى أوكسيد الكاربون) الذى ينطلق فى الهواء مرّة اخرى، بالإضافة إلى بخار الماء.

و لو تحدّثنا بلغة اخرى لقلنا: إنّ تلك الحرارة الناجمة عن اشتعال الحطب فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۹

المواقد البيتية القروية أو مواقد الفحم التى نستعملها فى بيوتنا أحيانا للتدفئة فى فصل الشتاء، هى فى الحقيقة حرارة و نور الشمس التى ادّخرت فى خشب هذه الأشجار لسنوات، و ما جمعته الشجرة على مدى عمرها من الشمس تعيده دفعة واحدة بدون نقص.

و يقال إنّ كلّ الطاقات فى الكرة الأرضية تعود إلى الشمس أساسا، و واحد من مظاهره ما ذكرنا.

و هنا و حيث بلغنا «انبعاث الطاقات» نلاحظ أنّ النور و الحرارة المبعثرة فى الجو و التى تقوم الأشجار بجمعها فى أخشابها لتنمو فإنّها لا تفنى أبدا. بل إنّها تتبدّل شكلا. و تختفى بعيدا عن أعيننا فى كلّ ذرّة من ذرّات الخشب، و عند ما نقوم بإيقاد النار بقطعة من الحطب، فإنّ انبعاثها يبدأ، و جميع ما كان فى ذرّات الخشب من النور و الحرارة و طاقة الشمس، فى تلك اللحظة- لحظة الحشر و النشر- تظهر من جديد. بدون أن ينقص منه حتّى بمقدار إضاءة شمعة واحدة (تأمّل بدقّة).

لا شكّ أنّ هذا المعنى كان خافيا على عوام الناس حين نزول الآية، و لكن- كما قلنا- فإنّ هذا الموضوع لا يشكّل أدنى مشكلة، لأنّ آيات القرآن لها معان متعدّدة و على مستويات مختلفة، لاستعدادات متفاوتة، ففى يوم يفهم من الآية معنى، و اليوم يفهم منها معنى

أوسع، و یمکن أنّ الأجیال القادمة تفهم منها معنی أوسع و أعمق، و فی نفس الوقت فکلّ هذه المعانی صحیحة و مقبولة بشکل کامل و مجموعة کلّها فی معنی الآیة.

***

مسألتان

۱- شجر أخضر .. لماذا؟

یرد علی الذهن أنّه لماذا عبّر القرآن هنا بالشجر الأخضر؟ فی حین أنّ تولید

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۰

النار من الخشب الطری و الرطب یتمّ بصعوبة بالغة، فکم کان جمیلا لو عبّر عوضا عن ذلک «بالشجر الیابس»، لکی ینسجم مع المعنی تماما!!؟

النکتة هنا هو أنّ الشجر الأخضر الحی فقط یستطیع القیام بعملیة الترکیب الضوئی، و ادّخار نور الشمس و حرارتها، و أمّا الجذوع الیابسة للشجر لو بقیت مئات السنین متعرّضة للشمس فإنّها لن تستطیع زیادة الذخیرة الموجودة فیها.

و بناء علیه فإنّ (الشجر الأخضر) فقط یستطیع أن یصنع وقودا لنا، و یمکنه الاحتفاظ و ادّخار الحرارة و النور و زیادتها بصورة محوّرة، و لکنّها بمحض جفافها، فإنّ عملیة الترکیب الضوئی تتوقّف، و تتعطّل معها عملیة ادّخار الطاقة الشمسیة.

و بناء علی هذا فإنّ التعبیر أعلاه، یعتبر تجسیدا جمیلا لعملیة «انبعاث الطاقات» و معجزة علمیة خالدة للقرآن الکریم! ..

فضلا عن أنّنا إذا رجعنا إلی التّفسیرات الاخری التی أشرنا إلیها سابقا، یبقی أیضا التعبیر ب «الشجر الأخضر» جمیلا و مناسبا، إذ أنّ الأشجار الخضراء عند احتکاکها ببعضها البعض تولّد شرارة تستطیع أن تکون مبعث نار کبیرة، و هنا نقف إزاء عظمة قدرة اللّه فی حفظه النار فی قلب الماء، و الماء فی قلب النار[۲۳۶].

۲- الفرق بین الوقود و الوقود:

«توقدون» من «وقود»- علی زنة قبور- بمعنی اشتعال النار- و «الإیقاد» بمعنی إشعال النار، و «الوقود»- علی زنة ثمود- بمعنی الحطب المعدّ للإحراق.

و علیه فإنّ جملة فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ إشارة إلی الحطب الذی تشتعل فیه النار، لا ما تبدأ به النار بالاشتعال کالزناد أو عود الکبریت.

و بناء علیه فإنّ القرآن الکریم یقول: «إنّ اللّه سبحانه و تعالی جعل لکم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۱

الشجر الأخضر حطبا توقدونه، و هو القادر علی إعادة الموتی إلی الحیاة» و هذا التعبیر ینسجم تماما مع ما قلناه من «بعث الطاقات» «تأمّل بدقّة»!! و علی کلّ حال، فإنّ مسألة إشعال النار فی خشب الأشجار مع أنّها مسألة بسیطة فی نظرنا، و لکن بقلیل من الدقّة نعلم أنّها من أعجب المسائل، لأنّ المواد التی یتشکّل منها خشب الأشجار فی أغلبها ماء و تراب، و کلاهما غیر قابل للاشتعال، فما هی تلک القدرة التی خلقت من الماء و التراب و الهواء- و هی مواد- طاقة لا زالت حیاة البشر و منذ آلاف السنین مرتبطة بها بقوّة؟!***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۲

الآيات [سورة يس (٣۶): الآيات ٨١ الى ٨٣]

اشارة

أَ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

التّفسير

هو المالک و الحاکم على كلّ شيء!!

بعد ذكر دلائل المعاد و الفات الأنظار إلى الخلق الأوّل، و نشوء النار من الشجر الأخضر فى الآيات السابقة، تتابع الآية الاولى هنا بحث ذلك الموضوع من طريق ثالث و هو قدرة اللّه اللامتناهية، فتقول الآية الاولى: أَ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الجملة الاولى بشروعها (بالاستفهام الإنكارى) تطرح سؤالا على الوجدان اليقظ و العقل السليم كالآتى: ألم تتطلّعوا إلى تلك السماء المترامية العظيمة بكلّ ثوابتها و سيّاراتها العجيبة، و بكلّ تلك المنظومات و المجرّات التى تشكّل كلّ زاوية منها دنيا واسعة هائلة؟ فالذى هو قادر على خلق كلّ هذه العوالم الخارقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۳

فى العظمة و المتناهية التنظيم و الدقّة فى قوانينها، كيف لا يكون قادرا على إحياء الموتى؟

و لكون الجواب على هذا السؤال واضحا، و كامنا فى كلّ قلب و روح، فإنّ الآية لا تنتظر الجواب، إنّما تردف مضيّفة «بلى» و تتابع مؤكّدة على صفتين للّه سبحانه و تعالى- الخالقية و العلم المطلق- و ذلك فى حقيقته دليل على الكلام المتقدّم، فإذا كنتم تشكّون فى قدرته على الخلق فهو «الخلّاق» (و هى صيغة مبالغة).

و إذا كان جمع هذه الذرّات يحتاج إلى علم أو معرفة فهو «العليم» المطلق.

أمّا على ماذا يعود الضمير فى «مثلهم» فقد احتمل المفسّرون احتمالات عديدة، و لكن أشهرها هو القول بعودة الضمير على «البشر» و المعنى: إنّ خالق السماء و الأرض قادر على خلق مثل البشر.

و هنا يأتى السؤال التالى و هو لماذا لم يقل: قادر على أن يخلقهم من جديد، بل قال: بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

و للإجابة على هذا السؤال ذكرت أجوبة كثيرة، يبدو أقربها: أنّ بدن الإنسان عند ما يتحوّل- أو بالأحرى يتحلّل- إلى تراب، فإنّه يفقد الصورة النهائية التى كان عليها، و فى يوم القيامة عند ما يعاد خلق هذا الإنسان من جديد، فإنّه سيخلق من نفس المواد و لكن بصورة جديدة تشبه الصورة القديمة، بلحاظ أنّ عودة نفس الصورة القديمة- بالأخصّ إذا أخذنا فى الإعتبار قيد الزمن- غير ممكن، و خصوصا إذا علمنا- مثلا- أنّ الإنسان لا- يحشر بجميع المواصفات و الكيفية التى كان عليها سابقا، فإنّ الشيبة و الشيوخ- مثلا- يحشرون شبّانا، و المعلولين يحشرون سالمين، و هكذا.

و بتعبير آخر، فإنّ بدن الإنسان كالطابوق الطينى غير المفخور- اللبن- الذى يمرّ عليه الزمان فيتهدّم و يصبح ترابا، ثمّ يجمع من جديد و تصنع منه خميرة الطين و يوضع فى قالب مرّة اخرى و يصنع لبنا جديدا مرّة اخرى. فهذا «اللبن» هو من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۴

جانب نفس «اللبن» القديم و من جانب آخر «مثله» «مادّته هى نفس المادّة و الصورة مثل الصورة السابقة» «دقّق النظر»[۲۳۷].

الآية اللاحقة تأكيد على ما ورد فى الآيات السابقة، و تأكيد على حقيقة أنّ أى خلق و إيجاد بالنسبة للّه سبحانه و تعالى و قدرته سهل و بسيط، و خلق السموات العظيمة و الكرة الأرضية يعادل فى سهولته إيجاد حشرة صغيرة، فكلاهما بالنسبة له تعالى أمر هيّن بسيط، يقول تعالى: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فكلّ شىء مرتبط بأمره و إشارته فقط، و ذات بهذه القدرة كيف يشكّ فى تمكّنها فى إحياء الموتى؟! و بديهى أنّ الأمر الإلهى هنا ليس أمرا لفظيا، كما أنّ جملة «كن» ليست جملة يبيّنها اللّه سبحانه و تعالى بصورة لفظ، لأنّه تعالى لا- يحتاج إلى تلك الألفاظ، بل المقصود هو مجرّد إرادته لإيجاد و إبداع شىء، و إنّما استخدم التعبير ب «كن» لأنّه ليس هناك تعبير أقصر و أصغر و أسرع يمكن تصوّره فى التعبير عن تلك الحقيقة.

نعم فإرادته لإيجاد شىء و وجود هذا الشىء هى عملية واحدة.

و بتعبير آخر: فإنّ اللّه سبحانه و تعالى ما إن يرد شيئا إلّا تحقّق فورا، و ليس بين إرادته و وجود ذلك الشىء أيّة فاصلة، و عليه فإنّ «أمره» و «قوله» و جملة «كن» كلّها توضيح لمسألة الخلق و الإيجاد. و كما ذكرنا فإنّ الأمر ليس لفظيّا أو قوليا، بل كلّها توضيح للتحقّق السريع بوجود كلّ ما أراده سبحانه و تعالى.

و ببيان أوضح، انّ أفعال اللّه سبحانه و تعالى تمرّ بمرحلتين لا ثالث لهما، مرحلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۵

الإرادة و مرحلة الإيجاد، و هى التى عبّرت عنه الآية بشكل أمر فى جملة «كن».

بعض المفسّرين القدماء توهّموا أنّ المعنى يشير إلى وجود قول و لفظ فى عملية الإيجاد و الخلق، و اعتبروا ذلك من أسرار الخلق غير المعروفة، و الظاهر أنّهم وقعوا فى عقدة اللفظ، و بقوا بعيدين عن المعنى، و قاسوا أعمال اللّه على مقاييسهم البشرية.

و ما أجمل ما

قاله أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام فى واحدة من خطبة التى أوردت فى نهج البلاغة: «يقول لما أراد لما كونه كن فيكون ۲۳۸] لا بصوت يقرع، و لا بنداء يسمع، و إنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، و مثله لم يكن من قبل ذلك كائنا، و لو كان قديما لكان ثانيا»[۲۳۹].

ناهيك عن أنّنا لو افترضنا وجود لفظ أو قول فى عملية الخلق فسنواجه إشكالين أساسيين:

الأوّل: أنّ (اللفظ) بحدّ ذاته مخلوق من مخلوقات اللّه و لأجل إيجاده يحتاج سبحانه إلى «كن» اخرى، و نفس الكلام ينطبق على «كن» الثانية بحيث نصبح فى عملية تسلسل غير منتهية.

الثانى: أنّ كلّ خطاب يحتاج إلى مخاطب، و فى الوقت الذى لم يوجد فيه شىء حينذاك فكيف يخاطبه اللّه سبحانه و تعالى بالقول «كن»، فهل أنّ المعدوم يمكن مخاطبته؟! و قد ورد فى آيات اخرى من القرآن الكريم نفس هذا المعنى بتعبيرات اخرى، كما فى الآية (۱۱۷) من سورة البقرة: وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ و كذا فى الآية (۴۰) من سورة النحل: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۶

[۲۴۰].

الآية الأخيرة من هذه الآيات و هى فى ذات الوقت آخر آية من سورة «يس» تنهى البحث فى مسألة المبدأ و المعاد بشكل جميل و بطريقة الاستنتاج الكلّى فتقول: فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ «ملكوت» من أصل «ملك»- على وزن حكم- بمعنى الحكومة و المالكية، و إضافة (الواو) و (التاء) إليها للتأكيد و المبالغة، يتّضح أنّ معنى الآية كما يلى: إنّ الحاكمية و المالكية المطلقة بدون أدنى قيد أو شرط بيد قدرته المطلقة، و

كذلك فإنّ اللّه سبحانه منزّه و مبرّأ عن أى عجز أو نقص فى القدرة، و بهذا الشكل فإنّ إحياء الموتى و إلباس العظام المتفسّخة لباس الحياة من جديد، كلّ ذلك لن يشكّل لديه أيّة مشكلة، و لذلك فاعلموا يقينا أنّكم إليه ترجعون و أنّ المعاد حقّ.

***

بحوث

اشارة

لقد تقدّمت منّا الوعود بأن نتعرّض لبحث مركز فى مسألة المعاد فى ختام سورة (يس) و ها نحن نفى بهذه الوعود و نشبع هذه المسألة بحثا من خلال ستّة مباحث لنعرضها للقرّاء الأعزّاء كما يلى:

۱- الإعتقاد بالمعاد أمر فطرى:

إذا كان الإنسان قد خلق للفناء فيجب أن يكون عاشقا للفناء، و أن يلتذّ بنهاية عمره و بموته فى حين أنّنا نرى أنّ الموت بمعنى الفناء لم يكن سارا للإنسان فى أى وقت، و هو يفرّ منه بكلّ وجوده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۷

إنّ السعى لإبقاء أجسام الموتى عن طريق التحنيط، و بناء المقابر الخالدة كأهرام مصر، و الجرى وراء ما يسمّى بماء الحياة و دواء الشباب و ما يطيل العمر، كلّ ذلك دليل على عشق الإنسان لمفهوم البقاء.

فإذا كنّا قد خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء سوى أنّها علاقة شاغلة بلا جدوى و لا فائدة.

لا- تنسوا أنّنا نتابع البحث فى مسألة المعاد بعد الاتّفاق على الإعتقاد بوجود اللّه الحكيم العالم، و نحن نعتقد بأنّ كلّ ما خلقه اللّه سبحانه و تعالى فى وجودنا إنّما هو وفقا لحساب و غرض، و بناء عليه فإنّ عشق البقاء لا بدّ أن يكون له حساب خاصّ، منسجم مع الخلق و العالم بعد الدنيا.

و بتعبير آخر: فلو أنّ نظام الخلق أوجد فينا عطشا. فإنّ ذلك دليل على أنّ للماء وجودا فى العالم الخارجى، كذلك فإنّ وجود الغريزة الجنسية و الميل إلى الجنس الآخر يدلّل على وجود الجنس الآخر فى العالم الخارجى، و إلّا فإنّ الانجذاب بدون أن يكون له مدلول و موضوع خارجى لا يتّفق مع حكمة الخلق.

و من جهة اخرى فعند ما نبحث فى التأريخ البشرى منذ أيّام نشأة ذلك التأريخ فإنّنا نجد دلائل كثيرة على الإعتقاد الراسخ لدى الإنسان بالحياة بعد الموت.

فالآثار التى وصلت إلينا من البشر الغابرين- و حتّى إنسان ما قبل التأريخ- و بالأخصّ طريقة دفن الموتى، و كيفية بناء القبور، و حتّى دفن الأشياء المختلفة مع الموتى، كلّها دليل على ما ترسّخ فى وجدانهم من الإعتقاد بالحياة بعد الموت.

«صاموئيل كنيك» أحد علماء النفس المعروفين يقول: «إنّ التحقيقات الدقيقة تشير إلى أنّ المجموعات البشرية الاولى على سطح الأرض، كانت لهم اعتقادات معيّنة، لأنّهم كانوا يلحدون موتاهم بطريقة معيّنة فى الأرض، و يضعون معهم وسائل و آلات أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل الموت إلى جانبهم، و بهذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۸

الطريقة فإنّهم يثبتون اعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت»[۲۴۱].

فهؤلاء اعتقدوا بالحياة بعد الموت، و إن كانوا قد سلكوا طريقا خاطئا فی اعتقادهم كتوهّمهم أنّ تلك الحياة شبيهة بهذه الحياة تماما. على كلّ حال، فلا يمكن قبول أنّ ذلك الإعتقاد القديم مجرّد و هم أو نتيجة للتلقين و العادة.

و من جهة ثالثة، فإنّ وجود محكمة «الوجدان»، دليل آخر على فطرية الإعتقاد بالمعاد. فكلّ إنسان عند ما ينجز عملا حسنا فإنّه يستشعر فی أعماقه و فی وجدانه الطمأنينة التی لا يمكن أحيانا وصفها بأی بيان أو كلام.

و على العكس عند ما يرتكب الذنوب و خصوصا الجنايات الكبرى، فإنّه يستشعر عدم الراحة، إلى حد تصل الحالة فی البعض إلى الانتحار، أو يسلّموا أنفسهم إلى المحاكم لنيل العقاب و التعلّق على أعواد المشانق.

كلّ ذلك دليل على عذاب الضمير و الوجدان.

و للإنسان أن يسأل نفسه: كيف يمكن أن يكون عالم صغير كعالم النفس له تلك المحكمة، و لا يكون لهذا العالم العظيم مثل هذا الوجدان و هذه المحكمة؟! و بهذا الشكل يتّضح أنّ الإعتقاد بمسألة المعاد و الحياة بعد الموت أمر فطری، و من عدّة طرق:

من طريق العشق البشری العام للبقاء.

و من طريق وجود ذلك الإعتقاد بالحياة بعد الموت على طول التأريخ البشری.

و من طريق وجود النموذج المصغّر لها فی داخل الإنسان.

۲- أثر الإعتقاد بالمعاد على حياة البشر:

إنّ الإعتقاد بعالم ما بعد الموت و بقاء آثار الأعمال البشرية، و خلود الأعمال-

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۹

سواء كانت خيرا أو شرّا- يترك أثره العميق على فكر و أعصاب و جسد الإنسان، و يمكنه أن يكون عاملا مؤثّرا فی التشجيع على الأعمال الحسنة.

إنّ تأثير الإيمان بالحياة بعد الموت فی إصلاح الأفراد الفاسدين و المنحرفين و تشجيع الأفراد المضحّين و المجاهدين، أكثر بكثير من تأثير المحاكم و العقوبات المعمول بها عادة فی الدنيا، للمزايا التی يتمتّع بها ذلك الإيمان عن المحاكم العادية، ففی محكمة المعاد لا وجود لإعادة النظر، و لا أثر للاضطهاد الفكری على صاحبها، و لا فائدة من إعطاء وثائق كاذبة و مزوّرة، و لا تستغرق- عبر روتينها- مدّة من الزمن.

القرآن الكريم يقول: وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ ۲۴۲].

كذلك يقول تعالى: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِی الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ قُضِیَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ ۲۴۳].

كذلك قوله تعالى: لِيَجْزِیَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ ۲۴۴].

و إنّ حسابه تعالى سريع و حاسم كما نقلت بعض الروايات: «إنّ اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّها فی مقدار لمح البصر»[۲۴۵].

و لهذا السبب فقد اعتبر القرآن الكريم أنّ سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء، فقال تعالى: فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا[۲۴۶].

حتّى أنّه يستفاد من بعض الآيات أنّ الإنسان إذا كان معتقدا بالقيامة فإنّه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفة، فقد ورد فی وصفه تعالى لمن يخسرون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۰

المیزان فی البیع قوله تعالی: أ لا یَظُنُّ أُولئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِیَوْمٍ عَظِیمٍ ۲۴۷].

و الحماسة الخالدة لمجاهدی الإسلام سابقا و حاضرا فی میادین الجهاد، و التضحیة و الفداء و الإیثار الذی یظهره الکثیر من المسلمین فی الدفاع عن بلدان الإسلام و عن المحرومین و المستضعفین، یدلّل علی أنه بجمیعه انعکاس لحالة الإعتقاد بالحیاة الخالدة فی الدار الآخرة، و قد دلّت الدراسات من قبل المفکّرین، و التجارب المختلفة علی أنّ تلک المظاهر لا یمکن أن تکون- فی المقیاس الواسع الشامل- إلّا عن طریق العقیدة بالحیاة بعد الموت.

فإنّ المجاهد الذی منطقه قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَی الْحُسْنَیَیْنِ ۲۴۸]. أی الوصول إلی إحدی السعادتین إمّا النصر أو الشهادة، و هو قطعا مجاهد لا یقبل الهزیمة.

إنّ الموت الذی یبعث علی الوحشة لدی کثیر من الناس، و حتّی أنّهم یحاذرون من ذکر اسمه أو کلّ ما یذکّر به، لیس موحشا و لا قبیحا قطّ بالنسبة إلی المعتقدین بالحیاة بعد الموت، بل إنّه بالنسبة إلیهم نافذة علی عالم رحیب، و تحطّم القفص الدنیوی و کسر القیود المادّیة التی تأسر الروح، و بلوغ الحرّیة المطلقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۲۶۰

" مسألة المعاد تعتبر الخطّ الفاصل بین الإلهیین و المادّیین، لوجود نظرتین مختلفتین هنا:

فالمادّی یری الموت فناء مطلقا، و یفرّ منه بکلّ وجوده، لأنّ کلّ شیء سینتهی به.

و الإلهی یری الموت ولادة جدیدة، و ولوجا فی عالم واسع کبیر مشرق، و الانطلاق فی السماء اللامحدودة. و من الطبیعی فإنّ المعتقدین بهذا المذهب لا یفسحون المجال للخوف و الوحشة للدخول إلی أنفسهم عند سلوکهم طریق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۱

الموت و الشهادة. بل إنّهم یستلهمون من

قول أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب (علیه أفضل الصلاة و السلام) «و اللّه لابن أبی طالب آنس بالموت من الطفل بثدی أمّه»[۲۴۹]

و یستقبلون الموت فی سبیل الهدف برحابة صدر. و لهذا فإنّ أمیر المؤمنین حینما تلقّی الضربة السامّة من اللعین الخاسر «عبد الرحمن بن ملجم» لم یقل سوی

«فزت و ربّ الکعبة».

خلاصة القول: فإنّ الإیمان بالمعاد یجعل من الإنسان الخائف الضائع، إنسانا شجاعا شهما هادفا، تمتلئ حیاته بالحماسة و التضحیة و الصدق و التقوی.

۳- الدلائل العقلیّة علی المعاد:

اشارة

فضلا عن الدلائل النقلیة الکثیرة علی المعاد سواء الواردة فی القرآن المجید، و التی تشمل مئات الآیات بهذا الخصوص، فإنّ هناک أدلّة عقلیّة واضحة أیضا علی هذه المسألة، و التی نحاول ذکرها هنا بشکل مختصر:

أ- برهان الحکمة:

إذا نظرنا إلى هـذا العالم بـدون العالم الآخر، فسـيكون فارغا و بلا معنى تماما، كما لو افترضـنا بوجود الحياة فى الأطوار الجنينية بدون الحياة فى هذه الدنيا.

فلو كان قانون الخلق يقضى بأنّ جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرّد نزولهم من بطون امّهاتهم و يموتون، فإنّ الدور الجنينى سيكون بلا معنى؟ كذلك لو كانت الحياة فى هذا العالم مبتورة عن الحياة فى العالم الآخر، فسنواجه نفس الاضطراب و الحيرة، فما ضرورة أن نعيش سـبعين عاما أو أكثر أو أقل فى هـذه الـدنيا وسط كلّ هـذه المشـكلات؟ فنبدأ الحياة و نحن لا نملك تجربة معيّنة، و حين بلوغ تلك المرتبة يهجم الموت و ينتهى العمر .. نسعى مدّة لتحصيل العلم و المعرفة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۲

و حينما نبلغ درجة منه بعد اشتعال الرأس شيبا يستقبلنا الموت.

ثمّ لأجل ماذا نعيش؟ الأكل و اللبس و النوم و الاستيقاظ المتكرّر يوميا، و استمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين، لماذا؟

فهـل حقّـا إنّ هـذه السـماء المترامية الأطراف و هـذه الأرض الواسـعة، و كلّ هـذه المقـدّمات و المؤخّرات و كلّ هؤلاء الأساتـذة و المعلّميـن و المربّيـن و كـلّ هـذه المكتبـات الضـخمة و كـلّ هـذه الأمور الدقيقـة و الأعمـال الـتى تـداخلت فى خلقنـا و خلـق بـاقى الموجودات، كلّ ذلك لمجرّد الأكل و الشرب و اللبس و الحياة المادية هذه؟

هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهة هذه الحياة، و يقدم بعضهم على الانتحار للتخلّص من هذه الحياة الخاوية، بل قد يفتخر به.

و كيف يمكن لمن يؤمن باللّه و بحكمته المتعالية أن يعتبر هذه الحياة الدنيا وحدها بدون ارتباطها بحياة اخرى ذات قيمة و ذات شأن؟

يقول تعـالى: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ [۲۵۰]. أىّ أنّه لو لم يكن رجوع بعـد هـذه الدنيا إلى اللّه، فإنّ الحياة فى هذه الدنيا ليست سوى عبث فى عبث.

نعم فإنّ الحياة فى هذه الدنيا تجد معناها و يكون لها مفهوما ينسجم مع حكمة اللّه سبحانه و تعالى عند ما تعتبر هذه:

«الدنيا مزرعة للآخرة»

و

«الدنيا قنطرة»

و مكان تعلّم، و جامعة للاستعداد للعالم الآخر و متجر لذلك العالم، تماما كما

يقول أمير المؤمنين على (عليه الصـلاة و السـلام) فى كلماته العميقـة المعنى «إنّ الـدنيا دار صـدق لمن صـدقها، و دار عاقبـة لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزوّد منها، و دار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء اللّه، و مصلّى ملائكة اللّه، و مهبط وحى اللّه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۳

و متجر أولياء اللّه»[۲۵۱].

خلاصـة القول، إنّ الفحص و المطالعة فى وضع هذا العالم يؤدّى إلى الاعتقاد بعالم آخر وراء هذا العالم وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ [۲۵۲].

ب- برهان العدالة:

التدقيق فى نظام الوجود و قوانين الخلق، يسـتنتج منه أنّ كلّ شـىء منها محسوب بدقّة متناهية. ففى مؤسـسة البدن البشرى، يحكم نظام عـادل دقيق، بحيث أنّه لو تعرّض لأدنى تغيير أو عـارض مـا لأدّى إلى إصابته بالمرض أو حتّى الموت، حركات القلب، دوران الـدم، أجفان العين، و كلّ جزء من خلايا الجسم البشـرى مشـمول بهذا النظام الدقيق، الذى يحكم العالم بأسره «و بالعدل قامت السـموات و

الأرض»[۲۵۳] فهـل يسـتطيع الإنسـان أن يكون وحـده النغمـة النشـاز فی هـذا العـالم الواسع؟! صـحيح أنّ اللّه سـبحانه و تعـالى أعطى للإنسان بعض الحريـة فی الإرادة و الإختيار لكی يمتحنه و لكی يتكامل فی ظلّ تلك الحريـة و يطوی مسـير تكامله بنفسه، و لكن إذا أساء الإنسان الاسـتفادة من تلك الحرية فما ذا سـيكون؟! و لو أنّ الظالمين الضالّين المضـلّين بسوء اسـتفادتهم من هذه الموهبة الإلهية استمرّوا على مسـيرهم الخاطئ فما ذا يقتضـی العـدل الإلهی؟! و صـحيح أنّ بعضا من المسـيئين يعاقبون فی هذه الدنيا و يلقون مصـير أعمالهم- على الأقل قسم منهم- و لكن المسـلّم أنّ جميعهم لا ينال جميع ما يستحقّ. كما أنّ جميع المحسنين الأطياب لا يتلقّون جزاء أعمالهم الطيّبة فی الدنيا، فهل من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۴

الممكن أن تكون كلا ـ المجموعتين فی كفّة عدالـة اللّه سواء؟! و يقول القرآن الكريم: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [۲۵۴] و فی موضع آخر يقول تعـالى: أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ.[۲۵۵] على كـلّ حال، فلا شكّ فی تفاوت الناس و إطاعة أوامر اللّه سـبحانه و تعالى، كما أنّ محاكم «القصاص و الثواب الدنيوية» و «محكمة الوجدان» و «الآثار الوضعية للذنوب» كلّ ذلك لا يكفی لإقرار العدالـة على ما يبدو، و عليه يجب القبول بأنّه لأجل إجراء العدالة الإلهية يلزم وجود محكمة عدل عامّة تراعی بدقّة الخير أو الشرّ فی حساباتها، و إلّا فإنّ أصل العدالة لا يمكن تأمينه أبدا.

و بناء على ما تقدّم يجب الإقرار بأنّ قبول العدل الإلهی مساو بالضـرورة لوجود المعاد و القيامة، القرآن الكريم يقول: وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ.[۲۵۶] و يقول: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ [۲۵۷]

ج- برهان الهدف:

على خلاف مـا يتوهّمه المادّيون، فإنّ الإلهيين يرون أنّ هناك هـدفا من خلق الإنسان، و الـذی يعبّر عنه الفلاسـفة ب «التكامل» و فی لسان القرآن و الحـديث فهو «القرب إلى اللّه» أو «العبادة» وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [۲۵۸] فهل يمكن تحقيق هذا الهدف إذا كان الموت نهاية لكلّ شیء؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۵

يجب أن يكون عالم بعـد هذا العالم و يسـتمرّ فيه سـير الإنسان التكاملی، و هنـاك يحصد ما زرع فی هذا العالم، و كما قلنا فی موضع آخر فإنّه فی ذلك العالم الآخر يستمرّ سير الإنسان التكاملی ليبلغ هدفه النهائی.

الخلاصة: أنّ تحقيق الهدف من الخلق لا يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد، و إذا قطعنا الارتباط بين هذا العالم و عالم ما بعد الموت، فكلّ شیء سيتحوّل إلى ألغاز، و سوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.

د- برهان نفی الاختلاف:

لا ـ شكّ أنّنا جميعا نتعـذّب كثيرا من الاختلافات بين المـذاهب و العقائـد فی هـذا العالم، و كلّنا نتمنّى أن تحلّ هـذه الاختلافات، فی حين أنّ جميع القرائن تـدلّل على أنّ هـذه الاختلافات هی من طبيعـة الحياة. و يسـتفاد من عـدّة دلائل بأنّه حتّى بعد قيام المهدی عليه السّـلام- و هو المقيم لحكومـة العـدل العالمية و المزيل لكثير من الاختلافات- سـتبقى بعض الاختلافات العقائدية بلا حلّ تامّ، و كما يقـول القرآن الكريـم فـإنّ اليهـود و النصـارى سـيبقون على اختلافـاتهم إلى قيـام القيامـة: فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ.[۲۵۹] و لكن اللّه سبحانه و تعالى الذی يقود كلّ شیء باتّجاه الوحدة سينهی تلك الاختلافات حتما، و لوجود الحجب الكثيفة لعالم المادّة فی الـدنيا فإنّه لا يمكن حلّ هـذا الأمر بشـكل كامل فيها، و نعلم أنّ العالم الآخر هو عالم الظهور و الانكشاف، إذن فنهاية هذه المسألة ستكون نهاية عملية، و ستكون الحقائق جلية واضحة إلى درجة أنّ الاختلافات العقائدية ستحلّ بشكل نهائی تامّ.

الجمیل أنّه تمّ التأکید فی آیات متعدّدة من القرآن الکریم علی هذه المسألة، یقول تعالی فی الآیة (۱۱۳) من سورة البقرة: فَاللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۶

و فی الآیات (۳۸) و (۳۹) من سورة النحل یقول تعالی:

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لا یَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ یَمُوتُ بَلی وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ لِیُبَیِّنَ لَهُمُ الَّذِی یَخْتَلِفُونَ فِیهِ وَ لِیَعْلَمَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ کانُوا کاذِبِینَ

۴- القرآن و مسألة المعاد:

تعتبر مسألة المعاد المسألة الثانیة بعد مسألة التوحید و التی تعتبر المسألة الأساس فی تعلیمات الأنبیاء بخصائصها و آثارها التربویة، لذا ففی بحوث القرآن الکریم نجد أنّ أکثر الآیات اختصّت ببحث مسألة المعاد، بعد الکثرة الکاثرة التی اختصّت ببحث مسألة التوحید.

و المباحث القرآنیة حول المعاد تارة تکون بشکل استدلالات منطقیة، و اخری بشکل بحوث خطابیة و تلقینیة شدیدة الوقع بحیث أنّ سماعها فی بعض الأحیان یؤدّی إلی قشعریرة شدیدة فی البدن بأسره. و الکلام الصادق- کالاستدلالات المنطقیة- ینفذ إلی أعماق الروح الإنسانیة.

فی القسم الأوّل، أی الاستدلالات المنطقیة، فإنّ القرآن الکریم یؤکّد کثیرا علی موضوع إمکانیة المعاد، إذ أنّ منکری المعاد غالبا ما یتوهّمون استحالته، و یعتقدون بعدم إمکانیة المعاد بصورة معاد جسمانی یستلزم عودة الأجسام المهترئة و التراب إلی الحیاة مرّة اخری.

ففی هذا القسم، یلج القرآن الکریم طرقا متنوعة و متفاوتة تلتقی کلّها فی نقطة واحدة، و هی مسألة «الإمکان العقلی للمعاد».

فتارة یجسّد للإنسان النشأة الاولی، و بعبارة وجیزة و معبّرة واضحة تقول الآیة: کَما بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ [۲۶۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۷

و تارة یجسّد حیاة و موت النبات، و بعثه الذی نراه بامّ أعیننا کلّ عام، و فی الختام یقول إنّ بعثکم تماما کالنبات: وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَکاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِیدِ ... وَ أَحْیَیْنا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً کَذلِکَ الْخُرُوجُ [۲۶۱] و فی موضع آخر یقول تعالی: وَ اللَّهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیاحَ فَتُثِیرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلی بَلَدٍ مَیِّتٍ فَأَحْیَیْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها کَذلِکَ النُّشُورُ.[۲۶۲] و حینا یطرح مسألة قدرة اللّه سبحانه و تعالی علی خلق السموات و الأرض فیقول: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ یَعْیَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلی أَنْ یُحْیِیَ الْمَوْتی بَلی إِنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.[۲۶۳] و حینا آخر یعرض عملیة انبعاث الطاقة و اشتعال الشجر الأخضر کنموذج علی قدرته، و جعل النار فی قلب الماء فیقول: الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً.[۲۶۴] و تارة یجسّد أمام ناظری الإنسان الحیاة الجنینیة فیقول: یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَیِّنَ لَکُمْ وَ نُقِرُّ فِی الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ نُخْرِجُکُمْ طِفْلًا.[۲۶۵] و أخیرا فإنّ القرآن تارة یدلّل علی البعث بالنوم الطویل- النوم الذی هو قرین الموت و أخوه، بل إنّه الموت بعینه من بعض الجوانب- کنوم أصحاب الکهف الذی استمر ثلاثمائة و تسع سنین، و بعد تفصیل جمیل حول النوم و الیقظة یقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۸

وَ کَذلِکَ أَعْثَرْنا عَلَیْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَیْبَ فِیها.[۲۶۶] تلک هی الأسالیب الستّة المختلفة التی طرحتها آیات القرآن الکریم لبیان إمکانیة المعاد. علاوة علی قصّة إبراهیم علیه السّلام و الطیور الأربعة (البقرة- ۲۶۰) و قصّة عزیر (البقرة- ۲۵۹) و

قصّة الشهادة من بنى إسرائيل (البقرة- ۷۳)، و التى تشكّل كلّ واحدة منها نموذجا تأريخيا على هذه المسألة و هى من الشواهد و الدلائل الاخرى التى ذكرها القرآن بهذا الخصوص.

خلاصة القول، إنّ ما يعرضه القرآن الكريم عن المعاد و مظاهره المختلفة و معلوماته و نتائجه، و الدلائل الرفيعة التى يطرحها بهذا الخصوص، حيّة و مقنعة بحيث أنّ أىّ إنسان إذا كان لديه ذرّة من الوجدان فإنّه يتأثّر بعمق ما يطرحه القرآن الكريم.

و على قول البعض: فإنّ ألفا و مائتى آية من القرآن الكريم تبحث فى مسألة المعاد، لو جمعت و فسّرت لأصبحت وحدها كتابا ضخما.

۵- المعاد الجسمانى:

المقصود من المعاد الجسمانى ليس إعادة الجسم وحده فى العالم الآخر، بل إنّ الهدف هو بعث الروح و الجسم معا، و بتعبير آخر فإنّ عودة الروح أمر مسلّم به، و الحديث حول عودة الجسم.

جمع من الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون بالمعاد الروحى فقط، و ينظرون إلى الجسد على أنّه مركّب، يكون مع الإنسان فى هذه الدنيا فقط، و بعد الموت يصبح الإنسان غير محتاج إليه فينزل الجسد و يندفع نحو عالم الأرواح.

و لكن العلماء المسلمين الكبار يعتقدون بأنّ المعاد يشمل الروح و الجسم، و هنا لا يقيّد البعض بعودة الجسم السابق، و يقولون بأنّ اللّه قيّض للروح جسدا، و لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۹

شخصيّة الإنسان بروحه فإنّ هذا الجسد يعدّ جسده.

فى حال أنّ المحقّقين يعتقدون بأنّ هذا الجسد الذى يصبح ترابا و يتلاشى، يتلبّس بالحياة مرّة اخرى بأمر اللّه الذى يجمعه و يكسوه بالحياة، هذه العقيدة نابعة من متون الآيات القرآنية الكريمة.

إنّ الشواهد على المعاد الجسمانى فى الآيات القرآنية الكريمة كثيرة جدّا، بحيث يمكن القول قطعا بأنّ الذين يعتقدون باقتصار المعاد على المعاد الروحى فقط لا يملكون أدنى اطّلاع على الآيات العديدة التى تبحث فى موضوع المعاد، و إلّا فإنّ جسمانية المعاد واضحة فى الآيات القرآنية إلى درجة تنفى أدنى شكّ فى هذه المسألة.

فهذه الآيات التى قرأناها فى آخر سورة يس، توضّح هذه الحقيقة حيث حينما تساءل الإنسان: قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ أجابه القرآن بصراحة و وضوح: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ.

إنّ كلّ تعجّب المشركين و المخالفين لمسألة المعاد هو هذه القضيّة، و هى كيف يمكن إحياؤنا بعد الموت و بعد أن نصبح ترابا متناثرا و ضائعا فى هذه الأرض؟

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.[۲۶۷] إنّهم يقولون: أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ[۲۶۸].

و تعجّبوا من هذه المسألة إلى درجة أنّهم اعتبروا إظهارها دليلا على الجنون أو الكذب على اللّه قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.[۲۶۹] لهذا السبب فإنّ استدلالات القرآن الكريم حول إمكانية المعاد عموما تدور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۰

حول هذا المحور و هو «المعاد الجسمانى» و ما عرضناه فى الفصل السابق فى ستّة طرق كانت دليلا و شاهدا على هذا الادّعاء.

علاوة على أنّ القرآن الكريم يذكر مرارا و تكرارا بأنّكم ستخرجون يوم القيامة من قبوركم و القبور مرتبطة بالمعاد الجسمانى.

و الأوصاف التی يـذكرها القرآن الكريم عن المواهب المادية و المعنوية للجنّة، كلّها تدلّل علی أنّ المعاد معاد جسـمی و معاد روحی أيضا، و إلّا فلا معنی للحور و القصور و أنواع الأغذية و النعيم فی الجنّة إلی جنب المواهب المعنوية.

علی كلّ حال، فلا يمكن أن يكون الإنسان علی جانب يسير من المنطق و الثقافة القرآنية و ينكر المعاد الجسـمانی. و بتعبير آخر: فإنّ إنكار المعاد الجسمانی بنظر القرآن الكريم مساو لإنكار أصل المعاد.

علاوة علی هـذه الأدلّـة النقلية، فإنّ هناک أدلّة عقلية بهذا الخصوص لو أردنا إيرادها لاتّسع البحث كثيرا، لا شکّ أنّ الإعتقاد بالمعاد الجسـمانی سـيثير أسـئلة و إشـكالات كثيرة، منها شبهة الآكل و المأكول و التی ردّ عليها العلماء الإسلاميون و التی أوردنا تفصيلا عنها بشكل مختصر فی المجلّد الثانی عند تفسير الآية (۲۶۰) من سورة البقرة.

۶- الجنّة و النار

الكثيرون يتوهّمون بأنّ عالم ما بعـد الموت يشـبه هذا العالم تماما و لكنّه بشـكل أكمل و أجمل، غير أنّ لدينا قرائن عديدة تدلّل علی الفروق الكبيرة بين العالمين من حيث الكيفية و الكميّة، لو أردنا تشبيهها بالفروق بين العالم الجنينی و هذه الدنيا لظلّت المقايسة أيضـا غير كاملة.

فوفقـا لصـريح الروايـات الواردة فی هـذا الشأن فإنّ فی عالم ما بعـد الموت ما لا عين رأت و لا اذن سـمعت و لا خطر علی فكر بشـر، القرآن الكريم يقول: فَلا تَعْلَمُ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۱

نَفْسٌ مـا أُخْفِيَ لَهُـمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [۲۷۰] الأنظمـة الحاكمـة فی ذلـک العالم أيضا تتفاوت تماما مع الأنظمـة فی هـذا العالم، ففی حين يستفاد فی هذا العالم من أفراد يسمّون «الشهود» فی المحاكمات، نری أنّ هناک تشهد الأيدی و الأرجل و حتّی الجلد الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلی أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْـهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ [۲۷۱] وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَـهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِی أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‌ءٍ [۲۷۲].

علی كـلّ حال، فما قيل عن العالم الآخر لا يرسم أمامنا سوی صورة باهتـة، و عادة فإنّ اللغـة التی نتحـدّث بها و الثقافـة التی لـدينا غير قـادرة جميعهـا علی الوصف الحقيقی لمـا هو موجود هنـاک، و لكن لا ـ يترک الميسور بالمعسور. فالمقـدار المتيقّن هو أنّ الجنّـة هی مركز كلّ النعم و المواهب الإلهية سواء المادية أو المعنوية، و جهنّم هی مركز لكلّ أنواع العذاب الأليم المادّی و المعنوی أيضا.

أمّا بخصوص تفصـيل ذلک فإنّ القرآن الكريم أورد جزئيات نحن نؤمن بها، و لكن تفصـيلها بدقّة غير ممكن بدون الرؤية و المعاينة.

و لنا بحث حول هذا الخصوص فی تفسير الآية (۳۳) من سورة آل عمران.

إلهی: آمنّا فی الفزع الأكبر.

إلهی: لا تحاسبنا بعدلک و لكن حاسبنا بلطفک و عدلک، فليس لدينا من الأعمال ما يوجب رضاک.

اللهم افعل بنا ما يرضيک عنّا و يجعلنا من الناجين آمين ربّ العالمين.

نهاية سورة يس

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۳

سورة الصّافات

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها مائة و اثنان و ثمانون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۵

سورة الصّافات

محتوی سورة الصّافات:

هـذه السورة بحکم کونهـا من السور المکیّة، فإنّها تمتلک کافّة خصائص السور المکیّة، فهی تسلّط الأضواء علی اصول المعارف و العقائـد الإسـلامیة الخاصّة بالمبـدأ و المعاد. و تتوعّد المشـرکین بأشدّ العقاب و ذلک من خلال العبارات الحازمة و الآیات القصیرة العنیفة الوقع، و توضّح- بالأدلّة القاطعة- بطلان عقائدهم.

بصورة عامّة یمکن تلخیص محتوی سورة الصافات فی خمسة أقسام:

القسم الأوّل: یبحث حول مجامیع من ملائکة الرحمن، و مجموعة من الشیاطین المتمردین و مصیرهم.

القسم الثّانی: یتحدّث عن الکافرین، و إنکارهم للنبوّة و المعاد، و العقاب الذی ینتظرهم یوم القیامة، کما یستعرض الحوار الذی یدور بینهم فی ذلک الیوم، و یحملهم جمیعا الذنب، و العذاب الإلهی الذی سیشملهم، کما یشرح هذا القسم جوانب من النعم الموجودة فی الجنّة إضافة إلی ملذّاتها و جمالها و سرور أهلها.

القسم الثّالث: یشـرح بصورة مختصـرة تأریخ الأنبیاء أمثال (نوح) و (إبراهیم) و (إسـحاق) و (موسی) و (هارون) و (إلیاس) و (لوط) و (یونس) و بصورة ذات تأثیر قوی، کما یتحدّث هذا القسم بشکل مفصّل عن إبراهیم محطّم الأصنام و عن جوانب مختلفة من حیاته، و الهدف الرئیسی من وراء سرد قصص الأنبیاء- مع ذکر بعض الشواهد العینیة من تأریخهم- هو تجسید حوادث تلک القصص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۶

و تصویرها بشکل محسوس و ملموس.

القسم الرّابع: یعالج صورة معیّنة من صور الشرک و الذی یمکن اعتباره من أسوأ صور الشرک، و هو الإعتقاد بوجود رابطة القرابة بین اللّه سبحانه و تعالی و الجنّ و الملائکة، و یبیّن بطلان مثل هذه العقائد التافهة بعبارات قصیرة.

أمّا القسم الخامس و الأخیر: فیتناول فی عـدّة آیات قصار انتصار جیوش الحقّ علی جیوش الکفر و الشـرک و النفاق، و ابتلاءهم- أی الکـافرین و المشـرکین و المنـافقین- بالعـذاب الإلهی، و تنزّه آیات هـذا القسم اللّه سـبحانه و تعالی و تقـدّسه عن الأشـیاء التی نسبها المشرکون إلیه، ثمّ تنتهی السورة بالحمد و الثناء علی الباری عزّ و جلّ.

فضیلة تلاوة سورة الصافات:

فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، جاء فیه: «من قرأ سورة الصافات اعطی من الأجر عشر حسنات، بعدد کلّ جنّ و شیطان، و تباعدت عنه مردة الشیاطین، و بریء من الشرک، و شهد له حافظاه یوم القیامة أنّه کان مؤمنا بالمرسلین»[۲۷۳].

و

فی حـدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام جاء فیه: «من قرأ سورة الصافات فی کلّ جمعـة لم یزل محفوظا من کلّ آفـة، مدفوعا عنه کلّ بلیّة فی حیاته الدنیا، مرزوقا فی الدنیا بأوسع ما یکون من الرزق، و لم یصـبه اللّه فی ماله و لا ولده و لا بدنه بسوء من شـیطان رجیـم، و لا جبّار عنیـد، و إن مـات فی یـومه أو لیلتـه بعثـه اللّـه شـهیدا، و أمـاته شـهیدا، و أدخلـه الجنّـة مـع الشـهداء فی درجـة من الجنّة»[۲۷۴].

الثواب العظیم الذی یناله من یتلو سورة الصافات، جاء نتیجة لما تحویه هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۷

السورة المبارکة، فنحن ندرک أنّ الهدف من التلاوة هو التفکّر، و من ثمّ الإعتقاد، و من بعد العمل. و من دون شکّ فإنّ الذی یتلو هذه السورة بتلک الصورة، سیحفظ من شرّ الشیاطین، و یتطهّر من الشرک، و یمتلک الإعتقاد الصحیح القوی، و یمارس أعمالا صالحة، و یتّعظ من القصص الواقعیة للأنبیاء و الأقوام الماضیة، و إنّه سیحشر مع الشهداء.

و ممّا یذکر فإنّ تسمیة هذه السورة بالصافات جاءت نسبة إلی الآیة الاولی فیها.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۸

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا (۱) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (۲) فَالتَّالِیاتِ ذِکْراً (۳) إِنَّ إِلهَکُمْ لَواحِدٌ (۴)

رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ (۵)

التّفسیر

الملائکة المستعدّة لتنفیذ المهام:

هذه السورة هی أوّل سورة فی القرآن الکریم تبدأ بالقسم، القسم الملیء بالمعانی و المثیر للتفکّر، القسم الذی یجوب بفکر الإنسان فی جوانب مختلفة من هذا العالم، و یجعله متهیّئا لتقبّل الحقائق.

من المسلّم به أنّ اللّه تبارک و تعالی هو أصدق الصادقین، و لیس بحاجة إلی القسم، إضافة إلی أنّ قسمه إن کان للمؤمنین، فإنّهم مؤمنون به من دون قسم، و إن کان للناکرین، فإنّ أولئک لا یعتقدون بالقسم الإلهی.

و نلفت الانتباه إلی نقطتین لحلّ مشکلة القسم فی کلّ آیات القرآن التی سنتناولها من الآن فما بعد.

الاولی: أنّ القسم یأتی دائما بالنسبة إلی امور مهمّة و ذات قیمة، و لذلک فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۹

أقسام القرآن تشیر إلی عظمة و أهمیّة الأشیاء المقسم بها. و هذا الأمر یدعو إلی التفکّر أکثر بالشیء المقسم به، التفکّر الذی یکشف للإنسان عن حقائق جدیدة.

الثانیة: أنّ القسم یأتی للتأکید، و للدلالة علی أنّ الأمور التی یقسم من أجلها هی امور جدیّة و مؤکّدة.

و علاوة علی ذلک أنّ المتحدّث لو تحدّث بصورة حازمة و مؤکّدة، فإنّ تأثیر کلامه من الناحیة النفسیة سیکون أوقع علی قلب المستمع، کما أنّه یقوّی المؤمنین و یضعّف الکافرین.

علی کلّ حال، فإنّ بدایة هذه السورة تذکر أسماء ثلاثة طوائف أقسم بها اللّه تعالی [۲۷۵].

الأولی: وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا.

الثانیة: فَالزَّاجِراتِ زَجْراً.

الثالثة: فَالتّالِياتِ ذِكْراً.

فمن هى تلك الطوائف الثلاث؟ و على من أطلقت تلك الصفات؟ و ما الهدف النهائى منها؟

المفسّرون قالوا الكثير بهذا الشأن، إلّا أنّ المعروف و المشهور هو أنّ هذه الصفات تخصّ طوائف من الملائكة ...

طوائف اصطفّت فى عالم الوجود بصفوف منظمة، و هى مستعدّة لتنفيذ الأمر الإلهى.

و طوائف من الملائكة تزجر بنى آدم عن ارتكاب المعاصى و الذنوب، و تحبط وساوس الشياطين فى قلوبهم. أو الملائكة الموكّلة بتسيير السحاب فى السماء و سوقها نحو الأرض اليابسة لإحيائها.

و أخيرا طوائف من الملائكة تتلو آيات الكتب السماوية حين نزول الوحى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۰

على الرسل ۲۷۶].

و ممّا يلفت النظر أنّ «الصافات» هى جمع كلمة «صافّة» و هى بدورها تحمل صفة الجمع أيضا، و تشير إلى مجموعة مصطفّة، إذن ف «الصافات» تعنى الصفوف المتعدّدة[۲۷۷].

و أمّا كلمة «الزاجرات» فإنّها مأخوذة من (الزجر) و يعنى الصرف عن الشىء بالتخويف و الصراخ، و بمعنى أوسع فإنّها تشمل كلّ منع و طرد و زجر للآخرين.

إذن فالزاجرات تعنى مجاميع مهمّتها نهى و صرف و زجر الآخرين.

و «التاليات» من (التلاوة) و هى جمع كلمة (تال) و تعنى طوائف مهمّتها تلاوة شىء ما[۲۷۸].

و نظرا لكثرة و اتّساع مفاهيم هذه الألفاظ، فليس من العجب أن يطرح المفسّرون تفاسير مختلفة لها دون أن يناقض بعضها الآخر، بل من الممكن أيضا أن تجتمع لتوضيح مفهوم هذه الآيات، فمثلا المقصود من كلمة «الصافات» هو صفوف الملائكة المستعدّة لتنفيذ الأوامر الإلهيّة، فى عالم الخلق، أو الملائكة النازلون بالوحى إلى الأنبياء فى عالم التشريع، و كذلك صفوف المقاتلين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۱

و المجاهدين فى سبيل اللّه، أو صفوف المصلّين و العباد.

رغم أنّ القرائن تشير إلى أنّ المراد من كلمة «الصافات» هو الملائكة، إضافة إلى أنّ بعض الروايات قد أشارت إلى ذلك المعنى [۲۷۹].

و ليس هناك أى مانع من أن تشمل كلمة «الزاجرات» الملائكة الذين يطردون وساوس الشياطين من قلوب بنى آدم، و الإنسان الذى يؤدّى واجب النهى عن المنكر.

و «التاليات» إشارة إلى كلّ الملائكة و الجماعات المؤمنة التى تتلو آيات اللّه، و تلهج بذكره تبارك و تعالى على الدوام.

هنا يطرح هذا السؤال: ظاهر هذه الآيات- و بمقتضى وجود العطف بحرف (الفاء) بين الجمل الثلاث- يبيّن أنّ الطوائف الثلاث جاءت الواحدة بعد الاخرى، فهل أنّ هذا الترتيب جاء بحكم الواجب المترتّب على كلّ طائفة؟ أم كلّ حسب مقامه؟ أم لكلا الأمرين؟

من الواضح أنّ الاصطفاف و الاستعداد قد جاءا كمرحلة اولى، ثمّ جاءت- كمرحلة ثانية- عملية إزالة العراقيل من الطريق. أمّا إعلان الأوامر و تنفيذها فقد كانت بمثابة المرحلة الثالثة.

و من جهة اخرى فإنّ المستعدّين لتنفيذ الأوامر الإلهيّة لهم مرتبة، و الذين يزيلون العراقيل لهم مرتبة أعلى، أمّا الذين يتلون الأوامر و ينفّذونها فلهم مرتبة أسمى من الجميع.

على أيّة حال فإنّ قسم اللّه سبحانه و تعالى بتلك الطوائف يوضّح عظم منزلتهم عند البارى عزّ و جلّ، و يشير إلى حقيقة مفادها أنّ سالكى طريق الحقّ عليهم للوصول إلى غايتهم أن يجتازوا تلك المراحل الثلاث و التى تبدأ بتنظيم الصفوف و وقوف كلّ مجموعة

فى الصفّ المخصّص لها، و من ثمّ العمل على إزالة العراقيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۲

من الطريق، و رفع الموانع بالصوت العالى، الصوت الذى يتناسب مع مفهوم الزجر، و من بعد تلاوة الآيات الإلهيّة و الأوامر الربّانية على القلوب المتهيّئة لتنفيذ مضامين تلك الأوامر.

فالمجاهدون السالكون لطريق الحقّ ليس أمامهم من سبيل سوى اجتياز تلك المراحل الثلاث، و بنفس الصورة على العلماء العاملين أن يستوحوا فى جهودهم الجماعية ذلك البرنامج.

و ممّا يذكر أنّ بعض المفسّرين فسّروا الآيات على أنّها تعود على المجاهدين، و البعض الآخر أكّد عودتها على العلماء، و لكن حصر مفهوم الآيات بالمجاهدين و العلماء فقط مستبعد بعض الشىء، و إن أعطيت الآيات طابعا عامّا فإنّها ستكون أقرب للواقع، و إذا اعتبرناها تخصّ الملائكة فإنّ الآخرين يمكنهم تنظيم حياتهم وفق مناهج الملائكة.

أمير المؤمنين على عليه السّلام عند ما يصف بخطبته فى نهج البلاغة الملائكة، فإنّه يقسّمهم إلى مجموعات مختلفة، و يقول: «و صافون لا يتزايلون، و مسبّحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، و لا سهو العقول، و لا فترة الأبدان، و لا غفلة النسيان، و منهم أمناء على وحيه، و ألسنة إلى رسله»[۲۸۰].

أمّا آخر حديثنا عن الآيات الثلاث هذه، فهو أنّ البعض يعتقد بأنّ القسم فى هذه الآيات يعود إلى ذات اللّه، و كلمة (ربّ) مقدّرة فى جميع تلك الآيات، حيث يكون المعنى كالتالى: و ربّ الصافات صفّا، و ربّ الزاجرات زجرا، و ربّ التاليات ذكرا.

و الذين فسّروا الآيات على هذا النحو، فالظاهر أنّهم يعتقدون بأنّ العباد لا يحقّ لهم القسم بغير اللّه، لذا فإنّ اللّه لا يقسم إلّا بذاته، إضافة إلى أنّ القسم يجب أن يكون بشىء مهمّ، ألا و هو ذات اللّه المقدّسة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۳

إلّا أنّ هؤلاء غفلوا عن هذه الحقيقة، و هى أنّ حساب اللّه لا علاقة له بالعباد، فاللّه تعالى- من أجل توجيه الإنسان- يقسم بآيات «الآفاق» و «الأنفس» و دلائل قدرته فى الأرض و السماء، و ذلك لكى يتفكّر الإنسان بتلك الآيات، و عن طريقها يعرف ربّه.

و جدير بالذكر أنّ بعض آيات القرآن المجيد، و منها آيات سورة الشمس تقسم بموجودات الكون إلى جانب القسم بذات اللّه المقدّسة، إذن فالتقدير هنا غير سديد، إذ يقول القرآن الكريم: وَ السَّماءِ وَ ما بَناها وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها[۲۸۱].

على أيّة حال، فإنّ ظاهر الآيات- محلّ البحث- يدلّ على أنّ المجموعات الثلاث هى المقسم بها، و تقدير الشىء هنا خلاف للظاهر، و لا يمكن قبوله بغير دليل.

الآن نرى ما هو المراد من هذه الأقسام المفعمة بالمعانى، أى القسم بالملائكة و الإنس؟

الآية التالية توضّح ذلك و تقول: إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ.

قسم بتلك المقدّسات التى ذكرناها فإنّ الأصنام ستزول و تدمّر، و إنّه ليس هناك من شريك و لا شبيه و لا نظير للّه سبحانه و تعالى.

ثمّ يضيف رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ

و هنا نطرح سؤالين:

۱- ما هى الضرورة لذكر «المشارق» بعد ذكر السماوات و الأرض و ما بينهما، رغم أنّ المشارق هى جزء منهما.

و يتّضح الجواب من خلال الالتفات إلى هذه النقطة و هى: إنّ المراد من «المشارق» هو الإشارة إلى مواقع شروق الشمس فى أيّام السنة، أو إلى مشارق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۴

النجوم المختلفة فى السماء، حيث أنّها جميعا لها نظام و برنامج خاصّ بها، إضافة إلى النظام السماوى و الأرضى الذى يوضّح العلم و

القدرة و التدبير المطلق للخالق.

فالشمس فى كلّ يوم تشرق من مكان غير المكان الذى أشرقت منه قبل يوم أو بعد يوم، و الفواصل الموجودة بين هذه النقاط منظمة و دقيقة للغاية، حيث أنّها لا تزيد و لا تقلّ بمقدار ۱/ ۱۰۰۰ من الثانية، و هذا التنظيم الدقيق موجود منذ ملايين السنين.

كما أنّ هذا النظام ينطبق على ظهور و غروب النجوم.

إضافة إلى ذلك فإنّ الشمس لو لم تكن تتحرّك ضمن مسير تدريجى طوال العام، لم يعد هناك وجود للفصول الأربعة و للنعم المختلفة التى تظهر خلال تلك الفصول، و هذا دليل آخر على عظمة و تدبير الخالق عزّ و جلّ.

و من المعانى الاخرى لكلمة «المشارق»، هو أنّ الأرض لكونها كروية الشكل، فإنّ كلّ نقطة عليها تعتبر بالنسبة إلى النقطة الاخرى إمّا مشرقا أو مغربا، و بهذا فإنّ الآية تؤكّد كروية الأرض و وجود المشارق و المغارب (و لا مانع من تحقّق المعنيين فى الآية المذكورة).

أمّا السؤال الثانى الذى يطرح نفسه فهو: لماذا لم تأت كلمة «مغارب» فى الآية فى مقابل «المشارق» كما جاء فى الآية (۴۰) من سورة المعارج فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ

و الجواب على هذا السؤال، هو أنّ قسما من الكلام ينسخ قسما آخر لوجود القرينة، و فى بعض الأحيان يأتيان معا، و هنا ذكر كلمة «المشارق» قرينة على «المغارب» و هذا التنوّع يوضّح فصاحة القرآن و بلاغته.

فيما قال بعض المفسّرين: إنّ ذكر كلمة (المشارق) يتناسب مع شروق الوحى بواسطة الملائكة فَالتَّالِياتِ ذِكْراً على قلب النّبى الطاهر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۲۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۵

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۶ الى ۱۰]

اشارة

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (۶) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (۷) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (۸) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (۹) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (۱۰)

التّفسير

حفظ السماء من تسلّل الشياطين!

الآيات السابقة تحدّثت عن طوائف الملائكة المكلّفة بتنفيذ المهام الجسام، و الآيات التالية- موضوع البحث- ستتحدّث عن الطائفة المقابلة لها، أى الشياطين و عن مصيرهم. و يمكن أن تكون هذه الآيات مقدّمة لدحض معتقدات مجموعة من المشركين الذين يعبدون الشياطين و الجنّ، و تتضمّن كذلك درسا فى التوحيد بين طيّاتها.

تبدأ الآية بالقول: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ ۲۸۳] فلو رفع أحدنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۶

بصره نحو السماء فى إحدى الليالى المظلمة، لتجسّم فى بصره منظر جميل يسحر الإنسان.

و كأنّ الكواكب تتحدّث معنا بلسانها الصامت، لتكشف لنا أعن أسرار الخلق، و أحيانا تكون شاعرة تنشد لنا أجمل القصائد الغزلية و العرفانية، و إغماضها و تواريها، و من ثمّ إبراقها و لمعانها، يوضّح أسرار العلاقة الموجودة بين العاشق و المعشوق.

حقّا إنّ منظر النجوم فی السماء رائع الجمال، و لا ـ تمل أیّ عين من طول النظر إليه، بل إنّ النظر إليه يزيل التعب و الهمّ من داخل الإنسان. (ممّا يذكر أنّ أبناء المدن فی العصر الحاضر التی يغطّيها دخّان المصانع، لا يستمتعون بمشاهدة السماء و هی مرصّعة بالكواكب كما يشاهدها الإنسان القروی حيث يدركون هذه المقولة القرآنية- أی تزيين السماء بالكواكب- بصورة أفضل).

و من الجدير بالاهتمام قول الآية: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ فی حين كانت الفرضيات الشائعة فی ذلك الوقت فی أذهان العلماء و المفكّرين هی أنّ السماء العليا هی التی تضمّ الكواكب (السماء الثامنة طبقا لفرضيات بطليموس).

و كما هو معروف فإنّ العلم الحديث دحض تلك الفرضيات. و عدم اتّباع القرآن لما جاء فی تلك الفرضيات النادرة و المشهورة فی ذلك الزمان معجزة حيّة لهذا الكتاب السماوی.

و النقطة الاخرى التی تلفت النظر هی أنّ ارتعاش نور الكواكب الجميل و غمزها للناظر يعود- من وجهة نظر العلم الحديث- إلى وجود القشرة الهوائية حول الأرض، و هذا المعنى يتلاءم مع ما نصّت عليه الآية الكريمة السَّماءَ الدُّنْيا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۷

أمّا فی خارج جو الأرض فإنّ النجوم تبدو نقاط منيرة على وتيرة واحدة و ليس لها ذلك التلألؤ، على عكس ما يشاهد داخل جوّ الأرض.

أمّا الآية وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ[۲۸۴] فإنّها تشير إلى حفظ السماء من تسلّل الشياطين إليها.

كلمة (مارد) مشتقّة من (مرد) التی تعنی الأرض المرتفعة الخالية من الزرع، كما يقال للشجرة التی تساقطت أوراقها كلمة (أمرد) و تطلق على الفتى الذی لا شعر فی وجهه. و هنا المقصود من كلمة (مارد) هو الشخص الخبيث العاری من الخير.

حفظ السماء من تسلّل الشياطين يتمّ بواسطة نوع من أنواع النجوم يطلق عليها اسم (الشهب)، و سيشار إليها فی الآيات القادمة.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: إنّ الشياطين لا تتمكّن من سماع حديث ملائكة الملأ الأعلى و معرفة أسرار الغيب التی عندهم، فكلّما حاولوا عمل شیء ما لسماع الحديث، رشقوا بالشهب من كلّ جانب لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ

نعم إنّهم يطردون من السماء بشدّة، و قد أعدّ لهم عذاب دائم، كما جاء فی قوله تعالى: دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ

لا يَسَّمَّعُونَ بمعنى (لا يستمعون) و يفهم منها أنّ الشياطين يحاولون معرفة أخبار «الملأ الأعلى» إلّا أنّه لا يسمح لهم بذلك.

الْمَلَإِ الْأَعْلى تعنی ملائكة السماوات العلى، لأنّ كلمة (ملأ) تطلق فی الأصل على الجماعة التی لها وجهة نظر واحدة، و تعدّ فی نظر الآخرين مجموعة متّحدة و منسجمة، كما تطلق هذه الكلمة على الأشراف و الأعيان و الدائرين فی فلك

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۸

مراكز القوى، لأنّهم يعدّون فی نظر الآخرين متّحدين أيضا، و لكن عند ما يوصف الملأ ب (الأعلى) فذلك إشارة إلى الملائكة الكرام ذوی المقام الأرفع و الأسمى.

«يقذفون» مشتقّة من (قذف) و تعنی رمی الشیء إلى مكان بعيد، و المقصود هنا طرد الشياطين بواسطة الشهب، التی سنتطرّق لها فيما بعد، و هذا يوضّح أنّ الباری عزّ و جلّ لا يسمح للشياطين بالاقتراب من الملأ الأعلى.

«دحورا» مشتقة من (دحر)- على وزن (دهر)- و تعنی طرد الشیء و دفعه، أمّا كلمة (واصب) فإنّها تعنی المرض المزمن، و بصورة عامّة تعنی الدائم و المستمر، و فی بعض الأحيان تعنی (الخالص)[۲۸۵].

و هنا إشارة إلى أنّ الشياطين لا يطردون و لا يمنعون من الاقتراب من السماء فحسب، بل سيصيبهم فی النهاية- مع ذلك- عذاب دائم.

و أشارت الآية أيضا إلى طائفة من الشياطين الشريرة التی تحاول الصعود إلى السماء العليا لاستراق السمع، و إلى المصير الذی ينتظرها هناك، كما جاء فی الآية الشريفة إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ

«الخطفة» أی اختلاس الشیء بسرعة.

و «الشهاب» شیء مضیء متولّد من النار، و یری نوره فی السماء علی شکل خطّ ممتدّ.

و کما هو معروف فإنّ الشهب لیست نجوما، و إنّما تشبه النجوم، و هی عبارة عن قطع صغیرة من الحجر متناثرة فی الفضاء، عند ما تدخل فی مجال جاذبیة الأرض، تنجذب نحوها، و نتیجة دخولها بسرعة إلی جوّ الأرض و احتکاکها الشدید مع الهواء المحیط بالکرة الأرضیة فإنّها تشتعل و تحترق.

و کلمة «ثاقب» تعنی النافذ و الخارق، و کأنّه یخترق العین بنوره الشدید و یثقبها، و هذه إشارة إلی أنّ الشهاب یثقب کلّ شیء یصیبه و یحرقه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۹

و بهذا یکون هناک مانعان یحوّلان دون نفوذ الشیاطین إلی السماء العلیا:

الأوّل، هو رشق الشیاطین من کلّ جانب و طردهم، و الذی یتمّ علی الظاهر بواسطة الشهب.

و الثانی، هو رشقهم بواسطة أنواع خاصّة من الشهب یطلق علیها اسم الشهاب الثاقب، الذی یکون بانتظار کلّ شیطان یحاول التسلّل إلی الملأ الأعلی لاستراق السمع، و هذا المعنی نجده أیضا فی الآیتین (۱۷) و (۱۸) من سورة الحجر وَ حَفِظْناها مِنْ کُلِّ شَیْطانٍ رَجِیمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِینٌ

و فی الآیة الخامسة من سورة الملک وَ لَقَدْ زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِمَصابِیحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّیاطِینِ

و لکن هل یجب الالتزام بظواهر هذه الآیات؟ أم أنّ هناک قرائن تجبرنا علی تفسیرها بخلاف الظاهر، کاستخدام الأمثال و التشبیه و الکنایة؟

هناک وجهات نظر مختلفة بین المفسّرین، فالبعض منهم التزم بظاهر الآیات و بنفس المعانی التی استعرضت فی بدایة الأمر، و قالوا: هناک طوائف من الملائکة تسکن السماء القریبة و البعیدة تعرف أخبار الحوادث التی ستقع فی العالم الأرضی قبل وقوعها، لذا تحاول مجموعة من الشیاطین الصعود إلی السماء لاستراق السمع و معرفة بعض الأخبار، لکی تنقلها إلی عملائها فی الأرض أی الذین یرتبطون بها و یعیشون بین الناس، و لکن ما أن یحاولون الصعود یرشقون بالشهب التی تتّصف بأنّها کالنجوم المتحرّکة، فتجبرهم علی التراجع، أو تصیبهم فتهلکهم.

و یقولون: من الممکن أن لا نفهم بصورة دقیقة ما تعنیه هذه الآیات فی الوقت الحاضر، إلّا أنّنا مکلّفون بحفظ ظواهرها، و ترک تفاصیلها للمستقبل.

و قد اختار هذا التّفسیر العلّامة «الطبرسی» فی (مجمع البیان) و «الآلوسی» فی (روح المعانی) و «سیّد قطب» فی (الظلال)، إضافة إلی عدد آخر من المفسّرین.

فی حین یری البعض الآخر أنّ الآیات المذکورة إنّما هی من قبیل الأمثال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۰

المضروبة تصوّر بها الحقائق الخارجة عن الحسّ فی صورة المحسوس لتقریبها من الحسّ، و هو القائل عزّ و جلّ: وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [۲۸۶] و أضافوا: إنّ المراد من السماء التی تسکنها الملائکة، عالم ملکوتی ذو أفق أعلی من عالمنا المحسوس، و المراد باقتراب الشیاطین من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب، هو أنّ هذه الشیاطین کلّما حاولت الاقتراب من عالم الملائکة للاطلاع علی أسرار الخلیفة و الحوادث المستقبلیة، طردت من هناک بواسطة نور الملکوت الذی لا یطیقونه، و رمتهم الملائکة بالحقّ الذی یبطل أباطیلهم.

و إیراده تعالی قصّة استراق الشیاطین للسمع و رمیهم بالشهب، عقیب الإقسام بملائکة الوحی و حفظهم إیّاه عن مداخلة الشیاطین لا یخلو من تأیید لما ذکرناه [۲۸۷].

و يحتمل أيضا أنّ السماء هنا هى كناية عن سماء الإيمان و المعنويات التى يحاول الشياطين النفوذ إليها، إضافة إلى الانسلال إلى قلوب المؤمنين عن طريق الوساوس التى يبثّونها فى قلوبهم، إلّا أنّ الأنبياء و الصالحين و الأئمّة المعصومين من أهل البيت و السائرين على خطّهم الفكرى و العملى يهاجمون الشياطين بالشهاب الثاقب الذى يمتلكونه، ألا و هو العلم و التقوى، و يمنعون الشياطين من الاقتراب من هذه السماء.

التّفسير المذكور أوردناه هناك كاحتمال، و ذكرنا بعض الدلائل و الشواهد عليه فى نهاية الآية (۱۸) من سورة الحجرات.

هذه ثلاثة تفسيرات مختلفة للآيات مورد البحث و الآيات المشابهة لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۱ الى ۱۵]

اشارة

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (۱۱) بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (۱۲) وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (۱۳) وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (۱۴) وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۵)

التّفسير

الذين لا يقبلون الحقّ أبدا:

هذه الآيات تعالج قضيّة منكرى البعث، و تتابع البحث السابق بشأن قدرة البارى عزّ و جلّ خالق السموات و الأرض، و تبدأ بالاستفسار منهم و تقول: اسألهم هل أنّ معادهم و خلقهم مرّة ثانية أصعب أو خلق الملائكة و السماوات و الأرض:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا.

نعم، فنحن خلقناهم من مادّة تافهة، من طين لزج: إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ

فالمشركون الذين ينكرون المعاد، قالوا بعد سماعهم الآيات السابقة بشأن خلق السموات و الأرض و الملائكة. إنّ خلق الإنسان أصعب من خلق السموات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۲

و الأرض و الملائكة. إلّا أنّ القرآن الكريم أجابهم بالقول: إنّ خلق الإنسان مقابل خلق الأرض و السماء و الملائكة الموجودة فى هذه العوالم، يعدّ لا شيء، لأنّ أصل الإنسان يعود إلى حفنة من التراب اللزج.

«استفتهم» من مادّة «استفتاء» و تعنى الحصول على معلومات جديدة.

و هذا التعبير إشارة إلى أنّ المشركين لو كانوا صادقين فى أنّ خلقهم أهمّ و أصعب من خلق السماوات و الملائكة، فإنّهم قد جاؤوا بموضوع جديد لم يطرح مثله من قبل.

«لازب» يقول البعض: إنّ أصلها كان (لازم)، حيث استبدلت (الميم) (باء) و حاليا تستعمل بهذه الصورة، على أيّة حال فهى تعنى الطين المتلازم بعضه ببعض، يعنى الملتصق لأنّ أصل الإنسان كان من التراب الذى خلط بالماء، و بعد فترة أضحى طينا متجمعا ذا رائحة نتنة، ثمّ تحول إلى طين متماسك (و هذه الصورة هى جمع لحالات متعدّدة مذكورة فى عدّة آيات فى القرآن المجيد).

ثمّ يضيف القرآن الكريم: بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ

نعم أنت تتعجّب لإنكارهم بالمعاد، لأنّك بقلبك الطاهر ترى المسألة واضحة جدّا، و أمّا أصحاب القلوب السوداء فيعبدونها مستحيلة إلى حدّ أنّهم يستهزئون بها و ينكرونها.

و ما يمكن وراء تلك التصرفات القبيحة ليس هو الجهل- فقط- و عدم المعرفة، بل إنّها اللجاجة و العناد، إذ أنّهم كلّما ذكروا بدلائل المعاد و العقوبات الإلهيّة لا يتذكّرون وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ

و الأنكى من ذلك، أنّهم كلّما شاهدوا معجزة من معجزاتك، لا يكتفون بالاستهزاء، و إنّما يدعون الآخرين للاستهزاء أيضا وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ

وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

قولهم «هذا» المقصود منه تحقير المعجزات و الآيات الإلهية و الانتقاص منها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۳

و إطلاقهم كلمة «سحر» على تلك المعجزات لكونها من جهة أعمالا خارقة للعادة، و لا يمكن نكرانها. و من جهة اخرى فإنّهم لم يكونوا راغبين للاستسلام لتلك المعاجز، و كلمة السحر كانت الكلمة الوحيدة التى تعكس خبثهم و ترضى أهواءهم النفسية، و توضّح فى نفس الوقت اعترافهم بالتأثير الكبير للقرآن و لمعجزات النّبى الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

***

ملاحظتان

۱- يعتقد بعض المفسّرين أنّ عبارة «يستسخرون» تعنى «يسخرون»، و لا يوجد أى فرق بين العبارتين. فى حين يؤكّد البعض الآخر على وجود اختلاف بين المعنيين، بقولهم: إنّ «يستسخرون» جاءت من باب استفعال، و تعنى دعوة الآخرين إلى المشاركة فى الاستهزاء، و تشير إلى أنّهم لم يكتفوا لوحدهم بالاستهزاء بآيات القرآن المجيد، و إنّما سعوا لإشراك الآخرين فى ذلك، كى تصير المسألة عامّة فى المجتمع.

و البعض يعتبر هذا الاختلاف توكيد أكثر يستفاد من عبارة (يستسخرون).

فيما فسّر البعض الآخر هذه العبارة بأنّها «الإعتقاد بكون الشيء مثيرا للسخرية»، و يعنى أنّهم نتيجة انحرافهم الشديد كانوا فى قرارة أنفسهم يعتقدون- تماما- أنّ هذه المعجزات ليست أكثر من سخرية، و لكن المعنى الثانى يعدّ أكثر مناسبا من غيره.

۲- عزا بعض المفسّرين سبب نزول هذه الآية إلى قضيّة مفادها أنّ «ركانة» رجل من المشركين من أهل مكّة، لقيه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى جبل خال يرعى غنما له، و كان من أقوى الناس، فقال له: يا ركانة أ رأيت إنّ صرعتك أ تؤمن بى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۴

قال: نعم. فصرعه ثلاثا، ثمّ عرض عليه بعض الآيات و دعا عليه الصلاة و السلام شجرة فأقبلت، فلم يؤمن و جاء إلى مكّة فقال: «يا بنى هاشم ساحروا بصاحبكم أهل الأرض». فنزلت فيه و فى أضرابه هذه الآية.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۵

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۶ الى ۲۳]

اشارة

أ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۱۶) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (۱۸) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (۱۹) وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (۲۰)

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۱) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (۲۳)

التّفسير

هل نبعث من جديد؟

الآيات هذه تتابع سرد أقوال منكرى المعاد، و تواصل الردّ عليها، فالآية الاولى تعكس استبعاد البعث من قبل منكريه، بهذا النصّ أ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۲۸۸][۲۸۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۶

و هل سيبعث آباؤنا الأوّلون أيضا؟ أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ فمن يستطيع جمع تلك العظام النخرة و أكوام التراب المتفرّقة المتبقّية من الإنسان؟ و من يتمكّن من إعادة الحياة إليها؟

فهؤلاء ذوى القلوب العمياء نسوا أنّهم كانوا ترابا فى اليوم الأوّل، و من التراب خلقوا، و إذ كانوا يشكّكون فى قدرة اللّه، فعليهم أن يعرفوا أنّ اللّه كان قد أراهم قدرته، و إن كانوا يشكّكون باستحالة التراب، فقد أثبت ذلك من قبل، و علاوة على هذا فإنّ خلق السماوات و الأرض بكلّ هذه العظمة لا تترك أى مجال للشكّ عند أحد فى قدرة البارى عزّ و جلّ المطلقة.

ممّا يذكر أنّ منكرى البعث صاغوا أقوالهم بشكل عبارات مؤكّدة (إذ أنّ جملة أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ هى جملة اسمية استخدمت فيها (إن) و (لام) و التى تأتى كلّ منهما للتأكيد) و ذلك لجهلهم و لجاجتهم.

و ممّا يلفت النظر أنّ كلمة (التراب) قدّمت على (العظام) و هذا الأمر يحتمل أنّه يشير إلى إحدى النقاط الثلاث الآتية:

أوّلا: إنّ الإنسان بعد وفاته يصير عظاما فى بداية الأمر، ثمّ يتحوّل إلى تراب، و بما أنّ إعادة التراب إلى الحياة يعدّ شيئا عجيبا، لهذا قدّمت كلمة التراب.

ثانيا: عند اندثار أبدان الأموات، فى البداية تتحوّل اللحوم إلى تراب و تبقى إلى جانب العظام، و لهذا فهناك تراب و عظام فى آن واحد.

ثالثا: التراب يشير إلى أجساد الأجداد الأوّلين، و العظام تشير إلى أبدان الآباء و التى لم تتحوّل بعد إلى تراب.

ثمّ يردّ القرآن على تساؤلاتهم بلهجة شديدة و عنيفة، عند ما يقول للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قل لهم: نعم أنتم و أجدادكم ستبعثون صاغرين مهانين أذلّاء، قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ ۲۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۷

فهل تتصوّرون أنّ عمليّة إحيائكم و الأوّلين تعدّ مستحيلة، أو هى عمل عسير على اللّه القادر و القوى؟ كلّا، فإنّ صرخة عظيمة واحدة ممّن كلّفهم اللّه سبحانه و تعالى بذلك كافية لبعث الحياة بمن فى القبور، و نهوض الجميع فجأة من دون أىّ تمهيد أو تحضير من قبورهم ليشاهدوا بأعينهم ساحة المحشر التى كانوا بها يكذّبون فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ

(زجرة) مشتقّة من (زجر) و كما أشرنا إليها سابقا، فإنّها تعنى الطرد، و أحيانا تأتى بمعنى الصرخة، و هنا تفيد المعنى الثانى، و هى إشارة إلى النفخة و الصيحة الثانية لإسرافيل، و التى سنتحدّث بشأنها فى الآيات الأخيرة لسورة الزمر.

عبارة (ينظرون) تشير إلى نظر منكرى البعث لساحة المحشر و هم مدهوشون، أو النظر بعنوان انتظار العذاب، و فى كلا الحالتين فإنّ المقصود ليس- فقط- عودتهم إلى الحياة، و إنّما عودتهم إلى الشعور و النظر فور سماعهم الصيحة.

و تعبير زَجْرَةٌ واحِدَةٌ مع الالتفات إلى معنى الكلمتين، يشير إلى أنّ البعث يتمّ بسرعة و على حين غرّة، و إلى سهولته فى مقابل قدرة البارى عزّ و جلّ، إذ بصرخة واحدة (لملك البعث) المأمور بها تعود الحياة إلى حالتها الاولى.

و هنا تتعالى صرخات المشركين المغرورين و تبيّن ضعفهم و عجزهم و عوزهم، و يقولون: الويل لنا فهذا يوم الدين وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ

نعم، فعند ما تقع أعينهم على محكمة العدل الإلهى و شهودها و قضاتها، و على علامات العقاب فإنّهم- من دون أن يشعروا- يصرخون و يبكون، و يعترفون بحقيقة البعث، الاعتراف الذى يعجز عن إنقاذهم من العذاب، أو تخفيف العقاب الذى ينتظرهم.

و هنا يوجّه إليهم الخطاب من البارى عزّ و جلّ أو من ملائكته: نعم، اليوم هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۸

يوم الفصل الذى كنتم به تكذّبون، يوم فصل الحقّ عن الباطل، و فصل المجرمين عن المتّقين، و يوم المحكمة الإلهيّة الكبرى هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

و مثل هذه العبارات وردت فى آيات اخرى من آيات القرآن الكريم، و التى تتناول يوم القيامة، و تعتبره يوم الفصل، و هى عبارات عجيبة و رهيبة؟![۲۹۱].

الملاحظ، هو أنّ الكافرين يوم القيامة يطلقون على هذا اليوم اسم يوم الجزاء يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ

فيما يطلق عليه البارى عزّ و جلّ فى كتابه الحكيم اسم يوم الفصل هذا يَوْمُ الْفَصْلِ

إنّ الاختلاف بين التعبيرين يمكن أن يكون لهذا السبب، و هو أنّ المجرمين لا يفكّرون إلّا بالجزاء و العقاب الذى سينالهم، و لكن اللّه سبحانه و تعالى يشير إلى معنى أوسع من الجزاء الذى يعدّ أحد أبعاد ذلك اليوم، إذ يعتبر ذلك اليوم هو يوم الفصل، نعم يوم فصل صفوف المجرمين عن المتّقين، كما جاء فى الآية (۵۹) من سورة يس وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ فالأمر فى ذلك اليوم موجّه إلى المجرمين أن انفصلوا عن المؤمنين، فهنا ليست دار الدنيا التى تجمع بين المجرمين و المتّقين.

و كم يكون هذا المشهد رهيبا عند ما يشاهدون أقاربهم و أبناءهم ينفصلون عنهم لإيمانهم باللّه، و يتّجهون نحو جنان الخلد.

و علاوة على أنّ ذلك اليوم هو يوم فصل الحقّ عن الباطل، فيجب أن تتبيّن كلّ الخطوط المتضادّة و البرامج الحقيقيّة و الكاذبة التى كانت مختلطة فى عالم الدنيا فى مكانها الخاصّ بها.

على أيّة حال، إنّ ذلك اليوم- أى يوم الفصل- يعنى أيضا يوم المحاكمة، ففى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۹

ذلك اليوم يقضى اللّه العالم العادل بين عباده و يصدر أحكاما دقيقة بحقّهم، و هنا يخزى المشركون.

إذن، فطبيعة الدنيا هى اختلاط الحقّ بالباطل، فى حين أنّ طبيعة البعث هو فصل الحقّ عن الباطل، و لهذا السبب فإنّ أحد أسماء يوم القيامة فى القرآن المجيد (يوم الفصل) و الذى كرّر عدّة مرّات، اليوم الذى تظهر فيه كافّة الخفايا و الأسرار، و لا يمكن تجنب عملية فصل الصفوف.

ثمّ يصدر البارى عزّ و جلّ أوامره إلى ملائكته المكلّفين بإرسال المجرمين إلى جهنّم أن احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ

نعم احشروهم و ما كانوا يعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ

(احشروا) مشتقّة من (حشر) و يقول الراغب فى مفرداته: إنّها تعنى إخراج الجماعة عن مقرّهم و إزعاجهم عنه إلى الحرب و نحوها.

و هذه الكلمة تأتی بمعنى «تجميع» فی الكثير من الحالات.

على كلّ حال، فالخطاب هنا إمّا أن يكون من جانب اللّه عزّ و جلّ، أو من طائفة من الملائكة إلى طائفة اخرى مكلّفة بسوق المجرمين إلى الجحيم و النتيجة واحدة.

(أزواج) هنا إمّا أن تشير إلى زوجات المجرمين و المشركين، أو إلى من يعتقد اعتقادهم و يعمل عملهم و من هو على شاكلتهم، لأنّ هذه الكلمة تشمل المعنيين، حيث نقرأ فی سورة الواقعة الآية (۷) وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً.

و بهذا يحشر المشركون مع المشركين و الأشرار، و ذوو القلوب العمياء مع نظائرهم، ثمّ يساقون إلى جهنّم.

أو أنّ المقصود من الأزواج هم الشياطين الذين كانوا يشابهونهم فی الشكل و العمل.

المهمّ، هو عدم وجود أی اختلاف بين هذه المعانی الثلاثة، و من الممكن أن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۰

تجتمع فی مفهوم الآية.

جملة ما كانُوا يَعْبُدُونَ تشير إلى آلهة المشركين، كالأصنام و الشياطين و الطغاة المتجبّرين و الفراعنة و النماردة، و عبّرت عنها ب ما كانُوا يَعْبُدُونَ لكون أغلب تلك الآلهة موجودات عديمة الحياة و غير عاقلة، و قد اصطلح عليها بهذا التعبير لأنّه يعطی طابع التغليب.

(الجحيم) تعنی جهنّم، و هی من مادّة (جحمة) على وزن (ضربة) و تعنی شدّة تأجيج النار.

و الملاحظ فی الآية استخدامها عبارة فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ حقّا كم هذه العبارة عجيبة؟ ففی أحد الأيّام ارشدوا إلى الصراط المستقيم و لكنّهم لم يقبلوه، و اليوم يجب أن يهدوا إلى صراط الجحيم، و هم مجبرون على القبول به، و هذا توبيخ عنيف لهم يجعلهم يتحرّقون ألما فی أعماقهم.

***

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۲۴ الى ۳۲]

اشارة

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (۲۴) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۷) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (۲۸)

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۲۹) وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (۳۰) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (۳۱) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (۳۲)

التّفسير

الحوار بين القادة و الأتباع الضالّين:

الآيات السابقة استعرضت كيفية سوق ملائكة العذاب للظالمين و من يعتقد اعتقادهم برفقة الأصنام و الآلهة الكاذبة التی كانوا يعبدونها من دون اللّه، إلى مكان معيّن، و من ثمّ هدايتهم إلى صراط الجحيم.

و استمرارا لهذا الاستعراض يقول القرآن: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ ۲۹۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۲

نعم عليهم أن يتوقّفوا و يجيبوا على مختلف الأسئلة التى تطرح عليهم، و لكن عمّا ذا يسألون؟

قال البعض: يسألون عن البدع التى اختلقوها.

و قال البعض الآخر: يسألون عن أعمالهم القبيحة و أخطائهم.

و البعض أضاف: إنّهم يسألون عن التوحيد و قول لا إله إلّا اللّه.

و ذهب آخرون: إنّهم يسألون عن النعم التى أنعمت عليهم، و عن شبابهم و صحّتهم و أعمارهم و أموالهم و نحوها، و هناك رواية يذكرها الشيعة و السنّة فى أنّهم يسألون عن ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام ۲۹۳].

و بالطبع فإنّ هذه التفاسير لا يوجد أى تناقض بينها، لأنّ فى ذلك اليوم يتمّ السؤال عن كلّ شىء، عن العقائد و عن التوحيد و الولاية، و عن الحديث و العمل، و عن النعم و المواهب التى وضعها اللّه سبحانه و تعالى فى إختيار الإنسان.

و هنا يطرح هذا السؤال نفسه، و هو: كيف يساق أولئك أوّلا إلى صراط الجحيم، ثمّ يؤمرون بالتوقّف لاستجوابهم؟

ألا ينبغى تقديم عملية إيقافهم و مساءلتهم على سوقهم إلى صراط الجحيم؟

هناك جوابان لهذا السؤال و هما:

أوّلا- كون أولئك من أهل جهنّم أمر واضح للجميع، و حتّى لأنفسهم، و استجوابهم إنّما يتمّ لإعلامهم بمقدار و حجم الذنوب و الجرائم التى اقترفوها ..

ثانيا: طرح هذه الأسئلة عليهم لا لمحاكمتهم، و إنّما ذلك لتوبيخهم و معاقبتهم نفسيا.

و بالطبع فإنّ كلّ ذلك فى حالة كون الأسئلة متعلّقة بما أوردنا آنفا، أمّا إذا ارتبط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۳

الحديث بالآية التالية و التى تسألهم عن عدم نصرتهم بعضهم البعض، فهنا لا تبقى أيّة مشكلة فى تفسير الآية، و لكن هذا التّفسير لا يتطابق مع جاء فى عدّة روايات بهذا الشأن، إلّا إذا كان هذا السؤال جزء من أسئلة مختلفة.

على أيّة حال، فعند ما يساق المجرمون إلى صراط الجحيم، تكون أيديهم مقطوعة عن كلّ شىء و قاصرة عن تحصيل العون، و يقال لهم: أنتم الذين كان أحدكم يلجأ إلى الآخر فى المشكلات و يطلب العون منه، لم لا ينصر بعضكم بعضا الآن ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ

نعم، فكلّ الدعائم التى تصوّرتم انّها دعامات مطمئنة فى الدنيا أزيلت عنكم، و لا يمكن أن يساعد بعضكم البعض، كما أنّ آلهتكم ليسوا بقادرين على تقديم العون لكم، لأنّهم عاجزون و منشغلون بأنفسهم.

يقال أنّ (أبا جهل) نادى يوم معركة بدر «نحن جميع منتصر»، و القرآن المجيد أعاد تكرار قوله فى الآية (۴۴) من سورة القمر أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ فيوم القيامة يسأل أبو جهل و أمثاله: لماذا لا يسعى بعضكم لمساعدة البعض الآخر؟ و لكن لا يمتلكون أى جواب لهذا السؤال، سوى سكوتهم الدالّ على ذلّتهم.

الآية التى تليها تضيف: إنّهم فى ذلك اليوم مستسلمون لأوامر اللّه و خاضعون له، و لا يمكنهم إظهار المخالفة أو الاعتراض بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۲۹۴].

و هنا يبدأ كلّ واحد منهم بلوم الآخر، و يسعى إلى إلقاء أوزاره على عاتق الآخر، و التابعون يعتبرون رؤساءهم و أئمّتهم هم المقصّرون، فيقابلونهم وجها لوجه، و يبدأ كلّ منهم بسؤال الآخر، كما تقول الآية: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۴

و هنا يقول التابعون لمتبوعيهم: إنّكم شياطين، إذ كنتم تأتوننا بعنوان النصيحة و الهداية و التوجيه و إرادة الخير و السعادة لنا، و لكن لم يكن من وراء مجيئكم سوى المكر و الضياع قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ

إذ أنّنا- بحكم فطرتنا- كنّا نسعى وراء الخير و الطهارة و السعادة، و لذا لبّينا دعوتكم، لكنّنا لم نكن نعلم أنّكم تخفون وراء وجوهكم الخيّرة ظاهرا وجها آخر شيطانيا و قبيحا أوقعنا فى الخطيئة، نعم فكلّ الذنوب التى ارتكبناها أنتم مسئولون عنها، لأنّنا لم نكن نملك شيئا سوى حسن النيّة و طهارة القلب، و أنتم الشياطين الكذّابون لم يكن لديكم سوى الخداع و المكر.

كلمة (يمين) تعنى (اليد اليمنى) أو (الجهة اليمنى) و العرب تعتبرها فى بعض الأحيان كناية عن الخير و البركة و النصيحة، و كلّ ما يرد إليهم من جهة اليمين يتفاءلون به، و لذا فإنّ الكثير من المفسّرين يفسّرون كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ على أنّها تظهر الخير و النصيحة كما ذكرنا ذلك أعلاه.

على أيّة حال، الثقافة العامّة تعتبر العضو الأيمن أو الطرف الأيمن شريفا، و الأيسر غير شريف، و لهذا السبب تستعمل اليمين للإحسان و عمل الخيرات.

و قد ذكرت مجموعة من المفسّرين تفسيرا آخر و هو: إنّ المقصود هو أنّكم أتيتمونا باعتمادكم على القدرة، لأنّ الجهة اليمنى تكون عادة هى الأقوى، و بهذا الدليل فإنّ أغلب الناس ينجزون أعمالهم المهمّة و الصعبة باليد اليمنى، لذا فقد أصبح هذا التعبير كناية عن «القدرة».

و هناك تفسيرات اخرى تعود إلى هذين التّفسيرات أعلاه، و لكن لا شكّ أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و فى المقابل فإنّ المتبوعين و القادة لا يسكتون، بل يجيبون تابعيهم بالقول:

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

فلو لم تكن أهواؤكم منحرفة، و لو لم تكونوا من طلّاب الشرّ و الشيطنة، لما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۵

اتّبعتمونا بإشارة واحدة، و لماذا لم تستجيبوا لدعوة الأنبياء و الصالحين؟ إذا فالخلل فيكم أنتم، اذهبوا و لوموا أنفسكم و العنوها. و دليلنا واضح، إذ لم تكن لنا أى سلطة عليكم، و لم نضغط عليكم و نجبركم لعمل أى شيء وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ

إنّما أنتم قوم طغاة و معتدون، و أخلاقكم و طبيعتكم الظالمة صارت سبب تعاستكم بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ

و كم هو مؤلم أن يرى الإنسان قائده و إمامه الذى كان قد ارتبط به قلبيّا طوال عمره، قد تسبّب فى تعاسته و شقائه ثمّ يتبرّأ منه، و يلقى كلّ الذنوب على عاتقه؟

فى الحقيقة، إنّ كلا المجموعتين صادقة فى قولها، فلا هؤلاء، أبرياء و لا أولئك، فالغواية و الشيطنة كانت من أولئك، و تقبل الغواية و الاستسلام كان من هؤلاء.

فجدا لكم لا يؤدّى إلى نتيجة، و هنا يعترف أئمّة الضلال بهذه الحقيقة، و يقولون:

بهذا الدليل ثبت أمر اللّه علينا، و صدر حكم العذاب بحقّ الجميع، و سينالنا جميعا عذاب اللّه فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ

إنّكم كنتم طاغين، و هذا هو مصير الطغاة، أمّا نحن فقد كنّا ضالّين و مضلّين.

فنحن أضللناكم كما كنّا نحن أنفسنا ضالّين فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ

بناء على ذلك ما الذى يثير العجب فى أن نكون جميعا شركاء فى هذه المصائب و هذا العذاب؟

***

ملاحظتان

۱- السؤال أيضا عن ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام:

بالشكل الذى أشرنا إليه سابقا، فإنّ روايات عديدة وردت فى مصادر الشيعة و أهل السنّة بشأن تفسير هذه الآية وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ تبيّن أنّ من جملة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۶

القضايا التى يسأل عنها المجرمون يوم القيامة هو ما يتعلّق بولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام.

فالشيخ «الطوسى» نقل فى كتابه (الأمالى) عن أنس بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا كان يوم القيامة و نصب الصراط على جهنّم لم يجز عليه إلّا من معه جواز فيه ولاية على بن أبى طالب، و ذلك قوله تعالى: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ يعنى عن ولاية على بن أبى طالب عليه السّلام»[۲۹۵].

كما أكّد الكثير من كتب أهل السنّة على أنّ تفسير هذه الآية يخصّ السؤال بشأن ولاية على بن أبى طالب عليه السّلام، و قد نقل هذه الرواية ابن عبّاس و أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما نقلها رواة آخرون منهم:

ابن حجر الهيثمى فى الصواعق المحرقة- الصفحة ۱۴۷.

عبد الرزاق الحنبلى فى كشف الغمّة- الصفحة ۹۲.

العلّامة سبط ابن الجوزى فى التذكرة- الصفحة ۲۱.

الآلوسى فى روح المعانى فى نهاية هذه الآية.

أبو نعيم الأصفهانى فى كفاية الخصال- الصفحة ۳۶۰، و غيرهم من الرواة[۲۹۶].

و بالطبع، و كما قلنا مرارا، فإنّ مثل هذه الروايات لا تحدّ من المفهوم الواسع للآيات، بل تعكس- فى الحقيقة- مصاديقها الواضحة، بناء على ذلك فإنّه ليس هناك أى مانع من أن يسأل عن جميع العقائد، لكن بما أنّ للولاية موقعا خاصّا فى بحث العقائد فقد استند عليها.

و هناك نقطة جديرة بالاهتمام، و هى أنّ الولاية لا تعنى علاقة عادية أو اعتقادا جافّا، و إنّما الهدف هو قبول قيادة الإمام على عليه السّلام فى المسائل العقائدية و العلمية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۷

و الأخلاقية و الاجتماعية بعد النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قد عكست خطب أمير المؤمنين عليه السّلام و كلماته فى نهج البلاغة نماذج من تلك المسائل .. المسائل التى يعدّ الإيمان بها و العمل على أساسها وسيلة مؤثّرة للخروج من صفّ أهل جهنّم و الاستقرار على صراط اللّه المستقيم.

۲- المتبوعون و التابعون الضالّون:

الآيات المذكورة أعلاه و آيات اخرى فى القرآن الكريم، تضمّنت إشارات ذات مغزى عن التخاصم الذى يقع بين الأتباع و المتبوعين يوم القيامة أو فى جهنّم و هذا تحذير مفيد لكلّ من يضع عقله و دينه تحت تصرّف أئمّة الضلال.

و مع أنّ كلّ واحد يسعى فى ذلك اليوم للتبرؤ من الآخر، و حتّى أنّه يحاول إلقاء تبعات ارتكاب الذنب عليه، و لكن بتلك الحال لا يستطيع أى واحد منهم إثبات براءته.

و شاهدنا فى الآيات المذكورة أعلاه أنّ أئمّة الغواية و الضلال يقولون بصراحة لتابعيهم: إنّ سبب تأثيرنا عليكم هو وجود روح الطغيان فى داخلكم بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ

هذا الطغيان هيّأ لديكم أرضية التأثّر بإغوائنا، و عبّر هذا الطريق تمكّنا من نقل الخرافات إليكم فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ

التوجّه الدقیق لمعنی (أغوی) و المشتقّة من (غی) یوضّح الموضوع، لأنّ کلمة (غیّ) کما یقول الراغب فی (مفرداته) تعنی الجهل الناشئ من المعتقدات الفاسدة، إذ أنّ أئمّة الضلال بقوا بعیدین عن معرفة حقائق الوجود و الحیاة، و نقلوا جهلهم و معتقداتهم الفاسدة إلی تابعیهم الذین کانوا یحملون روح الطغیان فی مقابل أمر الباری عزّ و جلّ.

و بهذا الدلیل یعترفون هناک بأنّهم هم و تابعوهم یستحقّون العذاب، فَحَقَّ عَلَیْنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۸

قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ

و کلمة (ربّ) هنا لها مغزی کبیر، إذ أنّ الإنسان یصل إلی درجة بحیث أنّ اللّه الذی هو مالک ذلک الإنسان و مربّیه و لا یرید له سوی الخیر و السعادة یأمر بالقائه فی أشدّ العذاب!! و هذا أیضا من شؤون ربوبیته.

علی أیّة حال فإنّ ذلک الیوم هو حقّا (یوم الحسرة) حیث یندم فیه أئمّة الضلال و تابعوهم علی أفعالهم، و لکن ما الفائدة؟ فلیس هناک أی طریق للرجعة.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۹

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۳۳ الی ۴۰]

اشارة

فَإِنَّهُمْ یَوْمَئِذٍ فِی الْعَذابِ مُشْتَرِکُونَ (۳۳) إِنَّا کَذلِکَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِینَ (۳۴) إِنَّهُمْ کانُوا إِذا قِیلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ یَسْتَکْبِرُونَ (۳۵) وَ یَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِکُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِینَ (۳۷)
إِنَّکُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِیمِ (۳۸) وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۹) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ (۴۰)

التّفسیر

مصیر أئمّة الضلال و أتباعهم:

الآیات السابقة بحثت موضوع التخاصم الذی یدور بین أئمّة الضلال و تابعیهم یوم القیامة قرب جهنّم، أمّا الآیات أعلاه فقد وضّحت- فی موضع واحد- مصیر المجموعتین، و شرحت أسباب تعاستهم بشکل یشخّص المرض و یصف الدواء الخاص لمعالجته.

ففی البدایة تقول: إنّ التابع و المتبوع و الإمام و المأموم مشترکون فی ذلک الیوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۰

بالعذاب الإلهی فَإِنَّهُمْ یَوْمَئِذٍ فِی الْعَذابِ مُشْتَرِکُونَ

و بالطبع فإنّ اشتراکهم فی العذاب لا یمنع من وجود اختلاف فی المکان الذی سیلقون به جهنّم، إضافة إلی اختلاف نوع العذاب الإلهی. إذ من الطبیعی أنّ الذی یتسبّب فی انحراف الآلاف من البشر لا یتساوی عذابه مع فرد ضالّ عادی، و هذه الآیة تشبه الآیة (۴۸) فی سورة غافر و التی یقول فیها المستکبرون لضعفاء الإیمان بعد محاججة و مخاصمة تجری فیما بینهم: إنّنا جمیعا فی جهنّم، لأنّ اللّه قد حکم بالعدل بین العباد قالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُلٌّ فِیها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ الْعِبادِ.

و هذه الآیة لا تنافی الآیة (۱۳) من سورة العنکبوت، و التی یقول فیها الباری عزّ و جلّ وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ أی إنّهم یحملون یوم القیامة أحمالهم الثقیلة، و أحمالا اخری أضیفت إلی أحمالهم الثقیلة، و ذلک أثر إغوائهم و إضلالهم للآخرین و

تشجیعهم علی ارتکاب الذنب.

و للتأکید أکثر علی تحقّق العذاب تقول الآیة التی تلتها إِنَّا کَذلِکَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِینَ إنّ هذه هی سنّتنا، السنّة المستمدّة من قانون العدالة.

ثمّ توضّح السبب الرئیسی الکامن وراء تعاسة أولئک، و تقول: إِنَّهُمْ کانُوا إِذا قِیلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ یَسْتَکْبِرُونَ

نعم، إنّ التکبر و الغرور، و عدم الانصیاع للحقّ، و العمل بالعادات الخاطئة و التقالید الباطلة بإصرار و لجاجة، و النظر إلی کلّ شیء باستخفاف و استحقار، تؤدّی جمیعا إلی انحراف الإنسان.

فروح الاستکبار یقابلها الخضوع و الاستسلام للحقّ و الذی هو الإسلام الحقیقی، الاستکبار الذی هو أساس الظلام، فیما أنّ الخضوع و الاستسلام هو أساس السعادة.

و الذی یثیر الاهتمام أنّ بعض آیات القرآن الکریم توضّح بصورة مباشرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۱

العذاب الإلهی الذی سیعذّب به المستکبرون فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِ [۲۹۷] لکن هؤلاء برّروا ارتکابهم للذنوب الکبیرة بتبریرات أسوأ من ذنوبهم، کقولهم:

هل نترک آلهتنا و أصنامنا من أجل شاعر مجنون وَ یَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِکُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ

لقد أطلقوا علی النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کلمة (شاعر) لأنّ کلامه کان ینفذ إلی قلوبهم و یحرّک عواطفهم، فأحیانا کان یتکلّم إلیهم بکلام یفوق أفضل الأشعار وزنا، فی الوقت الذی لم یکن حدیثه شعرا، و کانوا یعتبرونه (مجنونا) لکونه لم یتلوّن بلون المحیط الذی یعیش فیه، و وقف موقفا صلبا أمام العقائد الخرافیة التی یعتقد بها المجتمع المتعصّب حینذاک، الموقف الذی اعتبره المجتمع الضالّ فی ذاک الوقت نوع من الانتحار الجنونی، فی الوقت الذی کان أکبر فخر لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، هو عدم استسلامه للوضع السائد حینذاک.

و هنا تدخل القرآن لردّ ادّعاءاتهم التافهة و الدفاع عن مقام الوحی و رسالة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، عند ما قال: بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِینَ

فمحتوی کتابه من جهة، و توافق دعوته مع دعوات الأنبیاء السابقین من جهة اخری، هی خیر دلیل علی صدق حدیثه.

و أمّا أنتم أیّها المستکبرون الضالّون، فإنّکم ستذوقون العذاب الإلهی الألیم إِنَّکُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِیمِ

و لا تتصوّروا أنّ اللّه منتقم، و أنّه یرید الانتقام لنبیّه منکم، کلّا لیس کذلک وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و حقیقة الأمر أنّ أعمالکم سوف تتجسّد أمامکم، لتبقی معکم لتؤذیکم و تعذّبکم، و جزاؤکم إنّما هو نتیجة أعمالکم و تکبرکم و کفرکم و عدم إیمانکم باللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۲

و زعمکم بأنّ آیات اللّه هی (شعر) و رسوله (مجنون) إضافة إلی ظلمکم و ارتکابکم القبائح.

آخر آیة فی هذا البحث، و التی هی- فی الحقیقة- مقدّمة للبحث المقبل، تستثنی مجموعة من العذاب، و هی- مجموعة عباد اللّه المخلصین إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ ۲۹۸].

و کلمة عِبادَ اللَّهِ یمکنها لوحدها أن تبیّن ارتباط هذه المجموعة باللّه سبحانه و تعالی، و عند ما تضاف إلیها کلمة مخلصین فإنّها تعطی لتلک الکلمة عمقا و حیاة، و «مخلص» (بفتح اللام) جاءت بصیغة اسم مفعول، و تعنی الشخص الذی أخلصه اللّه سبحانه و تعالی لنفسه، أخلصه من کلّ أشکال الشرک و الریاء و من وساوس الشیاطین و هوی النفس.

نعم فهذه المجموعة لا تحاسب علی أعمالها، و إنّما یعاملها اللّه سبحانه و تعالی بفضله و کرمه، و یمنحها من الثواب بغیر حساب.

***

ملاحظة

الإمعان فی آيات القرآن الكريم يبيّن أنّ كلمة (مخلص) بكسر اللام، قد استخدمت بكثرة فی المواقع التی تتحدّث عن حالة الإنسان الـذی يعيش مراحل بناء نفسه، و لم يصل إلی التكامل، أمّا كلمة (مخلص) بفتح اللام، فتطلق علی مرحلة وصل فيها الإنسان إلی مرتبة يصان فيها من نفوذ وساوس الشيطان إلی قلبه، بعد أنّ اجتاز مرحلة جهاد النفس و مراحل المعرفة و الإيمان، كما أنّ القرآن ينقل عن إبليس الخطاب التالی للّه سبحانه و تعالی فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ

هذه الآية تكرّرت عدّة مرّات فی القرآن، و هی توضّح عظمة مقام المخلصين،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۳

مقام يوسف الصـدّيق بعـد أن عبر ساحة الاختبار الكبيرة بنجاح، و أمثاله من المخلصين كَذلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ أی نحن أظهرنا البراهين ليوسف لنبعد عنه الفحشاء و السوء، لأنّه من عبادنا المخلصين (سورة يوسف- ۲۴).

فمقام المخلصين لا يناله إلّا من انتصر فی الجهاد الأكبر، و شمله اللطف الإلهی بإزالة كلّ شیء غير خالص من وجوده، و لا تبقی فيه سوی النفس الطـاهرة الخالصـة- كالـذهب الخـالص- عنـد إذابتها فی أفران الحوادث و الاختبار. و هنا فإنّ مكافأتهم لا تتمّ وفق معيار أعمالهم، و إنّما معيار مكافأتهم هو الفضل و الرحمة الإلهيّة.

و العلّامة الطباطبائی رحمة اللّه عليه يقول بهذا الشأن:

«يقول اللّه سبحانه و تعالی فی هـذه الآيـة، إنّ كافّة الناس يأخذون مكافأة أعمالهم إلّا العباد المخلصين له، لأنّهم يدركون بأنّهم عبيد اللّه، و العبـد هو الـذی لاـ يملـك لنفسه شيئا من إرادة و لاـ عمل، فهؤلاء لا يريـدون إلّا ما أراده اللّه و لا يعملون إلّا له. و لكونهم من المخلصين، فقد أخلصهم لنفسه، و لا تعلّق لهم بشیء غير ذات اللّه تعالی. فقلوبهم خالية من حبّ الدنيا و زخارفها، و ليس فيها إلّا اللّه سبحانه.

و من المعلوم أنّ من كانت هذه صفته كان التذاذه و تنعّمه بغير ما يلتذّ و يتنعّم به غيره، و ارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه، و إن شاركهم فی ضروريات المأكل و المشرب، و من هنا يتأيّد أنّ المراد بقوله: أُولئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ الإشارة إلی أنّ رزقهم فی الجنّة رزق خاص لا يشبه غيره، (و أنّهم يرزقون من مظاهر ذات اللّه الطاهرة، و قلوبهم متعطّشة اشتياقا للّه، و غارقة فی العشق و الوصول إلی اللّه)[۲۹۹].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۴

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۴۱ الی ۴۹]

اشارة

أُولئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (۴۲) فِی جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۴۳) عَلی سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (۴۴) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۴۵)

بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (۴۶) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (۴۷) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (۴۸) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (۴۹)

التّفسير

جوانب من النعم لأهل الجنّة:

الآیات الأخیرة فی البحث السابق تحدّثت عن عباد اللّه المخلصین، أمّا آیات بحثنا هذا فإنّها تستعرض العطایا و النعم غیر المحدودة التی یهبها اللّه سبحانه و تعالی لأهل الجنّة، و یمکن توضیحها فی سبعة أقسام:

تقول الآیة أوّلا: إنّ لهم رزقا معلوما و معیّنا أُولئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ

فهل هذه هی خلاصة لتلک النعم التی ستبیّنها الآیات فیما بعد، و توضیح للنعم التی ستغدق علیهم بصورة خفیّة.

أو إشارة إلی نعم معنویة غیر معروفة و غیر قابلة للوصف، تتصدّر نعم أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۵

الجنّة.

بعض المفسّرین فسّرها بالشکل الأوّل، فیما فسّرها آخرون بالشکل الثانی، و تناسب البحث یتواءم مع المعنی الثانی، و بهذا فإنّ النعمة الاولی من النعم السبع- التی وردت فی آیات بحثنا- هی الهبات المعنویة و المتع الروحیة و درک مظاهر ذات اللّه، و تناول الشراب الطاهر و الغمرة فی عشق اللّه. اللذّة التی لا یمکن أن یدرکها العبد ما لم یتذوّقها و یعیش رحابها.

و السبب فی أنّ العطایا المادّیة فی الجنّة قد ذکرت فی آیات القرآن الکریم بالتفصیل و الهبات المعنویة و الملذّات الروحیة استعرضت بصورة خفیّة، فهو أنّ الأولی قابلة للوصف دون الثانیة.

و أمّا بشأن معنی رِزْقٌ مَعْلُومٌ فلقد قیل عنها الکثیر، هل هی بمعنی معلوم الوقت، أم بقاءه و دوامه، أم سائر خصائصه؟ و لکن کما قلنا قبل قلیل فانّ «معلوم» تعبیر خفی و مجمل عن المواهب التی لا تقبل الوصف.

ثمّ ینتقل إلی بیان نعم اخری، و یعدّد قبل کلّ شیء بعض نعم الجنّة التی تقدّم لأهل الجنّة بکل احترام و تکریم فَواکِهُ وَ هُمْ مُکْرَمُونَ و لیس بتلک الصورة التی یرمی فیها الطعام أمام الحیوان لتناوله، و إنّما یقدّم لهم الطعام بکلّ احترام و کأنّهم ضیوف أعزّاء.

هنا نترک الحدیث عن أنواع الفواکه التی تقدّم لأهل الجنّة باحترام و تجلیل، لنتطرّق إلی أماکنهم فی الجنّة، حیث أنّ القرآن الکریم یقول: إنّ أماکنهم فی حدائق خضراء مملوءة بنعم الجنّة فِی جَنَّاتِ النَّعِیمِ

فأی نعمة یتمنّونها موجودة هناک، و کلّ ما یطلبون یجدونه أمامهم.

و أشارت الآیات إلی النعمة الرابعة، و هی استئناس أهل الجنّة بمجالس السمر التی یعقدونها مع أصدقائهم فی جوّ ملؤه الصفاء، إذ یجلسون علی سرر متقابلة و ینظر کلّ منهم إلی الآخر عَلی سُرُرٍ مُتَقابِلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۶

یتذاکرون فی کلّ شیء، فمرّة تراهم یتحدّثون عن ماضیهم فی الدنیا، و اخری عن النعم العظیمة التی أغدقها علیهم الباری عزّ و جلّ فی الآخرة، و أحیانا یستعرضون صفات الجمال و الجلال عند اللّه، و فی أوقات یتحدّثون عن مقام الأولیاء و کراماتهم، و یتذاکرون قضایا اخری قد لا ندرکها نحن المسجونون فی هذه الدنیا.

«سرر» هی جمع (سریر) و هی الأسرة التی یجلس علیها الناس فی مجالس سمرهم، کما أنّ لهذه الکلمة معان أوسع، حتّی أنّها تطلق أحیانا علی تابوت المیّت، و یحتمل أن یکون إطلاق هذه التسمیة علی تابوت المیّت برجاء أن یکون التابوت مرکب بهجة یسیر به إلی الرحمة الإلهیة و جنّة الخلد.

أمّا القسم الخامس فیتحدّث عن نعمة اخری من النعم التی تغدق علی أهل الجنّة، إذ تطرّق إلی الشراب الطهور الذی یطاف به علیهم بکؤوس مملوءة بأنواع الخمور الطاهرة، و متی ما أرادوا فإنّهم یسقون من ذلک الخمر لیغرقوا فی عالم من النشاط و الروحیة یُطافُ عَلَیْهِمْ بِکَأْسٍ مِنْ مَعِینٍ

و هذه الكؤوس ليست فى مكان معيّن يذهبون إليها لأخذها، و إنّما يطاف بها عليهم يُطافُ عَلَيْهِمْ

كلمة (كأس) يطلقها أهل اللغة على إناء الشراب المملوء، فيما يطلقون كلمة (قدح) عليه إن كان خاليا، و قال الراغب فى مفرداته: الكأس الإناء بما فيه من الشراب.

أمّا كلمة (معين) مشتقّة من (معن) على وزن (صحن) و تعنى الجارى، إشارة إلى أنّ هناك عيونا جارية من الخمر الطاهر، تملأ منها- فى كلّ لحظة- الكؤوس، و من ثمّ يطاف بها على أهل الجنّة، و هذه العيون الجارية من الخمر الطاهر لا تنضب و لا تفسد، إضافة إلى أنّ الحصول عليها لا يحتاج إلى أى مشقّة أو تعب.

ثمّ ينتقل الحديث إلى وصف كؤوس الشراب، إذ يقول: إنّها بيضاء اللون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۷

و متلألئة و تعطى لذّة للشاربين بها بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

و كلمة (بيضاء) اعتبرها بعض المفسّرين صفة لكؤوس الشراب، فيما اعتبرها البعض الآخر صفة للشراب الطهور، و يعنى أنّ ذلك الشراب ليس كالأشربة الملوّنة فى الدنيا، بل إنّها أشربة طاهرة، خالية من الألوان الشيطانية، و بيضاء اللون شفّافة.

و بالطبع فإنّ المعنى الثانى أنسب لجملة لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

الآية السابقة التى تطرّقت إلى الشراب و الكؤوس ربّما تجلب إلى الأذهان مفاهيم اخرى، أمّا الآية التى تليها فتطرد فى جملة قصيرة كافّة تلك المفاهيم عن الأذهان لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ

أى أنّ ذلك الخمر هو شراب طاهر لا يفسد العقل، و لا يؤدّى إلى السكر و الغفلة، و إنّما يؤدّى إلى اليقظة و النشاط و فيه متعة للروح.

و كلمة (غول) على وزن (قول) تعنى الفساد الذى ينفذ إلى الشىء بصورة غير محسوسة، و لهذا يقال فى الأدب العربى لعمليات القتل التى تتمّ بصورة سريّة أو خفية بأنّه (قتل غيلة).

و كلمة (ينزفون) من مادّة (نزف) على وزن (حذف) و تعنى فقدان الشىء تدريجيّا، و عند ما تستخدم هذه الكلمة بشأن آبار المياه، فإنّها تعطى معنى استخراج الماء من البئر تدريجيّا حتّى ينضب، و يقال «نزيف الدم» و هو خروج الدم من الجسد تدريجيّا حتّى ينتهى تماما.

على أيّة حال، فإنّ المقصود فى هذه الآية ذهاب العقل تدريجيّا و الوصول إلى حالة السكرة، أمّا خمر الجنّة الطاهر فإنّه لا يسكر على الإطلاق، إذ لا يذهب بالعقل و لا يسبّب أى مضارّ.

هاتان العبارتان تتطرّقان فى آن واحد- بصورة ضمنية و دقيقة- إلى الشراب فى عالم الدنيا و الذى ينفذ إلى حياة الإنسان بصورة تدريجية و سرية، و يوجد عنده حالات الفساد و الضياع، حيث أنّها لا تؤدّى بعقل الإنسان و أعصابه إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۸

الدمار فحسب، بل إنّ تأثيرها السلبى و الذى لا يمكن إنكاره يمتدّ إلى جميع أعضاء جسم الإنسان، إلى القلب و حتّى الشرايين، و إلى المعدة و الكلية و الكبد، و أحيانا تودى بحياة الإنسان و كأنّها تقتله غيلة، و كذلك تأثيرها على عقل و ذكاء الإنسان يشبه عملية سحب ماء البئر تدريجيّا حتّى يجفّ.

و لكن الشراب الطهور الإلهى فى يوم القيامة لا يحمل هذه الصفات ۳۰۰].

أمّا القسم السادس، فإنّه يشير إلى الحور العين فى جنّات النعيم وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ أى نرزقهم زوجات لا يعشقن سوى أزواجهن و يقصرن طرفهن عليهم فقط، و لهذه الزوجات أعينا واسعة و جميلة.

(طرف) فى الأصل تعنى جفن العين، و هذه الكلمة كناية عن النظر، إذ أنّ أجفان العين تتحرّك عند ما ينظر الإنسان إلى شىء ما، إذن

فإنّ عبارة قاصِراتُ الطَّرْفِ تعنى النساء اللواتى ينظرن نظرة قصيرة، كما أنّ هناك تفسيرات متعدّدة وردت بهذا الشأن يمكن درجها كالتالى:

الأوّل: هو أنّهن ينظرن إلى أزواجهنّ فقط، و لا تمتد أبصارهنّ إلى سواهم.

و الثانى: هذا التعبير كناية عن كونهنّ لا يعشقنّ إلّا أزواجهنّ، و قلوبهم متيّمة بمحبّتهم، و لا توجد محبّة اخرى فى قلوبهنّ، و هذا هو أكبر امتياز للمرأة التى تحبّ زوجها و تتأمّل به.

و التّفسير الثالث: هو أنّ لهنّ أعين سكرى، هذه الحالة الخاصّة التى طالما وصف فيها الشعراء جمال العين فى قصائدهم ۳۰۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۹

و بالطبع فإنّ المعنى الأوّل و الثانى يبدوان أنسب، مع أنّه لا مانع من الجمع بين المعانى.

كلمة (عين) على وزن (سين) و جمعها (عيناء) و تعنى المرأة ذات العين الواسعة.

و أخيرا، فإنّ آخر آية فى بحثنا هذا تعطينا وصفا آخر لزوجات الجنّة، إذ توضّح طهارتهنّ و قد استهن من خلال هذه العبارة كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ أى إنّهن نظيفات و ظريفات، و ذوات أجسام بيضاء صافية كالبيض الذى كنه الريش فى العشّ فلم تمسّه الأيدى و لم يصبه الغبار.

(بيض) جمع بيضة.

(مكنون) مشتقّة من (كن) على وزن (جنّ) و تعنى المستور بالادّخار.

هذا التشبيه القرآنى يتّضح بصورة جيّدة إذا نظر الإنسان إلى البيضة فى اللحظة التى تنفصل فيها عن الدجاجة، و لم تمسّها بعديد الإنسان لتستقرّ تحت جناح الدجاجة و ريشها، إذ تبدو عليها شفافية و صفاء عجيبان.

و بعض المفسّرين يرى بأنّ كلمة (مكنون) تعنى المحتويات الداخلية للبيضة المختفية تحت القشرة، و فى الواقع فإنّ التشبيه المذكور يشير إلى بيضة مطبوخة قد أزيلت قشرتها الخارجية لتوّها، و قد بدا عليها البياض اللامع و النعومة و اللطافة.

الملاحظ أنّ عبارات القرآن المجيد الخاصّة بتوضيح الحقائق، عميقة و مفعمة بالمعانى، فعبارة قصيرة و لطيفة واحدة توضّح حقائق كثيرة و بأسلوب لطيف.

***

ملاحظة

إلقاء نظرة عامّة على ما جاء فى الآيات السابقة:

الهبات التى من اللّه تعالى بها على أهل الجنّة- المذكورة فى الآيات السابقة- هى مجموعة من الهبات الماديّة و المعنوية، و نستشف من عبارة أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۰

مَعْلُومٌ أنّ أوّل هبة هى تلك المتعلّقة بالهبات المعنوية و الروحية التى يعجز اللسان عن وصفها.

أمّا الأقسام الستّة الاخرى و هى الفواكه، و الشراب الطاهر، و الزوجات الصالحات، و الاحترام الكامل، و المسكن الحسن، و الأصدقاء الجيدون فى الجنّة، فقد أعطت أبعادا مختلفة لنعم الجنّة، و التى غالبا ما تمزج بالعطايا و المنح المادية و المعنوية.

لكن كلّ ما طرحناه كان بلغتنا التى لا تستطيع أبدا أن تعكس كلّ جوانب النعم فى الجنّة، و من الطبيعى فإنّنا نحتاج إلى حواس سمع و

نظر و إدراک اخرى، إضافة إلى ألفاظ و جمل و كلام آخر، كى نتمكّن من شرح هذه الأمور.

و بعبارة اخرى، فإنّ حقيقة النعم التى تغدق على أهل الجنّة خفيّة عن أهل الدنيا، إلّا إذا ذهبوا إلى هناك و شاهدوها عن قرب ليدركوها.

على أيّة حال، فإنّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ و الذين وصلوا فى علومهم و إيمانهم إلى مرحلة الكمال، أعزّاء عند اللّه، و يشملهم اللطف الإلهى بصورة غير محدودة، و مهما تصوّرنا علو مقامهم، فإنّهم أفضل و أعلى من ذلك.

***

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۵۰ الى ۶۱]

اشارة

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۵۰) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كانَ لِى قَرِينٌ (۵۱) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (۵۲) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (۵۳) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴)

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَواءِ الْجَحِيمِ (۵۵) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (۵۶) وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۵۷) أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (۵۸) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۵۹)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۰) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (۶۱)

التّفسير

البحث عن رفيق السوء:

عباد اللّه المخلصون الذين استعرضت الآيات السابقة النعم المادية و المعنوية التى أغدقت عليهم، كالفاكهة، و الحور، و كأس المعين الذى يطاف به عليهم، و السرر المتقابلة التى يجلسون عليها، و الأصدقاء الطيبين الذين يجالسونهم و يتحدّثون معهم، و فجأة- خلال جلسات سمرهم فى الجنّة- يتذكّرون أصدقائهم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۲

فى الدنيا، أصدقائهم الذين انفصلوا عنهم فى الطريق، و لم يجدوا لهم أى أثر فى الجنّة، فيسعون إلى معرفة مصيرهم.

نعم، ففى الوقت الذى كانوا فيه منشغلين بالحديث و السؤال عن أحوال بعضهم البعض، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ

فجأة خطر فى ذهن أحدهم أمر، فالتفت إلى أصحابه قائلا: لقد كان لى صديق فى الدنيا قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كانَ لِى قَرِينٌ

و مع الأسف، فإنّه انحرف عن الطريق الصحيح، و صار منكرا ليوم البعث، و كان دائما يقول لى: هل تصدّق هذا الكلام و تعتقد به؟ يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ

هل أنّنا إذا متنا و كنا ترابا و عظاما نحيا مرّة اخرى، لنساق إلى الحساب، و الجزاء على ما اقترفناه من أعمال؟ إنّ هذا ممّا لا ينبغى أن يصدق: أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ ۳۰۲].

هنا یخاطب من كان یتحدّث معهم من أهل الجنّة، بالقول: لیتنی أعرف أین هو الآن؟ و فی أیّة ظروف یعیش؟ فمكانه خال بیننا ..

و یضیف: أیّها الأصدقاء، هل تستطیعون البحث عنه، و معرفة حاله، قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ۳۰۳].

و أثناء بحثه عن قرینه و صدیقه ینظر إلی جهنّم، و یری فجأة صدیقه وسط جهنّم فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِی سَواءِ الْجَحِیمِ ۳۰۴].

فیخاطبه قائلا: أقسم باللّه لقد كدت أن تهلكنی و تسقطنی فیما سقطت فیه قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِینِ ۳۰۵].

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۳

لقد أو شكت أن تؤثّر علی صفاء قلبی بوساوسك، و أن تزجّ بی فی الخطّ المنحرف الذی كنت فیه، فلو لا لطف اللّه الذی منعنی من ذلك و نعمته التی سارعت لمساعدتی، لكنت الیوم من المحضرین للعذاب مثلك فی نار جهنّم وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّی لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِینَ

فالتوفیق الإلهی كان رفیق دربی، و لطف هدایته كان الموجّه لی.

و هنا یلقی نظرة اخری إلی صدیقه فی جهنّم، و یقول له موبّخا إیّاه: أ لم تكن أنت القائل لی فی الدنیا بأنّنا لا نموت أ فَما نَحْنُ بِمَیِّتِینَ سوی مرّة واحدة فی الدنیا، و بعدها لا حیاة اخری و لا عذاب إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولی وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ

الآن انظر و لاحظ الخطأ الكبیر الذی وقعت فیه! فبعد الموت كانت هذه الحیاة و هكذا ثواب و عقاب، و الآن توضّحت لك كافة الحقائق، و لكن ما الفائدة فلیس هناك طریق للعودة.

طبقا لتفسیر الآیتین الأخیرتین، فإنّ حدیث الذی هو فی الجنّة مع صدیقه الذی فی جهنّم، كان مركزا علی تذكیره بإنكاره للمعاد فی الحیاة الدنیا.

لكن بعض المفسّرین یحتملون وجود تفسیر آخر للآیتین المذكورتین، و هو أنّه بعد انتهاء حدیث الذی هو فی الجنّة مع صدیقه الذی فی جهنّم، یعود إلی أصحابه فی الجنّة للتسامر فیما بینهم، فیقول أحدهم من شدّة الفرح: أ حقّا أنّنا لن نموت مرّة اخری؟ و أنّنا سنعیش هنا خالدین؟ و هل أنّه بعد الموت الأوّل لا یوجد موت آخر، و تبقی هذه النعم الإلهیّة معنا، و ما نحن بمعذّبین؟

بالطبع هذا الكلام لیس مصدره الشكّ و التردّد، إنّما هو نتیجة شدّة الفرح و السرور، فمثلهم كمثل الإنسان الذی یحصل بعد مدّة من الأمل و الانتظار علی بیت واسع و فخم، فیقول و هو متعجّب: كلّ هذا لی؟ یا ربّی! ما هذه النعمة! و هل ستبقی عندی؟

علی كلّ حال، هنا اختتم الحدیث بجملة عمیقة المعانی و حسّاسة و مؤثّرة جدّا،

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۴

و مؤكّدة بأنواع التأكیدات إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ

ما أعظم هذا الفوز الذی یغرق فیه الإنسان بنعمة الخلود و الحیاة الأبدیة، و تشمله الألطاف الإلهیة؟ و ماذا یتصوّر أفضل و أعظم من ذلك؟

ثمّ یقول تبارك و تعالی فی ختام البحث جملة واحدة قصیرة توقظ القلوب و تهزّ الأعماق، لِمِثْلِ هذا فَلْیَعْمَلِ الْعامِلُونَ أی لمثل هذا فلیعمل الناس، و من أجل نیل هذه النعم فلیسع الساعون.

بعض المفسّرون یحتملون فی كون الآیة الأخیرة أنّها من كلام أصحاب الجنّة، و هذا الاحتمال مستبعد جدّا، لأنّ الإنسان فی ذلك الیوم غیر مكلّف، و بعبارة اخری لا یوجد أی تكلیف فی ذلك الیوم حتّی یستنتج من الكلام أنّه تشجیع للآخرین، فی الوقت الذی یوضّح فیه ظاهر الآیة إنّها استنتاج للآیات السابقة، و أنّها تدفع الناس إلی الإیمان و التوجّه إلی العمل، لذا كان من المناسب أن یورد الباری عزّ و جلّ هذا الحدیث فی نهایة هذا البحث.

***

بحوث

۱- الرابطة بین أهل الجنّة و أهل النار

یستشف من الآیات المـذکورة أعلاه، وجود نوع من الرابطـة بین أهل الجنّة و أهل النار، فکأنّ أهل الجنّـة- الذین هم فی مرتبة علیا- یرون أهل النار- الذین هم فی الأسفل- [و قد استفید هنا من عبارة (فاطّلع) و التی تعنی الإشراف من الأعلی علی الأسفل .
و بـالطبع فـإنّ هـذا لیس بـدلیل علی کون الفاصل الموجود بین الجنّة و النار قلیلا، فلربّما یمنحون قوّة نظر خارقـة تغـدو أمامها قضـیّة المکان و الفاصل معدومة.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۵
و قد جاء فی کلمات بعض المفسّرین أنّ للجنّة کوة ینظر منها أهل الجنّة إلی أهل النار.
و آیات سورة الأعراف توضّح بصورة جیّدة الرابطة الموجودة بین الفریقین وَ نادی أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنـا حَقًّا فَهَلْ وَجَـدْتُمْ ما وَعَـدَ رَبُّکُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ [۳۰۶] کما یمکن الاسـتفادة من الآیة (۴۶) فی سورة الأعراف بهذا الشأن وَ بَیْنَهُما حِجابٌ أی أنّ هناک حجاب بین أهل الجنّة و أهل النار.
و کلمة (نادی) یستخدمها- بصورة طبیعیة- المتکلّم عند بعد، و توضّح فی الآیة مکان و مرتبة الفریقین.
علی أیّـة حـال، و کمـا ذکرنا عـدّة مرّات، فإنّ أوضاع و أحوال یوم القیامـة تختلف کثیرا عن أوضاع عالمنا الحالی، و نحن لا نسـتطیع تقییم الأوضاع هناک وفق معاییر عالمنا.

۲- بحقّ من نزلت هذه الآیات

بعض المفسّـرین ذهب إلی أنّ سبب نزول الآیات المذکورة أعلاه هو ما ورد فی سورة الکهف کمثال، وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَیْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَیْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَیْنَهُما زَرْعاً ....[۳۰۷] و قد جاء فی هذه الآیات أنّ أحد الشخصین کان متکبرا و مغرورا جـدّا، إضافة إلی أنّه کان ینکر المعاد، و الآخر کان مؤمن یعتقد بالقیامة، و فیما بعد نزل العذاب الإلهی علی الشـخص المغرور الکافر و هو فی هذه الدنیا، إذ فقد ثروته و أحاط به
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۶
البلاء من کلّ جانب ۳۰۸].
لکن سیاق آیات بحثنا هذا یختلف مع ما هی علیه آیات سورة الکهف، و یبیّن وجود فارق بین الحادثتین.
و یری البعض الآخر: إنّها تخصّ شخصـین شـریکین أو صدیقین کانا یمتلکان ثروة کبیرة، أحدهما کان ینفق بسخاء فی سبیل اللّه، أمّا الثانی الذی کان لا یؤمن بشـیء- فقد امتنع عن الإنفاق، و بعد مدّة من الزمن أصـیب المنفق بفاقة مالیة، و تعرّض لاسـتهزاء صدیقه، و الذی قال له بلغة السخریة، أَ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِینَ ۳۰۹].
فإن کانت أسباب النّزول تخصّ هذه الحادثة، إذا علینا قراءة کلمة (مصدّقین) بتشدید (الصاد) و التی تعنی هنا دفع الصدقة و الإنفاق.
فی حین أنّ المشـهور بین القرّاء قراءة کلمـة (مصـدّقین) بـدون تشدیـد (الصاد) و علی هذا فإنّ سـبب النّزول الآنف الذکر لا یتلاءم و القراءة المشهورة.

۳- لنیل مثل هذه النعم علینا المثابرة

هل من الصحیح أن یصرف الإنسان رأس مال عمره و القابلیات الاخری و العطایا الإلهیة فی موارد هی کالفقاعات التی لا تدوم سوی لحظات فوق الماء؟

متاع بخس غیر دائم، متاع ملیء بالآفات و المشاکل!!.

أو یستثمر هذه القوی العظیمة فی مجال یؤدّی إلی حیاة خالدة و نعم دائمة، و مرضاة اللّه سبحانه و تعالی؟

فما أجمل التعبیر الذی صاغته الآیات القرآنیة المذکورة أعلاه، عند ما دعت المؤمنین إلی هذا الهدف، أی نیل الجنان المملوءة بالملذّات الروحیة و الجسمیة-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۷

التی تشمل الشراب الطاهر الذی یغرق الإنسان فی الظلّ الملکوتی، و القرناء و الأصدقاء الطیبین ذوی القلوب الصافیة الذین تزیل مجالستهم کلّ أشکال الغمّ.

و لیس فیها همّ و لا غمّ و لا مشکلة.

نعم فمن یرید أن یکسب الجنان فعلیه أن یسعی و یعمل.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۸

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۶۲ الی ۷۰]

اشارة

أ ذلِکَ خَیْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (۶۲) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِینَ (۶۳) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِی أَصْلِ الْجَحِیمِ (۶۴) طَلْعُها کَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّیاطِینِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآکِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۶۶)

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَیْها لَشَوْباً مِنْ حَمِیمٍ (۶۷) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَی الْجَحِیمِ (۶۸) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّینَ (۶۹) فَهُمْ عَلی آثارِهِمْ یُهْرَعُونَ (۷۰)

التّفسیر

جوانب من العذاب الألیم لأهل النار:

بعد توضیح النعم الکثیرة و الخالدة التی یغدقها اللّه سبحانه و تعالی علی أهل الجنّة، تستعرض الآیات أعلاه العذاب الألیم و المثیر للأحزان الذی أعدّه اللّه لأهل جهنّم، و تقارنه مع النعم المذکورة سابقا، بحیث تترک أثرا عمیقا فی النفوس یردعها عن ارتکاب الأعمال السیّئة و المحرّمة.

ففی البدایة تقول: أ ذلِکَ خَیْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۹

کلمة (نزل) تعنی الشیء الذی یهیّأ لورود الضیف فیقدّم إلیه إذا ورد، و البعض الآخر قال: إنّها تعنی الشیء الأوّل الذی یقدّم للضیف

حين وروده، و هذه إشارة إلى النعم المهيئة لورود الضيوف الأعزّاء و المحترمين إلى الجنّة.

و القرآن الكريم يقول: أذلك خير أم شجرة الزقوم؟ و لفظة (خير) ليست دليلا على أنّ شجرة الزقّوم شيء جيّد، و النعم التى أعدّها اللّه سبحانه و تعالى لأهل الجنّة أجود، إذ أنّ مثل هذه الألفاظ تستخدم أحيانا فى لغة العرب بشأن بعض الأشياء التى لا فائدة فيها أبدا، و يحتمل بأنّها نوع من الكناية، و مثلها كمثل شخص غارق بالذنوب و قد فضح أمام الناس، و هم يقولون له: هل هذه الفضيحة خير، أم الفخر و العزّة و الشرف؟

و أمّا «زقّوم» فقد قال أهل اللغة: إنّه اسم نبات مرّ و ذى طعم و رائحة كريهة[۳۱۰].

فيما قال بعض المفسّرين: إنّه اسم نبات يحمل أوراقا صغيرة مرّة و كريهة الرائحة و هو موجود فى أرض تهامة، و كان يعرفه المشركون ۳۱۱]. و أضاف صاحب تفسير (روح المعانى) أنّ لهذا النبات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورّم ۳۱۲].

و قال الراغب فى (مفرداته): الزقوم هو كلّ غذاء يثير اشمئزاز أهل جهنم.

و قال صاحب كتاب (لسان العرب): هذا اللفظ يأتى أساسا بمعنى بلع الشيء، و يضيف: عند ما نزلت هذه الآية قال أبو جهل، لا توجد مثل هذه الشجرة فى أرضنا، فمن منكم يعرف معنى زقّوم؟

و هنا أجابه شخص من أفريقيا قائلا: الزقّوم بلغة أهل أفريقيا تعنى الزبد و التمر، و فور ما سمع أبو جهل بجواب الأفريقى، نادى جاريته، و قال لها باستهزاء: زقمّينا بمقدار من التمر و الزبد. فكانوا يأكلون و يسخرون و يقولون: إنّ محمّد يخوّفنا من

هذا فى الآخرة، فنزلت آيات قرآنية قاطعة و حازمة تردّ على أبى جهل و بقيّة المشركين سنتطرّق إليها فيما بعد.

على كلّ حال فإنّ كلمة (شجرة) لا تأتى دائما بمعناها المعروف، و إنّما تعنى فى بعض الأحيان (النبات) و القرائن هنا تشير إلى أنّ المراد من الشجرة هو المعنى الثانى أى (النبات).

ثمّ يستعرض القرآن الكريم بعض خصائص هذه النبتة، و يقول: إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ

و لفظة (فتنة) تعنى المحنّة و العذاب، كما تعنى الامتحان، و غالبا ما جاء هذا المعنى فى موارد متعدّدة من سور القرآن المجيد، و هو إشارة إلى أنّ المشركين عند ما سمعوا كلمة (الزقّوم) عمدوا إلى السخرية و الاستهزاء، فيما كان هذا الأمر امتحانا لأولئك الطغاة.

و يضيف القرآن الحكيم إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ

و لكن الظالمين المغرورين يواصلون استهزاءهم، و يقولون: كيف يمكن لنبات أو شجرة ينبت فى قعر جهنّم؟ فأين النار و أين الشجر و النبات؟ و تبعا لذلك فإنّ سماع اسم هذا النبات و أوصافه هو اختبار دنيوى لهم، و سيكون سببا لعذابهم و محنتهم فى الآخرة.

و كأنّهم كانوا غافلين عن أنّ الأصول التى تحكم فى ذلك العالم- أى الآخرة- تختلف كثيرا عن الأصول الحاكمة فى العالم الدنيوى، فالأشجار و النباتات التى تنبت فى قعر جهنّم، و تنمو فى ذلك الظرف و يكون لونها بلون النار، ليست كالأشجار و النباتات النابتة فى حدائق و بساتين هذا العالم، و يحتمل عدم جهلهم بهذا الأمر، بل هدفهم الاستهزاء و السخرية فقط.

ثمّ يضيف القرآن الكريم طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ

(الطلع) يقال لأوّل ما يبدو من حمل النخلة، و له قشر أخضر اللون، و فى داخله

فروع بيضاء اللون تتحوّل فيما بعد إلى عنقود يحمل التمر.

و كلمة (طلع) من مادّة (طلوع) و بهذه المناسبة أطلق على الثمر فى أوّل ظهوره.

و هنا يطرح هذا السؤال: هل أنّ الناس شاهدوا رؤوس الشياطين حتّى يشبّه القرآن ثمار الزقّوم بها؟

المفسّرون أعطوا أجوبة متعدّدة لهذا السؤال:

فقال البعض: إنّ إحدى معانی کلمة (الشیطان) هی حیّة کریهة المنظر، شبّهت بها ثمار الزقّوم.

و ذهب البعض الآخر إلى أنّه نوع من النبات ذو شکل قبیح، کما جاء فی کتاب (منتهی الارب) أنّ (رأس الشیطان) أو (رؤوس الشیاطین) نبات.

إلّا أنّ الرأی الأصحّ، هو أنّ التشبیه هنا استخدم لبیان شدّة قباحة ثمار الزقّوم و شکلها الباعث على النفور و الاشمئزاز، لأنّ الإنسان عند ما یشمئز من شیء ترتسم صورة ذلک الشیء فی مخیلته بشکل قبیح و رهیب، فیما ترتسم صورة الشیء المحبوب بشکل جمیل و ودیع فی مخیلته.

لهذا فإنّ الناس یرسمون صورة الملائکة بشکل جمیل، فیما یرسمون صورة الشیاطین و العفاریت بأقبح صورة، فی الوقت الذی لم یر أحد منهم الملائکة و لا الشیاطین. کما یشاهد استخدام هذا الأمر کثیرا فی المصطلحات الیومیة، عند ما یقال: الشخص الفلانی کالعفریت، أو انّه یشبه الشیطان.

هذه کلّها تشبیهات مبنیة على أساس الانعکاسات الذهنیة للناس عن مفاهیم مختلفة، و هی تشبیهات لطیفة و حیّة.

و یواصل القرآن الکریم استعراض العذاب الذی سینال المشرکین و الکافرین، فَإِنَّهُمْ لَآکِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۳۱۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۲

هذا هو العذاب و الفتنة الذی أشرنا إلیه فی الآیات السابقة، حیث إنّ أکل هذا النبات الذی ینبت فی جهنّم ذو الرائحة الکریهة و الطعم المرّ و اللبن الذی یورم و یحرق الأبدان فور ما یصیبها، و تناوله- و بکمیّات کبیرة- یعدّ عذابا ألیما.

و من البدیهی، فإنّ من یتناول هذا الطعام السیء الطعم و المرّ، یصیبه العطش، و لکن حینما یشعر بالعطش ماذا یشرب؟ القرآن یجیب على هذا السؤال بالقول:

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَیْها لَشَوْباً مِنْ حَمِیمٍ

«الشوب» هو الشیء المخلوط أو الممزوج مع شیء آخر. و (حمیم) هو الماء الحار البالغ فی حرارته، و طبقا لذلک فإنّ حتّى الماء الحار الذی یشربه أولئک الظالمون غیر نقی، بل ملوّث.

و هذا هو غذاء أهل جهنّم، و هذا هو شرابهم، و بعد هذه الضیافة إلى أین یذهبون، فیجیب القرآن على هذا السؤال أیضا بالقول: ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِیمِ

بعض المفسّرین فسّروا هذه العبارة على أنّ الماء الحار الملوّث ینبع من عین خارج جهنّم، و أنّ أهل جهنّم یساقون کما تساق البهائم إلى الأماکن المخصّصة لشرب الماء، و بعد تناولهم الماء یرجعون إلى الجحیم.

فیما ذهب البعض الآخر إلى القول بأنّه إشارة إلى وجود أماکن و مواقف مختلفة فی جهنّم، ینقل إلیها الظالمون و المجرمون لیشربوا منها الماء الحار، و یرجعون بعد ذلک إلى المکان الذی کانوا فیه سابقا.

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یعدّ أنسب.

و کما أشرنا آنفا، فإنّه لا یمکن تصوّر النعم التی یغدقها اللّه سبحانه و تعالى على أهل الجنّة، کما أنّه لا یمکن تصوّر العذاب الذی ینال أهل جهنّم، بل إنّها تخیّلات- و حسب- تتراءى أمام أعیننا من خلال عبارات قصار (اللهمّ أعذنا بلطفک و احفظنا من العذاب).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۳

الآیة الأخیرة فی بحثنا تناولت السبب الرئیسی الذی أدّى إلى دخول أولئک إلى جهنّم و نیلهم العذاب الألیم و الشدید هناک، تناولته فی آیتین قصیرتین ملیئتین بالمعانی و الحقائق إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّینَ

و إنّهم کانوا یسرعون على آثارهم و من دون أی إرادة فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ یُهْرَعُونَ

و الملاحظ هنا أنّ لفظة (یهرعون) جاءت بصیغة المبنی للمجهول، و هی من مادّة (هرع) أی أسرع، و هی إشارة إلى أنّهم کانوا

يقلّدون آباءهم قلبا و دينا و إنّهم كانوا يحثّون الخطى على آثارهم إلى درجة كأنّهم يسارعون فى ذلك من دون أى إرادة و إختيار، و إشارة اخرى إلى تعصّبهم و تمسّكهم بالخرافات التى كان أجدادهم الضالّون يعتقدون بها.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۴

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۷۱ الى ۷۴]

اشارة

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (۷۱) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (۷۲) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۷۴)

التّفسير

الأمم الضالّة السابقة:

بما أنّ المسائل السابقة المتعلّقة بالمجرمين و الضالّين لا تختّص بزمان و مكان معينين، فالقرآن يتوسّع فى الآيات التى تبحث بشكل مفصّل عن هذه المسائل، و يهيء الأرضية فى عدّة آيات قصيرة و مختصرة لشرح امور كثيرة عن الأمم السابقة، و التى بالاطلاع عليها تكون أدلّة ناطقة للبحوث السابقة. و من تلك الأمم أقوام نوح و إبراهيم و موسى و هارون و لوط و يونس و غيرهم، إذ يقول: وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ

فمشركو مكّة ليسوا هم الوحيدين الذين ابتلوا بالضلال نتيجة سيرهم على نهج أجدادهم الأوّلين، و إنّما ابتليت قبلهم الكثير من الأمم السابقة بنفس المصير.

و التذكير بهذا الأمر إنّما جاء لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الثلّة من أصحابه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۵

المؤمنين الذين كانوا فى مكّة- آنذاك- محاصرين من قبل العدو من كلّ الجوانب.

ثمّ يضيف القرآن المجيد أنّ ضلالتهم لم تكن بسبب افتقادهم القائد و عدم موعظتهم وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ

إذا أنّنا أرسلنا إليهم أنبياء لإنذارهم من خطر الشرك باللّه و الكفر به، و الظلم و الاعتداء، و تقليد الآخرين بصورة عمياء، و لاطلاعهم على مسئولياتهم.

صحيح أنّ الرسل يحملون فى يد رسالة الإنذار، و فى الاخرى رسالة البشارة، لكن الإنذار يشغل الجزء الأكبر من مواعظهم و نصائحهم، خاصّة بالنسبة لمثل تلك الأمم الضالّة و العاصية، و لهذا أكّد عليه هنا.

ثمّ يقول فى عبارة قصيرة ذات معان عميقة فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ

المخاطب فى لفظة (فانظر) من الممكن أن يكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو أى شخص عاقل يقظ. و فى الحقيقة إنّ هذه الآية المباركة تشير إلى نهاية أقوام سنستعرض أحوالها و أوضاعها بصورة مفصّلة فى الآيات القادمة.

أمّا آخر آية فى بحثنا فإنّها تستثنى جماعة من العذاب الإلهى إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

الملاحظ أنّ هذه الآية تشير إلى عاقبة هذه الأمم، و تدعو إلى التمعن فى العذاب الأليم الذى ابتلوا به، و الذى أهلكهم و أبادهم جميعا

ما عدا عباد اللّه المؤمنين و المخلصين الذين نجوا من هذا العذاب [۳۱۴].

و جدير بالذكر أنّ كلمة (المخلصين)- بفتح اللام- كرّرت خمس مرّات، و هذا بيان لعلو منزلتهم و مرتبتهم، و كما أشرنا سابقا فإنّ عباد اللّه المخلصين هم الصفوة التى تسلّحت بالعلم و الإيمان، و انتصرت على النفس بعد مجاهدتها، و هم الذين أخلصهم اللّه لنفسه و أزال عنهم الشوائب ليجعلهم خالصين، و لهذا فإنّهم يمتلكون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۶

الحصانة الكاملة تجاه الانحرافات و الزلل.

و الشيطان عاجز و آيس من النفوذ إلى داخلهم، إذ قطع عليه الطريق المؤدّى إليهم منذ اليوم الأوّل، و اعترف هو بعجزه هذا.

كذلك فإنّ فتن المجتمع الذى يعيشون فيه و وساوس الغاوين، إضافة إلى وجود المتّبعين لنهج آبائهم و أجدادهم الأوّلين، و الثقافة الخاطئة و الطاغوتية، لا تؤثّر أبدا على عباد اللّه المخلصين و لا تحرفهم عن مسيرتهم.

حقيقة الأمر، أنّ هذه الآية هى خطاب اطمئنان لمؤمنى مكّة المقاومين و الصامدين فى ذلك الوقت، و إنّها دعوة لمسلمى عالم اليوم المليء بالفتن، تدعوهم إلى الانفصال عن صفوف أعداء اللّه و الانضمام إلى عباد اللّه المخلصين.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۷

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۷۵ الى ۸۲]

اشارة

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (۷۵) وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۷۶) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (۷۷) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۷۸) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (۷۹)

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۸۰) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۸۱) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۸۲)

التّفسير

مقتطفات من قصّة نوح:

من هنا يبدأ سرد قصص تسعة أنبياء من أنبياء اللّه الكبار، و الذين كانت الآيات السابقة قد تطرّقت إليهم بصورة خفيّة، و تشرع الآيات بنوح شيخ الأنبياء و أوّل اولى العزم من الرسل.

بدأ البحث بالإشارة إلى دعاء نوح الشديد على قومه بعد أن يئس من هدايتهم وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ [۳۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۸

هذا الدعاء يمكن أن يكون إشارة إلى الدعاء الذى ورد فى سورة نوح وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً.[۳۱۶] أو إشارة إلى الدعاء الذى دعا به اللّه أثناء صعوده السفينة رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [۳۱۷] أو أنّه إشارة إلى الدعاء الذى جاء فى الآية ۱۰ من سورة القمر: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ.

و بالطبع فإنّه ليس هناك أى مانع من أن تكون الآية تشير إلى كلّ هذه الأدعية، و إنّ اللّه سبحانه و تعالى استجابها بأحسن وجه.

و لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يجيبه فى الآية التى تليها بالقول: وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [۳۱۸].

فما هو هذا الغمّ الذى وصفته الآية المباركة بأنّه غمّ كبير آلم نوحا بشدّة؟

يمكن أن يكون ذلك الغمّ نتيجة استهزاء قومه الكافرين المغرورين به، و تجريحهم إيّاه بكلمات نابية و ساخرة تستهدف إهانته و أتباعه المؤمنين، أو نتيجة تكذيب قومه اللجوجين إيّاه، إذ كانوا يقولون له أحيانا: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا.[۳۱۹] و أحيانا اخرى يقولون له: يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [۳۲۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۹

أو يسخرون منه وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ [۳۲۱] و قد وصل إزعاجهم لنبى اللّه نوح- المعروف بصبره الكبير- و إساءتهم الأدب اتّجاهه و اتّهامه بالجنون إلى درجة لا تطاق، بحيث دعا نوح ربّه بالقول: رَبِّ انْصُرْنِی بِما كَذَّبُونِ [۳۲۲] و على أيّة حال، فإنّ مجموع هذه الحوادث السيّئة و أذاهم له كان يحزّ فى قلبه الطاهر بشدّة حتّى لحظة وقوع الطوفان، إذ أنقذه اللّه سبحانه و تعالى من قبضة قومه الطغاة، و أزال عنه الكرب العظيم و الغمّ الشديد.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من الْكَرْبِ الْعَظِيمِ هو الطوفان الذى لم ينج منه سوى نوح و أتباعه المؤمنين، و لكن هذا المعنى مستبعد.

و يضيف القرآن الكريم وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ

أ حقّا أنّ كلّ بنى الإنسان الذين يعيشون اليوم على ظهر الكرة الأرضية هم من ذريّة نوح؟ الآية المذكورة أعلاه تصرّح بذلك ..

أم المقصود هو أنّ مجموعة كبيرة من الأنبياء و الأولياء و الصالحين هم من ذريته، و ليس كلّ الناس؟ بهذا الشأن لدينا بحث، سنتطرّق إليه بعون اللّه.

و إضافة إلى ذلك يقول القرآن: أنّنا جعلنا لنوح ثناء و ذكرا جميلا فى الأجيال و الأمم اللاحقة: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِی الْآخِرِينَ

فقد وصفه القرآن المجيد بالنّبى المقاوم و الشجاع و الصبور و الرحيم و العطوف، و أطلق عليه لقب شيخ الأنبياء. و تاريخه اسطورة للمقاومة و الثبات، كما يمكن أن يستلهم سالكو طريق الحقّ من برامجه عبرا و دروسا تمكّنهم من اجتياز العراقيل التى يضعها الأعداء و الجهلة أمامهم.

فبعد تحمّله كافّة الصعاب و الآلام، منحه اللّه سبحانه و تعالى و ساما خالدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۰

يفتخر به فى العالمين سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِی الْعالَمِينَ

نعم، فهل هناك فخر أكبر من هذا، و هو أنّ اللّه يبعث بالسلام و التحيّات لنبيّه نوح، السلام الذى سيبقى يهدى إليه من قبل الأمم الإنسانية لحين قيام الساعة، و الملفت للنظر أنّه من النادر أن يوجد فى القرآن سلام بهذه السعة على أحد، خاصّة و أنّ المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلّى بالألف و اللام (مفيدا للعموم) فيتّسع المعنى ليشمل عوالم البشر و أممهم و جماعاتهم إلى يوم القيامة و يتعدّاهم إلى عوالم الملائكة و الملكوتين.

و لكى تكون خصوصيات نوح عليه السّلام مصدر إشعاع للآخرين، أضاف القرآن الكريم إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِينَ و إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

فى الحقيقة، إنّ درجة عبودية نوح للّه و إيمانه به- إضافة إلى إحسانه و عمله الصالح الذى ذكرته الآيتان الأخيرتان- كانت السبب الرئيسى وراء اللطف الإلهى الذى شمل نوحا و أنقذه من الغمّ الكبير، و بعث إليه بالسلام، السلام الذى يمكن أن يشمل كلّ من عمل بما عمل به نوح، لأنّ معايير الألطاف الإلهيّة لا تتخلّف، و لا تختّص بشخص دون آخر.

أمّا الآية الأخيرة فى بحثنا فقد وضّحت بعبارة قصيرة شديدة اللهجة مصير تلك الامّة الظالمة الشريرة الحاقدة ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ

إذ انهمر المطر سيلا من السماء، و تفجّرت الأرض عيونا، و غطّت المياه اليابسة كبحر هائج دكّ بأمواجه المتلاطمة الشامخة عروش

الطغاة و دمّرها، لافظا إيّاهم بعدئذ أجسادا هامدة لا حياة فيها و لا روح.

و الذى يلفت النظر أنّ اللّه سبحانه و تعالى استعرض ألطافه على نوح فى عدّة آيات، فيما بيّن عذابه لقوم نوح العاصين فى عبارة واحدة قصيرة يرافقها التحقير و عدم الاهتمام بهم، لأنّ حالة نصر المؤمنين و عزّتهم و تأييد البارى سبحانه لهم جديرة بالتوضيح، و بيان حال المعاندين و العاصين لا يجدر بالاهتمام و الاعتناء.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۱

ملاحظة

هل أنّ البشر الموجودين على الأرض هم من ذريّة نوح؟

فسّرت مجموعة من كبار المفسّرين الآية وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ بأنّ كلّ أجيال البشر التى أتت بعد نوح هى من ذريته.

و قد نقل الكثير من المؤرّخين بقاء ثلاثة أولاد من ذريّة نوح هم (سام) و (حام) و (يافث) بعد الطوفان، و كلّ القوميات الموجودة اليوم على الكرة الأرضية تنتهى إليهم.

و قد أطلق على العرق العربى و الفارسى و الرومى العرق السامى، فيما عرف العرق التركى و مجموعة اخرى بأنّهم من أولاد «يافث»، أمّا «حام» فإنّ ذريّته تنتشر فى السودان و السند و الهند و النوبة و الحبشة، كما أنّ الأقباط و البربر هم من ذريّته أيضا.

البحث فى هذه المسألة ليس المراد منه معرفة إلى أى من أولاد نوح ينتسب كلّ عرق، لأنّ المسألة بحدّ ذاتها هى مورد اختلاف بين الكثير من المؤرخين و المفسّرين، و لكن المتوخّى من البحث هو: هل أنّ كلّ القوميات البشرية تعود فى أصلها إلى أولاد نوح الثلاثة.

و هنا يطرح هذا السؤال نفسه و هو: ماذا كان مصير المؤمنين الذين ركبوا السفينة مع نوح خلال الطوفان؟ و هل أنّهم جميعا ماتوا من دون أن يتركوا أى خلف لهم و إن كان لهم ذريّة، فهل كانوا بنات تزوجنّ من أولاد نوح؟

هذه القضيّة من وجهة نظر التأريخ ما تزال غامضة.

على أيّة حال فإنّ هناك أحاديث و آيات قرآنية تشير إلى وجود أقوام و امم على الكرة الأرضية لا ينتهى أصلها إلى أولاد نوح.

منها ما

ورد فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السّلام فى توضيح الآية المذكورة أعلاه: «الحقّ و النبوّة و الكتاب و الإيمان فى عقبه، و ليس كلّ من فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۲

الأرض من بنى آدم من ولد نوح عليه السّلام قال اللّه عزّ و جلّ فى كتابه: احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ و قال اللّه عزّ و جلّ أيضا: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ۳۲۳].

و على هذا فإنّ انتهاء كلّ العروق الموجودة على الأرض إلى أبناء نوح أمر غير ثابت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۳

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۸۳ الى ۹۴]

اشارة

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (۸۳) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۴) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (۸۵) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (۸۶)

فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۸۷)

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (۸۸) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (۸۹) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (۹۰) فَراغَ إِلي آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (۹۱) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (۹۲)

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (۹۳) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (۹۴)

التّفسير

خطّة إبراهيم الذكيّة فى تحطيم الأصنام:

آيات بحثنا هـذا تتناول بشـىء من التفصـيل حياة النّبى الشـجاع إبراهيم عليه السّـلام محطّم الأصـنام بعد آيات اسـتعرضت جوانب من تاريخ نوح عليه السّلام الملىء بالحوادث.

ففى البداية تحدّثت القصّة عن تحطيم إبراهيم للأصـنام، و الموقف الشديد الذى اتّخذه عبدة الأصـنام تجاه إبراهيم، فيما يتطرّق القسم الآخر من القصّة للمشهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۴

الكبير الـذى يتمثّل فى تضـحيات إبراهيم الخليل و قضـيّة ذبـح ابنه إسـماعيل، و الآيات التى تخصّ هذا القسم ذكرت هنا- فقط- بهذا التفصيل، و لم تذكر فى موضع آخر بهذا الشكل.

الآية الاولى، ربطت بين قصّة إبراهيم و قصّة نوح بهذه الصورة وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ

أى إنّ إبراهيم كان سائرا على خطى نوح عليه السّـلام فى التوحيد و العدل و التقوى و الإخلاص، حيث إنّ الأنبياء يبلغون لفكر واحد، و هم أساتذة جامعة واحدة، و كلّ واحد منهم يواصل تنفيذ برامج الآخر لإكمالها.

كم هى جميلة هذه العبارة؟ إبراهيم من شـيعة نوح، رغم أنّ الفاصل الزمنى بينهما كان كبيرا (قال بعض المفسّـرين: إنّ الفاصل الزمنى بينهما يقدر ب ۲۶۰۰ سنة)، إذ أنّ العلاقات الإيمانية- كما هو معروف- لا يؤثّر عليها الفاصل الزمنى أدنى تأثير[۳۲۴].

بعد هذا العرض المختصر ندخل فى التفاصيل، قال تعالى: إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيم

حيث فسّر المفسّرون (قلب سليم) بعدّة صور، أشارت كلّ واحدة منها إلى أحد أبعاد هذه المسألة.

القلب الطاهر من الشرك.

أو القلب الخالص من المعاصى و الظلم و النفاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۵

أو القلب الخالى من حبّ الدنيا، لأنّ حبّ الدنيا هو مصدر كلّ الخطايا.

و أخيرا هو القلب الذى لا يوجد فيه شىء سوى اللّه.

فى الحقيقة إنّ كلمة (سليم) مشتقّة من (السلامة)، و عند ما تطرح السلامة.

بصورة مطلقة، فإنّها تشمل أيضا السلامة من كلّ الأمراض الأخلاقية و العقائدية.

فالقرآن الكريم يقول بشأن المنافقين فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً،[۳۲۵] أى إنّ قلوبهم مصابة بنوع من أنواع المرض، و إنّ اللّه سبحانه و تعالى أضاف أمراضا اخرى إلى ذلك المرض على أثر لجاجتهم و ارتكابهم المزيد من الذنوب.

و أجمل من فسّر عبارة (القلب السليم) هو

الإمام الصادق علیه السّلام عند ما قال: «القلب السلیم الذی یلقی ربّه و لیس فیه أحد سواه!»[۳۲۶].

حیث جمع بقوله کلّ الأوصاف المذکورة مسبقا.

و

قد جاء فی روایة اخری للإمام الصادق علیه السّلام «صاحب النیّة الصادقة صاحب القلب السلیم، لأنّ سلامة القلب من هواجس المذکورات تخلص النیّة للّه فی الأمور کلّها»[۳۲۷].

و اعتبر القرآن الکریم القلب السلیم رأس مال نجاة الإنسان یوم القیامة، حیث نقرأ فی سورة الشعراء، و فی الآیات ۸۸ و ۸۹ علی لسان النّبی الکبیر إبراهیم علیه السّلام قوله تعالی: یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ ۳۲۸].

نعم، من هنا تبدأ قصّة إبراهیم ذی القلب السلیم، و الروح الطاهرة، و الإرادة الصلبة، و العزم الراسخ، مع قومه، إذ کلّف بالجهاد ضدّ عباد الأصنام، و بدأ بأبیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۶

و عشیرته إِذْ قالَ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ ما هذه الأشیاء التی تعبدونها؟

ألیس من المؤسف علی الإنسان الذی کرّمه اللّه علی سائر المخلوقات، و أعطاه العقل أن یعظّم قطعة من الحجر و الخشب العدیم الفائدة؟ أین عقولکم؟

ثمّ یکمل العبارة السابقة التی کان فیها تحقیر واضح للأصنام، و یقول: أَ إِفْکاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِیدُونَ ۳۲۹].

استخدام کلمة (إفک) فی هذه الآیة، و التی تعنی الکذب العظیم أو القبیح، توضّح حزم و قاطعیة إبراهیم علیه السّلام بشأن الأصنام.

و اختتم کلامه فی هذا المقطع بعبارة عنیفة فَما ظَنُّکُمْ بِرَبِّ الْعالَمِینَ إذ تأکلون ما یرزقکم به یومیّا، و نعمه تحیط بکم من کلّ جانب، و رغم هذا تقصدون موجودات لا قیمة لها من دون اللّه، فهل تتوقّعون أنّه سیرحمکم و سوف لا یعذّبکم بأشدّ العذاب؟ کم هو خطأ کبیر و ضلال خطیر؟! عبارة بِرَبِّ الْعالَمِینَ تشیر إلی أنّ کلّ العالم یدور فی ظلّ ربوبیته تبارک و تعالی، و قد ترکتموه و اتّجهتم صوب مجموعة من الظنون و الأوهام الفارغة.

و جاء فی کتب التأریخ و التّفسیر، أنّ عبدة الأصنام فی مدینة بابل کان لهم عید یحتفلون به سنویا، یهیّئون فیه الطعام داخل معابدهم، ثمّ یضعونه بین یدی آلهتهم لتبارکه، ثمّ یخرجون جمیعا إلی خارج المدینة، و فی آخر الیوم یعودون إلی معابدهم لتناول الطعام و الشراب.

و بذلک خلت المدینة من سکّانها، فاستغلّ إبراهیم علیه السّلام هذه الفرصة الجیّدة لتحطیم الأصنام، الفرصة التی کان إبراهیم علیه السّلام ینتظرها منذ فترة طویلة، و لم یکن راغبا فی إضاعتها.

و حین دعاه قومه لیلا للمشارکة فی مراسمهم نظر إلی النجوم فَنَظَرَ نَظْرَةً فِی النُّجُومِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۷

فَقالَ إِنِّی سَقِیمٌ

و بهذا الشکل اعتذر عن مشارکتهم.

بعد اعتذاره ترکوه و أسرعوا لتأدیة مراسمهم فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِینَ

و هنا یطرح سؤالان.

الأوّل: لماذا نظر إبراهیم علیه السّلام فی النجوم، و ما هو هدفه من هذه النظرة؟

و الثانی: هل أنّه کان مریضا حقّا حینما قال: إنّنی مریض؟ و ما هو مرضه؟

جواب السؤال الأوّل، مع أخذ اعتقادات أهل بابل و عاداتهم بنظر الإعتبار، یتّضح أنّهم کانوا یستقرئون النجوم، و حتّی أنّهم کانوا

يقولون بأنّ أصنامهم كانت هياكل النجوم على الأرض، و لهذا السبب فإنّهم يكنّون لها الاحترام لكونها تمثّل النجوم.

و بالطبع فإلى جانب استقرائهم للنجوم، كانت هناك خرافات كثيرة فى هذا المجال شائعة فى أوساطهم، منها أنّهم كانوا يعتبرون النجوم تؤثّر على حظوظهم، و كانوا يطلبون منها الخير و البركة، كما كانوا يستدلّون بها على الحوادث المستقبلية.

و لكى يوهمهم إبراهيم عليه السّلام بأنّه يقول بمثل قولهم، نظر إلى السماء و قال حينذاك: إنّى سقيم، فتركوه ظنّا منهم أنّ نجمه يدلّ على سقمه.

أمّا بعض كبار المفسّرين، فقد احتملوا أنّه كان يريد من حركة النجوم تعيين الوقت الدقيق لمرضه، لأنّه كان مصابا بحمى تعتريه فى أوقات معيّنة، و لكن الاحتمال الأوّل يعدّ مناسبا أكثر، مع الأخذ بنظر الإعتبار معتقدات أهل بابل السائدة آنذاك.

فيما احتمل البعض الآخر أنّ نظرة إلى السماء هو التفكّر فى أسرار الخلق، رغم أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ نظراته إلى السماء هى نظرات منجم يريد من خلال حركة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۸

النجوم توقّع الحوادث القادمة.

أمّا بخصوص السؤال الثانى فقد ذكروا أجوبة متعدّدة:

منها: أنّه كان مريضا حقّا، و حتّى إن لم يكن مريضا فإنّه لن يشارك فى مراسم عيدهم، فمرضه كان عذرا جيّدا لعدم مشاركته فى تلك المراسم و فى نفس الوقت فرصة ذهبية لتحطيم الأصنام، و لا- نمتلك دليلا- يمكننا من القول بأنّه استخدم التورية، كما أنّ استخدام التورية من قبل الأنبياء يعدّ عملا غير مناسب.

و قال البعض الآخر: إنّ إبراهيم لم يكن مصابا بمرض جسدى، و إنّما روحه متعبة، من جرّاء الممارسات التافهة لقومه و كفرهم و ظلمهم و فسادهم، فبهذا أوضح لهم الحقيقة، رغم أنّهم تصوّروا شيئا آخر، و اعتقدوا أنّه يعانى من أمراض جسدية.

و احتمل البعض أنّه استخدم التورية فى كلامه معهم، فمثلا يأتى شخص و يطرق باب البيت، و يستفسر: هل فلان موجود فى البيت، فيأتيه الجواب: إنّه ليس هنا، و المراد من هنا هو خلف باب البيت و ليس البيت كلّه، فى حين أنّ السامع يفهم أنّه ليس موجودا فى البيت، (مثل هذه العبارات التى هى ليست بكذب و ظاهرها يعطى مفهوما آخر يطلق عليها فى الفقيه اسم «التورية») و مقصود إبراهيم عليه السّلام انّنى يمكن أنّ أمراض فى المستقبل، قال ذلك ليتخلّص منهم و يتركوه وحيدا.

و لكن التّفسير الأوّل و الثانى أنسب حسب الظاهر.

و بهذه الطريقة بقى إبراهيم عليه السّلام وحده فى المدينة بعد أن تركها عبدة الأصنام متوجّهين إلى خارجها، فنظر إبراهيم حوله و نور الاشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر فى عينيه، إذ قربت اللحظات التى كان ينتظرها، و عليه أن يتحرّك لمحاربة الأصنام و إلحاق ضربة عنيفة بها، ضربة تهزّ العقول التافهة لعبدتها و توقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام، و نظر إلى صحون و أوانى الطعام المنتشرة فى المعبد، ثمّ نظر إلى الأصنام و صاح بها مستهزئا، ألا تأكلون من هذا الطعام الذى جلبه لكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۹

عبدتكم، إنّه غذاء دسم و لذيذ و متنوّع، ما لكم لا تأكلون؟ فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ ۳۳۰].

ثمّ أضاف، لم لا تتكلّمون؟ لم تعجز ألسنتكم عن النطق؟ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ

و بهذا استهزء إبراهيم عليه السّلام بكلّ معتقداتهم الخرافية، و من دون أى شكّ فإنّه كان يعرف أنّها لا تأكل و لا تتحدّث، و أنّها جماد. و أراد من وراء ذلك عرض حادثة تحطيم الأصنام بصورة جميلة و لطيفة.

بعد ذلك شمر عن ساعديه، فأمسك الفأس و انقضّ على تلك الأصنام بالضرب بكلّ ما لديه من قوّة فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ

و المراد من (الیمین) إمّا یـد الإنسان الیمنی، و التی ینجز الإنسان بها معظم أعماله، أو أنّها کنایة عن القدرة و القوّة، و یمکن أن تجمع بین المعنیین.

علی أیّة حال، فإنّ انقضاض إبراهیم علیه السّلام علی الأصنام، حوّل معبد الأصنام المنظّم إلی خربة موحشة، حیث لم یبق صنم علی حالته الاولی، فالأیـدی و الأرجل المحطّمـة تفرّقت هنا و هناک داخل المعبـد، و کم کان منظر المعبـد بالنسبة لعبدة الأصنام مؤثّرا و مؤسفا و مؤلما فی نفس الوقت.

و بعـد انتهائه من تحطیم الأصنام، غادر إبراهیم- بکلّ هدوء و اطمئنان- معبد الأصنام عائدا إلی بیته لیعدّ نفسه للحوادث المقبلة، لأنّه کان یعلم أنّ عمله کان بمثابـة انفجار هائل سیهزّ المدینـة برمّتها و مملکة بابل بأجمعها، و سیحدث موجة من الغضب العارم، الموجة التی سیکون إبراهیم علیه السّلام وحیدا فی وسطها. إلّا أنّ له ربّا یحمیه، و هذا یکفیه.

و فی آخر الیوم عاد عبدة الأصنام إلی مدینتهم، و اتّجهوا فورا إلی معبدهم، فشاهدوا مشـهدا رهیبا و غامضا، و من شدّة رهبة المشـهد تجمّد البعض فی مکانه، فیما فقد البعض الآخر عقله و هو ینظر بدهشة و تحیّر لجذاذ آلهته المنتشرة هنا

و هناک، تلک الأصنام التی خالوها ملجأ و ملاذا لهم یوم لا ملجأ لهم، أصبحت بلا ناصر و لا معین.

ثمّ تحوّل جوّ السکوت الذی خیّم علیهم لحظة مشاهدة المشهد، تحوّل إلی صراخ و استفسار عمّن فعل ذلک بآلهتهم؟

و لم یمرّ وقت طویلا، حتّی تذکّروا وجود شاب یعبد اللّه فی مدینتهم اسمه إبراهیم، کان یستهزئ بأصنامهم، و یهدّد بأنّه أعدّ مخطّطا خطیرا لأصنامهم.

من هنا استدلّوا علی أنّ إبراهیم هو الفاعل، فأقبلوا علیه جمیعا غاضبین فَأَقْبَلُوا إِلَیْهِ یَزِفُّونَ

«یزفّون» مشـتقّة من (زفّ) علی وزن (کفّ) و تستعمل بخصوص هبوب الریاح و الحرکـة السریعة للنعامـة الممتزجـة ما بین السیر و الطیران، ثمّ تستخدم للکنایة عن (زفاف العروس) إذ تعنی أخذ العروس إلی بیت زوجها.

علی أیّة حال، المراد هنا هو أنّ عبدة الأصنام جاؤوا مسرعین إلی إبراهیم، و سنقرأ تتمّة الأحداث فی الآیات القادمة.

***

ملاحظات

۱- هل أنّ الأنبیاء یستخدمون التوریة؟

«التوریـة»- و یعبّر عنهـا أحیانا بلفظـة (معاریض)- تعنی أن یقول الرجل شـیئا یقصـد به غیره و یفهم منه غیر ما یقصـده. فمثلا شـخص یسأل آخر: متی رجعت من السـفر؟ فیجیبه: قبل غروب الشـمس، فی الوقت الـذی کان قـد عاد من سـفره قبل الظهر، فالسائل یفهم من ظاهر الکلام، أنّه عاد قبل غروب الشـمس بقلیل، فی حین أنّه کان یقصـد قبل الظهر، لأنّ قبل الظهر یعدّ أیضا قبل غروب الشـمس. أو شخص یسأل آخر: هل تناولت الطعام، فیجیبه: نعم. فالسائل یفهم من الکلام أنّه تناول

الطعام الیوم، فی حین أنّ قصد المجیب هو أنّه تناول الطعام یوم أمس.

مسألـة هل أنّ التوریـة کـذب أم لا؟ مطروحـة فی الکتب الفقهیة، فمجموعة من کبار العلماء و منهم الشـیخ الأنصاری رضوان اللّه علیه یعتقدون أنّ التوریة لیست کذبا، فلا العرف و لا الروایات تعدها کذبا، و إنّما وردت بشأنها روایات تنفی عنها صفة الکذب، إذ

قال الإمام الصادق علیه السّلام: «الرجل یستأذن علیه فیقول للجاریة قولی لیس هو هاهنا. فقال علیه السّلام: لا بأس لیس بکذب»[۳۳۱].
و الحقّ هو لزوم القول بالتفصیل، و لا بدّ من وضع ضابطة کلیّة: فإذا کان للفظ فی اللغة و العرف معنیان، و المخاطب تصوّر معنی خاصّا من تلک الکلمة، فی حین أنّ المتحدّث یقصد معنی آخر، مثل هذا یعدّ توریة و لیس بکذب، حیث یستخدم لفظ مشترک المعانی یفهم منه المخاطب شیئا، فی حین أنّ المتحدّث یقصد منه معنی آخر.
و علی سبیل المثال، جاء فی شرح حال «سعید بن جبیر»، أنّ الطاغیة الحجّاج بن یوسف الثقفی سأل سعید بالقول: ما هو تقییمک لی، فأجابه سعید: إنّک (عادل)، ففرح جلاوزة الحجّاج، فی حین قال الحجّاج: إنّه بکلامه هذا کفّرنی، لأنّ أحد معانی (العادل) هو العدول من الحقّ إلی الباطل.
أمّا إذا کان للفظ معنی لغوی و عرفی واحد من حیث المفهوم، و المتحدّث یترک المعنی الحقیقی و یستخدمه کمعنی مجازی من دون أن یذکر قرائن المجاز، فمثل هذه التوریة- من دون أیّ شکّ- حرام، و لربّما تمکّنا بهذا التفصیل الجمع بین آراء مختلف الفقهاء.
و لکن، یجب الانتباه إلی أنّه فی بعض الأحیان حتّی فی الموارد التی لا تکون فیها التوریة مصداقا للکذب، تکون للتوریة أحیانا مفاسد و مضارّ و إیقاع الناس فی الخطأ، و من هذا الباب قد تصل فی بعض الأحیان إلی درجة الحرمة، و لکن إن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۲

لم تکن قد اشتملت علی مفسدة، و لم تکن مصداقا للکذب، فلیس هناک دلیل علی حرمتها. و روایة الإمام الصادق علیه السّلام هی من هذا القبیل.
بناء علی ذلک فإنّ عدم وجود الکذب فی التوریة لیس کافیا، بل یجب أیضا أن لا تشتمل التوریة علی مفاسد و مضارّ اخری. و بالطبع ففی الحالات التی تقتضی الضرورة فیها أن یقول الإنسان کذبا، فمن المسلّم به جواز استعمال التوریة ما دام هناک مجال لاستخدامها، لکی لا یکون کلامه مصداقا للکذب.
لکن هل أنّ التوریة جائزة أیضا للأنبیاء، أم لا؟
یجب القول: إنّه طالما کانت سببا فی تزلزل ثقة الناس المطلقة فهی غیر جائزة، لأنّ الثقة المطلقة هذه هی رأسمال الأنبیاء فی طریق التبلیغ، و أمّا فی موارد مثل ما ورد عن تمارض إبراهیم علیه السّلام و نظره فی النجوم، و وجود هدف مهمّ فی ذلک العمل، دون أن تتسبّب فی تزلزل أعمدة الثقة لدی مریدی الحقّ، فلا تنطوی علی أی إشکال.

۲- إبراهیم و القلب السلیم:

کما هو معروف فإنّ کلمة (القلب) تعنی فی الاصطلاح القرآنی الروح و العقل، و لهذا فإنّ (القلب السلیم) یعنی الروح الطاهرة السالمة الخالیة من کافّة أشکال الشرک و الشکّ و الفساد.
و القرآن الکریم وصف بعض القلوب ب (القاسیة) فَبِما نَقْضِهِمْ مِیثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِیَةً یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُکِّرُوا بِهِ ....[۳۳۲] و أحیانا وصفها بأنّها غیر طاهرة، کما ورد فی (سورة المائدة- ۴۱).
و اخری وصفها بالمریضة (سورة البقرة- ۶).
و رابعة وصفها بالقلوب المغلقة المختوم علیها (سورة التوبة- ۸۷).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۳

و فی مقابل هذه القلوب طرح القلب السلیم الخالی من العیوب المذکورة أعلاه، حیث أنّه صاف و رقیق ملیء بالعطف و سالم و لا

ینحرف عن الحقّ، القلب الذی وصف فی الروایات ب (حرم اللّه) إذ جاء

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: (القلب حرم اللّه فلا تسکن حرم اللّه غیر اللّه)[۳۳۳].

و هو القلب الذی یتمکّن من رؤیة الحقائق الغیبیة و النظر إلی الملکوت الأعلی، إذ

ورد فی حدیث لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «لو لا أنّ الشیاطین یحومون علی قلوب بنی آدم لنظروا إلی الملکوت»[۳۳۴].

الملاحظ أنّ (القلب السلیم) هو خیر رأسمال للنجاة فی یوم القیامة، و به التحق إبراهیم علیه السّلام بملکوت ربّه و تسلّم أمر الرسالة.

نختتم هذا البحث بحدیث آخر، إذ ورد فی الروایات

«إنّ للّه فی عباده آنیة و هو القلب فأحبّها إلیه (أصفاها) و (أصلبها) و (أرقّها): أصلبها فی دین اللّه، و أصفاها من الذنوب، و أرقّها علی الاخوان»[۳۳۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۴

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۹۵ الی ۱۰۰]

اشارة

قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (۹۵) وَ اللَّهُ خَلَقَکُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (۹۶) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْیاناً فَأَلْقُوهُ فِی الْجَحِیمِ (۹۷) فَأَرادُوا بِهِ کَیْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِینَ (۹۸) وَ قالَ إِنِّی ذاهِبٌ إِلی رَبِّی سَیَهْدِینِ (۹۹)

رَبِّ هَبْ لِی مِنَ الصَّالِحِینَ (۱۰۰)

التّفسیر

فشل مخطّطات المشرکین:

بعد أن حطّم إبراهیم الأصنام، استدعی إبراهیم بهذه التهمة إلی المحکمة، و هناک سألوه و طلبوا منه الجواب عن الید التی نفذت هذا الفعل فی معبدهم، و قد شرح القرآن الکریم فی سورة الأنبیاء الحادثة بصورة مفصّلة، بینما اکتفی القرآن فی آیات بحثنا بالإشارة لمقطع حسّاس واحد من مواقف إبراهیم علیه السّلام و هو آخر کلامه معهم فی مجال بطلان عقیدتهم فی عبادة الأصنام قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ

فهل هناک شخص عاقل یعبد شیئا من صنع یدیه؟ و ما هو الدافع لأی ذی شعور للسجود لشیء صنعه هو بنفسه؟ فأی عقل و منطق یسمح بفعل هذا؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۵

فالمعبود یجب أن یکون خالق الإنسان، و لیس صنیعة یده، من الآن فکّروا و اعرفوا معبودکم الحقیقی وَ اللَّهُ خَلَقَکُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ

فهو خالق الأرض و السماء، و مالک الوقت و الزمان، و یجب السجود لهذا الخالق و حمده و عبادته.

إنّ هذه الحجّة کانت من الوضوح و القوّة إلی حدّ جعلتهم یقفون أمامها مبهوتین و غیر قادرین علی ردّها و دحضها.

و (ما) فی عبارة ما تَعْمَلُونَ هی (ما) الموصولة و لیست (ما) المصدریة، و منها یراد القول، إنّ اللّه خلقکم و کذلک ما تصنعون، و عند ما یقال: إنّ الأصنام هی من صنع أو أعمل الإنسان، فذلک یعنی أنّ الإنسان أعطاها الشکل فقط، و إلّا فالمادّة التی تصنع منها الأصنام هی من خلق اللّه أیضا.

صحيح ما يقال من أنّ هذه السجّادة و ذلك البيت و تلك السيارة هى من صنع الإنسان، و لكن المراد ليس أنّ الإنسان هو الذى خلق المواد الأوّلية لتلك الأشياء، و إنّما الإنسان صاغ تلك المواد الأوّلية بشكل معيّن.

أمّا إذا اعتبرنا (ما) مصدرية، فالعبارة تعنى ما يلى: إنّ اللّه خلقكم و أعمالكم.

و بالطبع فإنّ المعنى هذا ليس خطأ، و على خلاف ما يظنّه البعض ليس فيه ما يدلّ على الجبر، لأنّ الأعمال التى نقوم بها رغم أنّها تتمّ بإرادتنا، إلّا أنّ إرادة و قدرة التصميم و غيرها من القوى التى تنفذ من خلالها أفعالنا كلّها من اللّه سبحانه و تعالى، و بهذا الشكل فإنّ الآية لا تقصد هذا الأمر، و إنّما تقصد الأصنام، و تقول:

إنّ اللّه خلقكم أنتم و الأصنام التى صنعتموها و صقلتموها. و جمال هذا الحديث يتجسّد هنا، لأنّ البحث يخصّ الأصنام و لا يخصّ أعمال البشر.

فى الحقيقة إنّ موضوع هذه الآية يشبه الموضوع الذى ورد فى قصّة موسى و السحرة و التى تقول: فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ ۳۳۶]، فالمقصود هنا الأفعى التى هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۶

من صنع السحرة.

و من المعروف أنّ الطغاة و الجبابرة لا يفهمون لغة المنطق و الدليل، و لهذا لم تؤثّر عليهم الأدلّة و البراهين الظاهرية و القويّة التى بيّنها إبراهيم عليه السّلام على قلوب الجبابرة الحاكمين فى بابل حينذاك، رغم أنّ مجموعات من أبناء الشعب المستضعف هناك استيقظت من غفلتها و آمنت بدعوة إبراهيم عليه السّلام.

و لإيقاف انتشار منطق التوحيد بين أبناء مدينة بابل، عمد الطغاة الذين أحسّوا بخطر انتشار على مصالحهم الخاصّة إلى استخدام منطق القوّة و النار ضدّ إبراهيم عليه السّلام، المنطق الذى لا يفهمون سواه. حيث هتفوا بالاعتماد على قدراتهم الدنيوية: أن ابنوا له بنيانا عاليا، و اشعلوا فى وسطه النيران ثمّ ارموه فيه قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ

و من هذه العبارة يستفاد أنّ الأوامر كانت قد صدرت ببناء أربعة جدران كبيرة، و من ثمّ إشعال النيران فى داخلها، و بناء الجدران الأربعة الكبيرة، إنّما تمّ- كما يحتمل- للحئول دون امتداد النيران إلى خارجها، و منع وقوع أخطار محتملة قد تنجم عنها، و لإيجاد جهنّم واقعية كتلك التى كان إبراهيم يتهدّد و يتوعّد عبدة الأوثان بها.

صحيح أنّ كميّة قليلة من الحطب كانت تكفى لحرق إنسان كإبراهيم، لكنّهم فعلوا ذلك ليطفؤا غيظ قلوبهم من جرّاء تحطيم أصنامهم، و بمعنى آخر الانتقام من إبراهيم بأشدّ ما يمكن، لعلّهم بذلك يعيدون العظمة و الابّهة لأصنامهم إضافة إلى أنّ عملهم هذا كان تخويفا و تحذيرا لمعارضيهم، كى لا تتكرّر مثل هذه الحادثة مرّة اخرى فى تأريخ بابل، لذلك فقد أوقدوا نارا عظيمة.

«الجحيم» فى اللغة هى النار التى تجتمع بعضها على بعض.

هذا، و قد فسّر البعض «البنيان» بأنّه المنجنيق، و المنجنيق- كما هو معروف- أداة لقذف الأشياء الثقيلة إلى مكان بعيد، لكن أكثر المفسّرين انتخبوا التّفسير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۷

الأوّل، أى أنّ البنيان هو ذلك البناء المكوّن من أربعة جدران كبيرة.

و آيات القرآن الكريم هنا لم تشر إلى دقائق و تفاصيل هذا الحادث الذى ورد فى سورة الأنبياء، و إنّما أنهت هذه الحادثة بخلاصة مركّزة و لطيفة فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ

(كيد) فى الأصل تعنى الاحتيال، أ كان بطريقة صحيحة أم غلط، مع أنّها غالبا ما تستعمل فى موارد مذمومة، و بما أنّها جاءت بحالة النكرة هنا، فإنّها تدلّ على عظمة الشىء و أهميّته، و هى إشارة إلى المخطّط الواسع الذى وضعه طغاة بابل للقضاء على دعوة إبراهيم

للناس بقوله و عمله و محو آثارها.

نعم، لقد وضعهم اللّه سبحانه و تعالی فی أسفل السافلین، فیما رفع إبراهیم علیه السّلام إلی أعلی علّیین، کما کان أعلی منطقا، و جعله هو الأعلی فی حادثهٔ إشعال النیران، و أعداءه الأقویاء هم الأخسرین، فکانت النار علیه بردا و سلاما دون أن تحرق حتّی شعرهٔ واحدهٔ من جسد إبراهیم علیه السّلام و خرج سالما من ذلک البحر الجهنّمی.

فإرادته تقتضی أن ینجی فی یوم من الأیّام نوحا من «الغرق»، و فی یوم آخر ینقذ إبراهیم من «الحرق»، و ذلک لکی یوضّح أنّ الماء و النار عبدان مطیعان له سبحانه و تعالی و مستجیبان لأوامره.

إبراهیم علیه السّلام الذی نجا بإرادهٔ اللّه من هذه الحادثهٔ الرهیبهٔ و المؤامرهٔ الخطیرهٔ التی رسمها أعداؤه له، و خرج مرفوع الرأس منها، صمّم علی الهجرهٔ إلی أرض بلاد الشام، إذ أنّ رسالته فی بابل قد انتهت، وَ قالَ إِنِّی ذاهِبٌ إِلی رَبِّی سَیَهْدِینِ

من البدیهیات أنّ اللّه لا یحویه مکان، و الهجرهٔ التی تتمّ فی سبیله من المجتمع الملوّث الفاسد إلی المجتمع الطاهر الصافی، فإنّها هجرهٔ إلی اللّه.

فالهجرهٔ إلی أرض الأنبیاء و الأولیاء و مهبط الوحی الإلهی، هی هجرهٔ إلی اللّه، مثلما یعرف السفر إلی مکّهٔ المکرّمهٔ بأنّه سفر إلی اللّه، خاصّهٔ و أنّ هجرهٔ إبراهیم علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۸

کانت من أجل تنفیذ واجب رسالی إلهی، و أنّ اللّه کان هادیه و مرشده خلال السفر.

الآیات- هنا- عکست أوّل طلب لإبراهیم علیه السّلام من الباری عزّ و جلّ، إذ طلب الولد الصالح، الولد الذی یتمکّن من مواصلهٔ خطّهٔ الرسالی، و یتمم ما تبقّی من مسیرته، و ذلک حینما قال: رَبِّ هَبْ لِی مِنَ الصَّالِحِینَ

إنّها حقّا لعبارهٔ جمیلهٔ (الولد الصالح و اللائق) الصالح من حیث الإعتقاد و الإیمان، و الصالح من حیث القول و العمل، و الصالح من جمیع الجهات.

و الذی یلفت النظر أنّ إبراهیم علیه السّلام کان قد طلب من اللّه فی إحدی المرّات أن یجعله من مجموعهٔ الصالحین، کما نقل القرآن ذلک عن إبراهیم، رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ [۳۳۷] فیما طلب من اللّه هنا أن یمنحه الولد الصالح، حیث أنّ کلمهٔ صالح تجمع کلّ الأشیاء اللائقهٔ و الجیّدهٔ فی الإنسان الکامل.

فاستجاب اللّه لدعاء عبده إبراهیم، و رزقه أولادا صالحین (إسماعیل و إسحاق) و ذلک ما وضحته الآیات التالیهٔ فی هذه السورهٔ وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِیًّا مِنَ الصَّالِحِینَ

و بخصوص إسماعیل یقول القرآن الکریم: وَ إِسْماعِیلَ وَ إِدْرِیسَ وَ ذَا الْکِفْلِ کُلٌّ مِنَ الصَّابِرِینَ. وَ أَدْخَلْناهُمْ فِی رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِینَ [۳۳۸].

بحثان

۱- خالق کلّ شیء:

وردت فی آیات بحثنا أنّ إبراهیم علیه السّلام خاطب عبدهٔ الأصنام قائلا: وَ اللَّهُ خَلَقَکُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۹

و قد زعم البعض أنّ هذه الآیات تدلّ علی ما جاء فی مذهب الجبر الفاسد، و ذلک عند ما اعتبروا (ما) فی عبارهٔ ما تَعْمَلُونَ (ما)

المصدريـة، و قالوا: إنّ هـذه الآيـة تعنى أنّ اللّه خلقكم و أعمالكم، و بما أنّ أعمالنا هى من خلق اللّه، فإنّنا لا نمتلك الإختيار، أى إنّنا مجبرون.

هذا الكلام لا أساس له من الصحّة لعدّة أسباب:

أوّلا: كما قلنا فإنّ المراد من ما تَعْمَلُونَ هنا، هى الأصـنام التى كانوا يصـنعونها بأيـديهم، و ليست أعمال الإنسان، و من دون أى شـك فـإنّهم كـانوا يأخـذون المواد من هـذه الأـرض التى خلقهـا اللّه، و ينحتونهـا بالشـكل الـذى يروق لهم، و لهـذا فـإنّ (مـا) هنا هى (ما) الموصولة.

ثانيا: إذا كان مفهوم الآية كما تصوّر أولئك، فإنّها تكون دليلا لصالح عبدة الأصـنام، و ليس ضدّهم، لأنّهم يسـتطيعون القول: صـناعة الأصنام و عبادتها إنّما هو من خلق اللّه، و نحن فى هذه الحالة لسنا بمذنبين.

و ثالثا: على فرض أنّ معنى الآية هو هكذا، فليس هناك دليل على الجبر، لأنّه مع الحرية و الإرادة و الاختيار فإنّ اللّه هو خالق أعمالنا، لأنّ هـذه الحريـة و الإرادة و القدرة على التصـميم و كذلك القوى البدنية و الفكرية الماديّة و المعنوية لم يعطها غير اللّه؟ إذا فالخالق هو، مع أنّ الفعل هو باختيارنا نحن.

۲- هجرة إبراهيم عليه السّلام:

الكثير من الأنبياء هاجروا خلال فترة حياتهم من أجل أداء رسالتهم، و منهم إبراهيم الـذى اسـتعرضت آيات مختلفة فى القرآن المجيد قضيّة هجرته، و منها ما جاء فى سورة العنكبوت الآية (۲۶) وَ قالَ إِنِّی مُهاجِرٌ إِلی رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

فى الحقيقة، إنّ أولياء اللّه عند ما كانوا يتّمون مهام رسالتهم فى إحدى المناطق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۰

أو أنّهم كانوا يحسّون بأنّ المجتمع لا يتقبّل رسالتهم، كانوا يهاجرون كى لا تتوقّف رسالتهم.

و هـذه الهجرة كانت مصـدر بركات كثيرة على طول تاريـخ الأديان، حتّى أنّ تاريـخ الإسـلام من الناحيتين الظاهريـة و المعنوية يدور حول محور هجرة الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و لو لا الهجرة لكان الإسـلام قد غرق- و إلى الأبد- فى مستنقع عبدة الأصنام فى مكّـة. فالهجرة هى التى أعطت روحا جديـدة للإسـلام و المسـلمين، و غيّرت كلّ شـىء لصالحهم، و خطت للبشـرية طريقا جديـدا للسير عليه.

و بعبارة واحـدة: فالهجرة برنامـج عام لكلّ مؤمن عنـد ما يشـعر فى وقت من الأوقات أنّ الجو الـذى يعيش فيه غير متناسب مع أهـدافه المقدّسة، و يبدو كأنّه مستنقع عفن يفسد كلّ ما فيه، فتكليفه الهجرة، و عليه أن يحزم حقائب السفر، و ينتقل إلى مناطق أفضل، فأرض اللّه واسعة.

و الهجرة قبـل أن تكون ذات طابع ذاتى خارجى، فهى ذات طابع ذاتى داخلى، ففى بدايـة الأمر يجب على القلب و الروح هجر الفساد إلى الطهارة، و هجر الشرك إلى الإيمان، و هجر المعاصى إلى طاعة اللّه العظيم.

فالهجرة الداخلية هى بداية تغيّر الفرد و المجتمع، و مقدّمة للهجرة الخارجية، و قد بحث هذا الموضوع بصورة مفصّـلة فى هذا التّفسـير و فى موضوع يتحدّث عن الإسلام و الهجرة، و ذلك بعد الآية (۱۰۰) فى سورة النساء.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۱۰]

اشارة

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (۱۰۱) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (۱۰۲) فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (۱۰۳) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (۱۰۴) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۰۵)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (۱۰۶) وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (۱۰۷) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۱۰۸) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (۱۰۹) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۱۰)

التّفسير

إبراهيم عند المذبح:

بحثنا فى الآيات السابقة انتهى عند هجرة إبراهيم عليه السّلام من بابل بعد أن أدّى رسالته هناك، و طلبه من اللّه أن يرزقه ولدا صالحا، إذ لم يكن له ولد.

و أوّل آية فى هذا البحث تتحدّث عن الاستجابة لدعاء إبراهيم، إذ قالت الآية:

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۲

فى الواقع إنّ ثلاثة بشائر جمعت فى هذه الآية، الاولى أنّه سيرزق طفلا ذكرا، و الثانية أنّ هذا الطفل يبلغ سنّ الفتوّة، أمّا الثالثة فهى أنّ صفته حليم.

و كلمة (حليم) تعنى الذى لا يعجّل فى الأمر قبل وقته مع القدرة عليه، و قيل:

الذى لا يعجّل بالعقوبة، و الذى له روح كبيرة و هو متسلّط على أحاسيسه.

و يرى «الراغب» فى مفرداته أنّ كلمة حليم تعنى الضابط نفسه فى لحظة الإثارة و الغضب، و بسبب كون هذه الحالة تنشأ من العقل و الإدراك، فإنّ كلمة و عكس تعنى- أحيانا- العقل و الإدراك.

و لكن المعنى الحقيقى لكلمة حليم هو المعنى الأوّل الذى ذكرناه.

و يمكن الاستفادة من هذا الوصف فى أنّ اللّه بشّر عبده إبراهيم فى أنّه سيعطى ابنه إسماعيل عمرا يمكن وصفه فيه بالحليم، كما أنّ الآيات التالية ستوضّح أنّ إسماعيل بيّن مرتبة حلمه أثناء قضيّة الذبح، مثلما وضّح أبوه إبراهيم حلمه فى أثناء قضيّة الذبح، و أثناء إحراقه بالنار.

و كلمة (حليم) كرّرت (۱۵) مرّة فى القرآن المجيد، و أغلبها وردت وصفا للّه، عدا ثلاث موارد جاءت فى وصف إبراهيم و ابنه إسماعيل من قبل القرآن الكريم، و الثالثة جاءت فى وصف شعيب و على لسان الآخرين.

و كلمة (غلام) حسب إعتقاد البعض تطلق على كلّ طفل لم يصل بعد مرحلة الشباب، و البعض يطلقها على الطفل الذى اجتاز عمره العشر سنوات و لم يصل بعد إلى سنّ البلوغ.

و يمكن الاستفادة من العبارات المختلفة الواردة بلغة العرب فى أنّ كلمة (غلام) تطلق على الذكر الذى اجتاز مرحلة الطفولة و لم يصل بعد إلى مرحلة الشباب.

أخيرا، ولد الطفل الموعود لإبراهيم وفق البشارة الإلهيّة، و أثلج قلب إبراهيم الذى كان ينتظر الولد الصالح لسنوات طوال، اجتاز الطفل مرحلة الطفولة و أضحى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۳

غلاما. و هنا يقول القرآن: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ

يعنى أنّه وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع فيها السعى و بذل الجهد مع والده فى مختلف امور الحياة و إعانته على أموره.

و قال البعض: بأنّ (السعى) هنا يعنى العمل للّه و العبادة، و بالطبع فإنّ كلمة (السعى) لها مفاهيم و معان واسعة تشمل هذا المعنى أيضا، و لكنّها لا يقتصر معناها عليه. و (معه) تدلّ على أنّه كان يساعد والده فى امور الحياة.

على كلّ حال، فقد ذهب جمع من المفسّرين: إنّ عمر إسماعيل كان (۱۳) عاما حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحير، و الذى يدلّ على بدء إمتحان عسير آخر لهذا النّبى ذى الشأن العظيم، إذ رأى فى المنام أنّ اللّه يأمره بذبح ابنه الوحيد و قطع رأسه. فنهض من نومه مرعوبا، لأنّه يعلم أنّ ما يراه الأنبياء فى نومهم هو حقيقة و ليس من وساوس الشياطين، و قد تكرّرت رؤيته هذه ليلتين أخريين، فكان هذا بمثابة تأكيد على ضرورة تنفيذ هذا الأمر فورا.

و قيل: إنّ أوّل رؤيا له كانت فى ليلة التروية، أى ليلة الثامن من شهر ذى الحجّة، كما شاهد نفس الرؤيا فى ليلة عرفة، و ليلة عيد الأضحى، و بهذا لم يبق عنده أدنى شكّ فى أنّ هذا الأمر هو من اللّه سبحانه و تعالى.

إمتحان شاقّ آخر يمرّ على إبراهيم الآن، إبراهيم الذى نجح فى كافّة الامتحانات الصعبة السابقة و خرج منها مرفوع الرأس، الامتحان الذى يفرض عليه وضع عواطف الابوّة جانبا و الامتثال لأوامر اللّه بذبح ابنه الذى كان ينتظره لفترة طويلة، و هو الآن غلام يافع قوى.

و لكن قبل كلّ شىء، فكّر إبراهيم عليه السّلام فى إعداد ابنه لهذا الأمر، حيث قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى

الولد الذى كان نسخة طبق الأصل من والده، و الذى تعلم خلال فترة عمره القصيرة الصبر و الثبات و الإيمان فى مدرسة والده، رحّب بالأمر الإلهى بصدر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۴

واسع و طيبة نفس، و بصراحة واضحة قال لوالده: قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ.

و لا تفكّر فى أمرى، فانّك سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

فما أعظم كلمات الأب و الابن و كم تخفى فى بواطنها من الأمور الدقيقة و المعانى العميقة؟! فمن جهة، الأب يصارح ولده البالغ من العمر (۱۳) عاما بقضيّة الذبح، و يطلب منه إعطاء رأيه فيها، حيث جعله هنا شخصيّة مستقلّة حرّة الإرادة.

فإبراهيم لم يقصد أبدا خداع ولده، و دعوته إلى ساحة الامتحان العسير بصورة عمياء، بل رغب بإشراكه فى هذا الجهاد الكبير ضدّ النفس، و جعله يستشعر حلاوة لذّة التسليم لأمر اللّه و الرضى به، كما استشعر حلاوتها هو.

و من جهة اخرى، عمد الابن إلى ترسيخ عزم و تصميم والده فى تنفيذ ما أمر به، إذ لم يقل له: اذبحنى، و إنّما قال له: افعل ما أنت مأمور به، فإنّنى مستسلم لهذا الأمر، و خاصّة أنّه خاطب أباه بكلمة يا أَبَتِ كى يوضّح أنّ هذه القضيّة لا تقلّل من عاطفة الابن تجاه أبيه و لو بمقدار ذرّة، و أنّ أمر اللّه هو فوق كلّ شىء.

و من جهة ثالثة، أظهر أدبا رفيعا اتّجاه اللّه سبحانه و تعالى، و أن لا يعتمد أحد على إيمانه و إرادته و تصميمه فقط، و إنّما يعتمد على إرادة و مشيئة اللّه، و بعبارة اخرى: أن يطلب توفيق الاستعانة و الاستقامة من اللّه.

و بهذا الشكل يجتاز الأب و ابنه المرحلة الاولى من هذا الامتحان الصعب بانتصار كامل.

ماذا يدور فى هذا الوسط؟ القرآن الكريم لم يفصل مجريات الحدث، و ركّز فقط على النقاط الحسّاسة فى هذه القصّة العجيبة.

کتب البعض: إنّ إسماعیل ساعد والده فی تنفیذ هذا الأمر الإلهی، و عمل علی تقلیل ألم و حزن والدته.

فعند ما أخذه والده للذبح وسط الجبال الجرداء و الحارقة فی أرض (منی) قال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۵

إسماعیل لوالده:

یا أبت، أحکم من شدّ الحبل کی لا تتحرّک یدی و رجلی أثناء تنفیذک الأمر الإلهی، أخاف أن یقلّل ذلک من مقدار الجزاء الذی سأناله.

والدی العزیز اشحذ السکّین جیّدا، و امرره بسرعة علی رقبتی کی یکون تحمّل ألم الذبح سهلا بالنسبة لی و لک.

والدی قبل ذبحی اخلع ثوبی من علی جسدی کی لا یتلوّث بالدم، لأنّی أخاف أن تراه والدتی و تفقد عنان صبرها.

ثمّ أضاف: أوصل سلامی إلی والدتی، و إن لم یکن هناک مانع أوصل ثوبی إلیها کی یسلّی خواطرها و یهدّئ من آلامها، لأنّها ستشمّ رائحة ابنها منه، و کلّما أحسّت بضیق القلب، تضعه علی صدرها لیخفّف الحرقة الموجودة فی أعماقها.

قربت اللحظات الحسّاسة، فالأمر الإلهی یجب أن ینفّذ، فعند ما رأی إبراهیم علیه السّلام درجة استسلام ولده للأمر الإلهی احتضنه و قبّل وجهه، و فی هذه اللحظة بکی الاثنان، البکاء الذی یبرز العواطف الإنسانیة و مقدّمة الشوق للقاء اللّه.

القرآن الکریم یوضّح هذا الأمر فی جملة قصیرة و لکنّها ملیئة بالمعانی، فیقول تعالی: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِینِ ۳۳۹].

مرّة اخری تطرّق القرآن هنا باختصار، کی یسمح للقارئ متابعة هذه القصّة بانشداد کبیر.

قال البعض: إنّ المراد من عبارة تَلَّهُ لِلْجَبِینِ هو أنّه وضع جبین ولده- طبقا لاقتراحه- علی الأرض، حتّی لا تقع عیناه علی وجه ابنه فتهیج عنده عاطفة الابوّة و تمنعه من تنفیذ الأمر الإلهی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۶

علی أیّة حال کبّ إبراهیم علیه السّلام ابنه علی جبینه، و مرّر السکّین بسرعة و قوّة علی رقبة ابنه، و روحه تعیش حالة الهیجان، و حبّ اللّه کان الشیء الوحید الذی یدفعه إلی تنفیذ الأمر و من دون أی تردّد.

إلّا أنّ السکّین الحادّة لم تترک أدنی أثر علی رقبة إسماعیل اللطیفة.

و هنا غرق إبراهیم فی حیرته، و مرّر السکّین مرّة اخری علی رقبة ولده، و لکنّها لم تؤثّر بشیء کالمرّة السابقة.

نعم، فإبراهیم الخلیل یقول للسکّین: اذبحی، لکنّ اللّه الجلیل یعطی أوامره للسکّین أن لا تذبحی، و السکّین لا تستجیب سوی لأوامر الباری عزّ و جلّ.

و هنا ینهی القرآن کلّ حالات الانتظار و بعبارة قصیرة ملیئة بالمعانی العمیقة وَ نادَیْناهُ أَنْ یا إِبْراهِیمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْیا إِنَّا کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ

إذ نمنحهم توفیق النجاح فی الامتحان، و نحفظ لهم ولدهم العزیز، نعم فالذی یستسلم تماما و بکلّ وجوده للأمر الإلهی و یصل إلی أقصی درجات الإحسان، لا یمکن مکافأته بأقلّ من هذا.

ثمّ یضیف القرآن الکریم إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِینُ

عملیّة ذبح الابن البارّ المطیع علی ید أبیه، لا تعدّ عملیّة سهلة و بسیطة بالنسبة لأب انتظر فترة طویلة کی یرزقه اللّه بهذا الابن، فکیف یمکن إماتة قلبه تجاه ولده؟ و الأکثر من ذلک استسلامه و رضاه المطلق- من دون أی انزعاج- لتنفیذ هذا الأمر، و تنفیذه کافّة مراحل العملیة من بدایتها إلی نهایتها، بصورة لا یغفل فیها عن أی شیء من الاستعداد لعملیة الذبح نفسیا و عملیّا.

و الذی یثیر العجب أکثر هو التسلیم المطلق لهذا الغلام أمام أمر اللّه، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح و اطمئنان یحفّه اللطف الإلهی، و استسلام فی مقابل هذا الأمر.

لذا فقد ورد فی بعض الروایات أنّ جبرئیل هتف «اللّه أکبر» «اللّه أکبر» أثناء

عملیّة الذبح لتعجّبه.

فیما هتف إسماعیل «لا إله إلّا اللّه، و اللّه أکبر».

ثمّ قال إبراهیم «اللّه أکبر و للّه الحمد»[۳۴۰].

و هذه العبارات تشبه التکبیرات التی نردّدها فی یوم عید الأضحی.

و لکی لا یبقی برنامج إبراهیم ناقصا، و تتحقّق أمنیة إبراهیم فی تقدیم القربان للّه، بعث اللّه کبشا کبیرا إلی إبراهیم لیذبحه بدلا عن ابنه إسماعیل، و لتصیر سنّة للأجیال القادمة التی تشارک فی مراسم الحجّ و تأتی إلی أرض (منی) وَ فَدَیْناهُ بِذِبْحٍ عَظِیمٍ

ما المراد بالذبح العظیم؟

هل أنّه یقصد منه الجانب الجسمی و الظاهری؟

أو لأنّه کان فداء عن إسماعیل؟

أو لأنّه کان للّه و فی سبیل اللّه؟

أو لأنّ هذه الاضحیة بعثها اللّه تعالی إلی إبراهیم؟

المفسّرون قالوا الکثیر بشأنها، و لکن لا یوجد أی مانع یحول دون جمع کلّ ما هو مقصود أعلاه.

و إحدی دلائل عظمة هذا الذبح، هو اتّساع نطاق هذه العملیة سنة بعد سنة بمرور الزمن، و حالیا یذبح فی کلّ عام أکثر من ملیون اضحیة تیمنّا بذلک الذبح العظیم و إحیاء لذلک العمل العظیم.

«فدیناه» مشتقّة من (الفداء) و تعنی جعل الشیء مکان الشیء لدفع الضرر عنه، لذا یطلق علی المال الذی یدفع لإطلاق سراح الأسیر (الفدیة) کما تطلق (الفدیة) علی الکفّارة التی یخرجها بعض المرضی بدلا عن صیامهم.

و بشأن کیفیة وصول الکبش العظیم إلی إبراهیم علیه السّلام، أعرب الکثیر من

المفسّرین عن اعتقادهم فی أنّ جبرئیل أنزله، فیما قال البعض الآخر: إنّه هبط علیه من أطراف جبال (منی)، و مهما کان فإنّ وصوله إلی إبراهیم کان بأمر من اللّه.

النجاح الذی حقّقه إبراهیم علیه السّلام فی الامتحان الصعب، لم یمدحه اللّه فقط ذلک الیوم، و إنّما جعله خالدا علی مدی الأجیال وَ تَرَکْنا عَلَیْهِ فِی الْآخِرِینَ

إذ غدا إبراهیم علیه السّلام «أسوة حسنة» لکلّ الأجیال، و «قدوة» لکلّ الطاهرین، و أضحت أعماله سنّة فی الحجّ، و ستبقی خالدة حتّی تقوم القیامة، إنّه أبو الأنبیاء الکبار، و إنّه أبو هذه الامّة الإسلامیة و رسولها الأکرم محمّد بن عبد اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و لمّا امتاز به إبراهیم علیه السّلام من صفات حمیدة، خصّه الباری عزّ و جلّ بالسلام سَلامٌ عَلی إِبْراهِیمَ

نعم، إنّا کذلک نجزی و نثیب المحسنین کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ جزاء یعادل عظمة الدنیا، جزاء خالد علی مدی الزمان، جزاء یجعل من إبراهیم أهلا لسلام اللّه عزّ و جلّ علیه.

و عبارة کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ تثیر الانتباه، إذ أنّها أتت قبل عدّة آیات، و تکرّرت ثانیة هنا، فهناک حتما علّة لهذا التکرار.

المرحلة الاولی ربّما کانت بسبب أنّ اللّه سبحانه و تعالی صادق علی نجاح إبراهیم فی الامتحان الصعب، و أمضی نتیجة قبوله، و هذه بحدّ ذاتها أهمّ مکافأة یمنحها اللّه سبحانه و تعالی لإبراهیم، ثمّ تأتی قضیّة (الفدیة بذبح عظیم) و (بقاء اسمه و سنّته خالدین علی مدی التاریخ) و (إرسال الباری عزّ و جلّ سلامه و تحیّاته إلی إبراهیم) التی اعتبرت ثلاث نعم کبیرة منحها اللّه سبحانه و تعالی لعبده

إبراهيم بعنوان أنّها مكافأة و جزاء للمحسنين.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۹

بحوث

۱- من هو ذبيح اللّه؟

اختلف المفسّرون بشأن الولد الذى امر إبراهيم بذبحه، هل كان (إسماعيل أم إسحاق) الذى لقّب بذبيح اللّه؟ إذ أنّ هناك نقاشا بين المفسّرين، فمجموعة تقول:

إنّ (إسحاق) هو (ذبيح اللّه) فيما تعتبر مجموعة اخرى (إسماعيل) هو الذبيح، التّفسير الأوّل أكّد عليه الكثير من مفسّرى أهل السنّة، فيما أكّد مفسّر و الشيعة على أنّ إسماعيل هو الذبيح.

و ظاهر آيات القرآن الكريم المختلفة تؤكّد على أنّ إسماعيل هو ذبيح اللّه، و ذلك للأسباب التالية:

أوّلا: فى إحدى آيات القرآن الكريم نقرأ وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [۳۴۱] هذه العبارة توضح بصورة جيّدة، أنّ اللّه سبحانه و تعالى بشّر إبراهيم بولادة إسحاق بعد قضيّة الذبح، نتيجة تضحياته، و لهذا فإنّ قضيّة الذبح لا تخصّه أبدا، إضافة إلى أنّ البارى عزّ و جلّ عند ما يبشّر أحدا بالنبوّة، فذلك يعنى بقاء ذلك الشخص حيّا، و هذا لا يتناسب مع قضيّة الذبح التى خصّت غلاما.

ثانيا: نقرأ فى الآية ۷۱ من سورة هود، قوله تعالى: فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ هذه الآية توضّح أنّ إبراهيم كان مطمئنا على بقاء ولده إسحاق، و أنّ اللّه سيرزق إسحاق ولدا اسمه يعقوب، و هذا يعنى أنّ الذبح لا يشمله أبدا. فالذين اعتبروا إسحاق هو الذبيح، يبدو أنّهم لم يأخذوا بنظر الإعتبار حقيقة هذه الآيات.

و

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديث موثوق، جاء فيه: «أنا ابن الذبيحين»

و المقصود من الذبيحين، الأوّل هو والده (عبد اللّه) الذى كان أبوه عبد المطّلب قد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۰

نذر بذبحه تقرّبا إلى اللّه تعالى و الذى (فداه) بأمر من اللّه ب (۱۰۰) بعير، و قصّته معروفة، و الثانى هو (إسماعيل) لأنّ من الأمور الثابتة كون نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو من أبناء إسماعيل و ليس من أبناء إسحاق [۳۴۲].

و

ورد فى الدعاء الذى رواه أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، (يا من فدا إسماعيل من الذبح)[۳۴۳].

و جاء فى روايات اخرى عن الإمامين المعصومين الباقر و الصادق عليهما السّلام، أنّهما أجابا على أسئلة تستفسر عن الذبيح، فأجابا أنّه إسماعيل.

و

جاء فى حديث نقل عن الإمام الرضا عليه السّلام «لو علم اللّه عزّ و جلّ شيئا أكرم من الضأن لفدى به إسماعيل»[۳۴۴].

خلاصة الأمر، هو أنّ الروايات و الأحاديث التى وردت بهذا الشأن كثيرة، و إذا أردنا استعراضها جميعا، فإنّ البحث يتّسع كثيرا.

و فى مقابل هذه الروايات الكثيرة المتناسبة مع ظاهر الآيات القرآنية، هناك روايات شاذّة تدلّ على أنّ إسحاق هو المقصود (بذبيح

اللّه) و لا تتطابق مع روایات المجموعهٔ الاولی و لا مع ظاهر الآیات القرآنیهٔ.

و بغضّ النظر عمّا قیل، فهناک قضیّهٔ مسلّم بها، و هی أنّ الطفل الذی جاء به إبراهیم مع امّه إلی مکّهٔ المکرّمهٔ بأمر من اللّه ثمّ ترکهما هناک، و ساعده من بعد فی بناء الکعبهٔ المشرفهٔ، و أدّی مراسم الطواف و السعی هو إسماعیل، و هذا یدلّ علی أنّ الذبیح هو إسماعیل، لأنّ عملیهٔ الذبح تکمل الأعمال المذکورهٔ أعلاه.

ممّا یذکر أنّ کتاب (التوراهٔ) الحالی و المعروف بالعهد القدیم یؤکّد علی أنّ الذبیح کان إسحاق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۱

هنا یستشف أنّ بعض الروایات الإسلامیهٔ غیر المعروفهٔ و التی تؤکّد علی أنّ إسحاق هو (ذبیح اللّه) متأثّرهٔ ببعض الروایات الإسرائیلیهٔ، و یحتمل أنّ الیهود و ضعوها، و ذلک لأنّهم من ذریّهٔ (إسحاق)، و قد حاولوا نسب هذا الفخر لهم، حتّی و لو کان عن طریق تزییف الوقائع و الحقائق، و سلبه من المسلمین الذین کان نبیّهم نبی الرحمهٔ أحد أحفاد إسماعیل.

علی أیّهٔ حال، فإنّ ظواهر آیات القرآن الکریم هی أقوی دلیل لنا، إذ توضّح بصورهٔ کافیهٔ، أنّ الذبیح هو إسماعیل، رغم أنّه لا فرق بالنسبهٔ لنا إن کان الذبیح إسماعیل أو إسحاق، فالإثنان هما أبناء إبراهیم علیه السّلام، و کلاهما من أنبیاء اللّه العظام، و لکن الهدف هو توضیح هذه الحادثهٔ التاریخیهٔ.

۲- هل أنّ إبراهیم کان مکلّفا بذبح ابنه؟

من الأسئلهٔ المهمّهٔ الاخری التی تطرح نفسها فی هذا البحث، و التی تثیر التساؤل فی أوساط المفسّرین، هی: هل أنّ إبراهیم کان حقّا مکلّفا بذبح ابنه أم أنّه کان مکلّفا بتنفیذ مقدّمات الذبح؟

فإن کان مکلّفا بالذبح، فکیف ینسخ هذا الحکم الإلهی قبل تنفیذ عملیّهٔ الذبح، فی حین أنّ النسخ قبل العمل غیر جائز، و هذا المعنی ثابت فی علم (اصول الفقه).

و إن کان مکلّفا بتنفیذ مقدّمات عملیهٔ الذبح، فهذا لا یعتبر فخرا له. و ما قیل من أنّ أهمیّهٔ المسألهٔ نشأت من أنّ إبراهیم بعد تنفیذه لهذا الأمر و تهیئهٔ مقدّماته کان ینتظر نزول أمر بشأن الذبح و کان هذا هو الامتحان الکبیر له- فهو کلام غیر جدیر بالردّ.

باعتقادنا، أنّ التقوّلات هذه ناشئهٔ عن عدم التفریق بین الأوامر الامتحانیهٔ و غیر الامتحانیهٔ، فالأمر الصادر إلی إبراهیم هو أمر امتحانی، و کما هو معروف فإنّ الأوامر الامتحانیهٔ لا تتعلّق فیها الإرادهٔ الحقیقیّهٔ بطبیعهٔ العمل، و إنّما الهدف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۲

منها توضیح مقدار الاستعداد الموجود عند الإنسان الممتحن بالنسبهٔ إلی طاعته للأوامر؟ کما أنّ الشخص الممتحن لیس له اطلاع بخفایا الأمور. و بهذا الشکل فإنّ عملیهٔ النسخ لم تحصل هنا حتّی تناقش قضیّهٔ صحّتها و وقوعها قبل العمل.

مخاطبهٔ الباری عزّ و جلّ عبده إبراهیم بعد الحادثهٔ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْیا إنّما جاءت بسبب إثبات مقدرته علی ذبح ابنه العزیز، و استعداده روحیّا لتنفیذ هذا الأمر، و نجاحه فی هذا الامتحان.

۳- کیف یمکن أن تکون رؤیا إبراهیم حجّهٔ؟

بشأن (الرؤیا) هناک کلام کثیر، و رد جزء یسیر منه فی تفسیر سورهٔ یوسف بعد الآیهٔ الرابعهٔ.

لا بدّ هنا من الالتفات إلی أمر و هو: کیف اعتبر إبراهیم منامه حجّهٔ، و اتّخذه معیارا لعمله؟

فى الجواب على هـذا السؤال، يقال: إنّ رؤيا الأنبياء لا يمكن أن تكون رؤيا شيطانية، و إنّها ليست ناشـئة عن فعّاليـة قوّة وهمية، و إنّما هى جانب من نظام النبوّة و الوحى.

و بتعبير آخر: إنّ ارتباط الأنبياء مع الوحى يكون أحيانا بشكل إلقاء فى القلب.

و أحيانا عن طريق مشاهدة الوحى.

و أحيانا عن طريق سماع أمواج صوتية، بعثت بأمر من اللّه.

و أحيانا عن طريق المنام.

و بهذا الشكل لا يمكن وقوع أى خطأ أو اشتباه فى رؤيتهم، و الذى يشاهدونه فى منامهم هو كالذى يشاهدونه فى يقظتهم.

و قيل: إنّ إبراهيم أمر عن طريق الوحى أثناء يقظته بأن ينفّذ ما يراه بشأن الذبح فى المنام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۳

و قيل أيضا: إنّ القرائن المختلفة التى كانت فى هذا المنام، و منها تكراره ثلاث ليال متتالية، أوجد عنده علما و يقينا بأنّ ما شاهده فى المنام هو تكليف إلهى و ليس أمرا آخر.

على أيّة حال، يمكن أن تكون كلّ هذه التفاسير صحيحة، و لا يوجد تناقض بينها، كما أنّها لا تتعارض و ظواهر آيات القرآن الكريم.

۴- عدم تأثّر روح إبراهيم الكبيرة بوساوس الشيطان:

لأنّ إمتحان إبراهيم كان من أكبر الامتحانات على طول التاريخ، إذ كان الهـدف منه إخلاء قلبه فى أىّ حبّ لغير اللّه، و جعله متنوّرا- فقط- بعشق و حبّ اللّه، فقـد عمـد الشـيطان- كما جاء فى بعض الروايات- إلى تكريس كلّ طاقاته لعمل شـىء ما يحول دون خروج إبراهيم منتصرا من الامتحان.

فأحيانـا كان يـذهب إلى زوجته (هاجر) و يقول لها: أ تعلمين بماذا يفكّر إبراهيم؟ إنّه يفكّر بذبـح ولـده إسـماعيل اليوم! فكانت تجيبه هاجر: اذهب و لا تتحدّث بأمر محال، فإنّه أرحم من أن يقتل ولده، فهل يمكن العثور فى هذه الدنيا على إنسان يذبح ولده بيده؟

الشيطان هنا يواصل وساوسه، و يقول: إنّه يزعم بأنّ اللّه أمره بذلك.

فتجيبه هاجر: إذا كان اللّه قد أمره بذلك فعليه أن يطيع أوامر اللّه، و ليس هناك طريق آخر سوى الرضى و التسليم لأمر اللّه.

و أحيانا كان يـذهب صوب (الولـد) ليوسوس فى قلبه، لكنّه فشل أيضا إذ لم يحصل على أيّـة نتيجـة لأنّ إسـماعيل كان كلّه قطعة من الرضى و التسليم لذلك الأمر.

و أخيرا اتّجه نحو الأب، و قال له: يا إبراهيم إنّ المنام الذى رأيته هو منام شيطانى! لا تطع الشيطان!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۴

فعرفه إبراهيم الذى كان يسطع بنور الإيمان و النبوّة، و صاح به: ابتعد من هنا يا عدوّ اللّه ۳۴۵].

و ورد فى حديث آخر أنّ إبراهيم جاء فى البداية إلى (المشـعر الحرام) ليذبح ابنه هناك، و لكن الشـيطان تبعه، فترك المحلّ و ذهب إلى مكان (الجمرة الاولى) فتبعه الشيطان أيضا، فرماه إبراهيم بسبع قطع من الحجارة، و عند وصوله إلى (الجمرة الثانية) شاهد الشيطان أمامه أيضا فرماه بسبع قطع اخرى من الحجارة، و حالما وصل إلى جمرة العقبـة و شاهد الشـيطان ثالثة رماه بسـبع اخرى، و بهذا جعل الشيطان ييأس منه إلى الأبد[۳۴۶].

من هنا يتّضـح أنّ وساوس الشياطين أثناء أداء الامتحان الكبير يتعـدّد أشـكالها، إذ أنّها تعترض طريق الإنسان من عدّة جهات و تتلوّن بعدّة ألوان، فلذا يجب على المؤمنين أن يكونوا كإبراهيم قادرين على تشـخيص الشـيطان و معرفته بسـرعة مهما كان متسترا بشكل من

الأشکال، و إغلاق کلّ طریق یحتمل أن یرد منه و رمیه بالحجارهٔ، فما أعظم هذا الدرس!!

۵- فلسفهٔ التکبیرات فی (منی):

و کما هو معروف فإنّ من الأعمال الواردهٔ فی الروایات الإسلامیهٔ بشأن عید الأضحی، هی التکبیرات الخاصّهٔ التی یردّدها المسلمون بعد الصلاهٔ، سواء کانوا من المشارکین فی مراسم الحجّ بمنی، أو ممّن لم یشارک فیها من المسلمین فی سائر بقاع الأرض. (غایهٔ الأمر انّ الحجّاج فی منی یکبّرون بعده صلاهٔ أوّلها بعد صلاهٔ الظهر من یوم العید، و فی المناطق الاخری یکبّر المسلمون هذه التکبیرات بعد ۱۰ صلوات).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۵

و کیفیّهٔ هذه التکبیرات هی: (اللّه أکبر، اللّه أکبر، لا إله إلّا اللّه، و اللّه أکبر، اللّه أکبر، و للّه الحمد، اللّه أکبر علی ما هدانا). فعند ما نقارن بین هذا الأمر و الحدیث الذی ذکرناه سابقا، تتّضح حقیقهٔ هذه التکبیرات، و هی أنّها مجموع تکبیرات جبرئیل و إسماعیل و والده إبراهیم، و شیء أضیف إلیه.

و بعبارهٔ اخری فإنّ هذه العبارات تحیی فی الأذهان خاطرهٔ انتصار إبراهیم و ابنه إسماعیل فی الامتحان الکبیر، و تعطی العبر لکلّ المسلمین، سواء کانوا فی منی أو فی غیرها.

و قد اتّضح من الروایات الإسلامیهٔ أنّ سبب تسمیهٔ أرض (منی) بهذا الاسم، إنّما یعود إلی أنّ إبراهیم عند ما وصل إلی هذه الأرض، بعد ما اجتاز- بنجاح- الامتحان الصعب، نزل علیه جبرئیل و قال له: اطلب ما شئت من ربّ العالمین، فتمنّی من اللّه أن یأمره بذبح کبش فدیهٔ عن ابنه إسماعیل، و قد تحقّقت أمنیته هذه [۳۴۷].

۶- الحجّ عبادهٔ مهمّهٔ تبنی الإنسان:

السفر للحجّ- فی الحقیقهٔ- هو سفر عظیم، إذ أنّه سفر إلهی، و ساحهٔ واسعهٔ لبناء النفس و الجهاد الأکبر.

مراسم الحجّ توضّح- فی الواقع- عبادهٔ ممزوجهٔ- بصورهٔ عمیقهٔ- بخاطرات جهاد إبراهیم و ابنه إسماعیل و زوجته هاجر، فلو أغفلنا عن هذه النقطهٔ أثناء مطالعتنا الأمور الخاصّهٔ بأسرار الحجّ، فإنّ الکثیر من مراسمه ستبدو لنا کألغاز، نعم إنّ مفتاح حلّ هذه الألغاز هو الأخذ بنظر الإعتبار ذلک الامتزاج العمیق.

فعند ما نأتی إلی مکان ذبح الأضاحی فی أرضی (منی) نتعجّب لأیّ شیء تذبح هذه الأضاحی؟ فهل أنّ ذبح الحیوان یمکن أنّ یکون حلقهٔ من مجموعهٔ حلقات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۶

العبادهٔ؟

إلّا أنّنا عند ما نتذکّر إیثار إبراهیم علیه السّلام الذی أراد ذبح أعزّ أعزّائه و أطیب ثمار عمره (إسماعیل) فی تلک الأرض فی سبیل اللّه، العملیهٔ التی غدت سنّهٔ فیما بعد و بعنوان ذبح الأضاحی فی منی، ندرک فلسفهٔ هذا العمل.

فالذبح إشارهٔ إلی اجتیاز کلّ شیء فی سبیل التوجّه إلی اللّه، و هو مظهر لإخلاء القلب من کلّ شیء عدا ذکر اللّه، و یمکن استمداد التربیهٔ الکافیهٔ من هذه المناسک، إذا تجسّد لنا مشهد ذبح إسماعیل، و معنویات الأب و ابنه إسماعیل أثناء عملیهٔ الذبح، و هذا المشهد یجعل معنویات الإنسان تسطع بأنوارها[۳۴۸].

أمّا أثناء توجّهنا إلى رمى الجمرات (و هى ثلاثة أعمدة مبنية من الحجر يرميها الحجّاج أثناء تأديتهم لمراسم الحجّ، و فى كلّ مرّة يرمون سبعة أحجار عليها وفق مراسم خاصّة) فيتبادر إلى أذهاننا السؤال التالى: ماذا يعنى رمى هذا المقدار من قطع الحجارة على عمود من الحجر لا روح فيه؟ و أى مشكلة سيحلّ هذا العمل؟

إلّا أنّنا عند ما نتذكّر أنّها تمثّل جهاد الموحّد إبراهيم ضدّ وساوس الشيطان الذى ظهر له ثلاث مرّات فى الطريق، و هو مصمّم على أن يثنى إبراهيم عن عزمه فى ساحة الجهاد الأكبر، و كلّما ظهر له رماه بالحجر، فإنّ محتوى هذه الشعيرة يتوضّح أكثر.

فمعنى هذه الشعيرة هو أنّكم طوال فترة عمركم تعيشون فى ساحة الجهاد الأكبر ضدّ وساوس الشيطان، و إن لم ترموا هذا الشيطان و تبعدوه عنكم فلن تنتصروا أبدا.

و إن كنتم تنتظرون أن يشملكم اللّه بلطفه و رحمته، كما شمل إبراهيم بذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۷

و بعث إليه بالسلام و أبقى رسالته و ذكراه خالدتين فى العالمين، عليكم أن تسيروا على خطاه.

وفور ما نصل إلى الصفا و المروة و نشاهد أفواجا أفواجا من الناس تنساب من هذا التل الصغير إلى ذلك التل الأصغر، و تعود مرّة اخرى من هنا إلى هناك، و تكرّر هذا العمل من دون أن تحصل على شىء، و أحيانا تهرول و أحيانا اخرى تمشى، و من الطبيعى أن يثير هذا العمل العجب، فما ذا يفعل هؤلاء هنا، و ما هى المفاهيم التى يحملها هذا العمل؟

إلّا أنّنا لو رجعنا إلى الوراء، و استذكرنا الجهود التى بذلتها تلك المرأة المؤمنة (هاجر) لإنقاذ حياة ابنها الرضيع (إسماعيل) فى تلك الأرض القاحلة و الحارقة، و كيف أنّ اللّه سبحانه و تعالى أعطاها ما تريد بعد جهدها و سعيها، عند ما فجّر عين زمزم من تحت رجلى ولدها الرضيع، فجأة ترجع بنا عجلة الزمن إلى الوراء، و يكشف لنا عن الحجب، و نشاهد أنفسنا فى تلك اللحظة واقفين قرب هاجر عليها السّلام، فنشترك معها فى السعى و الجهد، لأنّ الذى لا يسعى و لا يبذل الجهد فى سبيل اللّه، لا يصل إلى نتيجة.

و بسهولة نستطيع تلخيص ما قلناه، و هو أنّ الحجّ يجب أن يقترن بتعلّم هذه الرموز، و تتجسّد ذكريات إبراهيم و ابنه و زوجته خطوة خطوة، كى يدرك الحاجّ فلسفة الحجّ و تشعّ أنوار آثاره الأخلاقية العميقة فى نفوس الحجيج، فبدون تلك المعانى و الدروس يكون الحجّ مجرّد قشر ليس أكثر.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۸

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۳]

اشارة

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۱) وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۱۲) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (۱۱۳)

التّفسير

إبراهيم ذلك العبد المؤمن:

الآيات الثلاث المذكورة أعلاه هى آخر الآيات التى تواصل الحديث عن قصّة إبراهيم و ابنه و تكملها، و فى الحقيقة إنّها دليل يوضّح

ما مضى، و فى نفس الوقت هى نتيجة له.

فى البداية تصف الآية القرآنية الكريمة إبراهيم إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

و فى الواقع إنّ هـذه الآية دليل على ما ذكر فيما قبل، كما توضّح حقيقة مفادها أنّ إيمان إبراهيم القوى دفعه إلى أن يضع كلّ وجوده و كيانه و حتّى ابنه العزيز البارّ، فى صحن الإخلاص فداء لربّه سبحانه و تعالى.

نعم كلّ هذه هى من ثمار الإيمان، و تجلّياته، و ما أعجب هذه الثمار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۹

و التجلّيات!! هـذا التعبير يعطى أبعادا أوسع و أعمّ لما جرى لإبراهيم و ابنه، و يخرج هـذه المجريات من بعدها الشخصـى و الخاص، و يوضّح أنّه أينمـا كـان الإيمان كان هناك إيثار و حبّ و فـداء و عفو، و أنّ إبراهيم كان يختار كلّ ما يختاره اللّه و يريـد كلّ ما أراده اللّه، و كلّ مؤمن يستطيع أن يكون كذلك.

ثمّ تتناول هذه الآيات نعمة اخرى من النعم التى وهبها اللّه تعالى لإبراهيم وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ

فبالانتباه إلى الآيـة فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ التى ذكرناها فى مقدّمة هذه الأحداث، يتّضح بصورة جيّدة أنّ هاتين البشارتين تتعلّقان بولدين، و بما أنّ البشـرى الأخيرة وفق ما جاء فى الآيـة تخصّ (إسـحاق)، فإنّ (الغلام الحليم) بالتأكيد هو (إسـماعيل) فالذين يصـرّون على أنّ الذبيـح هو (إسـحاق) عليهم أن يعرفوا أنّهم اعتبروا الآيتين تشيران إلى موضوع واحـد مع هـذا التفاوت، و هو أنّ الآيـة الاولى بشّـرت بالولـد و الآيـة الثانيـة بشّرت بـالنبوّة، و لكن هـذا المعنى مسـتبعد جـدّا، و الآيات المـذكورة أعلاه تبيّن بوضوح أنّ البشارتين تتعلّقان بولدين.

على أيّة حال فإنّ بشـرى النبوّة تكشف عن أنّ إسحاق يجب أن يبقى حيّا و أن يؤدّى تكاليف و مهمّة النبوّة، و هذا لا يتلاءم مع قضيّة الذبح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۳۷۹

ّة اخرى سـنتطرّق إلى عظمـة مرتبـة الصالحين، إذ وصـفت الآية الكريمة إسـحاق بأنّه (يجب أن يصبـح نبيّا و أن يكون من الصالحين) فكم هى رفيعة مرتبة الصالحين عند اللّه سبحانه و تعالى؟

الآية الأخيرة تتحدّث عن البركة التى أنزلها البارى جلّ و علا على إبراهيم و ابنه إسحاق وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ

و لكن البركة فى أى شيء؟ لم يرد بهذا الشأن أى توضيح، و كما هو معلوم فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۰

الفعل عنـد ما يأتى بصورة مطلقـة و من دون أى قيد أو شـرط، فإنّه يعطى معنى عاما، فبهذا تكون البركة شاملة لكلّ شـىء، فى الحياة، فى الأجيال القادمة، فى التأريخ، و الرسالة، و فى كلّ شيء.

فكلمة (بركة) مشتقّة من (برك) على وزن (درك) و تعنى صدر البعير، و عند ما يضع صدره على الأرض يقال (برك البعير).

و تدريجيّا أعطت هذه الكلمة معنى الثبات و بقاء شـىء ما، و لهذا يطلق على المكان الذى فيه ماء ثابت و مستقر (بركة) فى حين يقال لمّا كان خيره باقيا و ثابتا مبارك.

و من هنا يتّضح أنّ الآية مورد بحثنا تشـير إلى ثبات و دوام النعم الإلهيّة على إبراهيم و إسـحاق و على اسرتهم، و إحدى البركات التى أنعم اللّه بهـا على إبراهيم و إسـحاق أن جعل كلّ أنبياء بنى إسـرائيل من ذريّـة إسـحاق، فى حين أنّ نبى الإسـلام العظيم هو من ذريّة إسماعيل.

و هذه البركات لا تشـمل كلّ أفراد عائلة إبراهيم و عشيرته، و إنّما تشمل- فقط- المؤمنين و المحسنين منهم، إذ تقول الآية فى آخرها

وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِینٌ

کلمة (محسن) جاءت هنا بمعنی المؤمن و المطیع للّه، و هل یتصوّر أنّ هناک إحسان و عمل حسن أرفع من هذا؟

و (ظالم) جاءت هنا بمعنی الکافر و المذنب.

و عبارة (لنفسه) إشارة إلی الکفر و ارتکاب الذنوب یعدّ أوّلا ظلم للنفس، الظلم الواضح و المکشوف.

فالآیة المذکورة أعلاه تجیب الیهود و النصاری الذین افتخروا بکونهم من أبناء الأنبیاء، و تقول لهم: إنّ صلة القربی لوحدها لیست مدعاة للافتخار، إن لم ترافقها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۱

صلة فی الفکر و الالتزام بالرسالة.

و کشاهد علی هذا الکلام

فقد ورد حدیث لنبیّنا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخاطب فیه بنی هاشم «لا یأتینی الناس بأعمالهم و تأتونی بأنسابکم»

أی أنّهم مرتبطون بی رسالیا و أنتم مرتبطون بی جسدیا[۳۴۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۲

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۱۱۴ الی ۱۲۲]

اشارة

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلی مُوسی وَ هارُونَ (۱۱۴) وَ نَجَّیْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْکَرْبِ الْعَظِیمِ (۱۱۵) وَ نَصَرْناهُمْ فَکانُوا هُمُ الْغالِبِینَ (۱۱۶) وَ آتَیْناهُمَا الْکِتابَ الْمُسْتَبِینَ (۱۱۷) وَ هَدَیْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ (۱۱۸)
وَ تَرَکْنا عَلَیْهِما فِی الْآخِرِینَ (۱۱۹) سَلامٌ عَلی مُوسی وَ هارُونَ (۱۲۰) إِنَّا کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۱۲۱) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِینَ (۱۲۲)

التّفسیر

النعم التی منّ بها اللّه علی موسی و هارون:

الآیات المبارکة هذه تشیر إلی جوانب من النعم الإلهیّة التی أغدقها اللّه جلّ شأنه علی موسی و أخیه هارون، و البحث هنا لیتناغم و یتواءم مع البحوث السابقة بشأن نوح و إبراهیم فی الآیات السابقة، فمحتوی الآیات یشابه بعضه البعض، و نفس الألفاظ تتکرّر فی بعض الجوانب، و ذلک لتوجد نظاما تربویا منسجما للمؤمنین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۳

مرّة اخری استخدم فی هذه الآیات أسلوب (الإجمال و التفصیل) الأسلوب الذی استخدمه القرآن فی نقل العدید من الحوادث.

الآیة الاولی تشیر إلی قوله تعالی: وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلی مُوسی وَ هارُونَ

«المنّة» فی الأصل من «المنّ» و یعنی الحجر الذی یستعمل للوزن، ثمّ أطلق علی النعم الکبیرة و الثقیلة، فلو کانت لها جنبة عملیة و موضوعیة فالمنّة جمیلة و محمودة، و لو اقتصرت علی اللفظ و الکلام فهی سلبیة و مذمومة، و الغالب إنّها تستعمل فی المحاورات العرفیة بالمعنی الثانی، و هذا هو السبب فی تداعی المفهوم السلبی من هذه الآیات الکریمة، و لکن لا بدّ من القول انّ هذه المفردة

وردت في اللغة و الآيات الكريمة بمعناها الواسع الذي يشمل المفهوم الأوّل منها.

(أي منع النعم و المواهب الكبيرة).

و على كلّ حال فانّ اللّه سبحانه و تعالى أنعم على الأخوين موسى و هارون بنعمة عظيمة.

أمّا الآيات التي تلتها فتشرح سبعة من هذه النعم، و كلّ واحدة منها أفضل من أختها.

ففي المرحلة الاولى، يقول سبحانه و تعالى: وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

فهل هناك قلق أكثر من هذا، و هو أنّ بني إسرائيل يعيشون في قبضة الفراعنة المتجبّرين الطغاة؟ يذبحون أولادهم و يسخّرون نساءهم في خدمتهم، و يستعبدون رجالهم و يستعملونهم في الأعمال الشاقّة.

أليس فقدان الحرية و الابتلاء بسلطان جائر لا يرحم الكبير و لا الصغير، حتّى يبلغ به طغيانه إلى أن يتلاعب بنواميس الناس و شرفهم، أليس هذا كربا عظيما، و ألما شديدا، إذن فإنقاذهم من قبضة فراعنة مصر المتجبّرين، كانت أوّل نعمة يغدقها الباري عزّ و جلّ على بني إسرائيل.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۴

و في المرحلة الثانية، قال الباري عزّ و جلّ: وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ

ففي ذلك اليوم كان جيش الفراعنة ذا قوّة عظيمة و يتقدّمه الطاغية فرعون، فيما كان بنو إسرائيل قوم ضعفاء و عاجزين يفتقدون لرجال الحرب و للسلاح أيضا، إلّا أنّ المدد الإلهي وصلهم في تلك اللحظات، و أغرق فرعون و جيشه وسط أمواج البحر، و أورث بني إسرائيل قصور و ثروات و حدائق و كنوز الفراعنة.

و في المرحلة الثالثة من مراحل إغداق النعم على بني إسرائيل و شمولهم بعنايته، جاء في محكم كتابه العزيز وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ

نعم (التوراة) هو كتاب مستبين، أي يوضّح لهم المجهولات المبهمة، و يجيبهم على كلّ ما يحتاجونه في دينهم و دنياهم، كما أكّدت الآية (۴۴) في سورة المائدة ذلك إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ.

و في المرحلة الرابعة أشار القرآن الكريم إلى نعمة معنوية اخرى منّ بها جلّ شأنه على موسى و هارون، و هي هدايتهما إلى الصراط المستقيم، وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

الطريق الصحيح الخالي من كلّ اعوجاج، ألا و هو طريق الأنبياء و الأولياء، و الذي لا يوجد فيه أي خطر من قبيل الانحراف و الضلال و السقوط.

و عند ما نقرأ سورة الحمد في كلّ الصلوات و نطلب من اللّه سبحانه و تعالى أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، نقول: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ أي إنّنا نطلب منه أن يهدينا إلى طريق الأنبياء و الأولياء.

أمّا المرحلة الخامسة فإنّها أكّدت على استمرار رسالتهما و الثناء الجميل عليهما، إذ تقول الآية: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ

و هذه العبارة نفسها وردت في الآيات السابقة بشأن إبراهيم و نوح، لأنّ كلّ الدعاة إلى اللّه السالكين لطريق الحقّ، يبقى اسمهم و تاريخهم خالدا على مرّ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۵

الزمن، و يجب أن يبقى خالدا، لأنّهم لا يخصّون قوما أو شعبا معيّن، و إنّما كلّ الإنسانية.

و المرحلة السادسة تستعرض التحيّة الطيّبة المباركة التي وردت إلى كلّ من موسى و هارون من عند اللّه سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ سلام من عند اللّه العظيم و الرحيم، السلام الذي هو رمز لسلامة الدين و الإيمان و الرسالة و الإعتقاد و المذهب، السلام الذي يوضّح النجاة و الأمن من العقاب و العذاب في هذه الدنيا و في الآخرة.

و فى المرحلة السابعة- الأخيرة- نصل إلى مرحلة الثواب و المكافأة الكبرى التى يقدّمها البارى عزّ و جلّ إليهما إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ

نعم إنّ حصولهما على كلّ هذه المفاخر لم يكن من دون دليل أو سبب، إذ كانا من المحسنين و المؤمنين و المخلصين و الطيّبين، فمثل هؤلاء جديرون بالثواب و المكافأة.

و الملفت للنظر أنّ هذه الآية إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ تكرّرت فى هذه السورة عدّة مرّات، إذ جاءت بحقّ نوح و إبراهيم و موسى و هارون و إلياس، و عبارة مشابهة لها بشأن يوسف وردت فى سورة يوسف الآية (۲۲) كما وردت فى الآية (۸۴) فى سورة الأنعام عن أنبياء آخرين كان ثوابهم نفس الثواب، و كلّهم يقرّون بأنّ كلّ من يريد أن تشمله العناية الإلهيّة عليه أوّلا- أن ينضمّ إلى زمرة المحسنين كى تغدق عليه البركات الإلهيّة.

الآية الأخيرة فى بحثنا تشير إلى نفس الدليل الذى ورد فى قصّة نوح و إبراهيم من قبل إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

فالإيمان هو الذى ينير روح الإنسان و يعطيه القوّة، و يدفعه إلى الطهارة و التقوى و عمل الإحسان و الخير، الإحسان الذى يفتح أبواب الرحمة الإلهيّة على الإنسان، فتنزل عليه مختلف أشكال النعم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۳۲]

اشارة

وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (۱۲۵) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۱۲۶) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷)

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۲۸) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (۱۲۹) سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ (۱۳۰) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۳۲)

التّفسير

النّبى إلياس و مواجهته للمشركين:

القصّة الرابعة فى هذه السورة استعرضت بصورة مختصرة حياة نبى اللّه (إلياس)، يقول تعالى: وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

الحديث حول «إلياس» و خصوصياته و نسبه و حياته سيأتى لا حقا فى آخر هذه الآيات- إن شاء اللّه.

ثمّ تبدأ الآيات بالتفصيل بعد الإجمال و تقول: و اذكر عند ما أنذر قومه إِذْ قالَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۷

لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ

أى اتّقوا اللّه و اجتنبوا الشرك و عبادة الأصنام و ارتكاب الذنوب و المظالم، و كلّ ما يؤدّى بالإنسان إلى الباطل و الفساد.

أمّا الآية التى تلتها فقد تحدّثت بصراحة أكثر أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ

و من هنا يتّضح أنّ قومه كانوا يعبدون صنما اسمه (بعل) و يسجدون له، و أنّ هذا النّبى كان يدعوهم إلى ترك هذا العمل القبيح، و

التوجّه إلى اللّه سبحانه و تعالى خالق هذا الكون العظيم و توحيده و عبادته.

جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ إلياس كان مبعوثا إلى مدينة «بعلبك» إحدى مدن بلاد الشام ۳۵۰] لأنّ (بعل) هو اسم ذلك الصنم و (بك) تعنى مدينة، و من تركيب هاتين الكلمتين نحصل على كلمة (بعلبك) و قيل: إنّ الصنم (بعل) كان مصنوعا من الذهب و طوله حوالى (۲۰) ذراعا و له أربعة أوجه، و خدمته كانوا (۴۰۰) شخصا[۳۵۱].

و لكن البعض ذهبوا إلى أنّ (بعل) ليس اسما لصنم معيّن، بل يطلق بصورة عامّة على الأصنام، فيما قال البعض الآخر: إنّها تعنى (الربّ و المعبود). و قال (الراغب) فى مفرداته: إنّ كلمة «بعل» تعنى (الزوج) أمّا العرب فتطلقها على الأصنام التى تعبدها و التى بواسطتها يقربون إلى اللّه سبحانه و تعالى على حدّ زعمهم.

و عبارة أَحْسَنَ الْخالِقِينَ رغم أنّها تشير إلى أنّ اللّه سبحانه و تعالى خالق هذا الكون و لا يوجد خالق سواه، فهى تشير أيضا حسب الظاهر إلى الأشياء المصنوعة، أى التى يصنعها الإنسان بعد أن يغيّر شكل المواد الطبيعية، و من هنا سمّى بالخالق، رغم أنّه تعبير مجازى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۸

على أيّة حال، فقد عمد إلياس إلى توبيخ قومه بشدّة، و قال لهم: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

إذ أنّ اللّه ملككم و مربّيكم، و كلّ نعمة عندكم فهى منه، و أى مشكلة عندكم تتيسر بقدرته فغيره، لا يعدّ مصدرا للخير و البركة، و لا يمكنه دفع الشرّ و البلاء عنكم.

الظاهر هنا أنّ المشركين فى زمان إلياس، قالوا- كما قال المشركون فى زمان نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- إنّنا نتّبع سنن أجدادنا الأوّلين، فأجابهم إلياس عليه السّلام بقوله: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

و استخدام كلمة (ربّ) هنا أفضل منبّه للعقل و التفكير، لأنّ أهمّ قضيّة فى حياة الإنسان هى أن يعرف من الذى خلقه؟ و من هو مالكه و مربّيه و ولى نعمته اليوم؟

إلّا أنّ قومه اللجوجين و المتكبّرين لم يعطوا اذنا صاغية لنصائحه و مواعظه، و لم يعبأوا بما يقوله لهدايتهم، و إنّما كذّبوه فَكَذَّبُوهُ

و مقابل تصرفاتهم هذه توعدهم اللّه سبحانه و تعالى بعذابه بعبارة قصيرة جاء فيها: إنّنا سنحضرهم إلى محكمة العدل الإلهى و سنعذّبهم فى جهنّم فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ لينالوا جزاء أعمالهم القبيحة و المنكرة.

و لكن يبدو أنّ هناك مجموعة من الأطهار المحسنين و المخلصين قد آمنوا بما جاء به إلياس، و لكى لا يضيع حقّ هؤلاء، قال تعالى مباشرة بعد تلك الآية إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۳۵۲].

الآيات الأخيرة من بحثنا استعرضت نفس القضايا الأربعة التى وردت بحقّ الأنبياء الماضين (نوح، و إبراهيم، و موسى، و هارون) و لأهميّتها نستعرضها مرّة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۹

قوله تعالى: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أى إنّ الأمم القادمة سوف لن تنسى الجهود الكبيرة التى بذلها الأنبياء الكبار من أجل حفظ خطّ التوحيد، و سقاية شجرة الإيمان، و ما دامت الحياة موجودة فى هذه الدنيا فإنّ رسالتهم ستبقى حيّة و خالدة.

و فى المرحلة الثانية أثنى اللّه سبحانه و تعالى و بعث بتحيّاته إلى آل ياسين، قال تعالى: سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ

استخدام عبارة (الياسين) بدلا عن (الياس) إمّا لكونها من الناحية اللغوية لفظا ل (إلياس) و اللتين لهما نفس المعنى، أو أنّها إشارة إلى (إلياس) و أتباعه المؤمنين، فوردت بصورة الجمع ۳۵۳].

و فى المرحلة الثالثة، قال تعالى: إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

«الإحسان» هنا شمل، معنى واسعا و هو العمل بكلّ السنن و الأوامر، و من ثمّ الجهاد ضدّ كافّة أشكال الشرك و الانحراف و الذنوب و

الفساد.

أمّا المرحلة الرابعة فتطرح الإيمان كأمر أساسی يجب أن يتوفّر فی الأنبياء الذين استعرضتهم هذه السورة المباركة فتقول الآية هنا: إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

«الإيمان» و «العبودية» للّه هما مصدر الإحسان، و الإحسان يؤدّی إلی انضمام المحسن لصفوف المخلصين الذين يشملهم سلام اللّه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۰

بحثان

۱- من هو إلياس؟

لا يوجد أیّ شکّ فی أنّ «إلياس» هو أحد أنبياء اللّه الكبار، و آيات بحثنا تصرّح بهذا الأمر، قال تعالی: إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

اسم نبی اللّه (إلياس) جاء فی آيتين من آيات القرآن المجيد، الاولی فی هذه السورة، أی سورة الصافات، و الثانية فی سورة الأنعام الآية (۸۵) إذ ذكر اسمه مع مجموعة اخری من الأنبياء وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيی وَ عِيسی وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ

و أبدی المفسّرون و جهات نظر متعدّدة بشأن إلياس، إذ أنّ البعض تساءل هل أنّ اسم «إلياس» هو اسم ثان لنبی واحد، أم أنّه يتعلّق بنبی ليس له اسم ثان، و ما هی صفات و خصائص هذا النبی؟

للإجابة علی هذه التساؤلات نستعرض و جهات النظر المتعدّدة تلك:

أ- يعتقد البعض أنّ «إلياس» هو إدريس (لأنّ كلمة إدريس، تلفظ إدراس، و بعد أنّ طرأت عليها تغيّرات بسيطة أضحت إلياس).

ب- «إلياس» هو أحد أنبياء بنی إسرائيل، و هو ابن (ياسين) أحد أحفاد هارون أخی نبی اللّه موسی عليه السّلام.

ج- مجموعة من المفسّرين اعتبرت «إلياس» هو الخضر.

فی حين أعربت مجموعة اخری عن اعتقادها فی أنّ إلياس هو صديق الخضر، و كلاهما ما زال حيّا، و أنّ إلياس موكّل بالفيافی، و الخضر موكّل بالبحار و الجزر.

و مجموعة ثالثة أكّدت علی أنّ إلياس موكّل بالصحاری و الخضر موكّل بالجبال، و يقولون بخلود الإثنين.

و البعض يری أنّ إلياس ابن (اليسع).

د- إلياس هو نفسه (إيليا) نبی بنی إسرائيل الذی عاصر الملك (آجاب) و الذی أرسله الباری عزّ و جلّ لإنذار و هداية (آجاب) الطاغية المتجبّر.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۱

و قال البعض: إنّه يحيی معمدان المسيح.

و لكن الذی يتناسب و ظاهر آيات القرآن الكريم هو أنّ هذا الاسم اسم أحد أنبياء اللّه غير تلك الأسماء التی وردت فی القرآن المجيد، و أنّه بعث لهداية قوم يعبدون الأصنام، فكذّبه أكثر القوم، عدا مجموعة من المؤمنين المخلصين الذين صدّقوه.

و كما أشرنا سابقا فإنّ البعض يعتقد بأنّه بعث إلی بلاد الشام، استنادا إلی اسم الصنم (بعل) الذی كان يعبده القوم الموجودون فی تلك المنطقة، و هی «بعلبك» التی هی اليوم إحدی مدن لبنان و تقع قرب الحدود السورية.

علی أيّة حال، فقد وردت قصص مختلفة فی الكتب بشأن هذا النبی، و لأنّها غير معتمدة و موثوقة فقد صرف النظر عنها[۳۵۴].

۲- من هم إل یاسین؟

المفسّرون و المؤرخون أبدوا وجهات نظر مختلفة بشأن (الیاسین) منها:

أ- ذهب البعض إلى أنّ إلیاس و الیاسین هما لغتان، کما هو شائع بالنسبة ل (میکال) و (میکائیل) إذ أنّهما لغتان فی اسم واحد لأحد الملائکة، و ل (سیناء) و (سینین) حیث تطلقان على مساحة من الأرض تقع بین مصر و فلسطین، و (إلیاس) و (الیاسین) هی أیضا لغتان فی اسم واحد لهذا النّبی الکبیر[۳۵۵].

ب- البعض الآخر یعتبرها جمعا، و بهذا الشکل (إلیاس) أضیفت إلیها (یاء) فأصبحت (الیاسی)، و بعد ذلک جمعت بإضافة الیاء و النون إلیها فأصبحت (الیاسین) و بعد تخفیفها غدت (الیاسین)، و طبقا لهذا یفهم منها أنّها تخصّ کلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۲

الذین أطاعوا الیاس و التزموا بنهجه ۳۵۶].

ج- (آلیاسین) بالألف الممدودة، مرکّبة من کلمتی (آل) و (یاسین) و قیل أنّ یاسین هو اسم والد (الیاس)، و وفق روایة اخرى فإنّه أحد أسماء نبیّنا الأکرم محمّد صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و بهذا فإنّ کلمة (آل یاسین) تعنی عائلة نبی الإسلام أو عائلة یاسین والد الیاس.

الدلائل الواضحة الموجودة فی القرآن تؤیّد المعنى الأوّل، و الذی یقول: إنّ المقصود من (الیاسین) هو (الیاس) لأنّ الآیة التی تلی هذه الآیة المبارکة سَلامٌ عَلى إِلْیاسِینَ بآیة تقول: إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِینَ و عودة الضمیر المفرد على (الیاسین) دلیل على أنّه شخص واحد لا أکثر، و هو إلیاس.

و هناک دلیل آخر، هو أنّ الآیات الأربعة الأخیرة التی وردت فی نهایة قصّة إلیاس، هی نفس الآیات التی وردت فی نهایة قصص نوح و إبراهیم و موسى و هارون، و عند ما نضع هذه الآیات الواحدة إلى جنب الاخرى نرى أنّ سلام اللّه فی تلک الآیات مرسل إلى الأنبیاء الذین تتطرّق إلیهم الآیات المبارکة، سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِی الْعالَمِینَ سَلامٌ عَلى إِبْراهِیمَ سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ

و طبقا لذلک فإنّ سَلامٌ عَلى إِلْیاسِینَ تعنی السلام على إلیاس.

و النقطة التی ینبغی الالتفات إلیها، أنّ الکثیر من التفاسیر أوردت حدیثا بسند عن ابن عبّاس یصرّح بأنّ المراد من (آل یاسین) هم آل محمّد صلّى اللّه علیه و آله و سلّم، لأنّ أحد أسماء نبیّنا هو یاسین.

روى الشیخ الصدوق فی کتابه (معانی الأخبار) فی باب تفسیر (آل یاسین) خمسة أحادیث بهذا الشأن، کلّها لا تنتهی من حیث السند إلى أهل البیت علیهم السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۳

سوى واحد، و الراوی لهذا الحدیث شخص یدعى (کادح) أو (قادح)[۳۵۷] و هو مجهول و لا توجد ترجمته فی کتب الرجال.

و على فرض- وفقا لهذه الأخبار- أنّ الآیة الآنفة تقرأ بصورة سلام على آل یاسین و بغضّ النظر عن عدم تناسب الآیات، و رأینا أنّ إسناد هذه الرّوایات أیضا قابلة للنقاش، فمن الأفضل أن نتجنّب القضاء بخصوص هذه الرّوایات و نترک الحکم علیها لأهلها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۴

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۱۳۳ الى ۱۳۸]

اشارة

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۳) إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۳۴) إِلاّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (۱۳۵) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۳۶) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (۱۳۷)

وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۳۸)

التّفسير

تدمير قوم لوط:

«لوط» هو خامس نبى يذكر اسمه فى هذه السورة ضمن تسلسل الآيات التى تحدّثت بصورة مختصرة عن تأريخه لاستمداد العبر منه.

و طبقا لما جاء فى آيات القرآن بشأن لوط، يتّضح أنّه كان معاصرا لإبراهيم عليه السّلام، و أنّه من أنبياء الله العظام، و ذلك ما جاء فى الآية (۲۶) من سورة العنكبوت و الآية (۷۴) من سورة هود.

و قد ورد اسم «لوط» كثيرا فى آيات القرآن الكريم، و تكرّر البحث فى القرآن بشأنه هو و قومه عدّة مرّات، قومه المنحرفون الذين كشف القرآن الكريم (الآيات ۱۶۷ إلى ۱۷۳ من سورة الشعراء، و فى الآيات ۷۰ إلى ۸۳ من سورة هود، و فى الآيات ۵۴ إلى ۵۸ من سورة النمل و غيرها من السور) عن المصير الأليم الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۵

حلّ بهم.

بحثنا يبدأ بقوله تعالى: وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

و بعد هذا البيان الإجمالى يعمد القرآن إلى التفصيل و يبيّن جوانب من قصّة لوط، حيث قال: تذكر تلك الفترة الزمنية التى أنقذنا فيها لوطا و أهله إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ

عدا زوجته العجوز التى جعلناها مع من بقى فى العذاب إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ ۳۵۸].

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ

الجمل القصيرة- التى وردت أعلاه- تشير إلى تأريخ قوم لوط الملىء بالحوادث، و التى ورد شرحها فى سور (هود) و (الشعراء) و (العنكبوت).

«لوط» كسائر الأنبياء بدأ دعوته بتوحيد اللّه، ثمّ عمد إلى الجهاد ضدّ الفساد الموجود فى المجتمع المحيط به، خاصّة ذلك الانحراف الخلقى المعروف باللواط، و الذى ظلّ كوصمة عار لقوم لوط على طول التاريخ.

فهذا النّبى العظيم عانى المرارة مع قومه، و بذل كلّ ما يمتلك من جهد لإصلاح قومه المنحرفين، و منعهم من الاستمرار فى ممارسة عملهم القبيح، و لكن جهوده لم تسفر عن شىء. و عند ما شاهد أنّ أفراد قلائل آمنوا به، قرّر إنقاذ نفسه و إنقاذهم من المحيط الفاسد الذى يعيشون فيه.

و فى نهاية الأمر فقد لوط الأمل فى إصلاح قومه و عمد إلى الدعاء عليهم، حيث طلب من اللّه سبحانه و تعالى إنقاذه و عائلته، فاستجاب البارى عزّ و جلّ لدعائه و أنقذه و عائلته مع تلك الصفوة القليلة التى آمنت به، عدا زوجته العجوز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۶

التى لم ترفض فقط التمسّك بالتعليمات التى جاء بها، و إنّما عمدت- أحيانا- إلى تقديم العون لأعدائه.

و قد عذّب اللّه قوم لوط بأشدّ العذاب، إذ خسف بهم الأرض ثمّ أمطر عليهم حجارة من سجّيل، ليهلكوا عن آخرهم، و تمحى

أجسادهم من الوجود أيضا.

و باعتبار أنّ هذه الآيات كانت مقدّمة لإيقاظ الغافلين و المغرورين، فقد أضاف القرآن الكريم وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ أى إنّكم تمرّون فى كلّ صباح بجانب ديارهم الخربة من جرّاء العذاب.

كما تمرّون من هناك فى الليل أ فلا تعقلون؟ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

هذه الآيات تخاطب قوافل أهل الحجاز التى كانت تذهب ليلا و نهارا إلى بلاد الشام عبر مدن قوم لوط، و تقول: لو كان لهم آذان حيّة لسمعوا الصراخ المذهل و العويل المفزع لهؤلاء القوم المعذّبين.

لأنّ آثار ديار قوم لوط الخربة تحكى بصمت دروسا كبيرة لكلّ المارّين من هناك، و تحذر من الابتلاء بمثل هذا العذاب.

نعم، إنّه درس ما أكثر العبر فيه، و لكن المعتبرين منه قليل «ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار»[۳۵۹].

و نظير هذا المعنى موجود فى الآية (۷۶) من سورة الحجر، و التى تقول بعد بيان قصّة قوم لوط وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ أى إنّ آثارهم تقع دائما فى طريق القوافل و المشاة المارّين من هناك.

و فسّرت

رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام الآية بشكل آخر، فعند ما سأله أحد أصحابه عن معنى الآية وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ أجاب الإمام الصادق قائلا: «تمرّون عليهم فى القرآن إذا قرأتم فى القرآن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۷

فاقرؤوا ما قصّ اللّه عليكم من خبرهم»[۳۶۰].

هذا التّفسير قد يكون إشارة إلى تفسير ثان، على أيّة حال فالجمع بين التّفسيرين لا ضرر فيه، لأنّ آثار قوم لوط الباقية شاخصة للأبصار، إضافة إلى أنّ آيات القرآن الكريم تتطرّق لأخبار قوم لوط و العذاب الذى نزل عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۸

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۳۹ الى ۱۴۸]

اشارة

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۹) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۴۰) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (۱۴۱) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۱۴۲) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (۱۴۳)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۴۴) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (۱۴۵) وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (۱۴۶) وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (۱۴۷) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (۱۴۸)

التّفسير

يونس فى بوتقة الامتحان:

الحديث هنا عن قصّة نبى اللّه «يونس» عليه السّلام و قومه التائبين، و التى هى سادس و آخر قصّة تتناول قصص الأنبياء و الأمم السابقة، و الذى يلفت النظر أنّ القصص الخمس التى تحدّثت عن قوم (نوح) و (إبراهيم) و (موسى و هارون) و (الياس) و (لوط)

أشـارت إلی أنّ تلک الأقوام لم تصغ لنصائـح الأنبیاء الـذین بعثوا إلیها و بقیت غارقـهٔ فی نومها، فعمّها العـذاب الإلهی، فیما أنقـذ اللّه سبحانه و تعالی الأنبیاء العظام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۹

الذین أرسلهم إلی تلک الأقوام مع القلّهٔ القلیلهٔ ممّن اتّبعهم.

إلّا أنّ قضـیّهٔ نبی اللّه یونس تنتهی أحداثها بشـکل معاکس لما انتهت إلیه تلک القصـص، إذ أنّ قوم یونس صـحوا من غفلتهم و تابوا إلی اللّه فور مشاهـدتهم دلائل العـذاب الإلهی الـذی سیحلّ لهم إن لم یؤمنوا، و أنّ اللّه شـملهم بلطفه و أنزل علیهم برکاته المادیّـهٔ و المعنویـهٔ، و فی المقابـل فـإنّ نـبی اللّه یونس ابتلی ببعض الابتلاءات و المشاکـل لأنّه تعجّل فی ترک قومه و هجره إیّاهم، حتّی أنّ القرآن المجید أطلق علیه کلمهٔ (أبق) و التی تعنی هرب العبد من مولاه! و هذه القصّهٔ بمثابهٔ خطاب موجّه لمشـرکی قریش، و إلی کلّ البشـر علی طول التأریـخ، جاء فیه: هـل تریـدون أن تکونوا کالأقوام الخمسـهٔ الماضـیهٔ، أم کقوم یونس؟ و هل ترغبون فی أن تکون عاقبتکم الشؤم و الألم؟ أما ترغبون فی أن تنتهی عواقبکم بخیر و سعادهٔ؟ اعلموا أنّ ذلک مرتبط بما تعزمون علیه.

علی أیّهٔ حـال، فـإنّ ذکر هـذا النّبی العظیم و قصّـته مع قومه، وردت فی سور متعـدّدهٔ من سور القرآن المجیـد (منهـا سورهٔ الأنبیـاء، و یونس، و القلم، و فی هذه السورهٔ أی الصافات) و عکست کلّ واحدهٔ منها جوانب من أوضاعه و حیاته، و سورهٔ «الصافات» هذه تسلّط الأضواء أکثر علی قضیّهٔ هرب یونس و ابتلاءه، و من ثمّ نجاته من بطن الحوت.

فی البدایهٔ، و کما تعوّدنا فی القصص السابقهٔ، فإنّ الحدیث یکون عن مقام رسالته، إذ تقول الآیهٔ: وَ إِنَّ یُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ

نبی اللّه «یونس» علیه السّـلام کسائر الأنبیاء العظام بـدأ بالـدعوهٔ إلی توحیـد اللّه و مجاهـدهٔ عبـدهٔ الأصـنام، و من ثمّ محاربـهٔ الأوضاع الفاسـدهٔ التی کـانت منتشـرهٔ فی مجتمعه آنـذاک، إلّا أنّ قومه المتعصّبین الـذین کـانوا یقلّدون أجـدادهم الأوائـل رفضوا الاسـتجابهٔ لدعوته.

استمرّ یونس علیه السّلام بوعظ قومه بقلب حزین لأجلهم، مریدا لهم الخیر و کأنّه أب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۰

رحیم لهم، فی حین کانوا یواجهون منطقه الحکیم بالسفسـطهٔ و المغالطـهٔ، عـدا مجموعـهٔ قلیلـهٔ منهم، یحتمل أن لا تتعـدّی الشخصـین (أحدهما یسمّی بالعابد و الثانی بالعالم) آمنت برسالته.

و بعـد فترهٔ طویلهٔ من دعوته إیّاهم إلی عبادهٔ اللّه و ترک عبادهٔ الأصـنام، یئس یونس من هدایتهم، و کما جاء فی بعض الروایات، فإنّ یونس علیه السّلام قرّر طبقا لاقتراح الرجل العابد، مع ملاحظهٔ أوضاع و أحوال قومه الضالّین، قرّر الدعاء علیهم [۳۶۱].

و بالفعل فقـد دعا علیهم، فنزل علیه الوحی و حـدّد له وقت حلول العـذاب الإلهی بهم، و مع حلول موعد نزول العذاب، رحل یونس- بمعیّته الرجل العابـد- عن قومه و هو غاضب علیهم، و وصل إلی ساحل البحر، و شاهد سـفینهٔ عند الساحل غاصّهٔ بالرکاب فطلب منهم السماح له بالصعود إلیها.

و هذا ما أشارت إلیه الآیهٔ التالیهٔ، حیث قالت: إِذْ أَبَقَ إِلَی الْفُلْکِ الْمَشْحُونِ

کلمـهٔ «أبق» مشـتقّهٔ من (إبـاق) و التی تعنی فرار العبـد من سیّده، إنّهـا لعبـارهٔ عجیبـهٔ، إذ تبیّن أن ترک العمـل بالأولی من قبل الأنبیاء العظـام ذوی المقـام الرفیع عنـد اللّه، مهمـا کان بسـیطا فإنّه یؤدّی إلی أن یتّخـذ الباری عزّ و جلّ موقفا معاتبا و مؤنّبا للأنبیاء، کإطلاق کلمهٔ (الآبق) علی نبیّه.

و من دون أی شکّ فإنّ نبی اللّه یونس علیه السّـلام، معصوم عن الخطأ، و لکن کان الأجدر به أن یتحمّل آلاما اخری من قومه، و أن یبقی معه حتّی اللحظات الأخیرهٔ قبل نزول العذاب، عسی أن یستیقظوا من غفلتهم و یتوبوا إلی اللّه سبحانه و تعالی.

حقّا إنّه دعا قومه إلی توحید اللّه أربعین عاما- وفق ما ورد فی بعض الروایات- و لکن کان من الأجدر به أن یضـیف عدّهٔ أیام أو عدهٔ

ساعات إلی ذلک الوقت ببقائه معهم، لذلک فعند ما ترک قومه و هجرهم شبهه القرآن بالعبد الآبق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۱

و وفق ما ورد فی الرّوایات، فقد صعد یونس علیه السّلام إلی السفینة، ثمّ إنّ حوتا ضخما وقف أمام السفینة، فاتحا فمه و کأنّه یطلب الطعام، فقال رکاب السفینة أنّ هناک شخصا مذنبا معنا یجب أن یکون طعام هذا الحوت، و لم یجدوا سبیلا سوی الاقتراع لتحدید الشخص الذی یرمی للحوت، و عند ما اقترعوا خرج اسم یونس، و طبقا للروایة فإنّهم اقترعوا ثلاث مرّات و فی کلّ مرّة کان یخرج اسم یونس علیه السّلام، فأمسکوا بیونس و قذفوه فی فم الحوت العظیم، و قد أشار القرآن المجید فی آیة قصیرة إلی هذه الحادثة، قال تعالی: فَساهَمَ فَکانَ مِنَ الْمُدْحَضِینَ

«ساهم» فی مادّة (سهم) و تعنی اشتراکه فی الاقتراع، فالاقتراع تمّ علی ظهر السفینة بالشکل التالی، کتبوا اسم کلّ راکب علی (سهم) ثمّ خلطوا الأسهم و سحبوا سهما واحدا، فخرج السهم الذی یحمل اسم یونس علیه السّلام.

(مدحض) مشتقّة من (دحض) و تعنی إبطال مفعول الشیء أو إزالته أو التغلّب علیه، و المراد هنا أنّ اسمه ظهر فی عملیة الاقتراع من بین بقیّة الأسماء.

و ورد بهذا الشأن تفسیر آخر یقول: إنّ إعصارا هبّ فی البحر عرض السفینة و من فیها من الرّکاب للخطر بسبب ثقل حمولتها، و لم یکن لهم سبیل للنجاة سوی تخفیف وزن السفینة من خلال إلقاء بعض رکّابها فی وسط البحر، و عند ما اقترعوا علی من یرمونه فی الماء خرج اسم یونس، و بعد رمیه فی البحر ابتلعه حوت عظیم.

و قال القرآن الکریم: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِیمٌ أی إنّ حوتا عظیما التقمه و هو مستحقّ للملامة.

«التقم» مشتقّة من (الالتقام) و تعنی (البلع).

(ملیم) من مادّة (لوم) و تعنی التوبیخ و العتب (و عند ما تأتی بصفة الفعل فإنّها تعطی معنی استحقاق الملامة).

و من المسلّم أنّ هذه الملامة لم تکن بسبب ارتکابه ذنبا کبیرا أو صغیرا و إنّما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۲

بسبب ترکه العمل بالأولی، و استعجاله فی ترک قومه و هجرانهم.

و بعد بلعه من قبل الحوت أعطی اللّه سبحانه و تعالی أمرا تکوینیا إلی الحوت أن لا تلحق الأذی بیونس، إذ أنّ علیه أن یقضی فترة فی السجن الذی لم یسبق له مثیل، کی یدرک ترکه العمل بالأولی، و یسعی لإصلاحه.

و ورد فی إحدی الرّوایات أنّ

«أوحی اللّه إلی الحوت: لا تکسر منه عظما و لا تقطع له وصلا»[۳۶۲].

یونس علیه السّلام انتبه بسرعة للحادث، و توجّه علی الفور إلی اللّه سبحانه و تعالی و تکامل وجوده مستغفرا اللّه علی ترکه العمل بالأولی، و طالبا العفو منه.

و نقلت الآیة (۸۷) فی سورة الأنبیاء صورة توجّه یونس علیه السّلام بالدعاء الذی یسمّیه أهل العرفان بالیونسیة، قال تعالی: فَنادی فِی الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظَّالِمِینَ

أی إنّه نادی من بطن الحوت بأن لا معبود سواک، و أنّنی کنت من الظالمین، إذ ظلمت نفسی و ابتعدت عن باب رحمتک.

اعتراف یونس الخالص بالظلم، و تسبیحه اللّه المرافق للندم أدّی مفعوله، إذ استجاب اللّه له و أنقذه من الغمّ، کما جاء فی الآیة (۸۸) من سورة الأنبیاء، فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّیْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ کَذلِکَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِینَ

و نلاحظ الآن ماذا تقول الآیات بشأن یونس علیه السّلام، قال تعالی: فَلَوْ لا أَنَّهُ کانَ مِنَ الْمُسَبِّحِینَ لَلَبِثَ فِی بَطْنِهِ إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ أی لو لم یکن من المسبّحین لأبقیناه فی بطن الحوت حتّی یوم القیامة، و یعنی تبدیل سجنه المؤقّت إلی سجن دائم، و من ثمّ تبدیل سجنه

الدائم إلى مقبرة له.

و بخصوص بقاء يونس فى بطن الحوت حتّى يوم القيامة (على فرض أنّه ترك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۳

تسبيح اللّه و التوبة إليه) فهل أنّه يعنى بقاءه حيّا أم ميّتا، المفسّرون ذكروا بهذا الشأن احتمالات متعدّدة منها:

أوّلا: بقاء الإثنين- أى يونس و الحوت- أحياء، و يونس يبقى إلى يوم القيامة مسجونا فى بطن الحوت.

ثانيا: وفاة يونس، و بقاء الحوت حيّا باعتباره قبرا متحركا لجثّة يونس.

ثالثا: وفاة الإثنين، و هنا يكون بطن الحوت قبرا ليونس، و الأرض قبرا للحوت، حيث يدفن فى قلب الحوت، و الحوت يدفن فى باطن الأرض إلى يوم القيامة.

الآية مورد البحث لا تدلّ على أى من الاحتمالات التى ذكرناها، فهناك آيات عديدة فى القرآن الكريم تؤكّد موت الجميع فى آخر الزمان، لذا فإنّ بقاء يونس أو الحوت أحياء حتّى يوم القيامة غير ممكن، و بهذا يعدّ الاحتمال الثالث أقرب الاحتمالات إلى الواقع [۳۶۳].

و هناك احتمال آخر يقول: إنّ هذه العبارة هى كناية عن طول المدّة، و تعنى أنّه سيبقى لمدّة طويلة فى هذا السجن.

و لا ننسى أنّ هذه الأمور كان يمكن أن تتحقّق لو أنّه كان قد ترك تسبيح اللّه و التوبة إليه، و لكن الذى حدث أنّ تسبيحه و توبته جعلاه مشمولا بالعفو الإلهى.

و يضيف القرآن، و قد ألقينا به فى منطقة جرداء خالية من الأشجار و النباتا، و هو مريض فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ

فالحوت الضخم لفظ يونس- الذى لم يكن غذاء صالحا لذلك الحوت- على ساحل خال من الزرع و النبات، و الواضح أنّ ذلك السجن العجيب أثر على سلامة و صحّة جسم يونس، إذ أنّه تحرّر من هذا السجن و هو منهار و معتل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۴

إنّنا لا نعلم كم أمضى يونس من الوقت فى بطن الحوت، فمن المسلّم به أنّه لا يمكن تجنّب المؤثّرات هناك مهما كانت الفترة الزمنية التى قضاها فى بطن الحوت، صحيح أنّ الأمر الإلهى كان قد صدر فى أن لا يهضم يونس داخل بطن الحوت، و لكن هذا لا يعنى أن لا يتأثّر بعض الشىء بمؤثّرات ذلك السجن، لذا فقد كتب بعض المفسّرون أنّ يونس خرج من بطن الحوت و كأنّه فرخ دجاجة ضعيف و هزيل جدّا لا يمتلك القدرة على الحركة.

مرّة اخرى شمله اللطف الإلهى، لأنّ جسمه كان مريضا و متعبا، و كلّ عضو من أعضاء جسمه كان مرهقا و عاجزا، و كانت حرارة الشمس تؤذيه، فيحتاج إلى ظلّ لطيف يظلّل جسده. و القرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهى بالقول، إنّنا أنبتنا عليه شجرة قرع ليستظلّ بأوراقها العريضة و الرطبة وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ

(اليقطين) تعنى- كما قال أصحاب اللغة و التّفسير- كلّ نبات لا ساق له و له أوراق كبيرة، مثل نبات البطّيخ و القرع و الخيار و ما يشابهها. و لكن الكثير من المفسّرين و رواة الحديث أعلنوا بأنّ المقصود من (اليقطين) هو (القرع)، و الذى يجب الالتفات إليه أنّ كلمة «الشجرة» فى اللغة العربية تطلق على النباتات التى لها ساق و أغصان و التى ليس لها ساق و أغصان، و بعبارة اخرى: تشمل كلّ الأشجار و النباتات، و نقلوا حديثا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قالوا فيه: إنّ شخصا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّك تحبّ القرع؟ فأجاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«أجل هى شجرة أخى يونس»[۳۶۴].

و قيل: إنّ أوراق شجرة القرع، إضافة إلى أنّها كانت كبيرة و رطبة جدّا و يمكن الاستفادة منها كظلّ جيّد، فإنّ الذباب لا يتجمّع حول هذه الأوراق، و لهذا فإنّ يونس عليه السّلام التصق بتلك الأوراق كى يرتاح من حرقة الشمس و من الحشرات فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۵

نفس الوقت، إذ أنّ بقاءه فی داخل بطن الحوت أدّی إلی أن یصبح جلده رقیقا جدّا و حسّاسا، بحیث یتألّم إن استقرّت علیه حشرة.

و یحتمل أنّ الباری عزّ و جلّ یریـد من هـذه المرحلة إکمال الدرس الذی أعطاه لیونس فی بطن الحوت، إذ کان علیه أن یحسّ بتأثیر حرارة الشمس علی جلده الرقیق، کی یبذل جهدا و سعیا أکثر- عند ما یتسلّم القیادة فی المستقبل- لإنقاذ امّته من نار جهنّم، و قد ورد هذا المضمون فی روایات متعدّدة[۳۶۵].

نترک الحدیث عن یونس و نعود إلی قومه، فبعد أن ترک یونس قومه و هو غضبان، ظهرت لقومه دلائل تبیّن لهم قرب موعد الغضب الإلهی، هـذه الـدلائل هزّت عقولهم بقوّة و أعادتهم إلی رشـدهم، و دفعتهم إلی اللجوء للشـخص (العالم) الذی کان آمن بیونس و ما زال موجودا فی المدینة، و اتّخاذه قائدا لهم لیرشدهم إلی طریق التوبة.

و ورد فی روایـات اخری أنّهم خرجوا إلی الصـحراء، و فرّقوا بین المرأة و طفلهـا، و حتّی بین الحیوانـات و أطفالها، و جلسوا یبکون و ینتحبون بـأعلی أصواتهم، داعین اللّه سـبحانه و تعـالی بإخلاـص أن یتقبّـل توبتهم و یغفر ذنوبهم و تقصـیرهم بعـدم اتّبـاعهم نـبی اللّه یونس.

و هنا أزاح اللّه عنهم سحب العذاب و أنزلها علی الجبال، و هکذا نجا قوم یونس التائبون المؤمنون بلطف اللّه ۳۶۶].

بعـد هـذا عـاد یونس إلی قومه لیری ماذا صـنع بهم العـذاب الإلهی؟ و لکن ما إن عاد إلی قومه حتّی فوجئ بأمر أثار عنـده الدهشـة و العجب، و هو أنّه ترک قومه فی ذلک الیوم یعبدون الأصنام، و هم الیوم یوحّدون اللّه سبحانه.

القرآن یقول هنا: وَ أَرْسَلْناهُ إِلی مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ کانوا قد آمنوا باللّه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۶

و اغدقت علیهم النعم الإلهیة المادیة و المعنویة لمدّة معیّنة، فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلی حِینٍ

و بالطبع فإنّهم بعـد توبتهم کانوا یتمتّعون بإیمان بسیط، و قد إزداد بعد عودة یونس إلیهم، أی إزداد إیمانهم باللّه و برسوله یونس، و أخذوا ینفّذون تعلیماته و أوامره.

و یتبیّن من آیات القرآن الکریم أنّ یونس علیه السّـلام بعث من جدیـد إلی قومه السابقین، أمّا الـذین قالوا: إنّه بعث إلی قوم آخرین، فقولهم لا یتناسب مع ظاهر الآیات.

لأنّنـا نقرأ من جهـة قوله تعـالی: فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلی حِینٍ یعنی أنّ القوم الـذین بعثنا إلیهم یونس کانوا قوما مؤمنین، و أنّنا قـد أغـدقنا علیهم النعم لمدّة محدودة.

و من جهـة اخری، فقـد ورد نفس هـذا التعبیر فی سورة یونس بشـأن قومه السـابقین، و ذلک فی الآیـة (۹۸) فَلَوْ لا کانَتْ قَرْیَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِیمانُها إِلَّا قَوْمَ یُونُسَ لَمَّا آمَنُوا کَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْیِ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلی حِینٍ

و من هنا یتّضح أنّ المراد من إِلی حِینٍ هو لفترة معیّنة، أی إلی نهایة حیاتهم و حلول أجلهم الطبیعی.

سؤال یطرح نفسه: لماذا قالت الآیة المذکورة أعلاه: مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ

و ما المقصود من یزیدون أی عدد بعد المائة ألف؟ المفسّـرون أعطوا تفسـیرات مختلفة لها، و لکن الظاهر أنّ مثل هذه العبارات تأتی لتأکید شیء ما، و إعطائه هالة من العظمة، و لیس لخلق حالة من التردید و الشکّ ۳۶۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۷

بحوث

۱- عرض موجز لحیاة یونس علیه السّلام

(یونس) بن (متی) و یلقّب ب (ذی النون) أی صاحب الحوت، و قد اعطی هذا اللقب لأنّ قصّته ارتبطت بالحوت، و هو من المعروفین، و علی الظاهر أنّه ولد بعد موسی و هارون.

و قال البعض: إنّه من أولاد (هود) و قد کلّف من قبل الباری عزّ و جلّ بهدایة من تبقّی من قوم ثمود.

و المنطقة التی بعث إلیها کانت إحدی مناطق العراق و تسمّی (نینوی)[۳۶۸].

و قال البعض: إنّ بعثته کانت قبل ولادة المسیح علیه السّلام بحوالی (۸۲۵) عاما، و حالیا هناک قبر قرب مدینة الکوفة علی ضعاف النهر یعرف بقبر (یونس).

و جاء فی بعض الکتب أنّ یونس کان من أبناء بنی إسرائیل و بعث إلی أهل نینوی بعد سلیمان. و قد شرح کتاب (یوناه) أحد کتب التوراة العهد القدیم فی بحوث مفصّلة حیاة النّبی یونس و تحت عنوان (یوناه بن متی). و طبقا لما جاء فی هذا الکتاب، فإنّ یونس کان مکلّفا بالذهاب إلی مدینة (نینوی) الکبیرة، و مجابهة شرور الطغاة هناک.

ثمّ تذکّر التوراة حوادث اخری، تشبه کثیرا ما جاء فی القرآن، مع وجود اختلاف، و هو أنّ الروایات الإسلامیة تقول: إنّ یونس دعا قومه إلی التوحید و نفّذ ما أوکل إلیه فی هذا المجال، و بعد أن رفض قومه دعوته دعا علیهم و ترکهم و حصل له ما حصل فی حادثة السفینة و الحوت، و لکن التوراة ذکرت عبارة غیر مقبولة، إذ قالت: إنّ یونس طلب قبل بعثه إلی قومه أن یعفی من هذه المهمّة، و لهذا

توقّف عن الدعوة و انهزم و حصلت له حادثة السفینة و الحوت.

و الذی یثیر العجب أکثر أنّ التوراة تقول: إنّ یونس تألّم و غضب کثیرا عند ما أزال اللّه سبحانه و تعالی العذاب عن قومه بعد ما أعلنوا توبتهم ۳۶۹].

و جاء فی أحد فصول التوراة- أیضا- أنّ یونس بعث مرّتین، امتنع فی الاولی و ابتلی بذلک المصیر المؤلم، و فی المرّة الثانیة بعث أیضا إلی المدینة (نینوی) نفسها، و کان أهلها قد تیقّظوا من غفلتهم و آمنوا باللّه، و تابوا إلیه و شملهم العفو الإلهی، ذلک العفو الذی لم یفرح قلب یونس.

و بمقارنة ما جاء فی القرآن المجید و الروایات الإسلامیة مع ما جاء فی کتاب التوراة الحالی یتّضح إلی أی درجة تحطّ (التوراة المحرّفة) من شأن نبی اللّه یونس، فأحیانا ینسب إلیه عدم قبوله حمل الرسالة التی کلّف بها، و أحیانا غضبه و سخطه علی قرار اللّه سبحانه و تعالی بشمول قومه التائبین بالعفو و الرحمة. و هذا یدلّ علی أنّ التوراة الحالیة کتاب لا یمکن الاعتماد علیه بأی شکل من الأشکال.

علی أیّة حال، فإنّ یونس من الأنبیاء الکبار الذین ذکرهم القرآن بأحسن و أفضل الذکر.

۲- کیف بقی یونس حیّا فی بطن الحوت؟

قلنا: إنّه لیس هناک دلیل واضح یبیّن کم أمضی یونس من الوقت فی بطن الحوت؟ هل أنّها کانت عدّة ساعات أم عدّة أیّام أم عدّة أسابیع؟

فقد ورد فی بعض الروایات أنّه أمضی (۹) ساعات فی بطن الحوت، فیما قالت روایات اخری: إنّه أمضی ثلاثة أیّام، و أکّدت اخری

أنّه أمضى أكثر، حتّى أنّ البعض قال: إنّه أمضى (۴۰) يوما فى بطن الحوت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۹

و لكن لا يوجد لدينا دليل ثابت على أى من هذه الأقوال.

و قد جاء فى تفسير على بن إبراهيم نقلا عن حديث لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، أنّ يونس أمضى (۹) ساعات فى بطن الحوت [۳۷۰].

و قال بعض المفسّرين من أهل السّنّة: إنّ المدّة التى أمضاها يونس فى بطن الحوت كانت ساعة واحدة فقط[۳۷۱].

و كم كانت المدّة؟ فإنّ مثل هذا الأمر- من دون أى شكّ- يعدّ أمرا غير عادى، حيث إنّ الإنسان لا يستطيع أن يبقى حيّا لعدّة دقائق فى محيط فارغ من الهواء، و إذا رأينا أنّ الجنين يعيش عدّة أشهر فى بطن أمّه حيّا، فإنّما ذلك بسبب عدم عمل أجهزته التنفسيّة و حصوله على الأوكسيجين اللازم عن طريق دم والدته.

و وفقا لهذا فإنّ ما جرى ليونس إنّما هو معجزة من دون أى شكّ، و هذه ليست المعجزة الأولى التى نصادفها فى القرآن المجيد، فالبارى عزّ و جلّ- الذى حفظ إبراهيم عليه السّلام فى وسط النار، و أنقذ موسى و بنى إسرائيل من الغرق بعد أن أوجد لهم طريقا يابسا وسط البحر، و خلّص نوحا من الطوفان العظيم بواسطة سفينة بسيطة ليهبط من بعد على الأرض اليابسة بسلام- قادر على حفظ عبد من عباده المخلصين مدّة من الزمن فى بطن الحوت.

و بالطبع فإنّ وجود مثل تلك الحيتان الكبيرة فى الماضى و الحاضر لا يعدّ أمرا عجيبا، إذ يوجد حاليا نوع من أنواع الحيتان يطلق عليه اسم (بالن) طوله أكثر من (۳۰) مترا و يعدّ أكبر حيوان على وجه الأرض، و قلبه يزن طنّا واحدا.

فى هذه السورة طالعنا قصص الأنبياء السابقين الذين نجوا بإعجاز من قبضة البلاء، و يونس كان آخرهم فى هذه السلسلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۰

۳- دروس و عبر كبيرة فى قصص صغيرة:

و كما نعرف، فإنّ استعراض القرآن لهذه القصص يهدف إلى تربية الإنسان، لأنّ القرآن ليس كتاب قصص و إنّما هو كتاب هدفه بناء الإنسان و تربيته.

من هذه القصّة العجيبة يمكن استخلاص الكثير من المواعظ و العبر:

أ- ترك النّبى للعمل بالأولى يعدّ أمرا مهمّا عند اللّه، و يؤدّى إلى مجازاة ذلك النبى، لأنّ مرتبة الأنبياء عالية جدّا، و أبسط غفلة منهم تعادل ذنبا كبيرا يرتكبه عوام الناس، و لهذا السبب أطلق اللّه سبحانه و تعالى تسمية (الآبق) على عبده يونس فى هذه الآية، و التى تعنى العبد الهارب.

و قد ورد فى بعض الروايات أنّ ركّاب السفينة كانوا يقولون: هناك شخص عاص بيننا! و عاقبة الأمر أنّ البارى عزّ و جلّ ابتلاه بسجن رهيب، ثمّ أنقذه منه بعد أن تاب و عاد إلى اللّه، و كان منهار القوى مريضا.

ذلك ليعرف الجميع أنّ التوانى غير مقبول من أى أحد، فعظمة مرتبة أنبياء و أولياء اللّه إنّما يحصلون عليها من طاعتهم الخالصة لأوامر اللّه سبحانه و تعالى، و إلّا فاللّه لا تربطه صلة قربى مع أى أحد، و إنّ الموقف الحازم الذى اتّخذه اللّه تجاه عبده يونس يوضّح عظمة مرتبة هذا النّبى الكبير.

ب- أحداث هذه القصّة (و خاصّة ما ورد فى الآية (۸۷) من سورة الأنبياء) كشفت عن سبيل نجاة المؤمنين من الغمّ و الحزن و الابتلاءات و المشاكل، و هو نفس السبيل الذى انتهجه يونس، و هو اعترافه بخطئه أمام اللّه و تسبيحه اللّه و تنزيهه و العودة إليه.

ج- هـذه القصّـة توضّح كيف أنّ قوما مذنبين مستحقّين للعذاب يستطيعون فى آخر اللحظات تغيير مسيرتهم التأريخية، بعودتهم إلى أحضان الرحمة الإلهيّة، و إنقاذ أنفسهم من العذاب، و هذا مشروط بالصحوة من غفلتهم قبل فوات الأوان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۱

و انتخاب شخص «عالم» قائدا لهم.

د- هذه الحادثة تبيّن أنّ الإيمان باللّه و التوبة من الذنوب علاوة على أنّها تتسبّب فى نزول الآثار و البركات المعنوية، فهى توجد النعم و الهبات الدنيوية و تجعلها فى إختيار الإنسان، و توجد حالة من العمران و البناء، و تطيل الأعمار، و نظير هـذا المعنى ورد أيضا فى قصّة نوح عليه السّلام و الذى سنقرأ شرحه بعون اللّه فى تفسير سورة نوح.

ه- أخيرا فإنّ مجريات هـذه القصّـة تستعرض قـدرة البارى عزّ و جلّ العظيمة التى لا يقف أمامها شـىء و لا يصـعب عليها شـىء، إلى درجة تستطيع حفظ حياة إنسان فى فم و جوف حيوان كبير وحشـى، و إخراجه سالما من هناك، هذا الأمر يبيّن أنّ كلّ ما هو موجود فى هذا الكون هو أداة بيده تعالى و مسخّر لأوامره.

۴- الجواب على سؤال:

هنا يطرح هـذا السؤال: عنـد بيان قصـص الأقوام الاخرى فى القرآن المجيـد، نلاحظ أنّه عنـد نزول العـذاب عليهم (عـذاب الاستئصال الذى كان ينال كلّ الأقوام الطاغية و المتجبّرة) لا تكون التوبة مقبولة و الإنابة مؤثّرة، فكيف استثنى قوم يونس من هذا الأمر؟

هناك إجابتان على هذا السؤال:

الأولى: هى أنّ العذاب لم يكن قد نزل بهم، لأنّهم بمجرّد أن شاهدوا دلائل بسيطة تنذر بالعذاب، استغلّوا هذه الفرصة و آمنوا باللّه و تابوا إليه قبل حلول البلاء.

الثانية: أنّ عذابهم لم يكن لإهلاكهم، و إنّما كان بمثابة تنبيه و تأديب لهم قبل نزول العذاب المهلك، و هو الأسلوب الذى كان يتّبع مع الأقوام السابقة، أى تظهر لهم بعض دلائل العذاب كآخر فرصة لهم، فإن آمنوا كفّ اللّه عنهم العذاب، و إن بقوا على طغيانهم أنزل اللّه العذاب عليهم ليهلكهم عن آخرهم، كما عذّب قوم فرعون بمختلف أنواع العذاب قبل أن يغرقهم اللّه فى البحر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۲

۵- القرعة و مشروعيتها فى الإسلام:

وردت أحاديث متعدّدة بشأن القرعة و مشروعيتها فى الإسلام،

فعن الإمام الصادق عليه السّلام «أى قضيّة أعدل من القرعة إذا فوّض الأمر إلى اللّه، أليس اللّه عزّ و جلّ يقول: فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۳۷۲].

و هـذا إشارة إلى أنّ القرعة هى طريق الحلّ الصحيح فى حالة استعصاء أمر ما و عدم وجود طريق آخر لحلّه، و تفويض الأمر للّه كما جاء فى قصّة يونس حيث انطبقت تماما مع الواقع.

و هذا المعنى ورد بصراحة

فى حديث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قال فيه: «ليس من قوم تنازعوا (تقارعوا) ثمّ فوّضوا أمرهم إلى اللّه إلّا خرج لهم المحقّ»[۳۷۳].

و من يريد الاطلاع أكثر على هذه المسألة فليراجع كتاب القواعد الفقهيّة (للمؤلّف).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۳

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۴۹ الى ۱۶۰]

اشارة

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (۱۴۹) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ (۱۵۰) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (۱۵۱) وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۵۲) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (۱۵۳)

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۱۵۴) أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۱۵۵) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (۱۵۶) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۵۷) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۵۸)

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (۱۵۹) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۶۰)

التّفسير

التهم القبيحة:

بعد استعراض ستّ قصص من قصص الأنبياء السابقين، و استخلاص الدروس التربوية منها، يغيّر القرآن موضوع الحديث، و يتناول موضوعا آخر يرتبط بمشركى مكّة آنذاك، و يستعرض لنا أنماطا مختلفة من شركهم و يحاكمهم بشدّة، ثمّ يدحض بالأدلّة القاطعة أفكارهم الخرافية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۴

و القضيّة هى أنّ مجموعة من المشركين العرب و بسبب جهلهم و سطحيّة تفكيرهم كانوا يقيسون اللّه عزّ و جلّ بأنفسهم، و يقولون: إنّ للّه عزّ و جلّ أولادا، و أحيانا يقولون: إنّ له زوجة.

قبائل (جهينة) و (سليم) و (خزاعة) و (بنى مليح) كانوا يعتقدون أنّ الملائكة هى بنات اللّه عزّ و جلّ، و مجموعة اخرى من المشركين كانت تعتقد أنّ (الجنّ) هم أولاد اللّه عزّ و جلّ، فيما قال البعض الآخر: إنّ (الجنّ) هم زوجات اللّه عزّ و جلّ.

الأوهام الخرافية هذه، كانت السبب الرئيسى لانحرافهم عن طريق الحقّ بصورة زالت معها كلّ آثار التوحيد و الإعتقاد بوحدانية اللّه سبحانه و تعالى من قلوبهم.

و قد ورد فى أحد الأحاديث أنّ النمل يتصوّر أنّ لخالقه قرنين إثنين مثلما هى تمتلك.

نعم، العقل الناقص للإنسان يدفعه إلى المقارنة، المقارنة بين الخالق و المخلوق، و هذه المقارنة من أسوأ الأسباب التى تؤدّى بالإنسان إلى الضلال عن معرفة اللّه.

على أيّة حال، فالقرآن الكريم يردّ على الذين يتصوّرون أنّ الملائكة هى بنات اللّه بثلاث طرق، أحدها تجريبى، و الآخر عقلى، و الثالث نقلى، و فى البداية يقول، اسألهم هل أنّ اللّه تعالى خصّ نفسه بالبنات، و خصّهم بالبنين، فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ و كيف تنسبون ما لا تقبلون به لأنفسكم إلى اللّه، حيث أنّهم طبق عقائدهم الباطلة كانوا يكرهون البنات بشدّة و يحبّون الأولاد كثيرا، فالأولاد كان لهم دورا مؤثّرا خلال الحرب و الإغارة على بقيّة القبائل، فى حين أنّ البنات عاجزات عن تقديم مثل هذه المساعدة.

و من دون أى شكّ فإنّ الولد و البنت من حيث وجهة النظر الإنسانية، و من حيث التقييم عند اللّه سبحانه و تعالى متساوون، و ميزان

شخصيتهم هو التقوى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۵

و الطهارة، و استدلال القرآن هنا إنّما يأتى من باب (ذكر مسلّمات الخصم) و من ثمّ ردّها عليه. و شبيه هذا المعنى ورد فى سور اخرى من سور القرآن، و منها ما جاء فى الآية (۲۱ و ۲۲) من سورة النجم أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى .

ثمّ ينتقل الحديث إلى عرض دليل حسّي على المسألة هذه، و بشكل استفهام استنكارى، قال تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ

و من دون أى شكّ فإنّ جوابهم فى هذا المجال سلبى، إذ لم يستطع أحدا منهم الادّعاء بأنّه كان موجودا أثناء خلق الملائكة.

مرّة اخرى يطرح القرآن الدليل العقلى المقتبس من مسلّماتهم الذهنية و يقول:

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ

هل تدركون ما تقولون و كيف تحكمون: ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

ألم يحن الوقت الذى تتركون فيه هذه الخرافات و الأوهام القبيحة و التافهة؟

أَ فَلا تَذَكَّرُونَ

إذن أنّ هذا الكلام باطل من الأساس بحيث لو أنّ أى إنسان له ذرّة من عقل و دراية، و يتفكّر فى الأمر جيّدا، لأدرك بطلان هذه المزاعم.

بعد إثبات بطلان ادّعاءاتهم الخرافية بدليل تجريبى و آخر عقلى، ننتقل إلى الدليل الثالث و هو الدليل النقلى، حيث يقول القرآن الكريم مخاطبا إيّاهم: لو كان ما تزعمونه صحيحا لذكرته الكتب السابقة، فهل يوجد لديكم دليل واضح عليه، أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ

و إذا كنتم صادقين فى قولكم فأتوا بذلك الكتاب فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

هذا الادّعاء فى أى كتاب موجود؟ و فى أى وحى مذكور؟ و على أى رسول نزل؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۶

هذا القول يشبه بقيّة الأقوال التى يخاطب بها القرآن عبدة الأصنام وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ

كلّا، إنّها لم ترد فى الكتب السماوية، بل انّها خرافات انتقلت من جيل إلى جيل و من جهلة إلى آخرين، و إنّها دعاوى مرفوضة و لا أساس لها، كما أشير إليها فى نهاية الآيات المذكورة أعلاه أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ

الآية اللاحقة تطرّقت إلى خرافة اخرى من خرافات مشركى العرب، و الّتى تزعم بوجود نسبة بين اللّه عزّ و جلّ و الجنّ، فالآية هنا لا تخاطبهم بصورة مباشرة و إنّما تخاطبهم بضمير الغائب، لأنّهم أناس تافهون، و لا تتوفّر فيهم الكفاءة و اللياقة للردّ على زعمهم وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً.

فما هى النسبة الموجودة بين اللّه و الجنّ؟

وردت عدّة تفاسير مختلفة لهذا السؤال، منها:

قال البعض: إنّهم كانوا ثنويين، و يعتقدون (نعوذ باللّه) أنّ اللّه و الشيطان إخوة، اللّه خالق المحبّة، و الشيطان خالق الشرور.

و هذا التّفسير مستبعد، لأنّ المذهب الثنوى لم يكن معروفا عند العرب، بل كان منتشرا فى إيران خلال عهد الساسانيين.

و اعتبر البعض الآخر الجنّ هم نفس الملائكة، لأنّ الجنّ موجودات لا تدركها الأبصار، و الملائكة كذلك، و لذلك أطلقوا كلمة «الجنّ» عليها. إذا، فالمراد من النسبة هى النسبة التى كان يدّعيها عرب الجاهلية من أنّ الملائكة بنات اللّه.

و یرد على هـذا التّفسیر أنّ ظاهر آیات بحثنا انّها تبحث فی موضوعین، إضافـة إلى أنّ إطلاق کلمـة (الجنّ) على الملائکة غیر وارد و خاصّة فی القرآن الکریم.

و هناک تفسیر ثالث یقول: إنّهم کانوا یعتبرون (الجنّ) زوجات اللّه، فیما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۷

یعتبرون الملائکة بناته.

و هذا التّفسیر مستبعد أیضا، لأنّ إطلاق کلمة «نسب» على الزوجة غیر وارد.

و التّفسیر الذی یعدّ أنسب من الجمیع، هو أنّ المراد من کلمة (نسب) کلّ أشکال الرابطة و العلاقة، حتّى و لو لم یکن هناک أی صلة للقرابة فیها، و کما نعلم فإنّ مجموعة من المشرکین العرب کانوا یعبدون الجنّ و یزعمون أنّها شرکاء للّه، و لهذا کانوا یقولون بوجود علاقة بینها و بین اللّه.

على أیّة حال، فالقرآن المجید ینفی هذه المعتقدات الخرافیة بشدّة، و یقول: إنّ الجنّ الذین کان المشرکون یعبدونها و یقولون بوجود نسبة بینها و بین اللّه، یعلمون جیّدا أنّ المشرکین سیحضرون فی محکمة العدل الإلهی و سیحاسبون و یجزون وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

و البعض الآخر احتمل أن یکون تفسیر الآیـة بالشکل التالی: إنّ الجنّ الـذین یغوون الناس یعلمون أنّهم یوم القیامـة سیحضرون فی محکمة العدل الإلهی لیحاسبوا و ینالوا جزاءهم.

و لکن التّفسیر الأوّل یعدّ أنسب ۳۷۴].

و نزّه اللّه تعالى نفسه عمّا قاله أولئک الضالّون فی صفاته تعالى، قائلا: سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا یَصِفُونَ و استثنى وصف عباده المخلصین (الذین وصفوه عن علم و معرفة و درایة) حیث وصفوه بما یلیق بذاته المقدّسة، قال تعالى: إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ

و بهـذا الشکل فإنّ من النادر أن نسمع أناسا عادیین یصفون اللّه سبحانه و تعالى وصفا لائقا، کما یصفه عباده المخلصون، العباد الخالصون من کلّ أشکال الشرک و هوى النفس و الجهل و الضلال، و الذین لا یصفون الباری عزّ و جلّ إلّا بما سمح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۸

لهم به ۳۷۵].

و حول عبارة عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ فقد کان لنا بحث فی نهایة الآیة (۱۲۸) من هذه السورة.

نعم، فلمعرفة اللّه لا ینبغی اتّباع الخرافات الواردة عن أقوام الجاهلیة التی یخجل الإنسان من ذکرها، بل یجب اتّباع العباد المخلصین الـذین یتحدّثون بأحادیث تجعل روح الإنسان محلّقة فی عنان السماء، و تـذیبها فی أنوار الوحدانیة، و تطهّر القلب من کلّ شائبة شرک، و تمحو کلّ تجسیم و تشبیه للّه من ذهن الإنسان.

ینبغی لنا مراجعة کلمات الرّسول الأکرم صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و خطب أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام، و أدعیة الإمام زین العابدین علیه السّلام فی صحیفته، کی نستنیر بضیاء وصفهم له جلّ و علا.

فأمیر المؤمنین علیه السّلام، یقول فی إحدى کلماته: «لم یطلع العقول على تحدید صفته، و لم یحجبها عن واجب معرفته، فهو الذی تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذی الجحود، تعالى اللّه عمّا یقوله المشبهون و الجاحدون له علوّا کبیرا»[۳۷۶].

و فی مکان آخر یصف اللّه عزّ و جلّ بالقول:

«لا تناله الأوهام فتقدّره، و لا تتوهّمه الفطن فتصوّره، و لا تدرکه الحواس فتحسّه، و لا تلمسه الأیدی فتمسّه، و لا یتغیّر بحال، و لا یتبدّل فی الأحوال، و لا تبلیه اللیالی و الأیّام، و لا یغیّره الضیاء و الظلام، و لا یوصف بشیء من الأجزاء، و لا بالجوارح و الأعضاء، و لا بعرض من الأعراض، و لا بالغیریة و الأبعاض، و لا یقال له حدّ و لا نهایة، و لا انقطاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۹

و لا غاية»[۳۷۷].

و فى مكان ثالث يقول:

«و من قال فيم؟ فقد ضمنه، و من قال علام؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شىء لا بمقارنة، و غير كلّ شىء لا بمزايلة»[۳۷۸].

أمّا

الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام، فقد قال فى صحيفته السجّادية: «الحمد للّه الأوّل بلا أوّل كان قبله، و الآخر بلا آخر يكون بعده، الذى قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين و عجزت عن نعته أوهام الواصفين»[۳۷۹].

نعم، فلمعرفة اللّه جيّدا علينا مراجعة نهج هؤلاء (عباد اللّه المخلصين) و دراسة علوم معرفة اللّه فى مدارسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۰

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۶۱ الى ۱۷۰]

اشارة

فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ (۱۶۱) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (۱۶۲) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (۱۶۳) وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (۱۶۴) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (۱۶۵)

وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (۱۶۶) وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (۱۶۷) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۶۸) لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۶۹) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۱۷۰)

التّفسير

الادّعاءات الكاذبة:

الآيات السابقة تحدّثت عن الآلهة المختلفة التى كان المشركون يعبدونها، أمّا الآيات- التى هى مورد بحثنا الآن- فتتابع ذلك الموضوع، حيث توضّح فى كلّ بضع آيات موضوعا يتعلّق بهذا الأمر.

بداية البحث تؤكّد الآيات على أنّ وساوس عبدة الأصنام لا تؤثّر على الطاهرين و المحسنين، و إنّما- قلوبكم المريضة و أرواحكم الخبيثة هى التى تستسلم لتلك الوساوس، قال تعالى: فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ

نعم، أنتم و ما تعبدون لا تستطيعون خداع أحد بوسائل الفتنة و الفساد عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۱

الطريق المؤدّى إلى اللّه ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ ۳۸۰] إلّا أولئك الذين يريدون أن يحترقوا فى نار جهنّم إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ

هذه الآيات- خلافا لما يتصوّره أتباع مذهب الجبر- دليل ضدّ هذا المذهب، و هى إشارة إلى أنّه لا يعذر أى أحد انحرف عن الطريق المستقيم، مدّعيا أنّه قد خدع، و انحرافه و عبادته للأوثان بسبب هذه الوساوس، و لذا تقول الآيات المباركة، أنتم- المشركون- لا قدرة لديكم على إضلال الأشخاص و خداعهم، إلّا إذا كان أولئك يتّجهون بإرادتهم نحو صراط الجحيم.

و عبارة صالِ الْجَحِيم شاهـد على الكلام المـذكور أعلاه، لأنّ كلمـة (صالى) جاءت بصـيغة اسم الفاعل، و عنـد ما تسـتخدم أى كلمة بصـيغة اسم الفاعـل بشأن موجود عاقل فإنّها تعطى مفهوم تنفيـذ العمل بإرادته و إختياره، مثل (قاتل) و (جالس) و (ضارب)، إذن فإنّ صالِ الْجَحِيم تعنى رغبة الشخص فى الاحتراق بنار جهنّم، و بهذا تغلق كافّة طرق الأعذار أمام كلّ المنحرفين.

و الذى يثير العجب أنّ بعض المفسّرين المعروفين فسّروا الآية بالمعنى التالى:

(إنّكم لا تستطيعون خداع أحد، إن لم يكن مقدّرا له الاحتراق بنار جهنّم).

إن كان حقّا هذا هو معنى الآية، فلم يبعث الأنبياء؟ و لأى سبب تنزل الكتب السماوية؟ و ما معنى محاسبة و لوم و توبيخ عبدة الأوثان يوم القيامة التى نصّت عليها الآيات القرآنية؟ و أين ذهب عدل البارى عزّ و جلّ؟

نعم، يجب قبول هذه الحقيقة، و هى انّ الإقرار بمبدإ الجبر ضدّ مبدأ الأنبياء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۲

تماما، و يمسخ كلّ المفاهيم التى بعثوا من أجل ترسيخها، و يقضى على كلّ القيم الإلهية و الإنسانية.

و من الضـرورى الالتفات إلى هـذه النقطـة و هى أنّ (صالى) مشـتقّة من (صـلى) و تعنى إشـعال النار و الدخول فيها أو الاحتراق بها و (فاتن) اسم فاعل مشتقّة من (فتنة) و تعنى الذى يثير الفتن و الذى يضلّ الآخرين.

بعـد انتهاء بحثنا حول الآيات الثلاث السابقة التى وضّـحت مسألة إختيار الإنسان فى مقابل فتن و إغراءات عبدة الأصـنام، نواصل بحثنا حول الآيات الثلاث التالية و التى تتناول المرتبة العالية لملائكة اللّه، و تقول مخاطبة عبدة الأصنام: إنّ الملائكة التى كنتم تزعمون أنّها بنات اللّه لها مقام معيّن، و الجميل فى هذه العبارة أنّ الملائكة هى التى تتحدّث عن نفسها وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ [۳۸۱].

و تضيف ملائكة الرحمن: و إنّنا جميعا مصطفون عند اللّه فى انتظار أوامره، وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ

و إنّنا جميعا نسبّحه، و ننزّه عمّا لا يليق بساحة كبريائه وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ

نعم، نحن عبـاد اللّه، و قـد وضـعنا أرواحنـا على الأـكف بانتظـار سـماع أوامره، إنّنـا لسـنا أبناء اللّه، إنّنا ننزّه البارى عزّ و جلّ من تلك المزاعم الكاذبة و القبيحة و إنّنا منزعجين و مشمئزّين من خرافات و أوهام المشركين.

فى الحقيقة، إنّ الآيات المذكورة أعلاه أشارت إلى ثلاث صفات من صفات الملائكة.

الاولى: هى أنّ لكلّ واحد منهم مقام معيّن و مشخّص ليس له أن يتعدّاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۳

و الثانية: هى أنّهم مستعدّون دائما لإطاعة أوامر اللّه سبحانه و تعالى و تنفيذها فى عالم الوجود، و هذا الشيء مشابه لما ورد فى الآيتين (۲۶) و (۲۷) من سورة الأنبياء بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

و الثالثة: أنّهم يسبّحون اللّه دائما و ينزّهونه عمّا لا يليق بساحة كبريائه.

الآيتـان إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ تعطيـان مفهوم الحصـر فى الأـدب العربى، و بعض المفسّـرين قـالوا فى تفسير هـاتين الآيتين: إنّ الملائكـة تريـد أن تقول: نحن فقط المطيعون لأوامر اللّه و المسبّحون الحقيقيون له، و هذه إشارة إلى أنّ طاعة الإنسان للّه تعالى و تسبيحه يعدّ لا شيء بالنسبة لطاعة و تسبيح الملائكة للّه، و لا يمكن المقارنة بينهما.

و الذى يلفت الانتباه أنّ مجموعة من المفسّرين نقلوا فى نهاية هذه الآيات

حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قال فيه: «ما فى السموات موضع شبر إلّا و عليه ملك يصلّى و يسبّح»[۳۸۲].

و

جاء فى رواية اخرى: «ما فى السماء موضع قدم إلّا عليه ملك ساجد أو قائم»[۳۸۳].

و

فی روایة ثالثة ورد أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان جالسا مع مجموعة من أصحابه، فقال لهم: «أطت السماء و حقّ لها أن تأط! لیس فیها موضع قدم إلّا علیه ملک راکع أو ساجد، ثمّ قرأ: وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ [۳۸۴].

العبارات المختلفة کنایة لطیفة عن أنّ عالم الوجود مکتظّ بالمطیعین لأوامر اللّه و المسبّحین له.

الآیات الأربع الأخیرة من هذا البحث تشیر إلی أحد الأعذار الواهیة التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۴

تذرّع بها المشرکون فیما یخصّ هذه القضیّة و عبادتهم للأصنام، و تجیب علیهم قائلة: وَ إِنْ کانُوا لَیَقُولُونَ ۳۸۵].

لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِکْراً مِنَ الْأَوَّلِینَ لَکُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ

یقول المشرکون: لا- تتحدّثوا کثیرا عن عباد اللّه المخلصین الذین أخلصهم اللّه لنفسه، و عن الأنبیاء العظام أمثال نوح و إبراهیم و موسی، لأنّه لو کان اللّه قد شملنا بلطفه و أنزل علینا أحد کتبه السماویة لکنّا فی زمرة عباده المخلصین.

و هذا مشابه لما یقوله الطلاب الکسالی الراسبون فی دروسهم، من أجل التغطیة علی کسلهم و عدم مثابرتهم، لو کان لدینا معلّم و أستاذ جیّد لکنّا من الطلبة الأوائل.

الآیة التالیة تقول: لقد تحقّق ما کانوا یأملونه، إذ أنزل علیهم القرآن المجید الذی هو أکبر و أعظم الکتب السماویة، إلّا أنّ هؤلاء الکاذبین فی ادّعاءاتهم کفروا به، و لم یفوا بما قالوا، و اتّخذوا موقفا معادیا إزاءه، فسیعلمون و بال کفرهم فَکَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ [۳۸۶].

کفاکم کذبا و ادّعاء، و لا تعتقدوا أنّکم أکفّاء للانضمام إلی صفوف عباد اللّه المخلصین، فکذبکم واضح، و ادّعاءاتکم غیر صادقة، فلیس هناک کتاب خیر من القرآن المجید، و لا یوجد هناک نهج تربوی خیر من نهج الإسلام، فکیف کان موقفکم من هذا الکتاب السماوی؟ فانتظروا العواقب الألیمة لکفرکم و عدم إیمانکم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۵

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۱۷۱ الی ۱۷۷]

اشارة

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِینَ (۱۷۱) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (۱۷۲) وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (۱۷۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّی حِینٍ (۱۷۴) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ یُبْصِرُونَ (۱۷۵)

أَ فَبِعَذابِنا یَسْتَعْجِلُونَ (۱۷۶) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِینَ (۱۷۷)

التّفسیر

حزب اللّه هو المنتصر:

اشارة

لا زلنا نتابع البحث فی آیات هذه السورة المبارکة، و التی شارفت علی الانتهاء، بعد أن استعرضنا فی الأبحاث السابقة جهاد الأنبیاء العظام و المصاعب و العراقیل التی أثارها و أوجدها المشرکون.

ففى آيات بحثنا الحالى سنتطرّق لأهمّ القضايا الواردة فى هذه السورة، و التى تصوّر الخاتمة بأفضل صورة، إذ زفّت البشرى للمؤمنين بانتصار جيش الحقّ على جيش الشيطان، الوعد الإلهى الكبير هذا إنّما جاء لبعث الأمل فى صفوف المؤمنين فى صدر الإسلام الذين كانوا لحظة نزول هذه الآيات يرزحون تحت ضغوط أعداء الإسلام فى مكّة، و لكلّ المؤمنين و المحرومين فى كلّ زمان و مكان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۶

و لكى يكون حافزا لهم يدفعهم على نفض غبار اليأس عنهم، و الاستعداد لجهاد و مقاومة جيوش الباطل وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ

وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ إنّها لعبارة واضحة و صريحة، و إنّه لوعد يقوّى الروح و يبعث على الأمل.

نعم، فانتصار جيوش الحقّ على الباطل، و غلبة جند اللّه، و تقديم اللّه سبحانه و تعالى العون لعباده المرسلين و المخلصين، هى وعود مسلّم بها و سنن قطعيّة، و ذلك ما أكّدته الآية المذكورة أعلاه بعنوان سَبَقَتْ كَلِمَتُنا أى إنّ هذا الوعد و هذه السنّة كانت موجودة منذ البداية.

نظائر كثيرة لهذا الموضوع وردت فى آيات عديدة اخرى من آيات القرآن المجيد، إذ جاء فى الآية (۴۷) من سورة الروم وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

و فى الآية (۴۰) من سورة الحجّ وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ

و فى الآية (۵۱) من سورة غافر إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

و أخيرا فى الآية (۲۱) من سورة المجادلة كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي

و بديهى أنّ اللّه قادر على كلّ شىء، و ليس بمخلف للوعود، و لم يكن يوما ما ليخلف وعده، و قادر على أن يفى بهذا الوعد الكبير، كما أنزل فى السابق نصره على المؤمنين به.

الوعد الإلهى من أهمّ الأمور التى ينتظرها السائرون فى طريق الحقّ باشتياق، حيث يستمدّون منه القوى الروحية و المعنوية، و يسترفدون منه نشاطا جديدا كلّما أحسّوا بالكلل، فتسرى دماء جديدة فى شرايينهم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۷

سؤال مهمّ:

و هنا يطرح السؤال التالى، و هو: إن كانت مشيئة البارى عزّ و جلّ و إرادته تقضى بتقديم يد العون للأنبياء و نصرة المؤمنين، فلم نشاهد استشهاد الأنبياء على طول تأريخ الحوادث البشرية، و انهزام المؤمنين فى بعض الأحيان؟ فإن كانت هذه سنّة إلهيّة لا تقبل الخطأ، فلم هذه الاستثناءات؟

و نجيب على هذا السؤال بالقول:

أوّلا: إنّ الإنتصار له معان واسعة، و لا يعطى فى كلّ الأحيان معنى الإنتصار الظاهرى و الجسمانى على العدو، فأحيانا يعنى انتصار المبدأ، و هذا هو أهمّ انتصار، فلو فرضنا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد استشهد فى إحدى الغزوات، و شريعته عمّت العالم كلّه، فهل يمكن أن نعبّر عن هذه الشهادة بالهزيمة.

و هناك مثال أوضح و هو الحسين عليه السّلام و أصحابه الكرام حيث استشهدوا على أرض كربلاء، و كان هدفهم العمل على فضح بنى اميّة، الذين ادّعوا أنّهم خلفاء الرّسول، و كانوا فى حقيقة الأمر يعملون و يسعون إلى إعادة المجتمع الإسلامى إلى عصر الجاهلية، و قد تحقّق هذا الهدف الكبير، و أدّى استشهادهم إلى توعية المسلمين إزاء خطر بنى اميّة و إنقاذ الإسلام من خطر السقوط و الضياع،

فهل يمكن هنا القول بأنّ الحسين عليه السّلام و أصحابه الكرام خسروا المعركة فى كربلاء؟

المهمّ هنا أنّ الأنبياء و جنود اللّه- أى المؤمنون- تمكّنوا من نشر أهدافهم فى الدنيا و اتّبعهم أناس كثيرون، و ما زالوا يواصلون نشر مبادئهم و أفكارهم رغم الجهود المستمرّة و المنسّقة لأعداء الحقّ ضدّهم.

و هناك نوع آخر من الإنتصار، و هو الإنتصار المرحلى على العدو، و الذى قد يتحقّق بعد قرون من بدء الصراع، فأحيانا يدخل جيل معركة ما و لا يحقّق فيها أى انتصار، فتأتى الأجيال من بعده و تواصل القتال فتنتصر، كالانتصار الذى حقّقه المسلمون فى النهاية على الصليبيين فى المعارك التى دامت قرابة القرنين، و هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۸

النصر يحسب لجميع المسلمين.

ثانيا: يجب أن لا ننسى أنّ وعد اللّه سبحانه و تعالى بنصر المؤمنين وعد مشروط و ليس بمطلق، و أنّ الكثير من الأخطاء مصدرها عدم التوجّه إلى هذه الحقيقة، و كلمات (عبادنا) و (جندنا) التى وردت فى آيات بحثنا، و غيرها من العبارات و الكلمات المشابهة فى هذا المجال فى القرآن الكريم كعبارة حِزْبَ اللَّهِ و الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا و لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ و أمثالها، توضّح بسهولة شروط النصر.

نحن لا نريد أن نكون مؤمنين و لا مجاهدين و لا جنودا مخلصين، و نريد أن ننتصر على أعداء الحقّ و العدالة و نحن على هذه الحالة!

نحن نريد أن نتقدّم إلى الإمام فى مسيرنا إلى اللّه و لكن بأفكار شيطانية، ثمّ نعجب من انتصار الأعداء علينا، فهل و فينا نحن بوعدنا حتّى نطلب من اللّه سبحانه و تعالى الوفاء بوعوده.

فى معركة احد وعد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين بالنصر، و قد انتصروا فعلا فى المرحلة الاولى من المعركة، إلّا أنّ مخالفة البعض لأوامر الرّسول و تركهم لمواقعهم لهثا وراء الغنائم، و سعى البعض الآخر لبثّ الفرقة و النفاق فى صفوف المقاتلين، أدّى بهم إلى الفشل فى الحفاظ على النصر الذى حقّقوه فى المرحلة الاولى، و هذا ما أدّى إلى خسرانهم المعركة فى نهاية الأمر.

و بعد انتهاء المعركة جاءت مجموعة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و خاطبته بلهجة خاصّة: ماذا عن الوعد بالنصر و الغلبة، فأجابهم القرآن الكريم بصورة لطيفة يمكنها أن تكون شاهدا لحديثنا، و هى قوله تعالى فى سورة آل عمران الآية (۱۵۲): وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۹

عبارات (فشلتم) و (تنازعتم) و (عصيتم) التى وردت فى الآية المذكورة أعلاه، و ضحّت بصورة جيّدة أنّ المسلمين فى يوم احد تخلّوا عن شروط النصر الإلهى، لذا فشلوا فى الوصول إلى أهدافهم.

نعم، فالبارى عزّ و جلّ لم يعد كلّ من يدّعى الإسلام و أنّه من جند اللّه و حزب اللّه بأن ينصره دائما على أعدائه. الوعد الإلهى مقطوع لمن يرجو من أعماق قلبه و روحه رضى اللّه سبحانه و تعالى، و يسير فى النهج الذى وضعه اللّه، و يتحلّى بالتقوى و الأمانة.

و لقد تقدّم نظير لهذا السؤال فيما يخصّ (الدعاء) و (الوعد الإلهى بالاستجابة) و تطرّقنا للإجابة عليه فيما مضى ۳۸۷].

و لمواساة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و للتأكيد على أنّ النصر النهائى سيكون حليفهم، و فى نفس الوقت لتهديد المشركين، جاءت الآية التالية لتقول:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ

نعم، إنّه تهديد مفعم بالمعانى و رهيب فى نفس الوقت، و يمكن أن يكون مصدر اطمئنان للمؤمنين فى أنّ النصر النهائى سيكون حليفهم، خاصّة أنّ عبارة حَتَّى حِينٍ جاءت بصورة غامضة.

فإلى أی مدّة تشیر هذه العبارة؟ إلى زمان الهجرة؟ أم إلى حین معركة بدر؟ أم حتّى فتح مكّة؟ أم أنّها تشیر إلى الزمان الذی تتوفّر فیه شروط الانتفاضة النهائیة و الواسعة للمسلمین ضدّ الطغاة و المتجبّرین؟

بالضبط لا أحد یدری ..

و آیات اخرى وردت فی القرآن الكریم تحمل نفس المعنى، كالآیة (۸۱) من سورة النساء التی تقول: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ و الآیة (۹۱) من سورة الأنعام، قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۰

و یؤكّد القرآن الكریم التهدید الأوّل بتهدید آخر جاء فی الآیة التی تلتها، إذ تقول: انظر إلى لجاجتهم و كذبهم و اعتقادهم بالخرافات، إضافة إلى حمقهم.

فإنّهم سیرون جزاء أعمالهم القبیحة عن قریب وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ یُبْصِرُونَ و سوف ترى فی القریب العاجل انتصارك و انتصار المؤمنین و انكسار و هزیمة المشركین المذلّة فی الدنیا.

و عن تكرار أولئك الحمقى لهذا السؤال على رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم أین العذاب الإلهی الذی واعدتنا به؟ و إن كنت صادقا، فلم هذا التأخیر؟

یردّ القرآن الكریم علیهم بلهجة شدیدة مرافقة بالتهدید، قائلا: أولئك الذین یستعجلون العذاب و أحیانا یتساءلون (متى هذا الوعد) و أحیانا اخرى یقولون متسائلین (متى هذا الفتح) أَ فَبِعَذابِنا یَسْتَعْجِلُونَ

فعند ما ینزل عذابنا علیهم، و نحیل صباحهم إلى ظلام حالك، فإنّهم فی ذلك الوقت سیفهمون كم كان صباح المنذرین سیّئا و خطیرا فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِینَ ۳۸۸].

استخدام عبارة (ساحة) و التی تعنی فناء البیت أو الفضاء الموجود فی وسط البیت، جاء لیجسّم لهم نزول العذاب فی وسط حیاتهم، و كیف أنّ حیاتهم الطبیعیّة ستتحوّل إلى حیاة موحشة و مضطربة.

عبارة صَباحُ الْمُنْذَرِینَ تشیر إلى أنّ العذاب الإلهی سینزل صباحا على هؤلاء القوم اللجوجین و المتجبّرین، كما نزل صباحا على الأقوام السابقة، أو أنّها تعطی هذا المعنى، و هو أنّ كلّ الناس ینتظرون أن یبدأ صباحهم بالخیر و الإحسان، إلّا أنّ هؤلاء ینتظرهم صباح حالك الظلمة. أو أنّها تعنی وقت الاستیقاظ فی الصباح، أی إنّهم یستیقظون فی وقت لم یبق لهم فیه أی طریق للنجاة من العذاب، و أنّ كلّ شیء قد انتهى.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۱

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۱۷۸ الى ۱۸۲]

اشارة

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِینٍ (۱۷۸) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ یُبْصِرُونَ (۱۷۹) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا یَصِفُونَ (۱۸۰) وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِینَ (۱۸۱) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۸۲)

التّفسیر

تولّ عنهم!

كما قلنا، فإنّ الآيات الأخيرة النازلة في هذه السورة جاءت لمواساة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الحقيقيين، و لتهديد الكافرين اللجوجين.

الآيتان الأوّليان في بحثنا هذا، تشبهان الآيات التي وردت في البحث السابق، و تكرارها هنا إنّما جاء للتأكيد، إذ تقول بلغة شديدة مرفقة بالتهديد: تولّ عنهم و اتركهم في شأنهم لمدّة معيّنة وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ

و انظر إلى لجاجة أولئك الكافرين و كذبهم و ممارساتهم العدائية و نكرانهم لوجود اللّه، الذين سينالون جزاء أعمالهم عمّا قريب وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

التكرار- كما قلنا- جاء للتأكيد، و ذلك ليدرك أولئك الكافرون أنّ جزاءهم و هزيمتهم و خيبتهم أمر قطعي لا بدّ منه و سيكون ذلك عمّا قريب، و سيبتلون

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۲

بالنتائج المريرة لأعمالهم، كما أنّ انتصار المؤمنين هو أمر قطعي و مسلّم به أيضا.

أو أنّه هدّدهم في المرّة الاولى بالعذاب الدنيوي، و في المرّة الثانية بجزاء و عقاب اللّه لهم يوم القيامة.

ثمّ تختتم السورة بثلاثة آيات ذات عمق في المعنى بشأن (اللّه) و (الرسل) و (العالمين)، إذ تنزّه اللّه ربّ العزّة و القدرة من الأوصاف التي يصفه بها المشركون و الجاهلون سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

فأحيانا يصفون الملائكة بأنّها بنات اللّه، و أحيانا يقولون بوجود نسبة بين اللّه و الجنّ، و أحيانا اخرى يجعلون مصنوعات لا قيمة لها من الحجر و الخشب بمرتبة الباري عزّ و جلّ.

و مجيء كلمة (العزّة)- أي ذو القدرة المطلقة و الذي لا يمكن التغلّب عليه- هنا تعطي معنى بطلان و عدم فائدة كلّ تلك المعبودات المزيّفة و الخرافية التي يعبدها المشركون.

فآيات سورة الصافات تحدّثت أحيانا عن تسبيح و تنزيه عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ و أحيانا عن تسبيح الملائكة، و هنا تتحدّث عن تسبيح و تنزيه الباري عزّ و جلّ لذاته المقدّسة.

و في الآية الثانية شمل الباري عزّ و جلّ كافّة أنبيائه بلطفه غير المحدود، و قال:

وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ السلام الذي يوضّح السلامة و العافية من كلّ أنواع العذاب و العقاب في يوم القيامة، السلام الذي هو صمّام الأمان أمام الهزائم و دليل للانتصار على الأعداء.

و ممّا يذكر أنّ اللّه سبحانه و تعالى أرسل في آيات هذه السورة سلاما إلى كثير من أنبيائه و بصورة منفصلة، قال تعالى في الآية (۷۹) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ و في الآية (۱۰۹) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ و في الآية سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ و في الآية (۱۳۰) سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۳

و قد جمعها هنا في سلام واحد موجّه لكلّ المرسلين، قال تعالى: وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

و أخيرا اختتمت السورة بآية تحمد اللّه وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

الآيات الثلاث الأخيرة يمكن أن تكون إشارة و استعراضا مختصرا لكلّ القضايا و الأمور الموجودة في هذه السورة، لأنّ الجزء الأكبر منها كان بشأن التوحيد و الجهاد ضدّ مختلف أنواع الشرك، فالآية الاولى تعيد ما جاء بشأن تسبيح و تنزيه اللّه عزّ و جلّ عن الصفات التي وصف بها من قبل المشركين، و القسم الآخر من السورة يبيّن جوانب من أوضاع سبع أنبياء كبار أشارت إليها هنا الآية الثانية.

و الآية الثالثة استعرضت جزءا آخر من النعم الإلهية، و بالخصوص أنواع النعم الموجودة في الجنّة، و انتصار جند اللّه على جنود الكفر، و الحمد و الثناء الذي جاء في الآية الأخيرة، فيه إشارة لكلّ تلك الأمور.

المفسّرون الآخرون ذكروا تحليلات اخرى بخصوص الآيات الثلاث الواردة فى آخر هذه السورة، و قالوا: إنّ من أهمّ واجبات الإنسان العاقل معرفة أحوال ثلاثة:

الاولى: معرفة اللّه تعالى بالمقدار الممكن للبشر، و آخر ما يستطيعه الإنسان فى هذا المجال هو ثلاثة امور: تنزيهه و تقديسه عن كلّ ما لا يليق بصفات الالوهية، و التى وضّحتها لفظة (سبحان).

و وصفه بكلّ ما يليق بصفات الالوهية و الكمال، و كلمة (ربّ) إشارة دالّة على حكمته و رحمته و مالكيّته لكلّ الأشياء و تربيته للموجودات.

و كونه منزّها فى الالوهية عن الشريك و النظير، و التى جاءت فى عبارة عَمَّا يَصِفُونَ

و القضيّة الثانية المهمّة فى حياة الإنسان هى تكميل الإنسان لنواقصه، و الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۴

لا يمكن أن يتمّ دون وجود الأنبياء عليهم السّلام، و جملة سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ إشارة إلى هذه القضيّة.

و القضيّة الثالثة المهمّة فى حياة الإنسان هى أن يعرف أنّه كيف يكون حاله بعد الموت؟ و الانتباه إلى نعم ربّ العالمين و مقام غناه و رحمته و لطفه يعطى للإنسان نوعا من الاطمئنان وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ۳۸۹].

***

ملاحظة

التفكّر فى نهاية كلّ عمل:

جاء فى روايات عديدة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام «من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى (من الأجر يوم القيامة) فليكن آخر كلامه فى مجلسه: سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون و سلام على المرسلين و الحمد للّه ربّ العالمين»[۳۹۰].

نعم، فلنختتم مجالسنا بتنزيه ذات اللّه، و إرسال السلام و التحيّات إلى رسله، و حمد و شكر اللّه على نعمه، كى تمحى الأعمال غير الصالحة أو الكلمات المحرّمة التى جاءت فى ذلك المجلس.

و

قد جاء فى كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، أنّ أحد علماء الشام حضر عند الإمام الباقر عليه السّلام، فقال: جئت أسألك عن مسألة لم أجد أحدا يفسّرها لى، و قد سألت ثلاثة أصناف من الناس، فقال كلّ صنف غير ما قال الآخر.

فقال أبو جعفر عليه السّلام: «و ما ذلك»؟

فقال: أسألك ما أوّل ما خلق اللّه عزّ و جلّ من خلقه؟ فإنّ بعض من سألته قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۵

القدرة. و قال بعضهم: العلم. و قال بعضهم: الروح؟

فقال أبو جعفر عليه السّلام: «ما قالوا شيئا، أخبرك أنّ اللّه علا ذكره كان و لا شىء غيره، و كان عزيزا و لا عزّ، لأنّه كان قبل عزّه، و ذلك قوله تعالى: سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۳۹۱] و كان خالقا و لا مخلوق»

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة (و هو إشارة إلى انّ ما قاله لك أولئك النفر لا يخلو من شرك و هو مشمول لهذه الآية،

فإنّ اللّه عزّ و جلّ کان قادرا و عالما و عزیزا منذ الأزل).

نهایة سورة الصافات***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۷

سورة ص

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثمان و ثمانون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۹

سورة (ص)

محتویات السورة:

سورة (ص) یمکن اعتبارها مکمّلة لسورة الصافات، فمجمل مواضیعها یشابه کثیرا ما ورد فی سورة الصافات، و لکون السورة مکیّة النّزول فإن خصائصها کخصائص بقیّة السور المکیّة التی تبحث فی مجال البدء و المعاد و رسالة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، کما أنّها تحتوی علی مواضیع حسّاسة اخری، و فی المجموع بمثابة الدواء الشافی لکلّ الباحثین عن طریق الحقّ.

و یمکن تلخیص محتویات هذه الآیة فی خمس أقسام:

الأوّل: یتحدّث عن مسألة التوحید و الجهاد ضدّ الشرک و المشرکین، و مهمّة نبوّة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عناد و لجاجة الأعداء تجاه الأمرین المذکورین أعلاه.

الثانی: یعکس جوانب من تأریخ تسع من أنبیاء اللّه و من بینهم (داود) و (سلیمان) و (أیّوب) حیث تتحدّث عنهم السورة أکثر من غیرهم، و یعکس- أیضا- المشکلات التی عانوا منها فی حیاتهم و خلال دعوتهم الناس إلی اللّه. و ذلک لکی تکون درسا مفیدا یتّعظ منه المؤمنون الأوائل الذین کانوا فی ذاک الوقت یرزحون تحت أشدّ الضغوط من قبل المشرکین.

الثالث: یتطرّق إلی مصیر الکفرة الطغاة یوم القیامة و مجادلة بعضهم البعض فی جهنّم، و یبیّن للمشرکین و للذین لا یؤمنون باللّه إلی أین ستؤدّی بهم أعمالهم.

الرابع: یتناول مسألة خلق الإنسان و علوّ مقامه و سجود الملائکة له، و یکشف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۰

عن الفاصل الکبیر الموجود بین سمو الإنسان و انحطاطه، کی یفهم هؤلاء المعاندون قیمة وجودهم، و أن یعیدوا النظر فی نظمهم المنحرفة لیخرجوا من زمرة الشیاطین.

القسم الخامس و الأخیر: یتوعّد الأعداء المغرورین بالعذاب، و یواسی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یبیّن هذه الحقیقة، و هی أنّ النّبی لا یرید جزاء من أحد مقابل دعوته، و لا یرید الشقاء و الأذی لأحد.

فضیلة تلاوة سورة (ص)

ورد فی أحد الروایات عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «من قرأ سورة (ص) اعطی من الأجر بوزن کلّ جبل سخّره اللّه لداود حسنات عصمه اللّه أن یصرّ علی ذنب صغیرا أو کبیرا»[۳۹۲].

كما

ورد فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام «من قرأ سورة (ص) فى ليلة الجمعة اعطى من خير الدنيا و الآخرة ما لم يعط أحد من الناس إلّا نبى مرسل أو ملك مقرّب، و أدخله اللّه الجنّة و كلّ من أحبّ من أهل بيته حتّى خادمه الذى يخدمه»[۳۹۳]

فإذا وضعنا محتوى هذه السورة إلى جانب فضلها و ثوابها، يتّضح لنا الارتباط و العلاقة الموجودة بين أجرها و ثوابها مع محتواها، و نؤكّد مرّة اخرى على هذه الحقيقة، و هى أنّ المراد من التلاوة هنا ليست تلك التلاوة الجافّة و الخالية من الروح، و إنّما التلاوة التى ترافق التفكير العميق و التصميم الجدّى، الذين يدفعان الإنسان إلى العمل بما جاء فى هذه السورة المباركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۱

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ (۲) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (۳)

أسباب النّزول

وردت فى كتب التّفسير و الحديث أسباب متشابهة لنزول الآيات الاولى من هذه السورة، و سنستعرض أحد هذه الأسباب لكونه مفصّلا و جامعا أكثر من الأسباب الاخرى،

ففى حديث نقله المرحوم العلّامة الكلينى عن الإمام الباقر عليه السّلام جاء فيه: «أقبل أبو جهل بن هشام و معه قوم من قريش فدخلوا على أبى طالب فقالوا: إنّ ابن أخيك قد آذانا و آذى آلهتنا، فادعه و مره فليكفّ عن آلهتنا و نكفّ عن إلهه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۴۴۱

فبعث أبو طالب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدعاه، فلمّا دخل النّبى لم ير فى البيت إلّا مشركا فقال: (السلام على من اتّبع الهدى) ثمّ جلس فخبّره أبو طالب بما جاؤوا به، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أو هل لهم فى كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب و يطأون أعناقهم»؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۲

فقال أبو جهل: نعم و ما هذه الكلمة؟

قال: «تقولون: لا إله إلّا اللّه».

و ما إن سمعوا هذه الكلمات حتّى وضعوا أصابعهم فى آذانهم و خرجوا و هم يقولون: ما سمعنا بهذا فى الملّة الآخرة إنّ هذا إلّا اختلاق، فأنزل اللّه فى قولهم:

ص وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ- إلى قوله- إِلَّا اخْتِلاقٌ ۳۹۴].

التّفسير

انقضاء مهلة النّجاة:

مرّة اخرى تمرّ علينا سورة تبدأ آياتها الاولى بحروف مقطّعة و هو حرف ص و يطرح نفس السؤال السابق بشأن تفسير هذه الحروف المقطّعة: هل هذه إشارة إلى عظمة القرآن المجيد الذى يتألّف من مثل هذه الحروف المتيسّرة فى متناول الجميع كالحروف الهجائية، و الذى غيّرت محتوياته مجرى حياة الإنسانية فى هذا العالم ...

و أنّ قدرة اللّه العظمية هى التى أوجدت من هذه الحروف البسيطة تركيبا رائعا عظيما هو القرآن المجيد كلام اللّه، أم أنّها إشارة إلى رموز و أسرار بين اللّه سبحانه و تعالى و أنبيائه ..

أمّ أنّها تعنى أمورا أخرى؟

مجموعة من المفسّرين اعتبرت هنا حرف (ص) رمزا يشير إلى أحد أسماء اللّه، و ذلك لأنّ الكثير من أسمائه تبدأ بحرف الصاد مثل (صادق)، (صمد)، (صانع) أو أنّه إشارة إلى (صدق اللّه) التى اختصرت بحرف واحد.

و لا بدّ أنّكم طالعتم تفسير هذه الحروف المقطّعة بصورة مفصّلة فى تفسير بدايات آيات سور (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۳

ثمّ يقسم اللّه تعالى بالقرآن ذى الذكر و الّذى هو حقّا معجزة إلهيّة وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ[۳۹۵].

فالقرآن ذكر و يشتمل على الذكر، و الذكر يعنى التذكير و صقل القلوب من صدأ الغفلة، تذكّر اللّه، و تذكّر نعمه، و تذكّر محكمته الكبرى يوم القيامة، و تذكّر هدف خلق الإنسان.

نعم، فالنسيان و الغفلة هما من أهمّ عوامل تعاسة الإنسان، و القرآن الكريم خير دواء لعلاجهما.

فالقرآن الكريم يقول بشأن المنافقين فى الآية (۶۷) من سورة التوبة: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ أى إنّهم نسوا اللّه، و اللّه فى المقابل نسيهم و قطع رحمته عنهم.

و نقرأ فى نفس هذه السورة الآية (۲۶) عن الضالّين، قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ

نعم، فالنسيان هو الابتلاء الكبير الذى ابتلى به الضالّون و المذنبون، حتّى أنّهم نسوا أنفسهم و قيمة وجودها، كما قال القرآن الكريم، كلام اللّه الناطق وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ [۳۹۶] فالقرآن خير وسيلة لتمزيق حجب النسيان، و هو نور لإزالة الظلمات و الغفلة و النسيان، حيث إنّ آياته تذكّر الإنسان باللّه و بالمعاد، و تعرّف الإنسان قيمة وجوده فى هذه الحياة.

الآية التالية تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا رأيت هؤلاء لا يستسلمون لآيات اللّه الواضحة و لقرآنه المجيد، فاعلم أنّ سبب هذا لا يعود إلى أنّ هناك ستارا يغطّى كلام الحقّ، و إنّما هم مبتلون بالتكبر و الغرور اللذين يمنعان الكافرين من قبول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۴

الحقّ، كما أنّ عنادهم و عصيانهم- هما أيضا- مانع يحول دون تقبّلهم لدعوتك بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ

«العزّة» كما قال الراغب فى مفرداته، هى حالة تحوّل دون هزيمة الإنسان (حالة الذى لا يقهر) و هى مشتقّة من (عزاز) و تعنى الأرض الصلبة المتينة التى لا- ينفذ الماء خلالها، و تعطى معنيين، فأحيانا تعنى (العزّة الممدوحة) المحترمة، كما فى وصف ذات اللّه الطاهر بالعزيز، و أحيانا تعنى (العزّة بالإثم) أى الوقوف بوجه الحقّ و التكبّر عن قبول الواقع، و هذه العزّة مذلّة فى حقيقة الأمر.

«شقاق» مشتقّة من (شقّ)، و معناه واضح، ثمّ استعمل فى معنى المخالفة، لأنّ الاختلاف يسبّب فى أن تقف كلّ مجموعة فى شقّ، أى فى جانب.

القرآن هنا يعدّ مسألة العجرفة و التكبر و الغرور و طىّ طريق الانفصال و التفرقة من أسباب تعاسة الكافرين، نعم هذه الصفات القبيحة

و السيّئة تعمى عين الإنسان و تصمّ آذانه، و تفقده إحساسه، و كم هو مؤلم أن يكون للإنسان عيون تبصر و آذان تسمع و لكنّه يبدو كالأعمى و الأصم.

فالآية (۲۰۶) من سورة البقرة تقول: وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ أى عند ما يقال للمنافق: اتّق اللّه، تأخذه العصبية و الغرور و اللجاجة، و تؤدّى به إلى التوغّل فى الذنب و السقوط فى نار جهنّم و إنّها لبئس المكان.

و لإيقاظ أولئك المغرورين المغفّلين، يرجع بهم القرآن الكريم إلى ماضى تأريخ البشر، ليريهم مصير الأمم المغرورة و المتكبّرة، كى يتّعظوا و يأخذوا العبر منها و كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ

أى إنّ امما كثيرة كانت قبلهم قد أهلكناها (بسبب تكذيبها الأنبياء، و إنكارها آيات اللّه، و ظلمها و ارتكابها للذنوب) و كانت تستغيث بصوت عال عند نزول العذاب عليها، و لكن ما الفائدة فقد تأخّر الوقت! و لم يبق أمامهم متّسع من الوقت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۵

لإنقاذ أنفسهم فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ

فعند ما كان أنبياء اللّه فى السابق يعظونهم و يحذّرونهم عواقب أعمالهم القبيحة، لم يكتفوا بصمّ آذانهم و عدم الاستماع، و إنّما كانوا يستهزئون و يسخرون من الأنبياء و يعذّبون المؤمنين و يقتلونهم، فبذلك أضاعوا الفرصة و دمّروا كلّ الجسور التى خلفهم، فنزل العذاب الإلهى ليهلكهم جميعا، العذاب الذى رافقه انغلاق باب التوبة و العودة، وفور نزوله تبدأ أصوات الاستغاثة تتعالى، و التى لا تغنى عنهم يومئذ شيئا.

و كلمة (لات) جاءت للنفى، و هى فى الأصل (لا) نافية أضيفت إليها (تاء) التأنيث، لتعطى معنى التأكيد[۳۹۷].

«مناص» من مادّة (نوص) و تعنى الملاذ و الملجأ، و يقال: إنّ العرب عند ما كانت تقع لهم حادثة صعبة و رهيبة، و خاصّة فى الحروب كانوا يكرّرون هذه الكلمة و يقولون (مناص ... مناص) أى: أين الملاذ؟ أين الملاذ؟ و لأنّ هذا المفهوم يتناسب مع معنى الفرار، و أحيانا تأتى بمعنى إلى أين الفرار[۳۹۸].

على أيّة حال، فإنّ أولئك المغرورين المغفّلين لم يستفيدوا من الفرصة التى كانت بأيديهم للجوء إلى أحضان الرحمة و اللطف الإلهى، و عند ما أضاعوا الفرصة و نزل عليهم العذاب الإلهى، أخذوا ينادون و يستغيثون و يبذلون الجهد للعثور على طريق نجاة لهم، و لكن كلّ هذه الجهود تبوء بالفشل، حيث أنّهم مهما بذلوا من جهد و مهما استغاثوا فإنّهم لا يصلون إلى مقصدهم.

هذه كانت سنّة اللّه مع كلّ الأمم السابقة، و ستبقى كذلك، لأنّ سنّة اللّه لا تتغيّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۶

و لا تتبدّل.

و من المؤسف أنّ الناس- على الأغلب- غير مستعدّين للاتّعاظ من تجارب الآخرين، و كأنّهم راغبون فى تكرار تلك التجارب المرّة، التجارب التى تقع أحيانا مرّة واحدة فى طول عمر الإنسان، و لا تتكرّر ثانية، و بصورة أوضح: إنّها الاولى و الأخيرة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۷

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۴) أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (۵) وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ

مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلی آلِهَتِکُمْ إِنَّ هذا لَشَیْءٌ یُرادُ (۶) ما سَمِعْنا بِهذا فِی الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ (۷)

أسباب النّزول

سبب نزول هذه الآیات یشبه سبب نزول الآیات السابقة، و غیر مستبعد أن یکون هناک سبب واحد لنزول کلّ تلک الآیات.

و لکن بما أنّ سبب النّزول المذکور لهذه الآیات یحوی مطالب جدیدة، نذکره کما ورد فی تفسیر علی بن إبراهیم، حیث جاء فیه: بعد أن أظهر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الدعوة، اجتمعت قریش إلی أبی طالب فقالوا: یا أبا طالب، إنّ ابن أخیک قد سفه أحلامنا، و سبّ آلهتنا، و أفسد شبابنا، و فرّق جماعتنا، فإن کان الذی یحمله علی ذلک العدم، جمعنا له حالا حتّی یکون أغنی رجل فی قریش، و نملکه علینا.

فأخبر أبو طالب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فأجابه رسول اللّه قائلا: «لو وضعوا الشمس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۸

فی یمینی و القمر فی یساری ما ترکته، و لکن کلمة یعطونی یملکون بها العرب و تدین بها العجم و یکونون ملوکا فی الجنّة».

فقال لهم أبو طالب ذلک، فقالوا: نعم و عشرة کلمات بدلا من واحدة، أی کلمة تقصد أنت؟

فقال لهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «تشهدون أن لا إله إلّا اللّه و أنّی رسول اللّه».

تضایقوا کثیرا عند سماعهم هذا الجواب، و قالوا: ندع ثلاث مائة و ستّین إلها و نعبد إلها واحدا؟ إنّه لأمر عجیب؟ نعبد إلها واحدا لا یمکن مشاهدته و رؤیته.

و هنا نزلت هذه الآیات المبارکة بل وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْکافِرُونَ هذا ساحِرٌ کَذَّابٌ ... إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ ۳۹۹]. هذا المعنی

ورد أیضا فی تفسیر مجمع البیان مع اختلاف بسیط، إذ ذکر صاحب تفسیر مجمع البیان فی آخر الروایة أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم استعبر بعد أن سمع جواب زعماء قریش و قال: «یا عمّ و اللّه لو وضعت الشمس فی یمینی و القمر فی شمالی ما ترکت هذا القول حتّی أنفذه أو اقتل دونه»

فقال له أبو طالب: امض لأمرک، فو اللّه لا أخذلک أبدا[۴۰۰].

***

التّفسیر

هل یمکن قبول إله واحد بدلا من کلّ تلک الآلهة؟

المغرورون و المتکبّرون لا یعترفون بأمر لا یلائم أفکارهم المحدودة و الناقصة، إذ یعتبرون أفکارهم المحدودة و الناقصة مقیاسا لکلّ القیم. لذا فعند ما رفع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لواء التوحید فی مکّة، و أعلن الانتفاضة ضدّ الأصنام الکبیرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۹

و الصغیرة فی الکعبة، و البالغ عددها (۳۶۰) صنما، تعجّبوا: لماذا جاءهم النذیر من بینهم؟ وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ

کان تعجّبهم بسبب أنّ محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رجل منهم .. فلما ذا لم تنزل ملائکة من السماء بالرسالة؟ .. هؤلاء تصوّروا أنّ نقطة القوّة هذه نقطة ضعف، فالذی یبعث من بین قوم، هو أدری باحتیاجات و آلام قومه، کما أنّه أعرف بمشکلاتهم و تفصیلات

حياتهم، و يمكن أن يكون لهم أسوة و قدوة، إلّا أنّهم اعتبروا هذا الامتياز الكبير نقطة سلبية فی دعوة الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و تعجّبوا من أمر بعثته إليهم.

و أحيانا كانوا يجتازون مرحلة التعجّب إلی مرحلة اتّهام رسول اللّه بالسحر و الكذب وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ

و قلنا عدّة مرّات: إنّ اتّهامهم الرّسول الأكرم صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بالسحر، إنّما نتج من جرّاء رؤيتهم لمعجزاته التی لا تقبل الإنكار و تنفذ بصورة مدهشة إلی أفكار المجتمع، و اتّهامه بالكذب بسبب تحدّثه بأمور تخالف سنّتهم الخرافية و أفكارهم الجاهلية التی كانت جزءا من الأمور المسلّم بها فی ذلک المجتمع، و ادّعاء الرسالة من اللّه.

و عند ما أظهر رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم دعوته لتوحيد اللّه، أخذ أحدهم ينظر للآخر و يقول له: تعالی و اسمع العجب العجاب أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ [۴۰۱].

نعم، فالغرور و التكبّر إضافة إلی فساد المجتمع، تساهم جميعا فی تغيّر بصيرة الإنسان، و جعله متعجّبا من بعض الأمور الواقعية و الواضحة، فی حين يصرّ بشدّة علی التمسّک ببعض الخرافات و الأوهام الواهية.

و كلمة (عجاب) علی وزن (تراب) تعطی معنی المبالغة، و تقال لأمر عجيب مفرط فی العجب.

فالسفهاء من قريش كانوا يعتقدون أنّه كلّما ازدادت عدد آلهتهم إزداد نفوذهم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۰

و قدرتهم، و لهذا السبب فإنّ وجود إله واحد يعدّ قليلا من وجهة نظرهم، فی حين- كما هو معلوم- أنّ الأشياء المتعدّدة من وجهة النظر الفلسفية تكون دائما محدودة، و الوجود اللامحدود واحد لا أكثر، و لهذا السبب فإنّ كلّ الدراسات فی معرفة اللّه تنتهی إلی توحيده.

و بعد أن يئس طغاة قريش من توسّط أبی طالب فی الأمر و فقدوا الأمل، خرجوا من بيته، ثمّ انطلقوا و قال بعضهم لبعض، أو قالوا لأتباعهم: اذهبوا و تمسّكوا أكثر بآلهتكم، و اصبروا علی دينكم، و تحمّلوا المشاق لأجله، لأنّ هدف محمّد هو جرّ مجتمعنا إلی الفساد و الضياع و زوال النعمة الإلهية عنّا بسبب تركنا الأصنام، و إنّه يريد أن يترأس علينا وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلی آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ.

«انطلق» مشتقّة من (انطلاق) و تعنی الذهاب بسرعة و التحرّر من عمل سابق، و هنا تشير إلی تركهم مجلس أبی طالب و علامات الضجر و الغضب بادية عليهم.

و (الملأ) إشارة إلی أشراف قريش المعروفين الذين ذهبوا إلی أبی طالب، و بعد خروجهم من بيته تحدّث بعضهم لبعض أو لأتباعهم أن لا تتركوا عبادة أصنامكم و أثبتوا علی عبادة آلهتكم.

و جملة لَشَيْءٌ يُرادُ تعنی أنّ هناک أمرا يراد بنا. و لكونها جملة غامضة بعض الشیء، فقد ذكر المفسّرون لها تفاسير عديدة، منها: أنّها إشارة إلی دعوة الرّسول الأكرم صلّی اللّه عليه و آله و سلّم، إذ اعتبرت قريش هذه الدعوة مؤامرة ضدّها، و قالت: إنّ ظاهرها يدعو إلی اللّه، و باطنها يهدف إلی السيادة و الرئاسة علينا و علی العرب، و ما هذه الدعوة إلّا ذريعة لتنفيذ ذلک الأمر، أی السيادة و الرئاسة، و دعت الناس إلی التمسّک أكثر بعبادة الأصنام، و ترک تحليل أمر هذه المؤامرة إلی زعماء القوم، و هذا الأسلوب طالما لجأ إليه أئمّة الضلال لإسكات أصوات السائرين فی طريق الحقّ، إذ يطلقون علی الدعوة إلی اللّه لفظة (مؤامرة) المؤامرة التی يجب أن يتولّی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۱

رجال السياسة تحليلها بدقّة لوضع الخطط و البرامج المنظّمة لمواجهتها، و أن يمرّ بها عامة الناس مرّ الكرام من دون أن يعيروا لها أی اهتمام، و أن يتمسّكوا أكثر بما عندهم، أی بأصنامهم.

و نظير هذا الحديث ورد فی قصّة نوح، عند ما قال الملأ من قوم نوح لعامّتهم ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ [۴۰۲] و

ذهب آخرون إلى أنّ المقصود من هذه العبارة هو: يا عبدة الأصنام أثبتوا و استقيموا على آلهتكم، لأنّ هذا هو المطلوب منكم.

أمّا البعض الآخر فقد قال: المقصود هو أنّ محمّدا يستهدفنا نحن، و أنّه يريد جرّ مجتمعنا إلى الفساد من خلال تركنا لآلهتنا، و فى نهاية الأمر ستزال النعم عنّا و ينزل علينا العذاب! فيما احتمل البعض الآخر أنّ المراد هو أنّ محمّدا لن يتوقّف عن دعوته و أنّه مصمّم على نشرها بعزم راسخ، و لهذا فإنّ المحادثات معه عقيمة، فاذهبوا و تمسّكوا أكثر بعقائدهم.

و أخيرا احتمل بعض المفسّرين أنّ المقصود هو أنّ المصيبة ستحلّ بنا، و على أيّة حال، علينا أن نتهيّأ لها و أن نتمسّک أكثر بسنّتنا.

و بالطبع، لكون هذه الجملة لها مفهوم عامّ، فإنّ أغلب التفاسير يمكن أن تعطى المعنى المطلوب، رغم أنّ التّفسير الأوّل يعدّ أنسب من بقيّة التفاسير.

و على أيّة حال، فإنّ زعماء المشركين أرادوا بهذا القول تقوية المعنويات المنهارة لأتباعهم، و الحيلولة دون تزعزع معتقداتهم أكثر، و لكن كلّ مساعيهم ذهبت أدراج الرياح.

و لخداع عوامّ الناس و إقناع أنفسهم، قال زعماء المشركين ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۲

فلو كان ادّعاء التوحيد و ترک عبادة الأصنام أمرا واقعيّا لكان آباؤنا الذين كانوا بتلک العظمة و الشخصيّة قد أدركوا ذلک، و كنّا قد سمعنا ذلک منهم، لذا فهو مجرّد حديث كاذب و ليست له سابقة.

و عبارة الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ يحتمل أنّها تشير إلى جيل آبائهم باعتباره آخر جيل بالنسبة لهم، و يمكن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب و خاصّة (النصارى) الذين كانوا آخر الملل، و دينهم كان آخر الأديان قبل ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أى إنّنا لم نعثر فى كتب النصارى على شيء ممّا يقوله محمّد، و ذلک لأنّ كتب النصارى كانت تقول بالتثليث، أمّا التوحيد الذى دعا إليه محمّد فإنّه أمر جديد.

و لكن يتّضح من آيات القرآن الكريم أنّ عرب الجاهلية لم يكونوا معتمدين على كتب اليهود و النصارى، و إنّما اعتمادهم الأساس كان على سنن و شرائع أجدادهم و آبائهم، و هذا دليل على صحّة التّفسير الأوّل.

«اختلاق» مشتقّة من (خلق) و تعنى إبداء أمر لم تكن له سابقة، كما تطلق هذه الكلمة على الكذب، و ذلک لأنّ الكذّاب غالبا ما يطرح مواضيع لا وجود لها، و لهذا فإنّ المراد من كلمة (اختلاق) فى الآية- مورد البحث- أنّ التوحيد الذى دعا إليه هذا النبيّ مجهول بالنسبة لنا و لآبائنا الأوّلين، و هذا دليل على بطلانه.

***

ملاحظة

الخوف من الجديد!

الخوف من القضايا و الأمور المستحدثة و الجديدة كانت- على طول التاريخ- أحد الأسباب المهمّة التى تقف وراء إصرار الأمم الضالّة على انحرافاتها، و عدم استسلامها لدعوات أنبياء اللّه، إذ أنّهم يخافون من كلّ جديد، و لهذا كانوا ينظرون لشرائع الأنبياء بنظرة سيّئة جدّا، و حتّى الآن هناک امم كثيرة تحمل آثارا من هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۳

التفكير الجاهلى، فى الوقت الذى لم تكن فيه دعوة الرسل للتوحيد أمرا جديدا، و لا يمكن أن تكون حداثة الشيء دليلا على بطلانه،

فیجب أن نتّبع المنطق، و نستسلم للحقّ أینما کان و ممّن کان.

و الأمر العجیب أنّ مسألة الخوف من الأمر الجدید- مع شدید الأسف- قد طالت بعض العلماء أیضا- إذ یتّخذون موقفا معارضا للنظریات العلمیة الحدیثة و یقولون: إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ

و هذا الأمر شوهد بصورة خاصّیة فی تأریخ الکنیسة المسیحیة، إذ أنّهم کانوا یتّخذون مواقف سلبیة تجاه الاکتشافات العلمیة لعلماء الطبیعة، و کان أحدهم «غالیلو» إذ تعرّض لأشدّ هجمات الکنیسة علی أثر إعلانه عن أنّ الأرض تدور حول الشمس و حول نفسها، حیث کانوا یقولون: إنّ هذا الکلام بدعة.

و أکثر ما یثیر العجب أنّ بعض العلماء الکبار، کانوا عند ما یتوصّلون إلی حقائق علمیة جدیدة، یعمدون إلی البحث فی امّهات الکتب لعلّهم یعثرون علی علماء سابقین یوافقونهم فی الرأی، و ذلک خوفا من تعرضهم لهجمات المعارضین و بهذا الأسلوب استطاع کثیر من العلماء إبداء وجهة نظرهم و کأنّها قدیمة و لیست بجدیدة، و هذا أمر مؤلم جدّا.

و مثال هذا الحدیث یمکن مشاهدته فی کتاب (الأسفار) فیما ورد عن النظریة المعروفة ب (الحرکة الجوهریة) لصدر المتألهین الشیرازی.

علی أیّة حال فإنّ طریقة التعامل مع القضایا الحدیثة و الابتکارات الجدیدة أدّی إلی وقوع خسائر کبیرة فی المجتمع الإنسانی و فی عالم العلم و المعرفة، و علی أصحاب العلاقة أن یعملوا بجدّ لإصلاح هذا الأمر، و إزالة الرسوبات الجاهلیة من أفکار الرأی العامّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۴

إلّا أنّ هذا الحدیث لا یعنی قبول کلّ رأی جدید لکونه جدیدا، حتّی و لو کان بلا أساس، إذ یصبح حینئذ نفس التمسّک بالجدید بلاء عظیما کعشق القدیم، فالاعتدال الإسلامی یدعونا إلی عدم الإفراط أو التفریط فی العمل.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۵

الآیات [سورة ص (۳۸): الآیات ۸ الی ۱۱]

اشارة

أَ أُنْزِلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ مِنْ بَیْنِنا بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْ ذِکْرِی بَلْ لَمَّا یَذُوقُوا عَذابِ (۸) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّکَ الْعَزِیزِ الْوَهَّابِ (۹) أَمْ لَهُمْ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما فَلْیَرْتَقُوا فِی الْأَسْبابِ (۱۰) جُنْدٌ ما هُنالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (۱۱)

التّفسیر

الجیش المهزوم:

الآیات السابقة تحدّثت عن المواقف السلبیة التی اتّخذها المعارضون لنهج التوحید و الإسلام، و نواصل فی هذه الآیات الحدیث عن مواقف المشرکین.

فمشرکو مکّة بعد ما أحسّوا أنّ مصالحهم اللامشروعة باتت فی خطر، و إثر تزاید اشتعال نیران الحقد و الحسد فی قلوبهم، و من أجلّ خداع الناس و إقناع أنفسهم عمدوا إلی مختلف الادّعاءات بمنطق زائف لمحاربة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و منها سؤالهم بتعجّب و إنکار أَ أُنْزِلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ مِنْ بَیْنِنا.

ألم يجد اللّه شخصا آخر لينزل عليه قرآنه، غير محمّد اليتيم و الفقير- خاصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۶

و أنّ فينا الكثير من الشيبة و كبار السنّ الأثرياء المعروفون.

هذا المنطق لم يكن منحصرا بذلك الزمان فقط، و إنّما يتعدّاه إلى كلّ عصر و زمان، و حتّى فى زماننا، فإن تولّى شخص ما مسئولية مهمّة طفحت قلوب الآخرين بالغيظ و الحسد، و بدأت ألسنتهم بالثرثرة و توجيه النقد و الطعن: ألم يكن هناك شخص آخر حتّى توكّل هذه المهمة بالشخص الفلانى الذى هو من عائلة فقيرة و غير معروفة؟

نعم، فأهل الكتاب من اليهود و النصارى يشتركون بعض الشىء مع المسلمين، و لكن حبّ الدنيا من جهة، و حسدهم من جهة اخرى، تسبّبا فى أنّ يبتعدوا عن الإسلام و القرآن، و يقولوا إلى عبدة الأصنام: إنّ الطريق الذى تسلكونه أفضل من الطريق الذى سلكه المؤمنون أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا.[۴۰۳] من البديهى أنّ إشكال التعجّب و الإنكار المتولّدة عن الخطأ فى «تحديد القيم» إضافة إلى الحسد و حبّ الدنيا، لا يمكن أن تكون معيارا منطقيا فى القضاء، فهل أنّ شخصيّة الإنسان تحدّد باسمه أو مقدار ماله أو مقامه أو حتّى سنّه؟ و هل أنّ الرحمة الإلهيّة تقسّم على أساس هذا المعيار؟

لهذا فإنّ تتمّة الآية تقول: إنّ مرض أولئك شىء آخر، إنّهم فى حقيقة الأمر يشكّكون فى أمر الوحى و أمر اللّه بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي

ملاحظاتهم التى لا قيمة لها على شخصيّة الرّسول ما هى إلّا أعذار واهية، و شكّهم و تردّدهم فى هذه المسألة ليس بسبب وجود إبهام فى القرآن المجيد، و إنّما بسبب أهوائهم النفسية و حبّ الدنيا و حسدهم.

و فى نهاية الأمر فإنّ القرآن الكريم يهدّدهم بهذه الآية بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ أى إنّ هؤلاء لم يذوقوا العذاب الإلهى، و لهذا السبب جسروا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۷

و دخلوا المعركة ضدّ الوحى الإلهى بهذا المنطق الأجوف.

نعم، فهناك مجموعة من الناس لا ينفع معها المنطق و الكلام، و لكن سوط العذاب هو الوحيد الذى يحطّ من تكبّرهم و غرورهم، لذا يجب أن يعاقب أولئك بالعقاب الإلهى كى يشفوا من مرضهم.

و يضيف القرآن الكريم فى الردّ عليهم: هل يمتلكون خزائن الرحمة الإلهيّة كى يهبوا أمر النبوّة لمن يرغبون فيه، و يمنعونها عمّن لا يرغبون فيه؟ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ

فاللّه سبحانه و تعالى بمقتضى كونه (ربّ) هذا الكون و مالكه، و بارئ عالم الوجود و عالم الإنسانية، ينتخب لتحمل رسالته شخصا يستطيع قيادة الأمّة إلى طريق التكامل و التربية. و بمقتضى كونه (العزيز) فإنّه لا يقع تحت تأثير الآخرين و يسلّم مقام الرسالة إلى أشخاص غير لائقين، فمقام النبوّة عظيم، و اللّه سبحانه و تعالى هو صاحب القرار فى منحه. و لكونه (الوهّاب) فإنّه ينفذ أىّ شىء يريده، و يمنح مقام النبوّة لكلّ من يرى فيه القدرة على تحمّله.

ممّا يذكر أنّ كلمة (الوهّاب) جاءت بصيغة المبالغة، و تعنى كثير المنح و العطايا، و هى هنا تشير إلى أنّ النبوّة ليست نعمة واحدة، و إنّما هى نعم متعدّدة، تتّحد فيما بينها لتمكّن صاحب هذا المقام الرفيع من أداء مهمّته، و هذه النعم تشمل العلم و التقوى و العصمة و الشجاعة و الشهامة.

و نقرأ فى الآية (۳۲) من سورة الزخرف نظير هذا الكلام، قال تعالى: أ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ أى إنّهم يشكلون عليك بسبب نزول القرآن عليك، فهل أنّهم هم المسؤولون عن تقسيم رحمة ربّ العالمين؟

هذا و یمکن الاستفادة من کلمة (رحمة) هنا فی أنّ النبوّة إنّما هی رحمة و لطف ربّ العالمین بعالم الإنسانیة، و حقّا هی کذلک، فلو لا بعث الأنبیاء لخسر الناس الدنیا و الآخرة، کما خسرها أولئک الذین ابتعدوا عن نهج الأنبیاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۸

الآیة اللاحقة واصلت تناول نفس الموضوع، و لکن من جانب آخر، حیث قالت: أَمْ لَهُمْ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما فَلْیَرْتَقُوا فِی الْأَسْبابِ

هذا الکلام فی حقیقته یعدّ مکمّلا للبحث السابق، إذ جاء فی الآیة السابقة: إنّکم لا تمتلکون خزائن الرحمة الإلهیة، کی تمنحوها لمن تنسجم أهواؤه مع أهوائکم، و الآن تقول الآیة التالیة لها: بعد أن تبیّن أنّ هذه الخزائن لیست بیدکم، و إنّما هی تحت تصرّف الباری عزّ و جلّ، إذن فلیس أمامکم غیر طریق واحد، و هو أن ترتقوا إلی السماوات لتمنعوا الوحی أن ینزل علی رسول اللّه و إنّکم تعرفون أنّ تحقیق هذا الأمر شیء محال، و أنتم عاجزون عن تنفیذه.

و علی هذا، فلا «المقتضی» تحت اختیارکم، و لا القدرة علی إیجاد «المانع»، فما ذا یمکنکم فعله فی هذا الحال؟ إذا، موتوا بغیظکم و حسدکم، و افعلوا ما شئتم ..

و بهذا الشکل فإنّ الآیتین لا تکرّران موضوعا واحدا کما توهّمه مجموعة من المفسّرین، بل إنّ کلّ واحدة منهما تتناول جانبا من جوانب الموضوع.

الآیة الأخیرة فی بحثنا جاءت بمثابة تحقیر لأولئک المغرورین السفهاء، قال تعالی: جُنْدٌ ما هُنالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ [۴۰۴] فهؤلاء جنود قلائل مهزومین ..

«هنالک» إشارة للبعید، و بسبب وجودها فی الآیة، فقد اعتبر بعض المفسّرین أنّها إشارة إلی هزیمة المشرکین فی معرکة بدر، التی دارت رحاها فی منطقة بعیدة بعض الشیء عن مکّة المکرّمة.

و استخدام کلمة (الأحزاب) هنا إشارة حسب الظاهر إلی کلّ المجموعات التی وقفت ضدّ رسل اللّه، و الذین أبادهم الباری عزّ و جلّ، و مجتمع مکّة المشرک هو مجموعة صغیرة من تلک المجموعات، و الذی سیبتلی بما ابتلوا به (الشاهد علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۹

هذا الحدیث هو ما سیرد فی الآیات القادمة التی تتطرّق لهذه المسألة).

و لا ننسی أنّ هذه السورة من السور المکیة، و نزلت فی وقت کان فیه عدد المسلمین قلیلا جدّا، بحیث کان من الیسیر علی المشرکین أن یبیدوهم بسهولة، قال تعالی: تَخافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ النَّاسُ [۴۰۵] و فی ذلک الیوم لم تکن هنالک أیّة دلائل توضّح إمکانیة انتصار المسلمین، حیث لم تکن المعارک قد وقعت، و لا الانتصارات فی بدر و الأحزاب و حنین قد تحقّقت.

و لکن القرآن قال بحزم إنّ هؤلاء الأعداء- الذین هم مجموعة صغیرة- سیهزمون فی نهایة المطاف.

و الیوم یبشّر القرآن الکریم مسلمی العالم المحاصرین من کلّ الجهات من قبل القوی المعتدیة و الظالمة بنفس البشائر التی بشّر بها المسلمین قبل (۱۴۰۰) عام، فی أنّ اللّه سبحانه و تعالی سینجز وعده فی هزیمة جند الأحزاب، إن تمسّک مسلمو الیوم بعهودهم تجاه اللّه کما تمسّک بها المسلمون الأوائل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۰

الآیات [سورة ص (۳۸): الآیات ۱۲ الی ۱۶]

اشارة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (۱۳) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (۱۴) وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (۱۵) وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (۱۶)

التّفسير

تكفيهم صيحة سماوية واحدة:

تتمّة للآية الآنفة الذكر، التى بشّرت بهزيمة المشركين مستقبلا، و وصفتهم بأنّهم مجموعة صغيرة من الأحزاب، تناولت آيات بحثنا الحالى بعض الأحزاب التى كذّبت رسلها، و بيّنت المصير الأليم الذى كان بانتظارها.

إذ تقول، إنّ أقوام نوح و عاد و فرعون ذى الأوتاد كانت قد كذّبت قبلهم بآيات اللّه و رسله كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ.

كذلك أقوام ثمود و لوط و أصحاب الأيكة- أى قوم شعيب- كانت هى الاخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۱

قد كذّبت رسلهم وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ ۴۰۶].

نعم، هذه هى ستّة مجاميع من أحزاب الجهل و عبادة الأصنام، التى عملت ضدّ أنبياء اللّه، و رفضت قبول ما جاؤوا به من عند اللّه.

فقوم نوح واجهوا هذا النّبى العظيم.

و قوم عاد واجهوا نبىّ اللّه «هود».

و فرعون وقف ضدّ «موسى و هارون».

و قوم ثمود وقفوا بوجه «صالح».

و قوم لوط وقفوا بوجه نبى اللّه «لوط».

و أصحاب الأيكة واجهوا نبى اللّه «لوط ۲.

و أصحاب الأيكة واجهوا نبى اللّه «شعيب».

إذ كذّبوا و آذوا أنبياء اللّه و المؤمنين و بذلوا فى ذلك قصارى جهودهم، و لكن فى نهاية الأمر نزل عليهم العذاب الإلهى و جعلهم كعصف مأكول.

فقوم نوح أبيدوا بالطوفان و سيول الأمطار.

و قوم عاد أبيدوا بالأعاصير الشديدة.

و فرعون و أتباعه اغرقوا فى نهر النيل.

و قوم ثمود اهلكوا بالصيحة السماوية.

و قوم لوط بالزلزلة الرهيبة المقترنة بأمطار الحجارة السماوية.

و قوم شعيب ابيدوا بالصاعقة المهلكة التى نزلت عليهم من السحب الكثيفة التى غطّت سماء المنطقة، و بهذا الشكل فإنّ (الماء) و (الهواء) و (التراب) و (النار) التى تشكّل أسس حياة الإنسان، كانت السبب فى موت و إبادة تلك الأقوام الطائشة و العاصية، و جعلهم فى طى النسيان، حيث لم يبق لهم أىّ أثر. فعلى مشركى مكّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۲

أن يدركوا بأنّهم لا يعدّون سوى مجموعة صغيرة بالنسبة إلى تلك الأقوام، فلم لا يصحون من غفلتهم.

وصف (فرعون) ب (ذى الأوتاد) أى (صاحب الأوتاد القويّة) فى الآيات المذكورة أعلاه، و فى الآية (۱۰) من سورة الفجر، كناية عن قوّة حكم فرعون و الفراعنة و ثباته، و تستعمل هذه الكناية بكثرة، فيقال: الشخص الفلانى أوتاده ثابتة، أو إنّ أوتاد هذا العمل ثابتة، أو إنّها مثبتة بأربعة أوتاد، و ذلك لأنّ الأوتاد دائما تستخدم لتثبيت أركان الخيمة.

و البعض اعتبرها إشارة إلى كثرة جيوش فرعون السائرة فى الأرض و كثرة أوتاد خيامهم.

و البعض الآخر قال: إنّها إشارة إلى التعذيب الوحشى الذى كان الفراعنة يعذّبون به معارضيهم، إذ كانوا يربطون الأشخاص بأربعة أوتاد على الأرض أو على الخشبة أو على الحائط، و كانوا يثبتون و تدين فى الرجلين، و و تدين آخرين فى اليدين و يتركون الشخص يتعذّب حتّى يموت.

و أخيرا، احتمل البعض أنّ الأوتاد تعنى الأهرامات الموجودة فى أرض مصر، و التى تقوم فى الأرض كالأوتاد، و لأنّ الفراعنة هم الذين بنوا الأهرامات، فإنّ هذا الوصف ينحصر بهم فقط.

على أيّة حال فإنّه لا يوجد أىّ اختلاف بين تلك الاحتمالات، و من الممكن جمعها لتعطى مفهوم هذه الكلمة.

أمّا (الأيكة) فإنّها تعنى الشجرة، و (أصحاب الأيكة) هم قوم نبى اللّه «شعيب» الذين كانوا يعيشون فى منطقة خضراء بين الحجاز و الشام، و قد تمّ التطرّق إليها بصورة موسّعة فى تفسير الآية (۷۸) فى سورة الحجرات.

نعم، فكلّ قوم من هذه الأقوام كذّب بما جاء به رسل اللّه، و أنزل العذاب الإلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۳

بحقّه إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ ۴۰۷].

و التأريخ بيّن كيف أنّ كلّ قوم من تلك الأقوام ابيد بشكل من أشكال العذاب، و كيف أنّ مدنهم تحوّلت إلى خرائب و أطلال خلال لحظات، و أصبح ساكنوها أجساد بلا أرواح!! فهل يتوقّع مشركو مكّة أن يكون مصيرهم أفضل من مصير أولئك من جرّاء الأعمال العدائية التى يقومون بها؟ فى حين أنّ أعمالهم هى نفس أعمال أولئك، و سنّة اللّه هى نفس تلك السنّة؟

لذا فإنّ الآية التالية تخاطبهم بلغة التهديد الحازمة و القاطعة: ما ينتظر هؤلاء من جرّاء أعمالهم إلّا صيحة سماوية واحدة تقضى عليهم و تهلكهم و ما لهم من رجوع، وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ

يمكن أن تكون هذه الصيحة مماثلة للصيحات السابقة التى نزلت على الأقوام الماضية، كأن تكون صاعقة رهيبة أو زلزالا عنيفا يدمّر حياتهم و ينهيها.

و قد تكون إشارة إلى صيحة يوم القيامة، التى عبّر عنها القرآن الكريم ب (النفخة الاولى فى الصور).

اعترض بعض المفسّرين على التّفسير الأوّل، و اعتبروه مخالفا لما جاء فى الآية (۳۳) من سورة الأنفال التى تقول: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ

أمّا بالنظر إلى أنّ المشركين كانوا لا يعتقدون برسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا يؤمنون برسالته، بالإضافة إلى كون أعمالهم تشابه أعمال الأقوام السابقة التى أهلكت بالصيحات السماوية، لذا فعليهم أن يتوقّعوا مثل ذلك المصير و فى أىّ لحظة، لأنّ الآية تتحدّث عن (الانتظار).

كما اعترض آخرون على التّفسير الثانى بأنّ مشركى مكّة لن يبقوا أحياء حتّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۴

آخر الزمان كى تشملهم الصيحة.

و لكن هذا الاعتراض غير وارد، لنفس السبب الذى ذكرناه من قبل، و هو أنّه لا أحد من الناس يعلم لحظة نهاية العالم و قيام الساعة، و

لذا فعلى المشركين أن يترقّبوا لحظة بلحظة تلك الصيحة[۴۰۸].

على أيّة حال، فكأنّ أولئك الجهلة ينتظرون العذاب الإلهى جزاء تكذيبهم و إنكارهم لآيات اللّه سبحانه و تعالى، و تقوّلهم على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكلام لا يليق، و إصرارهم على عبادة الأصنام، و الظلم و إشاعة الفساد، العذاب الذى سيحرق حصيلة أعمارهم، أو الصيحة التى تنهى كلّ شىء فى العالم، و تؤدّى بأولئك إلى طريق لا رجعة فيه.

«فواق» على وزن (رواق) و قد ذكر أهل اللغة و التّفسير عدّة معان لها منها: أنّها الفاصل بين كلّ رضعتين، إذ بعد فترة معيّنة من حلب الثدى بصورة كاملة يعود فينزل إليه اللبن من جديد.

و قال البعض: إنّها الفاصل بين فتح الأصابع عن الثدى بعد حلبه و إعادتها لحلبه مرّة اخرى.

و بما أنّ الثدى يستريح قليلا بعد كلّ حلبة، فكلمة (فواق) يمكن أن تعطى معنى الهدوء و الراحة.

و بما أنّ هذه الفاصلة من أجل عودة الحليب مرّة اخرى إلى الثدى فإنّ هذه الكلمة تعطى مفهوم العودة و الرجوع، كما يقال للمريض الذى تتحسّن حالته الصحيّة بأن (أفاق) و ذلك لأنّه استعاد صحّته و سلامته، كما يقال لحالة السكران الذى يصحو من سكرته و للمجنون عند ما يستعيد عقله «إفاقة» عند عودتهما إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۵

الشعور و الإدراك و العقل ۴۰۹].

على أيّة حال، فالصيحة الرهيبة ليس بعدها رجوع و لا راحة و لا هدوء و لا إفاقة، ففور شروعها تغلق كلّ الأبواب أمام الإنسان، و لا ينفع الندم حينئذ، إذ لا مجال لإصلاح الماضى، و لا مجيب لصراخهم.

الآية الأخيرة فى هذا البحث تشير إلى كلام آخر للكافرين حيث قالوا باستهزاء و سخريّة: ربّنا عجّل علينا العذاب قبل حلول يوم الحساب، وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ

فهؤلاء المغرورون بلغ بهم الغرور حتّى إلى الاستهزاء بعذاب اللّه و محكمته العادلة، و إلى القول: لم تأخّرت حصّتنا من العذاب؟! لماذا لا يوفّينا اللّه بسرعة حظّنا من العذاب؟

و الأقوام السابقة كانت تضمّ الكثير من أمثال هؤلاء السفهاء الذين نعقوا كالحيوانات فور نزول العذاب الإلهى عليهم، و لم يهتمّ لنعيقهم أحد.

«قط» على وزن (جنّ) تعنى قطع الشىء عرضا، فيما تعنى كلمة (قد) و هى على نفس الوزن السابق، قطع الشىء طولا! و كلمة (قط) هنا تعنى نصيبا أو سهما.

و أحيانا تعنى الورقة التى يرسم عليها، أو تكتب عليها أسماء أشخاص فازوا بالجوائز.

لهذا فإنّ بعض المفسّرين، قالوا فى تفسير الآية المذكورة أعلاه: إنّ المقصود منها هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى يسلّم عباده صحائف أعمالهم قبل حلول يوم الجزاء، و هذا الكلام قيل بعد نزول آيات قرآنية تؤكّد على أنّ هناك مجموعة تعطى صحائفها باليد اليمنى، و مجموعة اخرى تستسلم صحائفها باليد اليسرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۶

و هنا قالت مجموعة من مشركى مكّة و هى تستهزئ: ما أجمل أن تسلّم إلينا الآن صحف أعمالنا لنقرأها و نشاهد ماذا عملنا؟

على أيّة حال، فإنّ «الجهل» و «الغرور» صفتان قبيحتان مذمومتان، و لا تنفصل الواحدة عن الاخرى، إذ أنّ الجهلة مغرورون، و المغرورون جهلة، و شواهد هذا الوصف كانت موجودة بكثرة عند مشركى عصر الجاهلية.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۷

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

اشارة

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۱۷) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (۱۸) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (۱۹) وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ (۲۰)

التّفسير

تعلّم من داود:

نبىّ اللّه داود عليه السّلام أحد كبار أنبياء بنى إسرائيل و حاكما لدولة كبيرة، و قد ورد ذكر مقامه العالى فى عدّة آيات بيّنات من القرآن الكريم.

و تتمّة للبحوث السابقة التى استعرضت فيها آيات القرآن أذى المشركين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نسبتهم إليه ما لا يليق به. فإنّ القرآن الكريم لمواساة رسول اللّه و أصحابه المؤمنين القلائل، طرح قصّة داود عليه السّلام، داود الذى منحه اللّه قدرة واسعة، حتّى أنّ الجبال و الطيور كانت مسخّرة له، ليبيّن تبارك و تعالى من خلال هذه القصّة لنبيّه الأكرم أنّ اللطف الإلهى إن شمل أحدا فإنّ عموم الناس لا يستطيعون عمل أى شىء إزاء هذا اللطف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۸

فداود- مع هذه القدرة العظيمة التى منحها إيّاه ربّ العالمين- لم يسلّم من تجريح الآخرين و بذاءة لسانهم، و فى هذا الكلام مواساة للنبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أنّ هذه المسألة لا تنحصر بك فقط، و إنّما شاركك فيها كبار الأنبياء عليهم السّلام.

ففى البداية تقول آيات بحثنا: اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ

«الأيد» بمعنى القدرة، و تأتى أيضا بمعنى النعمة.

و قد توفّر المعنيان المذكوران أعلاه فى داود، إذ كان يتمتّع بقوّة جسدية مكّنته من أن يقتل الطاغية جالوت بضربة قويّة واحدة بواسطة حجر رماه من مقلاعه على جالوت، فأسقطه من فرسه مضرّجا بدمه خلال إحدى المعارك.

و قال البعض: إنّ الحجر مزّق صدر جالوت و خرج من ظهره.

أمّا من حيث قدرته السياسية، فقد كانت حكومته قويّة و مستعدّة دائما لمواجهة الأعداء، بكلّ قوّة و اقتدار، حتّى قيل أنّ الآلاف من جنده كانت تقف على أهبّة الاستعداد من المساء حتّى الصباح فى أطراف محراب عبادته.

و من حيث قدرته الأخلاقية و المعنوية و العبادية، فإنّه كان يقوم معظم الليل فى عبادة اللّه، و يصوم نصف أيّام السنة.

و أمّا من حيث النعم الإلهيّة، فقد أنعم عليه البارئ عزّ و جلّ بالكثير من النعم الظاهرية و الباطنية.

خلاصة الحديث، إنّ داود كان رجلا ذا قوّة و قدرة فى الحروب و العبادات و العلم و المعرفة و فى السياسة، و كان أيضا صاحب نعمة كبيرة[۴۱۰].

«أوّاب» مشتقّة من (أوب) على وزن (قول) و تعنى العودة الاختيارية إلى أمر ما، و لكون (أوّاب) على صيغة المبالغة، فإنّها تشير إلى أنّه كان كثيرا ما يعود إلى اللّه سبحانه و تعالى، و كان يتوب عن أصغر غفلة و ترك للأولى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۹

و طبقا لاسلوب القرآن فی الإیجاز و التفصیل فی ذکر القضایا المختلفة، فإنّ الآیات الآنفة بعد أن تطرّقت بصورة موجزة إلی نعم اللّه علی داود، تشرح أنواعا من تلک النعم، قال تعالی: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ یُسَبِّحْنَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِشْراقِ ۴۱۱].

کذلک سخّرنا له مجامیع الطیور کی تسبّح اللّه معه وَ الطَّیْرَ مَحْشُورَةً.

فکلّ الطیور و الجبال مسخّرة لداود و مطیعة لأوامره، و تسبّح معه الباریٔ عزّ و جلّ، و تعود إلیه، کُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ

الضمیر (له) یمکن أن یعود علی داود، و طبقا لهذا فإنّ مفهوم الجملة ینطبق مع ما ذکرناه أعلاه، و هناک احتمال وارد أیضا و هو أنّ ضمیر (له) یعود إلی ذات اللّه الطاهرة، و یعنی أنّ کلّ ذرّات العالم تعود إلیه و مطیعة لأوامره.

هناک سؤال یطرح، و هو: کیف تردّد الطیور و الجبال صوت التسبیح مع داود؟

اختلف المفسّرون فی الإجابة علی هذا السؤال، و ذکروا عدّة تفاسیر و احتمالات له، منها:

۱- قال البعض: إنّ صوت داود الجذّاب کان یتردّد صداه عند ما تصطدم موجاته الصوتیة بالجبال فیجذب الطیور إلیه (و بالطبع فإنّ هذه لا تعدّ فضیلة کی یتطرّق إلیها القرآن المجید و بشیء من العظمة).

۲- و احتمل البعض الآخر أنّ تسبیحها کان توأما مع صوت ظاهری، مرافقا لنوع من الإدراک و الشعور الذی هو فی باطن ذرّات العالم، و طبقا لهذا الاحتمال، فإنّ کلّ موجودات العالم تتمتّع بنوع من العقل و الشعور، و حینما تسمع صوت مناجاة هذا النّبی الکبیر تردّد معه المناجاة، لیمتزج تسبیحها مع تسبیح داود علیه السّلام.

۳- و احتملوا أیضا أنّ هذا التسبیح هو التسبیح التکوینی الذی ینطق به لسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۰

حال کلّ مخلوق، و نظام خلقهم یقول: إنّ اللّه خال من العیوب و النقص، و إنّه مقدّس و منزّه و عالم و قادر، و یمتلک کافّة صفات الکمال.

و لکن هذا المعنی لا یختصّ بداود حتّی یعدّ من مناقبه، و لهذا فإنّ التّفسیر الثانی یعدّ أنسب، و ما ذکر فیه غیر مستبعد قیاسا بقدرة اللّه.

فالمناجاة موجودة داخل جمیع مخلوقات الکون، و ترانیمها تتردّد علی الدوام فی بواطنها، و قد أظهرها اللّه سبحانه و تعالی لداود علیه السّلام، کما فی الحصاة التی کانت تسبّح اللّه و هی فی ید رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و تواصل الآیة التالیة استعراض نعم اللّه علی داود علیه السّلام، قال تعالی: وَ شَدَدْنا مُلْکَهُ أی ثبّتنا و أحکمنا مملکته، بحیث کان العصاة و الطغاة من أعدائه یحسبون لمملکته ألف حساب لقوّتها.

و إضافة إلی هذا فقد آتیناه الحکمة و العلم و المعرفة وَ آتَیْناهُ الْحِکْمَةَ الحکمة التی یقول بشأنها القرآن المجید وَ مَنْ یُؤْتَ الْحِکْمَةَ فَقَدْ أُوتِیَ خَیْراً کَثِیراً.

(الحکمة) هنا تعنی العلم و المعرفة و حسن تدبیر امور البلاد، أو مقام النبوّة، أو جمیعها.

و قد تکون «الحکمة» أحیانا ذات جانب علمی و یعبّر عنها ب «المعارف العالیة»، و اخری لها جانب عملی و یعبّر عنها (بالأخلاق و العمل الصالح) و قد کان لداود فی جمیعها باع طویل.

و آخر نعمة إلهیّة أنعمت علی داود هی تمکّنه من القضاء و الحکم بصورة صحیحة و عادلة وَ فَصْلَ الْخِطابِ

و قد استخدمت عبارة (فصل الخطاب) لأنّ کلمة «الخطاب» تعنی أقوال طرفی النزاع، أمّا (فصل) فإنّها تعنی القطع و الفصل.

و کما هو معروف فإنّ أقوال طرفی النزاع لا تقطع إلّا إذا حکم بینهم بالعدل، و لهذا فإنّ العبارة هذه تعنی قضائه بالعدل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۱

و هناک احتمال آخر لتفسیر هذه العبارة، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالی أعطی داود منطقا قویّا یدلّل علی سمو و عمق تفکیره، و لم

یکن هذا خاصّا بالقضاء و حسب، بل فی کلّ أحادیثه.

حقّا، لیس من المفروض أن ییأس أحد من لطف اللّه، اللّه الذی یستطیع أن یعطی الإنسان اللائق و المناسب کلّ تلک القوّة و القدرة. و هذه لیست مواساة للنبی الأکرم و المؤمنین فی مکّة الذین کانوا یعیشون فی تلک الأیّام تحت أصعب الظروف و أشدّها، بل مواساة لکلّ المؤمنین المضطهدین فی کلّ مکان و زمان.

***

بحث

الصفات العشر لداود علیه السّلام:

ذکر بعض المفسّرین من الآیات محلّ البحث عشر مواهب إلهیّة عظیمة کانت لداود علیه السّلام تعکس مقام هذا النّبی و منزلته العظیمة من جهة، و تعکس خصائص الإنسان الکامل من جهة اخری:

۱- اللّه سبحانه و تعالی یأمر نبی الإسلام و الرحمة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رغم مکانته العالیة بأن یتّخذ من داود أسوة له فی تحمّل الصبر اصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ وَ اذْکُرْ.

۲- القرآن وصف داود بالعبد، و فی الحقیقة أنّ أهمّ خصوصیة لداود هی عبودیته للّه، قال تعالی: عَبْدَنا داوُدَ و نقرأ شبیه هذا المعنی بشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مسألة المعراج سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ ... (الإسراء- ۱).

۳- امتلاکه للقدرة و القوّة (فی طاعة الباری عزّ و جلّ و الاحتراز عن ارتکاب المعاصی و حسن تدبیره لشؤون مملکته) ذَا الْأَیْدِ و جاءت أیضا بشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هُوَ الَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِینَ [۴۱۲]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۲

۴- وصفه بالأوّاب، و تعنی رجوعه المتکرّر و المستمر إلی اللّه سبحانه و تعالی، قال تعالی: إِنَّهُ أَوَّابٌ

۵- تسخیر الجبال معه لتسبّح فی الصباح و المساء، و هذا الأمر یعدّ من مفاخره، قال تعالی: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ یُسَبِّحْنَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِشْراقِ

۶- مناجاة الطیور و تسبیحها اللّه مع داود، و هذه من النعم التی أنعمها اللّه علی داود، قال تعالی: وَ الطَّیْرَ مَحْشُورَةً.

۷- استمرار الجبال و الطیور فی التسبیح مع داود، و کلّ مرّة یسبّح فیها تعود و تسبّح معه، قال تعالی: کُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ

۸- أعطاه اللّه الملک و الحکومة التی أحکمت أسسها، إضافة إلی وضع کلّ الوسائل المادیّة و المعنویة التی یحتاجها تحت تصرّفه وَ شَدَدْنا مُلْکَهُ

۹- منحه ثروة مهمّة اخری، و هی العلم و المعرفة التی تفوق الحدّ الطبیعی، العلم و المعرفة التی هی منبع خیر کثیر و مصدر کلّ برکة و إحسان أینما کانت، قال تعالی:

وَ آتَیْناهُ الْحِکْمَةَ.

۱۰- و أخیرا فقد منّ اللّه علیه بمنطق قوی و حدیث مؤثّر و نافذ، و قدرة کبیرة علی القضاء و التحکیم بصورة حازمة و عادلة، قال تعالی: وَ فَصْلَ الْخِطابِ ۴۱۳].

حقّا إنّ أسس أی حکومة لا یمکن أن تصبح محکمة بدون هذه الصفات، العلم و المنطق و تقوی اللّه، و القدرة علی ضبط النفس، و نیل مقام العبودیة للّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۳

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۲۱ الى ۲۵]

اشارة

وَ هَلْ أَتاکَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (۲۱) إِذْ دَخَلُوا عَلی داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغی بَعْضُنا عَلی بَعْضٍ فَاحْکُمْ بَیْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلی سَواءِ الصِّراطِ (۲۲) إِنَّ هذا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِیَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَکْفِلْنِیها وَ عَزَّنِی فِی الْخِطابِ (۲۳) قالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤالِ نَعْجَتِکَ إِلی نِعاجِهِ وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَیَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلی بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِیلٌ ما هُمْ وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راکِعاً وَ أَنابَ (۲۴) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِکَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفی وَ حُسْنَ مَآبٍ (۲۵)

التّفسير

داود و الامتحان الكبير:

طرحت هـذه الآيات بحث بسيط و واضـح عن قضاء داود، و نتيجـة لتحريف و سوء تعبير بعض الجهلـة فقـد أثيرت ضـجّة عظيمـة فى أوساط المفسّرين، و كانت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۴

أمواج هذه الضـجّة من القوّة بحيث جرفت معها بعض المفسّرين، و جعلتهم يحكمون بشىء غير مقبول، و يقولون ما لا يليق بهذا النّبى الكبير.

و فى هذا المجال نحاول بيان مفهوم الآيات دون شـرح و تفصـيل كى يفهم القارئ الكريم مفهوم الآيات بذهنية صافية، و بعد الانتهاء من تفسيرها باختصار نتطرّق إلى الآراء المختلفـة التى قيلت بشأنها. و تتمّـة للآيات السابقـة التى اسـتعرضت الصـفات الخاصّة بداود و النعم الإلهيّة التى أنزلها البارى عزّ و جلّ عليه، يبيّن القرآن المجيد أحداث قضيّة عرضت على داود.

ففى البداية يخاطب القرآن المجيد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ هَلْ أَتاکَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ

(الخصم) جاءت هنا كمصـدر، و أكثر الأحيان تطلق على الطرفين المتنازعين، و تسـتعمل هـذه الكلمة للمفرد و الجمع، و أحيانا تجمع على (خصوم).

(تسوّروا) مشتقّة من (سور) و هو الحائط العالى الذى يبنى حول البيت أو المدينة، و تعنى هذه الكلمة فى الأصل القفز أو الصعود إلى الأعلى.

«محراب» تعنى صـدر المجلس أو الغرف العليا، و لأنّها أصـبحت محلا للعبادة أخـذ تـدريجيّا يطلق عليها اسم المعبـد. و تصـطلح اليوم على المكـان الـذى يقـف فيـه إمـام الجماعـة لأـداء مراسـم صـلاة الجماعـة، و فى المفردات، نقـل عن البعض أنّ سـبب إطلاـق كلمة «المحراب» على محراب المسجد، هو لكونه مكانا للحرب ضدّ الشيطان و هوى النفس.

على أيّـة حـال، فرغم أنّ داود عليه السّـلام كـان محاطا بأعـداد كبيرة من الجنـد و الحرس، إلّا أنّ طرفى النزاع تمكّنـا- من طريق غير مـألوف- تسوّر جـدران المحراب، و الظهور أمام داود عليه السّـلام فجأة، ففزع عنـد رؤيتهما، إذ دخلا عليه بـدون اسـتئذان و من دون إعلام مسبق، و ظنّ داود عليه السّلام أنّهم يكنّون له السوء، إِذْ دَخَلُوا عَلی داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۵

إلّا أنهما عمدا بسرعة إلى تطييب نفسه و إسكان روعه، و قالا له: لا تخف نحن متخاصمان تجاوز أحدنا على الآخر قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ

فاحكم الآن بيننا و لا تتحيّز فی حكمك و أرشدنا إلى الطريق الصحيح فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ.

«تشطط» مشتقّة من (شطط) على وزن (فقط)، و تعنی البعيد جدّا، و لكون الظلم و الطغيان يبعدان الإنسان كثيرا عن الحقّ، فكلمة (شطط) تعنی الابتعاد عن الحقّ، كما تطلق على الكلام البعيد عن الحقيقة.

من المسلّم به أنّ قلق و روع «داود» قلّ بعض الشیء عند ما وضّح الأخوان هدف مجيئهما إليه، و لكن بقی هناك سؤال واحد فی ذهنه هو، إذا كنتما لا تكنّان السوء، فما هو الهدف من مجيئكما إلیّ عن طريق غير مألوف؟

و لذلك تقدّم أحدهما و طرح المشكلة على داود، و قال: هذا أخی، يمتلك (۹۹) نعجة، و أنا لا أمتلك إلّا نعجة واحدة، و إنّه يصرّ علیّ أن أعطيه نعجتی ليضمّها إلى بقيّة نعاجه، و قد شدّد علیّ فی القول و أغلظ إِنَّ هذا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِیَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِی فِی الْخِطابِ

«النعجة» هی الأنثى من الضأن. و قد تطلق على أنثى البقر الوحشی و الخراف الجبلية.

«أكفلنيها» مشتقّة من الكفالة، و هی هنا كناية عن التخلّی (و معنى الجملة اجعلها لی و فی ملكيتی و كفالتی، أی امنحنی إيّاها).

«عزّنی» مشتقّة من (العزّة) و تعنی التغلّب، و بذا يكون معنى الجملة إنّه تغلّب علیّ.

و هنا التفت داود عليه السّلام إلى المدّعی قبل أن يستمع كلام الآخر (كما يوضّحه ظاهر الآية) و قال: من البديهی أنّه ظلمك بطلبه ضمّ نعجتك إلى نعاجه قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۶

بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ

و هذا الأمر ليس بجديد، إذ أنّ الكثير من الأصدقاء و المخالطين بعضهم لبعض يبغی على صاحبه، إلّا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و هم قلّة: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ ۴۱۴][۴۱۵].

نعم فالأشخاص الذين يراعون بصورة كاملة فی معاشرتهم و صداقتهم الطرف المقابل، و لا يعتدون عليه أدنى اعتداء و يؤدّون حقوق أصدقائهم و معارفهم بصورة كاملة قليلون جدّا، و هم المتزوّدون بالإيمان و العمل الصالح.

على أيّة حال، فالظاهر أنّ طرفی الخصام اقتنعا بكلام داود عليه السّلام و غادرا المكان.

و لكن داود غرق فی التفكير بعد مغادرتهما، رغم أنّه كان يعتقد أنّه قضى بالعدل بين المتخاصمين، فلو كان الطرف الثانی مخالفا لادّعاءات الطرف الأوّل- أی المدّعی- لكان قد اعترض عليه، إذن فسكوته هو خير دليل على أنّ القضيّة هی كما طرحها المدّعی.

و لكن آداب مجلس القضاء تفرض على داود أن يتريّث فی إصدار الأحكام و لا يتعجّل فی إصدارها، و كان عليه أن يسأل الطرف الثانی أيضا ثمّ يحكم بينهما، فلذا ندم كثيرا على عمله هذا، و ظنّ أنّما فتنة الباری عزّ و جلّ بهذه الحادثة وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ

و هنا أدركته طبيعته، و هی أنّه أوّاب، إذ طلب العفو و المغفرة من ربّه و خرّ راكعا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۷

تائبا إلى اللّه العزيز الحكيم فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ

«خرّ» مشتقّة من (خرير) و تعنی سقوط شیء من علو و يسمع منه الصوت مثل صوت الشلالات، كما أنّها كناية عن السجود، حيث أنّ الأفراد الساجدين يهوون من حالة الوقوف إلى السجود و يقترن ذلك بالتسبيح.

كلمة (راكعا) التی وردت فی هذه الآية، إمّا أنّها تعنی السجود كما جاءت فی اللغة، أو لكون الركوع مقدّمة للسجود.

على أيّة حال، فاللّه سبحانه و تعالى شمل عبده داود بلطفه و عفا عن زلّته من حيث ترك العمل بالأولى، كما توضّحه الآية التالية فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ و إنّ له منزلة رفيعة عند اللّه وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ

«زلفى» تعنى المنزلة (و القرب عند اللّه) و (حسن مآب) إشارة إلى الجنّة و نعم الآخرة.

***

بحوث

۱- ما هى حقيقة وقائع قصّة داود؟

الذى وضّحه القرآن المجيد فى هذا الشأن لا يتعدّى أنّ شخصين تسوّرا جدران محراب داود عليه السّلام ليحتكما عنده، و أنّه فزع عند رؤيتهما، ثمّ استمع إلى أقوال المشتكى الذى قال: إنّ لأخيه (۹۹) نعجة و له نعجة واحدة، و إنّ أخاه طلب منه ضمّ هذه النعجة إلى بقيّة نعاجه، فأعطى داود عليه السّلام الحقّ للمشتكى، و اعتبر طلب الأخ ذلك من أخيه ظلما و طغيانا، ثمّ ندم على حكمه هذا، و طلب من اللّه سبحانه و تعالى أن يعفو عنه و يغفر له، فعفا اللّه عنه و غفر له.

و هنا تبرز مسألتان دقيقتان أيضا: الاولى مسألة الامتحان، و الثانية مسألة الاستغفار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۸

القرآن الكريم لم يفصّل الحديث بشأن هاتين المسألتين، إلّا أنّ الدلائل الموجودة فى هذه الآيات و الروايات الإسلامية الواردة بشأن تفسيرها تقول: إنّ داود كان ذا علم واسع و ذا مهارة فائقة فى أمر القضاء، و أراد اللّه سبحانه و تعالى أن يمتحنه، فلذا أوجد له مثل تلك الظروف غير الاعتيادية، كدخول الشخصين عليه من طريق غير اعتيادى و غير مألوف، إذ تسوّرا جدران محرابه، و ابتلائه بالاستعجال فى إصدار الحكم قبل الاستماع إلى أقوال الطرف الثانى، رغم أنّ حكمه كان عادلا.

و رغم أنّه انتبه بسرعة إلى زلّته، و أصلحها قبل مضىّ الوقت، و لكن مهما كان فإنّ العمل الذى قام به لا يليق بمقام النبوّة الرفيع، و لهذا فإنّ استغفاره إنّما جاء لتركه العمل بالأولى، و إنّ اللّه شمله بعفوه و مغفرته.

و الشاهد على هذا التّفسير إضافة إلى ما ذكرناه قبل قليل- هو الآية التى تأتى مباشرة بعد تلك الآيات، و التى تخاطب داود عليه السّلام: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و هذه الآية تبيّن أنّ زلّة داود كانت فى كيفية قضائه و حكمه.

و بهذا الشكل فإنّ الآيات المذكورة أعلاه لا تذكر شيئا يقلّل من شأن و مقام هذا النّبى الكبير.

۲- التوراة و القصص الخرافية بشأن داود

اشارة

الآن نتصفّح كتاب التوراة لنشاهد ماذا ذكر فيه عن هذه الواقعة، لنعثر على الأساس الذى اعتمد عليه بعض المفسّرين الجهلة و غير المطّلعين فى تفسير هذه الآيات.

جاء فى «التوراة» و فى الكتاب الثانى «اشموئيل» الإصحاح الحادى عشر من الجملة الثانية و حتّى السابعة و العشرين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۹

«و کان فی وقت المساء، أنّ داود قام عن سریره و تمشّی علی سطح بیت الملک، فرأی من علی السطح امرأة تستحمّ و کانت المرأة جمیلة المنظر جدّا.

فأرسل داود و سأل عن المرأة فقیل: إنّها (بتشبع)[۴۱۶] بنت (الیعام) و زوجة (أوریّا الحتّی)[۴۱۷].

فأرسل داود رسلا و أخذها فدخلت علیه، فاضطجع معها و هی طاهرة من طمثها، ثمّ رجعت إلی بیتها، و حبلت المرأة فأرسلت و أخبرت داود بأنّها حبلی.

و بعد علمه بحمل (بتشبع) بعث داود برسالة إلی (یوآب)[۴۱۸] طلب منه فیها أن یبعث (أوریّا) إلیه، فبعث (یوآب) (أوریّا) إلیه، وفور وصوله إلی قصر داود، استفسر منه عن سلامة (یوآب) و سلامة الجیش و عن سیر المعارک.

و هنا أمر داود (أوریّا) بأن یذهب إلی بیته و یغسل رجلیه، فخرج أوریّا من قصر داود، و بعث داود خلفه أنواعا من الطعام، إلّا أنّ أوریّا نام عند باب قصر داود مع بقیّة عبید سیّده داود و لم یذهب إلی بیته، و عند ما علم داود أنّ أوریّا لم یذهب إلی بیته، قال داود لأوریا: ألم تکن قد عدت من السفر؟ فلما ذا لا تذهب إلی بیتک؟ فقال لداود: إنّ الصندوق و إسرائیل و یهودا و سیّدی (یوآب) و عبید سیّدی یعیشون تحت الخیام فی الصحراء؟ فهل یصحّ أن أذهب إلی بیتی لآکل و أشرب و أنام فیه؟ أقسم بحیاتک أنّی لا أفعل ذلک.

و فی الصباح بعث داود برسالة إلی (یوآب) بید (أوریّا) و کتب فی الرسالة یقول: اجعلوا أوریّا فی وجه الحرب الشدیدة و ارجعوا من ورائه فیضرب و یموت، ففعل به ذلک فقتل و أخبر داود بذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۰

فلمّا سمعت امرأة أوریّا أنّه قد مات ندبت بعلها، و لمّا مضت المناحة أرسل داود و ضمّها إلی بیته و صارت له امرأة، و أمّا الأمر الذی فعله داود فقبح فی عینی الربّ»[۴۱۹].

خلاصة هذه القصّة إلی هنا تکون کالآتی: فی إحدی الأیّام صعد داود إلی سطح القصر فوقعت عیناه علی البیت المجاور فرأی امرأة عاریة تغتسل، فأحبّها، و تمکّن بإحدی الطرق من جلبها إلی بیته، فاضطجع معها فحملت منه.

و زوج هذه المرأة کان أحد الضبّاط المشهورین فی جیش داود و کان طاهرا نقیّا، قتله داود (نعوذ باللّه من هذا الکلام) بمؤامرة جبانة عند ما بعثه إلی منطقة خطرة جدّا فی ساحة الحرب، ثمّ تزوّج داود زوجته.

و الآن نواصل سرد بقیّة القصّة علی لسان التوراة الحالی إذ جاء فی الإصحاح الثانی عشر من کتاب صموئیل الثانی «أنّ الربّ أرسل (ناثان) أحد أنبیاء بنی إسرائیل و مستشار داود فی نفس الوقت، و قال له: کان رجلان فی مدینة واحدة، واحد منهما غنی و الآخر فقیر، و کان للغنی غنم و بقر کثیرة جدّا، و أمّا الفقیر فلم یکن له شیء إلّا نعجة واحدة صغیرة قد اقتناها و ربّاها، فجاء ضیف إلی الرجل الغنی فأبی أن یأخذ من غنمه و من بقره لیهیّئ للضیف الذی جاء إلیه فأخذ نعجة الرجل الفقیر و هیّأ لضیفه.

فحمی غضب داود، و قال لناثان، أقسم بالربّ أنّ الشخص الذی ارتکب هذا العمل یستحقّ القتل، و علیه أن یردّ النعجة بأربعة أضعاف. و هنا قال ناثان لداود:

إنّ ذلک الرجل هو أنت! فانتبه داود للعمل غیر الصحیح الذی قام به، فدعا اللّه لیتوب علیه، فتاب اللّه علیه، و أنزل فی نفس الوقت ابتلاءات کبیرة علی داود».

هذا و قد استخدمت التوراة عبارات یجلّ القلم عن ذکرها، لهذا نصرف النظر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۱

عنها.

و فی هذا الجزء من القصّة التی استعرضتها التوراة یمکن للمتتبع ملاحظة ما یلی:

۱- لم یأت أحد متظلّما و شاکیا إلی داود، و إنّما جاءه أحد أنبیاء بنی إسرائیل، الذی هو مستشار داود فی نفس الوقت، و ذکر له قصّة

يستهدف منها وعظ داود، و القصّة هى بشأن شخصين الأوّل غنى و الثانى فقير، الغنى يملك أعدادا كبيرة من الغنم و البقر، أمّا الفقير فلا يملك سوى نعجة واحدة صغيرة، و الغنى أخذ نعجة الرجل الفقير و هيّأها لضيفه.

إلى هذا المقدار من القصّة لا يوجد أى تطرّق لتسوّر جدران المحراب و فزع داود و تخاصم الشخصين عنده، إضافة إلى طلب العفو و المغفرة.

٢- داود عليه السّلام اعتبر الغنى طاغية و يستحقّ القتل لماذا يقتل من أجل نعجة واحدة)؟! ٣- لماذا تسرّع داود عليه السّلام فى إصدار الحكم، إذ قال: يجب على الغنى أن يردّ النعجة بأربعة أضعاف؟

۴- داود يعترف بذنبه مع زوجة أوريّا.

۵- لماذا يعفو اللّه عزّ و جلّ عنه و بهذه السهولة؟! ۶- اللّه سبحانه و تعالى يذكر عقوبات عجيبة ستطال داود من الأفضل عدم ذكرها هنا.

٧- هذه المرأة (مع ماضيها المشهور) هى امّ سليمان عليه السّلام! رغم أنّ نقل مثل هذه القصص مؤلم حقّا، و لكن ما العمل، إذ أنّ بعض الجهلة غير المطّلعين من المتأثّرين بالروايات الإسرائيليّة، أساؤوا إلى تفسير القرآن الكريم الطاهر، بإقحامهم مثل هذه الروايات فيه، و لا يوجد أمامنا سبيل إلّا ذكر أجزاء من تلك القصص الفاضحة لردّها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۲

و الآن نسأل:

١- هل يمكن اتّهام نبى مدحه البارى عزّ و جلّ فى قرآنه الكريم بعشر صفات عظيمة، و دعا نبيّنا الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن يستلهم من سيرته، هل يمكن اتّهامه بتلك التهم.

٢- هل تتطابق هذه الأراجيف مع آيات القرآن التالية: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ

٣- إذا ارتكب شخص عادى- و ليس أحد الأنبياء- مثل هذا العمل الإجرامى للاعتداء على زوجة ضابط وفىّ و طاهر و مؤمن و من خلال عملية خبيثة، بماذا سيحكم الناس عليه و ما هى عقوبته؟ فالفاسق يتنزّه عن هذا العمل الشنيع، فكيف بنبى اللّه داود؟

و ممّا يجدر ذكره أنّ التوراة لا تعتبر داود نبيّا، و إنّما تعتبره ملكا عادلا له مكانة مرموقة، و أنّه مشيّد المعبد الكبير لبنى إسرائيل.

۴- الطريف فى الأمر أنّ كتاب (مزامير داود) هو أحد كتب التوراة، و قد جمعت فيه مناجات و أحاديث داود، فهل يمكن درج أحاديث و مناجاة مثل هذا الإنسان فى طيّات الكتب السماوية؟

۵- لو طرحت هذه القصص على شخص لا يمتلك سوى القليل من العقل و الإدراك، لأعترف بأنّ قصص التوراة المحرّفة حاليا ما هى إلّا خرافات، و أنّ أعداء نهج الأنبياء أو أشخاص جهلة غير مطّلعين صاغوا مثل هذه الخرافات، فكيف يمكن أن تكون هذه الخرافات معيارا للبحث؟

نعم فعظمة القرآن المجيد تبرز من خلال خلوّه من هذه الخرافات.

٣- الأحاديث الإسلامية و قصّة داود عليه السّلام

اشارة

الرّوايات و الأحاديث الإسلاميّة كذّبت بشدّة تلك القصص الخرافية و القبيحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۳

الواردة فى التوراة.

و من جملة تلك الأحاديث، ما

ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام يقول فيه: «لا اوتى برجل يزعم أنّ داود تزوّج امرأة أوريّا إلّا جلدته حدّين حدّا للنبوّة و حدّا للإسلام»[۴۲۰].

لماذا، لأنّ المزاعم المذكورة تتّهم من جهة إنسانا مؤمنا بارتكاب عمل محرّم، و من جهة اخرى تنتهك حرمة مقام النبوّة، و من هنا حكم الإمام بجلد من يفترى عليه عليه السّلام مرّتين (كلّ مرّة ۸۰ سوطا).

كما

ورد حديث آخر لأمير المؤمنين عليه السّلام يعطى نفس المعنى، جاء فيه «من حدّثكم بحديث داود على ما يرويه القصّاص جلدته مائة و ستّين»[۴۲۱].

و

فى حديث آخر نقله الشيخ الصدوق فى كتاب (الأمالى) عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «إنّ رضا الناس لا يملك، و ألسنتهم لا تضبط، ألم ينسبوا داود إلى أنّه اتّبع الطير حتّى نظر إلى امرأة أوريّا فهواها، و أنّه قدّم زوجها أمام التابوت حتّى قتل ثمّ تزوّج بها!»[۴۲۲].

و أخيرا،

ورد حديث فى كتاب (عيون الأخبار) فى باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل و المقالات قال الرضا عليه السّلام لابن الجهم: «و أمّا داود فما يقول من قبلكم فيه»؟

قال: يقولون: إنّ داود كان يصلّى فى محرابه إذ تصوّر له إبليس على هيئة طير أحسن ما يكون من الطيور، فقطع داود صلاته و قام يأخذ الطير إلى الدار فخرج فى أثره فطار الطير إلى السطح فصعد فى طلبه فسقط الطير فى دار أوريّا بن حيان.

فأطلع داود فى أثر الطير فإذا بامرأة أوريّا تغتسل؟ فلمّا نظر إليها هواها، و كان

قد أخرج أوريّا فى بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدّم أوريّا أمام التابوت فقدّم فظفر أوريّا بالمشركين فصعب ذلك على داود، فكتب إليه ثانية أن قدّمه أمام التابوت فقدّم فقتل أوريّا و تزوج داود بامرأته.

قال: فضرب الرضا عليه السّلام يده على جبهته و قال: «إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، لقد نسبتم نبيّا من أنبياء اللّه إلى التهاون بصلاته حتّى خرج فى أثر الطير ثمّ بالفاحشة، ثمّ بالقتل».

فقال: يا ابن رسول اللّه، ما كانت خطيئته؟

فقال: «ويحك إنّ داود عليه السّلام إنّما ظنّ أنّه ما خلق اللّه خلقا هو أعلم منه، فبعث اللّه عزّ و جلّ إليه الملكين فتسوّرا المحراب فقالا: خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ، إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ فعجّل داود على المدّعى عليه فقال: لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ و لم يسأل المدّعى البيّنة على ذلك، و لم يقبل على المدّعى عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع اللّه عزّ و جلّ يقول: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ إلى آخر الآية.

فقال: يا ابن رسول اللّه، فما قصّته مع أوريّا؟

قال الرضا عليه السّلام: «إنّ المرأة فى أيّام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعده أبدا، فأوّل من أباح اللّه عزّ و جلّ له أن

یتزوّج بامرأة قتل بعلها داود علیه السّلام فتزوّج بامرأة أوریّا لمّا قتل و انقضت عدّتها، فذلک الذی شقّ علی الناس من قتل أوریّا»[۴۲۳].

یستفاد من هذا الحدیث أنّ مسألة أوریّا کانت لها جذور حقیقیّة بسیطة، و أنّ داود نفّذ ما جاء فی الرسالة الإلهیّة، إلّا أنّ أعداء اللّه من جهة، و الجهلة من جهة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۵

اخری، إضافة إلی مؤلّفی القصص الخیالیة الذین یکتبون دائما قصص عجیبة و کاذبة من جهة ثالثة، اختلفوا سیقانا و أغصانا و أوراقا لهذه القصّة کی ینفّروا الإنسان من داود.

فأحدهم قال: لا یمکن أن یتمّ هذا الزواج ما لم تکن هنالک مقدّمات له؟

و الآخر قال: یحتمل أنّ بیت أوریّا کان مجاورا لبیت داود! و أخیرا لکی یؤکّدوا أنّ داود علیه السّلام شاهد زوجة (أوریّا) اصطنعوا قصّة الطیر، و فی النهایة اتّهموا أحد أنبیاء اللّه الکبار بارتکاب مختلف أنواع الذنوب الکبیرة و المخزیة، و تناقلتها ألسنة الجهلة و البلهاء و لو لا انّها مذکورة فی الکتب المعروفة لکان من الخطأ ذکرها و التعرّض لها.

و بالطبع، فإنّ هذه الروایة لا تختلف عن حدیث أمیر المؤمنین علیه السّلام، لأنّ حدیثه یشیر إلی أنّها قصّة کاذبة مزیّفة تنسب ارتکاب الزنا و غیرها من المحرّمات- نعوذ باللّه- إلی أحد الأنبیاء الکبار.

آراء المفسّرین

بعض المفسّرین ذکروا آراء اخری لقصّة داود، رغم أنّها لا تتناسب مع ظاهر آیات القرآن المجید، فإنّنا نری من الضروری الإشارة إلی بعضها لإکمال البحث:

منها: أنّ داود علیه السّلام کان قد قسّم ساعات یومه وفق برنامج منظّم، و لم یکن یسمح لأحد بمراجعته إلّا فی الساعات المخصّصة للمراجعة، و فی أحد الأیّام تسوّر شخصان المحراب و قد اتّفقا علی قتل داود أثناء فترة عبادته للّه سبحانه و تعالی، تسوّرا سور المحراب، و لکن عند ما و صلا بالقرب من سور المحراب شاهدوا الجند و الحرس یحیطون به من کلّ جانب، و خوفا من أن ینکشف أمرهما، اختلقا قضیّة کاذبة، و ادّعیا أنّهما أتیا إلی داود علیه السّلام لیحکم بینهما، و شرحا القصّة التی تطرّق إلیها القرآن الکریم، و قد قضی داود علیه السّلام بینهما، و لکون الهدف من هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۶

اللعبة کان قتله، فقد غضب و صمّم علی الانتقام منهما، و لم یمض إلّا وقت قصیر حتّی ندم داود علی تصمیمه هذا و استغفر اللّه ۴۲۴].

یقول العلّامة الطباطبائی فی تفسیر المیزان (و أکثر المفسّرین تبعا للروایات إنّ هؤلاء الخصم الداخلین علی داود علیه السّلام کانوا ملائکة أرسلهم اللّه سبحانه إلیه لیمتحنه، و ستعرف حال الروایات لکن خصوصیات القصّة کتسوّرهم المحراب و دخولهم علیه دخولا غیر عادی بحیث أفزعوه، و کذا تنبّهه بأنّه إنّما کان فتنة من اللّه له و لیس واقعة عادیة، و قوله تعالی بعد: فَاحْکُمْ بَیْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوی الظاهر فی أنّ اللّه ابتلاه بما ابتلی لیتبّهه و یسدّده فی خلافته و حکمه بین الناس، کلّ ذلک یؤیّد کونهم من الملائکة و قد تمثّلوا فی صورة رجال من الإنس.

(و المقصود من التمثّل هو عدم وجود هؤلاء الأشخاص واقعا و فی الخارج، بل أنّ ذلک انعکس فی ذهن داود و فی إدراکه).

و علی هذا فالواقعة تمثّل فیه الملائکة فی صورة متخاصمین لأحدهما نعجة واحدة، یسألها آخر له تسع و تسعون نعجة، و سألوه القضاء فقال لصاحب النعجة الواحدة: (لقد ظلمک) إلخ و کان قوله علیه السّلام- لو کان قضاء منجزا- حکما منه فی ظرف التمثّل، کما لو کان رآهم فیما یری النائم فقال لهم ما قال و حکم فیهم بما حکم، و من المعلوم أن لا تکلیف فی ظرف التمثّل، کما لا

تكليف فی عـالم الرؤيـا و إنّما التكليف فی عالمنا المشـهود، و هو عالم المادّة، و لم تقع الواقعـة فيه، و لا كان هناك متخاصـمان و لا نعجـة و لا نعاج إلّا فی ظرف التمثّل، فكانت خطيئة داود عليه السّلام فی هذا الظرف من التمثّل و لا تكليف هناك، كخطيئة آدم عليه السّلام فی الجنّة من أكـل الشـجرة قبـل الهبوط إلى الأـرض و تشـريع الشـرائع و جعـل التكـاليف، و اسـتغفاره و توبته ممّا صـدر منه كاستغفار آدم و توبته ممّا صدر منه، و قد صرّح اللّه بخلافته فی

كلامه كما صرّح بخلافة آدم عليه السّلام فی كلامه)[۴۲۵].

و لكن من المسلّم به أنّ ظاهر الآيات يوضّـح أنّ الشكوى و الخصام كان من قبل أفراد حقيقيين لهم وجود ظاهرى، و فی هذه الحالة لم يكن قضاء داود ذنبا صادرا عنه، خاصّـة بعد أن استمع لأقوال أحدهم و حصل عنده علم و يقين فی إعطاء الحكم، رغم أنّ الآداب المستحبّة فی القضاء توجب عليه أن يتأنّى فی إصدار الحكم و لا يتعجّل، و استغفاره إنّما كان لتركه العمل بالأولى.

و على أيّة حال، لا توجد أيّة ضـرورة لاعتبار وقوع حادثة التحكيم هذه فی ظرف التمثّل أو لأجل تنبيه داود عليه السّلام. و الأفضل أن نحافظ على ظاهر الآيات و تفسيرها بالترتيب الآنف الذكر الذى حفظ ظاهر الآيات دون بروز أيّة مشاكل تمسّ مقام عصمة الأنبياء.

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۲۶ الى ۲۹]

اشارة

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِی الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (۲۶) وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (۲۷) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (۲۸) كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (۲۹)

التّفسير

احكم بالعدل و لا تتّبع هوى النفس:

نواصل استعراض قصّـة داود، و نقف هنا على أعتابها النهائيـة، حيث إن آيات بحثنا هذا هی آخر الآيات الواردة فی هذه السورة بشأن داود، إذ تخاطبه بلهجة حازمة و بعبارات مفعمة بالمعانی، شارحة له وظائفه و مسئولياته الجسيمة بعد أن

وضـحت مقامه الرفيع، إذ تقول: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِی الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ

محتوى هذه الآية التی تتحدّث عن مقام داود الرفيع و الوظائف المهمّة التی كلّف بها، تبيّن أنّ القصص الخيالية و الكاذبة التی نسجت بشأن زواج داود من زوجة (أوريا) كلّها كاذبة و لا أساس لها من الصحّة.

فهل يمكن أن ينتخب البارى عزّ و جلّ شـخصا ينظر إلى شـرف المؤمنين و المقرّبين منه بعين خؤونـة و يلوّث يده بدم الأبرياء- خليفة له فی الأرض، و يمنحه حكم القضاء المطلق؟! هذه الآية تضمّ خمس جمل كلّ واحدة منها تتحدّث عن حقيقة معيّنة:

الاولی: خلافة داود فی الأرض، فهل المقصود منها خلافته للأنبیاء السابقین، أمّ أنّها تعنی خلافة اللّه؟ المعنی الثانی أنسب و یتطابق مع ما جاء فی الآیة (۳۰) من سورة البقرة: وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً.

بالطبع فإنّ المعنی الواقعی للخلافة لا یتعلّق باللّه، لأنّه یأتی فی مورد وفاة شخص أو غیابه، و المراد من الخلافة هنا هو أن یکون نائبا للّه بین العباد، و المنفّذ لأوامر اللّه سبحانه و تعالی فی الأرض. هذه الجملة تبیّن أنّ الحکومة فی الأرض یجب أن تستلهم شرعیّتها من الحکومة الإلهیّة، و أی حکومة لا تستلهم شرعیتها من الحکومة الإلهیّة فإنّها حکومة ظالمة و غاصبة.

الجملة الثانیة: تأمر داود قائلة: بعد أن منحک اللّه سبحانه و تعالی هذه النعمة الکبیرة، أی الخلافة، فإنّک مکلّف بأن تحکم بین الناس بالحقّ فَاحْکُمْ بَیْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ

و فی واقع الأمر فإنّ إحدی ثمار خلافة اللّه هی ظهور حکومة تحکّم بالحقّ، و من هذه الجملة یمکن القول أنّ حکومة الحقّ تنشأ- فقط- عن خلافة اللّه، و أنّها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۰

النتیجة المباشرة لها.

أمّا الجملة الثالثة: فإنّها تشیر إلی أهمّ خطر یهدّد الحاکم العادل، ألا و هو اتّباع هوی النفس وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوی

نعم، فهوی النفس ستار سمیک یغطّی بصیرة الإنسان، و یباعد بینه و بین العدالة.

لهذا فإنّ الجملة الرابعة تقول: فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ

فأینما وجد الضلال کان لهوی النفس ضلع فی ذلک، و أینما اتّبع هوی النفس فإنّ عاقبته الضلال.

فالحاکم الذی یتّبع هوی النفس، إنّما یفرّط بمصالح و حقوق الناس لأجل مطامعه، و لهذا السبب فإنّ حکومته تکون مضطربة و مصیرها الانهیار و الزوال.

و من الممکن أن یکون ل (هوی النفس) معانی واسعة، تضمّ فی نفس الوقت هوی نفس الإنسان، و هوی النفس عند کلّ الناس، و هکذا فإنّ القرآن یحکم ببطلان المناهج الوضعیّة التی تستند علی أفکار عامّة الناس فی الحکم، لأنّ نتیجة الإثنین هو الضلال و الانحراف عن سبیل اللّه و صراط الحقّ.

و الیوم نشاهد الآثار السیّئة لهذا النوع من التفکیر فی عالم یسمّی بالعالم المتطور و الحدیث، فأحیانا نری أشنع و أقبح الأعمال تأخذ شکلا قانونیا نتیجة الأخذ بآراء الناس، و رائحة الفضیحة فی هذا العالم قد أزکمت الأنوف، و القلم یجلّ عن ذکرها.

صحیح أنّ أسس الحکومة مستندة علی الجماهیر، و أنّ مشارکة الجمیع فیها یحفظ أسسها، إلّا أنّ هذا لا یعنی أنّ رأی الأکثریة هو معیار الحقّ و الباطل فی کلّ شیء و فی کلّ مکان.

فالحکومة یجب أن یکون إطارها الحقّ، و لتطبیق الحقّ لا بأس بالاستعانة بطاقات أفراد المجتمع، و عبارة (الجمهوریة الإسلامیة) المتکوّنة من کلمتی (الجمهوریة) و (الإسلامیة) تعطی المعنی السابق، و بعبارة اخری فإنّ أصولها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۱

مستمدّة من نهج الإسلام، و تنفیذ تلک الأصول یتمّ بمشارکة الجماهیر.

و أخیرا فإنّ الجملة الخامسة تشیر إلی أنّ کلّ ضلال عن سبیل اللّه لا ینفکّ عن نسیان یوم الحساب، و من ینسی یوم الحساب فإنّ عذاب اللّه الشدید ینتظره إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ الْحِسابِ

و من الطبیعی أنّ نسیان یوم القیامة هو مصدر الضلال، و کلّ ضلال مرتبط بالنسیان، و هذا المبدأ یوضّح التأثیر التربوی فی الاهتمام بالمعاد فی حیاة البشر.

و لقد وردت روایات بهذا الشأن فی المصادر الإسلامیّة، و منها حدیث مشهور

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن أمير المؤمنين عليه السّلام جاء فيه: «أيّها الناس، إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى، و طول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة»[۴۲۶].

أ ليس من الأفضل كتابة هذا الحديث بماء الذهب، و وضعه أمام الجميع خاصّة الحكّام و القضاة و المسؤولين.

و

فى رواية اخرى وردت عن الإمام الباقر عليه السّلام، جاء فيها: «ثلاث موبقات: شحّ مطاع، و هوى متّبع، و إعجاب المرء بنفسه»[۴۲۷].

و تتمّة للبحث الذى استعرض حال داود و خلافته فى الأرض، تتطرّق الآيات لأهداف خلق عالم الوجود، كى تشخّص أسباب الحكومة على الأرض التى هى جزء من ذلك العالم، و جاء فى قوله تعالى: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

هناك مسألة مهمّة تعدّ مصدرا لكلّ الحقوق، و هى: ما الهدف من وجود الخلق؟

فعند ما ننظر إلى هذا العالم الوسيع، و نوافق على أنّ هذا العالم الوسيع لم يخلقه اللّه عبثا، نتابع الهدف من وراء ذلك الخلق، الهدف الذى يمكن إيجازه فى كلمات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۲

قصيرة و عميقة، و هى (التكامل) و (التعليم) و (التربية) و من هنا نستنتج أنّ الحكومات عليها أن تسير وفق هذا الخطّ، فعليها أن تثبت أسس التربية و التعليم لتكون أساس التكامل المعنوى عند الإنسان.

و بعبارة اخرى: إنّ الحقّ و العدل هما أساس عالم الوجود، و على الحكومات أن تعمل وفق موازين الحقّ و العدالة.

الجملة الأخيرة من الآية السابقة التى تطرّقت إلى نسيان يوم الجزاء، متطابقة بصورة كاملة مع الآية مورد بحثنا، لأنّ هدف خلق العالم يوجب عدم نسيان يوم الجزاء و الحساب، و كما قلنا فى بحث المعاد (فى آخر سورة يس) لو لم يكن هناك يوم للحساب، فإنّ خلق العالم يعدّ عبثا.

و نهاية هذه الآية تشير إلى خطوط واضحة تفصّل بين الإيمان و الكفر، و إعتقاد المذهب الإلحادى بعدم جدوى خلق العالم هو مثال للابتلاءات التى ابتلينا بها اليوم، إذ أنّ اتّباع ذلك المذهب يعلنون بصراحة أنّ خلق العالم لا فائدة فيه، و لا هدف يرتجى من ورائه، فمن يفكّر هكذا كيف يتمكّن من تطبيق الحقّ و العدالة فى حكومته؟! الحكومة الوحيدة التى تستطيع تطبيق الحقّ و العدالة، هى الحكومة التى تستلهم أفكارها و معتقداتها من المبادئ الإلهيّة، و التى تقول إنّ البارى عزّ و جلّ لم يخلق العالم عبثا و إنّما خلقه لأهداف و أغراض معيّنة، كى تسير الحكومات وفق تلك الأهداف، و إذا كان العالم الإلحادى قد وصل اليوم إلى طريق مسدود فى شؤون الحكم و الحرب و السلام و فى الإقتصاد و الثقافة، فالسبب الرئيسى يكمن فى ابتعادهم عن هذا الأمر، و لهذا فإنّ أسس حكوماتهم تقوم على الظلم و التسلّط، فكم تكون الدنيا موحشة و رهيبة إذا أصبحت تدار وفق هذا النوع من التفكير العشوائى! على أيّة حال، فإنّ البارى عزّ و جلّ حكيم، و من غير الممكن أن يخلق هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۳

العالم من دون هدف، فالعالم هذا مقدّمة لعالم آخر أكبر و أوسع من عالمنا هذا، و هو أبدى و خالد يوضّح الأهداف الحقيقيّة وراء خلق عالم الدنيا.

الآية التالية تضيف: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ[۴۲۸].

كما أنّ عدم وجود هدف من خلق العالم يعدّ أمرا مستحيلا، فمن المستحيل أيضا المساواة بين الصالحين و الطالحين، لأنّ المجموعة الاولى كانت تخطو خطواتها وفق أهداف خلق العالم للوصول إلى الغاية النهائية، بينما كانت المجموعة الثانية تسير باتّجاه مخالف لمسير المجموعة الاولى.

الواقع أنّ بحث المعاد بكافّة أبعاده قد تمّ تناوله فی هذه الآیة و الآیة التی سبقتها بشكل مستدلّ.

فمن جهة تقول: إنّ حكمة الخالق تقتضی أن یكون لخلق العالم هدف، و هذا الهدف لا یتحقّق بعدم وجود عالم آخر، لأنّ الأیّام القلائل التی یعیشها الإنسان فی هذه الدنیا لا قیمة لها بالنسبة للهدف الرئیسی الكامن وراء خلق هذا العالم الواسع.

و من جهة اخری، فإنّ حكمة و عدالة الباری عزّ و جلّ تفرض أن لا یتساوی المحسن و المسیء و العادل و الظالم، و لهذا كان البعث و الثواب و العقاب و الجنّة و النار.

و بغضّ النظر عن هذا، فعند ما ننظر إلی ساحة المجتمع الإنسانی فی هذه الدنیا نشاهد الفاجر فی مرتبة المؤمن، و المسیء إلی جانب المحسن، و لربّما فی أكثر الأحیان نری المفسدین المذنبین یعیشون فی حالة من الرفاه و التنعّم أكثر من غیرهم، فإذا لم یكن هناک عالم آخر بعد عالمنا هذا لتطبیق العدالة هناک، فإن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۴

وضع العالم هذا مخالف «للحكمة» و (للعدالة)، و هذا هو دلیل آخر علی مسألة المعاد.

و بعبارة اخری، فلإثبات مسألة المعاد- أحیانا- یمكن الاستدلال علیها عن طریق برهان (الحكمة) و أحیانا اخری عن طریق برهان (العدالة)، فالآیة السابقة استدلال بالحكمة، و الآیة التی بعدها استدلال بالعدالة.

الآیة الأخیرة فی بحثنا هذا تشیر إلی موضوع یوضّح- فی حقیقة الأمر- الهدف من الخلق، إذ جاء فی الآیة الكریمة: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْكَ مُبارَكٌ لِیَدَّبَّرُوا آیاتِهِ وَ لِیَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ

فتعلیماته خالدة، و أوامره عمیقة و أصیلة، و نظمه باعثة للحیاة و هادیة للإنسان إلی الطریق المؤدّی إلی اكتشاف هدف الخلق.

فالهدف من نزول هذا الكتاب العظیم لم یقتصر- فقط- علی تلاوته و تلفّظ اللسان به، بل لكی تكون آیاته منبعا للفكر و التفكّر و سببا لیقظة الوجدان، لتبعث بدورها الحركة فی مسیر العمل.

كلمة (مبارك) تعنی شیئا ذا خیر دائم و مستمر، أمّا فی هذه الآیة فإنّها تشیر إلی دوام استفادة المجتمع الإنسانی من تعلیماته، و لكونها استعملت هنا بصورة مطلقة، فإنّها تشمل كلّ خیر و سعادة فی الدنیا و الآخرة.

و خلاصة الأمر، فإنّ كلّ الخیر و البركة فی القرآن، بشرط أن نتدبّر فی آیاته و نستلهم منها و نعمل بها.

***

ملاحظتان

۱- التقوی و الفجور أمام بعضهما البعض

فی الآیات المذكورة أعلاه، ورد الفساد فی الأرض فی مقابل الإیمان و العمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۵

الصالح، و الفجور (الذی یعنی تمزیق حجب الدین) فی مقابل التقوی و الورع.

هل أنّ هذین الإثنین، یوضّحان حقیقة واحدة فی عبارتین، أم أنّهما یوضّحان موضوعین؟ من غیر المستبعد أن یكون الاثنان تأكیدا لمعنی واحد، لأنّ (المتّقین) هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح و (الفجّار) هم المفسدون فی الأرض.

و یحتمل فی أن تكون الجملة الاولی هی إشارة إلی الجوانب العملیة و العقائدیة لكلا الطرفین، إذ تقارن بین أصحاب العقائد الصحیحة و الأعمال الصالحة و بین أصحاب العقائد الفاسدة و الأعمال الخبیثة، فی حین أنّ الجملة الثانیة تشیر فقط إلی الجانب

العملی.

و يحتمل أيضا أنّ (التقوى و الفجور) شاهدان على كمال و نقص الإنسان، و العمل الصالح و الفساد فى الأرض شاهدان على الجوانب الاجتماعية، و لكن التأكيد يعدّ أنسب.

۲- لمن تعنى هذه الآيات؟

جاء فى إحدى الروايات التى تفسّر قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بأنّها إشارة إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام و أنصاره، فى حين أنّ بقيّة الآية كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ إشارة إلى أعدائه ۴۲۹].

و جاء فى حديث آخر نقله (ابن عساكر) عن ابن عباس، فى أنّ المقصودين فى الآية الَّذِينَ آمَنُوا «على» و «حمزة» و «عبيدة» الذين واجهوا فى معركة بدر كلا من «عتبة» و «الوليد» و «شيبة» و رموز جيش الكفر و الشرك (و تمكّنوا من قتلهم فى ساحة المعركة. فبهذا يكون عتبة و الوليد و شيبة هم المقصودين فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۶

كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ۴۳۰].

الواضح من معنى هذه الرّوايات أنّها لا تحصر مفهوم الآية فى أفراد معينين، و إنّما هى بيان لأسباب النّزول، أو أنّها مصداق واضح و بارز لهذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۷

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

اشارة

وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۳۰) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (۳۱) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (۳۲) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ (۳۳)

التّفسير

سليمان عليه السّلام يستعرض قوّاته القتالية:

هذه الآيات تواصل البحث السابق بشأن داود عليه السّلام.

فالآية الاولى تزفّ البشرى لداود فى أنّه سيرزق بولد صالح هو سليمان، و سيتولّى الحكم و أعباء الرسالة من بعده، و تقول: وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

هذه الجملة تبيّن عظمة مقام سليمان، و يحتمل كونها ردّا على الاتّهامات القبيحة و العارية من الصحّة الواردة فى التوراة المحرّفة عن ولادة سليمان من زوجة أوريا، و التى كانت شائعة فى المجتمع قبل نزول القرآن.

فعبارة (وهبنا) من جهة و (نعم العبد) من جهة اخرى، و للتعليل (إنّه أوّاب) أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۸

(الشخص المطيع للّه و الممتثل لأوامره، و الذى يتوب إلى البارى عزّ و جلّ إثر أبسط غفلة أو زلّة) من جهة ثالثة، كلّها تدلّ على عظمة مقام هذا النّبى الكبير.

و عبارة (إنّه أوّاب) هى نفس العبارة التى جاءت بحقّ والده داود فى الآية (۱۷) من نفس السورة، و رغم أنّ كلمة (أوّاب) صيغة مبالغة و تعنى كثير الرجوع و غير محدودة، فإنّها هنا تعنى العودة لطاعة الأمر الإلهى، العودة إلى الحقّ و العدالة، العودة من الغفلة و ترك العمل بالأولى.

الآية التالية تبدأ بقصّة خيل سليمان، التى فسّرت بأشكال مختلفة، حيث أنّ البعض فسّرها بصورة سيّئة و معارضة لموازين العقل، حتّى أنّه لا يمكن إيرادها بشأن إنسان عادى، فكيف ترد بحقّ نبى عظيم كسليمان عليه السّلام.

و لكن المحقّقين بعد بحثهم فى الدلائل العقليّة و النقلية أغلقوا الطريق أمام أمثال هذه التّفسيرات، و قبل أن نخوض فى الاحتمالات المختلفة الواردة، نفسّر الآيات وفق ظاهرها أو (وفق أقوى احتمال ظاهرى لها) لكى نوضّح أنّ القرآن الكريم خال من مثل هذه الادّعاءات المزيّفة التى فرضت على القرآن من قبل الآخرين.

إذ يقول القرآن: إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ.

«صافنات» جمع (صافنة) و قال معظم اللغويين و المفسّرين: إنّها تطلق على الجياد التى تقوم على ثلاث قوائم و ترفع أحد قوائمها الإمامية قليلا- ليمسّ الأرض على طرف الحافر، و هذه الحالة تخصّ الخيول الأصلية التى هى على أهبّة الاستعداد للحركة فى أيّة لحظة[۴۳۱].

«الجياد» جمع (جواد) و تعنى الخيول السريعة السير، و كلمة «جياد» مشتقّة فى الأصل من (جود)، و الجود عند الإنسان يعنى بذل المال، و عند الخيول يعنى سرعة سيرها. و بهذا الشكل فإنّ الخيول المذكورة تبدو كأنّها على أهبّة الاستعداد

للحركة أثناء حالة توقّفها، و إنّها سريعة السير أثناء عدوها.

و يستشف من الآية مع القرائن المختلفة المحيطة بها، أنّه فى أحد الأيّام و عند العصر استعرض سليمان عليه السّلام خيوله الأصيلة التى كان قد أعدّه الجهاد أعدائه، إذ مرّت تلك الخيول مع فرسانها أمام سليمان عليه السّلام فى استعراض منسّق و مرتّب. و بما أنّ الملك العادل و صاحب النفوذ عليه أن يمتلك جيشا قويّا، و الخيول السريعة إحدى الوسائل المهمّة التى يجب أن تتوفّر لدى ذلك الجيش، فقد جاء هذا الوصف فى القرآن بعد ذكر مقام سليمان باعتباره نموذجا من أعماله.

و لكى يطرد سليمان التصوّر عن أذهان الآخرين فى أنّ حبّه لهذه الخيول القويّة ناتج من حبّه للدنيا، جاء فى قوله تعالى: فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي انّى احبّ هذه الخيل من أجل اللّه و تنفيذ أمره، و أريد الاستفادة منها فى جهاد الأعداء.

لقد ورد أنّ العرب تسمّى «الخيل» خيرا، و

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فيه: «الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة»[۴۳۲].

و استمرّ سليمان عليه السّلام ينظر إلى خيله الأصيلة المستعدّة لجهاد أعداء اللّه، و هو يعيش حالة من السرور، حتّى توارت عن أنظاره حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ

كان هذا المشهد جميلا و لطيفا لقائد كبير مثل سليمان، بحيث أمر بإعادة عرض الخيل مرّة اخرى رُدُّوها عَلَيَ و عند ما نفّذت أوامره بإعادة الخيل، عمد سليمان عليه السّلام إلى مسح سوقها و أعناقها فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ

و بهذا الشكل أشاد بجهود مدربى تلك الخيول، و أعرب لهم عن تقديره لها، لأنّ من الطبيعى لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد و وجهه و رقبته و شعر رقبته، أو يمسح على ساقه. و أبرز فى نفس الوقت تعلّقه

الشدید بخیله التی تساعده فی تحقیق أهدافه العلیا السامیة، و تعلّق سلیمان الشدید بخیله لیس بأمر یبعث علی العجب.

«طفق» باصطلاح النحویین من أفعال المقاربة، و تأتی بمعنی «شرع».

«سوق» هی جمع (ساق) و (أعناق) جمع (عنق) و معنی الآیة هو أنّ سلیمان شرع بمسح سوق الجیاد و أعناقها.

ما ذکرناه بشأن تفسیر هذه الآیة یتطابق مع ما ذهب إلیه بعض المفسّرین کالفخر الرازی، کما تمّت الاستفادة من بعض ما ورد عن العالم الشیعی الکبیر السیّد المرتضی، إذ قال فی کتابه (تنزیه الأنبیاء) فی باب نفی الادّعاءات الباطلة و المحرّمة التی ینسبها بعض المفسّرین و رواة الحدیث إلی سلیمان (إنّ اللّه تعالی ابتدأ الآیة بمدحه و الثناء علیه فقال: نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ فلا یمکن أن یثنی علیه بهذا الثناء ثمّ یتبعه من غیر فصل بإضافة القبیح إلیه، و أنّه یتلّهی بعرض الخیل عن فعل المفروض علیه من الصلاة، و الذی یقتضیه الظاهر أنّ حبّه للخیل و شغفه بها کان عن إذن ربّه و بأمره و بتذکیره إیّاه، لأنّ اللّه تعالی قد أمرنا بإرباط الخیل و إعدادها لمحاربة الأعداء، فلا ینکر أن یکون سلیمان علیه السّلام مأمورا بمثل ذلک)[۴۳۳].

أمّا العلّامة المجلسی فقد ذکر فی کتابه (بحار الأنوار) فی باب النبوّة، تفسیرا لهذه الآیات یشابه کثیرا ما ذکر أعلاه ۴۳۴].

علی أیّة حال- وفق هذا التّفسیر- لم یصدر من سلیمان أی ذنب، و لم یحدث أی خلل فی ترتیب الآیات، و لا تبدو أیّة مشکلة حتّی نعمد إلی توضیحها[۴۳۵].

و الآن نستعرض تفاسیر اخری لمجموعة من المفسّرین بشأن هذه الآیات و أشهرها، ذلک التّفسیر الذی یعود بالضمیر فی جملتی (توارت) و (ردّوها) إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۱

(الشمس) التی لم ترد فی تلک الآیات، و لکنّهم استدلّوا علیها من کلمة (العشی) (التی تعنی آخر النهار بعد الزوال) الموجودة فی آیات بحثنا.

و بهذا الشکل فإنّ الآیات تعطی المفهوم التالی، إنّ سلیمان کان غارقا فی مشاهدة الخیل و الشمس قد غربت و استترت خلف حجاب الأفق، فغضب سلیمان کثیرا لأنّه لم یکن قد صلّی صلاة العصر، فنادی ملائکة اللّه، و دعاها إلی ردّ الشمس، فاستجابت له الملائکة و ردّتها إلیه، أی رجعت فوق الأفق، فتوضّأ سلیمان (المراد بمسح السوق و الأعناق هو أداء الوضوء الذی کان حینذاک یعمل به وفق سنّة سلیمان، و بالطبع فإنّ کلمة (المسح) تأتی أحیانا فی لغة العرب بمعنی الغسل) ثمّ صلّی.

البعض ممّن لیس لدیهم الاطلاع الکافی تحدّثوا بأکثر من هذا، و نسبوا أمورا سیّئة و محرّمة اخری إلی هذا النّبی الکبیر، عند ما قالوا: إنّ المقصود من جملة فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ هو أنّه أمر بضرب سوق و أعناق الخیل بالسیف، أو أنّه نفّذ هذا الأمر بشخصه، لأنّها شغلته عن ذکر اللّه و الصلاة.

طبیعی أنّ بطلان التّفسیر الأخیر لا یخفی علی أحد، لأنّ الخیول لا ذنب لها کی یقتلها سلیمان بحدّ السیف، فإن کان هناک ذنب فقد ارتکبه هو، لأنّه کان غارقا فی مشاهدة خیله، و نسی صلاته.

و أحیانا فإنّ قتل الخیل إسراف إضافة إلی کونه جریمة، فکیف یمکن أن یصدر مثل هذا العمل المحرّم من نبی، أمّا الروایات التی وردت من المصادر الإسلامیّة بشأن هذه الآیة فإنّها تنفی- بشدّة- هذه التهمة الموجّهة إلی سلیمان علیه السّلام.

أمّا التفاسیر السابقة التی قالت بنسیان سلیمان و غفلته عن أداء صلاة العصر، فهی موضع السؤال التالی، هل یمکن لنبی معصوم أن ینسی واجبا مکلّفا به؟ رغم أنّ استعراضه للخیول کان واجبا آخر مکلّفا به، إلّا إذا کانت الصلاة- کما قال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۲

البعض- صلاة مندوبة أو مستحبّة، و نسیانها لا یسبّب أیّة مشاکل، و لکن إن کانت صلاة نافلة فلا ضرورة إذن لردّ الشمس.

إذا انتهینا من هذا، فهناک إشکالات اخری وردت بشأن هذا التّفسیر.

۱- کلمة (الشمس) لم تأت بصورة صریحة فی الآیات، فی حین أنّ الخیل الصَّافِناتُ الْجِیادُ جاء ذکرها صریحا، و نری من المناسب أن نعود بالضمیر علی شیء صرّحت به الآیات.

۲- عبارة عَنْ ذِکْرِ رَبِّی ظاهرها یعنی أنّ حبّ هذه الخیل إنّما هو ناشئ من ذکر و طاعة أمر اللّه، فی حین- طبقا للتفسیر الأخیر- تعطی کلمة (عن) معنی (علی) و یکون معنی العبارة، إنّی آثرت حبّ الخیل علی حبّ ربّی، و هذا المعنی مخالف لظاهر الآیة.

۳- الأعجب من کلّ ذلک هی عبارة رُدُّوها عَلَیَ التی تحمل صفة الأمر، فهل یمکن أن یخاطب سلیمان الباری عزّ و جلّ أو ملائکته بصیغة الأمر، أن ردّوا علیّ الشمس، کما یخاطب عبیده أو خدمه.

۴- قضیّة ردّ الشمس، رغم أنّها فی مقابل قدرة الباری عزّ و جلّ تعدّ أمرا یسیرا، إلّا أنّها تواجه بعض الإشکالات بحیث جعلتها أمرا لا یمکن قبوله من دون توفّر أدلّة واضحة علیها.

۵- الآیات المذکورة أعلاه تبدأ بمدح و تمجید سلیمان، فی حین أنّ التّفسیر الأخیر لها یعطی معنی الذمّ و التحقیر.

۶- إذا کانت الصلاة المتروکة واجبة، فتعلیلها یعدّ أمرا صعبا، أمّا إذا کانت نافلة فلا داعی لردّ الشمس.

السؤال الوحید المتبقّی هنا، هو أنّ هذا التّفسیر ورد فی عدّة روایات فی مصادر الحدیث، و إذا دقّقنا جیّدا فی إسناد هذه الأحادیث، یتّضح لنا أنّها جمیعا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۳

تفتقد السند الموثوق المعتبر، و أنّ أکثر هذه الروایات موضوعة.

ألیس من الأفضل صرف النظر عن تلک الروایات غیر الموثوقة، و إرجاع علمها إلی أصحابها، و تقبّل کلّ ما یبیّنه ظاهر الآیات بذهنیة صافیة و متفتّحة، لنریح أنفسنا من عناء الإشکالات الفارغة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۴

الآیات [سورة ص (۳۸): الآیات ۳۴ الی ۴۰]

اشارة

وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَیْمانَ وَ أَلْقَیْنا عَلی کُرْسِیِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (۳۴) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ هَبْ لِی مُلْکاً لا یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (۳۵) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّیحَ تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخاءً حَیْثُ أَصابَ (۳۶) وَ الشَّیاطِینَ کُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (۳۷) وَ آخَرِینَ مُقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفادِ (۳۸)

هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ بِغَیْرِ حِسابٍ (۳۹) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفی وَ حُسْنَ مَآبٍ (۴۰)

التّفسیر

الامتحان الصعب لسلیمان و ملکه الواسع:

هذه الآیات تتحدّث عن أحداث اخری من قصّة سلیمان، و تبیّن أنّ الإنسان مهما امتلک من قوّة و قدرة، فإنّها لیست منه، بل إنّ کلّ ما عنده هو من اللّه سبحانه و تعالی، هذا الموضوع یزیل حجب الغرور و الغفلة عن عین الإنسان، و یجعله یشعر بصغر حجمه قیاسا إلی هذا الکون.

القسم الأوّل من الآيات يتطرّق إلى أحد الامتحانات التى امتحن اللّه بها عبده

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۵

سليمان، الامتحان فى تركك العمل بالأولى، و كيف توجّه بعدها سليمان بقلب خاشع إلى اللّه سبحانه و تعالى طالبا منه العفو و التوبة لتركه العمل بالأولى.

إيجاز محتوى الآيات، سمح مرّة اخرى لنا سجى قصص الخيال أن ينسجوا قصصا خيالية وهمية اخرى، و يلصقوا التّهم بهذا النّبى الكبير ما لا- يليق بالنّبوة، و يتنافى مع مقام العصمة، و يتنافى أساسا مع المنطق و العقل، و هذا بحدّ ذاته إمتحان للمحقّقين فى علوم القرآن، فلو أنّنا اكتفينا بما تطرحه آيات القرآن لما بقيت ثغرة لنفوذ الخرافات و الأباطيل.

الآية الاولى فى بحثنا هذا تقول: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ

«الكرسى» يعنى الأريكة ذات الأرجل القصيرة، و يبدو أنّه كان للسلاطين نوعان من الكراسى، الأوّل: له أرجل قصيرة يستخدم فى الأوقات العادية، و الثانى: له أرجل أطول يستخدمها السلاطين فى اجتماعاتهم الرسمية، و يطلق على الأوّل اسم (كرسى) و على الثانى اسم (عرش).

«الجسد» يعنى الجسم الذى لا- روح فيه، و كما يقول الراغب فى مفرداته: إنّ لها مفهوما أكثر محدودية من مفهوم الجسم، لأنّ كلمة الجسد لا تطلق على غير الإنسان إلّا نادرا، و لكن كلمة الجسم لها طابع عام.

يستفاد من هذه الآيات بصورة عامّة أنّ موضوع إمتحان سليمان كان بواسطة جسد خال من الروح القى على كرسيّه و أمام عينيه، أمر لم يكن يتوقّعه، و آماله كانت متعلّقة بشىء آخر، و القرآن لا يعطى تفصيلات اخرى فى هذا المجال.

و قد أورد المفسّرون و المحدّثون تفسيرات متعدّدة فى هذا المجال، أفضلها و أوضحها ما يلى:

إنّ سليمان عليه السّلام كان متزوجا من عدّة نساء، و كان يأمل أن يرزق بأولاد صالحين شجعان ليساعدوه فى إدارة شؤون البلاد و جهاد الأعداء، فحدّث نفسه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۶

يوما قائلا: لأطوفنّ على نسائى كى ارزق بعدد من الأولاد لعلّهم يساعدوننى فى تحقيق أهدافى، و لكونه غفل عن قول (إن شاء اللّه) بعد تمام حديثه مع نفسه، تلك العبارة التى تبيّن توكّل الإنسان على اللّه سبحانه و تعالى فى كلّ الأمور و الأحوال، فلم يرزق سوى ولد ميّت ناقص الخلقة جىء به و القى على كرسى سليمان عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۵۰۶

يمان عليه السّلام غرق- هنا- فى تفكير عميق، و تألّم لكونه غفل عن اللّه لحظة واحدة و اعتمد على قواه الذاتية، فتاب إلى اللّه و عاد إليه.

و هناك تفسير آخر يمكن طرحه بعد التّفسير الأوّل و هو: إنّ اللّه سبحانه و تعالى امتحن سليمان بمرض شديد، بحيث طرحه على كرسيه كجسد بلا روح من شدّة المرض، و عبارة (جسد بلا روح) مألوفة و دارجة فى اللغة العربية إذ تطلق على الإنسان الضعيف و العليل.

و فى نهاية الأمر تاب سليمان إلى اللّه، و أعاد اللّه إليه صحّته، و عاد كما كان قبل مرضه (و المراد من (أناب) هنا عودة الصحّة و العافية إليه).

بالطبع هناك إشكال ورد على هذا التّفسير إذ أنّ عبارة (ألقينا) كان يجب أن تأتى بصورة (ألقيناه) حتّى تتناسب مع التّفسير المذكور أعلاه، يعنى أنّا ألقينا سليمان على كرسيّه جسدا بلا روح، فى حين أنّ هذه العبارة لم ترد فى الآية بتلك الصورة، و تقديرها مخالف

للظاهر.

عبارة (أناب) فی هذا التّفسیر جاءت بمعنی عودة الصحّة و العافیة إلیه، و هذا أیضا مخالف للظاهر، أمّا إذا اعتبرنا أنّ معنی (أناب) هو التوبة و العودة إلی اللّه، فإنّها لا تلحق أی ضرر بالتّفسیر، و لهذا فإنّ الشیء الوحید المخالف لظاهر الآیة- هنا- هو حذف ضمیر عبارة (ألقیناه).

القصص الکاذبة و القبیحة التی تحدّثت عن فقدان خاتم سلیمان، و عثور أحد الشیاطین علیه، و جلوس ذلک الشیطان علی عرش سلیمان، کما ورد فی بعض الکتب التی لا یستبعد أن یکون مصدرها هو کتاب (التلمود) الیهودی الملیء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۷

بالخرافات الإسرائیلیة بما لا یتناسب مع العقل و المنطق.

و هذه القصص- فی حقیقة الأمر- دلیل انحطاط أفکار مبتدعیها، و لهذا فإنّ المحقّقین المسلمین أینما ذکروها أعلنوا بصراحة زیفها و کونها مجرّد اختلاقات، و قالوا: إنّ مقام النبوّة و الحکومة الإلهیة غیر مرتبط بالخاتم، و لم یستردّ الباری عزّ و جلّ النبوّة من أحد أنبیائه بعد أنّ بعثه بها، حتّی یبعث الشیطان بصورة نبی لیجلس مکان سلیمان (۴۰) یوما یحکم فیها بین الناس و یقضی بینهم [۴۳۶].

علی أیّة حال، فإنّ القرآن الکریم- من خلال الآیة التالیة- یکرّر الحدیث بصورة مفصّلة حول قضیّة توبة سلیمان التی وردت فی آخر عبارة تضمّنتها الآیة السابقة: قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ هَبْ لِی مُلْکاً لا یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ***

هنا یطرح سؤالان:

۱- هل یستشفّ البخل من طلب سلیمان علیه السّلام

ذکر المفسّرون أجوبة کثیرة علی هذا السؤال، الکثیر منها لا یتطابق مع ظاهر الآیات، و الجواب الذی یبدو أکثر تناسبا و منطقیة من بقیّة التفاسیر هو أنّ سلیمان طلب من الباری عزّ و جلّ أن یهب له ملکا مع معجزات خاصّة، کی یتمیّز ملکه عن بقیّة الممالک، لأنّنا نعرف أنّ لکلّ نبی معجزة خاصّة به، فموسی علیه السّلام معجزته العصا و الید البیضاء، و معجزة إبراهیم علیه السّلام عدم إحراق النار له بعد أن القی فیها، و معجزة صالح علیه السّلام الناقة الخاصّة به، و معجزة نبیّنا الأکرم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو القرآن المجید، و سلیمان کان ملکه مقترنا بالمعجزات الإلهیّة، کتسخیر الریاح و الشیاطین له مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۸

ممیّزات اخری.

و هذا الأمر لا یعدّ عیبا أو نقصا بالنسبة للأنبیاء الذین یطلبون من اللّه أن یؤیّدهم بمعجزة خاصّة، کی یبرهنوا للناس علی صدق نبوّتهم، و لهذا فلا یوجد أی مانع فی أن یطلب الآخرون ملکا أوسع و أکبر من ملک سلیمان، و لکن لا تتوفّر فیه الخصائص التی أعطیت لسلیمان.

و الدلیل علی هذا الکلام الآیات التالیة، و التی هی- فی الحقیقة- تعکس استجابة الباریٔ عزّ و جلّ لطلب سلیمان، و تتحدّث عن تسخیر الریاح و الشیاطین لسلیمان، و کما هو معروف فإنّ هذا الأمر هو من خصائص ملک سلیمان.

و من هنا یتّضح جواب السؤال الثانی الذی یقول، وفقا لعقائدنا نحن المسلمون، فإنّ ملک المهدی (عجّل اللّه تعالی فرجه) سیکون ملکا عالیا، و بالنتیجة سیکون أوسع من ملک سلیمان. لأنّ ملک المهدی (عجّل اللّه تعالی فرجه) مع سعته و خصائصه التی تمیّزه عن بقیّة الممالک، فإنّه یبقی من حیث الخصائص مختلفا عن ملک سلیمان، و ملک سلیمان یبقی خاصّا به. خلاصة الأمر أنّ الحدیث لم

يختّص بزيادة و نقصان و توسعة ملكه و طلب الإختصاص به، و إنّما اختصّ الحديث بكمال النبوّة و الذى يتمّ بوجود معجزات خصوصية، لتميّزه عن نبوّة الأنبياء الآخرين، و سليمان كان طلبه منحصرا فى هذا المجال.

و

لقد ورد فى بعض الرّوايات المنقولة عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السّلام فى ردّه على سؤال يقول: إنّ دعوة سليمان فيها بخل، إذ جاء فى الحديث أنّ أحد المقرّبين عن الإمام الكاظم عليه السّلام و هو على بن يقطين سأل الإمام عليه السّلام قائلا: أ يجوز أن يكون نبى اللّه عزّ و جلّ بخيلا؟

فقال: «لا».

فقلت له: فقول سليمان عليه السّلام: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ما وجهه و معناه؟

فقال: «الملك ملكان: ملك مأخوذ بالغلبة و الجور و إجبار الناس، و ملك مأخوذ من قبل اللّه تعالى كملك آل إبراهيم و ملك طالوت و ذى القرنين، فقال سليمان عليه السّلام:

هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى أن يقول إنّه مأخوذ بالغلبة و الجور و إجبار النّاس، فسخّر اللّه عزّ و جلّ له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، و جعل غدوّها شهرا و رواحها شهرا، و سخّر اللّه عزّ و جلّ له الشياطين كلّ بناء و غوّاص، و علّم منطق الطير و مكّن فى الأرض، فعلم الناس فى وقته و بعده أنّ ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل و المالكين بالغلبة و الجور.

قال: فقلت له: فقول رسول اللّه: «رحم اللّه أخى سليمان بن داود ما كان أبخله»؟

فقال: «لقوله عليه السّلام وجهان: أحدهما: ما كان أبخله بعرضه و سوء القول فيه، و الوجه الآخر يقول: ما كان أبخله إن كان أراد ما كان يذهب إليه الجهّال»[۴۳۷].

الآيات التالية تبيّن- كما قلنا- موضوع استجابة اللّه سبحانه و تعالى لطلب سليمان و منحه ملكا يتميّز بامتيازات خاصّة و نعم كبيرة، يمكن إيجازها فى خمسة أقسام:

۱- تسخير الرياح له بعنوان واسطة سريعة السير، كما تقول الآية: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ

من الطبيعى أنّ الملك الواسع الكبير يحتاج إلى واسطة اتّصال سريعة، كى يتمكّن صاحب ذلك الملك من تفقّد كلّ مناطق مملكته بسرعة فى الأوقات الضرورية، و هذا الامتياز منحه البارى عزّ و جلّ لسليمان عليه السّلام.

أمّا كيف كانت الرياح تطيع أوامره؟

و بأى سرعة كانت تسير؟

و على أى شىء كان سليمان و أصحابه يركبون أثناء انتقالهم من مكان إلى آخر عبر الرياح؟

و ما هى العوامل التى كانت تحفظهم من السقوط و من انخفاض و ارتفاع ضغط الهواء، و غيرها من المشاكل.

خلاصة الأمر: ما هى هذه الواسطة السريّة و ذات الأسرار الخفيّة التى كانت موضوعة تحت تصرّف سليمان فى ذلك العصر؟

تفاصيل هذه التساؤلات ليست واضحة بالنسبة لنا، و كلّ ما نعرفه أنّ تلك الأمور الخارقة توضع تحت تصرّف الأنبياء لتسهّل لهم القيام بمهامهم. و هذه القضايا ليست بقضايا عادية، و إنّما هى نعم خارقة و معجزات، و هذه الأشياء تعدّ شيئا بسيطا فى مقابل قدرة البارى عزّ و جلّ، و ما أكثر المسائل التى نعرف أصلها فى الوقت الذى لا نعرف أى شىء عن جزئياتها.

و هنا يطرح سؤال، و هو: كيف يمكن أن تتطابق عبارة (رخاء) الواردة فى هذه الآية، و التى تعنى (اللين) مع عبارة (عاصفة) و التى تعنى الرياح الشديدة و الواردة فى الآية (۸۱) من سورة الأنبياء: وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها.

لهذا السؤال جوابان:

الأوّل: وصف الرياح بالعاصفة لبيان سرعة حركتها، و وصفها بالرخاء لبيان حركتها الهادئة و الرتيبة، أى إنّ سليمان و أصحابه لم يكونوا يشعرون بأىّ انزعاج من جرّاء حركة الرياح السريعة، فهى كالوسائل السريعة السير الموجودة حاليا، التى يشعر الإنسان معها كأنّه جالس فى إحدى غرف بيته، بينما تسير به تلك الوسيلة بسرعة عالية جدّا.

و قد ذكر بعض المفسّرين جوابا آخر على ذلك السؤال، و هو: إنّ هاتين الآيتين تشيران إلى نوعين من الرياح سخّرهما اللّه سبحانه و تعالى لسليمان، إحداهما كانت سريعة السير، و الثانية بطيئة.

۲- النعمة الاخرى التى أنعمها البارئ عزّ و جلّ على عبده سليمان عليه السّلام، هى

تسخير الموجودات المتمردة و وضعها تحت تصرّف سليمان لتنجز له بعض الأعمال التى يحتاجها وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ [۴۳۸].

أى إنّ مجموعة منها منشغلة فى البرّ ببناء ما يحتاج إليه سليمان من أبنية، و اخرى منشغلة بالغوص فى البحر.

و بهذا الشكل فإنّ اللّه وضع تحت تصرّف سليمان قوّة مستعدّة لتنفيذ ما يحتاج إليه، فالشياطين- التى من طبيعتها التمرّد و العصيان- سخّرت لسليمان لتبنى له، و لتستخرج المواد الثمينة من البحر.

و مسألة تسخير الشياطين لسليمان و تنفيذها لما يحتاج إليه، لم ترد فى هذه الآية فقط، و إنّما وردت فى عدّة آيات من آيات القرآن المجيد، و لكن فى بعض الآيات- كالآية التى هى مورد بحثنا و الآية (۸۲) من سورة الأنبياء استخدمت كلمة (الشياطين) فيها، فيما استخدمت كلمة (الجنّ) فى الآية (۱۲) من سورة سبأ.

و كما قلنا سابقا فإنّ (الجنّ) موجودات مخفية عن أنظارنا، و لها عقول و شعور و قدرة، و بعضها مؤمن و بعضها الآخر كافر، و لا يوجد هناك أى مانع من أن توضع- بأمر من اللّه- تحت تصرّف بعض الأنبياء، لتنجز له بعض الأعمال.

و هناك احتمال وارد أيضا، و هو أنّ كلمة الشياطين لها معنى واسع قد يشمل حتّى العصاة من البشر، و قد استخدم هذا المعنى فى الآية (۱۱۲) من سورة الأنعام، و بهذا الترتيب فإنّ اللّه سبحانه و تعالى منح سليمان قوّة جعلت حتّى المتمردّين العصاة ينصاعون لأوامره.

۳- النعمة الاخرى التى أنعمها البارى عزّ و جلّ على سليمان، هى سيطرته على مجموعة من القوى التخريبيّة، لأنّ هناك من بين الشياطين من لا فائدة فيه، و لا سبيل أمام سليمان سوى تكبيلهم بالسلاسل، كى يبقى المجتمع فى أمان من

شرورهم، كما جاء فى القرآن المجيد وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ[۴۳۹].

«مقرّنين» مشتقّة من (قرن) و هى تشير إلى ربط الأيدى و الأرجل أو الرقاب بالسلاسل.

«أصفاد» جمع (صفد) على وزن (مطر) و تعنى القيود التى تكبّل بها أيدى السجناء.

و قال البعض: إنّ عبارة مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ تعنى الجامعة التى تجمع بين الرقبة و اليدين، و هذا المعنى قريب من معنى «مقرنين» اللغوى و أكثر مناسبة له.

و هناك رأى آخر محتمل، و هو أنّ المقصود من هذه العبارة هو أنّ كلّ مجموعة منهم مغلولة بسلسلة واحدة.

و هنا يطرح هذا السؤال: إن كان المراد من الشياطين هم شياطين الجنّ، فإنّ أولئك لهم جسم شفّاف لا يتناسب مع استخدام الأغلال و السلاسل و القيود.

لهذا قال البعض: إنّها كناية عن اعتقال و منع تلك الشياطين من أداء أى نشاط تخريبى، و إن كان المقصود من الشياطين هم المتمردون و العصاة من بنى آدم فإنّ الأغلال و القيود تبقى محافظة على مفهومها الأصلى، أى إنّ استخدامها هنا وارد.

۴- النعمة الرابعة التی أنعمها اللّه سبحانه و تعالی علی نبیّه سلیمان هی إعطاؤه الصلاحیات الواسعة و الکاملة فی توزیع العطایا و النعم علی من یرید، و منعها عمّن یرید حسب ما تقتضیه المصلحة، هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ بِغَیْرِ حِسابٍ

عبارة بِغَیْرِ حِسابٍ إمّا أن تکون إشارة إلی أنّ الباریٔ عزّ و جلّ قد أعطی لسلیمان صلاحیات واسعة لن تکون مورد حساب أو مؤاخذة، و ذلک لصفة العدالة التی کان یتمتّع بها سلیمان فی مجال استخدام تلک الصلاحیات، أو أنّ العطاء الإلهی لسلیمان کان عظیما بحیث أنّه مهما منح منه فإنّه یبقی عظیما و کثیرا.

و قال بعض المفسّرین: إنّ هذه العبارة تخصّ- فقط- الشیاطین المقرنین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۳

بالأصفاد، و تخاطب سلیمان بأنّه یستطیع إطلاق سراح أی منهم (إن رأی فی ذلک صلاحا، و إبقاء من یشاء فی قیوده إن رأی الصلاح فی ذلک.

إلّا أنّ هذا المعنی مستبعد، لأن لا یتلاءم مع ظاهر کلمة (عطائنا).

۵- و النعمة الخامسة و الأخیرة التی منّ اللّه سبحانه و تعالی بها علی سلیمان، هی المراتب المعنویة اللائقة التی شملته، کما ورد فی آخر آیة من آیات بحثنا وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفی وَ حُسْنَ مَآبٍ

هذه الآیة- فی الحقیقة- هی الردّ المناسب علی أولئک الذین یدنّسون قدسیة أنبیاء اللّه العظام بادّعاءات باطلة و واهیة یستقونها من کتاب التوراة الحالی المحرّف، و بهذا الشکل فإنّها تبرئ ساحته من کلّ تلک الاتّهامات الباطلة و المزیّفة، و تشید بمرتبته عند الباریٔ عزّ و جلّ، حتّی أنّ عبارة حُسْنَ مَآبٍ التی تبشّره بحسن العاقبة و المنزلة الرفیعة عند اللّه، هی- فی نفس الوقت- إشارة إلی زیف الادّعاءات المحرّفة التی نسبتها کتب التوراة إلیه، و التی تدّعی أنّ سلیمان انجرّ فی نهایة الأمر إلی عبادة الأصنام إثر زواجه من امرأة تعبد الأصنام، و عمد إلی بناء معبد للأصنام، إلّا أنّ القرآن الکریم ینفی و یدحض کلّ تلک البدع و الخرافات.

***

ملاحظتان

۱- الحقائق التی تبیّنها لنا قصّة سلیمان

من دون أیّ شکّ، إنّ القرآن الکریم یهدف من ذکر تاریخ الأنبیاء إتمام برامج التربیة من خلال عکس عین الحقائق فی هذه القصص.

و من جملة الأمور التی رسمتها قصّة سلیمان، ما یلی:

أ: إنّ إمساکه بزمام امور مملکة قویّة ذات إمکانیات مادیّة و اقتصادیّة واسعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۴

و حضارة ساطعة لا تتنافی مع المقامات المعنویة و القیم الإلهیة و الإنسانیة، کما ذکرت ذلک الآیات المذکورة أعلاه بعد انتهائها من سرد النعم المادیّة التی أجزلها اللّه علی سلیمان، إذ یقول القرآن المجید: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفی وَ حُسْنَ مَآبٍ

و

فی حدیث ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، قال فیه: «أرأیتم ما اعطی سلیمان بن داود من ملکه؟ فإنّ ذلک لم یزده إلّا تخشعا، ما کان یرفع بصره إلی السماء تخشعا لربّه»[۴۴۰]!

ب: لإدارة شؤون مملكته كبيرة مترامية الأطراف، يجب توفّر وسيلة سريعة للاتّصال، كما ينبغى الاستفادة من الطاقات المختلفة، و الحيلولة دون نفوذ القوى المخرّبة، و الاهتمام بالقضايا العمرانية، و الحصول على الأموال عن طريق استخراج الثروات من البرّ و البحر، و وضع الإمكانات تحت تصرّف الولاة و العمّال المناسبين و الجديرين بتسلّم المناصب، كلّ هذه الأمور عكستها قصّة سليمان بصورة واضحة.

ج: الاستفادة من القوى البشرية بأقصى حدّ ممكن، بل و يمكن الاستفادة حتّى من الشياطين، إذ يمكن توجيهها و إرشادها للطريق الصحيح، و غلّ و تصفيد المتبقّى منها الذى لا يستفاد منه.

۲– سليمان فى القرآن و التوراة

القرآن المجيد وصف نبى اللّه سليمان فى الآيات المذكورة أعلاه بأنّه إنسان طاهر و صاحب قيم و مدبّر و عادل.

فى حين وصفه كتاب التوراة الحالى المحرّف (و العياذ باللّه) بأنّه رجل فاجر مطيع لهوى نفسه و ذو نقاط ضعف كثيرة. و العجيب فى الأمر أنّه استعرض إلى جانب هذه الصفات الكاذبة و المزيّفة مناجاة سليمان لربّه و أشعاره الدينيّة و أمثاله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۵

و حكمه، و التى تشهد على أنّه رجل حكيم و حرّ، و هذا تناقض عجيب يشاهد فى كتاب التوراة المحرّف الحالى.

و لمن يريد الاطلاع أكثر بهذا الشأن يمكنه مراجعة تفسير الآيات ۱۲ و ۱۳ و ۱۴ من سورة سبأ، و الذى جاء تحت عنوان (صور سليمان فى القرآن و كتاب التوراة الحالى المحرّف).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۶

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (۴۱) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (۴۲) وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (۴۳) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۴۴)

التّفسير

حياة أيّوب المليئة بالحوادث و العبر:

الآيات السابقة تحدّثت عن سليمان عليه السّلام و عن القدرة التى منحها إيّاه البارئ عزّ و جلّ، و التى كانت بمثابة البشرى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لمسلمى مكّة الذين كانوا يعيشون تحت ضغوط صعبة.

آيات بحثنا هذا تتحدّث عن أيّوب الذى كان أنموذجا حيّا للصبر و الاستقامة، و ذلك لتعطى درسا لمسلمى ذلك اليوم و يومنا الحاضر و غدا، درسا فى مقاومة مشاكل و صعاب الحياة، و لتدعوهم إلى الاتّحاد و التعاون، كما وضّحت العاقبة المحمودة للصبر و الصابرين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۷

و أیّوب هو ثالث نبی من أنبیاء اللّه تستعرض هذه السورة (سورة ص) جوانب من حیاته، و هی بذلک تدعو رسولنا الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی تذکّر هذه القصّة، و حکایتها للمسلمین، کی یصبروا علی المشاکل الصعبة التی کانت تواجههم، و لا ییأسوا من لطف و رحمة اللّه.

اسم «أیّوب» أو قصّته وردت فی عدّة سور من سور القرآن المجید، منها الآیة (۱۶۳) فی سورة النساء، و الآیة (۸۴) فی سورة الأنعام التی ذکرت اسمه فی قائمة أنبیاء اللّه الآخرین، و بیّنت و أثبتت مقام نبوّته، بخلاف کتاب التوراة الحالی الذی لم یعتبره من الأنبیاء، و إنّما اعتبره أحد عباد اللّه المحسنین و الأثریاء و ذا عیال کثیرین.

کما أنّ الآیات (۸۳) و (۸۴) فی سورة الأنبیاء استعرضت بصورة مختصرة جوانب من حیاة أیّوب علیه السّلام، أمّا آیات بحثنا هذه فإنّها تستعرض حیاته بصورة مفصّلة أکثر من أیّ سورة اخری من خلال أربعة آیات:

فالاولی تقول: وَ اذْکُرْ عَبْدَنا أَیُّوبَ إِذْ نادی رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِیَ الشَّیْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ

«نصب» علی وزن (عسر)، و (نصب) علی وزن (حسد)، و کلاهما بمعنی البلاء و الشرّ.

هذه الآیة تبیّن أوّلا- علوّ مقام أیوب عند الباری عزّ و جلّ، و ذلک من خلال کلمة «عبدنا»، و ثانیا فإنّها تشیر بصورة خفیّة إلی الابتلاءات الشدیدة التی لا تطاق، و إلی الألم و العذاب الذی مسّ أیّوب علیه السّلام.

و لم یرد فی القرآن الکریم شرحا مفصّلا لما جری علی أیّوب علیه السّلام، و إنّما نقرأ فی کتب الحدیث المعروفة و التفاسیر تفاصیل هذه القصّة.

ففی تفسیر نور الثقلین نقرأ أنّ أبا بصیر سأل الإمام الصادق عن بلیّة أیّوب التی ابتلی بها فی الدنیا لأیّ علّة کانت؟ (لعلّ السائل کان یظنّ أنّ أیّوب ابتلی بما ابتلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۸

به لمعصیة ارتکبها) فأجاب علیه السّلام

بقوله: «لنعمة أنعم اللّه عزّ و جلّ علیه بها فی الدنیا و أدّی شکرها، و کان فی ذلک الزمان لا یحجب إبلیس دون العرش، فلمّا صعد و رأی شکر نعمة أیّوب علیه السّلام حسده إبلیس، فقال: یا ربّ، إنّ أیّوب لم یؤدّ إلیک شکر هذه النعمة إلّا بما أعطیته من الدنیا، و لو حرمته دنیاه ما أدّی إلیه شکر نعمة أبدا، فسلّطنی علی دنیاه حتّی تعلم أنّه لم یؤدّ إلیک شکر نعمة أبدا».

(و لکی یوضّح الباری‌ء عزّ و جلّ إخلاص أیّوب للجمیع، و یجعله نموذجا حیّا للعالمین حتّی یشکروه حین النعمة و یصبروا حین البلاء، سمح الباری عزّ و جلّ للشیطان فی أن یتسلّط علی دنیا أیّوب).

«فقال له الباری عزّ و جلّ: قد سلّطتک علی ماله و ولده، قال: فانحدر إبلیس فلم یبق له مالا و لا ولدا إلّا أعطبه (أی أهلکه) فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا. قال:

فسلّطنی علی زرعه یا ربّ، قال: قد فعلت، فجاء مع شیاطینه فنفخ فیه فاحترق، فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا، فقال: یا ربّ سلّطنی علی غنمه، فسلّطه علی غنمه فأهلکها، فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا، فقال: یا ربّ سلّطنی علی بدنه فسلّطه علی بدنه ما خلا عقله و عینیه، فنفخ فیه إبلیس فصار قرحة واحدة من قرنه إلی قدمه، فبقی فی ذلک دهرا طویلا یحمد اللّه و یشکره».

(و لکن وقعت حادثة کسرت قلبه و جرحت روحه جرحا عمیقا، و ذلک عند ما زارته مجموعة من رهبان بنی إسرائیل).

«و قالوا له: یا أیّوب لو أخبرتنا بذنبک لعلّ اللّه کان یهلکنا إذا سألناه، و ما نری ابتلاک بهذا الابتلاء الذی لم یبتل به أحد إلّا من أمر کنت تستره؟ فقال أیّوب علیه السّلام:

و عزّة ربّی لم أرتکب أی ذنب، و ما أکلت طعاما إلّا و یتیم أو ضعیف یأکل معی»[۴۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۹

حقّا إنّ شماتة أصحابه كانت أكثر ألما عليه من أيّة مصيبة اخرى حلّت به، و رغم هذا لم يفقد أيّوب صبره، و لم يلوّث شكره الصافى كالماء الزلال بالكفر، و إنّما توجّه إلى البارئ عزّ و جلّ و ذكر العبارة التى ذكرناها آنفا، أى قوله تعالى:

أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ و لكونه خرج من الامتحان الإلهى بنتيجة جيّدة، فتح البارى عزّ و جلّ- مرّة اخرى- أبواب رحمته على عبده الصابر المتحمّل أيّوب، و أعاد عليه النعم التى افتقدها الواحدة تلو الاخرى، لا بل أكثر ممّا كان يمتلك من المال و الزرع و الغنم و الأولاد، و ذلك كى يفهم الجميع العاقبة الحسنة للصبر و التحمّل و الشكر.

بعض كبار المفسّرين، احتملوا أنّ الوساوس التى وسوس بها الشيطان فى قلب أيّوب هى المقصودة من أذى و عذاب الشيطان لأيّوب، إذ كان يقول له أحيانا: لقد طالت فترة مرضك، و يبدو أنّ ربّك قد نسيك! و أحيانا كان يقول له: ما زلت تشكر اللّه رغم أنّه أخذ منك النعم العظيمة و السلامة و القوّة و القدرة! يحتمل أنّهم ذكروا هذا التّفسير لكونهم يستبعدون إمكانية تسلّط الشيطان على الأنبياء كأيّوب، و لكن مع الانتباه إلى أنّ هذه السلطة: أوّلا: كانت بأمر من اللّه.

و ثانيا: محدودة و مؤقتة. و ثالثا: لامتحان هذا النّبى الكبير و رفع شأنه، فلا إشكال فى ذلك.

على أيّة حال، قيل: إنّ فترة ألمه و عذابه و مرضه كانت سبع سنين، و فى رواية اخرى قيل: إنّها كانت (۱۸) سنة، و حالته و صلت إلى حدّ بحيث تركه أصحابه و حتّى أقرب المقربين إليه، عدا زوجته التى صمدت معه و أظهرت وفاءها له. و هذا شاهد على وفاء بعض الزوجات! و أشدّ ما آذى و آلم روح أيّوب عليه السّلام من بين ذلك الأذى و العذاب الذى مرّ به، هو شماتة أعدائه، لذا فقد جاء فى إحدى الروايات أنّ أيّوب عليه السّلام سئل بعد ما عافاه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۰

اللّه، أىّ شىء كان أشدّ عليك ممّا مرّ؟ فقال: شماتة الأعداء.

فى النهاية خرج أيّوب عليه السّلام سالما من بودقة الامتحان الإلهى، و نزول الرحمة الإلهيّة عليه يبدأ من هنا، إذ صدر إليه الأمر ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ

«اركض» مشتقّة من (ركض) على وزن (فقر و تعنى دكّ الأرض بالرجل، و أحيانا تأتى بمعنى الركض، و هنا تعطى المعنى الأوّل.

فاللّه الذى فجّر عين زمزم فى صحراء يابسة و حارقة تحت أقدام الطفل الرضيع إسماعيل، هو الذى أصدر أمرا بتفجّر عين باردة لأيّوب ليشرب منها و يغتسل بمائها للشفاء من كافّة الأمراض التى أصابته (الظاهرية و الباطنية).

و يرى البعض أنّ تلك العين عبارة عن ماء معدنى صالح للشرب، و فيه شفاء لكلّ الأمراض، و مهما كان فإنّه من لطف اللّه و رحمته النازلة على نبيّه الصابر المقاوم أيّوب عليه السّلام.

(مغتسل) يعنى الماء الذى يغسل به، و قال البعض: إنّها تعنى محل الغسل، لكنّ المعنى الأوّل أصحّ.

و على أيّة حال، فإنّ وصف ذلك الماء بالبارد، قد يكون إشارة إلى التأثيرات الخاصّة التى يتركها الماء البارد على سلامة الجسم، و ذلك ما أثبته الطبّ الحديث اليوم. إضافة إلى أنّه إشارة لطيفة إلى أنّ كمال ماء الغسل يتمّ إن كان طاهرا و نظيفا كماء الشرب.

و الشاهد على هذا ما جاء فى الروايات من استحباب شرب جرعة من الماء قبل الاستحمام به ۴۴۲].

النعمة المهمّة الاولى التى أعيدت على أيّوب هى العافية و الشفاء و السلامة، أمّا بقيّة النعم التى أعيدت عليه، فاستعرضها القرآن المجيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۱

وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ

و عن كيفية عودة عائلته إليه؟ وردت تفاسير متعدّدة، أشهرها يقول: إنّهم كانوا أمواتا فأحياهم اللّه مرّة اخرى.

و لکن البعض قال: إنّهم کانوا قد تفرّقوا عنه أیّام ابتلائه بالمرض، فجمعهم اللّه إلیه بعد برئه.

و یحتمل أنّ جمیعهم أو بعضهم ابتلی بمختلف أنواع الأمراض، و قد شملتهم الرحمة الإلهیة و عادت إلیهم صحّتهم و عافیتهم، لیجتمعوا مرّة اخری حول أیّوب.

أمّا قوله تعالی: وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ فإنّها إشارة إلی تناسلهم و زیادة عددهم إلی الضعف، و بهذا إزداد عدد أبناء أیّوب إلی الضعف.

و رغم أنّ الآیات لا تتطرّق إلی إعادة أموال أیّوب إلیه، و لکن الدلائل کلّها تبیّن أنّ الباریٔ عزّ و جلّ أعاد إلیه أمواله و أکثر من السابق.

الذی یلفت النظر فی آخر الآیة- محلّ البحث- أنّ هدف إعادة النعم الإلهیّة علی أیّوب تحدّد بأمرین:

الأوّل: (رحمة منّا) و التی کان لها صبغة فردیة، و فی الحقیقة إنّها مکافأة و جائزة من الباریٔ عزّ و جلّ لعبده الصابر المقاوم أیّوب.

و الثّانی: إعطاء درس لکلّ أصحاب العقول و الفکر علی طول التأریخ لأخذ العبر من أیّوب، کی لا یفقدوا صبرهم و تحمّلهم عند تعرّضهم للمشاکل و الحوادث الصعبة، و أن لا ییأسوا من رحمة اللّه، بل یزیدوا من أملهم و تعلّقهم به.

المشکلة الوحیدة التی بقیت لأیّوب علیه السّلام هی قسمه بضرب زوجته، إذ کان قد أقسم أیّام مرضه لئن بریء من مرضه لیجلدنّ امرأته مائة جلدة أو أقل لأمر أنکره علیها، و لکن بعد ما بریء من مرضه رغب أیّوب فی العفو عنها احتراما و تقدیرا لوفائها و لخدماتها التی قدّمتها إلیه أیّام مرضه، و لکن مسألة القسم باللّه کانت تحول دون ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۲

و هنا شمل الباریٔ عزّ و جلّ أیّوب علیه السّلام مرّة اخری بألطافه و رحمته، و ذلک عند ما أوجد حلّا لهذه المشکلة المستعصیة علی أیّوب وَ خُذْ بِیَدِکَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ

«ضغث» تعنی ملء الکفّ من الأعواد الرقیقة، کسیقان الحنطة و الشعیر أو الورد و ما شابهها.

و عن الأمر الذی أنکرته زوجة أیّوب علی زوجها و التی تدعی (لیا) بنت یعقوب، فقد اختلف المفسّرون فی تفسیره ...

فقد نقل عن (ابن عبّاس) أنّ الشیطان ظهر بصورته الطبیعیة لزوجة أیّوب، و قال لها: إنّی أعالج زوجک بشرط أن تقولی حینما یتعافی: إنّی الوحید الذی کنت السبب فی معافاته، و لا أرید أیّ اجرة علی معالجته ... الزوجة التی کانت متألّمة و متأثّرة بشدّة لاستمرار مرض زوجها وافقت علی الاقتراح، و عرضته علی زوجها أیّوب فیما بعد، فتأثّر أیّوب کثیرا لوقوع زوجته فی شرک الشیطان، و حلف أن یعاقب زوجته.

و قال البعض إنّ أیّوب بعث زوجته لمتابعة عمل ما، فتأخّرت فی العودة إلیه، فتأثّر أیّوب الذی کان یعانی من آلام المرض، و حلف أن یعاقب زوجته.

علی أیّة حال، فإنّ زوجته کانت تستحقّ الجزاء من هذا الجانب، أمّا من جانب وفائها و خدمتها أیّوب طوال فترة مرضه فإنّه یجعلها تستحقّ العفو أیضا.

حقّا إنّ ضربها بمجموعة من سیقان الحنطة أو الشعیر لا تعطی مصداقا واقعیا لحلفه، و لکنّه نفّذ هذا الأمر لحفظ احترام اسم اللّه، و الحیلولة دون إشاعة مسألة انتهاک القوانین، و هذا الأمر ینفّذ فقط بشأن الطرف الذی یستحقّ العفو، و فی الموارد الاخری التی لا تستحقّ العفو لا یجوز لأحد القیام بمثل هذا العمل [۴۴۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۳

الآیة الأخیرة فی بحثنا هذا- التی هی بمثابة عصارة القصّة من أوّلها حتّی آخرها- تقول: إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

و من الواضح أنّ دعاء أیّوب الباریٔ عزّ و جلّ، و طلبه دفع الوساوس الشیطانیة عنه، و رفع البلاء و المرض عنه، کلّ هذه لا تتنافی مع مقام صبره و تحمّله، ذلک الصبر و التحمّل الذی استمرّ لمدّة سبع سنین، و فی روایات اخری لمدّة ثمانیة عشر عاما- للأوجاع و

الأمراض و الفقر و العسر و استمرار الشكر.

الذى يلفت النظر فى هذه الآية أنها أعطت ثلاثة أوصاف لأيّوب، كلّ واحد منها إن توفّر فى أى إنسان فهو إنسان كامل.

أوّلا: مقام عبوديته.

ثانيا: صبره و تحمّله و ثباته.

ثالثا: إنابته المتكرّرة إلى اللّه.

***

بحوث

۱- دروس مهمّة فى قصّة أيّوب

رغم أنّ قصة هذا النّبى الصابر أدرجت فى أربع آيات فى هذه السورة، إلّا أنّها وضّحت حقائق مهمّة، منها:

أ- الامتحان الإلهى واسع و كبير جدّا و يشمل حتّى الأنبياء الكبار، إذ يكون امتحانهم أشدّ و أصعب من الآخرين، لأنّ طبيعة الحياة فى هذه الدنيا بنيت على هذا الأساس، و من دون هذا الامتحان فإنّ الإمكانيات و الطاقات الكامنة فى الإنسان لا تتفجّر.

ب- الفرج بعد الشدّة نقطة اخرى تمكن فى مجريات هذه القصّة، فعند ما تشتدّ أمواج الحوادث و البلاء على الإنسان و تحيط به من كلّ جانب، عليه أن لا ييأس

و يفقد الأمل، و إنّما عليه أن يدرك أنّها بداية تفتح أبواب الرحمة الإلهية عليه، كما

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام: «عند تناهى الشدّة تكون الفرجة، و عند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء»[۴۴۴].

ج- مجريات هذه القصّة توضّح بصورة جيّدة بعض غايات البلاء و الحوادث الصعبة فى الحياة، و تجيب على من يرى فى وجود الآفات و البلايا تناقضا مع برهان النظم فى بحوث التوحيد، لأنّ وجود مثل هذه الحوادث الصعبة و الشديدة فى حياة الإنسان- من أنبياء اللّه الكبار و حتّى عموم الناس- يعدّ أمرا ضروريا، فالامتحان- كما ذكرنا- يفجّر طاقات الإنسان الكامنة، و يوصله فى آخر الأمر إلى التكامل فى وجوده.

لذا

فقد ورد فى الروايات الإسلامية عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ أشد الناس بلاء الأنبياء، ثمّ الذين يلونهم، الأمثل فالأمثل»[۴۴۵].

كما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ فى الجنّة منزلة لا يبلغها عبد إلّا بالابتلاء»[۴۴۶].

د- أحداث هذه القصّة تعطى درسا فى الصبر لكلّ المؤمنين الواقعيين الرساليين، الصبر و التحمّل الذى يعقبه الظفر و الإنتصار فى كلّ المجالات، و نيل المقام المحمود و المنزلة الرفيعة عند البارئ عزّ و جلّ.

ه- أحيانا يكون إمتحان شخص ما، هو إمتحان فى نفس الوقت لأصدقائه و للمحيطين به، كى يعرف حجم صداقتهم و محبّتهم إيّاه، و مقدار وفائهم له، فعند ما فقد أيّوب أمواله و ثرواته و صحّته تفرّق عنه أصحابه، و لم يكتفوا بالابتعاد عنه، و إنّما اتّحدت ألسنتهم مع ألسنة أعدائه فى الشماتة به و إلقاء اللائمة عليه، و كشفوا

بفعلتهم هـذه عن حقيقـة أنفسـهم، و كما لاحظنا فإنّ أيّوب كان يتألّم من جراح ألسـنتهم أكثر من تألّمه من مرضه، و الشـعر المعروف يقول:

جراحات السنان لها التيامو لا يلتام ما جرح اللسان

جراح الكلام ليس لها التئام.

و- أحبّاء اللّه ليسوا من يـذكر اللّه عنـد الرخاء، و إنّما أحبّاء اللّه الواقعيون هم أولئك الذين يذكرون اللّه دائما فى السـرّاء و الضـرّاء، و فى البلاء و النعمهٔ، و فى المرض و العافيهٔ، و فى الفقر و الغنى، و إنّ تأثيرات الحياهٔ الماديّهٔ لا تترك على إيمانهم و أفكارهم أدنى أثر. قال أمير المؤمنين عليه السّـلام فى خطبته الخاصّـهٔ بوصف المتّقين التى بيّنها لصاحبه المخلص «همام» و اسـتعرض فيها أكثر من (۱۰۰) صفهٔ للمتّقين، قال فى إحدى تلك الصفات:

«نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء».

ز- هـذه القصّـهٔ أكّـدت مرّهٔ اخرى حقيقـهٔ أنّ فقـدان الإمكانـات الماديّـهٔ، و نزول المصـائب، و حلول المشاكل و الفقر، لا تعنى عـدم شمول الإنسان بلطف البارئ عزّ و جلّ، كما أنّ امتلاك الإمكانات الماديّهٔ ليس دليلا على بعد الإنسان عن اللّه سبحانه و تعالى، و إنّما يمكن أن يكون الإنسـان عبـدا مقرّبـا للّه مع امتلاـكه للكثير من الإمكانات الماديّـهٔ، بشـرط أن لا يكون عبـدا لأمواله و أولاده و مقامه الدنيوى، و إنّ فقدها لا يفقد الصبر معها.

۲- أيّوب عليه السّلام فى القرآن و التوراهٔ

رغم أنّ البـارئ عزّ و جـلّ أشـاد بـالروح الكـبيرهٔ لهـذا النّبى الكبير الـذى هو مظهر الصبر و التحمّـل فى قرآنه المجيـد فى أوّل القصّـهٔ الخاصـهٔ به و فى آخرها. فإنّ قصّـهٔ هـذا النّبى الكبير- ممّا يؤسف له- لم تحفظ من أيـدى الجهلـهٔ و الأعـداء، حيث دسّوا فيها خرافات تافههٔ لا تليق بمقامه المحمود المنزّه عنها و المطهّر منها، و من تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۶

الخرافات القول بأنّ الدود غطّى بدنه أثناء فترهٔ مرضه، و تعفّن جسده، بحيث أنّ أهل قريته ضاقوا به ذرعا و أخرجوه من قريتهم.

و دون أدنى شـكّ، فـإنّ مثـل هـذه الروايـات مزيّفـهٔ رغم ورودها فى طيّات كتب الحـديث، لأنّ رسالـهٔ الأنبياء تفرض أن يكون النّبى المرسـل- فى أى زمـان- بعيـدا عن مثـل تلـك التقوّلات، كى ينجـذب إليه الناس برغبـهٔ و شوق، و أن لا تتوفّر فيه أشـياء تكون سـببا لتنفّرهم فيه و ابتعادهم عنه، كالأمراض و العيوب الجسديـهٔ و الأخلاق السـيّئهٔ، لأنّها تتناقض مع فلسـفهٔ الرسالـهٔ، فالقرآن المجيـد يقول بشأن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآيهٔ (۱۵۹) من سورهٔ عمران: فَبِما رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

و هـذه الآيـهٔ دليل على أنّ النّبى يجب أن لا يكون بحالـهٔ تجعل المحيطين به يتفرّقون عنه. و لكن ورد فى التوراهٔ جزء خاص بأيّوب و قبـل موضوع (مزامير داود) و هـذا الجزء يشـتمل على (۴۲) فصـلا، كلّ فصل يشـرح مواضـيع مختلفـهٔ، و قد وردت فى بعض الفصول مواضـيع سيّئهٔ و قبيحـهٔ، و منها ما ورد فى الفصل الثالث و الـذى يقول: إنّ أيّوب كان كثير الشـكوى، فى حين أنّ القرآن الكريم كان يعظّم و يشيّد بمقام صبره و تحمّله.

۳- إطلاق صفهٔ (أوّاب) على الأنبياء الكبار

ثلاثة أنبياء كبار أطلقت عليهم صفة (أوّاب) فى هذه السورة، و هم: داود و سليمان و أيّوب، و فى سورة (ق) فى الآية (۳۲) اطلق هذا الوصف على كلّ أهل الجنّة، قوله تعالى: هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ.

هذه العبارات تبيّن أنّ مقامه فى المقام الأعلى، و عند ما نرجع إلى مصادر اللغة نشاهد أنّ كلمة (أوّاب) مشتقّة من كلمة (أوب) و تعنى الرجوع و العودة.

و هذا الرجوع و العودة (خاصّة و أنّ كلمة (أوّاب) هى اسم مبالغة تعنى كثرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۷

الرجوع و تكراره) يشير إلى أنّ الأوّابين حسّاسون جدّا تجاه الأسباب و العوامل التى تبعدهم عن اللّه، كالرزق و بريق الزخارف الدنيوية فى أعينهم، و وساوس النفس و الشيطان، و إن ابتعدوا لحظة واحدة عن اللّه عادوا إليه بسرعة، و إن غفلوا عنه لحظة تذكروه و سعوا فى جبرانها.

هذه العودة يمكن أن تكون بمعنى العودة إلى طاعة أوامر اللّه و اجتناب نواهيه، أى أنّ أوامره هى مرجعهم و سندهم أينما كانوا.

و كلمة (أوّاب) التى جاءت فى الآية العاشرة من سورة سبأ يا جِبالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ الطَّيْرَ و الخاصّة بداود- أيضا- تعطى معنا آخر، و هو ترديد الصوت، إذ أنّ الأوامر صدرت إلى الجبال و الطيور أن ردّدى الصوت مع داود، و لهذا فإنّ (أوّاب) تعنى كلّ من يردّد الأوامر الإلهيّة و التسبيح و الحمد الذى تردّده كلّ موجودات الكون حسب قوانين الخلقة، و ممّا يذكر أنّ أحد معانى كلمة (أيّوب) هى (أوّاب).

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۸

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴۵ الى ۴۸]

اشارة

وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِی الْأَيْدِی وَ الْأَبْصارِ (۴۵) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (۴۶) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (۴۷) وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (۴۸)

التّفسير

الأنبياء الستّة:

متابعة للآيات السابقة التى تطرّقت باختصار إلى حياة (داود) و (سليمان) و بصورة أكثر اختصارا لحياة (أيّوب) إذ بيّنت أهم النقاط البارزة فى حياة هذا النّبى الكبير، و تستعرض آيات بحثنا هذا أسماء ستّة من أنبياء اللّه، و توضّح بصورة مختصرة بعض صفاتهم البارزة التى يمكن أن تكون أنموذجا حيّا لكلّ بنى الإنسان.

و الذى يلفت الانتباه، هو أنّ هذه الآيات استعرضت ستّ صفات مختلفة لأولئك الأنبياء الستّة، و لكلّ صفة معناها و مفهومها الخاصّ بها.

ففى البداية تخاطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۹

وَ يَعْقُوبَ

مقام العبودية هو أوّل ميزة لأولئك الأنبياء، و حقّا فإنّ كلّ شيء جمع في هذه الصفة فالعبودية للّه تعني التبعية المطلقة له، و تعني الاستسلام الكامل لإرادته، و الاستعداد لتنفيذ أوامره في كلّ الأحوال.

العبودية للّه تعني عدم الاحتياج لغيره، و عدم التوجّه لسواه، و التكفير بلطفه و رحمته فقط، هذا هو أوج تكامل الإنسان و أفضل شرف له.

ثمّ تضيف الآية: أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ.

إنّه لتعبير مثير للعجب؟ أصحاب الأيدي و الأبصار! «أيدي» جمع (يد)، و (أبصار) جمع (بصر).

الإنسان يحتاج إلى قوّتين لتحقيق أهدافه، الاولى قوّة الإدراك و التشخيص، و الثانية حسن الأداء. و بعبارة اخرى: يجب عليه الاستفادة من (العلم) و (القدرة) للوصول إلى أهدافه.

و قد وصف البارئ عزّ و جلّ أنبياءه بأنّهم ذوو إدراك و تشخيص و بصيرة قويّة، و ذوو قوّة و قدرة كافية لإنجاز أعمالهم.

إنّ هؤلاء الأنبياء على مستوى عال من المعرفة، و أنّ مستوى علمهم بشريعة اللّه و أسرار الخلق و خفايا الحياة لا يمكن تحديده.

أمّا من حيث الإرادة و التصميم و حسن الأداء، فإنّهم غير كسولين أو عاجزين أو ضعفاء، بل هم أشخاص ذوو إرادة قويّة و تصميم راسخ، إنّهم قدوة لكلّ السائرين في طريق الحقّ، فبعد مقام العبودية الكامل للّه تعالى، لتسلّحوا بهذين السلاحين القاطعين.

و ممّا يستنتج من هذا الحديث أنّه ليس المراد من اليد و العين أعضاء الحسّ التي يمتلكها غالبية الناس، لأنّ هناك الكثيرين ممّن يمتلكون هذين العضوين لكنّهم لا يمتلكون الإدراك و الشعور الكافي، و لا القدرة على التصميم، و لا حسن

الأداء في العمل، و إنّما هي كناية عن صفتين هما (العلم و القدرة).

أمّا الصفة الرابعة لهم فيقول القرآن بشأنها: إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ[۴۴۷].

نعم، إنّهم يتطلّعون إلى عالم آخر، و أفق نظرهم لا ينتهي عند الحياة الدنيا و لذّاتها المحدودة، بل يتطلّعون إلى ما وراءها من حياة أبدية و نعيم دائم، و لهذا يبذلون الجهد و يسعون غاية السعي لنيلها.

و على هذا فإنّ المراد من كلمة (الدار) هي الدار الآخرة، لأنّه لا توجد دار غيرها، و إن وجدت فما هي إلّا جسر أو ممرّ يؤدّي إلى الآخرة في نهاية الأمر.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون المراد من الدار هنا دار الدنيا، و عبارة ذِكْرَى الدَّارِ إشارة إلى الذكر الحسن الباقي لأولئك الأنبياء في هذه الدنيا، و هذا الاحتمال مستبعد جدّا، و خاصّة أنّ كلمة (الدار) جاءت بشكل مطلق، و كذلك لا تتناسب مع كلمة (ذكرى).

و البعض الآخر احتمل أنّ المراد هو ذكرهم الحسن و الجميل في دار الآخرة، و هذا مستبعد أيضا.

و على أيّة حال، فلعلّ الإنسان يتذكّر الآخرة بين حين و آخر، خاصّة عند وفاة أحد أصدقائه أو مشاركته في مراسم التشييع أو مجالس الفاتحة، و هذا الذكر ليس خالصا و إنّما هو مشوب بذكر الدنيا، أمّا عباد اللّه المخلصون فإنّ لهم توجّها خالصا و عميقا و مستمرا بالنسبة للدار الآخرة، فهي على الدوام تتراءى أمام أعينهم، و عبارة (خالصة) في الآية إشارة إلى هذا المعنى.

الصفتان الخامسة و السادسة جاءتا في الآية التالية وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ

[۴۴۸].

إنّ إيمانهم و عملهم الصالح كانا السبب في اصطفاء البارئ عزّ و جلّ لهم من بين الناس لأداء مهام النبوّة و حمل الرسالة، و عملهم الصالح وصل إلى درجة.

استحقّوا بحقّ إطلاق كلمة (الأخيار) عليهم، فأفكارهم سليمة، و أخلاقهم رفيعة، و تصرفاتهم و أعمالهم طوال حياتهم متّزنة، و لهذا السبب فإنّ بعض المفسّرين يستفيدون من هذه العبارة و أنّ اللّه سبحانه و تعالى اعتبر أولئك أخيارا من دون أى قيد و شرط، كدليل على عصمة الأنبياء، لأنّه متى ما كان وجود الإنسان كلّه خيرا، فمن المؤكّد أنّه معصوم ۴۴۹].

عبارة (عندنا) مليئة بالمعانى العميقة، و تشير إلى أنّ اصطفاءهم و اعتبارهم من الأخيار لم يتمّ وفق تقييم الناس لهم، التقييم الذى لا يخلو من التهاون و غضّ النظر عن كثير من الأمور، و إنّما تمّ بعد التحقّق من كونهم أهلا لذلك و بعد تقييمهم ظاهريا و باطنيا.

و بعد أن أشارت الآية السابقة إلى مقام ثلاثة أنبياء بارزين، تشير الآية التالية، إلى ثلاثة آخرين، إذ تقول: وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ.

فكلّ واحد منهم كان مثالا و أسوة فى الصبر و الاستقامة و طاعة أوامر البارئ عزّ و جلّ، خاصّة «إسماعيل» الذى كان على استعداد كامل للتضحية بروحه فى سبيل اللّه، و لهذا السبب اطلق عليه لقب (ذبيح اللّه) و هو الذى ساهم مع والده إبراهيم عليه السّلام فى بناء الكعبة الشريفة و تثبيت أسس التجمّع العظيم الذى يتمّ فى موسم الحجّ كلّ عام.

و استعراض آيات القرآن الكريم لحياة أولئك العظام ليستلهم منها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۲

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلّ المسلمين العبر، و مطالعة حياة أمثال هؤلاء الرجال العظام توجّه حياة الإنسان، و تبعث فيه روح التقوى و التضحية و الإيثار، و تجعله فى نفس الوقت صابرا صامدا أمام المشاكل و الحوادث الصعبة.

عبارة كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ تشير إلى أنّ الأنبياء الثلاثة (إسماعيل، و اليسع، و ذو الكفل) تنطبق عليهم كافّة الصفات التى وصف بها الأنبياء الثلاثة السابقون (إبراهيم، و إسحاق، و يعقوب) الذين أطلقت عليهم الآية السابقة صفة (الأخيار)، كما أنّ (الخير المطلق) له معان واسعة تشمل (النبوّة) و (الدار الآخرة) و (مقام العبوديّة) و (العلم و القدرة).

أمّا (اليسع) فقد ورد اسمه مرتين فى القرآن المجيد، إحداها فى هذه السورة، و الاخرى فى الآية (۸۶) من سورة الأنعام، و ما جاء فى القرآن الكريم يوضّح أنّه من الأنبياء الكبار و من الذين يقول عنهم القرآن فى آياته: وَ كُلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ [۴۵۰] البعض يعتقد أنّ (اليسع) هو (يوشع بن نون) أحد أنبياء بنى إسرائيل المعروفين، و قد دخلت الألف و اللام على اسمه كما أبدلت الشين بالسين، و دخول الألف و اللام على الاسم غير العربى (و هذا اسم عبرى) أمر غير جديد، فمثلها مثل (إسكندر) التى تلفظ و تكتب بالعربية (الإسكندر) إذ هو نوع من التقريب.

فى حين أنّ البعض يعتبرها كلمة عربية مشتقّة من (يسع) و التى هى فعل مضارع مشتقّ من (وسعت) و لتحويله إلى اسم أضيف إليه الألف و اللام.

الآية (۸۶) من سورة الأنعام بيّنت أنّه من ذريّة إبراهيم، و لكن لم تبيّن إن كان من أنبياء بنى إسرائيل، أم لا؟

أمّا فصل الملوك فى كتاب التوراة فقد جاء فيه أنّ اسمه (اليشع) بن (شافات)، و معنى (اليشع) فى اللغة العبرية هو (الناجى) فيما تعنى (الشافات) (القاضى).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۳

و قد اعتبر قسم آخر أنّه (الخضر) و لم يتوفّر بعد أىّ دليل واضح على هذا القول.

و اعتبر قسم آخر أنّه (ذو الكفل) و هذا الكلام مخالف بوضوح لما جاء فى الآية مورد بحثنا، لأنّ ذا الكفل معطوفا على اليسع.

و على أيّة حال، فإنّ اليسع هو نبى له مقام رفيع و ذو استقامة، و ما ذكرناه بشأنه كاف للاستلهام منه.

و أمّا (ذو الكفل) فهو أيضا معروف بأنّه أحد أنبياء اللّه، و ذكره ورد مع أنبياء آخرين فى الآية (۸۵) من سورة الأنبياء، و جاء بالضبط بعد اسم إسماعيل و إدريس. و البعض يعتقد أنّه من أنبياء بنى إسرائيل، و أنّه من أبناء أيّوب و اسمه الحقيقى (بشر) أو (بشير) أو

(شرف) و البعض یری أنّه (حزقیل) و ذو الکفل هو لقب اطلق علیه ۴۵۱].

و حول تسمیة (ذی الکفل) بهذا الاسم (الکفل یعنی النصیب) و یعنی (الکفالة و التعهّد) وردت عدّة تفاسیر، منها:

قال البعض: إنّه سمّی بذی الکفل لأنّ اللّه سبحانه و تعالی أنزل علیه نصیبا وافرا من الثواب و شمله برحمته الواسعة.

و قال بعضهم: لأنّه التزم بتعهّده بقیام اللیل بالعبادة، و صیام النهار، و عدم السخط من قضاء اللّه، و بهذا اطلق علیه هذا اللقب.

و بعض آخر قال: سمّی بذی الکفل لأنه تکفّل بمجموعة من أنبیاء بنی إسرائیل، و أنقذهم من ملوک زمانهم الجبّارین.

و علی أیّة حال، فإنّ ما فی حوزتنا الیوم من معلومات عن نبی اللّه ذی الکفل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۴

یدلّ علی استقامته فی طریق طاعة و عبادة اللّه، و مقاومة الجبابرة، و أنّه نموذج بارز لیومنا الحاضر و ما بعده، رغم أنّ البعد الزمنی بیننا و بینهم یحول دون المعرفة الدقیقة لتفاصیل أحوالهم.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۵

الآیات [سورة ص (۳۸): الآیات ۴۹ الی ۵۴]

اشارة

هذا ذِکْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴۹) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (۵۰) مُتَّکِئِینَ فِیها یَدْعُونَ فِیها بِفاکِهَةٍ کَثِیرَةٍ وَ شَرابٍ (۵۱) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (۵۲) هذا ما تُوعَدُونَ لِیَوْمِ الْحِسابِ (۵۳)

إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (۵۴)

التّفسیر

هذا ما وعد به المتّقون:

آیات هذه السورة انتقلت بنا إلی شکل آخر من الحدیث، إذ أخذت تقارن بین المتّقین و العصاة المتجبّرین، و تشرح مصیر کلّ منهما یوم القیامة، و هی بصورة عامّة تکمل بحوث الآیات السابقة.

فی البدایة، و کخلاصة لشرح حال الأنبیاء السابقین و النقاط المضیئة فی حیاتهم، تقول الآیة: هذا ذِکْرٌ[۴۵۲].

نعم، لم یکن الهدف من بیان مقاطع من تأریخ أولئک الأنبیاء الرائع و المثیر سرد بعض القصص، و إنّما الهدف الذکر و التذکّر، کما أکّدت علیه بدایة هذه السورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۶

ص وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ.

فالهدف هو إیقاظ الأفکار، و رفع المستوی العلمی، و زیادة قوّة المقاومة و الصمود لدی المسلمین الذی نزلت إلیهم هذه الآیات ۴۵۳].

ثمّ أخرجت الأمور من طابعها الخاصّ و بیان أوضاع و أحوال الأنبیاء، إلی طابعها العامّ، لتشرح بصورة عامّة مصیر المتّقین، إذ تقول: وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۴۵۴].

بعد هذه الآیة القصیرة ذات المعانی الخفیّة و التی توضّح تماما حال المتّقین بصورة مختصرة، یعمد القرآن المجید مجدّدا إلی اتّباع أسلوبه الخاص، و هو أسلوب الإیجاز و التفصیل، لیشرح ما فاز به المتّقون جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ ۴۵۵].

«جنّات» إشارة إلی حدائق الجنّة، و (عدن) تعنی الاستقرار و الثبات، و لهذا اطلق علی المنجم الذی تحوی أعماقه أنواع الفلزات و المواد الثمینة کلمة (معدن).

و علی أیّة حال فالعبارة هنا تشیر إلی خلود حدائق الجنّة.

و عبارة مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ إشارة إلی أنّهم لا یتکلّفون حتّی بفتح أبواب الجنّة، إذ أنّها تنفتح بدون عناء لاستقبال أهل الجنّة، إذ أنّ الجنّة بانتظارهم، و عند ما تراهم تفتح لهم أبوابها و تدعوهم للدخول إلیها.

ثمّ تبیّن الهدوء و السکینة التی تحیط بأهل الجنّة، إذ تقول: مُتَّکِئِینَ فِیها یَدْعُونَ فِیها بِفاکِهَةٍ کَثِیرَةٍ وَ شَرابٍ ۴۵۶]. أی إنّهم متکئون علی سرر فیها، و قد هیّئت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۷

لهم مختلف أنواع الفاکهة و الأشربة، و إنّهم متی ما طلبوها فإنّها تأتیهم فی الحال.

و هنا یطرح سؤال هو: هل أنّ هناک من یحمل تلک الفاکهة، و الأشربة و یقدّمها لأهل الجنّة، أم أنّها تأتیهم من دون أن یحملها أحد إلیهم؟

کلا الاحتمالین واردان.

و التأکید علی «الفاکهة» و «الشراب» لعلّه إشارة إلی أنّ الفاکهة هی أکثر غذاء أهل الجنّة رغم وجود أنواع اخری من الغذاء ذکر فی بعض آیات القرآن المجید، کما هو الحال فی عالم الدنیا إذ أنّ الفاکهة تشکّل أفضل و أسلم غذاء للإنسان.

صفة (کثیرة) تشیر إلی وجود أنواع مختلفة من الفاکهة، و أنواع متعدّدة أیضا من الشراب الطاهر الذی یتوفّر فی الجنّة، و ذلک ما أشارت إلیه أیضا آیات مختلفة فی القرآن المجید.

بعد هذا تتطرّق الآیات للزوجات الصالحات فی الجنّة، إذ تقول: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ

«الطرف» جفن العین، و أحیانا یأتی بمعنی النظر، و وصف آخر نساء الجنّة بقاصرات الطرف (أی ذوات النظرات القصیرة) یشیر إلی اقتصار نظرهنّ علی أزواجهنّ فقط، و حبّهن و عشقهنّ لهم و عدم تفکیرهم بسواهم، و هذه من أفضل مزایا و حسنات الزوجات.

و قال مفسّرون آخرون: إنّها تعنی التغطیة بالخمار الذی یضفی علی العین جمالا.

و لا یوجد مانع یحول بین جمع المعنیین.

کلمة (أتراب) تعنی (الأقران)، و هو وصف لنساء الجنّة، فاقتران عمر الزوج و الزوجة- أی تساویهما- یضاعف من المحبّة بین الزوجین، أو أنّه صفة لنساء أهل الجنّة، و إنّهنّ جمیعا شابات و فی عمر واحد[۴۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۸

الآیة الأخیرة فی هذا البحث تشیر إلی النعم السبع التی یغدقها الباریٔ عزّ و جلّ علی أهل الجنّة، و التی وردت فی الآیات السابقة، قال تعالی: هذا ما تُوعَدُونَ لِیَوْمِ الْحِسابِ

وعد لا یخلف، و یبعث فی نفس الوقت علی النشاط لمضاعفة الجهد، نعم إنّه وعد من اللّه العظیم.

و للتأکید علی خلود هذه النعم، جاء فی قوله تعالی: إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ[۴۵۸].

أی أنّ النعم فی الجنان خالدة و لا تنفد و لا تزول کما فی الحیاة الدنیا، و أنّها تزداد دائما من خزائن اللّه المملوءة و غیر المحدودة، و لا یظهر علیها أی نقص، لأنّ اللّه أراد ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۹

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۵۵ الى ۶۱]

اشارة

هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (۵۶) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (۵۷) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (۵۸) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (۵۹)
قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (۶۰) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (۶۱)

التّفسير

و هذه هى عاقبة الطغاة!

الآيات السابقة استعرضت النعم السبع و غيرها من النعم التى يغدقها البارئ عزّ و جلّ على عباده المتّقين، أمّا آيات بحثنا فإنّها تستخدم أسلوب المقارنة الذى كثيرا ما استخدمه القرآن الكريم، لتوضيح المصير المشؤوم و العقوبات المختلفة التى ستنال الطغاة و العاصين، قال تعالى: هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۴۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۰

فالمتّقون لهم (حسن مآب)، و لهؤلاء العاصين الطغاة (شرّ مآب).

ثمّ تعمد آيات القرآن المجيد إلى الاستفادة من أسلوب الإيجاز و التفصيل، إذ تقول: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ[۴۶۰]. أى إنّ جهنّم هى المكان المشؤوم الذى سيردونه، و إنّهم سيحترقون بنيرانها، فيا لها من فراش سىء.

و الظاهر أنّ عبارة (يصلونها) (أى يدخلون فى جهنّم و يحترقون بنيرانها) يراد منها بيان أن لا يتصوّر أحدهم أنّه سيرى جهنّم من مسافة بعيدة، أو أنّه سيستقرّ بالقرب منها، كلّا، بل إنّه سيرد إلى داخلها، و لا يتصوّر أحدهم أنّه سيعتاد على نار جهنّم و من ثمّ يستأنس بها، كلّا، فإنّه يحترق فيها على الدوام.

«مهاد» كما قلنا من قبل، تعنى الفراش المهيّأ للنوم و الاستراحة، كما تطلق على سرير الطفل.

و بالطبع فإنّ الفراش هو مكان استراحة، و يجب أن يكون مناسبا- فى كلّ الأحوال- لوضع الشخص و ملائما لرغبته، و لكن كيف سيكون حال الذين خصّصت لهم نار جهنّم فراشا؟! ثمّ تتطرّق الآيات إلى أنواع اخرى من العذاب الإلهى، إذ تقول: هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ ۴۶۱]. أى يجب عليهم أن يشربوا الحميم و الغسّاق.

«الحميم» هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، و الذى هو أحد أنواع أشربة أهل جهنّم، و يقابل (الشراب الطهور) الذى ذكرته الآيات السابقة المخصّص لأهل الجنّة.

و كلمة (غسّاق) من (غسق) على وزن (رمق) و تعنى شدّة ظلمات الليل. أمّا ابن عبّاس فقد فسّرها بأنّها شراب بارد جدّا (بحيث إنّ برودته تحرق و تجرح أحشاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۱

الإنسان) و لكن ليس هناك فى مفهوم هذه الكلمة ما يدلّ على هذا المعنى، غير مقارنتها بالحميم و هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، و هذه المقارنة قد تكون منشأ هذا الاستنباط.

و قال الراغب فى مفرداته: إنّ (غسّاق) تعنى القيح الذى يسيل من جلود أهل جهنّم و من الجراحات الموجودة فى أجسامهم.

و لا بـدّ أن يكون لونه الغامق هو السبب فى إطلاق هـذه الكلمة عليه، لأنّ الذى يحترق فى نار جهنّم لا يبقى منه سوى هيكل محروق وقيح أسود اللون.

على أيّة حال، فإنّ ما يستشفّ من بعض الكلمات هو أنّ (غسّاق) تعنى الرائحة الكريهة النتنة التى تزعج الآخرين.

و فسّره البعض الآخر بأنّه أحـد أنواع العـذاب الذى لم يطلع عليه أحد سوى اللّه، و ذلك لأنّهم ارتكبوا ذنوبا و مظالم شديدة لم يطلع عليها أحـد سوى اللّه، فلـذلك جعل عقوبتهم سـريّة و غير معروفـة، مثلما وعد البارئ عزّ و جلّ المتّقين بنعم لم يكشف عنها و أخفاها عنهم، لإخفائهم أعمالا صالحـة كانوا يقومون بها فى الحياة الـدنيا، و ذلك ما ورد فى الآية (۱۷) من سورة السجدة: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ

آيات بحثنا تشير مرّة اخرى إلى نوع آخر من أنواع العذاب الأليم وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ ۴۶۲]. أى أنّ هناك عذاب آخر غير ذلك العذاب.

«أزواج» تعنى الأنواع و الأقسام، و هـذه إشارة موجزة إلى أنواع اخرى من العـذاب لا تختلف عن أنواع العـذاب السابقـة، و لكن آيات القرآن لم تفصح هنا عن أنواعها و قد لا يستطيع أحد فى هذه الدنيا فهمها و إدراكها.

و فى الحقيقة فإنّ هذه تقابل عبارة بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ الواردة فى الآيات السابقة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۲

التى تشير إلى أنواع مختلفة من النعم و فواكه الجنّة. و يمكن أن يكون هذا التشابه فى الشدّة و الألم، أو من جميع الجهات.

و آخر عـذاب لهم أنّ جلساءهم فى جهنّم ذوو ألسـنة بذيئـة لا تنطق إلّا بالقبيـح من الكلام، فعنـد ما يرد رؤساء الضـلال النار، و يرون بأعينهم تابعيهم يساقون نحو جهنّم يخاطب بعضهم البعض و يقول له: هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ۴۶۳].

فيجيبونهم لا مَرْحَباً بِهِمْ

ثمّ يضيفون إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ.

و عبارة هـذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ مقترنـة بالآيات التاليهٔ، و تنقل أحاديث أئمّة الضـلال، إذ يخاطب بعضـهم البعض فور ما يرون أتباعهم يساقون إلى جهنّم، بالقول: أولئك سيحشرون معكم.

بعض المفسّرين قال: إنّه خطاب توجّهه الملائكة إلى أئمّة الكفر و الضلال.

إلّا أنّ المعنى الأوّل يعدّ أكثر تناسبا.

«مرحبا» كلمة ترحيب للضيف، و ضدها «لا مرحبا» و مصدر هذه الكلمة «رحب»- على وزن محو- بمعنى المكان الواسع، و المراد هو: ادخل فالمكان وسيع و مناسب.

«مقتحم» من (اقتحام) و تعنى الدخول فى شـىء بمشقّة و بصعوبة و خوف، و غالبا ما تعطى معنى الدخول فى شىء من دون أى اطلاع و علم مسبق.

و توضّـح هـذه العبارة أنّ متّبعى سبيل الضـلال يردون نار جهنّم الرهيبة نتيجة تركهم البحث و التفكير، و اتّباعهم لأهوائهم، إضافة إلى تقليدهم الأعمى لآبائهم الأوّلين.

و على أيّـة حال، فإنّ الصوت يصل إلى مسامع الأتباع الـذين يغضـبون من كلام أئمّـة الضـلال، و يلتفتون إليهم قائلين: قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۳

الجملة الأخيرة فَبِئْسَ الْقَرارُ تقابل جَنَّاتِ عَدْنٍ الواردة بحقّ المتّقين، و هى إشارة إلى المصاب العظيم الـذى حلّ بهم، و هو أنّ جهنّم ليست بمكان مؤقت لهم، و إنّما هى مقرّ دائم. و أراد الأتباع من جوابهم القول: بأنّ من حسن الحظّ أنّكم (أى أئمّة الضلال و الشرك)

مشترکون معنا فی هذا الأمر. و هذا یشفی غلیل قلوبنا (و کأنّهم شامتون بأئمّتهم) أو هی إشارة إلی أنّ جریمتکم بحقّنا جریمة عظیمة، لأنّ جهنّم ستکون مقرّا دائما لنا و لیست مکانا مؤقتا.

لکن الأتباع لا یکتفون بهذا المقدار من الکلام، لأنّ أئمّة الضلال هم الذین کانوا السبب المباشر لارتکابهم الذنوب، و لذا فإنّهم یعتبرونهم أصحاب الجریمة الحقیقیین، و هنا یلتفتون إلی الباریء عزّ و جلّ قائلین: قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِی النَّارِ. العذاب الأوّل لأنّهم أضلّوا أنفسهم، و الثانی لأنّهم أضلّونا.

ما ورد فی هذه الآیة مشابه لما ورد فی الآیة (۳۸) من سورة الأعراف التی تقول: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ رغم أنّ تتمّة هذه الآیة أی الآیة (۳۸) من سورة الأعراف تقول: إنّ لکلیهما عذابا مضاعفا (لأنّ الأتباع هم الأداة التنفیذیة لأئمّة الضلال، و هم الذین هیّئوا الأرضیة لنشر الفساد و الضلال).

علی أیّة حال، لا یوجد شکّ فی أنّ عذاب أئمّة الضلال أکبر بکثیر من عذاب الآخرین، رغم أنّ للجمیع عذابا مضاعفا.

نعم، هذه هی نهایة کلّ من عقد الصداقة مع المنحرفین و بایعهم علی السیر فی طرق الضلال و الانحراف، فانّهم عند ما یرون نتائج أعمالهم الوخیمة یلعن بعضهم بعضا و یتخاصمون فیما بینهم.

و الملفت للنظر هنا أنّ الآیات التی تذکر النعم التی یغدقها الباریء عزّ و جلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۴

علی المتّقین کانت أکثر تنوّعا من الآیات التی استعرضت عذاب الطغاة المتجبّرین. إذ أشارت آیات القسم الأول إلی سبع نعم، بینما أشارت آیات القسم الثانی إلی خمسة أنواع من العذاب، یحتمل أن یکون السبب هو سبق رحمة الله لغضبه «یا من سبقت رحمته غضبه».

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۵

الآیات [سورة ص (۳۸): الآیات ۶۲ الی ۶۴]

اشارة

وَ قالُوا ما لَنا لا نَری رِجالاً کُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (۶۲) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِیًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (۶۳) إِنَّ ذلِکَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (۶۴)

التّفسیر

تخاصم أهل النّار:

آیات بحثنا تواصل استعراض الجدال الدائر بین أهل جهنّم، الذی کان بعضه قد ورد فی الآیات السابقة، و تتحدّث عن مجادلات اخری فیما بینهم ینکشف من خلالها أسفهم العمیق و تألّمهم الشدید و حسرتهم.

تقول اولی تلک الآیات: وَ قالُوا ما لَنا لا نَری رِجالًا کُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ.

نعم، فعند ما یبحث أفراد اتّبعوا أئمّة الضلال، أمثال أبی جهل و أبی لهب، عن أشخاص آخرین مثل عمّار بن یاسر و خباب و صهیب و بلال، فی نار جهنّم یرجعون إلی ذاتهن متسائلین، و یستفسرون من الآخرین: أین أولئک الأشخاص؟

إذ كنّا نعتبرهم مجموعة من الفوضويين و الأشرار و المفسدين فى الأرض، يسعون إلى الإخلال بأمن و هدوء المجتمع و القضاء على مفاخر الأوّلين، يبدو أنّ اتّهامنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۶

إيّاهم كان باطلا.

و تضيف الآيات نقلا عن أهل جهنّم: أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ.

نعم، إنّنا كنّا نسخر من هؤلاء الرجال العظماء ذوى المقام الرفيع، و نصفهم بالأشرار، و أحيانا نصفهم بأوصاف أدنى من ذلك، و نعتبرهم أناسا حقراء لا يستحقّون أن ننظر إليهم، و لكن اتّضح لنا الآن أنّ جهلنا و غرورنا و أهواءنا هى التى أسدلت على أعيننا ستائر حجبت الحقيقة عنّا، فهؤلاء كانوا من المقربين للّه و مكانهم الآن فى الجنّة.

مجموعة من المفسّرين ذكروا تفسيرا آخر لهذه الآية، إذ قالوا: إنّ مسألة سخريتهم إشارة إلى أحوالهم فى عالم الدنيا، و جملة أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ إشارة إلى أحوالهم فى جهنّم، و تعنى هنا أنّ أبصارنا فى هذا المكان و بين هذه النيران و الدخان لا- يمكنها رؤيتهم. و لكن المعنى الأوّل أصحّ.

و من الضرورى الالتفات إلى أنّ أحد أسباب عدم إدراك الحقائق هو عدم أخذها بطابع الجدّ إضافة إلى الاستهزاء بها، إذ يجب على الدوام مناقشة الحقائق بشكل جدّى للوصول إليها.

ثمّ تخرج الآية الأخيرة بالنتيجة التى تمخّض عنها الجدال بين أهل جهنّم، و تؤكّد على ما مضى بالقول: إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ[۴۶۴].

فأهل جهنّم مبتلون فى هذه الدنيا بالخصام و النزاع و الحروب. فالنزاع و الجدال يتحكّم بهم، و فى كلّ يوم يتخاصمون مع هذا و ذاك.

و فى يوم القيامة، ذلك اليوم الذى تبرز فيه الأسرار و ما تخفيه الصدور، تراهم يتنازعون فيما بينهم فى جهنّم، فأصدقاء الأمس أعداء اليوم، و التابعون فى الأمس صاروا معارضين اليوم، و يبقى- فقط- خطّ التوحيد و الإيمان، خطّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۷

الوحدة و الصفاء فى هذا العالم و ذاك.

الجدير بالذكر أنّ أهل الجنّة متكئون على الأسرّة، و يتحدّثون فيما بينهم بكلام ملؤه المحبّة و الصدق، كما ورد فى آيات مختلفة من آيات القرآن الحكيم، بينما تجد أهل النار يعيشون حالة من الصراع و الجدال، إذن فتلك نعمة كبيرة، و هذا عذاب أليم!***

ملاحظة

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال لأبى بصير «يا أبا محمّد، لقد ذكركم اللّه إذ حكى عن عدوّكم فى النار بقوله: وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ. أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ. و اللّه ما عنى و لا أراد بهذا غيركم، صرتم عند أهل هذا العالم شرار الناس، و أنتم و اللّه فى الجنّة تحبرون و فى النار تطلبون»[۴۶۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۸

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۶۵ الى ۷۰]

اشارة

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۶۵) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹)
إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰)

التّفسير

إنّما أنا نذيرا:

البحوث السابقة التی تناولت موضوع العقاب الألیم الذی سینال أهل جهنّم، و الاخری التی استعرضت العذاب و العقاب الدنیوی الذی نزل بالأمم الظالمة البائدة، کلّها کانت تحمل طابع إنذار و تهدید للمشرکین و العاصین و الظالمین.

أمّا آیات بحثنا فتتابع ذلک البحث، إذ جاء فی اولی آیاتها قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ.

صحیح أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مبشّر أیضا، و أنّ القرآن الکریم یحوی کلا الأمرین، أی الإنذار و البشری، و لکن بما أنّ البشری تخصّ المؤمنین فإنّ الإنذار یخصّ المشرکین و المفسدین، و الحدیث هنا یخصّ المجموعة الأخیرة، و اعتمد فیه علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۹

الإنذار.

ثمّ یضیف وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

کلمة (القهّار) وردت فی هذه العبارة، کی لا یغترّ أحد بلطف اللّه، و یظنّ أنّه یعیش فی مأمن من قهر اللّه، و لکی لا یغرق فی مستنقع الکفر و ارتکاب الذنب.

و تطرح دلائل توحید الخالق جلّ و علا فی الالوهیّة و العبودیّة بشکل مباشر، و تضیف رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

فی الواقع هناک ثلاث صفات من صفات الباریٔ عزّ و جلّ ذکرت فی هذه الآیة، و کلّ واحدة منها جاءت لإثبات مفهوم ما. الاولی «ربوبیته» لعالم الوجود، و مالکیته لکلّ هذا العالم، المالک المدبّر لشؤون عالم الوجود، فهو الوحید الذی یستحقّ العبادة و الأصنام لا تملک من أمورها شیئا و لو بمقدار ذرّة.

و الصفة الثانیة (عزّته) و کما هو معروف فإنّ کلمة (العزیز) تطلق فی اللغة علی من لا یغلب، و علی من بإمکانه فعل ما یشاء، و بعبارة اخری: هو الغالب الذی لا یمکن لأحد التغلّب علیه.

فمن یمتلک مثل هذه القدرة کیف یمکن الفرار من قبضة قدرته؟! و کیف یمکن النجاة من عذابه؟! الصفة الثالثة هی (غفّار) و کثیر الرحمة، بحیث أنّ أبواب رحمته مفتوحة أمام المذنبین، کی لا یتصوّروا أنّ کلمتی (القهّار و العزیز) تعطیان مفهوم غلق أبواب الرحمة و التوبة أمام عباده. إذ أنّ إحداهما جاءت لبیان (الخوف) و الثانیة لبیان (الرجاء)، و انعدام حالة التوازن بین الحالتین السابقتین (أی الخوف و الرجاء) یؤدّی إلی عدم تکامل الإنسان، و ابتلائه بالغرور و الغفلة و الغرق فی دوّامة الیأس و فقدان الأمل.

و بعبارة اخری فإنّ وصف الباری عزّ و جلّ ب (العزیز) و (الغفّار) دلیل آخر علی توحّده تعالی فی الالوهیة، لأنّه الوحید الذی یستحقّ العبادة و الطاعة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۰

و إضافة إلی ربوبیته فإنّه یمتلک القدرة علی المعاقبة، و إضافة إلی امتلاکه للقدرة علی المعاقبة، فإنّ أبواب رحمته و مغفرته مفتوحة

للجميع.

ثمّ يخاطب البارئ عزّ و جلّ نبيّه الأكرم فى عبارة قصيرة و قويّة قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ

فما هو هذا النبأ الذى أشارت إليه الآية و وصفته بأنّه عظيم؟

هل هو القرآن المجيد؟

أم أنّه رسالة النبىّ؟

أم هو يوم القيامة و مصير المؤمنين و الكافرين؟

أم هو توحيد اللّه؟

أم كلّ هذه الأمور؟

و لكون القرآن مشتملا على كلّ تلك الأمور، و هو الجامع بينها، و أنّ المشركين أعرضوا عنه، لذا فإنّ المعنى الأوّل أنسب.

نعم، فهذا الكتاب السماوى العظيم هو نبأ عظيم، و عظمته كعظمة الكون، و هو نازل من قبل خالق هذا الكون، أى من اللّه الخالق العزيز الغفّار و الواحد القهّار.

النبأ الذى لم يتقبّل عظمته الكثير من الناس حين نزوله، فمجموعة سخرت منه و استهزأت به، و اخرى اعتبرته سحرا، و مجموعة ثالثة اعتبرته شعرا، و لكن لم يمض بعض الوقت حتّى كشف هذا النبأ العظيم عن أسراره، ليغيّر مسيرة التأريخ البشرى، و يظلّ العالم بظلّه، و ليوجد حضارة عظيمة و مضيئة فى كلّ المجالات، و ممّا يسترعى الانتباه أنّ الإعلان عن «النبأ العظيم» تمّ فى هذه السورة المكيّة فى وقت كان فيه المسلمون- على ما يبدو- فى أشدّ حالات الضعف و العجز، و كأنّ أبواب النصر و النجاة مغلقة أمامهم.

و ممّا ينبغى ذكره أنّ عظمة هذا النبأ العظيم ليست واضحة حتّى يومنا هذا للعالم بصورة عامّة، و للمسلمين بصورة خاصّة، و المستقبل سيوضّح تلك العظمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۱

و قوله تعالى: أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ما زال صادقا حتّى يومنا الحاضر، فإعراض المسلمين عنه تسبّب فى عدم ارتوائهم من هذا المنبع العذب الذى يطفح بالفيض الإلهى الكامل، و إلى عدم التقدّم على الآخرين بالاستفادة من أنواره المشعّة، و إلى عدم الرقى إلى قمم الفخر و الشرف.

ثمّ تقول الآية، مقدّمة لسرد قصّة خلق آدم، و المكانة الرفيعة التى يحتلّها الإنسان الذى سجدت له كافّة الملائكة: ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ

أى لا علم لى بالمناقشات التى دارت بين الملأ الأعلى و ملائكة العالم العلوى بخصوص خلق الإنسان، حيث أنّ العلم يأتينى عن طريق الوحى، و الشيء الوحيد الذى يوحى إلىّ هو أنّنى نذير مبين إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

و رغم أنّ الملائكة لم تناقش و تجادل البارئ عزّ و جلّ، و لكنّ ذلك المقدار من الكلام الذى قالوه عند ما أخبرهم البارئ عزّ و جلّ بأنّه سيجعل فى الأرض خليفة، فقالوا: أ تخلق فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء؟ فأجابهم قائلا: إنّى أعلم ما لا تعلمون: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ [۴۶۶] مثل هذا النقاش أطلق عليه اسم (التخاصم) و هى تسمية مجازية، و قد كانت هذه مقدّمة للآيات التالية التى تتحدّث عن خلق آدم.

و ثمّة احتمال وارد أيضا هو أنّ عبارة بِالْمَلَإِ الْأَعْلى لها مفهوم أوسع يشمل حتّى الشيطان، لأنّ الشيطان كان حينئذ فى زمرة الملائكة، و نتيجة تخاصمه مع البارئ عزّ و جلّ و اعتراضه على إرادة اللّه طرد إلى الأبد من رحمة اللّه.

و قد وردت روايات متعدّدة فى كتب الشيعة و السنّة بهذا الخصوص، جاء فى إحداها أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سأل

أحد أصحابه: «أ تدری فیما یختصم الملأ الأعلی؟

فقال: کلّا،

فأجاب رسول اللّه «اختصموا فی الکفّارات و الدرجات، فأمّا الکفّارات فإسباغ الوضوء فی السبرات، و نقل الأقدام إلی الجماعات، و انتظار الصلاة بعد الصلاة، و أمّا الدرجات فإنشاء السلام، و إطعام الطعام، و الصلاة فی اللیل و الناس نیام»[۴۶۷].

و بالطبع فإنّ هذا الحدیث لم یذکر أنّه ناظر إلی تفسیر الآیة المذکورة أعلاه، رغم تشابه بعض عباراته مع عبارات الآیة، و علی أیّة حال، یستفاد من الحدیث أنّ المراد من (اختصموا) هو أنّهم تباحثوا و تناقشوا، و لا یعنی الجدال فی الحدیث .. فهم تباحثوا و تناقشوا بشأن أعمال الإنسان و الأعمال التی تکون کفّارة لذنوبهم و تزید من درجات الإنسان و ترفع من شأنه، و یمکن أن یکون بحثهم حول عدد من الأعمال التی تعدّ مصدرا لتلک الفضائل، أو بشأن تعیین حدّ و میزان للدرجات الناتجة عن تطبیق الإنسان لتلک الأعمال، و بهذا الشکل یکون الحدیث تفسیرا ثالثا للآیة، و هو مناسب من عدّة جوانب، و لکنّه لا یتناسب مع الآیات التالیة، إذ ربّما کان المقصود هو بحث و مناقشات الملائکة فی موارد اخری، و لیس ذلک المتعلّق بالآیة.

و الجدیر بالذکر أنّ معنی عدم علم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو أنّی لم أکن أعلم ذلک من نفسی، لأنّ علمی لیس من قبل نفسی و إنّما ینزل علیّ عن طریق الوحی.

الآیات [سورة ص (۳۸): الآیات ۷۱ الی ۸۳]

اشارة

إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ (۷۱) فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ (۷۲) فَسَجَدَ الْمَلائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۷۳) إِلاَّ إِبْلِیسَ اسْتَکْبَرَ وَ کانَ مِنَ الْکافِرِینَ (۷۴) قالَ یا إِبْلِیسُ ما مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْعالِینَ (۷۵)

قالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (۷۶) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (۷۷) وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلی یَوْمِ الدِّینِ (۷۸) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۷۹) قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ (۸۰)

إِلی یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (۸۱) قالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۸۲) إِلاَّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ (۸۳)

التّفسیر

تکبّر الشیطان و طرده من رحمة اللّه!

هذه الآیات- کما قلنا- توضیح لاختصام (الملأ الأعلی) و (إبلیس) و بحث

حول مسألة خلق آدم علیه السّلام، و بصورة عامّة فإنّ الهدف من توضیح هاتین المسألتین:

أوّلا: تذکیر الإنسان بقیمة وجوده، و سجود کلّ الملائکة لجدّه آدم، فکیف بالإنسان الذی کرّمه الباریء عزّ و جلّ کلّ هذا التکریم یقع أسیرا فی حبائل الشیطان و هوی النفس؟ و کیف ینسی قیمة وجوده، أو یسجد لأصنام صنعها من الحجر و الخشب؟! من المعروف

أنّ أحد الأساليب المؤثّرة فى التربية، هو إعطاء شخصية للأفراد الذين يتلقّون التربية. و بعبارة أصحّ: تذكيرهم بشخصيتهم الرفيعة و قيمة وجودهم، فإن تذكّروا هذا الأمر، أحسّوا بأنّ الذلّة و الحقارة لا تلقيان بهم، فيتجنبوهما تلقائيا.

ثانيا: إنّ عناد الشيطان و غروره و تكبّره و حسده تسبّبت فى سقوطه من مقامه الشامخ الرفيع إلى الحضيض، و غرقه بوحل اللعنة و إلى الأبد، و يمكن أن يكون هذا المثال عبرة لكلّ لجوج و مغرور ليعتبر و يترك ممارسات الشيطان.

ثالثا: تعريف بنى آدم بعدوّهم الكبير الذى أقسم الشيطان على إغوائهم، كى يكونوا جميعا على حذر منه و يجتنبوا السقوط فى حبائل أسره.

كلّ هذه الأمور، هى تكملة للأبحاث السابقة، و على أيّة حال فإنّ الآية الاولى تذكر بإخبار اللّه عزّ و جلّ ملائكته بأنّه سيخلق بشرا من الطين: و إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ

و لكى لا يتصوّر البعض أنّ أصل خلق الإنسان هو ذلك الطين و حسب أضافت الآية التالية: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ

و بهذا الشكل انتهت عملية خلق الإنسان، و ذلك بعد امتزاج روح البارئ عزّ و جلّ الطاهرة مع التراب. فخلق موجود عجيب لم يسبق له مثيل، و لم توضع لرقيّة و انحطاطه أيّة حدود. الموجود الذى زوّده البارئ عزّ و جلّ باستعدادات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۵

خارقة تجعله لائقا لخلافة اللّه، و الذى سجدت له الملائكة بأجمعها فور اكتمال عملية خلقه فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

إلّا أنّ إبليس كان الوحيد الذى أبى أن يسجد لآدم لتكبّره و تمرّده و طغيانه، و لهذا السبب أنزل من مقامه الرفيع إلى صفوف الكافرين: إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ

نعم، فالتكبر و الغرور من أقبح الأمور التى يبتلى بها الإنسان، إذ أنّهما يسدلان الستار على عينه و بصيرته، و يحرماه من إدراك الحقائق و فهمها، و يؤدّيان به إلى التمرّد و العصيان، و يخرجانه أيضا من صفوف المؤمنين المطيعين للّه إلى صفّ الكافرين الباغين و الطاغين، ذلك الصفّ الذى يترأسه إبليس و يقف فى مقدّمته.

و هنا استجوب البارئ عزّ و جلّ إبليس: قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَیَ من البديهى أنّ عبارة (يدى) لا تعنى الأيدى الحقيقيّة المحسوسة، لأنّ البارئ عزّ و جلّ منزّه عن كافّة أشكال الجسم و التجسيم، و إنّما «اليد» هنا كناية عن القدرة، و من الطبيعى أنّ الإنسان يستعمل يديه ليظهر قدرته على إنجاز العمل، و كثيرا ما تستخدم اليد بهذا المعنى فى محادثاتنا اليومية، إذ يقال: إنّ البلد الفلانى بيد المجموعة الفلانية، أو إنّ المسجد الفلانى بنى على يد الشخص الفلانى، و أحيانا يقال: إنّ يدى قصيرة، أو إنّ يدك مملوءة، اليد فى كلّ تلك الجمل ليس المقصود منها اليد الحقيقية التى هى أحد أعضاء الجسم، بل كناية عن القدرة و السلطة و التمكّن.

و من هنا فإنّ الإنسان ينفّذ أعماله المهمّة بكلتا يديه، و استخدامه كلتا يديه يبيّن اهتمامه و تعلّقه بذلك العمل، و مجىء هذه العبارة فى الآية المذكورة أعلاه إنّما هو كناية عن الاهتمام الخاصّ الذى أولاه البارئ عزّ و جلّ لعملية خلق الإنسان.

ثمّ تضيف الآية: أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ أى أ كان عدم سجودك لأنّك استكبرت، أم كنت من الذين يعلو قدرهم عن أن يؤمروا بالسجود؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۶

و من دون أى شكّ فإنّه لا أحد يستطيع أن يدّعى أنّ قدرته و منزلته أكبر من أن يسجد للّه (أو لآدم بأمر من اللّه) و بهذا فإنّ الاحتمال الوحيد المتبقّى هو الثانى، أى التكبر.

و قال بعض المفسّرين: إنّ كلمة (عالين) تعنى- هنا- الأشخاص الذين يسيرون دوما فى طريق الغرور و التكبّر، و طبقا لهذا فإنّ معنى

الآیة یکون: هل أنّک استکبرت الآن، أم کنت دائما هکذا؟! و لکن المعنی الأوّل أنسب.

إلّا أنّ إبلیس اختار- بکلّ تعجّب- الشقّ الثانی، و کان یعتقد بأنّه أعلی من أن یؤمر بذلک، لذلک قال- بکلّ وقاحة- أثناء تبیانه أسباب معارضته لأوامر الباری عزّ و جلّ: قالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ

و علّل إبلیس عدم سجوده لآدم و عصیانه أمر اللّه بالمقدّمات التالیة:

أوّلا: إنّنی خلقت من نار، أمّا هو فقد خلق من طین، و هذه حقیقة صرّح بها القرآن المجید فی الآیتین ۱۴ و ۱۵ من سورة الرحمن: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ کَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ.

ثانیا: إنّ الشیء المخلوق من النار أفضل من الشیء المخلوق من التراب، لأنّ النار أشرف من التراب.

ثالثا: لا یحقّ لأحد أن یأمر مخلوقا بالسجود لمخلوق آخر دنی منه.

و خطأ إبلیس یکمن فی المقدّمتین الأخیرتین، و ذلک من عدّة وجوه:

أوّلا: لأنّ آدم لم یکن ترابا فقط، و إنّما نفخت فیه الروح الإلهیة، و هذا هو سبب عظمته، و إلّا فأین التراب من کلّ هذا الفخر و الاستعداد و التکامل؟

ثانیا: التراب لیس بأدنی من النار، و إنّما هو أفضل منها بکثیر، لأنّ کلّ الحیاة أصلها من التراب، فالنباتات و کلّ الموجودات الحیّة بأجمعها تستمدّ غذاءها و مصدر حیاتها من التراب، و کلّ المعادن الثمینة مخفیة فی وسط التراب، خلاصة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۷

الأمر أنّ التراب هو مصدر کلّ أنواع البرکة، و النار رغم أهمیّتها الکبری فی الحیاة فإنّها لا تبلغ أبدا أهمیّة التراب، و إنّما یستفاد منها فی الوسائل الترابیة، و قد تکون أداة خطرة و مدمّرة. و الأهمّ من ذلک أنّ المواد التی یستفاد منها لإشعال النیران کالحطب و الفحم و النفط هی من برکة الأرض.

ثالثا: المسألة، هی مسألة إطاعة أوامر اللّه سبحانه و تعالی و تنفیذها، لأنّه خالقنا و نحن عبیده و یجب أن نطبّق أوامره.

و علی أیّة حال، لو أمعنا النظر فی أدلّة إبلیس لرأینا فیها کفرا عجیبا، لأنّه بکلامه أراد نفی حکمة اللّه، و التقلیل من شأن أوامره (نعوذ باللّه)، و هذا الموقف المخزی لإبلیس دلیل علی جهله التامّ، لأنّه لو کان قد اعترف بأنّ عدم سجوده إنّما کان لهوی هو هوی النفس، أو أنّ غروره و تکبّره حالا بینه و بین السجود لآدم، و ما إلی ذلک لکان الأمر أهون، إذ أنّه یکون هنا قد أقرّ بارتکاب ذنب واحد، إلّا أنّه بکلامه هذا و لتبریر عصیانه، عمد إلی نفی حکمة الباری عزّ و جلّ و علمه و معرفته، و هذا یوضّح سقوطه إلی أدنی درجات الکفر و الانحطاط.

المخلوق مقابل خالقه یفتقد الاستقلال، إذ أنّ کلّ ما لدیه هو من خالقه، و لهجة کلام إبلیس توضّح أنّه کان یرید استقلالا و حکما فی مقابل حکم الباری عزّ و جلّ، و هذا مصدر آخر من مصادر الکفر.

و یمکن القول أنّ أسباب ضلال الشیطان، تعود إلی عدّة امور منها الغرور و التکبر و الجهل و الحسد، و هذه الصفات القبیحة اتّحدت و أسقطته إلی الحضیض بعد سنین طوال من مرافقة الملائکة، و کأنّه کان معلّما لهم .. أسقطته من أوج الفخر إلی أدنی الحضیض، و ما أخطر هذه الصفات القبیحة أینما وجدت!! و کما

قال أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی إحدی خطبه فی نهج البلاغة: «فاعتبروا بما کان من فعل اللّه بإبلیس إذ أحبط عمله الطویل و جهده الجهید و کان قد عبد اللّه ستّة آلاف سنة ... عن کبر ساعة واحدة فمن ذا بعد إبلیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۸

یسلم علی اللّه بمثل معصیته»[۴۶۸].

نعم، فعملیّة بناء قصر عظیم قد تستغرق سنوات عدیدة، و لکن عملیة تدمیره قد لا تستغرق سوی لحظات بتفجیر قنبلة قویّة.

و هنا وجب إخراج هذا الموجود الخبيث من صفوف الملأ الأعلى و ملائكة العالم العلوى، فخاطبه البارئ عزّ و جلّ بالقول: قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِيمٌ

الضمير (منها) فى عبارة فَاخْرُجْ مِنْها إمّا أنّه إشارة إلى صفوف الملائكة، أو إلى العوالم العلويّة، أو إلى الجنّة، أو إلى رحمة اللّه.

نعم، فيجب إخراج هذا الخبيث من هنا، فهذا المكان مكان الطاهرين و المقرّبين، و ليس بمكان المذنبين و العاصين ذوى القلوب المظلمة.

«رجيم» من (رجم)، و بما أنّ لازمها الطرد، فقد وردت بهذا المعنى هنا.

ثمّ أضاف البارئ عزّ و جلّ: وَ إِنَّ عَلَيْکَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ فأنت خارج و مطرود من رحمتى إلى الأبد.

المهمّ انّ الإنسان عند ما يرى النتائج الوخيمة لأعماله السيّئة عليه أن يستيقظ من غفلته، و أن يفكّر فى كيفية إصلاح ذلك الخطأ، و لا شيء أخطر من بقاءه راكبا لموج الغرور و اللجاجة و استمراره فى السير نحو حافّة الهاوية، لأنّه فى كلّ لحظة يبتعد أكثر عن الصراط المستقيم، و هذا هو نفس المصير المشؤوم الذى وصل إليه إبليس.

و هنا تحوّل (الحسد) إلى (عداء)، العداء الشديد و المتأصّل، كما قال القرآن:

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

هذه الآية تبيّن أنّ الشيطان طلب من اللّه سبحانه و تعالى أن يمهله، فهل طلب أن يمهله ليسكب عبرات الحسرة و الندامة على ما فعله من قبل، أم أنّه طلب مهلة لإصلاح عصيانه القبيح؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۹

كلّا، إنّه طلب من البارئ عزّ و جلّ أن يمهله إلى يوم يبعثون كى ينتقم من أبناء آدم عليه السّلام و يدفعهم جميعا إلى طريق الضلال، رغم علمه بأنّ إضلاله لكلّ إنسان سوف يضيف لذنوبه حملا ثقيلا جديدا من الذنوب، و يغرقه فى مستنقع الكفر و العصيان، كلّ ذلك بسبب اللجاجة و التكبّر و الغرور و الحسد، فما أكثر المصائب التى تتولّد للإنسان من هذه الصفات الذميمة.

و فى الحقيقة، إنّه كان يريد الاستمرار فى إغواء بنى آدم حتّى آخر فرصة متاحة له، لأنّ فى يوم البعث تسقط التكاليف عن الإنسان، و لا معنى هناك للوساوس و الإغواءات، إضافة إلى هذا فقد طلب من اللّه عزّ و جلّ أن يبقيه حيّا إلى يوم القيامة، رغم أنّ كلّ الموجودين فى العالم يموتون فى هذه الدنيا.

و هنا اقتضت مشيئة اللّه سبحانه- بدلائل سنشير إليها- أن يستجيب اللّه لطلب إبليس، و لكن هذه الاستجابة كانت مشروطة و ليست مطلقة، كما توضّحه الآية التالية: قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ

و لكن ليس إلى يوم البعث الذى تبعث فيه الخلائق، و إنّما إلى زمان معلوم، قال تعالى: إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ

و هنا أعطى المفسّرون آراء مختلفة بشأن تفسير يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ حيث قال البعض: إنّه يوم نهاية العالم، لأنّ كلّ الموجودات الحيّة من ذلك اليوم تموت، و تبقى ذات اللّه المقدّسة فقط، كما ورد فى الآية (۸۸) من سورة القصص: كُلُّ شَيْءٍ هالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ و بهذا الشكل فقد استجيب لجزء من مطالب إبليس.

و البعض الآخر قال: إنّ ذلك اليوم هو يوم القيامة، و لكن هذا الاحتمال لا يتلاءم مع ظاهر آيات بحثنا التى يتّضح منها أنّ البارئ عزّ و جلّ لم يستجب لكلّ مطاليبه، كما أنّ هذا الاحتمال لا يتلاءم حتّى مع بقيّة آيات القرآن الكريم التى تتحدّث عن موت الجميع مع نهاية هذا العالم.

و قال البعض: إنّ هذه الآية يحتمل أنّها تشير إلى زمان لا يعرفه أحد سوى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۰

سبحانه و تعالى.

و لکن التّفسیر الأوّل أنسب من بقیّة التفاسیر، و قد وردت روایة فی تفسیر البرهان نقلا عن الإمام الصادق علیه السّلام، و تقول بأنّ إبلیس یموت فی الفترة ما بین النفخة الاولی و الثانیة[۴۶۹].

هنا کشف إبلیس عمّا کان یضمره فی داخله، و عن الهدف الحقیقی لطلبه البقاء خالدا إلی زمن معیّن إذ: قالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ

القسم بالعزّة یراد منه الاستناد علی القدرة و الاستطاعة، و التأکیدات المتتالیة فی الآیة (القسم من جهة، و نون التوکید الثقیلة من جهة اخری، و کلمة أجمعین من جهة ثالثة) تبیّن أنّه مصمّم بصورة جدیّة علی المضی فی عمله، و أنّه سیبقی إلی آخر لحظة من عمره ثابتا علی عهده بإغواء بنی آدم.

و بعد قسمه انتبه إبلیس إلی هذه الحقیقة، و هی أنّ هناک مجموعة من عباد اللّه المخلصین لا یمکن کسبهم بأی طریقة إلی داخل منطقة نفوذه، لذلک أجبر علی الاعتراف بعجزه فی کسب أولئک فقال: إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ

أولئک الذین یسیرون فی طریق المعرفة و العبودیة لک بصدق و إخلاص و صفاء، إنّک دعوتهم إلیک، و أخلصتهم لک، و جعلتهم فی منطقة أمنک، و هذه هی المجموعة الوحیدة التی لا أتمکّن من الوصول إلیها، أمّا البقیّة فإنّ بإمکانی إیقاعهم فی شباکی.

حدس و ظنّ إبلیس کان صحیحا، إذ أنّه أوجد العراقیل لکلّ واحد من بنی آدم عدا المخلصین الذین نجوا من فخاخه و ذلک ما أکّده القرآن المجید فی الآیة (۲۰) من سورة سبأ: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَیْهِمْ إِبْلِیسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِیقاً مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۱

بحثان

۱- فلسفة وجود الشیطان

هناک مسائل مهمّة تطرح بشأن الآیات المذکورة أعلاه، منها مسألة خلق الشیطان، و سبب سجود الملائکة لآدم، و سبب تفضیل آدم علی الملائکة، و الشیطان علی من سیتسلّط، و ما هی نتیجة التکبر و الغرور، و ما المقصود من الطین و روح اللّه، و مسألة خلق آدم و خلقه المستقل فی مقابل فرضیات تکامل الأنواع؟ و مسائل اخری من هذا القبیل تمّ تناولها و بصورة مفصّلة فی التّفسیر الأمثل فی ذیل الآیة (۳۴) من سورة البقرة، و فی ذیل الآیة (۲۶) من سورة الحجر، و فی ذیل الآیة (۱۱) من سورة الأعراف.

نعود مرّة اخری إلی السؤال الأوّل الخاصّ بشأن فلسفة خلق الشیطان، فالکثیر یتساءل إن کان الإنسان خلق من أجل التکامل و نیل السعادة عن طریق عبودیته للّه، فما هی أسباب وجود الشیطان الذی هو موجود مدمّر یعمل ضدّ تکامل الإنسان؟ و هو فی نفس الوقت موجود ذکی، مکّار، یثیر العداوة و البغضاء. إلّا أنّنا لو تفکّرنا قلیلا فسوف ندرک أنّ وجود هذا العدو عامل مساعد لدفع التکامل الإنسانی إلی الإمام و تقدّمه.

لا نذهب بعیدا، فقوّات المقاومة التی تدافع دائما و بشدّة ضدّ العدوّ تزداد قوّة یوما بعد آخر ..

و القادة و الجنود المدرّبون الأقویاء هم الأشخاص الذین یقاتلون الأعداء بعنف فی المعارک الکبیرة.

و السیاسی المحنّک القوی هو الذی یتمکّن فی الأزمات السیاسیّة الشدیدة أن یتصدّی للأعداء الأقویاء و یتغلّب علیهم.

و أبطال المصارعة الکبار هم الذین نازلوا مصارعین أقویاء أشدّاء، إذن فلم العجب من أنّ عباد اللّه الکبار بجهادهم المستمر المریر ضدّ الشیطان، یصبحون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۲

أقوياء يوما بعد آخر.

فعلماء اليوم قالوا بشأن فلسفة وجود الميكروبات: لو لا وجود هذه الميكروبات لكان جسم الإنسان ضعيفا عديم الإحساس، و يحتمل أيضا توقّف نمو الإنسان بسرعة بحيث لا يتجاوز طوله الثمانين سنتيمترا، و لكان جميع البشر على شكل أقزام صغار، و بهذا الشكل فإنّ مبارزة جسم الإنسان للميكروبات المهاجمة تعطيه قوّة و قدرة على النمو.

و كذلك الحال بالنسبة إلى روح الإنسان فى جهادها ضدّ الشيطان و هوى النفس.

و هذا لا- يعنى أنّ الشيطان مكلّف بإغواء عباد اللّه، فالشيطان كان طاهرا فى بداية خلقه، كبقيّة الموجودات، و لكن الانحراف و الانحطاط و التعاسة التى أصيب بها إنّما كان برغبته و إرادته، و بهذا فإنّ البارئ عزّ و جلّ لم يخلق إبليس منذ اليوم الأوّل شيطانا، و إنّما إبليس هو الذى أراد أن يكون شيطانا، و فى نفس الوقت فإنّ ممارساته الشيطانية لا تجلب الضرر لعباد اللّه المخلصين إطلاقا، بل قد تكون سلّما لرقيّهم و سموّهم.

و فى النهاية يبقى هذا السؤال: لماذا تمّت الموافقة على طلبه فى البقاء حيّا، و لماذا لم يهلك فى تلك اللحظة؟

جواب هذا السؤال هو ما ذكرناه أعلاه، و بعبارة اخرى:

إنّ عالم الدنيا هذا هو ساحة للاختبار و الامتحان (الاختبار الذى هو وسيلة لتربية و تكامل الإنسان) و كما هو معروف فإنّ الاختبار لا يتمّ من دون مواجهة عدو شرس و مجابهة مختلف أنواع الأعاصير و المشاكل.

و بالطبع، إن لم يكن هناك شيطان، فإنّ هوى النفس و وساوسها هى التى تضع الإنسان فى بودقة الاختبار، و لكن حرارة هذه البودقة تزداد بوجود الشيطان، لأنّ الشيطان سيكون فى هذه الحالة العامل الخارجى المؤثّر على الإنسان، و هوى النفس و الوساوس ستكون العامل الداخلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۳

۲- نيران الأنانية و الغرور تحرق رأسمال الوجود

من الأمور الحسّاسة جدّا التى تلفت النظر فى قضيّة طرد إبليس من رحمة اللّه، هو مدى تأثير عاملى الأنانية و الغرور على سقوط و تعاسة الإنسان، إذ يمكن القول بأنّهما من أهمّ و أخطر عوامل الانحراف. و قد تسبّبا- فى لحظة واحدة- فى هدم عبادة ستّة آلاف سنة، و إنّهما كانا السبب وراء تدنّى موجود كان فى صفّ ملائكة السماء الكبار إلى أدنى درجات الشقاء، و يستحقّ لعنة اللّه الأبدية.

الأنانية و الغرور يحجبان الحقيقة عن بصر الإنسان، فالأنانية مصدر الحسد، و الحسد مصدر العداوة و البغضاء، و العداوة و البغضاء سبب إراقة الدماء و ارتكاب الجرائم.

الأنانية تدفع الإنسان إلى الاستمرار فى ارتكاب الخطأ، و تحبط- فى نفس الوقت- مفعول أىّ عامل للصحوة من الغفلة، أى تحوّل بين ذلك العامل و بين الإنسان.

الأنانية و العناد يسلبان فرصة التوبة و إصلاح الذات من الإنسان، و يغلقان أمامه كلّ أبواب النجاة، و خلاصة الأمر فإنّ كلّ ما نقوله حول خطر هذه الصفات القبيحة و المذمومة يعدّ قليلا.

و كم هو جميل

قول أمير المؤمنين عليه السّلام: «فعدو اللّه إمام المتعصّبين، و سلف المستكبرين، الذى وضع أساس العصبية، و نازع اللّه رداء الجبرية، و ادّرع لباس التعزّز، و خلع قناع التذلّل ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبره؟ و وضعه بترفّعه؟ فجعله فى الدنيا مدحورا، و أعدّ له فى الآخرة سعيرا».[۴۷۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۴

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۸۴ الى ۸۸]

اشارة

قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (۸۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۵) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (۸۶) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۸۷) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (۸۸)

التّفسير

آخر حديث بشأن إبليس!

آيات بحثنا هى آخر آيات سورة (ص)، و فى الحقيقة هى خلاصة لكلّ محتوى هذه السورة، و نتيجة للأبحاث المختلفة التى تناولتها السورة.

فى البداية ردّا على تهديد إبليس فى إغواء كلّ بنى آدم عدا المخلصين منهم- يجيبه البارئ عزّ و جلّ بالقول: قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ ۴۷۱] أقسم بالحقّ، و لا أقول إلّا الحقّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۵

فما ورد فى بداية السورة إلى هنا حقّ، و الذى ورد بشأن أحوال الأنبياء الكبار فى هذه السورة بسبب حروبهم و جهادهم حقّ، و الحديث فى هذه السورة عن القيامة و العذاب الأليم الذى سينزل بالطغاة و النعم التى سيغدقها البارىء عزّ و جلّ على أهل الجنّة حقّ، و نهاية السورة حقّ، و اللّه سبحانه يقسم بالحقّ و يقول الحقّ بأنّه سيملأ جهنّم بالشيطان و أتباعه، و ذلك جواب قاطع على كلام إبليس بشأن إغوائه بنى الإنسان، و بهذا وضّح البارئ عزّ و جلّ تكليف الجميع.

على أيّة حال، فإنّ هاتين الجملتين تشتملان على الكثير من التأكيد، فتؤكّدان مرتين على مسألة (الحقّ) و تقسمان بها، و عبارة (لأملأنّ) رافقتها نون التوكيد الثقيلة و (أجمعين) تأكيد مجدّد على كلّ ذلك، لكى لا يبقى لأحد أدنى شكّ و ترديد بهذا الشأن، إذ لا سبيل لنجاة الشيطان و أتباعه، و الاستمرار بالسير على خطاه يؤدّى إلى جهنّم.

و فى نهاية هذا البحث يشير البارئ عزّ و جلّ إلى أربعة امور فى عدّة عبارات قصيرة و واضحة؟

ففى المرحلة الاولى يقول: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

و بهذا وضع النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حدّا لذرائع المتذرّعين، و بيّن أنّه لا يبتغى من وراء ذلك سوى نجاة و سعادة البشر، و أنّه لا يريد منهم أىّ جزاء مادّى أو معنوى، و لا استحسان و لا شكر، و لا مقام و لا حكومة، و إنّما أجرى على اللّه، كما ذكرت ذلك آيات اخرى فى القرآن المجيد كالآية (۴۷) من سورة سبأ، و التى تقول: إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

و هذه هى إحدى دلائل صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ الداعية الكذّاب إنّما يدعو للوصول إلى أطماع شخصيّة، و هذه الأطماع تظهر بشكل أو بآخر من خلال حديثه، و العكس ما نراه فى شخصيّة رسولنا الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى المرحلة الثانية يقول: أنا لست من المتكلّفين، فكلامى مستند على الأدلّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۶

و المنطق، و لا يوجد فيه أى تكلّف، و عباراتى واضحة و كلامى خال من الغموض و اللفّ و الدوران وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ

و فی الواقع فإنّ المرحلة الاولی تتناول أوصاف الداعیة، و المرحلة الثانیة تتطرّق لسبل الدعوة و محتواها.

أمّا المرحلة الثالثة فتبیّن الهدف الأصلی من هذه الدعوة الکبیرة من نزول هذا الکتاب السماوی إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ

نعم، المهمّ هو أن یوقظ الناس من غفلتهم و یجعلهم یتعمّقون فی التفکیر، لأنّ الطریق واضح، و علاماته ظاهرة، و الفطرة السلیمة فی داخل الإنسان تمثّل دافعا قویّا تدفع الإنسان إلی سبیل التوحید و التقوی، فالمهمّ هو الصحوة، و هذه هی الرسالة الرئیسیّة للأنبیاء و لکتبهم السماویة.

هذه العبارة وردت مرّات عدیدة فی القرآن، و کلّها تبیّن أنّ محتوی دعوة الأنبیاء فی کلّ المراحل یتناسب مع الفطرة التی فطرنا علیها الباریء عزّ و جلّ، و أنّ الإثنین یسیران معا إلی الأمام.

و أمّا فی المرحلة الرابعة و الأخیرة، فإنّه یهدّد المعارضین و المخالفین بعبارة قصیرة غزیرة المعنی: وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ

یقول: من الممکن أن لا تأخذوا هذا الکلام مأخذ الجدّ، و تمرّون به مرّ الکرام، إلّا أنّه سیثبت لکم عاجلا صدق کلامی، سیثبت فی هذا العالم فی ساحات قتال الإسلام ضدّ الکفر، و فی ساحات العمل الاجتماعی و الفکری، و فی العالم الآخر بواسطة العذاب الإلهی الألیم الذی ستعذّبون به، خلاصة الأمر أنّ السوط الإلهی مهیّأ للنزول علی المستکبرین و الظالمین.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۷

ملاحظة

من هو المتکلّف؟

قرأنا فی الآیات المذکورة أعلاه أنّ إحدی مفاخر رسولنا الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه غیر متکلّف، و فی الروایات الإسلامیّة المزید من الأبحاث التی توضّح علامات المتصنّع و المتظاهر بما لیس فیه، و منها:

ورد حدیث فی (جوامع الجامع) عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، قال فیه: «المتکلّف ثلاث علامات: ینازع من فوقه، و یتعاطی ما لا ینال، و یقول ما لا یعلم»[۴۷۲]! و روی مثله فی الخصال عن الصادق علیه السّلام عن لقمان فی وصیته لابنه.

کما

ورد حدیث آخر و هو من وصایا الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأمیر المؤمنین علیه السّلام «للمتکلّف ثلاث علامات: یتملّق إذا حضر، و یغتاب إذا غاب، و یشمت بالمصیبة»[۴۷۳].

إضافة إلی ذلک

روی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام، جاء فیه: «المتکلّف مخطیء و إن أصاب، و المتکلّف لا یستجلب فی عاقبة أمره إلّا الهوان، و فی الوقت إلّا التعب و العناء و الشقاء، و المتکلّف ظاهره ریاء و باطنه نفاق، و هما جناحان بهما یطیر المتکلّف، و لیس فی الجملة من أخلاق الصالحین، و لا من شعار المتّقین المتکلّف فی أی باب، کما قال اللّه تعالی لنبیّه قل ما أسألکم علیه من أجر و ما أنا من المتکلّفین»[۴۷۴].

من مجموع هذه الرّوایات یتّضح- بصورة جیّدة- أنّ المتکلّفین خارجون عن جادّة الحقّ و العدالة و الصدق و الأمانة، و أنّهم لا یرون الحقائق أمام أعینهم، و یتشبّثون بالأوهام و الخیال، یتبئون بأمور لیسوا علی اطّلاع بها، و یتدخّلون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۸

بأمور لا یعرفونها، لهم ظاهر و باطن، و حضورهم و غیابهم متضادّ، یتعبون أنفسهم و یجهدونها، و لکنّهم لا یحصدون سوی الخیبة و

الخسران، أمّا المتّقون و الصالحون فإنّهم مطهّرون من هذه الصفة و منزّهون عنها.

إلهى! وفّقنا لتطهير أنفسنا من كلّ آثار التكلّف و النفاق و التمرّد و الطغيان.

إلهى! اجعلنا فى صفوف المخلصين الذين يستظلّون بظلّ حمايتك و حفظك، و الذين يئس الشيطان منهم.

إلهى! ارزقنا اليقظة و الذكاء، كى نسارع فى إحياء محتوى هذا القرآن الكبير، و تعبئة كافّة القوى الإسلامية فى أنحاء العالم، و نسير فى طريقك بقلب و لسان واحد، لكسر شوكة أعداء الحقّ و الحقيقة.

آمين يا ربّ العالمين.

*** «انتهت سورة (ص)» «و انتهاء المجلد الرابع عشر»

---

[۱] (۱)- تفسير فى ظلال القرآن، بداية سورة فاطر.

[۲] (۲)- مجمع البيان، المجلّد ۴، صفحة ۳۹۹.

[۳] (۳)- نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۳۴۵، حديث ۱.

[۴] (۱)- فيما يخصّ معنى« فاطر» و« فطر» تحدّثنا فى ذيل الآية العاشرة من سورة إبراهيم، و كذلك فى تفسير الآية(۱۴) من سورة الأنعام.

[۵] (۱)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۴۹- ح ۲۰.

[۶] (۲)- نهج البلاغة، خطبة رقم ۱.

[۷] (۳)- تفسير على بن إبراهيم طبقا لما نقله نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۳۴۹.

[۸] (۱)- فى معنى« العرش» راجع شرحنا لهذه الكلمة فى تفسير الآية(۵۴) من سورة الأعراف.

[۹] (۱)- البقرة، ۲۸۵.

[۱۰] (۲)- الأنبياء، ۲۶.

[۱۱] (۳)- الأنبياء، ۲۷.

[۱۲] (۴)- الحاقة، ۱۷.

[۱۳] (۵)- النازعات، ۵.

[۱۴] (۱)- الأعراف، ۳۷.

[۱۵] (۲)- الإنفطار، ۱۰- ۱۳.

[۱۶] (۳)- الأنعام، ۶۱.

[۱۷] (۴)- هود، ۷۷.

[۱۸] (۵)- الأحزاب، ۹.

[۱۹] (۶)- النحل، ۲.

[۲۰] (۷)- الشورى، ۵.

[۲۱] (۱)- بحار الأنوار، الجزء ۵۹، صفحة ۱۷۶ حديث ۷.

[۲۲] (۲)- المصدر السابق، صفحة ۱۷۴- حديث ۴. و قد نقلت روايات متعدّدة فى هذا الشأن فراجع.

[۲۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۱۷۵، ج ۶.

[۲۴] (۲)- الصافات، ۱۶۴- ۱۶۶.

[۲۵] (۳)- بحار الأنوار، المجلد ۵۹، صفحة ۱۷۴- حديث ۴.

[۲۶] (۱)- تفسير الفخر الرازى، المجلّد ۲۶، ص ۵.

[۲۷] (۲)- الكهف، ۵۰.

[۲۸] (۳)- الأعراف، ۱۷.

[۲۹] (۴)- الأعراف، ۲۷.

[۳۰] (۱)- سفينة البحار، المجلد ۱، صفحة ۵۰۱- مادة ربع.

[۳۱] (۲)- لاحظ الآيات ۱۶۱ و ۲۰۸ من سورة البقرة، و الآية(۱۴۲) من سورة الأنعام، و الآية(۲۲) من سورة الأعراف، و الآية(۵) سورة يوسف، و الآية(۶۰) سورة يس، و الآية(۶۲) من سورة الزخرف.

[۳۲] (۳)- النحل، ۱۰۰.

[۳۳] (۱)- المجادلة، ۱۹.

[۳۴] (۱)- من هنا يتّضح أنّ فى الآية جملة مقدّرة يمكن أن تكون« ... كمن ليس كذلك، أو كمن يحاسب نفسه و يرى سوء عمله سيّئا ... أو: هل يرجى له صلاح أو متاب» و هكذا.

[۳۵] (۲)- ذكر أيضا لهذه الآية تفسير آخر، و هو أنّ المقصود منها مخاطبة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن لا يتألّم من شدّة أذى و مخالفات هؤلاء، إذ أنّ اللّه مطّلع على أعمالهم تماما و سينتقم منهم فى الوقت المناسب.

[۳۶] (۱)- ذكر المفسّرون وجوها مختلفة لتفسير ظاهرة التنويع فى الأفعال و الضمائر فى الجملة، ف« أرسل» فعل ماض فى حين« فتثير» فعل مضارع، و الضمير فى الأوّل غائب بينما فى« فسقناه» متكلّم، و قد أشحنا عن ذكرها لما بدا من عدم دقّتها، و يمكن أن يكون ذلك للتفنّن فى البيان و التنويع فى الحديث.

[۳۷] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۴۰۹، الآية مورد الحديث.

[۳۸] (۱)- القصص، ۵۷.

[۳۹] (۱)- المنافقون، ۸.

[۴۰] (۱)- مريم، ۸۱.

[۴۱] (۲)- المنافقون، ۸.

[۴۲] (۱)- الشعراء، ۴۴.

[۴۳] (۱)-« نطفة» كما ذكرنا سابقا، فى الأصل بمعنى« الماء» أو بالأخصّ« الماء القليل الصافى» ثمّ أطلقت لهذا السبب على الماء القليل الذى هو مبدأ انعقاد الجنين.

[۴۴] (۱)- المقصود من« الكتاب» هو العلم الإلهى اللامحدود، و ما ذكره البعض من أنّه« اللوح المحفوظ» أو« صفحة حياة الإنسان» يعود بالنتيجة إلى ذلك العلم الإلهى.

[۴۵] (۱)-« عذب» كما يذكر الراغب فى مفرداته بمعنى« الماء النقى البارد» و فى لسان العرب بمعنى:« الماء الطيّب»، و يمكن أن يكون النقى و البارد داخلان فى مفهوم« الطيّب».

[۴۶] (۱)- لقد صنعت حاليا سفن حمولتها خمسمائة الف طنّ لنقل النفط، و لا يمكن لأيّة وسيلة اخرى غير السفينة أن تنقل هذا المقدار الضخم من النفط، كما أنّه لا يمكن لأى طريق أن يحمل مثل هذه الناقلة، كما أنّ قدرة السفن فى السابق كانت أكثر من قدرة

الحيوانات.

[۴۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، مجلّد ۴، صفحهٔ ۳۵۴ و ۳۵۵.

[۴۸] (۲)- المصدر السابق.

[۴۹] (۱)- المصدر السابق.

[۵۰] (۲)- سفينهٔ البحار، المجلّد ۲، صفحهٔ ۳۳- مادّهٔ صدقهٔ.

[۵۱] (۱)- بحثنا موضوع التغيير التدريجى لليل و النهار فى تفسير الآيهٔ(۲۷) من سورهٔ آل عمران.

[۵۲] (۲)- سورهٔ التكوير، ۱- ۲.

[۵۳] (۳)- تفسير« روح البيان» و« أبو الفتوح الرازى».

[۵۴] (۱)- التعبير ب« الذين» الذى هو عادهٔ لجمع المذكّر العاقل، ذكرت هنا للأصنام بسبب إعتقاد المشركين الوهمى بهذه الموجودات الجامدهٔ، و قد ذكره القرآن هكذا، ثمّ ردّ عليه بشدّهٔ.

[۵۵] (۱)- ورد هذا التّفسير فى مجمع البيان، و تفسير الآلوسى، و القرطبى.

[۵۶] (۱)- من كتاب(التوصّل إلى حقيقهٔ التوسّل).

[۵۷] (۱)- الراغب فى مفرداته كتاب الواو.

[۵۸] (۱)-« مثقلهٔ» بمعنى« الحامل لحمل ثقيل» و يقصد بها هنا حامل الوزر على عاتقه، و(حمل): على ما يقوله الراغب: معنى واحد اعتبر فى أشياء كثيرهٔ، فسوّى بين لفظهٔ فى فعل و فرّق بين كثير منها فى مصادرها، فقيل فى الأثقال المحمولهٔ فى الظاهر كالشىء المحمول على الظهر(حمل)، و فى الأثقال المحمولهٔ فى الباطن(حمل) كالولد فى البطن و الماء فى السحاب و الثمرهٔ فى الشجرهٔ تشبيها بحمل المرأهٔ، و لأنّ ما ورد فى هذه الآيهٔ، هو تشبيه للذنب بالحمل المحمول على العاتق، فيجب أن تقرأ بكسر الحاء.

[۵۹] (۲)- مع أنّ الحديث ورد فى تفاسير مختلفهٔ حينا عن الفضيل بن عيّاض، و حينا عن ابن عبّاس، و لكن يستبعد أن يكون الحديث عنهما مستقلا، فمن الممكن أن يكون أصل الحديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

راجع تفسير(أبو الفتوح، و القرطبى، و روح البيان) و قد أوردناه بالمعنى.

[۶۰] (۱)- الكشّاف، الجزء ۳، ص ۶۰۸.

[۶۱] (۱)- راجع الآيات ۲۵۷: البقرهٔ، ۱۵: المائدهٔ، ۱۶: المائدهٔ، ۱ و ۵: إبراهيم، ۲۲: الزمر، ۹: الحديد، ۱۱: الطلاق.

[۶۲] (۱)- تفسير« روح البيان» ذيل الآيات مورد البحث: و ورد هذا الحديث أيضا فى صحيح البخارى بتفاوت يسير(صحيح البخارى، الجزء الخامس، ص ۹۷ باب قتل أبى جهل).

[۶۳] (۱)- كشف الارتياب، ص ۱۰۹- كذلك فقد أشرنا إلى روايات(عرض الأعمال) عند تفسير الآيهٔ(۱۰۵) من سورهٔ التوبهٔ- راجع المجلّد السادس من هذا التّفسير.

[۶۴] (۲)- صحيح مسلم، كتاب الجنائز، حديث ۱ و ۲(المجلّد ۲، صفحهٔ ۶۳۱).

[۶۵] (۱) نهج البلاغهٔ، الكلمات القصار، جملهٔ ۱۳۰.

[۶۶] (۱) يقول الراغب فى مفرداته: زبرت الكتاب كتبته كتابهٔ عظيمهٔ، و كلّ كتاب غليظ يقال له زبور.

[۶۷] (۲)-(أخذت) من مادّهٔ(أخذ) بمعنى حيازهٔ الشىء و تحصيله، لكنّها هنا كنايهٔ عن المجازاهٔ، لأنّ الأخذ مقدّمهٔ للعقاب.

[۶۸] (۱)- قال البعض بأنّ هذه الجملهٔ الاستئنافيهٔ« من الجبال» خبر مقدّم و« جدد» مبتدأ مؤخّر، و ذهب آخرون: إنّ تقدير الجملهٔ هكذا« ألم تر أنّ من الجبال جدد بيض و حمر مختلف ألوانها».

[۶۹] (۱)- استنادا إلى ما صرّحت به بعض كتب اللغهٔ كلسان العرب فإنّ(سود) فى الآيهٔ أعلاه هى بدل عن« غرابيب» لأنّه فى حالهٔ

الألوان لا يقدّم التأكيد، لاحظ أنّ(غرابيب) أكثر إشباعا للتأكيد من ناحية السواد، لذا قيل إنّ الأصل كان« سود غرابيب».

[۷۰] (۲)- تفسير الميزان، مجلّد ۱۷، صفحة ۴۲.

[۷۱] (۱)- حول ما هو إعراب« كـذلك» أعطيت احتمالات عديـدة، بعضـهم قالوا بأنّها جملة مستقلّة تقديرها(الأمر كذلك) و نحن انتخبنـا فی تفسيرنا هـذا المعنی لكونه الأنـسب، و لكن البعض ربطوها بالجملـة السابقـة فقالوا: إنّ المعنی هو كما أنّ الثمرات و جـدد الجبـال مختلف ألوانها كـذلك الناس و الـدواب و الأنعام، و قـد احتمل أيضا أن تكون الجملـة مرتبطـة بما بعـدها و المعنی: كـذلك تختلف أحوال العباد فی الخشية.

[۷۲] (۱)- روضة الكافی، طبقا لنقل نور الثقلين، مجلّد ۴، صفحة ۳۵۹.

[۷۳] (۲)- مجمع البيان، تفسير الآيات مورد البحث.

[۷۴] (۳)- ...

[۷۵] (۱)- القصص- ۸۰

[۷۶] (۱)- يلاحظ أنّ« يرجون» خبر« أنّ».

[۷۷] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۰۷.

[۷۸] (۱)- جملـة« ليوفّيهم» إمّا أنّها متعلّقة بجملة« يتلون كتاب اللّه ...» و عليه يكون معناها« إنّ هدفهم من التلاوة و الصـلاة و الإنفاق الحصول علی الأجر الإلهی» أو أنّها متعلّقـة ب« لن تبور ...» و بذا يكون معناها« إنّ تجارتهم لن يصـيبها الفساد لأنّ المثيب لهم هو اللّه تعالی».

[۷۹] (۲)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۰۷.

[۸۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۰۷.

[۸۱] (۱)- سورة الصف: آية ۱ و التوبة- آية ۱۱۱ و البقرة ۲۰۷ و النساء- ۷۴.

[۸۲] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، جملة ۴۵۶، صفحة ۵۵۶.

[۸۳] (۱)- يونس، ۳۲.

[۸۴] (۲)- يونس- ۵.

[۸۵] (۳)- البقرة- ۲۱۳.

[۸۶] (۴)- مفردات الراغب- مادّة حقّ.« مع تلخيص و اختصار».

[۸۷] (۱)- راجع تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۳۶۱.

[۸۸] (۱)- أمّا مـا احتمله البعض من أنّ التقسيم الـوارد فی الآيـة يعـود علی« عبادنـا» و ليس علی« الـذين اصـطفينا»، بحيث أنّ هـذه المجموعـات الثلاثـة لا تـدخل ضـمن مفهوم ورثـة الكتاب، بل ضـمن مفهوم« عبادنا» و« الـذين اصـطفينا» فقط المجموعـة الثالثـة أی« السابقين بالخيرات»، فيبدو بعيدا، لأنّ الظّاهر هو أنّ هذه المجموعات ممّن ذكرتهم الآية، و نعلم أنّ الحديث فی الآية لم يكن عن كلّ العباد، بل عن i الَّذِينَ اصْطَفَيْنا\E، ناهيک عن إضافة« نا» إلی« عباد» و هو نوع من التمجيد و المدح، ممّا يجعل ذلك غير منسجم مع التّفسير المذكور.

[۸۹] (۱)- راجع تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۳۶۱، كذلک الكافی، المجلّد ۱، باب من اصطفاه اللّه من عباده.

[۹۰] (۲)- ذهب بعض بأنّ السابق بالخيرات هم أعوان الرّسول صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم و المقتصد طبقة التابعين، و الظالم لنفسه أفرادا آخرون.

و البعض الآخر فسّروا« سابق بالخيرات» بالـذين يفضّل باطنهم علی ظاهرهم و« المقتصـد» بالذين يتساوی ظاهرهم و باطنهم، و« الظالم

لنفسه» بالذين يفضّل ظاهرهم على باطنهم.

و البعض الآخر قالوا إنّ« السابقين» هم الصحابة، و« المقتصدين» هم تابعيهم، و« الظالمين» هم المنافقون.

و قال آخرون بأنّ الآية تشير إلى المجموعات الثلاثة الواردة فى سورة الواقعة- الآيات ۷ إلى ۱۱\.i وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ E.

و فى حديث أنّ« السابق بالخيرات» هم الأئمّة على و الحسن و الحسين و شهداء آل محمّد عليهم الصلاة و السلام، و المقتصد المتديّنون المجاهدون، و الظالم لنفسه الذى خلط عملا صالحا و آخر غير صالح. و كلّ هذه التّفسيرات كما قلنا من قبيل بيان المصاديق، و كلّها قابلة للتعقّل، عدا التّفسير الأوّل الّذى لا يحتوى على مفهوم صحيح.

[۹۱] (۱)- مجمع البيان، تفسير الآية مورد البحث.

[۹۲] (۲)- تفسير أبو الفتوح الرازى، المجلّد ۹ تفسير الآيات مورد البحث.

[۹۳] (۱)-« جنّات عدن»: يمكن أن تكون خبرا لمبتدء محذوف تقديره« جزائهم» أو« أولئك لهم جنّات عدن»، نظير الآية(۳۱- سورة الكهف) بعضهم أيضا قال: إنّها(بدل) عن« الفضل الكبير»، و لكن باعتبار أنّ« الفضل الكبير» إشارة إلى ميراث الكتاب السماوى، فلا يمكن أن تكون« جنّات» بدلا عنها، إلّا إذا اعتبرنا المسبّب فى مقام السبب.

[۹۴] (۱)- مفردات الراغب.

[۹۵] (۱)- انظر تفسير روح المعانى، مجلّد ۲۲، صفحة ۱۸۴.

[۹۶] (۲)- المصدر السابق.

[۹۷] (۱)-« لا يقضى عليهم» بمعنى لا يحكم عليهم.

[۹۸] (۱)-« يصطرخون» من مادّة« صرخ» بمعنى الصياح الشديد الذى يطلقه الإنسان من القلب للاستغاثة و طلب النجدة، للتخلّص من الألم أو العذاب أو أى مشكل آخر.

[۹۹] (۲)- التوبة، ۳۷.

[۱۰۰] (۳)- الكهف، ۱۰۴.

[۱۰۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۱۰.

[۱۰۲] (۲)- المصدر السابق.

[۱۰۳] (۳)- المصدر السابق.

[۱۰۴] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۵، ص ۲۵۴.

[۱۰۵] (۲)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۱۰.

[۱۰۶] (۱)- المرحوم كاشف الغطاء فى كتاب أصل الشيعة و أصولها.

[۱۰۷] (۱)- جملة« أرأيتم» بمعنى: ألا ترون؟ أو: ألا تفكّرون؟ و لكن بعض المفسّرين يقولون بأنّها بمعنى« أخبرونى».

و قد أوردنا بحثا مطوّلا بهذا الخصوص فى تفسير آية(۴۰) من سورة الأنعام.

[۱۰۸] (۱)- جملة« أن تزولا» تقديرها« لئلا تزولا» أو« كراهة أن تزولا».

[۱۰۹] (۱)- أغلب التفاسير.

[۱۱۰] (۲)- لأنّ« إحدى» جاءت بصيغة المفرد، فمعنى الآية« أنّهم سيكونون أكثر اهتداء من واحدة من الأمم» و قد تكون الإشارة إلى اليهود(لأنّ صيغة المفرد فى الجملة المثبتة ليس فيها معنى العموم) يبدو ذلك للوهلة الاولى، و لكن كما أشار بعض المفسّرين فإنّ قرائن الحال تشير إلى أنّ المقصود من الآية العموم، لأنّ الحديث فى مقام المبالغة و التأكيد، و تشير إلى ادّعائهم بأنّه فى حال بعثة

رسول إليهم فانّهم سيكونون أهدى من جميع الأمم السابقة.

[۱۱۱] (۱)- أغلب المفسّرين قالوا بأنّ« استكبارا» هو« مفعول لأجله» من حيث التركيب النحوى و هى بيان لعلّة« النفور» و ابتعادهم عن الحقّ، و« مكر السيء» عطف على« استكبارا» فى حين أنّ البعض الآخر قال: إنّها عطف على« نفورا».

[۱۱۲] (۲)-« مكر السيئ» إضافة(للجنس) إلى(النوع)، كما هو نقول:« علم الفقه» لأنّ(مكر) بمعنى(البحث عن حلّ) سواء كان خيرا أو شرّا، لذا فإنّ هذه الكلمة تطلق كصفة للّه سبحانه i وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ E آل عمران- ۵۴، و لكن« السيء» تحصر المكر فى نوع خاصّ منه، و هو الاحتيال.

[۱۱۳] (۱)-« نظر» و« انتظار» تأتى أحيانا لتشير إلى نفس المعنى. كما يقول الراغب.

[۱۱۴] (۱)- لنا شرحا مفصّل بهذا الخصوص فى سورتى الأحزاب و الإسراء.

[۱۱۵] (۱)- جمع من المفسّرين فسّروا« تحويل» هنا بمعنى« نقل مكان العذاب» بمعنى أنّ اللّه سبحانه و تعالى ينقل عقوبته من شخص لينزلها على شخص آخر. و مع ملاحظة أنّ هذا التّفسير لا ينسجم على ما يبدو مع الآية أعلاه، فالحديث ليس عن نقل العذاب من شخص إلى آخر، بل عن عدم قبول السنن للزيادة و النقص أو التغيير و التبديل، فكأنّ هؤلاء المفسّرين خلطوا بين كلمتى« تحوّل» و« تحويل»، و قد ورد فى بعض متون اللغة كمجمع البحرين« التحويل: تصيير الشيء على خلاف ما كان. و التحوّل: التنقّل من موضع إلى موضع».

[۱۱۶] (۲)- جملة« ليعجزه» كما ذكرنا سابقا من مادّة« عجز» و هى هنا بمعنى: يجعله عاجزا، لذا ففى كثير من المواضع جاءت بمعنى الفرار من قدرة اللّه، أو بمعنى عدم التمكّن من شخص.

[۱۱۷] (۱)- جملة\i فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ E جملة شرطية، و جزاؤها يقع فى تقدير جواب الشرط هكذا« فإذا جاء أجلهم يجازى كلّ واحد بما عمل»، و عليه فإنّ جملة« فإنّ اللّه» من قبيل« علّة الجزاء» و هى تقوم مقام المعلول المحذوف. و يحتمل كذلك أنّ الجزاء هو\i لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ E كما ورد فى آيات اخرى من القرآن الكريم كالآية ۶۱ من سورة النحل، و عليه فإنّ جملة\i فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً\E إشارة إلى أنّ اللّه يعرفهم جميعا، و يعلم أيّا منهم أبلغ أجله لكى يأخذه بقدرته تعالى.

[۱۱۸] (۱)-« دابة» من مادة« دب» و الدب و الدبيب مشى خفيف، و يستعمل ذلك فى الحيوان و فى الحشرات أكثر، و يستعمل فى كل حيوان و إن اختصت فى التعارف بالخيل. و كذلك تطلق كلمة« الدواب» خاصة على الحيوانات التى تستعمل للركوب.

[۱۱۹] (۱)- تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۳۷۰ الحديث ۱۲۲.

[۱۲۰] (۱)- مجمع البيان، مجلّد ۴، صفحة ۴۱۳.

[۱۲۱] (۲)- مجمع البيان، مجلّد ۴، صفحة ۴۱۳.

[۱۲۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۲۳] (۱)- نور الثقلين، مجلد ۴، صفحة ۳۷۴ و ۳۷۵.

[۱۲۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۷۵.

[۱۲۵] (۱)- اختلف المفسّرون فى تركيب جملة\i عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ E بعضهم قال« إنّها جار و مجرور» متعلّقان ب« المرسلين»، بحيث يكون المعنى« رسالتك على صراط مستقيم» و بعضهم قال:« إنّها خبر بعد خبر» و المعنى« إنّك مستقر على صراط مستقيم»، و البعض الآخر اعتبروها(حال) منصوبة و المعنى« إنّك من المرسلين و حالك على صراط مستقيم»(من الطبيعى أن ليس هناك تفاوت كثير فى المعنى).

[۱۲۶] (۲)-« تنزيل» مفعول منصوب لفعل مقدّر و التقدير« نزل تنزيل العزيز الرحيم»، كذلك فقد وردت احتمالات اخرى لإعراب هذه الجملة.

[۱۲۷] (۱)- أعطى المفسّرون احتمالات مختلفة حول كون« ما» نافية أو غير ذلك، أغلبهم قالوا بأنّها« نافية»، و قد اعتمدنا ذلك نحن فى تفسيرنا، أوّلا: لأنّ جملة« فهم غافلون» دليل على ذلك المعنى، فعدم وجود المنذر سبب للغفلة. الآية الثالثة من سورة السجدة- أيضا- شاهد على ذلك، حيث يقول سبحانه و تعالى\:i لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ E.

و قال بعضهم بأنّ« ما» هنا موصولة، بحيث يكون معنى الجملة« لتنذر قوما بالذى انذر آباؤهم».

و بعض احتملوا أنّ« ما» مصدرية، و عليه يكون معنى الجملة« لتنذر قوما بنفس الإنذار الذى كان لآبائهم»، و لكن يبدو أنّ كلا الاحتمالين ضعيف.

[۱۲۸] (۱)- نهج البلاغة، خ ۳۳ و ۱۰۴.

[۱۲۹] (۱)- سورة النصر، الآية ۲.

[۱۳۰] (۲)- بناء على ما عرضناه يتضح بأنّ الضمير فى« أكثرهم» يعود على قادة القوم و ليس على القوم، و شاهد ذلك الآيات التالية لتلك الآية.

[۱۳۱] (۱)- مفردات الراغب، و قطر المحيط، و مجمع البحرين، مادّة غل.

[۱۳۲] (۲)- على ما أوردناه أصبح واضحا أنّ الضمير« هى» فى جملة\i فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ E يعود على« الأغلال» بحيث إنّها رفعت أذقانهم إلى الأعلى، و جملة« فهم مقمحون» تفريع على ذلك. و ما احتمله البعض من أنّ« هى» تعود على« الأيدى» التى لم يرد ذكرها فى الآية، يبدو بعيدا جدّا.

[۱۳۳] (۱)- تفسير الآلوسى، المجلّد ۲۲، صفحة ۱۹۹.

[۱۳۴] (۱)- تفسير الفخر الرازى الكبير، تفسير الآيات مورد البحث مجلّد ۲۶، ص ۴۵.

[۱۳۵] (۲)- تفسير القرطبى، تفسير الآيات مورد البحث، مجلّد ۱۵، ص ۱۰.

[۱۳۶] (۱)- انظر النحل: ۴۴ و فصّلت: ۴۱، و الزخرف: ۴۴ و القمر: ۲۵، و فى نفس الوقت فإنّ لفظة« ذكر» تكرّرت فى القرآن كثيرا بمعنى« التذكير المطلق».

[۱۳۷] (۱)- الأحزاب، ۲۱.

[۱۳۸] (۱)- الإسراء، ۱۴.

[۱۳۹] (۲)- الكهف، ۴۹.

[۱۴۰] (۱)- الجاثية، ۲۸.

[۱۴۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۷۸، ح ۲۵.

[۱۴۲] (۳)- تفسير القرطبى، ج ۱۵، ص ۱۲، نقل هذا الحديث عن أبى سعيد الخدرى، كما فى صحيح الترمذى و جاء مثله فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أيضا، و قد ذكره مفسّرون آخرون كالآلوسى و الفخر الرازى و الطبرسى و العلّامة الطباطبائى- أيضا- بتفاوت يسير.

[۱۴۳] (۱)- معانى الأخبار للصدوق، باب معنى الإمام، صفحة ۹۵.

[۱۴۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۷۹.

[۱۴۵] (۱)- يعتقد البعض بأنّ« أصحاب القرية» مفعول أو للفعل« اضرب» و« مثلا» مفعول ثان مقدّم، و البعض يقول: إنّها بدل عن« مثلا»، و لكن الظاهر رجاحة الاحتمال الأوّل.

[۱۴۶] (۱)- بعض المفسّرين قالوا بأنّ كلمة« إذ» هنا بدل عن« أصحاب القرية»، و ذهب آخرون بأنّها متعلّق لفعل محذوف تقديره« اذكر».

[۱۴۷] (۱)- تقدّم الكلام عن« التطيّر» بالتفصيل فى تفسير سورة الأعراف، الآية ۱۳۱، و ذيل الآية ۴۷ من سورة النمل.

[۱۴۸] (۱)- تفسير القرطبى، ذيل الآيات محلّ البحث.

[۱۴۹] (۲)- و ذلك فى حال كون« لنرجمنّكم» من مادّة« رجم» بمعنى السبّ و الاتّهام و القذف.

[۱۵۰] (۱)- التقدير هو« أئن ذكّرتم قابلتمونا بهذه الأمور» أو« أئن ذكّرتم علمتم صدق ما قلنا».

[۱۵۱] (۱)- الآيات: ۱۰۹- ۱۲۷- ۱۴۵- ۱۶۴- ۱۸۰.

[۱۵۲] (۱)- راجع الآيات ۳ و ۳۲ يونس- ۳ و ۵۲ هود- ۲۴ النمل ۲۹- الكهف و غيرها.

[۱۵۳] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۱۵، ص ۱۸ و ۱۹.

[۱۵۴] (۲)- تفسير التبيان، ج ۸، ص ۴۱۴.

[۱۵۵] (۳)- آل عمران، ۱۶۹.

[۱۵۶] (۴)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۱۸.

[۱۵۷] (۱)- بخصوص موقع(ما) فى الجملة احتملت ثلاثة احتمالات: إمّا مصدرية، أو موصولة، أو استفهامية، و لكن يبدو أنّ احتمال كونها استفهامية بعيد، و يبقى أنّ الأقرب كونها موصولة، مع أنّ المعنى لا يختلف كثيرا حينما تكون مصدرية.

[۱۵۸] (۲)- تفسير القرطبى، المجلّد ۸- صفحة ۲۰.

[۱۵۹] (۳)- الحجرات، ۱۳.

[۱۶۰] (۱)- الأنبياء، ۲۷.

[۱۶۱] (۲)- المعارج، ۳۵.

[۱۶۲] (۳)- الميزان، المجلّد ۱۷، صفحة ۸۲.

[۱۶۳] (۱)-« بولس» من المبلّغين المسيحيين المعروفين الذى سعى كثيرا فى نشر الديانة المسيحية.« برنابا»- بفتح الباء- اسمه الأصلى« يوسف» كان من أصدقاء بولس و مرقس، له إنجيل معروف ذكر فيه كثيرا البشارة بظهور نبى الإسلام، و لكن المسيحيين لا يعتقدون بصحّته و يقولون انّ هذا الإنجيل قد كتبه أحد المسلمين.

[۱۶۴] (۲)- تفسير« أبو الفتوح الرازى» و هامش العالم المرحوم« الشعرانى».

[۱۶۵] (۱)- مجمع البيان، المجلّد ۴(الجزء ۸)- صفحة ۴۱۹.

[۱۶۶] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱، صفحة ۳۱۹.

[۱۶۷] (۲)- ذكرنا رواية شريفة مفصّلة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المجال عند تفسير سورة(آل عمران) ذيل الآية ۱۶۹.

[۱۶۸] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۲۱ القرطبى- الميزان، نور الثقلين.

[۱۶۹] (۲)- تفسير الدرّ المنثور، على ما نقله الميزان، المجلّد ۱۷، صفحة ۸۶.

[۱۷۰] (۱)- الاستفهام فى الآية أعلاه استفهام تقريرى و« كم» خبرية، و هى هنا بمعنى الكثرة فى محلّ مفعول به للفعل(يروا) و(من القرون) توضيح لذلك. و« قرون» كما ذكرنا سابقا تأتى بمعنى العصور و هى جمع(قرن) مائة سنة أو بمعنى(الجيل) الذى يعيش فى زمان معيّن.

[۱۷۱] (۱)- هذه الجملة بدل عن« كم أهلكنا» و التقدير« ألم يروا أنّهم إليهم لا يرجعون» البعض احتمل أيضا أنّ الجملة حالية(حال الهالكين).

[۱۷۲] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۱۸۸.

[۱۷۳] (۳)- المعروف بين المفسّرين حول تركيب هـذه الآيـة:« إنّ» نافيـة. و البعض قال: إنّها مخفّفـة لذا فإنّها لا تنصب ما بعدها، و« لمّـا» بمعنى« إلّـا»، بلحـاظ أنّ ذلـك ورد فى كلام العرب، و(جميع) بمعنى« مجموع» خبر« كـلّ»(تنوين كـل) بـدل عن مضـاف إليه محذوف تقـديره« هم» و الأصل« كلّهم») و« محضـرون» إمّا خبر بعـد خبر، أو صـفة ل« جميع» و على ذلك تكون الجملـة فى التقدير هكذا« و ما كلّهم إلّا مجموعون يوم القيامة محضرون لدينا».

[۱۷۴] (۱)- وردت احتمالات عديدة فى إعراب الآية، و لكن أوضـحها على ما يبدو، هو كون« آية لهم» خبر مقدّم و« الأرض الميتة» مبتدأ مؤخّر، و« أحيينا» جملة استئنافية و هى توضيح و تفسير للجملة السابقة.

[۱۷۵] (۱)- من الجـدير بالملاحظـة أنّ الصـيغة الثلاثيـة المجردة لهـا« فجر» بمعنى(الشقّ) و هنا اسـتخدمت على وزن« تفعيل» بمعنى التكثير و التشديد.

[۱۷۶] (۱)-« سـبحان» على قول جماعـة من المفسّـرين و علمـاء الأدب هى« علم» للتسبيـح، لأنّ العلم(الاسـم الخاصّ) يكون أحيانا للأشخاص فيسمّى« علم الشخص»، و أحيانا للجنس فيسمّى« علم الجنس»، و أحيانا للمعنى فيسمّى« علم المعنى» بناء على هذا فمفهوم« سبحـان» هو تنزيه و تقـديس اللّه من كـلّ عيب و نقص، تنزيهـا يتنـاسب و عظمـة الخـالق، و العلم لاـ يضاف إلّا فى« علم المعنى». قال البعض أيضا أنّ« سبحان» لها معنى مصدرى، و مفعول مطلق لفعل مقدّر، و فى أيّة صورة فهى تبيّن التنزيه الإلهى بأوكد وجه.

[۱۷۷] (۱)- الراغب فى« المفردات» يقول: السلخ نزع جلد الحيوان، يقال سلخته فانسلخ، و عنه استعير سلخت درعه نزعتها، و سلخ الشهر و انسلخ، و لكن بعض المفسّرين يقولون: إنّ ذلك فى حالة تعدّى« سلخ» بحرف الجرّ« عن» و إذا تعدّى بالحرف« من» يكون بمعنى الإخراج، و لكن ليس من دليل واضح فى كتب اللغة على هذا التفاوت- على ما نعلم- و إن كان« لسان العرب» يقول:« انسلخ النهار من الليل خرج منه خروجا» و الظاهر أنّ هذا مأخوذ من المعنى الأوّل.

[۱۷۸] (۲)- هـذه الجملـة لها إعرابان، فإمّا أن تكون معطوفة على« الليل» و التقدير« و آية لهم الشـمس»، و إمّا أن تكون مبتدأ و خبر، فالشمس مبتدأ و(تجرى) خبر، و قد اخترنا الإعراب الأوّل.

[۱۷۹] (۱)- طبق هذا التّفسير فإنّ(اللام) فى« لمستقر لها» بمعنى« فى» و يكون التقدير« فى مستقر لها».

[۱۸۰] (۱)-« عرجون» كما قال أغلب المفسّرين و أهل اللغة: من الانعراج و هو الاعوجاج و الانعطاف، و عليه فالنون زائدة و هو على وزن فعلون، و يعتقـد آخرون أنّه مـأخوذ من« عرجن» فـالنون ليست زائـدة، و بمعنى: أصـل عنقود الرطب المتّصل بالنخلـة، و توضـيح ذلك أنّ الرطب يظهر على شكل عنقود من النخلة، و أصل ذلك العنقود يكون على شكل مقوّس أصفر اللون يبقى معلّقا فى النخلة، و« قديم»: بمعنى العتيق الذى مضى زمنه.

[۱۸۱] (۱)-« الجاثى على ركبتيه»: مجموعـة من النجوم التى تتشاكل فيما بينها لترسم صورة شـخص جاث على ركبتيه، و منه أخذت التسمية.

[۱۸۲] (۲)- أى أنّ الشـمس فى كلّ خمس و عشـرين يوما من أيّامنا تدور دورة واحدة حول نفسـها، و قد شـخصت هذه المسألة من مراقبة العلماء للبقع الموجودة على سطح الشمس، فقد لوحظ أنّها تتبادل مواقعها ثمّ تعود كما كانت خلال هذه المدّة.

[۱۸۳] (۱)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۸۷، ح ۵۵.

[۱۸۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۸۷، ح ۵۳.

[۱۸۵] (۳)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۸۷، ح ۵۴.

[۱۸۶] (۱)-« و إذا قيل لهم ...» جملة شـرطية، و جزاؤها محذوف يسـتفاد من الآية اللاحقة، و التقدير:« و إذا قيل لهم اتّقوا ... أعرضوا عنه».

[۱۸۷] (۱)- الميزان، المجلّد ۱۷، الصفحة ۹۶،(ذيل الآيات مورد البحث).

[۱۸۸] (۱)- بعض المفسّرين احتمل التّفسير التالى و هو: أنّ العرب كانوا مشهورين بالضيافة فى ذلك الزمان، و ما كانوا يمتنعون عن الإنفاق، و كان هدف الكفّار هو الاستهزاء بالمؤمنين الذين كانوا ينسبون الأشياء و الأمور جميعها إلى المشيئة الإلهية، فكانوا يقولون لهم: إذا أراد اللّه سبحانه و تعالى أن يغنى الفقراء فما الحاجة إلى إنفاقنا، و لكن يبدو أنّ التّفسير الذى أوردناه هو الأنسب(راجع التبيان، و تفسير القرطبى، و روح المعانى).

[۱۸۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۲۷. و ذكرت هذه الرواية بتفاوت قليل فى تفسير« القرطبى» و« روح المعانى» و غيرهما.

[۱۹۰] (۱)- يأتى تارة بمعنى اسم مكان، و اخرى اسم للنوم، أى مصدر ميمى.

[۱۹۱] (۱)- يرى« الراغب» فى مفرداته بأنّ« فاكهة» تطلق على كلّ أنواع الثمار و الفواكه، و« فاكه» الحديث الذى يأنس به الإنسان و ينشغل به عن غيره. و يرى« ابن منظور» فى لسان العرب أنّ« فكاه» بمعنى المزاح، و« فاكه» يطلق على الإنسان المرح.

[۱۹۲] (۲)- هناك احتمالات عديدة فى إعراب الجملة، و أفضلها أنّ« هم» مبتدأ، و« متكئون» خبر، و« على الأرائك» متعلّق به، و« فى ظلال» متعلّق به أيضا أو متعلّق بمحذوف.

[۱۹۳] (۳)- لسان العرب- مفردات الراغب- مجمع البيان- القرطبى- روح المعانى- و تفاسير اخرى.

[۱۹۴] (۱)- اختلف حول إعراب« قولا» و أنسب ما ذكر هو اعتبارها(مفعول مطلق) لفعل محذوف تقديره« يقول قولا».

[۱۹۵] (۱)- تفسير روح المعانى، مجلّد ۲۳، صفحة ۳۵.

[۱۹۶] (۲)- روح البيان، مجلّد ۷، صفحة ۴۱۶.

[۱۹۷] (۳)- الرعد، ۲۴.

[۱۹۸] (۱)- الأعراف، ۴۶.

[۱۹۹] (۲)- النحل، ۳۲.

[۲۰۰] (۳)- إبراهيم، ۲۳.

[۲۰۱] (۴)- الواقعة، ۲۶.

[۲۰۲] (۱)- الأعراف، ۲۷.

[۲۰۳] (۲)- الزخرف، ۶۲.

[۲۰۴] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۸۹، حديث ۱.

[۲۰۵] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۹۱، حديث ۸ و ۹.

[۲۰۶] (۳)- المصدر السابق.

[۲۰۷] (۱)- انظر روح المعانى و الفخر الرازى.

[۲۰۸] (۲)- المصدر السابق.

[۲۰۹] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۹۲(القاصعة).

[۲۱۰] (۱)-« اصلوها» من(صلا) أصل الصّلى إيقاد النار، و يقال صلى بالنار و بكذا، أى بلى بها و اصطلى بها.

[۲۱۱] (۱)- تفسير الصافى، مجلّد ۴، صفحة ۲۵۸

[۲۱۲] (۲)-« طمسنا» من طمس- على وزن شمس- بمعنى إزالة الأثر بالمحو، هذه الإشارة إلى إزالة ضوء العين أو صورتها بشكل كلّى بحيث لا يبقى منها أثر.

[۲۱۳] (۳)-« مكانتهم» بمعنى محل التوقّف، و هى إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه و تعالى قادر على أن يخرجهم عن إنسانيتهم فى محل توقّفهم، يغيّر أشكالهم، و يفقدهم القدرة على الحركة، تماما كالتمثال الخالى من الروح.

[۲۱۴] (۴)- لسان العرب- قطر المحيط- المنجد« مادّة سبق».

[۲۱۵] (۱)- ذكر صاحب تفسير« فى ظلال القرآن» هذا التّفسير على انّه الوحيد، فى حين انّ التّفسير السابق اختاره كلّ من تفسير: مجمع البيان- التبيان- الميزان- الصافى- روح المعانى- روح البيان- القرطبى- التّفسير الكبير.

[۲۱۶] (۱)- ورد هذا الحديث فى سفينة البحار مادّة(عمر).

[۲۱۷] (۱)- بحار الأنوار، مجلّد ۷۷، صفحة ۷۵، حديث- ۳.

[۲۱۸] (۱)- الشعراء، ۲۲۴- ۲۲۶.

[۲۱۹] (۲)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۳۳.

[۲۲۰] (۱)- جملة« لينذر ...» متعلّقة ب« ذكر» الواردة فى الآية السابقة، و البعض اعتبرها متعلّقة ب« علمنا» أو« نزّلنا» تقديرا، و لكن الاحتمال الأوّل هو الأنسب على ما يبدو.

[۲۲۱] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۱۰، ۱۳۳ و كلمات قصار ۳۸۸.

[۲۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۲۲۳] (۳)- المصدر السابق.

[۲۲۴] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار كلمة ۳۴۵.

[۲۲۵] (۲)- البقرة- ۱۰.

[۲۲۶] (۳)- البقرة، ۷۴.

[۲۲۷] (۴)- المائدة، ۴۱.

[۲۲۸] (۵)- الأنعام، ۳۶.

[۲۲۹] (۱)- جملة« أو لم يروا ...» جملة معطوفة على سابقتها بواو العطف، و لكن حين دخول الهمزة الاستفهامية على الجملة فإنّها تتصدّرها،(و الرؤية) هنا بمعنى المعرفة، أو الإبصار.

[۲۳۰] (۲)- الفتح، ۱۰.

[۲۳۱] (۱)- مريم، ۸۱.

[۲۳۲] (۱)- الأنبياء، ۹۸.

[۲۳۳] (۱)-« خصيم» بمعنى المصرّ على الخصومة و الجدال، و(الرؤية) بمعنى(العلم).

[۲۳۴] (۱)-« رميم» من مادّة(رم) و هو إصلاح الشيء البالى، و« الرّمّة» تختص بالعظم البالى، و« الرّمّة» تختص بالحبل البالى،(مفردات الراغب مادّة(رم) صفحة ۲۰۳).

[۲۳۵] (۱)- طه، ۵۵.

[۲۳۶] (۱)- إذا اعتبرنا« من» فى جملة« منه توقدون» بمعنى« به» فإنّ ذلك يتساوق مع التّفسيرات الاخرى.

[۲۳۷] (۱)- بعض المفسّرين أعادوا الضمير فى« مثلهم» على السموات و الأرض، و قالوا بأنّ استعمال ضمير الجمع العاقل لوجود الموجودات العاقلة فى الأرض و السماء كثير.

البعض الآخر استنتج من استخدام كلمة« مثلهم» عدم ضرورة عودة عين الجسم بمواده التى كان يتشكّل منها فى الدنيا، لأنّ شخصية الإنسان تتعلّق بروحه، و هذه الروح بأى مادّة تعلّقت تكون مثل الإنسان.

و لكن يجب الالتفات إلى أنّ الكلام لا ينسجم مع ظاهر آيات القرآن الكريم- حتّى أنّه لا ينسجم مع ظاهر الآيات مورد البحث- لأنّ القرآن الكريم يقول بصراحة فى هذه الآيات: إنّه يخلق نفس تلك العظام المتفسّخة من جديد و يلبسها ثوب الحياة.« تأمّل!!».

[۲۳۸] (۱)- ورد فی بعض النسخ« لمن أراد» و يبدو أن الأنسب هو النص الذى أوردناه« لما أراد».

[۲۳۹] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۱۸۶.

[۲۴۰] (۱)- هناك بحث آخر فى تفسير جملة« كن فيكون» فى تفسير الآية(۱۱۷) من سورة البقرة.

[۲۴۱] (۱)- علم الاجتماع(ساموئيل كنيك) صفحة ۱۹۲(مع قليل من التلخيص).

[۲۴۲] (۱)- البقرة، ۴۸.

[۲۴۳] (۲)- يونس، ۵۴.

[۲۴۴] (۳)- إبراهيم، ۵۱.

[۲۴۵] (۴)- مجمع البيان، المجلّد ۱، صفحة ۲۹۸، تفسير سورة البقرة الآية ۲۰۲.

[۲۴۶] (۵)- السجدة، ۱۴.

[۲۴۷] (۱)- المطفّفين، ۴.

[۲۴۸] (۲)- التوبة، ۵۲.

[۲۴۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۵ صفحة ۵۲.

[۲۵۰] (۱)- المؤمنون، ۱۱۵.

[۲۵۱] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار كلمة ۱۳۱.

[۲۵۲] (۲)- الواقعة، ۶۲.

[۲۵۳] (۳)- تفسير الصافى، المجلّد الخامس، صفحة ۱۰۷.

[۲۵۴] (۱)- القلم، ۳۵ و ۳۶.

[۲۵۵] (۲)- ص، ۲۸.

[۲۵۶] (۳)- الأنبياء، ۴۷.

[۲۵۷] (۴)- يونس، ۵۴.

[۲۵۸] (۵)- الذاريات، ۵۶.

[۲۵۹] (۱)- المائدة، ۱۴.

[۲۶۰] (۱)- الأعراف، ۲۹.

[۲۶۱] (۱)- سورة ق، ۹- ۱۱.

[۲۶۲] (۲)- فاطر، ۹.

[۲۶۳] (۳)- الأحقاف، ۳۳.

[۲۶۴] (۴)- سورة يس، ۸۰.

[۲۶۵] (۵)- الحجّ، ۵.

[۲۶۶] (۱)- الكهف، ۲۱.

[۲۶۷] (۱)- السجدة، ۱۰.

[۲۶۸] (۲)- المؤمنون، ۳۵.

[۲۶۹] (۳)- سورة سبأ، ۷.

[۲۷۰] (۱)- السجدة، ۱۷.

[۲۷۱] (۲)- سورة يس- ۶۵.

[۲۷۲] (۳)- سورة فصلت، ۲۱.

[۲۷۳] (۱)- مجمع البيان، أوّل تفسير سورة الصافات.

[۲۷۴] (۲)- تفسير مجمع البيان أوّل تفسير سورة الصافات- لقد ورد هذا الحديث فى تفسير البرهان نقلا عن الشيخ الصدوق، رحمة اللّه مع اختلاف بسيط.

[۲۷۵] (۱)- هذه العبارات الثلاث من جهة هى ثلاثة أقسام، و من جهة اخرى هى قسم واحد له ثلاث صفات.

[۲۷۶] (۱)- بالطبع وردت احتمالات اخرى فى تفسير الآيات المذكورة أعلاه،« منها» ما يشير إلى صفوف جند الإسلام فى ساحات الجهاد، الذين يصرخون بالأعداء و يزجرونهم عن الاعتداء على حرمة الإسلام و القرآن، و الذين يتلون كتاب اللّه دائما و من دون أى انقطاع، و ينوّرون قلوبهم و أرواحهم بنور تلاوته، و منها: أنّ بعض هذه الأوصاف الثلاثة هو إشارة إلى ملائكة اصطفّت بصفوف منظمة، و القسم الآخر يشير إلى آيات القرآن التى تنهى الناس عن ارتكاب القبائح، و القسم الثالث يشير إلى المؤمنين الذين يتلون القرآن فى أوقات الصلاة و فى غيرها من الأوقات. و يستبعد الفصل بين هذه الأوصاف، لأنّها معطوفة على بعضها البعض بحرف(الفاء)، و هذا يوضّح أنّها أوصاف لطائفة واحدة.

و قد ذكر العلّامة« الطباطبائى» فى تفسيره الميزان هذا الاحتمال، فى أنّ الأوصاف الثلاثة هى تطلق على ملائكة مكلّفة بتبليغ الوحى الإلهى، و الاصطفاف فى طريق الوحى لتوديعه، و زجر الشياطين التى تقف فى طريقه، و فى النهاية تلاوة آيات اللّه على الأنبياء.

[۲۷۷] (۲)- و لا ضير فى التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث« الصافات و الزاجرات و التاليات» لأنّ موصوفها الجماعة، و هى مؤنّث لفظى.

[۲۷۸] (۳)- ممّا يذكر أنّ بعض اللغويين قالوا بأنّ جمع كلمة(تال) هو(تاليات) و جمع(تالية)(توال).

[۲۷۹] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد ۴، الصفحة ۱۵، الدرّ المنثور، المجلّد ۵، الصفحة ۲۷۱.

[۲۸۰] (۱)- الخطبة الاولى فى نهج البلاغة.

[۲۸۱] (۱)- سورة الشمس، الآيات ۵- ۷.

[۲۸۲] (۱)- تفسير الميزان، المجلّد ۱۷.

[۲۸۳] (۱)-« الكواكب» هنا بدل من الزينة، و يحتمل كونها عطف بيان، و الزينة هنا اسم مصدر و ليست مصدرا، حيث غ جاء فى الكتب الأدبية أينما وجدت نكرة بدل عن المعرفة فيجب مرافقتها بوصف، و فى حالة العكس فإنّ الأمر غير واجب.

[۲۸۴] (۱)-(حفظا) على حدّ قول الكثير من المفسّرين مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير هو: و حفظناها حفظا.

و البعض احتمل أنّها معطوفة على(بزينة) التى هى(مفعول له)، و تقديرها إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء و حفظا.

[۲۸۵] (۱)- لقد تمّ بحث كلمة« واصب» أيضا فى نهاية الآية(۵۲) من سورة النحل.

[۲۸۶] (۱)- العنكبوت، ۴۳.

[۲۸۷] (۲)- تلخيص من تفسير الميزان، المجلّد السابع عشر، الصفحة(۱۲۵).

[۲۸۸] (۱)- تفسير روح المعانى، المجلّد ۲۳، الصفحة ۷۷.

[۲۸۹] (۲)- هذه الآية هى بحالة جملة شرطية و شرطها(أ إذا متنا) بينما جزاءها محذوف و جملة(أ إنّا لمبعوثون) قرينة عليها، لأنّ نفس هذه الجملة- طبقا للقواعد الأدبية- لا يمكن أن تكون جزاء.

[۲۹۰] (۱)-(داخر) من مادّة(دخر) على وزن فخر(دخور)، و كلتاهما تعطى معنى الذلّة و الحقارة. الآية أعلاه فيها جملة تقديرية هى جوابها، و البقيّة شىء إضافى عليها كى يكتسب القول قاطعية أكثر، فالتقدير سيكون هكذا:(نعم إنّكم مبعوثون حال كونكم داخرين).

[۲۹۱] (۱)- الدخان، الآية ۴۰، المرسلات، الآيات ۱۳، ۱۴، ۳۸، النبأ الآية، ۱۷.

[۲۹۲] (۱)-(قفوهم) من مادّة(وقف) و أحيانا تأتى بصورة فعل متعد و تعنى(التوقيف و الحبس)، و أحيانا اخرى تأتى بصورة فعل لازم، و تعنى(التوقّف و الوقوف) و مصدر الاولى هو وقفة، و مصدر الثانية وقوف.

[۲۹۳] (۱)- الرواية هذه وردت فى(الصواعق) عن أبى سعيد الخدرى نقلا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما وردت عن الحاكم بن أبو القاسم الحسكانى فى(شواهد التنزيل) نقلا عن رسول اللّه، كذلك وردت فى عيون أخبار الرضا نقلا عن الإمام الرضا عليه السّلام.

[۲۹۴] (۱)-(استسلام) من مادّة(السلامة) و لكونها من باب(استفعال) فهى بمعنى طلب السلامة و التى عادة تكون ملازمة للانقياد و الخضوع فى مقابل قوّة أعظم.

[۲۹۵] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد الرابع، الصفحة ۴۰۱.

[۲۹۶] (۲)- لكسب المزيد من الاطلاع فى هذا المجال يراجع إحقاق الحقّ، المجلّد الثالث(الطبعة الجديدة) صفحة(۱۰۴)، و المراجعات، الصفحة ۵۸(المراجعة ۱۲).

[۲۹۷] (۱)- الأحقاف، ۲۰.

[۲۹۸] (۱)- العبارة هذه(استثناء منقطع) من ضمير(تجزون) أو(لذائقو).

[۲۹۹] (۱)- الميزان، المجلّد ۱۷، الصفحة ۱۴۱.

[۳۰۰] (۱)- الضميران(فيها) و(عنها) يعودان على« الخمر» التى لم ترد بصورة مباشرة فى الجملة، لكن ذلك يتّضح من سياق الكلام، و كما هو معروف فإنّ الخمرة هى مؤنث مجازى و(عن) فى(عنها) إنّما هى لبيان العلّة، و تعنى أنّ هذه الخمرة لا تسكر هؤلاء و لا تفقد عقلهم و شعورهم، و يجب الالتفات إلى أنّ للخمر معنيان مشتركان، إذ هى أحيانا تطلق على شراب يثير الفساد و يذهب بالعقل i إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ\ ...E(المائدة- ۹۰)، و أحيانا تطلق على الشراب الطاهر الذى يعطى لعباد اللّه المخلصين فى جنان الخلد\i وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ E(محمّد- ۱۵).

[۳۰۱] (۲)- روح المعانى، المجلّد ۳۳، صفحة ۸۱.

[۳۰۲] (۱)-(مدينون) من مادّة(دين) و تعنى الجزاء، و هنا تعنى: هل أنّنا سنجزى.

[۳۰۳] (۲)-(مطّلعون) من مادّة(اطّلاع) و تعنى التفتيش و البحث، و الإشراف على شىء من مكان عال، و أخذ المعلومات.

[۳۰۴] (۳)-(سواء) تعنى الوسط.

[۳۰۵] (۴)-(تردين) من مادّة(إرداء) و تعنى السقوط من مكان عال، و هلاك الساقط.

[۳۰۶] (۱)- الأعراف، ۴۴.

[۳۰۷] (۲)- سورة الكهف، الآيات ۳۲ إلى ۴۳.

[۳۰۸] (۱)- تفسير فخر الرازى، المجلّد ۲۶، الصفحة ۱۳۹.

[۳۰۹] (۲)- روح المعانى، المجلّد ۲۳، الصفحة ۸۳.

[۳۱۰] (۱)- مجمع البحرين، مادّة(زقم).

[۳۱۱] (۲)- تفسير روح المعانى، المجلّد ۷، الصفحة ۴۶۴.

[۳۱۲] (۳)- روح المعانى، المجلّد ۲۳، الصفحة ۸۵.

[۳۱۳] (۱)- ضمير(منها) يعود للشجرة، و هذا بذاته قرينة على أنّ المقصود من الشجرة هنا النبات و ليس الشجرة، لأنّ النبات يؤكّل لا الشجرة.

[۳۱۴] (۱)- هذه الجملة استثناء من محذوف يفهم من المذكور، تقديره هكذا: فانظر كيف كان عاقبة المنذرين فإنّا أهلكناهم جميعا إلّا عباد اللّه المخلصين.

[۳۱۵] (۱)-(مجيبون) جاءت بصيغة الجمع فى حين أنّ المقصود منها اللّه سبحانه و تعالى و الذى استجاب لدعاء نوح، هذا بسبب أنّ صيغة الجمع تأتى أحيانا للتعظيم، كما أنّ ضمير جمع المتكلّم فى(نادانا) لذلك الغرض أيضا.

[۳۱۶] (۱)- سورة نوح، الآيات ۲۶ و ۲۷.

[۳۱۷] (۲)- سورة المؤمنون، الآية ۲۹.

[۳۱۸] (۳)-(كرب) طبق قول الراغب فى مفرداته هى: الغم الشديد، و وصفه هنا بالعظيم للتأكيد أكثر على هذا المعنى.

[۳۱۹] (۴)- سورة هود، الآية ۲۷.

[۳۲۰] (۵)- سورة هود، الآية ۳۲.

[۳۲۱] (۱)- سورة هود، الآية ۳۸.

[۳۲۲] (۲)- سورة مؤمنون، الآية ۲۶.

[۳۲۳] (۱) هذا الحديث ورد المجلّد الرابع من التفسير نور الثقلين فى الصفحة ۴۰۵، كما ورد فى نهاية آيات البحث فى تفسير الصافى.

[۳۲۴] (۱)- بعض المفسّرين أرجعوا ضمير(شيعته) إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فى حين أنّ آيات القرآن الكريم تقول:

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم اتّبع ملّة إبراهيم، علاوة على ذلك فإنّ هذا المرجع ليس له فى الآيات السابقة و اللاحقة ضمير يدلّ عليه، و من الممكن أنّهم تصوّروا أنّ تعبير الشيعة هو دليل على أفضلية نوح من إبراهيم، فى حين أنّ القرآن الكريم تحدّث عن شخصية سامية لإبراهيم، لكن هذا التعبير خال من أيّة دلالة على هذه المسألة، بل المقصود استمرار الخطّ الفكرى و الدينى، كما أنّ أفضلية رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنسبة لكافّة الأنبياء لا تتنافى مع أتباعه لدين إبراهيم التوحيدى يقول القرآن، فى الآية ۹۰ من سورة الأنعام i فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ E.

[۳۲۵] (۱)- سورة البقرة، الآية ۱۰.

[۳۲۶] (۲)- ورد فى الكافى و نقله صاحب تفسير الصافى فى ذيل الآية(۸۹) من سورة الشعراء.

[۳۲۷] (۳)- المصدر السابق.

[۳۲۸] (۴)- فى مجال القلب السليم ورد بحث مشروح فى ذيل الآيات(۸۸) و(۸۹) من سورة الشعراء(تحت عنوان القلب السليم وحده رأسمال النجاة) ص ۲۷۳.

[۳۲۹] (۱)- فى تركيب هذه الجملة ذكر المفسرون احتمالين: الأول: أن(إفكا) مفعول ب ل(تريدون) و(آلهة) بدله، و الآخر: أن(آلهة) مفعول به و(إفكا) مفعول لأجله تقدم للأهمية.

[۳۳۰] (۱)-(راغ) من مادّة(روغ) و تعنى التوجّه و التمايل بشكل سرّى و مخفى أو بشكل مؤامرة و تخريب.

[۳۳۱] (۱)- وسائل الشيعة، المجلّد ۸ الصفحة ۵۸۰،(الباب ۱۴۱ فى أبواب العشرة الحديث ۸).

[۳۳۲] (۱)- سورة المائدة، الآية ۱۳.

[۳۳۳] (۱)- بحار الأنوار، المجلّد ۶۷، الصفحة ۲۵، باب حبّ اللّه الحديث ۲۷.

[۳۳۴] (۲)- بحار الأنوار، المجلّد ۶۷، الصفحة ۵۹، باب القلب و صلاحه الحديث ۳۹.

[۳۳۵] (۳)- بحار الأنوار، المجلّد ۶۷، الصفحة ۵۶، باب القلب و صلاحه الحديث ۲۶.

[۳۳۶] (۱)- الأعراف، ۱۱۷.

[۳۳۷] (۱)- الشعراء، ۸۳.

[۳۳۸] (۲)- الأنبياء، ۸۵ و ۸۶.

[۳۳۹] (۱)-(تلّه) من مادّة(تلّ) و تعنى فى الأصل المكان المرتفع، و(تلّه للجبين) تعنى أنّه وضع أحد جوانب وجه ابنه على مكان مرتفع من الأرض.

(جبين) تعنى أحد جانبى الجبهة أو الوجه، و طرفى الوجه أو الجبهة يقال لهما(جبينان).

[۳۴۰] (۱)- تفسير القرطبى، و تفسير روح البيان.

[۳۴۱] (۱)- الصافات، ۱۱۲.

[۳۴۲] (۱)- تفسير مجمع البيان فى ذيل الآيات المتعلّقة بالبحث.

[۳۴۳] (۲)- نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۲۱.

[۳۴۴] (۳)- نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۲۲.

[۳۴۵] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى، المجلّد ۹، الصفحة ۳۲۶، فى ذيل الآيات المتعلّقة بالبحث.

[۳۴۶] (۲)- تفسير(أبو الفتوح الرازى) المجلّد(۹) الصفحة(۳۲۶) فى ذيل الآيات الخاصّة بالبحث.

[۳۴۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۲۰، الحديث ۶۸.

[۳۴۸] (۱)- ممّا يوسف له أنّ مراسم ذبح الأضاحى فى عصرنا الحالى لا تتمّ بالشكل المطلوب، و لذا على علماء الإسلام أن يبذلوا الجهد لإنقاذ هذه المراسم العظيمة، و بهذا الشأن و بخصوص فلسفة الحجّ أوردنا بحوثا مفصّلة فى ذيل الآية(۳۸) من سورة الحجّ.

[۳۴۹] (۱)- روح البيان، المجلّد ۷، الصفحة ۴۷۹.

[۳۵۰] (۱)- بعلبك اليوم جزء من لبنان و تقع قرب الحدود السورية.

[۳۵۱] (۲)-« روح المعانى» ذيل الآيات الخاصّة بالبحث.

[۳۵۲] (۱)- وفقا لما ذكرناه أعلاه فإنّ هذا الاستثناء هو استثناء متّصل من(الواو) فى« كذّبوه»، و تعنى أنّ كلّ قومه كذّبوه و ابتلوا بالعذاب الإلهى، عدا عباد اللّه المخلصين.

[۳۵۳] (۱)- فى البداية كانت(إلياس) ثمّ نسبت إليها ياء فأصبحت(الياسىّ)، ثمّ جمعت فأصبحت،(الياسيين) و عند تخفيفها أضحت(الياسين).

[۳۵۴] (۱)- تفسير(مجمع البيان) و تفسير(الميزان) و(روح البيان) و(فخر الرازى) و(فى ظلال) و(أعلام القرآن).

[۳۵۵] (۲)- البيان فى غريب إعراب القرآن، المجلّد ۲، صفحة ۳۰۸.

[۳۵۶] (۱)- المصدر السابق.

[۳۵۷] (۱)- معانى الأخبار: ص ۱۲۲.

[۳۵۸] (۱)-(غابر) من مادّة(غبور) على وزن(عبور) و تعنى بقايا الشىء، فعند ما تتحرّك مجموعة من مكان ما و يبقى أحد أفرادها هناك يقال له(غابر) و لهذا السبب يقال لما يتبقّى من التراب(غبار)، و لما تبقّى من الحليب فى الثدى(غبرة) على وزن(لقمة).

[۳۵۹] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۹۷.

[۳۶۰] (۱)- روضة الكافى، نقلا عن نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۴۳۲.

[۳۶۱] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد ۴، صفحة ۳۵.

[۳۶۲] (۱)- تفسير الفخر الرازى، المجلّد ۲۶، الصفحة ۱۶۵، كما ورد نفس المعنى مع اختلاف بسيط فى تفسير البرهان، المجلّد ۴،

الصفحة ۳۷.

[۳۶۳] (۱)- الملفت للنظر أنّ المفسّر الكبير العلّامة(الطبرسى) الذى غالبا ما يجمع الآراء المختلفة فى ذيل الآيات، اقتنع هنا بإيراد احتمال واحد فقط، و الذى يقول(لصار بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة).

[۳۶۴] (۱)- روح المعانى، المجلّد ۷، الصفحة ۴۸۹.

[۳۶۵] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۳۶، الحديث ۱۱۶.

[۳۶۶] (۲)- نقل صاحب تفسير البرهان، و فى المجلّد ۴، الصفحة ۳۵ هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام.

[۳۶۷] (۱)- لهذا فإنّ(أو) هنا تأتى بمعنى،(بل).

[۳۶۸] (۱)- نينوى، اسم عدّة مناطق، الاولى: مدينة قرب الموصل، و الاخرى فى ضواحى الكوفة فى جهة كربلاء، و مدينة فى آسيا الصغرى، عاصمة مملكة آشور و تقع على ضفاف نهر دجلة(دائرة المعارف ده خدا) و البعض الآخر قال: إنّ نينوى هى أكبر مدن مملكة آشور الواقعة فى الضفّة الشرقية لنهر دجلة و قد بنيت مقابل الموصل(معجم قصص القرآن).

[۳۶۹] (۱)-(التوراة) كتاب(النّبى يونان) الفصل الأوّل و الثانى و الثالث و الرابع.

[۳۷۰] (۱)- تفسير على بن إبراهيم، وفقا لما ورد فى نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۳۶.

[۳۷۱] (۲)- تفسير القرطبى، المجلّد ۸، الصفحة ۵۶۷.

[۳۷۲] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد ۴، الصفحة ۳۷ الحديث ۶.

[۳۷۳] (۲)-(الوسائل) كتاب القضاء، المجلّد ۱۸، باب الحكم بالقرعة فى القضايا المشكلة فى أبواب كيفية الحكم و أحكام الدعوى(الباب ۱۳) الحديث(۵).

[۳۷۴] (۱)- الضمير(هم) يعود فى الحالة الاولى على المشركين، و فى الحالة الثانية على(الجنّ).

[۳۷۵] (۱)- وفقا لهذا التّفسير، فإنّ عبارة(إلّا عباد اللّه) استثناء منقطع من ضمير(يصفون)، و البعض قال: إنّه استثناء منقطع من ضمير(محضرون) كما ذكروا آراء مختلفة اخرى، و لكن الرأى الأوّل أنسب. و على كلّ حال فهو استثناء منقطع.

[۳۷۶] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۴۹.

[۳۷۷] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۶.

[۳۷۸] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱.

[۳۷۹] (۳)- الدعاء الأوّل فى الصحيفة السجّادية.

[۳۸۰] (۱)- التركيب النحوى لهذه الآية و التى تسبقها و الاخرى التى تأتى بعدها، و كما هو مشهور كذلك،(ما) فى جملة(ما تعبدون) هى(ما) الموصولة معطوفة على اسم أنّ، و جملة\i ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ E خبرها. و(ما) فى(ما أنتم) نافية، و ضمير(عليه) يعود على اللّه سبحانه و تعالى، و فى مجموعها نحصل على ما يلى(إنّكم و آلهتكم التى تعبدونها لا تقدرون على إضلال أحد على اللّه بسببها إلّا من يحترق بنار الجحيم بسوء إختياره).

و البعض الآخر اعتبر الآية\i فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ E كلاما تامّا مستقلا و تعنى أنّكم و آلهتكم، ثمّ تقول فى الآية التالية: ما أنتم بحاملين على عبادة ما تعبدونه إلّا من هو صالّ الجحيم.

[۳۸۱] (۱)- نقرأ فى بعض الرّوايات التى نقلت عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأئمّة المعصومين هم المقصودون فى هذه الآية، و من الممكن أن يكون هذا التّفسير من قبيل تشبيه مقام الأئمّة بالملائكة، أى كما أنّ للملائكة مقاما و تكليفا معيّنا، فإنّ لنا مقاما و تكليفا معيّنا أيضا.

[۳۸۲] (۱)- تفسير القرطبى، المجلّد ۸، الصفحة ۵۸۱.

[۳۸۳] (۲)- المصدر السابق.

[۳۸۴] (۳)-(الدرّ المنثور) نقلا عن تفسیر المیزان المجلّد(۱۷) الصفحة ۱۸۸.

[۳۸۵] (۱)-(إنّ) مخفّفة من الثقیلة و تقدیرها(و إنّهم کانوا لیقولون).

[۳۸۶] (۲)- فی الکلام حذف تقدیره(فلمّا آتاهم الکتاب و هو القرآن کفروا به فسوف یعلمون عاقبة کفرهم).

[۳۸۷] (۱)- راجع ذیل الآیة(۱۸۶) من سورة البقرة.

[۳۸۸] (۱)- فی الکلام حذف تقدیره(فساء الصباح صباح المنذرین).

[۳۸۹] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، المجلّد ۲۶، الصفحة ۱۷۳.

[۳۹۰] (۲)- مجمع البیان، ذیل آیات البحث، و اصول الکافی، و من لا یحضره الفقیه نقلا عن تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۰.

[۳۹۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۰.

[۳۹۲] (۱)- مجمع البیان بدء سورة(ص)، المجلّد ۸ الصفحة ۴۶۳.

[۳۹۳] (۲)- نفس المصدر.

[۳۹۴] (۱)- اصول الکافی نقلا عن نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۰.

[۳۹۵] (۱)- جملةi\ وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ\E جملة قسم جوابها محذوف، و تقدیرها(و القرآن ذی الذکر إنّک صادق و إنّ هذا الکلام معجز).

[۳۹۶] (۲)- الحشر، ۱۹.

[۳۹۷] (۱)- البعض قال: إنّ(التاء) زائدة و اعتبرها للمبالغة کما فی کلمة(علامة) کما اعتبر البعض أنّ(لا) هنا(نافیة للجنس) و البعض شبّهها ب(لیس) و علی أیّة حال إضافة(التاء) إلی(لا) یوجد أحکاما خاصّة، منها من المؤکّد أنّها تستخدم للزمان، و الاخری أنّ اسمها أو خبرها محذوف دائما، و تذکر فی الکلام بإحدی الحالتین المذکورتین آنفا، و طبقا لهذا فإنّ عبارة(و لات حین مناص) تقدیرها(و لات الحین حین مناص).

[۳۹۸] (۲)- مفردات الراغب، تفسیر فخر الرازی، تفسیر روح المعانی، کتاب مجمع البحرین مادّة(نوص).

[۳۹۹] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۲ الحدیث ۷.

[۴۰۰] (۲)- مجمع البیان، المجلّد ۸ الصفحة ۴۶۵.

[۴۰۱] (۱)-« الجعل» بمعنی التصییر، و هو- کما قیل- تصییر بحسب القول و الإعتقاد و الدعوی لا بحسب الواقع.

[۴۰۲] (۱)- المؤمنون، ۲۴.

[۴۰۳] (۱)- النساء، ۵۱.

[۴۰۴] (۱)-(ما) تعدّ زائدة فی هذه العبارة، إنّما جاءت للتحقیر و التقلیل، و(جند) خبر لمبتدأ محذوف، و(مهزوم) خبر ثان و العبارة فی الأصل هی(هم جند ما مهزوم من الأحزاب) و البعض یعتقد بعدم وجود محذوف فی الجملة و(جند) مبتدأ و(مهزوم) خبر، و لکن الرأی الأوّل أنسب.

[۴۰۵] (۱) سورة الأنفال، ۲۶.

[۴۰۶] (۱)- عبارة(أولئک الأحزاب) مبتدأ و خبر، و(أولئک) إشارة إلی الأقوام الستّة المذکورة فی هاتین الآیتین، و(أحزاب) إشارة إلی الأحزاب التی وردت فی الآیتین السابقتین اللتین اعتبرتا مشرکی مکّة مجموعة صغیرة من تلک المجموعات.

[۴۰۷] (۱)- عبارة(فحقّ عقاب) فی الأصل(فحقّ عقابی)، و قد حذفت الیاء منها، طبقا للمعمول به، و أبقیت الکسرة لتدلّ علیها.(

حقّ) فعل و(عقاب) فاعل، يعنى أنّ عقابى وجب عليهم و سيتحقّق.

[۴۰۸] (۱)- أمّا الرأى الذى احتمله بعض المفسّرين فى أنّ المقصود هنا هو الصيحة الثانية، و التى تطلق لإحياء الموتى و سوقهم إلى محكمة العدل الإلهيّة، فإنّه أمر مستبعد جدّا، لأنّه لا ينسجم مع الآية التالية و الآيات السابقة.

[۴۰۹] (۱)- بعض اللغويين قالوا بوجود عدّة فروق بين كلمة(فواق) المفتوحة و(فواق) المضمومة، و البعض قال: إنّهما بمعنى واحد، و من يريد توضيحا أكثر عليه مراجعة مفردات الراغب، و تفسير روح المعانى، و الفخر الرازى، و تفسير أبى الفتوح، و القرطبى، و مصادر اللغة.

[۴۱۰] (۱)-(أيد) جمع(يد)، و قد استعملت هنا لكونها مظهر القوّة و النعمة و الملك، و قد حملت كلّ هذه المعانى هنا.

[۴۱۱] (۱)-(معه) من الممكن أن تكون متعلّقة بقوله(يسبّحن) و وفقا لهذا فإنّ اقتداء الجبال بداود فى التسبيح يوضّح نفس ما جاء فى الآية(۱۰) من سورة سبأ\i يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ E و يمكن أن تكون(معه) متعلّقة ب(سخّرنا) و فى هذه الحالة فإنّ مفهوم العبارة يكون(إنّا سخّرنا له الجبال) و استخدام كلمة(معه) بدلا من(له) إنّما تمّ لتوضيح اشتراكهما فى التسبيح.

[۴۱۲] (۱)- الأنفال، ۶۲.

[۴۱۳] (۱) التفسير الكبير للفخر الرازى، ذيل آيات البحث المجلد ۲۶، الصفحة ۱۸۳.

[۴۱۴] (۱)-« خلطاء» جمع(خليط) و تعنى الأشخاص أو الأشياء المخلوطة بعضها مع بعض، كما تطلق على الصديق و الشريك و الجار، و رغم أنّ الظلم و الاعتداء لم يختصّ بالخلطاء، إلّا أنّ ذكر هذه المجموعة بسبب وجود الاتّصالات المتكرّرة فيما بينهم، و احتمال حدوث سوء تفاهم فيما بينهم، أو بسبب عدم توقّع حدوث أى ظلم و طغيان من قبل أولئك.

[۴۱۵] (۲)- تركيب الجملة هكذا(هم) مبتدأ و(قليل) خبر إنّ و(ما) زائدة وردت هنا للمبالغة فى القليل.

[۴۱۶] (۱)-(بتشبع) اسم تلك المرأة التى زعم كتاب التوراة أنّ داود رآها عارية عند ما كان يتمشّى على سطح بيته و عشقها، و هى بنت(اليعام) أحد المسؤولين حينذاك و الذى كان عبريا.

[۴۱۷] (۲)-(أوريا) بتشديد الياء، اسم أحد كبار قادة جيش داود و(حتى) بتشديد(الياء) و كسر(الحاء) تنسب إلى(حت) ابن كنعان، و عشيرة كانت تسمّى(بنى حت).

[۴۱۸] (۳)-(يوآب) هو القائد العام لقوّات داود.

[۴۱۹] (۱)- نقلا عن الإصحاح الحادى عشر من كتاب(صموئيل الثانى) الجمل(۲) إلى(۲۷).

[۴۲۰] (۱)- مجمع البيان ذيل آيات البحث.

[۴۲۱] (۲)- تفسير الفخر الرازى ذيل آيات البحث.

[۴۲۲] (۳)- الأمالى للشيخ الصدوق طبق ما نقله نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۶.

[۴۲۳] (۱)- عيون الأخبار طبق ما نقله نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۵.

[۴۲۴] (۱)- تفسير(الفخر الرازى) و(روح المعانى) ذكرا هذا الأمر كتوجيه و إرشاد، فيما وافق(المراغى) فى تفسيره على هذا الأمر.

[۴۲۵] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۷، ص ۱۹۳- ۱۹۴.

[۴۲۶] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة(۴۲).

[۴۲۷] (۲)- كتاب« الخصال» نقلا عن نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۵۳.

[۴۲۸] (۱)- بعض المفسّرين قالوا: إنّ(أمّ) هنا تعطى معنى(بل) للاضراب، و هنا احتمال آخر يقول: إنّ(أم) جاءت للعطف على استفهام محذوف، و تقدير الآية هو(أ خلقنا السموات و الأرض باطلا أم نجعل المتّقين كالفجّار؟).

[۴۲۹] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد الرابع، الصفحة ۴۵۳(الحديث ۳۷).

[۴۳۰] (۱)- تفسير روح المعانى، المجلّد ۲۳، الصفحة ۱۷۱.

[۴۳۱] (۱)- و يرى البعض: إنّ(صافنات)، تستعمل للمذكّر و المؤنث، و لهذا فإنّها لا تختّص بإناث الخيل.

[۴۳۲] (۱)- مجمع البيان فى ذيل الآيات مورد بحثنا، قال البعض: إنّ(خير) الواردة فى الآية الآنفة الذكر تعنى المال أو المال الكثير، و هذا التّفسير من الممكن أن يتطابق مع التّفسير السابق، لأنّ مصداق المال هنا هو الخيل.

[۴۳۳] (۱)- تنزيه الأنبياء، الصفحة ۹۳.

[۴۳۴] (۲)- بحار الأنوار، المجلّد ۱۴، الصفحة ۱۰۴.

[۴۳۵] (۳)- طبقا لهذا التّفسير فإنّ الضمير فى عبارتى(توارت) و(ردّوها) يعود على الخيل الماهرة و الحاذقة(الصافنات الجياد).

[۴۳۶] (۱)- و للإيضاح أكثر فى أنّ كتب اليهود هى مصدر مثل هذه الخرافات، يراجع كتاب(أعلام القرآن) موضوع سليمان فى القصص الصفحة ۳۹۲.

[۴۳۷] (۱)- كتاب علل الشرائع، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۵۹.

[۴۳۸] (۱)-(الشياطين) معطوفة على(الريح) و التى هى مفعول(سخّرنا)، و(كلّ بنّاء و غوّاص) بدل من الشياطين.

[۴۳۹] (۱)-« آخرين» معطوفة على(كلّ بنّاء) و هى بمثابة مفعول(سخّرنا)، و(مقرنين) صفة ل(آخرين).

[۴۴۰] (۱)- روح البيان، المجلّد ۸ الصفحة ۳۹.

[۴۴۱] (۱)- هذه الرواية وردت فى تفسير نور الثقلين نقلا عن تفسير على بن إبراهيم، و نفس المضمون ورد فى(تفسير القرطبى) و(الفخر الرازى) و(الصافى) و غيرها مع اختلاف بسيط.

[۴۴۲] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد الأول، الباب الثالث عشر من أبواب آداب الحمام الحديث ۱۳.

[۴۴۳] (۱)- نظير هذا المعنى ورد فى باب الحدود الإسلامية و تنفيذها بحقّ المرضى المذنبين(كتاب الحدود أبواب حدّ الزنا).

[۴۴۴] (۱)- نهج البلاغة، قصار الكلمات، الكلمة ۳۵۱.

[۴۴۵] (۲)- سفينة البحار مادّة(بلاء) المجلّد الأوّل، الصفحة ۱۰۵.

[۴۴۶] (۳)- المصدر السابق.

[۴۴۷] (۱)-(ذكرى الدار) من الممكن أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف، و تقدير العبارة(هى ذكر الدار)، و من الممكن أن تكون بدلا من(خالصة).

[۴۴۸] (۱)-(مصطفين)(بفتح الفاء) جمع مصطفى، و فى الأصل كانت(مصطفيين) حذفت ياؤها الاولى فأصبحت(مصطفين).

[۴۴۹] (۲)- تفسير الفخر الرازى، المجلّد ۲۶، الصفحة ۲۱۷.

[۴۵۰] (۱)- الأنعام- ۸۶.

[۴۵۱] (۱)- أعلام القرآن و تفسير القرطبى و تفسير روح البيان و تفسير الميزان، كلّ منها أشارت إلى جزء من الموضوع المذكور أعلاه.

[۴۵۲] (۱)- قال بعض المفسرين فى تفسير هذه العبارة: إن المراد من الذكر الجميل هم الأنبياء السابقون.

[۴۵۳] (۱)- مجموعة من المفسّرين اعتبرت(هذا ذكر) إشارة إلى أنّ كلّ ما قيل بشأن الأنبياء من ذكر خير و ثناء جميل كان إشارة إلى أولئك، فيما تستعرض الآيات التالية مرتبتهم فى الآخرة، و لكن هذا المعنى مستبعد، و ظاهر الآيات لا يتناسب مع ما ذكرناه أعلاه.

[۴۵۴] (۲)-« مآب» تعنى المرجع، و إضافة(حسن) إلى(مآب) من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف.

[۴۵۵] (۳)-« جنّات عدن» بدل أو عطف بيان(مآب).

[۴۵۶] (۴)- الضمیر(فیها) یعود فی کلا الحالتین علی(جنّات عدن) و وصف الفاکهة بأنّها کثیرة دلیل علی وصف(الشراب) بهذا الوصف.(متکئین) حال للضمیر(لهم).

[۴۵۷] (۱)-(أتراب) جمع(ترب) علی وزن(شعر).

[۴۵۸] (۱)-(نفاد) تعنی(فناء) و إبادة، و(اللام) فی(لرزقنا) جاءت للتأکید.

[۴۵۹] (۱)- کلمة(هذا) مبتدأ و خبرها محذوف، و تقدیرها هو(هذا الذی ذکرناه للمتّقین).

[۴۶۰] (۱)-(جهنّم) عطف بیان أو بدل من(شرّ مآب)، و(یصلونها) حال لها.

[۴۶۱] (۲)- هذه الجملة فی الأصل کانت هکذا(هذا حمیم و غسّاق فلیذوقوه)، و للتأکید وضعت عبارة(فلیذوقوه) بین المبتدأ و الخبر. بعض المفسّرین احتملوا أنّ(هذا) خبر لمبتدأ محذوف کما أنّ(حمیم و غسّاق) کذلک، و لکن یبدو أنّ الاحتمال الأوّل أدقّ و ألطف.

[۴۶۲] (۱)-(آخر) هی صفة لموصوف محذوف یکون مبتدأ و(أزواج) مبتدأ ثان، و(من شکله) خبرها، و تقدیرها(و عذاب آخر أزواج من شکله).

[۴۶۳] (۱)- هنا یوجد محذوف تقدیره:(یقول رؤساء الضلال بعضهم لبعض هذا فوج مقتحم معکم).

[۴۶۴] (۱)-(تخاصم أهل النار) بیان ل(ذلک).

[۴۶۵] (۱)- روضة الکافی، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۶۷.

[۴۶۶] (۱)- البقرة، ۳۰.

[۴۶۷] (۱)-« مجمع البیان» فی ذیل آیات البحث، کما ورد هذا الحدیث فی تفسیر الدرّ المنثور نقلا عن مجموعة کبیرة من صحابة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع بعض الاختلافات.

[۴۶۸] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲(الخطبة القاصعة).

[۴۶۹] (۱)- تفسیر البرهان، المجلّد ۲، الصفحة ۳۴۲.

[۴۷۰] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲ المعروفة بالقاصعة.

[۴۷۱] (۱)- ترکیب هذه الجملة له عدّة احتمالات، فمن الممکن أن تکون(الحقّ) مبتدأ و(قسمی) خبر محذوف للمبتدأ، و من الممکن أن یکون(قولی) خبره(فالحقّ قولی) و یوجد احتمال آخر هو أنّ(الحقّ) خبر مبتدأ محذوف و التقدیر(هذا هو الحقّ) أو(أنا الحقّ).

[۴۷۲] (۱)- جوامع الجامع نقلا عن تفسیر المیزان، المجلّد ۱۷، الصفحة ۲۴۳.

[۴۷۳] (۲)- نور الثّقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۷۳.

[۴۷۴] (۳)- المصدر السابق.

الجزء الخامس عشر

سورة الزّمر

محتوی سورة الزّمر:

هذه السورة نزلت فی مکّة المکرمة، و لهذا السبب فإنّها تتطرق للقضایا المتعلقة بالتوحید و المعاد، و أهمیّة القرآن، و مقام نبوّة نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما هو الحال فی بقیة السور المکّیة.

فالمرحلة التى قضاها المسلمون فى مكّة كانت مرحلة للبناء الإيمانى و العقائدى، و لذلك فإن السور المكية حوت أقوى البحوث و أكثرها تأثيرا فى هذا المجال. و كانت الأساس القوى المحكم الذى ظهرت آثاره العجيبة فى المدينة، و فى الغزوات و عند مواجهة العدو، و أمام عراقيل المنافقين، و فى قبول النظام الإسلامى، و إذا أردنا معرفة سر الانتصار السريع للمسلمين فى المدينة فإنّ علينا أن نطالع دروس مكّة المؤثرة.

و على أية حال فإنّ هذه السورة تضم عدّة أقسام مهمّة:

١- تتطرق السورة إلى مسألة الدعوة إلى توحيد اللّه، توحيده فى الخلق، توحيده فى الربوبية، توحيده فى العبودية، كما تسلط الضوء على مسألة الإخلاص فى العبادة للّه، و آيات هذه السورة فى هذا المجال مؤثرة جدّا بحيث تجذب قلب الإنسان و تدفعه نحو الإخلاص.

٢- الأمر المهم الآخر الذى تكرر فى عدّة آيات فى هذه السورة من بدايتها و حتى نهايتها، هو مسألة (المعاد) و المحكمة الإلهية الكبرى، و مسألة الثواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶

و العقاب، و غرف الجنّة، و كور النّار فى جهنّم، و مسألة الخوف و الرهبة من يوم القيامة، و ظهور نتائج الأعمال فى ذلك اليوم، و تجسّدها فى ذلك المشهد الكبير، إضافة إلى أنّها تستعرض قضية اسوداد أوجه الكاذبين و الذين افتروا على اللّه الكذب، و سوق الكافرين صوب جهنم، و تعرض الكافرين لتوبيخ و ملامة ملائكة العذاب و دعوة أهل الجنّة إلى دخول الجنّة و تقديم ملائكة الرحمة التهانى و التبريكات لهم، و هذه الأمور التى تدور حول محور المعاد ممزوجة مع قضايا التوحيد بشكل كبير و كأنّها تشكل معها نسيجا واحدا.

٣- قسم آخر من السورة يتناول أهمية القرآن المجيد، و رغم قلّة عدد آيات هذا القسم، فهو يجسّد بصورة لطيفة القرآن و تأثيره القوى على القلوب و الأرواح.

۴- قسم آخر أيضا يبيّن مصير الأقوام السابقين و العذاب الإلهى الأليم الذى نزل بهم من جراء تكذيبهم لآيات اللّه الحقّ.

۵- و أخيرا قسم آخر من هذه السورة يتحدث عن مسألة التوبة، و كون أبواب التوبة مفتوحة لمن يرغب فى العودة إلى اللّه، و قد تضمّن هذا القسم أقوى آيات القرآن تأثيرا فى مجال التوبة، و يمكن القول بأن آيات هذا القسم تزف البشرى و تحمل أخبارا سارّة قد لا يوجد مثيل لها فى بقية آيات القرآن.

هذه السورة معروفة باسم سورة (الزّمر) و هذا الاسم مأخوذ من الآيتين (۷۱) و (۷۳) من هذه السورة، و تعرف أيضا باسم سورة (الغرف) و هذا الاسم مأخوذ من الآية (۲۰) إلّا أن هذه التسمية غير مشهورة.

فضيلة سورة الزمر:

لقد أولت الأحاديث الإسلامية أهمية كبيرة لتلاوة هذه السورة، و قد ورد حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه: «من قرأ سورة الزّمر لم يقطع اللّه رجاه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷

و أعطاه ثواب الخائفين الذين خافوا اللّه تعالى»[۱].

و ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام «من قرأ سورة الزمر أعطاه اللّه شرف الدنيا و الآخرة، و أعزه بلا مال و لا عشيرة، حتى يهابه من يراه و حرم جسده على النّار»[۲].

مقارنة فضائل تلاوة سورة الزمر مع محتوياتها فى مجال الخوف من اللّه، و رجاء رحمته، و الإخلاص فى العبودية، و التسليم المطلق

لذات اللّه، يوضح أنّ هذه المكافآت إنّما تعطى لمن كانت تلاوته مقدمة للتفكر و التفكر وسيلة للإيمان و العمل.

و بعبارة اخرى:

أن يتوغل محتوى السورة فى اعماق روحه. و يتجلّى فى كافة مظاهر الحياة الاجتماعية و الفردية. أجل فمثل هؤلاء الافراد لائقون لهذا الثواب العظيم و الرحمة الواسعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

تَنْزِيـلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم (۱) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۲) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (۳)

التّفسير

عليك الإخلاص فى الدين!

هذه السورة تبدأ بآيتين تتحدثان عن نزول القرآن المجيد: الأولى تقول: إن اللّه هو الذى أنزل القرآن، و الثانية: تبيّن محتوى و أهداف القرآن.

فى البداية تقول: تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم ۳].

من الطبيعى أنّ كلّ كتاب تتمّ معرفته من خلال مؤلفه أو منزله، و عند ما ندرك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹

أنّ هذا الكتاب السماوى الكبير مستلهم من علم اللّه القادر و الحكيم، الذى لا يقف أمام قدرته المطلقة شيء، و لا يخفى على علمه المطلق أمر، لأيقنّا بلا عناء أن محتوياته حقّ و كلّها حكمة و نور و هداية.

مثل هذه العبارات عند ما ترد فى بدايات سور القرآن، ترشد المؤمنين إلى هذه الحقيقة، و هى أن كلّ ما هو موجود فى القرآن المجيد هو كلام اللّه و ليس بكلام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و رغم كون كلامه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بليغا و حكيما أيضا.

ثم تنتقل السورة إلى عرض محتويات هذا الكتاب السماوى و أهدافه إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِ

لا- يوجد فيه غير الحقّ، و لهذا السبب يتبعه طلاب الحقّ، و الباحثون عن الحقيقة مشغولون بالبحث فى محتوياته، من هنا، و لكون هدف نزول القرآن يتحدد فى إعطاء الدين الخالص للبشرية، فإنّ آخر الآية يقول: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ

قد يكون المراد هنا من كلمة (دين) هو عبادة اللّه، لأنّ الجملة التى وردت قبلها فَاعْبُدِ اللَّهَ فيها أمر بالعبادة، و لذا فإنّ العبارة التى تليها مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ تبيّن شروط صحة العبادة و التى تتمثل فى الإخلاص و فى الشرك و الرياء.

على كلّ حال فإنّ اتساع مفهوم (الدين) و عدم ذكر قيد أو شرط له، يعطى معنى واسعا، بحيث يشمل العبادات و بقية الأعمال إضافة

إلى العقائد، و بعبارة أخرى فإنّ (الدين) يتناول مجموعة شؤون الحياة المادية و المعنوية للإنسان، و يجب على عباد اللّه المخلصين أن يخلصوا كلّ حياتهم للّه و أن يطهروا قلوبهم و أرواحهم و ساحة عملهم و دائرة حديثهم عن كل ما هو لغير اللّه، و أن يفكروا به و يعشقوه، و أن يتحدثوا عنه و يعملوا من أجله، و أن يسيروا دائما فى سبيل رضاه، و هذا هو (إخلاص الدين).

و لذا لا يوجد أىّ داع أو دليل واضح لتحديد مفهوم الآية فى شهادة (لا إله إلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰

اللّه) أو بخصوص (العبادة و الطاعة).

الآية التّالية تؤكد مرّة اخرى على مسألة الإخلاص، و تقول: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ و هذه العبارة ذات المعنيين:

الأوّل: هو أنّ البارئ عزّ و جلّ لا يقبل سوى الدين الخالص، و الاستسلام الكامل له من دون أىّ قيد أو شرط، و لا يقبل أى عمل فيه رياء أو شرك، أو خلط للقوانين الإلهية بغيرها من القوانين الوضعية.

و الثّانى: هو أنّ الذين و الشريعة الخالصة يجب أخذها من اللّه فقط، لأن أفكار الإنسان ناقصة و ممزوجة بالأخطاء و الأوهام.

و لكن وفق ما جاء فى ذيل الآية السابقة فإنّ المعنى الأوّل أنسب، لأن الذين يؤدون المطلوب منهم بإخلاص هم العباد، و لهذا فإنّ هذا الخلوص فى الآية مورد بحثنا يجب أن يراعى من جانب أولئك.

و هناك دليل آخر على هذا الكلام، و هو حديث

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، جاء فيه أن رجلا قال لرسول اللّه: يا رسول اللّه! إنّا نعطى أموالنا التماس الذكر، فهل لنا من أجر فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا، قال: يا رسول اللّه! إنّا نعطى التماس الأجر و الذكر، فهل لنا أجر؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن اللّه تعالى لا يقبل إلّا من أخلص له، ثمّ تلا هذه الآية: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ ۴].

و على أية حال، فإنّ هذه الآية فى الواقع استدلال للآية التى جاءت قبلها، فهناك تقول: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ و هنا تقول: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ

مسألة الإخلاص تناولتها الكثير من الآيات القرآنية و الأحاديث الإسلامية، و بدء الجملة مورد بحثنا ب (ألا) التى تستعمل عادة لجلب الانتباه، هو دليل آخر على أهمية هذا الموضوع.

ثم تنتقل الآية إلى إبطال المنطق الواهى الضعيف للمشركين الذين تركوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱

طريق الخلاص، و ضاعوا فى طرق الشرك و الانحراف: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۵]، و هنا سيتّضح للجميع فساد أفكارهم و أعمالهم و بطلان عقائدهم ..

هذه الآية هى تهديد قاطع للمشركين فى أنّ البارئ عزّ و جلّ سيحاكمهم فى يوم القيامة، اليوم الذى تنكشف فيه الالتباسات و تظهر فيه الحقائق، ليجزوا و يعاقبوا على ما ارتكبوه من الأعمال المحرّمة، إضافة إلى فضيحتهم أمام الجميع فى ساحة المحشر.

منطق عبدة الأصنام واضح هنا، فأحد أسباب عبادة الأصنام هى أنّ مجموعة كانت تزعم أنّ اللّه سبحانه و تعالى أجلّ من أن يحيط به الإدراك الإنسانى من عقل أو وهم أو حس، فهو منزّه عن أن يكون موردا للعبادة مباشرة، فلذا قالوا: من الواجب أن نتقرّب إليه بالتقرب إلى مقربيه من خلقه، و هم الذين فوض إليهم تدبير شؤون العالم، فنتخذهم أربابا من دون اللّه ثمّ آلهة نعبدهم و نتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند اللّه و يقربونا إليه زلفى، و هؤلاء هم الملائكة و الجن و قد يسو البشر.

و لما أحسّوا بأن ليس باستطاعتهم الوصول إلى أولئك المقدسين، بنوا تماثيل لهم، و أخذوا يعبدونها، و هذه التماثيل هى نفسها الأصنام، و لأنّهم كانوا يزعمون أن لا فرق بين التماثيل و أولئك المقدسين و أنّ لهما نوعا من التوحّد، لذا عمدوا إلى عبادة الأصنام و اتخاذه آلهة لهم.

و بهذا الشكل فإنّ الأرباب فى نظرهم، هم أولئك الذين خلقهم اللّه و قربهم إلى نفسه، و فوض إليهم تدبير شؤون العالم حسب زعمهم، و كانوا يعتبرون البارئ عزّ و جلّ هو (رب الأرباب) و هو خالق عالم الوجود، و من النادر أن يوجد من الوثنيين من يقول بأن هذه الأصنام المصنوعة من الحجر و الخشب، أو حتى آلهتهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲

الوهمية- أى الملائكة و الجن و أمثالهم- هى التى خلقت هذا الكون و أوجدته ۶] و بالطبع فإنّ هناك أسبابا أخرى لعبادة الأصنام، و منها أنّ الاحترام الفائق الذى يكنونه فى بعض الأحيان للأنبياء و الصالحين يتسبب فى احترام حتى التمثال الذى ينحت أو يصنع لهم بعد وفاتهم، و مع مرور الزمن تأخذ هذه لتماثيل طابعا استقلاليا، و يتبدل الاحترام إلى عبادة، و لهذا فإنّ الإسلام نهى بشدّة عن صنع التماثيل.

و قد ورد فى كتب التأريخ أنّ عرب الجاهلية كانوا يكنون احتراما فائقا للكعبة الشريفة و لأرض مكّة المكرّمة، و لهذا كانوا يأخذون معهم قطعة حجر صغيرة من تلك الأرض عند ما يذهبون إلى مكان آخر، و يضفون عليها الاحترام و التقديس، و من ثمّ يعمدون إلى عبادتها.

و ما ورد فى قصة (عمرو بن لحى) التى جاء فيها، أنّ عمرا فى إحدى رحلاته إلى بلاد الشام شاهد بعض مشاهد عبدة الأصنام، و فى طريق عودته إلى الحجاز، اصطحب معه صنما من بلاد الشام، و منذ ذلك الحين بدأت عبادة الأصنام فى الحجاز هذه القصّة لا تتعارض مع ما ذكرناه لأنّه يبيّن بعض جذور عبادة الأصنام، و هدف أهل الشام من عبادة الأصنام كان مأخوذا من أحد تلك الأمور أو نظائرها.

عبادة الأصنام- بأى شكل كانت- ما هى إلّا أوهام و خيالات لا صحة لها ترشحت من أفكار ضعيفة و عاجزة، حرفت الناس عن الطريق الرئيسى الأصيل لمعرفة اللّه.

و القرآن المجيد يؤكّد بصورة خاصّة على أنّ الإنسان يستطيع أن يتصل باللّه من دون أى واسطة، و أن يتحدث معه و يناجيه و يطلب منه حاجته، و يطلب العفو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳

و التّوبة، فكلّ هذه الأمور من اللّه و تحت تسلط قدرته. و سورة الحمد توضّح هذه الحقيقة، لأنّ قراءة العباد المستمر لهذه السورة فى صلواتهم اليومية، تجعل العبد على اتصال مباشر مع البارئ، عزّ و جلّ، إذ أنّه يقرؤها و يطلب من اللّه- دون أى واسطة- حاجاته منه.

سبل الاستغفار و التوبة، و كذلك طلب العون من البارئ، عزّ و جلّ و ما ورد فى الأدعية المأثورة، كلها تبيّن أنّ الإسلام لا يرى وجود واسطة فى هذا الأمر، و هذه هى حقيقة التوحيد. حتى أن مسألة الشفاعة و التوسل بأولياء اللّه مشروطة بإذن البارئ عزّ و جلّ و سماحه، و هذا تأكيد على مسألة التوحيد.

و يجب أن تكون العلاقة هكذا، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى أقرب إلينا من أىّ شىء، كما يقول بذلك القرآن: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[۷]، وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ ۸].

و بهذا الشكل فالبارئ، عزّ و جلّ ليس ببعيد عنّا، و لسنا بعيدين عنه كى تكون هناك حاجة للوساطة بين الطرفين، إنّه أقرب إلينا من كلّ قريب، و موجود فى مكان و فى أعماق قلوبنا.

و فقأ لهذا فإنّ عبادة الوسطاء من الملائكة و الجنّ و نظائرهم، أو الأصنام الحجرية و الخشبية، عمل باطل لا صحّة له، إضافة إلى أنّه يعدّ كفرا بنعمة اللّه، لأنّ الذى يهب النعم أجدر بالعبادة من تلك الموجودات الميتة، أو المحتاجة إلى الآخرين من أعلى رأسها إلى أخمص قدمها. لذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ.

فلا يهديه إلى الطريق الصحيح فى هذا العالم، و لا إلى الجنّة فى العالم الآخر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴

لأنّه أو صد بکلتا یدیه أبواب الهدایة أمامه، و لأنّ البارئ عزّ و جلّ یبعث فیض هدایته إلی من یراه لائقا و مستعدا لاستقبالها، و لا یبعثها إلی الذین تعمدوا قتل الاستعدادات الموجودة فی قلوبهم و ذاتهم.

ملاحظة

الفرق بین التنزیل و الإنزال:

فی الآیة الأولی وردت عبارة تَنْزِیلُ الْکِتابِ و فی الثانیة عبارة أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ فما الفرق بین الإنزال و التنزیل؟ و ما المراد من تباین العبارتین فی هاتین الآیتین؟

کتب اللغة تقول: إنّ کلمة (تنزیل) تعنی نزول الشیء علی عدّة دفعات، فی حین أن کلمة (إنزال) لها معنی عام یشمل النّزول التدریجی و النّزول دفعة واحدة[۹].

قال بعضهم إنّ لکل منهما معنی خاصا بها و أن (تنزیل) تعنی- فقط- النّزول علی عدّة دفعات، و (إنزال) تعنی- فقط- النّزول دفعة واحدة[۱۰].

اختلاف العبارتین المذکورتین أعلاه إنّما یعود إلی أن القرآن المجید نزل بصورتین:

الأولی: نزل دفعة واحدة علی قلب النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی لیلة القدر فی شهر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵

رمضان المبارک کما ورد فی الآیات المبارکة: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ[۱۱] و إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ[۱۲] و شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ ۱۳].

و فی کلّ هذه الآیات استخدمت عبارة (الإنزال) التی تشیر إلی نزوله دفعة واحدة.

و یوجد نزول آخر تمّ بصورة تدریجیة استغرقت (۲۳) عاما، أی طوال فترة نبوّة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا کانت تنزل فی کلّ حادثة و قضیة آیة تناسبها، و تنقل بالمسلمین من مرحلة إلی اخری لیرتقوا سلم الکمال المعنوی و الأخلاقی و العقائدی و الاجتماعی، کما ورد فی الآیة (۱۰۶) من سورة الإسراء: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النَّاسِ عَلی مُکْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِیلًا.

و الذی یثیر الانتباه، هو أنّ الکلمتین (تنزیل) و (إنزال) تأتیان أحیانا فی آیة واحدة للتعبیر عن مقصودین، کما ورد فی الآیة (۲۰) من سورة محمّد: وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْکَمَةٌ وَ ذُکِرَ فِیهَا الْقِتالُ رَأَیْتَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ نَظَرَ الْمَغْشِیِّ عَلَیْهِ مِنَ الْمَوْتِ

فکأن المسلمین یطلبون أحیانا نزول السورة القرآنیة تدریجا کی یهضموا محتویاتها بصورة جیدة، لکن الضرورة کانت تستدعی فی بعض الحالات نزول السورة دفعة واحدة، و خاصة السور التی تتناول مسائل الجهاد فی سبیل اللّه، لأنّ نزولها التدریجی کان قد یؤدی إلی سوء استغلالها من قبل المنافقین الذین کانوا یتحینون الفرص لبث سمومهم. ففی مثل هذه الحالات- کما ذکرنا- کانت السورة تنزل دفعة واحدة. و هذا آخر شیء یمکن ذکره بشأن التباین الموجود بین العبارتین، و طبقا لهذا فإنّ آیات بحثنا أشارت إلی طریقتی النّزول بصورة جامعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶

کاملة.

و مع هذا فإنّه توجد هناك بعض الأمور الاستثنائية لتفسير و بيان الاختلاف المذكور أعلاه، كما ورد فى الآية (۳۲) من سورة الفرقان: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا.

بالطبع، لكل من (التنزيل) و (الإنزال) فوائد و آثار خاصّة به، سنتطرق إليها فى مواضعها[۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴ الى ۵]

اشارة

لَوْ أرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۴) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۵)

التّفسير

ما حاجة اللّه إلى الأولاد؟

المشركون إضافة إلى أنّهم يعتبرون الأصنام وسيطا و شفيعا لهم عند اللّه، كما استعرضت ذلك الآيات السابقة، فقد اعتقدوا- أيضا- أن بعض المخلوقات- كالملائكة- هى بنات اللّه، و الآية الأولى فى بحثنا تجيب على هذا الإعتقاد الخاطئ و التصور القبيح بالقول: لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

ذكر المفسرون آراء مختلفة فى تفسير هذه الآية:

قال البعض: يقصد منها لو أنّ اللّه كان راغبا فى انتخاب ولد له، فلم ينتخب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸

البنات اللاتى تزعمون أنّهنّ لا قيمة لهنّ؟ فلم لا ينتخب له أبناء؟ و هذا- فى الحقيقة- نوع من أنواع الاستدلال وفق ذهنية الطرف المقابل كى يفهم أن كلامه لا أساس له من الصحة.

و قال آخر: إنّما يقصد منها لو أنّ اللّه كان راغبا فى انتخاب ولد له، لكان قد خلق موجودات اخرى أفضل و أرفى من الملائكة.

و بالنظر إلى كون مكانة الأنثى لا تقلّ عن مكانة الذكر عند البارى عزّ و جلّ، و بالنظر إلى كون الملائكة أو عيسى عليه السلام- و الذين اعتبرهم بعض المنحرفين أبناء اللّه- من الموجودات الشريفة و المحترمة، فإنّه لا يعدّ أىّ من التّفسيرين السابقين مناسبا.

و الأفضل هو القول بأنّ الآية تريد القول: إنّ الابن مطلوب إمّا لتقديم العون أو لمؤانسة الروح، و بفرض المحال فإنّ اللّه عزّ و جلّ لو كان محتاجا لمثل هذا الأمر، لاصطفى لهذا بعضا ممّن يشاء من أشرف خلقه، فلم يتخذ ولدا؟

و لكن لكونه الواحد الذى لا نظير له و القاهر و الغالب لكل شىء و الأزلى و الأبدى، فإنّه لا يحتاج إلى مساعدة أىّ أحد، و لا يستوحش من وحدانيته حتى يزيلها عن طريق الإنسان مع الآخرين، لهذا فهو منزّه و مقدّس عن الولد، حقيقيا كان أو منتخبا.

و إضافة إلى ما ذكرناه من قبل، فإنّ أولئك الجهلة الذين يتصورون أحيانا أن الملائكة هم أبناء اللّه، و أحيانا اخرى يقولون بوجود نسبة بين البارى، عزّ و جلّ و الجن، و أحيانا يقولون بأن (المسيح) أو (العزيز) هم أبناء اللّه، يجهلون الكثير من الحقائق الواضحة، فإن كان قصدهم هو الولد الحقيقى:

فأولا: يجب أن يكون البارى تعالى جسما.

ثانيا: التركيب من أجزاء (لأنّ الوالد جزء من الأب ينفصل عن وجود أبيه).

ثالثا: حتمية وجود شبيه و نظير له (لأنّ الأولاد على الدوام يشبهون الآباء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹

رابعا: احتياجه لزوجة، و اللّه منزّه و مقدّس عن كلّ تلك الأمور.

و إنّ كـان المقصود هو الولـد المنتخب أى (المتبنّى) فـإن ذلـك إنّما يتمّ لأجل احتياجه لمساعـدة جسديـة أو لمؤانسـة روحيـة، و اللّه القادر القاهر لا يحتاج إلى كلّ هذه الأمور. و بهذا فإنّ وصفه ب (الواحد) و (القهار) هو جواب مختصر على كلّ تلك الاحتمالات.

على أيـة حال، فإنّ عبارة (لو) التى تسـتخدم عادة للشـرط المسـتحيل إشارة إلى أن هـذا الفرض محال فى أن ينتخب البارئ عزّ و جلّ والدا له، و بفرض المحال أنّه يحتاج، فإنّه غير محتاج لما يقولونه من اتخاذ الولد، بل إن مخلوقاته المنتخبة هى التى تؤمن هذا الأمر.

و لإثبـات حقيقـة أنّ اللّه لاـ يحتـاج إلى مخلوقـاته، و لبيـان دلائـل توحيـده و عظمته، يقول البارئ عزّ و جلّ: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

كون تلـك الأـمور حقّا دليل على وجود هـدف كبير من وراء خلقها، و ذلك لتكامل المخلوقات و فى مقـدمتها الإنسان، ثمّ لا تنتهى عند البعث.

بعد عرض هذا الخلق الكبير، تشير الآية إلى جوانب من تدبيره العجيب، و التغيرات التى تطرأ بحسابات دقيقة، و الأنظمة الدقيقة أيضـا التى تحكم أولئك، إذ يقول القرآن المجيد: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ

ما أجملها من عبارة! فلو وقف الإنسان فى منطقة تقع خارج نطاق الكرة الأرضـية، و نظر إلى مشهد حركة الأرض حول نفسها و تكوّن الليل و النهار اللـذين يطوقان سـطحها المكور، لشاهـد- بصورة منتظمة- أن سواد الليل يسـتولى على طرف النهار من جهة و من الجهة المقابلة يرى بأن ضوء النهار يستولى محركة مستمرة على ظلام الليل.

«يكون» من (تكوير) و تعنى الشـىء المتكور أو المنحنى، و يعتبر أصـحاب اللغة تكوير العمامـة على الرأس نموذجـا للتكوير، و هـذا التعبير القرآنى الجميل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰

يكشف عن بعض الأسـرار، لكن الكثير من المفسّـرين نتيجـة عـدم التفاتهم إلى كروية الأرض ذكروا مواضيع اخرى لا تناسب مفهوم كلمـة (التكـوير)، فمن هـذه الآيـة يتجلّى لنـا أن الأـرض كرويـة و تـدور حول نفسـها، و من جراء هـذا الـدوران، يطّوق الأـرض دائما شريطان، أحدهما سواد الليل، و الثّانى بياض النهار، و لا يبقى هذان الشـريطان ثابتين، و إنّما يغطى الشريط الأسود الأبيض، من جهة و الشريط الأبيض يغطى الأسود من جهة اخرى، أثناء حركة الأرض حول نفسها.

و على أيـة حال، فإنّ القرآن المجيد يبيّن ظاهرة الليل و النهار و (النور) و (الظلمات) فى عدّة آيات مختلفة، كلّ واحدة منها تشـير إلى نقطة معينة، و تنظر إلى هذه الظاهرة من زاوية خاصة، فأحيانا يقول: يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ ۱۵].

الحديث- هنا- يتطرق لتوغّل الليل فى النهار و توغل النهار فى الليل التى تتمّ بصورة بطيئة و هادئة.

و أحيانا اخرى يقول: يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ[۱۶]، و هنا تمّ تشبيه الليل بستائر مظلمة تنزل على ضياء النهار و تحجبه.

ثمّ تنتقـل إلى جانب آخر، ألا و هو التـدبير و النظام الـدقيق المسـير لشؤون هـذا العالم، قال تعالى: وَ سَـخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى

فلا يظهر فى حركـة الشـمس التى تدور حول نفسـها، أو التى تتحرك مع بقيـة كواكب المجموعة الشمسـية نحو نقطة خاصّة فى مجرة درب التبانـة أدنى خلـل، فهى تتحرك وفق نظام خاص و دقيق جـدّا، و لا يظهر أى خلل فى حركـة القمر أثناء دورانه حول الأرض أو حول نفسه، فالكلّ يخضع لقوانين (الخالق) و يتحرك وفقها، و سيستمر فى التحرك وفق هذه القوانين حتى آخر يوم من أجله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱

و یوجد احتمال آخر، و هو أنّ المراد من تسخیر الشمس و القمر هو تسخیرها للإنسان بإذن اللّه، کما ورد فی الآیة (۳۳) من سورة إبراهیم: وَ سَخَّرَ لَکُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَیْنِ و لکن بالالتفات إلی الجملة السابقة و اللاحقة فی هذه الآیة مورد البحث، إضافة إلی عدم ورود کلمة (لکم) فی الآیة، یجعل التّفسیر المذکور أعلاه مستبعدا بعض الشیء.

نهایة الآیة کانت بمثابة تهدید و ترغیب للمشرکین إذ تقول: أَلا هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفَّارُ فبحکم عزّته و قدرته المطلقة لا یمکن لأیّ مذنب و مشرک أن یهرب من قبضة عذابه، و بمقتضی کونه الغفّار، فإنّه یستر عیوب و ذنوب التائبین، و یظلمهم بظلّ رحمته.

«غفار» صیغة مبالغة مشتقّة من المصدر (غفران) و تعنی فی الأصل لبس الإنسان لشیء یقیه من التلوّث، و عند ما تستخدم بشأن الباری، عزّ و جلّ فإنّها تعنی ستره لعیوب و ذنوب عبادة النادمین و حفظهم من عذابه و جزائه، نعم فهو (غفار) فی أوج عزته و قدرته، و هو (قهار) فی أوج رحمته و غفرانه، و الهدف من ذکر هاتین الصفتین فی آخر الآیة، هو إیجاد حالة من «الخوف» و «الرجاء» عند العباد، و هما عاملان رئیسیان وراء کلّ تحرک نحو الکمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲

الآیتان [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۶ الی ۷]

اشارة

خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِیَةَ أَزْواجٍ یَخْلُقُکُمْ فِی بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِی ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ لَهُ الْمُلْکُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۶) إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ وَ لا یَرْضى لِعِبادِهِ الْکُفْرَ وَ إِنْ تَشْکُرُوا یَرْضَهُ لَکُمْ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّکُمْ مَرْجِعُکُمْ فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۷)

التّفسیر

الجمیع مخلوقون من نفس واحدة:

مرّة اخری تستعرض آیات القرآن الکریم عظمة خلق اللّه، و تبیّن فی نفس الوقت بعض النعم الأخری التی منّ بها اللّه سبحانه و تعالی علی الإنسان.

فی البدایة تتحدّث عن خلق الإنسان و تقول: خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳

خلق کلّ بنی آدم من نفس واحدة إشارة إلی مسألة خلق آدم أبی البشر، إذ أنّ کل البشر و بتنوع خلقتهم و أخلاقهم و طبائعهم و استعداداتهم و أذواقهم المختلفة یعودون فی الأصل إلی آدم علیه السّلام.

و عبارة: ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها[۱۷] إشارة إلی أن اللّه خلق آدم فی البدایة، ثمّ خلق حواء ممّا تبقی من طینته.

و علی هذا الأساس فإنّ عملیة خلق حواء تمّت بعد خلق آدم، و قبل خلق أبناء آدم.

عبارة (ثمّ) لا تأتی دائما کتأخیر للزمان، و إنّما تأتی أحیانا کتأخیر للبیان، فمثلا یقال: رأیت ما عملته الیوم ثمّ رأیت ما عملته بالأمس، فی حین أنّ عمل الأمس قد نفذ قبل عمل الیوم، و لکن المراد هنا أنّ مشاهدته تمّت بعد عمل الیوم.

و البعض اعتبر الآیة المذکورة أعلاه تشیر إلی (عالم الذّر) و خلق أبناء آدم بعد خلق آدم و قبل خلق حواء بشکل أرواح، هذا التّفسیر

غير صحيح، و قد بيّنا هذا فى تفسير و توضيح «عالم الذّر» فى ذيل الآية (۱۷۲) من سورة الأعراف.

و ممّا يجدر ذكره أنّ زوجة آدم عليه السّلام لم تخلق من أى جزء منه، و إنّما خلقت ممّا تبقى من طينته التى خلق منها، و ذلك كما ورد فى الرّوايات الإسلامية، و أمّا الرّوايات التى تقول بأنّها خلقت من ضلع آدم الأيسر، فإنّه كلام خاطئ مأخوذ من بعض الرّوايات الإسرائيلية، و مطابق فى نفس الوقت لما جاء فى الفصل الثّانى من كتاب التّوراة (سفر التكوين) المحرّف، إضافة إلى كونه مخالفا للواقع و العقل، إذ أنّ تلك الرّوايات ذكرت أنّ أحد أضلاع آدم قد أخذ و خلقت منه حواء، و لهذا فإنّ الرجال ينقصهم ضلع فى جانبهم الأيسر، فى حين أنّنا نعلم بعدم وجود أىّ فارق بين عدد أضلع المرأة و الرجل، و هذا الاختلاف ليس أكثر من خرافة.

بعد هذا ينتقل الحديث إلى مسألة خلق أربعة أنواع من الانعام تؤمّن للإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴

ضروريات الحياة، حيث يستفيد من جلودها لملابسه، و من حليبها و لحمه الغذائه، و من جهة أخرى يصنع من جلودها و أصوافها عدّة أمور يستفيد منها فى حياته، و من جهة ثالثة يستخدمها كوسيلة لتنقّله و حمل أثقاله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ و المقصود من (الأزواج الثمانية) الذكر و الأنثى لكلّ من الإبل و البقر و الضأن و المعز، و من هنا فإنّ كلمة (زوج) تطلق على كلّ من الذكر و الأنثى، و لهذا فأنّ عدده يكون ثمانية أزواج. (و لذا فى بداية الآية هذه أطلقت كلمة زوج على حواء).

و عبارة أَنْزَلَ لَكُمْ و التى تخص هنا الأنعام الأربعة- كما بيّنا ذلك من قبل- لا تعنى فقط إنزال الشيء من كان عال، و إنّما فى مثل هذه الحالات تعنى (تدنى المقام) و النعم من مقام أعلى الى أدنى.

كما ذكروا احتمالا آخر فى أن (إنزال) مشتقّة هنا من (نزل) على وزن (رسل) و تعنى ضيافة الضيف، أو أوّل ما يقدم للضيف، و نظير هذا المعنى ورد فى الآية (۱۹۸) من سورة ال عمران بخصوص أهل الجنّة، قال تعالى: خالِدِينَ فِيها نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

و قد ذهب بعض المفسّرين الى أنّ الأنعام الأربعة مع أنّها لم تنزل من مكان أعلى إلى الأرض، فأنّ مقدّمات توفير متطلبات حياتها و تربيتها و التى هى قطرات المطر و أشعة الشمس هى التى تنزل من الأعلى إلى الأرض.

و ورد تفسير رابع لهذه العبارة هو أنّ كلّ الموجودات كانت من البداية موجودة فى خزائن علم و قدرة البارئ عزّ و جلّ، أى فى علم الغيب، ثمّ انتقلت من الغيب إلى الشهادة أى إلى (الظهور)، و لهذا أطلقوا على هذا الانتقال عبارة (الإنزال) كما ورد ذلك فى الآية (۲۱) فى سورة الحجر: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ١٨].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵

لكنّ التَّفسير الأوّل أكثر مناسبة من غيره، رغم عدم وجود أى تعارض بين هذه التفاسير، بل من الممكن أن تصب جميعها فى نفس المفهوم و المعنى.

و

ورد عن أمير المؤمنين عليه السّلام حديث فى تفسير هذه الآية جاء فيه: «إنزاله ذلك خلقه إياه»

أى أن إنزال تلك الأزواج الثمانية من الأنعام يعنى خلقها من قبل اللّه.

ظاهر الحديث يشير إلى التّفسير الأوّل، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو خالق الخلق، و له المقام الأسمى و الأرفع.

و على أية حال، فرغم أنّ الأنعام المذكورة قليلا ما يستفاد منها اليوم فى عمليات النقل و حمل الأثقال، لكنّها تقوم بمنافع مهمّة اخرى يزداد و يتسع حجم الاحتياج إليها يوما بعد آخر، لأنّها تغطى اليوم الجانب الأعظم من احتياجات الإنسان الغذائية كالحليب و اللحوم، إضافة إلى أصوافها و جلودها التى كانت منذ السابق و حتى يومنا هذا تستخدم فى صناعة الألبسة و غيرها من الأمور التى يحتاج إليها الإنسان، حتى أنّ أحد المنابع المالية المهمّة بيد الدول الكبيرة فى العالم يأتى عن طريق تربيه و تكثير هذه الحيوانات.

ثمّ تتطرق الآيات إلى حلقة اخرى من حلقات خلق اللّه، و هى عملية نمو الجنين إذ تقول الآية: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ

بَعْدِ خَلْقٍ فِی ظُلُماتٍ ثَلاثٍ

یتضح أنّ المقصود من خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ هو الخلق المتکرر و المستمر، و لیس الخلق مرتین فقط.

«یخلقکم»: فعل مضارع یعطی معنی الاستمراریة، و هو هنا بمثابة إشارة قصیرة ذات معان عمیقة إلی التحولات العجیبة و الصور المختلفة التی تطرأ علی الجنین فی مراحل وجوده المختلفة فی بطن الأم. و طبقا لأقوال علماء علم الأجنّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶

فإنّ عملیة خلق و نمو الجنین فی بطن الأمّ تعدّ من أعجب و أدقّ صور خلق الباری عزّ و جلّ، و نادرا ما نلاحظ أنّ المطلعین علی دقائق هذه القضایا لا تلهج ألسنتهم بحمد الخالق و ثنائه.

و قوله ظُلُماتٍ ثَلاثٍ إشارة إلی ظلمة بطن الأمّ و ظلمة الرحم و ظلمة المشیمة (الکیس الخاص الذی یستقر فیه الجنین) التی هی فی الحقیقة ثلاثة أغلفة سمیکة تغطی الجنین.

فالمصورون- الآن- بحاجة إلی ضوء ساطع و نور من أجل التصویر، أمّا خالق الإنسان فیخطط فی تلک الظلمة بشکل عجیب و یصور بشکل یدهش العقول، و یمدّه بأسباب العیش فی مکان لا یمکن لأحد أن یوصل إلیه رزقه الذی هو فی أمسّ الحاجة إلیه للنمو.

الإمام الحسین علیه السّلام سید الشهداء یقول فی دعائه المعروف بدعاء عرفه، الذی یعدّ دورة دراسیة کاملة و عالیة فی التوحید، یقول عند استعراضه للنعم التی منّ بها الباری عزّ و جلّ علیه:

«و ابتدعت خلقی من منی یمنی، ثمّ أسکنتنی فی ظلمات ثلاث: بین لحم و جلد و دم لم تشهدنی خلقی، و لم تجعل إلیّ من أمری ثمّ أخرجتنی إلی الدنیا تامّا سویّا»[۱۹].

(ممّا یذکر أنّنا قد تطرقنا إلی عجائب خلق الجنین و مراحل خلقه فی ذیل الآیة (۶) من سورة آل عمران و فی ذیل الآیة (۵) من سورة الحج).

و فی نهایة الآیة، بعد ذکر الحلقات التوحیدیة الثلاث الخاصة بخلق الإنسان و الأنعام و مراحل خلق الجنین، یقول الباری عزّ و جلّ: ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ لَهُ الْمُلْکُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّی تُصْرَفُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷

فأحیانا یصل الإنسان بعد مشاهدته لهذه الآثار التوحیدیة العظیمة إلی مقام الشهود. ثمّ أشار تعالی إلی ذاته القدسیة، حیث یقول: ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ حقّا لو کانت هناک عین بصیرة فیمکنها أن تراه إنّه وراء هذه الآثار ... فعین الجسم تری الآثار، و عین القلب تری خالق الآثار.

عبارتی «ربّکم» و «له الملک» تدلان فی الحقیقة علی حصر الربوبیة بذاته الطاهرة المقدسة، و الذی اتضح بصورة جیدة فی عبارة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فعند ما یکون هو الخالق و المالک و المربی و الحاکم لکلّ عالم الوجود، فما هو دور غیره فی هذا العالم کی یستحق العبودیة؟! و هنا تصرخ الآیة بوجه مجموعة من النائمین و الغافلین قائلة: فَأَنَّی تُصْرَفُونَ أی کیف ضللتم و انحرفتم عن سبیل التوحید[۲۰]؟

بعد ذکر هذه النعم الکبرة التی منّ بها الباری عزّ و جلّ علی عباده، تتطرق الآیة التالیة إلی مسألة الشکر و الکفر، و تناقش جوانب من هذه المسألة. و فی البدایة تقول: إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنْکُمْ ای إن تکفروا أن تشکروا فإنّ نتائجه تعود علیکم، و اللّه غنی عنکم فی حال کفرکم و شکرکم.

ثمّ تضیف، إنّ غناه و عدم احتیاجه لا- یمنعان من أن تشکروا و تتجنبوا الکفر، لأنّ التکلیف إنّما هو لطف و نعمة إلهیة، نعم، قال تعالی: وَ لا یَرْضی لِعِبادِهِ الْکُفْرَ وَ إِنْ تَشْکُرُوا یَرْضَهُ لَکُمْ ۲۱].

و بعد استعراض هاتین النقطتین تستعرض الآیة نقطة ثالثة و هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸

تحمل شخص مسئولیة أعماله، لأن قضیة التکلیف لا یکتمل معناها بدون هذا الأمر، قال تعالی: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری

و لأنّه لا- معنی للتکلیف إن لم یکن هناک عقاب و ثواب، فالآیـة تشـیر فی المرحلـة الرّابعـة إلی قضـیة المعاد، و تقول: ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ مَرْجِعُکُمْ فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و لکون مسألة الحساب و العقاب لا یمکن أن تتمّ ما لم یکن هناک اطلاع و علم کاملین بالأسـرار الخفیة للإنسان، تختتم الآیة بالقول: إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

بهذا الشـکل، و من خلال جمل قصار، اسـتعرضت فلسفة التکلیف و خصوصیاته و مسئولیة الإنسان و مسألة العقاب و الجزاء و الثواب.

و هذه الآیة جواب قاطع لمن یتولی المذهب الجبری، الذی انتشـر- ممّا یؤسف له- فی صـفوف بعض الطوائف الإسلامیة، لأنّ الآیات الکریمة تقول و بصراحة: وَ لا یَرْضی لِعِبادِهِ الْکُفْرَ.

و هـذا دلیل واضـح علی أن إرادة الکفر لم تفرض علی الکافرین (کما یقول بذلک أتباع المذهب الجبری) لأنّ من البدیهی أنّ من لا یرتضـی شـیئا لا یأتی به، فهل یمکن أنّ تکون إرادة اللّه منفصـلة عن رضاه؟ متعصـبو المذهب الجبری یثیرون العجب عند ما یعمدون إلی ستر هـذه العبارة الواضـحة من خلال حصـر کلمة (العباد) بالمؤمنین أو المعصومین، فی حین أنّها کلمة ذات معنی مطلق و تشـمل بصورة واضـحة کـلّ العبـاد، نعم، فالبـاری، عزّ و جلّ لا یرتضـی الکفر لأحـد من عباده، مثلما یرتضـی الشـکر لکلّ عباده من دون أی استثناء[۲۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹

و هذه النقطة تلفت الانتباه، و هی أنّ أساس تحمّل کلّ إنسان لمسؤولیة أعماله یعدّ من الأسـس المنطقیة و المسـلم بها فی کلّ الأدیان السماویة[۲۳].

و بـالطبع یمکن أحیانـا أن یکون الإنسـان مشترکـا فی ذنوب الآخرین، و ذلک عنـد ما یکون مضـطلعا أو مساهما مع آخرین فی تهیئة مقـدمات أو أسـس ذلک العمل، کالـذین یبتـدعون البـدع أو السـنن الضالـة، فی هـذه الحالـة تکون ذنوب أی شـخص یرتکب تلک المحرمات فی ذمة مسببها الرئیسی دون أن تقل ذنوب ذلک الشخص الذی ارتکب الذنب ۲۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰

الآیتان [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۸ الی ۹]

اشارة

وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِیباً إِلَیْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِیَ ما کانَ یَدْعُوا إِلَیْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِکُفْرِکَ قَلِیلاً إِنَّکَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (۸) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّیْلِ ساجِداً وَ قائِماً یَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ یَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ إِنَّما یَتَذَکَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (۹)

التّفسیر

هل العلماء و الجهلة متساوون؟

الآیات السابقـة تحـدث بالأدلـة و البراهین عن توحید و معرفة الباریء عزّ و جلّ، و ذلک من خلال عرض بعض الظواهر العظیمة له فی

الآفاق و الأنفس، أما آيات بحثنا فتتحـدث فی البدايـة عن التوحيد الفطری و توضح أن ما يدركه الإنسان عن طريق العقل أو الفهم أو المطالعـة فی شؤون الخلق موجود بصورة فطرية فی أعماقه، و أنّه يظهر أثناء المشاكل و أعاصـير الحوادث التی تعصف به، و لكن هذا الإنسان الكثير النسيان يبتلی مرّة اخرى بالغفلة و الغرور فور ما تهدأ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱

العواصف و المشاكل و تقول الآية الكريمة: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ و نادما من ذنوبه و غفلته.

و عند ما يمنّ اللّه على الإنسان بالنعم ينسـى المشاكل و الابتلاءات السابقة التی دعا اللّه عزّ و جلّ من أجل كشـفها عنه، قال تعالى: ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ۲۵].

إذ يجعل للّه أندادا و شـركاء و يعمد إلى عبادتها، و لا يكتفی بعبادتها بل يعمد- أيضا- لإضلال و حرف الناس عن سبيل اللّه: وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ

المقصود هنا من (الإنسان) هم الناس العاديون الـذين لم يتربّوا فی ظل إشـعاعات أنوار تعاليم الأنبياء، و لا يشـمل هذا الكلام المؤمنين الذين يذكرون اللّه فی السراء و الضراء و يطلبون العون من لطفه دائما.

المراد من (ضر) هنا كلّ أذى أو محنة أو ضرر يصيب الجسم أو الروح.

«خولناه»: من مادة (خول) على وزن (عمل) و تعنی المراقبـة المسـتمرة لشـیء ما، المراقبة و التوجّه الخاص يسـتلزم العطاء و البذل، فقد استخدمت هنا بمعنى الهبة.

و قال البعض: إنّ (خول) على وزن (عمل) و تعنی الخادم، و لهذا فإنّ كلمة «خوله» تعنی الخادم الذين وهب لصاحبه، ثمّ استعملت فی كافة أشكال هبة النعم بالتخويل.

و البعض الآخر قال: إنّها تعنی الفخر و التباهی، و لهذا فإنّ العبارة المذكورة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲

أعلاه تعنی حصول الإنسان على الفخر عن طريق منحه و هبته النعم ۲۶].

و بصورة عامة فإنّ هذه الجملة تعكس إضافة إلى العطاء و الهبة، اهتمام الباریء عزّ و جلّ الخاصّ بعبده.

عبارة مُنِيباً إِلَيْهِ تبيّن أنّ الإنسان فی الحالات الصعبة يضع كافّة ستائر غروره و غفلته جانبا، و يترك وراءه كلّ ما كان يعبده أو يتمسك به من دون اللّه، و يعود إلى الباری، عزّ و جلّ، و يستشفّ من مفهوم (الإنابة) هذه الحقيقة و هی أن مبدأ الإنسان و مقصده و غايته هو اللّه تعالى.

«أنـدادا»: جمع (نـد) على وزن (ضـد) و تعنی الشبيه و المثيل، مع وجود بعض الاختلاف و هو أنّ (مثل) لها مفهوم واسع، و لكن (ند) لها معنى واحد، و هو المماثلة فی الذات و الجوهر.

عبارة (جعل) تبيّن أن تصورات و خيالات الإنسان تصنع مثيلا و شبيها للّه، الأمر الذی لا يمكن أن ينطبق مع الواقع.

و عبارة لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ تبيّن أن الضالين المغرورين لا يقتنعون بإضلال أنفسهم، و إنّما يعمدون لجر الآخرين إلى وادی الضلال.

و على أيـة حال، فإنّ آيات القرآن المجيـد أشارت- مرّات عديـدة- إلى العلاقة الموجودة بين (التوحيد الفطری) و (الحوادث الصـعبة فی الحياة) كما عكست اضـطراب الإنسان المغرور الـذی يلجأ إلى اللّه و يوحـده بإخلاص فور ما تعصف به العواصف و الأعاصـير، و كيف أنّه ينسى اللّه و يعود إلى غروره و لجاجته فور هدوء العاصفة ليسير من جديد فی طريق الشرك و الضلال.

و ما أكثر أمثال هؤلاء الأشخاص المتلونون، و ما أقل من ينقلب و يتغير عند ما يمنّ الباریء عزّ و جلّ عليه بالنصر و النعم و الاستقرار.

نعم، فأبسط نسمة هواء تمرّ على حوض ماء تجعل مياه مضطربة، أمّا المحيط

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳

الهادى فإنّه لا يتأثر أبدا بأشدّ الأعاصير و لذا سمّى المحيط الهادى.

نهاية الآية تخاطب مثل أولئك الأشخاص بلغة ملؤها التهديد الصريح و الحازم و القاطع: قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ.

فهل يمكن أن يكون لإنسان كهذا مصير أفضل من هذا؟! الآية التالية استخدمت أسلوب المقارنة، الأسلوب الذى طالما استخدمه القرآن المجيد لإفهام الآخرين القضايا المختلفة، حيث تقول: هل أن مثل هذا الشخص انسان لائق و ذو قيمه: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۲۷].

أين ذلك الإنسان المشرك و الغافل و المتلون و الضالّ و المضلّ من هذا الإنسان ذو القلب اليقظ الطاهر الساطع بالنور، الذى يسجد للّه فى جوف الليل و الناس نيام، و يدعو ربّه خائفا راجيا؟! فهؤلاء فى حال النعمة لا يدعون أنفسهم فى مأمن من العقاب و العذاب، و فى حال البلاء لا ييأسون من رحمته، و هذان العاملان يرافقان وجودهم أثناء حركتهم المستمرة بحذر و احتياط نحو معشوقهم.

«قانت» من مادة «قنوت» بمعنى ملازمة الطاعة المقرونة بالخشوع و الخضوع.

«آناء» هى جمع (انا)- على وزن كذا- و تعنى ساعة أو مقدارا من الوقت.

التأكيد هنا على ساعات الليل، لأنّ تلك الساعات يحضر فيها القلب أكثر، و تقلّ نسبة تلوثه بالرياء أكثر من أىّ وقت آخر.

قدمت الآية السجود على القيام، و ذلك لكون السجود من أعلى درجات العبادة، و إطلاق الرحمة و عدم تقيّدها بالآخرة دليل على سعة الرحمة الإلهية التى تشمل الحياة الدنيا و الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴

و فى حديث ورد فى كتاب «علل الشرائع» و فى كتاب «الكافى» نقلا عن الإمام الباقر عليه السّلام، إنّه فسّر هذه الآية: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ بأنّها صلاة الليل ۲۸].

من الواضح أن هذا التّفسير يشبه الكثير من التفاسير الأخرى التى بيّنت فى ذيل آيات مختلفة فى القرآن الكريم من قبيل ذكر مصاديقها الواضحة، و لا ينحصر مفهوم الآية بصلاة الليل.

و تتمة الآية تخاطب الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالقول: قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ كلا، إنّهم غير متساوين: إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ

لا شك فى أن السؤال المذكور أعلاه سؤال شامل، و أنّه يقارن ما بين الذين يعلمون و الذين لا يعلمون، أى بين العلماء و الجهلة، لأنّه قبل طرح هذا السؤال، كان هناك سؤال آخر قد طرح، و هو: هل يستوى المشركون و المؤمنون الذين يحيون الليل بالعبادة، فالسؤال الثّانى يشير أكثر إلى هذه المسألة و هو: هل أن الذين يعلمون بأن المشركين المعاندين لا يتساوون مع المؤمنين الطاهرين، يتساوون مع الذين لا يعلمون بهذه الحقيقة الواضحة؟

و على أية حال فهذه العبارة التى تبدأ باستفهام استنكارى، توضح أحد شعارات الإسلام الأساسية و هو سمو و علو منزلة العلم و العلماء فى مقابل الجهل و الجهلة. و لأنّ عدم التساوى- هذا- ذكر بصورة مطلقة، فمن البديهى أن تكون هاتان المجموعتان غير متساويتين عند البارئ، عزّ و جلّ، و غير متساويين فى وجهة نظر العقلاء، و لا يقفون فى صفّ واحد من الدنيا، و لا فى الآخرة و أنّهم مختلفون ظاهرا و باطنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵

ملاحظة

تتضمّن هاتان الآيتان إشارات لطيفة إلى نقاط مهمّة:

۱- فى الآية الأولى، ذكرت فلسفة الحوادث المرّة و الصعبة، و انشكاف ستائر الغرور و الغفلة عن عين القلب، و صيرورة شعاع الإيمان شعلة وهّاجة، و العودة و الإنابة إلى للّه سبحانه و تعالى، و أجابت الآية فى نفس الوقت أولئك الذين يتصورون أنّ وجود مثل تلك الحوادث الصعبة فى الحياة إنّما هى نقص فى مسألة نظام الخلق و فى عدالة البارئ عزّ و جلّ.

۲- الآية الثّانية تبدأ بالدعوة إلى العمل و بناء الذات و تنتهى بالعلم و المعرفة، لأنّ من لم يبن ذاته، لا تشع أنوار المعرفة من قلبه، حيث لا يمكن أصلا فصل العلم عن بناء الذات.

۳- قوله تعالى: قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ وردت هنا بصيغة اسم فاعل، و كلمة (الليل) جاءت مطلقة لتشير إلى استمرار عبودية و خضوع أولئك للّه سبحانه، لأنّ العمل إذا لم يستمر فيكون ضعيف جدّا.

۴- إنّ العلم الاضطرارى المتولّد من نزول البلاء و الذى يربط الإنسان بخالقه، لا يكون مصداقا حقيقيا للعلم الّا إذا استمر إلى ما بعد هدوء العاصفة. لذا فإنّ الآيات المذكورة أعلاه تجعل الإنسان الذى يستيقظ حال نزول البلاء و يعود إلى غفلته عند زواله تجعله فى عداد الجهلة. إذن فإنّ العلماء الحقيقيين هم المتوجهون إليه تعالى فى كلّ الحالات.

۵- ممّا يلفت الانتباه أنّ نهاية الآية الأخيرة تقول: إنّ الفرق بين الجاهل و العالم لا يدركه سوى أولى الألباب! لأنّ الجاهل لا يدرك قيمة العلم! و فى الحقيقة إنّ كلّ مرحلة من مراحل العلم هى مقدمة لمرحلة أخرى.

۶- العلم فى هذه الآية و بقية الآيات لا يعنى معرفة مجموعة من المصطلحات، أو العلاقة المادية بين الأشياء، و إنّما يقصد به المعرفة الخاصة التى

تدعو الإنسان إلى (القنوت) أى إلى طاعة البارئ عزّ و جلّ و الخوف من محكمته و عدم اليأس من رحمته، هذه هى حقيقة العلم، و إن كانت العلوم الدنيوية تؤدى إلى ما ذكرناه آنفا، فهى علم أيضا. و إلّا فهى سبب الغفلة و الظلم و الغرور و الفساد فى الأرض، و لا يحصل منها سوى «القيل و القال» و ليس «الكيفية و الحال».

۷- على عكس ما يعتقد به الجهلة الذين يعدّون الذين مخدرا (أفيونا)، فإنّ أهم ما يدعوا إليه الأنبياء هو طلب بالعلم و المعرفة، و قد أعلنوا عداءهم للجهل أينما كان، و إضافة إلى أنّ القرآن الحكيم استغل الكثير من المناسبات كى يوضح هذا الأمر، كما وردت فى الروايات الإسلامية أحاديث تصور عدم وجود شيء أفضل من العلم.

فقد ورد فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا خير فى العيش إلّا لرجلين: عالم مطاع، أو مستمع واع»[۲۹]. كما

ورد حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، جاء فيه: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء و ذاک أنّ الأنبياء لم يورثوا درهما و لا دينارا، و إنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظا وافرا، فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه فإن فينا أهل البيت فى كلّ خلف عدولا ينفون عنه تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين»[۳۰].

۸- الآية الأخيرة تتحدث عن ثلاث مجموعات، هم العلماء و الجهلة و أولو الألباب، و

قد شخصهم الإمام الصادق عليه السّلام فى حديث له، عند ما قال: «نحن الذين يعلمون، و عدوّنا الذين لا يعلمون، و شيعتنا أولوا الألباب»[۳۱].

۹-

ورد فى الحديث خرج أمير المؤمنين عليه السّلام ذات ليلة من مسجد الكوفة

متوجّها إلى داره و قد مضى ربع من اللّيل و معه كميل بن زياد رحمة اللّه و كان من خيار شيعته و محبّيه فوصل فى الطّريق إلى باب رجل يتلو القرآن فى ذلك الوقت و يقرأ قوله تعالى أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ... الآية بصوت شجى حزين فاستحسن كميل ذلك فى باطنه و أعجبه حال الرّجل من غير أن يقول شيئا، فالتفت صلوات اللّه عليه إليه و قال: يا كميل لا يعجبك طنطنة الرّجل إنّه من أهل النّار سأنبئك بعد، فيما يصدر فتحيّر كميل مكاشفة له على ما فى باطنه و لشهادته بدخول النّار مع كونه فى هذا الأمر و تلك الحالة الحسنة و مضى مدّة متطاولة إلى أن ال حال الخوارج إلى ما ال و قاتلهم أمير المؤمنين عليه السّلام و كانوا يحفظون القرآن كما أنزل، فالتفت أمير المؤمنين عليه السّلام إلى كميل و هو واقف بين يديه و السيف فى يده يقطر دما و رؤوس أولئك الكفرة الفجرة مجلقة على الأرض فوضع رأس السيف على رأس من تلك الرؤوس و قال: يا كميل أمّن هو قانت ... الآية أى هو ذلك الشخص الذى كان يقرأ القرآن فى تلك الليلة فأعجبك حاله قبّل كميل قدميه عليه السّلام و استغفر اللّه ۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱۰ الى ۱۶]

اشارة

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (۱۰) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۱۱) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (۱۲) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۳) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (۱۴)

فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (۱۵) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (۱۶)

التّفسير

الخطوط الرئيسة لمناهج العباد المخلصين:

تتمة لما جاء فى بحث الآيات السابقة التى قارنت بين المشركين المغرورين و المؤمنين المطيعين للّه، و بين العلماء و الجهلة، فإنّ آيات بحثنا هذا تبحث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹

الخطوط الرئيسة لمناهج عباد اللّه الحقيقيين المخلصين و ذلك ضمن سبعة مناهج وردت فى عدّة آيات تبدأ بكلمة (قل).

الآية الأولى تحثّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على التقوى: قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۳۳].

نعم، فالتقوى هى الحاجز الذى يصدّ الإنسان عن الذنوب، و تجعله يحسّ بالمسؤولية و بتكاليفه أمام البارئ، عزّ و جلّ، هى المنهج الأوّل لعباد اللّه المؤمنين و المخلصين، فالتقوى هى الدرع الذى يقى الإنسان من النّار، و العامل الرئيسى الذى يردعه عن الانحراف، فالتقوى هى ذخيرته الكبيرة فى سوق القيامة، و هى ميزان شخصية و كرامة الإنسان عند البارئ عزّ و جلّ.

المنهج الثّانى يختص بالإنسان و العمل الصالح فى هذه الدنيا التى هى دار العمل، و قد شجعت الآية الناس و حثتهم على عمل الإحسان، من خلال بيان نتيجة ذلك العمل: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ[۳۴].

نعم فالإحسان بصورة مطلقة فى هذه الدنيا- سواء كان فى الحديث، أو فى العمل، أو فى نوع التفكر و التفكير بالأصدقاء و الغرباء-

یؤدّی إلی نیل ثواب عظیم فی الدنیا و الآخرة، لأنّ جزاء الإحسان هو الإحسان.

و فی الواقع فإنّ التقوی عامل ردع، و الإحسان عامل صلاح، و کلاهما یشمل (ترک الذنب) و (أداء الفرائض و المستحبات).

المنهج الثّالث یدعو إلی الهجرة من مواطن الشرک و الکفر الملوثة بالذنوب، قال تعالی: وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰

هذه الآیة- فی الحقیقة- ردّ علی ذوی الإرادة الضعیفة و المتذرعین بمختلف الذرائع الذین یقولون: إنّنا عاجزون عن أداء الأحکام الإلهیة لأنّنا فی أرض مکّة التی یحکمها المشرکون، و القرآن یردّ علیهم بأن أرض اللّه لا تقتصر علی مکّة، فإن لم تتمکنوا من أداء فرائضکم فی مکّة فالمدینة موجودة، بل إن الأرض کلها للّه، هاجروا من المواطن الملوثة بالشرک و الکفر و الظلم التی لا یمکنکم فیها أداء الأحکام الإلهیة بحریة إلی آخر.

مسألة الهجرة هی إحدی أهم المسائل التی لم تلعب دورا أساسیا فی صدر الإسلام بانتصار الحکومة الإسلامیة فحسب، بل إنّ لها أهمیة فی کلّ زمان، لأنّها من جهة تمنع مجموعة من المؤمنین أن یستسلموا لضغط و کبت محیطهم، و من جهة اخری تکون عاملان مساعدا لتصدیر الإسلام إلی نقاط مختلفة فی أنحاء العالم.

و القرآن المجید یقول: إِنَّ الَّذِینَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنَّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِیها فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً[۳۵].

و هذا یوضح- بصورة جیدة- أنّ المؤمن الذی تحیط به الضغوط و الکبت، و یستطیع أن یهاجر فی سبیل اللّه علیه أن یهاجر، و إلّا فإنّه غیر معذور أمام اللّه.

(بشأن أهمیة الهجرة فی الإسلام و أبعادها المختلفة کانت لنا بحوث مختلفة و مفصلة فی ذیل الآیة (۱۰۰) من سورة النساء، و فی ذیل الآیة (۷۲) من سورة الأنفال).

و لأنّ الهجرة ترافقها بصورة طبیعیة مشکلات کثیرة فی مختلف جوانب الحیاة، فالمنهج الرابع إذن یتعلق بالصبر و الاستقامة، قال تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱

إِنَّما یُوَفَّی الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسابٍ ۳۶].

و عبارة (یوفی) مشتقّة من (وفی) و تعنی إعطاؤه حقّه تاما کاملا. و عبارة (بغیر حساب) تبیّن أن للصابرین أفضل الأجر و الثواب عند اللّه، و لا یوجد عمل آخر یبلغ ثوابه حجم ثواب الصبر و الاستقامة.

و الشاهد علی هذا القول ما

جاء فی الحدیث المعروف الذی رواه الإمام الصادق علیه السّلام عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الذی جاء فیه: «إذا نشرت الدواوین و نصبت الموازین لم ینصب لأهل البلاء میزان، و لم ینشر لهم دیوان، ثمّ تلا هذه الآیة:

إِنَّما یُوَفَّی الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسابٍ ۳۷].

و البعض یعتقد أنّ هذه الآیة تخصّ الهجرة الأولی للمسلمین، أی هجرة مجموعة کبیرة من المسلمین إلی أرض الحبشة تحت قیادة جعفر بن أبی طالب علیه السّلام، و کما قلنا مرارا رغم أنّ أسباب النّزول توضیح مفهوم الآیة، إلّا أنّها لا تحددها.

أمّا المنهج الخامس فقد ورد فیه أمر الإخلاص و التوحید الخالی من شوائب الشرک، و هنا تتغیر لهجة الکلام بعض الشیء، و یتحدث الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن وظائفة و مسئولیاته، إذ یقول: قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّینَ

ثم یضیف: وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَکُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِینَ و هذا هو المنهج السادس الذی یعترف بأنّ النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو أول الناس إسلاما و تسلیما لأوامر الباریٔ عزّ و جلّ.

أمّا المنهج السابع و الأخير فيتناول مسألة الخوف من عقاب البارئ عزّ و جلّ يوم القيامة، قال تعالى: قُلْ إِنِّی أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّی عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲

التأمل فی هذه الآيات يكشف بوضوح عن أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو عبد من عباد اللّه، و هو مكلف أيضا بعبادة اللّه بإخلاص، لأنّه- هو أيضا- يخاف العذاب الإلهی، و هو مكلّف بإطاعة الأوامر الإلهية، كما أنّه مكلّف بتكاليف و واجبات أثقل و أعظم من تكاليف الآخرين، و لذا يجب أن يكون أفضل و أسمى من الآخرين.

إنّه لم يدّع الألوهية أبدأ، و لم يخط خطوة واحدة خارج مسير العبودية، بل إنّه يفتخر و يتباهى بهذا المقام، و لهذا السبب كان قدوة و أسوة، و هو (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لم يفضّل نفسه على الآخرين، و هذا دليل على عظمته و أحقّيته، فهو ليس كالمدّعين الكذّابين الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، و يعتبرون أنفسهم أرقى من البشر، و أنّهم من معدن ثمين أفضل من الناس، و أحيانا يدعون أتباعهم إلى التبرع سنويا بالذهب و الجواهر بقدر وزنهم.

إنّه يقول: إنّی لست مثل السلاطين المتجبرين على رقاب الناس الذين يكلفون الناس ببعض التكاليف و يعتبرون أنفسهم «فوق تلك التكاليف» و هذا فی الواقع إشارة إلى موضوع تربوی هامّ، و هو أنّ كلّ إنسان- مربيا كان أم قائدا- عليه أن يكون السباق فی تنفيذ من أجلها ما يمليه عليه نهجه، فيجب أن يكون أوّل مؤمن بشريعته أو سنته و أكثر الساعين و المضحين كی يؤمن الناس بصدقه، و يتخذونه أسوة و قدوة لهم فی كلّ الأمور. و من هنا يتضح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن أوّل مسلم من حيث الزمان و حسب، و إنّما كان أوّل إسلاما من كلّ النواحی، من ناحية الإيمان و الإخلاص، و العمل، و التضحية، و الجهاد، و الصمود، و المقاومة، و تأريخ حياة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤيد هذه الحقيقة بصورة جيدة.

بعد استعراض المناهج السبعة المذكورة فی الآيات أعلاه (التقوى، الإحسان، الهجرة، الصبر، الإخلاص، التسليم، الخوف).

و لكون مسألة الإخلاص لها ميزات خاصة فی مقابل العلل المختلفة للشرك،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳

تعود الآيات لتؤكّد عليها مرّة أخرى، إذ تقول و بنفس اللهجة السابقة: قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِی ۳۸].

أما أنتم فاعبدوا ما شئتم من دون اللّه: فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ

ثمّ تضيف: قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

أی إنّهم لم يستثمروا طاقاتهم و عمرهم، و لا من عوائلهم و أولادهم لإنقاذهم، و لا لإعادة ماء الوجه المراق إليهم، و هذا هو الخسران العظيم: أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ

الآية الأخيرة فی بحثنا هذا تصف إحدى صور الخسران المبين، إذ تقول: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ

و بهذا الشكل فإنّ أعمدة النيران تحيط بهم من كلّ جانب، فهل هناك أعظم من هذا؟ و هل هناك عذاب أشدّ من هذا؟

«ظلل» جمع (ظلّة) على وزن «سنّة» و تعنی الستر الذی ينصب فی الجهة العليا. و طبقا لهذا فإنّ إطلاق هذه الكلمة على ما يفرش تحت اهل النّار اطلاق مجازی و من باب التوسع فی معنى الكلمة.

بعض المفسّرين قالوا: بما أنّ أصحاب النّار يتقلبون بين طبقات جهنم، فإنّ ستائر النّار محيط بهم من فوق رؤوسهم و من تحت أرجلهم. و الآية (۵۵) من سورة العنكبوت تشبه هذه الآية: يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

هذا فی الحقيقة تجسيد لأحوالهم و أوضاعهم فی هذه الدنيا، إذ أن الجهل و الكفر و الظلم محيط بكلّ وجودهم، و مستحوذ عليهم من كلّ جانب، ثمّ تضيف الآية مؤكّدة و واعظة إياهم: ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ

إضافة كلمة (العباد) إلى لفظ الجلالة فى هذه الآية، و لعدّة مرّات اشارة إلى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴

تهديد البارئ عزّ و جلّ لعباده بالعذاب إنّما هو لطف و رحمة منه، و ذلك كى لا يبتلى عباده بمثل هذا المصير المشؤوم، و من هنا يتضح أنّه لا حاجة لتفسير كلمة (العباد) هنا على أنّها تخصّ المؤمنين، فهى تشمل الجميع، كى لا يأمن أحد من العذاب الإلهى.

ملاحظات

۱- حقيقة الخسران!

يرى الراغب فى مفرداته أنّ الخسران يعنى ذهاب رأس المال كلّه أو بعضه، و أحيانا تنسب إلى الإنسان، عند ما يقال: (الشخص الفلانى خسر) و أحيانا تنسب إلى العمل عند ما يقولون: (خسرت تجارته).

و تستخدم كلمة (خسران) أحيانا فى حالة فقدان الثروة الظاهرية، كالمال و الجاه، الدنيوى، و أحيانا أخرى تستخدم فى حالة فقدان ثروة معنوية كالصحة و السلامة و العقل و الإيمان و الثواب، و هذا هو الشىء الذى سمّاه البارئ عزّ و جلّ (الخسران المبين) فكلّ خسران ذكره البارئ عزّ و جلّ فى القرآن الكريم إنّما يشير إلى المعنى الثّانى و ليس إلى الخسران الخاص بثروات الدنيا و تجارتها[۳۹].

و قد شبّه القرآن الإنسان بتجارة الأثرياء الذين يدخلون أسواق التجارة العالمية برؤوس أموال كبيرة، فالبعض منهم يجنى أرباحا كبيرة، و البعض الآخر يخسر خسارة فادحة.

آيات كثيرة فى القرآن المجيد تطرقت إلى مثل هذا التعبير و التشبيه، حيث توضح الحقيقة التالية: إنّ النجاة من العذاب الإلهى لا تتحقق بالجلوس و انتظار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵

هذا و ذاك، و إن السبيل الوحيد للنجاة هو الاستفادة من الثروة، و بذل الجهود و المساعى فى هذه التجارة الكبيرة، لأنّ كلّ شىء يعطى بثمن، و لا يعطى بالمعاذير! و قد يتساءل البعض: ما هى أسباب وصف خسارة المشركين و المذنبين بالخسران المبين؟

الجواب هو:

أوّلا: لأنّهم باعوا أفضل ثروة لديهم- أى العمر و العقل و الإدراك و العواطف الانسانية- بدون مقابل.

ثانيا: لو أنّهم باعوا تلك الثروة من دون أن يشتروا العذاب و العقاب لكان أمرا هينا بعض الشىء، لكنّ الأمر لم يكن كذلك إذ أنّهم بخسرانهم لتلك الثروة العظيمة هيأوا لأنفسهم عذابا أليما و عظيما.

ثالثا: إنّ هذه الخسارة التى لا يمكن أن تعوّض بأىّ ثمن، و هذه هى (الخسران المبين).

۲- ما هو المراد من الآية: فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ

عبارة فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ جاءت بصيغة أمر تهديدى، و هذا الأسلوب يستعمل عند ما لا تؤثر النصيحة و الموعظة بالشخص المجرم و المذنب، إذ أنّ آخر ما يقال له: (افعل ما تشاء، و لكن انتظر العقاب أيضا) و يعنى أنّك وصلت إلى درجة لا تستحقّ معها النصيحة و الموعظة، و أنّ مصيرك و علاجك هو العذاب الأليم.

۳- من هم الأهل؟

الآیات المذکورة أعلاه تقول: إنّ أولئک الخاسرین لم یخسروا ثروة وجودهم فحسب، و إنّما خسروا أهلیهم أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶

بعض المفسّرین قال: إنّ المراد من (أهل) هم أتباع الإنسان و السائرون علی نهجه.

و البعض الآخر فسّرها بأنّها تعنی الزوجات القاصرات الطرف فی الجنّة، اللواتی خسرهن المشرکون و المجرمون.

و البعض الآخر یقول: إنّها تعنی العائلة و الأرقاب فی الدنیا.

و المعنی الأخیر- مع الالتفات إلی أنّه المعنی الأصلی لهذه الکلمة- یعد أنسب من الجمیع، لأن الکافر یخسر أهله یوم القیامة، إذ ینفصلون عنه و إن کانوا مؤمنین، و أما إذا کانوا مشرکین فمضافا إلی أنّهم لا ینفعونهم، سیکونون سببا فی زیادة العذاب الألیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷

الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۱۷ الی ۲۰]

اشارة

وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَی اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْری فَبَشِّرْ عِبادِ (۱۷) الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِکَ الَّذِینَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِکَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (۱۸) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَیْهِ کَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِی النَّارِ (۱۹) لکِنِ الَّذِینَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِیَّةٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا یُخْلِفُ اللَّهُ الْمِیعادَ (۲۰)

التّفسیر

عباد اللّه الحقیقیون:

استخدم القرآن الکریم مرّة اخری أسلوب المقارنة فی هذه الآیات، إذ قارن بین عباد اللّه الحقیقیین و المشرکین المعاندین الذین لا مصیر لهم سوی نار جهنّم، قال تعالی: وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَی اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْری

و لکون کلمة (البشری) جاءت هنا بصورة مطلقة و غیر محدودة، فتشمل کافة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸

أنواع البشری بالنعم الإلهیة المادیة و المعنویة، و هذه البشری بمعناها الواسع تختص فقط بالذین اجتنبوا عبادة الطاغوت و عمدوا إلی عبادة اللّه وحده من خلال إیمانهم به و عملهم الصالح.

و کلمة «طاغوت» من مادة (الطغیان) تعنی الاعتداء و تجاوز الحدود، و لذا فإنّها تطلق علی کلّ متعدّ، و علی کلّ معبود من دون اللّه، کالشیطان و الحکام المتجبرین (و تستعمل هذه الکلمة للمفرد و الجمع)[۴۰].

فعبارة اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ بمعناها الواسع تعنی الابتعاد عن کلّ أشکال الشرک و عبادة الأصنام و هو النفس و الشیطان، و تجنب الانصیاع و الاستسلام للحکام المتجبرین الطغاة.

أمّا عبارة أَنابُوا إِلَی اللَّهِ فإنّها تجمع روح التقوی و الزهد و الإیمان، و أمثال هؤلاء یستحقون البشری.

و يجب الالتفات إلى أنّ عبادة الطاغوت لا تعنى فقط الركوع و السجود له، و إنّما تشمل كلّ طاعة له، كما ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام «من أطاع جبارا فقد عبده»[۴۱].

ثم تعرج الآيـة على تعريف العبـاد الخاصّـين فتقول: فَبَشِّرْ عِبادِ[۴۲] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ

الآيتان المذكورتان بمثابة شعار إسلامى، و قد بيّنتان حرية الفكر عند المسلمين، و حرية الإختيار فى مختلف الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹

ففى البدايـة تقول (بشـر عبـاد) ثمّ تعرّج على تعريف أولئك العباد المقربين بأنّهم أولئك الـذين لا يسـتمعون لقول هـذا و ذاك ما لم يعرفوا خصـائص و ميزات المتكلم، و الـذين ينتخبون أفضـل الكلام من خلال قوّة العقـل و الإدراك، إذ لاـ تعصب و لا لجاجـة فى أعمالهم، و لا تحديد و جمود فى فكرهم و تفكيرهم، إنّهم يبحثون عن الحقيقة و هم متعطشون لها، فأينما وجدوها استقبلوها بصدور رحبة، ليشربوا من نبعها الصافى من دون أىّ حتى يرتووا.

إنّهم ليسوا طالبين للحق و متعطشين للكلام الحسن و حسب، بل هم يختارون الأجود و الأحسن من بين (الجيد) و (الأجود) و (الحسن) و (الأحسن)، و خلاصة الأمر فإنّهم يطمحون لنيل الأفضل و الأرفع، و هذه هى علامات المسلم الحقيقى المؤمن الساعى وراء الحق.

أمّا ما المقصود من كلمة (القول) فى عبارة يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فإنّ المفسّرين أعطوا عدّة آراء لتفسيرها، منها:

البعض فسّره بأنّه يعنى (القرآن) الذى يحتوى على الطاعات و المباحات، و اقتفاء الأحسن يعنى اقتفاء الطاعات.

و البعض الآخر فسّرها بأنّها تعنى مطلق الأوامر الإلهية المذكورة فى القرآن و غير المذكورة فيه.

و لكن لم يتوفّر أىّ دليل على هـذين التّفسيرين، بل أن ظاهر الآيـة يشـتمل كلّ قول و حـديث، فالمؤمنون هؤلاء يختارون من جميع الكلمات و الأحاديث ما هو (أحسن)، ليترجموه فى أعمالهم.

و الطريف فى الأمر أنّ القرآن الكريم حصـر فى الآية المذكورة أعلاه الذين هداهم اللّه بأولئك القوم الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه، كما أنّه اعتبر العقلاء ضـمن هذه المجموعة، و هذه إشارة إلى أنّ أفراد هذه المجموعة مشـمولون بالهداية الإلهية الظاهرية، و الباطنية، الهداية الظاهرية عن طريق العقل و الإدراك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰

و الهداية الباطنية عن طريق النور الإلهى و الإمداد الغيبى، و هاتان مفخرتان كبيرتان للباحثين وراء الحقيقة ذوى التفكير الحرّ.

و لكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كـان يرغب- بشـدّة- فى هدايـة المشـركين و الضـالين، و كـان يتـألّم كثيرا لانحراف أولئك الـذين لم يعطوا آذانا صاغيـة للحقائق، فأنّ الآيـة التاليـة عمـدت الى مواساته بعد أن وضـحت له حقيقة أنّ عالمنا هذا هو عالم الحريـة و الامتحان، و مجموعة من الناس- فى نهاية الأمر- يجب أن تدخل جهنم، إذ قالت: أ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ[۴۳].

عبارة حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَـةُ الْعَـذابِ إشارة إلى آيات مشابهة، كالآية (۸۵) من سورة ص التى تقول بشـأن الشـياطين و أتباعهم: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ

و من البـديهى أنّ حتميـة تعـذيب هـذه المجموعة لا تحمل أىّ طابع إجبارى، بل إنّهم يعذبون بسـبب الأعمال التى ارتكبوها، و نتيجة إصـرارهم على ارتكاب الظلم و الذنب و الفساد، بشكل يوضح أنّ روح الإيمان و التعقل كانت ميّتة فى أعماقهم، و أنّ وجودهم كان قطعة من جهنم لا أكثر.

من هنا يتبيّن أنّ قوله تعالى: أ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ هو إشارة إلى حقيقة أنّ كونهم من أصحاب النّار يعد أمرا مسلما به و كأنّهم الآن

هم فى قلب جهنم، حتّى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الـذى هو (رحمهٔ للعالمين) لا يستطيع إنقاذهم من العذاب، لأنّهم قطعوا كافّهٔ طرق الاتصال باللّه سبحانه و تعالى و لم يبقوا أىّ سبيل لنجاتهم.

و لبعث السرور فى قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لزيادهٔ الأمل فى قلوب المؤمنين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱

جاء فى آخر الآيهٔ: لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ

فإن كان أهل جهنم مستقرين فى ظلل من النّار، كما ورد فى الآيهٔ السابقهٔ:

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ فإنّ لأهل الجنّهٔ غرفا من فوقها غرف اخرى، و قصور فوقها قصور اخرى، لأنّ منظر الورود و الماء و الأنهار و البساتين من فوق الغرف يبعث على اللذهٔ و البهجهٔ بشكل أكثر.

«غرف» جمع «غرفهٔ» من مادهٔ «غرف» و على وزن حرف- بمعنى تناول الشىء و لذا يطلق على من يتناول الماء بكفه ليشربه «غرفهٔ» ثمّ أطلقت على الطبقات العليا من المنازل.

و كشفت الآيهٔ أيضا عن أن غرف أهل الجنّهٔ الجميلهٔ قد زينت بأنهار تجرى من تحتها تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ نعم، هذا وعد اللّه وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ[۴۴].

بحوث

۱- منطق حريهٔ التفكير فى الإسلام

الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعهٔ و مناقشهٔ مواضيع و آراء بقيهٔ المذاهب، إذ أنّهم يخافون من أن تكون حجّهٔ الآخرين أقوى من حجّتهم.

الضعيفهٔ و بالتالى فقدان اتباعهم.

إلّا أنّ الإسلام- كما شاهدنا فى الآيات المذكورهٔ أعلاه- ينتهج سياسهٔ الأبواب المفتوحهٔ فى هذا المجال، إذ يعتبر المحققين هم عباد اللّه الحقيقيين الذين لا يرهبون سماع آراء الآخرين، و لا يستسلمون لشىء من دون أى قيد أو شرط،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲

و لا يتقبلون كلّ وسواس.

الإسلام الحنيف يبشّر الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه، الذين لا يكتفون بترجيح الجيد على السىء، و إنّما ينتخبون الأحسن ثمّ الأحسن من كلّ قول و رأى.

و يوبّخ- بشدّهٔ- الجهلهٔ الذين يضعون أصابعهم فى آذانهم و يستغشون ثيابهم كلما سمعوا صوت الحق، كما ورد فى قول نوح صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما شكى قومه للبارئ عزّ و جلّ: وَ إِنِّی كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً[۴۵].

و أساسا فإنّ المذهب القوى الذى يملك منطقا قويا لا يرهب أقوال الآخرين، و لا يخاف من طرح آراء تلك المذاهب، لأنّه أقوى منها و هى التى ينبغى أن تخافه.

هذه الآيهٔ وضعت- فى نفس الوقت الذين يتبعون أىّ قول يقال لهم من دون أىّ تفكير فى مدى صدقه، و حتى أنّهم لا يحققون و لا يبحثون فيه بقدر ما تبحث الأغنام عن الغذاء الجيد فى المراعى، وضعتهم خارج صف (أولوا الألباب) و الذين (هداهم اللّه). فهاتان

الصفتان تختصّان بالذين لم يبتلوا الاستسلام المفرط من دون أيّ قيد أو شرط، و الذين لم يفرطوا فى تعصبهم الجاهلى الأعمى.

۲- الردّ على بعض الأسئلهٔ

من الممكن أن تطرح على ضوء البحث السابق عدّهٔ أسئلهٔ، منها:

۱- لماذا يمنع الإسلام بيع و شراء كتب الضلال.

۲- لماذا يحرم إعطاء القرآن الكريم بيد الكفار.

۳- كيف يمكن لإنسان ليس له إلمام بموضوع ما أن ينتخب و يميز الجيد من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳

السيء، ألا يستلزم هذا المعنى الدور؟

الجواب على السؤال الأوّل واضح، لأنّ البحث المتعلّق بالآيات المذكورهٔ أعلاه يتناول أقوالا يؤمل منها الهدايهٔ، ففى أى وقت يتضح بعد البحث و التحقيق أن الكتاب الفلانى هو مضل فإنّه يخرج من هذا الأمر، فالإسلام لا يسمح بأن يسلك الناس فى طريق ثبت انحرافه. و بالطبع فإنّه ما دام الأمر لم يثبت لأحد، أى ما زال الشخص فى حالهٔ التحقيق عن المذاهب الأخرى لقبول الدين الصحيح، لا بأس بمطالعهٔ كلّ تلك الكتب، و لكن بعد ثبوت ذلك الأمر يجب اعتبارها مادّهٔ سامّهٔ، و يجب إبعادها عن متناول الجميع.

أمّا بالنسبهٔ إلى السؤال الثّانى، فإنّه لا يجوز إعطاء القرآن لغير المسلم إن كان ذلك الشخص يهدف إهانهٔ و هتك القرآن، و لكن إن حصل علم بأن ذلك الكافر يفكر حقّا بالتحقيق فى الإسلام من خلال القرآن للوصول إلى هذا الهدف، فإن إعطاء القرآن هنا لا يعدّ أمرا ممنوعا، بل يعدّ واجبا، و العلماء الذين حرّموا ذلك لا يقصدون هذا المعنى.

و لهذا فإنّ الجمعيات الإسلامية الكبيرهٔ تصرّ بشدّهٔ على ترجمهٔ القرآن إلى بقيهٔ اللغات الحيهٔ فى العالم، ليوضع تحت تصرف المتعطشين لمعرفهٔ الحقيقهٔ.

و أمّا بشأن السؤال الثّالث، فيجب الالتفات إلى أنّه فى كثير من الأحيان لا يستطيع شخص ما إنجاز عمل ما، و لكن عند ما ينجزه الآخرون يتمكن هو من تشخيص الجيد من الردىء فى ذلك العمل.

و على سبيل المثال، من الممكن أن يوجد شخص لا إطلاق له بفنّ الإعمار و البناء حتى أنّه لا يستطيع وضع لبنتين فوق بعضهما البعض بصورهٔ صحيحهٔ، و لكنّه يستطيع تمييز البناء الجيد ذى الكيفيهٔ العاليهٔ من البناء السيء غير المتناسق، كما أنّ هناك أشخاصا كثيرين ليسوا بشعراء، إلّا أنّهم يتمكون من تقييم أشعار شعراء كبار و تميزها عن الأشعار الفارغهٔ التى ينظمها بعض ناظمى الشعر. هناك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴

أشخاص ليسوا برياضيين و لكنّهم يتمكنون من التحكيم بين الرياضيين، و انتخاب الجيد منهم.

۳- نماذج من الروايات الإسلاميهٔ التى تؤكد على حريهٔ التفكير

وردت بعض الأحاديث الإسلاميهٔ فى تفسير الآيات المذكورهٔ أعلاه، كما وردت أحاديث مستقلهٔ تؤكّد على هذا الموضوع، و منها ما ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام، خاطب فيه أحد أصحابه و هو هشام بن الحكم قائلا: «يا هشام، إن اللّه تبارك و تعالى بشر أهل العقل و الفهم فى كتابه، فقال فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ [۴۶].

و

ورد حدیث آخر عن الأمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الآیة المذکورة أعلاه، قال فیه: «هو الرجل یسمع الحدیث فیحدث به کما سمعه، لا یزید فیه و لا ینقص»[۴۷].

و بالطبع، فإنّ تفسیر فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ هو المقصود فی هذا الحدیث، لأن إحدی علامات اتباع القول الحسن، هو أن لا یضیف الإنسان من عنده أی شیء علی القول، و ینقله ذاته للآخرین.

و نقرأ

فی البلاغة فی حقل الکلمات القصار لأمیر المؤمنین علیه السّلام: (الحکمة ضالة المؤمن، فخذ الحکمة و لو من أهل النفاق»[۴۸].

۴- سبب النّزول

ذکر المفسّرون أسبابا لنزول هذه الآیات، و منها، أنّ الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵

وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ... و الآیة التی تلتها نزلنا بحق ثلاثة أشخاص (لم یستسلموا فی عهد الجاهلیة لغوغاء المشرکین فی مکّة) کانوا یقولون لا إله إلا اللّه، و الثلاثة هم (سلمان الفارسی و أبو ذر الغفاری و زید بن عمرو)[۴۹].

و قد ورد اسم (سعید بن زید) بدلا (زید بن عمرو) فی بعض الرّوایات ۵۰].

و البعض الآخر قال: إنّ الآیة: أ فَمَنْ حَقَّ عَلَیْهِ کَلِمَةُ الْعَذابِ ... نزلت بشأن (أبی جهل) و أمثاله ۵۱].

و غیر مستبعد أن تکون هذه الرّوایات من قبیل تطبیق الآیة علی المصادیق الواضحة و لیس أسبابا للنزول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶

الآیتان [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۲۱ الی ۲۲]

اشارة

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَکَهُ یَنابِیعَ فِی الْأَرْضِ ثُمَّ یُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ یَهِیجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ یَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِأُولِی الْأَلْبابِ (۲۱) أ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلی نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَیْلٌ لِلْقاسِیَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِکْرِ اللَّهِ أُولئِکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۲۲)

التّفسیر

الذین هم علی مرکب من نور!!

فی هذه الآیات یستعرض القرآن الکریم مرّة اخری دلائل التوحید و المعاد، لیکمل البحوث التی تناولت مسألة الکفر و الإیمان الواردة فی الآیات السابقة. إذ تشرح أحد آثار عظمة و ربوبیة البارئ عزّ و جلّ فی نظام عالم الکون، و ذلک عند ما تشیر إلی مسألة (نزول المطر) من السماء، ثمّ إلی نمو آلاف الأنواع من الزرع بمختلف الألوان بعد أن تسقی من ماء عدیم اللون، و إلی مراحل نموها حتی وصولها إلی المرحلة النهائیة و تقول موجهة الخطاب الی النبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتباره القدوة لجمیع المؤمنین أ لَمْ

تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷

الْأَرْضِ ۵۲].

قطرات المطر التی تبعث الحیاة حینما تنزل من السماء تمتصها الطبقة الأولی من طبقات الأرض، و عند ما تنفذ إلی داخل هذه الطبقة تقف عند طبقة اخری فی الأرض و لا تتمکن من النفوذ خلالها، لتبعث مرّة اخری إلی سطح الأرض بصورة عیون و قنوت و آبار.

کلمة (سلکه) تعنی (نفوذ میاه الأمطار فی داخل قشرة الأرض) و هذه إشارة مختصرة لما ذکرناه آنفا.

«ینابیع» هی جمع (ینبوع) مشتقّة من (نبع) و تعنی فوران الماء من داخل الأرض. و لو کانت للأرض قشرة واحدة لا تمتلک القابلیة علی الامتصاص، فإنّ میاه الأمطار النازلة سوف تتجه بأکملها بعد هطولها إلی البحار لتصب فیها من دون أن تخزن داخل قشرة الأرض، و فی هذه الحالة ینعدم وجود العیون و القنوات و الآبار. و إذا کانت الأرض ذات قشرة واحدة نفوذیة تماما، فإنّ کلّ میاه الأمطار تتجه نحو أعمق مناطق باطن الأرض، و فی تلک الحالة یستحیل الوصول إلیها و استخراجها، فتنظیم قشرة الأرض بحیث توجد طبقتان إحداها نفوذیة و الأخری غیر نفوذیة، و بدرجات معینة، کلّ ذلک ثمّ وفق حسابات خاصة، تبیّن قدرة الباریٔ عزّ و جلّ.

و الملفت للنظر أنّ قشرة الأرض تکون أحیانا ذات طبقات متعددة، بعضها نفوذی و البعض الأخری غیر نفوذی، و مرتبة الواحدة فوق الأخری و یستفاد منها فی عملیات حفر الآبار (السطحیة) و (العمیقة) و (نصف العمیقة).

و تضیف الآیة فیما بعد: ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ذات الأشکال المختلفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸

أی مختلف الأنواع کالحنطة و الشعیر و الزر و الذرة، ذات الأشکال المختلفة و الألوان الظاهریة المتعددة، فمنها الأخضر الغامق، و الأخضر الفاتح، و بعضها ذو أوراق عریضة و کبیرة، و البعض الآخر ذو أوراق دقیقة و صغیرة.

و ممّا یذکر أن کلمة (زرع) تطلق علی النباتات ذات الساق الدقیق، فیما تطلق کلمة (شجر) علی الأشجار ذات السیقان القویة، و کلمة (زرع) ذات معان کثیرة تشمل النباتات الطبیعیة التی لا یمکن الاستفادة منها للغذاء، و أنواع الورد و نباتات الزینة و الأعشاب الطبیعة التی یؤخذ منها الدواء، و أحیانا نری فی غصن واحد، و لربّما فی وردة واحدة عدّة ألوان جمیلة جذابة، تسبح و توحد الباریٔ عزّ و جلّ بلسان صامت.

ثمّ تنتقل الآیة إلی مرحلة اخری من مراحل حیاة هذه النباتات، إذ تقول:

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا[۵۳] حیث تعصف به الریاح من کلّ جانب لتقلعه من مکانه بسبب ضعف سیقانه و یضیف تعالی: ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً.

نعم، إن فی هذا لذکری لأصحاب القول و أهل العلم إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ

هذا المشهد یذکّر الإنسان بالنظام الدقیق و العظیم الذی وضعه الباریٔ عزّ و جلّ لعالم الوجود، و إنّه تذکیر بنهایة الحیاة و انطفاء شعلتها، و من ثمّ بمسألة البعث و عودة الأموات إلی الحیاة. فرغم أنّ هذا المشهد یتعلّق بعالم النبات، إلّا أنّه ینبّه الإنسان إلی أن مثل هذا الأمر سوف یتکرر فی حیاته و عمره هو أیضا مع وجود بعض الاختلاف فی مدّة الأعمار، و لکن الأساس واحد إذ یبدأ بالولادة یتدرج إلی النشاط و الشباب، و من ثمّ الذبول و الکهولة، و فی النهایة الموت.

و کتتمة لهذا الدرس الکبیر فی التوحید و المعاد، تنتقل الآیات إلی المقارنة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۹

بین المؤمنین و الکافرین، کی توضح حقیقة أنّ القرآن و الوحی السماوی هما کقطرات المطر التی تهطل علی الأرض، و کما أنّ الأرض التی لها الاستعداد هی التی تستفید من قطرات المطر، فکذلک القلوب المستعدة لبناء ذاتها بالاستعانة بلطف اللّه، هی- فقط-

التی تستفید من آیات اللّه، و ذلک طبقا لقوله تعالی: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلی نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ۵۴] کمن هو قاسی القلب لا یهتدی بنورا!! أمّا القاسیة قلوبهم، فهم الذین لا تؤثر بهم المواعظ و لا الوعید و لا البشری، و لا الآیات القرآنیة المؤثرة، و لا ینمی مطر الوحی الباعث للحیاة عندهم ثمار التقوی و الفضیلة، و بصورة موجزة یمکن القول بأنّهم کالنباتات التی لا طراوة فیها و لا أوراق و لا ثمار و لا ظلّ.

نعم أُولئِکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ

«القاسیة» مشتقّة من (قسوة) و تعنی الخشونة و الصلابة و التحجر، لذلک تطلق صفة (قاسیة) علی الأحجار الصلبة، و یقال للقلوب التی لا تظهر أی استجابة لنور الحق و الهدایة، و لا تلین و لا تستسلم لها، و لا تسمح بنفوذ نور الحقّ و الهدایة إلیها (قلوب قاسیة).

علی آیة حال، فإنّ هذه العبارة جاءت فی مقابل (انشراح الصدر) وسعة الروح، لأنّ الرحابة و الاتساع کنایة عن الاستعداد للاستقبال، فالشارع و البیت الواسع یمکنهما أن یضمّا أناسا کثیرین، و کذلک الصدر الواسع و الروح المنشرحة، فإنّها مستعدّة لتقبّل حقائق أکثر.

و نقرأ فی إحدی الرّوایات

أنّ ابن مسعود قال: سئل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن تفسیر هذه الآیة: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلی نُورٍ مِنْ رَبِّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۰

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إذا دخل النور فی القلب انشرح و انفتح».

ثم قلنا: یا رسول اللّه ما هی علامات انشراح الصدر؟ فقال: «الإنابة إلی دار الخلود، و التجافی عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل نزوله»[۵۵].

أمّا علی بن إبراهیم فیقول فی تفسیره أن عبارة: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ نزلت فی حقّ أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه السّلام. و قد ورد فی تفاسیر اخری أنّ عبارة: فَوَیْلٌ لِلْقاسِیَةِ قُلُوبُهُمْ نزلت بحقّ (أبی لهب و أبنائه)[۵۶].

و من الواضح أنّ أسباب النّزول هنا هی فی الحقیقة من باب تطبیق المفهوم العام علی المصادیق الواضحة.

إنّ ما یلفت النظر فی عبارة: فَهُوَ عَلی نُورٍ مِنْ رَبِّهِ أنّ النور و الضیاء جعل هنا بمثابه مرکبة یرکبها المؤمنون تفسیر بهم بسرعة عجیبة و مسیر واضح و قدرة علی طواف العالم کلّه.

بحث

عوامل (شرح الصدر) و (قسوة القلب)

الناس لیسوا علی وتیرة واحدة من حیث قبول الحق و إدراک الأمور، فالبعض یتمکّن من إدراک الحقیقة بمجرّد إشارة واحدة أو جملة قصیرة، و هذا یعنی أنّ تذکیرا واحدا یکفی لإیقاظهم فورا، و موعظة واحدة قادرة علی إحداث صیحات فی أرواحهم و فی حین أنّ البعض الآخر لا یتأثّر بأبلغ الکلمات و أوضح الأدلّة و أقوی العبارات، و هذه المسألة لیست بالأمر السهل أو الهیّن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۱

و کم هی جمیلة التعابیر القرآنیة فی هذا المجال، و ذلک عند ما تصف البعض بأنّهم ذو و صدور منشرحة و أرواح واسعة، و تصف البعض الآخر بأنّهم ذو و صدور ضیقة، کما ورد فی الآیة (۱۲۵) من سورة الأنعام: فَمَنْ یُرِدِ اللَّهُ أَنْ یَهْدِیَهُ یَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ

یُرِدْ أَنْ یُضِلَّهُ یَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَیِّقاً حَرَجاً کَأَنَّما یَصَّعَّدُ فِی السَّماءِ.

هذا الموضوع یتّضح بصورة کاملة فی حالة دراسة أوضاع و أحوال الأشخاص، فالبعض لهم صدور منشرحة رحبة تتسع لاستیعاب أیّ مقدار من الحقائق، فی حین أنّ البعض الآخر علی العکس، إذ أنّ صدورهم ضیقة و أفکارهم محدودة لا یمکنها أحیانا استیعاب أیّ حقیقة، و کأن عقولهم محاطة بجدران فولاذیة لا یمکن اختراقها. و بالطبع لکلّ واحد منهما أسبابه.

فالدراسة الدائمة و المستمرة و الاتصال بالعلماء و الحکماء الصالحین، و بناء الذات و تهذیب النفس، و اجتناب الذنوب و خاصة أکل الطعام الحرام، و ذکر اللّه دائما، کلها أسباب و عوامل لانشراح الصدر، و علی العکس فإنّ الجهل و الذنب و العناد و الجدل و الریاء، و مجالسة أصحاب السوء و الفجار و المجرمین و عبید الدنیا و الشهوات، کلّها تؤدّی إلی ضیق الصدر و قساوة القلب.

فعند ما یقول القرآن الکریم: فَمَنْ یُرِدِ اللَّهُ أَنْ یَهْدِیَهُ یَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ یُرِدْ أَنْ یُضِلَّهُ یَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَیِّقاً حَرَجاً. فهذه الإرادة و عدم الارادة لیست اعتباطیة و بدون دلیل. بل هی نابعة من اعماقنا و ذواتنا فی البدایة.

و

قد ورد حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام جاء فیه: «أوحی اللّه عزّ و جلّ إلی موسی: یا موسی لا تفرح بکثرة المال، و لا تدع ذکری علی کلّ حال، فإن کثرة المال تنسی الذنوب، و إن ترک ذکری یقسی القلوب»[۵۷].

و

فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السّلام، جاء فیه: «ما جفت الدموع إلّا

لقسوة القلوب، و ما قست القلوب إلا لکثرة الذنوب»[۵۸].

کما

ورد فی حدیث ثالث أنّ من جملة کلام اللّه سبحانه و تعالی مع موسی علیه السّلام «یا موسی لا تطول فی الدنیا أملک، فیقسو قلبک، و القاسی القلب منی بعید»[۵۹].

و أخیرا،

ورد حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السّلام جاء فیه: «لمتان: لمة من الشیطان و لمة من الملک، فلمّة الملک الرقة و الفهم، و لمّة الشیطان السهو و القسوة»[۶۰].

علی أیة حال، فإن من یرید انشراح صدره و إزالة القساوة من قلبه، علیه أن یتوجه نحو الباریٔ عزّ و جلّ کی یبعث الأنوار الإلهیة فی قلبه کما وعد بذلک الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و علیه أن یصقل مرآة قلبه من صدأ الذنوب، و یطهّر روحه من أوساخ هوی النفس و الوساوس الشیطانیة، استعدادا لاستقبال المعشوق، و أن یسکب الدموع خوفا من اللّه و حبا له، فإنّ فی ذلک تأثیرا عجیبا لا نظیر له علی رقّة و لین القلب و رحابة الروح، و فی المقابل فان جمود العین هو إحدی علامات القلب المتحجر.

الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۲۳ الی ۲۶]

اشارة

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ ذلِکَ هُدَی

اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۲۳) أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۲۴) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (۲۵) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۲۶)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرين عن (عبد اللّه بن مسعود) أنّ جمعا من الصحابة ملّوا و تضجّروا، فقالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: حدّثنا حديثا يزيل السأم من نفوسنا و الملل من قلوبنا، فنزلت أول آية من الآيات المذكورة أعلاه معرّفة القرآن ب (أحسن الحديث)[۶۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۴

التّفسير

اشارة

الآيات السابقة تحدثت عن العباد الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه، كما تحدثت عن الصدور الرحبة المستعدة لتقبل الحقّ.

الآيات التى يدور حولها البحث تواصل التطرق إلى هذا الأمر، كى تكمل حلقات البحوث السابقة الخاصة بالتوحيد و المعاد مع ذكر بعض دلائل النبوّة، إذ تقول الفقرة الأولى من الآية: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

ثم تستعرض خصائص القرآن الكريم، حيث تشرح الخصائص المهمّة للقرآن من خلال بيان ثلاث صفات له:

أمّا الخاصية الأولى فهى كِتاباً مُتَشابِهاً

المقصود من (متشابه) هنا هو الكلام المتناسق الذى لا تناقض فيه و يشبه بعضه البعض، فلا تعارض فيه و لا تضادّ، و كلّ آية فيه أفضل من الأخرى و المتماثل من حيث اللطف و الجمال و العمق فى البيان.

و هذا بالضبط على عكس العبارات التى يصوغها الإنسان، و التى مهما اعتنى بصياغته فإنّها لن تخلو من الاخطاء و الاختلافات و التناقضات، خصوصا عند ما يتسع مجالها و تأخذ أبعادا أوسع، إذ تلاحظ أنّ بعضها فى قمّة البلاغة، و البعض الآخر عادى و طبيعى، و دراسة آثار الكتّاب الكبار المعروفين فى مجالى النثر و الشعر هى خير شاهد على هذا الموضوع.

أمّا كلام اللّه المجيد فليس كذلك، إذ نرى فيه انسجاما خارقا، و تناسقا لا نظير له فى المفاهيم و الفصاحة و البلاغة، و هذا بحدّ ذاته يجعل آيات القرآن تحكم و تشهد بأنّه ليس من كلام البشر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۵

أما الخاصية الثّانية فهى مَثانِيَ أى المكرر-

و هذه الكلمة تشير إلى تكرار بحوثه المختلفة و قصصه و مواعظه، التكرار الذى لا يملّ منه الإنسان، و إنّما على العكس من ذلك، إذ

یتشوق لتلاوته أکثر، و هذه إحدی أسس الفصاحة، إذ یعمد الإنسان أحیانا إلی التکرار و بصور مختلفة و أسالیب متنوعة، و ذلک إذا أراد التأکید علی أمر ما و جلب الانتباه إلیه و التأثّر به، کی لا یملّ السامع أو یضجر منه.

إضافة إلی أنّ مواضیع القرآن المکررة تفسّر إحداها الأخری، و تحل الکثیر من ألغازه عن هذا الطریق.

بعضهم اعتبرها إشارة إلی تکرار تلاوة القرآن و بقائه غضا طریا من جراء تکرار تلاوته.

و البعض الآخر اعتبرها إشارة إلی تکرار نزول القرآن، فمرّة نزل دفعة واحدة علی صدر الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذلک فی لیلة القدر، و مرّة أخری بصورة تدریجیة استمرت لفترة (۲۳) عاما.

و من المحتمل أن یکون المراد من التکرار هو ملاءمة القرآن لکلّ زمان، و انکشاف بعض الأمور الغیبیة فیه بمرور السنوات.

و التّفسیر الأوّل أنسب من بقیة التفاسیر، رغم عدم وجود أیّ تعارض بین الجمیع، بل من الممکن أن تکون جمیعها صحیحة[۶۲].

أمّا الخاصیة الثّالثة فهی تقشعر منه الجلود

و هذه الخاصیة للقرآن فهی مسألة نفوذه و تأثیره العمیقین و الخارقین تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللَّهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۶

إنّه لوصف و تجسید لطیف و جمیل لنفوذ آیات القرآن العجیب إلی أعماق القلوب، إذ أنّه فی بدایة الأمر یبعث فی القلب شیئا من الخوف و الرهبة، الخوف الذی یکون أساسا للصحوة و لبدء الحرکة، و الرهبة التی تجعل الإنسان یتحسس مسئولیاته المختلفة. ثمّ تأتی مرحلة الهدوء و قبول آیات اللّه و تتبعها السکنیة و الاستقرار.

هذه الحالة التدریجیة التی تبیّن مراحل (السلوک إلی اللّه) المختلفة، یمکن إدراکها بسهولة، فالقلوب تقشعر فور ما تسمع آیات التهدید و التحذیر النازلة علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، ثمّ تهدأ فور ما تسمع آیات الرحمة.

التفکیر بذات اللّه و مسألة أبدیته و أزلیته و عدم محدودیته یوجد عند الإنسان حالة من الرهبة فی کیفیة معرفة اللّه، إلّا أنّ دراسة آثار و دلائل ذاته المقدسة فی الآفاق و الأنفس تمنح الإنسان نوعا من الارتیاح و الهدوء[۶۳].

و التأریخ الإسلامی ملیء بالشواهد علی التأثیر العجیب للقرآن فی قلوب المؤمنین، و حتی غیر المؤمنین من أصحاب القلوب المستعدة لتقبل الإیمان، فالجاذبیة أو النفوذ الخارق للقرآن دلیل واضح علی أنّ القرآن کتاب نزل من السماء بواسطة الوحی.

و قد ورد حدیث عن (أسماء)، جاء فیه (کان أصحاب النّبی حقا إذا قرئ علیهم القرآن- کما نعتهم اللّه- تدمع أعینهم و تقشعر جلودهم)[۶۴].

أمیر المؤمنین علیه السّلام وصف هذه الحقیقة بأفضل وجه فی الخطبة الخاصة بالمتقین، إذ قال: «أمّا اللیل فصافون أقدامهم تالین لأجزاء القرآن یرتلونها ترتیلا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۷

یحزنون به أنفسهم، و یستثیرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآیة فیها تشویق رکنوا إلیها طمعا، و تطلعت نفوسهم إلیها شوقا، و ظنوا أنّها نصب أعینهم، و إذا مروا بآیة فیها تخویف أصغوا إلیها مسامع قلوبهم، و ظنوا أنّ زفیر جهنم و شهیقها فی أصول آذانهم».

و فی نهایة الآیة یقول تعالی بعد أن بیّن تلک الخصائص: ذلِکَ هُدَی اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ.

حقا إنّ القرآن نزل لهدایة الجمیع، لکن المتقین و طلاب الحقّ و الحقیقة هم المستفیدون- فقط- من نوره، أمّا أولئک الذین تعمدوا

إغلاق كافة نوافذ قلوبهم أمام نور القرآن الكريم، و الذين تتحكم بأرواحهم ظلمات التعصب و العناد فقط لا يستفيدون من نور القرآن، و إنّما يزدادون ضلالة من جراء عنادهم و عدائهم، لذلك فإن تتمة الآية تقول: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ.

فهذه الضلالة هى التى يضع الإنسان حجر أساسها بيده، و يحكم بناء أساسها بواسطة أعماله الخاطئة و السيئة، و لذلك لا تتنافى إطلاقا مع إرادة الإنسان و حريته.

الآية التالية تقارن بين مجموعة من الظالمين و المجرمين، و مجموعة من المؤمنين الذين استعرضت أوضاعهم فيما قبل، و ذلك كى تجعل الحقيقة أكثر وضوحا فى هذه المقارنة، إذ تقول: أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ[۶۵] كمن هو آمن فى ذلك اليوم و لا تمسّه النّار أبدا؟!.

الملاحظة التى ينبغى الالتفات إليها، هى قوله تعالى: يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ و كما هو معروف فإنّ الوجه أشرف أعضاء جسم الإنسان، لأنّ فيه (العينان و الفم و الأذنان) التى هى أهم حواسّ الإنسان، و أساسا فإنّ تشخيص الإنسان إنّما يتمّ عن طريق وجهه، و لهذه الخصائص الموجودة فى الوجه، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۸

الإنسان عند ما يحسّ أنّ هناك خطرا سيصيب وجهه، فإنّه يضع يديه و ما يمكن من أعضاء جسمه أمام وجهه كدرع لدرء ذلك الخطر.

إلا أن أوضاع الظالمين فى جهنم فى ذلك اليوم تجبرهم على استخدم وجوههم كوسيلة دفاعية، لأنّ أيديهم و أرجلهم مقيدة بالسلاسل، كما ورد فى الآية (۸) من سورة يس: إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ

قال البعض: بما أنّ أهل جهنم يرمون على وجوههم فى النّار، لذا فإنّ الوجه هو أوّل عضو من أعضاء الجسم يحترق فى نار جهنم، كما ورد فى الآية (۹۰) من سورة النمل: مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ.

و البعض الآخر قال: إنّ هذه العبارة كناية عن عجز أهل جهنم من الدفاع عن أنفسهم مقابل نار جهنم.

التفاسير الثلاثة- هذه- لا تتعارض مع بعضها، و يمكن أن تعطى جميعها مفهوم الآية.

ثم تضيف نهاية الآية: وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

نعم، إنّ ملائكة العذاب هى التى توضح لهم هذه الحقيقة المرّة و المؤلمة، إذ يقولون لهم: إنّ أعمالكم ستبقى معكم و ستعذبكم، و هذا التوضيح هو تعذيب روحى آخر لهؤلاء.

و ممّا يلفت النظر أنّ هذه العبارة لا تقول: ذوقوا عقاب ما كنتم تكسبون، و إنّما تقول لهم: ذوقوا ما كنتم تكسبون، و هذا شاهد آخر على مسألة تجسيد الأعمال يوم القيامة.

إنّ ما قيل لحدّ الآن هو إشارة بسيطة لعذابهم الأليم فى يوم القيامة، و الآية التالية تتحدّث عن العذاب الدنيوى لهؤلاء، كى لا يتصور أحد أنّه يعيش فى أمان بهذه الدنيا، قال تعالى: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۹

لا يَشْعُرُونَ

فالإنسان لا يتألم كثيرا إن أصيب بضربة كان يتوقعها، إلّا أنّه يتألم كثيرا إن وجهت إليه ضربة من طرف لم يتوقع أن تصدر منه، كأن تصدر عن أقرب أصدقائه، أو يلحق به أذى من أمور حيوية جدا و محبوبة له كالماء الذى هو مصدر حياة الإنسان، أو من نفحة النسيم التى هى مصدر نشاطه، أو من الأرض الهادئة التى هى مقر استراحته و أمنه.

نعم، إنّ نزول العذاب الإلهى بواسطة هذه الطرق يعدّ أمرا مؤلما جدّا، كالذى أصاب قوم نوح و عاد و ثمود و لوط و فرعون و قارون و أمثالهم، إذ لم يكن أى أحد منهم يتوقع أن يصيبه العذاب بواسطة إحدى الطرق المذكورة أعلاه.

الآیـة الأخیرة فی بحثنا هـذا تبیّن أنّ عـذاب هؤلاء الدنیوی لا یقتصـر علی العذاب الجسدی، و إنّما یشـتمل أیضا علی عقوبات نفسـیة: فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْیَ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا[۶۶].

نعم، فإن أصـیب الإنسان بمصـیبة فی هـذه الـدنیا، ثمّ خرج منها مرفوع الرأس حافظا لماء وجهه، فهـذه الحالـة لیست بعار و خزی علی الإنسان، إنّما العار و الخزی للإنسان الـذی یخرج من هذه الدنیا رذیلا و ذلیلا، و مبتلی بعذاب فاضح یریق ماء وجهه، وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَکْبَرُ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۱۵ ؛ ص۶۹

مة (أکبر) کنایة عن شدّة العذاب و قسوته.

بحث

وردت عدّة روایات فی ذیل الآیات مورد البحث تجسّم أمامنا آفاقا أوسع مهما یفهم من الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۱۵، ص: ۷۰

إذ

نقل العباس عم النّبی، حدیثا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جاء فی، «إذا اقشعر جلد العبد من خشیة اللّه تحاتت عنه ذنوبه کما یتحات عن الشجرة الیابسة ورقها»[۶۷].

و من الواضـح أن الشـخص الـذی یخشـی اللّه و یتأثر من ذلک الی هـذه الدرجـة لا بـدّ أن تتوفر فیه حالـة التوبـة و الانابة، و مثل هذا الشخص سیکون موردا لعفو اللّه و مغفرته حتما.

و روی عن (أسماء) إذ قالت عند ما سئلت عن أصحاب رسول اللّه فقالت:

(کان أصحاب النّبی حقا إذا قرئ علیهم القرآن- کما نعتهم اللّه- تدمع أعینهم و تقشعر جلودهم). و أضاف الراوی: سئلت أسماء: هل عنـدنا أحد یغمی علیه أو یفقد الوعی عند ما یسـمع آیات القرآن المجید، فأجابت أسـماء: أعوذ باللّه تعالی من الشـیطان، (أی إنّه من عمل الشیطان)[۶۸].

هـذا الحـدیث- فی الحقیقة- جواب لأولئک المتصوفة الذین یعقدون الاجتماعات و الحلقات، و یقرءون فیها بعض الآیات و الأذکار، ثمّ یقومون ببعض الحرکات بعنوان حالة الوجد و السـرور، ثمّ یشـرعون بإطلاق بعض الصـیحات و إظهار أنفسـهم و کأنّهم قد أغشـی علیهم، و یحتمل أن البعض یغشـی علیه فعلا. مثل هـذه الأمور لم ینقلها أحـد أبـدا بشأن أصـحاب الرّسول، و ما هی إلّا بدعـة ابتـدعها المتصوفة.

و بالطبع یمکن أن ینـدهش الإنسان أحیانا و قد یغشـی علیه من شدّة خوفه من الباریٔ عزّ و جلّ، و هذا الأمر یختلف کثیر عن ممارسـة الصوفیین الذین یعقدون الحلقات للذکر التی ذکرناها آنفا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۱۵، ص: ۷۱

الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۲۷ الی ۳۱]

اشارة

وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِی هذَا الْقُرْآنِ مِنْ کُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۲۷) قُرْآناً عَرَبِیًّا غَیْرَ ذِی عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۲۸) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً

فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۲۹) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (۳۰) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (۳۱)

التّفسير

قرآن لا عوج فيه:

الآيات- هنا- تبحث خصائص القرآن المجيد أيضا، و تكمل البحوث السابقة فی هذا المجال.

ففی البداية تتحدّث عن مسألة شمولية القرآن، إذ تقول الآية الكريمة: وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

حيث تمّ فيه شرح قصص الطغاة و المتمردين الرهيبة، و عواقب الذنوب الوخيمة، و نصائح و مواعظ، و أسرار الخلق و نظامه، و أحكام و قوانين متينة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۲

و بكلمة أنّه وضح فيه كلّ ما هو ضروری لهداية الإنسان على شكل أمثال، لعلهم يتذكرون و يعودون من طريق الضلال إلى الصراط المستقيم لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

و ممّا يذكر أنّ «المثل» فی اللغة العربية هو الكلام الذی يجسّم الحقيقة، أو يصف الشیء، أو يشبه الشیء بشیء آخر، و هذه العبارة شملت كلّ حقائق و مواضيع القرآن، و بيّنت شموليته.

ثم تتطرق الآية إلى وصف آخر للقرآن، إذ تقول: قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ۶۹].

فی الحقيقة، تمّ هنا ذكر ثلاث صفات للقرآن:

الأولى كلمة (قرآنا) التی هی إشارة إلى حقيقة أنّ الآيات الكريمة ستبقى تتلى دائما، فی الصلاة و فی غير أوقات الصلاة، فی الخلوات و فی أوساط الناس، و على طول التاريخ الإسلامی حتى قيام الساعة، و بهذا الترتيب فإن آيات القرآن ستبقى نور الهداية المضیء على الدوام.

الصفة الثّانية هی فصاحة و حلاوة و جاذبية هذا الكلام الإلهی، الذی عبّر عنه ب (عربيا) لأنّ إحدى معانی العربی هی الفصاحة، و المقصود منه هنا هذا المعنى.

الصفة الثّالثة، ليس فيه أی اعوجاج، فآياته منسجمة، و عباراته ظاهرة و يفسّر بعضها البعض ۷۰].

الكثير من اللغويين و أصحاب التّفسير قالوا: إنّ (عوج) (بكسر العين) تعنی الانحرافات المعنوية، فی حين أنّ (عوج) بفتح العين، تعنی الاعوجاج الظاهر.

و من النادر استعمال العبارة الأولى فی الاعوجاج الظاهری، ما فی الآية (۱۰۷) من سورة طه: لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً لهذا فإنّ بعض اللغويين يعتبرونها أكثر

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۳

عمومية[۷۱].

و على أية حال، فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم- بكل هذه الصفات التی ذكرناها- هو لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية السابقة انتهت بعبارة: لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ و هنا انتهت بعبارة: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ لأنّ التذكّر يكون دائما مقدّمة للتقوى و «التقوى» هی ثمرة شجرة «التذكر».

ثمّ يستعرض القرآن المجيد أحد الأمثال التى ضربت ليرسم من خلاله مصير الموحّد و المشرك، و ذلك ضمن إطار مثل ناطق و جميل، إذ يقول: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ ۷۲].

أى إنّ هناك عبدا يمتلكه عدّة أشخاص، كلّ واحد منهم يأمره بتنفيذ أمر معين، فهذا يقول له: نفذ العمل الفلانى، و الآخرة ينهاه عن تنفيذ ذلك العمل، و هو فى وسطهم كالتائه الحيران، لا يدرى أى أمر ينفّذ، فالأمران متناقضان و متضادان، و لا يدرى أيّا منهما يرضيه؟

و الأدهى من كلّ ذلك أنّه عند ما يطلب من أحدهم توفير مستلزمات حياته، يرميه على الآخر، و الآخر يرميه على الأوّل، و هكذا يبقى محروما محتاجا عاجزا تائها. و فى مقابله هناك رجل سلم لرجل واحد وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ

فهذا الشخص خطه و منهجه واضح، و ولى أمره معلوم فلا تردد و لا حيرة و لا تضاد و لا تناقض، يعيش بروح هادئة و يخطو خطوات مطمئنة، و يعمل تحت رعاية فرد يدعمه فى كلّ شىء و فى كلّ أمر و فى كلّ مكان. فهل أنّ هذين الرجلين متساويان هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۴

هذا المثال ينطبق على (المشرك) و (الموحد) فالمشرك يعيش فى وسط المتضادات و المتناقضات، و كل يوم يتعلق قلبه بمعبود جديد، فلا استقرار فى حياته و لا اطمئنان و لا مسير واضح يسلكه. أما الموحدون فإنّهم يعشقون اللّه وحده، و فى كلّ الأحوال يلجؤون إلى ظلّ لطفه، و لا تنظر عيونهم إلى سواه، فطريقهم و نهجهم واضح، و مصيرهم و نهايتهم واضحة أيضا.

و

جاء فى حديث لأمير المؤمنين عليه السلام «أنا ذاك الرجل السلم لرسول اللّه»[۷۳].

و

ورد فى حديث آخر عنه أيضا «الرجل السلم للرجل حقا علىّ و شيعته»[۷۴].

و فى نهاية الآية يقول تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ فاللّه سبحانه و تعالى بذكره لتلك الأمثال يرشدكم إلى أفضل السبل، و يضع تحت تصرفكم أوضح الدلائل لتشخيص الحقّ عن الباطل، فالبارئ عزّ و جلّ يدعو الجميع إلى الإخلاص و فى ظل الإخلاص تكون السكينة و الراحة، فهل هناك نعمة أفضل من هذه، و هل هناك أمر آخر يستحق الحمد و الشكر أكثر من هذه النعمة؟! و لكن أكثرهم لا يعلمون رغم وجود هذه الدلائل الساطعة، إذ أنّ حبّ الدنيا و الشهوات الطاغية عليهم يجعلهم يضلون عن طريق الحقيقة: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

و تتمّة لبحث الآيات السابقة بشأن التوحيد و الشرك، تتحدث الآية التالية عن نتائج الشرك و التوحيد فى موقف القيامة.

إذ تبدأ بمسألة الموت الذى هو بوابة القيامة، و تبيّن لكلّ البشرية أنّ قانون الموت عامّ، و شامل للجميع: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۵

نعم، فالموت من الأمور التى تشمل جميع الناس، و لا يستثنى منه أحد، فهو طريق يجب أن يمرّ به الجميع فى نهاية المطاف.

قال بعض المفسّرين: إنّ أعداء رسول اللّه كانوا ينتظرون وفاته، و كانوا فى نفس الوقت فرحين مسرورين لكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يموت فى نهاية الأمر، فالقرآن- هنا- أجابهم بالقول: إن مات رسول اللّه فهل تبقون أنتم خالدين، هذا ما نصت عليه الآية (۳۴) من سورة الأنبياء: أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ

ثم ينتقل البحث إلى محكمة يوم القيامة، ليجسم المجادلة بين العباد فى ساحة المحشر، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ

«تختصمون»: مشتقّة من (اختصام) و تعنى النزاع و الجدال بين شخصين أو مجموعتين تحاول كل، منهما تفنيد كلام الأخر، فأحيانا يكون أحدهم على حقّ و الآخر على باطل، و أحيانا يكون الاثنان على باطل، كما فى مجادلة و مخاصمة أهل النّار فيما بينهم، و قد اختلف المفسّرون فى كون هذا الحكم عاما أم لا.

قال البعض: إنّ المخاصمة تقع بین المسلمین و الکفار.

و قال البعض الآخر: إنّها تقع بین المسلمین أنفسهم، و فی روایة عن أبی سعید الخدری قال: لم یکن أحد فینا یفکر فی أن یقع خصام فیما بین المسلمین، و کنّا نقول: کیف نختصم نحن و ربّنا واحد، و نبیّنا واحد و دیننا واحد؟ فلما کان یوم صفین و شدّ الفریقان الذین کانا مسلمین (حیث کان أحدهما مسلما حقیقیا و الآخر یدعی الإسلام) بالسیوف علی بعضهما البعض، قلنا: نعم، الآیة تشملنا نحن أیضا[۷۶].

و لکن الآیات التالیة تبیّن أنّ المخاصمة تقع بین الأنبیاء و المؤمنین من جهة، و المشرکین المکذبین من جهة اخری.

لمّا توفّی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قام عمر بن الخطاب، فقال: إنّ رجالا من المنافقین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۶

یزعمون أنّ رسول اللّه قد توفّی و اللّه رسول اللّه ما مات، و لکنّه ذهب الی ربّه کما ذهب موسی بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعین لیلة ثمّ رجع إلیهم بعد أن قیل قد مات، و و اللّه لیرجعنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کما رجع موسی، فلیقطعن أیدی رجال و أرجلهم زعموا أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مات؟.

و قال الرّاوی: و أقبل أبو بکر حتی نزل علی باب المسجد حین بلغه الخبر، و عمر یکلّم الناس، فلم یلفت إلی شیء حتی دخل علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فی بیت عائشة، و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مسجّی فی ناحیة البیت، علیه برد حبرة؟، فأقبل حتی کشف عن وجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ثمّ قال الراوی: قال أبو بکر: علی رسلک یا عمر أنصت فأبی إلّا أن یتکلم ثمّ تلا أبو بکر هذه الآیة: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ

قال الرّاوی: فو اللّه لکأنّ الناس یعلموا أنّ هذه الآیة ما نزلت حتی تلا أبو بکر ثمّ قال عمر: و اللّه ما هو إلّا أن سمعت أبا بکر تلاها فعفرت ۷۷] حتی وقعت إلی الأرض ما تحملنی، رجلای ۷۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۷

بدایة الجزء الرابع و العشرون من القران الکریم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۹

الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۳۲ الی ۳۵]

اشارة

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَذَبَ عَلَی اللَّهِ وَ کَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَیْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْویً لِلْکافِرِینَ (۳۲) وَ الَّذِی جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِکَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۳۳) لَهُمْ ما یَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِکَ جَزاءُ الْمُحْسِنِینَ (۳۴) لِیُکَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِی عَمِلُوا وَ یَجْزِیَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِی کانُوا یَعْمَلُونَ (۳۵)

التّفسیر

أولئک الذین یصدقون کلام اللّه:

هذه الآیات تواصل البحث الخاصّ بموقف الناس فی ساحة المحشر، و تخاصمهم فی تلک المحکمة الکبری، و تقسم آیات بحثنا إلی مجموعتین هما (المکذبون) و (المصدقون).

و القرآن الكريم يعطى صفتين لأصحاب المجموعة الأولى، أى «المكذبين»، قال تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ

الكافرون و المشركون يكذبون كثيرا على البارئ عزّ و جلّ، فأحيانا يعتبرون الملائكة بنات اللّه، و أحيانا يقولون: عيسى هو ابن اللّه، و أحيانا اخرى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۰

يعتبرون الأصنام شفعاء لهم عند اللّه، و أحيانا يبتدعون أحكاما كاذبة فى الحلال و الحرام و ينسبونها إلى اللّه، و ما شابه ذلك.

و أمّا الكلام الصادق الذى أنزل إليهم و كذّبوه فهو القرآن المجيد.

خاتمة الآية تبيّن فى جملة قصيرة جزاء أمثال هؤلاء الأفراد، قال تعالى:

أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ ۷۹].

أمّا المجموعة الثّانية فقد وصفها القرآن الكريم بوصفين، إذ قال: وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

فبعض الرّوايات الواردة عن أئمّة الهدى عليهم السّلام فسّرت: وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ بأنّها تعود على النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و صَدَّقَ بِهِ تعود على على عليه السّلام ۸۰]، و بالطبع فإن المقصود من ذلك هو باين مصداقية الآية، لأنّ عبارة: أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ دليل على شمولية الآية.

و من هنا يتّضح أنّ تفسير الآية المذكورة أعلاه بأن المراد شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم الذى هو مهبط الوحى و المصدق به فى نفس الوقت، فهو أيضا من قبيل بيان مصداق الآية و ليس بيان المفهوم العام لها.

لذلك فإنّ مجموعة من المفسّرين فسّروا عبارة قوله تعالى: وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ بأنّه يعنى كلّ الأنبياء و صَدَّقَ بِهِ يعنى أتباعهم الحقيقيين، و هم المتقون.

و هناك تفسير آخر للآية، لكنّه أوسع و أكثر شمولية من التفاسير الأخرى، رغم أنّه لم يحظ كثيرا باهتمام المفسّرين، لكنّه أكثر انسجاما مع ظاهر الآيات، و التّفسير هو أن الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ ليس منحصرا فى الرّسل فقط، و إنّما يشمل كلّ الذين يبلغون نهج الأنبياء و يروجون كلام اللّه، و فى هذه الحالة فلا يوجد أى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۱

مانع من القول بأن العبارتين تنطبقان على مجموعة واحدة (كما يوضح ذلك ظاهر الآية، لأنّ ضمير (و الذى ذكر مرّة واحدة فقط).

و بهذا الشكل فإنّ الآية تتحدّث عن أناس هم من حملة الرسالة و من العاملين به، و تتحدّث عن أولئك الذين ينشرون فى العالم ما ينزل به الوحى من كلام البارئ عزّ و جلّ و هم يؤمنون به و يعملون به، و هكذا فإنّ الآية تضم الأنبياء و الأئمّة المعصومين و الدعاء لنهج الأنبياء.

و الملفت للنظر أنّ الاية عبّرت عن الوحى «بالصدق» و هو اشارة إلى أن. الكلام الوحيد الذى لا يحتمل وجود الكذب و الخطأ فيه هو كلام اللّه الذى نزل به الوحى، فإن سار الإنسان فى ظلّ تعليمات نهج الأنبياء و صدقها فإنّ التقوى سوف تتفتح فى داخل روحه.

الآية التالية تبيّن أنّ هناك ثلاث مثوبات بانتظار أفراد هذه المجموعة، أى المصدقين، إذ تقول فى البداية: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ

لهذه الآية مفهوم واسع بحيث يشمل كلّ النعم المادية و المعنوية التى يمكن تصورها و التى لا يمكن تصورها.

و على ضوء هذه الآية يطرح البعض السؤال التالى: إذا طلب أحدهم أن يكون مقامه أرفع من مقام الأنبياء و الأولياء، فهل يعطى ذلك؟

علينا أن لا نغفل عن كون أهل الجنّة يدركون عين الحقيقة، و لهذا لا يفكر أحد منهم بأمر يخالف الحقّ و العدالة، و لا يتناسب مع

أساس توازن اللیاقات و الکفاءات.

بعبارة اخری: لا یمکن أن یحصل أشخاص لهم درجات مختلفة فی الإیمان و العمل علی نفس الجزاء، فکیف یأمل أصحاب الجنّة فی تحقیق أشیاء مستحیلة؟! و فی نفس الوقت فإنّهم یعیشون فی حالة روحیة خالیة من الحسد و الغیرة، و هم راضون بما رزقوا به.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۲

و کما هو معلوم فإنّ المکافاة الإلهیة فی الآخرة و حتی التفضیل الإلهی للبعض دون البعض الآخر إنّما یتمّ علی أساس اللیاقة التی حصل علیها الإنسان فی هذه الدنیا، فالذی یعرف أنّ إیمانه و عمله فی هذه الدنیا لم یصل إلی درجة إیمان و عمل الآخرین لا یأمل یوما ما أن یکون بمرتبتهم، لإنّ ذلک أمل و رجاء غیر منطقی.

و عبارة: عِنْدَ رَبِّهِمْ تبیّن عدم انقطاع اللطف الإلهی عن أولئک و کأنّهم ضیوف اللّه علی الدوام، و کلّ ما یطلبونه یوفر لهم.

و عبارة: ذلِکَ جَزاءُ الْمُحْسِنِینَ أقیم فیها الظاهر مقام ضمیر الإشارة، اشارة الی أن إحسانهم و عملهم الصالح کانا سببا فی حصولهم علی الأجر المذکور.

أمّا المکافأتان الثانیة و الثّالثة اللتان یمنحهما الباریء عزّ و جلّ للمصدقین، فیقول القرآن المجید بشأنهما: لِیُکَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِی عَمِلُوا وَ یَجْزِیَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِی کانُوا یَعْمَلُونَ ۸۱].

کم هی عبارة جمیلة و لطیفة! فمن جانب یدعون اللّه سبحانه و تعالی لیکفّر عنهم أسوأ ما عملوا بظلّ لطفه، و یطهرهم من تلک البقع السوداء بماء التوبة، و من جهة اخری یدعون اللّه لیجعل أفضل و أحسن أعمالهم معیارا للمکافأة، و أن یجعل بقیة أعمالهم ضمن ذلک العمل.

إنّ ما یتّضح من الآیات الکریمة هو أنّ اللّه استجاب لدعواهم، عند ما غفر لهم و عفا عن أسوأ أعمالهم، و جعل أفضل الأعمال معیارا للمکافأة.

من البدیهی، عند ما یشمل العفو الإلهی الزلّات الکبیرة، فإنّ الزلات الصغیرة أولی بالشمول، لأنّ الزلات الکبیرة هی التی تقلق الإنسان أکثر من أیّ شیء آخر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۳

و لهذا السبب فإنّ المؤمنین کثیرا ما یفکرون بها.

و ثمة سؤال یطرح نفسه هنا: إذا کانت الآیات السباقة تخص الأنبیاء و المؤمنین من أتباعهم، فکیف اقترف هؤلاء تلک الزلات الکبیرة؟

الجواب علی هذا السؤال یتّضح من خلال الانتباه إلی أنّه عند ما ینسب عمل ما إلی مجموعة، فهذا لا یعنی أنّ الجمیع قاموا بذلک العمل، و إنّما یکفی أن تقوم به مجموعة صغیرة منهم، فمثلا عند ما نقول: إن بنی العباس خلفوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم من دون أیّ حق، فإنّ هذا لا یعنی أنّ الکل اعتلوا کرسی الخلافة، و إنّما مجموعة منهم.

الآیة المذکورة أعلاه تبیّن أنّ مجموعة من حملة الرسالة و أتباع نهجهم کانوا قد ارتکبوا بعض الأخطاء و الزلّات، و أنّ الباریء عزّ و جلّ صفح عنهم و غفر لهم بسبب أعمالهم الصالحة و الحسنة. علی أیّة حال فإنّ ذکر الغفران و الصفح قبل ذکر الثواب، یعود إلی هذا السبب، و هو أنّ علیهم فی البدایة أن یغتسلوا و یتطهروا، و من ثمّ الورود الی مقام القرب الالهی. یجب علیهم فی البدایة أن یریحوا أنفسهم من العذاب الإلهی کی یتلذذوا بنعم الجنّة.

مسألة:

الکثیر من المفسّرین المسلمین من الشیعة و السنة نقلوا الرّوایة التالیة بشأن تفسیر هذه الآیة، و هی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هو المقصود فی وَ الَّذِی جاءَ بِالصِّدْقِ و أن الإمام علی علیه السّلام هو المقصود فی صَدَّقَ بِهِ

المفسّر الإسلامی الکبیر العلّامة «الطبرسی» نقل ذلک فی تفسیره (مجمع البیان) عن أهل البیت الأطهار، و نقلها کذلک أبو الفتوح الرازی فی تفسیر (روح الجنان) عن نفس المصدر السابق. کما نقلت مجموعة من المفسّرین السنة ذلک عن أبی هریرة نقلا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و عن طرق اخری، و من جملة من نقله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۴

العلّامة ابن المغازلی فی (المناقب) و (العلّامة الگنجی) فی (کفایة الطالب) و القرطبی فی تفسیره و العلّامة السیوطی فی (الدر المنثور) و کذلک (الآلوسی) فی (روح المعانی)[۸۲].

و مثلما أشرنا من قبل فإنّ نقل مثل هذه التفاسیر هو بیان أوضح المصادیق، و من دون أیّ شکّ فإنّ الإمام علیّ علیه السّلام یقف فی مقدمة الصفّ الأوّل لأتباع النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و المصدّقین به، و إنّه هو أول من صدّق برسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و لا یوجد أحد من العلماء من ینکر هذه الحقیقة.

و الاعتراض الوحید الذی صدر عن بعض المفسّرین هو أنّ الإمام علی علیه السّلام آمن بالرّسول و کان عمره ما بین (۱۰) إلی (۱۲) عاما، و أنّه لم یکن مکلّفا فی هذا السّن و لم یبلغ بعد سنّ الحلم.

هذا الکلام عجیب جدّا، فکیف یمکن أن یکون مثل هذا الاعتراض صحیحا، فی الوقت الذی قبل فیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إسلام علی علیه السّلام، و قال له بأنّه (وزیره) و (وصیه) و أکّد مرارا و تکرارا فی کلماته علی أنّ علیا هو (أول المؤمنین) أو (أوّلکم إسلاما) و قد أوردنا فی نهایة الآیة (۱۰) من سورة التوبة أدلة متعددة من کتب علماء أهل السنة و بصورة مفصلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۵

الآیتان [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۳۶ الی ۳۷]

اشارة

أَ لَیْسَ اللَّهُ بِکافٍ عَبْدَهُ وَ یُخَوِّفُونَکَ بِالَّذِینَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۶) وَ مَنْ یَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَیْسَ اللَّهُ بِعَزِیزٍ ذِی انْتِقامٍ (۳۷)

سبب النّزول

الکثیر من المفسّرین قالوا: إنّ مشرکی قریش کانوا یخوفون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم من آلهتهم و یحذرونه من غضبها علی أثر وصفه تلک الأوثان بأوصاف مزریة، و یوعدونه بأنّه إن لم یسکت عنها فستصیبه بالأذی، و للرد علی کلامهم نزلت الآیة المذکورة أعلاه ۸۳].

و البعض قال: عند ما عزم خالد علی کسر العزی بأمر من النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال المشرکون: إیاک یا خالد فبأسها شدید.

فضرب خالد أنفها بالفأس و هشمها و قال:

کفرانک یا عزی لا سبحانک، سبحان من أهانک، إنّی رأیت اللّه قد أهانک ۸۴].

و لکن قصة خالد هذه التی کانت بعد فتح مکّة کما یبدو، لا یمکن أن تکون سببا لنزول الآیة لأنّ کلّ سورة الزمر (مکیة) و لهذا لعلها من قبیل التطابق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۶

التّفسير

إن اللّه كاف!

تتمـة لتهديدات البارئ عزّ و جلّ التى وردت فى الآيات السابقة للمشـركين، و الوعد التى لأنبيائه، تتطرق الآية الأولى فى بحثنا لتهديد الكفّار أ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

إن قـدرة البـارئ عزّ و جلّ أقوى و أعظم من كلّ القـدرات الأخرى، و هو الـذى يعلم بكلّ احتياجات و مشـكلات عباده، و الـذى هو رحيم بهم غاية الرحمة و اللطف، كيف يترك عباده المؤمنين لوحدهم أمام أعاصير الحوادث و عدوان بعض الأعداء؟

و مع أن سبب نزول هذه الآية- طبقا لما جاء فى الرّوايات التى ذكرناها- هو للرد على التخويف و التهديد بغضب الأصنام، لكن معنى الآية أوسع، و يتّسع لكلّ تهديد يهدد به الإنسان بما هو دون اللّه.

على أيـة حال، فإنّ فى هـذه الآيـة بشـرى لكلّ السائرين فى طريق الحقّ و المؤمنين الحقيقيين، خاصّـة أولئك الـذين يعيشون أقلية فى بعض المجتمعات، و المحاطين بمختلف أشكال التهديد من كلّ جانب.

الآية تعطيهم الأمل و الثبات، و تملأ أرواحهم بالنشاط و تجعل خطواتهم ثابتة، و تمحو الآثار النفسـية لصدمات تهديدات الأعداء، نعم فعند ما يكون اللّه معنا فلا نخاف غيره، و إن انفصلنا و ابتعدنا عنه فسيكون كلّ شىء بالنسبة لنا رهيبا و مخيفا.

و كتتمة للآية السابقة و الآية التالية اشارة إلى مسألة (الهداية) و (الضـلالة) و تقسم الناس إلى قسمين: (ضالين) و (مهتدين) و كل هذا من اللّه سبحانه و تعالى، كى تبيّن أنّ جميع العباد محتاجون لرحمته، و من دون إرادته لا يحدث شىء فى هذا العالم، قال تعالى: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۷

وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍ

و من البديهى أنّ الضلالة لا تأتى من دون سبب، و كذلك الهداية بل إن كلّ حالة منهما هى استمرار لإرادة الإنسان و جهوده، فالذى يضع قـدمه فى طريق الضـلال، و يبـذل أقصـى جهوده من أجـل إطفـاء نور الحقّ، و لاـ يترك أدنى فرصـة تتـاح له لخـداع الآخرين و إضـلالهم، فمن البـديهى أنّ اللّه سيضـله، و لاـ يكتفى بعـدم توفيقه و حسب، و إنّمـا يعطّل قوى الإدراك و التشـخيص التى لـديه عن العمل، و يوصد قلبه الأقفال و يغطى عينيه بالحجب، و هذه هى نتيجة الأعمال التى ارتكبها.

أمّا الذين يعزمون على السير إلى اللّه سبحانه و تعالى بنوايا خالصة، و يخطون الخطوات الأولى فى هذا المسير، فإنّ نور الهداية الإلهية يشعّ لينير لهم الطريق، و تهبّ ملائكـة الرحمن لمساعـدتهم و لتطهير قلوبهم من وساوس الشـياطين، فتكون إرادتهم قويـة، و خطواتهم ثابتة، و اللطف الإلهى ينقذهم من الزلّات.

و قد وردت آيات كثيرة فى القرآن المجيد كشاهد على تلك القضايا، و ما أشدّ جهل الذين فصلوا بين مثل هذه الآيات و بقية آيات القرآن و اعتبروها شاهـدا على ما ورد فى المـذهب الجبرى، و كأنّهم لا يعلمون أن آيات القرآن تفسّر إحداها الأخرى. بل إن القرآن الكريم بقول فى نهاية هذه الآية: أ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقامٍ و هو خير شاهد على هذا المعنى.

و كما هو معروف فإنّ الانتقام الإلهى هو بمعنى الجزاء على الأعمال المنكرة التى اقترفها الإنسان، و هذا يشير إلى أن إضلاله سبحانه و تعالى للإنسان هو بحدّ ذاته نوع من أنواع الجزاء وردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه، و بالطبع فإن هدايته سبحانه و تعالى للإنسان هى بحد

ذاتها نوع أنواع الثواب، و هی ردّ فعل للأعمال الصالحة و الخالصة التی يقوم بها الإنسان ۸۵].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۸

بحثان

۱- الهداية و الإضلال من اللّه:

«الهدايـة»: فی اللغة تعنی التوجيه و الإرشاد بلطف و دقّة[۸۶]، و تنقسم إلی قسـمين (بيان الطريق)، و (الإيصال إلی المطلوب) و بعبارة اخری (هداية تشريعية) و (هداية تكوينية)[۸۷].

و لتوضيـح ذلـك نقول: إنّ الإنسـان يصف أحيانـا الطريق للسائل بدقّـة و لطف و عنايـة و يترك السائل معتمـدا علی الوصف فی قطع الطريق و الوصول إلی المقصـد المطلوب. و أحيانـا اخری يصف الإنسـان الطريق للسائـل و من ثمّ يمسـك بيـده ليوصـله إلی المكـان المقصود.

و بعبارة اخری: الشـخص المجيب فی الحالـة الأولی يوضّـح القانون و شـرائط سـلوك الطريق للشـخص السائل كی يعتمد الأخير علی نفسه فی الموصول إلی المقصـد و الهـدف، أمّا فی الحالـة الثانيـة، فإضافـة إلی ما جاء فی الحالـة الأولی، فإنّ الشـخص المجيب يهیء مسـتلزمات السفر، و يزيل الموانع الموجود، و يحلّ المشكلات، إضافة إلی أنّه يرافق الشخص السائل فی سلوك الطريق حتّی الوصول إلی مقصده النهائی لحمايته و الحفاظ عليه.

و (الإضلال) هو النقطة المقابلة ل (الهداية).

فلو ألقينا نظرة عامة علی آيات القرآن لا تضح لنا- بصورة جيدة- أنّ القرآن يعتبر أنّ الضلالة و الهداية من اللّه، أی أن الاثنين ينسبان إلی اللّه، و لو أردنـا أن نعـدد كـل الآيـات التی تتحـدث بهـذا الخصوص، لطـال الحـديث كثيرا، و لكن نكتفی بـذكر ما جاء فی الآية (۲۱۳) من سورة البقرة: وَ اللَّهُ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۹

و فی الآيـة (۹۳) من سورة النحـل: وَ لكِنْ يُضِـلُّ مَنْ يَشـاءُ وَ يَهْـدِی مَنْ يَشـاءُ. و أمثال هـذه الآيات- الخاصـة بالهدايـة أو الضـلال أو أحدهما- ورد فی آيات كثيرة من القرآن المجيد[۸۸].

و أكثر من هـذا، فقـد جاء فی بعض الآيات نفی قـدرة الرّسول الأكرم صـلّی اللّه عليه و اله و سـلّم علی الهدايـة و تحديـد القـدرة علی الهداية باللّه سـبحانه و تعالی، كما ورد فی الآية (۵۶) من سورة القصـص: إِنَّكَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ. و فی الآية (۲۷۲) من سورة البقرة: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ.

الدراسـة السـطحية لهذه الآيات و عدم إدراك معانيها العميقة أدی الی زيغ البعض خلال تفسـيرهم لها و انحرافهم عن طريق الهداية و وقوعهم فی فخـاخ المـذهب الجـبری، حـتّی أنّ بعض المفسّـرين المعروفين لم ينجوا من هـذا الخطـأ الكـبير، حيث اعـتبروا الضـلالة و الهدايـة و فی كـلّ مراحلها أمرا جبريا، و الأدهی من ذلك أنّهم أنكروا أصل العدالـة كی لا ينتقض رأيهم، لأنّ هناك تناقضا واضـحا بين عقيـدتهم و بين مسألـة العدالـة و الحكمـة الإلهية، فإذا كنا أساسا نقول بالجبر، فلا يبقی هناك داع للتكليف و المسؤولية و إرسال الرسل و إنزال الكتب السماوية.

أمّا المعتقـدون بمـذهب الإختيـار و أن الإنسان مخير فی هـذه الـدنيا- و أن العقل السـليم لا يقبل مطلقا بأن اللّه سـبحانه و تعالی يجبر مجموعـة من النـاس علی سـلوك سبيل الضـلال ثمّ يعاقبهم علی عملهم ذلك، أو أنّه يهـدی مجموعـة اخری إجباريا ثم يمنحها- من

دون أى سبب- المكافأة و الثواب، و يفضلها على الآخرين لأدائها عملا- كانت قد أجبرت على القيام به- فهؤلاء انتخبوا لأنفسهم تفاسير اخرى لهذه الآيات، كان أهمها:

۱- إنّ المراد من الهداية الإلهية هى الهداية التشريعية التى تأتى عن طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۰

الوحى و الكتب السماوية و إرسال الأنبياء و الأوصياء، إضافة إلى إدراك العقل و الشعور، أمّا انتهاج السبيل فهو فى عهدة الإنسان فى كافة مراحل حياته. و بالطبع فإنّ هذا التّفسير يتطابق مع الكثير من الآيات القرآنية التى تتناول موضوع الهداية، و لكن هناك آيات كثيرة اخرى لا يمكن تطابقها مع هذا التّفسير، لأنّ فيها نوعا من الصراحة فيما يخص (الهداية التكوينية) و (الإيصال إلى الهدف) كما ورد فى الآية (۵۶) من سورة القصص: إِنَّکَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ. فى حين أنّنا نعرف أنّ الهداية التشريعية و التوجيه نحو الطريق الصحيح، هى الواجب الرئيسى للأنبياء.

۲- مجموعة اخرى من المفسّرين فسّروا الهداية و الضلال اللذين لهما هنا طابع تكوينى على أنّهما الثواب و العقاب، و الإرشاد إلى طريق الجنّة و النّار، و قالوا بأن البارئ عزّ و جلّ يهدى المؤمنين إلى طريق الجنّة، و يضل عنها الكافرين.

إن هذا المعنى صحيح بالنسبة لعدّة آيات فقط، و لكنّه لا يتطابق مع آيات اخرى تتحدث عن الهداية و الإضلال بصورة مطلقة.

۳- مجموعة ثالثة قالت: إنّ المراد من الهداية هو تهيئة الأسباب و المقدمات التى توصل إلى الغرض المطلوب، و المراد من الضلالة هو عدم توفير تلك الأسباب و المقدمات أو حجبها عنهم، و التى عبّر عنها البعض ب (التوفيق) و (سلب التوفيق) لأنّ التوفيق يعنى تهيئة المقدمات للوصول إلى الهدف، و سلب التوفيق يعنى عدم تهيئة تلك المقدمات.

و وفقا لهذا فإنّ الهداية الإلهية لا- تعنى أنّ البارئ عزّ و جلّ يجبر الإنسان على الوصول إلى الهدف، و إنّما يضع الوسائل المطلوبة للوصول تحت تصرفهم و اختيارهم، و على سبيل المثال، وجود مربّ جيد، بيئة سالمة للتربية، أصدقاء و جلساء صالحين، و أمثالها، كلها من المقدمات، و رغم وجود هذه الأمور فإنّه لا يجبر الإنسان على سلوك سبيل الهداية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۱

و ثمّة سؤال يبقى مطروحا، و هو: لماذا يشمل التوفيق مجموعة دون اخرى؟

المنحازون لهذا التّفسير عليهم أن ينتبهوا إلى حكمة أفعال البارئ عزّ و جلّ و يعطوا دلائل لهذا الاختلاف، فمثلا يقولون: إنّ عمل الخير هو سبب التوفيق الإلهى، و تنفيذ الأعمال الشريرة تسلب التوفيق من الإنسان.

و على أيّة حال فإنّ هذا التّفسير جيد و لكن الموضوع ما زال أعمق من هذا.

۴- إنّ أدق تفسير يتناسب مع كلّ آيات الهداية و الضلال، و يفسرها جميعا بصورة جيدة من دون أن يتعارض أدنى تعارض مع المعنى الظاهرى، و هو أنّ الهداية التشريعية التى تعنى (إراءة الطريق) لها خاصية عامّة و شاملة، و لا توجد فيها أى قيود و شروط، كما ورد فى الآية (۳) من سورة الدهر: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً و فى الآية (۵۱) من سورة آل عمران: وَ إِنَّکَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ و من البديهى أن دعوة الأنبياء هى مظهر دعوة اللّه تعالى. لأن كلّ ما عند النّبى هو من اللّه.

و بالنسبة إلى مجموعة من المنحرفين و المشركين ورد فى الآية (۲۳) من سورة النجم: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى

أمّا الهداية التكوينية فتعنى الإيصال إلى الغرض المطلوب، و الأخذ بيد الإنسان فى كلّ منعطفات الطريق، و حفظه و حمايته من كلّ الأخطار التى قد تواجهه فى تلك المنعطفات حتى إيصاله إلى ساحل النجاة، و هى أى الهداية التكوينية- موضع بحث الكثير من آيات القرآن الأخرى التى لا يمكن تقييدها بأية شروط، فالهداية، هذه تخصّ مجموعة ذكرت أوصافهم فى القرآن، أمّا الضلال الذى هو النقطة المقابلة للهداية فإنه يخص مجموعة اخرى ذكرت أوصافهم أيضا فى القرآن الكريم.

و رغم وجود بعض الآيات التى تتحدث عن الهداية و الإضلال بصورة مطلقة، إلا- أن هناک الكثير من الآيات الأخرى التى تبيّن-

بدقة– محدودیتهما، و عند ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۲

تضع الآیات (المطلقة) إلی جانب (المحدودة) یتّضح المعنی بصورة کاملة، و لا یبقی أی غموض أو إبهام فی معین الآیات، کما أنّها– أی الآیات– تؤّکد بشدة علی مسألة الإختیار و حریة الإرادة عند الإنسان و لا تتعارض معهما.

الآن یجب الانتباه إلی التوضیح التالی:

القرآن المجید یقول فی إحدی آیاته: یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِینَ و فی مکان آخر یقول الباریٔ عزّ و جلّ: وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ ۸۹] و هذا یبیّن أن الظلم مقدمة للظلال. و من هنا یتّضح أن الفسق، أی عدم إطاعة أوامر الباریٔ تعالی و هو مصدر الضلال.

و فی موضع آخر نقرأ: وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکافِرِینَ ۹۰]، و هنا اعتبر الکفر هو الذی یهیء أرضیة الضلال.

و قد ورد فی آیة اخری: إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی مَنْ هُوَ کاذِبٌ کَفَّارٌ[۹۱] یعنی أنّ الکذب و الکفر هما مقدمة الضلال.

و الآیة التالیة تقول: إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ کَذَّابٌ ۹۲] أی أن الإسراف و الکذب یسببان الضلالة.

و بالطبع، فإنّ ما أوردناه کان جزاء یسیرا من آیات القرآن التی تتناول هذا الموضوع، فبعض الآیات وردت مرات عدیدة فی سورة القرآن المختلفة و هی تحمل المعانی و المفاهیم.

إن ما یمکن استنتاجه هو أنّ القرآن الکریم یؤکّد علی أنّ الضلالة الإلهیة تشمل کلّ من توفرت فیه هذه الصفات (الکفر) و (الظلم) و (الفسق) و (الکذب).

(الإسراف) فهل أن الضلالة غیر لائقة بمن تتوفر فیه مثل هذه الصفات!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۳

و بعبارة اخری: هل ینجو قلب من یتصف بتلک الصفات القبیحة، من الغرق فی الظلمات و الحجب؟! و بعبارة اخری أوضح: أنّ لهذه الأعمال و الصفات آثارا تلاحق الإنسان شاء أم أبی، إذ ترمی بستائرها علی عینیه و أذنیه و عقله، و تؤدی به إلی الضلال، و لکون خصوصیات کلّ الأشیاء و تأثیرات کلّ الأسباب إنّما هی بأمر من اللّه، و من الممکن أیضا أن ینسب الإضلال إلیه سبحانه و تعالی فی جمیع هذه الموارد، و هذه النسبة هی أساس اختیار الإنسان و حریة إرادته.

هذا فیما یتعلق بالضلالة، أمّا فیما یخص الهدایة، فقد وردت فی القرآن المجید شروط و أوصاف تبیّن أنّ الهدایة لا تقع من دون سبب و خلاف الحکمة الإلهیة.

و قد استعرضت الآیات التالیة بعض الصفات التی تجعل الإنسان مستحقا للهدایة و محاطا باللطف الإلهی، منها: یَهْدِی بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ یَهْدِیهِمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ ۹۳].

إذن فاتباع أمر اللّه، و کسب مرضاته یهیئان الأرضیة للهدایة الإلهیة.

و فی مکان آخر نقرأ: إِنَّ اللَّهَ یُضِلُّ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ أَنابَ ۹۴] إذن فالتوبة و الإنابة تجعلان الإنسان مستحقا للهدایة.

و فی آیة اخری ورد: وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا[۹۵] فالجهاد، و خاصة (الجهاد الخالص فی سبیل اللّه) هو من الشروط الرئیسة للهدایة.

و أخیرا نقرأ فی آیة اخری: وَ الَّذِینَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدیً ۹۶] أی أن قطع مقدار من طریق الهدایة هو شرط للاستمرار فیه بلطف الباریٔ عزّ و جلّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۴

نستنتج من ذلک أنّه لو لم تکن هناک توبة و إنابة من العبد، و لا اتباع لأوامر اللّه، و لا جهاد فی سبیله و لا بذل الجهد و قطع مقدار

من طریق الحق، فإن اللطف الإلهی لا یشمل ذلک العبد، و سوف لا یمسک الباریٔ بیده لإیصاله إلی الغرض المطلوب.

فهل أنّ شمول هؤلاء الذین یتحلون بهذه الصفات بالهدایهٔ هو أمر عبث، أو أنّه دلیل علی هدایتهم بالإجبار؟

من الملاحظ أنّ آیات القرآن الکریم فی هذا المجال واضحهٔ جدّا و معناها ظاهر، و لکن الذین عجزوا عن الخروج بنتیجهٔ صحیحهٔ من آیات الهدایهٔ و الضلال ابتلوا بمثل هذا الابتلاء و (لأنّهم لم یشاهدوا الحقیقهٔ فقد ساروا فی طیق الخیال).

إذن یجب القول بأنّهم هم الذین اختاروا لأنفسهم سبیل (الضلال).

علی أیهٔ حال، فإنّ المشیئهٔ الإلهیهٔ فی آیات الهدایهٔ و الضلال لم تأت عبثا و من دون أی حکمهٔ، و إنّما تتمّ بشرائط خاصّهٔ، بحیث تبیّن تطابق حکمهٔ الباریٔ عزّ و جلّ مع ذلک الأمر.

۲- الاتکال علی لطف اللّه

یعتبر الإنسان کالقشهٔ الضعیفهٔ فی مهب الریاح العاتیهٔ التی تهب هنا و هناک فی کلّ لحظهٔ من الزمان، و یمکن أن تتعلق هذه القشهٔ بورقهٔ أو غصن مکسور تأخذه الریاح أیضا مع تلک القشهٔ الضعیفهٔ، و نرمیهما جانبا، و حتی إذا تمکنت ید الإنسان من الإمساک بشجرهٔ کبیرهٔ فإنّ الأعاصیر و الریاح العاتیهٔ تقتلع أحیانا تلک الشجرهٔ من جذورها، أمّا إذا لجأ الإنسان إلی جبل عظیم فإن أعتی الأعاصیر لا تتمکن من أن تزحزح ذلک الجبل و لو بمقدار رأس إبرهٔ من مکانه.

الایمان باللّه بمثابهٔ هذا الجبل و الاعتماد و الاتکال علی غیر اللّه بمثابهٔ الاعتماد علی الأشیاء الواهیهٔ، و لهذا السبب یقول الباریٔ عزّ و جلّ فی الآیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۵

المذکورهٔ أعلاه: أَ لَیْسَ اللَّهُ بِکافٍ عَبْدَهُ الإعتقاد و الإیمان بما جاء فی هذه الآیهٔ یضیف للإنسان شجاعهٔ و اعتمادا علی النفس، و تطمئن خواطره و تهدئها، کی یصمد و یثبت أمام الحوادث کالجبل، و لا یخاف حشود الأعداء، و لا یستوحش من قلّهٔ عدد أتباعه أو أصحابه، و لا تعبث المشاکل الصعبهٔ بروحه الهادئهٔ المستقرهٔ، و قد ورد فی الحدیث «المؤمن کالجبل الراسخ لا تحرکه العواصف»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۶

الآیات [سورهٔ الزمر (۳۹): الآیات ۳۸ الی ۴۰]

اشارهٔ

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَ فَرَأَیْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِیَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ کاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِی بِرَحْمَهٍٔ هَلْ هُنَّ مُمْسِکاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِیَ اللَّهُ عَلَیْهِ یَتَوَکَّلُ الْمُتَوَکِّلُونَ (۳۸) قُلْ یا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلی مَکانَتِکُمْ إِنِّی عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۹) مَنْ یَأْتِیهِ عَذابٌ یُخْزِیهِ وَ یَحِلُّ عَلَیْهِ عَذابٌ مُقِیمٌ (۴۰)

التّفسیر

هل إن آلهتکم قادرهٔ علی حل مشاکلکم؟

الآیات السابقهٔ تحدثت عن العقائد المنحرفهٔ للمشرکین و العواقب الوخیمهٔ التی حلّت بهم، أمّا آیات بحثنا هذا فإنّها تستعرض دلائل

التوحيد كى تكمل البحث السابق بالأدلة، كما تحدثت الآيات السابقة عن دعم البارئ عزّ و جلّ لعباده و كفاية هذا الدعم، و الآيات أعلاه تتابع هذه المسألة مع ذكر الدليل.

فى البداية تقول الآية: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۷

العقل و الوجدان لا يقبلان أن يكون هذا العالم الكبير الواسع بكل هذه العظمة مخلوق من قبل بعض الكائنات الأرضية، فكيف يمكن للعقل أن يقبل أنّ الأصنام التى لا روح فيها و لا عقل و لا شعور هى التى خلقت هذا العالم، و بهذا الشكل فإنّ القران يحاكم أولئك إلى عقولهم و شعورهم و فطرتهم، كى يثبّت أول أسس التوحيد فى قلوبهم، و هى مسألة خلق السماوات و الأرض.

و فى المرحلة التالية تتحدث الآيات عن مسألة الربح و الخسارة، و عن مدى تأثيرها على نفع أو ضرر الإنسان، كى تثبت لهم انّ الأصنام لا دور لها فى هذا المجال، و تضيف قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ ۹۷].

و الآن بعد أن اتّضح أنّ الأصنام ليس بإمكانها أن تخلق شيئا و لا باستطاعتها أن تتدخل فى ربح الإنسان و خسارته، إذن فلم نعبدها و نترك الخالق الأصلى لهذا الكون، و الذى له اليد الطولى فى كلّ ربح و خسارة، و نمد أيدينا إلى هذه الموجودات الجامدة التى لا قيمة لها و لا شعور؟ و حتى إذا كانت الآلهة ممن يمتلك الشعور كالجن أو الملائكة التى تعبد من قبل بعض المشركين، فإنّ مثل هذا الإله ليس بخالق و لا يمكنه أن يتدخل فى ربح الإنسان و خسارته، و كنتيجة نهائية و شاملة يقول البارئ عزّ و جلّ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ

آيات القرآن المجيد أكّدت- و لعدّة مرات- على أنّ المشركين يعتقدون بأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو خالق السموات و الأرض ۹۸]. و هذا الأمر يبيّن أن الموضوع كان بالنسبة للمشركين من المسلّمات، و هذا أفضل دليل على بطلان الشرك، لأن توحيد خالق الكون و الاعتراف بمالكيته و ربوبيته أفضل دليل على (توحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۸

المعبود) و من كلّ هذا نخلص إلى أن التوكل لا يكون إلّا على اللّه مع صرف النظر عن عبادة غيره.

و إذا أمعنا النظر فى المواجهة التى حدثت بين إبراهيم محطم الأصنام و الطاغية نمرود الذى ادعى الربوبية و القدرة على إحياء الناس و إماتتهم، و الذى أنبهت و تحير فى كيفية تنفيذ طلب إبراهيم عليه السّلام عند ما طلب منه أن يجعل الشمس تشرق من المغرب إن كان صادقا فى ادعاءاته، مثل هذه الادعاءات التى يندر وجودها حتى فى أوساط عبدة الأصنام، لا يمكن أن تصدر إلا من أفراد ذوى عقول ضعيفة و مغرورة و بلهاء كعقل نمرود.

و الملفت للنظر أنّ الضمير العائد على تلك الآلهة الكاذبة فى هذه الآيات، إنّما جاء بصيغة جمع المؤنث (هن- كاشفات- ممسكات-) و ذلك يعود لأسباب:

أوّلا: إنّ الأصنام المعروفة عند العرب كانت تسمى بأسماء مؤنثة اللات و مناة و العزى).

ثانيا: يريد البارئ عزّ و جلّ بهذا الكلام تجسيد ضعيف هذه الآلهة أمامهم، و طبقا لمعتقداتهم، لأنّهم كانوا يعتقدون بضعف و عجز الإناث.

ثالثا: لأنّ هناك الكثير من الآلهة لا روح فيها، و صيغة جمع المؤنث تستخدم عادة بالنسبة إلى تلك الموجودات الجامدة، لذا فقد استفيد منها فى آيات بحثنا هذا.

كما يجب الالتفات إلى أنّ عبارة عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ تعطى معنى الحصر بسبب تقدم كلمة (عليه) و تعنى أن المتوكلين يتوكلون عليه فقط.

الآيـة التاليـة تخاطب أولئك الـذين لم يستسـلموا لمنطق العقل و الوجدان بتهديد إلهى مؤثر، إذ تقول: قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّی عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۹۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۹

ستعلمون بمن سيحل عذاب الدنيا المخزى و العذاب الخالد فى الآخرة مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ

و بهـذا الشـكل فـإنّ آخر كلام يقال لأولئك هو: إمّا أن تستسـلموا لمنطق العقل و الشـعور و تسـتجيبوا لنـداء الوجـدان، أو أن تنتظروا عـذابين سـيحلان بكم، أحـدهما فى الـدنيا و هو الـذى سيخزيكم و يفضـحكم، و الثّانى فى الآخرة و هو عـذاب دائمى خالـد، و هذا العذاب أنتم اعددتموه لأنفسكم، و أشعلتم النيران فى الحطب الذى جمعتموه بأيديكم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۰

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

إِنَّا أَنْزَلْنـا عَلَيْـكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَـدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۴۱) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهـا وَ الَّتِی لَمْ تَمُتْ فِی مَنامِهـا فَيُمْسِـكُ الَّتِی قَضـى عَلَيْهَـا الْمَوْتَ وَ يُرْسِـلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى إِنَّ فِی ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۴۲) أَمِ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُـفَعاءَ قُـلْ أَ وَ لَـوْ كـانُوا لا يَمْلِكُـونَ شَـيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ (۴۳) قُـلْ لِلَّهِ الشَّفاعَـةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۴۴)

التّفسير

اللّه سبحانه يتوفى الأنفس:

بعـد ذكر دلائل التوحيـد، و بيان مصـير المشـركين و الموحدين، تبيّن الآية الأولى- فى هذا البحث- حقيقة مفادها أن قبول ما جاء فى كتاب اللّه أو عدم قبوله إنّما يعود بالفائدة أو الضرر عليكم، و إن كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يصرّ عليكم فى هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۱

المجال، فإنّه لم يكن ينبغى جنى الأرباح من وراء ذلك، و إنّما كان يؤدى واجبا إلهيا، إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِ ۱۰۰].

و تضيف الآية فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها.

على أية حال، فإنك لست مكلفا بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، و إنّما عليك إبلاغهم و إنذارهم فقط وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ

هـذه القاعدة بأنّ كلّ من اتبع طريق الحق عاد بالربح على نفسه، و من اتبع سبيل الضـلال عاد بالخسارة على نفسه، تكررت عدّة مرات فى آيات القرآن الكريم، كما أنّه تأكيـد على حقيقـة أنّ اللّه غير محتاج لإيمان عباده و لا يخاف من كفرهم، و كـذلك رسوله، و إنّه لم يدفع عباده إلى عبادته كى يجنى من وراء ذلك الأرباح، و إنّما ليجود على عباده.

قوله تعـالى: وَ مـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيـلٍ التى وردت فيها كلمـة (وكيل) بمعنى الشـخص المكلف بهدايـة الضالين و جعلهم يؤمنون باللّه- وردت عدّة مرات فى آيات القرآن، و بنفس التعبير أو ما يشابهه، و الغرض من تكرارها هو بيان أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ليس مسئولا عن إيمـان النـاس، لأـنّ أسـاس الإيمان لا يأتى عن طريق الإجبار، و إنّه مكلّف بإبلاغ الأمر الإلهى إلى الناس من دون أن يظهر أدنى تقصير أو عجز، فإمّا أن يستجيبوا لدعوته و إمّا أن يرفضوها.

ثمّ لتوضح أنّ الحياة و الموت و كلّ شؤون الإنسان هى بيد اللّه سبحانه و تعالى، قالت الآية: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها[۱۰۱].

و بهذا الشكل فإن (النوم) يعد شقيق (الموت) لكن بأحد أشكاله الضعيفة، أى (أشكال الموت)، لأن العلاقة بين الروح و الجسد تصل إلى أدنى درجاتها أثناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۲

النوم، و تقطع الكثير من العلاقات و الوشائج بينهما.

و تضيف الآية فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى نعم إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

من هذه الآية يمكن استنتاج عدة أمور:

۱- إنّ الإنسان عبارة عن روح و جسد، و الروح هى جوهر غير مادى، يرتبط بالجسد فيبعث فيه النور و الحياة.

۲- عند الموت يقطع اللّه العلاقة بين الروح، و الجسد، و يذهب بالروح إلى عالم الأرواح، و عند النوم يخرج البارئ عزّ و جلّ الروح و الجسد، و لكن ليس بتلك الحالة التى تقطع فيها العلاقات بصورة كاملة. و وفقا لهذا فإنّ الروح لها ثلاث حالات بالنسبة للجسد، و هى: ارتباط كامل (حالة الحياة و اليقظة) و ارتباط ناقص (حالة النوم) و قطع الارتباط بصورة كاملة (حالة الموت).

۳- النوم هو أحد الصور الضعيفة (للموت)، و (الموت) هو نموذج كامل (للنوم).

۴- النوم هو أحد دلائل استقلال و أصالة الروح، خاصة عند ما يرافق بالرؤيا الصادقة التى توضح المعنى أكثر.

۵- إنّ العلاقة التى تربط بين الروح و الجسد تضعف أثناء النوم، و أحيانا تقطع تماما ممّا يؤدى إلى عدم يقظة النائم إلى الأبد، أى موته.

۶- إنّ الإنسان عند ما ينام فى كلّ ليلة يشعر و كأنّه وصل إلى أعتاب الموت، و هذا الشعور بحد ذاته درسا يمكن الاعتبار منه، و هو كاف لإيقاظ الإنسان من غفلته.

۷- كلّ هذه الأمور تجرى بقدرة البارئ عزّ و جلّ، و إن كان قد ورد فى بعض الآيات ما يشير إلى أنّ ملك الموت هو الذى يقبض الأرواح، فهذا لا يعنى سوى أنّه ينفّذ أوامر البارئ عزّ و جلّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۳

و على أية حال، فإنّ المراد من قوله تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ هو إثبات دلائل قدرة البارئ عزّ و جلّ، و مسألة الخلق، و المعاد، و ضعف و عجز الإنسان مقابل إرادة اللّه عزّ و جلّ.

و بعد ما أصبحت- حاكمية- (اللّه) على وجود الإنسان و تدبير أمره عن طريق نظام الحياة و الموت و النوم و اليقظة، أمرا مسلما من خلال الآيات السابقة، تناولت الآية اللاحقة خطأ اعتقاد المشركين فيما يخص مسألة الشفاعة، كى تثبت لهم أنّ مالك الشفاعة هو مالك حياة و موت الإنسان، و ليس الأصنام الجامدة التى لا شعور لها أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ[۱۰۲].

و كما هو معروف فإنّ إحدى الأعذار الواهية لعبدة الأوثان بشأن عبادتهم للأوثان، هى ما ورد فى مطلع هذه السورة ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى ۱۰۳]، إذ أنّهم كانوا يعدونها تماثيل و هياكل للملائكة للأرواح المقدسة، و يزعمون أنّ هذه الأحجار و الأخشاب الميتة لها قدرة هائلة.

و لكون الشفاعة تحصل من الشفيع الذى هو، أوّلا: يشعر و يدرك و يفهم، و ثانيا: قدير و مالك و حكيم، فإن تتمة الآية تجيبهم قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ ۱۰۴].

إذا كنتم تتخذون من الملائكة و الأرواح المقدسة شفعاء لكم، فإنّهم لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعا، لأن كلّ ما عندهم هو من اللّه، و إذا كنتم تتخذون من الأصنام المصنوعة من الخشب و الحجارة شفعاء لكم، فإنّهم علاوة على عدم امتلاكهم شيئا لأنفسهم، فهم

لا يمتلكون أدنى عقل أو شعور، فاتركوا هذه الأعذار، و عودوا إلى الذى يملك و يحكم كلّ هذا العالم، و إلى من إليه تنتهى كلّ الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۴

لذا فإنّ اللّه جلّ و علا يضيف فى الآية التالية قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لأنّه لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و بهذا الشكل لم يبق لديهم شىء، لأنّ النظام المسيطر و الحاكم على كلّ العالم يقول: لا شفاعة هناك ما لم يأذن البارئ عزّ و جلّ بذلك مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۱۰۵].

أو كما يقول بعض المفسّرين: إنّ حقيقة الشفاعة، هى التوسل بأسماء اللّه الحسنى، التوسل برحمته و غفرانه و ستره، طبقا لهذا فإنّ كافة أشكال الشفاعة تعود فى النهاية إلى ذاته المقدسة، إذن كيف يمكن طلب الشفاعة من غيره و بدون إذنه ۱۰۶].

و بشأن ارتباط عبارة ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بما قبلها، أظهر المفسّرون عدّة آراء مختلفة منها:

۱- هذه العبارة إشارة إلى أنّ شفاعة البارئ عزّ و جلّ لا تقتصر على هذه الدنيا، و إنّما تتعداها إلى الشفاعة فى الآخرة، و لذا يجب عدم اللجوء إلى غير اللّه لحل المشاكل و رفع المصائب كما كان يفعل المشركون.

۲- هذه العبارة هى دليل ثان على اختصاص الشفاعة باللّه، لأنّ الدليل الأوّل اعتمد على (مالكية) اللّه، و هنا تمّ الاعتماد على (عودة جميع الأشياء إليه).

۳- هذه الجملة هى بمثابة تهديد للمشركين، إذ تقول لهم: إنّكم سترجعون إلى اللّه، و ستشاهدون نتيجة أفكاركم و أعمالكم السيئة و القبيحة.

كلّ هذه التفاسير مناسبة إلّا أنّ التّفسيرين الأوّل و الثّانى أنسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۵

ملاحظتان

۱- عجائب عالم الرؤيا؟

ما هى حقيقة النوم؟ و ما سبب ميل الإنسان إلى النوم؟

بهذا الشأن كتب العلماء أبحاثا كثيرة:

فالبعض منهم قال: إنّه يأتى نتيجة انتقال جزء كبير من الدم الموجود فى المخ إلى بقية أجزاء الجسم، و لذا فإنّ السبب هنا (فيزياوى).

و البعض الآخر يعتقد أنّ النشاط الإضافى للجسم يؤدى إلى تجمع مواد سامّة معينة فى الجسم، و هذه الحالة تؤثر على الأنظمة العصبية و تدفع الإنسان إلى النوم، و تستمر هذه الحالة عند الإنسان حتى تتمّ تجزئة تلك السموم و امتصاصها من قبل الجسد، و بهذا يكون السبب هنا (كيمياويا).

مجموعة اخرى تقول: إن سبب النوم إنّما يعود لأسباب عصبية لأنّ هناك جهازا عصبيا نشطا فى داخل مخ الإنسان، و هذا الجهاز هو مصدر الحركة المستمرة لبقية أعضاء الجسم، و هو يتوقف عن العمل إثر التعب الشديد الذى يصيبه فيحصل النوم.

النظريات المذكورة أعلاه عجزت عن إعطاء جواب مقنع فيما يخص مسألة النوم، رغم أنّنا لا يمكن أن ننكر تأثير هذه الأسباب و لو بمقدار ضئيل. نحن نعتقد أنّ التفكير المادى لعلماء اليوم هو السبب الرئيسى الذى يمكن وراء عجزهم عن إعطاء تفسير واضح لمسألة النوم، إذا أنّهم يريدون تفسير هذه المسألة من دون قبول أصالة و استقلالية الروح، فالنوم قبل أن يكون ظاهرة جسدية هو ظاهرة

روحیة، و من دون معرفة الروح بصورة صحیحة، فإنّ تفسیر النوم حالة متعذرة.

القرآن المجید وضّح من خلال آیاته المذکورة أعلاه أدقّ التفاسیر لمسألة النوم، إذ یقول: إن النوم هو نوع من أنواع (قبض الروح) و انفصال الروح من الجسد، و لکن هذا الانفصال لیس انفصالا کاملا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۶

و بهذا الشکل فعند ما یخفت شعاع الروح فی الجسد بأمر من اللّه، و لا یبقی غیر شعاع خافت اللون یشع فی ذلک الجسد، یتعطل جهاز الإدراک و الشعور عن العمل، و یتوقف الحسّ و الحرکة عند الإنسان، عدا بعض الأجزاء التی تبقی تواصل نشاطها لحفظ و استمرار الحیاة عند الإنسان، کضربات القلب و دوران الدم و نشاطات الجهاز التنفسی و الغذائی.

و

قد ورد فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام: «ما من أحد ینام إلّا عرجت نفسه إلی السماء، و بقیت روحه فی بدنه، و صار بینهما سبب کشعاع الشمس، فإن أذن اللّه فی قبض الأرواح أجابت الروح النفس، و إن أذن اللّه فی ردّ الروح أجابت النفس الروح، فهو قوله سبحانه: اللَّهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِها[۱۰۷].

و ثمّة مسألة مهمّة اخری هی مسألة (الرؤیا) لأنّ الکثیرین یرون فی عالم الرؤیا أحلاما حدثت وقائعها أو ستحدث فیما بعد فی الواقع، مع اختلافات جزئیة أو بدون أیّ اختلاف.

التفاسیر المادیة عاجزة عن توضیح مثل هذه الرؤیا و الأحلام، فی حین أن التفاسیر الروحیة تستطیع بسهولة توضیح هذا الأمر، لأنّه عند ما تنفصل روح الإنسان عن جسده و ترتبط بعالم الأرواح، تدرک حقائق کثیرة لها علاقة بالماضی و المستقبل، و هذه الحالة هی التی تشکل أساس الرؤیا الصادقة، و للتوضیح أکثر یراجع التفسیر الأمثل) فی نهایة الآیة (۴) من سورة یوسف، إذ أنّ هناک شرحا مفصلا بهذا الخصوص.

۲- النوم کما ورد فی الروایات الإسلامیة:

یتضح جیدا من خلال روایات المفسّرین التی وردت فی نهایة الآیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۷

المذکورة أعلاه، أنّ النوم یعنی فی الإسلام حرکة الروح نحو عالم الأرواح، فیما تعنی الیقظة عودة الروح إلی الجسد لبدء حیاة جدیدة.

و نقرأ

فی حدیث ورد عن أمیر المؤمنین علیه السّلام ضمن وصایاه لأصحابه: «لا ینام المسلم و هو جنب، لا ینام إلّا علی طهور، فإن لم یجد الماء فلیتیمم بالصعید، فإنّ روح المؤمن ترفع إلی اللّه تعالی فیقبلها، و یبارک علیها، فإن کان أجلها قد حضر جعلها فی کنوز رحمته، و إن لم یکن أجله قد حضر بعث بها مع أمنائه من ملائکته، فیردونها فی جسده»[۱۰۸].

و

ورد حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام جاء فیه: «إذا قمت باللیل من منامک فقل: الحمد للّه الذی ردّ علیّ روحی لأحمده و أعبده»[۱۰۹].

و الأحادیث فی هذه الشأن کثیرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۸

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۵ الى ۴۸]

اشارة

وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۵) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۴۶) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (۴۷) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۴۸)

التّفسير

الذين يخافون من اسم اللّه!

مرّة اخرى يدور الحديث عن التوحيد و الشرك، إذ عكست الآية الأولى إحدى الصور القبيحة و المشوهة للمشركين و لمنكرى المعاد من خلال تعاملهم مع التوحيد، قال تعالى: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۹

وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۱۱۰].

فأحيانا يستحسن الإنسان القبائح و يستقبح الحسنات بحيث ينزعج إذا سمع اسم الحق و يستبشر إذا سمع اسم الباطل لا يسجد و لا يركع أمام عظمة اللّه جلّ و علا خالق الكون، إلّا أنّه يسجد و يركع تعظيما لأصنام صنعها من الحجارة و الخشب أو لإنسان أو كائنات مثله.

و نظير هذا المعنى ورد فى الآية (۴۶) من سورة الإسراء، قال تعالى: وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً.

و فى سورة نوح الآية (۷) عند ما شكى نبىّ اللّه نوح عليه السّلام ممن يفكر بمثل هذا التفكير المنحرف إلى اللّه سبحانه و تعالى وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً.

نعم، هذا هو حال المتعصبين اللجوجين و الجهلة المغرورين.

من هذه الآية يتضح بصورة جيدة أنّ مصدر شقاء هذه المجموعة أمران:

الأوّل: إنكارهم لأساس التوحيد، و الثّانى: عدم إيمانهم بالآخرة.

و فى المقابل نرى المؤمنين لدى سماعهم اسم اللّه ينجذبون إليه بدرجة أنّهم على استعداد لبذل كلّ ما لديهم فى سبيله، فاسم حبيبهم يحلّى أفواههم و يعطّر أنفاسهم و يضىء قلوبهم، كما أن سماع أى شىء يرتبط و يتعلق باللّه يبعث السرور و البهجة فى قلوبهم.

نعود إلى المشركين مرّة اخرى لنقول: إن الصفة القبيحة التى ذكرناها فى بداية البحث بشأن المشركين، لا تخصّ مشركى عصر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و إنّما فى عصر و زمان هناك منحرفون ذوو قلوب مظلمة يفرحون و يستبشرون فور سماعهم أسماء أعداء اللّه و أصحاب المذاهب الإلحادية، و سماعهم نبأ انتصار الظلم و الطغيان، أمّا سماع أسماء الطيبين و الطاهرين و مناهجهم و انتصاراتهم فإنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۰

يسبب لهم آلاما مبرحة، بعض الرّوايات فسّرت الآية على أنّها تعنى أولئك الذين ينزعجون من سماع فضائل أهل بيت النبوّة الأطهار

عليهم السّلام أو من يتبع نهجهم ۱۱۱].

و عند ما يصل الأمر إلى درجة أنّ مجموعة من اللجوجين و الجهلة المغرورين ينفرون و يشمئزون حتى من سماع اسم اللّه، يوحى البارئ عزّ و جلّ إلى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أن يتركهم و يتوجه الى البارى عز و جل و يشتكى إليه من هؤلاء بلحن ملىء بالعواطف الرفيعة و العشق الإلهى لكى يبعث على تسكين قلبه الملىء بالغم من جهة، و على تحريك العواطف الهامدة عند أولئك من جهة اخرى: قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۱۱۲].

نعم أنت الحاكم المطلق فى يوم القيامة الذى تنتهى فيه الاختلافات و تظهر فيه كلّ الحقائق المخفية، لأنك خالق كلّ شىء فى الوجود و عالم بكل الأسرار فتنتهى الاختلافات بحكمك العادل، و هناك يدرك المعاندون مدى خطئهم، و يفكرون فى إصلاح ما مضى، و لكن ما الفائدة؟

الآية التالية تقول: وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ و لكن هذا الأمر غير ممكن.

«الظلم»: هنا له معان واسعة تشمل الشرك أيضا و بقية المظالم.

ثم تضيف الآية وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ

و سيرون العذاب بأعينهم، العذاب الذى لم يكن يتوقعه أحد منهم، لأنّهم كانوا مغرورين بلطف اللّه، فى حين كانوا فى غفلة عن غضبه و قهره. و أحيانا كانوا يقومون بأعمال يتصورونها حسنة، فى حين أنّها كانت من الذنوب الكبيرة.

على أيّة حال، تظهر لهم فى ذلك اليوم أمور لم يكن يتصور أحد ظهورها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۱

ذلك الوعيد يأتى فى مقابل الوعود الطيبة التى قطعت للمؤمنين، قال تعالى:

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ۱۱۳].

و قد نقل أنّ أحد المسلمين جزع عند الموت، فقيل له: أ تجزع، فقال: أخذتنى هذه الآية وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۱۱۴].

الآية التالية توضيح أو تتمة لموضوع طرحته الآية السابقة، إذ تقول: وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

فى الحقيقة هناك أربعة مواضيع تتعلق بالمشركين و الظالمين طرحت فى هذه الآيات:

أوّلا: إنّ هول و رهبة العذاب الإلهى فى ذلك اليوم ستكون من الشدّة بحيث تجعلهم يتمنون لو أنّ لديهم فى تلك الساعة ضعف الثروات و الأموال التى كانوا يمتلكونها فى عالم الدنيا ليفتدوا بها من سوء العذاب، و لكن من المستحيل أن يحدث مثل هذا الأمر فى يوم القيامة.

ثانيا: تظهر أمامهم أنواع من العذاب الإلهى الذى لم يكن أحد يتوقعه و لا يتصوره.

ثالثا: حضور أعمالهم السيئة أمامهم و تجسيدها لهم.

رابعا: مشاهدتهم حقيقة المعاد الذى لم يأخذوه مأخذ الجد، و من ثمّ انغلاق كلّ أبواب النجاة أمامهم.

الآية التى تقول: بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا و التى وردت آنفا، هى دليل آخر على مسألة تجسيد الأعمال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۲

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۹ الى ۵۲]

اشارة

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۴۹) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۵۰) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۱) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲)

التّفسیر

فی الشدائد یذکرون اللّه، و لکن ...

الآیات هنا تتحدث مرّة اخری عن المشرکین و الظالمین، و تعکس صورة اخری من صورهم القبیحة.

فی البدایة یقول فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا فذلک الإنسان الذی کان- وفق ما جاء الآیات السابقة- یشمئز من ذکر اسم اللّه. نعم، هو نفسه یلجأ إلی ظلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۳

اللّه عند ما یصیبه الضرّ و یتعرض للشدائد. لکن هذا اللجوء مؤقت، إذ ما إن یتفضّل علیه الباری عزّ و جلّ و یکشف عنه الضر و الشدائد، حتی یتبجح ناکرا لهذه النعم، و زاعما بأنّه هو الذی أنقذ نفسه من ذلک الضر ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ [۱۱۵].

نظیر هذا الکلام نقله القرآن فی الآیة (۷۸) من سورة القصص عن لسان «قارون» عند ما نصحه علماء بنی إسرائیل بأن ینفق ممّا منّ اللّه به علیه فی سبیل اللّه، إذ قال: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي

إنّ أمثال هؤلاء الغافلین لا یتصورون أنّ العلوم و المعارفة التی یمتلکها الإنسان إنّما هی نعمة إلهیة، فهل أنّ هؤلاء اکتسبوا العلم الذی کان یدرّ علیهم الأموال الطائفة من ذاتهم؟ أم أنّه کان فی ذاتهم منذ الأزل؟

بعض المفسّرین ذکروا احتمالا- آخر لتفسیر هذه العبارة، و قالوا: إنّ النعم التی منّ بها الباری عزّ و جلّ علینا إنّما منّ بها علینا لعلمه بلیاقتنا و استحقاقنا لها.

و مع أنّ هذا الاحتمال وارد بشأن الآیة مورد بحثنا، لکنّه غیر وارد بشأن الآیة الآنفة التی تحدثت عن قارون، خاصة مع وجود کلمة (عندی) و هذه أحد القرائن لترجیح التّفسیر الأوّل للآیة التی هی مورد البحث.

ثم یجیب القرآن الکریم علی أمثال هؤلاء المغرورین، الذین ینسون أنفسهم و خالقهم بمجرّد زوال المحنة و توفّر النعمة، قائلا: بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

فالهدف من ابتلائهم بالحوادث الشدیدة و الصعبة، و من ثمّ إغداق النعم الکبیرة علیهم هو اظهار خبایاهم و الکشف عن بواطنهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۴

هل ییأس الإنسان عند المصیبة و یغترّ و یطغی عند النعمة؟

هل أنّه یزداد تفکیرا باللّه عزّ و جلّ عند ما یحاط بهذه النعم، أم أنّه یغرق فی ملذات الدنیا؟

هل ینسی ذاته، أو أنّه یلتفت إلی نقاط ضعفه و یعود إلی ذکر اللّه أکثر؟

ممّا یؤسف له أنّ أکثر الناس مبتلون بالنسیان، و غیر مطلعین علی الحقائق التی تکررت مرات عدیدة فی آیات القرآن المجید، و هی أنّ العزیز الحکیم یجعل الإنسان أحیانا محاطا بالمشاکل و الابتلاءات الشدیدة، و أحیانا یغدق علیه النعم، و ذلک لیمتحنه و یرفع من

شأنه و ليعرفه بأن كلّ شيء في هذه الحياة هو من اللّه سبحانه و تعالى.

و من الطبيعى أنّ الشدائد تهيء الأرضيه لتفتتح الفطرة، كما أنّ النعم مقدمة للمعرفة (و فى هذا الخصوص أوردنا بحثا آخر فى تفسيرنا الأمثل فى نهاية الآية (۶۵) من سورة العنكبوت).

و ممّا يدعوا إلى الانتباه تأكيد الآية على كلمة (إنسان) التى عرفته بأنّه كثير النسيان و الغرور، و هذه إشارة إلى الذين لم يتربوا وفق ما جاء فى الشرائع و السنن الإلهية، و الذين لم يكن لهم أىّ مربّ و مرشد .. الذين أطلقوا لشهواتهم العنان و استسلموا لأهوائهم، نعم فهؤلاء هم الذين يلجؤون إلى البارئ عزّ و جلّ كلّما مسّهم الضرّ و كلمّا ابتلوا بالشدائد و المحن، و لكن عند ما تهدأ أعاصير الحوادث و يشملهم لطف البارئ و عنايته، ينسونه و كأنّهم لم يدعوه إلى ضرّ مسّهم. و لمزيد من الاطلاع راجع موضوع: الإنسان فى القرآن الكريم. فى نهاية الآية (۱۲) من سورة يونس.

و تضيف الآية التالية قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ۱۱۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۵

نعم، فقارون و أمثاله من المغرورين يتصورون أنّهم حصلوا على الأموال بسبب لياقتهم و غفلوا عن أنّ اللّه سبحانه و تعالى هو الذى منّ بهذه النعم عليهم و أنّه المصدر الأصل للنعم و الواهب الحقيقى لها، و أنّهم كانوا ينظرون فقط للأسباب الظاهرية، لكن التاريخ بيّن أنّه عند ما خسف البارئ عزّ و جلّ الأرض بأولئك لم يسرع أحد إلى مساعدتهم، و لم تنفعهم أموالهم، كما ورد فى سورة القصص الآية (۸۱) فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

و ليس قارون- وحده- ابتلى بهذا العذاب، و إنّما أقوام عاد و ثمود و سبأ و أمثالهم ابتلوا- أيضا- و كان لهم نفس المصير.

ثم يقول: فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا.

فكل واحد منهم ابتلى بنوع من العذاب الإلهى و هلك، كابتلائهم بالطوفان و السيل و الزلزال و الصيحة السماوية.

و يضيف: إنّ هذا المصير لا ينحصر بأولئك الأقوام و حسب بل إنّ مشركى مكّة سيبتلون فى القريب العاجل بعواقب أعمالهم السيئة، و لا يستطيع أحد منهم أن يفرّ من قبضة العذاب الإلهى الذى سينزل بهم جميعا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ

و سينال هذا العذاب و الابتلاء كلّ الطغاة و المغرورين و المشركين، و فى كلّ العصور و القرون.

و من جهة اخرى ورد احتمالان فى هل أنّ المراد من عبارة سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا هو العذاب الدنيوى أم العذاب الاخروى، و لكن بقرينة فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا فإنّ التّفسير الأوّل أنسب.

القرآن الكريم أجاب على ادعاءات الذين يزعمون أنّهم حصلوا على النعم الدنيوية بعلمهم و قدرتهم، عند ما دعاهم إلى مراجعة تأريخ الأولين للاطلاع على أنواع الابتلاءات و العذاب الذى ابتلوا به بسبب مزاعمهم الباطلة، و هذا هو ردّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۶

تأريخى و واقعى.

ثمّ يرد القرآن الكريم عليهم بردّ عقلى، إذ يقول: أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ.

فالكثير من الأشخاص الكفوئين نراهم يعيشون حياة المستضعفين و البسطاء، فى حين نرى أنّ الكثير من الأشخاص غير الكفوئين يعيشون أثرياء و متنعمين من كلّ النواحى، فلو كان الظفر المادىّ كلّه يأتى عن طريق جهد و سعى الإنسان إضافة إلى كفاءته، لما كنّا نرى مثل هذه المشاهد. إذن فمن هنا يستدل على وجود يد قوية اخرى خلف عالم الأسباب تدير الشؤون وفق منهج محسوب.

صحيح أنّه يجب على الإنسان أن يبذل الجهد و السعى فى حياته، و صحيح أنّ الجهاد و السعى هما مفتاح حلّ الكثير من المشاكل، و لكن إغفال مسبب الأسباب و النظر إلى الأسباب فقط، و اعتبار الكفاءة هى المؤثر الوحيد يعد خطأ كبيرا.

فإحـدى أسـرار إحاطة الفقر و الحرمان بمجموعة من العلماء المقتدرين، و إحاطة الغنى بمجموعة من الجهلة غير الأكفاء هو تنبيه لكلّ الناس التائهين فى عالم الأسباب بأن لا يعتمدوا فقط على قواهم الذاتية. لذا تضيف الآية إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الآيات التى وضحها

أمير المؤمنين عليه السّلام عند ما قال: «عرفت اللّه بفسخ العزائم و حل العقود الهمم»[۱۱۷].

و هى كلمة سامية تدلّ على ضعف و عجز الإنسان كى لا يتيه و لا يبتلى بالغرور و التكبر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۷

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۵۳ الى ۵۵]

اشارة

قُـلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵۳) وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَـذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۵۵)

التّفسير

إنّ اللّه يغفر الذنوب جميعا عليهم السّلام

بعـد التهديـدات المتكررة التى وردت فى الآيات السابقـة بشأن المشـركين و الظالمين، فإنّ آيات بحثنا فتحت الأبواب أمام المذنبين و أعطتهم الأمل، لأنّ الهـدف الرئيسـى من كلّ هذه الأمور هو التربية و الهداية و ليس الانتقام و العنف، فبلهجة مملوءة باللطف و المحبة يفتح البارئ أبواب رحمته أمام الجميع و يصدر أوامر العفو عنهم، عند ما يقول: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً.

التدقيق فى عبارات هذه الآية يبيّن أنّها من أكثر آيات القرآن الكريم التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۸

تعطى الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة

قال بشأنها أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام: «ما فى القرآن آية أوسع من يا عبادى الذين أسرفوا ...»[۱۱۸].

و الدليل على ذلك واضح من وجوه:

۱- التعبير ب يا عِبادِيَ هى بداية لطف البارئ عزّ و جلّ.

۲- التعبير ب (إسراف) بدلا من (الظلم و الذنب و الجريمة) هو لطف آخر.

۳- التعبير ب عَلى أَنْفُسِـهِمْ يبيّن أنّ ذنوب الإنسـان تعود كلّها عليه، و هـذا التعبير هو علامـة اخرى من علامات محبّـة اللّه لعباده، و هو يشبه خطـاب الأب الحريص لولـده، عنـد ما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هـذا! ۴- التعبير ب لاـ تَقْنَطُوا مع الأخـذ بنظر الاعتبـار أن «القنوط» يعنى- فى الأصل- اليأس من الخير، فإنّها لوحدها دليل على أن المذنبين يجب أن لا يقنطوا من اللطف الإلهى.

۵- عبارة مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ التى وردت بعد عبارة لا تَقْنَطُوا تأكيد آخر على هذا الخير و المحبّة.

۶- عنـد ما نصل إلى عبارة إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ التى بدأت بتأكيد، و كلمة «الذنوب» التى جمعت بالألف و اللام تشـمل كلّ الذنوب

من دون أیّ استثناء، فإنّ الكلام یصل إلی أوجه، و عندها تتلاطم أمواج بحر الرحمة الالهیة.

۷- إنّ ورود كلمة (جمیعا) كتأكید آخر للتأكید السابق یوصل الإنسان إلی أقصی درجات الأمل.

۸ و ۹- وصف البارئ عزّ و جلّ بالغفور و الرحیم فی آخر الآیة، و هما وصفان من أوصاف اللّه الباعثة علی الأمل، فلا یبقی عند الإنسان أدنی شعور بالیأس أو فقدان الأمل.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۹

نعم، لهذا السبب فإنّ الآیة المذكورة أعلاه من أوسع و أشمل آیات القرآن المجید، حیث تعطی الأمل بغفران كلّ أنواع الذنوب، و لهذا السبب فإنّها تبعث الأمل فی النفوس أكثر من بقیة الآیات القرآنیة. و حقّا، فإنّ الذی لا نهایة لبحر لطفه، و شعاع فیضه غیر محدود، لا یتوقع منه أقل من ذلک.

و قد شغلت أذهان المفسّرین مسألتان، رغم أن حلهما كامنة فی هذه الآیة و الآیة التی تلیها:

الأولی: هل أنّ عمومیة الآیة تشمل كلّ الذنوب حتّی الشرک و الذنوب الكبیرة الأخری، فإذا كان كذلک فلم تقول الآیة (۴۸) من سورة النساء: إنّ الشرک من الذنوب التی لا تغتفر إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ.

و الثّانیة: هل أنّ الوعد الذی أعطاه اللّه بغفران الذنوب مطلق أم مشروط بالتوبة و نظیر ذلک؟

و بالطبع فإنّ السؤال الأوّل مرتبط بالسؤال الثّانی، و الجواب علیهما سیتّضح خلال الآیات التالیة بصورة جیدة، لأنّ هناک ثلاثة أوامر وردت فی الآیات التالیة وضحت كلّ شیء أَنِیبُوا إِلی رَبِّكُمْ و الثّانیة وَ أَسْلِمُوا لَهُ و الثّالثة وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَیْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ هذه الأوامر الثّلاثة تقول: إنّ أبواب المغفرة و الرحمة مفتوحة للجمیع من دون أی استثناء، و لكن شریطة أن یعودوا إلی أنفسهم بعد ارتكاب الذنب، و یتوجهوا فی مسیرهم نحو البارئ عزّ و جلّ، و یستسلموا لأوامره، و یظهروا صدق توبتهم و إنابتهم بالعمل، و بهذا الشكل فلا الشرک مستثنی من المغفرة و لا غیره، و كما قلنا فإنّ هذا العفو العام و الرحمة الواسعة مشروطان بشروط لا یمكن تجاهلها.

و إذا كانت الآیة (۴۸) من سورة النساء تستثنی المشركین من هذا العفو

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۰

و الرحمة، فإنّها تقصد المشركین الذین ماتوا علی شركهم، و لیس أولئک الذین صحوا من غفلتهم و اتبعوا سبیل اللّه، لأنّ أكثر مسلمی صدر الإسلام كانوا كذلک، أی أنّهم تركوا عبادة الأصنام و الشرک باللّه، و آمنوا باللّه الواحد القهار بعد دخولهم الدین الإسلامی.

إذا طالعنا الحالة النفسیة عند الكثیر من المجرمین بعد ارتكابهم للذنب الكبیر، نری أن حالة من الألم و الندم تصیبهم بحیث لا یتصورون بقاء طریق العودة مفتوحا أمامهم، و یعتبرون أنفسهم ملوثین بشكل لا یمكن تطهیره، و یتساءلون: هل من الممكن أن تغفر ذنوبنا؟ و هل أن الطریق إلی اللّه مفتوح أمامنا؟ و هل بقی خلفنا جسر غیر مدمّر؟

إنّهم یدركون معنی الآیة جیدا، و مستعدون للتوبة، و لكنّهم یتصورون استحالة غفران ذنوبهم، خاصّة إذا كانوا قد تابوا مرات عدیدة من قبل ثمّ عادوا إلی ارتكاب الذنب مرّة اخری.

هذه الآیة تعطی الأمل للجمیع فی أنّ طریق العودة و التوبة مفتوح أمامهم. لذا فإنّ (وحشی) المجرم المعروف فی التأریخ الإسلامی و الذی قتل حمزة سید الشهداء علیه السّلام، كان خائفا من عدم قبول توبته، لأنّ ذنبه كان عظیما، مجموعة من المفسّرین قالوا: إن هذه الآیة عند ما نزلت علی الرّسول الأكرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فتحت أبواب الرحمة الإلهیة أمام وحشی التائب و أمثاله! و لكن لا یمكن أن تكون هذه الحادثة سبب نزول هذه الآیة، و لأن هذه السورة من السور المكّیة، و لم تكن معركة أحد قد وقعت یوم نزول هذه الآیات، و لم تكن أیضا قصة شهادة حمزة و لا توبة وحشی، و إنّما هی من قبیل تطبیق قانون عام علی أحد المصادیق، و علی أیة حال فإنّ شمول معنی الآیة یمكن أن یشخص هذا المعنی.

يتضح ممّا تقدم أنّ إصرار بعض المفسّرين كالآلوسى فى تفسيره (روح

المعانى) على أنّ الوعد بالمغفرة الذى ورد فى الآية المذكورة أعلاه ليس مشروطا بشىء غير صحيح، حتّى أنّ الأدلّة السبعة عشر التى ذكرها بشأن هذا الموضوع غير مقبولة، لأنّ فيها تعارضا واضحا مع الآيات التالية، و الكثير من هذه الأدلة السبعة عشر يمكن ادغامها فى بعضها البعض، و لا يفهم منها سوى أنّ رحمة اللّه واسعة تشمل حتّى المذنبين، و هذا لا يتعارض مع كون الوعد الإلهى مشروطا، بقرائن الآيات التالية، و سيأتى مزيد بحث فى نهاية هذا البحث. ترشد المجرمين و المذنبين على أبواب الدخول إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع إذ تقول: وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ و أصلحوا أموركم و مسير حياتكم وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ بعد طى هاتين المرحلتين «الإنابة» و «التسليم»، تتحدث الآية عن المرحلة الثّالثة و هى مرحلة (العمل)، إذ تقول: وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ

و بهذا الشكل فإنّ مسيرة الوصول إلى الرحمة الإلهية لا تتعدى هذه الخطوات الثلاث:

الخطوة الأولى: التوبة و الندم على الذنب و التوجه إلى اللّه تعالى.

الخطوة الثّانية: الإيمان باللّه و الاستسلام له.

الخطوة الثّالثة: العمل الصالح.

فبعد طى هذه المراحل الثلاث يكون الإنسان قد دخل إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع طبقا لوعد اللّه المؤكد مهما كان ذلك الإنسان مثقلا بالذنوب.

أمّا بشأن المراد من اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فقد ذكر المفسّرون تفسيرات متعددة. و التّفسير الذى هو أفضل من البقية هو أنّ أوامر متعددة و مختلفة نزلت من عند البارئ عزّ و جلّ، البعض منها واجب و الآخر مستحبّ، و البعض الآخر مباح، و المراد من (أحسن) هو انتخاب الواجبات

و المستحبات، مع الانتباه إلى تدرّجها.

و قال البعض: إنّه إشارة إلى كون القرآن هو أحسن الكتب السماوية النازلة، بدليل ما ورد فى الآية (۲۳) من هذه السورة الزمر اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ و بالطبع فإنّه لا يوجد هناك أى تعارض بين التّفسيرين.

بحثان

۱- باب التوبة مفتوح للجميع

من المشاكل التى تقف عائقا فى طريق بعض المسائل التربوية، هو إحساس الإنسان بعقدة الذنب من جزاء الأعمال القبيحة السابقة التى ارتكبها، خاصة إذا كانت هذه الذنوب كبيرة، إذ أنّ الذى يستحوذ على ذهن الإنسان إن أراد التوجّه نحو الطهارة و التقوى و العودة إلى اللّه، فكيف يتخلص من أعباء الذنوب الكبيرة السابقة.

هذا التفكير يبقى كابوسا مخفيا يرافقه كالظل، فكلّما خطا خطوة نحو تغيير منهاج حياته و سعى نحو الطهارة و التقوى، و تحدثه نفسه: ما الفائدة من التوبة؟

فسلاسل أعمالك السابقة تطوق يديك و رجليك، لقد اصطبغت ذاتك بلون الذنب، و هو لون ثابت و لا يمكن إزالته و المطلعون

علی مسائل التربیة و توبة المذنبین یدرکون جیدا ما ذکرناه، یعلمون حجم هذه المشکلة الکبیرة.

التعالیم الإسلامیة فی القرآن المجید حلت هذه المشکلة عند ما أفصحت عن أنّ التوبة و الإنابة یمکن أن تکون أداة قاطعة و حازمة للانفصال عن الماضی و بدء حیاة جدیدة، أو حتی یمکن أن تکون بمثابة (ولادة جدیدة) للتائب إذا تحققت بشرطها و شروطها، إذ تکرر الحدیث فی الروایات الإسلامیة بشأن بعض المذنبین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۳

التائبین، حیث ورد (کمن ولدته أمه).

و بهذا الشکل فإنّ القرآن الکریم یبقی أبواب اللطف الإلهی مفتّحة أمام کلّ الناس مهما کانت ظروفهم، و المثال علی ذلک الآیات المذکورة آنفا التی تدعو المجرمین و المذنبین بلطف للعودة إلی اللّه، و تعدهم بإمکانیة محو الماضی.

و نقرا

فی روایة وردت عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «التائب من الذنب کمن لا ذنب له»[۱۱۹].

کما

ورد حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام جاء فیه: «التائب من الذنب کمن لا ذنب له، و المقیم علی الذنب و هو مستغفر منه کالمستهزئ»[۱۲۰].

و من البدیهی أن هذه العودة لا یمکن أن تتمّ بدون قید أو شرط، لأنّ الباریٔ عزّ و جلّ حکیم و لا یفعل شیئا عبثا، فإذا کانت أبواب رحمته مفتحة أما عباده، و دعوته إیّاهم للتوبة مستمرة، فإنّ وجود الاستعداد عند العباد أمر لا بدّ منه.

و من جهة اخری یجب أن تکون عودة الإنسان صادقة، و أن تحدث انقلابا و تغیرا فی داخله و ذاته.

و من ناحیة ثانیة یجب أن یبدأ الإنسان بعد توبته باعمار و بناء أسس الإیمان و العقیدة التی کانت قد دمّرت بعواصف الذنوب.

و من ناحیة ثالثة یجب أن یصلح الإنسان بالأعمال الصالحة عجزه الروحی و سوء خلقه، فکلّما کانت الذنوب السابقة کبیرة، علیه أن یقوم بأعمال صالحة أکثر و أکبر، و هذا بالتحدید ما بیّنه القرآن المجید فی الآیات الثلاث المذکورة أعلاه تحت عنوان (الإنابة) و (التسلیم) و (اتباع الأحسن).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۴

۲- اصحاب الأحمال الثقیلة

بعض المفسّرین أوردوا أسبابا متعددة لنزول الآیات آنفة الذکر، و یحتمل أن تکون جمیعها من قبیل التطبیق و لیس من قبیل أسباب النّزول.

و منها قصة (وحشی) الذی ارتکب أفظع جریمة فی ساحة معرکة أحد، عند ما قتل حمزة عمّ النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم غدرا، و قد کان حمزة قائدا شجاعا کرّس کلّ حیاته فی سبیل الدفاع عن النّبی الکریم. و بعبارة اخری: إنّه کان درعا للرسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم. فبعد أن بلغ الإسلام أوج عظمته و انتصر المسلمون علی أعدائهم، أراد وحشی أن یدخل الدین الإسلامی، و لکنّه کان خائفا من عدم قبول إسلامه، و لما أسلم

قال له النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «أ وحشی؟» قال: نعم، قال: «أخبرنی کیف قتلت عمیّ» فأخبره، فبکی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و قال: «غیب وجهک عنّی فإنّی لا أستطیع النظر إلیک»

فلحق بالشام فمات فی الخمر[۱۲۱]. و هنا تساءل أحدهم: هل أن هذه الآیة تخص وحشیا فقط أم تشمل کلّ المسلمین،

فأجاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: إنّها تشمل الجميع.

و منها قصة النباش-

قال: دخل معاذ بن جبل على رسول اللّه باكيا فسلّم فردّ عليه السّلام ثمّ قال: «ما يبكيك، يا معاذ؟» فقال: يا رسول اللّه، إنّ بالباب شابا طريّ الجسد نقى اللون حسن الصورة يبكى على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «ادخل علىّ الشاب يا معاذ» فأدخله عليه فسلم فردّ عليه السّلام قال: «ما يبكيك يا شاب؟» قال: كيف لا أبكى و قد ركبت ذنوبا، إن أخذنى اللّه عزّ و جلّ ببعضها أدخلنى نار جهنم؟ و لا أرانى إلّا سيأخذنى بها و لا يغفر لى أبدا.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «هل أشركت باللّه شيئا؟».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۵

قال: أعوذ باللّه أن أشرك بربّى شيئا.

قال: «أ قتلت النفس التى حرّم اللّه؟».

قال: لا.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «يغفر اللّه لك ذنوبك، و إن كانت مثل الجبال الرواسى».

فقال الشاب: فإنّها أعظم من الجبال الرواسىّ.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «يغفر اللّه لك ذنوبك، و إن كانت مثل الأرضين السبع و بحارها و رمالها و أشجارها و ما فيها من الخلق».

قال: فإنها أعظم من الأرضين السبع و بحارها و رمالها، و أشجارها و ما فيه من الخلق.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «يغفر اللّه ذنوبك و إن كانت مثل السماوات و نجومها و مثل العرش و الكرسى».

قال: فإنّها أعظم من ذلك.

قال: فنظر النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إليه كهيئة الغضبان ثمّ قال: «و يحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربّك؟».

فخّر الشاب لوجهه و هو يقول: سبحان ربّى ما شىء أعظم من ربّى، ربّى أعظم يا نبىّ اللّه من كلّ عظيم.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «فهل يغفر الذنب العظيم إلّا الربّ العظيم».

قال الشاب: لا و اللّه يا رسول اللّه، ثمّ سكت الشاب فقال له النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:

«و يحك يا شاب ألا تخبرنى بذنب واحد من ذنوبك؟».

قال: بلى، أخبرك: إنّى كنت أنبش القبور سبع سنين، أخرج الأموات و أنزع الأكفان، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار فلمّا حملت إلى قبرها و دفنت و انصرف عنها أهلها و جنّ عليهم الليل، أتيت قبرها فنبشتها ثمّ استخرجتها و نزعت ما كان عليها من أكفانها و تركتها متجرّدة على شفير قبرها و مضيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۶

منصرفا، فأتانى الشيطان فأقبل يزيّنها لى ... و لم أملك نفسى حتى جامعتها و تركتها مكانها. فإذا أنا بصوت من ورائى يقول: يا شاب ويل لك من ديّان يوم الدين، ... فما أظن أنّى أشم رائحة الجنّة أبدا فما ترى يا رسول اللّه.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: تنحى عنّى يا فاسق، إنّى أخاف أن أحترق بنارك، فما أقربك من النّار! ...

فذهب فأتى المدينة فتزوّد منها ثمّ أتى بعض جبالها متعبّدا فيها، و لبس مسحا و غل يديه جميعا إلى عنقه، و نادى: يا ربّ هذا عبدك (بهلول) بين يديك مغلول ...

ثمّ قال: اللّهم ما فعلت فی حاجتی إن کنت استجبت دعائی و غفرت خطیئتی فأوح إلی نبیّک، و إن لم تستجب لی دعائی ... فأنزل اللّه تبارک و تعالی علی نبیّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم وَ الَّذِینَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً ...[۱۲۲].

الظاهر أنّ تلاوة جبرائیل لهذه الآیة هنا لم تکن لأوّل مرّة کی تعدّ من أسباب النّزول، و إنّما هی آیة مکررة و نزلت من قبل، و تکرارها إنّما هو للتأکید و جلب الانتباه أکثر، و إعلان عن قبول توبة ذلک الرجل المذنب. و نکرر مرّة اخری: إن مثل أولئک الأشخاص الذین یحملون علی أکتافهم ذنوبا ثقیلة علیهم أداء واجبات کثیرة لمحو آثار الماضی.

و قد ذکر «الفخر الرازی» أسبابا أخری لنزول هذه الآیات إذ قال: إنّها نزلت فی أهل مکّة حیث قالوا: یزعم محمّد أنّ من عبد الأوثان و قتل النفس لم یغفر له، و قد عبدنا و قتلنا، فکیف نسلم؟![۱۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۷

الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۵۶ الی ۵۹]

اشارة

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ کُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِینَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِی لَکُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِی کَرَّةً فَأَکُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ (۵۸) بَلی قَدْ جاءَتْکَ آیاتِی فَکَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَکْبَرْتَ وَ کُنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ (۵۹)

التّفسیر

الندم لا ینفع فی ذلک الیوم:

الآیات السابقة أکّدت علی التوبة و إصلاح الذات و إصلاح الأعمال السابقة، و آیات بحثنا الحالی تواصل التطرق لذلک الموضوع، ففی البدایة تقول: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ کُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِینَ ۱۲۴].

«یا حسرتا»: هی فی الأصل (یا حسرتی)، (حسرة أضیفت إلیها یاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۸

المتکلم)، و التحسر معناه الحزن ممّا فات وقته لانحساره ممّا لا یمکن استدراکه.

و یری الراغب فی مفرداته (یا حسرتا) من مادة (حسر) علی وزن (حبس) و تعنی التعری و التجرد من الملابس، و بما أن الندم و الحزن علی ما مضی بمنزلة زوال حجب الجهل، فلا اطلاق علی هذه الموارد.

نعم، فعند ما یرد الإنسان إلی ساحة المحشر، و یری بأمّ عینیه نتائج إفراطه و إسرافه و مخالفته و اتخاذه الأمور الجدیة هزوا و لعبا، یصرخ فجأة (وا حسرتاه) إذ یمتلئ قلبه فی تلک اللحظات بغمّ کبیر مصحوب بندم عمیق، و هذه الحالة النفسیة التی وردت فی الآیات المذکورة.

أما فیما یخصّ معنی جَنْبِ اللَّهِ هنا؟ فإنّ المفسّرین ذکروا تفاسیر و معانی کثیرة لها. و کلمة (جنب) تعنی فی اللغة «الخاصرة»، کما تطلق علی کلّ شیء یستقر إلی جانب شیء آخر، مثلما أن الیمین و الیسار یعنیان الطرف الأیمن و الأیسر للجسم، ثمّ یقال لکل شیء فی یسار أو یمین الجسم، و هنا جَنْبِ اللَّهِ تعنی أن الأمور ترجع إلی جانب اللّه، فأوامره و إطاعته و التقرب إلیه، و الکتب السماویة کلها نزلت من جانبه، و کلها مجموعة فی هذا المعنی.

و بهذا الترتیب فإنّ المذنبین یکشفون فی ذلک الیوم عن ندامتهم و حسرتهم و أسفهم علی تقصیرهم و تفریطهم تجاه اللّه سبحانه و تعالی، خاصة فیما یتعلق بسخریتهم و استهزائهم بآیات اللّه و رسله، لأنّ السبب الرئیسی لتفریطهم هو العبث و السخریة من هذه الحقائق الکبیرة بدافع الجهل و الغرور و التعصب.

ثمّ تضیف الآیة أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِی لَکُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِینَ

یبدو أنّ هذا الکلام یقوله الکافر عند ما یوقف أمام میزان الحساب، حیث یری البعض یقادون إلی الجنّة و هم محملون بأعمالهم الحسنة، و هنا یتمنی الکافر لو أنّه کان أحد هؤلاء المتوجهین إلی جنّة الخلد.

و تضیف الآیة مرّة اخری أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِی کَرَّةً فَأَکُونَ مِنَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۹

الْمُحْسِنِینَ

و هذا ما یقوله الکافر- أیضا- حینما تقوده الملائکة الموکلة بالنّار نحو جهنم، و تری عیناه نار جهنم و منظر العذاب الألیم فیها، و هنا یتأوه من أعماق قلبه و یتوسل لکی یسمح له بالعودة مرّة اخری إلی الحیاة الدنیا لیطهر نفسه من الأعمال السیئة و القبیحة بأعمال صالحة تهیئه و تعده للوقوف فی صفوف المحسنین و الصالحین.

و الملاحظ أنّ کلّ عبارة من هذه العبارات الثلاث یقولها المجرمون عند مشاهدة مشهد معین من عذاب یوم القیامة الرهیب.

حیث أنّهم یتحسرون علی ما فرطوا فی جنب اللّه فور دخولهم ساحة المحشر.

و یتمنون لو أنّهم فازوا بما فاز به المتقین، عند ما یرون الثواب الجزیل الذی أغدقه الباریٔ عزّ و جلّ علی عباده المتقین.

و یتوسلون إلی الباریٔ عزّ و جلّ لیعیدهم إلی الحیاة الدنیا لیصلحوا ماضیهم الفاسد، عند ما یرون العذاب الإلهی الألیم.

القرآن المجید یردّ علی القول الثّانی من بین الأقوال الثلاثة إذ یقول: بَلی قَدْ جاءَتْکَ آیاتِی فَکَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَکْبَرْتَ وَ کُنْتَ مِنَ الْکافِرِینَ ۱۲۵].

إنّ قولک: لو کانت الهدایة قد شملتنی لأصبحت من المتقین، فما هی الهدایة الإلهیة؟ هل هی غیر الکتب السماویة و رسل اللّه، و آیاته و علاماته الصادقة فی الآفاق و الأنفس؟! إنّک سمعت بأذنیک و شاهدت بعینیک کلّ هذه الآیات، فما کان ردّ فعلک إزاءها غیر التکذیب و التکبیر و الکفر!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۰

فهل یمکن أن یعاقب الباریٔ عزّ و جلّ أحدا من دون أن یتمّ حجّته علیه؟

و هل کان هناک فرق بینک و بین الذین اهتدوا إلی طریق الحق من حیث المناهج التربویة الإلهیة التی أعدّت لکم و لهم؟ لهذا فأنت المقصر الرئیسی، و أنت بنفسک جلبت اللعنة إلیک! فمن بین تلک الأعمال الثلاثة یعد (الاستکبار) الجذر الرئیسی، و من بعد یأتی التکذیب بآیات اللّه، و حصیلة الاثنین هو الکفر و عدم الإیمان.

و لکن لماذا لم یجیب القرآن علی القول الأول؟

الجواب: لأنّ هناک حقیقة لا مناص منها، و هی أنّهم یجب أن یتحسروا و یغرقوا فی الغم و الهم.

و أما بشأن قولهم الثّالث الذی یتوسلون فیه إلی الباریٔ عزّ و جلّ کی یسمح لهم بالعودة إلی الحیاة الدنیا، فإنّ القرآن الکریم یجیبهم فی عدّة آیات منها الآیة (۲۸) من سورة الأنعام: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ و الآیة (۱۰۰) من سورة المؤمنون، و لا حاجة لتکرار تلک الأجوبة.

و الملاحظ هنا أنّ الرد علی قولهم الثّانی، یمکن أن یکون فی الوقت نفسه إجابة علی السؤال الثّالث أیضا، لأنّهم ماذا یهدفون من عودتهم إلی الحیاة الدنیا؟

هـل أنّه أمر آخر غير إتمـام الحجـة، فى حين أنّ البـارئ عزّ و جـلّ أتمّ الحجـة عليهم بصورة كاملـة لا نقص فيها، فانتباه المجرمين من غفلتهم فور مشاهـدتهم للعـذاب، إنّما هو نوع من اليقظة الاضـطرارية التى لا يبقى لها أى أثر عند ما يعودون إلى حالتهم الطبيعية. حقا إنّه نفس الموضوع الذى يشير إليه القرآن الكريم بشأن الكافرين و المشركين الذين يدعون اللّه مخلصين له الدين عند ما يبتلون بخطر مـا فى وسط البحر المتلاطم الأمواج، ثمّ ينسون اللّه بمجرّد أن ينجيهم و يوصـلهم بسـلام إلى ساحل النجاة فَإِذا رَكِبُوا فِی الْفُلْکِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۱

إِلَی الْبَرِّ إِذا هُمْ یُشْرِکُونَ ۱۲۶].

ملاحظتان

۱- التفريط فى جنب اللّه

قلنا: إنّ جَنْبِ اللَّهِ التى وردت فى آيات بحثنا لها معان واسعة، تشمل كلّ ما يرتبط باللّه سبحانه و تعالى، و بهذا الشكل فإنّ التفريط فى جنب اللّه يشمل كلّ أنواع التفريط فى طاعة أوامر اللّه، و اتباع ما جاء فى الكتب السماوية، و التأسى بالأنبياء و الأولياء.

و لهـذا السـبب ورد فى العديـد من روايات أئمّـة أهل البيت عليهم السّـلام أنّ الأئمّة الأطهار هم المقصودون ب جَنْبِ اللَّهِ و من تلك الروايات ما

ورد فى أصول الكافى نقلا عن الإمام موسـى الكاظم عليه السّـلام إذ قال فى تفسـير: یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ «جنب اللّه أمير المؤمنين و كذلك من كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهى الأمر إلى آخرهم»[۱۲۷].

كما نقرأ

فى تفسير علىّ بن إبراهيم نقلا عن الإمام الصادق عليه السّلام: «نحن جنب اللّه»[۱۲۸].

و المعنى ذاته ورد فى روايات اخرى لأئمّة أهل البيت الأطهار عليهم السّلام.

و كما قلنا مرارا فإنّ هذه التفاسير إنّما هى من قبيل بيان المصاديق الواضحة، لأنّ من المسلّم أنّ اتباع نهج الأئمّة إنّما هو اتباع للرسول و طاعة للّه، إذ أنّ الأئمة عليهم السلام لا ينطقون بشىء من عندهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۲

و فى حديث آخر تمّ تعريف العلماء غير العالمين بأنّهم مصداق واضح للمتحسرين، و حيث

ورد فى كتاب (المحاسن) حديث للإمام الباقر عليه السّلام، جاء فيه: «إن أشد الناس حسرة يوم القيامة الذين وصفوا بالعدل ثمّ خالفوه، و هو قول اللّه عزّ و جلّ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب اللّه»[۱۲۹].

۲- على أعتاب الموت أو القيامة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏۱۵ ؛ ص۱۳۲

أنّ تلك الأقوال الثلاثة قالها المجرمون عند ما شاهدوا العذاب الإلهى فى الدنيا و هو عذاب الاستئصال و الهلاك فى نهاية أعمارهم؟

أم عن زمان دخولهم ساحة القيامة؟

المعنى الثّانى أنسب، لأنّ الآيات السابقة تتحدث عن عذاب الاستئصال و الآية التالية تتحدث عن يوم القيامة، و الشاهد على هذا القول هو الآية (٣١) من سورة الأنعام التى تقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها.

و الروايات المذكورة أعلاه خير شاهد على هذا المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۳

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۶۰ الى ۶۴]

اشارة

وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (۶۰) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۱) اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۶۲) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۶۳) قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (۶۴)

التّفسير

اللّه خالق كلّ شيء و حافظه:

الآيات السابقة تتحدث عن المشركين الكذابين و المستكبرين الذين يندمون يوم القيامة على ما قدمت أيديهم و يتوسلون لإعادتهم إلى الدنيا، و لكن هيهات أن يستجاب لهم طلبهم، و آيات بحثنا هذه تواصل الحديث عن هذا الأمر، إذ تقول:

وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ.

ثم تضيف أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ

لا شكّ أن عبارة كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ لها مفاهيم و معان واسعة و عميقة، لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۴

الآية- هنا- تستهدف أولئك الذين قالوا بوجود شريك للّه، أو باتخاذ اللّه ولدا من الملائكة أو الذين يزعمون أنّ المسيح عليه السّلام هو ابن اللّه، و أمثال هذه المزاعم و الادعاءات.

و كلمة «مستكبر» تطلق دائما على أولئك الذين يرون أنفسهم ذات شأن و قدر كبير، و لكن المراد منها- هنا- أولئك الذين يستكبرون على الأنبياء، و الذين يتركون اتباع الشريعة الحقة، و يرفضون قبولها و اتباعها.

اسوداد وجوه الكاذبين يوم القيامة دليل على ذلتهم و هوانهم و افتضاحهم، و كما هو معروف فإن ساحة القيامة هى ساحة ظهور الأسرار و الخفايا و تجسيد أعمال و أفكار الإنسان، فالذين كانت قلوبهم سوداء و مظلمة فى الدنيا، و أعمالهم و أفكارهم سوداء و مظلمة أيضا، يخرج هذا السواد و الظلام من أعماقهم إلى خارجهم فى يوم القيامة ليطفح على وجوههم التى تكون فى ذلك اليوم مسودّة و مظلمة.

و بعبارة اخرى فإنّ ظاهر الإنسان يطابق باطنه يوم القيامة، و لون الوجه يكون بلون القلب، فالذى قلبه أسود و مظلم، يكون وجهه مظلما و أسود، و الذى قلبه ساطع بالنور يكون وجهه كذلك ساطعا بالنور.

و هو ما ورد فى الآيتين (۱۰۶) و (۱۰۷) من سورة آل عمران يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و الملفت للنظر أنّه قد ورد فى بعض الروايات أهل البيت عليهم السلام، أن الكذب على اللّه، الذى هو أحد أسباب اسوداد الوجه يوم القيامة، له معان واسعة تشمل حتى الادعاء بالإمامة و القيادة كذبا، كما ذكر ذلك الشيخ الصدوق فى كتاب (الاعتقادات) نقلا

عن الإمام الصادق عليه السّلام عند ما أجاب الإمام على سؤال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۵

يتعلق بتفسير هذه الآية، و قال: «من زعم أنّه إمام و ليس بإمام، قيل: و إن كان علويا فاطميا؟ قال: و إن كان علويا فاطميا»[۱۳۰].

و هذا فى الحقيقة بيان لمصداق بارز، لأنّ الادعاء المزيف بالإمامة و القيادة الإلهية هو أوضح مصاديق الكذب على اللّه.

و كذلك فإنّ من نسب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو إلى الإمام المعصوم حديثا مختلقا، اعتبر كاذبا على اللّه، لأنّهم لا ينطقون عن الهوى.

لهذا

فقد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من تحدث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوما فإن صدق علينا فإنّما يصدق على اللّه و على رسوله، و إن كذب علينا فإنّه يكذب على اللّه و رسوله، لأنّا إذا حدثنا لا نقول قال فلان و قال فلان، إنّما نقول قال اللّه و قال رسوله ثمّ تلا هذه الآية وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ...[۱۳۱].

الحديث المذكور يبيّن بصورة واضحة أنّ أئمة أهل البيت الأطهار، لم يقولوا شيئا من عندهم، و إن كلّ الأحاديث التى وردت عنهم صحيحة و موثوقة، لأنّها تعود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و هذه الحقيقة مهمّة جدا، و على علماء الإسلام أن يلتفتوا إليها، فالذين لا يقبلون بإمامة أهل البيت عليهم السلام، عليهم أن يقبلوا بأن الأحاديث التى يرويها أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، إنّما هى منقولة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و بهذا الشأن

ورد فى كتاب الكافى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «حديثى حديث أبى، و حديث أبى حديث جدى، و حديث جدى حديث الحسين، و حديث الحسين حديث الحسن، و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين، و حديث أمير المؤمنين حديث رسول اللّه، و حديث رسول اللّه قول اللّه عزّ و جلّ»[۱۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۶

هذا الكلام يدعو إلى الإمعان و التأمل أكثر فى آيات القرآن المجيد، لأن التكبر هو المصدر الرئيسى للكفر، كما نقرأ ذلك بشأن الشيطان أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ ۱۳۳]. و لهذا السبب فلا يمكن أن يكون للمستكبرين مكان آخر غير جهنم ليحترقوا بنارها، و

قد ورد فى حديث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

«إنّ فى جهنم لواد للمتكبرين يقال له سقر، شكى إلى اللّه عزّ و جلّ شدة حرّه، و سأله أن يتنفس فأذن له فتنفس فأحرق جهنم»[۱۳۴].

الآية التالية تتحدث عن طائفة تقابل الطائفة السابقة، حيث تتحدث عن المتقين و ابتهاجهم فى يوم القيامة، إذ تقول: وَ يُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ ۱۳۵].

ثم توضح فوزهم و انتصارهم من خلال جملتين قصيرتين مفعمتين بالمعانى، لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

نعم، إنّهم يعيشون فى عالم لا يوجد فيه سوى الخير و الطهارة و السرور، و هذه العبارة القصيرة جمعت- حقّا- كلّ الهبات الإلهية فيها.

الآية التالية تتطرق من جديد إلى مسألة التوحيد و الجهاد ضدّ الشرك، و تواصل مجادلة المشركين، حيث تقول: اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ

هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ

العبارة الأولی فی هذه الآیة تشیر إلی (توحد اللّه فی الخلق) و الثانیة تشیر إلی (توحده فی الربوبیة).

فمسألة (توحده فی الخلق) هی حقیقة اعترف بها حتی المشرکون، کما ورد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۷

فی الآیة (۳۸) من السورة هذه وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللَّهُ

و لکنّهم ابتلوا بالانحراف فیما یتعلق بمسألة (توحده فی الربوبیة)، فی بعض الأحیان اعتبروا الأصنام هی التی تحفظهم و تحمیهم و تدبر أمرهم، و کانوا یلجؤون إلیها عند ما یواجهون أی مشکلة. و القرآن المجید- من خلال الآیة المذکورة أعلاه- یشیر إلی حقیقة أنّ تدبیر أمور الکون و حفظه هی بید خالقه، و لیس بید أحد آخر، و لهذا یجب اللجوء إلیه دائما.

و قد ذکر «ابن منظور» فی کتاب (لسان العرب) معانی متعددة لکلمة (وکیل) منها: الکفیل، و الحافظ، و المدبر للأمر.

و من هنا یتضح أنّ الأصنام لیست مصدر خیر أو شر، و أنّها عاجزة عن حل أبسط عقدة، حیث أنّها موجودات ضعیفة و عاجزة، و لا یمکن أن تقدم أدنی فائدة للإنسان.

و قد عمد بعض المؤیدین للمذهب الجبری إلی الاستدلال علی بعض الأمور من عبارة اللَّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ لتأکید ما جاء فی معتقداتهم المنحرفة، إذ قالوا: إنّ هذه الآیة تشمل الأعمال أیضا، و لهذا فإنّ أعمالنا تعد من خلق اللّه، رغم أنّ أعضاءنا هی التی تقوم بها.

إنّ خطأ أولئک هو أنّهم لم یدرکوا هذه الحقیقة جیدا، و هی أنّ خالقیة اللّه سبحانه و تعالی لا یوجد فیها أی تعارض مع حریة الإرادة و الإختیار لدینا، لأنّ التناسب فیما بینهما طولی و لیس عرضی.

فأعمالنا تتعلق باللّه، و تتعلق بنا أیضا، لأنّه لا یوجد هناک شیء فی هذا الکون یمکن أن یکون خارج إطار سلطة الباری عزّ و جلّ، و علی هذا الأساس فإن أعمالنا هی من خلقه، و إنه أعطانا القدرة و العقل و الإختیار و الإرادة و حریة العمل، و من هذه الناحیة یمکن أن ننسب أعمالنا إلیه، حیث إنّه أراد أن نکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۸

أحرارا و ننفذ الأعمال بأختیارنا، کما أنّه وضع کلّ ما نحتاجه تحت تصرفنا.

لکننا فی الحال ذاته أحرار مخیرون فی تنفیذ الأعمال، و علی ذلک فإنّ أفعالنا منسوبة إلینا و نحن المسؤولون عنها.

فإذا قال أحد: إنّ الإنسان یخلق أعماله، و لا دخل للّه عزّ و جلّ فیها، فإنّه قد أشرک لأنّه فی هذه الحالة یعتقد بوجود خالقین، خالق کبیر و خالق صغیر، و إذا قال آخر: إنّ أعمالنا هی من خلق اللّه و لا دخل لنا فیها، فقد انحرف، لأنّه أنکر بقوله هذا حکمة و عدالة اللّه، إذ لا یصح أن یجبرنا فی الأعمال، ثمّ یحمّلنا مسئولیتها! لأنّ فی هذه الحالة، یصبح الجزاء و الثواب و الحساب و المعاد و التکلیف و المسؤولیة کلّها عبثا.

لذا فإن الاعتقاد الإسلامی الصحیح و الذی یمکن أن یستشف من مجموع آیات القرآن المجید، هو أن کلّ أعمالنا منسوبة للّه و إلینا، و هذه النسبة لا یوجد فیها أی تعارض، لأنّها طولیة و لیست عرضیة.

أمّا الآیة التالیة فقد تطرقت (توحید اللّه فی المالکیة) لتکمل بحث التوحید الذی ورد فی الآیات السابقة، إذ تقول: لَهُ مَقالِیدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

«مقالید»: کما یقول أغلب اللغویین، جمع (مقلید) (مع أن الزمخشری یقول فی الکشاف: إن هذه الکلمة لیس لها مفرد من لفظها) و (مقلید) و (إقلید) کلاهما تعنی المفتاح، و علی حدّ قول صاحب کتاب (لسان العرب) و آخرین غیره فإن کلمة (مقلید) مأخوذة من (کلید) الفارسیة الأصل، و من العربیة تستعمل بنفس المعنی، و لذا فإن مَقالِیدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تعنی مفاتیح السماوات و الأرض.

هذه العبارهٔ تستخدم ککنایهٔ عن امتلاک شیء ما أو التسلط علیه کأنّ یقول أحد: مفتاح هذا العمل بید فلان. لذا فإنّ الآیهٔ المذکورهٔ أعلاه یمکن أن تشیر إلی (وحدانیهٔ اللّه فی الملک) و فی نفس الوقت تشیر إلی وحدانیته فی التدبیر و الربوبیهٔ و الحاکمیهٔ علی هذا العالم الکونی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۹

و لهذا السبب أوردت الآیهٔ المذکورهٔ بمثابهٔ استنتاج وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ اللَّهِ أُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ

لأنّهم ترکوا المصدر الرئیسی و المنبع الحقیقی لکل الخیرات و البرکات و تاهوا فی صحاری الضلال عند ما أعرضوا بوجوههم عن مالک مفاتیح السماوات و الأرض، و توجهوا نحو موجودات عاجزهٔ تماما عن تقدیم أدنی عمل لهم.

و

قد ورد فی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه طلب من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم توضیح معنی کلمهٔ (مقالید) فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «یا علی، لقد سئلت عن عظیم المقالید، هو أن تقول عشرا إذا أصبحت، و عشرا إذا أمسیت، لا إله الّا اللّه و اللّه أکبر و سبحان اللّه و الحمد للّه و استغفر اللّه و لا قوهٔ إلا باللّه (هو) الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن له الملک و له الحمد (یحیی و یمیت) بیده الخیر و هو علی کلّ شیء قدیر»[۱۳۶].

ثم أضاف: «من قالها عشرا إذا أصبح، و عشرا إذا أمسی، أعطاه اللّه خصالا ستا ... أوّلها یحرسه من الشیطان و جنوده فلا یکون لهم علیه سلطان».

أمّا من ردد هذه الکلمات بصورهٔ سطحیهٔ فإنّه- حتما- لا یستحق کل، هذه المکافآت، فیجب الإیمان بمحتواها و التخلق بها.

هذا الحدیث یمکن أن یشیر إلی أسماء اللّه الحسنی التی هی أصل الحاکمیهٔ و المالکیهٔ لهذا العالم الکونی.

من مجموع کلّ الأمور التی ذکرناها فی الآیات السابقهٔ بشأن فروع التوحید، یمکن الحصول علی نتیجهٔ جیدهٔ، و هی أنّ التوحید فی العبادهٔ هو حقیقهٔ لا یمکن نکرانها و علی کلّ إنسان عاقل أن لا یسمح لنفسه بالسجود للأصنام، و لهذا فإن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۰

البحث ینتهی بآیهٔ تتحدث بلهجهٔ حازمهٔ و متشددهٔ قُلْ أَ فَغَیْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّی أَعْبُدُ أَیُّهَا الْجاهِلُونَ

هذه الآیهٔ- و بالنظر الی أنّ المشرکین و الکفرهٔ کانوا أحیانا یدعون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلی احترام آلهتهم و عبادتها، أو علی الأقل عدم الانتقاص منها أو الهی عن عبادتها،- أعلنت و بمنتهی الصراحهٔ أنّ مسألهٔ توحید اللّه و عدم الإشراک به هی مسألهٔ لا تقبل المساومهٔ و الاستسلام أبدا، إذ یجب أن تزال کافهٔ أشکال الشرک و تمحی من علی وجه الأرض.

فالآیهٔ تعنی أنّ عبدهٔ الأصنام علی العموم هم أناس جهلهٔ، لأنّهم لا یجهلون فقط الباریٔ عزّ و جلّ، بل یجهلون حتی مرتبهٔ الإنسان الرفیعهٔ.

إنّ التعبیر ب «تأمرونی»، الذی ورد- فی الآیهٔ الآنفهٔ- یشیر إلی أنّ الجهلهٔ کانوا یأمرون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بأن یعبد أصنامهم بدون أیّ دلیل منطقی، و هذا الموقف لیس بعجیب من أفراد جهلهٔ.

ألیس من الجهل و الغباء أن یترک الإنسان عبارهٔ الباری عزّ و جلّ رغم مشاهدته للکثیر من الأدلّهٔ فی هذا العالم و التی تدلّ علی علمه و قدرته و تدبیره و حکمته، ثمّ یتمسّک بعبادهٔ موجودات تافهٔ لا قیمهٔ لها و عاجزهٔ عن تقدیم أدنی مساعدهٔ و عون لعبدتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۱

الآیات [سورهٔ الزمر (۳۹): الآیات ۶۵ الی ۶۷]

اشارهٔ

وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۶۵) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۶) وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۷)

التّفسير

الشرك محبط للأعمال:

آيات بحثنا تواصل التطرق للمسائل المتعلقة بالشرك و التوحيد و التى كانت قد استعرضت فى الآيات السابقة أيضا.

الآية الأولى تتحدث بلهجة قاطعة و شديدة حول أخطار الشرك، و تقول:

وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و بهذا الترتيب، فإنّ للشرك نتيجتين خطيرتين، تشملان حتى أنبياء اللّه فى مالو أصبحوا مشركين- على فرض المحال-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۲

النتيجة الأولى: إحباط الأعمال، و الثانية: الخسران و الضياع.

و إحباط الأعمال يعنى محو آثار ثواب الأعمال السابقة، و ذلك بعد كفره و شركه باللّه، لأنّ شرط قبول الأعمال هو الاعتقاد بأصل التوحيد، و لا يقبل أى عمل بدون هذا الاعتقاد.

فالشرك هو النّار التى تحرق شجرة أعمال الإنسان.

و الشرك هو الصاعقة التى تهلك كلّ ما جمعه الإنسان خلال فترة حياته.

و الشرك هو عاصفة هو جاء تدمر كلّ أعمال الإنسان و تأخذها معها، كما ورد فى الآية (۱۸) من سورة إبراهيم مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ.

لذا

ورد فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «إنّ اللّه تعالى يحاسب كلّ خلق إلّا من أشرك باللّه فإنّه لا يحاسب و يؤمر به إلى النّار»[۱۳۷].

و أمّا خسارتهم فإنّها بسبب بيعهم أكبر ثروة يمتلكونها، ألا- و هى العقل و الإدراك و العمر فى سوق التجارة الدنيوية، و شراؤهم الحسرة و الألم بثمنها.

و هنا يطرح هذا السؤال: هل من الممكن أن يسير الأنبياء العظام فى طريق الشرك حتى تخاطبهم الآية الآنفة بهذه اللهجة؟

الجواب على هذا السؤال واضح، و هو أنّ الأنبياء لم يشركوا قطّ، مع أنّهم يمتلكون القدرة و الإختيار الكاملين فى هذا الأمر، و معصوميتهم لا تعنى سلب القدرة و الإختيار منهم، إلّا أنّ علمهم الغزير و ارتباطهم المباشر و المستمر مع البارئ عزّ و جلّ يمنعهم حتى من التفكير و لو للحظة واحدة بالشرك، فهل يمكن أن يتناول السمّ طبيب عالم و حاذق و مطلع بصورة جيدة على تأثير تلك المادة السامة و الخطرة، و هو فى حالة طبيعية؟! الهدف هو اطلاع الجميع على خطر الشرك، فعند ما يخاطب البارئ عزّ و جلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۳

أنبياء العظام بهذه اللهجة الشديدة، فعلى الأمة أن تحسب حسابها، هذا الأسلوب من قبيل ما نصّ عليه المثل المعروف (إيّاك أعنى و اسمعى يا جارة).

و نفس المعنی

ورد فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أثناء إجابته علی سؤال وجهه إلیه المأمون، إذ قال: یا بن رسول اللّه ألیس من قولک أن الأنبیاء معصومون؟ قال علیه السّلام: «بلی» قال: فما معنی قول اللّه إلی أن قال: فأخبرنی عن قول اللّه: عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ

قال الرضا علیه السّلام: «هذا ممّا نزل بإیّاک أعنی و اسمعی یا جارة، خاطب اللّه بذلک نبیّه و أراد به أمته» و کذلک قوله: لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ ... و قوله تعالی:

وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناکَ لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیْئاً قَلِیلًا قال: صدقت یا ابن رسول اللّه ۱۳۸].

الآیة التالیة تضیف للتأکید أکثر بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ کُنْ مِنَ الشَّاکِرِینَ ۱۳۹].

تقدیم اسم الجلالة للدلالة علی الحصر، و ذلک یعنی أن ذات اللّه المنزهة یجب أن تکون معبودک الوحید، ثمّ تأمر الآیة بالشکر، لأن الشکر علی النعم التی أغدقت علی الإنسان هی سلم یؤدی إلی معرفة اللّه، و نفی کلّ أشکال الشرک، فالشکر علی النعم من الأمور الفطریة عند الإنسان، و قبل الشکر یجب معرفة المنعم، و هنا فإن خط الشکر یؤدی إلی خط التوحید، و ینکشف بطلان عبادة الأصنام التی لا تهب للإنسان آیة نعمة.

الآیة الأخیرة فی بحثنا هذا تکشف عن الجذر الرئیسی لانحرافهم، و تقول:

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ و لهذا تنزلوا باسمه المقدس حتی جعلوه ردیفا للأوثان!! نعم، فمصدر الشرک هو عدم معرفة الباریٔ عزّ و جلّ بصورة صحیحة، فالذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۴

یعلم:

أوّلا: أنّ اللّه مطلق و غیر محدود من جمیع النواحی.

و ثانیا: أنّه خالق کلّ الموجودات التی تحتاج إلیه فی کلّ لحظة من لحظات وجودها.

و ثالثا: أنّه یدیر الکون و یحل کلّ عقد المشاکل، و أنّ الأرزاق بیده، و حتی الشفاعة إنّما یتمّ بإذنه و أمره، فما معنی توجه من یعلم بکلّ هذه الحقائق إلی غیر اللّه.

و أساسا فإنّ وجود مثل هذه الصفات فی موجودین اثنین أمر محال، لأنّه من غیر الممکن عقلا وجود موجودین مطلقین من جمیع الجهات.

ثمّ یأتی القرآن بعبارتین کنائیتین بعد العبارة السابقة، و ذلک لبیان عظمة و قدرة الباریٔ عزّ و جلّ، إذ یقول کلام اللّه المجید: وَ الْأَرْضُ جَمِیعاً قَبْضَتُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِیَّاتٌ بِیَمِینِهِ

«القبضة»: الشیء الذی یقبض علیه بجمیع الکف، تستخدم- عادة- للتعبیر عن القدرة المطلقة و التسلط التام، مثلما نقول فی الاصطلاحات الیومیة الدارجة:

إن المدینة الفلانیة هی بیدی، أو الملک الفلانی هو بیدی و فی قبضتی.

«مطویات»: من مادة (طی) و تعنی الثنی، و التی تستعمل أحیانا کنایة عن الوفاة و انقضاء العمر، أو عن عبور شیء ما.

و العبارة المذکورة أعلاه استخدمت بصورة واضحة بشأن السماوات فی الآیة (۱۰۴) من سورة الأنبیاء یَوْمَ نَطْوِی السَّماءَ کَطَیِّ السِّجِلِّ لِلْکُتُبِ

فالذی یثنی طومارا و یحمله بیده الیمنی یسیطر بصورة کاملة علی الطومار الذی یحمله بتلک الید، و انتخبت الید الیمنی هنا لأن أکثر الأشخاص یؤدون أعمالهم المهمّة بالید الیمنی و یحسون بأنّها ذات قوة و قدرة أکثر.

خلاصة الكلام، أنّ كلّ هذه التشبيهات و التعابير هى كناية عن سلطة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۵

المطلقة على عالم الوجود فى العالم الآخر، حتى يعلم الجميع أن مفتاح النجاة و حل المشاكل يوم القيامة هو بيد القدرة الإلهية، كى لا يعمدوا إلى عبادة الأصنام و غيرها من الآلهة بذريعة أنّها ستشفع لهم فى ذلك اليوم.

و لكن هل أنّ السماء و الأرض ليستا فى قبضته فى الحياة الدنيا؟ فلم الحديث عن الآخرة؟

الجواب: إنّ قدرة البارئ عزّ و جلّ تظهر و تتجلّى فى ذلك اليوم أكثر من أىّ وقت مضى، و تصل إلى مرحلة التجلّى النهائى، و كل إنسان يدرك و يشعر أنّ كلّ شيء هو من عند اللّه و تحت تصرفه. إضافة إلى أنّ البعض اتجه إلى غير اللّه بذريعة أنّ أولئك سينقذونه يوم القيامة، كما فعل المسيحيون، إذ أنّهم يعبدون عيسى عليه السّلام متصورين أنّه سينقذهم يوم القيامة، و طبقا لهذا فمن المناسب التحدث عن قدرة البارئ عزّ و جلّ فى يوم القيامة.

و يتّضح بصورة جيدة ممّا تقدم أنّ طابع الكناية يطغى على هذه العبارات، و بسبب قصور الألفاظ المتداولة فإنّنا نجد أنفسنا مضطرين إلى صبّ تلك المعانى العميقة فى قو هذه الألفاظ البسيطة، و لا يرد إمكانية تجسيم البارئ عزّ و جلّ من خلالها، إلّا إذا كان الشخص الذى يتصور ذلك ذا تفكير ساذج و عقل بسيط جدّا، حيث نفتقد ألفاظا تبيّن مقام عظمة البارئ عزّ و جلّ بصورة واضحة، إذن فيجب الاستفادة بأقصى ما يمكن من الكنايات التى لها مفاهيم كثيرة و متعددة.

على أية حال، فبعد التوضيحات التى ذكرت آنفا، يعطى البارئ عزّ و جلّ فى آخر الآية نتيجة مركزة و ظاهرية، إذ يقول: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ

فلو لم يكن بنو آدم قد أصدروا أحكامهم على ذات اللّه المقدسة المنزهة وفق مقاييس تفكيرهم الصغيرة و المحدودة، لما انجر أحد منهم إلى حبائل الشرك و عبادة الأصنام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۶

ملاحظتان

۱- مسألة إحباط الأعمال

هل يمكن حقّا أن تحبط الأعمال الصالحة للإنسان بسبب أعمال سيئة يرتكبها؟ و هل أنّ هذه المسألة لا تتعارض مع عدالة البارئ عزّ و جلّ من جهة، و مع ظواهر الآيات التى تقول: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

البحث فى هذه المسألة طويل و عريض سواء من حيث الأدلة العقلية أو النقلية، و قد أوردنا جزاء منه فى ذيل الآية (۲۱۷) من سورة البقرة، و سنذكره فى نهاية بعض الآيات التى تتناسب مع الموضوع فى المجلدات القادمة إن شاء اللّه.

و ممّا تجب الإشارة إليه هنا هو: إذا كان هناك شك فى مسألة (إحباط الأعمال) بسبب المعاصى، فإنّه لا ينبغى أن يشكّ أبدا فى تأثير الشرك على إحباط الأعمال، لأن آيات كثيرة فى القرآن المجيد أشير إلى بعضها آنفا- تقول و بصراحة (إنّ الوفاة على الإيمان) هى شرط قبول الأعمال، و بدونها لا يقبل من الإنسان أى عمل.

فقلب المشرك كالأرض السبخة التى مهما بذرت فيها أنواع بذور الورد، و مهما هطل عليها المطر الذى هو مصدر الحياة، فإنّ تلك البذور سوف لن تنبت أبدا.

۲- هل عرف المؤمنون اللّه؟

قرأنـا فی الآیات الآنفـهٔ أنّ المشـرکین لم یعرفوا اللّه حق معرفته، إذ أنّهم لو عرفوه لما ساروا فی طریق الشـرک و معنی هـذا الکلام أن المؤمنین الموحدین هم وحدهم الذین عرفوا اللّه حق معرفته.

و هنا یطرح هذا السؤال و هو: کیف یتلاءم هذا الکلام مع الحدیث المشهور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۷

لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و الذی یقول فیه: «ما عرفناک حق معرفتک، و ما عبدناک حق عبادتک».

و للجواب علی هـذا السؤال یجب القول: إنّ للمعرفـهٔ مراحل، أعلاها هی تلک المعرفهٔ التی تخص ذات اللّه المقدسهٔ، و التی لا یمکن لأی أحد أن یعرفها أو یطلع علیها غیر ذاته المقدسهٔ التی تعرف کنه ذاته المقدسهٔ، و الحدیث الشریف المذکور یشیر إلی هذا المعنی. أمّا بقیهٔ المراحل التی تأتی بعد هذه المرحلهٔ و التی یمکن للعقل البشـری أن یتعرف علیها، هی مرحلهٔ معرفهٔ صفات اللّه بصورهٔ عامهٔ و معرفـهٔ أفعاله بصورهٔ مفصـلهٔ، و هـذه المرحلـهٔ کما ذکرنا ممکنـهٔ بالنسـبهٔ للإنسان، و المراد من معرفهٔ اللّه الوصول إلی هذه المرحلهٔ، و الآیهٔ مورد بحثنا تحدثت عن هذه المرحلهٔ، حیث أن المشرکین یجهلون هذا المقدار من المعرفهٔ أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۸

الآیهٔ [سورهٔ الزمر (۳۹): آیهٔ ۶۸]

اشارهٔ

وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْری فَإِذا هُمْ قِیامٌ یَنْظُرُونَ (۶۸)

التّفسیر

(النفخ فی الصور) و موت و إحیاء جمیع العباد:

الآیات الأخیرهٔ فی البحث السابق تحـدثت عن یوم القیامهٔ، و آیهٔ بحثنا الحالی تواصل الحدیث عن ذلک الیوم مع ذکر إحدی المیزات المهمهٔ له، إذ تبدأ الحدیث بنهایهٔ الحیاهٔ فی الدنیا، و تقول: وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ یتّضح بصورهٔ جیدهٔ من هذه الآیهٔ أنّ حادثتین تقعان مع نهایهٔ العالم و عند البعث، فی الحادثهٔ الأولی یموت الأحیاء فورا، و فی الحادثهٔ الثانیهٔ- التی تقع بعد فترهٔ من وقوع الحادثهٔ الأولی- یعود کلّ الناس إلی الحیاهٔ مرّهٔ اخری، و یقفون بانتظار الحساب.

القرآن المجیـد عبّر عن هـاتین الحادثتین ب «النفـخ فی الصور»، و هـذا التعبیر کنایـهٔ عن الحوادث المفاجئـهٔ و المتزامنـهٔ التی سـتقع و «الصور» بمعنی البوق الذی یتخذ من قرن الثور و یکون مجوفا عادهٔ حیث یستخدم مثل هذا البوق فی حرکهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۹

القوافل أو الجیش و توقفها، و طبعا هناک تفاوت بین النفخهٔ للحرکهٔ و النفخهٔ للتوقف.

کما یبیّن هـذا التعبیر سـهولهٔ الأمر و یوضح کیف أن البارئ عزّ و جلّ- من خلال أمر بسـیط و هو النفخ فی الصور- یمیت کلّ من فی السماء و الأرض، و کیف أنّه یبعثهم من جدید بنفخهٔ صور اخری.

و قلنا سابقا إنّ الألفاظ التی نسـتخدمها فی حیاتنا الیومیهٔ عاجزهٔ عن توضیح الحقائق المتعلقهٔ بعالم ما وراء الطبیعهٔ أو نهایهٔ العالم و بدء

عالم آخر بدقّة، و لهذا السبب يجب الاستفادة من أوسع معانى الألفاظ الدارجة و المتداولة مع الالتفات إلى القرائن الموجودة.

توضيح: لقد وردت تعبيرات مختلفة فى القرآن المجيد عن نهاية الحياة فى هذا العالم و بدء حياة اخرى فى عالم آخر، حيث ورد الحديث عن (النفخ فى الصور) فى أكثر من عشر آيات [۱۴۰].

فى إحداها استخدمت عبارة النفر فى الناقور فَإِذا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ[۱۴۱].

و فى بعضها استخدمت عبارة (القارعة) كما فى الآيات (۱ و ۲ و ۳ من سورة القارعة) الْقارِعَةُ، مَا الْقارِعَةُ، وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ.

و أخيرا استخدمت فى بعضها عبارة «صحيحة» و التى تعنى الصوت العظيم، كما ورد ذلك فى الآية (۴۹) من سورة يس ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ التى تتحدث عن الصيحة التى تقع فى نهاية العالم و تفاجئ كل بنى آدم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۰

أمّا الآية (۵۳) من سورة يس إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ فإنّها تتحدث عن صيحة (الإحياء) التى تبعث الناس من جديد و تحضرهم إلى محكمة العدل الإلهية.

من مجموع هذه الآيات يمكن أن يستشف بأن نهاية أهل السموات و الأرض تتمّ بعد صيحة عظيمة و هى (صيحة الموت) و أنّهم يبعثون من جديد و هم قيام بصيحة عظيمة أيضا، و هذه هى (صيحة بعث الحياة).

و أمّا كيف تكون هاتان الصيحتان؟

و ما هى آثار الصيحة الأولى و تأثير الصيحة الثانية؟ فلا علم لأحد بهما إلّا اللّه سبحانه و تعالى، و لذا ورد فى بعض الرّوايات التى تصف (الصور) الذى ينفخ فيه «إسرافيل» فى نهاية العالم، عن على بن الحسين عليه السّلام:- «و للصور رأس واحد و طرفان، و بين طرف رأس كلّ منهما إلى الآخر مثل ما بين السماء إلى الأرض» قال: فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذى يلى الأرض فلا يبقى فى الأرض ذو روح إلّا صعق و مات، و يخرج الصوت من الطرف الذى يلى السماوات فلا يبقى فى السماوات ذو روح إلّا صعق و مات إلّا إسرافيل، قال: فيقول اللّه لإسرافيل: يا إسرافيل، مت، فيموت إسرافيل ...»[۱۴۲].

على أية حال، فإنّ أكثر المفسّرين اعتبروا (النفخ فى الصور) كناية لطيفة عن كيفية نهاية العالم و بدء البعث، و لكن مجموعة قليلة من المفسّرين قالوا: إن (صور) هى جمع (صورة) و طبقا لهذا القول، فقد اعتبروا النفخ فى الصور يعنى النفخ فى الوجه، مثل نفخ الروح فى بدون الإنسان، و وفق هذا التّفسير ينفخ مرّة واحدة فى وجوه بنى آدم فيموتون جميعا، و ينفخ مرة اخرى فيبعثون جميعا[۱۴۳].

هذا التّفسير إضافة إلى كونه لا يتطابق مع ما جاء فى الروايات، فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۱

لا يتطابق أيضا مع الآية مورد بحثنا، لأنّ الضمير فى عبارة ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى مفرد مذكر يعود على الصور، فى حين لو كان يراد منه المعنى الثّانى لكان يجب استعمال ضمير المفرد المؤنث فى العبارة لتصبح (نفخ فيها).

إنّ النفخ فى الوجه فى مجال إحياء الأموات يعد أمرا مناسبا (كما فى معجزات عيسى عليه السّلام) إلّا أنّ هذا التعبير لا يمكن استخدامه فى مجال قبض الأرواح.

بحوث

۱- هل أنّ النفخ فى الصور يتمّ مرتين، أو أكثر؟

المشهور بين علماء المسلمين أنّه يتمّ مرّتين فقط، و ظاهر الآية يوضّح هذا أيضا، كما أنّ مراجعة آيات القرآن الأخرى تبيّن أنّ هناك

نفختین فقط، لکن البعض قال: إنّها ثلاث نفخات، و البعض الآخرة قال: إنّه أربع.

و بهذا الشکل فالنفخة الأولی یقال لها نفخة (الفزع)، و هذه العبارة وردت فی الآیة (۸۷) من سورة النمل وَ یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ

و النفختان الثانیة و الثّالثة یعتبرونها للإماتة و الإحیاء، و التی أشیر إلیها فی آیات بحثنا و فی آیات قرآنیة اخری، أولاهما یطلقون علیها نفخة (الصعق) (الصعق تعنی فقدان الإنسان حالة الشعور، أی یغشی علیه، و تعنی أیضا الموت) و الثانیة یطلق علیها نفخة (القیام).

أمّا الذین احتملوا أن النفخات أربع، فیبدو أنّهم استشفوا ذلک من الآیة (۵۳) من سورة یس و التی تقول بعد نفخة الإحیاء إِنْ کانَتْ إِلَّا صَیْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِیعٌ لَدَیْنا مُحْضَرُونَ و هذه النفخة هی (لجمعهم و إحضارهم).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۲

و الحقیقة أنّه لیس هناک أکثر من نفختین، و مسألة الفزع و الرعب العام فی الواقع هی مقدمة لموت جمیع البشر و الذی یتم بعد النفخة الأولی أو الصیحة الأولی، کما أن نفخة الجمیع هی تتمة لنفخة الإحیاء و البعث، و بهذا الشکل فلا یوجد أکثر من نفختین (نفخة الموت) و (نفخة الإحیاء)، و هناک شاهد آخر علی هذا القول و هو الآیتان (۶ و ۷) من سورة النازعات، اللتان تقولان: یَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ.

۲- ما هو صور إسرافیل:

هناک سؤال یتبادر إلی الذهن، و هو: کیف تملأه أمواج الصور الصوتیة کلّ العالم فی نفس اللحظة؟ رغم أنّنا نعلم أنّ سرعة الأمواج الصوتیة بطیئة و لا تتجاوز ال (۲۴۰) مترا فی الثانیة، فی حین أنّ سرعة الضوء هی أکثر بملیون مرة من هذه السرعة إذ تبلغ (۳۰۰) ألف کیلومتر فی الثانیة.

یجب الاعتراف فی البدایة بأنّ معلوماتنا بشأن هذا الموضوع هی کمعلوماتنا بشأن الکثیر من المسائل المتعلقة بیوم القیامة، فهی معلومات عامة لا أکثر، إذ نجهل الکثیر من تفاصیل ذلک الیوم کما قلنا.

و التدقیق فی الروایات الواردة فی المصادر الإسلامیة بشأن تفسیر کلمة (الصور) تبیّن عکس ما یتصور البعض من أنّ (الصور) هو (زمارة) أو (مزمار) أو (بوق) اعتیادی.

و

قد جاء فی روایة عن الإمام زین العابدین علیه السّلام أنّه قال: «إنّ الصور قرن عظیم له رأس واحد و طرفان، و بین الطرف الأسفل الذی یلی الأرض إلی الطرف الأعلی الذی یلی السماء مثل تخوم الأرضین إلی فوق السماء السابعة، فیه أثقاب بعدد أرواح الخلائق»[۱۴۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۳

و

فی حدیث ورد عن رسول اللّه، جاء فیه: «الصور قرن من نور فیه أثقاب علی عدد أرواح العباد»[۱۴۵].

طرح مسألة النور هنا بمثابة جواب علی السؤال الثّانی المذکور أعلاه، و یوضح أن الصیحة العظیمة لیست من قبیل الأمواج الصوتیة الاعتیادیة، و إنّما هی صیحة أعظم و أعظم، و تکون أمواجها ذات سرعة فائقة و غیر طبیعیة حتی أنّها أسرع من الضوء الذی یجتاز السماء و الأرض بفترة زمنیة قصیرة جدّا، ففی المرّة الأولی تکون ممیتة، فی المرة الثانیة تکون باعثة للأموات.

أمّا کیف یتسبب مثل هذا الصوت فی إماتة العالمین، فإنّ کان هذا الأمر عجیبا فی السابق، فإنه غیر عجیب الیوم، لأننا سمعنا کثیرا بأن

الأمواج الانفجارية تسببت فى تمزق أجساد البعض و إصابة آخرين بالصميم، و رمى آخرين إلى مسافة بعيدة عن مكانهم، و تسببت فى تدمير البيوت أيضا، كما شاهد الكثير منّا كيف أنّ زيادة سرعة الطائرة و بعبارة اخرى (اختراق حاجز الصوت) يولّد صوتا مرعبا و أمواجا مدمّرة، قد تحطم زجاج نوافذ الكثير من العمارات و البيوت.

فإذا كانت الأمواج الصوتية الصغيرة التى هى من صنع الإنسان تحدث مثل هذا التأثير، فما هى الآثار التى تتركها الصيحة الإلهية العظيمة، هى بلا شكّ انفجار عالمى كبير.

و لهذا السبب لا عجب أيضا إن قلنا بوجود أمواج تقابل تلك الأمواج، و أنّها تهز الإنسان و توقظه و تحييه، رغم أنّه من العسير علينا تصور هذا المعنى، و لكننا نرى دائما كيف يوقظ النائم من نومه بواسطة الصوت، و كيف يعود الإنسان المغمى عليه إلى حالته الطبيعية بواسطة عدّة صعقات شديدة، و نكرر القول مرّة اخرى، و نقول: إنّ علمنا المحدود لا يمكنه إدراك سوى ظلّ هذه الأمور و من بعيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۴

۳- من هم المستثنون؟

كما مرّ علينا فى الآية المبحوثة عنها فإنّ كلّ أهل السموات و الأرض يموتون سوى مجموعة واحدة إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ فمن هى هذه المجموعة؟ هناك اختلاف بين المفسّرين بشأن هذا الأمر:

فمجموعة من المفسّرين قالوا: إنّهم ملائكة اللّه الكبار، كجبرائيل و ميكائيل و إسرافيل و عزرائيل، و قد أشارت رواية إلى هذا المعنى [۱۴۶].

البعض أضاف إلى أولئك الملائكة الكبار حملة عرش اللّه (كما وردت فى رواية اخرى)[۱۴۷].

و مجموعة اخرى قالت: إنّ أرواح الشهداء مستثناة من الموت، وفقا لما جاء فى آيات القرآن المجيد أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ كما ورد فى رواية تشير إلى هذا المعنى ۱۴۸].

و بالطبع فإنّ هذه الروايات لا تتعارض مع بعضها البعض، و لكن فى كلّ الصور فإنّ هذه المجموعة المتبقية تموت فى نهاية الأمر، كما أوضحته تلك الرّوايات، و لا يبقى أحد حيا فى هذا العالم سوى البارئ عزّ و جلّ إذ هو الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ

و عن كيفية موت الملائكة و أرواح الشهداء و الأنبياء و الأولياء، فيحتمل أنّ المراد من موت أولئك هو قطع ارتباط الروح عن قالبها المثالى، أو تعطيل نشاط الروح المستمر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۵

۴- فجائية النفختين:

آيات القرآن الكريم توضح بصورة جيدة أنّ النفختين تقعان بصورة مفاجئة، و النفخة الأولى تكون فجائية بحيث أنّ مجموعة كبيرة من الناس تكون منشغلة بالتجارة و الجدال و النقاش فى أموالهم و بيعهم و شرائهم، و فجأة يسمعون الصيحة، فيسقطون فى أماكنهم ميتين، كما صرحت بذلك الآية (۲۹) فى سورة يس إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ

و أمّا (الصيحة الثانية) فإنّ آيات القرآن الكريم- و منها الآية التى هى مورد بحثنا- تبيّن بأنّها تقع فجأة أيضا.

۵- ما هى الفاصلة الزمنية بين النفختين؟

الآيات القرآنيـة لم تـذكر توضـيحا حول هـذا الأمر، سوى كلمة (ثم) التى وردت ضـمن آية بحثنا و التى تدل على وجود فاصل زمنى بين النفختين، إلّا أنّ بعض الرّوايات ذكرت بأن هـذه الفاصـلة مقـدارها (۴۰) عاما[۱۴۹]. و المجهول بالنسـبة لنا هو معيار هذه السـنين، فهل هى سنوات اعتيادية كالتى نعيشها نحن، أم أنّها سنوات و أيّام كسنوات و أيّام القيامة.

على أيـة حال فالتفكر فى نفخة الصور و نهايـة العالم، و كذلك بالنفخة الثانية و بدء عالم جديد، و مع ملاحظة الإشارات التى وردت فى القرآن المجيـد، و التفاصـيل الأخرى فى الرّوايات الإسـلامية بهذا الشأن، يعطى دروسا تربوية عميقة للإنسان، و خاصة أنّها توضـح هـذه الحقيقة، و هى البقاء على استعداد دائم لاسـتقبال مثل هذا الحادث العظيم و الرهيب فى كلّ لحظة، لأنّه لم يحدد لوقوعها تاريخ معين، إذ يحتمل وقوعها فى أيـة لحظة، إضافة إلى أنّها تقع من دون مقدمات، لذا ورد فى ذيل إحدى الرّوايات الخاصة بنفخ الصور و المذكورة آنفا أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۶

الراوى قال، عنـد ما وصل الكلام إلى هـذا الأمر «رأيت على بن الحسـين يبكى عنـد ذلك «بكاء شديـدا»، إذ كان قلقا جـدّا من مسألة نهاية العالم و يوم القيامة، و إحضار الناس للحساب فى محكمة العدل الإلهية»[۱۵۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۷

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۶۹ الى ۷۰]

اشارة

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۶۹) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (۷۰)

التّفسير

ذلک اليوم الذى تشرق الأرض بنور ربّها:

آيتا بحثنا تواصـلان استعراض الحـديث عن القيامـة و الـذى بدأ قبل عدّة آيات، و هاتان الآيتان تضـمان سـبع عبارات منسـجمة، كلّ واحدة تتناول أمرا من أمور المعاد، لتكمل بعضها البعض، أو أنّها تقيم دليلا على ذلك.

فى البداية تقول: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها.

و قد اختلف المفسّرون فى معنى إشراق الأرض بنور ربها، إذ ذكروا تفسيرات عديدة، اخترنا ثلاثا منها، و هى:

۱- قالت مجموعـة: إنّ المراد من نور الرب هما الحق و العدالة، الذى ينير بهما ربّ العالمين الأرض فى ذلك اليوم، حيث قال العلامة المجلسى فى بحار الأنوار: «أى أضاءت الأرض بعدل ربها يوم القيامة، لأن نور الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۸

بالعدل»[۱۵۱].

و البعض الآخر اعتبر الحديث النبوى (الظلم ظلمات يوم القيامة) شاهدا على هذا المعنى ۱۵۲].

فيما قال «الزمخشرى» فى تفسير الكشاف: (و أشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق و العدل و يبسطه من القسط فى الحساب و وزن

الحسنات و السيئات).

۲- البعض الآخر يعتقد أنّه إشارة إلى نور غير نور الشمس و القمر، يخلقه اللّه فى ذلك اليوم خاصة.

۳- أمّا المفسّر الكبير العلّامة الطباطبائى أعلى اللّه مقامه الشريف صاحب تفسير الميزان فقد قال: إنّ المراد من إشراق الأرض بنور ربّها هو مـا يخصّ يوم القيامـة من انكشـاف الغطـاء و ظهور الأشـياء بحقائقهـا و بـدو الأعمـال من خير أو طاعـة أو معصـية أو حق أو باطل للناظرين. و قد اسـتدل العلّامة الطباطبائى على هذا الرأى بالآية (۲۲) من سورة (ق) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ. و هذا الإشـراق- و إن كان عاما لكل شىء يسعه النور- لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض و أهلها يومئذ من الشأن خصها بالبيان.

و بالطبع فإن هذه التفاسير لا تتعارض فيما بينها، و يمكن القول بصحتها جميعا، مع أن التّفسيرين الأوّل و الثّالث أنسب من غيرهما.

و من دون شك فإنّ هذه الآية تتعلق بيوم القيامة، و إن وجدنا بعض روايات أهل البيت الأطهار (عليهم السـلام) تفسّرها على أنّها تعود إلى ظهور القائم المهدى المنتظر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، فهى فى الواقع نوع من التطبيق و التشبيه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۹

و تأكيـد لهـذا المعنى، و هو عنـد ظهور المهـدى (عـج) تصـبح الدنيا نموذجا حيا من مشاهد القيامة، إذ يملأ هذا الإمام بالحق و نائب الرّسول الأكرم و خليفة اللّه الأرض بالعدل إلى الحد الذى ترتضيه الحياة الدنيا.

و

نقـل (المفضـل بن عمر) عن الإمام الصادق عليه السّـلام «إذا قام قائمنا أشـرقت الأرض بنور ربّها و اسـتغنى العباد عن ضوء الشـمس و ذهبت الظلمة»[۱۵۳].

العبارة الثّانية فى هذه الآية تتحدث عن صحائف الأعمال، إذ تقول: وَ وُضِعَ الْكِتابُ

الصـحائف التى تتضـمن جميع صـغائر و كبائر أعمال الإنسان، و كما يقول القرآن المجيـد فى الآيـة (۴۹) من سورة الكهف لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها.

و تضيف العبارات التى تتحدث عن الشهود وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ.

فالأنبياء يحضرون ليسألوا عن أدائهم لمهام الرسالة، كما ورد فى الآية (۶) من سورة الأعراف وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

كما يحضـر شـهداء الأعمال فى محكمـة العـدل الإلهيـة ليدلوا بشـهاداتهم، صـحيح أن البارئ عزّ و جلّ مطلع على كلّ الأمور، و لكن للتأكيد على مقام العدالة يدعو شهداء الأعمال للحضور فى تلك المحكمة.

ذكر المفسّـرون آراء عديـدة بشأن أولئك الشـهداء على الأعمال، حيث قال البعض: إنّهم الصالحون و الطاهرون و العادلون فى الأمّـة، الذين يشـهدون على أداء الأنبياء لرسالتهم، و على أعمال الناس الذين كانوا يعاصـرونهم، و (الأئمة المعصومون) هم فى طليعة شـهداء الأعمال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۰

فى حين يعتقد البعض الآخر بأنّ الملائكة هم الشـهداء على أعمال الإنسان، و الآية (۲۱) فى سورة (ق) تعطى الدليل على هذا المعنى وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

و قال البعض: إن أعضاء بدن الإنسان و مكان و زمان الطاعة و المعصية هم الذين يشهدون على الإنسان يوم القيامة.

و يبدو أن كلمة (شهداء) لها معان واسعة، أشار كلّ مفسر إلى جانب منها فى تفسيره.

و احتمل البعض أنّها تخص «الشـهداء» الـذين قتلوا فى سبيل اللّه، و لكن هـذا الاحتمال غير وارد و بعيـد، لأن الحديث هو عن شـهداء محكمة العدل الإلهى، و ليس عن شهداء طريق الحق، مع إمكانية انضمامهم إلى صفوف الشهود.

العبارة الرّابعة تقول: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ

و الخامسة تضيف: وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

فمن البديهيات، عند ما يكون الحاكم هو البارئ عزّ و جلّ، و تشرق الأرض بنور عدالته، و تعرض صحائف أعمال الإنسان التى تبيّن كلّ صغيرة و كبيرة بدقّة، و يحضر الأنبياء و الشهود و العدول، فلا يحكم البارئ عزّ و جلّ إلا بالحق، و فى مثل هذا المحاكم لا وجود للظالم و الاستبداد مطلقا.

العبارة السادسة فى الآية التالية أكملت الحديث بالقول: وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ

إنّ جزاء الأعمال و عواقبها سترد إليهم، و هل هناك مكافأة و مجازاة أعلى من أن يريد عمل الإنسان بصورة كاملة إلى الإنسان نفسه (نلفت الانتباه إلى أن كلمة (وفيت) تعنى الأداء بصورة كاملة) و يبقى مرافقا له إلى الأبد.

فالذى يتمكن من تنفيذ مثل هذه المناهج العادلة بدقّة، هو الذى أحاط علمه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۱

بكل شيء، لهذا فإن العبارة السابعة و الأخيرة فى هذا البحث تقول: وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ

إذن فلا حاجة حتى للشهود، لأنّ اللّه هو أعلم من كلّ أولئك الشهود، و لكن لطفه و عدله يقتضيان إحضار الشهود، نعم فهذا هو مشهد يوم القيامة، فليستعد الجميع لذلك اليوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۲

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۷۱ الى ۷۲]

اشارة

وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (۷۱) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۲)

التّفسير

الذين يدخلون جهنم زمرا:

تواصل الآيات هنا بحث المعاد، و تستعرض بالتفصيل ثواب و جزاء المؤمنين و الكافرين الذى استعرض بصورة مختصرة فى الآيات السابقة. و تبدأ بأهل جهنم، إذ تقول: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً.

فمن الذى يسوقهم إلى جهنم؟

كما هو معروف فإن ملائكة العذاب هى التى تسوقهم حتى أبواب جهنم، و نظير هذه العبارة ورد فى الآية (۲۱) من سورة (ق)، إذ تقول: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۳

عبارة «زمر» تعنى الجماعة الصغيرة من الناس، و توضح أن الكافرين يساقون إلى جهنم على شكل مجموعات مجموعات صغيرة و متفرقة.

و «سیق» من مادة (سوق) و تعنی (الحث علی أسیر).

ثم تضیف حَتَّی إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ یَأْتِکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَتْلُونَ عَلَیْکُمْ آیاتِ رَبِّکُمْ وَ یُنْذِرُونَکُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هذا[۱۵۴].

یتّضح بصورة جیدة من خلال هذه العبارة، أن أبواب جهنم کانت مغلقة قبل سوق أولئک الکفرة، و هی کأبواب السجون المغلقة التی تفتح أمام المتهمین الذین یراد سجنهم، و هذا الحدث المفاجئ یوجد رعبا و وحشة کبیرة فی قلوب الکافرین، و قبل دخولهم یتلقاهم خزنة جهنم باللوم و التوبیخ، الذین یقولون استهجانا و توبیخا لهم: لم کفرتم و قد هیئت لکم کافة أسباب الهدایة، ألم یرسل إلیکم أنبیاء منکم یتلون آیات اللّه علیکم باستمرار، و معهم معجزات من خالقکم، و إنذار و إعلام بالأخطار التی ستصیبکم إن کفرتم باللّه ۱۵۵]؟ فکیف وصل بکم الحال إلی هذه الدرجة رغم إرسال الأنبیاء إلیکم؟

حقّا إنّ کلام خزنة جهنم یعد من أشد أنواع العذاب علی الکافرین الذین یواجهون بمثل هذا اللوم فور دخولهم جهنم.

علی أیة حال، فإنّ الکافرین یجیبون خزنة جهنم بعبارة قصیرة ملؤها الحسرات، قائلین: قالُوا بَلی وَ لکِنْ حَقَّتْ کَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَی الْکافِرِینَ

مجموعة من المفسّرین الکبار اعتبروا کَلِمَةُ الْعَذابِ إشارة إلی قوله تعالی حین هبط آدم علی الأرض، أو حینما قرر الشیطان إغواء بنی آدم، کما ورد فی الآیة (۳۹) من سورة البقرة وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۴

و حینما قال الشیطان: لأغوینهم جمیع إلّا عبادک المخلصین، فأجابه الباریٔ عزّ و جلّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ ۱۵۶].

و بهذا الشکل اعترفوا بأنّهم کذبوا الأنبیاء و أنکروا آیات اللّه، و بالطبع فإن مصیرهم لن یکون أفضل من هذا.

کما یوجد احتمال فی أنّ المراد من حَقَّتْ کَلِمَةُ الْعَذابِ هو ما تعنیه الآیة السابعة فی سورة (یس) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلی أَکْثَرِهِمْ فَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ

و هو إشارة إلی أن الإنسان یصل أحیانا- بسبب کثرة ذنوبه و عدائه و لجاجته و تعصبه أمام الحق- إلی درجة یختم معها علی قلبه و لا یبقی أمامه أیّ طریق للعودة، و فی هذه الحالة یصبح مستحقا تماما للعذاب.

و علی أیّة حال، فإن مصدر کلّ هذه الأمور هو عمل الإنسان ذاته، و لیس من الصحیح الاستدلال علی معنی الجبر و فقدان حریة الإرادة.

هذا النقاش القصیر ینتهی مع اقترابهم من عتبة جهنم قِیلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها فَبِئْسَ مَثْوَی الْمُتَکَبِّرِینَ

فأبواب جهنم- کما أشرنا إلیها من قبل- یمکن أن تکون قد نظمت حسب أعمال الإنسان، و إن کلّ مجموعة کافرة تدخل جهنم من الباب الذی یتناسب مع أعمالها، و ذلک مثل أبواب الجنّة التی یطلق علی أحد أبوابها اسم «باب المجاهدین» و

قد جاء فی کلام لأمیر المؤمنین «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة»[۱۵۷].

و الذی یلفت النظر هو أن ملائکة العذاب تؤکد علی مسألة التکبر من بین بقیة الصفات الرذیلة التی تؤدی بالإنسان إلی السقوط فی نار جهنم، و ذلک إشارة إلی أن التکبر و الغرور و عدم الانصیاع و الاستسلام أمام الحق هو المصدر الرئیسی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۵

للکفر و الانحراف و ارتکاب الذنب.

نعم، فالتکبر ستار سمیک یغطی عینی الإنسان و یحول دون رؤیته للحقائق الساطعة المضیئة، و لهذا نقرأ

فی روایة عن الإمامین المعصومین الباقر و الصادق علیهما السلام «لا یدخل الجنّة من فی قلبه مثقال ذرة من کبر»[۱۵۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۶

الآيات [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧٣ الى ٧٥]

اشارة

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (٧٣) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٧۴) وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٧۵)

التّفسير

المتقون يدخلون الجنّة أفواجا!!

هذه الآيات- التى هى آخر آيات سورة (الزمر)- تواصل بحثها حول موضوع المعاد، حيث تتحدث عن كيفية دخول المؤمنين المتقين الجنّة، بعد أن كانت الآيات السابقة قد استعرضت كيفية دخول الكافرين جهنم، لتتوضح الأمور أكثر من خلال هذه المقارنة.

فى البداية تقول: وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً.

استعمال عبارة (سيق) (و التى هى من مادة (سوق) على وزن (شوق) و تعنى الحث على السير). أثار التساؤل، كما لفت أنظار الكثير من المفسّرين، لأنّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۷

التعبير يستخدم فى موارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أى اشتياق و رغبة فى تنفيذه، و لذلك فإنّ هذه العبارة صحيحة بالنسبة لأهل جهنم، و لكن لم استعملت بشأن أهل الجنّة الذين يتوجهون إلى الجنّة بتلهف و اشتياق؟

قال البعض: إنّ هذه العبارة استعملت هنا لأنّ الكثير من أهل الجنّة ينتظرون أصدقاءهم.

و البعض الآخر قال: إنّ تلهف و شوق المتقين للقاء البارئ عزّ و جلّ يجعلهم يتحينون الفرصة لذلك اللقاء بحيث لا يقبلون حتّى بالجنّة.

فيما قال البعض: إنّ هناك وسيلة تنقلهم بسرعة إلى الجنّة.

مع أنّ هذه التّفسيرات جيدة و لا يوجد أى تعارض فيما بينهما، إلّا أنّ هناك نقطة اخرى يمكن أن تكون هى التّفسير الأصح لهذه العبارة، و هى مهما كان حجم عشق المتقين للجنّة، فإن الجنّة و ملائكة الرحمة مشتاقة أكثر لوفود أولئك عليهم، كما هو الحال بالنسبة إلى المستضيف المشتاق لضيف و المتلهف لوفوده عليه إذ أنّه لا يجلس لانتظاره و إنّما يذهب لجلبه بسرعة قبل أن يأتى هو بنفسه إلى بيت المستضيف، فملائكة الرحمة هى كذلك مشتاقة لوفود أهل الجنّة.

و الملاحظة أن (زمر) تعنى هنا المجموعات الصغيرة، و تبيّن أن أهل الجنّة يساقون إلى الجنّة على شكل مجموعات مجموعات كلّ حسب مقامه.

ثم تضيف الآية حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ ۱۵۹].

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول بشأن أهل جهنم: إنّهم حينما يصلون إلى قرب جهنم تفتح لهم الأبواب، و يقول بشأن أهل الجنّة، إن أبواب الجنّة مفتحة لهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۸

من قبل، و هذه إشارة إلى الاحترام و التبجيل الذى يستقبلون به من قبل ملائكة الرحمة، كالمستضيف المحب الذى يفتح أبواب بيته للضيوف قبل وصولهم، و يقف عند الباب بانتظارهم.

و قد قرأنا فى الآيات السابقة أن ملائكة العذاب يستقبلون أهل جهنم باللوم و التوبيخ الشديدين، عند ما يقولون لهم: قد هيئت لكم أسباب الهداية، فلم تركتموها و انتهيتم إلى هذا المصير المشؤوم؟

أمّا ملائكة الرحمة فإنّها تبادر أهل الجنّة بالسلام المرافق للاحترام و التبجيل، و من ثمّ تدعوهم إلى دخول الجنّة.

عبارة «طبتم» من مادة (طيب) على وزن (صيد) و تعنى الطهارة، و لأنّها جاءت بعد السلام و التحية، فمن الأرجح القول بأن لها مفهوما إنشائيا، و تعنى:

لتكونوا طاهرين مطهرين و نتمنى لكم السعادة و السرور.

و بعبارة اخرى: طابت لكم هذه النعم الطاهرة، يا أصحاب القلوب الطاهرة.

و لكن الكثير من المفسّرين ذكروا لهذه الجملة معنى خبريا عند تفسيرها، و قالوا: إنّ الملائكة تخاطبهم بأنّكم تطهرتم من كلّ لوث و خبث، و قد طهرتم بإيمانكم و بعملكم الصالح قلوبكم و أرواحكم، و تطهرتم من الذنوب و المعاصى، و نقل البعض رواية تقول: إنّ هناك شجرة عند باب الجنّة، تفيض من تحتها عينا ماء صافيتان، يشرب المؤمنون من إحداهما فيتطهر باطنهم، و يغتسلون بماء العين الأخرى فيتطهر ظاهرهم، و، هنا يقول خزنة الجنّة لهم: سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ ١۶٠].

الملاحظ أن «الخلود» استخدم بشأن كلّ من أهل الجنّة و أهل النّار، و ذلك لكى لا يخشى أهل الجنّة من زوال النعم الإلهية، و لكى يعلم أهل النّار بأنّه لا سبيل لهم للنجاة من النّار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۹

الآية التّالية تتكون من أربع عبارات قصار غزيرة المعانى تنقل عن لسان أهل الجنّة السعادة و الفرح اللذين غمراهم، حيث تقول: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنا وَعْدَهُ

و تضيف فى العبارة التالية وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ

المراد من الأرض هنا أرض الجنّة. و استخدام عبارة (الإرث) هنا، إنّما جاء لكونهم حصلوا على كلّ هذه النعم فى مقابل جهد قليل بذلوه، إذ- كما هو معروف- فإنّ الميراث هو الشيء الذى يحصل عليه الإنسان من دون أى عناء مبذول.

أو أنّها تعنى أن لكل إنسان مكان فى الجنّة و آخر فى جهنم، فإن ارتكب عملا استحق به جهنم فإن مكانه فى الجنّة سوف يمنح لغيره، و إن عمل عملا صالحا استحق به الجنّة، فيمنح مكانا فى الجنّة و يترك مكانه فى جهنم لغيره.

أو تعنى أنّهم يتمتعون بكامل الحرية فى الاستفادة من ذلك الإرث، كالميراث الذى يحصل عليه الإنسان إذ يكون حرا فى استخدامه.

هذه العبارة- فى الواقع- تحقق عينى للوعد الإلهى الذى ورد فى الآية (۶۳) من سورة مريم تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا.

العبارة الثّالثة تكشف عن الحرية الكاملة التى تمنح لأهل الجنّة فى الاستفادة من كافة ما هو موجود فى الجنّة الواسعة، إذ تقول: نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ.

يستشف من الآيات القرآنية أن فى الجنّة الكثير من البساتين و الحدائق و قد أطلقت عليها فى الآية (۷۲) من سورة التوبة عبارة جَنَّاتِ عَدْنٍ و أهل الجنّة وفقا لدرجاتهم المعنوية يسكنون فيها، و أن لهم كامل الحرية فى التحرك فى تلك الحدائق و البساتين فى الجنّة.

أمّا العبارة الأخيرة فتقول: فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ

و هذه إشارة إلى أن هذه النعم الواسعة إنّما تعطى فى مقابل العمل الصالح (المتولد من الايمان طبعا) ليكون صاحبه لائقا و مستحقا لنيل مثل هذه النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۰

و هنا يطرح هذه السؤال و هو: هل أنّ هذا القول صادر عن أهل الجنّة، أم أنّه كلام اللّه جاء بعد كلام أهل الجنّة؟

المفسّرون وافقوا الرأيين، و لكنّهم رجحوا المعنى الأوّل الذى يقول: إنّه كلام أهل الجنّة و يرتبط بالعبارات الأخرى فى الآية.

و فى النهاية تخاطب الآية- مورد بحثنا و هى آخر آية من سورة الزمر- الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قائلة: وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يسبحون اللّه و يقدّسونه و يحمدونه.

إذ تشير إلى وضع الملائكة الحافين حول عرش اللّه، أو أنّها تعبر عن استعداد أولئك الملائكة لتنفيذ الأوامر الإلهية، أو أنّها إشارة إلى خفايا قيمة تمنح فى ذلك اليوم للخواص و المقرّبين من العرش الإلهى، مع أنّه لا يوجد أى تعارض بين المعانى الثلاثة، إلا أن المعنى الأوّل أنسب.

و لهذا تقول العبارة التالية وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ

و باعتبار هذه الأمور هى دلائل على ربوبية البارئ عزّ و جلّ و استحقاق ذاته المقدسة و المنزّهة لكل أشكال الحمد و الثناء، فإنّ الجملة الأخيرة تقول:

وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و هنا يطرح هذا السؤال: هل أن هذا الخطاب صادر عن الملائكة، أم عن أهل الجنّة المتقين، أم أنّه صادر عن الاثنين؟

المعنى الأخير أنسب من غيره، لأنّ الحمد و الثناء على اللّه هو منهاج كلّ أولى الألباب، و منهاج كلّ الخواص و المقربين، و استعمال كلمة (قيل) و هى فعل مبنى للمجهول يؤيد ذلك.

نهاية سورة الزّمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۱

سورة المؤمن

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمس و ثمانون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۳

«سورة المؤمن»

نظرة مختصرة فى محتوى السورة:

سورة المؤمن هى طليعة الحواميم، و الحواميم فى القرآن الكريم سبع سور متتالية يلى بعضها بعضا، نزلت جميعا فى مكّة، و هى تبدأ ب «حم».

هذه السورة كسائر السور المكّية، تثير فى محتواها قضايا العقيدة و، تتحدث عن أصول الدين الإسلامى و مبانيه و فى ذلك تلبى حاجة المسلمين فى تلك المرحلة إلى تشييد و إقامة قواعد الدين الجديد.

و محتوى هذه السورة يضم بين دفتيه الشدة و اللطف، و يجمع فى نسيجه بين الإنذار و البشارة ... السورة- إذا- مواجهة منطقية حادّة مع الطواغيت و المستكبرين، كما هى نداء لطف و رحمة و محبة بالمؤمنين و أهل الحق.

و تمتاز هذه السورة أيضا بخصوصية تنفرد بها دون سور القرآن الأخرى، إذ تتحدّث عن «مؤمن آل فرعون» و هو مقطع من قصة

موسی علیه السّلام، و قصد مؤمن آل فرعون لم ترد فی کتاب اللّه سوی فی سورة «المؤمن».

إنّ قصة «مؤمن آل فرعون» هی قصة ذلک الرجل المؤمن المخلص الذی کان یتحلی بالذکاء و المعرفة فی الوقت الذی هو من بطانة فرعون، و محسوب- ظاهرا- من حاشیته- لقد کان هذا الرجل مؤمنا بما جاء به موسی علیه السّلام، و قد احتل و هو یعمل فی حاشیة فرعون- موقعا حساسا ممیزا فی الدفاع عن موسی علیه السّلام و عن دینه، حتی أنّه- فی الوقت الذی تعرضت فیه حیاة موسی علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۴

للخطر- تحرّک من موقعه بسلوک فطن و ذکی و حکیم لکی یخلّص موسی من الموت المحقق الذی کان قد أحاط به.

إنّ اختصاص السورة باسم «المؤمن» یعود إلی قصة هذا الرجل الذی تحدّثت عشرون آیة منها عن جهاده، أی ما یقارب ربع السورة.

یکشف الأفق العام أنّ حدیث السورة عن «مؤمن آل فرعون» ینطوی علی أبعاد تربویة لمجتمع المسلمین فی مکّة، فقد کان بعض المسلمین ممّن آمن بالإسلام یحافظ علی علاقات طیبة مع بعض المشرکین و المعاندین، و فی نفس الوقت فإن إسلامه و انقیاده لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لیس علیهما غبار.

لقد کان الهدف من هذه العلاقة مع المشرکین هو توظیفها فی أیّام الخطر لحمایة الرسالة الجدیدة و دفع الضر عن أتباعها، و فی هذا الإطار یذکر التاریخ أنّ أبا طالب علیه السّلام عمّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان من جملة هؤلاء، کما یستفاد ذلک من بعض الرّوایات الإسلامیة المرویة عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام ۱۶۱].

و بشکل عام یمکن النظر إلی محتوی السورة فی إطار ما تثیره النقاط و الأقسام الآتیة:

القسم الأوّل: و هو یضم طلیعة آیات السورة التی تتحدث عن بعض من أسماء اللّه الحسنی، خصوصا تلک التی ترتبط ببعث معانی الخوف و الرجاء فی القلوب، مثل قوله تعالی: غافِرِ الذَّنْبِ و شَدِیدِ الْعِقابِ

القسم الثّانی: تهدید الکفّار و الطواغیت بعذاب هذه الدنیا الذی سبق و أن نال أقواما اخری فی ماضی التأریخ، بالإضافة إلی التعرّض لعذاب الآخرة، و تتناول بعض الصور و المشاهد التفصیلیة فیه.

القسم الثّالث: بعد أن وقفت السورة علی قصة موسی و فرعون، بدأت بالحدیث- بشکل واسع- عن قصة ذلک الرجل المؤمن الواعی الشجاع الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۵

اصطلح علیه ب «مؤمن آل فرعون» و کیف واجه البطانة الفرعونیة و خلّص موسی علیه السّلام من کیدها.

القسم الرّابع: تعود السورة مرّة اخری للحدیث عن مشاهد القیامة، لتبعث فی القلوب الغافلة الروح و الیقظة.

القسم الخامس: تتعرض السورة المبارکة فیه إلی قضیتی التوحید و الشرک، بوصفهما دعامتین لوجود الإنسان و حیاته، و فی ذلک تتناول جانبا من دلائل التوحید، بالإضافة إلی ما تقف علیه من مناقشة لبعض شبهات المشرکین.

القسم السّادس: تنتهی السورة- فی محتویات القسم الأخیر هذا- بدعوة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم للتحمل و الصبر، ثمّ تختم بالتعرض إلی خلاصات سریعة ممّا تناولته مفصلا من قضایا ترتبط بالمبدأ و المعاد، و کسب العبرة من هلاک الأقوام الماضیة، و ما تعرضت له من أنواع العذاب الإلهی فی هذه الدنیا، لیکون ذلک تهدیدا للمشرکین. ثمّ تخلص السورة فی خاتمتها إلی ذکر بعض النعم الإلهیة.

لقد أشرنا فیما مضی إلی أنّ تسمیة السورة ب «المؤمن» یعود إلی اختصاص قسم منها بالحدیث عن «مؤمن آل فرعون». أما تسمیتها ب «غافر» فیعود إلی کون هذه الکلمة هی بدایة الآیة الثّالثة من آیات السورة المبارکة.

فضیلة تلاوة السورة:

فی سلسلة الرّوایات الإسلامیة المرویة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و عن أئمّة أهل البیت علیهم السّلام، نری کلاما واسعا من فضل تلاوة سور «الحوامیم» و بالأخص سورة «غافر» منها.

ففی بعض هذه الأحادیث نقرأ

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قوله: «الحوامیم تاج

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۶

القرآن»[۱۶۲].

و عن ابن عباس ممّا یحتمل نقله

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أو عن أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه السّلام قال: «لکل شیء لباب و لباب القرآن الحوامیم»[۱۶۳].

و

فی حدیث عن الإمام الصادق نقرأ قوله علیه السّلام: «الحوامیم ریحان القرآن، فحمدوا اللّه و اشکروه بحفظها و تلاوتها، و إنّ العبد لیقوم یقرأ الحوامیم فیخرج من فیه أطیب من المسک الأذفر و العنبر، و إنّ اللّه لیرحم تالیها و قارئها، و یرحم جیرانه و أصدقاءه و معارفه و کلّ حمیم أو قریب له، و إنّه فی القیامة یستغفر له العرش و الکرسی و ملائکة اللّه المقربون»[۱۶۴].

و

فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «الحوامیم سبع، و أبواب جهنّم سبع، تجیء کلّ «حامیم» منها فتقف علی باب من هذه الأبواب تقول: اللّهم لا تدخل من هذا الباب من کان یؤمن بی و یقرأنی»[۱۶۵].

و فی قسم من

حدیث مروی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «من قرأ «حامیم المؤمن» لم یبق روح نبیّ و لا صدیق و لا مؤمن إلّا صلّوا علیه و استغفروا له»[۱۶۶].

و من الواضح أنّ هذه الفضائل الجزیلة ترتبط بالمحتوی الثمین للحوامیم، هذا المحتوی الذی إذا واظب الإنسان علی تطبیقه فی حیاته و العمل به، و الالتزام بما یستلزمه من مواقف و سلوک، فإنّه سیکون مستحقا للثواب العظیم و الفضائل الکریمة التی قرأناها.

و إذا کانت الرّوایات تتحدث عن فضل التلاوة، فإنّ التلاوة المعنیة هی التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۷

تکون مقدمة للاعتقاد الصحیح، فیما یکون الإعتقاد الصحیح مقدمة للعمل الصحیح. إذا التلاوة المعنیة هی تلاوة الإیمان و العمل، و قد رأینا فی واحد من الأحادیث- الآنفة الذکر- المنقولة

عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم تعبیر «من کان یؤمن بی و یقرأنی».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۸

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

حم (۱) تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ (۲) غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِیدِ الْعِقابِ ذِی الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ (۳)

التّفسیر

صفات تبعث الأمل فی النفوس:

تواجهنـا فی مطلع السورة الحروف المقطعـة و هی هنـا من نوع جدیـد لم نعهـده فی السور السابقـة، حیث افتتحت السورة ب «حـاء» و «میم».

و بالنسبة للحروف المقطعـة فی مطلع السور کانت لنا بحوث کثیرة فی معانیها و دلالاتها، تعرضنـا إلیها أثناء الحـدیث عن بدایة سورة «البقرة»، و سورة «آل عمران» و «الأعراف» و سور اخری.

الشـیء الـذی تضـیفه هنـا، هو أنّ الحروف التی تبـدأ به سورة المؤمن التی نحن الآـن بصـددها، تشـیر- کمـا یسـتفاد ذلـک من بعض الرّوایات و من آراء المفسّرین- إلی أسماء اللّه التی تبدأ بحروف هذه السورة، أی «حمید» و «مجید» کما ورد ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۹

عن الامام الصادق علیه السّلام ۱۶۷].

البعض الآـخر ذهب إلی أنّ «ح» إشـارة إلی أسـمائه تعـالی مثـل «حمیـد» و «حلیم» و «حنـان»، بینما «م» إشارة إلی «ملک» و «مالک» و «مجید».

و هناک احتمال فی أن حرف «الحاء» یشیر إلی الحاکمیة، فیما یشیر حرف «المیم» إلی المالکیة الإلهیة.

عن ابن عباس، نقل القرطبی «فی تفسیره» أن «حم» من أسماء اللّه العظمی ۱۶۸].

و یتّضـح فی نهایـة الفقرة أنّ لیس ثمّة من تناقض بین الآراء و التفاسـیر الآنفة الذکر، بل هی تعمد جمیعا إلی تفسیر الحروف المقطعة بمعنی واحد.

فی الآیـة الثّانیـة- کما جری علی ذلک الأسـلوب القرآنی- حدیث عن عظمة القرآن، و إشارة إلی أنّ هذا القرآن بکل ما ینطوی علیه من عظمة و إعجاز و تحدّ، إنّما یتشکّل فی مادته الخام من حروف الألف باء ... و هنا یمکن معنی الإعجاز.

یقول تعالی: تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْعَلِیم

إنّ قدرته تعالی تعجز الأشیاء الأخری عن الوقوف إزاءه، فقدرته ماضـیة فی کل شـیء، و عزته مبسوطة، أمّا علمه تعالی فهو فی أعلی درجات الکمال، بحیث یستوعب کلّ احتیاجات الإنسان و یدفعه نحو التکامل.

و الآیة التی بعدها تعدّد خمسا من صفاته تعالی، یبعث بعضها الأمل و الرجاء، بینما یبعث البعض الآخر منها علی الخوف و الحذر.

و یقول تعالی: غافِرِ الذَّنْبِ

قابِلِ التَّوْبِ ۱۶۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۰

شَدِیدِ الْعِقابِ

ذِی الطَّوْلِ ۱۷۰].

لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ.

أجل إنّ من له هذه الصفات هو المستحق للعبادة و هو الذى يملك الجزاء فى العقاب و الثواب.

ملاحظات

تنطوى الآيات الثلاث الآنفة الذكر على مجموعة من الملاحظات، نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولا: فى الآيات أعلاه (آيـة ۲ و ۳) بعد ذكر اللّه و قبل ذكر المعاد إِلَيْهِ الْمَصِيرُ اشـتملت الآيتان على ذكر سبع صفات للذات الإلهية، بعضها من «صفات الذات» و البعض الآخر منها من «صفات الفعل» التى انطوت على إشارات للتوحيد و القدرة و الرحمة و الغضب، ثمّ ذكرت «عزيز» و «عليم» و جعلتهما بمثابة القاعدة التى نزل الكتاب الإلهى (القرآن) على أساسهما.

أمّا صفات «غافر الذنب» و «قابل التوب» و «شديد العقاب» و «ذى الطول» فهى بمثابة المقدمات اللازمة لتربية النفوس و تطويعها لعبادة الواحدة الأحد.

ثانيا: ابتدأت الصفات الآنفة الذكر بصفة «غافر الذنب» أوّلا و «ذى الطول» أخيرا، أى صاحب النعمة و الفضل كصفة أخيرة. و فى موقع وسط جاءت صفة «شديد العقاب» و هكذا ذكرت الآية الغضب الإلهى بين رحمتين. ثمّ إنّنا نلاحظ أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۱

الغضب الإلهى جاء وسط حديث الآية عن ثلاث صفات من صفات الرحمة الإلهية، و فى كلّ ذلك دليل على المعنى المكنون فى «يا من سبقت رحمته غضبه».

ثالثا: لا يقتصر المعنى فى جملة إِلَيْهِ الْمَصِيرُ على عودة الجميع و رجوعهم كافة إليه تعالى فى يوم القيامة، و إنّما تشير أيضا إلى الانتهاء المطلق لكل الأمور فى هذا العالم و العالم الآخر إليه تعالى، و انتهاء سلسلة الوجود إلى قدرته و إرادته.

رابعا: جاء تعبير لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فى ختام الصفات، و هو حكاية عن مقام التوحيد و العبودية الذى لا يليق بغير اللّه تعالى، حيث تنتهى أمام عبوديته كل العبوديات الأخرى. و هكذا يكون تعبير «لا إله إلّا هو» بمثابة النتيجة النهائية الأخيرة للبيان القرآنى فى هذا المورد.

و لذلك نقرأ فى حديث عن ابن عباس أنّه تعالى: غافِرِ الذَّنْبِ للشخص الذى يقول: لا إله إلّا اللّه و هو تعالى: قابِلِ التَّوْبِ للذى يقرّ بالعبودية و يقول: لا إله إلّا اللّه. و هو شَدِيدِ الْعِقابِ للذى لا يقرّ و لا يقول: لا إله إلا اللّه. و هو ذِى الطَّوْلِ و غنى عن الشخص الذى لا يقول: لا إله إلا اللّه.

من كلّ ذلك يتّضح أن محور الصفات المذكورة هو التوحيد، الذى يدور مدار الإعتقاد الصحيح و العمل الصالح.

خامسا: من وسائل الغفران فى القرآن:

ثمّة فى كتاب اللّه أمور كثيرة تكون أسبابا و عناوين للمغفرة و محو الذنوب و السيئات، و فيما يلى تشير إلى بعض هذه العناوين:

۱- التوبة: إذ فى آية (۸) من سورة التحريم قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ

۲- الإيمان و العمل الصالح: حيث نقرأ فى سورة (محمّد- آية ۲) قوله تعالى:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۲

۳- التقوى: و نرى مصداقها فى قوله تعالى: إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ [۱۷۱].

۴- الهجرة و الجهاد و الشهادة: و مصداقها قوله تعالى فى الآية (۱۹۵) من سورة «آل عمران»: فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ

۵- صدقة السر: و ذلك قوله تعالى: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ

سَیِّئاتِکُمْ ۱۷۲].

۶- الإقراض: کما فی قوله تعالی: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً یُضاعِفْهُ لَکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ۱۷۳].

۷- اجتناب کبائر الذنوب: حیث یقول تعالی فی ۱۷۴]: إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ

و هکذا یتبیّن لنا أن أبواب المغفرة الإلهیة مفتوحة من کلّ مکان، و أنّ عباد اللّه بوسعهم طرق هذه الأبواب و الولوج إلی المغفرة الإلهیة. و قد رأینا فی الآیات الآنفة الذکر سبعة من هذه الأبواب التی تضمن الخلاص لمن یلج أی واحد منها، أو کلّها جمیعا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۳

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۴ الی ۶]

اشارة

ما یُجادِلُ فِی آیاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِینَ کَفَرُوا فَلا یَغْرُرْکَ تَقَلُّبُهُمْ فِی الْبِلادِ (۴) کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ کُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِیَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِیُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کانَ عِقابِ (۵) وَ کَذلِکَ حَقَّتْ کَلِمَةُ رَبِّکَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (۶)

التّفسیر

الأمر الإلهی الحاسم:

بعد أن تعرضت الآیات السابقة إلی نزول القرآن، و إلی بعض الصفات الإلهیة التی تستهدف بعث الخوف و الرجاء، ورد کلام فی الآیات التی بین أیدینا عن قوم امتازوا بالمجادلة و المنازعة حیال آیات اللّه ... الآیة الکریمة توضح مصیر هذه المجموعة ضمن تعبیر قصیر و قاطع، فتقول: ما یُجادِلُ فِی آیاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِینَ کَفَرُوا.

صحیح أنّ هذه المجموعة قد تملک العدة و العدد، إلّا أنّ ذلک لن یدوم إلّا لفترة، فلا تغتر و تنخدع إذا لتحرکهم فی البلاد و تنقلهم فی المدن المختلفة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۴

و استعراضهم لقوّتهم: فَلا یَغْرُرْکَ تَقَلُّبُهُمْ فِی الْبِلادِ.

إنّها أیّام تنقضی بین الکرّ و الفرّ، ثمّ تنتهی هذه الضجة لتزول معها هذه المجموعة و تمحی تماما، کما تزول الفقاعات من علی سطح الماء، أو کما یتلاشی الرماد عند هبوب العواصف! «یجادل» مشتقّة من «جدل» و هی فی الأصل تعنی لف الحبل و إحکامه، ثمّ عمّ استخدامها فی الأبنیة و الحدید و ما شابه، و لهذا فإنّ کلمة (مجادلة) تطلق علی عمل الأشخاص المتقابلین و یرید کلّ شخص أن یلقی حجته و یثبت کلامه و یغلب خصمه.

و لکن ینبغی الانتباه إلی أنّ کلمة (المجادلة) لا تعتبر مذمومة دائما فی اللغة العربیة، بل تعتبر إیجابیة و مطلوبة إذا کانت المجادلة فی طریق الحق و تستند علی المنطق، و تهدف إلی تبیین الحقائق و إرشاد الأشخاص الجهلة ... أمّا إذا کانت علی أسس واهیة من التعصب و الجهل و الغرور، و تستهدف خداع هذا و ذاک، فتکون عند ذلک مذمومة.

القرآن الکریم استخدم کلمة (المجادلة) فی کلا موردیها، إذ نقرأ فی الآیة (۱۲۵) من سورة النحل قوله تعالی: وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ

إلّا أنّه فی موارد اخری- کما فی الآیة أعلاه و فیما بعدها- وردت (المجادلة) لغرض الذم، و هناک بحث حول الجدال و المجادلة سنتعرض له فیما بعد إن شاء اللّه.

«تقلب» مشتقّة من «قلب» و تعنی التغییر، و «تقلّب» هنا بمعنی التصرّف فی المناطق و البلاد، المختلفة للسیطرة و التسلّط علیها، و تعنی الذهاب و الإیاب فیها أیضا.

إنّ هدف الآیة تحذیر للرسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و المؤمنین به- فی بدایة البعثة- من الذین کانوا من الطبقة المستضعفة المحرومة، بأن لا یرکنوا إلی الإمکانات المالیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۵

أو القوّة السیاسیة و الاجتماعیة للکفار، و یعتبرونها دلیلا علی حقانیتهم أو سببا لقوّتهم الحقیقیة، إذ هناک الکثیر منهم فی تأریخ هذه الدنیا، و قد انکشف ضعفهم و سقطت عنهم سرابیل القوّة المزعومة لیبیّن عجزهم حیال العقاب الإلهی، لیسقطوا کما تسقط الأوراق الخریفیة الذابلة فی العواصف الهوجاء.

إنّنا فی عالم الیوم نشاهد الکفار و المستکبرین و الظالمین و هم یقومون بشتی المحاولات، من زیارات و مؤتمرات و أحلاف و تکتّلات و مناورات عسکریة، و توقیع لاتفاقات سیاسیة و عسکریة، و اعتماد لوسائل القمع و الإرهاب إزاء المستضعفین و المحرومین فی العالم، و لکی یسلکوا من خلال ذلک طریقا إلی تحقیق أهدافهم المشؤومة. لذلک ینبغی للمؤمنین أن یکونوا یقظین و حذرین حتی لا یروحوا ضحیة هذه الأسالیب القدیمة و حتی لا یسکتهم الرعب و الخوف فیفتنون بهذا الوضع.

لذلک توضح الآیة التی بعدها عاقبة بعض الأمم السابقة التی ضلّت الطریق و انکفأت عن جادة الحق و الصواب، فتقول فی عبارات قاطعة واضحة تحکی عاقبة قوم نوح و حالهم و من تلاهم من أقوام و جماعات: کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

المقصود من «الأحزاب» هم قوم عاد و ثمود و حزب الفراعنة و قوم لوط، و أمثال هؤلاء ممّن أشارت إلیهم الآیتان (۱۲- ۱۳) من سورة «ص» فی قوله تعالی: کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَیْکَةِ أُولئِکَ الْأَحْزابُ هؤلاء هم «الأحزاب» الذین تآزروا و وقفوا ضدّ دعوات الأنبیاء الإلهیین، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات و مضامینها الربانیة.

إنّهم لم یقتنعوا بمجرّد الوقوف ضدّ الدعوات النبویة الکریمة، بل خططت کلّ أمّة منهم لأن تمسک بنبیّها فتسجنه و تؤذیه، بل و حتی تقتله: وَ هَمَّتْ کُلُّ أُمَّةٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۶

بِرَسُولِهِمْ لِیَأْخُذُوهُ

ثم لم یکتفوا بهذا القدر أیضا، بل لجأوا إلی الکلام الباطل لأجل القضاء علی الحق و محوه، و أصروا علی إضلال الناس و صدّهم عن شریعة اللّه: وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِیُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ ۱۷۵].

إلّا أنّ هذا الوضع لم یستمر طویلا، و لم یبق لهم الخیرا دوما، إذ حینما حان الوقت المناسب جاء الوعد الإلهی: فَأَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کانَ عِقابِ

لکم- أیّها الناس- أن تشاهدوا خرائب مدنهم حین سفرکم و أثناء تجوالکم ... انظروا عاقبتهم المشؤومة المظلمة مدونة علی صفحات التأریخ و فی صدور أهل العلم، فانظروا و اعتبروا! لیس هناک أفضل من هذا المصیر الذی ینتظر أشقیاء مکّة من الکفار و المشرکین الظالمین، إلّا أن یثوبوا إلی أنفسهم و یعیدوا تقییم أعمالهم.

إذا، الآیة أعلاه تلخص برنامج «الأحزاب» الطاغیة و مخططهم فی ثلاثة أقسام هی: (التکذیب و الإنکار) ثمّ (التآمر للقضاء علی رجال الحق) و أخیرا (الدعایة المستمرة لإضلال عامّة الناس).

أمّا مشرکو العرب علی عهد البعثة النّبویة فقد قاموا بتکرار هذه الأقسام الثلاثة حیال رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و حیال

رسالته، لـذلک فلیس ثمّة من عجب أن یهددهم القرآن الکریم بما حلّ بأسـلافهم و بمن سـبقهم من الأحزاب ... نفس العاقبة و نفس الجزاء! الآیـة الأخیرة- فی المقطع الـذی بین أیـدینا- تشیر إلی الجزاء الأخروی الـذی ینتظر هؤلاء، بالإضافـة إلی قسـطهم من العقاب الدنیوی کَذلِکَ حَقَّتْ کَلِمَةُ رَبِّکَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ.

إنّ المعنی الظاهری للآیة واسع، یشمل جمیع الکفار و المعاندین من جمیع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۷

الأقوام، و الآیة بهذا المعنی لا تختص بکفار مکّة، کما یتصور بعض المفسّرین.

إنّ حتمیـة العقـاب الإلـهی لهؤلاـء القوم یعود إلی ذنوبهم المسـتمرة، و الأعمال التی یقومون بها بملء إرادتهم خلافا لرسالـة اللّه ... و لکن العجیب أنّ بعض المفسّـِرین- کالفخر الرازی- یتصور أنّ هـذه الآیة هی من أدلة عقیدة الجبر و المصـیر الجبری الإلزامی للأقوام المختلفـة، و دلیـل سـلب الإرادة عنهم، فی حین أنّنا لو دققنا فی نفس الآیـة مع ترک التعصّب المـذهبی جانبا، فسـیتوضح لنا أنّ هـذا المصـیر الإلـهی الـذی ینتظرهم هو بسـبب سلوکهم لطریق الانحراف المظلم، و بسـبب إصـرارهم علی السـیر، بهـذا الطریق بأرجلهم و بکامل حریتهم و ملء إرادتهم.

بحثان

أوّلا: استعراض الکفار لقواهم الظاهریة

یواجهنا فی الآیات القرآنیـة و فی أماکن متعدّدة مؤدّی یفید أنّ المؤمنین المحرومین ینبغی لهم أن لا یتصوروا أنّ الإمکانات الکبیرة و القوی الظاهرة الواقعة فی حوزة الظالمین و الکفار، هی دلیل علی سعادتهم، أو شرط لانتصارهم فی نهایة المطاف.

- و من أجـل القضـاء علی هـذا التصور المنحرف الخـاطئ الـذی یلازم فی العـادة الضـعفاء ذوی الأفکار المحـدودة و الأفق الإیمانی الضـیق، و من الـذین یرون فی إمکانات الخصم دلیلا معنویا علی حقانیته، فالقرآن یعالـج هـذه الظاهرة من خلال تفحص و اسـتعراض تأریـخ الأقوام السابقـة، و یشیر فی اسـتعراضه لهم إلی نماذج واضـحة و معروفة منهم کالفراعنة فی مصـر، و النماردة فی بابل، و أقوام نوح و عـاد و ثمود فی العراق و الحجـاز و الشام، حتی لا یشـعر المؤمنون المستضـعفون بالضـعف و الهوان، و لکی ییأسوا من جـدوی المواجهة فی حرب هی سجال بین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۸

الطرفین، لکنّها بالوعد الإلهی الحتمی لا بدّ أن تنتهی لصالح أهل الحق.

إنّ القـانون الإلـهی لاـ یقضـی دائما بتعجیل العقوبـة الآنیـة لکل من یرتکب عملا منافیا، أو لمن یخرج عن جادة الصواب و یحیـد عن سبیل الرشد، و إنّما الأمر کما تقول الآیة (۵۹) من سورة الکهف، وَ جَعَلْنا لِمَهْلِکِهِمْ مَوْعِداً.

و فی مکان آخر من الکتاب الإلهی العظیم نقرأ قوله تعالی: فَمَهِّلِ الْکافِرِینَ أَمْهِلْهُمْ رُوَیْداً[۱۷۶].

و فی الآیة (۱۷۸) من «آل عمران» نلتقی فی هذا المورد مع قوله تعالی: إِنَّما نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدادُوا إِثْماً.

نسـتطیع أن ننهی القول فی أنّ الهـدف من هـذا «الإمهال» هو إما لإتمام الحجـة علی الکافرین، أو لاختبار المؤمنین، أو قد یکون زیادة فی ذنوب الذین قطعوا جمیع طرق العودة علی أنفسهم.

و فی عالمنا الیوم تشـبه هذه الحالة الشـعور بالدونیة و الحقارة الذی تعیشه بعض الشعوب المسلمة المختلفة مادیا إزاء الدول الکبری و المتقدمة، و لکن ینبغی مکافحة هذا الشعور بشدة بأسلوب المنطق القرآنی أعلاه.

علاوة على هـذا يجب على هؤلاء أن يدركوا أنّ أشكال التخلف و الحرمان المادى إنّما تعود بدرجة كبيرة إلى ظلم الظالمين، فإذا ما تحطّمت سلاسل الظلم و العبودية أمكن تجاوز التخلف بالمثابرة و الكدح.

ثانيا: المجادلة فى القرآن الكريم

لقـد وردت كلمـة «المجادلـة» خمس مرات فى هـذه السورة المباركـة، و هى جميعـا تختص بالمجادلـة السـلبية الباطلـة، و الآيات التى اشتملت على ذكر المجادلة هى (۴، ۵، ۳۵، ۵۶، ۶۹) و بهذه المناسبة لا بأس بالتعرّض إلى بحث عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۹

الجدال من وجهة النظر القرآنية.

«الجدال» و «المراء» موضوعان وردا كثيرا فى الآيات القرآنية، و فى الأحاديث و الرّوايات الإسـلامية أيضا. و كتوطئة للبحث ينبغى أولا أن نميّز أقسـام الجـدال (الجـدال الإيجابى و الجـدال السـلبى) و ما هو المقصود من كلّ واحـد منها، و علائم كلّ واحـد منها، و أخيرا أضرار «الجدال السلبى» و كذلك عوامل الغلبة فى «الجدال الإيجابى».

و فى هذا الصدد أمامنا النقاط و العناوين الآتية:

أ- مفهوم «جدال» و «مراء»

«الجدال» و «المراء» و «الخصام» ثلاث مفردات متقاربة من حيث المعنى، و فى نفس الوقت يوجد ثمّة اختلاف بينها[۱۷۷].

«الجدال» يعنى فى الأصل اللغوى لف الحبل، ثمّ أخذ يطلق بعد ذلك على لفّ الطرف المقابل و النقاش الذى يتضمّن الغلبة.

«مراء» على وزن «حجاب» و تعنى الكلام فى شىء ما فيه مرية أو شك.

أمّا «الخصومة» و المخاصـمة فتعنى فى الأصل إمساك شخصين كلّ منهما للآخر من جانبه، ثمّ أطلقت بعد ذلك على التشاجر اللفظى و الأخذ و الرد فى الكلام.

و كمـا يقول العلامـة المجلسـى فى (بحـار الأـنوار) فـإنّ الجـدال و المراء أكثر مـا يسـتخدمان فى القضايـا العلميـة، فى حين تسـتخدم المخاصمة فى الأمور و المعاملات الدنيوية.

و يحدّد بعضهم الاختلاف بنى الجدال و المراء فى أنّ هدف المراء هو إظهار الفضل و الكمال، فى حين أنّ الجدال يستهدف تعجيز و تحقير الطرف المقابل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۰

و قالوا أيضا فى الفرق بينهما: إن الجدال فى القضايا العلمية، و المراء أعم من ذلك.

و قالوا أخيرا: إنّ المراء ذو طابع دفاعى فى قبال هجوم الخصم، بينما الجدال أعم من الدفاع و الهجوم.

ب: الجدال السلبى و الإيجابى

يظهر من الآيات القرآنية أنّ للفظ الجدال معانى واسـعة، و يشمل كلّ أنواع الحديث و الكلام الحاصل بين الطرفين، سواء كان إيجابيا أم سلبيا، ففى الآية (۱۲۵) من سورة «النحل» نقرأ أمر الخالق تبارك و تعالى لرسوله الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى قوله تعالى:

وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ

و فی الآیهٔ (۷۴) من سورهٔ «هود» نقرأ عن إبراهیم علیه السّلام: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِیمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْری یُجادِلُنا فِی قَوْمِ لُوطٍ و الآیهٔ تشیر إلی النوع الإیجابی من المجادلهٔ.

و لکن أغلب الإشارات القرآنیهٔ حول المجادلهٔ تشیر إلی النوع السلبی منها، کما نری ذلک واضحا فی سورهٔ «المؤمن» التی نحن بصددها، حیث أشارت إلی «المجادلهٔ» بمعناها السلبی خمس مرّات.

و فی کلّ الأحوال یتبیّن أنّ البحث و الکلام و الاستدلال و المناقشهٔ لأقوال الآخرین، إذا کان لإحقاق الحقّ و إبانهٔ الطریق و إرشاد لجاهل، فهو عمل مطلوب یستحق التقدیر، و قد یندرج أحیانا فی الواجبات.

فالقرآن لم یعارض أبدا البحث و النقاش الاستدلالی و الموضوعی الذی یستهدف إظهار الحق، بل حث ذلک فی العدید من الآیات القرآنیهٔ.

و فی مواقف معینهٔ طالب القرآن المعارضین بالإتیان بالدلیل و البرهان فقال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۱

هاتُوا بُرْهانَکُمْ ۱۷۸].

و فی المواقف التی کانت تتطلب إظهار البرهان و الدلیل، ذکر القرآن أدلهٔ مختلفهٔ، کما نقرأ ذلک فی آخر سورهٔ «یس» حین جاء ذلک الرجل إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و هو یمسک بیده عظما فقال له سائلا: مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ ۱۷۹] فذکر القرآن عددا من الأدلهٔ علی لسان الرّسول الأکرم فی المعاد و قدرهٔ الخالق علی إحیاء الموتی.

و فی القرآن نماذج اخری واضحهٔ علی الجدال الإیجابی، کما فی الآیهٔ (۲۵۸) من سورهٔ البقرهٔ، التی تعکس کلام إبراهیم علیه السّلام و أدلته القاطعهٔ أمام نمرود.

و الآیات (۴۷- ۵۴) من سورهٔ «طه» تعکس تحاجج موسی و فرعون.

و کذلک نجد القرآن ملیء بالأدلهٔ المختلفهٔ التی أقامها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مقابل عبدهٔ الأصنام و المشرکین و أصحاب الذرائع.

و من جهةٔ اخری یذکر القرآن الکریم نماذج اخری من مجادلات أهل الباطل لإثبات دعاواهم الباطلهٔ من خلال استخدام السفسطات الکلامیهٔ و الحجج الواهیهٔ لابطال الحق و غوایهٔ عوام الناس.

إنّ السخریهٔ و الاستهزاء و التهدید و الافتراء و الإنکار الذی لا یقوم علی دلیل، هی مجموعهٔ من الأسالیب التی یعتمدها الظالمون الضالّون إزاء الأنبیاء و دعواتهم الکریمهٔ، أمّا الاستدلال الممزوج بالعاطفهٔ و الحبّ و الرأفهٔ بالناس فهو أسلوب الأنبیاء، رسل السماء إلی الأرض.

فی الرّوایات الإسلامیهٔ و التأریخ الإسلامی آثار کثیرهٔ و غنیهٔ عن مناظرات الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و أئمّهٔ أهل البیت علیهم السّلام مع المعارضین، و إذا ما توفر جهد معین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۲

علی جمعها و تصنیفها فإنّها ستشکّل کتابا کبیرا و ضخما للغایهٔ. (و قد قام العلّامهٔ الشیخ الطبرسی بجمع بعضها فی کتابه «الإحتجاج»).

و بالطبع لم ینحصر مقام المجادلهٔ بالتی هی أحسن و مناظرهٔ الخصوم علی المعصومین، بل إن الأئمّهٔ علیهم السّلام کانوا یحثون من یجدون فیه القدرهٔ الکافیهٔ و المنطق القوی المتین للقیام بهذه الوظیفهٔ، و الّا فقد تضعف جبهةٔ الحق و یقوی عود خصومها، و یجدون فی أنفسهم الجرأهٔ فی مواجهةٔ الحق و التمادی فی عنادهم.

و فی هذا الاتجاه نقرأ فی حدیث، أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق علیه السّلام یلقّب ب «الطیار» و یدعی (حمزهٔ بن محمّد) جاء إلی

الإمام الصادق علیه السّلام و قال له: «بلغنی أنک کرهت مناظرة الناس» فأجابه الإمام علیه السّلام

بقوله: «أما مثلک فلا یکره، من إذا طار یحسن أن یقع، و إن وقع یحسن أن یطیر، فمن کان هذا لا نکرهه»[۱۸۰].

کلام جمیع یشیر بوضوح کاف إلی القوة و المتانة فی قدرة الاستدلال و المناظرة و خصم الطرف المقابل لمن یرید خوض المناظرة مع الخصوم، کی یکون بمقدوره استخلاص النتائج و إنهاء البحث، فلا بدّ من حضور اشخاص مستعدین و لهم تسلط کاف علی البحوث الاستدلالیة، حتی لا یحسب ضعف منطقهم بأنّه من ضعف دینهم و مذهبهم.

ج: الآثار السیئة للجدال السلبی

صحیح أنّ البحث و النقاش هو مفتاح لحل المشاکل، إلّا أنّ هذا الأمر یصح فی حال رغبة الطرفین فی نشدان الحق و البحث عن الطریق الصحیح، أو علی الأقل یکون أحد الطرفین متمسکا بالحق و مستهدفا السبیل إلیه فیما یخوض من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۳

نقاش و مناظرة.

أمّا أن یکون النقاش و الجدل بین الطرفین بهدف التفاخر و استعراض القوة، و فرض الرأی علی الطرف الثّانی عن طریق إثارة الضجة، فإنّ عاقبة هذا الأمر لا تکون سوی الابتعاد عن الحق و عشعشة الظلمة فی القلوب و تجذّر العداء و الحقد لا غیر.

و لهذا السبب نهت الروایات و الأحادیث الإسلامیة عن المراء و الجدال الباطل، و فی هذه المرویات إشارات کبیرة المعنی إلی الآثار السیئة لهذا النوع من الجدال.

ففی حدیث عن أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب نقرأ قوله علیه السّلام: «من ضنّ بعرضه فلیدع المراء»[۱۸۱].

لأنّ فی هذا النوع من النقاش سوف ینحدر بالکلام تدریجیا لیصل إلی مناحی الاستهانة و عدم الاحترام و تبادل الکلام المبتذل القبیح، و ترامی الاتهامات الباطلة.

و

فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین أیضا نقرأ وصیته علیه السّلام إذ یقول: «إیّاکم و المراء و الخصومة فإنّهما یمرضان القلوب علی الإخوان، و ینبت علیهما النفاق»[۱۸۲].

إنّ مثل هذا النوع من الجدال و الذی یکون عادة فاقدا للالتزام بالأصول الصحیحة للبحث و الاستدلال، سیقوی روح اللجاجة و التعصّب و العناد لدی الأشخاص، بحیث یستخدم کلّ طرف- بهدف التغلب علی خصمه و الإنتصار لنفسه- کلّ الأسالیب حتی تلک التی تنطوی علی الکذب و التهمة، و مثل هذا العمل لا یمکن أن تکون عاقبته إلّا السوء و الحقد و تنمیة جذور النفاق فی الصدور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۱۹۴

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۴

إنّ واحدة من المفاسد الکبیرة الأخری للجدال السلبی المنهیّ عنه، هو تمسک الطرفین بانحرافاتهم و أخطائهم و إصرارهم علی اشتباهاتهم، فی موقف عنید بعید عن الحق و الصواب، ذلک لأنّ کلّ طرف یحاول ما استطاع التمسّک بأی دلیل و التشبّث بالباطل لفرض رأیه و إثبات کلامه، و هو فی ذلک مستعد لإنّ یتجاهل الکلام الحق الذی یصدر من خصمه، أو أنّه ینظر إلیه بعدم الرضا و القبول.

و هذا بحدّ ذاته یزید من الانحراف و الاشتباه و الخطأ.

د: أسلوب المجادلة بالتی هی أحسن:

لا یستهدف «الجدال الإیجابی» تحقیر الطرف الآخر أو الإنتصار علیه، بل یهدف النفوذ إلی عمق أفکاره و روحه، لهذا فإنّ أسلوب المجادلة بالتی هی أحسن یختلف کلیا عن الجدال السلبی أو الباطل.

و لکی یؤثر الطرف المجادل معنویان علی الطرف الآخر، علیه الاستفادة من الأسالیب الآتیة التی أشار إلیها القرآن الکریم بشکل جمیل:

۱- ینبغی عدم الإصرار علی الطرف المقابل بقبول الکلام علی أنّه هو الحق، بل علی المجادل إذا استطاع أن یجعل الطرف المقابل یعتقد بأنّه هو الذی توصّل إلی هذه النتیجة، و هذا الأسلوب سیکون أکثر تأثیرا. بعبارة اخری: من المفید للطرف المقابل أن یعتقد بأنّ النتیجة أو الفکرة نابعة من أعماقه و هی جزاء من روحه، کی یتمسک بها أکثر و یذعن لها بشکل کامل.

و قد یکون هذا الأمر هو سر ذکر القرآن للحقائق المهمّة کالتوحید و نفی الشرک و غیر ذلک علی شکل استفهام، أو أنّه بعد أن ینتهی من استعراض و ذکر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۵

أدلة التوحید یقول: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ ۱۸۳].

۲- یجب الامتناع عن کلّ من ما یثیر صفة العناد و اللجاجة لدی الطرف الآخر، إذ یقول القرآن الکریم: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۱۸۴]. کی لا یصر هؤلاء علی عنادهم و یهینوا الخالق جلّ و علا بتافه کلامهم.

۳- یجب مراعاة منتهی الإیضاح فی النقاش مع أی شخص أو أی مجموعة، کی یشعر الطرف المقابل بأنّ المتحدّث إلیه یبغی حقّا توضیح الحقائق لا غیر، فعند ما یتحدث القرآن عن مساوئ الخمر و القمار، فهو لا یتجاهل المنافع الثانویة المادیة و الاقتصادیة التی یمکن أن یحصل علیها البعض منهما، فیقول:

قُلْ فِیهِما إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما.

إنّ هذا الطراز من الحدیث یحمل آثارا إیجابیة کبیرة علی المستمع.

۴- یجب عدم الرّد بالمثل حیال المساوئ و الأحقاد التی قد تطفح من الخصم، بل یجب سلوک طریق الرأفة و الحبّ و العفو ما استطاع الإنسان إلی ذلک سبیلا، إذ أنّ الرّد بهذا الأسلوب الودود یؤثر کثیرا فی تلیین قلوب الأعداء المعاندین، کما یقول القرآن الکریم و یحث علی ذلک: ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ ۱۸۵].

و الخلاصة، إنّنا عند ما ندقق فی أسلوب نقاشات الأنبیاء علیهم السلام مع الأعداء و الظالمین و الجبارین، کما یعکسها القرآن الکریم، أو کما تعکسها تلک المناظرات العقائدیة بین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أو أئمّة أهل البیت المعصومین علیهم السّلام و بین أعدائهم و خصومهم، ننتهی إلی دروس تربویة فی هذا المجال تطوی فی تضاعیفها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۶

أدق الأسالیب و الوسائل النفسیة التی تسهّل لنا النفوذ إلی أعماق الآخرین.

و بهذا الخصوص ینقل العلّامة المجلسی فی (بحار الأنوار) روایة مفصّلة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یضمنها مناظرة طویلة بین الرّسول الأکرم و بین خمسة مجامیع مخاصمة هی: الیهود و النصاری و الدهریین و الثنویین (أتباع عقدیة التثنیة فی التألیه) و مشرکی العرب، تنتهی بسبب الأسلوب الحکیم الجمیل و المؤثر الذی استخدمه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلی قبول هؤلاء بالحق و إذعانهم و تسلیمهم له.

إنّ هذه المناظرة المربية بإمكانها أن تكون لنا درسا بناء فی مناظراتنا و أساليب جدلنا و مناقشاتنا مع الآخرين ١٨٦].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۷ الى ۹]

اشارة

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

التّفسير

دعاء حملة المستمر للمؤمنين:

يتضح من أسلوب الآيات السابقة أنّها نزلت فی فترة كان فيها المسلمون قلّة محرومة، بينما كان الأعداء فی أوج قوتهم، يتمتعون بالإمكانات الكبيرة و يسيطرون على السلطة.

بعد ذلك نزلت الآيات التی نحن بصددها لتكون بشرى للمؤمنين الحقيقيين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۸

و الصابرين، بأنّكم لستم وحدكم، فلا تشعروا بالغربة أبدا، فحملة العرش الإلهی و المقربون منه، و كبار الملائكة معكم يؤيدونكم، إنّهم فی دعاء دائم لكم، و يطلبون لكم من اللّه النصر فی الدنيا و حسن الثواب فی الآخرة ... و هذا هو أفضل أسلوب للتعاطف مع المؤمنين فی ذلك اليوم، و هذا اليوم، و غدا.

فالقرآن يقول: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

أمّا قولهم و دعاؤهم فهو: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فأنت عالم بذنوب عبادك المؤمنين و رحيم بهم فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ

يوضح هذا الكلام للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم الذين تعبدون اللّه و تسبحونه و تحمدونه، فقبلكم الملائكة المقرّبون و حملة العرش و من يطوف حوله، يسبحون الخالق جلّ و علا و يحمدونه.

و هی من جانب آخر تحذر الكفّار و تقول لهم: إنّ إيمانكم أو عدمه ليس مهمّا، فاللّه غنی عن العباد لا يحتاج إلى إيمان أحد، و هناك الملائكة يسبحون بحمده و يحمدونه و هم من الكثرة بحيث لا يمكن تصوّرهم بالرغم من أنّه غير محتاج إلى حمد هؤلاء و تسبيحهم.

و من جانب ثالث، فی الآية إخبار للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم فی هذا العالم- بالرغم من أنّكم أقلية فی محيطكم- فأعظم قوّة غيبية فی العالم و حملة العرش هم معكم و يساندونكم و يدعون لكم، و هم فی نفس الوقت يسألون اللّه أن يشملكم بعفوه و رحمته الواسعة، و أن يتجاوز عن ذنوبكم و ينجيكم من عذاب الجحيم.

و فی هذه الآية تواجهنا مرة اخرى كلمة (العرش) حيث ورد كلام عن حملته و الملائكة الذين يحيطون به، و بالرغم من أنّنا تحدثنا عن هذا الموضوع فی تفسير

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۹

بعض السور، فإنّنا سنقف علیه مرّة اخری فی باب البحوث إن شاء اللّه ۱۸۷].

فی الآیة التی تلیها استمرار دعاء حملة العرش للمؤمنین، یقول تعالی:

رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِی وَعَدْتَهُمْ

و أیضا: وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ ۱۸۸].

لماذا؟ ل إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

هذه الآیة التی تبدأ بکلمة (ربّنا) التی یطلب حملة العرش و الملائکة المقرّبون بها من خالقهم- بإصرار- أن یتلطف بعباده المؤمنین، و یرکّزون فی هذا الطلب علی مقام ربوبیته تعالی، و هؤلاء لا یریدون من خالقهم انقاذ المؤمنین من عذاب القیامة و حسب، بل إدخالهم فی جنات خالدة، لیس وحدهم و إنّما مع آبائهم و أزواجهم و أبنائهم السائرین علی خطّهم فی الاستقامة و الإیمان ... إنّهم یطلبون الدعم من عزّته و قدرته، أمّا الوعد الإلهی الذی أشارت إلیه الآیة فهو نفس الوعد الذی ورد مرارا علی لسان الأنبیاء لعامة الناس.

أمّا تقسیم المؤمنین إلی مجموعتین، فهو فی الواقع یکشف عن حقیقة أنّ هناک مجموعة تأتی بالدرجة الأولی، و هی تحاول أن تتبع الأوامر الإلهیة بشکل کامل.

أمّا المجموعة الأخری فهی لیست بدرجة المجموعة الأولی و لا فی مقامها، و إنّما بسبب انتسابها إلی المجموعة الأولی و محاولتها النسبیة فی اتباعها سیشملها دعاء الملائکة.

بعد ذلک تذکر الآیة الفقرة الرّابعة من دعاء الملائکة للمؤمنین: وَ قِهِمُ السَّیِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّیِّئاتِ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ

ثم ینتهی الدعاء بهذه الجملة ذات المعنی الکبیر: وَ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۰

هل هناک فوز أعظم من أن تغفر ذنوب الإنسان، و یبتعد عنه العذاب لتشمله الرحمة الإلهیة و یدخل الجنّة الخالدة، و ثم یلتحق به أقرباؤه الذین یودّهم؟

بحوث

أوّلا: الأدعیة الأربعة لحملة العرش

قد یطرح هنا هذا السؤال: ما هو التفاوت الموجود بین الأدعیة الأربعة؟

ألیس بعضها مکررا؟

عند التأمل و التدقیق یتبیّن أنّ کلّ واحد منها یشیر إلی موضوع مختلف. ففی البدایة یطلب الملائکة غسل المؤمنین و تطهیرهم من آثار الذنوب، و هذا الأمر إضافة لکونه مطلوبا بذاته، فهو یعتبر مقدمة للوصول إلی أی نعمة کبیرة. و إلّا فهل هناک موهبة أعلی من أن یشعر الإنسان بأنّه أصبح طاهرا مطهرا، و أنّ خالقه جلّ و علا راض عنه، و هو أیضا راض عن خالقه الکریم؟

إنّ هذا الإحساس- بغض النظر عن قضیة الجنّة و النّار یعتبر أمرا عظیما و فخرا کبیرا بالنسبة للعباد.

فی مرحلة ثانیة یطلب حملة العرش و الملائکة إبعاد المؤمنین و إنقاذهم من عذاب جهنّم. و هذا الأمر بحد ذاته یعتبر من أهم وسائل تحقیق الراحة و الرضا النفسیّین.

المرحلة الثّالثة تنطوی علی دعاء الملائکة و حملة العرش للمؤمنین فی طلب الجنّة لهم و لأقربائهم أیضا، حیث یعتبر هؤلاء الأقرباء

الصالحون عاملا من عوامل الراحة و الاستقرار النفسى.

و بسبب وجود (مؤذيات) اخرى مهمّة فى يوم القيامة غير نار جهنّم، كهول المطّلع و المحشر، و الفضيحة أمام الخلائق، و طول الوقفة للحساب و أمثال ذلك، لذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۱

طلبت الملائكة و حملة العرش فى أدعيتهم الأخرى أن يحفظ اللّه المؤمنين و يقيهم من أى سوء أو مكروه فى ذلك اليوم، كى يدخلوا جنّة الخلد براحة بال و اطمئنان و احترام كامل.

ثانيا: آداب الدعاء

فى هذه الآيات يعلّم حملة العرش و الملائكة المؤمنين أسلوب الدعاء.

ففى البداية ينبغى بالتمسك بكلمة «ربّنا».

ثمّ مناداته تعالى بصفات الجلال و الجمال، و طلب العون من مقام رحمته المطلقة و علمه غير المتناهى: وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً.

و أخيرا الدعاء و طلب الحاجة بحسب أهميتها و بشروط توفّر الأرضية للاستجابة: فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ

ثم ينتهى الدعاء بذكر صفاته تعالى الجمالية و الجلالية، و التوسّل برحمته تعالى مرّة اخرى.

و الطّريف فى الأمر أنّ حملة العرش الإلهى يعتمدون على خمسة أوصاف إلهية مهمّة فى دعائهم و هى: الربوبية، و الرحمة، و القدرة، و العلم، و الحكمة.

ثالثا: لماذا تبدأ الأدعية بكلمة «ربّنا»؟

عند قراءة آيات القرآن الكريم نرى أنّ أولياء اللّه- سواء منهم الأنبياء أو الملائكة أو الصالحون- كانوا يبدأون كلامهم ب «ربّنا» أو «ربّى» عند الدعاء ...

فآدم عليه السّلام يقول: رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا.

و نوح عليه السّلام يقول: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَ و إبراهيم عليه السّلام يقول: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ

أما يوسف عليه السّلام فيقول: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۲

و موسى الكليم عليه السّلام يقول: رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ

أما سليمان عليه السّلام فيقول: رب هب لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي

أما عيسى المسيح عليه السّلام فيقول: رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ[۱۸۹].

و الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يقول: رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ۱۹۰].

و على لسان المؤمنين نقرأ فى أماكن متعدّدة كلمة «ربّنا» فى فاتحة الدعاء، ففى آخر سورة «آل عمران» نرى دعائهم: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا.

من خلال هذه النماذج و المواقف نستنتج أنّ أفضل الدعاء هو ما يبدأ بالربوبية صحيح أنّ الاسم المبارك «اللّه» هو أكثر شمولية

لأسماء الخالق، و لكن لارتباط الحاجات بمقام الرّبوبيـة، هذا المقام الذى يرتبط به الإنسان منذ اللحظة الأولى من وجوده و حتى آخر عمره، و تستمر بعد ذلك صفة الارتباط ب «الربوبية» التى تغرق الإنسان بالألطاف الإلهية، لذا فإنّ ذكر هذه الكلمة فى بداية الأدعية يعتبر أكثر تناسبا من باقى الأسماء الأخرى ١٩١].

رابعا: ما هو العرش الإلهى؟

لقد أشرنا مرارا إلى أن ألفاظنا- الموضوعة أصلا لتوضيح مشخصات الحياة المحدودة- لا تستطيع أن توضّح عظمة الخالق، أو حتى أن تحيط بعظمة مخلوقاته جلّ و علا، لهذا السبب فليس أمامنا سوى استخدام ألفاظ و معانى للكناية عن تلك العظمة.
و فى طليعة الألفاظ التى يشملها هذا الوضع كلمة (العرش) التى تعنى لغويا (السقف) أو (السرير ذا المسند المرتفع) فى قبال (الكرسى) الذى هو (سرير ذو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۳

مسند منخفض). ثمّ استخدمت هذه الكلمة لتشمل (عرش) القدرة الإلهية.
و للمفسّرين و الفلاسفة و المناطقة كلام كثير حول المقصود بالعرش، و ما ينطوى عليه من معنى كنائى.
فأحيانا فسّروا العرش بمعنى (العلم اللامتناهى للّه تبارك و تعالى).
و اخرى قالوا بأن المعنى هو (المالكية و الحاكمية الإلهية).
و فسّروا العرش أيضا بأنّه إشارة إلى أى واحدة من الصفات الكمالية و الجلالية للّه تبارك و تعالى، لأنّ كلّ واحدة من هذه الصفات توضح عظمة منزلته جلّ و علا، كما أنّ عرش السلطان (و الأمثال تضرب و لا تقاس) يوضح عظمته.
فالخالق جلّ و علا يملك عرش العلم، و عرش القدرة، و عرش الرحمانية، و عرش الرحيمية.
و طبقا للتفاسير و الآراء الثلاثة هذه، فإنّ مفهوم (العرش) يعود إلى صفات الخالق جل و علا، و لا يعنى وجود خارجى آخر له.
و فى بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليه السّلام، ما يشير إلى هذا المعنى، ففى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه أجاب عند ما سئل عن معنى قوله تعالى: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أنّ المقصود بذلك علمه تعالى شأنه ١٩٢].
و فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضا أنّه فسّر (العرش) بأنّه «العلم» الذى كشفه و علّمه اللّه للأنبياء عليهم السلام، بينما (الكرسى) هو «العلم» الذى لم يعلمه لأحد و لم يطلع عليه أحد[۱۹۳].
و بين أيدينا تفاسير اخرى استندت إلى روايات إسلامية، ففسّرت العرش و الكرسى بأنّهما موجودات عظيمة من مخلوقات اللّه تبارك و تعالى.
قالوا- مثلا- إنّ المقصود بالعرش هو مجموع عالم الوجود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۴

و قالوا أيضا: هو مجموع الأرض و السماء المتجسدة ضمن هذا الكرسى، بل إنّ السماء و الأرض كالخاتم فى الصحراء الواسعة مقايسة بينهما و بين (الكرسى) ثم قالوا: إنّ «الكرسى» فى مقابل العرش كالخاتم فى الصحراء الواسعة.
و فى تفاسير اخرى تستند بدورها إلى روايات إسلامية، أطلقوا كلمة (العرش) للكناية عن قلوب الأنبياء و الأوصياء و المؤمنين التامين الكاملين، كما جاء ذلك
فى الحديث: «إنّ قلب المؤمن عرش الرحمن»[۱۹۴].
و

فی حدیث قدسی نقرأ قوله تعالی: «لم یسعنی سمائی و لا أرضی، و وسعنی قلب عبدی المؤمن»[۱۹۵].

أما أفضل الطرق لإدراک معنی العرش- بمقدار ما تسمح به قابلیة الإنسان و استیعابه- فهو أن نبحث موارد استعمال هذه الکلمة فی القرآن الکریم، و نتفحص مدلولاتها بشکل متأن.

فی آیات کثیرة من کتاب اللّه نلتقی مع هذا التعبیر، کما فی قوله تعالی: ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ ۱۹۶]. ثمّ یرد تعبر یُدَبِّرُ الْأَمْرَ فی بعض الآیات التی تأتی بعد مفاد الآیة أعلاه (آیة العرش) أو ترد جمل اخری تعبّر عن علم اللّه و درایة الخالق جلّ و علا.

فی آیة اخری من القرآن الکریم یوصف العرش بالعظمة: وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ ۱۹۷].

و أحیانا تتحدث الآیة عن حملة العرش، کما فی الآیة التی نحن بصددها.

و من الآیات ما تتحدث عن الملائکة المحیطة بالعرش، کما فی قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۵

وَ تَرَی الْمَلائِکَةَ حَافِّینَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ۱۹۸] و فی آیة اخری نقرأ قوله تعالی: وَ کانَ عَرْشُهُ عَلَی الْماءِ.

من خلال مجموع هذه الموارد، و التعابیر الأخری الواردة فی الأحادیث و الروایات الإسلامیة، نستنتج بشکل واضح أنّ کلمة (العرش) تطلق علی معانی مختلفة بالرغم من أنّها تشترک فی أساس واحد.

فأحد معانی العرش هو مقام (الحکومة و المالکیة و خلق عالم الوجود) إذ تلاحظ أنّ الاستخدام الشائع للعرش یدلل- من خلال الکنایة- علی سیطرة الحاکم علی أمور دولته، فنقول مثلا: «فلان شلّ عرشه» و التعبیر کنایة عن انهیار قدرته و حکومته.

و المعنی الآخر من معانی العرش هو، «مجموع عالم الوجود» لأنّ کلّ الوجود هو دلیل علی العظمة.

و أحیانا یستخدم العرش بمعنی «العالم الأعلی» و الکرسی بمعنی «العالم الأدنی».

و یستخدم العرش أحیانا بمعنی (عالم ما وراء الطبیعة) و الکرسی بمعنی (مجموع عالم المادة) بما فی ذلک الأرش و السماء، کما جاء فی آیة الکرسی:

وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ

و لأنّ علم الخالق لا ینفصل عن ذاته المنزهة، لذا فانّ کلمة (عرش) تطلق أحیانا علی «علم اللّه».

و إذا أطلق وصف (عرش الرحمن) علی القلوب الطاهرة لعباد اللّه المؤمنین، فذلک یعود إلی أنّ هذا المکان هو محل معرفة الذات الإلهیة المنزهة، و هو بحدّ ذاته أحد أدلة عظمته و قدرته جلّ و علا.

من کلّ ذلک یتضح أنّ کافة معانی العرش- التی وردت آنفا- توضح عظمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۶

الخالق جلّ و علا.

و فی الآیة التی نحن بصدد بحثها یمکن أن یکون المقصود من العرش هو نفس حکومة اللّه تعالی و تدبیره لعالم الوجود، و حملة العرش یقومون بتنفیذ إرادة اللّه الحاکمة فی الخلق.

و یمکن أن یکون المعنی هو مجموع عالم الوجود أو عالم ما وراء الطبیعة. أمّا حملة العرش الإلهی فهم الملائکة الذین تقع علیهم مسئولیة تدبیر أمر هذا العالم بأمر اللّه تعالی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۷

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۱۰ الی ۱۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (۱۰) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (۱۱) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (۱۲)

التّفسير

اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص؟

تحدثت الآيات السابقة عن شمول الرحمة الإلهية للمؤمنين، أمّا مجموعة الآيات التی بين أيدينا فهی تتحدث عن «غضب» اللّه تعالی علی الكافرين، كی يكون بالمستطاع المقارنة بين صورتين و مشهدين متقابلين.

فی البداية تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ

من الذی ينادی هؤلاء بهذا النداء؟

يبدو أن ملائكة العذاب ينادونهم بهذا النداء لتوبيخهم و فضحهم، فی مقابل ما

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۸

تفعله ملائكة الرحمة من إكرام المؤمنين و الصالحين.

و يحتمل أن يكون هذا النداء من نوع التخاطب و التخاصم الذی يقوم بين الكفار فی القيامة، لكن المعنی الأوّل أرجح كما يبدو، و علی كلّ حال سينطلق هذا النداء يوم القيامة، كما أنّ الآيات اللاحقة شاهد علی هذا المعنی.

«المقت» تعنی فی اللغة البغض و العداوة الشديدة. و هذه الآية تبيّن أن غضب اللّه تعالی علی الكافرين هو أشد من عداوتهم لأنفسهم أمّا فيم يتعلق بمقت الكفار لأنفسهم، فهناک تفسيران:

الأوّل: يتمثل فی ارتكاب هؤلاء فی الحياة الدنيا لأكبر عداوة إزاء أنفسهم برفضهم لنداء التوحيد، فهم لم يهملوا مصابيح الهداية و حسب، بل عمدوا إلی تحطيمها. فهل ثمّة عداء للنفس أكثر من أن يغلق الإنسان أمامه أبواب السعادة الأبدية، و يفتح علی نفسه أبواب العذاب.

و طبقا لهذا التّفسير يكون قوله تعالی: إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ بيانا لكيفية مقت و عداوة الكافرون أنفسهم.

الثّانی: أن يكون المقصود بغضبهم و عدائهم لأنفسهم هو أن تصيبهم حالة من الألم و الندم الشديد عند ما يشاهدون يوم القيامة نتيجة أعمالهم و ما اقترفت أيديهم فی هذه الدنيا، حيث ترتفع آهاتهم و صرخاتهم، و يعضون علی أناملهم من الندم، و لات ساعة مندم يقول تعالی: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ ۱۹۹]. و يتمنون أن يكونوا ترابا: وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً[۲۰۰].

و فی ذلک اليوم تنفتح آفاق البصر: فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ[۲۰۱] و تنكشف الأسرار و الحقائق الخفية: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[۲۰۲]. و فی ذلک اليوم تنشر الصحف و تكشف

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۹

الأعمال: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۲۰۳]. و عندها تكون النتيجة: كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً[۲۰۴]. لذلک سيلوم هؤلاء أنفسهم بشدة و يتنفرون منها و يبكون علی مصيرهم.

و هنا يأتی النداء: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ

و طبقا لهذا التّفسير تكون جملة: إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ بيانا لدليل شدة الغضب الإلهی عليهم ۲۰۵].

بالطبع فإن كلا التّفسيرين مناسب، إلّا أنّ التّفسير الأوّل بلحاظ بعض الأمور- أرجح.

عند ما يشاهد المجرمون أوضاع يوم القيامة و أهوالها، و يرون مشاهد الغضب الإلهى حيالهم، سينتبهون من غفلتهم الطويلة و يفكرون بطريق للخلاص، فيعترفون بذنوبهم و يقولون: قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ

عند ما تزول حجب الغرور و الغفلة، و ينظر الإنسان بالعين الحقيقية، فلا سبيل عندها سوى الاعتراف بالذنوب! إنّ هؤلاء كانوا يصرون على إنكار المعاد، و يستهزئون بوعيد الأنبياء لهم،

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۰

و لكن بعد توالى الموت و الحياة لا يبقى مجال للإنكار، و قد يكون سبب تكرارهم للموت و الحياة، أنّهم يريدون القول: يا خالقنا الذى تملك الموت و الحياة، أنت قادر على أن تعيدنا إلى الدنيا مرة اخرى كى نعوّض ما مضى.

ذكر المفسرون عدّة تفاسير حول المقصود من قوله تعالى: أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ و أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ و من بين هذه التفاسير هناك ثلاثة آراء نقف عليها فيما يلى:

أوّلا- أن يكون المقصود من أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ هو الموت فى نهاية العمر، و الموت فى نهاية البرزخ. أمّا المقصود من أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فهى الإحياء فى نهاية البرزخ و الإحياء فى القيامة.

و لتوضيح لذلك، نرى أنّ للإنسان حياة اخرى بعد الموت تسمى الحياة البرزخية، و هذه الحياة هى نفس حياة الشهداء التى يحكى عنها قوله تعالى: بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۲۰۶]، و هى نفس حياة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام، حيث يسمعون سلامنا و يردون عليه.

و هى أيضا نفس حياة الطغاة و الأشقياء كالفراعنة الذين يعاقبون صباحا و مساء بمقتضى قوله تعالى: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا[۲۰۷].

و من جانب آخر نعرف أنّ الجميع، من الملائكة و البشر و الأرواح، ستموت فى نهاية هذا العالم مع أوّل نفخة من الصور: فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ۲۰۸]. و لا يبقى أحد سوى الذات الإلهية (بالطبع على خلاف ما أوضحناه فى نهاية الآية (۸۶) من سورة الزمر بين موت و حياة الملائكة و الأرواح، و بين موت و حياة الإنسان).

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۱

و على هذا الأساس فإنّ هناك حياة جسمانية و حياة برزخية، ففى نهاية العمر يحل الموت بحياتنا الجسمانية، لكن فى نهاية العالم يحل بحياتنا البرزخية.

يترتب على ذلك أن تكون هناك حياتان بعد هذين الموتتين: حياة برزخية، و حياة فى يوم القيامة.

و هنا قد يطرح البعض هذا السؤال: إنّنا فى الواقع نملك حياة ثالثة هى حياتنا فى هذه الدنيا، و هى غير هاتين الحياتين، و قبلها أيضا كنّا فى موت قبل أن نأتى إلى هذه الدنيا، و بهذا سيكون لدينا ثلاث موتات و ثلاثة إحياءات.

و لكن الجواب يتوضح عند التدقيق فى نفس الآية، فالموت قبل الحياة الدنيا (أى فى الحالة التى كنّا فيها ترابا) يعتبر «موتا» لا «إماتة» و أمّا الحياة فى هذه الدنيا فالبرغم من أنّها مصداق للإحياء، إلا أنّ القرآن لم يشر إلى هذا الجانب فى الآية أعلاه، لإنّ هذا الإحياء لا يشكّل عبرة كافية بالنسبة للكافرين، إذ الشىء الذى جعلهم يعون و يعترفون بذنوبهم هو الحياة البرزخية أوّلا، و الحياة عند البعث ثانيا.

ثانيا: إنّ المقصود بالحياتين، هو الإحياء فى القبر لأجل بعض الأسئلة، و الإحياء فى يوم القيامة، و إنّ المقصود بالموتتين، هما الموتة فى نهاية العمر، و الموتة فى القبر.

لذلك اعتبر بعض المفسّرين هذه الآية دليلا على الحياة المؤقتة فى القبر.

أمّا عن كيفية حياة القبر، و فيما إذا كانت جسمانية أو برزخية. أو نصف جسمانية، فهذه كلّها بحوث ليس هنا مجال الخوض فيها.

ثالثا: إنّ المقصود بالموتة الأولى، هو الموت قبل وجود الإنسان فى هذه الدنيا، إذ أنّه كان ترابا فى السابق، لذا فإنّ الحياة الأولى هى الحياة فى هذه الدنيا، و الموت الثّانى هو الموت فى نهاية هذا العالم، فيما الحياة الثانية هى الحياة عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۲

البعث.

و الذين يعتقدون بهذا التّفسير يستدلون بالآية (۲۸) من سورة «البقرة» حيث قوله تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

إلّا أنّ الآية التى نبحثها تتحدث عن إماتتين، فى حين أنّ آية سورة البقرة تتحدّث عن حياة واحدة و إماتة واحدة[۲۰۹].

يتّضح من مجموع التفاسير الثّلاثة هذه أنّ التّفسير الأوّل هو الأرجح.

و لا بأس أن نشير إلى أنّ بعض مؤيدى «التناسخ» أرادوا الاستدلال بهذه الآية على الحياة و الموت المكرّر للإنسان، و عودة الروح إلى الأجساد الجديدة فى هذه الدنيا، فى حين أنّ الآية أعلاه تعتبر إحدى الأدلة الحية على نفى التناسخ، لأنّها تتحدّد الموت و الحياة فى مرّتين، إلّا أنّ أنصار عقيدة «التناسخ» يقولون بالموت و الحياة المتعدّدة و المتوالى، و يعتقدون بأنّ روح الإنسان الواحد يمكن أن تتجسّد و تحل مرأت اخرى فى أجساد جديدة، و نطف جديدة و ترجع إلى هذه الدنيا.

من الطبيعى أن يكون الجواب على طلب الكافرين بالعودة إلى هذه الدنيا للتكفير عمّا فاتهم هو الرفض. و هذا الرفض من الوضوح بحيث لم تشر إليه الآيات التى نبحثها.

لكن نستطيع أن نعتبر الآية التى بعدها دليلا على ما نقول، إذ تقول: ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا.

فعند ما يدور الكلام عن التوحيد و التقوى و الأوامر الحقة تشمئزون و تحزنون، أما إذا دار الحديث عن الكفر و النفاق و الشرك فستفرحون و تنبسط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۳

أساريركم، لذلك ستكون عاقبتكم ما رأيتم.

و هنا نطرح هذا السؤال: كيف نربط هذا الجواب مع طلبهم العودة إلى هذه الدنيا؟

إنّ الآية تفيد أنّ حقيقة أعمال هؤلاء لم تكن محدودة بزمن معين، و لم تكن مؤقتة، بل كانت دائمية، لذلك فلو عادوا إلى الحياة مرّة اخرى فإنهم سيستمرون على هذا الوضع، أمّا هذا الإيمان و التسليم و الإذعان الذى رأيناه منهم يوم القيامة، فهو اضطرارى و ليس عن قناعة حقيقية.

ثمّ إنّ اعتقادات هؤلاء و أعمالهم و نياتهم السابقة تستوجب خلودهم فى الجحيم، لذا فلا يمكن عودة هؤلاء إلى الدنيا مع هذا الوضع.

و هذا الوضع يختص بالأفراد الذين تجذّر الكفر و الشر و الذنب فى أعماقهم، و هؤلاء هم الذين يصفهم القرآن بأنّ نفوسهم تشمئز عند ذكر اللّه تعالى وحده، و يفرحون عند ذكر الأصنام: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۲۱۰].

إنّ هذا الوصف لا يختص بالمشركين فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فحسب، إذ يشهد زماننا مثل هؤلاء من ذوى القلوب الميتة، الذين يفرون من الإيمان و التوحيد و التقوى، و يقبلون على الكفر و النفاق و الفساد.

لذلك نقرأ فى بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السّلام، فى تفسير هذه الآية، أنّها تختص بقضية (الولاية) إذ يتأذى البعض عند سماعها (أى الولاية) و يفرحون عند سماع أسماء أعداء أهل البيت عليهم السّلام هذا التّفسير هو من باب انطباق المفهوم، العام على المصداق، و ليس من باب تقييد كلّ المفهوم الذى تطوية الآية بهذا المصداق).

و فى نهاية الآية، و من أجل أن لا ييأس هؤلاء المشركون ذوو القلوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۴

المظلمة، تقول الآیة إنّ الحاکمیة تختص بذات اللّه سبحانه و تعالی: فَالْحُکْمُ لِلَّهِ الْعَلِیِّ الْکَبِیرِ إذ لا یوجد غیره قاض و حاکم فی محکمة الآخرة، و لا یوجد غیره علی و کبیر، فلا یستطیع أحد أن یغلبه أو أن یؤثّر علیه أو علی حکمه بفدیة أو غرامة أو وساطه، فالحاکم المطلق هو، و الجمیع یطیعونه، و لا یوجد طریق للهرب من حکمه.

ملاحظة

الدعاء البعید عن الإجابة!

لیست هذه المرّة الأولی التی تواجهنا فیها طلبات أهل النّار أو الکفار الذین یریدون العودة إلی هذه الدنیا، فیکون الجواب بالنفی.

لقد طرحت الآیات بالقرآنیة هذا الموضوع عدّة مرّات.

ففی سورة الشوری الآیة (۴۴) نقرأ أن الظالمین بعد أن یروا العذاب یقولون:

هَلْ إِلی مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ

و فی الآیة (۵۸) من سورة الزمر، ورد علی لسان المذنبین و غیر المؤمنین عند رؤیتهم العذاب: أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِی کَرَّةً فَأَکُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ

و فی الآیة (۱۰۷) من سورة «المؤمنون» نقرأ قوله تعالی حکایة علی لسان أمثال هؤلاء القوم: رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ مجموعة أخیر عند ما یحل بها الموت و تری ملائکة الموت تطلب من اللّه تعالی العودة فتقول: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ ۲۱۱].

إلّا أنّ هذه الطلبات تردع دوما بکلمة «کلّا» أو ما شابه ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۵

و بذلک یتضح أنّ المفهوم القرآنی یؤکّد علی أنّ الحیاة فی هذه الدنیا هی تجربة لا یمکن تکرارها بالنسبة للشخص، لذا یجب إبعاد هذا الوهم من العقول بأنّنا إذا متنا و واجهنا العذاب فسوف نعود الی هذه الدنیا و نجبر ما فات حیث لا إمکان للعودة إلی هذه الحیاة بعد الموت.

و ملاک هذا الأمر واضح، ففی قانون التکامل لا یمکن الرجوع و العودة، کما لا یمکن عودة الطفل إلی بطن أمّه وفقا لهذا القانون، سواء کان هذا الطفل قد اکتمل نموه فی بطن أمه أو لم یکتمل و ولد ناقصا، إذ العودة غیر ممکنة أصلا.

کذلک الموت الذی هو فی الواقع ولادة ثانویة، و انتقال من عالم الدنیا هذه إلی عالم آخر، و هناک تعتبر العودة ضربا من المحال.

إضافة إلی ذلک لا یمکن اعتبار الیقظة الاضطراریة التی تنتاب الناس- الذین تتحدث عنهم الآیة- دلیلا علی الاقتناع أو الیقظة الحقیقیة، إذ عند ما تخف أسبابها سیعود النسیان و الغفلة مرة اخری، و سیتم تکرار نفس الأعمال، کما نری ذلک واضحا فی هذه الدنیا لدی الکثیر من الناس الذین یتوجهون إلی خالقهم عند ما تضیق علیهم الحیاة، و یلجون أبواب التوبة، إلّا أنّهم بمجرّد هدوء العواصف ینسون کل شیء و کأنّهم لم یدعوا اللّه إلی ضر مسّهم!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۶

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۱۳ الی ۱۵]

اشارة

هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیـاتِهِ وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ السَّمـاءِ رِزْقاً وَ مـا یَتَـذَکَّرُ إِلَّا مَنْ یُنِیبُ (۱۳) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِـینَ لَهُ الـدِّینَ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ (۱۴) رَفِیعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِیُنْذِرَ یَوْمَ التَّلاقِ (۱۵)

التّفسیر

ادع اللّه وحده رغما علی الکافرین:

هذه الآیات المتضـمنة للنصیحة و التهدید و الإنذار اسـتدلال علی المسائل المطروحة فی الآیات السابقة، فهی استدلال علی التوحید و الرّبوبیة و نفی الشرک و عبادة الأصنام.

تقول الآیة أوّلا: هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیاتِهِ

فهی نفس الآیات و العلائم الآفاقیة و الأنفسیة التی تملأ عالم الوجود، و تسـتوعب بإشـراقتها أرکانه، و تضع بصماتها و آثارها العجیبة علی جدران الوجود و جمیع أرجاءه.

ثم توضح واحدة من هذه الآیات: وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۷

قطرات المطر تعطی الحیاة، و نور الشـمس یحیی الکائنات، و الهواء سرّ الوجود و الحیاة، حیاة جمیع الکائنات، حیوانات نباتات، أناس ... کلّها تنزل من السماء. و تشکّل هذه الأثافی الثلاث فیما بینها قوام الحیاة، حیث تتفرع الأشیاء الأخری من أصولها.

بعض المفسّرین أطلق علی السماء اسم «عالم الغیب» و علی الأرض اسم «عالم الشهود» و نزول الرزق من السماء إلی الأرض هو بمعنی الظهور من عالم الغیب إلی عالم الشهود.

و لکن هـذا التّفسیر فضـلا عن منافاته لظاهر الآیة، لم نعثر له علی دلیل و شاهد، صـحیح أنّ الوحی و الآیات، هما غذاء الروح، ینزلان من سـماء الغیب، و أنّ المطر و الشـمس و النور التی تعتبر غذاء الجسد تنزل من السـماء الظاهریة، و هما متناسـقان مع بعضهما. و لکن ینبغی أن لا نتصوّر أن عبارة (آیاته) التی نحن بصـددها تشـیر إلی مفهوم أوسع، أو تشـیر بالخصوص إلی الآیات التشـریعیة، لأنّ عبارة یُرِیکُمْ آیاتِهِ وردت مرارا فی القرآن الکریم، و هی عادة ما تطلق علی الآیات الدالة علی التوحید فی عالم الوجود.

مثلاـ فی أواخر هـذه السـورة (المؤمن) و بعـد ذکر النعم الإلهیـة، من قبیـل الزواحف و الفلـک تقول: وَ یُرِیکُمْ آیـاتِهِ فَأَیَّ آیـاتِ اللَّهِ تُنْکِرُونَ ۲۱۲].

إنّ تعبیر «یریکم» ینسـجم فی العـادة مع الآیـات التکوینیـة، بینما جرت العادة فی الآیات التشـریعیة علی اسـتخدام تعابیر مثل (أوحی) و (یأتیکم).

من هنا یتبیّن أنّ اعتبار هـذه الآیات بمعنی الآیات التشـریعیة، و أنّها أعم من التشـریعیة و التکوینیـة، کما یـذهب بعض کبار المفسّـرین القدماء و المحدثین إلی ذلک، لا یستند إلی دلیل، و لا تقوم علیه حجّة.

و لکن من الضروری أن نلتفت إلی أنّ القرآن یختار الإشارة إلی آیة الرزق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۸

من بین آیـات اللّه المبثوثـة فی السـماء و الأرض و فی وجود الإنسان، ذلک لأنّ الرزق هو أکثر ما یشـغل البال و الفکر، و أحیانا نری الإنسان یستنجد بالأصنام من أجل زیادة الرزق، و إنقاذه من وضعه المتردی، لذا یأتی القرآن لیؤّکد أن جمیع الأرزاق هی بید اللّه و لا

تستطیع الأصنام أو غیرها أن تفعل أی شیء.

و أخیرا تضیف الآیة الکریمة: برغم جمیع هذه الآیات البینات التی تسود هذا العالم الواسع، و تغمد الوجود بضیائها، إلّا أنّ العیون العمیاء و القلوب المحجوبة لا تکاد تری شیئا، و إنّما یتذکر- فقط- من ینیب إلی خالقه و یغسل قلبه و روحه من الذنوب: وَ ما یَتَذَکَّرُ إِلَّا مَنْ یُنِیبُ

الآیة التی بعدها ترتب نتیجة علی ما سبق فتقول: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ انهضوا و اضربوا الأصنام و حطموها بفؤوس الإیمان، و امحوا آثارها من ذاکرة الفکر و الثقافة و المجتمع.

و من الطبیعی أنّ وقفتکم الرّبانیة هذه ستؤذی الکافرین و المعاندین، لکن علیکم أن لا تسمحوا للخوف أن یسترّب الی قلوبکم، أخلصوا نیّاتکم: وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ

ففی المجتمع الذی یشکل فیه عبدة الأصنام الغالبیة، یکون طریق أهل التوحید موحشا فی بادئ الأمر، مثل شروق الشمس فی بدایات الصباح الأولی وسط عالم الظلام و الخفافیش، لکن علیکم أن لا ترکنوا إلی ردود الأفعال غیر المدروسة، تقدموا بحزم و إصرار، و ارفعوا رایة التوحید و الإخلاص، و انشروها فی کلّ مکان.

تصف الآیة التی تلیها خالق الکون و مالک الحیاة و الموت، بعض الصفات المهمّة، فتقول: رَفِیعُ الدَّرَجاتِ فهو تعالی یرفع درجات العباد الصالحین کما فی قوله تعالی: یَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ ۲۱۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۹

و حتی بین النّبیین فقد فضّل اللّه بعضهم علی بعض بسبب اجتیازهم للامتحان و الاختبار أکثر من غیرهم، فأخلصوا للّه تعالی بمراتب أعلی و أفضل: تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ ۲۱۴].

لقد استخلف اللّه الإنسان فی هذه الأرض، و جعل منه خلیفته، و فضّل البعض علی البعض الآخر وفقا لاختلاف الخصائص و القابلیات لدی الإنسان: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ ۲۱۵].

فإذا کانت الآیة السابقة قد دعت إلی الإخلاص فی الدین، فإنّ الآیة التی بین أیدینا تقول: إنّ اللّه تبارک و تعالی سوف یرفع درجاتکم بمقدار إخلاصکم، فهو رفیع الدرجات.

إنّ صحة کلّ هذه المعانی منطوة بتفسیر (رفیع) بالرافع، إلّا أنّ البعض ذهب إلی أنّ (رفیع) فی الآیة بمعنی (المرتفع) و بناء علی هذا المعنی فإنّ رَفِیعُ الدَّرَجاتِ تشیر إلی الصفات العالیة الرفیعة للّه تعالی، فهو رفیع فی علمه، و فی قدرته، و فی جمیع أوصافه الکمالیة و الجمالیة، هو تعالی رفیع فی أوصافه بحیث أنّ عقل الإنسان برغم قابلیته و استعداده لا یستطیع أن یدرکها.

و بحکم أنّ اللغة تعطی صلاحیة متساویة للمعنیین الآنفین لکلمة (رفیع) فإنّ التّفسیرین واردان، و لکن لأنّ الآیة تتحدث عن إعطاء الأجر لعباد اللّه الصالحین، و الذی هو الدرجات الرفیعة، لذا فإنّ المعنی الأوّل أظهر.

لکن لا مانع من الجمع بین التّفسیرین، لأننا نعتقد جواز استخدام اللفظ لأکثر من معنی، خصوصا فی إطار الآیات التی تشتمل ألفاظها علی معانی کبیرة و واسعة.

تضیف الآیة بعد ذلک قوله تعالی: ذُو الْعَرْشِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۰

فکل عالم الوجود تحت حکومته و فی قبضته، و لا منازع له فی حکومته، و هذا بحد ذاته ذلیل علی أنّ تحدید درجات العباد حسب أفضلیتهم إنّما یتمّ بقدرته تعالی.

و بما إنّنا تحدثنا بالتفصیل عن «العرش» فلا حاجة هنا للتکرار.

و فی وصف ثالث تضیف الآیة أنّه هو تعالی الذی: یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و هذه الروح هی نفس القرآن و مقام

النبوّة و الوحى، حيث تحيى هذه الأمور القلوب، و تكون فى الإنسان كالروح بالنسبة لجسد الإنسان.

إنّ قدرته من جانب، و درجاته الرفيعة من جانب آخر، تقتضى أن يعلن عزّ و جلّ عن برنامجه و تكاليفه عن طريق الوحى، و هل ثمّة تعبير أجمل من الروح، هذه الروح التى هى سرّ الحياة و الحركة و النشاط و التقدم.

لقد ذكر المفسّرون احتمالات متعدّدة لمعنى الروح، لكن من خلال القرائن الموجودة فى الآية، و ممّا تفيده الآية (۲) من سورة «النحل» التى تقول: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ و كذلك ممّا تفيده آية (۵۲) من سورة «الشورى» التى تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و توضح له نزول القرآن و الإيمان و الروح بقوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ من كلّ ذلك يتبيّن أنّ المقصود بالروح فى الآية التى نحن بصددها، هو الوحى و القرآن و التكليف الإلهى.

تفيد عبارة (من أمره) أنّ ملك الوحى المكلّف بإبلاغ هذه الروح، إنّما يتحدث و يتكلّم بأمر اللّه لا من عند نفسه.

أمّا قوله تعالى: عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فلا تعنى أنّ هبة الوحى تعطى لأى كان، لأن مشيئته تعالى هى عين حكمته، و كل من يجده مؤهلا لهذا المنصب يخصه بهذا الأمر، كما نقرأ فى الآية (۱۲۴) من سورة الأنعام حيث قوله تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۱

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ

و عند ما نجد بعض الرّوايات المروية عن أهل البيت عليهم السّلام تفسّر الروح فى الآية أعلاه ب «روح القدس» و تخصّها بالنبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم السّلام، فإنّ ذلك لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّ «روح القدس» هى نفس الروح العلوية المقدسة و المنصب المعنوى العظيم الذى يتجسّد كاملا فى الأنبياء و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام، و كثيرا ما يتجلّى جزء منها فى الأشخاص الآخرين الذى متى ما ساعدتهم فيوضات روح القدس فإنّه سيقومون بأعمال مهمّة، و تنطق لسانهم بالحكمة. (لمزيد من التوضيح يمكن مراجعة تفسير الآية ۸۷ من سورة البقرة).

و الملفت للنظر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن رزق الأجساد من مطر و نور و هواء، فيما تتحدث هذه الآيات عن الرزق «الروحى» و المعنوى المتمثل فى نزول الوحى.

و الآن لنرى ما هو الهدف من إنزال روح القدس على الأنبياء عليهم السّلام، و لماذا يسلك الأنبياء هذه الطرق الطويلة المليئة بالعقبات و الصعاب.

الإجابة يقدمها القرآن فى نهاية الآية بقوله: لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ

أنّه اليوم الذى يلتقى فيه العباد بخالقهم ...

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه السابقون باللاحقين ...

إنّه اليوم الذى يجمع على ساحة القيامة بين رموز الحق و قادته، و رموز الباطل و زعامته و أنصاره ...

إنّه يوم لقاء المستضعفين بالمستكبرين ...

إنّه يوم التقاء الظالم و المظلوم ...

هو يوم التقاء الإنسان و الملائكة ...

و أخيرا، يوم التلاق، هو يوم التقاء الإنسان مع أعماله و أقواله فى محكمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۲

العدل الإلهى.

إذا، هدف بعثة الأنبياء و نزول الكتب السماوية هو تحذير الإنسان من يوم التلاقى الكبير ... إنّه لاسم عجيب (يوم التلاق) الذى انتخبته

الآية اسما ليوم القيامة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۳

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۶ الى ۱۷]

اشارة

يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۱۶) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۱۷)

التّفسير

يوم التلاقى!

هذه الآيات و التى تليها، هى توضيح و تفسير (ليوم التلاق) و هو اسم ليوم القيامة.

فى هاتين الآيتين تمّ ذكر بعض خصوصيات القيامة و كلّ واحدة أكثر إثارة من الأخرى.

يبيّن تعالى أن يوم التلاقى، هو: يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ ... إنّه اليوم الذى تزول فيه جميع الحجب و الأستار، و كتوطئة له ستزول الموانع المادية كالجبال الراسيات مثلا، و تصبح الأرض قاعاً صَفْصَفاً كما يصفها القرآن فى الآية (۱۰۶) من سورة طه».

و من جانب آخر سيخرج الناس من قبورهم، ثمّ تنكشف الأسرا الباطنية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۴

و المخفية: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[۲۱۶].

و يوم تخرج الأرض ما تطويه فى بطونها: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها[۲۱۷].

و يوم تنشر صحف الأعمال و ينكشف محتواها: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۲۱۸].

فى يوم التلاق تتجسّد الأعمال التى اقترفها الإنسان و تبدو حاضرة أمامه:

يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ ۲۱۹].

و فى ذلك اليوم تنكشف الأسرار التى كان يطويها الإنسان بداخله و يتكتم عليها: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ۲۲۰].

و فى ذلك اليوم المهول ستشهد الأعضاء على أعمال الإنسان، و ستشهد- أيضا- الأرض و تكشف ما ارتكب عليها: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها[۲۲۱].

فى ذلك اليوم سيطوى الكون، و سيظهر الإنسان بكل وجوده، و يبرز الكون و ما عليه، و لا تبقى من خافية: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً[۲۲۲].

إنّه منظر مهول و مشهد موحش!! و يكفينا لتصور هول ذلك اليوم نتخيّل ... و لو للحظة واحدة ... منظر هذه الدنيا و قد حلّت بها شرائط القيامة؟ لنرى أىّ فزع سينتاب البشرية و تحل بها! و كيف تتقطع العلائق و الروابط فى ذلك اليوم لذلك على الإنسان أن يستعد، و أن يعيش بشكل لا- يخشى فيه انكشاف المستور من أوضاعه، و أن تكون أعماله و أفعاله بحيث لا يقلق منها لو ظهرت و انكشفت أمام الملأ.

الوصف الثّانى لذلك اليوم المهول، هو انكشاف أمر الناس بحيث لا يخفى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۵

شیء منها علی اللّه تعالی: لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ.

بالطبع ... فی هذه الحیاة لا یخفی من أمر الإنسان شیء علی اللّه العالم المطلق، إذ یتساوی لذی ذاته المطلقة غیر المتناهیة المخفی و الظاهر، و الشاهد و الغائب. فلما ذا- إذا- ذکر القرآن الجملة أعلاه علی أنّها تفسیر لجملة يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ

إن سبب ذلک یعود إلی أنّ «البروز» فی ذلک الیوم یکون مؤکّدا أکثر، بحیث أنّ الآخرین سیطّلعون علی أسرار بعضهم البعض. أمّا بالنسبة للّه فالمسألة لا تحتاج إلی بحث أو کلام.

الخصوصیة الثّالثة لیوم التلاقی هو انبساط الحاکمیة المطلقة للّه تعالی، و یظهر ذلک من خلال نفس الآیة التی تسأل عن الحکم و الملک فی ذلک الیوم: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

یأتی الجواب: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

من الذی یطرح السؤال، و من الذی یجیب علیه؟

الآیة لا تتحدّث عن ذلک، و التفاسیر مختلفة فی هذا الصدد.

ذهب البعض الی أنّ السؤال یطرح من قبل اللّه جلّ و علا، أمّا الجواب فیأتی من الجمیع، مؤمنین و کافرین ۲۲۳].

و ذهب آخرون الی أن السؤال و الجواب کلاهما من قبل الخالق عزّ و جلّ ۲۲۴].

قسم ثالث یعتقد أنّ «المنادی الإلهی» هو الذی یطرح السؤال، و هو الذی یجیب علیه.

و لکن یبدو من الظاهر أنّ هذا السؤال و جوابه لا یطرحان من قبل فرد معین، بل هو سؤاله یطرحه الخالق و المخلوق، الملائکة و الإنسان، المؤمن و الکافر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۶

تطرحه جمیع ذرات الوجود، و کلّهم یجیبون علیه بلسان حالهم، بمعنی أنّک أینما تنظر تشاهد آثار حاکمیته، و أینما تدقق تری علائم قاهریته واضحه.

فلو أصحت السمع إلی أی ذرة من ذرات الوجود، لسمعتها تقول: لِمَنِ الْمُلْكُ و فی الجواب تسمعها نفسها تقول: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

و قد نری فی هذه الدنیا نموذجا مصغرا لذلک، فعند ما ندخل إلی بیت أو مدینة أو بلد معین، فإنّنا نحسن بقدرة شخص معین، و بانبساط حاکمیته، و کأنّ الجمیع یقولون- کلّ بلسان حاله- إنّ المالک أو الحاکم هو فلان، و تشهد علی ذلک حتی الجدران!! و بالطبع، فی هذا الیوم أیضا تطغی الحاکمیة الإلهیة علی کلّ شیء، و تبسط قدرتها فی کلّ الأرجاء، لکن فی یوم القیامة سیکون لها ظهور و بروز من نوع جدید، فهناک لا یوجد کلام عن حکومة الجبارین، و لا نسمع ضجیج الطواغیت السکاری، و لا نری أثرا لإبلیس و جنوده و جیوشه من الإنس و الجن.

الخصوصیة الرابعة لذلک الیوم، هو کونه یوم جزاء: الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ أجل، إن ظهور و بروز الاحاطة العلمیة للّه تعالی و حاکمیته و مالکیته و قهاریته کلها أدلة واضحة علی هذه الحقیقة العظیمة المخیفة من جهة، و المفرحة من جهة اخری.

أمّا الخصوصیة الخامسة لذلک الیوم، فهی ما یختصره قوله تعالی: لا ظُلْمَ الْيَوْمَ

و کیف یمکن أن یحصل الظلم، فی حین أن الظلم إمّا أن یکون عن جهل، و اللّه عز و جل قد أحاط بکل شیء علما.

و إمّا أن یکون عن عجز، و اللّه عز و جل هو القاهر و المالک و الحاکم علی شیء، لذا لا مجال لظلم أحد فی محضر القدس الإلهی و فی ساحة القضاء الإلهی العادل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۷

الصفة السادسة و الأخیرة لیوم التلاقی، هی سرعة الحساب لأعمال العباد، کما نقرأ ذلک فی قوله تعالی: إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ

و سرعة الحساب بالنسبة للّه تعالی تجری کلمح البصر، و هی بدرجة بحیث نقرأ عنها

فی حدیث: «إنّ اللّه تعالی یحاسب الخلائق کلّهم فی مقدار لمح البصر»[۲۲۵].

و أساسا فإنّه مع القبول بمسألة تجسّم الأعمال و بقاء آثار الخیر و الشر فإن مسألة الحساب مسألة محلولة؟ فهل أنّ الأجهزة المتطورة فی هذه الدنیا التی تحسب مقدار العمل فی أثناء العمل بحاجة الی زمان؟! و قد یکون الغرض من تکرار سَرِیعُ الْحِسابِ فی مواضع مختلفة من القرآن الکریم هو عدم انخداع الناس العادیین بوساوس الشیطان و إغواءاته، و من یتبعه من الذین یثیرون الشکوک بإمکانیة محاسبة الخلائق علی أعمالهم التی قاموا بها خلال آلاف سحیقة من السنین و عصور التأریخ.

إضافة إلی أنّ هذا التعبیر یستبطن معنی التحذیر لجمیع الناس بأنّ ذلک الیوم لا مجال فیه للمجرمین و الظالمین و القتلة، و لا تعطی لهم الفرصة کما یحصل فی هذه الدنیا، حیث یترک ملف الظلمة و القتلة لشهور و سنین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۸

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۱۸ الی ۲۰]

اشارة

وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَی الْحَناجِرِ کاظِمِینَ ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ وَ لا شَفِیعٍ یُطاعُ (۱۸) یَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْیُنِ وَ ما تُخْفِی الصُّدُورُ (۱۹) وَ اللَّهُ یَقْضِی بِالْحَقِّ وَ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَقْضُونَ بِشَیْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ (۲۰)

التّفسیر

یوم تبلغ القلوب الحناجر:

هذه الآیات تستمر- کالآیات السابقة- فی وصف القیامة- یوم التلاقی- و تحدّد سبع خصائص للقیامة و الحوادث المهولة و المدهشة التی تدفع بکل انسان مؤمن نحو التفکیر و التأمل بالحیاة و المصیر.

یقول تعالی: وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ الْآزِفَةِ.

«الآزفة» باللغة بمعنی (القریب) و یا لها من کنایة عجیبة، حیث أطلق سبحانه علی یوم القیامة یوم الآزفة کی لا یظن الجهلة أن هناک فترة طویلة تفصلهم عن ذلک الیوم، فلا ینبغی- و الحال هذه- أن ینشغل المرء بالتفکیر به! و إذا نظرنا بتأمّل فسنجد أنّ عمر الدنیا بأجمعه لا یعادل سوی لحظة زائلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۹

حیال یوم القیامة، و لأنّ اللّه تبارک و تعالی لم یذکر أیّ تأریخ لهذا الیوم المهول، حتی للأنبیاء علیهم السّلام، لذا یجب الاستعداد دائما لاستقبال ذلک الیوم.

الوصف الثّانی لیوم الأزفة هو: إِذِ الْقُلُوبُ لَدَی الْحَناجِرِ من شدة الخوف.

فعند ما تواجه الإنسان الصعویات یشعر و کأنّ قلبه یفر من مکانه، و کأنّه یرید أن یخرج من حنجرته، و العرب فی ثقافتها اللغویة التی نزل بها القرآن تطلق علی هذه الحالة وصف «بلغت القلوب الحناجر».

و یمکن أن یکون (القلب) کنایة عن (الروح) بمعنی أنّ روحه بلغت حنجرته هلعا و خوفا، کأنما ترید أن تفارق بدنه تدریجیا و لم یبق منها سوی القلیل.

إنّ هول الخوف من الحساب الإلهی الربانی الدقیق، و الخشیة من الافتضاح و انکشاف الستر و الحجب أمام جمیع الخلائق، و تحمّل

العذاب الألیم الذی لا یمکن الخلاص منه، کلّ هذه أمور سیواجهها الإنسان و لا یمکن وصفها و شرحها بأی بیان.

الصفة الثّالثة لذلک الیوم تعبر عنها الآیة ب کاظِمِینَ أی إنّ الهم و الغم سیشمل کل وجودهم، إلّا أنّهم لا یستطیعون إظهار ذلک أو إبداءه.

«کاظم» مشتقّة من «کظم» و هی فی الأصل تعنی غلتی فوهة القربة المملوءة بالماء، ثمّ أطلقت بعد ذلک علی الأشخاص المملوئین غضبا إلّا أنّهم لا یظهرونه لسبب من الأسباب.

قد یستطیع الإنسان المغموم المحزون أن یهدأ او یستریح بالصراخ، لکن المصیبة حینما لا یستطیع هذا الإنسان حتی عن الصراخ ... فما ذا ینفع الصراخ فی محضر الخالق جلّ و علا و فی ساحة عدله و عند ما تنکشف جمیع الأسرار امام جمیع الخلائق.

الصفة الرّابعة لیوم التلاقی هو یوم: ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ أی صدیق نعم، أنّ تلک المجموعة من الأصدقاء الکاذبین التی تحیط بالشخص کذبا و تملقا- کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۰

یحیط بالذباب بالحلویات- طمعا فی مقامه و قدرته و جاهه و ماله. إنّ هؤلاء فی هذا الیوم مشغولون بأنفسهم لا ینفعون أحدا ... و هو یوم لا تنفع فیه لا صداقة و لا خلّة.

الصفة الخامسة تقول عنها الآیة: وَ لا شَفِیعٍ یُطاعُ

ذلک أنّ شفاعة الشفعاء الحقیقیین کالأنبیاء و الأولیاء إنّما تکون بإذن اللّه تعالی، و علی هذا الأساس لا مجال لتلک التصورات السقیمة لعبدة الأصنام، الذین کانوا یعتقدون فی الحیاة الدنیا أنّ أصنامهم ستشفع لهم فی حضرة اللّه جلّ و علا.

و فی المرحلة السادسة تذکر الآیة أحد صفات الخالق جلّ و علا، و التی تعتبر فی نفس الوقت وصفا لکیفیة القیامة، حیث تقول: یَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْیُنِ وَ ما تُخْفِی الصُّدُورُ[۲۲۶].

إنّ اللّه تبارک و تعالی یعلم الحرکات السریة للعیون و ما تخفیه الصدور من أسرار، و سیقوم تعالی بالحکم و القضاء العادل علیها، و هو بعلمه سیجعل صباخ الظالمین المذنبین مظلما.

و عند ما سئل الإمام الصادق علیه السّلام عن معنی الآیة فأجاب:

«ألم تر إلی الرجل ینظر إلی الشیء و کأنّه لا ینظر إلیه، فذلک خائنة الأعین»[۲۲۷].

أی یوهم أنّه لا ینظر إلیه.

قد یتأول البعض بنظره إلی أعراض الناس و إلی ما یحرم النظر إلیه، و قد یستطیع الفاعل أن یخفی فعلته عن الآخرین، لکن ذلک لا یخفی عن علم اللّه المحیط بکل ذرات الوجود إذ: لا یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۱

[۲۲۸].

و قد روی أنّه (لما جیء بعبد اللّه بن أبی سرح إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بعد ما اطمأن أهل مکّة و طلب له الأمان عثمان صمت رسول اللّه طویلا ثمّ قال (نعم) فلما انصرف

قال رسول اللّه لمن حوله: «ما صمّت طویلا إلّا لیقوم إلیه بعضکم فیضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار: فهلا أو أومأت إلیّ یا رسول اللّه، فقال: «إن النّبی لا تکون له خائنة الأعین»[۲۲۹].

و بالطبع فإنّ لخیانة العین أشکال مختلفة، إذ تتمثل فی بعض الأحیان باستراق النظر إلی ما یحرم کالنساء و غیرهن، و أحیانا تتمثل بإشارات معینة للعین تهدف تحقیر الآخرین و الاستهزاء بکلامهم. و قد تکون حرکات العین مقدمة المخططات شیطانیة ضدّ الآخرین.

إنّ من یؤمن بالحساب الدقیق فی الآخرة، علیه أن یراعی حدود التقوی فی خائنة الأعین و خطرات الفکر، و واضح أنّ استحضار

عناصر الرقابة هذه لها مؤدّاها التربوى الكبير فى سلوك الإنسان و حياته.

و فى قصص الوعظ المتداولة فى مجالس العلماء، يقال أن أحد كبار العلماء عند ما أنهى دراسته الدينية فى النجف الأشرف، طلب من أستاذه عند ما أراد الرجوع إلى بلده أن يعظه و ينصحه، فقال له الأستاذ: بعد كلّ هذا التعب و تحمّل مضايق الدراسة و التحصيل فإنّ آخر نصيحتى لك هى أن لا تنسى أبدا قوله تعالى أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى ۲۳۰].

المؤمن الحقيقى يعتبر العالم كلّه حاضرا عند اللّه تعالى، و إنّ كلّ الأعمال تتمّ فى حضوره، و ينبغى لهذا الحضور الإلهى أن يكون رادعا كافيا للخجل و الكف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۲

عن المعاصى و الذنوب.

الآية التى تليها تتحدث عن صفة سابعة للقيامة تتمثل فى قوله تعالى: وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِ

أمّا غيره: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ.

فى ذلك اليوم يختص اللّه وحده بالقضاء، و هو جلّ جلاله لا يقضى إلّا بالحق، لأنّ القضاء بغير الحق- بالظلم مثلا و الانحياز- إمّا أن يعود إلى الجهل و عدم المعرفة، و اللّه محيط بكل شىء، حتى بما يموج فى الضمائر و ما تكنّه السرائر. أو أنّه يكون نتيجة للعجز و الاحتياج، و هذه صفات هى أبعد ما تكون عن ذات اللّه جلّ جلاله.

إنّ هذا التعبير يحمل فى مؤدّاه دليلا كبيرا على توحيد المعبود و العبادة، لأنّ من يكون له حق القضاء فى النهاية يستحق العبادة حتما أمّا الأصنام التى لا تنفع شيئا فى هذا العالم، و لا تكون فى القيامة مرجعا للحكم و القضاء، فكيف تستحق العبادة.

و من الضرورى أن نشير أيضا إلى أنّ للحكم و القضاء بالحقّ معانى واسعة، إذ هى تشمل عالم التكوين و عالم التشريع، حيث، وردت كلمة «قضى» فى الآيات القرآنية لتشمل المعنيين، ففى مكان نقرأ قوله تعالى: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۲۳۱] حيث تنطوى الآية على القضاء التشريعى. و فى آية اخرى نقرأ قوله تعالى: إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۲۳۲].

و فى الختام و للتأكيد على المطالب المذكورة فى الآيات السابقة تضيف الآية (إن اللّه هو السميع البصير).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۳

فهو تعالى سميع و بصير بمعنى الكلمة، أى إنّ كلّ المسموعات و المبصرات حاضرة عنده، و هذا تأكيد على إحاطته و علمه بكل شىء، و قضاوته بالحق، إذ ما لم يكن الشخص سميعا و بصيرا مطلقا فلا يستطيع أن يقضى بالحق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۴

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (۲۱) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲۲)

التّفسير

اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين:

إنّ أسلوب القرآن الكريم فى كثير من الآيات أنّه بعد أن يتعرض لكليات القضايا الحساسة و المهمّة يمزجها ببعض المسائل الجزئية و المحسوسة و يأخذ بيد الإنسان ليريه الحوادث الماضية و الحالية. لذلك فإنّ الآيات التى بين أيدينا تتحدث عن أحوال الأمم الظالمة السابقة و منهم فرعون و الفراعنة و ما حلّ بهم من جزاء أليم، و تدعوا الناس للاعتبار بمصير أولئك، بعد ما كانت الآيات السابقة قد حدّثتنا عن يوم القيامة و صفاته و طبيعة الحساب الدقيق الذى ينطوى عليه.

يقول تعالى: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۵

مِنْ قَبْلِهِمْ

إنّ الذى تحكيه الآيات و تدعونا للاعتبار به ليس تأريخا مدونا نستطيع أن نشكّك فى طبيعة الوثائق و النصوص المكوّنة له، و إنّما هو تأريخ حى ينطق عنه نفسه، و ينبض بالعبرة و العظمة، فهذه قصور الظالمين الخربة، و ما تركوه، من جنات و عيون، و هذه مدن الأشقياء التى نزل بساحتها العذاب و الانتقام الإلهى، و ها هى عظامهم النخرة التى يطويها التراب، و القصور المدفونة تحت الأرض ... ها هى كلّها تحكى عظمة الدرس، و عظيم العبرة، خصوصا و أنّ القرآن يزيدنا معرفة بهؤلاء فيقول عنهم: كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ

كانوا يملكون السلطات القوية، و الجيوش العظيمة، و المدنية الباهرة التى لا يمكن مقايستها بحياة مشركى مكّة.

إنّ تعبير أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً يكشف عن قوتهم السياسية و العسكرية، و عن قوته الاقتصادية و العلمية أيضا.

أمّا التعبير فى قوله تعالى: آثاراً فِي الْأَرْضِ فلعله إشارة إلى تقدمهم الزراعى العظيم، كما ورد فى الآية (۹) من سورة «الروم» فى قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها.

و قد يكون التعبير القرآنى إشارة إلى البناء المحكم العظيم للأمم السابقة، ممّا قاموا به فى أعماق الجبال و بين السهول، كما يصف القرآن ذلك فى حال قوم «عاد»: أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۲۳۳].

و لكن عاقبة هؤلاء القوم، بكل ما انطوت عليه حياتهم من مظاهر قوّة و حياة و نماء، هى كما يقول تعالى: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ

فلم تنفعهم كثرتهم و لم تمنعهم أموالهم و قدرتهم و شوكتهم من العذاب الإلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۶

عند ما نزل بساحتهم.

لقد وردت كلمة «أخذ» مرارا فى القرآن الكريم بمعنى العقاب، و هى إشارة إلى «أخذ» القوم أو الجماعة قبل أن ينزل بها العقاب، تماما كما يقبض أوّلا على الشخص المجرم، ثمّ يتمّ عقابه.

الآية التى بعدها فيها تفصيل لما قيل سابقا بإيجاز، بقوله تعالى: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا. فلم يكن الأمر أنّهم كانوا غافلين و لم يعرفوا الأمر، و لم يكن كفرهم و ارتكابهم الذنوب بسبب عدم إتمام الحجّة عليهم، فلقد كانت تأتيهم رسلهم تترا، كما يستفاد من قوله تعالى: كانَتْ تَأْتِيهِمْ إلّا أنّهم لم يخضعوا للأوامر الإلهية، كانوا يحطمون مصابيح الهداية، و يديرون ظهورهم للرسل، و كانوا- أحيانا- يقتلونهم! و حينئذ: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ و عاقبتهم أشدّ العقاب- إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ إذ هو فى مواطن الرأفة أرحم الراحمين و فى مواضع الغضب أشد المعاقبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۷

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۲۳ الى ۲۷]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۳) إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۲۴) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (۲۵) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (۲۶) وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (۲۷)

التّفسير

ذرونى أقتل موسى!!

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى العاقبة الأليمة للأقوام السابقة، فقد شرعت الآيات التى بين أيدينا بشرح واحدة من هذه الحوادث، من خلال قصة موسى و فرعون، و هامان و قارون.

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ قصة موسى عليه السّلام مكررة فى أكثر من سورة من سور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۸

القرآن الكريم، و لكن التأمّل فى هذه الموارد يظهر خطأ هذا التصوّر، إذ يتبيّن أن القرآن يتطرف الى ذكر القصة فى كلّ مرّة من زاوية معينة، و فى هذه السورة يتعرض القرآن للقصة من زاوية دور «مؤمن آل فرعون» فيها. و الباقى هو بمثابة أرضية ممهّدة لحكاية هذا الدور.

يقول تعالى وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ

أرسله تعالى: إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ

لقد ذكر المفسرون عدّة تفاسير فى الفرق بين «الآيات» و «السلطان المبين» فالبعض اعتبر «الآيات» الأدلة الواضحة، بينما «السلطان المبين» هى المعجزات.

و البعض الآخر اعتبر «الآيات» آيات التوراة، بينما «السلطان المبين» المعجزات.

و احتمل البعض الثّالث أنّ «الآيات» تشمل كلّ معاجز موسى عليه السّلام، أمّا «السلطان المبين» فهو المعاجز الكبيرة كالعصا و اليد البيضاء، التى تسببت فى غلبته الواضحة على فرعون.

و منهم من اعتبر «الآيات» المعجزات، بينما فسّر «السلطان المبين» بالسلطة القاهرة و النفوذ الإلهى لموسى عليه السّلام و الذى كان سببا فى عدم قتله و عدم فشل دعوته.

لكن الملاحظ أنّ هذه الآراء بمجموعها لا تقوم على أدلة قوية واضحة، و لكن نستفيد من الآيات القرآنية الأخرى أنّ «السلطان المبين» يعنى- فى العادة- الدليل الواضح القوى الذى يؤدى إلى السلطة الواضحة، كما نرى ذلك واضحا فى الآية (۲۱) من سورة «النمل» أثناء الحديث عن قصة سليمان عليه السّلام و الهدهد حيث يقول تعالى على لسان سليمان: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ فالسلطان المبين هنا هو الدليل الواضح للغيبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۹

و فی الآیة (۱۵) من سورة الکهف قوله تعالی: لَوْ لا یَأْتُونَ عَلَیْهِمْ بِسُلْطانٍ بَیِّنٍ

أمّا «الآیات» فقد وردت فی القرآن مرارا بمعنی المعاجز.

و بناء علی هذا فإنّ «آیات» فی الآیة التی نحن بصددها تشیر إلی «معجزات موسی» بینما یشیر «سلطان مبین» إلی منطق موسی علیه السّلام القوی و أدلته القاطعة فی مقابل الفراعنة.

إنّ موسی علیه السّلام کان یزاوج بین منطق العقل، و بین الأعمال الإعجازیة التی تعتبر علامة کافیة علی ارتباطه بعالم الغیب و باللّه تعالی، و لکن فی المقابل لم یکن للفراعنة من منطق سوی اتهامه بالسحر أو الکذب. لقد اتهموه بالسحر فی مقابل الآیات و المعجزات التی أظهرها، و کذّبوه مقابل منطقه و استدلاله العقلانی علی الأمور. و هذا ما یؤید الرأی الذی اخترناه فی تفسیر «آیات» و «سلطان مبین».

و بالنسبة للطواغیت و الفراعنة لا یملکون أصلا سوی منطق الاتهام، و أسلوب إطلاق الشبهات علی رجال الحق و دعاته.

و الذی یلفت النظر فی الآیة الکریمة إشارتها إلی ثلاثة أسماء، کلّ واحد منها یرمز لشیء معین فی سیاق الحالة السائدة آنذاک، و التی یمکن أن تجد مماثلاتها فی أی عصر.

«فرعون» نموذج للطغاة و العصاة و حکّام الظلم و الجور.

«هامان» رمز للشیطنة و الخطط الشیطانیة.

«قارون» نموذج للأثریاء البغاة، و المستغلین الذین لا یهمهم أی شیء فی سبیل الحفاظ علی ثرواتهم و زیادتها.

و بذلک کانت دعوة موسی علیه السّلام تستهدف القضاء علی الحاکم الظالم، و المخططات الشیطانیة لرموز السیاسة فی حاشیة السلطان الظالم، و بتر تجاوزات الأثریاء المستکبرین، و بناء مجتمع جدید یقوم علی قواعد العدالة الکاملة فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۰

المجالات السیاسیة و الثقافیة و الاقتصادیة. و لکن من وقعت مصالحه اللامشروعة فی خطر! قصدوا لمقاومة هذه الدعوة الإلهیة.

الآیة التی بعدها تتعرض إلی بعض مخططات هؤلاء الظلمة فی مقابل دعوة النّبی موسی علیه السّلام: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْیُوا نِساءَهُمْ

و ما نستفیده من الآیة هو أنّ قضیة قتل الأبناء و الإبقاء علی النساء فقط لم یقتصر- کأسلوب طاغوتی- علی الفترة التی سبقت ولادة موسی علیه السّلام فحسب، و إنّما تمّ تکرار هذه الممارسة أثناء نبوة موسی علیه السّلام، فالآیة (۱۲۹) من سورة الأعراف تؤید هذا الرأی، حیث تحکی علی لسان بنی إسرائیل قولهم لموسی علیه السّلام:

أُوذِینا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِیَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا.

لقد صدر هذا القول عن بنی إسرائیل بعد أن قام فرعون بقتل أبناء المؤمنین منهم بدعوة موسی علیه السّلام.

و فی کلّ الأحوال، یعبّر هذا الأسلوب عن واحدة من الممارسات و الخطط المشؤومة الدائمة للقدرات الشیطانیة الظالمة التی تستهدف إبادة و تعطیل الطاقات الفعّالة، و ترک غیر الفاعلین للإفادة منهم فی خدمة النظام.

لقد کان «بنور إسرائیل» قبل موسی علیه السّلام عبیدا للفراعنة، لذلک لم یکن من العجیب أن تبادر سلطات فرعون بعد بعثة موسی علیه السّلام و شیوع دعوته إلی اعتماد الخطة المعادیة فی قتل الأبناء و استحیاء النساء، بهدف الانتقام و الإبادة الشدیدة لبنی إسرائیل کی تتعطل فیهم عوامل الصمود و المقاومة.

و لکن ما هی نتیجة کلّ هذا الکید؟

القرآن یجیب: وَ ما کَیْدُ الْکافِرِینَ إِلَّا فِی ضَلالٍ

أعمالهم سهام تطلق فی ظلام الجهل و الضلال فلا تصیب سوی الحجارة! لقد قضی اللّه تعالی بمشیئته أن ینتصر الحق و أهله، و أن

يزهق الباطل و أنصاره.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۱

لقد اشتد الصراع بين موسى عليه السّلام و أصحابه من جانب، و بين فرعون و أنصاره من جانب آخر. و وقعت حوادث كثيرة، لا يذكر القرآن عنهـا كثيرا فى هـذه الفقرة، و لتحقيق هـدف خـاص يـذكر القرآن أنّ فرعون قرّر قتل موسـى عليه السّـلام لمنع انتشار دعوته و للحيلولة دون ذيوعها، لكنّ المستشارين من «الملأ» من القوم عارضوا الفكرة.

يقول تعالى: وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ

نستفيد من الآية أنّ أكثرية مستشارية أو بعضـهم على الأقل كانوا يعارضون قتل موسـى، لخوفهم أن يطلب عليه السّـلام من ربّه نزول العذاب بساحتهم، لما كانوا يرون من معجزاته و أعماله غير العادية، إلّا أنّ فرعون- بدافع من غروره- يصير على قتله مهما تكن النتائج. و بالطبع، فإنّ سـبب امتناع «الملأ» عن تأييـد فكرة فرعون فى قتل موسـى غير معلوم، فهناك احتمالات كثيرة قد يكون بعضـها أو كلّها صحيحة ....

فقد يكون الخوف من العذاب الإلهي- كما احتملنا- هو السبب.

و قد يكون السبب خشـية القوم من تحوّل موسى عليه السّلام بعد استشهاده إلى هالة مقدّسة، و هو ممّا يؤدى إلى زيادة عدد الأتباع و المؤمنين بدعوته، خاصة إذا ما وقعت حادثة قتله بعد قضية لقاء موسى مع السحرة و انتصاره الإعجازى عليهم.

و ما يؤكّد هذا المعنى هو أنّ موسـى جاء فى بداية دعوته بمعجزتين كبيرتين (العصا و اليد البيضاء) و قد دعا هذا الأمر فرعون إلى أن يصف موسى عليه السّلام بالساحر، و أن يدعوه للمنازلة مع السحرة فى ميقات يوم معلوم (يوم الزينة) و كان يأمل الإنتصار على موسى عليه السّلام عن هذا الطريق، لذا بقى فى انتظار هذا اليوم.

و بمشاهدة هذا الوضع ينتفى احتمال أن يكون فرعون قد صمّم على قتل

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۲

موسى قبل حادث يوم الزينة خشية من تبدّل دين أهل مصر[۲۳۴].

خلاصة القول: إنّ هؤلاء يعتقدون أنّ موسـى عليه السّلام مجرّد حادث صغير و محدود، بينما يؤدى قتله فى مثل تلك الظروف إلى أن يتحول إلى تيار ... تيار كبير يصعب السيطرة عليه.

البعض الآخر من المقربين لفرعون ممّن لا يميل إليه، كـان يرغب ببقـاء موسـى عليه السّـلام حيا حتى يشـغل فكر فرعون دائما، كى يتمكن هؤلاء من العيش بارتياح بعيدا عن عيون فرعون، و يفعلون ما شاؤوا من دون رقابته.

و هذا الأمر يعبّر عن «سـليقة» فى بلاط السـلاطين، إذ يقوم رجال الحاشـية- من هذا النوع- بتحريك بعض أعداء السـلطة حتى ينشـغل الملك أو السـلطان بهم، و ليأمنوا هم من رقابته عليهم، كى يفعلوا ما يريـدون! و قد اسـتدل فرعون على تصـميمه فى قتل موسـى عليه السّـلام بـدليلين، الأوّل ذو طابع دينى و معنوى، و الآخر ذو طابع دنيوى و مادى، فقال الأول، كما يحكى القرآن ذلك: إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ

و فى الثّانى: أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ.

فإذا سـكتّ أنا و كففت عن قتله، فسيظهر دين موسى و ينفذ فى أعماق قلوب أهل مصر، و ستتبدل عبادة الأصنام التى تحفظ منافعكم و وحدتكم، و إذا سكتّ اليوم فإنّ الزمن كفيل بزيادة أنصار موسى عليه السّلام و أتباعه، و هو أمر تصعب معه مجاهدته فى المستقبل، إذ ستجر الخصومة و الصراع معه إلى إراقة الدماء و الفساد و شيوع القلق فى البلاد، لذا فالمصلحة تقتضى أن أقتله أسرع ما يمكن.

بالطبع، لم يكن فرعون يقصد من الدين شيئا سوى عبادته أو عبادة الأصنام،

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۳

و هذا الأسلوب فی استخدام لباس الدین و اسمه و تبنّی شعاراته، یستهدف منه السلطان (فرعون) تحذیر الناس و تجهیلهم من خلال إعطاء طابع الدین علی مواقفه و کیانه و سلطته.

أمّا الفساد فهو من وجهة نظر فرعون یعنی الثورة ضدّ استکبار فرعون من أجل تحریر عامّة العباد، و محو آثار عبادة الأصنام، و إحیاء معالم التوحید، و تشیید الحیاة علی أساسها.

إنّ استخدام لباس الدین و رفع شعاراته، و کذلک «التدلیس» علی المصلحین بالاتهامات، هما من الأسالیب التی یعتمد هما الظلمة و الطغاة فی کلّ عصر و مصر، و عالمنا الیوم یموج بالأمثلة علی ما نقول! و الآن لنر کیف کان رد فعل موسی علیه السّلام و الذی یبدو أنّه کان حاضر المجلس؟

یقول القرآن فی ذلک: وَ قالَ مُوسی إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ مِنْ کُلِّ مُتَکَبِّرٍ لا یُؤْمِنُ بِیَوْمِ الْحِسابِ

قال موسی علیه السّلام هذا الکلام بقاطعیة و اطمئنان یستمدان جذورهما من إیمانه القوی و اعتماده المطلق علی اللّه تعالی، و أثبت بذلک بأنّه لا یهتز أو یخاف أمام التهدیدات.

و یستفاد من قول موسی علیه السّلام أیضا أنّ من تحل فیه صفتا «التکبر» و «عدم الإیمان بیوم الحساب» فهو إنسان خطر، علینا أن نستعیذ باللّه من شرّه و کیده.

فالتکبر یصبح سببا لأن لا یری الإنسان سوی نفسه و سوی أفکاره، فهو یعتبر کما فی حال فرعون- الآیات و المعجزات الإلهیة سحرا، و یعتبر المصلحین مفسدین، و نصیحة الأصدقاء و المقربین ضعفا فی النفس.

أمّا عدم الإیمان بیوم الحساب فیجعل الإنسان حرا طلیقا فی أعماله و برامجه، لا یفکر بالعواقب، و لا یری لنفسه حدودا یقف عندها، و سیقوم بسبب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۴

انعدام الضوابط و فقدان الرقابة بمواجهة کلّ دعوة صالحة و یحارب الأنبیاء.

و لکن ماذا کان عاقبة تهدید فرعون؟

الآیات القادمة تنبئنا بذلک، و تکشف کیف استطاع موسی علیه السّلام أن یفلت من مخالب هذا الرجل المتکبر المغرور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۵

الآیتان [سورة غافر (۴۰): الآیات ۲۸ الی ۲۹]

اشارة

وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَکْتُمُ إِیمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ یَقُولَ رَبِّیَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَکُمْ بِالْبَیِّناتِ مِنْ رَبِّکُمْ وَ إِنْ یَکُ کاذِباً فَعَلَیْهِ کَذِبُهُ وَ إِنْ یَکُ صادِقاً یُصِبْکُمْ بَعْضُ الَّذِی یَعِدُکُمْ إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ کَذَّابٌ (۲۸) یا قَوْمِ لَکُمُ الْمُلْکُ الْیَوْمَ ظاهِرِینَ فِی الْأَرْضِ فَمَنْ یَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِیکُمْ إِلاَّ ما أَری وَ ما أَهْدِیکُمْ إِلاَّ سَبِیلَ الرَّشادِ (۲۹)

التّفسیر

أ تقتلون رجلا أن یقول ربّی اللّه!

مع هذه الآیات تبدأ مرحلة جدیدة من تأریخ موسی علیه السّلام و فرعون، لم تطرح فی أی مکان آخر من القرآن الکریم. المرحلة

التى نقصدها هنا تتمثل بقصة «مؤمن آل فرعون» الذى كان من المقربين إلى فرعون، و لكنّه اعتنق دعوة موسى التوحيدية من دون أن يفصح عن إيمانه الجديد هذا، و إنّما تكتم عليه و اعتبر نفسه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۶

من موقعه فى بلاط فرعون- مكلفا بحماية موسى عليه السّلام من أى خطر يمكن أن يتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعند ما شاهد أنّ حياة موسى فى خطر بسبب غضب فرعون، بادر بأسلوبه المؤثر للقضاء على هذا المخطط.

يقول تعالى: وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ

أ تقتلوه فى حين أنّه: وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ

هل فيكم من يستطيع أن ينكر معاجزه، مثل معجزة العصا و اليد البيضاء؟ أ لم تشاهدوا بأعينكم انتصاره على السحرة، بحيث أن جميعهم استسلموا له و أذعنوا لعقيدته عن قناعة تامة، و لم يرضحوا لا- لتهديدات فرعون و وعيده، و لا- لإغراءاته و أمنياته، بل استرخصوا الأرواح فى سبيل الحق، فى سبيل دعوة موسى، و إله موسى ... هل يمكن أن نسمّى مثل هذا الشخص بالساحر؟

فكروا جيدا، لا تقوموا بعمل عجول، تحسّبوا لعواقب الأمور و إلّا فالندم حليفكم.

ثم إنّ للقضية بعد ذلك جانبين: وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ

إنّ حبل الكذب قصير- كما يقولون- و سينفضح أمره فى النهاية إذا كان كاذبا، و ينال جزاء الكاذبين، و إذا كان صادقا و مأمورا من قبل السماء فإنّ توعده لكم بالعذاب حاصل شئتم أم أبيتم، لذا فإنّ قتله فى كلا الحالين أمر بعيد عن المنطق و الصواب.

ثم تضيف الآيات: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

فإذا كان موسى سائرا فى طريق الكذب و التجاوز فسوف لن تشمله الهداية الإلهية، و إذا كنتم أنتم كذلك فستحرمون من هدايته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۷

و لنا أن نلاحظ أنّ العبارة الأخيرة برغم أنّها تحمل معنيين إلّا أن «مؤمن آل فرعون» يهدف من خلالها إلى توضيح حال الفراعنة.

و التعبير الذى يليه يفيد أنّ فرعون، أو بعض الفراعنة- على الأقل- كانوا يؤمنون باللّه، و إلّا فإن تعبير «مؤمن آل فرعون» فى خلاف هذا التأويل سيكون دليلا على إيمانه بإله موسى عليه السّلام و تعاونه مع بنى إسرائيل، و هذا ما لا يتطابق مع دوره فى تكتمه على إيمانه، و لا يناسب أيضا مع أسلوب «التقية» التى كان يعمل بها.

و بالنسبة للتعبير الآنف الذكر وَ إِنْ يَكُ كاذِباً ... فقد طرح المفسّرون سؤالين:

الأوّل: إذا كان موسى عليه السّلام كاذبا، فإنّ عاقبة كذبه سوف لن تقتصر عليه و حسب، و إنّما سوف تنعكس العواقب السيئة على المجتمع برمته.

الثّانى: أما لو كان صادقا، فستتحقق كلّ تهديداته و وعيده لا بعض منها، كما فى تعبير «مؤمن آل فرعون»؟

بالنسبة للسؤال الأول، نقول: إنّ المراد هو معاقبة جريمة الكذب التى تشمل شخص الكذّاب فقط و يكفينا العذاب الالهى لدفع شرّه. و إلّا فكيف يمكن لشخص أن يكذب على اللّه، و يتركه سبحانه لشأنه كى يكون سببا لإضلال الناس و إغوائهم؟

و بالنسبة للسؤال الثّانى، من الطبيعى أن يكون قصد موسى عليه السّلام من التهديد بالعذاب، هو العذاب الدنيوى و الأخروى، و التعبير ب «بعض» إنّما يشير إلى العذاب الدنيوى، و هو الحد الأدنى المتيقّن حصوله فى حالة تكذيبكم إيّاه.

و فى كلّ الأحوال تبدو جهود «مؤمن آل فرعون» واضحة فى النفود بشتى الوسائل و الطرق إلى أعماق فرعون و جماعته لتثنيهم عن قتل موسى عليه السّلام.

و نستطيع هنا أن نلخص الوسائل التى اتبعها بما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۸

أوضح لهم أولا أنّ عمل موسى عليه السّلام لا يحتاج إلى ردّة فعل شديدة كهذه.

ثم عليكم أن لا تنسوا أنّ الرجل يملك «بعض» الأدلة، و يظهر أنّها أدلة معتبرة، لذا فإنّ محاربة مثل هذا الرجل تعتبر خطرا واضحا.

و الموضوع برمته لا- يحتاج إلى موقف منكم، فإذا كان كاذبا فسينال جزاءه من قبل اللّه، و لكن يحتمل أن يكون صادقا، و عندها لن يتركنا اللّه لحالنا.

و لم يكتف «مؤمن آل فرعون» بهذا القدر، و إنّما استمرّ يحاول معهم بلين و حكمة، حيث قال لهم كما يحكى ذلك القرآن من أنّه قال لهم أن بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها و نعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الالهى.

يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا.

و يحتمل أن يكون غرضه: إنكم اليوم تملكون كلّ أنواع القوّة، و تستطيعون اتخاذ أى تصميم تريدونه اتجاه موسى عليه السّلام، و لكن لا تغرنكم هذه القوّة، و لا تنسوا النتائج المحتملة و عواقب الأمور.

و يظهر أنّ هذا الكلام أثر فى حاشية فرعون و بطانته، فقلّل من غضبهم و غيظهم، لكن فرعون لم يسكت و لم يقتنع، فقطع الكلام بالقول: قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى و هو إنّى ارى من المصلحة قتل موسى و لا حلّ لهذه المشكلة سوى هذا الحل.

ثمّ إننى: وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ.

و هذه هو حال كافة الطواغيت و الجبّارين على طول التأريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره، و لا يسمحون لأحد فى إبداء وجهة نظر مخالفة لما يقولون، فهم يظنون أن عقلهم كامل، و أن الآخرين لا يملكون علما و لا عقلا ...

و هذا هو منتهى الجهل و الحماقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۹

بحوث

أوّلا: من هو مؤمن آل فرعون؟

نستفيد من الآيات القرآنية أنّ «مؤمن آل فرعون» هو رجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السّلام، و يظلّ يتكتم على إيمانه، و يعتبر نفسه مكلفا بالدفاع عنه عليه السّلام.

لقد كان الرجل- كما يدل عليه السياق- ذكيا و لبقا، يقدّر قيمة الوقت، ذا منطق قوى، حيث قام فى اللحظات الحسّاسة بالدّفاع عن موسى عليه السّلام و إنقاذه من مؤامرة كانت تستهدف حياته.

تتضمن الرّوايات الإسلامية و تفاسير المفسّرين أوصافا أخرى لهذا الرجل سنتعرض لها بالتدريج.

البعض مثلا- يعتقد أنّه كان ابن عم- أو ابن خالة- فرعون، و يستدل هذا الفريق على رأيه بعبارة (آل فرعون) إذ يرى أنّها تطلق على الأقرباء، بالرغم من أنّها تستخدم أيضا للأصدقاء و المقربين.

و البعض قال: إنّه أحد أنبياء بنى إسرائيل كان يعرف اسم «حزبيل» أو «حزقيل»[۲۳۵].

فيما قال البعض الآخر: إنّه خازن خزائن فرعون، و المسؤول عن الشؤون المالية[۲۳۶].

و ينقل عن ابن عباس أنّه قال: إنّ هناك ثلاثة رجال من بين الفراعنة آمنوا بموسى عليه السّلام، و هم آل فرعون، و زوجة فرعون، و الرجل الذى أخبر موسى قبل نبوته بتصميم الفراعنة على قتله، حينما أقدم موسى على قتل القبطى، و نصحه بالخروج من مصر بأسرع وقت:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۰

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَةِ یَسْعی قالَ یا مُوسی إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النَّاصِحِینَ ۲۳۷].

لکن القرائن تفید أن ثمّة مجموعة قد آمنت بموسی علیه السّلام بعد مواجهة موسی مع السحرة، و یظهر من السیاق أنّ قصة مؤمن آل فرعون کانت بعد حادثة السحرة.

و البعض یحتمل أنّ الرجل کان من بنی إسرائیل، لکنّه کان یعیش بین الفراعنة و یعتمدون علیه، إلّا أنّ هذا الاحتمال ضعیف جدا، و لا یتلاءم مع عبارة «آل فرعون» و أیضا نداء «یا قوم».

و لکن یبقی دوره مؤثرا فی تأریخ موسی علیه السّلام و بنی إسرائیل حتی مع عدم وضوح کلّ خصوصیات حیاته بالنسبة لنا.

ثانیا: التقیة أداة مؤثّرة فی الصراع

(التقیة) أو (کتمان الإعتقاد) لیست من الضعیف أو الخوف کما یظن البعض، بل غالبا ما توظّف کأسلوب مؤثّر فی إدارة مع الظالمین و الجبارین و الطغاة، إذ أن کشف أسرار العدو لا یمکن أن یتمّ إلّا عن طریق الأشخاص الذین یعملون بأسلوب التقیة.

و کذلک الضربات الموجعة و المباغتة للعدو، لا تتمّ إلّا عن طریق التقیة و کتمان الخطط و أسالیب الصراع.

لقد کانت «تقیة» مؤمن آل فرعون من أجل خدمة دین موسی علیه السّلام، و الدفاع عنه فی اللحظات الصعبة. ثمّ هل هناک أفضل من أن یحظی الإنسان بشخص مؤمن بقضیته و دعوته یزرعه فی جهاز عدوه بحیث یستطیع من موقعه أن ینفذ إلی أعماق تنظیمات العدو، و یحصل علی المعلومات و الأسرار لیفید بها قضیته و دعوته، و یخبر بها أصحابه و قد تقضی الضرورة النفوذ فی ذهنیة العدو أیضا و تغییرها لمصالح قضیته و دعوته ما استطاع إلی ذلک سبیلا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۱

الآن نسأل: هل کان بوسع مؤمن آل فرعون إسداء کلّ هذه الخدمات لدعوة موسی علیه السّلام لو لم یستخدم أسلوب التقیة؟

لذلک کلّه

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق قوله علیه السّلام: التقیة دینی و دین آبائی، و لا دین لمن لا تقیة له، و التقیة ترس اللّه فی الأرض، لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل»[۲۳۸].

إنّ فاعلیة هذا المبدأ تکتسب أهمیة استثنائیة فی الوقت الذی یکون فیه المؤمنون قلّة خاضعة للأکثریة التی لا ترحم و لا تتعامل وفق المنطق، فالعقل لا یسمح بإظهار الإیمان (باستثناء الضرورات) و التفریط بالطاقات الفعّالة، بل الواجب یقضی بکتمان العقیدة و التخفی علی المعتقد فی مثل هذا الوضع لکی یصار إلی تجمیع الطاقات و القوی و الإفادة منها لتسدید الضربة النهائیة و القاصمة فی الوقت و الظرف المناسبین.

إنّ الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم التزم بنفسه هذا المبدأ، حینما أبقی دعوته سریّة لبضع سنوات، و حینما ازداد أتباعه و تشکّلت النواة الإیمانیة القادرة للحفاظ علی الدعوة الجدیدة صدع صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بأمره تعالی أمام القوم.

و من بین الأنبیاء الآخرین نری إبراهیم علیه السّلام الذی استخدم أسلوب التقیة، و وظّف هذا المبدأ فی عمله الشجاع الذی حطّم فیه الأصنام، و إلّا فلولا التقیة لم یکن بوسعه أن ینجح فی عمله أبدا.

کذلک استفاد أبو طالب عم الرسول من أسلوب التقیة فی حمایة رسول اللّه و دعوته الناشئة، إذ لم یعلن عن صریح إیمانه برسول اللّه و بالإسلام إلّا فی فترات و مواقف خاصّة، کی یستطیع من خلال ذلک لنهوض بأعباء دوره المؤثر فی حفظ حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم حیال مکائد و طغیان الشرک القرشی.

من هنا یتبیّن خطأ رأی من یعتقد بأنّ «التقیة» کمبدأ و کأسلوب، تختص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۲

بالشیعة دون غیرهم، أو أنّها کدلیل علی الضعف و الجبن، فیما هی موجودة فی جمیع المذاهب دون استثناء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۲۵۲

لمزید من التوضیح، باستطاعة القارئ الکریم أن یرجع إلی بحثنا فی تفسیر الآیة ۲۸ من آل عمران و الآیة ۱۰۶ من النحل.

ثالثا: من هم الصدّیقون؟

فی الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «الصدیقون ثلاثة: (حبیب النجار) مؤمن آل یس الذی یقول: اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِینَ اتَّبِعُوا مَنْ لا یَسْئَلُکُمْ أَجْراً و (حزقیل) مؤمن آل فرعون و (علی بن أبی طالب و هو أفضلهم)».

و الملاحظ فی هذا الحدیث أنّه یروی فی مصادر الفریقین ۲۳۹].

إنّ تأریخ النبوات یظهر مکانة هؤلاء فی دعوات الرسل، إذ صدّقوهم فی أحرج اللحظات، و کانوا فی المقدمة، فاستحقوا لقب «الصدّیق» خاصة أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام، الذی وقف منذ مطلع عمره الشریف و حتی نهایته مناصرا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فی حیاته و بعد رحلته و ذابا عن الدعوة الجدیدة، و استمرّ فی کلّ المراحل و الأشواط فی تقدیم التضحیات بمنتهی الإخلاص.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۳

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۳۰ الی ۳۳]

اشارة

وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (۳۱) وَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ التَّنادِ (۳۲) یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ ما لَکُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۳)

التّفسیر

التحذیر من العاقبة!

کان الشعب المصری آنذاک یمتاز نسبیا بمواصفات التمدّن و الثقافة، و قد اطّلع علی أقوال المؤرخین بشأن الأقوام السابقة، أمثال قوم نوح و عاد و ثمود الذین لم تکن أرضهم تبعد عنهم کثیرا، و کانوا علی علم بما آل إلیه مصیرهم.

لذلک کلّه فکّر مؤمن آل فرعون بتوجیه أنظار هؤلاء إلی أحداث التأریخ و أخذ یحذرهم من تکرار العواقب الألیمة التی نزلت بغیرهم، عساهم أن یتیقظوا و یتجنّبوا قتل موسی علیه السّلام یقول القرآن الکریم حکایة علی لسانه: وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزابِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۴

ثم أوضح مراده من هذا الکلام بأننی خائف علیکم عن العادات و التقالید السیئة التی کانت متفشّیة فی الأقوام السالفة. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۲۴۰].

لقد نالت هذه الأقوام جزاء ما کانت علیه من الکفر و الطغیان، إذ قتل من قتل منهم بالطوفان العظیم، و أصیب آخرون منهم بالریح الشدیدة، و بعضهم بالصواعق المحرقة، و مجموعة بالزلازل المخرّبة.

و الیوم یخاطبهم مؤمن آل فرعون: ألا تخشون أن تصیبکم إحدی هذه البلایا العظیمة بسبب إصرارکم علی الکفر و الطغیان؟ هل عندکم ضمان بأنّکم لستم مثل أولئک، أو أن العقوبات الإلهیة لا تشملکم، تری ماذا عمل أولئک حتی أصابهم ما أصابهم، لقد اعترضوا علی دعوة الأنبیاء الإلهیین، و فی بعض الأحیان عمدوا إلی قتلهم ... لذلک کلّه فإنی أخاف علیکم مثل هذا المصیر المؤلم!؟

و لکن ینبغی أن تعلموا أنّ ما سیصیبکم و یقع بساحتکم هو من عند أنفسکم و بما جنت أیدیکم: وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ.

لقد خلق اللّه الناس بفضله و کرمه، و وهبهم من نعمه ظاهرة و باطنة، و أرسل أنبیاءه لهدایتهم، و لصدّ طغیان العتاة عنهم، لذلک فإنّ طغیان العباد و صدّهم عن السبیل هو السبب فیما ینزل بهم من العذاب الألیم.

ثم تضیف الآیة علی لسانه: وَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ التَّنادِ أی یوم تطلبون العون من بعضکم البعض، إلّا أصواتکم لا تصل إلی أی مکان.

«التناد» مأخوذة أصلا من کلمة «ندا» و تعنی «المناداة» (و هی فی الأصل (التنادی) و حذفت الیاء و وضعت الکسرة فی محلّها) و المشهور بین المفسّرین أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۵

(یوم التناد) هو من أسماء یوم القیامة، و قد ذکروا أسبابا لهذه التسمیة متشابهة تقریبا، فمنهم من یقول: إن ذلک یعود إلی مناداة أهل النّار لأهل الجنّة، کما یقول القرآن: وَ نادی أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِیضُوا عَلَیْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَکُمُ اللَّهُ فجاءهم الجواب: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَی الْکافِرِینَ ۲۴۱][۲۴۲]. أو أنّ التسمیة تعود إلی مناداة الناس بعضهم لبعض طلبا للعون و المساعدة.

و هناک من قال: إن سبب التسمیة یعود إلی أنّ الملائکة تنادیهم للحساب، و هم یطلبون العون من الملائکة.

أو لأنّ منادی المحشر ینادی: أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ ۲۴۳].

و قال بعضهم: إنّ السبب یعود إلی أنّ المؤمن عند ما یشاهد صحیفة أعماله ینادی برضی و شوق: هاؤُمُ اقْرَؤُا کِتابِیَهْ ۲۴۴] بینما الکافر من شدة خوفه و هول ما یحلّ به یصرخ و ینادی: یا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ ۲۴۵].

و لکن یمکن تصور معنی أوسع للآیة، بحیث یشمل «یوم التناد فی هذه الدنیا أیضا، لأنّ المعنی- کما رأینا- یعنی (یوم مناداة البعض بعض الآخر) و هذا المعنی یعبّر عن ضعف الإنسان و عجزه عند ما تنزل به المحن و تحیطه المصاعب و الملمّات، و ینقطع عنه العون و أسباب المساعدة، فیبدأ بالصراخ و لکن بغیر نتیجة.

و فی عالمنا هذا ثمّة أمثلة عدیدة علی «یوم التناد» مثل الأیّام التی ینزل فیها العذاب الإلهی، أو الأیّام التی یصل فیها المجتمع إلی طریق مسدودة لکثرة ما ارتکب من ذنوب و خطایا، و قد نستطیع أن نتصور صورا أخری عن یوم التناد فی حیاتنا من خلال الحالات التی یمرّ بها الناس بالمشاکل و الصعاب المختلفة حیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۶

یصرخ الجمیع عندها طالبین للحل و النجاة! الآیة التالیة تفسّر یوم التناد بقولها: یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ ما لَکُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ

و مثل هؤلاء حق علیهم القول: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ إنّ هؤلاء الذین ضلّوا فی الحیاة الدنیا بابتعادهم عن سبل الرشاد و الهدایة و تنکبهم عن الطریق المستقیم، سیضلّون فی الآخرة عن الجنّة و الرضوان و النعم الإلهیة الکبری.

و قد یکون فی التعبیر القرآنی إیماءة خفیفة إلی قول فرعون: ما أَهْدِیکُمْ إِلَّا سَبِیلَ الرَّشادِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۷

الآیتان [سورة غافر (۴۰): الآیات ۳۴ الی ۳۵]

اشارة

وَ لَقَدْ جاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِی شَکٍّ مِمَّا جاءَکُمْ بِهِ حَتَّی إِذا هَلَکَ قُلْتُمْ لَنْ یَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (۳۴) الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِینَ آمَنُوا کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلی کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبَّارٍ (۳۵)

التّفسیر

عجز المتکبرین عن الإدراک الصحیح!

هذا المقطع من الآیات الکریمة یستمر فی عرض کلام مؤمن آل فرعون، و من خلال نظرة فاحصة فی سیاق الآیات، یظهر أنّ مؤمن آل فرعون طرح کلامه فی خمسة مقاطع، کلّ منها اکتسی بلون من المخاطبة، و شکل من الدلیل، الذی یستهدف النفوذ إلی قلب فرعون و المحیطین به، بغیة محو الصدأ و آثار الکفر السوداء منهاکی تذعن للّه و رسالاته و أنبیائه، و تترک التکبر و الطغیان:

المقطع الأوّل: راعی فیه مؤمن آل فرعون الاحتیاط، و دعا القوم إلی الحذر من الأضرار المحتملة من جهتین: (قال لهم: لو کان موسی کاذبا فسینال جزاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۸

کذبه، أمّا لو کان صادقا فیشملنا العذاب، إذا علیکم أن لا تترکوا العمل بالاحتیاط).

المقطع الثّانی: و فیه وجّه مؤمن آل فرعون الدعوة إلی التأمّل بما حلّ بالأقوام السابقة و ما نال الأمم الدائرة من المصیر و الجزاء، کی یأخذوا العبرة من ذلک المصیر! المقطع الثّالث: کأمن فی الآیات القرآنیة التی بین أیدینا، إذ تذکر هم الآیات- من خلال خطاب مؤمن آل فرعون- بجزء من تأریخهم، هذا التأریخ الذی لا یبعد کثیرا عنهم، و لم تمحی بعد أواصر الارتباط الذهنی و التأریخی فیما بینهم و بینه، و هذا الجزء یتمثل فی نبوة یوسف علیه السّلام، الذی یعتبر أحد أجداد موسی، حیث یبدأ قصة التذکیر معهم بقوله تعالی: وَ لَقَدْ جاءَکُمْ یُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَیِّناتِ ۲۴۶] و بالدلائل الواضحة لهدایتکم و لکنکم: فَما زِلْتُمْ فِی شَکٍّ مِمَّا جاءَکُمْ بِهِ

و شککم هنا لیس بسبب صعوبة دعوته أو عدم اشتمالها علی الأدلة و العلائم الکافیة، بل بسبب غرورکم حیث أظهرتم الشک و التردد فیها.

و لأجل أن تتنصلوا من المسؤولیة، و تعطوا لأنفسکم الذرائع و المبررات، قلتم: حَتَّی إِذا هَلَکَ قُلْتُمْ لَنْ یَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا.

بناء علی ذلک کلّه لم تشملکم الهدایة الإلهیة بسبب أعمالکم و مواقفکم:

کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ

لقد سلکتم سبیل الإسراف و التعدی علی حدود اللّه تعالی کما قمتم بالتشکیک فی کلّ شیء، حتی غدا ذلک کلّه سببا لحرمانکم من اللطف الإلهی فی الهدایة، فسدرتم فی وادی الضلال و الغی، کی تنتظرکم عاقبة هذا الطریق الغاوی.

و الیوم- و السیاق ما زال یحکی خطاب مؤمن آل فرعون لهم- اتبعتم نفس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۹

الأسلوب حيال دعوة موسى عليه السّلام، إذ تركتم البحث فى أدلة نبوته و علائم بعثته و رسالته، فابتعدت عنكم أنوار الهداية، و ظلت قلوبكم سوداء محجوبة عن إشعاعاتها الهادية الوضّاءة.

الآية الكريمة التى تليها تعرّف «المسرف المرتاب» بقول اللّه تبارك و تعالى:

الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ۲۴۷].

هؤلاء يرفضون آيات اللّه البينات من دون أى دليل واضح من عقل أو نقل، بل يستجيبون فى ذلك إلى أهوائهم المغرضة و وساوسهم المضلّة الواهية، كى يستمروا فى رفع راية الجدل و المعارضة.

و للكشف عن قبح هذه المواقف عند اللّه و عند الذين آمنوا، تقول الآية: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا[۲۴۸].

ذلك لأنّ الجدال بالباطل (الجدال السلبى) و اتخاذ المواقف ضدّ الوقائع و الآيات القائمة على أساس الدليل المنطقى، يعتبر أساسا لضلال المجادلين و تنكبهم عن جادة الهداية و الصواب، و كذلك فى إغواء للآخرين، حيث تنطفئ أنوار الهداية فى تلك الأوساط، و تتقوى أسس و دعائم حاكمية الباطل.

فى النهاية، و بسبب عدم تسليم هؤلاء أمام الحق، تقرّر الآية قوله تعالى: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[۲۴۹].

أجل، إنّ العناد فى مقابل الحق يشكّل ستارا مظلما حول فكر الإنسان، و يسلب منه قابليته على التشخيص الهادى الصحيح، بحيث ينتهى الأمر إلى أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۰

يتحول القلب إلى مثل الإناء المغلق، الذى لا يمكن افراغه من محتواه الفاسد، و لا إدخال المحتوى الهادى الصحيح.

إنّ الأشخاص الذين يقفون فى وجه الحق و أهله بسبب اتصاف بصفتى التكبر و التجبر، فإنّ اللّه تعالى سوف يسلب منهم روح طلب الحقيقة الى درجة أن الحق سيكون مرا فى مذاقهم، و الباطل حلوا.

و فى كلّ الأحوال، لقد قام مؤمن آل فرعون بعمله من خلال الوسائل التى وقفنا عليها آنفا، فانتهى- كما سيظهر فى الآية اللاحقة- إلى أجهاض مخطط فرعون فى قتل موسى عليه السّلام، أو على الأقل وفّر الوقت الكافى فى تأخير تنفيذ هذا لمخطط إلى أن استطاع موسى عليه السّلام أن يفلت من الخطر.

لقد كانت هذه مهمّة عظيمة أنجزها هذا الرجل المؤمن الشجاع، الذى انصب جهده فى هذه المرحلة الخطيرة من الدعوة الموسوية على إنقاذ حياة كليم اللّه عليه السّلام:

و كما سيتضح لا حقا من احتمال أن هذا الرجل ضحى بحياته أيضا فى هذا السبيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۱

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (۳۶) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ (۳۷)

التّفسير

أريد أن أطلع إلى إليه موسى!!

بالرغم من النجاح الذى أحرزه مؤمن آل فرعون فى أثناء عزم فرعون عن قتل الكليم، عليه السّلام، إلّا أنّه لم يستطع أن يثنيه عن غروره و تكبره و تعاليه إزاء الحق، لأنّ فرعون لم يكن ليملك مثل هذا الاستعداد أو اللياقة الكافية للهداية، لذلك نراه يواصل السير فى نهجه الشرير، إذ يأمر وزيره هامان ببناء برج للصعود إلى السماء (!!) كى يجمع المعلومات عن إله موسى، يقول تعالى فى وصف هذا الموقف: وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أى لعلى أحصل على وسائل و تجهيزات توصلنى الى السماوات. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۲

و لكن ماذا كانت النتيجة؟! كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ

«الصرح» فى الأصل تعنى الوضوح، و «التصريح» بمعنى التوضيح، ثمّ عمّم معنى الكلمة على الأبنية المرتفعة و القصور الجميلة العالية، و ذلك لأنّها واضحة و مميّزة بشكل كامل، و قد ذكر هذا المعنى العديد من المفسّرين و اللغويين.

«تباب» تعنى الخسارة و الهلاك.

إنّ أول ما يطالعنا هنا هو السؤال عن الهدف الذى كان فرعون يرغب بتحقيقه من خلال عمله هذا.

هل كان فرعون بهذا المقدار من الغباء و الحماقة و السذاجة بحيث يعتقد أن إله موسى موجود فعلا فى مكان ما من السماء؟ و إذا كان موجودا فى السماء، فهل يستطيع الوصول إليه بواسطة إقامة بناء مرتفع يعتبر ارتفاعه تافها إزاء جبال الكرة الأرضية؟

إنّ هذا الاحتمال ضعيف للغاية، ذلك لأنّ فرعون بالرغم من غروره و تكبره، فقد كان يمتاز بالذكاء و القدرة السياسية التى أهّلته للسيطرة على شعب كبير لسنين مديدة من خلال أساليب القهر و القوة و الخداع.

لذلك كلّه نرى الموقف يدعونا إلى تحليل هذا التصرف الفرعونى لمعرفة دواعيه و أهدافه الشيطانية.

فمن خلال عملية التأمّل و التمحيص، يمكن أن تنتهى إلى ثلاثة أهداف كانت تكمن وراء هذا التصرّف و الأهداف هذه هى:

أولا: أراد فرعون أن يختلق وضعا يعمد من خلاله إلى إلهاء الناس و صرف أذهانهم عن قضية نبوة موسى عليه السّلام و ثورة بنى إسرائيل. و قضية بناء مثل هذا الصرح المرتفع يمكن أن تحوز على اهتمام الناس، و تهيمن على اهتماماتهم الفكرية، و بالتالى إلى صرفهم عن القضية الأساسية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۳

و فى هذا الإطار يلاحظ بعض المفسّرين أن فرعون خصص لبناء صرحه مساحة واسعة من الأراضى، و وظّف فى إقامته خمسين ألفا من العمال و البنائين المهرة، بالإضافة إلى من انشغل بتهيئة وسائل العمل و التمهيد لتنفيذ المشروع، و كلما كان البناء يرتفع أكثر كلّما ازداد تأثيره فى الناس، و أخذ يجلب إليه الاهتمام و الأنظار أكثر، إذ أصبح الصرح حديث المجالس، و الخبر الأوّل الذى يتناقله الناس، و فى مقابل ذلك يتناسون قضية انتصار موسى عليه السّلام على السحرة- و لو مؤقتا- خصوصا مع الأخذ بنظر الإعتبار ذلك الاهتزاز العنيف الذى ألحق بجهاز فرعون و أساط الناس.

ثانيا: استهدف فرعون من خلال تنفيذ مشروع الصرح اشتغال أكبر قطّاع من الناس، و على الأخص العاطلين منهم، لكى يجد هؤلاء فى هذا الشغل عزاء- و لو مؤقتا- عن مظالم فرعون و ينسون جرائمه و ظلمه. و من ناحية ثانية فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الكثير يؤدى إلى ارتباطهم بخزانة فرعون و أمواله، و بالتالى ارتباطهم بنظامه و سياساته! ثالثا: لقد كان من خطة فرعون بعد انتهاء بناء الصرح، أن يصعد إلى أعلى نقطة فيه، و يرمق السماء ببصره، أو يرمى سهما نحو السماء، و يرجع الى الناس فيقول لهم: لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لإله موسى. و الآن انصرفوا إلى أعمالكم براحة بال!! أما بالنسبة إلى فرعون نفسه، فقد كان يعلم أنّه حتى لو ارتقى الجبال الشامخات التى

تتطاول في علوها على صرحه، فإنّه سوف لن يشاهد أي شيء آخر يفترق عمّا يشاهده و هو يقف على الأرض المستوية يتطلع نحو السماء! و الطريف في الأمر هنا أنّ فرعون بعد قوله: فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى رجع خطوة إلى الوراء فنزل عن يقينه إلى الشك، حيث قال بعد ذلك: وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً إذ استخدم تعبير «أظن»!

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۴

و الجدير بالإشارة هنا أنّ القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ ذكر ثلاث قضايا ذات محتوى كبير بجمل قصيرة، حيث قال أولا: إن السبب الرئيسي في انحراف فرعون عن جادة الصواب يعود إلى تزيين عمله القبيح في نظره بسبب غروره و تكبره.

ثم تناول بعد ذلك نتيجة ذلك متمثلة بالضلال عن طريق الحق و الهدى و النور.

و في الجملة الثّالثة لخصت الآية مال مخططات فرعون، هذا المآل الذي تمثل بالفشل الذريع و التباب و الخسران.

طبعا، يمكن للخطط السياسة و المواقف المضلّلة أن تخدع الناس شطرا من الزمان، و تؤثر فيهم لفترة من الوقت، إلّا أنّها تنتهي بالفشل على المدى البعيد.

فقد ورد في بعض الرّوايات أنّ «هامان» قد زاد في ارتفاع الصرح الفرعوني إلى الدرجة التي باتت الرياح الشديدة مانعا عن الاستمرار بالعمل و عندها اعتذر هامان لفرعون عن الاستمرار بالبناء.

و لكن لم تمض فترة وجيزة من الزمن حتى حطمت الرياح الشديدة ذلك البناء[۲۵۰].

و اتضح أن قوة فرعون متعلقة في ثباتها بالرياح.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۵

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (۳۸) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (۳۹) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (۴۰)

التّفسير

اتبعون أهدكم سبيل الرشاد:

أشرنا آنفا إلى أنّ مؤمن آل فرعون أوضح كلامه في مجموعة من المقاطع، و في هذه المجموعة من الآيات الكريمة نقف أولا على المقطع الرابع، بعد أن أشرنا في الآيات السابقة إلى ثلاثة منها.

إنّ هذا المقطع من كلام مؤمن آل فرعون ينصب في مضمونه على إلفات نظر القوم إلى الحياة الدنيوية الزائلة، و قضية المعاد و الحشر و النشر، إذ أنّ تركيز هذه القضايا في حياة الناس له تأثير جذري في تربيتهم.

يقول تعالى: وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۶

لقد قرأنا سابقا أنّ فرعون كان يقول: إنّ ما أقوله هو طريق الرشد و الصلاح، إلّا أنّ مؤمن آل فرعون أبطل هذا الادّعاء الفارغ، و أفهم

الناس زوره، و حذرّهم أن يقعوا فريسة هذا الادّعاء، إذ أنّ خططه ستفشل و سيصاب بسوء العاقبة، فالطريق هو ما أقوله، إنّه طريق التقوى و عبادة اللّه.

ثم تضيف الآية: يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ.

يريد أن يقول لهم: لنفرض أنّنا انتصرنا ببذل الحيل و التوسّل بوسائل الخداع و المكر، و تركنا الحق وراء ظهورنا، و ارتكبنا الظلم و تورطنا بدماء الأبرياء، ترى ما مقدار عمرنا فی هذا العالم؟ إنّ هذه الأيّام المعدودة ستنتهی و سنقع فی قبضة الموت الذی يجرنا من القصور الفخمة إلى تحت التراب و تكون حياتنا فی مكان آخر.

إنّ القضية ليست فناء هذه الدنيا و بقاء الآخرة و حسب، بل الأهم من ذلك هی قضية الحساب و الجزاء، حيث يقول تعالى: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ

إنّ مؤمن آل فرعون- بكلامه هذا- آثار أولا قضية عدالة اللّه تبارك و تعالى، حيث يقاضی الإنسان بما اكتسبت يداه خيرا أو شرّا.

و من جهة ثانية أشار فی كلامه إلى الثواب و الفضل الالهی لذوی العمل الصالح، إنّه الجزاء الذی لا يخضع لموازين الحساب الكمية، إذ يهب اللّه تبارك و تعالى للمؤمنين بغير حساب، ممّا لم تره عين أو تسمعه أذن و لا يخطر على فكر إنسان.

و من جهة ثالثة أشار للتلازم القائم بين الإيمان و العمل الصالح.

و رابعة يشير أيضا إلى مساواة الرجل و المرأة فی محضر اللّه تبارك و تعالى،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۷

و فی القيم الإنسانية.

لقد استخلص مؤمن آل فرعون من خلال طرحه الآنف الذكر فی أنّ الحياة الدنيا و إن كانت متاعا لا يغنی شيئا عن الحياة الأخرى، إلّا أنّه يمكن أن يكون وسيلة للجزاء اللامتناهی هی و العطايا التی تصدر عن المطلق جلّ و علا. إذن هل هناك تجارة أربح من هذا؟!

كما ينبغی أن نقول: إنّ عبارة «مثلها» تشير إلى أنّ العقاب فی العالم الآخر يشبه نفس العمل الذی قام به الإنسان فی هذه الدنيا، متشابهة كاملة بكل ما للكلمة من دلالة و معنى.

أمّا تعبير «غير حساب» فيمكن أن يكون إشارة إلى حساب العطايا يختص بالاشخاص من ذوی المواهب المحدودة، أمّا المطلق (جلّ و علا) الذی لا تنقص خزائنه مهما بذل للآخرين (لأن كلّ ما يؤخذ من اللانهاية يبقى بلا نهاية) لذلك فهو عطاء لا يحتاج إلى حساب.

و بقيت مسألة بحاجة إلى جواب، و هی: هل ثمّة تعارض بين هذه الآية و ما جاء فی الآية (۱۶۰) من سورة الأنعام، حيث قوله تعالى: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

فی الجواب على هذا التساؤل نقول: إنّ «عشر أمثالها» إشارة للحد الأدنى من العطاء الإلهی، إذ هناك الجزاء الذی يصل إلى (۷۰۰) مرّة و أكثر، ثمّ قد يصل العطاء الإلهی إلى مستوى الجزاء ب «غير حساب» و هو ممّا لا يعلم حدّه و لا يمكن تصوره.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۸

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۴۱ الى ۴۶]

اشارة

وَ يا قَوْمِ ما لِی أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَى النَّارِ (۴۱) تَدْعُونَنِی لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (۴۲) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِی إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِی الدُّنْيا وَ لا فِی الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (۴۳) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (۴۴) فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ

سُوءُ الْعَذابِ (۴۵)

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (۴۶)

التّفسير

الكلام الأخير:

فی خامس- و آخر- مرحلة يزيل مؤمن آل فرعون الحجب و الأستار عن هويته، إذ لم يستطع التكتم ممّا فعل، فقد قال كلّ ما هو ضروری، أمّا القوم من ملأ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۹

فرعون، فكان لهم- كما سنرى ذلك- قرارهم الخطير بشأنه! يفهم من خلال القرائن أنّ أولئك المعاندين و المغرورين لم يسكتوا حيال كلام هذا الرجل الشجاع المؤمن، و إنّما قاموا بطرح «مزايا» الشرك فی مقابل كلامه، و دعوه كذلك إلى عبادة الأصنام.

لذا فقد صرخ قائلا: وَ يا قَوْمِ ما لِی أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَى النَّارِ.

إننی أطلب سعادتكم و أنتم تطلبون شقائی، إننی أهديكم إلى الطريق الواضح الهادی و أنتم تدعوننی إلى الانحراف و الضلال! نعم، إنّكم: تَدْعُونَنِی لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ.

نستفيد من الآيات القرآنية المختلفة، و من تأريخ مصر، أنّ هؤلاء القوم لم يقتصروا فی عبادتهم و شركهم و ضلالهم على الفراعنة و حسب، و إنّما كانت لهم أصنام يعبدونها من دون الواحد القهار، كما نستفيد ذلك بشكل مباشر من قوله تعالى فی الآية (۱۲۷) من سورة «الأعراف» حيث قوله تعالى: أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ و الآية تحكی خطاب أصحاب فرعون و الملأ من قومه لفرعون.

و قد تكرّر نفس المضمون على لسان يوسف عليه السّلام، إذ قال لرفاقه فی سجن الفراعنة: أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ[۲۵۱].

لقد ذكّرهم مؤمن آل فرعون من خلال مقارنة واضحة أنّ دعوتهم إلى الشرك لا تستند على دليل صحيح، و الشرك طريق و عر مظلم محفوف بالمخاطر و سوء العاقبة و المصير، بينما دعوته (مؤمن آل فرعون) دعوة للهدى و الرشاد و سلوك طريق اللّه العزيز الغفّار.

إنّ عبارة (العزيز) و (الغفار) تشير من جانب إلى مبدأ (الخوف و الرجاء) و من

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۰

جانب ثان تشير إلى إلغاء ألوهية الأصنام و الفراعنة، حيث لا يملكون العزة و لا العفو.

ينتقل الخطاب القرآنی- على لسان مؤمن آل فرعون- إلى قوله تعالى: لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِی إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِی الدُّنْيا وَ لا فِی الْآخِرَةِ[۲۵۲] فهذه الأصنام لم ترسل الرسل إلى الناس ليدعوهم إليهم، و هی لا تملك فی الآخرة الحاكمية على أی شیء.

إنّ هذه الموجودات لا تملك الحس و الشعور، إنّها أصنام لا تتكلم و لا تضر و لا تنفع، و إنّ عليكم أن تعلموا: وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ فهو سبحانه و تعالى الذی أرسل رسله إلى النسا لأجل هدايتهم، و هو الذی يثيبهم و يعاقبهم على أعمالهم.

و يجب أن تعلموا أيضا: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ.

و هكذا كشف مؤمن آل فرعون ما كان يخفی من إيمانه، و بذلك فقد انكشف هنا خطّه الإيمانی التوحيدی، و انفصل علينا عن خط

الشرك الملوث الذى يصبغ بآثامه و أوحاله الحكّام الفراعنة و من يلف حولهم، لقد رفض الرجل دعوتهم و وقف لوحده إزاء باطلهم و انحرافهم.

فى آخر كلامه- و بتهديد ذى مغزى- يقوله لهم: فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ

إنّ ما قلته لكم ستذكرونه فى الدنيا و الآخرة، و ستعلمون صدقى عند ما تصيبكم المصائب، و ينزل بساحتكم الغضب الإلهى، لكن سيكون ذلك كلّه بعد فوات الأوان، فإن كان فى الآخرة فلا طريق الرجوع، و إن كان فى الدنيا فهو لا يتم إلّا حين يحل بكم العذاب الإلهى، و عندها ستغلق جميع أبواب التوبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۱

ثم تضيف الآية على لسان الرجل المؤمن: وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ.

لهذا كلّه لا أخشى تهديداتكم، و لا أرهب كثرتكم و قوتكم، و لا تخيفنى وحدتى بيّن أيديكم، لأنى وضعت نفسى بين يدى المطلق ذى القدرة اللامتناهية، و المحيط علمه بكل شىء، و بأحوال عباده أينما كانوا و حلّوا.

إنّ هذا التعبير يستبطن فى طياته دعاء مهذبا انطلق من الرجل المؤمن الذى وقع أسيرا فى قبضة هؤلاء الأشقياء الظالمين. لذلك طلب بشكل مؤدب من خالقه (جلّ و علا) أن يحميه بحمايته و ينقذه ممّا هو فيه.

اللّه تبارك و تعالى لم يترك عبده المؤمن المجاهد وحيدا و إنّما: فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا.

إنّ التعبير ب سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا يفيد أنّهم وضعوا خططا مختلفة ضدّه ... ترى ما هى هذه الخطط؟

فى الواقع، إنّ القرآن لم يذكرها بل تركها مجهولة، لكنّها- حتما- لا تخرج عن ألوان العقاب و التعذيب ينزلونه بالرجل قبل أن يحل به القتل و الإعدام، إلّا أنّ اللطف الإلهى أبطل مفعولها جميعا و أنجاه منهم.

تفيد بعض التفاسير أنّ مؤمن آل فرعون انتهز فرصة مناسبة فالتحق بموسى عليه السّلام، و عبّر البحر مع بنى إسرائيل. و قيل أيضا: أنّه هرب إلى الجبل عند ما صدر عليه قرار الموت، و بقى هناك مختفيا عن الأنظار[۲۵۳].

و من الطبيعى أن لا يكون هناك تعارض بين الرأيين، إذ يمكن أن يكون قد هرب إلى الجبل أولا، ثمّ التحق ببنى إسرائيل.

و قد يكون من مؤامراتهم عليه، محاولتهم فرض عبادة الأصنام عليه و إخراجه من خط التوحيد، إلّا أن اللّه تبارك و تعالى أنجاه من مكرهم و رسخ قدمه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۲

فى طريق الإيمان و الهدى.

أمّا القوم الظالمون فقد كان مصيرهم ما يرسمه لنا القرآن الكريم: وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ ۲۵۴].

إنّ العذاب و العقاب الإلهى أليم بمجمله، إلّا أنّ تعبير «سوء العذاب» يظهر أنّ اللّه تبارك و تعالى انتخب لهم عذابا أشد إيلاما من غيره، و هو ما تشير إليه الآية التى بعدها، حيث قوله تعالى: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا[۲۵۵] ثم: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ

و هنا نلفت النظر إلى الملاحظات الثلاث الآتية:

أولا: استخدام تعبير (آل فرعون) إشارة إلى العائلة و الأنصار و الأصحاب الضالين، و عند ما يكون هذا هو مصير الآل، ترى ماذا يكون مصير نفس فرعون؟

ثانيا: تقول الآية: إنهم يعرضون على النّار صباحا و مساء، ثمّ تقول: فى يوم القيامة يكون العذاب أشد ما يمكن. و هذا دليل على أنّ العذاب الأوّل يختص بعالم البرزخ، و هو ممّا يلى موت الإنسان و مغادرة روحه جسده، و يقع قبل يوم القيامة ... إنّ العرض على نار جهنّم يهز الإنسان و يجعله يرتعد خوفا و هلعا.

ثالثا: إن تعبیر ب (الغدو) و (العشی) قد تکون فیه إشارة إلی استمرار العذاب.

أو قد یفید انقطاع العذاب البرزخی لیقتصر علی (الغدو) و (العشی) أی الصبح و المساء، و هو الوقت الذی یقترن فی حیاة الفراعنة و أصحابهم و مع أوقات لهوهم و استعراضهم لقوتهم و جبروتهم فی حیاتهم الدنیا.

و ینبغی أن لا نتعجب هنا من کلمتی (الغدو) و (العشی) فنسأل: و هل فی البرزخ ثمّة صباح و مساء؟ لأنّ الصبح و اللیل موجودان حتی فی یوم القیامة، کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۳

نقرأ فی قوله تعالی: وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِیها بُکْرَةً وَ عَشِیًّا[۲۵۶].

و هذا الأمر لا یتعارض مع دوام نعم الجنّة و استمرارها، کما جاء فی الآیة (۳۵) من سورة (الرعد) حیث قوله تعالی: أُکُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها حیث یمکن أن تشمل الألطاف الإلهیة أهل الجنّة فی خصوص هذین الوقتین، بینما تکون نعم الجنّة دائمة باقیة.

بحوث

أوّلا: مؤمن آل فرعون و الدرس العظیم فی مواجهة الطواغیت

إنّ القلیل من الناس یؤمنون بالأدیان الإلهیة و المذاهب السماویة فی بدایة الأمر و یقومون بتحدی الجبابرة و الطواغیت، و إذا توجست هذا القلّة المخلصة خوفا من أعدائها، أو أنّها شکت بأنّ کثرة دلیل علی حقانیتهم، فلن یکون بمقدور الأدیان الإلهیة أن تمتد و تنتشر فی الدنیا.

إنّ الأساس الذی یتحکم فی منطلق هذه البرامج الهادیة و الأطروحات الوضّاءة، هو

قول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «أیّها الناس، لا تستوحشوا فی طریق الهدی لقلّة أهله»[۲۵۷].

لقد کان مؤمن آل فرعون نموذجا لهذه المدرسة، و کان من الأوائل فی هذا الطریق، و أثبت أنّ الإنسان المؤمن یستطیع بعزمه و إرادته القویة- النابعة من إیمانه باللّه تعالی- التأثیر حتی فی إرادة الفراعنة الجبابرة؛ بل و أن یوفّر سبل النجاة لنبی کبیر من أنبیاء أولی العزم.

إنّ تأریخ حیاة هذا الرجل الشجاع الذکی، یثبت ضرورة أن تکون خطوات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۴

أهل الدعوة و الحق علی غایة قصوی من الدقة و الحذر، إذ یجب أحیانا التکتم علی الإیمان و إخفاء القناعات الحقة، کما یجب فی أحیان اخری الجهر بدعوة الحق و إظهار الإیمان.

إنّ التقیة لیست سوی إخفاء اعتقاد الإنسان و التکتم علیه فی فترة معینة فی سبیل الأهداف المقدّسة.

و کما یعتبر التسلّح بالسلاح المادی الظاهری من ضرورات المنعة و أسباب دحر العدو، کذلک فإنّ المنطق القوی و الحجّة البالغة هی سلاح ضروری قد یعادل فی تأثیره السلاح المادی عدة مرّات. لذا فإنّ العمل الذی قام به (مؤمن آل فرعون) بواسطة منطقة و قوة حجته و حکمة تصرفه لم یکن لیعادله أی سلاح آخر.

ثم إنّ قصة هذا الرجل المؤمن تظهر أنّ اللّه جلّ و علا لا یترک عباده المؤمنین وحیدین، بل یحمیهم بلطفه عن الأخطار.

و أخیرا فإن من الضروری أن نشیر إلی حیاة مؤمن آل فرعون انتهت کما فی بعض الروایات إلی الاستشهاد، و أنّ ما یقوله القرآن من حفظ اللّه له و وقایته له یمکن تأویله بإنقاذه من براثن خططهم الشیطانیة فی إغوائه و جرّه إلی ساحة الضلال و الشرک، و أنّ اللّه

أنجاه من سوء المنقلب و انحراف العقيدة[۲۵۸].

ثانيا: تفويض الأمور إلى اللّه

فيما يخص التفويض إلى اللّه تبارك و تعالى يكفى أن نفتتح الحديث
بقول لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، جاء فيه: «الإيمان له أربعة أركان: التوكل على اللّه، و تفويض الأمر إلى اللّه عزّ و جلّ و الرضى بقضاء اللّه، و التسليم لأمر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۵

اللّه»[۲۵۹].

و فى حديث آخر
عن الإمام الإمام الصادق أنّه عليه السّلام قال: «المفوض أمره إلى اللّه فى راحة الأبد، و العيش الدائم الرغد، و المفوض حقّا هو العالى عن كلّ همه دون اللّه»[۲۶۰].

«التفويض» كما يقول الراغب فى مفرداته، يعنى «التوكل، لذا فإنّ تفويض الأمر إلى اللّه يأتى بمعنى توكيل الأعمال إليه، و هذا لا يعنى أن يترك الإنسان الجد و الجهد، إذ أنّ هذا السلوك ينطوى على فهم محرّف لمعنى التفويض، بل عليه أن يبذل كلّ جهده و لا يتخوّف الصعاب التى تواجهه، أو يترك العمل إذعانا لها، بل عليه أن يسلّم أمره و عمله إلى اللّه، و يستمر فى بذل الجهد بعزم راسخ و همة عالية.

و بالرغم من أنّ «التفويض» يشبه «التوكل» إلى حد كبير، إلّا أنّه يعتبر مرحلة أفضل منه. لأنّ حقيقة (التوكل) هى أن يعتبر الإنسان اللّه تبارك و تعالى وكيلا عنه، لكن التفويض يعنى التسليم المطلق للّه تعالى. و فى حياتنا العملية نرى أنّ الإنسان الذى يتخذ لنفسه وكيلا يواصل إشرافه على عمله. إلّا أنّه فى حالة التفويض لا يبقى أى مجال لإشراف من أى نوع، بل تترك الأمور إلى من فوّضت إليه.

ثالثا: عالم البرزخ

«البرزخ»- كما يدل عليه اسمه- هو عالم يتوسط بين عالمنا هذا و العالم الآخر. و فى القرآن الكريم يكثر الحديث عن العالم الآخر، و لكنّه قليل عن عالم البرزخ. و لهذا السبب هناك هالة من الغموض و الإبهام تحيط بالبرزخ، و بالتالى لا نعرف الكثير من خصائصه و جزئياته، و لكن عدم معرفة التفاصيل الجزئية لا تؤثر على أصل الاعتقاد بالبرزخ الذى صرّح القرآن بأصل وجوده.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۶

إنّ الآيات أعلاه تعتبر من الآيات التى عبّرت بصراحة عن وجود هذا العالم، حينما قالت: إنّ آل فرعون يعرضون صباحا و مساء على النّار قبل القيامة، و ذلك كنوع من العقاب البرزخى لهم.

من جانب آخر، فإنّ الآيات التى تتحدث عن حياة الشهداء الخالدة بعد الموت، و الثواب العظيم الذى ينالهم، تدل هى الأخرى على وجود (البرزخ).

و
فى حديث عن رسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشى، إن كان من أهل الجنّة

فمن الجنّة، و إن کان من أهل النّار فمن النّار، یقال: هذا مقعدک حیث یبعثک اللّه یوم القیامة»[۲۶۱].

أما

الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فیقول عن البرزخ: «ذلک فی الدنیا قبل یوم القیامة لأنّ فی نار القیامة لا یکون غدو و عشی» ثمّ قال: «إن کانوا یعذبون فی النّار غدوا و عشیا ففیما بین ذلک هم من السعداء، لا و لکن هذا فی البرزخ قبل یوم القیامة، ألم تسمع قوله عزّ و جلّ: و یوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب»[۲۶۲].

الإمام علیه السّلام لم یقل بعدم وجود الصباح و السماء فی القیامة، بل یقول: إنّ نار جهنّم أبدیة خالدة لا تعرف الصباح و المساء. أمّا العقاب الذی له مواقیت فی الصباح و السماء فهو عالم البرزخ، ثمّ یدلل علیه السّلام علی الجملة التی بعدها و التی تتحدث عن القیامة، علی أنّها قرینة باختصاص الجملة السابقة بالبرزخ.

لقد تعرضنا إلی عالم البرزخ مفصلا أثناء الحدیث عن الآیة (۱۰۰) من سورة «المؤمنون».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۷

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۴۷ الی ۵۰]

اشارة

وَ إِذْ یَتَحاجُّونَ فِی النَّارِ فَیَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُنَّا لَکُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِیباً مِنَ النَّارِ (۴۷) قالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُلٌّ فِیها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ الْعِبادِ (۴۸) وَ قالَ الَّذِینَ فِی النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّکُمْ یُخَفِّفْ عَنَّا یَوْماً مِنَ الْعَذابِ (۴۹) قالُوا أَ وَ لَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُمْ بِالْبَیِّناتِ قالُوا بَلی قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْکافِرِینَ إِلاَّ فِی ضَلالٍ (۵۰)

التّفسیر

نقاش الضعفاء و المستکبرین فی جهنّم:

لقد لفت مؤمن آل فرعون فی نهایة کلامه نظر القوم إلی القیامة و العذاب و جهنم، لذلک جاءت هذه المجموعة من الآیات الکریمة و هی تقف بشکل رائع دقیق علی تحاجج و تخاصم أهل النّار فیما بینهم، و بالذات تحاجج المستضعفین مع المستکبرین.

یقول تعالی: وَ إِذْ یَتَحاجُّونَ فِی النَّارِ فَیَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُنَّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۸

لَکُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِیباً مِنَ النَّارِ[۲۶۳].

المراد من «الضعفاء» هنا هم أولئک الذین یفتقدون العلم الکافی و الاستقلال الفکری، إذ کان هؤلاء یتبعون زعماء الکفر الذی یطلق علیهم القرآن اسم المستکبرین، و کانت التبعیة مجرّد انقیاد أعمی بلا تفکیر أو وعی.

و لکن هؤلاء الأتباع یعلمون أنّ العذاب سیشمل زعماءهم و لا یستطیعون الدفاع عن أنفسهم، فلما ذا إذن یستغیثون بهم و یلجأون إلیهم کی یتحملوا عنهم قسطا من العذاب.

ذهب البعض إلی أنّ ذلک یحصل تبعا لعادتهم فی الانقیاد إلی زعمائهم فی هذه الدنیا، لذلک تکون استغاثتهم بهم فی الآخرة کنوع من الانقیاد اللّاإرادی وراء قادتهم.

و لکن الأفضل أن نقول: إن الإستغاثة هناک هی نوع من السخریة و الاستهزاء و اللوم، یوم یثبت أنّ کلّ ادعاءات المستکبرین مجرّد

تقولات زائفة عاریة عن المضمون و الحقیقة[۲۶۴].

(و فی الحقیقة فان الإمام أمیر المؤمنین- یحذر بهذا الکلام أولئک الذین سمعوا وصایا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فی یوم الغدیر- أو أنّها وصلتهم بطریق صحیح- ثمّ اعتذروا بأنّهم نسوها لیتبعوا أناسا آخرین).

إنّ المستکبرین لم یسکتوا علی هذا الکلام و ذکروا جوابا یدل علی ضعفهم الکامل و ذلتهم فی ذلک الموقف المهول، إذ یحکی القرآن علی لسان قولهم: قالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُلٌّ فِیها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ الْعِبادِ.

یریدون أن یقولوا: لو کان بمستطاعنا حل مشاکلکم فالأحری بنا و الأجدر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۹

أن نحل مشاکلنا و ما حلّ بنا، و لکنا لا نستطیع أن نمنع العذاب عن أنفسنا و لا عنکم، و لا أن نحتمل عنکم جزاء من العقاب! و الملاحظ هنا أنّ الآیة (۲۱) من سورة «إبراهیم» تتضمن نفس هذا الاقتراح من قبل الضعفاء إزاء المستکبرین، الذین قالوا جوابا علی هذا: لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَیْناکُمْ سَواءٌ عَلَیْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِیصٍ

و المقصود بالهدایة هنا هی الهدایة الی طریق الخلاص من العذاب.

و هکذا یظهر أنّ هذین الجوابین لا یتعارضان فیما بینهما، بل یکمل أحدهما الآخر.

و عند ما تغلق فی وجههم السبل، سبل النجاة و الخلاص، یتوجه الجمیع إلی خزنة النّار: وَ قالَ الَّذِینَ فِی النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّکُمْ یُخَفِّفْ عَنَّا یَوْماً مِنَ الْعَذابِ ۲۶۵].

إنهم یعلمون أنّ العذاب الإلهی لا- یرتفع، لذلک یطلبون أن یتوقف عنهم و لو لیوم واحد کی یرتاحوا قلیلا- ... إنّهم قانعون بهذا المقدار! لکن إجابة الخزنة تأتی منطقیة واضحة: قالُوا أَ وَ لَمْ تَکُ تَأْتِیکُمْ رُسُلُکُمْ بِالْبَیِّناتِ

و فی الجواب قالوا: قالُوا بَلی

فیستطرد الخزنة: قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْکافِرِینَ إِلَّا فِی ضَلالٍ

إنّکم بأنفسکم اعترفتم بأنّ الأنبیاء و الرسل جاءوا بالدلائل الواضحة، و لکنّکم کفرتم بما جاءکم و کذبتم الأنبیاء. لذلک لا ینفعکم الدعاء، لأنّ اللّه لا یستجیب لدعاء الکافرین.

بعض المفسّرین یری فی تفسیر الجملة الاخیرة أنّ المراد هو أنّنا لا نستطیع الدعاء لکم بدون اذن من اللّه تعالی، فادعوا أنتم بذلک، و ذلک اشارة الی انغلاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۰

سبل النجاة أمامکم.

صحیح أنّ الکافر یصبح مؤمنا فی یوم القیامة، إلّا أنّ هذا الإیمان لا یقلل من آثار کفره، لذلک یلازمه لقب الکافر.

لکن یبدو أنّ التّفسیر الأوّل أفضل و أکثر قبولا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۱

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۵۱ الی ۵۵]

اشارة

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ (۵۱) یَوْمَ لا یَنْفَعُ الظَّالِمِینَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۵۲) وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْهُدی وَ أَوْرَثْنا بَنِی إِسْرائِیلَ الْکِتابَ (۵۳) هُدیً وَ ذِکْری لِأُولِی الْأَلْبابِ (۵۴) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ

لِذَنْبِکَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکارِ (۵۵)

التّفسیر

الوعد بنصر المؤمنین:

بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن تحاجج أهل النّار و عجزهم عن أن ینصر أحدهم الآخر، و بعد أن تحدثت الآیات التی سبقتها عن مؤمن آل فرعون و حمایة اللّه له من کید فرعون و آل فرعون، عادت هذه المجموعة من الآیات البینات تتحدث عن شمول الحمایة و النصر الإلهی لأنبیاء اللّه و رسله و للذین آمنوا، فی هذه الدنیا و فی الآخرة.

إنّها تتحدث عن قانون عام تنطق بمضمونه الآیة الکریمة: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۲

وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ.

إنّها الحمایة المؤکّدة بأنواع التأکید، و التی لا ترتبط بقید أو شرط، و التی یستتبعها الفوز و النصر، النصر فی المنطق و البیان، و فی الحرب و المیدان، و فی إرسال العذاب الإلهی علی القوم الظالمین، و فی الإمداد الغیبی الذی یقوی القلوب و یشد الأرواح و یجذبها إلی بارئها جلّ و علا.

إنّ الآیة تواجهنا باسم جدید لیوم القیامة هو: یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ.

«أشهاد» جمع «شاهد» أو «شهید» (مثل ما أنّ أصحاب جمع صاحب، و أشراف جمع شریف) و هی تعنی الذی یشهد علی شیء ما.

لقد ذکرت مجموعة من الآراء حول المقصود بالأشهاد، نستطیع اجمالها بما یلی:

۱- الأشهاد هم الملائکة الذین یراقبون أعمال الإنسان.

۲- هم الأنبیاء الذین یشهدون علی الأمم.

۳- هم الملائکة و الأنبیاء و المؤمنون الذین یشهدون علی أعمال الناس.

أمّا احتمال أن تدخل أعضاء الإنسان ضمن هذا المعنی، فهو أمر غیر وارد، بالرغم من شمولیة مصطلح «الأشهاد» لأنّ تعبیر یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ لا یتناسب و هذا الاحتمال.

إنّ التعبیر یشیر إلی معنی لطیف، حیث یرید أن یقول أنّ: یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ الذی تنبسط فیه الأمور فی محضر اللّه تبارک و تعالی، و تنکشف السرائر و الأسرار لکافة الخلائق، هو یوم تکون الفضیحة فیه أفظع ما تکون، و یکون الإنتصار فیه أروع ما یکون ... إنّه الیوم الذی ینصر اللّه فیه الأنبیاء و المؤمنین و یزید فی کرامتهم.

إنّ یوم الأشهاد یوم افتضاح الکافرین و سوء عاقبة الظالمین، هو: یَوْمَ لا یَنْفَعُ الظَّالِمِینَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۳

فمن جهة هو یوم لا تنفع المعذرة فیه، و لا یحول شیء دون افتضاح الظالمین أمام الأشهاد.

و من جهة اخری هو یوم تشمل اللعنة الإلهیة فیه الظالمین، و اللعنة هنا البعد عن الرحمة.

و من جهة ثالثة هو یوم ینزل فیه العذاب الجسمانی علی الظالمین، و یوضعون فی أسوأ مکان من نار جهنم.

سؤال:

إنّ الآیـة تفتـح المجال واسـعا للسؤال التالی،: إذا کان اللّه (تبارک و تعالی) قد وعد حتما بانتصار الأنبیاء و المؤمنین، فلما ذا نشاهد،- علی طول التأریـخ- مقتل مجموعـة من الأنبیاء و المؤمنین علی أیـدی الکفار؟ و لماذا ینزل بهم الضـیق و الشدة من قبل أعداء اللّه، ثمّ لماذا تلحق بهم الهزیمة العسکریة؟ و هل یکون ذلک نقضا للوعد الإلهی الذی تتحدث عنه الآیة الکریمة؟

الجواب علی کلّ هذه الأسئلة المتشعبة یتضح من خلال ملاحظة واحدة هی:

إن أکثر الناس ضـحیة المقاییس المحـدودة فی تقییم مفهوم النصـر، إذ یعتبرون الإنتصار یتمثل فقط فی قدرة الإنسان علی دحر عدوه، أو السـیطرة علی الحکم لفترة وجیزة! إنّ مثـل هؤلاء لا یرون أی اعتبار لانتصار الهـدف و تقـدم الغایـة، أو تفوق و انتشار المـذهب و الفکرة، هؤلاء لا ینظرون إلی قیمة المجاهد الشـهید الذی یتحول إلی نموذج و قدوة فی حیاة الناس و علی مدی الأجیال. و لا ینظرون إلی القیمة الکبری التی یستبطنها مفهوم العزة و الکرامة و الرفعة التی ینادی بها أحرار البشر و القرب من اللّه تعالی و نیل رضاه.

و بدیهی إنّ الانحباس فی إطار هذا التقییم المحدود یجعل من العسیر الجواب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۴

علی ذلک الاشـکال، أما الانطلاق إلی أفق المعانی الواسـعة الوضّاءة لمفهوم النصـر الإلهی و الأخـذ بنظر الاعتبار القیم الواقعیة للنصـر سیؤدی بنا الی معرفة المعنی العمیق للآیة.

ثمّـة کلاـم لطیف لسیّد قطب فی تفسـیره «فی ظلاـل القرآن» ینـاسب هـذا المقام، إذ یورد فیه ذکری بطل کربلاء الإمام الحسـین علیه السّـلام کمثال علی المعنی الواسع لمفهوم النصـر فیقول: «... و الحسـین- رضوان اللّه علیه و هو یستشـهد فی تلک الصورة العظیمة من جـانب، المفجعـة من جـانب، أ کـانت هـذه نصـرا أم هزیمـة؟ فی الصورة الظـاهرة و بالمقیاس الصـغیر کانت هزیمـة. فأمّا فی الحقیقة الخالصـة و بالمقیاس الکبیر فقـد کانت نصـرا. فما من شـهید فی الأرض تهتز له الجوانح بالحب و العطف و تهفوا له القلوب و تجیش بالغیر و الفداء کالحسین رضوان اللّه علیه، یستوی فی هذا المتشیعون و غیر المتشیعین من المسلمین و کثیر من غیر المسلمین»[۲۶۶].

و ینبغی أن نضـیف إلی هـذا الکلاـم أن شـیعة أهل البیت علیهم السـلام یشاهـدون کل یوم بأعینهم آثار الخیر من حیاة سیّد الشـهداء الإمام أبی عبد اللّه الحسـین علیه السّـلام و یلمسون آثار استشـهاده و استشـهاد صحبه البررة من أهل بیته و أصحابه؛ إن مجالس العزاء التی تقام للحـدیث عن مناقب الحسـین و صـحبه الکرام هی ینبوع الخیر لحرکة عظیمة ثرّة ما زال عطاؤها لم و لن ینضب! لقد شاهدنا بأعیننا و من خلال النموذج الثوری الـذی شـهدته أرض إیران المسـلمة، کیف اسـتطاع الملایین من أبناء الإسـلام أن یتحرکوا فی أیّام عاشوراء للقضاء علی الظلم و الطغیان و الاستکبار.

لقـد شاهـدنا بأعیننا کیف اسـتطاع هـذا الجیل المضـحی الـذی تربی فی مدرسـة أبی الشـهداء الحسـین علیه السّـلام و تغذی ممّا تدره مجالس عزائه، أن یحطّم بأید خالیة عرش أقوی السلاطین الجبّارین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۵

نعم، لقـد شاهدنا دم الحسین الشـهید و قد سری فی العروق عزة و حرکة و انتفاضة، و غیرت الحسابات السیاسـیة و العسکریة للدول الکبری.

بعـد کلّ ذلک، و مع کلّ العطاء الثر الهادی الـذی اسـتمدته کلّ الأجیال- خلال التأریخ- من ذکری الطف و سـیّد الشـهداء، ألا یعتبر الحسین علیه السّلام منتصرا حتی باتت آثار نصره الظافر حاضرة فینا بالرغم من مرور أکثر من ثلاثة عشر قرنا علی استشهاده!؟

سؤال آخر

ثمـة سؤال آخر یتبلور من المقابلـة بین الآیـة التی بین أیـدینا و الآیة (۳۶) من سورة «المرسـلات» إذ نقرأ الآیـة التی نحن بصـددها أنّ

اعتذار الظالمين لا يؤثر و لا ينفعهم يوم القيامة، فيما تنص الآية من سورة المرسلات على أنّه لا يسمح لهم بالاعتذار أصلا، حيث قوله تعالى: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ فكيف يا ترى نوفّق بين الإثنين؟

قبل الإجابة ينبغى الانتباه إلى ملاحظتين:

الأولى: أنّ ليوم القيامة مواقف معينة تختلف شرائطها، ففى بعضها يتوقف اللسان عن العمل و تنطق الأرجل و الأيدى و الجوارح، و تقوم بالشهادة على عمل الإنسان. و فى مواقف اخرى ينطلق اللسان بالنطق و الكلام (كما تحكى ذلك الآية ۶۵ من سورة «يس» و الآيات السابقة فى هذه السورة التى تحدث عن تحاجج أهل النّار).

بناء على هذا، فلا مانع من عدم السماح لهم بالاعتذار فى بعض المواقف، فى حين يسمح لهم فى مواقف اخرى، و إن كان الاعتذار لا يجدى شيئا و لا يغير من المصير.

الملاحظة الثانية: إنّ الإنسان يتحدث فى بعض الأحيان بكلام لا فائدة منه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۶

ففى مثل هذه الموارد يكون الشخص كمن لم يتكلّم أصلا. بناء على هذا يمكن أن تكون الآية الدالة على عدم السماح لهم بالاعتذار تقع وفق هذا المعنى، أى أنّ اعتذارهم برغم خروجه من أفواههم، إلّا أنّه لا فائدة ترجى منه.

تنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك للحديث عن أحد الموارد التى انتصر فيها الرسل نتيجة الحماية الإلهية و الدعم الربّانى لهم، فتتحدث عن النّبى الكليم عليه السّلام:

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ

إنّ هداية اللّه لموسى تنطوى على معانى واسعة إذ تشمل مقام النبوة و الوحى، و الكتاب السماوى (التوراة) و المعاجز التى وقعت على يديه عليه السّلام أثناء تنفيذه لرسالات ربّه و تبليغه إيّاها.

إن استخدام كلمة «ميراث» بالنسبة إلى التوراة يعود إلى أنّ بنى إسرائيل توارثوه جيلا بعد جيل، و كان بإمكانهم الاستفادة منه بدون مشقة، تماما مثل الميراث الذى يصل إلى الإنسان بدون عناء و تعب، و لكنّهم فرّطوا بهذا الميراث الإلهى الكبير.

الآية التى بعدها تضيف: هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ ۲۶۷].

الفرق بين «الهداية» و «الذكرى» أنّ الهداية تكون فى مطلع العمل و بدايته، أما التذكير فهو يشمل تنبيه الإنسان بأمور سمعها مسبقا و آمن بها لكنّه نسيها.

و بعبارة اخرى: إنّ الكتب السماوية تعتبر مشاعل هداية و نور فى بداية انطلاقة الإنسان، و ترافقه فى أشواط حياته تبث من نورها و هداها عليه.

و لكن الذى يستفيد من مشاعل الهدى هذه هم «أولو الألباب» و أصحاب العقل، و ليس الجهلة و المعاندون المتعصبون.

الآية الاخيرة- من المقطع الذى بين أيدينا- تنطوى على وصايا و تعليمات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۷

مهمّة للرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هى فى واقعها تعليمات عامة للجميع، بالرغم من أنّ المخاطب بها هو شخص الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

يقول تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

عليك أن تصبر على عناد القوم و لجاجة الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء و المعارف، و تتحمل أحيانا أذاهم و تخاذلهم.

و عليك أيضا أن تصبر إزاء العواطف النفسية.

إنّ سر انتصارک فی جمیع الأمور یقوم علی أساس الصبر و الاستقامة.

ثم اعلم أنّ وعد اللّه بنصرک و أمتک لا یمکن التخلف عنه، و إیمانک- و إیمانهم- بحقانیة الوعد الإلهی یجعلک مطمئنا و مستقیما فی عملک، فتهون الصعاب علیک و علی المؤمنین.

لقد أمر اللّه تعالی رسوله مرّات عدیدة بالصبر، و الأمر بالصبر جاء مطلقا فی بعض الموارد، کما فی الآیة التی بصددها، و جاء مقیدا فی موارد اخری و یختص بأمر معین، کما فی الآیتین (۳۹- ۴۰) من سورة «ق»: فَاصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ

و کذلک یخاطبه تعالی فی الآیة (۲۸) من سورة الکهف بقوله تعالی: وَ اصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِیِّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَیْناکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَةَ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ کانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

إنّ جمیع انتصارات الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و المسلمین الأوائل إنّما تمّت بفضل الصبر و الاستقامة و الیوم لا بدّ أن نسیر علی خطی رسول اللّه، و نصبر کما صبر الرّسول و أصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الفقرة الأخری من التعلیمات الربانیة تقول: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ

واضح أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم معصوم لم یرتکب ذنبا و لا معصیة، لکنّا قد أشرنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۸

فی غیر هذا المکان إلی أنّ أمثال هذه التعابیر فی القرآن الکریم، و التی تشمل فی خطابها الرّسول الأکرم و سائر الأنبیاء، إنّما تشمل ما نستطیع تسمیته ب «الذنوب النسبیة» لأنّ من الأعمال ما هو عبادة و حسنة بالنسبة للناس العادیین، بینما هی ذنب للرسل و الأنبیاء لأنّ: (حسنات الأبرار سیئات المقربین).

فالغفلة- مثلا- لا- تلیق بمقامهم، و لو لحظة واحدة. و کذلک الحال بالنسبة لترک الأولی، إذ أن منزلتهم الرفیعة و معرفتهم العالیة تتوجب أن یحذروا هذه الأمور و یستغفروا منها متی ما صدرت عنهم.

و ما ذهب إلیه البعض من أنّ المقصود بالذنوب هی ذنوب المجتمع، أو ذنوب الآخرین التی ارتکبوها بشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أو أنّ الاستغفار تعبدی فهو بعید.

الفقرة الأخیرة فی الآیة الکریمة تقول: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکارِ.

«العشی» فترة ما بعد الظهر إلی قبل غروب الشمس، أما «الإبکار» فهو ما بین الطلوعین.

و یمکن أن تطلق لفظتا (العشی و الإبکار) علی الوقت المعیّن بالعصر و الصباح، حیث یکون الإنسان مهیأ للحمد و تسبیح خالقه تبارک و تعالی بسبب عدم شروعه بعد بعمله الیومی، أو أنّه قد انتهی منه.

و قد اعتبر البعض أنّ هذا الحمد و التسبیح إشارة إلی صلاة الصبح و العصر، أو الصلوات الیومیة الخمس، فی حین أنّ ظاهر الآیة ینطوی علی مفهوم أوسع من ذلک الصلوات هی إحدی مصادیقها.

فی کلّ الأحوال تعتبر التعلیمات الثلاث الآنفة الذکر شاملة بناء الإنسان و إعداده للرقی فی ظل اللطف و الرعایة الإلهیة، و هی إلی ذلک زاده فی سیره للوصول نحو الأهداف الکبیرة.

فهناک أولا- و قبل کلّ شیء- التحمّل و الصبر علی الشدائد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۹

و الصعوبات، ثمّ تطهیر النفس من آثار الذنوب. و أخیرا تکلیل کلّ ذلک بذکر اللّه، حیث تسبیحه و حمده یعنی تنزیهه من کلّ عیب و نقص، و حمده فوق کلّ حسن و کمال.

إنّ الحمد و التسبیح الذی یکون للّه تعالی یؤثر فی قلب الإنسان و یطهره من جمیع العیوب، و من سیئات الغفلة و اللهو، و یجعله یتصف بالیقظة و الکمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۰

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۵۶ الی ۵۹]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِی صُدُورِهِمْ إِلاَّ کِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِیهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ (۵۶) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَکْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۵۷) وَ ما یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لا الْمُسِیءُ قَلِیلًا ما تَتَذَکَّرُونَ (۵۸) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِیَةٌ لا رَیْبَ فِیها وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یُؤْمِنُونَ (۵۹)

التّفسیر

ما یستوی الأعمی و البصیر!

دعت الآیات السابقة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلی الصبر و الاستقامة أمام المعارضین و أکاذیبهم و مخططاتهم الشیطانیة، و الآیات التی نحن بصددها تذکر سبب مجادلتهم للحق.

یقول تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۱

صُدُورِهِمْ إِلَّا کِبْرٌ.

«المجادلة»- کما أشرنا سابقا- تعنی العناد فی الکلام و إطالته بأحادیث غیر منطقیة، و إن کانت تشمل أحیانا فی معناها الواسع الحق و الباطل.

أما قوله تعالی: بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ فهی للتأکید علی ما یستفاد من معنی المجادلة حیث تعنی «سلطان» الدلیل و البرهان الذی یکون سببا لهیمنة الإنسان علی خصمه.

أما «آتاهم» فهی إشارة إلی الأدلة و البراهین التی أوحی اللّه بها إلی أنبیائه علیهم السلام، و لا ریب أنّ الوحی هو أفضل الطرق و أکثرها اطمئنانا لإثبات الحقائق.

أما المقصود ب «آیات اللّه» التی کانوا یجادلون فیها، فهی معجزات و آیات القرآن و الأحادیث المختصة بالمبدأ و المعاد، حیث کانوا یعتبرونها سحرا، أو أنّها علامات الجنون، أو أساطیر الأولین! من ذلک یتبیّن أن لیس لهؤلاء من دلیل حی و منطقی فی المجادلة سوی التعالی و الغرور و التکبر عن الانصیاع إلی الحق، لذلک کانوا یرون أنّ أفکار الآخرین و عقائدهم باطلة و أن عقائدهم و أفکارهم حقّة! تشیر کلمة (إن) إلی أنّ السبب الوحید لعنادهم فی هذه الموارد هو الغرور و التکبر، و إلّا کیف یصرّ الإنسان علی کلامه و موقفه دون دلیل أو برهان.

«الصدور» تشیر هنا إلی القلوب، و المقصود بالقلب هو الفکر و الروح، حیث ورد هذا المعنی مرّات عدّة فی آیات الکتاب المبین.

أمّا کلمة (کبر) فی الآیة فقد فسّرها بعض المفسّرین بالحسد.

و بذلک اعتبر هؤلاء أن سبب مجادلتهم لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هو حسدهم له و لمنزلته و مقامه المعنوی الظاهری.

لکن «کبر» لا تعنی فی اللغة المعنی الآنف الذکر، لکنّه یمکن أن یلازمها، لأنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۲

من يتكبّر يحسد، إذ لا يرى المتكبّر المواهب إلّا لنفسه، و يتألم إذا انصرفت لغيره حسدا منه و جهلا.

ثم تضيف الآية: ما هُمْ بِبالِغِيهِ

إنّ هدفهم أن يروا أنفسهم كبارا، يفاخرون بذلك و يفتخرون على غيرهم، لكنّهم لن يحصدوا سوى الذلة و الخسران، و لن يصلوا بطريق التكبر و الغرور و العلو و المجادلة بالباطل إلى ما يبتغونه ۲۶۸].

فی نهاية الآية تعليمات قيمة لرسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم بأن يستعيذ باللّه من شر هؤلاء المتكبرين المغرورين الذين لا منطق لهم، حيث يقول تعالى: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

فهو- تعالى- يسمع أحاديثهم الباطلة الواهية، و ينظر إلى مؤامراتهم و أعمالهم القبيحة و خططهم الشريرة.

و الاستعاذة باللّه لا تنبغی لرسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم وحده و حسب، و إنّما تجب على كل السائرين فی طريق الحق عند ما تتعاظم الحوادث و يستعر الصدام مع المتكبرين عدمی المنطق! لذلك نرى استعاذة يوسف عليه السّلام عند ما تواجهه العاصفة الشديدة المتمثلة بشهوة «زليخا» يقول: مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوایَ فكيف أخون عزيز مصر الذی أكرمنی و أحسن وفادتی.

و فی آيات سابقة من نفس هذه السورة نقرأ أنّ كليم اللّه موسى عليه السّلام قال:

إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ ۲۶۹].

إنّ قضية المعاد و عودة الروح للإنسان بعد موته، تعتبر من أكثر القضايا التی يجادل فيها الكفار، و يعاندون بها رسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم لذلك تنتقل الآية التالية إلى التذكير بهذه القضية، و إعادة طرحها وفق منطق قرآنی آخر، إذ يقول تعالى: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

إنّ خالق هذه المجرّات العظيمة و مدبّرها يستطيع- بصورة أولى- أن يحيی الموتى، و إلّا كيف يتسق القول بخلقه السماوات و الأرض و عجزه من إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت؟

إنّ هذا المنطق يعبّر عن جهل هؤلاء الذين لا يستطيعون إدراك هذه الحقائق الكبرى! أغلب المفسّرين اعتبر هذه الآية ردّا على مجادلة المشركين بشأن قضية المعاد، بينما احتمل البعض أنّها رد على كبر المتكبرين و المغرورين الذين كانوا يتصورون أن ذواتهم و أفكارهم عظيمة غير قابلة للردّ أو النقض، فی حين آنها تافهة بالقياس إلى عظمة عالم الوجود[۲۷۰].

هذا المعنى غير مستبعد، و لكن إذا أخذنا بنظر الإعتبار الآيات التی بعدها يكون المعنى الأوّل أفضل.

لقد تضمنت الآية الكريمة سببا آخر من أسباب المجادلة متمثلا ب «الجهل» فی حين طرحت الآيات السابقة عامل «الكبر». و العاملان يرتبطان مع بعضهما، لأن أصل و أساس «الكبر» هو «الجهل» و عدم معرفة الإنسان لحدوده و قدره، و لعدم تقديره لحجم علمه و معرفته.

الآية التی بعدها، و فی إطار مقارنة واضحة تكشف عن الفرق بين حال

المتكبرين الجهلة إزاء المؤمنين الواعين، حيث يقول: وَ ما يَسْتَوِی الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لَا الْمُسِیءُ[۲۷۱].

إلّا أنكم بسبب جهلكم و تكبركم: قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ ۲۷۲].

إنّ المبصرين يرون صغر أنفسهم إزاء عظمة العالم المحيط بهم، و بذلك فهم يعرفون قدر أنفسهم و معرفتهم و موقعهم، إلّا أنّ الأعمى لا يدرك موقعه أو حجمه فی الزمان و المكان و فی عموم الوجود المحيط به. لذلك فهو يخطئ دائما فی تقييم أبعاد وجوده، و يصاب بالكبر و الغرور و الوهم الذی يدفعه إلى ما هو قبيح و سيّئ.

و نستفيد أيضا من خلال ارتباط الجملتين ببعضهما البعض أنّ الإيمان و العمل الصالح ينوّر بصائر القلب و الفكر بنور المعرفة و التواضع و الاستقرار، بعكس الكفر و العمل الطالح الذى يجعل الإنسان أعمى فاقدا لبصيرته، مشوّها فى رؤيته للأشياء و المقاييس.

الآية الأخيرة فى المجموعة القرآنية التى بين أيدينا تتعرض إلى وقوع القيامة و قيام الساعة حيث يقول تعالى: إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ

«إن» و «اللام» فى (لاتية) و جملة (لا ريب فيها) كلها للتأكيد المكرّر الذى يستهدف تأكيد المضمون و المعنى المراد، و هو قيام القيامة.

لقد عالجت الرؤية القرآنية قضية القيامة فى أكثر من مكان و مورد، بمختلف الأدلة و وسائل الإقناع، ذلك نرى بعض الآيات تذكر قيام الساعة و القيامة بدون مقدمات أو دليل، مكتفية بما ورد من أدلة و مقدمات فى أماكن اخرى من الكتاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۵

المبين.

«الساعة» كما يقول «الراغب» فى «المفردات» هى بمعنى: أجزاء من أجزاء الزمان.

إنّ الإشارة التى يطويها هذا الاستخدام لكلمة (الساعة) يشير إلى السرعة الّتى يتم فيها محاسبة الناس هناك.

لقد استخدمت الكلمة عشرات المرّات فى القرآن الكريم، لتدل بشكل عام على المعنى الآنف الذكر، لكنّها نعنى فى بعض الأحيان نفس القيامة، فيما تعنى فى أحيان اخرى الإشارة إلى انتهاء العالم و مقدمات البعث و النشور. و بسبب من الارتباط القائم بين الحدثين و القضيتين، و أنّ كلاهما يحدث بشكل مفاجئ، لذا تمّ استخدام كلمة «الساعة». (يمكن للقارىء الكريم أن يعود إلى بحث مفصل حول «الساعة» فى تفسير سورة الروم).

أما سبب القول: ب وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ فلا يعود إلى أن قيام القيامة من القضايا المجهولة و المبهمة، بل ثمّة ميل فى الإنسان نحو «الحرية» فى الاستفادة غير المشروطة أو المقيدة من ملذات الدنيا و شهواتها، بالإضافة إلى الأمل الطويل العريض الذى يلازم الإنسان فينساق مع الحياة، و يغفل عن التفكير بالقيامة، أو الاستعداد لها.

ملاحظة

اليهود المغرورون:

لقد ذكر بعض المفسّرين فى سبب نزول الآية الأولى- من مجموعة الآيات التى بين أيدينا- بحثا مفاده أن اليهود كانوا يقولون: سيخرج المسيح الدجال فنعينه على محمّد و أصحابه و نستريح منهم، و نعيد الملك إلينا (مجمع البيان- الجزء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۶

الثامن- صفحة (۸۲۲) طبعة دار المعرفة).

يمكن أن يشمل هذا السبب فيما يتضمّن من ادعاءات اليهود معنيين: الأول:

أنّهم أرادوا أن ينتصر المسيح على الدّجال، من خلال ادعائهم أنّ «المسيح المنتظر» هو منهم و تطبيق الدجّال، و العياذ باللّه، على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

أو أنّهم كانوا حقا فى انتظار الدجّال الذى كانوا يعتبرونه من أنفسهم.

ذلك أنّ المسيح و كما ذكر «الراغب» فى «المفردات» و ابن منظور فى «لسان العرب» تطلق على «عيسى» عليه السّلام بسبب سيره و

سیاحته فی الأرض، أو بسبب شفائه للمرضی بأمر اللّه عند ما کان یمسح بیده علیهم. و کانت تطلق أیضا علی «الدجال» لأنّ الدجال له عین واحدة، بینما کان مکان العین الأخری ممسوحا.

و یحتمل أن یکون الیهود ینتظرون خروج الدجال لیتعاونوا معه فی دحر المسلمین الذین هزموهم مرات عدیدة ممّا أثار غضبهم علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

و قد یکونوا فی انتظار المسیح، کما یستفاد من قاموس الکتاب المقدس حیث یظهر أنّ المسیحیین و الیهود ینتظرون خروج المسیح، لأنّهم یعتقدون بأنّ المسیح سیحارب الدجال و یقضی علیه. لذلک أرادوا تطبیق هذا المعنی علی ظهور الإسلام.

و قد استنتج بعض المفسّرین من سبب نزول هذه الآیة علی أنّها مدنیة دون غیرها من آیات السورة المکیة. و لکن عدم ثبوت سبب النّزول، کما أن عدم وضوح مفاد الآیة و إبهامها تستوجب ضعف هذا الاستنتاج.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۷

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۶۰ الی ۶۳]

اشارة

وَ قالَ رَبُّکُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِینَ (۶۰) اللَّهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَشْکُرُونَ (۶۱) ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ (۶۲) کَذلِکَ یُؤْفَکُ الَّذِینَ کانُوا بِآیاتِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ (۶۳)

التّفسیر

ادعونی أستجب لکم:

لقد تضمنت الآیات السابقة ألوان الوعید و التهدید لغیر المؤمنین من المتکبرین و المغرورین، المجموعة التی بین أیدینا من الآیات الکریمة تفیض حبّا إلیها و لطفا، و تنتجس بالرحمة الشاملة للتائبین.

یقول تعالی أولا: وَ قالَ رَبُّکُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ

لقد فسّر الکثیر من المفسّرین «الدعاء» بمعناه المعروف، و ما یؤکّد ذلک هو جملة «استجب لکم» بالإضافة إلی ما تفیده الروایات العدیدة الواردة بخصوص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۸

هذه الآیة و ثواب الدعاء، و التی سنشیر إلی بعض منها فیما بعد.

و لکن بعض المفسّرین تبع (ابن عباس) فی رأیه بأن الدعاء هنا بمعنی التوحید و عبادة الخالق جلّ و علا، أی «اعبدونی و اعترفوا بوحدانیتی» إلّا أنّ التّفسیر الأوّل هو الأظهر.

و نستفید من الآیة أعلاه مجموعة ملاحظات هی:

۱- أنّ اللّه یحب الدعاء و یریده و یأمر به.

۲- لقد وعد اللّه بإجابة الدعاء، لکن هذا الوعد مشروط و لیس مطلقا. فالدعاء واجب الإجابة هو ما اجتمعت فیه الشروط اللازمة للدعاء و الداعی و موضوع الدعاء.

و فى هذا الإطار شرحنا ما يتعلق بهذا الموضوع فى تفسير الآية (۱۸۶) من سورة البقرة.

۳- الدعاء فى نفسه نوع من العبادة، لأنّ الآية أطلقت فى نهايتها صفة العبادة على الدعاء.

تتضمّن الآية فى نهايتها تهديدا قويا للذين يستنكفون عن الدعاء، حث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ ۲۷۳].

أهمية الدعاء و شروط الاستجابة

ثمّة تأكيد كبير على أهمية الدعاء فى الروايات المنقولة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام:

-۱

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه قال: «الدعاء هو العبادة»[۲۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۹

-۲

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه سئل: ما تقول فى رجلين دخلا المسجد جميعا، كان أحدهما أكثر صلاة، و الآخر دعاء فأيهما أفضل؟ قال «كلّ حسن».

لكن السائل عاد و سأل الإمام عليه السّلام: قد علمت، و لكن أيهما أفضل؟ أجاب الإمام عليه السّلام:

«أكثرهما دعاء، أما تسمع قول اللّه تعالى: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ ثمّ أضاف بعد ذلك: «هى العبادة الكبرى»[۲۷۵].

-۳

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه أجاب عن أفضل العبادات بقوله: «ما من شىء أفضل عند اللّه من أن يسأل و يطلب ممّا عنده، و ما أحد أبغض إلى اللّه عزّ و جلّ ممن يستكبر عن عبادته، و لا يسأل ما عنده»[۲۷۶].

-۴

فى حديث آخر عن الإمام جعفر الصادق أنّه عليه السّلام قال: «إنّ عند اللّه عزّ و جلّ منزلة لا تنال إلّا بمسألة، و لو أنّ عبدا سدّ فاه و لم يسأل لم يعط شيئاه فاسأل تعط، إنّه ليس من باب يقرع إلا يوشك أن يفتح لصاحبه»[۲۷۷].

۵- لقد ورد فى بعض الرّوايات أنّ الدعاء أفضل حتى من تلاوة القرآن، كما أشار إلى ذلك الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و حفيداه من أئمة المسلمين الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام، حيث قالوا:

«الدعاء أفضل من قراءة القرآن»[۲۷۸].

و فى نطاق تحليل قصير نستطيع أن ندرك عمق مفاد هذه الأحاديث، فالدعاء يقول الإنسان من جانب إلى معرفة اللّه تبارك و تعالى، و هذه المعرفة هى أفضل رصيد للإنسان فى وجوده.

و من جانب آخر يدفع الدعاء الإنسان إلى الإحساس العميق بالفقر و الخضوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۰

تجاه خالقه جلّ و علا و يبعده عن التعالى و الغرور اللذين يعدّان الأرضيه المناسبة للمجادلة فى آيات اللّه و الانحراف عن جادة الصواب و الوقوع فى المهالك.

من جانب ثالث يعمق الدعاء لدى الإنسان الشعور بأنّه جلّ و علا منبع النعم و مصدره و يدفعه إلى العشق و الارتباط العاطفى مع اللّه

جلّ جلاله.

و من جانب رابع یشعر الإنسان بالحاجة الی اللّه تعالی و انه رهین نعمته، و لذلک فهو موظف بطاعته و تنفیذ أوامره، و یرهف إحساسه بالعبودیة للّه تعالی.

و خامس بما أنّه یعلم أنّه للإجابة شروطها، و من شروطها خلوص النیة، و صفاء القلب، و التوبة من الذنوب، و قضاء حوائج المحتاجین، و السعی فی مسائل الناس من الأقرباء و الأصدقاء و غیرهم، فلذلک یهتم ببناء الذات و إصلاح النفس و تربیتها.

و سادس یرکّز الدعاء فی نفس الإنسان الداعی عوامل المنعة و الإرادة و الثقة، و یجعله أبعد الناس عن الیأس و القنوط أو التسلیم للعجز (و قد تحدثنا عن الدعاء و فلسفته و شرائطه ذیل الآیات ۷۷ من سورة الفرقان).

ثمّة ملاحظة مهمّة هنا، هی أن الدعاء لا یلغی بذل الوسع و الجهد من قبل الإنسان، و إنّما حسبما تفید الروایات و الأحادیث فی هذا الشأن- علی الإنسان أن یسعی و یبذل و یجهد، و یترک الباقی علی اللّه تعالی. لذا لو جعل الإنسان الدعاء بدیلا عن العمل و الجهد فسوف لا یجاب إلی مطلبه حتما.

لذلک نقرأ

فی حدیث عن الإمام جعفر الصادق علیه السّلام أنّه قال: «أربعة لا تستجاب لهم دعوة: رجل جالس فی بیته یقول: اللّهم ارزقنی، فیقال له: ألم آمرک بالطلب؟. و رجل کانت له امرأة فدعا علیها، فیقال له: ألم أجعل أمرها إلیک؟

و رجل کان له مال فأفسده، فیقول: اللهم ارزقنی، فیقال له: ألم آمرک بالاقتصاد؟

ألم آمرک بالإصلاح؟ و رجل کان له مال فأدانه بغیر بیّنة، فیقال له: ألم آمرک

بالشهادة؟![۲۷۹].

و من الواضح أنّ الموارد التی یتحدّث عنها الحدیث الشریف، إنّما منع فیها الإنسان عن إجابة دعوته لعدم بذله قصاری جهده و سعیه، فعلیه أن یتحمّل تبعة تقصیره و تفریطه.

من هنا یتضح أنّ أحد عوامل عدم استجابة الدعاء یتمثل فی التباطؤ و ترک الجهد المناسب للعمل و اللجوء إلی الدعاء و قد جرت سنة اللّه تعالی علی عدم إجابة مثل هذه الدعوات.

طبعا، هنا عوامل و أسباب اخری لعدم استجابة بعض الأدعیة. فمثلا عادة ما یحدث أن یخطئ الإنسان فی تشخیص مصالحه و مفاسده، إذ یصر أحیانا علی موضوع معین و یطلبه من الخالق جلّ و علا فی حین لیس من مصلحته ذلک. و لکنّه یفهم ذلک فیما بعد.

و هذا الأمر یشبه إلی حد کبیر الطفل أو المریض الذی یطلب بعض الأطعمة و الأشربة و یشتهیها، فلا یجاب لطلبه و لا تلبّی رغباته، لأنّها قد تؤدی إلی مضاعفة الخطر علی صحته أو حتی المجازفة بحیاته. ففی مثل هذه الموارد لا یستجیب اللّه تعالی لدعاء العبد، بل یدخر له الثواب یوم القیامة، مضافا إلی أن لاجابة الدعاء شروطا مذکورة فی الآیات و الرّوایات الشریفة و قد بحثنا هذا الموضوع مفصلا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر[۲۸۰].

موانع استجابة الدعاء

لقد ذکرت بعض الروایات ذنوبا متعدّدة إذا ارتکبها الإنسان تحول بینه و بین إجابة دعائه، مثل سوء النیة، النفاق، تأخیر الصلاة عن وقتها، اللسان البذیء الذی

یخشاه الناس، الطعام الحرام، و ترک الصدقة و الإنفاق فی سبیل اللّه تعالی ۲۸۱].

و فی إطار هذه النقطة بالذات ثمّة حدیث جامع عن الإمام الصادق علیه السّلام ینقله «الشیخ الطبرسی» فی «الإحتجاج» أنّه سئل: أ لیس یقول اللّه: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ و قد نری المضطر یدعوه و لا یجاب له، و المظلوم یستنصره علی عدوه فلا ینصره؟

قال: «و یحک! ما یدعوه أحد إلّا استجاب له، أما الظالم فدعاؤه مردود إلی أن یتوب، و أمّا المحقق فإذا دعا استجاب له و صرف عنه «البلایا من حیث لا- یعلمه، أو ادخر له ثوابا جزیلا- لیوم حاجته إلیه، و إن لم یکن الأمر الذی سأل العبد خیر له إن أعطاه، أمسک عنه»[۲۸۲].

نعود الآن إلی الآیة الکریمة ... فبما أن الدعاء و طلب الحوائج من اللّه تعالی یعتبر فرعا لمعرفته، لذا تتحدث الآیة التی تلیها عن حقائق تؤدی إلی ارتقاء مستوی المعرفة لدی الإنسان، و تزید شروطا جدیدا لإجابة الدعاء، متمثلا بالأمل فی الإجابة، بل و انتظار تنجز الحاجة و تمامها.

یقول تعالی: اللَّهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ

إنّ ظلمة اللیل و هدوءه و سکونه یعتبر- من جانب- سببا قهریا لتعطیل الحرکة الیومیة لعمل الإنسان السوی و نشاطه. و الظلمة- من ناحیة اخری- تمحو عن الإنسان تعب النهار، و تدفعه إلی الاستقرار و الرأفة لجسده و أعصابه، فی حین یعتبر النور و النهار أساس الحیاة و الحرکة.

لذلک یضیف تعالی قوله تعالی: وَ النَّهارَ مُبْصِراً.

فی النهار المبصر یضاء محیط الحیاة و تدب الحرکة و النشاط فی روح الإنسان و کیانه.

و الطریف أنّ «مبصرا» تعنی الذی یبصر. و عند ما یوصف النهار بهذا الوصف،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۳

فانه فی الحقیقة نوع من التأکید فی جعل الناس مبصرین. (ثمة بحث عن فلسفة النور و الظلام و اللیل و النهار، ورد أثناء الحدیث عن الآیات ۲۸۳].

ثم تضیف الآیة: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَشْکُرُونَ

إنّ النظام الدقیق کتناوب اللیل و النهار و الظلمة و النور، یعتبر واحدا من مواهب اللّه تبارک و تعالی و عطایاه لعباده، و سر من أسرار الحرکة فی الحیاة و فی منظومة الوجود الکونی.

فبدون النور لیس ثمّة حیاة أو حرکة، و من دون أن یتناوب اللیل و النهار- أو الظلام و النور- سیؤدی إلی تعطیل حرکة الحیاة، بل و جعلها مستحیلة. فشدّة النور- مثلا- ستشل الموجودات و تعطّل نمو النبات، و کذلک الظلمة الدائمیة لها أضرارها. و لکن الناس- و بدواعی العادة و الألفة- لم یلتفتوا إلی هذه المواهب الإلهیة و ما تستبطنه من منافع لهم.

و الملفت للنظر أن القاعدة تقتضی أن یکون هناک «ضمیر» بدل «الناس» الثانیة، فیکون القول: لکن أکثرهم لا یشکرون، إلّا أنّ ذکر «الناس» بدلا عن الضمیر کأنّه یشیر إلی أن طبع الإنسان الجاهل هو کفران النعم و ترک الشکر، کما نقرأ ذلک واضحا فی الآیة (۳۴) من سورة إبراهیم، فی قوله تعالی: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ کَفَّارٌ. (یلاحظ هذا المعنی فی تفسیر المیزان و روح المعانی).

أمّا إذا ملک الإنسان عینا بصیرة و قلبا عارفا بحیث یری النعم الإلهیة اللامتناهیة فی کلّ مکان یحل به، و ینظر إلی فیض النعم و العطایا و المواهب الربانیة، فسیضطر طبیعیا إلی الخضوع و العبودیة و الشکر، و یری نفسه صغیرا مدینا إلی خالق هذه العظمة و واهب هذه العطایا. (عن معنی الشکر و أقسامه یمکن مراجعة البحث الخامس فی تفسیر الآیة «۷» من سورة إبراهیم).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۴

الآیة التی تلیها تبدأ من توحید الرّبوبیة و تنتهی بتوحید الخالقیة و الرّبوبیة.

فتقول أوّلا: ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکَمْ و مربیکم الذی من صفاته أنّه: خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ.

و لا معبود إلّا اللّه: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

فی الواقع إنّ وجود کلّ هـذه النعم دلیل علی الربوبیـة و التـدبیر، و خالق کلّ شـیء عنوان لصـفة التوحیـد فی الربوبیـة، لأنّ الخالق هو المالک و المربی. و من المعلوم أنّ الخلق یستدعی الرعایة الدائمة لأن الخالقیة لا تعنی أنّ اللّه یخلق الخلق و یترکها و شأنها، بل لا بدّ و أن یکون الفیض الالهی مستمرا فی کلّ لحظة علی جمیع الموجودات. و لذلک فهذه الخالقیة لا تنفصل عن الرّبوبیة.

و من الطبیعی أن هذا الإله هو الوحید الذی یستحق العبادة، و أن ترجع إلیه الأشیاء.

لذا فإنّ جملة خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ تعتبر الدلیل ل ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ و إنّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ هی النتیجة لذلک.

و تتساءل الآیة فی نهایتها: کیف یسوّغ الإنسان لنفسه الانحراف و التنکّب عن الجادة المستقیمة؟ فیقول تعالی: فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ ۲۸۴].

و لماذا تترکون عبادة اللّه الواحد الأحد إلی عبادة الأصنام؟

و الملاحـظ أن «تؤفکـون» صـیغة مجهول، بمعنی أنّهـا تحرفکم عن طریق الحق، و کـأنّ المراد هو أنّ المشـرکین فاقـدون للاـرادة الی درجـة أنّهم یساقون فی هـذا المسـیر دون اختیار أیّ نسـبة من الحریـة و الإرادة و الإختیار فی هذا المجال! الآیة الأخیرة- من مجموعة الآیات التی نبحثها- تأتی و کأنّها تأکید لمواضیع الآیات السابقة، فیقول تعالی: کَذلِکَ یُؤْفَکُ الَّذِینَ کانُوا بِآیاتِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ

«یجحدون» مشتقّة من مادة «جحد» و هی فی الأصل تعنی إنکار الشیء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۵

الموجود فی القلب و النفس. بمعنی أنّ الإنسـان یقر فی نفسه و قلبه بعقیـدة أو نشـیء مـا، و فی نفس الوقت ینفیه و یتظـاهر بعکسه أو یعتقد بعدمه فی نفسه و یثبته فی لسانه.

و یطلق وصف الجحود علی البخلاء و الـذین لا یؤمّل منهم الخیر و یتظاهرون بالفقر دائما. أما «الأرض الجحدة» فهی التی لا ینبت فیها النبات إلا قلیلا[۲۸۵].

بعض علماء اللغة أوجز فی تفسیر «جحد» و «جحود» بقولهم: الجحود الإنکار مع العلم ۲۸۶].

و بناء علی ما تقدم فإن الجحود یتضـمّن فی داخله نوعا من معانی العناد فی مقابل الحق، و من الطبیعی أن من یتعامل مع الحقائق بهذا المنظور لاـ یمکن أن یسـتمر فی طریق الحق، فما لم یکن الإنسان باحثا عن الحقیقـة و طالبا لها و مـذعنا أمام منطقها فسوف لن یصـل إلیها مطلقا.

لـذا فإنّ الوصول إلی الحق یحتاج مسـبقا إلی الاسـتعداد و البناء الـذاتی، أیّ التقوی قبل الإیمان، و هو الـذی أشار إلیه تعالی فی مطلع سورة البقرة: ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۶

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۶۴ الی ۶۶]

اشارة

اللَّهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّماءَ بِناءً وَ صَوَّرَکُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَکُمْ وَ رَزَقَکُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ ذلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُمْ فَتَبارَکَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (۶۴) هُوَ الْحَیُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۶۵) قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِی الْبَیِّناتُ مِنْ رَبِّی وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِینَ (۶۶)

التّفسیر

ذلكم اللّه ربّكم:

تستمر هذه المجموعة من الآيات الكريمة بذكر المواهب الإلهية العظيمة و شمولها للعباد، كى تهب لهم المعرفة، و تربى فى نفوسهم الأمل بالدعاء و التسليم و طلب الحوائج من اللّه تعالى.

و الطريف فى الأمر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن «النعم الزمانية» من ليل و نهار، بينما تتحدث هذه المجموعة عن «النعم المكانية» أى الأرض القرار، و السقف المرفوع (السماء) حيث تقول: اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۷

قَراراً.

لقد خلق اللّه للإنسان الأرض كى تكون مقرّا هادئا و مستقرا آمنا له إنّه المكان الخالى من المعوقات الصعبة، متناسق فى تشكيلته مع تكوين الإنسان الروحى و الجسدى، حيث تتوفر فى الأرض المصادر المختلفة للحياة و الوسائل المتنوعة و المجانية التى يحتاجها لمعيشته.

ثم تضيف الآية: وَ السَّماءَ بِناءً أى كالسقف و القبة فوقكم.

و «بناء» كما يقول «ابن منظور» فى لسان العرب، تعنى البيوت التى كان عرب البادية يستفيدون منها و يستظلون تحتها كالخيم و ما يستظل الإنسان تحته.

إنّه تعبير جميل و دال حيث يصوّر السماء كالخيمة التى تغطى أطراف الأرض و لا تنقص منها شيئا. و المقصود السماء هنا الغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض.

إنّ الخيمة الإلهية الكبيرة هذه تقلل من شدّة أشعة الشمس، و عدمها يعرض الأرض إلى الأشعة الكونية الحارقة القاتلة لجميع الكائنات الحية الموجودة على الأرض، لذلك نرى أنّ رواد الفضاء مضطرين لارتداء ملابس خاصة تحميهم من هذه الإشاعات.

إضافة إلى ما تقدم، تمنع الخيمة السماوية سقوط الأحجار التى تنجذب من السماء نحو الأرض، حيث تقوم بإحراقها بمجرّد وصولها إلى غلاف الأرض ليصل رمادها بهدوء الى الأرض.

و إلى هذا المعنى تشير الآية (۳۲) من سورة الأنبياء، حيث يقول تعالى:

وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً.

ثمّ ينتقل الحديث من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فيقول تعالى:

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ القامة متوازنة خالية من الانحراف، وجه فى تقاطيع جميلة لطيفة و فى منتهى النظم و الاستحكام، إذ يمكن بلمحة واحدة التمييز بين الكائن البشرى و بين الموجودات و الكائنات الأخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۸

إنّ الهيكل الإنسانى الخاص يؤهل الإنسان لإنجاز مختلف الأعمال من الصناعة و الزراعة و التجارة و الإرادة، و هو بامتلاكه للأعضاء المختلفة يعيش مرتاحا مستفيدا من مواهب الحياة و عطايا الخالق.

الإنسان على خلاف أغلب الحيوانات التى تشرب الماء بفمها، فإنّه يحمل المشروبات و المأكولات بيديه، و يقوم بشرب الماء فى منتهى الدّقة و اللطافة، و هذا الأمر يجعل الإنسان أقدر على انتخاب ما يشاء من الأشربة و الأطعمة.

و يجعل ما يتناوله نظيفا غير مخلوط مع غيره. فهو مثلا يقشّر الفاكهة و يهذبها قبل تناولها، و يرمى الأجزاء الزائدة.

لقد ذهب بعض المفسّرين فى تفسير: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ إلى معنى أوسع من الصورة و الشكل الظاهرى و التكوين الداخلى،

فقال: إن المعنى يتضمن كل الاستعدادات و الأذواق التى خلقها اللّه فى الإنسان و أودعها فيه، ففضله بها على كثير ممن خلق.

و فى آخر الحديث عن سلسلة هذه العطايا و المواهب الإلهية، تتحدث الآية عن النعمة الرّابعة، و هى الرزق الطيب بقوله تعالى: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ

«الطيبات» تشتمل على معنى وسيع جدّا، و هى تشمل الجيد من الطعام و اللباس و الزوجة و المسكن و الدواب، و هى أيضا تشمل الكلام و الحديث الطيب الزكى النافع.

الإنسان يقوم بسبب جهله و غفلته بتلويث هذه المواهب الطاهرة و الطيبات اللذيذة، إلّا أنّ اللّه أبقى على نقائها و طهرها فى عالم الوجود.

بعد بيان هذه المجموعة الرباعية من النعم الإلهية التى تتوزع بين الأرض و السماء و بين خلق الإنسان، تعود الآية للقول: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۹

الْعالَمِينَ ۲۸۷].

إنّ هذه المواهب تعود للّه مدبر الكون خالق السماوات و الأرض، لذلك فهو الذى يليق بمقام الرّبوبية لا غير.

الآية التى بعدها تستمر فى إثارة قضية توحيد العبودية من طريق آخر.

فتؤكد انحصار الحياة الواقعية باللّه تعالى و تقول: هُوَ الْحَيُ

إنّ حياته عين ذاته، و لا تحتاج إلى الغير. حياته (جلّ و تعالى) أبدية لا يطالها الموت، بينما جميع الكائنات الحية تتمتع بحياة مقرونة بالموت و حياتها محدودة و موقتة تسترفد هذه الحياة من الذات المقدسة.

لذلك ينبغى للإنسان الفانى المحدود المحتاج أن يرتبط فى عبادته بالحى المطلق، من هنا تنتقل الآية مباشرة إلى تقرير معنى الوحدانية فى العبودية من خلال قوله تعالى: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

و على أساس هذه الوحدانية تتقرّر قضية اخرى يتضمنها قوله تعالى:

فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ و اتركوا جانبا كلّ شىء غيره. لأنّها جميعا فانية، و حتى فى حال حياتها فهى فى تغيّر دائم «فالذى لا يتغيّر هو اللّه تعالى فقط.

و الذى لم يمت و لن يموت هو سبحانه فحسب».

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و التعبير القرآنى درس للعباد بأن يتوجهوا الشكر و الحمد إلى الخالق جلّ و علا دون غيره، فهو جزيل العطايا كثير المواهب مطلق النعم على عباده، خاصّة نعمة الحياة و الوجود بعد العدم.

الآية الأخيرة من المجموعة القرآنية، هى فى الواقع خلاصة لكل البحوث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۰

التوحيدية الآنفة، و جاءت لكى تقضى على أدنى بارقة أمل قد يحتمل وجودها فى نفوس المشركين، إذ يقول تعالى موجها كلامه إلى النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي

و لم ينهانى ربّى عن عبادة غيره فحسب، بل: وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ نهى عن عبادة الأصنام يتبعه- مباشرة- بدليل منطقى من البراهين و البينات و من العقل و النقل، فى أن يسلم ل: «ربّ العالمين» و فى هذه العبارة أيضا دليل آخر على المقصود لأن كونه ربّ العالمين دليل كاف على ضرورة التسليم فى مقابله.

و من الضرورى أن نشير إلى افتراق الأمر و النهى فى هذه الآية، فهناك أمر بالتسليم للّه جلّ و علا، و نهى عن عبادة الأصنام، و قد

يعود السبب فی التفاوت بين النهی و الأمر إلی أنّ الأصنام قد تختص بصفة «العبادة» و حسب، لذلك جاء النهی عن عبادتها. أما بالنسبة للّه تعالى فبالإضافة إلى عبادته يجب التسليم له و الانصياع و الانقياد إلی أوامره و تعليماته.

لذلك نقرأ فی الآيتين (۱۱- ۱۲) من سورة «الزمر» قوله تعالى: قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ

إنّ أمثال هذه الصيغ و الأساليب المؤثرة يمكن أن نلمسها فی كلّ مكان من كتاب اللّه العزيز، فهی تجمع الليونة و الأدب حتى إزاء الأعداء و الخصوم، بحيث لو كانوا يملكون أدنى قابلية لقبول الحق فسيتأثرون بالأسلوب المذكور.

ينبغی أن نلاحظ أيضا التعبير فی قوله تعالى: أُمِرْتُ ... إِنِّی نُهِيتُ أیّ عليكم أنتم أن تحاسبوا أنفسكم من دون أن يثير فيهم حسّ اللجاجة و العناد.

الكلام الأخير فی هذه المجموعة من الآيات هو أنّها أعادت وصف الخالق ب «ربّ العالمين» فی ثلاث آيات متتالية:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۱

تقول أولا: فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ

ثم: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و أخيرا: أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ

إنّه نوع من أنواع الترتيب المنطقی الذی يصل بين أجزائها و جوانبها فالآية الأولى تشير إلى البركة و ديموميتها، و الثانية إلى اختصاص الحمد و الثناء بذاته المقدسة دون غيره، و أخيرا تخصيص العبودية و حصرها به دون غيره عزّ اسمه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۲

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۷ الى ۶۸]

اشارة

هُوَ الَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷) هُوَ الَّذِی يُحْيِی وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۶۸)

التّفسير

اشارة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۳۱۲

المراحل السبع لخلق الإنسان:

تتميما لما تحدثت به الآيات السابقة عن قضية التوحيد، تستمر الآيات التی بين أيدينا فی إثارة نفس الموضوع من خلال الحديث عن «الآيات الأنفسية» و المراحل التی تطوی خلق الإنسان و تطوره، من البدء إلى النهاية.

الآیة الکریمة تتحدث عن سبع مراحل تکشف عن عظمة الخالق جلّ و علا و جزیل مواهبه و نعمه علی العباد.

یقول تعالی: هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ یُخْرِجُکُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ ثُمَّ لِتَکُونُوا شُیُوخاً وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفَّی مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا

مُسَمًّی وَ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ

یتضح من سیاق الآیة الکریمة أنّ المرحلة الأولی أو بدایة الإنسان فی مسیرة الخلق و الوجود تکون من التراب، حیث خلق اللّه أبانا الأوّل آدم علیه السّلام من تراب، أو أنّ جمیع البشر خلقوا من التراب، ذلک أنّ المواد الغذائیة التی تشکل قوام الإنسان و وجوده، بما فی ذلک النطفة، سواء کانت حیوانیة أم نباتیة کلّها تستمد أساسها و أصولها من التراب.

المرحلة الثانیة، هی مرحلة النطفة التی تشمل جمیع البشر کأصل ثان فی وجودهم عدا آدم و زوجته حوّاء.

المرحلة الثّالثة التی تتکامل فیها النطفة و تنمو بشکل مستمر و تتحول إلی قطعة دم و المسمی بمرحلة «العلقة».

بعد ذلک تتحول «العلقة» إلی «مضغة» أشبه ما تکون باللحم «الممضوغ» مرحلة ظهور الأعضاء، ثمّ مرحلة الحس و الحرکة، و الآیة لا تشیر هنا إلی هذه المراحل الثلاث، لکن الآیات الأخری أشارت إلی ذلک بشکل واضح.

المرحلة الرّابعة تتمثل فی ولادة الجنین. بینما تتمثل المرحلة الخامسة فی تکامل القوّة الجسمیة التی قیل إنها تتم فی سن الثلاثین، حیث سیحرز الجسم الإنسانی أکبر قدر ممکن من نموه و تکامل قواه.

و قال البعض: إنّ الإنسان یصل هذه المرحلة قبل هذا السن، و من الممکن أن تختلف هذه المرحلة عند الأشخاص إلی أن یحرز الإنسان فیها مرحلة «بلوغ الأشد» حسب التعبیر القرآنی.

بعد ذلک تبدأ مرحلة الرجوع القهقری إلی الوراء، فیفقد الإنسان قواه تدریجیا، فیصل إلی الشیب الذی یعتبر المحطة السادسة من محطات الإنسان.

أخیرا، تنتهی حیاة کلّ إنسان فی الأرض بالموت و الانتقال إلی العالم الآخر.

بعد کلّ هذه التغیرات و التطورات، هل ثمّة من شک فی قدرة و عظمة مبدئ

عالم الوجود، و ألطاف اللّه و مواهبه علی الخلق؟! الطریف أنّ الآیة تستخدم فی الإشارة إلی المراحل الأربع الأولی تعبیر «خلقکم» لأنّ لیس للإنسان أی دور فیها، حیث یتطور من التراب إلی النطفة ثمّ إلی العلقة فطفلا- صغیرا من دون أن یکون له أی دور فی هذه التحولات. لکن فی المراحل الثلاث التی تلی الولادة، أی مرحلة الوصول إلی أقصی القوة الجسمیة ثمّ مرحلة الشیب و انتهاء العمر، استخدمت الآیة تعبیر «لتبلغوا» و «لتکونوا» و فیها إشارة إلی کیان الإنسان الحرّ و فیها أیضا ما یشیر إلی الحقیقة التی تقول: إنّ نمو الإنسان و وجوده عبر هذه المراحل الثلاث، و تقدمه باطّراد أو تأخره، و یرتبط بشکل أو بآخر بحسن تدبیر الإنسان أو سوء تدبیر، حیث یبلغ من الشیخوخة أو یموت مبکرا، و هذا یدل علی مدی الدقّة فی استخدام التعابیر القرآنیة الآنفة الذکر.

و سبق أن أشرنا إلی أنّ التعبیر ب «یتوفی» الذی یتضمن معنی الموت، لا- یعنی الفناء التام وفق المنطق القرآنی، بل إنّ ملک الموت یمسک الروح و یقبضها بإذنه تعالی و بحسب الأجل الإلهی المحتوم، فتنقل الأرواح إلی عالم آخر ألا و هو عالم «البرزخ».

إن تکرار مفاد هذا التعبیر فی القرآن الکریم، یبیّن بوضوح نظرة الإسلام تجاه الموت، هذا المفهوم الذی یخرج عن نطاق الفهم المادی الضیق الذی یقرن الموت بالفناء و العدم، بینما الموت لا یعبّر إلّا عن انتقال الروح من هذا العالم إلی عال آخر هو عالم البقاء.

و قوله تعالی: وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفَّی مِنْ قَبْلُ قد یکون إشارة إلی حصول الموت قبل مرحلة الشیخوخة، أو قد یعنی الإشارة إلی المراحل السابقة بأجمعها، بمعنی أنّ الموت قد یصیب الإنسان قبل أن یبلغ إلی مرحلة من المراحل السابقة.

و من الضرورى أن نشير هنا إلى أنّ جميع المراحل، عدا المرحلة الأخيرة (أى بلوغ نهاية العمر و حلول الوفاة) قد عطفت ب «ثم» و هى إشارة إلى السياق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۵

التسلسلى الترتيبى فى سياق وجودها فى حياة الإنسان، فمرحلة «المضغة» لا تسبق- مثلا- مرحلة «النطفة» و هكذا. و فى هذا النوع من العطف إشارة أيضا إلى وجود الفاصلة بين مرحلة و اخرى.

أما عطف المرحلة الأخيرة ب (الواو) فقد يكون السبب فيه أنّ نهاية العمر لا تكون بالضرورة بعد انتهاء مرحلة الشيخوخة، إذ كثيرا ما يموت الإنسان قبل بلوغه إلى مرحلة الشيوخة (هناك بحث عن «الأجل المسمى» ذيل الآية ۲ سورة الأنعام و الآية ۳۴ من سورة الأعراف و الآية ۶۱ من سورة النحل).

الآية الأخيرة فى هذا البحث تتحدث عن أهم مظهر من مظاهر قدرة اللّه تبارك و تعالى متمثلة بقضية الحياة و الموت، هاتان الظاهرتان اللتان لا تزالان بالرغم من تقدم العلم و تطوره فى نطاق الأمور الغامضة و المجهولة فى معرفة الإنسان و علمه.

قول تعالى: هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ

إنّ الحياة و الموت- بالمعنى الواسع للكلمة- بيد اللّه، سواء تعلق ذلك بالإنسان أو النبات أو أنواع الحيوان و الموجودات الأخرى التى تتجلى فيها الحياة بأشكال متنوعة.

إنّ نماذج الحياة تعتبر أكثر النماذج تنوعا فى عالم الوجود و كل الكائنات تنتهى بأجل معين إلى الموت، سواء فى ذلك الكائن ذو الخلية الواحدة أو الحيوانات الكبيرة، أو التى تعيش فى الأعماق المظلمة للمحيطات و البحار، أو الطيور التى تعانق السماء، و من الاحياء احادية الخلية السابحة فى أمواج المحيطات إلى الأشجار التى يبلغ طولها عشرات الأمتار، فإنّ لكل واحد منها حياة خاصّة و شرائط معينة، و بهذه النسبة تتفاوت عملية موتها، و بدون شك فإن اشكال الحياة هى أكثر اشكال الخلقة تنوعا و أعجبها.

إنّ الانتقال من عالم إلى آخر، من الوجود المادى الى الحياة، و من الحياة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۶

هذه الدّنيا الى ما بعد الموت يستبطن أسرارا و عجائب بليغة تحكى عظمة الخالق و مدى قدرته فى هذه الخليقة العجيبة المتنوعة و كل واحدة من هذه القضايا المعقدة و المتنوعة لا تعتبر مشكلة و عسيرة فى متناول قدرة الخالق جلّ و علا، حيث تتحقق بمجرّد إرادته.

لذلك تقول الآية فى نهايتها بيانا لهذه الحقيقة: فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

إنّ كلمة «كن» و بعدها «فيكون» هى من باب عدم قدرة الألفاظ على استيعاب حقيقة الإرادة و القدرة الإلهية، و إلّا فليس ثمّة من حاجة إلى هذه الجملة، لأنّ إرادة اللّه هى نفسها حدوث الكائنات و وجودها[۲۸۸] بدون فصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۷

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۹ الى ۷۶]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (۶۹) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۷۰) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳)
مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (۷۴) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۶)

التّفسير

عاقبة المعاندين المغرورين:

مرة اخرى تعود آيات اللّه البينات للحديث عن الذين يجادلون فى آيات اللّه و لا يخضعون إلى منطق الحق و دلائل النبوّة و مضامين دعوات الأنبياء و الرسل.

هذه الآيات تتحدث عن مصير هؤلاء، فتقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۸

اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ

إنّ هذه المجادلة بالباطل المقترنة مع التعصب الأعمى جعلتهم يحيدون عن الصراط المستقيم، لأنّ الحقائق لا تظهر أو تبيّن إلّا فى الروح الباحثة عن الحقيقة و من ثمّ الإذعان لمنطقها.

إنّ طرح هذه القضية من قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بصيغة الاستفهام يؤكّد أنّ من يتمتع بذوق سليم و منطق قويم يثيره العجب من إنكار هذه الفئة لكل هذه الآيات البينات و الدلائل و المعجزات.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان أمرهم عند ما تقول: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا.

من الضرورى أن نشير أولا- إلى أنّ السورة التى بين أيدينا تحدّثت أكثر من مرّة عن الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ جاء ذلك فى الآيتين (۳۵) و (۵۶) و هذه الآية. و نستفيد من القرائن أنّ المقصود ب «آيات اللّه» هى دلائل النبوّة و علائمها على الأكثر، بالإضافة إلى ما تحويه الكتب السماوية. و طالما تتضمّن الكتب السماوية آيات التوحيد، و المسائل الخاصة بالمبدأ و المعاد، لذا فإنّ هذه القضايا مشمولة بجدال القوم و خصومتهم للحق.

و هل يستهدف التكرار تأكيد قضية هذا الموضوع، أم أنّ كلّ آية تختص بطرح و موضوع يختلف عن أختها؟

الاحتمال الثّانى أقرب الى المراد. إذ يلاحظ أنّ لكل آية موضوع خاص.

فالآية (۵۶) تتحدث عن دواعى المجادلة و أهدافها أى الكبر و الغرور فى حين تتحدث الآية (۳۵) عن عقابهم الدنيوى متمثلا بأن ختم اللّه على قلوبهم.

أمّا الآية التى نتحدث عنها الآن فهى تتحدث عن العقاب الأخروى، و أوصافهم فى النّار ذات السعير.

من الضرورى أن نشير أيضا إلى أنّ «يجادلون» فعل مضارع يدل على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۹

الاستمرار. و هذه إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء الأفراد الذين يكذبون بآيات اللّه لتبرير عقائدهم و أعمالهم السيئة المشينة، إنّما يقومون بالمجادلة بشكل مستمر من خلال الأقوال و الذرائع الواهية.

و تنتهى الآية بتهديد من خلال قوله تعالى: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أى سوف يعلمون نتيجة أعمالهم و عاقبة أعمالهم السيئة و ذلك فى وقت إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ أىّ يلقى بهم فى الماء المغلى ثمّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۲۸۹].

«يسجرون» من كلمة «سجر» على وزن «فجر» و تعنى إشعال النّار و زيادة لهيبها- كما ذهب إليه الراغب فى مفرداته- أمّا الآخرون من أرباب اللغة و التّفسير فيقولون: إنها تعنى ملء التنور بالنار[۲۹۰].

لذلك يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هذه المجموعة من الكفّار تصبح وقودا للنار، كما نقرأ ذلك فى الآية (۲۴) من سورة البقرة: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ.

البعض الآخر یقول: إنّ معنى الآیة هو أنّ هؤلاء ستملأ النّار کلّ وجودهم و تستوعب کامل کیانهم. (طبعا لیس ثمّة تعارض بین المعنیین).

هذا النوع من العقاب للمعاندین و المتکبرین و المجادلین یعتبر فی الواقع انعکاس لأعمالهم فی هذه الدنیا، حیث کذّبوا بآیات اللّه بسبب کبریائهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۰

و غرورهم، و قیدوا أنفسهم بسلاسل التقلید الأعمى، و فی یوم الجزاء و القیامة ستطوقهم السلاسل من الأعناق بمنتهى الذلّة، و سیسحبون أذلاء إلى نار جهنم و بئس المصیر.

إضافة إلى هذا العذاب الجسمانی سیعاقبون بمجموعة من أنواع العذاب الروحی و النفسی کما تشیر إلیه الآیة التالیة، حیث یقول تعالى: ثُمَّ قِیلَ لَهُمْ أَیْنَ ما کُنْتُمْ تُشْرِکُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ! أی أین شرکاؤکم من دون اللّه کی ینقذوکم من هذا العذاب الألیم و أمواج النّار المتلاطمة؟ ألم تقولوا: إنّکم تعبدونهم و تطیعونهم و تتخذونهم أربابا لیشفعوا لکم، إذا أین شفاعتهم الآن؟! فیجیبون بخضوع یغشاهم و ذلک یعلوهم: قالُوا ضَلُّوا عَنَّا[۲۹۱] أیّ اختفوا و هلکوا و أبیدوا بحیث لم یبق منهم أثر.

و لا ریب، فإنّ من کانوا یدعونه من دون اللّه هم فی نار جهنم، و قد یکونون بجانبهم، إلّا أنّهم لا ینفعون و لا یؤثرون و کأنّهم قد اختلفوا! و عند ما یرى هؤلاء أنّ اعترافهم بعبادة الأصنام أصبح عارا علیهم و علامة تمیزهم، فإنّهم یبدأون بالإنکار فیقولون: بَلْ لَمْ نَکُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَیْئاً.

لقد کانت الأصنام مجرّد أوهام، لکنّا کنّا نظن أنها تمثل حقائق ثابتة، لکنّها أصبحت کالسراب الذی یتصوره العطشان ماء. أمّا الیوم فقد ثبت لنا أنّها لم تکن سوى أسماء من غیر مسمى و ألفاظ لیس لها معنى، و أنّ عبادتها لم تنفعنا بشیء سوى الضلال. لذلک فهؤلاء الیوم بمواجهة الواقع الذی لا سبیل إلى إنکاره.

هناک احتمال آخر فی تفسیر الآیة، هو أنّهم سیکذبون لینقذوا أنفسهم من الفضیحة، کما نقرأ ذلک فی الآیتین (۲۳) و (۲۴) من سورة الأنعام:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۱

ثُمَّ لَمْ تَکُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما کُنَّا مُشْرِکِینَ انْظُرْ کَیْفَ کَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ

و أخیرا یقول تعالى: کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ الْکافِرِینَ

إنّ کفرهم و عنادهم سیکون حجابا على قلوبهم و عقولهم، و لذلک سیترکون طریق الحق و یسلکون سبیل الباطل، فیحرمون یوم القیامة من الجنّة و ینتهی مصیرهم إلى النّار. و هکذا یضل اللّه الکافرین.

الآیة التی بعدها تشیر إلى علة مصائب هذه المجموعة، حیث یقول تعالى:

ذلِکُمْ بِما کُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ بِما کُنْتُمْ تَمْرَحُونَ

کانوا یفرحون بمعارضة الأنبیاء و قتل المؤمنین و التضییق على المحرومین، و کانوا یشعرون بالعظمة عند ارتکاب الذنوب و رکوب المعاصی. و الیوم علیهم أن یتحملوا ضریبة کلّ ذلک الفرح و الغفلة و الغرور من خلال هذه النیران و السلاسل و السعیر.

«تفرحون» من «فرح» و تعنی السرور و الابتهاج. و قد یکون الفرح ممدوحا و مطلوبا فی بعض الأحیان، کما تفید الآیتان (۴) و (۵) من سورة «الروم» فی قوله تعالى: وَ یَوْمَئِذٍ یَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ

و فی بعض الأحیان یکون الفرح مذموما و باطلا، کما ورد فی قصة قارون، الآیة (۷۶) من سورة «القصص» حیث نقرأ قوله تعالى: إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْفَرِحِینَ

طبعا ینبغی التفریق بین الموردین من خلال القرائن، و لا ریب من أن «الفرح» فی الآیة التی نبحثها من النوع الثّانی.

«تمرحون» مشتقّة من «مرح» على وزن «فرح» و هی کما یقول اللغویون و المفسرون، تأتی بمعنی شدة الفرح، و قال آخرون: إنّها تعنی الفرح بسبب بعض القضایا الباطلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۲

فی حین ذهبت جماعة ثالثة إلى اعتبارها حالة من الفرح المتزامن مع نوع من الطرب و الاستفادة من النعم الإلهیة فی طریق الباطل.

و الظاهر أنّ هذه المعانی جمیعا تعود إلى موضوع واحد، ذلک أنّ شدّة الفرح و الإفراط فیه یشمل جمیع المواضیع و الحالات السابقة.

و فی نفس الوقت فهو یتزامن مع أنواع الذنوب و الآثام و الفساد و الشهوة[۲۹۲].

إنّ هذه الأفراح المتزامنة مع الغرور و الغفلة و الشهوة، تبعد الإنسان بسرعة عن اللّه تبارک و تعالى و تمنعه من إدراک الحقیقة، فتکون الحقائق لدیه غامضة و المقاییس معکوسة.

و لمثل هؤلاء یصدر الخطاب الإلهی: ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَکَبِّرِینَ

هـذه الآیـة تؤّکـد مرّة اخرى على أنّ التکبر هو أساس المصائب، ذلک أنّ التکبر هو قاعدة الفساد، و یحجب البصائر عن رؤیة الحق و یجعل الإنسان یخالف دعوة الأنبیاء علیهم السّلام.

ثم تشیر الآیة إلى أبواب جهنّم بقوله تعالى: أَبْوابَ جَهَنَّمَ

و لکن هل الدخول من أبواب جهنّم یعنی أن لکل مجموعة باب معین تدخل منه، أو أنّ کلّ مجموعة منهم تدخل من أبواب متعدّدة؟

أی أنّ جهنّم تشبـه السـجون المخیفـة التی تتـداخل فیها الأبواب و الـدهالیز و الممرات و الطبقات، فبعض الضالین المعاندین یجب أن یسلکوا کلّ هذه الأبواب و الممرات و الطبقات قبل أن یستقروا فی قعر جهنّم.

و ممّا یؤید هذا التّفسیر ما

یروى عن الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام أنّه أجاب عن سؤال فی تفسیر قوله تعالى:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۳

لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِکُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [۲۹۳] أنّه قال: إنّ جهنّم لها سبعة أبواب، أطباق بعضـها فوق بعض، و وضع إحدى یدیه على الأخرى، فقال هکذا»[۲۹۴].

و ثمـة تفسـیر آخر نسـتطیع أن نقف على خلاصـته بالشـکل الآتی: إنّ أبواب جهنم- کأبواب الجنّـة- إشارة إلى العوامل المختلفة التی تؤدی بالإنسان إلى دخولها، فکل نوع من الذنوب أو نوع من أعمال الخیر یعتبر بابا.

و ثمّة ما یشیر الى ذلک فی الروایات الإسلامیة، و وفق هذا المعنى فإنّ العدد (۷) هو کنایة عن الکثرة، و ما ورد فی القرآن الکریم من أنّ للجنّة ثمانیة أبواب هو إشارة إلى ازدیاد عوامل الرحمة على عوامل العذاب (راجع ذیل الآیة ۴۴ سورة الحجر).

و هذان التّفسیران لا یتعارضان فیما بینهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۴

الآیتان [سورة غافر (۴۰): الآیات ۷۷ الى ۷۸]

اشارة

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنا یُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِکَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَیْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَیْکَ وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْمُبْطِلُونَ

(۷۸)

التّفسیر

فاصبر ... حتی یأتیک وعد اللّه:

بعد سلسلهٔ البحوث السابقهٔ عن جدال الکافرین و غرورهم و تکذیبهم الآیات الإلهیهٔ و الدلائل النبویهٔ، تأتی هاتان الآیتان لمواساهٔ النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و تأمرانه بالصبر و الاستقامهٔ فی مواجههٔ المشاکل و الصعاب.

یأتی الأمر أوّلا فی قوله تعالی: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

إنّ وعده بالنصر حق، و وعده بمعاقبهٔ المستکبرین المغرورین حق، و کلاهما سیتحققان، علی أعداء الحق أن لا یظنّوا بأنّهم یستطیعون الهروب من العذاب الإلهی بسبب تأخر عقابهم، لذلک تضیف الآیهٔ: فَإِمَّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۵

نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنا یُرْجَعُونَ ۲۹۵].

إنّ مسئولیتک هی التبلیغ البلیغ و إتمام الحجهٔ علی الجمیع، حتی تتنور القلوب الیقظهٔ ببلاغک، و لا یبقی للمعاندین عذر! علیک أن تهتم بإنجاز مهمتک و لا تنتظر أن تحقق الوعید عاجلا بإنزال العقاب علی هذه الفئهٔ الضالهٔ.

و الکلام یتضمّن تهدیدا إلی تلک الفئهٔ لکی یعلموا أنّ العذاب لا بدّ مصیبهم، و نازل بساحتهم، فکما نال بعضهم العقاب الذی یستحقونه فی هذه الدنیا فی «بدر» و غیرها، فهناک أیضا یوم القیامهٔ و العذاب المنتظر.

ثم تشیر الآیهٔ الکریمهٔ إلی الوضع المشابه الذی واجهه الرسل و الأنبیاء قبل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کی تکون فی هذه الذکری مواساهٔ أکثر للرسول الکریم، حیث واجه الأنبیاء السابقین مثل هذه المشاکل، إلّا أنّهم استمروا فی طریقهم و احتفظوا بمسارهم المستقیم.

یقول تعالی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِکَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَیْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَیْکَ

لقد واجه کلّ منهم ما تواجهه أنت الیوم، فصبروا و کان حلیفهم النصر و الغلبهٔ علی الظالمین.

و من جههٔ ثانیهٔ کان الجمیع یطلبون من الرسل الإتیان بالمعجزهٔ، و مشرکو مکّهٔ لم یشذوا علی غیرهم فی طلب المعاجز من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لذلک یخاطب اللّه تعالی رسوله الکریم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بقوله: وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍٔ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

إنّ جمیع المعاجز هی من عند اللّه و بیده، و بذلک فهی لا تخضع إلی أمزجهٔ الکفّار و المشرکین، بل إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لا ینبغی له الاستسلام أمام «معجزاتهم المقترحهٔ» بل ما یکون من المعجزهٔ ضروریا لهدایهٔ الناس و إحقاق الحق یظهره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۶

اللّه علی أیدی الأنبیاء.

ثم تهدّد الآیهٔ من کان یقول: لماذا لا یشملنا العذاب الإلهی إذا کان هذا الرّسول صادقا؟ فتقول الآیهٔ: فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِیَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْمُبْطِلُونَ

فی ذلک الیوم المهول تغلق أبواب التوبهٔ، و لا تنفع الآهات و الصرخات، و یخسر أهل الباطل صفقتهم، و یشملهم العذاب الإلهی الألیم، إذا فلما ذا کلّ هذا الإصرار علی مجیء ذلک الیوم؟! وفقا لهذا التّفسیر ینصرف معنی الآیهٔ و المقصود بالعذاب فیها إلی

«عذاب الاستئصال».

و لكن بعض المفسّرين اعتبر هذه الآية بمثابة بيان للعذاب فى يوم القيامة.

فهناك يكون القضاء الحق بين الجميع، و يشاهد أنصار الباطل خسرانهم المريع.

إنّ فيما تضمّنته الآية (٢٧) من سورة «الجاثية» يؤكّد هذا التّفسير، إذ يقول تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ

و لكن تمّ استخدام «أمر اللّه» و ما شابهها فى الآيات المتعدّدة التى تختص بعذاب الدنيا[٢٩۶].

و يحتمل أن يكون للآية معنى أوسع يشمل عذاب الدنيا و الآخرة، و فى المشهدين يتوضح خسران المبطلين.

و من الضرورى هنا الإشارة إلى الحديث الذى

رواه الشيخ الصدوق رحمة اللّه فى أماليه بإسناده إلى أبى عبد اللّه عليه السّلام «قال: كان فى المدينة رجل يضحك الناس، فقال: قد أعيانى هذا الرجل أن أضحكه- يعنى على بن الحسين عليه السّلام- قال: فمرّ عليه السّلام و خلفه موليان له، فجاء الرجل حتى انتزع رداءه من رقبته، ثمّ مضى فلم يلتفت إليه الإمام عليه السّلام فاتبعوه و أخذوا الرداء منه، فجاءوا به فطرحوه عليه فقال لهم: من

هذا؟ فقالوا: هذا رجل بطال يضحك أهل المدينة، فقال: قولوا له إن للّه يوما يخسر فيه المبطلون»[٢٩٧].

ملاحظة فى عدد الأنبياء؟!

للمفسّرين كلام كثير حول عدد أنبياء اللّه و رسله.

و الرواية المشهورة فى هذا المجال تذكر أنّ عددهم مائة و عشرون ألف نبى، فى حين تقتصر روايات اخرى على ثمانية آلاف، أربعة آلاف منهم هم أنبياء بنى إسرائيل، و الباقون من غيرهم ٢٩٨].

و

قد جاء فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «خلق اللّه عزّ و جلّ مائة ألف نبى و أربعة و عشرين ألف نبىّ، أنا أكرمهم على اللّه و لا فخر، و خلق اللّه عزّ و جلّ مائة ألف وصى و أربعة و عشرين ألف وصى، و على أكرمهم على اللّه و أفضلهم»[٢٩٩].

و

فى رواية اخرى عن أنس بن مالك أنّ رسول اللّه قال: «بعثت على أثر ثمانية آلاف نبىّ، منهم أربعة آلاف من بنى إسرائيل»[٣٠٠].

هذان الحديثان لا يتناقضان فيما بينهما، إذ يمكن أن يكون الحديث الثّانى قد أشار إلى الأنبياء العظام، كما يذكر ذلك العلّامة المجلسى فى توضيح هذا الكلام.

و فى حديث آخر أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أجاب على سؤال لأبى ذر رضى اللّه عنه عن عدد الأنبياء قائلا بأنّهم (١٢۴) ألف نبى، و عن سؤال حول عدد الرسل منهم، أنّهم

(٣١٣) رسول فقط[٣٠١].

و

فى حديث آخر أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد أن ذكر العدد (١٢۴) ألف قال:

خمسة منهم أولو العزم: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ٣٠٢].

و هناك روايات اخرى فى هذا المجال تؤيد العدد المذكور أعلاه.

من هنا يتضح أنّ هذه الرواية (حول عدد الأنبياء) ليست خبرا واحدا كما يقول «برسوئى» نقلا عن بعض العلماء فى تفسير «روح البيان»، بل هناك روايات متعدّدة و مستفيضة تؤكد أنّ عدد الأنبياء الإلهيين كان (۱۲۴) ألف نبى. و أنّ مثل هذه الروايات موجودة فى المصادر الإسلامية المختلفة.

و الطريق فى الأمر أن عدد الأنبياء الذين صرح القرآن بأسمائهم هو (۲۶) نبى فقط هم: آدم- نوح- إدريس- صالح- هود- إبراهيم- إسماعيل- إسحاق- يوسف- لوط- يعقوب- موسى- هارون- زكريا- شعيب- يحيى- عيسى- داود- سليمان- إلياس- اليسع- ذو الكفل- أيوب- يونس- عزير- و محمّد (عليهم الصّلاة و السلام).

و لكن هناك أنبياء آخرون أشار إليهم القرآن و إن لم يذكر أسماءهم صراحة مثل «أشموئيل» الذى ورد ذكره فى الآية (۲۴۸) من سورة «البقرة» فى قوله تعالى: وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ

و النّبى «أرميا» الوارد فى الآية (۲۵۹) من سورة البقرة فى قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ ...[۳۰۳].

و «يوشع» المذكور فى الآية (۶۰) من سورة «الكهف» فى قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۹

و «الخضر» الوارد ذكره إشارة فى الآية (۶۵) من سورة الكهف فى قوله تعالى: فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا.

و ورد ذكر لأسباط بنى إسرائيل، و هم زعماء قبائل بنى إسرائيل كما فى قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ[۳۰۴].

و إذا كان هناك أنبياء من بين إخوة يوسف عليه السّلام فقد أشير إليهم مرات عديدة فى سورة يوسف.

و خلاصة القول هنا أنّ القرآن أشار إلى قصص و حوادث ترتبط بأكثر من (۲۶) نبيا و هم المصرّح بأسمائهم مباشرة فى القرآن الكريم.

و يستفاد من بعض الروايات الواردة فى مصادر السنة و الشيعة أنّ اللّه بعث بعض الأنبياء من ذوى البشرة السوداء، كما يقول العلامة الطبرسى مثلا فى «مجمع البيان»

روى عن على أنّه قال: «بعث اللّه نبيّا أسود لم يقص قصته»[۳۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۰

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۷۹ الى ۸۱]

اشارة

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۷۹) وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۸۰) وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (۸۱)

التّفسير

منافع الأنعام المختلفة:

تعود الآيات التى بين أيدينا للحديث مرّة اخرى عن علائم قدرة الخالق (جلّ و علا) و مواهبه العظيمة لبنى البشر، و تشرح جانبا منها

کی تزید من وعی الإنسان و معرفته باللّه تعالی، و لیندفع نحو الثناء و الشکر فیزداد معرفة بخالقه.

یقول تعالی: اللَّهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْکَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْکُلُونَ

فبعضها یختص بالغذاء کالأغنام، و بعضها للرکوب و الغذاء کالجمال التی تعتبر بحق سفن الصحاری.

«أنعام» جمع «نعم» علی وزن «قلم» و تطلق فی الأصل علی الجمال، لکنّها توسعت فیما بعد لتشمل الجمال و البقرة و الأغنام، و المصطلح مشتق من «النعمة»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۱

بسبب أنّ أحد أکبر النعم علی الإنسان هی هذه الأنعام. و فی یومنا هذا- بالرغم من تقدم التکنولوجیا فی مجال النقل البری و الجوی- إلّا أنّ الإنسان ما زال یستفید من الأنعام، خصوصا فی الأماکن الصحراویة الرملیة، التی یصعب فیها استخدام وسائل النقل الأخری. و یتمّ استخدام الأنعام و الحیوانات فی بعض المضایق و المناطق الجبلیة، حیث یتعذر استخدام غیرها من وسائل النقل الحدیث.

لقد خلق اللّه الأنعام بأشکال مختلفة، و بروح تستسلم للإنسان و تنصاع إلیه و تخضع لأوامره و تلبی له احتیاجاته، فی حین أنّ بعضها أقوی من أقوی الناس، و هذا الانصیاع فی حدّ ذاته دلیل من أدلة الخالق العظیم الذی سخّر لعباده هذه الأنعام.

إنّ من الحیوانات الصغیرة ما یکون خطره ممیتا للإنسان، فی حین أن قافلة من الجمال یکفی صبی واحد لقیادها! إضافة لما سبق تقول الآیة التی بعدها: إنّ هناک منافع اخری: وَ لَکُمْ فِیها مَنافِعُ

الإنسان یستفید من لبنها و صوفها و جلدها و سائر أجزائها الأخری، بل یستفید حتی من فضلاتها فی تسمید الأرض و إخصاب الزرع. و خلاصة القول: إنّه لا یوجد شیء غیر نافع فی وجود هذه الأنعام، فکل جزء منها مفید و نافع، حتی أنّ الإنسان بدأ یستخلص بعض الأدویة من امصال هذه الحیوانات، و الملفت أن «منافع» جاءت نکرة فی الآیة لتبیّن أهمیة ذلک).

ثم تضیف الآیة: وَ لِتَبْلُغُوا عَلَیْها حاجَةً فِی صُدُورِکُمْ

احتمل بعض المفسّرین أن معنی الآیة ینصرف إلی حمل الأثقال الذی یتمّ بواسطة الأنعام، لکن یحتمل أن یکون المقصود بقوله تعالی: حاجَةً فِی صُدُورِکُمْ الإشارة إلی بعض المقاصد و الأهداف و الرغبات الشخصیة، إذ یستفاد من الإنعام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۲

فی الترفیه و الهجرة و السیاحة و التسابق و التفاخر، و ما إلی ذلک من رغبات تنطوی علیها نفس الإنسان.

و لأنّ الأنعام تعتبر وسیلة سفر علی الیابسة، لذلک تقول الآیة فی نهایتها:

وَ عَلَیْها وَ عَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ هناک بحث عن منافع الحیوانات یمکن مراجعته أثناء الحدیث عن الآیة الخامسة من سورة النحل).

لقد جاء التعبیر القرآنی «علیها» (أی الأنعام) بالرغم من الإشارة المباشرة إلیها سابقا، لیکون مقدمة لذکر (الفلک). و المعنی أنّ اللّه جلّ و علا سخّر لکم الوسائل فی البر و البحر للانتقال و لحمل الأثقال کی تستطیعوا أن تبلغوا مقاصدکم بسهولة.

لقد جعلت للسفینة صفة خاصة بحیث تستطیع أن تبقی علی سطح الماء بالرغم من الأثقال و الأوزان الکبیرة التی علیها، و جعل اللّه تعالی الحرکة فی الریح بحیث تستطیع الفلک الاستفادة منها لتحدید وجهة سفر الإنسان و مقصده.

الآیة الأخیرة هی قوله تعالی: وَ یُرِیکُمْ آیاتِهِ فَأَیَّ آیاتِ اللَّهِ تُنْکِرُونَ هل تستطیعون إنکار آیاته فی الآفاق و فی أنفسکم؟ أم هل تنکرون آیاته فی خلقکم من تراب و تحویلکم عبر مراحل الخلق إلی ما أنتم علیه، أم أنّکم تنکرون آیاته فی الحیاة و الموت و المبدأ و المعاد؟ و هل یمکنکم إنکار آیاته فی خلق السماء و الأرض أو اللیل و النهار، أو خلقه لأمور تساعد فی استمرار حیاتکم کالأنعام و غیرها؟

أینما تنظر و تمد البصر فثمة آیات اللّه و آثار العظمة فی خلقه سبحانه و تعالی:

«عمیت عین لا تراک».

یقول المفسّر الکبیر العلّامة «الطبرسی» فی تفسیره «مجمع البیان» فی جوابه علی هذا السؤال: ما هو سبب مثل هذا الإنکار مع وضوح الدلائل و العلامات؟

یقول: إنّ ذلک یمکن أن یعود إلی ثلاثة أسباب هی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۳

۱- عبادة الأهواء و الانقیاد إلیها، لأنّ ذلک یؤدی إلی حجب الإنسان عن رؤیة الحق، (و ینساق وراء غرائزه، لأنّ الحق یحدّد هذه الغرائز من خلال فرض التکالیف و الوظائف الربانیة. لذلک یعمد هؤلاء إلی إنکار الحق برغم دلائله الواضحة).

۲- التقلید الأعمی للآخرین- خصوصا السابقین- و هذا أمر یحجب الإنسان عن الحق.

۳- الأحکام و الإعتقادات الباطلة المترسخة فی وعی الإنسان، فیذعن لها و تحجبه عن دراسة الحق و الانفتاح علی آیات اللّه تبارک و تعالی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۴

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۸۲ الی ۸۵]

اشارة

أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کانُوا أَکْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِی الْأَرْضِ فَما أَغْنی عَنْهُمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ (۸۲) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۸۳) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ کَفَرْنا بِما کُنَّا بِهِ مُشْرِکِینَ (۸۴) فَلَمْ یَکُ یَنْفَعُهُمْ إِیمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ (۸۵)

التّفسیر

لا ینفع الإیمان عند نزول العذاب:

هذه الآیات هی آخر مجموعة من سورة المؤمن، و نستطیع أن نعتبرها نوعا من الاستنتاج للبحوث السابقة، فبعد بیان کلّ الآیات الإلهیة فی الآفاق و الأنفس، و کل تلک المواعظ اللطیفة التی تحدثت عن المعاد، و محکمة البعث الکبیرة، هددت هذه الآیات الکافرین المستکبرین و المنکرین المعاندین تهدیدا شدیدا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۵

و واجهتهم بالمنطق و الاستدلال، و أوضحت لهم عاقبة أعمالهم.

فأوّلا تقول: أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ

فإذا کان عندهم شک فی صحة التأریخ المدون علی الأوراق، فهل عندهم شک فیما یلمسونه من الآثار الموجودة علی سطح الأرض، من القصور الخربة للملوک، و العظام النخرة تحت التراب، أو المدن التی أصابها البلاء و العذاب و بقیت آثارها شاهدة علی ما جری علیها؟! فأولئک: کانُوا أَکْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِی الْأَرْضِ حیث یمکن معرفة عددهم و قوّتهم من آثارهم المتمثلة فی قبورهم و قصورهم و مدنهم.

عبارة: آثاراً فِی الْأَرْضِ سبق تفسیرها فی الآیة (۲۱) من نفس السورة- فلعلها إشارة إلی تقدمهم الزراعی، کما جاء فی الآیة (۹) من

سورة الروم، أو إشارة إلى النباء العظیم للأقوام السابقین فی قلب الجبال و السهول ۳۰۶].

و مع هذه القوّة و العظمة التی کانوا یتمتعون بها، فإنّهم لم یستطیعوا مواجهة العذاب الإلهی: فَما أَغْنی عَنْهُمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ ۳۰۷].

بل إنّ کلّ قواهم و قدراتهم أبیدت خلال لحظات قصیرة، حیث خربت القصور و هلکت الجیوش التی کان یلوذ بها الظالمون ... و سقطوا کما تسقط أوراق الخریف، أو أغرقوا فی خضم الأمواج العاتیة.

فإذا کان هذا هو مصیر أولئک السابقین مع کلّ ما لدیهم، فبأی مصیر- یا تری- یفکّر مشرکو مکّة و هم أقل من أولئک؟! الآیة التی بعدها تنتقل للحدیث عن تعاملهم مع الأنبیاء و معاجز الرسل البینة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۶

حیث یقول تعالی: فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۳۰۸] أیّ إنّهم فرحوا بما عندهم من المعلومات و الأخبار، و صرفوا وجوههم عن الأنبیاء و أدلتهم. و کان هذا الأمر سببا لأن ینزل بهم العذاب الالهی: وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ

و ذکر المفسّرون احتمالات عدیدة عن حقیقة العلم الذی کان عندهم، و الذی اغتروا به و شعروا معه بعدم الحاجة إلی تعلیمات الأنبیاء، و الاحتمالات هذه هی:

أوّلا: لقد کانوا یظنون أنّ الشبهات الواهیة و السفسطة الفارغة هی العلم، و یعتمدون علیها. لقد ذکر القرآن الکریم أمثلة متعدّدة لهذا الاحتمال، کما فی قوله تعالی: مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ ۳۰۹] و الآیة حکایة علی لسانهم.

و ممّا حکاه القرآن عنهم أیضا، قوله تعالی: أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ[۳۱۰].

و قولهم فی الآیة (۲۴) من سورة الجاثیة: ما هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما یُهْلِکُنا إِلَّا الدَّهْرُ.

و هناک أمثلة اخری لإعاءاتهم.

ثانیا: المقصود بها العلوم المرتبطة بالدنیا و تدبیر أمور الحیاة، کما کان یدّعی «قارون» مثلا، کما یحکی عنه القرآن الکریم فی قوله تعالی: إِنَّما أُوتِیتُهُ عَلی عِلْمٍ عِنْدِی ۳۱۱].

ثالثا: المقصود بها العلوم ذات الأدلة العقلیة و الفلسفیة، حث کان یعتقد البعض ممن یمتلک هذه العلوم أنّ لا حاجة له للأنبیاء، و بالتالی فهو لا ینصاع لنبواتهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۷

و دلائل إعجازهم.

التفاسیر الآنفة الذکر لا تتعارض فیما بینها، لأنّها جمیعا تقصد اعتماد البشر علی ما لدیهم، و استعلاءهم بهذه «المعرفة» علی دعوات الرسل و معاجز الأنبیاء.

بل و اندفع هؤلاء حتی إلی السخریة بالوحی و المعارف السماویة.

لکن القرآن الکریم یذکر مآل غرور هؤلاء و علوّهم و تکبرهم إزاء آیات اللّه، حینما یقول: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ کَفَرْنا بِما کُنَّا بِهِ مُشْرِکِینَ

ثم تأتی النتیجة سریعا فی قوله تعالی: فَلَمْ یَکُ یَنْفَعُهُمْ إِیمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا.

لماذا؟ لأنّه عند نزول «الاستئصال» تغلق أبواب التوبة، و عادة ما یکون مثل هذا الإیمان إیمانا اضطراریا لیس له ثمرة الإیمان الاختیاری، إذ أنّه تحقق فی ظل شروط غیر عادیة، لذا من المحتمل جدّا أن یعود هؤلاء إلی سابق وضعهم عند ما ترتفع الشروط الاستثنائیة التی حلّت بهم.

لذلک لم یقبل من «فرعون» إیمانه و هو فی الأنفاس الأخیرة من حیاته و عند غرقه فی النیل.

و هذا الحکم لا یختص بقوم دون غیرهم، بل هو: سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ

ثم تنتهی الآیة بقوله تعالی: وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ

ففی ذلک الیوم عند ما ینزل العذاب بساحتهم سیفهم هؤلاء بأنّ رصیدهم فی الحیاة الدنیا لم یکن سوی الغرور و الظنون و الأوهام، فلم یبق لهم من دنیاهم سوی التبعات و العذاب الإلهی الألیم، و هل ثمّة خسران أکبر من هذا؟! و هکذا تنتهی السورة المبارکة (المؤمن) التی بدأت بوصف حال الکافرین المغرورین، ببیان نهایة هؤلاء و ما آل إلیه مصیرهم من العذاب و الخسران.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۸

المغرورون بالعلم!

فی الآیات المختلفة لهذه السورة المبارکة- کما أوضحنا ذلک- یتبیّن أنّ أساس انحراف قسم کبیر من الناس هو التکبر و الغرور.

قد یکون امتلاک المال من أسباب العلو و التکبر، أو کثرة الأفراد و امتلاک القدرات العسکریة. أو کمیة محدودة من المعلومات فی فرع من فروع المعرفة، یظن الإنسان أنّها کبیرة و کثیرة، فتدفعه إلی العلو و الاستغناء السخریة.

إنّ حالة عصرنا الراهن تعکس نموذج «الغرور العلمی» بشکل جلّی واضح، ففی ظل التقدم السریع الذی أحرزته المجتمعات المادیة فی المجالات العلمیة و التقنیة، نراها عمدت إلی إلغاء دور الدین من الحیاة، و قد سیطر الغرور العلمی علی بعض علماء الطبیعة الی درجة أنّهم تصوروا أن لا- یوجد فی هذا العالم شیء خارج اطار علومهم و معارفهم، و بما أنّهم لم یروا اللّه فی مختبراتهم أنکروا وجوده و جحدوا نعمته.

لقد ذهب بهم الغرور إلی أکثر من ذلک عند ما أصبحوا یجهرون أن الدین و وحی الأنبیاء إنّما کانا بسبب الجهل أو الخوف، أما و قد حلّ عصر التقدم العلمی فإنّ الحاجة إلی مثل هذه المسائل انعدمت تماما، بل و عمدوا إلی فرض تفسیر معین لتطوّر الحیاة یماشی ادعاءهم هذا، فقالوا: إنّ الحیاة الفکریة للبشر مرّت عبر المراحل الآتیة:

۱- مرحلة الأساطیر.

۲- مرحلة الدین.

۳- مرحلة الفلسفة.

۴- مرحلة العلم، و المقصود بها العلوم الطبیعیة.

بالطبع، نحن لا ننکر أنّ السلطة الدیکتاتوریة للکنیسة علی عقول الناس فی أوروبا، و شیوع الخرافات و أنواع التفکیر الأسطوری لقرون مدیدة فی تأریخ تلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۹

القارة، بالإضافة إلی القمع الذی کانت تمارسه طبقة رجال الدین الکنسی (الإکلیروس) هناک؛ کلّ هذه العوامل ساهمت- إلی درجة کبیرة- فی نمو المذاهب التی تقوم علی أساس رفض الدین و الإیمان و الغیب، و الاعتماد بدلا عنها علی أسس المادة و التجربة و الإلحاد.

و لحسن الحظ لم تستمر هذه المرحلة طویلا، إذا اجتمعت مجموعة عوامل و ساعدت للقضاء علی مثل هذه التصورات المنحرفة، و کأنّ العذاب قد مسّهم عند ما رکبهم الغرور و العلو.

فمن ناحیة أظهرت الحرب العالمیة الأولی و الثانیة أنّ التقدم العلمی و الصناعی قد جعل البشریة علی حافة السقوط و الدمار.

و من ناحیة ثانیة، فإنّ ظهور المفاسد الأخلاقیة و الاجتماعیة و القتل و الإبادة و أنواع الأمراض النفسیة، و سلسلة الاعتداءات المالیة و الجنسیة، کلّ ذلک کشف عن عجز العلوم و قصورها لوحدها عن بناء الحیاة الإنسانیة بشکل سلیم صحیح.

من جانب ثالث، عملت المساحات المجهولـة فی وعی الإنسان العلمی و قصوره عن الإحاطـة بکافة أسـباب الظواهر الطبیعیة و الحیاتیة إلی اعترافه بالعجز عن إدراک مطلق لأسباب المعرفة من خلال العلم وحده، فعاد الکثیر من العلماء إلی ساحة الإیمان و جادّة الدین، و ضعفت نوازع الدعاوی الإلحادیة.

و فی المعترک الصعب هذا تألق الإسلام بتعلیماته الشاملة و الجامعة، و بدأت موجات العودة نحو الإسلام الأصیل.

و نأمل أن تکون هـذه الیقظـة عمیقـة شاملـة قبل أن یشـمل البأس الإلهی مرّة اخری أجزاء من هـذا العالم، و نأمل أن تزول آثار ذلک الغرور باسم العلم حتی لا یکون مدعاة للخسران الکبیر.

اللّهم احفظنا من الغرور و من التکبر و العناد و حبّ الذات الذی یقودنا إلی الهلاک و سوء العاقبة و الافتضاح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۰

إلهی، اهد المجتمعات البشریة فی عصرنا الحاضر إلی ظل تعلیمات أنبیائک، قبل أن یشملهم بأسک الشدید أناس هذا العصر.

اللّهم، اجعلنا ممن یأخذ العبرة من مصیر الأقوام السالفة لکی لا نمسی عبرة للآخرین ...

أمین رب العالمین نهایة سورة المؤمن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۱

سورة فصّلت

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها أربع و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۳

«سورة فصّلت»

نظرة فی المحتوی العام للسورة:

سورة «فصلت» من السور المکیـة، و هی بـذلک لا تخرج فی مضامینها الأساسـیة عن مثیلاتها، بل تعکس فی محتواها کامل خصائص السور المکّیـة، من التأکیـد علی المعارف الإسـلامیة التی تتصل بالعقیـدة و بالحساب و الجزاء، و الوعیـد و الإنـذار، و بالبشـری للذین آمنوا.

لکن کون السورة مکّیة لا یعنی عدم اختصاصها بمواضیع معینة قد لا نجدها فیما سواها من السور القرآنیة الأخری.

بشکل عام یمکن الحدیث عن محتویات السورة من خلال الخطوط العریضة الآتیة:

أوّلاـ الترکیز علی موضوع القرآن و مـا یتصـل به من بحوث، کالإشـارة الصـریحة إلی حاکمیـة القرآن فی جمیع الأدوار و العصور، و صیـانته من أیّ تحریف، و قوّة منطقه و تماسـکه بحیث رأینا أعـداء اللّه یخشون حتی من الاستماع إلی آیاته، بل و یمنعون الناس من مجرّد الإنصات إلیه.

الآیتان (۴۱) و (۴۲) من السورة تتحدثان عن هذه النقطة بوضوح کامل، إذ یقول تعالی: وَ إِنَّهُ لَکِتابٌ عَزِیزٌ لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ

ثانیا: إثارة قضیة خلق السماء و الأرض، خاصة ما یتعلق ببدایة العالم الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۴

خلق من مادّة (الدخان) ثمّ مراحل نشوء الكرة الأرضية و الجبال و النباتات الحيوانات.

ثالثا: ثمّة فى السورة إشارات إلى عاقبة الأقوام المغرورين الأشقياء من الأمم السابقة، مثل قوم عاد و ثمود، و هناك إشارة قصيرة إلى قصة موسى عليه السّلام.

رابعا: تتضمّن السورة تهديد المشركين و إنذار الكافرين، مع ذكر آيات القيامة و ما يتعلق بشهادة أعضاء جسم الإنسان عليه، و توبيخ اللّه تبارك و تعالى لأمثال هؤلاء.

خامسا: تتناول السورة قسما من أدلة البعث و القيامة و خصوصياتهما.

سادسا: المواعظ و النصائح المختلفة التى تبعث فى الروح الحياة من خلال الدعوة إلى الاستقامة فى طريق الحق، و توجيه المؤمن نحو أسلوب التعامل المنطقى مع الأعداء و كيفية هدايتهم نحو اللّه.

سابعا: تنتهى السورة ببحث لطيف قصير عن آيات الآفاق و الأنفس، و تعود كرة اخرى إلى قضية المعاد.

فضيلة تلاوة السورة:

ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «من قرأ «حم السجدة» أعطى بكل حرف منها عشر حسنات»[۳۱۲].

و

فى حديث آخر حول فضيلة قراءة هذه السورة، قال الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ «حم السجدة» كانت له نورا يوم القيامة مد بصره و سرورا، و عاش فى هذه الدنيا مغبوطا محمودا»[۳۱۳].

و

فى حدث عن «سنن البيهقى» أنّ «خليل بن مرّة» كان يقول: إنّ النّبى لم ينم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۵

ليلة من الليالى قبل أن يقرأ سورتى «تبارك» و «حم السجدة».[۳۱۴]

و طبيعى أنّ هذه السورة المباركة بكل ما تتضمّن فى مضامينها العالية من أنوار و معارف و مواعظ إنّما تكون مؤثرة فيما لو تحولت تلاوتها إلى نور ينفذ إلى أعماق النفس، فتتحول فى حياة الإنسان المسلم إلى دليل من نور يقوده فى يوم القيامة نحو الصراط و الخلاص، لأنّ التلاوة مقدمة للتفكير، و التفكير مقدمة للعمل. إنّ تسمية السورة ب «فصلت» مشتق من الآية الثّالثة فيها. و إطلاق «حم السجدة» عليها لأنّها تبدأ ب «حم» و الآية (۳۷) فيها هى آية السجدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۶

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۲) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (۴)

وَ قالُوا قُلُوبُنا فِی أَکِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَیْهِ وَ فِی آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَیْنِنا وَ بَیْنِکَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (۵)

التّفسير

عظمة القرآن:

تـذكر الرّوايات أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان لا يكف عن عيب آلهة المشـركين، و يقرأ عليهم القرآن فيقولون: هذا شعر محمّد. و يقول بعضهم: بل هو كهانة. و يقول بعضهم: بل هو خطب.

و كان الوليد بن المغيرة شـيخا كبيرا، و كان من حكّام، العرب يتحاكمون إليه فى الأمور، و ينشدونه لأشعاره فما اختاره من الشعر كان مختارا، و كان له بنون لا يبرحون من مكّة، و كان له عبيـد عشـرة عنـد كلّ عبد ألف دينار يتجر بها، و ملك القنطار فى ذلك الزمان (القنطار: جلد ثور مملوء ذهبا) و كان من المستهزئين برسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۷

و فى يوم سأل أبو جهل الوليد بن المغيرة قائلا له:

يا أبا عبد شمس، ما هذا الذى يقول محمّد؟ أسحر أم كهان أم خطب؟

فقال: دعونى أسمع كلامه، فدنا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هو جالس فى الحجر، فقال: يا محمّد أنشدنى من شعرك.

قال صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: ما هو بشعر، و لكنّه كلام اللّه الذى به بعث أنبياءه و رسله.

فقال: اتل علىّ منه.

فقرأ عليه رسول اللّه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فلمّا سـمع (الوليد) الرحمن استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمّى الرحمن، قال: لا، و لكنى أدعو إلى اللّه و هو الرحمن الرحيم.

ثم افتتـح سورة «حم السـجدة»، فلمّا بلغ إلى قوله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ فلمّا سـمعه اقشـعر جلده، و قامت كلّ شعرة فى رأسه و لحيته، ثمّ قام و مضى إلى بيته و لم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أبا الحكم، صبأ أبو عبـد شـمس إلى دين محمّـد، أما تراه لم يرجع إلينا؟ و قـد قبل قوله و مضـى إلى منزله، فاغتمت قريش من ذلك غما شديدا.

و غدا عليه أبو جهل فقال: يا عم، نكست برؤوسنا و فضحتنا.

قال: و ما ذلك يا ابن أخ؟

قال: صبوت إلى دين محمّد.

قال: ما صبوت، و إنى على دين قومى و آبائى، و لكنى سمعت كلاما صعبا تقشعر منه الجلود.

قال أبو جهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب هى؟

قال: إن الخطب كلام متصل، و هذا كلام منثور، و لا يشبه بعضه بعضا، له

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۸

طلاوة.

قال: فكهانة هى؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعنى أفكّر فيه.

فلمّا كان من الغدو قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟

قال: قولوا هو سحر، فإنّه آخذ بقلوب الناس، فأنزل اللّه تعالى فيه: ذَرْنِى وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً وَ بَنِينَ شُهُوداً إلى قوله: عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ[۳۱۵][۳۱۶].

إنّ هذه الرّواية الطويلة تكشف بوضوح مدى تأثير آيات هذه السورة، بحيث أنّ أكثر المتعصبين من مشركى مكّة أبدى تأثره بآياتها، و ذلك يظهر جانبا من جوانب العظمة فى القرآن الكريم.

نعود الآن إلى المجموعة الأولى من آيات هذه السورة المباركة، التى تطالعنا بالحروف المقطعة فى أوّلها حم

لقد تحدثنا كثيرا عن تفسير هذه الحروف، و لا نرى حاجة للإعادة سوى أنّ البعض اعتبر حم اسما للسورة. أو أنّ (ح) إشارة إلى «حميد» و (م) إشارة إلى «مجيد» و حميد و مجيد هما من أسماء اللّه العظمى.

ثم تتحدث عن عظمة القرآن فتقول: تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إنّ «الرحمة العامة» و «الرحمة الخاصة» للّه تعالى هما باعث نزول هذه الآيات الكريمة التى هى رحمة للعدو و الصديق. و لها بركات خاصة للأولياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۹

فى الواقع إنّ الرحمة هى الصفة البارزة لهذا الكتاب السماوى العظيم، التى تتجسّد من خلال آياته العطرة التى تفوح بشذاها و نورها فتضىء جوانب الحياة، و تسلك بالإنسان مسالك النجاة و الرضوان.

بعد التوضيح الاجمالى الذى أبدته الآية الكريمة حول القرآن، تعود الآيات التالية إلى بيان تفصيلى حول أوصاف هذا الكتاب السماوى العظيم، و ذكرت له خمسة صفات ترسيم الوجه الأصلى للقرآن:

فتقول أوّلا: إنّه كتاب ذكرت مطاليبه و مواضيعه بالتفصيل كلّ آية فى مكانها الخاص، بحيث يلبّى احتياجات الإنسان فى كلّ المجالات و الأدوار و العصور، فهو: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ ۳۱۷].

و هو كتاب فصيح و ناطق قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و هذا الكتاب بشير للصالحين نذير للمجرمين: بَشِيراً وَ نَذِيراً إلّا أنّ أكثرهم: فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۳۱۸].

بناء على ذلك فإنّ أول خصائص هذا الكتاب هو أنّه يتضمّن فى تشريعاته و تعاليمه كلّ ما يحتاجه الإنسان و فى جميع المستويات، و يلبى ميوله و رغباته الروحية.

الصفة الثانية أنّه متكامل، لأنّ «قرآن» مشتق من القراءة، و هى فى الأصل بمعنى جمع أطراف و أجزاء الكلام.

الصفة الثّالثة تتمثل بفصاحة القرآن و بلاغته، حيث يذكر الحقائق بدقّة بليغة دون أى نواقص. و فى نفس الوقت يعكسها بشكل جميل و جذّاب.

الصفتان الرابعة و الخامسة تكشفان عن عمق التأثير التربوى للقرآن الكريم، عن طريق أسلوب الإنذار و الوعيد و التهديد و الترغيب، فآية تقوم بتشويق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۰

الصالحين و المحسنين بحيث أنّ النفس الإنسانية تكاد تطير و تتماوج فى أشواق الملكوت و الرحمة. و أحيانا تقوم آية بالتهديد و

الإنذار بشكل تقشعر منه الأبدان لهول الصورة و عنف المشهد.

إنّ هذين الأصلين التربويين (الترغيب و التهديد) متلازمان في الآيات القرآنية و مترابطان في أسلوبه.

و مع ذلك فإنّ المتعصبين المعاندين لا يتفاعلون مع حقائق الكتاب المنزل، و كأنّهم لا يسمعونها أبدا بالرغم من السلامة الظاهرية لأجهزتهم السمعية، إنّهم في الواقع يفتقدون لروح السماع و إدراك الحقائق، و وعي محتويات النذير و الوعيد القرآني.

و هؤلاء- كمحاولة منهم لثني الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم عن دعوته، و ايغالا منهم في الغي و في زرع العقبات- يتحدثون عند رسول اللّه بعناد و علو و غرور حيث يحكي القرآن عنهم: وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ

ما دام الأمر كذلك فاتركنا و شأننا، فاعمل ما شئت فإننا عاكفون على عملنا:

فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ

حال هؤلاء كحال المريض الأبله الذي يهرب من الطبيب الحاذق، و يحاول أن يبعد نفسه عنه بشتى الوسائل و الأساليب.

إنّهم يقولون: إنّ عقولنا و أفكارنا موضوعة في علب مغلقة بحيث لا يصلها شيء.

«أكنّة» جمع «كنان» و تعني الستار. أي أن الأمر لا يقتصر هنا على ستار واحد، بل هي ستائر من العناد و التقليد الأعمى، و أمثال ذلك ممّا يحجب القلوب و يطبع عليها.

و قالوا أيضا: مضافا إلى أنّ عقولنا لا تدرك ما تقول، فإنّ آذاننا لا تسمع لما

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۱

تقول أيضا، و هي منهم إشارة إلى عطل المركز الأصلي للعمل و الوسائل المساعدة الأخرى.

و بعد ذلك، فإن بيننا و بينك حجاب سميك، بحيث حتى لو كانت آذاننا سالمة فإننا لا نسمع كلامك، فلما ذا- إذا- تتعب نفسك، لماذا تصرخ، تحزن، تقوم بالدعوة ليلا و نهارا؟ اتركنا و شأننا فأنت على دينك و نحن على ديننا.

هكذا ... بمنتهى الوقاحة و الجهل، يهرب الإنسان بهذا الشكل الهازل عن جادة الحق.

و الطريف أنّهم لم يقولوا: «و بيننا و بينك حجاب» بل أضافوا للجملة كلمة «من» فقالوا: وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ و ذلك لبيان زيادة التأكيد، لأنّ بزيادة هذه الكلمة يصبح مفهوم الجملة هكذا: إنّ جميع الفواصل بيننا و بينك مملوءة بالحجب، و طبيعي أن يكون حجاب مثل هذا سميكا عازلا للغاية ليستوعب كلّ الفواصل بين الطرفين، و بذلك سوف لا ينفع الكلام مع وجود هذا الحجاب.

و قد يكون الهدف من قول المشركين: فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ محاولتهم زرع اليأس عند النّبي صلّى اللّه عليه و اله و سلّم. أو قد يكون المراد نوعا من التهديد له، أي اعمل ما تستطيعه و نحن سوف نبذل ما نستطيع ضدّك و ضدّ دينك، و التعبير يمثل منتهى العناد و التحدي الأحمق للحق و لرسالاته.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۲

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (۶) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۸)

التّفسير

من هم المشركون؟

الآيات التى بين أيدينا تستمر فى الحديث عن المشركين و الكافرين، و هى فى الواقع إجابة لما صدر عنهم فى الآيات السابقة، و إزالة لأى و همّ قد يلصق بدعوة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

يقول تعالى لرسوله الكريم: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ.

فلا أدّعى أنّى ملك، و لست إنسانا أفضل منكم، و لست بربّكم، و لا ابن اللّه بل أنا إنسان مثلكم، و أختلف عنكم بتعليمات التوحيد و النبوّة و الوحى، لا أريد أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۳

أفرض عليكم دينى حتى تقفوا أمامى و تقاومونى أو تهددوننى، لقد أوضحت لكم الطريق، و إليكم يعود التصميم و القرار النهائى.

ثمّ تستمر الآية: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ ۳۱۹].

ثمّ تضيف الآية محذّرة: وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ

الآية التى تليها تقوم بتعريف المشركين، و تسلّط الضوء على جملة من صفاتهم و تختص هذه الآية بذكرها، حيث يقول تعالى: الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ

إنّ هؤلاء يعرفون بأمرين: ترك الزكاة، و إنكار المعاد.

لقد أثارت هذه الآية كلاما واسعا فى أوساط المفسّرين، و ذكروا مجموعة احتمالات تفى تفسيرها، و السبب فى كلّ ذلك هو أنّ الزكاة من فروع الدين، فكيف يكون تركها دليلا على الكفر و الشرك؟

البعض أخذ بظاهر الآية و قال: إنّ ترك الزكاة يعتبر من علائم الكفر، بالرغم من عدم تلازمه مع إنكار وجوبه.

البعض الآخر اعتبر الترك مع تلازم الإنكار دليلا على الكفر، لأنّ الزكاة من ضروريات الإسلام و منكرها يعتبر كافرا.

و قال آخرون: الزكاة هنا بمعنى التطهير و النظافة، و بذلك يكون المقصود بترك الزكاة، ترك تطهير القلب من لوث الشرك، كما جاء فى الآية (۸۱) من سورة الكهف فى قوله تعالى: خَيْراً مِنْهُ زَكاةً.

إلّا أنّ كلمة (لا يؤتون) لا تناسب المعنى أعلاه، لذلك يبقى الإشكال على حاله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۴

لذلك لا يبقى من مجال سوى أن يكون المقصود منها هو أداء الزكاة.

المشكلة الأخرى التى تواجهنا هنا، هى أن الزكاة شرّعت فى العام الثّانى من الهجرة المباركة، و الآيات التى بين أيدينا مكية، بل يذهب بعض كبار المفسّرين إلى أنّ سورة «فصلت» هى من أوائل السور النازلة فى مكّة، لذلك كلّه- و بغية تلافى هذه المشكلة- فسّر المفسّرون الزكاة هنا بأنها نوع من الإنفاق فى سبيل اللّه، أو أنّهم تأولوا المعنى بقولهم: إنّ أصل وجوب الزكاة نزل فى مكّة، إلّا أنّ حدودها و مقدارها و النصاب الشرعى لها نزل تحديده فى العام الثّانى من الهجرة المباركة.

يتبيّن من كلّ ما سلف أنّ أقرب مفهوم لمقصود الزكاة فى الآية هو المعنى العام للإنفاق، أما كون ذلك من علائم الشرك، فيكون بسبب أنّ الإنفاق المالى فى سبيل اللّه يعتبر من أوضح علامات الإيثار و الحب للّه، لأنّ المال يعتبر من أحبّ الأشياء إلى قلب الإنسان و نفسه، و بذلك فإنّ الإنفاق- و عدمه- يمكن أن يكون من الشواخص الفارقة بين الإيمان و الشرك، خصوصا فى تلك المواقف التى يكون فيها المال بالنسبة للإنسان أقرب إليه من روحه و نفسه، كما نرى ذلك واضحا فى بعض الأمثلة المنتشرة فى حياتنا.

بعبارة اخرى: إنّ المقصود هنا هو ترك الإنفاق الذى يعتبر أحد علامات عدم إيمانهم بالخالق جلّ و علا، و الأمر من هذه الزاوية

بالذات يقترن بشكل متساوى مع عدم الإيمان بالمعاد، أو يكون ترك الزكاة ملازما لإنكار وجوبه.

و ثمّة ملاحظة اخرى تساعد فى فهم التّفسير، و هى أنّ الزكاة لها وضع خاص فى الأحكام و التعاليم الإسلامية، و إعطاء الزكاة يعتبر علامة لقبول الحكومة الإسلامية و الخضوع لها، و تركها يعتبر نوعا من الطغيان و لمقاومة فى وجه الحكومة الإسلامية، و نعرف أنّ الطغيان ضدّ الحكومة الإسلامية يوجب الكفر.

و الشاهد على هذا المطلب ما ذكره المؤرخون من «اصحاب الرّدة» و أنّهم من

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۵

«بنى طى» و «غطفان» و «بنى اسد» الذين امتنعوا عن دفع الزكاة لعمال الحكومة الإسلامية فى ذلك الوقت، و بهذا رفعوا لواء المعارضة فقاتلهم المسلمون و قضوا عليهم.

صحيح أنّ الحكومة الإسلامية لم يكن لها وجود حين نزول هذه الآية و لكن هذه الآية يمكنها أن تكون إشارة مجملة الى هذه القضية.

و قد ذكر فى التواريخ أن أهل الردّة قالوا بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «أمّا الصلاة فنصلى، و أمّا الزكاة فلا يغصب أموالنا» و هكذا رأى المسلمون ضرورة قتالهم و قمع الفتنة.

الآية الأخيرة تقوم بتعريف مجموعة تقف فى الجانب المقابل لهؤلاء المشركين البخلاء، و تتعرض إلى جزائهم حيث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

«ممنون» مشتق من «منّ» و تعنى هنا القطع أو النقص، لذا فإنّ غير ممنون تعنى هنا غير مقطوع أو منقوص.

و قيل إنّ مصطلح «منون»- على وزن «زبون»- و يعنى الموت مشتق من هذه المفردة، و كذلك المنّة باللسان، لأنّ الأوّل يعنى القطع و نهاية العمر، بينما الثانى يعنى قطع النعمة و الشكر[۳۲۰].

و ذهب بعض المفسّرين إلى القول بأنّ المقصود ب غَيْرُ مَمْنُونٍ أنّه لا توجد أىّ منّة على المؤمنين فيما يصلهم من أجر و جزاء و عطاء. لكن المعنى الأوّل أنسب.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۶

ملاحظة

الأهمية الاستثنائية للزكاة فى الإسلام:

الآية أعلاه تعتبر تأكيدا مجدّدا و شديدا حول أهمية الزكاة كفريضة إسلامية، سواء كانت بمعنى الزكاة الواجبة أو بمفهومها الواسع، و ينبغى أن يكون ذلك، لأنّ الزكاة تعتبر أحد الأسباب الرئيسية لتحقيق العدالة الاجتماعية، و محاربة الفقر و المحرومية، و ملء الفواصل الطبقية، بالإضافة إلى تقوية البنية المالية للحكومة الإسلامية، و تطهير النفس من حبّ الدنيا و حبّ المال، و الخلاصة: إنّ الزكاة وسيلة مثلى للتقرب إلى اللّه تبارك و تعالى:

و قد ورد فى الروايات الإسلامية أن ترك الزكاة يعتبر بمنزلة الكفر، و هو تعبير يشبه ما ورد فى الآية التى نحن بصددها.

و فى هذا المجال نستطيع أن نقف مع الأحاديث الآتية:

أوّلا:

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ من وصايا رسول اللّه لأمير المؤمنين على بن أبى طالب قوله له: «يا على كفر باللّه العظيم

من هـذه الأئمّـة عشـرة، و عـدّ منهم مانع الزكاة ... ثمّ قال: يا على من منع قيراطا من زكاة ماله فليس بمؤمن و لا مسـلم و لا كرامـة، يا على: تارك الزكاة يسأل اللّه الرجعة إلى الدنيا، و ذلك قوله عزّ و جلّ: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ...[۳۲۱].

ثانيا:

فى حـديث آخر عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام أنّه قـال: «إنّ اللّه عزّ و جـلّ فرض للفقراء فى أموال الأغنيـاء فريضـة لا يحمـدون إلا بأدائها، و هى الزكاة، بها حقنوا دماءهم و بها سموا مسلمين»[۳۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۷

ثالثا: أخيرا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «من منع قيراطا من الزكاة فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا»[۳۲۳].

و تقدم بحث مفصل عن أهمية الزكاة فى الإسلام و فلسفتها و تأريخ وجوب الزكاة فى الإسلام، و كل ما يتعلق بها من أمور، فى تفسير الآية (۶۰) من سورة التوبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۸

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

قُـلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْـداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (۹) وَ جَعَلَ فِيها رَواسِـىَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (۱۰) ثُمَّ اسْـتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِىَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (۱۱) فَقَضاهُنَّ سَـبْعَ سَـماواتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِى كُلِّ سَـماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الـدُّنْيا بِمَصابِيـحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۱۲)

التّفسير

مراحل خلق السماوات و الأرض:

الآيات أعلاه نماذج للآيات الآفاقية، و علائم العظمة، و قدرة الخلق جلّ و علا فى خلق الأرض و السماء، و بداية خلق الكائنات، حيث يأمر تعالى النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بمخاطبة الكافرين و المشركين و سؤالهم: هل يمكن إنكار خالق هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۹

العوالم الواسعة العظيمة؟

لعلّ هذا الأسلوب يوقظ فيهم إحساسهم و وجدانهم فيحتكمون للحق.

يقول تعالى: قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ و تجعلون للّه تعالى شركاء و نظائر: وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً.

إنّه لخطأ كبير، و كلام يفتقد إلى الدليل. ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ

إنّ الذى يدبّر أمور هذا العالم، أ ليس هو خالق السـماء و الأرض؟ فإذا كان سـبحانه و تعالى هو الخالق، فلما ذا تعبدون هذه الأصنام و تجعلونها بمنزلته؟! إنّ الذى يستحق العبادة هو الذى يقوم بالخلق و التدبير، و يملك هذا العالم و يحكمه.

الآية التى تليها تشـير إلى خلق الجبال و المعادن و بركات الأرض و المواد الغذائية، حيث تقول: وَ جَعَلَ فِيها رَواسِىَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ

فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام و هذه المواد الغذائية هى بمقدار حاجة المحتاجين: سَواءً لِلسَّائِلِينَ ۳۲۴].

و بهذا الترتيب فإنّ تبارك و تعالى قد دبّر لكلّ شىء قدره و حاجته، و ليس ثمّة فى الوجود من نقص أو عوز، كما فى الآية (۵۰) من سورة «طه» حيث قوله تعالى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى

المقصود من «السائلين» هنا هم الناس، أو أنّها تشمل بشكل عام الإنسان و الحيوان و النبات [و إذا ذكرت بصيغة الجمع للعاقب فهى من باب التغليب .

و وفق هذا التّفسير فإنّ اللّه تعالى لم يحدّد احتياجات الإنسان لوحده منذ البداية و حسب، و إنّما فعل ذلك للحيوانات و النباتات أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۰

و هنا يثار هذا السؤال: تذكر الآيات القرآنية- أعلاه- أنّ خلق الأرض تمّ فى يومين، و خلق الجبال و البركات و الطعام فى أربعة أيّام. و بعد ذلك خلق السماوات فى يومين، و بذا يكون المجموع ثمانية أيّام، فى حين أن أكثر من آية فى كتاب اللّه تذكر أنّ خلق السماوات و الأرض تمّ فى ستة أيّام، أو بعبارة اخرى: فى ستة مراحل ۳۲۵]؟

سلك المفسّرون طريقان فى الإجابة على هذا السؤال:

الطريق الأوّل: و هو المشهور المعروف، و مفاده أنّ المقصود بأربعة أيّام هو تتمة الأربعة أيّام، بأن يتم فى اليومين الأولين من الأربعة خلق الأرض، و فى اليومين الآخرين خلق باقى خصوصيات الأرض. مضافا إلى ذلك اليومين لخلق السماوات، فيكون المجموع ستة أيّام أو ست مراحل.

و شبيه ذلك ما يرد فى اللغة العربية من القول مثلا بأنّ المسافة من هنا إلى مكّة يستغرق قطعها عشرة أيّام، و إلى المدينة المنورة (۱۵) يوما، أى إنّ المسافة بن مكّة و المدينة تكون خمسة أيام و من هنا إلى مكّة عشرة أيّام ۳۲۶].

و هذا التّفسير صحيح لوجود مجموعة الآيات التى تتحدث عن الخلق فى ستة أيّام، و إلّا ففى غير هذه الحالة لا يمكن الركون له، من هنا تتبين أهمية ما يقال من أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا.

الطريق الآخر الذى اعتمده المفسّرون للإجابة على الإشكال أعلاه هو قولهم:

إنّ أربعة أيّام لا تختص ببداية الخلق، بل هى إشارة إلى الفصول الأربعة للسنة، و التى هى بداية ظهور الأرزاق و نمو المواد الغذائية التى تنفع الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۱

و الحيوان ۳۲۷].

لكن هذا التّفسير فضلا عن أنّه لا يلائم الآيات أعلاه، فإنّه أيضا يقصر «اليوم» فيما يتعلق بالأرض و لمواد الغذائية و حسب، لأنّ معناه يتعلق بالفصول الأربعة فقط، بينما لا حظنا أن «يوم» فى معنى خلق السماوات و الأرض يعنى بداية مرحلة! مضافا لذلك تكون النتيجة اختصاص يومين من الأيّام الستة لخلق الأرض، و يومين آخرين لخلق السماوات، أمّا اليومان الباقيان اللذيان يتعلقان بخلق الكائنات بين السماء و الأرض «ما بينهما» فليس هناك إشارة إليهما! من كلّ ذلك يتبيّن أنّ التّفسير الأوّل أجود.

و قد لا تكون هناك حاجة للقول بأنّ «اليوم» فى الآيات أعلاه هو حتما غير اليوم العادى، لأنّ اليوم بالمعنى العادى لم يكن قد وجد قبل خلق السماوات و الأرض، بل المقصود بذلك هو مراحل الخلق التى استنفذت من الزمن أحيانا ملايين بل و بلايين السنين.[۳۲۸]

ملاحظتات

تبقى أمامنا ملاحظتان ينبغي أن نشير إليهما:

أوّلا: ما هو المقصود من قوله تعالى: بارَکَ فِيها؟

الظاهر أنّها إشارة إلى المعادن و الكنوز المستودعة فى باطن الأرض، و ما على الأرض من أشجار و أنهار و نباتات و مصادر للماء الذى هو أساس الحياة و البركة، حيث تستفيد منها جميع الاحياء الأرضية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۲

ثانيا: بما تتعلق الأيام الاربعة فى عبارة: فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام

بعض المفسّرين يعتقد أنّها تخص «الأقوات» فقط. لكنّها ليست كذلك، بل تشمل الأقسام الثلاثة المذكورة فى الآية (أى خلق الجبال، خلق المصادر و بركات الأرض، خلق الموارد الغذائية) لأنّه- خلافا لذلك- فإنّ بعض هذه الأمور سوف لا تدخل فى الأيام الواردة فى الآيات أعلاه، و هذا أمر لا يتناسب مع نظم الآيات و نظامها.

بعد الانتهاء من الكلام عن خلق الأرض و مراحلها التكاملية، بدأ الحديث عن خلق السماوات حيث تقول الآية: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً.

فكانت الإجابة: قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ

و فى هذه الأثناء: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ثم: وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها و أخيرا: وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً نعم: ذلِکَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم

فى الآيتين المتقدمتين تستلفت النظر عشر ملاحظات سنقف عليها خلال النقاط الآتية، التى ننهى من خلالها البحث فى هذه المجموعة من الآيات، و هى:

أولا: كلمة «ثم» تأتى عادة للإشارة إلى التأخير فى الزمان، و تأتى أحيانا للدلالة على التأخير فى البيان. فإذا كان المعنى الأوّل هو المقصود فسيكون المفهوم هو أنّ خلق السماوات تمّ بعد خلق الأرض و خلق الجبال و المعادن و المواد الغذائية. أما إذا كان المعنى الثّانى هو المقصود، فليس هناك مانع من أن تكون السماوات قد خلقت و بعدها تمّ خلق الأرض، و لكن عند البيان ذكرت الآية أوّلا خلق الأرض و الأرزاق و مصادرها التى يحتاجها البشر، ثمّ عرجت إلى ذكر قضية خلق السماء.

المعنى الثّانى بالإضافة إلى أنّه أكثر تناسقا و انسجاما مع الاكتشافات العلمية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۳

فهو أيضا يتفق مع الآيات القرآنية الأخرى، كقوله تعالى فى الآيات (۲۷- ۳۳) من سورة «النازعات»: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِکَ دَحاها أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها وَ الْجِبالَ أَرْساها مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ

إنّ هذه المجموعة من الآيات الكريمة تكشف بوضوح أنّ دحو و توسيع الأرض و تفجر العيون و نبات الأشجار و الموارد الغذائية، قد تمّ جميعا بعد خلق السماوات. أما لو فسّرنا معنى «ثم» بالتأخير فى الزمان، فعلينا أن نقول: إنّ كلّ تلك قد تكونت قبل خلق السماء، و هذا يتنافى مع المعنى الواضح للمراد من قوله تعالى: بَعْدَ ذلِکَ أى أن كلّ ما ذكر قد تم خلقه بعد ذلك (أى بعد السماوات).

و بذلك نفهم أن (ثم) هنا قد استخدمت للتدليل على التأخير البيانى ۳۲۹].

ثانيا: «استوى» من «استواء» و تعنى الاعتدال أو مساواة شيئين ببعضهما، و لكن ذهب علماء اللغة و التّفسير إلى أنّ هذه الكلمة عند ما تتعدّى ب «على» يصبح معناها الاستيلاء و التسلّط على شىء ما مثل الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ۳۳۰].

و عند ما تتعدى ب «إلى» فهى تعنى القصد، كما فى الآية التى نبحثها ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ اى قصد الى السماء.

ثالثا: جملة «هى دخان» تبيّن أن بداية خلق السماوات كان من سحب الغازات الكثيفة الكثيرة، و هذا الأمر يتناسب مع آخر ما توصلت إليه البحوث العلمية بشأن بداية الخلق و العالم.

و الآن فإنّ الكثير من النجوم السماوية هى على شكل سحب مضغوطة من الغازات و الدخان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۴

رابعا: قوله تعالى: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لا تعنى أن كلاما قد جرى باللفظ، و إنّما قول الخالق و أمره هو نفسه الأمر التكوينى، و هو عين إرادته فى الخلق. أما التعبير ب «طوعا أو كرها» فهو إشارة إلى أنّ الإرادة الإلهية الحتمية قد ارتبطت بتكوّن السماوات و الأرض. و المعنى أنّه يجب أن يحدث هذا الأمر شاءت أم أبت.

خامسا: الجملة فى قوله تعالى: أَتَيْنا طائِعِينَ تشير إلى أنّ المواد التى تتشكل منها السماء و الأرض من ناحية التكوين و الخلقة، كانت مستسلمة تماما لإرادة اللّه و أمره، فتقبلت شكلها المطلوب و لم تعترض أمام هذا الأمر الإلهى مطلقا.

و من الواضح أنّ هذا الأمر و هذا الامتثال ليس لهما طبيعة تكليفية و تشريعية، بل حدثت بمحض التكوين فقط.

سادسا: قوله تعالى: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ يشير إلى وجود مرحلتين فى خلق السماوات، كلّ مرحلة استمرت لملايين أو مليارات السنين، و كل مرحلة تتضمن مراحل اخرى، و من المحتمل أن تكون هاتان المرحلتان هما مرحلة تبديل الغازات المضغوطة إلى سوائل و مواد مذابة، ثمّ مرحلة تبديل المواد المذابة إلى مواد جامدة.

كلمة «يوم» استخدمت هنا- كما أشرنا سابقا- بمعنى مرحلة، و هو ممّا يشيع استخدامه فى عدّة لغات، و يشيع استخدامه أيضا فى كلامنا اليومى، فعند ما تقول مثلا: يوم لك و يوم عليك، إنّما تشير إلى مراحل الحياة المختلفة. (هناك بحث مفصل حول هذا الموضوع فى نهاية تفسير الآية (۵۴) من سورة الأعراف).

سابعا: إنّ العدد «سبع» ربّما جاء هنا للكثرة، بمعنى أنّ هناك سماوات كثيرة و أجرام كثيرة. و من المحتمل أن يكون الرقم للعدد، أى إن عدد السماوات هى سبع بالتحديد. و مع هذا التقييد فإنّ جميع ما نرى من كواكب و نجوم ثابتة و سيّارة هى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۵

من السماء الأولى، و بذلك يكون عالم الخلقة متشكلا من سبع مجموعات كبرى، واحدة منها فقط أمام أنظار البشرية، و إنّ الأجهزة العلمية الفلكية الدقيقة و بحوث الإنسان، لم تتوصل إلى ما هو أبعد من السماء الأولى.

و لكن كيف تكون العوالم الستة لأخرى؟ و ممّ تتشكّل؟ فهو أمر لا يعلمه إلّا اللّه تعالى.

و المعتقد هنا أنّ هذا التّفسير هو الأصح. (فى هذا الموضوع يمكن مراجعة نهاية تفسير الآية (۲۹) من سورة البقرة).

ثامنا: قوله تعالى: وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها تشير إلى أنّ المسألة لم تنته بخلق السماوات و حسب، بل إنّ فى كل منها مخلوقات و كائنات و نظام خاص و تدبير معين، بحيث أن كلّ واحدة تعتبر بحد ذاتها دليلا على العظمة و القدرة و العلم.

تاسعا: قوله تعالى: وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ تدل على أنّ جميع النجوم زينة للسماء الأولى، و تبدو فى نظر الإنسان كالمصابيح المعلقة فى سقف هذه السماء الزرقاء، و هى ليست للزينة و حسب، حيث تجذب بتلألؤها الخاص المتعاقب قلوب عشاق أسرار الخلقة، بل فى الليالى المعتمة تكون مصابيح للتائهين و أدلة لمن يسير فى الطريق، تعينهم على تعيين اتجاه الحركة.

أمّا «الشهب» التى تظهر كنجوم سريعة تظهر فى السماء بوميض سريع قبل أن تنطفئ، فهى فى الواقع سهام تستقر فى قلوب الشياطين و تحفظ السماء من نفوذهم. (راجع تفسير الآية ۱۷ من سورة الحجر و نهاية الآية السابعة من سورة الصافات).

عاشرا: قوله تعالى: ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ تكملة للجمل التسع السابقة، و تشكل بمجموعها عشرة كاملة، تقول: إنّ ما حدث فى السماء و الأرض منذ بداية الخلق إلى مرحلة التشكّل و النظام الدقيق، كان وفق برنامج محسوب و مقدّر، تمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۶

تنظيمه من قبل المبدأ الأزلى ذى العلم و القدرة المطلقتين، و إن أى تفكير فى أى بحر من هذه البحور يقودنا نحو المبدأ العظيم جلّت قدرته.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۷

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱۳ الی ۱۶]

اشارة

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (۱۳) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۱۴) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِی أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِی الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزی وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (۱۶)

التّفسير

أحذركم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود!

بعد البحث المهم الذی تضمّنته الآيات السابقة حول التوحيد و معرفة الخالق جلّ و علاه تنذر الآيات- التی بين أيدينا- المعارضين و المعاندين الذين تجاهلوا كلّ هذه الدلائل الواضحة و الآيات البينات، و تحذرهم أن نتيجة الإعراض نزول

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۸

العذاب بهم، يقول تعالی: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ[۳۳۱].

عليكم أن تخافوا هذه الصاعقة المميتة المحرقة التی إذا نزلت بساحتكم تنفيكم و تحل بداركم الدمار.

لاحظنا فی بداية هذه السورة المباركة أنّ بعض زعماء الشرك فی مكّة مثل «الوليد بن المغيرة» و برواية اخری «عتبة بن ربيعة» جاءوا إلی النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم للتحقيق حول القرآن و دعوة الرّسول و طرحوا عليه بعض الأسئلة و فی سياق إجابة رسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم لهم تلا عليهم الآيات الاولی من هذه السورة، و عند ما وصل النّبی فی تلاوته إلی الآيات أعلاه و هدّدهم بصاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود، ارتعشت أجسادهم و أصيبوا بالخوف بحيث أنّهم لم يكونوا قادرين علی الاستمرار فی الكلام، لذلك عادوا إلی قومهم و ذكروا لهم تأثرهم العميق و اضطرابهم و وجلهم من هذه الكلمات.

«الصاعقة» كما يقول الراغب فی المفردات، تعنی الصوت المهيب فی السماء، و يشتمل علی النّار أو الموت أو العذاب. (و لهذا السبب تطلق الصاعقة علی الموت أحيانا، و علی النّار و فی أحيان اخری).

و الصاعقة- وفقا للتحقيقات العلمية الراهنة- هی شرارة كهربائية عظيمة تحدث بين مجموعة من الغيوم التی تحمل الشحنات الكهربائية الموجبة، و بين الأرض التی تكون شحنتها «سالبة» و تصيب عادة قمم الجبال و الأشجار و أی شیء مرتفع، و فی الصحاری المسطحة تصيب الإنسان و الأنعام، كما أن حرارتها شديدة للغاية بحيث أنّها تحيل أی شیء تصيبه إلی رماد، و تحدث صوتا مهيبا و هزّة أرضية قوية فی المكان الذی تضربه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۹

اللّه تبارک و تعالی- كما تنص علی ذلک آيات القرآن- عاقب بعض الأقوام الأشقياء من الأمم السابقة بالصاعقة.

و الطريف هنا أنّ عالم اليوم برغم التقدم الهائل فی العلوم، بقی عاجزا عن اكتشاف وسيلة لمنع الصاعقة.

و سيبقی هذا السؤال: لماذا ذكر هنا قوم عاد و ثمود من بين جميع الأقوام السابقة؟

السبب یعود إلی أنّ العرب کانوا علی اطّلاع بخبر أولئک الأقوام، و کانوا قد شاهدوا بأعینهم آثار مدنهم المدمّرة، إضافة إلی أنّهم کانوا یعرفون أخطار الصواعق، لأنّهم یعیشون فی الصحراء و البادیة.

یواصل الحدیث القرآنی سیاقه بالقول: إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

إنّ استخدام تعبیر مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ هو إشارة إلی ما ذکرناه أعلاه من أنّ الأنبیاء قد استخدموا جمیع الوسائل و الأسالیب لهدایتهم، و حاولوا طرق کلّ الأبواب حتی ینفذوا إلی قلوبهم المظلمة.

و قد یکون التعبیر إشارة إلی الأنبیاء الذین بعثوا خلال أزمنة مختلفة إلی هؤلاء الأقوام، و طرحوا علیهم نداء التوحید.

لکن لنری ماذا کان جوابهم حیال هذه الجهود العظیمة الواسعة لرسل اللّه تعالی؟

یقول تعالی: قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِکَةً لإبلاغ رسالته بدلا من إرسال الناس.

و الآن و ما دام الأمر کذلک: فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ کافِرُونَ و ما جئتم به لا نعتبره من اللّه.

إنّ مفهوم هذا الکلام لا یعنی إیمان هؤلاء بأنّ هؤلاء رسل اللّه حقّا، و. أنّهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۰

لا یؤمنون بهم، و إنّما مفهوم الکلام رفض هؤلاء دعوة الرسل فی أنّهم مبلغوا رسالات اللّه من الأساس، حیث حملوهم علی الکذب و الادّعاء. (ذلک فإنّ جملة بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ هی للاستهزاء أو السخریة، أو أن یکون المقصود بها هو: طبقا لادعائکم بأنّکم رسل اللّه تبلغون عنه).

إنّها نفس الذریعة التی ینقلها القرآن مرارا علی لسان منکری النبوات و رسالات اللّه و مکذبی الرسل، من الذین کانوا یتوقعون أن یکون الأنبیاء دائما ملائکة، و کأنما البشر لا یستحقون مثل هذا المقام.

مثال ذلک قولهم فی الآیة (۷) من سورة الفرقان: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً.

إنّ قائد البشر یجب أن یکون من صنف البشر، کی یعرف مشاکل الإنسان و احتیاجاته و یحس آلامهم و یتفاعل مع قضایاهم، و کی یستطع أن یکون القدوة و الأسوة، لذلک یصرح القرآن فی الآیة (۹) من سورة «الأنعام» بقوله تعالی: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَکاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا.

بعد المجمل الذی بینته الآیات أعلاه، تعود الآیات الآن- کما هو أسلوب القرآن الکریم- إلی تفصیل ما أوجز من خبر قوم عاد و ثمود، فتقول: فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَکْبَرُوا فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً.

إنّ هؤلاء القوم کانوا یعیشون فی أرض «الأحقاف» من (حضرموت) جنوب الجزیرة العربیة، و کانوا یتصفون بوضع استثنائی فرید من حیث القوّة الجسمانیة و المالیة و التمدّن المادی، فکانوا یبنون القصور الجمیلة و القلاع المحکمة، خاصة فی الأماکن المرتفعة، حیث یرمز ذلک إلی قدرتهم و یکون وسیلة لاستعلائهم.

لقد کانوا رجالا مقاتلین أشدّاء، فأصیبوا بالغرور بسبب قدراتهم الظاهریة و مجدهم المادی، حتی ظنّوا أنّهم أفضل من الجمیع، و أنّ قوّتهم لا تقهر، و لذلک قاموا بتکذیب الرسل و الإنکار علیهم، و تکالبوا علی نبیّهم «هود».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۱

لکن القرآن یرد علی هؤلاء و دعواهم بالقول: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً.

ألیس الذی خلقهم خلق السماوات و الأرض؟

بل هل یمکن المقایسة بین هاتین القدرتین، فأین القدرة المحدودة الفانیة من القدرة المطلقة اللامتناهیة الأزلیة؟! ما للتراب و ربی الأرباب [۳۳۲]؟! تضیف الآیة فی النهایة قوله تعالی: وَ کانُوا بِآیاتِنا یَجْحَدُونَ

نعم، إنّ الإنسان الضعیف المحدود سوف یطغی بمجرّد أن یشعر بقلیل من القدرة و القوة، و أحیانا بدافع من جهله، فیتوهم أنّه یصارع

اللّه جلّ و علا!! لکن ما أسهل أن یبدل اللّه عوامل حیاته إلی موت و دمار، کما تخبرنا الآیة عن مآل قوم عاد: فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی أَیَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِیقَهُمْ عَذابَ الْخِزْیِ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا.

إنّ هذه الریح الصرصر، و کما تصرح بذلک آیات اخری، کانت تقتلعهم من الأرض بقوّة ثمّ ترطمهم بها، بحیث أصبحوا کأعجاز النخل الخاویة. (یلاحظ الوصف فی سورة «القمر» الآیة ۱۹- ۲۰ و سورة الحاقة الآیة ۶ فما بعد).

لقد استمرت هذه الریح سبع لیال و ثمانیة أیّام، و حطّمت کیانهم و کل وسائل عیشهم، نکالا بما رکبوا من حماقة و علوا و غرور، و لم یبق منهم سوی أطلال تلک القصور العظیمة، و آثار تلک الحیاة المرفهة.

هذا فی الدنیا، و هناک فی الآخرة: وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزی

إنّ العذاب الأخروی هو فی الواقع کالشرارة فی مقابل بحر لجی من النّار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۲

و الأنکی من ذلک أن لیس هناک من ینصرهم: وَ هُمْ لا یُنْصَرُونَ

فبعد عمر من الجد و العمل فی سبیل التظاهر بالعظمة و العلو، یصیبهم اللّه تعالی بعذاب أذلهم فی هذه الدنیا، و فی العالم الآخر ینتظرهم ما هم أشد و أصعب! «صرصر»: علی وزن (دفتر) مشتقّة فی الأصل من کلمة «صرّ» علی وزن «شرّ» و تعنی الغلق بإحکام، لذا تستعمل کلمة «صرّه» للکیس الذی یحتوی علی المال و هو مغلق بشکل جیّد. ثمّ أطلقت علی الریاح الباردة جدا، أو التی فیها صوت عال، أو الریاح المسمومة القاتلة. و قد تکون الریاح العجیبة التی شملت قوم «عاد» تحمل کلّ هذه الصفات جمیعا.

أَیَّامٍ نَحِساتٍ تعنی الأیام المشؤومة التی اعتبرها البعض بأنّها الأیّام الملیئة بالتراب و الغبار، أو الأیّام الباردة جدا، و هذه المعانی یمکن أن تکون مرادة من الآیات التی نحن بصددها.

لقد أشار أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی خطب نهج البلاغة إلی قصة عاد، کی تکون درسا أخلاقیا تربویا یتعظ منه الآخرون.

یقول علیه السّلام: «و اتعظوا فیها بالذین قالوا: من أشدّ منّا قوّة؟ حملوا إلی قبورهم، فلا یدعون رکبانا، و أنزلوا الأجداث فلا یدعون ضیفانا، و جعل لهم من الصفیح أجنان، و من التراب أکفان، و من الرفات جیران»[۳۳۳].

ملاحظتان

أوّلا: ما هی وسیلة فناء قوم عاد؟

وفقا للآیة (۱۳) من هذه السورة، فإنّ قوم عاد و ثمود أهلکوا بالصاعقة. فی حین أنّ الآیات التی نبحثها تقول: إنّهم أبیدوا بالریح الصرصر العاتیة، فهل هناک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۳

تعارض بین الاثنین؟

فی الجواب ذکر المفسّرون و علماء اللغة معنیین للصاعقة، أحدهما عام، و الآخر خاص.

فالصاعقة بمعناها العام تعنی أی شیء یهلک الإنسان، و هی کما یقول العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان: «المهلکة من کلّ شیء».

أمّا المعنی الخاص، فالصاعقة شرارة عظیمة من النّار تنزل من السماء، و تحرق کلّ ما یوجد فی طریقها، کما وضحنا ذلک آنفا.

بناء علی هذا، لو کانت الصاعقة بالمعنی الأوّل فلا تعارض بینها و بین الریاح القویة.

یقول الراغب فی المفردات: «قال بعض أهل اللغة: الصاعقة علی ثلاثة أوجه:
الموت کقوله: فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ و قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ و العذاب کقوله: أَنْذَرْتُکُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ و النّار کقوله: وَ یُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَیُصِیبُ بِها مَنْ یَشاءُ و ما ذکره فهو أشیاء حاصلة من الصاعقة فإن الصاعقة هی الصوت الشدید من الجوّ، ثمّ یکون منه نار فقط أو عذاب أو موت و هی فی ذاتها شیء واحد و هذه الأشیاء تأثیرات منها».
و ثمة احتمال آخر، هو أن قوم عاد قد شملهم نوعان من العذاب: الأوّل الریاح الشدیدة التی دمّرت کلّ شیء و التی سلطها اللّه علیهم أیّاما عدیدة، ثم جاء بعد ذلک دور الصاعقة النّاریة الممیتة التی شملتهم بأمر اللّه.
لکن المعنی الأوّل یبدو أکثر تناسبا مع الموضوع، خصوصا إذا لا حظنا الآیات الأخری التی تتحدث عن عقاب قوم عاد و هلاکهم. (راجع الآیات فی سورة الذاریات- آیة ۴۱، و سورة الحاقة- آیة ۶، و القمر الآیتان «۱۸» و «۱۹»).
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۴

ثانیا: أیام قوم عاد النحسة

البعض یعتقد أنّ أیّام السنة نوعان: أیّام نحسة مشؤومة، و أیام سعیدة مبارکة.
و یستدلون علی ذلک بالآیات أعلاه، فیقولون: هناک تأثیرات مجهولة تؤثر فی اللیالی و الأیّام، و نشعر نحن بآثار ذلک، بینما أسبابها ما تزال مبهمة بالنسبة لنا.
و قال البعض: إنّ الأیام النحسة فی الآیة التی نبحثها هی الأیّام المملوءة بالتراب و الغبار.
و قوم عاد قد أصیبوا بمثل هذه الریاح الشدیدة بحیث باتوا لا یری أحدهم الآخر، کما تفید ذلک الآیتان (۲۴- ۲۵) من سورة «الأحقاف» فی قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۳۷۴
فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِیَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِیحٌ فِیها عَذابٌ أَلِیمٌ، تُدَمِّرُ کُلَّ شَیْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا یُری إِلَّا مَساکِنُهُمْ کَذلِکَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِینَ
و سوف نقوم ببحث مفصل حول مفهوم الأیّام النحسة و الأیّام السعیدة، فی نهایة حدیثنا عن الآیة (۱۹) من سورة القمر، إن شاء اللّه تعالی.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۵

الآیتان [سورة فصلت (۴۱): الآیات ۱۷ الی ۱۸]

اشارة

وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَیْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمی عَلَی الْهُدی فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّیْنَا الَّذِینَ آمَنُوا وَ کانُوا یَتَّقُونَ (۱۸)

التّفسیر

عاقبة قوم ثمود:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قوم عاد، تبحث هاتان الآيتان فى قضية قوم ثمود و مصيرهم، حيث تقول: إنّ اللّه قد بعث الرسل و الأنبياء لهم مع الدلائل البينة، إلّا أنّهم: وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى

لذلك: فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

و هؤلاء مجموعة تسكن «وادى القرى» (منطقة بين الحجاز و الشام) و قد وهبهم اللّه أراضى خصبة خضراء مغمورة، و بساتين ذات نعم كثيرة و كانوا يبذلون الكثير من جهدهم فى الزراعة. و لقد وهبهم اللّه العمر الطويل و الأجسام القوية، و كانوا مهرة فى البناء القوى المتماسك، حيث يقول القرآن عنهم فى ذلك: وَ كانُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۶

يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ ۳۳۴].

لقد جاءهم نبيّهم بمنطق قوى و قلب ملؤه الحبّ، و معه المعاجز الإلهية، إلّا أنّ هؤلاء القوم المغرورين المستعلين لم يرفضوا دعوته- و حسب- بل آذوه و أتباعه القليلين، لذلك شملهم اللّه بعقابه فى الدنيا، و لن يغنى ذلك عن عذاب الآخرة شيئا.

نقرأ فى الآية (۷۸) من سورة الأعراف أنّهم أصيبوا بزلزلة عظيمة، فبقيت أجسادهم فى المنازل بدون حراك: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ

و فى الآية (۵) من سورة الحاقة قوله تعالى بشأنهم: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ.

أمّا الآية (۶۷) من سورة هود فتقول عنهم: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ

أمّا الآية التى نحن بصددها فقد استخدمت تعبير «صاعقة».

قد يتصور البعض أن هناك تعارضا بين هذه التعابير، و لكن عند التدقيق يظهر أنّ الكلمات الأربع أعلاه (رجفة، طاغية، صيحة، صاعقة) ترجع جميعا إلى حقيقة واحدة، لأنّ الصاعقة،- كم قلنا سابقا- لها صوت مخيف، بحيث يمكن أن نسميها بالصيحة السماوية، و لها أيضا نارا محرقة، و هى عند ما تسقط على منطقة معينة تحدث هزّة شديدة، و كذلك هى وسيلة للتخريب.

فى الواقع إنّ البلاغة القرآنية تستوجب أن تبيّن الأبعاد المختلفة للعذاب الإلهى بتعابير مختلفة و فى سياق آيات عديدة كيما تخلّف أثرا عميقا فى نفس الإنسان.

و هؤلاء القوم قد واجهتهم عوامل مختلفة للموت فى إطار حادثة واحدة، بحيث أن كلّ عامل لوحده يكفى لإبادتهم كالصيحة المميتة مثلا، أو الهزة الأرضية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۷

القاتلة، أو النّار المحرقة، و أخيرا الصاعقة المخفية.

و لكن قد يتساءل عن مصير الأشخاص الذين آمنوا بصالح عليه السّلام بين هذه الأمواج القاتلة من الصواعق، فهل احترقوا بنيران غيرهم؟

القرآن يجيبنا على ذلك بقول اللّه عزّ و جلّ: وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ

لقد أنجى هذه المجموعة إيمانها و تقواها، بينما شمل العذاب تلك الكثرة الطاغية بسبب كفرها و عنادها، و المجموعتان يمكن أن تكونا نموذجا لفئات من هذه الأمة.

قال بعض المفسّرين: لقد آمن بنبيّ اللّه صالح (۱۱۰) أشخاص من بين مجموع القوم، و لقد أنقذ اللّه هؤلاء و أنجاهم فى الوقت المناسب.

ملاحظة

أنواع الهدایة الإلهیة:

الهدایـة علی نوعین: أوّلا «الهدایة التشـریعة» و هی تشـمل إبانة الطریق و الکشف عنه بجمیع العلائم. ثمّ هناک «الهدایة التکوینیة» التی هی فی واقعها إیصال إلی المطلوب أو الوصول إلی الهدف.

لقـد تجمعت الهدایتان معا فی الآیات التی نبحثها، فالآیات تتحدث أولا عن هدایة ثمود و هذه هی الهدایة التشـریعیة التی اسـتبانوا من خلالها الطریق.

ثم أضافت الآیة عن وصف حالهم بأنّهم استحبوا العمی علی الهدی، و هذه هی عین الهدایة التکوینیة و التوصّل نحو الهدف.

و هکـذا فإنّ الهدایـة بمعناه الأوّل قـد تمّت من خلال بعثـة الرسل و الأنبیاء، أمّا الهدایـة بمعناها الثّانی و التی ترتبط بإرادة و اختیار أی إنسان، فلم تتمّ بسبب غرور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۸

القوم و تکبرهم و علوهم، لأنّهم: فَاسْتَحَبُّوا الْعَمی عَلَی الْهُدی

إنّ هذا- بحدّ ذاته- دلیل علی مبدأ «حریة الإرادة الإنسانیة» و عدم الجبر.

و لکن- برغم صراحة و وضوح الآیات- نری أنّ بعض المفسّرین کالفخر الرازی یصرون علی إنکار دلالة الآیة، و ذکروا کلاما لا یلیق بمنزلة الباحث المحقق، و ذلک بسبب میولهم نحو عقیدة الجبر[۳۳۵]!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۹

الآیات [سورة فصلت (۴۱): الآیات ۱۹ الی ۲۳]

اشارة

وَ یَوْمَ یُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَی النَّارِ فَهُمْ یُوزَعُونَ (۱۹) حَتَّی إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَیْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَیْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ خَلَقَکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱) وَ ما کُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ یَشْهَدَ عَلَیْکُمْ سَمْعُکُمْ وَ لا أَبْصارُکُمْ وَ لا جُلُودُکُمْ وَ لکِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا یَعْلَمُ کَثِیراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذلِکُمْ ظَنُّکُمُ الَّذِی ظَنَنْتُمْ بِرَبِّکُمْ أَرْداکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِینَ (۲۳)

التّفسیر

کانت الآیات السابقـة تتحـدث عن الجزاء الدنیوی للکفار المغرورین و الظالمین و المجرمین. أمّا الآیات التی نبحثها الآن فتتحدث عن العذاب الأخروی، و عن مراحل مختلفة من عقاب أعداء اللّه.

یقول تعالی: وَ یَوْمَ یُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَی النَّارِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۰

و کی تتصل الصفوف ببعضها یتمّ تأخیر الصفوف ۳۳۶] حتی تلتحق بها الصفوف الأخری: فَهُمْ یُوزَعُونَ

و حینذاک: حَتَّی إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَیْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ ۳۳۷].

يا لهم من شهود؟ فأعضاء الإنسان تشهد بنفسها عليه و لا يمكن إنكار شهادتها، لأنّها كانت حاضرة فى جميع المشاهد و المواقف و ناظرة لكل الأعمال، و هى إذ تتحدث فبأمر اللّه تعالى.

و هنا يثار سؤال: هل تعنى شهادة هذه الأعضاء من جسم الإنسان أنّ اللّه تبارك و تعالى يخلق فيها قدرة الإحساس و الإدراك و الشعور، و بالتالى القدرة على الكلام؟

أم أنّ آثار الذنوب سوف تظهر فى ذلك اليوم (يوم البروز) لأنّها مطبوعة عليها طوال عمر الإنسان، كما نقول فى تعبيراتنا الشائعة: إن صفحة وجهه تحكى و تخبر ما يخفيه فلان فى سرّه؟

أو أنّ الأمر يكون كما فى حال الشجرة التى أوجد اللّه تعالى فيها الصوت و أسمعه موسى عليه السّلام؟

فى الواقع يمكن قبول كلّ هذه التفاسير، و قد جاءت مبثوثة فى تفاسير المفسّرين.

طبعا لا يوجد مانع من أن يقوم تعالى بخلق الإدراك و الشعور فى الأعضاء، فتشهد فى محضر اللّه تعالى عن علم و معرفة، خصوصا و أن ظاهر الآيات يشير للوهلة الأولى إلى هذا المعنى. و هو ما يعتقده البعض فيما يخص تسبيح و حمد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۱

و سجود ذرات العالم و كائنات الوجود بين يدى اللّه تبارك و تعالى.

و المعنى الثّانى محتمل أيضا لأننا نعلم أنّ أى كائن فى هذا العالم لا- يفنى من الوجود، و أنّ آثار أقوالنا و أفعالنا سوف تبقى فى أعضائنا و جوارحنا، و من الطبيعى أن تعتبر «الشهادة التكوينية» هذه من أوضح الشهادات و أجلاها، إذ لا مجال لإنكارها، كما فى اصفرار الوجه- الذى يعتبر عادة دليلا- على الخوف لا يمكن إنكاره، و احمراره دليل على الغضب أو الخجل.

و إطلاق النطق على هذا المعنى يكون مقبولا أيضا.

أمّا الاحتمال الأخير فى أن تنطق الأعضاء بإذن اللّه تعالى دون أن يكون لها شعور بذلك أو يظهر منها اثر تكوينى، فإنّ ذلك بعيد ظاهرا، لأنّه فى مثل هذه الحالة لا تعتبر الحالة مصداقا للشهادة التشريعية و لا مصداقا للشهادة التكوينية، فلا عقل هناك و لا شعور، و لا الأثر الطبيعى للعمل، و سوف تفقد قيمة الشهادة فى المحكمة الإلهية الكبرى.

و من الضرورى الانتباه إلى أنّ قوله تعالى: حَتَّى إِذا ما جاؤُها يبيّن أنّ شهادة أعضاء الإنسان تتمّ فى محكمة النّار، فهل مفهوم ذلك أنّ الشهادة تتمّ فى النّار، فى حين أنّ النّار هى نهاية المطاف، أم أنّ المحكمة تنعقد بالقرب من النّار؟

الاحتمال الثّانى هو الأقرب كما يظهر.

ثمّ ما هو المقصود من (جلود) بصيغة الجمع؟

الظاهر أنّ المقصود بذلك هو جلود الأعضاء المختلفة للجسم، جلد اليد و الرجل و الوجه و غير ذلك.

أمّا الروايات التى تفسّر ذلك ب «الفروج» فهى فى الحقيقة من باب بيان المصداق، و ليس حصر مفهوم الجلود فى ذلك.

و من جانب آخر ربّ سائل يسأل: لماذا تشهد العين و الأذن و الجلود فقط، دون أعضاء الجسم الأخرى؟ و هل الشهادة مقتصرة على هذه الأعضاء، أو أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۲

هناك أعضاء اخرى تشهد؟

ما نستفيده من الآيات القرآنية الأخرى أنّ هناك أعضاء اخرى فى جسم الإنسان تشهد عليه، إذ نقرأ فى الآية (۶۵) من سورة «يس» قوله تعالى: وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

و فى الآية (۲۴) من سورة «النور» قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ

و هكذا يتضح أنّ هناك أعضاء اخرى تقوم بالإدلاء بالشهادة، إلّا أنّ ما تذكره الآية التى بين أيدينا من أعضاء تعتبر فى الدرجة

الأولى، لأنّ معظم أعمال الإنسان تتم بمساعدة العين و الأذن، و إنّ الجلود هى أول من يقوم بملامسة الأعمال.

المجرمون يستغربون هذه الظاهرة، و آية استغرابهم قوله تعالى: وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا.

لسان حالهم يقول: لقد كنّا لسنين مديدة نحافظ عليكم من الحر و البرد و نعتنى بنظافتكم، فلما ذا أنتم هكذا؟

و فى الجواب يقولون: قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

لقد أعطانا اللّه مهمّة القيام بالشهادة على أعمالكم فى هذه المحكمة العظيمة، و لا نملك نحن سوى الطاعة، فالذى أعطى غيرنا من الكائنات قابلية النطق أعطانا- أيضا- هذه القابلية[۳۳۸].

و الطريف هنا أن أولئك يسألون جلودهم دون باقى الأعضاء من الشهود كالعين و الأذن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۳

قد يكون السبب فى ذلك أنّ شهادة الجلود هى أغرب و أعجب من جميع الأعضاء الأخرى، و أوسع منها جميعا، فتلك الجلود التى يجب عليها أن تذوق طعم العذاب الإلهى- قبل غيرها من الأعضاء- تقوم بمثل هذه الشهادة، و هذا الأمر محيّر حقّا! ثم تستمر الآية بقوله تعالى: وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و مرة اخرى تضيف: وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ

و إنّ سبب إخفائكم لأعمالكم هو: وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ

كنتم غافلين عن أنّ اللّه يسمع و يرى، يشهد أعمالكم فى كلّ حال و مكان، و يعلم أسراركم ما بطن منها و ما ظهر، ثمّ هناك عناصر الرقابة التى ترافقكم و هى معكم فى كلّ مكان، فهل تستطيعون إنجاز عمل مخفى عن أعينكم و آذانكم و جلودكم؟

إنّكم فى قبضة القدرة الإلهية و تحت نظر الشهود المستترين و الظاهرين حتى أدوات ذنبكم تشهد ضدكم؟! يروى المفسّرين أنّ الآية أعلاه نزلت فى ثلاثة نفر من كفار قريش و طائفة من بنى ثقيف ذوى بطون كبيرة و رؤوس صغيرة اجتمعوا بجوار الكعبة و هم يتسارّون، فقال أحدهم: أ تظنون أن اللّه يسمع كلامنا و حديثنا هذا؟

فأجاب آخر: تكلّم بهدوء و اخفض صوتك، فإذا تحدثنا بصوت عال فهو (أى اللّه جلّ جلاله) يسمعه، و إذا خفضنا أصواتنا فلا يسمعنا.

فقال الثّالث: إذا كان اللّه يسمع الكلام العالى فهو حتما يسمع الصوت الضعيف أيضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۴

و هنا نزلت الآية الكريمة: وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ ...[۳۳۹].

ثم يقول تعالى: وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ ۳۴۰][۳۴۱].

هل أن هذا الحديث هو من قبل اللّه تعالى، و أن كلام الأعضاء و الجوارح ينتهى إلى قوله تعالى: أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، أم أنّ ما يليه استمرار له؟

المعنى الثّانى يبدو أكثر توافقا، و عبارات الآية تتلاءم معه أكثر، بالرغم من أن أعضاء الجسم و جوارحه إنّما تتحدث هنا بأمر اللّه تعالى و بإرادته، و المعنى فى الحالتين واحد تقريبا.

بحثان

الأوّل: حسن الظن و سوء الظن باللّه تعالى

توضح الآيات بشكل قاطع خطورة سوء الظن باللّه تعالى، و مآل ذلك إلى الهلاك و الخسران.

و بعكس ذلك فإنّ حسن الظن باللّه تعالى سبب للنجاة فى الدنيا و الآخرة.

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «ينبغى للمؤمن أن يخاف اللّه خوفا كأنّه يشرف على النّار، و يرجوه رجاء كأنّه من أهل الجنّة، إنّ اللّه تعالى يقول:

وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ... ثم قال: إنّ اللّه عند ظن عبده، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر»[۳۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۵

و

روى عن الصادق عليه السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: أنّ اللّه إذا حاسب الخلق يبقى رجل قد فضلت سيئاته على حسناته، فتأخذه الملائكة إلى النّار و هو يلتفت، فيأمر اللّه بردّه، فيقول له: لم التفت؟- و هو تعالى أعلم به- فيقول: يا ربّ ما كان هذا ظنّى بك، فيقول اللّه تعالى: يا ملائكتى! و عزّتى و جلالى و الائى و علوى و ارتفاع مكانى، ما ظن بى عبدى هذا ساعة من خير قط، و لو ظنّ بى ساعة من خير ما ودعته بالنّار، أجيزوا له كذبه و أدخلوه الجنّة». ثمّ أضاف رسول اللّه: ليس من عبد يظن باللّه عزّ و جلّ خيرا إلّا كان عند ظنّه به و ذلك قوله عزّ و جلّ: وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ ۳۴۳].

الثّانى: الشهود فى محكمة القيامة

عند ما تقول: إنّ جميع الناس سيحاكمون فى العالم الآخر، فقد يتبادر إلى الذهن أنّ المحكمة هناك تشبه محاكم هذه الدنيا، إذ سيحضر كلّ فرد أمام القاضى و بيده ملفه، و ثمّة شهود فى القضية، ثمّ يبدأ السؤال و الجواب قبل أن يصدر الحكم النهائى.

و قد أشرنا مرارا إلى أنّ الألفاظ سيكون لها مفهوم أعمق فى ذلك العالم بحيث يصعب أو يستحيل علينا تصوّر مداليلها، لأننا سجناء هذه الدنيا و مقاييسها.

و لكن نستطيع- مع ذلك- أن نقترب من بعض حقائق العالم الآخر من خلال ما نستفيده من الآيات القرآنية و الأحاديث المروية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و أئمّة المسلمين من أهل بيته عليهم السّلام، و تبيّن لنا آثار عن عظمة و عمق الحياة فى ذلك العالم و محكمة يوم البعث، و لو بشكل إجمالى.

فمثلا عند ما يقال: «ميزان الأعمال» قد ينصرف الذهن إلى المعنى الذى نتصوّر فيه أعمالنا فى ذلك اليوم خفيفة أو ثقيلة، حيث توزن فى ميزان ذى كفتين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۶

و لكن عند ما نقرأ فى روايات المعصومين عليهم السّلام أنّ أمير المؤمنين على عليه السّلام هو ميزان الأعمال، بمعنى أنّ قيمة الأعمال و شخصية الأفراد ستقاس بمقياس يكون مركزه شخصيا الإمام العظيم و بمقدار مشابهة الإنسان لسلوك هذا الإمام العظيم و اقترابه منه سيكون له وزن أكثر، و بمقدار بعده عنه سيكون خفيفا فى ميزان أعماله و حسابه.

و من خلال هذا المعنى نفهم ماذا يعنى ميزان الأعمال هناك.

و فى مسألة «الشهود» فإنّ الآيات القرآنية تكشف لنا الستار- كذلك- عن حقائق اخرى، إذ يتبيّن أنّ مفهوم الشهود هناك يختلف عن شهود محاكم هذه الدنيا.

و فى قضية الشهود- بالذات- نستفيد من آيات القرآن الكريم أنّ هناك ستة أنواع من الشهود فى تلك المحكمة:

۱- أنّ أول الشهود و أعلاهم شأنا هو الذات الإلهیة الطاهرة: وَ ما تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا کُنَّا عَلَیْکُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِیضُونَ فِیهِ ۳۴۴].

إنّ شهادة اللّه تکفی لکل شیء، إلّا أنّ مقتضی اللطف الإلهی و العدالة الربوبیة تستوجب أن یضع تعالی شهودا آخرین.

۲- الأنبیاء و الأوصیاء: یقول القرآن الکریم: فَکَیْفَ إِذا جِئْنا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِیدٍ وَ جِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً[۳۴۵].

و نقرأ

فی حدیث ورد فی (الکافی) عن الإمام الصادق علیه السّلام حول نزول هذه الآیة و هو قوله علیه السّلام: «نزلت فی أمّة محمّد خاصة، فی کلّ قرن منهم إمام منّا، شاهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۷

علیهم و محمّد شاهد علینا»[۳۴۶].

۳- شهادة اللسان و الید و الرجل و العین و الاذن: کما فی قوله تعالی: یَوْمَ تَشْهَدُ عَلَیْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ ۳۴۷].

و من الآیة التی نحن بصددها نستفید أنّ العین و الأذن هما من قائمة الشهود أیضا، و نستفید کذلک من بعض الرّوایات أنّ کلّ أعضاء الجسم ستقوم بدورها بالشهادة علی الأعمال التی قامت بها[۳۴۸].

۴- شهادة الجلود: لقد تحدثت الآیات التی نحن بصددها عن هذا الموضوع بصراحة، بل و أضافت أنّ المذنبین لم یکونوا یتوقعون أن تشهد علیهم جلودهم، فخاطبوها بالقول: لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَیْنا؟ فیأتی الجواب من جلودهم: أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ وَ هُوَ خَلَقَکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ ۳۴۹].

۵- الملائکة: یقول تعالی: وَ جاءَتْ کُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِیدٌ[۳۵۰]. و مفهوم الآیة الکریمة أنّ کلّ إنسان یحشر إلی القیامة، یکون معه ملک یسوقه نحو الحساب و تشهد الملائکة علیه.

۶- الأرض: إنّ الأرض التی تحت أقدامنا، و تؤمن لنا مختلف البرکات و النعم، تقوم أیضا بمراقبتنا بدقّة، و تحدّث فی ذلک الیوم ما کان منّا علیها، یقول تعالی: یَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها[۳۵۱].

۷- شهادة الزمان: بالرغم من عدم إشارة نصوص الآیات القرآنیة إلی هذه الشهادة، و لکن نستفید هذه الشهادة من أحادیث الأئمة المعصومین علیهم السّلام،

فعن أمیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۸

المؤمنین علی بن أبی طالب قوله علیه السّلام: «ما من یوم یمرّ علی ابن آدم إلّا قال له ذلک الیوم: یا ابن آدم! أنا یوم جدید، و أنا علیک شهید، فقل فیّ خیرا و اعمل فیّ خیرا، أشهد لک یوم القیامة»[۳۵۲].

ما أعجب هذه الشهود التی تشهد علینا فی تلک المحکمة! إنّه خلیط عجیب من الملائکة و أعضاء الجسم و الأنبیاء و الأوصیاء، و الأعظم من ذلک هی شهادة اللّه تبارک و تعالی علینا الذی یسمع و یری و یحیط علمه بکل شیء، فیراقب أعمالنا و یشهد علینا ... لکنّا لا نبالی!!؟

ألا یکفی الإیمان بوجود مثل هؤلاء الشهود أن یسیر الإنسان فی طریق الحق و العدالة و التقوی و النزاهة!؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۹

الآيتان [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۲۴ الى ۲۵]

اشارة

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (۲۴) وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (۲۵)

التّفسير

قرناء السوء:

فى أعقاب البحث السابق الذى تحدثت فى الآيات الكريمة عن مصير «أعداء اللّه» جاءت الآيتان أعلاه لتشيران إلى نوعين من العقاب الأليم الذى ينتظر هؤلاء فى الدنيا و الآخرة.

يقول تعالى: فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ۳۵۳] و لا يمكنهم الخلاص منها لأنّها مصيرهم سواء صبروا أو لم يصبروا.

«مثوى» من «ثوى» على وزن «هوى» و تعنى المقر و محل الاستقرار.

و الآية الكريمة هذه تشبه الآية (۱۶) من سورة «الطور» حيث قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۰

اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ

و كذلك تشبه الآية (۲۱) من سورة «إبراهيم» حيث قوله تعالى: سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ

و للتأكيد على هذا الأمر تضيف الآية: وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ

«يستعتبون» مأخوذه فى الأصل من (العتاب) و تعنى إظهار الخشونة، و مفهوم ذلك أنّ الشخص المذنب سيستسلم للوم صاحب الحق كى يعفو عنه و يرضى عنه، لذلك فإنّ كلمة (استعتاب) تعنى الاسترضاء و طلب العفو[۳۵۴].

ثم تشير الآية الثانية إلى العذاب الدنيوى لهؤلاء فتقول: وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ حيث قام هؤلاء الجلساء بتصوير المساوئ لهم حسنات.

«قيضنا» من (قيض) على وزن (فيض) و تعنى فى الأصل قشرة البيضة الخارجية، ثمّ قيلت لوصف الأشخاص الذين يسيطرون على الإنسان بشكل كامل، كسيطرة القشرة على البيضة.

و هذه إشارة إلى أنّ أصدقاء السوء و الرفاق الفاسدين يحيطون بهم من كل مكان، حيث يصادرون أفكارهم، و يهيمنون عليهم بحيث يفقدون معه قابلية الإدراك و الإحساس المستقل، و عندها ستكون الأمور القبيحة السيئة جميلة حسنة فى نظرهم، و بذلك ينتهى الإنسان إلى الوقوع فى مستنقع الفساد و تغلق بوجهه أبواب النجاة.

فى بعض الأحيان تستخدم كلمة «قيضنا» لتبديل شيء مكان شيء آخر، و وفقا لهذا المعنى سيكون مقصود الآية، هو أنّنا سنأخذ منهم الأصدقاء الصالحين و نسلب منهم رفاق الخير، لنبدلهم بأصدقاء السوء و القرناء الفاسدين.

لقد ورد فهذا المعنى بشكل أوضح فى الآيتين (۳۶- ۳۷) من سورة «الزخرف»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۱

فى قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ

إنّ التمعّن بالمجتمعات الفاسدة و الفئات المنحرفة الضالة ينتهى بنا- بسهولة- إلى اكتشاف آثار أقدام الشياطين فى حياتهم، إذ يحاصرهم رفاق السوء و قرناء الشر من كلّ جانب و صوب، و يسيطرون على أفكارهم و يقلبون لهم الحقائق.

قوله تعالى: ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ لعله إشارة لإحاطة الشياطين من كل جانب و تزيين الأمور لهم.

و قيل أيضا فى تفسيرها أنّ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إشارة إلى لذات الدنيا و زخارفها، وَ ما خَلْفَهُمْ هو إنكار القيامة و البعث.

و قد يكون ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إشارة إلى وضعهم الدنيوى وَ ما خَلْفَهُمْ إلى المستقبل الذى سينتظرهم و أبناءهم، إذ عادة ما يرتكب هذه الجرائم تحت شعار تأمين المستقبل.

و بسبب هذا الوضع تضيف الآية بأن الأمر الالهى صدر بعذابهم و ان مصيرهم هو مصير الأمم السالفة: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ ۳۵۵].

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ

إنّ هذه الآيات تعتبر- فى الواقع- الصورة المقابلة و الوجه الآخر، و سوف تتحدث الآيات القادمة عن المؤمنين الصالحين المنصورين فى الدنيا و الآخرة بالملائكة التى تبشرهم بكل خير، و تكشف عنهم الغم و الحزن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۲

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۲۶ الى ۲۹]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۲۶) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۷) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۲۸) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (۲۹)

التّفسير

الضجيج فى مقابل صوت القرآن!!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الماضين كقوم عاد و ثمود، و تحدثت عن جلساء السوء و قرناء الشر، تتحدث المجموعة التى بين أيدينا من الآيات البينات عن جانب من جوانب الانحراف لمشركى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لقد ورد فى بعض الرّوايات أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ما أن يرفع صوته فى مكّة ليتلو القرآن بصوته الجميل و أسلوبه الخاشع، حتى كان المشركون يقومون بإبعاد الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۳

عنه و يقولون: أطلقوا الصفير و ارفعوا أصواتكم بالشعر حتى لا- تسمعوا كلامه ۳۵۶]! القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فى هذه الآيات، حيث يقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ

هذا الأسلوب فى مواجهة تأثير الحق و نفوذه بالرغم من كونه أسلوبا قديما، إلّا أنّه يستخدم اليوم بشكل أوسع و أخطر لصرف أفكار الناس و خنق أصوات المنادين بالحق و العدالة، فهؤلاء يقومون بملء المجتمع بالضوضاء حتى لا يسمع صوت الحق. و مع الالتفات الى أن معنى كلمة «و الغوا» المشتقة من «لغو» لها معنى واسع يشمل أى كلام فارغ، ندرك جيدا سعة هذا المنهج المتبع.

فتارة يتمّ اللغو بواسطة الضجة و الضوضاء و الصفير.

و اخرى بواسطة القصص الكاذبة و الخرافية.

و ثالثة بواسطة قصص الحب و العشق المثيرة للشهوات! و قد يتجاوز مكرهم مرحلة القول فيقومون بتأسيس مراكز خاصة بالفساد و أنواع الأفلام المبتذلة و المطبوعات المنحرفة الرخيصة،، و الألاعيب السياسية الكاذبة و المثيرة، إنّهم يعمدون إلى الاستعانة بأى أسلوب يؤدى إلى حرف أفكار الناس و اهتماماتهم عن الحق.

و الانكى من ذلك طرح بعض البحوث و القضايا الفارغة التافهة فی الاوساط العلمية لتثار حولها ضجة تهيمن على اهتمامات الناس و وعيهم، و تصدّهم عن التفكير بالقضايا الأساسية و الأمور المهمّة.

لكن .. هل استطاع المشركون التغلّب على القرآن الكريم بأعمالهم هذه؟! لقد عمّهم الفناء و ذهبت أساليبهم الشريرة ادراج الرياح، و امتد القرآن و اتسع فی تأثيره حتى استوعب أرجاء الدنيا.

الآية الأخرى تشير إلى عذاب هؤلاء فتقول: فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١۵، ص: ٣٩۴

خاصة أولئك الذين يمنعون الناس من سماع آيات اللّه.

و هذا العذاب يمكن أن يشملهم فی الدنيا بأن يقتلوا على أيدى أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو يقعوا فی أسرهم، و قد يكون فی الآخرة، أو يكون العذاب فی الدنيا و الآخرة معا.

قوله تعالى: وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ

فهل لهؤلاء عمل أسوأ من الكفر و الشرك و إنكار آيات اللّه و منع الناس و صدّهم عن سماع كلام الحق؟

لكن لماذا أشارت الآية إلى «أسوأ» بالرغم من أنّهم يرون جزاء كلّ أعمالهم؟

قد يكون هذا التعبير للتأكيد على موضوع الجزاء و التهديد به بيان حديثه، و فيه إشارة لمنعهم الناس عن سماع كلام النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

كما أنّ قوله تعالى: كانُوا يَعْمَلُونَ دليل على أنّه سيتمّ التأكيد على الأعمال التى كانوا يقومون بها دائما، و بعبارة اخرى: إنّ ما يعملونه لم يكن أمرا مؤقتا بل كانت سنتهم و سيرتهم الدائمة.

و للتأكيد على قضية العذاب، يأتى قوله تعالى: ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ[٣۵٧].

و هذه النّار ليست مؤقتة زائلة بل: لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ نعم، فذلك: جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ ٣۵٨].

إنهم لم ينكروا الآيات الإلهية و حسب، بل منعوا الآخرين من سماعها.

«يجحدون» من «جحد» على وزن «عهد» و تعنى فی الأصل كما يرى «الراغب» فی «المفردات»: إلغاء و نفى شیء ثابت فی القلب، أو إثبات شیء منفی فی القلب. أو هو بعبارة اخرى: إنكار الحقائق مع العلم بها، و هذا من أسوأ أنواع

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١۵، ص: ٣٩۵

الكفر (راجع نهاية الآية (١۴) من سورة النمل).

إنّ الإنسان عند ما يصاب ببلاء معين، خاصة إذا كان بلاء شديدا، فإنّه يفكر بمسببه الأصلی كی يعثر عليه و ينتقم منه، و أحيانا يود تقطيعه قطعة قطعة إذا استطاع ذلك.

لذلك تشير الآية التالية إلى هذا المعنى الذى سيشمل الكفار و هم فی الجحيم فيقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ

إنّ أولئك كانوا ينهونا عن سماع قول النّبى و كانوا يقولون: إنّه ساحر مجنون، ثم كانوا يكثرون من اللغو حتى لا نسمع صوته و

کلامه، و بدلا عن ذلک کانوا یشغلوننا بأساطیرهم و أکاذیبهم.

أمّا الآن و قد فهمنا أن کلامه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هو روح الحیاة الخالدة، و أنّ نغمات صوته حیاة النفوس المیتة، و لکن «و لات ساعة ندم».

لا ریب أنّ المقصود من الجن و الإنس- فی الآیة هم الشیاطین، و الناس الذین یقومون بالغوایة مثل الشیاطین، و لیس هما شخصان معینان.

و لا مانع من تثنیة الفعل عند ما یکون الفاعل مجموعتان، کما فی قوله تعالی:

فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

قال بعض المفسّرین فی تفسیر قوله تعالی: لِیَکُونا مِنَ الْأَسْفَلِینَ المقصود أنّ المضلین من الجن و الإنس سیکونون فی أسفل درک من الجحیم، و لکن الأظهر منه أنّ شدة غضبهم یدفعهم إلی وضع من أغواهم تحت أقدامهم لیرکلونهم و یکونوا فی أدنی مقام فی مقابل ما کان لهم من مقام و مکانة علیا فی الحیاة الدنیا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۶

الآیات [سورة فصلت (۴۱): الآیات ۳۰ الی ۳۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الْمَلائِکَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۳۰) نَحْنُ أَوْلِیاؤُکُمْ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَةِ وَ لَکُمْ فِیها ما تَشْتَهِی أَنْفُسُکُمْ وَ لَکُمْ فِیها ما تَدَّعُونَ (۳۱) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِیمٍ (۳۲)

التّفسیر

نزول الملائکة علی المؤمنین الصامدین:

یعتمد القرآن الکریم فی أسلوبه وضع صور متقابلة و متعارضة للحالات التی یتناولها کی یوضحها بشکل جید من خلال المقایسة و المقارنة فبعد أن تحدث عن المنکرین المعاندین الذین یصدون عن آیات اللّه، و أبان جزاءهم و عقوبتهم، بدأ الآن (فی الصورة المقابلة) فی الحدیث عن المؤمنین الراسخین فی إیمانهم، و أشار إلی سبعة أنواع من الثواب الذی یشملهم جزاء و مثوبة لهم.

یقول تعالی: إِنَّ الَّذِینَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الْمَلائِکَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۷

إنّه تعبیر جمیل و شامل یتضمّن کلّ الخیر و الصفات الحمیدة، فأولا یوجّه القلب إلی اللّه و یوثق الإیمان به تعالی و یقویه، ثمّ سیطرة هذا الإیمان و هیمنته علی کلّ مرافق الحیاة، و ثبات السیر فی هذا الطریق، طریق الاستقامة[۳۵۹].

هناک الکثیر من الذین یدّعون محبة اللّه، إلّا أنّنا لا نری الاستقامة واضحة فی عملهم و سلوکهم، فهم ضعفاء و عاجزون بحیث عند ما یشملهم طوفان الشهوة یودّعون الإیمان و یشرکون فی عملهم، و عند ما تکون منافعهم فی خطر یتنازلون عن إیمانهم الضعیف ذلک.

ففی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه بعد أن تلا الآیة قال: «قد قالها الناس ثمّ کفر أکثرهم فمن قالها حتی یموت فهو ممن استقام علیها»[۳۶۰].

و

فی نهج البلاغة یفسّر الإمام علی علیه السّلام هذه الآیة بعبارات حیّة و ناطقة عمیقة المعنی یقول علیه السّلام: «و قد قلتم «ربنا اللّه» فاستقیموا علی کتابه، و علی منهاج أمره، و علی الطریقة الصالحة من عبادته، ثمّ لا تمرقوا منها، و لا تبتدعوا فیها، و لا تخالفوا عنها»[۳۶۱].

و فی مکان آخر نری أنّ الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أجاب فی تفسیر معنی الاستقامة

بقوله: «هی و اللّه ما أنتم علیه»[۳۶۲].

و هذا لا یعنی أنّ الاستقامة تختص بالولایة فقط، بل إنّ قبول قیادة أئمّة أهل البیت علیهم السّلام سیضمّن بقاء خط التوحید، و الطریق الإسلامی الأصیل، و استمرار العمل الصالح، و هذا هو تفسیره علیه السّلام لمعنی الاستقامة.

و خلاصة القول أن قیمة الإنسان هی بالإیمان و العمل الصالح، و هذه القیمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۸

یتحدث عنها اللّه تبارک و تعالی بقوله: قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا.

لذلک

فقد روی أنّ رجلا جاء إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فقال له: أخبرنی بأمر أعتصم به؟ فقال رسول اللّه: «قل ربّی اللّه ثمّ استقم».

ثم سأل الرجل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم عن أخطر شیء ینبغی علیه أن یخشاه. فمسک رسول اللّه لسانه و قال: هذا[۳۶۳].

و الآن لنر ما هی المواهب الإلهیة التی سیشمل من یتمسک بهذین الأصلین؟

القرآن الکریم یشیر إلی سبع مواهب عظیمة تبشرهم ملائکة اللّه بها عند ما تهبط علیهم. ففی ظل الإیمان و الاستقامة یصل الإنسان إلی مرحلة بحیث تنزل علیه الملائکة و تعلمه.

فبعد البشارتین الأولی و الثانیة و المتمثلتین بعدم (الخوف) و (الحزن) تصف الآیة المرحلة الثّالثة بقوله تعالی: وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ

و البشارة الرّابعة یتضمّنها قوله تعالی: نَحْنُ أَوْلِیاؤُکُمْ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَةِ فلن نترککم وحیدین، بل نعینکم فی الخیر و تعصمکم عن الانحراف حتی تدخلوا الجنّة.

و البشارة الخامسة قوله تعالی: وَ لَکُمْ فِیها ما تَشْتَهِی أَنْفُسُکُمْ أی فی الجنّة.

أمّا البشارة السادسة فلا تختص بالنعم المادیة و ما تریدونه. بل الاستجابة إلی العطایا و المواهب المعنویة: وَ لَکُمْ فِیها ما تَدَّعُونَ

أمّا البشارة السابعة و الأخیرة فهی أنّکم ستحلون ضیوفا لدی الباریء عزّ و جلّ و فی جنته الخالدة، و ستقدم لکم کلّ النعم تماما مثلما یتمّ الترحیب بالضیف العزیز من قبل المضیف: نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِیمٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۹

ملاحظات

فی طیات هذه الآیات المبینة، و التعابیر القرآنیة القصیرة البلیغة ذات المعانی الکبیرة، ثمّة ملاحظات دقیقة و لطیفة نقف علیها من خلال النقاط الآتیة:

۱- هل نزول الملائکة علی المؤمنین المستقیمین یتمّ أثناء الموت و الانتقال من هذا العالم إلی العالم الآخر، کما یحتمل ذلک بعض المفسّرین، أم أن نزولهم یکون فی ثلاثة مواطن، عند (الموت) و عند (دخول القبر) و عند (الإحیاء و البعث و النشور)، أو إنّ هذه البشائر تکون دائمة و مستمرة، و تتمّ بواسطة الإلهام المعنوی، حیث تستقر الحقائق فی أعماق المؤمنین بالرغم من أنّها فی لحظة

الموت و لحظة الحشر تكون بشائر الملائكة أجلى و أوضح؟

يبدو أن المعنى الأخير أنسب، و ذلك لعدم وجود قيد أو شرط فی الآية.

و يؤيـد ذلك أنّ الملائكة تقول فی البشارة الرّابعة: نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِی الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِی الْآخِرَةِ و هذا دليل على أنّ المؤمنين من ذوی الاستقامة يسـمعون هذا الكلام من الملائكة فی الدنيا عند ما يكونون أحياء، إلّا أنّ ذلك لا يكون باللسان و اللفظ، بل يسمعون ذلك بأذان قلوبهم بما يشعرون به من هدوء و استقرار و سكينة و إحساس كبير بالراحة عند المشاكل و الصعاب.

صحيـح أنّ بعض الروايات قيـدت نزول الملائكـة و حضورهم عنـد الموت، إلّا أن ثمّة روايات اخرى إشارات إلى معنى أوسع يشـمل الحياة أيضا[۳۶۴].

و يمكن أن نستنتج من مجموع الروايات أنّ ذكر خصوص الموت هو بعنوان المصداق لهذا المفهوم الواسع، و نعرف هنا أنّ التفاسـير الواردة فی الروايات غالبا ما توضح المصاديق.

إنّ بشـائر الملائكـة سـتشع فی أرواح المـؤمنين و أعمـاق ذوی الاسـتقامة حـتى تهبهم القـوّة و القـدرة على مواجهـة أعاصـير الحيـاة و مشقاتها، و تثبت أقدامهم من

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۰

السقوط و الانحراف.

۲- قـال بعض المفسّـرين فی التفريق بين الخوف و الحزن، أنّ (الخوف) يختص بـالحوادث التی تثير القلق لـدى الإنسان لكنّها تقع فی المستقبل، فيبقى الإنسان قلقا حذرا إزاءها و منتظر وقوعها. أمّا (الحزن) فهو ممّا يختص بالحوادث المؤسفة التی وقعت فی الماضی.

و على أساس هـذا المعنى يأتی خطاب الملائكـة: أن لا تقلقوا من الصـعوبات التی تنتظركم، سواء فی هذه الدنيا أو عند الموت أو فی مراحل البعث، و لا تحزنوا على ذنوبكم الماضية أو الأبناء الذين سيبقون بعدكم.

و تقديم (الخوف) على (الحزن) قد يكون بسـبب أنّ المؤمن أكثر ما يكون قلقا إزاء حوادث المسـتقبل، خاصة ما يتعلق منها بالحشر و الجزاء و اليوم الآخر.

و قال البعض أيضا: إنّ (الخوف) من العـذاب، بينما (الحزن) على ما فات من الثواب، و الملائكـة تقوم بزرع الأمل عندهم فی الحالتين بواسطة الألطاف الإلهية و المواهب و العطايا الربانية.

۳- قوله تعالى: كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ هو تعبير جامع تتداعى فيه كلّ صـفات الجنّة فی ذهن المؤمنين ذوی الاسـتقامة، بمعنى أنّ الجنّة كلّها و بكل ما سمعتم عنها و عن نعيمها مسخّرة لكم، و من حورها و قصورها إلى مواهبها الكثيرة و عطاياها المعنوية التی لا يدركها الإنسان، و لم تخطر ببال أحد: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ۳۶۵].

۴- فی البشارة الرّابعة تعرّف الملائكة نفسها بأنّها تلتزم جانب المؤمنين فی الدنيا و الآخرة، تقوم بنصرهم و إنزال السكينة عليهم، و هی صورة تقابل الآيات السابقـة من هـذه السورة المباركـة عنـد ما وصـفت أعداء اللّه من الكفار من المعاندين و المكذبين، و كيف أنّهم يتأوهون من عذاب النّار و يمتلئون غيظا و غضبا على من

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۱

أضلّهم فی الحياة الدنيا، و يريدون الانتقام منهم.

۵- الفرق بين البشارة الخامسـة و السادسـة، أنّ فی الخامسـة يقال لهم: إنّ ما ترغبونه و تريـدونه موجود هناك، فإنّ مجرّد رغبتكم فی شیء ما يتزامن مع مثوله أمامكم.

و لكن قوله تعالى فی تَشْـتَهِی أَنْفُسُـكُمْ يسـتخدم للإشارة إلى الرغبات و اللـذات الماديـة، و إنّ قوله تعالى فی ما تَـدَّعُونَ يشـير إلى ما تريدونه من المواهب المعنوية و العطايا و الملذات الروحانية.

و خلاصة الكلام: أنّ كلّ شيء موجود هناك، سواء كان ماديا أم معنويا.

۶- «نزل» تعنى كما أشرنا سابقا، ما يقدمه المضيف إلى ضيفه، بينما فسّرها البعض بأوّل ما يقدّم إلى الضيف. و التعبير فى كلّ الأحوال يكشف عن أن جميع المؤمنين ذوى الاستقامة هم ضيوف اللّه و نزل رحمته و جنته و مائدته.

۷- إنّ التدقيق فى هذا البشائر و وعود الحق من قبل البارئ جلّ و علا، و التى تعطى للمؤمنين بواسطة ملائكة اللّه الكرام، سوف تحرك فى وجود الإنسان الدوافع نحو الإيمان و الاستقامة، تجعل الروح البشرية تتعشق السير فى هذا الطريق.

و فى ظل هذه الأجواء المضيئة بالطاعة و البشرى، استطاع الإسلام العزيز أن يصنع من عرب الجاهلية مجموعة نموذجية لا تتوانى عن الإيثار و التضحية بالغالى و العزيز فى سبيل منعة الإسلام و المسلمين و انتصارهم على كلّ المشاكل و العقبات.

و ينبغى أن ننتبه هنا إلى أنّ «الاستقامة» مثلها مثل «العمل الصالح» هى ثمرة لشجرة الإيمان، إذ الإيمان يدعو الإنسان إلى الاستقامة متى ما نفذ إلى عمق الإنسان، و تأسست قواعد وجوده النفسى على التقوى، مثلما تعمق الاستقامة فى طريق الحق و الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۲

و هكذا يكون لهذين العاملين أثران متبادلان متقابلان.

و الذى نستفيده، من الآيات القرآنية الأخرى، أنّ الإيمان و الاستقامة لا يجلبان البركات المعنوية و الروحية و حسب، و إنّما يرفل الإنسان من خلالهما بالبركات المادية التى تسود عالمنا هذا، إذ نقرأ فى الآية (۱۶) من سورة الجن قول الله تعالى: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً و ستشملهم فيما يشملهم سنوات ملأى بالخير و العطاء و البركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۳

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۳۳ الى ۳۶]

اشارة

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۳) وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (۳۴) وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۳۵) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۶)

التّفسير

ادفع السيئة بالحسنة:

ما زالت هذه المجموعة من الآيات الكريمة تتحدث عن الصورة الأخرى، عن المؤمنين الذين يتبعون أحسن القول.

يقول تعالى: وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

و بالرغم من أنّ الآية استفهامية، إلّا أنّ الاستفهام هنا إنكارى، بمعنى أنّه ليس هناك أفضل من كلام الشخص الذى يدعو إلى اللّه و ينادى بالتوحيد، ثمّ يؤكّد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۴

دعوته اللفظية هذه و يقرنها بالفعل و العمل الصالح.

إنّ اعتقاد هؤلاء بالإسلام و تسليمهم للبارى جلّ و علا، يدعم عملهم الصالح.

إنّ الآیة الکریمة هذه ترسم ثلاث صفات لذی القول الحسن هی: الدعوة إلی اللّه، و العمل الصالح، و التسلیم، حیال الحق.

إنّ أمثال هؤلاء فضلا عن تمسکهم بالأرکان الإیمانیة الثلاثة (الإقرار باللسان، و العمل بالأرکان، و الإیمان بالقلب) فإنّهم تمسکوا برکن رابع هو التبلیغ و الدعوة و نشر دین الحق، و إقامة الدلیل علی أصول الدین، و دفع آثار الشرک و التردد من قلوب عباد اللّه.

إنّ هؤلاء المنادین، بصفاتهم الأربع، یعتبرون أفضل المنادین و الدعاة فی العالم.

و برغم ما ذهب إلیه بعض المفسّرین من قولهم بانطباق الصفات السابقة علی شخص رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أو هو و الأئمّة الذین یدعون إلی الحق، أو المؤذنین خاصة. لکن من الواضح أنّ للآیة مفهوما أوسع بحیث یشمل کلّ المنادین بالتوحید ممّن تشملهم الصفات المذکورة. بالرغم من أن أفضل مصداق لذلک هو الرسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم [خاصة فی فترة نزول الآیة] ثمّ یأتی بعد ذلک الأئمّة من أهل البیت علیهم السّلام، و بعدهم جمیع العلماء و المجاهدین فی طریق الحق، و الآمرین بالمعروف و الناهین عن المنکر، و الداعین للإسلام من أی طائفة کانوا.

إنّ هذه الآیة فخر عظیم و عزّ کبیر لکل أولئک، کی تتقوی عزائمهم و یربط علی قلوبهم.

و إذا قیل بأن الآیة مدح لبلال الحبشی المؤذن الخاص لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فذلک بسبب أنّه أطلق نداء التوحید فی فترة من أحلک الفترات و أوحشها فی تأریخ الدعوة الإسلامیة، و عرّض روحه للخطر.

ثم کمّل هذه الأوصاف بإیمانه الراسخ، و استقامته التی لا نظیر لها، و أعماله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۵

الصالحة، و الاستمرار علی نهج الإسلام الصحیح.

أمّا قوله تعالی: وَ قالَ إِنَّنِی مِنَ الْمُسْلِمِینَ فللمفسّرین فیه قولان:

الأوّل: أنّ (قال) هنا من (قول) و تعنی الاعتقاد، و یکون المعنی: الذی عنده الاعتقاد الراسخ بالإسلام.

الثّانی: أنّ (قول) بمعنی الحدیث و التحدّث، و حین ذلک یکون المعنی: الذی یفتخر و یتباهی بالدین الإلهی، و ینادی بصوت مرتفع إننی من المسلمین.

المعنی الأوّل یبدو أکثر قبولا بالرغم من أنّ مفهوم الآیة یتحمل المعنیین.

بعد بیان الدعوة إلی اللّه و أوصاف الدعاة إلی اللّه، شرحت الآیات أسلوب الدعوة و طریقتها، فقال تعالی: وَ لا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّیِّئَةُ[۳۶۶].

فی الوقت الذی لا یملک فیه أعداؤکم سوی سلاح الافتراء و الاستهزاء و السخریة و الکلام البذیء و أنواع الضغوط و الظلم، و یجب أن یکون سلاحکم- أنتم الدعاة- التقوی الطهر و قول الحق و اللین و الرفق و المحبّة.

إنّ المذهب الحق یستفید من هذه الوسائل، بعکس المذاهب المصطنعة الباطلة.

و بالرغم من أنّ (الحسنة) و (السیئة) تنطویان علی مفهومین واسعین، إذ تشمل الحسنة کلّ إحسان و جمیل و خیر و برکة، و السیئة تشمل کلّ انحراف و قبح و عذاب، إلّا أنّ الآیة تقصد ذلک الجانب المحدّد من السیئة و الحسنة، الذی یختص بأسالیب الدعوة.

لکن بعض المفسّرین فسّر الحسنة بمعنی الإسلام و التوحید، و السیئة بمعنی الشرک و الکفر.

و قال البعض: (الحسنة) هی الأعمال الصالحة. و (السیئة) الأعمال القبیحة.

و هناک من قال: إنّ (الحسنة) هی الصفات الإنسانیة النبیلة، کالصبر و الحلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۶

و المداراة و العفو، بینما السیئة بمعنی الغضب و الجهل و الخشونة.

و لکن التّفسیر الأوّل هو الأفضل حسب الظاهر.

فی حدیث عن الإمام الصادق أنّه علیه السّلام قال فی تفسیر الآیة أعلاه: «الحسنة التقیة، السیئة الإذاعة»[۳۶۷].

و طبعا فان هـذا الحـدیث الشـریف ناظر الی الموارد التی تکون فیها الاذاعة سـببا فی إتلاف الطاقات و الکوادر الجیدة و افشاء الخطط للأعداء.

ثم تضیف الآیة: ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ

ادفع الباطل بالحق، و الجهل و الخشونـة بالحلم و المـداراة، و قابل الإساءة بالإحسان، فلا ترد الإساءة بالإساءة، و القبح بالقبح، لأنّ هذا أسلوب من همّه الانتقام، ثمّ إنّ هذا الأسلوب یقود إلی عناد المنحرفین أکثر.

و تشیر الآیة فی نهایتها إلی فلسفة و عمق هذا البرنامج فی تعبیر قصیر، فتقول:

إنّ هذا التعامل سیقود إلی: فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ

إنّ ما یبیّنه القرآن هنا، مضافا إلی ما یشبهه فی الآیة (۹۶) من سورة المؤمنین فی قوله تعالی: ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ السَّیِّئَةَ یعتبر من أهم و أبرز أسالیب الدعوة، خصوصا حیال الأعداء و الجهلاء و المعاندین. و یؤید ذلک آخر ما توصـلت إلیه البحوث و الدراسات فی علم النفس.

لأنّ کلّ من یقوم بالسـیئة ینتظر الرد بالمثل، خاصـة الأشـخاص الـذین هم من هـذا النمط، و أحیانا یکون جواب السـیئة الواحـدة عـدّة سیئـات. أمّـا عنـد ما یری المسیـء أنّ من أساء إلیه لا یرد السـیئة بالسـیئة و حسب، و إنّما یقابلها بالحسـنة، عنـدها سـیحدث التغییر فی وجوده، و سیؤثر ذلک علی ضمیره بشدّة فیوقظه، و ستحدث ثورة فی أعماقه، سیخجل و یحس بالحقارة و ینظر بعین التقدیر و الأکبار إلی من أساء إلیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۷

و هنا ستزول الأحقاد و العداوات من الداخل و تترک مکانها للحبّ و المودّة.

و من الضـروری أن نشیر هنا إلی أنّ هذا الأمر لا یمثل قانونا دائما، و إنّما هو صـفة غالبة، لأنّ هناک أقلیة تحاول أن تسـیء الاستفادة من هذا الأسلوب، فما لم ینزل بها ما تستحق من عقاب فإنّها لا تترک أعمالها الخاطئة.

و لکن فی نفس الوقت الـذی نسـتخدم العقوبة و الشدة ضدّ هذه الأقلیة، علینا أن لا نغفل عن أنّ القانون المتحکم بالأکثریة هو قانون: «ادفع السیئة بالحسنة».

لـذلک رأینا أنّ رسول الإسـلام صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم و القادة من أئمة أهل البیت علیهم السّلام کانوا یسـتفیدون دائما من هذا الأسلوب القرآنی العظیم، ففی فتح مکّة مثلا کان الأعداء- و حتی الأصدقاء- ینتظرون أن تسفک الدماء و تؤخذ الثارات من الکفار و المشـرکین و المنافقین الـذین أذاقوا المؤمنین ألوان الأذی و العذاب فی مکّة و خارجها، من هنا رفع بعض قادة الفتح شـعار «الیوم یوم الملحمة، الیوم تسبی الحرمة، الیوم أذلّ اللّه قریشا» لکن ما کان من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و تنفیذا لأخلاقیة «ادفع السیئة بالحسـنة» إلّا أن عفا عن الجمیع و أطلق کلمته المشهورة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ثمّ أمر صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم أن یستبدل الشعار الانتقامی بشعار آخر یفیض إحسانا و کرما هو: «الیوم یوم المرحمة، الیوم أعزّ اللّه قریشا»[۳۶۸].

لقـد أحدث هذا الموقف النبوی الکریم عاصـفة فی أرض مشـرکی مکّة حتی أنّه علی حدّ وصف کتاب اللّه تعالی بدأوا: یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اللَّهِ أَفْواجاً[۳۶۹].

لکن برغم ذلـک، نری أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم اسـتثنی بعض الأشـخاص من العفو العام هـذا، کما نقله أصـحاب السـیرة، لأنّهم کانوا خطرین و لم یسـتحقوا العفو النبوی الکریم الـذی عبّر فیه رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم عن خلق الإسـلام و منطق النّبیین حینما

قال: «لا أقول لکم إلّا کما قال یوسف لإخوته: لا تثریب علیکم الیوم یغفر اللّه لکم و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۸

أرحم الراحمين»[۳۷۰].

«ولى» هنا بمعنى الصديق. و (حميم) تعنى فى الأصل الماء الحار المغلى، و إذا قيل لعرق جسم الإنسان (حميم) فلذلك لحرارته، و لهذا السبب يطلق اسم «الحمّام» على أماكن الغسل، و يقال أيضا للأصدقاء المخلصين و المحبين للشخص «حميم» و الآية تقصد هذا المعنى.

و ضرورى أن نشير إلى أنّ قوله تعالى: كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ حتى و إن لم تكن تعنى أنّ الشخص لم يكن كذلك حقا، إلا أنّ ظاهره سيكون كذلك على الأقل.

إنّ هذا الأسلوب من التعامل مع المعارضين و الأعداء ليس بالأمر العادى السهل، و الوصول إليه يحتاج إلى بناء أخلاقى عميق، لذلك فإنّ الآية التى بعدها تبين الأسس الأخلاقية لمثل هذا التعامل فى تعبير قصير ينطوى على معانى كبيرة، حيث يقول تعالى: وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا[۳۷۱].

و كذلك: وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

على الإنسان أن يجاهد نفسه مدّة طويلة حتى يستطيع أن يسيطر على غضبه، يجب أن تكون روحه قوية فى ظلّ الإيمان و التقوى حتى لا يستطيع أن يتأثر بسرعة و بسهولة بإيذاء الأعداء، و لا يطغى عنده حب الانتقام، فتلزمه الروح الواسعة و انشراح الصدر بالمقدار الكافى، حتى يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من الكمال بحيث يقابل السيئات بالإحسان. و عليه أن يتجاوز مرحلة العفو ليصل إلى منزلة «دفع السيئة بالحسنة» و أن يحتسب كلّ ذلك فى سبيل اللّه تعالى بغية تحقيق الأهداف المقدّسة.

و هنا أيضا- كما تلاحظون- تواجهنا قضية «الصبر» بوصف هذه الخصلة الأساس المتين لكل الملكات الأخلاقية الفاضلة، و هى شرط فى التقدم المعنوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۹

و المادى ۳۷۲].

إنّ هناك- بلا شك- موانع تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم، و إنّ وساوس الشيطان تمنع الإنسان من تحقيق ذلك بوسائل مختلفة، لذلك نرى الآية الأخيرة تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بوصفه الأسوة و القدوة فتقول له: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۳۷۳].

«نزغ» تعنى الدخول فى عمل ما لإفساده، و لهذا السبب يطلق على الوساوس الشيطانية «نزغ» و هذا التحذير بسبب ما يراود ذهن الإنسان من مفاهيم مغلوطة خطرة، إذ يقوم بعض أدعياء الصلاح بتوجيه النصائح على شاكلة قولهم: لا يمكن إصلاح الناس إلّا بالقوّة. أو يجب غسل الدم بالدم. أو الترحم على الذئب ظلم للخراف و أمثال ذلك من الوساوس التى تنتهى إلى مقابلة السيئة بالسيئة.

القرآن الكريم يقول: إيّاكم و السقوط فى مهاوى هذه الوساوس، و لا تلجأوا إلى القوّة إلّا فى موارد معدودة، و عند ما يواجهكم أمثال هذا الكلام فاستعينوا باللّه و اعتمدوا عليه لأنّه يسمع الكلام و يعلم النيات.

و أخيرا، تتضمّن الآية الدعوة إلى الاستعاذة باللّه على مفهوم واسع، و ما ذكر هو أحد المصاديق لذلك.

ملاحظتان

أوّلا: برنامج الدعاء إلى اللّه

لقد تضمّنت الآيات الأربع- أعلاه- أربعة بحوث بالنسبة إلى كيفية الدعوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۰

إلى اللّه تعالى. و الخطوات الأربع هى:

أوّلا: البناء الذاتى للدعاة من حيث الإيمان و العمل الصالح.

ثانيا: الاستفادة من أسلوب «دفع السيئة بالحسنة».

ثالثا: تهيئة الأرضية الأخلاقية لإنجاز هذا الأسلوب و العمل به.

رابعا: رفع الموانع من الطريق و محاربة الوساوس الشيطانية.

لقد قدّم لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّة من أهل بيته عليهم السّلام خير أسوة و قدوة فى تنفيذ هذا البرنامج و الالتزام به، و الالتزام بهذا البرنامج يعتبر أحد الأسباب التى أدّت بالإسلام فى ذلك العصر المظلم الى الاتساع و الانتشار.

و اليوم يشهد علم النفس العديد من البحوث و الدراسات حول وسائل التأثير على الآخرين، إلّا أنّها تعتبر شيئا تافها فى مقابل عظمة الآيات أعلاه، خصوصا و أن البحوث هذه عادة ما تتعامل مع ظواهر الإنسان و تستهدف الكسب السريع العاجل و لو من خلال التمويه و الخداع، لكن البرنامج القرآنى يخوض فى أعماق النفس البشرية و يؤسس قواعد تأثيره على مضمون الإيمان و التقوى.

و اليوم، ما أحلى أن يلتزم المسلمون ببرنامج دينهم، و يعمدون إلى نشر الإسلام فى عالم متلهف إلى قيم السماء.

أخيرا تنهى هذه الفقرة بإضاءة نبوية نقتبسها عن تفسير «على بن إبراهيم» الذى ورد فيه: «أدّب اللّه نبيّه فقال: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: ادفع سيئة من أساء إليك بحسنتك، حتى يكون الَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [۳۷۴].

ثانيا: الإنسان فى مواجهة عواصف الوسواس:

ثمّة منعطفات صعبة فى حياة المؤمنين يمكن فيها الشيطان، و يحاول أن ينزغ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۱

و يحيد بالإنسان عن طريق السعادة و كسب رضا اللّه تعالى.

و على الإنسان فى مقابل وسواس الشيطان أن يعتمد فى تجاوزها على اللّه، و إلّا فإنّه لا يستطيع ذلك لوحده، فعليه أن يتوكل على اللّه ليجتاز عقبات الطريق و مخاطره، و يتمسك بحبل اللّه المتين.

لقد ورد، فى الحديث أن شخصا أساء لآخر فى محضر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فثار الغضب فى قلبه و اشتعلت فيه هواجس الثار، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «إنّى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم».

فقال الرجل: أ مجنونا ترانى؟

فاستند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إلى القرآن و تلا قوله تعالى: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۳۷۵].

و هذه إشارة إلى أنّ ثورة الغضب من وساوس الشيطان، مثلما تعتبر ثورة الشهوة و الهوى من وساوسه أيضا.

و نقرأ فى كتاب «الخصال» أنّ أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام علّم أصحابه أربعمائة باب تنفع المسلمين فى الدين و الدنيا، من ضمنها

قوله عليه السّلام لهم: «إذا وساوس الشيطان إلى أحدكم فليستعذ باللّه و ليقل: آمنت باللّه مخلصا له الدين»[۳۷۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۲

الآیات [سورة فصلت (۴۱): الآیات ۳۷ الی ۳۹]

اشارة

وَ مِنْ آیاتِهِ اللَّیْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَهُنَّ إِنْ کُنْتُمْ إِیَّاهُ تَعْبُدُونَ (۳۷) فَإِنِ اسْتَکْبَرُوا فَالَّذِینَ عِنْدَ رَبِّکَ یُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا یَسْأَمُونَ (۳۸) وَ مِنْ آیاتِهِ أَنَّکَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِی أَحْیاها لَمُحْیِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۳۹)

التّفسیر

السّجدة للّه تعالی:

تعتبر هـذه الآیات بدایـة فصل جدیـد فی هـذه السورة، فهی تختص بقضایا التوحید و المعاد، و دلائل النبوة و عظمة القرآن، و هی فی الواقع مصداق واضح للدعوة إلی اللّه فی مقابل دعوة المشرکین إلی الأصنام.

تبدأ أوّلا من قضیة التوحید، فتدعو الناس إلی الخالق عن طریق الآیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۳

الآفاق ۳۷۷]: وَ مِنْ آیاتِهِ اللَّیْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ فاللیل و ظلمته للراحة، و النهار وضوءه للحرکة.

و هذان التوأمان یقومان بإدارة عجلة حیاة الناس بشکل متناوب و منظم، بحیث لو کان أحدهما دائمیا أو استمر لمدة أطول، فستصاب جمیع الکائنات بالفناء، لذا فإنّ الحیاة تنعدم علی سطح القمر حیث تعادل لیالیه (۱۵) لیلة أرضیة و نهاره بهذا المقدار أیضا.

إنّ لیـالیه المظلمـة الباردة تجعل کلّ شـیء جامـدا، أمّا نهاره الطویل الحار فإنّه یحرق کلّ شـیء، لـذلک لا یسـتطیع الإنسان و کائنات أرضنا أن تعیش علی القمر.

أمّا الشـمس فهی مصـدر کلّ البرکات المادیة فی منظومتنا، فالضوء و الحرارة و الحرکة و نزول المطر، و نمو النباتات و نضج الفواکه، و حتی ألوان الورود الجمیلة، کل ذلک یدین فی وجوده إلی الشمس.

القمر یقوم بـدوره بإضـاءة اللیالی المظلمـة، وضوءه دلیل السائرین فی دروب الصـحراء، و هو یجلب الخیرات بتأثیره علی میاه البحار و حدوث الجزر و المد فیه.

و لعلّ البعض قام بالسجود لهذین الکوکبین السماویین و بعبادتهما بسبب الخیرات و البرکات الآنفة الذکر، فتاهوا فی عالم الأسباب، و لم یستطیعوا الوصول إلی مسبّب الأسباب.

و لـذلک نری القرآن بعـد هـذا البیان یقول مباشـرة: لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَهُنَّ إِنْ کُنْتُمْ إِیَّاهُ تَعْبُدُونَ ۳۷۸].

فما ذا لا تتوجهوا بالسجود و العبادة إلی خالق الشمس و القمر؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۴

و لماذا تعبدون کائنات هی نفسها خاضعة لقوانین الخلقة و نظام الوجود، و لها شروق و غروب و تخضع التغییرات؟

إنّ السـجود لا- ینبغی إلّـا للّه خـالق هـذه الموجودات! إنّ خـالق هـذه الموجودات و مودع النظم و القوانین فیها لا یغرب و لا یأفل و لا تمتد ید التغییر إلی محضر کبریائه عزّ و جلّ.

و بهـذا الشـكل تنفى الآيات أحـد الفروع الواسـعة لانتشار الشـرك و عبادة الأصـنام المتمثلة فی عبادة الكائنات الطبيعية النافعة، فينبغی للجميع أن يبحثوا عن علـة العلل و أن لا يتوقفوا عند المعلول، نعم ينبغی البحث عن خالق هذه الموجودات! إنّ هذه الآية تسـتدل- فی الواقع- علی وجود الخالق الواحد عن طريق النظام الواحد الذی يتحكم بالشـمس و القمر و الليل و النهار، و إن حاميته تعالی علی هذه الموجودات تعتبر دليلا علی وجوب عبادته.

قوله تعـالی: إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـدُونَ فيه إشـارة إلی ملاحظـة مؤدّاهـا: إذا كنتم تريـدون عبـادة الخالق فعليكم إلغاء غيره من الشـركاء فی العبادة، لأنّ عبادته لا تكون إلی جانب عبادة غيره.

و إذا لم يؤثر هـذا الـدليل المنطقی فی أفكـار هؤلاـء، و اسـتمروا مع ذلـك فی عبـادة الأصـنام و الموجودات الأـخری، و نسوا المعبود الحقيقی، فاللّه تعالی يخاطبهم بعد ذلك بقوله: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ ۳۷۹].

فليس مهما أن لا تسجد مجموعة من الجهلة و الغافلين حيال جبروت اللّه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۵

و ذاته المقدّسة الطاهرة، فهذا العالم الواسع ملیء بالملائكة المقرّبين الذين يركعون و يسجدون و يسبحون له دائما و لا يفترون أبدا.

ثم إنّ هؤلاء هم بحاجة إلی عبادة اللّه و لا يحتاج تعالی لعبادتهم، لأنّ فخرهم و كمالهم لا يتمّ إلّا فی ظل العبودية له سبحانه و تعالی.

و لقد ذكرنا أنّ الآيات أعلاه هی من آيات السجدة،، و ثمّة اختلاف بين فقهاء أهل السـنة فی أنّ السـجدة هل تكون واجبة بعد بداية الآية الأولی (تعبدون) أو أنّها تكون كذلك بعد تمام الآيتين (يسأمون)؟

ذهب الشافعی و مالك إلی الاحتمال الأول، بينما رجح آخرون كأبی حنيفة و أحمد بن حنبل الاحتمال الثّانی.

إلّا أنّ موقع السـجدة الواجبـة حسب اعتقـاد علمـاء الإماميـة، وفقـا للرّوايـات الواردة عن أهـل الـبيت عليهم السّـلام، هی الآيـة الأـولی (تعبدون) و الآية الكريمة هی من آيات السجدة الواجبة فی القرآن الكريم.

و ضـروری أن نشـير هنا إلی أنّ الواجب هو أصل السـجدة، أمّا الذكر فهو مستحب، و نقرأ فی رواية أنّ أقل هذا الذكر فی السجدة هو القول:

«لاـ إله إلّا اللّه حقّا حقّا، لا إله إلا اللّه إيمانا و تصـديقا، لا إله إلا اللّه عبوديـة و رقا سـجدت لك يا ربّ تعبـدا ورقا، لا مسـتنكفا و لا مستكبرا بل أنا عبد ذليل خائف مستجير»[۳۸۰].

نعود مرّة اخری إلی آيـات التوحيـد التی تعتبر الأرضيـة للمعـاد، و إذا كـان الحـديث قـد شـمل فی السـابق الشـمس و القمر و الآيـات السماوية، فإنّ الحديث هنا يدور حول الآيات الأرضية.

يقول تعالی: وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَی الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ

هذه الأرض الميتة اليابسة الخالية من الحركة و آثار الحياة، أی قدرة حولتها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۶

إلی نبض دائم يمور بالحياة و الحركة، إنّه الماء، و إنّه لدليل كبير علی قدرة اللّه الأزلية، و علامة علی وجود ذاته المقدّسة.

ثم تنتقل الآيـة من قضـية التوحيـد المتمثلة هنا بالحياة التی ما زالت تحيطها الكثير من الأسـرار و الخفايا و الغموض، إلی قضـية المعاد، حيث يقول تعالی: إِنَّ الَّذِی أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتی

نعم: إِنَّهُ عَلی كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فدلائل قدرته واضحة فی كلّ مكان، و مع هذا الوضع فكيف نشكّ بالمعاد و نعتبره محالا، أليس هذا سوی الجهل و الغفلة؟

«خاشعة» من (الخشوع) و تعنی فی الأصل التضرع و التواضع الملازم للأدب.

و استخدام هذا التعبير بخصوص الأرض الميتة اليابسة، يعتبر نوعا من الكناية.

فالأرض اليابسة الفاقدة للماء ستخلو من أى نوع من أنواع الثبات، و ستشبه الإنسان الساقط أرضا أو الميت الذى لا حراك فيه، إلّا أن نزول المطر سيهب لها الحياة و يجعلها تتحرك و تنمو.

«ربت» من (ربو) على وزن (غلو) و تعنى الزيادة و النمو، و الربا مشتق من نفس هذه الكلمة، لأنّ المرابى يطلب دينه مع الزيادة.

«اهتزت» من «هز» على وزن «حظ» و تعنى التحريك الشديد.

و حول «المعاد الجسمانى» و أدلته و كيفية استدلال عليه من عالم النبات تقدم بحث مفصّل فى نهاية سورة «يس» من هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۷

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۰ الى ۴۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴۰) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (۴۱) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۴۲)

التّفسير

محرفوا آيات الحق:

المجموعة التى بين أيدينا من آيات السورة الكريمة، بدأت بتهديد الذين يقومون بتحريف علائم التوحيد، و تضليل الناس، حيث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا.

من الممكن لهؤلاء أن يضلّوا الناس بأسلوب المغالطة و باستخدام السفسطة الكلامية، و يخفوا ذلك عن الناس. إلّا أنّه ليس بوسعهم إخفاء ذرّة ممّا يقومون به عن اللّه تبارك و تعالى.

«يلحدون» من (إلحاد) و هى فى الأصل من (لحد) على وزن (عهد) و تعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۸

الحفرة الواقعة فى جانب واحد، و لهذا السبب يطلق على الحفرة فى جانب القبر اسم «اللحد».

ثمّ أطلقت كلمة (إلحاد) على أى عمل يتجاوز الحد الوسط إلى الإفراط أو التفريط، و هى لذلك تطلق لوصف الشرك و عبادة الأصنام، و يقال لمن لا يؤمن باللّه تعالى (الملحد).

و المقصود من «الإلحاد فى آيات اللّه» هو إيجاد الوساوس و التموية فى أدلة التوحيد و المعاد التى ذكرتها الآيات السابقة بعنوان «و من آياته» أو جميع الآيات الإلهية، سواء منها الآيات التكوينية السابقة أو الآيات التشريعية النازلة فى القرآن الكريم و الكتب السماوية الأخرى.

إنّ المذاهب المادية و الإلحادية فى عالمنا اليوم التى تعتبر الدين وليد الجهل أو الخوف أو نتاج العامل الاقتصادى و الأمور الأخرى لإضلال الناس، هى بلا شك من مصاديق الخطاب فى هذه الآية الكريمة.

القرآن الكريم أوضح جزاء هؤلاء فى إطار مقارنة واضحة فقال تعالى:

أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ؟

الأشخاص الذين يحرقون ايمان الناس و عقائدهم بنيران الشبهات و التشكيكات سيكون جزاؤهم نار جهنّم، بعكس الذين أوجدوا المحيط الآمن للناس بهدايتهم الى التوحيد و الإيمان، فإنّهم سيكونون فى أمان يوم القيامة أليس ذلك اليوم هو يوم تتجسد فيه أعمال الإنسان فى هذه الدنيا؟

و قال بعض المفسّرين: إنّ الآية تقصد «أبا جهل» «أبو جهل» كنموذج للغواية و لأهل النّار، و فى الجانب المقابل ذكروا «حمزة» عم النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو «عمار بن ياسر» لكن من الواضح أنّ هذا القول لا يعدو أن يكون مصداقا للآية ذات المفهوم الواسع.

و الطريق فى هذا الجزء من الآية أنّ التعبير القرآنى يستخدم كلمة (إلقاء) فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۹

مخاطبة أهل النّار كدليل على عدم امتلاكهم الخيار فى أمرهم، بينما يستخدم كلمة «يأتى» فى مخاطبة أهل الجنّة، كدليل على احترامهم و حريتهم و إرادتهم فى اختيار الأمن و الهدوء.

و فوق كلّ هذا فقد استخدمت الآية تعبير الأمان من العذاب كناية عن الجنّة، بينما استخدمت نار جهنم بشكل مباشر، و فى ذلك إشارة إلى أنّ أهم قضية فى ذلك اليوم هى «الأمن».

و عند ما ييأس الإنسان من هداية شخص يخاطبه بقوله: افعل ما شئت. لذا فالآية تقول لأمثال هؤلاء: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ

لكن عليكم أن تعلموا: إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

لكن هذا الأمر لا يعنى أنّ لهم الحرية فى أن يعملوا ما يشاءون، أو أن يتصرفوا بما يرغبون، بل هو تهديد لهم بأنّهم لا يصغون لكلام الحق، إنّه تهديد يتضمّن توعّد هؤلاء و الصبر على أعمالهم إلى حين.

الآية التى بعدها تتحول من الحديث عن التوحيد و المعاد إلى القرآن و النبوّة، و تحذّر الكفار المعاندين بقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ ۳۸۱].

إنّ إطلاق وصف «الذكر» على القرآن يستهدف تذكير الإنسان و إيقاظه، و شرح و تفصيل الحقائق له بشكل إجمالى عن طريق فطرته، و قد ورد نظير ذلك فى الآية (۹) من سورة «الحجر» فى قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ

ثمّ تنعطف الآية لبيان عظمة القران فتقول: وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ.

إنّه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله أو أن يتغلب عليه، و منطقه عظيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۰

و استدلاله قوى، و تعبيره بليغ منسجم و عميق، تعليماته جذرية، و أحكامه متناسقة متوافقة مع الاحتياجات الواقعية للبشر فى أبعاد الحياة المختلفة.

ثم تذكر الآية صفة اخرى مهمّة حول عظمة القرآن و حيويته، فيقول تعالى:

لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ لأنّه: تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

أفعال اللّه عز و جل لا تكون إلّا وفق الحكمة و فى غاية الكمال. لهذا فهو أهل للحمد دون غيره.

لقد ذكر المفسّرون عدّة احتمالات حول قوله تعالى: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ ... إلّا أن أشملها هو أنّ أى باطل لا يأتيه، من أى طريق كان، و مهما كان الأسلوب، و هذا يعنى عدم وجود تناقض فى مفاهيمه، و لا ينقض بشىء من العلوم، أو بحقائق الكتب السابقة، و لا يعارض كذلك بالاكتشافات العلمية المستقبلية.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقائقه، و لا يمكن أن ينسخ فى المستقبلية.

لا يوجد أى تعارض فى معارفه و قوانينه و وصاياه و أخباره، و لا يكون ذلك فى المستقبل أيضا.

لم تصل إليه يد التحريف بزيادة أو نقص فى آية أو كلمة، و لن يطاله ذلك مستقبلا.

إنّ هذه الآية تعبير آخر لمضمون الآية (٩) من سورة «الحجر» حيث قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ٣٨٢].

و من خلال ما قلناه نستنتج أن قوله تعالى: مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ كناية عن جميع الجوانب و الجهات، بمعنى أنه لن يصيبه البطلان أو الفساد من جميع الأوجه و الجوانب، و ما ذهب إليه البعض من أن ذلك كناية للحال و المستقبل، فان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص: ٤٢١

قولهم هذا مصداق للمفهوم الأول.

«الباطل» كما يرى الراغب فى مفرداته: هو ما يقابل الحق، و لكن قد يفسّر أو يراد به أحيانا أحد مصاديقه كالشرك و الشيطان و المعدوم و الساحر.

و يطلق على الشجاع ب «البطل» لأنّه يبطل أعداءه و يقتلهم أو يلقى بهم خارجا.

لكن «باطل» فى الآية تنطوى على مفهوم مطلق غير محدّد بمصداق معين.

و التعبير الأخير فى الآية تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ دليل واضح على عدم وصول الباطل بأى طريق من الطرق إلى القرآن الكريم، فالباطل قد يسرى الى الكلام الذى يصدر من الأفراد ذوى العلم المحدود و القدرات النسبية.

أمّا الذى يتصف بالعلم المطلق و الحكمة المطلقة و يجمع كلّ الصفات الكمالية التى تجعله أهلا للحمد، فلا يطرأ على كلامه التناقض و الاختلاف، و لا ينسخ أو ينقض، أو تمتد إليه يد التحريف، و لا يتناقض كلامه مع الكتب السماوية و الحقائق السابقة، و لا يعارض بالمكتشفات العلمية الراهنة، أو تلك التى يكشفها المستقبل.

و أخيرا، الآية واضحة الدلالة على نفى التحريف عن القرآن الكريم، سواء من جهة الزيادة أو النقصان (هناك بحث مفصل حول نفى التحريف أوردناه فى نهاية الحديث عن الآية (٩) من سورة «الحجر».

سؤال:

قد يقال: إذا كان الباطل هو ما أشرنا إليه، أى كلّ ما يتصف بأنّه «المخالف الحق» فإننا فى التفسير الآية (و كذلك المفسّرين الآخرين) فسّرناه بمعنى «المبطل» فكيف يتسق ذلك؟

الإجابة على هذا السؤال تكمن فى ملاحظة دقيقة فى الأسلوب القرآنى، فالقرآن لا يقول: سوف لا يأتى باطل بعد هذا الكتاب السماوى، بل يقول لا يأتى الباطل إلى هذا الكتاب (أى القرآن) [ينبغى الانتباه إلى ضمير جملة: يأتيه .

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص: ٤٢٢

و معنى الكلام أن لا شىء يستطيع أن يصل إليه و يبطله. (فدقق فى ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص: ٤٢٣

الآيات [سورة فصلت (٤١): الآيات ٤٣ الى ٤٦]

اشارة

ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ

بَعِيدٍ (۴۴) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۴۵) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۴۶)

التّفسير

كتاب الهداية و الشفاء:

قام الكفار و المشركون بمحاربة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تكذيبه، و التصدى للإسلام و القرآن و الآيات السابقة كانت تحكى عن الحادهم و كفرهم بآيات اللّه لذلك جاءت الآية الأولى من الآيات التى بين أيدينا لمواساة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و ارشاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۴

المسلمين الذين يواجهون الأذى بأنّ لا محيص لهم عن الاستقامة و الصبر.

يقول تعالى: ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ

فإذا كانوا يتهمونك بالجنون و الكهانة و السحر، فقد أطلقوا هذه الأوصاف على من قبلك من الأنبياء و المرسلين.

إنّ دعوتك لدين الحق ليست جديدة، و إنّ ما تواجهه و أنت تدعو للدين الجديد ليس جديدا أيضا، لذلك ما عليك- يا رسول اللّه- إلّا أن ترابط بقوّة و تلزم ما أنت عليه و لا تهتم بكلام هؤلاء، لأنّ اللّه معك.

احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الآية هو: أنّ الكلام الذى قيل لك من قبل اللّه هو نفس الكلام الذى قيل لمن قبلك من الأنبياء[۳۸۳].

لكن المعنى الأوّل أنسب فى المقام، خاصة مع ملاحظة سياق الآيات القادمة.

يقول اللّه تبارك و تعالى فى نهاية الآية: إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ

فرحمته و مغفرته للمصدّقين، و عذابه للمكذبين و المعارضين.

و هذا الجزء من الآية هو بشارة للمؤمنين و تشويق لهم، و إنذار للكفار و تهديد لهم.

إنّ تقديم (المغفرة) على (العقاب) يشبه- فى الواقع- الموارد الأخرى، و هو دليل على تقدّم رحمته تعالى على غضبه، كما جاء فى المأثور من الدعاء: «يا من سبقت رحمته غضبه»[۳۸۴].

الآية التى بعدها تتحدث عن ذرائع هؤلاء المعاندين، و ترد على واحدة منها، إذ هم كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن بلسان الأعاجم حتى نهتم به أكثر و يستفيد منه غير العرب؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۵

إنّها حجّة عجيبة! و لعلّهم كانوا يستهدفون منها عدم فهم الناس القرآن حتى لا يضطروا إلى منعهم عنه، كما حكى القرآن عن سلوكهم هذا فى آية سابقة فى قوله تعالى:

لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ ۳۸۵].

و هنا يجيب القرآن على هذا القول بقوله: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ

ثم يضيفون: يا للعجب قرآن أعجمى من رسول عربى؟: ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ

أو يقولون: كتاب أعجمى لأمّة تنطق بالعربية؟! و الآن و بالرغم من نزوله بلسان عربى، و الجميع يدرك معانيه بوضوح و يفهم عمق

دعوة القرآن، إلّا أنّهم و مع ذلک نراهم یصرخون: لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِیهِ

إنّ الآیـة تتحـدث فی الواقع عن المرض الکامن فی نفوس هؤلاء و عجزهم عن مواکبة الهدی و النور الذی أنزل علیهم من ربّهم، فإذا جاءهم بلسانهم العربی قالوا: هو السـحر و، الأسـطورة، و إذا جاءهـم بلسان أعجمی فإنّهم سیعتبرونه غیر مفهوم، و إذا جاءهم مزیجا من الألفاظ العربیة و الأعجمیة عندها سیقولون بأنّه غیر موزون ۳۸۶]!! و ینبغی الانتباه هنا إلی أنّ کلمـة (أعجمی) من «عجمـة» علی وزن «لقمـة» و تعنی عـدم الفصاحـة و الإبهـام فی الکلاـم، و تطلق «عجم» علی غیر العرب لأـن العرب لاـ یفهمون کلامهم بوضوح، و تطلق «أعجم» علی من لا یجید الحدیث و الکلام سواء کان عربیا أو غیر عربی.

بناء علی هذا فإنّ (أعجمی) هی (أعجم) منسوبة بالیاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۶

ثم یخاطب القرآن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بالقول: قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ آمَنُوا هُدیً وَ شِفاءٌ.

أمّا لغیرهم: وَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ فِی آذانِهِمْ وَقْرٌ أیّ «ثقل» و لذلک لا یدرکونه.

ثم إنّه: وَ هُوَ عَلَیْهِمْ عَمًی ۳۸۷]. أیّ أنّهم لا یرونه بسبب عماهم، فهؤلاء کالاشخاص الذین ینادون من بعید: أُولئِکَ یُنادَوْنَ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ.

و من الواضـح أنّ مثـل هؤلاء الأشـخاص لا یسـمعون و لا یبصـرون. فلأجل العثور علی الطریق و الوصول إلی الهـدف لا یکفی وجود النور وحده، فیجب أن تکون هناک عن تبصر، کذلک یقال فی مسألة التعلّم، حیث لا یکفی وجود المبلّغ و الداعیة الفصیح، بل ینبغی أن تکون هنـاک أذن تسـمع و تعی، فلاـ شـک فی برکـة المطر و تأثیره فی نمو النباتات. و لکن المسألـة فی الأرض. طیبـة أم خبیثـة!! فالذین یتعاملون مع القرآن بروح تبحث عن الحقیقة سیهتدون و ستشفی نفوسهم و صدورهم به، حیث یعالج القرآن الکریم الأمراض الأخلاقیة و الروحیة، ثم یشدّون الرحال للسفر نحو الآفاق العالیة فی ظل نور القرآن و هداه.

أمّا ماذا یسـتفید المعانـدون و المتعصبـون و أعداء الحق و الحقیقة و أعداء الأنبیاء و الرسل، من کتاب اللّه تعالی، فهم فی الواقع مثلهم مثـل الأـعمی و الأـصم و من ینـادی من مکان بعیـد، فهل تراه یسـمع النـداء أو یسـتجیب لهـداه، إنّهم کمن أصـیب بالعمی و الصـمم المضاعف، و هو بعد ذلک فی مکان بعیدا!! و نقل بعض المفسّرین أنّ أهل اللغة یقولون لمن یفهم: أنت تسمع من قریب.

و یقولون لمن لا یفهم: أنت تنادی من بعید[۳۸۸].

«و ثمّة شرح مفصل حول شفاء القرآن و معالجته لآلام الإنسان الروحیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۷

یمکن مراجعته ذیل الآیة (۸۲) من سورة الإسراء.» الآیة التالیة تستمر فی مواساة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و المؤمنین معه و تقول لهم: إنّ للعناد و الإنکار تأریخ طویل فی حیاة النبوات: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ

و إذ تری أنّنا لا نعجل فی عقاب هؤلاء الأعـداء المعاندین، فذلک لأنّ المصـلحة، تقتضـی أن یکونوا أحرارا حتی تتمّ الحجّة علیهم: وَ لَوْ لا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ أی لکان العقاب قد شملهم بسرعة.

إنّ التأجیل الإلهی إنما یتم هنا لمصـلحة الناس و من أجل المزیـد من فرص الهدایـة و النور، و بغیـة إتمام الحجـة علیهم، و هذه السـنّة کانت نافذة فی جمیع الأقوام السابقة، و هی تجری فی قومک أیضا.

لکنّهم لم یصدّقوا بهذه الحقیقة بعد: وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ

«مریب» من «ریب» بمعنی الشک الممزوج بسوء الظن و القلق، لذلک فمعنی الآیة: إنّ المشرکین لا یشکون فی کلامک و حسب، بل یزعمون وجود القرائن علی بطلانه و التی تؤدی بزعمهم إلی الریب.

بعض المفسّـرین احتمـل أنّ مراد الجملـة الأخیرة هم الیهود و کتاب موسـی علیه السّـلام، بمعنی أنّ هؤلاء القوم لا یزالون یشـکون فی

التوراهٔ، لکن بعد هذا المعنی یرجح التّفسیر الأول ۳۸۹].

فی الآیـهٔ الأـخیرهٔ- من المجموعـهٔ- نقف أمام قانون عام یرتبط بأعمال الناس، و قـد أکّده القرآن مرارا. و هـذا القانون یکمل البحث السابق بشأن استفادهٔ المؤمنین من القرآن، بینما یحرم غیر المؤمنین أنفسهم من فیض النور الإلهی و الهدی الرّبانی.

یقول تعالی فی هذا القانون:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۸

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها وَ ما رَبُّکَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ.

لـذا فإنّ من لم یؤمن بهـذا الکتـاب و الـدین العظیم فسوف لن یضـروا اللّه تعـالی و لا یضـروک، لأن الحسـنات و السیئات تعود إلی أصحابها، و هم الذین سینالون حلاوهٔ أعمالهم و مرارتها.

مسائل:

أوّلا: الإختیار و العدالهٔ

قوله تعالی: وَ ما رَبُّکَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیـدِ دلیل واضح علی قانون الإختیار و حریهٔ الإرادهٔ، و فیه حقیقهٔ أنّ اللّه لا یعاقب أحدا بدون سـبب، و لا یزیـد فی عقاب أحـد دون دلیل، فسیاسـته فی عباده العدالـهٔ المحضهٔ، لأنّ الظلم یکون بسـبب النقص و الجهل و الأهواء النفسـیهٔ، و الذات الإلهیهٔ المقدسهٔ منزّههٔ عن کلّ هذه العیوب و النواقص.

کلمهٔ «ظلّام» و التی هی صیغهٔ مبالغهٔ بمعنی «کثیر الظلم»، یمکن أن تشیر- هنا و فی آیات قرآنیهٔ اخری- إلی أنّ العقاب دون سبب من قبل الخالق العظیم یعتبر مصداقا للظلم الکثیر، لأنّه تعالی منزّه عن هذا الفعل.

و ذهب بعضهم الی أن اللّه تعالی له عباد کثر، فلو أراد أن یظلم کلّ واحد منهم بجزء یسیر قلیل، عندها سیکون مصداقا ل «ظلّام».

و هذان التّفسیران لا یتعارضان فیما بینهما.

المهم هنـا أنّ القرآن و فی هـذه الآیات البینات نفی الجبر الـذی یؤدی الی اشاعـهٔ الفساد و ارتکاب أنواع القبائـح، و الاعتقاد به یؤدی إلی إلغاء أی نوع من المسؤولیهٔ و التکلیف، بینما الجمیع مسئولون عن أعمالهم، نتائجها تعود بالدرجهٔ الأولی علیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۹

لذلک نقرأ

فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی الإجابهٔ علی هذا السؤال: هل یجبر اللّه عباده علی المعاصی؟

فقال: «لا، بل یخیرهم و یمهلهم حتی یتوبوا».

فسئل علیه السّلام مجددا: هل کلف عباده ما لا یطیقون؟

أجاب الإمام علیه السّلام: «کیف یفعل ذلک و هو یقول: وَ ما رَبُّکَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ».

ثم أضاف الإمام الرضا علیه السّـلام: «إنّ أبی موسـی بن جعفر نقل عن أبیه جعفر بن محمّد من زعم أنّ اللّه یجبر عباده علی المعاصی أو یکلفهم ما لا یطیقون فلا تأکلوا ذبیحته، و لا تقبلوا شهادته، و لا تصلوا وراءه و لا تعطوه من الزکاهٔ شیئا»[۳۹۰].

إنّ هـذا الحدیث الشـریف یشـیر- ضـمنا- إلی هذه الملاحظهٔ الدقیقهٔ. و هی إنّ الجبریین ینتهون فی عقیدتهم إلی القول ب «التکلیف بما لا یطاق» لأنّ الإنسان إذا کان مجبورا علی الـذنب من ناحیـهٔ، و ممنوعا عنه من ناحیـهٔ اخری، فهذا یکون مصداقا واضـحا للتکلیف بما لا یطاق.

ثانیا: الذنوب و سلب النعم

فی حدیث عمیق الدلالة لأمیر المؤمنین نقرأ

قوله علیه السّلام: «و أیم اللّه! ما کان قوم قط فی غض نعمة من عیش فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها، لأنّ اللّه لیس بظلام للعبید».

ثم أضاف علیه السّلام:

«و لو أنّ الناس حین تنزل بهم النقم، و تزول عنهم النعم، فزعوا إلی ربّهم بصدق من نیاتهم، و وله من قلوبهم، لردّ علیهم کلّ شارد، و أصلح لهم کلّ فاسد.»[۳۹۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۴۲۹

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۰

إنّ هذا النص العلوی الکریم یوضح- بجلاء- علاقة الذنوب بسلب النعم و زوالها.

ثالثا: لماذا کلّ هذا التحجج؟!

لا شک أنّ اللغة العربیة أغنی اللغات و أوسعها، و لکن مع هذا فإنّ عظمة القرآن لیست لأنّه باللغة العربیة، بل تعود عربیة القرآن إلی أنّ اللّه یرسل الرسل بلسان قومهم کی یؤمنوا أولا، ثمّ ینتشر الدین إلی الآخرین.

لکن أصحاب الذرائع و الحجج یطرحون فی کلّ موقف حجة أو ذریعة غیر منطقیة، و هم یعلمون أنّهم بأسلوبهم هذا لا یبحثون عن الحقیقة و لا ینشدونها.

إنّهم یقولون مرّة: لماذا نزل القرآن بالعربیة؟ ألم یکن من الأفضل أن ینزل کلّه أو جزء منه بلغة اخری حتی یفهمه الآخرون؟ (فی حین أنّهم کانوا یهدفون إلی تحقیق شیء آخر هو أن لا ینجذب عامة العرب نحو القرآن الکریم).

و لو حقّق لهم هذا الطلب فسیقولون: کیف یکون الرّسول عربیا و کتابه غیر عربی؟

هؤلاء إنّما یهربون من الحق من خلال هذا التذرّع. و عادة ما یکون أسلوب التذرّع و إثارة الحجج دلیلا علی وجود علة اخری و هدف آخر یخفیه الإنسان و یغطّی علیه، و علّة هؤلاء القوم کانت أنّ عامة الناس شغفوا بالقرآن الکریم و انجذبوا إلیه، فأصبحت مصالحهم فی خطر، لذا فقد استخدموا کلّ الوسائل المتاحة لهم لمواجهة الإسلام دعوة و کتابا و نبیّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۱

بدایة الجزء الخامس و العشرون من القرآن الکریم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۳

الآیات [سورة فصلت (۴۱): الآیات ۴۷ الی ۴۸]

اشارة

إِلَیْهِ یُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَکْمامِها وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثی وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ یَوْمَ یُنادِیهِمْ أَیْنَ شُرَکائِی قالُوا آذَنَّاکَ ما مِنَّا مِنْ شَهِیدٍ (۴۷) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِیصٍ (۴۸)

التّفسير

اللّه العالم بكلّ شى‏ء:

الآية الأخيرة- فى المجموعة السابقة- تحدثت عن قانون تحمّل الإنسان لمسؤولية أعماله خيرا كانت أم شرا، و عودة آثار أعماله على نفسه، و هى إشارة ضمنية لقضية الثواب و العقاب فى يوم القيامة.

و هنا يطرح المشركون هذا السؤال: متى تكون هذه القيامة التى تتحدّث عنها؟ الآيتان اللتان نبحثهما تجيبان أولا عن هذا السؤال، إذ يقول القرآن: إنّ اللّه وحده يختص بعلم قيام الساعة: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ.

فلا يعلم بذلك نبىّ مرسل و لا ملك مقرّب، و يجب أن يكون الأمر كذلك لأغراض تربوية يكون فيها المكلّف على استعداد دائم للمحاسبة فى أى ساعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۴

ثم تضيف الآية: ليس علم الساعة لوحدها من مختصات العلم الإلهى فحسب، بل يندرج معها أشياء اخرى مثل أسرار هذا العالم، و ما يختص بالكائنات الظاهرة و المخفية: وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى‏ وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ [۳۹۲]. إنّ النباتات لا تنمو، و الحيوانات لا تتكاثر، و لا يضع الإنسان نطفة إلّا بأمر الخالق العظيم و، بمقتضى علمه و حكمته.

«أكمام» جمع «كم» على وزن «جم» و تعنى الغلاف الذى يغطّى الفاكهة و «كم» على وزن «قم» تعنى الجزء من الرداء الذى يغطّى اليد. أمّا «كمة» على وزن «قبة» فهى القلنسوة على الرأس [۳۹۳].

قال العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان: تكمم الرجل فى ثوبة، أى غطّى الشخص نفسه بلباسة.

أمّا الفخر الرازى فيفسّر «الأكمام» بمعنى القشرة التى تغطى الفاكهة.

و هناك من المفسّرين من فسروها بأنّها: «وعاء الثمرة»[۳۹۴].

و يبدو أنّ جميع هذه الآراء تعود إلى معنى واحد، و لأنّ أدق المراحل فى عالم الكائن الحى هى مرحلة النمو فى الرحم و الولادة، لذلك أكّد القرآن على هاتين القضيتين، سواء فى عالم الإنسان و الحيوان، أم فى عالم النبات.

فاللّه هو الذى يعلم بالنطف و زمان انعقادها فى الأرحام و لحظة ولادتها، و يعلم متى تتشكل الثمار و تنمو، و متى تخرج من أغلفتها.

ثم يضيف السياق القرآنى: إنّ هذه المجموعة التى تنكر القيامة و تستهزئ بها، ستتعرض إلى مشهد يقال لهم فيه: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ[۳۹۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۵

فما كنّا نقوله هو كلام باطل كان كلاما نابعا من الجهل و العناد و التقليد و الأعمى، و اليوم عرفنا مدى بطلان ادعاءاتنا الواهية.

و هؤلاء فى نفس الوقت الذى يسجلون اعترافهم السابق، فهم أيضا لا يشاهدون أثرا للمعبودات التى كانوا يعبدونها من دون اللّه من قبل: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ

إنّ مشهد القيامة مشهد موحش مهول بحيث يأخذ منهم الألباب، فينسون خواطر تلك الأصنام و المعبودات التى كانوا يعبدونها و يسجدون لها و يذبحون لها القرابين، بل و كانوا أحيانا يضحون بأرواحهم فى سبيلهم، و كانوا يظنون أنّها تحل لهم مشكلاتهم و تنفعهم يوم الحاجة ... إنّ كلّ ذلك أصبح وهما كالسراب.

ففى ذلك اليوم سيعلمون: وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ

«محيص» من «حيص» على وزن «حيف» و تعنى العدول و التنازل عن شى‏ء، و لأنّ (محيص) اسم مكان، فهى تعنى هنا الملجأ و المفر.

«ظنوا» من «ظنّ» و لها فی اللغـة معنی واسع، فهی أحیانا بمعنی الیقین، و تأتی أیضا بمعنی الظن. و فی الآیـة مورد البحث جاءت بمعنی الیقین، إذ أنّهم سیحصل لهم فی ذلک الیوم الیقین حیث لا مفرّ و لا نجاة من عذاب اللّه.

یقول الراغب الأصـفهانی فی المفردات: «ظن» تعنی الاعتقـاد الحاصـل من الـدلیل و القرینـة، و هـذا الاعتقـاد قـد یکون قویا فی بعض الأحیان و یصل إلی مرحلة الیقین، و أحیانا یکون ضعیفا لا یتجاوز حدّ الظن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۶

الآیات [سورة فصلت (۴۱): الآیات ۴۹ الی ۵۲]

اشارة

لاـ یَسْـأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَیْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَیَؤُسٌ قَنُوطٌ (۴۹) وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَـةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَـرَّاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ هذا لِی وَ ما أَظُنُّ السَّاعَـةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلی رَبِّی إِنَّ لِی عِنْدَهُ لَلْحُسْـنی فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِیقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِیظٍ (۵۰) وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَی الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأی بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَـذُو دُعاءٍ عَرِیضٍ (۵۱) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کانَ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ ثُمَّ کَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقاقٍ بَعِیدٍ (۵۲)

التّفسیر

فی نفس الاتجاه الـذی تحـدّثت فیه الآیات السابقـة، نلتقی مع مضـمون المجموعة الجدیدة من الآیات التی بین أیدینا، و التی تواصـل حدیثها عن صور اخری حیّة و ناطقة من حیاة أناس من عدیمی الإیمان و ضـعافه، الذین یحملون أفکارا غیر ناضـجة و مواقف مهزوزة و لا یمتلکون القدرة علی تحمل الصعاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۷

یقول تعالی: لا یَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَیْرِ.

فلیس لحرص الإنسان من نهایة، فکلما یحصل علی شیء یطالب بالمزید، و مهما یعطی لا یکتفی بذلک.

و لکنّه: وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَیَؤُسٌ قَنُوطٌ.

و المقصود بالإنسان هنا الإنسان غیر المتربی بعـد بأصول التربیـة الإسـلامیة، و الـذی لم یتنور قلبه بالمعرفـة الإلهیة و الإیمان باللّه، و لم یحسّ بالمسؤولیة بشکل کامل. إنّها کنایة عن الناس المتقوقعین فی عالم المادة بسبب الفلسفات الخاطئة، فهم لا یملکون الروح العالیة التی تؤهلهم للصبر و الثبات، و تجاوز الحدود المادیة إلی ما وراءها من القیم العظیمة.

هؤلاء یفرحون إذا أقبلت الـدنیا علیهم، و ییأسون و یحزنون إذا ما أدبرت عنهم، و لا یملکون ملجأ یلجأون إلیه، و لا یـدخل نور الأمل و الهدایة إلی قلوبهم.

و ینبغی أن نشیر أیضا إلی أنّ «دعاء» تأتی أحیانا بمعنی المناداة، و أحیانا بمعنی الطلب، و فی الآیة التی نبحثها جاءت بالمعنی الثّانی.

لذا فقوله تعالی: لا یَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَیْرِ یعنی لا یمل و لا یتعب الإنسان أبدا من طلب الخیر و الجمیل.

و ثمّة بیّن المفسّرین اختلاف فی الرأی حول «یؤوس» و «قنوط» فیما إذا کانا بمعنی واحد أم لا؟

یری البعض أنّهما بمعنی واحد، و التکرار للتأکید[۳۹۶].

و قال البعض الآخر: «یؤوس» من «یئس» بمعنی الیأس فی القلب، أمّا «قنوط» فتعنی إظهار الیأس علی الوجه و فی العمل [۳۹۷].

أمّا «الطبرسی» فقد قال فی مجمع البیان: إنّ الأوّل هو الیأس من الخیر، بینما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۸

الثّانی هو الیأس من الرحمة[۳۹۸].

و لکن الذی نستفید، من الاستخدام القرآنی أنی الاثنین یستخدمان تقریبا للدلالة علی معنی واحد، فنقرأ فی قصة یوسف- مثلا- أنّ یعقوب علیه السّلام حذّر أبناءه من الیأس من رحمة اللّه، فی حین کانت قلوبهم یائسة من العثور علی یوسف، و کانوا أیضا یظهرون علامات الیأس.[۳۹۹].

و فی حالة إبراهیم علیه السّلام نری أنّه عجب من البشارة التی زفتها إلیه الملائکة بالولد، لکن الملائکة قالت له: بَشَّرْناکَ بِالْحَقِّ فَلا تَکُنْ مِنَ الْقانِطِینَ ۴۰۰].

الآیة التالیة تشیر إلی صفة اخری من صفات الإنسان الجاهل البعید عن العمل و الإیمان متمثلة بالغرور: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ هذا لِی ۴۰۱] أی إنّنی مستحق و لائق لمثل هذه المواهب و المقام.

إنّ الإنسان المغرور ینسی أنّ البلاء کان من الممکن أن یشمله عوضا عن النعمة، تماما کما قال قارون: قالَ إِنَّما أُوتِیتُهُ عَلی عِلْمٍ عِنْدِی ۴۰۲].

تضیف الآیة بعد ذلک أنّ هذا الغرور یقود الإنسان فی النهایة إلی إنکار الآخرة حیث یقول: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً. و لنفرض أنّ هناک قیامة فإنّ حالی سیکون أحسن من هذا: وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلی رَبِّی إِنَّ لِی عِنْدَهُ لَلْحُسْنی

إنّ هذه الحالة تشابه ما استمعنا إلیه فی سورة الکهف من قصة الرجلین الذین کان أحدهما غنیا مغرورا، و الثّانی عارفا مؤمنا، حیث حکت الآیة علی لسان الثری المغرور قوله:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۹

ما أَظُنُّ أَنْ تَبِیدَ هذِهِ أَبَداً، وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلی رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَیْراً مِنْها مُنْقَلَباً[۴۰۳].

لکنّ اللّه یحذّر أمثال هؤلاء بقوله تعالی: فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِیقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِیظٍ.

«العذاب الغلیظ» هو العذاب الشدید المتراکم.

نفس هذا المعنی لاحظناه فی مکان آخر من القرآن، فی قوله تعالی فی الآیة (۱۰) من سورة هود: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّیِّئاتُ عَنِّی إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ.

الآیة التی بعدها تذکر حالة ثالثة لمثل هؤلاء، هی حالة النسیان عند النعمة و فزع و الجزع عند المصیبة.

یقول تعالی: وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَی الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأی بِجانِبِهِ أما: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِیضٍ

«نآ» من «نأی» علی وزن «رأی» و تعنی الابتعاد، و عند ما تقترن مع کلمة «بجانبه» فتکون کنایة عن التکبر و الغرور، لأنّ المتکبرین ینأون بوجوههم دون اهتمام و یبتعدون.

«العریض» مقابل الطویل، و یستخدم العرب هاتین الکلمتین للدلالة علی الزیادة و الکثرة.

و فی الایة (۱۲) من سورة یونس نری معانی شبیهة لما نحن بصدده، حیث یقول تعالی: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا کَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ کَأَنْ لَمْ یَدْعُنا إِلی ضُرٍّ مَسَّهُ کَذلِکَ زُیِّنَ لِلْمُسْرِفِینَ ما کانُوا یَعْمَلُونَ

إنّ الإنسان الذی یفتقد الإیمان و التقوی یکون عرضة لمثل هذه الحالات، فهو مع إقبال النعم مغرور ناس للّه، و إذا أدبرت عنه قنوط یائس کثیر الجزع.

و فی الجانب المقابل نری أنّ رجال الحق و أتباع الأنبیاء و الرسل لا یتغیرون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۰

إذا أقبلت علیهم النعم، و لا یهنون أو ییأسون أن یجزعون عند إدبارها، إنّهم مصداق قوله تعالی: رِجالٌ لا تُلْهِیهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَیْعٌ عَنْ

ذِكْرِ اللَّهِ فأربح التجارة لا تنسيهم ربّهم، إنّهم عارفون حق المعرفة بفلسفة النعمة و البلاء فى هذه الدنيا، يعلمون أنّ الابتلاءات ناقوس خطر لهم، بينما النعم اختبار و امتحان إلهى لهم.

و من الابتلاء ما يكون أحيانا عقوبة للغفلة و النسيان، و النعم لإثارة دوافع الشكر لدى العباد.

و يلفت النظر هنا طرافة الاستخدام القرآنى لكلمتى «أذقنا» و «مسه» و التى تعنى أنّهم مع قليل جدا من إقبال الدنيا عليهم يتغيرون و ينسون و يصابون بالغرور، و هؤلاء مع «مسّة» قليلة من ضرر أو بلاء يصابون باليأس و القنوط.

من هنا نقف على قيمة سعة الروح، و تدفق النفس بالإيمان، و اتساع آفاق الفكر، و انشراح الصدر، و استعداد الإنسان لمواجهة المشاكل و الصعاب، و تحدى المزالق و الأهواء، التى تعتبر جميعا من ثمار الإيمان و التقى.

يقول شهيد المحراب الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى أحد أدعيته التى تعتبر درسا لأصحابه:

«نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا و إيّاكم ممن لا تبطره نعمة، و لا تقصر به عن طاعة ربّه غاية، و لا تحل به بعد الموت ندامة و كئابة»[۴۰۴].

الآية الأخيرة تتضمن الخطاب الأخير لهؤلاء، و تبيّن لهم- بوضوح- الأصل العقلى المعروف بدفع الضرر المحتمل، حيث تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ[۴۰۵].

و من الواضح أن هذا الكلام إنّما يقال للاشخاص الذين لا ينفع معهم أىّ دليل منطقى لشدّة عنادهم و تعصبهم. فالآية تقول لهؤلاء: إذا كنتم ترفضون حقانية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۱

القرآن و التوحيد و وجود عالم ما بعد الموت و تصرون عليه، فأنتم لا تملكون حتما دليلا قاطعا على هذا الرفض، لذا يبقى ثمّة احتمال فى أن تكون دعوة القرآن و قضية المعاد حقيقة موجودة، عندها عليكم أن تتصوروا المصير الأسود الموحش الذى ينتظركم لعنادكم و ضلالكم و معارضتكم الشديدة إزاء الدين الإلهى.

إنّه نفس الأسلوب الذى نقرأ عنه فى محاججة أئمّة المسلمين لأمثال هؤلاء الأفراد، كما نرى ذلك واضحا فى الحادثة التى ينقلها العلّامة الكلينى فى «الكافى» حيث يذكر فيه الحوار الذى دار بين الإمام الصادق عليه السّلام و ابن أبى العوجاء.

فمن المعروف أنّ «عبد الكريم بن أبى العوجاء» كان من ملاحظة عصره و دهرييها، و قد حضر الموسم (الحج) أكثر من مرّة و التقى مع الإمام الصادق فى مجالس حوار، انتهت إلى رجوع بعض أصحابه عنه إلى الإسلام، و لكنّ ابن أبى العوجاء لم يسلم، و قد صرح الإمام (ع) بأن سبب ذلك هو إنّه أعمى و لذلك لا يسلم.

و الحادثة موضع الشاهد هنا، هى

أنّ الإمام بصر بابن أبى العوجاء فى الموسم فقال له: ما جاء بك إلى هذا الموضع؟

فأجاب ابن أبى العوجاء: عادة الجسد، و سنة البلد، و لننظر ما الناس فيه من الجنون و الحلق و رمى الحجارة! فقال له الإمام: أنت بعد على عتوك و ضلالك يا عبد الكريم ۴۰۶].

و عند ما أراد أن يبدأ بالمناقشة و الجدال

قال له الإمام عليه السّلام: لا جدال فى الحج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۲

ثم قال له: إن يكن الأمر كما تقول، و ليس كما نقول، نجونا و نجوت. و إن يكن الأمر كما نقول، و هو كما نقول نجونا و هلكت.

فأقبل عبد الكريم على من معه و قال: وجدت فى قلبى حزازة (ألم) فردّونى، فردوه فمات ۴۰۷].

مسألة:

يثار هنا السؤال الآتى: لقد قرأنا فى الآيات التى نبحثها قوله تعالى: إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ و لكنّا نقرأ فى سورة «الإسراء» قوله تعالى: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً[۴۰۸] و السؤال هنا كيف نوفق بين الآيتين، إذ المعروف أنّ الدعاء دليل الأمل، فى حين تتحدث الآية الأخرى عن يأس أمثال هؤلاء؟

أجاب بعض المفسّرين على هذا السؤال بتقسيم الناس إلى مجموعتين، مجموعة تيأس نهائيا عند ما تصاب بالشر و البلاء، و اخرى تصر على الدعاء برغم ما بها من فزع و جزع ۴۰۹].

البعض الآخر قال: إنّ اليأس يكون من تأمّل الخير أو دفع الشر عن طريق الأسباب الماديـة العادية، و هذا لا ينافى أن يلجأ الإنسان إلى اللّه بالدعاء[۴۱۰].

و يحتمل أن تكون الإجابة من خلال القول بأنّ المقصود من فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۳

هو ليس الطلب من اللّه، بـل الجزع و الفزع الكثير، و دليـل ذلك قوله تعالى فى الآيـة (۲۰) من سورة المعارج: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.

أو أن الآيتين تعبّران عن حالتين، إذ أنّ هؤلاء الأفراد يقومون أولا بالدعاء و طلب الخير من النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هم فزعون جزعون، ثمّ لا تمرّ فترة قصيرة إلّا و يصابون باليأس الذى يستوعب وجودهم كلّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۴

الآيتان [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۵۳ الى ۵۴]

اشارة

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (۵۴)

التّفسير

علائم الحق فى العالم الكبير و الصغير:

الآيتان الختاميتان فى هذه السورة تشيران إلى موضوعين مهمين، و هما بمثابة الخلاصة الأخيرة لبحوث هذه السورة المباركة.

فالآية الأولى تتحدث عن التوحيد (أو القرآن)، و الثانية عن المعاد.

يقول تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ

«آيات الآفاق» تشمل خلق الشمس و القمر و النجوم و النظام الدقيق الذى يحكمها، و خلق أنواع الأحياء و النباتات و الجبال و البحار و ما فيها من عجائب و أسرار لا تعد و لا تحصى، و ما فى عالم الأحياء من عجائب لا تنتهى، إنّ كلّ هذه الآيات هى دليل على التوحيد و على وجود اللّه.

أمّا «الآيات النفسية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، و النظام المحير الذى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۵

یتحکم بالمخ و حرکات القلب المنتظمة و الشرایین و العظام و الخلایا، و انعقاد النطفة و نمو الجنین فی ظلمات الرحم. ثمّ أسرار الروح العجیبة. إنّ کلّ ذلک هی کتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظیم.

صحیح أنّ هذه الآیات قد طرقت سابقا بمقدار کاف من قبل اللّه تعالی، إلّا أنّ هذه العملیة و الإراءة مستمرة، لأنّ (سنریهم) فعل مضارع یدل علی الاستمرار، و إذا عاش الإنسان مئات الآلاف من السنین، فسوف تنکشف له فی کلّ زمان علامات و آیات إلهیة جدیدة، لأنّ أسرار العالم لا تنتهی.

إنّ کافة کتب و بحوث العلوم الطبیعیة و ما یتصل بمعرفة الإنسان فی أبعاده المختلفة (التشریح، فسلجة الأعضاء، علم النفس، و التحلیل النفسی) و کذلک العلوم التی تختص بمعرفة النباتات و الحیوانات و الهیئة و الطبیعة و غیر ذلک، تعتبر فی الواقع کتبا و بحوثا فی التوحید و معرفة الخالق (جلّ و علا) لأنّها عادة ما ترفع الحجب عن الأسرار العجیبة لتبیّن قدرا من حکمة الخالق العظیم، و قدرته الأزلیة، و علمه الذی أحاط بکل شیء.

أحیانا یستحوذ علم واحد من هذه العلوم، بل فرع من فروعه المتعدّدة علی اهتمام عالم من العلماء فیصرف عمره فی سبیله، و فی النهایة یقرّر قائلا: مع الأسف لا زلت لا أعرف شیئا عن هذا الموضوع، و ما علمته لحد الآن تجعلنی أغوص أکثر فی أعماق جهلی، نعود الآن إلی الآیة التی تنتهی بجملة ذات مغزی حیث یقول تعالی: أَ وَ لَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ[۴۱۱].

و هل هناک شهادة أفضل و أعظم من هذه التی کتبت بخط القدرة التکوینیة علی ناصیة جمیع الکائنات، علی أوراق الشجر، فی الأوراد و الزهور، و بین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۶

طبقات المخ العجیبة، و علی الأغشیة الرقیقة للعین، و فی آفاق السماء و بواطن الأرض، و فی کلّ شیء من الوجود تجد أثرا یدل علی الخالق، و شهادة تکوینیة علی وحدانیته و قدرته و حکمته و علمه (سبحانه و تعالی).

إنّ ما قلناه أعلاه هو أحد التّفسیرین المعروفین للآیة، إذ بناء علی هذا التّفسیر فإن الآیة بجمیعها تتحدث عن قضیة التوحید، و تجلّی آیات الحق فی الآفاق و الأنفس.

أمّا التّفسیر الثّانی فیذهب إلی قضیة إعجاز القرآن، و خلاصته أنّ اللّه یرید أن یقول: لقد عرضنا معجزاتنا و دلائلنا المختلفة لا فی جزیرة العرب و حسب، و إنّما فی نواحی العالم المختلفة، و فی هؤلاء المشرکین أنفسهم، حتی یعلموا بأنّ هذا القرآن علی حق.

فمن آیات الآفاق ما تمثّل بانتصار الإسلام فی میادین الحرب المختلفة، و فی میدان المواجهة الفکریة و المنطقیة، ثمّ انتصاره فی المناطق التی فتحها و حکم فیها علی أفکار الناس.

ثم إنّ نفس المجموعة من المسلمین التی کانت فی مکّة، کیف یسّر اللّه لها أمرها بالهجرة، ثمّ انطلقت إلی بقاع الدنیا، لتدین لدینها الشعوب فی مناطق واسعة من العالم و رفع رایة الإسلام.

و من آیات الأنفس ما تمثل فی انتصار المسلمین علی مشرکی مکّة فی معرکة بدر، و فی یوم فتح مکّة، و نفوذ نور الإسلام إلی قلوب العدید منهم.

إنّ هذه الآیات الآفاقیة و الأنفسیة أثبتت أنّ القرآن علی حق.

و هکذا فإنّ الخالق العظیم الذی یشهد علی کلّ شیء، شهد أیضا علی حقانیة القرآن عن هذا الطریق.

و بالرغم من أنّ لکل واحد من هذین التّفسیرین قرائن و أدلة ترجحه، إلّا أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۷

التأمل فی نهایة الآیة و الآیة التی تلیها یکشف عن رجاحة التّفسیر الأوّل ۴۱۲].

و ثمّة أقوال اخری فی تفسیر الایة ترکناها لعدم جدواها.

الآیة الأخیرة فی السورة تشیر إلی الأساس و السبب فی شقاء هذه المجموعة المشرکة الفاسدة، إذ یقول تعالی عنهم: أَلا إِنَّهُمْ فِی مِرْیَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ

و لأنّهم لا یؤمنون بیوم الحساب و الجزاء، فهم یقومون بأنواع الجرائم و المعاصی مهما کانت، و مهما بلغت. إنّ حجب الغفلة و الغرور تهیمن علی هؤلاء فتنسیهم لقاء اللّه، ممّا یؤدی بهم إلی السقوط عن مصاف الإنسانیة.

و لکنّهم یجب أن یعلموا: أَلا إِنَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطٌ.

إنّ جمیع أعمالهم و نوایاهم حاضرة فی علم اللّه، و کل ذلک یسجّل لمحکمة القیامة و الحشر.

«مریة» علی وزن «جزیة» و «قریة» تعنی التردّد فی اتخاذ القرار، و البعض اعتبرها بمعنی الشک و الشبهة العظیمة، و الکلمة مأخوذة فی الأصل من «مریت الناقة» بمعنی عصر ثدی الناقة بعد حلبها أملا بوجود بقایا الحلیب فیه، و لأنّ هذا العمل مع الشک و التردّد، فقد وردت هذه الکلمة بهذا المعنی.

و عند ما نسمع إطلاق کلمة «المراء» علی «المجادلة» فذلک لما یحاوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۸

الإنسان من إخراج ما فی ذهن الطرف الآخر.

و الآیة- فی هذا الجزء منها- رد علی شبهات الکفار بخصوص المعاد، فهؤلاء یقولون: کیف یمکن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ینفصل؟ و من یستطیع أن یجمع أجزاء الإنسان؟ و الأکثر من ذلک: من الذی یحیط بنیات الناس و أعمالهم علی مدی تأریخ البشریة؟

القرآن یجیب علی کلّ ذلک بالقول: کیف یمکن للخالق المحیط بکل شیء أنّ لا تکون هذه الأمور طوع قدرته و واضحة بالنسبة له؟ ثم إنّ دلیل إحاطة علمه بکل شیء، هو تدبیره لکل هذه الأمور، فکیف یجوز له أن لا یعلم بأمور ما خلق و دبّر؟

بعض المفسّرین اعتبر أنّ الآیة تختص بالتوحید و لیس بالمعاد، حیث یقول العلامة الطباطبائی فی ذلک: «الذی یفیده السیاق أنّ فی الآیة تنبیها علی أنّهم لا ینتفعون بالاحتجاج علی وحدانیته تعالی بکونه شهیدا علی کلّ شیء، و هو أقوی براهین التوحید و أوضحها لمن تعقل، لأنّهم فی مریة و شک من لقاء ربّهم، و هو تعالی غیر محجوب بصفاته و أفعاله عن شیء من خلقه»[۴۱۳].

و لکن هذا التّفسیر مستبعد نظرا لأنّ تعبیر «لقاء اللّه» عادة ما یأتی للکنایة علی یوم القیامة.

بحوث

أوّلا: التوحید بین دلیل «النظم» و دلیل «الصدّیقین»

أشار الفلاسفة فی بحوثهم حول التوحید إلی الأهمیة الکبیرة لنوعین من الاستدلال علی الخالق جلّ و علا: أحدهما الاستدلال من خلال «النظم».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۹

و الآخر دلیل «الصدیقین».

و دلیل «النظم» کما یظهر من اسمه، یبدأ من نظام عالم الوجود و أسراره و دقائقه، لیرشد إلی مصدر العلم و القدرة و الخلق الذی أوجد ذلک و دبره، و القرآن الکریم ملیء بهذا النوع من الاستدلال، فهو یذکر نماذج کثیرة عن آیات اللّه فی السماء و الأرض و فی

مظاهر الحیاة و نظمها و ما یمور فیها من کائنات، و ینتهی من هذا الطریق إلی إثبات وجود الصانع المدبّر (جلّ و علا).

إنّ کلّ شخص یستطیع استیعاب هذا النوع من الاستدلال مهما کان مستواه و علی قدر ما یحمل من علم و إدراک، إذ یستفید منه أکبر العلماء علی قدر استعداده و ثقافته استیعابه، فی نفس الوقت الذی یستفید منه الأمّی و غیر المتعلّم و غیر المطّلع علی فنون العلوم و المعرفة.

أمّا دلیل «الصدیقین» فهو نوع من الاستدلال یقوم بالوصول إلی (الذات) بواسطة (الذات) نفسها، و مثل هؤلاء یعرفونه تعالی من خلال وجوب وجوده.

بعبارة اخری: إنّ الممکنات و المخلوقات لا تکون هنا واسطة لإثبات وجوده، بل إنّ ذاته بنفسه تدل علی ذاته، و یکون تعالی مصداقا ل

«یا من دلّ علی ذاته بذاته»[۴۱۴]

و مصداقا أیضا ل شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ[۴۱۵].

إنّ هذا الاستدلال استدلال فلسفی معقد بحیث لا یستطیع أن یحیط بکنهه و بأعماقه إلّا من یحیط بمبادئه، و لیس من قصدنا هنا تبسیط الدلیل فذلک شأن الکتب الفلسفیة، و إنّما أردنا من خلال هذا العرض أن نقف علی آراء بعض المفسّرین من الذین یعتقدون بأنّ مطلع الآیة فی قوله تعالی: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ یتضمّن إشارة إلی دلیل «النظم» و العلة و المعلول. بینما اعتبروا نهایة الآیة فی قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ إشارة إلی دلیل

«الصدیقین».

و لکن لیس ثمّة قرائن واضحة من نفس الآیة تؤید فکرة هذا الاستنتاج!

ثانیا: حقیقة إحاطة اللّه بکل شیء

یجب أن لا نتصور- مطلقا- أنّ إحاطة الخالق جلّ و علا بالموجودات و الکائنات تشبه إحاطة الهواء الذی یلف الکرة الأرضیة و یغلّفها، لأنّ مثل هذه الإحاطة هی دلیل المحدودیة، بل الإحاطة المعنیة هنا تتضمن معنی دقیقا و لطیفا یتمثل فی ارتباط کلّ الکائنات و الموجودات بالذات المقدسة.

و بعبارة اخری: لا یوجد فی عالم الوجود سوی وجود أصیل واحد قائم بذاته، و بقیة الموجودات و الکائنات تعتمد علیه و ترتبط به، بحیث لو زال هذا الارتباط لحظة واحدة فلا یبقی شیء منها.

إنّ هذه الإحاطة نتلمّس کنهها و حقیقتها فی الکلمات الواردة عن أمیر المؤمنین علیه السّلام إذ یقول: «مع کلّ شیء لا بمقارنة، و غیر کلّ شیء لا بمزایلة».

و قد نلمح هذا المعنی بعینه فیما ذکره الإمام الحسین علیه السّلام فی دعاء عرفة ذی المحتوی العمیق، إذ

یقول فیه: «أ یکون لغیرک من الظهور ما لیس لک، حتی یکون هو المظهر لک؟ متی غبت حتی تحتاج إلی دلیل یدل علیک؟ و متی بعدت حتی تکون الآثار هی التی توصل إلیک؟ عمیت عین لا تراک علیها رقیبا، و خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبک نصیبا»[۴۱۶].

ثالثا: آیات الآفاق و الأنفس

لو أتيح للإنسان أن ينكر كلّ ما يستطيع، فهو لا يستطيع أن ينكر وجود نظام دقيق قائم يعم بنسقه عالم الوجود، فأحيانا يقضى عالم معين كلّ عمره بالدرس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۱

و المطالعة حول تركيب العين و أسرارها أو المخ أو القلب، و يقرأ الكتب الكثيرة ممّا كتب حول الموضوع، إلّا أنّه أخيرا يعترف بأنّ هناك أسرارا كثيرة حول موضوعه لا تزال مجهولة.

و هنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ علوم علماء اليوم، ليست هى سوى نتيجة متراكمة لجهود و دراسات آلاف العلماء عبر تأريخ البشر.

إنّ العالم اليوم ينطق فى كلّ جزء من أجزائه بوجود قدرة أزلية تمكن وراءه، فكل شىء يدل على الصانع لمدبّر، و أى نبات ينبت على الأرض يهتف «وحده لا شريك له».

نستطيع هنا أن نترك الحديث عن القضايا العلمية المعقدة، و نتجه إلى ظواهر عادية ممّا ينتشر حولنا، لنتلمّس فيها أدلة واضحة على إثبات الصانع العظيم.

و لا بأس هنا من ذكر هذين المثالين:

المثال الأول: الجميع يعرف أنّ هناك تقوّس فى أخمص قدم كلّ إنسان بحيث لا- يبدو الأمر ملفتا للنظر مطلقا، و لكنّا نسمع فى معاملات الفحص الطبى الخاص بأداء الخدمة العسكرية، أنّ الشاب الذى يفتقد مثل هذا التقوّس يعفى من الخدمة العسكرية أو يحال إلى الأعمال المكتبية الإدارية.

إنّ الإنسان الذى يفتقد مثل هذا التقوس يتعب بسرعة، و لا يملك الاستعداد الكافى لأداء الخدمة العسكرية التى تستدعى المشى الطويل.

و هكذا كلّ شىء فى هذا العالم و فى وجود الإنسان مخلوق بدقّة و نظم، حتى التقوس البسيط فى أخمص قدم الإنسان! المثال الثّانى: فى داخل فم الإنسان و عينه منابع فوّارة منتظمة و دقيقة الإفراز، يخرج من فتحتها الصغيرة على مدى حياة الإنسان سائلان مختلفان تماما، لولاهما لما استطاع الإنسان أن يكون قادرا على الرؤية أو التحدّث أو مضغ الطعام و بلعه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۲

بعبارة اخرى: إنّ الحياة مستحيلة بدون هذين السائلين العاديين ظاهرا! فبدون أن يكون سطح العين رطبا بشكل دائم يستحيل دوران الحدقة التى ستصاب بآلام كثيرة و الأذى بمجرّد ملامستها لأجسام صغيرة، بل ستمنعها هذه الأجسام عن الحركة.

كذلك إذا لم يكن فم الإنسان و بلعومه رطبا، فإنّ الكلام يصبح أمرا مستحيلا بالنسبة له، و كذلك مضغ الطعام و بلعه. بل و حتى التنفس إذا كان الفم جافا.

و كذلك ينبغى أن تكون التجاويف الأنفية رطبة دائما حتى يسهل دخول الهواء و مروره باستمرار.

و الدقيق هنا أنّ ماء العين ينزل عبر قنوات خاصة من العين إلى الأنف للمحافظة على رطوبته، و إذا قدّر لهذا المجرى أن يغلق ليوم واحدا فقط- كما نشاهد ذلك فى حال بعض المرضى- فإن الدموع ستسيل على الوجه بشكل دائم و سيكون لها منظر مزعج مؤذ.

و نفس الكلام يقال بالنسبة للغدد اللعابية فى الفم، فقلّة إفرازاتها تزيد من جفاف اللسان و الفم و البلعوم، و كثرته تعوق التحدث و تجعل اللعاب يسيل من الفم إلى الخارج.

ثم إنّ المذاق الملحى للغدد الدمعية يؤدى إلى حفظ أنسجة العين ضدّ الأجسام الغريبة بمجرّد دخولها إلى العين.

بينما يفتقد اللعاب لأى طعم، كى يستطيع الإنسان أن يشعر بالمذاق الخاص للأطعمة، بينما تساعد الأملاح الموجودة فيه على هضم الطعام.

و إذا تـدبرنا فی طبیعة التکوین الکیمیاوی و الفیزیائی لسوائل هذه الغدد و أنظمتها الدقیقة و منافعها، نتبیّن عندها أنّ وجودها لا یمکن أن یکون مجرّد صدفة عمیاء لاـ تعقـل و لا تعی، بل هی من آیات اللّه الأنفسیة و مصـداق لقوله الحق جلّ و علا: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۳

و فی إشارة عابرة لکنّها کبیرة الدلالة و المعنی، یتحدث الإمام الصادق فی الحدیث المعروف بتوحید المفضّل، الذی هو غنی جدّا فی الإشارة إلی الآیات الآفاقیة و الأنفسیة للّه فی الوجود،

یقول علیه السّـلام: «أی مفضـل! تأمـل الریق و مـا فیه من المنفعـة، فـإنّه جعـل یجری جریانـا دائمـا إلی الفم، لیبل الحلق و اللهوات فلا یجف، فإنّ هذه المواضع لو جعلت کذلک کان فیه هلاک الإنسان، ثمّ کان لا یسـتطیع أن یسـیغ طعاما إذا لم یکن فی الفم بلة تنفذه، تشهد بذلک المشاهدة»[۴۱۷].

فـإذا تجاوزنـا جسم الإنسـان فـإنّ روحه بؤرة للعجـائب بحیث حیّرت جمیع العلماء. و ثمّـة آلاف الآلاف من هـذه الآیات البینات التی تشهد جمیعا «أنّه الحق».

و هنا یلتقی صوتنا- بدون إرادة منّا- مع صوت الحسین علیه السّلام، و نقول:

«عمیت عین لا تراک»!!

نهایة سورة فصّلت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۵

سورة الشّوری

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثلاث و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۷

«سورة الشوری»

نظرة عامة فی محتوی السورة:

إنّ إطلاق اسم «الشوری» علی هذه السورة المبارکة یعود إلی محتوی الآیة (۳۸) منها و التی تدعو المسلمین إلی المشورة فی أمورهم. و لکن بالإضافة إلی هـذا الموضـوع، و إلی مـا تتضـمنه السورة من بحوث و مضـامین السور المّکیـة من بحث فی المبـدأ و المعـاد، و القرآن و النبوّة، فإنّها تتناول قضایا اخری یمکن الإشارة إلیها مختصرا بما یلی من نقاط:

القسم الأول: و هو أهم أقسام السورة، یشـتمل البحث فیه علی قضـیة الوحی الذی یمثل طریق ارتباط الأنبیاء علیهم السّلام باللّه تبارک و تعالی.

و الملاحظ أنّ هذا الموضوع یلقی بظلاله علی جمیع أجزاء السورة، فالسورة تبدأ بالإشارة إلیه و تنتهی به أیضا.

و کامتداد لهذا الموضوع تثیر السورة بحوثا حول القرآن و نبوة نبیّ الإسلام و بدایة الرسالة منذ أیام نبیّ اللّه نوح علیه السّلام.

القسم الثّانی: إشارات عمیقة المعنی إلی دلائل التوحید، و آیات اللّه فی الآفاق و الأنفس التی تکمّل البحث فی موضوع الوحی.

و فی هذا القسم ثمّة بحوث حول توحید الربوبیة.

القسم الثّالث: فى السورة إشارات إلى قضية المعاد و مصير الكفار فى القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۸

و هو محدود قياسا إلى الأقسام الأخرى.

القسم الرابع: تشتمل السورة على مجموعة من البحوث الأخلاقية التى تعكسها السورة بشكل خاص و دقيق. فهى تدعو أحيانا إلى ملكات خاصة مثل الاستقامة و التوبة و العفو و الصبر و إطفاء نار الغضب.

و تنتهى فى المقابل عن الرذيلة، و الطغيان فى مقابل النعم الإلهية، أو العناد و عبادة الدنيا، و كذلك تنهى عن الفزع و الجزع عند ظهور المشاكل.

إنّ السورة تنطوى على مجموعة متكاملة من دروس الهدى هى فى الواقع شفاء للصدور و مسالك نور فى طريق الحق.

فضيلة تلاوة السورة:

جاء

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلّى عليه الملائكة، و يستغفرون له و يترحمون عليه»[۴۱۸].

و

فى حديث آخر عن الصادق نقرأ قوله عليه السّلام «من قرأ حم عسق بعثه اللّه يوم القيامة و وجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدى اللّه عزّ و جلّ فيقول: عبدى أدمنت قراءة حم عسق و لم تدر ما ثوابها، أمّا لو دريت ما هى و ما ثوابها لما مللت من قراءتها، و لكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنّة».

و عند ما يدخل الجنّة يرفل بأنواع النعم الإلهية التى ذكرها الإمام الصادق فى الحديث الآنف بشكل مفصل ۴۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۹

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) عسق (۲) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۴)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵)

التّفسير

تكاد السماوات يتفطّرن!

مرة اخرى تواجهنا الحروف المقطّعة فى مطلع السورة، و هى هنا تنعكس بشكل مفصل، إذ بين أيدينا خمسة حروف.

«حم» موجودة فی بدایة سبع سور قرآنیة (المؤمن، فصلت، الشوری، الزخرف، الدخان، الجاثیة، و الأحقاف) و لکن فی سورة الشوری أضیف إلیها مقطع عسق

و قد ذکرنا مرارا أنّ للمفسّرین آراء و بحوثا کثیرة حول هذه الحروف، یجملها صاحب مجمع البیان العلّامة الطبرسی فی أحد عشر قولا، و قد ذکرنا أهم

تلک الأقوال فی مطلع الحدیث عن سور: البقرة، آل عمران، و الأعراف، و مریم، و غضضنا الطرف عن غیر المهم منها.

و نذکر الآن بعضا لا بأس به من هذه الأقوال بالرغم من عدم قیام دلیل قاطع علی صحتها.

فمنها قولهم أنّ هذه الحروف جاءت کأسلوب للفت أنظار الناس إلی القرآن، لأنّ المشرکین و المعاندین کانوا قد تواصوا فیما بینهم علی عدم استماع آیات اللّه، خاصّة عند ما کان رسول اللّه یقرؤها علیهم، إذ کانوا یثیرون الضوضاء، لذلک جاءت الحروف المقطعة (فی ۲۹ سورة قرآنیة) لتکون أسلوبا جدیدا فی جلب الانتباه.

و قد ذکر العلّامة الطباطبائی احتمالا آخر یمکن أن نضیفه إلی ما استخلصه العلّامة الطبرسی من الأقوال الأحد عشر لیکون المجموع اثنا عشر تفسیرا.

و ما ذکره العلامة الطباطبائی و إن کان مثله مثل غیره من الأقوال ممّا لم یقم الدلیل القاطع علیه، إلّا أنّه من المفید أن نستعرضه بإیجاز. یقول العلّامة الطباطبائی: «إنک إن تدبرت بعض التدبّر فی هذه السور التی تشترک فی الحروف المفتتح بها مثل المیمات و الراءات و الطواسین و الحوامیم، وجدت فی السور المشترکة فی الحروف من تشابه المضامین، و تناسب السیاقات ما لیس بینها و بین غیرها من السور».

«و یؤکّد ذلک ما فی مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ، کما فی مفتتح الحوامیم من قوله: تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللَّهِ أو ما هو فی معناه، و ما فی مفتتح الراءات من قوله: تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ أو ما فی معناه، و نظیر ذلک فی مفتتح الطواسین، و ما فی مفتتح المیمات من نفی الریب عن الکتاب أو ما هو فی معناه».

«و یمکن أن یحدس من ذلک أن بین هذه الحروف المقطعة و بین مضامین السور المفتتحة بها ارتباطا خاصا، و یؤید ذلک ما نجده فی سورة الأعراف

المصدّرة ب «المص» فی مضمونها کأنّها جامعة بین مضامین المیمات و ص [أی ما افتتح ب «ألم» و «ص»] و کذا سورة الرعد المصدّرة ب «المر» فی مضمونها کأنّها جامعة بین مضامین المیمات و الراءات».

«و لعلّ المتدبر لو تدبر فی مشترکات هذه الحروف، و قایس مضامین السور التی وقعت فیها بعضها إلی بعض، لتبیّن له الأمر أزید من ذلک»[۴۲۰].

و ثمّة تفسیر آخر أشرنا إلیه سابقا، و هو احتمال أن تکون هذه الحروف إشارات و رموزا لأسماء الخالق و نعمه و قضایا اخری.

مثلا، فی السورة التی نبحثها اعتبروا الحاء إشارة إلی الرحمن، و المیم إلی المجید، و العین إلی العلیم، و السین إلی القدوس، و القاف إلی القاهر[۴۲۱].

یعترض البعض علی هذا الکلام بقولهم: لو کان المقصود من الحروف المقطعة أن لا یعلم بها الآخرون فإنّ ذلک غیر صحیح، لأنّ هناک آیات اخری تصرّح بأسماء اللّه، و لکن یجب الانتباه إلی أنّ الرموز و الإشارات لا تعنی دائما أن یبقی الموضوع أو المعنی سرّیا، بل قد تکون أحیانا علامة للاختصار، و هذا الأمر کان موجودا سابقا، و هو مشهور فی عصرنا الراهن، بحیث أنّ أسماء العدید من المؤسسات و المنظمات الکبیرة، تکون علی شکل مجموعة مختصرة من الحروف المقطّعة التی یرمز کلّ منها إلی جزء من الاسم

الأصيل.

بعد الحروف المقطعة تتحدث الآية الكريمة عن الوحى، فتقول: كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

«كذلك» إشارة إلى محتوى السورة و مضامينها.

و مصدر الوحى واحد، و هو علم اللّه و قدرته، و محتوى الوحى فى الأصول و الخطوط العريضة واحد أيضا بالنسبة لجميع الأنبياء و الرسالات، بالرغم من أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۲

هناك خصوصيات بين دعوة نبى و آخر بحسب حاجة الزمان و المسيرة التكاملية للبشر[۴۲۲].

و ضرورى أن نشير إلى أنّ الآيات التى نبحثها أشارت إلى سبع صفات من صفات اللّه الكمالية، لكل منها دور فى قضية الوحى بشكل معين، و من ضمنها الصفتان اللتان نقرؤهما فى هذه الآية: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فعزته تعالى و قدرته المطلقة تقتضى سيطرته على الوحى و محتواه العظيم.

و حكمته تستوجب أن يكون الوحى الإلهى حكيما متناسقا مع حاجات الإنسان التكاملية فى جميع الأمور و الشؤون.

و تعبير «يوحى» دليل على استمرار الوحى منذ خلق اللّه آدم عليه السّلام حتى عصر النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لأن الفعل المضارع يفيد الاستمرار.

قوله تعالى: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

إنّ مالكيته تعالى لما فى السماء و الأرض تستوجب ألّا يكون غريبا عن مخلوقاته و ما يؤول إليه مصيرها، بل يقوم بتدبير أمورها و حاجاتها عن طريق الوحى، و هذه هى الصفة الثّالثة من الصفات السبع.

أمّا «العلىّ» و «العظيم» اللذان هما رابع و خامس صفة له (سبحانه و تعالى) فى هذه الآيات، فهما يشيران إلى عدم حاجته لأى طاعة أو عبودية من عباده، و إنّما قام تعالى بتدبير أمر العباد عن طريق الوحى من أجل أن ينعم على عباده.

الآية التى بعدها تضيف: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ ۴۲۳] و ذلك بسبب نزول الوحى من قبل اللّه، أو بسبب التهم الباطلة التى كان المشركون و الكفّار ينسبونها إلى الذات المقدسة و يشركون الأصنام فى عبادته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۳

و يتّضح ممّا سلف أنّ للجملة معنيين:

الأوّل: أنّها تختص بموضوع الوحى الذى هو حديث الآيات السابقة، و هو فى الواقع يشبه ما جاء فى الآية (۲۱) من سورة «الحشر» فى قوله تعالى: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

إنّه كلام اللّه الذى يزلزل السماوات عند نزوله و تكاد تتلاشى، فلو أنّه نزل على الجبال لتصدّعت، لأنّه كلام عظيم من خالق حكيم.

و الويل لقلب الإنسان، فهو الوحيد الذى لا يلين و لا يستسلم، و يصر على عناده و تكبره.

التّفسير الثّانى: أنّ السماوات تكاد تتفطّر و تتلاشى بسبب شرك المشركين و عبادتهم للأصنام من دون اللّه، بل هم يساوون بين أدنى الكائنات و الموجودات و بين المبدأ العظيم خالق الكون جلّ و علا.

التّفسير الأوّل يناسب الآيات التى نبحثها و التى تنصب حول الوحى و التّفسير الثّانى يناسب ما نقرؤه فى الآيتين (۹۰، ۹۱) من سورة «مريم» حيث يقول تعالى بعد أن يذكر قول الكفار- و قبح قولهم- باتخاذه ولدا (!!): تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً.

و من الواضح أن ليس ثمّة تعارض بين التّفسيرين.

أمّا عن كيفية انفطار السماوات و انهدام الجبال و هى موجودات جامدة، فقد ذكروا كلاما و أقوالا متعدّدة فى الموضوع تعرضنا لها فى

نهاية حديثنا عن الآيتين المذكورتين من سورة مريم.

و إذا أردنا أن نقف على استخلاص عام لما قلناه هناك، فيمكن أن نلاحظ أنّ مجموعة عالم الوجود من جماد و نبات و غير ذلك لها نوع من العقل و الشعور، بالرغم من عدم إدراكنا له، و هم على هذا الأساس يسبحون اللّه و يحمدونه، و يخضعون له و يخشعون لكلامه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۴

أو أن يكون التعبير كناية عن عظمة و أهمية الموضوع، مثلما نقول مثلا: إنّ الحادثة الفلانية كانت عظيمة جدّا و كأنّما انطبقت معها السماء على الأرض.

بقية الآية، قوله تعالى: وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ

أمّا الرابطة بين هذا الجزء من الآية و الجزء الذى سبقه، فهو- وفقا للتفسير الأوّل- أنّ الملائكة الذين هم حملة الوحى العظيم و واسطته، يسبحون و يحمدون اللّه دائما، يحمدونه بجميع الكمالات، و ينزهونه عن جميع النواقص، و عند ما ينحرف المؤمنون أحيانا، تقوم الملائكة بنصرهم و يطلبون المغفرة لهم من اللّه تعالى.

أمّا وفق التّفسير الثّانى، فإنّ تسبيح الملائكة و حمدهم إنّما يكون لتنزيهه تعالى عما ينسب إليه من شرك، و هم يستغفرون كذلك للمشركين الذين آمنوا و سلكوا طريق التوحيد و رجعوا إلى بارئهم جلّ جلاله.

و عند ما تستغفر الملائكة لمثل هذا الذنب العظيم لدى المؤمنين، فهى حتما- و من باب أولى- تستغفر لجميع ما لهم من ذنوب اخرى. و قد يكون الإطلاق فى الآية لهذا السبب بالذات.

نقرأ نظيرا لهذه البشرى العظيمة فى الآية (۷) من سورة المؤمن فى قوله تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ

و أخيرا تشير نهاية الآية الكريمة إلى سادس و سابع صفة من صفات اللّه تبارك و تعالى، و تنصب حول الغفران و الرحمة، و تتصل بقضية الوحى و محتواه، و بخصوص وظائف المؤمنين، حيث يقول تعالى: أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

و بهذا الترتيب أتمّت الآيات الكريمات الإشارة إلى مجموعة متكاملة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۵

الأسماء الحسنى المختصة باللّه تعالى و المرتبطة بالوحى.

و فى نهاية الآية ثمّة إشارة لطيفة إلى استجابة دعاء الملائكة بخصوص استغفارهم للمؤمنين، بل أنّه تعالى يضيف الرحمة إلى صفة الغفور ممّا يدل على عظيم فضله.

أمّا عن مسألة الوحى فسيكون لنا كلام مفصل فى نهاية هذه السورة إن شاء اللّه عند ما نتحدّث عن الآيتين (۵۱، ۵۲).

هل تستغفر الملائكة للجميع؟

قد يطرح السؤال الآتى حول قوله تعالى: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ

و هو: الآية تفيد استغفار الملائكة لمطلق أهل الأرض سواء المؤمن منهم أو الكافر، فهل يمكن ذلك؟

لقد أجابت الآية (۷) من سورة المؤمن على هذا السؤال من خلال قوله تعالى: يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

و بناء على هذا فإنّ شرط الاستغفار هو الإيمان، إضافة إلى كونهم معصومين، و هم بذلك لا يطلبون المستحيل للذين يفتقدون إلى أرضية الغفران.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۶

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (۷) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۸)

التّفسير

انطلاقة من «أم القرى»:

تحدثت الآيات السابقة عن قضية الشرك، لذلك فإنّ الآية الأولى فی المجموعة الجديدة، تتناول بالبحث نتيجة عمل المشركين و عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ

حتى يحاسبهم فی الوقت المناسب، و يعاقبهم جزاء أعمالهم.

ثم تخاطب الآية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بقوله تعالى: وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ إنّ مسئوليتك هی تبليغ الرسالة و إيصال نداء اللّه الى جميع العباد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۷

و ثمّة فی كتاب اللّه آيات اخرى تشير إلى هذا المعنى:

قوله تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ[۴۲۴].

قوله تعالى: ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ[۴۲۵].

قوله تعالى: وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً[۴۲۶].

قوله تعالى: ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ ۴۲۷].

إنّ هذه الآيات تبيّن حقيقة حرية العباد و اختيارهم الطريق الذی يريدونه بإرادتهم و حريتهم، لأنّ القيمة الحقيقة للإيمان و العمل الصالح تمكن فی حرية الإختيار، و ليس للإيمان أو العمل الإجباری أی قيمة معنوية.

يعود القرآن إلى قضية الوحی مرّة اخرى، و إذا كانت الآيات السابقة قد تحدّثت عن أصل الوحی، فإنّ الكلام هنا ينصب حول الهدف النهائی له، إذ يقول تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها و «امّ القرى» هی مكّة المكرمة، ثمّ تنذر الناس من يوم القيامة و هو يوم الجمع الذی يجتمع فيه الناس للحساب و الجزاء: وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ

و فی ذلك اليوم ينقسم الناس إلى مجموعتين: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.

و قد يكون التعبير ب «كذلك» إشارة إلى أنّه مثلما أوحينا إلى الأنبياء السابقين بلسانهم، فإنّنا كذلك أوحينا إليك بلسانك، هذا القرآن العربی.

و عليه تكون «كذلك» إشارة إلى: وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ

و يمكن أن تكون إشارة إلى ما بعدها، يعنی أنّا أوحيناه إليك بهذه الصورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۸

قرآنا عربیا یهدف إلی الإنذار.

صحیح أنّنا نستفید من نهایة الآیة أیّ من قوله تعالی: فَرِیقٌ فِی الْجَنَّةِ وَ فَرِیقٌ فِی السَّعِیرِ أنّ مسئولیة النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هی التبشیر و الإنذار، و لکن بسبب ما للإنذار من تأثیر أعمق فی نفوس الأفراد المعاندین و الجهلة، لذا فإنّ الآیة استندت إلی «الإنذار» مرّتین فقط، مع اختلاف بینهما، إذ أنّ الکلام شمل فی المرحلة الأولی إنذار المستمعین، بینما شمل فی الثانیة تخویفهم من شیء یجب أن یخافوه، یعنی القیامة و ما فیها من حساب و فضیحة ستکون مؤلمة و صعبة للغایة، بسبب حضور الأشهاد و الملائکة و الناس ۴۲۸].

و قد یتساءل البعض هنا: إنّنا نستفید من قوله تعالی: لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُری وَ مَنْ حَوْلَها أنّ الهدف من نزول القرآن هو لإنذار أهل مکّة و أطرافها. أ فلا یتنافی هذا المعنی مع مفهوم عالمیة الإسلام؟

الجواب علی هذا الاستفهام یتمّ من خلال ملاحظة المعنی الذی تستبطنه أُمَّ الْقُری

إنّ کلمة «أمّ القری» و هی أحد أسماء مکّة المکرّمة، مؤلّفة من کلمتین هما: «أمّ» و تعنی فی الأصل الأساس و البدایة فی کلّ شیء، و لهذا السبب تسمی الأمّ بهذا الاسم لأنّها أساس و أصل الأبناء.

ثمّ کلمة «قری» جمع «قریة» بمعنی أی منطقة معمورة أو مدینة، سواء کانت المدینة کبیرة أم صغیرة، أو مجرّد قریة.

و فی القرآن الکریم ثمّة أدلة کثیرة علی هذا المعنی.

و الآن لنر لماذا سمّیت «مکّة» بأمّ القری؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۹

الرّوایات الإسلامیة تصرّح بأنّ الأرض کانت فی البدایة مغطاة جمیعها بالماء، ثمّ بدأت الیابسة تظهر بشکل تدریجی من تحت هذه المیاه. (تؤید النظریات العلمیة الآن هذا المعنی).

ثمّ تخبرنا الرّوایات بأنّ منطقة الکعبة کانت أوّلا منطقة ظهرت من تحت الماء، ثمّ بدأت الیابسة بالاتساع من جوار الکعبة، و یعرف ذلک بدحو الأرض.

و هکذا یتّضح أن مکّة هی أصل و أساس لجمیع القری و المدن علی سطح الأرض، لذا فمتی قیل أُمَّ الْقُری وَ مَنْ حَوْلَها فالمعنی سیشمل جمیع الناس علی سطح الکرة الأرضیة[۴۲۹].

مضافا إلی ذلک، نحن نعرف أنّ الإسلام بدأ بالانتشار تدریجیا، ففی البدایة أمر النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بإنذار المقرّبین إلیه، کما ورد فی قوله تعالی: وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ ۴۳۰] کی تتقوی قاعدة الإسلام و تصلب نواته، و یکون أکثر قدرة و استعدادا للانتشار.

ثم جاءت المرحلة الثانیة المتمثلة بإنذار العرب، کما ورد فی قوله تعالی:

قُرْآناً عَرَبِیًّا لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ ۴۳۱].

و کذلک فی قوله تعالی: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ

و عند ما ترسخت أعمدة الإسلام بین هؤلاء القوم، و قوی عوده أمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بأوسع من ذلک، أن ینذر العالم و الناس کافة، کما نقرأ فی أوّل سورة الفرقان فی قوله تعالی: تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً و فی آیات اخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۰

و بسبب هذا التکلیف قام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بإرسال الرسائل إلی زعماء العالم خارج الجزیرة العربیة، و دعا کسری و قیصر و النجاشی و غیرهم إلی الإسلام.

و وفق هذه التعليمات قام أتباعه من بعده بالدعوة إلى الإسلام فى مختلف بقاع العالم، و نشروا تعاليم الإسلام فى جميع أرجاء المعمورة.

أمّا لماذا سمّى يوم القيامة بيوم الجمع؟ فهناك أقوال مختلفة منها:

بسبب ما يكون فيه من جمع بين الأرواح و الأجساد.

أو بسبب الجمع بين الإنسان و عمله.

أو بسبب الجمع بين الظالم و المظلوم.

و لكن يظهر أنّ السبب يتمثل فى الجمع بين الخلائق من الأولين و الآخرين كما نقرأ ذلك واضحا فى قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۴۳۲].

و بما أن قوله تعالى: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ يقسّم الناس إلى فئتين، فإنّ الآية التى بعدها تضيف: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً على الهداية.

إلّا أنّ الإيمان الإجبارى ليست له قيمة، و كيف يمكن لمثل هذا الإيمان أن يكون معيارا للكمال الإنسانى؟

إنّ التكامل الحقيقى هو أن يسير الإنسان بإرادته و بمنتهى الإختيار و الحرية.

إنّ الآيات القرآنية مليئة بأدلة حرية الإنسان، و مثل هذا الإختيار هو ما يميّز الإنسان عادة عن غيره من الكائنات الأخرى، و إذا سلبت منه إرادته و اختياره فكأنما سلبت منه إنسانيته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۱

و كما أن سمة الحرية و الإختيار طريق إلى التكامل، فهى أيضا سنّة إلهية لا قبل التغيير.

و لكن العجيب أمر البعض الذين ما زالوا على عقيدة الجبر، و هم يدعون أتباعهم للأنبياء، فى حين أنّ قبول الجبر يساوى فى الواقع نفى مضمون دعوة جميع الأنبياء، فلا معنى للتكليف حينئذ، و لا للحساب و السؤال و الجواب، و لا النصيحة و الموعظة، و بشكل أولى الثواب و العقاب! و مع عقيدة الجبر لا معنى لتردّد الإنسان فى أعماله، و لا معنى لندمه و عزيمته على تصحيح الأخطاء! تشير الآية بعد ذلك إلى وصف أهل الجنّة و السعادة حيال أهل النّار، فيقول تعالى: وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

و عند ما يشخّص أهل النّار بوصف «الظلم» فيبيّن أنّ المراد من «من يشاء» فى الجملة الأولى هم المجموعة التى لا ترتكب الظلم.

و على هذا الأساس يكون أهل العدل هم أصحاب الجنّة فى مقابل أهل الظلم الذى هم أهل النّار.

و لكن ينبغى الانتباه إلى أنّ «ظالم» هنا، و فى العديد من الآيات القرآنية الأخرى لها معنى واسع و لا تشمل الذين يظلمون غيرهم فقط، بل تشمل الذين يظلمون أنفسهم أيضا، و تشمل المنحرفين عقائديا، و هل هناك ظلم أعلى من الشرك و الكفر؟

يقول لقمان لابنه و هو يعظه: يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۴۳۳].

و فى آية اخرى نقرأ قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۲

أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ

و قال بعضهم فى الفرق بين «ولى» و «نصير» أنّ «الولى» الذى يقوم بمساعدة الإنسان دون طلبه. أما النصير فأعلم من ذلك ۴۳۴].

و يحتمل أن تشير كلمة «ولى» إلى المشرف الذى يقوم بالحماية و المساعدة بحكم ولايته و دون أى طلب.

أمّا «النصير» فالذى يقوم بنصر الإنسان و مساعدته بعد أن يطلب العون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۳

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۹) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۱۰) فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۱۱) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۲)

التّفسير

الولى المطلق:

أوضحت الآيات السابقة أن لا ولىّ و لا نصير سوى اللّه، و الآيات التى بين أيدينا تعطى أدلة على هذه القضية، و تنفى الولاية لما دونه سبحانه و تعالى.

تقول الآية بأسلوب التعجب و الإنكار: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ[۴۳۵]. إلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۴

أنّه: فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُ

فلو أراد هؤلاء أن يختاروا وليا، فعليهم أن يختاروا اللّه، لأنّ أدلة ولايته واضحة فى الآيات السابقة، مع بيان أوصافه الكمالية، فالعزيز و الحكيم، و المالك و العلى و العظيم، و الغفور و الرحيم، هذه الصفات السبع التى مرّت علينا تعتبر- لوحدها- أفضل دليل على اختصاص الولاية به.

ثم تذكر دليلا آخر فتقول: وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى

و يجب اللجوء إليه لا لغيره، لأنّ المعاد و البعث بيده، و أنّ أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعد الموت.

ثم تذكر دليلا ثالثا فتقول: وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و هذه إشارة إلى أنّ الشرط الرئيسى للولى هو امتلاكه للقدرة الحقيقة.

الآية التى بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ فهو التوحيد الذى يستطيع أن يحل مشاكلكم.

إنّ من اختصاصات الولاية أن يستطيع الولى إنهاء اختلافات من هم تحت ولايته بحكمه الصائب، فهل تستطيع الأصنام و الشياطين التى تعبدونها أن تقوم بذلك، أم أنّ هذا الأمر يختص باللّه الحكيم و العالم و القادر على حل مشاكل عباده، و تنفيذه لحكمه و إرادته دون غيره؟

إذن فاللّه العزيز الحكيم هو الحاكم لا غيره.

لقد حاول بعض المفسّرين حصر مفهوم الاختلاف الذى تشير إليه الآية فى قوله تعالى: مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فى الاختلاف الوارد فى الآيات المتشابهة، أو فى الاختلاف و المخاصمات الحقوقية فقط، إلّا أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك، إذ هى تشمل الاختلاف سواء كان فى المعارف الإلهية و العقائد، أم الأحكام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۵

الشرعية، أم القضايا الحقوقية و القضائية، أم غير ذلك ممّا يحدث بين الناس لقلّة معلوماتهم و محدوديتها، إنّ ذلك ينبغى أن يحل عن طريق الوحى، و بالرجوع إلى علم اللّه و ولايته.

و بعد ذكر الدلائل المختلفة على اختصاص الولاية باللّه، تقول الآيات على لسان النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى [۴۳۶] فهو الذى يتصف بهذه الأوصاف الكمالية و لهذا السبب: عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ أىّ أعود إليه فى المشكلات و الشدائد و الزلات.

جملة: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى تشير إلى الربوبية المطلقة للّه بمعنى الحاكمية المتزامنة مع التدبير. و نحن نعلم أنّ للربوبية قسمين: القسم التكوينى الذى يعود إلى إرادة نظام الوجود، و القسم التشريعى الذى يقوم بتوضيح الأحكام و وضع القوانين و إرشاد الناس بواسطة الرسل و الأنبياء عليهم السّلام.

و على أساس ذلك طرحت الآية فيما بعد قضية «التوكل» و «الإنابة» حيث تعنى الأولى رجوع جميع الأمور الذاتية فى النظام التكوينى إلى الخالق جلّ و علا.

و الثّانية تعنى رجوع الأمور التشريعية إليه [۴۳۷].

الآية التى تليها يمكن أن تكون دليلا خامسا على ولاية اللّه المطلقة، أو دليلا على ربوبيته، و استحقاقه دون غيره للتوكل و الإنابة، إذ تقول: فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

«فاطر» من مادة «فطر» و تعنى فى الأصل فتق شىء ما، و يقابلها «قط» التى تعنى بقول البعض الشق العرضى.

و كأنّما الآية تشير إلى تفتق ستار العدم المظلم عند خلق الكائنات و خروج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۶

الموجودات منه.

و بهذه المناسبة فإنّ «فطر» تطلق على «طلاع» التمر عند ما يتفتق و يخرج منه التمر.

و المقصود بالسماوات و الأرض هنا جميع السماوات و الأرض و ما فيها من كائنات و ما بينها، لأنّ الخالقية تشملها جميعا.

ثم تشير الآية إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ [۴۳۸].

و هذه لوحدها تعتبر إحدى الدلائل الكبيرة على تدبير اللّه و ربوبيته و ولايته، حيث خلق سبحانه و تعالى للناس أزواجا من أنفسهم، و هو يعتبر أساسا لراحة الروح و سكون النفس، و من جانب آخر يعتبر الزواج أساسا لبقاء النسل و استمراره، و تكاثره.

و بالرغم من أنّ خطاب الآية موجّه للإنسان، و المعنى منصب عليه من خلال «يذرؤكم» إلّا أنّ هذا الأمر هو حكم سائد و سنة جارية فى جميع الأنعام و الموجودات الحية الأخرى التى تسرى عليها التكاثر بالمثل.

و فى الواقع إنّ توجيه الخطاب للإنسان دونها يشير الى مقامه الكريم، و أما أمر البقية فيتبيّن من خلال الإنسان كمثال.

الصفة الثّالثة التى تذكرها الآية هو قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

إنّ هذا الجزء من الآية يتضمّن حقيقة أساسية فى معرفة صفات اللّه الأخرى، و بدونها لا يمكن التوصّل إلى أى صفة من صفات اللّه، لأنّ أكبر منزلق يواجه السائرين فى طريق معرفة اللّه يتمثل فى «التشبيه» حيث يشبهون الخالق جلّ و علا بصفات مخلوقاته، و هو أمر يؤدى للسقوط فى وادى الشرك!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۷

إنّ وجود اللّه تعالى ليس له نهاية و لا يحد بحد، و كل شىء غيره له نهاية و حد من حديث القدر و العمر و العلم و الحياة و الإرادة و الفعل ...، و فى كلّ شىء.

و هذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

لذا فإنّ ما يثبت لغيره لا يصح عليه (سبحانه و تعالى) و لا ينطبق على ذاته المنزّهة، بل و لا معنى له.

فبالنسبة إلينا تكون بعض الأمور سهلة و الأخرى صعبة، و بعض الأحداث وقع فى الماضى و بعضها يقع الآن، و منها ما يقع فى المستقبل. و بعض الأشياء صغير و بعضها كبير.

إنّ مقاييس هذه الأشياء و مدلولاتها و مفاهيمها تحتكم إلى وجودنا المحدود، و هى تلائم إدراكنا و حاجتنا إلى مقايسة الأشياء بغيرها.

أمّا هذه المواصفات و المقاييس و المصطلحات المحدودة، فإنّ أيا منها لا ينطبق على صفات اللّه، إذ لا معنى لديه للقرب و البعد، فالكل قريب و فى متناول إرادته، و لا معنى للصعب و السهل، فكل شيء سهل و طوع إرادته المطلقة، و لا يوجد مستقبل و ماض، فكل شيء بالنسبة إليه تعالى حضور و حال.

إنّ إدراك هذه المعانى غير مستطاع من دون تفريغ الذهن و تخليته ممّا هو فيه.

لهذا السبب يقال: إنّ من السهل معرفة أصل وجود الخالق جلّ و علا، لكن من الصعب معرفة صفاته.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى هذا الشأن: «و ما الجليل و اللطيف، و الثقيل و الخفيف، و القوى و الضعيف فى خلقه إلّا سواء»[۴۳۹].

تشير نهاية الآية إلى صفات اخرى من صفات اللّه: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

هو الخالق و المدبّر، و السميع و البصير، و فى نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۸

أو مثيل، و لهذا لا ينبغى الاستظلال إلّا تحت ولايته، و لا تصح العبودية و الربوبية إلّا له، و ذلك لا يكون ألّا بفكك قيود عبودية الغير، و تصريفها إليه دون غيره سبحانه و تعالى.

الآية التى بعدها تتحدّث عن ثلاثة أقسام أخرى من صفات الفعل و الذات حيث توضح كلّ واحدة منها قضية الولاية و الربوبية فى بعد خاص.

يقول تعالى: لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

فكل ما يملكه مالكك هو منه سبحانه و تعالى، و كل ما يرغب به راغب ينبغى أن يطلبه منه، لأنّ له تعالى خزائن السماوات و الأرض و ليس «مفاتيحها» و حسب وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۴۴۰].

«مقاليد» جمع «مقليد» و تعنى المفتاح، و هى تستخدم ككناية للسيطرة الكاملة على كلّ شيء ما، فيقال مثلا: إنّ مفتاح هذا الأمر بيدى، يعنى أنّ برنامجه و طريقه و شرائطه كلّها تحت قدرتى و فى يدى.[۴۴۱].

و فى الصفة الأخرى، و التى هى فى الواقع ثمرة و نتيجة للصفة السابقة تقول الآية: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات و الأرض فإنّ جميع الأرزاق فى قبضته، و يقسمها وفقا لمشيئته التى تصدر بمقتضى حكمته، و يلاحظ فيها مصلحة العباد.

إنّ من مقتضيات استفادة جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها، و مكانها و سائر شؤون حياتها الأخرى، لذا تضيف الآية فى آخر صفة قوله تعالى: إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

و هناك ما يشبه هذا الأمر و هو ما جاء فى الآية (۶) من سورة «هود» فى قوله تعالى: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۹

و بذلك يتّضح أنّ الآيات الأربع التى بحثناها ذكرت إحدى عشرة صفة من صفات اللّه الكمالية سواء الذاتية منها أو الفعلية.

فقد وصفته بصفات الولاية المطلقة، إحياء الموتى، قدرته على كلّ شيء، خلقه للسماوات و الأرض، خلقه للأزواج و تكثير النسل، لا

یوجد مثیل له، سمیع، بصیر، له خزائن السماوات و الأرض، رزاق، و علیم بکل شیء.

إنّها صفات تکمل الواحدة منها الأخری من حیث البیان، و کلّها دلیل علی ولایته و ربوبیته، و بالنتیجة تعتبر طریقا لإثبات توحیده فی العبادة.

بحوث

۱- معرفة صفات اللّه تعالی

إنّ علمنا و علوم الکائنات جمیعا محدود، لذا لا نستطیع أن نصل إلی کنه و حقیقة ذات الخالق غیر المحدودة، لأنّ المعرفة بحقیقة شیء ما تعنی الإحاطة به، فکیف یستطیع الکائن المحدود أن یحیط بالذات غیر المحدودة؟

و کذلک الحال بالنسبة لصفات اللّه، إذ لا یمکن معرفتها بالنسبة لنا، خصوصا و أنّ صفاته هی عین ذاته.

لذلک فعلمنا بذات الخالق و صفاته هو علم إجرائی، و أکثر ما یدور حول آثاره جلّ و علا.

من جانب آخر لا- تستطیع ألفاظنا أن تبیّن ذات اللّه و صفاته المطلقة غیر المحدودة، لأنّ ألفاظنا موضوعة لتلبیة حاجاتنا فی حیاتنا الیومیة، لذلک سوف نصل إلی معانی خاطئة من خلال استخدام ألفاظنا فی توصیف صفات الخالق الکمالیة، کالعلم و القدرة و الحیاة و الولایة و المالکیة، و سائر الصفات الأخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۰

نقول مثلا: إنّ اللّه هو «الأول» و هو أیضا «الآخر» هو «الظاهر» و هو «الباطن» هو مع کلّ شیء و لیس مع شیء، و بعید عن کلّ شیء إلّا أنّه لیس غریبا عنه.

قد یبدو فی بعض هذه الألفاظ تناقض أو تضاد، لأنّ معانی الألفاظ نقیسها علی الأشیاء و الموجودات المحدودة، فیمکن أن یکون هو الأوّل و لا یکون الآخر، و الظاهر و لا یکون باطن، و لکن التفکیر الدقیق فی ذات اللّه و صفاته یوصلنا إلی إمکانیة انطباق معانی هذه الألفاظ علیه، فهو الأوّل فی نفس الوقت الذی هو الآخر، و هو الباطن فی نفس الوقت الذی یکون فیه هو الظاهر أیضا.

و علینا أن نعترف هنا بأنّ المهم فی معرفة أوصافه الجمالیة و الجلالیة هو أن ننتبه إلی حقیقة: لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ.

یشیر

أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام إلی هذه الحقیقة بوضوح فیقول: «ما وحده من کیفه، و لا حقیقته أصاب من مثله، و لا إیّاه عنی من شبهه، و لا صمده من أشار إلیه و توهمه»[۴۴۲].

و فی مکان آخر

یقول علیه السّلام: «کل مسمّی بالوحدة غیر قلیل»[۴۴۳].

خلاصة القول: یجب ولوج البحث فی صفات الخالق علی ضوء قوله تعالی:

لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ و علینا أن ننظر إلی ذاته المقدسة من خلال قوله تعالی: وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ کُفُواً أَحَدٌ و عبارة «سبحان اللّه» فی العبادات و غیرها تشیر إلی هذه الحقیقة.

۲- ملاحظة أدبیة

إنّ الكاف فی جملة لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ للتشبيه، و تعنى المثل أيضا. لذا فإنّ هذا التكرار أصبح سببا لأن يعتبر الكثير من المفسّرين أنّها زائدة، و أنّها جاءت

للتأكيد. و أمثال ذلك كثير فی الكلمات الفصحى.

و لكن ثمّة تفسير أجمل، و هو أن يقال أحيانا: مثلك لا يهرب من ساحة الأحداث. أیّ أنّ الذی يملك الشجاعة و العقل و الذكاء مثلك، لا ينبغی عليه الهرب (و الخلاصة أن من يملك مثل صفاتك يجب أن يكون هكذا و هكذا).

و فی الآية التی نبحثها سيكون المعنى هكذا: مثل الخالق الذی ذكرنا أوصافه- كالعلم الواسع و القدرة العظيمة اللامتناهية ليس له مثل».

ذهب أرباب اللغة و علماؤها إلى أنّ هناك بعض المصطلحات لها نفس معنى (مثل) إلّا أنّها ليست مثلها فی- المفهوم من زاوية عموميتها و شموليتها، مثلا:

«ند» على وزن «ضد» و تقال عند ما يكون القصد من التشبيه الإشارة إلى المشابهة فی الجوهر و الماهية.

«شبه» و تقال عند ما يكون الكلام عن الكيفية فقط.

«مساوی» و تقال عند ما يكون الكلام عن الكمية فقط.

«شكل» و تقال عند ما يكون الكلام فی التشبيه عن المقدار و المساحة.

إلّا أنّ «مثل» لها مفهوم أوسع و أكثر عمومية، بحيث تشمل جميع المفاهيم الآنفة الذكر.

لذا فإنّ اللّه عند ما يريد أن ينفی عن ذاته أی شبيه أو نظير يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[۴۴۴].

۳- بعض الملاحظات حول الرزق الإلهی:

أ: معيار بسط الرزق و تقديره:

يجب أن لا نتصوّر أبدا أن بسط الرزق يعنی محبة اللّه لنا، أو أن تضييق المعيشة هی دليل غضبه، لأنّ اللّه قد يختبر الإنسان بواسطة البسط فی رزقه،

و أحيانا يريد أن يمتحن صبره و مقاومته عن طريق التضييق بالمعيشة عليه.

و عن هذا الطريق يصار إلى تربية الإنسان.

إنّ الثروة الكبيرة قد تكون أحيانا سببا لعذاب أهلها و تعبهم و سلب استقرارهم و راحتهم النفسية، حيث يقول القرآن فی الآية (۵۵) من سورة التوبة.

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِی الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ

و فی الآيتين (۵۵- ۵۶) من سورة المؤمنين، نقرأ قوله تعالى: أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِی الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ

ب: تحديد الأرزاق لا يتعارض مع بذل الجهود:

إنّ الآيات التی تتحدث عن تحديد مقدار الرزق لا تتنافى مع سعی الإنسان فی مجال تحصيله للرزق. و ينبغی أن لا يكون الأمر مبعثا للخمول و الكسل و الهروب من تحمل مسئوليات الجهاد الفردی الاجتماعی، إذ هناك آيات قرآنية كثيرة تؤكد أهمية و قيمة السعی

الإنسانی.

إنّ الهدف هو أن ندرک أنّنا رغم سعينا و عملنا فهناک يد خفية تقوم أحيانا بحجب نتائج هذه الجهود، و تقوم فی بعض الأحيان بعكس ذلک، حتی لا ينسی الناس فی حياتهم الاجتماعية الطويلة أن ثمّة قدرة اخری هی قدرة مسبب الأسباب و هی التی تدبر شؤون العالم.

و ينبغی هنا أن لا نلقی تبعات الكسل و الإهمال و التقاعس علی مفهوم الرزق الإلهی المحدود لكل إنسان، لأنّه تعالی صرّح بأن عطاء الرزق يساوی ما يبذله الفرد من جهد و عناء.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۳

ج: عدم اقتصار الرزق علی المفهوم المادی:

للرزق معنی واسع بحيث يشمل الرزق المعنوی، بل إنّ الرزق الأصلی هو الرزق المعنوی، و فی الأدعية نلتقی مع أمثلة كثيرة تؤكّد ذلک، فنقول حول الحج مثلا:

«اللهم ارزقنی حج بيتک الحرام».

و فی أدعية طلب الطاعة تقول:

«اللهم ارزقنی توفيق الطاعة و بعد المعصية».

و فی أدعية أيام شهر رمضان نقول:

«اللهم ارزقنی فيه طاعة الخاشعين»

(دعاء اليوم الخامس عشر).

و هكذا بالنسبة للهبات المعنوية الأخری.

د: القرآن و الأسباب التی تؤدی إلی زيادة الرزق:

لقد ذكر القرآن الكريم بعض الأمور التی تعتبر بحدّ ذاتها درسا لتربية الإنسان و بنائه، ففی الآية «۷» من سورة «إبراهيم» نقرأ قوله تعالی: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

و فی الآية «۱۵» من سورة «الملک» قوله تعالی: هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِی مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ

و فی سورة الأعراف، آية «۹۶» قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُری آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

ه: التضييق فی الرزق و القضية التربوية:

أحيانا يكون ضيق الرزق لمنع الناس عن الطغيان، كما نقرأ فی قوله تعالی:

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ ۴۴۵].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۴

ز: الرّزاق هو اللّه يؤكّد القرآن الكريم أنّ الذی يعطی الرزق للناس هو اللّه، و عليهم أن لا يطلبوا من غيره، و عليهم بعد الإيمان و التوكل أن يعتمدوا علی وسعهم و طاقاتهم، كما ورد فی الآية (۳) من سورة «فاطر» فی قوله تعالی: هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

و الآية «۱۷» من «العنكبوت» فی قوله تعالی: فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ

و هكذا تقطع التربية القرآنية روح الحاجة لدی الإنسان إلی عباد مثله، و تجعله مرتبطا بخالقه و بارئه و رازقه، فتنمی فيه روح الإباء، و العبودية و الانقطاع إلی اللّه.

و لدينا بحيث مفصل بخصوص الأرزاق و السعی للحياة، و أسباب الرزق و مصادره فی نهاية تفسير الآية «۷۱» من سورة «النحل» و

كذلك فى نهاية تفسير الآية «۶» من سورة «هود»، فليراجع هناك.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۱۵، ص: ۴۸۵

الآيتان [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۳ الى ۱۴]

اشارة

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِی إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِی إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِی شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۴)

التّفسير

الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء:

بما أن العديد من بحوث هذه السورة تتعلق بالمشركين، و أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن نفس هذا الموضوع أيضا، لذا فإنّ الآيات التی نبحثها تبيّن هذه الحقيقة، و هی أن دعوة الإسلام إلى التوحيد ليست دعوة جديدة، إنّها دعوة جميع الأنبياء أولی العزم، و ليس أصل التوحيد فحسب، بل إن جميع دعوات الأنبياء فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج‌۱۵، ص: ۴۸۶

القضايا الأساسية و فی مختلف الأديان السماوية كانت واحدة.

تقول الآية: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً و الذی هو أوّل نبیّ من أولی العزم.

و أيضا: وَ الَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى

و بهذا الشكل فما كان موجودا فی شرائع جميع الأنبياء موجود فی شريعتك أيضا و «ما يمتلكه الصالحون جميعا تملكه لوحدك».

إنّ عبارة (من الدين) تبيّن أن التنسيق بين جميع الشرائع السماوية لم يكن بخصوص التوحيد أو أصول العقائد فحسب، بل فی كلّ مجموعة الدين الإلهی، فمن حيث الأساس و الجذور كانت واحدة، بالرغم من أن تكامل المجتمع الإنسانی يقتضی أن تكون التشريعات و القوانين الفرعية متناسقة مع تكامل الناس، و تسير نحو التكامل حتى تصل إلى الحد النهائی و تختتم الأديان.

لهذا السبب هناك أدلة كثيرة فی آيات قرآنية اخرى تبيّن أن الأصول العامة للعقائد و القوانين و التعليمات واحدة فی جميع الأديان.

فمثلا نقرأ فی القرآن الكريم بخصوص شرح حال العديد من الأنبياء، أنّ أوّل دعوة لهم كانت: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ۴۴۶].

و فی مكان آخر نقرأ: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِی كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

و أيضا فقد ورد الإنذار بالبعث فی دعوة العديد من الأنبياء (الأنعام ۱۳۰، الأعراف ۵۹، الشعراء ۱۳۵، طه ۱۵، مريم ۳۱).

أمّا موسى و عيسى و شعيب عليه السّلام فيتحدثون عن الصلاة (طه ۱۴، مريم ۳۱، هود ۸۷).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۱۵ ؛ ص۴۸۶

إبراهيم يدعو إلى الحج (الحج ۲۷).

و كان الصوم مشرّعا عند جميع الأقوام السابقين (البقرة ۱۸۳).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۷

لذا، و کتعلیمات عامّة لجمیع الأنبیاء العظام تقول الآیة فی الجملة الأخری:

أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِیهِ

فهی توصی بأمرین مهمّین:

الأوّل: إقامة دین الخالق فی کلّ الأرض (و لیس العمل فحسب، بل إقامته و إحیاؤه و نشره).

الثّانی: الاحتراز عن البلاء العظیم، یعنی الفرقة و النفاق فی الدین.

و بعد ذلک تقول: کَبُرَ عَلَی الْمُشْرِکِینَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَیْهِ

فلقد تطبع هؤلاء علی الشرک و عبادة الأصنام بسبب الجهل و التعصب لسنین طویلة، و عشعش ذلک فی أعماقهم بحیث أصبحت الدعوة إلی التوحید تخیفهم و توحشهم، إضافة لذلک فإن مصالح زعماء المشرکین اللامشروعة محفوظة فی الشرک، فی حین أن التوحید هو أساس ثورة المستضعفین، و یقف حائلا دون أهواء الطغاة و مظالمهم.

و کما أن انتخاب الأنبیاء بید الخالق، کذلک فإنّ هدایة الناس بیده أیضا: اللَّهُ یَجْتَبِی إِلَیْهِ مَنْ یَشاءُ وَ یَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ یُنِیبُ

ملاحظات

و هناک ملاحظات فی هذه الآیة یجب الانتباه إلیها:

۱- (شرع) من کلمة (شرع) و هی فی الأصل تعنی الطریق الواضح، حیث یقال (الشریعة) للطریق المؤدی إلی النهر، ثمّ استخدمت هذه الکلمة بخصوص الأدیان الإلهیة و الشرائع السماویة، لأن طریق السعادة الواضح یتمثل فیها، و هی طریق الوصول إلی الإیمان و التقوی و الصلح و العدالة.

و بما أنّ الماء هو أساس النظافة و الطهارة و الحیاة، لذا فإنّ لهذا المصطلح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۸

تناسب واضح مع الدین الإلهی الذی یؤدّی نفس هذه الأعمال من الناحیة المعنویة مع روح الإنسان و المجتمع البشری ۴۴۷].

۲- لقد أشارت هذه الایة إلی خمسة من الأنبیاء الإلهیین فقط (نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمّد علیهم السلام) لأنّ هؤلاء الخمسة هم الأنبیاء أولو العزم، أیّ أصحاب الدین و الشرائع، و فی الحقیقة فإنّ الآیة تشیر إلی انحصار الشریعة بهؤلاء الخمسة من الأنبیاء.

۳- فی البدایة ذکرت الآیة نوحا، لأنّ أوّل شریعة (أو الدین الذی یحتوی علی کلّ القوانین العبادیة و الاجتماعیة) نزلت عن طریقه، و کانت هناک تعلیمات و برامج محدودة للأنبیاء الذین سبقوه ۴۴۸].

و لهذا السبب لم یشر القرآن و لا الرّوایات الإسلامیة إلی الکتب السماویة قبل نوح علیه السّلام.

۴- من الضروری أن نشیر إلی أنّه عند ذکر هؤلاء الخمسة، ثمّ ذکر نوح علیه السّلام فی البدایة ثمّ نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعد ذلک إبراهیم علیه السّلام و موسی علیه السّلام و عیسی علیه السّلام، و هذا الترتیب بسبب أن نوحا کان هو البادئ و الفاتح، و نبیّ الإسلام ذکر بعد ذلک بسبب عظمته، و ذکر الآخرون حسب الترتیب الزمنی لظهورهم.

۵- من الضروری أیضا أن نشیر إلی هذه الملاحظة، و هی أن القرآن یستخدم عبارة: أَوْحَیْنا إِلَیْکَ بخصوص نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، إلّا أنّه استخدم عبارة «وصیّنا» بالنسبة الی الآخرین، قد یکون هذا الاختلاف فی التعبیر بسبب أهمیة الإسلام بالنسبة لسائر الأدیان السماویة الأخری.

۶- وردت عبارة (من یشاء) بالنسبة الی کیفیة انتخاب الأنبیاء فی نهایة الآیة، و التی قد تکون إشارة مجملة للمؤلهات الذاتیة للرسل

الإلهيين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۹

أمّا بخصوص الأمم فقد تم استخدام عبارة (من ينيب) «و التى تعنى الرجوع إلى الخالق و التوبة عن الذنب» حتى يتّضح معيار الهداية الإلهية و شرائطها للجميع، و يعثروا على طريق الوصول إلى بحر رحمته.

جاء فى الحديث القدسى «من تقرب منّى شبرا تقربت منه ذراعا، و من أتانى يمشى أتيته هرولة»[۴۴۹].

و قد ورد هذا الاحتمال أيضا فى تفسير الجملة الأخيرة، و هو أن (الاجتباء) لا يختص بالأنبياء فحسب، بل يشمل جميع العباد المخلصين الذين لهم المقام المحمود عند الخالق.

و بما أن أحد أركان دعوة الأنبياء أولى العزم هو عدم التفريق فى الدين، فقد كانوا يدعون لذلك حتما، لذا فقد يطرح هذا السؤال: ما هو أساس كلّ هذه الاختلافات المذهبية؟

و قد أجابت الآية الأخرى على هذا السؤال و ذكرت أساس الاختلافات الدينية بأنّه: وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فالاختلافات لم تحدث إلّا بسبب حب الدنيا و المنصب و الظلم و الحسد و العداوة.

نعم، فعبيد الدنيا الظلمة و الحسودون الحاقدون وقفوا حيال أديان الأنبياء جميعا، و دفعوا كلّ مجموعة باتجاه معين كيما يثبتوا أركان زعامتهم و يؤمّنوا مصالحهم الدنيوية، و يكشفوا- علانية- حسدهم و عداوتهم للمؤمنين الحقيقيين دين الأنبياء، و لكن كلّ هذا حصل بعد إتمام الحجة.

و بهذا الترتيب فإنّ أساس التفرق فى الدين لم يكن الجهل، بل كان الظلم و البغى و الانحراف عن الحق، و الأهواء و الآراء الشخصية. «فالعلماء الذين يطلبون الدنيا» و «و الحاقدون من الناس و المتعصبون» اتحدوا معا لزرع هذه الاختلافات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۰

و تعتبر هذه الآية ردّا واضحا على الذين يقولون بأن الدين أوجد الاختلاف بين البشر، و أدى الى إراقة دماء كثيرة على مدى التاريخ، فلو دققوا فى الأمر لوجدوا أن الدين دائما هو أساس لوحدة و الاتحاد فى المجتمع (كما حصل للإسلام و قبائل الحجاز و حتى الأقوام فى خارج الجزيرة حيث انتهت الاختلافات و أصبحوا أمة واحدة).

إلّا أن السياسات الاستعمارية هى التى أوجدت الفرقة بين الناس، و حرضت على الاختلافات، و كانت أساسا لإراقة الدماء، ففرض سياساتها و أهوائها على الأديان السماوية كان عاملا كبيرا آخر فى إيجاد الفرقة، و هذا بحد ذاته ينبع من (البغى) أيضا.

«البغى» كما يكشف أساسه اللغوى، يعنى (طلب التجاوز و الانحراف عن خط الوسط و الميل نحو الإفراط أو التفريط) سواء تمّ تطبيق هذا الطلب أم لا، و تختلف كميته و كيفيته، و لهذا السبب فغالبا ما يستخدم بمعنى الظلم.

و أحيانا يقال لأى طلب بالرغم من كونه أمرا جيدا و مرغوبا.

لذا فإنّ الراغب فى مفرداته يقسم (البغى) إلى نوعين: (ممدوح) و (مذموم) فالأوّل يتجاوز حد العدالة و يصل إلى الإحسان و الإيثار، و تجاوز الواجبات و الوصول إلى المستحبات، و الثّانى يتجاوز الحق نحو الباطل.

ثم يضيف القرآن الكريم: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ حيث يهلك أتباع الباطل و ينصر أتباع الحق.

نعم، فالدنيا هى محل الاختبار و التربية و التكامل، و لا يحصل هذا بدون حرية العمل، و هذا هو الأمر التكوينى الإلهى الذى كان موجودا منذ بدء خلق الإنسان و لا يقبل التغيير. إن هذه هى طبيعة الحياة الدنيوية، و لكن ما يمتاز به عالم الآخرة هو أن جميع هذه الاختلافات ستنتهى و سوف تصل الإنسانية إلى الوحدة الكاملة، و لهذا السبب يتمّ استخدام عبارة (يوم الفصل) للقيامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۱

أمّا آخر جملة فتقوم بتوضيح حال الأشخاص الذين جاؤوا بعد هذه المجموعة، أى الذين لم يدركوا عصر الرسل، بل جاؤا فى فترة

طبع فيها المنافقون و المفرقون المجتمع البشرى بطابعهم الشيطانى، لذا لم يستطيعوا إدراك الحق بشكل جيد، حيث تقول: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۴۵۰].

و قد ذكروا فى حقيقة معنى كلمة (ريب) أن هذه الكلمة تطلق على الشك الذى يتبدل إلى الحقيقة أخيرا بعد أن يزال الستار عنه، و قد يكون هذا الأمر إشارة إلى ظهور نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بالأدلة الواضحة، حيث محى آثار الشك و الريب من قلوب طلّاب الحق.

ملاحظة

نقل تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام فى قول اللّه تعالى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ قال الأمام، وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كناية عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام ثمّ قال: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ من أمر ولاية على اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ كناية عن على (ع)[۴۵۱].

و بديهى أنّ المقصود ليس تحديد الدين فى ولاية على عليه أفضل الصلاة و السلام، بل الهدف هو بيان هذه الحقيقة، و هى أنّ قضية ولاية أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام تعتبر من أركان الدين أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۲

الآية [سورة الشورى (۴۲): آية ۱۵]

اشارة

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱۵)

التّفسير

فاستقم كما أمرت!

بما أن الآيات السابقة تحدثت عن تفرق الأمم بسبب البغى و الظلم و الانحراف، لذا فإنّ الآية التى نبحثها تأمر النّبى بمحاولة حل الاختلافات و إعادة الحياة إلى دين الأنبياء، و أن يبذل منتهى الاستقامة فى هذا الطريق، فتقول:

فَلِذلِكَ فَادْعُ ۴۵۲] أى ادعوهم إلى الدين الإلهى الواحد و امنع الاختلافات.

ثم تأمره بالاستقامة فى هذا الطريق، فتقول: وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ

و لعل جملة «كما أمرت» إشارة إلى المرحلة العالية من الاستقامة، أو إلى أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۳

الاستقامة يجب أن تكون من حيث الكمية و الكيفية و الزمن و الخصوصيات الأخرى مطابقة للقانون الإلهى.

و بما أن أهواء الناس تعتبر من الموانع الكبيرة فى هذا الطريق، لذا تقول الآية فى ثالث أمر لها: وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ لأن كلّ مجموعة ستدعوك إلى أهوائها و مصالحها الشخصية، تلك الدعوة التى يكون مصيرها الفرقة و الاختلاف و النفاق، فعليك القضاء على هذه

الأهواء، و جمع الکل فی ظل الدین الإلهی الواحد.

و بما أن لکل دعوة نقطة بدایة، لذا فإن نقطة البدایة هی شخص الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، حیث تقول الآیة فی رابع أمر لها: وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ کِتابٍ فأنا لا أفرّق بین الکتب السماویة، اعترف بها جمیعا، و کلها تدعو إلی التوحید و المعارف الدینیة الطاهرة و التقوی و الحق و العدالة، و فی الحقیقة فإن دینی جامع لها و مکملها.

فأنا لست مثل أهل الکتاب حیث یقوم کلّ واحد بإلغاء الآخرین، فالیهود یلغون المسیحیین، و المسیحیون یلغون الیهود، و حتی أن أتباع کلّ دین أیضا یقبلون ما یتلاءم مع حاجاتهم و رغباتهم من کتبهم الدینیة، فانا أقبل بالکل لأن الکل له أصول أساسیة واحدة.

و بما أن رعایة (أصل العدالة) ضروری لإیجاد الوحدة، لذا فإن الآیة تطرح ذلک فی خامس أمر لها فتقول: وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَیْنَکُمُ سواء فی القضاء و الحکم، أو فی الحقوق الاجتماعیة و القضایا الأخری [۴۵۳].

و بهذا الشکل فإنّ الآیة التی نبحثها مؤلفة من خمس تعلیمات مهمّة، حیث تبدأ من أصل الدعوة، ثمّ تطرح وسیلة انتشارها- یعنی الاستقامة- ثمّ تشیر إلی الموانع فی الطریق «کعبادة الأهواء» ثمّ تبین نقطة البدایة التی تبدأ من النفس، و أخیرا الهدف النهائی و الذی هو توسیع و تعمیم العدالة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۴

بعد هذه التعلیمات الخمس، تشیر إلی المشترکات بین الأقوام و التی تتلخص بخمس فقرات، حیث تقول: اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّکُمْ و کل واحد مسئول عن اعماله لَنا أَعْمالُنا وَ لَکُمْ أَعْمالُکُمْ لا حُجَّةَ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمُ و لیس بیننا نزاع و خصومة، و لا امتیاز لأحدنا علی الآخر و لیست لدینا أغراض شخصیة اتجاهکم.

و عادة لا توجد حاجة إلی الاستدلال و الإحتجاج، لأن الحق واضح، إضافة إلی ذلک فإننا جمیعا سوف نجتمع فی مکان واحد: اللَّهُ یَجْمَعُ بَیْنَنا [۴۵۴].

و الذی سوف یقضی بیننا فی ذلک الیوم هو الأحد الذی: وَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ.

و علی هذا الأساس فإنّ إلهنا واحد، و نهایتنا ستکون فی مکان واحد، و القاضی الذی إلیه المصیر واحد، و بالرغم من کلّ هذا فإننا مسئولون جمیعا حیال أعمالنا، و لیس هناک فرق لإنسان علی آخر إلّا بالإیمان و العمل الصالح.

و ننهی هذا البحث بحدیث جامع،

فقد ورد فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «ثلاث منجیات، و ثلاث مهلکات، فالمنجیات: العدل فی الرضا و الغضب، و القصد فی الغنی و الفقر، و خشیة اللّه فی السر و العلانیة، و المهلکات:

شح مطاع، و هوی متبع، و إعجاب المرء بنفسه» [۴۵۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۵

الآیات [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۱۶ الی ۱۸]

اشارة

وَ الَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِیبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَیْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ (۱۶) اللَّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِیزانَ وَ ما یُدْرِیکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِیبٌ (۱۷) یَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِینَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ یَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِینَ یُمارُونَ فِی السَّاعَةِ لَفِی ضَلالٍ بَعِیدٍ (۱۸)

التّفسیر

لا تستعجلوا بالساعة!!

الآيات السابقة كانت تتحدث عن واجبات النبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، كاحترامه لمحتوى الكتب السماوية، و تطبيق العدالة بين جميع الناس و ترك أى محاججة أو خصومة بينه و بينهم. أمّا الآيات التى نبحثها، فلكى تكمّل البحث السابق و تثبت أن حقانية نبيّ الإسلام لا- تحتاج إلى دليل، تقول: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ و بما أن نقاشهم و محاججتهم ليس لكشف الحقيقة، بل للعناد و الإصرار تقول الاية وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۶

وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ لعدم وجود غير هذا الجزاء للمعاندين.

و قد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة حول المقصود من جملة: مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ

فقالوا: إنّ المقصود هو استجابة عامة الناس من ذوى القلوب الطاهرة، و الذين ليست لهم نوايا خبيثة، يستسلمون للحق و يخضعون له مستلهمين ذلك من الفطرة الإلهية و مشاهدة محتوى الوحى و المعاجز المختلفة للنبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و قد يكون المقصود بها استجابة دعاء الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بحق معارضيه كما فى يوم معركة بدر، حيث أدى ذلك إلى فناء قسم عظيم من جيش العدو و انكسار شوكته.

و أحيانا اعتبروا ذلك إشارة إلى قبول أهل الكتاب، حيث كانوا ينتظرون نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قبل ظهوره، و يذكرون علامات ظهوره للناس من خلال كتبهم، و كانوا يظهرون الإيمان و الحب له، إلّا أنّه بعد ظهور الإسلام أنكروا كلّ ذلك، لأن مصالحهم غير المشروعة أصبحت فى خطر.

و يبدو أن التّفسير الأوّل هو الأفضل، لأن التّفسير الثّانى يقتضى أن تكون هذه الآيات نازلة بعد معركة بدر، فى حين أنّه لا دليل على هذا الأمر، و يظهر أن جميع هذه الآيات نزلت فى مكّة.

و التّفسير الثّالث لا يتلاءم مع أسلوب الآية، لأنّه يجب أن يقال: «من بعد ما استجابوا له».

إضافة إلى أن ظاهر جملة: يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ يشير إلى محاججة المشركين بخصوص الخالق، و ليس أهل الكتاب بالنسبة الى النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و لكن ما هى المواضيع المطروحة المشار إليها فى هذه المحاججة الباطلة؟ هناك اختلاف بين المفسّرين:

فقال البعض: إنّ المقصود هو ادعاء اليهود الذين يقولون بأن دينهم كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۷

موجودا قبل الإسلام و إن اسبقيته دليل على أفضليته.

أو، ما دمتم تدّعون الوحدة فتعالوا و آمنوا بدين موسى عليه السّلام لأن الطرفين يقبلانه.

و لكن- كما قلنا- فإن من المستبعد أن يكون الكلام فى هذه الآيات مع اليهود أو أهل الكتاب، لأن «المحاججة فى اللّه» أكثر ما تخص المشركين، لذا فإنّ الجملة أعلاه تشير إلى الأدلة الواهية للمشركين فى قبولهم بالشرك، و التى منها شفاعة الأصنام أو اتباع دين الآباء و الأجداد.

على أية حال، فالمعاندون الذين يصرون على عنادهم بعد وضوح الحق، سيفتضح أمرهم بين خلق اللّه، و سيشملهم غضب الخالق فى هذا العالم و العالم الآخر.

ثم يشير القرآن إلى أحد أدلة التوحيد و قدرة الخالق، و فى نفس الوقت يتضمّن إثبات النبوة حيال المتحاججين ذوى المنطق الواهى، حيث تقول الآية:

اللَّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِیزانَ

«الحق» کلمة جامعة تشمل المعارف و العقائد الحقة، و الأخبار الصحیحة و البرامج المتطابقة مع الحاجة الفطریة و الاجتماعیة، و ما شابه ذلک، لأن الحق هو الشیء الموجود الذی یطابق مصداقه الخارجی، و لیس له جنبة ذهنیة و خیالیة.

و أمّا «المیزان» فله معنی عام فی مثل هذه الموارد، بالرغم من أن معناه اللغوی هو وسیلة لقیاس الوزن، إلّا أنّه فی معناه الکنائی یطلق علی أی معیار للقیاس و القانون الإلهی الصحیح، و حتی شخص الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام، حیث أن وجودهم معیار لتشخیص الحق من الباطل و میزان یوم القیامة، و المیزان فی القیامة یراد به هذا المعنی.

بناء علی هذا فإنّ الخالق أنزل کتابا علی نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بحیث یعتبر هو الحق، و المیزان للتقییم، و التدقیق فی محتوی هذا الکتاب سواء معارفه و عقائده،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۸

و استدلالاته المنطقیة، أو قوانینه الاجتماعیة، و حتی برامجه لتهذیب النفوس و تکامل البشر ... کلّ ذلک یعتبر دلیلا علی حقانیته.

إنّ هذا المحتوی العظیم- بهذا العمق- من شخص أمّی لا- یعرف القراءة و الکتابة، و قد نشا فی مجتمع یعتبر من أکثر المجتمعات تخلفا، یعتبر بحدّ ذاته دلیلا علی عظمة الخالق، و وجود عالم ما وراء الطبیعة، و حقانیة من جاء به.

و هکذا فإنّ الجملة أعلاه تعتبر جوابا للمشرکین و لأهل الکتاب.

و بما أن نتیجة کلّ هذه الأمور، خاصة ظهور الحق بشکل کامل و العدالة و المیزان تتّضح فی یوم القیامة، لذا فإن الآیة تقول فی نهایتها: وَ ما یُدْرِیکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِیبٌ

فالقیامة عند ما تقام یحضر الجمیع فی محکمة عدله، و یواجهون المیزان الذی یقیس حتی حبّة الخردل أو أصغر منها.

ثم یشیر القرآن إلی موقف الکفار و المؤمنین حیال القیامة، فتقول الآیة:

یَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِها.

فهؤلاء لا یقولون ذلک بسبب عشقهم للقیامة و الوصول إلی لقاء المحبوب أبدا، إنّ کلامهم هذا من قبیل الاستهزاء و الإنکار، و لو کانوا یعلمون ما سیحل علیهم یوم القیامة لم یطلبوا مثل هذا الأمر.

وَ الَّذِینَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ یَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ [۴۵۶].

طبعا لحظة قیام القیامة خافیة علی الجمیع، حتی بالنسبة للأنبیاء المرسلین و الملائکة المقربین، لیکون هذا الأمر أسلوبا تربویا مستمرا للمؤمنین، و اختبارا و إتمام حجة للمنکرین، و لکن لا یوجد أی شک فی أصل وقوعها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۹

و من هنا یتّضح مدی التأثیر التربوی العمیق للإیمان بالقیامة و محکمة العدل الإلهی الکبیرة علی المؤمنین خاصة فی احتمالهم حصول هذا الأمر فی أیة لحظة من اللحظات.

و کإعلان عام، تقول الآیة فی نهایتها: أَلا إِنَّ الَّذِینَ یُمارُونَ فِی السَّاعَةِ لَفِی ضَلالٍ بَعِیدٍ لأن نظام هذا العالم یعتبر- بحد ذاته- دلیلا علی أنّه مقدمة لعالم آخر و بدونه سیکون خلق هذا العالم عبثا و لیس له أی معنی، و هذا لا یتناسب مع حکمة الخالق و لا مع عدالته.

و تشیر عبارة (ضلال بعید) إلی أنّ الإنسان قد یضل الطریق أحیانا، إلّا أنّه لا یبتعد عنه کثیرا، و بقلیل من البحث و الجهد یمکنه أن یکتشف الطریق و أحیانا یکون البعد کبیرا جدا بحیث یصعب- أو یستحیل- علیه العثور علی الطریق مرّة اخری.

و الطریف فی الأمر أنّنا نقرأ

فی حدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «سأل رجل رسول اللّه فی إحدی سفراته و بصوت مرتفع: یا محمّد ...، فأجابه الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و بصوت مرتفع مثل صوته «ما تقول؟».

قال الرجل: متی الساعهٔ؟

قال الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «إنّها کائنهٔ فما أعددت لها؟».

قال الرجل: حبّ اللّه و رسوله! قال الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «أنت مع من أحببت»[۴۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۰

الآیتان [سورهٔ الشوری (۴۲): الآیات ۱۹ الی ۲۰]

اشارهٔ

اللَّهُ لَطِیفٌ بِعِبادِهِ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ (۱۹) مَنْ کانَ یُرِیدُ حَرْثَ الْآخِرَهِٔ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ وَ مَنْ کانَ یُرِیدُ حَرْثَ الدُّنْیا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِی الْآخِرَهِٔ مِنْ نَصِیبٍ (۲۰)

التّفسیر

مزرعهٔ الدنیا و الآخرهٔ:

بما أن الآیات السابقهٔ کانت تتحدث عن العذاب الإلهی الشدید و عن طلب منکری المعاد للتعجیل بقیام القیامهٔ، لذا فإنّ أوّل آیهٔ نبحثها هنا تقرن «الغضب» الالهی مع «اللطف» الالهی فی معرض ردها علی استعجال منکری المعاد: اللَّهُ لَطِیفٌ بِعِبادِهِ

فعند ما یهددهم بالعذاب الشدید فی موضع، یعدهم باللطف فی موضع آخر، ذلک اللطف الواسع غیر المحدود و لا یعجّل فی عقاب الجاهلین المغرورین.

ثم تطرح الآیهٔ أحد مظاهر لطفه العام و هو الرزق، فتقول: یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ. و هذا لا یعنی أن هناک جماعهٔ محرومون من رزقه، بل المقصود البسط فی الرزق لمن یشاء، کما جاء فی الآیهٔ ۲۶ من سورهٔ الرعد: اللَّهُ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۱

یَشاءُ وَ یَقْدِرُ.

و نقرأ فی آیهٔ قادمهٔ فی هذا السورهٔ: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ ۴۵۸].

و واضح أن (الرزق) هنا یشمل الرزق المعنوی و المادی، و الجسمانی و الروحانی فعند ما یکون هو مصدر اللطف و الرزق، فلما ذا تتوجهون نحو الأصنام التی لا ترزق و لا تتلطف، لا تحل مشاکلکم.

و تقول الآیهٔ فی نهایتها: وَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ.

و عند ما یعد اللّه تعالی عباده بالرزق و اللطف فهو قادر علی إنجاز هذا الأمر، و لهذا السبب لا یوجد أی تخلف فی وعوده أبدا.

و من الضروری الانتباه إلی هذه الملاحظهٔ و هی أن (لطیف) لها معنیان: الأوّل:

أنّه صاحب اللطف و المحبهٔ و الرحمهٔ. و الثّانی: علمه بجمیع الأمور الصغیرهٔ و الخافیهٔ، و بما أن رزق العباد یحتاج إلی الإحاطهٔ و العلم بالجمیع و فی أی مکان کانوا، سواء فی السماء أو فی الأرض، لذا فإن الآیهٔ تشیر فی البدایهٔ إلی لطفه ثمّ إلی رزقه، کما أن القرآن یضیف فی الآیهٔ (۶) من سورهٔ هود و بعد أن یذکر: وَ ما مِنْ دَابَّهٍٔ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَی اللَّهِ رِزْقُها قوله: وَ یَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها.

و طبعا لا یوجد أی تناقض بین هذین المعنیین، بل یکمل أحدهما الآخر، فاللطیف هو الشخص الذی یکون کاملا من حیث المعرفهٔ و العلم، و من حیث اللطف و المحبّهٔ لعباده، و بما أن الخالق یعلم باحتیاجات عباده بشکل جید فانه یسدد احتیاجاتهم بأفضل وجه، لذا

فهو الاجدر بهذا الاسم.

على أية حال، فإنّ الآية أعلاه أشارت إلى أربعة صفات من أوصاف الخالق:

اللطف، و الرزق، و القوّة، و العزّة، و هی أفضل دليل على مقام (ربوبيته)، لأن (الرب) يجب أن تتوفر فيه هذه الصفات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۲

الآية التی بعدها شبّهت أفراد العالم حيال رزق الخالق و كيفية الاستفادة منه بالمزارعين الذين يقوم قسم منهم بالزراعة للآخرة و القسم الآخر للدنيا، و تحدد عاقبة كلّ قسم منهم وفق تشبيه لطيف حيث تقول: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۴۵۹].

إنه لتشبيه لطيف و كناية جميلة، فجميع الناس مزارعون، و هذه الدنيا مزرعة لنا، أعمالنا هی البذور، و الإمكانات الإلهية هی المطر لهذه المزرعة، إلّا أن هذه البذور تختلف كثيرا، فبعضها غير محدودة النتاج و أبدية، أشجارها دائمة الخضرة و مثمرة و بعضها الآخر قليل النفع جدا، و تنتهی بسرعة، و تحمل ثمارا مرّة.

و فی الحقيقة، فإن عبارة (يريد) تشير إلى اختلاف الناس فی النيات، و مجموع هذه الآية يعتبر توضيحا لما جاء فی الآية السابقة من المواهب و الرزق الإلهی، فالبعض يستفيد من هذه المواهب على شكل بذور للآخرة، و البعض الآخر يستعملها للتمتع الدنيوی.

و الطريف فی الأمر أن الآية تقول بخصوص الذين يزرعون للآخرة: نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ إلّا أنّها لا تقول أنّه لا يصيبهم شیء من متاع الدنيا، و بالنسبة لمن يزرع للدنيا تقول: نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ

و على هذا الأساس فلا- طلّاب الدنيا يصلون إلى ما يريدون، و لا- طلّاب الآخرة يحرمون من الدنيا، و لكن مع الفارق، و هو أن المجموعة الأولى تذهب إلى الآخرة بأيد فارغة، و المجموعة الثانية بأيد مملوءة.

و قد جاء ما يشبه نفس هذا المعنى فی الآية ۱۸ و ۱۹ من سورة الإسراء، و لكن بشكل آخر:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۳

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً.

عبارة نَزِدْ لَهُ فِی حَرْثِهِ تتلاءم مع ما ورد فی آيات قرآنية اخرى، مثل:

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها[۴۶۰] و لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۴۶۱].

على أية حال، فالآية أعلاه صورة ناطقة تعكس التفكير الإسلامی بالنسبة الى الحياة الدنيا، الدنيا المطلوبة لذاتها، و الدنيا التی تعتبر مقدمة للعالم الآخر و مطلوبة لغيرها، فالإسلام ينظر إلى الدنيا على أنّها مزرعة يقتطف ثمارها يوم القيامة.

و العبارات الواردة فی الروايات أو فی آيات قرآنية اخرى تؤكد هذا المعنى.

فمثلا تشبّه الآية (۲۱۶) من سورة البقرة المنفقين بالبذر الذی له سبعة سنابل، و فی كلّ سنبلة مائة حبة، و أحيانا أكثر. و هذا نموذج لمن يبذر البذور للآخرة.

و نقرأ

فی حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم. «و هل يكب الناس على مناخرهم فی النّار إلّا حصائد ألسنتهم»[۴۶۲].

و

جاء فی حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «إن المال و البنين حرث الدنيا، و العمل الصالح حرث الآخرة، و قد يجمعهما اللّه لأقوام»[۴۶۳].

و يمكن أن نستفيد هذه الملاحظة من الآية أعلاه، و هی أن الدنيا و الآخرة تحتاجان إلى السعی، و لا يمكن نيلهما دون تعب و أذى،

کما أن البـذر و الثمر لا یخلوان من التعب و الأذی، لـذا فالأفضل للإنسان أن یزرع شـجرة و یبذل جهده فی تربیتها، لیکون ثمرها حلو المذاق و دائمیا و أبدیا، و لیست شجرة تموت بسرعة و تفنی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۴

و ننهی هذا الکلام

بحدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم حیث یقول: «من کانت نیّته الدنیا فرق اللّه علیه أمره، و جعل الفقر بین عینیه، و لم یأته من الدنیا إلّا ما کتب له، و من کانت نیّته الآخرة جمع اللّه شمله، و جعل غناه فی قلبه، و أتته الدنیا و هی راغمة»[۴۶۴].

و ما هو مشهور بین العلماء أن

(الدنیا مزرعة الآخرة)

فهو فی الحقیقة اقتباس من مجموع ما ذکرناه أعلاه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۵

الآیات [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۲۱ الی ۲۳]

اشارة

أَمْ لَهُمْ شُـرَکاءُ شَـرَعُوا لَهُمْ مِنَ الـدِّینِ مـا لَمْ یَـأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لا کَلِمَـةُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَـذابٌ أَلِیمٌ (۲۱) تَرَی الظَّالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا کَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِی رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما یَشاؤُنَ عِنْـدَ رَبِّهِمْ ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ (۲۲) ذلِکَ الَّذِی یُبَشِّرُ اللَّهُ عِبـادَهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحـاتِ قُـلْ لا أَسْـئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ (۲۳)

سبب النّزول

لقد ورد فی تفسیر مجمع البیان سبب نزول للآیات ۲۳ و حتی ۲۶ من هذه السورة أنّه ذکر أبو حمزة الثمالی فی تفسیره حدثنی عثمان بن عمیر عن سـعید بن جبیر عن عبـد اللّه بن عباس أنّ رسول اللّه حین قـدم المدینة و اسـتحکم الإسـلام قالت الأنصار فیما بینها: نأتی رسول اللّه فنقول له إن تعروک أمور فهذه أموالنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۶

تحکم فیهـا غیر حرج و لاـ محظور علیـک فـأتوه فی ذلـک فنزلت: قُـلْ لا أَسْـئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی فقرأها علیهم و قال تودون قرابتی من بعـدی فخرجوا من عنده مسلّمین لقوله فقال المنافقون: إن هذا لشـیء افتراه فی مجلسه أراد بذلک أن یذللنا لقرابته من بعـده، فنزلت: أَمْ یَقُولُونَ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً فأرسل إلیهم فتلاها علیهم فبکوا و اشـتد علیهم فانزل اللّه: وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ الآیة، فأرسل فی أثرهم فبشرهم و قال: (و یستجیب الذین، آمنوا و هم الذین سلّموا لقوله تعالی)[۴۶۵].

التّفسیر

أجر الرسالة فی مودة أهل البیت علیهم السّلام

بما أنّ الآیة ۱۳ من هـذه السورة کانت تتحـدث عن تشـریع الدین من قبل الخالق بواسـطة الأنبیاء أولی العزم، لذا فإن أوّل آیة فی هذا البحث- کاستمرار للموضوع- تقول فی مجال نفی تشریع الآخرین، و أن جمیع القوانین لیست معتبرة قبال القانون الإلهی، و أن التقنین یختص بالخالق: أَمْ لَهُمْ شُرَکاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّینِ ما لَمْ یَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ

فهو خالق و مالک و مـدبر عالم الوجود، و لهذا السبب تنفرد ذاته المنزهة بحق التقنین، و لا یسـتطیع شـخص أن یتدخل فی تشـریعاته دون إذن، لذا فکل شیء باطل قبال تشریعه.

و بعد ذلک یقوم القرآن بتهدید المشرعین بالباطل، حیث تقول الآیة: وَ لَوْ لا کَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ حیث یصدر الأمر بعذابهم.

و فی نفس الوقت یجب علیهم أن لا ینسوا هذه الحقیقة و هی: وَ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۷

المقصود من (کلمـة الفصـل) هی المـدّة المقررة المعطاة من قبل الخالق لمثل هؤلاء الأفراد، کی تکون لهم حریـة العمل و تتم الحجة علیهم.

کما أن عبارة (ظالمین) تتحـدث عن المشـرکین الـذین لهم عقائـد منحرفـة قبال القوانین الإلهیـة و ذلک بسـبب اتساع مفهوم الظلم، و إطلاقه علی أی عمل لیس فی مورده.

و یظهر أن المقصود من (العـذاب الألیم) هو عـذاب یوم القیامـة، لأن هـذه العبارة عادة ما تسـتخدم بهـذا المعنی فی القرآن الکریم، و الآیة التی بعدها تشهد علی هذه الحقیقة، و ما قاله بعض المفسّرین (کالقرطبی) من أن ذلک یشمل عذاب الدنیا و الآخرة مستبعد.

ثم تذکر الآیة بیانا مجملا حول (عذاب الظالمین) ثمّ بیانا مفصـلا عن (جزاء المؤمنین)، فتقول: تَرَی الظَّالِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا کَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِی رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ

«روضات» جمع (روضة) و تعنی المکان الذی یشـتمل علی الماء و الشـجر الکثیر، لذا فإن کلمة (روضة) تطلق علی البساتین الخضراء، و نسـتفید من هـذه العبارة بشـکل واضـح أن بساتین الجنّة متفاوتـة، و المؤمنون من ذوی الأعمال الصالحـة فی أفضل بساتین الجنّة، و مفهوم هذا الکلام أنّ المؤمنین المذنبین سیدخلون الجنّة بعد أن یشملهم العفو الإلهی بالرغم من أن مکانهم لیس فی (الروضات).

إلّا أن الفضل الإلهی بخصوص المؤمنین ذوی الأعمال الصالحة لا ینتهی هنا، فسوف یشـملهم اللطف الإلهی بحیث: لَهُمْ ما یَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و لهـذا الترتیب لاـ یوجـد أی قیاس بین (العمل) و (الجزاء)، بل إن جزاءهم غیر محـدود من جمیع الجهات، لأن جملـة: لَهُمْ ما یَشاؤُنَ تکشف عن هذه الحقیقة.

و الأجمل من ذلک عبارة عِنْدَ رَبِّهِمْ حیث توضح اللطف الإلهی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۸

اللامتنـاهی بشـأنّهم، و هـل هناک فوز أکبر من أن یصلوا إلی قرب مقام الخالق؟ فکما یقول بخصوص الشـهداء: بَلْ أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ کذلک یقول بشأن المؤمنین ذوی الأعمال الصالحة: لَهُمْ ما یَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و لیس غریبا أن تقول الآیة فی نهایتها: ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ.

و قد قلنا- مرارا- أنّه لا یمکن شرح نعم الجنّة من خلال الکلام، فنحن المکبلون بقیود عالم المادة، لا نستطیع أن ندرک المفاهیم التی تتضمّنها جملة:

لَهُمْ ما یَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ فما ذا یریـد المؤمنون؟ و ما هی الألطاف الموجودة فی جوار قربه تعالی؟! و عادة عنـد ما یقوم الخالق العظیم بوصف شیء ما بالفضل الکبیر، فإنّ ذلک یکشف عن مقدار العظمة بحیث یکون أعظم من کلّ ما نفکر به.

و بعبـارة اخری: سوف یصـل الأـمر بهؤلاـء العباد الخلّص أنّه سـیتوفر لهم کلّ ما یریـدونه، یعنی سـیظهر فی وجودهم شـعاع من قـدرة

الخالق الأزلية، أى إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۴۶۶]، فهل هناك فضيلة موهبة أعظم من هذه؟

و لبيان عظمة هذا الجزاء تقول الآية التى بعدها: ذلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ

يبشرهم حتى لا تصعب عندهم آلام الطاعة و العبودية و مجاهدة هوى النفس و الجهاد حيال أعداء اللّه، و يقوم هذا الجزاء العظيم بترغيبهم و يعطيهم القدرة و الطاقة الكبيرة لسلوك طرق الحياة المليئة بالصعوبات و المشاكل للوصول إلى رضا الخالق.

و قد يتوهم أن نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يريد جزاء و أجرا على إبلاغ هذه الرسالة، لذا فإنّ القرآن يأمر الرّسول بعد هذا الكلام ليقول: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى أى حبّ اهل بيتى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۹

و مودة ذوى القربى و محبتهم- كما سيأتى بيانها بشكل مفصل- ترتبط بقضية الولاية و قبول قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام من آل الرّسول حيث تعتبر فى الحقيقة استمرارا لقيادة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و استمرارا للولاية الإلهية، و جليّ أن قبول هذه الولاية و القيادة كقبول نبوة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ستكون سببا لسعادة البشرية نفسها و ستعود نتائجها إليها.

توضيح

هناك بحوث متعددة و تفاسير مختلفة للمفسّرين فى تفسير هذه الجملة، بحيث إذا ما نظرنا إليها بدون أى موقف مسبق نشاهد أنّها ابتعدت عن المفهوم الأصلى للآية بسبب الدوافع المختلفة، و ذكروا احتمالات لا تتلاءم مع محتوى الآية، و لا مع سبب نزولها، و لا مع سائر القرائن التأريخية و الروائية.

و بشكل عام هناك أربعة تفاسير معروفة للآية:

۱- هو ما قلناه أعلاه، حيث أن المقصود من ذوى القربى هم أقرباء الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و حبّهم يعتبر وسيلة لقبول إمامة و قيادة الأئمّة المعصومين عليهم السّلام من نسل الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و دعما لتطبيق الرسالة.

و قد اختار هذا المعنى جمع من المفسّرين الأوائل، و جميع المفسّرين الشيعة، و وردت روايات كثيرة من طرق الشيعة و السنّة فى هذا المجال سنشير إليها لاحقا.

۲- المقصود هو أن جزاء الرسالة و أجرها هو حب أمور معينة تقربكم من اللّه.

هذا التّفسير الذى ذكره بعض مفسّرى أهل السنة لا يتلاءم مع ظاهر الآية أبدا، لأن معنى الآية سيصبح هكذا: إننى أريد منكم أن تحبوا طاعة الخالق، و تودونه فى قلوبكم، فى حين أنّه يجب أن يقال: إننى أريد منكم أن تطيعوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۰

الخالق، (و ليس مودة الطاعة الإلهية).

إضافة إلى ذلك فإنّه لا يوجد أحد بين المخاطبين فى الآية لا يرغب بالتقرب من الخالق، و حتى المشركين كانوا يرغبون بذلك، و كانوا يظنون أن عبادة الأصنام تعتبر وسيلة لهذا الأمر.

۳- المقصود حبّ أقرباكم بعنوان أجر الرسالة، أى بصلة الرحم. و بملاحظة هذه التّفسير لا يوجد أى ترابط بين الرسالة و أجرها، لأنّه ماذا يستفيد الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم من حبّ الشخص أقرباءه؟ و كيف يمكن اعتبار هذا الأمر أجرا للرسالة؟! ۴- المقصود أن أجرى هو أن تحفظوا قرابتى منكم، و لا تؤذوننى، لأنى أرتبط برابطة القرابة مع أكثر قبائلكم (لأن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان يرتبط بقبائل قريش نسبيا، و بالقبائل الأخرى سببيا (عن طرق الزواج)، و عن طريق أمه بعض أهالى المدينة من قبيلة بنى النجار، و عن طريق مرضعته بقبيلة بنى سعد).

هـذه العبارة هی أسوأ تفسیر مـذکور للآیة، لأن طلب أجر الرسالة هو من الأشـخاص الذین آمنوا بها، و مع هؤلاء الأشـخاص لا توجد حاجة إلی مثـل هـذا الکلام، فأولئک کانوا یحترمون النّبی صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم لأنّه مرسل إلهی، و لا توجـد حاجـة لاحترامه بسـبب قرابته، لأن الاحترام الناشـئ بسبب قبول الرسالة فوق جمیع هذه الأمور، و فی الواقع یجب اعتبار هذا التّفسیر من الأخطاء الکبیرة التی أصابت بعض المفسّرین و مسخت مفهوم الآیة بشکل کامل.

و لکی نفسه حقیقة محتوی الآیة بشکل أفضل، علینا طلب العون من الآیات القرآنیة الأخری:

نقرأ فی العدید من آیات القرآن المجید: ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلی رَبِّ الْعالَمِینَ ۴۶۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۱

و هناک عبارات مختلفة تخصّ الرّسول، فقد ورد فی القرآن: قُلْ ما سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ ۴۶۸].

و فی مکان آخر نقرأ: قُلْ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ یَتَّخِذَ إِلی رَبِّهِ سَبِیلًا.

و أخیرا: قُلْ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَکَلِّفِینَ ۴۶۹].

و عنـد مـا نضع هـذه الآیات الثلاثـة إلی جانب الآیـة التی نبحثها، یسـهل علینا الاسـتنتاج: ففی مکان تنفی الآیـة الأجر و الجزاء بشـکل کامل.

و فی مکان آخر تقول الآیة: إننی أطلب الأجر من الأشخاص الذین یریدون سلوک الطریق إلی الخالق.

و بخصوص الآیة الثّالثة فإنّها تقول: إنّ الأجر الذی أطلبه منکم إنّما هو لکم.

و أخیرا فإن الآیة التی نبحثها تضـیف: إن مودّة القربی هی أجر رسالتی، یعنی أن الأجر الذی طلبته منکم و یشـمل هذه الخصوصـیات: لا یعود نفعه إلیّ أبدا، بل ینفعکم بالکامل، و یعبّد الطریق أمامکم للوصول إلی الخالق.

و علی هذا الإساس، فهل تعنی الآیة شیئا آخر سوی قضیة استمرار خط رسالة النّبی الکریم بواسطة القادة الإلهیین و خلفاءه المعصومین الذین کانوا جمیعهم من عائلته؟ لکن لأن المودة هی أساس هذا الارتباط نری أن الآیة أشارت بصراحة إلی ذلک.

و الطریف فی الأمر أن هناک خمسـة عشـر موردا فی القرآن المجید- غیر الذی ذکرنا- ذکر فیه کلمة (القربی) حیث أن جمیعها تعنی الأقرباء، و مع هذا الوضع لا نعلم لماذا یصـر البعض بحصر معنی کلمة القربی فی (التقرب إلی اللّه) و یترکون المعنی الواضح و الظاهر المستخدم فی جمیع الآیات القرآنیة؟.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۲

و من الضروری الإشارة إلی هذه الملاحظة، و هی أنّه ورد فی آخر الآیة:

وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَـنَةً نَزِدْ لَهُ فِیهـا حُسْـناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَـکُورٌ. و هـل هنـاک حسـنة أفضـل من أن یکون الإنسان دائما تحت رایـة القادة الإلهیین، یحبّهم بقلبه، و یستمر علی خطهم، یطلب منهم التوضیح للقضایا المبهمة فی کلام الخالق، یعتبرهم القدوة و الأسوة و سیرتهم و عملهم هو المعیار.

الروایات الواردة فی تفسیر هذه الآیة

الدلیل الآخر علی التّفسیر أعلاه هو الروایات المتعددة الواردة فی مصادر أهل السنة و الشیعة، و المنقولة عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، حیث توضح أن المقصود من (القربی) هم أهل البیت و المقربون و خاصة الرّسول، و علی سبیل المثال نذکر:

۱-

ینقل (أحمد بن حنبل) فی فضائل الصحابة بسنده عن سعید بن جبیر عن عامر: لما نزلت: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی

قالوا: یا رسول اللّه! و من قرابتک؟ من هؤلاء الذین وجبت علینا مودّتهم؟ قال: «علی و فاطمة و ابناهما علیهم السلام، و قالها ثلاثا»[۴۷۰].

۲-

ورد فی (مستدرک الصحیحین) أن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام قال: عند استشهاد أمیر المؤمنین الإمام علی علیه السّلام، وقف الحسن بن علی علیه السّلام یخطب فی الناس، و کان ممّا قال: إنا من أهل البیت الذین افترض اللّه مودتهم علی کلّ مسلم، فقال تبارک و تعالی لنبیّه: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البیت ۴۷۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۳

۳-

ذکر (السیوطی) فی (الدر المنثور) فی نهایة الآیة التی نبحثها عن مجاهد عن ابن عباس أنّه قال فی تفسیر آیة: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی أن تحفظونی فی أهل بیتی و تودوهم بی ۴۷۲].

و من هنا یتّضح ضعف ما ینقل عن ابن عباس بطریق آخر من أن المقصود هو عدم إیذاء النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بسبب قرابته مع القبائل العربیة المختلفة.

۴- ینقل (ابن جریر الطبری) فی تفسیره بسنده عن (سعید بن جبیر) و بسند آخر عن (عمر بن شعیب) أن المقصود من هذه الآیة هم قربی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ۴۷۳].

۵- و

ینقل العلّامة الطبرسی عن (شواهد التنزیل) للحاکم الحسکانی، الذی هو من المفسّرین و المحدثین المعروفین لأهل السنة، عن (أبی أمامة الباهلی) أن رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «إن اللّه خلق الأنبیاء من أشجار شتی، و أنا و علی من شجرة واحدة، فأنا أصلها، و علی فرعها، و فاطمة لقاحها، و الحسن و الحسین ثمارها، و أشیاعنا أوراقها- حتی قال- لو أن عبدا عبد اللّه بین الصفا و المروة ألف عام، ثمّ ألف عام، ثمّ ألف عام، حتی یصیر کالشن البالی، ثمّ لم یدرک محبتنا کبه اللّه علی منخریه فی النّار، ثمّ تلا: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی .

و الطریف فی الأمر أن هذا الحدیث اشتهر بدرجة بحیث أن الشاعر المعروف الکمیت أشار إلی ذلک فی أشعاره، فقال:

وجدنا لکم فی آل حامیم آیةتأوّلها منا تقیّ و معرب ۴۷۴]

۶- و

ینقل السیوطی أیضا فی (الدر المنثور) عن ابن جریر عن أبی الدیلم: عند ما تأسّر علی بن الحسین علیه السّلام، و أوقفوه فی بوابة دمشق، قال رجل من أهل الشام:

الحمد للّه الذی قتلکم و استأصلکم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۴

قال علی بن الحسین علیه السّلام: هل قرأت القرآن؟

قال: نعم قال: هل قرأت سور حم.

قال: لا.

قال: أ لم تقرا هذه الآیة: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی

قال: أ أنتم الذین أشارت لهم هذه الآیة؟

قال: بلی ۴۷۵].

۷- نقل (الزمخشری) حدیثا فی «تفسیر الکشاف» و قد اقتبسه أیضا الفخر الرازی و القرطبی فی تفسیرهما، حیث یوضح هذا الحدیث مقام آل محمّد و أهمیة حبّهم، فیقول:

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: من مات علی حب آل محمّد مات شهیدا ألا و من مات علی حب آل محمّد مات مغفورا له ألا- و من مات علی حب آل محمّد مات تائبا ألا و من مات علی حب آل محمّد مات مؤمنا مستکمل الإیمان ألا و من مات علی حب آل محمّد بشره ملک الموت بالجنة ثمّ منکر و نکیر ألا و من مات علی حب آل محمّد فتح له فی قبره بابان إلی الجنّة ألا و من مات علی حب آل محمّد جعل اللّه قبره مزار ملائکة الرحمة ألا و من مات علی حب آل محمّد مات علی السنة و الجماعة ألا و من مات علی بغض آل محمّد جاء یوم القیامة مکتوب بین عینیه آیس من رحمة اللّه ألا و من مات علی بغض آل محمّد مات کافرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۵

ألا و من مات علی بغض آل محمّد لم یشم رائحة الجنّة

[۴۷۶].

و الطریف فی الأمر أن (الفخر الرازی) بعد ذکر هذا الحدیث الشریف الذی أرسله «صاحب الکشاف» إرسال المسلمات، یقول: «و أنا أقول: آل محمّد هم الذین یؤول أمرهم إلیه، فکل من کان أمرهم إلیه أشد و أکمل کانوا هم الآل، و لا شک أن فاطمة و علیا الحسن و الحسین کان التعلق بینهم و بین رسول اللّه أشد التعلقات، و هذا کالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن یکونوا هم الآل، و أیضا اختلف الناس فی الآل فقیل هم الأقارب و قیل هم أمته فإن حملناه علی القرابة فهم الآل و إن حملناه علی الأمة الذین قبلوا دعوته فهم أیضا آل، فثبت أن علی جمیع التقدیرات هم الآل، و أما غیرهم فیدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فیه.

و

روی فیه صاحب الکشاف أنّه لما نزلت هذه الآیة قیل: یا رسول اللّه من قرابتک هؤلاء الذین وجبت علینا مودتهم؟ فقال علی و فاطمة و ابناهما

فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النّبی، و إذا ثبت هذا وجب أن یکونوا مخصوصین بمزید التعظیم و یدل علیه وجوه:

الأول: قوله تعالی: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی و وجه الاستدلال به ما سبق.

الثّانی: لا شک أن النبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان یحب فاطمة و

قال (فاطمة بضعة منی یؤذینی ما یؤذیها)

و ثبت بالنقل المتواتر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه کان یحب علیا و الحسن و الحسین و إذا ثبت ذلک وجب علی کلّ الأمة مثله لقوله: وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ و لقوله تعالی: فَلْیَحْذَرِ الَّذِینَ یُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ و لقوله: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللَّهُ و لقوله سبحانه: لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

الثّالث: أن الدعاء للآل منصب عظیم و لذلک جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۶

فی الصلاة و هو قوله اللهم صل علی محمّد و علی آل محمّد و أرحم محمّدا و آل محمّدا. و هذا التعظیم لم یوجد فی حق غیر الآل، فکل ذلک یدل علی أن حبّ آل محمّد واجب.

و قال الشافعی رضی اللّه عنه:

يا راكبا قف بالمحصب من منى و اهتف بساكن خيفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كما نظم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمّدفليشهد الثقلان أنى رافضى ۴۷۷]

نعم فهذا مقام آل محمّد الذين نتمسك بهم و نؤمن بهم كقادة لنا، و سراج لديننا و دنيانا، و نعتبرهم أسوة و قدوة لنا، و نرى أن استمرار خط النبوة فى إمامتهم.

و طبعا، فإن هناك روايات كثيرة اخرى غير التى ذكرناها أعلاه، فى المصادر الإسلامية، و قد اكتفينا بسبع روايات مراعاة للاختصار، و لكن لا بأس من ذكر هذه الملاحظة، و هى أنّه فى بعض المصادر الكلامية كإحقاق الحق و شرحه المبسوط، ورد الحديث المعروف أعلاه بشأن تفسير الآية: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی منقولا عن خمسين كتابا تقريبا من كتب أهل السنة، حيث يبيّن هذا الأمر مدى انتشار هذه الرواية و اشتهارها، بغض النظر عن المصادر الكثيرة التى تنقل هذا الحديث عن طريق أهل البيت عليهم السّلام.

بحوث

۱- كلام مع المفسر المعروف (الآلوسى)

اشارة

فى هذا المجال يطرح سؤال ذكره الآلوسى فى تفسير روح المعانى بشكل اعتراض على الشيعة، و نحن نذكر ذلك على شكل سؤال و نقوم بمناقشته: يقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۷

«و من الشيعة من أورد الآية فى مقام الاستدلال على إمامة على كرم اللّه تعالى وجهه قال: على كرم اللّه تعالى وجهه، واجب المحبة و كل واجب المحبة واجب الطاعة و كل واجب الطاعة صاحب الإمامة، ينتج، على رضى اللّه عنه صاحب الإمامة و جعلوا الآية دليل الصغرى، و لا يخفى ما فى كلامهم هذا من البحث أمّا أوّلا: فلأن الاستدلال بالآية على الصغرى لا يتمّ إلّا على القول بأن معناها لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوا قرابتى و تحبوا أهل بيتى و قد ذهب الجمهور إلى المعنى الأوّل و قيل فى هذا المعنى: إنّه لا يناسب شأن النبوّة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئا و يسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم و قراباتهم و أيضا فيه منافاة لقوله تعالى: وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ و أمّا ثانيا: فلأنا لا نسلم أن كلّ واجب المحبة واجب الطاعة فقد ذكر ابن بابويه فى كتاب الإعتقادات أن الإمامية اجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنّه لا يجب طاعة كلّ منهم.

و أمّا ثالثا: فلا لا نسلم إن كلّ واجب الطاعة صاحب الإمامة أى الزّعامة الكبرى و إلّا لكان كلّ نبى فى زمنه صاحب ذلك و نص: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً يأبى ذلك و أمّا رابعا: فلأن الآية تقتضى أن تكون الصغرى أهل البيت واجبو الطاعة و متى كانت هذه صغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التى ذكروها و لو سلمت جميع مقدماته، بل ينتج أهل البيت صاحبوا الإمامة و هم لا يقولون بعمومه ...»[۴۷۸].

تحليل و مناقشة:

يمكن توضيح جواب العديد من هذه الإشكالات إذا راجعنا تصورنا لهذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۸

الآیة- التی نبحثها- وفقا للقرائن المتعددة القویة الموجودة فی نفس هذه الآیة، و سائر الآیات القرآنیة الأخری:

قلنا: إن هـذه المحبّـة لیست أمرا عادیا، بل هی جزاء للنبوّة و أجرا للرسالة، و لا بد أن یکون الأجر و الثمن مساویا للمثمن، حتی یمکن اعتباره جزاء له.

من جانب ثان فإن الآیات القرآنیة تؤکد أنّ نفع هذه المحبة لیس شیئا یعود إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، بل ان حاصل ذلک یعود إلی المؤمنین أنفسهم، أو بعبارة اخری یعتبر أمرا معنویا یؤثر فی هدایة المسلمین و تکاملهم.

و بهـذا الترتیب فبالرغم من أنّه لا یستفاد من الآیـة سوی وجوب المحبـة، إلّا أن وجوب المحبـة هـذه- بمراعاة القرائن المذکورة- لها علاقة بقضیة الإمامة التی تعتبر السند لمقام النبوة و الرسالة.

و مع هذا التوضیح المختصر سنقوم ببحث الإشکالات أعلاه:

۱- یجب القول أنّ بعض الترسبات الذهنیة و اتخاذ المواقف المسبقة کانت سببا لعدم تفسیر بعض المفسّرین للآیة بمودة أهل البیت، فمثلا فسّر بعضهم (القربی) لمعنی (التقرب من الخالق) فی حین أنّها وردت بمعنی الأقرباء فی جمیع الآیات القرآنیة التی تحتوی علی هذه الکلمة.

أو أنّ البعض فسّر ذلک بمعنی قرابة النّبی مع سائر القبائل العربیة، فی حین أن هذا التّفسیر یخل بنظام الآیة بشکل کامل، فأجر الرسالة یطلب من الذین قبلوا تلک الرسالة، فهل توجد حاجة للاهتمام بالقرابة و غض النظر عن الأذی لمن آمن برسالة الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم؟

إضافة إلی ذلک، لماذا نترک الرّوایات المتعددة التی تفسّر الآیة بولایة أهل بیت النّبیّ؟

لـذا یجب الاعتراف بأنّ هذه المجموعة من المفسّرین لم یفسروا الآیة بأذهان خالیة من المواقف المسبقة، و إلّا فإنه لا یوجد موضوع معقد ضمنها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۹

و من هنا یتوضح أن طلب مثل هـذا الأجر لا یتعارض، لا مع منزلـة النبوة، و لا یشبه تقالید اصحاب الدنیا، و یتناسق بشکل کامل مع الآیة (۱۰۴) من سورة یوسف التی تنفی أی نوع من الأجر، لأن أجر مودة أهل البیت فی الحقیقة- لا یستفید منه النّبی، بل إن المسلمین هم الذین یستفیدون منه.

۲- صحیح أن وجوب المحبة العادیة لا تکون دلیلا أبدا علی وجوب الطاعة، لکن عند ما تکون هذه المحبة بمستوی الرسالة، عندها سنتیقن بأنّها تشمل وجوب الطاعة، و من هنا یتّضح أن قول ابن بابویه (الشیخ الصدوق) لا یتعارض مع ما قلناه.

۳- صحیح أن أی طاعة واجبة لا یکون دلیلا علی منزلة الإمامة و الزعامة الکبری، و لکن یجب الانتباه إلی أن وجوب الطاعة التی هی أجر للرسالة بما یناسب مقامها لا یمکن أن یکون شیئا سوی الإمامة.

۴- الإمام- بمعنی القائد- لا یمکن أن یکون أکثر من واحد فی أی عصر، و بناء علی ذلک فإنّه لا یوجد أی معنی إمامة أئمّة أهل البیت علیهم السّلام جمیعهم، إضافة لذلک یجب الاستفادة من دور الروایات فی هذا المجال لفهم معنی الآیة.

و الملفت للنظر أن الآلوسی نفسه یهتم کثیرا بمودة أهل البیت، و یقول فی بضع سطور قبل هذا البحث:

«و الحق وجوب محبة قرابته علیه الصلاة و السلام من حیث أنّهم قرابته ... و کلما کانت جهة القرابة أقوی کان طلب المودّة أشدّ ... و آثار تلک المودة التعظیم و الاحترام و القیام بأداء الحقوق أتمّ قیام و قد تهاون کثیر من الناس بذلک حتی عدوا من الرفض السلوک فی هاتیک المسالک. و أنا أقول قول الشافعی الشافی:

یا راکبا قف بالمحصّب من منیو اهتف بساکن خیفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منىفيضا كملتطم الفرات الفائض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۰

إن كان رفضا حب آل محمّدفليشهد الثقلان أنى رافضى

و مع هذا لا أعتقد الخروج عما يعتقده أكابر أهل السنة فى الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم دينا، و أرى حبّهم فرضا على مبينا، فقد أوجبه الشارع و قامت على ذلك البراهين السواطع»[۴۷۹].

۲- سفينة النجاة

ذكر الفخر الرازى فى نهاية هذا البحث ملاحظة، كما ذكرها الآلوسى أيضا فى روح المعانى بعنوان (ملاحظة لطيفة) و ذلك نقلا عن الفخر الرازى، حيث يعتقد أن بعض التناقضات ستزول من خلال هذه الملاحظة هى:

إن الرّسول الأكرم قال من جانب: «مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجى»

و من جانب آخر قال: أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

فنحن الآن تائهون فى بحر التكاليف، و أمواج الشبهات و الشهوات تعصف بنا من كلّ جانب، و من يريد أن يعبر هذا البحر يحتاج إلى شيئين:

الأول: السفينة الخالية من أى عيب أو نقص.

و الثّانى: النجوم المتلألئة التى توضح الطريق.

فعند ما يركب الإنسان فى السفينة و تراقب عيناه النجوم الوضاءة، عندها سيكون هناك أمل بالنجاة. و بالمثل فأى واحد من أبناء السنة عند ما يركب فى سفينة حب آل محمّد و ينظر إلى الأصحاب (النجوم) عندها سيكون هناك أمل بأن يوصله الخالق جل و علا إلى السعادة و السلامة فى الدنيا و الآخرة[۴۸۰].

و كلنا نقول أن هذا التشبيه الشاعرى ليس دقيقا بالرغم من جماله، لأن سفينة نوح كانت مركب النجاة فى ذلك اليوم، عند ما غطت الأمواج العاصفة و المياه كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۱

العالم، و كانت فى حركة دائبة، و ليست مثل السفن العادية التى لها مرفأ تتجه إليه مقتدية بالنجوم.

لقد كان الهدف السفينة نفسها، و النجاة من الغرق، حتى غاظ الماء و استوت على الجودى.

إضافة إلى ذلك فإنّ بعض الرّوايات الواردة فى كتب أهل السنة تنقل

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه قال: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق و أهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف فى الدين»[۴۸۱].

۳- تفسير «و من يقترف حسنة ...»

«اقترف» فى جملة: وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً مأخوذة فى الأصل من (قرف) على وزن (حرف) و تعنى قطع القشرة الإضافية من الشجرة، أو من الجروح الحاصلة، حيث تكون أحيانا علامة على شفاء الجرح و تحسنه، هذه الكلمة استخدمت فيما بعد فى

الاکتساب سواء کان حسنا أو سیئا.

و لکن کما یقول الراغب- فإن هذا المصطلح استخدم فی السیئات أکثر ممّا هو فی الحسنات (بالرغم من أن الآیة التی نبحثها استخدمته فی الحسنات). لذلک فإن هناک مثل معروف یقول: الاعتراف یزیل الاقتراف.

و الطریف فی الأمر أنّ بعض التفاسیر تنقل عن ابن عباس و (السدّ) أن المقصود من (اقتراف الحسنة) فی الآیة الشریفة هو مودة آل محمّد[۴۸۲].

و

جاء فی حدیث ذکرناه سابقا عن الإمام الحسن بن علی علیه السّلام: «اقتراف الحسنة مودتنا أهل البیت».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۲

و واضح أنّ المقصود من هذه التفاسیر أن معنی اکتساب الحسنة لا یتحدد بمودّة أهل البیت علیهم السّلام، بل له معنی أوسع و أشمل و لکن بما أن هذه الجملة وردت بعد قضیة مودّة ذی القربی، لذا فإن أوضح مصداق لاکتساب الحسنة هو هذه المودّة.

۴- مکان نزول هذه الآیات

هذه السورة (سورة الشوری) من السور المکّیة، کما قلنا فی البدایة، إلّا أن بعض المفسّرین یعتقدون أن هذه الآیات الأربع (۲۳- ۲۶) نزلت فی المدینة، و سبب النّزول الذی ذکرناه فی بدایة تفسیر هذه الآیات یشهد علی هذا المعنی.

و أیضا فإنّ الرّوایات التی تفسر أهل البیت بعلی و فاطمة و ابنیهما الإمام الحسن و الحسین علیهما السلام تناسب هذا المعنی، لأنّنا نعلم أن زواج علی من سیدة النساء علیهما السّلام تمّ فی المدینة، و ولادة الحسن و الحسین علیهما السّلام کانتا فی العام الثّالث و الرابع الهجری علی ما رواه المؤرخون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۳

الآیات [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۲۴ الی ۲۶]

اشارة

أَمْ یَقُولُونَ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً فَإِنْ یَشَإِ اللَّهُ یَخْتِمْ عَلی قَلْبِکَ وَ یَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ یُحِقُّ الْحَقَّ بِکَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ یَعْفُوا عَنِ السَّیِّئاتِ وَ یَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْکافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ (۲۶)

التّفسیر

یقبل التوبة عن عباده:

هذه الآیات تعتبر استمرارا للآیات السابقة فی موضوع الرسالة و أجرها، و مودّة ذوی القربی و أهل البیت علیهم السّلام.

فأوّل آیة تقول: إن هؤلاء القوم لا یقبلون الوحی الإلهی، بل: أَمْ یَقُولُونَ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً و هذا الإعتقاد ولید أفکارهم حیث ینسبونه إلی الخالق.

فى حين: فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ و يجردك من قابلية إظهار هذه الآيات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۴

و فى الحقيقة، فإن هذا الأمر إشارة إلى الاستدلال المنطقى المعروف، و هو أنّه إذا ادعى شخص النبوة، و جاء بالآيات البينات و المعاجز، و شمله النصر الإلهى، فلو كذب على الخالق فإن الحكمة الإلهية تقتضى سحب المعاجز منه و فضحه و عدم حمايته، كما ورد فى الآيات (۴۴) إلى (۴۶) من سورة الحاقة: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ

و قد ذكر بعض المفسّرين احتمالات اخرى فى تفسير هذه الجملة، إلّا أن ما قلناه أعلاه هو أفضل و أوضح التفاسير كما يظهر.

و نلاحظ أيضا أن إحدى التهم التى نسبها الكفار و المشركون إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هى أنّه يعتبر أجر الرسالة فى مودّة أهل بيته و أنّه يكذب على الخالق فى هذا الأمر: (جاء ذلك وفقا للبحث فى الآيات السابقة) إلّا أن الآية أعلاه نفت هذه التهمة عنه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و لكن بالرغم من هذا، فإن مفهوم الآية لا يختص بهذا المعنى، فأعداء الرّسول كانوا يتهمونه بهذه التهمة فى كلّ القرآن و الوحى كما تقول الآيات القرآنية الأخرى، حيث نقرأ فى الآية (۳۸) من سورة يونس: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ

و ورد نفس هذا المعنى باختلاف بسيط فى الآيات (۱۳) و (۳۵) من سورة هود، و قسم آخر من الآيات القرآنية، حيث أنّ هذه الآيات دليل لما انتخبناه من تفسير للآية أعلاه.

ثم تقول الآية لتأكيد هذا الموضوع: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ [۴۸۳].

فهذه هى مسئولية الخالق فى توضيح الحق و فضح الباطل وفقا لحكمته، و إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۵

فكيف يسمح لشخص بالكذب عليه و فى نفس الوقت ينصره و يظهر على يديه المعاجز؟

كما أن من الاخطاء الكبيرة أن يتصور البعض قيام الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بهذا العمل مخفيا ذلك عن علم الخالق: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

و كا قلنا فى تفسير الآية ۳۸ من سورة فاطر، فإنّ (ذات) لا- تعنى فى اللغة العربية عين الأشياء و حقيقتها، بل هو مصطلح من قبل الفلاسفة[۴۸۴]، حيث أن ذات تعنى- (الصاحب)، عندها سيكون مفهوم جملة: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ إن الخالق عليم بالأفكار و العقائد المسيطرة على القلوب، و كأنما هى صاحبة هذا القلب و مالكته.

و هذه إشارة لطيفة إلى استقرار الأفكار و حاكميتها على قلوب و أرواح الناس (فدقق فى ذلك).

و بما أن الخالق يبقى طريق الرجعة مفتوحا أمام العباد، لذا فإن الآيات القرآنية بعد ذم أعمال المشركين و المذنبين القبيحة تشير إلى أن الأبواب التوبة مفتوحة دائما: و لذا تقول الآية محل البحث: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ

إلّا أنكم إذا تظاهرتم بالتوبة و أخفيتم أعمالا اخرى، فلا تتصوروا أن ذلك يخفى عن علم الخالق، لأنّه: وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ

و قلنا فى سبب النّزول الذى ذكرناه فى بداية الآيات السابقة، أنّه بعد نزول آية المودّة، قال بعض المنافقين و ضعفاء الإيمان: إنّ هذا الكلام افتراه محمّد على الخالق، و يريد به أن يذلنا بعده لأقربائه، عندها نزلت آية: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ردّا عليهم، و عند ما علموا بنزول هذه الآية تندم بعضهم و بكى و بات قلق البال، فى ذلك الوقت نزلت الآية: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ... و بشرتهم بغفران

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۶

الذنب إذا تابوا إلى اللّه توبة نصوحا.

أمّا آخر آية فتوضح الجزاء العظيم للمؤمنين، و العذاب الأليم للكافرين فى جمل قصيرة فتقول: إنّ اللّه تعالى يستجيب لدعاء المؤمنين و طلباتهم: وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بل: وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ و سوف يعطيهم ما لم يطلبوا. وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ

شَدِيدٌ.

و قد تمّ ذكر تفاسير مختلفة لأمر الذى سيستجيبه من المؤمنين، حيث أن بعض المفسّرين حدد ذلك فى طلبات معينة، منها:

أنّه سيستجيب دعاء المؤمنين أحدهم للآخر.

و منها أنّه سيقبل عباداتهم و طاعاتهم.

و منها أن ذلك مختص بشفاعتهم لإخوانهم.

و لكن لا يوجد أى دليل على هذا التحديد، حيث أن الخالق سيستجيب أى طلب للمؤمنين الذين يعملون الصالحات و الأكثر من ذلك فإنّه سيهبهم من فضله أمورا قد لا تخطر على بالهم و لم يطلبوها، و هذا غاية اللطف و الرحمة الإلهية بخصوص المؤمنين.

و

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى تفسير:

وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «الشفاعة لمن وجبت له النّار ممن أحسن إليهم فى الدنيا»[۴۸۵].

و لا يعنى هذا الحديث العظيم فى معناه اقتصار الفضل الإلهى بهذا الأمر فحسب، بل يعتبر أحد مصاديقه الواضحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۷

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۲۷ الى ۳۱]

اشارة

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (۲۷) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (۲۸) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (۲۹) وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (۳۰) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۳۱)

سبب النّزول

نقل عن الصحابى المعروف (خباب بن الأرث) أن الآية الأولى: وَ لَوْ بَسَطَ ... نزلت فينا، و ذلك بسبب أنّنا كنّا ننظر إلى الأموال الكثيرة لبنى قريظة و بنى النظير و بنى القينقاع من اليهود، و كنّا نرغب بامتلاكنا لمثل هذه الأموال، إلّا أن هذه الآية نزلت و حذرتنا من أن الخالق لو بسط لنا فى الرزق فسوف نطغى ۴۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۸

و فى تفسير (الدر المنثور) ورد حديث آخر، و هو أن هذه الآية نزلت فى أهل الصفّة، لأنّهم كانوا يأملون بتحسن وضع دنياهم ۴۸۷].

و هناك تفصيل فى نهاية الآيات بخصوص أصحاب الصفة و من هم؟

التّفسير

المترفون الباغون:

قد یکون ارتباط هذه الآیات بالآیات السابقة بلحاظ ما ورد فی آخر آیة من الآیات السابقة من أن الخالق یستجیب دعوة المؤمنین، و فی أعقاب ذلک یطرح هذا السؤال: لماذا نری البعض منهم فقراء، و لا- ینالون ما یرغبونه مهما یدعون؟ تقول الآیة: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِی الْأَرْضِ وَ لکِنْ یُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما یَشاءُ.

و بهذا الترتیب فإنّ تقسیم الأرزاق یقوم علی حساب دقیق من قبل الخالق تجاه عباده، و هذا یحدث بسبب: إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِیرٌ بَصِیرٌ.

فهو یعلم بمقدار استیعاب أی شخص فیعطیه الرزق وفقا لمصلحته، فلا یعطیه کثیرا لئلا یطغی، و لا قلیلا لئلا یستغیث من الفقر.

و جاء ما یشبه هذا المعنی فی الآیة (۶) و (۷) من سورة العلق: إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی

و هو حقّا کذلک، فالبحث فی أحوال الناس یدل علی هذه الحقیقة الصادقة، و أنّه عند ما تقبل الدنیا علیهم و یعیشون فی رفاهیة وسعة، ینسون الخالق و یبتعدون عنه و یغرقون فی بحر الشهوات، و یفعلون ما لا- ینبغی فعله، و یشیعون الظلم و الجور و الفساد فی الأرض.

و فی تفسیر آخر عن (ابن عباس) فی هذه الآیة ورد أن المقصود من (البغی)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۹

لیس الظلم و الجور، و إنّما (بغی) تعنی (طلب) أی یکون معنی الآیة أنّهم یطلبون أکثر و لا یشبعون.

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل مقبول من قبل عدّة مفسّرین و هو الأفضل کما یظهر، لأن عبارة: یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ وردت عدة مرات فی الآیات القرآنیة بمعنی الفساد و الظلم فی الأرض، مثل: فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِ ۴۸۸] و إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِ ۴۸۹].

صحیح أن (بغی) وردت بمعنی (طلب) أیضا، إلّا أنّها متی ما تذکر مع کلمة (فی الأرض) فإنها تعنی الفساد و الظلم فی الأرض.

و هنا یطرح سؤالان:

الأوّل: لو کان تقسیم الأرزاق وفق هذا البرنامج، فلما ذا إذن نری أشخاصا لهم رزق وفیر و قد أفسدوا و طغوا کثیرا فی الدنیا و لم یمنعهم الخالق، سواء علی مستوی الأفراد، أو الدول الناهبة و الظالمة؟

و فی الجواب علی هذا السؤال یجب الانتباه إلی هذه الملاحظة، و هی أن بسط الرزق أحیانا قد یکون أسلوبا للامتحان و الاختبار، لأن جمیع الناس یجب أن یختبروا فی هذا العالم، فقسم منهم یختبرون بواسطة المال.

و أحیانا قد یکون بسط الرزق لبعض الافراد لکی یعلموا بأن الثروة لا- تجلب السعادة، فعسی أن یعثروا علی الطریق و یرجعوا إلی خالقهم، و نحن الان نری بعض المجتمعات غرقی بأنواع النعم و الثروات، و فی نفس الوقت شملتهم مختلف المصائب و المشاکل، کالخوف، و القتل، و التلوث الخلقی، و القلق بأنواعه المختلفة.

فأحیانا تکون الثروة غیر المحدودة نوعا من العقاب الإلهی الذی یشمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۰

بعض الناس، فإذا نظرنا إلی حیاتهم من بعید نراها جمیلة، أمّا إذا تفحصناها عن قرب فسوف نشاهد التاسعة بأدنی حالاتها!، و فی هذا المجال هناک قصص عدیدة لسلاطین الثروة فی الدنیا، حیث یطول بنا المقام لو أردنا سردها.

السؤال الآخر هو: ألا یعنی هذا الکلام أنه متی ما کان الإنسان فقیرا فلا ینبغی له السعی للتوسع فی الرزق، لأن الخالق جعل مصلحته فی هذا الفقر؟

و للجواب علی هذا السؤال نقول: إنه قد تکون قلة الرزق بسبب کسل الإنسان و تهاونه أحیانا، فهذا النقص و الحرمان لیس ما یریده

اللّه حتما، بل بسبب أعماله، و الإسلام يدعو الجميع إلى الجهد و الجهاد و المثابرة وفقا لتأكيده على أصل السعى و بذل الجهد الذى يشير إليه القرآن فى آيات عديدة، و سنة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الائمة الأطهار عليهم السّلام.

و لكن عند ما يبذل الإنسان منتهى جهده، و رغم ذلك تغلق الأبواب فى وجهه، عليه أن يعلم بأن هناك مصلحة معينة فى هذا الأمر، فلا يجزع، و لا ييأس، و لا ينطق بالكفر، و يستمر فى محاولاته و يستسلم لرضا الخالق أيضا.

و تجدر الإشارة إلى هذه الملاحظة و هى أن كلمة (عباده) لا تتعارض أبدا مع الطغيان عند بسط الرزق، لأن هذه العبارة تستخدم فى الأفراد الصالحين و السيئين و المتوسطى الحال، مثل: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

صحيح أن الخالق ينزل الرزق بقدر حتى لا يطغى العباد، إلّا أنّه لا يمنعهم أو يحرمهم، لذا فإن الآية التى بعدها تقول: وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ

و لماذا لا يكون هذا: وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ؟

هذه الآية تتحدث عن آيات و علائم التوحيد فى نفس الوقت الذى تبيّن فيه نعمة و لطف الخالق، لأن نزول المطر يشتمل على نظام دقيق للغاية و محسوب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۱

فعند ما تشرق الشمس على المحيطات تفصل ذرات الماء الدقيقة عن الأملاح و ترسلها على شكل سحب إلى السماء، ثمّ تقوم طبقات الجو العليا الباردة بتكثيفها، ثمّ تحملها الرياح إلى الأراضى اليابسة، ثمّ تتحول أخيرا إلى قطرات مطر بسبب برودة الهواء و ضغطه الخاص و تهطل على الأرض، و تنفذ فيها دون تخريب.

نعم، فلو دققنا النظر فى هذا النظام، فسنجد علائم قدرة الخالق و علمه متجلية فيه، فهو الولى الحميد الذى يقوم بتأمين كلّ حاجات العباد و تشملهم ألطافه العديدة.

و لا بدّ القول أن كلمة (غيث) تعنى المطر النافع، كما يقول العديد من المفسّرين و بعض علماء اللغة، فى حين أن (المطر) يطلق على جميع الأنواع الأخرى النافعة و الضارة.

لذا، فبعد تلك الجملة وردت عبارة: وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ

يا له من تعبير لطيف و شامل! فهو ينشر رحمته لإحياء الأراضى الميتة، و نمو النباتات و تنظيف الهواء، و تأمين ماء الشرب للإنسان و باقى الكائنات الحية، و الخلاصة فى جميع المجالات.

فلو أراد الإنسان أن يدرك مفهوم هذه الجملة القرآنية، فإنّ عليه أن يتوجه نحو الجبال و السهول بعد نزول المطر و عند ما تشرق الشمس، كى يشاهد الجمال و اللطافة و رحمة الخالق الواسعة و هى تعمر كلّ مكان.

و قد تكوه الاستفادة من كلمة (غيث) بسبب أن لها جذورا مشتركة مع (غوث) المأخوذة من الإغاثة، و لهذا السبب فإن بعض المفسّرين اعتبر الكلمة أعلاه إشارة إلى أى إغاثة من قبل الخالق بعد اليأس و نشر رحمته ۴۹۰].

و لهذه المناسبة- أيضا- فإن الآية التى بعدها تتحدث عن أهم آيات علم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۲

و قدرة الخالق، حيث تقول: وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ.

فالسموات بعظمتها، بمجراتها و كواكبها، بملايين الملايين من النجوم العظيمة اللامعة، بنظامها الدقيق الذى يبهت الإنسان عند مطالعته لها. و الأرض بمنابعها الحياتية و نباتاتها المتنوعة و لورود و الفواكه بمختلف البركات و المواهب و الجمال! كلها تعتبر آيات و علائم تدل عليه ... هذا من جانب.

و من جانب آخر فالأحياء فى الأرض و السماء، كأنواع الطيور، و مئات الآلاف من الحشرات، و أنواع الحيوانات الأليفة و المتوحشة، و

الزواحف، و الأسماك بأنواعها و أحجامها، و العجائب المختلفة الموجودة فی كلّ نوع من هذه الأنواع، و الأهم من ذلك حقیقة (الحیاة) و أسرارها التی لم یستطع أحد التوصل إلی كنهها بعد آلاف السنین من البحوث لملایین العلماء، كلّ ذلك هو من آیات الخالق.

و الملفت للنظر أن (دابة) تشمل الكائنات الحیة المجهریة التی لها حركات لطیفة و عجیبة، و تشمل الحیوانات الكبیرة العملاقة التی یصل طولها إلی عشرات الأمتار و وزنها إلی عشرات الأطنان، فكل صنف یسبّح علی طریقته الخاصة و یحمد الخالق، و یبیّن عظمته تعالی و قدرته و علمه اللامحدود، بلسان حاله.

و تقول الآیة فی نهایتها: وَ هُوَ عَلی جَمْعِهِمْ إِذا یَشاءُ قَدِیرٌ[۴۹۱].

أمّا ما هو المقصود من جمع الأحیاء الذی تذكره هذه الآیة؟ فقد ذكر العدید من المفسّرین أنّه الجمع للحساب و جزاء الأعمال فی القیامة، و یمكن اعتبار الآیات التی تذكر القیامة بعنوان (یوم الجمع) دلیلا علی هذا المعنی (مثل الآیة ۷ من نفس هذه السورة و الآیة ۹ من سورة التغابن).

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۳

و هنا قد یطرح هذا السؤال و هو: هل أن جمیع الأحیاء سیحشرون یوم القیامة، حتی غیر الإنسان؟ حیث یقال أحیانا أن كلمة (دابة) تطلق علی غیر الإنسان. و هنا ستطرح هذه المشكلة و هی كیف ستحشر الأحیاء من غیر الإنسان للحساب. فی حین أنّها لا تتمتع بعقل و لا اختیار و لا تكلیف؟

و قد ورد جواب هذا السؤال فی نهایة الآیة (۳۸) من سورة الأنعام: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ یَطِیرُ بِجَناحَیْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِی الْكِتابِ مِنْ شَیْءٍ ثُمَّ إِلی رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ

و قلنا أن حیاة العدید من الحیوانات مقترنة مع نظام بدیع و عجیب، فما المانع من أن تكون أعمالها نتاج نوع من العقل و الشعور فیها؟ و هل هناك ضرورة لإرجاع جمیع هذه الأمور إلی الغریزة؟ و فی هذه الحالة یمكن تصور نوع من الحشر و الحساب لها (اقرأ شرحا أكثر لهذا الموضوع فی ذیل تفسیر الآیة ۳۸ من سورة الأنعام).

و یحتمل فی تفسیر الآیة أعلاه أن المقصود من (الجمع) الجانب المقابل ل (بث)، أی أن (بث) تشیر إلی خلق أنواع الكائنات الحیة باختلافها، ثمّ إذا شاء الخالق (جمعها) و أفناها. فكما أن العدید من الأحیاء- (علی مدی التاریخ)- انتشرت بشكل عجیب، ثمّ انقرضت و اختفت فیما بعد. كذلك جمعها و إبادتها یكون بید الخالق، فهی فی الحقیقة تشبه الآیات التی تقول: یحیی و یمیت (أی الخالق).

و بهذا فإنّ قضیة حساب الحیوانات سوف تكون أجنبیة عن هذه الآیة.

النجوم السماویة الآهلة:

من الاستنتاجات المهمّة التی نستنتجها من خلال هذه الآیة، أنّها تدل علی وجود مختلف الأحیاء فی السماوات، و بالرغم من عدم صدور الرأی النهائی

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۴

للعلماء بهذا الخصوص، إلّا أنّهم یقولون و علی نحو الإیجاز: هناك احتمال قوی بوجود عدد كبیر من النجوم من بین الكواكب السماویة تحتوی علی كائنات حیة، إلّا أن القرآن یصرح بهذه الحقیقة، من خلال: وَ ما بَثَّ فِیهِما مِنْ دابَّةٍ.

و ما یقوله بعض المفسّرین من احتمال تخصص (فیهما) بالكرة الأرضیة غیر سدید، لوجود ضمیر المثنی و الذی یعود إلی السماء و الأرض معا، و كذلك لا یصح ما قیل فی تفسیر (دابة) بالملائكة، لأن دابة تطلق عادة علی الكائنات المادیة.

و يمكن استفادة هذا المعنى أيضا من خلال الآيات القرآنية المتعددة الأخرى.

و

فى حديث ورد عن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «هذه النجوم التى فى السماء مدائن مثل المدائن التى فى الأرض مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور»[۴۹۲].

و هناك روايات اخرى متعددة فى هذا المجال (يمكن مراجعة كتاب «الهيئة و الإسلام» لمزيد من المعلومات).

و بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن الرحمة الإلهية، لذا يطرح سؤال فى هذا المجال، و هو كيف تجتمع الرحمة و كل هذه المصائب التى تصيبنا؟

الآية الأخرى تجيب على هذا السؤال و تقول: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

ثم إن هذا الجزاء ليس جزاء على جميع أعمالكم القبيحة، لأنّه وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۵

ملاحظات

علّة المصائب:

و من الضرورى الانتباه إلى بعض الملاحظات الواردة فى هذه الآية:

۱- تبيّن هذه الآية و بوضوح أن المصائب التى تصيب الإنسان هى نوع من التحذير و العقاب الإلهى (بالرغم من وجود بعض الاستثناءات التى سنشير إليها فيما بعد).

و بهذا الترتيب سيتوضح لنا جانب من فلسفة الحوادث المؤلمة و المشاكل الحياتية.

و الطريف فى الأمر أنّنا نقرأ فى حديث عن الإمام على عليه السّلام أنّه

نقل عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «خير آية فى كتاب اللّه هذه الآية، يا على ما من خدش عود، و لا نكبة قدم إلا بذنب، و ما عفى اللّه عنه فى الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، و ما عاقب عليه فى الدنيا فهو أعدل من أن يثنى على عبده»[۴۹۳].

و هكذا فإنّ هذه المصائب إضافة إلى أنّها تقلل من حمل الإنسان، فإنها تجعله يتزن فى المستقبل.

۲- بالرغم من عمومية الآية و شمولها كلّ المصائب، لكن توجد استثناءات لكم عامّ، مثل المصائب و المشاكل التى أصابت الأنبياء و الأئمة المعصومين عليهم السّلام بهدف الاختبار أو رفع مقامهم.

و أيضا المصائب بهدف الاختبار التى تشمل غير المعصومين. أو المصائب التى تحدث بسبب الجهل أو عدم الدقة فى الأمور و عدم الاستشارة و التساهل و التى هى آثار تكوينية لأعمال الإنسان نفسه.

و بعبارة اخرى فإن الجمع بين الآيات القرآنية المختلفة- و الأحاديث-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۶

يقتضى التخصيص فى بعض الموارد بالنسبة لهذه الآية العامة، و ليس هذا موضوعا جديدا ليكون محل نقاش بعض المفسّرين.

و خلاصة القول فإنّ هناك غايات مختلفة للمصائب و المشاكل التى تصيب الإنسان، حيث تمّت الإشارة إليها فى المواضيع التوحيدية و بحوث العدل الإلهى.

فالملكات تنمو و تتكامل تحت ضغط المصائب، و يكون هناك حذر بالنسبة للمستقبل، و يقظة من الغرور و الغفلة و كفارة للذنب و

...

و بما أن أغلب أعمال الأفراد لها طبيعة جزائية و تكفيرية، لذا فإنّ الآية تطرح ذلك بشكل عام.

و لـذا فقـد ورد فى الحـديث أنّه و عنـد ما دخل على بن الحسـين عليه السّـلام على يزيـد بن معاويـة، نظر إليه يزيـد و قال: يا على، ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم (إشارة إلى أنّ مأساة كربلاء هى نتيجة أعمالكم).

إلّا أنّ الإمام عليه السّلام أجابه مباشرة:

«كلاـ ما نزلت هـذه فينا، إنّما نزل فينا: ما أَصابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِـكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيرٌ لِكَيْلاـ تَأْسَوْا عَلى ما فـاتَكُمْ وَ لاـ تَفْرَحُـوا بِمـا آتـاكُمْ فنحـن الـذين لاـ نأسـى على مـا فاتنـا مـن أمر الـدنيا، و، لاـ نفرح بما أوتينا»[۴۹۴].

و ننهى هذا الكلام

بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّـلام فعند ما سـئل عن تفسير الآية أعلاه قال: تعلمون أن عليا و أهل بيته قد أصيبوا بالمصائب من بعـده، فهل كان ذلك بسبب أعمالهم؟ فى حين أنّهم أهل بيت الطهر، و العصـمة من الـذنب، ثمّ أضاف: نص إنّ رسول اللّه كان يتوب إلى اللّه و يستغفر فى كلّ يوم و ليلة مائة مرة من غير ذنب، إنّ اللّه يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب ۴۹۵].

۳- البعض يشكك فى أن يكون المقصود من المصائب فى هذه الآية مصائب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۷

الدنيا، لأن الدنيا هى دار العمل و ليس دار الثواب و الجزاء.

و هـذا خطأ كبير، لوجود آيات و روايات متعـددة تؤّكـد أن الإنسان يرى- أحيانا- جانبا من نتيجة أعماله فى هذه الدنيا، و ما يقال من أن الدنيا ليست دارا للجزاء و لا تتم فيها تصـفية جميع الحسابات، لا يعنى عدم الجزاء بشـكل مطلق، حيث أن إنكار هذه الحقيقة يشـبه إنكار البديهيات، كما يقول المطّلعون على المفاهيم الاسلامية.

۴- أحيانا قـد تكون المصائب جماعية، و بسـبب ذنوب الجماعة، كما نقرأ فى الآية (۴۱) من سورة الروم: ظَهَرَ الْفَسـادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

و واضح أن هذا يختص بالمجتمعات الإنسانية التى أصيبت بالمصائب بسبب أعمالها.

و ورد فى الآية ۱۱ من سورة الرعد: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ

و هـذه الآيات تدل على وجود ارتباط و علاقة قريبة بين أعمال الإنسان و النظام التكوينى للحياة، فإذا سار الناس وفقا لأصول الفطرة و قوانين الخلق فستشملهم البركات الإلهية، و عند فسادهم يفسدون حياتهم.

و أحيانا قد يصدق هذا الأمر بخصوص آحاد الناس، فكل إنسان سيصاب فى جسمه و روحه أو أمواله و متعلقاته الأخرى بسبب الذنب الذى يرتكبه، كما جاء فى الآية أعلاه ۴۹۶].

على أية حال، فقد يتصور البعض أنّهم يستطيعون الهروب من هذا القانون الإلهى الحتمى. لذا فإن آخر آية فى هذا البحث تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۸

وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۴۹۷]. و فى السـماء بطريق اولى و كيف تستطيعون الهروب من قدرته و حاكميته فى حين أن كلّ عالم الوجود هو فى قبضته و لا منازع له؟

و إذا كنتم تعتقدون بوجود من سيساعدكم و ينصركم، فاعلموا: وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

قد يكون الفرق بين (الولى) و (النصـير) هو أن الولى هو الذى يقوم بجلب المنفعة، و النصـير هو الذى يقوم بدفع الضـرر، أو أن الولى يقال لمن يدافع بشكل مستقل، و النصير يقال لمن يقف إلى جانب الإنسان و يقوم بنصرته.

و فی الحقیقهٔ فإن آخر آیهٔ تجسد ضعف و عجز الإنسان، و الآیهٔ التی قبلها عدالهٔ الخالق و رحمته ۴۹۸].

مسائل مهمّهٔ

الاولی: مصائبکم بما کسبت أیدیکم:

یتصور العدیـد من النـاس أن علاقـهٔ أعمال الإنسان بالجزاء الإلهی مثل العقود الدنیویـهٔ و ما تحتویه من الأجر و العقاب، فی حین قلنا- مرارا- إن هذه العلاقهٔ أقرب ما تکون إلی الارتباط التکوینی منه إلی الارتباط التشریعی.

و بعبـارهٔ اخری فإنّ الأجر و العقاب أکثر ما یکون بسـبب النتیجـهٔ الطبیعیـهٔ و التکوینیـهٔ لأعمال الإنسان حیث یشـملهم ذلک. و الآیات أعلاه خیر شاهد علی هذه الحقیقهٔ.

و بهذا الخصوص هناک روایات کثیرهٔ فی المصادر الإسلامیهٔ نشیر إلی بعضها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۹

لتکمیل الموضوع:

-۱

ورد فی إحـدی خطب نهـج البلاغـهٔ: «ما کان قوم قط فی غض نعمـهٔ من عیش، فزال عنهم إلّا بـذنوب اجترحوها، لأن اللّه لیس بظلام للعبیـد، و لو أنّ النـاس حین تنزل بهم النقم، و تزول عنهم النعم، فزعوا إلی ربّهم بصـدق من نیـاتهم، و وله من قلوبهم، لردّ علیهم کلّ شارد، و أصلح لهم کلّ فاسد»[۴۹۹].

۲- و هناک

حـدیث آخر عن أمیر المؤمنین الإمـام علی علیه السّـلام فی (جـامع الأخبـار) حیث یقول: «إنّ البلاـء للظالم أدب، و للمؤمن امتحان، و للأنبیاء درجهٔ، و للأولیاء کرامهٔ»[۵۰۰].

و هذا الحدیث خیر شاهد للاستثناءات التی ذکرناها لهذه الآیهٔ.

و

ورد فی حـدیث آخر عن الإمـام الصـادق علیه السّـلام فی الکـافی أنّه قـال: «إنّ العبـد إذا کثرت ذنوبه، و لم یکن عنـده من العمـل ما یکفرها، ابتلاه بالحزن لیکفرها»[۵۰۱].

۴- و هناک باب خاص لهذا الموضوع فی کتاب أصول الکافی یشمل ۱۲.

حدیثا[۵۰۲].

و کل هذه هی غیر الذنوب التی صرحت الآیهٔ أعلاه بأن الخالق سیشملها بعفوه و رحمته، حیث أنّها- بحد ذاتها- کثیرهٔ.

الثانیهٔ: اشتباه کبیر

قد یسـتنتج البعض بشکل خاطئ من هذه الحقیقهٔ القرآنیهٔ و یقول بوجوب الاستسلام لأی حادثهٔ مؤسفهٔ، إلّا أن هذا الأمر خطیر للغایهٔ، لأنّه یستفید من هذا الأصل القرآنی التربوی بشکل معکوس و یستنتج نتیجهٔ تخدیریهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۰

فالقرآن لا- يقول أبدا بالاستسلام حيال المصائب و عدم السعى لحل المشاكل، و الركون للظلم و الجور و المرض، بل يقول: إذا شملتك المصائب بالرغم من سعيك و محاولاتك لدفعها، فاعلم أن ذلك هو كفارة الذنوب التى قمت بها و ارتكبتها، عليك أن تفكر بأعمالك السابقة، و تستغفر لذنوبك، و تصلح نفسك و تكتشف نقاط ضعفك.

و إذا ورد فى الروايات أن هذه الآية من أفضل آيات القرآن، فذلك بسبب تأثيرها التربوى المهم، و من جانب آخر تقوم بتخفيف هموم الإنسان، و تعيد الأمل و عشق الخالق إلى قلبه و روحه.

الثّالثة: من هم أصحاب الصفة؟

الذين يذهبون إلى زيارة قبر النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى المدينة، يشاهدون مكانا مرتفعا قليلا عن الأرض فى زاوية المسجد و قرب القبر الشريف حيث عزلت أطرافه بشكل جميل عن باقى المسجد، كما أن الكثير ينتخب هذا المكان لتلاوة القرآن و الصلاة.

هذا المكان يذكرنا بمكان (الصفّة) و هو المحل الذى هيأه النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لمجموعة من الغرباء الذين اعتنقوا الإسلام و لم يكن لديهم مأوى سوى المسجد[۵۰۳].

توضيح:

أوّل شخص غريب اعتنق الإسلام و لم يكن يملك مكانا فى المدينة هو شاب من أهل اليمامة يسمى (جويبر) حيث أن قصة زواجه الشهيرة مع (الذلفاء) تعتبر من أجمل حوادث محاربة الفواصل الطبقية فى التاريخ الإسلامى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۱

و قد سمح له الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بالمبيت ليلا فى المسجد، لأنّه لا يملك مكانا للاستراحة و السكن، و عند ما كثر عدد الغرباء- و كلهم سكن المسجد- أدى ذلك إلى وضع سلبى للمسجد، أمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بإخراجهم من المسجد و تطهيره، و أغلقت أبواب بيوت الصحابة التى كانت شارعة إلى المسجد بأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ما عدا بيت على و فاطمة عليهما السّلام.

عندها أمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بتسقيف مكان معين بسعف النخل ليكون محلا لسكن الغرباء و الفقراء، و كان بنفسه يزورهم و يعطيهم الماء و التمر و الخبز و المواد الغذائية الأخرى، و قام باقى المسلمين بالاهتمام بهم و مساعدتهم عن طريق الزكاة و أنواع الإنفاق الأخرى.

و قد اشترك هؤلاء فى المعارك الإسلامية و جاهدوا بإخلاص، و قد وردت بعض الآيات القرآنية لتذكر فضلهم و صفاءهم و طهرهم، و قد سمّوا (بأصحاب الصفّة) لأنّهم سكنوا تلك (الصفّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۲

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۳۲ الى ۳۶]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (۳۲) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۳۳)

أَوْ یُوبِقْهُنَّ بِما کَسَبُوا وَ یَعْفُ عَنْ کَثِیرٍ (۳۴) وَ یَعْلَمَ الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِیصٍ (۳۵) فَما أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ وَ أَبْقی لِلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۳۶)

التّفسیر

هبوب الریاح المنتظمة و حرکة السفن علیهم السّلام

مرّة اخری نشاهـد أنّ هـذه الآیات تقوم بتبیان علائم الخالق و أدلة التوحید، و تسـتمر فی البحث الذی أشارت إلیه الآیات السابقة بهذا الخصوص.

و هنا تذکر موضوعا یتعامل معه الإنسان کثیرا فی حیاته المادیة، خصوصا المسافرین عبر البحار و سکان السواحل، حیث تقول الآیة: وَ مِنْ آیاتِهِ الْجَوارِ فِی الْبَحْرِ کَالْأَعْلامِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۵۴۲

جوار» جمع (جاریة) و هی صفة للسفن حیث لم تذکر للاختصار، و عادة فإن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۳

الآیة تقصد حرکة السفن، و لذا فقد استخدمت هذه الصفة.

و یقال للبنت الشابة «جاریة» لأن الشباب و النشاط یجری فی عروقها و وجودها.

«أعلام» جمع (علم) علی وزن (قلم) و تعنی الجبـل، إلّـا أنّها فی الأصل بمعنی العلامـة و الأثر الباقی الـذی یخبر عن شـیء معین، مثل (علم الطریق) و (علم الجیش) و ما شابه.

أمّا لماذا سمّی الجبل بالعلم؟ فذلک لأنّه ظاهر من بعید، و أحیانا کانوا یشعلون النّار فوق قمته حتی تکون منارا للسائرین، إلّا أنّ وجود النّار و عدمها لا یؤثر فی التسمیة.

و علی هـذا الأساس فإنّ القرآن یعتبر حرکـة السـفن العملاقـة فی هـذه الآیـة- کما فی الآیات المتعددة الأخری- بسـبب هبوب الریاح المنتظمة، من آیات الخالق.

فلیس مهمّا حرکة السـفینة الصـغیرة أو الزوارق علی سـطح الماء بسـبب هبوب الریاح، المهم حرکة السفن و البواخر العملاقة بحمولتها الکبیرة و مسافریها المتعددین عند هبوب الریاح، فتقطع آلاف الأمیال و تصل إلی مرساها.

فمن الذی خلق هذه المحیطات بخصوصـیاتها و میاهها و عمقها؟ من أعطی للخشب الذی تصـنع منه السـفن خاصـیة الطفو علی سـطح الماء؟

و من یأمر الریاح بالهبوب بشکل منظم علی سطح البحار و المحیطات کی یستطیع الإنسان أن یصل من نقطة إلی اخری بالاستفادة من هذه الریاح؟

نعم، فلو أخذنا بعین الإعتبار الخرائط التی یملکها البحارة بخصوص حرکة الریاح، و المعلومات التی یملکها البشـر حول هبوب الریاح من القطبین نحو خـط الإسـتواء و من خـط الإسـتواء إلی القطبین، و أیضـا هبوب الریـاح المتناوبـة من السواحل و الیابسـة نحو البحار و بالعکس، عندها سندرک أن هذا الأمر مخطط و له

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۴

نظام.

فی زماننا، تقوم المحركات الضخمة بتحريك السفن و دفعها إلی الأمام، إلّا أنّ الرياح تبقی مؤثرة أيضا فی حركة هذه السفن.

و للتأكيد أكثر تقول الآية: إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلی ظَهْرِهِ

و كاستنتاج تضيف الآية فی نهايتها: إِنَّ فِی ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

نعم، فهبوب الرياح، و حركة السفن، و خلق البحار، و النظام الخاص المتناسق الذی يتحكم بهذه الأمور ... كلّها آيات مختلفة للذات المقدسة.

و نعلم أن هبوب الرياح يتمّ بسبب الاختلاف فی درجة الحرارة بين منطقتين علی الكرة الأرضية، لأنّ الهواء يتمدد بسبب الحرارة و يتحرك نحو الأعلی، و يضغط علی الهواء المحيط به و يقوم بتحريكه، و من جانب آخر يترك مكانه للهواء المجاور له عند تحركه نحو الطبقات العليا، فلو سحب الخالق هذه الخاصية (خاصية التمدد) من الهواء، عندها سيطغی السكون و الهدوء القاتل و ستقف السفن الشراعية فی عرض البحار دون أية حركة.

«صبار» و (شكور) صيغتا مبالغة حيث تعطی الأولی معنی كثرة الصبر، و الثانية كثرة الشكر. و هذان الوصفان الواردان فی هذه الآية- و فی موارد اخری ۵۰۴]- يشيران إلی ملاحظات لطيفة.

فهاتان الصفتان توضحان حقيقة الإيمان، لأن المؤمن صبور فی المشاكل و الابتلاءات و شكور فی النعم، و

قد ورد فی حديث عن الرّسول صلّی اللّه عليه و اله و سلّم: «الإيمان نصفان: نصف صبر و نصف شكر»[۵۰۵].

إضافة إلی ذلك، فإنّ البحث فی أسرار نظام الخلق يحتاج إلی الصبر و الاستمرار و تخصيص الوقت الكافی، و من جانب ثان يستحق شكر لمنعم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۵

فمتی ما توفر هذان العاملان عندها يكون الإنسان مؤهلا للبحث فی هذه الآيات، و عادة فإنّ البحث فی أسرار الخلق يعتبر بحد ذاته نوعا من الشكر.

و من جانب ثالث، فإنّ هاتين الصفتين تتجسدان فی الإنسان أكثر من أی وقت مضی متی ما ركب فی السفينة، حيث الصبر حيال حوادث و مشاكل البحار، و الشكر عند الوصول إلی الساحل.

مرّة اخری، لتجسيد عظمة هذه النعمة الإلهية، تقول الآية الأخری: أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا أیّ لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التی ارتكبها المسافرون.

و كما قرأنا فی الآيات الماضية، فإنّ المصائب التی تصيب الإنسان غالبا ما تكون بسبب أعماله.

إلّا أنّه بالرغم من ذلك فإن اللطف الإلهی يشمل الإنسان: وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ.

فلو لا عفو الخالق لم يكن لينجو أحد من عذاب الخالق سوی المعصومين و الخواص و الطاهرين، كما نقرأ ذلك فی الآية (۴۵) من سورة فاطر: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلی ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی

نعم، فهو يستطيع أن يمنع الرياح من الهبوب حتی تقف السفن فی وسط البحار و المحيطات، أو يحوّل هذه الرياح إلی عواصف هو جاء تدمر هذه السفن و البواخر، إلّا أن لطفه العام يمنع هذا العمل.

وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِی آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ۵۰۶] و ما لهم من ملجأ سوی ذاته المنزهة.

فهؤلاء سوف لا يشملهم العفو الإلهی، لأنّهم عارضوه بعلم و وعی، و استمروا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۶

فی محاربته عن عداوة و عناد، فهؤلاء سوف لا يشملهم عفوه و رحمته، و لا خلاص لهم من عذابه.

«محیص» مأخوذة من کلمـة (حیص) علی وزن (حیف) و تعنی الرجوع و العدول عن أمر ما، و بما أن (محیص) اسم مکان، لذا وردت هذه الکلمة، بمعنی محل الهروب أو الملجأ.

و الکلام فی آخر آیة موجّه إلی الجمیع حیث تقول: فَما أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْ‌ءٍ فَمَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا.

فلا تتصوروا أنّه سـیبقی لکم، لأنّه کالومیض الـذی یبرق ثمّ یخبو، و کالشـمعة فی مهبّ الریح و الفقاعة علی سـطح الماء، و لکن وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ وَ أَبْقی لِلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنیوی الزائل المحدود التافه بمتاع أبدی خالد، فتلک هی التجارة المربحة العدیمة النظیر.

فـالمواهب فی هـذه الـدنیا لا- تخلو من المشاکـل، حیث توجـد الأشواک دائما إلی جانب الورود، و المحبطات إلی جانب الآمال، فی حین أن الأجر الإلهی لا یحتوی علی أی إزعاجات، بل هو خیر خالص و متکامل.

و من جانب آخر فإن هـذه المواهب مهما کانت فستزول حتما، إلّا أن الجزاء الأخروی أبـدی خالد، عندها هل یقبل العقل أن یسـتغنی الإنسان عن هذه التجارة المربحة، أو یصاب بالغرور و الغفلة و تبهره زخارف الدنیا؟

لذا فإننا نقرأ فی الآیة ۳۸ من سورة التوبة: أَ رَضِیتُمْ بِالْحَیاةِ الدُّنْیا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا فِی الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِیلٌ

و أساسا، فإنّ «الحیاة الدنیا» (بالمعنی المتقدم) تشیر إلی الحیاة الدنیة و الحقیرة، و طبیعی أن أی متاع أو وسائل للاستفادة من مثل هذه الحیاة ستکون- أیضا- مثلها فی القیمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۷

لذا

فقـد ورد فی حدیث عن الرّسول صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم أنّه قال: «و اللّه ما الدنیا فی الآخرة إلّا مثل أن یجعل أحدکم إصبعه هذه فی الیم، فلینظر بم ترجع؟!»[۵۰۷].

و الملفت للنظر أنّه ورد فی هذه الآیة التأکید علی الإیمان و التوکل، و هذا بسبب أن نیل الأجر الإلهی هو للذین یفوضون أمورهم فی جمیع الأعمال و یستسلمون له تعالی إضافة إلی الإیمان، لأن التوکل یعنی تفویض الأمور.

و تقابل هذه المجموعة أشـخاص یجادلون فی آیات اللّه بسبب حب الدنیا و الارتباط بالمتاع الزائل، و یقلبون الحقائق، و بهذا الترتیب فإن آخر آیة هی بمثابة تعلیل للآیة التی قبلها، و التی کانت تتحدث عن الذین یجادلون فی آیات اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۸

الآیات [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۳۷ الی ۴۰]

اشارة

وَ الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبـائِرَ الْإِثْم وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا مـا غَضِـبُوا هُمْ یَغْفِرُونَ (۳۷) وَ الَّذِینَ اسْـتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقـامُوا الصَّلاـةَ وَ أَمْرُهُمْ شُوری بَیْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْنـاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳۸) وَ الَّذِینَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْیُ هُمْ یَنْتَصِـرُونَ (۳۹) وَ جَزاءُ سَـیِّئَةٍ سَیِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اللَّهِ إِنَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ (۴۰)

التّفسیر

المؤمنون لا یستسلمون للظلم:

هذه الآیات استمرار للبحث الوارد فی الآیات السابقهٔ بخصوص الأجر الإلهی للمؤمنین المتوکلین.

فبعد ذکر الإیمان و التوکل اللذین لهما طبیعهٔ قلبیهٔ، تشیر هذه الآیات إلی سبعهٔ أنواع من البرامج العملیهٔ للصفتین السابقتین سواء کانت إیجابیهٔ أو سلبیهٔ، فردیهٔ أو اجتماعیهٔ، مادیهٔ أو معنویهٔ، و هذه البرامج توضح أسس المجتمع الصالح و الحکومهٔ الصالحهٔ القویهٔ.

و الملفت للنظر أنّ هذه الآیات نزلت فی مکّهٔ- کما یظهر- و فی ذلک الیوم لم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۹

یکن قـد تأسـس المجتمع الإسـلامی بعـد، و لم یکن هناک وجود للحکومـهٔ الإسـلامیهٔ، إلّا أن هـذه الآیات أعطت التفکیر الإسـلامی الصـحیح فی هذا الخصوص منذ ذلک الیوم، حیث کان الرّسول الکریم صـلّی اللّه علیه و اله و سلّم یعلّمهم و یربّیهم لغرض الاستعداد لبناء المجتمع الإسلامی فی المستقبل.

فـأوّل صـفهٔ تبـدأ من التطهیر حیث تقول الآیـهٔ أن الثواب الإلهی العظیم سوف یکون من نصـیب المؤمنین المتوکلین: وَ الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ ۵۰۸].

«کبائر» جمع «کبیرهٔ» و تعنی الذنوب الکبیرهٔ، أمّا ما هو المعیار فی الکبائر؟

البعض فسّرها بالذنوب التی توعد القرآن فی آیاته بعذاب النّار لها، و أحیانا الذنوب التی تستوجب الحدّ الشرعی.

و قد احتمل البعض أنّها إشارهٔ للبدع و إیجاد الشبهات الاعتقادیهٔ فی أذهان الناس.

و لکننا لو رجعنا إلی المعنی اللغوی کلمـهٔ «کبیرهٔ» فإنّها تعنی الـذنب الـذی یکون کبیرا و مهما من وجهـهٔ نظر الإسـلام، و أحد علائم أهمیته أنّه ورد فی القرآن المجید و توعد بالعذاب علیه، و قد ورد تفسیر للکبائر فی روایات أهل البیت علیهم السّلام بأنّها:

«التی أوجب اللّه عزّ و جلّ علیها النّار»[۵۰۹].

و علی هذا الأساس فلو توضحت أهمیهٔ و عظمهٔ الذنب بطرق اخری، عندها سیشمله عنوان (الکبائر).

«فواحش» جمع «فاحشـهٔ» و تعنی الأعمال القبیحـهٔ للغایـهٔ و الممقوتـهٔ، و ذکر هذه العبارهٔ بعد کلمهٔ (الکبائر) من قبیل ذکر الخاص بعد العام، و فی الحقیقهٔ فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۰

التأکید علی الذنوب القبیحهٔ للغایهٔ بعد ذکر اجتناب المؤمنین الحقیقیین عن جمیع الذنوب الکبائر، للتأکید علی أهمیهٔ ذلک.

و علی هـذا الأسـاس فـإنّ أوّل علائـم الإیمان و التوکل هو الاجتناب عن (الکبائر)، فکیف یمکن للإنسان أن یـدعی الإیمان و التوکل علی الخالق، فی حین أنّه مصاب بأنواع الـذنوب و قلبه و کر من أوکار الشـیطان؟! أمّا ثانی صـفهٔ، و التی لها طبیعهٔ تطهیریهٔ أیضا، فهی السیطرهٔ علی النفس عند الغضب الذی یعتبر من أشدّ حالات الإنسان حیث تقول الآیهٔ: وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ یَغْفِرُونَ

فهؤلاء لا یفقدون السـیطرهٔ علی أنفسهم عند الغضب و لا یرتکبون الجرائم عنده، و الأکثر من ذلک غسل قلوبهم و قلوب الآخرین من الحقد بواسطهٔ میاه العفو و الغفران.

و هذه الصفهٔ لا تتوفر إلّا فی ظل الإیمان الحقیقی و التوکل علی الحق.

و الطریف فی الأمر أن الآیـهٔ لا تقول: إنّهم لا یغضـبون، لأنّ الغضب من طبیعـهٔ الإنسان، و هناک ضـرورهٔ له فی بعض الأحیان خاصـهٔ عنـد ما یکون للّه و فی طریق إحقاق الحق، بل تقول: إنّهم لا یلوثون أنفسـهم بالـذنب عند الغضب، و بکل بساطهٔ یعفون و یغفرون، و یحب أن یکونوا هکـذا، فکیف یمکن للإنسـان أن ینتظر العفو الإلهی فی حین أن أعماقه ملیئـهٔ بالحق و حب الانتقام، و لا یعترف بأی قانون عند الغضب؟ و إذا شاهدنا التأکید علی الغضب هنا، فذلک لأنّ هذه الحالهٔ کالنار الحارقهٔ التی تلتهب فی داخل أعماق الإنسان، و هناک الکثیرون الذین لا یستطیعون ضبط أنفسهم فی تلک الحالهٔ، إلّا أن المؤمنین الحقیقیین لا یستسلمون أبدا للغضب.

و

ورد فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام: «من ملک نفسه إذا رغب، و إذا رهب،

و إذا غضب، حرم اللّه جسده علی النّار»[۵۱۰].

الآیهٔ الأخری تشیر إلی الصفهٔ الثّالثهٔ و الرّابعهٔ و الخامسهٔ و السادسهٔ، حیث تقول: وَ الَّذِینَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ

وَ أَقامُوا الصَّلاهَٔ.

أَمْرُهُمْ شُوری بَیْنَهُمْ ۵۱۱].

وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ

فالآیـهٔ السابقـهٔ کانت تتحـدث عن تطهیر النفس من الذنوب و التغلب علی الغضب، إلّا أنّ الآیهٔ التی نبحثها تتحدث عن بناء النفس فی المجالات المختلفـهٔ، و من أهمهـا إجابـهٔ دعوهٔ الخـالق، و التسـلیم حیـال أوامره، حیث أن الخیر کـلّ الخیر تجسـد فی هـذا الأمر. فهم مستسلمون بکل وجودهم لأوامره، و لیست لهم إرادهٔ إزاء إرادته، و یجب أن یکونوا هکذا، لأنّ الاستسلام و الاستجابهٔ أمران حتمیان بعد تطهیر القلب و الروح من آثار الذنب الذی یعیق السیر نحو الحق.

و نظرا لوجود بعض القضایا المهمّهٔ فی التعلیمات الإلهیهٔ یجب الإشارهٔ إلیها بالخصوص، لذا نری أن الآیهٔ أشارت إلی بعض المواضیع المهمّهٔ و خاصهٔ (الصـلاهٔ) التی هی عمود الدین و حلقهٔ الوصول بین المخلوق و الخالق و مربیهٔ النفوس، و تعتبر معراج المؤمن و تنهی عن الفحشاء و المنکر.

بعـد ذلک تشیر الآیهٔ إلی أهم قضـیهٔ اجتماعیهٔ و هی «الشوری» فبدونها تعتبر جمیع الأعمال ناقصهٔ، فالإنسان الواحد مهما کان قویا فی فکره و بعیـدا فی نظره، إلّا أنّه ینظر للقضایا المختلفهٔ من زاویهٔ واحدهٔ أو عدّهٔ زوایا، و عندها سـتختفی عنه الزوایا و الأبعاد الأخری، إلّا أنّه و عند التشاور حول القضایا المختلفهٔ تقوم العقول

العقول و التجارب المختلفهٔ بمساعدهٔ بعضها البعض، عند ذلک ستتوضح الأمور و تقل العیوب النواقص و یقل الانحراف.

لذا

فقد ورد فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «ما من رجل یشاور أحدا إلّا هدی إلی الرشد».

و الملفت للنظر أن العبارهٔ وردت هنا علی شکل برنامج مستمر للمؤمنین، لیس فی عمل واحد و مؤقت، بل یجب أن یکون التشاور فی جمیع الأعمال.

و الطریف فی الأـمر أن الرّسول صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم کـان أیضـا یتشـاور مع أتبـاعه و أنصاره فی القضایا الاجتماعیـهٔ المهمّـهٔ و التنفیذیـهٔ و الصـلح و الحرب و الأمور المهمّـهٔ الأخری بالرغم من تکامل عقله و ارتباطه بمصـدر الوحی، و کان یشاور أصـحابه أحیانا بـالرغم من المشـکل التی تحصـل من جراء ذلـک، لکی یکون أسوهٔ و قـدوهٔ للنـاس، لأن برکات الاسـتشارهٔ أکثر بکثیر من احتمالات ضررها.

و هناک تفصـیلات فی نهایـهٔ الآیهٔ (۱۵۹) من سـورهٔ آل عمران بخصوص (الاسـتشارهٔ) و (شـروط الشوری) و (أوصـاف الـذین یجب استشارتهم) و (مسئولیهٔ المستشار) حیث لا نری ضرورهٔ إلی إعادهٔ ذلک، إلّا أنّه یجب أن نضیف بعض الملاحظات الأخری:

أ- الشـوری تختص بالأعمـال التنفیذیـهٔ و معرفـهٔ الموضـوع و لیست لمعرفـهٔ الأحکـام، لأنّهـا یجب أن تؤخـذ من مصـدر الوحی و من الکتاب و السنهٔ، و عبارهٔ (أمرهم) تشیر إلی هذا المعنی أیضا، لأن الأحکام لیست من شأن الناس، بل هی من أمر الخالق.

و لذا فلا أساس لما یقوله بعض المفسّـرین کالآلوسـی من أن الشوری تشمل الأحکام أیضا، حیث لا یوجد نص خاص بذلک، خاصهٔ و أنّنا نعتقد بعدم وجود أی أمر فی الإسلام لیس له نص عام أو خاص صادر بشأنّه، و إلّا فما فائدهٔ الْیَوْمَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۳

أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ ۵۱۲] [یجب قراءة تفصیلات عن هـذا المعنی فی کتب أصول الفقه بخصوص بطلان الاجتهاد بمعنی التقنین فی الإسلام .

ب- قال بعض المفسّرین إن شأن نزول عبارة: أَمْرُهُمْ شُوری بَیْنَهُمْ خاص بالأنصار بخصوص الأنصار، إما لأن أعمالهم قبل الإسلام کانت وفقا للشوری، أو هی إشارة إلی تلک المجموعة من الأنصار الذین آمنوا قبل هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و بایعوه فی (العقبة)، و دعوه إلی المدینة (لأن هذه السورة مکیة، و الآیات أعلاه نزلت فی مکّة کما یظهر أیضا).

و علی أیة حال، فإن الآیة لا تختص بسبب نزولها، بل توضح برنامجا عاما و جماعیا.

و ننهی هذا الکلام بحدیث

عن أمیر المؤمنین الإمام علی علیه السّلام حیث یقول: «لا ظهیر کالمشاورة، و الاستشارة عین الهدایة»[۵۱۳].

و من الضروری الإشارة إلی أن آخر صفة وردت فی هذه الآیة لا تشیر إلی الإنفاق المالی فحسب، و إنّما إنفاق کلّ ما أعطاه الخالق من الرزق کالمال و العقل و الذکاء و التجربة، و التأثیر الاجتماعی، و الخلاصة: الإنفاق من کلّ شیء.

و تقول الآیة بخصوص سابع صفة للمؤمنین الحقیقیین: وَ الَّذِینَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْیُ هُمْ یَنْتَصِرُونَ أیّ أنّهم إذا تعرضوا للظلم لا یستسلمون له، بل یطلبون النصر من الآخرین.

و واضح أنّ الآخرین مکلفون بالانتصار ضد الظلم، لأن طلب النصر دون النصرة یعتبر لغو و لا فائدة فیه، و فی الحقیقة فإن المظلوم مکلف بمقاومة الظالم و طلب النصرة، و أیضا فإن المؤمنین مکلفون بإجابته، کما ورد فی الآیة (۷۲) من سورة الأنفال حیث نقرأ: وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوکُمْ فِی الدِّینِ فَعَلَیْکُمُ النَّصْرُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۴

هذا البرنامج الإیجابی البناء یحذر الظالمین من مغبة ظلم المؤمنین، حیث أنّهم لا یسکتون علی ذلک و یقفون بوجوههم. و هو أیضا یؤمّل المظلومین بأن الآخرین سوف ینصرونکم عند استغاثتکم.

«ینتصرون» من کلمة «انتصار» و تعنی طلب النصر، إلّا أن البعض فسرها بمعنی «التناصر» و النتیجة واحدة للتوضیح الذی ذکرناه.

علی أیة حال، فأی مظلوم إذا لم یستطع أن یقف بوجه الظلم بمفرده، فعلیه ألا یسکت، بل یستفید من طاقات الآخرین و النهوض بوجه الظلم، و مسئولیة جمیع المسلمین الاستجابة لاستغاثته و ندائه.

و لکن بم أنّ التناصر یجب أن لا یخرج عن حد العدل و ینتهی إلی الانتقام و الحقد و التجاوز عن الحد، لذا فإن الآیة التی بعدها اشترطت ذلک بالقول:

وَ جَزاءُ سَیِّئَةٍ سَیِّئَةٌ مِثْلُها.

یجب أن لا تتجاوزوا عن الحد بسبب أن أصدقاءکم هم الذین ظلموا فتنقلبوا إلی أشخاص ظالمین، و خاصة الإفراط فی الرد علی الظلم فی مجتمعات کالمجتمع العربی فی بدایة الإسلام، لذا یجب التمییز بین نصرة المظلوم و الانتقام.

و عمل الظالم یجب أن یسمی ب (سیئة) إلّا أن جزاءه و عقابه لیس (سیئة) و إذا وجدنا أنّ الآیة عبّرت عن ذلک بالسیئة فبسبب التقابل بالألفاظ و استخدام القرائن، أو أنّ الظالم یعتبرها (سیئة) لأنّه یعاقب، أو یحتمل أن یکون استخدام لفظة (السیئة) لأنّ العقاب ألیم و مؤذ، و الألم و الأذی بحدّ ذاته (سیء) بالرغم من أن قصاص الظالم و معاقبته یعتبر عملا حسنا بحد ذاته.

و هذا یشبه العبارة الواردة فی الآیة (۱۹۴) من سورة البقرة: فَمَنِ اعْتَدی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدی عَلَیْکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ

علی أیة حاله، فإنّ هذه العبارة یمکن أن تکون مقدمة للعفو الوارد فی الجملة التی بعدها، و کأنّما ترید الآیة القول: إنّ العقاب مهما کان فهو نوع من الأذی، و إذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۵

ندم الشخص عندها یستحق العفو.

لذا ففی مثل هذه الموارد ینبغی علیکم العفو، لأن فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَی اللَّهِ

صحیح أنّه فقد حقه و لم یحصل علی شیء فی الظاهر، إلّا أنّه بسبب عفوه، العفو الذی یعتبر أساس انسجام المجتمع و التطهّر من الأحقاد و زیادة أواصر الحب و زوال ظاهرة الانتقام و الاستقرار الاجتماعی، فقد تعهد الخالق بأن یعطیه من فضله الواسع، و یا لها من عبارة لطیفة (علی اللّه) حیث أن الخالق یعتبر نفسه مدینا لمثل هؤلاء الأشخاص و یقول بأن أجرهم علیّ.

و تقول الآیة فی نهایتها: إِنَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ

و قد تکون هذه الجملة إشارة إلی بعض الملاحظات:

فأوّلا: قد یکون العفو بسبب أن الإنسان لا یستطیع أحیانا السیطرة علی نفسه بدقة عند العقاب و القصاص، و قد یتجاوز الحد و یکون فی عداد الظالمین.

و ثانیا: إن هذا العفو لیس بمعنی الدفاع عن الظالمین، لأن اللّه لا یحب الظالمین أبدا، بل إن الهدف هو هدایة الضالین و تثبیت الأواصر الاجتماعیة.

و ثالثا: إنّ الذین یستحقون العفو هم الذین یکفون عن الظلم و یندمون علی ما ارتکبوه فی الماضی، و یقومون بإصلاح أنفسهم، و لیس للظالمین الذین یزدادون جرأة بواسطة هذا العفو.

و بعبارة أوضح، فإنّ کلّا من العفو و العقاب له موقعه الخاص، فالعفو یکون عند ما یستطیع الإنسان الانتقام، و هذا یسمی العفو البناء، لأنّه یمنح المظلوم المنتصر قابلیة السیطرة علی النفس و صفاء الروح، و أیضا یفرض علی الظالم المغلوب إصلاح نفسه.

و العقاب و الانتقام و الردّ بالمثل یکون عند ما یبقی الظالم مستمرا فی غیه و ضلاله، و المظلوم لم یثبّت أرکان سیطرته بعد، فالعفو هنا یکون من موقع الضعف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۶

فیجب الردّ بالمثل.

و

قد ورد فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «إذا کان یوم القیامة نادی مناد: من کان أجره علی اللّه فلیدخل الجنّة، فیقال: من ذا الذی أجره علی اللّه؟

فیقال: العافون عن الناس، فیدخلون الجنّة بغیر حساب»[۵۱۴].

و هذا الحدیث- فی الحقیقة- هو النتیجة المستوحاة من آخر آیة فی هذا البحث، و الإسلام الأصیل هو هذا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۷

الآیات [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۴۱ الی ۴۳]

اشارة

وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِکَ ما عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ (۴۱) إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۴۳)

التّفسیر

الظلم و الإنتصار:

تعتبر هذه الآيات- في الحقيقة- تأكيدا و توضيحا و تكميلا للآيات السابقة بشأن الإنتصار و معاقبة الظالم و العفو في المكان المناسب، و الهدف من ذلك أن معاقبة الظالم و الانتقام منه من حق المظلوم، و لا يحق لأحد منعه عن حقه، و في نفس الوقت فإذا صادف أن سيطر المظلوم على الظالم و انتصر عليه، و عند ذلك صبر و لم ينتقم فإن ذلك يعتبر فضيلة كبرى.

فأوّلا تقول الآية: وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۵۱۵] فلا يحق لأحد أن يمنع هذا العمل، و لا يلوم ذلك الشخص أو يوبخه أو يعاقبه،

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۸

و لا يتوانى في نصر مثل هذا المظلوم، لأن الإنتصار و طلب العون من الحقوق الطبيعية لأي مظلوم، و نصر المظلومين مسئولية كلّ إنسان حر و متيقظ الضمير.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ

و إضافة إلى عقابهم الدنيوي أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ينتظرهم في الآخرة.

يقول بعض المفسّرين حول الاختلاف بين جملة يَظْلِمُونَ النَّاسَ و جملة يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ أن الجملة الأولى إشارة إلى موضوع (الظلم) و الثانية إلى (التكبر)[۵۱۶].

البعض الآخر اعتبر الأولى إشارة إلى (الظلم) و الثانية إشارة إلى (الوقوف بوجه الحكومة الإسلامية).

«بغي» تعني في الأصل الجد و المثابرة و المحاولة للحصول على شيء ما، و لكن كثيرا ما تطلق على المحاولات لغصب حقوق الآخرين، و التجاوز عن حدود و حقوق الخالق، لذا فإن للظلم مفهوما خاصا و للبغي مفهوما عاما يشمل أي تعد أو تجاوز للحقوق الإلهية.

عبارة (بغير الحق) تأكيد لهذا المعنى، و على هذا الأساس فإنّ الجملة الثانية من باب ذكر العام بعد ذكر الخاص.

أمّا آخر آية فتشير مرّة اخرى إلى الصبر و العفو، لكي تؤكّد أن الانتقام و العقاب و القصاص من الظالم لا يمنع المظلوم من العفو، حيث تقول: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[۵۱۷].

«العزم» في الأصل يعني (التصميم لإنجاز عمل معين)، و يطلق على الإرادة القوية، و قد تكون عبارة (عزم الأمور) إشارة إلى أن هذا العمل من الأعمال التي أمر اللّه بها و لا يمكن أن تنسخ، أو أنّه من الأعمال التي يجب أن يشد الإنسان

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۹

العزم لها، و أيا كان من المعنيين فهو يدل على أهمية هذا العمل.

و الملفت للنظر ذكر (الصبر) قبل (الغفران)، لأنّه مع عدم وجود الصبر لا يمكن أن يحصل العفو و الغفران، حيث يفقد الإنسان السيطرة على نفسه و يحاول الانتقام مهما كان.

و مرة اخرى نذكّر بهذه الحقيقة، و هي أن العفو و الغفران مطلوبان في حال القوة و الاقتدار، و أن يستفيد الطرف المقابل من ذلك بأفضل شكل أيضا، و قد تكون عبارة «من عزم الأمور» لتأكيد هذا المعنى أيضا، لأنّ التصميم بخصوص شيء معين يحدث عند ما يكون الإنسان قادر على إنجاز ذلك الشيء، على أية حال فإن العفو الذي يكون مفروضا من قبل الظالم، أو يشجعه في عمله و يجرئه على ذلك، غير مطلوب.

بعض الرّوايات فسّرت الآيات أعلاه بثورة الإمام المهدي (عج) و انتقامه و انتصاره على الظالمين و المفسدين في الأرض. و كما قلنا

عدّة مرات سابقا فإن مثل هذه التفاسير من قبيل بيان المصداق الواضح و لا تمنع من عمومية مفهوم الآية و شموليته ۵۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۰

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۴۴ الى ۴۶]

اشارة

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (۴۴) وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (۴۵) وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (۴۶)

التّفسير

هل من سبيل للرجعة؟

الآيات السابقة كانت تتحدث عن الظالمين، أمّا الآيات التى نبحثها فتشير إلى عاقبة هذه المجموعة و جوانب من عقابها.

فهى تعتبرهم من الضالين الذين لا يملكون أى ولى، فتقول: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۱

الملمّون بتعابير القرآن بخصوص الهداية و الضلالة، يعرفون بوضوح أنّه لا الهداية و لا الضلالة مفروضة و جبرية، إنّما هما نتيجتان مباشرتان لأعمال الناس.

فأحيانا يقوم الإنسان بعمل معين و بسببه يسلب الخالق منه التوفيق و يطمس على قلبه و يمنع عنه نور الهداية و يتركه سابحا فى الظلمات.

و هذا هو عين الإختيار و الحرية، فلو أن شخصا أصر على شرب الخمر و أصيب بأنواع الأمراض، فإنه هو الذى جلب هذا الوضع و هذه الأمراض إلى نفسه، فالخالق مسبب الأسباب و يعطى التأثيرات المختلفة للأشياء، و لهذا السبب تربط النتائج به أحيانا[۵۱۹].

على أية حال، فإن هذا أحد أكثر العقوبات ألما بالنسبة للظالمين، ثمّ تضيف الآية: وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ

فقد تحدث القرآن المجيد عدة مرات عن طلب الكافرين و الظالمين العودة، فأحيانا عند الموت مثل الآية (۹۹) و (۱۰۰) من سورة المؤمنون: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ

و أحيانا عند القيامة عند ما يقتربون من الجحيم، كما تقول الآية (۲۷) من سورة الأنعام: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

و لكن مهما كانت هذه الطلبات فإنها ستواجه بالرفض، لأن العودة غير ممكنة أبدا، و هذه سنة إلهية لا تقبل التغيير، فكما أن الإنسان لا يمكنه الرجوع من الكهولة إلى الشباب، أو من الشباب إلى الطفولة، أو من الطفولة إلى عالم الأجنة، كذلك يستحيل الرجوع إلى الوراء و العودة إلى الدنيا من عالم البرزخ أو الآخرة.

الآية الأخرى تذكر ثالث عقاب لهذه المجموعة حيث تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۲

وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ ۵۲۰].

فالقلق و الخوف الشدید یسیطران علی وجودهم، و الذلة و الاستسلام یطغیان علیهم، و انتهی کلّ شیء من التکبیر و محاربة و ظلم و إیذاء المظلومین، و ینظرون من طرف خفی إلی النّار.

هذه صورة لحالة شخص یخشی من شیء أشد خشیة و لا یرید أن ینظر إلیه بعینین مفتوحتین، و فی نفس الوقت لا یستطیع أن یتغافل عنه، لذا فهو مجبور علی النظر إلیه، لکن بطرف خفی.

بعض المفسّرین قالوا: إنّ جملة (طرف خفی) تعنی هنا النظر بعین نصف مفتوحة، لأنّهم لا یستطیعون فتح العین کاملة من شدة الخوف و الهول العظیم، أو أنّهم من شدة الانهیار و الإعیاء لا یستطیعون فتح العین بشکل کامل.

فعند ما تکون حالة الإنسان هکذا قبل أن یدخل النّار ... فما ذا سیجری علیه عند ما یطؤها و یهوی فی أعماقها؟! أمّا آخر عقاب ذکر هنا، فهو سماع اللوم و التوبیخ الألیم من المؤمنین، کما جاء فی آخر الآیة: وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

فهل هناک خسارة أعظم من أن یخسر الإنسان نفسه، ثمّ زوجه، و أبناءه و أقرباءه؟ و نصیبه نار الفراق و هو فی داخل العذاب الإلهی؟!

ثم تضیف: یا أهل المحشر: أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ

إنّه العذاب الذی لیس هناک أمل بانتهائه، و لا یتحدد بزمان معین. إنّه العذاب الذی یحرق أعماق الروح و ظاهر الجسد علی السواء.

و لیس من لمستبعد أن یکون القائل لهذا الکلام هم المؤمنون الحقیقیون، و هم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۳

الأنبیاء و الأولیاء و أتباعهم الخاصین، حیث أنّهم مطهرون من الذنب، و المظلومین الذین أوذوا کثیرا من قبل هؤلاء الظالمین، و من حقهم التحدث بهذا الکلام فی ذلک الیوم (و قد أشارت روایات أهل البیت علیهم السلام إلی هذا المعنی)[۵۲۱].

و من الضروری الإشارة إلی هذه الملاحظة، و هی أن (العذاب الخالد) لهؤلاء الظالمین، یدل علی أن المقصود هم الکافرون، کما ورد فی بعض الآیات القرآنیة:

وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ

الآیة التی بعدها تشهد علی هذه الحقیقة، حیث تقول: وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فهؤلاء قطعوا أواصر ارتباطهم بالعباد المخلصین و الأنبیاء و الأولیاء، لذلک لا یملکون ناصرا أو معینا فی ذلک الیوم، و القوی المادیة سینتهی مفعولها فی ذلک الیوم أیضا، و لهذا السبب سیواجهون العذاب الإلهی بمفردهم.

و لتأکید هذا المعنی تقول الآیة فی نهایتها: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ

و فی الآیات السابقة قرأنا: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ

فهناک تنفی الولی، و هنا تنفی السبیل، حیث أنّه و لأجل الوصول إلی الهدف، یجب أن یکون هناک طریق، و یجب أن یتوفّر الدلیل، إلّا أن هؤلاء الضالین محرومون من هذا و ذاک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۴

الآیات [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۴۷ الی ۵۰]

اشارة

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ

عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاّ الْبَلاغُ وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰)

التّفسير

الأولاد ... هبة الرحمن:

بما أنّ الآيات السابقة ذكرت جانبا من العقاب الأليم الموحش للكافرين و الظالمين، فإنّ الآيات أعلاه تحذر جميع الناس من هذا المصير المشؤوم، و تدعوهم إلى الاستجابة لدعوة الخالق و العودة إلى طريق الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۵

فأوّل آية تقول: اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۵۲۲].

و إذا كنتم تتصورون وجود ملجأ آخر سوى لطفه، و أحدا يحميكم غير رحمته، فإنّكم على خطأ، لأن: ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ.

عبارة يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ تشير إلى يوم القيامة، و ليس إلى يوم الموت.

كما أن عبارة (من اللّه) تشير إلى أن أحدا لا يستطيع أن يتخذ قرارا بعدم العودة قبال أمر الخالق جلّ و علا.

و على أية حال، فجميع الطرق التى يعتقد أنّها تنقذ الشخص من العذاب الإلهى تكونن مغلقة فى ذلك اليوم، و أحدها هو العودة إلى عالم الدنيا و التكفير عن الذنوب و الخطايا.

أمّا الآخر فهو وجود ملجإ يأمن الإنسان عند اللجوء إليه.

و أخيرا وجود من يقوم بالدفاع عن الإنسان.

فكل جملة من الجمل الثلاث- للآية أعلاه- تنفى واحدا من هذه الطرق.

و قد فسّر بعضهم جملة ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ بمعنى أنكم لا تستطيعون أن تنكروا ذنوبكم هناك، لأن الأدلة و الشهود كثيرون بحيث لا مجال للإنكار، إلّا أن المعنى الأوّل أفضل كما يبدو.

الآية التى بعدها تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تواسيه قائلة: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً فلا تحزن عليهم لأنّك لست مسئولا عن حفظهم من الانحراف.

إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ سواء قبلوا بذلك أم لم يقبلوا.

يجب عليك أن تقوم بإبلاغ الرسالة الإلهية بأفضل وجه، و تتم الحجّة عليهم، أمّا القلوب المهيأة فسوف تقبل بذلك بالرغم من أن كثيرا من الجاهلين سوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۶

يعرضون عنها، و لكنك لست مسئولا عنهم.

و قد ورد ما يشبه هذا المعنى فى بداية هذه السورة فى قوله تعالى: وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۵۲۳].

ثمّ ترسم صورة لحال هذه الجماعة غير المؤمنة و المعرضة عن الحق فتقول:

وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها و يغفل عن ذكر الخالق: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ.

فلا النعم الإلهيـة و شـكر المنعم توقظ هـذا الإنسان و تجرّه نحو الشـكر و المعرفـة و الطاعـة، و لا العقوبات التى تصـيبه بسـبب الذنوب توقظه من نوم الغفلة، و لا تؤثر فيه دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

فعوامل الهدايـة من حيث «التشـريع» هى دعوة رسل الخالق، و من حيث «التكوين» قـد تكون النعم و قـد تكون المصائب، إلّا أن هؤلاء الجهلـة ذوى القلوب الميتـة لاـ تؤثر فيهم أىّ من هـذه العوامل، و هـذا بسـببهم أنفسـهم و ليس بسـببك، لأنّك قمت بمسؤوليتك فى الإبلاغ.

و قـد تكون عبارة «إذا أذقنا» فى الآيـة أعلاه (و هى هنا بخصوص رحمـة الخالق، و فى آيات قرآنيـة اخرى بخصوص العذاب الإلهى) إشارة إلى أن النعم و المصائب فى هذه الدنيا تعتبر لا شـىء بالنسبة إلى نعم و مصائب الآخرة. أو قد تكون بمعنى أن هؤلاء الأشخاص يصابون بالغرور و الطغيان بمجرّد قليل من النعمة، و اليأس و الكفر بقليل من المصائب.

و من الضرورى الإشارة إلى هذه الملاحظة، و هى أن الخالق يوكل النعم إلى نفسه، لأن رحمته تقتضى ذلك، بينما يوكل المصائب و الابتلاءات إليهم، لأنّها نتيجة أعمالهم.

و استخدام كلمة (الإنسان) فى مثل هذه الآيات تشير إلى طبيعة (الإنسان غير

المهذّب) حيث أنّه ذو تفكير قصير و نفسية ضعيفة، و تكرار ذلك- فى الآية أعلاه- يؤكّد على هذا المعنى.

ثمّ لبيان حقيقية أن أى نعمة و رحمة فى هذا العالم مصدرها الخالق، و لا يملك الأفراد شـيئا من عندهم، أشارت الآية إلى قضـية عامة و مصداق واضح لهذه الحقيقة، حيث تقول: لِلَّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ.

و لهذا السبب فإنّ الكل يأكل من مائدة نعمه، و يحتاج إلى لطفه و رحمته، فليس منطقيا الغرور عند النعمة، و لا اليأس عن المصيبة.

و «نموذج» واضـح لهـذه الحقيقة و أن كلّ ما موجود هو منه، و الأفراد لا يملكون شـيئا من عندهم هو أنّه: يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً.

و بهـذا الترتيب فإن الناس يقسّـمون إلى أربع مجاميع: من عنده الأولاد الذكور و يريد البنات، و من عنده البنات و يريد الذكور، و من عنده الذكور و الإناث، و المجموعة التى تفتقد الأبناء و يأملون و يرغبون فيهم.

و العجيب أن أى شـخص لا يستطيع الانتخاب فى هذا المجال سواء فى الماضى أو فى الوقت الحاضر، بالرغم من تقدم و تطور العلوم، و رغم المحاولات العديـدة فـإن أحـدا لم يسـتطع أن يهب الأبناء للعقيم الحقيقى، أو يعين نوع المولود وفقا لرغبـة الإنسان بالرغم من دور بعض الأطعمـة أو الأدويـة فى زيادة احتمال ولادة الذكر أو الأنثى، إلّا أن هذا يبقى مجرّد احتمال و لا توجد أية نتيجة حتمية لهذا الأمر.

و هذا نموذج واضح لعجز الإنسان، و دليل على المالكية و الحاكمية و الخالقية للبارئ جلّ و علا، و هل هناك مثال أوضح من هذا؟

و الطريف فى الأمر أن هذه الآيات قدّمت الإناث على الذكور، لكى توضح

الأهميـة التى يعطيها الإسـلام لمنزلة المرأة، و من جانب ثان تقول للذين لهم تصورات خاطئة عن ولادة البنت أو الأنثى- و يكرهونها- أن الخالق يعطى الشىء الذى يريده هو و ليس ما تريدونه أنتم، و هذا دليل على أنّه هو الذى ينتخب.

إن اسـتخدام عبـارة (يهب) تعتبر دليلاـ واضـحا على أن الإناث و الـذكور من هـدايا الخالق و هباته، و ليس صـحيحا للمسـلم الحقيقى التفريق بين الإثنين.

كمـا أن اسـتخدام عبـارة (يزوجهم) لاـ تعنى التزويـج هنـا، بـل تعنى جمع الهبتين (الإناث و الـذكور) لبعض الناس و بعبارة اخرى فإن مصـطلح (التزويج) يأتى أحيانا بمعنى المجمع بين الأشياء المختلفة أو الأنواع المتعددة، لأن (زوج) تعنى فى الأصل شيئين أو شخصين

متقارنين.

و اعتبر بعضهم هذه الآية بمعنى ولادة الذكور و الإناث على الترتيب، و البعض الآخر اعتبرها بمعنى ولادة التوائم، يعنى الذكر و الأنثى.

و لكن العبارة أعلاه لا تدل على أى من التفاسير المذكورة.

إضافة إلى ذلك فإنها لا تتناسب مع ظاهر الآية، لأن الآية تريد الكلام عن مجموعة ثالثة رزقها اللّه البنات و البنين.

و على أية حال، فإن المشيئة الإلهية هى التى تتحكم فى كلّ شىء و ليس فى قضية ولادة الأبناء فحسب، فهو القادر و العليم و الحكيم، حيث يقترن علمه بقدرته، لذا فإنّ الآية تقول فى نهايتها: إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

و من الضرورى أن نشير إلى أن كلمة (عقيم) المأخوذة من كلمة (عقم)- على وزن (بخل) و كذلك على وزن (فهم)- و تعنى فى الأصل الجفاف و التصلب المانع من قبول التأثير، و النساء العقيمات تطلق على اللواتى تكون أرحامهن غير مستعدة لتقبل النطفة و نمو الطفل، كما تسمى بعض الرياح بالرياح العقيمة لعدم قدرتها على ربط الغيوم الممطرة، و «اليوم العقيم» يطلق على اليوم الذى ليس فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۹

سرور و فرح، كما يسمى يوم القيامة باليوم العقيم بسبب عدم وجود يوم بعد ذلك اليوم يمكن فيه التعويض عن الماضى.

و أخيرا فإن الغذاء (المعقم) يطلق على الغذاء الذى تم القضاء على جميع ميكروباته، بحيث لا يمكنها النمو فى ذلك المحيط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۰

الآية [سورة الشورى (۴۲): آية ۵۱]

اشارة

وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱)

سبب النّزول

فيما يلى خلاصة لما ذكره بعض المفسّرين من سبب النّزول فى هذه الآية:

جاء عدد من اليهود إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و قالوا له: لماذا لا تتكلم مع الخالق؟ و لماذا لا تنظر إليه؟ فلو كنت نبيّا حقّا فافعل مثل موسى حيث نظر إلى الخالق و تحدث معه، و سوف لا نؤمن بك أبدا حتى تفعل ما نطلبه منك، عندها أجابهم النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:

إنّ موسى لم ير الخالق أبدا، هنا نزلت الآية أعلاه (حيث وضحت كيفية الارتباط بين الأنبياء و الخالق)[۵۲۴].

التّفسير

طرق ارتباط الأنبياء بالخالق:

هذه السورة، كما قلنا فى بدايتها، تهتم بشكل خاص بقضية الوحى و النبوّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۱

فهی تبدأ بالوحی و تنتهی به، لأن الآیات الأخیرة تتحدث عن هذا الموضوع (أی الوحی).

و بما أن الآیات السابقة کانت تتحدث عن النعم الإلهیة، لذا فإنّ هذه الآیات تتحدث عن أهم نعمة إلهیة و أکثرها فائدة لعالم البشریة، ألا و هی قضیة الوحی و الارتباط بین الأنبیاء و الخالق.

فی البدایة تقول الآیة: وَ ما کانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْیاً لأنّ الخالق منزه عن الجسم و الجسمانیة.

أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ کما کان یفعل موسی حیث أنّه کان یتحدث فی جبل الطور، و کان یسمع الجواب عن طریق الأمواج الصوتیة التی کان یحدثها الخالق فی الفضاء، دون أن یری أحدا، لأنّه لا یمکن مشاهدة الخالق بالعین المجرّدة.

أَوْ یُرْسِلَ رَسُولًا کما کان یقوم به جبرائیل الأمین و ینزل علی الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فَیُوحِیَ بِإِذْنِهِ ما یَشاءُ.

نعم، فلا یوجد طریق آخر سوی هذه الطرق الثلاثة لتحدث الخالق مع عبادة ل إِنَّهُ عَلِیٌّ حَکِیمٌ

فهو أعلی و أجل من أن یری أو یتکلم عن طریق اللسان، و کل أفعاله حکیمة، و یتمّ ارتباطه بالأنبیاء وفق برنامج.

هـذه الآیـة تعتبر- فی الحقیقـة- ردا علی الـذین یتصورون- بجهالة- أن الوحی یعنی مشاهدة الأنبیاء للخالق و هم یتکلمون معه، حیث أن الآیة تعکس بشکل دقیق و مختصر حقیقة الوحی و الروح.

و من مجمل الآیة نستفید أن الارتباط بین الأنبیاء و الخالق یتمّ عبر ثلاثة طرق هی:

۱- الإیحاء، حیث کان کذلک بالنسبة للعدید من الأنبیاء مثل نوح، حیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۲

تقول الآیة: فَأَوْحَیْنا إِلَیْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنا وَ وَحْینا[۵۲۵].

۲- مِنْ وَراءِ حِجابٍ کما کان الخالق یتکلم مع موسی فی جبل طور، وَ کَلَّمَ اللَّهُ مُوسی تَکْلِیماً[۵۲۶].

و قد اعتبر البعض أیضا أن مِنْ وَراءِ حِجابٍ تشمل الرؤیا الصادقة و الحقیقیة.

۳- إرسال الرّسول، کما فی الوحی الی الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، فالآیة تقول:

مَنْ کانَ عَدُوًّا لِجِبْرِیلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلی قَلْبِکَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۵۲۷].

و لم یقتصر الوحی علی هذا الطریق بالنسبة للرسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بل کان یتمّ بطرق اخری أیضا.

و من الضـروری أن نشـیر إلی أن الوحی قـد یتمّ أحیانـا فی الیقظـة، کمـا أشـیر إلی ذلـک أعلاـه، و أحیانـا فی المنام عن طریق الرؤیا الصادقـة، کمـا جـاء بشأن إبراهیم و أمره بذبـح ابنه إسـماعیل علیهما السّـلام [بالرغم من اعتبار بعضـهم أن ذلک مصـداق ل مِنْ وَراءِ حِجابٍ

و بالرغم من أن الطرق الثلاثة التی ذکرتها الآیة تعتبر الطرق الرئیسـیة للوحی، إلّا أن بعضا من هذه الطرق لها فروع بحد ذاتها، فالبعض یعتقد أن الملائکة تقوم بإنزال الوحی عبر أربعة طرق:

۱- یقوم الملک بإلقاء الوحی إلی روح النّبی و قلبه دون أن یتجسد أمامه أیّ النفث فی الروع کما نقرأ ذلک

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم حیث تقول: «إن روح القدس نفث فی روعی أنّه لن تموت نفس حتی تستکمل رزقها فاتقوا اللّه و اجملوا فی الطلب».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۳

۲- یتقمص الملک أحیانا شکل الإنسان و یتحدث مع النّبی (حیث تذکر الأحادیث أن جبرئیل ظهر بصورة دحیة الکلبی)[۵۲۸].

۳- و أحیانا یکون علی شـکل رنین الجرس الذی یدوی صوته فی الآذان، و کان هذا أصـعب أنواع الوحی بالنسـبة للرسول حیث کان یتصبب عرقا حتی فی الأیّام الباردة، و إذا کان راکبا علی دابة فإنّها کانت تقف و تجثو علی الأرض.

۴- کما کان یظهر جبرئیل أحیانا بصورته الأصـلیة التی خلقه اللّه علیها، و هذا ما حدث مرتین فقط طوال حیاة رسول صـلّی اللّه علیه و

اله و سلّم [کما سیأتی تفصیل ذلک فی سورة النجم- الآیة ۱۲][۵۲۹].

بحثان

الأوّل: الوحی فی اللغة و القرآن و السنة

یری الراغب فی مفرداته إن أصل الوحی یعنی الإشارة السریعة سواء بالکلام الخافت، أو الصوت الخالی من التراکیب الکلامیة، أو الإشارة بالأعضاء (بالعین و الید و الرأس) أو بالکتابة.

و من خلال ذلک نستفید أن الوحی یشتمل علی السرعة من جانب و الإشارة من جانب آخر، لذا فإن هذه الکلمة تستخدم للارتباط الخاص و السریع للأنبیاء مع عالم الغیب، و ذات الخالق المقدسة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۴

و هناک معان مختلفة (للوحی) فی القرآن المجید و فی لسان الأخبار، فأحیانا تکون بخصوص الأنبیاء، و أحیانا للناس الآخرین، و أحیانا تطلق للارتباط الخاص بین الناس، و أحیانا الارتباط الخاص بین الشیاطین، و أحیانا بخصوص الحیوانات.

و أفضل کلام فی هذا المجال هو ما ورد عن علی علیه السّلام فی رده لشخص سأل عن الوحی، حیث قسمه الإمام إلی سبعة أقسام هی:

۱- وحی الرسالة و النبوّة: مثل إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِیسی وَ أَیُّوبَ وَ یُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَیْمانَ وَ آتَیْنا داوُدَ زَبُوراً[۵۳۰].

۲- الوحی بمعنی الإلهام: مثل وَ أَوْحی رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ ۵۳۱].

۳- الوحی بمعنی الإشارة: مثل فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحی إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیًّا[۵۳۲].

۴- الوحی بمعنی التقدیر: مثل وَ أَوْحی فِی کُلِّ سَماءٍ أَمْرَها[۵۳۳].

۵- الوحی بمعنی الأمر: مثل وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی ۵۳۴] ۶- الوحی بمعنی الأکاذیب: مثل وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً[۵۳۵].

۷- الوحی بمعنی الإخبار: مثل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۵

وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَیْنا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْراتِ ۵۳۶].

و یمکن أن تکون لبعض هذه الأقسام السبعة فروعا اخری تزید عند استعمالها من استخدامات الوحی فی الکتاب و السنة، لذا فإن «التفلیسی» ذهب فی کتابه (وجوه القرآن) الی وجود عشر معانی أو أوجه للوحی، و بعضهم ذکر عددا أکثر من هذا.

و من خلال هذه الاستخدامات المختلفة للوحی و مشتقاته نستنتج أن الوحی الإلهی علی نوعین: (وحی تشریعی) و (وحی تکوینی).

فالوحی التشریعی هو ما کان ینزل علی الأنبیاء، و یمثل العلاقة الخاصة بینهم و بین الخالق، حیث کانوا یستلمون الأوامر الإلهیة و الحقائق عن هذا الطریق.

أمّا الوحی التکوینی فهو فی الحقیقة وجود الغرائز و القابلیات و الشروط و القوانین التکوینیة الخاصة التی أوجدها الخالق فی أعماق جمیع الکائنات فی هذا العالم.

الثّانی: حقیقة (الوحی) المجهولة

اشارة

لقـد قیل الکثیر حول حقیقة الوحی، و لکن بما أن هذا الارتباط المجهول خارج حدود إدراکاتنا، لذا فإن هذه الکلمات لا تسـتطیع أن تعطی صورة الواضـحة للموضوع، و أحیانا تؤدی الی الانحراف عن جادة الصواب، و قـد ذکرنا آنفا ما یمکن قوله فی هـذا المجال، و فی الحقیقة فإن ما یمکن قوله بشکل جمیل و مختصر، و لم تصل بحوث المفکرین و العلماء لأکثر من ذلک، و فی نفس الوقت لا بدّ هنا من ذکر بعض التفاسیر التی طرحها الفلاسفة القدماء و الجدد حول الوحی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۶

۱- تفسیر بعض الفلاسفة القدماء

اشارة

یری هؤلاـء- وفقا لمقـدمات مفصلـة- أن الوحی هو عبارة عن الاتصال الخارق (لنفس الرّسول) مع (العقل الفعّال) المسـیطر بظله علی عالم (الحس المشترک) و (الخیال).

و توضیح ذلک:

أنّ القـدماء کانوا یعتقـدون أن الروح الإنسانیة لها ثلاث قوی: قوّة الحس المشترک و بواسـطتها یدرک الإنسان صور المحسوسات، و (قوّة الخیال) و بواسطتها یدرک بعض الصور الذهنیة، و (القوة العقلیة) التی یدرک بواسطتها الصور الکلیة.

و مـن جـانب آخر، فهم یعتقـدون بنظریـة الأفلاـک التسـعة لبطلیمـوس، و کـانوا یعتقـدون بوجـود (النفس المجرّدة) لهـا مثـل (الروح لأجسادنا) و یضـیفون: إن هـذه النفوس الفلکیـة تسـتلهم من کائنات مجرّدة تسـمی (العقول)، و علی هـذا الأساس فهم یقولون بوجود (تسعة عقول) تختص (بالأفلاک التسعة).

و من جانب ثالث کانوا یعتقدون أن النفوس الإنسانیة و أرواحها یجب أن تستلهم من الکائن المجرد الذی یسمی ب (العقل الفعال) و ذلک لأجل إظهار القابلیات و إدراک الحقائق، حیث کان یسـمی ب (العقل العاشـر)، أمّا سـبب تسـمیته بالفعال فلأنّه أساس حـدوث القابلیات للعقول الجزئیة.

و من جانب رابع کانوا یعتقـدون أنّه مهما قویت الروح الإنسانیة فإنّه سـیزداد ارتباطها و اتصالها بالعقل الفعال الذی هو خزانة و مصدر المعلومات، لذا فإنّ الروح القویة و الکاملة تسـتطیع أن تکتسب أوسع المعلومات من (العقل الفعال) بأمر من الخالق، و ذلک فی أقصر مدة.

و أیضا فإذا قویت (قوّة الخیال) فانّها تستطیع أن تنقل هذه المفاهیم إلی الحس بشکل أفضل، و عند ما یقوی الحس المشترک الإنسان أن یدرک القضایا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۷

المحسوسة الخارجیة بشکل أفضل أیضا.

و من خلال هـذه المقـدمات سـیتنتجون أن روح النّبی لها ارتباط و اتصال کبیر جـدا بالعقل الفعال، لأنّها قویـة بشـکل خارق، و لهـذا السبب تستطیع أن تأخذ المعلومات بشکل عام من العقل الفعال فی أکثر الأوقات.

و بما أن القوة الخیالیـة للنبی قویة جدا أیضا، و فی نفس الوقت تتبع القوة العقلیة، لذا فإنها (أی القوة الخیالیة) تسـتطیع أن تعطی صورا محسوسـة مناسبة للصور الکلیـة المأخوذة من العقل الفعال، و، أن تری نفسـها ضـمن أطر حسـیة فی أفق الـذهن، فمثلا لو کانت تلک الحقـائق العامـة من بـاب المعـانی و الأحکام فیسـمعها من لسان شـخص بمنتهی الکمال، و ذلک علی شـکل ألفاظ موزونـة بمنتهی الفصاحة و البلاغة.

و لأن قوته الخیالیة مسیطرة بشـکل کامل علی الحس المشترک، لذا فإنّها تسـتطیع أن تعطی طبیعة حسیة لهذه الصور، و یستطیع النّبی أن یری ذلک الشخص بعینه و یسمع ألفاظه بإذنه.

نقد و تحلیل

هـذه النظریـة تعتمـد علی مقـدمات یعتبر القسم الأـعظم منهـا مرفوضـا فی الوقت الحاضـر، فمثلاـ أفلاک بطلیموس التسع و النفوس و العقول المرتبطة بها تعتبر جزءا من الأساطیر، لعدم وجود أی دلیل علی إثباتها، بل و توجد أدلة ضدها.

و من جـانب آخر فـإن هـذه الفریضـة لاـ تتلاءم مع الآیات القرآنیـة بخصوص الوحی، لأن الآیات القرآنیـة تصـرّح بأن الوحی نوع من الارتباط مع الخالق الـذی قـد یکون عن طریق الإلهام أحیانا، و أحیانا اخری عن طریق الملک أو سـماع الأمواج الصوتیة أمّا القول بأنّه ولید القوة الخیالیة و الحس المشترک و أمثال ذلک فهو فی غایة الضعف و عدم الانسجام مع الآیات القرآنیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۸

و من الإشکالات الأخری علی هذا الکلام هو تصنیفه للنبی فی قائمة الفلاسفة و النوابغ بعقل و روح أقوی، فی حین أنّنا نعلم أن طریق الوحی مغایر تماما لطریق الإدراکات العقلیة.

فهذه المجموعة من الفلاسفة أساءت لأساس الوحی و النبوة دون قصد و لأنّهم لم یلمّوا بالحقیقة سلکوا طریق الخیال و الأسطورة.

و هناک تفصیلات أکثر عن هذا الموضوع تأتی ضمن البحوث القادمة.

۲- تفسیر بعض الفلاسفة الجدد

اشارة

هذه المجموعة من الفلاسـفة اعتبرت الوحی باختصار نوعا من (الشـعور الباطن) و جاء فی (دائرة معارف القرن العشـرین) حول الوحی ما یلی:

(کـان الغربیون إلی القرن السـادس عشـر کجمیع الأـمم المتدینـة یقولون بـالوحی لأـن کتبهم مشـحونة بأخبـار الأنبیـاء، فلما جاء العلم الجدیـد بشـکوکه و مادیـاته ذهبت الفلسـفة الغربیـة إلی أن مسألـة الوحی من بقایـا الخرافات القدیمـة و تغالت حتی أنکرت الخالق و الروح معـا و عللـت مـا ورد عن الـوحی فی الکتب القدیمـة بـأنّه إمّـا اختلاـف من المتنبأة أنفسـهم لجـذب النـاس إلیهم و تسـخیرهم لمشـیئتهم، و إمّا إلی هذیان مرض یعتری بعض العصبیین فیخیل إلیهم أنّهم یرون أشـباحا تکلمهم و هم لا یرون فی الواقع شـیئا. رواج هذا التعلیل فی العالم الغربی حتی صار مذهب العلم الرسـمی، فلما ظهرت آیة الأرواح فی امریکا سـنة ۱۸۴۶ و سرت منها إلی أوروبا کلها و أثبت للناس بدلیل محسوس وجود عالم روحانی آهل بالعقول الکبیرة و الأفکار الثاقبة تغیر وجه النظر فی المسائل الروحانیة، و حییت مسألـة الوحی بعـد أن کـانت فی عـداد الأضالیـل القدیمـة، و أعاد العلماء النحت فیها علی قاعـدة العلم التجریبی المقرر لا علی أسلوب التقلید الدینی و لا من طریق الغرب فی مهامة الخیالات، فتأدوا إلی نتائج و إن کانت غیر ما قرره علماء الدین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۹

الإسلامی إلا أنّها خطوة کبیرة فی سبیل إثبات أمر عظیم کان قد أحیل إلی عالم الأمور الخرافیة)[۵۳۷].

و الكلام فى هذا المجال كثير، إلّا أن خلاصته أنّهم اعتبروا الوحى تجليا للوجدان الخفى و إظهارا لعالم اللاشعور فى الإنسان الذى هو أقوى بكثير من عالم الشعور فيه و بما أنّ الأنبياء كانوا رجالا متميّزين فقد كانوا يتمتعون بوجدان قوى جدّا و ذى ترشحات مهمّة.

نقد و تحليل

واضح أن ما تقوله هذه المجموعة هو افتراض بحت، حيث لم يذكروا أىّ دليل على ذلك، و فى الحقيقة فقد اعتبروا الأنبياء أفرادا لهم نبوغ فكرى و شخصية عظيمة، دون أن يقبلوا ارتباطهم بمصدر عالم الوجود (الخالق العظيم) و اكتسابهم للعلوم عن طريقه و من خارج كيانهم.

إنّ مصدر خطئهم هو أنّهم أرادوا قياس الوحى وفقا لمعايير العلوم التجريبية، و نفى أى شىء خارج دائرتها، و جميع الموجودات فى هذا العالم يجب أن تدرك بهذا المعيار، و إلّا فهو غير موجود.

هذا الأسلوب من التفكير ترك آثاره السيئة، ليس فى موضوع الوحى فحسب، بل فى العديد من البحوث الفلسفية و العقائدية الأخرى.

لذا فإن هذا التفكير مرفوض من أساسه، لأنّهم لم يذكروا أىّ دليل على تقييد جميع الكائنات فى العالم بالكائنات المادية و ما ينتج عنها.

۳- النبوغ الفكرى

البعض الآخر تجاوز هذه الأقوال و أعلن بشكل رسمى أن الوحى نتيجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۰

للنبوغ الفكرى للأنبياء، و يقول: إنّ الأنبياء كانوا أفرادا ذوى فطرة طاهرة و نبوغ خارق، حيث كانوا يدركون مصالح المجتمع الإنسانى، و بواسطته يضعون له المعارف و القوانين.

و هذا الكلام فى الواقع ينكر بصراحة نبوّة الأنبياء، و يكذب أقوالهم، و يتهمهم بأنواع الأكاذيب (العياذ باللّه).

و بعبارة أوضح فإنّ أيّا ممّا ذكرناه لا يعتبر تفسيرا للوحى، و إنّما هى افتراضات مطروحة فى حدود الأفكار، و لأنّهم أصروا على عدم الاعتراف بوجود قضايا اخرى خارج إطار معلوماتهم، لذا فإنّهم واجهوا الطريق المسدود.

الكلام الحق فى الوحى:

لا يمكننا الاحاطة- بلا شك- بحقيقة الوحى و ارتباطاته، لأنّه نوع من الإدراك خارج عن حدود إدراكنا، و هو ارتباط خارج عن حدود ارتباطاتنا المعروفة. فعالم الوحى بالنسبة لنا عالم مجهول و فوق إدراكاتنا، فكيف يستطيع إنسان ترابى أن يرتبط مع مصدر عالم الوجود؟! و كيف يرتبط الخالق الأزلى الأبدى مع مخلوق محدود و ممكن الوجود! و كيف يتيقن النّبى عند نزول الوحى أن هذا الارتباط معه؟

هذه أسئلة يصعب الجواب عليها بالنسبة لنا، و لا داعى للإصرار على فهمها.

أميا الموضوع الذى يعتبر معقولا بالنسبة لنا و يمكن قبوله فهو وجود- أو إمكانية وجود- هذا الارتباط المجهول.

فنحن نقول: لا يوجد أىّ دليل عقلى ينفى إمكانية مثل هذا الأمر، بل على العكس من ذلك حيث نرى ارتباطات مجهولة فى عالمنا نعجز عن تفسيرها، و هذه الارتباطات تؤكد وجود مرئيات و مدركات اخرى خارج حدود حواسنا و ارتباطاتنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۱

و لا بأس من ذكر مثال لتوضيح هذا الموضوع ...

لنفرض أنّنا کنا فی مدینة کلّ أهلها من العمیان (عمیان منذ الولادة) و نحن الوحیدون نظر بعینین، فکل أهل المدینة لهم أربعة حواس (علی فرض أن الحواس الظاهریة للإنسان خمسة) و نحن الوحیدون نملک خمسة حواس. عندها سنشاهد أحداثا کثیرة فی هذه المدینة، و عند ما نخبر أهل هذه المدینة سیتعجبون جمیعهم من هذه الحاسة الخامسة التی تستطیع أن تدرک هذه الحوادث المتعددة، و مهما حاولنا شرح حاسة النظر لهم و فوائدها و آثارها فإنّهم لا یستطیعون فهم ذلک. فمن جانب لا یستطیعون نکران ذلک لإدراکهم آثارها، و من جانب آخر لا یقدرون علی درک حقیقة حاسة النظر، لأنّهم غیر قادرین علی النظر طیلة حیاتهم و لو للحظة واحدة.

و لا نرید القول أن الوحی هو (الحاسة السادسة)، بل هو نوع من الارتباط و الإدراک لعالم الغیب و الذات الإلهیة المقدسة، و لأننا نفقد ذلک لا نستطیع أن ندرک کنهه بالرغم من إیماننا بوجود الوحی لوجود آثاره.

إنّنا نری رجالا- عظماء یدعون الناس الی أمور هی فوق مستوی أفکار البشر، و یدعوهم إلی الدین الإلهی، و عندهم من المعاجز الخارقة ما یفوق طاقة الإنسان، حیث توضح هذه المعاجز ارتباطهم بعالم الغیب، فالآثار واضحة إلّا أن الحقیقة مخفیة.

هل توصلنا- نحن إلی معرفة جمیع أسرار هذا العالم، کی ننفی الوحی لصعوبة إدراکه بالنسبة لنا؟! و حتی فی عالم الحیوانات، فهناک ظواهر مجهولة نعجز عن تفسیرها، فهل توضحت لنا الحیاة المجهولة لبعض الطیور المهاجرة التی قد تقطع ثمانیة عشر ألف کیلومتر من القطب الشمالی و حتی الجنوبی أو العکس؟ فکیف تعرف هذه الطیور الطریق بدقة مع أنّها قد تسافر أحیانا فی النهار و أحیانا اخری فی اللیالی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۲

المظلمة، فی حین أنّنا لا نستطیع أحیانا أن نسیر مقدارا یسیرا من طریقها ما لم یکن لدینا أجهزة و وسائل معینة توضح لنا لمسیر؟

و هناک بعض الأسماک التی تعیش فی أعماق البحار و المحیطات، و عند ما ترید أن تضع بیوضها تعود إلی مسقط رأسها الذی یبعد أحیانا آلاف الکیلومترات، فکیف تستطیع هذه الأسماک أن تهتدی إلی مسقط رأسها بهذه السهولة؟! و هناک العدید من هذه الأمثلة المجهولة فی حیاتنا تمنعنا انکار و نفی کل شیء، و تذکرنا بوصیة الفیلسوف «ابن سینا» الذی یقول: «کل ما قرع سمعک من الغرائب فضعه فی بقعة الإمکان ما لم یزدک عنه قاطع البرهان.» و الآن لنر ادلّة المادیین فی إنکار الوحی.

منطق منکری الوحی:

یذکر بعض المادیین لدی طرح مسألة الوحی بأن الوحی خلاف العلم! و إذا سألناهم کیف ذلک؟ یقولون بلهجة المغرورة و الواثق من نفسه: إنّه یکفی لانکار شیء أن العلوم الطبیعیة لم تثبته. و نحن لا- نقبل إلّا المواضیع التی أثبتتها العلوم التجریبیة وفق معاییرها الخاصة.

و إضافة لذلک فنحن لم نواجه فی تحقیقاتنا العلمیة حول جسم الإنسان و روحه، شیئا مجهولا یستطیع أن یربطنا بعالم ما وراء الطبیعة. کیف یمکننا أن نصدق بأن الأنبیاء، الذین هم بشر مثلنا، لهم إحساس غیر إحساسنا و إدراک فوق إدراکنا؟

الإیراد الدائمی و الرد الدائمی:

مثل هذا التعامل للمادیین مع الوحی لا یرتبط بهذا الخصوص فحسب،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۳

فهؤلاء لهم مثل هذا التحلیل حیال جمیع القضایا التی تختص بما وراء الطبیعة، و لأجل التوضیح نقول لهم دائما: لا تنسوا أن حدود العلم هی عالم المادة، و الأجهزة و الوسائل المستخدمة فی البحوث العلمیة- کالمختبرات و التلسکوبات و المیکروسکوبات و قاعات التشریح- کلها محدود بحدود هذا العالم، فهذه العلوم و أجهزتها لا تستطیع أن تتحدث أبدا عما هو موجود خارج حدود عالم المادة،

لا بالنفی و لا بالإثبات، و الدلیل علی ذلک واضح، لأن هذه الأجهزة و الوسائل لها قدرة محدودة و محیط خاص بها.

بل إنّ أجهزة كلّ واحد من العلوم الطبیعیة لا- یستطیع أن یكون فاعلا- بالنسبة للعلم الآخر، فمثلا- نحن لا- نستطیع أن ننكر وجود میكروب السل إذا لم نشاهده بواسطة التلسكوب العظیم المستخدم فی النجوم، أو ننفی وجود كوكب البلوتون لأنّنا لم نشاهده بواسطة المیكروسكوب أو المجهور.

فالوسائل تتناسب مع نوع العلم دائما، أما الوسائل المستخدمة لمعرفة ما وراء الطبیعة، فهی لیست سوی الاستدلالات العقلیة القویة التی تفتح لنا الآفاق نحو ذلک العالم الكبیر.

فالذین یخرجون العلم عن محیطه و حدوده لیسوا علماء و لا فلاسفة، إنّما یدعون ذلک، و فی نفس الوقت هم خاطئون و ضالون.

المهم إنّنا نری أشخاصا عظاما جاؤوا و ذكروا لنا أمورا هی خارج حدود معرفة البشر، و هذا یؤكّد ارتباطهم بما وراء عالم المادة. أمّا كیف یكون هذا الارتباط المجهول؟ فهذا ما لم یتضح لنا، إنّما المهم هو أنّنا نعلم بوجود مثل هذا الارتباط.

بعض الأحادیث بخصوص قضیة الوحی:

هناک روایات عدیدة وردت فی المصادر الإسلامیة بخصوص الوحی، حیث

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۴

توضح جوانب من هذا الارتباط المجهول للأنبیاء بمصدر الوحی:

۱- یمكن الاستفادة من بعض الرّوایات أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم كان فی حالة عادیة عند نزول الوحی علیه عن طریق الملک، إلّا أنّه كان یشعر بحالة خاصة عند الارتباط المباشر- بدون واسطة- و أحیانا یشعر بالغشیة، كما

ورد فی كتاب التوحید للشیخ الصدوق عن الإمام الصادق علیه السّلام عند ما سألوه عن الغشیة التی كانت تصیب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إذا نزل علیه الوحی قال: «ذلک إذا لم یكن بینه و بین اللّه أحد، ذاک إذا تجلّی اللّه له ۵۳۸]».

۲- كان جبرئیل ینزل علی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بشكل مؤدب و باحترام كامل، كما

ورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث یقول: «كان جبرئیل إذا أتی النّبی قعد بین یدیه قعدة العبید و كان لا یدخل حتی یستأذنه»[۵۳۹].

۳- یمكن الاستفادة من روایات اخری أن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم كان یشخص جبرئیل بشكل جید، و ذلک بتوفیق من اللّه (و الشهود الباطنی) كما جاء

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث یقول: «ما علم رسول اللّه أن جبرئیل من قبل اللّه إلّا بالتوفیق»[۵۴۰].

۴- هناک تفسیر لقضیة غشیة النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم عند نزوله الوحی ورد فی حدیث منقول عن ابن عباس حیث یقول: كان النّبی إذا نزل علیه الوحی وجد منه ألما شدیدا و یتصدع رأسه، و یجد ثقلا (و ذلک) قوله تعالی: إِنَّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلًا ثَقِیلًا و سمعت أنّه نزل جبرئیل علی رسول اللّه ستین ألف مرّة[۵۴۱].

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۵

الآیتان [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۵۲ الی ۵۳]

اشارة

وَ كَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِی مَا الْكِتابُ وَ لا الْإِیمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّکَ

لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۲) صِراطِ اللَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ أَلا إِلَی اللَّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ (۵۳)

التّفسیر

القرآن روح من الخالق:

بعـد البحث العـام الـذی ورد فی الآیـة السابقـة بخصوص الوحی، تتحـدث الآیـات التی نبحثهـا عن نزول الوحی علی شـخص الرّسول الأكرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم حیث تقول: وَ كَذلِكَ أَوْحَیْنا إِلَیْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا.

قد تكون عبارة (كذلك) إشارة إلی الأنواع ثلاثة للوحی الواردة فی الآیة السابقة، و التی تحققت جمیعها بالنسـبة للنّبی صـلّی اللّه علیه و اله و سلّم، فأحیانـا كـان یرتبط بـذات الخالق المنزهـة و المطهرة بشـكل مباشـر، و أحیانا عن طریق ملك الوحی، و أحیانا عن طریق سماع لحن خاص یشبه الأمواج الصوتیة، كما أشارت الرّوایات

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۶

الإسلامیة إلی جمیع ذلك، و بیّنا شرح ذلك فی نهایة الآیة السابقة.

و هناك قولان للمفسرین بخصوص المقصود من كلمة (روح) فی هذه الآیة:

الأوّل: إن المقصود هو القرآن الكریم، لأنّه أساس حیاة القلوب و حیاة جمیع الأحیاء، و قد اختار هذا القول أكثر المفسّرین ۵۴۲].

و یقول الراغب فی مفرداته: سـمی القرآن روحـا فی قوله: وَ كَـذلِكَ أَوْحَیْنـا إِلَیْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا و ذلك لكون القرآن سـبب للحیاة الأخرویة.

و هـذا المعنی یتلاءم بشـكل كامل مع القرائن المختلفـة الموجودة فی الآیة مثل عبارة (كذلك) التی تشـیر إلی قضـیة الوحی، و عبارة (أوحینا) و عبارات اخری بخصوص القرآن وردت فی نهایة هذه الآیة.

و بالرغم من أن (روح) وردت غالبا بمعانی اخری سائر آیات القرآن، إلّا أنّه- وفقا للقرائن أعلاه- یظهر أنّها وردت هنا بمعنی القرآن.

و قـد قلنا أیضا فی تفسیر الآیة ۲ من سورة النحـل: یُنَزِّلُ الْمَلائِكَـةَ بِـالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أن كلمـة (روح) فی هـذه الآیة- وفقا للقرائن- وردت بمعنی (القرآن و الوحی و النبوة) و فی الحقیقة فإن هاتین الآیتین تفسر إحداهما الأخری.

فكیف یمكن للقرآن أن لا- یكون روحا فی حین أنّنا نقرأ فی الآیـة (۲۴) من سورة الأنفال: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْـتَجِیبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما یُحْیِیكُمْ

التّفسیر الثّانی: أنّ المقصود هو (روح القدس) (أو ملك أفضل حتی من جبرائیل و میكائیل و كان یلازم النّبی دائما).

و وفقـا لهـذا التّفسـیر فإن (أوحینا) تكون بمعنی (أنزلنا) یعنی أنزلنا روح القـدس علیك، أو ذلك الملك العظیم (بالرغم من أنّنا لم نر كلمة (أوحینا) لهذا

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۷

المعنی فی الآیـات القرآنیـة الأخری). و یؤیـد ذلك بعض الروایات المـذكورة فی مصادر الحـدیث المعروفـة، و لكن- كما قلنا- فإن التّفسـیر الأوّل ملاءمة مع الآیة لوجود القرائن المتعددة، لذا یمكن أن تكون مثل هذه الرّوایات التی تفسر الروح بمعنی روح القدس أو الملك المقرب من الخالق، إشارة إلی المعنی الباطنی للآیة.

علی أیة حال، فإنّ الآیة تضیف: ما كُنْتَ تَدْرِی مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِیمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا.

فهذا هو اللطف الإلهی الذی شملك أنزل علیك هذا الوحی السماوی و آمنت بكل ما یحتویه.

فالإرادة الإلهیة کانت تقتضـی أن یهدی عباده الآخرین فی ظل هذا النور السماوی، و أن یشمل الشرق و الغرب- بل و جمیع القرون و الأعصار حتی النهایة- إضافة إلی هدایتک أنت إلی هذا الکتاب السماوی الکبیر و تعلیماته.

بعض المنحرفین فکریا کانوا یتصورون أن هـذه الجملـة تبیّن أن الرّسول لم یکن یؤمن باللّه قبل نبوته، فی حین أن معنی الآیـة واضح، حیث أنّها تقول: إنّک لم تکن تعرف القرآن قبل نزوله و لم تکن تعرف تعلیماته و تؤمن به و هـذا لا یتعارض أبـدا مع اعتقاد الرّسول التوحیدی و معرفته العالیة بأصول العبادة للّه و عبودیته له.

و الخلاصة، إن عدم معرفة محتوی القرآن یختلف عن موضوع عدم معرفة اللّه.

فحیاة الرّسول صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم قبل مرحلـة النبوة و الواردة فی کتب التاریخ، تعتبر دلیلا حیا علی هذا المعنی. و الأوضح من ذلک ما

ورد عن أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام فی نهـج البلاغة: «و قد قرن اللّه به من لدن أن کان فطیما أعظم ملک من ملائکته، یسـلک به طریق المکارم، و محاسن أخلاق العالم، لیله و نهاره»[۵۴۳].

و تضیف الآیة فی نهایتها: وَ إِنَّکَ لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیم

فالقرآن نور للجمیع و لیس لک فحسب، و هو وسیلة لهدایة البشر إلی الصراط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۸

المستقیم، و موهبة إلهیة عظیمة بالنسبة للسائرین علی طریق الحق، و هو ماء الحیاة بالنسبة للعطاشی کی ینتهلوا منه.

و قد ورد نفس هذا المعنی بعبارة اخری فی الآیة (۴۴) من سورة فصلت حیث تقول الآیة: قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ آمَنُوا هُدیً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ فِی آذانِهِمْ وَقْرٌ.

ثم تقول الآیة مفسرة للصراط المستقیم: صِراطِ اللَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ

و هل هناک طریق أکثر استقامة من الطریق الذی ینتهی بخالق عالم الوجود؟

و هل هناک أحسن من هذا الطریق؟

فالسعادة الحقیقیة هی السعادة التی یدعو إلیها الخالق، و الوصول إلیها یجب أن یکون عبر الطریق الوحید الذی انتخبه الباریٔ لها.

أمّا آخر جملـة فی هـذه الآیـة- و هی آخر آیـة فی سورة الشوری- فهی فی الحقیقة دلیل علی أن الطریق المسـتقیم هو الطریق الوحید الذی یوصل إلی الخالق، حیث تقول: أَلا إِلَی اللَّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ.

فبمـا أنّه یملـک عـالم الوجود و یحکمه و یـدبره لوحـده، و بمـا أن برامـج تکامل الإنسان یجب أن تکون تحت إشـراف هـذا المـدبّر العظیم، لـذا فإن الطریق المسـتقیم هو الطریق الوحید الذی یوصل إلیه، و الطرق الأخری منحرفة و تؤدی إلی الباطل، و هل هناک حق فی هـذا العالم غیر ذاته المقدسـة؟! هـذه الجملة بشـری للمتقین، و هی فی نفس الوقت تهدید للظالمین و المذنبین، لأن الجمیع سوف یرجعون إلی الخالق.

و هی دلیل علی أن الوحی یجب أن یکون من الخالق فقط، لأن جمیع الأمور ترجع إلیه و تـدبیر کلّ شـیء بیده، و لهذا السـبب وجب أن یکون الباریٔ تعالی هو مصدر الوحی بالنسبة للأنبیاء حتی تتمّ الهدایة الحقیقیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۹

و هکـذا نری أن بدایـة و نهایـة هـذه الآیات منسـجمة فیما بینها و مترابطـة، و نهایـة السورة- أیضا- یتلاءم مع بـدیتها و الموضوع العام الساری علیها.

ملاحظات

۱- ماذا کان دین الرّسول الأعظم قبل نبوته؟

لا یوجد شک فی أن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لم یسجد لصنم قبل بعثته أبدا، و لم ینحرف عن خط التوحید، فتاریخ حیاته یعکس بوضوح هذا المعنی، إلّا أن العلماء یختلفون فی الدین الذی کان علیه:

فذهب بعضهم أنّه دین المسیح علیه السّلام، لأن المسیحیة کانت الدین الوحید الرسمی غیر المنسوخ قبل بعثة الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

و قال البعض الآخر: إنه دین إبراهیم علیه السّلام، لأنّه (شیخ الأنبیاء) و أبوهم، و قد ذکرت بعض آیات القرآن أن دین الإسلام هو دین إبراهیم: مِلَّةَ أَبِیکُمْ إِبْراهِیمَ ۵۴۴].

أمّا البعض الآخر فلم یذکر شیئا و اکتفی بالقول بأننا نعلم بأنّه کان علی دین معین إلّا أنّه لم یتوضح لنا ما هو.

و بالرغم من أن کلا من هذه الأقوال یستند إلی دلیل معین، إلّا أنّها لیست قطعیة، و أفضلها قول آخر و هو: لقد کان الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یملک برنامجا خاصا من قبل الخالق و کان یعمل به، و فی الحقیقة فقد کان له دین خاص حتی زمان نزول الإسلام علیه.

و الدلیل علی هذا الکلام الجملة التی ذکرناها قبل قلیل، و الوارد فی نهج البلاغة، و هو «و لقد قرن اللّه به و من لدن أن کان فطیما أعظم ملک من ملائکته،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۹۰

یسلک به طریق المکارم، و محاسن أخلاق العالم لیله و نهاره».

فوجود مثل هذا الملک یدل علی وجود برنامج خاص.

و الدلیل الآخر هو أنّ التاریخ لم یذکر لنا أبدا أن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم انشغل بالعبادة فی معابد الیهود أو النصاری أو الأدیان الأخری، و لم یکن إلی جوار الکفار فی معابدهم، و لا إلی جوار أهل الکتاب فی کنائسهم، و فی نفس الوقت فقد استمر فی سلوک طریق التوحید و کان متمسکا بقوة بالأصول الأخلاقیة و العبادة الإلهیة.

و قد وردت عدّة روایات- وفقا لنقل العلّامة المجلسی فی بحار الأنوار- فی المصادر الإسلامیة عن أن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان مؤیدا منذ بدایة عمره بروح القدس.

و حتما فإنّه کان یعمل وفقا لما یستلهمه من روح القدس ۵۴۵].

و یری العلّامة المجلسی أن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان نبیا قبل أن یکون رسولا، فالملائکة کانت تتحدث معه أحیانا و کان یسمع صوتها، و أحیانا کان الإلهام الإلهی ینزل علیه ضمن الرؤیا الحقیقیة الصادقة، و بعد أربعین سنة وصل إلی منزلة الرسالة و نزل القرآن و الإسلام علیه، و قد ذکر لذلک ستة أدلة حیث یتلاءم بعضها مع ما ذکرناه أعلاه (للاستزادة راجع المجلد ۱۸ من بحار الأنوار ص ۲۷۷ فما بعدها).

۲- الجواب علی سؤال

بعد هذا البحث قد یطرح هذا السؤال: لماذا تقول الآیة: ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لَا الْإِیمانُ رغم ما ذکرناه من إیمان و أعمال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قبل نبوّته؟

و بالرغم من أنّه ورد جواب هذا السؤال بشکل موجز فی تفسیر الآیة، إلّا أنّه من الأفضل إعطاء توضیح أکثر بهذا الخصوص.

المقصود أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لم يكن يعرف بتفصيلات هذا الدين و لا بمحتوى

القرآن، قبل نزوله و قبل تشريع الإسلام.

أمّا كلمة الإيمان، فلو لا حظنا أن هذه الكلمة وردت بعد الكتاب، و بملاحظة الجمل الأخرى الواردة بعدها فى الآية، يتضح أن المقصود بها هو الإيمان بمحتوى هذا الكتاب السماوى و ليس مطلق الإيمان، لذا لا يوجد أى تعارض مع ذكرناه، و لا يمكن أن تكون هذه الجملة وسيلة لذوى النفوس المريضة كى يستدلوا بها على نفى الإيمان بشكل مطلق عن الرّسول، و ينكرون الحقائق التاريخية فى هذا المجال.

و قد ذكر بعض المفسّرين أجوبة اخرى لهذا السؤال منها:

أ- المقصود من الإيمان ليس الإعتقاد لوحده، بل مجموع الإعتقاد و الإقرار باللسان و الأعمال و هذا هو المقصود به فى التعبير الإسلامى.

ب- المقصود من الإيمان هو الإعتقاد بالتوحيد و الرسالة، و نحن نعلم أن النّبى كان موحدا، إلّا أنّه لم يكن يؤمن برسالته بعد.

ج- المقصود من الإيمان هو أركان الإيمان التى لا يتوصل إليها الإنسان عن طريق العقل، و الطريق الوحيد لذلك هو الأدلة النقلية (مثل العديد من خصوصيات المعاد).

د- هناك محذوف فى هذه الآية و فى التقدير: ما كنت تدرى كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ۵۴۶].

و لكن حسب اعتقادنا فإن المعنى الأوّل أفضل المعانى و أكثرها تلاؤما مع محتوى الآية.

۳- ملاحظة أدبية

هناك كلام كثير حول الضمير فى جملة: لِكنْ جَعَلْناهُ نُوراً لمن يعود،

فذهب البعض أن المقصود هو القرآن نفسه، الكتاب السماوى العظيم لرسول الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و يحتمل أن يكون هذا النور هو النور الإلهى ل (الإيمان).

و لكن الأفضل أن يعود هذا الضمير إلى الإثنين (القرآن و الإيمان)، فما داما ينتهيان بحقيقة واحدة، لذا فلا مانع من أن يعود الضمير المفرد إليهما.

إلهى، نور قلوبنا دائما بنور إيمانك، و اهدنا بلطفك إلى الخير و السعادة.

إلهى، ترحّم علينا بالصبر و التحمل حتى لا نطغى عند النعم و لا نجزع عند المصائب و الفتن.

إلهى، اجعلنا فى صفّ المؤمنين المخلصين فى ذلك اليوم الذى يكون فيه الظالمون و المستكبرون حيارى تائهين، و المؤمنون مصونين فى ظل حمايتك، آمين ربّ العالمين نهاية سورة الشورى

---

[۱] (۱)- مجمع البيان بداية سورة الزمر.

[۲] (۲)- مجمع البيان و ثواب الأعمال و تفسير نور الثقلين.

[۳] (۱)-i تَنْزِيلُ الْكِتابِ E خبر لمبتدأ محذوف و التقدير« هذا تنزيل الكتاب»، و احتمل بعض المفسّرين أن« تنزيل الكتاب» مبتدأ و« من اللّه» خبر. لكن الرأى الأوّل أصحّ، و« تنزيل» مصدر بمعنى المفعول. فتكون إضافته إلى الكتاب من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، و المعنى(هذا الكتاب منزل من اللّه).

[۴] (۱)- روح المعانى، المجلد ۲۳، الصفحة ۲۱۲ ذيل آيات البحث.

[۵] (۱)- من الواضح أنّ فى الآية المذكورة أعلاه و قبل عبارة\i ما نَعْبُدُهُمْ E جملة تقديرها« و يقولون ما نعبدهم».

[۶] (۱)- تفسير الميزان، المجلد ۱۷، الصفحة ۲۴۷ مع بعض التغييرات.

[۷] (۱)- سورة ق، ۱۶.

[۸] (۲)- سورة الأنفال، ۲۴.

[۹] (۱)- مفردات الراغب مادة(نزل) و الفرق بين الإنزال و التنزيل فى وصف القرآن و الملائكة، أن التنزيل يختص بالموضع الذى يشير إليه إنزاله مفرقا و مرّة بعد اخرى و الإنزال عام.

[۱۰] (۲)- هذا الاختلاف ورد فى التّفسير الكبير للفخر الرازى نقلا عن آخرين.

[۱۱] (۱)- القدر، ۱.

[۱۲] (۲)- سورة الدخان، ۳.

[۱۳] (۳)- سورة البقرة، ۱۸۵.

[۱۴] (۱)- هناك بحث مفصل عن فوائد النّزول التدريجى للقرآن تعرضنا له لدى تفسير الآية(۳۴) من سورة فرقان.

[۱۵] (۱)- سورة فاطر، ۱۳.

[۱۶] (۲)- سورة الأعراف، ۵۴.

[۱۷] (۱)- فى قوله تعالى\:i ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها\E محذوف تقديره(خلقكم من نفس واحدة خلقها، ثمّ جعل منها زوجها).

[۱۸] (۱)- تفسير الميزان؛ و روح المعانى ذيل آيات البحث.

[۱۹] (۱)- دعاء عرفة، مصباح الزائر، ابن طاووس.

[۲۰] (۱)- نلفت الانتباه إلى أن(أنّى) تأتى أحيانا بمعنى(اين) و أحيانا أخرى بمعنى(كيف).

[۲۱] (۲)- وفق القراءات المشهورة، فإن(يرضه) تقرأ بضم الهاء و بدون إشباع الضمير، لأنّها كانت فى الأصل(يرضاه) و قد أسقطت الألف بسبب الجزم و أصبحت(يرضه) و الضمير فيها يعود على الشكر. و رغم أن كلمة(شكر) لم ترد من العبارة السابقة بصورة صريحة، إلّا أن عبارة(إن تشكروا) تدل عليها، كما هو الحال بالنسبة إلى الضمير فى i اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى E الذى يعود على العدالة.

[۲۲] (۱)- هناك بحث مفصل فى ذيل الآية(۵) من سورة إبراهيم- عن أهمية و فلسفة الشكر و عن مفهومها الحقيقى و أبعادها.

[۲۳] (۱)- بهذا الخصوص هناك بحث فى ذيل الآية(۱۵) من سورة الإسراء.

[۲۴] (۲)- هناك بحث بهذا الشأن فى ذيل الآية(۱۴) من سورة الأنعام.

[۲۵] (۱)- هناك اختلاف بين المفسّرين حول المعنى الذى تعطيه(ما) فى عبارة\:i نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ E البعض يعتقد أن(ما) موصولة تشير إلى(ضر) و لكون هذا المعنى هو الأنسب، فقد قدم على المعانى الأخرى، و قال البعض أيضا: إن(ما) موصولة و المراد منها هو اللّه سبحانه و تعالى: و مجموعة أخرى قالت: إن(ما) مصدرية و تعنى الدعاء، و إمعان النظر فى الآية(۱۲) من سورة يونس\:i وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ E يبيّن أن هذه الآية شاهد على صحة المعنى الأوّل.

[۲۶] (۱)- یراجع(لسان العرب) و(مفردات الراغب) و تفسیر(روح المعانی).

[۲۷] (۱)- فی هذه العبارة شق محذوف، و التقدیر(أ هذا الذی ذکرنا خیر أمن هو قانت آناء اللیل).

[۲۸] (۱)- علل الشرائع، و الکافی نقلا عن نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۴۷۹.

[۲۹] (۱)- الکافی، المجلد الأوّل، باب صفة العلم و فضله الحدیث(۷).

[۳۰] (۲)- الکافی، المجلد الأوّل، باب صفة العلم و فضله الحدیث(۲).

[۳۱] (۳)- تفسیر مجمع البیان ذیل آیات البحث.

[۳۲] (۱)- سفینة البحار، المجلد الثّانی، الصفحة ۴۹۶ أحوال کمیل.

[۳۳] (۱)- من البدیهی أنّ الخطاب بعبارة« یا عبادی» هو من اللّه، و إن کان المخاطب هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فالمقصود هنا أن أبلغهم خطابی.

[۳۴] (۲)- أغلب المفسّرین اعتبروا عبارة(فی هذه الدنیا) تعود علی عبارة(أحسنوا)، و استنادا لهذا فإن« حسنة» مطلقة تشمل کل حسنة فی الدنیا و الآخرة، و مع انتباه إلی أن استعمال التنوین فی مثل هذه الموارد إنّما هو لإعطاء الکلمة طابع التفخیم و العظمة، فإنه یفید بیان عظمة الثواب.

[۳۵] (۱)- النساء، ۹۷.

[۳۶] (۱)-« بغیر حساب» من الممکن أن تکون متعلقة ب(یوفی)، أو أنها(حال) ل(أجرهم) لکن الاحتمال الأول أنسب.

[۳۷] (۲)- تفسیر مجمع البیان ذیل آیات البحث، و نفس المعنی مع اختلاف بسیط ورد فی تفسیر القرطبی نقلا عن الإمام الحسین بن علی علیهما السلام عن جده رسول الله صلی الله علیه و آله و سلم.

[۳۸] (۱)- تقدیم(اسم الجلالة) و الذی هو مفعول(اعبد) یفید الحصر هنا، و قوله(مخلصا له دینی) التی هی حال یؤکّد معنی الحصر.

[۳۹] (۱)- مفردات الراغب مادة(خسر).

[۴۰] (۱)- بعض المفسّرین، و منهم الزمخشری صاحب الکشّاف یعتقدون أنّ أصل کلمة(طاغوت) هو(طغوت) علی وزن(فعلوت)(کملکوت)، ثمّ تقدمت لام الفعل علی عین الفعل و أصبحت(طغوت)، و بعد إبدال الواو بالألف أصبحت(طاغوت) و یستدل صاحب الکشّاف علی هذا الکلام من عدّة مصادر(تفسیر الکشاف ج ۴ ص ۱۲۰).

[۴۱] (۲)- مجمع البیان، الجزء السابع، الصفحة ۴۹۳، ذیل آیة البحث.

[۴۲] (۳)-(عباد) کانت فی الأصل(عبادی) و قد حذفت الیاء و عوض عنها بالکسرة.

[۴۳] (۱)- فی الحقیقة، إنّ الآیة تحوی جملة محذوفة تدل علیها الجملة التی تلتها، و تقدیرها(أ فأنت تخلصه) إذ یصبح تقدیر الجملة کالتالی(أ فمن حق علیه کلمة العذاب أ فأنت تخلصه(بقرینة الجملة التالیة) أ فأنت تنقذ من فی النّار) و قال البعض الآخر: إن تقدیر الآیة هو کالتالی(أ فمن حقت علیه کلمة العذاب ینجو منه).

[۴۴] (۱)- یقول« الزمخشری» فی الکشاف:\i: وَعْدَ اللَّهِ E منصوب لکونه مفعولا مطلقا للتأکید، و لأنّ عبارة\i لَهُمْ غُرَفٌ E تعنی و عدهم الله غرفا.

[۴۵] (۱)- سورة نوح، الآیة ۷.

[۴۶] (۱)- الکافی، المجلد الأول، کتاب العقل الحدیث(۱۲).

[۴۷] (۲)- نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۴۸۶، الحدیث ۳۴.

[۴۸] (۳)- نهج البلاغة، قصار الکلمات، الخطبة(۸۰).

[۴۹] (۱)- تفسير القرطبى، و مجمع البيان ذيل آيات البحث.

[۵۰] (۲)- الدر المنثور نقلا عن تفسير الميزان، المجلد ۱۷، صفحة ۲۶۷.

[۵۱] (۳)- القول هذا أورده صاحب تفسير روح المعانى نقلا عن آخرين.

[۵۲] (۱)-« ينابع» على ما هو المشهور يكون منصوبا بنزع الخافض، و هو جمع ينبوع من نبع الماء(راجع تفسير روح المعانى، ج ۲۳، ص ۲۵۶، روح البيان، ج ۸، ص ۹۳.

[۵۳] (۱)-« يهيج» من مادة(هيجان) و لها معنيان فى اللغة، الأوّل هو جاف النبات و اصفراره، و الثّانى هو التحرك و الانتفاض، و من الممكن أو يعود المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات حينما يجفّ فإنه يستعد للانفصال و الانتشار و التحرك و الهيجان.

[۵۴] (۱)- هذه الآية تتضمّن جملة محذوفة تتضح من خلال الجملة التى تليها و عند تقديرها تصبح الآية(أ فمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نور من ربّه كمن هو قاسى القلب لا يهتدى بنور).

[۵۵] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد الثامن، الصفحة ۵۶۹۱(تفسير سورة الزمر ذيل آيات البحث) نقل هذا الحديث مع اختلاف جزئى عن(روضة الواعظين) للشيخ المفيد.

[۵۶] (۲)- تفسير الصافى ذيل آيات البحث.

[۵۷] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۷۰، الصفحة ۵۵، الحديث ۲۳.

[۵۸] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۷۰، الصفحة ۵۵، الحديث ۲۴.

[۵۹] (۲)- الكافى، المجلد الثّانى، باب القسوة الحديث(۱).

[۶۰] (۳)- نفس المصدر السابق الحديث(۳).

[۶۱] (۱)- سبب النّزول ورد باختلاف يسير فى تفسير(الكشاف) المجلد الرابع ص ۱۲۳ و فى تفسير(القرطبى) و(الآلوبسى) و(أبو- الفتوح الرازى) و غيرها، و ذلك فى ذيل آيات البحث.

[۶۲] (۱)- قال الزمخشرى فى الكشاف: إن(مثانى) يمكن أن تكون جمع(مثنى) على وزن(مصلّى) و تعنى المكرّر، و يمكن أن تكون جمع(مثنى) على وزن(مبنى) من التثنية بمعنى التكرار، الكشاف، المجلد الرابع، الصفحة ۱۲۳.

[۶۳] (۱)-(تقشعر) من مادة(قشعريرة) و قد ذكر اللغويون و المفسّرون معانى مختلفة و متقاربة بعض الشىء، فالبعض قال: إنّها تعنى انكماش جلد البدن(حالة نصيب الإنسان أثناء خوفه) و البعض قال: إنها الرجفة التى تصيب الإنسان فى حالة الخوف، و البعض الآخر قال: إنّها تعنى وقوف شعر البدن، و فى الحقيقة فإنّ كلّ حالة من هذه الحالات ملازمة للأخرى.

[۶۴] (۲)- تفسير القرطبى، المجلد الثامن، الصفحة ۵۶۹۳، عن التأثير العميق و الخارق لآيات القرآن، أوردنا روايات عديدة فى ذيل الآية ۹۲ من سورة آل عمران.

[۶۵] (۱)- هذه العبارة فيها محذوف، التقدير(أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن لا تمسه النار).

[۶۶] (۱)- كلمة(خزى) تعنى الذلّ و الهوان كما تعنى الفضيحة(يراجع لسان العرب).

[۶۷] (۱)-(مجمع البيان) ذيل آيات البحث، كما نقل هذه الرواية أبو الفتوح الرازى و القراطبى مع شىء من الاختلاف.

[۶۸] (۲)- أورد الآلوسى هذا الحديث فى روح المعانى، المجلد ۲۳، الصفحة ۲۳۵، كما أورده بعض المفسّرين فى ذيل الآية.

[۶۹] (۱)- الموقع الإعرابى لقوله تعالى\:i قُرْآناً عَرَبِيًّا\E حال ل(القرآن) التى ذكرت من قبل، و لكون كلمة(قرآنا) لا تحمل طابع الوصف فقد قال البعض: إنّها توطئة للحال الذى هو(عربيا) و ذهب البعض الى أنها بمعنى(مقروءا) و تعطى معنى الوصف، و البعض قال: إنّها منصوبة على المدح بتقدير فعل.

[۷۰] (۲)- كلمة(عوج) جاءت بصورة نكرة فى سياق النفى، و تعطى معنى النفى العام لعدم لوجود أى انحراف و انعطاف فى

القرآن.

[۷۱] (۱)- يراجع(مفردات الراغب) و(لسان العرب) و غيرها من التفاسير.

[۷۲] (۲)-« متشاكسون»: أصلها من(شكاسة) و تعنى سوء الخلق و التنازع و الاختصام، و لهذا يقال« متشاكس» لمن يتخاصم و يتنازع بعصبية و سوء خلق.

[۷۳] (۱)- نقله(الحاكم أبو القاسم الحسكانى) فى شواهد التنزيل.

[۷۴] (۲)- نقله العياشى فى تفسيره مجمع البيان، ذيل آيات البحث.

[۷۵] (۳)- عبارة\ i إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ E على الظاهر تعطى معنى موت الجميع فى الوقت الحاضر، و هى من قبيل(المضارع المتحقق الوقوع) الذى يأتى أحيانا بصورة حال و أحيانا اخرى بصورة الماضى.

[۷۶] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۸ الصفحة ۴۹۷.

[۷۷] (۱)- غفرت: وحشت

[۷۸] (۲)- سيرة ابن هشام، المجلد الرابع، الصفحات ۳۰۵ و ۳۰۶، نقلا عن الكامل لابن الأثير، المجلد الثّانى، الصفحة ۳۲۳ و ۳۲۴، مع شيء من التلخيص.

[۷۹] (۱)-« مثوى»: من مادة(ثواء) و تعنى الإقامة المستمرة فى مكان ما و لهذا فإنّ(مثوى) هنا تعنى المكان و المنزل الدائم.

[۸۰] (۲)- مجمع البيان ذيل آيات البحث.

[۸۱] (۱)- فى عودة قوله تعالى\ i: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ E ذكر المفسّرون آراء شتى بهذا الشأن و لكن التّفسير الذى يبدو أنسب هو أنّها تعود على الفعل(أحسنوا) و يفهم ذلك من كلمة المحسنين، و التقدير(ذلك جزاء المحسنين أحسنوا ليكفر اللّه عنهم) نعم إنّهم عمدوا إلى عمل الإحسان كى يكفر اللّه عهم سيئاتهم و يغفر زلاتهم و يعطيهم أفضل الثواب.

[۸۲] (۱)- لمن يرغب الاطلاع أكثر عليه مراجعة كتاب إحقاق الحق، المجلد الثّالث، الصفحة ۱۷۷ فما بعد، و كتاب المراجعات، الصفحة ۶۴(المراجعة ۱۲).

[۸۳] (۱)- تفسير الكشاف و مجمع البيان و أبو الفتوح الرازى و فى ظلال مع اختلافات جزئية.

[۸۴] (۲)- مجمع البيان ذيل آيات البحث(هذه الرواية وردت أيضا فى الكشاف و القرطبى و بصورة مختصرة).

[۸۵] (۱)- يقول الراغب فى مفرداته: كلمة(نقمة) تعنى العقوبة و الجزاء.

[۸۶] (۱)-« مفردات» مادة(هدى).

[۸۷] (۲)- نلفت الانتباه إلى أن الهدآية التكوينية هنا قد استخدمت بمعناها الواسع، حيث تشمل كل أشكال الهدآية عدا الهدآية التى تأتى عن طريق بيان الشرائع و التوجيه إلى الطريق.

[۸۸] (۱)- و منها ما ورد فى السور و الآيات التالية(فاطر- ۸) و(الزمر- ۲۳) و(المدثر- ۳۱) و(البقرة- ۲۷۲) و(الأنعام- ۸۸) و(يونس- ۲۵) و(الرعد- ۲۷) و(إبراهيم- ۴).

[۸۹] (۱)- البقرة، ۲۵۸.

[۹۰] (۲)- البقرة، ۲۶۴.

[۹۱] (۳)- الزمر، ۳.

[۹۲] (۴)- غافر، ۲۸.

[۹۳] (۱)- المائدة، الآية ۱۶.

[۹۴] (۲)- الرعد، الآية ۲۷.

[۹۵] (۳)- العنكبوت، الآية ۶۹.

[۹۶] (۴)- محمّد، الآية ۱۷.

[۹۷] (۱)- المفسّرون و اللغويون يفسّرون(أ فرأيتم) بأنّها تعطى معنى(أخبرونى) فى الوقت الذى لا يوجد فيه أى مانع من تفسيرها بمعناها الأصلى و هو رؤية العين أو القلب.

[۹۸] (۲)- العنكبوت(۶۱) و(۶۳)، لقمان(۳۱)، الزخرف(۹) و(۸۷).

[۹۹] (۱)- ما هو أصل كلمة(مكانة)؟ و ماذا تعنى؟ أغلب المفسّرين و اللغويين قالوا: إنّها تعنى المكان و المنزلة، و هى من مادة(كون) و لأنّها تستخدم كثيرا بمعنى المكان لهذا يتصور أنّ الميم فيها أصلية، و لذا أصبح جمع تكسيرها(أمكنة) أما صاحب(لسان العرب)، فقد ذكر أنّ أصلها(مكنة) و(تمكن) و التى تعنى القدرة و الاستطاعة، و على أية حال فإنّ مفهوم الآية يكون فى الحالة الأولى: ابقوا على مواقفكم، و فى الحالة الثانية: ابذلوا كلّ ما لديكم من جهد و طاقة.

[۱۰۰] (۱)-« بالحق»: من الممكن أن تكون حالا- ل(كتاب) أو للفاعل فى i أَنْزَلْنا\E، مع أنّ المعنى الأوّل أنسب، و لذا فإنّ مفهوم الآية يكون:(إنا أنزلنا عليك القرآن مترافقا بالحق).

[۱۰۱] (۲)- كلمة(توفى) تعنى قبض الشىء بالتمام، كلمة(أنفس) تعنى الأرواح. و كلمة(منام) لها معنى مصدرى و تعنى النوم.

[۱۰۲] (۱)-« أم»: هنا منقطعة و تعنى(بل) و لو كانت متصلة، لكان يجب تقدير القسم الثّانى لها، و هذا خلاف الظاهر.

[۱۰۳] (۲)- الزمر، ۳.

[۱۰۴] (۳)- عبارة\i أ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً\E فيها محذوف، و التقدير:(أ يشفعون لكم و لو كانوا لا يملكون شيئا).

[۱۰۵] (۱)- البقرة، ۵۷.

[۱۰۶] (۲)- الميزان، المجلد ۱۷، الصفحة ۲۸۶.

[۱۰۷] (۱)- مجمع البيان ذيل آية البحث و تفسير الصافى. كلمة(روح) فى هذه الرواية تعنى(الروح الحيوانية) و عمل أجهزة الجسم الرئيسية، و كلمة(نفس) تعنى روح الإنسان.

[۱۰۸] (۱)- خصال الصدوق، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۸۸.

[۱۰۹] (۲)- أصول الكافى، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۸۸.

[۱۱۰] (۱)-« اشمأزت»: من مادة(اشمئزاز) و تعنى الانقباض و النور عن الشىء،(وحده) منصوب حال أو مفعول مطلق.

[۱۱۱] (۱)- صول الكافى، و روضة الكافى، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۹۰.

[۱۱۲] (۲)-« فاطر السموات» منصوب بعنوان منادى مضاف.

[۱۱۳] (۱)- الم سجدة، ۱۷.

[۱۱۴] (۲)- تفسير مجمع البيان و تفسير القرطبى ذيل آية البحث.

[۱۱۵] (۱)-« خول»: من مادة(تخويل) و تعنى الإعطاء على نحو الهبة، و قد شرحت بالتفصيل فى ذيل الآية الثامنة من هذه السورة(الزمر)، ضمير(أوتيته) رغم أنّه يعود على(نعمة) فقد جاء بصيغة المذكر، لأنّ المقصود منه(شىء من النعمة) أو(قسم من النعمة).

[۱۱۶] (۱)- ضمير(قد قالها) راجع إلى القول السابق باعتبار أنّه مقالة أو كلمة، و المراد منها عبارة\i إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ \E.

[۱۱۷] (۱)- نهج البلاغة، قصار الكلمات، الكلمة ۲۵۰.

[۱۱۸] (۱)- مجمع البيان و تفسير القرطبى و تفسير الصافى ذيل الآية مورد البحث.

[۱۱۹] (۱)- سفينة البحار، المجلد الاول، الصّفحة ۱۲۷، مادة التوبة.

[۱۲۰] (۲)- أصول الكافى، المجلد ۲، الصفحة ۲۱۶، باب التوبة، الحديث ۱۰.

[۱۲۱] (۱)- سفينة البحار، المجلد ۲، الصفحة ۶۳۷، مادة(وحش) و تفسير الفخر الرازى، المجلد ۲۷، الصفحة ۴، و تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۹۳.

[۱۲۲] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۶، الصفحة ۲۴(طبع بيروت).

[۱۲۳] (۲)- التّفسير الكبير لفخر الرازى، المجلد ۲۷، الصفحة ۴ ذيل آيات البحث.

[۱۲۴] (۱)- فى بداية الآية عبارة تتعلق بالآيات السابقة، و يكون التقدير(لئلا تقول نفس) أو(حذرا أن تقول نفس) و فى الحالة الثانية تكون مفعولا له لعبارة(أنيبوا و اسلموا و اتبعوا).(إن) فى عبارة(و إن كنت لمن الساخرين) مخففة من الثقيلة إذ أنّها كانت فى الأصل،(إنّى كنت من الساخرين).

[۱۲۵] (۱)- رغم أنّ المتحدّث هى النفس و هى مؤنث، و أنّ القرآن أورد أوصافها و أفعالها بصيغة المؤنث فى آياته، و لكن فى هذه الآية ورد ضمير(كذبت) و ما بعدها بصيغة المذكر، و ذلك لأنّ المقصود هنا هو الإنسان، و قد قال البعض: إنّ(النفس) يمكن أن تأتى بصيغتى المذكر و المؤنث.

[۱۲۶] (۱)- سورة العنكبوت، الآية ۶۵.

[۱۲۷] (۲)- تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، الصفحة ۴۹۵.

[۱۲۸] (۳)- تفسير نور الثقلين المجلد الرابع الصفحة ۴۹۵.

[۱۲۹] (۱)- المصدر السابق، ص ۴۹۶.

[۱۳۰] (۱)- الإعتقادات الإمامية، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۹۶، و نفس المعنى نقل عن تفسير على بن إبراهيم و كتاب الكافى(يراجع المجلد الأوّل من كتاب الكافى(باب من ادعى الإمامة و ليس لها بأهل) الحديث الأوّل و الثّالث).

[۱۳۱] (۲)- مجمع البيان ذيل آية البحث.

[۱۳۲] (۳)- أصول الكافى، المجلد ۱، صفحة ۵۱(باب رواية الكتب و الأحاديث) الحديث ۱۴.

[۱۳۳] (۱)- البقرة، ۳۴.

[۱۳۴] (۲)- تفسير على بن إبراهيم، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۹۶، كما ورد نفس المعنى فى تفسير الصافى فى ذيل آيات البحث.

[۱۳۵] (۳)-« مفازة»: مصدر ميمى بمعنى الفوز و الظفر، و(الباء) فى(بمفازتهم) للملابسة أو السببية، و بالنسبة إلى الحالة الأولى يكون المعنى إن اللّه يعطيهم النجاة المقترنة بالخلاص و الفلاح، أمّا بالنسبة إلى الحالة الثانية فالمعنى يكون(إن اللّه أنقذهم و نجاهم بسبب إخلاصهم) كناية عن الأعمال الصالحة و الإيمان-

[۱۳۶] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد الثامن، الصفحة ۵۷۱۹، و تفسير أبو الفتوح الرازى، المجلد ۹، الصفحة ۴۱۷ ذيل آيات البحث(مع اختصار ذيل الحديث).

[۱۳۷] (۱)- نور الثقلين، المجلد ۴۹، الصفحة ۴۹۷.

[۱۳۸] (۱)- المصدر السابق.

[۱۳۹] (۲)-(الفاء) فى(فاعبد) زائدة للتأكيد على ما قيل، و قال البعض: إنّها(فاء) الجزاء و قد حذف شرطه و التقدير(إن كنت عابدا فاعبد اللّه)، ثمّ حذف الشرط، و قدم المفعول مكانه.

[۱۴۰] (۱)- الآيات التى ورد فيها ما يشير إلى النفخ فى الصور هى:(الكهف- ۹۹) و(المؤمنون-(۱۰۱)،(يس- ۵۱)،(الزمر- ۶۸)،(ق- ۲۰)،(الحاقة- ۱۳)،(الأنعام- ۷۳)،(طه- ۱۰۲)،(النمل- ۸۷)،(النبأ- ۱۸).

[۱۴۱] (۲)- المدثر، الآية ۸.

[۱۴۲] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۵۰۲.

[۱۴۳] (۲)- یرجی الانتباه إلی أنّ(صور) هی علی وزن(نور)، و(صور) هی علی وزن(زحل) هما جمع(الصورة).

[۱۴۴] (۱)- لئالی الأخبار، الصفحة ۴۵۳.

[۱۴۵] (۱)- علم الیقین، الصفحة ۸۹۲.

[۱۴۶] (۱)- مجمع البیان ذیل آیات البحث.

[۱۴۷] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۶، الصفحة ۳۲۹.

[۱۴۸] (۳)- نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۵۰۳، الحدیث ۱۱۹.

[۱۴۹] (۱)- نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۵۰۳، الحدیث ۱۱۹.

[۱۵۰] (۱)- تفسیر الصافی ذیل آیة البحث.

[۱۵۱] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۶، الصفحة ۳۲۱.

[۱۵۲] (۲)- روح المعانی و روح البیان ذیل آیة البحث.

[۱۵۳] (۱)- إرشاد المفید و الخبر ذاته فی تفسیر الصافی و نور الثقلین فی ذیل آیات البحث، و نفس المعنی، ورد فی المجلد الثّانی و الخمسین الصفحة ۳۳۰ من بحار الأنوار للمرحوم العلّامة المجلسی، مع شیء من الاختصار.

[۱۵۴] (۱)-« خزنة» جمع(خازن) من مادة(خزن) علی وزن(جزم) و تعنی حافظ الشیء، و(خازن) تطلق علی المحافظ و الحارس.

[۱۵۵] (۲)-« یتلون» و« ینذرون»: کلیهما فعل مضارع و دلیل علی الاستمراریة.

[۱۵۶] (۱)- الم السجدة، ۱۳.

[۱۵۷] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة(۲۷).

[۱۵۸] (۱)- الکافی، المجلد الثّانی، باب الکبر الحدیث. ۶.

[۱۵۹] (۱)- ما هو جواب الجملة الشرطیة(إذا جاؤها)؟ ذکر المفسّرون آراء متعددة، أنسبها الذی یقول: إن عبارة(قال لهم خزنتها) جوابها و الواو زائدة. کما احتملوا أن جواب الجملة محذوف، و التقدیر(سلام من اللّه علیکم)، أو أن حذف الجواب إشارة إلی أن سعة الموضوع و علوه لا یمکن وصفها، و البعض قال:(فتمت) هی الجواب و(الواو) زائدة.

[۱۶۰] (۱)- تفسیر القرطبی المجلد(۸) الصفحة. ۵۷۳.

[۱۶۱] (۱)- الغدیر، المجلد الثامن، ص ۳۸۸.

[۱۶۲] (۱)- هذه الأحادیث فی مجمع البیان فی بدایة تفسیر سورة المؤمن.

[۱۶۳] (۲)- المصدر السابق

[۱۶۴] (۳)- مجمع البیان أثناء تفسیر السورة

[۱۶۵] (۴)- البیهقی طبقا لما نقله عنه الآلوسی فی روح المعانی، المجلد ۲۴، صفحة ۳۶.

[۱۶۶] (۵)- مجمع البیان فی مقدمة تفسیر السورة.

[۱۶۷] (۱)- یلاحظ« معانی الأخبار» للشیخ الصدوق، صفحة ۲۲، باب معنی الحروف المقطعة فی أوائل السور.

[۱۶۸] (۲)- تفسیر القرطبی أثناء تفسیر الآیة.

[۱۶۹] (۳)-« توب» یمکن أن تکون جمع« توبة» و أن تکون مصدرا(یلاحظ مجمع البیان).

[۱۷۰] (۱)-« طول» علی وزن« قول» بمعنی النعمة و الفضل، و بمعنی القدرة و القوة و المکنة و ما یشبه ذلک. بعض المفسّرین یقول: إنّ« ذی الطول» هو الذی یبذل النعم الطویلة و الجزیلة للآخرین، و لذلک فإن معناها أخص من معنی« المنعم» کما یقول صاحب

مجمع البیان.

[۱۷۱] (۱)- الأنفال، آیة ۲۹.

[۱۷۲] (۲)- البقرة، آیة ۲۷۱.

[۱۷۳] (۳)- التغابن، الآیة ۱۷.

[۱۷۴] (۴)- النساء، آیة ۳۱.

[۱۷۵] (۱)-« لیدحضوا» مصدرها ثلاثی(إدحاض) و تعنی الإزالة و الإبطال.

[۱۷۶] (۱)- الطارق، الآیة ۱۷.

[۱۷۷] (۱)- الألفاظ الثلاثة مصدرها فی باب المفاعلة.

[۱۷۸] (۱)- البقرة، الآیة ۱۱۱.

[۱۷۹] (۲)- سورة یس، الآیة ۷۸.

[۱۸۰] (۱)- رجال« الکشی، صفحة ۲۹۸.

[۱۸۱] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۳۶۲.

[۱۸۲] (۲)- أصول الکافی، المجلد الثّانی، باب المراء و الخصومة، الحدیث الأول.

[۱۸۳] (۱)- النمل، لآیة ۶۰.

[۱۸۴] (۲)- الأنعام- ۱۰۸.

[۱۸۵] (۳)- فصلت، الآیة ۳۴.

[۱۸۶] (۱)- یمکن ملاحظة نصّها الکامل فی بحار الأنوار، المجلد التاسع، صفحة ۲۵۷ فما بعد.

[۱۸۷] (۱)- کما فی نهایة الآیة(۵۴) من الأعراف، نهایة الآیة(۷) من هود، و نهایة الآیة(۲۵۵) من البقرة.

[۱۸۸] (۲)- جملة(من صلح) معطوفة علی الضمیر فی جملة« و أدخلهم».

[۱۸۹] (۱)- المائدة، الآیة ۱۱۴.

[۱۹۰] (۲)- المؤمنین، الآیة ۹۷.

[۱۹۱] (۳)- التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی فی نهایة الآیة مورد البحث.

[۱۹۲] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۵۸، صفحة ۲۸، الحدیث رقم ۴۶، ۴۷.

[۱۹۳] (۲)- المصدر السابق.

[۱۹۴] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۵۸، صفحة ۳۹.

[۱۹۵] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۵۸، صفحة ۳۹.

[۱۹۶] (۳)- الأعراف، الآیة ۵۴.

[۱۹۷] (۴)- التوبة، الآیة ۱۲۹.

[۱۹۸] (۱)- الزمر، الآیة ۷۵.

[۱۹۹] (۱)- فرقان، الآیة ۲۷.

[۲۰۰] (۲)- نبأ، الآیة ۴۰.

[۲۰۱] (۳)- سورة ق، الآیة ۲۲.

[۲۰۲] (۴)- الطارق، الآیة ۹.

[۲۰۳] (۱)- التكوير، آية ۱۰.

[۲۰۴] (۲)- الإسراء، الآية ۱۴

[۲۰۵] (۳)- طبقا للتفسير الأوّل تكون(إذ) ظرفية و متعلقة ب« مقتكم أنفسكم» أمّا طبق التّفسير الثّانى فتعتبر(إذ) تعليلية و متعلقة ب« مقت اللّه» و الجدير بالملاحظة أنّ المقتين الواردين فى الآية أعلاه يرتبطان بأربعة احتمالات هى:

الأوّل: أن يكون مكان الإثنين فى يوم القيامة.

الثّانى: أن يكون مكانهما فى هذه الدنيا.

الثّالث: أن يكون المقت الأوّل فى الدنيا و الثّانى فى الآخرة.

أما الرابع: فهو عكس الثّالث.

و لكن الأفضل وفقا للتفسير أعلاه أن يختص الأوّل بالآخرة. و الثّانى بالدنيا، أو أن يختص الاثنان بالآخرة.

[۲۰۶] (۱)- آل عمران، الآية ۱۶۹.

[۲۰۷] (۲)- غافر، الآية ۴۶.

[۲۰۸] (۳)- الزمر، الآية ۶۸.

[۲۰۹] (۱)- احتمل بعض المفسّرين أنّ الآية أعلاه تشير إلى« الرجعة» إلّا أنّ مراعاة عمومية الآية و شمولها جميع الكافرين، و عدم ثبوت عمومية الرجعة لهم جميعا، يجعل هذا التّفسير قابلا للنقاش.

[۲۱۰] (۱)- الزمر، الآية ۴۵.

[۲۱۱] (۱)- المؤمنون، الآيتان ۹۹- ۱۰۰.

[۲۱۲] (۱)- المؤمن، الآية ۸۱.

[۲۱۳] (۱)- المجادلة، الآية ۱۱.

[۲۱۴] (۱)- البقرة، الآية ۲۵۳.

[۲۱۵] (۲)- الأنعام، الآية ۱۶۵.

[۲۱۶] (۱)- الطارق، الآية ۹.

[۲۱۷] (۲)- الزلزال، الآية ۲.

[۲۱۸] (۳)- التكوير، الآية ۱۰.

[۲۱۹] (۴)- النبأ، الآية ۴۰.

[۲۲۰] (۵)- الأنعام، الآية ۲۸.

[۲۲۱] (۶)- الزلزال، الآية ۴.

[۲۲۲] (۷)- إبراهيم، الآية ۲۱.

[۲۲۳] (۱)- مجمع البيان، أثناء تفسير الآية.

[۲۲۴] (۲)- الميزان: ذيل الآية مورد البحث.

[۲۲۵] (۱)- فى مجمع البيان، نهاية الحديث عن الآية(۲۰۲) من سورة البقرة.

[۲۲۶] (۱)- هناك احتمالان من حيث التركيب النحوى لجملة« يعلم خائنة الأعين»: الأول: أن(خائنة) لها معنى مصدرى و تعنى الخيانة(مثل كاذبة و لاغية بمعنى كذب و لغو). و يحتمل أن تكون(اسم فاعل) من باب تقديم الصفة، أى أنها تعنى فى الأصل(الأعين الخائنة).

[۲۲۷] (۲)- تفسير الصافى أثناء الحديث عن الآية.

[۲۲۸] (۱)- سبأ، الآية ۳.

[۲۲۹] (۲)- تفسير القرطبى ذيل الآية.

[۲۳۰] (۳)- العلق، الآية ۱۴.

[۲۳۱] (۱)- الإسراء، الآية ۲۳.

[۲۳۲] (۲)- آل عمران، الآية ۴۷.

[۲۳۳] (۱)- الشعراء، الآية ۱۲۸- ۱۲۹.

[۲۳۴] (۱)- ورد فى تفسير الميزان عند الحديث عن الآية(۳۶) من سورة الشعراء\:i قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ E إنّ الآية دليل على أنّ هناك مجموعة منعت فرعون من قتل« موسى» عليه السّلام إلّا أنّ التدقيق فى الآيات الخاصة بقصة موسى تظهر أنّه لم تكن هناك نية لقتله فى ذلك الوقت، و إنّما كان الهدف اختبار النوايا لمعرفة الصادق من الكاذب، أما التصميم على القتل فقد كان بعد حادثة السحرة و انتصار موسى عليه السّلام عليهم و نفوذ تأثيره فى أعماق قلوب أهل مصر، حيث خشى فرعون العواقب.

[۲۳۵] (۱)- يستفاد هذا المعنى من روآية عن رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم(تلاحظ فى أمالى الصدوق طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ۵۱۹) و لكن بما أن الشائع أن« حزقيل» هو أحد أنبياء بنى إسرائيل، فعندها سيضعف هذا الاحتمال، إلا إذا كان« حزقيل» هذا غير النبى المعروف فى بنى إسرائيل. ثم إن الروآية ضعيفة السند.

[۲۳۶] (۲)- ورد هذا المعنى فى تفسير على بن إبراهيم، كما نقل صاحب نور الثقلين فى المجلد الرابع، صفحة ۵۱۸.

[۲۳۷] (۱)- القصص، الآية ۲۰.

[۲۳۸] (۱)- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ۵۲۱.

[۲۳۹] (۱)- يلاحظ الصدوق فى« الأمالى» و ابن حجر فى الفصل الثّانى الباب التاسع من« الصواعق».

[۲۴۰] (۱)-« داب» على وزن(ضرب) تعنى فى الأصل الاستمرار فى السير، و(دائب) تطلق على الكائن الذى يستمر فى سيره ثمّ أصبحت بعد ذلك تستعمل لأى عادة مستمرة ... و المقصود هنا من(دأب قوم نوح) هو قيامهم و استمرارهم و اعتيادهم على الشرك و الطغيان و الظلم و الكفر.

[۲۴۱] (۱)- الأعراف، الآية ۵۰.

[۲۴۲] (۲)- ورد هذا المعنى أيضا فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب« معانى الأخبار» للصدوق.

[۲۴۳] (۳)- هود، الآية ۱۸.

[۲۴۴] (۴)- الحاقة، الآية ۱۹.

[۲۴۵] (۵)- الحاقة، الآية ۲۵.

[۲۴۶] (۱)- تعتبر هذه الآية هى الوحيدة فى القرآن الكريم التى تشير صراحة إلى نبوة يوسف عليه السّلام، و إن كنّا لا نعدم إشارات متفرقة لهذه النبوّة فى سياق آيات قرآنية اخرى.

[۲۴۷] (۱)-(الذين) هنا بدل عن« مسرف مرتاب» إلّا أنّ المبدل عنه مفرد، فى حين أنّ البدل جاء على صيغة الجمع! السبب فى ذلك أنّ الخطاب لا يستهدف شخصا معينا و إنّما يشتمل على النوع.

[۲۴۸] (۲)- فاعل« كبر» هو(الجدال) حيث نستفيد ذلك من الجملة السابقة، أمّا« مقتا» فهى تمييز، فيما يرى بعض المفسّرين أنّ الفاعل هو« مسرف مرتاب» إلّا أنّ الرأى الأوّل أفضل.

[۲۴۹] (۳)-« متكبر جبار» وصف للقلب، و ليست وصفا لشخص، بالرغم من أنّها مضافة. اشارة الى أنّ أساس التكبر و التجبر إنما ينبع

من القلب، و لأنّ القلب يسيطر على كلّ أعضاء و وجود الإنسان، فإنّ كلّ الوجود الإنسانى سيكتسى هذا الطابع الفاسد البذىء.

[۲۵۰] (۱)- يمكن ملاحظة ذلك فى بحار الأنوار، المجلد ۱۳، صفحة ۱۲۵، نقلا عن تفسير على بن إبراهيم.

[۲۵۱] (۱)- يوسف، الآية ۳۹.

[۲۵۲] (۱)- قلنا سابقا: إنّ« لا- جرم» مركبة من(لا) و(جرم) على وزن(حرم) و هى فى الأصل تعنى القطع و اقتطاف الثمر، و هى ككلمة مركبة تعنى: لا يستطيع أى شىء أن يقطع هذا العمل أو يمنعه. لذلك تستخدم بشكل عام بمعنى(حتما) و تأتى أحيانا بمعنى القسم.

[۲۵۳] (۱)- يراجع تفسير مجمع البيان فى نهاية الحديث عن الآية مورد البحث.

[۲۵۴] (۱)-(حاق) بمعنى أصاب و نزل، و لكن احتملوا أيضا أن يكون أصلها(حق) فتغيرت إحدى القافين فيها إلى ألف فأصبحت(حاق)[يلاحظ ذلك فى مفردات الراغب كلمة حاق. ضمنا فإنّ(سوء العذاب) من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، إذ كانت فى الأصل(العذاب السوء).

[۲۵۵] (۲)-« النّار» بدل عن(سوء العذاب).

[۲۵۶] (۱)- مريم- ۶۲.

[۲۵۷] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۲۰۱.

[۲۵۸] (۱)-

\i\'i جاء فى كتاب(محاسن البرقى): عن الإمام الصادق عليه السّلام E فى تفسير قوله تعالى\:E

\i\'i فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا\E قوله عليه السّلام:« أما لقد سطوا عليه و قتلوه و لكن أ تدرون ما وقاه؟ وقاه أن يفتنوه فى دينه»\i نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ۵۲۱\.E\E

[۲۵۹] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۶۸، صفحة ۳۴۱.

[۲۶۰] (۲)- سفينة البحار، المجلد الثّانى، صفحة ۳۸۴، مادة« فوض».

[۲۶۱] (۱)- ينقل هذه الرواية كلّ من البخارى و مسلم فى صحيحيهما(طبقا كما يذكره الطبرسى و صاحب الدر المنثور و القرطبى، أثناء حديثهم عن الآية المذكورة أعلاه) أما صحيح مسلم فيعقد بابا حول الروايات المتعلقة بالبرزخ، إذ يمكن مراجعته فى المجلد الرابع، صفحة ۲۱۹۹.

[۲۶۲] (۲)- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ۵۲۶.

[۲۶۳] (۱)- يتصور البعض أنّ الضمير فى« يتحاجون» يعود إلى آل فرعون، إلّا أنّ القرائن تفيد أنّ الآية تنطوى على مفهوم عام يشمل جميع الكفّار.

[۲۶۴] (۲)-« تبعا» جمع تابع، و البعض يحتمل أن تكون مصدرا، خصوصا و أنّ إطلاق المصدر على الأشخاص الموصوفين بصفة معينة أمر متعارف. و المعنى فى هذه الحال هو: إنّنا كنا لكم عين التبعية.

[۲۶۵] (۱)-« خزنة» جمع خازن، و تعنى الحارس.

[۲۶۶] (۱)- فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۱۸۹- ۱۹۰.

[۲۶۷] (۱)- يمكن أن تكون« هدى و ذكرى» مفعولا لأجله أو مصدرا بمعنى الحال، أى(هاديا و مذكرا لأولى الألباب) لكن البعض احتمل أن تكون بدلا أو خبرا لمبتدأ محذوف، إلّا أن ذلك غير مناسب كما يبدو.

[۲۶۸] (۱)- ثمة بين المفسرين كلام حول مرجع الضمير فى قوله:« بالغيه» أشهره قولان.

الأول: أن يعود الضمير إلى« كبر» و تكون« ما هم ببالغيه» جملة وصفية ل(كبر) و يكون المعنى هكذا: إنهم لا يصلون إلى مقتضى و

هدف تكبرهم(فى الواقع حذف هنا المضاف و التقدير« ما هم ببالغى مقتضى كبرهم»).

الثانى: أن يعود الضمير إلى« جدال» الذى يستفاد من جملة« يجادلون» و المعنى أنهم لن يصلوا إلى هدف جدالهم المتمثل بإبطال الحق. و لكن فى هذه الحالة لا تستطيع أن نقول: إن الجملة صفة(كبر) بل ينبغى أن نعطفها على ما سبقها مع حذف العاطف.

[۲۶۹] (۱)- المؤمن- ۲۷.

[۲۷۰] (۲)- يلاحظ الرأى الأوّل فى مجمع البيان، تفسير الفخر الرازى، الكشاف، روح المعانى، الصافى و روح البيان.

[۲۷۱] (۱)- النظرة الأولية فى الآية قد لا توجب معنى ل« لا النافية» فى قوله تعالى\:i وَ لَا الْمُسِيءُ\E و لكن تأكيد النفى من ناحية، و تجلية المقصود من الجملة من ناحية ثانية، أوجب تكرار النفى، مضافا إلى أن طول الجملة قد يؤدى إلى نسيان الإنسان للنفى الأول، الأمر الذى يوجب التكرار.

[۲۷۲] (۲)-« ما» فى قوله تعالى\:i قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ E زائدة، و هى للتأكيد.

[۲۷۳] (۱)- داخر من« دخور» و تعنى الذلة، و هذه الذلة هى عقوبة ذلك التكبر و الاستعلاء.

[۲۷۴] (۲)- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ۵۲۸.

[۲۷۵] (۱)- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ۵۲۹.

[۲۷۶] (۲)- الكافى، مجلد ۲، باب: فضل الدعاء و الحث عليه. صفحة ۳۳۸.

[۲۷۷] (۳)- الكافى، المجلد الثّانى،(باب فضل الدعاء و الحث عليه) ص: ۳۳۸.

[۲۷۸] (۴)- مكارم الأخلاق، طبقا للميزان، المجلد ۲، ص ۳۴.

[۲۷۹] (۱)- أصول الكافى، المجلد الثّانى، باب من لا يستجاب له دعوة الحديث رقم(۲).

[۲۸۰] (۲)- البقرة، الآية ۱۸۶.

[۲۸۱] (۱)- معانى الأخبار. طبقا لما أورده نور الثقلين فى المجلد الرابع. صفحة(۵۳۴) و أصول الكافى.

[۲۸۲] (۲)- تفسير الصافى أثناء تفسير الآية الكريمة.

[۲۸۳] (۱)- يونس- ۸۷ و النمل- ۸۶ و القصص- ۷۱.

[۲۸۴] (۱)-« تؤفكون» من« إفك» و تعنى الانحراف و الرجوع عن طريق الحق و جادة الصواب. و لهذا السبب يقال للرياح المضادة« المؤتفكات». و يعبّر عن« الكذب» ب« الإفك» بسبب ما فيه من انحراف عن بيان الحق.

[۲۸۵] (۱)- الراغب فى المفردات مادة« جحد».

[۲۸۶] (۲)- لسان العرب نقلا عن« الجوهرى»

[۲۸۷] (۱)-« ذلكم» اسم إشارة للبعيد، و استخدامها فى مثل هذه الموارد كناية على العظمة و علو المقام.

[۲۸۸] (۱)- راجع تفسير قوله تعالى\:i كُنْ فَيَكُونُ E فى أثناء الحديث عن الآية(۱۱۷) من سورة البقرة.

[۲۸۹] (۱)-« الأغلال» جمع« غل» و تعنى الطوق حول العنق أو الرجل. و هى فى الأصل مأخوذة من كلمة« غلل» على وزن« أجل» بمعنى الماء الذى يجرى بين الأشجار. و يطلق على« الخيانة»(غلول) و على الحرارة الناشئة من العطش« غليل» و ذلك بسبب نفوذها تدريجا إلى داخل أعماق الإنسان.

« السلاسل» فهى جمع« سلسلة، و« يسحبون» من كلمة« سحب» على وزن(سهو).

[۲۹۰] (۲)- يلاحظ ذلك فى« تفسير الصافى» و« روح المعانى» و« الكشاف» فى نهاية الآيات التى نبحثها. و فى لسان العرب: المعنى الأصلى ل« سجر» هو الملء. فيقال« سجرت النهر» أى ملأته ماء.

[۲۹۱] (۱)- لقد ذكر المفسرون معنيين لكلمة« ضلوا» فالبعض اعتبرها بمعنى ضاعوا و هلكوا، بينما قال البعض الآخر: إنها بمعنى«

غابوا» کقولنا« ضلت الدابة» أی غابت فلم یعرف مکانها.

[۲۹۲] (۱)- یقول الراغب فی المفردات:« الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة، و أکثر ما یکون ذلک فی اللذات البدنیة. و المرح شدة الفرح و التوسع فیه».

[۲۹۳] (۱)- الحجر، الآیة ۴۴.

[۲۹۴] (۲)- مجمع البیان، المجلد ۵- ۶، صفحة ۳۳۸، نهایة الآیة ۴۴ من سورة الحجر. هناک روایات اخری ذکرها العلّامة المجلسی فی المجلد ۸ من بحار الأنوار، صفحة ۲۸۹، و ۳۰۱ و ۲۸۵.

[۲۹۵] (۱)- یلاحظ مثلها فی الآیة(۴۶) من سورة یونس.

[۲۹۶] (۱)- کما فی« هود» الآیات:(۴۳)،(۷۶)،(۱۰۱).

[۲۹۷] (۱)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۵۲۷، حدیث ۱۱۸.

[۲۹۸] (۲)- مجمع البیان: أثناء الحدیث عن هذه الآیة.

[۲۹۹] (۳)- بحار الأنوار، مجلد ۱۱، صفحة ۳۰، حدیث رقم ۲۱.

[۳۰۰] (۴)- بحار الأنوار، مجلد ۱۱، صفحة ۳۱، حدیث رقم ۲۲.

[۳۰۱] (۱)- بحار الأنوار، مجلد ۱۱، صفحة ۳۲، حدیث رقم ۲۴.

[۳۰۲] (۲)- بحار الأنوار، مجلد ۱۱، صفحة ۴۱، حدیث رقم ۲۴.

[۳۰۳] (۳)- ثمّة بحث بین المفسّرین عن اسم هذا النّبی، إذ فیهم من قال: إنّه« أرمیا» و البعض قال: إنّه« الخضر» و قال جمع: إنّه« عزیر».

[۳۰۴] (۱)- النساء- ۱۶۳.

[۳۰۵] (۲)- مجمع البیان نهایة الآیة التی تبحثها. و فی هوامش تفسیر الکشّاف هناک روایات عدیدة فی هذا المجال. یلاحظ المجلد الرابع، صفحة ۱۸۰، طبعة دار الکتاب العربی.

[۳۰۶] (۱)- کما تذکره الآیات(۱۲۸) و(۱۲۹) من سورة الشعراء.

[۳۰۷] (۲)- هناک احتمالان فی(ما) فی جملة« ما أغنی» فإمّا نافیة أو استفهامیة، لکن یظهر أنّ الأوّل هو الصحیح، و هناک أیضا احتمالان فی« ما» فی جملة(ما کانوا یکسبون) فإما موصولة أو مصدریة و لکن الأوّل هو المرجح

[۳۰۸] (۱)- احتمل البعض أن یعود الضمیر فی(جاءتهم) إلی الأنبیاء، لذا یکون المقصود بالعلوم علوم الأنبیاء، بینما المقصود من(فرحوا) هو ضحک و استهزاء الکفّار بعلوم الأنبیاء، لکن هذا التّفسیر احتماله بعید.

[۳۰۹] (۲)- سورة یس، الآیة ۷۸.

[۳۱۰] (۳)- السجدة، الآیة ۱۰.

[۳۱۱] (۴)- القصص، الآیة ۷۸.

[۳۱۲] (۱)- مجمع البیان مطلع الحدیث عن السورة، المجلد ۹، صفحة ۲.

[۳۱۳] (۲)- مجمع البیان مطلع الحدیث عن السورة، المجلد ۹، صفحة ۲.

[۳۱۴] (۱)- روح المعانی، المجلد ۲۴، ص صفحة ۸۴.

[۳۱۵] (۱)- المدثر، الآیة ۱۱- ۳۰.

[۳۱۶] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۱۷، صفحة ۲۱۱ فما فوق، و یمکن ملاحظة القصة فی کتب اخری منها: تفسیر القرطبی فی مطلع حدیثه عن السورة. المجلد الثامن، صفحة ۵۷۸۲.

[۳۱۷] (۱)-« كتاب» خبر بعد الخبر، و بهذا الترتيب فإنّ« تنزيل» خبر لمبتدأ محذوف و« كتاب» خبر بعد الخبر.

[۳۱۸] (۲)-« لقوم يعلمون» يمكن أن تكون متعلقة ب« فصلت» أو ب« تنزيل».

[۳۱۹] (۱)-« فاستقيموا» مأخوذة من« الاستقامة» و هى هنا بمعنى التوجه بشكل مستقيم نحو شىء معين، لذا فإنها تعدت بواسطة الحرف(إلى) لأنّها تعطى مفهوم(استواء).

[۳۲۰] (۱)- يلاحظ مادة« من» فى مفردات الراغب.

[۳۲۱] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد السادس، الصفحات ۱۸ و ۱۹« باب ثبوت الكفر و الارتداد و القتل بمنع الزكاة استحلالا و جحودا» و قد اعتبر بعض الفقهاء كصاحب الوسائل مثلا، أنّ الروايات أعلاه تختص بإنكار الزكاة.

[۳۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۳۲۳] (۱)- المصدر السابق.

[۳۲۴] (۱)- هناك احتمالات متعدّدة حول محل(سواء) و(للسائلين) من الأعراب و بما تختص.

الأوّل: أنّ(سواء) حال ب(أقوات) و(للسائلين) متعلق ب(سواء) و تكون النتيجة هى التّفسير الذى أوردناه أعلاه.

الثّانى: أنّ(سواء) صفة للأيام، يعنى أنّ هذه المراحل الأربع تتساوى فيما بينها. و أما(للسائلين) فإما أن تتعلق ب(قدر) أو بمحذوف و يكون التقدير(كائنة للسائلين) يعنى أنّ الأيّام الأربع هذه تعتبر جوابا للسائلين. لكن التّفسير الأوّل أوضح.

[۳۲۵] (۱)- يمكن مراجعة الآيات(۵۴) من سورة الأعراف و(۳) من سورة هود و(۵۹) من سورة الفرقان و(۴) من سورة السجدة و(۳۸) سورة ق و(۴) من سورة الحديد.

[۳۲۶] (۲)- فى ضوء هذا التفسير يكون للآية تقديرها بالصيغة الآتية ... و قدّر فيها أقواتها فى تتمة أربعة أيّام أو يكون التقدير كما جاء فى تفسير« الكشاف»:« كل ذلك فى أربعة أيّام».

[۳۲۷] (۱)- ثمّة حديث بهذا المضمون فى تفسير على بن إبراهيم.

[۳۲۸] (۲)- راجع الآية(۵۴) من سورة الأعراف.

[۳۲۹] (۱)- أما ما نقل عن ابن عباس من قوله: إنّ خلق الأرض كان قبلا، و أما« دحو الأرض» فجاء بعد ذلك، فهو لا يحل المشكلة، و كأن ابن عبّاس لم يهتم عما بعد الآية من حديث عن خلق الجبال و المواد الغذائية!

[۳۳۰] (۲)- طه، الآية ۵.

[۳۳۱] (۱)-« الفاء» فى« فإن اعرضوا» هى« فاء التفريع» كما قيل، بناء على ذلك فإنّ هذا الإنذار الحاسم يعتبر فرعا و نتيجة للإعراض عن الآيات التوحيدية السابقة.

[۳۳۲] (۱)- إنّ هذا التعبير يشبه فى الواقع جملة:« اللّه أكبر» حيث تقوم بتعريف اللّه(جلّ و علا) بأنّه أعظم و أكبر من جميع الموجودات، ذلك أنّنا نعلم أن لا قياس بين الإثنين(التراب و رب الأرباب) و لكن اللّه يتحدّث إليها بلساننا، لذلك نرى أمثال هذه الألفاظ و التعابير فى كلامه تعالى

[۳۳۳] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة رقم(۱۱۱).

[۳۳۴] (۱)- الحجر، الآية ۸۲.

[۳۳۵] (۱)- يلاحظ الفخر الرازى فى التّفسير الكبير فى نهاية حديثه عن هذه الآية.

[۳۳۶] (۱)-« يوزعون» من« وزع» و هى بمعنى المنع، و عند ما تستخدم للجنود أو الصفوف الأخرى، فإن مفهومها يعنى أن يبقى المجموع إلى أن يلتحق بهم آخر نفر.

[۳۳۷] (۲)-« ما» فى قوله تعالى\:i إِذا ما جاؤُها\E زائدة، و هى هنا للتأكيد.

[۳۳۸] (۱)- هـذا التّفسیر وارد عند ما یکون معنی الآیة\:i أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ\E ناطق و لکن یحتمل أن یکون معنی أنطق کل شیء بالمعنی المطلق، بمعنی أنّ اللّه الذی أنطق جمیع الموجودات، و هو یکشف عن جمیع الأسرار الیوم، هو الذی أنطقنا، فلا تتعجبوا من کلامنا فجمیع کائنات العالم ستنطق فی هذا الیوم.

[۳۳۹] (۱)- نقل هذه الحادثة(باختلاف) الکثیر من المفسّرین، منهم: القرطبی، الطبرسی، الفخر الرازی، الألوسی، المراغی، و کذلک نقل الحادثة کلّ من البخاری و مسلم و الترمذی، و ما أوردناه أعلاه مأخوذ عن القرطبی مع التصرّف. المجلد الثامن، صفحة ۵۷۹۵.

[۳۴۰] (۲)-« ذلکم» مبتدأ و(ظنکم) خبر له. لکن البعض احتمل أنّ(ظنکم) بدل و(أرداکم) خبر(ذلکم).

[۳۴۱] (۳)-« أرداکم» من« ردی» علی وزن« رأی» و تعنی الهلاک.

[۳۴۲] (۴)- عن مجمع البیان نهایة تفسیر الآیة مورد البحث.

[۳۴۳] (۱)- عن تفسیر علی بن إبراهیم کما نقل عنه تفسیر نور الثقلین، المجلد الرابع، صفحة ۵۴۴.

[۳۴۴] (۱)- یونس، الآیة ۶۱.

[۳۴۵] (۲)- النساء، الآیة ۴۱.

[۳۴۶] (۱)- أصول الکافی، المجلد الأول، صفحة ۱۹۰

[۳۴۷] (۲)- النور، الآیة ۲۴.

[۳۴۸] (۳)- لئالی الأخبار، صفحة ۴۶۲.

[۳۴۹] (۴)- فصلت، الآیة ۲۱.

[۳۵۰] (۵)- سورة ق، الآیة ۲۱.

[۳۵۱] (۶)- الزلزال، الآیة ۴.

[۳۵۲] (۱)- سفینة البحار، المجلد الثّانی، مادة یوم.

[۳۵۳] (۱)- یکون التقدیر هکذا:« فإن یصبروا أو لا یصبروا فالنار مثوی لهم».

[۳۵۴] (۱)- یلاحظ« مفردات الراغب» و« لسان العرب» فی مادة« عتب».

[۳۵۵] (۱)-« فی أمم» متعلقة بفعل محذوف، و فی التقدیر تکون الجملة:« کائنین فی أمم قد خلت». و من المحتمل أن تکون« فی» هنا بمعنی« مع».

[۳۵۶] (۱)- تفسیر المراغی، المجلد ۲۴، صفحة ۱۲۵، و تفسیر روح المعانی، المجلد ۲۴، أیضا، صفحة ۱۰۶.

[۳۵۷] (۱)-« النّار» یمکن أن تکون« عطف بیان» أو« بدل» ل« جزاء» أو أن تکون(خبرا لمبتدأ محذوف) و التقدیر هو النّار».

[۳۵۸] (۲)-« جزاء» یمکن أن تکون مفعولا لفعل محذوف تقدیره« یجزون جزاء» أو أن تکون مفعولا لأجله.

[۳۵۹] (۱)-« استقاموا» من« الاستقامة» و تعنی الثبات علی الطریق المستقیم الخط الصحیح. و فسرها بعض علماء اللغة بمعنی« الاعتدال» و لا یستبعد الجمع بین المعنیین.

[۳۶۰] (۲)- مجمع البیان فی نهایة الحدیث عن الآیة.

[۳۶۱] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۷۶.

[۳۶۲] (۴)- مجمع البیان فی نهایة الحدیث عن الآیة.

[۳۶۳] (۱)- روح البیان، المجلد الثامن، صفحة ۲۵۴.

[۳۶۴] (۱)- یمکن ملاحظة ذلک فی نور الثقلین، المجلد الرابع، الصفحات ۵۴۶ و ۵۴۷ الروایات رقم: ۳۸- ۴۰- ۴۵- ۴۶.

[۳۶۵] (۱)- الم سجدة، الآیة ۱۷.

[۳۶۶] (۱)- تكرار« لا» فى« و لا السيئة» هو لتأكيد النفى.

[۳۶۷] (۱)- مجمع البيان نهاية الحديث عن الآية.

[۳۶۸] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۲۱، صفحة ۱۰۹.

[۳۶۹] (۲)- سورة النصر، آية ۲.

[۳۷۰] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۲۱، صفحة ۱۳۲.

[۳۷۱] (۲)- يرجع ضمير(يلقاها) إلى(الخصلة) أو(الوصية) المستفادة من الجملة السابقة.

[۳۷۲] (۱)- اعتقد بعض المفسّرين أن قوله تعالى\:i وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ E إشارة إلى الثواب العظيم لمثل هؤلاء الأشخاص العافين الذى ينالهم فى الآخرة، لكن هذا التّفسير مستبعد بسبب أنّ الآية تريد أن تبين الأساس الأخلاقى لهذا العمل العظيم.

[۳۷۳] (۲)-« نزغ» فى الآية الكريمة يمكن أن تكون بنفس معناها المصدرى أو أن تكون« اسم فاعل».

[۳۷۴] (۱)- نور الثقلين، المجلد الرابع، صفحة ۵۴۹.

[۳۷۵] (۱)- روح المعانى، المجلد ۲۴، صفحة ۱۱۱.

[۳۷۶] (۲)- نور الثقلين، المجلد ۴، صفحة ۱۵۵۱.

[۳۷۷] (۱)- ينبغى الالتفات إلى أنّ السجدة هنا واجبة فى حال سماع الآية أو تلاوتها.

[۳۷۸] (۲)- يرجع ضمير التأنيث فى(خلقهن) إلى الليل و النهار و الشمس و القمر كما يقول علماء اللغة و أصحاب التّفسير، إذ أنّ ضمير جمع المؤنث العاقل قد يعود أحيانا إلى جمع غير العاقل كما يقال مثلا(الأقلام بريتهنّ) و البعض يعتقد أنّ الضمير هنا يرجع للآيات التى هى جمع مؤنث لغير العاقل.

و احتمل البعض أن الضمير يعود على الشمس و القمر فقط باعتبار آنها جنس تشمل جميع الكواكب و كأنّها تتمتع بعقل و شعور.

[۳۷۹] (۱)-« لا يسأمون»: من كلمة(السئامة) و تعنى التعب من الاستمرار فى العمل أو فى موضوع معين.

ضمنا فإنّ جملة(فإن استكبروا) جملة شرطية جزاؤها محذوف، و التقدير هو: فإن استكبروا عن عبادة اللّه و توحيده فإن ذلك لا يضرّه شيئا».

[۳۸۰] (۱)- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، المجلد الرابع، صفحة ۸۸۴[باب ۴۶ من أبواب قراءة القرآن، حديث رقم(۲)].

[۳۸۱] (۱)- لقد ذكر المفسّرون عدّة احتمالات حول خبر« إنّ الذين» أنسبها أن تقول بأنّ الخبر هو جملة(لا يخفون علينا) حيث حذف بقرينة الآية السابقة. و قال البعض: إنّ الخبر هو جملة« يلقون فى النّار» المستفادة من الآية السابقة، بينما قال البعض بأنّه جملة« أولئك ينادون من مكان بعيد» التى ترد فى الآيات القادمة، لكن الرأى الأوّل أرجح.

[۳۸۲] (۱)- لقد اختيار هذا التّفسير الزمخشرى فى كشافه، و للعلّامة الطباطبائى حديث يشبه هذا فى تفسير الميزان، فى حين حدّد بعض المفسّرين مصطلح الباطل بالشيطان أو المحرفين، أو الكذب، و ما شابه، و قد ورد فى حديث عن الباقر و الصادق قولهما عليهما السلام:« إنّه ليس فى أخباره عما مضى باطل، و لا فى أخباره عمّا يكون فى المستقبل باطل» كما نقل عنهما عليهما السلام صاحب مجمع البيان، و واضح أن ما ذكر هو مصاديق لمفهوم الآية.

[۳۸۳] (۱)- هذا الاحتمال يمكن ملاحظته فى تفسير« مجمع البيان» و« التّفسير الكبير» و لكنّ كليهما رجح التفسير الأوّل.

[۳۸۴] (۲)- عن دعاء الجوشن الكبر. الفصل(۱۹) الجملة الثامنة.

[۳۸۵] (۱)- فى تفسير الفخر الرازى نقرأ قوله: نقلوا فى سبب نزول هذه الآية أنّ الكفار لأجل التعنت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم».

[۳۸۶] (۲)- بعض المفسّرين فسّر قوله تعالى\:i ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ E بنفس معناه المباشر أى مزيج و خليط بين العربى و الأعجمى.

[۳۸۷] (۱)- بعض المفسّرين ذهب إلى القول بأنّ الجملة أعلاه معناها هو: أنّ القرآن هو سبب فى عمى هذه الفئة و عدم رؤيتها» فى

حين أنّ الراغب فى المفردات و ابن منظور فى لسان العرب اعتبروا قول العرب« عمى عليه» بمعنى أنّه« اشتبه حتى صار الإضافة إليه كالأعمى» و بناء على هذا يكون المراد من الآية هو ما ذهبنا إليه فى المتن.

[۳۸۸] (۲)- يلاحظ ذلك فى تفسير القرطبى حديثه عن الآية.

[۳۸۹] (۱)- ينبغى أن يلاحظ أن الآية بعينها وردت فى سورة هود آية(۱۱۰).

[۳۹۰] (۱)- عيون أخبار الرضا، نقلا عن نور الثقلين، المجلد ۴، صفحة ۵۵۵.

[۳۹۱] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۸.

[۳۹۲] (۱)-« من» فى« من الثمرات» و« من أثنى» و كذلك فى« من شهيد» تأتى فى نهاية الآية كلّها، زائدة جاءت هنا للتأكيد.

[۳۹۳] (۲)- يلاحظ الراغب فى المفردات.

[۳۹۴] (۳)- تفسير الميزان و تفسير المراغى.

[۳۹۵] (۴)-« آذناك» من« إيذان» بمعنى الإعلان، و جملة« يوم يناديهم» تتعلق بمحذوف. و التقدير:« اذكر يوم يناديهم ...».- لقد ذكروا لهذه الجملة تفسيرا آخر هو: لا يوجد بيننا اليوم من يشهد بوجود شريك لك، و الكل ينكر وجود الشريك.

[۳۹۶] (۱)- تفسير الميزان، المجلد ۱۷، صفحة ۴۲۶.

[۳۹۷] (۲)- الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، المجلد ۲۷، صفحة ۱۳۷، و روح المعانى، المجلد ۲۵، صفحة ۴.

[۳۹۸] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۱۸.

[۳۹۹] (۲)- يوسف، الآية ۸۷ فما فوق.

[۴۰۰] (۳)- الحجر- ۵۵.

[۴۰۱] (۴)- ذهب بعض المفسرين للقول بأن جملة« هذا لى» تعنى أن هذه النعمة ستبقى دائما لى، أى إنها فى الحقيقة توضح دوام ذلك، إلا أن التفسير الذى عرضناه أعلاه أنسب بالرغم من إمكان الجمع بين الإثنين، أى إنهم يعتبرون أنفسهم مستحقين للنعم، و يتصورونها دائمة لهم أيضا.

[۴۰۲] (۵)- القصص، الآية ۷۸.

[۴۰۳] (۱)- الكهف، الآيات، ۳۵- ۳۷.

[۴۰۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۶۴.

[۴۰۵] (۲)-« أرأيتم» تأتى عادة بمعنى« أخبرونى» و تفسّر بنفس المعنى.

[۴۰۶] (۱)- يناديه الإمام بهذا الاسم، و هو اسمه الحقيقى مع كونه منكرا للّه لكى يشعره مهانة ما هو عليه و هذا اسمه.

[۴۰۷] (۱)- الكافى، المجلد الأول، ص ۷۷- ۷۸، كتاب التوحيد باب حدوث العالم.

[۴۰۸] (۲)- الإسراء، الآية ۸۳.

[۴۰۹] (۳)- تفسير روح البيان، المجلد الثامن، صفحة ۲۸۰.

[۴۱۰] (۴)- تفسير الميزان، مجلد ۱۷، ص ۴۲۸، لكن هذا التفسير لا يناسب المقام كثيرا، خاصة و إن الآيات أعلاه هى بصدد ذم مثل هؤلاء الأشخاص، فى حين أن قطع الأمل من الأسباب الظاهرية و التوجه نحو الله ليس عيبا و حسب، بل يستحق التنويه و المدح.

[۴۱۱] (۱)- ذهب الكثير من المفسّرين إلى أنّ« الباء» زائدة و« ربك» تقوم مقام الفاعل. و جملة« أنّه على كلّ شىء شهيد»« بدل» ذلك، و المعنى يكون هكذا:« أولم يكفهم أن ربّك على كلّ شىء شهيد».

[۴۱۲] (۱)- التّفسير الأوّل له أربعة مرجحات هى:

أولا: إنّ أكثر ما تؤكد عليه الآيات هو قضية التوحيد و أدلته.

ثانيا: إنّ تعبيرى« آفاق و أنفس» أكثر تناسبا مع آيات التوحيد.

ثالثا: نشير نهاية الآية فى قوله تعالى\:i أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ\E إلى قضية التوحيد، و شهادة اللّه التكوينية على حقانية ذاته المنزّهة.

رابعا: الآية التى تليها تتحدث عن المعاد، و نحن نعرف أنّ المبدأ و المعاد غالبا ما يقترن أحدهما بالآخر.

أما التّفسير الأوّل فله ثلاثة مرجحات هى:

أوّلا: إنّ ضـمير« إنّه» مفرد للغائب، فى حين أنّ ضـمير« آياتنا» متكلّم مع الغير، و هـذه إشارة إلى أنّ كلّ ضـمير من الضـميرين يختص بمتابعة موضوع خاص.

ثانيا: إنّ الآية السابقة كانت حول القرآن بالخصوص.

ثالثا: إنّ جملة« سنريهم» التى هى فعل مضارع للاستمرار، تفيد هذا المعنى بالذات، أى أنّ الآيات المذكورة سنعرضها فيما بعد.

[۴۱۳] (۱)- تفسير الميزان. المجلد(۱۷). صفحة(۴۰۵).

[۴۱۴] (۱)- هذا المقطع من دعاء الصباح المنقول عن أمير المؤمنين عليه السّلام.

[۴۱۵] (۲)- آل عمران، الآية ۱۸.

[۴۱۶] (۱)- مقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السّلام فى يوم عرفة، و هو ممّا تذخر به كتب الأدعية.

[۴۱۷] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۳، صفحة ۷۷.

[۴۱۸] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹- ۱۰، ص ۳۱، طبعة دار المعرفة.

[۴۱۹] (۲)- ثواب الأعمال، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، صفحة ۵۵۶.

[۴۲۰] (۱)- الميزان، للعلّامة محمد حسين الطباطبائى، المجد ۱۸، صفحة ۸- ۹.

[۴۲۱] (۲)- يستفاد هذا التّفسير عن حديث للإمام الصادق عليه السّلام. يراجع تفسير القرطبى، المجلد ۹، صفحة ۵۸۲۲.

[۴۲۲] (۱)- بالرغم من الكلام الكثير للمفسّـرين حول المشار إليه فى اسم الإشارة« كـذلك» لكن يظهر أنّ المشار إليه هو نفس هـذه الآيات النازلة على النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم لذا يكون مفهوم الآية: إنّ الوحى هو بهذا الشكل الذى أنزله اللّه عليك و على الأنبياء السابقين، و قد استخدم اسم الإشارة للبعيد بالرغم من قرب المشار إليه، و ذلك للتعظيم و الاحترام.

[۴۲۳] (۲)-« يتفطرن» من كلمة« فطر» على وزن« سطر» و تعنى فى الأصل الشق الطولى.

[۴۲۴] (۱)- الغاشية، الآية ۲۲.

[۴۲۵] (۲)- سورة ق، الآية ۴۵.

[۴۲۶] (۳)- الأنعام، الآية ۱۰۷.

[۴۲۷] (۴)- المائدة، الآية ۹۹.

[۴۲۸] (۱)- ينبغى الانتباه، إلى أنّ(تنذر) تتعدى إلى مفعولين، و فى الآية مورد البحث ذكر مفعولها الأوّل فى الجملة الأولى، و الثّانى فى الجملة الثانية. و قد يصحب المفعول الثّانى بالباء فيقال: أنذره بذلك.

[۴۲۹] (۱)- جاء هذا التعبير فى سورة الأنعام كذلك الآية(۹۲) و قد ذكرنا هناك توضيحا أوسع، فليراجع.

[۴۳۰] (۲)- الشعراء، الآية ۲۱۴.

[۴۳۱] (۳)- فصـلت، الآية ۳، إنّ مـا قلنـاه هو فى حـال اعتبارنـا كلمـة(عربى) بمعنى اللغـة العربيـة، أمّا إذا فسـرناها بالمعنى الفصـيح فسيكون للآية مفهوم آخر.

[۴۳۲] (۱)- الواقعة، الآية ۵۰.

[۴۳۳] (۱)- لقمان، الآية ۱۳.

[۴۳۴] (۱)- يلاحظ ذلك فى مجمع البيان، المجلد ۸، صفحة ۷۷۹، ذيل الآية(۲۲) من العنكبوت.

[۴۳۵] (۱)- اعتبر بعض المفسّرين(كالزمخشرى فى الكشاف و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير- أنّ« أم» هنا بمعنى الاستفهام- الإنكارى، أما البعض الآخر- كالطبرسى فى« مجمع البيان» و القرطبى فى« الجامع لأحكام القرآن»- فقد اعتبروها بمعنى« بل».

[۴۳۶] (۱)- فى بداية هذه الجملة تكون كلمة« قل» مقدّرة، فهذه الجملة و ما بعدها تتحدث عن لسان النبىّ فقط، أمّا جملة\i مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ\E فهى استمرار لحديث الخالق جلّ و علا. و الذين اختاروا غير ذلك لم يسلكوا الطريق الصحيح فى الظاهر.

[۴۳۷] (۲)- الميزان، المجلد ۱۸، الصفحة ۲۳.

[۴۳۸] (۱)- الضمير فى« فيه» يعود إلى« التدبير» أو« جعل الأزواج» و« يذرؤ» من« ذرأ» على وزن« زرع» و تعنى« الخلق» لكنّه الخلق الذى يقترن و يتزامن مع إظهار الأفراد. و قد وردت أيضا بمعنى الانتشار.

[۴۳۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۸۴.

[۴۴۰] (۱)- المنافقون، آية ۷.

[۴۴۱] (۲)- بهذا الخصوص لدينا بحث مفصل يمكن مراجعته فى نهاية الحديث عن الآية(۶۳) من سورة« الزمر».

[۴۴۲] (۱)- الخطبة رقم(۱۸۶).

[۴۴۳] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۶۵.

[۴۴۴] (۱)- لاحظ مفردات الراغب مادة« مثل».

[۴۴۵] (۱)- الشورى، الآية ۲۷.

[۴۴۶] (۱)- الأعراف(۵۹، ۶۵، ۷۳، ۸۵) هود(۵۰، ۶۱، ۸۴) حيث جاءت بالترتيب بخصوص نوح، هود و صالح عليهم السّلام.

[۴۴۷] (۱)- لقد جاء هذا المعنى بشكل مجمل فى لسان العرب و المفردات للراغب و بقية كتب اللغة.

[۴۴۸] (۲)- هناك شرح أوردناه بهذا الخصوص فى نهاية الآية ۲۱۳ من سورة البقرة.

[۴۴۹] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، المجلد ۲۷، ص ۱۵۷(نهاية الآيات التى نبحثها).

[۴۵۰] (۱)- وفقا لهذا التّفسير الذى يتناسق بشكل كامل مع الجمل السابقة، فإن ضمير(بعدهم) يعود إلى الأمم الأولى التى أوجدت الفرقة بين المذاهب و الأديان، و ليس إلى الأنبياء المذكورين فى الآية السابقة(فدقق ذلك).

[۴۵۱] (۲)- تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ۵۶۷.

[۴۵۲] (۱)- بعض المفسّرين اعتبر« اللام» فى« لذلك» بمعنى« إلى»، و البعض الآخر بمعنى(التعليل) و فى الحالة الأولى تكون كلمة(ذلك) إشارة إلى دين الأنبياء السابقين، و فى الحالة الثانية إشارة إلى اختلاف الأمم.

[۴۵۳] (۱)- بعض المفسّرين حدّد(العدالة) هنا بالقضاء، فى حين أنّه لا توجد قرينة على هذه المحدودية فى الآية.

[۴۵۴] (۱)- الضمير المتكلم مع الغير فى(بيننا) يشير إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و المؤمنين، و ضمير الجمع فى(بينكم) يشير إلى جميع الكفار، سواء كانوا أهل الكتاب أو المشركين.

[۴۵۵] (۲)- مجمع البيان، نهاية الآيات التى نبحثها. و تحف العقول كلمات الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

[۴۵۶] (۱)-« مشفقون» من كلمة(إشفاق) و تعنى العلاقة المقترنة مع الخوف، فمتى ما تعدت بحرف(من) يطغى جانب الخوف عليها، و عند ما تتعدى بحرف(على) يطغى جانب الانتباه و المراقبة عليها، و لذا فإن الإنسان يقول لصاحبه و صديقه:« أنا مشفق عليك»(تفسير روح المعانى و مفردات الراغب).

[۴۵۷] (۱)- تفسير المراغى، المجلد الخامس و العشرون، ص ۳۲.

[۴۵۸] (۱)- الآیة ۲۷- نفس هذه السورة.

[۴۵۹] (۱)- مصطلح(حرث) کما یقول الراغب فی مفرداته: تعنی فی الأصل: رمی البذر فی الأرض و تهیئتها للزراعة، و فی القرآن الکریم استخدمت عدة مرات بهذا المعنی، و لکن لا یعلم سبب اعتبار بعض المفسرین أنها تعنی(العمل و الکسب).

[۴۶۰] (۱)- الأنعام، الآیة ۱۶۰.

[۴۶۱] (۲)- فاطر، الآیة ۳۰.

[۴۶۲] (۳)- المحجة البیضاء، المجلد الخامس، ص ۱۹۳(کتاب آفات اللسان).

[۴۶۳] (۴)- الکافی، وفقا لنقل نور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۶۹.

[۴۶۴] (۱)- مجمع البیان، نهایة الآیات التی نبحثها.

[۴۶۵] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۹.

[۴۶۶] (۱)- سورة یس، الآیة ۸۲.

[۴۶۷] (۱)- سورة الشعراء، الآیة ۱۰۹، ۱۲۷، ۱۴۵، ۱۶۴، ۱۸۰.

[۴۶۸] (۱)- سبأ، الآیة ۴۷.

[۴۶۹] (۲)- سورة ص، الآیة ۸۶.

[۴۷۰] (۱)- إحقاق الحق، المجلد الثّالث، ص ۲، کما ذکر القرطبی: أیضا هذه الروایة فی نهایة الآیة التی نبحثها المجلد الثامن، ص ۵۸۴۳.

[۴۷۱] (۲)- مستدرک الصحیحین، المجلد الثَّالث، ص ۱۷۲، و قد نقل محب الدین الطبری نفس هذا الحدیث فی الذخائر ص ۱۳۷، کما ذکر ابن حجر ذلک أیضا فی الصواعق المحرقة، ص ۱۰۱.

[۴۷۲] (۱)- الدر المنثور، نهایة الآیة التی نبحثها، المجلد السادس، ص ۷.

[۴۷۳] (۲)- تفسیر الطبری- المجلد ۲۵- ص ۱۶ و ۱۷.

[۴۷۴] (۳)- مجمع البیان، المجلد التاسع، ص ۲۹.

[۴۷۵] (۱)- الدر المنثور، المجلد السادس، ص ۷.

[۴۷۶] (۱)- تفسیر الکشاف، المجلد الرابع، ص ۲۲۰ و ۲۲۱، تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۷، ص ۱۶۵ و ۱۶۶، تفسیر القرطبی، المجلد الثامن، ص ۵۸۴۳، تفسیر الثعلبی، نهایة الآیة التی نبحثها عن جلیل بن عبد اللّه البجلی(وفقا لنقل المراجعات رسالة رقم ۱۹).

[۴۷۷] (۱)- تفسیر فخر الرازی ۲۷/ ۱۶۶.

[۴۷۸] (۱)- تفسیر روح المعانی ج ۲۵، ص ۳۲- ۳۳.

[۴۷۹] (۱)- تفسیر روح المعانی، ج ۲۵، ص ۳۲.

[۴۸۰] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۷، ص ۱۶۷.

[۴۸۱] (۱)- نقل(الحاکم) هذا الحدیث عن ابن عباس فی المجلد الثّالث(المستدرک) ص ۱۴۹، ثمّ یقول: هذا حدیث صحیح الإسناد و لم یخرجاه.

[۴۸۲] (۲)- مجمع البیان- نهایة الآیات التی نبحثها، و تفسیر الصافی و القرطبی.

[۴۸۳] (۱)- لاحظوا أنّ« یمح» هی فی الأصل کانت(یمحو) حیث سقطت الواو لأن الرسم القرآنی- عادة- هکذا، مثل i وَ یَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ\E(الإسراء- ۱۱) و\i سَنَدْعُ الزَّبانِیَةَ\E(العلق- ۱۸)، إلّا أنّه وفقا للرسم الحدیث فإن الواو تذکر فی جمیع هذه الکلمات، إلّا أنّها تحذف فی القرآن غالبا.

[۴۸۴] (۱)- راجع مفردات الراغب.

[۴۸۵] (۱)- تفسیر« مجمع البیان» نهایة الآیات التی نبحثها.

[۴۸۶] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، تفسیر أبو الفتوح الرازی، و تفسیر القرطبی(نهایة الآیة التی نبحثها).

[۴۸۷] (۱)- ینقل الدر المنثور هذا الحدیث عن الحاکم و البیهقی و أبی نعیم(ج ۶ ص ۸).

[۴۸۸] (۱)- یونس، الآیة ۲۳.

[۴۸۹] (۲)- آیة ۴۲ من نفس هذه السورة.

[۴۹۰] (۱)- یقول الراغب فی مفرداته: الغوث یقال فی النصرة، و الغیث فی المطر.

[۴۹۱] (۱)-(إذا) و كما یقول صاحب الكشاف، تدخل علی الفعل المضارع كما تدخل علی الفعل الماضی، مثل i وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى E و لكن الفعل أكثر ما یكون بعد(إذا) علی شكل الماضی و قلیل جدا علی شكله المضارع.

[۴۹۲] (۱)- سفینة البحار- كلمة نجم- المجلد الثّانی- ص ۵۷۴، نقلا عن تفسیر علی بن إبراهیم القمی.

[۴۹۳] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، ص ۳۱(نهایة الآیات التی نبحثها) و قد ورد ما یشبه هذا الحدیث فی(الدر المنثور) و تفسیر(روح المعانی) مع بعض الاختلاف و ذلک فی نهایة الآیات التی نبحثها، و الأحادیث فی هذا المجال كثیرة.

[۴۹۴] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لنور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۸۰.

[۴۹۵] (۲)- أصول الكافی طبقا لنور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۸۱.

[۴۹۶] (۱)- المیزان، المجلد ۱۸، ص ۶۱.

[۴۹۷] (۱)-« معجزین» من كلمة(إعجاز) إلّا أنّها وردت فی العدید من الآیات القرآنیة بمعنی الهروب من محیط القدرة الإلهیة و من عذابه، حیث یقتضی معناها ذلک.

[۴۹۸] (۲)- فی ظلال القرآن- المجلد السابع ص ۲۹۰.

[۴۹۹] (۱)- نهج البلاغة- الخطبة ۱۷۸.

[۵۰۰] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۸۱، ص ۱۹۸.

[۵۰۱] (۳)- الكافی،- المجلد الثّانی، كتاب الإیمان و الكفر- باب تعجیل عقوبة الذنب- الحدیث ۲.

[۵۰۲] (۴)- المصدر السابق.

[۵۰۳] (۱)-« صفة» علی وزن(غصّة) و تعنی فی اللغة الصیفیة المغطاة بسعف النحل.

[۵۰۴] (۱)- إبراهیم- ۵، لقمان- ۳۱، سبأ- ۱۹، و الآیة التی نبحثها.

[۵۰۵] (۲)- تفسیر الصافی، مجمع البیان، الفخر الرازی، و القرطبی نهایة الآیة(۳۱) من سورة لقمان.

[۵۰۶] (۱)- جملة\i وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ\ ...E كما یقول الزمخشری فی كشافه: وردت منصوبة بسبب عطفها علی تعلیل محذوف و تقدیره: لینتقم منهم و یعلم الذین یجادلون ... فالهدف أن ینتقم الخالق من هذه المجموعة، و الهدف أن یعلم المجادلون بعدم وجود طریق للنجاة.

[۵۰۷] (۱)- روح البیان، المجلد الثّالث، ص ۴۲۹(نهایة الآیة ۳۸ من سورة التوبة)

[۵۰۸] (۱)- یعتقد غالب المفسّرین أن i الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ E عطف ل\i لِلَّذِينَ آمَنُوا\E فی الآیة السابقة، بالرغم من احتمال البعض أنّها مبتدأ خبره محذوف(و فی التقدیر و الذین یجتنبون ... لهم مثل ذلک من الثواب) إلّا أن المعنی الأوّل أفضل ظاهرا.

[۵۰۹] (۲)- نور الثقلین، المجلد الأوّل، ص ۴۷۳.

[۵۱۰] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم- طبقا لنقل نور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۸۳.

[۵۱۱] (۲)- يقول بعض المفسّرين أنّه متى ما كانت(شورى) مصدرا و تعنى المشاورة يجب أن تضاف لها كلمة(ذو) و يصبح تقدير الجملة(أمرهم ذو شورى بينهم) ... أو للمبالغة و التأكيد، لأن ذكر(المصدر) بدلا من(الصفة) يوصل هذا المعنى عادة، لكن إذا كانت شورى كما يقول الراغب فى مفرداته بمعنى(الأمر الذى يتشاور فيه) عندها لا حاجة للتقدير(لاحظ ذلك).

[۵۱۲] (۱)- المائدة، الآية ۳.

[۵۱۳] (۲)- وسائل الشيعة، المجلد الثامن، ص ۴۲۵(باب ۲۱ من أبواب الأحكام العشرة).

[۵۱۴] (۱)- مجمع البيان- نهاية الآية التى نبحثها.

[۵۱۵] (۱)- عبارة(ظلمه) هى من باب إضافة المصدر إلى المفعول.

[۵۱۶] (۱)- تفسير(الكشاف)،(روح المعانى) و(روح البيان) نهاية الآيات التى نبحثها.

[۵۱۷] (۲)- اللام فى(لمن صبر) هى لام القسم و فى(لمن عزم الأمور) للتأكيد، و الاثنان يوضحان أهمية هذا الأمر الإلهى أى(العفو).

[۵۱۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ۵۸۵.

[۵۱۹] (۱)- هناك شرح مفصل فى هذا الخصوص فى نهاية الآية(۳۶) من سورة الزمر، حيث أوضحنا جميع جوانب هذا الموضوع.

[۵۲۰] (۱)-« طرف» بتسكين الراء» مصدر و تعنى دوران العين، و طرفة العين تعنى حركة واحدة للعين، و الضمير فى(عليها) يعود إلى العذاب، صحيح أن العذاب مذكر لكنّه يعنى هنا النّار و جهنم و ضمير المؤنث يعود إليها.

[۵۲۱] (۱)- نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ۵۸۶.

[۵۲۲] (۱)- قد تكون عبارة(من اللّه) فى الجملة أعلاه بمعنى(من قبل اللّه) يعنى لا توجد عودة من قبل الخالق، و قد تكون بمعنى(فى مقابل اللّه) يعنى لا يوجد من يستطيع أن يعيدكم إلى هذه الدنيا ضد إرادة الخالق.

[۵۲۳] (۱)- الشورى، الآية ۶.

[۵۲۴] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد الثامن، ص ۵۸۷۳.

[۵۲۵] (۱)- المؤمنون، الآية ۲۷.

[۵۲۶] (۲)- النساء، الآية ۱۶۴.

[۵۲۷] (۳)- البقرة، الآية ۹۷.

[۵۲۸] (۱)-« دحية بن خليفة الكلبى» هو أخو الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى الرضاعة، و كان من أجمل الناس فى ذلك الزمان، حيث كان جبرئيل يظهر على صورته عند مجيئه للرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مجمع البحرين- كلمة دحى ، و كان من أشهر صحابة الرّسول و معروفا بالوجه الحسن، و قد أرسله النّبى الأكرم إلى قيصر الروم(هرقل) حاملا رسالة منه فى العام السادس أو السابع للهجرة، و بقى حيا إلى أيّام خلافة معاوية.

[۵۲۹] (۲)- فى ظلال القرآن، المجلد السابع، ص ۳۰۶.

[۵۳۰] (۱)- النساء، الآية ۱۶۳.

[۵۳۱] (۲)- النحل، الآية ۶۸.

[۵۳۲] (۳)- مريم، الآية ۱۱.

[۵۳۳] (۴)- فصلت، الآية ۱۲.

[۵۳۴] (۵)- المائدة، الآية ۱۱۱.

[۵۳۵] (۶)- الأنعام، الآية ۱۱۲.

[۵۳۶] (۱)- الأنبياء، الآية ۷۳.

بحار الأنوار- المجلد ۱۸- ص ۲۵۴.

[۵۳۷] (۱)- دائرة المعارف القرن العشرين ۱۰/ مادة(وحى).

[۵۳۸] (۱)-(توحيد الصدوق) نقلا عن بحار الأنوار، المجلد ۱۸، ص ۲۵۶.

[۵۳۹] (۲)- علل الشرائع نقلا عن بحار الأنوار، المجلد ۱۸، ص ۲۵۶.

[۵۴۰] (۳)- بحار الأنوار، المجلد ۱۸، ص ۲۵۶.

[۵۴۱] (۴)- بحار الأنوار، المجلد ۱۸، ص ۲۶۱.

[۵۴۲] (۱)- الطبرسى فى مجمع البيان، الشيخ الطوسى فى التبيان، الفخر الرازى فى التّفسير الكبير المراغى فى تفسير المراغى و جماعة آخرون.

[۵۴۳] (۱)- نهج البلاغة- الخطبة ۱۹۲(الخطبة القاصعة).

[۵۴۴] (۱)- الحج، الآية ۷۸.

[۵۴۵] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۸۸.

[۵۴۶] (۱)- الآلوسى فى روح المعانى، المجلد ۲۵، ص ۵۵، و قد ذكر احتمالات اخرى إلّا أنّنا لم نذكرها لعدم أهميتها.

الجزء السادس عشر

سورة الزّخرف

محتوى سورة الزّخرف:

سورة الزخرف من السورة المكيّة، إلّا الآية (۴۵) منها، فإنّ جمعا من المفسّرين اعتبرها مدنيّة، و ربّما كان السبب هو أنّ ما تبحثه الآية يتعلق على الأغلب بأهل الكتاب، أو بقصّة المعراج، و كلا البحثين يتناسب مع المدينة أكثر. و سنوضّح المطلب فى تفسير هذه الآية إن شاء اللّه تعالى.

و على أيّة حال، فإنّ طبيعة السور المكّيّة- و التى تدور غالبا حول محور العقائد الإسلاميّة من المبدأ و المعاد و النبوّة و القرآن و الإنذار و التبشير- منعكسة و متجلّية فيها.

و يمكن تلخيص مباحث هذه السورة بصورة موجزة، فى سبعة فصول:

الفصل الأوّل: و هو بداية السورة، و يتحدّث عن أهمّية القرآن المجيد، و نبوّة نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و مواجهة المشركين لهذا الكتاب السماوى.

الفصل الثّانى: يذكر قسما من أدلّة التوحيد فى الآفاق، و نعم اللّه المختلفة على البشر.

الفصل الثّالث: و يكمّل هذه الحقيقة عن طريق محاربة الشرك، و نفى ما ينسب إلى اللّه عزّ و جلّ من الأقاويل الباطلة، و محاربة التقاليد العمياء، و الخرافات و الأساطير، كالتشاؤم من البنات، أو الإعتقاد بأنّ الملائكة بنات اللّه عزّ و جلّ.

الفصل الرّابع: ينقل جانبا من قصص الأنبياء الماضين و أممهم، و تاريخهم لتجسيد هذه الحقائق. و يؤكّد على حياة إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السّلام بصورة

خاصّة.

الفصل الخامس: يتعرض إلى مسألة المعاد، و جزاء المؤمنين، و مصير الكفّار المشؤوم، و يحذّر المجرمين و يهدّدهم بتهديدات و تحذيرات و إنذارات قويّة.

الفصل السّادس: و هو من أهمّ فصول هذه السورة، و يتناول القيم الباطلة التى كانت و لا تزال حاكمة على أفكار الأشخاص المادّيين، و وقوعهم فى مختلف الاشتباهات حينما يقيّمون مسائل الحياة و يزنونها بالميزان الدنيوىّ حتّى أنّهم كانوا يتوقّعون أن ينزل القرآن الكريم على رجل غنى عظيم الثراء، لأنّهم كانوا يعتبرون قيمة الإنسان فى ثرائه! لهذا نرى القرآن فى آيات عديدة من هذه السورة يهاجم هذا النمط من التفكير الساذج و الجاهل و يحاربه، و يوضح المثل الإسلاميّة و الإنسانيّة السامية.

الفصل السّابع: و هو فصل المواعظ و النصائح العميقة المؤثّرة حيث يكمل الفصول الأخرى، ليجعل من مجموع آيات السورة دواء شافيا تماما يترك أقوى الأثر فى نفس السامع.

و قد أخذ اسم هذه السورة (الزخرف) من الآية (۳۵) منها، و التى تتحدث فى القيم المادّية.

فضل تلاوة السّورة

لقد ذكر فضل عظيم لتلاوة هذه السورة فى الرّوايات الإسلاميّة فى مختلف كتب التّفسير و الحديث، و من جملتها ما ورد فى حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ سورة الزخرف، كان ممن يقال له يوم القيامة: يا عباد لا خوف عليكم اليوم و لا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنّة»[۱].

لا شكّ أنّ الخطاب ب يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ هو عين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹

ما ورد فى الآية (۶۸)، و جملة ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أخذت من الآية (۷۰)، و جملة بِغَيْرِ حِسابٍ من لوازم الكلام، و قد وردت فى عدّة من آيات القرآن الأخرى.

و على أيّة حال، فإنّ هذه البشارة العظمى، و الفضيلة التى لا تقدّر، لا تحصل بمجرّد التلاوة الخالية من التدبر و الإيمان و العمل الصالح، لأنّ التلاوة مقدّمة للفكر، و الإيمان و العمل الصالح ثمرة له.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (۴) أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (۵) وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِى الْأَوَّلِينَ (۶) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (۸)

التّفسير

ذنوبكم لا تمنع رحمتنا!

مرّة أخرى نواجه الحروف المقطّعة في بداية هذه السورة، و هي حروف (حم)، و هذه رابع سورة تبدأ ب حم و تتلوها ثلاث سور أخرى أيضا، فتشكّل هذه السور السبعة بمجموعها (أسرة حم) و هي بالترتيب: المؤمن، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، و الأحقاف.

و قد بحثنا الحروف المقطّعة بصورة مفصّلة فيما سبق (راجع بداية سورة البقرة،

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱

بداية آل عمران، أوّل الأعراف، بداية سورة «فصلت» في خصوص حم).

و يقسم تعالى بالقرآن الكريم في الآية الثّانية، فيقول: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ قسما بهذا الكتاب الواضحة حقائقه، و البيّنة معانيه و مفاهيمه، و الظاهرة دلائل صدقه، و المبيّنة طرق هدايته و رشاده.

ثمّ يضيف: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۲].

إنّ كون القرآن عربيّا، إمّا بمعنى أنّه «نزل بلغة العرب التي هي أوسع لغات العالم في بيان الحقائق، و قادرة على تبيان دقائق المطالب بكل جمال و دقّة في التعبير.

أو بمعنى فصاحته- لأنّ أحد معاني كلمة (عربي) هو «الفصيح» و هي إشارة إلى أنا قد جعلناه في منتهى الفصاحة و غايتها، لتظهر الحقائق جيّدا من خلال كلماته و جمله، و يدركها الجميع جيدا.

و الطّريف أنّ القسم و جوابه- هنا- شيء واحد، فهو تعالى يقسم بالقرآن أنّه جعل القرآن عربيّا ليستفيد الجميع منه و يعقلوا آياته، و ربّما كان هذا إشارة إلى أنّه لم يكن هناك شيء أجلّ من القرآن ليقسم به، فإنّ ما هو أسمى من القرآن نفس القرآن، لأنّ كلام اللّه سبحانه، و كلام اللّه مبيّن لذاته المقدّسة.

و لا يدلّ التعبير ب (لعل) على أنّ اللّه سبحانه يشكّ في تأثير القرآن، أو أنّ الكلام هنا عن الرجاء و الأمل الذي يصعب الوصول إليه و تحقّقه، بل إنّه يشير إلى تفاوت الأرضيّات الفكرية و الأخلاقيّة لسامعي آيات القرآن الكريم، و يشير أيضا إلى أنّ تأثير القرآن يستلزم توفر شروطا معيّنة أشير إليها إجمالا بكلمة (لعل). و قد أوردنا تفصيلا أكثر لهذا المعنى في ذيل الآية (۲۰۰) من آل عمران.

ثمّ يتطرق القرآن إلى بيان ثلاث صفات أخرى لهذا الكتاب السماوي، فيقول:

وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ و يشير في الصفة الأولى إلى أنّ القرآن الكريم قد حفظ و أثبت في أمّ الكتاب لدى اللّه سبحانه، كما نقرأ ذلك أيضا في

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲

الآية (۲۲) من سورة البروج: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ.

و الآن، لنر ما هو المراد من «أم الكتاب»، أو «اللوح المحفوظ»؟

«الأم» في اللغة تعني أصل كل شيء و أساسه، و إنّما يقول العرب للأم أمّا لأنّها أساس العائلة و مأوى الأولاد، و على هذا فإنّ (أم الكتاب) يعني الكتاب الذي يكون أساسا لكل الكتب السماويّة، و هو ذلك اللوح المحفوظ لدى اللّه سبحانه، و المصون من كل تغيير و تبديل و تحريف .. إنّه كتاب علم اللّه المحفوظ لديه، و الذي أدرجت فيه كل حقائق العالم، و كل حوادث الماضي و المستقبل، و كل الكتب السماويّة، و لا يستطيع أي أحد أن يصل إليه و يعلم ما فيه، إلّا إذا أراد اللّه سبحانه أن يعلم أحدا بالمقدار الذي يريده عزّ و جلّ.

و هذا وصف عظيم للقرآن الذي ينبع من علم اللّه اللامتناهي، و أصله و أساسه لديه سبحانه، و لهذا يقول في الصفة الثّانية: (لعليّ) و في الثالثة (حكيم).

إنّ الشيء الذى ينبعث من علم اللّه اللامتناهى يجب أن يكون بهذه الصفات.

و اعتقد البعض أنّ سموّ القرآن و علوّ مقامه نابع من أنّه فاق كلّ الكتب السماويّة، و نسخها جميعا، و هو فى أرفع مراتب الإعجاز.

و اعتبر البعض الآخر علوّ القرآن لاحتوائه على حقائق لا تـدركها أفكار البشـر، و هى بعيـدة عن مدى ما تستوعبه عقولهم- إضافة إلى الحقائق التى يفهمها الجميع من ظاهر القرآن.

و لا تتضارب هذه المعانى فيما بينها حيث تجتمع كلّها فى مفهوم (عليّ).

و هنا مسألة تستحق الانتباه، و هى أنّ (الحكيم) صفة للشخص عادة، لا الكتاب، لكن لمّا كان هذا الكتاب السماوى بنفسه معلما عظيما و ناطقا بالحكمة ناشرا لها، فإنّ هذا التعبير فى محله تماما.

و قد وردت كلمة «الحكيم» بمعنى المستحكم الحصين أيضا، و كلّ هذه المعانى جمعت فى اللفظة المذكورة، و هى صادقة فى شأن القرآن الكريم، لأنّه حكيم بكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳

هذه المعانى.

و فى الآية التّالية يخاطب المنكرين للقرآن و المعرضين عنه، فيقول:

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ

صحيح أنّكم لم تألوا جهدا فى مخالفتكم للحق و عدائه، و وصلتم فى المخالفة إلى حدّ الإفراط و الإسراف، إلّا أنّ رحمة اللّه سبحانه واسعة بحدّ لا تشكل هذه الأعمال المناوئة حاجزا فى طريقها، و نظر ننزل باستمرار هذا الكتاب السماوى الذى يوقظكم، و آياته التى تبعث الحياة فيكم، حتّى تهتزّ القلوب التى لها أدنى حظ من الاستعداد و تثوب إلى طريق الحقّ، و هذا هو مقام رحمة اللّه العامّة، أى: رحمانيته التى تشمل العدوّ، و الصديق، و المؤمن و الكافر.

جملة أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ جاءت هنا بمعنى: أ فنصرب عنكم، لأنّ الراكب إذا أراد أن يحوّل دابّته إلى طريق آخر، فإنّه يحوّله بضربه بالسوط أو بشيء آخر، و لذلك فإنّ كلمة الضرب تستعمل فى مثل هذه الموارد بدلا من الصرف ۳].

«الصفح» فى الأصل بمعنى جانب الشيء و طرفه، و يأتى أيضا بمعنى العرض و السعة، و هو فى الآية بالمعنى الأوّل، أى: أ نحول عنكم هذا القرآن الذى هو أساس التذكرة إلى جانب و طرف آخر؟

«المسرف» من الإسراف، و هو تجاوز الحدّ، إشارة إلى أنّ المشركين و أعداء النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يقفوا عند حدّ فى خلافهم و عدائهم مطلقا.

ثمّ يقول فى عبارة قصيرة كشاهد على ما قيل، و تسلية لخاطر النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تهديدا للمنكرين المعاندين: وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ* وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

إنّ هـذه المخالفـات و أنواع السـخرية لم تكن لتمنع لطف اللّه و رحمته أبـدا، فإنّهـا فيض متواصـل من الأزل إلى الأبـد، و وجود يعمّ عطاؤه كلّ العباد، بل إنّه سبحانه قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴

خلقهم للرحمة وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ ۴]، و لهذا فإنّ إعراضكم و عنادكم سوف لا يمنع لطفه مطلقا، و ينبغى أن لا يفتر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنون الحقيقيّون، فإنّ لهذا الإعراض عن الحق و اتباع الشهوات و الهوى و الميول تاريخا طويلا.

لكن، و من أجل أن لا يتصور هؤلاء بأنّ لطف اللّه اللامتناهى سيحول دون عقابهم فى النهاية، لأنّ العقاب بنفسه من مقتضى حكمته، و لذلك يضيف فى الآية التالية: فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ

فالآيـة تخاطب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بأنّنا سبق و أن ذكرنا لك نماذج كثيرة من هـذه الأقوام العاصيـة الطاغيـة، و أوحينا

إلیک تفصیل حالهم بدون زیادهٔ أو نقصان، و کان من بینهم أقوام أقوی و أشدّ من مشرکی العرب کثیرا، و لهم إمکانیّات و ثروات و أفراد و جیوش و إمکانات واسعهٔ ... کفرعون و آل فرعون، و التاریخ، و أوضح من ذلک أن تتدبّروا ما نزل فی القرآن فی شأنهم لتعلموا أیّها الطغاهٔ المعاندون أنّکم لستم فی مأمن من عذاب اللّه الألیم أبدا.

«البطش»- کما یقول الراغب فی المفردات- بمعنی أخذ الشیء بالقوّهٔ، و هنا اقترن بکلمهٔ «أشدّ» و تعطی مفهوم شدّهٔ القوّهٔ و القدرهٔ أکثر.

و الضمیر فی مِنْهُمْ یعود علی مشرکی العرب الذین خوطبوا فی الآیات السابقهٔ، إلّا أنّهم ذکروا هنا بصیغهٔ الغائب، لأنّهم لیسوا أهلا للاستمرار فی مخاطبتهم من قبل اللّه تعالی.

و اعتبر بعض کبار المفسّرین جملهٔ وَ مَضی مَثَلُ الْأَوَّلِینَ إشارهٔ إلی المطالب التی جاءت فی السورهٔ السابقهٔ- سورهٔ الشوری- حول جماعهٔ من هؤلاء. إلّا أنّه لا دلیل لدینا علی هذا التحدید، خاصّهٔ و أنّه قلّما أشیر إلی حوادث الأمم الماضیهٔ فی سورهٔ الشوری، فی حین وردت بحوث مفصّلهٔ حولهم فی سور أخری من القرآن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵

و علی أیّهٔ حال، فإنّ هذه الآیهٔ تشبه ما مرّ فی الآیهٔ (۷۸) من سورهٔ القصص، حیث تقول: أَ وَ لَمْ یَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَکَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَکْثَرُ جَمْعاً؟! أو ما مرّ فی الآیهٔ (۲۱) من سورهٔ المؤمن حیث حذّرت مشرکی العرب إذ تقول: أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ کانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ کانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِی الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما کانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ !***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶

الآیات [سورهٔ الزخرف (۴۳): الآیات ۹ الی ۱۴]

اشارهٔ

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ (۹) الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَکُمْ فِیها سُبُلًا لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ الَّذِی نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَیْتاً کَذلِکَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الْفُلْکِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْکَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلی ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَةَ رَبِّکُمْ إِذَا اسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما کُنَّا لَهُ مُقْرِنِینَ (۱۳)

وَ إِنَّا إِلی رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)

التّفسیر

بعض أدلّهٔ التوحید:

من هنا یبدأ البحث حول التوحید و الشرک، فتستعین الآیات بفطرهٔ هؤلاء و طینتهم لإثبات التوحید، و بعد أن تبیّن الأدلّهٔ الموجودهٔ فی عالم الوجود، و تذکر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷

خمسهٔ نماذج من مواهب اللّه العظیمهٔ و تثیر فیهم حسّ الشکر، تتطرّق إلی إبطال اعتقادهم الخرافی فیما یتعلق بالأصنام و مختلف

أنواع الشرك.

يقول سبحانه فى القسم الأوّل: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ

إنّ هـذا التعبير الـذى ورد بتفاوت يسير فى أربع آيات من القرآن الكريم- العنكبوت/ ۶۱، لقمان/ ۲۵، الزمر/ ۳۸ و الزخرف فى الآيهٔ التى نبحثها[۵]- دليل على كون معرفهٔ اللَّه سبحانه أمر فطرى مغروس فى طينهٔ البشر و طبيعتهم من جانب. و من جانب آخر يدلّ على أنّ المشركين كانوا مقرّين بأن خالق السماوات و الأرض هو اللَّه سبحانه، و لم يكونوا يعترفون بأنّ معبوداتهم خالقهٔ إلّا فى موارد نادرهٔ.

و من جانب ثالث فإنّ هذا الاعتراف أساس و دعامهٔ لإبطال عبوديّهٔ الأصنام، لأنّ الذى يكون أهلا للعبادهٔ هو خالق الكون و مدبّره، لا الموجودات التى لا- حظّ لها فى هذا المجال، و بناء على هذا، فإنّ اعترافهم بكون اللَّه سبحانه خالقا كان دليلا قاطعا على بطلان مذهبهم و دينهم الفاسد.

و التعبير بالعزيز الحكيم و الذى يبيّن قدرهٔ اللَّه المطلقهٔ، و علمه و حكمته، و إن كان تعبيرا قرآنيّا، إلّا أنّه لم يكن أمرا ينكره المشركون، لأنّ لازم الاعتراف بكون اللَّه سبحانه خالقا للسماء و الأرض وجود هاتين الصفتين فيه. و هؤلاء المشركين كانوا يعتقدون بعلم أصنامهم و قدرتها، فكيف باللَّه الذى يعتقدون أنّ أصنامهم وسيلهٔ إليه، و تقرّبهم إليه زلفى؟! ثمّ يشير سبحانه إلى خمس نعم من نعم اللَّه العظيمهٔ، و التى تعتبر كلّ منها نموذجا من نظام الخلقهٔ، و آيهٔ من آيات اللَّه سبحانه، فيقول أولا:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸

الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً.

إنّ لفظتى «المهد» و «المهاد» تعنى المحلّ الذى أعدّ للجلوس و النوم و الاستراحهٔ، و يقال فى الأصل للمكان الذى يضعون فيه الطفل لينام «مهد».

أجل ... إنّ اللَّه سبحانه جعل الأرض مهدا للإنسان، و مع أنّ لها عدّهٔ حركات بفعل قانون الجاذبيّهٔ، و رغم الطبقهٔ الغازيّهٔ العظيمهٔ التى أحاطت بها من كلّ جانب، فإنّها هادئهٔ و مستقرّهٔ بحيث لا يشعر ساكونها بأىّ إزعاج و نعلم أنّ الهدوء النفسى هو الدعامهٔ الأساسيّهٔ للاستفادهٔ من النعم الأخرى و التنعّم بها، و لا شكّ أنّ هذه العوامل المختلفهٔ ما لم تنسجم مع بعضها، و يكمل بعضها بعضا، فليس بالإمكان تحقّق هذا الهدوء و الاطمئنان مطلقا.

ثمّ يضيف سبحانه لتبيان النعمهٔ الثانيهٔ: وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

لقد أشير إلى هذه النعمهٔ عدّهٔ مرات فى القرآن المجيد (سورهٔ طه- ۵۳، الأنبياء- ۳۱، النحل- ۱۵ و غيرهنّ)، و هى من النعم التى غفل عنها الكثيرون، لأنّا نعلم أنّ التضاريس تعمّ كلّ اليابسهٔ تقريبا، و فيها الجبال العظيمهٔ و الصغيرهٔ و التلال و الهضاب، و البديع أن توجد بين أعظم سلال جبال العالم فواصل يستطيع الإنسان أن يشقّ طريقه من خلالها، و قلما اتفق أن تكون هذه الجبال سببا لانفصال أقسام الكرهٔ الأرضيهٔ عن بعضها تماما، و هذا واحد من أسرار نظام الخلقهٔ، و من مواهب اللَّه سبحانه و عطاياه للعباد.

و إضافهٔ إلى ما مرّ، فإنّ كثيرا من أجزاء الكرهٔ الأرضيهٔ ترتبط مع بعضها بواسطهٔ طرق المواصلات البحريّهٔ، و هذا يدخل أيضا فى عموم معنى الآيهٔ[۶].

و اتضح ممّا قلناه أنّ المراد من جملهٔ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ هو الهدايهٔ إلى الهدف، و اكتشاف مناطق الأرض المختلفهٔ، بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشارهٔ إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹

الهدايهٔ لأمر التوحيد و معرفهٔ اللَّه. و لا مانع من جمع هذين المعنيين.

و ذكرت الموهبهٔ الثالثهٔ- و هى موهبهٔ نزول المطر، و إحياء الأراضى الميّتهٔ- فى الآيهٔ التاليهٔ: وَ الَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ

بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ من قبوركم يوم البعث.

إنّ التعبير بكلمة «قدر» إشارة لطيفة إلى النظام الخاص الذى يحكم نزول الأمطار، حيث أنّها تنزّل بمقدار كاف يكون مفيدا و مثمرا، و لا يؤدّى إلى الخسارة و الإتلاف.

صحيح أنّه قد يؤدّى بعض الأحيان إلى حدوث فيضانات، و جريان سيول، و تدمير الأراضى، إلّا أنّ هذه الحالات استثنائيّة، و لها صبغة التحذير، فالأعمّ الأغلب من الأمطار مفيدة و مربحة، فنموّ كلّ الأشجار و النباتات و الأزهار و المزارع المثمرة، من بركة نزول المطر الموزون هذا، و لو لم يكن لنزول المطر نظام، لما حصلت كلّ هذه البركات.

الآية الثانية تستخدم جملة «أنشرنا»- من مادّة النشور- لتجسيد انبعاث عالم النباتات، فإنّ الأراضى اليابسة التى تضمّ بدور النباتات كما تضمّ القبور أجساد الموتى، تتحرك و تحيا بنفخة صور نزول المطر، و تهتزّ فتخرج أموات النبات رؤوسها من التراب، و يقوم محشرها و تقع قيامتها التى تمثل صورة لقيامة البشر، و التى أشير إليها فى نهاية هذه الآية و فى آيات عديدة أخرى من القرآن المجيد.

و بعد ذكر نزول المطر و حياة النباتات، يشير فى المرحلة الرّابعة إلى خلق أنواع الحيوانات، فيقول سبحانه: وَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها.

إنّ التعبير ب «الأزواج» كناية عن أنواع الحيوانات بقرينة ذكر النباتات فى الآية السابقة، بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشارة إلى كلّ أنواع الموجودات، سواء الحيوان و النبات و الجماد، لأنّ قانون الزوجيّة يحكمها جميعا، فلكلّ جنس ما يخالفه: السماء و الأرض، الليل و النهار، النور و الظلام، المرّ و الحلو، اليابس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۱۶، ص: ۲۰

و الرطب، الشمس و القمر، الجنّة و النّار، إلّا ذات اللّه المقدّسة فإنّها أحديّة، و لا سبيل للزوجيّة إليها أبدا.

لكن كما قلنا، فإنّ القرائن الموجودة توحى بأنّ المراد هو «أزواج الحيوانات»، و نعلم أنّ قانون الزوجيّة سنّة حياتيّة فى كلّ الكائنات الحيّة، و العيّنات النادرة الاستثنائية لا تقدح بعموميّة هذا القانون.

و اعتبر البعض «الأزواج» بمعنى أصناف الحيوانات، كالطيور و الدواب و المائيّات و الحشرات و غيرها.

و فى المرحلة الخامسة تبيّن الآيات آخر نعمة من هذه السلسلة، و هى المراكب التى سخّرها اللّه سبحانه للبشر لطىّ الطرق البريّة و البحريّة، فيقول سبحانه:

وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ

إنّ هذه النعمة هى إحدى مواهب اللّه سبحانه للبشر، و كراماته التى منّ بها عليهم، و هى لا- تلاحظ فى الأنواع الأخرى من الموجودات، و ذلك أنّ اللّه سبحانه قد حمل الإنسان على المراكب التى تعينه فى رحلاته البحريّة و الصحراويّة، كما جاء ذلك فى الآية (۷۰) من سورة الإسراء: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِى آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا.

و الحقّ أنّ وجود هذه المراكب يضاعف أنشطة الإنسان و يوسّع حياته عدّة أضعاف، و حتّى الوسائل السريعة السير التى نراها اليوم، و التى صنعت بالاستفادة من مختلف خواصّ الموجودات، و وضعت تحت تصرّف الإنسان، فإنّها من ألطاف اللّه الظاهرة، تلك الوسائل التى غيّرت وجه حياته، و منحت كلّ شى‏ء السرعة، و أهدت له كلّ أنواع الراحة.

و تذكر الآية التالية الهدف النهائى لخلق هذه المراكب فتقول: لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج‏۱۶، ص: ۲۱

إنّ جملة: لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه قد خلق هذه المراكب على هيئة تستطيعون معها ركوبها بصورة جيّدة، و تصلون إلى مقاصدكم براحة و يسر[۷].

لقد أوضحت هذه الآية هدفين لخلق هذه المراكب البحريّة و البريّة، من الفلك و الأنعام، أحدهما: ذكر نعم اللّه سبحانه حين الإستواء على ظهورها، و الآخر: تنزيه اللّه سبحانه الذى سخّرها للإنسان، فقد جعل الفلك على هيئة تقدر أن تشقّ صدر الأمواج و تسير نحو المقصد، و جعل الدواب و الأنعام خاضعة لأمر الإنسان و منقادة لإرادته.

«مقرنين» من مادة «إقران»، أى امتلاك القدرة على شىء، و قال بعض أرباب اللغة: إنّه يعنى مسك الشىء و حفظه، و فى الأصل بمعنى وقوع الشىء قرينا لشىء آخر، و لازم ذلك القدرة على حفظه ٨].

بناء على هذا، فإنّ معنى جملة وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ هو أنّه لو لم يكن لطف اللّه و عنايته لما كان بإمكاننا السيطرة على هذه المراكب و حفظها، و لتحطمت بفعل الرياح المخالفة لحركة السفن، و كذلك الحيوانات القويّة التى تفوق قوّتها قوّة الإنسان أضعافا، ما كان الإنسان ليستطيع أن يقترب منها مطلقا لو لا- روح التسليم التى تحكمها، و لذلك حين يغضب أحد هذه الحيوانات و يفقد روح التسليم، فإنّه سيتحوّل إلى موجود خطر لا يقوى عدّة أشخاص على مقابلته، فى حين أن من الممكن فى حالة سكونها و دعتها- أن ترتبط عشرات، بل مئات منها بحبل و زمام، و يسلّم بيد صبى ليذهب بها حيث يشاء، و كأنّ اللّه سبحانه يريد أن يبيّن للإنسان نعمة الحالة الطبيعيّة للحيوانات من خلال بيان الحالة الاستثنائيّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲

و تذكر آخر آية- من هذه الآيات- قول المؤمنين لدى ركوبهم المركب، إذ يقولون: وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ

هذه الجملة إشارة إلى مسألة المعاد بعد الحديث حول التوحيد، لأنّ الانتباه إلى الخالق و المبدأ، يلفت نظر الإنسان نحو المعاد دائما.

و هى أيضا إشارة إلى أن لا تغترّوا عند ما تركبون هذه المراكب و تتسلّطون عليها، و لا تغرقوا فى مغريات الدنيا و زخارفها، بل يجب أن تكونوا دائما ذاكرين للآخرة غير ناسين لها، لأنّ حالات الغرور تشتد و تتعمّق فى مثل هذه الموارد خاصّة، و الأشخاص الذين يتّخذون مراكبهم و وسائط نقلهم وسيلة للتعالى و التكبر على الآخرين ليسوا بالقليلين.

و من جهة ثالثة، فإنّ الإستواء على المركب و الانتقال من مكان إلى آخر يذكّرنا بانتقالنا الكبير من هذا العالم إلى العالم الآخر.

نعم .. فنحن أخيرا ننقلب إلى اللّه سبحانه.

***

ملاحظة

ذكر اللّه عند الانتفاع بالنعم:

من النكات الجميلة التى تلاحظ فى آيات القرآن الكريم، أنّ المؤمنين قد علّموا أدعية يقرءونها عند التنعّم بمواهب اللّه سبحانه و نعمه ... تلك الأدعية التى تصقل روح الإنسان و تهذّبها بمحتوياتها البنّاءة، و تبعد عنها آثار الغرور و الغفلة.

فيأمر اللّه سبحانه نوحا عليه السّلام أن: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٩].

و يأمره أيضا أن يقول عند طلب المنزل المبارك:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳

رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ١٠].

و هو سبحانه يأمرنا فى هذه الآيات أن نشكر نعم اللّه تعالى، و أن نسبّح اللّه عزّ و جلّ عند الإستواء على ظهورها.

فإذا تحوّل ذكر المنعم الحقيقى عند كلّ نعمة ينعم بها إلى طبع و ملكة فى الإنسان، فسوف لا يغرق فى ظلمة الغفلة، و لا يسقط فى

هاوية الغرور، بل إنّ المواهب و النعم الماديّة ستكون له سلّما إلى اللّه سبحانه! و

قد ورد فى سيرة الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه ما وضع رجله فى الركاب إلّا و قال: «الحمد للّه»، و إذا ما استوى على ظهر الدابّة فإنّه يقول: الحمد لله على كل حال، سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما کُنَّا لَهُ مُقْرِنِینَ وَ إِنَّا إِلی رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ ۱۱].

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الحسن المجتبى عليه السّلام أنّه رأى رجلا ركب دابّة فقال: سبحان الذى سخّر لنا هذا، فقال له: «ما بهذا أمرت، أمرت أن تقول: «الحمد للّه الذى هدانا للإسلام، الحمد للّه الذى منّ علينا بمحمّد، و الحمد للّه الذى جعلنا من خير أمّة أخرجت للناس، ثمّ تقول: سبحان الذى سخّر لنا هذا»[۱۲]،

إشارة إلى أنّ الآية لم تأمر بأن يقال: سبحان الذى سخّر لنا هذا، بل أمرت أوّلا بذكر نعم اللّه العظيمة: نعمة الهداية إلى الإسلام، نعمة نبوّة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، نعمة جعلناه فى زمرة خير أمّة، ثمّ تسبيح اللّه على تسخيره لما نركب! و ممّا يستحقّ الانتباه أنّه يستفاد من الرّوايات أنّ من قال عند ركوبه: سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما کُنَّا لَهُ مُقْرِنِینَ وَ إِنَّا إِلی رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ فسوف لن يصاب بأذى بأمر اللّه! و قد روى هذا المطلب فى حديث فى الكافى عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام ۱۳].

و نكتشف من خلال ذلك البون الشاسع بين تعليمات الإسلام البنّاءة هذه، و بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴

ما يلاحظ من جماعة من المغرورين و متّبعى الأهواء و الميول الذين يتّخذون وسائط نقلهم وسيلة للفخر و لإظهار أنفسهم بمظهر العزيز الوجيه، و قد يجعلونها سببا لارتكاب أنواع المعاصى كما ينقل «الزمخشرى» فى الكشّاف عن بعض السلاطين أنّه يركب مركبه الخاص يريد الذهاب من مدينة إلى أخرى التى تبعد عنها مسافة شهر فكان يكثر من شرب الخمر لئلّا يحسّ بطول الطريق و تعبه، و لا يفيق من سكره إلّا حين يصل تلك المدينة!***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۱۵ الى ۱۹]

اشارة

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَکَفُورٌ مُبِینٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا یَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاکُمْ بِالْبَنِینَ (۱۶) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ کَظِیمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ یُنَشَّؤُا فِی الْحِلْیَةِ وَ هُوَ فِی الْخِصامِ غَیْرُ مُبِینٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا الْمَلائِکَةَ الَّذِینَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُکْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ یُسْئَلُونَ (۱۹)

التّفسير

كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه؟

بعد تثبيت دعائم التوحيد بوسيلة ذكر آيات اللّه سبحانه فى نظام الوجود، و ذكر نعمه و مواهبه، تتناول هذه الآيات ما يقابل ذلك، أىّ محاربة الشرك و عبادة غير اللّه تعالى، فتطرّقت أوّلا إلى أحد فروعها، أىّ عبادة الملائكة فقالت: وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً فظنّوا أنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه، و أنّها آلهتهم، و كانت هذه الخرافة القبيحة رائجة بين الكثيرين من عبدة الأوثان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶

إنّ التعبير ب «الجزء» يبيّن من جانب أنّ هؤلاء كانوا يعتبرون الملائكة أولاد اللّه تعالى، لأنّ الولد جزء من وجود الأب و الأمّ، و ينفصل عنهما كنطفة تتكوّن و تتلقّح، و إذا ما تلقّحت تكوّن الولد من تلك اللحظة. و يبيّن من جانب آخر قبولهم عبادتها، لأنّهم كانوا يظنّون الملائكة جزءا من الآلهة فى مقابل اللّه سبحانه.

ثمّ إنّ هذا التعبير استدلال واضح على بطلان اعتقاد المشركين الخرافى، لأنّ الملائكة إن كانت أولادا للّه سبحانه، فإنّ ذلك يستلزم أن يكون للّه جزء، و نتيجة ذلك أنّ ذات اللّه، مركّبة سبحانه، فى حين أنّ الأدلّة العقليّة و النقليّة شاهدة على بساطة وجوده و أحديّته، لأنّ الجزاء مختصّ بالموجودات الممكنة.

ثمّ تضيف: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ فمع كل هذه النعم الإلهيّة التى أحاطت بوجوده، و التى مرّ ذكر خمس منها فى الآيات السابقة، فإنّه بدل أن يطأطئ رأسه إعظاما لخالقه، و إجلالا لولى نعمته، سلك سبيل الكفر و اتّجه إلى مخلوقات اللّه ليعبدها! فى الآية التى بعدها يستثمر القرآن الثوابت الفكريّة لدى هؤلاء من أجل إدانة هدا التفكير الخرافى، لأنّهم كانوا يرجّحون جنس الرجل على المرأة، و كانوا يعدّون البنت عارا- عادة- يقول تعالى: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ فإذا كان مقام البنت أدنى فى اعتقادكم، فكيف ترجّحون أنفسكم و تعلونها على اللّه، فتجعلون نصيبه بنتا، و نصيبكم ولدا؟

صحيح أنّ المرأة و الرجل متساويان فى القيم الإنسانيّة السامية عند اللّه سبحانه، إلّا أنّ الاستدلال باعتقادات المخاطب يترك أحيانا فى فكره أثرا يدفعه إلى إعادة النظر فيما يعتقد.

و تتابع الآية التالية هذا البحث ببيان آخر، فتقول: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ

و المراد من بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا هم الملائكة الذين كانوا يعتبرونهم بنات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷

اللّه، و كانوا يعتقدون فى الوقت نفسه أنّها آلهتهم، و أنّها شبيهة به- سبحانه- و مثله.

إنّ لفظة (كظيم) من مادّة «كظم»، و تعنى الحلقوم، و جاءت أيضا بمعنى غلق فم قربة الماء بعد امتلائها، و لذلك فإنّ هذه الكلمة استعملت للتعبير عمّن امتلأ قلبه غضبا أو غمّا و حزنا. و هذا التعبير يحكى جيّدا عن خرافة تفكير المشركين البله فى عصر الجاهليّة فيما يتعلق بولادة البنت، و كيف أنّهم كانوا يحزنون و يغتمّون عند سماعهم بولادة بنت لهم، إلّا أنّهم فى الوقت نفسه كانوا يعتقدون بأنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه! و تضيف فى الآية الكريمة: أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۱۴].

لقد ذكر القرآن هنا صفتين من صفات النساء غالبا، تنبعثان من ينبوع عاطفتهنّ، إحداهما: تعلّق النساء الشديد بأدوات الزينة، و الأخرى: عدم امتلاكهنّ القدرة الكافية على إثبات مرادهنّ أثناء المخاصمة و الجدال لحيائهنّ و خجلهنّ.

لا شكّ أنّ بعض النسوة ليس لداهنّ هذا التعلّق الشديد بالزينة، و لا شكّ أيضا أنّ التعلّق بالزينة و محبّتها فى حدود الاعتدال لا يعد عيبا فى النساء، بل أكّد عليها الإسلام، إلّا أنّ المراد هو أكثريّة النساء اللاتى تعوّدن على الإفراط فى الزينة فى أغلب المجتمعات البشريّة، و كأنّهن يولدن بين أحضان الزينة و يتربّين فى حجرها.

و كذلك لا يوجد أدنى شكّ فى أنّ بعض النسوة ارتقين أعلى الدرجات فى قوّة المنطق و البيان، لكن لا يمكن إنكار ضعف النساء عند المخاصمة و البحث و الجدال، إذا ما قورنت بقدرة الرجال، و ذلك بسبب خجلهنّ و حيائهنّ.

و الهدف بيان هذه الحقيقة، و هى: كيف تظنّون و تعتقدون بأنّ البنات أولاد اللّه سبحانه، و أنّكم مصطفون بالبنين؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸

و تذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- هذا المطلب بصراحة أكثر، فتقول:

وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً.

أجل ... إنّهم عباد اللّه، مطيعون لأمره، و مسلمون لإرادته، كما ورد ذلك فى الآيتين (۲۶)، (۲۷) من سورة الأنبياء: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا

يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

إنّ التعبير بكلمـة (عباد) فى الواقع ردّ على ظنّ هؤلاء، لأنّ الملائكـة لو كانت مؤنّثا لوجب أن يقول: (عبـدات)، لكن ينبغى الانتباه إلى أنّ العباد تطلق على جمع المذكّر و على الموجودات التى تخرج عن إطار المذكر و المؤنث كالملائكة، و يشبه ذلك استعمال ضمائر المفرد المذكّر فى حقّ اللَّه سبحانه، فى حين أنّه تعالى فوق كلّ هذه التقسيمات.

و جدير بالـذكر أنّ كلمـة (عباد) قـد أضيفت إلى (الرحمن) فى هـذه الجملـة، و يمكن أن يكـون هـذا التعبير إشـارة إلى أن أغلب الملائكة منفذون لرحمة اللَّه، و مدبرون لقوانين عالم الوجود و أنظمته، و كل ذلك رحمة.

لكن لماذا وجدت هذه الخرافة بين عرب الجاهليّة؟ و لماذا بقيت ترسباتها إلى الآن فى أذهان جماعة من الناس؟ حتى أنّهم يرسمون الملائكة و يصورونها على هيئة المرأة و البنت، بل حتى إذا أرادوا أن يرسموا ما يسمى بملك الحرية فإنّهم يرسمونه على هيئة امرأة جميلة طويلة الشعر! يمكن أن يكون هذا الوهم نابعا من أنّ الملائكة مستورون عن الأنظار، و النساء مستورات كذلك، و يلاحظ هذا المعنى فى بعض موارد المؤنث المجازى فى لغة العرب، حيث يعتبرون الشمس مؤنثا مجازيّا و القمر مذكرا، لأنّ قرص الشمس مغطى عادة بأمواج نورها فلا سبيل للنظر إليه، بخلاف قرص القمر.

أو أن لطافة الملائكة و رقتها قد سببت أن يعتبروها كالنساء، حيث أن النساء اكثر رقّة و لطافة إذا قيست بالرجال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹

و العجيب أنّه بعـد كل هـذه المحاربة الإسـلامية لهذا التفكير الخرافى و إبطاله، فإنّهم إذا ما أرادوا أن يصـفوا امرأة فإنّهم يقولون: إنّها ملـك، أمّا فى شأن الرجال فقلما يستعمل هـذا التعبير. و كـذلك قـد يختارون كلمـة الملك و الملاك اسـما للنساء! ثمّ تجيبهم الآية بصيغة الاستفهام الإنكارى فتقول: أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ

و تضيف فى النهاية: سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ

لقـد ورد ما قرأناه فى هـذه الآيات بصورة أخرى فى سورة النحل الآيات (۵۶- ۶۰) أيضا، و قد أوردنا هناك بحثا مفصّلا حول عقائد عرب الجاهليّة فيما يتعلق بمسألـة الوأد، و عقيـدتهم فى جنس المرأة، و كذلك حول دور الإسـلام فى إحياء شخصـيّة المرأة و مقامها السامى.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۲۰ الى ۲۲]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (۲۱) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲)

التّفسير

لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين!

أعطت الآيات السابقـة أوّل جواب منطقى على عقيـدة عبـدة الأوثان الخرافيّة، حيث كانوا يظنون أنّ الملائكة بنات اللَّه، و الجواب هو:

إنّ الرؤیة و الحضور فی موقف ما ضروری قبل کل شیء لإثبات ادعاء ما، فی حین لا یقوی أی عابد، وثن أن یدّعی أنّه کان حاضرا حین خلق الملائکة، و أنّه رأی کیفیّة ذلک الخلق بعینه.

و تتابع هذه الآیات نفس الموضوع، و تسلک مسالک أخری لإبطال هذه الخرافة القبیحة، فتتعرض أوّلا- و بصورة مختصرة- لأحد الأدلة الواهیة لهؤلاء ثمّ تجیب علیه، فتقول: وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱

إنّ هذا التعبیر قد یکون إشارة إلی أنّ هؤلاء کانوا یعتقدون بالجبر، و أن کل ما یصدر منا فهو بإرادة اللَّه، و کل ما نفعله فهو برضاه أو أنّه لو لم یکن راضیا عن أعمالنا و عقائدنا لوجب أن ینهانا عنها، و لما لم ینهنا عنها فإنّ ذلک دلیل علی رضاه.

الحقیقة، أنّ هؤلاء اختلقوا خرافات جدیدة من أجل توجیه عقائدهم الخرافیة الفاسدة الأولی، و افتروا أکاذیب جدیدة لإثبات أکاذیبهم الأولی، و أیّا من الاحتمالین- أعلاه- کان مرادهم، فهو فاسد من الأساس.

صحیح أنّ کل شیء فی عالم الوجود لا یکون إلّا بإذن اللَّه تعالی، إلّا أنّ هذا لا یعنی الجبر، إذ یجب أن لا ننسی أنّ اللَّه سبحانه هو الذی أراد لنا أن نکون مختارین و أحرارا فی اختیارنا و تصرفنا، لیختبرنا و یربینا.

و صحیح أیضا أنّه یجب أن یجب أن ینهی اللَّه سبحانه عباده عن الباطل، لکن لا یمکن إنکار أنّ جمیع الأنبیاء قد تصدّوا لردع الناس عن کل نوع من أنواع الشرک و الازدواجیّة فی العبادة.

إضافة إلی ذلک، فإنّ عقل الإنسان السلیم ینکر هذه الخرافات أیضا ألیس العقل- هو رسول اللَّه الداخلی- فی أعماق الإنسان؟! و تجیب الآیة فی النهایة بجملة قصیرة علی هذا الاستدلال الواهی لعبدة الأصنام، فتقول: ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَخْرُصُونَ

إنّ هؤلاء لا علم و لا إیمان لهم حتی بمسألة الجبر أو رضی اللَّه سبحانه عن أعمالهم، بل هم- ککثیر من متبعی الهوی و المجرمین الآخرین- یتخذون مسألة الجبر ذریعة لهم من أجل تبرئة أنفسهم من الذنب و الفساد، فیقولون: إنّ ید القضاء و القدر هی التی جرتنا إلی هذا الطریق و حتمته علینا! مع علمهم بأنّهم یکذبون، و أن هذه ذریعة لیس إلّا، و لذلک فإنّ أحدا لو اغتصبهم حقّا فإنّهم غیر مستعدین أبدا لغض النظر عن معاقبته مطلقا، و لا یقولون: إنّه کان مجبرا علی عمله هذا!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲

«یخرصون» من الخرص، و هو فی الأصل بمعنی التخمین، و أطلقت هذه الکلمة أوّلا علی تخمین مقدار الفاکهة، ثمّ أطلقت علی الحدس و التخمین، و لما کان الحدس و التخمین یخطئ أحیانا و لا یطابق الواقع، فقد استعملت هذه الکلمة بمعنی الکذب أیضا، و «یخرصون» فی هذه الآیة من هذا القبیل.

و علی أیّة حال، فیظهر من آیات قرآنیة عدیدة بأنّ عبدة الأوثان کانوا یستدلون- مرارا- بمسألة المشیئة الإلهیّة من أجل توجیه خرافاتهم، و من جملة ذلک أنّهم کانوا قد حرّموا علی أنفسهم أشیاء و أحلّوا أخری، و نسبوا ذلک إلی اللَّه سبحانه، کما جاء ذلک فی الآیة (۱۴۸) من سورة الأنعام: سَیَقُولُ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَکْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَیْءٍ.

و تکرر هذا المعنی فی الآیة (۳۵) من سورة النحل أیضا: وَ قالَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ.

و قد کذّبهم القرآن الکریم فی ذیل آیة سورة الأنعام، حیث یقول: کَذلِکَ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّی ذاقُوا بَأْسَنا و یصرح فی ذیل آیة سورة النحل: فَهَلْ عَلَی الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ ! و فی ذیل الآیة مورد البحث ینسبهم إلی التخمین و الکذب کما رأینا، و کلها ترجع فی الحقیقة إلی أساس و مصدر واحد.

و تشیر الآیة التالیة إلی دلیل آخر یمکن أن یکونوا قد استدلوا به، فتقول: أَمْ آتَیْناهُمْ کِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِکُونَ ۱۵]؟ أی یجب علی هؤلاء أن یتمسّکوا بدلیل العقل لإثبات هذا الادّعاء، أو بدلیل النقل، فی حین لم یکن لهؤلاء دلیل لا من العقل و لا من النقل،

فإنّ کل الأدلّة العقلیة تدعوا إلی التوحید، و کذلک دعا کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳

الأنبیاء و الکتب السماویة إلی التوحید.

و أشارت آخر آیة- من هذه الآیات- إلی ذریعتهم الأصلیة، و هی فی الواقع خرافة لا أکثر، أصبحت أساسا لخرافة أخری، فتقول: بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ

لم یکن لهؤلاء دلیل إلّا التقلید الأعمی للآباء و الأجداد، و العجیب أنّهم کانوا یظنون أنّهم مهتدون بهذا التقلید، فی حین لا یستطیع أی إنسان عاقل حر أن یستند إلی التقلید فی المسائل العقائدیة و الأساسیة التی یقوم علیها بناؤه الفکری، خاصة إذا کان التقلید تقلید «جاهل لجاهل»، لأنا نعلم أن آباء أولئک المشرکین لم یکن لهم أدنی حظ من العلم، و کانت أدمغتهم ملیئة بالخرافات و الأوهام، و کان الجهل حاکما علی أفکارهم و مجتمعاتهم، کما توضح ذلک الایة (۱۷۰) من سورة البقرة:

أَ وَ لَوْ کانَ آباؤُهُمْ لا یَعْقِلُونَ شَیْئاً وَ لا یَهْتَدُونَ

التقلید یصحّ فی المسائل الفرعیة و غیر الأساسیة فقط، و أیضا یجب أن یکون تقلیدا لعالم، أی رجوع الجاهل إلی العالم، کما یرجع المریض إلی الطبیب، و غیر المتخصصین إلی أصحاب الإختصاص، و بناء علی هذا فإنّ تقلید هؤلاء کان باطلا بدلیلین.

لفظة «الأمّة» تطلق- کما یقول الراغب فی المفردات- علی الجماعة التی تربط بعضها مع البعض الآخر روابط، إمّا من جهة الدین، أو وحدة المکان، أو الزمان، سواء کانت حلقة الاتصال تلک اختیاریة أم إجباریّة. و من هنا استعملت هذه الکلمة أحیانا بمعنی المذهب، کما هو الحال فی الآیة مورد البحث، إلّا أن معناها الأصلی هو الجماعة و القوم، و إطلاق هذه الکلمة علی الدین یحتاج إلی قرینة[۱۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴

الآیات [سورة الزخرف (۴۳): الآیات ۲۳ الی ۲۵]

اشارة

وَ کَذلِکَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (۲۳) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُکُمْ بِأَهْدی مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَیْهِ آباءَکُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ کافِرُونَ (۲۴) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُکَذِّبِینَ (۲۵)

التّفسیر

عاقبة هؤلاء المقلدین:

تواصل هذه الآیات موضوع الآیات السابقة حول الدلیل الأصلی للمشرکین فی عبادتهم للأصنام، و هو تقلید الآباء، و الأجداد، فتقول: إن هذا مجرّد ادعاء واه من مشرکی العرب: وَ کَذلِکَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ

یستفاد من هذه الآیة جیدا أنّ المتصدین لمحاربة الأنبیاء، و الذین کانوا یقولون بمسألة تقلید الآباء و یدافعون عنها بکل قوّة، کانوا من المترفین و الأثریاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵

السكارى و المغرورين، لأنّ (المترف) من مادة (الترفّه) أى كثرة النعمة، و لما كان كثير من المنعمين يغرقون فى الشهوات و الأهواء، فإنّ كلمة «المترف» تعنى من طغى بالنعمة و غرق فى سكرتها و أصبح مغرورا[۱۷]، و مصداق ذلك- على الأغلب- الملوك و الجبابرة و الأثرياء المستكبرون و الأنانيون.

نعم، هؤلاء هم الذين تتعرض مصالحهم و أنانيّاتهم للفناء بثورة الأنبياء، و يحدق الخطر بمنافعهم و ثرواتهم اللامشروعة، و يتحرّر المستضعفون من مخالبهم، و لهذا كانوا يسعون إلى تخدير الناس و إبقائهم جهلاء بمختلف الأساليب و الحيل. و أغلب فساد الدنيا ينبع من هؤلاء المترفين الذين يتواجدون فى أماكن الظلم و التعدى و المعصية و الفساد و الرذيلة.

و جدير بالذكر، أنّنا قرأنا فى الآية السابقة أن هؤلاء كانوا يقولون: إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ و هنا يذكر القرآن أنّهم يقولون: وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ و بالرغم من أن التعبيرين يعودان إلى معنى واحد فى الحقيقة، إلّا أنّ التعبير الأوّل إشارة إلى دعوى أحقيّة مذهب الآباء، و التعبير الثّانى إشارة إلى إصرار هؤلاء.

و ثباتهم على اتباع الآباء و الاقتداء بهم.

و على أية حال فإنّ هذه الآية نوع من التسلية لخاطر النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين ليعلموا أن ذرائع المشركين و استدلالاتهم هذه ليست بالشيء الجديد، إذ أنّ هذا الطريق سلكه كل المنحرفين الضالين على مر التأريخ.

و تبيّن الآية التالية جواب الأنبياء السابقين على حجج هؤلاء المشركين و المنحرفين بوضوح تام، فتقول: قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ ۱۸]؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶

هذا التعبير هو أكثر التعابير المؤدبة الممكن طرحها أمام قوم عنيدين مغرورين، و لا يجرح عواطفهم أو يمسها مطلقا، فهو لا يقول: إن ما تقولونه كذب و خرافة، بل يقول: إنّ ما جئت به أهدى من دين آبائكم، فتعالوا و انظروا فيه و طالعوه.

إنّ مثل هذه التعبيرات القرآنية تعلمنا آداب المحاورة و المجادلة و خاصّة أمام الجاهلين المغرورين.

و مع كل ذلك، فإنّ هؤلاء كانوا غرقى الجهل و التعصب و العناد بحيث لم يؤثّر فيهم حتى هذا المقال المؤدب الرقيق، فكانوا يجيبون أنبياءهم بجواب واحد فقط:

قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ دون أن يأتوا بأىّ دليل على مخالفتهم، و دون أن يتأملوا فى الاقتراح المعقول المتين لأنبياء اللّه و رسله.

من البديهى أنّ مثل هؤلاء الأقوام الطاغين المعاندين، لا يستحقون البقاء، و ليست لهم أهليّة الحياة، و لا بدّ أن ينزل عذاب اللّه ليقتلع هذه الأشواك من الطريق و يطهره منها، و لذلك فإنّ آخر آية- من هذه الآيات- تقول: فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فبعضهم بالطوفان، و آخرون بالزلزلة المدمرة، و جماعة بالعاصفة و الصاعقة، و خلاصة القول: إنّا دمّرنا كل فئة منهم بأمر صارم فأهلكناهم.

و أخيرا وجهت الآية الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من أجل أن يعتبر مشركو مكّة أيضا، فقالت: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ فعلى مشركى مكّة المعاندين أن يتوقعوا مثل هذا المصير المشؤوم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (۲۷) وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (۲۹) وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (۳۰)

التّفسير

التوحيد كلمة الأنبياء الخالدة:

أشارت هذه الآيات إشارة موجزة إلى قصّة إبراهيم، و ما جرى له مع قوم بابل عبدة الأوثان، لتكمل بذلك بحث ذم التقليد، الذي ورد في الآيات السابقة، و ذلك لأنّه:

أوّلا- إنّ إبراهيم عليه السّلام كان الجد الأكبر للعرب، و كانوا يعدونه محترما و يقدّسونه، و يفتخرون بتأريخه، فإذا كان اعتقادهم و قولهم هذا حقّا فيجب عليهم أن يتبعوه عند ما مزّق حجب التقليد. و إذا كان سبيلهم تقليد الآباء، فلما ذا يقلّدون عبدة

الأوثان و لا يتّبعون إبراهيم عليه السّلام.

ثانيا: إنّ عبدة الأصنام استندوا إلى هذا الاستدلال الواهي- و هو اتباع الآباء- فلم يقبله إبراهيم منهم أبدا، كما يقول القرآن الكريم في سورة الأنبياء- ۵۳، ۵۴:

قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

ثالثا: إنّ هذه الآية نوع من التطييب لخاطر الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين الأوائل ليعلموا أنّ مثل هذه المخالفات و التوسّلات بالمعاذير و الحجج الواهية كانت موجودة دائما، فلا ينبغي أن يضعفوا أو ييأسوا.

تقول الآية الأولى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۱۹]، و لما كان كثير من عبدة الأصنام يعبدون اللّه أيضا، فقد استثناه إبراهيم مباشرة فقال:

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ

إنّه عليه السّلام يذكر في هذه العبارة الوجيزة دليلا على انحصار العبوديّة باللّه تعالى، لأنّ المعبود هو الخالق و المدبر، و كان الجميع مقتنعين بأنّ الخالق هو اللّه سبحانه، و كذلك أشار عليه السّلام في هذه العبارة إلى مسألة هداية اللّه التكوينيّة و التشريعيّة التي يوجبها قانون اللطف ۲۰].

و قد ورد هذا المعنى في سورة الشعراء، الآيات ۷۷- ۸۲ أيضا.

و لم يكن إبراهيم عليه السّلام من أنصار أصل التوحيد، و محاربة كل اشكال الشرك طوال حياته و حسب، بل إنّه بذل قصارى جهده من أجل إبقاء كلمة التوحيد في هذا العالم إلى الأبد، كما تبيّن ذلك الآية التالية إذ تقول:

وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۲۱].

و الطريف أنّ كل الأديان التي تتحدّث عن التوحيد اليوم تستلهم دعوتها و أفكارها من تعليمات إبراهيم عليه السّلام التوحيديّة، و أنّ ثلاثة من أنبياء اللّه العظام- و هم موسى عليه السّلام و عيسى عليه السّلام و محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم- من ذرّيته، و هذا دليل على صدق تنبؤ القرآن في هذا الباب.

صحيح أنّ أنبياء آخرين قبل إبراهيم عليه السّلام- كنوح عليه السّلام- قد حاربوا الشرك و الوثنيّة، و دعوا البشر إلى التوحيد، إلّا أنّ الذي منح هذه الكلمة الاستقرار و الثبات، و رفع رايتها في كلّ مكان، كان إبراهيم عليه السّلام محطّم الأصنام. فهو عليه السّلام لم

یسع لاستمرار خطّ التوحید فی زمانه و حسب، بل إنّه طلب استمرار هذا الأمر من اللّه سبحانه فی أدعیته إذ قال: وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ ۲۲].

ثمّة تفسیر آخر، و هو: إنّ الضمیر فی (جعل) یعود إلی اللّه سبحانه، فیکون معنی الجملة: إنّ اللّه سبحانه قد جعل کلمة التوحید فی أسرة إبراهیم.

غیر أنّ رجوع الضمیر إلی إبراهیم علیه السّلام- و هو التّفسیر الأوّل یبدو أنسب، لأنّ الجمل السابقة تتحدّث عن إبراهیم، و من المناسب أن یکون هذا الجزء من جملة أعمال إبراهیم، خاصّة و أنّه قد أکّد علی هذا المعنی فی آیات عدیدة من القرآن الکریم، و إنّ إبراهیم کان مصرّا علی أن یبقی بنوه و عقبه علی دین اللّه، کما نقرأ فی الآیتین (۱۳۱)، (۱۳۲) من سورة البقرة: إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِینَ* وَ وَصَّی بِها إِبْراهِیمُ بَنِیهِ وَ یَعْقُوبُ یا بَنِیَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفی لَکُمُ الدِّینَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

و التصوّر بأنّ (جعل) یعنی الخلق، و أنّه مختصّ باللّه سبحانه، تصوّر خاطئ، لأنّ (الجعل) یطلق علی أعمال البشر و غیرهم أیضا، و فی القرآن نماذج کثیرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰

لذلک، فمثلا- عبّر القرآن عن إلقاء یوسف فی البئر من قبل إخوته، بالجعل: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ یَجْعَلُوهُ فِی غَیابَتِ الْجُبِ ۲۳] اتّضح ممّا قلناه أنّ ضمیر المفعول فی (جعلها) یعود إلی کلمة التوحید و شهادة (لا إله إلّا اللّه) و یستفاد هذا من جملة: إِنَّنِی بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ التی تخبر عن مساعی إبراهیم من أجل استمرار خط التوحید فی الأجیال القادمة.

و ورد فی روایات عدیدة من طرق أهل البیت علیهم السّلام اعتبار مرجع الضمیر إلی مسألة الإمامة، و ضمیر الفاعل یرجع إلی اللّه طبعا، أی إنّ اللّه سبحانه قد جعل مسألة الإمامة مستمرّة فی ذریّة إبراهیم علیه السّلام، کما یستفاد من الآیة (۱۲۴) من سورة البقرة، إذ لما قال اللّه سبحانه لإبراهیم: إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً طلب إبراهیم علیه السّلام أن یکون أبناؤه أئمّة أیضا، فاستجاب اللّه دعاءه، إلّا فی الذین ظلموا و تلوّثوا بالمعصیة و الجور: قالَ إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قالَ لا یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ

إلّا أنّ الإشکال الذی یتبادر لأوّل وهلة هو أنّه لا کلام عن الإمامة فی الآیة مورد البحث، اللهمّ إلّا أن تکون جملة (سیهدین) إشارة إلی هذا المعنی، لأنّ هدایة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و الأئمّة علیهم السّلام شعاع من هدایة اللّه المطلقة، و حقیقة الهدایة و الإمامة واحدة.

و الأفضل من ذلک أن یقال: إنّ مسألة الإمامة مندرجة فی کلمة التوحید، لأنّ للتوحید فروعا أحدها التوحید فی الحاکمیّة و الولایة و القیادة، و نحن نعلم أنّ الأئمّة یأخذون ولایتهم و زعامتهم من اللّه سبحانه، لا أنّهم مستقلّون بأنفسهم، و بهذا فإنّ هذه الرّوایات تعتبر من قبیل بیان مصداق و فرع من المعنی العام ل جَعَلَها کَلِمَةً باقِیَةً و لهذا فإنّه لا منافاة مع التّفسیر الذی ذکرناه فی البدایة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱

(فتأمّل!)[۲۴].

و الجدیر بالملاحظة هنا: هو أنّ المفسّرین قد احتملوا عدّة احتمالات فی تفسیر فِی عَقِبِهِ ففسّرها البعض بکلّ ذریّة إبراهیم و أسرته، و اعتبرها آخرون خاصّة بقوم إبراهیم و أمّته، و فسّرها جماعة بآل محمّد علیهم السّلام إلّا أنّ الظاهر هو أنّ لها معنی واسعا یشمل کل ذریته إلی انتهاء الدنیا، و التّفسیر بآل محمّد علیهم السّلام من قبیل بیان المصداق الواضح لها.

و الآیة التالیة جواب عن سؤال فی الحقیقة، و هو: فی مثل هذه الحال لم لا یعذّب اللّه مشرکی مکّة؟ أ لم نقرأ فی الآیات السابقة: فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ

فتقول الآیة مجیبة: بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّی جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِینٌ فنحن لم نکتف بحکم العقل ببطلان الشرک و الوثنیّة، و لا- بحکم وجدانهم بالتوحید بل أمهلناهم لإتمام الحجّة علیهم حتّی یقوم هذا الکتاب الذی لا یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من

خلفه، و هذا النّبى العظيم محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم بهدايتهم.

و بتعبير آخر، فإنّ جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فى الآية السابقة توحى بأنّ الهدف من مساعى إبراهيم عليه السّلام الحثيثة كان رجوع كل ذرّيته إلى خط التوحيد، فى حين أن العرب كانت تدعى أنّها من ذرية إبراهيم عليه السّلام و رغم ذلك لم ترجع، إلّا أنّ اللّه سبحانه أمهلهم مع ذلك حتى يأتى النّبى العظيم بالكتاب الجديد ليوقظ هؤلاء من نومهم، و بالفعل فقد استيقظت جماعة عظيمة منهم.

إلّا أنّ العجيب أنّه: وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هـذا سِـحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ نعم. لقد عدوّا القرآن المجيد سحرا، و النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم ساحرا، و إذا لم يرجعوا عمّا قالوا فإنّ عذاب اللّه سيحيط بهم و يأخذهم من حيث لا يشعرون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲

الآيتان [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (۳۱) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۳۲)

التّفسير

لم لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟

كان الكلام فى الآيات السابقة فى ذرائع المشركين فى مواجهة دعوة الأنبياء، فكانوا يتّهمونهم بالسحر تارة، و يتوسلون تارة أخرى بتقليد الآباء و ينبذون كلام اللّه وراء ظهورهم، و تشير الآيات- مورد البحث- إلى حجّة واهية أخرى من حجج أولئك المشركين، فتقول: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أى مكّة و الطائف.

لقد كانوا معذورين بتشبثهم بمثل هذه الذريعة من جهة، إذ كان المعيار فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳

تقييمهم للبشر هو المال و الثروة و المقام الظاهرى و الشهرة.

إنّ صغار العقول هؤلاء كانوا يتصوّرون أنّ الأثرياء، و زعماء قبائلهم الظلمة هم أقرب الناس إلى اللّه سبحانه، و لذلك فإنّهم كانوا يتعجبون لماذا لم تنزل موهبة النبوّة و الرحمة الإلهيّة العظيمة هذه على رجل من قبيل هؤلاء الأفراد و نزلت على يتيم فقير خالى اليد اسمه محمّد! إن هذا لشىء عجاب لا يكاد يصدق! نعم، إنّ نظام القيم الخاطئ يستتبع مثل هذا الاستنباط، و هذا هو السبب فى بلاء المجتمعات البشرية العظيم، و العامل الأساس فى انحرافها الفكرى، حيث تقلب الحقائق تماما فى بعض الأحيان.

إنّ حامل هذه الدعوة الإلهيّة يجب أن يكون إنسانا تغمر وجوده روح التقوى ..

أن يكون إنسانا واعيا، ذا إرادة و تصميم، شجاعا عادلا، عارفا بآلام المحرومين و المظلومين، ذائقا لمرارتها ...

هذه هى القيم التى يلزم توفّرها من أجل حمل هذه الرسالة السماويّة، لا الألبسة الفاخرة الجميلة، و القصور الفخمة الفارهة المزيّنة بأنواع الزينة و الزخارف، خاصّة و إن أيّا من أنبياء اللّه لم يكن متمتعا بهذه الصفات و المزايا المادية، لئلّا تشتبه القيم الأصيلة بالقيم المزيّفة.

و للمفسّرين أقوال فى مراد المشركين من الرجل فى مكّة و الطائف؟ إلّا أنّ أغلبهم اعتبروا «الوليد بن المغيرة» رجل مكّة، و «عروة بن

مسعود الثقفى» رجل الطائف، و إن كان البعض قد ذكر أن عتبة بن ربيعة من مكّة، و حبيب بن عمر الثقفى من الطائف.

إلّا أنّ الظاهر أن قول أولئك المشركين لم يكن يدور حول شخص معين، بل كان هدفهم الإشارة إلى أحد الأثرياء المعروفين، و له عشيرة مشهورة.

و يردّ القرآن الكريم بأجوبة قاطعة على هذا النمط من التفكير المتسافل الخرافى، و يجسد النظرة الإلهيّة الإسلاميّة تماما، فيقول أوّلا: أ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ

رَبِّكَ فيمنحوا النبوّة من يشاءون، و ينزلوا عليه الكتاب السماوى، و إذا لم يعجبهم إنسان أهملوه؟

هؤلاء على خطأ كبير، فإنّ ربّك هو الذى يقسم رحمته، و هو يعلم- أفضل من سواه- من يستحق هذا المقام العظيم، و من هو أهل له، كما ورد ذلك فى الآية (۱۲۴) من سورة الأنعام أيضا: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ

فضلا عن ذلك، فإنّ وجود التفاوت و الاختلاف بين البشر من ناحية مستوى المعيشة، لا يدلّ على تفاوتهم فى المقامات و المنازل المعنويّة مطلقا، بل: نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا.

لقد نسى هؤلاء أنّ حياة البشر حياة جماعيّة، و لا يمكن أن تدار هذه الحياة إلّا عن طريق التعاون و الخدمة المتبادلة، فإذا ما تساوى كلّ الناس فى مستوى معيشتهم و قابليّاتهم و مكانتهم الاجتماعية، فإنّ أصل التعاون و الخدمة المتبادلة سيتزلزل.

بناء على هذا فينبغى أن لا يخدعهم هذا التفاوت، و يظنّوا أنّه معيار القيم الإنسانية، إذ: وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ بل إن كل المقامات و الثروات لا تعدل جناح بعوضة فى مقابل رحمة اللَّه و القرب منه.

إنّ التعبير ب «ربّك» الذى تكرّر مرّتين فى هذه الآية، إشارة لطيفة إلى لطف اللَّه الخاص بنبى الإسلام الأكرم صلى اللَّه عليه و آله و سلّم، و منحه مقام النبوّة و الخاتميّة.

***

سؤالين مهمّين:

عند مطالعة الآية أعلاه يتبادر إلى الذهن سؤالان يستخدمهما أعداء الإسلام كحربة للطعن فى الفلسفة الإسلاميّة:

الأوّل: كيف أقرّ القرآن استخدام الإنسان و تسخيره من قبل الإنسان؟ ألا يماثل هذا نظام الطبقات الاقتصاديّة، أى نظام المستثمرين و المستثمرين؟

الثّانى: أنّ الأرزاق و المعايش إذا كانت مقسّمة من قبل اللَّه تعالى، فأى ثمرة يمكن أن تنتج عن جهودنا و مساعينا؟ ألّا يعنى هذا إطفاء مشاعل السعى و مصابيح الجهاد من أجل الحياة؟

إنّ الإباحة على هذه الأسئلة تتّضح بالتدقيق فى متن الآية، لأنّ هؤلاء يتصورون أنّ معنى الآية هو أنّ جماعة معيّنة من البشر تسخر جماعة أخرى لأنفسها تسخيرا ظالما يمتصّ الدماء و الجهود، فى حين أن الأمر ليس كذلك، بل هو استخدام الناس بعضهم بعضا، أى أنّ كل جماعة من الناس لهم إمكانيّات و استعدادات خاصّة يستطيعون العمل بواسطتها فى مجال ما من شؤون الحياة، و هم بطبيعة الحال يقدمون خدماتهم فى ذلك الحقل إلى الآخرين، كما أنّ خدمات الآخرين فى الحقول الأخرى تقدم إليهم.

و الخلاصة: هو استخدام متبادل، و خدمة ذات طرفين، و بتعبير آخر: فإنّ الهدف من التسخير هو التعاون فى أمر الحياة، و لا شىء آخر.

و لا یخفی أنّ البشر لو کانوا متساوین جمیعا من ناحیة الذکاء و الاستعداد الروحی و الجسمی، فسوف لن تتهیّأ مستلزمات الحیاة الاجتماعیّة، و النظم الحیاتیّة مطلقا، کما أن خلایا جسم الإنسان لو کانت متشابهة من ناحیة البنیة و الرقة و المقاومة لا ختل نظام الجسم، فأین خلایا عظم کعب القدم القویّة جدّا من خلایا العین الرقیقة؟ إن لکل من هاتین مهمّة خاصّة بنیت علی أساسها.

و المثال الحی الذی یمکن أن یضرب لهذا الموضوع هو الخدمات المتبادلة فی جهاز التنفّس، و دوران الدم، و التغذیة، و سائر أجهزة بدن الإنسان، التی هی مصداق واضح ل لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا فی إطار نشاطات البدن الداخلیّة، فهل یمکن الإشکال علی مثل هذا التسخیر؟ و هل فیه خلل أو نقص؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶

فإن قیل: إنّ جملة: رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ دلیل علی عدم العدالة الاجتماعیة.

قلنا: هذا یصحّ فی حالة تفسیر العدالة بالمساواة، فی حین أنّ العدالة تعنی وضع کلّ شیء فی محلّه ضمن منظومته، فهل أنّ وجود سلسلة المراجع و الرتب فی فرقة عسکریّة، أو تنظیم إداری، أو فی الدولة، دلیل علی وجود الظلم فی تلک الأجهزة؟

من الممکن أن یستعمل بعض الناس کلمة «المساواة» فی مجال الشعارات من دون الالتفات إلی معناها الواقعی، أمّا فی الواقع العملی فلا یمکن أن یتمّ أو یقوم أی نظام بدون الاختلاف و التفاوت، غیر أنّ هذا التفاوت یجب أن لا یکون ذریعة لأنّ یستغل الإنسان أخاه الإنسان أبدا، بل یجب أن یکون الجمیع أحرارا فی استعمال قواهم الخلاقة، و تنمیة نبوغهم و إبداعهم، و الاستفادة من نتائج نشاطاتهم بدون زیادة أو نقصان، و أمّا فی حال عجزهم فیجب علی القادرین أن یجدوا و یجتهدوا فی رفع النواقص و سد ما یحتاجونه.

و أمّا فیما یتعلق بالسؤال الثّانی، و هو: کیف یمکن المحافظة علی شعلة الجهاد و السعی و الاجتهاد و هاجة مع کون الرزق معینا؟ فإنّ الاشتباه ناشئ من تصورهم أن اللّه سبحانه لم یجعل لسعی الإنسان و اجتهاده أی أثر أو دور.

صحیح أنّ اللّه سبحانه خلق القابلیات متفاوتة لمختلف النشاطات، و صحیح أنّ العوامل الخارجة عن إرادة الإنسان مؤثّرة فی مسیر حیاته، لکن مع ذلک فإنّه سبحانه قد جعل سعیه، و اجتهاده أیضا أحد العوامل الأساسیّة، و أوضح سبحانه ببیان أصل: أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی ۲۵]، أنّ سعادة الإنسان و ما یجنیه و یحصل علیه یرتبط بسعیه و اجتهاده.

و علی أیّة حال، فإنّ النکتة الغامضة و الدقیقة تکمن فی أنّ البشر لیسوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷

کالأوانی المتساویة الصفات الی صنعت فی معمل واحد، فی شکل واحد، و علی وتیرة واحدة، و بحجم واحد، و لغایة واحدة فی الاستعمال، و لو کانوا کذلک لما أمکنهم التعایش بعضهم مع البعض الآخر یوما واحدا.

و أیضا لیس الناس من قبیل أجهزة و أدوات سیارة نظمها مهندسها علی هیئة ما، فهی تقوم بعملها بصورة إجباریة، بل لدیهم حریة الإرادة، و علیهم مسئولیة و واجب فی نفس الوقت الذی تختلف فیه قابلیاتهم و لیاقاتهم، و هذا هو المرکب الخاص الذی یسمونه الإنسان، و الاعتراضات و الإیرادات التی تطرح غالبا تنبع من عدم معرفة هذا الإنسان.

و خلاصة القول: إنّ اللّه سبحانه لم یفضل أی إنسان علی الآخرین من کل الجهات، بل إنّ جملة: رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ إشارة إلی الامتیازات التی تمتاز بها کل جماعة علی الجماعة الأخری، و تسخیر کل فئة لأخری و استخدامها لها نابع من هذه الامتیازات تماما، و هذا عین العدالة و التدبیر و الحکمة[۲۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸

الآیات [سورة الزخرف (۴۳): الآیات ۳۳ الی ۳۵]

اشارة

وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (۳۵)

التّفسير

قصور فخمة سقفها من فضة؟ (قيم كاذبة)

تستمر هذه الآيات في البحث حول «نظام القيم في الإسلام»، و عدم اعتبار كون المال و الثروة و المناصب المادية هي المعيار في التقييم، فتقول الآية الأولى:

وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ[۲۷].

و لجعلنا لهم بيوتا لها عدّة طوابق و لها سلالم جميلة

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹

وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ ۲۸].

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد أن السلالم مصنوعة من الفضة، و عدم تكرار كلمة الفضة لوضوح المراد. و كأنّهم لم يعتبروا وجود السّلام لوحدها دليلا على أهمية البيوت، و الأمر ليس كذلك، إذ أن وجود السلالم الكثيرة دليل على عظمة النباء و تكونه من عدّة طوابق.

«السقف» جمع سقف، و يعتقد البعض أنها جمع سقيفة، أي المكان المسقف، إلّا أنّ القول الأوّل أشهر.

ثمّ تضيف الآية الأخرى: وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ

و ربّما كانت هذه الجملة إشارة إلى الأبواب و الأسرّة الفضية، لأنّ الآية السابقة لما تحدثت عن السّقف الفضية امتنع التكرار. و يمكن أيضا أن يكون وجود الأبواب و الأسرّة المتعددة- خاصّة و أن (أبوابا) و (سررا) نكرة، و قد وردت هنا لبيان الأهمية- دليلا بنفسه على عظمة تلك القصور، لأنّهم يجعلون لبيت حقير عدّة أبواب أبدا، بل هي مختصة بالقصور و البيوت الفخمة، و كذلك الحال بالنسبة لوجود الأسرّة.

و لم تكتف الآية بهذا، بل استطردت أنّه إضافة إلى كل ذلك فقد جعلنا لهم مباهج و انواع الزينة وَ زُخْرُفاً[۲۹] لتكمل الحياة المادية و زخارفها و زبارجها من كل الجهات، القصور الفخمة المتعددة الطبقات الأبواب و الأسرّة المتعددة، و كل وسائل الزينة و النقوش و الرسوم و سائر الجواذب التي يتحقّق فيها مراد عبيد الدنيا و أمانيهم.

ثمّ تضيف الآية: وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰

«الزخرف» في الأصل بمعنى كل زينة مقترنة بالرسم و التصوير، و لما كان الذهب أحد أهم وسائل الزينة، فقد قيل له: زخرف، و إنّما قيل للكلام الأجوف الذي لا فائدة فيه: كلام مزخرف، لأنهم يحيطونه و يلبسونه المزوقات ليصبح مقبولا.

و خلاصة القول: إنّ هذه الأسس المادية و وسائل الزينة الدنيوية، حقيرة لا قيمة لها عند اللّه تعالى فلا ينبغي أن تكون إلّا من نصيب الأفراد الذين لا قيمة لهم كالكافرين و منكري الحق، و لو لم يتأثر الناس من طلاب الدنيا و يميلوا إلى الكفر لجعل اللّه تعالى هذه الأمور من نصيب هذه الفئة فقط، ليعلم الجميع أن هذه الأمور ليست هي المعيار و المقياس لشخصية الإنسان و قيمته و مقامه.

***

ملاحظتان

۱- الإسلام یحطم القیم الخاطئة

حقّا لا- یمکن العثور علی تعبیر أبلغ ممـا ورد فی الآیـات أعلاـه لتحطیم المقـاییس و القیم الکاذبـة و القضـاء علیها، و تغییر بناء ذلک المجتمع الـذی یـدور محور تقییم شخصـیة الأفراد فیه حول مقـدار ما یملکون من الإبل، و مقـدار الدراهم و الدنانیر، و عدد الغلمان و الجواری و البیوت و أدوات الزینـة، حتی أنّهم یتعجبون لماذا اختیر محمّد صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم للنبوة و هو الیتیم الفقیر مادیا؟!

إن أهم عمـل لرسالـة السـماء هو تحطیم أطر القیم الخاطئـة هـذه، و بناء القیم الإنسانیـة الأصـیلة کالتقوی، و العلم، الإیثار و التضـحیة، الشهامة و الحلم علی أنقاضها، و إلّا فإنّ کل الإصلاحات ستکون فوقیة و سطحیة و غیر ثابتة.

و هذا هو الذی قام به الإسلام و القرآن و الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی أحسن

وجه، و لهـذا فإنّ المجتمع الـذی کان أکثر المجتمعات البشـریة تخلفا و خرافـة، قد تسـلق سـلّم الرشد و الرقی حتی أصـبح فی المرتبة الأولی فی مدّة قصیرة.

و الطریف أنّنا نقرأ

فی حدیث عن النّبی الأکرم صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم، فی تکملة هذا البحث: «لو وزنت الدنیا عند اللّه جناح بعوضة ما سقی الکافر منها شربة ماء»[۳۰].

و

یبلغ أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام الکلاـم فی هـذا البـاب غـایته حیث یقول: «و لقـد دخـل موسـی بن عمران و أخوه هـارون علیهما السّـلام علی فرعون و علیهما مدارع الصوف و بأیدیهما العصـی، فشرطا له إن أسلم بقاء ملکه و دوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذین یشـرطان لی دوام العزّ و بقـاء الملـک و همـا بمـا ترون من حـال الفقر و الـذل، فهلّـا ألقی علیهما أساورة من ذهـب، إعظاما للـذهب و جمعه، و احتقـارا للصوف و لبسه، و لو أراد اللّه سـبحانه بأنبیـائه حیث بعثهم أن یفتـح لهـم کنوز الـذهبان، و معـادن العقیان، و مغارس الجنان، و أن یحشر معهم طیور السماء و وحوش الأرض لفعل، و لو فعل لسقط البلاء، و بطل الجزاء».

و

یقول فی موضع آخر من هـذه الخطبـة: «ألا- ترون ان اللّه سـبحانه اختبر الأولین من لـدن آدم صـلوات اللّه علیه إلی الآخرین من هـذا العالم بأحجار لا تضر و لا تنفع، و لا تبصر و لا تسمع، فجعلها بیته الحرام الذی جعله للناس قیاما. ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، و أقل نتائق الأرض مدرا، و أضـیق بطون الأودیة قطرا، بین جبال خشنة، و رمال دمثة، و عیون وشلة، و قری منقطعة، لا یزکو بها خف، و لا حافر و لا ظلف. ثمّ أمر آدم و ولده أن یثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم ...».

«و لو أراد اللّه سـبحانه أن یضع بیته الحرام و مشـاعره العظام بین جنات و أنهار، و سـهل و قرار، جم الأشـجار، دانی الثمار، ملتف البنا، متصل القری، بین برة سمراء، و روضة خضراء، و أریاف محدقة، و عراص مغدقة، و طرق عامرة، لکان قد صغر

قدر الجزاء علی حسب ضعف البلاء»[۳۱].

و عند ذلک کان الناس سینشغلون بالقیم الظاهریة الخداعة، و یغفلون عن القیم الإلهیّة الواقعیة.

على أية حال، فإنّ أساس الثورة الإسلامية هو تغيير القيم، و إذا ما أصبح مسلمو اليوم يعانون من ظروف صعبة خانقة، و تحت ضغط الأعداء الجلادين القساة، فإنّ ذلك ناتج عن تركهم لقيم الأصيلة، و انتشار القيم و الأعراف الجاهلية بينهم مرّة أخرى، فأصبح المال و المنصب الدنيوى مقياس التقييم، و نسوا العلم و الفضيلة و التقوى، و غرقوا فى بحر المغريات و الزخارف المادية، و أضحوا غرباء عن الإسلام، و ما دام الوضع كذلك فيجب أن يدفعوا كفارة هذا الذنب العظيم، و ما داموا لم يشرعوا بالتغيير ابتداء من القيم الحاكمة على وجودهم، فسوف لن تشملهم رحمة اللّه و لطفه، و ذلك: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ [۳۲].

۲- جواب عن سؤال

بمطالعة الآيات المذكورة حول التحقير الشديد للزينة الظاهرية، و الثروة و المقام المادى، يطرح هذا السؤال نفسه، و هو: إذا كان الحق كذلك، فلما ذا يقول القرآن فى موضع آخر: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [۳۳] أو يقول فى موضع آخر: يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ[۳۴]، فكيف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳

تتوافق هاتان الفئتان مع الآيات؟

ينبغى الالتفات فى الجواب إلى أن الهدف فى الآيات- مورد البحث- هو القضاء على القيم الكاذبة الخاطئة، الهدف هو أن لا يعد الناس شخصية الإنسان متقومة بثروته و زينته، و لا يغنى هذا أنّ الإمكانيات المادية شيء سيّء، بل المهم أن تكون مجرّد أدوات و مظاهر للنظر، و ليس كهدف سام و غاية تبلغ.

ثمّ إنّ هذه الإمكانيات تكون ذات قيمة عند ما تكون فى حد المعقول و اللائق بالحال، و خالية من كلّ أنواع الإسراف و التبذير، لا أن تبنى القصور من الذهب و الفضة، و تدّخر الثروات الطائلة منهما.

و من هنا يتّضح أن وجود جماعة من الكفّار و الظالمين بهذه القدرة المادية ليس دليلا على رفعة شخصيتهم، و لا أن حرمان المؤمنين منها، أو من التمتع بها فى حد المعقول كأدوات للزينة، يضر بإيمانهم و تقواهم، و هذا هو التفكير الإسلامى و القرآنى الصحيح.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۳۶ الى ۴۰]

اشارة

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (۳۸) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۴۰)

التّفسير

أقران الشياطين!

لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن عبدة الدنيا الذين يقيّمون كل شيء على أساس المعايير المادية، فإنّ الآيات- مورد البحث- تتحدث عن أحد الآثار المميتة الناشئة عن الارتباط بالدنيا و التعلق بها، ألا و هو الابتعاد عن اللّه سبحانه.

تقول الآية الأولى: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵

قَرِينٌ ۳۵][۳۶].

نعم، إنّ الغفلة عن ذكر اللّه، و الغرق فى لذات الدنيا، و الانهيار بزخارفها و مغرياتها يؤدى إلى تسلط شيطان على الإنسان يكون قرينة دائما، و يلقى لجاما حول رقبته يشدّه به، و يجرّه إليه ليذهب به حيث يشاء! من البديهى أنّه لا مجال لأن يتصور أحد معنى الجبر فى هذه الآية لأنّ هذه نتيجة الأعمال التى قام بها هؤلاء أنفسهم، و قد قلنا مرارا: إنّ أولى نتائج أعمال الإنسان- و خاصة الانغماس فى ملاذ الدنيا، و التلوث بأنواع المعاصى- هو تكوّن حجاب على القلب و السمع و البصر يبعده عن اللّه سبحانه، و يسلط الشياطين عليه، و قد يستمرّ هذا الحال بالنسبة إليه حتى يغلق بوجهه باب الرجوع، لأنّ الشياطين و الأفكار الشيطانية تكون حينئذ قد أحاطت به من كل جانب، و هذه نتيجة عمل الإنسان نفسه، و إن كانت نسبتها إلى اللّه سبحانه بلحاظ كونه سبب الأسباب صحيحة أيضا، و هذا هو نفس الشيء الذى عبّر عنه فى آيات القرآن الأخرى بعنوان تزيين الشياطين فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ۳۷]، أو بعنوان ولاية الشيطان فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ [۳۸] و ممّا يستحق الانتباه أن جملة نُقَيِّضْ و بالالتفات إلى معناها اللغوى، تدل على استيلاء الشياطين، كما تدل على كونهم أقرانا، و فى الوقت نفسه فقد جاءت جملة: فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ بعدها لتؤكّد هذا المعنى، و هو أنّ الشياطين لا يفارقون مثل هؤلاء الأفراد، و لا يبتعدون عنهم مطلقا!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶

و التعبير ب «الرحمن» إشارة لطيفة إلى أنّه كيف يعرض هؤلاء عن اللّه الذى عمّت رحمته العامّة الجميع و شملتهم، و يغفلون عن ذكره؟ فهل يستحق أمثال هؤلاء غير هذا المصير و يكونون أقرانا للشياطين، يتبعون أوامرهم، و ينفذون ما يملون عليهم؟

و احتمل بعض المفسّرين أن يكون للشياطين هنا معنى واسع بحيث يشمل حتى شياطين الإنس، و اعتبروا الكلمة إشارة إلى رؤوس الضلالة و زعمائها الذين يتسلطون على الغافلين عن ذكر اللّه سبحانه فيكونون أقرانا لهم، و هذا التوسع فى المعنى ليس ببعيد.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى أمر مهم كانت الشياطين تقوم به فى شأن هؤلاء الغافلين، فقالت: وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ۳۹].

فكلما صمّموا على التوبة و الرجوع إلى طريق الصواب و الرشاد كانت الشياطين تلقى فى طريقهم الأحجار و العقبات، و تنصب الموانع فى طريق عودتهم حتى لا يعودوا إلى الصراط المستقيم أبدا. و تزين الشياطين طريق الضلال لهم إلى الحد الذى يظنون: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ كما نقرأ ذلك فى الآية (۳۸) من سورة العنكبوت حول عاد و ثمود: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ

و هكذا تستمر هذه الحالة على هذا المنوال، فيبقى الإنسان الغافل الجاهل على ضلاله، و تستمر الشياطين فى إضلاله، حتى ترفع الحجب، و تنفتح عين رؤيته على الحقيقة: حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ

إنّ كل أنواع العذاب من جهة، و مجالسة قرين السوء هذا من جهة اخرى و النظر إلى وجهه المشؤوم يجسد أمام عينيه كل ذكريات ضياعه و تعاسته، فويل له إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷

أصبح قرين من كان يزين له كل القبائح و يسلكه طريق الضلال على أنّه سبيل الخير و الفلاح، و طريق الانحراف على أنّه طريق الهدى و الصلاح، و ويل له إذا أصبح مقيّدا معه بنفس الأصفاد فى نفس السجن! نعم، إن عرصة القيامة تجسيد واسع لمشاهد هذه

الدنيا، و القرين و الرفيق و القائد و الدليل هنا و هناك واحد، بل إنّهما- برأى بعض المفسّرين- يقرنان بسلسلة واحدة! من المعلوم أنّ المراد من المشرقين: المشرق و المغرب، لأنّ العرب عند ما يريدون أن يثنوا جنسين مختلفين بلفظ واحد، فإنّهم يختارون أحد اللفظين، كما يقولون: الشمسان، إشارة إلى الشمس و القمر، و الظهران، إشارة إلى صلاتى الظهر و العصر، و العشاء ان، إشارة إلى صلاتى المغرب و العشاء.

و قد ذكروا تفاسير أخرى لا تبدو مناسبة للآية من أى وجه، كقولهم: إنّ المراد هو مشرق بداية الشتاء، و مشرق بداية الصيف، و إن كان هذا التّفسير مناسبا فى موارد أخرى.

و على أية حال، فإنّ هذا التعبير كناية عن أبعد مسافة يمكن تصورها، حيث يضرب المثل ببعد المشرق عن المغرب فى هذا الباب.

إلّا أن هذا الأمل لا يتحقق مطلقا، و لا يمكن أن يقع الإفتراق أو البون بين هؤلاء و بين الشياطين، و لذلك فإنّ الآية التالية تضيف: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ فيجب أن تذوقوا عذاب قرين السوء هذا مع أنواع العذاب الأخرى إلى الأبد[۴۰].

و بهذا فإنّ القرآن الكريم يبدل أمل هؤلاء فى الإفتراق عن الشياطين إلى يأس دائم، و كم هو مضن تحمل هذا الجوار؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۸

و هناك احتمالات اخرى فى تفسير هذه الآية، منها أن الإنسان قد يشعر بخفة آلامه عند رؤية متألمين آخرين، لأنّ المعروف (أن البلية إذا عمّت طابت) غير أنّه يقال لهؤلاء: لا يوجد هناك مثل تسلية الخاطر هذه، بل ستغوصون فى العذاب، و عذاب الشياطين المشتركين معهم لا يبعث على تسلية الخاطر[۴۱].

و احتملوا أيضا أن المصيبة عند ما تقع، تخف وطأتها عند ما يجد الإنسان ثقلها موزعا بينه و بين أصدقائه، و لكن هذه المسألة لا توجد هناك أيضا، لأنّ لكل فرد سهما وافرا من العذاب، من دون أن ينقص من عذاب الآخرين شيء! لكن بملاحظة أن هذه الآية تكملة للآية السابقة، فإنّ التّفسير الأوّل الذى اخترناه هو الأنسب.

و يترك القرآن هنا هذه الفئة و شأنها، و يوجه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يتحدث عن الغافلين عمى القلوب الذى كذبوا ارتباطه باللّه، و هم من جنس من تقدم الكلام عنهم فى الآيات السابقة، فيقول: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و قد ورد نظير هذا المعنى فى آيات أخرى من القرآن الكريم، حيث شبه المعاندين الذين لا أمل فى هدايتهم، و الغارقين فى الذنوب بالعمى و الصم، بل و بالأموات أحيانا.

فقد جاء فى الآية (۴۲) من سورة يونس: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ

و جاء فى الآية (۸۰) من سورة النمل: إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ و آيات أخرى.

إن كل هذه التعابير توضح أن القرآن يقول بنوعين من السمع و البصر و الحياة للإنسان: السمع و البصر و الحياة الظاهريّة، و السمع و البصر و الحياة الباطنية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۹

و المهم هو القسم الثّانى من الإدراك و النظر و الحياة، فإنّها إذا تعطلت فلا ينفع حينئذ موعظة و إرشاد، و لا إنذار و تحذير! و مما يستحق الانتباه أنّ الآيات السابقة قد شبهت هذه الفئة بالأفراد العمش العيون، و المحدودى البصر، و تشبههم الآية الأخيرة هنا بالصم و العمى، و ذلك لأنّ الإنسان إذا اشتغل بالدنيا فحاله كمن يشكو ألما بسيطا فى عينه، فكلما زاد تعلقه بالدنيا و اشتغاله بها، و مال إلى الماديات أكثر، و أهمل المسائل الروحية و المعنوية، فسيضعف بصره نتيجة ذلك الألم فى عينه، حتى يصل بعدها إلى مرحلة العمى، و هذا هو الشيء الذى أثبتته الأدلّة القطعية فى مجال التشديد على المعنويات السلبية و الإيجابية فى الإنسان، و رسوخ الملكات فيه

نتیجة تکرار العمل و الإصرار علیه، و قد راعی القرآن الکریم هذا التسلسل أیضا[۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۰

الآیات [سورة الزخرف (۴۳): الآیات ۴۱ الی ۴۵]

اشارة

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِکَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) أَوْ نُرِیَنَّکَ الَّذِی وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَیْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (۴۲) فَاسْتَمْسِکْ بِالَّذِی أُوحِیَ إِلَیْکَ إِنَّکَ عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۴۳) وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (۴۴) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً یُعْبَدُونَ (۴۵)

التّفسیر

استمسک بالذی اوحی إلیک:

متابعة للآیات السابقة التی کانت تتحدث عن الکفّار المعاندین الظالمین الذین لا أمل فی هدایتهم، تخاطب هذه الآیات نبیّ الإسلام الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم مهدّدة الکفار أشدّ تهدید من جانب، و مسلیّة خاطر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فتقول: فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِکَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ

و سواء کان المراد من الذهاب بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من بین أولئک القوم وفاته أم هجرته من مکّة إلی المدینة، فإنّه إشارة إلی أنّک حتی و إن لم تکن شاهدا و ناظرا لأمرهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۱

فإنّا سنعاقبهم أشدّ عقاب إن استمروا فی طریق ضلالتهم و غیهم، لأنّ «الانتقام» فی الأصل یعنی الجزاء و العقوبة، و إن کان المستفاد من آیات قرآنیة عدیدة أخری- نزلت فی هذا المعنی- إن المراد من الذهاب بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم وفاته، کما جاء فی الآیة (۴۶) من سورة یونس: وَ إِمَّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِیدٌ عَلی ما یَفْعَلُونَ

و جاء هذا المعنی أیضا فی سورة الرعد- الآیة ۴۰، و سورة غافر- الآیة ۷۷، و علی هذا فإنّ تفسیر الآیة بالهجرة لا یبدو مناسبا.

ثمّ تضیف الآیة: أَوْ نُرِیَنَّکَ الَّذِی وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَیْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فهم فی قبضتنا علی أیة حال، سواء کانت بینهم أم لم تکن، و العقاب و الانتقام الإلهی حتمی فی حقّهم إذا ما استمروا فی أعمالهم، سواء کان ذلک فی حیاتک أم بعد مماتک، فقد یتقدم أو یتأخر، إلّا أنّه لا بدّ من وقوعه.

إنّ هذه التأکیدات القرآنیة قد تکون إشارة إلی قلّة صبر الکفّار الذی کانوا یقولون: «إن کنت محقا و صادقا فیما تقول، فلما ذا لا ینزل علینا العذاب»؟ هذا من جهة. و من جهة أخری کانوا فی انتظار موت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم ظنّا منهم أن النّبی إن أغمض عینه و غاب شخصه فسینتهی کل شیء! بعد هذه التحذیرات تأمر الآیة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن: فَاسْتَمْسِکْ بِالَّذِی أُوحِیَ إِلَیْکَ إِنَّکَ عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ فلیس فی دینک و کتابک أدنی اعوجاج أو زیغ، و عدم قبول جماعة من هؤلاء به لا یدل علی عدم حقانیتک، فاستمر فی طریقک بکل ما أوتیت من قوّة، و الباقی علینا.

ثمّ تضیف الآیة الأخری: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ فإنّ الهدف من نزوله إیقاظ البشر، و تعریفهم بتکالیفهم: وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ

و بناء علی هذا التّفسیر فإنّ الذکر فی هذه الآیة یعنی ذکر اللّه سبحانه، و معرفة الواجبات الدینیّة، و الاطلاع علی تکالیف البشر، کما

ورد هذا المعنى فی الآیتین

۵ و ۳۶ من هذه السورة، و ککثیر من آیات القرآن الأخرى.

و من المعروف أنّ الذکر أحد أسماء القرآن الکریم، و الذکر بمعنى ذکر اللّه سبحانه، و نقرأ هذه الجملة عدّة مرات فی سورة القمر: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ الآیات ۱۷- ۲۲- ۳۲- ۴۰.

إضافة إلى أن جملة: وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ تشهد بأنّ المراد هو السؤال عن العمل بهذا البرنامج الإلهی.

لکن- مع کل ذلک- فالعجیب أنّ کثیرا من المفسّرین اختاروا تفسیرا آخر لهذه الآیة لا یتناسب مع ما قلناه، فمن جملة ما قالوا: إنّ معنى الآیة هو: إنّ هذا القرآن هو أساس الشرف و العزة، أو الذکر الحسن و السمعة الطیبة لک و لقومک، و هو یمنح العرب و قریشا أو أمتک الشرف، لأنّه نزل بلغتهم، و سیسألون قریبا عن هذه النعمة[۴۳].

صحیح أن القرآن رفع نداء نبیّ الإسلام صلى اللّه علیه و آله و سلّم و العرب، بل و کل المسلمین عالیا فی أرجاء العالم، و أن اسم النّبی صلى اللّه علیه و آله و سلّم یذکر بإعظام بکرة و عشیا على المآذن منذ أکثر من أربعة عشر قرنا، و أن عرب الجاهلیة الخاملی الذکر قد عرفوا فی ظل اسمه صلى اللّه علیه و آله و سلّم و علا صوت الأمّة الإسلامیة فی ربوع العالم بفضله.

و صحیح أن الذکر قد ورد بهذا المعنى فی القرآن المجید أحیانا، إلّا أنّ ممّا لا شک فیه أنّ المعنى الأوّل أکثر ورودا فی آیات القرآن، و أکثر ملاءمة مع هدف نزول القرآن و الآیات مورد البحث.

و اعتبر بعض المفسّرین الآیة (۱۰) من سورة الأنبیاء شاهدا على التّفسیر الثانی، و هی: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ کِتاباً فِیهِ ذِکْرُکُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ۴۴]. فی حین أن الآیة

تناسب التّفسیر الأوّل أیضا، کما فصلنا ذلک فی التّفسیر الأمثل، فی ذیل هذه الآیة[۴۵].

و قد وردت روایات فی هذه الآیة فی المصادر الحدیثیة، و ستأتی فیما بعد إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ تطرّقت الآیة الأخیرة إلى نفی عبادة الأصنام و إبطال عقائد المشرکین بدلیل آخر، فقالت: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً یُعْبَدُونَ

إشارة إلى أنّ کل أنبیاء اللّه قد دعوا إلى التوحید، و وقفوا جمیعا ضد الوثنیة بحزم، و على هذا فإنّ نبیّ الإسلام صلى اللّه علیه و آله و سلّم فی مخالفته الأصنام لم یقم بعمل لم یسبقه به أحد، بل أحیا بفعله سنة الأنبیاء الأبدیة، و إنّما کان عبدة الأصنام و المشرکون هم الذین یسیرون على خلاف مذهب الأنبیاء.

و طبقا لهذا التّفسیر فإنّ السائل و إن کان نبیّ الإسلام صلى اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّ المراد کل الأمّة، بل و حتى مخالفیه.

و المسؤولون هم أتباع الأنبیاء السابقین، أتباعهم المخلصون، بل و مطلق أتباعهم، إذ یحصل الخبر المتواتر من مجموع کلامهم، و هو یبیّن دین الأنبیاء التوحیدی.

و ینبغی التذکیر بأنّه حتى المنحرفین عن أصل التوحید- کالمسیحیین الذین یؤمنون بالتثلیث الیوم- یتحدثون عن التوحید أیضا، و یقولون: إنّ تثلیثنا لا ینافی التوحید الذی هو دین جمیع الأنبیاء! و بهذا فإنّ الرجوع إلى هذه الأمم کاف فی إبطال دعوى المشرکین.

إلّا أنّ بعض المفسّرین احتملوا احتمالا آخر فی تفسیر هذه الآیة مستوحى من بعض الروایات ۴۶]، و هو أن السائل هو النّبی صلى اللّه علیه و آله و سلّم نفسه و أن المسؤولین هم الأنبیاء السابقون. ثمّ أضافوا: إنّ هذا الأمر قد تمّ فی لیلة المعراج، لأنّ النّبی صلى اللّه علیه و آله و سلّم قد التقى بأرواح الأنبیاء الماضین، و من أجل تأکید أمر التوحید طرح هذا السؤال و سمع الجواب.

و أضاف البعض: إنّ مثل هذا اللقاء كان ممكنا بالنسبة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حتى فى غير ليلة المعراج، لأنّ المسافات الزمانية و المكانية ليست مانعا و لا عائقا فى مسألة اتصال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأرواح الأنبياء، و كان بإمكان ذلك العظيم أن يتصل بهم فى أية لحظة، و فى أى مكان طبعا، ليس على هذه التفاسير أى إشكال عقلى، لكن لما كان الهدف من الآية نفى مذهب المشركين، لاطمأنة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- إذ أنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان مستغرقا فى مسألة التوحيد، و مشمئزا من الشرك إلى الحدّ الذى لا يحتاج معه إلى سؤال، و لم يكن التقاء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الروحى بأرواح الأنبياء الماضين استدلالا مقنعا أمام المشركين- اذن فالتّفسير الأوّل يبدوا أكثر ملاءمة، و التّفسير الثّانى قد يكون إشارة إلى باطن الآية لا ظاهرها، لأنّ لآيات القرآن ظهرا و بطنا.

و هناك أمر يستحق الانتباه، و هو أنّ اسم (الرحمن) قد اختير فى هذه الآية من بين أسماء اللّه سبحانه، و هو إشارة إلى أنّه كيف يمكن أن يترك هؤلاء اللّه الذى وسعت رحمته العامّة كل شىء، و يتوجهون إلى أصنام لا تضر و لا تنفع؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۵

ملاحظة

من هم قوم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟

توجد ثلاثة احتمالات فى المراد من «القوم» فى آية: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ

الأوّل: أنّهم كل الأمّة الإسلامية.

و الثّانى: أنّهم العرب.

و الثّالث: أنّهم قبيلة قريش.

و لما كان القوم فى منطق القرآن الكريم قد أطلقت فى موارد كثيرة على أمم الأنبياء، أو الأقوام المعاصرين لهم، فالظاهر أنّه هو المعنى المراد فى الآية أيضا.

و بناء على هذا، فإنّ القرآن أساس الذكر و الوعى و اليقظة لكل الأمة الإسلامية حسب التّفسير الأوّل، و أساس الافتخار و الشرف لهم جميعا حسب التّفسير الثّانى.

إلّا أننا نطالع فى الروايات العديدة الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد من القوم فى الآية هم أهل بيت النّبى و عترته [۴۷].

لكن لا يبعد أن تكون هذه الروايات من قبيل بيان المصاديق الواضحة، سواء كان معنى القوم كل الأمة الإسلامية، أو أمة العرب، أو أهل بيت نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، ففى كل الأحوال يعتبر أئمّة أهل البيت عليهم السّلام من أوضح مصاديقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۶

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۴۶ الى ۵۰]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۶) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (۴۷) وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا

لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۵۰)

التّفسير

الفراعنة المغرورون و نقض العهد:

فی هذه الآيات إشارة إلی جانب ممّا جری بين نبيّ اللّه موسی بن عمران عليه السّلام و بين فرعون، ليكون جوابا لمقالة المشركين الواهية بأن اللّه إن كان يريد أن يرسل رسولا، فلما ذا لم يختر رجلا من أثرياء مكّة و الطائف لهذه المهمّة العظمی؟

و ذلك لأنّ فرعون كان قد أشكل علی موسی نفس هذا الإشكال، و كان منطقه عين هذا المنطق، إذ جعل موسی فی معرض التقريع و التوبيخ و السخرية للباسه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۷

الصوفی، و عدم امتلاكه لأدوات الزينة، فقالت الآية الأولی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی بِآياتِنا إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

المراد من «الآيات»: المعجزات التی كانت لدی موسی، و التی كانت يثبت حقانيته بواسطتها، و كان أهمها العصا و اليد البيضاء.

«الملاء»- كما قلنا سابقا- من مادة الملأ، أی القوم أو الجماعة الذين يتبعون هدفا واحدا، و ظاهرهم يملأ العيون لكثرتهم، و قرآنيا فإنّ هذه الكلمة تعنی الأشراف و الأثرياء أو رجال البلاط عادة.

و التأكيد علی صفة: رَبِّ الْعالَمِينَ هو فی الحقيقة من قبيل بيان مدعی مقترن بالدليل، لأنّ ربّ العالمين و مالكهم و معلمهم هو الوحيد الذی يستحق العبوديّة لا المخلوقات الضعيفة المحتاجة كالفراعنة و الأصنام! و لنر الآن ماذا كان تعامل فرعون و آل فرعون مع الأدلة المنطقية و المعجزات البينة لموسی عليه السّلام؟

يقول القرآن الكريم فی الآية التالية: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ و هذا الموقف هو الموقف الأوّل لكل الطواغيت و الجهال المستكبرين أما القادة الحقيقيين، إذ لا يأخذون دعوتهم و أدلتهم بجدية ليبحثوا فيها و يصلوا إلی الحقيقة، ثمّ يجيبونهم بسخرية و استهزاء ليفهموا الآخرين أن دعوة هؤلاء لا تستحق البحث و التحقيق و الإجابة أصلا، و ليست أهلا للتلقی الجاد.

إلّا أننا أرسلنا بآياتنا الواحدة تلو الأخری لإتمام الحجة: وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها[۴۸].

و الخلاصة: أنّنا أريناهم آياتنا كل واحدة أعظم من أختها و أبلغ و أشد، لئلا يبقی لهم أی عذر و حجّة، و لينزلوا عن دابة الغرور و العجب و الأنانية، و قد أريناهم بعد معجزتی العصا و اليد البيضاء معاجز الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۸

و غيرها[۴۹] ثمّ تضيف الآية: وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فمرّة أتاهم الجفاف و القحط و نقص الثمرات كما جاء فی الآية (۱۳۰) من سورة الأعراف: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ

و كان العذاب أحيانا بتبدل لون ماء النيل إلی لون الدم، فلم يعد صالحا للشرب، و لا للزراعة، و أحيانا كانت الآفات النباتية تقضی علی مزارعهم.

إنّ هذه الحوادث المرّة الأليمة و إن كانت تنبه هؤلاء بصورة مؤقتة، فيلجئون إلی موسی، غير أنّهم بمجرّد أن تهدأ العاصفة ينسون كل شیء، و يجعلون موسی غرضا لسهام أنواع التهم، كما نقرأ ذلك فی الآية التالية: وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ

أی تعبير عجيب هذا؟! فهم من جانب يسمونه ساحرا، و من جانب آخر يلجؤون إليه لرفع البلاء عنهم، و من جانب ثالث يعدونه بتقبل الهداية! إن عدم الانسجام بين هذه الأمور الثلاثة فى الظاهر أصبح سببا فى اختلاف التفاسير:

فذهب البعض: إنّ الساحر هنا يعنى العالم، لأنّهم كانوا يعظمون السحرة فى ذلك الزمان، و خاصّة فى مصر، و كانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى العلماء.

و احتمل البعض أن يكون السحر هنا بمعنى القيام بأمر مهم، كما نقول فى محادثاتنا اليومية: إنّ فلانا ماهر فى عمله جدّا حتى كأنه يقوم بأعمال سحرية! و قالوا تارة: إنّ المراد أنّه ساحر بنظر جماعة من الناس.

و أمثال هذه التفاسير.

إلّا أنّ العارفين بطريقة تفكير و تحدث الجاهلين المعجبين بأنفسهم و المستكبرين المغرورين و الطواغيت يعلمون أنّ لهؤلاء الكثير من هذه التعابير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۹

المتناقضة، فلا عجب من أن يسمّوه ساحرا أوّلا، ثمّ يلجؤون إليه لرفع البلاء، و أخيرا يعدونه بالاهتداء.

بناء على هذا فيجب الحفاظ على ظاهر تعبيرات الآية و الوقوف عندها، إذ لا تبدو هناك حاجة إلى توجيهات و تفاسير أخرى.

و على أية حال، فيظهر من أسلوب الآية أنّهم كانوا يعدون موسى عليه السّلام و عودا كاذبة فى نفس الوقت الذى هم بأمس الحاجة إليه، و حتى فى حال المسكنة و عرض الحاجة لم يتخلوا عن غرورهم، و لذلك عبروا فى طلبهم من موسى ب رَبَّكَ و بِما عَهِدَ عِنْدَكَ و لم يقولوا: ربّنا، و ما وعدنا، أبدا. مع أن موسى قال لهم بصراحة: إنّ رسول ربّ العالمين، لا رسول ربّى.

أجل، إن ضعاف العقول و المغرورين إذا ما تربعوا على عرش الحكم، فسيكون هذا منطقهم و عرفهم و أسلوبهم.

إلّا أن موسى رغم كل هذه التعبيرات اللاذعة و المحقرة لم يكفّ عن السعى لهدايتهم مطلقا، و لم ييأس بسبب عنادهم و تعصبهم، بل استمرّ فى طريقه، و دعا ربّه مرات كى تهدأ عواصف البلاء، و هدأت، لكنّهم كما تقول الآية التالية: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ

كل هذه دروس حيّة و بليغة للمسلمين، و تسلية للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لكى لا ينثوا مطلقا أمام عناد المخالفين و تصلبهم، و لا يدعوا اليأس يخيم على أرواحهم و أنفسهم، بل ينبغى أن يشقوا طريقهم بكل ثبات و رجولة و حزم، كما ثبت موسى عليه السّلام و بنو إسرائيل على مواقفهم، و استمرّوا فى طريقهم حتى انتصروا على الفراعنة.

و هى أيضا تحذير للأعداء اللجوجين المعاندين، بأنهم ليسوا أقوى من فرعون و آل فرعون و لا أشد، فلينظروا عاقبة أمر أولئك، و ليتفكروا فى عاقبتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۰

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۵۱ الى ۵۶]

اشارة

وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۵)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (۵۶)

التّفسير

إذا كان نبيا فلم لا يملك أسورة من ذهب؟

لقد ترك منطق موسى عليه السّلام من جهة، و معجزاته المختلفة من جهة أخرى، و الابتلاءات و المصائب التى نزلت على رؤوس أهل مصر و التى رفعت ببركة دعاء موسى عليه السّلام من جهة ثالثة، أثرا عميقا فى ذلك المحيط، و زعزعت أفكار الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۱

و اعتقادهم بفرعون، و وضعت كل نظامهم الاجتماعى و الدينى موضع سؤال و استفسار.

هنا أراد فرعون بسفسطته و مغالطته أن يمنع نفوذ موسى عليه السّلام عن التأثير فى أفكار شعب مصر، فالتجأ إلى القيم الواهية المنحطة التى كانت حاكمة فى ذلك المحيط، و قارن بينه و بين موسى عليه السّلام من خلال هذه القيم ليبدو متفوقا على موسى، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ ۵۰].

أمّا موسى فما ذا يملك؟ لا شيء سوى عصا و لباس صوف! فلمن الشأن الرفيع و المكانة السامية، له أم لى؟ أهو يقول الحق أم أنا؟ افتحوا عيونكم جيدا و تأمّلوا دقيقا فى المسألة.

و بهذا فقد عظم فرعون القيم المبتدعة السيئة، و جعل المال و المقام و الجاه هى معايير الإنسانية، كما هو الحال بالنسبة إلى عبدة الأصنام فى عصر الجاهلية فى موقفهم أمام نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

التعبير ب «نادى» يوحى بأن فرعون عقد مجلسا عظيما لخبراء البلد و مستشاريه، و خاطبهم جميعا بصوت عال فقال ما قال، أو أنّه أمر أن يوزع نداؤه كرسالة فى جميع أنحاء البلاد.

و التعبير بالأنهار، المراد منه نهر النيل، بسبب أن هذا النهر العظيم كالبحر المترامى الأطراف، و كان يتشعب إلى فروع كثيرة تروى كل المناطق العامرة فى مصر.

و قال بعض المفسّرين: كان لنهر النيل (۳۶۰) فرعا، و كان أهمها: نهر الملك، و نهر طولون، و نهر دمياط، و نهر تنيس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۲

أمّا لماذا يؤكّد فرعون على نهر النيل خاصّة؟ فذلك لأنّ كل عمران مصر و ثروتها و قوتها و تطورها كان يستمد طاقته من النيل، من هنا فإنّ فرعون كان يدلّ به، و يفتخر به على موسى.

و التعبير بتجرى من تحتى لا يعنى أن نهر النيل يمر من تحت قصرى، كما قال ذلك جمع من المفسرين، لأنّ نهر النيل كان أعظم من أن يمرّ من تحت قصر فرعون و لو كان المراد أنّه يمرّ بمحاذاة قصره، فإنّ كثيرا من قصور مصر كانت على هذه الحال، و كان أغلب العمران على حافتى هذا الشط العظيم، بل المراد أنّ هذا النهر تحت أمرى، و نظام تقسيمه على المزارع و المساكن حسب التعليمات التى أريدها.

ثمّ يضيف: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ ۵۱] و بهذا يكون قد خص نفسه بافتخارين عظيمين- حكومة مصر، و ملك النيل- و ذكر لموسى نقطتى ضعف: الفقر و لكنة اللسان.

هذا فى الوقت الذى لم يكن بموسى أية لكنة فى اللسان، لأنّ اللّه تعالى قد استجاب دعاءه، و رفع عنه عقدة لسانه، لأنّه سأل ربّه عند البعثة أن: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي ۵۲]، و من المسلّم أن دعاءه قد استجيب، و القرآن شاهد على ذلك أيضا.

ليس عيبا عدم امتلاك الثروة الكثيرة، و الألبسة الفاخرة، و القصور المزينة، و التى تحصل عادة عن طريق ظلم المحرومين و الجور عليهم، بل هو فخر و كرامة و سمو.

إنّ التعبير ب «مهين» لعله إشارة إلى الطبقات الاجتماعيّة فى ذلك الزمان، حيث كانوا يظنون أن الأشراف الأقوياء و الأثرياء طبقة متعالية، و الكاد حين الفقراء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۳

طبقة واطئة، أو أنّه إشارة إلى أصل موسى حيث كان من بنى إسرائيل، و كان الأقباط يرون أنهم ساداتهم و كبراؤهم.

ثمّ تشبث فرعون بذريعتين أخريين، فقال، فَلَوْ لا- أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۵۳] فلو أنّ اللَّه قد جعله رسوله فلما ذا لم يعطه أساور من ذهب، و معاونين له كباقى الرسل؟

يقولون: إنّ الفراعنة كانوا يعتقدون أنّ الرؤساء يجب أن يزينوا أنفسهم بالأساور و القلائد الذهبية، و لذلك فإنّهم يتعجبون من موسى إذ لم يكن معه مثل آلات الزينة هذه، بل كان قد لبس بدل ذلك ملابس الرعى الصوفية، و هذا هو حال المجتمع الذى يكون معيار تقييم الشخصية فى نظره الذهب و الفضة و أدوات الزينة.

أمّا أنبياء اللَّه فإنّهم باطراحهم هذه المسائل- بالذات- جانبا كانوا يريدون أن يبطلوا هذه المقاييس الكاذبة، و أن يزرعوا محلها القيم الإنسانية الأصيلة- أى العلم و التقوى و الطهارة- لأنّ نظام القيم إذا لم يصلح فى مجتمع فسوف لن يرى ذلك المجتمع وجه السعادة أبدا.

على أية حال، فإنّ ذريعة فرعون هذه تشبه الذريعة التى نقلت عن مشركى مكّة قبل عدّة آيات حيث كانوا يقولون: لم لم ينزل القرآن على عظيم من مكّة و الطائف؟! و الحجّة الثانية هى تلك الحجّة المعروفة التى كانت تطرحها كثير من الأمم الضالة العاصية فى مواجهة الأنبياء، فكانوا يقولون أحيانا: لماذا أرسل اللَّه بشرا و ليس ملكا؟ و أحيانا أخرى: إذا كان إنسانا فلما ذا لم يأت معه ملك؟

فى حين أنّ الرسل المبعوثين إلى البشر يجب أن يكونوا من جنسهم ليلمسوا حاجاتهم، و يحسوا بمشاكلهم و مسائلهم و يجيبوهم، و ليقدروا على أن يكونوا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۴

الناحية العملية قدوة و أسوة لهم ۵۴].

و يلزم أن نذكر هنا أن «الأسورة» جمع سوار، سواء كان من الذهب أم من الفضة.

و تشير الآية التالية إلى نكتة لطيفة، و هى: إنّ فرعون لم يكن غافلا عن واقع الأمر تماما، و كان ملتفتا إلى أن لا قيمة لهذه القيم و المعايير، إلّا أنّه: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ

إنّ طريقة كل الحكومات الجبارة الفاسدة من أجل الاستمرار فى تحقيق أهدافها و أنانياتها، هى الإبقاء على الناس فى مستوى مترد من الفكر و الثقافة و الوعى، و تسعى إلى تركهم حمقى لا يعون ما حولهم باستخدام أنواع الوسائل، فتجعلهم غرقى فى حالة من الغفلة عن الوقائع و الأحداث و الحقائق، و تنصب لهم قيما و موازين كاذبة منحطة بدلا من الموازين الحقيقية، كما تمارس عملية غسل دماغ تام متواصل لهذه الشعوب، و ذلك لأنّ يقظتها و وعيها، و تنامى رشدها الفكرى يشكل أعظم خطر على الحكومات، و يعتبر أكبر عدو للحكومات المستبدة، فهذا الوعى بمثابة ما رد يجب أن تحاربه بكل ما أوتيت من قوّة.

إنّ هذا الأسلوب الفرعونى- أى استخفاف العقول- حاكم على كل المجتمعات الفاسدة فى عصرنا الحاضر، بكل قوّة و استحكام، و إذا كان تحت تصرف فرعون وسائل محدودة توصله إلى نيل هدفه، فإنّ طواغيت اليوم يستخفون عقول الشعوب بواسطة وسائل الاتصال الجماعية، الصحف و المطبوعات، شبكات الراديو و التلفزيون، أنواع الأفلام، بل و حتى الرياضة فى قالب الانحراف، و ابتداع أنواع الأساليب المضحكة المستهجنة، لتغرق هذه الشعوب فى بحر الغفلة، فيطيعوهم و يستسلموا لهم، و لهذا كانت المسؤولية الملقاة على عاتق علماء الدين و الملتزمين به- و الذين يحيون خط الأنبياء الفكرى و العقائدى- ثقيلة فى محاربة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۵

برامج استخفاف العقول، فهى من أهم واجباتهم.

و الطريف أنّ الآية المذكورة تنتهى بجملة: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ إشارة إلى أنّ هؤلاء القوم الضالين لو لم يكونوا فاسقين و متمردين على طاعة اللّه عزّ و جلّ و حكم العقل، لما كانوا يستسلمون لمثل هذه الدعايات و الخزعبلات و يصغون إليها، فهم قد هيؤوا أسباب ضلالهم بأيديهم، و لذلك فإنّهم ليسوا معذورين فى هذا الضلال أبدا.

صحيح أنّ فرعون قد سرق عقول هؤلاء و حملهم على طاعته، إلّا أنّهم قد أعانوه على هذه السرقة باتباعهم الأعمى له.

نعم، كان هؤلاء قوما فاسقين يتبعون فاسقا.

كانت هذه جنايات فرعون و آل فرعون و مغالطاتهم فى مواجهة رسول اللّه موسى عليه السّلام، لكننا نرى الآن إلى أين وصلت عاقبة أمرهم بعد كل هذا الوعظ و الإرشاد و إتمام الحجج من طرق مختلفة، إذ لم يسملوا للحق:

تقول الآية: فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ فقد اختار اللّه سبحانه لهؤلاء عقوبة الإغراق بالخصوص من بين كل العقوبات، و ذلك لأنّ كلّ عزّتهم و شوكتهم و افتخارهم و قوّتهم كانت بنهر النيل العظيم و فروعه الكثيرة الكبيرة، و الذى كان فرعون يؤكّد عليه من بين كل مصادر قوته، إذ قال أ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي

نعم، يجب أن يكون مصدر حياتهم و قوّتهم، سبب هلاكهم و فنائهم، و يكون قبرا لهم ليعتبر الآخرون! «آسفونا» من مادة الأسف، و هو الحزن و الغم، و يأتى بمعنى الغضب، بل إنّه يقال للحزن المقترن بالغضب أحيانا- على قول الراغب فى مفرداته ۵۵]- و قد يقال لكل منهما على الانفراد. و حقيقته ثوران دم القلب، شهوة الانتقام، فمتى كان ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۶

على من دونه انتشر فصار غضبا، و متى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا، و لذلك سئل ابن عباس عن الحزن و الغضب فقال: «مخرجهما واحد و اللفظ مختلف».

و فسر بعضهم «آسفونا» ب (آسفوا رسلنا)، إلّا أن هذا التّفسير يبدو بعيدا، و لا ضرورة لمثل هذا الخلاف الظاهرى.

و هنا نكتة تستحق الانتباه، و هى أنه لا معنى للحزن و الغم بالنسبة إلى اللّه سبحانه، و لا الغضب بالمعنى المتعارف بيننا، بل إن غضب اللّه يعنى «إرادة العقاب»، و رضاه يعنى «إرادة الثواب».

و تقول الآية الأخيرة كاستخلاص لنتيجة مجموع ما مر من كلام: فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ

«السلف» فى اللغة يعنى كل شىء متقدم، و لذلك يقال للأجيال السابقة: سلف، و للأجيال الآتية: خلف، و يسمّون المعاملات التى تتمّ قبل الشراء «سلفا»، لأنّ ثمن المشترى يدفع من قبل.

و المثل يقال للكلام الدائر بين الناس كعبرة، و لما كانت قصة فرعون و الفراعنة و مصيرهم المؤلم عبرة عظمى، فقد ذكرت فى هذه القصة كعبرة للأقوام الآخرين.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۷

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۵۷ الى ۶۲]

اشارة

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (۵۷) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (۵۸) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ (۵۹) وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (۶۰) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ

فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱)

وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۲)

سبب النّزول

جاء فی سیرة ابن هشام: «و جلس رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یوما- فیما بلغنی- مع الولید بن المغیرة فی المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتی جلس معهم فی المجلس، و فی المجلس غیر واحد من رجال قریش، فتکلم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فعرض له النضر بن الحارث، فکلمه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم حتی أفحمه ثمّ تلا علیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۸

و علیهم: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ* لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ ....

ثمّ قام رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و أقبل عبد اللّه بن الزبعری السهمی حتی جلس، فقال الولید بن المغیرة له، و اللّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا و ما قعد، و قد زعم محمّد أنا و ما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد اللّه: أما و اللّه لو وجدته لخصمته، فسلوا محمّدا: أکل ما یعبد من دون اللّه فی جهنم مع من عبده؟

فنحن نعبد الملائکة، و الیهود تعبد عزیرا، و النصاری تعبد عیسی بن مریم علیهم السّلام، فعجب الولید و من کان معه فی المجلس من قول عبد اللّه بن الزّبعری، و رأوا أنّه قد احتجّ و خاصم، فذکر ذلک لرسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم من قول ابن الزبعری، فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إن کل من أحبّ أن یعبد من دون اللّه فهو مع من عبده، إنّهم إنّما یعبدون الشیاطین و من أمرتهم بعبادته»[۵۶].

فنزلت الآیة الشریفة (۱۰۱) من سورة الأنبیاء: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ و کذلک نزلت الآیة: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

***

التّفسير

أی الالهة فی جهنم؟

تتحدث هذه الآیات حول مقام عبودیة المسیح علیه السّلام، و نفی مقولة المشرکین بألوهیته و ألوهیة الأصنام، و هی تکملة للبحوث التی مرت فی الآیات السابقة حول دعوة موسی و محاربته للوثنیة الفرعونیة، و تحذیر لمشرکی عصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کل مشرکی العالم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۷۸

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۹

و بالرغم من أنّ الآیات تتحدث بإبهام، إلّا أنّ محتواها لیس معقّدا و لا غامضا للقرائن الموجودة فی نفس الآیات، و آیات القرآن الأخری، رغم التفاسیر المختلفة التی ذکرها المفسّرون.

تقول الآیة الأولی: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۵۷].

أیّ مثل كان هذا؟ و من الذی قاله فی حقّ عیسی بن مریم؟

هذا هو السؤال الذی اختلف المفسّرون فی جوابه علی اقوال، إلّا أنّ الدقّة فی الآیات التالیة توضح أنّ المثل كان من جانب المشركین، و ضرب فیما یتعلق بالأصنام، لأنّا نقرأ فی الآیات التالیة: ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا.

بملاحظة هذه الحقیقة، و ما جاء فی سبب النّزول، یتّضح أن المراد من المثل هو ما قاله المشركون استهزاء لدی سماعهم الآیة الكریمة: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۵۸]، و كان ما قالوه هو أن عیسی بن مریم قد كان معبودا، فینبغی أن یكون فی جهنم بحكم هذه الآیة، و أی شیء أفضل من أن نكون نحن و أصنامنا مع عیسی؟! قالوا ذلك و ضحكوا و استهزءوا و سخروا! ثمّ استمرّوا: وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَیْرٌ أَمْ هُوَ؟ فإذا كان من أصحاب الجحیم، فإنّ آلهتنا لیست بأفضل منه و لا أسمی.

و لكن، اعلم أنّ هؤلاء یعلمون الحقیقة، و ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۵۹].

إنّ هؤلاء یعلمون جیدا أنّ الآلهة الذین یردون جهنم هم الذین كانوا راضین بعبادة عابدیهم، كفرعون الذی كان یدعوهم إلی عبادته، لا كالمسیح علیه السّلام الذی كان و لا یزال رافضا لعملهم هذا، و متبرءا منه.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۰

بل: إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَیْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِی إِسْرائِیلَ فقد كانت ولادته من غیر أب آیة من آیات اللَّه، و تكمله فی المهد آیة أخری، و كانت كل معجزة من معجزاته علامة بینة علی عظمة اللَّه سبحانه، و علی مقام النبوّة.

لقد كان عیسی مقرا طوال حیاته بالعبودیة للَّه، و دعا الجمیع إلی عبودیته سبحانه، و لما كان موجودا فی أمته لم یسمح لأحد بالانحراف عن مسیر التوحید، و لكن المسیحیین أوجدوا خرافة ألوهیة المسیح، أو التثلیث، بعده ۶۰].

و الطریف أن نقرأ فی روایات عدیدة وردت عن طریق الشیعة و السنة،

أنّ النبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السّلام: «إنّ فیك مثلا من عیسی، أحبّه قوم فهلكوا فیه، و أبغضه قوم فهلكوا فیه»

فقال المنافقون: أما رضی له مثلا إلّا عیسی، فنزل قوله تعالی:

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ یَصِدُّونَ

و ما قلناه متن روایة أوردها الحافظ أبو بكر بن مردویه- من علماء أهل السنة المعروفین- فی كتاب المناقب. طبقا لنقل كشف الغمة صفحة ۹۵.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۱

و قد نقل جمع آخر من علماء السنة، و كبائر علماء الشیعة هذه الحادثة فی كتب عدیدة، تارة بدون ذكر الآیة أعلاه، و أخری مع ذكرها[۶۱].

إنّ القرائن الموجودة فی الآیات توحی بأن هذا الحدیث المعروف من قبیل تطبیق المصداق، لا أنه سبب النّزول، و بتعبیر آخر: فإنّ سبب نزول الآیة هو قصة عیسی و قول المشركین و أصنامهم، لكن لما وقع لعلی علیه السّلام حادث شبیه لذاك بعد ذلك القول التاریخی للنبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم، فإنّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم تلا هذه الآیة هنا لیبین أنّ هذا الحادث كان مصداقا لذاك من جهات مختلفة.

و لئلا یتوهموا أنّ اللَّه سبحانه محتاج لعبودیتهم، و أنّه یصر علیها، فإنّه تعالی یقول فی الآیة التالیة: وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِی الْأَرْضِ یَخْلُفُونَ ملائكة تخضع لأوامر اللَّه، و لا تعرف عملا إلّا طاعته و عبادته.

و اختار جمع من المفسّرین تفسیرا آخر للآیة، یصبح معنی الآیة علی أساسه:

و لو نشاء لجعلنا أبناءكم ملائكة یخلفونكم فی الأرض. بناء علی هذا فلا تعجبوا من أن یولد المسیح من دون أب، فإنّ اللَّه عزّ و جلّ قادر علی أن یخلق ملكا من الإنسان، و هو نوع یختلف عنه ۶۲].

و لما كان تولد الملك من الإنسان لا يبدوا مناسبا، فقد فسّره بعض كبار المفسّرين بولادة الأبناء الذين يتمتعون بصفات الملائكة، و قالوا: إنّ المراد: لا تعجبوا من أن تكون لعبد كالمسيح القدرة على إحياء الموتى، و إبراء المرضى بإذن اللّه، و هو فى الوقت نفسه عبد مخلص مطيع لأمر اللّه، فإنّ اللّه قادر على أن يخلق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۲

من أبنائكم من تكون فيه كل صفات الملائكة و طبائعهم ۶۳].

إلّا أنّ التّفسير الأوّل ينسجم مع ظاهر الآية أكثر من الجميع، و هذه التفاسير بعيدة[۶۴].

و الآية التالية إشارة إلى خصيصة أخرى من خصائص المسيح عليه السّلام فتقول: إنّ عيسى سبب العلم بالساعة وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ إمّا أن ولادته من غير أب دليل على قدرة اللّه اللامتناهية، فتحل على ضوئها مسألة الحياة بعد الموت، أو من جهة نزول المسيح عليه السّلام من السماء فى آخر الزمان طبقا لروايات عديدة، و نزوله هذا دليل على اقتراب قيام الساعة.

يقول جابر بن عبد اللّه: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تعالى صلّ بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة من اللّه لهذه الأمّة»[۶۵].

و نقرأ

فى حديث آخر عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم»[۶۶].

و على أية حال، فإنّ إطلاق (العلم) على المسيح نوع من التأكيد و المبالغة، و هو إشارة إلى أن نزوله من علامات القيامة حتما.

و احتمل أيضا أن يعود الضمير فى (أنه) على القرآن، و على هذا يكون معنى الآية: إنّ نزول القرآن الذى هو آخر الكتب السماوية، دليل على اقتراب الساعة، و يخبر عن قيام القيامة.

غير أنّ الآيات السابقة و اللاحقة حول عيسى تقوى التّفسير الأوّل.

ثمّ تقول الآية بعد ذلك: إنّ قيام الساعة حتم، و وقوعها قريب، فَلا تَمْتَرُنَّ بِها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۳

لا من حيث الإعتقاد بها و لا من حيث الغفلة عنها.

وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ و أى صراط أكثر استقامة من الذى يخبركم بالمستقبل الخطير الذى ينتظركم، و يحذركم منه، و يدلكم على طريق النجاة من أخطار يوم البعث؟! إلّا أن الشيطان يريد أن يبقيكم فى عالم الغفلة و الارتباط بها، فاحذروا: وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

لقد أظهر عداءه لكم منذ اليوم الأوّل، مرّة عند وسوسته لأبيكم و أمكم- آدم و حواء- و إخراجهما من الجنّة، و أخرى عند ما أقسم على إضلال بنى آدم و إغوائهم، إلّا المخلصين منهم، فكيف تخضعون أمام هكذا عدو لدود أقسم على أذاكم و دفعكم إلى الهاوية السحيقة؟ و كيف تسمحون له أن يتسلط على قلوبكم و أرواحكم، و أن يمنعكم عن طريق الحق بوساوسه المستمرة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۴

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۶۳ الى ۶۵]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۶۳) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۴) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۶۵)

التّفسير

الذين غالوا فى المسيح:

مرت الإشارة إلى جانب من خصائص حياة المسيح عليه السّلام فى الآيات السابقة، و تكمل هذه الآيات ذلك البحث، و تؤكّد بالخصوص على دعوة المسيح إلى التوحيد الخالص، و نفى كل شكل من أشكال الشرك.

تقول الآية أوّلا: وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ و بهذا فقد كانت «البينات»- أى آيات اللّه و المعجزات- رأسمال عيسى، إذ كانت تبين حقانيته من جانب، و تبين من جانب آخر الحقائق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۵

المرتبطة بالمبدأ و المعاد و احتياجات حياة البشر.

و يصف عيسى عليه السّلام محتوى دعوته ب «الحكمة» فى عبارته، و نحن نعلم أن أساس الحكمة هو المنع من شىء بقصد إصلاحه، ثمّ أطلقت على كل العقائد الحقّة، و برامج الحياة الصحيحة التى تصون الإنسان من أنواع الانحراف فى العقيدة و العمل، و تتناول تهذيب نفسه و أخلاقه، و على هذا فإنّ للحكمة هنا معنى واسعا يشمل «الحكمة العلمية» و «الحكمة العملية».

و لهذه الحكمة- إضافة إلى ما مرّ- هدف آخر، و هو رفع الاختلافات التى تخلّ بنظام المجتمع، و تجعل الناس حيارى مضطربين، و لهذا السبب نرى المسيح عليه السّلام يؤكّد على هذه المسألة.

و هنا يطرح سؤال التفت إليه أغلب المفسّرين، و هو: لماذا يقول: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ و لم لا يبيّن الجميع؟

و قد ذكرت أجوبة عديدة لهذا السؤال، و أنسبها هو:

إنّ الاختلافات التى بين الناس نوعان: منها ما يكون مؤثرا فى مصيرهم من الناحية العقائدية و العملية، و منها ما يكون فى الأمور غير المصيرية، كالنظريات المختلفة حول نشأة المنظومة الشمسية و السماوات، و كيفية الأفلاك، و النجوم، و ماهية روح الإنسان، و حقيقة الحياة، و أمثال ذلك.

و من الواضح أنّ الأنبياء مكلّفون أن ينهوا الاختلافات من النوع الأوّل و يقتلعوها بواسطة تبيان الحقائق، و لكنّهم غير مكلّفين برفع أى اختلاف كان حتى و إن لم يكن له تأثير فى مصير الإنسان مطلقا.

و يحتمل أيضا أن تبيان بعض الاختلافات نتيجة و غاية لدعوة الأنبياء، أى إنّهم سيوفقون أخيرا فى حل بعض هذه الاختلافات، أمّا حلّ جميع الاختلافات فى الدنيا فإنّه أمر غير ممكن، و لذلك تبيّن آيات متعددة من القرآن المجيد أن أحد خصائص القيامة هو ارتفاع كل الاختلافات و انتهاؤها، فنقرأ فى الآية (۹۲) من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۶

سورة النحل: وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

و قد جاء هذا المعنى فى الآيات، ۵۵- آل عمران، ۴۸- المائدة، ۱۶۴- الأنعام، ۶۹- الحج، و غيرها[۶۷].

و تضيف الآية فى النهاية: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

بعد ذلك، و من أجل أن ترفع كل نوع من الإبهام فى مسألة عبوديته، تقول الآية:

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ

الملفت للانتباه تكرار كلمة «الرب» مرّتين فى هذه الآية، مرّة فى حقّه، و أخرى فى حق الناس، ليوضح للناس أنّى و إيّاكم متساوون، و

ربّی و ربّکم واحد. و أنا مثلکم محتاج فی کل وجودی إلی الخالق المدبر، فهو مالکی و دلیلی.

و للتأکید أکثر یضیف: فَاعْبُدُوهُ إذ لا یستحق العبادة غیره، و لا تلیق إلّا به، فهو الرب و الکل مربوبون، و هو المالک و الکل مملوکون.

ثمّ یؤکّد کلامه بجملة أخری حتی لا تبقی لمتذرع ذریعة، فیقول: هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ ۶۸].

نعم، إنّ الصراط المستقیم هو طریق العبودیة للَّه سبحانه ... ذلک الطریق الذی لا انحراف فیه و لا اعوجاج، کما جاء فی الآیة (۶۱) من سورة یس: وَ أَنِ اعْبُدُونِی هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ

لکن العجب أن یختلف أقوام من بعده مع کل هذه التأکیدات: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَیْنِهِمْ)[۶۹]:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۷

فالبعض ذهب إلی أنّه الرب الذی نزل إلی الأرض! و بعض آخر اعتبره ابن ربّه.

و آخرون بأنّه أحد الأقانیم الثلاثة (الذوات المقدسة الثلاثة: الأب، و الابن، و روح القدس).

و هناک فئة قلیلة فقط هم الذین اعتبروه عبد اللَّه و رسوله، غیر أن عقیدة الأغلبیة هی التی هیمنت، و عمت مسألة التثلیث و الآلهة الثلاثة عالم المسیحیة.

و قد نقل فی هذا الباب حدیث تاریخی جمیل أوردناه فی ذیل الآیة (۳۶) من سورة مریم.

و یحتمل أیضا فی تفسیر الآیة، أنّ هذا الاختلافات لم یکن بین المسیحیین و حسب، بل حدث بین الیهود و النصاری فی المسیح، فغالی أتباعه فیه، و أو صلوه إلی مقام الألوهیة، فی حین اتهمه و أمّه الطاهرة أعداؤه بأشنع الاتهامات، و هکذا سلوک الجاهلین و عرفهم، بعضهم صوب الإفراط، و آخرون نحو التفریط، أو هم- علی حد تعبیر أمیر المؤمنین علی علیه السّلام- بین محب غال و بین مبغض قال، حیث

یقول علیه السّلام: «هلک فیّ رجلان: محب غال، و مبغض قال»[۷۰]!

و کم هی متشابهة أحوال هذین العظیمین! و هددهم اللَّه سبحانه فی نهایة الآیة بعذاب یوم القیامة الألیم، فقال: فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ یَوْمٍ أَلِیمٍ ۷۱].

نعم، إنّ یوم القیامة یوم ألیم، فطول حسابه ألیم، و عقوباته ألیمة، و حسرته و غمه ألیمان، و خزیه و فضیحته ألیمان أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۸

الآیات [سورة الزخرف (۴۳): الآیات ۶۶ الی ۶۹]

اشارة

هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ (۶۶) الْأَخِلَّاءُ یَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِینَ (۶۷) یا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۶۸) الَّذِینَ آمَنُوا بِآیاتِنا وَ کانُوا مُسْلِمِینَ (۶۹)

التّفسیر

ماذا تنتظرون غیر عذاب الآخرة؟

کان الکلام فی الآیات السابقة یدور حول عبدة الأوثان العنودین، و کذلک حول المنحرفین و المشرکین فی أمّة عیسی علیه السّلام، و الآیات مورد البحث تجسد عاقبة أمرهم، یقول تعالی: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ

لقد طرح هذا السؤال بصورة الاستفهام الإنکاری، و هو فی الحقیقة بیان لواقع حال أمثال، هؤلاء الأفراد، کما نقول فی مقام ذم شخص

لا یصغی إلی نصیحة ناصح، و یهیء عوامل فنائه بیده: إنّه بانتظار حتفه فقط!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۹

و المراد من «الساعة» فی هذه الآیة- ککثیر من آیات القرآن الأخری- هو یوم القیامة، لأنّ الحوادث تقع سریعة حتی کأنّها تحدث فی ساعة واحدة.

و جاءت هذه الکلمة- أیضا- بمعنی لحفظة انتهاء الدنیا، و لما لم یکن بین هذین المعنیین کبیر فرق، فمن الممکن أن یکون هذا التعبیر شاملا لکلا المعنیین.

و علی أیة حال، فقد وصف قیام الساعة، الذی یبدأ بانتهاء الدنیا المفاجئ، بوصفین فی الآیة أعلاه: الأوّل: کونه بغتة، و الآخر: عدم علم عامة الناس بتأریخ وقوعها و حدوثها.

من الممکن أن یحدث حدث فجأة، و لکنّا نتوقع حدوثه من قبل، و نکون علی استعداد لمواجهة المشاکل التی تنجم عنه، إلّا أن سوء الحظ و التعاسة فی أن تقع فاجعة قاسیة و صعبة جدّا، بصورة مفاجئة و نحن غافلون عنها تماما.

هکذا بالضبط حال المجرمین، فهم یؤخذون و هم فی غفلة تامة، بحیث تصور الروایات الواردة

عن نبیّ الإسلام الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم ذلک فتقول: «تقوم الساعة و الرجلان یحلبان النعجة، و الرجلان یطویان الثوب، ثمّ قرأ صلی اللّه علیه و آله و سلّم: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ ۷۲].

و أی شیء آلم من أن یکون الإنسان غافلا أمام مثل هذه الحادثة التی لیس فیها أی طریق أو منفذ للرجوع و الخلاص، و یغرق فی أمواجها من دون أن یکون معدّا لمستلزمات النجاة؟

ثمّ رفعت الآیة الغطاء عن حالة الأخلاء الذین یودّ بعضهم بعضا، و یسیرون معا فی طریق المعصیة و الفساد، و الاغترار بزخارف الدنیا، فتقول: الْأَخِلَّاءُ یَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِینَ ۷۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۰

إن هذه الآیة التی تصف مشهدا من مشاهد القیامة، تبیّن بوضوح أنّ المراد من الساعة فی الآیة السابقة هو یوم القیامة أیضا، الیوم الذی تنفصم فیه عری العلاقات الأخویة و الصداقة و الرفقة، إلّا العلاقات التی قامت للّه و فی اللّه و باسمه.

إن تبدل مثل هذه المودة إلی عداوة فی ذلک الیوم أمر طبیعی، لأنّ کلا منهم یری صاحبه أساس تعاسته و سوء عاقبته، فأنت الذی دللتنی علی هذا الطریق و دعوتنی إلیه، و أنت الذی زینت الدنیا فی نظری و رغبتنی فیها و أطمعتنی.

نعم، أنت الذی أغرقتنی فی بحر الغفلة و الغرور، و جعلتنی جاهلا بمصیری، غافلا عنه.

و هکذا یقول کل واحد منهم لصاحبه مثل هذه المطالب، إلّا المتقین الذین تبقی روابط أخوتهم، و أواصر مودّتهم خالدة، لأنّها تدور حول محور القیم و المعاییر الخالدة، و تتّضح نتائجها المثمرة فی عرصة القیامة أکثر، فتمنحها قوّة إلی قوّتها.

من الطبیعی أنّ الأخلاء یعین بعضهم بعضا فی أمور الحیاة، فإن کانت خلتهم علی أساس الشرّ و الفساد، فهم شرکاء فی الذنب و الجریمة، و إن کانت علی أساس الخیر و الصلاح فهم شرکاء فی الثواب و العطیة، و علی هذا فلا مجال للعجب من أن یتبدل الخلیل من القسم الأوّل الی عدوّ، و من القسم الثّانی إلی خلیل یشتد حبّه و مودّته أکثر من ذی قبل.

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «ألا کل خلّة کانت فی الدنیا فی غیر اللّه عزّ و جلّ فإنّها تصیر عداوة یوم القیامة»[۷۴].

و الآیة التالیة- فی الحقیقة- تبیان لأوصاف المتقین و أحوالهم، و بیان لعاقبتهم التی تبعث علی الفخر و الاعتزاز.

فی ذلک الیوم العصیب یقول لهم اللّه تعالی: یا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَیْکُمُ الْیَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۱

کم هو جمیل هذا النداء؟! نداء مباشر من اللّه سبحانه من دون واسطة توصله ...

نـداء يبـدأ بـأحسن الصـفات: يـا عبـاد اللَّه! نـداء يزيل قلق الإنسان فى يوم ليس فيه إلّا القلق و الاضـطراب ... نـداء يطهر القلب من غم الماضى و حزنه، و ينقيه ...

نعم، لهذا النداء هذه المزايا الأربعة المذكورة.

و تبيّن آخر آيـة- من هـذه الآيات- هؤلاء المتقين و العباد المكرمين بصورة أكثر وضوحا، بـذكر جملتين أخريين، فتقول: الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ

أجل، هؤلاء هم الذين يخاطبون بمثل هذا الخطاب العظيم، و يسبحون فى تلك النعم.

إن هـاتين الجملتين تعريف بليغ باعتقادات هؤلاء و أعمالهم، فهما تبينان إيمانهم الـذى هو أساس عقيـدتهم الثابت، و تبينان إسـلامهم فى تسليمهم لأمر اللَّه سبحانه و تنفيذ أوامره.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۲

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۷۰ الى ۷۳]

اشارة

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (۷۰) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (۷۱) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (۷۳)

التّفسير

اشارة

فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين:

تبيّن هـذه الآيات جزاء عباد اللَّه المخلصـين، و المؤمنين الصالحين الـذين مرّ وصـفهم فى الآيات السابقة، و تبشرهم بالجنّة الخالدة مع ذكر سبع نعم من نعمها النفيسة الغالية.

تقول أوّلا: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ و بذلك فإنّ مضيفهم الحقيقى هو اللَّه تعالى الذى يدعو ضيوفه و يقول لهم: أدخلوا الجنّة.

ثمّ أشـارت إلى أول نعمـة من تلـك النعم، فقـالت: أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ و من الواضـح أنّ كـون المؤمنين الرحمـاء إلى جـانب زوجـاتهم المؤمنات يمنحهما معا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۳

اللذة و السرور، فإذا كانا شريكين فى همّ الدنيا، فإنّهما سيكونان شريكين فى سرور الآخرة و نشوتها.

و قـد فسّـر بعضـهم «الأزواج» هنا بالمتساوين فى الدرجـة و الأصدقاء و الأقارب، فلو صحّ فوجودهم نعمة عظيمة، إلّا أنّ ظاهر الآية هو المعنى الأوّل.

ثمّ تضيف: تُحْبَرُونَ

«تحبرون» من مادة حبر- وزن فكر- أى الأثر المطلوب، و تطلق أحيانا على الزينة و آثار الفرح التى تظهر على الوجه، و إذا قيل للعلماء أحبار، فلآثارهم التى تبقى بين المجتمعات البشرية، كما

یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «العلماء باقون ما بقی الدهر، أعیانهم مفقودة، و أمثالهم فی القلوب موجودة»[۷۵].

و تقول فی بیان النعمة الثالثة: یُطافُ عَلَیْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَکْوابٍ فهم یضافون و یخدمون بأفضل الأوانی، و ألذّ الأطعمة، فی منتهی الهدوء و الاطمئنان و الصفاء.

«الصحاف» جمع صحفة، و هی فی الأصل من مادة صحف، أی التوسع، و تعنی هنا الأوانی الکبیرة الواسعة و الأکواب جمع کوب، و هی أقداح الماء التی لا عروة لها.

و مع أنّ الکلام فی الآیة عن الصحاف الذهبیة، دون طعامهم و شرابهم، إلّا أن من البدیهی أنّ الذین یخدمونهم لا یطوفون علیهم بصحاف خالیة مطلقا.

و تشیر فی الرابعة و الخامسة إلی نعمتین أخریین جمعت فیهما کلّ نعم العالم المادیة و المعنویة، فتقول: وَ فِیها ما تَشْتَهِیهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْیُنُ و علی قول المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان: لو أنّ جمیع الخلائق قد اجتمعت لوصف أنواع نعم الجنّة، فسوف لا یقدرون أن یضیفوا شیئا علی ما جاء فی هذه الجملة أبدا.

و أی تعبیر أجمل من هذا التعبیر و أجمع منه؟ فهو تعبیر بسعة عالم الوجود،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۴

و بسعة ما یخطر فی أذهاننا الیوم و ما لا یخطر، تعبیر لیس فوقه تعبیر.

و الطریف أن مسألة شهیة النفس قد بیّنت منفصلة عن لذة العین، و هذا الفصل عمیق المعنی: فهل هو من قبیل ذکر الخاص بعد العام، من جهة أنّ للذّة النظر أهمیة خاصّة تفوق اللذات الأخری؟ أم هو من جهة أن جملة: ما تَشْتَهِیهِ الْأَنْفُسُ تبیّن لذات الذوق، و الشم و السمع و اللمس، أمّا جملة: تَلَذُّ الْأَعْیُنُ فهی تبیان للذة العین و النظر.

و یعتقد البعض أنّ جملة: ما تَشْتَهِیهِ الْأَنْفُسُ إشارة إلی کلّ اللذات الجسمیة، فی حین أن جملة: تَلَذُّ الْأَعْیُنُ مبینة للذات الروحیة، و أی لذة فی الجنة أسمی من أن ینظر الإنسان بعین القلب إلی جمال اللّه الذی لا یشبهه جمال، فإنّ لحظة من تلک اللحظات تفوق کل نعم الجنة المادیة.

و من البدیهی أنّ شوق الحبیب کلما زاد، کانت لذة الإلقاء أعظم.

سؤال:

و هنا یطرح سؤال، و هو: هل أنّ سعة عمومیة مفهوم هذه الآیة، دلیل علی أنّهم یطلبون من اللّه هناک أن یمنحهم أمورا کانت حراما فی الدنیا؟

و الجواب:

إنّ طرح هذا السؤال ناتج عن عدم الالتفات إلی نکتة، و هی أنّ المحرمات و القبائح کالغذاء المضر لروح الإنسان، و من المسلم أنّ الروح السالمة الصحیحة لا تشتهی مثل هذه الغذاء، و تلک التی تمیل أحیانا إلی السموم و الأغذیة المضرة هی الأرواح المریضة.

إنّنا نری، بعض المرضی یمیلون حتی فی حالة المرض إلی تناول التراب أو أشیاء أخری من هذا القبیل، إلّا أنّهم بمجرّد أن یزول عنهم المرض تزول عنهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۵

هذه الشهیة الکاذبة.

نعم، إنّ أصحاب الجنّة سوف لا- یمیلون أبدا إلی مثل هذه الأعمال، لأن میل الروح و انجذابها إلیها من خصائص أرواح أصحاب الجحیم المریضة.

إنّ هذا السؤال یشبه ما

ورد فی الحدیث من أن أعرابیا أتی النّبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم، و قال:

هل فی الجنّة إبل؟ فإنّی أحبّها حبّا جمّا، فالتفت إلیه النّبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم الذی کان یعلم أن فی الجنّة نعما سینسی معها الأعرابی الإبل، و أجابه بعبارة قصیرة فقال: «یا أعرابی، إن أدخلک اللَّه الجنّة أصبت فیها ما اشتهت نفسک و لذت عینک»[۷۶].

و بتعبیر آخر: فهناک العالم الذی ینسجم فیه الإنسان مع الحقائق تماما.

و علی کل حال، لما کانت قیمة النعمة فی کونها خالدة، فقد طمأنت الآیة أصحاب النعیم من هذه الجهة عند ما ذکرت الصفة السادسة فقالت: وَ أَنْتُمْ فِیها خالِدُونَ لئلّا یکدر التفکیر فی زوال هذه النعمة صفو عیشهم و لذّتهم، فیقلقوا من المستقبل و ما یخبئه.

و هنا، من أجل أن یتّضح أن کل نعم الجنّة هذه تعطی جزاء لا اعتباطا و عبثا، تضیف الآیة: وَ تِلْکَ الْجَنَّةُ الَّتِی أُورِثْتُمُوها بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و الطریف فی الأمر أنّ الآیة تطرح مجازاة الأعمال و کون الجنّة فی مقابلها من جهة، و من جهة أخری تجعلها إرثا، و هو یستعمل عادة فی الموارد التی تصل فیها النعمة إلی الإنسان من دون أن یبذل جهدا أو سعیا فی تحصیلها، و هذه إشارة إلی أنّ أعمالکم هی أساس خلاصکم و نجاتکم، إلّا أن ما تحصلون علیه إذا ما قورن بأعمالکم فهو کالشیء المجانی المعطی من قبل اللَّه تعالی، و کالهبة حصلتم علیها بفضله.

و یعتبر البعض هذا التعبیر إشارة إلی ما قلناه سابقا من أن لکل إنسان منزلا فی الجنّة و محلا فی الجحیم، فیرث أصحاب الجنّة منازل أصحاب النّار، و یرث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۶

أصحاب النّار أمکنة أصحاب الجنّة! إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یبدو هو الأنسب.

و الکلام فی النعمة السابعة و الأخیرة فی ثمار الجنّة التی هی من أفضل نعم اللَّه، فتقول الآیة: لَکُمْ فِیها فاکِهَةٌ کَثِیرَةٌ مِنْها تَأْکُلُونَ

لقد کانت الصحاف و الأکواب بیانا لأنواع الأطعمة و الأشربة فی الواقع، أمّا الفواکه فلها حسابها الخاص، و قد أشیر إلیه فی آخر آیة من هذه الآیات.

و الجمیل أنّها تبیّن بتعبیر (منها) حقیقة أنّ فاکهة الجنّة کثیرة جدّا بحیث لا- تتناولون إلّا جزءا منها، و علی هذا فإنّها لا تفنی، و أشجارها مثمرة دائما.

و

جاء فی الحدیث: «لا ینزع رجل فی الجنّة ثمرة من ثمرها إلّا نبت مثلها مکانها»[۷۷].

کانت هذه بعض نعم الجنّة التی تبعث الحیاة فی النفوس، و هی بانتظار ذوی الإیمان القوی البیّن، و الأعمال الصالحة النبیلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۷

الآیات [سورة الزخرف (۴۳): الآیات ۷۴ الی ۸۰]

اشارة

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (۷۴) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (۷۶) وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۸)
أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (۸۰)

التّفسير

نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب:

لقد فصّلت هذه الآيات القول في مصير المجرمين و الكافرين في القيامة، ليتّضح الفرق بينه و بين مصير المؤمنين- المطيعين لأمر اللَّه- المشرف السعيد من خلال المقارنة بين المصيرين.
تقول الآية الأولى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ
«المجرم» من مادة جرم، و هو في الأصل بمعنى القطع الذي يستعمل في قطع
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۸
الثمار من الشجرة- أي القطف- و كذلك في قطع نفس الشجرة، إلّا أنّه استعمل فيما بعد في القيام بكل عمل سيء، و ربّما كان سبب هذا الاستعمال هو أنّ هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربّه و عن القيم الإنسانية، و تبعده عنهما.
لكن من المسلم هنا أنّه لا يريد كل المجرمين، و إنّما المراد هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلا لهم، بقرينة ذكر مسألة الخلود و العذاب الخالد، و بقرينة المقارنة بالمؤمنين الذين مرّ الكلام عنهم في الآيات السابقة. و يبدو بعيدا ما قاله بعض المفسّرين من أنها تشمل كل المجرمين.
و لما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائمي بمرور الزمان، و تقل شدته تدريجيا، فإنّ الآية التالية تضيف: لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ و على هذا فإنّ عذاب هؤلاء دائم من ناحيتي الزمان و الشدّة، لأنّ الفتور يعني السكون بعد الحدة، و اللين بعد الشدة، و الضعف بعد القوّة كما يقول الراغب في مفرداته.
«مبلس» من مادة «إبلاس»، و هي في الأصل الحزن الذي يصيب الإنسان من شدة التأثر و الانزعاج، و لما كان هذا الهم و الحزن يدعو الإنسان إلى السكوت، فقد استعملت مادة الإبلاس بمعنى السكوت و الامتناع عن الجواب أيضا. و لما كان الإنسان ييأس من خلاص نفسه و نجاته في الشدائد العصيبة، فقد استعملت هذه المادة في مورد اليأس أيضا، و لهذا المعنى سمي «إبليس» إبليس، إذ أنّه آيس من رحمة اللَّه.
على أية حال، فإنّ هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل: مسألة الخلود، و عدم تخفيف العذاب، و الحزن و اليأس المطلق. و ما أشد العذاب الذي تمتزج فيه هذه الأمور الثلاثة و تجتمع.
و تنبه الآية التالية إلى أنّ هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم، و اشتروه بأعمالهم و بظلمهم لأنفسهم، فتقول: وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ
فكما أن الآيات السابقة قد بينت أن منبع كل تلك النعم اللامتناهية هي أعمال
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۹
المؤمنين المتقين، فإن هذه الآيات تعد أعمال هؤلاء الظالمين سبب هذا العذاب الخالد و منبعه. و أي ظلم أكبر من أن يكذّب الإنسان بآيات اللّه سبحانه، و يضرب جذور سعادته بمعول الكفر و الافتراء: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ [۷۸] نعم، إن القرآن يرى

ارادة الإنسان و أعماله السبب الأساسى لكل سعادة أو شقاء، لا المسائل الظنية و الوهمية التى اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثمّ تطرقت الآيـة إلى بيـان جانب من مذلـة هؤلاء و مسكنتهم، فقالت، وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ فمع أن كل امرئ يهرب من الموت و يريـد استمرار الحياة و بقاءها، إلّا أنّه عنـد ما تتوالى عليه المصائب أحيانا و يضيق عليه الخناق يتمنى على اللّه الموت، و إذا كانت هذه الأمنية قد تحدث أحيانا لبعض الناس فى الدنيا، فانّها تعمّ جميع المجرمين هناك، فكلهم يتمنى الموت.

و لكن حيث لا فائدة من ذلك، فإنّ مالك النّار و خازنها يجيبهم: قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ ۷۹].

و العجيب أنّ خـازن النّار يجيبهـم بعـد ألـف سـنة- برأى بعض المفسّـرين- و بكـل احتقـار و عـدم اهتمـام، فمـا أشـد إيلام هـذا الاحتقار[۸۰].

قـد يقـال: كيف يطلب هؤلاء مثـل هـذا الطلب مع يقينهم أن لا موت هنـاك؟ غير أن مثـل هـذا الطلب طبيعى من إنسـان أحـاطت به المصائب و الآلام، و قطع أمله من كل شىء.

أجل، إنّ هؤلاء عند ما يرون كل سبل النجاة مغلقة فى وجوههم، سيطلقون هذه الصرخة من أعماق قلوبهم، و لكن حق القول عليهم بالعذاب، فلا فائدة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۰

صراخهم، و لا صريخ لهم.

أمّا لماذا لا يطلب هؤلاء الموت من اللّه مباشرة، بل يقولون لمالك: لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ فلأنّهم فى ذلك اليوم محجوبون عن ربّهم، كما نقرأ ذلك فى الآية (۱۵) من سورة المطففين: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ و لذلك يطلبون طلبتهم هذه من ملك العذاب. أو بسبب أن مالكا ملك مقرب عند اللّه سبحانه.

و تقول الآية الأخرى، و التى هى فى الحقيقة علة لخلود هؤلاء فى نار جهنم:

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ

و للمفسّرين رأيان مختلفان فى أن هذا الكلام هل هو من قبل مالك خازن النّار، و أن ضمير الجمع يعود على الملائكة و منهم مالك، أم أنّه كلام اللّه تعالى؟

السياق يوجب أن يكون الكلام كلام مالك، لأنّه أتى بعد كلامه السابق، إلّا أنّ محتوى نفس الآية ينسجم مع كونه كلام اللّه تعالى، و الشاهـد الآخر لهـذا الكلام الآية (۷۱) من سورة الزمر: وَ قـالَ لَهُمْ خَزَنَتُهـا أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيـاتِ رَبِّكُمْ فهنـا يعد الملائكة الرسل هم الذين جاؤوا بالحق، لا هم.

و للتعبير «بالحق» معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيرية، و إن كانت مسألة التوحيد و المعاد و القرآن تأتى فى الدرجة الأولى.

و هذا التعبير يشير- فى الحقيقة- إلى أنّكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، و إنّما خالفتم الحق فى الواقع، و هذه المخالفة هى التى ساقتكم إلى العذاب الخالد الأبدى.

و تعكس الآية التالية جانبا من كراهية هؤلاء للحق و اشـمئزازهم منه، و كذلك مناصـرتهم للباطل و التمسك به، فتقول: أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۸۱] فقد حاك هؤلاء الأشـرار الدسائس و دبروا المؤامرات لإطفاء نور الإسـلام، و قتل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يتورعوا فى إنزال الضربات بالإسلام و المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۱

و فى المقابل أردنا أن نجازى هؤلاء فى هذه الحياة الدنيا، و فى الآخرة بأشد العذاب.

و يرى بعض المفسّـرين أن سبب نزول هذه الآية هو قضـية مؤامرة قتل النبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم قبل الهجرة، و التى أشير إليها فى الآية (۳۰) من سورة الأنفال: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...[۸۲].

و الظاهر أن هذا من قبیل التطبیق، لا أنه سبب النّزول ...

و الآیة الأخری بیان لإحدی علل التآمر، فتقول: أَمْ یَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ فإن الأمر لیس کذلک، إذ نحن نسمع و رسلنا: بَلی وَ رُسُلُنا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ

«السر» هو ما یضمره الإنسان فی قلبه، أو ما یودعه من أسراره لدی إخوانه و أصدقائه، و «النجوی» هی الهمس فی الأذن.

نعم، فإنّ اللّه سبحانه لا یسمع نجواهم و همسهم فیما بینهم فحسب، بل یعلم ما یضمرونه فی أنفسهم أیضا، فإن السر و العلن لدیه سواء.

و الملائکة المکلفون بتسجیل أعمال البشر و أقوالهم یکتبون هذه الکلمات فی صحائف أعمالهم دائما، و إن کانت الحقائق بدون ذلک واضحة أیضا، لیروا جزاء أعمالهم و أقوالهم و مؤامراتهم فی الدنیا و الآخرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۲

الآیات [سورة الزخرف (۴۳): الآیات ۸۱ الی ۸۵]

اشارة

قُلْ إِنْ کانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِینَ (۸۱) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا یَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتَّی یُلاقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی یُوعَدُونَ (۸۳) وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّماءِ إِلهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ (۸۴) وَ تَبارَکَ الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵)

التّفسیر

ذرهم فی خوضهم یلعبون:

لما کان البحث فی الآیات السابقة- و خاصة فی بدایة السورة- عن مشرکی العرب و اعتقادهم بأنّ للّه ولدا، و أنّهم کانوا یظنون الملائکة بنات اللّه، و لما مر البحث فی عدة آیات مضت عن المسیح علیه السّلام و دعوته إلی الوحدانیة الخالصة و العبودیة للّه وحده، فقد ورد البحث فی هذه الآیات فی نفی هذه العقائد الفاسدة عن طریق آخر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۳

تقول الآیة: قُلْ إِنْ کانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِینَ لأن ایمانی باللّه أقوی من ایمانکم جمیعا، و معرفتی به أکبر، و علیه فیجب أن أعظّم ولده و أطیعه قبلکم.

و بالرغم من أنّ مضمون هذه الآیة بدا معقدا لجماعة من المفسّرین، فذکروا توجیهات مختلفة له کان بعضها عجیبا جدّا[۸۳]، لکن لا یوجد فی الواقع أی تعقید فی محتوی الآیة، و هذا الأسلوب الرائع یستعمل مع الأفراد العنودین المتعصبین، کما لو قال شخص: إنّ فلانا أعلم من الجمیع، فی حین أنّه لا یعلم شیئا، فیقال له:

إذا کان هو الأعلم فأنا أوّل من یتبعه، و ذلک لیبذل القائل جهده فی البحث عن دلیل یدعم به مدعاه، و عند ما یصطدم بصخرة الواقع یستیقظ من غفلته.

غایة ما فی الأمر أنّ هناک نکتتین یجب الالتفات إلیهما:

الأولی: أنّ العبادة لا تعنی العبادة فی کل الموارد، فقد تأتی أحیانا بمعنی الطاعة و التعظیم و الاحترام، و هی هنا بهذا المعنی، فعلی فرض أن للّه ولدا- و هو فرض محال- فلا دلیل علی عبادته، لکنّه لما کان- طبقا لهذا الفرض- ابن اللّه فیجب أن یکون مورد احترام

و تقدیر و طاعة.

و الأخرى: أنّ (لو) تستعمل بدل (أن) فی مثل هذه الموارد عادة فی أدب العرب، و هی تدل علی کون الشیء مستحیلا، و إنّما لم تستعمل فی الآیة- مورد البحث- مماشاة و انسجاما فی الکلام مع الطرف المقابل.

و علی هذا، فإنّ النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: لو کان للّه ولد لبادرت قبلکم إلی احترامه و تعظیمه، لیطمئن هؤلاء من استحالة أن یکون للّه ولد.

بعد هذا الکلام ذکرت الآیة دلیلا واضحا علی نفی هذه الادعاءات، فقالت:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۴

سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا یَصِفُونَ فإنّ من کان مالکا للسماوات و الأرض و مدبرا لها، و ربّا للعرش العظیم، لا یحتاج إلی الولد، فهو الوجود اللامتناهی، و المحیط بکل عالم الوجود، و مربی کل عالم الخلقة، بل یحتاج الولد من یموت، و لا یستمر وجوده إلّا عن طریق الولد.

الولد لازم لمن یحتاج العون و الأنس فی وقت العجز و الوحدة.

و أخیرا فإن وجود الولد دلیل علی الجسمانیة و الانحصار فی حیّز الزمان و المکان.

إنّ ربّ العرش، و السماء و الأرض، و المنزّه عن کل هذه الأمور، غنی عن الولد.

و التعبیر ب رَبِّ الْعَرْشِ بعد رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من قبیل ذکر العام بعد الخاص، لأنّ العرش- و کما قلنا سابقا- یقال لمجموع عالم الوجود، و الذی هو عرش حکومة اللّه عزّ و جلّ.

و یحتمل أیضا أن یکون العرش إشارة إلی عالم ما وراء الطبیعة، فیکون فی مقابل السماوات و الأرض التی تشیر إلی عالم المادة.

لمزید الاطلاع علی معنی العرش، راجع التّفسیر الأمثل ذیل الآیة (۲۵۵) من سورة البقرة، و أوسع منه ما جاء فی ذیل الآیة (۷) من سورة المؤمن.

ثمّ تضیف الآیة الأخری کاحتقار لهؤلاء المعاندین و تهدید لهم، و هو بحد ذاته أسلوب آخر من أسالیب البحث مع أمثال هؤلاء الأفراد فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتَّی یُلاقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی یُوعَدُونَ لیجنوا عاقبة أعمالهم، و لیذوقوا و بال أمرهم.

من الواضح أن المراد من هذا الیوم الموعود هو یوم القیامة، و ما احتمله البعض من أن المراد هو لحظة الموت فیبدوا بعیدا جدّا، لأنّ الجزاء علی الأعمال یکون فی یوم القیامة لا فی لحظة الموت.

إنّه نفس الیوم الموعود الذی أقسم اللّه تعالی به فی الآیة (۲) من سورة البروج، حیث تقول الآیة: وَ الْیَوْمِ الْمَوْعُودِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۵

و تواصل الآیتان التالیتان البحث حول مسألة التوحید، و هما تشکلان نتیجة للآیات السابقة من جهة، و من جهة أخری دلیلا لتکملتها و إثباتها. و فیهما سبع من صفات اللّه سبحانه، و لجمیعها أثر فی تحکیم و تقویة مبانی التوحید.

فتقف الآیة الأولی بوجه المشرکین الذین کانوا یعتقدون بانفصال إله السماء عن إله الأرض، بل ابتدعوا للبحر إلها، و للصحراء إلها و آخر للحرب، و رابعا للصلح و السلم، و آلهة مختلفة و متعددة بتعدد الموجودات، فتقول: وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّماءِ إِلهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلهٌ لأنّ کونه إلها فی السماء و الأرض یثبت کونه ربّا و معبودا فیهما- و قد مرّ ذلک فی الآیات السابقة- لأنّ المعبود الحقیقی هو ربّ العالم و مدبره، لا الأرباب المختلفة، و لا الملائکة، و لا المسیح و لا الأصنام، فکلها لیست أهلا لأن تکون أربابا و آلهة، إذ لیس لها مقام الربوبیة، فکلها مخلوقة فی أنفسها و مربوبة، و تتمتع بأرزاق اللّه، و کلها تعبده سبحانه.

و تقول فی الصفتین الثّانیة و الثّالثة وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ فکل أعماله تقوم علی أساس الدقّة و الحساب و النظم، و هو علیم بکل شیء و محیط به، و بذلک فإنّه یعلم أعمال العباد جیدا، و یجازیهم علیها طبقا لحکمته.

و تتحدث الآیة الثانیة فی الصفحتین الرابعة و الخامسة، برکات وجوده الدائمة الوفیرة، و عن امتلاکه السماء و الأرض و ما بینهما، فتقول: تَبارَکَ الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما.

«تبارک» من مادة برکة، و تعنی امتلاک النعمة الوفیرة، أو الثبات و البقاء، أو کلیهما، و کلاهما یصدقان فی شأن اللّه تعالی، فإنّ وجوده باق و خالد، و هو مصدر النعم الکثیرة.

و لیس للخیر الکثیر کمال المعنی إذا لم یکن ثابتا و باقیا، فإنّ الخیرات مهما کانت کثیرة، فهی تعد قلیلة إذا کانت مؤقتة و سریعة الزوال.

و تضیف فی الصفتین السّادسة و السّابعة: وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۶

و علی هذا فإذا أردتم الخیر و البرکة فاطلبوها منه لا من الأصنام، فإن مصائرکم إلیه یوم القیامة، و هو المرجع الوحید لکم، و بیده کل شیء، و لیس للأصنام و الآلهة أی دور فی هذه الأمور.

***

ملاحظات

۱- لقد تکررت (السماوات و الأرض) فی هذه الآیات ثلاث مرات: مرّة لبیان کون اللّه ربّا و مدبرا لهما، و أخری فی کونه إلها فیهما، و ثالثة فی کونه مالکا و حاکما، و هذه الأمور الثلاثة مترابطة ببعضها، و هی فی الحقیقة علة و معلول لبعضها البعض، فهو مالک، و لذلک فهو ربّ، و هو فی النتیجة إله. و وصفه بالحکیم و العلیم إکمال لهذه المعانی.

۲- یستفاد من بعض الرّوایات الإسلامیة أن تعبیر الآیات المذکورة ب وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّماءِ إِلهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلهٌ کان قد أصبح وسیلة لبعض الزنادقة و المشرکین لإثبات مدعاهم، و کانوا یفسّرون الآیة- حسب سفسطتهم- بأن فی السماء إلها، و فی الأرض إلها آخر غیره، فی حین أنّ الآیة تقول بعکس ذلک، فهی تقول: إنّه الإله الذی یعبد فی السماء و فی الأرض، أی إنّه تعالی هو المعبود فی کل مکان.

و مع ذلک، فإنّ الزنادقة عند ما کانوا یطرحون هذا المطلب کسؤال أمام الأئمّة المعصومین، فإنّهم علیهم السّلام کانوا یجیبونهم علی طریقة النقض و الحل:

فمن جملة ذلک ما

ورد فی الکافی عن هشام بن الحکم، أنّه قال: قال أبو شاکر الدیصانی ۸۴]: إن فی القرآن آیة هی قولنا، قلت: ما هی؟ قال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۷

وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّماءِ إِلهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلهٌ فلم أدر بما أجیبه.

فحججت فخبرت أبا عبد اللّه علیه السّلام، فقال: «هذا کلام زندیق خبیث، إذا رجعت إلیه فقل له: ما اسمک بالکوفة؟ فإنّه یقول: فلان، فقل له: ما اسمک فی البصرة؟ فإنّه یقول: فلان، فقل: کذلک اللّه ربّنا، فی السماء إله، و فی الأرض إله، و فی البحار إله، و فی القفار إله، و فی کل مکان إله».

قال: فقدمت فأتیت أبا شاکر فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز[۸۵].

و ذکر المفسّر الکبیر العلّامة الطبرسی لتکرار لفظ الإله، فی هذه الآیة علتین:

إحداهما: التأکید علی کون اللّه تعالی إلها فی کل مکان.

و الأخرى: أنه إشارة إلى أن ملائكة السماء تعبده، و البشر فى الأرض يعبدونه أيضا، و على هذا فإنه إله الملائكة و بنى آدم و كل الموجودات فى السماوات و الأرض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۸

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۸۶ الى ۸۹]

اشارة

وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۸۷) وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (۸۸) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹)

التّفسير

من يملك الشفاعة؟

لا زال الحديث فى هذه الآيات- و هى آخر آيات سورة الزخرف- حول إبطال عقيدة الشرك و تفنيدها، و عاقبة المشركين المرّة، و هى توضح بطلان عقيدتهم بدلائل أخرى.

تقول الآية الأولى: وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ فلا تقام الشفاعة عند اللّه إلّا بإذنه، و لم يأذن اللّه الحكيم بها لهذه الأحجار و الأخشاب التى لا قيمة لها، و الفاقدة للعقل و الشعور و الإدراك مطلقا.

لكن لما كانت الملائكة و أمثالها من بين آلهة هؤلاء، فقد استثنوا فى ذيل الآية،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۹

فقالت: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ و هم الذين أسلموا لوحدانية اللّه سبحانه فى جميع المراحل، و أذعنوا لها. نعم، هؤلاء هم الذين يشفعون بإذن اللّه تعالى.

لكن ليس الأمر كما تتوهمون أنّهم يشفعون لأى كان، حتى و إن كان وثنيا و مشركا و منحرفا عن طريق التوحيد و ضالا عن الصراط المستقيم، بل وَ هُمْ يَعْلَمُونَ جيدا لمن يشفعون.

و على هذا فإنّهم يقطعون الأمل من شفاعة الملائكة لسببين:

الأوّل: أنّها كانت بنفسها تقرّ بوحدانية اللّه و تشهد بها، و لذلك حصلت على إذن الشفاعة.

و الآخر: أنهم يعرفون جيدا من له أهلية الشفاعة و مستحقها[۸۶].

و اعتبر البعض جملة وَ هُمْ يَعْلَمُونَ مكملة لجملة إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ و على هذا يصبح معنى الآية: إنّ الذين يشهدون بالتوحيد و يعلمون حقيقته هم الذين يملكون حق الشفاعة فقط. إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

و على أية حال، فإن هذه الآية تبيّن الشرط الأساس الذى ينبغى توفره فى الشفاعة عند اللّه تعالى، و هم الشاهدون بالحق، و العالمون به على الدوام و المحيطون بروح التوحيد جيدا، و هم كذلك عالمون بأحوال المشفوع لهم و أوضاعهم.

ثمّ تدين المشركين من أفواههم، و تجيبهم جوابا قاطعا، فتقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

لقد قلنا مرارا إن من النادر أن يوجد من بين مشركى العرب و غيرهم من يعتقد أن الأصنام هى الخالقة لهم، فإنّ الأعم الأغلب منهم يعتبرون الأصنام وسائط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۰

و شفعاء یقربونهم إلی اللّه زلفی، أو أنها دلائل و علامات لأولیاء اللّه المقدسین، ثمّ یضمون إلیها ذریعهٔ أن معبودنا یجب أن یکون موجودا ملموسا و محسوسا لنأنس به، فیعبدونها، و لذا فإنّهم متی ما سئلوا عن خالقهم فسیقولون: اللّه.

و قد ذکّر القرآن مرارا بحقیقهٔ أن العبادهٔ لا تلیق إلّا بخالق هذا الکون و مدبره، و إذا کنتم تعلمون أن اللّه هو الخالق و المدبر، فلم یبق لکم إلّا أن تقصروا عبادتکم علیه، و تخصوه بها.

و لذلک فإنّ الآیهٔ تقول فی نهایتها فَأَنَّی یُؤْفَکُونَ و هو لوم و توبیخ لهم ..

فإنّکم إذا علمتم حقیقهٔ الأمر فلم تعرضون عن اللّه و تعبدون غیره؟

و تحدثت الآیهٔ التالیهٔ عن شکوی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی اللّه سبحانه من هؤلاء القوم المتعصبین الذین لا منطق لدیهم، فقالت: وَ قِیلِهِ یا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا یُؤْمِنُونَ

إنّه یقول: لقد تحدثت مع هؤلاء، القوم لیلا و نهارا، فأتیتهم من طریق التبشیر و الإنذار، و ذکرت لهم قصص الأقوام الماضین المؤلمهٔ، و حذرتهم من عذابک، و رغبتهم فی رحمتک إن هم رجعوا عن طریق الضلال، و خلاصهٔ القول: إنّی أبلغتهم الأمر ما استطعت إلی ذلک سبیلا، و قلت کل ما ینبغی أن یقال، إلّا أن حرارهٔ کلامی لم تؤثر فی برودهٔ قلوبهم، فهی کالحجارهٔ أو أشدّ قسوهٔ، فلم یؤمنوا[۸۷].

و یأمر اللّه سبحانه نبیّه فی آخر آیهٔ أن فَاصْفَحْ عَنْهُمْ و لا یکن إعراضک عنهم إعراض افتراق و غضب و أذی و جرح للمشاعر، بل أعرض عنهم وَ قُلْ سَلامٌ لا سلام تحیهٔ و محبّهٔ، بل سلام وداع و افتراق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۱

إنّ هذا السلام یشبه ذلک السلام الذی ورد فی الآیهٔ (۶۳) من سورهٔ الفرقان:

وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً سلام هو علامهٔ اللامبالاهٔ بهم ممتزجهٔ بالعلوّ و العزهٔ.

و مع ذلک فإنّه تعالی یهددهم و یحذرهم بجملهٔ عمیقهٔ المعنی، لئلا یتصوروا أن اللّه تارکهم بعد هذا الفراق و الوداع، فیقول: فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ

نعم، سوف یعلمون أی نار محرقهٔ قد أوقدوها لأنفسهم بعنادهم، و أی عذاب ألیم قد هیأوا أسبابه لیطالهم فیما بعد؟

و قد ذکر البعض سبب نزول الآیهٔ وَ لا یَمْلِکُ الَّذِینَ یَدْعُونَ ... و هو: أن «النضر بن الحارث» و نفرا من قریش قالوا: إنّ کان ما یقوله محمّد حقا، فلا حاجهٔ لنا بشاعته، فإننا نحبّ الملائکهٔ و هم أولیاؤنا، و هم أحق بالشفاعهٔ، فنزلت هذه الآیهٔ و نبهتهم علی أن الملائکهٔ لا تشفع یوم القیامهٔ إلّا لمن یشهدون بالحق، أی للمؤمنین.

و هنا تنتهی سورهٔ الزخرف.

اللّهم، قربنا منک و من أولیائک یوما بعد یوم، و زدنا حبا لک و لهم حتی تنالنا شفاعتهم.

اللّهم، احفظنا من کل شرک خفی و جلی.

إلهنا، قد وصفت یوم القیامهٔ فی کتابک بصفات مهولهٔ و مفزعهٔ و تجعل الناس سکاری و ما هم بسکاری ..

اللهم فعاملنا بفضلک فی ذلک الیوم و لا تعاملنا بعدلک، یا أرحم الراحمین.

آمین ربّ العالمین.

نهایهٔ سورهٔ الزخرف***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۳

سورهٔ الدّخان

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها تسع و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۵

«سورة الدخان»

محتوی سورة الدّخان:

هـذه السورة هی خامس الحوامیم السـبعة، و لما کانت من السورة المکیة، فإنّها تتضـمن الأبحاث العامة لتلک السور، أی البحث حول المبـدأ و المعـاد و القرآن بصورة تامّـة. و قـد نسـجت آیاتها و نظمت فی هـذا الباب تنظیما تنزل معه ضـرباتها الحاسـمة المفزعـة علی القلوب الغافلة الذاهلة عن ربها، و تدعوها إلی الإیمان و التقوی، و الحق و العدالة.

و یمکن تلخیص فصول هذه السورة فی سبعة:

۱- بدایة السورة بالحروف المتقطعة، ثمّ بیان عظمة القرآن، مع تبیان نزوله فی لیلة القدر أوّل مرة.

۲- و تتحدث فی الفصل الثّانی عن التوحید و وحدانیة اللّه سبحانه، و بیان بعض مظاهر عظمته فی عالم الوجود.

۳- و یتحدث قسم مهم منها عن مصیر الکفار و عاقبتهم، و أنواع العقوبات الألیمة التی نزلت و ستنزل بهم.

۴- و تتحـدث السورة فی فصـل آخر عن قصـة موسـی علیه السّـلام و بنی إسـرائیل مع قوم فرعون، و هزیمـة قوم فرعون و هلاـکهم و فنائهم، من أجل إیقاظ هؤلاء الغافلین.

۵- و تشـکل مسألـة القیامـة و أنواع العذاب الألیم الذی سـینال أصـحاب الجحیم، و المثوبات العظیمة التی تسـر الروح، و التی سـینالها المتقون، فصلا آخر من آیات هذه السورة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۶

۶- و من المواضیع الأخری التی طرحت فی هذه السورة موضوع الغایة من الخلق، و عدم کون خلق السماء و الأرض عبثا.

۷- و أخیرا تنتهی السورة ببیان عظمة القرآن الکریم کما بدأت بذلک.

و لما کان الکلام فی الآیة العاشرة من هذه السورة عن «الدخان المبین»، فقد سمیت بسورة الدخان.

فضل تلاوة هذه السورة

جـاء فی حـدیث عن نبیّ الإسـلام صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم: «من قرأ سورة الـدخان لیلـة الجمعـة و یوم الجمعـة بنی اللّه له بیتـا فی الجنّة»[۸۸]

و

روی عنه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الدخان فی لیلة أصبح یستغفر له سبعون ألف ملک»[۸۹].

و

فی حدیث آخر عن أبی حمزة الثمالی، عن الإمام الباقر علیه السّلام: «من قرأ سورة الدخان فی فرائضه و نوافله بعثه اللّه من الآمنین یوم القیامة، و أظله تحت ظل عرشه، و حاسبه حسابا یسیرا، و أعطی کتابه بیمینه»[۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۷

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم
حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (۳) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (۴)
أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۵) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۷) لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۸)

التّفسير

نزول القرآن فى الليلة المباركة:

نلاحظ فى بداية هذه السورة- و كالسور الأربعة السابقة، و السورتين الآتيتين، و التى يكون مجموعها سبع سور هى سور الحواميم- الحروف المقطعة (حم)، و قد بحثنا كثيرا فيما مضى حول الحروف المقطعة فى القرآن بصورة عامة[۹۱]، و بحثت حروف (حم) خاصة فى بداية أوّل سورة من الحواميم (سورة المؤمن) و فى بداية سورة فصلت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۸

و جدير بالانتباه أن بعض المفسّرين فسّر (حم) هنا بالقسم، فيصبح فى الآية قسمان متتابعان: قسم بحروف الهجاء ك (حم)، و قسم بهذا الكتاب المقدس الذى يكون من هذه الحروف.

و كما قلنا، فإنّ الآية الثانية أقسمت بالقرآن الكريم، حيث تقول: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ ذلك الكتاب الواضح محتواه، و البينة معارفه ... الحية تعليماته، البناءة أحكامه، الدقيقة برامجه و خططه، و هو الكتاب الذى يدل بنفسه على كونه حقّا، كما أن بزوغ الشمس دليل على الشمس.[۹۲] لكن لنر الآن ما هو القصد من وراء ذكر هذا القسم؟

الآية التالية توضح هذا الأمر، فتقول: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ.

«المبارك» من مادة بركة، و هى الربح و المنفعة و الخلود و الدوام، فأى ليلة هذه التى تكون مبدأ الخيرات، و منبع الإحسان و العطايا الدائمة؟

لقد فسّرها أغلب المفسّرين بليلة القدر، تلك الليلة العظيمة التى تغيرت فيها مقدرات البشر بنزول القرآن الكريم ... تلك الليلة التى تقدر فيها مصائر الخلائق ...

نعم، لقد نزل القرآن على قلب النّبى المطهر فى ليلة حاسمة مصيرية.

و تجدر الإشارة إلى أنّ ظاهر الآية هو أنّ القرآن كله قد نزل فى ليلة القدر.

أمّا ما هو الهدف الأساس من نزوله؟ نهاية الآية أشارت إليه إذ قالت: إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فإن سنتنا الدائمة هى إرسال الرسل لإنذار الظالمين و المشركين، و كان إرسال نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الكتاب المبين آخر حلقة من هذه السلسلة المباركة المقدسة.

صحيح أنّ الأنبياء عليهم السّلام ينذرون من جانب، و يبشرون من جانب آخر، لكن لما كان أساس دعوتهم هو مواجهة الظالمين و المجرمين و محاربتهم، كان أغلب

كلامهم عن الإنذار و التخويف.

نزول القرآن الدفعى و التدريجى:

۱- نحن نعلم أن القرآن الكريم نزل على مدى ثلاث و عشرين سنة- و هى فترة نبوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إضافة إلى أن لمحتوى القرآن ارتباطا و علاقة بالحوادث المختلفة التى وقعت فى حياة النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين طوال هذه ال (۲۳) سنة، بحيث أنها إذا فصلت عن القرآن الكريم فسيكون غير مفهوم، و إذا كان الحال كذلك فكيف نزل القرآن الكريم كاملا فى ليلة القدر؟

و فى معرض الإجابة على هذا السؤال، ذهب البعض هذا المعنى ببداية نزول القرآن، و بناء على هذا فلا مانع من أن تكون بداية نزوله فى ليلة القدر، و ينزل الباقى خلال (۲۳) سنة.

غير أن هذا التّفسير- و كما قلنا- لا ينسجم مع ظاهر الآية مورد البحث، و مع آيات أخرى فى القرآن المجيد.

و للاجابة على هذا السؤال يجب الانتباه إلى أننا نقرأ فى هذا الآية إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ من جهة، و من جهة أخرى جاء فى الآية (۱۸۵) من سورة البقرة شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ و من جهة ثالثة نقرأ فى سورة القدر إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فيستفاد جيدا من مجموع هذه الآيات أن الليلة المباركة فى هذه الآية إشارة إلى ليلة القدر التى هى من ليالى شهر رمضان المبارك.

و إضافة إلى ما مر، فإنه يستفاد من آيات عديدة أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان عالما بالقرآن قبل نزوله التدريجى، كالآية (۱۱۴) من سورة طه وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ

و جاء فى الآية (۶) من سورة القيامة لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ

من مجموع هذه الآيات يمكن الاستنتاج أنه كان للقرآن نزولان:

الأوّل: نزوله دفعة واحدة، حيث نزل من اللّه سبحانه على قلب النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الطاهر فى ليلة القدر من شهر رمضان.

و الثّاني: النّزول التدريجى، حيث نزل على مدى (۲۳) سنة بحسب الظروف و الحوادث و الاحتياجات.

و الشاهد الآخر لهذا الكلام أن بعض الروايات قد عبرت بالإنزال، و بعضها الآخر بالنّزول، و الذى يفهم من متون اللغة أن التنزيل يستعمل فى الموارد التى ينزل فيها الشىء تدريجيا و متفرقا، أما الإنزال فله معنى واسع يشمل النّزول التدريجى و النّزول دفعة واحدة.[۹۳] و الطريف أنّ كل الآيات المذكورة التى تتحدث عن نزول القرآن فى ليلة القدر و شهر رمضان قد عبرت بالإنزال، و هو يتوافق مع النّزول دفعة واحدة، فى حين عبر بالتنزيل فقط فى الموارد التى دار الكلام فيها حول النّزول التدريجى للقرآن.

لكن، كيف كان هذا النّزول جملة على قلب النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟ هل كان على هيئة هذا القرآن الذى بين أيدينا بآياته و سورة المختلفة، أم أنّ مفاهيمه و حقائقه قد نزلت بصورة مختصرة جامعة؟

ليس الأمر واضحا بدقّة، بل القدر المتيقن الذى نفهمه من القرائن- أعلاه- أن هذا القرآن قد نزل دفعة واحدة فى ليلة واحدة على قلب النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مرّة، و نزل على مدى (۲۳) سنة بصورة تدريجية مرّة أخرى.

و الشاهد الآخر لهذا الكلام، أنّ للتعبير بالقرآن- فى الآية أعلاه- ظهورا فى مجموع القرآن.

صحيح أنّ كلمة القرآن تطلق على كل القرآن و جزئه، لكن لا يمكن إنكار أن ظاهر هذه الكلمة هو مجموع القرآن عند عدم وجود قرينة أخرى معها. و التى فسر بها البعض هذه الآية بأنها بداية نزول القرآن، و قالوا: إنّ أوّل آيات القرآن نزلت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۱

فی شهر رمضان و لیلهٔ القدر، الأمر الذی یخالف ظاهر الآیات.

و أضعف منه قول القائل: لما کانت سورهٔ الحمد- التی هی خلاصهٔ لمجموع القرآن- قد نزلت فی لیلهٔ القدر، فقد عبر ب إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهِٔ الْقَدْرِ.

إن کل هذه الاحتمالات مخالفهٔ لظاهر الآیات، لأن ظاهرها أن کل القرآن قد نزل فی لیلهٔ القدر.

الشیء الوحید الذی یبقی هنا هو ما نقرؤه فی روایات عدیدهٔ

رویت فی تفسیر علی بن إبراهیم. عن الإمام الباقر و الصادق و أبی الحسن موسی بن جعفر علیهم السّلام أنّهم قالوا فی تفسیر إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهٍٔ مُبارَکَهٍٔ: «هی لیلهٔ القدر، أنزل اللّه عزّ و جلّ القرآن فیها إلی البیت المعمور جملهٔ واحدهٔ، ثمّ نزل من البیت المعمور علی رسول اللّه فی طول عشرین سنهٔ».[۹۴]

(التفتوا جیدا إلی أن الروایهٔ قد عبرت عن النّزول جملهٔ واحد ب (أنزل) و عن النّزول التدریجی ب (نزل).

و أین هو «البیت المعمور»؟ صرحت روایات عدیدهٔ- سیأتی تفصیلها فی ذیل الآیهٔ (۴) من سورهٔ الطور، إن شاء اللّه تعالی- بأنه بیت فی السماوات بمحاذاهٔ الکعبهٔ، و هو محل عبادهٔ الملائکهٔ، و یحج إلیه کل یوم سبعون ألف ملک لا یعودون إلیه إلی یوم القیامهٔ.

لکن فی أی سماء هو؟ الرّوایات مختلفهٔ، ففی کثیر منها أنه فی السماء الرابعهٔ، و فی بعضها أنه فی السماء الأولی- السماء الدنیا- و جاء فی بعضها أنه فی السماء السابعهٔ.

و نطالع

فی الحدیث الذی نقله العلّامهٔ الطبرسی فی مجمع البیان فی تفسیر سورهٔ الطور عن علی علیه السّلام: «هو البیت فی السماء الرابعهٔ بحیال الکعبهٔ، تعمره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۲

الملائکهٔ بما یکون منها فیه من العبادهٔ، و یدخله کل یوم سبعون ألف ملک ثمّ لا یعودون إلیه أبدا»[۹۵].

و علی أیهٔ حال، فإنّ نزول القرآن جملهٔ واحدهٔ إلی البیت المعمور فی لیلهٔ القدر لا ینافی علم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم به مطلقا، فإنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لا سبیل له إلی اللوح المحفوظ الذی هو مکنون علم اللّه، إلّا أنّه عالم بالعوالم الأخری.

و بتعبیر آخر، فإن ما استفدناه و فهمناه من الآیات السابقهٔ، بأن القرآن نزل علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مرتین: نزولا دفعیا فی لیلهٔ القدر، و نزولا تدریجیا طوال (۲۳) عاما، لا ینافی الحدیث المذکور الذی یقول: إنّه نزل فی لیلهٔ القدر إلی البیت المعمور، لأن قلب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مطلع علی البیت المعمور.

و قد اتضح من خلال ما قیل فی الجواب عن هذا السؤال، الإجابهٔ عن سؤال آخر یقول: إذا کان القرآن نزل فی لیلهٔ القدر، فکیف کانت بدایهٔ بعثهٔ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی السابع و العشرین من شهر رجب طبقا للروایات المشهورهٔ؟ حیث کان لنزوله فی رمضان صفهٔ الجمع و الکلیهٔ، فی حین أن أوّل آیاته نزلت فی (۲۷) رجب، کبدایهٔ للنزول التدریجی، و بذلک فلا مشکلهٔ من هذه الناحیهٔ.

و الآیهٔ التالیهٔ وصف و توضیح للیلهٔ القدر، حیث تقول: فِیها یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ

التعبیر ب (یفرق) إشارهٔ إلی أن کل الأمور و المسائل المصیریهٔ تقدر فی تلک اللیلهٔ، و التعبیر ب «الحکیم» بیان لاستحکام هذا التقدیر، و عدم تغیره، و کونه حکیما. غایهٔ ما فی الباب أن هذه الصفهٔ تذکر عادهٔ للّه سبحانه، و وصف الأمور الأخری بها من باب التأکید.[۹۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۳

و هذا البيان ينسجم مع الرّوايات الكثيرة التى تقول: إنّ مقدرات كل بنى آدم لمدّة سنة تقدر فى ليلة القدر، و كذلك تفرق الأرزاق و الآجال و الأمور الأخرى فى تلك الليلة.

و سيأتى تفصيل الكلام فى هذا البحث و المسائل الأخرى التى ترتبط بليلة القدر، و عدم التناقض بين هذا التقدير، و بين حرية البشر، فى تفسير سورة القدر، إن شاء اللّه تعالى.

و تقول الآية الأخرى لتأكيد أنّ القرآن منزل من قبل اللّه تعالى: أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [۹۷] و لأجل تبيان العلة الأساسية لنزول القرآن و إرسال النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كون المقدرات فى ليلة القدر، تضيف الآية: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [۹۸] نعم، فإن رحمته التى لا تحدّ توجب أن لا يترك العباد و شأنهم، بل يجب أن ترسل إليهم التعليمات اللازمة لترشدهم فى سيرهم إلى اللّه عبر ذلك المسير التكاملى الملىء بالالتواءات و التعرجات، فإن كل عالم الوجود يصدر عن رحمته الواسعة و ينبع منها، و البشر أكثر تنعما بهذه الرحمة من كل الموجودات.

و تذكر نهاية هذه الآية- و الآيات التالية- سبع صفات للّه سبحانه، و كلها تبين توحيده و وحدانيته، فتقول: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فهو يسمع طلبات العباد، و هو عليم بأسرار قلوبهم.

ثمّ تقول، مبينة للصفة الثالثة رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۴

[۹۹][۱۰۰] لمّا كان كثير من المشركين يعتقدون بوجود آلهة و أرباب عديدين، و كانوا يظنون أن لكل موجود من الموجودات إله. و لمّا كان التعبير ب (ربّك) فى الآية السابقة يمكن أن يوهم أن ربّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم غير ربّ الموجودات الأخرى، فإن هذه الآية أبطلت كل هذه الأوهام بجملة رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما و أثبتت أن ربّ كل موجودات العالم واحد.

و جملة إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ التى وردت هنا بصيغة الجملة الشرطية، تبعث على التساؤل: هل أن كون ربّ العالم ربّا، مشروط بمثل هذا الشرط؟

الظاهر أن المراد من ذكر هذه الجملة هو بيان أحد معنيين أو كليهما:

الأوّل: إذا كنتم طلاب يقين، فإنّ السبيل إلى ذلك هو أن تتفكروا فى ربوبية اللّه المطلقة.

و الآخر: إذا كنتم من أهل اليقين فإن أفضل مورد لتحصيل هذا اليقين هو أن تتفكروا فى آثار رحمة اللّه، فإنّكم إذا نظرتم إلى الآثار فى كل عالم الوجود دلتكم على أن اللّه ربّ كل شىء، و إذا فلقتم قلب كل ذرّة رأيتم فيه دلالة على هذه الربوبية، ثمّ إذا لم توقنوا بعد هذا بكونه تعالى ربا، فبأى شىء فى هذا العالم يمكن أن توقنوا و تؤمنوا؟

و تقول فى الصفة الرابعة و الخامسة و السادسة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ ۱۰۱] فحياتكم و مماتكم بيده، و هو سبحانه ربكم و رب العالمين، و على هذا فلا إله سواه، أو يكون من ليس له مقام الربوبية و لا أهليتها، و لا يملك الحياة و الموت ربّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۵

و معبودا؟! و تضيف فى الصفة السابعة وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فإذا قلتم: إنّكم إنّما تعبدون الأصنام، لأنّ الأصنام، لأن آباءكم كانوا يعبدونها، فاعلموا أن ربّهم هو اللّه الواحد الأحد أيضا، و علاقتكم بآبائكم و ارتباطكم بهم يوجب عليكم أن لا تعبدوا إلّا اللّه، و أن لا تخضعوا إلّا له، و إذا كان سبيلهم غير هذا السبيل فقد كانوا على خطأ بلا ريب.

من الواضح أنّ مسألة الحياة و الموت من شؤون اللّه و تدبيره، و إذا كانت الآية قد ذكرتها بالخصوص، فلأن لها أهمية فائقة من جهة، و لأنّها إشارة ضمنية إلى مسألة المعاد من جهة أخرى، و ليست هذه هى المرة الأولى التى يؤكّد فيها القرآن على مسألة الحياة و الموت، بل بيّنها مرارا على أنّها من الأفعال المختصة باللّه تعالى، لأن مسألة الحياة و الموت أكثر المسائل تأثيرا فى حياة البشر و

مصائرهم، و هی فی الوقت نفسه أعقد مسائل عالم الوجود، و أوضح دلیل علی قدرۀ اللّه تعالی.

***

ملاحظۀ

علاقۀ القرآن بلیلۀ القدر:

ممّا یجدر الانتباه إلیه أنه ورد فی هذه الآیات تلمیحا، و فی آیات سورۀ القدر تصریحا، أن القرآن نزل فی لیلۀ القدر، و کم هو عمیق هذا الکلام؟! ففی تلک اللیلۀ التی تقدر فیها مقدرات العباد و أرزاقهم، ینزل القرآن الکریم علی قلب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الطاهر، ألا یدل هذا علی أن هناک علاقۀ صمیمیۀ بین مقدراتکم و مصائرکم و بین محتوی هذا الکتاب السماوی؟

ألا یعنی هذا الکلام أن هناک علاقۀ لا تقبل الانفصال بین القرآن و بین حیاتکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۶

المعنویۀ، بل و حتی حیاتکم المادیۀ؟ فقد أدّی الی انتصارکم علی الأعداء، و شموخکم و حریتکم و استقلالکم، و عمران مدنکم و رقیکم.

أجل، فی تلک اللیلۀ التی کانت تقدر فیها المقدرات، أنزل القرآن أیضا.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۷

الآیات [سورۀ الدخان (۴۴): الآیات ۹ الی ۱۶]

اشارۀ

بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِینٍ (۱۰) یَغْشَی النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِیمٌ (۱۱) رَبَّنَا اکْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنَّی لَهُمُ الذِّکْری وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِینٌ (۱۳)

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴) إِنَّا کاشِفُوا الْعَذابِ قَلِیلًا إِنَّکُمْ عائِدُونَ (۱۵) یَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْکُبْری إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (۱۶)

التّفسیر

الدّخان القاتل:

لما کان الکلام فی الآیات السابقۀ فی أنّ هؤلاء إن کانوا طلّاب یقین، فإنّ سبل تحصیله کثیرۀ، و تضیف أوّل آیۀ من هذه الآیات بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ فإنّ شک هؤلاء فی حقانیۀ هذا الکتاب السماوی و فی نبوّتک، لیس نابعا من کون المسألۀ معقدۀ صعبۀ، بل من عدم جدیتهم فی التعامل معها، فهم یتعاملون معها بهزل، فیستهزءون و یسخرون تارۀ، و یصفون أنفسهم بعدم الاطلاع و الإلمام و بالجهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۸

تارة أخرى، و يشغلون أنفسهم كل يوم بأسلوب لعب جديد.

«يلعبون» من مادة اللعاب- على قول الراغب- و هو البزاق السائل، و لما لم يكن للإنسان هدف مهم من اللعب، فقد شبه بالبزاق الذى يبصقه الفرد لا إراديا.

و مهما كان، فإن الحقيقة هى أن التعامل الجدى مع المسائل يعين الإنسان فى معرفة الحقائق، أمّا التعامل الهازل الفارغ فإنّه يلقى الحجب عليها و يمنعه من الوصول إليها.

ثمّ انتقلت الآية التالية إلى تهديد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين، فى الوقت الذى وجهت الخطاب إلى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ

عند ذلك سيعم الخوف و الاضطراب كل وجودهم، و تزول الحجب من أمام أعينهم، فيقفون على خطئهم الكبير، و يتجهون إلى اللّه تعالى بالقول: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ

إلّا أنّ اللّه عزّ و جلّ يرفض طلب هؤلاء و يقول: أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ رسول كان واضحا فى نفسه و تعليماته و برامجه و آياته و معجزاته، و مبينا لها جميعا.

غير أنّ هؤلاء بدل أن يذعنوا له، و يؤمنوا باللّه الواحد الأحد، و يتقبلوا أوامره بكل وجودهم، أعرضوا عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ

فكانوا يقولون تارة: إنّ غلاما روميا سمع قصص الأنبياء و أخبارهم يعلمه إياها، و هذه الآيات من اختراعه و إملائه على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۱۰۲] و يقولون تارة أخرى: إنّه مصاب بالاختلال الفكرى و العقلى، و هذه الكلمات وليدة فقدانه التوازن الفكرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۹

ثمّ تضيف الآية التالية: إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ و من هنا يتّضح أنّهم عند ما يقعون فى قبضة العذاب، يندمون على ما بدر منهم من أفعال، و يصممون على تعديل سلوكهم و إصلاحه، إلّا أن هذا الموقف الجديد مؤقت و سريع الزوال، فما أن تهدأ عاصفة الأحداث حتى يعودوا لما كانوا عليه من قبل.

و يقول سبحانه فى آخر آية من هذه الآيات يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ [۱۰۳] «البطش» هو تناول الشىء بصولة، و هنا بمعنى الأخذ للانتقام الشديد، و وصف البطشة بالكبرى إشارة إلى العقوبة الشديدة التى تنتظر هذه الفئة.

و الخلاصة: أنّه على فرض تخفيف العقوبات المؤقتة فى حق هؤلاء، فإن العقوبات النهائية العسيرة تنتظرهم، و لا مفرّ لهم منها.

«منتقمون» من مادة الانتقام، و كما قلنا سابقا فإنّها تعنى العقوبة و الجزاء، و إن كانت كلمة الانتقام تعطى معنى آخر فى محادثاتنا اليومية فى عصرنا الحاضر، حيث تعنى العقوبة المقترنة بإخماد نار الغضب و تفريغ ما فى القلب من انفعال و حب الانتقام، إلّا أن هذا الأمر لا وجود له فى المعنى اللغوى للكلمة.

***

ملاحظة

ما المراد من الدخان المبين؟

هناك أقوال بين المفسّرين حول المراد من الدخان الذى ذكر فى هذه الآيات كتعبير عن العذاب الإلهى، و توجد هنا نظريتان

أساسيتان:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۰

۱- إنّه إشارة إلى العقاب و العذاب الذى ابتلى به كفار قريش فى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّه لعنهم و دعا عليهم قال: «اللهم سنين كسنى يوسف».

و بعد ذلك أصاب مكّة قحط شديد، حتى أنّهم كانوا يرون كأن بين السماء و الأرض عمودا من الدخان من شدة الجوع و العطش، و عسر الأمر عليهم حتى أكلوا الميتة و عظام الحيوانات الميتة.

فأتوا إلى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: يا محمّد، تأمرنا بصلة الرحم و قد هلك قومك! لئن رفع عنا العذاب لنؤمنن. فدعا النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فارتفع العذاب و عم الخير و النعمة الوفيرة، لكنّهم لم يعتبروا بذلك، بل عادوا إلى الكفر مرة أخرى.[۱۰۴] طبقا لهذا التّفسير فقد اعتبرت غزوة بدر هى البطشة الكبرى- أى العقوبة الشديدة- لأن المشركين تلقوا من المسلمين فى بدر ضربات مهلكة ماحقة.

و طبقا لهذا التّفسير لم يكن للدخان وجود فى الحقيقة، بل إن السماء قد بدت للناس العطاشى الجائعين كعمود الدخان، و على هذا فذكر الدخان هنا من باب المجاز، و هو يشير إلى تلك الحالة الصعبة المؤلمة.

و قال البعض: إنّ الدخان يستعمل عادة فى كلام العرب كناية عن الشر و البلاء الذى يعم و يغلب.[۱۰۵] و يعتقد بعض آخر أنّه حين القحط و قلّة المطر تغطى السماء عادة أعمدة الغبار، و قد عبر هنا عن هذه الحالة بالدخان، لأن المطر ينزل بالغبار إلى الأرض فيصفو الأفق.[۱۰۶] و مع كل هذه الصفات، فإنّ استعمال كلمة الدخان هنا مجازا طبقا لهذا التّفسير.

۲- إن المراد من «الدخان المبين» هو ذلك الدخان الغليظ الذى سيغطى السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۱

فى نهاية العالم، و على أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، و بداية عذاب اللّه أليم للظالمين و المفسدين.

عند ذلك سينتبه هؤلاء الظالمون من نوم غفلتهم، و يطلبون رفع العذاب و الرجوع إلى الحياة الدنيوية العادية، لكن أيديهم ترد فى أفواههم.

و طبقا لهذا التّفسير فإنّ الدخان معناه الحقيقى، و يكون مضمون هذه الآيات هو نفس ما ورد فى آيات القرآن الأخرى، و هو أنّ المجرمين و الكافرين يرجون و هم على أعتاب القيامة أو فيها- رفع العذاب عنهم، و الرجوع إلى الدنيا، لكن ذلك لا يقبل منهم و لا يحقق رجاؤهم.[۱۰۷] الإشكال الوحيد الذى يرد على هذا التّفسير أنّه لا ينسجم مع جملة إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ لأنّ العذاب الإلهى لا يخفف عند انتهاء الدنيا أو فى القيامة ليعود الناس إلى حالة الكفر و المعصية.

أما إذا اعتبرنا هذه الجملة قضية شرطية- و إن كان ذلك يخالف الظاهر- فسيرتفع الإشكال حينئذ، لأن معنى الآية يصبح: كلما كشفنا عنهم قليلا من العذاب فإنّهم يعودون إلى طريقتهم الأولى، و هذا فى الواقع شبيه بالآية (۲۸) من سورة الأنعام وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ

اضافة إلى أنّ تفسير «البطشة الكبرى» بأحداث يوم بدر، يبدو بعيدا عن الصواب، لكن تفسيرها بعقوبات القيامة[۱۰۸] مع الآية تماما.

و الشاهد الآخر للتفسير الثّانى هو الروايات الواردة عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و التى تفسّر الدخان بالدخان الذى سيملأ العالم على أعتاب قيام القيامة، كالرواية التى

يرويها حذيفة بن اليمان عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه ذكر أربع علامات لاقتراب القيامة: الأولى ظهور الدجال، و الأخرى نزول عيسى عليه السّلام، و الثالثة النّار التى تظهر

من أرض عدن، و الدّخان.

فسأل حذيفة، يا رسول اللّه، و ما الدّخان؟ فتلا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ يملأ ما بين المشرق و المغرب، يمكث أربعين يوما و ليلة، أمّا المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، و أمّا الكافر فبمنزلة السكران يخرج من منخريه و أذنيه و دبره»[۱۰۹].

و

جاء في حديث آخر عن أبي مالك الأشعري عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ ربّكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ منه المؤمن كالزكمة، و يأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، و الثانية الدابة، و الثالثة الدجال»[۱۱۰]

و قد قدمنا توضيحا كافيا حول دابة الأرض في ذيل الآية (۸۲) من سورة النمل.

و روى شبيه هذا المعنى حول الدخان عن أبي سعيد الحذري عن النّبي الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم.[۱۱۱] و يلاحظ نظير هذه التعبيرات، بصورة أكثر تفصيلا، في الروايات الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السّلام، و من جملتها ما نقرأه

في رواية عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «عشر قبل الساعة لا بدّ منها: السفياني، و الدجال، و الدخان، و الدّابة، و خروج القائم، و طلوع الشمس من مغربها، و نزول عيسى، و خسف بالمشرق، و خسف بجزيرة العرب، و نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر».[۱۱۲]

و من مجموع ما قيل، نستنتج أن التّفسير الثّاني هو الأنسب.

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱۷ الى ۲۱]

اشارة

وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۸) وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۹) وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (۲۱)

التّفسير

إذا لم تؤمنوا فلا تصدّوا الآخرين عن الإيمان:

متابعة للآيات السابقة التي كانت تتحدث حول تمرد مشركي العرب و عدم إذعانهم للحق، تشير هذه الآيات إلى نموذج من الأمم الماضية التي سارت في نفس هذا المسير، و ابتليت أخيرا بالعذاب الأليم و الهزيمة النكراء، ليكون ذلك تسلية للمؤمنين، و تحذيرا للمنكرين المعاندين. و ذلك النموذج هو قصّة موسى و فرعون، حيث تقول الآية: وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ

«فتنّا» من مادة فتنة، و هي في الأصل تعني وضع الذهب في فرن النّار لتخليصه من الشوائب، ثمّ أطلقت على كل امتحان و اختبار يجري لمعرفة نسبة خلوص

البشر ... ذلك الاختبار الذي يعم كل حياة الإنسان و المجتمعات البشرية، و بتعبير آخر، فإن كل مراحل حياة الإنسان في هذه الدنيا

تطوی فی هذه الاختبارات، فإن هذه الدنیا دار امتحان و ابتلاء.

لقد کان قوم فرعون یعیشون أوج قوتهم و عظمتهم بامتلاکهم حکومة قویة، و ثروات ضخمة، و إمکانیات واسعة، فغرتهم هذه القدرة العظیمة، و تلوثوا بأنواع المعاصی و الظلم و الجور.

ثمّ تضیف الآیة وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ کَرِیمٌ فهو کریم من ناحیة الخلق و الطبیعة، و کریم من ناحیة العظیمة و المنزلة عند اللّه، و کریم من ناحیة الأصل و النسب، و لم یکن هذا الرّسول إلّا موسی بن عمران علیه السّلام.[۱۱۳] لقد خاطبهم موسی علیه السّلام بأسلوبه المؤدب جدّا، الملی بالود و المحبة، فقال: أَنْ أَدُّوا إِلَیَّ عِبادَ اللَّهِ [۱۱۴] و طبقا لهذا التّفسیر، فإنّ عِبادَ اللَّهِ بحکم المخاطب، و المراد منهم الفراعنة، و بالرغم من أنّ هذا التعبیر یستعمل فی آیات القرآن فی شأن العباد الصالحین، إلا أنّه أطلق أیضا فی موارد عدیدة علی الکفار و المجرمین، من أجل تحریک وجدانهم، و جذب قلوبهم نحو الحق ۱۱۵].

بناء علی هذا، فإنّ المراد من أَدُّوا إطاعة أمر اللّه سبحانه و تنفیذ أوامره.

و قد ذکر جماعة من المفسّرین تفسیرا آخر لهذه الجملة، فقالوا: المراد من عِبادَ اللَّهِ بنو إسرائیل، و من أَدُّوا إیداعهم بید موسی، و رفع الذلة و العبودیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۵

عنهم، کما جاء فی الآیة (۱۷) من سورة الإسراء أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِی إِسْرائِیلَ و ورد نظیر هذا المعنی فی الآیة ۱۰۵- الأعراف، و ۴۷- طه أیضا.

و الأمر الذی لا ینسجم مع هذا التّفسیر، هو أن جملة أَدُّوا تستعمل عادة فی أداء الأموال و الأمانات و التکالیف، لا فی مورد إیداع الأشخاص، و یتّضح هذا الموضوع جیدا بملاحظة موارد استعمال هذه الکلمة.

و علی أیة حال، فإنّه یضیف فی بقیة الآیة إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ و ذلک لنفی کل اتهام عن نفسه.

إنّ هذا التعبیر- فی الحقیقة- داحض للاتهامات الباطلة التی ألصقها به الفراعنة، کالسحر، و السعی إلی التفوق و استلام الحکم فی أرض مصر، و طرد أصحابها الأصلیین، و التی أشیر إلیها فی الآیات المختلفة.

ثمّ یقول لهم موسی علیه السّلام بعد أن دعاهم إلی طاعة اللّه سبحانه، أو إطلاق سراح بنی إسرائیل و تحریرهم: إنّ مهمّتی الأخری أن أقول لکم: وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَی اللَّهِ إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطانٍ مُبِینٍ معجزاته بینة، و أدلته منطقیة واضحة.

و المراد من عدم العلو علی اللّه سبحانه، هو عدم القیام بأی عمل لا ینسجم مع أصول العبودیة، من المخالفة و التمرد، و حتی إیذاء رسل اللّه، أو ادعاء الألوهیة و أمثال ذلک.

و لما کان المستکبرون و عبید الدنیا لا یدعون أی تهمة و افتراء، إلّا و ألصقوهما بمن یرونه مخالفا لمنافعهم و مصالحهم اللامشروعة بل لا یتورعون حتی عن قتله و إعدامه، لذا فإنّ موسی علیه السّلام یضیف للحد من مسلکهم هذا وَ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ

إنّ هذا التعبیر لعله إشارة إلی أنّی لا أخاف تهدیداتکم، و سأصمد حتی آخر نفس، و اللّه حافظی و حارسی، و کانت مثل هذه التعبیرات تمنح القادة الإلهیین حزما أکبر فی دعوتهم، و تزید فی انهیار إرادة الأعداء و معنویاتهم، و تزید من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۶

جانب آخر ثبات المحبین و المؤمنین و استقامتهم، لأنّهم یعلمون أن إمامهم و قائدهم یقاوم حتی اللحظات الأخیرة.

و ربّما کان التأکید علی مسألة الرجم من جهة أن کثیرا من رسل اللّه قبل موسی علیه السّلام قد هددوا بالرجم، و من جملتهم نوح علیه السّلام قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ یا نُوحُ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِینَ ۱۱۶] و کذلک الحال بالنسبة إلی إبراهیم علیه السّلام لما هدده آزر و قال له: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّکَ ۱۱۷]، و شعیب لما هدده الوثنیون قالوا له: وَ لَوْ لا رَهْطُکَ لَرَجَمْناکَ ۱۱۸] أمّا اختیار الرجم من بین أنواع

القتـل، فلأنّه أشـدّها جميعا. و على قول بعض أرباب اللغـة فإن هـذه الكلمـة جاءت بمعنى مطلق القتل أيضا.[۱۱۹] و احتمـل كثير من المفسّـرين أن يكون الرجم بمعنى الاتهام و إساءة الكلام، لأن هذه الكلمة قد اسـتعملت فى هذا المعنى أيضا. و كانت هذه الاسـتعاذة فى الحقيقة مانعا من تأثير التهم التى اتهموا بها موسى فيما بعد.

و يمكن أن تكون هذه الكلمة قد استعملت فى معناها الواسع الذى يشمل كلا المعنيين.

و تخاطب الآية الأخيرة هؤلاء القوم فتقول: وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِی فَاعْتَزِلُونِ لأن موسـى عليه السّلام كان واثقا من نفوذه بين أوساط الناس، و مختلف طبقـاتهم، بامتلاـكه تلـك المعجزات البـاهرات، و الأدلـة القويـة، و السـلطان المبين، و أن ثورته سـتؤتى أكلها بعـد حين، و لذلك كان يرضى من هؤلاء القوم أن يتنحوا عن طريقه و لا يكونوا حاجزا بينه و بين الناس.

لكن، هل يمكن أن يهدأ هؤلاء الجبابرة المغرورون و هم يرون الخطر يهدد

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۷

مصالحهم و ثرواتهم اللامشروعة، و يقبلوا مثل هذا الاقتراح و يدعوا موسى و شأنه؟

الآيات الآتية كفيلة بأن تبيّن تتمة هذه الأحاديث.

***

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۸

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۲۲ الى ۲۹]

اشارة

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبادِی لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۲۶)

وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (۲۷) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (۲۸) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ (۲۹)

التّفسير

تركوا القصور و البساتين و الكنوز و ارتحلوا! لقـد اسـتخدم موسـى عليه السّـلام كلّ وسائل الهدايـة للنفوذ إلى قلوب هؤلاء المجرمين الظلمة، إلّا أنّها لم تؤثر فيهم أدنى تأثير، و طرق كلّ باب ما من مجيب.

لذلك يئس منهم، و لم ير لهم علاجا إلّا لعنهم و الدعاء عليهم، لأنّ الفاسدين الذين لا أمل فى هدايتهم لا يسـتحقون الحياة فى قانون الخلقـة، بل يجب أن ينزل عليهم عـذاب اللّه و يجتثهم و يطهر الأرض من دنسـهم، لذلك تقول الآية الأولى من هذه الآيات: فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۹

انظر إلى أدب الدعاء، إنّه لا يقول: اللّهم افعل كذا و كذا، بل يكتفى بأنّ يقول:

اللّهمّ إن هؤلاء قوم مجرمون لا أمل فى هدايتهم و حسب! و قد اسـتجاب اللّه سبحانه دعاءه، و كمقدمة لنزول العذاب على الفراعنة، و نجـاة بنى إسـرائيل منهم، أمر موسـى عليه السّـلام أنّ فَأَسْرِ بِعِبـادِی لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ لكن لاـ تقلق من ذلك، فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذى ينتظرهم.

إنّ موسـى عليه السّـلام مأمور بأنّ يتحرك ليلا بصحبة عباد اللّه المؤمنين، أى بنى إسرائيل، و جماعة من أهل مصر الذين مالت قلوبهم

إلى الإيمان و لبّت دعوة موسى، و أن يأتى النيل، و يعبره بطريقة إعجازية، ثمّ يسير إلى الأرض الموعودة، «فلسطين».

صحيح أنّ حركة موسى و أنصاره قد تمّت ليلا، إلّا أنّ من المحتم أنّ لا تبقى حركة جماعية عظيمة كهذه خافية، عن أنظار الفراعنة مدة طويلة، و ربّما لم تمض عدّة ساعات حتى أوصل جواسيس فرعون هذا الخبر المهور- أو قل فرار العبيد الجماعى- إلى مسامعه، فأمر بمطاردتهم بجيش جرار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۱۳۹

الطريف أنّ كلّ هذه الأمور التى حدثت جاءت ضمن إشارة موجزة فى الآيات أعلاه إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ

إن ما حذف هنا من أجل الاختصار وضّح فى آيات أخرى من القرآن بعبارات موجزة، فمثلا نقرأ فى الآية (۷۷) من سورة طه وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى

ثمّ تضيف الآية التى بعدها: عند ما تصل إلى الساحل الآخر عليك أن تترك البحر بهدوء وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً و المراد من البحر فى هذه الآيات هو نهر النيل العظيم.

لقد ذكر المفسّرون و أرباب اللغة معنيين للرهو: هما الهدوء، و السعة و الانفتاح، و لا مانع هنا من اجتماعهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۰

لكن لماذا صدر مثل هذا الأمر لموسى عليه السّلام؟

من الطبيعى أنّ موسى عليه السّلام و بنى إسرائيل كانوا راغبين فى أن يجتازوا البحر حتى تتصل المياه مرّة أخرى و تملأ هذا الفراغ، و يبتعدوا بسرعة عن منطقة الخطر، و يتجهوا بسلامة إلى الوطن الموعود، إلّا أنّهم أمروا أنّ لا يعجلوا أثناء عبورهم نهر النيل، بل ليدعوا فرعون و آخر جندى من جنوده يردون النيل، فإنّ أمر إهلاكهم و إماتتهم قد صدر إلى أمواج النيل المتلاطمة الغاضبة، و لذلك تقول الآية فى ختامها إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ

هذا هو أمر اللّه عزّ و جلّ الحتمى الصادر بحق هؤلاء القوم، بأنّهم يجب أن يغرقوا جميعا فى نهر النيل العظيم، الذى كان أساس ثروتهم و قوّتهم! و بأمر إلهى واحد تحول هذا النهر الذى كان عصب حياتهم إلى أداة فنائهم و موتهم.

نعم، عند ما وصل فرعون و جنوده إلى شاطئ النيل كان بنو إسرائيل قد خرجوا من الجانب الآخر، و كان ظهور مثل ذلك الطريق اليابس وسط النيل كافيا وحده لأن يلفت نظر حتى الطفل الساذج إلى تحقق إعجاز إلهى عظيم فى البحر، إلّا أنّ كبر أولئك الحمقى و غرورهم لم يسمح لهم بإدراك هذه الحقيقة الواضحة فيقفوا على اشتباهاتهم و أخطائهم، و يتوجهوا إلى اللّه سبحانه! ربّما كانوا يظنون أنّ هذا التغير الذى طرأ على النيل قد تمّ بأمر فرعون أيضا! و ربّما قال هذا الكلام لجنوده، ثمّ ورد بنفسه ذلك الطريق فتبعه جنوده حتى الجندى الأخير! لكن، أمواج النيل تلاطمت فجأة و انهالت عليهم كبناء شاهق انهدمت قواعده فانهار إلى الأرض، فغرقوا جميعا.

و لنكتة التى تلفت النظر فى هذه الآيات، هى اختصارها الفائق، و كونها بليغة و معبرة فى الوقت نفسه، فقد ذكر قصة مفصلة فى ثلاث آيات- أو جمل- بحذف الجمل الإضافية التى تفهم من القرائن أو الجمل الأخرى، و نراها اكتفت بالقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۱

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ. فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ، وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ

إنّ التعبير ب «مغرقون» مع أنّهم لم يكونوا قد غرقوا بعد إشارة إلى أنّ هذا الأمر الإلهى حتمى و قطعى.

و لنر الآن ماذا جرى من الحوادث التى تدعو إلى الاعتبار بها، بعد غرق فرعون و الفراعنة.

يبيّن القرآن الكريم فى الآيات التالية تركة الفراعنة العظيمة التى ورثها بنو إسرائيل، ضمن خمسة مواضيع تكن الفهرس العام لكلّ حياة

الفراعنة، فيقول أوّلا: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

لقد كانت البساتين و العيون ثروتين من أهم و أروع ثروات هؤلاء، لأنّ مصر كانت أرضا خصبة مليئة بالبساتين بوجود نهر النيل. و هذه العيون يمكن أن تكون إشارة الى العيون التى كانت تنبع هنا و هناك، أو أنّها جداول كانت تستمد مياهها من النيل، و تمر فى بساتين أولئك و حدائقهم الغناء الخضراء، و ليس بعيدا إطلاق العين على هذه الجداول.

ثمّ يضيف القرآن الكريم وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ و كانت هاتان ثروتين مهمتين أخريين، فمن جهة كانت الزراعة العظيمة التى تعتمد على النيل، حيث أنواع المواد الزراعية الغذائية و غيرها، و المحصولات التى امتدت فى جميع أنحاء مصر، و كانوا يستخدمونها غذاء لهم و يصدرون الفائض منها إلى الخارج، و من جهة أخرى كانت القصور و المساكن العامرة، حيث أنّ من أهم مستلزمات حياة الإنسان هو المسكن المناسب.

لا شك أنّ هذه القصور كريمة من الناحية الظاهرية، و من وجهة نظر هؤلاء أنفسهم، و إلّا فإنّ مساكن الطواغيت المزينة هذه، و التى تسبب الغفلة عن اللّه، لا قيمة لها فى منطق القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۲

و احتمل البعض أن يكون المراد من المقام الكريم مجالس الأنس و الطرب، أو المنابر التى كان يرتقيها المدّاحون و الشعراء للثناء على فرعون.

لكن، الظاهر أنّ المعنى الأوّل أنسب من الجميع.

و لما كان هؤلاء يمتلكون وسائل رفاه كثيرة غير الأمور الأربعة المهمّة التى مرّ ذكرها، فقد أشار القرآن إليها جميعا فى جملة مقتضبة، فقال: وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ ۱۲۰][۱۲۱].

ثمّ يضيف كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ ۱۲۲].

و المراد من قَوْماً آخَرِينَ هم بنو إسرائيل، حيث صرّح بذلك فى الآية (۹۵) من سورة الشعراء. و التعبير بالإرث إشارة إلى أنّهم حصلوا على كلّ هذه الأموال و الثروات من دون أن يبذلوا أدنى جهد، أو يتحملوا أقل تعب و مشقّة، كما يحصل الإنسان على الإرث دون أن يشقى و يجهد فى تحصيله.

و الجدير بالانتباه أنّ الآية المذكورة و نظيرتها فى سورة الشعراء توحيان بأنّ بنى إسرائيل قد عادوا إلى مصر بعد غرق الفراعنة و ورثوا ميراثهم، و حكموا هناك، و سير الحوادث يقتضى- أيضا- أنّ لا يدع موسى عليه السّلام مصر تعيش فراغا سياسيا بعد انهيار دعائم حكومة الفراعنة فيها.

لكن هذا الكلام لا- ينافى ما ورد فى آيات القرآن الكريم من أنّ بنى إسرائيل قد ساروا إلى الأرض الموعودة، أرض فلسطين، بعد خلاصهم من قبضة الفراعنة، و الذى جاء مفصلا فى القرآن، فمن الممكن أن تكون جماعة منهم قد أقاموا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۳

مصر بعد استيلائهم عليها كوكلاء لموسى عليه السّلام، و سار القسم الأعظم إلى فلسطين.

و لمزيد من الإيضاح حول هذا الكلام انظر ذيل الآية (۵۹) من سورة الشعراء.

و تقول الآية الأخيرة من هذه الآيات فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ

إنّ عدم بكاء السماء و الأرض ربّما كان كناية عن حقارتهم، و عدم وجود ولى و لا- نصير لهم ليحزن عليهم و يبكيهم، و من المتعارف بين العرب أنّهم إذا أرادوا تبيان أهمية مكانة الميت، يقولون: بكت عليه السماء و الأرض، و أظلمت الشمس و القمر لفقده.

و احتمل أيضا أنّ المراد بكاء أهل السماوات و الأرض، لأنّهم يبكون المؤمنين المقربين عند اللّه، لا الجبابرة و الطواغيت و أمثاله.

و قال البعض: إنّ بكاء السماء و الأرض بكاء حقيقى، حيث تظهر احمرارا خاصا غير احمرار الغروب و الطلوع، كما نقرأ

فی روایهٔ: «لما قتل الحسین بن علی بن أبی طالب علیه السّلام بکت السماء علیه، و بکاؤها حمرهٔ أطرافها»[۱۲۳].

و

فی روایهٔ أخری عن الإمام الصادق علیه السّلام: «بکت السماء علی یحیی بن زکریا و علی الحسین بن علی (علیهما السلام) أربعین صباحا، و لم تبک إلّا علیهما» قلت:

و ما بکاؤها؟ قال: «کانت تطلع حمراء، و تغیب حمراء»[۱۲۴].

غیر أننا نقرأ

فی حدیث روی عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما من مؤمن إلّا و له باب یصعد منه عمله، و باب ینزل منه رزقه، فإذا مات بکیا علیه»[۱۲۵].

و لا منافاهٔ بین هذه الرّوایات، حیث کان لشهادهٔ الحسین علیه السّلام و یحیی بن زکریا علیه السّلام صفهٔ العموم فی کلّ السماء، و لما ورد فی الرّوایات الأخیرهٔ صفهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۴

الخصوص ۱۲۶].

علی أی حال، فلا تضاد بین هذه التفاسیر، و یمکن جمعها فی معنی الآیهٔ.

نعم لم تبک السماء لموت هؤلاء الضالین الظالمین، و لم تحزن علیهم الأرض، فقد کانوا موجودات خبیثهٔ، و کأنّما لم تکن لهم أدنی علاقهٔ بعالم الوجود و دنیا البشریهٔ، فلما طرد هؤلاء الأجانب من العالم لم یحس أحد بخلو مکانهم منهم، و لم یشعر أحد بفقدهم، لا علی وجه الأرض، و لا فی أطراف السماء، و لا فی أعماق قلوب البشر، و لذلک لم تذرف عین أحد دمعهٔ لموتهم.

و ننهی الکلام فی هذه الآیات بذکر روایهٔ عن أمیر المؤمنین علیه السّلام.

فقد ورد فی روایهٔ أنّ أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام لما مرّ علی المدائن، و رأی آثار کسری مشرفهٔ علی السقوط و الانهیار، أنشد أحد أصحابه الذین کانوا معه:

جرت الریاح علی رسومهم* فکأنّهم کانوا علی میعاد! فقال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «أ فلا قلت کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ کَرِیمٍ وَ نَعْمَهٍ کانُوا فِیها فاکِهِینَ ... فَما بَکَتْ عَلَیْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما کانُوا مُنْظَرِینَ ۱۲۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۵

الآیات [سورهٔ الدخان (۴۴): الآیات ۳۰ الی ۳۳]

اشارهٔ

وَ لَقَدْ نَجَّیْنا بَنِی إِسْرائِیلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِینِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ کانَ عالِیاً مِنَ الْمُسْرِفِینَ (۳۱) وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلی عِلْمٍ عَلَی الْعالَمِینَ (۳۲) وَ آتَیْناهُمْ مِنَ الْآیاتِ ما فِیهِ بَلؤُا مُبِینٌ (۳۳)

التّفسیر

بنو إسرائیل فی بوتقهٔ الاختبار:

کان الکلام فی الآیات السابقهٔ عن غرق الفراعنهٔ و هلاکهم، و انکسار شوکتهم و انتهاء حکومتهم، و انتقالها إلی الآخرین. و تتحدث

هـذه الآيـات فى النقطـة المقابلـة لـذلك أى نجاة بنى إسـرائيل و خلاصـهم، فتقول: وَ لَقَـدْ نَجَّيْنا بَنِى إِسْـرائِيلَ مِنَ الْعَـذابِ الْمُهِينِ من العـذاب الجسـمى و الروحى و الشاق، و الـذى نفـذ إلى أعماق أرواحهم .. من ذبح الأطفال الذكور، و استحياء البنات لخدمة و قضاء المآرب، من السخرة و الأعمال الشاقة جدّا، و أمثال ذلك.

فكم هو مؤلم أن يكون مصير أمة بيد هكذا عدوّ دموى شيطانى، و أن تبتلى بهكذا ظلمة لا يعرفون الرحمة و لا الانسانية؟

نعم، لقد نجّى اللّه سبحانه هذه الأمّة المظلومة من قبضة هؤلاء الظالمين، أعظم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۶

سفـاكى الـدماء فى التأريخ، فى ظـل ثورة موسـى بن عمران عليه السّـلام، الرّبانيـة، لـذلك تضـيف الآيـة مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ

ليس المراد من «عاليا» هنا علو المنزلـة، بل هو إشارة إلى استشـعاره العلو، و إنّما علوه فى الإسـراف و التعدى، كما جاء ذلك أيضا فى الآية (۴) من سورة القصص إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ حتى أنّه ادعى الألوهية، و سمى نفسه الرب الأعلى.

و «المسـرف» من مادة «إسـراف»، أى كلّ تجاوز للحـدود، سواء فى الأقوال أم الأفعال، و لـذلك اسـتعملت كلمـة المسـرف فى آيات القرآن المختلفـة فى شأن المجرمين الـذين يتعـدون الحدود فى ظلمهم و فسادهم، و كذلك أطلقت على العصاة المسـرفين، كما نقرأ ذلك فى الآية (۵۳) من سورة الزمر قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

و تشير الآيـة التاليـة إلى نعمة أخرى من نعم اللّه سبحانه على بنى إسرائيل، فتقول: وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ إلّا أنّهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة، فكفروا و عوقبوا.

و على هـذا فـإنّهم كـانوا الأمـة المختـارة فى عصـرهم، لأنّ المراد من العـالمين البشـر فى ذلـك العصـر و الزمـان لا فى كلّ القرون و الأعصار، لأنّ القرآن يخاطب الأمة الإسلامية بصراحة فى الآية (۱۱۰) من سورة آل عمران و يقول: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

و كـذلك الحال بالنسبة إلى الأراضـى التى ورثها بنو إسـرائيل، إذ يقول القرآن الكريم فى الآيـة (۱۳۷) من سورة الأعراف وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها فى حين أنّ بنى إسـرائيل لم يرثوا كلّ الأرض، و المراد شـرق منطقتهم و غربها.

و يعتقد بعض المفسّـرين أنّه كان لبنى إسرائيل بعض الميزات التى كانت منحصرة فيهم على مرّ التأريخ، و من جملتها كثرة الأنبياء، إذ لم يظهر فى أى قوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۷

هذا العدد من الأنبياء.

إلّا أنّ هـذا الكلام، إضافـة إلى أنّه لا يثبت مزيتهم المطلقـة هـذه، فإنّه يـدل على أنّها ليست مزية أساسا، فربّما كانت كثرة الأنبياء فيهم دليلا على غاية تمرد هؤلاء القوم و قمة عصيانهم، كما بيّنت الحوادث المختلفة بعد ظهور موسى عليه السّلام أنّهم لم يتركوا شيئا سيئا لم يفعلوه ضد هذا النّبى العظيم.

و على أية حال، فإنّ ما ذكرناه أعلاه فى تفسير الآية، هو المقبول من قبل كثير من المفسّرين فى شأن أهلية بنى إسرائيل النسبية.

غير أنّ هؤلاء القوم المعانـدين كـانوا يؤذون أنبيـاءهم دائمـا- حسب مـا يـذكره القرآن- و كانوا يقفون أمام أحكام اللّه سبحانه بكلّ تصـلب و عناد، بل إنّهم بمجرّد أنّ نجوا من النيل و أهواله طلبوا من موسـى أن يجعل لهم آلهـة يعبدونها! و هذا يدلنا على إمكانية أن يكون الهـدف من الآيـة ليس بيـان خصـيصة لبنى إسـرائيل، بـل بيـان حقيقـة أخرى. و عليه يصـبح معنى الآيـة: مع أننـا نعلم أنّ هؤلاء سيسيئون استغلال نعم اللّه و مواهبه، فقد منحناهم التفوق لنختبرهم.

كما يستفاد من الآية التالية- أيضا- أنّ اللّه سبحانه قد منحهم مواهب اخرى ليبلوهم.

و لـذا فإنّ هـذا الاختبار الإلهی لا یـدل علی کونه مزیـة لهؤلاء، و لیس هـذا و حسب، بل هو ذم ضـمنی أیضا، لأنّهم لم یشـکروا هذه النعمة، و لم یؤدّوا حقها، و لم ینجحوا فی الامتحان.

و تشیر آخر آیـة من هـذه الآیات إلی بعض المواهب الأخری التی منحهم اللّه إیّاها، فتقول: وَ آتَیْناهُمْ مِنَ الْآیاتِ ما فِیهِ بَلؤُا مُبِینٌ فمرة ظللنا علیهم الغمام فی صـحراء سـیناء، و فی وادی التیه و أخری أنزلنا علیهم مائدة خاصة من المن و السلوی، و ثالثة أجرینا لهم العیون من الصخور الصماء، و منحناهم أحیانا نعما مادیة و معنویة أخری. إلّا أنّ کلّ ذلک کان لغرض الابتلاء و الامتحان، لأنّ اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۸

سبحـانه یختبر قوما بالمصـیبة، و آخرین بالنعمـة، کما نقرأ ذلک فی الآیـة (۱۶۸) من سورة الأـعراف: وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَـناتِ وَ السَّیِّئاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ

و ربّما کان الهدف من ذکر قصة بنی إسرائیل للمسلمین الأوائل، هو أنّ لا یخافوا من کثرة الأعداء، و تعاظم قوّتهم، و لیطمئنوا بأنّ اللّه الـذی أهلک الفراعنة و دمرهم، و أورثت بنی إسـرائیل ملکهم و حکومتهم، سیمنّ علیهم فی القریب العاجل بمثل هذا النصر، و کما اختبر أولئک بهذه المواهب، فإنّکم ستوضعون أیضا فی بوتقة الامتحان و الاختبار، لیتّضح ماذا ستفعلون بعد الانتصار و تقلد الحکم؟

و هـذا تحـذیر لکـلّ الأـمم و الأـقوام فیمـا یتعلق بالانتصارات و المواهب التی یحصـلون علیها بفضل اللّه و لطفه، فإنّ الامتحان عنـدئذ عسیر.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۹

الآیات [سورة الدخان (۴۴): الآیات ۳۴ الی ۳۶]

اشارة

إِنَّ هؤُلاءِ لَیَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِیَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولی وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِینَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۳۶)

التّفسیر

لا شیء بعد الموت!

بعد أنّ جسدت الآیات السابقة مشـهدا من حیاة فرعون و الفراعنة، و عاقبة کفرهم و إنکارهم، تکرر الکلام عن المشرکین مرّة أخری، و أعادت هـذه الآیات مسألة شـکهم فی مسألة المعاد- و التی مرّت فی بدایة السورة- بصورة أخری، فقالت: إِنَّ هؤُلاءِ لَیَقُولُونَ إِنْ هِیَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولی و سوف لا نعود إلی الحیاة إطلاقا[۱۲۸] و ما یقوله محمّـد عن المعاد و الحیاة بعد الموت و الثواب و العقاب، و الجنّة و النّار لا حقیقة له، فلا حشر و لا نشر أبدا! و هنا سؤال یطرح نفسه، و هو: لماذا یؤکّد المشرکون علی الموتة الأولی فقط،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۰

و التی تعنی عـدم وجود موت آخر بعـد هـذا الموت، فی حین أنّ مرادهم نفی الحیاة بعـد الموت، لا إنکار الموت الثانی و بتعبیر آخر فإنّ الأنبیاء کانوا یخبرون بالحیاة بعد الموت، لا بالموت مرة ثانیة.

و نقول فی الإجابة: إنّ مرادهم عدم وجود حالة أخری بعد الموت، أی إنّنا نموت مرّة واحدة و ینتهی کلّ شـیء، و بعد ذلک لا توجد هناک حیاة أخری و لا موت آخر، فکل ما هو موجود هذا الموت لا غیر. (فتأمل!)[۱۲۹].

و هذا يشبه كثيرا ما ورد فى الآية (۲۹) من سورة الأنعام، حيث تقول: وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الـدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ثمّ تنقل كلام هؤلاء الذين تشبثوا بدليل واه لإثبات مدعاهم، إذا قالوا: فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

قال البعض: إنّ هـذا كان كلام أبى جهل، حيث أنّه التفت إلى النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: إن كنت صادقا فابعث جدك قصى بن كلاب، فإنّه كان رجلا صادقا لنسأله عمّا يكون بعد الموت ۱۳۰].

من البـديهى أنّ كلّ ذلك كان تـذرعا، و مع أنّ سـنّة اللّه لم تقم على أن يحيى الأموات فى هـذه الـدنيا ليأتوا بأخبار ذلك العالم إلى هـذا العالم، لكن على فرض أن يتمّ هـذا العمل من قبل الرّسول الأعظم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، فسيعزف هؤلاء المتذرعون نغمة جديدة، و يضـربون على وتر آخر، فيسـمون ذلك الفعل سـحرا مثلا، كما طلبوا المعاجز عدّة مرات، فلما أتاهم النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم بها أنكروها أشد إنكار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۱

ملاحظة

عقيدة المشركين فى المعاد:

لم يكن للمشـركين بعامة- و مشـركى العرب بخاصة- مسلك متحد فى مسائلهم العقائدية، بل إنّهم كانوا متفاوتين فيما بينهم مع أنّهم يشتركون فى الأصل فى عقيدة الشرك.

فبعضـهم لم يكن يعترف باللّه و لا بالمعاد، و هم الـذين يتحدث القرآن عنهم بأنّهم كانوا يقولون: ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الـدَّهْرُ[۱۳۱] و بعضـهم الآخر كانوا يعتقـدون باللّه عزّ و جلّ، و يعتقـدون أيضا أنّ الأصـنام شـفعاؤهم عند اللّه، إلّا أنّهم كـانوا ينكرون المعـاد، و هم الـذين كـانوا يقولون: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ ۱۳۲]، فأولئك كانوا يحجون إلى الأصـنام، و يقدمون القرابين لها، و كانوا يعتقدون بالحلال و الحرام، و كان أكثر مشركى العرب من هذه الفئة.

لكن هناك شواهـد تـدل على أنّ هؤلاء كانوا يعتقـدون ببقاء الروح بشـكل ما، سواء على هيئـة التناسـخ و انتقال الأرواح إلى الأبـدان جديدة أم بشكل آخر[۱۳۳].

و اعتقادهم بطير اسـمه (هامـة) معروف، فقد ورد فى قصـص العرب أنّه كان من بين العرب من يعتقد بأنّ روح الإنسان طائر انبسط فى جسـمه، و عنـد ما يرحل الإنسان عن هـذه الدنيا أو يقتل، يخرج هذا الطائر من جسـمه و يدور حول جسده بصورة مرعبة، و ينوح عند قبره.

و كـانوا يعتقـدون- أيضـا- أنّ هـذا الطـائر يكون صـغيرا فى البدايـة ثمّ يكبر حتى يصـبح بحجم البوم، و هو يعيش دائمـا فى خوف و اضطراب، و يسكن الديار الخالية، و الخرائب، و القبور و مصارع القتلى!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۲

و كذلك كانوا يعتقدون أنّ شخصا إذا قتل ستصيح هامة على قبره: اسقونى فإنى صدية أى عطشانة[۱۳۴].

لقد أبطل الإسلام كلّ هذه المعتقدات الخرافية، و لذلك

روى عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا هامة»[۱۳۵].

و على أيـة حـال، فيبـدو أنّ هؤلاء و إن لم يكونوا يعتقـدون بالمعـاد و حياة الإنسان بعـد موته، إلّا أنّهم كانوا يقولون بالتناسـخ و بقاء الأرواح بشكل ما.

أمّا المعاد الجسمانی على الهيئة التی يذكرها القرآن الكريم، بأنّ تراب الإنسان يجمع مرة أخرى، و يعود إلى الحياة من جديد، و أن لكلا الجسم و الروح معادا مشتركا، فإنّهم كانوا ينكرونه تماما، و لا ينكرونه فحسب، بل كانوا يخافونه. و قد أوضحه لهم القرآن بأساليب مختلفة و أثبته لهم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۳

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۷ الى ۳۹]

اشارة

أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۳۷) وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (۳۸) ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۹)

التّفسير

قوم تبع:

لقد كانت أرض اليمن- الواقعة فی جنوب الجزيرة العربية- من الأراضی العامرة الغنية، و كانت فی الماضی مهد الحضارة و التمدن، و كان يحكمها ملوك يسمّون «تبّعا»- و جمعها تبابعة- لأنّ قومهم كانوا يتبعونهم، أو لأنّ أحدهم كان يخلف الآخر و يتبعه فی الحكم.

و مهما يكن، فقد كان قوم تبع يشكلون مجتمعا قويا فی عدته و عدده، و لهم حكومتهم الواسعة المترامية الأطراف.

و هذه الآيات تواصل البحث الذی ورد حول مشركی مكّة و عنادهم و إنكارهم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۴

للمعاد- فتهدد أولئك المشركين من خلال الإشارة إلى قصة قوم تبع، بأنّ ما ينتظركم ليس العذاب الإلهی فی القيامة و حسب، بل سوف تلاقون فی هذه الدنيا أيضا مصيرا كمصير قوم تبّع المجرمين الكافرين، فتقول: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ

من المعلوم أنّ سكان الحجاز كانوا مطلعين على قصة قوم تبع الذين كانوا يعيشون فی جوارهم، و لذلك لم تفصل الآية كثيرا فی أحوالهم، بل اكتفت بالقول:

أنّ احذروا أن تلاقوا نفس المصير الذی لاقاه أولئك الأقوام الآخرون الذين كانوا يعيشون قربكم و حواليكم، و فی مسيركم إلى الشام، و فی أرض مصر. فعلى فرض أن بإمكانكم إنكار القيامة، فهل تستطيعون أن تنكروا العذاب الذی نزل بساحة هؤلاء القوم المجرمين العاصين؟

و المراد من الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أمثال قوم نوح و عاد و ثمود.

و سنبحث المراد من قوم تبع، فی ما يأتی، إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ تعود الآية التی بعدها إلى مسألة المعاد مرّة أخرى، و تثبت هذه الحقيقة باستدلال رائع، فتقول: وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ۱۳۶].

نعم، فإنّ لهذا الخلق العظيم الواسع هدفا، فإذا كان الموت بزعمكم نقطة النهاية بعد أيام من المأكل و المشرب و المنام و قضاء الشهوات الحيوانية، و بعد ذلك ينتهی كلّ شیء بالموت، فسيكون هذا الخلق لعبا و لهوا و عبثا، لا فائدة من ورائه و لا هدف.

و لا یمکن التصـدیق بأنّ اللّه القادر الحکیم قد خلق هذا النظام و الخلق العظیم من أجل عدّة أیّام سـریعة الانقضاء لا هدف من ورائها، مع ما تقترن به أیّام الحیاة هذه من أنواع الآلام و المصائب و المصاعب، أ فینتهی کلّ شیء بانتهائها!؟ إنّ هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۵

الأمر لا ینسجم مطلقا مع حکمة اللّه.

بناء علی هـذا، فإنّ مشاهـدة وضع هذا العالم و تنظیمه، تلزمنا التصدیق بأنّه مدخل و ممر إلی عالم أعظم أبدی، فلما ذا لا تتفکرون فی ذلک؟

لقـد ذکر القرآن الکریم هذه الحقیقة مرارا فی سور المختلفة، فیقول فی الآیة (۱۶) من سورة الأنبیاء: وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما لاعِبِینَ

و یقول فی الآیة (۶۲) من سورة الواقعة: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولی فَلَوْ لا تَذَکَّرُونَ

و علی أیـة حال، فإنّ هنالک غایـة وراء خلق هـذا العالم، و هناک عالما آخر یتبعه، فی حین أنّ المـذاهب الإلحادیـة و المنکرة للمعاد تری بأنّ هذا الخلق عبث لا فائدة من ورائه و لا هدف.

ثمّ تضیف الآیة التی بعدها لتأکید الکلام: ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِ

إن کون هـذا الخلق حقا یوجب أن یکون له هـدف عقلائی، و ذلک الهـدف لا یتحقق إلّا بوجود عالم آخر. إضافة إلی أنّ کونه حقا یقضی بأنّ لا یتساوی المحسنون و المسیئون، و لما کنا نری کل واحد من هاتین الفئتین قلّما یری جزاء عمله فی هذه الدنیا، فلا بد من وجود عالم آخر یجری فیه الحساب و الثواب و العقاب، لیتلقی کل إنسان جزاء عمله، خیرا أم شرا.

و خلاصة القول، فإنّ الحق فی هذه الآیة إشارة إلی الهدفیة فی الخلق، و اختبار البشـر و قانون التکامل، و کذلک تنفیذ أصول العدالة: وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ لأنّهم لا یعملون الفکر فی التوصل إلی الحقائق، و إلّا فإنّ أدلة المبدأ و المعاد واضحة بینة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۶

بحث

من هم قوم تبّع؟

لقـد وردت کلمة (تبّع) فی القرآن الکریم مرتین فقط: مرة فی الآیات مورد البحث، و أخری فی الآیة ۱۴ من سورة (ق) حیث تقول: وَ أَصْحابُ الْأَیْکَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ کُلٌّ کَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِیدِ.

و کمـا أشـرنا من قبـل، فـإنّ «تبعا» کان لقبا عاما لملوک الیمن، ککسـری لسـلاطین إیران، و خاقان لملوک الترک، و فرعون لملوک مصر، و قیصر لسلاطین الروم.

و کانت کلمة (تبع) تطلق علی ملوک الیمن من جهة أنّهم کانوا یدعون الناس إلی اتباعهم، أو لأنّ أحدهم کان یتبع الآخر فی الحکم.

لکن یبدو أنّ القرآن الکریم یتحدث عن أحد ملوک الیمن خاصة- کما أنّ فرعون المعاصـر لموسی علیه السّلام، و الذی یتحدث عنه القرآن کان معینا و محددا- و ورد فی بعض الرّوایات أنّ اسمه «أسعد أبا کرب».

و یعتقـد بعض المفسّـرین أنّه کان رجلا مؤمنا، و اعتبروا تعبیر «قوم تبّع» الـذی ورد فی آیتین من القرآن دلیلا علی ذلک، حیث أنّه لم یذمّ فی هاتین الآیتین، بل ذم قومه، و الرّوایة المرویة عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم شاهدة علی ذلک، ففی هذه

الروایهٔ أنّه قال: لا تسبوا تبعا فإنه کان قد أسلم ۱۳۷].

و

جاء فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إنّ تبعا قال للأوس و الخزرج: کونوا هاهنا حتی یخرج هذا النبی، أمّا لو أدرکته لخدمته و خرجت معه»[۱۳۸].

و ورد فی روایهٔ أخری: إنّ تبعا لما قدم المدینهٔ- من أحد أسفاره- و نزل بفنائها، بعث إلی أحبار الیهود الذین کانوا یسکنونها فقال: إنّی مخرب هذا البلد

حتی لا تقوم به یهودیهٔ، و یرجع الأمر إلی دین العرب.

فقال له شامول الیهودی- و هو یومئذ أعلمهم- أیها الملک إنّ هذا بلد یکون إلیه مهاجر نبی من بنی إسماعیل، مولده بمکّهٔ اسمه أحمد. ثمّ ذکروا له بعض شمائل نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقال تبّع- و کأنّه کان عالما بالأمر- ما إلی هذا البلد من سبیل، و ما کان لیکون خرابها علی یدی ۱۳۹].

بل ورد فی روایهٔ فی ذیل تلک القصهٔ أنّه قال لمن کان معه من الأوس و الخزرج: أقیموا بهذا البلد، فإنّ خرج النّبی الموعود فآزروه و انصروه، و أوصوا بذلک أولادکم، حتی أنّه کتب رسالهٔ أودعهم إیاها ذکر فیها إیمانه بالرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم ۱۴۰].

و یروی صاحب أعلام القرآن أنّ تبّعا کان أحد ملوک الیمن الذین فتحوا العالم، فقد سار بجیشه إلی الهند و استولی علی بلدان تلک المنطقهٔ. و قاد جیشا إلی مکّهٔ، و کان یرید هدم الکعبهٔ، فأصابه مرض عضال عجز الأطباء عن علاجه.

و کان من بین حاشیته جمع من العلماء، کان رئیسهم حکیما یدعی شامول، فقال له: إنّ مرضک بسبب سوء نیتک فی شأن الکعبهٔ، و ستشفی إذا صرفت ذهنک عن هذه الفکرهٔ و استغفرت، فرجع تبع عما أراد و نذر أن یحترم الکعبهٔ، فلما تحسن حاله کسا الکعبهٔ ببرد یمانی.

و قد وردت قصّهٔ کسوهٔ الکعبهٔ فی تواریخ أخری حتی بلغت حد التواتر. و کان تحرک الجیش هذا، و مسألهٔ کسوهٔ الکعبهٔ فی القرن الخامس المیلادی، و یوجد الیوم فی مکّهٔ مکان یسمی «دار التابعهٔ»[۱۴۱].

و علی أیهٔ حال، فإنّ القسم الأعظم من تأریخ ملوک التبابعهٔ فی الیمن لا یخلو

من الغموض من الناحیهٔ التاریخیهٔ، حیث لا نعلم کثیرا عن عددهم، و مدّهٔ حکومتهم، و ربّما نواجه فی هذا الباب روایات متناقضهٔ، و أکثر ما ورد فی الکتب الإسلامیهٔ- سواء کتب التّفسیر أو التأریخ أو الحدیث- یتعلق بذلک الملک الذی أشار إلیه القرآن فی موضعین.

***

الآیات [سورهٔ الدخان (۴۴): الآیات ۴۰ الی ۴۲]

اشارهٔ

إِنَّ یَوْمَ الْفَصْلِ مِیقاتُهُمْ أَجْمَعِینَ (۴۰) یَوْمَ لا یُغْنِی مَوْلًی عَنْ مَوْلًی شَیْئاً وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ (۴۱) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ

(۴۲)

التّفسیر

یوم الفصل!

تمثل هـذه الآیات فی الحقیقـة نتیجـة الآیات السابقة التی بحثت مسألة المعاد، و التی اسـتدل بها عن طریق حکمة خلق هذا العالم علی وجود البعث و الحیاة الأخری.

فتستنتج الآیة الأولی من هذا الاستدلال: إِنَّ یَوْمَ الْفَصْلِ مِیقاتُهُمْ أَجْمَعِینَ

کم هو جمیـل هـذا التعبیر عن یوم القیامـة بیوم الفصـل! ذلک الیوم الـذی فصل فیه الحق عن الباطل، و تمتاز صـفوف المحسـنین عن المسیئین، و یعتزل فیه الإنسان أعزّ أصدقائه، و أقرب أخلائه .. نعم، إنّه موعد کلّ المجرمین ۱۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۰

ثمّ ذکرت الآیة التالیة شرحا موجزا لیوم الفصل هذا، فقالت: یَوْمَ لا یُغْنِی مَوْلًی عَنْ مَوْلًی شَیْئاً وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ

أجل، ذلک الیوم هو یوم الفصل و الافتراق، یوم یفارق الإنسان فیه کلّ شیء إلّا عمله، و لا یملک المولی- بأی معنی کان، الصاحب، الولی، ولی النعمة، القریب، الجار، الناصر و أمثال ذلک- القدرة علی حل أصغر مشکلة من مشاکل القیامة.

«المولی» من مـادة ولاء، و هی فی الأصل تعنی الاتصال بین شـیئین بحیث لا یوجـد بینهما حاجز، و له مصادیق کثیرة وردت فی کتب اللغة کمعان مختلفة، تشترک جمیعا فی معناها الأصلی و جذرها[۱۴۳].

فی ذلـک الیوم لاـ یجیب الرفیق رفیقه، و تری الأقارب لا یحل بعضـهم مشـکلة بعض، بل و تتبخر کلّ الخطط و تتقطع جمیع الأواصـر الدنیویة کما نقرأ هذه الصورة فی الآیة (۴۶) من سورة الطور: یَوْمَ لا یُغْنِی عَنْهُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ

أمّا ما هو الفرق بین «لا یغنی» و بین «لا هم ینصرون»؟ فإنّ أحسن ما یقال هو:

أنّ الأـوّل إشـارة إلی أنّ أی فرد لاـ یقـدر فی ذلک الیوم علی حل مشـکلة فرد آخر بصورة انفرادیـة مسـتقلة، و الثّانی إشارة إلی أنّهم عـاجزون عن حـل المشاکل حتی و إن تعاونوا فیما بینهم، لأنّ النصـرة تقال فی موضع یهبّ فیه شـخص لمعونـة آخر و مسانـدته حتی ینصره علی المشاکل.

لکن هناک جماعة واحدة مستثناة فقط، و هی التی أشارت إلیها الآیة التالیة، فقالت: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ

لاـ شـک أنّ هـذه الرحمـة الإلهیـة لاـ تمنـح اعتباطا، بل تشـمل الـذین آمنوا و عملوا الصالحات فقط، و إذا کانوا قـد بـدر منهم زلل و معصیة، فإنّها لا تبلغ حدّا تقطع فیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۱

علاقتهم باللّه سبحانه، فهم یرفعون أکفهم إلی اللّه و یرجون رحمته، فیتنعمون بها، و یرتوون منها، و یتمتعون بشفاعة أولیائه.

من هنا یتّضـح أنّ نفی وجود صـدیق و ولی و نصـیر فی ذلک الیوم لا ینافی مسألة الشـفاعة، لأنّ الشـفاعة أیضا لا تحصل إلّا بإذن اللّه تعالی.

و الطریف أنّ الآیة قرنت وصفه سبحانه بکونه عزیزا و رحیما، و الأوّل إشارة إلی قدرته اللامتناهیة التی لا تعرف الهزیمة و الضعف، و الثّانی إشارة إلی رحمته التی لا حدود لها، و المهم أن تکون رحمته عین قدرته.

و قد روی فی بعض روایات أهل البیت علیهم السّلام أنّ المراد من جملة: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ وصی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أمیر

المؤمنین علی علیه السّلام و شیعته ۱۴۴].

و لا یخفی أنّ الهدف منها هو بیان المصداق الواضح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۲

الآیات [سورة الدخان (۴۴): الآیات ۴۳ الی ۵۰]

اشارة

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم (۴۳) طَعامُ الْأَثِیم (۴۴) کَالْمُهْلِ یَغْلِی فِی الْبُطُونِ (۴۵) کَغَلْیِ الْحَمِیم (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلی سَواءِ الْجَحِیم (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِیم (۴۸) ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْکَرِیمُ (۴۹) إِنَّ هذا ما کُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰)

التّفسیر

شجرة الزقوم!

تصف هذه الآیات أنواعا من عذاب الجحیم وصفا مرعبا یهز الأعماق، و هی تکمل البحث الذی مرّ فی الآیات السابقة حول یوم الفصل و القیامة، فتقول: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِیمِ فهؤلاء المجرمون هم الذین یأکلون هذا النبات المر القاتل، و الخبیث الطعام النتن الرائحة.

«الزّقوم» کما قلنا فی تفسیر الآیة (۶۲) من سورة الصافات- علی قول المفسّرین و أهل اللغة، اسم شجرة لها أوراق صغیرة و ثمرة مرّة خشنة اللمس منتنة الرائحة، تنبت فی أرض تهامة من جزیرة العرب، کان المشرکون یعرفونها، و هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۳

شجرة عصیرها مرّ، و إذا أصابت البدن تورّم ۱۴۵].

و یعتقد البعض أنّ الزقوم فی الأصل یعنی الابتلاع ۱۴۶]، و یقول البعض: إنّها کلّ طعام خبیث فی النّار[۱۴۷].

و جاء فی حدیث أنّ هذه الکلمة لما نزلت فی القرآن قال کفار قریش: ما نعرف هذه الشجرة، فأیّکم یعرف معنی الزقوم؟ و کان هناک رجل من أفریقیة قال: هی عندنا التمر و الزبد- و ربّما قال ذلک استهزاء- فلما سمع أبو جهل ذلک قال مستهزئا: یا جاریة زقمینا، فأتته الجاریة بتمر و زبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذی یخوفکم به محمّد[۱۴۸].

و ینبغی الالتفات إلی أنّ «الشجرة» تأتی فی لغة العرب و الاستعمالات القرآنیة بمعنی الشجرة أحیانا، و بمعنی مطلق النبات أحیانا.

و «الأثیم» من مادة إثم، و هو المقیم علی الذنب، و المراد هنا الکفار المعاندون المعتقدون، المصرون علی الذنوب و المعاصی المکثرون منها.

ثمّ تضیف الآیة: کَالْمُهْلِ یَغْلِی فِی الْبُطُونِ کَغَلْیِ الْحَمِیمِ

«المهل»- علی قول کثیر من المفسّرین و أرباب اللغة- الفلز المذاب، و علی قول آخرین- کالراغب فی المفردات- هو دردیّ الزیت، و هو ما یترسب فی الإناء، و هو شیء مرغوب فیه جدا، لکن یبدو أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب.

«و الحمیم» هو الماء الحار المغلی، و تطلق أحیانا علی الصدیق الوثیق العلاقة و الصداقة، و المراد هنا هو المعنی الأول.

علی أی حال، فعند ما یدخل الزقوم بطون هؤلاء، فإنّه یولد حرارة عالیه لا تطاق، و یغلی کما یغلی الماء، و بدل أن یمنحهم هذا الغذاء القوة و الطاقة فإنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۴

یهبهم الشقاء و العذاب و الألم و المشقة.

ثمّ یخاطب سبحانه خزنة النّار، فیقول: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِیمِ

«فاعتلوه» من مادة العتل، و هی الأخذ و السحب و الإلقاء. و هو ما یفعله حماة القانون و الشرطة مع المجرمین المتمردین، الذی لا یخضعون لأی قانون و لا یطبقونه.

«سواء» بمعنی الوسط، لأنّ المسافة إلی جمیع الأطراف متساویة، و أخذ أمثال هؤلاء الأشخاص و إلقاؤهم فی وسط جهنم باعتبار أنّ الحرارة أقوی ما تکون فی الوسط، و النّار تحیط بهم من کلّ جانب.

ثمّ تشیر الآیة التالیة إلی نوع آخر من أنواع العقاب الألیم الذی یناله هؤلاء فتقول: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِیمِ ۱۴۹] و بهذا فإنّهم یحترقون من الداخل، و تحیط النّار بکلّ وجودهم من الخارج، و إضافة إلی ذلک یصب علی رؤوسهم الماء المغلی فی وسط الجحیم.

و قد ورد نظیر هذا المعنی فی الآیة (۱۹) من سورة الحج حیث تقول: یُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِیمُ

و بعد کلّ أنواع العذاب الجسمی هذه، تبدأ العقوبات الروحیة و النفسیة، فیقال لهذا المجرم المتمرد العاصی الکافر: ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْکَرِیمُ فأنت الذی کنت قد قیدت البؤساء فباتوا فی قبضتک تظلمهم کیف شئت، و تعذبهم حسبما تشتهی، و کنت تظن أنّک قوی لا تقهر، و عزیز لا یمکن أنّ تهان و یجب علی الجمیع احترامک و تقدیرک.

نعم، أنت الذی رکبک الغرور فلم تدع ذنبا لم ترتکبه، و لا موبقة لم تأتها، فذق الآن نتیجة أعمالک التی تجسدت أمامک، و کما أحرقت أجسام الناس و آلمت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۵

أرواحهم، فلیحترق الآن داخلک و خارجک بنار غضب اللّه و الماء المغلی الذی یصهر ما فی بطونهم و الجلود.

و

جاء فی حدیث أنّ النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم أخذ یوما بید أبی جهل و قال: «أولی لک فأولی» فغضب أبو جهل و جرّ یده و قال: بأی شیء تهددنی؟ ما تستطیع أنت و صاحبک أن تفعلا بی شیئا، إنّی لمن أعز هذا الوادی و أکرمه.

و الآیة ناظرة إلی هذا المعنی، فتقول: عند ما یلقونه فی جهنم یقولون له: ذق یا عزیز مکّة و کریمها[۱۵۰].

و یضیف القرآن الکریم فی آخر آیة- من الآیات مورد البحث- مخاطبا إیّاهم:

إِنَّ هذا ما کُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ فکم ذکّرناکم بحقّانیة هذا الیوم و حقیقته فی مختلف آیات القرآن و بمختلف الأدلة؟! ألم نقل لکم: کَذلِکَ الْخُرُوجُ [۱۵۱].

ألم نقل: کَذلِکَ النُّشُورُ؟[۱۵۲].

ألم نقل: وَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیرٌ؟[۱۵۳].

ألم نقل: أَ فَعَیِینا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ [۱۵۴].

و خلاصة القول: قد قلنا لکم الحقیقة و أوضحناها بطرق مختلفة، لکن لم تکن لکم آذان تسمعون بها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۶

بحث

العقوبات الجسمية و الروحية:

نحن نعلم، و طبقا لصريح القرآن، أنّ للمعاد جانبا جسميا، و آخر روحيا، و على ذلك فمن الطبيعى أن تكون العقوبات و المثوبات متصفتين بهما كذلك، و لذلك أشير فى آيات القرآن الكريم و الرّوايات الإسلامية إلى كلا القسمين، غاية ما فى الأمر أنّ انتباه الناس و إحساسهم لمّا كان منصبا على الأمور الجسمية غالبا، لذلك يلاحظ أنّ التفصيل فى العقوبات و المثوبات المادية أكثر، لكن لا يعنى هذا أن الإشارة إلى المثوبات و العقوبات المعنوية قليلة.

و قد رأينا فى الآيات أعلاه نموذجا لهذا المطلب، فمع ذكر عدّة أقسام من العقوبات الجسمية الأليمة، هناك إشارة وجيزة عميقة المحتوى إلى الجزاء الروحى الذى سينال المستكبرين.

و تلاحظ فى آيات أخرى من القرآن الإشارة إلى المثوبات الروحية أيضا، فيقول اللّه تعالى فى موضع: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ[۱۵۵].

و يقول فى موضع آخر: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ۱۵۶].

و أخيرا يقول فى موضع ثالث: وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ۱۵۷].

و لا- يخفى أنّه لا- يمكن وصف اللذائذ المعنوية غالبا و خاصّة فى ذلك العالم الواسع، و لذلك فقد أشير إليها فى القرآن إشارة غامضة عادة، أمّا العقوبات الروحية التى تكون بالتحقير و الإهانة، التوبيخ و التقريع، و الأسف و الهم و الحزن، فقد وصفتها الآيات و أوضحتها، و قد قرأنا نماذج منها فى الآيات أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۷

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۵۱ الى ۵۷]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (۵۱) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۲) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (۵۳) كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۵۴) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (۵۵)

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۵۶) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۵۷)

التّفسير

المتقون و مختلف نعم الجنّة:

لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن العقوبات الأليمة لأهل النّار، فإنّ هذه الآيات تذكر المواهب و النعم المعدة لأهل الجنّة، لتتضح أهمية كلّ منهما من خلال المقارنة بينهما.

و قد لخصت هذه المواهب فى سبعة أقسام:

الأولى: هى إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ ۱۵۸] على هذا فلا يصيبهم أى إزعاج أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۸

خوف، بل هم فى أمن كامل من الآفات و البلايا، من الغم و الأحزان، و من الشياطين و الطواغيت.

ثمّ تطرقت الآيات إلى النعمة الثانية فقال: فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

إن التعبير بالجنات يمكن أن يكون إشارة إلى تعدد الحدائق و البساتين التى يتمتع بها كلّ فرد من أهل الجنّة، فهى تحت تصرفه، أو تكون إشارة إلى مقاماتهم المختلفة و درجاتهم المتفاوتة، لأنّ حدائق الجنّة و بساتينها غير متساوية، بل تختلف باختلاف درجات أصحاب الجنّة.

و تشير الثالثة إلى ملابسهم الجميلة، فتقول: يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ

«السندس» يقال للأقمشة الحريرية الناعمة الرقيقة، و أضاف البعض قيد كونها مذهّبة.

و «الإستبرق» هى الأقمشة الحريرية السميكة، و يعتقد بعض المفسّرين و أهل اللغة أنها معربة من الكلمة الفارسية (أستبر) أو (ستبر) أى السميك. و يحتمل أن يكون أصلها عربيا مأخوذا من البرق أى التلألؤ، حيث أنّ لهذه الأقمشة بريقا خاصّا.

طبعا، ليس فى الجنّة حرّ شديد أو برد قارص ليتوقاه أهل الجنّة بارتداء هذا الملابس، بل هذه إشارة إلى الألبسة المتنوعة المعدة لهم.

و كما قلنا سابقا، فإنّ كلماتنا و ألفاظنا- هذه التى وضعت لرفع حاجات الحياة اليومية فى دنيانا- عاجزة عن وصف مسائل ذلك العالم الكامل العظيم، بل هى قادرة على الإشارة إليها و حسب.

و اعتقد البعض أنّ اختلاف هذه الألبسة إشارة إلى تفاوت مقامات القرب بين أصحاب النعيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۹

ثمّ إنّ كون أهل الجنّة متقابلين مع بعضهم البعض، و زوال أى تفاوت و تكبر لأحد على آخر، إشارة إلى روح الأنس و الأخوة التى تسود مجالسهم، تلك المجالس و الحلقات التى لا يرى فيها إلّا الصفاء و المودّة و تسامى الروح.

و تصل النوبة فى النعمة الرابعة إلى أزواجهم، فتقول: كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ

«الحور» جمع حوراء و أحور، و تقال لمن اشتد سواد عينه، و اشتد بياض بياضها. و «العين» جمع أعين و عيناء، أى أوسع العين، و لما كان أكثر جمال الإنسان فى عينيه، فإنّ الآية تصف عيون الحور العين الجميلة الساحرة. و قد ذكرت محاسنهن الأخرى بأسلوب رائع فى آيات أخرى من القرآن.

ثمّ تناولت الآية الأخرى النعمة الخامسة لأصحاب الجنّة فقالت: يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ فلا توجد فى الجنّة تلك هنا المشكلات و الصعوبات التى كانوا يعانونها فى تناول فاكهة الدنيا، فإنّها قريبة منهم و فى متناولهم، و على هذا فليس هناك بذل جهد لاقتطاف الأثمار من الأشجار العالية، إذ قُطُوفُها دانِيَةٌ[۱۵۹].

و إليهم يرجع اختيار الفاكهة التى يشتهونها: وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۱۶۰].

و لا أثر هنا للأمراض و الاضطرابات التى قد تحدث فى هذه الدنيا على أثر تناول الفواكه، و كذلك لا خوف من فسادها و قلتها، فهم فى راحة و أمن و اطمئنان من الجهات.

و على أية حال، فإذا كان الزقوم طعام أهل النّار الذى يغلى فى بطونهم كغلى الحميم، فإنّ طعام الجنّة هى الفواكه اللذيذة الخالية من كلّ أذى و إزعاج.

خلود الجنّة و نعمها هى النعمة السادسة من نعم اللّه سبحانه على المتقين، لأنّ الذى يقلق فكر الإنسان عند الوصال و اللقاء هو خوف الفراق، و لذلك تقول الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۰

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى

و الطريف أنّ القرآن الكريم قد بيّن كون نعم الجنّة خالدة بتعابير مختلفة، فيقول تارة: خالِدِينَ فِيها[۱۶۱] و يقول أخرى: عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[۱۶۲] أمّا لماذا عبر ب الْمَوْتَةَ الْأُولى فسيأتى بيانه فى التأملات، إن شاء اللّه تعالى.

و أخيرا يبيّن القرآن الكريم السابع من النعم و آخرها، فيقول: وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ فإنّ كمال هذه النعم إنما يتم عند ما يخلو فكر

أصحاب الجنّة من احتمال العذاب، و عدم انشغالهم به، لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذ.

و هذا التعبير يشير إلى أنّ المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإنّ اللّه سبحانه سيعفو عنها بلطفه و كرمه، و يطمئنهم بأنّ لا يدعوا للخوف إلى أنفسهم سبيلا. و بتعبير آخر، فإنّ غير المعصومين مبتلون بالهفوات شاؤوا أم أبوا، و هم فى خوف و قلق منها ما داموا غير مطمئنين بشمول العفو الإلهى لهم، و هذه الآية تمنحهم الاطمئنان و الراحة و الأمان من هذه الجهة.

و هنا يطرح سؤال، و هو: إنّ بعض المؤمنين يقضون مدّة فى الجحيم بذنوب اقترفوها، ليتطهروا منها، ثمّ يدخلون الجنّة، فهل تشملهم الآية المذكورة؟

و يمكن القول فى معرض الإجابة عن هذا السؤال، بأنّ الآية تتحدث عن المتقين ذوى الدرجات السامية، و الذين يردون الجنّة من أوّل وهلة، أما الفئة الأخرى فهى ساكتة عنهم.

و يحتمل أيضا أنّ هؤلاء عند ما يدخلون الجنّة فلن يخشوا بعد ذلك العودة إلى النّار، بل يبقون من الأمن الدائم، و هذا يعنى أنّ الآية أعلاه ترسم صورة هؤلاء و حالهم بعد دخولهم الجنّة.

و أشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى جميع النعم السبعة، و كنتيجة لما مر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۱

تقول: فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۱۶۳].

صحيح، إنّ المتقين قد عملوا الكثير من الصالحات و الحسنات، إلّا أنّ من المسلّم أن تلك الأعمال جميعا لا تستحق كلّ هذه النعم الخالدة، بل هى فضل من اللّه سبحانه، إذ جعل كلّ هذه النعم و العطايا تحت تصرفهم و وهبهم إيّاها.

هذا إضافة إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا قادرين على كسب كلّ هذه الحسنات و لا على فعل الحسنات لو لم يشملهم فضل اللّه و توفيقه، و لطفه، فهو الذى منحهم العقل و العلم، و هو الذى أرسل الأنبياء و الكتب السماوية، و هو الذى غمرهم بتوفيق الهداية و العمل.

نعم، إنّ استغلال هذه المنح العظمى، و الوصول إلى كلّ تلك العطايا و الثواب، إنّما تمّ بفضله سبحانه إذ وهبهم إيّاها، و لم يكن هذا الفوز العظيم ليحصل إلّا فى ظل لطفه و كرمه.

بحث

ما هى الموتة الأولى؟

قرأنا فى الآيات المذكورة أعلاه، أنّ أصحاب الجنة لا يذوقون إلّا الموتة الأولى، و هنا تطرح أسئلة ثلاثة:

الأول: ما المراد من الموتة الأولى؟ فإنّ كان المراد الموت الذى تنتهى به الحياة الدنيا، فلما تقول الآية: لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى فى حين أنّهم قد ذاقوها، و عليه يجب أن يأتى الفعل بصيغة الماضى لا المضارع؟

و للإجابة عن هذا السؤال اعتبر البعض (إلّا) فى جملة إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۲

بمعنى (بعد)، و قالوا: إنّ معنى الآية هو أنّهم لا يذوقون موتا بعد موتتهم الأولى.

و قدّر البعض الآخر تقديرا فى الكلام فقالوا: إنّ التقدير هو: إلّا الموتة الأولى التى ذاقوها[۱۶۴].

الثانى: هو: لماذا ورد الكلام عن الموتة الأولى فقط، فى حين أننا نعلم أنّ الإنسان يذوق الموت مرّتين: مرّة عند انتهاء حياته، و أخرى بعد حياة البرزخ؟

و قد ذکروا للإجابة على هذا السؤال عدة إجابات کلها غیر مرضیة، فآثرنا عدم ذکرها لعدم استحقاقها الذکر.

و الأفضل أن یقال: إنّ الحیاة و الموت فی البرزخ لا یشبهان أبدا الحیاة و الموت العادیین، بل إنّ حیاة القیامة تشبه الحیاة الدنیا من وجوه عدیدة بمقتضى المعاد الجسمانی، غایة ما هناک أنّها فی مستوى أعلى و أسمى، و لذلک یقال لأصحاب الجنّة: لا موتة بعد الموتة الأولى التی ذقتموها، و لما کانت الحیاة و الموت فی البرزخ لا شباهة لهما بحیاة الدنیا و موتها لذا لم یرد الکلام حولهما[۱۶۵].

السؤال الثّالث هو: إنّ عدم وجود الموت فی القیامة لا ینحصر بأصحاب الجنّة، بل أصحاب النّار لا یموتون أیضا، فلما ذا أکّدت الآیة على أصحاب الجنّة؟

للمرحوم الطبرسی جواب رائع عن ذلک، فهو یقول: إنّ ذلک بشارة لأهل الجنّة، بأن لهم حیاة خالدة هنیئة، أما أصحاب النّار الذین یعتبر کلّ لحظة من لحظات حیاتهم موتا، و کأنّهم یحیون و یموتون دائما، فلا معنى لهذا الکلام فی حقهم.

و على أیة حال، فإنّ التعبیر هنا ب لا یَذُوقُونَ إشارة إلى أنّ أصحاب الجنّة لا یرون و لا یعانون أدنى أثر من آثار الموت.

و جمیل أنّ نقرأ

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّ اللّه تعالى یقول لبعض أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۳

الجنّة: «و عزتی و جلالی، و علوی و ارتفاع مکانی لأنحلنّ لهم الیوم خمسة أشیاء:

ألا إنّهم شباب لا یهرمون، و أصحاء لا یسقمون، و أغنیاء لا یفتقرون، و فرحون لا یحزنون، و أحیاء لا یموتون» ثمّ تلا هذه الآیة: لا یَذُوقُونَ فِیهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى ۱۶۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۴

الآیتان [سورة الدخان (۴۴): الآیات ۵۸ الى ۵۹]

اشارة

فَإِنَّما یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹)

التّفسیر

ارتقب فإنهم مرتقبون!

قلنا: إنّ سورة الدخان بدأت ببیان عظمة القرآن و عمقه، و تنتهی بهذه الآیات التی تبیّن کذلک التأثیر العمیق لآیات القرآن الکریم، لتنسجم بذلک بدایة السورة مع نهایتها، و ما هو مبیّن أیضا بین البدایة و النهایة هو التأکید على مواعظ القرآن و نصحه.

تقول الآیة الأولى: فَإِنَّما یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ فمع أنّ محتواه عمیق جدا، و أبعاده مترامیة، لکنه بسیط واضح، یفهمه الجمیع، و تقتبس من أنواره کلّ الطبقات، أمثاله جمیلة رائعة، و تشبیهاته واقعیة بلیغة، و قصصه حقیقیة تربویة، دلائله واضحة محکمة، و بیانه مع عمقه بسیط سهل، مختصر عمیق المحتوى، و هو فی الوقت نفسه ذو حلاوة و جاذبیة، ینفذ إلى أعماق قلوب البشر، فینبه الغافلین،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۵

و يعلم الجاهلين، و يذكر من كان له قلب.

و قد ذكر بعض المفسّرين تفسيرا آخر لهذه الآية، يكون معنى الآية طبقا له: إنّك و إن كنت أميّا لم تدرس و تتعلم، لكنك تستطيع أن تقرأ بكلّ يسر و سهولة هذه الآيات العميقة الغنية المحتوى، و التى تبين الوحى و الإعجاز الإلهى. غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و هذه الآية- فى الواقع- شبيهة بالآية التى تكررت عدّة مرات فى سورة القمر:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟! لكن لما كان هناك جماعة لم يذعنوا لأمر اللّه، و لم يسلموا و يستسلموا رغم ذكر كل هذه الأوصاف، فقد هددتهم الآية الأخيرة و حذرتهم فقالت: فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ فانتظر ما وعدك اللّه بالنصر على الكفار، و لينتظروا الهزيمة و الخسران ...

انتظر نزول عذاب اللّه الأليم على هؤلاء المعاندين الظالمين، ودعهم ينتظرون هزيمتك و عدم تحقق أهدافك السامية، ليعلم أى الانتظارين هو الصحيح؟

بناء على هذا، ينبغى أنّ لا يستفاد أبدا من الآية أنّ اللّه سبحانه يأمر نبيّه أن يكف كليا عن إبلاغهم رسالته، و ينهى نشاطه و فعالياته و جهاده، و يكتفى بأنّ يكون منتظرا للنتيجة، و إنّما هو نوع تهديد لأولئك المتعصبين عسى أن يستيقظوا من سباتهم، و ينتبهوا من غفلتهم.

***

ملاحظات

۱- «ارتقب» فى الأصل مأخوذة من الرقبة، و لما كان من ينتظر شيئا يمد رقبته نحوه دائما، فقد جاءت بمعنى انتظار الشىء و مراقبته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۶

۲- إنّ الآيات إعلاء تبين بوضوح أنّ القرآن الكريم لا يختص بطبقة خاصّة أو قوم معينين، بل هو لإفهام الجميع و تذكيرهم و إثارة تفكرهم، و على هذا، فإنّ أولئك الذين يجعلون القرآن مجموعة من المفاهيم المبهمة الألغاز المحيرة التى لا يفهمها و لا يعلمها إلّا طبقة خاصّة، بل و حتى هذه الطبقة لا تفهم منه شيئا و لا تدرك أبعاده، غافلون فى الحقيقة عن روح القرآن.

إنّ القرآن يجب أن يحيا بين الناس و يحضر بينهم حيثما كانوا، فى المدينة و القرية، فى الخلاء و الملأ، فى المدار الابتدائية و الجامعات، فى المسجد و ميادين الحرب، و فى كلّ مكان يوجد فيه إنسان، لأنّ اللّه سبحانه قد يسّره ليتذكر الجميع و يقتبسوا من أنواره ما يضيئون به حياتهم.

و كذلك قضت هذه الآية ببطلان أفكار أولئك الذين حبسوا القرآن فى إطار طريقة تلاوته و قواعد تجويده و تعقيداتها، و أصبح همهم الوحيد أداء ألفاظه من مخارجها، و مراعاة آداب الوقف و الوصل فتقول لهم: إنّ كلّ ذلك من أجل التذكر الذى يكون عامل حركة و باعثا على العمل فى الحياة، فإنّ رعاية ظواهر الألفاظ صحيح فى محله، إلّا أنّه ليس الهدف النهائى، بل الهدف هو فهم معانى القرآن لا ألفاظه.

۳-

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن، و أنى لهم ذلك و هو كلام من لم يزل و لا يزال»[۱۶۷].

اللّهمّ اجعلنا ممن يتعظ بالقرآن العظيم، و يتذكر و يتدبر فيه، و يجعل حياته فى جميع أبعادها تبعا لمفاهيمه و أحكامه.

اللّهمّ امنحنا من ذلك الأمن الذى و هبته المتقين، فجعلتهم مطمئنين موقنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۷

أمام عواصف الأحداث و المصاعب الجمة التی تعترضهم.

إلهنا ... إنّ مواهبک لا تحصی، و رحمتک لا تحد، و عذابک ألیم، و لیست أعمالنا بالتی تجعلنا مؤهلین لنیل رحمتک و النجاة من عذابک.

اللّهمّ فانشر علینا من رحمتک، و أفض علینا من فضلک الذی وعدت به المتقین من عبادک، و إلّا فلا سبیل لنا إلی جنتک الخالدة.

آمین ربّ العالمین نهایة سورة الدخان

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۹

سورة الجاثیة

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها سبع و ثلاثون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۱

«سورة الجاثیة»

محتوی السورة:

هذه السورة- و هی سادس الحوامیم- من السورة المکیة، و قد نزلت فی وقت کانت المواجهة بین المسلمین و مشرکی مکّة قد اشتدت و سادت الأجواء الاجتماعیة فی مکّة، و لذلک فإنّها أکّدت علی المسائل المتعلقة بالتوحید، و محاربة الشرک، و تهدید الظالمین بمحکمة القیامة، و التنبیه إلی کتابة الأعمال و تسجیلها، و کذلک التنبیه إلی عاقبة الأقوام المتمردین الماضین.

و یمکن تلخیص محتوی هذه السورة فی سبعة فصول:

۱- عظمة القرآن المجید و أهمیته.

۲- بیان جانب من دلائل التوحید أمام المشرکین.

۳- ذکر بعض ادعاءات الدهریین، و الردّ علیها بجواب قاطع.

۴- إشارة وجیزة إلی عاقبة بعض الأقوام الماضین- کبنی إسرائیل- کشاهد علی مباحث هذه السورة.

۵- تهدید الضالین المصرین علی عقائدهم المنحرفة و المتعصبین لها تهدیدا شدیدا.

۶- الدعوة إلی العفو و الصفح، لکن مع الحزم و عدم الانحراف عن طریق الحق.

۷- الإشارات البلیغة المعبرة إلی مشاهد القیامة المهولة، و خاصة صحیفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۲

الأعمال التی تشتمل علی کلّ أعمال الإنسان دون زیادة أو نقصان.

و تبدأ هذه السورة بصفات و أسماء اللّه عزّ و جلّ العظیمة کالعزیز و الحکیم، و تنتهی بها أیضا.

و اسمها مقتبس من الآیة ۲۸ منها، و «الجاثیة» تعنی الجثو علی الرکب، و هی إشارة الی وضع کثیر من الناس فی ساحة القیامة، فی محکمة العدل الإلهیة تلک.

و قد ذکر المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان اسما آخر لهذه السورة غیر مشهور، و هو (الشریعة) مستلهم من الآیة (۱۸) من هذه

السورة.

فضل تلاوة السورة:

نقرأ

فى حديث عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ حاميم الجاثية ستر اللّه عورته، و سكن روعته عند الحساب»[۱۶۸].

و

ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها أنّ لا يرى النّار أبدا، و لا يسمع زفير جهنم و لا شهيقها، و هو مع محمّد»[۱۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۳

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (۳) وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۴)

وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۵) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ (۶)

التّفسير

آيات اللّه فى كلّ مكان:

قلنا: إنّ هذه هى السورة هى سادس السور التى تبدأ بالحروف المتقطعة (حم) و هى تشكل مع السورة الآتية- أى سورة الأحقاف- سور الحواميم السبعة.

و قد بحثنا مرارا فى تفسير الحروف المتقطعة فى بدايات سورة البقرة و آل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۴

عمران، و كذلك فى الحواميم.

يقول المرحوم الطبرسى فى بداية هذه السورة: إنّ أحسن ما يقال هو أنّ (حم) اسم هذه السورة. ثمّ ينقل عن بعض المفسّرين، أنّ تسمية هذه السورة ب (حم) للإشارة إلى أنّ هذا القرآن المعجز بتمامه يتكون من حروف الألف باء.

نعم، إنّ كتاب النور و الهداية و الإرشاد و حل المعضلات و معجزة نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم الخالدة هذا، يتركب من هذه الحروف البسيطة، و غاية العظمة أن يتكون أمر بهذه الأهمية من هذه الحروف السهلة البسيطة.

و ربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية التالية عن عظمة القرآن مباشرة فتقول: تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۱۷۰].

«العزيز» هو القوى الـذى لاـ يقهر، و «الحكيم» هو العـارف بأسـرار كـلّ شـىء، و تقوم كـل أفعـاله على أساس الحكمـة و الدقـة، و من الواضح أنّ الحكمة التامة و القوّة اللامحدودة من لوازم تنزيل مثل هذا الكتاب العظيم، و هما غير موجودتين إلّا فى اللّه العزيز المتعال.

و الطريف أنّ هـذه الآيـة قـد وردت على هـذه الهيئة فى بداية أربع سور من القرآن الكريم، ثلاث منها من الحواميم- و هى المؤمن و الجاثيـة و الأحقاف- و الأخرى من غير الحواميم، و هى سورة الزمر. و هـذا التكرار و التأكيـد يهدف إلى جلب انتباه الجميع إلى عمق أسرار القرآن و عظمة محتواه، لئلا ينظروا ببساطة و عدم تدبر إلى أية عبارة أو تعبير من تعابيره، و لئلا يظنوا أنّ هذه الكلمة أو تلك لا محل لها و لا فائـدة من ذكرها، لكى لا يقنعوا بحـدّ معين من فهمه و إدراكه، بل ينبغى أن يكونوا فى سعى دؤوب للتوصل إلى أعمق ممّا أدركوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۵

و هنا نكتة تستحق الالتفات، و هى أنّ صفة (العزيز) قد وردت أحيانا لوصف نفس القرآن، مثل: وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ[۱۷۱]، فإنّه عزيز لا تصل إليه أيـدى الذين يقولون بعدم فائدته، و لا ينقص مر الزمان من أهميته، و لا تبلى حقائقه و لا تفقد قيمتها، و يفضح المحرفين أو من يحاول تحريفه، و يشق طريقه إلى الأمام دائما رغم كل ما يوضع أمامه من عراقيل.

و قد تأتى هذه الصفة فى حق منزله جل و علا، كما فى هذه الآية، و كلاهما صحيح.

ثمّ تنـاولت الآيـة التى بعـدها بيـان آيـات اللّه سـبحانه و دلائـل عظمته فى الآفـاق و الأنفس، فقالت: إِنَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

إن عظمـة السـماوات من جانب، و نظامها العجيب الذى مرّت عليه ملايين السـنين الذى لم ينحرف عما سار عليه قيد أنملة، من جانب آخر، و نظام خلقة الأرض و عجائبها، من جانب ثالث، يكون كلّ منها آية من آيات اللّه سبحانه.

إنّ للأرض- على قول بعض العلماء- أربع عشـرة حركـة، و تـدور حول نفسـها بسـرعة مذهلـة، و كذلك تدور حول الشـمس بحركة سريعة، و أخرى مع المنظومة الشمسـية ضـمن مجرّة «درب التبانة»، و هى تسير فى طريق لا نهاية له، و سفر لا حدّ له، و مع ذلك فهى من الهدوء و الاستقرار بمكان، بحيث يستقر عليها الإنسان و كل الموجودات الحية فلا يشعرون بأى اضطراب و تزلزل، حتى و لا بقدر رأس الإبرة.

و هى ليست بتلـك الصـلابة التى لاـ يمكن معهـا أن تزرع، و تبنى عليهـا الـدور و البنايـات، و لا هى رخوة و لا يمكن الثبات عليها، و الاستقرار فيها.

و قد هيئت فيها أنواع المعادن و وسائل الحياة لمليارات البشر، سواء الماضون منهم و الحاضرون و الآتون، و هى جميلة تسحر الإنسان، و تفتنه.

و الجبال و البحار و جو الأرض- أيضا- كلّ منها آية و سرّ من الأسرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۶

غير أنّ علامات التوحيـد هذه، و عظمة اللّه تعالى إنّما يلتفت إليها و ينتفع بها المؤمنون، أى طلاب الحق و السائرون فى طريق اللّه، أمّا عمى القلوب المغرورون المغفلون، فهم محرومون من إدراكها و الإحساس بها.

ثمّ انتقلت السورة من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فقالت: وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

كما ورد فى العبارة المعروفة و المنسوبة إلى أمير المؤمنين على عليه السّلام: «أ تحسب انّك جرم صغير، و فيك انطوى العالم الأكبر»، و كلّ ما هو موجود فى ذلك العالم الكبير يوجد منه نموذج مصغر فى داخل جسم الإنسان و روحه.

إنّ خصاله و صفاته مركبة من خصال الكائنات الحية و صفاتها، و تنوع خلقته عصارة مجموعة من حوادث هذا العالم الكبير.

إنّ بناء خليـة من خلاياه كبناء مدينة صـناعية عظيمة مليئة بالأسـرار، و خلق شـعرة منه- بخصائصـها و أسـرارها المختلفة التى اكتشـفت

بقدرة العلم و تطوره- آية عظيمة من آيات اللّه العظيم.

إنّ وجود آلاف الكيلو مترات من العروق و الشرايين و الأوردة الكبيرة و الصغيرة، و الأوعية الدموية الصغيرة جدّا و الشعيرات المتناهية في الصغر في بدن الإنسان، و آلاف الكيلومترات من طرق المواصلات و أسلاك الاتصالات في سلسلة الأعصاب، و كيفية ارتباطها و اتصالها بمركز القيادة في المخ، و الذي هو مزيج فذّ من العقد و الأسرار، و قوي في الوقت نفسه، و كذلك طريقة عمل كلّ جهاز من أجهزة البدن الداخلية و انسجامها العجيب في مواجهة الأحداث المفاجئة، و الدفاع المستميت للقوى المحافظة على البدن ضد هجوم العوامل الخارجية ... كلّ واحد من هذه الأمور يشكل- بحد ذاته- آية عظمى من آيات اللّه سبحانه.

و إذا تجاوزنا الإنسان، فإنّ مئات الآلاف من أنواع الكائنات الحية، ابتداء من الحيوانات المجهرية و حتى الحيوانات العملاقة، بخصائصها و بناء أجهزتها

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۷

المختلفة تماما، و التي قد يصرف جمع من العلماء كلّ أعمارهم أحيانا لمطالعة حياة و سلوك نوع واحد منها، و مع أنّ آلاف الكتب قد كتبت حول أسرار هذه المخلوقات، فإنّ ما نعلمه عنها قليل بالنسبة إلى ما نجهله منها ... كلّ واحد من هذه المخلوقات آية بنفسه، و دليل على علم مبدئ الخلقة و حكمته و قدرته اللامتناهية.

لكن، لماذا يعيش جماعة عشرات السنين في ظل هذه الآيات، و يمرون عليها، دون أن يطلعوا حتى على واحدة منها!؟

إنّ سبب ذلك هو ما يقرره القرآن الكريم من أنّ هذه الآيات خاصّة للمؤمنين و طلاب اليقين و أصحاب الفكر و العقل، و لأولئك الذين فتحوا أبواب قلوبهم لمعرفة الحقيقة، بكلّ وجودهم الظامئ للعلم و اليقين ليرتووا من صافي نبعه و فيضه، فلا تعزب عن نظرهم أدنى حركة و لا أصغر موجود، و يفكرون فيه الساعات الطوال، ليجعلوا منه سلما للارتقاء إلى اللّه سبحانه، و سجلا لمعرفته جلّ و علا، و ليذوبوا في مناجاته، و ليملؤوا أقداح قلوبهم من خمرة عشقه فينتشوا منها.

و تذكر الآية التالية ثلاث مواهب أخرى لكلّ منها أثره الهام في حياة الإنسان و الكائنات الحية الأخرى، و كل منها آية من آيات اللّه تعالى، و هي مواهب «النور» و «الماء» و «الهواء»، فتقول: وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

إنّ نظام «النور و الظلمة»، و حدوث الليل و النهار حيث يخلف كلّ منهما الآخر نظام موزون دقيق جدّا، و هو عجيب في وضعه و سننه و قانونه، فإذا كان النهار دائميا، أو أطول من اللازم، فسترتفع الحرارة حتى تحترق الكائنات الحية، و لو كان الليل سرمدا، أو طويلا جدّا لانجمدت الموجودات من شدّة البرد.

و يحتمل في تفسير الآية أنّ لا- يكون المراد من اختلاف الليل و النهار تعاقبهما، بل هو إشارة إلى اختلاف المدة و تفاوت الليل و النهار، في فصول السنة، فيعود

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۸

نفعه على الإنسان من خلال ما ينتج عن هذا الاختلاف من المحاصيل الزراعية المختلفة و النباتات و الفواكه، و نزول الثلوج و هطول الأمطار و البركات الأخرى.

و الطريف أنّ العلماء يقولون: بالرغم من التفاوت الشديد بين مناطق الأرض المختلفة من ناحية طول الليل و النهار و قصرهما، فإنّنا إذا حسبنا مجموع أيّام السنة فسنرى أنّ كلّ المناطق تستقبل نفس النسبة من أشعة الشمس تماما[۱۷۲].

ثمّ تتناول الحديث في الفقرة الثانية عن الرزق السماوي، أي «المطر» و الذي لا كلام في لطافة طبعه و رقته، و لا بحث في قدرته على الإحياء، و بعثه الحياة في كلّ الأرجاء و منحها الجمال و الروعة.

و لم لا يكون كذلك، و الماء يشكل الجانب الأكبر و القسم الأساسي من بدن الإنسان، و كثير من الحيوانات الأخرى، و النباتات؟

ثمّ تتحدث فی الفقرة الثالثة عن هبوب الرياح .. تلك الرياح التی تنقل الهواء الملیء بالأوكسجين من مكان إلى آخر، و تضعه تحت تصرف الكائنات الحية، و تبعد الهواء الملوث بالكاربون إلى الصحارى و الغابات لتصفيته، ثمّ إعادته إلى المدن.

و العجيب أنّ هاتين المجموعتين من الكائنات الحية- أی الحيوانات و النباتات- متعاكسة فی العمل تماما، فالأولى تأخذ الأوكسجين و تعطی غاز ثانی أوكسيد الكاربون، و الثانية على العكس تتنفس ثانی أوكسيد الكاربون و تزفر الأوكسجين، ليقوم التوازن فی نظام الحياة، و لكی لا ينفذ مخزون الهواء النقی المفيد من جو الأرض بمرور الزمان.

إنّ هبوب الرياح، إضافة إلى ذلك فانّه يلقح النباتات فيجعلها حاملة للأثمار و المحاصيل، و ينقل أنواع البذور إلى الأراضی المختلفة لبذرها هناك، و ينمی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۹

المراتع الطبيعية و الغابات، و يهيج الأمواج المتلاطمة فی قلوب المحيطات، و يبعث الحركة و الحياة فی البحار و يثير أمواجها العظيمة، و يحفظ الماء من التعفن و الفساد، و هذه الرياح نفسها هی التی تحرك السفن على وجه المحيطات و البحار و تجريها[۱۷۳].

و الطريف أنّ هذه الآيات تتحدث أوّلا عن آيات السماء و الأرض و تقول فی نهاية الآية الأولى: إنّها آيات «للمؤمنين»، ثمّ تتناول الحديث فی خلق الكائنات الحية فتقول فی نهاية الآية الثانية: إنّها آيات «للموقنين»، و بعد ذلك تتكلم فی أنظمة النور و الظلمة، و الرياح و الأمطار، ثمّ تقول: إنّها آيات للذين «يعقلون».

إنّ هذا التفاوت فی التعبير لعله بسبب أنّ الإنسان يطوی ثلاث مراحل فی سيره إلى معرفة اللّه سبحانه ليصل إلى هدفه، فالأولى مرحلة «التفكر»، و الثانية مرحلة «اليقين» و العلم، و بعدها مرحلة «الإيمان» أو ما يسمى بعقد القلب، و لما كان الإيمان أشرف هذه المراحل، ثمّ يأتی بعده اليقين، و فی المرحلة الثالثة يأتی التفكير، فقد وردت هذه المراحل حسب هذا الترتيب فی الآيات المذكورة، و إن كانت المراحل من ناحية الوجود الخارجی تبدأ بمرحلة التفكر، ثمّ اليقين، ثمّ الإيمان.

و بتعبير آخر فإنّ أهل الإيمان يرتقون إلى هذه المرحلة من خلال مشاهدة آيات اللّه سبحانه، أمّا الذين ليسوا منهم فليصلوا إلى مرحلة اليقين أو إلى مرحلة التفكر على أقل التقادير.

و قد ذكر المفسّرون فی هذا الباب وجوها أخرى أيضا، و ما قلناه هو الأنسب.

و تقول الآية الأخيرة، إجمالا للبحوث الماضية، و تبيانا لعظمة آيات القرآن و أهميتها: تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِ

هل أنّ كلمة «تلك» إشارة إلى آيات القرآن، أم إلى آيات اللّه و العلامات الدالة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۰

عليه فی الآفاق و الأنفس، و التی مرّت الإشارة إليها فی الآيات السابقة؟

كلّ محتمل، إلّا أنّ الظاهر هو أنّ المراد الآيات القرآنية بقرينة التعبير بالتلاوة، غاية ما فی الأمر أنّ هذه الآيات القرآنية آيات اللّه سبحانه فی كلّ عالم الوجود، و على هذا فيمكن الجمع بين التّفسيرين (فتأمل!).

و على أية حال، فإنّ (التلاوة) من مادة (تلو) أی الإتيان بالكلام بعد الكلام متعاقبا، و بناء على هذا فإنّ تلاوة آيات القرآن تعنی قراءتها بصورة متوالية متعاقبة.

و التعبير بالحق إشارة إلى محتوى هذه الآيات، و هو أيضا إشارة إلى كون نبوّة النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الوحی الإلهی حقّا.

و بعبارة أخرى، فإنّ هذه الآيات بليغة معبرة تضمنت فی طياتها الاستدلال على حقانيتها و حقانية من جاءها.

و حقّا إذا لم يؤمن هؤلاء بهذه الآيات فبأی شیء سوف يؤمنون؟ و لذلك تعقب الآية: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ ۱۷۴].

و على قول «الطبرسی» فی مجمع البيان، فإنّ الحديث إشارة إلى قصص الأقوام الماضين، و أحداثهم التی تبعث على الإعتبار بهم، فی حين أنّ الآيات تقال للدلائل التی تميز الحق من الباطل و الصحيح من السقيم، و آيات القرآن المجيد تتحدث عن الإثنين معا.

حقا إنّ للقرآن الكريم محتوى عميقا من ناحية الاستدلال و البراهين على التوحيد، و كذلك فهو يحتوى على مواعظ و إرشادات تجذب العباد إلى اللّه سبحانه حتى القلوب التى لها أدنى استعداد- أو أرضية صالحة- و تدعوا كلّ مرتبط بالحق الى الطهارة و التقوى، فإذا لم تؤثر هذه الآيات البينات فى أحد فلا أمل فى هدايته بعد ذلك.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۱

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم (۷) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيم (۸) وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۹) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰)

التّفسير

ويل لكلّ أفاك أثيم:

رسمت الآيات السابقة صورة عن فريق يسمعون كلام اللّه مدعما بمختلف أدلة التوحيد و المواعظ و الإرشاد، فلا يترك أثرا فى قلوبهم القاسية.

أمّا هذه الآيات فتتناول بالتفصيل عواقب أعمال هذا الفريق، فتقول: أوّلا:

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم

«الأفاك» صيغة مبالغة، و هى تعنى الشخص الذى يكثر الكذب جدّا، و تقال أحيانا لمن يكذب كذبة عظيمة حتى و إن لم يكثر من الكذب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۲

و «الأثيم» من مادة إثم، أى المجرم و العاصى، و تعطى أيضا صفة المبالغة.

و يتّضح من هذه الآية جيدا أنّ الذين يقفون موقف الخصم العنيد المتعصب أمام آيات اللّه سبحانه هم الذين غمرت المعصية كيانهم، فانغمسوا فى الذنوب و الآثام و الكذب، لا أولئك الصادقون الطاهرون، فإنّهم يذعنون لها لطهارتهم، و نقاء سريرتهم.

ثمّ تشير الآية التالية إلى كيفية اتخاذهم لموضع الخصام هذا، فتقول: يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها[۱۷۵] و لهذا فإنّه بحكم تلوثه بالذنب و الكذب، و الغرور و الكبر و العجب، يمر كأن لم يسمع كلّ هذه الآيات، و كأنه أصم أو أنّه يعتبر نفسه كذلك، كما ورد لك فى الآية (۷) من سورة لقمان:

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً.

و تهدده الآية فى نهايتها بالعذاب الشديد، فتقول: فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيم فكما أنّه آذى قلب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين و آلمهم، فإنّنا سنبتليه بعذاب أليم أيضا، لأنّ عذاب القيامة تجسم لأعمال البشر فى الحياة الدنيا.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين ذكر سبب نزول لهذه الآية و الآية التى تليها، و اعتبروهما إشارة إلى أبى جهل أو النظر بن الحارث، ذلك أنّهم كانوا قد جمعوا قصصا و أساطير من العجم ليلهوا بها الناس و يصرفوهم عن دين الحق.

لكن من الواضح أنّ هذه الآية لا تختص بهم، بل و لا بمشركى العرب أيضا، فهى تشمل كلّ المجرمين الكاذبين المستكبرين فى كلّ عصر و زمان، و كلّ الذين يصرون كأن لم يسمعوا آيات اللّه سبحانه و نداءات الأنبياء و كلمات الأئمّة و العظماء، لأنّها لا تنسجم مع شهواتهم و ميولهم و رغباتهم المنحرفة، و لا تؤيد أفكارهم الشيطانية، و لا توافق عاداتهم الخاطئة و أعرافهم البالية و تقاليدهم العمياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۳

نعم، بشّر كلّ أولئك بالعذاب الأليم.

و لما كان العذاب لا ينسجم مع البشارة، فإنّ هذا التعبير ورد من باب السخرية و الاستهزاء.

ثمّ تضيف الآية التى بعدها: وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً[۱۷۶].

فى الحقيقة، توجد لدى هؤلاء الجاهلين الأنانيين حالتان:

الأولى: أنّهم غالبا ما يسمعون آيات اللّه فلا يعبؤون بها، و يمرون عليها دون اهتمام و تعظيم، فكأنّهم لم يسمعوها أيضا.

و الأخرى: أنّهم إذا سمعوها و أرادوا أن يهتموا بها، فليس لهم من رد فعل إزاءها إلّا الاستهزاء و السخرية. و كلهم مشتركون فى هاتين الحالتين، فمرّة هذه، و أخرى تلك، و بناء على هذا فلا تعارض بين هذه الآية و التى قبلها.

و الطريف أنّها تقول أوّلا: وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً ثمّ لا تقول: إنّه يستهزئ فيما بعد بما علم، بل تقول: إنّه يتخذ كلّ آياتنا هزوا، سواء التى علمها و التى لم يعلمها، و غاية الجهل أن ينكر الإنسان شيئا أو يستهزئ به و هو لم يفهمه أصلا، و هذا خير دليل على عناد أولئك و تعصبهم.

ثمّ تصف الآية عقاب هؤلاء فى النهاية فتقول: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ و لم لا يكون الأمر كذلك، فإنّ هؤلاء كانوا يريدون أن يضفوا على أنفسهم الهيبة و العزة و المكانة الاجتماعية من خلال الاستهزاء بآيات اللّه سبحانه، إلّا أنّ اللّه تعالى سيجعل عقابهم تحقيرهم و مذلتهم و هوانهم، و يبتليهم بعذاب القيامة المهين المذل، فيسحبون على وجوههم مصفّدين مكبّلين ثمّ يرمون على تلك الحال فى جهنم، و يلاحقهم مع ذلك تقريع ملائكة العذاب و سخريتهم.

و من هنا يتّضح لماذا وصف العذاب بالأليم فى الآية السابقة، و بالمهين هنا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۴

و بالعظيم فى الآية التالية، فكلّ منها يناسب نوعية جرم هؤلاء و كيفيته.

و توضح الآية التالية العذاب المهين، فتقول: مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ

إن التعبير بالوراء مع أنّ جهنّم أمامهم و سيصلونها فى المستقبل، يمكن أن يكون ناظرا إلى أنّ هؤلاء قد أقبلوا على الدنيا و نبذوا الآخرة و العذاب وراء ظهورهم، و هو تعبير مألوف، إذ يقال للإنسان إذا لم يهتم بأمر، تركه وراء ظهره، و القرآن الكريم يقول: إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا[۱۷۷].

و قال جمع من المفسّرين أيضا: إنّ كلمة (وراء) من مادة المواراة، و تقال لكلّ شيء خفى على الإنسان و حجب عنه، سواء كان خلفه و لا يراه، أم أمامه لكنّه بعيد لا يراه، و على هذا فإنّ لكلمة (وراء) معنى جامعا يطلق على مصداقين متضادين ۱۷۸].

و ليس ببعيد إذا قلنا: إنّ التعبير بالوراء إشارة إلى مسألة العلة و المعلول، فمثلا نقول: إذا تناولت الغذاء الفلانى غير الجيد فستمرض بعد ذلك، أى إنّ تناول الغذاء يكون علة لذلك المرض، و هنا أيضا تكون أعمال هؤلاء علة لعذاب الجحيم المهين.

و على أية حال، فإنّ الآية تضيف مواصلة الحديث أنّ هؤلاء إن كانوا يظنون أنّ أموالهم الطائلة و آلهتهم التى ابتدعوها ستحل شيئا من أثقالهم، و أنّها ستغنى عنهم من اللّه شيئا، فإنّهم قد وقعوا فى اشتباه عظيم، حيث: وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ.

و لما لم يكن هناك سبيل نجاة و فرار من هذا المصير، فإنّ هؤلاء يجب أن يبقوا فى عذاب اللّه و نار غضبه: وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۵

و لقـد استصـغر هؤلاء آیات اللّه سـبحانه، و لـذلک سـیعظم اللّه عذابهم، و قد اغتر هؤلاء و تفاخروا فألقاهم اللّه فی العذاب الألیم! إن هـذا العـذاب عظیم من کلّ الجهات، فهو عظیم فی خلوده، و شدته، و باقترانه بالتحقیر، و الإهانة، و عظیم فی نفوذه إلی نخاع و قلوب المجرمین ..

نعم .. إنّ الذنب العظیم، أمام اللّه العظیم، لا یکون جزاؤه إلّا العذاب العظیم.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۶

الآیات [سورة الجاثیة (۴۵): الآیات ۱۱ الی ۱۵]

اشارة

هـذا هُـدیً وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ (۱۱) اللَّهُ الَّذِی سَـخَّرَ لَکُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِیَ الْفُلْـکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْـلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۲) وَ سَـخَّرَ لَکُمْ مـا فِی السَّمـاواتِ وَ مـا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۱۳) قُلْ لِلَّذِینَ آمَنُوا یَغْفِرُوا لِلَّذِینَ لا یَرْجُونَ أَیَّامَ اللَّهِ لِیَجْزِیَ قَوْماً بِمـا کانُوا یَکْسِـبُونَ (۱۴) مَنْ عَمِـلَ صالِحـاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ (۱۵)

التّفسیر

کل شیء مسخر للإنسان:

مواصـلة للبحوث التی وردت فی الآیات السابقـة حول عظمة آیات اللّه، تتناول هذه الآیات نفس الموضوع، فتقول: هذا هُدیً فهو یمیز بین الحق و الباطل، و یضیء حیاة الإنسان، و یأخذ بید سالکی طریق الحق لیوصلهم إلی هدفهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۷

و منزلهم المقصود، لکن: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ

«الرجز» یعنی الاضـطراب و الـاهتزاز و عـدم الانتظـار، کمـا یقول الراغب فی مفرداته، و تقول العرب: رجز البعیر إذا تقاربت خطواته و اضطرب لضعف فیه.

و تطلق هذه الکلمة أیضا علی مرض الطاعون و الابتلاءات الصعبة، أو العواصف الثلجیة الشدیدة، و الوساوس الشیطانیة و أمثال ذلک، لأنّ کلّ هذه الأمور تبعث علی الاضـطراب و التزلزل و عدم الانتظام و الانضباط، و إنّما یقال لأشعار الحرب (رجز) لأنّها مقاطع قصیرة متقاربة، أو لأنّها تلقی الرعب و الاضطراب بین صفوف الأعداء.

ثمّ تحول زمان الحـدیث إلی بحث التوحیـد الـذی مرّ ذکره فی الآیات الأولی لهـذه السورة، فتعطی المشـرکین دروسا، بلیغة مؤثرة فی توحید اللّه سبحانه و معرفته.

فتارة تدغدغ عواطفهم، و تقول: اللَّهُ الَّذِی سَخَّرَ لَکُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ

من الـذی أودع فی مـادة السـفن الأصـلیة خاصـیة الطفو علی المـاء و عـدم الغطس؟ و من الـذی جعـل الماء فراشا ناعما حرکتها حتی استطاعت أن تسیر فیه بکـلّ سـهولة و یسـر؟ و من الـذی أمر الریـاح أن تمرّ علی سـطح المحیطات بصورة منتظمـة لتحرک السـفن و

تسيرها؟ أو يحل قوّة البخار محل الهواء ليزيد من سرعة هذه السفن العظيمة؟

نحن نعلم أنّ أكبر وسائط نقل الإنسان و أهمها فى الماضى و الحاضر هى السفن الصغيرة و الكبيرة، و التى تنقل على مدار السنة ملايين البشر، و أكثر من ذلك البضائع التجارية من أقصى نقاط العالم إلى المناطق المختلفة، و قد تكون السفن أحيانا بسعة مدينة صغيرة، و سكانها بعدد سكانها، و هى مجهزة بمختلف الوسائل و الأموال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۸

حقا لو لم تكن هذه القوى الثلاث، أ فيكون بمقدور الإنسان أن يحل مشاكل حمله و نقله بواسطة المراكب العادية البسيطة؟ حتى هذه المراكب و الوسائط البسيطة هى بحدّ ذاتها من نعمه سبحانه، و هى فعالة فى مجالها.

و الطريف أنّ الآية (۳۲) من سورة إبراهيم تقول: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ أمّا هنا فإنّ الآية تقول: سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ لأنّ التأكيد هناك كان على تسخير البحار، و لذلك اتبعتها بقولها: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ أمّا هنا فإنّ الآية ناظرة إلى تسخير الفلك، و على أية حال، فإنّهما معا مسخران للإنسان بأمر اللّه سبحانه، و هما فى خدمته.

إنّ الهدف من هذا التسخير هو أن تبتغوا من فضل اللّه، و هذا التعبير يأتى عادة فى مورد التجارة و النشاطات الاقتصادية، و من الطبيعى أنّ نقل المسافرين من مكان الى آخر فى ضمن هذا التسخير.

و الهدف من الاستفادة من فضل اللّه هو إثارة حسن الشكر لدى البشر، لتعبئة عواطفهم لأداء شكر المنعم، و بعد ذلك يسيرون فى طريق معرفة اللّه سبحانه.

كلمة «الفلك»- و كما قلنا سابقا- تستعمل للمفرد و الجمع.

و لمزيد من التفصيل حول تسخير البحار و الفلك، و منافعها و بركاتها، راجعوا ذيل الآية (۱۴) سورة النحل.

بعد بيان السفن التى لها تماس مباشر بحياة البشر اليومية، تطرقت الآية التى بعدها إلى مسألة تسخير سائر الموجودات بصورة عامة، فتقول: وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ

فقد كرّمكم إلى درجة أنّ سخر لكم كلّ موجودات العالم، و جعلها فى خدمتكم و لتأمين مصالحكم و منافعكم، فالشمس و القمر، و الرياح و المطر، و الجبال و الوديان، و الغابات و الصحارى، و النباتات و الحيوانات، و المعادن و المنابع الغنية التى تحت الأرض، و بالجملة فإنّه أمر كلّ هذه الموجودات أن تكون فى خدمتكم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۹

و مطيعة لأمركم، و منفذة لإرادتكم، لتتمتعوا بنعمه و مواهبه سبحانه، و لا تذهلوا فى سكرة الغفلة عنه.

و مما يستحق الانتباه أنّه يقول: جَمِيعاً مِنْهُ ۱۷۹] فإذا كانت كلّ النعم منه، و هو خالقها و ربها و مدبرها جميعا، فلما ذا يعرض الإنسان عنه و يلجأ إلى غيره، و يتسكع على اعتبار المخلوقات الضعيفة، و يبقى فى غفلة و ذهول عن المنعم الحقيقى عليه؟ و لذلك تضيف الآية فى النهاية: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

لقد كانت الآية السابقة تلامس عاطفة الإنسان و تحاول إثارتها، و هنا تحاول هذه الآية تحريك عقل الإنسان و فكره، فما أعظم رحمة ربّنا سبحانه!! إنّه يتحدث مع عباده بكلّ لسان و أسلوب يمكن أن يطبع أثره، فمرّة بحديث القلب، و أخرى بلسان الفكر، و الهدف واحد من كلّ ذلك، ألا و هو إيقاظ الغافلين و دفعهم إلى سلوك السبيل القويم.

و قد أوردنا بحثا مفصلا حول تسخير مختلف موجودات العالم فى ذيل الآيات ۳۱- ۳۳ من سورة إبراهيم.

ثمّ تطرقت الآية التالية إلى ذكر قانون أخلاقى يحدد كيفية التعامل مع الكفار لتكمل أبحاثها المنطقية السابقة عن هذا الطريق، فحولت الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالت: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ

فمن الممكن أن تكون معاملة هؤلاء قاسية، و تعبيراتهم خشنة غير مؤدبة، و ألفاظهم بذيئة، و ذلك لبعدهم عن مبادئ الإيمان و أسس

التربیة الإلهیة، غیر أنّ علیکم أن تقابلوهم بکلّ رحابة صدر لئلا یصروا علی کفرهم و یزیدوا فی تعصبهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۰

فتعبد المسافة بینهم و بین الحق.

إنّ حسن الخلق و الصفح و رحابة الصدر یقلل من ضغوط هؤلاء و عدائهم من جهة، کما أنّه یمکن أن یکون عاملا لجذبهم إلی الإیمان و إقبالهم علیه.

و قد ورد نظیر هذا الأمر الأخلاقی کثیرا فی القرآن الکریم کقوله تعالی:

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ ۱۸۰] إنّ التصلب فی التعامل مع الجاهلین و الإصرار علی عقوبتهم لا یثمر فی العادة، بل إن تجاهلهم و الاعتزاز بالنفس أمامهم هو الأسلوب الناجح فی إیقاظهم، و هو عامل مؤثر فی هدایتهم.

و لیس هذا قانونا عاما بالطبع، إذ لا یمکن إنکار وجود حالات لا یمکن معالجتها و مواجهتها إلّا بالغلظة و الشدّة، غیر أنّها قلیلة.

و النکتة الأخری هنا أنّ کلّ الأیّام هی أیّام اللّه، إلّا أنّ (أیّام اللّه) قد أطلقت علی أیّام خاصّة، للدلالة علی عظمتها و أهمیتها.

لقد ورد هذا التعبیر فی موضعین من القرآن المجید: أحدهما فی هذه الآیة، و الآخر فی سورة إبراهیم، و له هناک معنی أوسع و أشمل.

و قد فسّرت «أیّام» فی الرّوایات الإسلامیة بتفاسیر مختلفة، و من جملتها ما ورد فی تفسیر علی بن إبراهیم بأنّ أیّام اللّه ثلاثة: یوم قیام المهدی، و یوم الموت، و یوم القیامة[۱۸۱].

و نقرأ فی حدیث آخر عن النّبی الأکرم (صلی اللّه علیه و آله و سلّم): «أیام اللّه نعماؤه و بلاؤه ببلائه»[۱۸۲].

و علی أیة حال، فإنّ هذا التعبیر یبین أهمیة یوم القیامة، یوم تجلی حاکمیة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۱

تعالی علی کلّ فرد، و علی کلّ شیء، و هو یوم العدل و القانون و المحکمة الکبری.

لکن، و من أجل أنّ لا یستغل مثل هؤلاء الأفراد هذا الصفح الجمیل و العفو و التسامی، فقد أضافت الآیة: لِیَجْزِیَ قَوْماً بِما کانُوا یَکْسِبُونَ

لقد اعتبر بعض المفسّرین هذه الجملة تهدیدا للکفار و المجرمین، فی حین أنّ البعض الآخر اعتبرها بشارة للمؤمنین لهذا العفو و الصفح. لکن لا مانع من أن تکون تهدید لتلک الفئة من جانب، و بشارة لهذه الجماعة من جانب آخر، کما أشیر إلی هذا المعنی فی الآیة التالیة أیضا.

تقول الآیة: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ

إن هذا التعبیر الذی ورد فی القرآن الکریم مرارا، و بعبارات مختلفة، یشکل جوابا لمن یقول: ماذا یضر عصیاننا اللّه تعالی، و ما تنفعه طاعتنا؟ و لماذا هذا الإصرار علی طاعة و أوامره، و الانتهاء عن معاصیه؟

فتقول هذه الآیات: إنّ کلّ ضرر ذلک و کلّ نفعه یعود علیکم، فأنتم الذین تسلکون مراقی الکمال فی ظل الأعمال الصالحة، و تحلقون إلی سماء قرب اللّه عزّ و جلّ، کما أنّکم أنتم الذین تهوون إلی الحضیض نتیجة ارتکابکم الآثام و المعاصی، فتبتعدون عن اللّه عزّ و جلّ و تستحقون بذلک اللعنة الأبدیة.

إن کلّ أمور التکلیف، و إرسال الرسل، و إنزال الکتب تهدف إلی هذا المراد السامی، و لذلک یقرر القرآن الحکیم وَ مَنْ یَشْکُرْ فَإِنَّما یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ حَمِیدٌ[۱۸۳] و یقول فی موضع آخر: فَمَنِ اهْتَدی فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما یَضِلُّ عَلَیْها[۱۸۴] و نقرأ فی موضع ثالث: وَ مَنْ تَزَکَّی فَإِنَّما یَتَزَکَّی لِنَفْسِهِ وَ إِلَی اللَّهِ الْمَصِیرُ[۱۸۵]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۲

و خلاصة القول: إنّ أمثال هذه التعابير تبين حقيقة أنّ دعوة الداعين إلى اللّه سبحانه خدمة للبشر فی جميع أبعادها، و ليست خدمة للّه الغنى عن كلّ شیء، و لا لأنبيائه الذين أجرهم على اللّه فقط.

إنّ الانتباه إلى هذه الحقيقة يعدّ عاملا مهما فی السير نحو طاعة اللّه سبحانه، و الابتعاد عن معصيته.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۳

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱۶ الی ۲۰]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِی بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (۱۹) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰)

التّفسير

آتَيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ كل ذلك، و لكن ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۲۰۳

ابعة للبحوث التی وردت فی الآيات السابقة حول نعم اللّه المختلفة و شكرها و العمل الصالح، تتناول هذه الآيات نموذجا من حياة بعض الأقوام الماضين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۴

الذين غمرتهم نعم اللّه سبحانه، إلّا أنّهم كفروا بها و لم يرعوها حق رعايتها.

تقول الآية الأولى: وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ

تبيّن هذه الآية فی مجموعها خمس نعم أنعم اللّه بها على بنی إسرائيل، و بالإضافة إلى النعمة الأخرى التی سيأتی ذكرها فی الآية التالية تشكل ست نعم عظيمة.

النعمة الأولى هی الكتاب السماوی، أی التوراة التی كانت مبينة للمعارف الدينية و الحلال و الحرام، طريق الهداية و السعادة.

و الثانية مقام الحكومة و القضاء، لأنا نعلم أنّهم كانوا يمتلكون حكومة قوية مترامية الأطراف، فلم يكن داود و سليمان وحدهما حاكمين و حسب، بل إنّ كثيرا من بنی إسرائيل قد تسلموا زمام الأمور فی زمانهم و عصورهم.

«الحكم» فی التعبيرات القرآنية يعنی عادة القضاء و الحكومة، لكن لما كان مقام القضاء، يشكل جزء من برنامج الحكومة دائما، و لا يمكن للقاضی أن يؤدی واجبه من دون حماية الدولة و قوّتها، فإنّه يدل دلالة التزامية على مسألة التصدی و تسلم زمام الأمور.

و نقرأ فی الآية (۴۴) من سورة المائدة فی شأن التوراة: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا.

أمّا النعمة الثالثة فقد كانت نعمة مقام النبوة، حيث اصطفى اللّه سبحانه أنبياء كثيرين من بنی إسرائيل.

و قد ورد فی رواية أنّ عدد أنبياء بنی إسرائيل بلغ ألف نبی ۱۸۶]، و فی رواية أخرى: إن عدد أنبياء بنی إسرائيل أربعة آلاف نبی

۱۸۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۵

و کل هذه کانت مواهب و نعما من اللّه سبحانه.

و تتحدث الآیة فی الفقرة الرابعة حدیثا جامعا شاملا عن المواهب المادیة، فتقول: وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ

النعمة الخامسة، هی تفوقهم و قوّتهم التی لا ینازعهم فیها أحد، کما توضح الآیة ذلک فی ختامها فتضیف: وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَی الْعالَمِینَ

لا شک أنّ المراد من «العالمین» هنا هم سکان ذلک العصر، لأنّ الآیة (۱۱۰) من سورة آل عمران تقول بصراحة: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

و کذلک نعلم أنّ الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم هو أشرف الأنبیاء و سیدهم، و بناء علی هذا فإنّ أمته أیضا تکون خیر الأمم، کما ورد ذلک فی الآیة (۸۹) من سورة النحل:

وَ یَوْمَ نَبْعَثُ فِی کُلِّ أُمَّةٍ شَهِیداً عَلَیْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِکَ شَهِیداً عَلی هؤُلاءِ.

و تشیر الآیة التالیة إلی الموهبة السادسة التی منحها اللّه سبحانه لهؤلاء المنکرین للجمیل، فتقول: وَ آتَیْناهُمْ بَیِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ.

«البینات» یمکن أن تکون إشارة إلی المعجزات الواضحة التی أعطاها اللّه سبحانه موسی بن عمران علیه السلام و سائر أنبیاء بنی إسرائیل، أو أنّها إشارة إلی الدلائل و البراهین المنطقیة الواضحة، و القوانین و الأحکام المتقنة الدقیقة.

و قد احتمل بعض المفسّرین أن یکون هذا التعبیر إشارة إلی العلامات الواضحة التی تتعلق بنبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و التی علمها هؤلاء، و کان باستطاعتهم أن یعرفوا نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم من خلالها کمعرفتهم بأبنائهم: الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یَعْرِفُونَهُ کَما یَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ ۱۸۸].

لکن لا مانع من أن تکون کلّ هذه المعانی مجتمعة فی الآیة.

و علی أیة حال، فمع وجود هذه المواهب و النعم العظیمة، و الدلائل البینة الواضحة لا یبقی مجال للاختلاف، إلّا أنّ الکافرین بالنعم هؤلاء ما لبثوا أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۶

اختلفوا، کما یصور القرآن الکریم ذلک فی تتمة هذه الآیة إذ یقول: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ

نعم، لقد رفع هؤلاء رایة الطغیان، و أنشبت کلّ جماعة أظفارها فی جسد جماعة أخری، و اتخذوا حتی عوامل الوحدة و الألفة و الانسجام سببا للاختلاف و التباغض و الشحناء، و تنازعوا أمرهم بینهم فذهبت ریحهم و ضعفت قوتهم، و أفل نجم عظمتهم، فزالت دولتهم، و أصبحوا مشردین فی بقاع الأرض ضربت علیهم الذلة أینما ثقفوا.

و قال البعض: إنّ المراد هو الاختلاف الذی وقع بینهم بعد علمهم و اطلاعهم الکافی علی صفات نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و یهددهم القرآن الکریم فی نهایة الآیة بقوله: إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَةِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ و بهذا فقد فقدوا قوتهم و عظمتهم فی هذه الدنیا بکفرانهم النعمة، و اختلافهم فیما بینهم، و اشتروا لأنفسهم عذاب الآخرة.

بعد بیان المواهب التی منّ اللّه تعالی بها علی بنی إسرائیل، و کفرانها من قبلهم، ورد الحدیث عن موهبة عظیمة أهداها اللّه سبحانه لنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین، فقالت الآیة: ثُمَّ جَعَلْناکَ عَلی شَرِیعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ.

«الشریعة» تعنی الطریق التی تستحدث للوصول إلی الماء الموجود عند ضفاف الأنهر التی یکون مستوی الماء فیها أخفض من الساحل، ثمّ أطلقت علی کلّ طریق یوصل الإنسان إلی هدفه و مقصوده.

إن استعمال هذا التعبیر فی مورد دین الحق، بسبب أنّه یوصل الإنسان إلی مصدر الوحی و رضی اللّه سبحانه، و السعادة الخالدة التی

هی بمثابة الماء للحیاة المعنویة.

لقد استعملت هذه الکلمة مرّة واحدة فی القرآن الکریم، و فی شأن الإسلام فقط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۷

و المراد من «الأمر» هنا هو دین الحق الذی مرّت الإشارة إلیه فی الآیة السابقة أیضا، حیث قالت: بَیِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ.

و لما کان هذا المسیر مسیر النجاة و النصر، فإنّ اللّه سبحانه یأمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بعد ذلک أنّ فَاتَّبِعْها.

و کذلک لما کانت النقطة المقابلة لیس إلّا اتباع أهواء الجاهلین و رغباتهم، فإنّ الآیة تضیف فی النهایة: وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ

فی الحقیقة، لا یوجد إلّا طریقان: طریق الأنبیاء و الوحی، و طریق أهواء الجاهلین و میولهم، فإذا ولّی الإنسان دبره للأوّل فسیقع فی الثّانی، و إذا توجه الإنسان إلی ذلک السبیل فسینفصل عن خط الأنبیاء و یبتعد عنهم، و بذلک فإنّ القرآن أبطل کلّ البرامج الإصلاحیة التی لا تستمد تعلیماتها من مصدر الوحی الإلهی.

و الجدیر بالانتباه أنّ بعض المفسّرین قالوا: إنّ رؤساء قریش أتوا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا: ارجع إلی دین آبائک، فإنّهم کانوا أفضل منک و أسلم. و کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لا یزال فی مکّة، فنزلت الآیة أعلاه ۱۸۹] و أجابتهم بأن طریق الوصول إلی الحق هو الوحی السماوی الذی نزل علیک، لا ما یملیه هوی هؤلاء الجاهلین و رغبتهم.

لقد کان القادة المخلصون یواجهون دائما وساوس الجاهلین هذه عند ما یأتون بدین جدید و یطرحون أفکارا بناءة طاهرة، فقد کان الجهال یطرحون علیهم: أ أنتم أعلم أم الآباء السابقون و العظماء الذین جاؤوا قبلکم؟ و کانوا یصرون علی الاستمرار فی ذلک الطریق، و إذا کان مثل هذا الاقتراح یمکن أن ینزل إلی حیز التطبیق و الواقع العملی، فلیس بوسع الإنسان أن یخطو خطوة فی طریق التکامل.

و تعتبر الآیة التالیة تبیانا لعلة النهی عن الاستسلام أمام مقترحات المشرکین و قبول طلباتهم، فتقول: إِنَّهُمْ لَنْ یُغْنُوا عَنْکَ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً فإذا ما اتبعت دینهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۸

الباطل فأحاط بک عذاب اللّه تعالی فإنّهم عاجزون عن أن یهبوا لنجدتک و إنقاذک، و لو أنّ اللّه سبحانه سلب منک نعمة فإنّهم غیر قادرین علی إرجاعها إلیک.

و مع أنّ الخطاب فی هذه الآیات موجه إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا أنّ المراد منه جمیع المؤمنین.

ثمّ تضیف الآیة: وَ إِنَّ الظَّالِمِینَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ فکلهم من جنس واحد، و یسلکون نفس المسیر، و نسجهم واحد، و کلهم ضعفاء عاجزون.

لکن لا تذهب بک الظنون بأنک وحید، و من معک قلیل و لا ناصر لکم و لا معین، بل: وَ اللَّهُ وَلِیُّ الْمُتَّقِینَ

صحیح أنّ جمع هؤلاء عظیم فی الظاهر، و فی أیدیهم الأموال الطائلة و الإمکانیات الهائلة، لکن کلّ ذلک لا یعتبر إلّا ذرة عدیمة القیمة إزاء قدرة اللّه التی لا تقهر، و خزائنه التی لا تفنی.

و کتأکید لما مرّ، و دعوة إلی اتباع دین اللّه القویم، تقول آخر آیة من هذه الآیات:

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدیً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ

«البصائر» جمع بصیرة، و هی النظر، و مع أنّ هذه اللفظة أکثر ما تستعمل فی و جهات النظر الفکریة و النظریات العقلیة، إلّا أنّها تطلق علی کلّ الأمور التی هی أساس فهم المعانی و إدراکها.

و الطریف أنّها تقول: إنّ هذا القرآن و الشریعة بصائر، أی عین البصیرة، ثمّ أنها لیست، بصیرة، بل بصائر، و لا تقتصر علی بعد واحد، بل تعطی الإنسان الأفکار و النظریات الصحیحة فی کافة مجالات حیاته.

و قد ورد نظیر هذا التعبیر فی آیات أخری من القرآن الکریم، کالآیة (۱۰۴) من سورة الأنعام، حیث تقول: قَدْ جاءَکُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ و قـد طرحت هنا فی هـذه الآیـة ثلاثـة مواضیع: البصائر و الهـدی و الرحمة، و هی حسب التسلسل علة و معلول لبعضـها البعض، فإنّ الآیات الواضحة و الشریعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۹

المبصّرة تدفع الإنسان نحو الهدایة بدورها أساس رحمة اللّه.

و الجمیل فی الأمر أنّ الآیة تذکر أنّ البصائر لعامة الناس، أمّا الهدی و الرحمة فخصت الموقنین بهما، و یجب أن یکون الأمر کذلک، لأنّ آیـات القرآن لیست مقصورة علی قوم بـالخصوص، بـل یشترک فیهـا کلّ البشـر الـذین دخلوا فی کلمـة (الناس) فی کلّ زمان و مکان، غیر أنّ من الطبیعی أن یکون الهدی فرع الیقین، و أن تکون الرحمة ولیدته، فلا تشمل الجمیع حینئذ.

و علی أیـة حـال، فـإنّ ما تقوله الآیـة من أنّ القرآن عین البصـیرة، و عین الهدایـة و الرحمـة، تعبیر جمیل یعبر عن عظمـة هـذا الکتاب السماوی و تأثیره و عمقه بالنسبة لأولئک السالکین طریقه، و الباحثین عن الحقیقة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۰

الآیات [سورة الجاثیة (۴۵): الآیات ۲۱ الی ۲۳]

اشارة

أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ اجْتَرَحُوا السَّیِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ کَالَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْیاهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما یَحْکُمُونَ (۲۱) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۲۲) أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلی عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلی سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلی بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ یَهْدِیهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَکَّرُونَ (۲۳)

التّفسیر

لیسوا سواء محیاهم و مماتهم:

متابعـة للآیـات السابقـة التی کـان الکلاـم فیهـا یـدور حول فئتین همـا: المؤمنون و الکافرون، أو المتقون و المجرمون، فإنّ أولی هـذه الآیات قـد جمعتهما فی مقارنـة أصولیـة بینهما، فقالت: أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ اجْتَرَحُوا السَّیِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ کَالَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْیاهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما یَحْکُمُونَ

هل یمکن أن یتساوی النور و الظلمة، و العلم و الجهل، و الحسن و القبیح،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۱

و الإیمان و الکفر؟

هل یمکن أن تکون نتیجة هذه الأمور غیر المتساویة متساویة؟

کلا، فإنّ الأمر لیس کذلک، إذ المؤمنون ذوو الأعمال الصالحات یختلفون عن المجرمین الکافرین، و یفترقون عنهم فی کلّ شیء، إذ أنّ کلا من الإیمان و الکفر، و العمل الصالح و الطالح، یصبغ کلّ الحیاة بلونه.

و هـذه الآیة نظیر الآیة (۲۸) من سـورة ص، حیث تقول: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحـاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ

الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟

أو كالآيتين ۳۵، ۳۶، من سورة القلم حيث: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

«اجترحوا» فى الأصل من الجرح الذى يصيب بدن الإنسان أثر مرض ضرر، و لما كان ارتكاب الذنب و المعصية كأنّما يجرح روح المذنب، فقد استعملت كلمة الاجتراح بمعنى ارتكاب الذنب، و تستعمل أحيانا بمعنى أوسع يدخل فيه كلّ اكتساب. و إنّما يقال لأعضاء البدن: جوارح، لأنّ الإنسان يحقق مقاصده و رغباته بواسطتها، و يحصل على ما يريد، و يكتسب ما يشاء بواسطتها.

و على أية حال، فإنّ الآية تقول: إنّه لظن خاطئ أن يتصوروا أنّ الإيمان و العمل الصالح، أو الكفر و المعصية، لا يترك أثره فى حياة الإنسان، فإنّ حياة هذين الفريقين و مماتهم يتفاوتان تماما:

فالمؤمنون يتمتعون باطمئنان خاص فى ظل الإيمان و العمل الصالح، بحيث لا تؤثر فى نفوسهم أصعب الحوادث و أقساها، فى حين أنّ الكافرين و الملوثين بالمعصية و الذنوب مضطربون دائما، فإنّ كانوا فى نعمة فهم معذبون دائما من خوف زوالها و فقدانها، و إن كانوا فى مصيبة و شدّة فلا طاقة لهم على تحملها و مواجهتها.

و تصور الآية (۸۲) من سورة الأنعام حال المؤمنين، فتقول: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۲

يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

إنّ المؤمنين مطمئنون بمواعيد اللّه سبحانه، و هم يرتعون فى رحمته و لطفه: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

فنور الهداية يضيء قلوب الفريق الأوّل لتشرق بنور ربّها، فيسيرون بخطى ثابتة نحو هدفهم المقدس: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ[۱۹۰].

أمّا الفريق الثانى، فليس لديهم هدف واضح يطمحون إلى بلوغه، و لا هدى بيّن يسيرون فى ظله، بل هم سكارى تتقاذفهم أمواج الحيرة فى بحر الضلالة و الكفر:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ

هذا فى الحياة الدنيا، أما عند الموت الذى هو نافذة تطل على عالم البقاء، و باب للآخرة، فإنّ الحال كما تصوره الآية (۳۲) من سورة النحل حيث تقول:

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أمّا المجرمون الكافرون، فإنّ الآيتين (۲۸)- (۲۹) من سورة النحل تتحدثان معهم بأسلوب آخر، فتقولان: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

و خلاصة القول، فإنّ التفاوت و الاختلاف موجود بين هاتين الفئتين فى كافة شؤون الحياة و الموت، و فى عالم البرزخ و القيامة[۱۹۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۳

أمّا الآية التالية فإنّه فى الحقيقة تفسير لسابقتها و تعليل لها، إذ تقول: وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ فكل العالم يوحى بأنّ خالقه قد خلقه و جعله يقوم على محور الحق، و أن يحكم العدل و الحق كلّ مكان، و إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يجعل اللّه الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمجرمين الكافرين، فيكون هذا الأمر استثناء من قانون الخلقة؟

من الطبيعى أنّه يجب أن يتمتع أولئك الـذين يتحركون حركـة تنسـجم مع قانون الحق و العدالـة هـذا، و لا يحيدون عنه ببركات عالم الوجود و ينعمون بألطاف اللّه سبحانه، كما يجب أن يكون أولئك الـذين يسيرون عكس هـذا الطريق و يخالفون القانون طعمة للنّار المحرقة، و محطا لغضب اللّه عزّ و جلّ، و هذا ما تقتضيه العدالة.

و من هنـا يتّضـح أنّ العدالـة لاـ تعنى المسـاواة، بـل العدالـة أن يحصـل كلّ فرد على ما يناسـبه من المواهب و النعم حسب مؤهلاته و قابلياته.

و كـذلك فإنّ الآية الأخيرة من هذه الآيات توضيح و تعليل آخر لعدم المساواة بين الكافرين و المؤمنين، إذ تقول: أ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أ فَلا تَذَكَّرُونَ

و هنا سؤال يطرح نفسه، و هو: كيف يمكن أن يتخذ الإنسان إلهه هواه؟

غير أنّ من الواضح الجلى أنّ الإنسان عنـد ما يضرب صـفحا عن أوامر اللّه سبحانه، و يتبع ما تمليه عليه شـهواته، و يقدم طاعتها على طاعة اللّه سبحانه و يعتبر ذلك حقّا، فقد عبد هواه، و هذا عين معنى العبادة، إذ أنّ أحد المعانى المعروفة للعبادة هو الطاعة.

و قد ورد فى القرآن الكريم الكثير ممّا يبيّن هذا المعنى كعبادة الشيطان أو

عبادة أحبار اليهود، فيقول القرآن- مثلا- فى الآية (۶۰) من سورة يس: أ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِی آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ

و يقول فى الآية (۳۱) من سورة التوبة: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ

و

جاء فى حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السـلام أنهما قالا: «أما و اللّه ما صاموا لهم، و لا صلوا، و لكنّهم أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا، فاتبعوهم، و عبدوهم من حيث لا يشعرون»[۱۹۲].

غير أنّ بعض المفسّـرين يعتبر هذا التعبير إشارة إلى الوثنيين من قريش، الذين إذا ما عشـقوا شـيئا و أحبوه صنعوا على صورته صنما ثمّ عبدوه و عظموه، و كلما رأوا شـيئا آخر أعجبهم أكثر من صنمهم أعرضوا عن الأوّل و توجهوا إلى عبادة الثّانى، و على هذا فإنّ إلههم كان الشيء الذى ترتضيه أنفسهم و تهواه ۱۹۳].

إلّا أنّ تعبير: مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أكثر انسجاما مع التّفسير الأوّل.

أما فى مورد جملة: أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ فالتّفسير المعروف هو أنّ اللّه سبحانه قد أضلهم لعلمه بأنّهم لا يستحقون الهداية، و هو إشارة إلى أنّ هؤلاء قد أطفأوا بأيديهم كلّ مصابيح الهداية و حطموها، و أغلقوا فى وجوههم كلّ سبل النجاة، و دمروا وراءهم جسور العودة إلى طريق الحق، فعند ذلك سلبهم اللّه تعالى رحمته و لطفه، و أفقدهم القدرة على تشخيص الصالح من الطالح، و تركهم فى ظلمات لا يبصرون، و كأنّما ختم على قلبهم و سمعهم، و جعل على أبصارهم غشاوة.

و ما كلّ ذلك فى الحقيقة إلّا آثار لما اختط هؤلاء لأنفسهم من مسير، و نتيجة مشؤومة لعبادة الآلهة التى اتخذوها.

و لا صنم فى الحقيقة أخطر من إتباع هوى النفس الذى يوصد كلّ أبواب

الرحمة و طرق النجاة بوجه الإنسان؟ و كم هو بليغ و عميق

الحديث المروى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى اللّه من الهوى»[۱۹۴].

إلّا أنّ بعض المفسّـرين يعتبر هـذه الجملة إشارة إلى أنّ متبعى الهوى هؤلاء قد اختاروا طريق الضـلالة طريقا لهم عن علم و دراية، لأنّ العلم لا يقارن الهداية دائما، كما لا تكون الضلالة دائما قرينة الجهل.

إنّ العلم الـذى يتمسـك الإنسـان بلوازمه أسـاس الهدايـة، فعليه كى يصل إلى مراده و هـدفه أن يتحرك على هـدى هـذا العلم، و ألا

یکون کأولئک الکفار العنودین الذین قال بحقهم القرآن: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ۱۹۵][۱۹۶].
إلّا أنّ التّفسیر الأوّل هو الأنسب بملاحظة أنّ مرجع الضمائر فی الآیة إلی اللّه سبحانه، لأنّها تقول: أَضَلَّهُ اللَّهُ (عَلى عِلْمٍ) وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ
ممّا قلناه یتّضح جیدا أنّ الآیة تدل- من قریب أو بعید- علی مذهب الجبریة، بل هی تأکید علی أصل الإختیار و تعیین الإنسان مصیره بنفسه.
لقد أوردنا بحوثا أکثر تفصیلا و إیضاحا حول ختم اللّه علی قلب الإنسان و سمعه، و إلقاء الغشاوة علی قلبه فی ذیل الآیة (۷) من سورة البقرة[۱۹۷].

***

ملاحظات

۱- أخطر الأصنام صنم هوی النفس

قرأنا فی حدیث أنّ أبغض الآلهة إلی اللّه هوی النفس، و لا مبالغة فی هذا الحدیث قط، لأنّ الأصنام العادیة موجودات لا خصائص لها و لا صفات فعالة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۶

مهمة، أما صنم الهوی و أتباعه، فإنّه یغوی الإنسان و یسوقه إلی ارتکاب أنواع المعاصی، و الانزلاق فی هاویة الانحراف.
و بصورة عامّة، یمکن القول بأنّ لهذا الصنم من الخصوصیات ما جعله مستحقا لصفة أبغض الآلهة و الأصنام، فهو یزین القبائح و السیئات فی نظر الإنسان حتی یصل إلی درجة یفخر عندها بتلک الأعمال الطالحة، و یکون مصداقا لقوله تعالی:
وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً[۱۹۸].
۲- أفضل طریق لنفوذ الشیطان هو اتباع الهوی: فما دام الشیطان لا یمتلک قاعدة و أساسا یستند إلیه فی داخل الإنسان، فلا قدرة له علی الوسوسة و دفع الإنسان الی الانحراف و المعصیة، و ما تلک القاعدة و الأساس إلّا اتباع الهوی و هو ذات الشیء الذی أسقط الشیطان و أرداه، و طرده من صف الملائکة، و أبعده عن مقام القرب من اللّه.
۳- إنّ اتباع الهوی یسلب الإنسان أهم وسائل الهدایة، و هی الإدراک الصحیح للحقائق، و یلقی الحجب علی عقل الإنسان و عینه، و قد أشارت هذه الآیات إلی هذا الموضوع بصراحة بعد ذکر مسألة اتباع الهوی و اتخاذه إلها، و آیات القرآن الأخری شاهدة علی هذه الحقیقة أیضا.
۴- إنّ اتباع الهوی یوصل الإنسان إلی مرحلة محاربة اللّه- و العیاذ باللّه- کما ابتلی بها إمام عباد الهوی- أی الشیطان الرجیم- فاعترض علی حکمة اللّه سبحانه لمّا أمره بالسجود لآدم، و اعتبره أمرا عاریا عن الحکمة! ۵- عواقب اتباع الهوی مشؤومة و ألیمة، بحیث أنّ لحظة من لحظات اتباع الهوی قد یصاحبها عمر من الندامة و الأسف و الحسرة، و لحظة- یتبع فیها الهوی- قد تجعل کلّ حسنات الإنسان و أعماله الصالحة التی عملها طوال عمره هباء منثورا، و لذلک ورد التأکید علی الحیطة و الیقظة فی هذا الأمر و التحذیر الشدید منه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۷

فی آیات القرآن و الرّوایات الإسلامیة.

فقد ورد فی الحدیث المعروف عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إن أخوف ما أخاف علی أمتی الهوی و طول الأمل، أما الهوی فإنّه یصد عن الحق، و أمّا طول الأمل فینسی الآخرة»[۱۹۹].

و

فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه سئل: أی سلطان أغلب و أقوی؟ قال: «الهوی»[۲۰۰].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام زین العابدین علیه السّلام: «إن اللّه تعالی یقول:

و عزتی و عظمتی، و جلالی و بهائی، و علوی و ارتفاع مکانی، لا یؤثر عبد هوای علی هواه إلّا جعلت همه فی آخرته، و غناه فی قلبه، و کففت عنه ضیعته، و ضمنت السماوات و الأرض رزقه، و أتته الدنیا و هی راغمة»[۲۰۱].

و

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «احذروا أهواءکم کما تحذرون أعداءکم، فلیس شیء أعدی للرجال من اتباع أهوائهم و حصائد ألسنتهم»[۲۰۲].

و أخیرا

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنی لأرجو النجاة لهذه الأمة لمن عرف حقنا منهم إلّا لأحد ثلاثة: صاحب سلطان جائر، و صاحب هوی، و الفاسق المعلن»[۲۰۳].

و فی هذا الباب آیات و روایات کثیرة غنیة المضمون.

و ننهی هذا الحدیث بجملة عمیقة المعنی ذکرها البعض کسبب نزول، و کشاهد علی مرادنا، فیقول أحد المفسّرین: طاف أبو جهل بالبیت ذات لیلة و معه الولید بن المغیرة، فتحدثا فی شأن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فقال أبو جهل: و اللّه إنی لأعلم أنّه صادق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۸

فقال له: مه، و ما دلک علی ذلک؟

قال: یا أبا عبد شمس، کنا نسمیه فی صباه الصادق الأمین، فلما تم عقله، و کمل رشده نسمیه الکذاب الخائن! و اللّه إنی لأعلم أنّه صادق.

قال: فما یمنعک من أن تصدقه و تؤمن به؟

قال: تتحدث عنی بنات قریش أنی اتبعت یتیم أبی طالب من أجل کسرة! و اللات و العزی لن أتبعه أبدا.

فنزلت الآیة: وَ خَتَمَ عَلی سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ ۲۰۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۹

الآیتان [سورة الجاثیة (۴۵): الآیات ۲۴ الی ۲۵]

اشارة

وَ قالُوا ما هِیَ إِلاَّ حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما یُهْلِکُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ یَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ ما کانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۲۵)

التّفسیر

عقائد الدهريين:

في هذه الآيات بحث آخر حول منكرى التوحيد، غاية ما هناك أنّه ذكر هنا اسم جماعة خاصّة منهم، و هم «الدهريون» الذين ينكرون وجود صانع حكيم لعالم الوجود مطلقا، في حين أنّ أكثر المشركين كانوا يؤمنون ظاهرا باللّه، و كانوا يعتبرون الأصنام شفعاء عند اللّه، فتقول الآية أولا: وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا فكما يموت من يموت منا، يولد من يولد منّا و بذلك يستمر النسل البشرى: وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ و بهذا فإنّهم ينكرون المعاد كما ينكرون المبدأ، و الجملة الأولى ناظرة إلى إنكارهم المعاد، أمّا الجملة الثانية فتشير إلى إنكار

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۰

المبدأ.

و الجدير بالانتباه أنّ هذا التعبير قد ورد في آيتين أخريين من آيات القرآن الأخرى، فنقرأ في الآية (۲۹) من سورة الأنعام: وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

و جاء في الآية (۳۷) من سورة المؤمنون: إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

إلّا أنّ التأكيد في الآيتين على إنكار المعاد و حسب، و لم يرد إنكار المبدأ و المعاد معا إلّا في هذه الآية مورد البحث.

و من الواضح أنّ هؤلاء إنّما كانوا يؤكدون على المعاد أكثر من المبدأ لخوفهم و اضطرابهم منه الذى قد يغير مسير حياتهم المليئة بالشهوات و الخاضعة لها.

و قد ذكر المفسّرون عدّة تفاسير لجملة نَمُوتُ وَ نَحْيا:

الأوّل: و هو ما ذكرناه، بأنّ الكبار يغادرون الحياة ليحل محلهم المواليد.

الثّاني: أنّ الجملة من قبيل التأخير و التقديم، و معناها: إنّنا نحيا ثمّ نموت، و لا شيء غير هذه الحياة و الموت.

الثّالث: أنّ البعض يموتون و يبقى البعض الآخر، و إن كان الجميع سوف يموتون في النهاية.

الرّابع: أننا كنا في البداية أموات لا روح فينا، ثمّ منحنا الحياة و دبت فينا.

غير أنّ التّفسير الأوّل هو أنسب الجميع و أفضلها.

و على أية حال، فإنّ جماعة من الماديين في العصور الخالية كانوا يعتقدون أنّ الدهر هو الفاعل أو الزمان في هذا العالم- أو بتعبير جماعة آخرين: إنّ الفاعل هو دوران الأفلاك و أوضاع الكواكب- و كانوا ينهون سلسلة الحوادث إلى الأفلاك، و يعتقدون أنّ كلّ ما يقع في هذا العالم بسببها[۲۰۵]، حتى أنّ جماعة من فلاسفة

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۱

الدهريين و أمثالهم كانوا يقولون بوجود عقل للأفلاك، و يعتقدون أنّ تدبير هذا العالم بيدها.

إن هذه العقائد الخرافية انقرضت بمرور الزمان، خاصّة و قد ثبت بتقدم علم الهيئة عدم وجود شيء باسم الأفلاك- الكرات المتداخلة الصافية- في الوجود الخارجي أصلا، و أن لنجوم العالم العلوى بناء كبناء الكرة الأرضية بتفاوت ما غاية في الأمر أنّ بعضها مظلم و يكتسب نوره من الكرات الأخرى، و بعضها الآخر مشتعل و منير.

إنّ الدهريين كانوا يذمون الدهر و يسبونه أحيانا عند ما تقع حوادث مرّة مؤلمة.

غير أنّه

ورد في الأحاديث الإسلامية عن النّبي الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم «لا تسبوا الدهر، فإنّ اللّه هو الدهر»[۲۰۶]،

و هو إشارة إلى أنّ الدهر لفظ ليس إلّا، فإنّ اللّه سبحانه هو مدبر هذا العالم و مديره، فإنّكم إنّ أسأتم القول بحق مدبر هذا العالم و

مدیره، فقد أسأتم بحق اللّه عزّ و جلّ من حیث لا تشعرون.

و الشاهد علی هذا الکلام حدیث آخر

روی کحدیث قدسی عن اللّه تعالی أنّه قال: «یؤذینی ابن آدم یسب الدهر، و أنا الدهر! بیدی الأمر، أقلب اللیل و النهار»[۲۰۷].

لکن قد استعمل الدهر فی بعض التعبیرات بمعنی أبناء الأیّام، و أهل الزمان الذین شکا العظماء من عدم وفائهم، کما نقل فی الشعر المنقول عن الإمام الحسین علیه السّلام، حیث أنشد لیلة عاشوراء:

یا دهر أف لک من خلیل* کم لک بالإشراق و الأصیل من صاحب و طالب قتیل* و الدهر لا یقنع بالقلیل

و علی هذا فللدهر معنیان: الدهر بمعنی الأفلاک و الأیّام، و الذی کان محل

اهتمام الدهریین، حیث کانوا یظنونه حاکما علی نظام الوجود و حیاة البشر.

و الدهر بمعنی أهل العصر و الزمان و أبناء الأیّام.

و من المسلّم أنّ الدهر بالمعنی الأوّل أمر وهمی، أو نقول أنّه اشتباه فی التعبیر حیث أطلق اسم «الدهر» بدل اسم اللّه المتعالی الحاکم علی کلّ عالم الوجود. أمّا الدهر بالمعنی الثّانی فهو الشیء الذی ذمه کثیر من الأئمة و العظماء، لأنّهم کانوا یرون أهل زمانهم خادعین مذبذبین لا وفاء لهم.

علی أیة حال، فإنّ القرآن الکریم أجاب هؤلاء العبثیین بجملة وجیزة عمیقة، تلاحظ فی موارد أخری من القرآن الکریم أیضا، فقال: وَ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَظُنُّونَ

و قد ورد نظیر هذا المعنی فی الآیة (۲۸) من سورة النجم فی من یظنون أنّ الملائکة بنات اللّه سبحانه: وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا یُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَیْئاً.

و قد ورد هذا المعنی أیضا فی القول بقتل المسیح، النساء- ۱۵۷، و عقیدة مشرکی العرب فی الأصنام، یونس- ۶۶.

و هذا أبسط و أوضح دلیل یلقی علی هؤلاء بأنّکم لا تملکون أی شاهد أو دلیل منطقی علی مدعاکم، بل تستندون فی دعواکم إلی الظن و التخمین فقط.

و أشارت الآیة التالیة إلی إحدی ذرائع هؤلاء الواهیة و حججهم الباطلة فیما یتعلق بالمعاد، فقالت: وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ ما کانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ ۲۰۸].

کان هؤلاء یرددون أنّ إذا کان حیاة الأموات و بعثهم حقّا فأحیوا آباءنا کنموذج لادعائکم، حتی نعرف مدی صدقکم، و لنسألهم عمّا یجری بعد الموت، و هل یصدّقون ما تقولونه أم یکذبونه؟

نعم، هذا هو دلیلهم الأجوف لأنّ اللّه سبحانه قد أبان للبشر قدرته علی إحیاء الأموات بطرق مختلفة، فإنشاء أوّل الإنسان من التراب، و تحولات النطفة العجیبة فی الرحم، و خلق السماء الواسعة و الأرض، و إحیاء الأراضی المیتة بعد هطول الأمطار علیها، ذکرت کلها کأسانید حیة علی إمکان القیامة و البعث الجدید، و کأفضل دلیل علی هذا المعنی، و بعد کلّ هذا لا حاجة إلی دلیل آخر.

و بغض النظر عن ذلک، فإنّ هؤلاء کانوا قد أثبتوا أنّهم لا هدف لهم إلّا التذرع و التوسل بالحجج، للاستمرار فی ضلالهم و اعتقادهم المنحرف، فإذا کشف لهم عن مشهد إحیاء الأموات فرضا فرأوه بأم أعینهم، فإنّهم سیقولون مباشرة: إنّه سحر، کما قالوا ذلک فی الموارد المشابهة.

إنّ التعبیر ب «الحجة» فی مورد قول هؤلاء الفارغ هو کنایة فی الحقیقة عن أنّ هؤلاء لا دلیل لهم إلّا عدم الدلیل.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۴

الآیات [سورة الجاثیة (۴۵): الآیات ۲۶ الی ۳۱]

اشارة

قُلِ اللَّهُ یُحْیِیکُمْ ثُمَّ یُمِیتُکُمْ ثُمَّ یَجْمَعُکُمْ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ لا رَیْبَ فِیهِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لِلَّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یَوْمَئِذٍ یَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَری کُلَّ أُمَّةٍ جاثِیَةً کُلُّ أُمَّةٍ تُدْعی إِلی کِتابِهَا الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) هذا کِتابُنا یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا کُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹) فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَیُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِی رَحْمَتِهِ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِینُ (۳۰)

وَ أَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا أَ فَلَمْ تَکُنْ آیاتِی تُتْلی عَلَیْکُمْ فَاسْتَکْبَرْتُمْ وَ کُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِینَ (۳۱)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۵

التّفسیر

الکلّ جاث فی محکمة العدل الإلهی:

هـذه الآیات فی الحقیقـة جواب آخر علی کلام الـدهریین، الـذین کانوا ینکرون المبـدأ و المعاد، و قد أشـیر إلی کلامهم، فی الآیات السابقة، فتقول الآیة أوّلا: قُلِ اللَّهُ یُحْیِیکُمْ ثُمَّ یُمِیتُکُمْ ثُمَّ یَجْمَعُکُمْ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ لا رَیْبَ فِیهِ

لم یکن هؤلاء یعتقدون باللّه و لا بالیوم الآخر، و محتوی هذه الآیة استدلال علیهما معا، حیث أکّدت علی مسألة الحیاة الأولی. و بتعبیر آخر، فـإنّ هؤلاء لا یسـتطیعون أن ینکروا أصل وجود الحیاة الأولی، و نشأة الموجودات الحیـة من موجودات میتـة، و هـذا یشـکل من جهـة دلیلا علی وجود عقل و علم کلی شامل، إذ هل یمکن أن توجـد الحیاة علی هـذه الهیئـة المدهشـة، و التنظیم الـدقیق و الأسـرار العجیبة المعقدة، و الصور المتعددة، و التی أذهلت عقول کلّ العلماء، من دون أن یکون لها خالق قادر عالم؟

و لهذا نری آیات القرآن المختلفة تؤکّد علی مسألة الحیاة کأحد آیات التوحید و أدلته البینة.

و من جهة أخری، تقول لهم: کیف یکون القادر علی إنشاء الحیاة الأولی عاجزا عن إعادتها ثانیا؟

أمّا التعبیر ب لا رَیْبَ فِیهِ حول القیامـة، و الـذی یخبر عن حتمیة وقوعها و حدوثها، لا عن إمکانها، فهو إشارة إلی قانون العدل الإلهی، حیث لم یصـل کلّ صاحب حق الی حقّه فی هـذه الحیاة الـدنیا، و لم یلاق کلّ المعتـدین و الظالمین جزاءهم، و لو لا محکمـة القیامة العادلة، فإن العدالة الإلهیة لا مفهوم لها حینئذ.

و لما کان کثیر من الناس لا یتأمل هذه الدلائل و لا یدقق النظر فیها، فإنّ الآیة تضیف فی النهایة: وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ

إن أحد أسماء یوم القیامة المار ذکره فی هذه الآیة هو: یَوْمَ الْجَمْعِ لأنّ جمیع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۶

الخلق من الأولین و الآخرین، و علی اختلاف طبقات البشـر و أصـنافهم یجمعون فی ذلک الیوم فی مکان واحـد. و قد ورد هذا التعبیر فی عدّة آیات أخری من القرآن الکریم أیضا، و من جملتها الشوری- ۷، و التغابن- ۹.

أمّـا الآیـة التالیـة فهی دلیـل آخر علی مسألـة المعاد، و قـد قرأنا الشـبهة المطروحـة حوله فی آیات القرآن الأخری، فتقول: وَ لِلَّهِ مُلْکُ السَّمـاواتِ وَ الْـأَرْضِ فلمـا کـان مالکـا لتمام عالم الوجود الواسع و حاکما علیه، فمن المسـلم أن یکون قادرا علی إحیاء الموتی، و مع

وجود تلک القدرة المطلقة لا تکون عملیة الإحیاء بالأمر العسیر.

لقد جعل اللّه سبحانه هذا العالم مزرعة للآخرة، و متجرا وافر الربح إلی ذلک العالم، و لذلک یقول سبحانه فی نهایة الآیة: وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یَوْمَئِذٍ یَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ لأنّهم فقدوا رأس مالهم- و هو العمر- و لم یتجروا فیه، و لم یشتروا متاعا إلّا الحسرة و الندم.

إنّ الحیاة و العقل و الذکاء و مواهب الحیاة الأخری هی رأس مال الإنسان فی سوق التجارة هذا، لکن اتباع الباطل یبادلونه بمتاع فان سریع الزوال، و لذلک فإنّهم حین یأتون یوم القیامة، یوم لا ینفع إلّا القلب السلیم و الإیمان و العمل الصالح سیرون خسارتهم الباهظة بأم أعینهم، و لات ساعة مندم.

«یخسر» من الخسران، و هو فقدان رأس المال، و ینسب أحیانا إلی نفس الإنسان- کما یقول الراغب فی المفردات- فیقال: خسر فلان، و أحیانا إلی تجارته فیقال: خسرت تجارته.

و مع أنّ أبناء الدنیا لا یستعملون هذا التعبیر إلّا فی موارد المال و المقام و المواهب المادیة، مع أنّ الأهم من الخسارة المادیة هو فقدان رأس مال العقل و الإیمان و الثواب.

أمّا «المبطل»- من مادة «إبطال»- فلها فی اللغة معان مختلفة، کإبطال الشیء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۷

و الکذب، و الاستهزاء و المزاح، و طرح أمر باطل و ذکره، و کلّ هذه المعانی یمکن أن تقبل فی مورد الآیة.

الأشخاص الذین أبطلوا الحق، و الذین نشروا عقیدة الباطل و أهدافه، و الذین کذبوا أنبیاء اللّه، و سخروا من کلامهم، سیرون خسرانهم المبین فی ذلک الیوم.

و تجسّد الآیة التالیة مشهد القیامة بتعبیر بلیغ مؤثر جدّا، فتقول: وَ تَری کُلَّ أُمَّةٍ جاثِیَةً.

یستفاد من بعض کلمات المفسّرین أنّ أصحاب الدعوی فی الماضی کانوا یجلسون علی هذه الهیئة فی مجلس القضاء لیمیزوا عن الآخرین، و سیجثو الجمیع یوم القیامة فی تلک المحکمة الکبری لتتم محاکمتهم.

و یمکن أیضا أن یکون هذا التعبیر علامة علی استعدادهم لتقبل أی أمر أو حکم یصدر بحقّهم، لأنّ من کان علی أهبة الاستعداد یجثو علی الرکب.

أو أنّه إشارة إلی ضعف هؤلاء و عجزهم و خوفهم و اضطرابهم الذی سیعانونه.

و جمع کلّ هذه المعانی فی مفهوم الآیة ممکن أیضا.

و للجاثیة معان أخری، من جملتها الجمع الکثیر المتراکم، أو جماعة جماعة، و یمکن أن تکون إشارة إلی تراکم البشر و ازدحامهم فی محکمة العدل الإلهی، أو جلوس کلّ أمة و فئة علی حدة و بمعزل عن الأمم الأخری. إلّا أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب و الأشهر.

ثمّ تبیّن الآیة ثانی مشاهد القیامة، فتقول: کُلُّ أُمَّةٍ تُدْعی إِلی کِتابِهَا الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فإنّ هذا الکتاب صحیفة أعمال سجلت فیها کلّ الحسنات و السیئات، و القبائح و الأفعال الجمیلة، و أقوال الإنسان و أعماله، و علی حدّ تعبیر القرآن الکریم: لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصاها[۲۰۹].

و تعبیر کُلُّ أُمَّةٍ تُدْعی إِلی کِتابِهَا یوحی بأنّ لکلّ أمة کتابا یتعلق بأفرادها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۸

جمیعا، إضافة إلی صحیفة الأعمال الخاصّة بکلّ فرد و لا یبدو هذا الأمر عجیبا إذا علمنا أنّ للإنسان نوعین من الأعمال: الأعمال الفردیة، و الأعمال الجماعیة، و لذلک فإن وجود نوعین من صحائف الأعمال یبدو طبیعیا جدّا من هذه الناحیة[۲۱۰].

و التعبیر ب «تدعی» یوحی بأنّ هؤلاء یدعون إلی قراءة ما فی کتبهم، و هذا المعنی نظیر ما ورد فی الآیة (۱۴) من سورة الإسراء: اقْرَأْ کِتابَکَ کَفی بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً.

ثمّ يأتيهم الخطاب من قبل اللّه مرّة أخرى، فيقول مؤكّدا: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ فقد كنتم تفعلون كلّ ما يحلو لكم، و لم تكونوا تصدقون مطلقا أنّ كلّ أعمالكم هذه تسجل فى مكان ما، و لكن إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

«نستنسخ» من مادة «استنساخ»، و هى فى الأصل مأخوذة من النسخ، و هو إزالة الشيء بشيء آخر، فيقال مثلا: نسخت الشمس الظل. ثمّ استعملت فى كتابة كتاب عن كتاب آخر من دون أن يمحى الكتاب الأوّل.

و هنا يبدو سؤال، و هو: إذا كان اللّه سبحانه قد أمر باستنساخ أعمال ابن آدم، ذلك يستلزم أن يكون هناك كتاب قبل النسخ تكتب فيه تلك الأعمال؟ و لذلك فإنّ البعض يعتقد أنّ صحائف أعمال كلّ البشر قد كتبت فى اللوح المحفوظ، و الملائكة الموكلون بحفظ أعمال الإنسان يستنسخونها من ذلك اللوح المحفوظ.

إلّا أنّ هذا المعنى لا يتلاءم كثيرا مع الآية مورد البحث، بل الملائم أحد معنيين هما: إمّا أن يكون الاستنساخ هنا بمعنى أصل الكتابة- كما قاله بعض المفسّرين- أو أنّ نفس أعمال الإنسان كالكتاب التكوينى تنسخ عنه الملائكة الحفظة و تصوره، و لذلك فقد ورد فى آيات أخر من القرآن الكريم التعبير بالكتابة بدل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۹

الاستنساخ، كما نقرأ ذلك فى الآية (۱۲) من سورة يس: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ ۲۱۱].

و قد ورد تفصيل أوسع حول أنواع الكتب التى تسجل فيها الأعمال- صحيفة الأعمال الشخصية، و صحيفة أعمال الأمم، و الكتاب الجامع العام لكلّ أفراد البشر- فى ذيل الآية (۱۲) من سورة يس.

و تبيّن الآية التالية الجلسة الختامية للمحكمة و إصدار قرار الحكم، حيث تنال كلّ فئة جزاء أعمالها، فتقول: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ

إن ذكر «فاء التفريع» هنا دليل على أنّ نتيجة حفظ الأعمال و المحاسبة و تلك المحكمة الإلهية العادلة، هى دخول المؤمنين فى رحمة اللّه سبحانه.

و طبقا لهذه الآية، فإنّ الإيمان- وحده- غير كاف لأنّ يجعل المؤمنين يتنعمون بهذه الموهبة العظيمة و العطية الجزيلة، بل إنّ العمل الصالح شرط لذلك أيضا.

و التعبير ب «ربّهم» يحكى عن لطف اللّه الخاص، يكتمل بتعبير «الرحمة» بدل «الجنّة».

و تبلغ بهم نهاية الآية أوج الكمال حينما تقول: ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

إنّ ل «رحمة اللّه» معنى واسعا يشمل الدنيا و الآخرة، و قد أطلقت فى آيات القرآن الكريم على معان كثيرة، فتارة تطلق على مسألة الهداية، و أخرى على الإنقاذ من قبضة الأعداء، و ثالثة على المطر الغزير المبارك، و رابعة على نعم أخرى كنعمة النور و الظلمة، و أطلقت فى موارد كثيرة على الجنّة و مواهب اللّه سبحانه فى القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۰

جملة ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ تكررت مرّة أخرى فى الآية (۱۶) من سورة الأنعام، غاية ما هناك أنّ الفوز المبين قيل هناك لأولئك الذين ينجون من عذاب اللّه عزّ و جلّ: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ أمّا هنا فقد قيلت فيمن دخل الجنّة و فى رحمة اللّه، و كلاهما فى الواقع فوز عظيم: النجاة من العذاب، و الدخول فى مستقر رحمة اللّه سبحانه.

و هنا قد يرد هذا السؤال، و هو: هل أنّ المؤمنين الذين ليس لهم عمل صالح لا يدخلون الجنّة؟

و الجواب: إنّهم يدخلونها لكن بعد أن يروا جزاءهم فى جهنم حتى يطهروا، فإنّ الذين يردون مستقر رحمة اللّه هذا بعد الحساب مباشرة هم أصحاب العمل الصالح مضافا إلى إيمانهم، و حسب.

كلمة «الفوز»- كما يقول الراغب فى مفرداته- تعنى الظفر المقترن بالسلامة، و قد استعملت فى (۱۹) موردا من آيات القرآن المجيد،

فوصف الفوز مرّة بالمبين، و أخرى بالكبير، أمّا فى غالب الآيات فقد وصف بالعظيم. و هو مستعمل عادة فى شأن الجنّة، إلّا أنّه استعمل فى بعض الموارد فى شأن التوفيق لطاعة اللّه و مغفرة الذنوب و أمثال ذلك.

و تذكر الآية الآتية مصير من يقع فى الطرف المقابل لأولئك السابقين، فتقول:

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ

و ممّا يلفت النظر أنّ الكلام فى هذه الآية عن الكفر فقط، و أمّا أعمال السوء التى هى عامل الدخول فى عذاب اللّه و سببه فلم يجر لها ذكر، و ذلك لأنّ الكفر وحده كاف لأنّ يدخل صاحبه العذاب، أو لأنّ التعبير بالمجرمين فى ذيل الآية كاف لبيان هذا المعنى.

و النكتة الأخرى هنا أنّه لم يرد كلام عن عقوبات الجحيم، بل الكلام عن التوبيخ الإلهى لهم و تقريعهم، و هو يعتبر أشد العذاب و أكبره، و تهون معه الجحيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۱

كلّ عذابها.

و هنا نكتة تستحق الانتباه، و هى: أنّه يستفاد من هذه الآية أنّ اللّه سبحانه لن يعذب أحدا من دون أن يبعث الأنبياء و يرسل الرسل و ينزل آياته- أو كما يصطلح عليه تأكيد أحكام العقل بأحكام الشرع- و هذا منتهى لطفه و رحمته سبحانه.

و آخر ملاحظة هى أنّ أكبر مشاكل هؤلاء القوم هو استكبارهم على آيات اللّه من جهة، و تماديهم فى المعصية و الإجرام من جهة أخرى، و هذا يستفاد من جملة وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۲

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۳۲ الى ۳۷]

اشارة

وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (۳۲) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۳) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۴) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۳۶)

وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳۷)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۳

التّفسير

يوم تبدو السيئات:

الآية الأولى من هذه الآيات توضيح لما ذكر فى الآيات السابقة بصورة مجملة، توضيح لمسألة استكبار الكافرين على آيات اللّه و دعوة الأنبياء، فتقول:

وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ

التعبیر ب ما نَدْرِی مَا السَّاعَةُ فی حین أنّ معنی القیامة لم یکن غامضا علیهم أو مبهما، و إن کان شک کلّ لدیهم ففی وجودها، ممّا یوحی بأنّهم کانوا فی موضع تکبر و عدم اهتمام، و لو کانت لدی هؤلاء روح تتبع الحق و طلبه لرأوا أنّ ماهیة یوم القیامة أمر واضح، کما أنّ الدلیل علیها بیّن جلی. و من هنا یتّضح الجواب عن سؤال طرح هنا، و هو: أنّ هؤلاء إنّ کانوا- حقا- فی شکّ الأمر، فلا تثریب علیهم و لا إثم؟ لکن الشک لم یکن ناشئا من عدم وضوح الحق، بل ناتج عن الکبر و الغرور و العناد التعصب.

و یحتمل أیضا أن یکون هدفهم من تهافت کلامهم و تناقضه السخریة و الاستهزاء.

و تتحدث الآیة التالیة عن جزاء هؤلاء و عقابهم، ذلک الجزاء الذی لا یشبه عقوبات المحاکم الدنیویة، فتقول: وَ بَدا لَهُمْ سَیِّئاتُ ما عَمِلُوا فستتجسد القبائح و السیئات أمام أعینهم، و تتّضح لهم، و تکون لهم قرینا دائما یتأذون من وجوده إلی جانبهم و یتعذبون من صحبته: وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ ۲۱۲].

و الأشد ألما من کلّ ذلک هو الخطاب الذی یخاطبهم به اللّه الرحمن الرحیم، فیقول سبحانه: وَ قِیلَ الْیَوْمَ نَنْساکُمْ کَما نَسِیتُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هذا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۴

لقد ورد هذا التعبیر بصیغ مختلفة فی القرآن الکریم مرارا، ففی الآیة (۵۱) من سورة الأعراف: فَالْیَوْمَ نَنْساهُمْ کَما نَسُوا لِقاءَ یَوْمِهِمْ هذا.

و جاء هذا المعنی أیضا بأسلوب آخر فی الآیة (۱۴) من سورة ألم السجدة.

لا شک أنّ النسیان لا معنی له بالنسبة إلی اللّه سبحانه الذی یحیط علمه بکلّ عالم الوجود، لکنّه هنا کنایة لطیفة عن احتقار الإنسان المجرم العاصی و عدم الاهتمام به، و یلاحظ هذا التعبیر حتی فی محادثاتنا الیومیة، فنقول: انس فلانا الذی لا ـ وفاء له، أی عامله کإنسان منسی، و لا تمنحه المحبة و العطف و الوداد، و اترک تفقد أحواله، و لا تذهب إلیه أبدا.

ثمّ إنّ هذا التعبیر تأکید آخر- بصورة ضمنیة- علی مسألة تجسم الأعمال، و تناسب الجریمة و العقاب، لأنّ نسیانهم یوم القیامة فی الدنیا یؤدی إلی أن ینساهم اللّه یوم القیامة، و ما أعظم مصیبة نسیان اللّه الرحمن الرحیم لفرد من الأفراد، و حرمانه من جمیع ألطافه و مننه.

و ذکر المفسّرون هنا تفاسیر مختلفة للنسیان تتلخص جمیعا فی المعنی المذکور أعلاه، و لذلک لا نری حاجة لتکرارها.

ثمّ إنّ المراد من نسیان لقاء یوم القیامة، نسیان لقاء کلّ المسائل و الحوادث التی تقع فی ذلک الیوم، سواء الحساب أم غیره، حیث کانوا ینکرونها.

و یحتمل أیضا أن یکون المراد نسیان لقاء اللّه سبحانه فی ذلک الیوم، لأنّ یوم القیامة قد وصف فی القرآن المجید بیوم لقاء اللّه، و المراد منه الشهود الباطنی.

و تتابع الآیة الحدیث، فتقول: وَ مَأْواکُمُ النَّارُ و إذا کنتم تظنون أنّ أحدا سیهب لنصرتکم و غوثکم، فاقطعوا الأمل من ذلک، و اعلموا أنّه وَ ما لَکُمْ مِنْ ناصِرِینَ

أمّا لماذا ابتلیتم بمثل هذا المصیر؟ ف ذلِکُمْ بِأَنَّکُمُ اتَّخَذْتُمْ آیاتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْکُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا.

و أساسا فإنّ «الغرور» و «الاستهزاء» لا ینفصلان عن بعضهما عادة، فإنّ الأفراد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۵

المغرورین و المتکبرین الذین ینظرون إلی الآخرین بعین الاحتقار یتخذونهم هزوا و یسخرون منهم، و مصدر الغرور فی الواقع هو متاع الدنیا و قدرتها و ثروتها الزائلة المؤقتة، و التی تدع الأفراد الضیقی الصدور فی غفلة تامة لا یعیرون معها لدعوة رسل اللّه أدنی اهتمام، و لا یکلفون أنفسهم حتی النظر فیها للوقوف علی صوابها من عدمه.

و تکرر الآیة ما ورد فی الآیة السابقة و تؤکّده بأسلوب آخر، فتقول:

فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۲۱۳]، فقد كان الكلام هناك عن مأواهم و مقرهم الثابت، و الكلام هنا عن عدم خروجهم من النّار .. حيث قال هناك: ما لهم من ناصرين، و هنا يقول: لا يقبل منهم عذر، و النتيجة هى أنّ لا سبيل لنجاتهم.

و فى نهاية هذه السورة، و لإكمال بحث التوحيد و المعاد، و الذى كان يشكل أكثر مباحث هذه السورة، تبيّن الآيتان الأخيرتان وحدة ربوبية اللّه و عظمته، و قدرته و حكمته، و تذكر خمس صفات من صفات اللّه سبحانه فى هذا الجانب، فتقول أولا: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ لأنّه رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ

«الرّب» بمعنى المالك و المدبر، و الحاكم و المصلح، و بناء على هذا فكلّ خير و بركة تأتى منه سبحانه و لذلك، ترجع إليه كلّ المحامد و الثناء، فحتى الثناء على الورد، و صفاء العيون، و عذوبة النسيم، و جمال النجوم، حمد له و ثناء عليه، فإنّها جميعا تصدر عنه، و تنمو بفضله و رعايته.

و الطريف أنّه يقول مرّة: ربّ السماوات، و أخرى: ربّ الأرض، و ثالثة: ربّ عالم الوجود و العالمين، ليفند الإعتقاد بالآلهة المتعددة التى جعلوها للموجودات المختلفة، و يدعو الجميع إلى توحيد اللّه سبحانه و الإعتقاد بأحديته.

و بعد وصف ذاته المقدسة بمقام الحمد و الربوبية، تضيف الآية فى الصفة الثالثة:

وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لأنّ آثار عظمته ظاهرة فى السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۶

المترامية الأطراف، و الأرض الواسعة الفضاء، و فى كلّ زاوية من زوايا العالم.

لقد كان الكلام فى الآية السابقة عن مقام الربوبية، أى كونه تعالى مالكا لأمور عالم الوجود و مدبرا لها، و الكلام هنا عن عظمته، فكلما دققنا النظر فى خلق السماء و الأرض و تأملناه، سنزداد معرفة بهذه الحقيقة، و تزداد بصيرتنا بها.

و أخيرا تقول الآية فى الوصفين الرابع و الخامس: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ و بذلك تكمل مجموعة العلم و القدرة و العظمة و الربوبية و المحمودية، و التى هى مجموعة من أهم صفات اللّه، و أسمائه الحسنى.

و لعلها تشير إلى أن: له الحمد فاحمدوه، و هو الرب فاشكروا له، و له الكبرياء فكبروه، و هو العزيز الحكيم فأطيعوه.

و بوصف اللّه سبحانه بالعزيز و الحكيم تنتهى سورة الجاثية كما بدأت بهما، و كل محتواها و ما تضمنته شاهد على عزّة اللّه سبحانه و حكمته السامية.

اللّهمّ، إنا نقسم عليك بكبريائك و عظمتك، و بمقام ربوبيتك، و عزتك و حكمتك، تثبت أقدامنا فى طريق طاعة أوامرك.

اللّهمّ، إنّ كلّ حمد و ثناء نؤديه فبتوفيق منك، و كلّ ما لدينا من بركاتك و ألطافك، فأدم اللّهمّ هذه النعم و زدها علينا.

إلهنا: نحن غارقون فى بحر إحسانك و كرمك، فوفقنا لأداء شكرك.

آمين يا ربّ العالمين.

نهاية سورة الجاثية***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۷

بداية الجزء السّادس و العشرون من القرآن الكريم

سورة الأحقاف

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمس و ثلاثون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۹

سورة الأحقاف

محتوى السورة:

هذه السورة من السور المكية- و إن كان جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ بعض آياتها قد نزلت فی المدينة، و سنبحث ذلك فی شرح تلك الآيات إن شاء اللّه تعالى- و لما كان زمان نزولها و ظروفه زمان مواجهة الشرك، و الدعوة إلى التوحيد و المعاد و مسائل الإسلام الأساسية، فإنها تتحدث حول هذه الأمور، و تدور حول هذه المحاور.

و يمكن القول باختصار، أنّ هذه السورة تتابع الأهداف التالية:

۱- بيان عظمة القرآن.

۲- محاربة كلّ أنواع الشرك و الوثنية بشكل قاطع.

۳- توجيه الناس إلى مسألة المعاد و محكمة العدل الإلهی.

۴- إنذار المشركين و المجرمين من خلال بيان جانب من قصة قوم عاد، الذين كانوا يسكنون أرض «الأحقاف»، و منها أخذ اسم هذه السورة.

۵- الإشارة إلى سعة دعوة نبیّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كونها عامّة تتخطى حتى حدود البشر، أی إنّها تشمل طائفة الجن أيضا.

۶- ترغيب المؤمنين و ترهيب الكافرين و إنذارهم، و إيجاد دوافع الخوف و الرجاء.

۷- دعوة نبیّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى التحلی بالصبر و الاستقامة الى أبعد الحدود،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۰

و الاقتداء بسيرة الأنبياء الماضين.

فضل هذه السورة:

ورد فی حديث عن النّبی الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فی فضل هذه السورة: «من قرأ سورة الأحقاف أعطی من الأجر بعدد كلّ رمل فی الدنيا عشر حسنات، و محی عنه عشر سيئات، و رفع له عشر درجات»[۲۱۴].

و لما كانت «الأحقاف» جمع حقف، و هی الكثبان الرملية التی تتجمع على هيئات مختلفة، مستطيلة و متعرجة نتيجة هبوب الرياح فی الصحاری، و كان يقال لأرض قوم عاد «الأحقاف» لأنّها كانت حصباء على هذه الشاكلة، فإنّ تعبير الحديث أعلاه ناظر إلى هذا المعنی.

و من البديهی أنّ كلّ هذه الحسنات و الدرجات لا تمنح لمجرّد التلاوة اللفظية، بل التلاوة البناءة المؤدية إلى السير فی طريق الإيمان و التقوى، و لمحتوى سورة الأحقاف هذا الأثر حقّا إذا كان الإنسان طالب حقيقة و مستعدا للعمل و التطبيق.

و

جاء فی حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ كلّ ليلة أو كلّ جمعة سورة الأحقاف لم يصبه اللّه عزّ و جلّ بروعة فی الحياة الدنيا، و آمنه من فزع يوم القيامة إن شاء»[۲۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۱

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۲) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (۳)

التّفسير

خلق هذا العالم على أساس الحق:

هذه السورة هى آخر سورة تبدأ ب حم و تسمى جميعا الحواميم.
و قد كانت لنا بحوث كثيرة حول الحروف المتقطعة بعامة، و (حم) بخاصة، فى بدايات سور البقرة و آل عمران و الأعراف سور الحواميم السابقة، فلا حاجة لتكرارها هنا.
و نكتفى هنا بالقول بأنّ هذه الآيات التى تهزّ الأعماق، و تحرك الوجدان، و التى تضمنها القرآن الكريم بين دفتيه تتكون من حروف الهجاء البسيطة، من الألف و الباء، و الحاء و الميم و أمثالها، و كفى بها دليلا على عظمة اللّه سبحانه إذ أظهر هذا المركّب العظيم من مثل هذه المفردات البسيطة، و لو تأملنا فيه كثيرا، و فكرنا فى أسراره حتى القيامة فسيبقى فيه من الأسرار الخافية الكثير الكثير.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۲
و ربّما كان هذا هو السبب فى أن تضيف الآية مباشرة: تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ
إنّه نفس التعبير الذى ورد فى بداية ثلاث سور من الحواميم، و هى: المؤمن، و الجاثية، و الأحقاف.
و لا شكّ فى الحاجة إلى قوّة لا تقهر، و حكمة لا حد لها، لكى تنزل مثل هذا الكتاب.
ثمّ تحولت الآيات من كتاب التدوين إلى كتاب التكوين، فتحدثت الآية عن عظمة السماوات و الأرض و كونهما حقا، فقالت: ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِ فلا ترى فى كتاب سمائه كلمة تخالف الحق، و لا تجد فى مجموع عالم خلقه شيئا نشازا لا ينسجم و الحق، فالكل منسق منتظم، و كله مقترن بالحق.
لكن، كما أنّ لهذا الكون بداية، فإنّ له نهاية أيضا، و لذلك تضيف الآية: وَ أَجَلٍ مُسَمًّى فإذا حل الأجل ستفنى الدنيا بما فيها، و لما كان هذا العالم مقترنا بالحق و يسير ضمن منهجه، و له هدف مرجو، فمن الطبيعى أن يوجد عالم آخر تبحث فيه الأعمال و تعلن فيه النتائج، و بناء على هذا، فإنّ كون هذا العالم حقّا دليل بنفسه على وجود المعاد، و إلّا فإنّه سيكون لغوا و عبثا لا فائدة فيه، و سيقترن حين ذلك بكثير من المظالم و المفاسد.
لكن مع أنّ القرآن حق، و خلق العالم حق أيضا: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ فالآيات القرآنية تهددهم و تنذرهم بصورة متلاحقة متوالية، و تحذرهم بأن محكمة عظمى أمامهم، هذا من جانب، و من جانب آخر فإنّ نظام الخلقة بدقته و أنظمته الخاصّة يدل بنفسه على أنّ فى الأمر حسابا و نظاما، غير أنّ هؤلاء الغافلين لم يلتفتوا لا إلى هذا و لا إلى ذلك.
كلمة «معرضون»- من الإعراض- تشير إلى أنّ هؤلاء إذا نظروا إلى آيات
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۳

التکوین و التـدوین فسیدرکون الحقائق، إلّا أنّهم أعرضوا بوجوههم عنها، و فروا من الحق لئلا یغیر من أسلوب تقالیدهم و أهوائهم و میولهم و شهواتهم و إتباعهم لها.

***

الآیات [سورة الأحقاف (۴۶): الآیات ۴ الی ۶]

اشارة

قُلْ أَ رَأَیْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِی ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّماواتِ ائْتُونِی بِکِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۴) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ یَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا یَسْتَجِیبُ لَهُ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (۵) وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ کانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ کانُوا بِعِبادَتِهِمْ کافِرِینَ (۶)

التّفسیر

أضل الناس:

کـان الکلام فی الآیات السابقـة عن خلق السـماوات و الأرض و أنّها جمیعا من صـنع اللّه العزیز الحکیم، و لازم ذلک أن لا یکون فی الکون إله سواه، لأنّ من له أهلیة الألوهیة هو خالق العالم و مدبره، و هاتان الصفتان قد جمعتا فی الذات المقدسة.
و من أجل تکملة هذا البحث، تخاطب هذه الآیات النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و تقول: قُلْ

أَ رَأَیْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِی ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّماواتِ
إذا کنتم تقرون بـأنّ الأصـنام لاـ دخـل لهـا فی خلق الموجودات الأرضـیة مطلقـا، و لا فی خلق الشـمس و القمر و النجوم و موجودات العالم العلوی، و تقولون بصراحة بأن اللّه هو خالقها جمیعا[۲۱۶]، فعلام تمدون أکفکم إلی الأصنام التی لا تضرّ و لا تنفع، و لا تسمع و لا تعقل، تستمدون منها العون فی حلّ معضلاتکم، و دفع البلاء عنکم، و استجلاب البرکات إلیکم؟
و إذا قلتم- علی سبیل الفرض- إنّها شریکة فی أمر الخلق و التکوین ف ائْتُونِی بِکِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ
و خلاصـة القول، فـإنّ الـدلیل إمّا أن یکون نقلیـا عن طریق الوحی السـماوی، أو عقلیـا منطقیا، أو بشـهادة العلماء و تقریرهم، أمّا أنتم فلسـتم مستندین إلی الوحی و الکتاب السماوی فی دعواکم حول الأصنام، و غیر قادرین من طریق العقل علی إثبات اشتراکها فی خلق السـماوات و الأرض و بالتالی إثبات کونها آلهـة، و لم یرد أثر من أقوال العلماء الماضـین ما یؤید رأیکم و یدعم اعتقادکم، و من هنا یتبیّن أنّ دینکم و معتقدکم لا یعدو کونه حفنة من الخرافات المستهجنة، و الأوهام الکاذبة.
بناء علی هـذا، فإنّ جملة أَرُونِی ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ... إشارة إلی دلیل العقل، و جملة ائْتُونِی بِکِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا إشارة إلی الوحی السماوی، و التعبیر ب أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إشارة إلی سنن الأنبیاء الماضین و أوصیائهم، أو آثار العلماء السابقین ۲۱۷]. و قد ذکر علماء اللغة و المفسّرون عدةّ معان لکلمة «أثارة»- علی وزن حلاوة- فمنها: بقیة الشیء، الروایة، العلامة. لکنّ الظاهر أنّها تعود إلی معنی واحد،

و هو الأثر الذى يبقى من الشيء و يدل على وجوده.

و قد وردت مثل هذه المناظرة و المحاكمة مع الوثنيين فى الآية (۴۰) من سورة فاطر، حيث تقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً.

و ممّا يلفت النظر أنّه يقول فى مورد الأرض: ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أمّا فى مورد السماء فيقول: أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّماواتِ أى إنّ الكلام فى الموردين عن الاشتراك، لأنّ الشرك فى العبادة يجب أن ينشأ من الشرك فى الخالقية و تدبير النشأة.

و هنا يطرح سؤال، و هو: إذا كان المشركون يعتقدون- عادة- أنّ أمر الخلق مختص باللّه سبحانه، فلما ذا يطالبون بأحد هذه الأدلة الثالثة؟

و يمكن الإجابة بأنّ هذه المطالبة موجهة إلى فئة قليلة بين عبدة الأوثان، يحتمل أنّهم كانوا يقولون باشتراك الأصنام فى الخلق، أو أنّها طرحت على سبيل الفرض، أى إنّكم إذا ظننتم يوما أنّ الأصنام شريكة فى خلق العالم، فاعلموا أن لا دليل لكم على ذلك، لا من النقل و لا من العقل.

بعد ذلك تبيّن الآية التالية عمق ضلالة هؤلاء المشركين و انحرافهم، فتقول:

وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ و لا يقف الأمر عند عدم إجابتهم و حسب، بل إنّهم لا يسمعون كلامهم: وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ

و يرى بعض المفسّرين أنّ مرجع الضمير فى هذه الآية إلى الأصنام الجامدة الميتة، باعتبار أنّ أكثر آلهة مشركى العرب كانت الأصنام. و اعتبره البعض إشارة إلى الملائكة و البشر الذين عبدوا من دون اللّه، لأنّ عبدة الملائكة و الجن لم يكونوا قلّة بين العرب، و التعبيرات المختلفة لهذه الآية، و المتناسبة مع ذوى العقول تؤيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۷

هذا المعنى.

لكن لا مانع من أن نفسر الآية بمعناها الواسع، فتدخل فيه كلّ هذه المعبودات، سواء الحية و الميتة، العاقلة و غير العاقلة، فتكون التعابير متناسبة مع ذوى العقول من باب التغليب.

و عند ما تقول الآية: إنّهم لا يجيبونهم إلى يوم القيامة، فإنّ ذلك لا يعنى أنّهم سيجيبونهم يوم القيامة- ما ظن البعض ذلك- بل إنّ هذا التعبير متداول فى النفى المؤيد، كما نقول مثلا: لو أصررت على فلان إلى يوم القيامة لما أقرضك، أى أنّه سوف لا يقوم بها العمل أبدا، لا أنّه سيلبى طلبك فى يوم القيامة.

و سبب ذلك معلوم أيضا، لأنّ كلّ سعى و جهد و تلبية طلب و قضاء حاجة نافع فى هذه الحياة الدنيا، فإذا انتهت انتهى معها إمكان القيام بكلّ هذه الأعمال.

و الأشد أسفا من ذلك أنّه: وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ

أمّا المعبودات من العقلاء، فإنّهم سيهبون لإظهار عدائهم لهؤلاء الضالين، فالمسيح عليه السّلام يظهر اشمئزازه و تنفره من عابديه، و تتبرأ الملائكة منهم، بل و حتى الشياطين و الجن تظهر عدم رضاها. و أمّا المعبودات التى لا عقل لها و لا حياة، فإنّ اللّه سبحانه سمحها العقل و الحياة لتنطق بالبراءة من هؤلاء العبدة و تبدى غضبها عليهم.

لقد ورد نظير هذا المعنى فى آيات القرآن الأخرى، و من جملتها الآية (۱۴ من سورة فاطر، حيث تقول: إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ. و كررت فى الآيات مورد البحث كلّ هذه المسائل بتفاوت يسير.

لكن كيف ينكر المعبودون عبادة عابديهم، و هى ممّا لا ينكر؟

ربّما كان ذلك إشارة إلى أنّهم كانوا يعبدون أهواءهم فى الحقيقة، و لم يكونوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۸

يعبدون تلك الآلهة، لأنّ أساس الوثنية عبادة الهوى.

و هنا نكتة تستحق الانتباه، و هى: إنّ عداء المعبودين لعبدتهم يوم القيامة لم يرد التأكيد عليه هنا فقط، بل نقرأ ذلك أيضا فى الآية (۲۵) من سورة العنكبوت على لسان إبراهيم عليه السّلام بطل التوحيد و محطم الأصنام إذ يقول: وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً.

و جاء فى الآية (۸۲) من سورة مريم: كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۹

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۸) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰)

التّفسير

لم أكن أوّل نبيّ!!

يستمر الحديث فى هذه الآيات عن حال المشركين، و كيفية تعاملهم مع آيات اللّه، فتقول: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۰

سِحْرٌ مُبِينٌ فهم لا يستطيعون إنكار نفوذ القرآن السريع فى القلوب، و جاذبيته التى لا تقاوم من جهة، و هم من جهة أخرى غير مستعدين لأن يخضعوا أمام عظمته و كونه حقّا، و لذلك فإنّهم يفسّرون هذا النفوذ القوى بتفسير خاطئ منحرف و يقولون: إنّه سحر مبين، و هذا القول- بحدّ ذاته- اعتراف ضمنى واضح بتأثير القرآن الخارق فى قلوب البشر.

بناء على هذا فإنّ «الحق»- فى الآية المذكورة- إشارة إلى آيات القرآن، و إن كان البعض قد فسّرها بالنبوّة، أو الإسلام، أو معجزات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الأخرى، إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب بملاحظة بداية الآية.

غير أنّ هؤلاء لم يكتفوا بإطلاق هذه التهمة و إلصاقها به، بل إنّهم تمادوا فخطوا خطوة أوسع، و أكثر صراحة: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ

إنّ اللّه سبحانه يأمر نبيّه هنا بأن يجيبهم بجواب قاطع، و يعطيهم البرهان الجلى بأنّه قل لهم إذا كان كذلك فاللازم أن يفضحنى و لا تستطيعون الدفاع عنّى مقابل عقابه: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً[۲۱۸] فكيف يمكن أن يظهر اللّه سبحانه هذه الآيات

البینات و المعجزة الخالدة علی ید کذّاب؟ إنّ هذا بعید عن حکمة اللّه و لطفه.

و هذا کما ورد فی الآیات (۴۴)- (۴۷) من سورة الحاقة: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنا بَعْضَ الْأَقاوِیلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْیَمِینِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِینَ فَما مِنْکُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِینَ

بناء علی هذا، هل یمکن أن أقدم علی مثل هذا العمل الخطیر من أجلکم؟

و کیف تصدّقون أنّ بالإمکان أن أکذب مثل هذه الکذبة ثمّ یبقینی اللّه حیا، بل و یمنحنی معاجز أخر؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۱

ثمّ یضیف مهددا: هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِیضُونَ فِیهِ ۲۱۹] و سیعاقبکم فی الوقت اللازم.

نعم، إنّه یعلم کلّ ما رمیتمونی به من التهم، و أنّکم وقفتم بوجه رسوله، و کنتم تصدون الناس عن الإیمان بالحق بنفثکم السموم بینهم.

ثمّ یقول فی الجملة التالیة کتأکید أکبر مقترن بتعامل مؤدب جدّا: کَفی بِهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ فهو یعلم صدق دعوتی، و سعیی و جهدی فی إبلاغ الرسالة، کما یعلم کذبکم و افتراءکم و العوائق التی تضعونها فی طریقی، و هذا کاف لی و لکم.

و من أجل أن یدلهم علی طریق الرجوع إلی الحق، و یعلمهم بأنّه مفتوح إن أرادوا العودة، یقول: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ فهو یعفو عن التائبین و یغفر لهم، و یدخلهم فی رحمته.

و یضیف فی الآیة التالیة: قُلْ ما کُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِی ما یُفْعَلُ بِی وَ لا بِکُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما یُوحی إِلَیَّ وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ مُبِینٌ

إنّ هذه الجمل الوجیزة الغنیة المحتوی تجیب عن کثیر من إشکالات المشرکین، و من جملتها أنّهم کانوا یتعجبون أحیانا- فی مسألة بعثة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم- کیف یمکن أن یتصل إنسان باللّه و یرتبط به؟

و أحیانا کانوا یقولون: لماذا یأکل الطعام و یمشی فی الأسواق؟

و تارة کانوا یطلبون معاجز عجیبة غریبة، و کان کلّ منهم یتمنی شیئا.

و کانوا یظنون أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مستودع لعلم الغیب، فیطلبون منه أن یخبرهم بکلّ حوادث المستقبل.

و أخیرا فإنّهم کانوا یعجبون أحیانا من دعوته لنبذ الآلهة و التوجّه إلی عبادة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۲

و توحیده.

و هذه الآیة إشارة إجمالیة إلی أجوبة جمیع هذه الأسئلة، و قطع لکلّ تلک الأعذار الواهیة.

یقول النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنا لست أوّل نبیّ دعا إلی التوحید، فقد جاء قبلی أنبیاء کثیرون کلهم کانوا بشرا، و کانوا یلبسون الثیاب و یأکلون الطعام، و لم یدّع أحد منهم أنّه یعلم الغیب المطلق، بل کانوا یقولون: إنّنا نعلم من أمور الغیب ما یعلمنا اللّه إیّاه فقط.

و لم یستسلم أحد منهم أمام المعاجز التی کان یقترحها الناس، و التی کانت تقوم علی أساس الرغبة و المیول.

کل ذلک لیعلم الجمیع أنّ النّبی أیضا عبد من عباد اللّه، و علمه و قدرته محدودة بما یریده اللّه سبحانه و یمنحه، فإنّ العلم المطلق و القدرة المطلقة للّه جلّ و علاء و حسب.

هذه الحقائق کان یجب علی الناس أن یعلموها و یدرکوها، لینتهوا من إشکالاتهم الجوفاء.

کل ذلک ورد بعد البحث الذی مرّ فی الآیات السابقة، حیث کانوا یرمون النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالسحر مرّة، و بالافتراء أخری، لیعلم أنّ منبع هذه الاتهامات و مصدرها هو تلک الأوهام التی أجیب عنها فی هذه الآیة.

و من هنا یتّضح أن مفاد هذه الآیة لا یتنافی مع الآیات الأخری التی توحی بأنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یعلم الغیب، کالذی

ورد فی سورة الفتح حول فتح مکّة و دخول المسجد الحرام- الآیة ۲۷ من سورة الفتح- أو ما ورد فی شأن المسیح علیه السّلام حیث یقول: أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ ۲۲۰]، و أمثال ذلک، لأنّ الآیة مورد البحث تنفی علم الغیب المطلق، لا مطلق علم الغیب، و بتعبیر آخر، فإنّ الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۳

تنفی علم الغیب الاستقلالی، أمّا تلک الآیات فتتحدث عن علم الغیب الذی ینال ببرکة التعلیم الإلهی.

و الشاهد علی هذا الکلام الآیتان (۲۶)- (۲۷) من سورة الجن: عالِمُ الْغَیْبِ فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ

و قد ذکر بعض المفسّرین سبب نزول للآیة مورد البحث، فقالوا: إنّ عبء المشاکل و ضغطها لما زاد علی أصحاب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی مکّة، رأی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام أنّه یهاجر إلی أرض ذات نخیل و أشجار و ماء کثیر، فذکر ذلک لأصحابه، ففرحوا لذلک و ظنّوا أنّهم سیرون فرجا وسعة بعد أذی المشرکین، فصبروا مدّة فلم یروا أثرا لذلک، فقالوا: یا رسول اللّه، لم نر ما أخبرتنا به، فمتی سنهاجر إلی تلک الأرض التی رأیتها فی منامک؟ فسکت النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فنزلت هذه الآیة: وَ ما أَدْرِی ما یُفْعَلُ بِی وَ لا بِکُمْ ۲۲۱].

إلّا أنّ سبب النّزول هذا یبدو بعیدا، لأنّ المخاطبین فی هذه الآیات أعداء النّبی لا أصحابه، لکن یمکن أن یکون هذا من باب التطبیق، أی أنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تمسّک بهذه الآیة و أجاب بها أصحابه حینما طرحوا هذا السؤال.

و تضیف آخر آیة من هذه الآیات، و لتکملة ما ورد فی الآیات السابقة: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ کَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ عَلی مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ ۲۲۲].

و للمفسّرین أقوال فی الشاهد من بنی إسرائیل الذی شهد علی کون القرآن المجید حقّا ...

قال البعض: إنّه موسی بن عمران علیه السّلام الذی أخبر فی عصره بظهور نبیّ الإسلام، و أعطی أوصافه و علاماته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۴

إلّا أنّ هذا الاحتمال غیر صحیح بملاحظة جملة: فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ التی توحی بأنّ هذا الشاهد من بنی إسرائیل قد آمن بنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی الوقت الذی استکبر فیه المشرکون و لم یؤمنوا، لأنّ ظاهر الجملة یوحی بأنّ هذا الشاهد کان موجودا فی عصر نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و آمن به، بینما اختار الآخرون طریق الاستکبار و الکفر.

و قال آخرون: إنّه کان رجلا من علماء أهل الکتاب، کان یحیا فی مکّة. و مع أنّ أنصار الدین الیهودی و المسیحی کانوا قلة فی مکّة، لکن لا یعنی هذا أنّ أحدا منهم لم یکن فیها، و مع ذلک فلا یعرف من کان هذا العالم من بنی إسرائیل؟ و ما هو اسمه؟

و هذا التّفسیر باطل منهم أیضا لأنّه لم یکن هناک عالم معروف من أهل الکتاب فی مکّة فی عصر ظهور النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و لم تذکر التواریخ اسما له ۲۲۳].

طبعا، یمتاز هذا التّفسیر و الذی قبله بأنّهما ینسجمان مع کون کلّ سورة الأحقاف مکیة.

و التّفسیر الثّالث الذی ارتضاه أکثر المفسّرین، هو أنّ هذا الشاهد کان «عبد اللّه بن سلام» عالم الیهود المعروف، الذی آمن فی المدینة و التحق بصفوف المسلمین.

و

قد ورد- فی حدیث- أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم انطلق حتی دخل کنیسة الیهود یوم عیدهم، فکرهوا دخوله علیهم، فقال لهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «یا معشر الیهود أرونی اثنی عشر رجلا منکم یشهدون أن لا إله إلّا اللّه و أنّ محمّدا رسول اللّه، یحط اللّه عن کلّ یهودی تحت أدیم السماء الغضب الذی علیه» فسکتوا فما أجابه منهم أحد، ثمّ ردّ علیهم فلم یجبه أحد ثلاثا، فقال: «أبیتم، فو اللّه لأنا الحاشر، و أنا العاقب، و أن المقض، آمنتم أو کذبتم» ثمّ انصرف حتی کاد یخرج، فإذا رجل من خلفه، فقال: کما

أنت يا محمّد فأقبل، فقال ذلك الرجل: أى رجل تعلمونى فيكم يا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۵

معشر اليهود؟ فقالوا: و اللّه ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب اللّه و لا أفقه منك و لا من أبيك و لا من جدك، فقال: فإنّى أشهد باللّه إنّه النّبى الذى تجدونه مكتوبا فى التوراة و الإنجيل، قالوا: كذبت، ردوا عليه و قالوا شرّا، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «كذبتم، لن يقبل منكم قولكم»- و لم يكن هذا الرجل غير عبد اللّه بن سلام- فنزلت الآية:

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...[۲۲۴].

و طبقا لهذا التّفسير، فإنّ هذه الآية نزلت فى المدينة بالرغم من أنّ السورة مكيّة، و هذا ليس منحصرا بالآية مورد البحث، بل يلاحظ- أحيانا- فى سور القرآن الأخرى وجود آيات مكية فى طيات السور المدنية و بالعكس، و هذا يبيّن أنّ النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يأمر بوضع الآية مع ما يناسبها من مفاد السورة من دون الالتفات إلى تاريخ نزولها.

و يبدو من جهات عديدة أنّ هذا التّفسير هو الأنسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۶

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۱ الى ۱۴]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۱۱) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (۱۲) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۳) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسباب نزول عديدة للآية الأولى من هذه الآيات:

۱- إنّ هذه الآية نزلت فى «أبى ذر الغفارى» الذى أسلم فى مكّة، ثمّ تابعته فى الإيمان قبيلته- بنو غفار- و لما كانت قبيلة بنى غفار من سكان البادية و كانوا فقراء، قال كفار قريش- و كانوا أثرياء من أهل المدن-: لو كان الإسلام خيرا ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۷

سبقنا إليه غفار الحلفاء، فنزلت هذه الآية و أجابتهم.

۲- كانت فى مكّة جارية رومية يقال لها «زنيرة»[۲۲۵]، لبت دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الإسلام، فقال زعماء قريش: لو كان ما جاء به محمّد خيرا ما سبقتنا إليه زنيرة.

۳- إنّ جماعة من قبائل البوادى أسلموا قبل سكان مكّة، فقال أشراف مكّة: لو كان الإسلام خيرا ما سبقتنا إليه رعاة الإبل.

۴- إنّ جماعة من الرجال الطاهرين و الفقراء كبلال و صهيب و عمار، قد اعتنقوا الإسلام، فقال زعماء مكّة: أ يمكن أن يكون دين محمّد خيرا و يسبقنا إليه هؤلاء؟

۵- إنّ عبد اللّه بن سلام و جماعة من أصحابه لما آمنوا، قال جماعة من اليهود:

لو كان دين محمّد خيرا ما سبقونا إليه ۲۲۶].

و يمكن تلخيص أسباب النّزول الأربعة الأولى بالقول بأنّ الإسلام لاقى ترحيبا واسعا و امتدادا سريعا بين الطبقات الفقيرة و سكان البوادى، و ذلك لأنّهم لم يكونوا يمتلكون منافع غير مشروعة لتهدد بالخطر، و لم يكن الغرور قد ركبهم و ملأ عقولهم، و قلوبهم أطهر من قلوب المترفين و متبعى الشهوات و الرغبات.

لقد عدّ الإقبال الواسع على الإسلام من قبل هذه الفئة، و الذى كان يشكل أقوى نقاط هذا الدين، نقطة ضعف كبيرة من قبل المستكبرين فقالوا: أى دين هذا الذى يتبعه سكان البوادى و الفقراء و الحفاة و الجوارى و العبيد؟ إذا كان دينا مقبولا و معقولا فلا ينبغى أن يكون أتباعه من طبقة فقيرة واطئة اجتماعيا، و نتخلف نحن أعيان المجتمع و أشرافه عن اتباعه.

و الطريف أنّ نمط التفكير المنحرف هذا من أكثر أنماط التفكير رواجا اليوم بين الأثرياء و المترفين فيما يتعلّق بالدين، حيث يقولون: إنّ الدين ينفع الفقراء و الحفاة، و كلّ منهما ينفع صاحبه و ينسجم معه، و نحن فى مستوى أسمى منه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۸

و أعلى.

و قد أجاب القرآن هؤلاء جوابا شافيا كافيا سيتّضح فى تفسير هذه الآيات.

أمّا سبب النّزول الخامس الذى ذكر أعلاه، و القائل بأنّ المراد هو عبد اللّه بن سلام و أصحابه، فمع أنّه نقل عن أكثر المفسّرين على قول الطبرسى فى مجمع البيان، و القرطبى فى تفسيره، إلّا أنّه يبدو بعيدا من جهتين:

الأولى: إنّ التعبير ب الَّذِينَ كَفَرُوا بصورة مطلقة يستعمل عادة فى مورد المشركين، لا فى أهل الكتاب و اليهود و النصارى.

و الأخرى: إنّ عبد اللّه بن سلام لم يكن رجلا مجهولات أو ضعيف الشخصية بين اليهود ليقولوا فيه: إنّ الإسلام لو كان خيرا ما سبقنا هذا و أصحابه إليه.

***

التّفسير

شرط الإنتصار الإيمان و الاستقامة:

تستمر هذه الآيات فى تحليل أقوال المشركين و أفعالهم، ثمّ تقريعهم و ملامتهم بعد ذلك، فتشير أوّلا إلى ما نطق به هؤلاء من كلام بعيد عن المنطق السليم، مبنىّ على أساس الكبر و الغرور، فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ [۲۲۷].

فما هؤلاء إلّا حفنة من الفقراء الحفاة من سكان القرى، و العبيد الذين لا حظ لهم من العلم و المعرفة إلّا القليل، فكيف يمكن أن يعلم هؤلاء الحق و أن يقبلوا عليه و نحن- أعيان المجتمع و أشرافه- فى غفلة عنه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۹

لقد غفل هؤلاء عن أن العيب فيهم لا فى الإسلام، فلو لا حجب الكبر و الغرور الملقاة على قلوبهم و لولا أنّهم سكرى من خمرة المال و الجاه و المقام، و لو لا أنّ غرورهم و تكبرهم يمنعهم من التحقيق فى أمر هذا الدين، إذن لا نجذبوا بسرعة الى الإسلام كما انجذب الفقراء إليه.

و لذلك فإنّ الآية تجيبهم فى نهايتها بهذا التعبير اللطيف: وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ [۲۲۸] أى إنّ هؤلاء ما أرادوا أن يهتدوا بآيات القرآن، لا أن القصور فى قابلية القرآن على الهداية.

و التعبير ب «الإفك القديم» شبيه بتهمة أخرى حكيت عنهم فى آيات القرآن الأخرى، إذ قالوا: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ [۲۲۹].

جملة «سيقولون» بصيغة المضارع، تدل على أنّهم كانوا يرمون القرآن بهذه التهمة دائما، و كانوا يتخذون هذا الاتهام غطاء لعدم إيمانهم.

ثمّ تطرقت الآية إلى دليل آخر لإثبات كون القرآن حقا، و لنفى تهمة المشركين إذ كانوا يقولون: هذا إفك قديم، فقالت: إنّ من علامات صدق هذا الكتاب العظيم أنّ كتاب موسى الذى يعتبر إماما أى قدوة للناس و رحمة قد أخبر عن هذا النبى و صفاته. و هذا القرآن أيضا كتاب منسجم فى آياته و فيه العلائم المذكورة فى التوراة: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ و إذا كان الأمر كذلك، فكيف تقولون: هذا إفك قديم؟

لقد أكّد القرآن فى آياته مرارا على أنّه مصدق للتوراة و الإنجيل، أى إنّه يتفق مع العلامات و الصفات التى وردت فى هذين الكتابين السماويين حول نبيّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قد كانت هذه العلامات دقيقة إلى الحد الذى يقول القرآن الكريم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۰

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ ۲۳۰].

و قد ورد نظير معنى الآية مورد البحث فى الآية (۱۷) من سورة هود: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

و التعبير ب إِماماً وَ رَحْمَةً يحتمل أن يكون من جهة أن ذكر الإمام يستدعى أحيانا أن تخطر فى الذهن مسألة التكليف الشاق الصعب، نتيجة الذكريات التى كانت لديهم عن أئمتهم، إلّا أنّ ذكر الرحمة يبدل هذا الخطور الذهنى إلى ما يبعث على الاطمئنان، فهو يقول: إنّ هذا الإمام توأم الرحمة و مقترن بها، فحتى إذا أتاكم بالتكاليف و الأوامر فهى رحمة أيضا، و أى رحمة أعم و أسمى من تربية نفوس هؤلاء القوم؟! ثمّ تضيف بعد ذلك: لِساناً عَرَبِيًّا يفهمه الجميع و يستفيدون منه.

ثمّ تبيّن فى النهاية الهدف الرئيسى من نزول القرآن فى جملتين قصيرتين، فتقول: لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ و إذا لا حظنا أنّ جملة (ينذر) مضارعة تدل على الاستمرار و الدوام، فسيتّضح أنّ إنذار القرآن كبشارته دائمى مستمر، فهو يحذر الظالمين و المجرمين على مدى التأريخ و يخوفهم و ينذرهم، و يبشر المحسنين على الدوام.

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية جعلت الظالمين فى مقابل المحسنين لأنّ للظلم هنا معنى واسعا يشمل كلّ إساءة و مخالفة، و من الطبيعى أنّ الظلم إمّا بحق الآخرين أو بحق النفس.

و الآية التالية تفسير للمحسنين الذين ورد ذكرهم فى الآية التى قبلها، فتقول:

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ ۲۳۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۱

لقد جمعت فى الواقع كلّ مراتب الإيمان، و كلّ الأعمال الصالحة فى هاتين الجملتين، لأنّ التوحيد أساس كلّ المعتقدات الصحيحة، و كلّ أصول العقائد ترجع الى أصل التوحيد. كما أنّ الاستقامة و الصبر و التحمل و الصمود أساس كلّ الأعمال الصالحة، لأنّا نعلم أنّه يمكن تلخيص كلّ أعمال الخير فى ثلاثة: «الصبر على الطاعة»، و «الصبر عن المعصية»، و «الصبر على المصيبة».

و بناء على هذا، فإنّ «المحسنين» هم السائرون على خط التوحيد من الناحية العقائدية، و فى خط الاستقامة و الصبر من الناحية العملية.

و من البديهى أنّ أمثال هؤلاء الأفراد لا يخافون من حوادث المستقبل، و لا يغتمون لما مضى.

و قد ورد نظير هذا المعنى- بتوضيح أكثر- فى الآية (۳۰) من سورة فصلت حيث تقول: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

إنّ هذه الآية تضيف شيئين:

الأوّل: أنّهم بشروا بعدم الخوف و الحزن من قبل الملائكة، فى حين سكتت الآية مورد البحث عن هذا.

و الثّانی: أنّه إضافة إلی نفی الخوف و الحزن عنهم، فقد وردت البشارة بالجنّة أیضا فی آیة سورة فصلت، فی حین أنّ هذه البشارة وردت فی الآیة اللاحقة فی محل کلامنا.

و علی أیة حال، فإنّ الآیتین تبحثان مطلقا واحدا، غایته أن أحداهما أکثر تفصیلا من الأخری.

و نقرأ فی تفسیر علی بن إبراهیم فی تفسیر جملة: إِنَّ الَّذِینَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: استقاموا علی ولایة علی أمیر المؤمنین علیه السّلام. و ذلک أنّ إدامة خط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۲

أمیر المؤمنین علیه السّلام فی جوانب العلم و العمل، و العدالة و التقوی، و خاصّة فی العصور المظلمة الحالکة، أمر لا یمکن تحققه بدون الاستقامة، و بناء علی هذا فإنّه یعد أحد مصادیق الواضحة للآیة مورد البحث، لا أنّ معناها منحصر به، بحیث لا تشمل الاستقامة فی الجهاد و طاعة اللّه سبحانه، و محاربة هوی النفس و الشیطان.

و قد أوردنا شرحا مفصلا حول مسألة الاستقامة فی ذیل الآیة (۳۰) من سورة فصلت ۲۳۲].

و تبشر آخر آیة من هذه الآیات الموحدین المحسنین بأهم بشارة و أثمنها، فتقول: أُولئِکَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِینَ فِیها جَزاءً بِما کانُوا یَعْمَلُونَ

إنّ ظاهر الآیة یعطی مفهوم الحصر، کما استفاد ذلک البعض، أی أنّ أصحاب الجنّة هم أهل التوحید و الاستقامة فقط، أمّا الذین ارتکبوا المعاصی منهم، فإنّهم و إن کانوا فی النتیجة من أصحاب الجنّة، إلّا أنّهم لیسوا من أصحابها منذ بدایة الأمر.

التعبیر ب «الأصحاب» إشارة إلی اجتماعهم الدائم و تنعمهم الخالد بنعم الجنّة.

و تعبیر: جَزاءً بِما کانُوا یَعْمَلُونَ یدل من جهة علی أنّ الجنّة لا تمنح مجانا، بل إنّ لها تمنا یجب أن یؤدی، و یشیر من جهة أخری إلی أصل حریة الإنسان و اختیاره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۳

الآیات [سورة الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۵ الی ۱۶]

اشارة

وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ کُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ کُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّی إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِینَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلی والِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ وَ إِنِّی مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۱۵) أُولئِکَ الَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَیِّئاتِهِمْ فِی أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِی کانُوا یُوعَدُونَ (۱۶)

التّفسیر

أیّها الإنسان أحسن إلی والدیک:

هذه الآیات و التی تلیها، توضیح- فی الحقیقة- لما یتعلق بالفریقین: الظالم و المحسن، اللذین أشیر إلیهما إجمالا فی الآیات السابقة.

و تتناول الآیة الأولی وضع المحسنین، و تبدأ بمسألة الإحسان إلی الوالدین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۴

و شکر جهودهم و أتعابهم التی بذلوها، و الذی یعتبر مقدمة لشکر اللّه سبحانه، فتقول: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ إِحْساناً[۲۳۳].

«الوصیة» و «التوصیة» بمعنی مطلق الوصیة، و لا ینحصر معناها بالوصایا بما بعد الموت، و لذلک فسّرها جماعة هنا بأنّها الأمر و التشریع.

ثمّ تطرّقت إلی سبب وجوب معرفة حقّ الأمّ، فقالت: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ کُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ کُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً تضحی خلالها الأم أعظم التضحیات، و تؤثر ولدها علی نفسها أیّما إیثار.

إنّ حالة الأم تختلف منذ الأیّام الأولی لانعقاد النطفة، فتتوالی علیها الصعوبات، و هناک حالة تسمی حالة (الوحام) هی أصعب الحالات التی تواجهها الأم، و یقول الأطباء عنها: إنّها تنشأ نتیجة قلّة المواد التی تحدث فی جسم الأم نتیجة إیثارها ولدها علی نفسها.

و کلما تکامل نمو الجنین امتص موادا أکثر من عصارة روح الأم و جسدها، تترک أثرها علی عظامها و أعصابها، فیسلبها أحیانا نومها و غذاءها و راحتها و هدوأها، أمّا فی آخر فترة الحمل فیصعب علیها حتی المشی و الجلوس و القیام، إلّا أنّها تتحمل کلّ هذه المصاعب بصبر و رحابة صدر و عشق للولید الذی سیفتح عینیه علی الدنیا عمّا قریب، و یبتسم بوجه أمّه.

و تحل فترة وضع الحمل، و هی من أعسر لحظات حیاة الأم، حتی أنّ الأم أحیانا تبذل نفسها و حیاتها من أجل سلامة الولید.

علی کلّ حال، تضع الأم حملها الثقیل لتبدأ مرحلة صعبة أخری، مرحلة مراقبة الطفل المستمرة لیل نهار ... مرحلة یجب أن تلبی فیها کلّ احتیاجات الطفل الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۵

لیست لدیه أیة قدرة علی بیانها و توضیحها، فإن آلمه شیء لا یقوی علی تعیین محل الألم، و إذا کان یشکو من الجوع و العطش، و الحر و البرد، فهو عاجز عن التعبیر عن شکواه، إلّا بالصراخ و الدموع، و یجب علی الأم أن تحدد کلّ واحدة من هذه الاحتیاجات و تؤمنها بتفحصها و صبرها و طول أناتها.

إنّ نظافة الولید فی هذه المرحلة مشکلة مضنیة، و تأمین غذائه الذی یستخلص من عصارة الأم، إیثار کبیر.

و الأمراض المختلفة التی تصیب الطفل فی هذه المرحلة، مشکلة أخری یجب علی الأم أن تتحملها بصبرها الخارق.

إنّ القرآن الکریم عند ما تحدّث عن مصاعب الأم هنا، و لم یورد شیئا عن الأب، لا لأنّه لا أهمیة للأب، فهو یشارک الأم فی کثیر من هذه المشاکل، بل لأنّ سهم الأم من المصاعب أوفر، فلهذا أکّد علیها.

و هنا یطرح سؤال، و هو: إنّ فترة الرضاع ذکرت فی الآیة (۲۳۳) من سورة البقرة علی أنّها سنتان کاملتان- ۲۴- شهرا-: وَ الْوالِداتُ یُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَیْنِ کامِلَیْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ یُتِمَّ الرَّضاعَةَ فی حین أنّ الآیة مورد البحث قد ذکرت أنّ مجموع فترة الحمل و الرضاع ثلاثون شهرا، فهل من الممکن أن تکون مدّة الحمل ستّة أشهر؟

لقد أجاب الفقهاء و المفسّرون، عن هذا السؤال- استلهاما من الرّوایات الإسلامیة- بالإیجاب و قالوا: إنّ أقل مدّة الحمل ستة أشهر، و أکثر مدّة تفید فی الرضاع (۲۴) شهرا، حتی نقل عن جماعة من الأطباء القدامی کجالینوس و ابن سینا أنّهم قالوا: إنّهم کانوا قد شاهدوا بأمّ أعینهم ولیدا ولد ستة أشهر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۲۶۵

ّ إنّه یمکن أن یستفاد من هذا التعبیر القرآنی أنّه کلما قصرت فترة الحمل یجب أن تطول فترة الرضاع بحیث یکون المجموع (۳۰) شهرا.

و قد نقل عن ابن عباس أنّ فترة الحمل إن کانت (۹) أشهر فیجب أن یرضع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۶

الولد (۲۱) شهرا، و إن كان الحمل ستة أشهر وجب أن يرضع الطفل (۲۴) شهرا.

و القانون الطبيعى يوجب ذلك أيضا. لأنّ نواقص فترة الحمل يجب أن تجبر بفترة الرضاع.

ثمّ تضيف الآية: إنّ حياة هذا الإنسان تستمر حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً[۲۳۴].

يعتقد بعض المفسّرين أنّ بلوغ الأشد منسجم مع بلوغ الأربعين سنة، و هو للتأكيد، إلّا أنّ ظاهر الآية هو أنّ بلوغ الأشد إشارة إلى البلوغ الجسمى، و بلوغ الأربعين سنة إشارة إلى البلوغ الفكرى و العقلى، لأنّ من المعروف أنّ الإنسان يصل إلى مرحلة الكمال العقلى فى سن الأربعين غالبا، و قالوا: إنّ أغلب الأنبياء قد بعثوا فى سن الأربعين.

ثمّ إنّ هناك بحثا فى أنّ بلوغ القدرة الجسمية فى أى سن يتم؟ فالبعض يعتبره سن البلوغ المعروف، و الذى أشير إليه فى الآية (۳۴) من سورة الإسراء فى شأن اليتامى، فى حين صرّحت بعض الروايات بأنّه سن الثامنة عشرة عاما.

طبعا، لا مانع من أن يعطى هذا التعبير معانى مختلفة فى موارد مختلفة تتّضح من خلال القرائن.

و

قد ورد فى حديث: «إنّ الشيطان يمر يده على وجه من زاد على الأربعين و لم يتب، و يقول: بأبى وجه لا يفلح»[۲۳۵].

و نقل عن ابن عباس: من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شرّه، فليتجهز إلى النّار.

و على أى حال، فإنّ القرآن الكريم يضيف فى متابعة هذا الحديث: إنّ الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۷

العاقل المؤمن إذا بلغ سن الأربعين، يطلب من ربّه ثلاث طلبات، فيقول أولا:

قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَ ۲۳۶].

إنّ هذا التعبير يوحى بأنّ الإنسان يدرك فى هذه السن عمق نعم اللّه سبحانه وسعتها، و كذلك يدرك ما تحمله أبواه من الجهود المضنية حتى بلغ هذا المقدار من العمر، و ذلك لأنّه غالبا ما يصبح فى هذا العمر أبا إن كان ذكرا، و أمّا إن كانت أنثى، و يرى بأم عينه كلّ تلك الجهود التى بذلت من أجله، و مدى الإيثار الذى آثره أبواه فى سبيله، و شكرا لسعيهما يتوجّه لا إراديا لشكر اللّه سبحانه.

أمّا طلبه الثّانى فهو: وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ

و أخيرا يقدم طلبه الأخير فيقول: وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي

إنّ التعبير ب (لى) يشير ضمنية إشارة إلى أنّه يرجو أن يكون أولاده فى وضع من الصلاح و الخير بحيث تعود نتائجه و حسناته عليه.

و التعبير ب (فى ذريتى) بصورة مطلقة، يشير الى استمرار الخير و الصلاح فى كلّ نسله و ذريته.

و الطريف أنّه يشرك أبويه فى دعائه الأوّل، و أولاده فى الدعاء الثالث، أمّا الدعاء الثّانى فيخص نفسه به، و هكذا يكون الإنسان الصالح، فإنّه إذا نظر إلى نفسه بعين، ينظر بالأخرى إلى الآخرين الذين تفضلوا عليه و لهم حق فى رقبته.

و تبيّن الآية فى نهايتها مطلبين، كلّ منهما تبيان لبرنامج عملى مؤثر، فتقول:

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْکَ فقد بلغت مرحلة يجب أن أعين فيها مسير حياتى، و أسير فى ذلك الخط ما حييت.

نعم، لقد بلغت الأربعين، و يقبح بعبد مثلى أن يأتيك و لم يغسل نفسه بماء التوبة، و لم يطهرها بالعودة إلى طريق ربّه و يقرع باب رحمته.

و الآخر: وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۸

إنّ هاتين الجملتين تأكيد لتلك الأدعية الثلاثة و مترتبة عليها، و معناهما: بما إنّى تبت إليك، و أسلمت لأوامرك، فأنت أيضا منّ علىّ

برحمتک، و اشملنی بنعمک و فضلک.

و الآیة التالیة، بیان بلیغ لأجر هؤلاء المؤمنین الشاکرین و ثوابهم، و قد أشارت إلی مکافآت مهمّة ثلاث، فقالت أوّلا: أُولئِکَ الَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا.

أی بشارة أعظم من أن یتقبل اللّه القادر المنان عمل عبد ضعیف لا قدر له، و هذا القبول بحدّ ذاته، و بغض النظر عن آثاره الأخری، فخر عظیم، و موهبة معنویة عالیة.

إنّ اللّه سبحانه یتقبل کلّ الأعمال الصالحة، فلما ذا یقول هنا: نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا؟

و فی معرض الإجابة علی هذا السؤال، قال جمع من المفسّرین: إنّ المراد من أحسن الأعمال: الواجبات و المستحبات التی تکون فی مقابل المباحات التی هی أعمال حسنة لکنّها لا تقع موقع القبول، و لا یتعلق بها أجر و ثواب [۲۳۷].

و الجواب الآخر: إنّ اللّه سبحانه یجعل أحسن أعمال هؤلاء معیارا للقبول، و حتی أعمالهم التی تأتی فی مرتبة أدنی من الأهمیة، فإنّه یجعلها کأحسن الأعمال بفضله و رحمته. إنّ هذا یشبه تماما أن یعرض بائع أجناسا مختلفة بأسعار متفاوتة، إلّا أنّ المشتری یشتریها جمیعا بثمن أعلاها و أفضلها تکرما منه و فضلا، و مهما قیل فی لطف اللّه و فضله فلیس عجبا.

و الهبة الثّانیة هی تطهیرهم، فتقول: وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَیِّئاتِهِمْ

و الموهبة الثّالثة هی أنّهم فِی أَصْحابِ الْجَنَّةِ[۲۳۸]، فیطهرون من الهفوات التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۹

کانت منهم، و یکونون فی جوار الصالحین المطهرین المقربین عند اللّه سبحانه.

و یستفاد بصورة ضمنیة من هذا التعبیر أنّ المراد من أَصْحابِ الْجَنَّةِ هنا العباد المقرّبون الذین لم یصبهم غبار المعاصی، و هؤلاء المؤمنون التائبون یکونون فی مصافهم بعد أن ینالوا غفران اللّه و رضاه.

و تضیف الآیة فی نهایتها- کتأکید علی هذه النعم التی مرّ ذکرها- وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِی کانُوا یُوعَدُونَ ۲۳۹] و کیف لا- یکون وعد صدق فی حین أنّ خلف الوعد أمّا أن یکون عن ندم أو جهل، أم عن ضعف و عجز، و اللّه سبحانه منزه عن هذه الأمور جمیعا.

***

ملاحظات

۱- إنّ هذه الآیات تجسید للإنسان المؤمن من أصحاب الجنّة، الذی یطوی أوّلا مرحلة الکمال الجسمی، ثمّ مرحلة الکمال العقلی، ثمّ یصل إلی مقام شکر نعم اللّه تعالی، و شکر متاعب والدیه، و التوبة عمّا بدر منه من هفوات و سقطات و معاص، و یهتم أکثر بالقیام بالأعمال الصالحة، و من جملتها تربیة الأولاد، و أخیرا یرقی إلی مقام التسلیم المطلق للّه تعالی و لأوامره، و هذا هو الذی یغمره فی رحمة اللّه و مغفرته و نعمه المختلفة التی لا تحصی.

نعم، ینبغی أن یعرف أهل الجنّة من هذه الصفات.

۲- إنّ التعبیر ب وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ إشارة إلی أنّ مسألة الإحسان إلی الوالدین من الأصول الإنسانیة، ینجذب إلیها و یقوم بها حتی أولئک الذین لا یلتزمون بدین أو مذهب، و بناء علی هذا، فإنّ الذین یعرضون عن أداء هذه الوظیفة، و یرفضون القیام بهذا الواجب، لیسوا مسلمین حقیقیین، بل لا یستحقون اسم الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۰

۳- إنّ التعبیر ب «إحسانا» و بملاحظة أنّ النکرة فی هذه الموارد لبیان عظمة الأمر و أهمیته، و یشیر إلی أنّه یجب- بأمر اللّه سبحانه- الإحسان إلی الأبوین إحسانا جمیلا مقابلة لخدماتهم الجلیلة التی أسدوها.

۴- لأنّ آلام و معاناة الأم فی طریق تربیة الطفل محسوسة و ملموسة أکثر، و لأنّ جهود الأم أکثر أهمیة إذا ما قورنت بجهود الأب، کان التأکید أکثر علی قدر الأم فی الرّوایات الإسلامیة.

فقد ورد فی حدیث أنّ رجلا أتی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: من أبر؟ قال: «أمّک»، قال: ثمّ من؟ قال: «أمّک»، قال: ثمّ من؟ قال: «أمّک»، قال: ثمّ من؟ قال: «أباک»[۲۴۰].

و

جاء فی حدیث آخر، أنّ رجلا کان قد حمل أمّه العجوز العاجزة، و کان یطوف بها، فأتی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و قال: هل أدیت حقّها: قال: «لا و لا بزفرة واحدة»[۲۴۱].

۵- لقد أولت الآیات القرآنیة العلاقات العائلیة، و احترام الأبوین و إکرامهم، و العنایة بتربیة الأولاد، اهتماما فائقا، و قد أشیر إلیها جمیعا فی الآیات المذکورة، و ذلک لأنّ المجتمع الإنسانی الکبیر یتکون من خلایا و تشکیلات أصغر تسمی العائلة، کما أنّ البنایة الضخمة تتکون من غرف، و هی بدورها من الطابوق و الحجر.

من البدیهی أنّه کلّما کانت هذه التقسیمات الصغیرة أکثر انسجاما و ترابطا، کان أساس المجتمع أقوی و أشد ثباتا، و أحد عوامل التمزق و الاختلال الاجتماعی فی المجتمعات الصناعیة فی عصرنا الحاضر هو انحلال نظام العائلة، فلا احترام من قبل الأولاد، و لا عطف من الآباء و الأمهات، و لا علاقة حب و حنان و عاطفة من الأزواج.

إنّ المشهد المؤلم لدور رعایة المسنین فی المجتمعات الصناعیة الیوم، و التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۱

تحتضن العجزة من الآباء و الأمهات الذین طردوا من العائلة، شاهد معبر جدّا عن هذه الحقیقة المرّة.

فالرجال و النساء الذین صرفوا عمرا طویلا فی الخدمة لمنح المجتمع أبناء عدیدین، یطردون تماما فی الأیّام التی یکونون فیها بأشد الحاجة إلی عواطف الأبناء و محبتهم و معونتهم، و یبقون فی تلک الدور یعدون الأیّام فی انتظار لحظة الموت، و قد سمّروا أعینهم فی الباب بانتظار صدیق أو قریب یفتحها ... و لا تفتح علیهم إلّا مرّة أو مرّتین فی السنة! حقا، إنّ تصور مثل هذه الحالة ینغص علی الإنسان عیشه منذ البدایة، و هذا هو عرف دنیا المادة و التمدن و أسلوبها حینما یطرح منها الإیمان و الدین.

۶- إنّ جملة: وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ تبیّن أنّ العمل الصالح هو العمل الذی یبعث علی رضی اللّه سبحانه، و تعبیر: أَحْسَنَ ما عَمِلُوا و الذی ورد فی آیات عدیدة من القرآن المجید، یبیّن فضل اللّه الذی لا یحصی فی مقام مکافأة العباد و جزائهم، حیث یجعل أحسن أعمالهم معیارا لکلّ أعمالهم الحسنة فی الحساب.

و المثوبة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۲

الآیات [سورة الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۷ الی ۱۹]

اشارة

وَ الَّذِی قالَ لِوالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُما أَ تَعِدانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی وَ هُما یَسْتَغِیثانِ اللَّهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَیَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۱۷) أُولئِکَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ کانُوا خاسِرِینَ (۱۸) وَ لِکُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۱۹)

التّفسير

مضيّعو حقوق الوالدين:

كان الكلام في الآيات السابقة عن المؤمنين الذين سلكوا طريق القرب من اللّه، فبلغوا الغاية و وسعتهم رحمة اللّه، و كرمهم لطفه، و كلّ ذلك في ظل الإيمان و العمل الصالح، و شكر نعم اللّه سبحانه، و الالتفات إلى حقوق الأبوين و الذرية و أدائها.

أمّا هذه الآيات، فيدور الكلام فيها عمّن يقفون في الطرف المقابل، و هم الكافرون المنكرون للجميل و الحق، و العاقون لوالديهم، فتقول: وَ الَّذِی قالَ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۳

لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ۲۴۲].

إلّا أنّ أبويه المؤمنين لم يستسلما أمام هذا الولد العاق الضال، فتقول الآية:

وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ غير أنّه يأبى إلّا أن يسير في طريق الضلالة و العناد الذي اختطه لنفسه، و لذلك نراه يجيبهما بكلّ تكبر و غرور و لا مبالاة: فَيَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ فما تقولانه عن المعاد و الحساب ليس إلّا خرافات و قصص كاذبة أتتكم من الماضين من قبلكم، و لست بالذي يعتقد بها و ينقاد لها.

إنّ الصفات التي يمكن أن تستخرج من هذه الآية حول هذه الفئة من الأبناء الضالين عدّة صفات: عدم احترام منزلة الأبوين، و الإساءة لهما، لأنّ (أف) في الأصل تعني كلّ شيء قذر، و هي تقال في مقام التحقير و الإهانة[۲۴۳].

و قال البعض: إنّها تعني الأقذار التي تجتمع تحت الأظافر، و هي قذرة ملوثة، و لا قيمة لها[۲۴۴].

و الصفة الأخرى هي أنّهم مضافا إلى عدم إيمانهم بيوم القيامة و البعث و الجزاء، فإنّهم يسخرون منه و يستهزئون به، و يعدونه من الأساطير و الأوهام الخرافية الباطلة.

و الصفة الأخرى أنّهم لا أذن سامعة لهم، و لا يذعنون للحق، و قد امتلأت نفوسهم بروح الغرور و الكبر و الأنانية.

نعم، فبالرغم من أن الأبوين الحريصين يبذلان قصارى جهودهما، و كلّ ما في

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۴

وسعهما لإنقاذه من دوامة الجهل و الغفلة، لئلا يبتلي هذا الابن العزيز بعذاب اللّه الأليم، إلّا أنّه يأبى إلّا الاستمرار في طريق غيه و كفره، و يصر على ذلك، و أخيرا يتركه أبواه و شأنه بعد اليأس منه.

و كما بيّنت الآيات السابقة ثواب المؤمنين العاملين للصالحات، فإنّ هذه الآيات تبيّن عاقبة أعمال الكافرين الضالين المتجرئين على اللّه، فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ ۲۴۵]، و أي خسارة أعظم من أنّهم خسروا كلّ رأس مال وجودهم إذا اشتروا به غضب اللّه عزّ و جلّ و سخطه.

و من خلال المقارنة بين هذين الفريقين- أصحاب النعيم و أصحاب الجحيم- في هذه الآيات نقف على هذه الأمور:

إنّ أولئك يطوون مدارج رشدهم و كمالهم، في حين أنّ هؤلاء فقدوا كلّ ما يملكون، فهم خاسرون.

أولئك يقدرون الجميل و يشكرونه حتى من أبويهم، و هؤلاء منكرون للجميل معتقدون لا أدب لهم حتى مع والديهم.

أولئك مع المقربين إلى اللّه في الجنّة، و هؤلاء مع الكافرين في النّار، فكلّ منهم يلتحق بأمثاله و من على شاكلته.

أولئك يتوبون من الهفوات التي تصدر عنهم، و يذعنون للحق، أمّا هؤلاء فهم قوم طغاة عتاة متمردون، أنانيّون و متكبرون.

و ممّا يستحق الالتفات أنّ هؤلاء المعاندين يستندون في انحرافاتهم إلى وضع الأقوام الماضين و سيحشرون معهم إلى النّار أيضا.

أمّا الآیة الأخیرة من هذه الآیات فإنّها تشیر أوّلا إلی تفاوت درجات کلا

الفریقین، فتقول: وَ لِکُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا[۲۴۶] فلیس کلّ أصحاب الجنّة أو أصحاب النّار فی درجة واحدة، بل إنّ لکلّ منهما درجات و مراتب تختلف باختلاف أعمالهم، و حسب خلوص نیّتهم و میزان معرفتهم، و أصل العدالة هو الحاکم هنا تماما.

«الدرجات» جمع درجة، و تقال عادة للسلالم التی یصعد الإنسان بتسلقها إلی الأعلی، و «الدرکات» جمع درک، و هی تقال للسلّم الذی ینزل منه الإنسان إلی الأسفل، و لذلک یقال فی شأن الجنّة: درجات، و فی شأن النّار: درکات، لکن لما کانت الآیة مورد البحث قد تحدثت عنهما معا، و لأهمیة مقام أصحاب الجنّة، ورد لفظ (الدرجات) للاثنین، و هو من باب التغلیب ۲۴۷].

ثمّ تضیف الآیة: وَ لِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمالَهُمْ و هذا التعبیر إشارة أخری إلی مسألة تجسم الأعمال، حیث أنّ أعمال ابن آدم ستکون معه هناک، فتکون أعماله الصالحة باعثا علی الرحمة به و اطمئنانه، و أعماله الطالحة سببا للبلاء و العذاب الألم.

و تقول الآیة أخیرا کتأکید علی ذلک: وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ لأنّهم سیرون أعمالهم و جزاءها، فکیف یمکن تصور الظلم و الجور؟

هذا إضافة إلی أنّ درجات هؤلاء و درکاتهم قد عیّنت بدقّة، حتی أنّ لأصغر الأعمال، حسنا کان أم قبیحا، أثره فی مصیرهم، و مع هذه الحال لا معنی للظلم حینئذ.

***

ملاحظة کیف حرّفت هذه الآیة من قبل بنی أمیة؟

ورد فی روایة أنّ «معاویة» أرسل رسالة إلی «مروان»- و إلیه علی المدینة-

یأمره بأخذ البیعة من الناس لابنه یزید، و کان «عبد الرحمن بن أبی بکر» حاضرا فی المجلس، فقال: یرید معاویة أن یجعل هذا الأمر هرقلیا و کسرویا- ملکی الروم و فارس- إذا مات الآباء جعلوا أبناءهم مکانهم، و إن لم یکونوا أهلا لذلک، أو کانوا فساقا؟

فصاح مروان من علی المنبر: صه، فأنت الذی نزلت فیه: وَ الَّذِی قالَ لِوالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُما.

و کانت «عائشة» حاضرة، فقالت: کذبت، و إنّی لأعلم فیمن نزلت هذه الآیة، و لو شئت لأخبرتک باسمه و نسبه، لکن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لعن أباک و أنت فی صلبه، فأنت فضض من لعنة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم ۲۴۸].

أجل ... و لقد کان ذنب عبد الرحمن عشقه و محبّته لأمیر المؤمنین علی علیه السّلام، و هو أمر کان یسوء بنی أمیة کثیرا، هذا من جهة.

و من جهة أخری فإنّه کان مخالفا لصیرورة الخلافة وراثیة، و تبدیلها إلی سلطنة، و کان یعتبر أخذ البیعة لیزید نوعا من الانحراف نحو الکسرویة و الهرقلیة، و لذلک أصبح غرضا لأعداء الإسلام الألداء، أی آل أمیّة، فحرّفوا آیات القرآن فیه.

و کم هو مناسب الجواب الذی أجابت به عائشة مروان بأنّ اللّه سبحانه لعن أباک إذ کنت خلفه، و هو إشارة إلی الآیة (۶۰) من سورة الإسراء حیث تقول:

وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ ۲۴۹].

الآیة [سورة الأحقاف (۴۶): آیة ۲۰]

اشارة

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِی حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰)

التّفسير

الزهد و الادخار للآخرة:

تستمر هذه الآية فی البحث حول عقوبة الكافرين و المجرمين، و تذكر جانبا من أنواع العذاب الجسمی و الروحی الذی سينال هؤلاء، فتقول: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِی حَياتِكُمُ الدُّنْيا ...[۲۵۰].

نعم، فقد كنتم غارقين فی الشهوات، و لم تكونوا تعرفون شيئا إلّا التمتع بطيّبات هذا العالم و نعمه المادية، و من أجل أن تكونوا متحللين من كلّ القيود فی هذا المجال، أنكرتم المعاد لتطلقوا لأنفسكم العنان، و سخرتم هذه المواهب من أجل إنزال كلّ أنواع الظلم و الجور بحق الآخرين.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۸

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ فاليوم ترون جزاء كلّ ذلك التمتع الباطل، و اتباع الشهوات الأعمى، و عبادة الهوى، و الاستكبار و الفسق و الفجور و تذوقون العذاب المذل و المهين بسبب تلكم الأعمال.

***

بحوث

۱- تقول هذه الآية: إنّ الكفار يعرضون على النّار فی القيامة، و قد ورد نظير هذا فی الآية (۴۶) من سورة المؤمنين حول عذاب الفراعنة فی البرزخ، إذ تقول:

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا فی حين أنّنا نقرأ فی بعض آيات القرآن الأخرى أنّ جهنّم تعرض على الكافرين: وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً[۲۵۱].

لذلك قال بعض المفسّرين: إنّ فی القيامة نوعين من العرض: فقبل الحساب تعرض جهنّم على المجرمين ليملأ وجودهم الخوف و الهلع، و هذا بحدّ ذاته عقاب و عذاب نفسی، و بعد الحساب و إلقائهم فی جهنّم يعرضونهم على عذاب اللّه [۲۵۲].

و قال البعض: إنّ فی العبارة نوع قلب، و إنّ المراد من عرض الكفار على النّار هو عرض النّار على الكافرين، إذ لا عقل و لا إدراك للنار حتى يعرض عليها الكافرون، فی حين أنّ العرض يتم فی الموارد التی يكون المعروض عليه فيها ذا شعور و إدراك.

لكن لا- يمكن أن يرد على هذا الجواب بأنّ بعض الآيات ذكرت وجود إدراك و شعور لدى النّار، حتى أنّ اللّه سبحانه يخاطبها و تجيب، فيقول سبحانه:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۹

هَلِ امْتَلَأْتِ فتقول: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ[۲۵۳].

و الحق أنّ حقيقة العرض هی رفع الموانع بين شيئين حتى يتقابلا و يكونا وجها لوجه، و كذا الحال بالنسبة إلى الكافرين و النّار، فإنّ الحواجز ترفع من بينهما، فيمكن القول فی هذه الصورة: إنّ الكافرين يعرضون على النّار، كما تعرض عليهم، و كلا التعبيرين صحيح.

و على أيـة حال، فلا حاجـة لأن نعتبر العرض بمعنى الـدخول فى النّار كما ذكره «الطبرسـى» فى مجمع البيان، بل إنّ هـذا العرض بحدّ ذاته نوع من العـذاب الألـيم المرعب، حيث يرى الكـافرون بأعينهم كلّ أقسام جهنّم من الخارج قبل أن يردوها، و ليشاهـدوا مصـيرهم المشؤوم و يتعذّبوا و يتألموا له.

۲- إنّ جملة: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ تعنى التمتع بلذائذ الدنيا، و التعبير ب «أذهبتم» لأنّ هذه اللذائذ و النعم تفنى بالتمتع بها و استهلاكها.

و من المسلّم أنّ التمتع بمواهب اللّه و نعمه فى هـذه الدنيا ليس أمرا مذموما قبيحا، بل المذموم هو الغرق فى اللذات المادية، و نسـيان ذكر اللّه و القيامة، أو التمتع بها بصورة غير مشروعة و التلوث بالمعاصى عن طريقها، و غصب حقوق الآخرين فيما يتعلق بها.

و ممّا يلفت الانتباه أنّ هـذا التعبير لم يرد إلّا فى هذه الآية من القرآن الكريم، و هو إشارة إلى أنّ الإنسان يعزب أحيانا عن لذات الدنيا و يعرض عنها، أو أنّه لا يأخذ منها إلّا ما يقوّم به صـلبه، و يتقوّى به على القيام بالواجبات الإلهية، و كأنّه فى هذه الصورة قد ادخر هذه الطيبات لآخرته.

غير أنّ الكثيرين يتكالبون على هـذه التمتعات الدنيويـة كالحيوانات و لا يحـدّهم شـىء فى الالتـذاذ بهذه الطيبات و افنائها جميعا، و لا يكتفون بعدم ادخار شيء لآخرتهم، بل يحملون معهم أحمالا من الأوزار، و لهؤلاء يقول القرآن:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۰

أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا.

و قـد نقل فى بعض كتب اللغـة أنّ المراد من الجملـة: أنفقتم طيبات ما رزقتم فى شـهواتكم و فى ملاذ الـدنيا، و لم تنفقوها فى مرضاة اللّه [۲۵۴].

۳- للطيبات معنى واسع يشـمل كلّ مواهب الـدنيا، و مع أنّ بعض المفسّـرين قد فسّـرها بقوّة الشـباب فقط، إلّا أنّ الحق هو أنّ الشـباب يمكن أن يكون مصداقا لا غير.

۴- إنّ التعبير ب عَذابَ الْهُونِ بمثابة ردّ فعل لاسـتكبار هؤلاء فى الأرض، لأنّ العقوبة الإلهية، تتناسب تماما مع نوع الذنب و المعصـية، فأولئك الذين تكبّروا على خلق اللّه، بل و حتى على أنبيائه، و لم يخضـعوا لأى تشـريع إلهى، يجب أن يلاقوا جزاءهم بذلة و حقارة و مهانة.

۵- لقـد ذكر فى ذيل هـذه الآية ذنبان لأصـحاب الجحيم، الأوّل: الاسـتكبار، و الثّانى: الفسق. و يمكن أن يكون الأوّل إشارة إلى عدم إيمانهم بآيات اللّه و بعث عن ترك أصول الدين، و الآخر عن تضييع فروع الدين [۲۵۵].

۶- إنّ التعبير بغير الحق لا يعنى أنّ الاستكبار نوعان: حق، و غير حق، بل إنّ هذه التعابير تقال عادة للتأكيد، و نظائرها كثير.

۷- زهد الأئمة العظماء لقد وردت فى مختلف مصادر الحديث و التّفسـير روايات كثيرة عن زهد أئمّة الإسـلام العظماء، و اسـتندوا فيه بالخصوص إلى الآية مورد البحث، و من جملتها:

جاء فى حديث أنّ عمر أتى يوما رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى مشربة أم إبراهيم- و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۱

موضع قرب المدينة- و كان مضـطجعا على حصـير من الخوص، و جزء من بدنه الشريف على التراب، و كانت تحت رأسه و سادة من ليف النخل، فسلّم و جلس، و قال: أنت نبىّ اللّه و أفضل خلقه، هذا كسرى و قيصر ينامان على أسرة الذهب و فرش الديباج و الحرير، و أنت على هـذا الحـال؟! فقـال صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم: «أولئـك قوم عجلت طيّبـاتهم و هى و شـيكهٔ الانقطـاع، و إنّما أخرت لنا طيباتنا»[۲۵۶].

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه أتى يوما بحلوى، فامتنع من تناولها، فقالوا: أ تراها حراما؟ قال: «لا، و لكنى أخشى أن تتوق نفسى فأطلبه، ثمّ تلا هذه الآية: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا ...[۲۵۷].

و

جاء فى حديث آخر: «أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام اشتهى كبدا مشوية على خبزة لينة، فأقام حولا يشتهيها، و ذكر ذلك للحسن عليه السّلام و هو صائم يوما من الأيّام فصنعها له، فلما أراد أن يفطر قرّبها إليه، فوقف سائل بالباب، فقال: يا بنى احملها إليه، لا تقرأ صحيفتنا غدا: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها[۲۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۲

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۱ الى ۲۵]

اشارة

وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۲۱) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۲) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۳) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۴) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (۲۵)

التّفسير

قوم عاد و الريح المدمرة:

لما كان القرآن يذكر قضايا كلية، ثمّ يتطرق إلى بيان مصاديق واضحة لها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۳

ليطبق تلك الكليات. فإنّه هنا يسلك نفس السبيل، فبعد أن فصل حال المستكبرين المتمردين، تطرّق إلى ذكر قصة قوم عاد الذين هم صورة واضحة لأولئك العتاة، فتقول الآية: وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ.

إنّ التعبير بالأخ يعكس منتهى صفاء هذا النّبى العظيم و حرصه على قومه، و قد ورد هذا التعبير فى القرآن المجيد- كما نعلم- فى مورد عدة أنبياء عظام كانوا إخوة لأقوامهم حريصين رحماء بهم، لم يبخلوا من أجلهم بأى نوع من الإيثار و التضحية.

و يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى علاقة القرابة و الرحم بين هؤلاء الأنبياء و أقوامهم.

ثمّ تضيف الآية: إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ

«الأحقاف»- كما قلنا سابقا- تعنى الكثبان الرملية التى تتشكل على هيئة مستطيل أو تعرجات و منحنيات، على أثر هبوب العواصف فى الصحارى، و يتّضح من هذا التعبير أنّ أرض قوم عاد كانت أرضا حصباء كبيرة.

و ذهب البعض أنّها فى قلب جزيرة العرب بين نجد و الأحساء و حضرموت و عمان.

إلّا أنّ هذا المعنى يبدو بعيدا، حيث يظهر من آيات القرآن الأخرى- فى سورة الشعراء- أنّ قوم عاد كانوا يعيشون فى مكان كثير المياه و الأشجار الجميلة، و مثل هذا الحال بعيد جدّا عن قلب الجزيرة.

و ذهب جمع آخر من المفسّرين أنّها فى الجزء الجنوبى للجزيرة حول اليمن، أو فى سواحل بحر العرب ۲۵۹].

و احتمل البعض أنّ الأحقاف كانت منطقة فى أرض العراق فى مناطق كلدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۴

و بابل ۲۶۰].

و نقل عن الطبرى أنّ الأحقاف اسم جبل فى الشام ۲۶۱].

لكن يبدو أنّ القول بأنّ هذه المنطقة تقع جنوب الجزيرة العربية قرب أرض اليمن، هو الأقرب، بملاحظة ملاءمته المعنى اللغوى للأحقاف، و بملاحظة أنّ أرضهم كانت غزيرة المياه و فيرة الأشجار، فى نفس الوقت الذى لم تكن فيه بمأمن من العواصف الرملية.

و جملة: وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ إشارة إلى الأنبياء الذين بعثوا قبله، بعضهم قريب عهد به، و هم الذين عبّر عنهم القرآن ب مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ و البعض الآخر تقادمت الفترة الزمنية بينهم و بينه الذين عبّر عنهم ب مِنْ خَلْفِهِ

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من هذه الجملة الأنبياء الذين جاؤوا قبل هود و بعده، فيبدو بعيدا جدّا، و لا ينسجم مع جملة: وَ قَدْ خَلَتِ التى تعنى الزمن الماضى.

و لنر الآن ماذا كان محتوى دعوة هذا النّبى العظيم؟

يقول القرآن الكريم: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ثمّ هدّدهم بقوله: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

و بالرغم من أنّ التعبير ب يَوْمٍ عَظِيمٍ جاء بمعنى يوم القيامة غالبا، إلّا أنّه أطلق أحيانا فى آيات القرآن على الأيّام القاسية المرعبة التى مرّت على الأمم، و هذا المعنى هو المراد هنا، لأنّنا نقرأ فى متابعة هذه الآيات أنّ قوم عاد قد ابتلوا بعذاب اللّه فى يوم عسر مرعب و انتهى أمرهم.

إلّا أنّ هؤلاء القوم المتمردين وقفوا بوجه هذه الدعوة الإلهية، و خاطبوا هودا:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۵

قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [۲۶۲] هاتين الجملتين تبيّنان بوضوح مدى انحراف هؤلاء القوم و تعصبهم، فهم فى الجملة الأولى يقولون: إنّ دعوتك كاذبة: لأنّها تخالف آلهتنا التى تعوّدنا على عبادتها، و هى إرث ورثناه عن آبائنا.

و نراهم فى الجملة الثّانية يطلبون وقوع العذاب! ذلك العذاب الذى إن نزل بهم فلا رجعة معه مطلقا، و أى ذى لب يتمنّى نزول مثل هذا العذاب، حتى و إن لم يكن لديه يقين بوقوعه؟

إلّا أنّ هودا عليه السّلام قال فى ردّه على هذا الطلب المتهور الذى يدل على الجنون:

قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ فهو الذى يعلم متى و فى أى ظروف ينزل عذاب الاستئصال، فلا هو مرتبط بطلبكم و تمنيكم، و لا هو تابع لرغبتى، بل يجب أن يتمّ الهدف و يتحقق، ألا و هو إتمام الحجّة عليكم، فإنّ حكمته سبحانه تقتضى ذلك.

ثمّ يضيف: وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ فهو مهمتى الأساسية، و مسئوليتى الرئيسية، أمّا اتخاذ القرار فى شأن طاعة اللّه و أوامره فهو أمر يتعلق بكم، و إرادة نزول العذاب و مشيئته تتعلق به سبحانه.

وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ و جهلكم هذا هو أساس تعاستكم و شقائكم، فإنّ الجهل المقترن بالكبر و الغرور و هو الذى يمنعكم من دراسة دعوة رسل اللّه، و لا يأذن لكم فى التحقيق فيها ... ذلك الجهل الذى يحملكم على الإصرار على نزول عذاب اللّه ليهلككم، و لو كان لديكم أدنى وعى أو تعقل لكنتم تحتملون- على الأقل- وجود احتمال إيجابى فى مقابل كلّ الاحتمالات السلبية، و الذى إذا ما تحقق فسوف لا يبقى لكم أثر.

و أخيرا لم تؤثر نصائح هود عليه السّلام المفيدة، و إرشاداته الأخوية فى قساة القلوب أولئك، و بدل أن يقبلوا الحق لجّوا فى غيّهم و باطلهم، و تعصبوا له، و حتى نوح عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۶

كذّبه قومه بهذا الادعاء الواهى و هو أنّك إن كنت صادقا فيما تقول فأين عذابك الموعود؟

و الآن، و قد تمّت الحجة بالقدر الكافى، و أظهر أولئك عدم أهليتهم للبقاء، و عدم استحقاقهم للحياة، فإنّ حكمة اللّه سبحانه توجب أن يرسل عليهم «عذاب الاستئصال»، ذلك العذاب الذى يجتث كلّ شىء و لا يبقى و لا يذر.

و فجأة رأوا سحابا قد ظهر فى الأفق، و اتسع بسرعة: فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا[۲۶۳].

قال المفسّرون: إنّ المطر انقطع مدّة عن قوم عاد، و أصبح الهواء حارا جافا خانقا، فلمّا وقع بصر قوم عاد على السحب المظلمة الواسعة فى الأفق البعيد، و هى تتجه صوبهم فرحوا لذلك جدّا و هبّوا لاستقبالها، و جاؤوا إلى جوانب الوديان و السهول و مجارى السيول و المياه. ليروا منظر نزول المطر المبارك ليحيوا من جديد، و تسر بذلك نفوسهم.

لكن، قيل لهم سريعا بأنّ هذا ليس سحابا ممطرا: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ

و الظاهر أنّ المتكلم بهذا الكلام هو اللّه سبحانه، أو أنّ هودا لمّا سمع صرخات فرحهم و استبشارهم قال لهم ذلك.

نعم، إنّها ريح مدمّرة: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها.

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من كُلَّ شَيْءٍ البشر و دوابهم و أموالهم، لأنّ الجملة التالية تقول: فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ و هذا يوحى بأنّ مساكنهم كانت سالمة، أمّا هم فقد هلكوا، و ألقت الرياح القوية أجسادهم فى الصحارى البعيدة، أو فى البحر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۷

و قال البعض: إنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذه السحب السوداء هى رياح قوية مغبرة، إلّا عند ما وصلت قريبا من ديارهم، و رفعت دوابهم و رعاتهم- الذين كانوا فى الصحارى المحيطة بهم- من الأرض و رمتهم فى الهواء، و رأوا أنّها تقتلع الخيام من مكانها و تلقيها فى الهواء حتى كانت تبدو كالجواد! عند ما رأوا ذلك المشهد، فروا و التجأوا إلى دورهم و أغلقوا الأبواب عليهم، إلّا أنّ الأعاصير اقتلعت الأبواب و ألقتها على الأرض- أو حملتها معها- و رمت أجساد هؤلاء بالأحقاف، و هى الرمال المتحركة.

و جاء فى الآية (۷) من سورة الحاقة: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ و هكذا بقى هؤلاء القوم يئنّون تحت تل من الرمال و التراب، ثمّ أزالت الرياح القوية التراب فظهرت أبدانهم مرّة أخرى، فحملتها و ألقتها فى البحر[۲۶۴].

و تشير الآية فى النهاية إلى حقيقة، و هى أنّ هذا المصير غير مختص بهؤلاء القوم الضالين، بل: كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

و هذا إنذار و تحذير لكلّ المجرمين العصاة، و الكافرين المعاندين الأنانيين، بأنّكم إن سلكتم هذا الطريق فسوف لن يكون مصيركم أحسن حالا من هؤلاء، فإنّه تعالى قد يأمر الرياح بأن تهلككم، ذات الرياح التى يعبر القرآن الكريم بأنّها:

بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ لأنّ الرياح تتصف بصفة الأمر الإلهى المطلوب منها.

و قد يبدل الأرض التى هى مهد استقرار الإنسان و اطمئنانه، إلى قبر له بزلزلة شديدة.

و قد يبدّل المطر الذى هو أساس حياة كلّ الكائنات الحية، إلى سيول جارفة تغرق كل شىء.

نعم، إنّه عزّ و جلّ يجعل جنود الحياة جنود موت و فناء، و كم هو مؤلم الموت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۸

الذى يأتى من سبب الحياة و أساسها؟ خاصة إذا كان الأمر كما فى قوم هود إذ فرحوا و سروا فى البداية ثمّ جاءتهم البطشة ليكون العذاب أشد و آلم.

و الطريف أنّه يقول: إنّ هذه الرياح، هى فى الأصل أمواج هوائية لطيفة تتحوّل إعصار يدمّر كلّ شىء بأمر اللّه ۲۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۹

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۲۶) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۷) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۸)

التّفسیر

لستم بأقوى من قوم عاد أبدا:

إنّ هذه الآيات بمثابة استنتاج للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن عقاب قوم عاد الأليم، فتخاطب مشركى مكّة و تقول: وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۰

فِيهِ ۲۶۶] فقد كانوا أقوى منكم من الناحية الجسمية، و أقدر منكم من ناحية المال و الثروة و الإمكانات المادية، فإذا كان بإمكان القوّة الجسمية و المال و الثروة و التطور المادى أن تنقذ أحدا من قبضة الجزاء الإلهى، فكان ينبغى على قوم عاد أن يصمدوا أمام العاصفة و لا يكونوا كالقشة فى مهب الرياح، تتقاذفهم كيف شاءت و لا يبقى من آثارهم إلّا أطلال مساكنهم! إنّ هذه الآية شبيهة بما ورد فى سورة الفجر فى شأن قوم عاد: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ[۲۶۷].

أو هى نظير ما جاء فى الآية (۳۶) من سورة ق: وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً.

و خلاصة القول: إنّ الذين كانوا أشدّ منكم و أقوى، عجزوا عن الوقوف أمام عاصفة العذاب الإلهى، فكيف بكم إذن؟

ثمّ تضيف الآية: وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً[۲۶۸] فقد كانوا أقوياء فى مجال إدراك الحقائق و تشخيصها أيضا، و كانوا يدركون الأمور جيدا، و كانوا يستغلون هذه المواهب الإلهية من أجل تأمين حاجاتهم و مآربهم المادية على أحسن وجه، لكن: فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ ۲۶۹] و أخيرا: وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

نعم، لقد كان أولئك مجهزين بالوسائل المادية، و بوسائل إدراك الحقيقة، إلّا أنّهم لما كانوا يتعاملون مع آيات اللّه بمنطق الاستكبار و العناد، و كانوا يتلقون كلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۱

الأنبياء بالسخرية و الاستهزاء، لم ينفذ نور الحق إلى قلوبهم، و هذا الكبر و الغرور و العداء للحق هو الذى أدى إلى أنّ لا يستفيدوا و لا يستخدموا وسائل الهداية و المعرفة كالعين و الأذن و العقل، ليجدوا طريق النجاة و يسلكوه، فكانت عاقبتهم أن ابتلوا بذلك المصير المشؤوم الذى أشارت إليه الآيات السابقة.

فإذا كان أولئك القوم قد عجزوا عن القيام بأى عمل مع كلّ تلك القدرات و الإمكانيات التى كانوا يمتلكونها، و أصبحت جثثهم الهامدة، كالريشة فى مهب الرياح تتقاذفهم من كلّ جانب بكلّ مذلة و احتقار، أولى لكم أن تعتبروا إذا أنتم أضعف منهم و أعجز.

و ليس عسيرا على اللّه تعالى أن يأخذكم بأشد العذاب نتيجة أعمالكم و جرائمكم، و أن يجعل عوامل حياتكم أسباب فنائكم، و هذا خطاب لمشركى مكّة، و لكلّ البشر المغرورين الظالمين العتاة على مر التأريخ، و فى كلّ الأعصار و الأمصار.

و حقا فإنّ الأمر كما يقول القرآن الكريم، فلسنا أوّل من وطأ الأرض، فقد كان قبلنا أقوام كثيرون يعيشون فيها، و لديهم الكثير من الإمكانيات و القدرات، فكم هو جميل أن نجعل تأريخ أولئك مرآة لأنفسنا لنعتبر به، و لنرى من خلاله مستقبلنا و مصيرنا.

ثمّ تخاطب الآیـة مشـرکی مکّـة من أجل التأکیـد علی هـذا المعنی، و لزیادة الموعظـة و النصـیحة، فتقول: وَ لَقَدْ أَهْلَکْنا ما حَوْلَکُمْ مِنَ الْقُری

أولئک الأقوام الـذین لا تبعد أوطـانهم کثیرا عنکم، و کـان مستقرهم فی أطراف جزیرة العرب، فقوم عـاد کانوا یعیشون فی أرض الأحقاف فی جنوب الجزیرة، و قوم ثمود فی أرض یقال لها «حجر» فی شمالها، و قوم سبأ الذین لاقوا ذلک المصیر المؤلم فی أرض الیمن، و قوم شعیب فی أرض مدین فی طریقکم الشام، و کـان قوم لوط یعیشون فی هـذه المنطقـة، و ابتلوا بأنواع العـذاب لکثرة معاصیهم و کفرهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۲

لقـد کان کلّ قوم من أولئک عبرة، و کان کلّ منهم شاهدا ناطقا معبرا، یسأل: کیف لا یستیقظ هؤلاء و لا یعون مع کلّ وسائل التوعیة هذه؟! ثمّ تضیف الآیة بعد ذلک: وَ صَرَّفْنَا الْآیاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ فتارة أریناهم المعجزات و خوارق العادات، و أخری أنعمنا علیهم، و ثالثة بلوناهم بالبلاء و المصائب، و رابعة عن طریق وصف الصالحین المحسنین، و أخری بوصف المجرمین، و أخری وعظناهم بعذاب الاستئصال الذی أهلکنا به الآخرین. إلّا أنّ الکبر و الغرور و العجب لم یدع لهؤلاء سبیلا إلی الهدایة.

و توبخ الآیة الأخیرة من هذه الآیات هؤلاء العصاة، و تذمهم بهذا البیان: فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً[۲۷۰].

حقّا، إذا کانت هـذه آلهـة علی حق، فلما ذا لا تعین أتباعها و عبادها، و تنصرهم فی تلک الظروف الحساسـة، و لا تنقـذهم من قبضـة العـذاب المهول المرعب؟ إنّ هـذا بنفسه دلیل محکم علی بطلان عقیـدتهم حیث کانوا یظنّون أنّ هـذه الآلهة المخترعة هی ملجأهم و حماهم فی یوم تعاستهم و شقائهم.

ثمّ تضیف: بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ فإنّ هـذه الموجودات التی لا قیمـة لها و لا أهمیـة، و التی لیست مبدأ لأی أثر، و لا تأتی بأی فائدة، و هی عند العسر صماء عمیاء، فکیف تستحق الألوهیة و تکون أهلا لها؟

و أخیرا تقول الآیـة: وَ ذلِکَ إِفْکُهُمْ وَ ما کانُوا یَفْتَرُونَ فإنّ هـذا الهلاک و الشـقاء، و هـذا العذاب الألیم، و اختفاء الآلهة وقت الشدّة و العسر، کان نتیجة لأکاذیب أولئک و أوهامهم و افتراءاتهم [۲۷۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۳

الآیات [سورة الأحقاف (۴۶): الآیات ۲۹ الی ۳۲]

اشارة

وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ (۲۹) قالُوا یا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا کِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسی مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ وَ إِلی طَرِیقٍ مُسْتَقِیمٍ (۳۰) یا قَوْمَنا أَجِیبُوا داعِیَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُجِرْکُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ (۳۱) وَ مَنْ لا یُجِبْ داعِیَ اللَّهِ فَلَیْسَ بِمُعْجِزٍ فِی الْأَرْضِ وَ لَیْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِیاءُ أُولئِکَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۳۲)

سبب النّزول

وردت روایات مختلفـة فی سبب نزول هذه الآیات، و من جملتها: أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم خرج من مکّة إلی سوق عکاظ فی الطائف- و کان معه زیـد بن حارثـة- من أجل أن یدعو الناس إلی الإسلام، إلّا أنّ أحدا لم یجبه، فاضطر الی الرجوع إلی مکّة، و فی طریق عودته وصل إلی موضع یقال له: وادی الجن، فبدأ بتلاوة القرآن

فی جوف اللیل، و کانت طائفة من الجن یمرون من هناک، فلما سمعوا قراءة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم للقرآن أصغوا إلیه و قال بعضهم لبعض: اسکتوا و أنصتوا، فلما أتمّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تلاوته آمنوا به، و أتوا قومهم کرسل یدعونهم إلی الإسلام، فآمن لهم جماعة، و أتوا جمیعا الی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فعلّمهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم الإسلام، فنزلت هذه الآیات و آیات سورة الجن ۲۷۲].

و نقل جماعة عن ابن عباس سبب نزول آخر یقرب من سبب النّزول السابق، باختلاف: إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان مشتغلا بصلاة الصبح و کان یقرأ القرآن فیها، و کان جماعة من الجن فی حالة بحث و تحقیق، إذا کان انقطاع أخبار السماء عنهم قد أقلقهم، فسمعوا صوت تلاوة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا: هذا سبب انقطاع أخبار السماء عنّا، فرجعوا إلی قومهم و دعوهم إلی الإسلام ۲۷۳].

و قد أورد العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان سببا ثالثا للنزول هنا، و هو یرتبط بقصة سفر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی الطائف و خلاصته:

بعد وفاة أبی طالب صعب الأمر علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فرحل إلی الطائف لعله یجد أنصار، فبرز إلیه أشراف الطائف و کذّبوه أشدّ تکذیب، و رموا النّبی بالحجارة حتی سالت الدماء من قدمیه، فأعیاه التعب، فأتی إلی جنب بستان و استظل بظل نخلة، و کانت الدماء تسیل منه.

و کان البستان لعتبة بن ربیعة و شیبة بن ربیعة، و کانا من أثریاء قریش، فتأذی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من رؤیتهما لعلمه بعدائهما للإسلام من قبل، فأرسلا غلامهما «عداسا»- و کان رجلا نصرانیا- إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بطبق من العنب، فقال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لعداس:

«من أی أرض أنت»؟ قال: من نینوی، قال: «من مدینة العبد الصالح یونس بن

متی»، فقال: و ما یدریک من یونس بن متی؟ قال: «أنا رسول اللّه، و اللّه تعالی أخبرنی خبر یونس بن متی» فعرف عداس صدق النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فخرّ ساجدا للّه تعالی، و وقع علی قدمی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یقبلهما.

فلما رجع لامه عتبة و شیبة علی ما صنع، فقال: لقد أخبرنی هذا الرجل الصالح بما یجهله أهل هذه البلاد من أمر نبیّنا یونس، فضحکا و قالا: لا یفتننک عن نصرانیتک، فإنّه رجل خداع! فرجع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی مکّة، و لم یکن حاصل سفره هذا إلّا مؤمن واحد، فوصل نخلا فی جوف اللیل، فما إن حلّ حتی تهیّأ للصلاة، و کان جماعة من الجن من أهل نصیبین أو الیمن یمرون من هناک، فسمعوا صوت تلاوة القرآن فی صلاة الصبح فأصغوا إلیه و آمنوا[۲۷۴].

***

التّفسیر

إیمان طائفة من الجن:

جاء فی هذه الآیات- و کما أشیر فی سبب النّزول- بحث مختصر حول إیمان طائفة من الجن بنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کتابه السماوی، لتوضح لمشرکی مکّة حقیقة، هی: کیف تؤمن طائفة من الجن البعیدین- ظاهرا- بهذا النبی الذی هو من الإنس، و

بعث من بین أظهرکم، و أنتم تصرون علی الکفر، و تستمرون فی عنادکم و مخالفتکم؟

و سیکون لنا بحث مفصل حول (الجن) و خصوصیاته فی تفسیر سورة الجن إن شاء اللّه تعالی، و نتناول هنا تفسیر الآیات مورد البحث فقط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۶

لقد کانت قصة قوم عاد تحذیرا لمشرکی مکّة فی الحقیقة، و قصة إیمان طائفة من الجن تحذیرا آخر.

تقول الآیة أوّلا: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ

إنّ التعبیر ب (صرفنا)- من مادة صرف، یعنی نقل الشیء و تبدیله من حالة إلی اخری- و لعله إشارة إلی أنّ الجن کانوا یصغون إلی أخبار السماء عن طریق استراق السمع، و مع ظهور نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم رجعوا إلیه و اتّجهوا نحو القرآن.

و «النفر» کما یقول الراغب فی مفرداته- عدّة رجال یمکنهم النفر، و المشهور بین أرباب اللغة أنّه الجماعة من الثلاثة إلی العشرة، و أوصلها البعض إلی الأربعین.

ثمّ تضیف الآیة: فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا و ذلک حینما کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یتلو آیات القرآن فی جوف اللیل، أو فی صلاة الصبح.

«انصتوا» من مادة إنصات، و هو السکوت مع الاستماع و الانتباه.

و أخیرا أضاء نور الإیمان قلوب هؤلاء، فلمسوا فی أعماقهم کون آیات القرآن حقا، و لذلک: فَلَمَّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ و هذا دأب المؤمنین دائما، فی أن یطلعوا الآخرین علی الحقائق التی اطلعوا علیها، و یدلوهم علی مصادر إیمانهم و منابعه الفیاضة.

و تبیّن الآیة التالیة کیفیة دعوة هؤلاء قومهم عند عودتهم إلیهم، تلک الدعوة المتناسقة الدقیقة، الوجیزة و العمیقة المعنی: قالُوا یا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا کِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسی

و من صفاته أنّا رأیناه یصدق الکتب السماویة السالفة و یتطابق معها فی محتواها، و فیه العلائم الواردة فی تلک الکتب: مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ ۲۷۵].

و صفته الأخری أنّه: یَهْدِی إِلَی الْحَقِ بحیث أنّ کلّ من یستند إلی عقله و فطرته یری آیات حقانیته واضحة جلیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۷

و آخر صفة أنّه یهدی إلی الرشد: وَ إِلی طَرِیقٍ مُسْتَقِیمٍ

إنّ التفاوت بین الدعوة إلی الحق و الی الصراط المستقیم، یکمن ظاهرا فی أنّ الأوّل إشارة إلی العقائد الحقة، و الثّانی إلی البرامج العملیة المستقیمة الصحیحة.

و جملة: أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسی و جملة: مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ تؤیدان أنّ هذه الطائفة کانوا مؤمنین بالکتب السماویة السابقة، و خاصة کتاب موسی علیه السّلام، و کانوا یبحثون عن الحق.

و إذا رأینا أنّ الکلام لم یرد عن کتاب عیسی الذی أنزل بعد موسی علیه السّلام، فلیس ذلک بسبب ما روی عن ابن عباس من أنّ الجن لم یکونوا مطلعین علی نزول الإنجیل مطلقا، إذ أنّ الجن کانوا مطلعین علی أخبار السماوات و عالمین بها، فکیف یمکن أن یغفلوا عن أخبار الأرض إلی هذا الحد؟ بل بسبب أنّ التوراة کانت هی الکتاب الأساسی، فحتی المسیحیون کانوا قد أخذوا و یأخذون أحکام شریعتهم عنها.

ثمّ أضافوا: یا قَوْمَنا أَجِیبُوا داعِیَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ إذ ستمنحون حینها مکافأتین عظیمتین: یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُجِرْکُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِیمٍ ۲۷۶].

المراد من: داعِیَ اللَّهِ نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم الذی کان یرشدهم إلی اللّه سبحانه، و لما کان أغلب خوف الإنسان و

اضطرابه من الذنوب و عذاب القيامة الأليم، فقد ذكروا لهم الأمن تجاه هذين الأمرين، ليلفت انتباههم قبل كلّ شيء.
و اعتبر جمع من المفسّرين كلمة (من) فى (من ذنوبكم) زائدة، ليكون ذلك تأكيدا على غفران جميع الذنوب فى ظل الإيمان. فى حين اعتبرها البعض تبعيضية، و أنّها إشارة إلى تلك الذنوب التى اقترفوها قبل إيمانهم، أو الذنوب التى تتعلق باللّه سبحانه، لا بحق الناس.
غير أنّ الأنسب هو كون (من) زائدة و للتأكيد، و الآية الشريفة تشمل كلّ

الذنوب.
و تذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- كلام مبلغى الجن، فتقول: وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ ينصرونه من عذاب اللّه، و لذلك فإنّ: أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ
أى ضلال أشد و أسوأ و أجلى من أن يهبّ الإنسان إلى محاربة الحق و نبيّ اللّه، بل حتى إلى محاربة اللّه الذى لا ملجأ له سواه فى كلّ عالم الوجود، و لا يستطيع الإنسان أن يفر من حكومته إلى مكان آخر؟! و قد قلنا مرارا: إنّ (معجز)- أو سائر مشتقات هذه الكلمة- تعنى فى مثل هذه الموارد العجز عن المطاردة و التعقيب و المجازاة، و بتعبير آخر: الفرار من قبضة العقاب.
و عبارة (فى الأرض) إشارة إلى أنّكم حيثما تذهبون فى الأرض فإنّه ملك اللّه و سلطانه، و لا يمكن أن تكونوا خارج حدود قدرته و قبضته، و إذا كانت الآية لا تتحدث عن السماء، فلأنّ مكان الإنس و الجن هو الأرض على كلّ حال.

***

بحثان

۱- الإعلام المؤثر

كما قلنا سابقا، فإنّ البحث حول الجن و كيفية حياتهم و الخصوصيات الاخرى المتعلقة بهم ستأتى فى تفسير سورة الجن إن شاء اللّه تعالى، و الذى يستفاد من هذه الآيات أنّ الجن موجودات عاقلة لها إدراك و شعور، و هم مكلّفون بالواجبات الإلهية، و فيهم المؤمن و الكافر، و لديهم الاطلاع الكافى على الدعوات الإلهية.
و المسألة الملفتة للنظر فى هذه الآيات هو الأسلوب الذى اتبعه هؤلاء للتبليغ من أجل الإسلام بين قومهم، فهم بعد حضورهم عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و سماعهم آيات

القرآن، و اطلاعهم على محتواها، أتوا قومهم مسرعين و شرعوا بدعوتهم.
لقد تحدّثوا أوّلا عن كون القرآن حقّا، و أثبتوا ذلك بأدلة ثلاثة، ثمّ بدأوا بترغيبهم، فبشروهم بالنجاة و الخلاص من قبضة عذاب الآخرة فى ظل الإيمان بهذا الكتاب السماوى، و كان ذلك تأكيدا على مسألة المعاد من جانب، و صرف الاهتمام إلى قيم الآخرة الأصيلة فى مقابل قيم الدنيا الزائلة الفانية من جانب آخر.
ثمّ نبّهوهم فى المرحلة الثّالثة على أخطار ترك الإيمان، و حذروهم تحذيرا مقترنا بالاستدلال و الحرص، و أخيرا بيّنوا لهم عاقبة الانحراف عن هذا المسير، فالانحراف عنه هو الضلال المبين.
إنّ هذا الأسلوب فى التبليغ و الإعلام أسلوب مؤثر نافع لكلّ فرد و لكلّ فئة.

۲- أفضل دليل على عظمة القرآن محتواه

يظهر جليا من الآيات أعلاه- و آيات سورة الجن- أنّ هذه الفرقة من الجن قد انجذبوا إلى القرآن و انشدوا إليه بمجرّد سماع آياته، و لا يوجد أى دليل على أنّهم قد طلبوا من نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم معجزة أخرى.

لقد اعتبر هؤلاء انسجام القرآن المجيد مع آيات الكتب السابقة من جهة، و أنّه يدعوا الى الحق من جهة ثانية، و استقامة برامجه العملية و تخطيطه من جهة ثالثة، كافيا لأن يدل على كونه حقّا.

و الحق أنّ الأمر كذلك، فإنّ التدبّر فى محتوى القرآن و التحقيق فيه يغنينا عن الحاجة إلى أى دليل آخر.

إنّ كتابا لشخص أمى لم يدرس، و فى محيط ملىء بالجهل و الخرافات، يكون فيه هذا المحتوى السامى، و العقائد الطاهرة النقية، و التوحيد الخالص، و القوانين المحكمة المنسجمة، و الاستدلالات القوية القاطعة، و البرامج المتينة البنّاءة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۰

و المواعظ و الإرشادات العالية الجلية، و بتلك الجاذبية القوية، و الجمال المذهل، كل ذلك يشكل بنفسه أفضل دليل على حقانية هذا الكتاب السماوى، فإنّ ظهور الشمس دليل على ظهورها- كما يقول المثل-[۲۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۱

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۳۳ الى ۳۵]

اشارة

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۳) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (۳۵)

التّفسير

فاصبر كما صبر أولوا العزم:

تواصل هذه الآيات- و هى آخر آيات سورة الأحقاف- البحث حول المعاد، حيث جاءت الإشارة إلى مسألة المعاد فى الآيات السابقة حكاية عن لسان مبلغى الجن. هذا من جهة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۲

و من جهة أخرى فإنّ سورة الأحقاف تتحدث فى فصولها الأولى عن مسألة التوحيد، و عظمة القرآن المجيد، و إثبات نبوة نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و تبحث فى آخر فصل من هذه السورة مسألة المعاد لتكمل بذلك البحث فى الأصول الاعتقادية الثلاثة.

تقول الآية الأولى: أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فإنّ خلق السماوات و الأرض مع موجوداتها المختلفة المتنوعة علامة قدرته تعالى على كلّ شىء، لأنّ كل ما يقع فى دائرة

مخلوق للّه فی هـذا العـالم، فإذا کان الأمر کـذلک، فکیف یمکن أن یکون عاجزا عن إعادهٔ حیاهٔ البشـر؟ و هـذا بحـدّ ذاته دلیل قاطع مفحم علی مسألهٔ إمکان المعاد.

و أساسا فإنّ أفضل دلیل علی إمکان أی شـیء وقوعه، فکیف نـدع إلی أنفسـنا سبیلا للشک فی قدرهٔ اللّه المطلقهٔ علی مسألهٔ المعاد و نحن نری نشأهٔ الموجودات الحیهٔ و تولدها من موجودات میتهٔ، و علی هذا النطاق الواسع؟

هذا أحد أدلهٔ المعاد العدیدهٔ التی یؤکد علیها القرآن و یستند إلیها فی آیات مختلفهٔ، و من جملتها الآیهٔ (۸۱) من سورهٔ یس [۲۷۸].

و تجسّد الآیهٔ التالیهٔ مشهدا من العذاب الألیم المحیط بالمجرمین و منکری المعاد، فتقول: وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النَّارِ.

أجل، فمرّهٔ تعرض النّار علی الکافرین، و أخری یعرضون الکافرین علی النّار، و لکل من العرضین هدف أشیر إلیه قبل عدّهٔ آیات.

و عند ما یعرضون الکافرین علی النّار، و یرون ألسـنهٔ لهبها العظیمهٔ المحرقهٔ المرعبهٔ یقال لهم: أَ لَیْسَ هذا بِالْحَقِ و هل تستطیعون الیوم أن تنکروا البعث و محکمهٔ اللّه العادلهٔ، و ثوابه و عقابه، و تقولون: ما هذا إلّا أساطیر الأولین؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۳

غیر أنّ أولئک الذین لا حیلهٔ لهم: قالُوا بَلی وَ رَبِّنا فهنا یقول اللّه سبحانه، أو ملائکهٔ العذاب: قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ

و بهـذا فإنّهم یرون کلّ الحقائق بأم أعینهم فی ذلک الیوم و یعترفون بـذلک الاعتراف الـذی لن ینفعهم، و سوف لن تکون نتیجته إلّا الهم و الحسرهٔ، و تأنیب الضمیر و العذاب الروحی.

و یأمر اللّه سـبحانه نبیّه فی آخر آیـهٔ من هذه الآیات، و هی آخر آیهٔ فی سورهٔ الأحقاف، علی أساس ملاحظهٔ ما مرّ فی الآیات السابقهٔ حول المعاد و عقاب الکافرین، أن: فَاصْبِرْ کَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ فلست الوحیـد الـذی واجه مخالفـهٔ هؤلاء القوم و عـداوتهم، فقد واجه أولو العزم هذه المشاکل و ثبتوا أمامها و اسـتقاموا، فنبیّ اللّه العظیم نوح علیه السّـلام دعا قومه (۹۵۰) سنهٔ، و لم یؤمن به إلّا فئهٔ قلیلهٔ، و کان قومه یؤذونه دائما، و یسخرون منه.

و ألقوا إبراهیم علیه السّـلام فی النّار، و هددوا موسـی علیه السّـلام بالقتل، و کان قلبه قد امتلأ قیحا من عصـیانهم، و کانوا یریدون قتل المسیح علیه السّلام بعد أن آذوه کثیرا، فأنجاه اللّه منهم.

و خلاصـهٔ القول: إنّ الأمر کان و ما یزال کـذلک ما کانت الـدنیا، و لا یمکن التغلب علی هذه المشاکل إلّا بقوّهٔ الصبر و الاسـتقامهٔ و الثبات.

من هم أولو العزم من الرسل؟

هنـاک بحث و اختلاـف کبیر جـدّا بین المفسّـرین فی: من هم أولو العزم؟ و قبل أن نحقق فی هـذا، ینبغی أن نحقق فی معنی (العزم)، لأنّ (أولو العزم) بمعنی ذوی العزم.

«العزم» بمعنی الإرادهٔ الصلبهٔ القویهٔ، و یقول الراغب فی مفرداته: إنّ العزم هو عقد القلب علی إمضاء الأمر.

و قد استعملت کلمهٔ العزم فی مورد الصبر فی آیات القرآن المجید أحیانا، کقوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۴

تعالی: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [۲۷۹].

و جاءت أحیانا بمعنی الوفاء بالعهد، کقوله تعالی: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلی آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِیَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [۲۸۰].

لکن بملاحظهٔ أنّ أصـحاب الشـرائع و الأدیان الجدیدهٔ من الأنبیاء قد ابتلوا بمشاکل أکثر، و واجهوا مصاعب أشد، و کانوا بحاجهٔ إلی عزم و إرادهٔ أقوی و أشـد لمواجهتهـا، فقـد أطلق علی هـذه الفئـهٔ من الأنبیـاء (أولو العزم) و الآیـهٔ مورد البحث إشارهٔ إلی هـذا المعنی

ظاهرا. و هی تشیر ضمنا إلی أن نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم من هذه الفئة، لأنّها تقول: فَاصْبِرْ کَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ

و إذا کـان البعض قـد فسّر العزم و العزیمـة بمعنی الحکم و الشـریعة فمن هـذه الجهـة، و إلّا فإنّ کلمـة العزم لم تأت فی اللغـة بمعنی الشریعة.

و علی أیة حال، فطبقا لهذا المعنی تکون (من) فی (من الرسل) تبعیضـیة، و إشارة إلی فئة خاصّة من الأنبیاء کانوا أصـحاب شـریعة، و هم الذین أشارت إلیهم الآیة ۷ من سورة الأحزاب: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِیمَ وَ مُوسـی وَ عِیسَـی ابْنِ مَرْیَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِیثاقاً غَلِیظاً.

فقد أشارت الآیة إلی هؤلاء الأنبیاء الخمسة بعد ذکر جمیع الأنبیاء بصیغة الجمع، و هذا دلیل علی خصوصیتهم.

و تتحدث الآیة (۱۳) من سورة الشوری عنهم أیضا، فتقول: شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الـدِّینِ ما وَصَّی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ وَ ما وَصَّیْنا بِهِ إِبْراهِیمَ وَ مُوسی وَ عِیسی

و قد رویت فی هذا الباب روایات کثیرة فی مصادر الشیعة و السنّة، تدل علی أنّ الأنبیاء أولی العزم کانوا خمسة، کما

ورد فی حدیث عن الإمامین الباقر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۵

و الصادق علیهما السلام: «و منهم خمسة: أولهم نوح، ثمّ إبراهیم ثمّ موسی، ثمّ عیسی، ثمّ محمّد»[۲۸۱].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام: «منهم خمسة أولو العزم من المرسلین: نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمّد».

و عند ما یسأل الراوی: لم سموا (أولو العزم)؟

یقول الإمام علیه السّلام مجیبا: «لأنّهم بعثوا إلی شرقها و غربها، و جنّها و إنسها»[۲۸۲].

و کذلک

ورد فی حـدیث عن الإمام الصادق علیه السّـلام: «سادة النبیّین و المرسـلین خمسـة، و هم أولو العزم من الرسل، و علیهم دارت الرحی: نوح، و إبراهیم، و موسی، و عیسی، و محمّد»[۲۸۳].

و روی هذا المعنی فی تفسیر الدر المنثور عن ابن عباس أیضا، بأنّ الأنبیاء أولی العزم هم هؤلاء الخمسة[۲۸۴].

إلّا أنّ بعض المفسّرین یعتقد أنّ (أولو العزم) إشارة إلی الأنبیاء الذین أمروا بمحاربة الأعداء و جهادهم.

و اعتبر البعض عددهم (۳۱۳) نفرا[۲۸۵]، و یری البعض أنّ جمیع الأنبیاء (أولو عزم) أی أصحاب إرادة[۲۸۶] صلبة و طبقا لهذا القول، فإنّ (من) فی (من الرسل) بیانیة لا تبعیضیة.

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أصح منها جمیعا، و تؤیده الروایات الإسلامیة.

ثمّ یضیف القرآن بعد ذلک: وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أی للکفار لأنّ القیامة ستحل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۶

سریعـا، و سـیرون بأعینهم ما أطلقوه علیها و ادعوه فیها، و یجزون أشـدّ العـذاب، و عنـدها سـیطلعون علی أخطائهم، و یعرفون ما کانوا علیه من الضلالة و الغی.

إنّ عمر الدنیا قصیر جدّا بالنسبة إلی عمر الآخرة، حتی: کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ ما یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ.

إنّ هـذا الإحساس بقصـر عمر الـدنیا بالنسـبة إلی الآخرة، إمّا بسـبب أنّ هـذه الحیاة لیست إلّا ساعـة أمام تلک الحیاة الخالـدة حقیقة و

واقعا، أو لأنّ الدنيا تنقضى عليهم سريعا حتى كأنّها لم تكن إلّا ساعة، أو من جهة أنّهم لا يرون حاصل كلّ عمرهم الذى لم يستغلوه و يستفيدوا منه الاستفادة الصحيحة إلّا ساعة لا أكثر.

هنا سيغطى سيل الأحزان و الحسرة قلوب هؤلاء، و لات حين ندم، إذ لا سبيل الى الرجوع.

لهذا نرى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و

قد سئل: كم ما بين الدنيا و الآخرة؟ فقال: «غمضة عين، ثمّ يقول: قال اللّه تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ»[۲۸۷].

و هذا يوحى بأنّ التعبير بالساعة لا تعنى مقدار الساعة المتعارفة، بل هو إشارة إلى الزمان القليل القصير.

ثمّ تضيف الآية كتحذير لكلّ البشر «بلاغ»[۲۸۸] لكلّ أولئك الذين خرجوا عن خط العبودية للّه تعالى .. لأولئك الغارقين فى بحر الحياة الدنيا السريعة الزوال و الفناء، و العابدين شهواتها .. و أخيرا هو بلاغ لكلّ سكان هذا العالم الفانى.

و تقول فى آخر جملة تتضمن استفهاما عميق المعنى، و ينطوى على التهديد:

فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۷

ملاحظة كان نبىّ الإسلام مثال الصبر و الاستقامة:

إنّ حياة أنبياء اللّه العظام- و خاصة نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم- تبيان لمقاومتهم اللامحدودة أمام الحوادث الصعبة و الشدائد العسيرة، و العواصف الهوجاء، و المشاكل القاصمة، و لما كان طريق الحق مليئا بهذه المشاكل دائما، فيجب على سالكيه أن يستلهموا العبر من أولئك العظماء فى هذا المسير.

إنّنا ننظر عادة من نقطة مضيئة فى تاريخ الإسلام إلى أيّام مرّت على الإسلام و نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم صعبة مظلمة، و هذه النظرة من المستقبل إلى الماضى تجسم الوقائع و الحقائق بشكل آخر، فينبغى علينا أن ندرك أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان وحيدا فريدا لا يرى فى أفق الحياة أية علامة للانتصار.

فأعداؤه شمروا عن سواعدهم للفتك به، حتى أنّ أقاربه و عشيرته كانوا فى الخط الأوّل فى هذه المجابهة! كان يذهب دائما إلى قبائل العرب و يدعوهم، و لكن لم يكن يجيبه أحد.

كانوا يرجمونه حتى تسيل الدماء من عقبيه، لكنه لم يكن يكف عن عمله.

لقد فرضوا عليه الحصار الاجتماعى و الاقتصادى و السياسى بحيث أغلقوا جميع الأبواب و الطرق بوجهه و بوجه أتباعه، حتى مات بعضهم جوعا، و أقعد المرض بعضهم الآخر.

لقد مرّت على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيّام يصعب على القلم و اللسان وصفها، فعند ما جاء إلى الطائف ليدعو الناس إلى الإسلام، لم يكتفوا بعدم إجابة دعوته، بل رموه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه.

لقد كانوا يحثون الجهلاء من الناس على أن يصرخوا، و يسيئوا فى كلامهم إليه، فيضطر إلى أن يلتجئ إلى بستان و يستظل بظل شجرة، و يناجى ربّه

فيقول: «اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوتى، و قلة حيلتى، و هو انى على الناس، يا أرحم الراحمين: أنت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۸

رب المستضعفين، و أنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ...»[۲۸۹].

کانوا یسمونه ساحرا تارة، و أخری یخاطبونه بالمجنون.

کانوا یلقون التراب و الرماد علی رأسه حینا، و حینا یجمعون علی قتله، فیحاصرون بیته بالسیوف و الرماح.

إلّا أنّه رغم کلّ تلک الظروف استمر فی صبره و صموده و استقامته.

و أخیرا جنی الثمرة الطیبة لهذه الشجرة المبارکة، فقد عمّ دینه شرق العالم و غربه، لا جزیرة العرب وحدها، و یدوّی الیوم صوت انتصاره صباح مساء فی کلّ أرجاء الدنیا، و فی قارات العالم الخمسة، و هذا هو معنی: فَاصْبِرْ کَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

و هذا هو طریق محاربة الشیاطین، و طریق الإنتصار علیهم، و الوصول إلی الأهداف الإلهیة السامیة.

إذا کان الأمر کذلک، فکیف یطمح طلاب الراحة و السلامة إلی أن یصلوا إلی أهدافهم الکبیرة من دون صبر و تحمل للعذاب و الآلام؟

و کیف یأمل مسلمو الیوم أن ینتصروا علی کلّ هؤلاء الأعداء الذین اجتمعت کلمتهم علی إفنائهم و القضاء علیهم، دون الاستلهام من دین نبی الإسلام الأصیل؟

و القادة الإسلامیون بخاصة مأمورون بهذا الأمر قبل الجمیع، کما

ورد فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «إنّ الصبر علی ولاة الأمر مفروض، لقول اللّه عزّ و جلّ لنبیّه: فَاصْبِرْ کَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إیجابه مثل ذلک علی أولیائه و أهل طاعته بقوله: لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»[۲۹۰].

اللّهمّ امنحنا هذه الموهبة العظیمة، هذه العطیة السماویة، و هذا الصبر و الثبات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۹

و الاستقامة أمام المشاکل.

اللّهمّ وفقنا لحفظ مشعل النور الذی حمله أولو العزم من أنبیائک، و خاصة خاتم النبیین محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم، من أجل هدایة البشریة بعد تحملهم الجهود المضنیة، و وفقنا لأن نکون أهلا لحراسته.

إلهنا! إنّ أعداء الحق متحدون و متحزّبون ضده، و لا یرتدعون عن اقتراف أیة جریمة و جنایة، اللّهمّ فامنحنا صبرا و ثباتا أعظم مما لدیهم لئلا- نرکع أمام سیل المشاکل و عظمتها، و وفقنا لأن نتخطی الأمواج و العواصف و نترکها وراءنا، و هذا لا یتمّ إلّا بعونک و لطفک اللامحدود.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة الأحقاف***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۱

سورة محمّد

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها ثمان و ثلاثون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۳

«سورة محمّد»

محتوی السورة:

سمّيت هـذه السورة بسورة محمّـد صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم لأنّ اسـمه الشـريف قـد ذكر فى الآيـة الثانية، و اسـمها الآخر هو سورة القتال، و الواقع أنّ مسألـة الجهاد و قتال أعداء الإسـلام هو أهم موضوع ألقى ظلاله على هذه السورة، فى حين أنّ جزءا مهما آخر من آيات هذه السورة يتناول المقارنة بين حال المؤمنين و الكافرين و خصائصهم و صفاتهم، و كذلك المصير الذى ينتهى إليه كلّ منهما فى الحياة الآخرة.

و يمكن تلخيص محتوى السورة بصورة عامة فى عدة فصول:

۱- مسألة الإيمان و الكفر، و المقارنة بين أحوال المؤمنين و الكفار فى هذه الدنيا و فى الحياة الآخرة.

۲- بحوث معبرة بليغة و صريحة حول مسألة الجهاد و قتال المشركين، و التعليمات الخاصة فيما يتعلق بأسرى الحرب.

۳- شرح أحوال المنافقين الذين كان لهم نشاطات هدّامة كثيرة حين نزول هذه الآيات فى المدينة.

۴- فصل آخر يتناول مسألة السير فى الأرض، و تدبر مصير الأقوام الماضين و عاقبتهم، كدرس للاعتبار و الاتعاظ.

۵- و فى جانب من آيات هذه السورة ذكرت مسألة الاختبار الإلهى لمناسبتها موضوع القتال و الجهاد.

۶- ورد الحديث فى فصل آخر عن مسألة الإنفاق الذى يعتبر بحدّ ذاته نوعا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۴

من الجهاد، و جاء الحديث عن مسألة البخل الذى يقع فى الطرف المقابل.

۷- و تناولت بعض آيات هـذه السورة- لمناسبة موضوعها- مسألة الصـلح مع الكفار- الصـلح الذى يكون أساسا لهزيمة المسـلمين و ذلّتهم- و نهت عنه.

و بالجملـة، فبملاحظـة أنّ هـذه السورة قد نزلت فى المدينة حينما كان الاشـتباك شديدا بين المسـلمين و أعداء الإسـلام، و على قول بعض المفسّرين أنّها نزلت أثناء معركة أحد أو بعدها بقليل، فإنّ أهم مسألة فيها هى قضية الجهاد و الحرب، و تدور بقية المسائل حول ذلك المحور .. الحرب المصـيرية التى تميّز المؤمنين عن الكافرين و المنافقين .. الحرب التى كانت تثبت دعائم الإسلام، و ردّت كيد الأعداء الذين هبّوا للقضاء على الإسلام و المسلمين فى نحورهم- و أوقفتهم عند حدّهم.

فضل تلاوة السورة:

جـاء فى حـديث عن نبى الإسـلام الأـكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم: «من قرأ سورة محمّـد كـان حقّـا على اللّه أن يسـقيه من أنهار الجنّة»[۲۹۱].

و

روى فى كتاب ثواب الأعمال عن الصادق عليه السّـلام، أنّه قال: «من قرأ سورة الـذين كفروا- سورة محمّد لم يرتب أبدا، و لم يدخله شكّ فى دينه، و لم يبتله اللّه بفقر أبـدا، و لا خوف سـلطان أبدا، و لم يزل محفوظا من الشـرك و الكفر أبدا حتى يموت، فإذا مات و كلّ اللّه به فى قبره ألف ملك يصلون فى قبره، و يكون ثواب صـلاتهم له و يشيعونه حتى يوقفوه موقف الأمن عنـد اللّه عزّ و جلّ، و يكون فى أمان اللّه، و أمان محمّد»[۲۹۲].

من الواضح أنّ الذين جرى محتوى هذه السورة فى دمائهم، و تشبّعت به

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۵

أرواحهم، و هم أشـداء فى جهاد الأعداء اللدودين القساة، و الذين لم يدعوا للشك و التزلزل الى أنفسـهم سبيلا، تكون أسـس دينهم قوية، و إيمانهم صلبا، و لا يملكهم خوف و لا تنالهم ذلة و لا يعتريهم فقر، و هم فى الآخرة منعمون فى جوار رحمة اللّه.

و

جاء فی حدیث آخر أنّ الإمام علیه السّلام قال: «من أراد أن یعرف حالنا و حال أعدائنا فلیقرأ سورة محمّد فإنّه یراها آیة فینا و آیة فیهم»[۲۹۳].

و قد نقل هذا الحدیث مفسرو السنّة أیضا، کالآلوسی فی روح المعانی ۲۹۴] و السیوطی فی الدر المنثور[۲۹۵].

و هذه السورة تبیان لحقیقة أنّ أهل بیت النّبی علیه السّلام کانوا نموذجا لأکمل الإیمان و أتمه، و أنّ بنیّ أمیة کانوا المثال البارز للکفر و النفاق.

صحیح أنّه لم یرد تصریح باسم أهل البیت و لا باسم بنی أمیة فی هذه السورة، لکن لمّا کان البحث فیها عن فئة المؤمنین و المنافقین و خصائص کلّ منهما، فإنّها تشیر قبل کلّ شیء إلی مصداقین واضحین، و لا مانع فی نفس الوقت من أن تشمل السورة سائر المؤمنین و المنافقین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۶

الآیات [سورة محمد (۴۷): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (۱) وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلی مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ کَفَّرَ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ (۲) ذلِکَ بِأَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِینَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (۳)

التّفسیر

المؤمنون أنصار الحق، و الکافرون أنصار الباطل:

إنّ هذه الآیات الثلاث تعتبر فی الحقیقة مقدمة لأمر حربی مهم صدر فی الآیة الرابعة، فبیّنت الأولی منها وضع الکافرین و حالهم، و الثانیة حال المؤمنین، و قارنت ثالثتهما بین الإثنین، و ذلک لتتهیأ الأرضیة و الاستعداد للجهاد الدینی ضد الأعداء الظالمین العتاة باتضاح حال الفئتین.

تقول الآیة الأولی: الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ و هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۷

إشارة الی زعماء الکفر و مشرکی مکّة الذین کانوا یشعلون نار الحروب ضد الإسلام، و لم یکتفوا بکونهم کفارا، بل کانوا یصدون الآخرین عن سبیل اللّه بأنواع الحیل و الخدع و المخططات.

و مع أنّ بعض المفسّرین- کالزمخشری فی الکشّاف- فسّر «الصدّ» هنا بمعنی الإعراض عن الإیمان، فی مقابل الآیة التالیة التی تتحدث عن الإیمان، إلّا أنّ الإحاطة بموارد استعمال هذه الکلمة فی القرآن الکریم توجب الحفاظ علی معناها الأصلی، و هو المنع.

و المراد من: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أنّه یحبطها و یجعلها هباء منثورا، لأنّ الإحباط و الإضاعة کنایة عن بقاء الشیء بدون حمایة و لا عماد، و لازم ذلک زواله و فناؤه.

و علی أیة حال، فإنّ بعض المفسّرین یرون أنّ هذه الجملة إشارة إلی الذین نحروا الإبل یوم بدر و أطعموها الناس، إذ نحر أبو جهل

عشرة من الإبل، و مثله صفوان، و سهيل بن عمر، لإطعام جيش الكفر[۲۹۶]. لكن لمّا كانت هذه الأعمال من أجل التفاخر و مكائد الشيطان فقد أحبطت جميعا.

غير أنّ الظاهر أنّها لا تنحصر بهذا المعنى، بل إنّ كلّ أعمالهم التى قاموا بها، و ظاهرها معونة للفقراء و الضعفاء، أو إقراء للضيف، أو غير ذلك ستحبط لعدم إيمانهم.

و بغض النظر عن ذلك، فإنّ اللّه سبحانه قد أحبط كلّ مؤامراتهم و ما قاموا به من أعمال لمحو الإسلام و القضاء على المسلمين، و حال بينهم و بين الوصول إلى أهدافهم الخبيثة.

و الآية التالية وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون فى الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم فى الآية السابقة، فتقول:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ ۲۹۷].

إنّ ذكر الإيمان بما نزل على نبيّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد ذكر الإيمان بصورة مطلقة، تأكيد على تعليمات هذا النّبى العظيم و مناهجه، و هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، و تبيان لحقيقة أنّ الإيمان باللّه سبحانه لا يتمّ أبدا بدون الإيمان بما نزل على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يحتمل أيضا أن تكون الجملة الأولى إشارة إلى الإيمان باللّه تعالى، و لها جانب عقائدى، و هذه الجملة إشارة إلى الإيمان بمحتوى الإسلام و تعليمات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لها الجانب العملى.

و بتعبير آخر، فإنّ الإيمان باللّه سبحانه لا يكفى وحده، بل يجب أن يؤمنوا بما نزل على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و أن يكون لهم إيمان بالقرآن، إيمان بالجهاد، إيمان بالصلاة و الصوم، و إيمان بالقيم الأخلاقية التى نزلت عليه. ذلك الإيمان الذى يكون مبدأ للحركة، و تأكيدا على العمل الصالح.

و ممّا يستحق الانتباه أنّ الآية تقول بعد ذكر هذه الجملة: وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ و هى تعنى أنّ إيمانهم لم يكن تقليدا، أو أنّه لم يقم على دليل و حجة، بل إنّهم آمنوا بعد أن رأوا الحق فيه.

و عبارة مِنْ رَبِّهِمْ تأكيد على حقيقة أنّ الحق يأتى دائما من قبل اللّه سبحانه، فهو يصدر منه، و يعود إليه.

و الجدير بالالتفات إليه أنّ الآية تبيّن ثوابين للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فى مقابل العقابين اللذين ذكرا للكفار الصادين عن سبيل اللّه: أو لهما:

التكفير عن السيئات التى لا يخلو منها أى إنسان غير معصوم، و الثانى: إصلاح البال.

لقد جاء «البال» بمعان مختلفة، فجاء بمعنى الحال، العمل، القلب، و على قول

الراغب: بمعنى الحالات العظيمة الأهمية، و بناء على هذا فإنّ إصلاح البال يعنى تنظيم كلّ شؤون الحياة و الأمور المصيرية، و هو يشمل- طبعا- الفوز فى الدنيا، و النجاة فى الآخرة، على عكس المصير الذى يلاقيه الكفار، إذ لا يصلون إلى ثمرة جهودهم و مساعيهم، و لا نصيب لهم إلّا الهزيمة و الخسران بحكم: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ

و يمكن القول بأنّ غفران ذنوبهم نتيجة إيمانهم، و أنّ إصلاح بالهم نتيجة أعمالهم الصالحة.

إنّ للمؤمنين هدوءا فكريا و اطمئنانا روحيا من جهة، و توفيقا و نجاحا فى برامجهم العملية من جهة ثانية، فإنّ لإصلاح البال إطارا واسعا يشمل الجميع، و أى نعمة أعظم من أن تكون للإنسان روح هادئة، و قلب مطمئن، و برامج مفيدة بنّاءة.

و بيّنت الآية الأخيرة العلة الأساسية لهذا الإنتصار و تلك الهزيمة من خلال مقارنة مختصرة بليغة، فقالت: ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ

هنـا یکمن سـرّ المسألـة بـأنّ خطّی الإیمان و الکفر یتفرعان عن خطّی الحق و الباطل، فالحق یعنی الحقائق العینیـة، و أسـماها ذات اللّه المقدّسة، و تلیها الحقائق المتعلقة بحیاة الإنسان، و القوانین الحاکمة فی علاقته باللّه تعالی، و فی علاقته بالآخرین.

و الباطل یعنی الظنون، و الأوهام، و المکائـد و الخـدع، و الأساطیر و الخرافات، و الأفعال الجوفاء التی لا هـدف من ورائها، و کلّ نوع من الانحراف عن القوانین الحاکمة فی عالم الوجود.

نعم، إنّ المؤمنین یتبعون الحق و ینصرونه، و الکفار یتبعون الباطل و یؤازرونه، و هنا یکمن سرّ انتصار هؤلاء، و هزیمة أولئک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۰

یقول القرآن الکریم: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما باطِلًا[۲۹۸].

و فسّر البعض «الباطل» بالشیطان، و آخرون بالعبثیة، لکن کما قلنا، فإنّ للباطل معنی واسعا یشمل هذین التّفسیرین و غیرهما.

و تضیف الآیـة فی النهایـة: کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ أی: کما أنّه سـبحانه قد بیّن الخطوط العامّة لحیاة المؤمنین و الکفار، و عقائدهم و برامجهم العملیة و نتائج أعمالهم فی هذه الآیات، فإنّه یوضح مصیر حیاتهم و عواقب أعمالهم.

یقول الراغب فی مفرداته: المثل عبارة عن قول یشبه قولا فی شیء آخر بینهما مشابهة یبیّن أحدهما الآخر.

و یستفاد من کلام آخر له أنّ هذه الکلمة تستعمل أحیانا بمعنی «المشابهة»، و أحیانا بمعنی «الوصف».

و الظاهر أنّ المراد فی هذه الآیة هو المعنی الثانی، أی إنّ اللّه سبحانه یصف حال الناس هکذا، کما مثّل الجنّة فی الآیة (۱۵) من سورة محمّد: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

و علی أیـة حال، فالـذی یسـتفاد من هـذه الآیة جیدا، أنّنا کلما اقتربنا من الحق اقتربنا من الإیمان، و سـنکون أبعد عن حقیقة الإیمان و أقرب إلی الکفر بتلک النسبة التی تمیل بها أعمالنا نحو الباطل، فإنّ أساسی الإیمان و الکفر هما الحق و الباطل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۱

الآیات [سورة محمد (۴۷): الآیات ۴ الی ۶]

اشارة

فَإِذا لَقِیتُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّی إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّی تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِکَ وَ لَوْ یَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لکِنْ لِیَبْلُوَا بَعْضَکُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَلَنْ یُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (۴) سَیَهْدِیهِمْ وَ یُصْلِحُ بالَهُمْ (۵) وَ یُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (۶)

التّفسیر

یجب الحزم فی ساحة الحرب:

کما قلنا سائقا، فإنّ الآیات السابقـة کانت مقدمـة لتهیئة المسـلمین من أجل إصدار أمر حربی مهم ذکر فی الآیات مورد البحث، فتقول الآیة: فَإِذا لَقِیتُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ ۲۹۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۲

من البـدیهی أن «ضـرب الرقـاب» کنایـة عن القتـل، و علی هـذا فلا ضـرورة لأـن یبـذل المقـاتلون قصـاری جهـدهم لأـداء هـذا الأمر بالخصوص، فإنّ الهدف هو دحر العدو و القضاء علیه، و لما کان ضرب الرقاب أوضح مصداق له، فقد أکّدت الآیة علیه.

و على أيـة حال، فإنّ هـذا الحكم مرتبط بساحـة القتال، لأنّ «لقيتم»- من مادة اللقاء- تعنى الحرب و القتال فى مثل هذه الموارد، و فى نفس هذه الآية قرائن عديدة تشـهد لهذا المعنى كمسألة أسـر الأسرى، و لفظة الحرب، و الشهادة فى سبيل اللّه، و التى وردت فى ذيل الآية.

و خلاصـة القول: إنّ اللقاء يسـتعمل- أحيانا- بمعنى اللقاء بأى شـكل كان، و أحيانا بمعنى المواجهـة و المجابهـة فى ميدان الحرب، و استعمل فى القرآن المجيد بكلا المعنيين، و الآية مورد البحث ناظرة إلى المعنى الثّانى.

و من هنا يتّضح أنّ أولئك الذين حوّروا هذه الآية و فسّروها بأنّ الإسلام يقول:

حيثما وجـدتم كافرا فاقتلوه، لم يريـدوا إلّا الإساءة إلى الإسـلام، و اتخاذ الآية بمعناها المحرّف حربة ضد الدين الحنيف، محاولة منهم لتشويه صورة الإسلام الناصعة، و إلّا فإنّ الآية صريحة فى اللقاء فى ساحة الحرب و ميدان القتال.

من البـديهى أنّ الإنسان إذا واجه عدوا شـرسا فى ميدان القتال، و لم يقابله بحزم و لم يكل له الضـربات القاصـمة و لم يذقه حرّ سـيفه ليهلكه، فإنّه هو الذى سيهلكك، و هذا القانون منطقى تماما.

ثمّ تضيف الآية: حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ

«أثخنتموهم» من مادة ثخن، بمعنى الغلظة و الصلابة، و لهذا تطلق على النصر و الغلبة الواضحة، و السيطرة الكاملة على العدو.

و بالرغم من أنّ أغلب المفسّـِرين فسّـِروا هذه الجملة بكثرة القتل فى العدو و شدّته، إلّا أنّ هذا المعنى لا يوجد فى أصلها اللغوى، كما قلنا، و لكن لمّا كان دفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۳

خطر العدو غير ممكن أحيانا إلّا بكثرة القتل فيه، فيمكن أن تكون مسألة القتل أحد مصاديق هذه الجملة فى مثل هذه الظروف، لا أنّها معناها الأصلى [۳۰۰].

و على كلّ حال، فإنّ الآية المذكورة تبيّن تعليما عسكريا دقيقا، و هو أنّه يجب أن لا يقدم على أسر الأسرى قبل تحطيم صفوف العدو و القضاء على آخر حصن لمقاومته، لأنّ الإقدام على الأسـر قد يكون سـببا فى تزلزل وضع المسـلمين فى الحرب، و سـيعوق المسلمين الاهتمام بأمر الأسرى و نقلهم إلى خلف الجبهات عن أداء واجبهم الأساسى.

و عبارة فَشُدُّوا الْوَثاقَ و بملاحظـة أنّ الوثاق هو الحبل، أو كلّ ما يربط به، يشـير الى إتقان العمل فى شـدّ وثاق الأسـرى، لئلا يسـتغل الأسير فرصة يفر فيها، ثمّ يوجّه ضربة إلى الإسلام و المسلمين.

و تبيّن الجملـة التاليـة حكم أسـرى الحرب الـذى يجب أن يقام بحقّهم بعـد انتهاء الحرب، فتقول: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً و على هذا لا يمكن قتل الأسـير الحربى بعد انتهاء الحرب، بل إنّ ولى أمر المسلمين- طبقا للمصلحة التى يراها- يطلق سراحهم مقابل عوض أحيانا، و بلا عوض أحيانا أخرى، و هذا العوض- فى الحقيقة- نوع من الغرامة الحربية التى يجب أن يدفعها العدو.

طبعا يوجد حكم ثالث فى الإسـلام فيما يتعلق بهذا الموضوع، و هو اسـتعباد الأسرى، إلّا أنّه ليس أمرا واجبا، بل هو راجع إلى ولى أمر المسلمين ينفّذه عند ما يراه ضرورة فى ظروف خاصة، و لعلّه لم يرد فى القرآن بصراحة لهذا السبب، بل بيّنته الرّوايات الإسلامية فقط.

يقول فقيهنا المعروف «الفاضل المقداد» فى «كنز العرفان»: إنّ ما روى عن مذهب أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأسير لو أسر بعد انتهاء الحرب فإنّ إمام المسلمين مخيّر بين ثلاث: إمّا إطلاقه دون شرط، أو تحريره مقابل أخذ الفدية، أو جعله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۴

عبدا، و لا يجوز قتله بأى وجه.

و يقول فى موضع آخر من كلامه: إنّ مسألة الرق استفيدت من الروايات، لا من متن الآية [۳۰۱].

و قد وردت هذه المسألة فى سائر الكتب الفقهية أيضا [۳۰۲].

و سنشير إلى هذا المطلب في بحث الرق الذي سيأتي في ذيل هذه الآيات.

ثمّ تضيف الآية بعد ذلك: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها[۳۰۳] فلا تكفوا عن القتال حتى تحطّموا قوى العدو و يصبح عاجزا عن مواجهتكم، و عندها سيخمد لهيب الحرب.

«الأوزار» جمع وزر، و هو الحمل الثقيل، و يطلق أحيانا على المعاصي، لأنّها تثقل كاهل صاحبها.

و الطريف أنّ هذه الأوزار نسبت إلى الحرب في الآية، إذ تقول: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها و هذه الأحمال الثقيلة كناية عن أنواع الأسلحة و المشاكل الملقاة على عاتق المقاتلين، و التي يواجهونها، و هي بعهدتهم ما كانت الحرب قائمة.

لكن متى تنتهي الحرب بين الإسلام و الكفر؟

سؤال أجاب عنه المفسّرون إجابات مختلفة:

فالبعض- كابن عباس- قال: حتى لا تبقى و ثنية على وجه البسيطة، و حتى يقتلع دين الشرك و تجتث جذوره.

و قال البعض الآخر: إنّ الحرب بين الإسلام و الكفر قائمة حتى ينتصر المسلمون على الدجال، و هذا القول يستند إلى حديث روي عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «و الجهاد ماض مذ بعثني اللّه إلى أن يقاتل آخر أمّتي

الدجال»[۳۰۴].

البحث حول «الدجّال» بحث واسع، لكن القدر المعلوم أنّ الدجّال رجل خدّاع، أو رجال خدّاعون ينشطون في آخر الزمان من أجل إضلال الناس عن أصل التوحيد و الحق و العدالة، و سيقضي عليهم المهدي (عج) بقدرته العظيمة، و على هذا فإنّ الحرب قائمة بين الحق و الباطل ما عاش الدجّالون على وجه الأرض.

إنّ للإسلام نوعين من المحاربة مع الكفر: أحدهما الحروب المرحلية كالغزوات التي غزاها النّبي صلى اللّه عليه و آله و سلّم حيث كانت السيوف تغمد بعد انتهاء كل غزوة. و الآخر هو الحرب المستمرة ضد الشرك و الكفر، و الظلم و الفساد، و هذا النوع مستمر حتى زمن اتساع حكومة العدل العالمية، و ظهورها على الأرض جميعا على يد المهدي (عج).

ثمّ تضيف الآية: ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ۳۰۵] بالصواعق السماوية، و الزلازل، و العواصف، و الابتلاءات الأخرى، لكن باب الاختبار و ميدانه سيغلق في هذه الصورة: وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ

هذه المسألة هي فلسفة الحرب، و النكتة الأساسية في صراع الحق و الباطل، ففي هذه الحروب ستتميز صفوف المؤمنين الحقيقيين و العاملين من أجل دينهم عن المتكلمين في المجالس المتخاذلين في ساعة العسرة، و بذلك ستتفتح براعم الاستعدادات، و تحيا قوّة الاستقامة و الرجولة، و يتحقق الهدف الأصلي للحياة الدنيا، و هو الابتلاء و تنمية قوّة الإيمان و القيم الإنسانية الأخرى.

إذا كان المؤمنون يتوقعون على ذواتهم و ينشغلون بالحياة اليومية الرتيبة، و في كل مرة تطغى فيها جماعة من المشركين و الظالمين يدحضهم اللّه سبحانه بالقوى الغيبية، و يدمّرهم بالطرق الإعجازية، فإنّ المجتمع سيكون خاملا ضعيفا

عاجزا، ليس له من الإسلام و الإيمان إلّا اسمه.

و خلاصة القول: إنّ اللّه سبحانه غني عن سعينا و جهادنا من أجل تثبيت دعائم دينه، بل نحن الذين نتربّى في ميدان جهاد الأعداء، و نحن الذين نحتاج إلى هذا الجهاد المقدّس.

و قد ذكر هذا المعنى في آيات القرآن الأخرى بصيغ أخرى، فنقرأ في الآية (۱۴۲) من سورة آل عمران: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ

و جاء فی الآیة التی سبقتها: وَ لِیُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَمْحَقَ الْكافِرِینَ

و تحدّث آخر جملة من الآیة مورد البحث عن الشهداء الذین قدّموا أرواحهم هدیة لدینهم فی هذه الحروب، و لهم فضل كبیر علی المجتمع الإسلامی، فقالت:

وَ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَلَنْ یُضِلَّ أَعْمالَهُمْ

فلن تذهب جهودهم و آلامهم و تضحیاتهم سدی، بل كلها محفوظة عند اللّه سبحانه، فستبقی آثار تضحیاتهم فی هذه الدنیا، و كلّ نداء (لا إله إلّا اللّه) یطرق سمع البشر یمثل ثمرة جهود أولئك الشهداء، و كلّ سجدة یسجدها مسلم بین یدی اللّه هی من بركات تضحیاتهم، فبمساعیهم تحطّمت قیود المذلّة و العبودیة، و عزّة المسلمین و رفعتهم رهینة ما بذلوه من الأرواح و التضحیات.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۳۲۶

ه هی أحدی مواهب اللّه فی شأن الشهداء.

و هناك ثلاث مواهب أخری أضیفت فی الآیات التالیة:

تقول الآیة أوّلا: سَیَهْدِیهِمْ إلی المقامات السامیة، و الفوز العظیم، و رضوان اللّه تعالی.

و الأخری: یُصْلِحُ بالَهُمْ فیهبهم هدوء الروح، و اطمئنان الخاطر، و النشاط المعنوی و الروحی، و الانسجام مع صفاء ملائكة اللّه و معنویاتهم، حیث یجعلهم جلساءهم و ندماءهم فی مجالس أنسهم و لذّتهم، و یدعوهم إلی ضیافته فی جوار

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۷

رحمته.

و الموهبة الأخیرة هی: وَ یُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ

قال بعض المفسّرین: إنّه تعالی لم یبیّن لهم الصفات الكلیة للجنّات العلی و روضة الرضوان و حسب، بل عرف لهم صفات قصورهم فی الجنّة و علاماتها، بحیث أنّهم عند ما یردون الجنّة یتوجّهون إلی قصورهم مباشرة[۳۰۶].

و فسر البعض (عرّفها) بأنّها من مادة «عرف»- علی زنة فكر- و هو العطر الطیب الرائحة، أی إنّ اللّه سبحانه سیدخلهم الجنّة التی عطّرها جمیعا استقبالا لضیوفه.

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یبدو هو الأنسب.

و قال البعض: إذا ضممنا هذه الآیات إلی آیة: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتاً[۳۰۷]، سیتّضح أنّ المراد من إصلاح البال إحیاؤهم حیاة یصلحون بها للحضور عند ربّهم بانكشاف الغطاء[۳۰۸].

***

بحوث

۱- مقام الشهداء السامی

تمرّ فی تأریخ الشعوب أیام تحدق الأخطار فیها بتلك الأمم و الشعوب، و لا یمكن دفع هذه الأخطار و الحفاظ علی الأهداف المقدّسة العظیمة إلّا بالتضحیة و الفداء و تقدیم القرابین الكثیرة، و هنا یجب أن یتوجّه المؤمنون المضحّون إلی ساحات القتال، لیحفظوا دین الحق بسفك دمائهم، و یسمی هؤلاء الأفراد فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۸

منطق الإسلام ب «الشهداء».

إنّ إطلاق کلمة الشهید- من مادة الشهود- علی هؤلاء، إمّا لحضورهم فی میدان الجهاد ضد أعداء الحق، أو لأنّهم یشاهدون ملائکة الرحمة لحظة شهادتهم، أو لمشاهدتهم النعم العظیمة التی أعدّت لهم، أو لحضورهم عند اللّه، کما جاء فی الآیة الشریفة: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ ۳۰۹].

و قلّ من یصل إلی درجة الشهید فی الإسلام .. أولئک الشهداء الذین یذهبون ساحة الحرب بین الحق و الباطل عن وعی و خلوص نیّة، و یقدّمون آخر قطرة من دمائهم الزکیة فی هذا السبیل.

و تلاحظ فی المصادر الإسلامیة روایات عجیبة حول مقام الشهداء، تحکی عظمة عمل الشهداء، و قیمته الفذّة.

فتقرأ

فی حدیث عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ فوق کلّ بر برا حتی یقتل الرجل شهیدا فی سبیل اللّه»[۳۱۰].

و

جاء فی حدیث آخر روی عنه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «المجاهدون فی اللّه قوّاد أهل الجنّة»[۳۱۱].

و نطالع

فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام: «ما من قطرة أحبّ إلی اللّه من قطرة دم فی سبیل اللّه، أو قطرة من دموع عین فی سواد اللیل من خشیة اللّه، و ما من قدم أحبّ إلی اللّه من خطوة إلی ذی رحم، أو خطوة یتمّ بها زحفا فی سبیل اللّه»[۳۱۲].

و إذا قلبنا أوراق تأریخ الإسلام، فسنری الشهداء قد سجّلوا القسم الأعظم من الافتخارات، و هم الذین قدّموا القسط الأوفر من الخدمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۹

و لیس هذا فی الأمس فقط، فإنّ ثقافة الشهادة المصیریة الیوم ترعب العدو أیضا، و تمزّق صفوفه، و تمنعه من النفوذ إلی حصون الإسلام، و تزرع الیأس فی نفسه من إمکان تخطّیها، فما أکثر برکة ثقافة الشهادة للمسلمین، و ما أشدّها علی أعداء الدین.

لکن، لا شکّ أنّ الشهادة لیست هدفا، بل الهدف هو الإنتصار علی العدو، و حراسة دین اللّه و الحفاظ علیه، إلّا أنّ هؤلاء الحراس علی دینهم یجب أن یکونوا علی أهبّة الاستعداد، بحیث إذا احتاج الحال بذل النفوس و الدماء فإنّهم لا یتأخّرون عن بذلها، بل یبادرون إلی البذل و التضحیة و الإیثار، و هذا هو معنی کون الأمّة منجبة للشهداء، لا أنّهم یطلبون الشهادة کهدف نهائی.

لهذا نقرأ

فی نهایة حدیث مفصل روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی شأن مقام الشهداء أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أقسم و قال: «و الذی نفسی بیده، لو کان الأنبیاء فی طریقهم لترجلوا لهم لمّا یرون من بهائهم، و یشفع الرجل منهم فی سبعین ألفا من أهل بیته و جیرته» (۱).

و هناک نکتة تستحق الاهتمام، و هی أنّ للشهادة فی ثقافة الإسلام معنیین مختلفین: معنی «خاص»، و آخر «عام» واسع.

أمّا الخاص فهو القتل فی سبیل اللّه فی معرکة الجهاد، و له أحکامه الخاصة فی الفقه الإسلامی، و من جملتها أنّ الشهید لا یغسل و لا یکفن، بل یدفن بثیابه و دمائه إذا توفی فی میدان المعرکة!! أمّا المعنی العام الواسع للشهادة، فهو أن یقتل الإنسان فی طریق تأدیة الواجب الإلهی، فإنّ کلّ من یرحل عن الدنیا و هو فی حالة أداء هذا الواجب یعد شهیدا، و لذلک ورد فی الروایات الإسلامیة أنّ عدة فئات یغادرون الدنیا و هم شهداء:

۱-

روی عن نبی الإسلام الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إذا جاء الموت طالب العلم و هو علی

هذا الحال مات شهیدا»[۳۱۳].

-۲

یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «من مات علی فراشه و هو علی معرفة حق ربّه، و حق رسوله و أهل بیته، مات شهیدا»[۳۱۴].

-۳ نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من قتل دون ماله فهو شهید»[۳۱۵].

و کذلک آخرون یقتلون فی طریق الحق، أو یموتون فیه، و من هنا تتّضح عظمة ثقافة الإسلام هذه، و مدی سعتها.

و ننهی هذا البحث بحدیث

عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام، عن آبائه عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «أوّل من یدخل الجنّة الشهید»[۳۱۶].

۲- أهداف القتال فی الإسلام

إنّ القتال لا یعتبر فی الإسـلام قیمة من القیم، بل یعتبر ضد القیم من جهة کونه باعثا علی الخراب و التدمیر، و إزهاق الأنفس، و إهدار القوی و الإمکانیـات التی یمکن أن تسـخّر لخدمـة الإنسـان و سـعادته و رفـاهه، و لـذلک جعـل فی بعض الآیات القرآنیـة فی مصاف العقوبات الإلهیة، فنری الآیة (۶۵) من سورة الأنعام تقول:

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلی أَنْ یَبْعَثَ عَلَیْکُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِکُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِکُمْ أَوْ یَلْبِسَکُمْ شِیَعاً وَ یُذِیقَ بَعْضَکُمْ بَأْسَ بَعْضٍ

فقـد اعتبر القتال هنا بمثابـة الصاعقـة و الزلزلـة و الابتلاءات الأرضـیة و السـماویة، و لـذلک فإنّ الإسـلام یمتنع عن القتال و الحرب ما استطاع إلی ذلک سبیلا.

أمّا إذا تعرّض وجود الأمّة للخطر، أو أنّ أهدافه المقدّسة السامیة أصبحت

مهددة بالسـقوط، فإنّ القتال هنا یعتبر قیمة سامیة، و یکتسب عنوان الجهاد فی سبیل اللّه، و لذلک توجد فی الإسلام أنواع من الجهاد: الجهاد الابتـدائی، المحرر للأمم، و الجهاد الـدفاعی، و الجهاد من أجل إخماد نار الفتنة و الشـرک و الوثنیة، و قد أوردنا تفصـیلها فی موضع آخر[۳۱۷].

بنـاء علی هـذا فـإنّ الجهـاد الإسـلامی علی خلاف ما یـدّعیه أعـداء الإسـلام من أنّه یعنی فرض العقیـدة علی الآخرین، بل إنّ العقیـدة المفروضـة لا قیمـة لها فی الإسـلام، لکن الجهاد یتعلق بالموارد التی یشن فیها العـدو الحرب ضـد الأمّـة الإسـلامیة، أو عنـد ما یسـلبها الحریـات التی منحهـا اللّه إیّاها، أو أنّه یریـد أن یهـدر حقوقها و یصادرها، أو أنّ ظالما قـد أخـذ بأنفاس مظلوم فیجب علی المسـلمین حینئذ أن یهبوا لنصرة المظلوم، حتی و إن أدّی الأمر إلی قتال القوم الظالمین.

و قد عکست الآیات السابقة هذا المعنی فی عبارة لطیفة وجیزة، حینما تقول:

ذلِکَ بِأَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِینَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ و علی هـذا فإنّ الحرب هی حرب بین الحق و الباطل، لا أنّها وسیلة لتکوین الدولة، و محاولة توسیع رقعتها، و الإغارة علی أموال الآخرین، و التسلّط و إعمال القوة و الإرهاب.

و لهـذا السـبب- أیضـا- قرأنـا فی الروایـة التی أوردناها فی تفسیر هـذه الآیات أنّ نار الحرب لن تخمـد فی المجتمع الإنسانی إلّا بعد القضاء علی الدجّالین، و تطهیر الأرض من دنسهم.

و هنا نکتة تسـتحق الانتباه، و هی أنّ الإسـلام قد أکّد علی مسألة التعایش السـلمی مع أتباع الأدیان السماویة الأخری، و قد وردت فی

الآيـات و الرّوايـات و الفقه الإسـلامى بحوث مفصـلة فى هـذا البـاب تحت عنوان (أحكـام أهل الذمّـة) فإذا كان الإسـلام يؤيّـد فرض العقيدة و الإكراه عليها، و يتوسّل بالقوة و السيف من أجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۲

تحقيق أهدافه، فأى معنى إذن لقانون أهل الذمّة و التعايش السلمى؟

۳- أحكام أسرى الحرب

قلنا: يجب على المسـلمين أن لا يفكروا فى أسـر أفراد العـدو إلّا بعـد هزيمة العدو الكاملة و اندحاره التام، لأنّ هذا التفكير و الانشـغال بالأسرى قد يتضمّن أخطارا جسيمة.

غير أنّ أسـلوب الآيات- مورد البحث- يدل على وجوب الإقدام على أسر أفراد العدو بعد هزيمته، فالآية تقول: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَـرْبَ الرِّقابِ ثمّ تضـيف: حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ و على هذا يجب أسرهم بدل قتلهم بعد الإنتصار عليهم، و هو أمر لا بدّ منه، لأنّ العدو إذا ترك و شأنه فمن الممكن أن ينظم قواه مرّة أخرى ليهجم على المسلمين من جديد.

إلّا أنّ الحال يختلف بعد الأسـر، إذ يكون الأسير أمانة إلهية بيد المسلمين رغم كلّ الجرائم التى ارتكبها، و يجب أن تراعى فيه حقوق كثيرة.

إنّ القرآن يمجـد أولئك الـذين آثروا الأسـير على أنفسـهم، و قـدّموا له طعامهم، فيقول: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْـكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِـيراً و هذه الآية- طبقا لرواية معروفة- نزلت فى على و فاطمة و الحسن و الحسـين عليهم السّلام، إذ كانوا صائمين و أعطوا إفطارهم لمسكين مرّة و ليتيم أخرى، لأسير ثالثة.

و حتى الأسـرى الـذين يقتلون بعد الحرب اسـتثناء، إمّا لكونهم خطرين، أو لارتكابهم جرائم خاصّة، فإنّ الإسـلام أمر أن يحسن إليهم قبل تنفيذ الحكم بحقّهم، كما نرى ذلك

فى حديث عن على عليه السّلام: «إطعام الأسير و الإحسان إليه حق واجب، و إنّ قتلته من الغد»[۳۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۳

و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة[۳۱۹]، حتى أنّه

ورد فى حديث عن الإمام على بن الحسـين عليه السّـلام أنّه قال: «إذا أخذت أسـيرا فعجز عن المشـى و ليس معك محمل فأرسله و لا تقتله، فإنّك لا تدرى ما حكم الإمام فيه»[۳۲۰].

بل ورد فى التأريخ فى أحوال أئمة أهل البيت عليهم السّلام أنّهم كانوا يطعمون الأسرى من نفس الطعام الذى كانوا يتناولونه.

إلّا أنّ حكم الأسـير- و كما قلنا فى تفسـير الآيات- بعـد انتهاء الحرب أحد ثلاثة: إمّا إطلاق سـراحه من دون قيد أو شـرط، أو إطلاق سراحه مقابل دفع غرامـة ماليـة هى الفديـة، أو استرقاقه، و اختيار أحد هذه الأمور الثلاثة منوط بنظر إمام المسـلمين، فهو الذى يختار ما يراه الأصـلح بعد الأخذ بنظر الإعتبار ظروف الأسـرى، و مصالح الإسلام و المسلمين من الناحية الداخلية و الخارجية، و بعد ذلك يأمر بتنفيذ ما اختاره.

بناء على هذا، فليس لأخذ الفدية أو الاسترقاق صـفة الإلزام و الوجوب، بل هما تابعان للمصالح التى يراها إمام المسلمين، فإذا لم تكن مصلحة فيهما فله أن يغض النظر عنهما، و يطلق سراح الأسرى دون طلب الفدية.

و قد بحثنا حول فلسفة أخذ الفدية بصورة مفصلة لدى تفسير الآية ۷۰ من سورة الأنفال.

۴- الرق فی الإسلام

اشارة

بالرغم من أنّ مسألـة «استرقاق أسـرى الحرب» لم ترد فی القرآن المجیـد کحکم حتمی، لکن لا یمکن إنکار ورود أحکام فی القرآن فیما یتعلق بالعبید، و هی تثبت وجود أصل الرقیة حتی فی زمان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و صدر الإسلام، کالأحکام المتعلقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۴

بـالزواج من العبیـد، أو کونهم محرما، أو مسألـة المکاتبـة (و هی اتفاق یتحرر بموجبه العبـد بعـد أدائه مبلغا من المال یتفق علیه) و قد وردت هذه الأحکام فی آیات عدیدة من القرآن فی سورة النساء، النحل، المؤمنون، النور، الروم، و الأحزاب.

و هنا یعترض البعض علی الإسـلام بأنّه: لماذا لم یلغ هـذا الـدین الإلهی مسألة الرق تماما مع ما یحتویه من القیم الإنسانیة السامیة، و لم یعلن تحریر کلّ العبیـد من خلال إصدار حکم قطعی؟! صـحیح أنّ الإسـلام أوصـی کثیرا بالرقیق، إلّا أنّ المهم هو تحریرهم بدون قید شرط، فلما ذا یکون الإنسان مملوکا لإنسان آخر مثله، و یفقد الحریة التی هی أعظم عطایا اللّه سبحانه؟!

الجواب:

یجب القول فی جملـة موجزة: إنّ للإسـلام برنامجا دقیقا مدروسا لتحریر العبید، تؤدی نهایته إلی تحریر جمیع العبید تدریجیا، دون أن یکون لهذه الحریة ردّ فعل سلبی فی المجتمع.

و قبل أن نتناول توضیح هذه الخطة الإسلامیة الدقیقة، نری لزاما ذکر عدة نقاط کمقدمة:

۱- الإسـلام لم یکن المبتـدع للرق مطلقا، بل إنّه لمّا ظهر کانت مسألة العبودیة و الرقیق قد عمّت أرجاء العالم، و کانت معجونة بظلام المجتمعات البشـریة و بوجودها، بل اسـتمرت مسألة الرقیق فی کلّ المجتمعات حتی بعد الإسـلام أیضا، و بقیت مستمرة حتی قبل مائة عام حیث بدأت ثورة تحریر الرقیق، حیث لم تعد مسألة الرقیق مقبولة بشـکلها القدیم نتیجة اختلاف نظام حیاة البشر، و تغیره عمّا کان علیه.

إنّ إلغاء العبودیة بدأ من أوربا، ثمّ اتسع فی سائر الدول و من جملتها أمریکا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۵

و آسیا.

لقد استمر الرق فی إنجلترا حتی سنة ۱۸۴۰، و فی فرنسا حتی سنة ۱۸۴۸، و فی هولندا إلی سنة ۱۸۶۳، و فی أمریکا إلی سنة ۱۸۶۵، ثمّ عقد مؤتمر بروکسل فأصدر قرارا بإلغاء الرق فی أنحاء العالم، و کان ذلک سنة ۱۸۹۰، أی قبل أقل من مائة عام.

۲- تغییر شـکل الرق فی دنیا الیوم: صـحیح أنّ الغربیین کانوا قـد سـبقوا إلی إلغاء الرق، إلّا أنّنا عند ما نحقق فی المسألة بدقة، نری أنّ الرق لـم تقتلـع جـذوره، بـل إنّـه تحـور مـن حالـة إلی أخری أخطر و أکـثر رعبـا، أی إنّه اتخـذ شـکل اسـتعمار الشـعوب، و استرقـاق المسـتعمرات، بحیث کلما ضعف الرق الفردی قوی الاسترقاق الجماعی و الاستعمار، فإنّ الإمبراطوریة البریطانیة التی کانت سبّاقة إلی إلغاء الرق، تعتبر السبّاقة أیضا فی استعمار الشعوب.

إنّ الجرائم التی ارتکبها المسـتعمرون الغربیون طوال مـدة اسـتعمارهم لم تکن أقل من جرائم مرحلـة العبودیة، بل کانت أوسع و أشـدّ إجراما.

و حتی بعد تحرر المسـتعمرات، فإنّ اسـتعباد الأمم قد اسـتمر، لأنّ هذه الحریة کانت حریة سیاسـیة، أمّا الاستعمار الاقتصادی و الثقافی فلا یزال حاکما فی کثیر من المستعمرات التی نالت حریتها، و غیرها.

و أمّا الـدول الشـیوعیهٔ التی نادت قبل الجمیع بإلغاء العبودیهٔ، و اتخذتها ذریعهٔ فی ثورتها، فإنّها بالذات مبتلاهٔ بنوع من الاسترقاق العام الـذی ینـدی له الجبین، فإنّ الشعوب التی تعیش فی ظل هـذه الـدول تکون کالعبیـد تماما لا یملکون من أمرهم شـیئا، و یعیّن أعضاء الحزب الشیوعی کـلّ مقـدراتهم و مـا یتعلق بشؤون حیـاتهم، و إذا مـا أبـدی أحـد وجهـهٔ نظر مخالفـهٔ فإمّـا أن یرسـل إلی المخیّمات الإجباریهٔ، أو یلقی فی دهالیز السجون، و إذا کان من العلماء فإنّه یبعث إلی دار المجانین باعتباره مختل العقل و مصابا بمرض نفسی و عصبی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۶

و الخلاصهٔ: إنّ الرق لا یتبع الاسم، فإنّ القبیح و المرفوض هو محتوی الرق، و نحن نعلم أنّ مفهوم الرق قائم فی الدول الاستعماریهٔ و الدول الشیوعیهٔ بأسوأ أشکاله.

و النتیجهٔ: إنّ إلغاء الرق فی العالم کان صوریا، و لم یکن فی الحقیقهٔ إلّا تبدیل للصورهٔ و الشکل الظاهری.

۳- مصیر الرقیق المؤلم فی الماضی

لقـد کان للرقیق علی مرّ التاریخ مصـیر مؤلم جدّا، و لنأخذ علی سبیل المثال عبید الرومان- باعتبارهم قوما متمدنین- کنموذج، فإنّهم- علی حـدّ قول کـاتب «روح القوانین»- کـانوا تعسـاء بحیث لم یکونوا عبیـدا لفرد، و إنّمـا کـانوا یعتبرون عبیـدا لکـل المجتمع، و کان باسـتطاعهٔ کلّ شـخص أن یعـذّب عبده و یؤذیه کما یحلو له دون خوف من القانون. لقد کانت حیاهٔ أولئک أسوأ من حیاهٔ الحیوانات فی الواقع.

لقـد کـان الکثیر من الرقیق یموتون فی الفترهٔ بین اصـطیادهم من المسـتعمرات الأفریقیـهٔ و حتی عرضـهم فی الأسواق للبیع، و ما تبقی منهم کـان یتخـذ وسـیلهٔ للاسـتغلال فی العمـل. و کان تجار العبیـد الطامعون لا یعطونهم من الغـذاء إلّا ما یبقیهم أحیآء و قادرین علی العمـل، أمّـا عنـد کبرهم و عجزهم و ابتلاـئهم بأمراض یصـعب علاجها، فإنّهم کانوا یترکونهم و شأنهم لیسـلموا الروح بشـکل ألیم. و لذلک کان اسم الرق یقترن بسیل من الجرائم المرعبهٔ علی مرّ التاریخ.

و باتضاح هذه النکات نعود إلی خطهٔ الإسلام فی تحریره العبید تدریجیا، و نتناولها بصورهٔ مختصرهٔ.

۴- خطهٔ الإسلام لتحریر العبید

اشارهٔ

إنّ ما یغفل عنه غالبا هو أنّ ظاهرهٔ سلبیهٔ إذا توغّلت فی مفاصل المجتمع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۷

فهناک حاجهٔ إلی فترهٔ زمنیهٔ لاقتلاع جذورها، و لکلّ حرکهٔ غیر مدروسهٔ ردّ فعل سلبی، تماما کما إذا ابتلی إنسان بمرض خطیر، و قد اسـتفحل هذا المرض فی بدنه، أو من اعتاد علی تناول المخدرات لعشـرات السـنین حتی تطبع علی هذه الطبیعهٔ المسـتهجنهٔ، ففی هذه الموارد یجب الاعتماد علی برامج زمنیهٔ لعلاجه قد تطول و قد تقصر.

و نقول بأسلوب أکثر صراحهٔ: لو أنّ الإسلام کان قد أصدر أمرا عاما بتحریر کل العبید، فربّما کان الضرر أکثر، و قد یهلک منهم عدد أکثر، لأنّ الرقیق کـانوا یشـکلون نصف المجتمع أحیانـا، و لیس لهم عمل مسـتقل یتکسـبون به، و لا دار أو ملجأ، أو وسـیلهٔ ما لإدامهٔ الحیاهٔ.

إنّ هؤلاء لو تحرّروا فی ساعهٔ معینهٔ من یوم معین فستظهر علی الساحهٔ فجأهٔ جماعهٔ عظیمهٔ عاطلهٔ عن العمل، و عندها ستكون حیاتهم مهددهٔ و ربّما أدّی إلی إرباک نظام المجتمع، و عند ما یلح علیه الحرمان فسیجد نفسه مضطرا إلی الهجوم علی ممتلکات الآخرین، فتنشب الصراعات و الاشتباکات و نزف الدماء.

هنا ندرک الغایهٔ من التحریر التدریجی، و ذلک لیستوعبهم المجتمع و لا یشمئز منهم، و حینئذ سوف لا تتعرض أرواحهم للخطر، کما لا یتهدد أمن المجتمع، و قد اتبع الإسلام هذا البرنامج الدقیق تماما.

إنّ تطبیق و ترجمهٔ هذا البرنامج الإنسانی علی أرض الواقع العملی له قواعد کثیرهٔ نذکر هنا رؤوس نقاطها بصورهٔ موجزهٔ و کفهرس، أمّا تفصیلها فیحتاج إلی کتاب مستقل:

المادهٔ الأولی: غلق مصادر الرق

لقد کان للرق علی طول التاریخ أسباب کثیرهٔ، فلم یقتصر الاستبعاد علی أسری الحرب، و المدینین الذین یعجزون عن أداء دیونهم، حیث کانت القوّهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۸

و الغلبهٔ تبیح الاسترقاق و الاستعباد، بل إنّ الدولهٔ القویهٔ کانت ترسل فرق من جیوشها و هم مدجّجون بأنواع الأسلحهٔ إلی الدول الأفریقیهٔ المتخلفهٔ و أمثالها، لیأسروا شعوب تلک الدول جماعات جماعات، ثمّ یرسلونهم بواسطهٔ السفن إلی أسواق بلدان آسیا و أوربا.

لقد منع الإسلام کلّ هذه المسائل، و وقف حائلا دونها، و لم یبح الاسترقاق إلّا فی مورد واحد، و هو أسری الحرب، و حتی هذا لم یکن یتصف بالوجوب و الإلزام، بل إنّ الإسلام قد أجاز- و کما قلنا فی تفسیر الآیات المذکورهٔ- إطلاق سراح الأسری مقابل فدیهٔ یؤدّونها تبعا لمصلحهٔ الإسلام و المسلمین.

و لم تکن فی تلک الأیام سجون یسجن فیها أسری الحرب حتی یتبیّن وضعهم و ماذا یجب فعله معهم، بل کان الطریق الوحید هو تقسیمهم بین العوائل، و الاحتفاظ بهم کرقیق.

من البدیهی أنّ هذه الظروف إذا تغیّرت فلا دلیل علی أنّ إمام المسلمین ملزم بأن یرضی برق الأسری، بل هو قادر علی تحریرهم إمّا منّا أو فداء، لأنّ الإسلام خیّر الإمام المسلمین فی هذا الأمر، کی یقدم علی اختیار الأصلح من خلال مراعاهٔ المصلحهٔ، و بهذا فإنّ مصادر الرق الجدیدهٔ قد أغلقت فی الإسلام.

المادهٔ الثانیهٔ: فتح نافذهٔ الحریهٔ

لقد وضع الإسلام برنامجا واسعا لتحریر العبید، بحیث أنّ المسلمین لو عملوا بموجبه فإنّ کلّ العبید کانوا سیتحررون فی مدهٔ وجیزهٔ و بصورهٔ تدریجیهٔ، و کان المجتمع سیستوعبهم و یؤمّن لهم ما یحتاجونه من اللوازم الحیاتیهٔ، من عمل و مسکن و غیر ذلک.

و إلیک رؤوس نقاط هذا البرنامج:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۹

أ- إنّ أحد الموارد الثمانیهٔ لصرف الزکاهٔ فی الإسلام شراء العبید و عتقهم [۳۲۱]، و بهذا فقد خصصت میزانیهٔ دائمیهٔ فی بیت المال لتنفیذ هذا الأمر، و هی مستمرهٔ حتی إعتاق العبید جمیعا.

ب- و لتکمیل هذا المطلب وضع الإسلام أحکاما یستطیع العبید من خلالها أن یعقدوا اتفاقیات مع مالکیهم، علی أن یؤدّوا إلیهم مبلغا من المال یتفق علیه مقابل الحصول علی حریتهم. و قد جاء فی الفقه الإسلامی فصل فی هذا الباب تحت عنوان المکاتبهٔ[۳۲۲].

ج- إنّ عتق العبيد يعتبر أحد أهم العبادات و الأعمال الصالحة فى الإسلام، و قد كان أئمة أهل البيت عليهم السّلام من السابقين فى هذا المضمار، حتى كتبوا فى أحوال على عليه السّلام أنّه أعتق ألف مملوك من كد يده ۳۲۳].

د- لقد كان أئمة أهل البيت عليهم السّلام يعتقون العبيد لأدنى عذر ليكونوا قدوة للآخرين، حتى أنّ أحد غلمان الإمام الباقر عليه السّلام عمل عملا صالحا،

فقال له الإمام: «اذهب فأنت حر، فإنّى أكره أن أستخدم رجلا من أهل الجنّة»[۳۲۴].

و جاء فى أحوال الإمام السجاد على بن الحسين عليه السّلام، أنّ جارية كانت تسكب عليه الماء، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ، قال: «قد كظمت غيظى» قالت: وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ قال: «عفا اللّه عنك»، قالت: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال: «فاذهبى فأنت حرّة لوجه اللّه»[۳۲۵].

ه- ورد فى بعض الرّوايات الإسلامية أنّ العبيد يتحرّرون تلقائيا بعد مرور سبع سنين،

ففى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من كان مؤمنا فقد عتق بعد سبع سنين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۰

أعتقه صاحبه أم لم يعتقه، و لا يحل خدمة من كان مؤمنا بعد سبع سنين»[۳۲۶].

و

روى فى هذا الباب حديث من النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «ما زال جبرئيل يوصينى بالمملوك حتى ظننت أنّه سيضرب له أجلا يعتق فيه»[۳۲۷].

و- إذا كان العبد مشتركا بين اثنين، و أعتق أحدهما نصيبه، وجب عليه شراء نصيب شريكه و أعتقا العبد[۳۲۸].

و إذا أعتق مالك العبد بعضه سرت الحرية إلى باقيه فيعتق جميعه ۳۲۹].

ز- إذا ملك إنسان أباه، أو أمّه، أو أجداده، أو أبناءه، أو عمّه، أو عمّته، أو خاله، أو خالته، أو أخاه، أو أخته، أو ابن أخيه، أو ابن أخته، فإنّهم يعتقون فورا.

ح- إذا استولد المالك جاريته فلا يجوز بيعها، و تعتق من سهم ولدها من الميراث. و قد كان هذا الأمر سببا فى عتق الكثير من العبيد، لأنّ الجوارى كن بمنزلة زوجات مالكيهن، و كان لهن أولاد منهم.

ط- لقد جعل عتق العبيد كفارة لكثير من الذنوب من الإسلام، ككفارة القتل الخطأ، و كفارة ترك الصوم عمدا، و كفارة اليمين، و غيرها.

ى- إذا عاقب المالك عبده ببعض العقوبات الشديدة، فإنّ العبد ينعتق تلقائيا[۳۳۰].

المادة الثالثة: إحياء شخصية الرقيق

عند ما كان العبيد يطوون مسيرهم نحو الحرية طبقا لبرنامج الإسلام الدقيق، أقدم الإسلام على خطوات واسعة لإحياء حقوقهم و شخصيتهم الإنسانية، حتى أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۱

لم يفرق أبدا بين العبيد و الأحرار من ناحية الشخصية الإنسانية، و جعل التقوى معيارا للتمييز بينهم، و لذلك أجاز للعبيد أن يتقلّدوا مسئوليات مهمّة، و يتسنّموا مناصب اجتماعية مهمّة، حتى أنّ العبيد يمكنهم أن يشغلوا منصب القضاء[۳۳۱].

و قد أنيطت بالعبيد فى زمن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مراكز هامة و حسّاسة، ابتداء من قيادة الجيش، و حتى المناصب

الحسّاسة الأخرى.

و قد كان الكثير من كبار صحابة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عبيدا، أو رقيقا أعتقوا، و كان الكثير منهم يؤدّون واجبهم كمستشارين و معاونين لعظماء الإسلام و قادته، و يمكن ذكر أسماء سلمان و بلال و عمار بن ياسر و قنبر من ضمن هذه القافلة.

و بعد أن انتهت غزوة بنى المصطلق تزوّج النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بجارية عتيقة من هذه القبيلة، و كان هذا الزواج سببا فى إطلاق سراح كلّ أسرى القبيلة.

المادة الرابعة: المعاملة الإنسانية مع العبيد

لقد وردت فى الإسلام تعليمات كثيرة حول الرفق بالعبيد و مداراتهم، حتى أنّها أشركتهم فى حياة مالكيهم.

يقول النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إخوانكم جعلهم اللّه تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، و ليكسه ممّا يلبس، و لا يكلفه ما يغلبه، فإن كان ما يغلبه فليعنه»[۳۳۲].

و

يقول على عليه السّلام لغلامه قنبر: «أنا أستحيى من ربّى أن أتفضل عليك، لأنّ رسول اللّه يقول: ألبسوهم ممّا يلبسون، و أطعموهم ممّا تأكلون»[۳۳۳].

و

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «و إن كان أبى ليأمرهم- أى غلمانه- فيقول: كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۲

أنتم، فيأتى، فإن كان ثقيلا قال: بسم اللّه، ثمّ عمل معهم»[۳۳۴].

لقد كانت معاملة الإسلام مع العبيد فى هذه المرحلة الانتقالية حسنة إلى الحدّ الذى أكّد عليها حتى الغرباء عن الإسلام و حمدوها و مجّدوها.

و كنموذج لذلك نذكر ما يقوله «جرجى زيدان» فى تأريخ تمدّنه: إنّ الإسلام رحيم بالعبيد كلّ الرحمة، و قد أوصى نبىّ الإسلام بالعبيد كثيرا، و من جملة ما قاله:

لا تكلفوا العبد ما لا يطيق، و أطعموه ممّا تأكلون.

و يقول فى موضع آخر: لا تنادوا مماليككم بيا غلام، و يا جارية، بل قولوا: يا بنى، و يا ابنتى! و القرآن أيضا أوصى بالرقيق وصايا رائعة، فهو يقول: اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا، و لا تعاملوا آباءكم و أمّهاتكم و أولى أرحامكم و اليتامى و الفقراء و الجيران، البعيد منهم و القريب، و الأصدقاء، و المشرّدين، و الرقيق، إلّا بالحسنى، فإنّ اللّه لا يرضى بالعجب و الرضى من النفس [۳۳۵].

المادة الخامسة: أقبح الأعمال بيع الإنسان

يعد بيع العبيد و شراؤهم من أبغض المعاملات فى الإسلام، حتى ورد فى

حديث عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «شرّ الناس من باع الناس»[۳۳۶].

و هذا التعبير كاف لتوضيح وجهة نظر الإسلام فى شأن العبيد، و يبيّن اتجاه حركة البرامج الإسلامية، و ما تريد تحقيقه و الوصول إليه.

و الأروع من ذلك أنّ الإسلام قد اعتبر سلب حرية البشر، و تبديلهم إلى سلعة تباع و تشترى، من الذنوب التى لا تغفر،

فقد ورد فى حديث عن نبىّ الإسلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۳

الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ اللّه تعالی غافر کلّ ذنب إلّا من جحد مهرا، أو اغتصب أجیرا أجره، أو باع رجلا حرا»[۳۳۷].

و طبقا لهذا الحدیث فإنّ اغتصاب حقوق النساء، و العمال، و سلب حریة البشر ثلاثة ذنوب لا تغفر.

و کما قلنا سابقا، فإنّ الإسلام لم یبح الاسترقاق إلّا فی مورد أسری الحرب، و حتی فی هذا المورد لا یکون الاسترقاق إلزامیا، و کان ذلک فی عصر ظهور الإسلام، غیر أنّنا نری العبودیة و الاسترقاق متفشّیة فی الدول الغربیة بعد عدّة قرون من ظهور الإسلام حیث کان المستعمرون یشنّون الحملات و الهجمات الشرسة علی بلدان السود، و یقبضون علی البشر الأحرار و یحوّلونهم إلی رقیق یباعون و یشترون، و قد بلغ بیع و شراء العبید حدّا رهیبا، بحیث کان یباع فی کلّ سنة (۲۰۰، ۰۰۰) عبدا فی بریطانیا أواخر القرن الثامن عشر، و کانوا یأخذون مائة ألف نسمة من أفریقیا کل عام، و یرسلونهم إلی أمریکا کعبید[۳۳۸].

و خلاصة القول: إنّ الذین یعترضون علی برنامج الإسلام فی مسألة الرقیق قد سمعوا کلاما لم یتأمّلوا فیه، و لم یطّلعوا الاطلاع الکافی علی أصول البرنامج و هدفه، و هو «تحریر العبید تدریجیا»، و من دون خسائر، أو إنّهم وقعوا تحت تأثیر المغرضین الذین یظنون أنّ هذه نقطة ضعف کبیرة فی الإسلام، و طلبوا لها و زمروا، و سخّروا لها وسائل الإعلام، إلّا أنّ الظنّ لا یغنی من الحق شیئا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۴

الآیات [سورة محمد (۴۷): الآیات ۷ الی ۱۱]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ یَنْصُرْکُمْ وَ یُثَبِّتْ أَقْدامَکُمْ (۷) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (۸) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (۹) أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَ لِلْکافِرِینَ أَمْثالُها (۱۰) ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْکافِرِینَ لا مَوْلی لَهُمْ (۱۱)

التّفسیر

إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ یَنْصُرْکُمْ: تستمر هذه الآیات فی ترغیب المؤمنین فی جهاد أعداء الحق، و هی ترغّبهم فی الجهاد بتعبیر رائع بلیغ، فتقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ یَنْصُرْکُمْ وَ یُثَبِّتْ أَقْدامَکُمْ

إنّ التأکید علی مسألة «الإیمان» إشارة إلی أنّ إحدی علامات الإیمان الحقیقی هو جهاد أعداء الحق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۵

و عبارة تَنْصُرُوا اللَّهَ تعنی- بوضوح- نصرة دینه، و نصرة نبیّه، و شریعته و تعلیماته، و لذلک وردت نصرة اللّه إلی جانب نصرة رسوله فی بعض آیات القرآن الکریم، کما نقرأ فی الآیة (۸) من سورة الحشر: وَ یَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ

و مع أنّ قدرة اللّه سبحانه غیر محدودة، و لا قیمة لقدرة المخلوقات حیال قدرته، غیر أنّه یعبّر بنصرة اللّه لیوضح أهمیة الجهاد و الدفاع عن دین اللّه، و لا یوجد تعبیر أعظم من هذا لتبیان أهمیة هذا الموضوع.

و لنر ما هو هذا الوعد الذی وعد اللّه به المجاهدین إذا ما دافعوا عن دینه؟

یقول أوّلا- یَنْصُرْکُمْ أمّا کیف یتمّ ذلک؟ فإنّ الطرق کثیرة، فهو سبحانه یلقی فی قلوبکم نور الإیمان، و فی نفوسکم و أرواحکم التقوی، و فی إرادتکم القوّة و التصمیم أکثر، و فی أفکارکم الهدوء و الاطمئنان.

و من جانب آخر یرسل الملائکة لمدکم و نصرتکم، و یغیّر مسار الحوادث لصالحکم، و یجعل أفئدة الناس تهوی إلیکم، و یجعل کلماتکم نافذة فی القلوب، و یصیّر نشاطاتکم و جهودکم مثمرة. نعم، إنّ نصرة اللّه تحیط بالجسم و الروح، من الداخل و الخارج.

إلّا أنّه سبحانه یؤکّد علی مسألة تثبیت الأقدام من بین کلّ أشکال النصرة، و ذلک لأنّ الثبات أمام العدو أهم رمز للانتصار، و إنّما یکسب الحرب الذین یصمدون و یستقیمون أکثر، و لذلک نقرأ فی قصة محاربة طالوت- القائد العظیم لبنی إسرائیل- لجالوت- المتسلّط الجائر القوی- أنّ المؤمنین القلیلین الذین کانوا معه عند ما واجهوا جیش العدو الجرار، قالوا: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْکافِرِینَ

و نقرأ فی الآیة التی بعدها: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ

أجل، إنّ نتیجة ثبات القدم هی النصر المؤزّر علی العدو.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۶

و لمّا کانت حشود العدو العظیمة، و أنواع معداتهم و تجهیزاتهم قد تشغل فکر المجاهدین فی سبیل اللّه أحیانا، فإنّ الآیة التالیة تضیف: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ [۳۳۹].

«تعس»- علی وزن نحس- بمعنی الانزلاق و الهوی، و ما فسّره البعض بأنّه الهلاک و الانحطاط، فهو لازمه فی الواقع لا معناه.

و علی کلّ حال، فإنّ المقارنة بین هذین الفریقین عمیقة المعنی جدّا، فالقرآن یقول فی شأن المؤمنین یُثَبِّتْ أَقْدامَکُمْ و فی شأن الکافرین أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ

و بصیغة اللعنة، لیکون التعبیر أبلغ و أکثر جاذبیة و تأثیرا.

نعم، إنّ الکافرین إذا انزلقوا و زلّت أقدامهم، فلیس هناک من یأخذ بأیدیهم لینقذهم من الهلکة، بل إنّهم سینحدرون إلی الهاویة سریعا و بسهولة، أمّا المؤمنون، فإنّ الملائکة الرحمة تهب لنجدتهم و نصرتهم، و یحفظونهم من المنزلقات و المنحدرات، کما نقرأ ذلک فی موضع آخر، حیث تقول الآیة (۳۰) من سورة فصلت: إِنَّ الَّذِینَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الْمَلائِکَةُ.

إنّ أعمال المؤمنین مبارکة، أمّا أعمال الکافرین فإنّها بائرة و لذلک فهی تزول و تفنی سریعا.

و تبیّن الآیة التالیة علّة سقوط هؤلاء، و جعل أعمالهم هباء منثورا، فتقول:

ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ

لقد أنزل اللّه سبحانه دین التوحید قبل کلّ شیء، إلّا أن هؤلاء نبذوه وراء ظهورهم و أقبلوا نحو الشرک.

لقد أمر اللّه سبحانه بالحق و العدالة، و العفّة و التقوی، غیر أنّهم أعرضوا عنها جمیعا، و اتجهوا صوب الظلم و الفسّاد، بل إنّهم تشمئز قلوبهم إذا ذکر اسم اللّه تعالی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۷

وحده: وَ إِذا ذُکِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ [۳۴۰].

و إذا کان هؤلاء یتنفّرون من هذه الأمور، فمن الطبیعی أن لا یخطوا خطوة فی هذا المسیر، و لقد کانت کلّ مساعیهم و جهودهم فی مسیر الباطل و خدمته، فمن الطبیعی أیضا أن تحبط کلّ هذه الأعمال.

و جاء فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام: «کرهوا ما أنزل اللّه فی حق علی»[۳۴۱].

و معلوم أنّ التعبیر ما أَنْزَلَ اللَّهُ معنی واسعا، و مسألة ولایة أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أحد مصادیقه الواضحة، لا أنّ معناه منحصر فیها.

و لمّا کان القرآن الکریم فی کثیر من الموارد یعرض للظالمین العاصین نماذج محسوسة، فقد دعاهم هنا أیضا إلی التدبّر فی أحوال الماضین، فقال: أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ

و من أجل أن لا- یظنّ هؤلاء أنّ ذلک المصیر المشؤوم کان مختصّا بالأقوام الطاغین الماضین، فقد أضافت الآیة: وَ لِلْکافِرِینَ أَمْثالُها[۳۴۲].

فلا- یظنّوا أنّهم فی منأی من العقاب المشابه لـذلک العقاب إن هم عملوا أعمالا تشابه أعمال الماضین، فلیسیروا فی الأرض و لینظروا آثار الذین من قبلهم، ثمّ لینظروا مستقبلهم من خلال سنن التأریخ.

و الجدیر بالانتباه أنّ (دمّر) من مادة (تدمیر)، و هی من الأصل بمعنی الإهلاک و الإفناء، أمّا إذا أتت مع (علی) فإنّها تعنی إهلاک کلّ شیء حتی الأولاد و الأهل و العشیرة و الأموال الخاصّة بالإنسان ۳۴۳]. و علی هذا فإنّ هذا التعبیر بیان لمصیبة ألیمة، خاصة بملاحظة لفظ (علی) الذی یستعمل عادة فی مورد التسلط، و بذلک یصبح معنی الجملة، إنّ اللّه عزّ و جلّ قد صبّ عذابه علی رؤوس هؤلاء الأقوام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۸

و أموالهم و کلّ ما یتعلّق بهم فأفناها جمیعا.

و قد بحثنا موضوع «السیر فی الأرض»- و الذی یؤکّد علیه القرآن المجید مرارا کبرنامج توعیة مؤثر- بصورة مفصّلة فی ذیل الآیة (۱۳۷) من سورة آل عمران، و الآیة (۴۵) من سورة الروم.

و تناولت آخر آیة- من الآیات مورد البحث- سبب حمایة اللّه المطلقة للمؤمنین و دفاعه عنهم، و إهلاکه الکافرین الطغاة، فتقول: ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْکافِرِینَ لا مَوْلی لَهُمْ ۳۴۴].

«المولی» بمعنی الولی و الناصر، و بذلک فإنّ اللّه سبحانه قد تولّی أمر المؤمنین و دفاعه عنهم، و إهلاکه الکافرین الطغاة، فتقول: ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ، مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْکافِرِینَ لا مَوْلی لَهُمْ ۳۴۵].

«المولی» بمعنی الولی و الناصر، و بذلک فإنّ اللّه سبحانه قد تولّی أمر المؤمنین و نصرتهم، أمّا الکافرون فقد أخرجهم من ظل ولایته، و من الواضح أنّه تعالی یعین أولئک المستظلین بظل ولایته، و یدفع عنهم النوائب، و یزیل عن طریقهم العراقیل، و یثبّت أقدامهم، و أخیرا فإنّهم ینالون مرادهم بنصرة اللّه و معونته. أمّا أولئک الخارجون عن ولایته فإنّ أعمالهم ستحبط، و تکون عاقبتهم الهلاک.

و هنا یأتی سؤال، و هو: إنّ الآیة مورد البحث قد ذکرت أنّ اللّه سبحانه مولی المؤمنین فقط، فی حین أنّه سبحانه وصف فی بعض آیات القرآن الأخری بأنّه مولی الجمیع حتی الکافرین، کما فی الآیة (۳۰) من سورة سورة یونس حیث تقول: وَ رُدُّوا إِلَی اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ

و تتّضح الإجابة علی هذا السؤال بملاحظة نکتة واحدة، و هی: إنّ ولایة اللّه العامّة- و هی کونها خالقا مدبّرا- تعم الجمیع، أمّا الولایة الخاصّة، و عنایته الخاصة المقترنة بأنواع الحمایة و النصرة، فإنّها لا تشمل إلّا المؤمنین ۳۴۶].

و قال البعض: إنّ هذه الآیة أرجی آیة فی القرآن، لأنّها أدخلت کلّ المؤمنین،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۹

العالم منهم و الجاهل، الزاهد و الراغب، الصغیر و الکبیر، المرأة و الرجل، الشاب و الکهل، أدخلتهم تحت حمایة اللّه و رعایته الخاصة، و لم تستثن حتی المؤمنین العاصین، فهو سبحانه یظهر رعایته فی المواقف الحسّاسة و اللحظات الحرجة، و الحوادث و المصائب و النکبات، و کلّ فرد منّا قد أحسّ بهذه الرعایة طیلة مدة حیاته، و فی التأریخ شواهد کثیرة علی ذلک.

و

قد ورد فی حدیث أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان بعد غزوة تحت شجرة وحیدا فحمل علیه مشرک بسیف فقال له: من یخلّصک منّی؟ فقال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «اللّه» فسقط المشرک- فأخذت الکافر رعدة، و هوی علی الأرض- السیف، فأخذه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قال له: «فمن یخلّصک منّی»؟ قال: لا أحد، ثمّ أسلم ۳۴۷].

نعم، اللّه مولى الذين آمنوا، و إنّ الكافرين لا مولى لهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۰

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (۱۲) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (۱۴)

التّفسير

عاقبة المؤمنين و الكافرين:

لمّا كانت الآيات السابقة تتحدّث عن الصراع الدائم بين الحق و الباطل، و الإيمان و الكفر، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن عاقبة المؤمنين و الكفّار من خلال مقارنة واضحة، و هي بذلك تريد أن توضح أنّ هذين الفريقين لا يختلفان في الحياة الدنيا و حسب، بل إنّ الاختلاف بينهما سيكون أوسع في الآخرة، فتقول:

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۱

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ۳۴۸].

صحيح أنّ كلا الفريقين يعيشون في الدنيا، و يتنعّمون بمواهبها و لذّاتها، إلّا أنّ الفرق يكمن في أنّ هدف المؤمنين هو القيام بالأعمال الصالحة، و الأعمال المفيدة البنّاءة لجلب رضى اللّه تعالى. أمّا الكافرون فإنّ هدفهم ينصب على الأكل و الشرب و النوم و التمتّع باللّذات الحياة.

المؤمنون يتحرّكون حركة واعية هادفة، و الكافرون يحيون بلا هدف، و يموتون بلا هدف، كالأنعام تماما.

المؤمنون يضعون شروطا كثيرة للتمتع بنعم الحياة، فهم يدقّقون في مشروعية طرق الحصول عليها، كما يدقّقون كيف ينفقونها، أمّا الكافرون فإنّهم كالدّواب لا يهمها أن يكون علفها من أرض صاحبها أن يكون مغصوبا، و سواء كان من حق يتيم أو عجوز بائسة أم لا؟

عند ما يتنعّم المؤمنون بنعمة، فإنّهم يفكّرون في واهبها، و يتدبّرون في آياته، و يشكرونه عليها، أمّا الكافر الغافل فلا يفكّر في أي شيء لغفلته، و هو يضيف إلى حمله حملا جديدا من الظلم و الذنوب باستمرار، و يدني نفسه من الهلاك بعد أن تثقله الأوزار، حاله في ذلك حال الأغنام السمينة، فهي كلّما تأكل أكثر، و تسمن أكثر، تكون أقرب إلى الذبح.

و قال البعض: إنّ الفرق بين المؤمنين و الكافرين، أنّ المؤمن لا يخلو أكله من ثلاث: الورع عند الطلب، و استعمال الأدب، و الأكل للسبب. و الكافر يطلب للنهمة، و يأكل للشهوة، و عيشه في غفلة.

و ممّا يستحق الانتباه أنّ القرآن الكريم يقول في شأن المؤمنين: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ و يقول في الكافرين وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ فإنّ التعبير الأوّل يدلّ على احترام المؤمنين و تقديرهم، و إنّ اللّه سبحانه يدخلهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۲

الجنّة، أمّا التعبیر الثّانی، فإنّه یوحی باحتقار الکفّار الذین خرجوا من ولایته، و عدم الاهتمام بهم.

و استفاد بعض المفسّرین من جملة: وَ النَّارُ مَثْویً لَهُمْ أی محلهم النّار- أنّهم الآن فی النّار، لأنّ الجملة لیست بصیغة الفعل المضارع و المستقبل، و إنّما هی تخبر عن الحال.

و الحقیقة کذلک، لأنّ أعمال هؤلاء و أفکارهم نار بحد ذاتها، و هم مبتلون بها، و قد أحاطت بهم جهنّم من کلّ مکان، و إن کان هؤلاء الذین هم کالأنعام فی غفلة، کما نقرأ ذلک فی الآیة (۴۹) من سورة التوبة: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ

و فی بعض آیات القرآن الأخری شبّه أصحاب النّار بالأنعام، بل هم أضلّ منها:

أُولئِکَ کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِکَ هُمُ الْغافِلُونَ ۳۴۹]، و قد أوردنا فی ذیل هذه الآیة شرحا مفصّلا.

و من أجل إکمال هذا الهدف تقارن الآیة التالیة بین مشرکی مکّة و عبدة الأوثان الماضین، و بعبارة أوضح، فإنّها تهدّدهم تهدیدا شدیدا، و تؤکّد ضمنیا علی بعض جرائمهم الشنیعة التی تدلّ علی جواز قتالهم فتقول: وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَةٍ هِیَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْیَتِکَ الَّتِی أَخْرَجَتْکَ أَهْلَکْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ

فلا یظنّ هؤلاء أنّ الدنیا مستوسقة لهم إلی درجة أنّهم اجترؤوا علی إخراج أشرف رسل اللّه من أقدس المدن، فإنّ الأمر لا یدوم کذلک، فهم بالقیاس إلی قوم عاد و ثمود و الفراعنة، و جیش أبرهة موجودات ضعیفة عاجزة، و اللّه قادر علی تدمیرهم بکلّ سهولة، و القضاء علیهم یسیر علی اللّه سبحانه.

و

جاء فی روایة عن ابن عباس: إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لمّا خرج من مکّة إلی غار ثور، توجّه إلی مکّة و قال: «أنت أحبّ البلاد إلی اللّه، و أنت أحبّ البلاد إلیّ، و لو لا المشرکون أهلک أخرجونی لما خرجت منک»

، فنزلت الآیة أعلاه تبشّر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۳

بنصر اللّه، و تهدّد الأعداء بالعذاب و العقاب ۳۵۰].

و طبقا لسبب النّزول هذا تکون الآیة مکیّة، لکن یبدو أنّ سبب النّزول هذا یتعلّق بالآیة (۸۵) من سورة القصص، و قد ذکره کثیر من المفسّرین هناک، فهو ینسجم مع تلک الآیة أکثر، إذ تقول: إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ[۳۵۱].

و الملفت للنظر أنّ الآیة نسبت الإخراج إلی نفس مکّة، فی حین أنّ المراد أهلها، و هذه کنایة لطیفة عن تسلّط فئة معیّنة، علی مقدرات المدینة، و قد ورد نظیر ذلک فی مواضع أخری من القرآن المجید.

ثمّ إنّ التعبیر بالقریة- و کما قلنا ذلک مرارا- یطلق علی کلّ مدینة و أرض عامرة مسکونة، و لا یخص المعنی المتعارف للقریة.

و تطرح آخر الآیات- مورد البحث- مقارنة أخری بین المؤمنین و الکفار ... بین فئتین تختلفان فی کلّ شیء، فإحداهما مؤمنة تعمل الصالحات، و تحیا الاخری حیاة حیوانیة بکلّ معنی الکلمة .. بین فریقین، أحدهما مستظل بظل ولایة اللّه سبحانه، و الآخر لا مولی له و لا ناصر، فتقول: أَ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ کَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ

إنّ الفریق الأوّل قد اختاروا طریقهم عن معرفة صحیحة، و رؤیة واقعیة، و عن یقین و دلیل و برهان قطعی، و هم یرون طریقهم و هدفهم بوضوح، و یسیرون نحوه بسرعة.

أمّا الفریق الثّانی فقد ابتلوا بسوء التشخیص، و عدم إدراک الواقع، و ظلمة المسیر و الهدف، فهم فی ظلمات الأوهام حائرون. و العامل الأساس فی هذه الحیرة و الضلالة هو اتباع الهوی و الشهوات، لأنّ الهوی و الشهوات تلقی الحجب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۴

على عقل الإنسان و فكره، فتصوّر له القبيح حسنا، كما نرى أناسا يفخرون بأعمالهم التى ينـدى لها الجبين، و هى وصمة عار فى جباههم، كما جاء ذلك فى الآية (۱۰۳) من سورة الكهف: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً.

«البينة» تعنى الدليل الواضح الجلى، و هى هنا إشارة إلى القرآن، و معاجز الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و الدلائل العقلية الأخرى.

و من الواضح أنّ الاستفهام فى جملة: أَ فَمَنْ كانَ ... استفهام إنكارى، أى إنّ هذين الفريقين لا يتساويان أبدا.

و لكن من الذى يزيّن أعمال السوء فى أنظار عبدة الهوى و متبعيه؟ أهو اللّه سبحانه، أم هم أنفسهم، أم الشياطين؟

ينبغى أن يقال: إنّها تصح جميعا، لأنّ التزيين نسب إلى الثلاثة فى آيات القرآن، فتقول الآية (۴) من سورة النمل: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ

و جاء فى آيات عديدة أخرى، و من جملتها الآية (۳۸) من سورة العنكبوت، التى تقول: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ

و ظاهر الآية مورد البحث، و بملاحظة الجملة: وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ أنّ هذا التزيين ناشئ عن اتباع الهوى، و قضية كون الهوى و الشهوات تسلب الإنسان القدرة على الحس و التشخيص و الإدراك الصحيح للحقائق، قضية يمكن إدراكها بوضوح.

إنّ نسبة التزيين إلى الشيطان- طبعا- صحيحة أيضا، لأنّه هو الذى ينصب المكائد و يوسوس للإنسان أن يلجها، و يزيّن له اتباع الهوى.

و أمّا نسبته إلى اللّه سبحانه فلأنّه مسبب الأسباب، و إليه يرجع كلّ سبب، فهو الـذى أعطى النّار الأحراق، و منح الهوى قدرة تغطية الحقائق و إلقاء الحجب عليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۵

لئلا يدركها من يتبعه، و قد أظهر هذا التأثير و أعلنه من قبل، و لذلك فإنّ أصل المسؤولية يرجع إلى نفس الإنسان.

و يعتقد البعض أنّ جملة: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ إشارة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الجملة التالية ناظرة إلى كفار مكّة، غير أنّ الظاهر هو أنّ للآية معنى واسعا، و هذا من مصاديقه.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۶

الآية [سورة محمد (۴۷): آية ۱۵]

اشارة

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (۱۵)

التّفسير

وصف آخر للجنّة:

إنّ هذه الآية وصف لمصير كلّ من المؤمنين و الكافرين، فالفئة الأولى الذين يعملون الصالحات، و الثانية زيّن لهم سوء أعمالهم.

و قد رفعت هذه الآية الغطاء عن ستة أنواع من نعم أهل النعيم، و عن نوعين من أنواع العذاب الأليم لأصحاب الجحيم، و هى تحدد

عاقبة کلا الفریقین و توضحها.

تتحدث الآیة عن أربعة أنهار فی الجنّة، لکلّ منها سائله و محتواه الخاص، ثمّ تتحدث عن فواکه الجنّة، و أخیرا عن بعض المواهب المعنویة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۷

تقول الآیة أوّلا: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِیها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَیْرِ آسِنٍ ۳۵۲].

«الآسن» یعنی النتن، و بناء علی هذا، فإنّ ماءٍ غَیْرِ آسِنٍ تعنی الماء الذی لا یتغیّر طعمه و رائحته لطول بقائه و غیره ذلک، و هذا أوّل نهر من أنهار الجنّة، و فیه ماء زلال جار طیب الطعم و الرائحة.

ثمّ تضیف: وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ یَتَغَیَّرْ طَعْمُهُ و ذلک أنّ الجنّة مکان لا یعتریه الفساد، و لا تتغیّر أطعمة الجنّة بمرور الزمن، و إنّما تتغیّر الأطعمة فی هذه الحیاة الدنیا، لوجود أنواع المیکروبات التی تفسد المواد الغذائیة بسرعة.

ثمّ تطرّقت إلی ثالث نهر من أنهار الجنّة، فقالت: وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِینَ

و أخیرا تبیّن الآیة رابع أنهار الجنّة بأنّه: وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّی

و علاوة علی هذه الأنهار المختلفة التی خلق کلّ منها لغرض، فقد تحدّثت الآیة عن فواکه الجنّة فی الموهبة الخامسة، فقالت الآیة: وَ لَهُمْ فِیها مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ ۳۵۳] فستوضع بین أیدیهم و تحت تصرفهم کلّ الثمرات و الفواکه المتنوّعة الطعم و الرائحة، سواء التی یمکن تصوّرها، أو التی لا یمکن أن تخطر علی أذهاننا الیوم و یصعب تصوّرها.

و أخیرا تتحدث عن الموهبة السادسة التی تختلف عن المواهب المادیة السابقة، إذ أنّ هذه الهبة معنویة روحیة، فتقول: وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ إذ ستمحو رحمته الواسعة کل هفواتهم و سقطاتهم، و سیمنحهم اللّه الاطمئنان و الهدوء و الرضی، و یجعلهم من المرضیین عنده و المحبّبین إلیه، و سیکونون مصداق لقوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۸

تعالی: رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ ۳۵۴].

و بذلک فإنّ المؤمنین الطاهرین الصالحین یتمتّعون بأنواع المواهب المادیة و المعنویة فی الجنان الخالدة، و فی جوار رحمة اللّه.

و لنر الآن ماذا سیکون مصیر الفریق المقابل للمؤمنین، أی الکفار؟

تقول الآیة متابعة لحدیثها: کَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِی النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِیماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ ۳۵۵].

«الأمعاء» جمع «معی»- علی وزن سعی- و «معا»- علی وزن غنا- و تطلق أحیانا علی کلّ ما فی البطن، و تقطیعها إشارة إلی شدّة حرارة هذا الشراب الجهنّمی المرعب، و قوّة إحراقه.

***

ملاحظات

۱- أنهار الجنّة الأربعة

یستفاد من آیات القرآن المجید جیدا أنّ فی الجنّة أنهارا و عیونا مختلفة، و لکلّ منها فائدة و لذّة خاصّة، و قد ورد ذکر أربعة نماذج منها فی الآیة المذکورة، و ستأتی نماذج أخری فی سورة الدهر، و سنذکرها فی تفسیرها، إن شاء اللّه تعالی.

إنّ التعبیر ب «الأنهار» فی شأن هذه الأنواع الأربعة، یوحی بأنّ کلا منها لیس نهرا واحدا، بل أنهار عدیدة.

لقد قلنا مرارا: إنّ نعم الجنّة ليست بالشيء الذى يمكن التحدّث عنه بألفاظ محادثاتنا اليومية فى حياتنا الدنيا، فإنّ هذه الألفاظ قاصرة عن أن تجسدها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۹

تماما، أو أن تعبر عنها بما يعكس حقيقتها، و كلّ ما تقدر عليه هو أن ترسم فى الأذهان شبحا باهت اللون عن تلك الحقائق العظيمة.

لقد أشارت الآية- مورد البحث- إلى أنهار الماء و اللبن و الخمر و العسل، إذ يمكن أن يكون الأوّل لرفع العطش، و أمّا الثّانى كغذاء، و الثّالث يبعث النشاط و الحيوية، و الرابعة يوجد القوّة و اللذّة.

و الطريف أنّه يستفاد من آيات القرآن الأخرى أنّ كلّ أصحاب الجنّة لا يشربون من كل هذه الأشربة، بل أنّ لها مراتب يشرب أصحاب كلّ مرتبة من الأشربة الموجودة فى درجتهم، فنقرأ فى الآية (۲۸) من سورة المطففين: عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ

۲- الشراب الطهور

لا يخفى أنّ خمر الجنّة و شرابها لا علاقة له بخمر الدنيا الملوّث مطلقا، بل هو كما يصفه القرآن فى موضع آخر: لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ ۳۵۶]، و ليس فيه إلّا العقل و النشاط و اللذّة الروحية.

۳- أشربة لا يعتريها الفساد

جاء فى وصف أنهار الجنّة مرة أنّ ماءها غَيْرِ آسِنٍ و أخرى لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ و هو يوحى بأنّ أشربه الجنّة و أطعمتها تبقى على طراوتها وجدتها، و لم لا تكون كذلك؟ و إنّما تتغير الأطعمة و تفسد بفعل الميكروبات المفسدة، و لولاها فإنّ أطعمة الدنيا تبقى هى الأخرى على حالتها الأولى، و لما لم يكن للموجودات المفسدة مكان فى الجنّة، فإنّ كلّ أشيائها صافية و نظيفة و طرية طازجة دائما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۰

۴- لماذا الفواكه؟

لقد أكّدت الآية مورد البحث، و كثير من آيات القرآن الأخرى على الفواكه من بين الأطعمة، الفواكه المتنوّعة المذاق، و هذا يبيّن أنّ الفاكهة أهم أغذية الجنّة، و حتى فى هذه الدنيا، فإنّ الفاكهة أفضل و أسلم غذاء للإنسان.

۵- جملة سُقُوا بصيغة الفعل المبنى للمجهول، توضح أنّ أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوة، لا بإرادتهم، و بدل الارتواء فى تلك النّار المحرقة فإنّه يقطّع أمعاءهم، و كما هى طبيعة الجحيم، فإنّهم يرجعون إلى حالتهم الأولى، حيث لا موت هناك.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۱

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۶ الى ۱۹]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (۱۶) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ (۱۷) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ (۱۹)

التّفسير

ظهرت علامات القيامة!

تعكس هذه الآيات صورة عن وضع المنافقين، و طريق تعاملهم مع الوحى الإلهى، و كلمات النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و مسألة قتال أعداء الإسلام و محاربتهم.

و قد ورد الحديث حول المنافقين فى السور المدنية كثيرا، فى حين لا نرى أثرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۲

للحديث حولهم فى السور المكية، و ذلك لأنّ مسألة النفاق ظهرت بعد انتصار الإسلام و تسلّمه السلطة و القوّة، حيث أصبح المشركون فى موقع ضعف و انهيار، بحيث لم يكن باستطاعتهم إظهار مخالفتهم، و لذلك اضطروا إلى التلبّس بالإسلام ليأمنوا غضب المسلمين الحقيقيين، أمّا فى الباطن فإنّهم لم يألوا جهدا فى التآمر ضد الإسلام، و كان يهود المدينة الذين كانوا يتمتّعون بقوة عسكرية و اقتصادية لا يستهان بها، يعتبرون سندا للمنافقين.

و على أى حال، فقد توغّل هؤلاء بين المسلمين المخلصين، و كانوا يحضرون عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يشاركون فى صلاة الجمعة، إلّا أنّ تعاملهم تجاه آيات القرآن كان يفضح ما تنطوى عليه سرائرهم و قلوبهم المريضة.

تقول الآية الأولى من الآيات مورد البحث: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً و كان مرادهم من ذلك الرجل هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

إنّ تعبير هؤلاء فى شأن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كلماته البليغة، كان من القبح و البذاءة إلى درجة تدل على أنّهم لم يؤمنوا بالوحى السماوى قط.

«آنفا» من مادة (أنف)، و لما كان للأنف بروزا متميّزا فى وجه الإنسان، فإنّ هذه الكلمة تستعمل فى شأن أشراف القوم، و كذلك تستعمل فى مورد الزمان المتقدم على زمان الحال، كما جاء فى الآية مورد البحث.

ثمّ إنّ التعبير ب لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يوحى بأنّ إحدى علامات المؤمن امتلاكه الوعى الكافى، فكما أنّ العلم مصدر الإيمان، فكذلك هو وليد الإيمان و حاصله.

إلّا أنّ القرآن الكريم قد أجابهم جوابا قاطعا، فقال: إنّ كلام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن غامضا و لا معقّدا، بل أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ

و فى الحقيقة فإنّ الجملة الثّانية علّة للجملة الاولى، أى إنّ اتباع الهوى يسلب الإنسان القدرة على إدراك الحقائق و تمييزها، و يلقى الحجاب على قلبه، بحيث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۳

أنّ قلوب متبعى الهوى تصبح كالظرف المختوم، فلا يدخله شىء، و لا يخرج منه شىء.

و يقف المؤمنون الحقيقيون فى الطرف المقابل لهؤلاء، و عنهم تتحدّث الآية التالية فتقول: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ

تَقْواهُمْ

نعم، لقد خطا هؤلاء الخطوة الأولى بأنفسهم، و استخدموا عقلهم و فطرتهم فى هذا المسير، ثمّ أخذ اللّه سبحانه بيدهم كما وعدهم من قبل، فزادهم هدى إلى هداهم، و ألقى نور الإيمان فى قلوبهم، و شرح صدورهم و رزقهم حسن الفكرة و النظر. هذا من الناحية العقائدية.

و أمّا من الناحية العملية فإنّه سبحانه يحيى فيهم روح التقوى، حتى أنّهم يشمئزون من الذنب و المعصية، و يعشقون الطاعة و العمل الصالح.

إنّ هؤلاء يقفون من الناحيتين فى الطرف المقابل للمنافقين الذين أشارت إليهم الآية السابقة، فقد طبع على قلوبهم فلا يفقهون شيئا من جهة، و من جهة اخرى فإنّهم يتّبعون أهواءهم فى العمل، أمّا المؤمنون فإنّ هدايتهم تعظم يوما بعد يوم، و تتضاعف تقواهم فى مجال العمل.

و تحذّر الآية التالية أولئك المستهزئين الذين لا إيمان لهم، فتقول: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ

أجل، إنّ هؤلاء لم يذعنوا للحق حيث كان الإيمان واجبا عليهم، و مفيدا لهم، بل كانوا فى طغيانهم يعمهون، و بآيات اللّه يستهزئون، غير أنّهم يوم يرون الحوادث المرعبة و بداية القيامة تهزّ العالم و تزلزله، يصيبهم الفزع و يظهرون خضوعهم و يؤمنون، و لا ينفعهم يومئذ إيمانهم و خضوعهم.

إنّ هذه العبارة تشبه تماما أن نقول لإنسان: أ تنتظر حتى يشرف بك مرضك على الموت، و لا ينفع حينئذ علاج، ثمّ تدعو الطبيب و تأتى بالدواء؟ انهض و اسرع إلى المعالجة و تناول الدواء قبل أن تفقد هذه الفرصة، فإنّ السعى الآن ذو فائدة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۴

و بعد اليوم لا ينفع.

«الأشراط» جمع (شرط)، و هى العلامة، و على هذا فإنّ أشراط الساعة إشارة إلى علامات اقتراب القيامة.

و للمفسرين أقوال كثيرة حول المراد من علامات اقتراب القيامة هنا، حتى كتبت رسائل مختصرة و مفصّلة، فى هذا الباب. إلّا أنّ الكثير يعتقدون أنّ المراد من «أشراط الساعة» فى الآية- مورد البحث- هو ظهور شخص النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و يشهد لذلك

الحديث المروى عنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «بعثت أنا و الساعة كهاتين» و ضمّ إصبعيه السبابة و الوسطى [۳۵۷].

و عدّ البعض مسألة «شقّ القمر»، و قسما آخر من حوادث عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من أشراط الساعة أيضا.

لقد وردت أحاديث عديدة فى هذا الباب، و قد اعتبرت شيوع كثير من المعاصى بين الناس بالذات من علامات اقتراب القيامة، كالحديث الذى

يرويه «الفتال النيسابورى» (ره) فى روضة الواعظين، عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أشراط الساعة أن يرفع العلم، و يظهر الجهل، و يشرب الخمر، و يفشو الزنا»[۳۵۸].

بل، حتى الحوادث المهمّة و المؤثرة، كقيام المهدى- أرواحنا له الفداء- عدّت من أشراط الساعة.

لكن ينبغى أن نذكر أنّنا نبحث تارة فى أشراط الساعة بصورة مطلقة، فنسأل: ما هى علامات اقتراب القيامة؟ و أخرى نبحث فى مورد خصوص الآية. و المطلب فى مورد الآية هو ما قلناه. و أمّا حول علامات اقتراب القيامة بصورة مطلقة فقد وردت بحوث و روايات كثيرة فى الكتب الإسلامية المعروفة، و سنشير إليها فيما يأتى [۳۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۵

هل أن ظهور النبی من علامات قرب القيامة؟

يطرح هنا سؤال، و هو: كيف عدوا ظهور النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم من علامات اقتراب القيامة، و قد مرّ إلى الآن خمسة عشر قرنا و لا أثر للقيامة؟

و الإجابة عن هذا السؤال تتّضح بملاحظة واحدة، و هی أنّنا يجب أن نقارن بين ما مرّ من الدنيا و ما بقی منها، و سيظهر من خلال هذه المقارنة أن ما بقی من عمر الدنيا قليل جدا، و هو سريع الانقضاء، كما

ورد فی حديث عن النّبی الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه كان يخطب فی أصحابه قبيل الغروب، فقال: «و الذی نفس محمّد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقی منها إلّا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقی منه، و ما بقی منه إلّا اليسير»[۳۶۰].

و تقول آخر آية من هذه الآيات و كاستخلاص لنتيجة البحوث التی وردت فی الآيات السابقة حول الإيمان و الكفر، و مصير المؤمنين و الكفّار: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ أی: اثبت على خط التوحيد، فإنّه الدواء الشافی، و اعلم أنّ أفضل وسيلة للنجاة هو التوحيد الذی بيّنت الآيات السالفة آثاره.

و بناء على هذا، فلا يعنی هذا الكلام أنّ النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن عالما بالتوحيد بل المراد الاستمرار فی هذا الخط، و هذا يشبه تماما ما ذكروه فی تفسير الآية: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ فی سورة الحمد، بأنّها لا تعنی عدم الهداية من قبل، بل تعنی: ثبّتنا على خط الهداية.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد التدبّر فی أمر التوحيد أكثر، و الارتقاء إلى المقامات الأسمى، حيث أنّه كلمّا تدبّر البشر فيه أكثر، و طالعوا آيات اللّه بدقّة أكبر، فإنّهم سيصلون إلى مراتب أرقى، و التدبّر بما قيل فی الآيات السالفة فی مورد الإيمان و الكفر، عامل يؤثر بحدّ ذاته فی زيادة الإيمان و الكفر.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۶

و التّفسير الثّالث أنّ المراد: الجوانب العملية للتوحيد، أی: اعلم أنّ الملجأ و المأوى الوحيد فی العالم هو اللّه تعالى، فالتجئ إليه، و لا تطلب حل معضلاتك إلّا منه، و لا تخف سيل المشاكل، و لا تخش كثرة الأعداء.

و لا تنافی بين هذه التفاسير الثلاثة، فمن الممكن أن تجمع فی معنى الآية.

و بعد هذه المسألة العقائدية، تعود الآية إلى مسألة التقوى و العفّة عن المعصية، فتقول: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ

لا- يخفى أنّ النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يرتكب ذنبا قط بحكم مقام العصمة، و أمثال هذه التعابير إشارة إلى ترك الأولى، فإنّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، أو إلى أنّه قدوة للمسلمين.

و

جاء فی حديث: أنّ حذيفة بن اليمان يقول: كنت رجلا ذرب اللسان على أهلی، فقلت: يا رسول اللّه إنّی لأخشى أن يدخلنی لسانی فی النّار، فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم:

«فأين أنت من الاستغفار؟ إنّی لأستغفر اللّه فی اليوم مائة مرّة»[۳۶۱]. و جاء فی بعض الروايات أنّه كان يستغفر فی اليوم سبعين مرّة.

إذا كان الآخرون يستغفرون ممّا ارتكبوا من المعاصی و الذنوب، فإنّ النّبی الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم يستغفر اللّه من تلك اللحظة التی شغل فيها عن ذكره، أو أنّه ترك فعل الأحسن و فعل الحسن.

و هنا نكتة جديرة بالانتباه، و هی أنّ اللّه سبحانه قد شفع للمؤمنين و المؤمنات، و أمر نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يستغفر لهم لتسعهم رحمته، و من هنا يتبيّن عمق مسألة «الشفاعة» فی الدنيا و الآخرة، و كذلك تتبيّن أهمية التوسّل و كونه مشروعا.

و يقول سبحانه فی ذيل الآية، و كتبيان للعلّة وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ فهو يعلم ظاهركم و باطنكم، كتمانكم و علانيتكم، سرّكم و نجواكم، بل و يعلم حتى نيّاتكم، و ما توسوس به أنفسكم، و يخطر على أذهانكم، و ما يجری فی ضمائركم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۷

و یعلم حرکاتکم و سکناتکم، و لهذا وجب علیکم التوجّه إلیه و رفع الأکف بین یدیهو و طلب العفو و المغفرة و الرحمة منه.

«المتقلّب»: هو المکان الذی یکثر التردّد علیه، و «المثوی» هو محل الاستقرار[۳۶۲].

و الظاهر أنّ لهاتین الکلمتین معنی واسعا یشمل کلّ حرکات ابن آدم و سکناته، سواء التی فی الدنیا أم فی الآخرة، فی فترة کونه جنینا أم کونه من سکان القبور، و إن کان کثیر من المفسّرین قد ذکر لهما معانی محددة:

فقال بعضهم: إنّ المراد حرکة الإنسان فی النهار، و سکونه فی اللیل.

و قال آخرون: إنّ المراد مسیر الإنسان فی الحیاة الدنیا، و استقراره فی الآخرة.

و قال بعض آخر: إنّ المراد تقلّب الإنسان فی أصلاب الآباء و أرحام الأمهات، و ثباته فی القبر.

و أخیرا ذکر البعض أنّ المراد: حرکاته فی السفر، و سکناته فی الحضر.

و لکن کما قلنا، فإنّ للآیة معنی واسعا یشمل کلّ هذه المعانی.

***

بحث

ما هی أشراط الساعة؟

قلنا سابقا: إنّ الأشراط جمع شرط، و هی العلامة، و یقال لعلامات اقتراب القیامة: أشراط الساعة، و قد بحثت کثیرا فی مصادر الشیعة و السنّة، و لم یشر القرآن إلیها إلّا فی هذه الآیة.

و من أجمع الأحادیث و أکثرها تفصیلا فی هذا الباب، الحدیث الذی

رواه ابن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۸

عباس عن النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی قضیة حجّة الوداع، و هو یعلّمنا کثیرا من المسائل، و یحتوی علی نکات و دقائق کثیرة، و لهذا نورده کاملا:

قال ابن عباس: حججنا مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم حجّة الوداع و هی آخر حجّة حجّها رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی حیاته- فأخذ بحلقة باب الکعبة ثمّ أقبل علینا بوجهه فقال:

«ألا أخبرکم بأشراط الساعة»؟ فکان أدنی الناس منه یومئذ سلمان رحمة اللّه علیه فقال: بلی یا رسول اللّه.

قال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ من أشراط الساعة إضاعة الصلوات، و اتباع الشهوات، و المیل مع الأهواء، و تعظیم أصحاب المال، و بیع الدین بالدنیا، فعندها یذاب قلب المؤمن فی جوفه کما یذاب الملح فی الماء مما یری من المنکر فلا یستطیع أن یغیّره».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: إنّ عندها یلیهم أمراء جورة، و وزراء فسقة، و عرفاء ظلمة، و أمناء خونة».

فقال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: إنّ عندها یکون المنکر معروفا، و المعروف منکرا، و یؤتمن الخائن، و یخوّن الأمین، و یصدّق

الكاذب، و يكذّب الصادق».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: فعندها تكون إمارة النساء، و مشاورة الإماء، و قعود الصبيان على المنابر، و يكون الكذب ظرفا، و الزكاة مغرما، و الفيء مغنما، و يجفو الرجل والديه و يبرّ صديقه، و يطلع الكوكب المذنب».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: و عندها تشارك المرأة زوجها فى التجارة [و يبذل كل منهما قصارى جهد خارج المنزل لتحصيل المال و يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۹

المطر غيضا، و يغيض الكرام غيضا، و يحتقر الرجل المعسر، فعندها تقارب الأسواق، قال هذا: لم أبع شيئا، و قال هذا: لم أربح شيئا، فلا ترى إلّا ذاما للّه».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: فعندها يليهم أقوام إن تكلّموا قتلوهم، و إن سكتوا استباحوهم، ليستأثرون بفيئهم، و ليطؤن حرمتهم، و ليسفكن دماءهم، و ليملؤن قلوبهم دغلا و رعبا، فلا تراهم إلّا وجلين خائفين مرعوبين مرهوبين».

فقال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: إنّ عندها يؤتى بشيء من المشرق، و شيء من المغرب [فقوانين من الشرق، و قوانين من الغرب يلون أمّتى، فالويل لضعفاء أمّتى منهم، و الويل لهم من اللّه، لا يرحمون صغيرا، و لا يوقّرون كبيرا، و لا يتجافون عن مسيء، جثّتهم جثة الآدميين، و قلوبهم قلوب الشياطين».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: و عندها يكتفى الرجال بالرجال و النساء بالنساء، و يغار على الغلمان كما يغار على الجارية فى بيت أهلها، و تشبه الرجال بالنساء، و النساء بالرجال، و تركب ذوات الفروج السروج [و يظهرن أنفسهن فعليهن من أمّتى لعنة اللّه».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: إنّ عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس و تحلى المصاحف [دون أن يعمل بها] و تطول المنارات، و تكثر الصفوف، قلوب متباغضة، و ألسن مختلفة».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: و عندها تحلّى ذكور أمّتى بالذهب، و يلبسون الحرير و الديباج، و يتّخذون جلود النمور صفافا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۰

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: و عندها يظهر الزنا، و يتعاملون بالعينة و الرشا، و يوضع الدين و ترفع الدنيا».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: و عندها يكثر الطلاق، فلا يقام للّه حد، و لن يضرّوا اللّه شيئا [و إنّما يضرّون أنفسهم ».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: و عندها تظهر القينات و المعازف، و تليهم أشرار أمّتى».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: و عندها يحج أغنياء أمّتى للنزهة، و يحج أوساطها للتجارة، و يحج فقراؤهم للرياء و السمعة، فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير اللّه، و يتّخذونه مزامير، و يكون أقوام يتفقّهون لغير اللّه، و يكثر أولاد الزنا، و يتغنّون بالقرآن، و يتهافتون بالدنيا».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: ذاك إذا انتهكت المحارم، و اكتسبت المآثم، و سلّط الأشرار على الأخيار، و يفشو الكذب، و تظهر اللجاجة، و تفشو الفاقة، و يتباهون فى اللباس، و يمطرون فى غير أوان المطر، و يستحسنون الكوبة و المعازف، و ينكرون الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، حتى يكون المؤمن فى ذلك الزمان أذلّ من الأمة، و يظهر قرّاؤهم و عبادهم فيما بينهم التلاوم، فأولئك يدعون فى ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: فعندها لا يخشى الغنى على الفقير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۱

حتى أنّ السائل يسأل فى الناس فيما بين الجمعتين لا يصيب أحدا يضع فى كفه شيئا».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟

قال: «إى و الذى نفسى بيده. يا سلمان: فعندها يتكلم الرويبضة».

قال سلمان: ما الرويبضة يا رسول اللّه فداك أبى و أمّى؟

قال: «يتكلّم فى أمر العامة من لم يكن يتكلّم، فلم يلبثوا إلّا قليلا حتى تخور الأرض خورة، فلا يظن كلّ قوم إلّا أنّها خارت فى ناحيتهم، فيمكثون ما شاء اللّه، ثمّ يمكثون فى مكثهم، فتلقى لهم الأرض أفلاذ أكبادها» قال: «ذهبا و فضة»، ثمّ أومأ بيده إلى الأساطين، فقال: مثل هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب و لا فضة- و يحل أمر اللّه- فهذا يعنى معنى قوله: فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها[۳۶۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۲

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۰ الى ۲۴]

اشارة

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (۲۰) طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (۲۱) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (۲۲) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ (۲۳) أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (۲۴)

التّفسير

يخافون حتى من اسم الجهاد!

تبيّن هذه الآيات المواقف المختلفة للمؤمنين و المنافقين تجاه الأمر بالجهاد، تكملة للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة حول هذين

الفريقين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۳

تقول الآيـة الأولى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ سورة يكون فيهـا أمر بالجهاد، يوضـح واجبنا تجاه الأعـداء القساة الجلّادين الذين لا منطق لهم ...

سورة تبعث آياتها نور الهداية في قلوبنا، و تضيء أرواحنا بنورها الوهّاج، هذا حال المؤمنين.

و أمّا المنافقون: فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فعنـد سـماع اسم الحرب يصـيبهم الهلع، و يضـطرب كيـانهم أجمع، و تتوقف عقولهم عن التفكير، و تسـمّر عيونهم، و ينظرون إليك كمن يوشك على الموت، و هذا أبلغ و أروع تعبير عن حال المنافقين الجبناء الخائفين.

إنّ سبب اختلاف تعامل المؤمنين و المنافقين مع أمر الجهاد، ينبع من أن الفريق الأوّل قد علقوا آمالهم باللّه سبحانه لإيمانهم القوي به، فهم يرجون عنايته و لطفه و نصرته، و لا خوف لديهم من الشهادة في سبيله.

إنّ ميدان الجهاد بالنسبة إلى هؤلاء ميدان إظهار عشـقهم لمحبوبهم، ميدان الشرف و الفضيلة، ميدان تفجّر الاستعدادت و القابليات، و هو ميدان الثبات و المقاومة و الإنتصار، و لا معنى للخوف في مثل هذا الميدان.

إلّا أنّه بالنسبة إلى المنافقين ميـدان موت و فناء و تعاسـة، ميـدان هزيمـة و مفارقـة لذائذ الدنيا، و هو أخيرا ميدان مظلم يعقبه مسـتقبل مرعب غامض! و المراد من «السورة المحكمة»- باعتقاد بعض المفسّـرين- هي السور التي ذكرت فيها مسألة الجهاد. لكن لا دليل على هـذا التّفسـير، بـل الظاهر أنّ «المحكم» هنا بمعنى المسـتحكم و الثابت و القاطع، و الخالي من أي غموض أو إبهام، حيث يقع المتشابه في مقابلة أحيانا، و لمّا كانت آيات الجهاد تتمتّع عادة بحزم اسـتثنائي، فإنّها تنسـجم مع مفهوم هذه اللفظ أكثر، إلّا أنّها ليست منحصرة فيه.

و التعبير ب الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ تعبير يستعمل في لسان القرآن في شأن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۴

المنافقين عادة، و ما احتمله بعض المفسّـرين من أنّ المراد ضـعفاء الإيمان لا ينسـجم مع سائر آيات القرآن، بل و لا مع الآيات السابقة لهذه الآيات و التي بعدها، التي تتحدّث جميعا عن المنافقين.

و على أية حال، فإنّ الآية تضيف في النهاية جملة قصيرة، فتقول: فَأَوْلى لَهُمْ

إنّ جملة فَأَوْلى لَهُمْ تعبّر في الأدب العربي عن التهديد و اللعنة، و تمنّي التعاسة و الفناء للآخر[۳۶۴].

و فسّرها البعض بأنّها تعني: الموت أولى لهم، و لا مانع من الجمع بينها كما أوردنا في تفسير الآية.

و تضيف الآية التالية: طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ۳۶۵].

إنّ التعبير ب قَوْلٌ مَعْرُوفٌ يمكن أن يكون في مقابـل الكلمات الهزيلـة المنكرة التي كان يتفوّه بها المنافقون بعـد نزول آيات الجهاد، فقـد كـانوا يقولون تارة لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ[۳۶۶]، و أخرى: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً[۳۶۷]، و ثالثة كانوا يقولون: هَلُمَّ إِلَيْنا[۳۶۸]، من أجل إضعاف المؤمنين و إعاقتهم عن التوجّه إلى ميدان الجهاد.

و لم يكونوا يكتفون بعـدم ترغيب النـاس في أمر الجهـاد، بـل كـانوا يبـذلون قصارى جهودهم من أجل صـدّهم عن الجهاد، أو تثبيط معنوياتهم و عزائمهم على الأقل.

ثمّ تضيف الآية: فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ و سيرفع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۵

رؤوسهم في الدنيا، و يمنحهم العزّة و الفخر، و يؤدّي إلى أن ينالوا الثواب الجزيل، و الأجر الكبير، و الفوز العظيم في الآخرة.

و جملة عَزَمَ الْأَمْرُ تشير فى الأساس إلى استحكام العمل، إلّا أنّ المراد منها هنا الجهاد، بقرينة الآيات التى سبقتها و التى تليها.

و تضيف الآية التالية: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ ۳۶۹] لأنّكم إن أعرضتم عن القرآن و التوحيد، فإنّكم سترجعون إلى جاهليّتكم حتما، و لم يكن فى الجاهلية إلّا الفساد فى الأرض، و الإغارة و القتل و سفك الدماء، و قطيعة الرحم، و وأد البنات. هذا إذا كانت «تولّيتم» من مادة «تولّى» بمعنى الإعراض.

غير أنّ كثيرا من المفسّرين احتمل أن تكون من مادة «ولاية»، أى: الحكومة، فيكون المعنى: إنّكم إذا تولّيتم زمام السلطة فلا يتوقع منكم إلّا الضلال و الفساد و سفك الدماء و قطيعة الرحم.

و كأنّ جمعا من المنافقين قد اعتذر من أجل أن يفرّ من ميدان الجهاد بأنّا كيف نطأ ساحة الحرب و نقتل أرحامنا و نسفك دماءهم، و عندها سنكون من المفسدين فى الأرض؟

فيجيبهم القرآن قائلا: ألم تقتلوا أرحامكم و تسفكوا دماءهم، و لم يظهر منكم إلّا الفساد فى الأرض يوم كانت الحكومة بأيديكم؟ إن هذا إلّا تذرّع و تهرّب، فإنّ الهدف من الحرب فى الإسلام هو إخماد نار الفتنة، لا الفساد فى الأرض، و الهدف اقتلاع جذور الظلم و إزالته من الوجود، لا قطع الرحم.

و قد ورد فى بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ هذه الآية فى بنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۶

أمية الذين لم يرحموا صغيرا و لا كبيرا، بل سفكوا دماء الجميع حتى أقاربهم لمّا تسلّموا زمام الحكم ۳۷۰].

من المعلوم أنّ بنى أمية جميعا، ابتداء من أبى سفيان إلى أبنائه و أحفاده، كانوا مصداقا واضحا لهذه الآية، و هذا هو المراد من الرواية، إذ أنّ للآية معنى واسعا يشمل كلّ المنافقين الظالمين و المفسدين.

و توضح الآية التالية المصير النهائى لهؤلاء القوم المنافقين المفسدين المتذرّعين بأوهى الحجج فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ

إنّ هؤلاء يظنّون أنّ الجهاد الإسلامى القائم على أساس الحق و العدالة، قطيعة للرحم، و فسادا فى الأرض، أمّا كلّ الجرائم التى ارتكبوها فى الجاهلية، و الدماء البريئة التى سفكوها أيّام تسلطهم، و الأطفال الأبرياء الذين وأدوهم و دفنوهم و هم أحياء يستغيثون، كانت قائمة على أساس الحق و العدل! لعنهم اللّه إذ لا أذن واعية لهم، و لا عين ناظرة بصيرة! و نقرأ

فى رواية عن الإمام على بن الحسين، أنّه قال لولده الإمام الباقر عليه السّلام: «إيّاك و مصاحبة القاطع لرحمه، فإنّى وجدته ملعونا فى كتاب اللّه عزّ و جلّ فى ثلاثة مواضع، قال اللّه عزّ و جلّ: فهل عسيتم ...»[۳۷۱].

«الرحم» فى الأصل محل استقرار الجنين فى بطن أمّه، ثمّ أطلق هذا التعبير على كل الأقرباء، لأنّهم نشأوا و ولدوا من رحم واحد.

و

جاء فى حديث آخر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ثلاثة لا يدخلون الجنّة: مدمن خمر، و مدمن سحر، و قاطع رحم»[۳۷۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۷

و لا يخفى أنّ لعن اللّه تعالى لهؤلاء القوم، و طردهم من رحمته، و كذلك سلبهم القدرة على إدراك الحقائق، لا يستلزم الجبر، لأنّ ذلك جزاء أعمالهم، وردّ فعل لسلوكهم و أفعالهم.

و تناول آخر آية من هذه الآيات ذكر العلة الحقيقية لانحراف هؤلاء القوم التعساء، فقالت: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها؟ نعم، إنّ عامل مسكنة هؤلاء و ضياعهم أحد اثنين: إمّا أنّهم لا يتدبّرون فى القرآن، برنامج الهداية الإلهية، و الوصفة الطبية الشافية تماما، أو أنّهم يتدبّرونه، إلّا أنّ قلوبهم مقفلة نتيجة اتباع الهوى و الأعمال التى قاموا بها من قبل، و هى مقفلة بشكل لا تنفذ معه أى

حقيقة إلى قلوبهم.

و بتعبير آخر، فإنّهم كرجل ضلّ طريقه فى الظلمات، فلا سراج فى يده، و لا هو يبصر إذ هو أعمى، فلو كان معه سراج، و كان مبصرا، فإنّ الاهتداء إلى الطريق فى أى مكان سهل و يسير.

«الأقفال» جمع قفل، و هى فى الأصل من مادة القفول أى الرجوع، أو من القفيل، أى الأشياء اليابسة، و لمّا كان المتعارف أنّهم إذا أغلقوا الباب و قفلوها بقفل، فكلّ من يأت يقفل راجعا، و كذلك لمّا كان القفل شيئا صلبا لا ينفذ فيه شيء، لذا فقد أطلقت هذه الكلمة على هذه الآلة الخاصة.

***

بحث

القرآن كتاب فكر و عمل:

تؤكّد آيات القرآن المختلفة على حقيقة أنّ هذا الكتاب السماوى العظيم ليس للتلاوة و حسب، بل إنّ الهدف النهائى منه هو الذكر، و التدبّر فى عواقب الأمور و الإنذار، و إخراج البشر من الظلمات، و الشفاء و الرحمة و الهداية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۸

فنقرأ فى الآية (۵۰) من سورة الأنبياء: وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ

و فى الآية (۲۹) من سورة ص: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ

و جاء فى الآية (۱۹) من سورة الأنعام: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ

و تقول الآية الأولى من سورة إبراهيم: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

و أخيرا، جاء فى الآية (۸۲) من سورة الإسراء: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

و لهذا، فإنّ القرآن الكريم يجب أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين، و يكون فى صميمها لا على هامشها، و عليهم أن يجعلوه قدوتهم و أسوتهم، و أن ينفذوا كلّ أوامره، و أن يجعلوا خطوط حياتهم و طبيعتها منسجمة معه.

لكنّ، جماعة من المسلمين- مع الأسف الشديد- لا يتعاملون مع القرآن إلّا على أنّه مجموعة أوراد و أذكار، فهم يتلونه جميعا تلاوة مجرّدة، و يهتمون أشدّ الاهتمام بالتجويد و مخارج الحروف و حسن الصوت، و أكثر شقاء المسلمين و تعاستهم يكمن فى أنّهم أخرجوا القرآن عن كونه دستورا جامعا لحياة البشر، و اكتفوا بترديد ألفاظه، و قنعوا بذلك.

و الجدير بالانتباه أنّ الآيات مورد البحث تقول بصراحة: إنّ هؤلاء المنافقين المرضى القلوب لم يتدبّروا فى القرآن، فلاقوا هذا المصير الأسود.

«التدبّر» من مادة دبر، و هو تحقيق و بحث نتائج الشيء و عواقبه، بعكس «التفكر» الذى يقال غالبا عن علل الشيء و أسبابه، و استعمل كلا التعبيرين فى القرآن.

لكن، ينبغى أن لا- ننسى أنّ الاستفادة من القرآن تحتاج إلى نوع من تهذيب النفس و جهادها، و إن كان القرآن بنفسه معينا فى تهذيبها، لأنّ القلوب إذا كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۹

مقفلة بأقفال الهوى و الشهوة، و الكبر و الغرور، و اللجاجة و التعصّب، فسوف لا يلجها نور الحق، و قد أشارت الآيات- مورد البحث-

إلى هذا المعنى.

و ما

أروع كلام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى خطبته حول صفات المتّقين، إذ يقول: «أمّا الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، و يستثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، و تطّلعت نفوسهم إليها شوقا، و ظنّوا أنّها نصب أعينهم، و إذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنّوا أنّ زفير جهنّم و شهيقها فى أصول آذانهم»[۳۷۳].

حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام:

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير جملة: أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها: «إنّ لك قلبا و مسامع، و إنّ اللّه إذا أراد أن يهدى عبدا فتح مسامع قلبه، و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبدا، و هو قول اللّه عزّ و جلّ: أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها[۳۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۰

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۵ الى ۲۸]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ (۲۵) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (۲۶) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ (۲۷) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (۲۸)

التّفسير

أ فلا يتدبّرون القرآن:

تواصل هذه الآيات الكلام حول المنافقين و مواقفهم المختلفة، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۳۸۰

بالرغم من أنّ البعض احتمل أنّ هذه الآية تتحدّث عن جماعة من الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۱

كفروا من أهل الكتاب الذين كانوا يذكرون علامات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قبل ظهوره، و ذلك استنادا إلى ما ورد فى كتبهم السماوية، و كانوا ينتظرونه على أحر من الجمر، إلّا أنّهم أعرضوا عنه بعد ظهوره و اتضاح هذه العلامات و تحقّقها، و منعتهم شهواتهم و مصالحهم من الإيمان به.

بالرغم من ذلك، فإنّ القرائن الموجودة فى الآيات السابقة و اللاحقة تبيّن جيدا أنّ هذه الآية تتحدث أيضا عن المنافقين الذين جاؤوا

و رأوا بأمّ أعينهم الدلائل الدالّة على حقانية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و سمعوا آياته، إلّا أنّهم أدبروا اتباعا لأهوائهم و شهواتهم، و طاعة لوساوس الشيطان.

«سوّل» من مادة سؤل- على وزن قفل- و هى الحاجة التى يحرص عليها الإنسان ۳۷۵]، و «التسويل» بمعنى الترغيب و التشويق إلى الأمور التى يحرص عليها، و نسبته إلى الشيطان بسبب الوساوس التى يلقيها فى نفس الإنسان، و تمنع من هدايته.

و جملة وَ أَمْلى لَهُمْ من مادة «إملاء»، و هو زرع طول الأمل فيهم، و الآمال البعيدة المدى، و التى تشغل الإنسان، فتصدّه عن الحق و الهدى.

و تشرح الآية التالية علّة هذا التسويل و التزيين الشيطانى، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ و هذا دأب المنافقين فى البحث عن العصاة و المخالفين، و إذا لم يكونوا مشتركين و متفقين معهم فى كلّ المواقف، فإنّهم يتعاونون معهم على أساس المقدار المتفق عليه من مواقفهم، بل و يطيعونهم إذا اقتضى الأمر.

بل قد اتجه منافقو المدينة نحو يهود المدينة- و هم «بنو النضير» و «بنو قريظة»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۲

الذين كانوا يبشرون بالإسلام قبل بعثة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أمّا بعد ظهوره و مبعثه، و تعرّض مصالحهم للخطر، و لحسدهم و كبرهم، فإنّهم اعتبروا الإسلام دينا باطلا، و غير سليم- و لمّا كان هناك قدر مشترك بين المنافقين و اليهود فى مخالفتهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و تآمرهم ضد الإسلام، فإنّهم اتفقوا مع اليهود على العمل المشترك ضد الإسلام و المسلمين.

و ربّما كان تعبير فِى بَعْضِ الْأَمْرِ إشارة إلى أنّنا نتعاون معكم فى هذا الجزء فقط، فإنّكم تخالفون عبادة الأصنام، و تعتقدون بالبعث و القيامة، و نحن لا نتفق معكم فى هذه الأمور[۳۷۶].

هذا الكلام شبيه بما جاء فى الآية (۱۱) من سورة الحشر: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ

و تهدد الآيات هؤلاء فى نهايتها فتقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ فهو عليم بكفرهم الباطن و نفاقهم، و بتآمرهم مع اليهود، و سيعاقبهم و يجازيهم فى الوقت المناسب. و عليم بما كان يخفيه اليهود من حسدهم و عدائهم و عنادهم، فقد كانوا يعرفون علامات نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما يعرفون أبناءهم بشهادة كتابهم، و كانوا يذكرون هذه العلامات للناس من قبل، إلّا أنّهم أخفوها جميعا بعد ظهوره، و اللّه عليم بهذا الإخفاء و محاولة طمس الحق.

و

جاء فى حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام: أنّ المراد من كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ بنو أميّة الذين كرهوا نزول أمر اللّه تعالى فى ولاية على عليه السّلام ۳۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۳

و واضح أنّ هذا النوع تطبيق و بيان مصداق، و ليس حصرا لمعنى الآية.

و الآية التالية بمثابة توضيح لهذا التهديد المبهم، فتقول: فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ ۳۷۸].

نعم، إنّ هؤلاء الملائكة مأمورون أن يذيقوا هؤلاء العذاب و هم على أعتاب الموت ليذوقوا و بال الكفر و النفاق و العناد، و هم يضربون وجوههم لأنّها اتجهت نحو أعداء اللّه، و يضربون أدبارهم لأنّهم أدبروا عن آيات اللّه و نبيّه.

و هذا المعنى نظير ما ورد فى الآية (۵۰) من سورة الأنفال حول الكفار و المنافقين: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ

و تناولت آخر آية من هذه الآيات بيان علّة هذا العذاب الإلهى و هم على إعتاب الموت، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ

كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ

لأنّ رضى اللّه سبحانه هو شرط قبول الأعمال و كلّ سعى و جهد، و بناء على هذا، فمن الطبيعى أن تحبط أعمال أولئك الذين يصرون على إغضاب اللّه عزّ و جلّ و إسخاطه، و يخالفون ما يرتضيه، و يودعون هذه الدنيا و هم خالو الوفاض، قد أثقلتهم أوزارهم، و أرهقتهم ذنوبهم.

إنّ حال هؤلاء القوم يخالف تماما حال المؤمنين الذين تستقبلهم الملائكة بوجوه ضاحكة عند ما يشرفون على الموت، و تبشّرهم بما أعد اللّه لهم: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۳۷۹].

و ممّا يلفت النظر أنّ الجملة فعلية فى مورد غضب اللّه تعالى: ما أَسْخَطَ اللَّهَ و هى أسمية فى مورد رضاه: رِضْوانَهُ و قال بعض المفسّرين: إنّ هذا التفاوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۴

فى التعبير يتضمن نكتة لطيفة، و هى أنّ غضب اللّه قد يحدث و قد لا يحدث، أمّا رضاه و رحمته فهى مستمرة دائمة.

و واضح أيضا أنّ غضب اللّه تعالى و سخطه لا يعنى التأثر النفسى، كما أنّ رضاه سبحانه لا يعنى انبساط الروح و انشراح الأسارير، بل هما كما

ورد فى حديث الإمام الصادق عليه السّلام: «غضب اللّه عقابه، و رضاه ثوابه»[۳۸۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۵

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۹ الى ۳۱]

اشارة

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (۳۱)

التّفسير

يعرف المنافقون من لحن قولهم:

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر فى صفات المنافقين و علاماتهم، و تؤكّد بالخصوص على أنّهم يظنّون أنّ باستطاعتهم أن يخفوا واقعهم و صورتهم الحقيقية عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين دائما، و أن ينقذوا أنفسهم بذلك من الفضيحة الكبرى، فتقول أوّلا: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ ۳۸۱].

«الأضغان» جمع ضغن، و هو الحقد الشديد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۶

نعم، لقد كانت قلوب هؤلاء مملوءة غيظا و حقدا شديدا على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و كانوا يتحيّنون الفرص لإنزال الضربة بهم، فهنا يحذّرهم القرآن بأن لا يظنّوا أنّ بإمكانهم أن يخفوا وجههم الحقيقى دائما، و لذلك فإنّ الآية التالية تضيف: وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ فنجعل فى وجوههم علامات تعرفهم بها إذا رأيتهم، و تراهم رأى العين فتنظر واقعهم عند ما تنظر ظاهرهم.

ثمّ تضیف: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ الْقَوْلِ فیمکنک فی الحال أن تعرفهم من خلال نمط کلامهم.

یقول الراغب فی مفرداته: «اللحن» عبارهٔ عن صرف الکلام عن قواعده و سننه، أو إعرابه علی خلاف حاله، أو الکنایهٔ بالقول بدلا من الصراحهٔ. و المراد فی الآیهٔ مورد البحث هو المعنی الثّالث، أی: یمکن معرفهٔ المنافقین مرضی القلوب من خلال الکنایهٔ فی کلامهم، و تعبیراتهم المؤذیهٔ التی تنطوی علی النفاق.

حینما یکون الکلام عن الجهاد، فإنّهم یسعون إلی إضعاف إرادهٔ الناس و معنویاتهم، و حینما یکون الکلام عن الحق و العدالهٔ، فإنّهم یحرّفونه بنحو من الأنحاء، و إذا ما أتی الحدیث عن الصالحین المتّقین السابقین إلی الإسلام، فإنّهم یسعون إلی تشویه سمعتهم، و تقلیل أهمیتهم و مکانتهم، و لذلک روی عن «أبی سعید الخدری» حدیثه المعروف الذی یقول فیه: لحن القول بغضهم علی بن أبی طالب، و کنّا نعرف المنافقین علی عهد رسول اللّه ببغضهم علی بن أبی طالب [۳۸۲].

نعم، لقد کانت إحدی العلامات البارزهٔ للمنافقین أنّهم کانوا یعادون أوّل من آمن من الرجال، و أول مضح فی سبیل الإسلام، و یبغضونه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۷

إنّ الإنسان لا- یستطیع عادهٔ أن یکتم ما ینطوی علیه ضمیره لمدهٔ طویلهٔ دون أن یظهر ذلک فی کنایات کلامه و إشاراته و لحنه، و لذلک نقرأ

فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «ما أضمر أحد شیئا إلّا ظهر فی فلتات لسانه، و صفحات وجهه»[۳۸۳].

و قد ذکرت آیات القرآن الأخری کلمات المنافقین الجارحهٔ، و التی هی مصداق للحن القول هذا، أو حرکاتهم المشبوههٔ، و لعلّه لهذا السبب قال بعض المفسّرین: إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یعرف المنافقین جیدا، من خلال علاماتهم، بعد نزول هذه الآیهٔ.

و الشاهد علی هذا الکلام هو أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أمر بأن لا یصلّی علی من مات منهم و لا یقوم علی قبره داعیا اللّه له: وَ لا تُصَلِّ عَلی أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلی قَبْرِهِ [۳۸۴].

لقد کان الجهاد بالذات من المواقف التی کان المنافقون یعکسون فیها ما یعیشونه فی داخلهم، و قد أشارت آیات کثیرهٔ فی القرآن الکریم، و خاصّهٔ فی سورهٔ التوبهٔ و الأحزاب إلی وضع هؤلاء قبل الحرب حین جمع المساعدات و إعداد العدّهٔ للحرب، و فی أثناء الحرب فی ساحتها إذا اشتد هجوم العدو و استعرت حملته، و بعد الحرب عند تقسیم الغنائم، حتی وصل الأمر بالمنافقین إلی أن یعرفهم حتی المسلمون العادیّون فی هذه المشاهد و المواقف.

و الیوم أیضا لا تصعب معرفهٔ المنافقین من لحن قولهم و مواقفهم المضادهٔ فی المسائل الاجتماعیهٔ المهمهٔ، و خاصهٔ عند الاضطرابات أو الحروب، و یمکن التعرف علیهم بأدنی دقهٔ فی أقوالهم و أفعالهم، و ما أروع أن یعی المسلمون أمرهم و یستیقظوا و یستلهموا من هذه الآیهٔ تعلیماتها لیعرفوا هذه الفئهٔ الحاقدهٔ الخطرهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۸

و یفضحوها.

و أخیرا تضیف الآیهٔ: وَ اللَّهُ یَعْلَمُ أَعْمالَکُمْ فهو یعلم أعمال المؤمنین ما ظهر منها و ما بطن، و یعلم أعمال المنافقین، و إذا افترضنا أنّ هؤلاء قادرون علی إخفاء واقعهم الحقیقی عن الناس، فهل باستطاعتهم إخفاءه عن اللّه الذی هو معهم فی سرّهم و علانیهم، و خلوتهم و اجتماعهم؟

و تضیف الآیهٔ التالیهٔ مؤکّدهٔ و موضحهٔ طرقا أخری لتمییز المؤمنین عن المنافقین: وَ لَنَبْلُوَنَّکُمْ حَتَّی نَعْلَمَ الْمُجاهِدِینَ مِنْکُمْ وَ الصَّابِرِینَ الحقیقیین من المتظاهرین بالجهاد و الصبر.

و مع أنّ لهذا الابتلاء و الاختبار أبعادا واسعة، و مجالات رحبة تشمل الصبر و الثبات فی أداء کلّ الواجبات و التکالیف، و لکن المراد منه هنا الامتحان فی ساحة الحرب و القتال لمناسبته کلمة «المجاهدین»، و الآیات السابقة و اللاحقة، و الحق أنّ میدان الجهاد ساحة اختبار عسیر و شدید، و قلّما یستطیع المرء أن یخفی واقعه فی أمثال هذه المیادین.

و تقول الآیة الأخیرة: وَ نَبْلُوَا أَخْبارَکُمْ

قال کثیر من المفسّرین: إنّ المراد من الأخبار هنا أعمال البشر، و ذلک أن عملا ما إذا صدر من الإنسان، فإنّه سینتشر بین الناس کخبر.

و قال آخرون: إنّ المراد من الأخبار هنا: الأسرار الداخلیة، لأنّ أعمال الناس تخبر عن هذه الأسرار.

و یحتمل أن تکون الأخبار هنا بمعنی الأخبار التی یخبر بها الناس عن وضعهم و عهودهم و مواثیقهم، فالمنافقون- مثلا- کانوا قد عاهدوا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یرجعوا عن القتال، فی حین أنّهم نقضوا عهدهم: وَ لَقَدْ کانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا یُوَلُّونَ الْأَدْبارَ[۳۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۹

و نراهم فی موضع آخر: وَ یَسْتَأْذِنُ فَرِیقٌ مِنْهُمُ النَّبِیَّ یَقُولُونَ إِنَّ بُیُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِیَ بِعَوْرَةٍ إِنْ یُرِیدُونَ إِلَّا فِراراً[۳۸۶].

و بهذا فإنّ اللّه سبحانه یختبر أعمال البشر، کما یختبر أقوالهم و أخبارهم. و طبقا لهذا التّفسیر فإنّ لهاتین الجملتین فی الآیة مورد البحث معنیین متفاوتین، مع أنّ إحداهما تؤکّد الأخری طبقا للتفاسیر السابقة.

و علی أیة حال، فلیست هذه المرة الأولی التی یخبر اللّه سبحانه الناس فیها بأنّی أبلوکم لتمییز صفوفکم، و لیعرف المؤمنون الحقیقیون و ضعفاء الإیمان و المنافقون، و قد ذکرت مسألة الامتحان و الابتلاء هذه فی آیات کثیرة من القرآن الکریم.

و قد بحثنا المسائل المتعلقة بالاختبار الإلهی فی ذیل الآیة (۱۵۵) من سورة البقرة، و کذلک وردت فی بدایة سورة العنکبوت.

ثمّ إنّ جملة حَتَّی نَعْلَمَ الْمُجاهِدِینَ لا تعنی أنّ اللّه لا یعلمهم، بل المراد تحقق هذا المعلوم عملیا، و تشخیص هؤلاء المجاهدین، فالمعنی: لیتحقق علم اللّه سبحانه فی الخارج، و تحصل العینیة، و تتمیز الصفوف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۰

الآیات [سورة محمد (۴۷): الآیات ۳۲ الی ۳۴]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدی لَنْ یَضُرُّوا اللَّهَ شَیْئاً وَ سَیُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (۳۲) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَکُمْ (۳۳) إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ کُفَّارٌ فَلَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (۳۴)

التّفسیر

الذین یموتون علی الکفر لن یغفر اللّه لهم:

بعد البحوث المختلفة التی دارت حول المنافقین فی الآیات السابقة، تبحث هذه الآیات وضع جماعة أخری من الکفار، فتقول: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدی لَنْ یَضُرُّوا اللَّهَ شَیْئاً وَ سَیُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ حتی و إن عملوا خیرا، لأنّه لم یکن مقترنا بالإیمان.

هؤلاء یمكن أن یكونوا مشركی مكّة، أو الكفار من یهود المدینة، أو كلیهما، لأنّ التعبیر ب «الكفر»، و «الصد عن سبیل اللّه»، و شَاقُّوا الرَّسُولَ قد ورد بحقّ

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۱

الفریقین فی آیات القرآن الكریم.

أمّا «تبیّن الهدی»، فقد كان عن طریق المعجزات بالنسبة إلی مشركی مكّة، و عن طریق الكتب السماویة بالنسبة إلی أهل الكتاب.

و «إحباط أعمالهم» إمّا أن یكون إشارة إلی أعمال الخیر التی قد یقومون بها أحیانا كإقراء الضیف، و الإنفاق، و معونة ابن السبیل، أو أن یكون إشارة إلی عدم تأثیر خطط هؤلاء و مؤامراتهم ضد الإسلام.

و علی أیة حال، فقد كان هؤلاء الجماعة متّصفین بثلاث صفات: الكفر، و الصد عن سبیل اللّه، و العداء للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، إذ كانت إحداها تتعلق باللّه سبحانه، و الأخری بعباد اللّه، و الثالثة برسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و بعد أن تبیّن حال المنافقین، و الخطوط العامة لأوضاعهم، وجّهت الآیة التالیة الخطاب إلی المؤمنین مبیّنة خطهم و حالهم، فقالت: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ

فی الواقع، إنّ أسلوب حیاة المؤمنین و برنامجهم یقع فی الطرف المقابل للكفار و المنافقین فی كلّ شیء، فهؤلاء یعصون أمر اللّه سبحانه، و أولئك یطیعونه، هؤلاء یعادون النبی، و أولئك یطیعون أمر هو هؤلاء تحبط أعمالهم لكفرهم و ریائهم و منّتهم، أمّا أولئك فإنّ أعمالهم محفوظة عند اللّه سبحانه و سیثابون علیها، لاجتنابهم هذه الأمور.

و علی كلّ حال، فإنّ أسلوب الآیة یوحی بأنّ من بین المؤمنین أفرادا كانوا قد قصروا فی طاعة اللّه و رسوله و فی حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل، و لذلك فإنّ اللّه سبحانه یحذّرهم فی هذه الآیة.

و الشاهد لهذا الكلام سبب النّزول الذی ذكره البعض لهذه الآیة، و هو: إنّ «بنی أسد» كانوا قد أسلموا و أتوا رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا: إنّنا نؤثرك علی أنفسنا، و نحن و أهلونا رهن إشارتك و أمرك. غیر أنّ أسلوبهم فی الكلام كانت تلوح منه المنّة،

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۲

فنزلت الآیة أعلاه، و حذّرتهم من ذلك.

و استدل بعض الفقهاء بجملة: وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ علی حرمة قطع الصلاة، و لكنّ الآیة مورد البحث و ما قبلها و ما بعدها شاهدة علی أنّها لا تتعلق بهذا الأمر، بل عدم الإبطال عن طریق الشرك و الریاء و المن و أمثال ذلك.

و جاءت الآیة الأخیرة من هذه الآیات موضحة و مؤكّدة لما مرّ فی الآیات السابقة حول الكفار، و تهدی إلی الصراط المستقیم من یرید التوبة إلی طریق الرجوع، فتقول: إِنَّ الَّذِینَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لأنّ أبواب التوبة ستغلق بنزول الموت، و یحمل هؤلاء أوزارهم و أوزار الذین یضلّونهم، فكیف یغفر اللّه لهم؟

و بهذا، فقد ورد الحدیث فی مجموع هذه الآیات عن ثلاث مجموعات: الكفّار، و المنافقون، و المؤمنون، و تحدّدت صفات كلّ منهم و مصیره.

***

بحث

عوامل إحباط ثواب العمل:

من المسائل الأساسیة التی أکدت علیها آیات القرآن المختلفة، و منها الآیة مورد البحث، هی أن یحذر المؤمنون من أن تحبط أعمالهم کالکفار، و بتعبیر آخر:

فإنّ نفس العمل شیء، و الحفاظ علیه شیء أهمّ، فإنّ العمل الصالح السالم المفید، هو العمل الذی یکون منذ البدایة سالما من العیوب و أن یحافظ علیه من الخلل و العیب حتی نهایة العمر.

و العوامل التی تؤدی إلی إحباط أعمال الإنسان، أو تهددها بذلک الخطر کثیرة، و من جملتها:

۱- المن و الأذی کما یقول القرآن الکریم: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۳

صَدَقاتِکُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذی کَالَّذِی یُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ[۳۸۷]. فهنا ذکر عاملان لبطلان العمل: أحدهما المنّ و الأذی، و الآخر الریاء و الکفر، فالأوّل یأتی بعد العمل و الثّانی قرینه، و هما کالنّار یحرقان الأعمال الصالحة.

۲- العجب عامل آخر فی إحباط آثار العمل، کما

ورد ذلک فی الحدیث: «العجب یأکل الحسنات کما تأکل النّار الحطب»[۳۸۸].

۳- الحسد- أیضا- أحد هذه الأسباب، و الذی ورد فیه تعبیر شبیه بما ورد فی العجب، فقد روی عن الرّسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إیّاکم و الحسد، فإنّ الحسد یأکل الحسنات کما تأکل النّار الحطب»[۳۸۹].

و کما تذهب الحسنات السیئات إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ ۳۹۰]، فإنّ السیئات تمحو کلّ الحسنات أحیانا.

۴- المحافظة علی الإیمان إلی آخر لحظات العمر، و هذا أهم شرط لبقاء آثار العمل، لأنّ القرآن یقول بصراحة: وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ ۳۹۱].

من هنا نعرف أهمیة و مشاکل و صعوبات مسألة المحافظة علی الأعمال، و لذلک

ورد فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «الإبقاء علی العمل أشدّ من العمل»، قال- أی الراوی-: و ما الإبقاء علی العمل؟ قال: «یصل الرجل بصلة، و ینفق نفقة للّه وحده لا شریک له فکتب له سرّا، ثمّ یذکرها فتمحی فتکتب له علانیة، ثمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۴

یذکرها فتمحی و تکتب له ریاء»[۳۹۲].

و قد أشارت الآیة- مورد البحث- إشارة خفیة إلی هذه الأمور حیث تقول:

وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَکُمْ ۳۹۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۵

الآیة [سورة محمد (۴۷): آیة ۳۵]

اشارة

فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَی السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَکُمْ وَ لَنْ یَتِرَکُمْ أَعْمالَکُمْ (۳۵)

التّفسیر

الصلح المذل!!

متابعة للآيات السابقة التى كانت تتحدّث حول مسألة الجهاد، تشير هذه الآية إلى أحد الأمور الهامة فى مسألة الجهاد، و هو أنّ ضعفاء الإيمان يطرحون غالبا مسألة الصلح للفرار من مسئولية الجهاد، و مصاعب ميدان الحرب.

من المسلّم أنّ الصلح خير و حسن جدّا، لكن فى محله، إذ يكون حينها صلحا يحقق الأهداف الإسلامية السامية، و يحفظ ماء وجه المسلمين و حيثيتهم و هيبتهم و عظمتهم. أمّا الصلح الذى يؤدى إلى ذلّتهم و انكسار شوكتهم فلا، و لذلك تقول الآية الشريفة: الآن و قد سمعتم الأوامر الإلهية فى الجهاد فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ [۳۹۴].

أى: الآن و قد لاحت علائم انتصاركم و تفوّقكم، كيف تذلّون أنفسكم و ترضون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۶

بالمهانة باقتراح الصلح الذى لا يعنى إلّا التراجع و الهزيمة؟ فليس هذا صلحا فى الواقع، بل هو استسلام و خضوع ينبع من الضعف و الانهيار، و هو نوع من طلب الراحة و العافية، و يقبح بكم أن تتحملوا عواقبه الأليمة الخطرة.

و من أجل رفع معنويات المسلمين المجاهدين تضيف الآية: وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ فإنّ من كان اللّه معه تكون كلّ عوامل الإنتصار مسخّرة له، فلا يحس بالوحشة أبدا، و لا يدع للضعف و الانهزام سبيلا إلى نفسه، و لا يستسلم للعدو باسم الصلح و لن يدع نتائج دماء الشهداء و مكاسبها تذهب سدى فى اللحظات الحسّاسة.

لَنْ يَتِرَكُمْ من مادة «الوتر»، و هو المنفرد، و لذلك يقال لمن قتل قريبه، و بقى وحيدا: وتر. و جاء أيضا بمعنى النقصان.

و فى الآية- مورد البحث- كناية جميلة عن هذا المطلب، بأنّ اللّه سبحانه لن يترككم وحدكم، بل سيقرنكم بثواب أعمالكم، خاصّة و أنّكم تعلمون أنّكم لن تخطوا خطوة إلّا كتبت لكم، فلم يكن اللّه لينقص من أجركم شيئا، بل سيضاعفه و يزيد عليه من فضله و كرمه.

اتضح ممّا قلناه أنّ الآية مورد البحث لا تنافى مطلقا الآية (۶۱) من سورة الأنفال حيث تقول: وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ لنجعل إحداهما ناسخة للأخرى، بل إنّ كلا منها ناظرة إلى مورد خاص، فإحداهما تنظر إلى الصلح المعقول، و الأخرى إلى الصلح الذى ليس فى محله فإنّ أحدهما صلح يحفظ مصالح المسلمين، و الآخر صلح يطرحه ضعفاء المسلمين و هم على أبواب النصر، و لذلك فإنّ تتمة آية سورة الأنفال تقول: وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ

و

قد أشار أمير المؤمنين على عليه السّلام إلى كلا الصالحين فى عهده لمالك الأشتر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۷

حيث يقول: «و لا تدفعنّ صلحا دعاك إليه عدوّك و للّه فيه رضى»[۳۹۵].

إنّ طرح قضية الصلح من ناحية العدو من جهة، و كونه مقترنا برضى اللّه سبحانه من جهة أخرى، يبيّن انقسام الصلح إلى القسمين اللذين أشرنا إليهما فيما قلناه.

و على أية حال، فإنّ أمراء المسلمين و أولياء أمورهم يجب أن يكونوا فى غاية الحذر فى تشخيص موارد الصلح و الحرب، و التى هى من أعقد المسائل و أدقّها، لأنّ أدنى اشتباه فى المحاسبة سيستتبع عواقب و خيمة فى هذا المجال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۸

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۳۶ الى ۳۸]

اشارة

إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (۳۶) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (۳۷) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (۳۸)

التّفسير

إن تتولّوا سيمنح اللّه الرسالة قوما آخرين:

قلنا: إنّ سورة محمّد هی سورة الجهاد، فبأمر الجهاد بدأت، و به تنتهی، و الآيات مورد البحث- و هی آخر آيات هذه السورة- تتناول مسألة أخرى من مسائل حياة البشر فی هذا الميدان، فتطرح كون الحياة الدنيا لا قيمة لها لزيادة ترغيب المسلمين و دعوتهم إلى طاعة اللّه سبحانه عموما، و الى أمر الجهاد بالخصوص، لأنّ حبّ الدنيا و الانشداد إليها أحد عوامل المهمّة التی تعوّق عن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۹

الجهاد، فتقول: إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ.

«اللعب» يقال للأعمال التی تتصف بنوع من الخيال للوصول إلى هدف خيالی، و «اللهو» يقال لكلّ عمل يشتغل الإنسان به فيصرفه عن المسائل الأساسية.

و الحق أنّ الدنيا لعب و لهو ليس إلّا، فلا يحصل منها أنس و ارتياح، و ليس لها دوام و بقاء، و إنّما هی لحظات كلمح البصر، و لذات زائلة تحفّها الآلام و المتاعب.

ثمّ تضيف الآية: وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ ۳۹۶] فلا- أنّ اللّه يسألكم أجرا مقابل الهداية و الرشاد و كلّ تلك الهبات العظيمة فی الدنيا و الآخرة، و لا رسوله، فإنّ اللّه تعالى غنی عن العالمين، و لا يحتاج رسوله إلى غير اللّه.

و إذا كان الشیء الزهيد من أموالكم يؤخذ كزكاة و خمس و حقوق شرعية أخرى، فإنّه يعود عليكم و يصرف فيكم، لحماية يتاماكم و مساكينكم و ضعفائكم و أبناء السبيل منكم، و للدفاع عن أمن بلادكم و استقلالها، و لاستقرار النظام و الأمن، و لتأمين احتياجاتكم، و عمران دياركم.

بناء على هذا، فحتى هذا المقدار اليسير هو من أجلكم و منفعتكم، فإنّ اللّه و رسوله فی غنى عنكم، و بذلك فلا منافاة بين مفهوم هذه الآية و آيات الزكاة و الإنفاق و أمثالها.

ثمّة احتمالات أخرى عديدة فی تفسير جملة: وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ و لرفع ما يبدو فی الظاهر تناقضا:

فقال البعض: إنّه تعالى لا يسألكم شيئا من أموالكم مقابل الهداية و الثواب.

و قال آخرون: إنّه تعالى لا يسألكم كلّ أموالكم، بل يريد قسما منها فقط.

و قال جماعة: إنّ هذه الجملة إشارة إلى أنّ أموال الجميع من اللّه سبحانه، و إن كانت ودائع بأيدينا أيّاما قليلة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۰

لكن أفضلها جميعا هو التّفسير الأول.

و على أية حال، فلا ينبغی نسيان أنّ جانبا من الجهاد هو الجهاد بالأموال، و من الطبيعی أنّ كلّ جهاد للعدو و قتال ضده يحتاج إلى أموال و ميزانيات يجب أن تجمع و تهيّأ من قبل المسلمين الزاهدين فی الدنيا و غير المتعلّقين بها. و الآيات مورد البحث تهیء- فی الحقيقة- الأرضية الفكرية و الثقافية لهذه المسألة.

و لتبيان تعلّق أغلب الناس بأموالهم و ثرواتهم الشخصية تضيف الآية التالية:

إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ

«يحفكم» من مادة إحفاء، أى: الإصرار و الإلحاح فى المطالبة و السؤال، و هى فى الأصل من حفأ، و هو المشى حافيا، و هذا التعبير كناية عن الأعمال التى يتابعها الإنسان إلى أبعد الحدود، و من هنا كان إحفاء الشارب يعنى تقصيره ما أمكن.

و «الأضغان» جمع ضغن، و هو بمعنى الحقد الشديد، و قد أشرنا إليه سابقا.

و خلاصة القول: فإنّ الآية تبيّن التعلّق الشديد لكثير من الناس بالأمور المالية، و هى فى الحقيقة نوع من اللوم و لتوبيخ لهؤلاء، و فى نفس الوقت ترغيب فى ترك هذا الارتباط، و تشويق إلى هذا المعنى، فإنّ تعلّقهم بلغ حدّا أنّ اللّه سبحانه إذا سألهم شيئا من أموالهم فإنّهم يغضبون و يحقدون عليه! و بذلك فإنّ الآية تريد أن توقظ أرواح البشر الغاطّة فى نومها العميق بسوط التقريع و الملامة و العتاب، ليرفعوا عن أعناقهم قيود الذل و العبودية للأموال، و يصبحوا فى حال يضحّون عندها بكلّ ما لديهم فى سبيل اللّه، و يقدّمون ما عندهم بين يديه، و لا يرجون فى مقابل ما يعطون إلّا الإيمان به و تقواه و رضاه عنهم.

و الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث، و هى آخر آية من سورة محمّد- تأكيد آخر على ما مرّ فى الآيات السابقة حول المسائل المادية و تعلّق الناس بها، و مسألة الإنفاق فى سبيل اللّه، فتقول: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۱

و هنا يأتى سؤال، و هو: إنّ الآيات السابقة قد ذكرت أنّ اللّه لا يسألكم أموالكم، فكيف أمرت هذه الآية بالإنفاق فى سبيل اللّه؟

غير أنّ تتمة الآية تجيب عن هذا السؤال عن طريقين، فتقول أولا: وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ۳۹۷] لأنّ ثمرة الإنفاق تعود عليكم أنفسكم فى الدنيا و الآخرة، حيث يقل التفاوت الطبقى، و عندها سيعم الأمن و الهدوء فى المجتمع، و تحل المحبّة و الصفاء محل العداوة و الحقد. هذا ثوابكم الدنيوى.

و أمّا فى الآخرة، فستمنحون مقابل كلّ درهم أو دينار تنفقونه الهبات و النعم العظيمة التى لم تخطر على قلب بشر، و على هذا فإنّ من يبخل يبخل عن نفسه! و بتعبير آخر: فإنّ الإنفاق هنا يعنى أكثر ما يعنى الإنفاق فى أمر الجهاد، و التعبير ب فِي سَبِيلِ اللَّهِ يلائم هذا المعنى أيضا، و من الواضح أنّ أى نوع من المساهمة فى تقدّم أمر الجهاد سيضمن وجود المجتمع و استقلاله و شرفه.

و الجواب الآخر هو: وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ فهو غنى عن إنفاقكم فى سبيله، و غنى عن طاعتكم، و إنّما أنتم الفقراء إلى لطفه و رحمته و ثوابه و كرمه فى الدنيا و الآخرة.

إنّ الموجودات الممكنة- و ما سوى اللّه سبحانه- متسربلة فى الفقر جميعا، و الغنى بذاته هو اللّه سبحانه لا غير، فإنّها فقيرة إليه دائما، حتى فى أصل وجودها، و تستمد العون من منبع الفيض الأزلى كلّ لحظة، فإذا انقطعت عنها رعايته و لطفه لحظة، فسينتهى وجودها، و تخرّ أبدانها جثثا هامدة! و تحذر الجملة الأخير جميع المسلمين أن اعرفوا قدر هذه النعمة الجليلة، و الموهبة العظيمة، حيث جعلكم سبحانه حماة دينه القويم و أنصار دينه و أتباع رسوله و أصحابه، فحذار أن تقصروا فى تعظيم هذه النعمة و إكبارها، إذ: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۲

أجل، إنّ هذا الحمل لن يسقط على الأرض أبدا، و هذه الرسالة العظيمة لا يمكن أن يتوقّف مسيرها، فإن أنتم لم تستمروا فى موقفكم فى الذب عن دين اللّه، و استصغرتم شأن هذه الرسالة العظيمة، فإنّ اللّه سبحانه سوف يأتى بقوم يتحمّلون أعباء هذه الرسالة .. أولئك قوم يفوقونكم مرّات فى الإيثار و التضحية و بذل الأنفس و الأموال و الإنفاق فى سبيل اللّه! و قد جاء نظير هذا التهديد فى الآية (۵۴) من سورة المائدة، حيث تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ

و الطریف أنّ أکثر المفسّرین قد نقلوا فی ذیل الآیة- مورد البحث-
أنّ جماعة من أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم سألوه بعد نزول هذه الآیة: من هؤلاء الذین ذکرهم اللّه فی کتابه؟ و کان «سلمان» جالسا قریبا من النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فضرب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بیده علی فخذ سلمان- و فی روایة علی کتفه- و قال: «هذا و قومه، و الذی نفسی بیده لو کان الإیمان منوطا بالثریا لتناوله رجال من فارس».
لقد أورد هذا الحدیث و أمثاله محدّثو السنّة المعروفون فی کتبهم المعروفة، کالبیهقی و الترمذی، و علیه اتفاق مفسّری الشیعة و السنّة المشهورین، کصاحب تفسیر القرطبی، و روح البیان، و مجمع البیان، و الفخر الرازی، و المراغی، و أبی الفتوح الرازی و أمثالهم.
و ورد فی تفسیر الدر المنثور عدة أحادیث فی هذا الباب فی ذیل الآیة مورد البحث ۳۹۸].

و

روی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام، یکمل الحدیث السابق، إذ یقول: «و اللّه أبدل بهم خیرا منهم الموالی»[۳۹۹].
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۳
إذا نظرنا إلی تاریخ الإسلام و العلوم الإسلامیة بدقّة، و بنظرة بعیدة عن التعصّب، و لاحظنا سهم المسلمون غیر العرب الإیرانیین خاصة- فی میادین الجهاد و محاربة العدو من جهة، و تنقیح العلوم الإسلامیة، و تدوینها من جهة أخری، فسنطلع علی حقیقة هذا الحدیث، و تفصیل هذا الکلام طویل.
اللّهمّ! ثبّت أقدامنا فی طریق الجهاد و الإیثار و التضحیة فی سبیل دینک القویم.
اللّهمّ! لا تسلبنا ما منحتنا من الفخر العظیم إذ جعلتنا دعاة لدینک الحنیف.
إلهنا! زد فی قوّتنا و إیماننا، و تضحیاتنا و إخلاصنا فی هذا الوقت الذی هبّت فیه عواصف الشرق و الغرب الهوجاء لمحو آثار دینک.
آمین یا رب العالمین.
نهایة سورة محمّد***
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۵

سورة الفتح

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها تسع و عشرون آیة
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۷
سورة الفتح

محتوی السورة

هذه السورة کما هو ظاهر من اسمها تحمل رسالة الفتح و النصر! الفتح و النصر علی أعداء الإسلام، الفتح المبین و الأکید «سواء کان هذا الفتح متعلقا بفتح مکّة أو بصلح الحدیبیّة أو فتح خیبر أو کان هذا الفتح بشکل مطلق».
و من أجل أن نفهم محتوی هذه السورة فینبغی أن نعرف- قبل کلّ شیء- أنّ هذه السورة نزلت فی السنة السادسة للهجرة بعد قضیّة «صلح الحدیبیة».
و بیان ذلک .. أنّ النّبی الکریم صلی اللّه علیه و آله و سلّم صمّم فی السنّة السادسة للهجرة مع أصحابه من المهاجرین و الأنصار و

باقى المسلمين أن يتحرّكوا نحو مكّة للعمرة، و كان من قبل قد أخبر المسلمين بأنّه رأى رؤيا فى منامه و كأنّه مشغول بأداء مناسكه مع أصحابه فى المسجد الحرام معتمرين فعقد المسلمون إحرامهم عند «ذى الحليفة» «المنطقة التى تقرب من المدينة المنوّرة» و تحرّكوا نحو مكّة المكرّمة فى إبل كثيرة لتنحر «يوم الهدى» هناك.

و كانت الحالة التى يتحرك النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عليها توحى بصورة جيدة أنّه لا هدف لديه سوى هذه العبادة الكبرى ... إلى أن وصل النّبى منطقة الحديبيّة «و هى قرية على مقربة من مكّة و لا تبعد عنها أكثر من عشرين كيلو مترا».

إلّا أنّ قريشا علمت بوصول النّبى إلى الحديبيّة فأوصدت بوجهه الطريق و منعته من الدخول إلى مكّة المكرمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۸

و بهذا ألغت قريش جميع السنن التى ترتبط بأمن المسجد الحرام و ضيوف اللّه و الشهر الحرام و وضعتها تحت أقدامها .. إذ كانت تعتقد بحرمة الأشهر الحرام «و من ضمنها شهر ذى القعدة الذى عزم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فيه على العمرة» و خاصّة إذا كان الناس حال الإحرام فلا ينبغى التعرّض لهم حتى لو كان المحرم قاتل واحد من رجالهم، و رئى محرما فى مناسكه فلا يمس بسوء أبدا».

و فى هذا المكان أى «الحديبية» جرى ما جرى بين رسول اللّه و المشركين من الكلام حتى انتهى إلى عقد معاهدة الصلح بين المسلمين و بين المشركين من أهل مكّة و قد سمّى هذا الصلح بصلح الحديبيّة و سنتحدث عنه فى الصفحات المقبلة بإذن اللّه.

و على كلّ حال فقد منع النّبى أن يدخل مكّة و يؤدى مناسك العمرة .. فاضطر النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأمر أصحابه بأن ينحروا إبلهم و يحلقوا رؤوسهم و يحلّوا من إحرامهم! و أن يعودوا نحو المدينة! و هنا غمر المسلمين طوفان من الحزن و الغم و ربّما تغلّب الشك و الترديد على قلوب بعض الأفراد ضعيفى الإيمان! و عن عبد اللّه بن مسعود قال: أقبل رسول اللّه من الحديبيّة فجعلت ناقته تثقل فتقدّمنا فأنزل اللّه عليه إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً فأدركنا رسول اللّه و به من السرور ما شاء اللّه. فأخبر أنّها نزلت عليه ۴۰۰].

و من هنا فإنّه يبدو واضحا هذا الجو الخاص الحاكم على هذه السورة و بمراجعة إجمالية للسورة يمكن القول إنّها تتألف من سبعة أقسام! ..

۱- تبدأ السورة بموضوع البشرى بالفتح كما أنّ آياتها الأخيرة لها علاقة بهذا الموضوع أيضا، و فيها تأكيد على تحقق رؤيا النّبى التى تدور حول دخوله و أصحابه مكّة و أداء مناسك العمرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۹

۲- يتحدّث قسم آخر من هذه السورة عن الحوادث المتعلّقة بصلح الحديبية و نزول السكينة على قلوب المؤمنين و «بيعة الرضوان» و ما إلى ذلك! ..

۳- و يتحدّث قسم ثالث منها عن مقام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و هدفه الأسمى.

۴- و يكشف القسم الرابع الستار عن غدر المنافقين و نقضهم العهد و نكثهم له و يعطى أمثلة من أعذارهم الواهية فى مسألة عدم مشاركتهم النّبى جهاده المشركين و الكفّار.

۵- و فى قسم آخر يقع الكلام على طلبات «المنافقين» فى غير محلّها.

۶- و القسم السادس يوضح من هم المعذورون الذين لا حرج عليهم! ۷- و أخيرا ... فإنّ القسم السابع يتحدّث عن خصائص أصحاب النّبى و أتباعه فى طريقه و سنّته و صفاتهم التى يتميّزون بها .. و بشكل عام فإنّ آيات هذه السورة حسّاسة للغاية كما أنّها مصيريّة و خاصّة لمسلمى اليوم الذين يواجهون الحوادث المختلفة فى مجتمعاتهم الإسلامية ففيها إلهام كبير لهم! ...

فضيلة تلاوة سورة الفتح:

تلاحظ روایات عجیبة فی فضیلة هذه السورة فی المصادر الإسلامیة ففی حدیث عن أنس أنّه قال: حین کنّا نعود من الحدیبیّة و کان المشرکون قد منعونا من الدخول الی مکّة و أداء مناسک العمرة فکنّا فی حزن و غم شدیدین فأنزل اللّه آیته إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً ....

فقال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «لقد أنزلت علیّ آیة هی أحبّ إلیّ من الدنیا کلّها»

و

فی بعض الروایات: «لقد أنزلت علیّ سورة هی أحبّ من الدنیا کلّها»[۴۰۱].

و یقول عبد اللّه بن مسعود حین کنّا نرجع من الحدیبیّة و نزلت إِنَّا فَتَحْنا علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۰

النّبی سرّ سرورا لا یعلم مداه إلّا اللّه ۴۰۲].

و نقرأ

فی حدیث آخر عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «من قرأها فکأنّما شهد مع محمّد فتح مکّة».

و

فی روایة «فکأنّما کان مع من بایع محمّدا تحت الشجرة»[۴۰۳].

و أخیرا نقرأ

حدیثا للإمام الصادق علیه السّلام یقول فیه: «حصّنوا أموالکم و نساءکم و ما ملکت إیمانکم من التلف بقراءة إِنَّا فَتَحْنا فإنّه إذا کان ممّن یدمن قراءتها نادی مناد یوم القیامة حتی یسمع الخلائق أنت من عبادی المخلصین، الحقوه بالصالحین من عبادی و أدخلوه جنّات النعیم و اسقوه من رحیق مختوم بمزاج الکافور»[۴۰۴].

و من الواضح أنّ کلّ هذه الفضیلة و الفخر لا یحصل بتلاوة خالیة من التفکّر، بل الهدف الأصلی من تلاوة هذه السورة هو تطبیق أعمال القارئ و خلقه و طبعه علی مفاد هذه السورة و مضامینها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۱

الآیة [سورة الفتح (۴۸): آیة ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً (۱)

التّفسیر

الفتح المبین:

فی الآیة الأولی من هذه السورة بشری عظیمة للنبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم بشری هی عند النّبی طبقا لبعض الرّوایات أحبّ إلیه من الدنیا و ما فیها إذ تقول الآیة: إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً.

... فَتْحاً مُبِیناً تظهر آثاره فی حیاة المسلمین فی فترة وجیزة، و فی فترة مدیدة أیضا .. و ذلک فی انتشار الإسلام ... فتحا یقل نظیره أو

ینعدم نظیره فی طول تاریخ الإسلام و علی امتداده.

و هنا کلام عریض و بحث طویل بین المفسّرین ... حول المراد من هذا الفتح أیّ فتح هو؟! فأکثر المفسّرین یرون أنّه إشارة إلی ما کان من نصیب للمسلمین من الفتح الکبیر علی أثر «صلح الحدیبیة»[۴۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۲

و بعض ذهبوا إلی أنّه «فتح مکّة».

و آخرون قالوا بأنّه «فتح خیبر».

و آخرون أنّه إشارة إلی انفتاح أسرار العلوم علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

غیر أنّ قرائن کثیرة لدینا ترجح أنّ هذا الفتح هو ما یتعلّق بموضوع صلح الحدیبیة.

و من الأفضل و قبل الولوج فی تفسیر الآیات أن نعرض و لو بشکل مضغوط قصة صلح الحدیبیّة لیتّضح «المقام» و لیکون هذا العرض الموجز بمثابة شأن نزول الآیات أیضا.

قصّة «صلح الحدیبیة»:

فی السنة السادسة للهجرة و فی شهر ذی القعدة منها تحرّک النّبی نحو مکّة لأداء مناسک العمرة و رغب المسلمین جمیعا فی هذا الأمر .. غیر أنّ قسما منهم امتنع عن ذلک، فی حین أنّ معظم المهاجرین و الأنصار و جماعة من أهل البادیة عزموا علی الاعتمار[۴۰۶] مع النّبی فساروا نحو مکّة! ...

فأحرم هؤلاء المسلمون الذین کانوا مع النّبی و کان عددهم فی حدود «الألف و الأربعمائة» و لم یحملوا من أسلحة الحرب شیئا سوی السیوف التی کانت تعدّ أسلحة للسفر فحسب!.

و لمّا وصل النّبی إلی «عسفان» التی لا تبعد عن مکّة کثیرا أخبر أنّ قریشا تهیّأت لصدّه و صمّمت علی منعه من الدخول إلی مکّة. و لمّا بلغ النّبی الحدیبیّة [و هی قریة علی مسافة عشرین کیلو مترا من مکّة و سمّیت بذلک لوجود بئر فیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۳

أو شجرة] أمر أصحابه أن یحطّوا رحالهم فیها. فقالوا: یا رسول اللّه لیس هنا ماء و لا کلأ، فهیّأ النّبی عن طریق الاعجاز لهم ماء من البئر الموجودة فی تلک المنطقة .. و بدأ التزاور بین سفراء النّبی و ممثلیه و سفراء قریش و ممثلیها لتحلّ المشکلة علی أی نحو کان، و أخیرا جاء عروة بن مسعود الثقفی الذی کان رجلا حازما عند النّبی فقال له النبی: «إنّا لم نجیء لقتال أحد و لکن جئنا معتمرین ...».

و هذا و قد لاحظ عروة الثقفی، ضمنا حالة الأصحاب و هم یکتنفون نبیّهم عند وضوئه فلا یدعون قطرة تهوی إلی الأرض منه.

و حین رجع عروة إلی قریش قال: لقد ذهبت إلی قصور کسری و قیصر و النجاشی فلم أر قائدا فی قومه فی عظمته کعظمة محمّد بین أصحابه ... و قال عروة لرجال قریش أیضا إذا کنتم تتصورون أنّ أصحاب محمّد یترکونه فأنتم فی خطأ کبیر ... فأنتم فی مواجهة أمثال هؤلاء الرجال الذین یؤثرون علی أنفسهم فاعرفوا کیف تواجهونهم!؟

ثمّ أنّ النّبی أمر عمر أن یمضی إلی مکّة لیطلع أشراف قریش علی الهدف من سفر النّبی فاعتذر عمر و قال إنّ بینه و بین قریش عداوة شدیدة و هو منها علی حذر فالأفضل أن یرسل عثمان بن عفان لیبادر إلی هذا العمل، فمضی عثمان إلی مکّة و لم تمض فترة حتی شاع بین المسلمین خبر مفاده أنّ عثمان قتل، فاستعد النّبی لأن یواجه قریشا بشدّة! فطلب بتجدید البیعة من أصحابه فبایعوه تحت الشجرة بیعة سمّیت «بیعة الرضوان» و تعاهدوا علی مواصلة الجهاد حتی آخر نفس؛ إلّا أنّه لم یمض زمن یسیر حتی عاد عثمان سالما و أرسلت قریش علی أثره سهیل بن عمرو للمصالحة مع النّبی غیر أنّها أکّدت علی النّبی أنّه لا یدخل مکّة فی عامه هذا أبدا.

و بعد كلام طويل تمّ عقد الصلح بين الطرفين و كان من موادّه ما بيّناه آنفا و هو أن يغض المسلمون النظر عن موضوع العمرة لذلك العام و أن يأتوا فى العام القابل

الى مكّة شريطة أن لا يمكثوا فى مكّة أكثر من ثلاثة أيّام و أن لا يحملوا سلاحا غير سلاح السفر كما كان من مواد العقد أمور أخرى تدور حول سلامة الأرواح و الأموال التى تعود للمسلمين و الذين يأتون مكّة منهم [من قبل المدينة] و من مواد العقد أيضا إيقاف القتال بين المسلمين و المشركين لعشر سنين و أن يكون مسلمو مكّة أحرارا فى أداء مناسكهم و فرائضهم الإسلامية.

و كان هذا العقد [أو هذه المعاهدة] بمثابة عدم التعرض لكلا الجانبين و لحسم المعارك المستمرّة بين المسلمين و المشركين بصورة مؤقتة.

و كان مؤدّى هذه المعاهدة و ما يتضمّنه عقد الصلح بالنحو التالى:

«قال النّبى لعلى اكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم: فقال سهيل بن عمرو الذى كان سفير المشركين لا أعرف هذه العبارة بل ليكتب بسمك اللّهمّ! فقال النّبى لعلى اكتب: بسمك اللّهمّ: ثمّ قال النّبى لعلى اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول اللّه سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو كنّا نعرفك رسول اللّه لما حاربناك فاكتب اسمك و اسم أبيك فحسب. فقال النبىّ: لا مانع من ذلك اكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد اللّه سهيل بن عمرو أن يترك القتال عشر سنين ليجد الناس مأمنهم ثانية، و إضافة إلى ذلك من يأت محمّدا من قريس مسلما دون إذن وليّه فيجب إعادته الى أهله و من جاء قريشا من أصحاب محمّد فلا يجب إعادته إلى محمّد! و الجميع أحرار فمن شاء دخل فى عهد محمّد و من شاء دخل فى عهد قريش! و يتعهّد الطرفان أن لا يخون كلّ منهما [صاحبه الآخر و أن يحترم ماله و نفسه! ثمّ بعد هذا ليس لمحمّد هذا العام أن يدخل مكّة، لكن فى العام المقبل تخرج قريش من مكّة لثلاثة أيّام و يأتى محمّد و أصحابه إلى مكّة على أن لا يمكثوا فيها أكثر من ثلاثة أيّام و يؤدّوا مناسك العمرة ثمّ يعودوا إلى أهلهم شريطة أن لا يحملوا معهم سلاحا سوى السيف الذى هو من عدة السفر و أن يكون فى الغمد و شهد على هذه المعاهدة جماعة من المسلمين و جماعة من المشركين و أملى المعاهدة على

بن أبى طالب عليه السّلام»[۴۰۷].

و ذكر العلّامة المجلسى فى «بحار الأنوار» مواد أخرى منها: «ينبغى أن يكون الإسلام فى مكّة غير خفى و أن لا يجبر أحد فى اختيار مذهبه و أن لا ينال المسلمين أذى من المشركين»[۴۰۸].

و هذا المضمون كان موجودا فى التعبير السابق بصورة إجمالية.

و هنا أمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن تنحر الإبل التى جيء بها مع المسلمين و أن يحلق المسلمون رؤوسهم و أن يتحلّلوا من إحرامهم! ..

لكن هذا الأمر كان على بعض المسلمين عسيرة للغاية و غير مستساغ أيضا ..

لأنّ التحلل من الإحرام فى نظرهم دون أداء العمرة غير ممكن!! لكنّ النّبى تقدّم بنفسه و نحر «هديه» و تحلّل من إحرامه و أشعر المسلمين أنّ هذا «استثناء» فى قانون الإحرام أمر به اللّه سبحانه نبيّه! و لمّا رأى المسلمون ذلك من نبيّهم أذعنوا للأمر الواقع و نفذوا أمر النّبى بدقة و عزموا على التوجّه نحو المدينة من هناك، غير أنّه كان بعضهم يحسّ كأنّ جبلا من الهم و الحزن يجثم على صدره لأنّ ظاهر القضية أنّ هذا السفر كان غير موفّق بل مجموعة من الهزائم! لكنّ مثل هذا و أضرابه لم يعلموا ما ينطوى وراء صلح الحديبية من انتصارات للمسلمين و لمستقبل الإسلام. و فى ذلك الحين نزلت سورة الفتح و أعطت للنبى الكريم بشرى كبرى بالفتح المبين [۴۰۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۶

الآثار السیاسیة و الاجتماعیة و المذهبیة لصلح الحدیبیة:

یتّضح بمقایسة إجمالیة بین حال المسلمین فی السنة السادسة للهجرة «أی عند صلح الحدیبیة» و حالهم بعدها بسنتین حیث تحرّک المسلمون لفتح مکّة بعشرة آلاف مقاتل لیردّوا علی نقض العهد بشدّة، و قد فتحوا مکّة دون أیة مواجهة عسکریة لأنّ قریشا لم تجد فی نفسها القدرة علی المقاومة أبدا.

یتّضح بهذه المقایسة الإجمالیة- سعة ردّ الفعل- التی أحدثتها معاهدة صلح الحدیبیة! ..

و باختصار فإنّ المسلمین حصلوا علی امتیازات عدیدة من وراء هذا الصلح و فتحا کبیرا نذکرها علی النحو التالی:

۱- بیّنوا عملیا للمضللین من أهل مکّة أنّهم لیس لدیهم نیّة للحرب و سفک الدماء و أنّهم یحترمون مکّة و کعبتها المقدسة و کان هذا الأمر سببا لاکتساب قلوب الکثیرین نحو الإسلام.

۲- اعترفت قریش لأوّل مرّة بالإسلام و المسلمین «بصورة رسمیة» و کان ذلک سببا لتثبیت موقعهم فی جزیرة العرب! ...

۳- استطاع المسلمون بعد صلح الحدیبیّة أن یمضوا حیث یشاءون و أن تبقی أرواحهم و أموالهم فی مأمن من الخطر و اتصلوا بالمشرکین من قریب اتصالا أثمر نتیجته، فکان أن عرف المشرکون الإسلام بصورة أکثر و استرعی أنظارهم نحوه!.

۴- انفتح الطریق بعد صلح الحدیبیّة لنشر الإسلام فی الجزیرة العربیة. و أثار موقف النّبی الإیجابی من الصلح القبائل العربیة و أصلح نظرتها إلی الإسلام و رسوله الکریم. و حصل المسلمون علی مجال إعلامی واسع فی هذا الصدد.

۵- هیّأ صلح الحدیبیّة الطریق لفتح «خیبر» و استئصال هذه الغدة السرطانیة «المتمثلة بالیهود» و التی کانت تشکل خطرا مهمّا «بالفعل و القوّة» علی الإسلام و المسلمین!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۷

۶- و أساسا فإنّ استیحاش قریش من مواجهة الجیش الذی کان یتألّف من ألف و أربعمائة مسلم فحسب و لا یحمل أی منهم سلاحا سوی سلاح السفر و قبول قریش بمعاهدة الصلح کان بنفسه أیضا عاملا مهما علی تقویة المعنویات عند المسلمین و هزیمة أعداء الإسلام إلی درجة أنّهم کانوا یتهیّبون من مواجهة المسلمین!.

۷- و بعد صلح الحدیبیّة کتب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کتبا و (رسائل) متعددة إلی رؤساء الدول الکبری (إیران و الروم و الحبشة) و ملوک العالم البارزین یدعوهم فیها إلی الإسلام، و هذا بنفسه یدل علی أن صلح الحدیبیّة أعطی المسلمین الثقة بأنفسهم و أن ینفتحوا لا علی الجزیرة العربیة فحسب بل علی آفاق العالم قاطبة!*** و الآن لنعد ثانیة إلی تفسیر الآیات! ...

نستطیع أن ندرک ممّا ذکر آنفا- بشکل جید- أنّ صلح الحدیبیّة کان بحق انتصارا للإسلام و فتحا للإسلام و المسلمین فلا غرابة أن یعبّر عنه القرآن بالفتح المبین!.

ثمّ بعد هذا کله فإنّ هناک قرائن کثیرة تؤید هذا التّفسیر ..

۱- جملة- فتحنا- التی جاءت بصیغة الفعل الماضی تدل علی أنّ هذا الأمر قد تحقق عند نزول الآیات فی حین أنّه لم یکن وقتئذ أی شیء سوی صلح الحدیبیة!.

۲- زمان نزول الآیات المشار إلیها آنفا و الآیات الأخری المذکورة فی هذه السورة التی تمدح المؤمنین و تذم المنافقین و المشرکین فی صلح الحدیبیّة کلّ ذلک شاهد آخر علی هذا المعنی، و الآیة (۲۷) من سورة الفتح التی تؤکّد علی تحقق رؤیا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ هی شاهد بلیغ علی أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۸

هذه السورة نزلت بعد الحدیبیّة و قبل فتح مکّة!.

۳- هناک روایات کثیرة تعبّر عن صلح الحدیبیّة بأنّه «الفتح المبین»! و من ضمنها ما ورد فی تفسیر «جوامع الجامع» أنّه حین کان النّبی راجعا من الحدیبیّة و نزلت علیه سورة الفتح .. قال أحد أصحابه: ما هذا الفتح؟! لقد صددنا عن البیت و صدّ هدینا!.

فقال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «بئس الکلام «هذا» بل هو أعظم الفتوح قد رضی المشرکون أن یدفعوکم عن بلادهم بالراع و یسألوکم القضیّة! و رغبوا إلیکم فی الأمان و قد رأوا منکم ما کرهوا ...»[۴۱۰].

ثمّ ذکّرهم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم ما تحمل المشرکون من مساءة یوم بدر و یوم الأحزاب فصدّق المسلمون رسولهم علی أنّ هذا أعظم الفتوح و أنّهم قضوا عن عدم اطلاعهم بما قالوا[۴۱۱].

یقول «الزهری» و هو من التابعین: لم یکن فتح أعظم من الحدیبیّة و ذلک أن المشرکین اختلطوا بالمسلمین فسمعوا کلامهم فتمکّن الإسلام فی قلوبهم و أسلم فی ثلاث سنین خلق کثیر کثر بهم سواد الإسلام.

ففی هذه الأحادیث إشارة إلی جانب من الامتیازات التی حصل علیها المسلمون ببرکة صلح الحدیبیة.

إلّا أنّ حدیثا واحدا ورد عن الإمام الرضا «علی بن موسی» علیه السّلام یقول إِنَّا فَتَحْنا نزلت بعد «فتح مکّة»[۴۱۲].

بید أنّه یمکن توجیه هذه الروایة ببساطة بالقول بأنّ صلح الحدیبیّة کان مقدمة لفتح مکّة بعد سنتین، فیرتفع الإشکال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۹

أو بتعبیر آخر أنّ «صلح الحدیبیة» کان سببا لفتح خیبر فی فترة وجیزة «فی السنة السابعة للهجرة» و أوسع من ذلک کان سببا لفتح مکّة (السنة الثامنة للهجرة) و انتصارات الإسلام فی مجالات شتی من حیث النفوذ فی قلوب العالمین!.

و بهذا یمکن الجمع بین التفاسیر الأربعة مع هذا القید و هو أنّ صلح الحدیبیّة یشکل المحور الأصلی لهذه التفاسیر!.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۰

الآیتان [سورة الفتح (۴۸): الآیات ۲ الی ۳]

اشارة

لِیَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ یُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ یَهْدِیَکَ صِراطاً مُسْتَقِیماً (۲) وَ یَنْصُرَکَ اللَّهُ نَصْراً عَزِیزاً (۳)

التّفسیر

نتائج الفتح المبین الکبری:

فی هاتین الآیتین بیان للنتائج المبارکة من «الفتح المبین» [صلح الحدیبیة] و التی ورد ذکره فی الآیة السابقة فتقول الآیتان: لِیَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ یُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ یَهْدِیَکَ صِراطاً مُسْتَقِیماً، وَ یَنْصُرَکَ اللَّهُ نَصْراً عَزِیزاً.

و بهذا فإنّ اللّه منح نبیّه الکریم فی ظل هذا الفتح المبین أربع مواهب عظیمة هی «المغفرة»، و «إتمام النعمة»، و «الهدایة» و «النصر».

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۱

بحثان

۱- الإجابهٔ على بعض الأسئلهٔ المهمهٔ:

تثار هنا أسئلهٔ كثيرهٔ دأب المفسّرون منذ زمن قديم حتى يومنا هذا بالإجابهٔ على هذه الأسئلهٔ! و من هذه الأسئلهٔ، الأسئلهٔ الثلاثهٔ التاليهٔ حول قوله تعالى لنبيّه: ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر!.

۱- ما المراد من العبارهٔ الآنفهٔ لِيَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ مع أنّ النّبى معصوم من الذنب؟! ۲- و على فرض أن نغض النظر عن هذا الإشكال! فما علاقهٔ المغفرهٔ بالفتح و صلح الحديبيهٔ؟! ۳- و إذا كان المقصود من قوله تعالى «و ما تأخّر» هو الذنوب المستقبليهٔ! فكيف يمكن أن تكون الذنوب الآتيهٔ تحت دائرهٔ العفو و المغفرهٔ. أليس مثل هذا التعبير ترخيصا لارتكاب الذنب؟! و قد أجاب كلّ من المفسّرين بنحو خاص على مثل هذه الإشكالات، و لكن للحصول على الإجابهٔ «الجامعهٔ» لهذه الإشكالات و التّفسير الدقيق لهذه الآيات لا بدّ من ذكر مقدمهٔ لهذا البحث و هى:

إنّ المهم هو العثور على العلاقهٔ الخفيّهٔ بين فتح الحديبيّهٔ و مغفرهٔ الذنب لأنّها المفتاح الأصيل للإجابهٔ على الأسئلهٔ الثّلاثهٔ المتقدّمهٔ! و بالتدقيق فى الحوادث التاريخيهٔ و ما تمخّضت عنه نصل إلى هذه النتيجهٔ، و هى أنّه حين يظهر أىّ مذهب حق و يبرز فى عالم الوجود فإنّ أصحاب السنن الخرافيهٔ الذين يرون أنفسهم و وجودهم فى خطر يكيلون التهم و الأمور التافههٔ إليه و يشيعون الشائعات و الأباطيل و ينشرون الأراجيف الكاذبهٔ بصدده و ينسبون إليه الذنوب العديدهٔ و ينتظرون عاقبته و إلى أين ستصل؟! فإذا واجه هذا المذهب فى مسيره الانحدار فإنّ ذلك يكون ذريعهٔ قويهٔ

لإثبات النسب الباطلهٔ ضدّه على أيدى أعدائه و يصرخون: ألم نقل كذا و كذا!! و لكن حين ينال الانتصار و تحظى مناهجه و خططه بالموفقيهٔ فإنّ تلك النسب تمضى كما لو كانوا قد رقموا على الماء!! و تتبدّل جميع أقوالهم إلى حسرات و ندامهٔ و يقولون عندئذ لم نكن نعلم! و خاصّهٔ فى شأن النّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم كانت هذه التصوّرات و الذنوب التى و صموها به كثيرهٔ!! إذ عدّوه باغيا للحرب و القتال و مثيرا لنار الفتنهٔ معتدا بنفسه لا يقبل التفاهم و ما إلى ذلك! و قد كشف صلح الحديبيّهٔ أنّ مذهبه على خلاف ما يزعمه أعداؤه إذ كان مذهبا «تقدّميا» إلهيا .. و كان آيات قرآنه ضامنهٔ لتربيهٔ النفوس الإنسانيهٔ و طاويهٔ لصحائف الظلم و الاضطهاد و الحرب و النزيف الدموى!.

فهو يحترم كعبهٔ اللّه و بيته العتيق و لا يهاجم أيهٔ جماعهٔ أو قبيلهٔ دون سبب، فهو رجل منطقىّ و يعشقه اتباعه، و يدعو جميع الناس بحقّ إلى محبوبهم «اللّه» و إذا لم يضطره أعداؤه إلى الحرب فهو داعيهٔ للسلام و الصلح و الدعهٔ! ..

و على هذا فقد غسل صلح الحديبيّهٔ جميع الذنوب التى كانت قبل الهجرهٔ و بعد الهجرهٔ قد نسبت إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو جميع الذنوب التى نسبت إليه قبل هذا الحادث أو ستنسب إليه فى المستقبل احتمالا ... و حيث أنّ اللّه جعل هذا الفتح نصيب النّبى فيمكن أن يقال أن اللّه غفر للنبى ذنوبه جميعا.

و النتيجهٔ أنّ هذه الذنوب لم تكن ذنوبا حقيقيهٔ أو واقعيهٔ بل كانت ذنوبا تصوريهٔ و فى أفكار الناس و ظنّهم فحسب، و كما نقرأ فى الآيهٔ (۱۴) من سورهٔ الشعراء فى قصهٔ موسى قوله مخاطبا ربّه وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ فى حين أنّ ذنبه لم يكن سوى نصرهٔ المظلوم من بنى إسرائيل و سحق ظلم الفراعنهٔ لا غير!.

و بديهى أنّ هذا الفعل لا يعدّ ذنبا، بل دفاع عن المظلومين و لكنّه كان يعدّ ذنبا

فی نظر الفراعنة و أتباعهم.

و بتعبیر آخر أنّ «الـذنب» فی اللغـة یعنی الآثـار السیئة و التبعـات التی تنتـج عن العمل غیر المطلوب، فکان ظهور الإسـلام فی البـدایة تدمیرا لحیاة المشرکین، غیر أنّ انتصاراته المتلاحقة و المتتابعة کانت سببا لنسیان تلک التبعات.

فمثلا لو کان لـدینا بیت قـدیم یوشک علی الخراب و لکنّنا نلتجئ إلیه و لنا به علاقة وطیدة فقام أحد الناس بتخریبه فإنّنا نغضب منه و نخطّئه علی فعله و لکنّه بعـد بنائه من جدیـد محکما سامقا فإنّ أحکامنا السابقـة تمضـی أدراج الریاح! و هکذا بالنسبة لمشرکی مکّة سواء قبـل هجرة النّبی أم بعـدها إذ کانت أفکارهم و أذهانهم مبلبلـة عن الإسـلام و شـخص النّبی بالـذات، غیر أنّ انتصارات الإسـلام أزالت هـذه التصورات و الأفکار! أجل: لو أخـذنا مسألة العلاقة بین مغفرة هذه الذنوب و فتح الحدیبیّة بنظر الاعتبار لا تضح الموضوع بجلاء، و استفدنا العلاقة من «اللام» فی «لیغفر لک اللّه» فی کونها مفتاح «الرمز» لفتح معنی الآیة المغلق! غیر أنّ من لم یلتفت إلی هذه «اللطیفـة» ... جعـل عصـمة النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم موضع اسـتفهام و قـال: «و العیـاذ بـاللّه» أنّ لـدیه ذنوبـا غفرهـا اللّه بفتح «الحدیبیة» أو حمل الآیة علی خلاف ظاهر معناها و أنّ المراد (الذنوب عامّة).

و قـال بعضـهم: بـل هی ذنوب الناس التی ارتکبوها فی حقّ النّبی کأذاهم و الإساءة إلیه و قـد غفرها اللّه بفتـح «الحدیبیـة» [و فی هـذه الصورة یکون الذنب قد أضیف إلی مفعوله معنی لا إلی فاعله .

أو حملوا الذنب علی [ترک الأولی .

و بعضهم فسّر ذلک بالفرض فقال: لیغفر لک الذنب الذی لو کنت عملته فرضا أو ستعمله فقد غفر اللّه کلّ ذلک لک!.

لکن من المعلوم أنّ کلّ هذه التفاسیر لا تتجاوز التکلّف و التمحّل و دون أی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۴

دلیل! إذ لو خدشـنا فی عصـمة الأنبیاء .. لأنکرنا فلسفة وجودهم، لأنّ النّبی ینبغی أن یکون قدوة فی کلّ شیء، فکیف یمکن المذنب أن یفی بهذا المنهج و یؤدّی حقّه؟! زد علی ذلک، فالمذنب بنفسه یحتاج إلی قائد یرشده و یدلّه لیهتدی به.

و هناک تفاسیر أخری تخالف ظاهر الآیة، و الإشکال المهم فیها أنّها تقطع العلاقة ما بین مغفرة الذنب و الفتح «صلح الحدیبیة».

فأحسن التفاسیر هو ما ذکرناه آنفا، و هو ما یجیب علی الأسئلة الثلاثة المتقدّمة فی مکان واحد! و یبیّن ارتباط الجمل فی الآیة ..

کل ذلک هو فی شأن الموهبة الأولی من المواهب الأربعة التی وهبها اللّه نبیّه فی صلح الحدیبیة!.

أمّا «إتمام النعمـة» علی النّبی و هـدایته إیّاه الصـراط المسـتقیم و نصـره النصـر العزیز .. بعـد الفتـح فی الحدیبیّة فلیست هذه الأمور ممّا تخفی علی أحد .. فقد انتشر الإسلام بسرعة و سخّر القلوب المهیّأة! و ظهرت عظمة تعلیماته للجمیع و أبطل السموم (المضادّة) و تمّت نعمة اللّه علی النّبی و علی المسـلمین و هداهم الصـراط المسـتقیم نحو الانتصارات حتی أنّ جیش الإسـلام لم یجد أیة مقاومة فی فتح مکّة و فتح أکبر حصن للمشرکین!.

۲- المراد من «ما تقدّم» و «ما تأخّر» ..

قرأنـا فی الآیـة السابقـة قوله تعالی: لِیَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ فما المراد من هـذا النص «ما تقـدّم و ما تأخّر» اختلف المفسّرون فی بیان الآیة:

فقال بعضـهم: المراد بما تقـدّم هو عصـیان آدم و حواء و ترک الأولی من قبلهما، أمّا المراد بما تأخّر فهو ذنوب أمّـة محمّد صـلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قال بعضهم: «ما تقدّم» إشارة إلی المسائل المتعلّقة بما قبل النبوة، و «ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۵

تأخّر» إشارة إلی المسائل المتعلّقة بما بعدها ..

و قال بعضهم: المراد بما تقدّم هو ما تقدّم علی صلح الحدیبیة، و ما تأخّر أی ما تأخّر عنها من أمور و حوادث!.

و لکن مع ملاحظة التّفسیر الذی أوضحناه فی أصل معنی الآیة و خاصة العلاقة بین مغفرة الذنب مع مسألة فتح الحدیبیة، یبدو بجلاء أنّ المراد هو التهم الباطلة التی وصمها المشرکون- بزعمهم- بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی ما سبق و ما لحق و لو لم یتحقّق هذا النصر العظیم لکانوا یتصوّرون أنّ جمیع هذه الذنوب قطعیة ..

غیر أنّ هذا الانتصار الذی تحقّق للنبی طوی جمیع الأباطیل و التهم (المتقدّمة) فی حقّ النّبی و ما سیتّهم به فی المستقبل فی حال عدم انتصاره!.

و الشاهد الآخر علی هذا التّفسیر هو

الحدیث المنقول عن الإمام الرضا علی بن موسی علیهما السلام إذ سأله المأمون عن تفسیر هذه الآیة فقال: «لم یکن أحد عند مشرکی أهل مکّة أعظم ذنبا من رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّهم کانوا یعبدون من دون اللّه ثلاثمائة و ثلاثین صنما فلمّا جاءهم بالدعوة إلی کلمة الإخلاص «التوحید» کبر ذلک علیهم و قالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا إنّ هذا لشیء عجاب إلی أن قالوا ما سمعنا بهذا فی الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق ۴۱۳].

فلمّا فتح اللّه تعالی علی نبیّه مکّة قال اللّه تعالی: إِنَّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً لِیَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ ما تَأَخَّرَ عند مشرکی أهل مکّة بدعائک إلی توحید اللّه فیما تقدّم و ما تأخّر لأنّ مشرکی مکّة أسلم بعضهم و خرج بعضهم عن مکّة و من بقی منهم لم یقدر علی إنکار التوحید علیه إذ دعا الناس إلیه فصار ذنبه عندهم مغفورا بظهوره علیهم» فلمّا سمع المأمون کلام الرضا قال له: «أحسنت، بارک اللّه فیک یا أبا الحسن».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۶

الآیة [سورة الفتح (۴۸): آیة ۴]

اشارة

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَةَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً (۴)

التّفسیر

نزول السکینة علی قلوب المؤمنین:

ما قرأناه فی الآیات السابقة هو ما أعطاه اللّه من مواهب عظیمة لنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالفتح المبین «صلح الحدیبیة»، أمّا فی الآیة أعلاه فالکلام عن الموهبة العظیمة التی تلطف اللّه بها علی جمیع المؤمنین إذ تقول الآیة:

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَةَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ

و لم لا تنزل السکینة و الاطمئنان علی قلوب المؤمنین؟ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً.

ماذا کانت هذه السکینة؟!

من الضروری هنا أن نعود إلی قصة «صلح الحدیبیّة» و أن نتصوّر أنفسنا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۷

فضاء الحدیبیّة و فی جوّها لنطّلع علی عمق هذه الآیة.

لقد کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد رأی رؤیا «رحمانیة و إلهیة» أنّه دخل المسجد الحرام مع أصحابه، و علی أثر رؤیاه تحرّک نحو زیارة بیت اللّه مع أصحابه و کان أغلب أصحابه یتوقّعون أنّ هذه الرؤیا الصالحة سیتحقّق تعبیرها فی هذا السفر نفسه، لکنّ الذی قدّره اللّه کان شیئا آخر! هذا کلّه من جانب.

و من جانب آخر کان المسلمون قد أحرموا و جاءوا بالإبل لیهدوها أو ینحروها، و لکنّهم و علی خلاف ما توقّعوا لم یوفّقوا لزیارة بیت اللّه، و أمر النّبی أن ینحروا الإبل فی الحدیبیّة التی توقّفوا فیها هناک. و أن یحلّوا من إحرامهم، و کان ذلک أمرا صعبا علیهم و لا یمکن تصدیقه، لأنّ آدابهم و سننهم و تعلیمات الإسلام أیضا تنصّ علی عدم الخروج و الإحلال من الإحرام ما لم یتمّ أداء المناسک الخاصة بالعمرة.

و من جانب ثالث کان من مواد معاهدة الصلح فی الحدیبیة، مادة تقضی بإعادة المسلمین من یلجأ إلیهم من قریش و یعلن إسلامه و یدخل المدینة! و لا یلزم العکس، و کان هذا الموضوع صعبا علی المسلمین للغایة.

و من جانب رابع، فإنّ قریشا لم ترغب أن تکتب کلمة «رسول اللّه» التی کان یدعی بها النّبی محمّد و أصرّ ممثلها سهیل بن عمرو علی حذف الکلمة من معاهدة الصلح، و لم یوافق حتی علی کتابة بسم اللّه الرحمن الرحیم، و أصرّ أن یکتب مکانها «بسمک اللّهمّ»، التی کانت تنسجم مع سنّة أهل مکّة، فهذه الأمور کلّ واحد منها کان غیر مرغوب فیه، فکیف بجمیعها؟ و لذلک تزلزلت قلوب بعض ضعاف الإیمان من أصحاب النّبی إلی درجة أنّه حین نزلت سورة إِنَّا فَتَحْنا قالوا أی فتح هذا؟! هنا ینبغی أن یشمل لطف اللّه حال المسلمین و أن ینزل علیهم السکینة و الاطمئنان و أن لا یوجد فی قلوبهم الضعف و الفتور فحسب، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۸

لِیَزْدادُوا إِیماناً مَعَ إِیمانِهِمْ و تنطبق مصداقیة الآیة علیهم، فإنّ الآیة نزلت فی مثل هذه الظروف.

«السکینة» فی الأصل مشتقة من «السکون»، و معناها الاطمئنان و الدعة و ما یزیل کل أنواع الشک و التردّد و الوحشة من الإنسان و یجعله ثابت القدم فی طوفان الحوادث! و هذه السکینة یمکن أن یکون لها جانب عقائدی فیزیل ضعف تزلزل العقیدة أو یکون لها جانب عملی بحیث یهب الإنسان ثبات القدم و المقاومة و الاستقامة و الصبر.

و بالطبع فإنّ البحوث السابقة و تعبیرات الآیة نفسها تتناسب مع استعمال السکینة فی معناها الأوّل أکثر.

فی حین أنّها فی الآیة (۲۴۸) من سورة البقرة فی قصة «طالوت و جالوت» تعوّل علی الأسس العملیة أکثر! و قد ذکر جماعة من المفسّرین معانی أخر للسکینة و ترجع فی نهایتها إلی هذا التّفسیر أیضا.

الطریف أنّ «السکینة» فی بعض الرّوایات فسّرت بالإیمان ۴۱۴] کما فسّرت فی بعضها بنسیم الجنّة الذی یبدو فی هیئة الإنسان و یمنح المؤمنین الاطمئنان ۴۱۵]! و کل هذه التفاسیر تأیید لما قلناه، لأنّ السکینة ولیدة الإیمان، و هی تهب الاطمئنان کنسیم الجنّة! و ینبغی الالتفات أیضا إلی هذه اللطیفة فی شأن السکینة، إذ عبّر عنها بالإنزال هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَةَ و نعلم أنّ هذا التعبیر فی القرآن قد یعنی الخلق و الإیجاد و إیلاء النعمة أحیانا .. و حیث أنّها من عال إلی دان فقد ورد فی شأنها التعبیر بالإنزال!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۹

ملاحظات

۱- السكينة التى لا نظير لها!

إذا لم يكن للإيمان أية ثمرة سوى مسألة السكينة لكان على الإنسان أن يتقبّله! فكيف به و هو يرى آثاره و ثمراته و بركاته!.

و التحقيق فى حال المؤمنين و حال غير المؤمنين يكشف هذه الحقيقة، و هى أنّ الفئة الثّانية يعانون حالة الاضطراب و القلق الدائم، فى حين أنّ الجماعة الأولى فى اطمئنان خاطر عديم النظير ...

و فى ظل الاطمئنان، فإنّهم لا يَخْشَوْنَ أَحداً إِلَّا اللَّهَ ۴۱۶].

كما أنّهم فى مواصلة نهجهم لا يؤثر اللوم و التهديد فيهم أبدا وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ۴۱۷].

و هم يتمسّكون بأصلين مهمّين فى حفظ هذه السكينة، و هما: عدم الحزن على ما فاتهم، و عدم التعلّق و الفرح بما لديهم، فهم مصداق لقوله تعالى: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ ۴۱۸].

و أخيرا فإنّهم لا يضعفوا أبدا أمام الشدائد، و لا يركعوا مقابل الأعداء و يتحلّون بشعار وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۴۱۹].

إنّ المؤمن لا يرى نفسه وحيدا فى ميدان الخطوب و الحوادث بل يحسّ بيد اللّه على رأسه و يلمس إعانة الملائكة و نصرتهم له، فى حين أنّ غير المؤمنين يحكمهم الاضطراب فى أحاديثهم و سلوكهم و لا سيما عند هبوب العواصف و طوفان الأحداث إذ يرى كلّ ذلك منهم بصورة بيّنة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۰

۲- سلسلة مراتب الإيمان:

الإيمان، سواء بمعنى العلم و المعرفة، أم روح التسليم و الإذعان للحق فإنّ له درجات و سلسلة مراتب، لأنّ العلم له درجات، و التسليم و الإذعان لهما درجات مختلفة أيضا، حتى العشق و الحب الذى هو توأم الإيمان يتفاوت من حالة إلى أخرى! فالآية محل البحث التى تقول: لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ تأكيد على هذه الحقيقة أيضا .. و على هذا فلا ينبغى للمؤمن أن يتوقّف فى مرحلة واحدة من مراحل الإيمان، بل عليه أن يتسامى إلى درجاته العليا عن طريق بناء شخصيّته و العلم و العمل.

ففى حديث عن الإمام الصادق أنّه قال: «إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة»[۴۲۰].

كما

نقرأ عنه حديثا آخر إذ قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم على البر و الصدق و اليقين و الرضا و الوفاء و العلم و الحلم فمن جعل فيه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل و قسّم لبعض الناس السهم و السهمين و لبعض الثلاثة حتى انتهوا إلى (ال) سبعة».

ثمّ يضيف الإمام عليه السّلام: «لا تحملوا على صاحب السهم سهمين و لا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم» .. ثمّ قال كذلك حتى انتهى إلى (ال) سبعة[۴۲۱].

و من هنا يتّضح ما نقل عن بعضهم أنّ الإيمان ليس فيه زيادة و لا نقصان لا أساس له، لأنّه لا ينسجم مع الثوابت العلميّة و لا مع الرّوايات الإسلامية!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۱

۳- ركنی السكينة:

قرأنا فی ذيل الآية محل البحث جملتين، كلّ منهما تمثّل ركنا من أركان «السكينة» و الاطمئنان للمؤمنين.

فالأولى جملة وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و الأخرى جملة وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

فالأولى تقول للإنسان: إذا كنت مع اللّه فإنّ جميع ما فی الأرض و السماء معك!.

و الأخرى تقول: إنّ اللّه يعلم حاجاتك و مشاكلك كما يعلم سعيك و طاعتك و عبادتك.

و مع الإيمان بهذين «الأصلين» كيف يمكن أن لا يحكم الاطمئنان و سكينة القلب وجود الإنسان!***

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۲

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۵ الى ۷]

اشارة

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (۵) وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (۶) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۷)

التّفسير

نتيجة أخرى من الفتح المبين:

نقل جماعة من مفسّری الشيعة و أهل السنّة أنّه حين بشّر النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم «بالفتح المبين» و «إتمام النعمة» و «الهداية» و «النصرة» .. قال بعض المسلمين ممّن كان مستاء من صلح الحديبيّة: هنيئا لك يا رسول اللّه! لقد بيّن لك اللّه ماذا يفعل بك!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۳

فما ذا يفعل بنا فنزلت الآية لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ۴۲۲].

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآيات تتحدّث عن علاقة صلح الحديبيّة و آثاره وردّ الفعل المختلف فی أفكار الناس و نتائجه المثمرة، و كذلك عاقبة كلّ من الفريقين اللذين امتحنا فی هذه «البوتقة» و المختبر- فتقول الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها. فلا تسلب هذه النعمة الكبرى عنهم أبدا ...

و إضافة إلى ذلك فإنّ اللّه يعفو عنهم وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً[۴۲۳].

و بهذا فإنّ اللّه قد وهب المؤمنين بإزاء ما وهب لنبيّه فی فتحه المبين من المواهب الأربعة موهبتين عظميين هما «الجنّة خالدين فيها» و «التكفير عن سيّئاتهم» بالإضافة إلى إنزال السكينة على قلوبهم و مجموع هذه المواهب الثلاث يعدّ فوزا عظيما لأولئك الذين خرجوا من الامتحان بنجاح و سلامة!.

و كلمة «الفوز» التی توصف فی القرآن غالبا ب «العظيم» و أحيانا توصف ب «المبين» أو «الكبير» بناء على ما يقول «الراغب» فی «مفرداته» معناها الانتصار و نيل الخيرات المقرون بالسلامة، و ذلك فی صورة ما لو كان فيه النجاة فی الآخرة و إن اقترن مع زوال

بعض المواهب الدنيوية.

و طبقا للرواية المعروفة عن أمير المؤمنين على عليه السّلام حين ضربه اللعين عبد الرحمن بن ملجم فى محراب العبادة بالسيف على أمّ رأسه قال هاتفا

«فزت و ربّ الكعبة»

و كأنّه يقول فزت بأنّى أمضيت ختم صحيفتى بدم رأسى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۴

أجل قد تبلغ الامتحانات الإلهية درجة أن تضعضع الإيمان الضعيف و تغيّر القلوب، و إنّما يثبت المؤمنين الصادقون الذين تحلّوا بالسكينة و الاطمئنان و سينعمون فى يوم القيامة بنتائجه، و ذلك هو الفوز العظيم حقّا!.

غير أنّ إزاء هذه الجماعة، جماعة المنافقين و المشركين الذين تتحدّث الآية التالية عن عاقبتهم بهذا الوصف فتقول: وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

أجل، لقد ظنّ المنافقون حين تحرّك النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و معه المؤمنون من المدينة أن لا يعودوا نحوها سالمين كما تتحدّث عنهم الآية (۱۲) من هذه السورة ذاتها فتقول: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً.

كما ظنّ المشركون أيضا أنّ محمّدا لن يعود إلى المدينة سالما مع قلّة العدد و العدد و سيأفل كوكب الإسلام عاجلا ... ثمّ يفصل القرآن ببيان عذاب هؤلاء و عقابهم و يجعله تحت عناوين أربعة فيقول أوّلا: عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ[۴۲۴].

«الدائرة» فى اللغة هى الحوادث و ما ينجم عنها أو ما يتّفق للإنسان فى حياته، فهى أعم من أن تكون حسنة أو سيئة غير أنّها هنا بقرينة كلمة «السوء» يراد منها الحوادث غير المطلوبة!.

و ثانيا: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

و ثالثا: وَ لَعَنَهُمْ

و رابعا و أخيرا: فإنّه بالمرصاد وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً.

و الذى يسترعى الانتباه أنّه فى الحديبيّة كان أغلب الحاضرين من المسلمين رجالا، و فى مقابلهم من المنافقين و المشركين رجالا أيضا، غير أنّ الآيات الآنفة أشركت الرجال و النساء فى ذلك الفوز العظيم، و هذا العذاب الأليم، و ذلك لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۵

الرجال المؤمنين أو المنافقين الذين يقاتلون فى «ساحات القتال» لا يحقّقون أهدافهم إلّا أن تدعمهم النساء بالدعم اللازم.

و أساسا فإنّ الإسلام ليس دين الرجال فحسب فيهمل شخصيّة المرأة، بل يهتمّ بها، فى كلّ موطن يوهم الكلام بالاقتصار على الرجل مع عدم ذكر المرأة فيه يصرّح بذكرها ليعلم أنّ الإسلام دين الجميع دون استثناء رجالا و نساء.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة أخرى إلى عظمة قدرة اللّه فتقول الآية: وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

و قد ورد هذا التعبير مرّة فى ذيل مقامات أهل الإيمان و مواهبهم، و مرّة هنا فى ذيل الآية التى تحكى عن عقاب المنافقين و المشركين ... ليتّضح أنّ اللّه الذى له جنود السماوات و الأرض جميعا قادر على الأمرين، فهو قادر أن تشمل رحمته مستحقيها من عباده الصالحين و ناصريه، كما أنّه قادر على أن ينزل غضبه و انتقامه نارا تحرق المجرمين.

و ممّا يستلفت النظر أنّ القرآن حين يذكر المؤمنين يصف اللّه بالعلم و الحكمة، و هما يناسبان مقام الرحمة، و لكنّه حين يذكر المنافقين و المشركين يصف اللّه بالعزة و الحكمة، و هما يناسبان العذاب!

ما المراد من «جنود السماوات و الأرض»؟!

هـذا التعبير له معنى واسع حيث يشـمل الملائكـة «و هى من جنود السـماء» كما يشـمل جنودا أخر كالصواعق و الزلازل و الطوفانات و السيول و الأمواج و القوى الغيبية غير المرئية التى لا نعرف عنها شيئا ... لأنّ جميع هذه الأشياء هى جنود اللّه و هى مطيعة لأوامره!.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۶

من هم الظانّون باللّه ظنّ السوء؟!

قـد يكون سوء الظن تـارة بالنفس، و قـد يكون سوء الظن بالآخرين، كما قـد يكون باللّه، و بهـذا التقسيم و على منواله يكون «حسـن الظن» أيضا.
أمّا سوء الظن بالنفس إذا لم يبلغ درجة الإفراط فهو سلّم إلى التكامل و يدفع الإنسان إلى التدقيق فى أعماله و الإخلاص فيها، و يكون حاجزا عن العجب و الغرور منه عند قيامه بالأعمال الصالحة.
و بهذا
فإنّ الإمام عليا عليه السّـلام يصف المتّقين فى جوابه لهمّام قائلا: «فهم لأنفسـهم متّهمون، و من أعمالهم مشـفقون، إذا زكّى أحد منهم خـاف ممّـا يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسـى من غيرى و ربّى أعلم بى منّى بنفسـى، اللّهمّ لا تؤاخـذنى بما يقولون و اجعلنى أفضل ممّا يظنّون و اغفر لى ما لا يعلمون»[۴۲۵].
و إذا كان سوء الظن بالناس فهو ممنوع إلّا أن يغلب الفساد فى المجتمع حيث لا ينبغى هناك حسن الظن «و سيأتى بيان هذا الموضوع بإذن اللّه ذيل الآية ۱۲ من سورة الحجرات».
أمّا سوء الظن باللّه أى سوء الظن بوعده أو رحمته و كرمه الذى لا حدّ له فهو قبيح و مذموم، و قد يدلّ على ضعف الإيمان و ربّما دلّ على عدم الإيمان! و يشير القرآن عدّة مرّات إلى سوء ظنّ ضعاف الإيمان أو عديمى الإيمان ..
و خاصـة عنـد بروز الحوادث الاجتماعيـة الصـعبة و طوفـان الابتلاء و الامتحـان، و كيف أنّ المؤمنين يبقون ثـابتى الأقـدام عنـد هـذه الحوادث و هم فى كمال حسن الظن و الاطمئنان بلطف اللّه .. و لكنّ ضعيفى الإيمان يطلقون لسان الشكوى، كما كان ذلك فى قصة الحديبيّة، حيث إنّ المنافقين و من على شاكلتهم أساءوا الظنّ، و قالوا أنّ محمّدا و أصحابه يمضون فى سفرهم هذا و لا يعودون بعده، فكأنّهم نسوا و عود اللّه أو أنّهم اتهموها.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۷
و النموذج الآخر ما حدث فى ساحة يوم الأحزاب حين زلزل المسـلمون زلزالا شديدا و وقعوا تحت التأثير و المحنة الصـعبة فهناك ذمّ اللّه المسيئين الظنّ به فقال: إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً[۴۲۶].
و قد عبّرت الآية (۱۵۴) من سورة آل عمران عن مثل هذه الظنون ب «ظنّ الجاهلية».
و على كلّ حال، فطنّ حسن الظن باللّه و رحمته و وعـده و كرمه و لطفه و عنايته من علائم الإيمان المهمّـة و من الأسـباب المؤثّرة فى النجاة و السعادة!.
حتى أنّه
ورد فى بعض أحاديث الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «ليس من عبد يظنّ باللّه خيرا إلّا كان عند ظنّه به»[۴۲۷].

كما

ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال: «أحسن باللّه الظن فإنّ اللّه عزّ و جلّ يقول أنا عند ظنّ عبدى المؤمن بى إن خير فخير و إن شر فشر»[۴۲۸].

و أخيرا

فقد ورد حديث آخر عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه: «إنّ حسن الظنّ باللّه عزّ و جلّ ثمن الجنّة»[۴۲۹]!.

فأى قيمة أيسر من هذا ... و أىّ متاع أعظم قيمة منه!؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۸

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۸) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۹) إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَکَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۰)

التّفسير

مكانة النّبى و واجب الناس تجاهه!

قلنا إنّ بعض الجهلاء اعترضوا بشدّة على صلح الحديبيّة و حتى أنّ بعض تعبيراتهم لم تخل من عدم الاحترام بالنسبة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كان مجموع هذه الأمور يستوجب أن يؤكّد القرآن مرّة أخرى على عظمة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و جلالة قدره!.

لذلک فإنّ الآية الأولى من الآيات أعلاه تخاطب النّبى فتقول: إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً.

و هذه ثلاثة أوصاف بارزة هى من أهم ما يتمتّع به النّبى من صفات و مقام. كونه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۹

«شاهدا» و «مبشّرا»، و «نذيرا».

«شاهدا» على جميع الأمّة الإسلامية، بل هو شاهد على جميع الأمم كما نقرأ هذا التعبير فى الآية (۴۱) من سورة النساء فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِکَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً.

و نقرأ فى الآية (۵) من سورة التوبة قوله تعالى: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ

و أساسا فإنّ لكلّ إنسان شهودا كثيرين!.

أولهم اللّه الذى هو عالم الغيب و الشهادة المطّلع على جميع أعماله و نيّاته!.

و من بعده الملائكة المأمورون بحفظ أعماله كما ورد التعبير فى الآية (۲۱) من سورة (ق) وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

ثمّ أعضاء بدن الإنسان و حتى جلده شاهد عليه ... يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ۴۳۰].

و جاء فى الآية ۲۱ من سورة فصلت فى هذا الصدد أيضا: وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ‌ءٍ.

و «الأرض» أيضا، من زمرة الشهود و كما جاء فى سورة الزلزلة يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها.

و طبقا لبعض الروايات فإنّ «الزمان» أحد الشهود أيضا، إذ نقرأ

فی بعض أحاديث الإمام علی عليه السّلام قوله: «ما من يوم يمرّ علی بنی آدم إلّا قال له ذلک اليوم أنا يوم جديد و أنا عليک شهيد فافعل فیّ خيرا و اعمل فیّ خيرا، اشهد لک يوم القيامة فإنّک لن ترانی بعد هذا أبدا»[۴۳۱]،[۴۳۲].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۰

و لا شک أنّ شهادة اللّه وحدها کافية، لکنّ تعدّد الشهود فيه إتمام للحجّة أکثر و له أثر تربویّ- أقوی- فی الناس ...

و علی کلّ حال فإنّ القرآن الکريم بيّن هذه الأوصاف الثلاثة و هی الشهادة و البشارة و الإنذار التی هی من الأوصاف الأساسية للنبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم لتکون مقدمة لما ورد فی الآية التی بعدها.

و فی الآية التالية خمسة أوامر مهمّة- هی فی الحقيقة بمثابة الهدف من سمات النبی المذکورة آنفا: و تشکل أمرين فی طاعة اللّه و تسبيحه و تقديره، و ثلاثة أوامر منها فی «طاعة» رسوله و «الدفاع عنه» و «تعظيم مقامه»، إذ تقول الآية: لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا.

کلمة «تعزّروه» مشتقة من مادة تعزير، و هو فی الأصل يعنی «المنع» ثمّ توسّعوا فيه فأطلق علی کلّ دفاع و نصرة و إعانة للشخص فی مقابل أعدائه کما يطلق علی بعض العقوبات المانعة عن الذنب «التعزير» أيضا.

و کلمة «توقّروه» مشتقة من مادة توقير، و جذورها «الوقر» و معناها الثقل ..

فيکون معنی التوقير هنا التعظيم و التکريم.

و طبقا لهذا التّفسير فإنّ الضميرين فی «تعزّروه» و «توقّروه» يعودان علی شخص النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و الهدف من ذلک هو الدفاع عنه بوجه أعدائه و تعظيمه و احترامه «و قد اختار هذا التّفسير الشيخ الطوسی فی «التبيان» و «الطبرسی» فی مجمع البيان و غيرهما أيضا».

غير أنّ جماعة من المفسّرين ۴۳۳] ذهبوا إلی أنّ جميع الضمائر فی الآية تعود علی اللّه، و المراد بالتعزيز و التوقير هنا نصرة دين اللّه و تعظيمه و تکريمه دينه و دليلهم علی هذا التّفسير انسجام جميع الضمائر بعضها مع بعض.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۱

غير أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب، لأنّ «التعزير» أولا: معناه فی الأصل المنع و ذبّ الأعداء و الدفاع عن «الشخص»، و لا يصحّ ذلک فی شأن اللّه إلّا علی سبيل «المجاز» فحسب! و أهم من ذلک هو شأن نزول الآية، إذ أنّها نزلت بعد صلح الحديبية و کان بعضهم يسیء التعامل مع النّبی و لا يحترم مقامه الکريم، و قد نزلت الآية لتنبه المسلمين علی ما ينبغی عليهم من الوظائف بالنسبة إلی رسول اللّه صلی اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ لا ينبغی أن ننسی أنّ الآية هی بمثابة النتيجة للآية السابقة التی وصفت النّبی بأنّه «شاهد و مبشر و نذير» و هذا الأمر يهیء الأرضية المناسبة للآية التی بعدها.

و فی آخر آية من الآيات محل البحث إشارة قصيرة إلی مسألة «بيعة الرضوان» و قد جاء التفصيل عنها فی الآية (۱۸) من السورة ذاتها! و توضيح ذلک هو: کما قلناه آنفا إنّ النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم رأی فی منامه کما تقول التواريخ أنّه دخل مع أصحابه مکّة، فتوجّه علی أثر هذه الرؤيا مع ألف و أربعمائة صحابی إلی مکّة، إلّا أنّ قريشا صمّمت علی منعه و هو علی مقربة من مکّة ... فتوقف النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه فی منطقة الحديبيّة ... و تمّ تبادل المبعوثين بين قريش و النّبی حتی انتهی الأمر إلی معاهدة صلح الحديبيّة! و فی عملية تبادل السفراء و المبعوثين، أمر عثمان مرّة أن يبلغ أهل مکّة- من قبل النّبی- أنّه لا يريد الحرب و لا القتال و إنّما يريد العمرة فحسب، إلّا أنّ المشرکين من أهل مکّة أوقفوا عثمان مؤقتا و کان هذا الأمر سببا أن يشيع بين المسلمين خبر قتل عثمان، و لو کان هذا الموضوع صحيحا لکان دليلا علی إعلان قريش الحرب و منازلة النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم

لذلک

فإنّ النّبی قال: «لا نبارح مکاننا «الحدیبیّة» حتی نأخذ البیعة من قومنا»،

فطلب تجدید البیعة ... فاجتمع المسلمون و بایعوا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم تحت شجرة هناک علی أن لا یترکوا النبی وراءهم ظهریّا و أن یقاتلوا مع النّبی أعداءه و یذبّوا عنه ما دام فیهم طاقة علی ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۲

فبلغ هذا الأمر سمع المشرکین و دبّ الرعب فیهم، و هذا ما دعاهم إلی الصلح مع النبی. و من هنا سمّیت مبایعة المسلمین نبیّهم تحت الشجرة بیعة الرضوان حیث وردت الإشارة إلیها فی الآیة (۱۸) من السورة ذاتها: لَقَدْ رَضِیَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبایِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

و علی کلّ حال فإنّ القرآن یتحدّث عن مبایعة المسلمین فی الآیة محلّ البحث فیقول: إِنَّ الَّذِینَ یُبایِعُونَکَ إِنَّما یُبایِعُونَ اللَّهَ یَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ و «البیعة» معناها المعاهدة علی اتّباع الشخص و طاعته، و کان المرسوم أو الشائع بین الناس أنّ الذی یعاهد الآخر و یبایعه یمد یده إلیه و یظهر وفاءه و معاهدته عن هذا الطریق لذلک الشخص أو لذلک «القائد» المبایع!.

و حیث أنّ الناس یمدّون أیدیهم «بعضهم إلی بعض» عند البیع و ما شاکله من المعاملات و یعقدون المعاملة بمد الأیدی و «المصافحة» فقد أطلقت کلمة «البیعة» علی هذه العقود و العهود أیضا. و خاصة أنّهم عند «البیعة» کأنّما یقدّمون أرواحهم لدی العقد مع الشخص الذی یظهرون وفاءهم له.

و علی هذا یتّضح معنی یَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ .. إذ إنّ هذا التعبیر کنایة عن أنّ بیعة النّبی هی بیعة اللّه، فکأنّ اللّه قد جعل یده علی أیدیهم فهم لا یبایعون النّبی فحسب بل یبایعون اللّه، و أمثال هذه الکنایة کثیرة فی اللغة العربیة!.

و بناء علی هذا التّفسیر فإنّ من یری بأنّ معنی هذه الجملة یَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ هو أنّ قدرة اللّه فوق قدرتهم أو أنّ نصرة اللّه أعظم من نصرة الناس و أمثال ذلک لا یتناسب تأویله مع شأن نزول الآیة و مفادها و إن کان هذا الموضوع بحدّ ذاته صحیحا.

ثمّ یضیف القرآن الکریم قائلا: فَمَنْ نَکَثَ فَإِنَّما یَنْکُثُ عَلی نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفی بِما عاهَدَ عَلَیْهُ اللَّهَ فَسَیُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً[۴۳۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۳

کلمة «نکث» مشتقة من «نکث» و معناها الفتح و البسط ثمّ استعملت فی نقض العهد[۴۳۵].

و القرآن فی هذه الآیة ینذر جمیع المبایعین للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ یثبتوا علی عهدهم و بیعتهم فمن ثبت علی العهد فسیؤتیه اللّه أجرا عظیما و من نکث فإنّما یعود ضرره علیه و لا ینال اللّه ضرره أبدا .. بل إنّه یهدّد وجود المجتمع و کرامته و عظمته و یعرّضه للخطر بنقضه البیعة!.

و

قد ورد- فی کلام- عن أمیر المؤمنین علیه السّلام قوله: «إنّ فی النّار لمدینة یقال لها الحصینة، أ فلا تسألونی ما فیها؟! فقیل له: ما فیها یا أمیر المؤمنین؟! قال: فیها أیدی الناکثین»[۴۳۶].

و من هنا یتّضح بجلاء قبح نقض البیعة من وجهة نظر الإسلام!! و فی هذا المجال هناک بحوث فی «البیعة فی الإسلام» و حتی «قبل الإسلام» و کیفیة البیعة و أحکامها ستأتی بأذن اللّه فی ذیل الآیة (۱۸) من هذه السورة ذاتها!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۴

الآیات [سورة الفتح (۴۸): الآیات ۱۱ الی ۱۴]

اشارة

سَيَقُولُ لَکَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِکُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۱) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِکَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (۱۲) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (۱۳) وَ لِلَّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۴)

التّفسير

اعتذار المخلفين:

ذكرنا- فى تفسير الآيات الآنفة- أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم توجّه من المدينة إلى مكّة مع ألف و أربعمائة من صحابته «للعمرة»!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۵

و قد أبلغ عن النّبى جميع من فى البادية من القبائل أن يحضروا معه فى سفره هذا، إلّا أنّ قسما من ضعيفى الإيمان لووا رؤوسهم عن هذا الأمر و أعرضوا عنه و كان تحليلهم هو أنّ المسلمين لا يستطيعون الحفاظ على أرواحهم فى هذا السفر فى حين أنّ كفار قريش كانوا فى حالة حرب مع المسلمين و قاتلوهم فى أحد و الأحزاب على مقربة من المدينة، فإذا توجّهت هذه الجماعة القليلة العزلاء من كلّ سلاح نحو مكّة و عرّضت نفسها إلى العدو المدجّج بالسلاح. فكيف ستعود إلى بيوتها بعدئذ؟! إلّا أنّهم حين رأوا المسلمين و قد عادوا إلى المدينة ملاء الأيدى وافرين قد حصلوا على امتيازات تستلفت النظر من صلح الحديبيّة دون أن تراق من أحدهم قطرة دم، عرفوا حينئذ خطأهم الكبير و جاؤوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليعتذروا إليه، و يبرّروا تخلّفهم عنه و يطلبوا منه أن يستغفر لهم! غير أنّ الآيات آنفة الذكر نزلت ففضحتهم و أماطت عنهم اللثام.

و على هذا، فالآيات هذه- تبيّن حالة المخلّفين ضعاف الإيمان بعد أن بيّنت الآيات السابقة حال المنافقين و المشركين لتتمّ حلقات البحث و يرتبط بعضها ببعض! تقول هذه الآيات: سَيَقُولُ لَکَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

إنّهم لم يكونوا صادقين حتى فى توبتهم! فأبلغهم يا رسول و قُلْ فَمَنْ يَمْلِکُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً؟! فليس على اللّه بعزيز و لا عسير أن يحفكم بأنواع البلاء و المصائب و أنتم فى دار أمنكم و بين أهليكم و أبنائكم كما لا يعزّ عليه أن يجعلكم فى حصن حصين من بأس الأعداء و لو كنتم فى مركزهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۶

إنّما هو جهلكم الذى دعاكم إلى هذا التصور و الاعتقاد! أجل بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

و أقصى من هذا فهو خبير بأسراركم و نيّاتكم و هو يعلم جيدا أنّ هذه الحيل و الحجج الواهية لا صحة لها و لا واقعيّة .. و الواقع هو أنّكم متردّدون ضعيفو الإيمان. و هذه الأعذار لا تخفى على اللّه و لا تحول دون عقابكم أبدا! الطريف هنا أنّه يستفاد من لحن الآيات و من التواريخ أيضا أنّ هذه الآيات نزلت عند عودة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة، أى أنّها قبل مجىء المخلّفين للاعتذار إليه- أماطت اللثام عنهم و كشفت الستار و فضحتهم!.

و من أجل أن ينجلى الأمر و يتّضح الواقع أكثر يميط القرآن جميع الأستار فيقول: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً.

أجل، إنّ السبب فى عدم مشاركتكم النّبى و أصحابه فى هذا السفر التاريخى لم يكن هو كما زعمتم- انشغالكم بأموالكم و أهليكم- بل العامل الأساس هو سوء ظنّكم باللّه، و كنتم تتصوّرون خطأ أنّ هذا السفر هو السفر الأخير للنبى و أصحابه و ينبغى الاجتناب عنه! و ما ذلك إلّا ما وسوست به أنفسكم وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِی قُلُوبِکُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ.

لأنّكم تخيّلتم أنّ اللّه أرسل نبيّه فى هذا السفر و أودعه فى قبضة أعدائه و لن يخلصه و يحميه عنهم! وَ کُنْتُمْ قَوْماً بُوراً- أى هالكين- فى نهاية الأمر!.

و أى هلاك أشدّ و أسوأ من عدم مشاركتهم فى هذا السفر التأريخى و بيعة الرضوان و حرمانهم من المفاخر الأخر ... ثمّ الفضيحة الكبرى ... و بعد هذا كله ينتظرهم العذاب الشديد فى الآخرة، أجل لقد كان لكم قلوب ميتة فابتليتم بمثل هذه العاقبة!.

و حيث أنّ هؤلاء الناس- ضعاف الإيمان- أو المنافقين هم أناس جبناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۷

و تائقون الى الدعة و الراحة و يفرّون من الحرب و القتال فإنّ ما يحلّلونه إزاء الحوادث لا ينطبق على الواقع أبدا .. و مع هذه الحال فإنّهم يتصوّرون أنّ تحليلهم صائب جدّا.

و بهذا الترتيب فإنّ الخوف و الجبن و طلب الدعة و الفرار من تحمل المسؤوليات يجعل سوء ظنّهم فى الأمور واقعيا، فهم يسيئون الظنّ فى كلّ شىء حتى بالنسبة الى اللّه و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و نقرأ

فى نهج البلاغة من وصية للإمام على عليه السّلام إلى مالك الأشتر قوله: «إنّ البخل و الجبن و الحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظنّ باللّه»[۴۳۷].

حادثة «الحديبيّة» و الآيات محل البحث، كلّ ذلك هو الظهور العينى لهذا المعنى، و يدلّل كيف أنّ مصدر سوء الظنّ هو من الصفات القبيحة حاله حال البخل و الحرص و الجبن!.

و حيث أنّ هذه الأخطاء مصدرها عدم الإيمان فإنّ القرآن يصرّح فى الآية التالية قائلا: وَ مَنْ لَمْ یُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ سَعِیراً[۴۳۸].

و «السعير» معناه اللهيب.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن و من أجل أن يثبت قدرة اللّه على معاقبة الكفار و المنافقين: وَ لِلَّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً.

و ممّا يسترعى النظر أنّ موضوع المغفرة مقدّم هنا على العذاب، كما أنّ فى آخر الآية تأكيدا على المغفرة و الرحمة أيضا، و ذلك لأنّ الهدف من هذه التهديدات جميعا هو التربية، و موضوع التربية يوجب أن يكون طريق العودة مفتوحا بوجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۸

الآثمين حتى الكفار. و خاصة أنّ أساس كثير من هذه الأمور السلبية هو الجهل و عدم الاطلاع- فينبغى أن يبعث فى مثل هؤلاء الأفراد الأمل على المغفرة بمزيد من الرجاء، فلعلّهم يؤوبون نحو السبيل!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۴۴۸

*

ملاحظة

تعلیل الذنب و توجیهه مرض عام:

مهما کان الذنب کبیرا فإنّه لیس أکبر من تبریره و توجیهه، لأنّ المذنب المعترف بالذنب غالبا ما یؤوب للتوبة، لکنّ المصیبة تبدأ حین یقوم المذنب بتبریر ذنوبه، فلا ینغلق باب التوبة بوجه الإنسان فحسب بل یتجرّأ على الذنب و یشتدّ على مقارفته! و هذا التعلیل أو التوجیه یقع أحیانا لحفظ ماء الوجه و تحسبا من الافتضاح، و لکنّ أسوأ من هذا کلّه حین ینخدع به الضمیر و «الوجدان»! و هذا التعلیل لیس أمرا جدیدا، و یمکن العثور على أمثال له على امتداد التاریخ البشری، و کیف وجّه أکبر مجرمی التاریخ جنایاتهم لخداع أنفسهم بتوجیهات مضحکة تجعل کلّ إنسان غارقا فی ذهوله و تعجّبه منها!.

و القرآن المجید الذی یسعى لتربیة و صناعة الإنسان یعالج مسائل من هذا الباب کثیرة منها ما قرأناه فی الآیات الآنفة- محلّ البحث- و لا بأس بأن نقف على آیات أخرى لإکمال البحث فی هذا الصدد.

۱- کان العرب المشرکون یتذرّعون أحیانا بسیرة السلف لتوجیه شرکهم و تبریره و کانوا یقولون: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [۴۳۹].

کما کانوا یتذرّعون أحیانا بنوع من الإجبار فکأنّهم مجبرون! و یقولون:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۹

لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَکْنا وَ لا آباؤُنا[۴۴۰].

۲- کما کان بعض ضعفاء الإیمان یأتون إلى النّبی أحیانا متذرّعین عن عدم مشارکتهم فی الحرب بأن بیوتهم عورة وَ یَسْتَأْذِنُ فَرِیقٌ مِنْهُمُ النَّبِیَّ یَقُولُونَ إِنَّ بُیُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِیَ بِعَوْرَةٍ إِنْ یُرِیدُونَ إِلَّا فِراراً[۴۴۱].

۳- و ربّما تذرّعوا بعدم ذهابهم إلى الحرب لأنّ وجوه نساء الرومان النضرة تسلب قلوبهم و تفتنهم!! وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ ائْذَنْ لِی وَ لا تَفْتِنِّی [۴۴۲].

۴- و ربّما تذرّعوا بانشغالهم بأموالهم و أهلیهم و نسائهم فیوجّهون ذنبهم الکبیر فی الفرار عن طاعة أمر رسول اللّه صلى اللّه علیه و آله و سلّم کما هی الحال فی الآیات الآنفة- محل البحث- ۵- و الشیطان أیضا وجّه عدم طاعته للّه بمقایسة خاطئة فقال: أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ [۴۴۳].

۶- و فی العصر الجاهلی و من أجل أن یوجّهوا ذنبهم الکبیر و خطأهم فی وأد البنات کانوا یقولون نخشى أن تؤسر بناتنا فی الحرب و إن غیرتنا و ناموسنا یدعوننا إلى قتلهن و دسّهنّ فی التراب! و ربّما قالوا إنّما نقتل الأطفال خشیة الاملاق کما صرّحت به سورة الإسراء و غیرها فی القرآن.

کما أنّه یظهر من بعض الآیات أنّ المجرمین یتشبّثون بالکبراء و الاقتداء بهم فی توجیه ذنوبهم وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ کُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِیلَا[۴۴۴].

و الخلاصة إنّ بلاء توجیه الذنب بلاء واسع شمل طائفة عظیمة من الناس عامّهم و خاصهم، و خطره الکبیر أنّه یغلق سبل الإصلاح فی وجوههم و ربّما غیّر حتى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۰

الواقعیات و أعطاها وجها آخر عند المذنبین! فکثیر من یوجّه الخوف و الجبن بأنّه: احتیاط.

و الحرص بأنّه تأمین على الحیاة فی «المستقبل».

و التهوّر بأنّه حسم و جرأة.

و ضعف النفس بالحیاء! و عدم الاکتراث بالزهد.

و ارتكاب الحرام بالحيلة الشرعية.

و الفرار من تحمّل المسؤولية بعدم ثبوت الموضوع!! و التقصير و التفريط بالقضاء و القدر.

و هكذا يغلق الإنسان بيده سبيل نجاته! و بالرغم من أنّ هذه المفاهيم كلّا منها له معنى صحيح فى محلّه و موقعه، و لكن الإشكال فى أنّها حرّفت و اتخذت نتيجة مقلوبة، و كم نال المجتمعات البشرية و الأسر و الأفراد من أضرار من هذا المنفذ!! ... حفظنا اللّه جميعا من هذا البلاء العظيم «آمين».

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۱

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشارة

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلًا (۱۵) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۶) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (۱۷)

التّفسير

المخلّفون الانتهازيّون:

يعتقد أغلب المفسّرين أنّ هذه الآيات ناظرة إلى «فتح خيبر» الذى كان فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۲

بداية السنة السابعة للهجرة و بعد صلح الحديبيّة! و توضيح ذلك أنّه طبقا للرّوايات حين كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يعود من الحديبيّة بشّر المسلمين المشتركين بالحديبيّة- بأمر اللّه- بفتح خيبر، و صرّح أن يشترك فى هذه الحرب من كان فى الحديبيّة من المسلمين فحسب، و أنّ الغنائم لهم وحدهم و لن ينال المخلّفين منها شيء أبدا.

إلّا أنّ عبيد الدنيا الجبناء لمّا فهموا من القرائن أنّ النّبى سينتصر فى المعركة المقبلة قطعا- و أنّه ستقع غنائم كثيرة فى أيدى جنود الإسلام- أفادوا من الفرصة فجاءوا الى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك فى حرب خيبر، و ربّما توسّلوا بهذا العذر، و هو أنّهم يريدون التكفير عن خطئهم السابق و التوبة من الذنب و أن يتحمّلوا عبء المسؤولية، و الخدمة الخالصة للإسلام و القرآن و يريدون الجهاد مع رسول اللّه فى هذا الميدان، و قد غفلوا عن نزول الآيات آنفا و أنّها كشفت حقيقتهم من قبل كما نقرأ ذلك فى الآية الأولى من الآيات محل البحث- سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ ....

و لا نجد ذلك فى هذا المورد فحسب، بل فى موارد كثيرة نجد هؤلاء الطامعين يركضون وراء اللقمة الدسمة التى لا تقترن بألم. و يهربون من المواطن الخطيرة و ساحات القتال كما نقرأ ذلك فى الآية (۴۲) من سورة التوبة: لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ

و على كلّ حال فإنّ القرآن الكريم يقول ردا على كلام هؤلاء الانتهازيين و طالبى الفرص يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ ثمّ يضيف قائلا

للنبی: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا.

و لیس هذا هو کلامی بل کَذلِکُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ و أخبرنا عن مستقبلکم أیضا.

إنّ أمر اللّه أن تکون غنائم خیبر خاصّة بأهل الحدیبیّة و لن یشارکهم فی ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۳

أحد. لکنّ هؤلاء المخلّفین الصلفین استمروا فی تبجّحهم و اتهموا النّبی و من معه بالحسد کما صرّح القرآن بذلک: فَسَیَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا.

و هکذا فإنّهم بهذا القول یکذّبون حتی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و یعدّون أساس منعهم من الاشتراک فی معرکة خیبر الحسد فحسب.

و فی ذیل الآیة یصرّح القرآن عن حالهم فیقول: بَلْ کانُوا لا یَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِیلًا.

أجل إنّ أساس جمیع شقائهم و سوء حظهم هو جهلهم و عدم فقاهتهم، فالجهل ملازم لهم أبدا، جهلهم باللّه سبحانه و عدم معرفة مقام النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و جهلهم عن مصیر الإنسان و عدم توجّههم إلی أنّ الثروة فی الدنیا لا قرار فیها، فهی زائلة لا محالة!.

صحیح أنّهم أذکیاء فی المسائل المادیة و المنافع الشخصیة، و لکن أی جهل أعظم من أن یبیع الإنسان جمیع کیانه و کلّ شیء منه بالثروة! و أخیرا و طبقا لما نقلته التواریخ فإنّ النّبی الأکرم وزّع غنائم خیبر علی أهل الحدیبیّة فحسب، حتی الذین لم یشترکوا فی خیبر و کانوا فی الحدیبیّة جعل لهم النّبی سهما من غنائم خیبر، و بالطبع لم یکن لهذا المورد أکثر من مصداق واحد و هو «جابر بن عبد اللّه الأنصاری»[۴۴۵].

و استکمالا لهذا البحث فإنّ الآیة التالیة تقترح علی المخلّفین عن الحدیبیّة اقتراحا و تفتح علیهم باب العودة فتقول: قُلْ لِلْمُخَلَّفِینَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلی قَوْمٍ أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ یُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِیعُوا یُؤْتِکُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا کَما تَوَلَّیْتُمْ مِنْ قَبْلُ یُعَذِّبْکُمْ عَذاباً أَلِیماً.

فمتی ما ندمتم عن أعمالکم و سیرتکم السابقة و رفعتم الید عن عبادة الدنیا و طلب الراحة، فینبغی أن تؤدّوا امتحان صدقکم فی المیادین الصعبة و أن تسهموا فیها مرّة أخری، و إلّا فإنّ اجتناب المیادین الصعبة، و المساهمة فی الغنائم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۴

و میادین الراحة غیر مقبول بأی وجه و دلیل علی نفاقکم أو ضعف إیمانکم و جبنکم.

الطریف هنا أنّ القرآن کرر التعبیر بالمخلّفین فی آیاته، و بدلا من الاستفادة من الضمیر فقد عوّل علی الاسم الظاهر.

و هذا التعبیر خاصة جاء بصیغة اسم المفعول «المخلّفین» أی المتروکین وراء الظهر، و هو إشارة إلی أنّ المسلمین المؤمنین حین کانوا یشاهدون ضعف هؤلاء و تذرعهم بالحیل کانوا یخلّفونهم وراء ظهورهم و لا یعتنون أو یکترثون بکلامهم! و یسرعون إلی میادین الجهاد!.

و لکنّ من هم هؤلاء القوم المعبّر عنهم ب «أولی بأس شدید» فی الآیة و أی جماعة هم؟! هناک کلام بین المفسّرین ...

و جملة تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ یُسْلِمُونَ تدلّ علی أنّهم لیسوا من أهل الکتاب، لأنّ أهل الکتاب لا یجبرون علی قبول الإسلام، بل یخیّرون بین قبوله أو دفع الجزیة و الحیاة مع المسلمین علی شروط أهل الذمّة.

و إنّما الذین لا یقبل منهم إلّا الإسلام هم المشرکون و عبدة الأصنام فحسب، لأنّ الإسلام لا یعترف بعبادة الأصنام دینا و یری انّه لا بدّ من إجبار الناس علی ترک عبادتها.

و مع الالتفات إلی أنّه لم تقع معرکة مهمّة فی عصر النّبی بعد حادثة الحدیبیّة مع المشرکین سوی فتح مکّة و غزوة حنین، فیمکن أن

تكون الآية المتقدّمة إشارة إلى ذلك و خاصّة غزوة حنين لأنّها اشترك فيها أولو بأس شديد من «هوازن» و «بنى سعد».

و ما يراه بعض المفسّرين من احتمال أنّ الآية تشير إلى غزوة (مؤتة) التى حدثت مع أهل الروم فهذا بعيد، لأنّ أهل الروم كانوا كتابيين.

و احتمال أنّ المراد منها الغزوات التى حدثت بعد النّبى و من جملتها غزوة

فارس و اليمامة، فهذا أبعد بكثير، لأنّ لحن الآيات مشعر بأنّ الحرب ستقع فى زمان النبىّ و لا يلزمنا أبدا أن نطبّق ذلك على الحروب التى حدثت بعده، و يظهر أنّ للدوافع السياسية أثرا فى بعض الأفكار المفسّرين فى هذه القضية!.

و هنا ملاحظة جديرة بالتأمّل و هى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يعدهم بالقول أنّهم سيغنمون فى الحروب و المعارك المقبلة، لأنّ الهدف من الجهاد ليس كسب الغنائم بل المعوّل عليه هو ثواب اللّه العظيم و هو عادة إنّما يكون فى الدار الآخرة! و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو أنّ الآية (۸۳: من سورة التوبة تردّ ردّا قاطعا على هؤلاء المخلّفين فتقول: فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ

فى حين أنّ الآية محل البحث تدعوهم إلى الجهاد و القتال فى ميدان صعب سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ. فما وجه ذلك؟

و لكن مع الالتفات إلى الآية (۸۳) فى سورة التوبة تتعلق بالمخلّفين فى معركة تبوك الذين قطع النّبى الأمل منهم، أمّا الآية محل البحث فتتحدّث عن المخلّفين عن الحديبيّة، و ما يزال النّبى يأمل فيهم المشاركة، فيتّضح الجواب على هذا الاشكال!.

و حيث أنّ من بين المخلّفين ذوى أعذار لنقص عضوى فى أبدانهم أو لمرض و ما الى ذلك فلم يقدروا على الاشتراك فى الجهاد، و لا ينبغى أن نجحد حقهم، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تبيّن أعذارهم و خاصّة أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ جماعة من المعوّقين جاؤوا إلى النّبى بعد نزول الآية و تهديدها للمخلّفين بقولها يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً، فقالوا: يا رسول اللّه ما هى مسئوليتنا فى هذا الموقع؟

فنزل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

و ليس الجهاد وحده مشروطا بالقدرة، فجميع التكاليف الإلهيّة هى سلسلة من

الشرائط العامة و من ضمنها الطاقة و القدرة، و كثيرا ما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا المعنى و فى الآية (۲۸۶) من سورة البقرة نقرأ تعبيرا كليا عن هذا الأصل و هو:

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

و هذا الشرط ثابت بالأدلة النقلية و العقليّة!.

و بالطبع فإن هذه الجماعة و إن كانت معذورة من الاشتراك فى ميادين الجهاد، إلّا أنّ عليها أن تساهم بمقدار ما تستطيع لتقوية قوى الإسلام و تقدّم الأهداف الإلهية كما نقرأ ذلك فى الآية (۹۱) من سورة التوبة: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ

أى أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يؤدّوا عملا بأيديهم، فلا ينبغى أن يألوا جهدا فيما يقدرون عليه و لا يعتذروا بألسنتهم عنه، و هذا التعبير الطريف يدلّ على أنه لا ينبغى الإغماض عن القدرات أبدا، و بتعبير آخر أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يشاركوا فى الجبهة فعلى الأقل عليهم أن يحكموا المواضع الخلفية للجبهة! و لعلّ الجملة الأخيرة فى الآية محل البحث تشير أيضا إلى هذا المعنى فتقول:

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً.

و هذا الاحتمال وارد أيضا، و هو أنّ بعض الأفراد فى المواقع الاستثنائية يعتذرون عن المساهمة [و يسيئون فهم النص فالقرآن هنا

یحذّرهم أنّهم إذا لم یکونوا معذورین واقعا فإنّ اللّه أعدّ لهم عذابا ألیما.

و من نافلة القول أنّ کون المریض و الأعمی و الأعرج معذورین خاص بالجهاد، أمّا فی الدفاع عن حمی الإسلام و البلد الإسلامی و النفس فیجب أن یدافع کلّ بما وسعه، و لا استثناء فی هذا المجال!***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۷

الآیتان [سورة الفتح (۴۸): الآیات ۱۸ الی ۱۹]

اشارة

لَقَدْ رَضِیَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبایِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِی قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّکِینَةَ عَلَیْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِیباً (۱۸) وَ مَغانِمَ کَثِیرَةً یَأْخُذُونَها وَ کانَ اللَّهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۱۹)

التّفسیر

رضی اللّه عن المشرکین فی بیعة الرضوان:

ذکرنا آنفا أنّه فی الحدیبیّة جری حوار بین ممثلی قریش و النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کان من ضمن السفراء «عثمان بن عفان» الذی تشدّه أواصر القربی بأبی سفیان، و لعلّ هذه العلاقة کان لها أثر فی انتخابه ممثلا عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فبعثه إلی أشراف مکّة و مشرکی قریش لیطلعهم علی أنّ النّبی لم یکن یقصد الحرب و القتال بل هدفه زیارة بیت اللّه و احترام الکعبة المشرّفة بمعیة أصحابه ... إلّا أنّ قریشا أوقفت عثمان مؤقتا و شاع علی أثر ذلک بین المسلمین أنّ عثمان قد قتل!

فقال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: لا أبرح مکانی هذا حتی أقاتل عدوّی!

ثمّ جاء إلی شجرة هناک فطلب من المسلمین تجدید البیعة تحتها، و طلب منهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۸

أن لا یقصّروا فی قتالهم المشرکین و أن لا یولّوا أدبارهم من ساحات القتال [۴۴۶].

فبلغ صدی هذه البیعة مکّة و اضطربت قریش من ذلک بشدّة و أطلقوا عثمان.

و کما نعرف فإنّ هذه البیعة عرفت ببیعة الرضوان و قد أفزعت المشرکین و کانت منعطفا فی تاریخ الإسلام.

فالآیتان محل البحث تتحدّثان عن هذه القصة فتقول الأولی: لَقَدْ رَضِیَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِینَ إِذْ یُبایِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

و الهدف من هذه البیعة الانسجام أکثر فأکثر بین القوی و تقویة المعنویات و تجدید التعبئة العسکریة و معرفة الأفکار و اختبار میزان التضحیة من قبل المخلصین الأوفیاء! و هذه البیعة أعطت روحا جدیدا فی المسلمین لأنّهم أعطوا أیدیهم إلی النبی و أظهروا وفاءهم من أعماق قلوبهم.

فأعطی اللّه هؤلاء المؤمنین المضحّین و المؤثرین علی أنفسهم نفس رسول اللّه فی هذه اللحظة الحسّاسة و الذین بایعوه تحت الشجرة أعطاهم أربعة أجور، و من أهمّ تلک الأجور و الاثابات الأجر العظیم و هو «رضوانه» کما عبّرت عنه الآیة (۷۲) من سورة التوبة وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَکْبَرُ ... أیضا.

ثمّ تضیف الآیة قائلة: فَعَلِمَ ما فِی قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّکِینَةَ عَلَیْهِمْ

سکینة و اطمئنانا لا حدّ لهما، و هم بین سیل الأعداء فی نقطة بعیدة عن الأهل و الدیار و العدو مدجّج بالسلاح، فی حین أن المسلمین

عزّل من السلاح «لأنّهم جاؤوا بقصد العمرة لا من أجل المعركة» فوقفوا كالجبل الأشم لم يجد الخوف طريقا إلى قلوبهم!.

و هذا هو الأجر الثّانى و الموهبة الإلهية الأخرى، و أساسا فإنّ الألطاف الخاصة و الإمدادات الإلهية تشمل حال المخلصين و الصادقين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۹

لذلك فإنّنا نقرأ حديثا

عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه!: «إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول يا ربّ ارزقنى حتى افعل كذا و كذا من البرّ و وجوه الخير فإذا علم اللّه عزّ و جلّ ذلك منه بصدق نيّته كتب اللّه له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله إنّ اللّه واسع كريم»[۴۴۷].

و فى ذيل هذه الآية إشارة إلى الأجر الثّالث إذ تقول الآية: وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً.

أجل، هذا الفتح و هو فتح خيبر كما يقول أغلب المفسّرين [و إن كان يرى بعضهم أنّه فتح مكّة] هو ثالث أجر و ثواب للمؤمنين المؤثرين، المضحّين.

و التعبير ب «قريبا» تأييد على أنّ المراد منه «فتح خيبر»، لأنّ هذا الفتح حدث و تحقّق بعد بضعة أشهر من قضيّة الحديبيّة و فى بداية السنة السابعة للهجرة! و الأجر الرابع أو النعمة الرابعة التى كانت على أثر بيعة الرضوان من نصيب المسلمين كما تقول الآية التالية هى: وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها.

و واحدة من هذه الغنائم الكثيرة هى «غنائم خيبر» التى وقعت فى أيدى المسلمين بعد فترة قصيرة من قضية الحديبيّة، و مع الالتفات إلى ثروة اليهود الكثيرة جدّا تعرف أهمية هذه الغنائم.

إلّا أنّ تحديد هذه الغنائم بغنائم خيبر لا دليل قطعى عليه، و يمكن عدّ الغنائم الأخرى التى وقعت فى أيدى المسلمين خلال الحروب الإسلامية بعد فتح (الحديبيّة) فى هذه الغنائم الكثيرة! و حيث أنّ على المسلمين أن يطمئنوا بهذا الوعد الإلهى اطمئنانا كاملا فإنّ الآية تضيف فى الختام: وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

فإذا ما أمركم فى الحديبيّة أن تصالحوا فإنّما هو على أساس من حكمته، حكمة كشف عن إسرارها الأستار مضى الزمن، و إذا ما وعدكم بالفتح القريب و الغنائم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۰

الكثيرة فهو قادر على أن يلبس وعده ثياب الإنجاز و التحقّق! و هكذا فإنّ المسلمين المضحّين الأوفياء أولى الإيمان و الإيثار اكتسبوا فى ظل بيعة الرضوان فى تلك اللحظات الحسّاسة انتصارا فى الدنيا و الآخرة، فى حين أنّ المنافقين الجهلة و ضعاف الإيمان احترقوا بنار الحسرات! و نختم حديثنا بكلام لأمير المؤمنين عليه السّلام حيث يتحدّث عن بسالة المسلمين الأوائل و ثباتهم و جهادهم الذى لا نظير له و يخاطب ضعاف الإيمان موبّخا إيّاهم على خذلانهم

فيقول: «فلمّا رأى اللّه صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت و أنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقيا جرانه و متبوّئا أوطانه و لعمرى لو كنّا نأتى ما أتيتم. ما قام للدين عمود. و لا اخضرّ للإيمان عود و أيم اللّه لتحتلبنّها دما و لتتبعنّها ندما!»[۴۴۸].

***

بحث

البيعة و خصوصيّاتها!

«البيعة» من مادة «بيع» و هى فى الأصل إعطاء اليد عند إقرار المعاملة. ثمّ أطلق هذا التعبير على مدّ اليد على المعاهدة، و هكذا كانت

حين كان الشخص يريد أن يعلم الآخر بوفائه له و أن يطيع أمره و يعرفه رسميّا فيبايعه و يمدّ له يده، و لعلّ إطلاق هذه الكلمة من جهة أنّ كلّا من الطرفين يتعهّد كما يتعهّد ذوا المعاملة فيما بينهما، و كان المبايع مستعدا أحيانا أن يضحّى بروحه أو بماله أو بولده فى سبيل الطاعة! و الذى يقبل البيعة يتعهّد على رعايته و حمايته و الدفاع عنه! ...

يقول «ابن خلدون» فى مقدمة تأريخه فى هذا الصدد «كانوا إذا بايع الأمير جعل أيديهم فى يده تأكيدا فأشبه ذلك فعل البائع و المشترى»[۴۴۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۱

و تدل القرائن على أنّ البيعة ليست من إبداعات المسلمين، بل هى سنّة متّبعة بين العرب قبل الإسلام، و لهذا السبب فإنّ طائفة من «الأوس و الخزرج» جاءوا فى بداية الإسلام خلال موسم الحج من المدينة لى مكّة و بايعوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى العقبة، و كان تعاملهم فى قضية البيعة يوحى بأنّها أمر معروف، و بعدها و خلال فرص و مناسبات متعدّدة جدّد النّبى البيعة مع المسلمين، و كانت إحداها هذه البيعة التى عرفت ببيعة الرضوان فى الحديبيّة، و أوسع منها البيعة التى كانت عند فتح مكّة، و سيأتى بيانها و شرحها فى تفسير «سورة الممتحنة» بإذن اللّه! و لكن كيف تتم البيعة؟! .. بصورة عامّة تتمّ البيعة كما يلى:

يمدّ المبايع يده إلى يد المبايع و يبدى الطاعة و الوفاء بلسان الحال أو المقال! ..

و ربّما ذكر شروطا أو حدودا لبيعته كأن يعقد البيعة على بذل ماله! أو بذل روحه أو بذل جميع الأشياء حتى الولد و المرأة! و قد تقع البيعة أحيانا على أن لا يفرّ المبايع أبدا أو أن يبقى على عهده و بيعته حتى الموت «و كان هذان المعنيان جميعا فى بيعة الرضوان كما صرّحت بذلك التواريخ».

و كان النّبى الكريم يقبل بيعة النساء أيضا لكن لا على أن يمددن أيديهنّ إلى يده الكريمة بل كان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده فى طرف منه و تدخل يدها فى طرف آخر.

و كان يشترط فى البيعة أحيانا على عمل معيّن أو ترك عمل معيّن كما اشترط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم على النساء المبايعات له بعد مكّة على ألّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ ...[۴۵۰].

و على كلّ حال فإنّ فى أحكام البيعة بحوثا مختلفة نشير إليها هنا على نحو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۲

الإيجاز و الاختصار و إن كانت مسائل هذا البحث محاطة بهالة من الإبهام فى الفقه الإسلامى:

۱- «ماهية البيعة» نوع من العقد و المعاهدة بين المبايع من جهة و المبايع من جهة أخرى، و محتواها الطاعة و الإتّباع و الدفاع عن المبايع، و لها درجات طبقا للشروط الذى يذكرونها فيها: و يستفاد من لحن الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية أنّ البيعة نوع من العقد اللازم من جهة المبايع، و يجب العمل طبقا لما بايع عليه، و يكون مشمولا بالقانون الكلّى «أوفوا بالعقود» فعلى هذا لا يحقّ للمبايع الفسخ، و لكن المبايع له أن يفسخ البيعة إن وجد فى الأمر صلاحا و فى هذه الصور يتحرر للمبايع من بيعته ۴۵۱].

۲- و يرى البعض أنّ البيعة شبيهة بالانتخابات أو نوعا منها، فى حين أنّ الانتخابات على العكس منها تماما، أى أنّ ماهيتها نوع من إيجاد المسؤولية الوظيفة و المقام للمنتخب، أو بتعبير آخر هى نوع من التوكيل فى عمل ما بالرغم من أنّ الانتخاب يقتضى وظائف على المنتخب أيضا «كسائر الوكالات» فى حين أنّ البيعة ليست كذلك! و بتعبير آخر إنّ الانتخابات تعنى إعطاء «المقام» و كما قلنا هى شبيهة بالتوكيل فى حين أنّ البيعة تعهد بالطاعة! و من الممكن أن يتشابه كلّ من البيعة و الانتخاب فى بعض الآثار، لكن هذا التشابه لا يعنى وحدة المفهوم و الماهية أبدا ..

و لذلك لا يمكن للمبايع أن يفسخ البيعة، فى حين أنّ المنتخبين لهم الحق فى الفسخ فى كثير من المواطن بحيث يستطيع جماعة ما

أن یعزلوا المنتخب

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۳

«فلاحظوا بدقة»! ۳- و بالنسبة للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومین المنصوبین من قبل اللّه تعالی لا حاجة لهم بالبیعة، أی أنّ طاعة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الإمام المعصوم و المنصوب من قبل اللّه واجبة سواء علی من بایع أو لم یبایع! و بتعبیر آخر: إنّ لازم مقام النبوّة و الإمامة وجوب الطاعة كما یقول القرآن الكریم: أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۴۵۲].

لكن ینقدح هنا هذا السؤال و هو إذا كان الأمر كذلك فعلام أخذ النّبی من أصحابه- البیعة كرارا- أو المسلمین الجدد، و قد ورد فی القرآن الإشارة إلی حالتین منها بصراحة إحداهما «بیعة الرضوان»- محل البحث- و الأخری «البیعة مع أهل مكّة» المشار إلیها فی سورة الممتحنة!.

و فی الإجابة علی هذا السؤال نقول: لا شك أنّ هذه المبایعات كانت نوعا من التأكید علی الوفاء، و قد أدیّت فی ظروف خاصة و لا سیما فی مواجهة الأزمات و الحوادث الصعبة لتنبض فی ظلّها روح جدیدة فی الأفراد كما وجدنا تأثیرها المذهل فی بیعة الرضوان فی البحث السابق!.

إلّا أنّه فیما یتعلّق بمبایعة الخلفاء فقد كانت البیعة علی أساس أنّها قبول لمقام الخلافة و إن كنّا لا نعتقد بخلافة من یخلف النّبی و التی تؤخذ البیعة لها عن طریق الناس، بل هی من قبل اللّه و تتحقّق بالنص من قبل النّبی أو الإمام السابق علی اللاحق! و من هذا المنطلق فإنّ البیعة التی بایعها المسلمین لعلی علیه السّلام أو للحسن أو الحسین علیهما السّلام فیها (جنبة) تأكید علی الوفاء و هی شبیهة ببیعة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

۴- هل البیعة فی العصر الحاضر مقبولة علی أنّها أصل إسلامی، أو بتعبیر آخر:

هل یمكن تعمیم البیعة، و هل للجماعة الفلانیة أن تختار شخصا لائقا و واجدا

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۴

للشرائط الشرعیة كأن یكون آمرا للقوات المسلّحة أو رئیسا للجمعیة أو رئیسا للحكومة فتبایعه؟ فهل أنّ مثل هذه البیعة مشمول بأحكام الشارع للبیعة؟! و حیث أنّه لا یوجد عموم و لا إطلاق فی القرآن و السنّة فی خصوص البیعة فمن المشكل تعمیم هذه المسألة و إن كان الاستدلال بعموم الآیة أَوْفُوا بِالْعُقُودِ غیر بعید! و لكن مع هذا الإبهام فی المسائل المرتبطة بالبیعة فإنّ هناك مانعا من أن نعوّل بصورة قطعیة علی أَوْفُوا بِالْعُقُودِ و خاصة أنّنا لا نجد فی الفقه أی مورد للبیعة لغیر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الإمام المعصوم.

و ینبغی الالتفات إلی هذه «اللطیفة» و هی أن مقام نیابة الولیّ الفقیه فی نظرنا مقام منصوص علیه من قبل الأئمة المعصومین علیهم السّلام و لا حاجة له بالبیعة و بالطبع فإنّ اتباع الناس للولی الفقیه و طاعتهم له یمنحه الإمكان من الاستفادة من هذا المقام و یعطیه- كما هو مصطلح علیه- بسط الید، لكنّ هذا لا یعنی أنّ مقامه مشروط بتبعیّة الناس له، ثمّ إنّ اتباع الناس إیّاه لا علاقة له بالبیعة، بل هو عمل بحكم اللّه فی شأن ولایة الفقیه «فلاحظوا بدقّة».

۵- و علی كلّ حال فإنّ البیعة مرتبطة بالمسائل الإجرائیة و لا علاقة لها بالأحكام، أی إنّ البیعة لا تمنح أحدا حق «التشریع و التقنین» أبدا ... بل یجب أن تؤخذ القوانین من الكتاب و السنّة ثمّ تنفذ فی حیّز الواقع، و لا كلام لأحد فی هذا.

۶- یستفاد من الرّوایات أنّ البیعة مع الإمام المعصوم ینبغی أن تكون خالصة للّه، و بتعبیر آخر هی من الأمور التی یلزم فیها قصد القربة.

فقد ورد عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «ثلاثة لا یكلمهم اللّه عزّ و جلّ یوم القیامة و لا ینظر إلیهم و لا یزكّیهم و لهم عذاب ألیم، رجل بایع إماما لا یبایعه إلّا للدنیا، إن أعطاه ما یریده و فی له و إلّا كفّ و رجلا بایع رجلا بسلعته بعد العصر فحلف باللّه

عزّ و جلّ لقد أعطى بها كذا و كذا فصدّقه و أخذها و لم يعط فيها ما قال

و رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل»[۴۵۳].

«و التعبير بالعصر لعلّه لشرف هذا الوقت أو لأنّ كثيرا من الباعة يبيعون أجناسهم بالقيمة التى اشتروها فى هذا الوقت».

۷- «نكث البيعة» من الذنوب الكبيرة، و نقرأ

حديثا عن الإمام موسى بن جعفر أنّه قال: «ثلاث موبقات، نكث الصفقة، و ترك السنّة، و فراق الجماعة»[۴۵۴].

و يظهر أنّ المراد من «ترك السنّة» هى ترك القوانين التى جاء بها النّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و فراق الجماعة معناها الإعراض عنها لا محض عدم المشاركة فى الجماعة.

۸- البيعة فى كلام الإمام على عليه السّلام هناك فى نهج البلاغة كلمات تؤكّد على البيعة و قد عوّل الإمام على عليه السّلام عليها مرارا و أنّ الناس بايعوه.

و من جملتها

أنّه قال فى بعض خطبه: «أيّها الناس إنّ لى عليكم حقّا و لكم علىّ حق فأمّا حقكم علىّ فالنصيحة لكم و توفير فيئكم عليكم و تعليمكم كيلا تجهلوا و تأديبكم كيما تعلموا» ثمّ يضيف عليه السّلام: «و أمّا حقى عليكم فالوفاء بالبيعة و النصيحة بالمشهد و المغيب و الإجابة حين أدعوكم و الطاعة حين أمركم»[۴۵۵].

و

يقول عليه السّلام- فى مكان آخر: «لم تكن بيعتكم إيّاى فلتة»[۴۵۶].

و فى خطبته التى خطبها قبل حرب الجمل و التحرّك من المدينة نحو البصرة أشار الى بيعة الناس إيّاه و أن يثبتوا على ما بايعوه فقال عليه السّلام: «و بايعنى الناس غير

مستكرهين و لا مجبرين بل طائعين مخيّرين»[۴۵۷].

و نقرأ أخيرا فى بعض كتبه لمعاوية حين لم يبايع الإمام عليّا و كان يريد الانتقاد من

على عليه السّلام قوله: «بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر و عمر و عثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار و لا للغائب أن يرد»[۴۵۸].

و يستفاد من بعض عبارات النهج أنّ البيعة ليست أكثر من مرة واحدة و لا سبيل لتجديد النظر فيها و ليس فيها اختيار الفسخ، و من يخرج منها فهو طاعن، و من يتريث و يفكر فى قبولها أو ردّها فهو منافق.

[إنّها بيعة واحدة لا يثنّى فيها النظر و لا يستأنف فيها الخيار؛ الخارج منها طاعن و المروّى فيها مداهن [۴۵۹].

و يستفاد من مجموع هذه التعابير أنّ الإمام عليه السّلام استدلّ على من لم يقبلوا بأنّ إمامته منصوص عليها من قبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- و كانوا يتذرّعون بحجج واهية- بالبيعة التى كانت عندهم من المسلم بها، و لم تكن لهم الجرأة على أن يرفضوا طاعة الإمام و يسمعوا لمعاوية و أمثال معاوية، فكما أنّهم يرون مشروعية الخلافة للخلفاء الثلاثة السابقين، فعليهم أن يعتقدوا بأنّ خلافة الإمام مشروعة أيضا و أن يذعنوا له «بل إنّ خلافته أكثر شرعية لأنّ بيعته كانت أوسع و كانت حسب رغبة الناس و رضاهم».

فبناء على هذا لا منافاة بين الاستدلال بالبيعة و مسألة نصب الإمام بواسطة اللّه و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تأكيد البيعة.

لذلك فإنّ الإمام يشير فى مكان من (نهج البلاغة) نفسه بحديث الثقلين الذى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۷

هو من نصوص الإمامة[۴۶۰] كما يشير فی مكان آخر إلى مسألة الوصية و الوراثة[۴۶۱].

[فلاحظوا بدقّة].

كما يشير عليه السّلام فی بعض عباراته الأخرى إلى لزوم الوفاء بالبيعة و عدم إمكان الفسخ و النكث و تجديد النظر و عدم الحاجة إلى التكرار و هذه هی مسائل مقبولة بالنسبة للبيعة أيضا.

و يستفاد من هذه التعابير ضمنا بصورة جيّدة أنّ البيعة إذا كانت فيها «جنبة» إكراه أو إجبار أو أخذت على حين غرّة من الناس فلا عبرة بها و لا قيمة لها بل البيعة الحق التی تكون فی حال الاختيار و الحرية و الإرادة و التفكّر و التدبّر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۸

الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۰ الى ۲۱]

اشارة

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۲۰) وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۱)

التّفسير

من بركات صلح الحديبيّة مرّة أخرى!

تتحدّث هاتان الآيتان كالآيات السابقة المتعلّقة بصلح الحديبيّة و الوقائع التالية لها- عن البركات و ما حصل عليه المسلمون من غنائم فی هذا الطريق.

فتقول الآية الأولى منهما: وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ

و يدلّ لحن الآية أنّ المراد من المغانم الكثيرة هنا جميع المغانم التی جعلها اللّه للمسلمين سواء فی أمد قصير أم بعيد حتى أنّ جمعا من المفسّرين يعتقدون أنّ المغانم التی تقع فی أيدی المسلمين إلى يوم القيامة داخلة فی هذه العبارة أيضا.

أمّا قوله: فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ فيرى الكثير من المفسّرين أنّ المراد منه مغانم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۹

خيبر التی توفّرت خلال أمد قصير جدا بعد حادثة الحديبيّة! غير أنّ البعض يرى أنّ كلمة «هذه» إشارة إلى فتح الحديبيّة الذی يعدّ أكبر غنيمة معنوية! ..

ثمّ يشير القرآن إلى لطف آخر من ألطاف اللّه على المسلمين- فی هذه الحادثة- فيقول: وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ

و هذا لطف كبير أن يكون المسلمون على قلة العدد و العدد و فی نقطة نائية عن الوطن و فی مقربة من العدو- فی مأمن منه و أن يلقى اللّه رعبا و وحشة منهم فی قلوب الأعداء بحيث يخشون التحرش بهم!.

و يرى جماعة من المفسّرين أنّ هذه الجملة إشارة إلى ما جرى فی خيبر إذ كانت بعض القبائل من «بنی أسد» و «بنی غطفان» قد صمّموا أن يهجموا على المدينة فی غياب المسلمين و أن ينهبوا أموالهم و يأسروا نساءهم! أو أنّها إشارة إلى تصميم جماعة من هاتين القبيلتين على أن ينهضوا لنصرة يهود خيبر فألقى اللّه الرعب فی قلوبهم فصرفهم عن ذلك.

غیر أنّ التّفسیر الأوّل أنسب ظاهرا! لأنّنا نشاهد شرطا لهذا التعبیر بعد بضعة آیات ورد فی شأن أهل مکّة کما جاء فی الآیة محل البحث، و هو منسجم مع أسلوب القرآن الذی هو أسلوب إجمال و تفصیل! المهم أنّه طبقا للرّوایات المشهورة فإنّ سورة الفتح جمیعها نزلت بعد حادثة الحدیبیّة و خلال عودة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من مکّة إلی المدینة! ثمّ یضیف القرآن فی تکملة الآیة مشیرا إلی نعمتین کبریین أخریین من مواهب اللّه و نعمه إذ یقول: وَ لِتَکُونَ آیَةً لِلْمُؤْمِنِینَ وَ یَهْدِیَکُمْ صِراطاً مُسْتَقِیماً.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین یری أنّ الضمیر فی لتکون عائد علی الغنائم الکثیرة الموعودة، و بعضهم یراه عائدا علی حمایة المسلمین و کف أیدی الناس عنهم، غیر أنّ المناسب أن یعود الضمیر إلی جمیع حوادث الحدیبیة و مجریاتها بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۰

ذلک .. لأنّ کلّا منها آیة من آیات اللّه و دلیل علی صدق النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و وسیلة لهدایة الناس إلی الصراط المستقیم، و کان فی قسم منها (جنبة) أخبار بالمغیّبات، و کان بعضها لا ینسجم مع الظروف العادیة، و هی فی المجموع تعدّ معجزة واضحة من معاجز النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و فی الآیة التالیة أعطی اللّه بشارة أخری للمسلمین إذ قال: وَ أُخْری لَمْ تَقْدِرُوا عَلَیْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ کانَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیراً.

و هناک کلام بین المفسّرین فی أنّ هذا الوعد یشیر إلی أیة غنیمة؟ و الی أی نصر؟! یری بعضهم أنّه إشارة إلی فتح مکّة و غنائم حنین.

و یری آخرون أنّه إشارة إلی الفتوحات و الغنائم التی کانت نصیب المسلمین بعد النّبی (کفتح فارس و الروم و مصر) کما یحتمل أیضا أنّه إشارة لجمیع ما تقدّم ذکره ۴۶۲].

عبارة لَمْ تَقْدِرُوا عَلَیْها إشارة إلی أنّ المسلمین لم یحتملوا قبل ذلک أن یظفروا بمثل هذه الفتوحات و الغنائم، إلّا أنّه و ببرکة الإسلام و الإمدادات الإلهیة نالوا هذه القدرة و القوّة! و استنبط بعض المفسّرین من هذه الجملة أنّ المسلمین کانوا یتحدّثون عن مثل هذه الفتوحات، إلّا أنّهم کانوا یرون أنفسهم غیر قادرین و خاصّة أنّنا نقرأ فی قصة الأحزاب یوم بشّر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم المسلمین بفتح بلاد فارس و الروم و الیمن اتخذ المنافقون کلامه هزوا! و جملة قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها إشارة إلی إحاطة قدرة اللّه علی هذه الغنائم أو الفتوحات، و یری بعض المفسّرین أنّها إشارة إلی إحاطة علمه، غیر أنّ المعنی الأوّل أکثر انسجاما مع تعابیر الآیة الأخری، و بالطبع لا مانع فی الجمع بینهما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۱

و أخیرا فإنّ آخر جملة فی الآیة وَ کانَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیراً هی فی الحقیقة بمنزلة بیان العلة للجملة السابقة، و هی إشارة إلی أنّه مع قدرة اللّه علی کلّ شیء فلا عجب أن ینال المسلمون مثل هذه الفتوحات!.

و علی کلّ حال فإنّ الآیة من إخبار القرآن بالمغیّبات و الحوادث الآتیة، و قد حدثت هذه الفتوحات فی مدة قصیرة و کشفت عن عظمة هذه الآیات بجلاء!***

ملاحظة

قصة غزوة خیبر:

لمّا عاد النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من الحدیبیّة نحو المدینة أمضی شهر ذی الحجة کلّه و أیاما من شهر محرم الحرام من السنة السابعة للهجرة فی المدینة، ثمّ تحرّک بألف و أربعمائة نفر من المسلمین الذین کانوا حضروا الحدیبیّة نحو «خیبر» [حیث کان مرکزا

للتحرّكات المناوئة للإسلام و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يتحيّن الفرص لتدمير ذلك المركز للفساد].

و قد صمّمت قبيلة غطفان فى البداية أن تحمى يهود خيبر غير أنّها خافت بعدئذ عواقب أمرها (فاجتنبت حمايتها لهم).

فلمّا وصل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قريبا من قلاع خيبر أمر أصحابه أن يقفوا ثمّ رفع رأسه الشريف للسماء و دعا بهذا الدعاء: «اللّهمّ ربّ السماوات و ما أظللن و ربّ الأرضين و ما أقللن، نسألك خير هذه القرية و خير أهلها و نعوذ بك من شرّها و شرّ أهلها و شرّ ما فيها».

ثمّ قال صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «أقدموا بسم اللّه»،

و هكذا وصلوا خيبر ليلا و عند الصباح- حيث علم أهل خيبر بالخبر- وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل جنود الإسلام، ثمّ فتح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۲

النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم القلاع قلعة بعد اخرى حتى بلغ أقوى القلاع و أمنعها و آخرها و كان فيها «مرحب» قائد اليهود المعروف.

و فى هذه الأيّام أصاب رأس النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم وجع شديد كان ينتابه أحيانا حتى أنّه لم يستطع الخروج من خيمته- يوما أو يومين .. و فى هذه الأثناء و طبقا لما ورد فى التاريخ الإسلامى، حمل أبو بكر الراية فى يده و توجّه بالمسلمين نحو معسكر اليهود غير أنّه سرعان ما عاد و هو صفر اليدين دون نتيجة، و مرّة أخرى أخذ عمر الراية و حمل بالمسلمين بصورة أشد فما أسرع ما عاد دون جدوى ...

فلمّا بلغ الخبر مسمع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم

قال: «و اللّه لأعطينها غدا رجلا يحبّ اللّه و رسوله و يحبّه اللّه و رسوله يأخذها عنوة!».

فاشرأبت الأعناق من كلّ جانب ترى من هو المقصود، و قد حدس جماعة منهم أنّ مقصوده (على) عليه السّلام، إلّا أنّ عليا كان مصابا بوجع فى عينه فلم يكن حاضرا حينئذ، و لمّا كان الغد أمر النّبى بأن يدعو له عليا، فجاء راكبا على بعير له حتى أناخ قريبا من خباء رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو أرمد قد عصّب عينيه.

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: ما لك؟

قال على عليه السّلام: رمدت بعدك.

فقال له: أدن منى، فدنا منه، فتفل فى عينيه، فما شكا وجعا حتى مضى بسبيله.

ثمّ أعطاه الراية.

فتوجّه على عليه السّلام بجيش الإسلام نحو القلعة الكبرى (من خيبر) فرآه رجل يهودى من أعلى الجدار فسأله من أنت؟ فقال: أنا على بن أبى طالب. فنادى اليهودى: أيّتها الجماعة حان اندحاركم، فجاء «مرحب» آمر الحصن و نازل عليا فما كان إلّا أن هوى إلى الأرض صريعا بضربة على عليه السّلام، فالتحمت الحرب بين المسلمين و اليهود بشدّة فاقترب على عليه السّلام من باب الحصن فقلعه فدحاه فرماه بقوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۳

خارقة إلى مكان آخر، و هكذا فتحت القلعة و دخلها المسلمون فاتحين.

و استسلم اليهود و طلبوا من النّبى أن يحقن دماءهم لاستسلامهم، فقبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و غنم الجيش الإسلامى الغنائم المنقولة، و أودع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الأرض و الأشجار بأيدى اليهود على أن يعطوا المسلمين نصف حاصلها[۴۶۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۲ الى ۲۵]

اشارة

وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۲۲) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (۲۳) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۲۴) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۲۵)

التّفسير

لو حدثت الحرب فى الحديبيّة!؟

هذه الآيات تتحدّث أيضا عن أبعاد أخر لما جرى فى الحديبيّة و تشير إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۵

«لطيفتين» مهمّتين فى هذا الشأن! الأولى: هى أنّه لا- تتصوّروا أنّه لو وقعت الحرب بينكم و بين مشركى مكّة فى الحديبيّة لانتصر المشركون و الكفرة! وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

و ليس هذا منحصرا بكم بل: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

فهذا هو قانون إلهى دائم، فمتى واجه المؤمنون العدوّ بنيّات خالصة و قلوب طاهرة و لم يضعفوا فى أمر الجهاد نصرهم اللّه على عدوّهم، و ربّما حدث فى هذا الشأن إبطاء أو تعجيل لامتحان المؤمنين أو لأهداف أخرى، و لكنّ النصر النهائى على كل حال هو حليف المؤمنين ..

لكن فى موارد كمعركة أحد مثلا- حيث أنّ جماعة لم يتّبعوا أمر الرّسول و مالت طائفة منهم إلى الدنيا و زخرفها فلوّثت نياتها و عكفت على جمع الغنائم فإنّها ذاقت هزيمة مرّة، و هكذا بعد! اللطيفة المهمّة التى تبيّنها الآيات هى أن لا تجلس قريش فتقول: مع الأسف إنّنا لم نقاتل هذه الطائفة القليلة العدد، أسفا إذا بلغ «الصيد» مكّة فغفلنا عنه .. أبدا ليس الأمر كذلك .. فبالرغم من أنّ المسلمين كانوا قلّة و بعيدين عن الوطن و المأمن و فاقدين للأعتدة و المؤن. و لكن مع هذه الحال لو وقع قتال بين المشركين و المؤمنين لانتصر المؤمنون ببركة قوى الإيمان و نصر اللّه أيضا .. ألم يكونوا فى بدر أو الأحزاب قلة و أعداؤهم كثرة، فكيف انهزم الجمع و ولّوا الدبر فى المعركتين؟! و على كلّ حال فإنّ بيان هذه الحقيقة كان سببا لتقوية روحية المؤمنين و تضعيف روحية الأعداء و إنهاء القيل و القال من قبل المنافقين، و دلّ على أنّه حتى لو حدثت حرب فى هذه الظروف غير الملائمة بحسب الظاهر فإنّ النصر سيكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۶

حليف المؤمنين الخلّص! ..

و اللطيفة الأخرى التى بيّنتها هذه الآيات أنّها قالت: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً.

حقا .. كان ما حدث مصداقا جليّا «للفتح المبين» و نعم ما اختاره القرآن له من وصف، فالعدوّ الذى زحف بجيشه مرارا نحو المدينة و

سعى سعيا عجيبا لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، إلّا أنّه الآن حيث حطّوا أقدامهم فى حريمه و دياره يمتلكه الرعب منهم حتى أنّه يقترح الصلح معهم، فأىّ فتح مبين أكبر من هذا الفتح إذ ينال المسلمون هذا التفوّق على العدو دون أن تسفك قطرة دم واحدة من المسلمين!؟

و لا شكّ أنّ ما جرى فى الحديبيّة كان يعدّ فى جزيرة العرب عامة نصرا للمسلمين و هزيمة لقريش.

هذا و قد ذكر جماعة من المفسّرين فى نزول هذه الآية أنّ مشركى مكّة عبّؤوا أربعين رجلا للهجوم على المسلمين (بصورة خفية) فى الحديبيّة، غير أنّ المسلمين أفشلوا مؤامرتهم و أجهضوا مكيدتهم- بفطنتهم- فأسر المسلمون هؤلاء الأربعين جميعا و جاءوا بهم إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فخلّى عنهم سبيلهم.

و قال بعضهم: أنّهم كانوا ثمانين أرادوا أن يهجموا على المسلمين من جبل التنعيم عند صلاة الغداة و بالاستفادة من العتمة، و قال بعضهم: كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يستظلّ تحت الشجرة ليكتب معاهدة الصلح مع ممثل قريش و على مشغول بالإملاء، فحمل عليه ثلاثون شابّا من أهل مكّة بأسلحتهم و لكن بمعجزة مذهلة فشلت خطتهم و أسر جميعهم و خلّى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عنهم سبيلهم ۴۶۴].

و طبقا لشأن النّزول هذا فإنّ جملة مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۷

الإنتصار على هذه الطائفة، فى حين أنّه طبقا للتفسير السابق يكون المقصود هو النصر الكلّى للمسلمين على المشركين و هذا التّفسير أكثر انسجاما مع مفاد الآية ..

ممّا يستلفت النظر أنّ القرآن يؤكّد على عدم القتال فى بطن مكّة، و هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى لطيفتين:

الأولى: إنّ مكّة كانت مركزا لقوّة العدو، و على القاعدة كان على أهل مكّة [المشركين أن يغتنموا الفرصة المناسبة فيحملوا على المسلمين فقد كانوا يبحثون عنهم و عن فرصة للقضاء عليهم فإذا هم فى دارهم و فى قبضتهم فما كان ينبغى أن يتركوا هذه الفرصة بهذه البساطة، لكنّ اللّه سلب عنهم قدرتهم و صرفهم عنهم! الثانية: إنّ مكّة كانت حرم اللّه الآمن. فلو وقع القتال فيها لسألت الدماء فتهتك حرمة الحرم من جانب، و تكون عارا على المسلمين و عيبا أيضا. إذ سلبوا أمن هذه الأرض المقدّسة، و لذلك فإنّ من نعم اللّه على نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و على المسلمين أنّه و بعد هذه القضية بسنتين فتح عليهم مكّة و كان ذلك من دون سفك دم أيضا ..

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى لطيفة أخرى تتعلّق بمسألة صلح الحديبيّة و حكمتها إذ تقول الآية: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۴۶۵].

كان أحد ذنوبهم كفرهم، و الذنب الآخر صدّهم إيّاكم عن العمرة زيارة بيت اللّه و لم يجيزوا أن تنحروا الهدى فى محله، أى مكّة (الهدى فى العمرة ينحر [أو يذبح فى مكّة و فى الحج بمنى) على حين ينبغى أن يكون بيت اللّه للجميع و صدّ المؤمنين عنه من أعظم الكبائر، كما يصرّح القرآن بذلك فى مكان آخر من سورة:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ۴۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۸

و مثل هذه الذنوب يستوجب أن يسلّطكم اللّه عليهم لتعاقبوهم بشدّة! لكنّ اللّه تعالى لم يفعل ذلك فلما ذا؟! ذيل الآية يبيّن السبب بوضوح إذ يقول: وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۴۶۷] ..

و هذه الآية تشير إلى طائفة (من الرجال و النساء) المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام فى مكّة و لم يهاجروا إلى المدينة لأسباب خاصة.

فلو قاتل المسلمون أهل مكّة لأوقعوا أرواح هؤلاء المستضعفين فى خطر و لامتدت ألسنة المشركين بالقول: إنّ جنود الإسلام لم

يرحموا لا أعداءهم و مخالفيهم و لا أتباعهم و مؤالفيهم، و هذا عيب و عار كبير! و قال بعضهم أيضا، إنّ المراد من هذا العيب لزوم الكفارة و دية قتل الخطأ، لكنّ المعنى الأوّل أكثر مناسبة ظاهرا.

«المعرّة» من مادة «عرّ» على زنة «شرّ» «و العرّ على زنة الحر» فی الأصل معناه مرض الجرب و هو من الأمراض الجلدية التی تصيب الحيوانات أو الإنسان أحيانا ثمّ توسّعوا فی المعنى فأطلقوا هذا اللفظ على كلّ ضرر يصيب الإنسان.

و لإكمال الموضوع تضيف الآية: لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِی رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ.

أجل، كان اللّه يريد للمستضعفين المؤمنين من أهل مكّة أن تشملهم الرحمة و لا تنالهم أية صدمة ..

كما يرد هذا الاحتمال أيضا و هو أنّ أحد أهداف صلح الحديبيّة أنّ من المشركين من فيه قابلية الهداية فيهتدی ببركة هذا الصلح و يدخل فی رحمة اللّه.

و التعبير ب «من يشاء» يراد منه الذين فيهم اللياقة و الجدارة، لأنّ مشيئة اللّه تنبع من حكمته دائما، و الحكيم لا يشاء إلّا بدليل و لا يعمل عملا دون دقّة و حساب ..

و لمزيد التأكيد تضيف الآية الكريمة: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً أی لو افترقت و انفصلت صفوف المؤمنين و الكفار فی مكّة و لم يكن هناك

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۹

خطر على المؤمنين لعذّبنا الكفار بأيديكم عذابا أليما.

صحيح أنّ اللّه قادر على أن يفصل هذه الجماعة عن الآخرين عن طريق الإعجاز، و لكنّ سنّة اللّه- فی ما عدا الموارد الاستثنائية- أن تكون الأمور وفقا للأسباب العاديّة.

جملة «تزيلوا» من مادة زوال، و هنا معناها الانفصال و التفرّق.

و يستفاد من روايات متعدّدة منقولة عن طرق الشيعة و السنّة حول ذيل هذه الآية أنّ المراد منها أفراد مؤمنون كانوا فی أصلاب الكافرين و اللّه سبحانه لأجل هؤلاء لم يعذّب الكافرين ..

و من جملة هذه الروايات نقرأ

فی الرواية أنّه سأل رجل الإمام الصادق عليه السّلام: ألم يكن علی عليه السّلام قويا فی دين اللّه؟ قال عليه السّلام: بلى. فقال: فعلام إذ سلّط على قوم (فی الجمل) لم يفتك بهم فما كان منعه من ذلك؟! فقال الإمام: آية فی القرآن! فقال الرجل: و أية آية؟! فقال الصادق عليه السّلام قوله تعالى: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً ..

ثمّ أضاف عليه السّلام: أنّه كان للّه عزّ و جلّ و ودائع مؤمنون فی أصلاب قوم كافرين و منافقين، و لم يكن علی ليقتل الآباء حتى تخرج الودائع .. و كذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبدا حتى تظهر و ودائع اللّه عزّ و جلّ ۴۶۸].

أی أن اللّه سبحانه يعلم أنّ جماعة سيولدون منهم فی ما بعد و سيؤمنون عن اختيارهم و إرادتهم و لأجلهم لم يعذب اللّه ءاباءهم و قد أورد هذا القرطبی فی تفسيره بعبارة اخرى.

و لا يمنع أن تكون الآية مشيرة إلى المؤمنين المختلطين بالكفّار فی مكّة و إلى المؤمنين الذين هم فی أصلاب الكافرين و سيولدون فی ما بعد! ..

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۰

الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۲۶]

اشارة

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۲۶)

التّفسير

التعصّب «و حمية الجاهلية» أكبر سدّ فى طريق الكفّار:

هذه الآية تتحدّث مرّة أخرى عن (مجريات) الحديبيّة و تجسّم ميادين أخرى من قضيتها العظمى .. فتشير أوّلا إلى واحد من أهم العوامل التى تمنع الكفار من الإيمان باللّه و رسوله و الإذعان و التسليم للحق و العدالة فتقول: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ[۴۶۹].

و لذلك منعوا النّبى و المؤمنين أن يدخلوا بيت اللّه و يؤدّوا مناسكهم و ينحروا «الهدى» فى مكّة. و قالوا لو دخل هؤلاء- الذين قتلوا آباءنا و إخواننا فى الحرب-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۱

أرضنا و ديارنا و عادوا سالمين فما عسى أن تقول العرب فينا؟! و أية حيثية و اعتبار لنا بعد؟

هذا الكبر و الغرور و الحميّة- حمية الجاهلية- منعتهم حتى من كتابة «بسم اللّه الرحمن الرحيم» بصورتها الصحيحة عند تنظيم معاهدة صلح الحديبيّة، مع أنّ عاداتهم و سننهم كانت تجيز العمرة و زيارة بيت اللّه للجميع، و كانت مكّة عندهم حرما آمنا حتى لو وجد أحدهم قاتل أبيه فيها أو أثناء المناسك فلا يناله منه سوء و أذى لحرمة البيت عنده، فهؤلاء- بهذا العمل- هتكوا حرمة بيت اللّه و الحرم الآمن من جهة، و خالفوا سننهم و عاداتهم من جهة أخرى، كما أسدلوا ستارا بينهم و بين الحقيقة أيضا، و هكذا هى آثار حمية الجاهلية المميتة! «الحمية» فى الأصل من مادة حمى- على وزن حمد- و معناها حرارة الشمس أو النّار التى تصيب جسم الإنسان و ما شاكله، و من هنا سمّيت الحمّى التى تصيب الإنسان بهذا الاسم «حمّى» على وزن كبرى، و يقال لحالة الغضب أو النخوة أو التعصّب المقرون بالغضب حمية أيضا.

و هذه الحالة السائدة فى الأمم هى بسبب الجهل و قصور الفكر و الانحطاط الثقافى خاصة بين «الجاهليين» و كانت مدعاة لكثير من الحروب و سفك الدماء! ..

ثمّ تضيف الآية الكريمة- و فى قبال ذلك- فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ..

هذه السكينة التى هى وليدة الإيمان و الإعتقاد باللّه و الاعتماد على لطفه دعتهم الى الاطمئنان و ضبط النفس و أطفأت لهب غضبهم حتى أنّهم قبلوا- و من أجل أن يحفظوا و يرعوا أهدافهم الكبرى- بحذف جملة «بسم اللّه الرحمن الرحيم» التى هى رمز الإسلام فى بداية الأعمال و أن يثبتوا- مكانها «بسمك اللّهمّ» التى هى من موروثات العرب السابقين- فى أوّل المعاهدة و حذفوا حتى لقب «رسول اللّه» التى يلى اسم محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۲

و قبلوا بالعودة إلى المدينة من الحديبيّة دون أن يستجيبوا لهوى عشقهم بالبيت و يؤدّوا مناسك العمرة! و نحروا هديهم خلافا للسنّة التى فى الحج أو العمرة فى المكان ذاته و أحلّوا من إحرامهم دون أداء المناسك! ..

أجل، لقد رضوا بمرارة أن يصبروا إزاء كلّ المشاكل الصعبة، و لو كانت فيهم حميّة الجاهلية لكان واحد من هذه الأمور الآنفة كفيلا أن يشعل الحرب بينهم فى تلك الأرض! أجل .. إنّ الثقافة الجاهلية تدعو إلى «الحمية» و «التعصّب» و «الحفيظة الجاهلية»، غير أنّ

الثقافة الإسلامیة تدعو إلی «السکینة» و «الاطمئنان» و «ضبط النفس».

ثمّ یضیف القرآن فی هذا الصدد قائلا: وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَةَ التَّقْوی وَ کانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها ..

(کلمة) هنا بمعنی «روح»، و معنی الآیة أنّ اللّه ألقی روح التقوی فی قلوب أولئک المؤمنین و جعلها ملازمة لهم و معهم، کما نقرأ- فی هذا المعنی- أیضا الآیة (۱۷۱) من سورة النساء فی شأن عیسی بن مریم إذ تقول الآیة: إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ

و احتمل بعض المفسّرین أنّ المراد من «کلمة التقوی» ما أمر اللّه به المؤمنین فی هذا الصدد! إلّا أنّ المناسب هو «روح التقوی» التی تحمل مفهوما تکوینیا، و هی ولیدة الإیمان و السکینة و الالتزام القلبی بأوامر اللّه سبحانه، لذا ورد فی بعض الروایات عن النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ المراد بکلمة التقوی هو کلمة لا إله إلّا اللّه ۴۷۰]، و فی روایة عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه فسّرها بالإیمان ۴۷۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۳

و نقرأ

فی بعض خطب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «نحن کلمة التقوی و سبیل الهدی»[۴۷۲]

و شبیه بهذا التعبیر ما

نقل عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام قوله: «و نحن کلمة التقوی و العروة الوثقی»[۴۷۳]!

و واضح أنّ الإیمان بالنبوّة و الولایة مکمل للإیمان بأصل التوحید و معرفة اللّه لأنّهما جمیعا داعیان إلی اللّه و منادیان للتوحید.

و علی کلّ حال فإنّ المسلمین لم یبتلوا فی هذه اللحظات الحسّاسة بالحمیّة و العصبیة و النخوة و الحفیظة، و ما کتب اللّه لهم من العاقبة المشرفة فی الحدیبیّة لم تمسسه نار الحمیة و الجهالة! لأنّ اللّه یقول: وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَةَ التَّقْوی وَ کانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها.

و بدیهی أنّه لا ینتظر من حفنة عتاة و جهلة و عبدة أصنام سوی (حمیّة الجاهلیة) و لا ینتظر من المسلمین الموحّدین الذین تربّوا سنین طویلة فی مدرسة الإسلام مثل هذا الخلق و الطباع الجاهلیة، ما ینتظر منهم هو الاطمئنان و السکینة و الوقار و التقوی، و ذلک ما أظهروه فی الحدیبیّة و لکن بعض حادیّ الطبع و المزاج أوشکوا علی کسر هذا السدّ المنیع بما یحملوه من أنفسهم من ترسبات الماضی و أثاروا البلبلة و الضوضاء، غیر أنّ سکینة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و وقاره کانا کمثل الماء المسکوب علی النّار فأطفأها! و تختتم الآیة بقوله سبحانه: وَ کانَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً. فهو سبحانه یعرف نیّات الکفّار السیئة و یعرف طهارة قلوب المؤمنین أیضا فینزل السکینة و التقوی علیهم هنا، و یترک أولئک فی غیّهم و حمیّتهم حمیّة الجاهلیة، فاللّه یشمل کلّ قوم و أمّة بما تستحقّه من اللطف و الرحمة أو الغضب و النقمة!***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۴

ملاحظة

ما هی حمیّة الجاهلیة؟!

قلنا أنّ «الحمیّة» فی الأصل من مادة «حمی» و معناها الحرارة، ثمّ صارت تستعمل فی معنی الغضب، ثمّ استعملت فی النخوة و التعصّب الممزوج بالغضب أیضا ..

و هذه الکلمة قد تستعمل فی هذا المعنی المذموم «مقرونة بالجاهلیة أو بدونها» بعض الأحیان، و قد تستعمل فی المدح حینا آخر،

فتکون عندئذ بمعنی التعصّب فی الأمور الإیجابیة البنّاءة!

یقول الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام حین انتقده بعض أصحابه الضعاف المعاندین:

«منیت بمن لا یطیع إذا أمرت و لا یجیب إذا دعوت أما دین یجمعکم و لا حمیّة تحشمکم»[۴۷۴].

غیر أنّ هذه الکلمة غالبا ما ترد فی الذم کما

ذکرها الإمام علی علیه السّلام مرارا فی خطبته القاصعة ذامّا بها إبلیس أمام المستکبرین: «صدّقه به أبناء الحمیة و أخوان العصبیة و فرسان الکبر و الجاهلیة»[۴۷۵].

و فی مکان آخر من هذه الخطبة یقول محذّرا من العصبیات الجاهلیة:

«فأطفئوا ما کمن فی قلوبکم من نیران العصبیة و أحقاد الجاهلیة فإنّما تلک الحمیة تکون فی المسلم من خطرات الشیطان و نخواته و نزعاته و نفثاته»[۴۷۶].

و علی کلّ حال فلا شکّ أنّ وجود مثل هذه الحالة فی الفرد أو المجتمع باعث علی تخلّف ذلک المجتمع و تکبیل العقل و الفکر الإنسانی و منعه من الإدراک الصحیح و التشخیص السالم .. و ربّما تذر جمیع مصالحه مع الریاح! ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۵

و أساسا فإنّ انتقال السنن الخاطئة من جیل لآخر و من قوم لآخرین ما کان إلّا فی ظل هذه الحمیّة المشؤومة، و مقاومة الأمم للأنبیاء و القادة غالبا ما تکون عن هذه السبیل أیضا ..

ینقل عن الإمام علی بن الحسین حین سئل عن «العصبیة» أنّه قال علیه السّلام: «العصبیة التی یأثم علیها صاحبها أن یری شرار قومه خیرا من خیار قوم آخرین و لیس من العصبیة أن یحب الرجل قومه و لکن من العصبیة أن یعین قومه علی الظلم»[۴۷۷].

إنّ خیر سبیل لمقاومة هذه السجیة السیئة و النجاة من هذه المهلکة العظمی السعی و الجد لرفع المستوی الثقافی و الفکری و إیمان کلّ قوم و جماعة ..

و فی الحقیقة إنّ القرآن عالج هذا المرض بالآیة المتقدّمة- محل البحث- حیث یتحدّث عن المؤمنین ذوی السکینة و التقوی، فحیث توجد التقوی فلا توجد حمیّة الجاهلیة، و حیث توجد حمیّة الجاهلیة فلا تقوی و لا سکینة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۶

الآیة [سورة الفتح (۴۸): آیة ۲۷]

اشارة

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِکَ فَتْحاً قَرِیباً (۲۷)

التّفسیر

رؤیا النّبی الصادقة:

هذه الآیة- أیضا- ترسم جانبا آخر من جوانب قصة الحدیبیّة المهمّة، و القصة کانت علی النحو التالی:

رأی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی المدینة رؤیا أنّه یدخل مکّة مع أصحابه لأداء مناسک العمرة، فحدّث أصحابه عن رؤیاه

فسرّوا جميعا، غير أنّه لمّا كان جماعة من أصحابه يتصوّرون أنّ تعبير الرؤيا سيتحقق فى تلك السنة ذاتها و منعهم المشركون من الدخول إلى مكّة أصابهم الشك و التردّد .. ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا النّبى غير صادقة؟ ألم يكن البناء أن نعتمر هذا العام؟! فأين هذا الوعد؟ و أين صارت هذه الرؤيا الرحمانية؟! فكان جواب النّبى لهم: هل قلت لكم أنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۷

فنزلت الآية الآنفة فى هذا الصدد و النّبى عائد من الحديبية إلى المدينة و أكّدت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة و لا بدّ أنّها كائنة ... تقول الآية: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِ ۴۷۸] فما رآه النّبى فى المنام كان حقّا و صدقا.

ثمّ تضيف الآية قائلة: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا و كان فى هذا التأخير حكمة:

فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً.

***

ملاحظات

اشارة

و فى الآية الكريمة عدّة ملاحظات تلفت النظر:

۱- ينبغى الالتفات إلى أنّ «اللام» فى لَتَدْخُلُنَّ هى لام القسم، و أنّ «النون» فى آخر الفعل هى للتوكيد، بأنّ هذا هو وعد إلهى قطعى فى المستقبل و تنبؤ معجز صريح عن أداء المناسك و العمرة فى كامل الأمان و منتهى الطمأنينة- و كما سنبيّن- كان هذا التوقّع و التنبؤ صادقا فى شهر ذى القعدة ذاته من السنة المقبلة، و هكذا أدّى المسلمون مناسك العمرة بهذه الصورة! ۲- جملة إِنْ شاءَ اللَّهُ هنا لعلّها نوع من تعليم العباد لكى يعوّلوا على مشيئة اللّه عند الإخبار عن المستقبل و أن لا ينسوا إرادة اللّه، و أن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلّين عنه. و ربّما هى إشارة للظروف التى يهيّؤها اللّه لهذا التوفيق «توفيق اللّه المسلمين لزيارة بيته فى المستقبل القريب» و البقاء على خط «التوحيد و السكينة و التقوى» ...

كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض المسلمين الذين تنتهى أعمارهم فى هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۸

الفترة و الفاصلة الزمانية و لا يوفّقون إلى زيارة بيت اللّه، و الجمع بين هذه المعانى كلها لا مانع منه أبدا ...

۳- التعبير ب فَتْحاً قَرِيباً كما يعتقد كثير من المفسّرين هو إشارة إلى صلح الحديبيّة الذى عبّر عنه القرآن بالفتح المبين، و نعرف أنّ هذا الفتح كان السبيل إلى دخول المسجد الحرام فى السنة التالية.

على حين أنّ جماعة آخرين يعتقدون أنّ فَتْحاً قَرِيباً إشارة إلى «فتح خيبر».

و بالطبع فإنّ كلمة (قريبا) فيها تناسب أكثر مع «فتح خيبر» لأنّه كان- «تحقّقه العينى» بعد هذه الرؤيا فى فترة أقل زمنا من فتح مكّة بعدها، ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن يقول فى الآية (۱۸) من هذه السورة ذاتها عند الكلام على بيعة الرضوان: فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً. و كما قلنا- و يعتقد بذلك أكثر المفسّرين أيضا- أنّ المراد من هذا الفتح هو «فتح خيبر» و القرائن الموجودة فى الآية تحكى عن هذا الفتح أيضا، و مع الالتفات إلى أنّ الآية محل البحث تنسجم مع تلك الآية فيبدو أنّ الآيتين بمعنى واحد ...[۴۷۹].

و فى تفسير على بن إبراهيم رواية تشير إلى هذا المعنى أيضا[۴۸۰].

۴- جملة «محلّقين رؤوسكم و مقصّرين» إشارة إلى واحد من مناسك العمرة و آدابها و هو «التقصير» و به يخرج المحرم من إحرامه و قد استدل بعضهم بالآية فی التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير فی تقليم الأظافر الحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجبا قطعا.

۵- جملة «فعلم ما لم تعلموا» إشارة إلى مسائل مهمّة مطوية فی صلح الحديبيّة و قد انكشفت بمرور الزمن- إذ قويت قواعد الإسلام و انتشر صوته و ترامت

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۹

اصداؤه فی كلّ مكان و طويت نزعة الحرب عند المسلمين و استطاعوا أن يفتحوا «خيبر» بفارغ البال و قرار البلبال، و أرسلوا المبلّغين إلى أطراف الجزيرة العربيـة و بعث النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم رسائله إلى أعظم رؤوساء الدول آنئذ، فهذه مسائل كان الفرد المسلم لا يعرفها لكنّ اللّه كان يعلمها ...

۶- نواجه فی هذه الآية الكريمة موضوع الرؤيا، و هی رؤيا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الصادقة التی تعدّ (غصنا من غصون الوحی و هی مشابهة لقصة رؤيا إبراهيم عليه السّلام و ذبح ولده إسماعيل الواردة فی سورة الصافات (الآية ۱۰۲).

«و لمزيد الإيضاح و تفصيل البيان حول الرؤيا و تعبير الأحلام من المناسب مراجعة تفسير سورة يوسف فی هذا التّفسير».

۷- الآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التی أخبر عنها القرآن، و هی شاهد على أنّ هذا الكتاب سماوىّ و أنّه من معاجز النّبى الكريم حيث يخبر قاطعا عن أداء مناسك العمرة و دخول المسجد الحرام فی المستقبل القريب و عن الفتح القريب قبله أيضا، و كما نعلم أنّ هذين التنبّؤين قد حدثا فعلا، و قد ذكرنا قصة «فتح خيبر» و الآن نتحدّث عن قصة «عمرة القضاء»:

***

عمرة القضاء:

عمرة القضاء هی العمرة التی أدّاها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه بعد صلح الحديبيّة بعام، أی فی ذی القعدة من السنة السابعة للهجرة (على وجه الدقّة بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرّسول و أصحابه مكّة).

و تسمية «عمرة القضاء» بهذا الاسم لأنّها فی الحقيقة تعد قضاء عن السنة السابقة ...

و توضيح ذلك: أنّه طبقا لإحدى مواد معاهدة الحديبيّة أصبح من المقرر أن

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۰

يؤدّی المسلمون العمرة و زيارة بيت اللّه فی العام المقبل على أن لا- يمكثوا فی مكّة أكثر من ثلاثة أيام، و فی الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّة و رؤساء قريش أيضا، لئلا- يقع نزاع محتمل بين الطرفين و لئلا- يروا المسلمين يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر العبادة «التوحيدية».

و قد ورد فی بعض التواريخ أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أحرم فی السنة المقبلة مع أصحابه و الجمال المساقة للهدى و تحرّكوا جميعا حتى بلغوا أطراف «الظهران» و نواحيه فأرسل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ما كان عنده من أسلحة و خيول تستلفت النظر مع أحد أصحابه و اسمه «محمّد بن مسلمة» فلمّا رأى المشركون هذه الخطة فزعوا و خافوا خوفا شديدا و ظنّوا أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يريد أن يقاتلهم و ينقض المعاهدة الممضاة لعشر سنين و أخبروا أهل مكّة بذلك.

غير أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حين وصل منطقة قريبة من مكّة أمر أن توضع الأسلحة من السهام و الرماح و غيرها من الأسلحة فی منطقة تدعى «ياجج»، و دخل هو و أصحابه مكّة بالسيوف المغمدة.

فلمّا رأى أهل مكّة من النّبى ما رأوا فرحوا إذ وفى النّبى بوعده [فكأنّ النبى باقدامه هذا أنذر المشركين أن لو نقضوا العهد و أرادوا

أن ینازلوا المسلمین فهم علی أتم الاستعداد].

فخرج رؤوساء مکّهٔ منها لئلّا تتأثر عواطفهم و قلوبهم بهذه «المناظر» و لا تثیرهم مناسک العمرهٔ من قبل المسلمین.

غیر أنّ بقیهٔ أهل مکّهٔ من الرجال و النساء و الأطفال اجتمعوا فی السطوح و حول الکعبهٔ و خلال الطریق لیروا کیف یؤدّی المسلمون مناسکهم ...

فدخل النّبی مکّهٔ بهذه الأبّههٔ الخاصهٔ و کانت معه جمال کثیرهٔ مسوقهٔ للهدی فعامل أهل مکّهٔ بمنتهی اللطف و المحبّهٔ و أمر المسلمین أن یسرعوا أثناء الطواف و أن یزیحوا الإحرام عن أکتافهم قلیلا لتبدو علائم القدرهٔ و القوّهٔ فیهم و أن تترک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۱

هذه الحالهٔ فی أفکار أهل مکّهٔ و أنفسهم تأثیرا کبیرا و دلیلا حیّا علی قوهٔ المسلمین و حکمتهم! و علی کلّ حال فإنّ «عمرهٔ القضاء» کانت عبارهٔ کما کانت فی الوقت ذاته عرضا «للعضلات المفتولهٔ» و ینبغی القول أنّ «فتح مکّهٔ» الذی تحقّق بعد سنهٔ أخری کان قد نثر بذره فی هذه السنهٔ و هیّأ الأرضیهٔ لاستسلام أهل مکّهٔ للفاتحین (المسلمین).

و کان هذا الأمر مدعاهٔ لقلق رؤساء قریش إلی درجهٔ أنّهم بعثوا رجلا بعد مضی ثلاثهٔ أیّام إلی النّبی یطلب منه أن یغادر بسرعهٔ هو و أصحابه مکّهٔ طبقا للمعاهدهٔ ...

الطریف هنا أنّ النّبی تزوّج أرملهٔ من نساء قریش و کانت من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفین و ذلک لیشدّ أواصره بهم و یخفّف من غلوائهم و بغضائهم.

و حین سمع النّبی اقتراحهم بالمغادرهٔ

قال: «ما علیکم لو ترکتمونی فأعرست بین أظهرکم فصنعنا لکم طعاما فحضر تموه».

قالوا: لا حاجهٔ لنا فی طعامک فاخرج عنّا.

و لو کان تمّ ذلک لکان له أثره فی نفوذ أمر النّبی فی قلوبهم غیر أنّهم لم یقبلوا ذلک منه [۴۸۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۲

الآیتان [سورهٔ الفتح (۴۸): الآیات ۲۸ الی ۲۹]

اشارهٔ

هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً (۲۸) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ یُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِیَغِیظَ بِهِمُ الْکُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِیماً (۲۹)

التّفسیر

أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ رُحَماءُ بَیْنَهُمْ

فی هاتین الآیتین اللتین بهما تنتهی سورهٔ الفتح إشارهٔ إلی مسألتین مهمّتین من «الفتح المبین» أی «صلح الحدیبیّهٔ» إحداهما تتعلّق بعالمیّهٔ الإسلام و الثانیهٔ تتعلّق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۳

بأوصاف أصحاب النّبی و خصائصهم و ما وعدهم اللّه سبحانه به! فالأولی منهما تقول: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً.

و هذا وعد صریح و قاطع من اللّه سبحانه فی غلبة الإسلام و ظهوره علی سائر الأدیان.

أی لا تعجبوا لو أخبرکم اللّه عن طریق رؤیا نبیّه محمّد بالانتصار و أن تدخلوا المسجد الحرام بمنتهی الأمان و تؤدّوا مناسک العمرة دون أن یجرأ أحد علی إیذائکم، کما لا تعجبوا أن یبشّرکم اللّه بالفتح القریب- فتح خیبر «فأوّل الغیث قطرة» و سیکون الإسلام باسطا ظلاله فی أرجاء المعمورة و یظهر علی جمیع الأدیان ...

و لم لا یکون کذلک و محتوی دعوة النّبی هدایة اللّه إذ «أرسله بالهدی» و دینه «دین الحق» و یستطیع کلّ ناظر غیر منحاز أن یری حقّانیته فی آیات القرآن و أحکام الإسلام الفردیّة و الاجتماعیة و القضائیة و السیاسیة! و کذلک تعلیماته الأخلاقیة و الإنسانیة. و أن یعرف علاقة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم باللّه حقّا من خلال إخباره بالمغیّبات و تنبّؤاته التی تقع فی المستقبل بصورة قاطعة.

أجل: إنّ منطق الإسلام المتین و محتواه الغنی الغزیر یطهّر الأرض من أدیان الشرک الملوّثة، و تخضع له الأدیان السماویة المحرّفة الأخری و أن یشدّ بأسلوبه الشائق [۴۸۲] القلوب إلیه.

و لکن ما المراد ب «الظهور علی الدین کلّه»؟ أهو الظهور المنطقی؟! أم الظهور (و الغلبة) العسکریان؟! هناک اختلاف بین المفسّرین ..

یعتقد جماعة منهم أنّ هذا الظهور هو الظهور المنطقی و الاستدلالی فحسب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۴

و هذا الأمر متحقق، لأنّ الإسلام متفوّق من حیث الاستدلال و القدرة المنطقیة علی جمیع الأدیان.

و لکنّ جماعة آخرین فسّروا هذا الظهور بالغلبة الظاهریة و غلبة القوة، و موارد استعمال کلمة «یظهر» و مشتقاتها أیضا دلیل علی الغلبة الخارجیة ... و لهذا یمکن القول أنّه بالإضافة إلی نفوذ الإسلام فی مناطق کثیرة واسعة من الشرق و الغرب و هی تحت لوائه الیوم و تدین به أکثر من أربعین دولة إسلامیة بنفوس یقدّر إحصاؤها بأکثر من ملیارد نسمة فإنّه سیأتی زمان علی الناس یستوعب الإسلام جمیع أرجاء المعمورة «رسمیّا» و سیکتمل هذا الأمر بظهور المهدی أرواحنا فداه إن شاء اللّه.

و کما

نقل عن بعض أحادیث النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لا یبقی علی ظهر الأرض بیت مدر و لا وبر إلّا أدخله اللّه کلمة الإسلام»[۴۸۳].

و سبق أن بحثنا فی هذا المجال فی نفس هذا التّفسیر ذیل الآیة (۳۳) من سورة التوبة المشابهة لهذه الآیة محل البحث.

و هنا ملاحظة تلتفت النظر إلیها و هی أنّ البعض ذهب إلی أنّ التعبیر بالهدی إشارة الی استحکام العقائد الإسلامیة، فی حین أنّ التعبیر ب «دین الحق» ناظر إلی حقّانیة فروع الدین، إلّا أنّه لا دلیل لدینا علی هذا التقسیم، و الظاهر أنّ الهدایة و الحقّانیة هما فی الأصول و الفروع معا ...

و فی عود الضمیر فی «لیظهره» هل یعود علی الإسلام أم علی النبی؟ للمفسّرین احتمالان، إلّا أنّ القرائن تدل بوضوح علی أنّ المقصود هو دین الحق، لأنّه قریب من الضمیر، هذا من حیث النظم و السبک اللغوی، کما أنّ المناسب ظهور الدین علی الدین الآخر لا ظهور الشخص علی الدین- أیضا-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۵

و آخر ما نرید بیانه فی شأن هذه الآیة أنّ جملة کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً إشارة إلی هذه الحقیقة و هی أنّ هذا التوقع أو التنبّؤ لا یحتاج إلی أی شاهد، لأنّ شاهده اللّه، و رسالة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا لا تحتاج إلی شاهد آخر، لأنّ الشاهد هو اللّه أیضا، و

إذا لم یوافق سهیل بن عمرو و أمثاله علی کتابة عنوان (رسول اللّه) بعد اسم النّبی محمّد فلیس ذلک مدعاة للتأثر أبدا.

و فی آخر آیة وصف بلیغ لأصحاب النّبی الخاصّین و الذین کانوا علی منهاجه علی لسان التوراة و الإنجیل و هو مدعاة افتخار لهم إذ أبدوا شهامتهم و رجولتهم فی الحدیبیّة و المراحل الأخر کما أنّه درس اختبار لجمیع المسلمین علی مدی القرون و الأعصار! ...

فتقول الآیة فی البدایة: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

سواء رضی به خفافیش اللیل کسهیل بن عمرو أم لم یرض به؟! و اخفوا أنفسهم عن هذه الشمس التی أشرقت علی العالم أجمع أم لم یخفوا؟! فاللّه یشهد علی رسالته و یشهد بذلک العارفون.

ثمّ تصف الآیة أصحابه و خلالهم (و سجایاهم) الباطنیة و الظاهریة ضمن خمس صفات إذ تقول فی وصفهم: وَ الَّذِینَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ.

و صفتهم الثانیة أنّهم: رُحَماءُ بَیْنَهُمْ

أجل: هم منطلق للمحبّة و الرحمة فیما بینهم کما أنّهم نار ملتهبة و سد محکم بوجه أعدائهم الکفّار ...

و فی الحقیقة أنّ عواطفهم و أفکارهم تتلخّص فی هاتین الخصلتین: «الرحمة» و «الشدّة» ... لکن لا تضادّ فی الجمع بینهما أوّلا، و لا رحمتهم فیما بینهم و شدّتهم علی الکفّار تقتضی أن تحید أقدامهم عن جادّة الحق ثانیا ...

ثمّ تضیف الآیة مبیّنة وصفهم الثّالث فتقول: تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً.

هذا التعبیر یجسد العبادة برکنیها الأساسیین: «الرکوع و السجود» علی أنّها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۶

حالة دائمیة لهم، العبادة التی هی رمز للتسلیم أمام أمر اللّه الحق، و نفی الکبر و الغرور و الأنانیة عن وجودهم.

أمّا الوصف الرابع الذی تذکره الآیة عن هؤلاء الأصحاب فهو بیان نیّتهم الخالصة الطاهرة فتقول: یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً فهم لا یعملون ریاء و لا- یبتغون من الخلق الثواب، بل هدفهم رضا اللّه و فضله فحسب، و الباعث علی تحرّکهم فی حیاتهم جمیعا هو هذا الهدف لیس إلّا! ...

حتی التعبیر ب «فضلا» یدل علی أنّهم معترفون بتقصیرهم و یرون أعمالهم أقل من أن یطلبوا الثواب من اللّه، بل إنّهم مع کلّ عبادتهم و أعمالهم الصالحة ما یزالون قائلین: لو لا فضلک یا ربّنا فالویل لنا ...

أمّا الوصف الخامس فهو عن سیماهم المشرق إذ تقول الآیة: سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ[۴۸۴].

«سیما» فی الأصل معناها العلامة و الهیأة، سواء أ کانت هذه العلامة فی الوجه أم فی مکان آخر و إن کانت فی الاستعمال العرفی تشیر إلی علامة الوجه! و الأثر الظاهریّ له ...

و بعبارة أخری أنّ قیافتهم تدلّ بصورة جیدة أنّهم أناس خاضعون أمام اللّه و الحق و القانون و العدالة، و لیست العلامة فی وجوههم فحسب، بل فی جمیع وجودهم و حیاتهم تبدو هذه العلامة ...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین یری بأنّ «السیماء» هی الأثر الظاهر فی الجبهة من السجود أو أثر التراب علیها من مکان السجدة ... غیر أنّ هذه الآیة کما یظهر لها مفهوم أوسع ترتسم ملامحه علی وجوه هؤلاء الرجال الربّانیین ...

و قال بعضهم: هذه الآیة إشارة إلی إشراق وجوههم یوم القیامة کالبدر من کثرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۷

سجودهم ...

و بالطبع یمکن أن تکون جباههم و وجوههم علی هذه الهیّأة یوم القیامة إلّا أنّ الآیة تتحدّث عن وضعهم الظاهری فی الدنیا ...

و قد ورد فی حدیث عن الإمام الصادق فی تفسیر هذه الجملة أنّه قال: «هو السهر فی الصلاة!»[۴۸۵].

و لا مانع من الجمع بین هذه المعانی کلّها! ...

و علی کلّ حال فإنّ القرآن یضیف بعد بیان هذه الأوصاف: ذلِکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْراةِ! فهذه حقیقة مقولة قبلا و أوصاف وردت فی کتاب سماوی نزل منذ أکثر من ألفی عام ...

و لکن لا ینبغی أن ننسی أنّ التعبیر ب وَ الَّذِینَ مَعَهُ یحکی عن معیّة النّبی فی کلّ شیء، فی الفکر و العقیدة و الأخلاق و العمل لا عن أولئک الذین کانوا فی عصره- و إن اختلفوا و إیّاه فی المنهج.

ثمّ یتحدّث القرآن عن وصفهم فی کتاب سماوی کبیر آخر و هو الإنجیل فیقول:

وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِیلِ کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ یُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ۴۸۶].

«الشطأ»: معناه الفسیل أو البرعم الذی یخرج إلی جانب الساق الأصلی للزرع ... و «آزره» مشتقّ من المؤازرة أی المعاونة.

و «استغلظ» مشتقّ من مادة الغلظة، أی أنّه متین ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۸

و جملة «استوی علی سوقه» مفهومها أنّ هذا الزرع بلغ قدرا من المتانة بحیث ثبت علی سیقانه: و «سوق» جمع ساق- و التعبیر ب «یعجب الزرّاع» یعنی أنّ هذا الزرع یکون سریع النمو کثیر البراعم وافر النتاج إلی درجة یسرّ به الزراع و یعجبون منه، و الطریف أنّ وصفهم الثّانی فی الإنجیل جاء علی خمسة أمور أیضا هی:

۱- أخراج الشطأ. ۲- و المؤازرة للنموّ. ۳- و الاستغلاظ. ۴- و الإستواء.

۵- و النمو المعجب.

و فی الحقیقة إنّ أوصافهم المذکورة فی «التوراة» تتحدّث عن أبعاد وجودهم من جهة العواطف و الأهداف و الأعمال و صورتهم الظاهریة ...

و أمّا الأوصاف الواردة فی «الإنجیل» فهی تتحدّث عن حرکتهم و نموّهم و تکاملهم فی جوانب مختلفة (فلاحظوا بدقة).

أجل هم أناس متّصفون بصفات علیا لا یفترون عن الحرکة لحظة واحدة ...

و تتنامی براعمهم دائما و یثمرون و یتآزرون کلّ حین ... و ینشرون الإسلام بأقوالهم و أعمالهم فی العالم و یوما بعد یوم یزداد عددهم فی المجتمع الإسلامی! ...

أجل، إنّهم لا- یتکاسلون فی حرکتهم المتّجهة إلی الإمام دائما، و هم فی حال عبادتهم مجاهدون، و فی حال جهادهم عابدون ظاهرهم سوی، و باطنهم سلیم، و عواطفهم صادقة، و نیّاتهم خالصة، و هم مظهر غضب اللّه بوجه أعداء الحق، و مظهر الرحمة بوجه إخوانهم.

ثمّ تضیف الآیة معقّبة: أنّ هذه الأوصاف العلیا و هذا النمو و التکامل السریع و هذه الحرکة المبارکة بقدر ما تعجب المحبّین و تسرّهم فهی فی الوقت ذاته:

لِیَغِیظَ بِهِمُ الْکُفَّارَ[۴۸۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۹

و یضیف القرآن مختتما هذه الآیة المبارکة: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِیماً.

بدیهی أنّ أوصاف أصحاب النّبی التی وردت فی بدایة الآیة محل البحث جمعت فیها الإیمان و العمل الصالح، فتکرار هذین الوصفین إشارة إلی استمرارهما و دیمومتهما: أی أنّ اللّه وعد أولئک الذین بقوا علی نهجهم من أصحاب محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم و استمروا بالإیمان و العمل الصالح، و إلّا فإنّ من کان یوما مع النّبی و یوما آخر مع سواه و علی خلاف طریقته فلا یشملون بهذا الوعد أبدا.

و التعبير ب «منهم» مع الالتفات إلى هـذه المسألـة، و هى أنّ الأصل فى كلمـة «من» فى مثل هـذه الموارد التبعيض، و ظاهر الآية يعطى هـذا المعنى أيضا، و هـذا التعبير يـدلّ على أنّ أصـحاب النّبى ينقسـمون قسـمين- فطائفة منهم- يواصـلون إيمانهم و عملهم الصالح و تشملهم رحمة اللّه الواسعة و أجره العظيم، و طائفة يحيدون عن نهجه فيحرمون من هذا الفيض العظيم! ...

و ليس معلوما السبب فى إصرار بعض المفسّرين على أنّ «من» فى كلمة «منهم» بيانيّة حتما، فى حين لو ارتكبنا خلاف الظاهر و قلنا إنّ من هنا بيانية فكيف يمكن أن ندع القرائن العقلية هنا، فلا أحد يدّعى أبدا أنّ جميع أصـحاب النّبى معصومون و فى هذه الصورة يزول احتمال أنّ كلّ واحـد منهم بقى على عمله الصالـح و إيمانه، و مع هـذه الحال فكيف يعـدهم اللّه بالمغفرة و الأجر العظيم دون قيـد و شرط سواء عملوا الصالحات فى طول مسيرتهم، أو أن يعملوا الصالحات فى وقت، ثمّ ينحرفوا من منتصف الطريق! ...

و هـذه اللطيفـة تسـتدعى الالتفـات و هى أنّ جملـة: وَ الَّذِينَ مَعَهُ لاـ تعنى المرافقـة الجسديـة مع النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و المصاحبة الجسمانية لأنّ المنافقين كانوا على هذه الشاكلة أيضا ... بل المراد من «معه» هو المعيّة من جهة أصول الإيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۰

و التقوى قطعا ... فبناء على هذا لا يمكننا أن نسـتنتج حكما كليّا من الآية الآنفة فى شأن جميع المعاصرين و المجالسين للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ...

***

بحثان

۱- قصة تنزيه الصحابة!

المعروف بين علمـاء أهـل السـنّة أنّ صـحابة رسول اللّه جميعـا أولو امتياز خاص دون سائر الناس من أمّـة محمّـد فهم مطهّرون أزكياء معصومون من الزلـل و ليس لنـا الحق فى انتقاص أى منهم أو انتقاده و يحرم الإساءة إليهم بالكلام و غيره، حتى أنّ بعضـهم قال بكفر من يفعل ذلك و اسـتدلّوا على ذلك بآيات من الـذكر الحكيم منها هـذه الآية: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً ...

و بالآية (۱۰۰) من سورة التوبة إذ تعبّر عن المهاجرين و الأنصار بعد ذكرهم فى آيات سابقة بقولها: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ...

و لكنّنا إذا ابتعدنا عن الأحكام المسـبقة الاعتباطية، فسنجد أمامنا قرائن تتزلزل عندها هذه العقيدة! الأولى: إنّ جملة: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ الواردة فى سورة التوبـة لاـ تخصّ المهـاجرين و الأنصـار فحسب، لأـنّ فى الآيـة تعبيرا آخر و هو: وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ يشمل كلّ من يتّبعهم بالإحسان و الصلاح إلى يوم القيامة ...

فكما أنّ «التابعين» إذا كانوا فى خط الإيمان يوما و فى خط الكفر و الإساءة يوما آخر يخرجون من خيمة رضا اللّه، فإنّ الموضوع ذاته وارد فى الصـحابة لأنّهم فى آخر سورة الفتـح مقيّـدون بالإيمان و العمل الصالـح أيضا بحيث لو خرجوا عن هذا القيد و لو يوما واحدا لخرجوا عن رضوان اللّه سبحانه ...

و بتعبير آخر: إنّ كلمة «بإحسان» هى فى شأن التابعين و المتبوعين جميعا، فأى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۱

منهما خرج عن خطّ الإحسان فلن يشمله رضا اللّه و لطفه ...

الثانية: أنّه يستفاد من الروايات الإسـلامية أنّ أصـحاب النّبى و إن امتازوا بشـرف صحبته، إلّا أنّ من يأتى بعدهم فى الفترات المقبلة و

هم ذوو عمل صالح و إيمان راسخ أفضل منهم من جهة واحدة و هى أنّ أصحاب النّبى شهدوا معاجزه بجميع أنواعها غير أنّ الآخرين اتبعوا منهاجه دون مشاهدتها و ساروا على هداه بالإفادة من الدلائل الأخر ...

و نقرأ

فى بعض أحاديث النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه سأله أصحابه: «نحن إخوانك يا رسول اللّه؟! قال: لا أنتم أصحابى، و إخوانى الذين يأتون بعدى. آمنوا بى و لم يرونى، و قال: للعامل منهم أجر خمسين منكم، قالوا: بل منهم يا رسول اللّه؟! قال: بل منكم ردّدها ثلاثا، ثمّ قال: لأنّكم تجدون على الخير أعوانا»[۴۸۸].

كما

نقل فى صحيح مسلم عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «وددت أنّا قد رأينا إخواننا، قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول اللّه؟! فقال: أنتم أصحابى و إخواننا الذين لم يأتوا بعد»[۴۸۹].

و يؤيّد العقل و المنطق هذه المقولة أيضا حيث إنّ من لم يدركوا رسول اللّه و لم يتعلّموا بين يديه و هم فى الوقت ذاته مثل أصحابه من حيث الإيمان و العمل الصالح فهم أفضل من الصحابة ...

الثالثة: إنّ هذا الكلام من وجهة النظر التاريخية مقدوح فيه كثيرا لأنّ بعض الصحابة بعد زمان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بل حتى فى عصره حاد عن جادّة الصواب ...

فكيف يمكن أن نبرّئ الذين أشعلوا نار فتنة «الجمل» و قتلوا ما قتلوا و حملوا على خليفة رسول اللّه حقّا بالسيف و لا نعدّهم آثمين خاطئين ...

أو أن نقول إنّ الذين اجتمعوا فى النهروان و صفّين و ثاروا على وصى رسول اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۲

و خليفته المنتخب من قبل المسلمين و سفكوا الدماء الغزيرة مشمولون برضوان اللّه و لا غبار عليهم من الذنب و الإثم؟! و أعجب من ذلك كله أن يعتذر- عن أولئك الذين أخطأوا كلّ هذه الأخطاء و فعلوا ما فعلوا- بأنّهم مجتهدون، و المجتهد معذور! هكذا وجّهوا الأمر!! و إذا أمكن أن توجّه أمثال هذه الذنوب الكبيرة على أنّها اجتهاد فلا مجال لملامة أى قاتل، و لا داعى لإقامة حدود اللّه فى شأنه!! فلعلّه اجتهد فأخطأ!! ...

و بتعبير آخر: أنّه قد تقابلت فى معركة الجمل و صفّين و النهروان طائفتان متحاربتان و من المسلّم به قطعا أنّهما لم تكونا جميعا على الحق، لأنّ الجمع بين الضدّين محال، فمع هذا التقدير كيف يمكن القول بأنّ الطائفتين كلتيهما مشمولتان برضا اللّه، و المسألة لم تكن من المسائل العويصة الملتوية و لم يكن التمييز بين الحق و الباطل صعبا و لا مشكلا ... فالجميع كانوا يعرفون أنّ عليا عليه السّلام أمّا طبقا لنص النّبى عليه أو بانتخاب المسلمين هو الخليفة الحق و مع هذا فقد واجهوه بالسيف، فكيف يوجه هذا العمل عن طريق الاجتهاد؟

و لم لا يوجّهون قيام «أصحاب الردّة» فى زمان أبى بكر عن طريق الاجتهاد و عدوّهم مرتدّين رسما ... غير أنّهم برّأوا أصحاب الجمل و صفّين و النهروان من أى ذنب و إثم!!؟

و على كلّ حال ... يبدو أنّ مسألة «تنزيه الصحابة» بصورة مطلقة كانت حكما سياسيا لتحفّظ جماعة بعد النّبى موقعها و تعوّل على هذا الحكم، و تصون نفسها من الانتقاد ...

و هذا الموضوع لا ينسجم مع حكم العقل و لا مع التواريخ الإسلامية المسلّم بها ...

و ما أحسن أن نحتكم فى شأن أصحاب النّبى فى الوقت الذى نجلّهم و نحترمهم ذاته- إلى معيار يقضى عليهم بالحق من خلال أعمالهم و عقائدهم عبر حياتهم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۳

البدایة حتی النهایة، ذلک المعیار الذی أفدناه من القرآن الکریم و ذلک المعیار الذی وزن النّبی به صحابته ...

۲- المحبّة الإسلامیة المتبادلة

فی الروایات الإسلامیة الواردة فی تفسیر الآیة الأخیرة من سورة الفتح تأکید لا مزید علیه علی قوله تعالی: رُحَماءُ بَیْنَهُمْ و من بین هذه الروایات ما نقرأه

عن الإمام الصادق علیه السّلام: «المسلم أخو المسلم، لا یظلمه و لا یخذله و لا یخونه و یحقّ علی المسلم الاجتهاد فی التواصل و التعاون علی التعاطف و المواساة لأهل الحاجة و تعاطف بعضهم علی بعض، حتی تکونوا کما أمرکم اللّه عزّ و جلّ رحماء بینکم متراحمین، مغتّمین لما غاب عنکم من أمرهم علی ما مضی علیه معشر الأنصار علی عهد رسول اللّه»[۴۹۰].

إلّا أنّ العجیب أنّ المسلمین فی هذا العصر لا یقتدون بتعالیم هذه الآیة المؤثرة و ما تنقله من خصائص أصحاب رسول اللّه و المؤمنین الصادقین، و ربّما تحامل بعضهم علی بعض و أثار الحفیظة و سفک الدماء و هو ما لم یفعله أعداء الإسلام أحیانا ...

و ربّما ارتبطوا بالکفّار و أنشئوا علائق المحبّة حتی تظن أنّهم إخوان من أصل واحد و نسب واحد.

فلا خبر عن الرکوع و السجود و لا النیّات الخالصة و لا ابتغاء فضل اللّه و لا آثار السجود فی سیماهم و لا الزرع الذی أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوی علی سوقه!! و العجیب أیضا ... أنّه کلّما ابتعدنا عن الأصول القرآنیة هذه منینا بالذل و النکبة أکثر فأکثر و مع ذلک لا نلتفت من أین نؤکل؟! و ما تزال حمیّة الجاهلیة تصدّنا عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۴

التفکیر و إعادة النظر و العودة نحو القرآن ...

اللّهمّ نبّهنا من نومة الغافلین! ...

اللّهمّ وفّقنا أن نحیی فیها خلال أصحاب رسول اللّه و صفاتهم التی ذکرتها هذه الآیات البیّنات ...

اللّهمّ ارزقنا الشدّة علی أعدائنا و الرحمة فیما بیننا و التسلیم لأمرک، و الاهتمام الی ما تولیه إیّانا من العنایات الخاصّة و الجد و السعی إلی النهوض بالمجتمع الإسلامی إلی الخیر و الازدهار.

اللّهمّ ارزقنا فتحا مبینا یتحرّک فی ظلّه المجتمع الإسلامی و أن نوفّق إلی نشر تعالیم هذا الدین القویم الذی یهب الحیاة للناس فی هذا العصر الذی هو أحوج الی المعنویات من أی وقت آخر، و أن نفتح کلّ یوم قلوبا جدیدة إلی نور الإسلام ...

آمین یا ربّ العالمین انتهت سورة الفتح

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۵

سورة الحجرات

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها ثمانی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۷

«سورة الحجرات»

محتوى السورة:

هذه السورة التی لا تتجاوز ١٨ آیة تحمل فی ما تحمل مسائل مهمة تتعلّق بشخص النّبی الکریم صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المجتمع الإسـلامی بعضه ببعض و حیث أنّ أغلب المسائل الأخلاقیـة تدور فی هذه السورة فیمکن أن نسـمّی هذه السورة ب «سورة الأخلاق و الآداب» ...

و یمکن علی الإجمال تقسیم مضامین السورة علی النحو التالی:

القسم الأـوّل: آیـات بدایـة السورة و هی تبین طریقـة التعامل مع النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و آدابها و ما ینبغی علی المسـلمین مراعاته من أصول عند حضرة النبی.

الثّانی: تشتمل هذه السورة علی سلسلة من أصول «الأخلاق الاجتماعیة» المهمّة التی إن عمل بها و علی هداها حفظت المحبّة و الصفاء و الأمن و الاتحاد فی المجتمع الإسلامی، و علی العکس من ذلک لو أهملت تکون سببا للشقاء و النفاق و التفرّق و عدم الأمن ...

الثّالث: الأوامر الإرشادیة المتعلّقة بکیفیة مواجهة الاختلافات و التنازع أو القتال الذی قد یقع بین المسلمین أحیانا ...

الرابع: یتحدّث عن معیار قیمة الإنسان عند اللّه و أهمیة التقوی! ...

الخـامس: یعالـج قضـیة أنّ الإیمـان لیس بالقول فحسب بل لا بـدّ من ظهور آثاره فی أعمال الإنسان و الجهاد بالمال و النفس- إضافة إلی الإعتقاد فی القلب- السادس: یتحدّث عن أنّ الإیمان و الإسلام هما هدیة إلهیة للمؤمنین و بدلا من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۸

أن یمنّوا بالإسلام أو الإیمان ینبغی أن یشکروا اللّه علی هذه الهدیة إذ شملهم بها ...

السابع: و الأخیر یتحـدّث عن علم اللّه و اطلاعه و عن جمیع أسـرار الوجود الخفیـة و أعمال الإنسان، و هذا القسم بمثابة الضامن لتنفیذ جمیع هـذه الأقسام الواردة فی هـذه السورة! و تسـمیة هـذه السورة بسورة «الحجرات» لورود هذه الکلمة فی الآیة الرابعة منها و سـنبیّن تفسیرها فی السطور التالیة ...

فضیلة تلاوة هذه السورة!

یکفی أن نعرف فضیلة هذه السورة من حدیث نقرؤه

عن النّبی فی فضلها! ...

«من قرأ سورة الحجرات اعطی من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع اللّه و عصاه».

کما نقرأ حدیثا آخر

عن الإمام الصادق فی فضلها یقول: «من قرأ سورة الحجرات فی کلّ لیلة أو فی کلّ یوم کان من زوّار محمّد» ...

و بدیهی أنّ کلّ هذه الحسـنات التی هی بعدد المطیعین و العاصـین إنّما تکون فی صورة ما لو أخذنا بنظر الإعتبار کلا من الفریقین و أن نفکّر جیدا فنجعل مسیرنا وفقا لمنهج المطیعین و نبتعد عن منهج العاصین.

و نیـل زیـارة النّبی أیضـا فرع علی أن نعمل وفق الآداب المـذکورة فی الحضور عنـده صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم لأنّ التلاوة فی کلّ مکان مقدمة للعمل ...

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۹

الآيات [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۴)

وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون لنزول الآية الأولى من هذه السورة شأنا بل شؤونا كما ذكروا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۰

لنزول الآيات التى بعدها شؤونا أخر! فمن الشؤون التى ذكروها لنزول الآية الأولى أنّه: حين أراد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يتوجّه إلى خيبر رغب فى أن يخلّف شخصا معيّنا مكانه فى المدينة و ينصّبه خليفة عنه، فاقترح عمر شخصا آخر، فنزلت الآية الآنفة و أمرت أن لا تقدموا بين يدى اللّه و رسوله [۴۹۱].

و قال آخرون: كان بعض المسلمين بين الفينة و الأخرى يقولون لو نزلت فينا آية لكان أفضل، فنزلت الآية أن لا تقدموا بين يدى اللّه و رسوله [۴۹۲].

و قال بعضهم، إنّ الآية تشير إلى أعمال بعض المسلمين الذين كانوا يؤدّون عباداتهم قبل أوانها، فنزلت الآية لتنهاهم عن مثل هذه الأعمال [۴۹۳].

و أمّا فى شأن الآية الثانية فقد قال المفسّرون إنّ طائفة من «بنى تميم» و أشرافهم و ردوا المدينة، فلمّا دخلوا مسجد النّبى نادوا بأعلى صوتهم من وراء الحجرات التى كانت للنبى: يا محمّد أخرج إلينا. فأزعجت هذه الصرخات غير المؤدّبة النبى، فخرج إليهم فقالوا له: جئناك لنفاخرك فأجز شاعرنا و خطيبنا ليتحدّث عن مفاخر قبيلتنا، فأجازهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فنهض خطيبهم و تحدّث عن فضائلهم الخيالية الوهميّة كثيرا ...

فأمر النّبى (ثابت بن قيس) أن يردّ عليهم [۴۹۴] فنهض و خطب خطبة بليغة فلم يبق لخطبة أولئك من أثرا! ...

ثمّ نهض شاعرهم و ألقى قصيدة فى مدحهم فنهض «حسان بن ثابت» فردّ عليه بقصيدة شافية كافية! فقام رجل من أشراف تلك القبيلة و اسمه «الأقرع» فقال: إنّ هذا الرجل يعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۱

محمّدا خطيبه أبلغ من خطيبنا و شاعره أجدر من شاعرنا و صدى صوته أبعد مدى من صوتنا ...

فأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن تهدى لهم هدايا ليكتسب قلوبهم إليه فكان أن تأثّروا بمثل هذه المسائل فاعترفوا بنبوّته! فالآيات محل البحث ناظرة إلى هذه القضية و الأصوات من خلف الحجرات.

و هناك شأن آخر لنزول الآية بل هو يتعلّق بالآية الأولى و ما بعدها و هو أنّه فى السنة التاسعة للهجرة [حين كانت القبائل تفد على

النّبی للسلام علیه أو للمعاهدة معه و قد عرف العام ذلک «بعام الوفود» و عند وصول ممثلی قبیلة تمیم إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال أبو بکر: لیکن «القعقاع» (أحد أشراف تلک القبیلة) أمیرها، و اقترح عمر أن یکون «الحابس بن أقرع» أمیرها. فقال أبو بکر لعمر أردت أن تخالفنی، فردّ علیه عمر بأنّه لم یرد مخالفته أبدا، فتعالی الصیاح و الضجیج بینهما، فنزلت الآیات الآنفة ... أی لا تقترحوا فی الأمور علی النّبی شیئا و لا تتقدّموا علیه فی العمل و لا ترفعوا أصواتکم عند بیت النبی ۴۹۵].

***

التّفسیر

آداب الحضور عند النبی:

کما أشرنا آنفا أنّ فی محتوی هذه السورة قسما من المباحث الأخلاقیة المهمّة و الأوامر و التعلیمات الانضباطیة التی تدعونا إلی تسمیة هذه السورة بسورة الأخلاق، و هذه المسائل و التعلیمات تقع فی الآیات الأوّل من السورة محل البحث- و الآیات هذه علی نحوین من التعلیمات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۲

الأول: عدم التقدّم علی اللّه و رسوله و عدم رفع الصوت عند رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم ...

فتقول الآیة الأولی فی هذا الصدد: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ

و المراد من عدم التقدیم بین یدی اللّه و رسوله هو أن لا یقترح علیهما فی الأمور، و ترک العجلة و الإسراع أمام أمر اللّه و رسوله ...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین أرادوا أن یحدّدوا مفهوم الآیة و جعلوه منحصرا بأداء العبادات قبل وقتها، أو التکلّم قبل کلام رسول اللّه و أمثال ذلک، إلّا أنّه من الواضح أنّ للآیة مفهوما واسعا یشمل أی تقدّم و إسراع فی کلّ خطّة و منهج ۴۹۶].

إنّ مسئولیة انضباط السائرین إزاء القادة و خاصة إزاء القادة الإلهیین تقتضی ألّا یتقدّموا علیهم فی أی عمل و قول و لا یعجل أحد عندهم.

و بالطبع فإنّ هذا الکلام لا یعنی بأنّه لا یجوز لهم أن یتشاوروا مع النّبی إذا کان لدیهم شیء یجدر بیانه، بل المراد منه إلّا یعجلوا و یبادروا بالتصمیم قبل أن یوافق النّبی علی ذلک! حتی أنّه لا ینبغی أن تثار أسئلة و مناقشات أکثر ممّا یلزم فی شأن المسائل، بل ینبغی أن یترک الأمر للقائد نفسه أن یبیّن المسائل فی حینها، لا سیما إذا کان القائد معصوما الذی لا یغفل عن أی شیء! کما أنّه لو سئل المعصوم أیضا، لا یحقّ للآخرین أن یجیبوا السائل قبل أن یردّ علیه المعصوم، و فی الحقیقة أنّ الآیة جمعت کلّ هذه المعانی فی طیّها.

و الآیة الثانیة تشیر إلی الأمر الثّانی فتقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ کَجَهْرِ بَعْضِکُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُکُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۵۱۲

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۳

و الجملة الأولی: لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِّ إشارة إلی أنّه لا ینبغی رفع الصوت علی صوت النبی، فهو بنفسه نوع من الإساءة الأدبیة فی محضره المبارک، و النّبی له مکانته. و هذا الأمر لا یجدر أن یقع أمام الأب و الأم و الأستاذ لأنّه مخالف للاحترام و الأدب أیضا.

أمّا جملـة: لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ فيمكن أن تكون تأكيـدا على المعنى المتقـدّم فى الجملـة الأولى، أو أنّها إشارة إلى مطلب آخر، و هو ترك مخاطبة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالنداء «يا محمّد» و العدول عنه بالقول: «يا رسول اللّه»! ...

غير أنّ جماعـة من المفسّـرين قالوا فى الفرق بين الجملتين آنفتى الذكر ما يلى:- إنّ الجملة الأولى ناظرة إلى زمان يتحادث الناس فيه مع النبى، فلا ينبغى لأحد أن يرفع صوته فوق صوت النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم أمّا الجملة الثانية فناظرة الى زمان يكون الرّسول فيه صامتا و أصحابه يحدّثونه، ففى هذه الحالة أيضا لا ينبغى رفع الصوت عنده.

و الجمع بين هـذه المعنى و المعنى السابق أيضا- لا مانع منه كما أنّه ينسـجم مع شأن نزول الآيـة، و على كلّ حال فظاهر الآية هو بيان أمرين مختلفين ...

و بديهى أنّ أمثال هذه الأعمال إن قصد بها الإساءة و الإهانة لشـخص النّبى و مقامه الكريم فذلك موجب للكفر، و إلّا فهو إيذاء له و فيه إثم أيضا ...

و فى الصورة الأولى تتّضح علة الحبط و زوال الأعمال، لأنّ الكفر يحبط العمل و يكون سببا فى زوال ثواب العمل الصالح ...

و فى الصورة الثانية أيضا، لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السىء باعثا على زوال ثواب الكثير من الأعمال.

و قلنـا سابقا فى بحث الحبط أنّه لا مانع من زوال ثواب بعض الأعمال بسـبب بعض الـذنوب الخاصـة، كما أنّ زوال أثر بعض الـذنوب بسبب الأعمال الصالحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۴

قطعىّ أيضا ... و هناك دلائل كثيرة فى الآيات القرآنية أو الأحاديث الشـريفة على هذا المعنى و رغم أنّ هذا المعنى لم يثبت على أنّه قانون كلّى فى جميع الحسـنات و السـيئات، إلّا أنّه توجد دلائل نقلية فى شأن بعض الحسـنات و السيئات المهمّة و لا يوجد دليل عقلى مخالف لها![۴۹۷].

و

قـد ورد فى روايـة أنّه حين نزلت الآية آنفة الذكر قال «ثابت بن قيس» خطيب النّبى الذى كان له صوت جهورى عال: أنا الذى رفعت صوتى فوق صوت النّبى فحبطت أعمالى و أنا من أهل النّار ...

فبلغ ذلك سمع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «هو من أهل الجنّة»[۴۹۸].

لأنّه حين فعل ذلك للمؤمنين أو أمام المخالفين و كان ذلك أداء لوظيفة إسلامية.

كما أنّ ابن العباس بن عبـد المطلب نادى بأمر النّبى الـذين فرّوا فى معركـة «حنين» بصوت عال ليعودوا إلى ساحات القتال! و فى الآية الأـخرى مزيـد تأكيـد على الثواب الـذى أعـدّه اللّه لأولئك الـذين يمتثلون أمر اللّه و يراعون الآداب عنـد رسول اللّه فتقول: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۴۹۹].

كلمـة «يغضون» مشـتقة من غضّ- على وزن حظّ- و معناها تقليل النظر أو خفات الصوت و يقابل هـذه الكلمـة الإمعان بالنظر و الجهر بالصوت.

و كلمة «امتحن» مشـتقة من الامتحان، و الأصل فى استعمالها إذابة الذهب و تطهيره من غير الخالص، كما أنّها تستعمل فى بسط الجلد المعدّ للدّبغ، ثمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۵

استعملت بعدئذ فى مطلق الاختبار كما هى الحال بالنسبة للآية محل البحث، و نتيجة ذلك خلوص القلب و بسطه لقبول التقوى ...

و ممّا يسترعى الانتباه أنّ الآيـة السابقة ورد فيها التعبير بالنبى، إلّا أنّ هذه الآية ورد التعبير فيها عنه برسول اللّه، و كلتا الآيتين تشـير إلى هـذه «اللطيفـة»: و هى أنّ النّبى ليس عنـده شـىء من نفسه، بـل هو رسول اللّه و نبيّه، فإسـاءة الأدب إليه إساءة الأدب إلى اللّه و رعاية

الأدب إليه رعاية للّه.

و نكّرت كلمة «مغفرة» للتعظيم و الأهمية ... أى أنّ اللّه يجعل نصيبهم المغفرة الكبرى و التامة، و بعد تطهيرهم من الذنب يرزقهم الأجر العظيم، لأنه لا بدّ من التطهير من الذنب أولا، ثمّ الانتفاع من الأجر العظيم من قبل اللّه ...

أمّا الآية الأخرى فتشير إلى جهل أولئك الذين يجعلون أمر اللّه وراء ظهورهم، و عدم إدراكهم فتقول: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ

فأى عقل يدفع الإنسان إلى أن ينادى برفيع صوته أمام أعظم سفير إلهى فلا يلتفت الى آداب النداء كما فعلت قبيلة بنى تميم فنادت النّبى بصوت مزعج يا محمّد يا محمّد أخرج إلينا و هو مركز المحبّة و العطف الإلهى؟! و أساسا كلّما ترقّى عقل الإنسان زيد فى أدبه فيعرف القيم الأخلاقية بصورة أحسن و من هنا فإنّ إساءة الأدب دليل على عدم العقل، أو بتعبير آخر إنّ إساءة الأدب عمل الحيوان، أمّا الأدب أو رعاية الأدب فهو من عمل الإنسان ...

جملة أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ «الأكثر» فى لغة العرب يطلق أحيانا بمعنى الجميع، و إنّما استعمل هذا اللفظ رعاية للاحتياط فى الأدب حتى لو أنّ واحدا أستثنى من الشمول لا يضيع حقّه عند التعبير بالأكثر، فكأنّ اللّه يريد أن يقول: إنّى أنا اللّه الذى أحطت بكلّ شىء علما، عند الكلام على مثل هذه الأمور أراعى الأدب فى ذلك فعلام لا تراعون فى كلامكم هذه الناحية؟! أو لأنّه يوجد فيهم أناس يعقلون حقّا، و لعادة الناس و عدم التفاتهم فى رفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۶

الصوت يريد القرآن أن يحذّرهم بهذا الأسلوب أن لا ينسوا الأدب و أن يستعملوا عقولهم و أفكارهم عند الكلام ...

«الحجرات»: جمع «حجرة» و هى هنا إشارة إلى البيوت ۵۰۰] المتعددة لأزواج النّبى المجاورة للمسجد ...

و أصل الكلمة مأخوذ من «الحجر» على وزن الأجر: أى المنع لأنّ الحجرة تمنع الآخرين من الدخول فى حريم «حياة» الإنسان ... و التعبير ب «وراء» هنا كناية عن الخارج من أى جهة كان! لأنّ أبواب الحجرات كانت تتفتح على المسجد أحيانا فيقف الجهلة عندها فينادون: يا محمّد أخرج إلينا، فمنعهم القرآن و نهاهم عن ذلك! ...

و يضيف القرآن إكمالا للمعنى فى نهاية الآية قائلا: وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ

صحيح أنّ العجلة قد تجعل الإنسان أحيانا يبلغ قصده بسرعة، إلّا أنّ الصبر فى مثل هذا «المقام» و التأنّى مدعاة إلى المغفرة و الأجر العظيم.

و حيث أنّ بعضهم قد ارتكبوا جهلا هذا الخطأ من قبل، و استوحشوا من هذا الأمر و حاسبوا أنفسهم بعد نزول الآية، فإنّ القرآن يضيف قائلا إنّهم تشملهم الرحمة عند التوبة: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

***

بحوث

۱- الأدب أغلى القيم

اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بمسألة رعاية الأدب، و التعامل مع الآخرين مقرونا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۷

بالاحترام و الأدب سواء مع الفرد أم الجماعة، و نشير إلى طائفة من الأحاديث الشريفة هنا على أنّها شواهد و أمثال لهذا العنوان ...

-۱

يقول الإمام على عليه السّلام: «الآداب حلل مجدّدة»[۵۰۱].

و

يقول فى مكان آخر: الأدب يغنى عن الحسب ۵۰۲].

كما أنّنا نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «خمس من لم تكن فيه لم يكن كثير فيه مستمتع؛ قيل: و ما هنّ يا ابن رسول اللّه قال عليه السّلام: الدين و العقل و الحياء و حسن الخلق و حسن الأدب»[۵۰۳].

و نقرأ فى مكان آخر

حديثا عنه عليه السّلام أيضا يقول فيه: لا يطمعنّ ذو الكبر فى الثناء الحسن و لا الخبّ فى كثرة الصديق و لا السىء الأدب فى الشرف ۵۰۴] ...

و لذلك فإنّنا حين نقرأ تأريخ حياة القادة فى الإسلام و ننعم النظر فيها نلاحظ أنّهم يراعون أهم النقاط الحسّاسة و اللطائف الدقيقة فى الأخلاق و الآداب حتى مع الأناس البسطاء، و أساسا فإنّ الدين مجموعة من الآداب، الأدب بين يدى اللّه و الأدب بين يدى الرّسول و الأئمة المعصومين، و الأدب بين يدى الأستاذ و المعلم، أو الأب و الأم و العالم و المفكّر ...

و التدقيق فى آيات القرآن الكريم يكشف عن أنّ اللّه سبحانه بما له من مقام العظمة حين يتكلّم مع عباده، يراعى الآداب بتمامها ... فحيث يكون الأمر على هذه الشاكلة فمن المعلوم عندئذ ما هى وظيفة الناس أمام اللّه؟ و ما هو تكليفهم؟! و نقرأ فى بعض الأحاديث الإسلامية أنّه حين نزلت الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» و أمرتهم بسلسلة من الآداب الإسلامية، و منها مسألة الخشوع فى الصلاة، و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ينظر أحيانا إلى السماء عند

الصلاة ثمّ ينظر إلى الأرض مطرقا برأسه «لا يرفعه»[۵۰۵].

و فى ما يخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان هذا الموضوع ذا أهمية أيضا إذ صرّح القرآن فى آياته بالإعراض عن اللغو عنده و عدم رفع الصوت و الصخب، فكلّ ذلك موجب للحبط فى الأعمال و اضمحلال الثواب.

و واضح أنّه لا تكفى رعاية هذه المسألة الخلقيّة عند النّبى فحسب، بل هناك أمور أخرى ينبغى مراعاتها فى حضوره، و كما يعبّر الفقهاء ينبغى إلغاء الخصوصية هنا و تنقيح المناط بما سبق أشباهه و نظائره! و نقرأ فى سورة النور الآية (۶۳) منها: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ... و قد فسّرها جماعة من المفسّرين بأنّه «عند ما تنادون النّبى فنادوه بأدب و احترام يليقان به لا كما ينادى بعضكم بعضا» ...

الطريف هنا أنّ القرآن عدّ أولئك الذين يغضون أصواتهم عند رسول اللّه و يراعون الأدب بأنّهم مطهّرو القلوب و هم مهيّئون للتقوى، و جديرون بالمغفرة و الأجر العظيم ... فى حين أنّه يعدّ الذين ينادونه من وراء الحجرات و يسيئون الأدب عنده- كالأنعام- أكثرهم لا يعقلون.

حتى أنّ بعض المفسّرين توسّعوا فى الآيات محل البحث و جعلوا لها مراحل أدنى أيضا بحيث تشمل المفكّرين و العلماء و القادة من المسلمين، فوظيفة المسلمين أن يراعوا الآداب بين أيديهم ...

و بالطبع فإنّ هذه المسألة أكثر وضوحا فى شأن الأئمة أولى العصمة، حتى أنّه بلغنا بعض الروايات الواردة عن أهل البيت أنّه «حين دخل أحد الأصحاب على الإمام بادره الإمام دون مقدّمة: أما تعلم

أنّه لا ينبغى للجنب أن يدخل بيوت الأنبياء»[۵۰۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۹

و ورد التعبیر فی روایة أخری بهذه الصورة:

«أنّ بیوت الأنبیاء و أولاد الأنبیاء لا یدخلها الجنب».

و ملخص القول أنّ مسألة رعایة الآداب أمام الکبیر و الصغیر تشمل قسما کبیرا من التعلیمات الإسلامیة بحیث لو أردنا أن ندرجها ضمن بحثنا هذا لخرجنا عن تفسیر الآیات، إلّا أنّنا نختم بحثنا بحدیث عن الإمام علی بن الحسین (السجّاد) فی «رسالة الحقوق» حیث قال فی «مورد رعایة الأدب أمام الأستاذ»:

«و حقّ سائسک بالعلم التعظیم له و التوقیر لمجلسه و حسن الاستماع إلیه و الإقبال علیه و أن لا- ترفع علیه صوتک و لا تجیب أحدا یسأله عن شیء حتی یکون هو الذی یجیب و لا تحدّث فی مجلسه أحدا و لا تغتاب عنده أحدا و أن تدفع عنه إذا ذکر عندک بسوء و أن تستر عیوبه و تظهر مناقبه و لا تجالس له عدوا و لا تعادی له ولیا فإذا فعلت ذلک شهدت لک ملائکة اللّه بأنّک قصدته و تعلّمت علمه للّه جلّ اسمه لا للناس»[۵۰۷].

۲- رفع الصوت عند قبر الرسول

قال جماعة من العلماء و المفسّرین أنّ الآیات محل البحث کما أنّها تمنع رفع الصوت عند النّبی حال حیاته فهی کذلک شاملة للمنع بعد وفاته ۵۰۸].

و إذا کان المراد من تعبیرهم آنفا شمول العبارة فی الآیة، فظاهر الآیة یخصّ زمان حیاته صلی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّها تقول: لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِ و ذلک فی حالة ما یکون النّبی له حیاة جسمانیة و هو یتکلّم مع أحد فلا یجوز رفع الصوت فوق صوته ...

لکن إذا کان مرادهم- المناط- و فلسفة الحکم- و هی واضحة فی هذه الموارد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۰

و أمثالها- و أهل العرف- یلغون «الخصوصیة»، فلا یبعد التعمیم المذکور. لأنّه من المسلّم به- أنّ الهدف هنا رعایة الأدب و احترام ساحة قدس النبی، فعلی هذا متی ما کان رفع الصوت عند قبره نوعا من هتک الحرمة فهو بدون شکّ غیر جائز، إلّا أن یکون أذانا للصلاة أو تلاوة للقرآن أو إلقاء خطبة ... و أمثال ذلک فإنّ هذه الأمور لیس فیه أی إشکال لا فی حیاة النّبی و لا بعد وفاته ...

و نقرأ حدیثا

فی أصول الکافی نقل عن الإمام الباقر فی شأن ما جری للحسن بعد وفاته و ممانعة عائشة عن دفنه فی جوار رسول اللّه جاء فیه أنّه حین ارتفعت الأصوات استدل الإمام الحسین علیه السّلام بالآیة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِ

و

نقل عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: إنّ اللّه حرّم من المؤمنین أمواتا ما حرّم منهم أحیاء[۵۰۹].

و هذا الحدیث شاهد آخر علی عموم مفهوم الآیة!

۳- الانضباط الإسلامی فی کلّ شیء و فی کلّ مکان!

إنّ مسألة المدیریة لا تتم بدون رعایة الانضباط، و إذا أرید للناس العمل تحت مدیریة و قیادة- حسب رغبتهم، فإنّ اتساق الأعمال

سينعدم عندئذ و إن كان المديرون و القادة جديرين.

و كثير من الأحداث و النواقص التى نلاحظها تحدّث عن هذا الطريق، فكم من هزيمة أصابت جيشا قويا أو نقصا حدث فى أمر يهمّ جماعة و ما إلى ذلك كان سببه ما ذكرناه آنفا ... و لقد ذاق المسلمون أيضا مرارة مخالفة هذه التعاليم مرارا فى عهد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو بعده، و من أوضح الأمور قصة هزيمة المسلمين فى معركة أحد لعدم الانضباط من قبل جماعة قليلة من المقاتلين.

و القرآن يثير هذه المسألة المهمّة فى عبارة موجزة فى الآية الآنفة و بأسلوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۱

جامع طريف إذ يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ

و مفهوم الآية كما أشرنا سابقا واسع إلى درجة أنّها تشمل أى نوع من أنواع التقدّم و التأخّر و الكلام و التصرّفات الذاتية الخارجية عن تعليمات القيادة ...

و مع هذه الحال فإنّنا نلاحظ فى تاريخ حياة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم موارد كثيرة يتقدّم فيها بعض الأفراد على أمره أو يتخلّفون و يلون رؤوسهم فيكونون موضع الملامة و التوبيخ الشديد ... و من ذلك ما يلى ...

۱- حين تحرّك النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لفتح مكّة فى السنة الثامنة للهجرة كان ذلك فى شهر رمضان و كان معه جماعة كثيرة، منهم الفرسان و منهم المشاة، و لمّا بلغ (منزل) كراع الغميم أمر بإناء ماء، فتناول منه الرّسول و أفطر ثمّ أفطر من كان معه، إلّا أنّ العجيب أنّ جماعة منهم (تقدّم على النبى) و لم يوافقوا على الإفطار و بقوا صائمين فسمّاهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالعصاة[۵۱۰]! ۲- و مثل آخر ما حدث فى حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة حيث أمر النبىّ أن ينادى المنادى: «من لم يسق منكم هديا فليحلّ و ليجعلها عمرة، و من ساق منكم هديا فليقم على إحرامه» ثمّ يؤدّى مناسك الحج و أنّ من جاء بالهدى (و حجّه حجّ إفراد) فعليه أن يبقى على إحرامه ... ثمّ

قال صلى اللّه عليه و آله و سلّم «لولا أنّى سقت الهدى لأحللت، و جعلتها عمرة، فمن لم يسق هديا فليحلّ».

إلّا أنّ جماعة أبوا و قالوا كيف يمكننا أن نحل و ما يزال النّبى محرما أليس قبيحا أن نمضى للحج بعد أداء العمرة و يسيل منّا ماء الغسل «من الجنابة».

فساء النّبى ما قالوا و وبّخهم و لامهم ۵۱۱].

۳- قصة التخلّف عن جيش أسامة عند ما أراد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يلتحق بالرفيق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۲

الأعلى معروفة حيث أمر صلى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين أن ينفّذوا جيش أسامة بن زيد و يتحرّكوا إلى حرب الروم و أمر المهاجرين و الأنصار أن يتحرّكوا مع هذا الجيش ...

و لعلّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أراد ألّا تقع عند رحلته مسائل فى أمر الخلافة- و قد وقعت- حتى أنّه لعن المتخلّفين عن جيش أسامة و مع كلّ ذلك تخلّف جماعة بحجة أنّهم لا يستطيعون أن يتركوا النّبى فى مثل هذه الظروف ۵۱۲]!! ...

۴- قصة «القلم و الدواة» معروفة أيضا و هى فى الساعات الأخيرة من عمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما أنّها مثيرة و الأحسن أن ننقل ما جاء من عبارة

فى صحيح مسلم بعينها هنا: «لمّا حضر رسول اللّه و فى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبى: هلمّ اكتب لكم كتابا لا تضلّون بعده، فقال عمر إنّ رسول اللّه قد غلب عليه الوجع، و عندكم القرآن حسبنا كتاب اللّه، فاختلف أهل البيت، فاختصموا فمنهم من يقول:

قرّبوا يكتب لكم رسول اللّه كتابا لن تضلّوا بعده و منهم من يقول ما قال عمر فلمّا أكثروا اللغو و الاختلاف عند رسول اللّه قال رسول

اللّه قوموا»[۵۱۳]! ...

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذا الحديث عينه نقله البخارى فى صحيحه باختلاف يسير جدا «صحيح البخارى، ج ۶، باب مرض النبى، ص ۱۱».

و هذه القضية من الحوادث المهمّة فى التأريخ الإسلامى التى تحتاج إلى تحليل و بسط ليس هنا محلّه و لكنّها على كلّ حال من أجلى موارد التخلّف عن أمر النّبى و مخالفة الآية محل البحث: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۳

و ما يهمّنا هنا أنّ رعاية الانضباط الإسلامى و الإلهى تحتاج إلى روح التسليم المطلق و قبول القيادة «الإلهية» فى جميع شؤون الحياة و الإيمان المتين بمقام القائد الشامخ ...

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۴

الآيات [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (۶) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (۷) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۸)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين كالطبرسى فى مجمع البيان: هناك قولان فى شأن نزول الآية الأولى من الآيات أعلاه، و لكنّ بعضهم اكتفى بقول واحد منهما كالقرطبى و سيد قطب، و نور الثقلين.

فالقول الأوّل فى شأن نزول الآية محل البحث الذى ذكره أغلب المفسّرين أنّ الآية الكريمة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ نزلت فى «الوليد بن عقبة» و ذلك أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أرسله لجمع الزكاة من قبيلة «بنى المصطلق» فلمّا علم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۵

بنو المصطلق أنّ مبعوث الرّسول قادم إليهم سرّوا كثيرا و هرعوا لاستقباله، إلّا أنّ الوليد حيث كانت له خصومة معهم فى زمان الجاهلية، شديدة، تصوّر أنّهم يريدون قتله.

فرجع إلى النّبى «و من دون أن يتحقّق فى الأمر» و قال: يا رسول اللّه إنّهم امتنوا عن دفع الزكاة «و نعرف أنّ عدم دفع الزكاة هو نوع من الوقوف بوجه الحكومة الإسلامية فبناء على ذلك فإنّ مدّعى الوليد يقتضى أنّهم مرتدّون»!! فغضب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لذلك و صمّم على أن يقاتلهم فنزلت الآية آنفة الذكر[۵۱۴] ...

و أضاف بعضهم أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حين أخبره الوليد بن عقبة بارتداد قبيلة (بنى المصطلق) أمر خالد بن الوليد بن المغيرة أن يمضى نحوها و أن لا يقوم بعمل حتى يتريث و يعرف الحقّ ...

فمضى خالد ليلا و صار قريبا من قبيلة بنى المصطلق و بعث عيونه ليستقصوا الخبر فعادوا إليه و أخبروا بأنّهم مسلمون «أوفياء لدينهم» و سمعوا منهم صوت الآذان و الصلاة، فغدا خالد عليهم فى الصباح بنفسه فوجد ما قاله أصحابه صدقا فعاد إلى النّبى و أخبره بما رأى

فنزلت الآیة آنفة الذکر، و عقّب النّبی علیها ...

«التأنّی من اللّه و العجلة من الشیطان»[۵۱۵].

و ذکر بعض المفسّرین قولا- آخر فی شأن نزول الآیة و عوّلوا علیه فحسب، و هو أنّ الآیة نزلت فی «ماریة القبطیة» زوج النّبی و أم إبراهیم علیه السّلام، لأنّه

قیل للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ لها ابن عمّ «یدعی جریحا» تتردّد إلیه أحیانا «و بینهما علاقة غیر مشروعة» فأرسل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم خلف علی علیه السّلام فقال له «یا أخی خذ السیف فإن وجدته عندها فاضرب عنقه ...» فأخذ أمیر المؤمنین السیف ثمّ قال بأبی أنت و أمی یا رسول اللّه: أکون فی أمرک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۶

إذا أرسلتنی کالسکة المحماة؛ أمضی لما أمرتنی أم الشاهد یری ما لا یری الغائب فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «بل الشاهد یری ما لا یری الغائب»، قال علی: فأقبلت متوشّحا بالسیف فوجدته عندها فاخترطت السیف فلمّا عرف أنّی أریده أتی نخلة فرقی إلیها ثمّ رمی بنفسه علی قفاه و شغر برجلیه فإذا أنّه أجبّ امسح مال ممّا للرجال قلیل و لا کثیر فرجعت فأخبرت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: «الحمد للّه الذی یصرف عنّا السوء أهل البیت»[۵۱۶].

و ورد هذا الشأن ذاته فی تفسیر نور الثقلین ج ۵ مع اختلاف یسیر فی العبارات ...

***

التّفسیر

لا تکترث بأخبار الفاسقین:

کان الکلام فی الآیات الآنفة علی ما ینبغی أن یکون علیه المسلمون و وظائفهم أمام قائدهم و نبیّهم محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قد ورد فی الآیات المتقدّمة أمران مهمّان، الأوّل أن لا یقدموا بین یدیه و الآخر هو مراعاة الأدب عند الکلام معه و عدم رفع الصوت فوق صوته ...

أمّا الآیات محل البحث فهی تبیّن الوظائف الأخری علی هذه الأمّة إزاء نبیّها.

و تقول ینبغی الاستقصاء عند نقل الخبر إلی النّبی فلو أنّ فاسقا جاءکم بنبإ فتثبتوا و تحقّقوا من خبره، و لا- تکرهوا النّبی علی قبول خبره حتی تعرفوا صدقه ... فتقول الآیات أوّلا: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا.

ثمّ تبیّن السبب فی ذلک فتضیف: أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلی ما فَعَلْتُمْ نادِمِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۷

فلو أنّ النّبی قد أخذ بقول «الولید بن عقبة» و عدّ قبیلة بنی المصطلق مرتدّین و قاتلهم لکانت فاجعة و مصیبة عظمی! ...

و یستفاد من لحن الآیة التالیة أنّ جماعة من أصحاب الرّسول اصرّوا علی قتال بنی المصطلق، فقال لهم القرآن إنّ هذا هو الجهل بعینه و عاقبته الندم.

و استدل جماعة من علماء الأصول علی حجّیة خبر الواحد بهذه الآیة لأنّها تقول إن جاءکم فاسق بنبإ فتبیّنوا ... و مفهومها أنّ العادل لو جاء بنبإ فلا یلزم التبیّن ... و یصح قبول خبره إلّا أنّه أشکل علی هذا الاستدلال بمسائل عدیدة أهمها مسألتان:

المسألة الأولى: إنّ الاستدلال المتقدّم ذكره متوقّف على قبول «حجّية مفهوم الوصف»، و المعروف أنّه لا حجّية لمفهوم الوصف [517] ...

المسألـة الثانيـة: إنّ العلـة المـذكورة فی ذيـل الآيـة فيها من السـعة ما يشـمل خبرى العادل و الفاسق معا لأنّ العمل بالخبر الظنّی- مهما كان- ففيه احتمال الندم.

لكنّ هاتين المسألتين يمكن حلّهما، لأنّ مفهوم الوصف و أی قيـد آخر فی الموارد التی يراد منها بيان القيد فی مقام الاحتراز حجة، و ذكر هـذا القيـد «قيـد الفاسق» فی الآيـة المتقدّمـة طبقا للظهور العرفی لا فائدة منه تسـتحق الملاحظة سوى حجّية خبر العادل! و أمّا فی مورد التعليل الوارد فی ذيل الآيـة فالظاهر أنّه لا يشـمل كلّ عمل بالأدلة الظنّية، بل هو ناظر إلى الموارد التی يكون العمل فيها بجهالة، أی العمل بسفاهة و حمق، لأنّ الآية عوّلت على الجهالة، و نعرف أنّ أغلب الأدلة التی يعوّل عليها العقلاء جميعا فی العالم فی المسائل اليومية هی دلائل ظنّية «من قبيل

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۸

ظواهر الألفاظ و قول الشاهد، و قول أهل الخبرة، و قول ذی اليد و أمثالها».

و معلوم أنّه لا يعدّ أیّ ممّا أشير إليه آنفا بأنّه جهالة و لو لم يطابق الواقع أحيانا، فلا تتحقّق هنا مسألة الندم فيه لأنّه طريق عام ...

و على كـلّ حـال فإنّنـا نعتقـد بأنّ هـذه الآيـة من الآيات المحكمات التی فيها دلالـة على حجّيـة خبر الواحـد حتى فی الموضوعات، و هناك بحوث كثيرة فی هذا الصدد- ليس هنا مجال شرحها ...

إضافة إلى ذلك فإنّه لا يمكن إنكار أنّ مسألة الاعتماد على الأخبار الموثقة هی أساس التاريخ و الحياة البشرية. بحيث لو حذفنا مسألة حجيّة خبر العادل أو الموثّق من المجتمعات الإنسانية لبطل كثير من التراث العلمی و المعارف المتعلّقة بالمجتمعات البشـرية القديمة و حتى كثير من المسائل المعاصرة التی نعمل على ضوئها اليوم ...

و لا يرجع الإنسان إلى الوراء فحسب، بل تتوقف عجلـة الحياة، لـذلك فإنّ العقلاء جميعا يرون حجّيته و الشارع المقدّس أمضاه أيضـا «قولا و عملا».

و بمقـدار ما يعطى خبر الواحـد «الثقـة» الحياة نظامها فإنّ الاعتماد على الأخبار غير الموثّقـة خطير للغايـة، و مدعاة إلى اضـطراب نظام المجتمع، و يجر الوبال و المصائب المتعدّدة، و يهدّد الحيثيات و حقوق الأشخاص بالخطر و يسوق الإنسان إلى الانحراف و الضلال و كما عبّر القرآن الكريم تعبيرا طريفا فی الآية محل البحث: فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ

و هنا لطيفة تسترعی الانتباه أيضا، و هی أنّ صياغة الأخبار الكاذبة و التعويل على الأخبار غير الموثّقة من الأساليب القديمة التی تتّبعها النظم الاسـتعمارية و الديكتاتوريـة لتخلق جوّا كاذبا ينخدع به الجهلة من الناس و المغفّلون فتنهب أموالهم و أرصدتهم بهذه الأساليب و ما شاكلها ...

فلو عمل المسلمون بهذا الأمر الإلهی الوارد فی هذه الآية على نحو الدقّة و لم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۹

يأخـذوا بأخبـار الفاسـقين دون تبيّن لكـانوا مصونين من هـذه البلايـا الخطيرة! و الجـدير بالـذكر أنّ المسألـة المهمّـة هنا هی الوثوق و الاعتماد على الخبر ذاته، غاية ما فی الأمر قد يحصل هذا الوثوق من جهة الاعتماد على الشـخص المخبر تارة، و تارة من القرائن الأخر الخارجية ... و لذلك فإنّنا قد نطمئن إلى «الخبر» أحيانا و إن كان «المخبر» فاسقا ...

فعلى هـذا الأساس، فإنّ هـذا الوثوق أو الاعتماد كيف ما حصل، سواء عن طريق العدالـة و التقوى و صدق القائل أم عن طريق القرائن الخارجية، فهو معتبر عندنا، و سيرة العقلاء التی أمضاها الشارع الإسلامی مبنية على هذا الأساس ...

و لذا فإنّنا نرى فی الفقه الإسـلامی كثيرا من الأخبار ضـعيفة السـند لكن لأنّها جرى عليها «عمل المشهور» و وقف على صحة الخبر من

خلال قرائن خاصة، فلذلك أصبحت هذه الأخبار (الضعيفة السند) صالحة للعمل و جرت فتاوى الفقهاء على وفقها.

و على العكس من ذلك قد تقع أخبار عندنا قائلها معتبر و لكنّ القرائن الخارجية لا تساعد على قبوله، فلا سبيل لنا إلّا الاعراض عنه و إن كان المخبر عادلا و «معتبرا» ...

فبناء على هذا- إنّ المعيار هو الاعتماد على الخبر نفسه- فى كلّ مكان- و إن كان الغالب كون الوسيلة هى عدالة الراوى و صدقه- لهذا الاعتماد- إلّا أنّ ذلك ليس قانونا كليّا. (فلاحظوا بدقّة).

و الآية التالية- و للتأكيد على الموضوع المهم فى الآية السابقة- تضيف قائلة:

وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ۵۱۸].

و تدلّ هذه الجملة- كما قاله جماعة من المفسّرين أيضا- أنّه بعد أن أخبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۰

«الوليد» بارتداد طائفة «بنى المصطلق» ... ألحّ جماعة من المسلمين البسطاء السذّج ذوى النظرة السطحية على الرّسول أن يقاتل الطائفة آنفة الذكر ...

فالقرآن يقول: من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول اللّه و هو مرتبط بعالم الوحى فمتى ما بدت فيكم بوادر الانحراف فسيقوم بإرشادكم عن هذا الطريق، فلا تتوقّعوا أن يطيعكم و يتعلّم منكم و لا تصرّوا و تلحّوا عليه، فإنّ ذلك فيه عنت لكم و ليس من مصلحتكم ...

و يشير القرآن معقّبا فى الآية إلى موهبة عظيمة أخرى من مواهب اللّه سبحانه فيقول: وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ

و فى الحقيقة أنّ هذه التعابير إشارة لطيفة إلى قانون اللطف أى «اللطف التكوينى».

و توضيح ذلك أنّه حين يريد الشخص الحكيم أن يحقّق أمرا فإنّه يوفّر له جميع ما يلائمه من كلّ جهة و يصدق هذا الأصل فى شأن الناس تماما ...

فاللّه يريد أن يطوى الناس جميعا طريق الحق دون أن يقعوا تحت تأثير الإجبار بل برغبتهم و إرادتهم، و لذا يرسل إليهم الرسل و الكتب السماوية من جهة، و يحبّب إليهم الإيمان من جهة أخرى، و يضرى شعلة العشق نحو طلب الحق و البحث عنه فى داخل النفوس و يكرّه إليها الكفر و الفسوق و العصيان ...

و هكذا فإنّ كلّ إنسان مفطور على حبّ الإيمان و الطهّارة و التقوى، و البراءة من الكفر و الذنب.

إلّا أنّه من الممكن أن يتلوّث ماء المعنويات المنصبّ فى وجود الناس فى المراحل المتتالية و ذلك نتيجة للاختلاط بالمحيطات الموبوءة فيفقد صفاءه و يكتسب رائحة الذنب و الكفر و العصيان ...

هذه الموهبة الفطرية تدعو الناس إلى إتباع رسول اللّه و عدم التقدّم بين يديه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۱

و ينبغى التذكير بهذه اللطيفة أيضا، و هى أنّ محتوى الآية لا ينافى المشاورة أبدا، لأنّ الهدف من المشاورة أو الشورى أن يعرب كلّ عن عقيدته و وجهة نظره، إلّا أنّ الرأى الأخير و النظر النهائى لشخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما يستفاد ذلك من آية الشورى أيضا ...

و بتعبير آخر ... إنّ الشورى هى موضوع مستقل، و فرض الرأى موضوع آخر، فالآية محل البحث تنفى فرض الرأى لا المشاورة.

و فى أنّ المراد من «الفسوق» المذكور فى الآية ما هو؟! قال بعض المفسّرين هو الكذب، إلّا أنّه مع الالتفات إلى سعة مفهومه اللغوى فإنّه يشمل كلّ خروج على الطاعة، فعلى هذا يكون التعبير ب «العصيان» بعده تأكيدا عليه، كما أنّ جملة وَ زَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ تأكيد على الجملة السابقة لها: حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ

و قال بعضهم إنّ كلمة «الفسوق» إشارة إلى الذنوب الكبيرة فى حين أنّ «العصيان» أعم منه ... إلّا أنّه لا دليل على ذلك ...

و على كلّ حال، فإنّ القرآن يقرّر قاعدة كلية و عامة فى نهاية هذه الآية لواجدى الصفات المذكورة [فيها] فتقول: أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ

أى لو حفظتم هذه الموهبة الإلهية «العشق للإيمان و التنفّر من الكفر و الفسوق» و لم تلوّثوا هذا النقاء و الصفات الفطرية فإنّ الرشد و الهداية دون أدنى شكّ فى انتظاركم ...

و ممّا يستجلب النظر أنّ الجمل السابقة فى الآية كانت بصيغة الخطاب للمؤمنين لكنّ هذه الجملة: أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ تتحدّث عنهم بصيغة «الغائب» و يبدو أنّ هذا التفاوت فى التعبير جاء ليدلّ على أنّ هذا الحكم غير مختصّ بأصحاب النبى، بل هو قانون عام، فكلّ من حفظ صفاءه الفطرى فى أى عصر و زمان هو من أهل الرشد و الهداية و النجاة.

أمّا آخر الآيات محل البحث فتوضّح هذه الحقيقة و هى أن محبوبية الإيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۲

و التنفّر من الكفر و العصيان من المواهب الإلهية العظمى على البشر إذ تقول:

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۵۱۹].

فعلمه و حكمته يوجبان أن يخلق فيكم عوامل الرشد و السعادة و يكملها بدعوة الأنبياء إيّاكم و يجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف المنشود ... «و هو الجنّة».

و الظاهر أنّ الفضل و النعمة كليهما إشارة إلى حقيقة واحدة، هى المواهب الإلهية التى يمنحها عباده، غاية ما فى الأمر أنّ «الفضل» إنّما سمّى فضلا لأنّ اللّه غير محتاج إليه و «النعمة» إنّما سمّيت نعمة لأنّ العباد محتاجون إليها، فهما بمثابة الوجهين لعملة واحدة! ...

و لا شكّ أنّ علم اللّه بحاجة العباد و حكمته فى مجال التكامل و تربية المخلوقات توجبان أن يتفضّل بهذه النعم المعنوية الكبرى على عباده (و هى محبوبية الإيمان و التنفّر من الكفر و العصيان).

***

ملاحظات

۱- هداية اللّه و حريّة الإرادة

إنّ الآيات الآنفة تجسيد بيّن لوجهة نظر الإسلام فى مسألة «الجبر و الإختيار» و الهداية و الإضلال، لأنّها توضح هذه اللطيفة- بجلاء- و هى أنّ اللّه يهيئ المجال «و الأرضية» للهداية و الرشد، فمن جهة يبعث رسوله و يجعله بين الناس و ينزل القرآن الذى هو نور و منهج هداية؛ و من جهة يلقى فى النفوس العشق للإيمان و محبّته؛ و التنفّر و البراءة من الكفر و العصيان، لكن فى النهاية يوكل للإنسان أن يختار ما يشاء و يصمّم بنفسه، و يشرع سبحانه التكاليف فى هذا المجال! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۳

و طبقا للآيات المتقدّمة فإنّ عشق الإيمان و التنفّر من الكفر موجودان فى قلوب جميع الناس دون استثناء و إذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنّما هو من جهة اخطائهم و سلوكياتهم و أعمالهم، فإنّ اللّه لم يلق فى قلب أىّ شخص حبّ العصيان و بغض الإيمان ...

۲- القيادة و الطاعة

هذه الآیات تؤکد مرّة أخری أنّ وجود القائد «الإلهی» ضروری لرشد جماعة ما، بشرط أن یکون مطاعا لا مطیعا و أن یتّبع أصحابه و جماعته أوامره لا أن یؤثّروا علیه و یفرضوا علیه آراءهم (ابتغاء مقاصدهم و مصالحهم).

و هذه المسألة لا- تختصّ بالقادة الإلهیین فحسب، بل ینبغی أن تکون حاکمة فی المدیریة و القیادة فی کلّ مکان. و حاکمیة هذا الأصل لا تعنی استبداد القادة، و لا ترک الشوری کما أشرنا آنفا و أوضحنا ذلک.

۳- الإیمان نوع من العشق لا إدراک العقل فحسب ...

هذه الآیات تشیر ضمنا إلی هذه الحقیقة و هی أنّ الإیمان نوع من العلاقة الإلهیة الشدیدة «و المعنویة» و إن کانت من الاستدلالات العقلیة ... و لذلک فإنّنا نقرأ

حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام حین سألوه: هل الحب و البغض من الإیمان، فأجاب علیه السّلام: «و هل الإیمان إلّا الحبّ و البغض»؟! ثمّ تلا هذه الآیة: ... وَ لکِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَیْکُمُ الْإِیمانَ وَ زَیَّنَهُ فِی قُلُوبِکُمْ وَ کَرَّهَ إِلَیْکُمُ الْکُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْیانَ أُولئِکَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۵۲۰].

و

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام قوله فی هذا المجال «و هل الدین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۴

إلّا الحبّ»؟! ثمّ استدلّ علیه السّلام ببعض الآیات منها هذه الآیة محل البحث و قال بعدئذ:

«الدین هو الحبّ و الحبّ هو الدین»[۵۲۱].

إلّا أنّه و دون أدنی شکّ یجب أن ترفد هذه المحبّة- کما نوّهنا آنفا- بالوجوه الاستدلالیة و المنطقیّة لتکون مثمرة عندئذ ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۵

الآیتان [سورة الحجرات (۴۹): الآیات ۹ الی ۱۰]

اشارة

وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَی الْأُخْری فَقاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتَّی تَفِیءَ إِلی أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ (۹) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۰)

سبب النّزول

ورد فی شأن نزول الآیتین- هاتین- أنّ خلافا وقع بین قبیلتی «الأوس» و «الخزرج» «و هما قبیلتان معروفتان فی المدینة» أدّی هذا الخلاف إلی الاقتتال بینهما و أن یتنازعا بالعصی و الهراوات و الأحذیة فنزلت الآیتان آنفتا الذکر و علّمت المسلمین سبیل المواجهة مع أمثال هذه الحوادث ۵۲۲].

و قال بعضهم: حدث بین نفرین من الأنصار خصومة و اختلاف! فقال أحدهما للآخر: سآخذ حقّی منک بالقوة لأنّ قبیلتی کثیرة، و

قال الآخر: لنمض و نحتكم عند

رسول اللّه، فلم يقبل الأوّل، فاشتدّ الخلاف و تنازع جماعة من قبيلتيهما بالعصى و الأحذية و «حتى» بالسيوف، فنزلت الآيتان آنفتا الذكر و بيّنت وظيفة المسلمين فى مثل هذه الأمور[۵۲۳].

التّفسير

المؤمنون أخوة:

يقول القرآن هنا قولا هو بمثابة القانون الكلّى العام لكلّ زمان و مكان: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما[۵۲۴].

و صحيح أنّ كلمة «اقتتلوا» مشتقّة من مادة القتال و معناها الحرب، إلّا أنّها كما تشهد بذلك القرآن تشمل كلّ أنواع النزاع و إن لم يصل إلى مرحلة القتال و المواجهة «العسكرية» و يؤيّد هذا المعنى أيضا بعض ما نقل فى شأن نزول الآية ...

بل يمكن القول: إنّه لو توفّرت مقدّمات النزاع كالمشاجرات اللفظية مثلا التى تجرّ إلى المنازعات الدامية فإنّه ينبغى و طبقا لمنطوق الآية أن يسعى إلى الإصلاح بين المتنازعين، لأنّه يمكن أن يستفاد هذا المعنى من الآية المتقدّمة عن طريق إلغاء الخصوصية.

و على كلّ حال، فإنّ من واجب جميع المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين منهم لئلّا تسيل الدماء و أن يعرفوا مسئوليتهم فى هذا المجال، فلا يكونوا متفرّجين كبعض الجهلة الذين يمرّون بهذه الأمور دون اكتراث و تأثّر! فهذه هى وظيفة المؤمنين الأولى عند مواجهة أمثال هذه الأمور.

ثمّ يبيّن القرآن الوظيفة الثانية على النحو التالى: فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى و لم تستسلم لاقتراح الصلح فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ

و بديهى أنّه لو سالت دماء الطائفة الباغية و الظالمة- فى هذه الأثناء- فإثمها عليها، أو كما يصطلح عليه إنّ دماءهم هدر، و إن كانوا مسلمين، لأنّ الفرض أنّ النزاع واقع بين طائفتين من المؤمنين ...

و هكذا- فإنّ الإسلام يمنع من الظلم و إن أدّى إلى مقاتلة الظالم، لأنّ ثمن العدالة أغلى من دم المسلمين أيضا، و لكن لا يكون ذلك إلّا إذا فشلت الحلول السلمية.

ثمّ يبيّن القرآن الوظيفة الثالثة فيقول: فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ

أى لا ينبغى أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوة الطائفة الباغية الظالمة بل ينبغى أن يعقب ذلك الصلح و أن يكون مقدّمة لقلع جذور عوامل النزاع، و إلّا فإنّه بمرور الزمن ما أن يحسّ الظالم فى نفسه القدرة حتى ينهض ثانية و يثير النزاع.

قال بعض المفسّرين: يستفاد من التعبير «بالعدل» أنّه لو كان حقّ مضاع بين الطائفتين أو دم مراق و ما إلى ذلك ممّا يكون منشأ للنزاع فيجب إصلاحه أيضا، و إلّا فلا يصدق عليه «إصلاح بالعدل»[۵۲۵].

و حيث أنّه تميل النوازع النفسية أحيانا فى بعض الجماعات عند الحكم و القضاء الى إحدى الطائفتين المتخاصمتين و تنقض «الاستقامة» عند القضاة فإنّ القرآن ينذر المسلمين فى رابع تعليماته و ما ينبغى عليهم فيقول: وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۵۲۶].

و الآية التالية تضيف- لبيان العلّة و التأكيد على هذا الأمر قائلة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

فكما تسعون للإصلاح بين الأخوين في النسب، فينبغى أن لا تألوا جهدا فى الدخول بصورة جادّة للإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين بعدالـة تامّـة! و مـا أحسنه من تعبير و كم هو بليغ إذ يعبّر القرآن عن جميع المؤمنين بـأنّهم «أخوة» و أن يسـمّى النزاع بينهم نزاعـا بين الأخوة! و أنّه ينبغى أن يبادر إلى إحلال الإصلاح و الصفاء مكانه ...

و حيث أنّه فى كثير من الأوقـات تحل «الروابط» فى أمثال هـذه المسائل محل «الضوابط» فإنّ القرآن يضـيف فى نهايـة هـذه الآيـة مرّة أخرى قائلا: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

و هكذا تتّضح إحدى أهم المسؤوليات الاجتماعية على المسلمين فى ما بينهم فى تحكيم العدالة الاجتماعية بجميع أبعادها.

بحثان

الأوّل: شروط قتال أهل البغى «البغاة»

هنـاك بـاب فى الفقه الإسـلامى بعنوان: «قتال أهل البغى» ضـمن كتاب الجهاد، و المراد منه قتال الظلمـة الـذين ينهضون بوجه «الإمام العادل فى المسلمين» و قد وردت فيهم أحكام كثيرة فى هذا الباب ...

إلّا أنّ ما أثارته الآيـة الآنفة موضوع آخر، و هو النزاع الواقع بين الطائفتين المؤمنين، و ليس فى هذا النزاع نهوض بوجه إمام المسـلمين العادل و لا نهوض بوجه الحكومـة الإسـلامية الصالحـة. و قـد أراد بعض الفقهاء أو المفسّـرين أن يسـتفيدوا من هذه الآية «فى المسألة السابقة» إلّا أنّ هذا الاستدلال كما يقول الفاضل «المقداد» فى «كنز العرفان» خطأ بيّن ۵۲۷]. لأنّ القيام و النهوض بوجه الإمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۹

العـادل موجب للكفر، فى حين أنّ النزاع بيّن المؤمنين موجب للفسق فحسب لا الكفر، و لـذلك فإنّ القرآن المجيـد عبّر عن الطائفتين بالمؤمنين و سمّاهم أخوة، فلا يصحّ تعميم أحكام أهل البغى على أمثال هؤلاء! ...

و من المؤسف أنّنا لم نعثر على بحث فى الفقه فى شأن أحكام هذه الطائفة، إلّا أنّ ما يستفاد من الآية المتقدمة بضـميمة القرائن الأخر و خاصة ما ورد من إشارات فى باب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هى الأحكام التالية! ...

۱- إنّ الإصلاح بين الطوائف المتنازعة «من المسلمين» أمر واجب كفائى.

۲- ينبغى لتحقّق هـذا الأمر أن يشـرع أوّلا من المراحل البسـيطة و أن تراعى قاعدة «الأسـهل فالأسـهل» إلّا أنّه إذا لم ينفع ذلك فيجوز عندئذ المواجهة المسلّحة بل تلزم أحيانا ...

۳- ما يسفك من دم البغاة فى هذا السبيل و ما تذهب منهم من أموال كلّها هدر، لأنّ حكم الشرع قد امتثل و أديّت الوظيفة الواجبة، و الأصل فى مثل هذه الموارد عدم الضـمان! ۴- لا حاجة لإذن حاكم الشـرع فى مراحل الإصـلاح عن طريق الكلام و المباحثات، إلّا أنّه لا بـدّ من الإذن عنـد اشـتداد العمل و لا سـيما إذا انتهى الأمر إلى سـفك الـدماء، فلا يجوز عندئـذ الإقدام بأىّ عمل إلّا بأمر الحكومة الإسلامية و حاكم الشرع! إلّا فى الموارد التى لا يمكن الوصول إلى حاكم الشرع بأى وجه، فللعدول عندئذ و أهل الخبرة من المؤمنين أن يتّخذوا القرار الذى يرونه ...

۵- فى حالة ما لو سـفكت الطائفة الباغية و الظالمة دما من «الجماعة المصـلحة» أو نهبت أموالا منها، فهى ضامنة بحكم الشرع و يجرى القصاص منها فى صورة وقوع قتل العمـد، و كـذلك فى مورد تسـفك فيه دماء من الطائفـة المظلومـة أو تتلف منها أموالها فإنّ حكم القصـاص و الضـمان ثـابت أيضـا و مـا يقال من أنه بعـد وقوع الصـلح لا تتحمل الطائفـة الباغيـة مسئولية الـدماء المسـفوكة و الأموال المهدورة لأنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۰

لم تشر إلیه الآیة- محل البحث- غیر صحیح، و الآیة لیست فی مقام بیان جمیع هذا المطلب، بل المرجع فی مثل هذه الموارد هو سائر الأصول و القواعد الواردة فی أبواب القصاص و الإتلاف ...

۶- حیث أنّ الهدف من هذه المقاتلة و الحرب حمل الطائفة الباغیة علی قبول الحق، فعلی هذا لا تثار فی الحرب مسألة «أسری الحرب و الغنائم» لأنّ الطائفتین بحسب الفرض مسلمتان، إلّا أنّه لا مانع من الأسر مؤقتا لإطفاء نائرة النزاع و لکن بعد حل النزاع و الصلح یجب إطلاق الأسری فورا ...

۷- قد یتفق أحیانا أن یکون طرفا النزاع باغیین، فهذا الطرف قتل جماعة من القبیلة الأخری و سلب ماله، و ذلک الطرف قتل جماعة من هذه القبیلة و الطائفة و سلب أموالها دون أن یقنع کلّ منهما بالمقدار اللازم من الدفاع سواء کان الطرفان «الطائفتان» بمستوی واحد من الظلم و البغی أو بعضهما أکثر اعتداء و الآخر أقل! و بالطبع فإنّ الحکم فی شأن هذا المورد لم یرد صراحة فی القرآن، لکن یمکن أن یستفاد هذا الحکم عن طریق إلغاء الخصوصیة من الآیة محل البحث، و هو أنّ وظیفة المسلمین أن یصلحوا بین الطرفین، و إذا لم یوافقا علی الصلح فلا بدّ من قتالهم جمیعا حتی یفیء کل إلی أمر اللَّه، ما ذکرناه آنفا من أحکام فی شأن الباغی و الظالم جار فی الطرفین ...

و فی ختام هذا الکلام نؤکّد مرّة أخری أنّ حکم هؤلاء البغاة منفصل عن حکم الذین یقفون بوجه الإمام المعصوم أو الحکومة الإسلامیة العادلة، فإنّ لهذه الطائفة الأخیرة أحکاما أشدّ و أصعب واردة فی کتاب الجهاد من الفقه الإسلامی.

الثّانی: أهمیّة الأخوة الإسلامیة

إنّ جملة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ الواردة فی الآیات المتقدّمة واحدة من الشعارات الأساسیة و «المتجذّرة» فی الإسلام، فهی شعار عمیق، بلیغ، مؤثر و ذو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۱

معنی غزیر ...

إنّ الآخرین حین یریدون إظهار مزید من العلاقة بمن یشارکهم فی المنهج و العمل، یعبّرون عنهم بالرفاق، «أو الرفیق للمفرد» إلّا أنّ الإسلام رفع مستوی الارتباط و الحب بین المسلمین إلی درجة جعلها بمستوی أقرب العلائق بین شخصین و هی علاقة الأخوین التی تقوم العلاقة بینهما علی أساس المساواة و التکافؤ.

فعلی هذا الأصل الإسلامی المهم فإنّ المسلمین علی اختلاف قبائلهم و قومیّاتهم و لغاتهم و أعمارهم یشعرون فیما بینهم بالأخوّة و إن عاش بعضهم فی الشرق و الآخر فی الغرب ...

ففی مناسک الحج مثلا حیث یجتمع المسلمون من نقاط العالم کافة فی مرکز التوحید تبدو هذه العلاقة و الارتباط و الانسجام و الوشائج محسوسة و میدانا للتحقق العینی لهذا القانون الإسلامی المهم ...

و بتعبیر آخر إنّ الإسلام یری المسلمین جمیعا بحکم الأسرة الواحدة و یخاطبهم جمیعا بالإخوان و الأخوات لیس ذلک فی اللفظ و الشعار، بل فی العمل و التعهدات المتماثلة أیضا، جمیعهم (أخوة و أخوات).

و فی الروایات الإسلامیة تأکید علی هذه المسألة أیضا و لا سیما فی ما یخص الجوانب العملیة و نحن نذکر هنا علی سبیل المثال بعضا من الأحادیث التالیة:

۱-

ورد عن النّبی الأکرم صلی اللَّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «المسلم أخو المسلم لا یظلمه و لا یخذله و لا یسلمه»[۵۲۸].

۲- و

ورد عنه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «مثل الأخوین مثل الیدین تغسل إحداهما الأخری»[۵۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۲

۳- و

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «المؤمن أخو المؤمن کالجسد الواحد إذا اشتکی شیئا منه وجد ألم ذلک فی سائر جسده و أرواحهما من روح واحدة»[۵۳۰].

۴- کما

نقرأ حدیثا آخر عنه علیه السّلام یقول فیه: «المؤمن أخو المؤمن عینه و دلیله لا یخونه و لا یظلمه و لا یغشّه و لا یعده عدة فیخلفه»[۵۳۱].

و هناک روایات کثیرة فی مصادر الحدیث الإسلامیة المعروفة فی ما یتعلّق بحق المؤمن علی أخیه المسلم و أنواع حقوق المؤمنین بعضهم علی بعض و ثواب زیارة الإخوان المؤمنین «و المصافحة و المعانقة» و ذکرهم و إدخال السرور علی قلوبهم و خاصة قضاء حاجاتهم و السعی فی إنجازها و إذهاب الهم و الغم عن القلوب و إطعام الطعام و إکسائهم الثیاب و إکرامهم و احترامهم، و یمکن مطالعتها فی أصول الکافی فی أبواب مختلفة تحت العناوین الآنفة.

۵- و فی ختام هذا المطاف نشیر إلی روایة هی من أکثر الروایات «جمعا» فی شأن حقوق المؤمن علی أخیه المؤمن التی تبلغ ثلاثین حقّا! ...

قال رسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم: «للمسلم علی أخیه ثلاثون حقّا، لا براءة له منها إلّا بالأداء أو العفو! یغفر زلّته، و یرحم عبرته، و یستر عورته، و یقیل عثرته، و یقبل معذرته، و یرد غیبته، و یدیم نصیحته، و یحفظ خلّته و یرعی ذمّته، و یعود مرضه، و یشهد میّته، و یجیب دعوته، و یقبل هدیته، و یکافئ صلته، و یشکر نعمته، و یحسن نصرته، و یحفظ حلیلته، و یقضی حاجته، و یشفع مسألته، و یسمّت عطسته، و یرشد ضالّته، و یردّ سلامه، و یطیب کلامه، و یبرّ أنعامه، و یصدق أقسامه، و یوالی ولیّه، و لا یعادیه، و ینصره ظالما و مظلوما، فأمّا نصرته ظالما فیردّه عن ظلمه، و أمّا نصرته مظلوما فیعینه علی أخذ حقّه، و لا یسلمه و لا یخذله، و یحب له من الخیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۳

ما یحبّ لنفسه، و یکره له من الشر ما یکره لنفسه»[۵۳۲].

و علی کلّ حال فإنّ واحدا من حقوق المسلمین بعضهم علی بعض هو مسألة الإعانة و إصلاح ذات البین کما ورد فی الآیات المتقدّمة و الروایات الآنفة «و کان لنا فی التفسیر الأمثل بحث فی «إصلاح ذات البین» ذیل الآیة الأولی من سورة الأنفال» ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۴

الآیتان [سورة الحجرات (۴۹): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسی أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسی أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ وَ

لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون لهاتين الآيتين شأنا «في نزولهما» بل شؤونا مختلفة، منها أنّ جملة لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ نزلت في «ثابت بن قيس» خطيب النّبي صلى اللَّه عليه و آله و سلّم الذي كان ثقيل السمع و كان حين يدخل المسجد يجلس إلى جنب النّبي و يوّفر له المكان عنده ليسمع حديث النبي، و ذات مرّة دخل المسجد و المسلمون كانوا قد

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۵

فرغوا من صلاتهم و جلسوا في أماكنهم، فكان يشقّ الرجوع و يقول: تفسّحوا، تفسّحوا حتى وصل إلى رجل من المسلمين فقال له: اجلس (مكانك هنا) فجلس خلفه مغضبا حتى انكشفت العتمة فقال ثابت لذلك الرجل: من أنت فقال: أنا فلان فقال له ثابت: ابن فلانة؟! و ذكر اسم أمّه بما يكره من لقبها .. و كانت تعرف به في زمان الجاهلية فاستحيى ذلك الرجل و طأطأ برأسه إلى الأرض، فنزلت الآية و نهت المسلمين عن مثل هذا العمل ...

و قيل إنّ جملة وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ نزلت في أم سلمة إحدى أزواج النّبي صلى اللَّه عليه و آله و سلّم لأنّها كانت تلبس لبوسا خاصا أو لأنّها كانت قصير فكانت النساء يسخرن منها، فنزلت الآية و نهت عن مثل هذه الأعمال!.

و قالوا إنّ جملة وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً نزلت في نفرين من الصحابة اغتابا صاحبهما «سلمان» لأنّهما كانا قد بعثاه نحو النّبي صلى اللَّه عليه و آله و سلّم ليأتيهما بطعام منه، فأرسل النّبي سلمان نحو «أسامة بن زيد» الذي كان مسئول بيت المال فقال أسامة ليس عندي شيء الآن .. فاغتابا أسامة و قالا إنّه بخيل و قالا في شأن سلمان: لو كنّا أرسلناه إلى بئر سميحة لغاض ماؤها «و كانت بئرا غزيرة الماء» ثمّ انطلقا ليأتيا أسامة و ليتجسّسا عليه،

فقال لهما النّبي صلى اللَّه عليه و آله و سلّم إنّي أرى آثار أكل اللحم على أفواهكما: فقالا يا رسول اللَّه لم نأكل اللحم هذا اليوم فقال رسول اللَّه: أجل تأكلون لحم سلمان و أسامة. فنزلت الآية و نهت المسلمين عن الاغتياب ۵۳۳].

التّفسير

الاستهزاء و سوء الظنّ و الغيبة و التجسّس و الألقاب السيئة حرام!

حيث أنّ القرآن المجيد اهتمّ ببناء المجتمع الإسلامي على أساس المعايير

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۶

الأخلاقية فإنّه بعد البحث عن وظائف المسلمين في مورد النزاع و المخاصمة بين طوائف المسلمين المختلفة بين في الآيتين محل البحث قسما من جذور هذه الاختلافات ليزول الاختلاف (بقطعها) و يحسم النزاع! ففي كلّ من الآيتين الآنفتين تعبير صريح و بليغ عن ثلاثة أمور يمكن أن يكون كلّ منها شرارة لاشتعال الحرب و الاختلاف، إذ تقول الآية الأولى من الآيتين محل البحث أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ

لأنّه عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ

وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَ

و الخطاب موجّه هنا إلى المؤمنين كافة فهو يعم الرجال و النساء و ينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح، لأنّ أساس السخرية و الاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء و الغرور و الكبر و أمثال ذلك إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الدامية على امتداد التاريخ! و هذا الاستعلاء أو التكبّر غالبا ما يكون أساسه القيم المادية و الظواهر المادية فمثلا، فلان يرى نفسه أكثر مالا من الآخر أو يرى نفسه أجمل من غيره أو أنّه يعد من القبيلة المشهورة و المعروفة أكثر من سواها، و ربما يسوقه تصوّره بأنّه أفضل من الجماعة الفلانية علما و عبادة و معنوية إلى السخرية منهم، فى حين أنّ المعيار الواقعى عند اللّه هو «التقوى» التى تنسجم مع طهارة القلب و خلوص النيّة و التواضع و الأخلاق و الأدب!.

و لا يصحّ لأى أحد أن يقول أنا أفضل عند اللّه من سواى، و لذلك عد تحقير الآخرين و التعالى بالنفس من أسوأ الأمور و أقبح العيوب الأخلاقية التى يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبية فى حياة الناس جميعا.

ثمّ تقول الآية فى المرحلة الثانية: وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ

كلمة «تلمزوا» هى من مادة «لمز» على زنة «طنز» و معناها تتّبع العيوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۷

و الطعن فى الآخرين، و فسّر بعضهم الفرق بين «الهمز» و «اللمز» بأنّ «اللمز» عدّ عيوب الناس بحضورهم، و «الهمز» ذكر عيوبهم فى غيابهم، كما قيل أنّ «اللمز» تتبع العيوب بالعين و الإشارة فى حين أنّ «الهمز» هو ذكر العيوب باللسان «و سيأتى تفصل هذا الموضوع بإذن اللّه فى تفسير سورة الهمزة» ...

الطريف أنّ القرآن فى تعبير «بأنفسكم» يشير إلى وحدة المؤمنين و أنّهم نسيج واحد، و يبيّن هنا بأنّ جميع المؤمنين بمثابة النفس الواحدة فمن عاب غيره فإنما عاب نفسه فى الواقع!.

و تضيف الآية فى المرحلة الثالثة أيضا قائلة: وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ

هناك الكثير من الأفراد الحمقى قديما و حديثا، ماضيا و حاضرا مولعون بالتراشق بالألفاظ القبيحة، و من هذا المنطلق فهم يحقّرون الآخرين و يدمّرون شخصياتهم و ربما انتقموا منهم أحيانا عن هذا الطريق و قد يتّفق أنّ شخصا كان يعمل المنكرات سابقا، ثمّ تاب و أناب و أخلص قلبه للّه، و لكن مع ذلك نراهم يرشقونه بلقب مبتذل كاشف عن ماضيه! الإسلام نهى عن هذه الأمور بصراحة و منع من إطلاق أى اسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مدعاة لتحقير المسلم ...

و نقرأ

فى بعض الأحاديث أنّ «صفية بنت حيى بن أخطب» المرأة اليهودية التى أسلمت بعد فتح خيبر و أصبحت زوجة النّبى- جاءت صفية يوما إلى النّبى و هى باكية العين فسألها النّبى عن سبب بكائها فقالت: إنّ عائشة توبّخنى و تقول لى يا ابنة اليهودى، فقال لها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: فلم لا قلت لها: أبى هارون و عمّى موسى و زوجى محمّد فكان أن نزلت هذه الآية- محل البحث-[۵۳۴].

و لذلك فإنّ الآية تضيف قائلة: بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ أى قبيح جدّا على من دخل فى سلك الإيمان أن يذكر الناس بسمات الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۸

و احتمل بعض المفسّرين احتمالا آخر لهذه الجملة المذكورة آنفا و هى أنّ اللّه نهى المؤمنين أن يرضوا بأسماء الفسق و الجاهلية لأنفسهم بسبب سخرية الناس و لتحاشى استهزائهم.

و لكن مع الالتفات إلى صدر الآية و شأن النّزول المذكور يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

و تختتم الآیة لمزید التأکید بالقول: وَ مَنْ لَمْ یَتُبْ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و أی ظلم أسوأ من أن یؤذی شخص بالکلمات اللاذعة و «اللاسعة» و التحقیر و اللمز قلوب المؤمنین التی هی «مرکز عشق» اللَّه و أن یطعن فی شخصیاتهم و یبتذل کرامتهم التی هی أساس شخصیتهم.

ماء وجوههم الذی هو أساس حیاتهم الأهم.

و قلنا إنّ فی کل من الآیتین- محل البحث- ثلاثة أحکام فی مجال الأخلاق الاجتماعیة. فالأحکام الثلاثة فی الآیة الأولی هی «عدم السخریة» و «ترک اللمز» و «ترک التنابز بالألقاب».

و الأحکام الثالثة فی الآیة الثانیة هی «اجتناب سوء الظن» و «التجسّس» و «الاغتیاب».

فی هذه الآیة یبدأ القرآن فیقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ

و المراد من «کثیرا من الظن» الظنون السیّئة التی تغلب علی الظنون الحسنة بین الناس لذلک عبّر عنها ب «الکثیر» و إلّا فإنّ حسن الظن لا- أنّه غیر ممنوع فحسب، بل هو مستحسن کما یقول القرآن فی الآیة (۱۲) من سورة النور: لَوْ لا- إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَیْراً.

و ممّا یلفت النظر أنّه قد نهی عن کثیر من الظنّ، إلّا أنّه فی مقام التعلیل تقول الآیة: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و لعلّ هذا الاختلاف فی التعبیر ناشئ من أنّ الظنون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۹

السیّئة بعضها مطابق للواقع و بعضها مخالف له، فما خالف الواقع فهو إثم لا محالة، و لذلک قالت الآیة: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و علی هذا فیکفی هذا البعض من الظنون الذی یکون إثما أن نتجنّب سائر الظنون لئلا- نقع فی الإثم! و هنا ینقدح هذا السؤال، و هو أنّ الظنّ السیء أو الظن الحسن لیسا اختیاریین (غالبا) و إنّما یکون کل منهما علی أثر سلسلة من المقدّمات الخارجة عن اختیار الإنسان و التی تنعکس فی ذهنه، فکیف یصح النهی عن ذلک؟! و فی مقام الجواب یمکن القول بأنّه:

۱- المراد من هذا النهی هو النهی عن ترتیب الآثار، أی متی ما خطر الظنّ السیء فی الذهن عن المسلم فلا ینبغی الاعتناء به عملیّا، و لا ینبغی تبدیل أسلوب التعامل معه و لا تغییر الروابط مع ذلک الطرف، فعلی هذا الأساس فإنّ الإثم هو إعطاء الأثر و ترتّبه علیه.

و لذلک نقرأ فی هذا الصدد

حدیثا عن نبیّ الإسلام یقول فیه: «ثلاث فی المؤمن لا یستحسن، و له منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظن ألّا یحقّقه»[۵۳۵] ...

إلی آخر الحدیث الشریف.

۲- یستطیع الإنسان أن یبعد عن نفسه سوء الظن بالتفکیر فی المسائل المختلفة، بأن یفکر فی طریق الحمل علی الصحة، و أن یجسّد فی ذهنه الاحتمالات الصحیحة الموجودة فی ذلک العمل، و هکذا یتغلب تدریجا علی سوء الظنّ! فبناء علی هذا لیس سوء الظن شیئا (ذا بال) بحیث یخرج عن اختیار الإنسان دائما! لذلک

فقد ورد فی الروایات أنّه: «ضع أمر أخیک علی أحسنه حتی یأتیک ما یقلبک منه، و لا تظنّنّ بکلمة خرجت من أخیک سوءا و أنت تجد لها فی الخیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۰

محملا»[۵۳۶].

و علی کلّ حال فإنّ هذا الأمر واحد من أکثر الأوامر و التعلیمات جامعیّة و دقّة فی مجال روابط الإنسان الاجتماعیة الذی تضمن الأمن فی المجتمع بشکل کامل! و سیأتی بیانه و تفصیله فی فقرة البحوث.

ثمّ تذكر الآية موضوع «التجسّس» فتنهى عنه بالقول: وَ لا تَجَسَّسُوا!.

و «التجسّس» و «التحسّس» كلاهما بمعنى البحث و التقصّى، إلّا أنّ الكلمة الأولى غالبا ما تستعمل فى البحث عن الأمور غير المطلوبة، و الكلمة الثانية على العكس حيث تستعمل فى البحث عن الأمور المطلوبة أو المحبوبة! و منه ما ورد على لسان يعقوب فى وصيته ولده! يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ ۵۳۷].

و فى الحقيقة إنّ سوء الظن باعث على التجسّس، و التجسس باعث على كشف الأسرار و ما خفى من أمور الناس، و الإسلام لا يبيح أبدا كشف أسرار الناس! و بتعبير آخر إنّ الإسلام يريد أن يكون الناس فى حياتهم الخاصة آمنين من كل الجهات، و بديهى أنه لو سمح الإسلام لكلّ أحد أن يتجسّس على الآخرين فإنّ كرامة الناس و حيثياتهم تتعرض للزوال، و تتولد من ذلك «حياة جهنمية» يحسّ فيها جميع أفراد المجتمع بالقلق و التمزّق!.

و بالطبع فإنّ هذا الأمر لا ينافى وجود أجهزة «مخابرات» فى الحكومة الإسلامية لمواجهة المؤامرات، و لكنّ هذا لا يعنى أنّ لهذه الأجهزة حق التجسّس فى حياة الناس الخاصّة «كما سنبيّن ذلك بإذن اللّه فيما بعد».

و أخيرا فإنّ الآية تضيف فى آخر هذه الأوامر و التعليمات ما هو نتيجة الأمرين السابقين و معلولهما فتقول: وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۱

و هكذا فإنّ سوء الظن هو أساس التجسس، و التجسس يستوجب إفشاء العيوب و الأسرار، و الاطلاع عليها يستوجب الغيبة، و الإسلام ينهى عن جميعها علة و معلولا! و لتقبيح هذا العمل يتناول القرآن مثلا بليغا يجسّد هذا الأمر فيقول: أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ .

أجل، إنّ كرامة الأخ المسلم و سمعته كلحم جسده، و ابتذال ماء وجهه بسبب اغتيابه و إفشاء أسراره الخفية كمثل أكل لحمه.

كلمة «ميتا» للتعبير عن أنّ الاغتياب إنّما يقع فى غياب الأفراد، فمثلهم كمثل الموتى الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، و هذا الفعل أقبح ظلم يصدر عن الإنسان فى حق أخيه!.

أجل، إنّ هذا التشبيه يبيّن قبح الاغتياب و إثمه العظيم.

و تولى الروايات الإسلامية- كما سيأتى بيانها- أهمية قصوى لمسألة الاغتياب، و نادرا ما نجد من الذنوب ما فيه من الإثم إلى هذه الدرجة.

و حيث أنّه من الممكن أن يكون بعض الأفراد ملوّثين بهذه الذنوب الثلاثة و يدفعهم وجدانهم إلى التيقّظ و التنبّه فيلتفتون إلى خطئهم، فإنّ السبيل تفتحه الآية لهم إذ تختتم بقوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

فلا بدّ أن تحيا روح التقوى و الخوف من اللّه أوّلا: و على أثر ذلك تكون التوبة و الإنابة لتشملهم رحمة اللّه و لطفه.

بحوث

۱- الأمن الاجتماعى الكامل

! إنّ الأوامر أو التعليمات الستة الواردة فى الآيتين آنفتى الذكر (النهى عن السخرية و اللمز و التنابز بالألقاب و سوء الظن و التجسس و الاغتياب) إذا نفّذت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۲

فى المجتمع فإنّ سمعة و كرامة الأفراد فى ذلك المجتمع تكون مضمونة من جميع الجهات، فلا يستطيع أحد أن يسخر من الآخرين-

على أنه أفضل- و لا يمدّ لسانه باللمز، و لا يستطيع أن يهتك حرمتهم باستعمال الألقاب القبيحة و لا يحقّ له حتى أن يسيء الظن بهم، و لا يتجسس عن حياة الأفراد الخاصة و لا يكشف عيوبهم الخفية (باغتيابهم).

و بتعبير آخر إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعة و يجب أن تحفظ جميعا فى حصن هـذا القانون و هى: «النفس و المال و الناموس و ماء الوجه».

و التعابير الواردة فى الآيتين محل البحث و الروايات الإسلامية تدل على أنّ ماء وجه الأفراد كأنفسهم و أموالهم بل هو أهم من بعض الجهات.

الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمن مطلق، و لا يكتفى بأن يكفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضا فحسب، بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم، بل و أرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم و ظنّهم أيضا ... و أن يحسّ كل منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال الاتهامات فى منطقة أفكاره.

و هذا الأمن فى أعلى مستوى و لا يمكن تحقّقه إلّا فى مجتمع رسالى مؤمن.

يقول النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الصدد: «إنّ اللّه حرّم من المسلم دمه و ماله و عرضه و أن يظنّ به السوء»[۵۳۸].

إنّ سوء الظن لا أنّه يؤثر على الطرف المقابل و يسقط حيثيته فحسب، بل هو بلاء عظيم على صاحبه لأنّه يكون سببا لإبعاده عن التعاون مع الناس و يخلق له عالما من الوحشة و الغربة و الانزواء كما

ورد فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال: «من لم يحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد»[۵۳۹].

و بتعبير آخر، إنّ ما يفصل حياة الإنسان عن الحيوان و يمنحها الحركة و الرونق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۳

و التكامل هو روح التعاون الجماعى، و لا يتحقق هـذا الأمر إلّا فى صورة أن يكون الاعتماد على الناس (و حسن الظن بهم) حاكما ... فى حين أنّ سوء الظن يهدم قواعد هذا الاعتماد، و تنقطع به روابط التعاون، و تضعف به الروح الاجتماعية.

و هكذا الحال فى التجسس و الغيبة أيضا.

إنّ سيئ النظرة و الظن يخافون من كلّ شىء و يستوحشون من كلّ أحد و تستولى على أنفسهم نظرة الخوف، فلا يستطيعون أن يقفوا على ولى و مؤنس يطوى الهموم، و لا يجدون شريكا للنشاطات الاجتماعية، و لا معينا و نصيرا ليوم الشدّة! و لا بأس بالالتفات إلى هـذه اللطيفة، و هى أنّ المراد من «الظن» هنا هو الظن الذى لا يستند إلى دليل، فعلى هذا إذا كان الظن فى بعض الموارد مستندا إلى دليل فهو ظنّ معتبر، و هو مستثنى من هذا الحكم، كالظن الحاصل من شهادة نفرين عادلين.

۲- لا تجسّسوا!

رأينا أنّ القرآن يمنع جميع أنواع التجسس بصراحة تامّة، و حيث إنّه لم يذكر قيدا أو شرطا فى الآية فيدل هذا على أنّ التجسس فى أعمال الآخرين و السعى إلى إذاعة أسرارهم إثم، إلّا أنّ القرائن الموجودة داخل الآية و خارجها تدل على أنّ هذا الحكم متعلّق بحياة الأفراد الشخصية و الخصوصية.

و يصدق هذا الحكم أيضا فى الحياة الاجتماعية فى صورة أن لا يؤثر فى مصير المجتمع.

لكن من الواضح أنّه إذا كان لهـذا الحكم علاقة بمصير المجتمع أو مصير الآخرين فإنّ المسألة تأخذ طابعا آخر، و من هنا فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد أعدّ أشخاصا و أمرهم أن يكونوا عيونا لجمع الأخبار و استكشاف المجريات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۴

و استقصائها ليحيطوا بما له علاقة بمصير المجتمع.

و من هذا المنطلق أيضا يمكن للحكومة الإسلامية أن تتّخذ أشخاصا يكونون عيونا لها أو منظمة واسعة للإحاطة بمجريات الأمور، و أن يواجهوا المؤامرات ضد المجتمع أو التى يراد بها إرباك الوضع الأمنى فى البلاد، فيتجسّسوا للمصلحة العامة حتى لو كان ذلك فى إطار الحياة الخاصة للأفراد! إلّا أنّ هذا الأمر لا ينبغى أن يكون ذريعة لهتك حرمة هذا القانون الإسلامى الأصيل، و أن يسوّغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسّسوا فى حياة الأفراد الخاصة بذريعة التآمر و الإخلال بالأمن، فيفتحوا رسائلهم مثلا، أو يراقبوا الهاتف و يهجموا على بيوتهم بين حين و آخر!! و الخلاصة أنّ الحدّ بين التجسس بمعناه السلبى و بين كسب الأخبار الضرورية لحفظ أمن المجتمع دقيق و ظريف جدا، و ينبغى على مسئولى إدارة الأمور الاجتماعية أن يراقبوا هذا الحدّ بدقّة لئلّا تهتك حرمة أسرار الناس، و لئلّا يتهدّد أمن المجتمع و الحكومة الإسلامية!.

۳- الغيبة من أعظم الذنوب و أكبرها!

قلنا إنّ رأس مال الإنسان المهم فى حياته ماء وجهه و حيثيته، و أى شيء يهدّده فكأنّما يهدّد حياته بالخطر.

و أحيانا يعدّ اغتيال و قتل الشخصية أهم من اغتيال الشخص نفسه، و من هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحيانا.

إنّ واحدة من حكم تحريم الغيبة أن لا يتعرّض هذا الإعتبار العظيم للأشخاص و رأس المال آنف الذكر لخطر التمزّق و التلوّث و أن لا- تهتك حرمة الأشخاص و لا تلوّث و حيثياتهم، و هذا مطلب مهم تلقاه الإسلام باهتمام بالغ! و الأمر الآخر إنّ الغيبة تولّد النظرة السيئة و تضعف العلائق الاجتماعية و توهنها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۵

و تتلف رأس المال الاعتماد و تزلزل قواعد التعاون «الاجتماعى»! و نعرف أنّ الإسلام أولى أهمية بالغة من أجل الوحدة و الانسجام و التضامن بين أفراد المجتمع، فكلّ أمر يقوى هذه الوحدة فهو محل قبول الإسلام و تقديره، و ما يؤدّى إلى الإخلال بالأواصر الاجتماعية فهو مرفوض، و الاغتياب هو أحد عوامل الوهن و التضعيف ...

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ الاغتياب ينثر فى القلوب بذور الحقد و العداوة و ربّما أدّى أحيانا إلى الاقتتال و سفك الدماء فى بعض الأحيان.

و الخلاصة أنّنا حين نقف على أنّ الاغتياب يعدّ واحدا من كبائر الذنوب فإنّما هو لآثاره السيئة فردية كانت أم اجتماعية! و فى الروايات الإسلامية تعابير مثيرة فى هذا المجال نورد هنا على سبيل المثال بعضا منها!

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند اللّه فى الخطيئة من ست و ثلاثين زنية يزنيها الرجل و أربى الربى عرض الرجل المسلم»[۵۴۰].

و ما ذلك إلّا لأنّ الزنا و إن كان قبيحا و سيئا، إلّا أنّ فيه جنبة حق اللّه، و لكن الربا و ما هو أشدّ منه كإراقة ماء وجه الإنسان و ما إلى ذلك فيه جنبة حق الناس.

و

قد ورد فى رواية أخرى أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم خطب يوما بصوت عال و نادى:

«يا معشر من آمن بلسانه و لم يؤمن بقلبه! تغتابوا المسلمين و لا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتّبع عورة أخيه تتّبع اللّه عورته و من تتّبع اللّه عورته يفضحه فى جوف بيته»[۵۴۱].

كما

ورد فى حديث ثالث أن اللّه أوحى لموسى عليه السّلام قائلا: «من مات تائبا من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۶

الغیبة فهو آخر من یدخل الجنة، و من مات مصرا علیه فهو أوّل من یدخل النّار»[۵۴۲].

کما نقرأ

حدیثا آخر عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «الغیبة أسرع فی دین الرجل المسلم من الأکلة فی جوفه»[۵۴۳].

و هذا التشبیه یدلّ علی أن الاغتیاب کمثل الجرب الذی یأکل اللحم، فإنّه یذهب بالإیمان بسرعة.

و مع الالتفات إلی أنّ بواعث الغیبة و دوافعها أمور متعدّدة کالحسد و التکبر و البخل و الحقد و الأنانیة و أمثالها من صفات دمیمة و قبیحة یتّضح السرّ فی سبب کون الغیبة و تلویث سمعة المسلمین و هتک حرمتهم لها هذا الأثر المدمّر لإیمان الشخص.

و الروایات الإسلامیة فی هذا الصدد کثیرة، و نختتم بحثنا هذا بذکر حدیث آخر

نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام إذ یقول: «من روی علی مؤمن روایة یرید بها شینه و هدم مروّته لیسقط من أعین الناس أخرجه اللّه من ولایته إلی ولایة الشیطان فلا یقبله الشیطان»[۵۴۴].

إنّ جمیع هذه التأکیدات و العبارات المثیرة إنما هی للأهمیة القصوی التی یولیها الإسلام لصون ماء الوجه و حیثیّة المؤمنین الاجتماعیة، و کذلک للأثر المخرّب- الذی تترکه الغیبة- فی وحدة المجتمع و الاعتماد المتبادل فی القلوب، و أسوأ من کل ذلک أنت الغیبة تسوق إلی إشعال نار العداوة و البغضاء و النفاق و إشاعة الفحشاء فی المجتمع. لأنّه حین تنکشف عیوب الناس الخفیّة عن طریق الغیبة لا تبقی لها خطورة فی أعین الناس و یکون التلوّث بها فی غایة البساطة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۷

۴- مفهوم الاغتیاب؟

«الغیبة» أو الاغتیاب کما هو ظاهر الاسم ما یقال فی غیاب الشخص، غایة ما فی الأمر أنّه بقوله هذا یکشف عیبا من عیوب الناس. سواء کان عیبا جسدیا أو أخلاقیا أو فی الأعمال أو فی المقال بل حتی فی الأمور المتعلّقة به کاللباس و البیت و الزوج و الأبناء و ما إلی ذلک! فبناء علی هذا ما یقال عن الصفات الظاهرة للشخص، الآخر لا یعدّ اغتیابا، إلّا أن یراد منه الذم و العیب فهو فی هذه الصورة حرام، کما لو قیل فی مقام الذم أنّ فلانا أعمی أو أعور أو قصیر القامة أو شدید الأدمة و السمرة أکوس اللحیة إلخ ...

فیتّضح من هذا أنّ ذکر العیوب الخفیة بأی قصد کان یعدّ غیبة و هو حرام أیضا، و ذکر العیوب الظاهرة إذا کان بقصد الذم فهو حرام، سواء أدخلناه فی مفهوم الغیبة أم لا؟! کل هذا فی ما لو کانت هذه العیوب فی الطرف الآخر واقعیة، أمّا إذا لم تکن أصلا فتدخل تحت عنوان «البهتان» و إثمه أشدّ من الاغتیاب بمراتب.

ففی حدیث ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «الغیبة أن تقول فی أخیک ما ستره اللّه علیه، و أمّا الأمر الظاهر فیه مثل الحدّة و العجلة فلا، و البهتان أن تقول ما لیس فیه»[۵۴۵].

و من هنا یتبیّن أنّ ما یتبجّح به العوام من أعذار فی الغیبة غیر مقبول کأن یقول المغتاب: لیس هذا اغتیابا بل هو صفته، فی حین إذا لم یکن قوله الذی یعیبه فیه صفة له فهو بهتان لا أنّه غیبة.

أو أن یقول: هذا کلام أقوله فی حضوره أیضا، فی حین أنّ کلامه أمام الطرف الآخر لا یترتّب علیه إثم الاغتیاب فحسب، بل یتحمّل بسبب الإیذاء إثما أکبر و وزرا أثقل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۸

۵- علاج الغيبة و التوبة منها!

إنّ الغيبة كسائر الصفات الذميمة تتحوّل تدريجا إلى صورة مرض نفسى بحيث يلتذ المغتاب من فعله و يحس بالاغتباط و الرضا عند ما يريق ماء وجه فلان، و هذه مرتبة من مراتب المرض القلبى الخطير جدا.

و من هنا فينبغى على المغتاب أن يسعى إلى علاج البواعث الداخلية للاغتياب التى تكمن فى أعماق روحه و تحضّه على هذا الذنب، من قبيل البخل و الحسد و الحقد و العداوة و الاستعلاء و الأنانية! فعليه أن يطهّر نفسه عن طريق بناء الشخصية و التفكير فى العواقب السيئة لهذه الصفات الذميمة و ما ينتج عنها من نتائج مشؤومة، و يغسل قلبه عن طريق الرياضة النفسية ليستطيع أن يحفظ لسانه من التلوّث بالغيبة.

ثمّ يتوجّه إلى مقام التوبة، و حيث أنّ التوبة من الغيبة فيها «جنبة» حق الناس، فإنّ عليه إذا كان ممكنا و لا يحصل له أىّ مشكل أو معضل- أن يعتذر ممّن اغتابه حتى و لو بصورة مجملة أو معمّاة كأن يقول: إنّنى أغتابك أحيانا لجهلى فسامحنى و اعف عنى و لا يطيل فى بيان الغيبة و شرحها لئلّا يحدث عامل آخر للفساد أو الإفساد! و إذا لم يستطع الوصول إلى الطرف الآخر، أو لا يعرفه، أو أنّه مضى إلى ربّه فيستغفر له و يعمل صالحا، فلعلّ اللّه يغفر له ببركة العمل الصالح و يرضى عنه الطرف الآخر.

۶- موارد الاستثناء! و آخر ما ينبغى ذكره فى شأن الغيبة أنّ قانون الغيبة كأى قانون آخر له استثناءات، من جملتها أنّه يتفق أحيانا فى مقام «الاستشارة» مثلا لانتخاب الزوج أو الشريك فى الكسب و ما إلى ذلك أن يسأل إنسان أنسانا آخر، فالأمانة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۹

المشورة التى هى قانون إسلامى مسلّم به توجب أن تبيّن العيوب إن وجدت فى الشخص الآخر لئلّا يتورّط المسلم فى مشكلة، فمثل هذا الاغتياب بمثل هذا القصد لا يكون حراما.

و كذلك فى الموارد الأخرى التى فيها أهداف مهمّة كهدف المشورة فى العمل أو لإحقاق الحق أو التظلّم و ما إلى ذلك.

و بالطبع فإنّ «المتجاهر بالفسق» خارج عن موضوع الغيبة، و لو ذكر إثمه فى غيابه فلا إثم على مغتابه، إلّا أنّه ينبغى الالتفات إلى أنّ هذا الحكم خاص بالذنب الذى يتجاهر به فحسب.

و ممّا يسترعى الالتفات أيضا هو أنّ الغيبة ليست حراما فحسب، فالاستماع إليها حرام أيضا، و الحضور فى مجلس الاغتياب حرام، بل يجب طبقا لبعض الروايات أن يردّ على المغتاب، يعنى أن يدافع عن أخيه المسلم الذى يراد إراقة ماء وجهه، و ما أحسن مجتمعا تراعى فيه هذه الأصول الأخلاقية بدقّة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۰

الآية [سورة الحجرات (۴۹): آية ۱۳]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۱۳)

التّفسير

التقوى أغلى القيم الإنسانية:

کـان الخطـاب فی الآیات السابقـهٔ موجّها للمؤمنین و کان بصـیغهٔ: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا و قـد نهی الـذکر الحکیم فی آیات متعـدّدهٔ عمّا یوقع المجتمع الإسلامی فی خطر، و تکلّم فی جوانب من ذلک.

فی حین أنّ الآیهٔ محل البحث تخاطب جمیع الناس و تبیّن أهم أصل یضـمن النظم و الثبات، و تمیّز المیزان الواقعی للقیم الإنسانیهٔ عن القیم الکاذبهٔ و المغریات الباطلهٔ. فتقول: یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی وَ جَعَلْناکُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا.

و المراد ب خَلَقْناکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثی هو أصل الخلقـهٔ و عودهٔ أنساب الناس إلی «آدم و حواء»، فطالما کان الجمیع من أصل واحد فلا ینبغی أن تفتخر قبیلهٔ علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۱

أخری من حیث النسب، و إذا کان اللّه سبحانه قد خلق کلّ قبیلهٔ و أولاها خصائص و وظائف معیّنهٔ فإنّما ذلک لحفظ نظم حیاهٔ الناس الاجتماعیـهٔ! لأنّ هـذه الاختلافـات مـدعاهٔ لمعرفـهٔ الناس، فلو، کانوا علی شاکلـهٔ واحـدهٔ و متشابهین لساد الهرج و المرج فی المجتمع البشری أجمع.

و قد اختلف المفسّرون فی بیان الفرق بین «الشـعوب» جمع شـعب- علی زنهٔ صعب- (الطائفهٔ الکبیرهٔ من الناس) و «القبائل» جمع قبیلهٔ فاحتملوا احتمالات متعدّدهٔ:

قال جماعهٔ إنّ دائرهٔ الشعب أوسع من دائرهٔ القبیلهٔ، کما هو المعروف فی العصر الحاضر أن یطلق الشعب علی أهل الوطن الواحد.

و قال بعضهم: کلمهٔ «شعوب» إشارهٔ إلی طوائف العجم، و أمّا «القبائل» فإشارهٔ طوائف العرب.

و أخیرا فـإنّ بعضـهم قال بأنّ «الشـعوب» اشارهٔ إلی انتساب الناس إلی المناطق «الجغرافیـهٔ» و «القبائل» إشارهٔ إلی انتسابهم إلی العرق و الدم.

لکنّ التّفسـیر الأوّل أنسب من الجمیع کما یبـدو! و علی کلّ حال فإنّ القرآن بعـد أن ینبـذ أکبر معیار للمفاخرهٔ و المباهات فی العصـر الجاهلی و یلغی التفاضل بالأنساب و القبائل یتّجه نحو المعیار الواقعی القیم فیضیف قائلا: إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ

و هکذا فإنّ القرآن یشطب بالقلم الأحمر علی جمیع الامتیازات الظاهریهٔ و المادیهٔ، و یعطی الأصالهٔ و الواقعیهٔ لمسألهٔ التقوی و الخوف من اللّه، و یقول إنّه لا شیء أفضل من التقوی فی سبیل التقرّب إلی اللّه و ساحهٔ قدسه.

و حیث أنّ «التقوی» صـفهٔ روحانیـهٔ و باطنیـهٔ ینبغی أن تکون قبل کلّ شـیء مستقرّهٔ فی القلب و الروح، و ربّما یوجـد مدّعون للتقوی کثیرون و المتّصفون بها قلهٔ منهم، فإنّ القرآن یضیف فی نهایهٔ الآیهٔ قائلا: إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۲

فـاللّه یعرف المتّقین حقّا و هو مطلع علی درجات تقواهم و خلوص نیّاتهم و طهارتهم و صـفائهم، فهو یکرمهم طبقا لعلمه و یثیبهم، و أمّا المدّعون الکذبهٔ فإنّه یحاسبهم و یجازیهم علی کذبهم أیضا.

بحثان

۱- القیم الحقّهٔ و القیم الباطلهٔ

لا شکّ أنّ کلّ إنسان یرغب بفطرته أن یکون ذا قیمهٔ و افتخار، و لذلک فهو یسعی بجمیع وجوده لکسب القیم ..

إلّا معرفـهٔ معیار القیم یختلف باختلاف الثقافات تماما، و ربّما أخـذت القیم الکاذبـهٔ مکانا بارزا و لم تبق للقیم الحقهٔ مکان فی قاموس الثقافهٔ للفرد.

فجماعة ترى بأن قيمتها الواقعية فى الانتساب إلى القبيلة المعروفة، و لذلك فإنّهم من أجل أن تعلو سمعة قبيلتهم و طائفتهم و يظهرون نشاطات و فعاليات عامة ليكونوا برفعة القبيلة و سمّوها كبراء أيضا.

و كان الاهتمام بالقبيلة و الافتخار بالانتساب إليها من أكثر الأمور الوهميّة رواجا فى الجاهلية إلى درجة كانت كلّ قبيلة تعدّ نفسها أشرف من القبيلة الأخرى، و من المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهلية فى أعماق نفوس الكثيرين من الأفراد و المجتمعات!! و جماعة أخرى تعوّل على مسألة المال و الثروة و امتلاكها للقصور و الخدم و الحشم و أمثال هذه الأمور، فتعدّها دليلا على القيمة الشخصيّة و تسعى من أجل كلّ ذلك دائما.

و جماعة تعتبر (المقامات) السياسية و الاجتماعية العليا معيارا للشخصية و القيم الاجتماعية! و هكذا تخطو كلّ جماعة فى طريق خاص و تنشدّ قلوبها إلى قيمة معينة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۳

و تعدّها معيارها الشخصى! و حيث أنّ هذه الأمور جميعها أمور متزلزلة و مسائل ذاتية و مادية و عابرة فإنّ مبدأ سماويا كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبدا ... لذلك يشطب عليها بعلامة البطلان و يعتبر القيمة الحقيقية للإنسان فى صفاته الذاتية و خاصة تقواه و طهارة قلبه و التزامه الدينى.

حتى أنّه لا يكترث بموضوعات مهمّة كالعلم و الثقافة إذا لم تكن فى خطّ «الإيمان و التقوى و القيم الأخلاقية» ...

و من العجيب أن يظهر القرآن فى محيط يهتمّ بالقيمة القبلية أكثر من اهتمامه بالقيم الأخرى، إلّا أنّ القرآن حطّم هذه الوثنية و حرّر الإنسان من أسر العرق و الدم و القبيلة و اللون و المال و المقام و الثروة و قاده إلى معرفة نفسه و العثور على ضالّته داخل نفسه و صفاتها العليا.

الطريف أنّ فى ما ذكر فى شأن نزول الآية محل البحث لطائف و دقائق تحكى عن عمق هذا الدستور الإسلامى.

منها: إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمر «بلالا» بعد فتح مكّة أن يؤذّن، فصعد بلال و أذّن على ظهر الكعبة، فقال «عتّاب بن أسيد» الذى كان من الأحرار: أشكر اللّه أن مضى أبى من هذه الدنيا و لم ير مثل هذا اليوم .. و قال «الحارث بن هشام»: ألم يجد رسول اللّه غير هذا الغراب الأسود للأذان؟! «فنزلت الآية الآنفة و بيّنت معيار القيم الواقعية»[۵۴۶].

و قال بعضهم: نزلت الآية عند ما أمر الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم بتزويج بعض الموالى من بنات العرب «و الموالى تطلق على العبيد الذين عتقوا من ربقة أسيادهم أو على غير العرب (المسلمين)». فتعجّبوا و قالوا: يا رسول اللّه أ تأمرنا أن نزوّج بناتنا من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۴

الموالى «فنزلت الآية و أبطلت هذه الأفكار الخرافية»[۵۴۷].

و نقرأ

فى بعض الروايات الإسلامية أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم خطب يوما فى مكّة فقال:

«يا أيّها الناس إنّ اللّه قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية و تعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برّ تقى كريم على اللّه و فاجر شقى هيّن على اللّه و الناس بنو آدم و خلق اللّه آدم من تراب قال اللّه تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[۵۴۸].

و

قد جاء فى كتاب «آداب النفوس» للطبرى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم التفت إلى الناس و هو راكب على بعيره فى أيّام التشريق بمنى «و هى اليوم الحادى عشر و الثّانى عشر و الثّالث عشر» من ذى الحجة فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد و إنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى و لا لعجمى على عربى و لا لأسود على أحمر و لا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى ألا هل

بلّغت: قالوا نعم! قال: لیبلغ الشاهد الغائب»[۵۴۹].

کما ورد فی حدیث آخر بهذا المعنی ضمن کلمات قصیرة ذات معانی غزیرة

أنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إنّ اللّه لا ینظر إلی أحسابکم و لا إلی أنسابکم و لا الی أجسامکم و لا إلی أموالکم و لکن ینظر إلی قلوبکم، فمن کان له قلب صالح تحنّن اللّه علیه و إنّما أنتم بنو آدم و أحبّکم إلیه أتقاکم»[۵۵۰].

إلّا أنّ العجیب أنّه مع هذه التعلیمات الواسعة الغنیة ذات المغزی الکبیر ما یزال بین المسلمین من یعوّل علی الدم و النسب و اللسان و یقدّمون وحدة الدم و اللغة علی الأخوة الإسلامیة و الوحدة الدینیة و یحیون العصبیة الجاهلیة مرّة أخری،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۵

و بالرغم من الضربات الشدیدة التی یتلقّونها من جراء ذلک، إلّا أنّهم حسب الظاهر لا یریدون أن یتیقّظوا و یعودوا إلی حکم الإسلام و حظیرة قدسه! حفظ اللّه الجمیع من شر العصبیة الجاهلیة.

إنّ الإسلام حارب العصبیة الجاهلیة فی أی شکل کانت و فی أیّة صورة لیجمع المسلمین فی العالم من أی قوم و قبیلة و عرق تحت لواء واحدا!- لواء القومیة و لا سواه- لأنّ الإسلام لا یوافق علی هذه النظریات المحدودة و یعدّ جمیع هذه الأمور وهمیة و لا أساس لها حتی أنّه

ورد فی حدیث عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «دعوها فإنّها منتنة»[۵۵۱].

و لکنّ لماذا بقیت هذه الفکرة المنتنة مترسّخة فی عقول الکثیرین ممّن یدّعون أنّهم مسلمون و یتّبعون القرآن و الأخوة الإسلامیة ظاهرا؟! لا ندری!! و ما أحسن أن یبنی المجتمع علی أساس معیار القیم الإسلامی إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ و إن تطوی القیم الکاذبة من قومیّة و مال و ثروة و مناطق جغرافیة و طبقیة عن هذا المجتمع.

أجل، التقوی الإلهیة و الإحساس بالمسؤولیة الداخلیة و الوقوف بوجه الشهوات و الالتزام بالحق و الصدق و الطهارة و العدل، هی وحدها معیار القیم الإنسانیة لا غیر، بالرغم من أنّ هذه القیم الأصیلة نسیت و أهملت فی سوق المجتمعات المعاصرة و حلّت محلها القیم الکاذبة.

فی نظام القیم الجاهلیة الذی کان یدور حول محور «التفاخر بالآباء و الأموال و الأولاد» لم ینتج سوی حفنة سرّاق و ناهبین، غیر أنّه بتبدّل هذا النظام و إحیاء أصل إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ الکبیر کان من ثمراته أناس أمثال سلمان و أبو ذر و عمّار و یاسر و المقداد. و المهم فی ثورات المجتمعات الإنسانیة هو الثورة علی القیم» و إحیاء هذا الأصل الإسلامی الأصیل!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۶

و نختتم کلامنا هذا

بحدیث للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إذ قال: «کلکم بنو آدم و آدم خلق من تراب و لینتهین قوم یفخرون بآبائهم أو لیکونن أهون علی اللّه من الجعلان»[۵۵۲].

۲- حقیقة التقوی

کما رأینا من قبل، فإنّ القرآن جعل أکبر امتیاز للقوی، و عدّها معیارا لمعرفة القیم الإنسانیة فحسب! و فی مکان آخر عدّها خیر الزاد و الشراب إذ یقول: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوی ۵۵۳].

أمّا فی سورة الأعراف فقد عبّر عنها باللباس: وَ لِباسُ التَّقْوی ذلِکَ خَیْرٌ[۵۵۴].

کما أنه عبّر عنها فی آیات أخر بأنّها واحدة من أول أسس دعوة الأنبیاء، و یسمو بها فی بعض الآیات إلی أن یعبّر عن اللّه بأنه أهل

التقوى فيقول: هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ[۵۵۵].

و القرآن يعدّ التقوى نورا من اللّه، فحيثما رسخت التقوى كان العلم و المعرفة إذ يقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۵۵۶].

و يقرن التقوى بالبرّ فی بعض آياته فيقول: وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى

أو يقرن العدالة بالتقوى فيقول: اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى

و الآن ينبغی أن نرى ما هی «حقيقة التقوى» التی هی أعظم رأس مال معنوی و افتخار للإنسان.

أشار القرآن إشارات تكشف أستارا عن حقيقة التقوى، فيذكر فی آيات متعدّدة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۷

«القلب» مكانا للتقوى، و من ضمنها قوله تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى ۵۵۷].

و يجعل القرآن «التقوى» فی مقابل «الفجور» كما نقرأ ذلك فی الآية (۸) من سورة الشمس: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها.

و يعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان و الإخلاص و النية الصادقة أساسه التقوى، كما جاء فی وصفه فی شأن «مسجد قبا» (فی المدينة) حيث بنى المنافقون فی قباله «مسجد ضرار» فيقول: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۵۵۸].

و يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ التقوى هی الإحساس بالمسؤولية و التعهّد الذی يحكم وجود الإنسان و ذلك نتيجة لرسوخ إيمانه فی قلبه حيث يصدّه عن الفجور و الذنب و يدعوه إلى العمل الصالح و البر و يغسل أعمال الإنسان من التلوّثات و يجعل فكره و نيّته فی خلوص من أية شائبة.

و حين نعود إلى الجذر اللغوی لهذه الكلمة نصل إلى هذه النتيجة أيضا لأنّ «التقوى» مشتقّة من «الوقاية» و معناها المواظبة و السعی على حفظ الشیء، و المراد فی هذه الموارد حفظ النفس من التلوّث بشكل عام، و جعل القوى تتمركز فی أمور يكون رضا اللّه فيها:

و قد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

۱- حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الإعتقادات الصحيحة.

۲- تجنّب كلّ إثم و هو أعم من أن يكون تركا لواجب أو فعلا لمعصية.

۳- التجلّد و الاصطبار عن كلّ ما يشغل القلب و يصرفه عن الحق، و هذه تقوى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۸

الخواص بل خاص الخاص ۵۵۹].

و فی نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علی عليه السلام تعابير حيّة و بليغة فی شأن التقوى، حيث ذكرت التقوى فی كثير من خطب الإمام و كلماته القصار! ففی بعض كلماته يقارن عليه السلام بين التقوى و الذنب

فيقول: «ألا- و إنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها و خلعت لجمها فتقحّمت بهم فی النّار ألا و إنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها و أعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنّة»[۵۶۰].

و طبقا لهذا التشبيه اللطيف فإنّ التقوى هی حالة ضبط النفس و التسلّط على الشهوات، فی حين أنّ عدم التقوى هو الاستسلام للشهوات و عدم التسلّط عليها.

و

يقول الإمام علی فی مكان آخر: «اعلموا عباد اللّه أنّ التقوى دار حصن عزيز و الفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله و لا يحرز من لجأ إليه ألا و بالتقوى تقطع حمة الخطايا»[۵۶۱].

و

يضيف فی مكان آخر أيضا: «فاعتصموا بتقوى اللّه فإنّ لها حبلا وثيقا عروته و معقلا منيعا ذروته»[۵۶۲].

و تتّضح حقيقة التقوى و روحها من خلال مجموع التعبيرات آنفة الذكر.

و ينبغى الالتفات إلى هذه «اللطيفة» و هى أنّ التقوى ثمرة شجرة الإيمان، و من أجل الحصول على هذه الثمرة النادرة و الغالية ينبغى أن تكون قاعدة الإيمان راسخة و محكمة! و بالطبع فإنّ ممارسة الطاعة و تجنّب المعصية و الالتفات إلى المناهج الأخلاقية تجعل التقوى راسخة فى النفس، و نتيجتها ظهور نور اليقين و الإيمان فى نفس الإنسان، و كلّما إزداد نور التقوى إزداد نور اليقين أيضا، و لذلك نجد التقوى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۹

بعض الروايات الإسلامية على أنّها درجة أعلى من الإيمان و أدنى من اليقين!

يقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة و التقوى فوق الإيمان بدرجة و اليقين فوق التقوى بدرجة و ما قسم فى الناس شىء أقلّ من اليقين».

و نختتم بحثنا بأبيات تجسّد حقيقة التقوى ضمن مثال جلى:

خل الذنوب صغيرهاو كبيرها فهو التقى

و اصنع كماش فوق أرض‌الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرةإنّ الجبال من الحصى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۰

الآيتان [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱۴ الى ۱۵]

اشارة

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۱۵)

سبب النّزول

ذكر كثير من المفسّرين شأنا لنزول الآيتين و خلاصته ما يلى ...

ورد المدينة جماعة من «بنى أسد» فى بعض سنين الجدب و القحط و أظهروا الشهادتين على ألسنتهم أملا فى الحصول على المساعدة من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا للرسول أنّ قبائل العرب ركبت الخيول و حاربتكم إلّا أنّنا جئناك بأطفالنا و نسائنا دون أن نحاربك، و أرادوا أن يمنّوا على النّبى عن هذا الطريق! فنزلت الآيتان آنفتا الذكر و كشفتا أنّ إسلامهم ظاهرى و لم يتغلغل الإيمان فى أعماق قلوبهم، ثمّ إذا كانوا مؤمنين فما ينبغى عليهم أن يمنّوا على الرّسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۱

بالإيمان بل اللّه يمن عليهم أن هداهم للإيمان ۵۶۳].

و لكنّ وجود شأن النزول هذا لا يمنع من عمومية مفهوم الآية.

التّفسير

الفرق بين الإسلام و الإيمان:

كان الكلام في الآيـة المتقدّمـة على معيار القيم الإنسانيـة أي التقوى، و حيث أنّ التقوى ثمرة لشـجرة الإيمان الإيمان النافذ في أعماق القلوب، ففي الآـيتين الآـنفتين بيـان لحقيقـة الإيمـان إذ تقول الآيـة الأـولى: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْـلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ

و طبقا لمنطوق الآيـة فإنّ الفرق بين «الإسـلام» و «الإيمان» في أنّ: الإسـلام له شـكل ظاهري قانوني، فمن تشـهد بالشهادتين بلسانه فهو في زمرة المسلمين و تجري عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمـان فهو أمر واقعي و بـاطني، و مكـانه قلب الإنسـان لاـ مـا يجري على اللسـان أو ما يبـدو ظاهرا! الإسـلام ربّما كان عن دوافع متعـدّدة و مختلفـة بمـا فيها الـدوافع الماديّـة و المنافع الشخصـية، إلّا أنّ الإيمان ينطلق من دافع معنوي، و يسترفـد من منبع العلم، و هو الـذي تظهر ثمرة التقوى اليانعـة على غصن شـجرته الباسـقة! و هـذا ما أشار إليه الرّسول الأكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم في تعبيره البليغ الرائع:

«الإسلام علانية و الإيمان في القلب»[۵۶۴].

كما إنّا نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق يقول فيه: الإسلام يحقن الدم

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۲

و تؤدّى به الأمانة و تستحل به الفروج و الثواب على الإيمان ۵۶۵].

و ربما كان لهذا السبب أنّ بعض الروايات تحصـر مفهوم الإسلام بالإقرار اللفظي، في حين أنّ الإيمان إقرار باللسان و عمل بالأركان، إذ تقول الرواية

«الإيمان إقرار و عمل، و الإسلام إقرار بلا عمل»[۵۶۶].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۵۷۲

هذا المعنى نفسه وارد في تعبير آخر في بحث الإسلام و الإيمان،

يقول «فضـيل بن يسار» سـمعت الإمام الصادق عليه السـلام يقول: إنّ الإيمان يشارك الإسلام و لا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر في القلوب و الإسلام ما عليه المناكح و المواريث و حقن الدماء[۵۶۷].

و هـذا التفـاوت في المفهومين فيمـا إذا اجتمع اللفظـان معـا، إلّـا أنّه إذا انفصـل كـل عن الآـخر فربما أطلق الإسـلام على ما يطلق عليه بالإيمان، أي أنّ اللفظين قد يستعملان في معنى واحد أحيانا.

ثمّ تضـيف الآية محل البحث فتقول: وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً و سيوفّيكم ثواب أعمالكم بشكل كامل و لا ينقص منها شيئا.

و ذلك ل إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا يَلِتْكُمْ مشتق من «ليت» على زنة (ريب) و معناه الإنقاص من الحق ۵۶۸].

و العبارات الأخيرة في الحقيقة إشارات إلى أصل قرآني مسلّم به و هو أنّ شـرط قبول الأعمال «الإيمان»، إذ مضمون الآية أنّه إذ كنتم مؤمنين بـاللّه و رسوله إيمانـا قلبيا و علامته طاعتكم للّه و الرّسول فإنّ أعمالكم مقبولـة، و لا ينقص من أجركم شـيء، و يثيبكم اللّه، و ببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ اللّه غفور رحيم.

و حیث أنّ الحصول علی هذا الأمر الباطنی أی الإیمان لیس سهلا، فإنّ الآیة التالیة تتحدّث عن علائمه، العلائم التی تمیّز المؤمن حقّا عن المسلم و الصادق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۳

عن الکاذب، و أولئک الذین استجابوا للّه و للرسول رغبة و شوقا منهم عن أولئک الذین استجابوا طمعا أو للوصول إلی المال و الدنیا فتقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ یَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ أجل، إنّ أوّل علامة للإیمان هی عدم التردّد فی مسیر الإسلام، و العلامة الثانیة الجهاد بالأموال، و العلامة الثالثة التی هی أهم من الجمیع الجهاد بالنفس.

و هکذا فإنّ الإسلام یستهدف فی الإنسان أجلی العلائم «ثبات القدم و عدم الشک و التردّد من جهة، و الإیثار بالمال و النفس من جهة أخری».

فکیف لا یرسخ الإیمان فی القلب و الإنسان لا یقصّر عن بذل المال و الروح فی سبیل المحبوب!؟

و لذلک فإنّ الآیة تختتم بالقول مؤکّدة: أُولئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ

هذا هو المعیار الذی حدّده الإسلام لمعرفة المؤمنین الحق و تمییزهم عن الکاذبین المدّعین بالإسلام تظاهرا، و لیس هذا المعیار منحصرا بفقراء جماعة بنی أسد، بل هو معیار واضح و جلی و یصلح لکلّ عصر و زمان لفصل المؤمنین عن المتظاهرین بالإسلام، و لبیان قیمة أولئک الذین یمنّون بأنّ أسلموا علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و ذلک بحسب الظاهر فحسب، إلّا أنّه عند التطبیق و العمل لا یوجد فیهم أقلّ علامة من الإیمان أو الإسلام.

و فی قبال أولئک رجال لا یدّعون شیئا و لا یمنّون، بل یرون أنفسهم مقصّرین دائما، و فی الوقت ذاته هم فی طلیعة المضحّین و المؤثرین بأموالهم و أنفسهم فی سبیل اللّه.

و لو أنّا اتخذنا معیار القرآن لمعرفة المؤمنین الواقعیین و تمییزهم عن سواهم لما کان معلوما من خلال هذا العدد الهائل من آلاف الآلاف و «الملایین» ممن یدّعون الإسلام کم هم المؤمنون حقّا؟! و کم هم المسلمون فی الظاهر فحسب؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۴

الآیات [سورة الحجرات (۴۹): الآیات ۱۶ الی ۱۸]

اشارة

قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِینِکُمْ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۶) یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَیَّ إِسْلامَکُمْ بَلِ اللَّهُ یَمُنُّ عَلَیْکُمْ أَنْ هَداکُمْ لِلْإِیمانِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۱۷) إِنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ غَیْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸)

سبب النزول

اشارة

قال جماعة من المفسّرین إنّه بعد نزول ما تقدّم من الآیات آنفا جاء النّبی طائفة من الأعراب و حلفوا أنّهم صادقون فی ادّعائهم بأنّهم المؤمنون و ظاهرهم و باطنهم سواء، فنزلت الآیة الأولی من الآیات محل البحث و أنذرتهم أن لا یحلفوا، فاللّه یعرف باطنهم و ظاهرهم، و لا یخفی علیه خافیة فی السماوات و لا فی الأرض ۵۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۵

التّفسير

لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ

كانت الآيات السابقة قد بيّنت علائم المؤمنين الصادقين، و حيث أنّا ذكرنا فى شأن النّزول أنّ جماعة جاؤوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا إنّ ادّعاءهم كان حقيقة و إنّ الإيمان مستقر فى قلوبهم، فإنّ هذه الآيات تنذرهم و تبيّن لهم أنّه لا حاجة إلى الإصرار و القسم، كما أنّ هذا البيان و الإنذار هو لجميع الذين على شاكلة تلك الجماعة، فمسألة (الكفر و الإيمان) إنّما يطّلع عليها اللّه الخبير بكل شىء! و لحن الآيات فيه عتاب و ملامة، إذ تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

و لمزيد التأكيد تقول الآية أيضا: وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فذاته المقدّسة هى علمه بعينه و علمه هو ذاته بعينها[۵۷۰] و لذلك فإنّ علمه أزلى أبدى! ذاته المقدّسة فى كلّ مكان حاضرة، و هو أقرب إليكم من حبل الوريد، و يحول بين المرء و قلبه، فمع هذه الحال لا حاجة لادّعائكم، و هو يعرف الصادقين من الكاذبين و مطّلع على أعماق أنفسهم حتى درجات إيمانهم المتفاوتة ضعفا و قوّة، و قد تنطلى عليهم أنفسهم، إلّا أنّه يعرفها بجلاء، فعلام تصرون أن تعلّموا اللّه بدينكم؟! ثمّ يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الذين يمنّون على النّبى بأنّهم أسلموا و أنّهم أذعنوا لدينه فى الوقت الذى حاربته القبائل العربية الأخرى.

فيقول القرآن جوابا على كلماتهم هذه: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۶

«المنة» كما بيّنا سابقا من مادة «المن» و معناه الوزن الخاص الذى يوزن به، ثمّ استعمل هذا اللفظ على كلّ نعمة غالية و ثمينة، و المنّة على نوعين: فإذا كان فيها جانب عملى كعطاء النعمة و الهبة فهى ممدوحة، و منن اللّه من هذا القبيل، و إذا كان فيها جانب لفظى، كمن كثير من الناس بالقول بعد العمل، فهى قبيحة و غير محبوبة! الطريف أن صدر الآية يقول «يمنّون عليك أن أسلموا» و هذا تأكيد آخر على أنّهم غير صادقين فى إيمانهم.

و فى ذيل الآية يأتى التعبير قائلا: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و على كلّ حال فهذه مسألة مهمّة أن يتصوّر قاصر و التفكير غالبا أنّهم بقبول الإيمان و أداء العبادات و الطاعات يقدمون خدمة لساحة قدس اللّه أو للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أوصيائه، و لذلک فهم ينتظرون الثواب و الأجر.

فى حين أنّه لو أشرق نور الإيمان فى قلب أحد، و نال هذا التوفيق بأن كان فى زمرة المؤمنين، فقد شمله لطف عظيم من اللّه عز و جل.

فالإيمان و قبل كلّ شىء يمنح الإنسان إدراكا جديدا عن عالم الوجود، و يكشف عنه حجب الأنانية و الغرور، و يوسع عليه أفق نظرته، و يجسّد له عظمة خلقه فى نظره! انّه يلقى على عواطفه النور و الضياء و يربّيها و يحيى فى نفسه القيم الإنسانية، و ينمّى استعداداته العالية فيه، و يمنحه العلم و القوة و الشهامة و الإيثار و التضحية و العفو و التسامح و الإخلاص، و يجعل منه إنسانا قويا ذا عطاء و ثمر بعد أن كان موجودا ضعيفا.

إنّه يأخذ بيده و يصعد به فى مدارج الكمال إلى قمة الفخر، و يجعله منسجما مع عالم الوجود، و يسخّر عالم الوجود طوع أمره!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۷

أ هذه النعمة التی أنعمها اللّه علی الإنسان ذات قیمة، أم ما یمنّه الإنسان علی النبی؟!! کذلک کلّ عبادة و طاعة هی خطوة نحن التکامل، إذ تمنح القلب صفاء و تسیطر علی الشهوات، و تقوّی فیه روح الإخلاص، و تمنح المجتمع الإسلامی الوحدة و القوّة و العظمة فکأنّه نسیج واحد! فکل واحدة منها درس کبیر فی التربیة، و مرحلة من المراحل التکاملیة! و من هنا کان علی الإنسان أن یؤدّی شکر نعمة اللّه صباح مساء، و أن یهوی إلی السجود بعد کلّ صلاة و عبادة، و أن یشکر اللّه علی جمیع هذه الأمور! فإذا کانت نظرة الإنسان- فی هذا المستوی- من الإیمان و الطاعة فإنه لا یری نفسه متفضلا، بل یجد نفسه مدینا للّه و لنبیّه و غریق إحسانه. و یؤدّی عبادته بلهفة، و یسعی فی سبیل طاعته علی الرأس لا علی القدم و إذا ما أثابه اللّه أجرا فهو تفضّل آخر منه و لطف، و إلّا فإنّ أداء الأعمال الصالحة یکون بنفع الإنسان، و الحقیقة أنّه بهذا التوفیق یضاف علی میزانه عند اللّه.

فهدایة اللّه- بناء علی ما بیّنا- لطف، و دعوة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لطف آخر، و التوفیق للطاعة مضاعف، و الثواب لطف فوق لطف! و فی آخر آیة من الآیات محل البحث التی هی آخر سورة الحجرات تأکید آخر علی ما ورد فی الآیة الآنفة إذ تقول: إِنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ غَیْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ فلا تصرّوا علی أنّکم مؤمنون حتما و لا حاجة للقسم ... فهو حاضر فی أعماق قلوبکم، و هو علیم بما یجری فی غیب السماوات و الأرض جمیعا، فکیف لا یعلم ما فی قلوبکم و ما تنطوی علیه صدورکم؟!

اللّهم: مننت علینا بنور الإیمان، فنقسم علیک بعظیم نعمة الهدایة أن تثبّت أقدامنا فی هذا الطریق و تقودنا فی سبیل الکمال ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۸

إلهنا، أنت عالم بما فی قلوبنا، و تعلم نیّاتنا و دوافعنا، فاستر عیوبنا عن أنظار عبادک، و أصلح ما فسد منّا بکرمک.

ربّنا، وفّقنا للتحلّی بجمیل الصفات و محاسن الأخلاق التی ذکرتها فی هذه السورة حتی تتجذّر فی وجودنا و تتعمّق فی أرواحنا و أفکارنا ...

آمین ربّ العالمین انتهاء سورة الحجرات و نهایة المجلد السادس عشر

---

[۱] (۱) مجمع البیان، بدایة، سورة الخزوف.

[۲] (۱)- الواو فی(و الکتاب المبین) للقسم، و جواب هذا القسم جملة\i(إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا\)E.

[۳] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۴] (۱)- هود، الآیة ۱۱۹.

[۵] (۱)- جاء فی موضعین آخرین من القرآن اعتراف هؤلاء بکون الله خالقا، غایته أن أحدهما فی شأن نزول المطر من السماء(العنکبوت- ۶۳) و الآخر فی کون الله سبحانه خالقهم(الزخرف- ۸۷).

[۶] (۱)- کلمة« السبل»- جمع سبیل»- تطلق علی الطرق البرّیة و البحریّة، کما نقرأ فی الفقرة(۴۲) من دعاء الجوشن« یا من فی البرّ و البحر سبیله».

[۷] (۱)- الضمیر فی« علی ظهوره» یعود علی« ما» الموصولة و التی وردت فی جملة« ما ترکبون» و هی تشمل السفن و الدواب، و کونه مفردا لظاهر اللفظ.

[۸] (۲)- جاء فی لسان العرب:« أقرن له و علیه»: أطاق و قوی علیه و اعتلی، و فی التنزیل العزیز:\i وَ ما کُنَّا لَهُ مُقْرِنِینَ E.

[۹] (۱)- المؤمنون، الآیة ۲۸.

[۱۰] (۱)- المؤمنون، الآية ۲۹.

[۱۱] (۲)- تفسير الفخر الرازى، المجلد ۲۷، صفحة ۱۹۹.

[۱۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۳] (۴)- نور الثقلين، المجلد ۴، صفحة ۵۹۳.

[۱۴] (۱)-« ينشّؤا» من مادة« الإنشاء»، أى إيجاد الشيء، و هنا بمعنى تربية الشيء، و تنميته، و« الحلية» تعنى الزينة، و« الخصام» هو المجادلة و النزاع على شيء ما.

[۱۵] (۱)-« أم» هنا متصلة، و هى معطوفة على(اشهدوا خلقهم)، و الضمير فى(من قبله) يعود إلى القرآن. و ما احتمله البعض من أن(أم) هنا منقطعة، أو أن الضمير يرجع إلى الرّسول، لا يتناسب كثيرا مع القرائن التى فى الآية.

[۱۶] (۱)- فى جملة\i إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ E مهتدون خبر(إن) و« على آثارهم» متعلق به، و أمّا ما احتمله البعض من أن« على آثارهم» خبر أوّل، و(مهتدون) خبر ثان، فيبدو بعيدا عن الصواب.

[۱۷] (۱)- تقرأ فى لسان العرب: أترفته النعمة، أى: أطغته.

[۱۸] (۲)- لهذه الجملة محذوف تقديره: أتتبعون آباءكم و لو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم. تفسير الكشاف المراغى، القرطبى، و روح المعانى.

[۱۹] (۱)-« براء» مصدر، و هى تعنى التبرؤ، و لها فى مثل هذه الموارد معنى الوصف بشكل مؤكد و المبالغة، ك(زيد عدل) و لما كانت مصدرا فقد تساوى فيها المفرد و الجمع، و المذكر و المؤنث.

[۲۰] (۲)- طبقا لهذا التفسير، فإن الاستثناء فى جملة« إلا الذى فطرنى» متصل، لأن كثيرا من عبدة الأوثان لم يكونوا منكرين لله، بل كانوا يشركون معه غيره، إلاـ أنه احتمل أيضا أن يكون الاستثناء منقطعا، و(إلا) بمعنى(لكن) لأن التعبير ب(ما تعبدون) يشير إلى الأصنام، فإن هذا التعبير غير متعارف فى شأن الله تعالى.(تأمل).

[۲۱] (۱)-« العقب» فى الأصل بمعنى كعب القدم، إلّا أن هذه الجملة استعملت فيما بعد فى الأولاد و أولاد الأولاد بصورة واسعة.

[۲۲] (۲)- إبراهيم، الآية ۳۵.

[۲۳] (۱)- يوسف، الآية ۱۵.

[۲۴] (۱)- نقل صاحب نور الثقلين هذه الأحاديث فى المجلّد ۴، صفحة ۵۹۶- ۵۹۷، و وردت أيضا فى تفسير البرهان، المجلد ۴، صفحة ۱۳۸- ۱۳۹.

[۲۵] (۱)- النجم، الآية ۳۹.

[۲۶] (۱)- كان لنا بحث مفصّل فى هذا الباب فى ذيل الآية(۳۲) من سورة النساء، و بحث آخر فى ذيل الآية(۱۶۵) من سورة الأنعام.

[۲۷] (۱)-« لبيوتهم» بدل اشتمال ب(لمن يكفر بالرحمن) و تكرار(اللام) لهذا المعنى، أو بمعنى(على) أى: على بيوتهم، لكن الاحتمال الأول أصح.

[۲۸] (۱)-« المعارج» جمع معراج، و هو الوسيلة التى يستخدمها الإنسان للصعود إلى الطبقات العليا.

[۲۹] (۲)- اعتبر البعض(زخرفا) عطفا على(سقفا)، و يعتقدون أنها إشارة إلى وسائل الزينة المستقلة التى توضع تحت تصرف أمثال هؤلاء الأفراد. و البعض اعتبرها عطفا على(من فضة) و كانت فى الأصل(من زخرف) ثم نصبت بنزع الخافض، و على هذا يصبح معنى الجملة: إنا جعلنا بعض سقوف و أسرة بيوت هؤلاء من ذهب و بعضها من فضة.(تأمل!).

[۳۰] (۱)- تفسير الكشّاف، المجلد ۴، صفحة ۲۵۰.

[۳۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲. الخطبة القاصعة.

[۳۲] (۲)- الرعد، الآية ۱۱.

[۳۳] (۳)- الأعراف، الآية ۳۲.

[۳۴] (۴)- الأعراف، الآية ۳۱.

[۳۵] (۱)-« يعش» من مادة العشو، فإن عديت ب(إلى):(عشوت إليه) فهى تعنى الهداية بواسطة شيء ما بعين ضعيفة، و إن عديت ب(عن):(عشا عنه)، و أعطت معنى الإعراض عن الشيء، و هو المراد فى الآية المذكورة. لسان العرب(عشو).

[۳۶] (۲)-« نقيّض» من مادة قيض، و هى فى الأصل بمعنى الغشاء الذى يغطى البيضة، ثمّ جاءت بمعنى جعل شيء مستوليا على شيء آخر.

[۳۷] (۳)- النحل، الآية ۶۳.

[۳۸] (۴)- النحل، الآية ۶۳.

[۳۹] (۱)- ضمير الجمع فى« أنّهم» و الجملة التالية يعود إلى الشياطين، و مع أنه قد جاء بصيغة المفرد من قبل، إلّا أنّه كان بمعنى الجمع.

[۴۰] (۱)- على هذا فإن فاعل« ينفع» هو القول السابق حيث كانوا يأملون أن يكون البعد بينهم و بين الشياطين كما بين المشرق و المغرب، و جملة(إذ ظلمتم) بيان لعلة عدم النفع، و جملة\i أَنَّكُمْ فِی الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ E نتيجة هذا الظلم و الجور.

[۴۱] (۱) بناء على هذا التّفسير، فإنّ جملة\i أَنَّكُمْ فِی الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ E ستكون فاعل(ينفع) لا نتيجته.

[۴۲] (۱) التّفسير الكبير للفخر الرازى، المجلد ۲۷، صفحة ۲۱۴- ۲۱۵.

[۴۳] (۱) مجمع البيان، التّفسير الكبير للفخر الرازى، تفسير القرطبى، تفسير المراغى، و تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآية مورد البحث.

[۴۴] (۲)- تفسير القرطبى، ذيل الآية مورد البحث.

[۴۵] (۱) الأمر الآخر الذى يمكن أن يكون دليلا على التّفسير المشهور، هى كلمة(القوم) التى وردت فى الآية المذكورة، لأنّ القرآن منهاج لتذكير كل البشر، لا قوم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حسب، أو خصوص أمة الإسلام.

إلّا أن هذا الكلام يمكن الإجابة عليه بأن هؤلاء القوم قد استفادوا من تذكير القرآن قبل الآخرين، و لذلك كان التأكيد عليهم.

[۴۶] (۱) رويت هذه الرواية عن ابن عباس فى تفسير القرطبى و تفسير الفخر الرازى و مجمع البيان، و رويت فى تفسير نور الثقلين روايتان مفصلتان فى هذا الباب عن كتاب الإحتجاج و تفسير على بن إبراهيم. يراجع المجلد ۴، ص ۶۰۵- ۶۰۷.

[۴۷] (۱) جمع هذه الأحاديث مؤلف تفسير نور الثقلين، فى المجلد ۴، صفحة ۶۴- ۶۵.

[۴۸] (۱) التعبير ب« الأخت» فى لغة العرب يعنى ما يوازى الشيء فى الجنس و المرتبة كالأختين.

[۴۹] (۱)- جاء تفصيل المعجزات التسع لموسى بن عمران عليه السّلام فى ذيل الآية(۱۰۱) من سورة الإسراء.

[۵۰] (۱) الواو فى جملة\i وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی E يمكن أن تكون عاطفة على(ملك مصر) و يمكن أن تكون حالية(تفسير الكشاف). إلّا أن الاحتمال الأوّل يبدو هو الأنسب.

[۵۱] (۱)- اعتبر جماعة(أم) فى الجملة أعلاه منقطعة، و أنها بمعنى(بل)، و ذهب البعض أنها متصلة، و متعلقة بجملة(أ فلا تبصرون).

و تقدير الجملة: أ فلا تبصرون أم تبصرون أنا خير من هذا ...

[۵۲] (۲)- طه، الآية ۲۷.

[۵۳] (۱)- جاءت كلمة« مقترنين» هنا بمعنى المتتابعين أو المتعاضدين، و قال البعض: إنّ الاقتران هنا بمعنى التقارن.

[۵۴] (۱)- ورد فى التّفسير الأمثل، ذيل الآية(۹) من سورة الأنعام بحث مفصل فى هذا الباب.

[۵۵] (۱)- مفردات الراغب، مادة(أسف).

[۵۶] (۱)- سيرة ابن هشام، المجلد الأوّل، صفحة ۳۸۵، بتلخيص قليل.

[۵۷] (۱)-« يصدون» من مادة صد، و يكسر مضارعها، و هى تعنى الضحك و الصراخ، و إحداث الضجيج و الغوغاء، حيث يضعون يدا بيد عند السخرية و الاستهزاء عادة، يراجع لسان العرب، مادة: صدد.

[۵۸] (۲)- الأنبياء، الآية ۹۸.

[۵۹] (۳)-« خصمون» جمع خصم، و هو الشخص الذى يجادل و يخاصم كثيرا.

[۶۰] (۱)- احتملوا فى تفسير الآيات أعلاه احتمالات أخرى، و كل منها لا يتناسب مع محتوى الآيات:

۱- فقال البعض: إنّ المراد من المثل الذى ضربه المشركون هو أنّهم قالوا بعد ذكر المسيح و قصته فى آيات القرآن: إنّ محمّدا يهيء الأرضية ليدعونا إلى عبادته، و القرآن فى مقام الدفاع عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لم يكن المسيح مدعيا للألوهية، و سوف لن يدعيها هو أيضا.

۲- و قال البعض الآخر: إنّ المراد من المثل فى الآيات المذكورة هو التشبيه الذى ذكره اللّه سبحانه فى شأن المسيح فى الآية(۵۹) من سورة آل عمران، حيث يقول\:i إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ E فإذا كان عيسى قد ولد من غير أب فإن ذلك لا يثير العجب، لأنّ آدم قد ولد من غير أب و أم، بل من التراب بأمر اللّه تعالى.

۳- و احتمل بعض آخر أنّ المراد من المثل هو قول المشركين حيث كانوا يقولون: إذا كان النصارى يعبدون المسيح، فلما ذا لا تكون آلهتنا التى هى أسمى منه، لائقة للعبادة و أهلا لها؟

غير أنّ الالتفات إلى الخصوصيات التى ذكرت فى هذه الآيات يوضح أن أيّا من هذه التّفسيرات الثلاثة لا يصح، لأنّ الآيات تبيّن جيدا:

أوّلا: أنّ المثل كان من ناحية المشركين.

ثانيا: كان الموضوع قد أثار ضجة و صخبا، و كان مضحكا بنظرهم.

ثالثا: كان شيئا على خلاف مقام عبودية المسيح عليه السّلام.

رابعا: أنّه كان يحقق هدف هؤلاء، و هو الجدال فى أمر كان كاذبا.

و هذه الخصائص لا تتناسب إلّا مع ما قلناه فى المتن فقط.

[۶۱] (۱)- لمزيد الاطلاع راجعوا: كتاب إحقاق الحق، المجلد ۳، صفحة ۳۹۸ و ما بعدها، تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، صفحة ۶۰۹ و ما بعدها، و تفسير مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث.

[۶۲] (۲)- اختار التّفسير الأوّل، الطبرسى فى مجمع البيان، و الشيخ الطوسى فى التبيان، و أبو الفتوح الرازى و آخرون.

أما التّفسير الثّانى فقد نقله القرطبى و الآلوسى فى روح المعانى، و الزمخشرى فى الكشاف، و المراغى، على أنه المعنى الوحيد للآية، أو أنّه أحد معنيين لها.

[۶۳] (۱)- الميزان، ذيل الآية مورد البحث.

[۶۴] (۲)- طبقا للتفسير الأوّل، فإنّ(من) للبدلية، و بناء على التّفسيرين الثّانى و الثّالث فإنّ(من) للإنشاء، و الابتداء.

[۶۵] (۳)- نقل هذا الحديث صاحب مجمع البيان عن صحيح مسلم فى ذيل الآيات مورد البحث.

[۶۶] (۴)- مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، و تفسير روح المعانى، المجلد ۵، صفحة ۸۸.

[۶۷] (۱)- قال بعض آخر من المفسّرين: إنّ(بعض) هنا بمعنى الكل، أو أن التعبير ب أ(بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ\)E إضافة موصوف إلى الصفة، أو أن هذا التعبير إشارة إلى أنّى أبيّن لكم أمور الدين و حسب، لا اختلافاتكم فى أمر الدنيا. إلّا أن أيّا من هذه التفاسير لا يستحق الاهتمام.

[۶۸] (۲)- ورد نظير هذه الآية بتفاوت يسير فى سورة مريم- ۳۶، و سورة الأنعام- ۵۱، و تكرار هذا المعنى تأكيد على أن عيسى عليه السّلام قد أتمّ الحجة على جميع هؤلاء فى مورد عبوديته و كونه عبد اللَّه سبحانه.

[۶۹] (۳)- الضمير فى(بينهم) يعود إلى الذين خاطبهم المسيح عليه السّلام فى الآية السابقة، و دعاهم إلى عبودية اللَّه سبحانه.

[۷۰] (۱)- نهج البلاغة. الكلمات القصار: ۱۱۷.

[۷۱] (۲)- ينبغى الانتباه إلى أن(أليم) صفة لليوم لا للعذاب.

[۷۲] (۱)- تفسير روح البيان، المجلد ۲۵، صفحة ۸۹.

[۷۳] (۲)-« الأخلاء» جمع(خليل)- من مادة خلة- بمعنى المودّة و المحبّة، و أصلها من الخلل- على وزن شرف- أى الفاصلة بين جسمين، و لما كانت المحبة و الصداقة كأنّها تنفذ فى أعماق القلب و ثناياه، فقد استعملت فيها هذه الكلمة.

[۷۴] (۱)- تفسير على بن إبراهيم، طبق نقل نور الثقلين، ج ۴: صفحة ۶۱۲.

[۷۵] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار ۱۴۷.

[۷۶] (۱)- روح البيان، المجلد ۸ صفحة ۳۹۱.

[۷۷] (۱)- تفسير روح البيان، الجزء ۸، صفحة ۱۹۲.

[۷۸] (۱)- الصف، الآية ۷.

[۷۹] (۲)-« ماكثون» من مادة(مكث)، و هو فى الأصل التوقف المقترن بالانتظار، و ربّما كان هذا التعبير من مالك استهزاء، كما تقول- أحيانا- لمن يطلب شيئا لا يستحقه انتظر!

[۸۰] (۳)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث و قال البعض: إنّ المسافة بين السؤال و الجواب مائة سنة، و آخرون: أربعون سنة، و مهما تكن فإنّها دليل على الاحتقار و عدم الاهتمام.

[۸۱] (۱)-« أم» فى الآية منقطعة، و هى بمعنى(بل) و الإبرام بمعنى الإحكام.

[۸۲] (۱)- الفخر الرازى، ذيل الآيات مورد البحث.

[۸۳] (۱)- فمثلا: إنّ بعض المفسّرين قد فسّر(إن) هنا بمعنى النفى، و(أنا أول العابدين) بمعنى أول من عبد اللّه، و على هذا التّفسير فإن معنى الآية يصبح: لا ولد للّه أبدا، و أنا أوّل من عبد للّه! و فسر البعض الآخر(العابدين) بالذى يأبى العبادة، و على هذا يكون المعنى: إنّ كان للّه ولد فإنى سوف لا أعبد مثل هذا الرب أبدا، لأنه بأبوته لا يمكن أن يكون ربا.

و واضح أن مثل هذه التفاسير لا تنسجم مع ظاهر الآية بأى وجه من الوجوه.

[۸۴] (۱)- كان أبو شاكر الديصانى أحد علماء فرقة الديصانية، الذين كانوا يعتقدون بعبادة إلهين، و يقولون بإله النور و إله الظلمة.(لغت نامه دهخدا مادة ديصان).

[۸۵] (۱)- أصول الكافى، المجلد الأول، كتاب التوحيد، باب الحركة و الانتقال حديث ۱۰.

[۸۶] (۱)- طبقا لهذا التّفسير فإن استثناء(إلّا من شهد بالحق) استثناء متصل، لكنه يصبح منقطعا فيما إذا كان المراد من جملة(الذين يدعون من دونه الشفاعة) خصوص الأصنام. لكن يبدو أن المعنى الأوّل هو الأنسب، خاصة بملاحظة(الذين) و هى للعاقل، أو التغليب من العاقل و غير العاقل.

[۸۷] (۱)- هنا اختلاف كبير بين المفسّرين فى أن(قيله) معطوفة على ماذا؟ فالبعض يعتقد أنها معطوفة على الساعة التى مرت قبل

ثلاث آيات، و على هذا يصبح معنى الجملة: إنّ اللّه عنده علم الساعة، و شكوى النّبى من الكفار.

و البعض الآخر اعتبرها معطوفة على(علم الساعة) بشرط أن تكون(علم) مقدرة قبل(قيله) كمضاف محذوف. و هو لا يختلف كثيرا عن التّفسير الأول.

و اعتبر جماعة الواو واو القسم. و هناك احتمالات أخرى لو ذكرناها هنا لطال بنا المقام.

و هنا احتمال آخر لعله أفضل من كل ما قيل فى هذا الباب، و هو أنّها معطوفة على محذوف جملة:(انى يؤفكون)، و تقدير ذلك:(أنى يؤفكون عن عبادته و عن قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون).

[۸۸] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، بداية سورة الدخان.

[۸۹] (۲)- المصدر السابق.

[۹۰] (۳)- المصدر السابق.

[۹۱] (۱)- راجع تفسير بداية سورة البقرة، بداية سورة آل عمران، بداية سورة الأعراف.

[۹۲] (۱)- سنبحث حول فلسفة الأيمان و القسم فى القرآن، و الهدف الأساسى منها، فى تفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم، فى ذيل الآيات الكثيرة التى يلاحظ القسم فيها مكررا. إن شاء اللّه تعالى.

[۹۳] (۱)- تراجع مفردات الراغب، مادة نزل.

[۹۴] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، ص ۶۲۰. و قد ذكر هذا الحديث أن القرآن نزل تدريجيا فى عشرين سنة، فى حين أننا نعلم فترة النبوة التى نزل فيها القرآن كانت(۲۳) سنة، و لعله هذا القول اشتباه من الراوى، أو غلط فى نسخ الحديث.

[۹۵] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۱۶۳. و قد جمع العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، المجلد ۵۸، صفحة ۵۵ و ما بعدها، الروايات المتعلقة بالبيت المعمور.

[۹۶] (۲)- ذكر فى تفسير الميزان تفسير آخر لهذه الآية، خلاصته، إن الأمور هذا العالم مرحلتين: مرحلة الإجمال و الإبهام، و التى عبر عنها ب(حكيم)، و مرحلة التفصيل و الكثرة، و التى عبر عنها ب(يفرق) المجلد ۱۸، صفحة ۱۴۰.

[۹۷] (۱)- هناك احتمالات مختلفة فى محل جملة(أمرا من عندنا ..) من الإعراب، و إلى أى من بحوث الآيات السابقة تنظر؟ و أنسب هذه الاحتمالات أن تكون جملة(أمرا من عندنا) حالا لضمير مفعول(إنا أنزلناه)، أى: إنا أرسلنا القرآن، و كان ذلك أمرا من عندنا. و هذا الاحتمال ينسجم فى هذه الصورة تماما من جملة(إنا كنا مرسلين) و التى تتحدث عن إرسال النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و يحتمل أيضا أن يكون توضيحا ب(كل أمر حكيم) و نصبها على الاختصاص، فيكون المعنى: أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا.

[۹۸] (۲)-(رحمة من ربك) مفعول لأجله ب(إنا أنزلناه)، أو ل(يفرق كل أمر حكيم)، أو لكليهما.

[۹۹] (۱)- كلمة(ربّ) فى هذه الآية بدل من(ربّ) فى الآية السابقة.

[۱۰۰] (۲)- جزاء الجملة الشرطية(إن كنتم موقنين) محذوف، و تقدير الكلام: إن كنتم من أهل اليقين، أو فى طلب اليقين، علمتم أن اللّه ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما.

[۱۰۱] (۳)- يمكن أن تكون جملة(لا إله إلا هو) استئنافية، أو خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو لا إله إلا هو لا. إلا أن الاحتمال الأول هو الأنسب.

[۱۰۲] (۱)- النحل، الآية ۱۰۳.

[۱۰۳] (۱)- احتمل المفسّرون فى تركيب هذه الجملة احتمالات كثيرة، و أكثرها قبولا من قبل المفسّرين، و هو المناسب أيضا لسياق

الآیة: إن(یوم) متعلق بفعل(ننتقم) الذی یفهم من جملة(إنا منتقمون) و علی هذا یکون التقدیر: ننتقم منهم یوم نبطش البطشة الکبری إنا منتقمون.

[۱۰۴] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۶۲، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۰۵] (۲)- یقول الفخر الرازی: إنّ العرب یسمّون الشر الغالب بالدخان. المجلد ۲۷، صفحة ۲۴۲.

[۱۰۶] (۳)- روح المعانی، المجلد ۲۵، ص ۱۰۷.

[۱۰۷] (۱)- تراجع الآیات ۲۷- ۳۰، من سورة الأنعام.

[۱۰۸] (۲)- یقول الراغب فی المفردات، البطش: هو تناول الشیء بصولة، و هو مقدمة العقوبة عادة.

[۱۰۹] (۱)- تفسیر الدر المنثور، الجزء ۶، صفحة ۲۹.

[۱۱۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۱۱] (۳)- المصدر السابق.

[۱۱۲] (۴)- بحار الأنوار، المجلد ۵۲، صفحة ۲۰۹.

[۱۱۳] (۱)- یقول الراغب فی المفردات: الکرم إذا وصف اللّه تعالی به فهو اسم لإحسانه و إنعامه، نحو قوله\:i فَإِنَّ رَبِّی غَنِیٌّ کَرِیمٌ E و إذا وصف ربّه الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحمودة التی تظهر منه.

و لقد ورد هذا الوصف لأمور أخری أیضا القرآن المجید، مثل: کتاب کریم، کل زوج کریم، رزق کریم مقام کریم، أجر کریم

[۱۱۴] (۲)-« أن» فی جملة\:i أَنْ أَدُّوا إِلَیَّ عِبادَ اللَّهِ E تفسیر لفعل مقدر یفهم من الکلام السابق، و التقدیر:(جئتکم أن أدّوا إلیّ عباد اللّه).

[۱۱۵] (۳)- کالآیة ۱۷- الفرقان، و ۱۳- سبأ، و ۵۸- الفرقان، و غیرها.

[۱۱۶] (۱)- الشعراء، الآیة ۱۱۶.

[۱۱۷] (۲)- مریم، الآیة ۴۶.

[۱۱۸] (۳)- هود، الآیة ۹۱.

[۱۱۹] (۴)- لسان العرب، ماده رجم.

[۱۲۰] (۱)-« نعمة» بفتح النون تعنی التنعم، و بکسرها تعنی الإنعام، و قد صرح جماعة من المفسّرین و أرباب اللغة بهذا المعنی، فی حین یعتقد جمع آخر أنّ للإثنین معنی واحدا یشمل کلّ المنافع التی تستحق الالتفات و النظر.

[۱۲۱] (۲)- فسّرت کلمة« فاکهین» بالاستمتاع بالفواکه تارة، و أخر بالأحادیث الفکاهیة السارة، و ثالثة بالتنعم و التلذذ، و المعنی الأخیر أجمع من الجمیع.

[۱۲۲] (۳)-« کذلک» خبر لمبتدأ محذوف و التقدیر: الأمر کذلک، و یستعمل هذا التعبیر للتأکید. و احتمل البعض احتمالات أخری فی ترکیبها.

[۱۲۳] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۶۵ ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۲۴] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۵] (۳)- المصدر السابق.

[۱۲۶] (۱)- روی فی الدر المنثور حدیث فی باب الجمع بین هذه الروایات. الدر المنثور، طبقا لنقل المیزان، المجلد ۱۸، صفحة ۱۵۱.

[۱۲۷] (۲)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۵۳۱(مادة مدن).

[۱۲۸] (۱)- هنا اختلاف فی مرجع ضمیر(هی) فأرجعه بعض المفسّرین الی(الموتة)، و هو المستفاد من سیاق الکلام، و بناء علی

هذا يكون المعنى: ما الموتة إلّا موتتنا الأولى(تفسير التبيان و مجمع البيان و الكشاف).

فى حين اعتبر البعض الآخر مرجع الضمير هو العاقبة و النهاية، و على هذا يكون المعنى: ما عاقبة أمرنا إلّا الموتة الأولى(روح المعانى و الميزان) و ليس بينهما من تفاوت كثير من ناحية النتيجة.

[۱۲۹] (۱)- ذكر المفسّرون احتمالات أخرى فى تفسير هذه الجملة، و تبدو جميعا بعيدة، و من جملتها: أنّهم فسّروا الموتة الأولى بالموت قبل الحياة فى هذه الدنيا، و بناء على هذا يكون معنى الآية: إنّ الموت الذى تكون بعده حياة هو الموت الذى متنا من قبل، أمّا الموت الثّانى فلا حياة بعده أبدا.

[۱۳۰] (۲)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۶۶، و بعض التفاسير الأخرى.

[۱۳۱] (۱)- الجاثية، الآية ۲۴.

[۱۳۲] (۲)- سورة يس، الآية ۷۸.

[۱۳۳] (۳)- شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد المعتزلى، المجلد ۱، صفحة ۱۱۷.

[۱۳۴] (۱)- بلوغ الأرب، المجلد ۲، صفحة ۳۱۱.

[۱۳۵] (۲)- المصدر السابق.

[۱۳۶] (۱)-« لاعب» من مادة(لعب)، و يقول الراغب فى المفردات: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا. و التثنية فى(ما بينهما) من أجل أنّ المراد جنس السماء و الأرض.

[۱۳۷] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۶۶ ذيل الآية مورد البحث، و أورد نظير هذا المعنى فى تفسير الدر المنثور، و كذلك ورد فى روح المعانى، المجلد ۲۵، صفحة ۱۱۶.

[۱۳۸] (۲)- مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

[۱۳۹] (۱)- روح المعانى، المجلد الأوّل ۲۵، صفحة ۱۱۸.

[۱۴۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۴۱] (۳)- أعلام القرآن، ص ۲۵۷- ۲۵۹(بتلخيص).

[۱۴۲] (۱)- احتمل المفسّرون احتمالات عديدة فى مرجع الضمير فى(ميقاتهم) فالبعض أرجعه إلى كلّ البشر، و البعض خصوص الأقوام الذين أشير إليهم فى الآيات السابقة، أى قوم تبع و العصاة من قبلهم. غير أنّ المعنى الأوّل هو الأصح.

[۱۴۳] (۱)- لقد ذكرت للمولى معان كثيرة فى اللغة، وعدها البعض سبعة و عشرين معنى: ۱- الرب ۲- العم ۳- ابن العم ۴- الابن ۵- ابن الأخت ۶- المعتق ۷- المعتق ۸- العبد ۹- المالك ۱۰- التابع ۱۱- المنعم عليه ۱۲- الشريك ۱۳- الحليف ۱۴- الصاحب ۱۵- الجار ۱۶- النزيل ۱۷- الصهر ۱۸- القريب ۱۹- المنعم ۲۰- الفقيد ۲۱- الولى ۲۲- الأولى بالشىء ۲۳- السيد غير المالك و المعتق ۲۴- المحبّ ۲۵- الناصر ۲۶- المتصرف فى الأمر ۲۷- المتولى فى الأمر.(الغدير، المجلد ۱، صفحة ۳۶۲).

[۱۴۴] (۱)- نور الثقلين، المجلد ۴، صفحة ۶۲۹.

[۱۴۵] (۱)- مجمع البيان، تفسير روح البيان، تفسير روح المعانى.

[۱۴۶] (۲)- لسان العرب مادة« زقم».

[۱۴۷] (۳)- مفردات الراغب مادة(زقم).

[۱۴۸] (۴)- تفسير القرطبى، المجلد ۸، صفحة ۵۵۲۹ ذيل الآية(۶۲) من سورة الصافات.

[۱۴۹] (۱)- عذاب الحميم من قبيل الإضافة البيانية، أى إنّ هذا الماء المحرق عذاب يصب على هؤلاء.

[۱۵۰] (۱)- تفسير المراغى، المجلد ۲۵، صفحة ۱۳۵ ذيل الآيات مورد البحث، و تفسير روح المعانى، و التّفسير الكبير للفخر الرازى.

[۱۵۱] (۲)- سورة ق، الآية ۱۱.

[۱۵۲] (۳)- سورة فاطر، الآية ۹.

[۱۵۳] (۴)- سورة التغابن، الآية ۷.

[۱۵۴] (۵)- سورة ق، الآية ۱۵.

[۱۵۵] (۱)- سورة التوبة، الآية ۷۲.

[۱۵۶] (۲)- سورة يس، الآية ۵۸.

[۱۵۷] (۳)- سورة الحجر، الآية ۴۷.

[۱۵۸] (۱)- ممّا يستحق الانتباه أنّ(أمين) قد ذكر وصفا للمقام، فكأن مقام أهل الجنّة أمين بنفسه و لا يخون أهل الجنّة مطلقا، و مثل هذه التعبيرات تأتى عادة للتأكيد و المبالغة.

[۱۵۹] (۱)- سورة الحاقة، الآية ۲۳.

[۱۶۰] (۲)- سورة الواقعة، الآية ۲۰.

[۱۶۱] (۱)- ورد هذا التعبير فى آيات كثير من القرآن، و من جملتها: آل عمران- ۱۵، ۱۳۶ النساء- ۱۳، ۱۲۲، المائدة- ۸۵، و غيرها.

[۱۶۲] (۲)- سورة هود، الآية ۱۱۰.

[۱۶۳] (۱)- احتملت عدّة احتمالات فى إعراب(فضلا): أحدها: إنّها مفعول مطلق لفعل محذوف، و التقدير: فضلهم فضلا، و الآخر: أنّه مفعول لأجله، أو أنّها حال.

[۱۶۴] (۱)- بناء على هذا فإنّ الاستثناء أعلاه منقطع أيضا لأنّ أصحاب الجنّة لا يذوقون مثل هذا الموت، بل ذاقوه من قبل(فتأمل!).

[۱۶۵] (۲)- الحياة و الموت فى البرزخ فى ذيل الآية(۱۱) من سورة المؤمن.

[۱۶۶] (۱)- أصول الكافى، طبقا لنقل تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، صفحة ۶۳۴.

[۱۶۷] (۱)- تفسير روح البيان، المجلد ۸، صفحة ۴۳۳.

[۱۶۸] (۱)- تفسير مجمع البيان، بداية سورة الجاثية.

[۱۶۹] (۲)- تفسير البرهان، بداية سورة الجاثية، المجلد ۴، ص ۱۶۷.

[۱۷۰] (۱)-(تنزيل الكتاب) خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير:(هذا تنزيل الكتاب)، ثمّ إنّ(تنزيل) مصدر جاء هنا بمعنى اسم المفعول، و هو من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، و تقدير الكلام: هذا كتاب منزل ...

[۱۷۱] (۱)- سورة فصلت، ۴۱.

[۱۷۲] (۱)- وردت بحوث مفصلة حول اختلاف الليل و النهار، فى سورة البقرة- ذيل الآية ۱۶۴ و فى سورة آل عمران ذيل الآية ۱۹۰، و فى سورة يونس ذيل الآية ۶، و فى ذيل الآية ۷۱ من سورة القصص.

[۱۷۳] (۱)- لقد وردت بحوث مفصلة حول آثار الرياح و الأمطار فى ذيل الآيات ۴۶- ۵۰ من سورة الروم.

[۱۷۴] (۱)- للتعبير ب(بعد اللّه) محذوف، و التقدير: فبأى حديث بعد حديث اللّه.

[۱۷۵] (۱)- يمكن أن تكون عبادة(يسمع آيات اللّه) جملة مستأنفة، أو هى وصف آخر ل(كل).

[۱۷۶] (۱)- ينبغى الالتفات إلى أنّ ضمير(اتخذها) لا يعود على(شيئا)، بل على(آياتنا).

[۱۷۷] (۱)- سورة الدهر، الآية ۲۷.

[۱۷۸] (۲)- قال البعض أيضا: إنّ كلمة(وراء) إنّ أضيفت إلى الفاعل أعطت معنى الوراء، و إن أضيفت إلى المفعول أعطت معنى الأمام.

روح البيان، المجلد ۸، صفحة ۴۳۹. لكن لا دليل على هذا المدعى.

[۱۷۹] (۱)- ثمّة احتمالات عديدة فى إعراب(جميعا منه) و تركيبها، فقد احتمل الزمخشرى فى الكشاف احتمالين: الأول: إنّ(جميعا منه) حال ل(ما فى السموات و ما فى الأرض) أى إنّها جميعا مسخرة لكم لكنّها منه سبحانه. و الآخر: إنّه خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: هى منه جميعا.

و احتمل البعض أيضا أن تكون تأكيدا ل(ما فى السموات و ما فى الأرض).

[۱۸۰] (۱)- سورة الزخرف، الآية ۸۹.

[۱۸۱] (۲)- تفسير نور الثقلين، المجلد ۲، صفحة ۵۲۶.

[۱۸۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۸۳] (۱)- لقمان، الآية ۱۲.

[۱۸۴] (۲)- الزمر، الآية ۴۱.

[۱۸۵] (۳)- فاطر، الآية ۱۸.

[۱۸۶] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۷۵.

[۱۸۷] (۲)- بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، المجلد ۱۱ صفحة ۳۱.

[۱۸۸] (۱)- البقرة، الآية ۱۴۶.

[۱۸۹] (۱)- التفسير الكبير للفخر الرازى، المجلد ۲۷، صفحة ۲۶۵.

[۱۹۰] (۱)- البقرة، الآية ۲۵۷.

[۱۹۱] (۲)- ثمّة احتمالات أخرى فى تفسير الآية المذكورة و من جملتها ما ذكر من أنّ المراد من جملة(سواء محياهم و مماتهم) أنّ موت المجرمين الكافرين و حياتهم واحد لا- فرق فيه، فلا- خير فيهم و لا- طاعة لهم حال حياتهم، و لا فى موتهم، فهم أحياء لكنّهم أموات، و على هذا التّفسير فإنّ كلا الضميرين يعودان على المجرمين.

و الاحتمال الآخر: أنّ المراد من الحياة يوم القيامة، أى أنّ المؤمنين و الكافرين لا يتساوون عند الموت و عند بعثهم يوم القيامة. إلّا أن ظاهر الآية هو ما ذكرناه أعلاه.

[۱۹۲] (۱)- نور الثقلين، المجلد ۲، صفحة ۲۰۹.

[۱۹۳] (۲)- تفسير الدر المنثور، المجلد ۶، صفحة ۳۵.

[۱۹۴] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد ۹، صفحة ۵۹۸۷، و تفسير روح البيان، و تفسير المراغى ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۹۵] (۲)- النمل، الآية ۱۴.

[۱۹۶] (۳)- تفسير الميزان، المجلد ۱۸، صفحة ۱۸۷.

[۱۹۷] (۴)- المجلد الأول، التّفسير الأمثل، ذيل الآية(۷) من سورة البقرة.

[۱۹۸] (۱)- الكهف، الآية ۱۰۴.

[۱۹۹] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۷۰، صفحة ۷۵، ۷۶، ۷۷.

[۲۰۰] (۲)- المصدر السابق.

[۲۰۱] (۳)- المصدر السابق.

[۲۰۲] (۴)- أصول الكافى، المجلد ۲ باب أتباع الهوى الحديث ۱.

[۲۰۳] (۵)- بحار الأنوار، المجلد ۷۰، صفحة ۷۶.

[۲۰۴] (۱)- تفسیر المراغی، المجلد ۲۵، صفحة ۲۷.

[۲۰۵] (۱)- احتمل البعض احتمالا خامسا فی تفسیر هذه الجملة، و هو أنّها إلی عقیدة التناسخ التی کان یعتقد بها جمع من- الوثنیین، حیث کانوا یقولون: إنّنا نموت دائما ثمّ نحیا فی أبدان أخری فی هذا العالم. إلّا أنّ هذا التّفسیر لا ینسجم مع جملة(و ما یهلکنا إلّا الدهر) و التی تتحدث عن الهلاک و الفناء فقط.(فتأمل!).

[۲۰۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۷۸.

[۲۰۷] (۲)- تفسیر القرطبی، المجلد ۹، صفحة ۵۹۹۱.

[۲۰۸] (۱)-« حجتهم» فی الآیة المذکورة خبر کان، و(أن قالوا ...) اسمها.

[۲۰۹] (۱)- الکهف، الآیة ۴۹.

[۲۱۰] (۱)- احتمل بعض المفسّرین أن یکون المراد من الکتاب فی الآیة أعلاه، هو الکتاب السماوی الذی أنزل علی تلک الأمة. إلّا ظاهر الآیة یدل علی أنّه صحیفة الأعمال، خاصة بملاحظة الآیة التالیة، و أکثر المفسّرین علی ذلک أیضا.

[۲۱۱] (۱)-

\i\i ورد فی روایة عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام\:E« إن للّه ملائکة ینزلون کلّ یوم یکتبون فیه أعمال بنی آدم\».E.

و یقول الشیخ الطوسی فی التبیان فی ذیل الآیة مورد البحث بعد نقل هذه الروایة: و معنی نستنسخ نستکتب الحفظة ما یستحقونه من ثواب و عقاب، و نلقی ما عداه ممّا أثبته الحفظة، لأنّهم یثبتونه جمیعا.

[۲۱۲] (۱)-« حاق» من مادة(حوق)، و هی فی الأصل بمعنی الورود، و النّزول، و الإصابة، و الإحاطة. و قال البعض: إنّ أصلها(حق)- بمعنی التحقیق- فأبدلت القاف الأولی إلی واو، ثمّ إلی ألف.

[۲۱۳] (۱)- أعطینا التوضیح اللازم حول معنی(یستعتبون) و أصلها فی ذیل الآیة(۵۷) من سورة الروم.

[۲۱۴] (۱)- تفسیر مجمع البیان، بدایة سورة الأحقاف.

[۲۱۵] (۲)- تفسیر مجمع البیان، و نور الثقلین بدایة سورة الأحقاف.

[۲۱۶] (۱)- لقد ورد هذا المعنی فی أربع آیات من القرآن، و طالعوا تفصیلا أکثر حول هذا المطلب فی ذیل الآیة(۲۵) من سورة الزخرف من التّفسیر الأمثل.

[۲۱۷] (۲)- نقرأ

\i\i فی حدیث روی عن الإمام الباقر علیه السّلام فی أصول الکافی فی تفسیر جملة(أو أثارة من علم) أنّه قال\:E« إنّما عنی بذلک علم أوصیاء الأنبیاء\».i نور الثقلین، المجلد ۵، صفحة ۹\.E\E

[۲۱۸] (۱)- جملة(إن افتریته) جملة شرطیة حذف جزاؤها، و التقدیر: إن افتریته أخذنی و عاجلنی بالعقوبة.

[۲۱۹] (۱)-« ما» فی جملة(ما تفیضون فیه) یمکن أن تکون موصولة، و تعنی التهم غیر الصحیحة، و التی کان یعلمها النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و بناء علی هذا فإنّ ضمیر(فیه) یعود إلیها. و إن کانت مصدریة فإنّ الضمیر(فیه) یعود إلی القرآن أو إلی الحق، و هنا تکون(تفیضون) بمعنی الدخول فی عمل ما بقصد الإفساد و التخریب.

[۲۲۰] (۱)- آل عمران، الآیة ۴۹.

[۲۲۱] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۸، صفحة ۸.

[۲۲۲] (۲)- جزاء الجملة الشرطیة:(إن کان من عند اللّه) محذوف، و تقدیره:(من أضل منکم).

[۲۲۳] (۱)- التعبیر هنا ب(شاهد) بصیغة النکرة للتعظیم، و هو یوحی بأنّه کان شخصا معروفا عظیما.

[۲۲۴] (۱)- تفسیر المراغی، المجلد ۲۶، صفحة ۱۴.

[۲۲۵] (۱)- كانت« زنيرة» بكسر الزاى و تشديد النون من السابقات إلى الإسلام، و لذلك كان أبو جهل يؤذيها و يعذبها.

[۲۲۶] (۲)- تفسير القرطبى، المجلد ۹، صفحة ۶۰۰۹.

[۲۲۷] (۱)- بحث المفسّرون كثيرا فى معنى« اللام» فى(الذين آمنوا) إلّا أنّ أنسب الاحتمالات جميعا هو أن« اللام» بمعنى(فى) و بناء على هذا فإنّ معنى الجملة: إنّ الكافرين قالوا فى المؤمنين، و لا يأتى فى هذه الحالة إشكال من جهة كون فعل(سبقونا) للغائب. فى حين أنّ البعض قد اعتبر اللام لام التعليل! و قال آخرون(الذين آمنوا) هنا مخاطبون، و جملة(سبقونا) بمعنى سبقتمونا!

[۲۲۸] (۱)-(إذ) فى هذه الآية ظرفية، و يعتقد البعض أنّها متعلقة(سيقولون)، و يقولون: إنّ وجود الفاء غير مانع. إلّا أنّ البعض الآخر- كالزمخشرى فى الكشاف- يرى أنّه بما أنّ الفعل بعدها ماض، و(سيقولون) فعل مضارع فلا يمكن أن يكون متعلقها، بل متعلقها محذوف، و التقدير:« و إذا لم يهتدوا به ظهر عنادهم» إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أكثر انسجاما مع معنى الآية.

[۲۲۹] (۲)- الفرقان، الآية ۵.

[۲۳۰] (۱)- البقرة، الآية ۱۴۶.

[۲۳۱] (۲\)-i الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ E مبتدأ، و جملة(لا خوف عليهم) خبره، و الفاء لا تأتى مع الخبر إلّا فى الموارد التى يكون فى الجملة مفهوم الشرطية كالآية مورد البحث.

[۲۳۲] (۱)- راجع التّفسير الأمثل، سورة فصلت، الآية ۳۰.

[۲۳۳] (۱)-« التوصية» تتعدى عادة بمفعولين، غايته أنّ المفعول الثّانى يقترن بالباء أو(الى)، و بناء على هذا فإنّ(إحسانا) لا يمكن أن تكون المفعول الثّانى فى الجملة، إلّا أن نعتبر(وصينا) بمعنى(ألزمنا) التى تتعدى بمفعولين دون حاجة إلى حرف جر، أو أن نقول: إنّ فى الآية محذوفا، نقدره: و وصينا الإنسان بأن يحسن بوالديه إحسانا، ففى هذه الحالة تكون(إحسانا) مفعولا مطلقا لفعل محذوف.

[۲۳۴] (۱)-(حتى) هنا غاية لجملة محذوفة، و التقدير: و عاش الإنسان و استمرت حياته حتى إذا بلغ أشدّه. و اعتبرها البعض غاية ل(وصينا) أو لمراقبة الوالدين لولدهما، و كلاهما يبدو بعيدا، إذ لا تنتهى توصية اللّه سبحانه بالإحسان إلى الوالدين فى سن الأربعين، و لا تستمر مراقبة الوالدين لولدهما حتى يصل الأربعين.

[۲۳۵] (۲)- تفسير روح المعانى، المجلد ۲۶، صفحة ۱۷.

[۲۳۶] (۱)-« أوزعنى» من مادة(الإيزاع) التى وردت بعدّة معان: الإلهام، و المنع من الانحراف، و إيجاد العشق و المحبة، و التوفيق.

[۲۳۷] (۱)- الطبرسى فى مجمع البيان، و العلّامة الطباطبائى فى الميزان، و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، و غيرهم فى ذيل الآية مورد البحث.

[۲۳۸] (۲)-(فى أصحاب الجنّة) متعلق بمحذوف هو حال لضمير(هم) و التقدير: حال كونهم موجودين فى أصحاب الجنّة.

[۲۳۹] (۱)-(وعد الصدق) مفعول مطلق لفعل محذوف، و التقدير: يعدهم وعد الصدق الذى كانوا يوعدون بلسان الأنبياء و الرسل.

[۲۴۰] (۱)- روح المعانى، المجلد ۲۶، صفحة ۱۶.

[۲۴۱] (۲)- فى ظلال القرآن، المجلد ۷، صفحة ۴۱۵.

[۲۴۲] (۱)-« و الذى قال» مبتدأ، و خبره- باعتقاد كثير من المفسّرين-(أولئك الذين) .. الذى ورد فى الآية التالية، و لا منافاة بين كون المبتدأ مفردا و الخبر- أولئك- جمعا، لأنّ المراد منه الجنس.

لكن يحتمل أيضا أن يكون خبره محذوفا، و تقديره الكلام:« و فى مقابل الذين مضى وصفهم الذى قال لوالديه» و فى هذه الحالة تكون الآية التالية مستقلة، كما أن آية\:i أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ\ ...E مستقلة.

[۲۴۳] (۲)- مفردات الراغب.

[۲۴۴] (۳)- أوردنا بحوثا أخرى حول معنى(أف) فى سورة الإسراء الآية ۲۳.

[۲۴۵] (۱)- جملة(حقّ علیهم القول) إشارة إلی کلام اللّه الذی قاله سبحانه فی عقوبة الکافرین و المجرمین، و التقدیر: حقّ علیهم القول بأنّهم أهل النّار ... و(فی أمم) فی محل حال.

[۲۴۶] (۱)-(من) فی(ممّا عملوا) للابتداء- أو کما تسمی نشویة- أو بمعنی التعلیل، أی: من أجل ما عملوا.

[۲۴۷] (۲)-« درک»- بسکون الوسط- و درک- بفتحه- بمعنی أعمق نقطة فی العمق، و جاءت- أحیانا- الدرک- بالفتحة- بمعنی الخسارة، و الدرک- بالسکون- بمعنی فهم الشیء و إدراکه، لمناسبته الوصول إلی عمقه و حقیقته.

[۲۴۸] (۱)- أبو الفتوح الرازی فی تفسیره، المجلد ۱۰، صفحة ۱۵۹، و نقل هذه الروایة بتفاوت یسیر فی مجلد ۹، صفحة ۶۰۱۷.

[۲۴۹] (۲)- یراجع لتفسیر هذه الآیة ذیل الآیة(۶۰) من سورة الإسراء. و ینبغی الالتفات إلی أنّ« مروان بن الحکم» هو ابن« أبی العاص»، و هذا بدوره ابن« أمیّة» أیضا.

[۲۵۰] (۱)-(یوم) ظرف متعلق بفعل محذوف یستفاد من الجمل التالیة، و التقدیر: و یوم یعرض الذین کفروا علی النّار یقال لهم أذهبتم طیّباتکم ...

[۲۵۱] (۱)- الکهف، الآیة ۱۰۰.

[۲۵۲] (۲)- تفسیر المیزان، المجلد ۱۸، صفحة ۲۲۳ ذیل الآیات مورد البحث.

[۲۵۳] (۱)- سورة ق، الآیة ۳۰.

[۲۵۴] (۱)- مجمع البحرین، مادة ذهب.

[۲۵۵] (۲)- تفسیر المیزان، المجلد ۱۸، صفحة ۲۲۴.

[۲۵۶] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۸۸.

[۲۵۷] (۲)- تفسیر البرهان، المجلد ۴، صفحة ۱۷۵، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۵۸] (۳)- سفینة البحار، الجزء الثانی، مادة کبد.

[۲۵۹] (۱)- فی ظلال القرآن، ذیل الآیات مورد البحث.

[۲۶۰] (۱)- طبقا لنقل المرحوم الشعرانی فی هامش تفسیر أبی الفتوح الرازی، المجلد ۱۰، صفحة ۱۶۵.

[۲۶۱] (۲)- المصدر السابق.

[۲۶۲] (۱)-« لتأفکنا» من مادة« إفک»، أی الکذب و الانحراف عن الحق.

[۲۶۳] (۱)-« عارض» من مادة(عرض)، و هنا بمعنی السحاب الذی ینتشر فی عرض السماء، و ربّما کان هذا أحد علامات السحب الممطرة بأنّها تتسع فی ذلک الأفق ثمّ تصعد. و« الأودیة» جمع واد، و هو المنخفض و مجری السیول و المیاه.

[۲۶۴] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۸، صفحة ۲۸، ذیل الآیات مورد البحث، و جاء هذا المعنی أیضا فی تفسیر القرطبی، المجلد ۹، صفحة ۶۰۲۶.

[۲۶۵] (۱)-« تدمّر» من مادة تدمیر، و هو الإهلاک و الإفناء.

[۲۶۶] (۱)-« إن» فی جملة(إن مکّناکم فیه) نافیة و لدینا شواهد متعددة من آیات القرآن الکریم وردت فی المتن. إلّا أنّ البعض اعتبرها شرطیة، أو زائدة و لا نری ذلک صوابا.

[۲۶۷] (۲)- الفجر، الآیات ۶ إلی ۸.

[۲۶۸] (۳)- یجدر الانتباه إلی أنّ الأبصار و الأفئدة وردت بصیغة الجمع، فی حین أنّ السمع قد ورد بصیغة المفرد، و یمکن أن یکون هذا الاختلاف بسبب أنّ للسمع معنی المصدر، و المصدر یستعمل دائما بصیغة المفرد، أو لوحدة المسموعات أما تفاوت المرئیات و المدرکات.

[۲۶۹] (۴)- من فی(من شیء) زائدة و للتأکید، أی لم ینفعهم أی شیء.

[۲۷۰] (۱)- المفعول الأوّل ل(اتخذوا) محذوف، و(آلهة) مفعولها الثانی، و(قربانا) حال، و التقدیر: اتخذوهم آلهة من دون اللّه حال کونهم متقربا بهم، و یحتمل أیضا أن تکون(قربانا) مفعولا ـ لأجله. و قد احتملت احتمالات أخری فی ترکیب الآیة، لکنّها لا تستحق الاهتمام.

[۲۷۱] (۲)- بناء علی هذا فإنّ للآیة محذوفا، و التقدیر: و ذلک نتیجة إفکهم. و یحتمل أیضا أن لا یحتاج الآیة إلی محذوف، و فی هذه الحالة یصبح المعنی: کان هذا کذبهم و افتراءهم، غیر أنّ المعنی الأوّل یبدو هو الأنسب.

[۲۷۲] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لنقل نور الثقلین، المجلد ۵، صفحة ۱۹، باختصار یسیر.

[۲۷۳] (۲)- ورد هذا الحدیث الذی أوردنا ملخصه فی صحیح البخاری و مسلم و مسند أحمد بصورة مفصلة، طبقا لنقل فی ظلال القرآن، المجلد ۷، صفحة ۴۲۹.

[۲۷۴] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۹۲. و أورد هذه القصة باختلاف یسیر ابن هشام فی تأریخه(السیرة النبویة)، المجلد ۲، صفحة ۶۲- ۶۳.

[۲۷۵] (۱)- لقد أوردنا تفسیر هذه الجملة مفصلا فی ذیل الآیة ۴۱ من سورة البقرة.

[۲۷۶] (۱)-« یجرکم» من مادة(إجارة)، و قد وردت بمعان مختلفة: الإغاثة، الإنقاذ من العذاب الإیواء، و الحفظ.

[۲۷۷] (۱)- کان لنا بحث مفصّل حول إعجاز القرآن فی التّفسیر الأمثل، ذیل الآیة(۲۳) من سورة البقرة.

[۲۷۸] (۱)- طالع التفصیل حول هذا الموضوع، و أدلّة المعاد المختلفة فی ذیل آخر آیات سورة یس.

[۲۷۹] (۱)- الشوری، الآیة ۴۳.

[۲۸۰] (۲)- سورة طه، الآیة ۱۱۵.

[۲۸۱] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۹۴، ذیل الآیات مورد البحث.

[۲۸۲] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۱۱، صفحة ۵۸، حدیث ۶۱، و یتحدث الحدیث ۵۵، صفحة ۵۶، من المجلد المذکور بصراحة فی هذا الباب.

[۲۸۳] (۳)- الکافی، المجلد ۱، باب طبقات الأنبیاء و الرسل، حدیث ۳.

[۲۸۴] (۴)- الدر المنثور، المجلد ۶، صفحة ۴۵.

[۲۸۵] (۵)- المصدر السابق.

[۲۸۶] (۶)- المصدر السابق.

[۲۸۷] (۱)- روضة الواعظین، طبقا لنقل نور الثقلین، المجلد ۵، صفحة ۲۵.

[۲۸۸] (۲)-« بلاغ» خبر لمبتدأ محذوف، و التقدیر: هذا القرآن بلاغ، أو: هذا الوعظ و الإنذار بلاغ.

[۲۸۹] (۱)- سیرة ابن هشام، المجلد ۲، صفحة ۶۱.

[۲۹۰] (۲)- احتجاج الطبرسی طبقا لنقل نور الثقلین، المجلد ۵، صفحة ۲۳.

[۲۹۱] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، بدایة سورة محمّد.

[۲۹۲] (۲)- ثواب الأعمال، طبقا لنقل نور الثقلین، المجلد ۵، صفحة ۲۵.

[۲۹۳] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، أوّل السورة.

[۲۹۴] (۲)- روح المعانی، المجلد ۲۶، صفحة ۳۳.

[۲۹۵] (۳)- الدر المنثور، المجلد ۶، ص ۴۶.

[۲۹۶] (۱)- روح المعانی، المجلد ۲۶، صفحة ۳۳.

[۲۹۷] (۱)- اعتبر جماعة من المفسّرین جملة(و هو الحق من ربّهم) جملة معترضة.

[۲۹۸] (۱)- سورة ص، الآیة ۲۷.

[۲۹۹] (۱)-« ضرب» مصدر مفعول مطلق لفعل مقدر، و التقدیر: اضربوا ضرب الرقاب، کما صرّحت الآیة(۱۲) من سورة الأنفال بذلک إذ قالت\:i فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ E.

[۳۰۰] (۱)- ینقل صاحب لسان العرب عن ابن الأعرابی أنّ: أثخن: إذا غلب و قهر.

[۳۰۱] (۱)- کنز العرفان، المجلد ۱، صفحة ۳۶۵.

[۳۰۲] (۲)- الشرائع، کتاب الجهاد. شرح اللمعة، أحکام الغنیمة.

[۳۰۳] (۳)-« حتی» غایة ل(فضرب الرقاب). و احتملت احتمالات أخری لا تستحق الاهتمام.

[۳۰۴] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۹۸.

[۳۰۵] (۲)-« ذلک» خبر لمبتدأ محذوف، و التقدیر: الأمر کذلک.

[۳۰۶] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۹۸.

[۳۰۷] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۶۹.

[۳۰۸] (۳)- المیزان، المجلد ۱۸، صفحة ۲۴۴.

[۳۰۹] (۱)- آل عمران، الآیة ۱۶۹.

[۳۱۰] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۱۰۰، صفحة ۱۵.

[۳۱۱] (۳)- المصدر السابق.

[۳۱۲] (۴)- بحار الأنوار، المجلد ۱۰۰، صفحة ۱۴.

[۳۱۳] (۱)- سفینة البحار، المجلد الأول، مادة شهد.

[۳۱۴] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۰، آخر الخطبة.

[۳۱۵] (۳)- سفینة البحار، المجلد الأول، مادة شهد.

[۳۱۶] (۴)- بحار الأنوار، المجلد ۷۱، صفحة ۲۷۲.

[۳۱۷] (۱)- التّفسیر الأمثل، ذیل الآیة ۱۹۳ من سورة البقرة.

[۳۱۸] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۱، صفحة ۶۹.

[۳۱۹] (۱)- یراجع فروع الکافی، المجلد ۵، صفحة ۳۵، باب الرفق بالأسیر و إطعامه.

[۳۲۰] (۲)- المصدر السابق.

[۳۲۱] (۱)- التوبة، الآیة ۶۰.

[۳۲۲] (۲)- کان لنا بحث مفصل حول المکاتبة و أحکامها الرائعة فی ذیل الآیة(۳۴) من سورة النور.

[۳۲۳] (۳)- بحار الأنوار، المجلد ۴۱، صفحة ۴۳.

[۳۲۴] (۴)- الوسائل، المجلد ۱۶، صفحة ۳۲.

[۳۲۵] (۵)- نور الثقلین، المجلد ۱، ص ۳۹۰.

[۳۲۶] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۶، صفحة ۳۶.

[۳۲۷] (۲)- المصدر السابق، صفحة ۳۷.

[۳۲۸] (۳)- الشرائع، كتاب العتق، وسائل الشيعة، المجلد ۱۶، صفحة ۲۱.

[۳۲۹] (۴)- الشرائع، كتاب العتق.

[۳۳۰] (۵)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۶، صفحة ۲۶.

[۳۳۱] (۱)- الشرائع، كتاب القضاء.

[۳۳۲] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۷۴، صفحة ۱۴۱، حديث ۱۱.

[۳۳۳] (۳)- المصدر السابق، صفحة ۱۴۴، حديث ۱۹.

[۳۳۴] (۱)- المصدر السابق، صفحة ۱۴۲، حديث ۱۳.

[۳۳۵] (۲)- تاريخ التمدّن، المجلد ۴، صفحة ۵۴.

[۳۳۶] (۳)- المستدرک، المجلد ۲، كتاب التجارة، باب ۱۹، حديث ۱.

[۳۳۷] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۱۰۳، صفحة ۱۶۸، حديث ۱۱.

[۳۳۸] (۲)- الميزان، الجزء ۶، صفحة ۳۶۸.

[۳۳۹] (۱)-« تعسا» مفعول مطلق لفعل مقدّر، و التقدير: تعسهم تعسا، و جملة(أضلّ أعمالهم) عطف على هذا الفعل المقدّر، و كلاهما بصيغة اللعنة، مثل(قاتلهم اللّه)، و من الواضح أنّ اللعنة من قبل اللّه تعنى وقوعها.

[۳۴۰] (۱)- الزمر، الآية ۴۵.

[۳۴۱] (۲)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

[۳۴۲] (۳)- ضمير« أمثالها» يعود إلى العاقبة التى تستفاد من الجملة السابقة.

[۳۴۳] (۴)- تفسير روح المعانى، و روح البيان، و الفخر الرازى.

[۳۴۴] (۱، ۲)- المشار إليه ب(ذلک) هى عاقبة المؤمنين الحسنة، و عاقبة الكافرين المشؤومة، و اللتان أشير إليهما فى الآيات السابقة.

[۳۴۵] (۱، ۲)- المشار إليه ب(ذلک) هى عاقبة المؤمنين الحسنة، و عاقبة الكافرين المشؤومة، و اللتان أشير إليهما فى الآيات السابقة.

[۳۴۶] (۳)- فسّر البعض- كالآلوسى فى روح المعانى-« المولى» فى الآية مورد البحث بالناصر، و فى آية سورة يونس و أمثالها بالمالک

[۳۴۷] (۱)- روح البيان، المجلد ۸، صفحة ۵۰۳.

[۳۴۸] (۱)- كما تأكل .. فى محل نصب مفعول مطلق مقدّر، و التقدير: يأكلون أكلا كما تأكل الأنعام.

[۳۴۹] (۱)- الأعراف، الآية ۱۷۹.

[۳۵۰] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد ۹، صفحة ۶۰۵۵.

[۳۵۱] (۲)- لمزيد من التفصيل حول هذا المطلب يراجع تفسير الآية(۸۵) من سورة القصص.

[۳۵۲] (۱)- للمفسّرين بحوث كثيرة حول تركيب هذه الآية الشريفة، و الأنسب منها جميعا أن يقال:(مثل الجنّة) مبتدأ، و خبره محذوف، و التقدير: مثل الجنّة التى وعد المتقون جنّة فيها أنهار، و هذه الآية تشبه- فى الحقيقة- الآية(۳۵) من سورة الرعد التى تقول\:i مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ\E.

[۳۵۳] (۲)- للجملة محذوف، و للتقدير: لهم فيها أنواع من كل الثمرات.

[۳۵۴] (۱)- سورة المائدة، ۱۱۹.

[۳۵۵] (۲)- لقد وردت أبحاث كثيرة فى تركيب هذه الآية أيضا، و الأنسب منها جميعا أنّ للآية تقديرا هو: أ فمن هو خالد فى الجنّة التى هذه صفاتها كمن هو خالد فى النّار؟

[۳۵۶] (۱)- سورهٔ الصافات، ۴۷.

[۳۵۷] (۱)- مجمع البیان، تفسیر القرطبی، تفسیر فی ظلال القرآن، و تفاسیر أخری، فی ذیل الآیات مورد البحث، بتفاوت یسیر فی التعبیر.

[۳۵۸] (۲)- نور الثقلین، المجلد ۵، صفحهٔ ۳۷.

[۳۵۹] (۳)- یتّضح ممّا قلناه أنّ لیس المراد من جملهٔ:(فقد جاء أشراطها) تحقق کلّ علامات القیامهٔ و ظهورها فی عصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بل المراد أنّ بعضها قد ظهر، و هو یخبر عن اقتراب القیامهٔ، و إنّ کانت بعض الأشراط ستتحقق و تتّضح فیما بعد.

[۳۶۰] (۱)- روح المعانی، المجلد ۲۶، صفحهٔ ۴۸.

[۳۶۱] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحهٔ ۱۰۲، ذیل الآیات مورد البحث.

[۳۶۲] (۱)- بناء علی هذا، فإنّ(متقلّب) اسم مفعول جاء هنا بمعنی المکان، إلّا أنّ جماعهٔ یعتبرونه مصدرا میمیا یعنی الانتقال من حال الی حال. غیر أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب بملاحظهٔ قرینهٔ مقابلته بالمثوی الذی لا ریب فی کونه اسم مکان.

[۳۶۳] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لنقل نور الثقلین، و تفسیر الصافی، ذیل الآیهٔ مورد البحث.

[۳۶۴] (۱)- اعتقد جماعهٔ أنّ معنی الجملهٔ یصبح: یلیه مکروه، و هو یعادل معنی ویل لهم.

[۳۶۵] (۲)-(طاعهٔ) مبتدأ، و خبره محذوف، و التقدیر: طاعهٔ و قول معروف أمثل لهم، و اعتبرها البعض خبرا لمبتدأ محذوف، و کان التقدیر: أمرنا طاعهٔ، إلّا أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب.

[۳۶۶] (۳)- التوبهٔ، الآیهٔ ۸۱.

[۳۶۷] (۴)- الأحزاب، الآیهٔ ۱۲.

[۳۶۸] (۵)- الأحزاب، الآیهٔ ۱۸.

[۳۶۹] (۱)- بالرغم من أنّ القلیل من المفسّرین قد بحث فی ترکیب هذه الآیهٔ، لکن یبدو أنّ(إن تولّیتم) جملهٔ شرطیهٔ وقعت بین اسم« عسی» و خبرها، و جزاء إن الشرطیهٔ مجموع جملهٔ(فهل عسیتم أن تفسدوا فی الأرض)، و التقدیر: إن تولّیتم عن کتاب اللّه فهل یترقب منکم إلّا الفساد فی الأرض؟

[۳۷۰] (۱)- راجع: نور الثقلین، المجلد ۵، صفحهٔ ۴۰.

[۳۷۱] (۲)- أصول الکافی، المجلد ۲، باب« من تکره مجالسته»، الحدیث ۷. أمّا الآیتان اللتان وردتا فی بقیهٔ الحدیث فإحداهما الآیهٔ(۲۵) من سورهٔ الرعد، و الأخری الآیهٔ(۲۷) من سورهٔ البقرهٔ، و قد ورد اللعن فی إحداهما صریحا، و فی الأخری کنایهٔ و تلمیحا.

[۳۷۲] (۳)- التّفسیر الأمثل ذیل الآیهٔ(۷۷) من سورهٔ المائدهٔ(نقلا عن الخصال).

[۳۷۳] (۱)- نهج البلاغهٔ، الخطبهٔ ۱۹۳، المعروفهٔ بخطبهٔ همام.

[۳۷۴] (۲)- نور الثقلین، المجلد ۵، صفحهٔ ۴۱.

[۳۷۵] (۱)- و لذلک فإنّ البعض قد فسّرها بمعنی الأمل، کما نقرأ ذلک فی الآیهٔ(۳۶) من سورهٔ طه\:i قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یا مُوسی E.

[۳۷۶] (۱)- ثمّهٔ احتمالات عدیدهٔ أخری فی تفسیر هذه الآیهٔ، لا ینسجم أی منها مع الآیات السابقهٔ و اللاحقهٔ، و لذلک أعرضنا عن ذکرها.

[۳۷۷] (۲)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحهٔ ۱۰۵.

[۳۷۸] (۱)- کیف، خبر لمبتدأ محذوف، و التقدیر: فکیف حالهم ...

[۳۷۹] (۲)- النحل، الآية ۳۲.

[۳۸۰] (۱)- توحيد الصدوق، طبق نقل الميزان، المجلد ۱۸، صفحة ۲۶۶.

[۳۸۱] (۱)- اعتبر البعض(أم) فی الآية أعلاه استفهامية، و البعض الآخر اعتبرها منقطعة بمعنى بل، و يبدو أنّ الأوّل هو الأفضل.

[۳۸۲] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث. ثمّ إنّ جماعة من كبار العامّة نقلوا مضمون هذا الحديث فی كتبهم، و من جملتهم:

أحمد بن حنبل فی كتاب الفضائل، و ابن عبد البر فی الإستيعاب، و الذهبی فی تاريخ أوّل الإسلام، و ابن الأثير فی جامع الأصول، و العلّامة الگنجی فی كفاية الطالب، و محب الدين الطبری فی الرياض النضرة، و السيوطی فی الدر المنثور، و الآلوسی فی روح المعانی، و أورده جماعة آخرون فی كتبهم، و هو يبيّن أنّها إحدى الروايات المسلمة عن الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم لمزيد من الإيضاح يراجع إحقاق الحق، المجلد الثّالث، صفحة ۱۱۰ و ما بعدها.

[۳۸۳] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الجملة ۲۶.

[۳۸۴] (۲)- التوبة، الآية ۸۴.

[۳۸۵] (۱)- الأحزاب، الآية ۱۵.

[۳۸۶] (۱)- الأحزاب، الآية ۱۳.

[۳۸۷] (۱)- البقرة، الآية ۲۶۴.

[۳۸۸] (۲)- روح البيان، المجلد ۸، صفحة ۵۲۲.

[۳۸۹] (۳)- بحار الأنوار، المجلد ۷۳، صفحة ۲۵۵.

[۳۹۰] (۴)- هود، الآية ۱۱۴.

[۳۹۱] (۵)- الزمر، الآية ۶۵.

[۳۹۲] (۱)- الكافی، المجلد الثانی، باب الرياء، الحديث ۱۶.

[۳۹۳] (۲)- لمزيد من الإيضاح و التفصيل حول مسألة إحباط العمل راجع ذيل الآية(۲۱۷) من سورة البقرة.

[۳۹۴] (۱)-« تدعوا» مجزوم، و هو معطوف على(لا تهنوا)، و المعنى: لا تهنوا و لا تدعوا إلى السلم.

[۳۹۵] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۳۹۶] (۱)- جملة(لا يسألكم) مجزومة، و معطوفة على جزاء الجملة الشرطية، أی: يؤتكم.

[۳۹۷] (۱)-« البخل» يتعدّى مرة بعن، و أخر بعلى، و على الأوّل يعنی المنع، و على الثّانی يعنی الإضرار.

[۳۹۸] (۱)- الدر المنثور، المجلد ۶، صفحة ۶۷.

[۳۹۹] (۲)- تفسير مجمع البيان، الجزء ۹، صفحة ۱۰۸.

[۴۰۰] (۱)- مجمع البيان، سورة الفتح، و مثله فی تفسير القمی و فی ظلال القرآن.

[۴۰۱] (۱)- مجمع البيان، الجزء التاسع، الصفحة ۱۰۸.

[۴۰۲] (۱)- المصدر السابق، ص ۱۰۹.

[۴۰۳] (۲)- مجمع البيان الجزء التاسع، ص ۱۰۸.

[۴۰۴] (۳)- ثواب الأعمال طبقا لما ورد فی تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۶.

[۴۰۵] (۱)- اختار هذا التّفسير جماعة منهم أبو الفتوح الرازی فی تفسيره، و الآلوسی فی روح المعانی، و الفيض الكاشانی فی تفسير الصافی و العلّامة الطباطبائی فی الميزان .. فی حين أنّ بعض المفسّرين يرجحون أنّ المراد من هذا الفتح هو فتح مكّة كما هو فی

تفسیر التبیان للطوسی، و الکشاف للزمخشری و تفسیر الفخر الرازی و غیرهم .. أمّا العلّامة الطبرسی فقد جمع بین القولین فی مجمع البیان مع أقوال أخری إلّا أنّه یمیل إلی تفسیر الطائفة الثانیة ..

[۴۰۶] (۱)- الاعتمار مصدر من: اعتمر و العمرة أو اسم مصدر من عمر و کلا المصدرین بمعنی واحد و هو الزیارة مطلقا(لغة) غیر أنّه اصطلح علیهما فی زیارة بیت اللّه خاصّة.

[۴۰۷] (۱)- منقول بتصرّف یسیر عن تأریخ الطبری، ج ۲، ص ۲۸۱.

[۴۰۸] (۲)- بحار الأنوار، الجزء العشرون، ص ۳۵۲.

[۴۰۹] (۳)- راجع سیرة ابن هشام، ج ۳، ص ۳۲۱- ۳۲۴، تفسیر مجمع البیان و تفسیر فی ظلال القرآن و الکامل لابن الأثیر، ج ۲ و مصادر أخری مع شیء من التلخیص طبعا].

[۴۱۰] (۱)- جوامع الجامع« طبقا لنور الثقلین، ج ۵، ص ۴۸، الحدیث التاسع».

[۴۱۱] (۲)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۶۸- ۳- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۸.

[۴۱۲] (۳)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۸.

[۴۱۳] (۱)- راجع فی هذا الصدد سورة فی الآیة ۴- ۷ و تفسیر الصافی نقلا عن عیون الأخبار- و راجع نور الثقلین الجزء الخامس، ص ۵۶.

[۴۱۴] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۱۱۴.

[۴۱۵] (۲)- المصدر السابق.

[۴۱۶] (۱)- الأحزاب، الآیة ۳۹.

[۴۱۷] (۲)- المائدة، الآیة ۵۴.

[۴۱۸] (۳)- الحدید، الآیة ۲۳.

[۴۱۹] (۴)- آل عمران، الآیة ۱۳۹.

[۴۲۰] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۱۶۵.

[۴۲۱] (۲)- الکافی، ج ۲، باب درجات الإیمان، حدیث ۱.

[۴۲۲] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۲۶، ص ۸۵ و تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱۰، ص ۲۶ و تفسیر روح المعانی للآلوسی، ج ۲۶، ص ۸۶.

[۴۲۳] (۲)- طبقا لهذا البیان فإنّ جملتی« لیدخل» و کذلک« و یعذّب» اللتین هما فی الآیة التالیة معطوفان علی جملة لیغفر، و قد اختار جماعة من المفسّرین هذا الرأی کالشیخ الطوسی فی« التبیان» و الطبرسی فی« مجمع البیان» و أبو الفتوح الرازی فی تفسیره، غیر أنّ جماعة آخرین قالوا أنّ ما سبق آنفا معطوف علی جملة لیزدادوا إیمانا و هذا لا ینسجم مع شأن النّزول و لا مجازاة الکفّار.

[۴۲۴] (۱)-« سوء» علی زنة« نوع» کما یقول صاحب صحاح اللغة فیه معنی مصدری، و السوء) علی وزن(نور) اسم مصدر، غیر أنّ صاحب الکشّاف یقول أنّ کلیهما، بمعنی واحد.

[۴۲۵] (۱)- نهج البلاغة.

[۴۲۶] (۱)- الأحزاب، الآیتان ۱۰- ۱۱.

[۴۲۷] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۳۸۴.

[۴۲۸] (۳)- بحار الأنوار ج ۷۰، ص ۳۸۵.

[۴۲۹] (۴)- المصدر السابق.

[۴۳۰] (۱)- النور، الآية ۲۴.

[۴۳۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۱۲.

[۴۳۲] (۳)- مرّ البحث عن الشهود فى محكمة القيامة ذيل الآيات ۲۰- ۲۲ من سورة فصلت.

[۴۳۳] (۱)- منهم الزمخشرى فى« الكشاف» و الآلوسى فى« روح المعانى» و« الفيض الكاشانى» فى تفسير الصافى و« العلّامة الطباطبائى فى الميزان».

[۴۳۴] (۱)- ينبغي الالتفات إلى أنّ كلمة(عليه) فى الآية الآنفة جاءت على خلاف ما نعهده، إذ ضمّ الضمير و هو الهاء هنا، و قد وجّه بعض المفسّرين إلى أنّ هذا أصله« هو» و بعد حذف الواو يأتى مضموما أحيانا مثل له و عنه و يأتى مكسورا أحيانا لأنه يلى الياء ككلمة« عليه اللّه» و حيث أنّ كلمة« عليه» هنا تلاها لفظ الجلالة فقد ضم الضمير فى« عليه» ينسجم مع تضخيم اللام فى لفظ الجلالة« اللّه».

[۴۳۵] (۱)-« النكث» بفتح النون مصدر و« النكث» بكسر النون اسم مصدر.

[۴۳۶] (۲)- بحار الأنوار، الجزء ۶۷، الصفحة ۱۸۶.

[۴۳۷] (۱)- نهج البلاغة: من رسالة له« برقم ۵۹».

[۴۳۸] (۲)- أسلوب الجملة و نظمها كان ينبغى أن يكون: فقل:« إنّا اعتدنا لهم سعيرا»: إلّا أنّ القرآن حذف الضمير خاصة و جعل مكانه الاسم الصريح« الكافرين» ليبيّن أنّ علة هذا المصير المشؤوم هو الكفر بعينه ...

[۴۳۹] (۱)- سورة الزخرف، ۲۳.

[۴۴۰] (۱)- الأنعام، الآية ۱۴۸.

[۴۴۱] (۲)- الأحزاب، الآية ۱۳.

[۴۴۲] (۳)- التوبة، الآية ۴۹.

[۴۴۳] (۴)- الأعراف، الآية ۱۲.

[۴۴۴] (۵)- سورة الأحزاب، ۶۷.

[۴۴۵] (۱)- سيرة ابن هشام، الجزء ۳، الصفحة ۳۶۴.

[۴۴۶] (۱)- مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث.

[۴۴۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۹۹.

[۴۴۸] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة رقم ۵۶.

[۴۴۹] (۲)- مقدمة ابن خلدون، صفحة ۱۷۴.

[۴۵۰] (۱)- الممتحنة، الآية ۱۲.

[۴۵۱] (۱)- نقرأ فى حادثة كربلاء

\i أنّ الإمام الحسين عليه السّلام خطب أصحابه ليلة العاشر من المحرم و أحلّ بيعته من أصحابه بعد أن أظهر تقديره لهم و شكرهم على مواساتهم إيّاه لينطلقوا حيث يشاءون فقال:« انطلقوا فى حلّ منّى ليس عليكم منّى ذمام» لكنّهم لم يتركوا الحسين عليه السّلام و بقوا على وفائهم i[الكامل: لابن الأثير، ج ۴، ص ۵۷\].E\E

[۴۵۲] (۱)- النساء، الآية ۵۹.

[۴۵۳] (۱)- الخصال: باب الثلاثة- الحديث ۷۰.

[۴۵۴] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶۷، ص ۱۸۵.

[۴۵۵] (۳)- نهج البلاغة الخطبة ۳۴.

[۴۵۶] (۴)- نهج البلاغة الخطبة ۱۳۶.

[۴۵۷] (۱)- نهج البلاغة من كتاب له عليه السّلام رقم ۱.

[۴۵۸] (۲)- من كتاب له رقم ۶، و ينبغى الالتفات إلى أنّ التعويل على بيعة الخلفاء السابقة هو لأنّ معاوية كان منصوبا من قبلهم و كان يدافع عنهم فلا منافاة بين هذا و ما جاء فى الخطبة المعروفة بالشقشقية.

[۴۵۹] (۳)- نهج البلاغة: من كتاب له برقم ۷.

[۴۶۰] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة رقم ۸۷.

[۴۶۱] (۲)- نهج البلاغة: الخطبة رقم ۲.

[۴۶۲] (۱)- أخرى: هنا صفة لمحذوف تقدير(و مغانم أخرى لم تقدروا عليها) و هى منصوبة لعطفها على(وعدكم اللّه مغانم كثيرة) ..

[۴۶۳] (۱)- نقلا بتلخيص عن الكامل فى التاريخ لابن الأثير] ج ۲، ص ۲۱۶- ۲۲۱.

[۴۶۴] (۱)-(مجمع البيان) ج ۹، ص ۱۲۳، مع شىء من التصرف كما ذكر هذا الشأن(القرطبى) بتفاوت يسير و(أبو الفتوح الرازى) و(الآلوسى فى روح المعانى) و(الشيخ الطوسى فى التبيان) و(المراغى) و أضرابهم.

[۴۶۵] (۱)-« معكوفا» مشتق من العكوف و معناها المنع عن الحركة و البقاء فى المكان.

[۴۶۶] (۲)- البقرة، الآية ۱۱۴.

[۴۶۷] (۱)- جواب لولا فى الجملة الآنفة محذوف و التقدير: لمّا كفّ أيديكم عنهم، أو: لوطأتم رقاب المشركين بنصرنا إيّاكم ..

[۴۶۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۰، و روايات أخر متعددة وردت أيضا فى هذا المجال!.

[۴۶۹] (۱)- يستوفى الفعل(جعل) مفعولا واحدا أحيانا و ذلك إذا كان معناه« الإيجاد» كالآية محل البحث و فاعله الذين كفروا و مفعوله الحمية و المراد بالإيجاد هنا البقاء على هذه الحالة و التعلّق بها، و قد يستوفى هذا الفعل(جعل) مفعولين و ذلك إذا كان بمعنى(صار).

[۴۷۰] (۱)- الدر المنثور، الجزء ۶، ص ۸۰.

[۴۷۱] (۲)- أصول الكافى طبقا لما نقل فى تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۳.

[۴۷۲] (۱)- خصال الصدوق: عن نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۳.

[۴۷۳] (۲)- المصدر السابق، ص ۷۴.

[۴۷۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۳۹.

[۴۷۵] (۲)- نهج البلاغة الخطبة القاصعة ۱۹۲.

[۴۷۶] (۳)- نهج البلاغة: المصدر السابق.

[۴۷۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۳، الحديث السبعون.

[۴۷۸] (۱)-« صدق» فعل ماض قد يستوفى مفعولين كما هى الحال فى الآية الآنفة فرسوله مفعول به أوّل و الرؤيا مفعول ثان، و قد يستوفى فى هذا الفعل مفعولا واحدا يتعدّى إلى المفعول الثّانى بفى كقولك صدقته فى حديثه.

[۴۷۹] (۱)- التعبير ب« من دون ذلك» إمّا بمعنى قبل ذلك، أى قبل أداء العمرة يفتح اللّه عليكم فتحا قريبا فى السنة المقبلة، أو بمعنى« غير ذلك» أى سينال المؤمنون فتحا قريبا غير زيارة بيت اللّه و العمرة أيضا.

[۴۸۰] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۶.

[۴۸۱] (۱)- مجمع البيان للطبرسى، ج ۹، ص ۱۲۷- فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۵۱۱، تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۳۱۰ مع شىء من التلخيص ..

[۴۸۲] (۱)- يجرى على ألسنة الناس و بعض الأدباء قولهم هذا أسلوب شيّق، و هذا التعبير خطأ، و الصحيح« شائق» أى مثير للشوق أمّا الشيّق فهو المشتاق(المصحّح).

[۴۸۳] (۱)- تفسير مجمع البيان، الجزء ۵، ص ۲۵، القرطبى نقل هذه الرواية عن النّبى أيضا ذيل الآية ۵۵ من سورة النور، ج ۷، ص ۴۶۹۲.

[۴۸۴] (۱)- سيماهم: مبتدأ و« فى وجوههم» خبره و« من أثر السجود» قد يكون حالا عن السيماء و الأفضل أن تعد(من) نشوية أى: « سيماهم فى وجوههم و هذه السيماء و العلامة من أثر سجودهم».

[۴۸۵] (۱)-« من لا يحضره الفقيه» و« روضة الواعظين»، طبقا لما ورد فى تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۸.

[۴۸۶] (۲)- هناك كلام بين المفسّرين فى جملة« و مثلهم فى الإنجيل» أ هى جملة مستقلة و وصف آخر عن أصحاب محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم غير ما وصفوا فى التوراة، أم هى معطوفة على جملة ذلك مثلهم فى التوراة؟ فيكون الوصفان مذكورين فى كتابين سماويين! الظاهر أنّ الآية ذكرت الوصفين كلّا على حدة فى كتاب سماوى و لذلك كرّرت كلمة« مثلهم» و لو كان هذا الوصف معطوفا على السابق لاقتضت الفصاحة أن يكون التعبير: ذلك مثلهم فى التوراة و الإنجيل.

[۴۸۷] (۱)- يرى كثير من المفسّرين أنّ اللام فى جملة« ليغيظ بهم الكفّار» هى لام التعليل، فيكون مفهوم الجملة: إنّ هذه القوّة و القدرة جعلها اللّه نصيب أصحاب محمّد ليغيظ بهم الكفّار ..

[۴۸۸] (۱)- تفسير روح المعانى، ج ۹، ص ۶۱.

[۴۸۹] (۲)- صحيح مسلم، ج ۱، الحديث ۳۹.

[۴۹۰] (۱)- أصول الكافى- طبقا لتفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۷، الحديث ۹۱.

[۴۹۱] (۱، ۲، ۳)- تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۱۲۱.

[۴۹۲] (۱، ۲، ۳)- تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۱۲۱.

[۴۹۳] (۱، ۲، ۳)- تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۱۲۱.

[۴۹۴] (۴)- كان« ثابت بن قيس» خطيب الأنصار و خطيب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما كان حسّان بن ثابت شاعره أسد الغابة، ج ۱، ص ۲۲۹].

[۴۹۵] (۱)- نقل ذلك القرطبى فى تفسيره، ج ۹، ص ۶۱۲۱، و سيد قطب فى ظلاله، ج ۷، ص ۵۲۴، و ابن هشام فى سيرته ص ۲۰۶ فما بعد(مع شىء من التفاوت و الاختلاف) كما ورد فى صحيح البخارى، ج ۶، ص ۱۷۲، فى تفسيره سورة الحجرات ..

[۴۹۶] (۱)- ورد الفعل« لا تقدموا» على صيغة الفعل المتعدى إلا أن المفعول محذوف هنا و تقديره: لا تقدموا أمرا بين يدى الله و رسوله و قد احتمل بعضهم أن هذا الفعل لازم هنا و مفهومه لا تتقدموا بين يدى الله و بالرغم من أن الفعلين مختلفان شكلا إلا أن المعنى أو النتيجة واحدة ..

[۴۹۷] (۱)- لمزيد الاطلاع بحثنا مسألة الحبط فى ذيل الآية(۲۱۷) من سورة البقرة فليراجع.

[۴۹۸] (۲)- يراجع مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۳۰، و قد ورد هذا الحديث بتفاوت فى بعض الكلمات عند كثير من المفسّرين و لا سيما البخارى فى صحيحه و سيد قطب فى ظلاله و غيرهما.

[۴۹۹] (۳)-« اللام» فى كلمة« التقوى» فى الحقيقة هى لام الغاية و ليست(لام العلّة) أى أنّ اللّه يجعل قلوب أولئك مهيّأة للقبول و التقوى، لأنّ القلب إذا لم يخلص و لم يصف فلا يكون محلا للتقوى حقيقة.

[۵۰۰] (۱)- بیوت جمع بیت و هـذا اللفظ یطلق علی الغرفـة الواحـدة[أو مجموع الغرف فی مکان واحد لعائلة معیّنة] و هو مشـتقّ من المبیت لیلا ...

[۵۰۱] (۱)- نهج البلاغة الحکمة- ۵.

[۵۰۲] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۶۸.

[۵۰۳] (۳)- المصدر السابق، ص ۶۷.

[۵۰۴] (۴)- المصدر السابق.

[۵۰۵] (۱)- راجع تفسیر مجمع البیان و تفسیر الفخر الرازی، ذیل الآیة ۲ سورة المؤمنون.

[۵۰۶] (۲)- بحار الأنوار، ج ۲۷، ص ۲۵۵.

[۵۰۷] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۳، ص ۴۵۰، باب آداب الصحبة و المعاشرة.

[۵۰۸] (۲)- روح المعانی، ج ۲۶، ص ۱۲۵.

[۵۰۹] (۱)- أصول الکافی- طبقا لما نقل فی نور الثقلین، ج ۵، ص ۸۰.

[۵۱۰] (۱)- نقل هـذا الحدیث کثیر من المؤرخین و المحدّثین و منها ما ورد فی الجزء السابع من وسائل الشـیعة، الصـفحة ۱۲۵، باب من یصح منه الصوم مع شیء من التلخیص.

[۵۱۱] (۲)- بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۳۸۶(بشیء من التصرّف و الاختصار).

[۵۱۲] (۱)- ذکر هذه القصة مؤرّخون کثر فی کتب التاریخ الإسـلامی و هی من الحوادث المهمّة فی تاریخ الإسـلام« لمزید الاطلاع یراجع کتاب المراجعات- المراجعة ۹۰- منه».

[۵۱۳] (۲)- صحیح مسلم، ج ۳، کتاب الوصیة، الحدیث ۲۲.

[۵۱۴] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۲.

[۵۱۵] (۲)- القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۳۱.

[۵۱۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۲، کما ورد فی تفسیر نور الثقلین بصورة مسهبة، ج ۵، ص ۸۱.

[۵۱۷] (۱)- یتصوّر بعضـهم أنّ المسألـة هنا من قبیل مفهوم الشـرط و مفهوم الشـرط حجّة، فی حین أنّه لا علاقة هنا بمفهوم الشـرط، إضافـة الی ذلـک فإنّ الجملـة الشـرطیة هنا لبیان الموضوع و نعرف أنّه فی مثل هـذه الموارد لا مفهوم للجملـة الشـرطیة أیضا فلاحظوا بدقّة.

[۵۱۸] (۱)- کلمة« لعنتّم»: مشـتقّة من مادة العنت و معناه الوقوع فی عمل یخاف الإنسان عاقبته أو الأمر الذی یشقّ علی الإنسان، و من هنا قیل للألم الحاصل من العظم المکسور عند تعرّضه للضربة بأنّه عنت ..

[۵۱۹] (۱)-(فضـلا و نعمـة) نصبا علی أنّهمـا[مفعولاـن لأـجله للفعـل حبّب إلیکم أو أنّهمـا مفعولاـن مطلقـان لفعلین محـذوفین و تقدیرهما: هکذا أفضل فضلا و أنعم نعمة ..

[۵۲۰] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب الحب فی اللّه و البغض فی اللّه، الحدیث ۵.

[۵۲۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۸۳ و ص ۸۴.

[۵۲۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۲.

[۵۲۳] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۳۶.

[۵۲۴] (۲)- مع أنّ کلمة(طائفتان) مثنی طائفة، إلّا أنّ فعلها جاء بصیغة الجمع اقتتلوا لأنّ کلّ طائفة مؤلفة من مجموعة من الأفراد.

[۵۲۵] (۱)- تفسیر المیزان ج ۱۸، ص ۳۴۲.

[۵۲۶] (۲)- کلمة« المقسطین» مأخوذة من القسط و معناها فی الأصل التقسیم بالعدل، و حین ترد علی صیغة الفعل الثلاثی قسط علی زنة ضرب تعنی الظلم و التجاوز علی حصّة الآخرین ظلما، إلّا أنّه حین تأتی ثلاثی مزید فیقال« أقسط» فإنّها تعنی إعطاء الحصة عدلا، و هل القسط و العدل بمعنی واحد أم لا؟ هناک بحث ذکرناه فی ذیل الآیة(۲۹) من سورة الأعراف لا بأس بمراجعتها ...

[۵۲۷] (۱)- کنز العرفان فی فقه القرآن، کتاب الجهاد، باب أنواع أخر من الجهاد- الجزء الأول، ص ۳۸۶.

[۵۲۸] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۳، ص ۳۳۲(کتاب الصحبة و المعاشرة) الباب الثانی.

[۵۲۹] (۲)- المصدر السابق.

[۵۳۰] (۱، ۲)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۱۳۳(باب أخوة المؤمنین بعضهم لبعض الحدیث ۳ و ۴).

[۵۳۱] (۱، ۲)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۱۳۳(باب أخوة المؤمنین بعضهم لبعض الحدیث ۳ و ۴).

[۵۳۲] (۱) بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۲۳۶.

[۵۳۳] (۱)- راجع تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۵، و القرطبی فی تفسیره، إذ ذکر هذا الشأن مع شیء من التفاوت.

[۵۳۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۶.

[۵۳۵] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۵، ص ۲۶۹.

[۵۳۶] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب التهمة و سوء الظن، الحدیث ۳، و قد ورد شبیه هذا المعنی فی نهج البلاغة مع شیء من التفاوت فی« الکلمات القصار، رقم ۳۶۰».

[۵۳۷] (۲)- یوسف، الآیة ۸۷.

[۵۳۸] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۵، ص ۲۶۸.

[۵۳۹] (۲)- غرر الحکم الصفحة ۶۹۷.

[۵۴۰] (۱)- المحجّة البیضاء ج ۵، ص ۲۵۳.

[۵۴۱] (۲)- المصدر السابق، ص ۲۵۲.

[۵۴۲] (۱)- المصدر السابق.

[۵۴۳] (۲)- أصول الکافی، ج ۲، باب الغیبة، الحدیث ۱- الآکلة نوع من الأمراض الجلدیة.

[۵۴۴] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۸ الباب ۱۵۷، الحدیث ۲، الصفحة ۶۰۸.

[۵۴۵] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب الغیبة و البهت، الحدیث ۷.

[۵۴۶] (۱)- روح البیان، ج ۹، ص ۹۰، کما ورد فی تفسیر القرطبی ص ۶۱۶۰ ج ۹.

[۵۴۷] (۱)- المصدر السابق.

[۵۴۸] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۶۱.

[۵۴۹] (۳)- المصدر السابق، ص ۶۱۶۲، و التعبیر« بالأحمر» فی هذه الروایة لا یعنی من بشرته حمراء بل من بشرته حنطیّة لأنّ أغلب الناس فی ذلک المحیط کانوا بهذه الصفة و من الطریف أن یطلق الأحمر علی الحنطة أیضا

[۵۵۰] (۴)- المصدر السابق.

[۵۵۱] (۱)- صحیح مسلم طبقا لما نقل فی ظلال الإسلام، ج ۷، ص ۵۳۸.

[۵۵۲] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۷، ص ۵۳۸.

[۵۵۳] (۲)- البقرة، الآیة ۱۹۷.

[۵۵۴] (۳)- الأعراف، الآیة ۲۶.

[۵۵۵] (۴)- المدّثر، الآیة ۵۶.

[۵۵۶] (۵)- البقرة، الآیة ۲۸۲.

[۵۵۷] (۱)- الحجرات، الآیة ۳.

[۵۵۸] (۲)- سورة التوبة: ۱۰۸.

[۵۵۹] (۱)- بحار الأنوار ج ۷۰، ص ۱۲۶.

[۵۶۰] (۲)- نهج البلاغة الخطبة رقم ۱۶.

[۵۶۱] (۳)- نهج البلاغة الخطبة ۱۵۷.

[۵۶۲] (۴)- نهج البلاغة الخطبة ۱۹۰.

[۵۶۳] (۱)- تفسیر المیزان و روح البیان و فی ظلال القرآن، ذیل الآیات محل البحث.

[۵۶۴] (۲)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۸.

[۵۶۵] (۱)- الکافی، ج ۲، باب أنّ الإسلام یحقن به الدم، الحدیثان ۱، ۲.

[۵۶۶] (۲)- المصدر السابق.

[۵۶۷] (۳)- أصول الکافی، ج ۲، باب أنّ الإیمان یشرّک الإسلام، الحدیث ۳.

[۵۶۸] (۴)- فعلی هذا یکون الفعل لیت أجوف یائیا و إن کان الفعل ولت بهذا المعنی أیضا.

[۵۶۹] (۱)- مجمع البیان، المیزان، روح البیان، و تفسیر القرطبی.

[۵۷۰] (۱)- یشیع علی ألسنة بعضهم التعبیر ب« صفاته عین ذاته و ذاته عین صفاته» و ما أشبه ذلک و هذا التعبیر رکیک و الصحیح ما ورد فی المتن(المصحّح).

الجزء السابع عشر

سورة ق

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها خمس و أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷

سورة ق

محتوی السورة:

إنّ محور بحوث هـذه السورة هو موضوع «المعاد» و جمیع هـذه الآیات- تقریبا- تدور حول هذا المحور و بعض المسائل الاخری التی لها تعلّق به أیضا.

و من المسائل المرتبطة بالمعاد تمت الإشارة فی هذه السورة إلی الأمور التالیة:

۱- إنکار الکافرین مسألة المعاد و تعجّبهم منها «المراد بالمعاد هنا هو المعاد الجسمانی».

۲- الاستدلال علی مسألة المعاد عن طریق الالتفات إلی مطلق التکوین و الخلق و خاصّة إحیاء الأرض المیتة بنزول الغیث.

۳- الاستدلال علی مسألة المعاد عن طریق الالتفات إلی الخلق الأوّل.

۴- الإشارة إلی مسألة ثبت الأعمال و الأقوال لیوم الحساب.

۵- المسائل المتعلّقة بالموت و الانتقال من هذه الدنیا إلی الدار الاخری.

۶- جانب من حوادث یوم القیامة و أوصاف الجنّة و النار.

۷- إشارة إلی حوادث نهایة هذا العالم المذهلة و المثیرة التی تعتبر بدورها بدایة العالم الآخر! و فی الأثناء إشارات (موجزة و ذات تأثیر بلیغ) عن حال الأمم الماضیة و طغیانها و عاقبتها الوخیمة أمثال قوم فرعون و عاد و قوم لوط و قوم شعیب و قوم تبع و ما ورد من تعلیمات للنبی فی التوجّه إلی اللّه تعالی .. کما وردت فی بدایة السورة و نهایتها إشارة موجزة إلی عظمة القرآن!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸

فضیلة تلاوة سورة «ق»:

یستفاد من الرّوایات الإسلامیة أنّ النّبی کان یهتمّ اهتماما کبیرا بسورة «ق» حتّی أنّه کان یقرؤها فی خطبة صلاة کلّ یوم جمعة[۱].

کما ورد فی حدیث آخر أنّه کان یقرؤها فی کلّ عید و جمعة[۲] و إنّما کان ذلک فلأنّ یومی الجمعة و العید یومان یتیقّظ فیهما الناس و ینتهبون، و فیما تکون العودة إلی الفطرة الاولی، و التوجّه إلی اللّه و یوم الحساب، و حیث أنّ آیات هذه السورة تتحدّث عن مسائل المعاد و الموت و حوادث یوم القیامة و أنّ لاسلوبها تأثیرا بالغا فی إیقاظ الناس من الغفلة و تربیتهم، لذلک کانت موضع اهتمام النّبی صلّی اللّه علیه و سلّم.

و

قد ورد فی بعض أحادیث النّبی صلّی اللّه علیه و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة (ق) هوّن اللّه علیه تارات الموت و سکراته»[۳].

کما

ورد عن الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من أدمن فی فرائضه و نوافله سورة (ق) وسّع اللّه فی رزقه و أعطاه کتابا بیمینه و حاسبه حسابا یسیرا».

و لا حاجة للتذکیر بأنّ کلّ هذه الفضیلة و الفخر لا یحصل بقراءة الألفاظ فحسب، بل القراءة هی بدایة لتیقّظ الأفکار، و هی بدورها مقدّمة للعمل الصالح و الانسجام مع محتوی السورة هذه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹

الآیات [سورة ق (۵۰): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِیدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْکافِرُونَ هذا شَیْءٌ عَجِیبٌ (۲) أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً ذلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ (۳)

قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا کِتابٌ حَفِیظٌ (۴)

بَلْ کَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِی أَمْرٍ مَرِیجٍ (۵)

التّفسیر

المنکرون المعاندون فی أمر مریج!

مرّة اخرى نواجه هنا بعض الحروف المقطّعة! و هو الحرف «ق»، و كما قلنا من قبل أنّ واحدا من التفاسير المتينة هو أنّ هذا القرآن على عظمته مؤلّف من حروف بسيطة هى ألف باء إلخ .. و هذا يدلّ على أنّ مبدع القرآن و منزله لديه علم لا محدود و قدرة مطلقة بحيث خلق هذا التركيب الرفيع العالى من هذه الوسائل البسيطة المألوفة! و بالطبع فإنّ هناك تفاسير أخر للحروف المقطّعة و يمكن مراجعتها فى بدايات سور «البقرة، آل عمران، الأعراف و سور حم أيضا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰

قال بعض المفسّرين أنّ «ق» إشارة إلى بعض أسماء اللّه تعالى «كالقادر و القيّوم» و ما إلى ذلك من الأسماء المبدوءة بحرف القاف.

كما ورد فى كثير من التفاسير أنّ «ق» اسم لجبل عظيم يحيط بالكرة الأرضية! و لكن أى جبل هو بحيث يحيط بالكرة الأرضية أو مجموع العالم؟! و ما المراد منه؟ ليس هنا محلّ الكلام عنه! لكن ما ينبغى ذكره هنا أنّه من البعيد جدّا أن يكون «ق» فى هذه السورة إشارة إلى جبل قاف! لأنّه ليس هذا لا- يتناسب مع مواضيع السورة و ما ورد فيها فحسب، بل حرف «القاف» هنا كسائر الحروف المقطّعة الواردة فى بدايات السور فى القرآن، أضف إلى ذلك لو كان «ق» إشارة إلى جبل «قاف» لكان ينبغى أن يقترن بواو القسم كقوله تعالى: و الطور و أمثال ذلك، و ذكر كلمة ما من دون مبتدأ و لا خبر أو واو القسم لا مفهوم لها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ الرسم القرآنى لجميع المصاحف هو ورود الحرف «ق» مفردا، فى حين أنّ جبل «قاف» يكتب رسمه على هيئة اسمه الكامل «قاف».

و من جملة الأمور التى تثبت على أنّ هذا الحرف «ق» هو من الحروف المقطّعة المذكورة لبيان عظمة القرآن هو مجىء القسم مباشرة- بعد هذا الحرف- بالقرآن المجيد إذ يقول سبحانه: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

كلمة «المجيد» مشتقّة من المجد و معناها الشرف الواسع، و حيث أنّ القرآن عظمته غير محدودة و شرفه بلا نهاية، فهو جدير بأن يكون مجيدا من كلّ جهة، فظاهره رائق، و محتواه عظيم، و تعاليمه عالية، و مناهجه مدروسة، تبعث الروح و الحياة فى نفوس العباد.

و لسائل أن يسأل: ما المراد من ذكر هذا القسم؟ أو ما هو المقسم له؟! هناك بين المفسّرين احتمالات كثيرة، و لكن مع الالتفات إلى ما بعد القسم من الآيات فإنّه يبدو أنّ المقصود بالقسم أو جواب القسم هو مسألة النبوّة نبوة محمد أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱

نشور الناس و بعضهم بعد موتهم ۴].

ثمّ يبيّن القرآن جانبا من إشكالات الكفّار و المشركين العرب الواهية فيذكر إشكالين منها .. الأوّل هو حكايته منهم: بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ

و هذا إشكال طالما أشار إليه القرآن وردّ عليه، و تكرار هذا الإشكال يدلّ على أنّه من إشكالات الكفّار الأساسية التى كانوا يكرّروها دائما!.

و لم يكن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم وحده قد أشكلوا عليه بهذا الإشكال، فالرسل أيضا أشكلوا عليهم أيضا بذلك بقولهم: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا[۵] و كانوا يقولون أحيانا: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۶].

و ربّما أضافوا أحيانا لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً.[۷] إلّا أنّ جميع هذه الأمور كانت حججا واهية و ذريعة لعدم التسليم للحقّ.

و القرآن فى هذه الآيات محلّ البحث لا- يردّ على هذا الإشكال، لأنّه أجاب عليه مرارا، و هو إن أردنا أن نرسل ملكا لجعلناه على صورة بشر .. أى أنّ قادة الناس ينبغى أن يكونوا منهم فحسب ليكونوا قادرين على معرفة همومهم و آلامهم و رغباتهم و حاجاتهم و

مسائل حياتهم، و ليكونوا أسوة لهم من الناحية العملية و لئلّا يقولوا لو كانوا أمثالنا لما ظلّوا طاهرين أنقياء! فمناهج الملائكة تتناسب معهم و لا تتناسب مع طموحات البشر و آلامهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲

و بعد إشكالهم الأوّل على نبوّة النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم و هو كيف يكون النّبى بشرا؟! كان لهم إشكال آخر على محتوى دعوته و وضعوا أصابع الدهشة على مسألة اخرى كانت عندهم أمرا غريبا و هى إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ[۸].

و على كلّ حال، كانوا يتصوّرون أنّ العودة للحياة مرّة اخرى بعيدة لا يصدّقها العقل، بل كانوا يرونها محالا و يعدّون من يقول بها ذا جنّة! كما نقرأ ذلك فى الآيتين ۷ و ۸ من سورة سبأ إذ: قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ.

و لم يكن هذا الإشكال الذى أوردوه على النّبى هنا فحسب، بل أشكلوا عليه به عدّة مرّات و سمعوا ردّه عليهم، إلّا أنّهم كرّروا عليه ذلك عنادا.

و على كلّ حال، فإنّ القرآن، يردّ عليهم بطرق متعدّدة! فتارة يشير إلى علم اللّه الواسع فيقول: قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ.

إذا كان إشكالكم هو أنّه كيف تجتمع عظام الإنسان النخرة و لحمه الذى صار ترابا و ذرّاته التى تبدلّت إلى بخار و غازات متفرّقة فى الهواء، و من يجمعها؟! أو من يعرف عنها شيئا؟! فجواب ذلك معلوم ... فاللّه الذى أحاط بكلّ شىء علما يعرف جميع هذه الذرّات و يجمعها متى شاء، كما أنّ ذرّات الحديد المتناثرة فى تلّ من الرمل يمكن جمعها بقطعة من «المغناطيس» فكذلك جمع ذرّات الإنسان أيسر على اللّه من ذلك.

و إذا كان إشكالهم أنّه من يحفظ أعمال الإنسان ليوم المعاد، فالجواب على ذلك أنّ جميع أعمال الناس فى لوح محفوظ، و لا يضيع أى شىء فى هذا العالم، و كلّ شىء- حتّى أعمالكم- سيظلّ باقيا و إن تغيّر شكله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳

كِتابٌ حَفِيظٌ معناه الكتاب الذى يحفظ جميع أعمال الناس و غيرها، و هو إشارة إلى «اللوح المحفوظ» الذى بيّنا معناه بتفصيل فى ذيل الآية (۳۹) من سورة الرعد.

ثمّ يردّ القرآن عليهم بجواب آخر، و فيه منحى نفسى أكثر إذ يقول: بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ

أى إنّهم جحدوا الحقّ مع علمهم به، و إلّا فإنّه لا غبار على الحقّ، و كما سيتّضح فى الآيات المقبلة فإنّهم يرون صورة مصغّرة للمعاد بأعينهم مرارا فى هذه الدنيا و ليس عندهم مجال للشّك و التردّد! لذلك فإنّ القرآن يختتم هذه الآية مضيفا: فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ فلأنّهم كذّبوا الرسالة فهم دائما فى تناقض فى القول و حيرة فى العمل و اضطراب فى السلوك.

فتارة يتّهمون النّبى بأنّه مجنون أو أنّه شاعر أو كاهن.

و تارة يعبّرون عن كلماته بأنّها «أساطير الأوّلين».

و تارة يقولون بأنّه يعلّمه بشر.

و تارة يقولون عنه بأنّه ساحر لنفوذ كلماته فى القلوب.

و تارة يقولون بأنّنا نستطيع أن نأتى بمثله.

و هذه الكلمات المتفرّقة و المتناقضة تدلّ على أنّهم فهموا الحقّ، إلّا أنّهم يتذرّعون بحجج واهية شتّى، و لذلك لا يقرّون على كلام واحد أبدا.

و كلمة «مريج» مشتقّة من مرج- على زنة حرج- و معناها الأمر المختلط و المشتبه و المشوش، و لذلك فقد أطلقوا على الأرض التى

تكثر فيها النباتات المختلفة و المتعدّدة بأنّها «مرج» أو «مرتع».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۶ الى ۱۱]

اشارة

أ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (۹) وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰)

رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (۱۱)

التّفسير

انظروا إلى السماء لحظة!

هـذه الآيات تواصل البحث عن دلائل المعاد، فتارة تتحـدّث عن قـدرة اللّه المطلقة لإثبات المعاد، و اخرى تستشـهد له بوقائع و نماذج تحدث فى الدنيا تمثّل حالة المعاد.

فهى تستجلب و تلفت أنظار المنكرين إلى خلق السماوات فتقول: أ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵

و المراد بالنظر هنا هو النظر المقترن بالتفكير الـذى يدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذى خلق السـماء الواسـعة و ما فيها من عجائب مذهلة و تناسق و جمال و استحكام و نظم و دقّة.

جملة وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ أى لا انشقاق فيها، إمّا أن يكون بمعنى عدم وجود النقص و العيب و ارتباك كما ذهب إليه بعض المفسّرين، أو أن يكون معناه عدم الإنشـقاق و الإنفطار فى السـماء المحيطة بأطراف الأرض و هى ما يعبّر عنها بالغلاف الجوّى للأرض أو ما يعبّر القرآن عنه بالسـقف المحفوظ كمـا ورد ذلـك فى سورة الأنبياء الآيـة (۳۲) إذ توصـد الطريق بوجه النيازك و السـدم و الشـهب التى تهوى باسـتمرار نحو الأرض و بسـرعة هائلـة و قبـل أن تصـل إلى الأرض تسـتحيل إلى شـعلة فرماد، كما أنّها تحجب الأشـعّة الضارّة للشمس و غيرها من الأشعّة الكونية، و إلّا فإنّ السماء معناها الفضاء الواسع الذى تسبح فيه الأجرام الكروية المعروفة بالنجوم.

و هنا احتمال ثالث أيضا، و هو أنّ الجملـة السابقة إشارة إلى نظرية وجود «الأثير» .. و طبقا لهذه النظرية فإنّ جميع عالم الوجود بما فيه الفواصـل التى تقع مـا بين النجوم- ملىء من مـادّة عديمـة اللون و الوزن تـدعى ب «الأثير» و هى تحمل أمواج النور و تنقلها من نقطة لأـخرى، و طبقـا لهـذه النظريـة فإنّه لا وجود لأيّـة فرجـة و لا فجوة و لا انشـقاق فى عالم الإيجاد و الخلق، و جميع الأجرام السـماوية و الكواكب السيارة تموج فى الأثير! و بالطبع فإنّه لا منافاة بين هـذه التفاسير الثلاثـة و إن كانت النظريـة الثالثـة التى تعتمد على فرضـية الأـثير لا يعوّل عليها و لا يمكن الركون إليها، لأنّ موضوع الأثير ما يزال قيـد الـدرس و لم يثبت بصورة قطعيّـة عنـد جميع العلماء لحدّ الآن! ثمّ تشير الآيات إلى عظمة الأرض فتقول: وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶

أجل، خلق الأرض من جهة، ثمّ اتّساعها «و خروجها من تحت الماء» من جهة اخرى، و وجود الجبال «الرواسـى» عليها و ارتباط بعضها

ببعض كأنّها السلاسل التی تشدّ الأرض و تحفظها من الضغوط الداخلية و الخارجية و الجزر و المدّ الحاصلين من جاذبية الشمس و القمر من جهة ثالثة ... و وجود أنواع النباتات بما فيها من عجائب و اتّساق و جمال من جهة رابعة جميعها تدلّ على قدرته اللّامحدودة[۹].

و التعبير ب مِنْ كُلِّ زَوْجٍ إشارة إلى مسألة الزوجية فی عالم النباتات التی لم تكن معروفة كأصل كلّی حين نزول الآيات محلّ البحث، و بعد قرون و سنين متطاولة استطاع العلم أن يميط النقاب عنها. أو أنّه إشارة إلى اختلاف النباتات و أنواعها المتعدّدة، لأنّ التنوّع و الاختلاف فی عالم النبات عجيب و مذهل.

أمّا الآية التالية فهی بمثابة الاستنتاج إذ تقول: تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ١٠].

أجل إنّ من له القدرة على خلق السماوات بما فيها من عظمة و جمال و جلال، و الأرض بما فيها من نعمة و جمال و دقّة، كيف لا يمكنه أن يلبس الموتى ثوب الحياة مرّة اخرى و أنّ يجعل لهم معادا و حياة اخرى!؟

ترى أ ليست هذه القدرة المذهلة العظيمة دليلا واضحا على إمكان المعاد؟! أمّا الآية التالية ففيها استدلال آخر على هذا الأمر إذ تقول: وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ.

«الجنّات» هنا إشارة إلى بساتين الثمار، أمّا حَبَّ الْحَصِيدِ فإشارة إلى الحبوب التی تعدّ مادّة أساسيّة لغذاء الإنسان كالحنطة و الشعير و الذرّة و غيرها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷

ثمّ تضيف الآية: وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ كلمة: «باسقات» جمع باسقة بمعنى الشجرة المرتفعة العالية و «الطلع» ثمر النخل و ما يكون منه الرطب و التمر بعدئذ، و كلمة «النضيد» معناها المتراكم بشكل دقيق، و المعروف أنّ عذق النخل قبل أن ينشقّ، يحمل داخله طلعا متراكبا متراكما و حين ينشقّ هذا الطلع يكون مذهلا و عجيبا.

و الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تقول: رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ ١١].

و هكذا فانّ هذه الآيات ضمن بيان النعم العظمى للعباد و تحريك إحساس الشكر فيهم فی مسير المعرفة تذكّرهم بأنّهم يرون مثلا للمعاد كلّ سنة فی حياتهم فی هذه الدنيا، فالأرض الميتة الخالية و اليابسة تهتزّ و تنبت النباتات عليها عند نزول قطرات الغيث و كأنّ أصداء القيامة تترنّم على شفاه النباتات قائلة: «وحده لا شريك له».

فهذه الحركة العظيمة نحو الحياة فی عالم النباتات تكشف عن هذه الحقيقة، و هی أنّ بارئ عالم الموجودات قادر على إحياء الموتى مرّة اخرى، لأنّ وقوع الشیء أقوى دليل على إمكانه!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱۲ الى ۱۵]

اشارة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (۱۲) وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ (۱۳) وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (۱۴) أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۵)

التّفسير

لست وحدك المبتلى بالعدو

تعالج هذه الآیات مسألة المعاد من خلال نوافذ متعدّدة! ففی البدایة و من أجل تثبیت قلب النّبی صلّی اللّه علیه و سلّم و تسلیته تقول: لست وحدک المرسل الذی کذّبه الکفّار و کذّبوا محتوی دعواته و لا سیّما المعاد فإنّه: کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ!.

و جماعة «ثمود» هم قوم صالح النّبی العظیم إذ کانوا یقطنون منطقة «الحجر» شمال الحجاز.

أمّا «أصحاب الرسّ» فهناک أقوال عند المفسّرین، فالکثیر من المفسّرین یعتقدون أنّهم طائفة کانت تقطن الیمامة، و کان عندهم نبیّ یدعی حنظلة فکذّبوه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹

و ألقوه فی البئر فی آخر الأمر «من معانی الرسّ هو البئر» و المعنی الآخر الأثر الیسیر الباقی من الشیء، و قد بقی من هؤلاء القوم الشیء الیسیر فی ذاکرة التاریخ!.

و یری بعض المفسّرین أنّهم «قوم شعیب» لأنّهم کانوا یحفرون الآبار، و لکن مع الالتفات إلی أنّ «أصحاب الأیکة» المذکورین فی الآیات التالیة هم قوم شعیب أنفسهم ینتفی هذا الاحتمال أیضا.

و قال بعض المفسّرین: هم بقایا قوم- صالح- أی ثمود، و مع الالتفات إلی ذکر ثمود علی حدة فی الآیة فإنّ هذا الاحتمال یبدو بعیدا أیضا.

فعلی هذا یکون التّفسیر الأوّل هو الأنسب، و هو ما اشتهر علی أقلام المفسّرین و ألسنتهم!.

ثمّ یضیف القرآن قائلا: وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ و المراد بإخوان لوط هم قومه، و قد عبّر القرآن عن لوط بأنّه أخوهم، و هذا التعبیر مستعمل فی اللغة العربیة بشکل عام.

و کذلک من بعدهم: وَ أَصْحابُ الْأَیْکَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ و الأیکة: معناها الأشجار الکثیرة المتداخلة بعضها ببعض- أو الملتفّة أغصانها- و «أصحاب الأیکة» هم طائفة من قوم شعیب کانوا یقطنون منطقة غیر «مدین» و هی منطقة ذات أشجار کثیرة[۱۲]! و المراد من «قوم تبّع» طائفة من أهل الیمن، لأنّ «تبع» لقب لملوک الیمن، باعتبار أنّ هؤلاء القوم یتبعون ملوکهم، و ظاهر تعبیر القرآن هنا و فی آیة اخری منه (۳۷- الدخان) هو ملک مخصوص من ملوک الیمن اسمه (أسعد أبو کرب) کما نصّت علیه بعض الرّوایات، و یعتقد جماعة من المفسّرین بأنّه کان رجلا صالحا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰

مؤمنا یدعو قومه إلی اتّباع الأنبیاء، إلّا أنّهم خالفوه ۱۳].

ثمّ إنّ الآیة هذه أشارت إلی جمیع من ذکرتهم من الأقوام الثمانیة فقالت:

کُلٌّ کَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِیدِ.

و ما نراه فی النصّ من أنّ جمیع هؤلاء کذّبوا الرسل و الحال أنّ کلّ قوم کذّبوا رسولهم فحسب لأنّ الفعل الصادر منهم جمیعا التکذیب نال الأنبیاء جمیعا و إن کان کلّ قوم قد کذّبوا نبیّهم وحده فی زمانهم.

أو لأنّ تکذیب أحد النّبیین و الرسل یعدّ تکذیبا لجمیع الرسل، لأنّ محتوی دعوتهم سواء.

و علی کلّ حال، فإنّ هؤلاء الأمم کذّبوا أنبیاءهم و کذّبوا مسألة المعاد و التوحید أیضا، و کانت عاقبة أمرهم نکرا و وبالا علیهم، فمنهم من ابتلی بالطوفان، و منهم من أخذته الصاعقة، و منهم من غرق بالنیل، و منهم من خسفت به الأرض أو غیر ذلک، و أخیرا فإنّهم ذاقوا ثمرة تکذیبهم المرّة!! فکن مطمئنا یا رسول اللّه أنّه لو واصل هؤلاء تکذیبهم لک فلن یکونوا أحسن حالا من السابقین.

ثمّ یشیر القرآن إلی دلیل آخر من دلائل إمکان النشور و یوم القیامة فیقول:

أ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ١۴].

ثمّ یضیف القرآن: إنّهم لا یشکّون و لا یتردّدون فی الخلق الأوّل لأنّهم یعلمون أنّ خالق الإنسان هو اللّه و لکنّهم یشکّون فی المعاد مع کلّ تلک الدلائل الواضحة: بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ.

و فی الحقیقة إنّهم فی تناقض بسبب هوی النفس و التعصّب الأعمی، فمن جهة یعتقدون بأنّ خالق الناس أوّلا هو اللّه إذ خلقهم من تراب، إلّا أنّهم من جهة اخری

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱

حین یقع الکلام علی المعاد و خلق الإنسان ثانیة من التراب یعدّون ذلک أمرا عجیبا و لا یمکن تصوّره و قبوله، فی حین أنّ الأمرین متماثلان: «و حکم الأمثال فی ما یجوز و ما لا یجوز واحد».

و هکذا فإنّ القرآن یستدلّ علی المعاد فی هذه الآیات و الآیات الآنفة بأربعة طرق مختلفة، فتارة عن طریق علم اللّه، و أخری عن طریق قدرته، ثالثة عن طریق تکرّر صور المعاد و مشاهده فی عالم النباتات، و أخیرا عن طریق الالتفات إلی الخلق الأوّل.

و متی ما عدنا إلی آیات القرآن الاخر فی مجال المعاد وجدنا هذه الأدلّة بالإضافة إلی أدلّة أخر وردت فی آیات مختلفة و بصورة مستقلّة، و قد أثبت القرآن المعاد بالمنطق القویم و التعبیر السلیم و الأسلوب الرائع (القاطع) للمنکرین و بیّنه بأحسن وجه .. فلو خضعوا لمنطق العقل و تجنّبوا الأحکام المسبقة و التعصّب الأعمی و التقلید الساذج فسرعان ما یذعنوا لهذه المسألة و سیعلمون بأنّ المعاد أو یوم القیامة لیس أمرا ملتویا و عسیرا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱۶ الی ۱۸]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (۱۶) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (۱۷) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (۱۸)

التّفسير

كتابه جميع الأقوال:

یشار فی هذه الآیات قسم آخر من المسائل المتعلّقة بالمعاد، و هو ضبط أعمال الإنسان و إحصاؤها لتعرض علی صاحبها عند یوم الحساب.

تبدأ الآیات فتتحدّث عن علم اللّه المطلق و إحاطته بکلّ شیء فتقول: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ

کلمة «توسوس» مشتقّة من الوسوسة و هی- کما یراه الراغب فی مفرداته- الأفکار غیر المطلوبة التی تخطر بقلب الإنسان، و أصل الکلمة «الوسواس» و معناه الصوت الخفی و کذلک صوت أدوات الزینة و غیرها.

و المراد من الوسوسة فی الآیة هنا هی أنّ اللّه لمّا کان یعلم بما یخطر فی قلب الإنسان و الوساوس السابحة فی أفکاره، فمن البدیهی أنّه عالم بجمیع عقائده

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳

و أعماله و أقواله، و سوف يحاسبه عليها يوم القيامة.

و جملة وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ خالق البشر محال أن لا يعلم بجزئيات خلقه؟! الخلق الدائم و المستمر، لأنّ الفيض أو الجود منه يبلغ البشر لحظة بعد لحظة، و لو انقطع الفيض لحظة لهلكنا، كنور الشمس الذى ينتشر فى الفضاء من منبع الفيض و هو الكرة الشمسية «بل كما سنبيّن فإنّ ارتباطنا بذاته المقدّسة أسمى ممّا مثّلنا- (بنور الشمس)».

أجل، هو الخالق، و خلقه دائم و مستمر و نحن مرتبطون به فى جميع الحالات، فمع هذه الحال كيف يمكن أن لا ـ يعلم باطننا و ظاهرنا؟! و يضيف القرآن لمزيد الإيضاح فى ذيل الآية قائلا: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.

ما أبلغ هذا التعبير!! فحياتنا الجسمانية متعلّقة بعصب يوصل الدم إلى القلب و يخرجه منها بصورة منتظمة و ينقله إلى جميع أعضاء البدن، و لو توقّف هذا العمل لحظة واحدة لمات الإنسان ... فاللّه أقرب إلى الإنسان من هذا العصب المسمّى بحبل الوريد.

و هذا ما أشار إليه القرآن فى مكان آخر إذ قال: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [۱۵] و بالطبع فإنّ هذا كلّه تشبيه تقريبى، و اللّه سبحانه أقرب من ذلك و أسمى رغم كون المثال المذكور أبلغ تصوير محسوس على شدّة القرب، فمع هذه الإحاطة للّه تعالى بمخلوقاته، و كوننا فى قبضة قدرته، فإنّ تكليفنا واضح، فلا شىء يخفى عليه لا الأفعال و لا الأقوال و لا الأفكار و النيّات و لا تخفى عليه حتّى الوساوس التى تخطر فى القلوب!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة يوقظ الإنسان، و يكون على بيّنة من أمره و ما هو مذخور له فى صحيفة أعماله عند محكمة عدل اللّه .. فيتحوّل من إنسان غافل إلى موجود واع ملتزم ورع تقىّ ..

ورد فى حديث أنّ أبا حنيفة جاء إلى الصادق عليه السّلام يوما فقال: رأيت ولدك موسى يصلّى و الناس يعبرون من أمامه إلّا أنّه لم ينههم عن ذلك، مع أنّ هذا العمل غير صحيح!.

فقال الصادق عليه السّلام ادعوا لى ولدى موسى فدعى له فكرّر الإمام الصادق حديث أبى حنيفة لولده موسى بن جعفر فأجاب موسى بن جعفر قائلا: إنّ الذى كنت اصلّى له كان أقرب إلىّ منهم يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .. فاحتضنه الإمام الصادق و قال: بأبى أنت و أمّى يا مستودع الأسرار[۱۶].

و للمفسّرين آراء عديدة فى معنى «الوريد» .. فمنهم من يعتقد بأنّ «الوريد» هو العصب المتّصل بقلب الإنسان أو كبده، و يعتقد بعضهم بأنّ الوريد جميع الأعصاب فى بدن الإنسان .. فى حين أنّ بعضهم يعتقد بأنّه عصب الرقبة فحسب! إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر تناسبا، و لا سيّما إذا لا حظنا الآية ۲۴ من سورة الأنفال آنفة الذكر! و كلمة «الوريد»- ضمنا- مأخوذة من الورود، و معناه الذهاب نحو الماء، و حيث إنّ الدم- يرد من هذا العصب إلى القلب و يخرج منه إلى سائر أعضاء بدن الإنسان سمّى بالوريد.

و لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ الاصطلاح المتداول فى هذا العصر فى شأن «الوريد و الشريان»- يعنى المجارى التى توصل الدم من سائر أعضاء الجسم إلى قلب الإنسان، و بالعكس- هذا الاصطلاح خاصّ بعلم الأحياء و لا علاقة له بالمفهوم اللغوى للوريد.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵

و يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ[۱۷].

أى أنّه بالإضافة إلى إحاطة علم اللّه «التامّة» على ظاهر الإنسان و باطنه، فهنالك ملكان مأموران بحفظ ما يصدر منه عن يمينه و شماله، و هما معه دائما و لا ينفصلان عنه لتتمّ الحجّة عليه عن هذا الطريق أكثر، و لتتأكّد مسألة الحساب (حساب الأعمال).

كلمة «تلقّى» معناها الأخذ و التسلّم، و «المتلقّيان» هما ملكان مأموران بثبت أعمال الناس.

و كلمة «قعيد» مأخوذة من القعود و معناها «جالس»[۱۸] و المراد بالقعيد هنا الرقيب و الملازم للإنسان، و بتعبير آخر أنّ الآية هذه لا تعنى أنّ الملكين جالسين عن يمين الإنسان و عن شماله، لأنّ الإنسان يكون فى حال السير تارة، و اخرى فى حال الجلوس، بل التعبير

هنا هو کنایهٔ عن وجودهما مع الإنسان و هما یترصّدان أعماله.

و یحتمل أیضا أنّهما قعیدان علی کتفی الإنسان الأیمن و الأیسر، أو أنّهما قعیدان عند نابیه أو ناجذیه دائما و یسجّلان أعماله، و هناک إشارهٔ إلی هذا المعنی فی بعض الرّوایات غیر المعروفهٔ «کما فی بحار الأنوار ج ۵۹ ص ۱۸۶ رقم الرّوایهٔ ۳۲».

و ممّا یجدر التنویه علیه أنّه ورد فی الرّوایات الإسلامیهٔ أنّ ملک الیمین کاتب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶

الحسنات، و ملک الشمال کاتب السیّئات، و صاحب الیمین أمیر علی صاحب الشمال، فإذا عمل الإنسان حسنهٔ کتبها له صاحب الیمین بعشر أمثالها، و إذا عمل سیّئهٔ فأراد صاحب الشمال أن یکتبها قال له صاحب الیمین أمسک فیمسک عنه سبع ساعات، فإذا استغفر اللّه منها لم یکتب علیه شیء، و إن لم یستغفر اللّه کتب له سیّئهٔ واحدهٔ.

کما یظهر من بعض الرّوایات

أنّهما یقولان بعد موت المؤمن: ربّنا قبضت روح عبدک فإلی أین؟ قال: سمائی مملوءهٔ بملائکتی یعبدوننی و أرضی مملوءهٔ من خلقی یطیعوننی اذهبا إلی قبر عبدی فسبّحانی و کبّرانی و هلّلانی فاکتبا ذلک فی حسنات عبدی ۱۹].

و

فی روایهٔ اخری عن النّبی صلّی اللّه علیه و سلّم أنّه قال: «ما من أحد من المسلمین یبتلی ببلاء فی جسده إلّا أمر اللّه تعالی الحفظهٔ فقال: اکتبوا لعبدی ما کان یعمل و هو صحیح ما دام مشدودا فی وثاقی» ثمّ أضاف صلّی اللّه علیه و سلّم من مرض أو سافر کتب اللّه تعالی له ما کان یعمل صحیحا مقیما»[۲۰].

و هذه الرّوایات جمیعها إشارهٔ إلی لطف اللّه الواسع.

أمّا آخر آیهٔ من الآیات محلّ البحث فتتحدّث عن الملکین أیضا فتقول: ما یَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَیْهِ رَقِیبٌ عَتِیدٌ[۲۱].

و کان الکلام فی الآیهٔ الآنفهٔ عن کتابهٔ جمیع أعمال الإنسان، و فی هذه الآیهٔ اهتمام بخصوص ألفاظه، و هذا الأمر هو للأهمیّهٔ القصوی للقول و أثره فی حیاهٔ الناس، حتّی أنّ جملهٔ واحدهٔ أو عبارهٔ قصیرهٔ قد تؤدّی إلی تغییر مسیر المجتمع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷

نحو الخیر أو الشرّ!! کما أنّ بعض الناس لا یعتقدون بأنّ الکلام جزء من أعمالهم ..

و یرون أنفسهم أحرارا فی الکلام مع أنّ أکثر الأمور تأثیرا و أخطرها فی حیاهٔ الناس هو الکلام!.

فبناء علی ذلک فإن ذکر هذه الآیهٔ بعد الآیهٔ المتقدّمهٔ هو من قبیل ذکر الخاص بعد العام.

کلمهٔ «الرقیب» معناها المراقب و «العتید» معناها المتهیئ للعمل، لذلک یطلق علی الفرس المعدّهٔ للرکض بأنّها فرس عتید کما یطلق علی من یعدّ شیئا أو یدّخره بأنّه عتید، و هی من مادّهٔ العتاد علی زنهٔ الجهاد و معناها الادّخار!.

و یعتقد أغلب المفسّرین أنّ الرقیب و العتید اسمان للملکین المذکورین فی الآیهٔ المتقدّمهٔ و هما «المتلقیان» فاسم ملک الیمین «رقیب» و اسم ملک الشمال «عتید»، و بالرغم من أنّ الآیهٔ محلّ البحث لیس فیها قول صریح علی هذا الأمر، إلّا أنّ هذا التّفسیر و بملاحظهٔ مجموع الآیات یبدو غیر بعید! و لکن أیّ کلام یکتب هذان الملکان؟ هناک أقوال بین المفسّرین قال بعضهم یکتبان کلّ کلام حتّی الصرخات من الألم، فی حین أنّ بعضهم الآخر یعتقد بأنّهما یکتبان ألفاظ الخیر و الشرّ و الواجب و المستحبّ أو الحرام و المکروه، و لا یکتبان ما هو مباح! إلّا أنّ عمومیّهٔ التعبیر یدلّ علی أ الملکین یکتبان کلّ لفظ و قول یقوله الإنسان.

الطریف أنّنا نقرأ

روایهٔ عن الإمام الصادق یقول فیها: «إنّ المؤمنین إذا قعدا یتحدّثان قالت الحفظهٔ بعضها لبعض اعتزلوا بنا فلعلّ لهما سرّا و قد ستر اللّه علیهما! یقول الراوی: ألم یقل اللّه تعالی ما یَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَیْهِ رَقِیبٌ عَتِیدٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸

فیجیب الإمام علیه السّلام: إن کانت الحفظة لا تسمع فإنّ عالم السرّ یسمع و یری»[۲۲].

و یستفاد من هذه الرّوایات أنّ اللّه سبحانه یکتم بعض أحادیث المؤمن التی فیها (جانب سرّی) احتراما و إکراما له، إلّا أنّه حافظ لجمیع هذه الأسرار.

و یستفاد من بعض الرّوایات أنّ حفظة اللیل غیر حفظة النهار، کما بیّنا هذا المعنی فی تفسیر الآیة ۷۸ من سورة الإسراء من نفس هذا التّفسیر.

ملاحظة

الحبیب أقرب إلی الإنسان من نفسه!!

یقول بعض الفلاسفة: کما أنّ شدّة البعد توجب الخفاء فإنّ شدّة القرب کذلک، فمثلا لو کانت الشمس بعیدة عنّا جدّا لما رأیناها و لو کانت قریبة منّا جدّا أو اقتربنا منها کثیرا فإنّ نورها سیذهلنا إلی درجة بحیث لا نستطیع رؤیتها.

و فی الحقیقة إنّ ذات اللّه المقدّسة کذلک: «یا من هو اختفی لفرط نوره»! و فی الآیات محلّ البحث تشبیه رائع لقرب اللّه إلی العباد إذ قالت حاکیة عنه سبحانه: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ أی أنّ اللّه أقرب إلی الإنسان من حبل الورید.

و التشبیهات التی تقول مثلا العالم جمیعه جسم و اللّه روحه، أو العالم کشعاع الشمس و هو قرصها و أمثال هذه لا یمکن أن توضّح العلاقة القریبة کما وصفتها الآیة.

و لعلّ أفضل تعبیر هو ما

ورد علی لسان أمیر المؤمنین علیه السّلام فی خطبته الاولی من نهج البلاغة إذ قال عنه سبحانه: «مع کلّ شیء لا بمقارنة و غیر کلّ شیء لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹

بمزایلة».

و قد شبّه بعض الفلاسفة لبیان هذا القرب تشبیها آخر، فقالوا إنّ ذات اللّه المقدّسة هی المعنی الاسمی و الموجودات هی المعنی الحرفی.

و توضیح ذلک: حین نقول: توجّه إلی الکعبة، فإنّ کلمة (إلی) لا مفهوم لها وحدها، و ما لم تضف الکعبة إلیها فستبقی مبهمة، فعلی هذا لیس للمعنی الحرفی مفهوم إلّا تبعا للمفهوم الاسمی، فوجود جمیع موجودات العالم علی هذه الشاکلة، إذ دون ارتباطها بذاته لا مفهوم لها و لا وجود و لا بقاء لها أصلا .. و هذا یدلّ علی نهایة قرب اللّه إلی العباد و قربهم إلیه و إن کان الجهلة غافلین عن ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰

الآیات [سورة ق (۵۰): الآیات ۱۹ الی ۲۲]

اشارة

وَ جاءَتْ سَکْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِکَ ما کُنْتَ مِنْهُ تَحِیدُ (۱۹) وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ ذلِکَ یَوْمُ الْوَعِیدِ (۲۰) وَ جاءَتْ کُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ

شَهِیدٌ (۲۱) لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَکَشَفْنا عَنْکَ غِطاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ (۲۲)

التّفسیر

القیامة– و البصر الحدید–

تعکس الآیات أعلاه مسائل اخری تتعلّق بیوم المعاد: «مشـهد الموت» و «النفخ فی الصور» و «مشـهد الحضور فی المحشر»! فتقول أوّلا: وَ جاءَتْ سَکْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ

سکرة الموت: هی حال تشبه حالة الثمل السکران إذ تظهر علی الإنسان بصورة الاضـطراب و الانقلاب و التبدّل، و ربّما استولت هذه الحالة علی عقل الإنسان و سلبت شعوره و إختیاره.

و کیف لا تکون کذلک مع أنّ الموت مرحلة انتقالیة مهمّة ینبغی أن یقطع الإنسان فیها جمیع علائقه بالدنیا التی تعلّق بها خلال سـنین طویلة، و أن یخطو فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱

عالم جدید علیه ملیء بالأسرار، خاصّة أنّ الإنسان– لحظة الموت– یکون عنده إدراک جدید و بصر حدید– فهو یلاحظ عدم استقرار هـذا العـالم بعینیه و یری الحوادث الـتی بعـد الموت، و هنـا تتملّکه حالـة الرعب و الاستیحـاش من قرنه إلی قـدمه فتراه سـکرا و لیس بسکر[۲۳].

حتّی الأنبیاء و أولیاء اللّه الـذین یواجهون حالـة النزع و الموت باطمئنان کامل ینالهم من شدائـد هـذه الحالة نصـیب، و یصابون ببعض العقبات فی حالة الانتقال، کما قد ورد فی حالات انتقال روح النّبی الأکرم صـلّی اللّه علیه و سـلّم إلی بارئها عند اللحظات الأخیرة من عمره الشـریف المبارک أنّه کان یـدخل یـده فی إناء فیه ماء و یضـعها علی وجهه و یقول: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ثمّ یقول: إن للموت سـکرات [۲۴].

و للإمام علی کلام بلیغ یرسم لحظة الموت و سکراتها بعبارات حیّة بلیغة إذ

یقول: «اجتمعت علیهم سـکرت الموت و حسـرت الفوت ففترت لهـا أطرافهم و تغیّرت لها ألوانهم ثمّ إزداد الموت فیهم و لوجا فحیل بین أحـدهم و منطقه و انّه لبیّن أهله ینظر ببصـره و یسـمع بـاذنه علی صـحّة من عقله و بقاء من لبّه یفکّر فیم أفنی عمره؟ و فیم أذهب دهره؟ و یتذکّر أموالا جمعها أغمض فی مطالبها و أخذها من مصرحاتها و مشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها و أشرف علی فراقها تبقی لمن وراءه ینعمون فیها و یتمتّعون بها»[۲۵].

کما أنّ هذا المعلّم الکبیر ینذر فی مکان آخر البشریة فیقول:

«إنّکم لو عـاینتم ما قـد عاین من مات منکم لجزعتم و وهلتم و سـمعتم و أطعتم و لکن محجوب عنکم ما قـد عاینوا و قریب ما یطرح الحجاب»[۲۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲

ثمّ یضیف القرآن فی ذیل الآیة قائلا: ذلِکَ ما کُنْتَ مِنْهُ تَحِیدُ[۲۷] أجل إنّ الموت حقیقة یهرب منها أغلب الناس لأنّهم یحسبونه فناء لاـ نافـذة إلی عـالم البقـاء، أو أنّهم لعلائقهم و ارتباطاتهم الشدیـدة بالـدنیا و المواهب المادیـة التی لهم فیها لا یسـتطیعون أن یصـرفوا قلوبهم عنها، أو لسواد صحیفة أعمالهم.

أیّا کـان فهم منه یهربون .. و لکن مـا ینفعهم و مصـیرهم المحتوم فی انتظـار الجمیع و لاـ مفرّ لأحـد منه، و لا بـدّ أن ینزلوا إلی حفرة

الموت و يقال لهم هذا ما كنتم منه تفرّون!!.

و قائل هذا الكلام ربّما هو اللّه أو الملائكة أو الضمائر اليقظة أو الجميع!.

و القرآن بيّن هذه الحقيقة في آيات أخر كما هو في الآية (٧٨) من سورة النساء إذ يقول: أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ!.

و قد ينسى الإنسان المغرور جميع الحقائق التي يراها بامّ عينيه على أثر حبّ الدنيا و حبّ الذات حتّى يبلغ درجة يقسم فيها أنّه خالد كما يقول القرآن في هذا الصدد: أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ

و لكن سواء أقسم أم لم يقسم، و صدّق أم لم يصدّق فإنّ الموت حقيقة تحدق بالجميع و تحيق بهم و لا مفرّ لهم منها.

ثمّ يتحدّث القرآن عن النفخ في الصور فيقول: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ.

و المراد من «النفخ في الصور» هنا هو النفخة الثانية، لأنّه كما نوّهنا آنفا فإنّ الصور ينفخ فيه مرّتين: فالنفخة الاولى تدعى بنفخة الفزع أو الصعق و هي التي تكون في نهاية الدنيا و يموت عند سماعها جميع الخلق و يتلاشى نظام العالم الدنيوي، و النفخة الثانية هي نفخة «القيام و الجمع و الحضور» و تكون في بداية

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ٣٣

البعث و النشور و القيامة و بها يحيى الناس جميعهم و يخرجون «و ينسلون» من الأجداث و القبور إلى ربّهم و حساب «عدله» و جزائه.

«النفخ» معناه معروف، و «النفخة» بمعنى المرّة منه، و «الصور» هو المزمار أو «البوق» و الذي يستعمل في القضايا العسكرية عادة لجمع الجنود أو تفريقهم أو الاستعداد أو الذهاب للراحة و النوم، و استعماله في صور إسرافيل نوع من الكناية و التشبيه «و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع في ذيل الآية ٦٨ من سورة الزمر».

و على كلّ حال، فمع الالتفات و ملاحظة جملة «ذلك يوم الوعيد» يتّضح أنّ المراد من نفخة الصور هنا هو النفخة الثانية و يوم النشور و القيامة.

و في الآية التالية بيان لحال الناس يوم المحشر بهذه الصورة: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

فالسائق يسوقه نحو محكمة عدل اللّه، و الشهيد يشهد على أعماله! و هي كمحاكم هذا العالم إذ يسوق المأمورون المتّهمين و يأتون معهم للمحكمة و يشهد عليهم الشهود.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ السائق هو من يسوق الصالحين نحو الجنّة و الصالحين نحو جهنّم، و لكن مع ملاحظة كلمة «الشهيد» معها يكون المعنى الأوّل و هو السوق نحو محكمة عدل اللّه أنسب.

و لكن من هما السائق و الشهيد؟ أ هما «ملكان» من الملائكة أو سواهما، هناك تفاسير متعدّدة.

قال بعضهم: إنّ «السائق» هو الملك الذي يكتب الحسنات، و «الشهيد» هو الملك الذي يكتب السيّئات، فيكون المراد بهما الملكين الوارد ذكرهما في الآيات المتقدّمة.

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ «السائق» ملك الموت و «الشهيد» رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لكن هذه الرّواية مع ملاحظة لحن الآيات تبدو ضعيفة.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ٣٤

و قال بعضهم: «السائق» الملك الذي يسوق كلّ إنسان و «الشهيد» عمل الإنسان.

كما قيل أنّ «السائق» ملك و «الشهيد» أعضاء جسم الإنسان أو صحيفة أعماله أو الكتاب الذي في عنقه.

و يحتمل أنّ السائق و الشهيد ملك واحد، و عطف اللفظين بعضهما على الآخر هو لاختلاف الوصفين، أي أنّ مع الإنسان ملكا يسوقه إلى محكمة عدل اللّه و يشهد عليه أيضا.

إلّا أنّ أغلب هذه التفاسير مخالف لظاهر الآية، و ظاهر الآية كما فهم منه أغلب المفسّرين أنّ ملكين يأتيان مع كلّ إنسان، فواحد يسوقه و الآخر يشهد على أعماله.

و من الواضح أنّ شهادة بعض الملائكة لا تنفى وجود شهادة اخرى لبعض الشهود فى يوم القيامة، الشهود الذين هم من قبيل الأنبياء و أعضاء البدن، و صحائف الأعمال و الزمان و المكان الذين وقع عمل الإنسان فيهما أو أثم فيهما.

و على كلّ حال فالملك الأوّل يمنع الإنسان عن الفرار، و الملك الثانى يمنع عن الإنكار، و هكذا فإنّ كلّ إنسان فى ذلك اليوم مبتلى بأعماله و لا مفرّ له من جزاء أعماله أبدا.

و هنا يخاطب المجرمون أو جميع الناس (فردا فردا) فيقال: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.

أجل، إنّ أستار عالم المادّة من الآمال و العلاقة بالدنيا و الأولاد و المرأة و الأنانية و الغرور و العصبية و الجهل و العناد و حبّ الذات لم تكن تسمح أن تنظر إلى هذا اليوم مع وضوح دلائل المعاد و النشور، فهذا اليوم ينفض عنك غبار الغفلة، و تماط عنك حجب الجهل و التعصّب و اللجاجة، و تنشقّ أستار الشهوات و الآمال، و ما كان مستورا وراء حجاب الغيب يبدو ظاهرا اليوم، لأنّ هذا اليوم يوم البروز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵

و يوم الشهود و يوم تبلى السرائر! و لذلك فقد وجدت عينا حادّة البصر و يمكن أن تدرك جميع الحقائق بصورة جيّدة.

أجل، إنّ وجه الحقيقة لم يكن مخفيا و لا لثام على جمال الحبيب، و لكن ينبغى أن ينفض غبار الطريق ليمكن رؤيته.

إلّا أنّ الغرق فى بحر الطبيعة و الابتلاء بأنواع الحجب لا يسمحان للإنسان أن يرى الحقائق بصورة واضحة، لكنّه فى يوم القيامة حيث تنقطع كلّ هذه العلائق فمن البديهى أن يحصل للإنسان إدراك جديد و نظرة ثاقبة، و أساسا فإنّ يوم القيامة يوم الظهور و بروز الحقائق! حتّى فى هذه الدنيا استطاع البعض تخليص أنفسهم من قبضة الأهواء و اتّباع الشهوات و أن يلقوا الحجب عن عيون قلوبهم لرزقوا بصرا حديدا يرون به الحقائق، أمّا أبناء الدنيا فمحرومين منه.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الحديد نوع من المعدن كما يطلق على السيف و المدية، ثمّ توسّعوا فيه فأطلقوه على حدّة البصر و حدّة الذكاء، و من هنا يظهر أنّ المراد بالبصر ليس العين الحقيقية الظاهرة، بل بصر العقل و القلب.

يقول الإمام على عليه السّلام فى أولياء اللّه فى أرضه: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، و باشروا روح اليقين و استلانوا ما استعوره المترفون و أنسوا بما استوحش منه الجاهلون و صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء اللّه فى أرضه و الدعاة إلى دينه»[۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶

بحوث

۱- حقيقة الموت

يتصوّر أغلب الناس أنّ الموت أمر عدمى و معناه الفناء، إلّا أنّ هذه النظرة لا تنسجم مع ما ورد فى القرآن المجيد و ما تدلّ عليه الدلائل العقلية و لا توافقها أبدا.

فالموت فى نظر القرآن أمر وجودى، و هو انتقال و عبور من عالم إلى آخر، و لذلك عبّر عن الموت فى كثير من الآيات ب «توفّى» و يعنى تسلّم الروح و استعادتها من الجسد بواسطة الملائكة.

و التعبير فى الآيات المتقدّمة وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ هو إشارة إلى هذا المعنى ۲۹] أيضا، و قد جاء فى بعض الآيات التعبير عن الموت بالخلق: الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ (الملك- ۲).

و هناك تعبيرات متعدّدة عن حقيقة الموت فى الرّوايات الإسلامية،

ففى رواية أنّ الإمام على بن الحسين سئل: ما الموت؟ فقال: عليه السّلام: «للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة و فكّ قيود و أغلال ثقيلة و الاستبدال بأفخر ثياب و أطيبها روائح و أوطئ المراكب و آنس المنازل و للكافر كخلع ثياب فاخرة و النقل عن منازل أنيسة و الاستبدال بأوسخ الثياب و أخشنها و أوحش المنازل و أعظم العذاب».

و

سئل الإمام محمّد بن علىّ عليه السّلام السؤال الآنف ذاته فقال: «هو النوم الذى يأتيكم كلّ ليلة إلّا أنّه طويل مدّته لا ينتبه منه إلّا يوم القيامة»[۳۰].

و قد قلنا فى المباحث المتعلّقة بالبرزخ أنّ حالات الأشخاص متفاوتة فى البرزخ، فبعضهم كأنّهم يغطّون فى نوم عميق، و بعضهم «كالشهداء فى سبيل اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷

و المؤمنين الراسخين» ينعّمون بأنواع النعم بينما يعذّب الأشقياء و الجبابرة بعذاب اللّه الأليم! و قد بيّن الإمام الحسين عليه السّلام لأصحابه حقيقة الموت يوم عاشوراء عند اشتداد المأزق و القتال بتعبير لطيف بليغ

فقال: «صبرا بنى الكرام، فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس و الضرّاء إلى الجنان الواسعة، و النعم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر و ما هو لأعدائكم إلّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن و عذاب إنّ أبى حدّثنى عن رسول اللّه إنّ الدنيا سجن المؤمن و جنّة الكافر و الموت جسر هؤلاء إلى جنانهم و جسر هؤلاء إلى جحيمهم»[۳۱].

و نقرأ

فى حديث آخر أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام دخل على رجل يعانى سكرات الموت و لم يكلّم أحدا، فسأل الحاضرون الإمام موسى بن جعفر: يا بن رسول اللّه وددنا لو عرفنا كيف الموت و كيف هو حال صاحبنا؟

فقال عليه السّلام: «الموت هو المصفاة يصفّى المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم كفّارة آخر وزر بقى عليهم و يصفّى الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذّة أو راحة تلحقهم و هو آخر ثواب حسنة تكون لهم، و أمّا صاحبكم هذا فقد نخل من الذنوب نخلا و صفّى من الآثام تصفية و خلص حتّى نقى كما ينقّى الثوب من الوسخ و صلح لمعاشرتنا أهل البيت فى دارنا دار الأبد»[۳۲].

۲- سكرات الموت

كان الكلام فى الآيات الآنفة على سكرات الموت، و قلنا أنّ «السكرات» جمع سكرة، و معناها الحالة التى تشبه حالة الثمل على أثر اشتداد حالة الإنسان اضطرب منها فيرى سكرا و ليس بسكر! صحيح أنّ الموت هو للمؤمنين بداية انتقال إلى عالم أوسع ملىء بمواهب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸

اللّه، إلّا أنّه مع ذلك فإنّ هذه الحالة الانتقالية ليست سهلة لأى إنسان، لأنّ روحه تطبّعت مع البدن سنين طوالا و ارتبطت به.

و لذلك فإنّه حين يسأل الإمام الصادق عليه السّلام عن سبب اضطراب الجسد حين خروج الروح منه يجيب:

لأنّه نما عليها البدن ۳۳].

و هذا يشبه تماما حالة قلع السنّ الفاسد من اللثّة، فإنّه عند قلعه يحسّ الإنسان بالألم إلّا أنّه يشعر بالراحة بعدئذ.

و نقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الإنسان يستوحش من ثلاثة أيّام، يوم يولد فيه فيرى هذا العالم الذي لم يعرفه، و يوم يموت و يرى عالم ما بعد الموت، و يوم القرآن يقول في شأن يحيى بن زكريا: وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا[۳۴] .. و يحكي على لسان عيسى بن مريم مثل هذا الكلام، فهذان النبيّان مشمولان بعناية اللّه في هذه الأيّام الثلاثة!.

و بالطبع فإنّه من المسلّم به أنّ المرتبطين بهذه الدنيا يكون انتقالهم منها أصعب و قطع القلوب منها أشدّ، كما أنّ الآثمين و أصحاب الذنوب تكون عليهم سكرات الموت أكثر ألما و مرارة!.

۳- الموت حقّ

ليست الآيات محلّ البحث وحدها تتحدّث عن الموت بأنّه حقّ، بل هناك آيات كثيرة في القرآن تصرّح بأنّ الموت حقّ و يقين، إذ نقرأ في الآية (۹۹) من

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹

سورة الحجر وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ و في الآية (۴۷) من سورة المدثر نقرأ ما يشبه هذا التعبير أيضا.

كلّ ذلك لأنّ الإنسان إذا أنكر كلّ شيء فليس بوسعه أن ينكر أنّ الموت حقّ و أنّه لا بدّ أن يطرق بابه، فالموت يطرق أبواب الجميع و يأخذهم معه أخيرا.

و الالتفات- إلى حقيقة الموت- يعدّ إنذارا لجميع الناس ليفكّروا أكثر و أحسن و يعرفوا طريقهم المقدمين عليه و ما هو أمامهم و يستعدّوا له! الطريف أنّنا نقرأ

في بعض الرّوايات أنّ رجلا جاء إلى عمر فقال: إنّي أحبّ الفتنة و أكره الحقّ و أشهد على ما لم أره، فأمر عمر به فحبس، فبلغ ذلك عليا عليه السّلام فقال: يا عمر إنّ حبسه ظلم و قد أثمت على ذلك. فقال: و لم؟ فقال علي: إنّه- يحبّ أمواله و أولاده

و قد قال اللّه عنهما في بعض آياته أنّهما فتنة إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ[۳۵] و يكره الموت و القرآن يعبّر عنه بأنّه حقّ وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ ۳۶] و يشهد بوحدانية اللّه و هو لم يره. فقال عمر: لو لا علي لهلك عمر[۳۷].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۲۳ الى ۳۰]

اشارة

وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (۲۳) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (۲۴) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (۲۵) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (۲۶) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (۲۷)

قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (۲۸) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۲۹) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (۳۰)

التّفسير

قرناء الإنسان من الملائكة و الشياطين:

مرّة اخرى ترتسم فى هذه الآيات صورة اخرى عن المعاد، صورة مثيرة مذهلة حيث أنّ الملك- قرين الإنسان- يبيّن محكومية الإنسان بين الملأ و يصدر حكم اللّه لمعاقبته و جزائه.

تقول الآية الاولى من هذه الآيات: يقول صاحبه و قرينه هذا كتاب أعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱

هذا الإنسان حاضر لدىّ: وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ فيكشف الستار عن كلّ صغيرة و كبيرة صدرت منه.

و لكن ما المراد من «قرينه»؟ للمفسّرين أقوال كثيرة، إلّا أنّ أغلبهم يرى أنّ المراد منه هو الملك الذى يرافق الإنسان فى الدنيا و الذى كان مأمورا بتسجيل أعماله و ضبطها ليشهد عليه هناك فى محكمة عدل اللّه.

و الآيات السابقة التى كانت تشير إلى أنّ من يرد عرصات المحشر فإنّ معه سائقا يسوقه و شهيدا يشهد عليه، تدلّ على هذا المعنى أيضا. زد على ذلك لحن الآية نفسها و الآية التى تليها تتناسبان مع هذا المعنى أيضا [فلاحظوا بدقّة].

إلّا أنّ بعض المفسّرين ذكر أنّ المراد من قرينه هو «الشيطان»، لأنّ كلمة «قرين» أطلقت فى كثير من آيات القرآن على الشيطان الذى يصطحب الإنسان ...

فيكون معنى الآية على هذا التقدير هكذا: «و قال الشيطان قرين الإنسان: «إنّنى أعددت هذا المجرم لجهنّم و بذلت أقصى ما فى وسعى من جهد فى هذا السبيل».

إلّا أنّ هذا المعنى لا أنّه لا يتناسب مع الآيات السابقة و اللاحقة فحسب، بل لا ينسجم مع تبرئة الشيطان نفسه من إغوائه الإنسان على الذنب كما تصرّح بذلك الآية الواردة بعد عدّة آيات من هذه الآية محلّ البحث.

فطبقا لهذا التّفسير للآية فإنّ الشيطان يعترف بمسؤوليته فى إغواء الإنسان، و الحال أنّ الآيات المقبلة نقرأ فيها قوله: قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ فيقع التضادّ بين القولين كما تلاحظون.

و هناك تفسير ثالث و هو أبعد ممّا ذكر آنفا و لا قرينة عليه أبدا، و هو أنّ المراد من «قرينه» هو من رافق الإنسان فى حياته من البشر!!

ثمّ يخاطب اللّه الملكين المأمورين بتسجيل أعمال الإنسان فيقول لهما:

أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ.

كلمة «عنيد» مشتقّة من العناد، و معناها التكبّر و حبّ الذات و عدم الخضوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲

للحقّ! و من هم المخاطبين هنا؟ هناك تفاسير متعدّدة أيضا، فمنهم من اختار التّفسير آنف الذكر، و منهم من قال بأنّهما خازنا النيران.

و قال بعضهم- أيضا- من المحتمل أن يكون المخاطب واحدا فحسب، و هو الشاهد الذى يرد عرصة القيامة مع المجرم، و صرّحت به الآيات آنفة الذكر، و تثنية الفعل هو من أجل التأكيد، فكأنّه يؤكّد مرتين: «الق، الق» و استعمال التثنية فى خطاب المفرد وارد فى لغة العرب، إلّا أنّ هذا التّفسير بعيد جدّا. و خير التفاسير و أنسبها هو التّفسير الأوّل.

و فى الآية التالية إشارة إلى بعض الأوصاف التى يتّصف بها هؤلاء الكفّار- الذميمة المنحطّة إذ تقول الآية: مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ

«المنّاع» بحكم كونه صيغة مبالغة فإنّه يطلق على الشخص الذى يمنع كثيرا من الأمور، فيكون التعبير ب «منّاع للخير» يقصد به من يمنع كلّ عمل صالح فيه خير و بأيّة صورة كانت.

و قد ورد فى بعض الرّوايات أنّ الآية نزلت فى «الوليد بن المغيرة» حيث أنّه كان يمنع أبناء أخيه عن الإسلام و يقول لهم: طالما كنت حيّا فلن أعينكم فى حياتكم ۳۸].

و كلمة «معتد» معناها المتجاوز على الحدود، سواء أ كان متجاوزا لحقوق الآخرين أو لحدود اللّه و أحكامه! و كلمة «مريب» مشتقّة من الريب، و تعنى من هو فى شكّ، الشكّ المقرون بسوء الظنّ، أو من يخدع الآخرين فيجعلهم بما يقول أو يعمل فى شكّ من

أمرهم ..

فیضلّوا عن سواء السبیل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳

ثمّ تضیف الآیة التالیة لتذکر وصفا ذمیما لمن کان من طائفة الکفّار فتقول:

الَّذِی جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.

أجل: فَأَلْقِیاهُ فِی الْعَذابِ الشَّدِیدِ.

و فی هذه الآیات بیان ستّة أوصاف لأهل النار، فالأوصاف الخمسة المتقدّمة بعضها لبعض بمثابة العلّة و المعلول، أمّا الوصف السادس فإیضاح للجذر الأصیل لهذه الأوصاف.

لأنّ معنی الکفّار هو من أصرّ علی کفره کثیرا، و ینتهی هذا الأمر إلی العناد.

و المعاند أو العنید یصرّ علی منع الخیر أیضا، و مثل هذا الشخص بالطبع یکون معتدیا متجاوزا علی حقوق الآخرین و حدود اللّه.

و المعتدون یصرّون علی إیقاع الآخرین فی الشّک و الریب و سلب الإیمان عنهم.

و هکذا تبیّن أنّ هذه الأوصاف الخمسة أی «الکفّار و العنید و المنّاع للخیر و المعتدی و المریب» یرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثیقا، و بعضها لبعض یشکّل علاقة اللازم بالملزوم.

و فی الوصف السادس أی الَّذِی جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ یکمن الجذر الأصیل و الأساس لجمیع الانحرافات الآنف ذکرها، و المراد من هذا الوصف هو الشرک، لأنّ التدقیق فیه یکشف أنّ الشرک هو الباعث علی جمیع هذه الأمور المتقدّمة! و فی الآیة التالیة یکشف الستار عن مشهد آخر و صورة اخری ممّا یجری علی هؤلاء الکفّار و عاقبتهم، و هو المجادلة بینهم و بین الشیطان الغویّ فی یوم القیامة، فکلّ من الکفّار یلقی التبعات علی الشیاطین، إلّا أنّ قرینه «الشیطان» یردّ علیه و یقول کما یحکی عنه القرآن: قالَ قَرِینُهُ رَبَّنا ما أَطْغَیْتُهُ وَ لکِنْ کانَ فِی ضَلالٍ بَعِیدٍ. فلم أجبره علی سلوک طریق الغوایة و الضلالة، بل هو الذی سلکه باختیاره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴

و إرادته و اختار هذا الطریق.

و هذا التعبیر یشبه ما ورد فی سورة إبراهیم الآیة (۲۲) إذ یتبرّأ الشیطان من أتباعه فیقول: ... وَ ما کانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی فَلا تَلُومُونِی وَ لُومُوا أَنْفُسَکُمْ ! و بالطبع فإنّ الشیطان لا یرید أن ینکر أثره فی إغواء الإنسان إنکارا کلیّا، بل یرید أن یثبت أنّه لم یجبر أحدا علی إغوائه، بل الإنسان بمحض استجابته و رغبته قبل وساوس الشیطان، فعلی هذا الأساس لا تضادّ بین هذه الآیة و الآیة (۸۲) من سورة (ص): لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ

و بالرغم من أنّ هذه الآیات تتحدّث عن دفاع الشیطان عن نفسه فحسب، و لا یظهر فیها کلام علی اعتراض الکفّار و ردّهم علی الشیطان، إلّا أنّه و بقرینة سائر الآیات التی تتحدّث عن مخاصمتهم فی یوم القیامة و بقرینة الآیة التالیة یتّضح جدال الطرفین إجمالا، لأنّها تقول حاکیة عن ربّ العزّة: قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَیَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَیْکُمْ بِالْوَعِیدِ و أخبرتکم عن هذا المصیر.

إشارة إلی قوله تعالی للشیطان من جهة: اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُکُمْ جَزاءً مَوْفُوراً[۳۹].

و من جهة اخری فقد أنذر سبحانه من تبعه من الناس لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ [۴۰] و هذا التهدید و الوعید واردة فی سائر آیات القرآن، و هی حاکیة جمیعا عن أنّ اللّه أتمّ الحجّة علی الشیاطین و الإنس کلّهم .. و حذّر کلا الفریقین من الإغواء و الغوایة و الإضلال و الضلال.

و لمزید التأکید تقول الآیة التالیة حاکیة عن لسان ربّ العزّة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵

ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[۴۱].

و المراد من «القول» هنا هو التهديد أو الوعيد الذى أشار إليه اللّه سبحانه مرارا فى آيات متعدّدة و ذكرنا آنفا أمثلة منها.

و التعبير ب «ظلّام» و هو صيغة مبالغة معناه كثير الظلم، مع أنّ اللّه لا يصدر منه أقل ظلم، و لعلّ هذا التعبير هو إيذان بأنّ مقام عدل اللّه و علمه فى درجة بحيث لو صدر منه أصغر ظلم لكان يعدّ كبيرا جدّا و لكان مصداقا للظلّام، فعلى هذا فإنّ اللّه بعيد عن أى أنواع الظلم.

أو أنّ هذا التعبير ناظر إلى الأفراد و المصاديق، إذ لو نال عبدا ظلم من اللّه فهناك نظراء لهذا العبد، و فى المجموع يكون الظلم كثيرا.

و على كلّ حال، فإنّ هذا التعبير دليل على أنّ العباد مخيّرون و لديهم الحريّة «فى الإرادة» فلا الشيطان مجبور على شيطنته و عمله، و لا الكفّار مجبورون على الكفر و أتباع طريق الشيطان، و لا العاقبة و المصير القطعى الخارج عن الإرادة قد تقرّرا لأحد أبدا.

و هنا ينقدح هذا السؤال! و هو:

كيف يقول سبحانه ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَ مع أنّ جماعة من العباد يشملهم عفوه و غفرانه؟

و الجواب على هذا السؤال: أنّ العفو أيضا وفقا لمنهج دقيق و فرع على عمل أدّاه الإنسان بحيث أنّه على رغم جرمه فهو جدير بالعفو، و هذا بنفسه أحد السنن الإلهيّة، و هو أنّ من يستحقّ العفو يشمله عفوه، و هذا أيضا لا يتغيّر.

و فى آخر آية من الآيات محلّ البحث إشارة إلى جانب قصير و مثير من مشاهد يوم القيامة إذ تقول الآية: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶

[۴۲].

و المراد من هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ما هو؟ هناك تفسيران:

الأوّل: أنّه استفهام إنكارى، أى أنّ جهنّم تقول لا مجال للزيادة، و بهذا فينسجم هذا المعنى مع الآية ۱۳ من سورة السجدة: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ و هو تأكيد على أنّ تهديد اللّه يتحقّق فى ذلك اليوم تماما و أنّ جهنّم تمتلئ فى يوم القيامة من الكفّار و المجرمين.

و الثّانى: إنّ هذه الجملة فيها طلب للزيادة! أى هل يوجد غير هؤلاء ليدخلوا النار، و أساسا فإنّ طبيعة كلّ شىء أن يبحث عن سنخه دائما، فلا النار تشبع من الكفّار و لا الجنّة تشبع من المؤمنين الصالحين.

إلّا أنّ هذا السؤال سيبقى بلا- جواب، و هو أنّ مفهوم هذا الطلب أنّ جهنّم ما تزال غير ممتلئة، فلا- تنسجم مع الآية ۱۳ من سورة السجدة آنفة الذكر التى تقول:

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

و لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ طلب المزيد لا يدلّ على عدم الامتلاء لأنّه:

أوّلا: قد يكون إناء مليء بالطعام مثلا، إلّا أنّ شخصا ما يزال يتمنّى أن لو أضيف إليه فيكون متراكما أكثر! ثانيا: هذا الطلب يمكن أن يكون طلبا لتضييق المكان على أهل جهنّم و عقابهم الأليم أو تمنّى السعة لاستيعاب أنفار آخرين أكثر.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآية تدلّ دلالة واضحة أنّ أهل جهنّم كثيرون، و أنّ صورة جهنّم مرعبة و موحشة و أنّ تهديد اللّه جدّى و حقّ يربك الفكر فى كلّ إنسان فيهزّه و يحذّره ألّا يكون واحدا من أهلها! و هذا التفكير يمكن أن يصيّره ورعا ملتزما فلا يقدم على الذنوب الكبيرة و الصغيرة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷

و ينقدح سؤال آخر، و هو كيف تخاطب النار و هى موجود غير عاقل فتردّ و تجيب على الخطاب! و لهذا السؤال توجد إجابات ثلاث:

الاولی: إنّ هـذا التعبیر نوع من التشبیه و بیان لسان الحال! أی أنّ اللّه یسأل بلسان التکوین جهنّم و هی تجیب بلسان الحال، و نظیر هذا التعبیر کثیر فی اللغات المختلفـة! الثّانیـة: إنّ الـدار الآخرة دار حیاة واقعیـة، فحتّی الموجودات المادیة کالجنّة و النار یکون لها نوع من الإدراک، و الحیاة و الشعور، فالجنّة تشتاق إلی المؤمنین، و جهنّم تنتظر المجرمین.

و کمـا أنّ أعضـاء جسم الإنسـان تنطق فی ذلک الیوم و تشـهد علی الإنسان، فلا عجب أن تکون الجنّـة و النار کـذلک! بل و حسـب إعتقاد بعض المفسّـرین إنّ ذرّات هـذا العالم جمیعها لها إدراک و إحساس خاصّ، و لـذلک فهی تسبّح اللّه و تحمـده، و قد أشارت إلیه بعض آیات القرآن کالآیة (۴۴) من سورة الإسراء[۴۳].

و الثّالثة: إنّ المخاطبین هم خزنة النار و هم الذین یردون علی هذا السؤال.

و جمیع هذه التفاسیر یمکن قبولها، إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أنسب کما یبدو!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸

الآیات [سورة ق (۵۰): الآیات ۳۱ الی ۳۷]

اشارة

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِینَ غَیْرَ بَعِیـدٍ (۳۱) هـذا ما تُوعَـدُونَ لِکُلِّ أَوَّابٍ حَفِیظٍ (۳۲) مَنْ خَشِیَ الرَّحْمنَ بِـالْغَیْبِ وَ جـاءَ بِقَلْبٍ مُنِیبٍ (۳۳) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِکَ یَوْمُ الْخُلُودِ (۳۴) لَهُمْ ما یَشاؤُنَ فِیها وَ لَدَیْنا مَزِیدٌ (۳۵)

وَ کَمْ أَهْلَکْنـا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَـدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِی الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِیصٍ (۳۶) إِنَّ فِی ذلِکَ لَـذِکْری لِمَنْ کانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَی السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِیدٌ (۳۷)

التّفسیر

ادخلوا الجنّة .. أیّها المتّقون!

مع الالتفات إلی أنّ أبحاث هـذه السورة یـدور أغلبها حول محور المعاد و الأمور التی تتعلّق به، و مع ملاحظـة أنّ الآیات آنفـة الـذکر تتحـدّث عن کیفیـة إلقاء الکفّار المعانـدین فی نار جهنّم و ما یلاقونه من عـذاب شدید و بیان صـفاتهم التی جرّتهم و ساقتهم إلی نار جهنّم! ففی هـذه الآیات محلّ البحث تصویر لمشـهد آخر، و هو دخول المتّقین الجنّة بمنتهی التکریم و التجلّة و إشارة إلی أنواع النعم فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹

الجنّة، کما أنّ هذه الآیات تبیّن صفات أهل الجنّة لتتّضح الحقائق أکثر بهذه المقارنة ما بین أهل النار و أهل الجنّة.

فتبدأ الآیات بالقول: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِینَ غَیْرَ بَعِیدٍ.

«أزلفت»: من مادّة زلفی- علی زنة کبری- و معناها القرب، أی قرّبت.

و الطریف هنـا أنّ القرآن لاـ یقول: و قرّب المتّقین إلی الجنّة، بـل یقول و أزلفت أی و قرّبت الجنّة للمتّقین، و هـذا أمر لاـ یمکن أن یتصوّر تبعـا للظروف الدنیویـة و شـروطها، و لکن حیث إنّ الأـصول الحاکمـة علی العالم الآخر تختلف اختلافا بالغا عمّا هی فی هـذه الدنیا، فلا ینبغی التعجّب إطلاقا أن یقرّب اللّه الجنّة للمتّقین بمنتهی التکریم بدلا من أن یذهبوا هم إلیها.

کما أنّنا نقرأ فی الآیتین (۹۰) و (۹۱) من سورة الشعراء: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِینَ وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِلْغاوِینَ

و هذا منتهى اللطف الإلهى لعباده المؤمنين حيث لا يتصوّر فوقه لطف آخر!.

و التعبير ب غَيْرَ بَعِيدٍ[۴۴] تأكيد على هذا المعنى أيضا.

و على كلّ حال، فمفهوم الآيـة أنّ هـذه القضـيّة تقع فى القيامة رغم أنه عبّر عنها بالماضـى «أزلفت» لكن الحوادث المستقبلية القطعية كثيرا ما يعبّر عنها بالماضى- لأنّ وقوعها سيتحقّق حتما-.

و قيل: إنّ إزلاف الجنّة للمتّقين يتحقّق فى الـدنيا، لأنّه لا يفصـلهم شـىء عن الجنّة و التعبير بالماضـى يراد به الماضـى حقيقـة. و عند الموت سيجدون أنفسهم فى الجنّة. لكن مع ملاحظة الآيات السابقة و اللاحقة التى تتحدّث عن مشاهد القيامة يبدو أنّ هذا المعنى بعيد، و المناسب هو التّفسير الأوّل.

ثمّ تبيّن الآيات أوصاف أهل الجنّة فتقول: هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰

و قد أشير فى هذه الآية إلى وصفين من أوصافهم و هما «أوّاب» .. «و حفيظ».

و كلمة «الأوّاب»: من مادّة [أوب – على زنة ذوب- و معناها العودة، و لعلّها تعنى التوبة عن الذنوب الكبيرة و الصغيرة.

أو أنّها تعنى العودة إلى الطاعـة، و مع ملاحظـة أنّ هـذه الصـيغة هى للمبالغـة فإنّها تدلّ على أنّ أهل الجنّة رجال متّقون بحيث إنّ أىّ عامـل أو مؤثّر أراد أن يبعـدهم عن طاعـة اللّه فهم يلتفتون و يتـذكّرون فيرجعون إلى طاعته فورا، و يتوبون عن معاصيهم و غفلاتهم ليبلغوا مقام «النفس المطمئنة».

«الحفيظ» معناه الحافظ، فما المراد منه؟ هل هو الحافظ لعهـد اللّه إذ أخـذه من بنى آدم ألّا يعبدوا الشيطان كما ورد فى الآية (۶۰) من سورة يس، أم هو الحافظ لحدود اللّه و قوانينه أو الحافظ لذنوبه و المتذكّر لها ممّا يستلزم التوبة و الجبران، أو يعنى جميع ما تقدّم من احتمالات؟

و مع ملاحظة أنّ هذا الحكم ورد بصورة مطلقة، فإنّ التّفسير الأخير الجامع لهذه المعانى يبدو أقرب.

و استدامة لبيان هـذه الأوصاف فإنّ الآية التالية تشير إلى وصـفين آخرين منها، و هما فى الحقيقة بمثابة التوضـيح و التّفسير لما سبق ذكره، إذ تقول الآية: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ

عبـارة مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ إشارة إلى أنّهم رغم عـدم رؤيتهم اللّه بأعينهم، إلّا أنّهم يؤمنون به عن طريق آثاره و الاستدلال بها. فيؤمنون إيمانا مقرونا بالإحساس بتحمّل المسؤولية.

و يحتمل أنّ المراد من «الغيب» هو ما غاب عن أعين الناس، أى أنّهم لا يرتكبون الإثم لا بمرأى من الناس و لا فى خلوتهم و ابتعادهم عنهم.

و هذا الخوف «أو الخشية» يكون سببا للإنابة، فيكون قلبهم متوجّها إلى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱

و يقبل على طاعته دائما و يتوب من كلّ ذنب، و أن يواصلوا هذه الحالة حتّى نهاية العمر و يردّوا عرصات المحشر على هذه الكيفية!.

ثمّ تضيف الآيـة الاخرى بأنّ أولئك الـذين يتمتّعون بالصـفات الأربع هـذه حين تتلقّاهم الملائكة عند أبواب الجنّة يقولون لهم بنهاية التجلّة و الإكرام ادْخُلُوها بِسَلامٍ

«السلام» من كلّ أنواع الأذى و السوء و العذاب و المعاقبة، السلامة الكاملة فى لباس الصحّة و العافية.

و لطمأنتهم يضاف أنّ ذلك اليوم يوم الدعّة و ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ.

و إضافة لهاتين البشارتين بشرى الدخول بسلام، و بشرى الخلود فى الجنّة، يبشّرهم اللّه بشريين أخريين بحيث تكون مجموع البشريات أربعا كما أنّهم يتّصفون بأربع صفات يقول: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها.

و إضافة إلى كلّ ذلك فإنّه لَدَيْنا مَزِيدٌ من النعم التى لم تخطر ببال أحد.

و لا يمكن أن يتصوّر تعبير أبلغ من هذا التعبير و أوقع منه فى النفس، إذ يقول القرآن أوّلا: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها على سعة معنى العبارة و ما تحمله من مفهوم إذ لا ـ استثناء فيها، ثمّ يضاف عليها المزيد من قبل اللّه ما لم يخطر بقلب أحد، حيث أنّ اللّه الذى أنعم على المتّقين فشملهم بألطافه الخاصّة و هم يتنعّمون فيها، و هكذا فإنّ نعم الجنّة و مواهبها ذات أبعاد واسعة لا يمكن أن توصف بأىّ بيان.

كما يستفاد من هذا التعبير ضمنا أنّه لا مقايسة بين أعمال المؤمنين و ثواب اللّه، بل هو أعلى و أسمى منها كثيرا، و الجميع فى يوم القيامة يواجهون فضله أو عدله! و نجازى بعدله! و بعد الانتهاء من بيان الحديث حول أهل الجنّة و أهل النار و درجاتهما، فإنّ القرآن يلفت أنظار المجرمين للعبرة و الاستنتاج فيقول: وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ فكانت تلك الأقوام أقوى من هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۲

و كانوا يفتحون البلدان و يتسلّطون عليها، إلّا أنّهم و بسبب كفرهم و ظلمهم أهلكناهم .. فهل وجدوا منفذا و مخرجا للخلاص من الموت و العذاب الإلهى هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ! «القرن» و «الاقتران» فى الأصل هو «القرب» أو «الاقتراب» ما بين الشيئين أو الأشياء، و يطلق لفظ «القرن» على الجماعة المتزامنة فى فترة واحدة، و يجمع على «قرون» ثمّ أطلق هذا اللفظ على فترة من الزمن حيث يطلق على ثلاثين سنة أحيانا كما يطلق على مائة سنة أيضا، فإهلاك القرون معناه إهلاك الأمم السابقة.

و «البطش» معناه حمل الشيء و أخذه بالقوّة و القدرة، كما يستعمل هذا اللفظ بمعنى الفتك و الحرب.

و «نقّبوا»: فعل من مادّة نقب، و معناه الثقب فى الجدار أو الجلد، غير أنّ الثقب يطلق على ما يقع فى الخشب، و النقب معناه أعمّ و أوسع.

و هذه المفردة إذا استعملت كفعل كما هو فى الآية فيعنى ذلك الحركة و السير و شقّ الطريق، كما يعنى السيطرة على البلدان و النفوذ فيها أيضا.

«المنقبة»: من المادّة ذاتها، و تطلق على الصفات البارزة فى الشخص و أفعاله الكريمة التى لها تأثير و نفوذ فى نفوس الآخرين، أو أنّها تشقّ له الطريق فى الارتقاء و السمو! و «النقيب»: هو من يبحث عن أحوال جماعة ما و يطّلع على أخبارهم و ينفذ فى أنفسهم.

و «المحيص»: كلمة مشتقّة من الحيص على زنة «الحيف»، و معناها الانحراف و العدول عن الشيء، و من هنا فقد استعملت هذه الكلمة فى الفرار من المشاكل و الهزيمة عن المعركة!.

و على كلّ حال فإنّ الآية تنذر الكفّار المعاصرين للنّبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يستقرئوا تاريخ الماضين و أن ينظروا فى قصصهم للاعتبار، ليروا ما صنع بهؤلاء المعاندين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۳

.. الذين كانوا امما و أقواما أشدّ من هؤلاء «و ليفكّروا بعاقبتهم أيضا» و هذا المعنى ورد مرارا فى القرآن منها الآية ۸ من سورة الزخرف إذ نقرأ قوله تعالى: فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً.

و يرى بعض المفسّرين أنّ الآية محلّ البحث تشير إلى «ثمود» هذه الطائفة التى كانت تسكن مناطق جبلية تدعى «بالحجر» و تقع شمال الحجاز، فكانت تقطنها و تنقّب فى الجبال و تحفر صخورها فتصنع منها القصور الرائعة، غير أنّ ظاهر النصّ أنّ هذه الآية مفهومها واسع، فيشمل هؤلاء و غيرهم أيضا.

أمّا جملة هَلْ مِنْ مَحِيصٍ فيحتمل أن تكون سؤالا على لسان الكفّار السابقين حين أحدق بهم العذاب، فكانوا يسألون: هل من فرار و محيص عنه، كما يحتمل أن يكون سؤالا من قبل اللّه للكفّار المعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم أى هل استطاع من كان قبلكم من الكفرة الفرار من قبضة العذاب؟ أو هل يستطيع من يعاند النّبى أن يهرب من مثل هذا لو أحدق به؟! و يضيف القرآن فى آخر آية من

الآیات محل البحث مؤکّدا أکثر فیقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِمَنْ کانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَی السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِیدٌ.

و المراد ب «القلب» هنـا و فی الآیات الآخر من القرآن التی تتکلّم علی إدراک المسائل هو العقل و الشعور و الإدراک، کما أنّ کتب اللغـة تشیر إلی أنّ واحـدا من معـانی القلب هو العقل، أمّا الراغب فقـد فسّـر القلب فی الآیـة محلّ البحث بالعلم و الفهم، کما نقرأ فی لسان العرب أنّ القلب قد یطلق علی العقل أیضا[۴۵].

کما

ورد فی تفسیر عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام لهذه الآیة أنّه قال: إنّ القلب هو العقل ۴۶].

و الجذر اللغوی لکلمة «قلب» فی الأصل: التغییر و التحوّل، و اصطلاحا معناه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۴

الانقلاب، و حیث أنّ فکر الإنسـان أو عقله فی تقلّب دائم و فی حال مختلفـة فقـد أطلقت علیه کلمـة «القلب» .. و لـذلک فإنّ القرآن یعوّل علی اطمئنـان القلب و السـکینة فیقـول: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَةَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ ۴۷] کما یقول فی آیـة اخری: أَلا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [۴۸] أجل إنّما یهدّئ هذا الموجود المضطرب ذکر اللّه فحسب.

أمّا أَلْقَی السَّمْعَ فکنایـة عن الإصـغاء و منتهی الاسـتماع بدقّـة، و هناک تعبیر فی العرف یشـبه هـذا التعبیر یقول «اذنی معک» أی إنّنی أصغی إلیک بدقّة! و «الشهید» یطلق علی من هو حاضر القلب، أو کما یقال قلبه فی المجلس و هو یتابع المسائل بدقّة!.

و هکـذا فـإنّ مضـمون الآیـة بمجموعـة یعنی مـا یلی: إنّ هنـاک فریقین ینتفعان بهـذه المواعظ و النصـیحة ... فالفریق الأوّل من یتمتّع بالـذکاء و العقـل .. و یستطیع بنفسه أن یحلّـل المسائـل بفکره! أمّـا الفریق الآخر فلیس بهـذا المسـتوی، إلّا أنّه یمکن أن یلقی السـمع للعلماء و یصغی لکلماتهم بحضور القلب و یعرف الحقائق عن طریق الإرشاد.

و یشبه هذا التعبیر ما نقرؤه فی الآیة ۱۰ من سورة الملـک علی لسان أهل النار، إذ ورد هکـذا: وَ قالُوا لَوْ کُنَّا نَسْـمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما کُنَّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ! لأنّ علائم الحقّ واضـحة، فأهل التحقیق یعرفونها جیّـدا .. و من لم یکن کذلک فیسـتطیع أن یعرفها عن طریق إرشاد المخلصین من العلماء.

فعلی هذا یجب أن یتمتّع الإنسان بعقل کاف و علم واف .. أو یتمتّع بإذن واعیة[۴۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۵

الآیات [سورة ق (۵۰): الآیات ۳۸ الی ۴۰]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (۳۸) فَاصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ (۳۹) وَ مِنَ اللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ (۴۰)

التّفسیر

خالق السموات و الأرض قادر علی إحیاء الموتی:

تعقیبا علی ما ورد فی الآیات آنفة الذکر و دلائلها المتعدّدة فی شأن المعاد، تشیر الآیات محلّ البحث إلی دلیل آخر من دلائل إمکان المعـاد .. ثمّ تأمر النّبی بالصبر و الاسـتقامة و التسبیـح بحمـد اللّه لیبطل دسائس المتآمرین و ما یحیکونه ضـدّه، فتقول الآیـة الاولی من

هذه الآيات: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ

«اللغوب» بمعنى «التعب» و بديهى أنّ من لديه قدرة محدودة و أراد أن يعمل عملا فوق طاقته و قدرته فإنّه يتعب و يناله اللغوب و النصب، إلا أنّ من كان ذا قدرة لا نهاية لها، و قوّة لا حدّ لها فإنّ التعب و النصب و اللغوب لا تعنى شيئا لديه .. فعلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۵۶

هذا من كان قادرا على إيجاد السماوات و الأرض و خلق الكواكب و المجرّات و أفلاكها جميعا، قادر على إعادة الإنسان بعد موته و أن يلبسه ثوبا جديدا من الحياة.

بعض المفسّرين ذكر فى شأن نزول الآية أنّ اليهود كانوا يتصوّرون أنّ اللّه خلق السماوات و الأرض فى ستّة أيّام «ستّة أيّام من أيّام الأسبوع»! ثمّ استراح فى اليوم السابع «السبت» فوضع رجلا على رجل اخرى!! و هكذا فإنّهم يرون أنّ الجلوس على هذه الشاكلة غير لائق، و أنّه خاصّ باللّه، فنزلت الآية آنفة الذكر و حسمت الكلام فى مثل هذه الخرافات المضحكة[۵۰]! إلّا أنّ هذا الشأن لا يمنع من أن يتابع مسألة إمكان المعاد فى الوقت الذى هو دليل على توحيد اللّه و قدرته و علمه، إذ خلق السماوات و الأرض بما فيهما من عجائب و (ملايين) الأحياء و الأسرار المذهلة و نظمها الخاصّة بحيث أنّ التفكّر فى زاوية واحدة من هذا الخلق يسوقنا إلى الخالق الذى حرّكت يد قدرته هذه الكواكب و نثرت نور الحياة فى كلّ مكان ليكون دليلا عليه.

و قد تكرّر موضوع خلق السماوات و الأرض فى ستّة أيّام فى آيات متعدّدة من القرآن ۵۱].

و كلمة «يوم» يراد منها الفترة الزمنية لا بمعنى أربع و عشرين ساعة أو اثنتى عشرة ساعة، كأن نقول «كان الناس يعيشون فى ظلّ النّبى يوما، و سلّط عليهم بنو اميّة يوما و بنو العبّاس يوما آخر! .. إلخ».

و واضح أنّ كلمة «اليوم» فى هذه التعبيرات و أمثالها يراد منها الفترة الزمانية سواء كانت سنّة أو شهرا أو جيلا .. أو آلاف السنين .. فنقول مثلا: كانت الكرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۵۷

الأرضية قطعة متلهّبة يوما، و بردت يوما فغدت مهيّأة للحياة، فجميع هذه التعبيرات تشير إلى الفترات الزمنية.

فيستفاد من التعبيرات الواردة فى الآية آنفة الذكر أنّ اللّه خلق جميع السماوات و الأرض و الموجودات الاخرى فى ستّ مراحل أو ستّ فترات زمانية. «و تفصيل هذا الكلام مبيّن فى ذيل الآية ۵۴ من سورة الأعراف فلا بأس بمراجعته».

إذا، لا يبقى مجال للسّؤال بأنّه لم يكن قبل خلق السماء و الأرض ليل أو نهار فكيف خلقتهما فى ستّة أيّام؟! و بعد ذكر دلائل المعاد المختلفة و تصوير مشاهد المعاد و يوم القيامة المتعدّدة فإنّ القرآن يخاطب النّبى و يأمره بالصبر- لأنّ هناك طائفة لا تذعن للحقّ و تصرّ على الباطل فيقول: فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ إذ بالصبر و الاستقامة- وحدهما- يستطاع التغلّب على مثل هذه المشاكل.

و حيث أنّ الصبر و الاستقامة يحتاجان إلى دعامة و معتمد، فخير دعامة لهما ذكر اللّه و الارتباط بالمبدأ- مبدأ العلم القادر على إيجاد العالم- لذلك فإنّ القرآن يضيف تعقيبا على الأمر بالصبر قائلا: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ و كذلك: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ.

فهذا الذكر و التسبيح و المستمر ينصبّ على صعيد قلبك كانصباب الغيث على الأرض ليهبها الحياة و يسقيها الرواء، فالتسبيح أيضا يلهم قلبك النشاط و الاستقامة بوجه الأعداء المعاندين.

و هناك أقوال مختلفة بين المفسّرين فى المراد من «التسبيح» فى الأوقات الأربعة «قبل طلوع الشمس و بعد الغروب و من الليل و أدبار السجود!».

فبعضهم يعتقد أنّ المراد من هذه التعبيرات هو الصلوات الخمس اليومية ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۵۸

و بعضا من النوافل الفضلی علی الترتیب و النحو التالی.

ف قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إشارة إلی صلاة الصبح، لأنّ فی آخر وقتها تطلع الشمس فینبغی أداؤها قبل طلوع الشمس.

و قبل الغروب إشارة إلی صلاتی الظهر و العصر لأنّ الشمس تغرب آخر وقتیهما.

أمّا قوله: وَ مِنَ اللَّیْلِ فیشیر إلی صلاتی المغرب و العشاء و قوله: وَ أَدْبارَ السُّجُودِ ناظر إلی النوافل بعد صلاة المغرب، و قال ابن عبّاس بهذا التّفسیر- مع هذا القید- و هو أنّ المراد من إدبار السجود هو جمیع النوافل التی تؤدّی بعد الفرائض و لکن حیث أنّا نعتقد بأنّ ما یؤدّی من النوافل الیومیة بعد الفرائض هما نافلة المغرب و نافلة العشاء فحسب، فلا یصحّ هذا التعمیم آنفا.

کما فسّر بعضهم قوله «قبل طلوع الشمس» بصلاة الصبح، «و قبل الغروب» بصلاة العصر، «و من اللیل فسبّحه» بصلاتی المغرب و العشاء، فلم یذکروا شیئا عن صلاة الظهر هنا، و هذا دلیل علی ضعف هذا التّفسیر.

و نقرأ

فی بعض الرّوایات المنقولة عن الإمام الصادق أنّه حین سئل عن الآیة:

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ .. قال علیه السّلام: «تقول حین تصبح و تمسی عشر مرّات لا إله إلّا اللّه وحده لا شریک له له الملک و له الحمد یحیی و یمیت و هو علی کلّ شیء قدیر»[۵۲].

و لا یتنافی هذا التّفسیر مع التّفسیر الأوّل و یمکن أن یجتمعا فی الآیة معا.

و ممّا ینبغی الالتفات إلیه هو ورود نظیر هذا المعنی باختلاف یسیر فی الآیة.

(۱۳۰) من سورة طه أیضا إذ تقول الآیة: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّیْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّکَ تَرْضی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۹

جملة «لعلّک ترضی»- تدلّ علی أنّ لهذا التسبیح و الذکر فی هذه الأوقات أثرا مهمّا فی اطمئنان القلب و رضا الخاطر، إذ یمنح القلب قوّة و شدّة بوجه الحوادث.

و هناک لطیفة تسترعی النظر و هی أنّ الآیة (۴۹) من سورة الطور تقول هکذا:

وَ مِنَ اللَّیْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ ۵۳].

و

قد ورد فی حدیث عن الإمام علی علیه السّلام أنّه قال: «المراد ب أَدْبارَ السُّجُودِ رکعتا نافلة تؤدّیان بعد صلاة المغرب «ینبغی الالتفات إلی أنّ نافلة المغرب أربع رکعات و قد أشیر إلی إثنین منهما هنا فحسب» و إدبار النجوم رکعتا نافلة الصبح إذ تؤدّیان عند غروب النجوم و تفرّقها و قبل صلاة الصبح»[۵۴].

کما ورد فی روایة اخری أنّ المراد من «ادبار السجود» هو نافلة الوتر التی تؤدّی آخر اللیل ۵۵].

و علی کلّ حال فإنّ التّفسیر الأوّل أقرب من الجمیع و أکثر تناسبا و إن کان مفهوم التسبیح و سعته شاملا لکثیر من التفاسیر المشار إلیها فی الرّوایات آنفا.

ملاحظة

الصبر مفتاح لکلّ فلاح:

لم يكن تعويـل القرآن و اعتمـاده على الصبر بوجه المشاكـل لأوّل مرّة هنا فحسب، فطالما أمر النّبى و المؤمنون عامّـة فى الآيات مرارا بالصبر و أكّد على هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۶۰

الموضوع كما أنّ التجارب تدلّ على أنّ النصر و الغلبة من نصيب أولئك الذين تمتّعوا بالصبر و الاستقامة.

ففى حديث عن الإمام الصادق أنّه أمر بعض أصـحابه «و لعلّه كان لا يطيق بعض الظروف الصعبة فى ذلك الزمان»: «عليك بالصبر فى جميع أمورك. ثمّ قال عليه السّلام إنّ اللّه بعث محمّدا و أمره بالصبر و المداراة فصبر حتّى نسبوا إليه ما لا يليق فضاق صدره فأنزل اللّه عليه الآية: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

فصبر فكـذّبوه أيضـا، و رشـقوه بنبال التّهم من كلّ جانب فحزن و تأثّر لـذلك، فأنزل اللّه عليه تسـلية قوله: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا.

ثمّ يضـيف الإمام عليه السّـلام أنّ النّبى و اصل صبره إلّا أنّهم تجاوزوا الحدّ فكذّبوا اللّه فقال النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد صبرت فى نفسى و أهلى و عرضى و لا صبر لى على ذكر إلهى فأنزل اللّه عزّ و جلّ: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ .. أى خلقنا السـماوات و الأرض فى عدّة فترات و لم نعجل و لم يمسّنا تعب و نصب، فعليك أن تصبر، فصبر النّبى فى جميع أحواله ما كان يواجهه حتّى انتصر على أعدائه»[۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۶۱

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۴۱ الى ۴۵]

اشارة

وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (۴۱) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (۴۲) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ (۴۳) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (۴۴) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (۴۵)

التّفسير

يخرج الجميع أحياء عند صيحة القيامة:

هـذه الآيات محلّ البحث التى تختتم بها سورة- «ق» كسائر آياتها تتحدّث على المعاد و القيامة كما أنّها تعرض جانبا منهما أيضا و هو موضـوع النفخـة فى الصـور، و خروج الأـموات من القبـور فى يـوم النشور .. فتقول: وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ ... يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ

و المخاطب بالفعل «استمع» هو النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم نفسه إلّا أنّه من المسلّم به أنّ المقصود جميع الناس.

و المراد من «استمع» إمّا هو الانتظار و الترقّب، لأنّ من ينتظر حادثة تبدأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۶۲

بصوت مهول يرى فى حالة ترقّب دائما، فهو منتظر لأن يسـمع الصوت، أو هو الإصـغاء إلى كلام اللّه فيكون المعنى «استمع كلام اللّه»

إذ یقول: یوم یسمعون الصیحة إلخ ۵۷].

لکن من هو هذا المنادی؟ یحتمل أن یکون الذات المقدّسة جلّ و علا، و لکن الاحتمال الأقوی هو «إسرافیل» الذی ینفخ فی الصور .. و قد وردت الإشارة فی آیات القرآن إلیه لا بالاسم بل بتعبیرات خاصّة.

عبارة مِنْ مَکانٍ قَرِیبٍ إشارة إلی أنّ هـذه الصیحة ینتشـر صـداها فی الفضاء بدرجـة أنّها کما لو کانت فی أذن کلّ أحـد، و جمیعهم یسمعونها بدرجة واحدة من القرب.

نحن الیوم نستطیع أن نسمع کلام أی إنسان و فی أیّة نقطـة کان بوسائل مختلفة فکأنّ المتکلّم علی مقربة منّا، و یتحدّث معنا، إلّا أنّ یوم القیامة یسمع الناس کلّهم الصحیة دون حاجة إلی مثل هذه الوسائل و هی قریبة منهم ۵۸].

و علی کلّ حال، فلیست هـذه الصیحة هی الصیحة الاولی التی تقع مؤذنـة بنهایة العالم، بل هی الصیحة الثانیة، أی الصیحة للنشور و الحشر، و فی الحقیقـة أنّ الآیـة الثانیـة توضیح للآیة السابقة و تفسیر لها إذ تقول: یَوْمَ یَسْمَعُونَ الصَّیْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِکَ یَوْمُ الْخُرُوجِ من القبور و البعث و النشور.

و لکی یعرف من الحاکم فی هذه المحکمة الکبری، فإنّ القرآن یضیف قائلا:

إِنَّا نَحْنُ نُحْیِی وَ نُمِیتُ وَ إِلَیْنَا الْمَصِیرُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۳

و المراد من «نحیی» هو الحیاة الاولی فی الـدنیا، و المراد من «نمیت» هو فی نهایـة العمر، و جملـة «إلینا المصیر» إشارة إلی الأحیاء فی یوم القیامة.

و فی الحقیقـة أنّ الآیـة تشیر إلی هـذه الحقیقـة و هی کما أنّ الحیاة و الموت فی الـدنیا بأیدینا، فکذلک المعاد، و قیام الساعة بأیدینا أیضا.

ثمّ یضیف القرآن فیخبر عن میقات النشور فیقول: یَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً أی یخرجون مسرعین من القبور[۵۹] و یضیف مختتما: ذلِکَ حَشْرٌ عَلَیْنا یَسِیرٌ.

و «الحشر» معناه الجمع من کلّ جهة و مکان.

و واضح أنّ خالق السماوات و الأرض و ما بینهما من الیسیر علیه أن ینشر الموتی و یحشرهم للحساب و الثواب أو العقاب.

و أساسا، فإنّ موضوع الصعوبة و الیسر یقال فی من یتمتع بقدرة محدودة، إلّا أنّ القادر علی کلّ شیء و لا حدّ لقدرته فکلّ شیء علیه سهل و یسیر.

الطریف هنا أنّنا نقرأ فی بعض الرّوایات: أنّ أوّل من یبعث و یخرج من قبره و یرد المحشر هو النّبی الأکرم محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم و علی معه ۶۰].

أمّا آخر آیة من الآیات محلّ البحث و هی آخر آیة من سورة ق ذاتها فهی تخاطب النّبی و تسرّی عنه و تسلّی قلبه لما یلاقیه من المعاندین و الکفرة فتقول:

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما یَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِجَبَّارٍ.

فمسؤولیتک البلاغ و الدعوة نحو الحقّ و البشارة و النذارة: فَذَکِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ یَخافُ وَعِیدِ[۶۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۴

و قد ورد فی تفسیر القرطبی عن ابن عبّاس أنّه قال جاء جماعة إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقالوا أنذرنا یا رسول اللّه و بشّرنا، فنزلت الآیة محلّ البحث و قالت:

فَذَکِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ یَخافُ وَعِیدِ[۶۲].

و ذلك إشارة إلى أنّ القرآن كاف للإنذار و إيقاظ المؤمنين، فكلّ صفحة منه تذكر بيوم القيامة و آياته المختلفة التى تتحدّث عن قصص الماضين و عاقبتهم و تصف أهل النار و أهل الجنّة و ما يقع عند قيام الساعة فى محكمة عدل اللّه هى خير موعظة و نصيحة لجميع الناس.

و الحقّ أن تذكر مشهد تشقّق الأرض و ولوج الأرواح فى الموتى و خروجهم من القبر و اكتسائهم ثوب الحياة و تحركهم فى حال من الوحشة و الاضطراب من القرن حتّى القدم و هم يساقون إلى محكمة عدل اللّه هذا المشهد مثير جدّا.

و لا سيّما أنّ بعض القبور يضمّ فى لحده على تقادم الزمان و مرور الأعوام أجسادا متعدّدة من الناس بعضهم صالح و بعضهم طالح و بعضهم مؤمن و بعضهم كافر و كما يقول المعرّى:

ربّ قبر قد صار قبرا مراراضاحك من تزاحم الأضداد

و دفين على بقايا دفين‌فى طويل الآجال و الآماد!

ربّنا اجعلنا من الذى يخافون وعيدك و يتّعظون بالقرآن.

اللهمّ ارحمنا يوم يستوحش الناس و يضطربون فيه و ألق فى نفوسنا السكينة و الطمأنينة.

إلهنا .. إنّ أيّام العمر مهما طالت فهى تمضى سراعا و ما هو خالد فذاك اليوم الآخر و الدار الآخرة، فارزقنا حسن العاقبة و النجاة فى الآخرة! آمّين يا رب العالمين انتهاء سورة ق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۵

سورة الذّاريات

اشارة

مكّية و عدد آياتها ستّون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۷

«سورة الذّاريات»

محتوى السورة:

يدور محور هذه السورة فى الدرجة الاولى حول المسائل المتعلّقة بالمعاد و يوم القيامة و الثواب و العقاب لكلّ من المؤمنين و الكافرين، و لكنّها ليست كسورة (ق) محورها المعاد، بل فيها محاور أخر كما يلاحظها القارئ.

و يمكن أن يقال بشكل إجمالى أنّ مباحث هذه السورة تدور حول خمسة محاور و هى:

۱- كما قلنا آنفا إنّ القسم المهمّ منها يتكلّم عن المعاد و بداية السورة و نهايتها أيضا هما حول المعاد.

۲- القسم الآخر من هذه السورة ناظر إلى مسألة توحيد اللّه و آياته فى نظام الخلق و الوجود، و هى تكمل مبحث المعاد طبعا.

۳- و فى قسم آخر يقع الكلام على ضيف إبراهيم من الملائكة و ما أمروا به من تدمير مدن قوم لوط! ۴- و الآيات الاخر من هذه السورة فيها إشارات قصيرة إلى قصّة موسى عليه السّلام و بعض الأمم كعاد و ثمود و قوم نوح، و بهذا فهى تنذر الكفّار الآخرين بما آل إليه السابقون.

۵- و أخيرا فإنّ قسما من هذه السورة- يتحدّث عن مواجهة الأمم المعاندين لأنبيائهم و تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالصبر و الاستقامة بوجه المشاكل و الشدائد و تسرّى عنه و تسلّى قلبه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۸

فضیلة تلاوة هذه السورة:

ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الذاریات فی یومه أو لیلته أصلح اللّه له معیشته و أتاه برزق واسع و نور له قبره بسراج یزهر إلی یوم القیامة»[۶۳].

و قد قلنا مرارا أنّ مجرّد التلاوة باللسان غیر کافیة لبلوغ هذا الثواب العظیم، بل الهدف هو التلاوة بتفکّر ... التفکّر الباعث علی العمل.

و تسمیة «الذاریات»- ضمنا- تعود إلی ورود الآیة الاولی من هذه السورة وَ الذَّارِیاتِ ذَرْواً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۹

الآیات [سورة الذاریات (۵۱): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیم

وَ الذَّارِیاتِ ذَرْواً (۱) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (۲) فَالْجارِیاتِ یُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (۴)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (۵) وَ إِنَّ الدِّینَ لَواقِعٌ (۶)

التّفسیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۶۹

قسما بالأعاصیر و السحب الذاریات:

هذه السورة هی الثانیة بعد سورة «الصافات» التی تبدأ بالقسم المتکرّر، القسم العمیق و الباعث علی التفکّر، القسم الذی یوقظ الإنسان و یمنحه الوعی و الاطّلاع! و کثیر من سورة القرآن التی سنواجهها- فی المستقبل إن شاء اللّه- بالبحث و التّفسیر- هی علی هذه الشاکلة .. و الطریف فی الأمر أنّ هذا القسم غالبا ما یوطّئ للمعاد، سوی بعض المواطن التی یمهّد فیها للتوحید و المسائل المتعلّقة به.

کما أنّ ممّا یلفت النظر أنّ هذا القسم یرتبط محتواه بمحتوی یوم القیامة و النشور .. و هو یتابع بظرافة و رونق خاصّ هذا البحث المهمّ من جوانب متعدّدة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۰

و الحقیقة أنّ کلّ قسم فی القرآن هو بنفسه- و إن کثرت الأقسام- أو الأیمان- وجه من وجوه إعجاز القرآن هذا الکتاب السماوی، و هو من أجمل جوانبه و أبهاها و سیأتی تفصیل کلّ ذلک فی موقعه.

و فی مستهلّ السورة یقسم اللّه سبحانه بخمسة أشیاء مختلفة، و قد جاء القسم بأربعة أشیاء متوالیة سردا و جاء القسم بخامسها فردا.

فیقول اللّه فی البدایة: وَ الذَّارِیاتِ ذَرْواً[۶۴] أی قسما بالریاح التی تحمل السحب فی السماء و تذروا البذور علی الأرض فی کلّ مکان ...

ثمّ يضيف: فَالْحامِلاتِ وِقْراً[۶۵] قسما بالسحب التى تحمل أمطارا ثقيلة معها ...

فَالْجارِياتِ يُسْراً[۶۶] «و الجاريات هنا هى السفن» أى قسما بالسفن التى تجرى فى الأنهار العظيمة و البحار الشاسعة بيسر و سهولة ..

فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً «و المقسمات «هنا» معناها الملائكة الذين يقسّمون الأمور.

و نقرأ

حديثا نقله كثير من المفسّرين ذيل هذه الآية أنّ «ابن الكوا»[۶۷] سأل مرّة عليا عليه السّلام و هو على المنبر خطيبا: ما الذّارِياتِ ذَرْواً؟

فقال عليه السّلام: هى الرياح.

فقال: فَالْحامِلاتِ وِقْراً فأجاب عليه السّلام: هى السحاب.

فقال: فَالْجارِياتِ يُسْراً فقال عليه السّلام: هى السفن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۱

فقال: فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً فقال: الملائكة.

و مع هذه الحال فهناك تفاسير أخر يمكن ضمّها إلى هذا التّفسير، منها أنّ المراد ب «الجاريات» هى الأنهار التى تجرى بماء المزن و «المقسمات أمرا» هى الأرزاق التى تقسّم بواسطة الملائكة عن طريق الزراعة.

و على هذا فإنّ الكلام عن الرياح ثمّ الغيوم و بعدها الأنهار و أخيرا نمو النباتات فى الأرض يتناسب تناسبا قريبا مع مسألة المعاد، لأنّنا نعرف أنّ واحدا من أدلّة إمكان المعاد هو إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث و قد ذكر ذلك عدّة مرّات فى القرآن بأساليب مختلفة.

كما يردّ هذا الاحتمال أيضا: و هو أنّ هذه الأوصاف الأربعة جميعها للرياح- الرياح المولّدة للسحب، و الرياح التى تحملها على متونها، و الرياح التى تجرى بها إلى كلّ جانب، و الرياح التى تنثر و تقسّم قطرات الغيث لكلّ جهة[۶۸]!.

و مع ملاحظة أنّ هذه التعبيرات الواردة فى الآيات جميعها جامعة و كليّة فيمكن أن تحمل المعانى آنفة الذكر كلّها، إلّا أنّ التّفسير الأساس هو التّفسير الأوّل.

و هنا ينقدح هذا السؤال .. و هو:

إذا كان المراد من «المقسمات» هو الملائكة فما ذا تقسم الملائكة؟! نجيب على هذا السؤال أنّ تقسيم العمل هنا لعلّه راجع إلىّ كلّ التدبير فى العالم بحيث أنّ جماعات من الملائكة مأمورة بتدبير أموره، كما يحتمل أنّها مأمورة بتدبير الأرزاق، أو تقسيم قطرات الغيث على المناطق المتعدّدة فى الأرض ۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۲

و بعد ذكر هذه الأقسام الأربعة التى تبيّن أهميّة الموضوع الذى يليها يقول القرآن: إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ ۷۰].

و مرّة اخرى لمزيد التأكيد يضيف قائلا: وَ إِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ الدين: هنا معناه الجزاء كما جاء بهذا المعنى فى قوله تعالى: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ أى يوم الجزاء.

و أساسا فإنّ واحدا من أسماء يوم القيامة هو «يوم الدين» و «يوم الجزاء» و يتّضح من ذلك أنّ المراد من الوعود الواقعة «هنا» هى ما يوعدون عن يوم القيامة و ما يتعلّق بها من حساب و ثواب و عقاب و جنّة و نار و سائر الأمور المتعلّقة بالمعاد، فعلى هذا تكون الجملة الاولى شاملة لجميع الوعود، و الجملة الثانية تأكيد آخر على مسألة الجزاء.

و بعد عدّة جمل أخر سيأتى الكلام على يوم الدين، و كما أشرنا آنفا فإنّ الأقسام الواردة فى بداية السورة لها علاقة و تناسب بيّن مع نتيجة هذه الأقسام! لأنّ حركة الرياح و نزول الغيث و نتيجة لكلّ ذلك فإنّ حياة الأرض بعد موتها بنفسها مشهد من مشاهد القيامة و المعاد يبدو فى هذه الدنيا.

قال بعض المفسّرين إِنَّما تُوعَدُونَ يحمل معنى واسعا يشمل جميع الوعود الإلهيّة المتعلّقة بيوم القيامة و الدنيا و تقسيم الأرزاق و مجازاة المجرمين فى هذه الدنيا و الدار الآخرة و انتصار المؤمنين الصالحين، فالآية (۲۲) من هذه السورة ذاتها التى تقول: وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ يمكن أن تكون تأكيدا أو تأييدا لهذا المعنى، و حيث أنّ لفظ الآية مطلق فلا تبعد هذه العمومية.

و على كلّ حال فإنّ الوعود الإلهية جميعها صادقة لأنّ خلف الوعد إمّا ناشئ عن الجهل أو العجز! .. الجهل الباعث على تغيير فكر الواعد، و العجز المانع من الوفاء به، إلّا أنّ اللّه العالم و القادر لا تتخلّف و عوده أبدا .. تعالى اللّه عن ذلك!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۳

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۷ الى ۱۴]

اشارة

وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (۷) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (۱۰) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (۱۱) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴)

التّفسير

و السّماء ذات الحبک:

تبدأ هذه الآيات كالآيات المتقدّمة بالقسم و تتحدّث عن اختلاف الكفّار وجد لهم حول يوم الجزاء و القيامة و مسائل أخر متعدّدة من بينها شخصية النّبى (محمّد) و مسألة التوحيد.

فتقول الآيات فى البداية: قسما بالسماء ذات الخطوط و التعرّجات الجميلة:

وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ

و فى اللغة معان كثيرة لكلمة «الحبک» على زنة «كتب» و هى جمع «حباک» على وزن- كتاب-.

من ضمن هذه المعانى الطرق و التعاريج التى تبدو على الرمل نتيجة للرياح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۴

أو التى تبدو على صفحة الماء أو على السحب فى السماء! كما تطلق الحبک على الشعر المجعّد.

و قد تفسّر الحبک على الشعر المجعّد.

و قد تفسّر الحبک بالزينة و الجمال! كذلک تأتى بمعنى الشكل الموزون و الرتيب.

و الجذر الأصلى لها «حبک» و معناه هو الشدّ و الإحكام ۷۱]! و يبدو أنّ جميع هذه المعانى تعود إلى معنى واحد و هى التجاعيد و التعاريج الجميلة التى تظهر على صفحات الرمل فى الصحراء أو صفحات الماء أو التجاعيد فى الشعر أو السحب فى السماء.

و أمّا تطبيق هذا المعنى على السماء و وصفها بها وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ هو إمّا لنجومها ذات المجاميع المختلفة و صورها الفلكية «تطلق على مجموعات النجوم الثابتة التى لها شكل خاصّ بالصورة الفلكية»! و إمّا للأمواج الجميلة التى ترتسم فى السحب و قد تكون جميلة إلى درجة بحيث تحدق العين فيها لفترة طويلة! أو لمجرّاتها العظيمة التى تبدو و كأنّها تجاعيد الشعر على صفحة السماء، و خاصّة صورها التى التقطت «بالتلسكوب» إذ تشبه هذه الصور التجاعيد فى الشعر تماما.

فعلى هذا يكون معنى وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ أنّ القرآن يقسم بالسماء و مجراتها العظيمة التى لم تكتشفها يومئذ العيون الحادّة ببصرها

و لا علم الإنسان يومئذ أيضا.

و مع ملاحظة أنّ الجمع بين المعانى المتقدّمة ممكن و لا منافاة فيه فيحتمل أن تكون هذه المعانى كلّها مجتمعة فى القسم، و نقرأ فى الآية (۱۷) من سورة

«المؤمنون» أيضا قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ۷۲].

كما يجدر الالتفات إلى أنّ الجذر الأصلى للحبك يمكن أن يكون إشارة إلى استحكام السماء و ارتباط الكرات بعضها ببعض كالكواكب السيارة و المجموعة أو المنظومة الشمسية التى ترتبط بقرص الشمس.

أمّا الآية التالية فهى جواب للقسم و بيان لما وقع عليه القسم إذ تقول مؤكّدة:

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ

فدائما أنتم تتناقضون فى الكلام، و كأنّ هذا التناقض فى كلامكم دليل على أنّه لا أساس لكلامكم أبدا.

ففى مسألة المعاد تقولون أحيانا: لا نصدّق أبدا أن نعود أحياء بعد أن تصير عظامنا رميما.

و تارة تقولون نحن نشكّ فى هذه القضيّة و نتردّد! و تارة تضيفون أن هاتوا آباءنا و أسلافنا من قبورهم ليشهدوا أنّ بعد الموت قيامة و نشورا لنقبل بما تقولون! و تقولون فى شأن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم تارة بأنّه شاعر، أو بأنّه ساحر، و تارة تقولون أنّه لمجنون، و تارة تقولون إنّما يعلمه بشر فهو معلّم!! كما تقولون فى شأن القرآن بأنّه: أساطير الأوّلين تارة، أو تقولون بأنّه شعر، و تارة تسمّونه سحرا، و حينا آخر تقولون أنّه كذب افتراه و أعانه عليه قوم آخرون! .. إلخ.

فقسما بحبك السماء و تجاعيدها إنّ كلامكم مختلف و مليء بالتناقض، و لو كان لكلامكم أساس لكنتم على الأقل تقفون عند موضوع خاصّ و مطلب معيّن و لما تحوّلتم منه كلّ يوم إلى موضوع آخر!

و هذا التعبير فى الحقيقة إنّما هو استدلال على بطلان ادّعاء المخالفين فى شأن التوحيد و المعاد و النّبى و القرآن «و إن كان اعتماد هذه الآيات فى الأساس على مسألة المعاد كما تدلّ عليه القرينة فى الآيات التالية»!.

و نعرف أنّه يستند دائما لكشف كذب المدّعين الكذبة سواء فى المسائل القضائية أو المسائل الاخرى على تناقض كلامهم و تضادّه، فكذلك القرآن يعوّل على هذا الموضوع تماما! و فى الآية التالية يبيّن القرآن علّة الانحراف عن الحقّ فيقول: يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ أى يؤفك عن الإيمان بالقيامة و البعث كلّ مخالف للحقّ! و إلّا فإنّ دلائل الحياة بعد الموت واضحة و جليّة! و ينبغى الالتفات إلى أنّ تعبير الآية عامّ و مغلق، و ترجمتها الحرفية هى «ليصرف عنه من هو مصروف».

لأنّ «الإفك» فى الأصل يطلق على صرف الشيء، فلذا يطلق على الكذب الذى فيه تأثير انحرافى بأنّه إفك، كما يطلق على الرياح المختلفة بأنّها «المؤتفكات».

و لكن مع ملاحظة أنّ الكلام كان فى الآيات المتقدّمة على المعاد و القيامة، فمن المعلوم أنّ المراد الأصلى من الانحراف و الإفك هنا هو الانحراف عن هذه العقيدة .. كما أنّه حيث كان الكلام فى الآية المتقدّمة عن اختلاف كلام الكفّار و تناقضهم فيعلم أنّ المراد هنا من الآية هم أولئك المنحرفون عن الإيمان بالمعاد الذين انحرفوا عن مسير الدليل العقلى و المنطق السليم الباحث عن الحقّ! و بالطبع لا مانع أن يكون المراد من «الإفك» هنا هو الانحراف عن قبول الحقّ أيّا كان نوعه، سواء كان هذا الانحراف عن القرآن أم التوحيد أو النبوّة أو المعاد «و من هذا القبيل مسألة ولاية الأئمّة المعصومين الواردة فى بعض الرّوايات» و لكن مسألة القيامة و المعاد على كلّ حال التى هى الموضوع الأصلى

داخلة فيه قطعا.

و فی الآية التالية ذمّ شديد للكاذبين و تهديد لتخرّصاتهم إذ تقول: قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ

و «الخرّاص» من مادّة «خرص»- على زنة درس- و معناه فی الأصل كلّ كلام يقال تخمينا أو ظنّا، و حيث أنّ مثل هذا الكلام غالبا ما يكون كذبا فقد استعملت هذه الكلمة فی الكذب أيضا .. فيكون المعنى من «الخراصون» هو:

أولئك الذين يطلقون كلمات عارية من الصحّة و لا أساس لها، و المراد منها هنا- بقرينة الآيات التالية- هو: أولئك الذين يحكمون أو يقضون فی شأن القيامة و المعاد بكلام لا أساس له بعيد عن المنطق.

على كلّ حال، فإنّ هذا التعبير هو فی شكل دعاء عليهم .. دعاء يدلّ على أنّهم «موجودات» تستحقّ الفناء و القتل، فعدمهم خير من وجودهم! كما فسّر بعضهم «القتل» هنا بالطرد و اللعن و المحروميّة عن رحمة اللّه.

و من هنا يمكن أن يستفاد من هذا الحكم الكلّی أيضا أنّ القضاء بلا دليل و لا مدرک أو مستند بيّن بل على الظنّ و الحدس هو عمل يسوق إلى الضلال و يستحقّ اللعن و العذاب.

ثمّ يعرّف القرآن هؤلاء الخراصين الكذبة فيقول: الَّذِينَ هُمْ فِی غَمْرَةٍ ساهُونَ

«الغمرة» فی الأصل معناها الماء الغزير الذی يغطّی محلا ما .. ثمّ استعملت على الجهل السحيق الذی يغطّی عقل الشخص! و كلمة «ساهون» جمع ل «ساه» و هی مشتقّة من «السهو» و المراد بها هنا الغفلة.

و قال بعضهم إنّ الجهل على مراحل. فالاولى هی «السهو و الاشتباه»، ثمّ «الغفلة» و بعدها «الغمرة».

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۸

فيكون المعنى بناء على هذا أنّهم ابتدوا من مرحلة السهو، ثمّ انساقوا إلى مرحلة الغفلة، و لما استمرّوا و واصلوا فی هذا الطريق غرقوا فی الجهل تماما، و الجمع بين هذين التعبيرين «السهو» و «الغمرة» فی هذه الآية لعلّه إشارة إلى بداية هذه الحركة و نهايتها.

فعلى هذا يكون المراد من كلمة «الخراصون» هم الغارقون فی جهلهم و كلّ يوم يتذرّعون بحجّة واهية فرارا من الحقّ.

و لذلک فهم دائما: يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ

جملة «يسألون» و الفعل للمضارع يدلّ على أنّهم يثيرون هذا السؤال أيّان يوم الدين؟! باستمرار ... على أنّه ينبغی أن يكون يوم القيامة و موعده مخفيا.

ليحتمل كلّ أحد أنّه محتمل الوقوع فی كلّ أیّ زمان، و يحصل منه الأثر التربوی للإيمان بيوم القيامة الذی هو بناء الشخصية و الاستعداد الدائم.

و هذا الكلام يشبه تماما كلام المريض إذ يسأل طبيبه مثلا: متى يكون آخر عمری و يكرّر عليه السؤال باستمرار، فكلّ أحد يعدّ هذا السؤال هذرا و يقول:

المهمّ أن تعرف أنّ الموت حقّ لتعالج نفسک و لئلّا تبتلی بالموت السريع.

إلّا أنّهم لم يكن لهم من هدف سوى الاستهزاء أو التذرّع بالحجج الواهية و لم يكن سؤالهم عن تاريخ يوم القيامة و زمانه بحقّ! إلّا أنّه و مع هذه الحال فإنّ القرآن يردّ عليهم مجيبا بلغة شديدة و يعنّفهم يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ

و عندئذ يقال لهم هنالک: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ و الفتنة فی الأصل اختبار الذهب فی موقد النار ليمتاز الخالص من غيره، و من هنا فقد استعملت «الفتنة» على أیّ نوع كان من أنواع الامتحان أو الاختبار، كما استعملت على دخول الإنسان النار، كما تستعمل فی البلاء و العذاب و عدم الراحة كما تشير إليه الآية محل البحث هنا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۹

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۱۵ الى ۱۹]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۱۹)

التّفسير

ثواب المستغفرين بالأسحار

تعقيبا على الكلام المـذكور فى الآيات آنفة الذكر الذى كان يدور حول الكذبة و الجهلة و منكرى القيامة و عذابهم، فى الآيات محلّ البحث يقع الكلاـم عن المؤمنين المتّقين و أوصـافهم و ثوابهم لتتجلّى بمقارنـة الفريقين- كمـا هو عليه أسـلوب القرآن- الحقائق أكثر فأكثر.

تقول الآيـات هنـا: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ و صـحيح أنّ البسـتان بطبيعته يكون ذا سواق و روافـد، لكن ما ألطف أن تتـدفّق مياه العيون فى داخل البستان نفسه و تسقى أشجاره .. فهذا هو ما تمتاز به بساتين الجنّة .. فهى ليست ذات عين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ٨٠

واحدة بل فيها عيون ماء متعدّدة تجرى متدفّقه هناك [٧٣].

ثمّ يضيف القرآن مشيرا إلى نعم الجنّات الاخر فيتحدّث عنها بتعبير مغلق فيقول: آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ

أى أنّهم يتلقّون هذه المواهب الإلهيّة بمنتهى الرضا و الرغبة و الشوق ..

و يعقّب القرآن فى ختـام الآيـة بـأنّ هـذه المواهب و هـذا الثواب كـلّ ذلـك ليس اعتباطـا بـل إِنَّهُمْ كـانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ [٧٤] و «الإحسان» هنا يحمل معنى وسيعا بحيث يشمل طاعة اللّه و الأعمال الصالحة الاخر أيضا.

و الآيات التالية تبيّن كيفية إحسانهم، فتعرض ثلاثة أوصاف من أوصافهم فتقول: أوّلا: كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ

كلمة «يهجعون» مشـتقّة من الهجوع: و معناه النوم ليلا. قال بعضهم المراد من هذا التعبير أنّهم كانوا يقظين يحيون أكثر الليل أو يحيون الليل .. و ينامون قليلا منه.

و لكن حيث أنّ هذا الحكم و الدستور الشرعى بصورته العامّة و الكليّة للمحسنين و المتّقين يبدو بعيدا، فلا يناسب هذا التّفسير المقام، بل المراد أنّهم قلّ أن يناموا تمام الليل، و بتعبير آخر إنّ الليل هنا المراد منه العموم و الجنس.

فعلى هـذا فهم كلّ ليلة يحبّون قسـما منها بالعبادة و صـلاة الليل. أمّا الليالى التى يرقدون فيها حتّى مطلع الفجر .. و تفوت عليهم العبادة فيها كليّا .. فهى قليلة جدّا.

و هذا التّفسير منقول عن الإمام الصادق فى بعض أحاديثه أيضا [٧۵] و هناك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ٨١

تفاسير أخر لهذه الآية أعرضنا عن ذكرها لأنّها [٧۶] بعيدة.

و الوصف الثانى من أوصافهم يذكره القرآن بهذا البيان: وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ

فحيث أنّ عيون الغافلين هاجعة آخر الليل و المحيط هادئ تماما، فلا صـخب و لا ضـجيج و لا شـىء يشـغل فكر الإنسان و يقلق باله .. ينهضون و يقفون بين يدى اللّه و يعربون له عن حاجتهم و فاقتهم، و يصفّون أقدامهم، و يصلّون و يستغفرون عن ذنوبهم خاصّة.

و يرى الكثير من المفسّرين أنّ المراد من «الاستغفار» هنا هو «صلاة الليل» لأنّ «الوتر» منها مشتمل على الاستغفار.

و «الأسحار» جمع سحر على زنة «بشر» و معناه فى الأصل الخفى أو المغطّى، و حيث أنّه فى الساعات الأخيرة من الليل يغطّى كلّ شيء خفاء خاصّ، فقد سمّى آخر الليل سحرا.

و كلمة «سحر»- بكسر السين- تطلق أيضا على ما يغطّى وجه الحقائق أو يخفى أسرارها عن الآخرين!.

و

قد جاء فى رواية فى تفسير «الدرّ المنثور» أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ آخر الليل فى التهجّد أحبّ إلىّ من أوّله، لأنّ اللّه يقول: و بالأسحار هم يستغفرون»[۷۷].

و نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «كانوا يستغفرون اللّه فى الوتر سبعين مرّة فى السحر»[۷۸].

ثمّ يذكر القرآن الوصف الثالث لأهل الجنّة المتّقين فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۲

وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُوم

كلمة «حقّ» هنا هو إمّا لأنّ اللّه أوجب ذلك عليهم: كالزكاة و الخمس و سائر الحقوق الشرعية الواجبة، أو لأنّهم التزموه و عاهدوا أنفسهم على ذلك، و فى هذه الصورة يدخل فى هذا المفهوم الواسع حتّى غير الحقوق الشرعية الواجبة.

و يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذه الآية ناظرة إلى القسم الثانى فحسب، فهى لا تشمل الحقوق الواجبة .. لأنّ الحقوق الواجبة واردة فى أموال الناس جميعا، المتّقين و غير المتّقين حتّى الكفّار.

فعلى هذا حين يقول القرآن: وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ فإنّما يعنى أنّه إضافة إلى واجباتهم و حقوقهم أوجبوا على أنفسهم حقّا ينفقونه من مالهم فى سبيل اللّه للسائل و المحروم.

إلّا أنّه يمكن أن يقال أنّ الفرق بين المحسنين و غيرهم هو أنّ المحسنين يؤدّون هذه الحقوق، فى حين أنّ غيرهم ليسوا مقيدين بذلك.

كما يمكن أن يقال فى تفسير الآية أنّ المراد بالسائل فى ما يخصّ الحقوق الواجبة، لأنّه يحقّ له السؤال و المطالبة بها .. و المراد بالمحروم فى ما يخصّ الحقوق المستحبّة إذ ليس له حقّ المطالبة بها.

و يصرّح «الفاضل المقداد» فى كتابه «كنز العرفان» أنّ المراد من قوله: حَقٌّ مَعْلُومٌ هو الحقّ الذى ألزموه أنفسهم فى أموالهم و يرون أنفسهم مسئولين عنه ۷۹].

و جاء نظير هذا المعنى فى سورة المعارج الآيتين ۲۴ و ۲۵ إذ يقول سبحانه:

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُوم

و مع ملاحظة أنّ حكم وجوب الزكاة نزل فى المدينة و آيات هذه السورة جميعها مكيّة، فيتأيّد الرأى الأخير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۳

و ما وصلنا من روايات عن أهل البيت عليهم السّلام يؤكّد أيضا أنّ المراد من «حقّ معلوم» شيء غير الزكاة الواجبة. إذ نقرأ حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول ۸۰]: «لكنّ اللّه عزّ و جلّ فرض فى أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاة فقال عزّ و جلّ وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ فالحقّ المعلوم غير الزكاة و هو شيء يفرضه الرجل على نفسه فى ماله ... إن شاء فى كلّ يوم و إن شاء فى كلّ جمعة و إن شاء فى كلّ شهر».

و فى هذا المجال أحاديث متعدّدة أخر منقولة عن الإمام على بن الحسين و الإمام الباقر و الإمام الصادق أيضا[۸۱].

و هکذا فإنّ تفسیر الآیة واضح بیّن.

و هناک کلام فی الفرق بین «السائل» و «المحروم»، فقال بعضهم «السائل» هو من یطلب العون من الناس، أمّا «المحروم» فمن یحافظ علی ماء وجهه و یبذل قصاری جهده لیعیش دون أن یمدّ یده إلی أحد، أو یطلب العون من أحد، بل یصبّر نفسه.

و هذا هو ما یعبّر عنه بالمحارف، لأنّه قیل فی کتب اللغة فی معنی «المحارف» بأنّه الشخص الذی لا ینال شیئا مهمّا سعی وجدّ فکأنّ سبل الحیاة مغلقة بوجهه! و علی کلّ حال، فهذا التعبیر یشیر إلی هذه الحقیقة و هی لا تنتظروا أن یأتیکم المحتاجون و یمدّوا أیدیهم إلیکم، بل علیکم أن تبحثوا عنهم و تجدوا الأفراد المحرومین الذین یعبّر عنهم القرآن بأنّهم یَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِیاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ [۸۲] .. لتساعدوهم و تحفظوا ماء أوجههم، و هذا دستور مهم لحفظ حیثیة المسلمین المحرومین و ینبغی الاهتمام به.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۴

و هؤلاء الأشخاص یمکن معرفتهم- کما صرّح بذلک القرآن «تعرفهم بسیماهم».

أجل فبرغم سکوتهم إلّا أنّ فی عمق وجوههم آثار الهموم و ما تحمله أنفسهم من آلام یعرفها المطّلعون، و یخبر لون وجههم عن کربتهم.

بحوث

۱- التوجّه نحو اللّه و خلق اللّه

ما ورد فی هذه الآیات عن المتّقین و أوصافهم یتلخّص- فی الحقیقة- فی قسمین «التوجّه نحو اللّه» «الخالق» و ذلک فی ساعات یتوفّر فیها من جمیع الجهات الاستعداد لبیان الحاجة عنده مع حضور القلب، و تبلغ أسباب انشغال الفکر و انصراف الذهن إلی أدنی حدّ أی فی أواخر اللیل! و الآخر «التوجّه نحو الخلق» و معرفة احتیاج المحتاجین سواء أظهروا حاجتهم أم کتموها.

و هذا المطلب هو ما أشار إلیه القرآن فی آیاته مرارا و أوصی به، و الآیات التی یرد فیها ذکر الصلاة، ثمّ یتلوها ذکر الزکاة، و تعول علی الإثنین معا، تشیر إلی هذه المسألة، لأنّ الصلاة أبرز مظهر لعلاقة الإنسان بالخالق، و الزکاة أجلی مظهر لعلاقته بخلق اللّه.

۲- السهر دیدن العشّاق

مع أنّ صلاة اللیل من الصلوات المستحبّة و النافلة إلّا أنّ القرآن المجید أشار إلیها مرارا، و هذا دلیل علی أهمیّتها القصوی حتّی أنّ القرآن عدّها وسیلة لبلوغ «المقام المحمود» و أساسا لقرّة العین «کما هو فی الآیة ۷۹ من سورة الإسراء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۵

و الآیة ۱۷ من سورة ألم السجدة».

و فی الرّوایات الإسلامیة أیضا اهتمام بالغ علی هذه القضیّة و بیان الحاجة «فی صلاة اللیل» و السهر فی السحر: ففی مکان یعدّها النّبی بأنّها کفّارة عن الذنوب فیقول:

«یا علی ثلاث کفّارات: ... منها: التهجّد باللیل و الناس نیام»[۸۳].

و فی حدیث آخر

ورد عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أشراف امّتی حملة القرآن و أصحاب اللیل»[۸۴].

و أیضا

فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوصی علیا علیه السّلام إذ قال أربع مرّات: علیک بصلاة اللیل ۸۵].

و ینقل عن الإمام الصادق فی تفسیر الآیة محلّ البحث: کانُوا قَلِیلًا مِنَ اللَّیْلِ ما یَهْجَعُونَ أنّه

قال: کانوا أقلّ اللیالی تفوتهم لا یقومون فیها[۸۶].

کما

ورد فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: الرکعتان فی جوف اللیل أحبّ إلیّ من الدنیا و ما فیها[۸۷].

کما

نقرأ حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال لسلیمان الدیلمی «أحد أصحابه»: لا تدع قیام اللیل فإنّ المغبون من حرم قیام اللیل ۸۸].

و بالطبع فإنّ الرّوایات فی هذا الصدد کثیرة و یلاحظ فیها تعابیر مثیرة و طریفة جدّا و لا سیّما التعبیر بأنّ صلاة اللیل وسیلة «لمحو الذنوب» و «تیقّظ الفکر» و «إشراق القلب» و «جلب الرزق» و «سعة العیش» و «الصحّة»، و لو جمعنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۶

هذه الرّوایات لحصلنا علی کتاب مستقل ۸۹].

و قد کان لنا بحوث أخر فی هذا المجال ذیل الآیة (۷۹) من سورة الإسراء و ذیل الآیة (۱۷) من سورة الم السجدة فلا بأس بمراجعتها.

۳- حقّ السائل و المحروم!

ممّا ینبغی ذکره أنّنا قرأنا فی الآیات المتقدّمة أنّ فی أموال الصالحین و المحسنین حقّا للسائل و المحروم، و هذا التعبیر یدلّ بوضوح أنّهم یعدّون أنفسهم مدینین للمحتاجین و المحرومین، و یعدّون السائل أو المحروم ذا حقّ علیهم، حقّ ینبغی دفعه إلیه دون امتنان و لا أذی، فکأنّه دین من سائر الدیون.

و کما قلنا آنفا فإنّ هذا التعبیر کما تدلّ علیه القرائن المتعدّدة لا علاقة له بالزکاة الواجبة و أمثالها، بل هو ناظر إلی النفقة المستحبّة التی یعدّها المتّقون دینا علیهم ۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۷

الآیات [سورة الذاریات (۵۱): الآیات ۲۰ الی ۲۳]

اشارة

وَ فِی الْأَرْضِ آیاتٌ لِلْمُوقِنِینَ (۲۰) وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِی السَّماءِ رِزْقُکُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ (۲۳)

التّفسیر

آیات اللّه و آثاره فی أنفسکم:

تعقيبا على الآيات المتقدّمـة التى كانت تتحـدّث عن مسألـة المعاد و صـفات أهل النار و أهل الجنّـة، تأتى هذه الآيات- محلّ البحث- لتتحـدّث عن آيات اللّه و دلائله فى الأرض و فى وجود الإنسان نفسه ليطّلع على مسألـة التوحيـد و معرفـة اللّه و صـفاته التى هى مبـدأ الحركـة نحو الخيرات كلّها من جهـة، و على قـدرته على مسألـة المعاد و الحياة بعـد الموت من جهة اخرى، لأنّ خالق الحياة على هذه الأرض و ما فيها من عجائب قادر على تجديد الحياة بعد الموت كذلك! تقول هذه الآية أوّلا: وَ فِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ

و الحقّ أنّ دلائل اللّه و قدرته غير المتناهية و علمه و حكمته التى لا حدّ لها فى هذه الأرض كثيرة و فيرة إلى درجة أنّ عمر أىّ إنسان مهما كان لا يكفى لمعرفتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۸

جميعا.

فحجم الأرض و بعدها عن الشـمس و حركتها حول نفسـها و حركتها حول الشمس و القوى الجاذبة و الدافعة التى تنتج عن حجمها و حركتها و هى متعادلـة فيما بينها تماما و متناسـقة فجميع هذه الأمور مجتمعة توفّر الحياة على سـطح الأرض و كلّ ذلك من آيات اللّه الكبرى.

فى حين أن لو تغيّرت حركـة من هذه الحركات و اختلفت الخصائص أقل اختلاف، لاضـطربت الموازين و تبدلّت ظروف الحياة على سطح الأرض.

فالمواد التى تتشكّل منها الأرض و المنابع التى هى فوق سطح الأرض و داخلها- المعدّة للحياة- كلّ منها آية من آيات اللّه و دلائله.

الجبال و السهول و الهضاب و الأنهار و العيون التى كلّ منها له أثره فى استمرار الحياة و اتّساق ظروفها دلائل اخرى من دلائله و آياته.

مئات الآلاف من أنواع النباتات و الحشـرات و الحيوانات .. أجل، مئات الآلاف كلّ منها بخصائصه و عجائبه عنـد مطالعة كتب الأحياء و «البايلوجيا» و كتب الجيولوجيا و التربة و علم النبات و علم الحيوان تدع الإنسان يستغرق فى حيرة مذهلة!.

و فى كلّ زاوية أو جانب من هذه الكرة الأرضـية أسرار مثيرة قلّ أن يلتفت إليها أحد، إلّا أنّ الباحثين و العلماء كشفوا النقاب عن جزء منها و أظهروا عظمة الخالق و قدرته.

و لاـ بـأس أن ننقـل هنـا جانبـا من كلمـات بعض العلماء المعروفين فى العالم الـذين لهم دراسات كثيرة فى هـذا الصـدد: إنّه «كرسـى موريسين» فلنصغ إليه قائلا:

«لقـد روعى منتهى الدقّـة فى تنظيم العوامـل الطبيعيـة فلو تضـخّمت القشـرة الخارجيـة للكرة الأرضـية أكثر ممّا كانت عليه عشـر مرّات لانعدم الأوكسجين الذى هو المادّة الأصلية للحياة، و لو أنّ أعماق البحار كانت أكثر عمقا ممّا هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۹

عليه قليلا أو كثيرا، لأنجـذب جميع الأوكسـجين و الكربون من سـطح الأرض و لم يعد أى إمكان لحياة النبات أو الحيوان على سـطح الأرض»! و يقول فى مكان آخر فى الغلاف الجوّى الـذى يحيط بالأرض: لو أنّ هذا الغلاف الذى يحيط بالأرض من الهواء كان رقيقا لخرقته الشـهب الثواقب التى تأتى كلّ يوم بنحو عدّة ملايين فتصـيب الأرض حيث ما وقعت، إلّا أنّ هذا الغلاف الجوّى يمنعها لكثافته فتتلاشى و تحترق عنده فلا تصل إلى الأرض.

و لو أنّ الشهب الثواقب خفّت سرعتها لما احترقت عند اصطدامها بالهواء و لوقعت على الأرض و دمّرت الكثير.

و يقول فى مكـان آخر أنّ نسـبة الأوكسـجين فى الهواء هى إحـدى و عشـرين بالمائـة فحسب، فلو كانت هـذه النسـبة خمسـين بالمائة لاحترق به كلّ ما من شأنه الاشتعال فى هذا العالم .. و لو وصلت شظية صغرى من النار إلى شجرة فى غابة لاحترقت الغابة جمعاء»! إنّ نسـبة كثافـة الهواء المحيـط بالأرض إلى درجـة بحيث يوصل الأشـعّة المناسـبة لرشـد النباتات و نموّها و تعـدم المكروبات الضارّة فى الفضاء نفسه و تنتج الفيتامينات النافعة.

و مع وجود الأبخرة المختلفة التى خرجت من باطن الأرض خلال القرون المتمادية و انتشرت فى الهواء و أغلبها أبخرة سامّة فمع ذلك فإنّ الهواء المحيط بالأرض لم يتلوّث و ما يزال باقيا على حالته الطبيعية المناسبة للحياة الإنسانية.

و الجهاز الذى يوجد هذه الموازنة و يحفظ هذا التعادل هو البحر و المحيط الذى منه تستمدّ المواد الحياتية و الغذاء و الأمطار و اعتدال الهواء و النباتات و أخيرا فإنّ وجود الإنسان نفسه يستمدّ منه أيضا.

فكلّ من يدرك هذه المعانى فعليه أن يطأطئ رأسه للبحر تعظيما و أن يشكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۰

مواهبه و خالق البحر»[۹۱].

و يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ أى أ فلا تبصرون هذه الآيات فى أنفسكم أيضا؟! و لا شكّ أنّ الإنسان أعجوبة عالم الوجود و ما هو فى العالم الأكبر موجود فى عالم الإنسان الأصغر أيضا، بل فى الإنسان عجائب لا توجد فى أى مكان من العالم! و العجب أنّ هذا الإنسان على عظمته و عقله و علمه و هذا الابتداع و الابتكار و الصنع العجيب كان أوّل يومه على صورة نطفة صغرى لا قيمة لها!! لكن ما أن استقرّت فى الرحم حتّى تكاملت بسرعة و تبدّلت يوما بعد يوم و لحظة بعد اخرى فإذا هذه النطفة التى لا قيمة لها تغدو إنسانا كاملا سويّا! خليّة واحدة التى هى أصغر جزء فى بدن الإنسان تشكّل بناية ضخمة متداخلة عجيبة فهى على حدّ تعبير بعض العلماء تعادل «مدينة صناعية».

يقول أحد علماء «علم الأحياء» إنّ هذه المدنية العظمى مع آلاف الأبواب أو البوابات المثيرة و آلاف المعامل و المخازن و شبكات المجارى و التأسيسات الكثيرة و الارتباطات و الأعمال الحياتية المختلفة كلّ ذلك فى مساحة صغيرة جدّا بمقدار خلية من أكثر الأمور تعقيدا و إثارة، إذ لو أردنا أن نهيّئ تأسيسات مثلها و لن نستطيع أبدا- لكان علينا أن نشغل مساحة آلاف الهكتارات من الأرض و عليها البنايات و الماكنات المختلفة المعقّدة لنصل إلى مثل هذه الخطّة!! إلّا أنّ الطريف أنّ جهاز الخلقة جعل كلّ ذلك فى مساحة تعدل خمسة عشر ميلونيم الميليمتر فحسب ۹۲].

إنّ الأجهزة الموجودة فى بدن الإنسان كالقلب و الكلية و الرئة و خاصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۱

عشرات آلاف الكيلومترات من الأعصاب الرقيقة أو الكبيرة و الأعصاب الدقيقة التى لا ترى بالعين المجرّدة و جميعها مسئولة عن إيصال الغذاء و الماء و التهوية إلى عشرة مليون مليارد خلية، و الحواس المختلفة كالسمع و البصر و الحواس الاخر كلّ منها آية عظمى من آيات اللّه.

و أهمّ من كلّ ذلك لغز الحياة التى لم تعرف أسرارها و بناء الروح أو العقل الإنسانى الذى يعجز عن إدراكه عقول جميع الناس و هنا- ينحنى الإنسان و يتمتم بالتسبيح و الحمد و الثناء للّه دون إختياره و يترنّم بهذه الأشعار:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلا

أنت حيّرت ذوى اللبّ و بلبلت العقولا

كلّما قدّم فكرى فيك شبرا فرّ ميلاناكصا يخبط فى عمياء لا يهدى سبيلا

و

قد ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[۹۳].

أجل إنّ معرفة النفس فى جميع المراحل طريق لمعرفة اللّه و التعبير: «أ فلا تبصرون» تعبير لطيف: أى إنّ هذه الآيات حولكم و فى داخلكم و فى تمام وجودكم بحيث لو فتحتم أعينكم و لو قليلا لأبصرتم آيات اللّه و لا رتوت أرواحكم من إدراك عظمته!.

و فى الآية الثالثة من الآيات- محلّ البحث- إشارة إلى القسم الثالث من دلائل عظمة الخالق و قدرته على المعاد إذ تقول: وَ فِي السَّماءِ

رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ

و بالرغم من أنّ بعض الرّوايات الإسلامية تفسّر «الرزق» فی هذه الآية ب

«المطر» الذی يمنح الحياة و هو مصدر الخير و البركة فی الأرض جميعا، و الآية (۵) من سورة الجاثية أيضا توافق هذا التّفسير إذ تقول: وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إلّا أنّ هذا المعنى يمكن أن يكون مصداقا جليّا من مصاديق الآية، فی حين أنّ سعة مفهوم الرزق تشمل حبّات المطر و غيرها كنور الشمس الذی يأتی من السماء و له أثره الفاعل فی الحياة، و الهواء الذی هو أساس حياة الموجودات.

كلّ هذا لو أخذنا مفهوم السماء بالمعنى اللغوی أی السماء التی فوقنا، إلّا أنّ بعضهم فسّرها بعالم الغيب و ما وراء الطبيعة أو اللوح المحفوظ الذی تقدّر منه أرزاق العباد! و بالطبع فإنّ الجمع بين التّفسيرين ممكن، و أن كان التّفسير الأوّل أنسب و أوضح!.

و أمّا جملة و ما تُوعَدُونَ فيمكن أن تكون تأكيدا على مسألة الرزق و وعد اللّه فی هذا المجال، أو أنّ المراد منها الجنّة الموعودة، لأنّنا نقرأ الآية ۱۵ من سورة النجم عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى أو أنّها إشارة إلى كلّ خير و بركة أو عذاب ينزل من السماء! أو أنّ «ما توعدون» ناظر إلى جميع هذه المعانی، لأنّ مفهوم «ما توعدون» واسع جدّا.

و على كلّ حال، فهذه الآيات الثلاث فيها ترتيب لطيف، فالآية الاولى تتحدّث عن أسباب وجود الإنسان و حياته، و الآية الثانية تتحدّث عن الإنسان نفسه، و الآية الثالثة تتحدّث عن أسباب بقائه و دوامه!.

و جدير بالالتفات أيضا أنّ ما يمنع البصيرة و يصدّها عن مطالعة أسرار الخلق و أسرار الأرض و عجائب وجود الإنسان هو «الحرص على الرزق»، فاللّه سبحانه يطمئن الإنسان فی الآية الأخيرة بأنّ رزقه مضمون، ليستطيع أن ينظر إلى عجائب العالم و يتحقّق فيه قوله: أَ فَلا تُبْصِرُونَ !

لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تقسم فتقول: فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ

و قد بلغ الأمر حدّا أن يقسم اللّه على ما لديه من عظمة و قدرة ليطمئن عباده الشاكّين ضعاف الأنفس الحريصين إنّ ما توعدون فی مجال الرزق و الثواب و العقاب و القيامة جميعه حقّ و لا ريب فی كلّ ذلك ۹۴].

و التعبير ب مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ تعبير لطيف و دقيق إذ يتحدّث عن أكثر الأشياء لمسا، لأنّه قد يخطئ الإنسان فی الباصرة أو السمع بأن يتوهّم أنّه سمع أو رأى، إلّا أنّه لا يمكن أن يتوهّم أنّه قال شيئا مع أنّه لم يقله .. لذلك فإنّ القرآن يقول: كما أنّ ما تنطقون محسوس عندكم و له واقع، فإنّ الرزق و الوعد الإلهی عنده كذلك! ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ النطق بنفسه واحد من أكبر الأرزاق و المواهب الإلهيّة التی لم يتمتّع بها أی موجود حیّ سوى الإنسان، و ليس بخاف أثر الكلام و النطق فی الحياة الاجتماعية و تعليم الناس و تربيتهم و انتقال العلوم و حلّ مشاكل الحياة على أحد.

بحوث

۱- قصّة الأصمعی المثيرة

ينقل الزمخشری فی كشّافه عن الأصمعی ۹۵] أنّه قال خرجت من مسجد البصرة فبصرت بأعرابی من أهل البادية راكبا على دابته فواجهنی و سألنی: من أی

القبائـل أنت؟! فقلت من بنی الأصـمع ... فقال من أین تأتی؟ فقلت: من مکان یقرأ فیه کلام اللّه فقال لی: اقرأ لی منه، فقرأت له آیات من سورة الذاریات حتّی بلغت وَ فِی السَّماءِ رِزْقُکُمْ فقال کفی. ثمّ نهض و عمد إلی بعیر عنده فنحره و قسّم لحمه علی المحتاجین من الذاهبین و الآئبین ثمّ عمد إلی سیفه و قوسه فکسّرهما أیضا و ألقاهما جانبا و استدار إلی الوراء و مضی و انتهت هذه القصّة!.

و حین مضـیت إلی حجّ بیت اللّه الحرام بمعیّة هارون الرشـید و کنت مشغولا فی الطواف إذا أنا برجل ینادینی بصوت ضعیف فنظرت فإذا هو ذلک الأعرابی و کان نحیلا مصـفّر الوجه «و کان یظهر علیه العشق الملتهب الـذی لم یدع له قرارا» فسـلّم علیّ و طلب منّی أن أعید علیه سورة الذاریات فلمّا بلغت الآیة آنفة الذکر صرخ:

و قال وجدنا وعد ربّنا حقّا .. ثمّ أضاف هل هناک آیة بعدها؟! فقرأت فورب السـماء و الأرض أنّه لحقّ: فصـرخ ثانیة و قال یا سـبحان اللّه من ذا الذی أغضب الجلیل حتّی حلف لیصدّقوه بقوله حتّی ألجأوه إلی الیمین ۹۶].

۲- أین الجنّة؟!

کما ذکرنا فی الآیات آنفة الذکر فإنّ بعض المفسّـِرین یری أنّ جملة وَ ما تُوعَدُونَ معناها الجنّة. و قالوا: یستفاد من هذه الآیة أنّ الجنّة فی السـماء، إلّا أنّ هـذا الکلام لا ینسـجم مع الآیة التی تتحدّث عن الجنّة فتقول: عَرْضُـهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ ۹۷] و کما قلنا- إنّ هـذا التّفسیر لجملة وَ ما تُوعَدُونَ لا دلیل علیه، بل یمکن أن یکون إشارة إلی وعد اللّه برزقه أو عذاب السماء.

و إذا کان فی الآیة (۱۵) من سورة النجم قد ورد أنّ جنّة المأوی فی السماء عند سدرة المنتهی فلیس ذلک دلیلا علی هذا المعنی، لأنّ «جنّة المأوی» قسم من

بساتین الجنّة لا جمیع الجنّة .. (فلاحظوا بدقّة).

۳- الاستفادة من آیات اللّه تحتاج إلی قابلیة!

حین تتحدّث آیات القرآن عن أسرار الخلق و دلائل اللّه فی عالم الوجود تقول تارة أنّ فی ذلک لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ یونس الآیة ۶۷.

و تارة تقول: لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ الرعد الآیة ۳.

و اخری تقول: لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ الرعد الآیة ۴.

أو تقول: لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ النحل الآیة ۷۹.

و فی مکان آخر تقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِأُولِی النُّهی سورة طه الآیة ۵۴.

و تارة تقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ الحجر الآیة ۷۵.

و أخیرا تقول: لَآیاتٍ لِلْعالِمِینَ الروم الآیة ۲۲.

و الآیات محلّ البحث تقول: أَ فَلا تُبْصِرُونَ ! أی إنّ آیات اللّه فی الأرض و فی أنفسکم واضحة جلیّة لأولئک الذین لهم بصر ثاقب.

و هـذه التعبیرات تدلّ دلالة واضـحة علی أنّ الاسـتفادة من الآیات التی لا تحصـی- الدالّة علی وجود ذاته المقدّسة فی الأرض تحتاج إلی اسـتعداد کـاف، عین باصـرة، اذن سـمیعة، فکر یقـظ، قلب ذکی و روح مهیّأة لقبول الحقائق متعطّشـة لها .. و إلّا فمن الممکن أن یعیش الإنسان سنین بین هذه الآیات إلّا أنّ مثله کمثل الحیوانات التی همّها علفها.

۴- الرزق حقّ

من جملة الأمور التی یحکمها نظام دقیق هی «مسألة الرزق» التی أشیر إلیها فی الآیات محلّ البحث إشارات واضحة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۶

صحیح أنّ الاستفادة من مواهب الحیاة مشروطة بالجدّ و السعی و المثابرة و أنّ الکسل و الخنوع مدعاة للتأخّر و الحرمان من الحیاة .. إلّا أنّه من الخطأ البیّن أن نتصوّر أنّ رزق الإنسان یزداد بالحرص و الولع و الأعمال الکثیرة و أنّ رزقه یقلّ بالتعفّف و التجلّد و ما إلی ذلک.

و نلاحظ فی الأحادیث الإسلامیة تعابیر طریفة فی هذا المجال:

ففی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ الرزق لا یجرّه حرص حریص و لا یصرفه کره کاره»[۹۸].

و

فی حدیث آخر عن الصادق علیه السّلام جوابا علی بعض أصحابه و قد طلب منه أن یعظه و ینصحه فقال علیه السّلام «... و إن کان الرزق مقسوما فالحرص لماذا»[۹۹]؟!

و الهدف من بیان هذه الأحادیث لیس هو الوقوف بوجه الجدّ و السعی بل هو تنبیه الحریصین أن یلتفتوا إلی أنّ رزقهم مقدّر لیرتدعوا عن حرصهم!.

و هنا لطیفة جدیرة بالالتفات و هی أنّ الرّوایات الإسلامیة ذکرت أمورا کثیرة علی أنّها مدعاة للرزق أو مانعة له، و کلّ منها مهمّ فی نفسه! نقرأ

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «و الذی بعث جدّی بالحقّ نبیّا انّ اللّه تبارک و تعالی یرزق العبد علی قدر المروءة و أنّ المعونة تنزل علی قدر شدّة البلاء»[۱۰۰].

و

عنه علیه السّلام أنّه قال: «کفّ الأذی و قلّة الصخب یزیدان فی الرزق»[۱۰۱].

کما

نقل عن نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «التوحید نصف الدین و استنزل الرّزق بالصدقة»[۱۰۲].

و هناک امور أخر ذکرت علی أنّها مدعاة لزیادة للرزق کتنظیف نواحی البیت و غسل الأوانی و تنظیفها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۷

الآیات [سورة الذاریات (۵۱): الآیات ۲۴ الی ۳۰]

اشارة

هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْراهِیمَ الْمُکْرَمِینَ (۲۴) إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (۲۵) فَراغَ إِلی أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ (۲۶) فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ قالَ أَ لا تَأْکُلُونَ (۲۷) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِیمٍ (۲۸)
فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ فَصَکَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ (۲۹) قالُوا کَذلِکِ قالَ رَبُّکِ إِنَّهُ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ (۳۰)

التّفسیر

ضيوف إبراهيم عليه السّلام

من هـذا المقطع- فما بعـد- يتحـدّث القرآن في هـذه السورة عن قصـص الأنبياء الماضـين و الأمم المتقدّمـة تأكيدا و تأييدا للموضوع آنف الـذكر و ما حواه من مسائل، و أوّل جانب يثيره هذا المقطع هو قصّة الملائكة الذين جاءوا لعذاب قوم لوط، و مرّوا على إبراهيم عليه السّلام على صورة بشر، ليبشّروه بالولد، مع أنّ إبراهيم بلغ سنّا كبيرا فهو في مرحلة المشيب و امرأته كانت عقيما كذلك!

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ٩٨

فمن جهـة .. يعـدّ إعطاء هـذا الولد لإبراهيم و زوجه و هما في مرحلة الكبر و اليأس من الإنجاب تأكيدا على كون الأرزاق مقدّرة كما أشير إلى ذلك في الآيات المتقدّمة.

و من جهة اخرى يعدّ دليلا آخر على قدرة الحقّ و آية من آيات معرفة اللّه التي ورد البحث عنها في الآيات آنفا.

و من جهـة ثالثـة يعـدّ بشـرى للأمم المؤمنـة بأنّها في رعايـة الحقّ- كما أنّ الآيات التالية تتحدّث عن عذاب قوم لوط و هي في الوقت ذاته تهديد للمجرمين.

ففي البدء يوجّه اللّه سبحانه الخطاب لنبيّه فيقول: هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ١٠٣].

و التعبير ب «المكرمين» إمّـا لأنّ هؤلاء الملائكـة كانوا مأمورين من قبل الحقّ، و قـد ورد التعبير عنهم في الآيـة (٢۶) من سورة الأنبياء أيضا بمثل هذا- بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ أو لأنّ إبراهيم عليه السّلام أكرمهم، أو للوجهين معا.

ثمّ يبيّن القرآن حالهم فيقول: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ١٠۴].

قال بعضـهم: جملة أنّهم «قوم منكرون» لم يصـرّح بها إبراهيم، بل حدّث بها نفسه لأنّ هذا الكلام لا ينسـجم مع وافر الاحترام للضـيف الكرام.

إلّا أنّه كما هو المعتاد قد يقول المضيّف للضيف في حال الاحترام و الترحيب:

«لا أدرى أين التقيت بک من قبل- أو يبدو انّک غريب ..»

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ٩٩

فبنـاء على هـذا يمكن التمسّـک بظـاهر الآيـة و أنّ إبراهيم قـال هـذا الكلام صـراحة و إن كـان الاحتمـال الأوّل غير بعيـد. خاصّـة أنّ «الضيف» لم يردّوا على هذا الكلام، و لو كان إبراهيم قال مثل هذا الكلام صراحة، فلا بدّ أن يجيبوه.

و على كلّ حال فإنّ إبراهيم أدّى ما عليه من حقّ الضيافة فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ

و الفعـل «راغ» كمـا يقول الراغب في مفرداته مشـتقّ من «روغ»- على وزن «شوق»- و معنـاه التحرّک مقرونـا بخطّه خفيّـة، لأنّ إبراهيم فعل «كـذلک» و قام بذلک خفاء لئلّا يلتفت الضـيف فلا يقبلوا بضـيافته التي تسـتلزم نفقة كثيرة! إلّا أنّه لم هيّأ إبراهيم طعاما كثيرا؟ مع أنّ ضيفه كانوا كما يقول بعض المفسّرين «ثلاثة» و قال بعضهم: كانوا اثنى عشر- و هذا أقصى ما قاله بعض المفسّرين ١٠۵]-.

فـذلک لأنّ الكرماء لا يهيّؤون الطعام بمقـدار الضـيف فحسب، بل يهيّؤون طعاما يسـتوعب حتّى العمّال ليشاركوهم في الأكل، و ربّما أخـذوا بنظر الإعتبار حتّى الجار و الأقارب فعلى هـذا لا يعـدّ مثل هذا الطعام الذي هيّأه إبراهيم إسـرافا، و يلاحظ هذا المعنى في يومنا هذا عند بعض العشائر التي تعيش على طريقتها القديمة.

و «العجـل» على وزن «طفـل» معناه ولـد البقر «و ما يراه بعضـهم أنّه الخروف فلا ينسـجم مع متون اللغـة»! .. و هـذه الكلمـة مأخوذة في الأصل من العجلة، لأنّ هذا الحيوان في هذه السنّ و في هذه المرحلة يتحرّک حركة عجلى، و حين يكبر تزول عنه هذه الصفة تماما.

و «السمين» معناه المكتنز لحمه، و انتخاب مثل هذا العجل إنّما هو لإكرام الضيف و ليسع المتعلّقين و الأكلة الآخرين!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۰

و فی الآیة التاسعة و الستّین من سورة هود جاء و صف هذا العجل بأنّه «حنیذ» أی مشویّ، و بالرغم من أنّ الآیة محلّ البحث لم تذکر شیئا عن هذا العجل، إلّا أنّه لا منافاة بین التعبیرین.

ثمّ تضیف الآیة بالقول عن إبراهیم و ضیفه فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ إلّا أنّه لاحظ أنّ أیدیهم لا تصل إلی الطعام فتعجّب و قالَ أ لا تَأْکُلُونَ

و کان إبراهیم یتصوّر أنّهم من الآدمیین فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً لأنّه کان معروفا فی ذلک العصر و فی زماننا أیضا بین کثیر من الناس الملتزمین بالتقالید العرفیة، أنّه متی ما أکل شخص من طعام صاحبه فلن یناله أذی منه و لا یخونه ..

و لذلک فإنّ الضیف إذا لم یأکل من طعام صاحبه، یثیر الظنّ السیء بأنّه جاء لأمر محذور، و قد قیل علی سبیل المثل فی لغة العرب: من لم یأکل طعامک لم یحفظ ذمامک»! و «الإیجاس» مشتقّ من وجس- علی وزن مکث- و معناه فی الأصل الصوت الخفی و من هنا فقد أطلق الإیجاس علی الإحساس الداخلی و الخفی، فکأنّ الإنسان یسمع صوتا داخله و حین یقترن الإیجاس بالخیفة یکون معناه الإحساس بالخوف.

و هنا قال له الضیف کما ورد فی الآیة (۷۰) من سورة هود طمأنة له ف قالُوا لا تَخَفْ

و یضیف القرآن: وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِیمٍ

و بدیهی أنّ الغلام عند ولادته لا یکون علیما، إلا أنّه من الممکن أن یکون له استعداد بحیث یکون فی المستقبل عالما کبیرا ... و المراد به هنا هو ذلک المعنی!.

و هذا الغلام من هو؟ هل هو إسحاق أم إسماعیل؟! هناک أقوال بین المفسّرین و إن کان المشهور أنّه إسحاق و احتمال کونه إسماعیل- مع ملاحظة الآیة (۷۱) من سورة هود التی تقول فبشّرناها بإسحاق- یبدو غیر صحیح، فبناء علی ذلک لیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۱

من شکّ أنّ المرأة التی یأتی ذکرها فی الآیات التالیة هی سارة زوج إبراهیم و ولدها هذا هو إسحاق! فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ فَصَکَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ و نقرأ فی الآیة (۷۲) من سورة هود قوله تعالی: قالَتْ یا وَیْلَتی أ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِی شَیْخاً!؟

فبناء علی هذا فصراخها کان صراخ تعجّب مقرون بالسرور، و کلمة «صرّة» مشتقّة من الصرّ علی وزن الشرّ، و معناه فی الأصل الشدّ و الارتباط، کما یطلق علی الصوت العالی و الصراخ و الجماعة المتراکمة لأنّها ذات شدّة و ارتباط.

و یطلق علی الریح الباردة «صرصر» لأنّها تصرّ الإنسان و «الصرورة» کلمة تطلق علی من لم یحجّ رجلا کان أو امرأة! کما تطلق علی من لم یرغب فی الزواج [منهما] لأنّ فی ذلک نوعا من الامتناع أو الارتباط، و الصرّة فی الآیة محلّ البحث معناها هو الصوت العالی الشدید.

أمّا «صکّت» فمشتقّة من مادّة صکّ علی وزن شکّ- و معناها الضرب الشدید أو الضرب، و المراد منها هنا هو أنّ امرأة إبراهیم حین سمعت بالبشری ضربت بیدها علی وجهها- کعادة سائر النساء- تعجّبا و حیاء! و طبقا لما یقول بعض المفسّرین و ما ورد فی سفر التکوین فإنّ امرأة إبراهیم کانت آنئذ فی سنّ التسعین و إبراهیم نفسه کان فی سنّ المائة عاما .. أو أکثر.

إلّا أنّ الآیة التالیة تنقل جواب الملائکة لها فتقول: قالُوا کَذلِکَ قالَ رَبُّکِ إِنَّهُ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ

فبالرغم من کونک امرأة عجوزا و بعلک مثلک شیخا إلّا أنّ أمر اللّه إذا صدر فی شیء ما فلا بدّ أن یتحقّق دون أدنی شکّ!.

حتّی خلق العالم الکبیر کعالمنا هذا إنّما هو علیه سهل إذ تمّ بقوله: کن فکان! و التعبیر ب «الحکیم» و «العلیم» إشارة إلی أنّه لا یحتاج إلی الإخبار بکونک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۲

امرأة عقیما عجوزا و بعلک شیخا، فاللّه یعرف کلّ هذه الأمور، و إذا لم یرزقک حتّی الآن ولدا و أراد أن یهبک فی هذه السنّ ولدا

فإنّما هو لحكمته! الطريف أنّنا نقرأ فى الآية (۷۳) من سورة هود أنّ الملائكة قالوا لها:

أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

و وجود الفرق بين هذين التعبيرين هو لأنّ الملائكة قالوا كلّ ذلك لسارة ..

منتهى الأمر أنّ قسما منه أشارت إليه سورة هود، و هنا إشارة إلى القسم الآخر، ففى سورة هود جاء الكلام عن «رحمة اللّه و بركاته» و هما يتناسبان مع كونه حميدا مجيدا.

أمّا هنا فالكلام على علمه بعدم استعداد هذين الزوجين للإنجاب و الولد و يأس المرأة بحسب الأسباب الطبيعية «الظاهرية» و يتناسب مع هذا الكلام أن يقال أنّه هو العلم، و إذ سئل لم لم يرزقهما فى فترة الشباب ولدا. فيقال: أنّ فى ذلك حكمة و هو الحكيم سبحانه.

ملاحظة

كرم الأنبياء:

كثيرا ما يظنّ الممسكون البخلاء أنّ السخاء و النظرة البعيدة ضرب من الإفراط و الإسراف و التبذير، و التشدّد و ضيق النظرة نوع من الزهد و التدبير!! و القرآن يكشف عن هذه الحقيقة فى هذه الآيات و الآيات التى مرّت فى سورة هود، و هى أنّ الضيافة بسعتها و بشكلها المعقول ليست مخالفة للشرع، بل طالما قام النّبى بمثل هذا العمل، فهو دليل على أنّ هذا الأمر محبوب، و بالطبع فإنّ ضيافة كهذه الضيافة التى تستوعب الآخرين إنّما هى سنّة الكرماء الشرفاء.

و اللّه سبحانه لم يحرّم التمتّع بمواهب الحياة و كون الإنسان ذا مال حلال كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۳

كان إبراهيم- فلا ضير أن يتصرّف بماله كما فعل إبراهيم عليه السّلام أيضا.

فإبراهيم مع كونه ثريّا ذا مال لم يغفل عن ذكر اللّه لحظة واحدة و لم يكن قلبه أسير ثروته و لم يجعل منافعه منحصرة به وحده.

يقول القرآن فى الآية ۳۲ من سورة الأعراف: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و فى هذا الصدد كان لنا بحث مفصّل ذيل الآية ۳۲ من سورة الأعراف .. «فلا بأس بمراجعته هناك».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۵

بداية الجزء السابع و العشرون من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۷

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۳۱ الى ۳۷]

اشارة

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۳۱) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (۳۴) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۳۵)

فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۶) وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۳۷)

التّفسیر

مدن قوم لوط المدمرة آیة و عبرة:

تعقیبا علی ما سبق من الحدیث عن الملائکة الذین حلّوا ضیفا علی إبراهیم و بشارتهم إیّاه فی شأن الولد «إسحاق» تتحدّث هذه الآیات عمّا دار بینهم و بین إبراهیم فی شأن قوم لوط.

توضیح ذلک .. أنّ إبراهیم بعد ما ابعد إلی الشام .. و اصل دعوة الناس إلی اللّه و مواجهته لکلّ أنواع الشرک و عبادة الأصنام .. و قد عاصر إبراهیم الخلیل «لوط» أحد الأنبیاء العظام و یحتمل أنّه کان مأمورا من قبله بتبلیغ الناس و هدایة الضالّین، فسافر إلی بعض مناطق الشام «أی مدن سدوم» فحلّ فی قوم مجرمین ملوّثین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۸

بالشرک و المعاصی الکثیرة، و کان أقبحها تورّطهم فی الانحراف الجنسی و اللواط، و أخیرا فقد أمر رهط من الملائکة بعذابهم و هلاکهم إلّا أنّهم مرّوا بإبراهیم قبل إهلاکهم.

و قد عرف إبراهیم من حال الضیف (الملائکة) أنّهم ماضون لأمر مهمّ، و لم یکن هدفهم الوحید البشری بتولّد إسحاق، لأنّ واحدا منهم کان کافیا لمهمّة «البشارة». أو لأنّهم کانوا عجلین فأحسّ بأنّ لدیهم «مأموریة» مهمّة.

لذلک فإنّ أوّل آیة من الآیات محلّ البحث تحکی بدایة المحاورة فتقول:

قالَ فَما خَطْبُکُمْ أَیُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۱۰۶].

فأماط الملائکة اللثام عن «وجه الحقیقة» و مأموریتهم ف قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلی قَوْمٍ مُجْرِمِینَ

إنّهم قوم متلوّثین- إضافة إلی عقیدتهم الفاسدة- بأنواع الآثام و الذنوب المختلفة المخزیة القبیحة[۱۰۷].

ثمّ أضافوا قائلین: لِنُرْسِلَ عَلَیْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِینٍ و التعبیر ب «حجارة من طین» هو ما أشارت إلیه الآیة ۸۲ من سورة هود بالقول من «سجّیل» و سجّیل کلمة فارسیة الأصل مأخوذ من (سنگ+ گل) ثمّ صارت فی العرب سجّیل، فهی لیست صلبة کالحجر و لا رخوا کالورد، و لعلّها فی المجموع إشارة إلی هذا المعنی و هو أنّ هلاک قوم لوط المجرمین لم یکن یستلزم إنزال أحجار عظیمة و صخور و جلامید من السماء، بل کان یکفی أن یمطروا بأحجار صغیرة لیست صلبة جدّا کأنّها حبّات «المطر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۹

ثمّ أضاف الملائکة قائلین: مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُسْرِفِینَ کلمة مسوّمة تطلق علی ما فیه علامة و وسم، و هناک أقوال بین المفسّرین فی کیفیة أنّها «مسوّمة»؟! قال بعضهم إنّها کانت فی شکل خاصّ یدلّ علی أنّها لیست أحجارا کسائر الأحجار الطبیعیة، بل کانت وسیلة للعذاب.

و قال جماعة کان لکلّ واحدة منها علامة و کانت لشخص معیّن و علامتها فی نقطة خاصّة لیعلم الناس أنّ عقاب اللّه فی منتهی الدقّة بحیث یعلم من هذه الأحجار المسوّمة أنّ أیّ مجرم ینال واحدة منها فیهلک بها.

کلمة «المسرفین» إشارة إلی کثرة ذنوبهم بحیث تجاوزت الحدّ و خرقوا أستار الحیاء و الخجل، و لو قدّر لبعض الدارسین أن یتفحّص حالات قوم لوط و أنواع ذنوبهم للاحظ أنّ هذا التعبیر فی حقّهم ذو مغزی کبیر[۱۰۸].

و کلّ إنسان من الممکن أن یقع فی الذنب أحیانا، فلو تیقّظ بسرعة و أصلح نفسه یرتفع الخطر، و إنّما یکون خطیرا حین یبلغ حدّ الإسراف!.

و یکشف هذا التعبیر عن مطلب مهمّ آخر، و هو أنّ هذه الحجارة السماویة التی أعدت لتنزل علی قوم لوط لا تختّص بهؤلاء القوم، بل

معدّة لجمیع المسرفین و العصاة المجرمین.

و القرآن هنا یکشف عمّا جری لرسل اللّه إلی نبیّه لوط علی أنّهم حلّوا ضیفا عنده، و قد تبعهم قوم لوط بلا حیاء و لا خجل ظنّا منهم أنّهم غلمان نضرون لیقضوا منهم وطرهم!! إلّا أنّهم سرعان ما أحسّوا بخطئهم فإذا هم عمی العیون، فیذکر قول اللّه فیهم ۱۰۹] فَأَخْرَجْنا مَنْ کانَ فِیها مِنَ الْمُؤْمِنِینَ فَما وَجَدْنا فِیها غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۰

أجل فنحن لا ـ نحرق الأخضر و الیابس معا، و عدالتنا لا تسمح أن یبتلی المؤمن بعاقبة الکافر حتّی و لو کان بین آلاف الآلاف من الکافرین رجل مؤمن طاهر لأنجیناه! و هذا هو ما أشارت إلیه الآیتان ۵۹ و ۶۰ من سورة الحجر بالقول: إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِینَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِینَ

و نقرأ فی سورة هود الآیة ۸۱ مثله: فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ وَ لا یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَکَ إِنَّهُ مُصِیبُها ما أَصابَهُمْ

أمّا فی سورة العنکبوت فقد وردت الإشارة فی الآیة (۳۲) کما یلی: قالَ إِنَّ فِیها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِیها لَنُنَجِّیَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ کانَتْ مِنَ الْغابِرِینَ

کما أنّ هذا الموضوع ذاته مشار إلیه فی الآیة (۸۳) من سورة الأعراف:

فَأَنْجَیْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ کانَتْ مِنَ الْغابِرِینَ

و کما تلاحظون، أنّ هذا القسم من قصّة قوم لوط ورد فی هذه السور الخمس فی عبارات مختلفة و جمیعها یتحدّث عن حقیقة واحدة .. إلّا أنّه حیث یمکن أن ینظر إلی حادثة ما من زوایا متعدّدة و کلّ زاویة لها بعدها الخاصّ .. فإنّ القرآن ینقل الحوادث التاریخیة- علی هذه الشاکلة- غالبا، و التعابیر المختلفة فی الآیات المتقدّمة شاهدة علی هذا المعنی.

أضف إلی ذلک أنّ القرآن کتاب تربوی و إنسانی- و فی مقام التربیة یلزم أحیانا أن یعول علی مسألة مهمّة مرارا لتترک أثرها العمیق فی ذهن القارئ ..

غایة ما فی الأمر ینبغی أن یکون هذا التکرار بتعابیر طریفة و مثیرة و مختلفة لئلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۱

یقع السأم و یملّ الإنسان، و أن یکون الأسلوب فصیحا بلیغا!.

«و لمزید التوضیح فی شأن ضیف إبراهیم و ما دار بینهم و بینه ثمّ عاقبة قوم لوط المرّة یراجع ذیل الآیات ۸۳ من سورة الأعراف و ۸۱ من سورة هود و ۵۹ و ۶۰ من سورة الحجر و ۳۲ من سورة العنکبوت».

و علی کلّ حال فإنّ اللّه سبحانه زلزل مدن قوم لوط و قلب عالیها سافلها ثمّ أمطرها بحجارة من سجّیل منضود و لم یبق منها أثرا ... حتّی أنّ أجسادهم دفنت تحت الأنقاض و الحجارة! لتکون عبرة لمن یأتی بعدهم من المجرمین و الظالمین غیر المؤمنین.

و لذلک فإنّ القرآن یضیف قائلا فی آخر آیة من الآیات محلّ البحث:

وَ تَرَکْنا فِیها آیَةً لِلَّذِینَ یَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِیمَ

و هذا التعبیر یدلّ بوضوح أنّ من یعتبر و یتّعظ بهذه الآیات هم الذین لدیهم استعداد للقبول فی داخل کیانهم و یحسّون بالمسؤولیة.

بحث

أین تقع مدن قوم لوط؟

من المسلّم به أنّ إبراهيم الخليل جاء إلى الشام بعد أن هاجر من العراق و «بابل» و يقال أنّ لوطا كان يقطن معه إلّا أنّه بعد فترة توجّه نحو «سدوم» ليدعو إلى التوحيد و يكافح الفساد.

و «سدوم» واحدة من مدن قوم لوط و أحيائهم التى كانت من بلاد الأردن على مقربة من البحر الميّت .. و كانت أرضها خصبة كثيرة الأشجار، إلّا أنّ هذه الأرض بعد نزول العذاب الإلهى على هؤلاء الظالمين من قوم لوط قلب عاليها سافلها و تهدّمت مدنها و سمّين بالمؤتفكات «أى المقلوبات».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۲

و ذهب بعضهم أنّ آثار هذه المدن الخربة غرقت فى الماء و يزعمون أنّهم رأوا فى زاوية من البحر الميّت أعمدتها و آثارها و خرائبها الاخرى.

و ما نقرؤه فى بعض التفاسير الإسلامية هو أنّ المراد من جملة «و تركنا فيها آية» هو المياه العفنة و المستنقعات التى غطّت أماكن هذه المدن، و لعلّه إشارة إلى هذا المعنى و هو أنّه بعد الزلازل الشديدة و انشقاق الأرض انفتح طريق من البحر الميّت نحو هذه الأرض فغرقت جميع آثارها تحت الماء.

فى حين أنّ بعضهم يعتقد أنّ مدن لوط لم تغرق بعد و ما تزال على مقربة من البحر الميّت منطقة مغطّاة بالصخور السود و يحتمل أن تكون هى محلّ مدن قوم لوط! و قيل أنّ مركز إبراهيم كان فى مدينة «حبرون» على فاصلة غير بعيدة من «سدوم» و حين نزل العذاب و الصاعقة من السماء أو الزلزلة فى الأرض و احترقت «سدوم» كان إبراهيم واقفا قريبا من حبرون و شاهد دخان تلك المنطقة المتصاعد فى الفضاء بامّ عينيه ۱۱۰]!.

و من مجموع هذه الكلمات تتّضح الحدود التقريبية لهذه المدن و إن كانت جزئياتها ما تزال وراء ستار الإبهام باقية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۳

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۳۸ الى ۴۶]

اشارة

وَ فِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۳۸) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۴۰) وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (۴۱) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (۴۲)

وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (۴۳) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۴۶)

التّفسير

دروس العبرة من الأقوام السالفة:

يتحدّث القرآن فى هذه الآيات محلّ البحث- تعقيبا على قصّة قوم لوط و عاقبتهم الوخيمة- عن قصص أقوام آخرين ممّن مضوا فى العصور السابقة.

فيقول أوّلا: وَ فِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۴

«السلطان» ما يكون به التسلّط، و المراد به هنا المعجزة أو الدليل و المنطق العقلى القوىّ أو كلاهما، و قد واجه موسى فرعون بهما.

و التعبير ب بِسُلْطانٍ مُبِينٍ جاء فى آيات القرآن المتعدّدة و المختلفة كثيرا ..

و غالبا ما يراد منه الدليل المنطقى البيّن و الواضح إلّا أنّ فرعون لم يسلّم لمعجزات موسى الكبرى التى كانت شاهدا على ارتباطه باللّه و لم يطأطئ رأسه للدلائل المنطقية .. بل بقى مصرّا لما كان فيه من غرور و تكبر فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

«الركن» فى الأصل القاعدة الأساسية أو الاسطوانة[۱۱۱] و القسم المهمّ من كلّ شىء، و هو هنا لعلّه إشارة إلى أركان البدن، أى أنّ فرعون أدار ظهره لموسى تماما! و قال بعضهم المراد بالركن هنا جيشه، أى أنّه اعتمد على أركان جيشه و تولّى عن رسالة الحقّ. أو أنّه صرف نفسه عن أمر اللّه و صرف أركان حكومته- و جيشه جميعا عن ذلك أيضا[۱۱۲].

و الطريف أنّ الجبابرة المتكبّرين حين كانوا يتّهمون الأنبياء بالكذب و الافتراء كانوا يتناقضون تناقضا عجيبا. فتارة يتّهمونهم بأنّهم سحرة، و اخرى بأنّهم مجانين، مع أنّ الساحر ينبغى أن يكون ذكيا و أن يعوّل على مسائل دقيقة و يعرف نفوس الناس حتّى يسحرهم و يخدعهم بها .. و المجنون بخلافه تماما.

إلّا إنّ القرآن يخبر عن فرعون الجبّار و أعوانه بقوله: فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ

«اليمّ»: كما هو مذكور فى كتب اللغة و كتب الأحاديث يطلق على البحر، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۵

يطلق على الأنهار العظيمة كالنيل مثلا[۱۱۳] جملة «فنبذناهم» إشارة إلى أنّ فرعون و جنوده كانوا فى درجة من الضعف أمام قدرة اللّه بحيث ألقاهم فى اليمّ كأنّهم موجود لا قيمة و لا مقدار له.

و التعبير ب وَ هُوَ مُلِيمٌ إشارة إلى أنّ العقاب الإلهى لم يمحه فحسب بل التاريخ من بعده يلومه على أعماله المخزية و يذكرها بكلّ ما يشينه و يلعنه ..

و يفضح غروره و تكبّره بإماطة النقاب عنهما.

ثمّ يتناول القرآن عاقبة قوم آخرين بالذكر و هم «قوم عاد» فيقول: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ

و كون الريح عقيما هو عند ما تأتى الريح غير حاملة معها السحب الممطرة، و لا تلقح النباتات و لا تكون فيها أيّة فائدة و لا بركة و ليس معها إلّا الدمار و الهلاك! ثمّ يذكر القرآن سرعة الريح المسلّطة على عاد فيقول: ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ

«الرميم» مأخوذ من الرمّة على زنة (المنّة)- و هى العظام النخرة البالية.

و الرمّة- على وزن القبّة- هى الحبل المتآكل أو الخيط البالى و الرّم ۱۱۴] على وزن الجنّ- ما يسقط من الخشب أو التبن على الأرض و «الترميم» معناه إصلاح الأشياء المتآكلة[۱۱۵]! و هذا التعبير يدلّ على أنّ سرعة الريح المسلّطة على قوم عاد لم تكن سرعة طبيعيّة، بل إضافة إلى تخريبها البيوت و هدمها المنازل، فهى محرقة و ذات سموم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۶

ممّا جعلت كلّ شىء رميما.

أجل، هذه قدرة اللّه التى تدمّر القوم الجبّارين بسرعة الريح المذهلة فلا تبقى منهم و من ضجيجهم و صخبهم و غرورهم إلّا أجسادا تحوّلت رميما.

و هكذا أشارت الآية آنفة الذكر إشارة عابرة عن عاقبة قوم «عاد» الأثرياء الأقوياء الذين كانوا يقطنون الأحقاف و هى منطقة «ما بين عمان و حضرموت» ثمّ تصل النوبة إلى ثمود قوم صالح إذ أمهلهم اللّه قليلا ليتلقوا العذاب بعد ذلك .. فيقول اللّه فيهم: وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ

و المراد ب حَتَّى حِينٍ هو الأيّام الثلاثة المشار إليها فى الآية (۶۵) من سورة هود إمهالا لهم: فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ

ذلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ

و مع أنّ اللّه قد أنذرهم بواسطة نبیّهم «صالح» علیه السّلام مرارا .. إلّا أنّه إتماما للحجّة أمهلهم ثلاثة أیّام فلعلّهم یتدارکون ما فرطوا فی ماضیهم الأسود و یغسلوا صدأ الذنوب- بماء التوبة- عن قلوبهم و أرواحهم.

بل کما یقول بعض المفسّرین: ظهرت خلال الأیّام الثلاثة بعض التغیّرات فی أبدانهم إذ صارت صفراء ثمّ حمرا ثمّ تحوّلت سودا .. لتکون نذیرا لهؤلاء القوم المعاندین، إلّا أنّهم و للأسف لم یؤثّر فیهم أی شیء من هذه الأمور و لم ینزلوا عن مرکب غرورهم.

أجل: فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ

کلمة «عتوا» مشتقّة من العتوّ- علی وزن غلوّ- و معناه الإعراض «بالوجه»، و الانصراف عن طاعة اللّه، و الظاهر أنّ هذه الجملة إشارة إلی ما کان منهم من إعراض طوال الفترة التی دعاهم فیها نبیّهم صالح کالشرک و عبادة الأوثان و الظلم و عقرهم الناقة التی کانت معجزة نبیّهم، لا الإعراض الذی کان منهم خلال الأیّام الثلاثة فحسب، و بدلا من أن یتوبوا و ینیبوا غرقوا فی غرورهم و غفلتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۷

و الشاهد علی ذلک قوله تعالی فی سورة الأعراف: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا یا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِینَ ۱۱۶] و الصاعقة و الصاقعة کلّا اللفظین بمعنی واحد تقریبا، و أصلهما الهوّی المقرون بالصوت الشدید، مع تفاوت بینهما، و هو أنّ الصاعقة تطلق علی ما یقع فی الأشیاء السماویة و الصاقعة فی الأشیاء فوق الأرض.

و کما یقول بعض أهل اللغة فإنّ «الصاعقة» تعنی الموت حینا أو العذاب أو النار حینا آخر، و هذه الکلمة تطلق غالبا علی الصوت الشدید الذی یسمع فی السماء مقرونا بالنار المهلکة.

و قد أشرنا من قبل أنّ السحب ذات الشحنات الموجبة إذا اقتربت من الأرض التی تحتوی علی شحنات سالبة، یحدث و میض کهربائی شدید من هذین مقرونا بصوت مرعب و نار محرقة یهتزلها مکان الحادث.

و فی القرآن الکریم استعملت هذه الکلمة فی الآیة (۱۹) من سورة البقرة بهذا المعنی بجلاء، لأنّه بعد أن یتحدّث القرآن عن الصیّب و البرق و الرعد یضیف قائلا:

یَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ

و أخیرا فإنّ آخر جملة تتحدّث عن شأن هؤلاء القوم المعاندین تقول: فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِیامٍ وَ ما کانُوا مُنْتَصِرِینَ

أجل: هکذا تدمّر الصاعقة حین تقع علی الأرض بصورة مفاجئة، فلا یستطیع الإنسان أن ینهض من الأرض، و لا یقدر علی الصریخ و الإستنصار، و علی هذه الحال هلک قوم صالح و کانوا عبرة للآخرین.

أجل: إنّ قوم صالح (ثمود) الذین کانوا من القبائل العربیة و کانوا یقطنون «الحجر» و هی منطقة تقع شمال الحجاز مع إمکانات مادیة هائلة و ثروات طائلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۸

و عمّروا طویلا فی قصور مشیّدة .. اهلکوا بسبب إعراضهم عن أمر اللّه و طغیانهم و عنادهم و الشرک و الظلم، و بقیت آثارهم درسا بلیغا من العبر للآخرین.

و فی آخر آیة من الآیات محلّ البحث إشارة قصیرة إلی عاقبة خامس أمّة من الأمم، و هی قوم نوح فتقول: وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ ۱۱۷].

و «الفاسق» یطلق علی من یخرج علی حدود اللّه و أمره، و یکون ملوّثا بالکفر أو الظلم أو سائر الذنوب.

و التعبیر ب «من قبل» لعلّه إشارة إلی أنّ قوم فرعون و قوم لوط و عادا و ثمود کان قد بلغهم ما انتهی إلیه قوم نوح من عاقبة وخیمة، إلّا أنّهم لم یتنبهوا، فابتلوا بما ابتلی به من کان قبلهم من قوم نوح!

تعقیب

۱- أوجه عذاب اللّه!

ممّا ینبغی الالتفات إلیه أنّه ورد فی الآیات الآنفـة الإشارة إلی قصـص خمس امم من الأمم المتقدّمـة «قوم لوط، فرعون، عاد، ثمود، و قوم نوح» و قد أشیر إلی جزاء أربع من هذه الأمم و ما عوقبت به، إلّا أنّه لم ترد الإشارة فی کیفیة عقاب قوم نوح.

و حین نلاحظ بدقّة نجد کلّ امّة من الأمم الأربع المتقدّم ذکرها عوقبت بنوع من العناصر الأربعة المعروفة! فقوم لوط عوقبوا بالزلزلة و الحجارة (من السـماء) أی أنّهم أهلکوا بالتراب، و قوم فرعون أهلکوا بالماء غرقا- و عاد أهلکوا بریـح صرصـر عاتیـة (سـریعة) و ثمود أهلکوا بالصاعقة و «النار».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۹

و صـحیح أنّ هذه الأشـیاء الأربعة لا تعدّ الیوم (عنصـرا) أی جسما بسیطا، لأنّ کلّا منها مرکب من أجسام أخر، إلّا أنّه لا یمکن الإنکار أنّهـا تمثّل أربعـة أرکان حیاة الإنسان المهمّـة، و متی ما حـذف أی منها فلا یمکن أن یواصل الإنسان حیاته فکیف بحـذف جمیعها؟! أجل إنّ اللّه سـبحانه أهلک هذه الأمم بشـیء یعدّ عامل البقاء و الحیاة الأصـیل و لم یسـتطیعوا بدونه أن یواصلوا الحیاة .. و هذه قدرة (غائیة) عجیبة! و إذا لم نجد بیانا عن ما عوقب به قوم نوح علیه السّـلام خلال السـیاق، فلعلّه لأنّهم عوقبوا بمثل ما عوقب به قوم فرعون أی اهلکوا بالغرق (و الطوفان) و لم تکن حاجة هنا للتکرار!

۲- الریاح اللواقح و الریاح العقیم!

قرأنا فی الآیات الآنفة أنّ عادا أهلکوا بالریح العقیم، و نقرأ فی الآیة (۲۲) من سورة الحجر وَ أَرْسَلْنَا الرِّیاحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً! و بـالرغم أنّ هـذه الآیـة نـاظرة إلی تلقیـح الغیوم و اتّصـال بعضـها ببعض لنزول الغیث .. إلّا أنّها و بشـکل عام تبیّن أثر الریاح فی حیاة الإنسان ... أجل إنّ أثرها و عملها التلقیـح، تلقیح الغیوم و تلقیح النباتات، و حتّی أنّها تؤثّر أحیانا علی تهیأة مختلف الحیوانات للتلاقح! إلّا أنّ هـذه الریح حین تحمل الأمر بالعذاب، فبدلا من أن تهب الحیاة تکون عاملا علی الهلاک، و کما یعبّر القرآن فی الآیة (۲۰) من سورة القمر التی تتکلّم علی عاد فتقول: تَنْزِعُ النَّاسَ کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۰

الآیات [سورة الذاریات (۵۱): الآیات ۴۷ الی ۵۱]

اشارة

وَ السَّماءَ بَنَیْناها بِأَیْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِـعُونَ (۴۷) وَ الْأَرْضَ فَرَشْـناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (۴۸) وَ مِنْ کُلِّ شَـیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۴۹) فَفِرُّوا إِلَی اللَّهِ إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۵۰) وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ (۵۱)

التّفسیر

و السماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون:

مرّة اخرى تتحدّث هذه الآيات عن موضوع آيات عظمة اللّه فى عالم الخلق، و هى فى الحقيقة تتمّة لما ورد فى الآيتين (۲۰) و ۲۱) من هذه السورة فى شأن آياته فى الأرض و فى نفس «الإنسان» و وجوده- و هى ضمنا دليل على قدرة اللّه على المعاد و الحياة فتقول أوّلا: وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ

«الأيد» على وزن الصيد، معناه القدرة و القوّة- و قد تكرّر هذا المعنى فى آيات القرآن المجيد، و هو هنا بمعنى قدرة اللّه المطلقة العظيمة فى خلق السماوات!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۱

و دلائل هذه القدرة العظيمة واضحة جليّة فى عظمة السماوات و نظامها الخاصّ الحاكم عليها أيضا[۱۱۸].

و هناك كلام بين المفسّرين فى المراد من وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ

فقال بعضهم معناه توسعة الرزق من قبل اللّه على العباد بواسطة نزول الغيث، و قال بعضهم معناه توسعة الرزق من جميع الجهات، و قال بعضهم معناه غنى اللّه و عدم حاجته، لأنّ خزائنه من السعة بحيث لا تنفذ و لا تنقص مهما كان عطاؤه! إلّا أنّه مع ملاحظة موضوع خلق السماء فى الجملة السابقة و مع الأخذ بنظر الإعتبار ما اكتشفه العلماء من اتّساع العالم عن طريق المشاهدات الحسّية المؤيّدة، يمكن الوقوف على معنى أكثر لطافة لهذه الآية، و هو أنّ اللّه خلق السماوات و يوسعها دائما.

و العلم الحديث [المعاصر] يقول ليست الكرة الأرضية وحدها تتضخّم و تثقل على أثر جذب المواد السماوية تدريجا، بل السماء أيضا فى اتّساع دائم، أى أنّ بعض النجوم المستقرّة فى المجرّات تبتعد عن مركز مجرّاتها بسرعة هائلة حتّى أنّ هذه السرعة لها أثرها فى الاتّساع فى كثير من المواقع!.

و نقرأ فى كتاب «حدود النجوم» بقلم الكاتب «فرد هويل»: أنّ أقصى سرعة لابتعاد النجوم عن مركزها حتّى الآن ۶۶ ألف كيلومتر فى الثانية، و المجرّات التى هى أبعد منها- فى نظرنا- و مض نورها قليل جدّا حتّى أنّه من الصعب تحديد سرعتها، و الصور الملتقطة من السماء تدلّ على أهميّة هذا الكشف و أنّ الفاصلة ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۲

بين هذه المجرّات تتّسع أكثر من المجرّات القريبة منّا بسرعة[۱۱۹].

ثمّ يتحدّث المؤلّف عن سرعة هذه المجرّات «السنبلة و الأكليل و الشجاع و غيرها» فيبيّن سرعتها العجيبة المذهلة فى هذا الكتاب [۱۲۰].

و لنصغ إلى بعض العبارات للاستاذ «جان الدر» إذ يقول:

«إنّ أحدث و أدقّ تقدير طول الأمواج التى تبثّها النجوم يكشف الستار عن وجه حقيقة عجيبة و محيّرة أى أنّها تكشف لنا أنّ مجموع النجوم التى يحويها العالم تبتعد عن مركزها بسرعة دائما و كلّما كانت الفاصلة بينها و بين مركزها ازدادت سرعتها.

فكأنّ جميع النجوم كانت مجتمعة فى هذا المركز ثمّ تفرّقت عنه مجاميع كبيرة من النجوم و اتّجه كلّ منها إلى اتّجاه خاصّ».

و يستنتج العلماء من ذلك أنّ العالم كانت له نقطة بداية و شروع ۱۲۱].

و يقول «جورج جاموف» فى كتاب خلق العالم فى هذا الصدد «إنّ فضاء العالم المتشكّل من مليارادت المجرّات فى حالة انبساط سريعة، و الحقيقة هى أنّ عالمنا ليس فى حالة من السكون، بل انبساطه مقطوع به .. و الإذعان إلى أنّ عالمنا منبسط يهيئ المفتاح لخزينة أسرار معرفة العالم لأنّه إذا كان العالم الآن فى حالة الانبساط فيلزم أن يكون فى زمان ما فى حالة انقباض شديد[۱۲۲].

و ليس العلماء المذكورون آنفا يعترفون بهذه الحقيقة فحسب .. فإنّ هناك آخرين ذكروا هذا المعنى فى كتاباتهم و يجرّنا نقل

كلماتهم إلى الإطالة.

و ممّا يستجلب النظر أنّ التعبير ب إِنَّا لَمُوسِعُونَ دالّة على الدوام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۳

و الاستمرار، فهى جملة اسمية ذات اسم فاعل، كما أنّها تدلّ على أنّ هذا الاتّساع موجود دائما و كان و لا يزال، و هذا يؤيّد تماما ما وصل إليه العلم الحديث أنّ جميع النجوم و المجرّات كانت مجتمعة فى البداية فى مركز واحد «بوزن خاصّ له ثقل خارق» ثمّ انفجرت انفجارا عظيما مثيرا (مرعبا) و على أثر ذلك تلاشت أجزاء العالم و ظهرت بصورة كرات و هى بسرعتها فى حالة الاتّساع و الابتعاد (عن المركز).

و أمّا التعبير الوارد فى شأن خلق الأرض فَنِعْمَ الْماهِدُونَ ففى كلمة «ماهدون» لطافة تدلّ على أنّ اللّه مهّد الأرض بجميع وسائل الراحة للإنسان، لأنّ «الماهد» مأخوذ من المهد، و معناه ما يعدّ للطفل من الفراش أو أى محل للاستراحة، فمثل هذا المحل ينبغى أن يكون هادئا محفوظا ليّنا دافئا مطمئنا، و جميع هذه الأمور متوفّرة فى الأرض!.

و بأمر اللّه أضحت الحجارة ليّنة و تبدلّت إلى تراب هذا من جهة، و صلابة الجبال و قشر الأرض القوى من جهة ثانية جعلت الأرض تقاوم الجزر و المدّ، و من جهة ثالثة فإنّ الغلاف الجوّى المحيط بالأرض يخفّف من وطأة حرارة الشمس و يحفظها و هو بمثابة اللحاف لها كما أنّه يصدّ النيازك و الأحجار العظيمة التى تهوى من السماء إلى الأرض فيمنعها من النفوذ إليها فتتلاشى عنده و تتحوّل رمادا.

و هكذا فإنّ اللّه هيّأ جميع وسائل الراحة لاستقبال الإنسان الذى هو ضيف اللّه فى هذه الكرة الأرضية.

و بعد خلق السماء و الأرض تصل النوبة إلى خلق الموجودات المختلفة فى السماء و الأرض و أنواع النباتات و الحيوانات فتقول الآية التالية فى هذا الشأن وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‌ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

و يعتقد كثير من المفسّرين أنّ كلمة «الزوجين» هنا معناها الأصناف المختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۴

و أنّ الآية تشير إلى أصناف الموجودات المختلفة فى هذا العالم التى تبدو على شكل زوج زوج كالليل و النهار، و النور و الظلمة، و البحر و اليابسة، و الشمس و القمر، و الذكر و الأنثى و غيرها.

إلّا أنّه كما ذكرنا سابقا ذيل الآيات المشابهة لهذه الآيات أيضا أنّ الزوجية فى مثل هذه الآيات يمكن أن تكون إشارة إلى معنى أدقّ، لأنّ كلمة «الزوج» تطلق عادة على جنسى الذكر و الأنثى، سواء فى عالم الحيوانات أو النباتات، و إذا ما توسّعنا فى استعمال هذه الكلمة فإنّها ستشمل جميع الطاقات الموجبة و السالبة (- و+) و مع ملاحظة ما جاء فى القرآن وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‌ءٍ و يشمل جميع الموجودات لا الموجودات الحيّة فحسب. فيمكنها أن تشير إلى هذه الحقيقة و هى أنّ جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرّات موجبة و سالبة، و من المسلّم به هذا اليوم من الناحية العلمية أنّ الذرّات مؤلّفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالألكترون، و منها ما يحمل طاقة موجبة و تدعى بالبروتون.

فبناء على ذلك لا داعى أن نفسّر الشي‌ء بالحيوان أو النباتات حتما أو أنّ نفسّر الزوج بمعنى الصنف «لمزيد الإيضاح ذكرنا شرحا مفصّلا ذيل الآية ۷ من سورة الشعراء» و ينبغى الالتفات أنّه فى الوقت ذاته يمكن الجمع بين التّفسيرين.

و جملة لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ تشير إلى أنّ الزوجية و التعدّد فى جميع أشياء العالم تذكّر الإنسان بأنّ اللّه خالق هذا العالم واحد أحد، لأنّ التثنية و التعدّد من خصائص المخلوقات.

و قد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام إذ قال: «بمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له و بمقارنته بين الأشياء عرف

أن لا ـ قرین له، ضـاد النور بالظلمـة، و الیبس بالبلـل و الخشن بـاللین، و الصـرد بـالحرور مؤلّفـا بین متعادیاتها مفرقا بین متـدانیاتها دالّة بتفریقها علی مفرقها، و بتألیفها علی مؤلّفها و ذلک قوله: وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۵

تَذَکَّرُونَ [۱۲۳].

و یضیف القرآن فی الآیة التالیة مستنتجا ممّا تقدّم من الأبحاث التوحیدیة قائلا: فَفِرُّوا إِلَی اللَّهِ إِنِّی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ مُبِینٌ

و التعبیر ب «الفرار» هنـا تعبیر لطیف و بلیغ، لأنّ الفرار یطلق فی مـا إذا واجه الإنسـان موجودا أو حادثا مخیفا من جهـة، و هو من جهة اخری یعرف مکانا یلتجئ إلیه فیسـرع من مکان المواجهـة إلی ذلک المکان و یلتجئ إلی نقطة الأمن و الأمان .. فالآیة تقول: فرّوا من عقیدة الشرک الموحشة و عبادة الأصنام إلی التوحید الخالص الذی هو منطقة الأمن و الأمان الواقعی.

ففرّوا من عذاب اللّه و توجّهوا نحو رحمته! فرّوا من عصیانه و عناده و توسّلوا بالتوبة إلیه.

و الخلاصة: فرّوا من السیّئات و القبائح و عدم الإیمان و ظلمة الجهل و العذاب الدائم و التجأوا إلی رحمة الحقّ و سعادته الأبدیة.

و لمزید التأکید، یستند القرآن إلی وحدانیة العبادة للّه الأحد فیقول:

وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.

و یحتمل أنّ الآیـة السابقـة- تدعوا إلی أصل الإیمان باللّه! و هذه الآیة تدعو إلی وحدانیة ذاته المقدّسة فیکون تکرار جملة: «إنّی لکم منه نـذیر مبین» فی المورد الأوّل علی أنّه إنـذار علی ترک الإیمـان بـاللّه، و فی المورد الآخر إنـذار علی الشـرک و عبادة الأصـنام، و هکـذا فـإنّ کلّ جملـة و إن تکرّرت تشـیر إلی موضوع مسـتقلّ! و جاء فی بعض الرّوایات عن الإمام الصادق أنّ المراد من قوله: فَفِرُّوا إِلَی اللَّهِ هو الحجّ و زیارة بیت اللّه ۱۲۴] و واضـح أنّ المراد هنا ذکر مصداق واحد من المصادیق الواضـحة للفرار إلی اللّه، لأنّ الحجّ یعرّف الإنسان حقیقة التوحید

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۶

و التوبة و الإنابة إلی اللّه و یمنحه الالتجاء إلی ألطاف اللّه سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۷

الآیات [سورة الذاریات (۵۱): الآیات ۵۲ الی ۵۵]

اشارة

کَذلِکَ مـا أَتَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّـ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵۲) أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طـاغُونَ (۵۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمـا أَنْتَ بِمَلُومٍ (۵۴) وَ ذَکِّرْ فَإِنَّ الذِّکْری تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِینَ (۵۵)

التّفسیر

إنّ الذکری تنفع المؤمنین:

قرأنا فی الآیـة ۳۹ من هـذه السورة أنّ فرعون اتّهم موسـی علیه السّـلام عنـد مـا دعاه إلی اللّه و ترک الظلم أنّه ساحر أو مجنون، فهـذا الاتّهام ورد علی لسان المشرکین فی زمان النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا إذ اتّهموه بمثل ما اتّهم فرعون موسی و قد عزّ ذلک علی المؤمنین الأوائل و القلائل کما کان یؤلم روح النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فالآیات محلّ البحث و من أجل تسلیة النّبی و المؤمنین تقول: کَذلِکَ ما أَتَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۱۲۵].

کانوا یتّهمون الرسل السابقین بأنّهم سحرة لأنّهم لم یجدوا جوابا منطقیا لمعاجزهم الباهرة، و کانوا یخاطبون رسولهم بأنّه «مجنون» .. لأنّه لم یکن علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۸

غرارهم و متلوّنا بلون المحیط و لم یستسلم للأمور المادیّة.

فبناء علی ذلک لا تحزن و لا تکترث و واصل المسیر بالصبر و الاستقامة، لأنّ مثل هذه الکلمات قیلت فی أمثالک یا رسول اللّه من رجال الحقّ و أهله.

ثمّ یضیف القرآن هل أنّ هذه الأقوام الکافرة تواصت فیما بینها علی توجیه هذه التّهمة إلی جمیع الأنبیاء: أَ تَواصَوْا بِهِ ! و کان عملهم هذا إلی درجة من الانسجام، و کأنّهم اجتمعوا فی مجلس- فی ما وراء التاریخ- و تشاوروا و تواصوا علی أن یتّهموا الأنبیاء عامّة بالسحر و الجنون لیخفّفوا من وطأة نفوذهم فی نفوس الناس! و لعلّ کلّا منهم کان یرید أن یمضی من هذه الدنیا و یوصی أبناءه و أحبابه بذلک! و یعقّب القرآن علی ذلک قائلا: بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ ۱۲۶].

و هذه هی إفرازات روح الطغیان حیث یتوسّلون بکلّ کذب و اتّهام لإخراج أهل الحقّ من الساحة، و حیث إنّ الأنبیاء یأتون الناس بالمعجزات فإنّ خیر ما یلصقونه بهم من التّهم أن یسموهم بالسحر أو الجنون، فبناء علی ذلک یکون عامل «وحدة عملهم» هذا هی الروحیة الخبیثة و الطاغیة الواحدة لهم.

و لمزید التسرّی عن قلب النّبی و تسلیته یضیف القرآن: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ

و کن مطمئنا بأنّک قد أدّیت ما علیک من التبلیغ و الرسالة فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ

و إذا لم یستجب أولئک للحقّ فلا تحزن فهناک قلوب متعطّشة له جدیرة بحمله و هی فی انتظاره.

و هذه الجملة فی الحقیقة تذکر بالآیات السابقة التی تدلّ علی أنّ النّبی کان یتحرّق لقومه حتّی یؤمنوا و یتأثّر غایة التأثّر لعدم إیمانهم حتّی کاد یهلک نفسه من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۹

أجلهم.

کما تشیر الآیة (۶) من سورة الکهف حیث نقرأ فیها: فَلَعَلَّکَ باخِعٌ نَفْسَکَ عَلی آثارِهِمْ إِنْ لَمْ یُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِیثِ أَسَفاً.

.. و بالطبع فإنّ القائد الحقّ ینبغی أن یکون کذلک.

قال المفسّرون: لمّا نزلت هذه الآیة حزن النّبی و المؤمنون لأنّهم تصوّروا أنّ هذا آخر الکلام فی شأن المشرکین و أنّ وحی السماء قد انقطع و یوشک أن یحیق بهم العذاب .. إلّا أنّه لم تمض فترة قصیرة حتّی نزلت الآیة بعدها لتأمر النّبی بالتذکیر: وَ ذَکِّرْ فَإِنَّ الذِّکْری تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِینَ ۱۲۷].

فکان أن أحسّ الجمیع بالاطمئنان! و الآیة تشیر إلی أنّ هناک قلوبا مهیّأة تنتظر کلامک یا رسول اللّه و تبلیغک ..

فإذا ما عاند جماعة و نهضوا بوجه الحقّ مخالفین، فإنّ هناک جماعة آخرین تتوق إلی الحقّ من أعماق قلوبهم و أرواحهم و یؤثّر فیها کلامک اللّین!

ملاحظة

لا بدّ من قلوب مهيّأة .. لقبول الحقّ:

لاحظوا المزارع و الفلّاح الـذى ينثر البذور، فقد تقع بعض هذه البذور على الأحجار، و من الواضح أنّ ما يقع على الأحجار و الصـخور لا ينمو! و بعض هـذه البـذور يقع على طبقـة رقيقـة من التراب الـذى يغطّى الصـخر، فتثبت هـذه البذور و تمدّ جذورها، إلّا أنّ المكان حيث كان حرجا لا يساعد على امتداد الجذور (لكون الأرض صخرية) فما أسرع من أن تجفّ البراعم و تموت الجذور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۰

و يقع قسم من البـذور على أرض ذات تراب صالحـة، إلّا أنّ نبات الشوك و العلف تنمو إلى جانبها، فحتّى لو أورقت تلك البـذور إلّا أنّها ما أسرع أن تغلبها الأشواك و تلتفّ عليها فتموت.

و أحسن هـذه البـذور حظّا تلك البـذور التى تسـتقرّ فى تربـة صالحة و لا تعوقها نباتات اخرى .. فلا يمضـى زمن حتّى تنبت و تنمو و تورق و تستوى على سوقها و تعطى ثمارها.

فكلمات الحقّ التى تخرج من أفواه الأنبياء و رسل اللّه و خلفائهم المعصومين كهـذه البذور، فالقلوب الصـخرية لا تتقبّل هذه الكلمات من الأساس، و القلوب الضـعيفة تتقبّلها مؤقتا ثمّ تعرض عنها، و هناك قلوب مهيّأة للقبول، لكن الأهواء و الصـفات الرذيلة و الشـهوات نابتة فيها، و هذه الأمور تبطل تأثير تلك الكلمات الحقّة.

القلوب- الوحيـدة- التى تتقبّـل كلمات هؤلاء الأئمّـة العظام و تنمو فيها و تثمر هى القلوب التى تطلب الحقّ و يحكم عليها البحث عن الحقّ! و خالية من الصفات السلبية و الدوافع الدنيوية أيضا .. و تلك هى قلوب المؤمنين.

أجل .. وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۱

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۵۶ الى ۵۸]

اشارة

وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (۵۶) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵۷) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (۵۸)

التّفسير

هدف خلق الإنسان من وجهة نظر القرآن:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۱۳۱

أهمّ الأسـئلة التى تختلـج فى خـاطر كـلّ إنسـان هو لم خلقنا؟! و ما الهـدف من خلق الناس و المجىء إلى هـذه الـدنيا؟! فالآيات آنفة الـذكر تجيب على هـذا السؤال المهم و العام بتعابير موجزة ذات معنى غزير، و تكمّل البحث الوارد فى آخر آيـة من الآيات المتقـدّمة حول تـذكير المؤمنين، لأنّ ذلك من أهمّ الأصول التى ينبغى على النّبى أن يتابعها .. كما توضّـح- ضـمنا- معنى الفرار إلى اللّه الوارد فى الآيات السابقة.

تقول الآيات حاكية عن اللّه سبحانه: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

و أنّه غیر مفتقر إلی أیّ منهم أبدا ما أُرِیدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِیدُ أَنْ یُطْعِمُونِ بل إنّ اللّه تعالی هو الذی یرزق عباده و مخلوقاته .. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۲

ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِینُ

فهذه الآیات التی هی فی منتهی الوجازة و الاختصار تکشف ستارا عن الحقیقة التی یطلبها الجمیع و یریدون معرفتها و تجعلنا أمام الهدف العظیم.

توضیح ذلک:

لا- شکّ أنّ کلّ فرد عاقل و حکیم حین یقوم بعمل فإنّما یهدف من وراء عمله إلی هدف معیّن، و حیث أنّ اللّه أعلم من جمیع مخلوقاته و أعرفهم بالحکمة، بل لا ینبغی قیاسه بأی أحد، فینقدح هذا السؤال و هو لم خلق اللّه الإنسان؟! هل کان یشعر بنقص فارتفع بخلق الإنسان؟! هل کان محتاجا إلی شیء فارتفع الاحتیاج بخلقنا؟

و لکنّنا نعلم أنّ وجوده کامل من کلّ الجهات (و لا محدود فی اللّامحدود) و هو غنی بالذات! إذا، فطبقا للمقدّمة، الاولی یجب القبول علی أنّه کان له هدف، و طبقا للمقدّمة الثانیة- ینبغی القبول أنّ هدفه من خلق الإنسان لیس شیئا یعود إلی ذاته المقدّسة.

فالنتیجة ینبغی أن یبحث عن هذا الهدف خارج ذاته، هذا الهدف یعود للمخلوقین أنفسهم و أساس کمالهم .. هذا من جانب! و من جانب آخر ورد فی القرآن تعابیر کثیرة مختلفة فی شأن خلق الإنسان و الهدف منه! فنقرأ فی إحدی آیاته: الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا،[۱۲۸] و هنا یبیّن مسألة الامتحان للإنسان و حسن العمل علی أنّه هدف (من أهداف خلق الإنسان).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۳

و جاء فی آیة اخری اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ یَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَیْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِکُلِّ شَیْءٍ عِلْماً!.[۱۲۹] و هنا یبیّن القرآن أنّ علمنا بعلم اللّه و قدرته هو الهدف من خلق السماوات و الأرض (و ما بینهما).

و نقرأ فی آیة اخری وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا یَزالُونَ مُخْتَلِفِینَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّکَ وَ لِذلِکَ خَلَقَهُمْ [۱۳۰] و طبقا لهاتین الآیتین فالهدف من خلق الإنسان هو رحمة اللّه.

و الآیات محلّ البحث تستند إلی مسألة العبودیّة فحسب، و تعبّر عنها بصراحة بأنّها الهدف النهائی من خلق الجنّ و الإنس! و بقلیل من التأمّل فی مفهوم هذه الآیات و ما شابهها نری أنّه لا تضادّ و لا اختلاف بین هذه الآیات، ففی الحقیقة بعضها هدف مقدّمی، و بعضها هدف متوسّط، و بعضها هدف نهائی، و بعضها نتیجة!.

فالهدف الأصلی هو «العبودیة» و هو ما أشیر فی هذه الآیات محلّ البحث، أمّا العلم و الامتحان و أمثالهما فهی أهداف ضمن مسیر العبودیة للّه، و رحمة اللّه الواسعة نتیجة العبودیة للّه.

و هکذا یتّضح أنّنا خلقنا لعبادة اللّه، لکن المهمّ أن نعرف ما هی حقیقة هذه العبادة؟! فهل المراد منها أداء المراسم أو المناسک (الیومیة) و أمثالها کالرکوع و السجود و القیام و الصلاة و الصوم، أو هو حقیقة وراء هذه الأمور و إن کادت العبادة الرسمیّة کلّها أیضا واجدة للأهمیّة!؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۴

و للإجابة علی هذا السؤال ینبغی معرفة معنی کلمة «العبد» و العبودیة و تحلیلهما! «العبد»: لغة هو الإنسان المتعلّق بمولاه و صاحبه من قرنه إلی قدمه! ..

و إرادته تابعة لإرادته و ما يطلب و يبتغيه تبع لطلب سيّده و ابتغائه، فلا يملك فى قباله شيئا و ليس له أن يقصّر فى طاعته.

و بتعبير آخر: إنّ العبودية- كما تبيّن معناها كتب اللغة- هى إظهار منتهى الخضوع للمعبود، و لذلك فالمعبود الوحيد الذى له حقّ العبادة على الآخرين هو الذى بذل منتهى الإنعام و الإكرام، و ليس ذلك سوى اللّه سبحانه! فبناء على ذلك فالعبودية هى قمّة التكامل و أوج بلوغ الإنسان و اقترابه من اللّه! و العبودية منتهى التسليم لذاته المقدّسة! و العبودية هى الطاعة بلا قيد و لا شرط و الامتثال للأوامر الإلهية فى جميع المجالات! و أخيرا فإنّ العبودية الكاملة هى أن لا يفكّر الإنسان بغير معبوده الواقعى أى الكمال المطلق، و لا يسير إلّا فى منهجه اللاحب و أن ينسى سواه حتّى (نفسه و شخصه).

و هذا هو الهدف النهائى من خلق البشر الذى أعدّ اللّه له الامتحان و الاختبار لنيله، و منح الإنسان العلم و المعرفة، و جعل نتيجة كلّ ذلك فيض رحمته للإنسان.

بحوث

۱- اللّه غنى على الإطلاق

إنّ جملة: ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ هى فى الحقيقة إشارة إلى استغناء اللّه عن كلّ أحد و عن كلّ شىء، و إذا ما دعا العباد إلى عبادته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۵

فليس ذلك ليستفيد منهم، بل يريد أن يجود عليهم، و هذا على العكس من العبودية بين الناس، لأنّهم يطلبون الرقّ و العبيد ليحصلوا بهم الرزق أو المعاش، أو أن يخدموهم فى البيت، فيقدّموا لهم الطعام و الشراب، و فى كلتا الحالين فإنّما يعود نفعهم على مالكيهم، و هذا الأمر ناشئ عن احتياج الإنسان، إلّا أنّ جميع هذه المسائل لا معنى لها فى شأن اللّه، إذ ليس غنيّا عن عباده فحسب، بل هو يضمن لعباده الرزق بلطفه و كرمه «و رزق الجميع على اللّه».

۲- اللّه ذو القوّة المتين

«المتين» كلمة مشتقّة من متن، و هو فى الأصل ما يكتنف العمود الفقرى من لحم و عصب التى تشدّ الظهر و نجعله مهيّأ لتحمّل الأعباء، و لذلك فقد استعمل «المتن» بمعنى القوّة الكاملة و الطاقة و القدرة، فبناء على ذلك فإنّ ذكر «المتين» بعد ذكر كلمة «ذو القوّة» إنّما هو للتأكيد، لأنّ «ذو القوّة» إشارة إلى أصل قدرة اللّه! «و المتين» إشارة إلى كمال القدرة، و حين تقترن هذه الكلمة ب «الرزّاق» و هو صيغة مبالغة أيضا تدلّ على هذه الحقيقة، و هى أنّ اللّه له منتهى القدرة و التسلّط فى إيلاء الرزق و إعطائه لمن يشاء، و هو يوصل الرزق إلى أيّة جهة كانت و أى مكان كان .. فى أعماق البحار، و فى قمم الجبال، و فى سفوح التلال و على ضفاف الأنهار، و فى الوديان و الصحارى و البرارى .. و جميع ما فى الوجود و من فى الوجود مجتمعون على مائدته الكريمة، إذا فخلق اللّه للإنسان و سائر الموجودات لم يكن لحاجته إليهم، بل ليفيض عليهم من لطفه العميم.

۳- لم قدّم ذكر الجنّ

مع أنّه يستفاد من آيات القرآن بشكل واضح أنّ الإنس أفضل من الجنّ، إلّا أنّه قدّم ذكر الجنّ على الإنس فى الآية الآنفة، و لعلّ الظاهر منه أنّ الجنّ خلقوا قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۶

أن يخلق آدم كما نقرأ ذلك فى الآية (۲۷) من سورة الحجر إذ تقول: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ۱۳۱] مِنْ نارِ السَّمُومِ

۴- الحكمة من الخلق فى نظر الفلسفة

ذكرنا آنفا أنّه قلّ أن نجد من لا يسأل نفسه أو غيره عن الهدف من خلق الإنسان! فدائما تولّد جماعة و تمضى جماعة اخرى و تنطفئ إلى الأبد، فما المراد من هذا المجيء و الذهاب؟! و الحقّ أنّنا- كأناس لو لم نكن نعيش على وجه هذه الكرة الأرضية فما ذا سيحدث؟ و هل يجب علينا أن نعرف لم نأتى و لم نمضى؟ و لو أردنا أن نعرف السرّ فهل نستطيع ذلك؟! و هكذا تترى الأسئلة الاخر على فكر الإنسان و تحيط به ...

و عند ما يطرح هذا السؤال من قبل الماديين فالظاهر أنّهم لا جواب لهم عليه، لأنّ المادّة أو الطبيعة ليس لها عقل و لا شعور حتّى يكون لها هدف لذلك، فقد أراحوا أنفسهم من هذا السؤال و هم يعتقدون بعبثيّة الخلق و أنّه لا هدف من ورائه! و كم هو مثير و مقلق أن يتّخذ الإنسان لجزئيات حياته سواء أ كانت للعمل أم الكسب أو الصحّة أو الرياضة أهدافا منظّمة و أن يعتقد أنّ الحياة بمجموعها ضرب من العبث و اللغو!؟

لذلك فلا مجال للعجب أنّ جماعة من الماديين حينما يفكّرون فى هذه المسائل يتركون هذه الحياة التى لا هدف ورائها و يقدّمون على الانتحار! إلّا أنّ هذا السؤال حين يلقيه معتقد باللّه، فإنّه لا يواجه طريقا مسدودا، لأنّه يعلم أنّ خالق هذا العالم حكيم و قد خلق هذا العالم عن حكمة حتما و إن جهلناها، و هذا من جانب، و من جانب آخر حين يرى أعضاءه عضوا عضوا يجد لكلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۷

فلسفة و حكمة و هدفا، لا- الأعضاء المهمّة ظاهرا كالقلب و اللسان و العروق و الأعصاب بل حتّى الأظفار و خطوط اليد و البنان و تقوّس القدم أو هيأة اليد و فسلجتها كلّ له فلسفة يعرفها العلم الحديث المعاصر! فإلى أيّ درجة من السذاجة أن يرى لجميع هذه الأعضاء أهدافا إلّا أنّ المجموع يكون بلا هدف!! و أى قضاء متهافت أن نجد لكلّ بناء فى المدينة فلسفة خاصّة- إلّا أنّنا نقضى على المدينة بأنّها لا فلسفة فيها و لا هدف من ورائها!! ترى هل من الممكن أن يبنى مهندس ما بناء عظيما فيه الغرف و الأبواب و النوافذ و الأحواض و الحدائق و «الديكورات» و كلّ من هذه الأمور هو لأمر خاصّ و لهدف معيّن، إلّا أنّ مجموع البناء لا هدف من ورائه؟! هذه الأمور هى التى تمنح المؤمن باللّه و المعتقد به الاطمئنان بأنّ خلقه له هدف عظيم، و عليه أن يسعى و يجدّ حتّى يكتشفه بقوّة العقل و العلم.

و العجيب أنّ أصحاب نظرية العبث (فى الخلق) حين يردون أيّة زاوية من زوايا العلوم الطبيعية- يبحثون عن الهدف لتفسير الظواهر المختلفة و لا يهدأون حتّى يجدوا الهدف! حتّى أنّهم لا يرتضون أن تبقى غدّة صغيرة فى بدن الإنسان دون عمل و غاية، و لربّما يقضون سنوات بالبحث عن الحكمة من وجود مثل هذه الغدّة ... إلّا أنّهم حين يبلغون أصل خلق الإنسان يقولون بصراحة: لا هدف من ورائه.

فما أعجب هذا التناقض!! و على كلّ حال فالإيمان بحكمة اللّه تعالى من جانب، و ملاحظة فلسفة أجزاء (وجود) الإنسان من جانب آخر، كلّ ذلك يدعونا إلى الإيمان أنّ وراء خلق الإنسان هدفا كبيرا.

و الآن ينبغى علينا أن نبحث عن هذا الهدف و أن نحدّده ما بوسعنا- و أن نسير

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۸

فی منهاجه اللاحب.

إنّ ملاحظة عدّة مقدّمات- یمکن لها- أن تسلّط الأضواء علی هدفنا للکشف عن هذا المجهول المظلم.

۱- نحن دائما نقصد فی أعمالنا إلی هدف ما، و عادة یکون هذا الهدف إشباع حاجة و رفعها و إتمام النواقص. و حتّی الخدمة للآخرین أو إنقاذ مبتلی من بلائه ..

أو قمنا بعمل إنسانی و آثرنا سوانا علی أنفسنا فذلک أیضا نوع من الحاجات المقدّسة، و برفعها نزداد معنویة و کمالا! و لمّا کنّا نقیس أحیانا صفات اللّه مع أنفسنا فقد یخطر مثل هذا التصوّر و هو ما هی الحاجة عند اللّه حتّی ترتفع بخلقنا؟ أو إذا کانت الآیات الآنفة تقول وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ فنقول ما هی حاجته إلی العبادة؟! مع أنّ هذه التصوّرات ناشئة من المقایسة بین صفات الخالق و المخلوق و الواجب و الممکن؟! و حیث أنّ وجودنا محدود فإنّنا نسعی وراء إشباع حاجاتنا، و أعمالنا جمیعها تقع فی هذا المسیر .. إلّا أنّ هذا غیر وارد فی وجود مطلق، فینبغی البحث عن هدف أفعاله فی غیر وجوده، فهو عین فیّاضة و مبدأ النعمة الذی یکتنف الموجودات فی کنف حمایته و رعایته و إنمائه و السلوک بها إلی الکمال، و هذا هو الهدف الواقعی لعبودیتنا .. و هذه فلسفة عباداتنا و ابتهالاتنا، فهی جمیعا دروس تربویة لتکاملنا.

و أساسا فإنّ أصل الخلق هو خطوة تکاملیة عظیمة، أی مجیء الشیء من العدم إلی الوجود، و من الصفر إلی مرحلة العدد.

و بعد هذه الخطوة التکاملیة العظیمة تبدأ مراحل تکاملیة اخری .. فجمیع المناهج الدینیة و الإلهیّة تسلک بالإنسان فی هذا المسیر! ۲- و هنا ینقدح هذا السؤال، و هو إذا کان الهدف من الخلق هو الجود- علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۹

العباد- من المعبود لا النفع للخالق، و هذا الجود یتمثّل فی تکامل الناس، فلم لم یخلق اللّه (الجواد الکریم) العباد کاملین من البدایة- لیکونوا فی جواره و قربه و أن یتمتّعوا ببرکات قربه و جوار ذاته المقدّسة! و الجواب علی هذا السؤال واضح .. فتکامل الإنسان لیس أمرا یمکن خلقه بالإجبار، بل هو طریق طویل مدید، و علی الناس أن یسیروه و یجوبوه و یقطّعوه بإرادتهم و تصمیمهم و أفعالهم الاختیاریة.

فمثلا لو أخذ مال باهظ قسرا من أحد لبناء مستشفی، فهل لهذا العمل من أثر تکاملی روحی و أخلاقی فی نفسه؟! قطعا لا! لکن لو أعطی بمحض إرادته و رغبته و میله النفسی و لو درهما واحدا لهذا الهدف المقدّس فإنّه یخطو فی طریق التکامل الأخلاقی و الروحی بتلک النسبة التی ساهم فیها.

و یستفاد من هذا الکلام أنّ علی اللّه أنّ یبیّن لنا هذا المسیر بأوامره و تکالیفه و مناهجه التربویة بواسطة أنبیائه و العقل لیتمّ الإبلاغ بذلک، فنعرف هذا المسیر التکاملی و نطویه باختیارنا و إرادتنا.

۳- و ینقدح هنا سؤال- آخر أیضا- و هو أنّ کلّ هذا حسن ... فالهدف من خلقنا هو التکامل الإنسانی، أو بتعبیر آخر القرب من اللّه و حرکة الوجود الناقص نحو الوجود الکامل الذی لا نهایة له، إلّا أنّه ما الهدف من هذا التکامل؟! و الجواب یتّضح بهذه الجملة أیضا و هو أنّ التکامل هو الهدف النهائی أو بتعبیر آخر «غایة الغایات».

و توضیح ذلک: لو سألنا طالب المدرسة علام تدرس أو لم تدرس؟! فیجیب حتّی أدخل الجامعة! و لو سألناه ثانیة ما تستفید من الجامعة؟ فیقول مثلا سأکون طبیبا أو مهندسا جدیرا! فتقول له ما تصنع بشهادة «الدکتوراه» أو الهندسة؟ فیقول: لأبرز نشاطاتی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۰

و فعالیّاتی الإیجابیة المثبتة و لکی یکون ربح وفیر! فنقول له ما تصنع بالربح الوفیر؟ فیقول: لتکون حیاتی منعمة و أعیش مکرما و مرفّها.

و أخیرا نوجّه إلیه هذا السؤال .. لم ترید الحیاة المنعمة؟

و هنا نراه یجیب بلحن آخر فیقول: حسن ۱۳۲] لتکون حیاتی منعمـة و أعیش مکرما و مرفّها علی: أی إنّه یکرّر جواب السؤال السابق! و هـذا دلیـل علی أنّ ذاک هـو الجواب النهـائی، و کمـا یصـطلح علیه بـأنّه «غایـة الغایـات» لعمله، و لیس وراءه جواب آخر! و إنّه هو الهدف النهائی .. کلّ هذا هو فی المسائل المادیّة و هکذا الحال فی الحیاة المعنویة، فحین یسأل علام مجیء الأنبیاء و نزول الکتب من السماء، و لم هذه التکالیف الشرعیة و المناهج التربویة؟

فنجیب: للتکامل الإنسانی و القرب من اللّه!.

و إذا سألوا: ما المراد من التکامل الإنسانی و القرب من اللّه؟ نقول: هو القرب من اللّه، أیّ أنّ هذا هو الهدف النهائی، و بتعبیر آخر أنّنا نرید کلّ شیء للتکامل و القرب من اللّه .. و أمّا القرب من اللّه فلنفسه (أی للقرب من اللّه).

۴- و ینقدح مرّة اخری هذا السؤال أنّه

ورد فی حدیث قدسی قوله تعالی:

«کنت کنزا مخفیا فأحببت أن اعرف و خلقت الخلق لکی اعرف».

فما علاقـة هـذا الحـدیث بما ذکرتم آنفا؟! فنجیب علی ذلک: .. إنّه بغض النظر عن أنّ هـذا الحـدیث من باب خبر الواحـد، و لا یعتد بخبر الواحـد فی المسائل الاعتقادیـة، فإنّ مفهوم هـذا الحدیث أنّ معرفة اللّه هی الوسـیلة لتکامل الخلق أی أنّ اللّه أحبّ أن یسـتوعب فیض رحمته کلّ مکان، فلذلک خلق الخلق و علّمهم طریقه و سبیل معرفته لیسیروا نحو التکامل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۱

و الکمال! لأنّ معرفة اللّه رمز تکاملهم.

أجـل، إنّ علی العباد أن یعرفوا أنّ ذات اللّه هی منبع جمیع الکمالات، و یسترفـدوا لأنفسـهم من کمالاته و یسـتلهموا منه فی وجودهم لیشـرق فی وجودهم و مض من صـفات کمـاله و جلالـه، فالتکامـل و القرب من اللّه لاـ یتحقّقان إلّا عن طریق التخلّق بأخلاقه، و هـذا التخلّق فرع معرفته «فلاحظوا بدقّة».

۵- و بملاحظـة مـا ذکرنـاه آنفـا فإنّنا نقترب من النتائـج فنقول: إنّ عبادة اللّه و العبودیـة له یعینان السـیر فی ما یرتضـیه و أن نسـتودعه أرواحنا و نعشـقه بقلوبنا و أن نتخلّق بأخلاقه! و إذا کانت الآیات المتقدّمـة قـد ذکرت «العبادة» علی أنّها الهـدف النهائی فمفهومها هو هذا، أی أنّه بتعبیر آخر هو «التکامل الإنسانی»! أجل إنّ «الإنسان الکامل» هو العبد المخلص للّه.

۵- الرّوایات الإسلامیة و فلسفة خلق الإنسان

ذکرنا آنفا مسألـة الهـدف من خلق الإنسان، و عالجنا هـذه المسألـة عن طریقین: أحـدهما عن طریق تفسـیر آیات القرآن، و الآخر عن طریق الفلسفة، و قد أوصلنا کلّ منهما إلی نقطة واحدة.

و الآن علینا أن نتابع هذه المسألة فی المسیر الثالث، أی عن طریق الرّوایات الإسلامیة لنعرف نتیجتها من هذه الرّوایات.

و التدقیق أو التأمّل فی الرّوایات التالیة التی هی بعض ما ورد فی هذا الباب یمنحنا العمق فی النظر!

ففی حدیث عن الإمام موسـی بن جعفر علیه السّـلام أنه لمّا سئل ما معنی قول النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «اعملوا فکلّ میسّر لما خلق له. قال علیه السّـلام: إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق الجنّ و الإنس لیعبدوه و لم یخلقهم لیعصوه و ذلک قوله عزّ و جلّ: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۲

لِيَعْبُدُونِ فيسّر كلا لما خلق له، فويل لمن استحبّ العمى على الهدى»[۱۳۳].

و هـذا الحـديث إشـارة ذات معنى غزير إلى هـذه الحقيقـة، و هى أنّ اللّه لمّـا خلق النـاس لهـدف تكـاملى هيّأ له و سائله التكوينيـة و التشريعية و جعلها فى إختياره.

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّ الإمام الحسين خطب أصحابه فقال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ ما خلق العباد إلّا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»[۱۳۴].

۶- الإجابة على سؤال

و يرد هنا سؤال آخر، و هو إذا كان اللّه قـد خلق العباد ليعبدوه، فعلام يختار قسم منهم طريق الكفر؟ و هل يمكن أن تتخلّف إرادة اللّه عن هـدفه؟! و فى الحقيقـة إنّ الذين يوردون هذا الإشـكال خلطوا بين الإرادة التكوينية و الإرادة التشـريعيّة. لأنّ الهدف من العبادة لم يكن إجباريا، بل العبادة توأم الإرادة و الإختيار. و بهـذا يتجلّى الهـدف بصورة تهيأة الأرضـية أو المجال .. فمثلا لو قلت إنّى بنيت هذا المسـجد ليصـلّى النـاس فيه، فمفهومه أنّنى هيّـأته لهـذا العمل! لا أنّنى أجبر الناس على الصـلاة فيه! و كـذلك فى الموارد الاخر كبناء المدرسـة للـدرس، و المستشـفى للتـداوى، و المكتبـة للمطالعة! و هكذا فإنّ اللّه هيّأ هذا الإنسان للطاعة و العبادة، و وفّر له كلّ وسائل المساعـدة من قبيـل و العقـل و العواطف و القوى المختلفـة فى الـداخل، و إرسال الأنبياء و الكتب السـماوية و المناهـج التشـريعية فى الخارج إلخ.

و من المسلّم به أنّ هذا المعنى فى المؤمن و الكافر واحد، إلّا أنّ المؤمن أفاد من هذه الإمكانات، و الكافر لم يفد!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۳

لذلک

فقـد ورد عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام أنّه حين سـئل عن الآيـة وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ .. قال عليه السّـلام: «خلقهم للعبادة».

قال الراوى: فسألته: خاصّة أم عامّة؟! فقال عليه السّلام: «عامّة»[۱۳۵].

و

فى حديث آخر عن الإمام نفسه عليه السّلام أنّه لمّا سئل عن تفسير هذه الآية قال:

«خلقهم ليأمرهم بالعبادة»[۱۳۶].

و هى إشارة إلى أنّ الهدف لم يكن الإجبار على العبادة بل الإعداد و التهيأة له، و هذا المعنى يصدق فى حقّ عموم الناس ۱۳۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۴

الآيتان [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۵۹ الى ۶۰]

اشارة

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (۵۹) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (۶۰)

التّفسير

هؤلاء يشاركون أصحابهم فى عذاب اللّه:

الآيتان آنفتا الذكر اللتان هما آخر سورة الذاريات، و هما فى الحقيقة نوع من الاستنتاج للآيات المختلفة الواردة فى السورة ذاتها و لا سيّما الآيات التى تتحدّث عن الأمم السالفة كقوم فرعون و قوم لوط و ثمود و عاد، و كذلك الآيات السابقة التى كانت تتحدّث عن الهدف من الخلق و الإيجاد.

فالآية الاولى تقول أنّه بعد أن أصبح معلوما أنّ هؤلاء المشركين قد انحرفوا عن الهدف الحقيقى للخلقة، فليعلموا أنّ لهم قسطا وافرا من العذاب الإلهى كما كان للأقوام السالفة: فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ۱۳۸] ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۵

و يقولوا إن كان عذاب اللّه حقّا فلم لا يصيبنا؟! و التعبير ب «الظلم» فى شأن هذه الجماعة هو لأنّ الشرك و الكفر من أكبر الظلم، و لأنّ حقيقة الظلم هى وضع الشىء فى غير موضعه المناسب، و من المعلوم أنّ عبادة الأصنام مكان عبادة اللّه تعدّ أهمّ مصداق للظلم، و لذلك فهم يستحقّون العاقبة التى نالها الأقدمون من المشركين.

«الذنوب»:- على وزن قبول- فى الأصل معناه «الفرس التى لها ذنب طويل»، كما تطلق الكلمة ذاتها على الدلو الكبير التى لها ذنب.

و كان العرب فى السابق ينزحون ماء البئر بواسطة الحيوانات بأن يهيّئوا دلاء عظيمة متّصلة بحبال تعين على سحب الدلاء المملوءة بالماء.

و حيث كانت هذه الدلاء تقسّم أحيانا على الجماعات حول البئر، فتنال كلّ مجموعة دلوا أو أكثر، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى النصيب و السهم أيضا، و هى فى الآية محل البحث بهذا المعنى أيضا، غاية ما فى الأمر أنّها هنا تشير إلى السهم الكبير[۱۳۹].

و هل المراد من هذه الكلمة فى هذه الآية التهديد بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة؟ قال جماعة من المفسّرين بالمعنى الأوّل، و قال آخرون بالمعنى الثانى.

و نرى أنّ القرائن تدلّ على أنّ هذا العذاب هو العذاب الدنيوى، لأن العجلة لدى بعض الكفّار هى أنّهم كانوا يقولون للنبى: متى هذا الوعد .. و أين عذاب اللّه ..

و لم لا يأتينا .. إلخ. فمن الواضح أنّه إشارة إلى عذاب الدنيا[۱۴۰] هذا أوّلا.

و ثانيا إنّ التعبير ب مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ الظاهر أنّه إشارة إلى عاقبة الأمم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۶

المتقدّم ذكرها فى هذه السورة كقوم لوط و قوم فرعون و عاد و ثمود الذين نال كلّا منهم نوع من العذاب فى الدنيا و هلكوا به جميعا.

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو إذا كانت الآية تشير إلى عذاب الدنيا فلم لا يتحقّق الوعد الإلهى فى شأنهم؟! و هذا السؤال له جوابان:

۱- إنّ هذا الوعد تحقّق فى شأن كثير منهم كأبى جهل و جماعة آخرين فى غزوة بدر و غيرها.

۲- نزول العذاب على جميعهم مشروط بعدم الرجوع نحو اللّه و عدم التوبة من الشرك، و لمّا آمن معظمهم فى فتح مكّة .. فإنّ هذا الشرط أصبح منتفيا فلم ينزل عذاب اللّه.

و فى الآية الأخيرة استكمال لعذاب الدنيا بعذاب الآخرة إذ تقول: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ

و كما أنّ هذه السورة بدئت بمسألة المعاد و القيامة، فإنّها انتهت بالتأكيد عليها كذلك ۱۴۱]!.

كلمة «الويل» تستعمل فى لغة العرب عند ما يقع فرد ما أو أفراد فى الهلاك ..

كما تعنى العذاب و الشقاء، و قال بعضهم فى الويل معنى أشدّ من العذاب.

و كلمات الويل و الويس، و الويح تستعمل فى لغة العرب لإظهار التأسّف و التأثّر، غاية ما فى الأمر .. تستعمل كلمة «ويل» لمن يعمل أعمالا قبيحة، أمّا «ويس» فتستعمل فى مقام التحقير، و كلمة «ويح» تستعمل فى موضع الترحّم.

قال بعضهم أنّ «ويلا» بئر من آبار جهنّم أو باب من أبوابها، غير أنّ مراد القائلين لا يعنى بأنّ هذه الكلمة جاءت فى اللغة بهذا المعنى فحسب، بل هى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۷

الحقيقة بيان لمصداق من المصاديق.

و قد استعملت هذه الكلمة فى القرآن بكثرة، منها فى شأن الكفّار و المشركين و الكاذبين و المكذّبين و المجرمين، و المطفّفين و المصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون، إلّا أنّ أكثر استعمالها فى القرآن فى شأن المكذّبين، و قد تكرّرت الآية وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ فى سورة المرسلات وحدها عشر مرّات!.

ربّنا، نجّنا من عذاب ذلك اليوم العظيم و من خزيه.

اللهمّ ارزقنا قبول الطاعة و التوفيق للعبودية و الفخر بأن نكون عبيدك! اللهمّ لا تبتلنا بعاقبة المكذّبين المؤلمة الذين كذّبوا رسلك و آياتك و أيقظنا من نومة الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين.

آمين ربّ العالمين انتهاء سورة الذّاريات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۹

سورة الطّور

اشارة

مكّية و عدد آياتها تسع و أربعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۱

«سورة الطور»

محتوى السورة:

تتركز بحوث هذه السورة- أيضا- على مسألة المعاد و عاقبة الصالحين و المتّقين من جهة، و المجرمين و المفسدين فى ذلك اليوم العظيم من جهة اخرى رغم أنّ فيها مواضيع أخر فى مجالات مختلفة من الأمور العقائدية أيضا-.

و يمكن على الإجمال- أن يقسّم محتوى هذه السورة إلى ستّة أقسام.

۱- الآيات الاولى من السورة التى تبدأ بالقسم تلو القسم، و هى تبحث فى عذاب اللّه. و دلائل القيامة و علاماتها- و عن النار و عقاب الكافرين [من الآية ۱ إلى ۱۶].

۲- القسم الآخر من هذه السورة يذكر بتفصيل نعم الجنّة و مواهب اللّه فى القيامة و ما اعدّ للمتّقين، و يتبه على ذلك على نحو متتابع! .. و فى الحقيقة أنّ فى هذه السورة إشارة إلى أغلب نعم الجنّة من الآية ۱۷- ۲۸.

۳- و فى القسم الثّالث من هذه السورة يقع الكلام عن نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما وجّه إليه الأعداء من التّهم، و يردّ عليها بنحو موجز من الآية ۲۹ إلى ۳۴.

۴- و فى القسم الرّابع بحث عن التوحيد باستدلالات واضحة من الآية ۳۵- ۴۳.

۵- و فی القسم الخامس من هذه السورة عود علی مسألة المعاد و بعض أوصاف یوم القیامة من الآیة ۴۴- ۴۷.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۲

۶- و أخیرا فإنّ القسم الأخیر من هذه السورة الذی لا یتجاوز الآیتین یختتم الأمور المذکورة آنفا بأمر نبی الإسلام بالصبر و الاستقامة و التسبیح و الحمد للّه ..

و وعده بأنّ اللّه حامیه و ناصره.

و هکذا تتشکّل السورة من مجموعة منسجمة منطقیة و عاطفیة تنشدّ إلیها قلوب السامعین.

و تسمیة هذه السورة ب «الطور» تناسبا لما ورد فی الآیة الاولی من ذکر کلمة الطور فیها.

فضیلة تلاوة هذه السورة:

ورد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الطور کان حقّا علی اللّه أن یؤمنه من عذابه و أن ینعّمه فی جنّته»[۱۴۲].

و

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الطور جمع اللّه له خیر الدنیا و الآخرة»[۱۴۳]!

و واضح أنّ کلّ هذا الأجر و الثواب العظیم فی الدنیا و الآخرة هو لأولئک الذین یجعلون هذه التلاوة وسیلة للتفکّر و التفکّر بدوره وسیلة للعمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۳

الآیات [سورة الطور (۵۲): الآیات ۱ الی ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
وَ الطُّورِ (۱) وَ کِتابٍ مَسْطُورٍ (۲) فِی رَقٍّ مَنْشُورٍ (۳) وَ الْبَیْتِ الْمَعْمُورِ (۴)
وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (۵) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (۶) إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ لَواقِعٌ (۷) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (۸)

التّفسیر

هذه السورة- هی الاخری- من السور التی تبدأ بالقسم .. القسم الذی یهدف لبیان حقیقة مهمّة، و هی مسألة القیامة و المعاد و محاسبة أعمال الناس.

و أهمیّة هذه المسألة إلی درجة بحیث إنّ اللّه أقسم فی آیات مختلفة من القرآن بأنواع کثیرة من المقدّسات لتتجلّی عظمة ذلک الیوم و وقوعه حتما.

و تلوح فی بدایة السورة خمسة آیات تبدأ بالقسم، و فیها معانی مغلقة تدعو إلی التفکیر ممّا جعلت المفسّرین یبحثون فیها من جمیع الوجوه.

یقول سبحانه و تعالی:

وَ الطُّورِ.

«الطور»- فی اللغة معناه الجبل- و لکن مع ملاحظة أنّ هذه الکلمة تکرّرت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۴

فی عشر آیات من القرآن الکریم، تسع منها کانت فی الکلام علی «طور سیناء» و هو الطور أو الجبل الذی نزل الوحی عنده علی موسی، فیعلم أنّ المراد منه هنا فی الآیة محلّ البحث (الطور ذاته) خاصّة لو أنّنا لا حظنا أنّ الألف و اللام فی هذه الکلمة هی للعهد.

فبناء علی ذلک، فإنّ اللّه یقسم فی أوّل مرحلة بواحد من الأمکنة المقدّسة فی الأرض حیث نزل علیها الوحی.

و فی تفسیر قوله تعالی: وَ کِتابٍ مَسْطُورٍ احتمالات متعدّدة أیضا، إذ قال بعضهم: المراد به اللوح المحفوظ. و قال آخرون: بل هو القرآن الکریم، و مضی بعض إلی أنّه «صحیفة الأعمال»، و ذهب آخر إلی أنّه «کتاب التوراة» النازل علی موسی علیه السّلام.

و لکن بتناسب القسم المذکور آنفا فإنّ الآیة تشیر هنا إلی «کتاب موسی» أو کلّ کتاب سماوی.

فِی رَقٍّ مَنْشُورٍ.

کلمة «الرقّ» مشتقّة من الرقّة، و هی فی الأصل الدقّة و اللطافة، کما تطلق هذه الکلمة علی الورق أو الجلد الخفیف الذی یکتب علیه و «المنشور»: معناه الواسع، و یعتقد بعضهم أنّ هذه الکلمة تحمل فی مفهومها معنی اللمعان أیضا.

فبناء علی ذلک .. وقع القسم علی کتاب نشر علی صفحاته أحسن ما یکتب و هو فی الوقت ذاته مفتوح و واسع غیر ملتو.

وَ الْبَیْتِ الْمَعْمُورِ.

هناک تفاسیر مختلفة فی «البیت المعمور» کذلک ... إذ قال بعضهم المراد منه البیت الذی فی السماء محاذیا للکعبة، و هو معمور بطواف الملائکة و زیارتهم إیّاه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۵

و یلاحظ هذا المعنی فی روایات إسلامیة مختلفة وردت فی مصادر متعدّدة[۱۴۴].

و طبقا لبعض الرّوایات فإنّ سبعین ألف ملک یزورون ذلک البیت کلّ یوم و لا یعودون إلیه أبدا.

و ذهب البعض أنّ المراد منه «الکعبة» و هی بیت اللّه فی الأرض المعمور بالحجّاج و الزوّار، و هو أوّل بیت وضع للعبادة علی الأرض.

و قال بعضهم المراد من البیت المعمور هو «قلب المؤمن» الذی یعمره الإیمان و ذکر اللّه.

إلّا أنّ ظاهر الآیة هو واحد من المعنیین الأوّلین المذکورین آنفا، و بملاحظة التعابیر المختلفة فی القرآن عن الکعبة بالبیت یکون المعنی الثانی أکثر انسجاما.

أمّا المقصود ب السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ فهو «السماء» لأنّنا نقرأ فی الآیة (۳۲) من سورة الأنبیاء: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً.

کما نقرأ فی الآیتین (۲۷) و (۲۸) من سورة النازعات أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها رَفَعَ سَمْکَها فَسَوَّاها فاللّه هو الذی أعلی سقفها و جعلها متّسقة و منتظمة.

و لعلّ الوجه- فی التعبیر- بالسقف هو أنّ النجوم و الکرات السماویة إلی درجة من الکثرة بحیث غطّت السماء فصارت کأنّها السقف، و یمکن أن یکون إشارة إلی الجوّ الذی یحیط بالأرض أو ما یسمّی بالغلاف الجوّی، و هو بمثابة السقف الذی یمنع النیازک و الشهب أن تهوی إلی الأرض و تصدّ الأشعّة الضارّة من الوصول إلی الأرض.

وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ.

«للمسجور»: فی اللغة معنیان: الأوّل الملتهب، و الثّانی المملوء. و یقول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۶

الراغب فی مفرداته: سجر علی وزن فجر معناه إشعال النار، و یعتقد أنّ الآیة تعطی هذا المعنی .. و لم یتحدّث عن المعنی الثانی، إلّا أنّ العلّامة الطبرسی یذکر أنّ المعنی الأوّل هو ما تقدّم، و کذلک تشیر بعض کتب اللغة إلی ذلک.

و الآيات الاخر فى القرآن تؤيّد المعنى الأوّل أيضا كما هى الحال فى الآيتين (۷۱) و (۷۲) إذ قال سبحانه: يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ، ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ

و نقرأ

فى نهج البلاغة عن «أمير المؤمنين» فى شأن «الحديدة المحماة» إذ يقول لأخيه «عقيل»: «أ تئنّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه و تجرّنى إلى نار سجّرها جبّارها لغضبه ...»[۱۴۵].

و لكن أين هو هذا «البحر المسجور»؟ قال بعضهم هو البحر المحيط بالأرض «أو البحار المحيطة بها» و سيلتهب قبل يوم القيامة، ثمّ ينفجر كما نقرأ ذلك فى الآية (۶) من سورة التكوير وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ و نقرأ فى الآية (۳) من سورة الإنفطار وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ إلّا أنّ بعضهم فسّر ذلك بالبحر الذى فى باطن الأرض و هو مؤلّف من مواد منصهرة مذابة، و ما ورد فى حديث عن الإمام الباقر الذى نقله «العياشى» شاهد على هذا المعنى، و قد ورد فى هذا الحديث أنّ قارون يعذّب فى البحر المسجور[۱۴۶] مع أنّ القرآن يقول فى شأنه: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ ۱۴۷].

و هذان التّفسيران لا يتنافيان، و يمكن أن تكون الآية قسما بهما معا، إذ كلاهما من آيات اللّه و من عجائب هذا العالم الكبرى.

و ممّا يلفت النظر أنّ المفسّرين لم يتناولوا بالبحث علاقة هذه الأقسام الخمسة فيما بينها، إلّا أنّ الظاهر أنّ الأقسام الثلاثة الاوّل بينها ارتباط و علاقة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۷

لأنّها جميعا تتحدّث عن الوحى و خصوصياته، فالطور محلّ نزول الوحى، و الكتاب المسطور إشارة إلى الكتاب السماوى أيضا، سواء كان التوراة أو القرآن، و البيت المعمور هو محلّ ذهاب و إيّاب الملائكة و رسل وحى اللّه.

أمّا القسمان الآخران فيتحدّثان عن الآيات التكوينية «فى مقابل الأقسام الثلاثة التى كانت تتحدّث عن الآيات التشريعيّة».

و هذان القسمان واحد منهما يشير إلى أهمّ دلائل التوحيد و علائمه و هو «السماء» بعظمتها، و الآخر يشير واحد من علائم المعاد المهمّة و دلائله، و هو الواقع بين يدى القيامة!.

فبناء على هذا فإنّ التوحيد و النبوّة و المعاد جمعت فى هذه الأقسام [أو الأيمان الخمسة.

و بعض المفسّرين يرون أنّ هذه الآيات جميعها تشير إلى موسى و سيرة تأريخه و حياته، و ذكروا ارتباط الآيات على النحو التالى:

الطور .. هو الجبل الذى نزل الوحى على موسى عنده.

و الكتاب المسطور: هو التوراة.

و البيت المعمور: مركز مجىء و إيّاب الملائكة و يحتمل أن يكون بيت المقدس.

و السقف المرفوع هو ما ذكر فى قصّة بنى إسرائيل وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ.[۱۴۸] و البحر المسجور هو البحر الملتهب الذى عوقب قارون به لأنّه خالف موسى فهوى فيه.

إلّا أنّ هذا التّفسير يبدو بعيدا، و لا ينسجم مع الرّوايات المنقولة فى المصادر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۸

الإسلامية، و كما قلنا فإنّ السقف المرفوع بشهادة آيات القرآن الاخر و الرّوايات المذكورة فيه هو السماء.

تبقى لطيفة دقيقة هنا و هى ما العلاقة بين هذه الأقسام و المقسم به.

و يتّضح الجواب على هذا السؤال- مع ملاحظة ما بيّناه آنفا- و هو أنّ هذه الأقسام و التى تدور حول محور قدرة اللّه فى عالم التكوين و التشريع تدلّ على أنّ اللّه قادر على إعادة الحياة و بعث الموتى من قبورهم مرّة اخرى. و هذا هو غاية الأقسام المذكورة كما قرأنا فى الآيات الأخيرة من- الآيات محلّ البحث- إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۹

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۹ الى ۱۶]

اشارة

يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (۹) وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (۱۰) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۱) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (۱۲) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (۱۳)
هـذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (۱۴) أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (۱۵) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۶)

التّفسير

كـانت فی الآيـات السابقـة إشارة و تلميـح عن عـذاب اللّه فی يوم القيامـة- بصورة مغلقـة- أمّا الآيات- محلّ البحث- ففيها توضـيح و تفسير لمـا مرّ، فتتحـدّث أوّلاـ عن بعض حالاـت يوم القيامـة و خصـائصه، ثمّ عن كيفيـة تعـذيب المكـذّبين فتقول: يَوْمَ تَمُورُ السَّمـاءُ مَوْراً[۱۴۹].

«المور»: على وزن قول- له معان عديدة فی اللغة. يقول الراغب فی مفرداته:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۰

المور معناه الجريان السريع. كما قال إنّ المور يطلق على الغبار الذی تجری به الريح لكلّ جهة أيضا.

و قـد ورد فی «لسـان العرب» أنّ «المور» معناه الحركـة و الـذهاب و الإيّاب، كما يطلق على «الموج» و منهم من قال: المور هو الحركة الـدائرة. و من مجموع هـذه التفاسير يسـتفاد أنّ «المور» هو الحركـة السـريعة و الـدوران المقـترن بالـذهاب و الإيّاب و الاضـطراب و التموّج، و على هذا فإنّ النظام الحاكم على الكرات يضطرب بين يدی يوم القيامة و تنحرف عن مداراتها و تتّجه إلى كلّ جهة ذهابا و إيّابا، ثمّ تتبدّل و تولّد سماء جديدة بأمر اللّه كما تقول الآية (۱۰۴) من سورة الأنبياء: يَوْمَ نَطْوِی السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ

و نقرأ فی الآية (۴۸) من سورة إبراهيم: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ

ثمّ يضيف القرآن فی آية اخرى: وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً.

أجل، الجبال تنقلع من أمكنتها و تتحرّك و تسير ثمّ تندكّ و تتلاشـى كما تشـهد بذلك آيات القرآن الاخر فتغدو كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ [۱۵۰] ثمّ تكون قاعا خالية من كلّ شیء كما يقول القرآن: فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً[۱۵۱].

كلّ ذلك هو إشارة إلى أنّ هـذه الـدنيا و ما فيها و ما عليها تنـدكّ و يحـدث مكانها عالم جديـد بأنظمة جديدة و يكون الإنسان أمام نتائج أعماله وجها لوجه.

لذا فإنّ القرآن يضيف فی الآية التالية قائلا: فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۱۵۲].

أجـل، حين تعمّ الوحشـة و الاضـطراب جميع الخلق لتغيّر العـالم، تهيمن على المكـذّبين وحشـة عظيمـة و هی العـذاب الإلـهی .. لأنّ «الويل»: إظهار التأسّف

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۱

و الحزن لوقوع حادثة غير مطلوبة!.

ثمّ تبيّن الآيات من هم «المكذّبون» فتقول: الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ

فیزعمون أنّ آیات القرآن ضرب من الکذب و الافتراء و أنّ معجزات النّبی سحر و أنّه مجنون، و یتلقّون جمیع الحقائق باللعب و یسخرون منها و یستهزئون بها و یحاربون الحقّ بالکلام الباطل غیر المنطقی، و لا یأبون من أیّة تهمة أو کذب فی سبیل الوصول إلی مآربهم.

«خوض» علی وزن حوض- معناه الدخول فی الکلام الباطل، و هو فی الأصل ورود الماء و العبور منه.

ثمّ تبیّن الآیات ذلک الیوم و عاقبة هؤلاء المکذّبین فی توضیح آخر: فتقول:

یَوْمَ یُدَعُّونَ إِلی نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا[۱۵۳] أی یساقون نحو جهنّم بعنف و شدّة.

و یقال لهم حینئذ: هذِهِ النَّارُ الَّتِی کُنْتُمْ بِها تُکَذِّبُونَ

کما یقال لهم أیضا: أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ ! لقد کنتم تزعمون فی الدنیا إنّ ما جاء به محمّد سحر، و قد أخذ السحر عن ساحر آخر، فغطّی علی أعیننا لیصرفها عن الحقائق و لیختطف عقولنا! و یرینا أمورا علی أنّها معاجز، و یذکر لنا کلاما علی أنّه وحی منزل من اللّه، إلّا أنّ جمیع ذلک لا أساس له و ما هو إلّا السحر!! لذلک فحین یردون نار جهنّم یقال لهم بنحو التوبیخ و الملامة و الاحتقار و هم یلمسون حرارة النار: أ فسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟! کما یقال لهم هناک أیضا: اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَیْکُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أجل هذه هی أعمالکم و قد عادت إلیکم، فلا ینفع الجزع و الفزع و الآه

و الصراخ و لا أثر لکلّ ذلک أبدا.

و هذه الآیة تأکید علی «تجسّم الأعمال» و عودتها نحو الإنسان، و هی تأکید جدید أیضا علی عدالة اللّه .. لأنّ نار جهنّم مهما کانت شدیدة و محرقة فهی لیست سوی نتیجة أعمال الناس أنفسهم، و أشکالها المتبدّلة هناک!.

تعقیب

۱- کیف یساق المجرمون إلی جهنّم؟

لا شکّ أنّ المجرمین یساقون و یدعّون إلی جهنّم بالتحقیر و المهانة و الزجر و العذاب، إلّا أنّه تشاهد آیات متعدّدة فی هذا الصدد ذات تعابیر مختلفة.

إذ نقرأ فی الآیتین (۳۰) و (۳۱) من سورة الحاقة مثلا خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِیمَ صَلُّوهُ

و نقرأ فی الآیة (۴۷) من سورة الدخان خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلی سَواءِ الْجَحِیمِ

کما جاء التعبیر بالسوق فی بعض الآیات کالآیة (۸۶) من سورة مریم وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِینَ إِلی جَهَنَّمَ وِرْداً.

و علی العکس منهم المتّقون و الصالحون إذ یتلقّون بکلّ إکرام و احترام عند باب الجنّة: حَتَّی إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَیْکُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِینَ ۱۵۴].

و علی هذا فلیست الجنّة و النار- کلّ منهما- مرکزا لرحمة اللّه أو عذابه فحسب، بل تشریفات الورود لکلّ منهما کاشفة عن هذا المعنی أیضا.

۲- الخائضون فی الأباطیل!.

بالرغم من أنّ کلام القرآن فی الآیات الآنفة کان یدور حول المشرکین فی عصر النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّ هذه الآیات دون شکّ عامّة، فهی تشمل جمیع المکذّبین حتّی الفلاسفة المادیین الخائضین فی حفنة من الخیالات و الأفکار الناقصة، و یتّخذون حقائق عالم الوجود لعبا و هزوا، و لا یعتدون إلّا بما یقرّ به عقلهم القاصر، فهم ینتظرون أن یروا کلّ شیء فی مختبراتهم و تحت المجهر حتّی ذات اللّه المقدّسة- تعالی عن ذلک علوّا کبیرا- و إلّا فلا یؤمنون بوجوده أبدا.

هؤلاء أیضا مصداق للذین هم فِی خَوْضٍ یَلْعَبُونَ و هم غارقون فی أمواج من الخیالات و التصوّرات الباطلة.

إنّ عقل الإنسان مهما بلغ فهو قبال نور الوحی کالشمعة أمام نور الشمس المضیئة فی العالم، فهذه الشمعة تساعد الإنسان أن یخرج من محیط المادّة المظلم و أن یفتح الأبواب نحو ما وراء الطبیعة، و أن یحلق فی کلّ جهة بنور الوحی لیری العالم الواسع و یتعرّف علی مجهولاته و خفایاه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۴

الآیات [سورة الطور (۵۲): الآیات ۱۷ الی ۲۱]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنَّاتٍ وَ نَعِیمٍ (۱۷) فاکِهِینَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِیمِ (۱۸) کُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِیئاً بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۹) مُتَّکِئِینَ عَلی سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِینٍ (۲۰) وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّیَّتُهُمْ بِإِیمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَیْءٍ کُلُّ امْرِئٍ بِما کَسَبَ رَهِینٌ (۲۱)

التّفسیر

مواهب اللّه للمتّقین:

تعقیبا علی المباحث الواردة فی الآیات المتقدّمة حول عقاب المجرمین و عذابهم الألیم تذکر الآیات محلّ البحث ما یقابل ذلک من المواهب الکثیرة و الثواب العظیم للمؤمنین و المتّقین لتتجلّی بمقایسة واضحة مکانة کلّ من الفریقین.

تقول الآیة الاولی من الآیات محلّ البحث: إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی جَنَّاتٍ وَ نَعِیمٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۵

و التعبیر ب «المتّقین» بدلا من المؤمنین، لأنّ هذا العنوان یحمل مفهوم الإیمان، کما یحمل مفهوم العمل الصالح أیضا، خاصّة أنّ «التقوی» تقع مقدّمة و أساسا للإیمان فی بعض المراحل، کما تقول الآیة ۲ من سورة البقرة ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ لأنّ الإنسان إذا لم یکن ذا تعهّد و إحساس بالمسؤولیة و روح تطلب الحقّ و تبحث عنه- و کلّ ذلک مرحلة من مراحل التقوی- فإنّه لا یمضی فی التحقیق عن دینه و عقیدته و لا یقبل هدایة القرآن أبدا.

و التعبیر ب فِی جَنَّاتٍ وَ نَعِیمٍ بصیغة الجمع و التنکیر لکلّ منهما، إشارة إلی تنوّع الجنّات و النعیم و عظمتهما.

ثمّ یتحدّث القرآن عن تأثیر هذه النعم الکبری علی روحیة أهل الجنّة فیقول فی الآیة التالیة: فاکِهِینَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ ۱۵۵].

خاصّة أنّ اللّه قد طمأنهم و آمنهم من العقاب وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِیمِ

و هذه الجملة قد تكون ذات معنين .. الأوّل بيان النعمة المستقلّة قبال نعم اللّه الاخر .. و الثانى أن يكون تعقيبا على الكلام السابق، أى أنّ أهل الجنّة مسرورون من شيئين «بما آتاهم اللّه من النعم فى الجنّة»، و «بما وقاهم من عذاب الجحيم».

و التعبير ب «ربّهم» فى الجملتين يشير ضمنا إلى نهاية لطف اللّه و دوام ربوبيته عليهم فى تلك الدار.

ثمّ تشير الآية الاخرى إشارة إجمالية إلى نعم المتّقين فى الجنّة فتقول: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و التعبير ب «هنيئا» هو إشارة إلى أنّ أطعمة الجنّة و شرابها السائغة غير المنغّصة، فهى ليست كأطعمة الدنيا و شرابها التى تجرّ الإنسان إلى الوبال عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۶

الإفراط أو التفريط بها .. إضافة إلى كلّ ذلك لا يحصل عليها بمشقّة، و لا يخاف من انتهائها، و لذلك فهى هنيئة![۱۵۶].

و من المعلوم أنّ أطعمة الجنّة هنيئة بذاتها، و لكنّ قول الملائكة لأهل الجنّة «هنيئا» هذا القول له لطفه و عذوبته الخاصّة.

و النعمة الاخرى التى يتمتّع بها أهل الجنّة هى كونهم: مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ.

فهم يلتذّون بالاستئناس إلى أصحابهم و المؤمنين الآخرين، و هذه لذّة معنوية فوق أيّة لذّة اخرى!.

و «سرر» جمع سرير، و أصل المادّة هو «السرور» و تطلق السرر على الكراسى المهيأة لمجالس السرور ليتّكأ عليها.

و «مصفوفة» من مادّة صف، و معناها أنّ هذه السرر مرتبة واحدا إلى جنب الآخر و يتشكّل منه مجلس عظيم للأنس.

و نقرأ فى آيات متعدّدة من القرآن أنّ أهل الجنّة يجلسون على سرر متقابلين. [الحجر الآية ۴۷ و الصافات الآية ۴۴].

و هذا التعبير لا ينافى ما ورد فى هذه الآية محلّ البحث، لأنّ مجالس الانس و السرور ترتّب الأسّرة فيها على شكل مستدير و مصفوفة جنبا إلى جنب، فجلّاسها على سرر مصفوفة متقابلون!.

و التعبير ب «متكئين» إشارة إلى منتهى الهدوء، لأنّ الإنسان عند الهدوء يتكئ عادة، و الذين هم فى قلق و حزن لا يرون كذلك!.

ثمّ يضيف القرآن بأنّا زوجناهم من نساء بيض جميلات ذوات أعين واسعة وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۱۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۷

هذه بعض من نعم أهل الجنّة المادية و المعنوية، إلّا أنّهم لا يكتفون بهذه النعم فحسب، و إنّما تضاف إليها نعم و مواهب معنوية و مادية أخرا! وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ!.

و هذه نعمة بنفسها أيضا أن يرى الإنسان ذريّته فى الجنّة و يلتذّ برؤيتهم دون أن ينقص من عمله شىء أبدا.

و يفهم من تعبير الآية أنّ المراد من الذرية هم الأبناء البالغون الذين يسيرون فى خطّ الآباء المؤمنين و يتّبعون منهجهم.

فمثل هؤلاء الأبناء و هذه الذريّة إذا كان فى عملهم نقص و تقصير فإنّ اللّه سبحانه يتجاوز عنهم لأجل آبائهم الصالحين، و يرتفع مقامهم عندئذ فيبلغون درجة آبائهم، و هذه المثوبة موهبة للآباء و الأبناء[۱۵۸]!.

إلّا أنّ جماعة من المفسّرين يعتقدون أنّ «الذريّة» هنا تشمل الأبناء الكبار و الصغار جميعا .. غير أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع ظاهر الآية، لأنّ الاتّباع بإيمان دليل على وصولهم مرحلة البلوغ أو مقاربتهم لها.

إلّا أن يقال أنّ الأطفال يصلون فى يوم القيامة مرحلة البلوغ و يمتحنون فمتى نجحوا فى الامتحان التحقوا بالآباء، كما جاء هذا المعنى فى الكافى إذ ورد فيه أنّه سئل الإمام عن أطفال المؤمنين فقال عليه السّلام: «إذا كان يوم القيامة جمعهم اللّه و يشعل نارا فيأمرهم أن يلقوا أنفسهم فى النار فمن ألقى نفسه سلم و كان سعيدا و جعل اللّه النار عليه بردا و سلاما و من امتنع حرم من لطف اللّه»[۱۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۸

إلّا أنّ، هذا الحديث إضافة إلى ضعف سنده يواجه إشكالات و مؤخذات فى المتن أيضا .. و ليس هنا مجال لبيانها و شرحها.

و بالطبع فإنّه لا مانع أن يلحق الأطفال بالآباء و يكونوا معهم فى الجنّة .. إلّا أنّ الكلام هو هل الآية الآنفة ناظرة إلى هذا المطلب أم لا؟

و قد قلنا إنّ التعبير ب اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ ظاهره أنّ المقصود هو الكبار.

و على كلّ حال- و حيث أنّ ارتقاء الأبناء إلى درجـة الآباء يمكن أن يوجد هذا التوهّم أنّه ينقص من أعمال الآباء و يعطى للأبناء فإنّ الآية تعقّب بالقول: وَ ما أَلَتْناهُمْ ۱۶۰] مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ.

و

ينقل ابن عبّاس عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا دخل الرجل الجنّة سأل عن أبويه و زوجته و ولده فيقال له إنّهم لم يبلغوا درجتك و عملك. فيقول: ربّ قد عملت لى و لهم فيؤمر بالحاقهم به»[۱۶۱].

ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ القرآن يضيف فى نهاية الآية: كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ

فلا ينبغى التعجّب من عـدم إنقاص أعمال المتّقين، لأنّ هـذه الأعمال مع الإنسان حيثما كان، و إذا أراد اللّه أن يلحق أبناء المتّقين بهم تفضّلا منه و رحمة، فلا يعنى ذلك أنّه سينقص من ثواب أعمالهم أى شيء! و قال بعض المفسّرين: إنّ كلمة «رهين» هنا معناها مطلق، فكلّ إنسان مرهون بأعماله، سواء أ كانت صالحة أم طالحة، و لا ينقص من جزاء أعماله شيء.

و لكن مع ملاحظـة أنّ هـذا التعبير لا- يتناسب و الأعمال الصالحـة، فإنّ بعض المفسّـرين قالوا: إنّ «كلّ امرئ» هنا إشارة إلى أصـحاب الأعمال السيّئة! و إنّ كلّ إنسان مرهون بأعماله السيّئة فهو حبيسها و أسيرها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۹

و يستدلّون أحيانا بالآيتين (۳۸) و ۳۹) من سورة المدثر .. كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ

غير أنّ هذا التّفسير مع الالتفات إلى سياق الآيات السابقة و اللاحقة- التى تتكلّم فى شأن المتّقين و ليس فيها كلام على المشـركين و المجرمين- يبدو غير مناسب! و قبال هذين التّفسيرين الذين يبدو كلّ منهما غير مناسب- من بعض الوجوه- هناك تفسير ثالث ينسجم مع صـدر الآيـة و الآيات السابقـة و الآيات اللاحقـة، و هو أنّ من معانى «الرهن» فى اللغـة «الملازمـة»، و إن كان معروفا أنّه الوثيقة فى مقابل الدين، إلّا أنّه يستفاد من كلمات أهل اللغة أنّ الرهن من معاينة الدوام و الملازمة[۱۶۲].

بل هناك من يصـرّح بأنّ المعنى الأصـلى للرهن هو الدوام و الثبوت، و يعدّ الرهن بمعنى الوثيقة من اصـطلاحات الفقهاء، لذلك فإنّه حين يقال «نعمة راهنة» فمعناها أنّها ثابتة و مستقرّة[۱۶۳].

و يقول أمير المؤمنين فى شأن الأمم السالفة: «ها هم رهائن القبور و مضامين اللحود»[۱۶۴].

فيكون معنى كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ أنّ أعمال كلّ إنسان ملازمـة له و لا تنفصل عنه أبـدا، سواء كانت صالحة أو طالحة، و لذلك فإنّ المتّقين فى الجنّة رهينو أعمالهم، و إذا كان أبناؤهم و ذريّاتهم معهم، فلا يعنى ذلك أنّ أعمالهم ينقص منها شيء أبدا.

و أمّا فى شأن الآية (۳۹) من سورة المدثر التى تستثنى أصحاب اليمين ممّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۰

سبق، فيمكن أن تكون إشارة إلى أنّهم مشمولون بألطاف لا حدّ لها حتّى كأنّ أعمالهم لا أثر لها بالقياس إلى ألطاف اللّه ۱۶۵] و على كلّ حال، فإنّ هذه الجملة تؤكّد هذه الحقيقة و هى أنّ أعمال الإنسان لا تنفصل عنه أبدا، و هى معه فى جميع المراحل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۱

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۲۲ الى ۲۸]

اشارة

وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۲) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ (۲۳) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

مَكْنُونٌ (۲۴) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۵) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (۲۶)
فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ (۲۷) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (۲۸)

التّفسير

مواهب اخرى لأهل الجنّة:

أشارت الآيات المتقدّمة إلى تسعة أقسام من مواهب أهل الجنّة، و تشير الآيات محلّ البحث إلى خمسة أخر منها بحيث يستفاد من المجموع أنّ ما هو لازم للهدوء و الطمأنينة و الفرح و السرور و اللذّة مهيّأ لهم فى الجنّة! فتشير الآية الاولى من الآيات محلّ البحث إلى نوعين من طعام أهل الجنّة فتقول: وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۲

«أمددناهم» مشتق من الإمداد و معناه العطاء و الزيادة و الإدامة .. أى أنّ طعام الجنّة و فواكهها لا ينقص منهما شيء بتناولهما، و هما ليسا كطعام الدنيا و فواكهها بحيث يتغيّران أو ينقصان.

و التعبير ب مِمَّا يَشْتَهُونَ يدلّ على أنّ أهل الجنّة أحرار تماما فى انتخاب الأطعمة و نوعها و كميّتها و كيفيتها، فمهما طلبوا فهو مهيئ لهم .. و بالطبع فإنّ طعام الجنّة غير منحصر بهذين النوعين اللحم و الفاكهة، إلّا أنّهما يمثّلان الطعام المهمّ، و تقديم الفاكهة على اللحم إشارة إلى أفضليّتها عليه.

ثمّ تشير الآية التالية إلى ما يشربه أهل الجنّة من شراب سائغ فتقول:

يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ حيث يناول أحدهم الآخر كؤوس الشراب الطاهر من الإثم و الإفساد، و يشربون شرابا سائغا عذبا لذيذا يهب النشاط خاليا من أى نوع من أنواع التخدير و فساد العقل! و لا يعقبه لغو و لا إثم، بل كلّه لذّة و انتباه و نشاط «جسمى و روحانى».

و كلمة «يتنازعون» من مادّة التنازع و معناه أخذ بعضهم من بعض، و قد يأتى للمخاصمة و التجاذب، لذلك قال بعض المفسّرين بأنّ أهل الجنّة يتجاذبون الشراب الطهور بعضهم من بعض على سبيل المزاح و السرور.

لكن كما يستفاد من كلمات أهل اللغة أنّ «التنازع» متى أطلق معه لفظ الكأس أو ما أشبه فمعناه أخذ الكأس من يد الآخر! و لا يعنى التخاصم أو التجاذب! و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة اللغوية و هى أنّ «الكأس» هى الإناء المملوء فإذا كان خاليا لا يطلق عليه كأس [۱۶۶].

و على كلّ حال، فحيث أنّ التعبير بالكأس يتداعى منه إلى الشراب المخدّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۳

فى الدنيا فإنّ الآية تضيف قائلة لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ و لا يصدر على أثرها عمل قبيح كما يعقب الشراب المخدّر! فشراب هذه الكأس طهور نقى يجعلهم أكثر طهارة و خلوصا.

أمّا النعمة الرابعة المذكورة لأهل الجنّة فوجود الخدم و الغلمان إذ تقول الآية:

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ

و «اللؤلؤ المكنون» هو اللؤلؤ داخل صدفه، و هو فى هذه الحالة شفّاف و جميل إلى درجة لا توصف و إن كان خارج الصدف شفّافا و جميلا- أيضا، غير أنّ الهواء الملوّث و الأيدى التى تتناوله كلّ ذلك يؤثّر فيه، فلا يبقى على حالته الاولى من الشفّافية! فالغلمان و

خدمة الجنّة هم إلى درجة من الصفاء حتّى كأنّهم اللؤلؤ المكنون كما يعبّر القرآن الكريم.

و بالرغم من أنّه لا حاجة فی الجنّة إلى الخدمة، و ما يطلبه الإنسان يجده أمامه، إلّا أنّ هذا بنفسه إكرام أو احترام آخر لأهل الجنّة! و قد ورد فی حديث عن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين سئل عن أهل الجنّة فقيل له:

يا رسول اللّه إنّ الغلمان هم كاللؤلؤ المكنون فكيف حالة المؤمنين؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

و الذی نفسی بيده فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ۱۶۷].

و التعبير ب (لهم) يدلّ على أنّ كلّ مؤمن له خدمة خاصّون به، و حيث أنّ الجنّة ليست مكانا للهم و الحزن فإنّ الغلمان يلتذّون بخدمتهم المؤمنين!.

و آخر نعمة فی هذه السلسلة من النعم هی نعمة الطمأنينة و راحة البال من كلّ عذاب أو عقاب إذ تقول الآية التالية: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِی أَهْلِنا مُشْفِقِينَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۴

فمع أنّنا كنّا نعيش بين ظهرانی أهلنا و كان ينبغی أن نحسّ بالأمان و الطمأنينة، إلّا أنّنا كنّا مشفقين ... مشفقين أن تحدق بنا الحوادث المزعجة و المكدّرة لحياتنا و أن يصيبنا عذاب اللّه على حين غرّة فی أيّة لحظة.

مشفقين أن يسلك أبناؤنا طريق الضلال، فيتيهوا فی مفازة جرداء و يتحيّروا! مشفقين أن يفجؤنا أعداؤنا القساة و يضيّقوا علينا الميدان! و لكن اللّه منّ علينا برحمته الواسعة: فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ

أجل: منّ اللّه الرحيم علينا فنجّانا من سجن الدنيا و وحشتها، و أنعم علينا فی دار القرار و جنّات النعيم.

و حين يتذكّرون ماضيهم و جزئياته و يقيسونه بما هم عليه من حالة منعّمة! يعرفون قدر نعم اللّه و مواهبه الكبرى أكثر، و ستكون تلك النعم ألذّ و أدعى للقلب، لأنّ القيم تتجلّى أكثر فی القياس بين نعم الدنيا و نعم الآخرة.

و الكلام الذی ينقله القرآن على لسان أهل الجنّة هنا يشير إلى اعترافهم بهذه الحقيقة و هی أنّ كون اللّه برّا رحيما يعرفه أهل الجنّة فی ذلك الزمان أكثر من أی وقت مضى فيقولون: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ

إلّا إنّنا نعرف هذه الصفات الآن بشكل واقعی أكثر ممّا كنّا نعرفها، إذ شملنا برحمته العظيمة قبال هذه الأعمال التی لا تعدّ شيئا و أحسن إلينا مع كلّ تلك الذنوب الكثيرة!.

أجل إنّ عرصة القيامة و نعم الجنّة مدعاة لتجلّی صفات اللّه و أسمائه، و المؤمنون يتعرّفون فی عرصة القيامة على حقيقة أسماء اللّه تعالى و صفاته أكثر من أی زمن آخر.

حتّى الجحيم أيضا تبيّن صفاته و حكمته و عدله و قدرته!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۵

ملاحظات

۱- كلمة «يتساءلون» مشتقّة من السؤال، و معناه الاستفهام، أی يسأل بعضهم بعضا، و هذا الفعل هنا يشير إلى أنّ أهل الجنّة يسأل بعضهم بعضا عن ماضيه، لأنّ تذكّر هذه المسائل و النجاة من تلك الآلام و الهموم و الوصول إلى مثل هذه المواهب كلّ ذلك بنفسه تلذّذ أيضا ... و هذا يشبه تماما «الإنسان» المسافر العائد من سفر محفوف بالمخاطر إلى محيط آمن. فهو يتحدّث مع من سافر معه عن ما كان فی سفره و يعرب عن سروره لسلامته.

۲- كلمة «مشفقين» مشتقّة من الإشفاق، و كما يقول الراغب فی مفرداته معناه التوجّه المقرون بالخوف .. فحين يتعدّى هذا اللفظ «الإشفاق» ب «من» يكون مفهوم الخوف فيها أظهر، و إذا تعدّت ب «فی» يكون مفهوم التوجّه و العناية فيها أكثر! و الأصل أنّ هذه

الکلمهٔ مشتقّهٔ من «الشفق» و هو النور المقرون أو الممزوج بشیء من الظلمهٔ.

و الآن ینبغی أن یعرف ممّ کانوا مشفقین فی الدنیا و خائفین؟ و لأی شیء کانوا یتوجّهون؟! و هنا احتمالات ثلاثهٔ و قد جمعناها فی تفسیر الآیهٔ إذ لا منافاهٔ بینها جمیعا ..

«الخوف من اللّه و التوجّه إلیه لنجاتهم- و الإشفاق من انحراف أهلیهم و الالتفات إلی أمر التربیهٔ- و الخوف من الأعداء و التوجّه لحفظ أنفسهم فی قبالهم» و إن کان المعنی الأوّل- مع ملاحظهٔ الآیات التالیهٔ و خاصّهٔ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَیْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ أقرب للنظر!

۳- التعبیر «فی أهلنا» بإطلاقه یحمل مفهوما واسعا حیث یصدق علی جمیع الأبناء و الأزواج و الأحباب، و یشیر هذا التعبیر إلی أنّ الإنسان فی مثل هذا الجمع یحسّ بالأمن أکثر من أی مکان آخر، فإذا کان فیهم مشفقا، فمن المعلوم حاله إذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۶

کان فی غیرهم!! و یحتمل أیضا أنّ هذا التعبیر یشیر إلی أولئک المبتلین باسرهٔ غیر مؤمنهٔ، و کانوا خائفین حتّی منهم، إلّا أنّهم فی الوقت ذاته قاوموا و حافظوا علی استقلالهم بالاتّکال علی اللّه و لطفه و لم یتلوّنوا بلون الآسرهٔ.

۴- «السموم» یعنی الحرارهٔ التی تدخل فی مسام البدن فتؤذی الإنسان، و یطلق علی الریح التی تتسم بهذه السمهٔ بریح السموم کما یطلق عذاب السموم علی مثل هذا العذاب الذی تدخل حرارته مسام البدن فتؤذیه.

و أمّا إطلاق کلمهٔ «السم» علی المواد القاتلهٔ فهو لأنّها تنفذ فی جمیع أجزاء البدن! ۵- کلمهٔ «البرّ» فی الأصل تطلق علی الیابسهٔ فی قبال البحر، ثمّ استعملت هذه الکلمهٔ فی من یعمل عملا صالحا و واسعا حسنا، و أجدر بهذه الکلمهٔ الذات المقدّسهٔ، لأنّ لطفه و إحسانه عمّ العوالم کلّها.

۶- ارتباط الآیات و مضامینها قلنا أنّ هذه الآیات و الآیات المتقدّمهٔ تذکر أربعهٔ عشر قسما من نعم أهل الجنّهٔ.

۱- الجنّات ۲- النعیم ۳- السرور ۴- الأمان من عذاب جهنّم ۵- تناول الطعام و الشراب السائغ فی الجنّهٔ ۶- الاتّکاء علی السرر المصفوفهٔ ۷- الأزواج من الحور العین ۸- الحاق الذریهٔ التی تبعت آباءها بإیمان ۹- أنواع الفواکه اللذیذهٔ ۱۰- أنواع اللحم، ۱۱- ما تشتهی الأنفس ۱۲- کؤوس الشراب الطهور ۱۳- و یطوف علیهم غلمان لهم کأنّهم لؤلؤ مکنون ۱۴- التساؤل عن أیّام الدنیا فی مجالس یغمرها الانس!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۷

و هذه النعم بعضها مادّی و بعضها معنوی، و مع کلّ ذلک فإنّ نعم الجنّهٔ المادیّهٔ و المعنویهٔ غیر منحصرهٔ بهذه النعم، بل ما هو مذکور هنا یعدّ جانب من جوانب نعم الجنّهٔ!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۸

الآیات [سورهٔ الطور (۵۲): الآیات ۲۹ الی ۳۴]

اشارهٔ

فَذَکِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّکَ بِکاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ (۲۹) أَمْ یَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ (۳۰) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِینَ (۳۱) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (۳۲) أَمْ یَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا یُؤْمِنُونَ (۳۳)
فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ إِنْ کانُوا صادِقِینَ (۳۴)

سبب النّزول

جاء فی روایة أنّ قریشا اجتمعت فی دار الندوة[۱۶۸] لیفکّروا فی مواجهة دعوة النّبی الإسلامیة التی کانت تعدّ خطرا کبیرا علی منافعهم غیر المشروعة.

فقال رجل من قبیلة «عبد الدار» ینبغی أن ننتظر حتّی یموت، لأنّه شاعر علی کلّ حال، و سیمضی عنّا کما مات زهیر و النابغة و الأعشی «ثلاثة شعراء جاهلیون» و طوی بساطهم .. و سیطوی بساط محمّد أیضا بموته. قالوا ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۹

و تفرّقوا فنزلت الآیات آنفة الذکر وردّت علیهم ۱۶۹].

التّفسیر

أمنیات المشرکین و تحدّی القرآن

کان الکلام فی الآیات المتقدّمة علی قسم مهمّ من نعم الجنّة و ثواب المتّقین و کان الکلام فی الآیات التی سبقتها عن بعض عذاب أهل النار.

لذلک فإنّ الآیة الاولی من الآیات محلّ البحث تخاطب النّبی فتقول:

«فتذکّر»! لأنّ قلوب عشّاق الحقّ تکون أکثر استعدادا بسماعها مثل هذا الکلام، و قد أن الأوان أن تبیّن الکلام الحقّ لها! و هذا التعبیر یدلّ بوضوح أنّ الهدف الأصلی من ذکر جمیع تلک النعم و مجازاة الفریقین هو تهیئة الأرضیة الروحیة لقبول حقائق جدیدة! و فی الحقیقة فإنّه ینبغی علی کلّ خطیب أنّ یستفید من هذه الطریقة لنفوذ کلامه و تأثیره فی قلوب السامعین.

ثمّ یذکر القرآن الاتّهامات التی أطلقها أعداء النّبی الألدّاء المعاندون فیقول:

فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّکَ بِکاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ

«الکاهن» یطلق علی من یخبر عن الأسرار الغیبیة، و غالبا ما کان الکاهن یدّعی بأنّه له علاقة بالجنّ و یستمد الأخبار الغیبیة منهم، و کان الکهنة فی الجاهلیة- خاصّة- کثیرین .. و من ضمنهم الکاهنان «سطیح» و «شق»، و الکهنة أفراد أذکیاء، إلّا أنّهم یستغلّون ذکاءهم فیخدعون الناس بادّعاءاتهم الفارغة.

و الکهانة محرّمة فی الإسلام و ممنوعة و لا یعتدّ بأقوال الکهنة! لأنّ أسرار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۰

الغیب خاصّة بعلم اللّه و لا یطلع غیبه إلّا من ارتضی من رسول و إمام و حسب ما تقتضیه المصلحة.

و علی کلّ حال فإنّ قریشا و من أجل أن تشتّت الناس و تصرّفهم عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت تتّهمه ببعض التّهم، فتارة تتّهمه بأنّه کاهن، و تارة تتّهمه بأنّه مجنون، و العجب أنّها لم تقف علی تضاد الوصفین، لأنّ الکهنة أناس أذکیاء و المجانین علی خلافهم!! و لعلّ الجمع بین الافترائین فی الآیة إشارة إلی هذا التناقض فی الکلام من قبل القائلین.

ثمّ یذکر القرآن الاتّهام الثالث الذی یخالف الوصفین السابقین أیضا فیقول:

أَمْ یَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَیْبَ الْمَنُونِ

فطالما هو شاعر فعلینا أن نصبر، إذ أنّ لأشعاره رونقها و جاذبیتها، فإذا حلّ به الموت و انطوت أشعاره کما ینطوی سجل عمره و أودعت فی ضمیر النسیان فسنکون حینئذ فی راحة من أمره!!.

و کما یفهم من کتب اللغة فإنّ «المنون» مشتقّ من المنّ، و هو علی معنیین:

النقصان و القطع، و هـذان المعنيان أيضا بينهما مفهوم جامع! ثمّ استعملت كلمـة «المنون» فى الموت أيضا، لأنّه ينقص العـدد و يقطع المدد.

و قد يطلق «المنون» على مرور الزمان، و ذلك لأنّه يوجب الموت و يقطع العلائق و ينقص النفر، كما يطلق «المنون» على الليل و النهار أحيانا، و لعلّ ذلك للمناسبة ذاتها[۱۷۰].

و أمّا كلمـة (ريب) فأصـلها الشكّ و التردّد و الوهم فى الشـىء الذى تنكشف أسـتاره بعدئذ فتتضح حقيقته! و هذا التعبير يسـتعمل فى شأن الموت، فيقال «ريب المنون» لأنّ وقت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۱

حصوله غير معلوم لا ـ أصـل تحقّقه ۱۷۱]! إلّا أنّ جماعـة من المفسّـرين قـالوا إنّ المراد من «ريب المنـون» فى الآيـة محـلّ البحث هو حوادث الـدهر، حتّى أنّه نقـل عن ابن عبّاس أنّه قال حيث ما وردت كلمـة «ريب» فى القرآن فهى بمعنى الشكّ و التردّد، إلّا فى هـذه الآية من سورة الطور فمعناها الحوادث ۱۷۲].

و قـال جماعـة منهم أنّ المراد منه هو حالـة الاضـطراب، فيكون معنى «ريب المنون» على هـذا القول هو حالـة الاضـطراب التى تنتـاب أغلب الأفراد قبل الموت! و يمكن أن يعود هـذا التّفسير (الأخير) على المعنى السابق، لأنّ حالـة الشكّ و التردّد أساس الاضـطراب، و كـذلك الحوادث التى لم يتبأ بها من قبل، فهى تقترن بنوع من الاضـطراب و الشكّ و التردّد، و هكـذا فإنّ جميع هذه المفاهيم تنتهى إلى أصل «الشكّ و التردّد».

و بتعبير آخر، فإنّ للريب ثلاثة معان مذكورة: الشكّ، و الاضطراب، و الحوادث، و هذه جميعا من باب اللازم و الملزوم!.

و على كلّ حال، فأولئك كانوا يطمئنون أنفسـهم و يرضون خاطرهم بأنّ حوادث الزمان كفيلة بالقضاء على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كانوا يتصوّرون أنّهم سيتخلّصون من هـذه المشـكلة العظمى التى أحـدثتها دعوة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى سائر المجتمع .. لـذلك فإنّ القرآن يردّ عليهم بجملة موجزة مقتضـبة ذات معنى غزير و يهدّد هؤلاء- عمى القلوب- مخاطبا نبيّه فيقول: قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِینَ

فأنتم تنتظرون تحقّق تصوّراتكم الساذجة التافهة!! و أنا أنتظر أن يصيبكم عذاب اللّه!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۲

و عليكم أن تنتظروا أن ينطوى بموتى بساط الإسلام!! و أنا بعون اللّه أنتظر أن أجعل الإسلام يستوعب العالم كلّه فى حياتى و أن يبقى بعد حياتى أيضا مواصلا طريقه دائما! أجل .. إنّما تعوّلون على تصوراتكم و خيالاتكم، و أنا أعتمد على لطف اللّه الخاصّ سبحانه.

ثمّ يوبّخهم القرآن توبيخا شديدا فيقول فى شأنهم: أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ ۱۷۳].

كان سراة قريش يعرفون بين قومهم بعنوان «ذوى الأحلام»، أى أصحاب العقول، فالقرآن يقول: أى عقل هـذا الـذى يدّعى بأنّ وحى السماء- الذى تكمن فيه دلائل الحقّ و الصدق- شعر أو كهانة؟! و أن يزعم بأنّ حامله «النبى» الذى عرف بالصدق و الأمانة منذ عهد بعيد، بأنّه شاعر أو مجنون!؟

فبناء على ذلك ينبغى أن يستنتج أنّ هذه التّهم و الافتراءات ليست ممّا تقول به عقولهم و تأمرهم به، بل أساسها طغيانهم و تعصّبهم و روح العصيان و التمرّد .. فما أن وجـدوا منافعهم غير المشروعة فى خطر حتّى ودّعوا العقل!! و لوّوا رؤوسـهم نحو الطغيان عنادا عن اتّباع الحقّ!.

«الأحلام» جمع حلم و معناه العقل، و لكن كما يقول الراغب فى مفرداته أنّ الحلم فى الحقيقـة بمعنى ضـبط النفس و التجلّد عند الغضب، و هو واحد من دلائل العقل و الدراية، و يشترك مع الحلم على زنة العلم- فى الجذر اللغوى!.

و كلمة «الحلم» قد تأتى بمعنى الرؤيا و المنام و لا يبعد مثل هذا التّفسير فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۳

الآیة محلّ البحث .. فکأنّ کلماتهم ناتجة عن أحلامهم الباطلة!! و مرّة اخری یشیر القرآن إلی اتّهام آخر- من اتّهاماتهم- الذی یعدّ الرابع فی سلسلة اتّهاماتهم فیقول: أَمْ یَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا یُؤْمِنُونَ

«تقوّله»: مشتقّ من مادّة تقوّل- علی وزن تکلّف- و معناه الکلام الذی یفتعله الإنسان بینه و بین نفسه دون أن یکون له واقع [۱۷۴].

و هذه ذریعة اخری من ذرائع المشرکین و الکفّار المعاندین لئلّا یستسلموا أمام القرآن المجید و دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد تکرّرت الإشارة إلیها مرارا عدیدة فی آیات القرآن!.

غیر أنّ القرآن یردّ علیهم ردّا یدحرهم و یتحدّاهم متهکما فیقول: فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ إِنْ کانُوا صادِقِینَ

فأنتم أناس مثله و لدیکم العقل و القدرة علی البیان و الاطلاع و الخبرة علی أنواع الکلام فلم لا یأتی مفکّروکم و خطباؤکم و فصحاءکم بمثل هذا الکلام!.

و جملة «فلیأتوا» أمر تعجیزی، و الهدف منه بیان عجزهم و عدم قدرتهم علی مجاراة القرآن.

و هذا ما یعبّر عنه فی علم الکلام و العقائد بالتحدّی أی دعوة المخالفین إلی المعارضة و الإتیان بالمثل «فی مواجهة المعجزات!».

و علی کلّ حال، فهذه آیة من الآیات التی تبیّن إعجاز القرآن بجلاء، و لا یختصّ مفهومها بمن عاصروا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بل یشمل جمیع الذین یزعمون- بأنّ القرآن کلام بشر، و أنّه مفتری علی اللّه- علی امتداد القرون و الأعصار، فهم مخاطبون بهذه الآیة أیضا .. أی هاتوا حدیثا مثله إن کنتم تزعمون بأنّه لیس من اللّه و أنّه کلام بشر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۴

و کما نعلم بأنّ نداء القرآن فی هذه الآیة و الآیات المشابهة کان عالیا أبدا، و لم یستطع أی إنسان خلال أربعة عشر قرنا- منذ بعثة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتّی یومنا هذا- أن یرد بجواب إیجابی.

و من المعلوم أنّ أعداء الإسلام و خاصّة أصحاب الکنیسة و الیهود ینفقون ما لا یحصی من الأموال الطائلة للتبلیغ ضدّ الإسلام، فما کان یمنعهم أن یدعوا قسما منها تحت تصرّف أصحاب الفکر و القلم المخالفین لینهضوا بوجه معارضة القرآن و یکونوا مصداقا لقوله تعالی: فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ و هذا العجز «العمومی» شاهد حی علی أصالة هذا الوحی السماوی! یقول بعض المفسّرین فی هذا الصدد شیئا جدیرا بالملاحظة فلا بأس بالالتفات و الإصغاء إلیه ...

«إنّ فی هذا القرآن سرّا خاصا یشعر به کلّ من یواجه نصوصه ابتداء قبل أن یبحث عن مواضع الإعجاز فیها .. إنّه یشعر بسلطان خاصّ فی عبارات هذا القرآن یشعر أنّ هنالک شیئا ما وراء المعانی التی یدرکها العقل من التعبیر و أنّ هنالک عنصرا ما ینسکب فی الحسّ بمجرّد الاستماع لهذا القرآن، یدرکه بعض الناس واضحا و یدرکه بعض الناس غامضا، و لکنّه علی کلّ حال موجود .. هذا العنصر الذی ینسکب فی الحسّ، یصعب تحدید مصدره، أهو العبارة ذاتها؟! أهو المعنی الکامن فیها، أهو الصور و الضلال التی تشعّها؟ أهو الإیقاع القرآنی الخاصّ المتمیّز من إیقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟. أ هی هذه العناصر کلّها مجتمعة؟.

أم أنّها هی و شیء آخر وراءها غیر محدود! ذلک سرّ مستودع فی کلّ نصّ قرآنی، یشعر به کلّ من یواجه نصوص هذا القرآن ابتداء .. ثمّ تأتی وراءه الأسرار المدرکة بالتدبیر و النظر و التفکیر فی بناء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۵

القرآن کلّه»[۱۷۵].

و لمزید الإیضاح حول إعجاز القرآن من أبوابه المختلفة یراجع ذیل الآیة (۲۳) من سورة البقرة إذ ذکرنا هناک بحثا مفصّلا فی هذا الصدد و کذلک ذیل الآیة (۸۸) من سورة الإسراء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۶

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۳۵ الى ۴۳]

اشارة

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (۳۵) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (۳۶) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (۳۷) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۳۸) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ (۳۹)
أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۰) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۱) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴۳)

التّفسير

ما هو كلامكم الحقّ؟

هـذه الآيات تواصل البحث الاستدلالى السابق- كـذلك- و هى تناقش المنكرين للقرآن و نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قدرة اللّه سبحانه.

و هى آيات تبدأ جميعها ب «أم» التى تفيد الاستفهام و تشكّل سلسلة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۷

الاستدلال فى أحد عشر سؤالا متتابعا (بصورة الاستفهام الإنكارى)، و بتعبير أجلى: إنّ هذه الآيات تسدّ جميع الطرق بوجه المخالفين فلا تدع لهم مهربا فى عبارات موجزة و مؤثّرة جدّا بحيث ينحنى الإنسان لها من دون إختياره إعظاما و يعترف و يقرّ بانسجامها و عظمتها. فأوّل ما تبدأ به هو موضوع الخلق فتقول: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ ۱۷۶].

و هـذه العبارة الموجزة و المقتضبة فى الحقيقة هى إشارة إلى «برهان العليّة» المعروف الوارد فى الفلسفة و علم الكلام لإثبات وجود اللّه، و هو أنّ العالم الـذى نعيش فيه ممّا لا شكّ- فيه- حادث (لأنّه فى تغيير دائم، و كلّ ما هو متغيّر فهو فى معرض الحوادث، و كلّ ما هو فى معرض الحوادث محال أن يكون قديما و أزليّا).

و الآن ينقدح هذا السؤال، و هو إذا كان العالم حادثا فلا يخرج عن الحالات الخمس التالية:

۱- وجد من دون علّة! ۲- هو نفسه علّة لنفسه.

۳- معلولات العالم علّة لوجوده.

۴- إنّ هذا العالم معلول لعلّة اخرى و هى معلولة لعلّة اخرى إلى ما لا نهاية.

۵- إنّ هذا العالم مخلوق لواجب الوجود الذى يكون وجوده ذاتيا له.

و بطلان الاحتمالات الأربع المتقدّمة واضح، لأنّ وجود المعلول من دون علّة محال، و إلّا فينبغى أن يكون كلّ شيء موجودا فى أى ظرف كان، و الأمر ليس كذلك! و الاحتمال الثانى و هو أن يوجد الشيء من نفسه محال أيضا، لأنّ مفهومه أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۸

يكون موجودا قبل وجوده، و يلزم منه اجتماع النقيضين [فلاحظوا بدقّة].

و كذلك الاحتمال الثالث و هو أنّ مخلوقات الإنسان خلقته، و هو واضح البطلان إذ يلزم منه الدور!.

و كـذلك الاحتمال الرابع و هو تسلسل العلل و ترتّب العلل و المعلول إلى ما لا نهايـة أيضا محال، لأنّ سلسلة المعلولات اللّامحدودة

مخلوقة، و المخلوق مخلوق و يحتاج إلى خالق أوجده، ترى هل تتحوّل الأصفار التى لا نهاية لها إلى عدد؟! أو ينفلق النور من ما لا نهاية الظلمة؟! و هل يولد الغنى من ما لا نهاية له فى الفقر و الفاقة؟

فبناء على ذلك لا طريق إلّا القبول بالاحتمال الخامس، أى خالقية واجب الوجود [فلاحظوا بدقّة أيضا].

و حيث أنّ الركن الأصلى لهذا البرهان هو نفى الاحتمال الأوّل و الثانى فإنّ القرآن اقتنع به فحسب.

و الآن ندرك جيّدا وجه الاستدلال فى هذه العبارات الموجزة! الآية التالية تثير سؤالا آخر على الادّعاء فى المرحلة الأدنى من المرحلة السابقة فتقول: أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ

فإذا لم يوجدوا من دون علّة و لم يكونوا علّة أنفسهم أيضا، فهل هم واجبو الوجود فخلقوا السماوات و الأرض؟! و إذا لم يكونوا قد خلقوا الوجود، فهل أو كل اللّه إليهم أمر خلق السماء و الأرض؟ فعلى هذا هم مخلوقون و بيدهم أمر الخلق أيضا!!.

من الواضح أنّهم لا يستطيعون أن يدّعوا هذا الادّعاء الباطل، لذلك فإنّ الآية تختتم بالقول: بَلْ لا يُوقِنُونَ أجل، فهم يتذرّعون بالحجج الواهية فرارا من الإيمان! ثمّ يتساءل القرآن قائلا: فإذا لم يدّعوا هذه الأمور و لم يكن لهم نصيب فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ١٨٩

الخلق، فهل عندهم خزائن اللّه أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ ١٧٧] ليهبوا من شاؤوا نعمة النبوّة و العلم أو الأرزاق الآخر و يمنعوا من شاؤوا ذلك: أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ على جميع العوالم و فى أيديهم امور الخلائق؟! انّهم لا يستطيعون- أن يدّعوا أبدا أنّ عندهم خزائن اللّه تعالى، و لا يملكون تسلّطا على تدبير العالم، لأنّ ضعفهم و عجزهم إزاء أقل مرض بل حتّى على بعوضة تافهة و كذلك احتياجهم إلى الوسائل الابتدائية للحياة خير دليل على عدم قدرتهم و فقدان هيمنتهم! و إنّما يجرّهم إلى إنكار الحقائق هوى النفس و العناد و حبّ الجاه و التعصّب و الأنانية!.

و كلمة: «مصيطرون» إشارة إلى أرباب الأنواع التى هى من خرافات القدماء، إذ كانوا يعتقدون أنّ كلّ نوع من أنواع العالم إنسانا كان أمّ حيوانا آخر أم جمادا أم نباتا له مدبّر و ربّ خاصّ يدعى بربّ النوع و يدعون اللّه «ربّ الأرباب» و هذه العقيدة تعدّ فى نظر الإسلام «شركا» و القرآن فى آياته يصرّح بأنّ التدبير لجميع الأشياء هو للّه وحده و يصفه بربّ العالمين.

و أصل هذه الكلمة من «سطر» و معناه صفّ الكلمات عند الكتابة، و «المسيطر» كلمة تطلق على من له تسلّط على شىء ما و يقوم بتوجيهه، كما أنّ الكاتب يكون مسيطرا على كلماته (و ينبغى الالتفات إلى أنّ هذه الكلمة تكتب بالسين و بالصاد على السواء- مسيطر و مصيطر- فهما بمعنى واحد و إن كان الرسم القرآن المشهور بالصاد «مصيطر»).

و من المعلوم أنّه لا منكرو النبوّة و لا المشركون فى العصر الجاهلى و لا سواهما يدّعى أيّا من الأمور الخمسة التى ذكرها القرآن، و لذلك فإنّه يشير إلى موضوع آخر فى الآية التالية فيقول: إنّ هؤلاء هل يدعون أنّ الوحى ينزل عليهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ١٩٠

أو يدعون أنّ لهم سلّما يرتقون عليه إلى السماء فيستمعون إلى أسرار الوحى: أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ

و حيث إنّه كان من الممكن أن يدّعوا بأنّهم على معرفة بأسرار السماء فإنّ القرآن يطالبهم مباشرة بعد هذا الكلام بالدليل فيقول: فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ

و من الواضح أنّه لو كانوا يدّعون مثل هذا الادّعاء فإنّه لا يتجاوز حدود الكلام فحسب، إذ لم يكن لهم دليل على ذلك أبدا[١٧٨].

ثمّ يضيف القرآن قائلا: هل صحيح ما يزعمون أنّ الملائكة إناث و هم بنات اللّه؟! أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ ! و فى هذه الآية إشارة إلى واحد من اعتقاداتهم الباطلة، و هو استياؤهم من البنات بشدّة، و إذا علموا أنّهم رزقوا من أزواجهم «بنتا» اسودّت وجوههم من الحياء و الخجل! و مع هذا فإنّهم كانوا يزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه، فإذا كانوا مرتبطين بالملإ الأعلى و يعرفون أسرار الوحى، فهل لديهم سوى هذه الخرافات المضحكة .. و هذه العقائد المخجلة؟! و بديهى أنّ الذكر و الأنثى لا يختلفان فى نظر القيمة الإنسانية .. و

التعبير فى الآية المتقدّمة هو فى الحقيقة من قبيل الاستدلال بعقيدتهم الباطلة و محاجتهم بها.

و القرآن يعوّل- فى آيات متعدّدة- على نفى هذه العقيدة الباطلة و يحاكمهم فى هذا المجال و يفضحهم ۱۷۹]!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۱

ثمّ يتنازل القرآن إلى مرحلة اخرى، فيذكر واحدا من الأمور التى يمكن أن تكون ذريعة لرفضهم فيقول: أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ

«المغرم»- على وزن مغنم و هو ضدّ معناه- أى ما يصيب الإنسان من خسارة أو ضرر دون جهة، أمّا الغريم فيطلق على الدائن و المدين أيضا.

و «المثّقل» مشتقّ من الأثقال، و معناه تحميل العبء و المشقّة، فبناء على هذا المعنى يكون المراد من الآية: ترى هل تطلب منهم غرامة لتبليغ الرسالة فهم لا يقدرون على أدائها و لذلك يرفضون الإيمان؟! و قد تكرّرت الإشارة فى عدد من الآيات القرآنية لا فى النّبى فحسب، بل فى شأن كثير من الأنبياء، إذ كان من أوائل كلمات النبيين قولهم لأممهم: لا نريد على إبلاغنا الرسالة إليكم أجرا .. ليثبت عدم قصدهم شيئا من وراء دعوتهم و لئلّا تبقى ذريعة للمتذرّعين أيضا.

و مرّة اخرى يخاطبهم القرآن متسائلا- أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ فهؤلاء يدّعون أنّ النّبى شاعر و ينتظرون موته لينطوى بساطه و ينتهى كلّ شىء بموته و تلقى دعوته فى سلّة الإهمال، كما تقدّم فى الآية السابقة ذلك على لسان المشركين إذ كانوا يقولون .. نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ

فمن أين لهم أنّهم سيبقون أحياء بعد وفاة النبى؟! و من أخبرهم بالغيب؟! و يحتمل أيضا أنّ القرآن يقول إذا كنتم تدّعون معرفة الأسرار الغيبية و أحكام اللّه و لستم بحاجة إلى القرآن و دين محمّد فهذا كذب عظيم ۱۸۰].

ثمّ يتناول القرآن احتمالا آخر فيقول: لو لم يكن كلّ هذه الأمور المتقدّمة، فلا بدّ أنّهم يتآمرون لقتل النّبى و إجهاض دعوته و لكن ليعلموا أنّ كيد اللّه أعلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۲

و أقوى من كيدهم: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۱۸۱].

و الآية الآنفة يطابق تفسيرها تفسير الآية (۵۴) من سورة آل عمران التى تقول: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ

و احتمل جماعة من المفسّرين أنّ المراد من الآية محلّ البحث هو: «انّ مؤامراتهم ستعود عليهم أخيرا و تكون وبالا عليهم ...» و هذا المعنى يشبه ما ورد فى الآية (۴۳) من سورة فاطر: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

و الجمع بين التّفسيرين الآنفين ممكن و لا مانع منه.

و يمكن أن يكون لهذه الآية ارتباط آخر بالآية المتقدّمة، و هو أنّ أعداء الإسلام كانوا يقولون: ننتظر موت محمّد. فالقرآن يردّهم بالقول بأنّهم ليسوا خارجين عن واحد من الأمرين التاليين .. أمّا أنّهم يدّعون بأنّ محمّدا يموت قبل موتهم حتف أنفه. فلازم هذا الادّعاء أنّهم يعلمون الغيب، و أمّا أنّ مرادهم أنّه سيمضى بمؤامراتهم فاللّه أشدّ مكرا و يردّ كيدهم إليهم، فهم المكيدون! و إذا كانوا يتصوّرون أنّ فى اجتماعهم فى دار الندوة و رشق النّبى بالتّهم كالكهانة و الجنون و الشعر أنّهم سينتصرون على النّبى فهم فى منتهى العمى و الحمق، لأنّ قدرة اللّه فوق كلّ قدرة، و قد ضمن لنبيّه السلامة و النجاة حتّى يبلغ دعوته العالمية.

و أخيرا فإنّ آخر ما يثيره القرآن من أسئلة فى هذا الصدد قوله: أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ ! و يضيف- منزّها- سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

فعلى هذا لا أحد يستطيع أن يمنعهم من اللّه و يحميهم، و هكذا فإنّ القرآن يستدرجهم و يضعهم أمام استجواب عجيب و أسئلة متّصلة تؤلّف سلسلة متكاملة مؤلّفة من أحد عشر سؤالا! و يقهقرهم مرحلة بعد مرحلة إلى الوراء!! و يضطرهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۳

إلى التنزّل من الادّعاءات ثمّ يوصد عليهم سبل الفرار كلّها و يحاصرهم في طريق مغلق!.

كم هي رائعة استدلالات القرآن و كم هي متينة أسئلته و استجوابه! .. فلو أنّ في أحد منهم روحا تبحث عن الحقّ و تطلبه لأذعنت أمام هذه الأسئلة و استسلمت لها.

الطريف أنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث لا تذكر دليلا لنفي المعبودات ممّا سوى اللّه، و تكتفي بتنزيه اللّه سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

و ذلك لأنّ بطلان الوهية الأصنام و الأوثان المصنوعة من الأحجار و الخشب و غيرهما مع ما فيها من ضعف و احتياج أجلى و أوضح من أي بيان و تفصيل آخر، أضف إلى كلّ ذلك فإنّ القرآن استدلّ على إبطال هذا الموضوع بآيات متعدّدة غير هذه الآية.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۴

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۴۴ الى ۴۹]

اشارة

وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (۴۴) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (۴۵) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۶) وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۴۷) وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (۴۸)

وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ (۴۹)

التّفسير

إنّك بأعيننا!

تعقيبا على البحث الوارد في الآيات المتقدّمة الذي يناقش المشركين و المنكرين المعاندين، هذا البحث الذي يكشف الحقيقة ساطعة لكلّ إنسان يطلب الحقّ، تميط الآيات محلّ البحث النقاب عن تعصّبهم و عنادهم فتقول: وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ ۱۸۲].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۵

هؤلاء المشركين معاندون إلى درجة إنكارهم الحقائق الحسيّة و تفسيرهم الحجارة الساقطة من السماء بالسحاب، مع أنّ كلّ من رأى السحاب حين ينزل و يقترب من الأرض لم يجده سوى بخار لطيف، فكيف يتراكم هذا البخار اللطيف و يتبدّل حجرا!؟

و هكذا يتّضح حال هؤلاء الأشخاص إزاء الحقائق المعنوية! أجل انّ ظلمة الإثم و عبادة الهوى و العناد كلّ ذلك يحجب أفق الفكر السليم فيجعله متجهّما حتّى تنجرّ عاقبة أمره إلى إنكار المحسوسات و بذلك ينعدم الأمل في هدايته.

و «المركوم» معناه المتراكم، أي ما يكون بعضه فوق بعض! لذلك فإنّ الآية التالية تضيف بالقول: فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ

و كلمة «يصعقون» مأخوذة من صعق، و الإصعاق هو الإهلال، و أصله مشتقّ من الصاعقة، و حين أنّ الصاعقة تهلك من تقع عليه فإنّ هذه الكلمة استعملت بمعنى الإهلاك أيضا.

و قال بعض المفسّرين أنّ هذه الجملة تعني الموت العامّ و الشامل الذي يقع آخر هذه الدنيا مقدّمة للقيامة.

إلّا أنّ هذا التّفسير يبدو بعيدا، لأنّهم لا يبقون إلى ذلك الزمان بل الظاهر هو المعنى الأوّل، أى دعهم إلى يوم موتهم الذى يكون بداية لمجازاتهم و العقاب الاخروى! و يتبيّن ممّا قلنا أنّ جملة «ذرهم» أمر يفيد التهديد، و المراد منه أنّ الإصرار على تبليغ مثل هؤلاء الأفراد لا يجدى نفعا إذ لا يهتدون.

فبناء على ذلك لا ينافى هذا الحكم إدامة التبليغ على المستوى العامّ من قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۶

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا ينافى الأمر بالجهاد. فما يقوله بعض المفسّرين أنّ هذه الآية نسخت آيات الجهاد غير مقبول! ثمّ يبيّن القرآن فى الآية التالية هذا اليوم فيقول: يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

أجل: من يمت تقم قيامته الصغرى

«من مات قامت قيامته»

و موته بداية للثواب أو العقاب الذى يكون قسم منه فى البرزخ و القسم الآخر فى القيامة الكبرى، أى القيامة العامّة، و فى هاتين المرحلتين لا تنفع ذريعة متذرّع و لا يجد الإنسان وليّا من دون اللّه و لا نصيرا.

ثمّ تضيف الآية أنّه لا ينبغى لهؤلاء أن يتصوّروا أنّهم سيواجهون العذاب فى البرزخ و فى القيامة فحسب، بل لهم عذاب فى هذه الدنيا أيضا: وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

أجل، إنّ على الظالمين أن ينتظروا فى هذه الدنيا عذابا كعذاب الأمم السابقة كالصاعقة و الزلازل و الكسف من السماء و القحط أو القتل على أيدى جيش التوحيد كما كان ذلك فى معركة بدر و ما ابتلى به قادة المشركين فيها إلّا أنّ يتيقّظوا و يتوبوا و يعودوا إلى اللّه آيبين منيبين.

و بالطبع فإنّ جماعة منهم ابتلوا بالقحط و المحل، و منهم من قتل فى معركة بدر كما ذكرنا آنفا- إلّا أنّ طائفة كبيرة تابوا و أنابوا و التحقوا بصفوف المسلمين الصادقين فشملهم اللّه بعفوه ۱۸۳].

و جملة وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا- يَعْلَمُونَ تشير إلى أنّ أغلب أولئك الذين ينتظرهم العذاب فى الدنيا و الآخرة هم جهلة، و مفهومها أنّ القليل منهم يعرف هذا المعنى، إلّا أنّه فى الوقت ذاته يصرّ على المخالفة لما فيه من اللجاجة و العناد عن الحقّ.

الأمثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۷

و فى الآية التالية يخاطب القرآن نبيّه و يدعوه إلى الصبر أمام هذه التّهم و المثبّطات و أن يستقيم فيقول: وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ۱۸۴].

فإذا ما اتّهموك بأنّك شاعر أو كاهن أو مجنون فاصبر، و إذا زعموا بأنّ القرآن مفترى فاصبر، و إذا أصرّوا على عنادهم و واصلوا رفضهم لدعوتك برغم كلّ هذه البراهين المنطقيّة فاصبر، و لا تضعف همّتك و يفتر عزمك: فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا!.

نحن نرى كلّ شيء و نعلم بكلّ شيء و لن ندعك وحدك.

و جملة فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا تعبير لطيف جدّا حاك عن علم اللّه و كذلك كون النّبى مشمولا بحماية اللّه الكاملة و لطفه! أجل، إنّ الإنسان حين يحسّ بأنّ قادرا كبيرا ينظره و يرى جميع سعيه و عمله و يحميه من أعدائه فإنّ إدراك هذا الموضوع يمنحه الطاقة و القوّة أكثر كما يحسّ بالمسؤولية بصورة أوسع.

و حيث أنّ الحاجة للّه و عبادته و تسبيحه و تقديسه و تنزيهه و الالتجاء إلى ذاته المقدّسة كلّ هذه الأمور تمنح الإنسان الدّعة و الاطمئنان و القوّة، فإنّ القرآن يعقّب على الأمر بالصبر بالقول: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ

سبّحه حين تقوم سحرا للعبادة و صلاة الليل.

... و حين تنهض من نومك لأداء الصلاة الواجبة.

... و حين تقوم من أى مجلس و محفل، فسبّحه و احمده.

و للمفسّـِرين أقوال مختلفـهٔ فى تفسير هـذه الآيهٔ، إلّا أنّ الجمع بين هذه الأقوال ممكن أيضا، سواء كان الحمد التسبيح سـحرا، أو عند صلاهٔ الفريضهٔ، أو عند القيام من أى مجلس كان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۸

أجـل، نوّر روحـك و قلبـك بتسبيـح اللّه و حمـده فإنّهما يمنحان الصـفاء .. و عطر لسانك بـذكر اللّه .. و اسـتمدّ منه المـدد و اسـتعدّ لمواجهة أعدائك!.

و قد جاء فى روايات متعدّدهٔ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين كان يقوم من مجلسه كان يسبّح اللّه و يحمده و يقول: «إنّه كفّارهٔ المجلس»[۱۸۵].

و من ضمن ما كان يقول بعد قيامه من مجلس كما

جاء فى بعض الأحاديث عنه: «سبحانك اللهمّ و بحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك و أتوب إليك!».

و

سـأل بعضـهم رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عن هـذه الكلمـات فقـال: «هنّ كلمـات علمنيهنّ جبرئيـل كفّارات لما يكون فى المجلس»[۱۸۶].

ثمّ يضيف القرآن فى آخر آيهٔ من الآيات محلّ البحث قائلا: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج‏۱۷ ؛ ص۱۹۸

قد فسّـِر كثير من المفسّرين جملة وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بصلاهٔ الليل، و أمّا إدبار النجوم فقالوا هى إشارة إلى «نافلة الصبح» التى تؤدّى عند طلوع الفجر و اختفاء النجوم بنور الصبح.

كما

ورد فى حديث عن على عليه السّلام أنّ المراد من «إدبار النجوم» هو «ركعتان قبل الفجر»

نافلة الصبـح اللتان تؤدّيان قبل صـلاهٔ الصبح و عند غروب النجوم، أمّا «إدبار السجود» الوارد ذكرها فى الآيهٔ ۴۰ من سورهٔ «ق» فإشارهٔ إلى «ركعتان بعد المغرب» «و بالطبع فإنّ نافلة المغرب أربع ركع إلّا أنّ هذا الحديث أشار إلى ركعتين منها فحسب»[۱۸۷].

و على كلّ حال، فإنّ العبادهٔ و التسبيح و حمد اللّه فى جوف الليل و عند طلوع الفجر لها صـفاؤها و لطفها الخاصّ، و هى فى منأى عن الرياء، و يكون الاستعداد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۹

الروحى لها أكثر فى ذلك الوقت، لأنّ الإنسان يكون فيه بعيـدا عن امور الـدنيا و مشاكلها، و الاستراحـهٔ فى الليل تمنح الإنسان الدّعهٔ، فلا صـخب و لا ضـجيج، و فى الحقيقهٔ هذه الفترهٔ تقترن بالوقت الذى عرج بالنّبى إلى السـماء، فبلغ قاب قوسـين أو أدنى يناجى ربّه و يدعوه فى الخلوهٔ! و لذلك فقد عوّلت الآيات محلّ البحث على هذين الوقتين، و نقرأ حديثا

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه: ركعتا الفجر خير من الدنيا و ما فيها[۱۸۸].

اللهمّ وفّقنا للقيام فى السحر و مناجاتك طوال عمرنا.

اللهمّ اجعل قلوبنا بعشقك مطمئنهٔ و نوّرها بمحبّتك و أمّلها بلطفك.

اللهمّ منّ علينا بالصبر و الاستقامهٔ بوجه قوى الشياطين و مؤامرات أعدائك و كيدهم لنتأسّى برسولك فنعيش على هديه و نموت على سنّته.

آمين يا ربّ العالمين انتهاء سورهٔ الطّور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۱

سورة النّجم

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها اثنان و سبعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۳

«سورة النّجم»

محتوی السّورة:

هـذه السورة کما یقول بعض المفسّرین هی أوّل سورة تلاها النّبی جهرا و بصوت عال فی حرم مکّة بعـد أن أضـحت دعوته علنا .. و أصغی إلیها المشرکون و سجد لها جمیع المسلمین حتّی المشرکون ۱۸۹].

و هـذه السورة کما یعتقـد بعض المفسّرین نزلت فی شـهر رمضان من السـنة الخامسة للبعثة[۱۹۰]! و قال بعضـهم إنّ هـذه السورة هی السورة الاولی التی نزلت فیها سجدة واجبة بمکّة[۱۹۱]. لکن مع ملاحظـة أنّ سورة العلق کما هو معروف نزلت قبلها و فی آخرها آیة سجدة واجبة فإنّ هذا القول یبدو بعیدا.

و علی کلّ حال، فإنّ هـذه السورة- لکونها مکیـة- تحمل بین ثنایاها بحوثا فی الأصول الاعتقادیة خاصّة «النبوّة و المعاد» و فیها تهدید و وعید و إنذارات مکرّرة لإیقاظ الکفّار و ردعهم عن غیّهم!.

و یمکن تقسیم محتوی هذه السورة إلی سبعة أقسام:

۱- بدایة السورة تتحدّث بعد القسم العمیق المغزی. عن حقیقة الوحی و اتّصال النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباشرة بمنزل الوحی «جبریل» و تبیّن ذلک بجلاء، و تبرئ ساحة النّبی المقدّسة عن کلّ شیء سوی الوحی المنزل علیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۴

۲- و فی قسم آخر من هـذه السـورة یجری الکلاـم علی معراج الرّسـول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و جـوانب منه بعبـارات موجزة و غزیرة المعنی، له علاقة مباشرة بالوحی أیضا.

۳- ثمّ یجری الکلام عن خرافات المشـرکین فی شأن الأصـنام و عبادة الملائکة و امور أخر لیس لها أی أساس إلّا الهوی و الهوس، و یعنّف المشرکین فی هذا المجال و یحذّرهم من عبادة الأوثان و یثبت هذا المعنی بمنطق قوی متین.

۴- و فی قسم آخر منها یفتح القرآن سبیل التوبة بوجه المنحرفین و عامّة المذنبین، و یؤمّلهم بمغفرة اللّه الواسـعة، و یؤکّد علی أنّ کلّا مسئول عن عمله، و لا تزر وازرة و زر اخری.

۵- و إکمالاـ لهـذه الأهـداف یـأتی القسم الخـامس من هـذه السورة لیبیّن جوانب من مسألـة- المعاد- و یقیم دلیلا واضـحا علی هـذه المسألة بما هو موجود فی النشأة الاولی- الدنیا-.

۶- و کعادة القرآن فی سائر السور ترد فی هذه السورة إشارات لعواقب الأمم المؤلمة لعداوتهم للحقّ و عنادهم- کما حدث لقوم نوح و ثمود و عاد و قوم لوط لیتیقّظ الغافلون من نومتهم عن هذا الطریق.

۷- و أخیرا فإنّ السورة تختتم بالأمر بالسـجود للّه و عبادته، و من امتیازات هذه السورة قصـر آیاتها و إیقاع آیاتها الخاصّ الذی ینفذ- بمفاهیمها- نفوذا عمیقا، فیوقظ قلوب الغافلین و یحملها معه إلی السماوات العلی.

و تسمیة هذه السورة ب «النجم» هی لورود هذا اللفظ فی الآیة الاولی من السورة ذاتها.

فضیلة تلاوة هذه السورة:

وردت فی الرّوایات الإسلامیة فضائل مهمّة لتلاوة هذه السورة، ففی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة النجم أعطی من الأجر عشر حسنات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۵

بعدد من صدّق بمحمّد و من جحد به»[۱۹۲].

و نقرأ

فی بعض الرّوایات عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «من کان یدمن قراءة «و النجم» فی کلّ یوم أو فی کلّ لیلة عاش محمودا بین الناس و کان مغفورا له و کان محبّبا بین الناس»[۱۹۳].

و من المسلّم به أنّ مثل هذا الثواب العظیم هو لأولئک الذین یتّخذون تلاوة هذه السورة وسیلة للتفکیر، ثمّ العمل، و أن یطبّقوا تعلیمات هذه السورة علی أنفسهم فی حیاتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۶

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ النَّجْمِ إِذا هَوی (۱) ما ضَلَّ صاحِبُکُمْ وَ ما غَوی (۲) وَ ما یَنْطِقُ عَنِ الْهَوی (۳) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحی (۴)

التّفسیر

ممّا یجدر بیانه أنّ السورة السابقة «الطور» ختمت بکلمة «النجوم» و هذه السورة بدئت ب «و النجم»- إذ أقسم به اللّه قائلا: وَ النَّجْمِ إِذا هَوی و هناک احتمالات کثیرة فی المراد من «النجم» هنا، فکلّ من المفسّرین یختار تفسیرا. إذ قال بعضهم بأنّ المراد منه هو «القرآن المجید» لأنّه یتناسب و الآیات التی تلی الآیة محلّ البحث، و هی فی شأن الوحی، و التعبیر بالنجم هو لأنّ العرب یستعملون هذا اللفظ فی ما یتمّ فی مراحل أو فواصل مختلفة و یسمّونها (أی الفواصل) «نجوما» (و تستعمل کلمة النجوم علی أقساط الدین و امور أخر من هذا القبیل أیضا).

و حیث أنّ القرآن نزل خلال ۲۳ سنة فی مراحل و مقاطع مختلفة علی النّبی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۷

صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقد سمّی نجما و المراد من «إذا هوی» نزوله علی قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و فسّره آخرون ببعض الکواکب فی السماء کالثریا[۱۹۴] أو الشعری ۱۹۵] لأنّ لکلّ منهما أهمّیته الخاصّة!.

و قال بعضهم بأنّه الشهاب الثاقب» الذی ترمی به الشیاطین لئلّا تصعد فی السماء و العرب یسمّون الشهاب نجما.

إلّا أنّه لا دلیل مقبول علی أیّ من هذه التفاسیر الأربعة بل الظاهر من الآیة ما یقتضیه إطلاق کلمة «و النجم» القسم بنجوم السماء کافّة التی هی من أدلّة عظمة اللّه و من أسرار عالم الوجود الکبری و من المخلوقات العظیمة للّه تعالی.

و ليست هـذه هى المرّة الاولى التى يقسم القرآن فيها بموجودات عظيمـة من عالم الخلق و الإيجاد، ففى آيات أخر أيضا أقسم القرآن بالشـمس و القمر و أمثالهـا! و التعويـل على غروبهـا و أفولهـا مع أنّ طلوعها و إشـراقها يسترعى النظر أكثر، هو لأنّ غروب النجم دليل على حـدوثه كمـا أنّه دليـل على نفى عقيـدة عبـادة الكواكب كمـا ورد فى قصّـة إبراهيم الخليل عليه السّـلام فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۱۹۶].

و ينبغى الالتفـات إلى هـذا المعنى، و هو أنّ «الطلوع» فى اللغـة يعبّر عنه ب «النجم» لأنّه كما يقول الراغب فى مفرداته: أصل النجم هو الكوكب الطالع، و لذلك فإنّهم يعبّرون عن ظهور النبات على الأرض و السنّ فى اللثّة و وضوح النظرية فى الذهن ب نجم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۸

و هكذا فإنّ اللّه أقسم بطلوع الكواكب و غروبها أيضا، لأنّ ذلك دليل على حدوثها و إسارتها فى قبضة قوانين الخلق ۱۹۷].

لكن لنعرف لم أقسم اللّه بالنجم؟ الآية التالية توضّح ذلك فتقول: ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى

فهو يخطو فى مسير الحقّ دائمـا، و ليس فى أقواله و لاـ فى أعمـاله أىّ انحراف! و التعبير ب «الصـاحب» أى الصـديق أو المحبّ لعلّه إشارة إلى أنّ ما يقوله نابع من الحبّ و الشفقة! و الكثير من المفسّرين لم يفرّقوا بين «ضلّ» و «غوى» بل عدّوا كلّا منهما مؤكّدا للآخر، إلّا أنّ بعضـهم يعتقـد أنّ بينهمـا فرقا و تفاوتا! فالضـلال هو أن لا يجـد الإنسان طريقا إلى هـدفه، و الغوايـة هى أن لا يخلو طريقه من إشـكال أو لا يكون مسـتقيما. فالضـلال كالكفر مثلا و الغوايـة كالفسق و الذنب .. إلّا أنّ «الراغب» يقول فى الغى: انّه الجهل الممزوج بالاعتقاد الفاسد.

فبناء على ذلك فالضلالة معناها مطلق الجهل و عدم المعرفة، إلّا أنّ الغواية جهل ممزوج أو مشوب بالعقيدة الباطلة.

و على كلّ حال فإنّ اللّه سبحانه يريـد بهذه العبارة الموجزة أن ينفى كلّ نوع من أنواع الانحراف و الجهل و الضـلال و الخطأ عن نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن يحبط ما وجّهه أعداؤه إليه من التّهم فى هذا الصدد.

و من أجل التأكيد على هذا الموضوع و إثبات أنّ ما يقوله هو من اللّه فإنّ القرآن يضيف قائلا: وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى

و هذا التعبير مشابه التعبير الاسـتدلالى الوارد فى الآية آنفة الذكر فى صدد نفى الضلالة و الغواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ أساس الضلال غالبا ما يكون من اتّباع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۹

الهوى.

و نقرأ فى سورة ص الآية (۲۶) منها: وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

كما

ورد فى حديث معروف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن أمير المؤمنين: «أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ»[۱۹۸].

و يعتقـد بعض المفسّـرين أنّ جملة ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ ناظره إلى نفى الجنون عن النّبى و جملة وَ ما غَوى ناظرة إلى نفى الشـعر عنه لأنّه ورد فى الآيـة (۲۲۴) من سورة الشـعراء قوله تعـالى: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (أى الشـعراء من أهل الـدنيا) و أمّا جملـة وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى فناظرة إلى نفى الكهانة، لأنّ الكهنة أفراد يعبدون الهوى.

ثمّ تأتى الآية التالية لتصرّح: إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى

فهـو لاـ يقول شـيئا من نفسه، و ليس القرآن من نسـج فكره! بـل كـلّ مـا يقوله فمن اللّه، و الـدليل على هـذا الادّعـاء كـامن فى نفسه. فالتحقيق فى آيات القرآن يكشف بجلاء أنّه لن يسـتطيع إنسان مهما كان عالما و مفكّرا- فكيف بالامّى الـذى لم يقرأ و لم يكتب فى محيـط مملوء بالخرافـات- أن يأتى بكلام غزير المحتوى كالقرآن، إذ ما يزال بعـد مضـى القرون و العهود ملهما للأفكار، و يمكنه أن يكون أساسا لبناء مجتمع صالـح مؤمن سالم! و ينبغى الالتفات- ضـمنا- إلى أنّ هذا القول ليس خاصّا بآيات القرآن، بل بقرينة الآيات

السابقة یشمل سنّة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا و أنّها وفق الوحی، لأنّ هذه الآیة تقول بصراحة «و ما ینطق عن الهوی».

و الحدیث الطریف التالی شاهد آخر علی هذا المدّعی.

یقول العلّامة السیوطی فی تفسیره الدرّ المنثور: أمر رسول اللّه یوما أن توصد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۰

جمیع الأبواب المشرفة علی المسجد- من بیوت الصحابة- سوی باب علی فکان هذا الأمر عزیزا علی المسلمین حتّی أنّ حمزة عمّ النّبی عتب علیه و قال: کیف أوصدت أبواب عمّک و أبی بکر و عمر و العبّاس؟! و ترکت باب علی مفتوحا «و فضّلته علی الآخرین؟!» فلمّا علی النّبی أنّ هذا الأمر صعب علیهم دعا الناس إلی المسجد و خطب خطبة عصماء و حمد اللّه و أثنی علیه ثمّ قال: «أیّها الناس ما أنا سددتها و لا أنا فتحتها و لا أنا أخرجتکم و أسکنته ثمّ قرأ: وَ النَّجْمِ إِذا هَوی ما ضَلَّ صاحِبُکُمْ وَ ما غَوی وَ ما یَنْطِقُ عَنِ الْهَوی إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحی [۱۹۹].

و هذا الحدیث الذی یکشف عن علوّ مقام أمیر المؤمنین علی بین جمیع الامّة الإسلامیة بعد الرّسول یدلّ علی أنّه لیست أقوال النّبی طبق الوحی فحسب بل حتّی أعماله و أفعاله و تقدیره و سیرته أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۱

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۵ الی ۱۲]

اشارة

عَلَّمَهُ شَدِیدُ الْقُوی (۵) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوی (۶) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلی (۷) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّی (۸) فَکانَ قابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنی (۹)
فَأَوْحی إِلی عَبْدِهِ ما أَوْحی (۱۰) ما کَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأی (۱۱) أَ فَتُمارُونَهُ عَلی ما یَری (۱۲)

التّفسیر

أوّل لقاء مع الحبیب:

تعقیبا علی الآیات المتقدّمة التی تحدّثت عن نزول الوحی علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یجری الکلام فی هذه الآیات عن معلّم الوحی.

و لکن ینبغی قبل کلّ شیء الالتفات إلی أنّ هذه الآیات تبدو لأوّل وهلة و کأنّها محاطة بهالة من الإبهام ممّا یستلزم أن تبحث فی معطیاتها و مفاهیمها بدقّة کاملة لإزالة الإبهام عنها، فتتناول أوّلا تفسیرها الإجمالی ثمّ نتناولها بالتفصیل! تقول الآیة: إنّ من له تلک القدرة العظیمة هو الذی علم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عَلَّمَهُ شَدِیدُ الْقُوی

و للتأکید أکثر تضیف الآیة بعدها إنّه ذو قدرة خارقة و متسلّط علی کلّ شیء:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۲

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوی

و قد علّمه هذا التعلیم عند ما کان بالأفق الأعلی: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلی

ثمّ اقترب و اقترب حتّی کان بفاصلة قوسین من معلّمه أو أقل ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّی فَکانَ قابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنی ثمّ أنّ اللّه تعالی أنزل علیه

الوحى فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى

و هناك فى تفسير هذه الآيات نظريتان إحداهما مشهورة، و الاخرى مغمورة ...

و لكن يلزمنا أن نتناول بعض مفردات الآيات بالإيضاح ثمّ بيان التّفسيرين المختلفين.

«المرّة» .. كما يقول أرباب اللغة و أهلها معناها الفتل، و حيث أنّ الحبل كلّما فتل أكثر كان أشدّ إحكاما و قوّة .. فإنّ هذه الكلمة استعملت فى الأمور المادية أو المعنوية المحكمة و القويّة.

و قال بعض المفسّرين: المرّة مأخوذة من المرور، فمعناها العبور، لكن هذا الرأى لا ينسجم مع ما كتبه أهل اللغة فى هذا الصدد.

«تدلّى» فعل مأخوذ من التدلّى على وزن تجلّى، و معناه كما يقول الراغب فى مفرداته الاقتراب، فبناء على ذلك فهو تأكيد على جملة «دنا» الواردة قبله، و كلا الفعلين بمعنى واحد تقريبا.

على أنّ بعض المفسّرين فرّق بين الفعلين فى المعنى فقال: «التدلّى» معناه التعلّق بالشىء كتعلّق الثمر بالشجر و لذلك يقال فى الأثمار المتدلّية من أشجارها «دوالى»[۲۰۰].

«قاب» بمعنى مقدار- و «قوس» (معروف معناه) و هو ما يوضع فى وترة السهم ليرمى به فمعنى «قاب قوسين» .. قدر طول قوسين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۳

و فسّر بعضهم «القوس» بأنّه المقياس فهو مشتقّ من القياس، و حيث انّ مقياس العرب [الذراع و هو ما بين الزند و المرفق فيكون معنى «قاب قوسين» على هذا الرأى: مقدار ذراعين.

و ورد فى بعض كتب اللغة لكلمة «قاب» معنى آخر، هو الفاصلة بين محل اليد من القوس إلى نقطة انتهاء القوس.

فبناء على هذا فإنّ «قاب قوسين» معناه مجموع انحناء القوس (فلاحظوا بدقّة)[۲۰۱].

- بعد هذا كلّه لنرجع إلى التّفسيرين- فالنظرية المشهورة الاولى تقول أنّ معلّم النّبى أمين الوحى جبرئيل الذى له قدرة خارقة.

و كان يأتى النّبى بصورة رجل حسن الطلعة و يبلّغه رسالة اللّه، و ظهر للنّبى بصورته الحقيقيّة مرّتين طوال فترة رسالة النّبى و عمره الشريف.

المرّة الاولى هى ما تشير إليه الآيات محلّ البحث، إذ ظهر فى الأفق الأعلى فطبق المشرق و المغرب جميعهما، و كان عظيما حتّى أنّه هال النبى، ثمّ دنا فاقترب من النّبى فلم يكن بينهما مسافة بعيدة إلّا بمقدار ذراعين، و التعبير ب «قاب قوسين» كناية عن منتهى الاقتراب.

و المرّة الثانية- ظهر له- فى معراجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سنبيّن ذلك فى الآيات المقبلة التى تتحدّث عن هذا الأمر بإذن اللّه.

و يرى بعض المفسّرين ممّن اختار هذه النظرية بأنّ اللقاء الأوّل الذى ظهر له جبرئيل فيها بصورته الحقيقيّة كان فى غار حراء الواقع فى جبل النور[۲۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۴

إلّا أنّ هذه النظرية بالرغم ممّا لها من أتباع كثيرين لا تخلو من إشكالات مهمّة:

۱- فى الآية: فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى مرجع الضمير فى «عبده» هو اللّه بلا شكّ، مع أنّه لو كان «شديد القوى» يعنى جبرئيل فإنّ جميع الضمائر فى الآيات بعده تعود عليه ... صحيح أنّه يمكن أن يعرف أنّ موضوع هذه الآية خارج عن الآيات الآخر من خلال القرائن الموجودة فيها، إلّا أنّ اضطراب السياق فى الآيات، و عدم تناسق عود الضمائر خلاف الظاهر قطعا! ۲- شَدِيدُ الْقُوى هذا التعبير الذى يعنى من له قوى خارقة إنّما يناسب ذات اللّه المقدّسة فحسب، صحيح أنّ الآية (۲۰) من سورة التكوير تعبّر عن جبرئيل ب ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ إلّا أنّ بين شَدِيدُ الْقُوى الواسع فى مفهومه و بين «ذى قوّة» المذكورة فيه كلمة «قوّة» بصيغة التنكير و الإفراد فرقا كبيرا.

۳- جاء فی الآيات التالية أنّ النّبی رآه «عند سدرة المنتهى» (فی السماء العليا) و لو كان المقصود منه جبرئيل فهو كان مع النّبی فی معراجه من بداية المعراج إلى المنتهى، و لم يره النّبی عند سدرة المنتهى فحسب .. إلّا أن يقال رآه فی الأرض بصورة بشر و فی السماء بصورته الحقيقيّة .. و لا قرينة على ذلك فی الآيات.

۴- التعبير ب «علّمه»- و أمثاله لم يرد فی القرآن فی شأن جبرئيل أبدا، بل هو فی شأن تعليم اللّه نبيّه محمّدا و أنبياءه الآخرين، و بتعبير آخر فإنّ جبرئيل لم يكن معلّم النّبی محمّد، بل أمين وحيه، و معلّمه اللّه فحسب.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۵

۵- صحيح أنّ جبرئيل ملك له مقام رفيع، إلّا أنّه من المقطوع به أنّ مقام النّبی أعلى منه شأنا: كما ورد فی قصّة المعراج أنّه كان يصعد- فی المعراج- مع النّبی فوصلا إلى نقطة فتوقّف جبرئيل عن الصعود و قال للنبی:

«لو دنوت قيد أنملة لاحترقت»

إلّا أنّ النّبی واصل سيره و صعوده!.

فمع هذه الحال فإنّ رؤية جبرئيل فی صورته الأصلية لا تتناسب و الأهمية المذكورة فی هذه الآيات، و بتعبير أكثر بساطة: لم تكن رؤية النّبی لجبرئيل على تلك الأهمية .. فمع أنّ هذه الآيات اهتمّت بهذه الرؤية اهتماما بالغا! ۶- جملة: ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى هی أيضا دليل على الرؤية القلبية لا البصرية الحسّية لجبرئيل.

۷- ثمّ بعد هذا كلّه فما ورد من الرّوايات عن أهل البيت لا يفسّر هذه الآيات بأنّها فی رؤية النّبی لجبرئيل، بل الرّوايات موافقة للتفسير الثانی القائل بأنّ المراد من هذه الآيات الرؤية الباطنية (القلبية) لذات اللّه المقدّسة التی تجلّت للرسول و تكرّرت فی المعراج و اهتزّ لها النّبی و هالته ۲۰۳].

ينقل الشيخ الطوسی فی أماليه عن ابن عبّاس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لمّا عرج بی إلى السماء دنوت من ربّی عزّ و جلّ حتّى كان بينی و بينه قاب قوسين أو أدنى»[۲۰۴].

و

ينقل الشيخ الصدوق رحمه اللّه فی علل الشرائع المضمون ذاته عن هشام بن الحكم عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام من حديث طويل أنّه قال: «فلمّا أسرى بالنّبی و كان من ربّه كقاب قوسين أو أدنى رفع له حجاب من حجبه»[۲۰۵].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۶

و فی تفسير علی بن إبراهيم ورد أيضا: «ثمّ دنا- يعنی رسول اللّه- من ربّه عزّ و جلّ»[۲۰۶] و قد ورد هذا المعنى فی روايات متعدّدة و لا يمكن عدم الاكتراث بهذا المعنى.

كما ورد هذا المعنى فی روايات أهل السنّة، إذ نقل صاحب «الدّر المنثور» ذلك عن ابن عبّاس من طريقين ۲۰۷].

فمجموع هذه القرائن يدعونا إلى إختيار التّفسير الثانی القائل بأنّ المراد من «شديد القوى» هو اللّه، و أنّ النّبی كان قد اقترب من اللّه تعالى أيضا.

و يبدو أنّ ما دعا أغلب المفسّرين إلى الإعراض عن هذا التّفسير (الثانی) و أن يتّجهوا إلى التّفسير (الأوّل) هو أنّ هذا التّفسير فيه رائحة التجسّم، و وجود مكان للّه، مع أنّه من المقطوع به أنّه لا مكان له و لا جسم: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ،[۲۰۸] فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ [۲۰۹] وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ ۲۱۰] و لعلّ مجموع هذه المسائل أيضا جعل بعض المفسّرين يظهر عجزه عن تفسير هذه الآيات و يقول: هی من أسرار الغيب الخفيّة علينا.

قيل أنّهم سألوا بعض المفسّرين عن تفسير هذه الآيات فقال: إذا كان جبرئيل غير قادر على بلوغ ذلك المكان فمن أنا حتّى أدرك معناه ۲۱۱]؟! و لكن بملاحظة أنّ القرآن كتاب هداية و هو نازل ليتدبّر الناس و يتفكّروا فی آياته فقبول هذا المعنى مشكل أيضا.

إلّا أنّنا إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّ المراد من هذه الآيات هو نوع من الرؤية

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۷

الباطنية و القرب المعنوى الخاصّ فلا تبقى أيّة مشكلة حينئذ.

توضيح ذلك: ممّا لا شكّ فيه أنّ الرؤية الحسّية للّه غير ممكنة لا فى الدنيا و لا فى الاخرى .. لأنّ لازمها جسمانيّته و ماديّته، و لازم ذلك أيضا تغيّره و تحوّله و فساده و أنّه يحتاج إلى الزمان و المكان، و هو مبرّأ عن كلّ ذلك لأنّه واجب الوجود.

إلّا أنّ اللّه سبحانه يمكن رؤيته بالرؤية العقلية و القلبية، و هو ما أشار إليه أمير المؤمنين فى جوابه على «ذعلب اليمانى»:

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان و لكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[۲۱۲].

لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ الرؤية الباطنية على نحوين: رؤية عقلانية و تحصل عن طريق الاستدلال. و اخرى رؤية قلبية، و هى إدراك فوق إدراك العقل و رؤية وراء رؤيته! هذا المقام لا ينبغى أن يدعى بمقام الاستدلال، بل هو المشاهدة، مشاهدة قلبية باطنية، و هذا المقام يحصل لأولياء اللّه على درجاتهم المتفاوتة و سلسلة مراتبهم .. لأنّ الرؤية الباطنية هى على مراتب أيضا و لها درجات كثيرة، و بالطبع فإنّ إدراك حقيقتها لمن لم يبلغ ذلك المقام فى غاية الصعوبة.

و من الآيات المتقدّمة بما فيها من قرائن مذكورة يمكن أن يستفاد أنّ نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الوقت الذى كان ذا مقام مشهود و فى مقام الشهود، فإنّه بلغ الأوج فى طول عمره مرّتين فنال الشهود الكامل:

الأوّل: يحتمل أنّه كان فى بداية البعثة، و الثانى فى المعراج، فبلغ مقاما قريبا من اللّه و تكشّفت عنه الحجب الكثيرة، مقاما عجز عن بلوغه حتّى جبرئيل الذى هو من الملائكة المقرّبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۸

و واضح أنّ تعابير مثل «فكان قاب قوسين أو أدنى» و أمثال ذلك إنّما هو كناية عن شدّة القرب، و إلّا فإنّ اللّه ليس بينه و بين عبده فاصلة مكانية لتقاس بالقوس أو الذراع، و «الرؤية» فى الآيات- هنا- ليست رؤية بصرية أيضا، بل الباطنية القلبية.

و فى البحوث السابقة فى تفسير «لقاء اللّه» الوارد فى آيات متعدّدة على أنّه من ميزات يوم القيامة مرارا قلنا إنّ هذا اللقاء على خلاف ما يتصوّر أصحاب الأفكار القصيرة، و العقول الضيّقة بأنّه لقاء حسّى و مادّى، بل هو نوع من الشهود الباطنى و إن كان فى المراحل الدنيا و لا يصل إلى مراحل لقاء الأنبياء و الأولياء للّه، فكيف بمرحلة شهود النّبى الكامل ليلة المعراج!! و مع ملاحظة هذا التوضيح تزول الإشكالات على هذا التّفسير، و إذا روعيت بعض التعابير المخالفة للظاهر فلم تعامل بالمنطق الضيق و فسّرت بما وراء المسائل المادية فما يرد من إشكالات على هذا التّفسير لا يعدّ شيئا مهمّا بالقياس إلى ما يرد من إشكالات على التّفسير الأوّل ..

فمع الالتفات إلى ما قلناه نمرّ مرورا جديدا على الآيات محلّ البحث و نعالج مضمونها من هذا المنطلق و المنظار! فعلى هذا التّفسير يبيّن القرآن نزول الوحى على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالصورة التالية.

إنّ اللّه الذى هو شديد القوى علّم النّبى فى وقت بلغ حدّ الكمال و الاعتدال فى الأفق الأعلى ۲۱۳].

ثمّ قرب و صار أكثر اقترابا حتّى كان بينه و بين اللّه مقدار قاب قوسين أو أقل و هناك أوحى اللّه إليه ما أوحاه.

و حيث أنّ هذا اللقاء الباطنى يصعب تصوّره لدى البعض، فانّه يؤكّد أنّ ما رآه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۹

قلب النّبى كان حقّا و صادقا و لا ينبغى تكذيبه أو مجادلته.

و كما بيّنا فإنّ تفسير هذه الآيات بشهود النّبى الباطنى للّه تعالى هو أكثر صحّة و أكثر انسجاما و موافقة للرّوايات الإسلامية، و أكرم فضيلة للنبى، و مفهومها أجمل و ألطف، و اللّه أعلم بحقائق الأمور[۲۱۴].

و نختم هذا البحث بحديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و آخر عن على عليه السّلام.

-۱

سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «هل رأيت ربّك؟ فأجاب: «رأيته بفؤادى»[۲۱۵].

۲- و

فى خطبة الإمام على (۱۷۹) فى نهج البلاغة إذ سأله ذعلب اليمانى: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فأجاب: «أ فأعبد ما لا أراه ..» ثمّ أشار سلام اللّه عليه بتفصيل ما بيّنه آنفا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۰

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۱۳ الى ۱۸]

اشارة

وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (۱۳) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (۱۴) عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (۱۵) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (۱۶) ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى (۱۷)

لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (۱۸)

التّفسير

الرّؤية الثّانية:

هذه الآيات هى أيضا تتمّة للأبحاث السابقة فى شأن مسألة الوحى و ارتباط النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باللّه و الشهود الباطنى.

إذ تقول: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى أى مرّة ثانية، و كان ذلك عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى أى عند شجرة سدر فى الجنّة تدعى بسدرة المنتهى و محلّها فى جنّة المأوى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى

هذه حقائق واقعيّة شاهدها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بامّ عينيه و ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى ۲۱۶] لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۱

و كما نلاحظ فى هذه الآيات فإنّ البدو الإبهامى الذى كان يحيط الآيات المتقدّمة يحيط هذه الآيات أيضا التى تتضمّن ظلالا من المواضيع السابقة، و من أجل أن نفهم مفاد هذه الآيات لا بدّ من الرجوع إلى مفرداتها اللغوية أيضا.

النزلة: هى النّزول مرّة واحدة، فالنزلة الاخرى تعنى نزولا آخر، و يستفاد من هذا التعبير أنّه حدثت نزلتان، و هذا الموضوع يتعلّق بالنزلة الثانية[۲۱۷].

و السدرة: على وزن حرفة- طبقا لتفسير أغلب علماء اللغة هى شجرة وريقة و ريفة الظلال و التعبير ب سِدْرَةِ الْمُنْتَهى إشارة إلى شجرة و وريقة ذات ظلال و ريفة فى أوج السماوات فى منتهى ما تعرج إليه الملائكة و أرواح الشهداء و علوم الأنبياء و أعمال الناس. و هى مستقرّة فى مكان لا تستطيع الملائكة أن تتجاوزه ..

و حين بلغ جبرئيل أيضا فى معراجه مع النّبى إلى ذلك المكان توقّف عنده و لم يتجاوزه! و رغم أنّه لم يرد توضيح عن سدرة المنتهى فى القرآن الكريم، إلّا أن الأخبار و الرّوايات الإسلامية ذكرت لها أوصافا كثيرة .. و جميعها كاشف عن أنّ انتخاب هذا التعبير هو لبيان نوع من التشبيه و لغاتنا قاصرة عن بيان مثل هذه الحقائق الكبرى.

ففى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «رأيت على كلّ ورقة من أوراقها ملكا قائما يسبّح اللّه تعالى»[۲۱۸].

کما

جاء عن الإمام الصادق علیه السّلام نقلا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «انتهیت إلی سدرة المنتهی و إذا الورقة منها تظلّ امّة من الأمم»[۲۱۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۲

و هذه التعابیر تشیر إلی أنّ المراد من هذه الشجرة لیس کما نألفه من الأشجار المورقة و الباسقة علی الأرض أبدا، بل إشارة إلی ظلّ عظیم فی جوار رحمة اللّه و هناک محلّ تسبیح الملائکة و مأوی الأمم الصالحة.

أمّا جَنَّةُ الْمَأْوی فمعناها الجنّة التی یسکن فیها[۲۲۰] و هناک أقوال فی ما هو المراد من هذه الجنّة؟! فبعضهم قال بأنّها «جنّة الخلد» التی أعدّت للمتّقین المؤمنین و مکانها فی السماء، و الآیة (۱۹) من سورة السجدة، دلیلهم علی مدّعاهم فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوی نُزُلًا بِما کانُوا یَعْمَلُونَ .. فهذه الآیة بقرینة ما بعدها تتحدّث عن جنّة الخلد- و لا شکّ أنّها تتحدّث عن جنّة الخلد.

إلّا أنّنا نجد فی آیة اخری قوله: وَ سارِعُوا إِلی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ [۲۲۱] فاحتمل بعض المفسّرین أنّ جنّة المأوی التی فی السماء غیر جنّة الخلد التی عرضها السماوات و الأرض.

لذلک فقد فسّر بعضهم «جنّة المأوی» بأنّها مکان خاصّ فی جنّة الخلد، و هی قریبة من سدرة المنتهی و معدّة للمخلصین! و ربّما فسّرها بعضهم بأنّها «جنّة البرزخ» التی تحلّ فیها أرواح الشهداء و المؤمنین بصورة مؤقتة.

و یبدو أنّ التّفسیر الأخیر أنسب التفاسیر و أقربها، و ممّا یدلّ علیه بجلاء أنّنا نقرأ فی کثیر من الرّوایات الواردة فی المعراج أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رأی جماعة متنعّمین فی الجنّة، مع أنّنا نعرف أنّه لن یدخل جنّة الخلد أحد قبل یوم القیامة، لأنّ آیات القرآن تشیر بوضوح أنّ المتّقین یدخلون الجنان بعد الحساب [فی یوم القیامة] لا بعد الموت مباشرة و أنّ أرواح الشهداء أیضا فی جنّة برزخیة لأنّهم أیضا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۳

لا یدخلون جنّة الخلد قبل یوم القیامة.

و الآیة: ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی إشارة إلی أنّ بصر النبی، و أنّ عینیه الکریمتین لم تمیلا یمنة و لا یسرة و لم تجاوزا حدّهما، و ما رآه النّبی بعینیه هو عین الواقع، لأنّ «زاغ» من مادّة زیغ معناه الانحراف یمینا أو شمالا، و «طغی» من الطغیان، معناه التجاوز عن الحدّ، و بتعبیر آخر إنّ الإنسان حین یری شیئا فیخطئ رؤیته و لا یلتفت إلیه بدقّة فإمّا أنّه یلتفت یمنة و یسرة أو إلی ما ورائه [۲۲۲].

و الآن و حیث فرغنا من تفسیر مفردات الآی نعود إلی التّفسیر العامّ للآیات.

نعود مرّة اخری إلی النظریتین فی تفسیر الآیة.

فقال جماعة من المفسّرین بأنّ الآیات ناظرة إلی مشاهدة النّبی للمرّة الثانیة جبرئیل فی صورته الحقیقیّة عند نزوله من المعراج عند سدرة المنتهی و لم یزغ بصره فی رؤیة الملک و لم یخطئ أبدا.

و النّبی رأی فی هذه الحال بعضا من آیات اللّه الکبری، و المقصود بها هی رؤیة جبرئیل فی صورته الواقعیة، أو بعض آیات السماء فی عظمتها و عجائبها، أو کلتیهما.

إلّا أنّ الإشکالات الواردة علی التّفسیر السابق ما تزال باقیة هنا، بل تضاف إلی تلک الإشکالات إشکالات أخر و منها:

إنّ التعبیر ب نَزْلَةً أُخْری حسب هذا التّفسیر لیس فیه مفهوم واضح، لکن بحسب التّفسیر الثانی یکون المعنی إنّ النّبی رأی اللّه فی شهود باطنی عند معراجه فی السماء، و بتعبیر آخر نزل اللّه مرّة اخری علی قلب النّبی و تحقّق الشهود الکامل فی (المنتهی إلیه) القریب إلی اللّه من عباده عند سدرة المنتهی حیث جنّة المأوی و السدرة تغطّیها حجب من أنوار اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۴

و رؤيـة قلب النّبى فى هـذا الشـهود لم تكن بغير الحقّ أبدا، و لم ير سواه، و لقد رأى من دلائل عظمة اللّه فى الآفاق و الأنفس أيضا و شاهدها بعينيه.

و مسألة الشـهود الباطنى كما أشرنا إليها من قبل هى نوع من الإدراك أو الرؤية التى لا تشبه الإدراكات العقلية و لا الإدراكات الحسيّة التى يدركها الإنسان بواسطة الحواس الظاهرة، و لعلّه يشبه من بعض الجهات بعلم الإنسان بوجود نفسه و أفكاره و تصوّراته.

توضيـح ذلك .. انّنا نوقن بوجود أنفسـنا و نـدرك أفكارنا و نعرف إرادتنا و ميولنا النفسـيّة، إلّا أنّ مثل هـذه المعرفة لم تحصل لا عن طريق الاستدلال و لا عن طريق المشاهدة الظاهرية بل هى نوع من الشهود الباطنى لنا، و عن هذا الطريق وقفنا على وجودنا و روحياتنا.

و لذلك فإنّ العلم الحاصل عن الشـهود الباطنى لا يقع فيه الخطأ، لأنّه لم يحصل عن طريق الاستدلال الذى قد يقع الخطأ فى مقدّماته، و لا عن طريق الحسّ الذى قد يقع الخطأ فيه بواسطة الحواس.

صحيـح أنّنـا لا نسـتطيع أن نكشف حقيقـة الشـهود الـذى حصل للنبى ليلـة المعراج فى رؤيته اللّه عزّ و جلّ إلّا أنّ المثال الـذى ذكرناه مناسب للتقريب ..

و الرّوايات الإسلامية بدورها خير معين لنا فى هذا الموضوع.

بحوث

۱- المعراج حقيقة مقطوع بها

لا خلاف بين علماء الإسـلام فى أصل معراج النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فالآيات تشـهد على ذلك سواء فى هـذه السورة محل البحث أو فى بداية سورة الإسراء، و كذلك الرّوايات المتواترة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۵

غاية ما فى الأمر أنّ بعض المفسّـرين و لأحكامهم المسبّقة لم يسـتطيعوا أن يتقبّلوا صـعود النّبى بجسده و روحه إلى السـماء، ففسّـروه بالمعراج الروحانى و ما يشـبه حالـة الرؤيا و المنام!! مع أنّ هذا الصـعود أو المعراج الجسـمانى للنبى لا إشـكال فيه عقلا و لا من ناحية العلوم المعاصرة، و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع فى تفسير سورة الإسراء بشكل مبسّط!.

فبناء على هذا لا داعى للإعراض عن ظاهر الآيات و صريح الرّوايات لمجرّد الاستبعاد ..

ثمّ بعـد هـذا كلّه فالتعابير فى الآيات هـذه تشـير إلى أنّ جماعة جادلوا فى هذه المسألة، و التاريخ يقول أيضا إنّ مسألة المعراج أثارت نقاشا حادّا بين المخالفين! فلو أنّ النّبى كان يدّعى المعراج الروحانى و ما يشبه الرؤيا لم يكن لهذا النقاش محلّ من الإعراب.

۲- ما هو الهدف من المعراج؟

الهدف من المعراج هو بلوغ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مرحلة الشهود الباطنى من جهة، و رؤية عظمة اللّه فى السماوات بالبصر الظاهرى من جهة اخرى و التى أشارت إليه آخر آية من الآيات محلّ البحث: لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى

و فى الآية الاولى من سورة الإسـراء: لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا و الاطلاع على مسائل مهمّة- كثيرة- كأحوال الملائكة و أهل الجنّة و أهل النار و أرواح الأنبياء و التى كانت مصدر إلهام للنبى طوال عمره الشريف فى تعليم و تربية الناس.

۳- المعراج و الجنّة

يستفاد من الآيات- محلّ البحث- أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ بالجنّة ليلة المعراج و دخلها، و سواء أ كانت هذه الجنّة هى جنّة الخلد كما قال بها جماعة من المفسّرين أو جنّة البرزخ كما اخترناه، فإنّ النّبى على أيّة حال- رأى مسائل مهمّة من

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۶

مستقبل الناس فى هذه الجنّة، و قد جاء بيان ذلك فى الرّوايات الإسلامية، و سنشير إلى قسم منها.

۴- المعراج فى الرّوايات الإسلامية:

من جملة المسائل المهمّة فى قضيّة المعراج و التى كان لها دور مهمّ فى إثارة التشكيكات من قبل البعض فى أصل قضيّة المعراج هو وجود روايات ضعيفة أو مدسوسة ضمن رواياته حتّى أنّ العلّامة الطبرسى قال: يمكن تقسيم روايات المعراج إلى أربعة أقسام:

أ- الرّوايات القطعيّة لتواترها «كأصل مسألة المعراج».

ب- الرّوايات المنقولة من مصادر معتبرة، و هى مشتملة على مسائل لا مانع عقلا من قبولها كالرّوايات الحاكية عن مشاهدة النّبى لكثير من آيات عظمة اللّه فى السماوات! ج- الرّوايات التى لا يتنافى ظاهرها مع ما لدينا من الأصول المستقاة من آيات القرآن و الرّوايات الإسلامية المقطوع بها .. إلّا أنّها مع ذلك تقبل التوجيه، كالرّوايات القائلة بأنّ النّبى رأى جماعة من أهل الجنّة ينعمون فى الجنّة و جماعة من أهل النار يعذّبون فيها «فينبغى أن تؤول بأنّ المراد من الجنّة و النار هو جنّة البرزخ و ناره» .. حيث أنّ أرواح المؤمنين و الشهداء فى الاولى متنعّمة و أرواح الكفّار و المشركين فى الثانية «معذّبة»[۲۲۳].

د- الرّوايات المشتملة على مطالب باطلة و عارية عن الصحّة و محتواها يدلّ على أنّها مدسوسة أو مجعولة، كالرّوايات القائلة بأنّ النّبى رأى اللّه بعينيه و بصره

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۷

الظاهرى أو تكلّم معه أو شاهده، فهذه الرّوايات و أمثالها مجعولة قطعا، إلّا أن تفسّر بالشهود الباطنى.

بعد ملاحظة هذا التقسيم نلقى الضوء على روايات المعراج، حيث يستفاد من مجموع هذه الرّوايات أنّ النّبى واصل معراجه إلى السماء خلال مراحل عديدة.

۱- المرحلة الاولى: و هى ما بين المسجد الحرام و المسجد الأقصى و قد أشير إليها فى الآية الاولى من سورة الإسراء: سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى

و تقول بعض الرّوايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزل فى المدينة أثناء إسرائه مع جبرئيل فصلّى بها[۲۲۴].

كما صلّى أيضا فى المسجد الأقصى مع أرواح الأنبياء العظام كإبراهيم و موسى و عيسى عليهم السّلام، و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إمامهم فى الصلاة، ثمّ بدأ المعراج إلى السماوات السبع ۲۲۵] فجابهنّ سماء بعد سماء و واجه فى كلّ سماء مشاهد جديدة، فالتقى الملائكة و النبيين فى بعضها، و الجنّة و أهلها فى بعضها، و النار و أهلها فى بعضها، و حمل من كلّ فى خاطره و روحه ذكريات قيّمة، و شاهد فى عجائب كلّ واحدة منها رمز من رموز عالم الوجود و سرّ من أسراره، و بعد عودته ذكرها لامّته صراحة أحيانا و بالكناية أو المجاز أحيانا، و كان يستلهم منها لتربية أمّته و تعليمه بكثرة.

و هذا الأمر يدلّ على أنّ واحدا من أهداف هذا السفر السماوى الاستفادة من النتائج العرفانيّة و التربوية لهذه المشاهدات، و التعبير القرآنى الغزير لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى فى هذه الآيات محلّ البحث يمكن أن يكون إشارة إجمالية

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۸

لجميع هذه الأمور.

و كما ذكرنا آنفا فإنّ الجنّة و النار اللتين رآهما النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی معراجه و الأشخاص الذين كانوا منعّمين أو معذّبين فيهما لم تكونا جنّة القيامة و نارها، بل هما جنّة البرزخ و ناره، لأنّه كما أشرنا سابقا طبقا لآيات القرآن فإنّ الجنّة و النار تكونان بعد يوم القيامة و الفراغ من الحساب معدّتين للمتّقين و المسيئين.

و أخيرا وصل النّبی إلى السماء السابعة و رأى حجبا من النور هناك حيث «سدرة المنتهى» و «جنّة المأوى» و بلغ النّبی هناك و فی العالم النورانی أوج الشهود الباطنی و القرب إلى اللّه قاب قوسين أو أدنى ... و خاطبه اللّه هناك و أوحى إليه تعاليم مهمّة و أحاديث كثيرة نراها اليوم فی الرّوايات الإسلامية تحت عنوان الأحاديث القدسيّة، و سنعرض قسما منها بإذن اللّه فی الفصل المقبل.

الطريف هنا هو أنّ الرّوايات الكثيرة تصرّح بأنّ النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأى أخاه و ابن عمّه عليا فی مراحل مختلفة من معراجه بصورة مفاجئة، و ما نجده من التعابير فی هذه الرّوايات كاشف عن مدى مقام علی و فضله بعد النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و على الرغم من كثرة الرّوايات فی شأن المعراج فهناك تعابير مغلقة ذات أسرارا ليس من الهيّن كشف محتواها و هی كما يصطلح عليها من الرّوايات المتشابهة .. أی الرّوايات التی ينبغی إحالة تفسيرها على أهل بيت العصمة! (لمزيد الاطلاع تراجع الرّوايات فی هذا الصدد بالجزء ۱۸ من بحار الأنوار من الصفحة ۲۸۲ إلى ۴۱۰).

و قد ذكرت كتب أهل السنّة روايات المعراج بشكل موسّع بحيث نقل ثلاثون راوية من رواتهم حديث المعراج ۲۲۶].

و هنا ينقدح السؤال التالی و هو: كيف تمّ كلّ هذا السفر الطويل و هذه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۹

المشاهدات العجيبة و المتنوّعة و الأحداث الطويلة فی ليلة واحدة، بل فی جزء منها؟! و لكن يتّضح الجواب على السؤال بملاحظة أنّ سفر المعراج لم يكن سفرا بسيطا كالمعتاد حتى يقاس بالمعايير المعتادة! فلا السفر كان طبيعيّا و لا وسيلته و ركوبه و لا مشاهده و لا أحاديثه و لا المعايير الواردة فيها كمعاييرنا المحدودة و الصغيرة على كرتنا الأرضية فكلّ شیء كان فی المعراج خارقا للعادة! و كان وفق مقاييس خارجة عن زماننا و مكاننا.

فبناء على هذا لا مجال للعجب أن تقع كلّ هذه الأمور بمقياس ليلة أو أقل من ليلة من مقاييس- الكرة الأرضية- الزمانية [فلاحظوا بدقّة].

۵- جانب من إيحاءات اللّه و كلماته لرسوله فی ليلة المعراج:

وردت فی كتب الأحاديث رواية عن أمير المؤمنين علی عليه السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی هذا الشأن «المعراج» و هی مفصّلة و طويلة نذكر جانبا منها و فيها مطالب تكشف عن أحداث و أحاديث تلك الليلة التأريخية و كيف إنّها بلغت أوج السمو و الرفعة.

و نقرأ فی بداية

الحديث أنّ النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سأل اللّه سبحانه: يا ربّ أیّ الأعمال أفضل؟! فقال تعالى: «ليس شیء عندی أفضل من التوكّل علیّ و الرضا بما قسمت، يا محمّد! وجبت محبّتی للمتحابّين فیّ و وجبت محبّتی للمتعاطفين فیّ و وجبت محبّتی للمتواصلين فیّ، و وجبت محبّتی للمتوكّلين علیّ و ليس لمحبّتی علم و لا غاية و لا نهاية.

و هكذا تبدأ الأحاديث من المحبّة، المحبّة الشاملة و الواسعة، و أساسا فإنّ عالم الوجود يدور حول هذا المحور!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۰

و جاء فی جانب آخر: «

يا أحمد[۲۲۷] فاحذر أن تكون مثل الصبی إذا نظر إلی الأخضر و الأصفر أحبّه و إذا اعطی شیء من الحلو و الحامض اغترّ به، فقال: يـا ربّ دلّنی علی عمـل أتقرّب به إليـك قـال: اجعـل ليلـك نهارا و نهارك ليلا قال: ربّ و كيف ذلك؟ قال: اجعل نومك صـلاة و طعامك الجوع.

كما جاء فی مكان آخر منه:

يا أحمد محبّتی محبّة للفقراء فادن الفقراء و قرّب مجلسهم منك ادنك و بعد الأغنياء و بعد مجلسهم منك فإنّ الفقراء أحبّائی.

و جاء فی موضع آخر أيضا:

يـا أحمـد أبغض الـدنيا و أهلها و أحبّ الآخرة و أهلها قال يا ربّ و من أهل الـدنيا و من أهل الآخرة؟ قال: أهل الـدنيا من كثر أكله و ضحكه و نومه و غضبه قليـل الرضـا لاـ يعتـذر إلی من أسـاء إليه و لا يقبل معـذرة من اعتـذر إليه، كسـلان عنـد الطاعـة، شـجاع عند المعصـية، أمله بعيـد و أجله قريب، لا يحاسب نفسه قليل المنفعـة كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام و إنّ أهل الدنيا لا يشـر كون عنـد الرخاء و لا يصبرون عنـد البلاء، كثير الناس عنـدهم قليل يحمـدون أنفسـهم بما لا يفعلون، و يـدّعون بما ليس فيهم، و يتكلّمون بما يتمنّون و يذكرون مساوئ الناس و يخفون حسناتهم.

قال: يا ربّ، هل يكون سوی هـذا العيب فی أهل الـدنيا، قال: يا أحمـد إنّ عيب أهل الـدنيا كثير فيهم، الجهل و الحمق، لا يتواصـفون لمن يتعلّمون منه، و هم عند أنفسهم عقلاء و عند العارفين حمقاء.

ثمّ يتناول الحديث أهل الجنّة فيقول:

يا أحمد إنّ أهل الخير و أهل الآخرة رقيقة وجوههم كثير حياؤهم قليل حمقهم،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۱

كثير نفعهم، النـاس منهم فی راحـة و أنفسـهم منهم فی تعب كلاـمهم موزون، محـاسبين لأنفسـهم، متعبين لهـا، تنـام أعينهم و لاـ تنام قلوبهم أعينهم باكيـة و قلوبهم ذاكرة، إذا كتب الناس فی الغافلين كتبوا من الـذاكرين، فی أوّل النعمة يحمدون و فی آخرها يشـكرون دعاؤهم عنـد اللّه مرفوع، و كلامهم مسـموع، تفرح الملائكـة بهم، الناس (الغفلة) عندهم موتی و اللّه عندهم حی قيّوم «و همّتهم عالية فلاـ ينظرون إلّا إليه» قـد صارت الـدنيا و الآخرة عنـدهم واحـدة يموت الناس مرّة و يموت أحـدهم فی اليوم سـبعين مرّة «و يحيا حياة جديدة» من مجاهدة أنفسهم و مخالفة هواهم.

و إن قـاموا بين يـدی كـأنّهم البنيـان المرصوص لاـ أری فی قلبهم شـغلا لمخلوق ... فوعزّتی و جلاـلی لأحيينّهم حياة طيبـة إذا فارقت أرواحهم أبدانهم و لا أسلّط عليهم ملك الموت و لا يلی قبض روحهم غيری و لأفتحنّ لروحهم أبواب السماء كلّها و لأرفعنّ الحجب كلّها دونی، و لآمرنّ الجنان فلتزيننّ.

يا أحمد إنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال فإذا طيّبت مطعمك و مشربك فأنت فی حفظی و كنفی.

و جاء فی مكان آخر منه:

يـا أحمـد هـل تـدری أیّ عيش أهنـا و أیّ أبقی؟ قال اللهمّ لا، قال: أمّا العيش الهنیء فهو الـذی لا يغترّ صاحبه عن ذكری و لا ينسـی نعمتی و لا يجهل حقّی، يطلب رضای فی ليله و نهاره.

و أمّا الحياة الباقيـة فهی التی يعمل لنفسه حتّی تهون عليه الـدنيا و تصـغر فی عينه و تعظم الآخرة عنـده و يؤثر هوای علی هواه و يبتغی

مرضاتی و یعظّم حقّ عظمتی و یذکر علمی به و یراقبنی باللیل و النهار عند کلّ سیّئة أو معصیة و ینقّی قلبه عن کلّ ما أکره و یبغض الشیطان و وساوسه و لا یجعل لإبلیس علی قلبه سلطانا ... فإذا فعل ذلک أسکنت قلبه حبّا حتّی أجعل قلبه لی و فراغه و اشتغاله و همّه و حدیثه من النعمة التی أنعمت علی أهل محبّتی من خلقی .. و افتح عین قلبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۲

و سمعه حتّی یسمع بقلبه و ینظر بقلبه إلی جلالی و عظمتی «و حقائق الغیب».

و أخیرا فإنّ هذا الحدیث القدسی الکریم یختتم بهذه العبارات المؤثرة! ..

یا أحمد لو صلّی العبد صلاة أهل السماء و الأرض و یصوم صیام أهل السماء و الأرض و یطوی من الطعام مثل الملائکة، و لبس لباس العاری ثمّ أری فی قلبه من حبّ الدنیا ذرّة أو سعتها أو رئاستها أو حلیّها أو زینتها لا یجاورنی فی داری و لأنزعنّ من قلبه محبّتی و علیک سلامی و رحمتی و الحمد للّه ربّ العالمین»[۲۲۸].

هذه الأحادیث القدسیّة «من ربّ العرش» التی تحمل روح الإنسان إلی أوج السماوات معها و تعرج به إلی حالة الشهود هی قسم من الحدیث القدسی المشار إلیه آنفا.

و نضیف إلی ذلک أنّنا علی یقین أنّه کان بین النّبی و محبوبه فی تلک اللیلة الکریمة أسرار و إشارات و کلمات اخری لا تستطیع الآذان الإصغاء إلیها و لا الأفکار الساذجة استیعابها ... و لذلک بقیت فی نفس النّبی طیّ الکتمان فلم یبح بها لأحد إلّا لخلصائه المختصّین به.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۳

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۱۹ الی ۲۳]

اشارة

أ فَرَأَیْتُمُ اللاَّتَ وَ الْعُزَّی (۱۹) وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْری (۲۰) أ لَکُمُ الذَّکَرُ وَ لَهُ الْأُنْثی (۲۱) تِلْکَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِیزی (۲۲) إِنْ هِیَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّیْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُکُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ ما تَهْوَی الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدی (۲۳)

التّفسیر

هذه الأصنام ولیدة أهوائکم:

بعد بیان الأبحاث المتعلّقة بالتوحید و الوحی و المعراج و آیات عظمة الواحد الأحد فی السماء، یتناول القرآن أفکار المشرکین، فینقضها و یتحدّث عن معتقداتهم الخرافیة .. فیقول: بعد أن أدرکتم عظمة اللّه و آیاته فی خلقه فهل أنّ أصنامکم مثل اللات و العزّی و الصنم الثالث و هو «مناة» بإمکانها أن تنفعکم أو تضرّکم: أ فَرَأَیْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّی وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْری ۲۲۹]؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۴

مع أنّکم تزعمون أنّ قیمة البنت دون قیمة الولد و لو بلغکم أنّ أزواجکم أنجبن بنات حزنتم و اسودّت وجوهکم!! تِلْکَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِیزی ۲۳۰] فهذه قسمة غیر عادلة بینکم و بین اللّه تعالی فعلام تجعلون نصیب اللّه دون نصیبکم؟! و هکذا یتناول القرآن أفکارهم الخرافیة مستهزئا بها! و یقول لهم: إنّکم ترون البنت عارا و ذلّة و تئدونها و هی حیّة فی القبر، و فی الوقت ذاته تزعمون بأنّ الملائکة بنات اللّه، و لا تعبدون الملائکة من دون اللّه فحسب بل تصنعون لها التماثیل و تجعلون لها تلک القدسیّة! و تسجدون لها و تلتجئون

إليها لحلّ مشاكلكم و تطلبون حوائجكم منها، و ذلك مثار للسخرية و الاستهزاء حقّا!.

و من هنا يبدو واضحا أنّ العرب الجاهليين كانوا يعبدون بعض هذه الأصنام على الأقل على أنّها تماثيل الملائكة، الملائكة التى يسمّون كلّا منها بربّ النوع و مدير الوجود و مدبّره، و كانوا يرون أنّ الملائكة بنات اللّه!! فحين تقرن هذه الخرافات إلى خرافة اخرى و هى نظرتهم عن البنت فإنّ التضادّ العجيب الواقع بين هذه الخرافات بنفسه خير شاهد على سخافة هذه المعتقدات، و كم هو طريف أن يبطل القرآن جميع تلك الخرافات بعدّة جمل قصيرة و موجزة و يفضحها ساخرا بها.

و من هنا يتبيّن أنّ القرآن لا- يقصد إمضاء ما كان عليه العرب من التفريق بين الذكر و الأنثى، بل يريد بيان ما هو مقبول و مسلّم عندهم (و هو منطق الجدل)، و إلّا فلا فرق فى نظر الإسلام و منطقه بين الذكر و الأنثى من حيث القيمة الإنسانية، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۵

الملائكة فيهم ذكر و أنثى، و لا- هم بنات اللّه، و ليس عند اللّه من ولد أساس، فهذه افتراضات لا أساس لها .. إلّا أنّ هذا الردّ خير جواب لمن يعتقد بهذه الخرافات.

و فى آخر آية من الآيات محلّ البحث يقول القرآن بضرس قاطع: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ۲۳۱].

فلا دليل لديكم من العقل، و لا دليل عن طريق الوحى على مدّعاكم، و ليس لديكم إلّا حفنة من الأوهام و الخيالات الباطلة.

ثمّ يختتم القرآن الآية بالقول: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۲۳۲] فهذه الخيالات و الموهومات وليدة هوى النفس وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى ..

إلّا أنّهم أغمضوا أعينهم عنه و خلّفوه وراء ظهورهم و تاهوا فى هذه الأوهام و الضلالات!

بحوث

۱- أصنام العرب الثلاثة المشهورة

كان لمشركى العرب أصنام كثيرة، إلّا أنّ ثلاثة منها كانت ذات أهميّة خاصّة عندهم، و هى «اللات» و «العزّى» و «مناة».

و هناك كلام بل أقوال فى تسمية هذه الأصنام و من صنعها و مكانها و الجماعة التى تعبدها، و نكتفى بما ورد فى كتاب «بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب» هنا فحسب.

فأوّل صنم معروف اختاره العرب كان (مناة)، حيث أنّه بعد أن نقل «عمرو بن لحى» عبادة الأصنام من الشام إلى الحجاز، صنع هذا الصنم فى منطقة قريبة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۶

البحر الأحمر بين المدينة و مكّة، و كان العرب جميعهم يحترمون هذا الصنم و يقدّمون له القرابين، إلّا أنّ أكثر القبائل اهتماما بهذا الصنم قبيلتا الأوس و الخزرج .. حتّى كان فتح مكّة فى السنة الثامنة للهجرة- و كان النّبى متّجها من المدينة إلى مكّة- فأرسل أمير المؤمنين عليا فكسره.

و بعد أن صنع عرب الجاهلية صنم مناة، عمدوا فصنعوا صنما آخر، هو اللات من صخر ذى أربع زوايات، و جعلوه فى الطائف، فى المكان الذى توجد فيه اليوم منارة مسجد الطائف الشمالية، و كان أغلب ثقيف فى خدمة هذا الصنم، و حين أسلمت ثقيف أرسل النّبى المغيرة، فكسر ذلك الصنم، و الصنم الثالث الذى اختاره العرب هو العزّى و كان فى محلّ قريب من ذات عرق فى طريق مكّة

باتّجاه العراق و كانت قريش تهتمّ بهذا الصنم كثيرا.

و كـان العرب يهتّمون بهـذه الأصـنام الثلاثـة إلى درجـة أنّهم كـانوا يقولون عنـد الطواف حول البيت: و اللات و العزّى و منـاة الثالثة الاخرى فإنّهم الغرانيق العلى و إن شفاعتهم لترتجى ۲۳۳].

و كـانوا يزعمون بأنّ هـذه الأصـنام بنات اللّه «و يظهر أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ هـذه الأصـنام تماثيل الملائكـة التى كانوا يزعمون أنّها بنات اللّه!!».

العجب أنّ تسـميتها مستقاة من أسـماء اللّه .. غالبا غايـة ما فى الأمر كانت أسـماؤها مؤنثـة لتـدلّ على اعتقادهم .. فاللات ۲۳۴] أصلها اللاهة، ثمّ سـقط حرف الهاء فصارت الكلمة اللات، و العزّى مؤنث الأعز، و مناة من منى اللّه الشىء أى قدّره، و يعتقد بعضهم أنّ مناة من النوء و هو عبـارة عن طلوع بعض النجوم التى تصـحبها المزن و بعضـهم قالوا بأنّ مناة مأخوذة من «منى» على وزن «سـعى»، و معناه سفك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ٢٣٧

الدم، لأنّ دماء القرابين كانت تسفك ۲۳۵] عندها و على كلّ حال فإنّ العرب كانوا يحترمون هذه الأصـنام حتّى أنّهم سمّوا كثيرا من رجالهم بعبد العزّى و عبد منات و ربّما سمّوا بعض قبائلهم بمثل هذه الأسماء[۲۳۶].

٢- أسماء دون مسميّات

إنّ واحدا من أقدم أسـس الشـرك هو تنوّع الموجودات فى العالم حيث أنّ ذوى الفكر القصـير و النظر الضيّق لم يستطيعوا تصديق أنّ كلّ هذه الموجودات المتنوّعة فى السـماء، و الأرض مخلوقة للّه الأحد «لأنّهم يقيسون ذلك بأنفسـهم إذ لا يتسـنّى لهم التسلّط إلّا على أمر واحـد أو عـدّة امـور» لـذلك كـانوا يزعمون أنّ لكـلّ نوع من الموجودات ربّا يعبّر عنه «بربّ النوع» كربّ نوع البحر، و ربّ نوع الصحراء، و ربّ نوع المطر، و ربّ نوع الشمس، و ربّ الحرب، و ربّ الصلح ...

و هذه الآلهة المزعومة التى كانوا يسـمّونها الملائكة أحيانا كانت حسب اعتقادهم تحكم هذا العالم و حيثما تقع مشكلة يلتجأ إلى ربّ نوعها و حيث أنّ أرباب الأنواع لم تكن موجودات محسوسـة فقد صـنعوا لها تماثيل و عبدوها! هذه العقائد الخرافية انتقلت من اليونان إلى المناطق الاخرى حتّى وصـلت إلى الحجاز، و لكن حيث أنّ التوحيـد الإبراهيمى كان سائـدا لدى العرب فلم يمكنهم إنكار وجود اللّه، فمزجت هـذه العقائـد واحدة بالأخرى، ففى الوقت الذى يعتقدون فيه باللّه اعتقدوا بالملائكة الذين هم فى زعمهم بناته، و عبدوا الأحجار التى صنعوا منها التماثيل.

فالقرآن هـدم هـذه الخرافات بعبارة موجزة غزيرة المعنى فقال: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْـماءٌ سَـمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُـلْطانٍ فلم يك أى شىء صادرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ٢٣٨

من ربّ المطر الذى سمّيتموه أنتم، و لا من ربّ الشمس المزعوم، و لا البحر، و لا الحرب، و لا الصلح.

فكلّ شـىء صادر عن اللّه، و عالم الوجود كلّه طوع أمره، و اتّساق جميع هـذه الموجودات المختلفـة فى السـماء و الأرض و انسـجامها بعضها مع بعض دليل على وحدة الخالق، و لو كان فيهما آلهة إلّا اللّه لفسدتا.

٣- الدافع النفسى لعبادة الأصنام

عرفنا الأصل التاريخى لعبادة الأصنام إلّا أنّ لها دوافع و مبادئ نفسيّة و فكرية أيضا، و قد أشير إليها فى الآيات المتقدّمة، و ذلك هو اتّباع الظنّ و ما تهوى الأنفس!! و الخيالات و الأوهام الحاصلة للجهلاء، و من ثمّ تنتقل إلى مقلّديهم من المتحجّرين، و ينتقل هذا التقليد من نسل إلى نسل.

و بالطبع فإنّ معبودا كالصنم يتلاءم جيّدا مع أهوائهم، لأنّه ليس له سلطة على العباد، و لا معاد، و لا جنّة، و لا نار، و لا كتاب، و يعطيهم الحرية الكاملة، و إنّما يأتونه فى المشاكل فحسب، و يتصوّرون أنّه سينفعهم و أنّهم إنّما يستمدّون منه العون.

و أساسا فانّ «هوى النفس» ذاته يعدّ أكبر الأصنام و أخطرها، و هو الأصل لظهور الأصنام الاخرى.

۴- اسطورة الغرانيق مرّة اخرى:

من خلال بحثنا حول الأصنام الثلاثة التى كان العرب يهتّمون بها «أى اللات و العزّى و مناة» و يعبدونها- من خلال هذا البحث التاريخى وردت الإشارة إلى أنّ هذه الأصنام كانت تدعى بالغرانيق العلى و انّ شفاعتهنّ لترتجى.

و «الغرانيق» جمع غرنوق على زنة عصفور و بهلول ... و الغرنوق نوع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۹

الطيور الرمادية أو السوداء، و لذلك كان العرب أحيانا إذا ذكروا الأصنام قالوا بعد ذكرها: تلك الغرانيق العلى و انّ شفاعتهنّ لترتجى.

و قد وردت هنا قصّة خرافية نقلتها بعض الكتب، و هى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين قرأ الآية: أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى أضاف عليها من عنده الجملتين هاتين: تلك الغرانيق العلى و انّ شفاعتهنّ لترتجى .. فكان سببا لارتياح المشركين و عدوّه انعطافا من قبل النّبى إلى عبادة الأصنام، و حيث أنّ ختام السورة يدعو الناس للسجود .. فإنّ المسلمين سجدوا و سجد المشركون أيضا، فكان هذا الخبر مدعاة لإشاعة إسلام المشركين فى كلّ مكان! حتّى بلغ ذلك أسماع المهاجرين إلى الحبشة من المسلمين و سرّ جماعة منهم إلى درجة أنّهم أحسّوا بالأمان فعادوا من مهجرهم إلى مكّة[۲۳۷].

و لكن كما فصّلنا ذلك فى تفسير الآية ۵۲ من سورة الحجّ فإنّ هذا الادّعاء كذب مفضوح، و تبطله الدلائل و القرائن الكثيرة بجلاء.

فأولئك المفتعلون لهذه الكذبة لم يفكّروا أنّ القرآن فى ذيل هذه الآيات محلّ البحث ينقض عبادة الأصنام بصراحة، و يعدّها اتّباعا لما تهوى النفس و ظنونها، كما أنّه فى الآيات التى تلى هذه الآيات يعنّف عبادة الأصنام بصراحة و بشدّة، و يعدّها دليلا على عدم الإيمان و المعرفة، و يأمر النّبى بصراحة أن يقطع علاقته بهم و يعرض عنهم.

فمع هذه الحال كيف يمكن أن يتلفّظ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهاتين الجملتين، أو أن يكون المشركون حمقى إلى درجة بحيث يصغون إلى هذه العبارة و لا يلتفتوا إلى الآيات بعدها التى تعنّف المشركين على عبادة الأصنام .. و يفرحوا و يسجدوا فى آخر ما يتلى من هذه السورة مع الساجدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۰

و الحقيقة أنّ ناسجى هذه الاسطورة سذّج للغاية و سطحيّون، و يمكن أن يكون عند قراءة النّبى للآية أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى تلا الشيطان بعدها أو الإنسان المتّصف بالشيطنة الجملتين بين المشركين الحاضرين «لأنّ هاتين الجملتين كانتا بمثابة الشعار الذى يودع المشركون بهما أسماء الأصنام» فاشتبه جماعة مؤقتا بأنّهما تتمّة للآية!! إلّا أنّه لا معنى لسجود المشركين فى انتهاء السورة، و لا لانعطاف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نحو عبادة الأصنام، لأنّ جميع آيات القرآن و سيرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حياته كلّ ذلك يكشف عن أنّه لم يظهر أىّ انعطاف نحو الأصنام فى أى شكل و صورة، و لم يقبل بأىّ اقتراح فى هذا الصدد، لأنّ الإسلام بأجمعه كان يتلخّص فى التوحيد: لا إله إلّا اللّه! فكيف يمكن لنبى الإسلام أن يساوم على روح محتوى الإسلام الأصيل.

«و کان لنا فی هذا المجال دلائل و استدلالات ذیل الآیة ۵۲ من سورة الحجّ».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۱

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۲۴ الی ۲۶]

اشارة

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّی (۲۴) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولی (۲۵) وَ کَمْ مِنْ مَلَکٍ فِی السَّماواتِ لا تُغْنِی شَفاعَتُهُمْ شَیْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ یَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَرْضی (۲۶)

التّفسیر

الشفاعة أیضا بإذنه:

هـذه الآیات أیضا تتناول بالبحث و التعقیب- موضوع عبادة الأصـنام و خرافتها، و هی تتمّـة لما سـبق بیانه فی الآیات المتقدّمة! فتتناول أوّلا الامنیات الجوفاء عند عبدة الأصنام و ما کانوا یتوقّعون من الأصنام: أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّی !.

تری! هل من الممکن أن تشـفع هذه الأجسام التی لا قیمة لها و لا روح فیها عند اللّه سبحانه؟ أو یلتجأ إلیها عند المشکلات!؟ کلّا! فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولی

إنّ عـالم الأسـباب یـدور حـول محور إرادته، و کـلّ مـا لـدی الموجودات فمن برکـات وجوده، فالشـفاعة من اختیـاراته أیضـا، و حلّ المشاکل بید قدرته کذلک! ممّا یلفت النظر أنّ القرآن یتحدّث عن الآخرة أوّلا، ثمّ عن الدنیا، لأنّ أکثر ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۲

یشغل فکر الإنسان هو النجاة فی الآخرة .. و حاکمیة اللّه فی الدار الآخرة تتجلّی أکثر منها فی هذه الدنیا.

و هکـذا فإنّ القرآن یقطع أمل المشـرکین تماما- بشـفاعة الأصـنام- و یسـدّ بوجوههم هـذه الذریعـة بأنّها تشـفع لهم «و یقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه».

و هنـاک احتمـال آخر فی تفسیر الآیتین آنفتی الـذکر: و هو أن یتوجّه الإنسان نحو اللّه لعـدم بلوغه أمانیّه و ما یرغب إلیه .. لأنّ الآیة الاولی من الآیات محلّ البحث تقول: أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّی؟ و هذا اسـتفهام إنکاری، و حیث أنّ جواب هذا الاسـتفهام أو السؤال بالنفی قطعا، لأنّ الإنسان لا ینال کثیرا من أمانیه أبدا، و هذا یدلّ علی أنّ تدبیر هذا العالم بید اخری تتحکّم فی هذا العالم، و لذلک فإنّ الآیة الثانیة تقول: حیث کان الأمر کذلک فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولی و هذا المعنی یشبه ما جاء

فی کلام الإمام أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «عرفت اللّه بفسخ العزائم و حلّ العقود و نقض الهمم»[۲۳۸].

و لا یبعد الجمع بین هذا التّفسیر و التّفسیر السابق أیضا.

و فی آخر الآیات محلّ البحث یقول القرآن مضیفا و مؤکّدا علی هذه المسألة:

وَ کَمْ مِنْ مَلَکٍ فِی السَّماواتِ لا تُغْنِی شَفاعَتُهُمْ شَیْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ یَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَرْضی

فحیث لا تستطیع الملائکة علی عظمتها حتّی و لو بشکل جماعی أن تشفع لأحد إلّا بإذن اللّه و رضاه، فما عسی ینتظر من هذه الأصنام التی لا قیمـة لها، و هی لا تعی شـیئا!؟. و حینما تتساقط النسور المحلّقة و تهوی بأجنحتها عاجزة فما تنفع البعوضة الضـعیفة؟ ألیس من المخجل أن تقولوا إنّما نعبدهم لیقرّبونا إلی اللّه زلفی، أو هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۳

و التعبیر ب «کم» فی الآیة یفید العموم، أی لیس لأی ملک أن یشفع دون إذن اللّه و رضاه، لأنّ هذه اللفظة تفید العموم فی لغة العرب، کما أنّ لفظة «کثیر» تفید العموم أحیانا و قد جاء فی الآیة ۷۰ من سورة الإسراء ما یدلّ علی ذلک:

وَ فَضَّلْناهُمْ عَلی کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِیلًا أی فضّلنا بنی آدم علی جمیع من خلقنا.

کما نجد هذا الاستعمال فی شأن الشیاطین إذ نقرأ الآیة ۲۲۳ من سورة الشعراء قائلة: وَ أَکْثَرُهُمْ کاذِبُونَ مع أنّنا نعلم أنّ جمیع الشیاطین کاذبون ۲۳۹].

أمّا الفرق بین «الإذن» و «الرضا» فهو- أنّ الإذن یعبّر عنه فی مقام یکشف الإنسان عن رضاه الباطنی، إلّا أنّ الرضا .. أعمّ من ذلک، و قد تستعمل کلمة «الرضا» لانسجام الطبع مع ما یفعل، و حیث أنّ الإنسان قد یأذن بشیء ما دون أن یکون راضیا فی قلبه فقد جاءت کلمة «یرضی» تأکیدا علی الإذن، و إن کان الإذن و الرضا عند اللّه لا ینفصل بعضهما عن بعض و لا مجال (للتقیّة) عند اللّه!

تعقیب

۱- سعة الأمانی:

الأمل أو التمنّی إنّما ینبع من محدودیة قدرة الإنسان و ضعفه الإنسان إذا کانت له علاقة بالشیء و لم یستطع أن یبلغه و یحقّقه فانّه یأخذ صورة التمنّی عنده .. و إذا استطاع الإنسان أن یحقّق کلّ ما یریده و یرغب فیه، لم یکن للتمنّی من معنی! و بالطبع قد تکون أمانیّ الإنسان أحیانا نابعة من روحه العالیة و باعثا علی الحرکة و الجدّ و النشاط و الجهاد و سیره التکاملی .. کما لو تمنّی بأن یتقدّم الناس بالعلم و التقوی و الشخصیّة و الکرامة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۴

إلّا أنّه کثیرا ما تکون هذه الأحلام «و الأمانی» کاذبة، و علی العکس من الأمانی الصادقة فانّها أساس للغفلة و الجهل و التخدیر و التخلّف کما لو تمنّی الإنسان الخلود فی الأرض و العمر الدائم، و أن یملک أموالا طائلة، و أن یحکم الناس جمیعا و أمثال ذلک القبیل الموهوم.

و لذلک فقد رغّبت الرّوایات الإسلامیة الناس فی تمنّی الخیر، کما نقرأ

فی بعض ما وصلنا عن رسو اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من تمنّی شیئا و هو للّه عزّ و جلّ رضی لم یخرج من الدنیا حتّی یعطاه»[۲۴۰].

و یستفاد من بعض الرّوایات أنّه إذا لم یصل إلی ذلک فی الدنیا فسینال ثوابه ۲۴۱].

۲- کلام فی شأن الشفاعة

إنّ الآیة الأخیرة- من الآیات محلّ البحث- تخبر بجلاء عن إمکان أن یشفع الملائکة، فحیث أنّه للملائکة الحقّ أن یشفعوا بإذن اللّه و رضاه، فمن باب الأولی أن یکون للأنبیاء و المعصومین حقّ الشفاعة عند اللّه.

إلّا أنّه لا ینبغی أن ننسی أنّ الآیة آنفة الذکر تقول بصراحة إنّ هذه الشفاعة لیست من دون قید و شرط. بل هی مشروطة بإذن اللّه و رضاه، و حیث أنّ إذن اللّه و رضاه لم یکونا عبثا أو اعتباطا، فینبغی أن تکون بین الإنسان و ربّه علاقة حتّی یأذن بالشفاعة للمقرّبین فی

شأنه، و من هنا فإنّ رجاء الشفاعة يكون مذهبا تربويّا للإنسان و مانعا من اليأس و قطع جميع الروابط باللّه تعالى ۲۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۵

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۲۷ الى ۳۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (۲۷) وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (۲۸) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا (۲۹) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (۳۰)

التّفسير

إنّ الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئا:

هذه الآيات- محلّ البحث- كالآيات المتقدّمة، تبحث موضوع نفى عقائد المشركين.

فتقول أوّلها: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى أجل، إنّ هذا الكلام القبيح و المخجل إنّما يصدر من أناس لا يعتقدون بيوم الحساب و لا بجزاء أعمالهم، فلو كانوا يعتقدون بالآخرة لما تجاسروا فقالوا مثل هذا الكلام، و أى كلام؟! كلام ليس لهم فيه أدنى دليل .. بل الدلائل العقليّة تبرهن على أنّه ليس للّه من ولد، و ليس الملائكة إناثا، و لا هم بنات اللّه كذلك!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۶

و التعبير ب «تسمية الأنثى» إشارة إلى ما نوّهنا عنه فى الآيات المتقدّمة، و هو أنّ مثل هذا الكلام لا معنى له. و إنّ هذا الأسماء لا مسمّيات لها، و بتعبير آخر إنّها لا تعدو حدود التسمية، و لا واقع لها أبدا.

ثمّ يتناول القرآن واحدا من الأدلّة الواضحة على بطلان هذه التسمية فيقول معقّبا: وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً.

فالإنسان الهادف و المعتقد لا يطلق كلامه دون علم و دراية، و لا ينسب أيّة نسبة لأحد دونما دليل .. فالتعويل عن الظنّ و التصوّر إنّما هو من عمل الشيطان أو من يتّصف بالشيطانيّة .. و قبول الخرافات و الأشياء الموهومة دليل الانحراف و عدم العقل! و واضح أنّ كلمة «الظنّ» لها معنيان مختلفان، فتارة تطلق هذه الكلمة على الأوهام التى لا أساس لها، و طبقا لتعبير الآيات آنفة الذكر تعنى الخرافات و الأوهام و ما تهوى الأنفس .. و المراد من هذه الكلمة فى الآية هو هذا المعنى ذاته.

المعنى الآخر، الظنّ المعقول و هو ما يخطر فى الذهن، و يكون مطابقا للواقع غالبا، و عليه يكون مبنى العمل فى اليوم- مرة أو أكثر- كشهادة الشهود فى المحكمة و قول أهل الخبرة و ظواهر الألفاظ و أمثال ذلك، فلو أعرضنا عن مثل هذه الأمور و عوّلنا على اليقين القطعى لاضطربت الحياة و اختلّ نظامها.

و لا شكّ أنّ هذا القسم من الظنّ غير داخل فى هذه الآيات، و هناك شواهد كثيرة فى الآيات ذاتها على ذلك .. و فى الحقيقة أنّ القسم الثانى نوع من العلم العرفى لا الظنّ، فبناء على هذا لا يصحّ الاستدلال بالآية إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً و أمثالها على نفى حجيّة الظنّ بشكل مطلق.

و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة و المسألة الدقيقة .. و هى أنّ الظنّ فى اصطلاح الفقهاء و الأصوليين معناه «الإعتقاد الراجح»، إلّا أنّه

فى اللغة أوسع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۷

مفهوما، فيشمل حتّى الوهم و الاحتمالات الضعيفة، و من هذا القبيل ظنّ عبدة الأوثان- إذ كان خرافة تظهر فى أذهانهم بشكل احتمال ضعيف. ثمّ ينهض هوى النفس فيزيّن ذلك الاحتمال، و يهمل الاحتمال الآخر الذى هو أقوى من هذا الاحتمال، و يصير الاحتمال الضعيف اعتقادا راسخا مع أنّه لا أساس له أبدا.

و من أجل أن يبيّن القرآن أنّ هؤلاء الجماعة ليسوا أهلا للاستدلال و المنطق الصحيح، و قد ألهاهم حبّ الدنيا عن ذكر اللّه و جرّهم إلى الوحل فى خرافاتهم و أوهامهم يضيف قائلا: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا.

و المراد من (ذكرنا) فى إعتقاد أغلب المفسّرين هو «القرآن»، و قد يفسّر بأنّه الدلائل المنطقية و العقلية التى توصل الإنسان إلى اللّه، كما احتملوا أن يكون المراد هو ذكر اللّه الذى يقابل الغفلة عند الإنسان.

إلّا أنّ الظاهر أنّ هذا التعبير ذو مفهوم واسع بحيث يشمل كلّ توجّه نحو اللّه، سواء أ كان ذلك عن طريق القرآن، أو عن طريق العقل، أو عن طريق السنّة، أو تذكّر القيامة و ما إلى ذلك! و يستفاد من هذه الآية- ضمنا- أنّ هناك علاقة بين الغفلة عن ذكر اللّه و الإقبال على الماديات، و بين زخرف الدنيا و زبرجها و أنّ بينهما تأثيرا متلازما! فالغفلة عن ذكر اللّه تسوق الإنسان نحو عبادة الدنيا، كما أنّ عبادة الدنيا تصرف الإنسان عن ذكر اللّه، فيكون غافلا عنه- و هما جميعا يقترنان مع هوى النفس، و بالطبع فإنّ الخرافات التى تنسجم مع هوى النفس تتزيّن فى نظر الإنسان و تتبدّل تدريجا إلى إعتقاد راسخ! و ربّما لا حاجة إلى التذكير أنّ الأمر بالإعراض عن هذه الفئة (أهل الدنيا) لا- ينافى تبليغ الرسالة الذى هو وظيفة النّبى الأساسيّة، لأنّ التبليغ و الإنذار و البشارة كلّها لا تكون إلّا فى موارد احتمال التأثير، فحيث يعلم و يتيقّن عدم التأثير فلا يصحّ هدر الطاقات، و ينبغى الإعراض بعد إتمام الحجّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۸

كما ينبغى الإشارة إلى أنّ الأمر بالإعراض عمّن تولّى عن ذكر اللّه، ليس مختصّا بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل هو شامل لجميع الدعاة فى طريق الحقّ، ليصرفوا طاقاتهم الكريمة فى ما يحتمل تأثيرها فيه، أمّا عبدة الدنيا و موتى القلوب الذين لا أمل فى هدايتهم فينبغى- بعد إتمام الحجّة عليهم- الإعراض عنهم ليحكم اللّه حكمه فيهم!.

و فى آخر آية من الآيات محلّ البحث يثبت القرآن انحطاط أفكار هذه الفئة فيقول مضيفا: ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ

أجل، إنّ أوج أفكارهم منته إلى هذا الحدّ و هو اسطورتهم أنّ الملائكة بنات اللّه!!- و خبطهم فى الخرافات .. و هذه آخر نقطة تبلغ إليه همّتهم، إذ نسوا اللّه و أقبلوا على الدنيا و استعاضوا عن جميع شرفهم و وجودهم بالدينار و الدرهم! و هذه الجملة ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ يمكن أن تكون إشارة إلى خرافاتهم كعبادة الأصنام و جعلهم الملائكة بنات اللّه: أى أنّ منتهى علمهم هو هذه الأوهام!.

أو أنّها إشارة إلى حبّ الدنيا و الأسر فى قبضة الماديات، أى أن؟ منتهى إدراكهم هو قناعتهم بالأكل و الشرب و النوم و المتاع الفانى فى هذه الدنيا و زبرجها و زخرفها إلخ.

و قد جاء فى الدعاء المعروف فى أعمال شعبان المنقول

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «و لا تجعل الدنيا أكبر همّنا و لا مبلغ علمنا»[۲۴۳].

و تختتم الآية بالقول: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى ختام الآية يشير إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ اللّه يعرف الضالّين جيّدا كما يعرف المهتدين أيضا، فيصبّ غضبه على الضالّين و يسبغ لطفه على المهتدين، و يجازى كلّا بعمله يوم القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۹

ملاحظة

رأس مال عبدة الدنیا:

الطریف أنّ الآیات الآنفة فی الوقت الـذی تنسب العلم لعبـدة الـدنیا، إلّا أنّها تعـدّهم ضالّین، و هذا یدلّ علی أنّ العلوم التی لا تهدف إلی شیء سوی المادیّات فمن وجهة نظر القرآن لیست علوما، بل هی الضلالة بعینها.
و من الغریب أنّ کلّ هذه الشـقوة و الحروب و سـفک الدماء و الظلم و التجاوز و الفساد و التلوّث ناشئ من علوم الضلال هذه- و من الذین منتهی ما توصّلت إلیه علومهم حبّ الدنیا و الحیاة الفانیة، و لا یتّسع أفق متطلّباتهم لأکثر من متطلّبات الحیوان.
أجل، إنّ علوم «التقنیـة» و المسائل الحدیثـة إذا لم تکن تسـعی لأهـداف أسـمی من المادیّات، فهی الجهل بعینه، و إذا لم تؤدّ إلی نور الإیمان فهی الضلال!.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۰

الآیتان [سورة النجم (۵۳): الآیات ۳۱ الی ۳۲]

اشارة

وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ لِیَجْزِیَ الَّذِینَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ یَجْزِیَ الَّذِینَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَی (۳۱) الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلاَّـ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّکَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِکُمْ إِذْ أَنْشَأَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِی بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ فَلا تُزَکُّوا أَنْفُسَـکُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقی (۳۲)

التّفسیر

لا تزکّوا أنفسکم:

لمّـا کـان الکلاـم فی الآیـات المتقدّمـة عن علم اللّه بالضـالّین و المهتـدین، فـإنّ الآیـات أعلاـه تتمّـة لمـا جاء آنفا، تقول: وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ
فالمالکیـة المطلقـة فی عـالم الوجود له وحـده، و الحاکمیـة المطلقـة علی هـذا العالم له أیضا، و لـذلک فإنّ تـدبیر عالم الوجود بیـده فحسب. و لمّا کان الأمر کـذلک فهو وحـده الجدیر بالعبادة و الشـفاعة! إنّ هدفه الکبیر من هذا الخلق الواسع لیتألّف الإنسان فی عالم الوجود و لیسیر فی مسیر التکامل فی ضوء المناهج التکوینیة و التشریعیّة و تعلیم الأنبیاء
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۱
و تربیتهم، لـذلک فـإنّ القرآن یـذکر نتیجـة هـذه المالکیـة فیختتم الآیـة بالقول: لِیَجْزِیَ الَّذِینَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ یَجْزِیَ الَّذِینَ أَحْسَـنُوا بِالْحُسْنَی ۲۴۴].
ثمّ یصف القرآن المحسنین فی الآیة التالیة فیقول: الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ کَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ
و «الکبائر» جمع کبیرة، و «الإثم» فی الأصل هو العمل الـذی یبعد الإنسان عن الخیر و الثواب، لذلک یطلق علی الذنب عادة، و «اللمم» علی وزن القلم- کما یقول الراغب فی المفردات معناه الاقتراب من الذنب، و قد یعبّر عن الذنوب الصـغیرة باللمم أیضا، و هذه الکلمة

فى الأصل مأخوذة من الإلمام و معناها الاقتراب من شىء دون أدائه، و قد يطلق «اللمم» على الأشياء القليلة أيضا «و إطلاقه على الذنوب الصغيرة من هذا الباب».

و قد فسّر المفسّرون «اللمم» فى هذه الحدود، فقال بعضهم: هو الذنوب الصغيرة، و قال آخرون هو نيّة المعصية دون أدائها، و فسّره غيرهم بأنّ اللمم معاص لا أهميّة لها.

و ربّما قالوا بأنّ اللمم يشمل الذنوب الصغيرة و الكبيرة على أن لا تكون معتادة و التى تقع أحيانا فيتذكّرها الإنسان فيتوب منها.

و هناك تفاسير متعدّدة لهذه الكلمة فى الرّوايات الإسلامية،

فقد جاء من الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: اللمم الرجل يلمّ به الذنب فيستغفر اللّه منه ۲۴۵] و ورد عنه أيضا أنّه قال: هو الذنب يلمّ به الرجل فيمكث ما شاء اللّه ثمّ يلمّ به بعد[۲۴۶].

كما وردت روايات اخرى فى هذا المعنى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۲

و القرائن الموجودة فى هذه الآية تشهد على هذا المعنى أيضا .. إذ قد تصدر من الإنسان بعض الذنوب، ثمّ يلتفت إليها فيتوب منها، لأنّ استثناء اللمم من الكبائر (مع الالتفات إلى أنّ ظاهر الاستثناء كونه استثناء متّصلا) يشهد على هذا المعنى.

أضف إلى ذلك فإنّ الجملة التالية بعد الآية فى القرآن تقول: إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ!.

و هذا يدلّ على أنّ ذنبا صدر من الإنسان و هو بحاجة إلى غفران اللّه، لا أنّه قصد الاقتراب منه و نواه دون أن يرتكبه.

و على كلّ فالمراد من الآية أنّ الذين أحسنوا من الممكن أن ينزلقوا فى منزلق ما فيذنبوا، إلّا أنّ الذنب على خلاف سجيّتهم و طبعهم و قلوبهم الطاهرة- و إنّما تقع الذنوب عرضا، و لذلك فما أن يصدر منهم الذنب إلّا ندموا و تذكّروا و طلبوا المغفرة من اللّه سبحانه كما نقرأ فى الآية (۲۰۱) من سورة الأعراف إذ تشير إلى هذا المعنى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ

و نظير هذا المعنى فى الآية (۱۳۵) من سورة آل عمران إذ تقول فى وصف المحسنين و المتّقين: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ فكلّ هذا شاهد على ما جاء من تفسير «اللّمم».

و نختتم بحثنا هنا بحديث للإمام الصادق عليه السّلام إذ أجاب على سؤال حول تفسير الآية- محلّ البحث-

فقال: «اللمام العبد الذى يلمّ بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته أى من طبيعته»[۲۴۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۳

و يتحدّث القرآن فى ذيل الآية عن علم اللّه المطلق مؤكّدا عدالته فى مجازاة عباده حسب أعمالهم فيقول: هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ ۲۴۸].

و قوله: «أنشأكم من الأرض» أمّا هو باعتبار الخلق الأوّل عن طريق آدم عليه السّلام الذى خلقه من تراب، أو باعتبار أنّ ما يتشكّل منه وجود الإنسان كلّه من الأرض، حيث له الأثر الكبير فى التغذية و تركيب النطفة، ثمّ بعد ذلك له الأثر فى مراحل نمو الإنسان أيضا.

و على كلّ حال، فإنّ الهدف من هذه الآية أنّ اللّه مطّلع على أحوالكم و عليم بكم منذ كنتم ذرّات فى الأرض و من يوم انعقدت نطفتكم فى أرحام الامّهات فى أسجاف من الظلمات فكيف- مع هذه الحال- لا يعلم أعمالكم؟! و هذا التعبير مقدّمة لما يليه من قوله تعالى: فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى فلا حاجة لتعريفكم و تزكيتكم و بيان أعمالكم الصالحة، فهو مطّلع على أعمالكم و على ميزان خلوص نيّاتكم، و هو أعرف بكم منكم، و يعلم صفاتكم الداخلية و الخارجية.

قال بعض المفسّرين أنّ الآيتين آنفتى الذكر نزلتا فى جماعة كانوا يمدحون أنفسهم بعد أداء الصوم أو الصلاة فيقولون: إنّنا صلّينا و صمنا و قمنا بكذا و كذا.

فنزلت الآیتان و نهتهم عن تزکیة الأنفس ۲۴۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۴

بحوث

۱- علم اللّه المطلق

مرّة اخری یشار فی هاتین الآیتین إلی علم اللّه المطلق و سعته، إلّا أنّ التعبیر فیهما تعبیر جدید، لأنّه یستند إلی لطیفتین ۲۵۰] و هما من أشدّ حالات الإنسان خفاء و التواء .. حالة خلق الإنسان من التراب إذ ما تزال عقول المفکّرین حائرة فیها، فکیف یوجد موجود حی من موجود لا روح فیه (میّت)؟ و ممّا لا شکّ فیه أنّ هذا الأمر حدث فی السابق سواء فی الإنسان أو الحیوانات الاخر، و لکن فی أیّة ظروف؟! فالمسألة فی غایة الخفاء و الالتواء بحیث ما تزال أسرارها مطویة و مکتومة عن علم الإنسان.

و الاخری مسألة التحوّلات المفعمة بالأسرار فی وجود الإنسان فی مرحلة الجنین، فهی أیضا من الأسرار الغامضة فی کیفیة خلق الإنسان و إن کان شبح منها قد انکشف لعلم البشر، إلّا أنّ الأسئلة حول أسرار الجنین التی ما زالت دون جواب کثیرة.

فالمطّلع علی هاتین الحالتین من جمیع أسرار وجود الإنسان و تحوّلاته و تغییراته و هادیه و مربّیه، کیف یکون غیر عالم بأعماله و أفعاله! و لا یجازی کلّا بحسب ما یقتضیه عمله! إذا، فهذا العلم المطلق أساس عدالته المطلقة!

۲- ما هی کبائر الإثم

هناک کلام طویل بین المفسّرین من جهة، و الفقهاء و المحدّثین من جهة اخری فی شأن الذنوب الکبیرة المشار إلیها فی بعض الآیات من القرآن ۲۵۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۵

فبعضهم یعتقد أنّ جمیع الذنوب تعدّ من الکبائر، لأنّ کلّ ذنب- أمام الخالق الکبیر یعدّ ذنبا کبیرا.

فی حین أنّ بعضهم ینظر إلی الذنوب نظرة نسبیّة فیری کلّ ذنب بالنسبة إلی ما هو أهمّ منه صغیرا و بالعکس.

و قال آخرون إنّ الکبائر ما جاء الوعید من قبل اللّه فی القرآن بارتکابها! و ربّما قیل إنّ الکبائر ما یجری علیها «الحدّ» الشرعی.

إلّا أنّ الأفضل أنّ یقال بأنّه مع ملاحظة أنّ التعبیر بالذنوب الکبیرة دلیل علی عظمها، فکلّ ذنب فیه أحد الشروط التالیة یعدّ کبیرا:

أ- الذنوب التی ورد الوعید من قبل اللّه فی شأنها و العذاب لمرتکبها.

ب- الذنوب المذکورة فی نظر أهل الشرع و لسان الرّوایات بأنّها عظیمة.

ج- الذنوب التی عدّتها المصادر الشرعیّة أکبر من الذنوب التی هی من الکبائر.

د- و أخیرا الذنوب المصرّح بها فی الرّوایات المعتبرة بأنّها من الکبائر!.

و قد ورد ذکر الکبائر فی الرّوایات الإسلامیة مختلفا عددها فیه، إذ جاء فی بعضها أنّها سبع

«قتل النفس، و عقوق الوالدین، و أکل الربا، و العودة إلی دار الکفر بعد الهجرة، و رمی المحصنات بالزنا، و أکل مال الیتیم، و الفرار من [الزحف الجهاد»[۲۵۲].

و قد جاء فی بعض الرّوایات ذکر هذا النصّ:

«کلّما أوجب علیه اللّه النار»

[مکان عقوق الوالدین .

و جاء فی بعض الرّوایات أنّها «عشر»، و أوصلتها روایات أخر إلی «تسع عشرة» کبیرة! و ربّما ترقّی هذا العدد إلی أکثر ممّا ذکر فی بعض الرّوایات أیضا[۲۵۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۶

و هذا التفاوت فی عدد الکبائر هو لأنّ الذنوب الکبیرة لیست بمرتبة واحدة، فبعضها أهمّ من بعض، و بتعبیر آخر یعدّ أکبر الکبائر، فبناء علی هذا لا تضادّ بین الرّوایات فی اختلاف العدد.

۳- تزکیة النفس:

«تزکیة النفس» قبیح إلی درجة أنّها یضرب بها المثل! فیقال تزکیة المرء نفسه قبیحة.

و أساس هذا العمل القبیح و أصله عدم معرفة النفس، لأنّ الإنسان إذا عرف نفسه حقّا تصاغر أمام عظمة الخالق و رأی أعماله لا شیء لما علیه من مسئولیة، و لما وهبه اللّه من النعم العظیمة، و إذا لما خطا أیّة خطوة نحو تزکیة النفس.

و الغرور و الغفلة و الاستعلاء و الأفکار الجاهلیة أیضا بواعث أخر علی هذا العمل القبیح! و حیث أنّ تزکیة النفس تکشف عن إعتقاد الإنسان بکماله فهی مدعاة إلی تخلّفه! لأنّ رمز التکامل الاعتراف بالتقصیر و قبول وجود النواقص و الضعف! و من هنا نری أولیاء اللّه یعترفون بتقصیرهم أمام اللّه و ما علیهم من وظائف من قبله! و ینهون الناس عن تزکیة النفس و تعظیم أعمالهم!.

فقد ورد عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر الآیة الکریمة فَلا تُزَکُّوا أَنْفُسَکُمْ أنّه قال: «لا یفتخر أحدکم بکثرة صلاته .. و صومه و زکاته و نسکه لأنّ اللّه عزّ و جلّ أعلم بمن اتّقی»[۲۵۴].

و

یقول الإمام أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی إحدی رسائله إلی معاویة مشیرا إلی هذا المضمون فی ما یقول: «و لو لا ما نهی اللّه عنه من تزکیة المرء نفسه لذکر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۷

ذاکر فضائل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنین و لا تمجّها آذان السامعین»

«یعنی بذلک نفسه علیه السّلام»[۲۵۵].

«و فی هذا الصدد أوردنا بحثا مفصّلا فی هذا التّفسیر ذیل الآیة ۴۹ من سورة النساء فراجع إن شئت».

و لا ننسی أن نقول إنّ الضرورات قد توجب علی الإنسان أحیانا تزکیة نفسه أمام الغیر بکلّ ما لدیه من امتیازات حتّی لا تسحق أهدافه المقدّسة، و بین هذا النوع من التعریف بالنفس و تزکیة النفس المذموم اختلافا کبیرا.

و من أمثلة ذلک خطبة الإمام زین العابدین فی مسجد بنی امیّة فی الشام لما أراد أن یعرف نفسه و أهل بیته لأهل الشام لیحبط مؤامرة الأمویین بکون الحسین و الشهداء معه خوارج و یفضحهم!! و

قد ورد فی بعض الرّوایات أنّه سئل الإمام الصادق عن «تزکیة النفس» فقال نعم إذا اضطرّ إلیه- أما سمعت قول یوسف أحیانا للضرورة-

ثمّ استدلّ بموضعین من کلام الأنبیاء أحدهما اقتراح یوسف علی عزیز مصر أن یکون مسئولا و مشرفا علی خزائن مصر و تعقیبه: إِنِّی

حَفِيظٌ عَلِيمٌ .. و قول العبد الصالح: أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ [۲۵۶]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۸

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۳۳ الى ۴۱]

اشارة

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (۳۳) وَ أَعْطى قَلِيلاً وَ أَكْدى (۳۴) أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (۳۵) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (۳۶) وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (۳۷)

أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (۳۸) وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (۳۹) وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (۴۰) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (۴۱)

سبب النّزول

ذكر أغلب المفسّرين أسبابا لنزول الآيات أعلاه، إلّا أنّها لا تنسجم كثيرا مع الآيات هذه، و ما هو معروف بكثرة شأنان للنّزول:

۱- إنّ هذه الآيات ناظرة إلى «عثمان بن عفّان» حيث كانت لديه أموال طائلة و كان ينفق منها، فقال له بعض أرحامه و اسمه «عبد اللّه بن سعد»: إذا واصلت إنفاقك فلا يبقى عندك شيء، فقال عثمان: لدى ذنوب و أريد أن أنال بإنفاقى رضا ربّى و عفوه. فقال له عبد اللّه: إن أعطيتنى ناقتك بما عليها من جهاز تحمّلت ذنوبك و جعلتها فى رقبتى، ففعل عثمان و أشهده على ما اتّفق عليه و امتنع من الإنفاق بعدئذ. «فنزلت الآيات و ذمّت هذا العمل بشدّة، و أوضحت أنّه لا يمكن لأحد أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۹

يحمل وزر الآخر و كلّ ينال جزاء سعيه»[۲۵۷].

۲- إنّ الآية فى شأن «الوليد بن المغيرة» إذ جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صبا إلى الإسلام فلامه بعض المشركين و قال: تركت ما كان عليه كبراؤنا و عددتهم ضلّالا و ظننت أنّهم من أهل النار! فقال إنّى أخاف من عذاب اللّه. فقال له اللائم: إن أعطيتنى شيئا من مالك و رجعت إلى الشرك تحمّلت وزرك و جعلته فى رقبتى! ففعل الوليد بن المغيرة ذلك إلّا أنّه لم يعط من المال المتّفق عليه إلّا قليلا. فنزلت الآية و وبّخته على ارتداده من الإيمان ۲۵۸].

التّفسير

كلّ يتحمّل مسئولية أعماله:

كان الكلام فى الآيات السابقة فى أن يجزى اللّه تعالى من أساء بإساءته و يثيب المحسنين بإحسانهم .. و بما أنّه من الممكن أن يتصوّر أن يعذّب أحد بذنب غيره أو أن يتحمّل أحد وزر غيره، فقد جاءت هذه الآيات لتنفى هذا التوهّم فى المقام، و بيّنت هذا الأصل الإسلامى المهمّ أنّ كلّا يرى نتيجة عمله، فقالت أوّلا:

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى أى تولّى من الإسلام أو الإنفاق!؟ وَ أَعْطى قَلِيلًا وَ أَكْدى ۲۵۹] بمعنى أنّه أنفق القليل ثمّ امتنع و أمسك و هو يظنّ أنّ غيره سيحمل وزره يوم القيامة.

فأىّ رجل جاءهم من الغيب و «القيامة» فأخبرهم بأنّه يمكن أخذ الرشوة و تحمّل آثام الآخرين؟ أو من جاءهم من قبل اللّه فأخبرهم

بأنّ اللّه راض عن هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۰

التعامل إلّا ما تدور فی أذهانهم من أوهام؟ فهم یتّبعون ما یتوهّمون فرارا من تحمّل المسؤولیة.

و بعد هذا تأتی الآیة الاخری لتبیّن اعتراض القرآن الشدید علی ذلک، و بیان لأصل کلّی مطّرد فی الأدیان السماویة کلّها فتقول: تری أ هذا الذی امتنع عن الإنفاق أو الإیمان بالوعود الخیالیة. و یرید أن یخلص نفسه من عذاب اللّه بإنفاقه الیسیر و الزهید من أمواله، أ تغنیه هذه الخیالات و التصوّرات: أَمْ لَمْ یُنَبَّأْ بِما فِی صُحُفِ مُوسی وَ إِبْراهِیمَ الَّذِی وَفَّی ۲۶۰].

«إبراهیم»: هو ذلک النّبی العظیم الذی أدّی حقّ رسالة اللّه، و بلّغ ما أمره به و وفی بجمیع عهوده و مواثیقه، و لم یخش تهدید قومه و طاغوت زمانه، ذلک الإنسان الذی امتحن بمختلف الامتحانات حتّی بلغ به أن یقدّم ولده لیذبحه بأمر اللّه، و خرج منتصرا مرفوع الرأس من جمیع هذه الامتحانات و نال المقام السامی لقیادة الامّة .. کما نقرأ هذا المعنی فی الآیة (۱۲۴) من سورة البقرة إذ تقول: وَ إِذِ ابْتَلی إِبْراهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً.

و قال بعض المفسّرین فی توضیح معنی الآیة: أنّه بذل نفسه للنیران و قلبه للرحمن و ولده للقربان و ماله للإخوان ۲۶۱].

ثمّ تأتی الآیة الاخری لتقول: أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری

«الوزر» فی الأصل مأخوذ من «الوزر»- علی زنة خطر- و معناه المأوی أو الکهف أو الملجأ الجبلی، ثمّ استعملت هذه الکلمة فی الإعباء الثقیلة! لشباهتها الصخور الجبلیة العظیمة، و أطلقت علی الذنب أیضا، لأنّه یترک عبئا ثقیلا علی ظهر الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۱

و المراد من «الوازرة» من یتحمّل الوزر[۲۶۲].

و لمزید الإیضاح یضیف القرآن قائلا: وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعی ۲۶۳].

«السعی» فی الأصل معناه السیر السریع الذی لا یصل مرحلة الرکض، إلّا أنّه یستعمل غالبا فی الجدّ و المثابرة، لأنّ الإنسان یؤدّی حرکات سریعة فی جدّه و مثابرته سواء کان ذلک فی الخیر أو الشرّ! و الذی یسترعی الانتباه أنّ القرآن لا یقول: و ان لیس للإنسان إلّا ما أدّی من عمل .. بل یقول: إلّا ما سعی. و هذا التعبیر إشارة إلی أنّ علی الإنسان أن یجدّ و یثابر فذلک هو المطلوب منه و إن لم یصل إلی هدفه، فالعبرة بالنیّة، فإذا نوی خیرا أعطاه اللّه ثوابه، لأنّ اللّه یتقبّل النیّات و المقاصد لا الأعمال المؤدّاة فحسب.

أمّا الآیة التالیة فتقول: وَ أَنَّ سَعْیَهُ سَوْفَ یُری فالإنسان لا یری غدا نتائج أعماله التی کانت فی مسیر الخیر أو الشرّ فحسب، بل سیری أعماله نفسها یوم الحساب، کما نجد التصریح بذلک فی الآیة (۳۰) من سورة آل عمران: یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً.

کما ورد التصریح بمشاهدة الأعمال الصالحة و الطالحة عند القیامة فی سورة الزلزلة الآیتین (۷) و ۸): فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ أمّا الآیة الأخیرة من الآیات محل البحث فتقول: ثُمَّ یُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفی ۲۶۴].

و المراد من «الجزاء الأوفی» هو الجزاء الذی یکون طبقا للعمل. و بالطبع هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۲

لا ینافی لطف اللّه و تفضّله بأن یضاعف الجزاء علی الأعمال الصالحة عشرة أضعاف أو عشرات الأضعاف و مئاتها و إلی ما شاء اللّه! و ما فسّره بعضهم بأنّ «الجزاء الأوفی» معناه الجزاء الأکثر فی شأن الحسنات، لا یبدو صحیحا، لأنّ کلام هذه الآیة یشمل الذنوب و الأعمال الطالحة، بل الکلام فیها أساسا علی الوزر و الذنب «فلاحظوا بدقّة»!

بحوث

۱- ثلاثة اصول إسلامية مهمّة

أشير فی الآيات- آنفة الذكر- إلى ثلاثة اصول من الأصول الإسلامية، و قد أكّدت عليها الكتب السماوية السابقة و هی:

أ- كلّ إنسان مسئول عن ذنبه و وزره.

ب- ليس للإنسان فی آخرته إلّا سعيه.

ج- يجزی اللّه كلّ إنسان على عمله الجزاء الأوفى.

و هكذا فإنّ القرآن يشجب الكثير من الأوهام و الخرافات التی يهتمّ بها عامّة الناس أو السائدة بينهم و كأنّها مذهب عقائدی! و القرآن لا ينفی- عن هذا الطريق- عقيدة العرب المشركين الذين يعتقدون أنّ بإمكان الإنسان أن يتحمّل وزر الآخر فحسب! بل ينفی الإعتقاد الذی كان سائدا- و لا يزال- بين المسيحيين، و هو أنّ اللّه أرسل ابنه المسيح ليصلب و يذوق العذاب و الألم و يحمل على عاتقه ذنوب المذنبين!.

و كذلك يحكم على جماعة من القسسة و الرهبان بقبح عملهم لما كانوا يبيعونه من صكوك الغفران و منح قطع الأراضی فی الجنّة لمن يشاءون، و العفو عن المخطئين!! فكلّ هذه الأمور باطلة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۳

و منطق العقل أيضا يقتضی أنّ كلّا مسئول عن عمله، و يعود عليه عمله بالنفع أو الضرر.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۲۶۳

هذا المبدأ الإسلامی يؤدّی إلى أن يسعى الإنسان إلى الخير و أن يجتهد بدلا من الالتجاء إلى الخرافات أو أن يتحمّل آثامه غيره! و أن يتجنّب الذنب و يتّقی اللّه، و إذا ما اتّفق له أن عثرت قدمه فی معصية، فعليه أن يبادر إلى التوبة و يجبر ذلك بالاستغفار و العمل الصالح! و تأثير هذه العقيدة التربوية فی الناس واضح تماما و لا يقبل الإنكار، كما أنّ أثر تلك المعتقدات الجاهلية الفاسدة- المخرّب لا يخفى على أحد.

و صحيح أنّ هذه الآيات ناظرة إلى السعی و المثابرة و العمل للآخرة و رؤية الثواب فی الآخرة! إلّا أنّ الملاک و المعيار الأصلی له يتجلّى فی الدنيا أيضا .. أی أنّ الأفراد المؤمنين لا ينبغی لهم أن يتوقّعوا من الآخرين أن يعملوا لهم و يحلّوا مشاكلهم الاجتماعية، بل عليهم أنفسهم أن ينهضوا و يجدّوا و يثابروا أبدا.

و يستفاد من هذه الآيات أصل حقوقی فی المسائل الجزائية أيضا، و هو أنّ الجزاء أو العقاب إنّما ينال المذنب الحقيقی، و ليس لأحد أن يجعل إثم غيره فی ذمّته!

۲- سوء الاستفادة من مفاد الآية:

كما بيّنا آنفا، فإنّ هذه الآيات بقرينة الآيات التی قبلها و الآيات التی بعدها ناظرة إلى سعی الإنسان لأمور الآخرة، إلّا أنّه مع هذه الحال- لما كان ذلک على أساس حكم عقلی مسلّم به فيمكن تعميم السعی و الجدّ حتّى يشمل السعی لأمور الدنيا و يشمل أيضا الجزاء الدنيوی، إلّا أنّ ذلک لا يعنی أن يتأثّر بعضهم بالمذاهب الاشتراكية فيقول: إنّ مفهوم الآية أنّ المالكية إنّما تحصل عن طريق العمل فحسب، و بذلک يخطّی قانون الإرث و المضاربة و الإجارة و أمثالها!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۴

و العجب أنّه ينادى بالإسلام و يستدلّ بآيات القرآن أيضا مع أنّ مسألة الإرث من الأصول الإسلامية القطعية، و كذلك الخمس و الزكاة! علما بأنّه لم يسع الوارث إلى إرثه و لا مستحقّو الزكاة أو الخمس إليهما، و لم يقع سعى فى مواطن النذر و الوصايا و مع كلّ ذلك فإنّ القرآن الكريم ذكر هذه الأمور.

و بتعبير آخر أنّ هذا هو الأصل، إلّا أنّه غالبا ما يوجد استثناء أمام كلّ أصل، فمثلا الولد يرث أباه هذا أصل إسلامى، لكن متى قتل الولد أباه أو خرج عن الإسلام حرم حقّ الإرث.

و كذلك نتيجة سعى كلّ شخص تعود عليه أو إليه، هذا هو الأصل، إلّا أنّه لا مانع من أن يعطى مقدار من المال للآخر طبقا لقرار الإجارة بين الطرفين، و هو أصل قرآنى ۲۶۵] كذلك، أو أن ينتقل المال عن طريق النذر أو الوصية، كما صرّح به القرآن الكريم.

۳- الجواب على سؤالين

يرد هنا سؤالان و ينبغى أن نجيب عليها:

أوّلا: إذا كان ما يناله الإنسان يوم القيامة هو نتيجة سعيه، فما معنى الشفاعة إذا؟! و الثّانى: إنّنا نقرأ فى الآية (۲۱) من سورة الطور فى شأن أهل الجنّة: أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ مع أنّ الذريّة لم تسع فى هذا المضمار، ثمّ إنّنا نجد فى الرّوايات الإسلامية أنّ الإنسان إذا عمل عملا صالحا فإنّ نتيجة ذلك تنعكس على أبنائه أيضا.

و الجواب على هذه الأسئلة جملة واحدة و هى أنّ القرآن يقول أنّ الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۵

ليس له أن يأخذ أكثر من سعيه و عمله، إلّا أنّه لا يمنع أن ينال بعض الناس اللائقين نعما أخر عن طريق اللطف و التفضّل الإلهى.

فالاستحقاق شىء، و التفضّل شىء آخر! كما أنّ اللّه يضاعف الحسنات عشرات المرّات بل مئات المرّات و آلافها أحيانا.

ثمّ- الشفاعة- كما ذكرنا فى محلّه- ليست اعتباطا ..- بل هى بحاجة إلى السعى و الجدّ و إيجاد العلاقة بالشافع أيضا، و كذلك الأمر فى شأن ذريّة الأشخاص الصالحين، فإنّ القرآن يقول أيضا: وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ .

۴- صحف إبراهيم و موسى

«الصحف» جمع صحيفة، و تطلق هذه الكلمة على كلّ شىء واسع كما يقال مثلا صحيفة الوجه، ثمّ استعملوا هذه الكلمة على صفحات الكتاب.

فالمراد من صحف موسى هى التوراة النازلة عليه و أمّا صحف إبراهيم فما نزل عليه من كتاب سماوى أيضا.

ينقل المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان حديثا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير سورة الأعلى و خلاصته ما يلى.

يسأل أبو ذرّ النّبى: يا رسول اللّه كم عدد الأنبياء؟

فيجيبه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّهم مائة الف نبى و أربعة و عشرون ألفا.

فيسأله ثانية عن الرسل منهم: كم المرسلون؟

فيجيبه النبى: ثلاثمائة و ثلاثة عشر و بقيّتهم أنبياء .. «و الرّسول هو المأمور بالإنذار و الإبلاغ فى حين أنّ النّبى أعمّ منه مفهوما».

و يسأل أبو ذرّ مرّة اخرى: كان آدم نبيّا؟! فيجيب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نعم، كلّمه اللّه و خلقه بيده.

فيسأله أبو ذرّ: كم أنزل اللّه من كتاب؟ فيجيب النبى: مائة و أربعة كتب أنزل اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۶

منها علی آدم عشر صحف، و علی شیث خمسین صحیفة و علی أخنوخ و هو «إدریس» ثلاثین صحیفة، و هو أوّل من خطّ بالقلم، و علی إبراهیم عشر صحائف، و التوراة و الإنجیل و الزبور و الفرقان»[۲۶۶].

۵- المسؤولیة عن الأعمال فی کتب السابقین

الذی یلفت النظر أنّ التّوراة الحالیة أوردت المضمون الذی ذکرته الآیات محلّ البحث فی کتاب حزقیل إذ جاء فیه:

«الجانی الذی یذنب سیموت، و الابن لا یحمل عبء أبیه و الأب لا یحمل ذنب ابنه»[۲۶۷].

و جاء هذا المعنی ذاته أیضا فی مورد القتل فی سفر التثنیة من التوراة.

«لا یقتل الآباء عوضا عن الأبناء و لا یقتل الأبناء عوضا عن الآباء، فکلّ یقتل بذنبه»[۲۶۸].

و بالطبع فإنّ کتب الأنبیاء الأصلیة لیست فی متناول الید، و إلّا لکان من الممکن أن نعثر علی موارد أکثر فی شأن هذا الأصل و أمثاله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۷

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۴۲ الی ۴۹]

اشارة

وَ أَنَّ إِلی رَبِّکَ الْمُنْتَهی (۴۲) وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَکَ وَ أَبْکی (۴۳) وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْیا (۴۴) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی (۴۵) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنی (۴۶)

وَ أَنَّ عَلَیْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْری (۴۷) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنی وَ أَقْنی (۴۸) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْری (۴۹)

التّفسیر

کلّ شیء ینتهی إلیه:

فی هذه الآیات تتجلّی بعض صفات اللّه التی ترشد الإنسان إلی مسألة التوحید و کذلک المعاد أیضا.

ففی هذه الآیات و إکمالا للبحوث الواردة فی شأن جزاء الأعمال یقول القرآن: وَ أَنَّ إِلی رَبِّکَ الْمُنْتَهی

و لیس الحساب و الثواب و الجزاء فی الآخرة بید قدرته فحسب، فإنّ الأسباب و العلل جمیعها تنتهی سلسلتها إلی ذاته المقدّسة، و جمیع تدبیرات هذا العالم تنشأ من تدبیراته، و أخیرا فإنّ ابتداء هذا العالم و الموجودات و انتهاؤها کلّها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۸

منه و إلیه، و تعود إلی ذاته المقدّسة.

و نقرأ فی بعض الرّوایات فی تفسیر هذه الآیة

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إذا انتهی الکلام إلی اللّه فأمسکوا»[۲۶۹].

أی لا تتکلّموا فی ذات اللّه فإنّ العقول تحار فیه و لا تصل إلی حدّ فإنّه لا یمکن للعقول المحدودة أن تفکّر فی ما هو غیر محدود لأنّه مهما فکّرت العقول فتفکیرها محدود و حاشا للّه أن یکون محدودا.

و بالطبع فإنّ هذا التّفسير يبيّن مفهوما آخر لهذه الآية و لا ينافی ما ذكرناه آنفا و يمكن الجمع بين المفهومين فی الآية.

ثمّ يضيف القرآن فی الآية التالية مبيّنا حاكمية اللّه فی أمر ربوبيته و انتهاء امور هذا العالم إليه فيقول: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكی وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثی ۲۷۰] مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنی و هذه الآيات الأربع و ما قبلها فی الحقيقة هی بيان جامع و توضيح طريف لمسألة انتهاء الأمور إليه و تدبيره و ربوبيته، لأنّها تقول: إنّ موتكم و حياتكم بيده و استمرار النسل عن طريق الزوجين بيده، و كلّ ما يحدث فی الحياة فبأمره، فهو يضحك، و هو يبكی، و هو يميت، و هو يحيی، و هكذا فإنّ أساس الحياة و المعوّل عليه من البداية حتّی النهاية هو ذاته المقدّسة.

و قد جاء فی بعض الأحاديث ما يوسع مفهوم الضحك و البكاء فی هذه الآية ففسّرت بأنّه سبحانه: أبكی السماء بالمطر و أضحك الأرض بالنبات ۲۷۱].

و قد أورد بعض الشعراء هذا المضمون فی شعره فقال:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۹

انّ فصل الربيع فصل جميل تضحك الأرض من بكاء السماء

و ما يسترعی النظر أنّ القرآن أشار إلی صفتی الضحك و البكاء دون سائر أفعال الإنسان، لأنّ هاتين الصفتين خاصّتان بالإنسان و غير موجودتين فی الحيوانات الاخر أو نادرتان جدّا.

أمّا تصوير انفعالات الإنسان عند الضحك أو البكاء و علاقتهما بالتغيّرات فی نفس الإنسان و روحه فانّها غريبة و عجيبة جدّا، و كلّ هذه الأمور فی مجموعها يمكن أن تكون آية واضحة من آيات المدبّر الحقّ، بالإضافة إلی التناسب الموجود بين الضحك و البكاء و الحياة و الفناء! و علی كلّ حال، فانتهاء جميع الأمور إلی تدبير اللّه و ربوبيته لا ينافی أصل الإختيار و حرية إرادة الإنسان، لأنّ الإختيار و حرية الإرادة فی الإنسان أيضا من قبل اللّه و تدبيره و تنتهی إليه!.

و بعد ذكر الأمور المتعلّقة بالربوبية و التدبير من قبل اللّه يتحدّث القرآن عن موضوع المعاد فيقول: وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْری

«النشأة»: معناها الإيجاد و التربية، و «النشأة الاخری» ليست شيئا سوی القيامة! و التعبير ب «عليه» من جهة أنّ اللّه لمّا خلق الناس و حمّلهم الوظائف و المسؤوليات و أعطاهم الحرية و كان بينهم المطيعون و غير المطيعون و الظلمة و المظلومون و لم يبلغ أی من هؤلاء جزاءه النهائی فی هذا العالم، اقتضت حكمته أن تكون نشأة اخری للتحقّق العدالة.

أضف إلی ذلك فإنّ الحكيم لا يخلق هذا العالم الواسع لأيّام أو سنوات محدودة بما فيها من مسائل غير منسجمة، فلا بدّ أن يكون مقدّمة لحياة أوسع تكمن فيها قيمة هذا الخلق الواسع، و بتعبير آخر إذا لم تكن هناك نشأة اخری فإيجاد هذا العالم لا يبلغ هدفه النهائی!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۰

و ممّا ينبغی الالتفات إليه أنّ اللّه سبحانه جعل هذا الوعد لعباده وعدا محتوما علی نفسه، و صدق كلام اللّه يوجب أن لا يخلف وعده.

ثمّ يضيف القرآن فی الآية التالية قائلا: وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنی وَ أَقْنی فاللّه سبحانه لم يرفع حاجات الإنسان المادية عنه بلطفه العميم فحسب، بل أولاده غنی يرفع عنه حاجاته المعنوية من امور التربية و التعليم و التكامل عن طريق إرسال الرسل إليه و إنزال الكتب السماوية و إعطائه المواهب العديدة.

«و أغنی»: فعل مشتق من غنی و معناه عدم الحاجة.

«و أقنی»: فعل مشتقّ من قنية علی وزن جزية، و معناها الأموال التی يدّخرها الإنسان ۲۷۲].

فيكون معنی الآية علی هذا النحو: هو أغنی أی رفع الحاجات الفعلية، و أقنی معناه إيلاء المواهب التی تدخّر سواء فی الأمور المادية

کالحائط أو البستان و الأملاک و ما شاکلها، أو الأمور المعنویـة کرضا اللّه سبحانه الـذی یعدّ أکبر «رأس مال» دائم! و هناک تفسیر آخر لأقنی، و هو أنّه مـا یقابـل أغنی، أی أنّ الغنی و الفقر بیـد قـدرته، نظیر ذلک ما جاء فی الآیـة (۲۶) من سورة الرعد: اللَّهُ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ.

إلّا أنّ هـذا التّفسیر لا ینسجم مع مـا ورد عن «أقنی» من معنی فی کتب اللغـة و الآیـة المـذکورة فی هـذا الصـدد لا یمکن أن تکون «شاهدا» علی هذا التّفسیر.

أمّا آخر آیة من الآیات محلّ البحث فتقول: وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْری

و التعویل فی القرآن علی «الشـعری» النجم المعروف فی السـماء بالإضافـة إلی أنّه أکثر النجوم لمعانا و یطّلع عند السـحر فی مقربة من الجوزاء ممّا یلفت النظر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۱

تماما .. هذا التعویل و التصـریح به لأنّ طائفة من المشـرکین العرب کانت تعبده، فالقرآن یشیر إلی أنّ الأولی بالعبادة هو اللّه لأنّه ربّ الشعری «و ربّکم».

و ینبغی الالتفات- ضـمنا- أنّ هناک نجمین معروفین باسم الشـعری أحـدهما إلی الجنوب و یـدعی بنجم الشـعری الیمانی «لأنّ الیمن جنـوب الجزیرة العربیـة» و الآخـر نجم الشـعری الشـامی الواقـع فی الجهـة الشـمالیة «و الشـام شـمال الجزیرة أیضـا» إلّا أنّ المعروف و المشهور هو الشعری الیمانی.

و هناک لطائف و مسائل خاصّة فی هذا النجم «الشعری» سنتحدّث عنه بعد قلیل.

بحوث

۱- کلّ الدلائل تشیر إلیه

إنّ مـا تثیره هـذه الآیات فی الحقیقـة إشارة إلی هـذا المعنی، و هو أنّ أی نوع من أنواع التـدبیر فی هـذا العالم إنّما یعود إلی ذات اللّه المقدّسـة، بـدءا من مسألـة الموت و الحیـاة، إلی خلق الإنسـان من نطفـة لا قیمـة لها، و کـذلک الحوادث المختلفـة التی تقع فی حیاة الإنسان فتضحکه تارة و تبکیه اخری، کلّ ذلک من تدبیر اللّه سبحانه.

و النجوم و الکواکب المشرقة فی السماء تطلع و تغیب بأمره و تحت ربوبیته.

و فی الأرض الغنی و عدم الحاجة و ما یقتنیه الإنسان کلّ ذلک یعود إلی ذاته المقدّسة.

و بالطبع فإنّ النشأة الاخری بأمره أیضا، لأنّها حیاة جدیدة و امتداد لهذه الحیاة و استمرارها.

هـذا البیان- یبرز خطّ التوحیـد من جهـة .. و من- جهة اخری- خطّ المعاد، لأنّ خالق الإنسان من نطفة لا قیمة لها فی الرحم قادر علی تجدید حیاته أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۲

و بتعبیر آخر، إنّ جمیع هذه الأمور کاشفة عن توحید أفعال اللّه و توحید ربوبیته .. أجل کلّ هذی الأصداء من إیحائه!

۲- عجائب نجم الشعری:

«نجم الشـعرى» كما أشـرنا إليه آنفا من أشدّ النجوم فى السـماء لمعانا و إشـراقا و هو معروف بنجم الشـعرى اليمانى، لأنّه يقع فى جهة جنوب الجزيرة العربيـة، و حيث أنّ اليمن فى جنوب الجزيرة أيضا فقـد أطلق عليه «باليمانى»! و كانت طائفة من العرب كقبيلة «خزاعة» تقـدّس هذا النجم و تعبده و تعتقد أنّه مبدأ الموجودات على الأرض .. فتأكيد القرآن على أنّ اللّه ربّ الشـعرى هو لإيقاظ هذه القبيلة و أمثالها من غفوتها، لئلّا يشتبه المخلوق بالخالق و يجعل المربوب مكان الربّ كما كانت القبيلة آنفة الذكر عليه.

هذا النجم العجيب الخلقة لإشـراقه الكثير عدّ ملك النجوم و له أسـرار و عجائب نشير إليها فى هذا البحث مع ملاحظة أنّ هذه الحقائق كـانت فى ذلـك العصر مجهولـة عنـد العرب و غيرهـم عـن الشـعرى فـإنّ تأكيـد القرآن على هـذا الموضـوع ذو معنى غزير! أ- طبقا للتحقيقات التى أجريت فى المراصد المعروفة فى العالم عن «الشعرى» ظهر أنّ حرارة هذا النجم تبلغ ۱۲۰ ألف درجة سانتيغراد!.

مع العلم أنّ حرارة سطح الشمس لا تتجاوز ۶۵۰۰ درجة سانتيغراد و هذا التفاوت بين الحرارتين يبيّن مدى حرارة الشـعرى بالنسبة إلى الشمس.

ب- الجرم المخصوص لهذا النجم أثقل وزنا من الماء بمقدار خمسـين ألف مرّة تقريبا، أى أنّ وزن الليتر من الماء على الشعرى يعادل خمسين طنّا على سطح الأرض! مع أنّ من بين مجموع المنظومة الشمسية يعدّ كوكب عطارد أكثر الأجرام فى وزنه النوعى و لا يتجاوز وزنه النوعى ستّة أضعاف الوزن النوعى للماء!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۳

فينبغى أن نعرف بهذا الوصف كم هذا النجم مثير للدهشة و العجب، و من أى عنصـر يتألّف حتّى صار مضـغوطا بهذا المسـتوى؟! ج- يظهر نجم الشـعرى- فى قرننـا- عنـد فصل الشـتاء إلّا أنّ هـذا النجم أو الكوكب كان يظهر فى عصـر منجّمى مصـر فى الصـيف! و هو كوكب كبير يعادل عشـرين ضعفا من كوكب الشمس، و مسافته تبعد عن الأرض أكثر من مسافة الشمس بمقدار كبير و قد ذكروا أنّ مسافة بين الشعرى و الأرض تعادل مليون مرّة المسافة بيننا و بين الشمس.

و نعرف أنّ سرعة النور فى الثانية ۳۰۰ ألف ألف متر (ثلاثمائة ألف كيلومتر) و أنّ نور الشـمس يصل إلينا خلال ثمانى دقائق و ثلاث عشـرة ثانية مع أنّها تبعد عنّا مسافة خمسة عشر مليون كيلو «مترا» .. فى حين أنّ شعاع الشعرى لا يصلنا إلّا بعد عشر سنين، و الآن قدّروا كم هى الفاصلة بين الشعرى و الأرض! د- لكوكب الشعرى نجم تابع له يدور حوله و هو من نجوم السماء الغامضة.

و أوّل من اكتشفه عالم يدعى بسلBessel عام ۱۸۴۴ م إلّا أنّه رؤى عام ۱۸۶۲ بالمجهر «التلسكوب» و يكمل هذا النجم دورته حول الشعرى فى ۵۰ عاما[۲۷۳].

كلّ هـذا يـدلّ أنّ تعابير القرآن إلى أىّ مدى عميقة و ذات معنى غزير، و فى طيّات تعابيره حقائق كامنة إذا لم يقدّر لها أن تعرف فى عصر نزولها فإنّها تتجلّى بمرور الزمان.

۳- حديث عميق المحتوى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

جاء فى بعض الأحاديث أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ بقوم يضحكون فقال: لو تعلمون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۴

مـا أعلم لبكيتم كثيرا و لضـحكتم قليلا فنزل عليه جبرئيل فقال: إنّ اللّه هو أضـحك و أبكى فرجع النّبى إليهم و قال ما خطوت أربعين خطوة حتّى أتانى جبرئيل فقال:

ائت هؤلاء، فقل لهم: إنّ اللّه أضحك و أبكى ۲۷۴].

و فی ذلک إشارة إلی أنّ المؤمن لا یلزمه أن یبکی دائما، فالبکاء من خوف اللّه فی محلّه مطلوب، و الضحک فی محلّه مطلوب أیضا، لأنّهما من اللّه! و علی کلّ حال، فإنّ هـذه التعابیر لا تنافی أصل الإختیار و حریـة الإرادة فی الإنسان، لأنّ الهـدف هو بیان علّـة العلل و خالق هـذه الغرائز و الإحساسات! و عند ما نقرأ فی الآیة ۸۲ من سورة التوبـة قوله تعالی: فَلْیَضْحَکُوا قَلِیلًا وَ لْیَبْکُوا کَثِیراً جَزاءً بِما کانُوا یَکْسِبُونَ فهـذا الأمر وارد فی المنافقین، لأنّ الآیات التی قبل هـذه الآیـة و بعـدها تشـهد بذلک! الذی یلفت النظر أنّ القرآن یقسم فی بدایـة السورة بـالنجم فیقول: وَ النَّجْمِ إِذا هَوی و فی الآیـة محـلّ البحث یقول فی بیـان صـفات اللّه: وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْری فـإذا جمعنا الآیتین جنبا إلی جنب فهمنا لم لا یصحّ عبادة الشعری، لأنّ کوکب الشعری یأفل أیضا، و هو أسیر فی قبضة قوانین الخلق!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۵

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۵۰ الی ۵۵]

اشارة

وَ أَنَّهُ أَهْلَکَ عاداً الْأُولی (۵۰) وَ ثَمُودَ فَمـا أَبْقی (۵۱) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْـلُ إِنَّهُمْ کـانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغی (۵۲) وَ الْمُؤْتَفِکَةَ أَهْوی (۵۳)
فَغَشَّاها ما غَشَّی (۵۴)
فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکَ تَتَماری (۵۵)

التّفسیر

ألا تکفی دروس العبرة هذه؟!

هذه الآیات- کالآیات المتقدّمة- تستکمل المسائل المذکورة فی الصحف الاولی و ما جاء فی صحف إبراهیم و موسی.

و کانت الآیات المتقدّمة قد ذکرت عشر مسائل ضمن فصلین:

الأوّل: کان ناظرا إلی مسئولیة کلّ إنسان عن أعماله.

الثـانی: نـاظر إلی انتهاء جمیع الخطوط و الحوادث إلی اللّه سـبحانه! أمّا الآیات محلّ البحث فتتحـدّث عن مسألـة واحـدة- و إن شـئت قلت- تتحـدّث عن موضوع واحـد ذلک هو مجازاة أربع امم من الأمم المنحرفـة الظالمة و إهلاکهم، و فی ذلک إنذار لأولئک الذین یلوون رؤوسهم عن طاعة اللّه و لا یؤمنون بالمبدأ و المعاد[۲۷۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۶

فتبـدأ الآیـة الاولی من الآیـات محـلّ البحث فتقول: وَ أَنَّهُ أَهْلَکَ عاداً الْأُولی وصف عاد ب «الاولی» إمّا لقـدمها حتّی أنّ العرب تطلق علی کلّ قـدیم أنّه «عادیّ» أو لوجود امّتین فی التاریـخ باسم «عاد» و الامّـة المعروفـة التی کانت نبیّها هود علیه السّـلام تدعی ب «عاد الاولی»[۲۷۶].

و یضیف القرآن فی الآیة التالیة قائلا: وَ ثَمُودَ فَما أَبْقی

و یقول فی شأن قوم نوح: وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ کانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغی

لأنّ نبیّهم نوحا عاش معهم زمانا طویلا، و بذل قصاری جهده فی إبلاغهم و نصحهم، فلم یستجب لدعوته إلّا قلیل منهم، و أصرّوا علی شرکهم و کفرهم و عتوّهم و اسـتکبار هم و إیـذائهم نبیّهم نوحـا و تکـذیبهم إیّاه و عبادة الأوثان بشـکل فظیع کما سـنعرض تفصـیل ذلک فی تفسیر سورة نوح إن شاء اللّه.

و أمّا رابعة الأمم فهی «قوم لوط» المشار إليهم بقوله تعالى: وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى

و الظاهر أنّ زلزلـة شديـدة أصابت حيّهم و قريتهم فقذفت عماراتهم نحو السـماء بعد اقتلاعها من الأرض و قلبتها على الأرض، و طبقا لبعض الرّوايات كان جبرئيل قد اقتلعها بإذن اللّه و جعل عاليها سافلها و دمّرها تدميرا .. فَغَشَّاها ما غَشَّى ۲۷۷].

أجل .. لقد أمطروا بحجارة من السماء، فغشّت حيّهم و عماراتهم المنقلبة و دفنتها عن آخرها.

و بالرغم من أنّ التعبير فی هذه الآية و الآية السابقة لم يصرّح بقوم لوط، إلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۷

أنّ المفسّـرين فهموا منه كما فهموا من الآيـة ۷۰ من سورة التوبـة و الآية ۹ من سورة الحاقـة هـذا المعنى من عبـارة المؤتفكات، و قد احتمل بعضـهم أنّه هـذا التعبير يشـمل كلّ المـدن المقلوبة و النازل عليها العذاب من السـماء، إلّا أنّ آيات القرآن الاخر تؤيّد ما ذهب إليه المشهور بين المفسّرين!.

و قـد جاء فی الآية (۸۲) من سورة هود: فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ! و جاء فی تفسير على بن إبراهيم أنّ المؤتفكـة «المدينـة المقلوبـة» هی «البصـرة»! لأنّه ورد فی روايـة أنّ أمير المؤمنين عليا خاطب أهلها بالقول: يا أهل البصـرة و يا أهل المؤتفكـة و يا جند المرأة و أتباع البهيمة! غير أنّه من المعلوم أنّ هذا التعبير فی كلام الإمام على عليه السّـلام هو من باب التطبيق و المصداق، لا التّفسير، لاحتمال أن يكون أهل البصـرة يومئذ فيهم شـبه بأهل المؤتفكة من الناحية الأخلاقية .. و ما ابتلى به قـوم لوط من عـذاب اللّه! و فی ختـام هـذا البحث يشـير القرآن إلى مجموع النعم الوارد ذكرهـا فی الآيـات المتقدّمـة و يلمـح إليها بصورة استفهام إنكارى قائلا: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى

فهل تشّك و تتردّد بنعم اللّه، كنعمـة الحياة أو أصل نعمـة الخلق و الإيجاد، أو نعمة أنّ اللّه هذه لا يأخذ أحدا بوزر أحد، و ما جاء فی الصـحف الاولى و أكّـده القرآن؟! و هل من شاكّ بهـذه النعمـة، و هی أنّ اللّه أبعـدكم عن البلاء الـذى عمّ الأمم السابقـة بكفرهم و شملكم بعفوه و رحمته؟! أو هل هناك شكّ فی نعمة نزول القرآن و موضوع الرسالة و الهداية؟

صحيح أنّ المخاطب بالآية هو شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ مفهومها شامل لجميع المسلمين، بل الهدف الأصلى من هذه الآية إفهام الآخرين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۸

«تتمارى»[۲۷۸] مشـتقّ من تمارى و معناه المحاجـة و المجادلـة المقرونة بالشكّ و التردّد! «آلاء» جمع: ألأ، أو إلى- على وزن فعل- و الألئ معناها النعمـة .. و بالرغم من أنّ بعض ما جاء فی الآيات المتقدّمـة و من ضـمنها إهلاك الأمم السابقـة و تعـذيبهم ليس مصداقا للنعمـة .. إلّا أنّه من جهـة كونه درسا للعبرة «للآخرين» و لأنّ اللّه لم يعـذّب المسـلمين و حتّى الكفّار المعاصـرين لهم بـذلك العـذاب يمكن اعتبار ذلك نعمة عظيمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۹

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۵۶ الى ۶۲]

اشارة

هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (۵۶) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (۵۷) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (۵۸) أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (۵۹) وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ (۶۰)

وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ (۶۱) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (۶۲)

التّفسير

اسجدوا له جميعا ..

تعقيبا على الآيات المتقدّمة التى كانت تتحدث عن إهلاك الأمم السالفة لظلمهم، تتوجّه هذه الآيات- محلّ البحث- إلى المشركين، و الكفّار و منكرى دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتخاطبهم بالقول: هـذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى أى النّبى أو القرآن نذير كمن سبقه من المنذرين.

و قوله عن «القرآن أو النّبى «هذا نذير من النذر الاولى» يعنى أنّ رسالة محمّد و كتابه السماوى لم يكن (أى منهما) موضوعا لم يسبق إليه، فقد أنذر اللّه أمما بمثله فى ما مضى من القرون، فعلام يكون ذلك مثار تعجّبكم؟

و قال بعض المفسّرين إنّ المراد من هذا نَذِيرٌ هو الإشارة إلى الإخبار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۰

الوارد فى الآيات المتقدّمة عن نهاية الأمم السالفة، لأنّ هذا الإخبار بنفسه نذير أيضا، إلّا أنّ التّفسيرين السابقين أنسب كما يبدو.

و من أجل أن يلتفت المشركون و الكفّار إلى الخطر المحدق بهم و يهتّموا به أكثر يضيف القرآن قائلا: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ.

أجل، فقد اقترب و عد القيامة فأعدّوا أنفسكم للحساب، و التعبير ب «الآزفة» عن القيامة هو لاقترابها و ضيق وقتها، لأنّ الكلمة هذه مأخوذة من الأزف على وزن نجف. و معناه ضيق الوقت، و بالطبع فإنّ مفهومه يحمل الاقتراب أيضا ..

و تسمية القيامة بالآزفة فى القرآن بالإضافة إلى هذه الآية محلّ البحث، واردة فى الآية ۱۸ من سورة غافر أيضا .. و هو تعبير بليغ و موقظ، و هذا المعنى جاء بتعبير آخر فى سورة القمر (الآية الاولى) اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، و على كلّ حال فإنّ اقتراب القيامة مع الأخذ بنظر الإعتبار عمر الدنيا المحدود و القصير يمكن إدراكه بوضوح، خاصّة ما ورد أنّ من يموت تقوم قيامته الصغرى.

ثمّ يضيف القرآن قائلا: أنّ المهمّ هو أنّه لا أحد غير اللّه بإمكانه إغاثة الناس فى ذلك اليوم و الكشف عمّا بهم من شدائد: لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ[۲۷۹].

«الكاشفة» هنا معناه مزيحة الشدائد. إلّا أنّ بعضهم فسّرها بأنّها العامل لتأخير القيامة، و بعضهم فسّرها بأنّها الكاشفة عن تاريخ وقوع يوم القيامة، إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب ظاهرا.

و على كلّ حال، فالحاكم و المالك و صاحب القدرة فى ذلك الحين و كلّ حين هو اللّه سبحانه، فإذا أردت النجاة فالتجئوا إليه و إلى لطفه و إذا طلبتم الدّعة و الأمان فاستظلّوا بالإيمان به.

و يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۱

و لعلّ هذه الجملة إشارة إلى القيامة الوارد ذكرها آنفا، أو أنّها إشارة إلى القرآن، لأنّه ورد التعبير عنه ب «الحديث» فى بعض الآيات كما فى الآية ۳۴ من سورة الطور، أو أنّ المراد من «الحديث» هو ما جاء من القصص عن هلاك الأمم السابقة أو جميع هذه المعانى.

ثمّ يقول مخاطبا: وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ أى فى غفلة مستمرّة و لهو و تكالب على الدنيا، مع أنّه لا مجال للضحك هنا و لا الغفلة و الجهل، بل ينبغى أن يبكى على الفرص الفائتة و الطاعات المتروكة، و المعاصى المرتكبة، و أخيرا فلا بدّ من التوبة و الرجوع إلى ظلّ اللّه و رحمته! و كلمة سامدون مشتقّة من سمود على وزن جمود- و معناه اللهو و الانشغال و رفع الرأس للأعلى تكبرا و غرورا، و هى فى أصل استعمالها تطلق على البعير حين يرفل فى سيره و يرفع رأسه غير مكترث بمن حوله.

فهؤلاء المتكبرون المغرورون كالحيوانات همّهم الأكل و النوم، و هم غارقون باللذائذ جاهلون عمّا يحدق بهم من الخطر و العواقب

الوخيمة و الجزاء الشديد الذى سينالهم.

و يقول القرآن فى آخر آية من الآيات محلّ البحث- و هى آخر آية من سورة النجم أيضا- بعد أن بيّن أبحاثا متعدّدة حول إثبات التوحيد و نفى الشرك:

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا.

فإذا أردتم أن تسيروا فى الصراط المستقيم و السبيل الحقّ فاسجدوا لذاته المقدّسة فحسب، إذ للّه وحده تنتهى الخطوط فى عالم الوجود، و إذا أردتم النجاة من العواقب الوخيمة التى أصابت الأمم السالفة لشركهم و كفرهم فوقعوا فى قبضة عذاب اللّه، فاعبدوا اللّه وحده.

الذى يجلب النظر- كما جاء فى روايات متعدّدة- أنّ النّبى عند ما تلا هذه الآية و سمعها المؤمنون و الكافرون سجدوا لها جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۲

و وفقا لبعض الرّوايات أن الوحيد الذى لم يسجد لهذه الآية عند سماعها هو «الوليد بن المغيرة» [لعلّه لم يستطع أن ينحنى للسجود] فأخذ قبضة من التراب و وضعها على جبهته فكان سجوده بهذه الصورة.

و لا مكان للتعجّب أن يسجد لهذه الآية حتى المشركون و عبدة الأصنام، لأنّ لحن الآيات البليغ من جهة، و محتواها المؤثّر من جهة اخرى و ما فيها من تهديد للمشركين من جهة ثالثة، و تلاوة هذه الآيات على لسان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المرحلة الاولى من نزول الآيات عن لسان الوحى من جهة رابعة .. كلّ هذه الأمور كان لها دور فى التأثير و النفوذ إلى القلوب حتّى أنّه لم يبق أىّ قلب إلّا اهتزّ لجلال آيات اللّه و ألقى عنه. ستار الضلال و حجب العناد- و لو مؤقتا- و دخله نور التوحيد المشعّ!.

و إذا تلونا الآية- بأنفسنا- و أنعمنا النظر فيها بكلّ دقّة و تأمّل و حضور قلب و تصوّرنا أنفسنا أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى جوّ نزول الآيات و بقطع النظر- عن اعتقادنا الإسلامى- نجد أنفسنا ملزمين على السجود عند تلاوتنا لهذه الآية و أنّ نحنى رؤوسنا إجلالا- لربّ الجلال! و ليست هذه هى المرّة الاولى التى يترك القرآن بها أثره فى قلوب المنكرين و يجذبهم إليه دون اختيارهم، إذ ورد فى قصّة «الوليد بن المغيرة» أنّه لمّا سمع آيات فصّلت و بلغ النّبى (فى قوله) إلى الآية: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ قام من مجلسه و اهتزّ لها و جاء إلى البيت فظنّ جماعة من المشركين أنّه صبا إلى دين محمّد.

فبناء على هذا، لا حاجة أن نقول بأنّ جماعة من الشياطين أو جماعة من المشركين الخبثاء حضروا عند النّبى و لمّا سمعوا النّبى يتلو الآية: أ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى بسطوا ألسنتهم و قالوا: تلك الغرانيق العلى!! و لذلك انجذب المشركون لهذه الآيات فسجدوا أيضا عند تلاوة النّبى آية السجدة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۳

لأنّنا كما أشرنا آنفا فى تفسير هذه الآيات. انّ الآيات التى تلت هذه الآيات عنّفت المشركين و لم تدع مجالا للشكّ و التردّد و الخطأ لأى أحد (فى مفهوم الآية) [لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآيتين ۱۹ و ۲۰ من هذه السورة].

و ينبغى الالتفات أيضا إلى أنّ الآية الآنفة يجب السجود عند تلاوتها، و لحن الآية التى جاءت مبتدئة بصيغة الأمر- و الأمر دالّ على الوجوب- شاهد على هذا المعنى.

و هكذا فإنّ هذه السورة ثالثة السور الوارد فيها سجود واجب، أى هى بعد سورة الم السجدة، و حم السجدة .. و إن كان بعضهم يرى بأنّ أوّل سورة فيها سجود واجب نزلت على النّبى من الناحية التاريخية- هى هذه السورة.

اللهمّ أنر قلوبنا بأنوار معرفتك لئلّا نعبد سواك شيئا و لا نسجد إلّا لك.

اللهمّ إنّ مفاتيح الرحمة و الخير كلّها بيد قدرتك، فارزقنا من خير مواهبك و عطاياك، أى رضاك يا ربّ العالمين.

اللهمّ ارزقنا بصيرة فى العبر- لنعتبر بالأمم السالفة و عاقبة ظلمها و أن نحذر الاقتفاء على آثارهم آمين يا ربّ العالمين.

انتهت سورة النّجم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۵

سورة القمر

اشارة

مكّية و عدد آياتها خمس و خمسون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۷

«سورة القمر»

محتوى السورة:

تحوى هـذه السّورة خصوصـيات السور المكيّة التى تتنـاول الأبحـاث الأساسـيّة حول المبـدأ و المعاد، و خصوصا العقوبات التى نزلت بالأمم السالفـة، و ذلـك نتيجـة عنـادهم و لجاجتهم فى طريق الكفر و الظلم و الفساد .. ممّا أدّى بها الواحـدة تلو الاخرى إلى الابتلاء بالعذاب الإلهى الشديد، و سبّب لهم الدمار العظيم.

و نلاحظ فى هذه السورة تكرار قوله تعالى: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ و ذلك بعد كلّ مشـهد من مشاهد العذاب الذى يحلّ بالأمم لكى يكون درسا و عظة للمسلمين و الكفّار.

و يمكن تلخيص أبحاث هذه السورة فى عدّة أقسام هى:

۱- تبدأ السورة بالحديث عن قرب وقوع يوم القيامة، و موضوع شقّ القمر، و إصرار و عناد المخالفين فى إنكار الآيات الإلهيّة.

۲- و القسم الثانى يبحث بتركيز و اختصار عن أوّل قوم تمرّدوا على الأوامر الإلهيّة، و هم قوم نوح، و كيفيّة نزول البلاء عليهم.

۳- أمّا القسم الثالث فإنّه يتعرّض إلى قصّة قوم «عاد» و أليم العذاب الذى حلّ بهم.

۴- و فى القسم الرابع تتحـدّث الآيـات عن قوم «ثمود» و معارضـتهم لنبيّهم صالـح عليه السّـلام و بيـان معجزة الناقـة، و أخيرا ابتلاؤهم بالصيحة السماوية.

۵- تتطرّق الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن قوم «لوط» ضمن بيان واف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۸

لانحرافهم الأخلاقى ... ثمّ عن السخط الإلهى عليهم و ابتلائهم بالعقاب الرّبانى.

۶- و فى القسم السادس تركّز الآيات الكريمـة- بصورة موجزة- الحديث عن آل فرعون، و ما نزل بهم من العذاب الأليم جزاء كفرهم و ضلالهم.

۷- و فى القسم الأخير تعرض مقارنة بين هذه الأمم و مشـركى مكّة و مخالفى الرّسول الأعظم صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المستقبل الخطير الذى ينتظر مشركى مكّة فيما إذا استمرّوا على عنادهم و إصرارهم فى رفض الدعوة الإلهيّة.

و تنتهى السورة ببيان صور و مشاهد من معاقبة المشركين، و جزاء و أجر المؤمنين و المتّقين.

و سورة القمر تتميّز آياتها بالقصر و القوّة و الحركية.

و قد سمّيت هذه السورة ب (سورة القمر) لأنّ الآية الاولى منها تتحدّث عن شقّ القمر.

فضيلة تلاوة سورة القمر:

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة اقتربت الساعة فی کلّ غبّ بعث یوم القیامة و وجهه علی صورة القمر لیلة البدر، و من قرأها کلّ لیلة کان أفضل و جاء یوم القیامة و وجهه مسفر علی وجوه الخلائق»[۲۸۰].

و من الطبیعی أن تکون النورانیة التی تتّسم بها هذه الوجوه تعبیرا عن الحالة الإیمانیة الراسخة فی قلوبهم نتیجة التأمّل و التفکّر فی آیات هذه السورة المبارکة و العمل بها بعیدا عن التلاوة السطحیة الفارغة من التدبّر فی آیات اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۹

الآیات [سورة القمر (۵۴): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ (۱) وَ إِنْ یَرَوْا آیَةً یُعْرِضُوا وَ یَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (۲) وَ کَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ کُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (۳)

التّفسیر

شقّ القمر!!

یتناول الحدیث فی الآیة الاولی حادثتین مهمّتین:

أحدهما: قرب وقوع یوم القیامة، و الذی یقترن بأعظم تغییر فی عالم الخلق، و بدایة لحیاة جدیدة فی عالم آخر، ذلک العالم الذی یقصر فکرنا عن إدراکه نتیجة محدودیة علمنا و استیعابنا للمعرفة الکونیة.

و الحادثة الثانیة التی تتحدّث الآیة الکریمة عنها هی معجزة انشقاق القمر العظیمة التی تدلّل علی قدرة الباریٔ عزّ و جلّ المطلقة، و کذلک تدلّ- أیضا- علی صدق دعوة الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال تعالی: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۰

و جدیر بالذکر أنّ سورة النجم التی أنهت آیاتها المبارکة بالحدیث عن یوم القیامة أَزِفَتِ الْآزِفَةُ تستقبل آیات سورة القمر بهذا المعنی أیضا، ممّا یؤکّد قرب وقوع الیوم الموعود رغم أنّه عند ما یقاس بالمقیاس الدنیوی فقد یستغرق آلاف السنین و یتوضّح هذا المفهوم، حینما نتصوّر مجموع عمر عالمنا هذا من جهة، و من جهة اخری عند ما نقارن جمیع عمر الدنیا فی مقابل عمر الآخرة فانّها لا تکون سوی لحظة واحدة.

إنّ اقتران ذکر هاتین الحادثتین فی الآیة الکریمة: «انشقاق القمر و اقتراب الساعة» دلیل علی قرب وقوع یوم القیامة، کما ذکر ذلک قسم من المفسّرین حیث أنّ ظهور الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- و هو آخر الأنبیاء- قرینة علی قرب وقوع الیوم المشهود ...

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «بعثت أنا و الساعة کهاتین»[۲۸۱]

مشیرا إلی إصبعیه الکریمین.

و من جهة اخری، فإنّ انشقاق القمر دلیل علی إمکانیة اضطراب النظام الکونی، و نموذج مصغّر للحوادث العظیمة التی تسبق وقوع یوم القیامة فی هذا العالم، حیث اندثار الکواکب و النجوم و الأرض یعنی حدوث عالم جدید، استنادا إلی الرّوایات المشهورة التی ادّعی

البعض تواترها.

قال ابن عبّاس: اجتمع المشركون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: إن كنت صادقا فشقّ لنا القمر فلقتين، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن فعلت تؤمنون؟» قالوا: نعم، و كانت ليلة بدر فسأل رسول اللّه ربّه أن يعطيه ما قالوا، فانشقّ القمر فلقتين و رسول اللّه ينادى: «يا فلان يا فلان، اشهدوا»[۲۸۲].

و لعلّ التساؤل يثار هنا عن كيفية حصول هذه الظاهرة الكونية: (انشقاق هذا الجرم السماوى العظيم) و عن مدى تأثيره على الكرة الأرضية و المنظومة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۱

الشمسية، و كذلك عن طبيعة القوّة الجاذبة التى أعادت فلقتى القمر إلى وضعهما السابق، و عن كيفيّة حصول مثل هذا الحدث؟ و لماذا لم يتطرّق التاريخ إلى ذكر شىء عنه؟ بالإضافة إلى مجموعة تساؤلات اخرى حول هذا الموضوع و التى سنجيب عليها بصورة تفصيليّة فى هذا البحث إن شاء اللّه.

و النقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ بعض المفسّرين الذين تأثّروا بوجهات نظر غير سليمة، و أنكروا كلّ معجزة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عدا القرآن الكريم، عند ما التفتوا إلى وضوح الآية الكريمة محلّ البحث و الرّوايات الكثيرة التى وردت فى كتب علماء الإسلام فى هذا المجال، واجهوا عناءا فى توجيه هذه المعجزة الربّانية، و حاولوا نفى الظاهرة الإعجازية لهذا الحادث ...

و الحقيقة أنّ مسألة «انشقاق القمر» كانت معجزة، و الآيات اللاحقة تحمل الدلائل الواضحة على صحّة هذا الأمر كما سنرى ذلك إن شاء اللّه.

لقد كان جديرا بهؤلاء أن يصحّحوا و جهات نظرهم تلك، ليعلموا أنّ للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معجزات عديدة أيضا.

و إذا أريد الاستفادة من الآيات القرآنية لنفى المعجزات فإنّها تنفى المعجزات المقترحة من قبل المشركين المعاندين الذين لم يقصدوا قبول دعوة الحقّ من أوّل الأمر و لم يستجيبوا للرسول الأكرم بعد إنجاز المعجز، لكن المعجزات التى تطلب من الرّسول من أجل الاطمئنان إلى الحقّ و الإيمان به كانت تنجز من قبله، و لدينا دلائل عديدة على هذا الأمر فى تأريخ حياة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

يقول سبحانه: وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.

و المراد من قوله تعالى «مستمر» أنّهم شاهدوا من الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معجزات عديدة، و شقّ القمر هو استمرار لهذه المعاجز، و أنّهم كانوا يبرّرون إعراضهم عن الإيمان و عدم الاستسلام لدعوة الحقّ و ذلك بقولهم: إنّ هذه المعاجز كانت «سحر مستمر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۲

و هنالك بعض المفسّرين من فسّر «مستمر» بمعنى «قوى» كما قالوا: (حبل مرير) أى: محكم، و البعض فسّرها بمعنى: الطارئ و غير الثابت، و لكن التّفسير الأنسب هو التّفسير الأوّل.

أمّا قوله تعالى: وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ فإنّه يشير إلى سبب مخالفتهم و عنادهم و سوء العاقبة التى تنتظرهم نتيجة لهذا الإسرار.

إنّ مصدر خلاف هؤلاء و تكذيبهم للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو تكذيب معاجزه و دلائله، و كذلك تكذيب يوم القيامة، هو اتّباع هوى النفس.

إنّ حالة التعصّب و العناد و حبّ الذات لم تسمح لهم بالاستسلام للحقّ، و من جهة اخرى فإنّ المشركين ركنوا للملذّات الرخيصة

بعیدا عن ضوابط المسؤولیة، و ذلک إشباعا لرغباتهم و شهواتهم، و کذلک فإنّ تلوّث نفوسهم بالآثام حال دون استجابتهم لدعوة الحقّ، لأنّ قبول هذه الدعوة یفرض علیهم التزامات و مسئولیات الإیمان و الاستجابة للتکالیف ...

نعم إنّ هوی النفس کان و سیبقی السبب الرئیسی فی إبعاد الناس عن مسیر الحقّ ...

و بالنسبة لقوله تعالی: وَ کُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ، یعنی أنّ کلّ إنسان یجازی بعمله و فعله، فالصالحون سیکون مستقرّهم صالحا، و الأشرار سیکون مستقرّهم الشرّ.

و یحتمل أن یکون المراد فی هذا التعبیر هو أنّ کلّ شیء فی هذا العالم لا یفنی و لا یزول، فالأعمال الصالحة أو السیّئة تبقی مع الإنسان حتّی یری جزاء ما فعل.

و یحتمل أن یکون تفسیر الآیة السابقة أنّ الأکاذیب و الاتّهامات لا تقوی علی الاستمرار الأبدی فی إطفاء نور الحقّ و التکتّم علیه، حیث إنّ کلّ شیء (خیر أو شرّ) یسیر بالاتّجاه الذی یصبّ فی المکان الملائم له، حیث إنّ الحقّ سیظهر وجهه الناصح مهما حاول المغرضون إطفاءه، کما أنّ وجه الباطل القبیح سیظهر قبحه کذلک، و هذه سنّة إلهیّة فی عالم الوجود.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۳

و هذه التفاسیر لا تتنافی فیما بینها، حیث یمکن جمعها فی مفهوم هذه الآیة الکریمة.

بحوث

[۱- شقّ القمر معجزة کبیرة]

شقّ القمر معجزة کبیرة للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و مع ذلک فإنّ بعض الأشخاص السطحیین یصرّون علی إخراج هذا الحادث من حالة الإعجاز، حیث قالوا: إنّ الآیة الکریمة تحدّثنا فقط عن المستقبل و عن أشراط الساعة، و هی الحوادث التی تسبق وقوع یوم القیامة ...

لقد غاب عن هؤلاء أنّ الأدلّة العدیدة الموجودة فی الآیة تؤکّد علی حدوث هذه المعجزة، و من ضمنها ذکر الفعل (انشقّ) بصیغة الماضی، و هذا یعنی أنّ (أشقّ القمر) شیء قد حدث کما أنّ قرب وقوع یوم القیامة قد تحقّق، و ذلک بظهور آخر الأنبیاء محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

بالإضافة إلی ذلک، إن لم تکن الآیة قد تحدّثت عن وقوع معجزة، فلا یوجد أی تناسب أو انسجام بینها و بین ما ورد فی الآیة اللاحقة حول افترائهم علی الرّسول بأنّه (ساحر) و کذلک قوله: وَ کَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ و التی تخبر الآیة هنا عن تکذیبهم للرسالة و الرّسول و معاجزه.

إضافة إلی ذلک فإنّ الرّوایات العدیدة المذکورة فی الکتب الإسلامیة، و التی بلغت حدّ التواتر نقلت وقوع هذه المعجزة، و بذلک أصبحت غیر قابلة للإنکار.

و نشیر هنا إلی روایتین منها:

الاولی: أوردها الفخر الرازی أحد المفسّرین السنّة، و الاخری للعلّامة الطبرسی أحد المفسّرین الشیعة.

یقول الفخر الرازی: «و المفسّرون بأسرهم علی أنّ المراد أنّ القمر انشقّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۴

و حصل فیه الإنشقاق، و دلّت الأخبار علی حدیث الإنشقاق، و فی الصحیح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة ... و القرآن أدلّ دلیل

و أقوى مثبت له و إمكانه لا يشكّ فيه، و قد أخبر عنه الصادق فيجب إعتقاد وقوعه»[۲۸۳].

أمّا عن نظرية بطليموس و القائلة بأنّ (الأفلاك السماوية ليس بإمكانها أن تنفصل أو تلتئم) فإنّها باطلة و ليس لها أى أساس أو سند علمى، حيث إنّه ثبت من خلال الأدلّة العقليّة أنّ انفصال الكواكب فى السماء أمر ممكن.

و يقول العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان): لقد أجمع المفسّرون و المحدّثون سوى عطاء و الحسين و البلخى الذين ذكرهم ذكرا عابرا، أنّ معجزة شقّ القمر كانت فى زمن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و نقل أنّ حذيفة- و هو أحد الصحابة المعروفين- ذكر قصّة شقّ القمر فى جمع غفير فى مسجد المدائن و لم يعترض عليه أحد من الحاضرين، مع العلم أنّ كثيرا منهم قد عاصر زمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و نقل هذا الحديث فى هامش الآية المذكورة فى الدرّ المنثور و القرطبى).

و ممّا تقدّم يتّضح جيّدا أنّ مسألة شقّ القمر أمر غير قابل للإنكار، سواء من الآية نفسها و القرائن الموجودة فيها، أو من خلال الأحاديث و الرّوايات، أو أقوال المفسّرين، و من الطبيعى أن تطرح أسئلة اخرى حول الموضوع سنجيب عنها إن شاء اللّه فيما بعد.

۲- مسألة شقّ القمر و العلم الحديث:

اشارة

السؤال المهمّ المطروح فى هذا البحث هو: هل أنّ الأجرام السماوية يمكنها أن تنفصل و تنشقّ؟ و ما موقف العلم الحديث من ذلك؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۵

و للإجابة على هذا السؤال و بناء على النتائج التى توصّل إليها العلماء الفلكيون، فإنّ مثل هذا الأمر فى نظرهم ليس بدرجة من التعقيد بحيث يستحيل تصوّره ... إنّ الاكتشافات العلمية التى توصّل إليها الباحثون تؤكّد أنّ مثل هذه الحوادث مضافا إلى أنّها ليست مستحيلة فقد لوحظت نماذج عديدة من هذا القبيل و لعدّة مرّات مع اختلاف العوامل المؤثّرة فى كلّ حالة.

و بعبارة اخرى: فقد لوحظ أنّ مجموعة انفجارات و انشقاقات قد وقعت فى المنظومة الشمسية، بل فى سائر الأجرام السماوية.

و يمكن ذكر بعض النماذج كشواهد على هذه الظواهر ...

أ- ظهور المنظومة الشمسية:

إنّ هذه النظرية المقبولة لدى جميع العلماء تقول: إنّ جميع كرات المنظومة الشمسية كانت فى الأصل جزءا من الشمس ثمّ انفصلت عنها، حيث أصبحت كلّ واحدة منها تدور فى مدارها الخاصّ بها غاية الأمر هناك كلام فى السبب لهذا الانفصال ..

يعتقد (لا پلاس) أنّ العامل المسبّب لانفصال القطع الصغيرة من الشمس هى:

(القوّة الطاردة) التى توجد فى المنطقة الإستوائية لها، حيث أنّ الشمس كانت تعتبر و لحدّ الآن كتلة ملتهبة، و ضمن دورانها حول نفسها فإنّ السرعة الموجودة فى المنطقة الإستوائية لها تسبّب تناثر بعض القطع منها فى الفضاء ممّا يجعل هذه القطع تدور حول مركزها الأصلى (الشمس).

و لكن العلماء الذين جاءوا بعد (لا پلاس) توصّلوا من خلال تحقيقاتهم إلى فرضية اخرى تقول: إنّ السبب الأساس لحدوث الانفصال فى الأجرام السماوية عن الشمس هو حالة المدّ و الجزر الشديدين التى حدثت على سطح الشمس نتيجة عبور نجمة عظيمة بالقرب منها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۶

الأشخاص المؤيّدون لهذه النظرية الذين يرون أنّ الحركة الوضعية للشمس فى ذلك الوقت لا تستطيع أن تعطى الجواب الشافعى لأسباب هذا الانفصال، قالوا:

إنّ حالة المدّ و الجزر الحاصلة فى الشمس أحدثت أمواجا عظيمة على سطحها.

كما فى سقوط حجر كبير فى مياه المحيط، و بسبب ذلك تناثرت قطع من الشمس الواحدة تلو الاخرى إلى الخارج، و دارت ضمن مدار الكرة الامّ (الشمس).

و على كلّ حال فإنّ العامل المسبّب لهذا الانفصال أيّا كان لا يمنعنا من الإعتقاد أنّ ظهور المنظومة الشمسية كان عن طريق الإنشقاق و الانفصال.

ب- (الأسترونيدات):

الأسترونيدات: هى قطع من الصخور السماوية العظيمة تدور حول المنظومة الشمسية، و يطلق عليها فى بعض الأحيان ب (الكرات الصغيرة) و (شبه الكواكب السيارة) يبلغ قطر كبراها (۲۵) كم، لكن الغالبية منها أصغر من ذلك.

و يعتقد العلماء أنّ «الأسترونيدات» هى بقايا كوكب عظيم كان يدور فى مدار بين مدارى المريخ و المشترى تعرّض إلى عوامل غير واضحة ممّا أدّى إلى انفجاره و تناثره.

لقد تمّ اكتشاف و مشاهدة أكثر من خمسة آلاف من (الأسترونيدات) لحدّ الآن، و قد تمّ تسمية عدد كثير من هذه القطع الكبيرة، و تمّ حساب حجمها و مقدار و مدّة حركتها حول الشمس، و يعلّق علماء الفضاء أهميّة بالغه على الأسترونيدات، حيث يعتقدون أنّ بالإمكان الاستفادة منها فى بعض الأحيان كمحطّات للسفر إلى المناطق الفضائية النائية.

كان هذا نموذج آخر لانشقاق الأجرام السماوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۷

ج- الشهب:

الشهب: أحجار سماوية صغيرة جدّا، حتّى أنّ البعض منها لا يتجاوز حجم (البندقة)، و هى تسير بسرعة فائقة فى مدار خاصّ حول الشمس و قد يتقاطع مسيرها مع مدار الأرض أحيانا فتنجذب إلى الأرض، و نظرا لسرعتها الخاطفة التى تتميّز بها- تصطدم بشدّة مع الهواء المحيط بالأرض، فترتفع درجة حرارتها بشدّة فتشتعل و تتبيّن لنا كخطّ مضىء وهّاج بين طبقات الجوّ و يسمّى بالشهاب.

و أحيانا نتصوّر أنّ كلّ واحدة منها تمثّل نجمة نائية فى حالة سقوط، إلّا أنّها فى الحقيقة عبارة عن شهاب صغير مشتعل على مسافة قريبة يتحوّل فيما بعد إلى رماد.

و يلتقى مدارى الشهب و الكرة الأرضية فى نقطتين هما نقطتا تقاطع المدارين و ذلك فى شهرى (آب و كانون الثانى) حيث يصبح بالإمكان رؤية الشهب بصورة أكثر فى هذين الشهرين.

و يقول العلماء: إنّ الشهب هى بقايا نجمة مذنّبة انفجرت و تناثرت أجزاؤها بسبب جملة عوامل غير واضحة ... و هذا نموذج آخر من الإنشقاق فى الأجرام السماوية.

و على كلّ حال، فإنّ الإنفجار و الإنشقاق فى الكرات السماوية ليس بالأمر الجديد، و ليس بالأمر المستحيل من الناحية العلمية، و من هنا فلا معنى حينئذ للقول بأنّ الإعجاز لا يمكن أن يتعلّق بالحال.

هذا كلّه عن مسألة الإنشقاق.

أمّا موضوع رجوع القطعتين المنفصلتين إلى وضعهما الطبيعى السابق تحت تأثير قوى الجاذبية التى تربط القطعتين فهو الآخر أمر

ممكن.

و رغم أنّ الإعتقاد السائد قديما فى علم الهيئة القديم طبق نظرية (بطليموس) و اعتقاده بالأفلاک التسعة التى هى بمثابة قشور البصل فى تركيبها- الواحدة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۸

الاخرى- فأىّ جسم لا يستطيع أن يخترقها صعودا أو نزولا، و لذلک فانّ أتباع هذه النظرية ينكرون المعراج الجسمانى و اختراقه للأفلاک التسعد، كما أنّه لا يمكن وفقا لهذه النظريات انشقاق القمر، و من ثمّ التئامه، و لذلک أنكروا مسألة شقّ القمر، و لكن اليوم أصبحت فرضية (بطليموس) أقرب للخيال و الأساطير منها للواقع، و لم يبق أثر للأفلاک التسعة، و أصبحت الأجواء لا تساعد لتقبّل مثل هذه الآراء.

و غنى عن القول أنّ ظاهرة شقّ القمر كانت معجزة، و لذا فإنّها لم تتأثّر بعامل طبيعى اعتيادى، و الشىء الذى يراد توضيحه هنا هو بيان إمكانية هذه الحادثة، لأنّ المعجزة لا تتعلّق بالأمر المحال.

۳- شقّ القمر تاريخيّا:

لقد طرح البعض من غير المطّلعين إشكالا آخر على مسألة شقّ القمر، حيث ذكروا أنّ مسألة شقّ القمر لها أهميّة بالغة، فإذا كانت حقيقيّة فلما ذا لم تذكر فى كتب التأريخ؟

و من أجل أن تتوضّح أهميّة هذا الإشكال لا بدّ من الإلمام و الدراسة الدقيقة لمختلف جوانب هذا الموضوع، و هو كما يلى:

أ- يجب الالتفات إلى أنّ القمر يرى فى نصف الكرة الأرضية فقط، و ليس فى جميعها، و لذا فلا بدّ من إسقاط نصف مجموع سكّان الكرة الأرضية من إمكانية رؤية حادثة شقّ القمر وقت حصولها.

ب- و فى نصف الكرة الأرضية التى يرى فيها القمر فإنّ أكثر الناس فى حالة سبات و ذلک لحدوث هذه الظاهرة بعد منتصف الليل.

ج- ليس هنالک ما يمنع من أن تكون الغيوم قد حجبت قسما كبيرا من السماء، و بذلک يتعذّر رؤية القمر لسكّان تلک المناطق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۹

د- إنّ الحوادث السماوية التى تلفت انتباه الناس تكون غالبا مصحوبة بصوت أو عتمة كما فى الصاعقة التى تقترن بصوت شديد أو الخسوف و الكسوف الكليين الذى يقترن كلّ منها بانعدام الضوء تقريبا و لمدّة طويلة.

لذلک فإنّ الحالات التى يكون فيها الخسوف جزئيا أو خفيفا نلاحظ أنّ الغالبية من الناس لم تحط به علما، اللهمّ إلّا عن طريق التنبيه المسبق عنه من قبل المنجّمين، بل يحدث أحيانا خسوف كلّى و قسم كبير من الناس لا يعلمون به.

لذا فإنّ علماء الفلک الذين يقومون بر صد الكواكب أو الأشخاص الذين يتّفق وقوع نظرهم فى السماء وقت الحادث هم الذين يطّلعون على هذا الأمر و يخبرون الآخرين به.

و بناء على هذا و نظرا لقصر مدّة المعجزة (شقّ القمر) فلن يكون بالمقدور أن تلفت الأنظار إليها على الصعيد العالمى، خصوصا و أنّ غالبية الناس فى ذلک الوقت لم تكن مهتّمة بمتابعة الأجرام السماوية.

ه- و بالإضافة إلى ذلک فإنّ الوسائل المستخدمة فى تثبيت نشر الحوادث التأريخية فى ذلک الوقت، و محدودية الطبقة المتعلّمة، و كذلک طبيعة الكتب الخطيّة التى لم تكن بصورة كافية كما هو الحال فى هذا العصر حيث تنشر الحوادث المهمّة بسرعة فائقة بمختلف الوسائل الإعلامية فى كلّ أنحاء العالم عن طريق الإذاعة و التلفزيون و الصحف ... كلّ هذه الأمور لا بدّ من أخذها بنظر الإعتبار فى محدودية الاطلاع على حادثة (شقّ القمر).

و مع ملاحظة هذا الأمر و الأمور الاخری السابقة فلا عجب أبدا من عدم تثبیت هذه الحادثة فی التواریخ غیر الإسلامیة، و لا یمکن اعتبار ذلک دلیلا علی نفیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۰

۴- تأریخ وقوع هذه المعجزة:

من الواضح أنّه لا خلاف بین المفسّرین و رواة الحدیث حول حدوث ظاهرة شقّ القمر فی مکّة و قبل هجرة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لکن الذی یستفاد من بعض الرّوایات هو أنّ حدوث هذا الأمر کان فی بدایة بعثة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ۲۸۴]. فی حین یستفاد من البعض الآخر أنّ حدوث هذا الأمر قد وقع قرب هجرة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فی آخر عهده بمکّة، و کان استجابة لطلب جماعة قدموا من المدینة لمعرفة الحقّ و أتباعه، إذ أنّهم بعد رؤیتهم لهذه المعجزة آمنوا و بایعوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی العقبة[۲۸۵].

و نقرأ فی بعض الرّوایات أیضا أنّ سبب اقتراح شقّ القمر کان من أجل المزید من الاطمئنان بمعاجز الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أنّها لم تکن سحرا لأنّ السحر عادة یکون فی الأمور الأرضیة[۲۸۶]. و مع ذلک فإنّ قسما من المتعصّبین و المعاندین لم یؤمنوا برغم مشاهدتهم لهذا الإعجاز، و تعلّلوا بأنّهم ینتظرون قوافل الشام و الیمن، فإنّ أیّدوا هذا الحادث و رؤیتهم له آمنوا ... و مع إخبار المسافرین لهم بذلک، إلّا أنّهم بقوا مصرّین علی الکفر رافضین للإیمان ۲۸۷].

و النقطة الأخیرة الجدیرة بالذکر أنّ هذه المعجزة العظیمة و الکثیر من المعاجز الاخری ذکرت فی التواریخ و الرّوایات الضعیفة مقترنة ببعض الخرافات و الأساطیر، ممّا أدّی إلی حصول تشویش فی أذهان العلماء بشأنها، کما فی نزول قطعة من القمر إلی الأرض. لذا فإنّ من الضروری فصل هذه الخرافات و عزلها بدقّة و غربلة الصحیح من غیره، حتّی تبقی الحقائق بعیدة عن التشویش و محتفظة بمقوّماتها الموضوعیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۱

الآیات [سورة القمر (۵۴): الآیات ۴ الی ۸]

اشارة

وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِیهِ مُزْدَجَرٌ (۴) حِکْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (۵) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ یَوْمَ یَدْعُ الدَّاعِ إِلی شَیْءٍ نُکُرٍ (۶) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ یَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ کَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (۷) مُهْطِعِینَ إِلَی الدَّاعِ یَقُولُ الْکافِرُونَ هذا یَوْمٌ عَسِرٌ (۸)

التّفسیر

یوم البعث و النشور:

تأتی هذه الآیات لتواصل البحث عن الکفّار الذین کذّبوا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یذعنوا للحقّ حیث أعرضوا عن جمیع المعاجز التی شاهدوها.

و الآیات أعلاه تشرح حال هؤلاء الأفراد و موضّحة المصیر البائس الذی ینتظر هؤلاء المعاندین فی یوم القیامة.

یقول سبحانه إنّ هؤلاء لم یعدموا الإنذار و الإخبار، بل جاءهم من الأخبار ما یوجب انزجارهم عن القبائح و الذنوب: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِیهِ مُزْدَجَرٌ و ذلک لیلقی علیهم الحجّة.

و بناء علی هذا فلا یوجد نقص فی تبلیغ الدعاة الإلهیین، و ما یوجد من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۲

نقصان أو خلل یمکن فیهم، حیث لیس لدیهم روح تواقة لمعرفة الحقّ و لا آذان صاغیة، و نفوسهم متنکّبة عن التقوی و التدبّر فی الآیات الإلهیة.

و القصد من «الأنباء» الإخبار عن الأمم و الأقوام السابقة الذین هلکوا بألوان العذاب المدمّر الذی حلّ بهم، و کذلک أخبار یوم القیامة و جزاء الظالمین و الکفّار، حیث اتّضحت کلّ تلک الأخبار فی القرآن الکریم.

و یضیف تعالی: حِکْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ فهذه الآیات حکم إلهیّة بلیغة و مواعظ مؤثّرة، إلّا أنّها لا تفید أهل العناد[۲۸۸][۲۸۹].

تبیّن هذه الآیة أن لا نقص فی «فاعلیة الفاعل»، أو تبلیغ الرسل. لکن الأمر یکمن فی مدی استعداد الناس و أهلیتهم لقبول الدعوة الإلهیّة، و إلّا فإنّ الآیات القرآنیة و الرسل و الأخبار التی وردتهم عن الأمم السابقة و الأخبار التی تنبؤهم عن أحوال یوم القیامة ... کلّ هذه الأمور هی حکمة بالغة و مؤثّرة فی النفوس الخیّرة ذات الفطرة السلیمة.

الآیة التالیة تؤکّد علی أنّ هؤلاء لیسوا علی استعداد لقبول الحقّ، فأترکهم لحالهم و أعرض عنهم و تذکّر یوم یدعو الداعی الإلهی إلی أمر مخیف، و هو الدعوة إلی الحساب، حیث یقول سبحانه: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ یَوْمَ یَدْعُ الدَّاعِ إِلی شَیْءٍ نُکُرٍ[۲۹۰].

و علی هذا تکون عبارة: یَوْمَ یَدْعُ الدَّاعِ عبارة مستقلّة و منفصلة عن جملة:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ لکن البعض یری أنّ کلّ واحدة من الجملتین مکمّلة للأخری، حیث یذهبون إلی أنّ قوله تعالی: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ جاءت بصیغة الأمر للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالإعراض عن المشرکین الذین یرجون الشفاعة منه یوم القیامة عند ما یدعوهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۳

الداعی الإلهی للحساب. و هذا الرأی مستبعد جدّا.

و هنا یثار السؤال التالی: هل الداعی هو اللّه سبحانه؟ أم الملائکة؟ أم إسرافیل الذی یدعو الناس لیوم الحشر عند ما ینفخ فی الصور؟ أم جمیع هؤلاء؟

ذکر المفسّرون احتمالات عدّة للإجابة علی هذا التساؤل، و لکن بالرجوع إلی قوله تعالی: یَوْمَ یَدْعُوکُمْ فَتَسْتَجِیبُونَ بِحَمْدِهِ [۲۹۱] یرجّح الرأی الأوّل. رغم أنّ الآیات اللاحقة تتناسب مع کون الداعی هم الملائکة المختّصون بشؤون الحساب و الجزاء.

أمّا المراد من شَیْءٍ نُکُرٍ[۲۹۲] فهو الحساب الإلهی الدقیق الذی لم یکن معلوما من حیث وقته قبل قیام الساعة، أو العذاب الذی لم یخطر علی بالهم، أو جمیع هذه الأمور، ذلک لأنّ یوم القیامة فی جمیع أحواله حالة غیر مألوفة للبشر.

و فی الآیة اللاحقة یبیّن اللّه سبحانه و تعالی توضیحا أکثر حول هذا الموضوع و یذکر أنّ هؤلاء یخرجون من القبور فی حالة: خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ یَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ کَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ.

نسبة «الخشوع» هنا للأبصار لأنّ المشهد مرعب و مخیف إلی حدّ لا تستطیع الأنظار رؤیته، لذلک فإنّها تتحوّل عنه و تطرّق نحو الأسفل.

و التشبیه هنا بالجراد المنتشر لأنّ النشور فی یوم الحشر یکون بصورة غیر منتظمة لحالة الهول التی تعتری الناس فیه، کما هی حرکة انتشار الجراد التی تتمثّل فیها الفوضی و الاضطراب خلافا للقسم الأکبر من حرکة الطیور التی تطیر وفق نظم خاصّة فی الجو، مضافا إلی أنّهم کالجراد من حیث الضعف و عدم القدرة.

نعم، إنّ حالة هؤلاء الفاقدین للعلم و البصیرة، حالة ذهول و وحشة و تخبّط فی المسیر کالسکاری یرتطم بعضهم ببعض فاقدین للوعی

و الإرادة کما فی قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۴

تعالی: وَ تَرَی النَّاسَ سُکاری وَ ما هُمْ بِسُکاری [۲۹۳] و الحقیقـة أنّ هذا التشبیه هو ما ورد أیضا فی الآیة (۴) من سورة القارعة حیث یقول سبحانه: یَوْمَ یَکُونُ النَّاسُ کَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ

و أمّا قوله تعـالی: مُهْطِعِینَ إِلَی الـدَّاعِ فإنّ کلمـة «مهطعین» تأتی من مادّة (إهطاع) أی مـدّ الرقبـة، و البعض یرجعها إلی النظر بانتباه أو الرکض بسـرعة نحو الشـیء، و یحتمـل أن تکون کـلّ واحـدة من هـذه المعـانی هی المقصودة، و لکن المعنی الأوّل هو الأنسب، لأنّ الإنسان عند سماعه لصوت موحش یمدّ رقبته علی الفور و ینتبه إلی مصدر الصوت، و یمکن أن تکون هذه المفاهیم مجتمعة فی الآیة الکریمـة حیث أنّ بمجرّد سـماع صوت الـداعی الإلـهی تمـدّ الرقـاب إلیه ثمّ یتبعه التوجّه بـالنظر نحوه، ثمّ الإسـراع إلیه و الحضور فی المحکمة الإلهیّة العادلة عند دعوتهم إلیها.

و هنا یسـتولی الخوف من الأهوال العظیمـة لذلک الیوم علی وجود الکفّار و الظالمین، لذا یضـیف سـبحانه معبّرا عن حالة البؤس التی تعتری الکافرین بقوله:

یَقُولُ الْکافِرُونَ هذا یَوْمٌ عَسِرٌ.

و الحقّ أنّه یوم صعب و عسیر. و هذا ما یؤکّده الباریٔ عزّ و جلّ بقوله: وَ کانَ یَوْماً عَلَی الْکافِرِینَ عَسِیراً.[۲۹۴] و یستفاد من هذا التعبیر أنّ یوم القیامة یوم غیر عسیر بالنسبة للمؤمنین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۵

مسألة

لماذا کان یوم القیامة یوما عسیرا؟:

و لمـاذا لاـ یکون عسـیرا؟ فی الوقت الـذی یحـاط فیه المجرمون بکـلّ أجواء الرهبـة و الوحشـة، و خاصّـة عنـد ما یسـتلمون صـحائف أعمالهم حیث یصطرخون:

یا وَیْلَتَنا ما لِهذَا الْکِتابِ لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصاها،[۲۹۵] هذا من جهة.

و من جهة اخری فإنّهم یواجهون بما لیس فی الحسـبان، حیث یحاسبون بدقّة حتّی علی أصغر الأعمال التی أدّوها، سواء کانت صالحة أم طالحـة: إِنْ تَکُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فِی صَـخْرَةٍ أَوْ فِی السَّماواتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ یَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ.[۲۹۶] و من جهـة ثالثـة، لا سبیل یومئـذ للتکفیر عن الذنوب و التعویض بالطاعة، و الاعتذار عن التقصـیر، حیث لا عذر یقبل و لا مجال للعودة مرّة اخری إلی الحیاة یقول تعالی: وَ اتَّقُوا یَوْماً لا تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَـیْئاً وَ لا یُقْبَلُ مِنْها شَـفاعَةٌ وَ لا یُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ یُنْصَـرُونَ [۲۹۷] و نقرأ کـذلک فی قـوله تعـالی: وَ لَوْ تَری إِذْ وُقِفُوا عَلَی النَّارِ فَقـالُوا یـا لَیْتَنـا نُرَدُّ وَ لاـ نُکَـذِّبَ بِآیـاتِ رَبِّنـا وَ نَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ [۲۹۸]. و لکن هیهات.

و من جهـة رابعـة فإنّ العـذاب الإلهی شدیـد و مرعب إلی درجـة تنسـی الامّهات أولادها، و تسـقط الحوامل أجنّتهن، و یکون الجمیع یومئذ فی حیرة و ذهول و فقدان للوعی کالسکاری و ما هم بسکاری و لکنّ عذاب اللّه شدید، قال تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۶

یَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ کُلُّ مُرْضِـعَةٍ عَمَّا أَرْضَـعَتْ وَ تَضَعُ کُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَی النَّاسَ سُـکاری وَ ما هُمْ بِسُـکاری وَ لکِنَّ عَذابَ اللَّهِ

شَدِيدٌ.[۲۹۹] و الدليل على اضطراب و هلع العاصين هو حالة التشبّث بالافتداء بكلّ ما فى الدنيا أملا فى الخلاص من العذاب الأليم، قال تعالى: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ، وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ، كَلَّا إِنَّها لَظى [۳۰۰] إذا، هل يمكن مع كلّ هذه الأوصاف و الأوصاف الأخرى المهولة التى وردت فى آيات اخرى أن يكون ذلك اليوم يوما مريحا و بعيدا عن الهمّ و الغمّ و الشدّة؟! (حفظنا اللّه جميعا فى ظلّ لطفه و رعايته).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۷

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۹ الى ۱۷]

اشارة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ (۹) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳)
تَجْرِى بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (۱۴) وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۵) فَكَيْفَ كانَ عَذابِى وَ نُذُرِ (۱۶) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۷)

التّفسير

قصّة قوم نوح عبرة و عظة:

جرت السنّة القرآنية فى كثير من الموارد أنّ اللّه سبحانه يستعرض حالة الأقوام السابقة و العاقبة المؤلمة التى انتهوا إليها إنذارا و توضيحا (للكفّار و المجرمين) بأنّ الاستمرار فى طريق الضلال سوف لن يؤدّى بهم إلّا إلى المصير البائس الذى لاقته الأقوام السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۸

و فى هذه السورة، إكمالا للبحث الذى تناولته الآيات السابقة، فى إثارات و إشارات مختصرة و معبّرة حول تاريخ خمسة من الأقوام المعاندة ابتداء من قوم نوح كما فى قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ. فمضافا إلى تكذيبه و اتّهامه بالجنون صبّوا عليه ألوان الأذى و التعذيب و منعوه من الاستمرار فى أداء رسالته.

فتارة يقولون له مهدّدين و منذرين قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ [۳۰۱] و تارة اخرى يضغطون رقبته بأيديهم حتّى يفقد وعيه، و لكنّه ما أن يفيق إلى وعيه حتّى يقول: «اللهمّ اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون»[۳۰۲].

و خلاصة القول فإنّ قوم نوح مارسوا كلّ وسيلة لأذى نبيّهم، و مع ذلك فإنّه لم يتوقّف عن التبليغ و الإرشاد أملا فى هدايتهم.

و الجدير بالذكر أنّنا نلاحظ أنّ لفظ (التكذيب) قد ورد مرّتين، و لعلّ السبب أنّه ورد فى الحالة الاولى (مختصرا) و فى الثانية (مفصّلا).

و التعبير ب «عبدنا» إشارة إلى أنّ هؤلاء القوم المعاندين و المغرورين فى الواقع يبارزون اللّه تعالى لا مجرّد شخص «نوح».

كلمة (و ازدجر) أصلها (زجر) بمعنى الطرد، و هو الإبعاد المقترن بصوت شديد، كما أنّه يطلق على كلّ عمل يراد منه منع الشخص من الاستمرار به.

و الظريف فى هذه الآية أنّ الفعل (قالوا) أتى بصورة فعل معلوم (و ازدجر) بصيغة فعل مجهول و لعلّ ذلك للإشارة إلى أنّ عدم ذكر الفاعل هنا للترفّع عن ذكر قوم نوح بسبب سوء و قبح الأعمال التى مارسوها و التى كانت أقذر و أقبح من أقوالهم، ممّا يكون سببا فى

عدم ذكرهم بالصيغة المعلومة كما فى قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۹

قالُوا.

ثمّ يضيف تعالى أنّ نوح عند ما يئس من هداية قومه تماما: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ[۳۰۳].

و الغلبة المذكورة فى الآية الكريمة لم تكن غلبة فى الحجّة و الدليل أو البرهان على عدم صحّة الدعوة، و إنّما كانت تتجسّد بالظلم و الجناية و التكذيب و الإنكار و أنواع الزجر و الضغوط ... و لهذا فإنّ هؤلاء القوم لا يستحقّون البقاء، فانتقم لنا منهم و انصرنا عليهم.

نعم، فهذا النّبى العظيم كان يطلب من اللّه المغفرة لقومه ما دام يأمل فى هدايتهم و صلاحهم، و لكن عند ما يئس منهم غضب عليهم و لعنهم و دعا ربّه أنّ ينتقم منهم.

ثمّ يشير هنا إشارة معبّرة و قويّة فى كيفية العذاب الذى ابتلوا به وصبّ عليهم حيث يقول سبحانه: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ.

إنّ تعبير انفتاح أبواب السماء لتعبير رائع جدّا، و يستعمل عادة عند هطول الأمطار الغزيرة.

(منهمر) من مادّة (همر) على وزن (صبر) و تعنى النّزول الشديد للدموع أو الماء، و يستعمل هذا التعبير أيضا عند ما يستدر الحليب من الضرع حتّى النهاية.

و العجيب هنا أنّه ورد فى أقوال المفسّرين أنّ قوم نوح كانوا قد أصيبوا بالجدب لعدّة سنوات قد خلت، و كانوا يرتقبون بتلهّف سقوط المطر عليهم، و فجأة ينزل المطر و لكن لا ليحيى أرضهم و يزيد خيرهم بل ما حقا و مميتا لهم ۳۰۴].

و يذكر أنّ الماء الذى أدّى إلى الطوفان لم يكن من هطول الأمطار فقط، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۰

كان من تفجير العيون فى الأرض حيث يقول تعالى: وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً[۳۰۵] و هكذا اختلط ماء السماء بماء الأرض بمقدار مقدّر و ملأ البسيطة: فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ.

إنّ هذا التعبير يجسّد حالة الطوفان الذى غمر الأرض، إلّا أنّ بعض المفسّرين فسّروا عبارة (قد قدر) بقولهم: إنّ كميّتى المياه المتدفّقة من الجانبين المتقابلين كانتا متساويتين فى مقاديرهما بصورة دقيقة، إلّا أنّ الرأى الأوّل هو الأرجح.

و خلاصة الأمر: إنّ الماء قد فار من جميع جهات الأرض و فجّرت العيون و هطلت الأمطار من السماء، و اتّصل الماء بعضه ببعض و شكّل بحرا عظيما و طوفانا شديدا.

و تترك الآيات الكريمة مسألة الطوفان، لأنّ ما قيل فيها من الآيات السابقة يعتبر كافيا فتنتقل إلى سفينة نجاة نوح عليه السّلام حيث يقول تعالى: وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ.

(دسر) جمع (دسار) على وزن (كتاب)، كما يقول الراغب فى المفردات، أنّها فى الأصل بمعنى الإبعاد أو النهر بشدّة مقترنا مع حالة عدم الرضا، و لكون المسمار عند ما يتعرّض للطرق الشديد يدخل فى الخشب و ما شاكل فيقال له (دسار).

و ذكر قسم من المفسّرين أنّ معنى هذه الكلمة هو (الحبل) مشيرين بذلك إلى حبال أشرعة السفينة و ما إلى ذلك، و التّفسير الأوّل هو الأرجح نظرا لذكر كلمة (ألواح).

على كلّ حال، فإنّ التعبير القرآنى هنا ظريف، لأنّه كما يقول البارئ عزّ و جلّ بأنّنا و فى وسط ذلك الطوفان العظيم، الذى غمر كلّ شىء أودعنا أمر نجاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۱

نوح و أصحابه إلى مجموعة من المسامير و قطع من الخشب، و أنّها أدّت هذه الوظيفة على أحسن وجه، و هكذا تتجلّى القدرة الإلهيّة العظيمة.

و یمکن أن یستفاد من هـذا التعبیر طبیعة البساطة التی کانت علیها سفن ذلک الزمان و التی هی بعیدة عن التعقید و التکلّف قیاسا مع السفن المتقدّمة فی العصور اللاحقة. و مع ذلک فإنّ سفینة نوح علیه السّلام کان حجمها بالقدر المطلوب و طبق الحاجة، و طبقا للتواریخ فإنّ نوح علیه السّلام قد أمضی عدّة سنین فی صنعها کی یتمکّن من وضع (من کلّ زوجین إثنین) من مختلف الحیوانات فیها.

و یشیر سبحانه إلی لطف عنایته للسفینة المخصّصة لنجاة نوح علیه السّلام حیث یقول سبحانه تَجْرِی بِأَعْیُنِنا أی أنّ هذه السفینة تسیر بالعلم و المشیئة الإلهیّة، و تشقّ الأمواج العالیة بقوّة و تستمر فی حرکتها تحت رعایتنا و حفظنا.

إنّ التعبیر (بأعیننا) کنایة ظریفة للدلالة علی المراقبة و الرعایة للشیء و یتجسّد هذا المعنی بوضوح فی قوله تعالی فی الآیة (۳۷) من سورة هود:

وَ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنا وَ وَحْیِنا.

بعض المفسّرین ذهبوا إلی أنّ المقصود من تَجْرِی بِأَعْیُنِنا هو الإشارة إلی الشخصیات المهمّة التی کانت علی ظهر السفینة، و بناء علی هذا فإنّ المقصود من قوله تعالی: تَجْرِی بِأَعْیُنِنا[۳۰۶] أنّ تلک السفینة کانت تحمل عباد اللّه الخالصین المخلصین، و نظرا لطبیعة الموارد التی استعمل فیها هذا التعبیر فی الآیات القرآنیة الاخری فإنّ الرأی الأوّل هو الأصحّ.

و یحتمل أیضا أنّ المراد بجملة (بأعیننا) هو الملائکة التی کان لها الأثر فی هدایة سفینة نوح علیه السّلام، و لکن هذا الرأی ضعیف أیضا لسبب أعلاه.

ثمّ یضیف تعالی: جَزاءً لِمَنْ کانَ کُفِرَ[۳۰۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۲

نعم إنّ نوح علیه السّلام کسائر الأنبیاء الإلهیین یعتبر نعمة إلهیّة عظیمة و موهبة من مواهبه الکبیرة علی البشریة، إلّا أنّ قومه الحمقی کفروا به و برسالته ۳۰۸].

ثمّ یقول سبحانه و کنتیجة لهذه القصّة العظیمة موضع العظّة و الإعتبار: وَ لَقَدْ تَرَکْناها آیَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ.

و الحقیقة أنّ کلّ ما کان یستحقّ الذکر فی هذه القصّة قد قیل، و کلّما ینبغی للإنسان الواعی المتّعظ أن یدرکه فهو موجود.

و استنادا إلی هذا التّفسیر المنسجم مع الآیات السابقة و اللاحقة، فإنّ الضمیر فی (ترکناها) یرجع إلی قصّة الطوفان و ماضی نوح علیه السّلام و مخالفیه. و لکن البعض یری أنّ المراد هو (سفینة نوح) لأنّها بقیت مدّة من الزمن شاخصة لأنظار العالم، و کلّما یراها أحد تتجسّد أمامه قصّة الطوفان الذی حلّ بقوم نوح علیه السّلام، و مع علمنا بأنّ بقایا سفینة نوح علیه السّلام کانت حتّی عصر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما أنّ البعض من المعاصرین ادّعی رؤیة بقایاها فی جبال (آرارات) فی القفقاز، عندئذ یمکن أن یکون المعنیان مقصودین فی الآیة الکریمة.

و لهذا فإنّ قصّة نوح علیه السّلام کانت آیة للعالمین، و کذا سفینته التی بقیت ردحا من الزمن بین الناس ۳۰۹].

و فی الآیة اللاحقة یطرح اللّه سبحانه سؤالا معبّرا و مهدّدا للکافرین الذین اتّبعوا نفس المنهج الذی کان علیه قوم نوح حیث یقول سبحانه: فَکَیْفَ کانَ عَذابِی وَ نُذُرِ.

هل هذه حقیقة واقعة، أم قصّة و اسطورة؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۳

و یضیف مؤکّدا هذه الحقیقة فی آخر الآیة مورد البحث فی قوله تعالی: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ.

نعم إنّ هذا الکتاب العظیم الخالی من التعقید و المجسّد لعناصر التأثیر من حیث عذوبة ألفاظه و جاذبیتها، و حیویة عباراته و صراحتها فی عرض المطالب ترغیبا و تهدیدا، و طبیعة قصصه الواقعیة ذات المحتوی الغزیر بالإضافة إلی قوّة دلائله و أحکامها و منطقه المتین،

و احتوائه على كلّ ما يلزم من عناصر التأثير ...

لذا فإنّ القلوب المهيأة لقبول الحقّ و المتفاعلة مع منطق الفطرة و المستوعبة لمنهج العقل تنجذب بصورة متميّزة، و الشاهد على هذا أنّ التأريخ الإسلامى يذكر لنا قصصا عديدة عجيبة محيّرة من حالات التأثير العميق الذى يتركه القرآن الكريم على القلوب الخيّرة.

و لكن ما العمل حينما تكون النطفة لبذرة ما ميتة، حتّى لو هيّأ لزراعتها أخصب الأراضى، و سقيت بماء الكوثر، و اعتنى بها من قبل أمهر المزارعين، فإنّها لن تنمو و لن تزهر و تثمر أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۴

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۱۸ الى ۲۲]

اشارة

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۱۸) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (۱۹) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (۲۰) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۲۱) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۲۲)

التّفسير

مصير قوم عاد:

تستعرض الآيات الكريمة أعلاه و باختصار أخبار نموذج آخر من الكفّار و المجرمين بعد قوم نوح، و هم (قوم عاد) و ذلك كتحذير لمن يتنكّب طريق الحقّ و الهداية الإلهية.

و تبدأ فصول أخبارهم بقوله تعالى: كَذَّبَتْ عادٌ.

لقد بذل هود عليه السّلام غاية جهده فى توعية قومه و تبليغهم بالحقّ الذى جاء به من عند اللّه، و كان عليه السّلام كلّما ضاعف سعيه و جهده لانتشالهم من الكفر و الضلال ازدادوا إصرارا و نفورا و لجاجة فى غيّهم و غرورهم الناشئ من الثراء و الإمكانات المادية، بالإضافة إلى غفلتهم نتيجة انغماسهم فى الشهوات، جعلتهم صمّ الآذان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۵

عمّى العيون، فجازاهم اللّه بعقاب أليم و عذاب شديد، و لهذا تشير الآية الكريمة باختصار حيث يقول سبحانه: فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ.

كما نلاحظ التفصيل فى الآيات اللاحقة بعد هذا الإجمال حيث يقول سبحانه: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ.

«صرصر» من مادّة (صرّ) على وزن (شرّ)، و فى الأصل تعنى (الإغلاق و الإحكام) و يأتى تكرارها فى هذا السياق للتأكيد، و لأنّ الرياح التى عذّبوا بها كانت باردة و شديدة و لاذعة و مصحوبة بالأزيز، لذا اطلق عليها (صرصر).

أمّا (نحس) ففى الأصل معناها (الاحمرار الشديد) الذى يظهر فى الأفق أحيانا، كما يطلق العرب أيضا كلمة (نحاس) على وهج النار الخالية من الدخان، ثمّ أطلق هذا المصطلح على كلّ (شؤم) مقابل (السعد).

«مستمر» صفة ل (يوم) أو ل (نحس) و مفهومه فى الحالة الاولى هو استمرار حوادث ذلك اليوم كما فى قوله تعالى: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ.[۳۱۰] و تعنى فى الحالة الثانية استمرار نحوسة ذلك اليوم حتّى هلك الجميع.

كما يفسّر البعض معنى (النحس) بأنّه حالة الجو المكفهر المغبّر، لأنّ العاصفة كانت مغبرة إلى درجة أنّها لم تسمح برؤية بعضهم البعض. و عند ما شاهدوا العاصفة من بعيد ظنّوا أنّها غيوم محملة بالأمطار متّجهة نحوهم، و سرعان ما تبيّن لهم أنّها ريح عاتية لا تبقى و لا تذر أمرت بعذابهم و الانتقام منهم، كما فى قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ. مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ [۳۱۱] إنّ هذين التّفسيرين غير متنافيين، و يمكن جمعهما فى معنى الآية الكريمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۶

مورد البحث.

ثمّ يستعرض سبحانه وصف الريح بقوله: تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ.

«منقعر» من مادّة (قعر) بمعنى أسفل الشيء أو نهايته، و لذا يستعمل هذا المصطلح بمعنى قلع الشيء من أساسه.

كما يحتمل أن يكون المقصود من هذا التعبير أنّ ضخامة الهياكل و قوّة الأبدان التى كان عليها قوم عاد لم تغنهم من فتك الريح بهم و هلاكهم حيث ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ قوم عاد حاولوا التخلّص من العذاب الذى باغتهم و ذلك بأن التجأوا إلى حفر عميقة و ملاجئ تحت الأرض لحفظ أنفسهم، و لكن دون جدوى حيث أنّ الريح كانت من القوّة بحيث قلعتهم من أعماق تلك الحفر و قذفت بهم من جهة إلى اخرى، حتّى قيل أنّها كانت تدحرجهم و تجعل أعلى كلّ منهم أسفله و تفصل رؤوسهم عن أجسادهم.

«أعجاز» جمع (عجز)- على وزن (رجل)- بمعنى خلف أو تحت، و قد شبّهوا بالقسم الأسفل من النخلة و ذلك حسبما يقول البعض لأنّ شدّة الريح قطّعت أيديهم و رؤوسهم و دفعتها باتّجاهها، و بقيت أجسادهم المقطّعة الرؤوس و الأطراف كالنخيل المقطّعة الرؤوس، ثمّ قلعت أجسادهم من الأرض و كانت الريح تتقاذفها.

و للسبب المذكور أعلاه، يكرّر اللّه سبحانه و تعالى إنذاره للكفّار بقوله:

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ.

فنحن كذلك فعلنا و جازينا الأقوام السالفة التى سلكت سبيل الغى و الطغيان و العصيان، فعليكم أن تتفكّروا فى مصيركم و أنتم تسلكون نفس الطريق الذى سلكوه!! و فى نهاية القصّة يؤكّد قوله سبحانه: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فهل هنالك من آذان صاغية و قلوب واعية لهذا النداء الإلهى و الإنذار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۷

الربّانى؟.

و النقطة الأخيرة الجديرة بالذكر هى تأكيد قوله سبحانه: فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ حيث تكرّرت مرّتين: الأولى: فى بداية الحديث عن قصّة قوم عاد، و الثانية: فى نهايتها. و لعلّ سبب هذا الاختلاف بين قوم عاد و الأقوام الاخرى، أنّ عذاب قوم عاد كان أكثر شدّة و انتقاما، رغم أنّ جميع ألوان العذاب الإلهى شديد.

بحث

سعد الأيّام و نحسها:

الشيء المتعارف بين الناس، هو أنّ بعض الأيّام سعيدة و مباركة، و البعض الآخر نحس و مشؤوم، مع وجود اختلاف كثير فى تشخيصها.

و يدور الحديث حول مدى قبولها إسلاميا، و هل أنّها مأخوذة من تعاليم الإسلام أم لا؟.

من الناحية العقلية لا يعدّ اختلاف أجزاء الزمان من هذه الجهة محالا، بأن يتّصف بعضها بالنحوسة و الاخرى بالبركة و السعد. و لا نملك أى استدلال عقلى لإثبات أو نفى هذا المعنى، و لهذا نستطيع القول: إنّ هذا الأمر بهذا القدر شيء ممكن، و لكنّه غير ثابت من الناحية العقلية.

و بناء على ذلك فإذا كانت لدينا دلائل شرعية لهذا المعنى ثبتت عن طريق الوحى فلا مانع من قبولها، بل الالتزام بها.

و حول (نحس الأيّام) تشير الآيات القرآنية مرّتين إلى هذا الموضوع، الاولى فى الآيات مورد البحث، و الثانية: فى قوله تعالى: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۸

صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ ۳۱۲][۳۱۳].

و فى مقابل «النحوسة» فإنّنا نلاحظ فى بعض الآيات القرآنية تعبير (مبارك) كما فى قوله تعالى حول ليلة القدر: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ.[۳۱۴] و قلنا إنّ «نحس» مأخوذ فى الأصل من صورة الاحمرار الشديد فى الأفق، الذى يشبه النار المتوهّجة الخالية من الدخان و التى يطلق عليها (النحاس). و بهذه المناسبة استعمل فى معنى الشؤم.

و من هنا نلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يتطرّق لهذه المسألة إلّا من خلال إشارة مغلقة فقط. لكنّنا حينما نقرأ فى الكتب الإسلامية، يواجهنا العديد من الرّوايات فى هذا المجال، مع العلم أنّ الكثير منها ضعيف، و أنّ البعض الآخر منها موضوع أو ملفّق، أو مشوب بالخرافات. و ليست جميعا كذلك، بل هناك ما هو معتبر منها و موضع اطمئنان كما يؤكّد المفسّرون صحّة ذلك من خلال تفسير الآيات أعلاه.

و يذكر لنا المحدّث الكبير العلّامة المجلسى روايات عديدة فى هذا المجال فى بحار الأنوار[۳۱۵].

و فى هذا المجال نستطيع إيراد الملاحظات التالية:

أ- لقد ذكروا فى روايات عديدة (سعد و نحس) الأيّام، و كذلك الحوادث التى وقعت فيها، حيث نقرأ فى الرّواية التالية فى أسئلة الشامى لأمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: (أخبرنى عن يوم الأربعاء و التطيّر منه و ثقله، و أى أربعاء هو)،

قال عليه السّلام: «آخر أربعاء من الشهر، و هو المحاق، و فيه قتل قابيل هابيل أخاه، و يوم الأربعاء أرسل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۹

اللّه عزّ و جلّ الريح على قوم عاد»[۳۱۶].

و من هنا فإنّ الكثير من المفسّرين يرتّبون أثرا على هذه الرّوايات، و يعتبرون أنّ آخر أربعاء من كلّ شهر هو يوم نحس، و يطلقون عليه (أربعاء لا تدور) أى لا تتكرّر.

و نقرأ فى بعض الرّوايات أنّ اليوم الأوّل من كلّ شهر هو سعد و مبارك، و ذلك لأنّ آدم عليه السّلام خلق فى هذا اليوم، و كذلك فإنّ اليوم ۲۶ من كلّ شهر يوم مبارك، حيث: (ضرب موسى فيه البحر فانفلق)[۳۱۷].

كما أنّ اليوم الثالث من كلّ شهر، هو يوم نحس، نزع عن آدم و حواء لباسهما و أخرجا من الجنّة[۳۱۸].

كما أنّ اليوم السابع من كلّ شهر هو يوم مبارك، لأنّ نوح عليه السّلام قد ركب فى السفينة (و نجا من الغرق)[۳۱۹].

و نقرأ

فى الحديث التالى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى هذا المعنى حول يوم (النوروز) حيث يقول: «... يوم مبارك استوت فيه سفينة نوح على الجودى، و هو اليوم الذى نزل فيه جبرائيل على النبى، و هو اليوم الذى حمل فيه رسول اللّه أمير المؤمنين على منكبه حتّى رمى أصنام قريش من فوق البيت الحرام فهشّمها ... و هو اليوم أمر النّبى أصحابه أن يبايعوا عليا بإمرة المؤمنين ...»[۳۲۰].

و قد اقترن سعد و نحس الأيّام بذكر بعض الوقائع التأريخية الحسنة و السيّئة كما فى العديد من الرّوايات، فمثلا ما ذكر عن يوم عاشوراء الذى اعتبره الامويون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۰

يوم سعد لمّا حقّقوا فيه و بظنّهم من انتصار على أهل البيت عليه السّلام ... نلاحظ الرّوايات تنهى بشدّة عن التبرّك فى مثل هذا اليوم، كما تحذر من ادّخار الأقوات السنوية فيه، و الابتعاد عن أجواء الاحتفالات التى كان يقيمها الامويون فى هذا اليوم و كذلك تؤكّد على تعطيل الأعمال فيه.

و من ملاحظة مجموعة الرّوايات السابقة، دفع البعض أن يفسّر مسألة سعد و نحس الأيّام على أنّها مجعولة من أجل شدّ المسلمين بهذه الحوادث التاريخيّة المهمّة، و حثّهم عمليّا على تطبيق ما تستلزمه تلك الحوادث من التفاعل و ما تفرزه من معطيات، و كذلك الابتعاد عن محطّات الحوادث السيّئة و اجتناب سبلها.

و يمكن أن يصدّق هذا التّفسير فى قسم من هذه الرّوايات و لا يصدق على القسم الآخر منها، ذلك لأنّ المستفاد من البعض منها أنّ هنالك تأثيرا ملموسا فى بعض الأيّام (إيجابا و سلبا) و ليس لنا تفسير أو علم لهذا التأثير.

ب- ممّا يجدر الانتباه إليه أنّ هنالك من يفرط فى موضوع سعد و نحس الأيّام، بحيث إنّهم يمتنعون من الشروع بأى عمل إلّا بالاعتماد على هذه الخلفية، و بذلك يفوتون عليهم فرصا كثيرة يمكن الاستفادة منها.

و بدلا من التعمّق فى البحث الموضوعى الذى تحسب فيه حسابات الربح و الخسارة و الاستفادة من الفرص و التجارب الثرية ... فإنّهم يرجعون كسب الأرباح إلى سعد الأيّام و الانتكاسات و الخسارة إلى شؤم الأيّام ... و هذا المنهج يعبّر عن الانهزام من الواقع و الهروب من الحقيقة و الإفراط فى التعليل الخرافى لحوادث الحياة الذى يجب أن نحذّره و نتجنّبه بشدّة.

و الجدير بنا فى هذه المسائل أن لا نعطى آذانا صاغية لأقوال المنجّمين و الإشاعات المنتشرة فى الأجواء الاجتماعية المتخلّفة، و لا لحديث أولئك الذين يدّعون المعرفة المستقبلية لفأل الأشخاص، و نستمرّ فى حياتنا العملية بجهد حثيث و خطى ثابتة و بالتوكّل على اللّه و بروح موضوعية بعيدة عن التأثّر بهذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۱

الحكايات و الأقاويل، و نستمدّ من اللّه وحده العون و الرعاية.

ج- إنّ مسألة الاهتمام بموضوع (سعد و نحس) الأيّام بالإضافة إلى أنّها ترشدنا للكثير من الحوادث التأريخيّة ذات العظة و العبرة، فإنّها أيضا عامل للتوسّل باللّه و التوجّه إلى رحاب عظمته السامقة، و استمداد العون من ذاته القدسيّة، و هذا ما نلاحظه فى روايات عديدة.

ففى الأيّام النحسة مثلا نستطيع أن نطمئن نفسيّا لممارستنا العملية و بكلّ تفاؤل و موفّقية، و ذلك حينما ندعو اللّه و نطلب منه العون و نتصدّق على الفقراء، و نقرأ شيئا من الآيات القرآنية و نتوكّل على الذات الإلهيّة المقدّسة.

روى عن على بن عمر العطّار، أنّه قال: دخلت على أبى الحسن العسكرى يوم الثلاثاء، فقال: لم أرك أمس؟ قال: كرهت الحركة فى يوم الإثنين، قال:

«يا على من أحبّ أن يقيه اللّه شرّ يوم الإثنين، ليقرأ فى أوّل ركعة من صلاة الغداة هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ ... ثمّ قرأ أبو الحسن: فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً[۳۲۱].

و فى هذا الصدد نقرأ الرّواية التالية أيضا

عن الحلبى عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام، أ يكره السفر فى شىء من الأيّام المكروهة، الأربعاء و غيره؟ قال: «افتتح سفرك بالصدقة، و اقرأ آية الكرسى إذا بدا لك»[۳۲۲].

و

ذكر أيضا عن الحسن بن مسعود أحد أصحاب الإمام على الهادى عليه السّلام أنّه قال: دخلت على أبى الحسن على بن محمّد عليهما السّلام، و قد نكبت إصبعى، و تلقّانى راكب فصدم كتفى، و دخلت فى زحمة فخرقوا علىّ بعض ثيابى. فقلت: كفانا اللّه شرّك من يوم فما أشأمك!، فقال عليه السّلام لى: «يا حسن هذا و أنت تغشانا ترمى بذنبك من لا ذنب له».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۲

قال الحسن: فأناب إلىّ عقلى، و تبيّنت خطئى، فقلت يا مولاى: استغفر لى.

فقال عليه السّلام: «يا حسن، ما ذنب الأيّام حتّى صرتم تتشاءمون منها إذا جوزيتم بأعمالكم».

قال الحسن: أنا أستغفر اللّه أبدا، و هى توبتى، يا ابن رسول اللّه.

قال عليه السّلام: «و اللّه ما ينفعكم و لكنّ اللّه يعاقبكم بذمّها على ما لا ذمّ عليها فيه، أما علمت يا حسن أنّ اللّه هو المثيب و المعاقب و المجازى بالأعمال عاجلا و آجلا؟».

قلت: بلى يا مولاى.

قال عليه السّلام: «لا تعد و لا تجعل للأيّام صنعا فى حكم اللّه».

قال الحسن: بلى يا ابن رسول اللّه ۳۲۳].

إنّ هذا الحديث الهامّ يشير إلى أنّ التأثير الممكن حصوله فى الأيّام مردّه إلى أمر اللّه، و ليس للأيّام تأثير مستقل على حياة الإنسان، و لا بدّ من استشعار لطف اللّه دائما، الذى لا غنى لنا عنه أبدا، و بذلك لا ينبغى أن نتصوّر الحوادث التى هى بمثابة كفّارة لأعمالنا و سيئاتنا غالبا على أنّها مرتبطة بتأثير الأيّام و نبرّئ أنفسنا منها، و لعلّ هذا البيان أفضل طريق للجمع بين الأخبار المختلفة فى هذا الباب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۳

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۲۳ الى ۳۲]

اشارة

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (۲۳) فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (۲۴) أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (۲۵) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (۲۶) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ (۲۷)

وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (۲۸) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (۲۹) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۳۰) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (۳۱) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۳۲)

التّفسير

العاقبة الأليمة لقوم ثمود:

تكملة للأبحاث السابقة، تتحدّث الآيات الكريمة باختصار عن ثالث قوم ذكروا فى هذه السورة، و هم (قوم ثمود) الذين عاشوا فى (حجر) الواقعة فى شمال الحجاز، ليستفاد من قصّتهم الدروس و العبر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۴

لقد بذل نبيّهم «صالح» عليه السّلام أقصى الجهد من أجل هدايتهم و إرشادهم و لكن دون جدوى.

قال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ.

قال بعض المفسّرين: أنّ كلمة (نذر) تعنى (الأنبياء المنذرين) و لذا فإنّهم يرون بأنّ تكذيب قوم ثمود لنبيّهم صالح عليه السّلام كان بمثابة تكذيب لكلّ الأنبياء، ذلك أنّ دعوة الأنبياء أجمع هى دعوة واحدة و منسجمة، لكن الظاهر أنّ (نذر) جاءت هنا جمع (إنذار) و هو الكلام الذى يتضمّن التهديد، و الذى هو الطابع العام لكلام الأنبياء جميعا عليهم السّلام.

و يستعرض سبحانه سبب تكذيبهم (الأنبياء) حيث يقول على لسان قوم ثمود: فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ، إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ.

نعم، إنّ الكبرياء و الغرور و النظرة المتعالية تجاه الآخرين، بالإضافة إلى حبّ الذات كانت حاجزا عن الاستجابة لدعوة الأنبياء عليهم السّلام، لقد قالوا: إنّ (صالح) شخص مثلنا و ليست له أىّ امتيازات علينا ليصبح زعيما و قائدا نطيعه و نتّبعه، كما لا يوجد سبب لاتّباعه.

و هذا هو الإشكال الذى تورده جميع الأقوام الضالة على أنبيائها بأنّهم أشخاص مثلنا، و لذا لا يمكن أن يكونوا أنبياء إلهيين.

و استفاد قسم آخر من المفسّرين من تعبير (واحدا) أنّ قوم صالح كانوا ينظرون إلى نبيّهم أنّه شخص (عادى) و ليس له مال وفير و لا نسب رفيع يمتاز به عليهم.

كما يفسّر البعض كلمة (واحدا) أنّه شخص واحد لا يمتلك العمق و الامتداد الاجتماعى الذى يتطلّبه الموقع القيادى فى ذلك العصر، حيث النصرة و المؤازرة.

و هنالك رأى ثالث يذهب إلى أنّ المقصود بكلمة (واحدا) ليس هو الواحد العددى، بل مرادهم الواحد النوعى، أى انّه فرد من نوعنا و جنسنا و نوع البشر لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۵

يستطيع أن يبلغ رسالة سماوية حيث مقتضى ضرورة التبليغ للرسالات السماوية- حسب رأيهم- أن يكون النّبى أو الرّسول (ملكا).

و طبعا يمكن الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة.

و على كلّ حال، فإنّ ادّعاءات قوم صالح كانت واهية و غير منطقية.

(سعر) على وزن (حمر) جمع سعير، و فى الأصل بمعنى اشتعال النار و هيجانها، و فى بعض الأحيان بمعنى (جنون) لأنّ الإنسان المجنون يكون فى حالة هيجان خاصّة، لذا يقال فى بعض الأحيان ناقة مسعورة.

و يحتمل أنّ قوم ثمود أخذوا هذا التعبير من نبيّهم (صالح) عليه السّلام حيث كان يقول لهم: إذا لم تتخلّوا عن عبادة الأصنام و تستجيبون إلى دعوة اللّه فإنّكم فى «ضلال و سعر»، و كان ردّهم: أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ و على كلّ حال فإنّ ذكر كلمة (سعر) بصيغة الجمع جاءت هنا للتأكيد و الاستمرار، سواء كان معناها الجنون أو اشتعال النار.

و تزداد اللجاجة و العناد فى قوم ثمود فيتساءلون: إذا أريد نزول الوحى على إنسان، فلما ذا اختّص بصالح من بيننا، مع وجود الشخصيات الأكثر مالا و الأقوى اعتبارا: أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا.

و فى الحقيقة أنّ هذه الأقوال لها شبه كبير بأقوال مشركى مكّة، ذلك أنّهم شكّكوا برسالة النّبى بأقوال مماثلة: ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ، لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً.[۳۲۴] و تارة يقولون: لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [۳۲۵] ثمّ تساءلوا: إذا قدّر لبشر أن يتصدّى لمهمّة الرسالة الإلهيّة، فلما ذا كان الإختيار لأشخاص مغمورين ليس لهم ظهير من عشيرة و لا كثرة من مال ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۶

هذه الإشكالات التى تحكى السطحية فى التفكير كانت تتناقلها و تتداولها أجيال المشركين جيلا بعد جيل للتشكيك فى الرسالات الإلهيّة، و ذلك لتصوّرهم أنّ من كان خلال افتراضهم أنّ من يتصدّى لهذه المهمّة لا بدّ أن يكون ذا قوّة و قوم و مال و نسب و جاه و

منصب فهو شخصية مهمّة، و هذه الأمور تدلّ على شخصية و كرامة الإنسان، فى حين أنّ أكثر العناصر الظالمة و المتجبّرة هى المتّصفة بالصفات السابقة.

و يمكن تفسير الآية أيضا- كما اختاره بعض المفسّرين- على ضوء التساؤلات التى أطلقها قوم ثمود و التى تتركّز بما يلى: ما هى علّة نزول الوحى على صالح عليه السّلام؟ و لماذا لم ينزل علينا جميعا؟، و ما هى المميّزات التى اختصر بها صالح عليه السّلام ليتميّز علينا بهذا الخصوص!؟ و هذا المعنى ورد أيضا فى سورة المدثر، الآية ۵۲ حيث يقول سبحانه فى ذلك: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً.

ثمّ تختتم الآية بقوله سبحانه: بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ و ذلك اتّهاما لصالح عليه السّلام بالكذب فيما ادّعاه من اختصاص من الوحى به و إنذار قومه و أنّه يريد أن يتحكّم علينا و يجعل كلّ أمورنا تحت قبضته و يسيرنا وفق هواه و إرادته ..

(أشر) وصف من مادّة (أشر) على وزن (قمر) بمعنى بطر و مرح زائد عن الحدّ.

و يردّ البارئ عزّ و جلّ عليهم بصورة قاطعة بقوله: سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ.

و عند ما يدركهم العذاب الإلهى و يسوّيهم مع التراب و يحوّلهم رمادا، و بعد أن يجازيهم اللّه بأعمالهم فى يوم لا ينفع فيه مال و لا بنون ... عندئذ سيدركون حقيقة اتّهاماتهم الزائفة التى اتّهموا بها نبى من أنبياء اللّه المقرّبين، و سيعلمون أيضا أنّ هذه الافتراءات هى أحقّ بهم و ألصق.

و معلوم أنّ المراد من «غدا» هو المستقبل القريب، و إنّه حقّا لتعبير رائع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۷

و السؤال المطروح هنا: فى الوقت الذى نزلت هذه الآيات على قوم ثمود كان العذاب قد وقع عليهم مجازاة لأعمالهم، فما معنى (سيعلمون) مع أنّهم قد هلكوا؟

هنالك إجابتان على هذا السؤال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۳۲۷

ولى: إنّ حديث الآيات الكريمة كان موجّها للنبى صالح عليه السّلام، و من المعلوم أنّ العذاب لم يكن قد نزل بهم حينئذ.

الثّانية: إنّ المقصود من (غدا) هو يوم القيامة الذى سيظهر فيه كلّ شىء بوضوح. (و التّفسير الأوّل هو الأنسب عند ملاحظة الآيات اللاحقة).

و هنا يطرح تساؤل آخر: لماذا قال تعالى: سَيَعْلَمُونَ غَداً؟ فى الوقت الذى لمس مشركو قوم ثمود صدق دعوة النّبى صالح عليه السّلام لما شاهدوه من معجزاته غير القابلة للإنكار؟

و يتّضح الجواب على هذا التساؤل إذا علمنا أنّ للعلم مراتب، و يمكن إنكاره من قبل الآخرين فى بعض مراتبه، و قد يصل العلم بهم إلى مرتبة، لا يمكن إنكارها لما تمثّله من حقيقة صارخة متجسّدة للعيان، و المقصود هنا من جملة: سَيَعْلَمُونَ غَداً هو العلم الحقيقى الذى لا يمكن إنكاره، و الذى هو حقيقة العذاب الذى سيحلّ بقوم ثمود بصورة لا ريب فيها مطلقا.

ثمّ يشير سبحانه إلى قصّة «الناقة» التى أرسلت كمعجزة و دلالة على صدق دعوة صالح عليه السّلام حيث يقول: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ.

(الناقة) أنثى البعير، و هى ليست كبقيّة النوق لما تتّصف به من خصوصيات خارقة للعادة، و طبقا للروايات المشهورة فإنّ هذه الناقة قد خرجت من بطن صخرة جبل حجّة دامغة للمنكرين و المعاندين.

معنى «الفتنة»- كما مرّ فى بحث سابق- هو التمحيص و الاختبار، و اكتشاف مدى الإخلاص و الصفاء و الاستقامة عند الإنسان.

و من الواضح أنّ قوم ثمود قد جعلوا أمام إمتحان عسیر، حیث یستعرض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۸

سبحانه هذا الاختبار لهم بقوله: وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَیْنَهُمْ کُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ[۳۲۶] یوم لهم و یوم للناقة.

و مع أنّ القرآن الکریم لم یوافنا بتفاصیل أکثر حول هذا الموضوع، و لکن کما یذکر الکثیر من المفسّرین فإنّ ناقة صالح علیه السّلام کانت تشرب کلّ الماء یوم یکون شربها، و یعتقد البعض الآخر أنّ هیئتها و وضعها کانا بشکل یدفع الحیوانات إلی الفرار من الماء عند ما تقترب الناقة نحوه، و لذلک فإنّهم اقترحوا حلا و هو: أن یکون الماء یوما لهم و آخر للناقة.

و علی کلّ حال فإنّ هؤلاء القوم وقعوا فی مضیقة من ناحیة الماء، و لم یطیقوا وجود الناقة و مشاطرتها لمائهم یوما کاملا خصوصا ما یحتمله بعض المفسّرین من شحّة الماء فی القریة (مع العلم أنّ هذا لا یتناسب مع ما ذکر فی الآیات (۱۴۶- ۱۴۸) من هذه السورة، حیث المستفاد من هذه الآیات أنّ هؤلاء القوم کانوا یعیشون فی أرض ملیئة بالبساتین و العیون).

و علی کلّ حال فإنّ قوم ثمود المتمرّدین عقدوا العزم علی قتل الناقة، فی الوقت الذی حذّرهم نبیّهم صالح علیه السّلام من مسّها بسوء، و أخبرهم بأنّ العذاب الإلهی سیقع علیهم بعد فترة وجیزة إن فعلوا ذلک.

و نظرا لاستخفافهم بهذا التحذیر (فقد نادوا أحد أصحابهم حیث تصدّی للناقة و قتلها) یقول اللّه سبحانه: فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطی فَعَقَرَ.

و یمکن أن یکون المراد ب (صاحب) أحد رؤساء ثمود، و کان أحد أشرارهم المعروفین و یعرف فی التاریخ ب (قدارة بن سالف)[۳۲۷].

و (تعاطی) فی الأصل بمعنی تناول الشیء، أو تبنّی الموضوع و تقال أیضا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۹

عند إنجاز الأعمال المهمّة و الخطیرة و کذلک الأعمال الشاقّة، أو العمل المقابل بعوض.

کلّ هذه التفاسیر تجمّع فی الآیة مورد البحث، لأنّ الإقدام علی القتل یستدعی جرأة و خسارة کبیرة، کما أنّه عمل شاقّ، و کذلک یستلزم اجرة فی الغالب.

(عقر) من مادّة (عقر) علی وزن (ظلم) و فی الأصل بمعنی الأساس و الجذر، و إذا استعمل هذا المصطلح بخصوص الناقة فإنّه یعنی القتل و النحر.

و الجدیر بالذکر أنّ قتل الناقة نسب لشخص واحد فی هذه الآیة، فی الوقت الذی یلاحظ نسبة القتل فی سورة (الشمس) لقوم ثمود جمیعا حیث یقول سبحانه: فَعَقَرُوها، و یمکن تعلیل هذا الأمر بأنّ فعل الشخص القاتل کان نیابة عن الجمیع و برضاهم، و کما نعلم فإنّ الذی یرضی بفعل قوم یکون شریکا لهم فیه ۳۲۸].

و جاء فی بعض الرّوایات أنّ (قدارة) کان قد شرب مسکرا، و قد أقدم علی هذا العمل القبیح و الجنایة الکبیرة و هو فی هذه الحالة.

و فی طریقة قتل الناقة أقوال کثیرة، حیث یذهب البعض إلی أنّ قتلها کان بالسیف، و یقول البعض الآخر: إنّ (قدارة) قد نصب لها کمینا وراء صخرة و ضربها بالسهم أوّلا ثمّ هجم علیها بالسیف.

و تأتی الآیة الکریمة اللاحقة مؤکّدة إنذارهم قبل نزول العذاب الشدید علیهم، حیث یقول سبحانه: فَکَیْفَ کانَ عَذابِی وَ نُذُرِ ثمّ وقع العذاب و السخط الإلهی علی هؤلاء المتمرّدین المعاندین حیث یضیف سبحانه: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ صَیْحَةً واحِدَةً فَکانُوا کَهَشِیمِ الْمُحْتَظِرِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۰

«الصیحة» هنا تعنی الصوت العظیم الذی یأتی من السماء، و یحتمل أن یکون إشارة للصاعقة المخیفة التی ضربت قریتهم، حیث یقول سبحانه: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُکُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ.[۳۲۹] (الهشیم) من مادّة (هشم) علی وزن «حسم» و فی الأصل

بمعنى انكسار الأشياء الضعيفة كالنباتات، و تطلق عادة على النباتات اليابسة المتكسّرة التى يهيؤها الرعاة لمواشيهم بعد سحقها، كما تطلق أحيانا على النباتات اليابسة المسحوقة بأرجل الحيوانات فى الحضيرة.

(محتظر) فى الأصل من مادّة (حظر) على وزن (حفز) بمعنى المنع، و لذلك فإنّ إعداد الحظائر للحيوانات و المواشى تكون مانعة لها من الخروج و لدرء المخاطر عنها، و مفردها (الحظيرة)، و «محتظر» على وزن محتسب- هو الشخص الذى يملك مثل هذا المكان.

و الاستعراض الذى ذكرته الآية الكريمة حول عذاب قوم ثمود عجيب جدّا و معبّر للغاية، حيث لم يرسل اللّه لهم جيوشا من السماء أو الأرض للتنكيل بهم، و إنّما كان عذابهم بالصيحة السماوة العظيمة، فكانت صاعقة رهيبة، أخمدت الأنفاس، و كان انفجارا هائلا حطّم كلّ شيء فى قريتهم، فأصبحت بيوتهم و قصورهم كحظيرة المواشى، و أجسادهم المحطّمة كالنبات اليابس المرضوض المهشّم.

إنّ استيعاب هذا اللون من العذاب كان صعبا و عسيرا للأقوام السالفة، و لكنّه يسير بالنسبة لنا، و ذلك من خلال معرفتنا لتأثير الأمواج الناتجة من الإنفجارات، حيث أنّها تحطّم كلّ شيء يقع ضمن دائرة إشعاعاتها.

و من الطبيعى أنّنا لا نستطيع المقارنة بين الإنفجارات البشرية و صاعقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۱

العذاب الإلهى التى أشاعت الدمار الرهيب فى هؤلاء القوم الحمقى المستبدّين، و على بيوتهم و قصورهم، عسى أن يكون عبرة و درسا للآخرين، حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

و هكذا تنهى الآيات الكريمة هذا المشهد المثير بالتأكيد على ضرورة الاستفادة من هذه الدروس البليغة، حيث التعابير الحيوية الواضحة، و القصص المعبّرة، و الإنذارات المحفّزة و التهديدات القويّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۲

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۳۳ الى ۴۰]

اشارة

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (۳۳) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (۳۴) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِى مَنْ شَكَرَ (۳۵) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (۳۶) وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِى وَ نُذُرِ (۳۷)
وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (۳۸) فَذُوقُوا عَذابِى وَ نُذُرِ (۳۹) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۴۰)

التّفسير

المصير الأكثر شؤما:

نلاحظ فى هذه الآيات تعبيرات قصيرة و قويّة حول قصّة «قوم لوط» و العذاب الشديد الذى حلّ بهم، و هم المجموعة الرابعة من الأقوام التى اتّصفت بالقبح و الضلال و التى استعرضتهم هذه السورة المباركة ... حيث يبدأ الحديث عنهم بقوله سبحانه: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ.

و «نذر» كما ذكر سابقا جمع (إنذار) و تعنى التهديد و التخويف، و من المحتمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۳

أن يكون المراد بها بعد ذكرها بصيغة الجمع هو الإنذارات المتعاقبة من النّبى لوط عليه السّلام لقومه، و التى كذّب بها أجمع، كما

يمكن أن يكون المقصود منها هو إشارة إلى إنذار لوط عليه السّلام و الأنبياء الذين سبقوه فى الدعوة إلى اللّه، ذلك أنّ جميع الأنبياء يسعون من أجل تثبيت حقيقة أساسية واحدة و هى العبودية للّه.

و تستعرض الآيات التالية بجمل قصيرة مشاهد من العذاب الذى نزل بقوم لوط و كيفية نجاة عائلته حيث يقول سبحانه: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً.

و «حاصب» تعنى الريح الشديدة التى تأتى بالحجارة و الحصباء، و الحصباء هى الحصى، و يكون المقصود: إنّا أمطرناهم بالحجارة و الحصباء حتّى علت أجسادهم و دفنوا تحتها، إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ.

و تتحدّث الآيات القرآنية الاخرى عن هول العذاب الذى حلّ بقوم لوط حيث الزلازل التى قلبت مدنهم فأصبح عاليها سافلها، و بذلك أصيبت بكارثة الدمار الماحق ... و تتحدّث عن مطر الحجارة و الحصى الذى نزل عليهم بشدّة، فيقول سبحانه فى ذلك: فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ.[۳۳۰] و يثار السؤال التالى و هو: هل أنّ العذاب الذى نزّل بقوم لوط كان على نوعين: الأوّل: العاصفة التى حملت الحجارة و حصى الصحراء و قذفتهم بها.

و الثانى: الأحجار السماوية من السجّيل المنضود. أو أنّهما كانا نوعا واحدا؟ حيث العواصف العظيمة المحمّلة بالحصى و الحجارة المأخوذة من الصحراء ترفعه العواصف العاتية نحو السماء ليعود مرّة اخرى إلى الأرض بعد انخفاض العواصف باتّجاهها.

و لذا فليس من المستبعد أن تأخذ العاصفة قسما من الحصى و الحجارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۴

و ترفعها إلى السماء بأمر من اللّه تعالى لتسقط مرّة اخرى على مدنهم بعد أن أصابها الزلزال العظيم، فتطمس معالمها المدمّرة، و تمحو آثار خرائبها من على وجه الأرض، و تدفن أجسادهم و تنهى كلّ أثر لهم، كى يكونوا إلى الأبد عبرة و عظة للآخرين [۳۳۱].

و الذى يفهم من الآية السابقة أنّ نجاة آل لوط كان فى وقت السحر، و السبب فى ذلك أنّ الوعد بالانتقام الإلهى من قوم لوط كان وقت الصبح، لذلك- بأمر من اللّه- قد نجت هذه العائلة المؤمنة بخروجها من المدينة آخر الليل- باستثناء زوجته التى تنكّبت و أعرضت عن دعوته- حيث لم يمض وقت طويل حتّى نزل العذاب عليهم زلزالا- و عاصفة عاتية تمطرهم بالحصى و الحجارة، كما يتحدّث القرآن الكريم عن هذا المشهد المثير فى سورة هود و يقول: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ [۳۳۲].

و من هنا يتّضح عدم تناسب أقوال المفسّرين الذين اتّبعوا أقوال أئمّة اللغة و ذلك باعتبارهم «السحر» ما بين الطلوعين فى الآية أعلاه [۳۳۳].

و يضيف البارئ عزّ و جلّ بقوله: نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ[۳۳۴].

إنّ لوطا عليه السّلام قد أتمّ الحجّة على قومه قبل أن ينزل البلاء عليهم، حيث يوضّح اللّه سبحانه هذه الحقيقة فيقول تعالى: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ.

(بطش) على وزن (فرش) و تعنى فى الأصل أخذ الشيء بالقوّة، و لأنّ المجرم لا- يؤخذ إلّا بالقوّة ليلقى جزاءه، لذلك فإنّها تعنى المجازاة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۵

(تماروا) من (تمارى) بمعنى محادثة طرفين لإيجاد الشكّ و إلقاء الشبهة مقابل الحقّ، فهؤلاء سعوا بطرق مختلفة إلى إلقاء الشكوك و الشبهات بين الناس لإبطال تأثير إنذارات هذا النّبى العظيم «لوط» عليه السّلام.

و لم يكتف هؤلاء المعاندون بإلقاء الشبهات العقائدية بين الناس، بل بلغت بهم الوقاحة و الصلف و عدم الحياء حدّا أنّهم تجرّؤوا على ملائكة الرحمن و ضيوف النّبى الكريم المأمورين بعذاب هؤلاء القوم حينما دخلوا بيت لوط عليه السّلام بصورة شباب و سيمين،

حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ أى أنّهم طلبوا منه أن يضع ضيوفه تحت تصرّفهم.

لقد بلغ الألم الذى اعترى «لوطا» عليه السّلام حدّا لا يطاق نتيجة هذا التصرّف القبيح و المخجل لقومه، و طلب بإصرار أن يكفّوا عن هذا السلوك المشين المخجل البعيد عن الشرف و الحياء. بل و أدبى استعداده عليه السّلام لتزويج بناته لهم- إن أعلنوا توبتهم- و هذه أعلى حالات المظلومية التى يتعرّض لها هذا النّبى الكريم من قبل قوم عديمى الحياء و الإيمان و القيم الخيرة، كما فى قوله سبحانه: قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ [۳۳۵] و لم يمض وقت طويل حتّى واجهت هذه الفئة المجرمة الباغية الجزاء الأوّلى لعملهم الإجرامى حيث يقول فى ذلك سبحانه: فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ.

إنّ يد القدرة الإلهيّة امتدّت لتنتقم من هؤلاء القوم المجرمين، و ذلك بأن طمست على أعينهم، حيث يقول البعض بأنّ جبرائيل قد امر أن يخفق بجناحهم على عيونهم حيث فقدوا بصرهم حالا، و قيل أنّ بؤر أبصارهم قد أصبحت مستوية مع وجوههم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۶

و مع أنّ القرآن الكريم لم يبيّن من هم الأشخاص الذين راودوا (الملائكة) ضيوف النّبى الكريم لوط عليه السّلام، إلّا أنّ من الواضح أنّه لم يكن جميع القوم، بل أوباشهم الأكثر وقاحة و إجراما الذين تسابقوا للقيام بهذا الجرم المشين، و لذا فإنّ العذاب الذى لحقهم فى طمس عيونهم يفترض أن يكون عبرة للآخرين من قومهم. و للأسف الشديد لم يكن هنالك من يتّعظ و يعتبر بهذا الدرس الإلهى البليغ، و الذى كان مقدّمة للعذاب الإلهى المحتوم عليهم جميعا.

و يقال: أنّ سبب تأخير العذاب على قوم لوط إلى الصبح، هو أنّ هذه الحادثة كانت قد وقعت قبل يوم، لذا فقد اعطى لهؤلاء المعاندين مهلة ليلة اخرى عسى أن يفكّروا فى مصيرهم قبل نزول البلاء عليهم، و يعتبروا بهذه الثلّة السيّئة الحظّ ممّن فقدوا بصرهم.

و تذكر الرّواية أنّ الجناة الذين فقدوا بصرهم لم يتّعظوا أيضا بما أصابهم، فقد توعّدوا آل لوط أن لا يبقوا منهم أحدا، و ذلك فى طريق عودتهم إلى بيوتهم و هم يتلمّسون الجدران ليهتدوا بواسطتها إلى أهليهم [۳۳۶].

و جاءت الساعة المرتقبة حيث أمر اللّه بفنائهم و قلبت الزلزلة مدينتهم رأسا على عقب و صبّ عليهم العذاب صبّا مع أوّل خيط من أشعّة فجر ذلك اليوم، فتتمزّق أجسادهم و تتلاشى أبدانهم و تدمّر بيوتهم و تندثر قصورهم و تتحوّل إلى انقاض و خرائب، و إذا بالمطر الحجرى ينهمل عليهم و يطمس كلّ معالم الحياة لديهم حتّى لم يبق أى أثر لهم.

و ذلك ما تشير له الآية الكريمة حيث تعكس هذا المعنى باختصار و تركيز وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ.

نعم، و فى لحظات قصار انتهى كلّ شىء و لم يبق لهم أثر!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۷

كلمة (بكرة) تعنى (أوّل اليوم) لأنّ (صبّحهم) واسع المعنى و يشمل كلّ الصباح، فى الوقت الذى يقصد فى الصباح هنا (أوّله).

و هل كان وقت العذاب الإلهى بداية طلوع الفجر، أو أنّه حصل فى بداية طلوع الشمس؟ إنّ هذا الأمر لم يعرف بالضبط و لكن تعبير (بكرة) يتناسب أكثر مع بداية طلوع الشمس.

كلمة (مستقرّ) تعنى الثبوت و الإحكام، أى بمعنى (ثابت الحكم) و يحتمل أن يكون المراد به هنا هو: أنّ العذاب الإلهى كان شديدا إلى حدّ أنّ أىّ قوة لم تكن قادرة على مواجهته.

و يقال لأنّ العذاب الدنيوى لهؤلاء القوم متّصل مع عذاب البرزخ، لذا اطلق عليه أنّه (مستقرّ).

ثمّ يضيف سبحانه مؤكّدا و مكرّرا مرّة اخرى قوله: فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ.

لكى لا يكون مجال للشكّ و التردّد فى إنذار الأنبياء لكم بعد هذا، و رغم أنّ هذه الجملة ذكرت مرّتين فى القصّة: فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ إلّا أنّه من الواضح هنا أنّ الجملة الاولى تشير إلى العذاب الذى حلّ بالمجموعة التى اقتحمت بيت لوط عليه السّلام و ما نتج من إصابتهم بالعمى مقدّمة للعذاب العامّ، و الثانية إشارة إلى العذاب الذى نزل بقوم لوط أجمع من الزلازل و الدمار و مطر الحجارة.

و فی نهایة المطاف و فی آخر آیة من بحثنا هذا تتکرّر جمل الموعظة و العبرة و للمرّة الرابعة فی هذه السورة بقوله تعالی: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ.

نعم، لم یتّعظ قوم لوط من النـذر، و لم یتّعظوا من العـذاب الأوّل الذی أعمی أبصار البعض منهم و الذی کان بمثابة إنذار لهم فهل أنّ الآخرین الذین یرتکبون نفس الذنوب یتّعظون لدی سماع آیات القرآن هذه و ینوبوا إلی رشدهم و یندموا علی ما فرط منهم؟! ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۸

الآیات [سورة القمر (۵۴): الآیات ۴۱ الی ۴۶]

اشارة

وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (۴۱) کَذَّبُوا بِآیاتِنا کُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِیزٍ مُقْتَدِرٍ (۴۲) أَ کُفَّارُکُمْ خَیْرٌ مِنْ أُولئِکُمْ أَمْ لَکُمْ بَراءَةٌ فِی الزُّبُرِ (۴۳) أَمْ یَقُولُونَ نَحْنُ جَمِیعٌ مُنْتَصِرٌ (۴۴) سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ (۴۵)

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهی وَ أَمَرُّ (۴۶)

التّفسیر

هل أنتم أفضل من الأقوام السابقة؟!

المجموعة الخامسة التی یتحدّث عنها القرآن فی هذه السلسلة هم قوم فرعون، و لأنّ الحدیث عن هؤلاء القوم قد طرح بصورة تفصیلیة فی السور القرآنیة المختلفة، لذا فإنّ هذه السورة المبارکة تسـتعرض هذه القصّة فی مقاطع مختصـرة و مرکّزة حول ضـرورة الاسـتفادة من العبر التی جاءت فیها و الاتّعاظ منها ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۹

یقول سبحانه: وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ[۳۳۷].

المقصود من (آل فرعون) لیسوا أهل بیته و متعلّقیه فقط، بل یشـمل کلّ أتباعه بصورة عامّة، لأنّ کلمة (آل) و بالرغم من أنّها تستعمل فی الغـالب لأهل البیت و العائلـة، إلّا أنّ معناها أوسع من ذلک، حیث تأتی بالمعنی الـذی ذکر، و القرائن العامّـة فی هـذا المورد تؤیّد هذا المعنی الواسع لها.

(نذر) علی وزن (کتب) و هی جمع نذیر، و بمعنی «المنذر» سواء کان هذا المنذر إنسانا أو حادثة من الحوادث التی تحذّر الإنسان من عاقبة أعماله، و فی الحالة الاولی یمکن أن یکون المقصود فی الآیة أعلاه (موسی و هارون) علیهما السّلام، و فی الصورة الثانیة إشارة إلی المعجزات التسع لموسی علیه السّلام، و من خلال ملاحظة الآیة التی بعدها تشیر إلی أنّ المعنی الثانی هو الأنسب.

و الآیـة اللاحقـة تکشف عن ردّ الفعل لآل فرعون من دعوة النبیین الإلهیین علیهما السّـلام، و الإنـذارات التی وجّهوها لهم حیث یقول اللّه سبحانه: کَذَّبُوا بِآیاتِنا کُلِّها.

نعم إنّ هؤلاء المغرورین من الجبابرة و المعاندین قد أنکروا کلّ الآیات الإلهیّة و بدون استثناء، و حسبوها سحرا و کذبا و صدفة.

(آیات) لها معنی واسع تشـمل الـدلائل العقلیة و المعجزات و الدلائل النقلیة، و عند ملاحظة قوله تعالی: وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسی تِسْعَ آیاتٍ بَیِّناتٍ یتبیّن لنا أنّ المقصود ب (الآیات) هنا هی المعجزات التسع لموسی علیه السّلام ۳۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۰

إنّ الإنسان إذا كان صادقا فی البحث عن الحقیقة فانّه یكفیه أن یری واحدة منها، و خاصّة تلك التی یسبقها إنذار، ثمّ بلاء، ثمّ زوال هذا البلاء عند دعاء النّبی الإلهی، و لكن العناد، و الإصرار علی الباطل و الغرور إذا ركب الإنسان، فحتّی لو أصبحت جمیع السماء و الأرض آیات للّه، فلن تكون ذات تأثیر علی أمثال هؤلاء، و الجواب الحاسم المناسب لهم هو العذاب الإلهی الذی یقضی علی النزعات الشریرة و النفوس المریضة التی یملؤها الهوی و الغرور. كما قال تعالی:

فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِیزٍ مُقْتَدِرٍ تكملة للآیة مورد البحث.

«أخذ» فی الأصل بمعنی تناول الشیء و أخذه بالید، و لكون المجرم یؤخذ قبل أن یعاقب، لذا فإنّها تستعمل كنایة عن المجازاة.

و التعبیر الآخر الذی أتی فی آخر هذه القصّة لا یوجد له شبه فی التعابیر المماثلة فی القصص الاخری، و ذلك لأنّ الفراعنة كانوا یتباهون بقوّتهم و سطوتهم و عزّهم أكثر من بقیّة الأمم، و الحدیث عن قوّة سلطانهم كان فی كلّ مكان. یقول اللّه تعالی: فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِیزٍ مُقْتَدِرٍ و ذلك كی یكون واضحا للجمیع أنّ القوّة الحقیقة هی للّه وحده، لأنّ كلّ قوّة و عزّة اخری غیر قوّته و ما یتّصل بذاته وهمیّة لا تساوی شیئا فی قبال عزّته و قدرته ... و العجیب أنّ نهر النیل العظیم الذی كان مصدر خیر و ثروة لهم، هو الذی أمر بالانتقام منهم، و الأعجب من ذلك أنّ أضعف المخلوقات سلّطت علیهم كالجراد و الضفادع و القمل فجعلتهم فی حالة عجز و مسكنة لا یقدرون علی دفعها، و هم الذین كانوا من السطوة و القوّة موضع حدیث أهل زمانهم:

و بعد بیان هذه المشاهد المؤثّرة من قصص الأقوام المنصرمة و العذاب الإلهی العظیم الذی حلّ بهؤلاء الجبابرة المتمردّین علی الحقّ، یخاطب اللّه سبحانه فی الآیة اللاحقة مشركی مكّة بقوله تعالی: أَ كُفَّارُكُمْ خَیْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِی

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۱

الزُّبُرِ[۳۳۹].

فما الفرق بینكم و بین قوم فرعون و قوم نوح و لوط و ثمود؟ فكما أنّ أولئك الأقوام قد عذّبوا بالطوفان تارة و الزلازل و الصواعق اخری، اقتصاصا منهم للكفر و الظلم و الطغیان و العصیان الذی كانوا علیه ... فما المانع أن یصیبكم العذاب و یكون مصیركم نفس المصیر ... فهل أنتم أفضل منهم؟ و هل أنّ كفركم و عنادكم أخفّ حدة؟ و كیف ترون أنّكم مصونون من وقوع العذاب الإلهی؟ أ ألقی إلیكم كتاب من السماء یعطیكم هذا الأمان؟

و من الطبیعی أنّ مثل هذه الادّعاءات ادّعاءات كاذبة لا یقوم علیها أی دلیل أَمْ یَقُولُونَ نَحْنُ جَمِیعٌ مُنْتَصِرٌ[۳۴۰].

«جمع» بمعنی مجموع، و المقصود هنا هی الجماعة التی لها هدف و قدرة علی إنجاز عمل، و التعبیر هنا ب (منتصر) تأكید علی هذا المعنی لأنّه من مادّة (انتصار) بمعنی الانتقام و الغلبة.

و الجدیر بالذكر هنا أنّ الآیة السابقة كانت بصورة خطاب، أمّا فی الآیة مورد البحث و الآیات اللاحقة، فإنّ الحدیث عن الكفّار بلغة الغائب، و هو نوع من أنواع التحقیر، أی أنّهم غیر مؤهّلین للخطاب الإلهی المباشر.

و علی كلّ حال، فإنّ ادّعاءهم بالقوّة و القدرة ادّعاء فارغ و قول هراء، لأنّ الأقوام السابقة من أمثال قوم عاد و ثمود و آل فرعون و أضرابهم كانوا أكثر قوّة و سطوة، و مع ذلك فلم تغن عنهم قوّتهم شیئا حینما واجهوا العذاب، و كانوا من الضعف كالقشّة الیابسة تتقاذفها الأمواج من كلّ مكان، فكیف بمن هو أقل عددا و أضعف حیلة و قوّة و منعة؟

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۲

و یواجه القرآن الكریم هؤلاء السادرین فی غیّهم بإخبار غیبی حاسم و قوی، حیث یقول: سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ[۳۴۱].

و الظریف هنا أن سیهزم من مادّة (هزم) علی وزن (جزم) و فی الأصل بمعنی الضغط علی الجسم الیابس لحدّ التلاشی. و لهذا السبب استعملت هذه الكلمة (هزم) فی حالة تدمیر الجیوش و انكسارها.

و ربّما أشار هذا التعبیر إلی النقطة التالیة و هی: رغم حالة الاتّحاد و الانسجام لهؤلاء القوم ظاهرا، إلّا أنّهم كالموجودات الیابسة و

الفاقدة للروح، فبمجرّد تعرّضها إلى ضغط قوى تتهشّم، و نرى عكس ذلك فى المؤمنين المتصّفين بالقوّة المقترنة بالمرونة، حيث أنّهم إذا ثقلت عليهم المحن و اشتدّت الأزمات و أحنتهم العاصفة فإنّهم سرعان ما يستعيدوا قواهم مرّة اخرى ليواجهوا مصاعب الحياة.

«دبر» بمعنى «خلف» فى مقابل (القبل) بمعنى «أمام»، و سبب ذكر هذه الكلمة هنا لبيان حالة الفرار من ساحة المعركة بصورة كليّة.

لقد صدق هذا التنبّؤ فى معركة بدر و سائر الحروب الاخرى حيث كانت هزيمة الكفّار ساحقة، فإنّه رغم قدرتهم و قوّتهم فقد تلاشى جمعهم.

و فى آخر الآية مورد البحث يشير سبحانه إلى أنّ الهزيمة التى منى بها المشركون سوف لن تكون فى الدنيا فقط، و إنّما هى فى الآخرة أشدّ و أدهى، حيث يقول البارئ عزّ و جلّ: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ.

و على هذا التصوّر، فما عليهم إلّا أن ينتظروا هزيمة ما حقة فى الدنيا، و مصيرا سيّئا و اندحارا أمرّ و أكثر بؤسا فى الآخرة.

«أدهى» من مادّة (دهو) و (دهاء) بمعنى المصيبة و الكارثة العظيمة و التى لا مخرج منها و لا نجاة، و لا علاج لها، و تأتى أيضا بمعنى الذكاء الشديد، إلّا أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۳

المقصود منها فى الآية الكريمة هو المعنى الأوّل.

نعم إنّهم سيبتلون يوم القيامة بعذاب محتّم و عاقبة بائسة لا مفرّ منها.

ملاحظة

تنبّؤ إعجازى صريح:

ممّا لا شكّ فيه أنّه عند ما نزلت هذه الآيات فى مكّة المكرّمة كان المسلمون أقليّة ضعيفة، و كان العدو فى أوج القوّة و القدرة، و لم يكن أحد يتوقّع انتصار المسلمين بهذه السرعة، فهو أمر غير قابل للتصديق فى تلك الظروف، و لا مجال للتنبّؤ به.

و كانت هجرة المسلمين بعد فترة وجيزة من هذا التاريخ حيث اكتسبوا خبرة و قوّة، ممّا جعلهم يحقّقون الإنتصار و الغلبة على المشركين فى أوّل مواجهة عسكرية معهم، و ذلك فى معركة بدر، حيث وجّه المسلمون صفعة قويّة مفاجئة لمعسكر الكفر، و لم يمض وقت طويل إلّا و نلاحظ أنّ الإيمان بالرسالة المحمديّة لم يقتصر على مشركى مكّة فحسب، بل شمل الجزيرة العربية أجمع، حيث استسلمت للدعوة الإلهيّة.

أليس هذا النبأ الغيبى الإلهى الذى واجهنا بهذه الصراحة و الجديّة معجزة؟

و من الواضح أنّ أحد عناصر الإعجاز فى القرآن الكريم هو تضمّنه للأخبار الغيبية، و هذا ما نلاحظه فى الآية مورد البحث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۴

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۴۷ الى ۵۵]

اشارة

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (۴۷) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (۴۸) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (۴۹) وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (۵۰) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۵۱)

وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (۵۲) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (۵۳) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ (۵۴) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ

(۵۵)

التّفسير

المؤمنون فى ضيافة اللّه:

فى الحقيقة إنّ هذه الآيات هى استمرار لبحث الآيات السابقة حول بيان أحوال المشركين و المجرمين فى يوم القيامة. و آخر آية من تلك الآيات تعكس هذه الحقيقة بوضوح، و هو أنّ يوم القيامة هو الموعد المرتقب لهؤلاء الأشرار فى الاقتصاص منهم، حيث يحمل المرارة و الصعوبة و الأهوال لهم، و التى هى أشدّ و أقسى ممّا أصيبوا به فى هذه الدنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۵

و تتحدّث الآية الاولى- مورد البحث- عن ذلک حيث يقول سبحانه: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ[۳۴۲].

يقول البارئ عزّ و جلّ: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ حيث يبيّن اللّه سبحانه أنّ العذاب الإلهى واقع عليهم و لا ريب فيه، و سيواجهونه عمليّا رغم استهزائهم و سخريتهم و ادّعائهم أنّه من نسج الأساطير.

«سقر» على وزن (سفر) و فى الأصل بمعنى تغيّر لون الجلد و تألّمه من أشعّة الشمس و ما إلى ذلک. و لأنّ إمكانية تغيير لون الجلد و ألمه الشديد من خصوصيات نار جهنّم، لذا أطلق اسم (سقر) عليها. و المراد من (مسّ) هو حالة التماس و اللمس، و بناء على هذا فيقال فى أهل النار: ذوقوا لمس نار جهنّم و حرارتها اللاذعة، ذوقوا طعمها، هل هى أكاذيب و خرافات و أساطير، أم أنّها الحقيقة الصارخة؟

و يعتقد البعض أنّ (سقر) ليس اسم كلّ النار، بل هو اسم مختّص بجانب منها تكون فيه النار حامية لدرجة مذهلة و خارقة.

و

فى ثواب الأعمال عن الصادق عليه السّلام: «إنّ فى جهنّم لواديا للمتكبّرين يقال له سقر شكا إلى اللّه شدّة حرّة، و سأله أن يأذن له أن يتنفّس فأحرق جهنّم»[۳۴۳].

و لكى لا يتصوّر أنّ هذه الشدّة فى العذاب لا تتناسب مع المعاصى، يقول سبحانه: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ.

نعم إنّ عذابهم فى هذه الدنيا كان بتقدير و حساب، و كذلک سيكون عقابهم المؤلم فى الآخرة، و ليس الجزاء فقط، ذلک أنّ اللّه سبحانه خلق كلّ شىء بحساب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۶

و تقدير، فالأرض و السماء و الكائنات الحيّة و الموجودات الجامدة و أعضاء الإنسان و مستلزمات الحياة كلّها خلقت بقدر معلوم، و لا يوجد شىء فى هذا الوجود بدون حساب و تقدير، لأنّ الخلّاق عليم حكيم و مقدّر.

ثمّ يضيف تعالى إنّه ليست أعمالنا موافقة للحكمة فحسب، بل انّها مقترنة مع القدرة و الحسم، لأنّه: وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ.

و تتجسّد الإرادة الربّانية و الأوامر الإلهيّة من خلال كلمة «كن» فيترتّب على ذلک فورا وجود الشىء. (حتّى كلمة «كن» جاءت من باب ضيق البيان، و إلّا فإنّ الإرادة الإلهيّة متحقّقة بمجرّد الإرادة).

و لذلک فإنّ اليوم الذى تقوم فيه الساعة يحدث بأمر اللّه بلمح البصر، و كلّ شىء يكون فى مسار الآخرة حينئذ، و تبعث الحياة من جديد فى الأبدان.

كما أنّ المشيئة الإلهية فى مجازاة المجرمين بالصواعق و الصيحات السماوية و الزلازل و الطوفان و الرياح العاتية ... كلّ ذلک يحدث

بمجرّد الأمر الإلهى و بدون تأخير.

إنّ هـذه الإنذارات الموجّهة للعصاة و المذنبين كلّها من أجل أن يعلموا أنّ اللّه، كما هو حكيم فى أمره فإنّه حازم فى فعله، فهو حكيم فى عين الحزم، و حازم فى عين الحكمة، فليحذروا مخالفة تعاليمه و أوامره.

و فى الآية اللاحقة يخاطب الكفّار و المجرمين مرّة اخرى، و يلفت انتباههم.

إلى مصير الأقوام السابقة حيث يقول: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

«أشياع» جمع (شيعة) و تطلق على الأتباع الذين ينشرون و يشيعون ما يرتبط بالشخص المتّبع فى كلّ الحالات و يسندونه و يناصرونه، و إذا استعملت بمعنى (تابع) فإنّها تكون بنفس القصد.

و من الطبيعى فإنّ الأقوام السابقة لم يكونوا أتباعا و شيعة لمشركى مكّة و أمثالهم، بل العكس هو الصحيح، و لكن بما أنّ المؤيّدين لشخص ما يشبّهونه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۷

سلوكه، لذا فإنّ هذا المصطلح يطلق على الشبيه و المماثل أيضا.

و يجدر بنا القول بأنّ هذه الطائفة من مشركى مكّة كانوا يستعينون و يستفيدون من الخطّ الفكرى الذى كانت الأقوام السابقة عليه، و لهذا السبب فإنّ كلمة (أشياع) أطلقت على الأقوام السابقة.

و على كلّ حال، فإنّ الآية الكريمة تؤكّد هذه الحقيقة مرّة اخرى، و هى أنّ أعمال مشركى قريش و ممارساتهم هى نفس أعمال و ممارسات و عقائد الأقوام السابقة، لذا فلا يوجد دليل على أنّ مصيركم سوف يكون أفضل من مصيرهم، فاتّعظوا وعوا.

ثمّ يشير القرآن إلى هذا الأصل و هو أنّ صفحة أعمال الأقوام السابقة لم تنته بموتهم، بل هى باقية و مسجّلة عليهم، يقول سبحانه: وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ فكذلك أعمالكم مثبّتة و محفوظة ليوم الحساب.

«زبر» جمع (زبور) بمعنى الكتاب، و هى تشير إلى صحيفة أعمال الإنسان، و يحتمل البعض أنّ المقصود هنا هو: «اللوح المحفوظ»، و لكن هذا المعنى لا يتناسب مع صيغة الجمع.

ثمّ يضيف سبحانه: وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ.

و بناء على هذا فحاسب الأعمال فى ذلك اليوم هو حساب شامل و تامّ لا يغادر صغيرة و لا كبيرة، حيث يستلم المرجمون صفحة أعمالهم كاملة، فيصعقون لهولها و يصطرخون لدقّتها وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها.[۳۴۴]

«مستطر» من مادّة (سطر) فى الأصل بمعنى (صفّ) سواء ما يتعلّق بالأفراد أو الأشجار أو الكلمات التى تصف على الأوراق، و لكون المعنى الأخير أكثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۸

استعمالا، لذا يتبادر إلى الذهن معناها الأخير.

و على كلّ حال فإنّه إنذار آخر لهؤلاء العاصين و المغفّلين و الجهلة.

و لمّا كانت السنّة المتّبعة فى القرآن الكريم غالبا ما تعتمد المقارنة بين جبهة الصلاح و الهدى من جهة، و جبهة الفساد و الضلال من جهة اخرى، لأنّ فى المقارنة يبرز التفاوت و الاختلاف بصورة أفضل، فهنا أيضا بعد الحديث عن مصير الكفّار و المجرمين يشير سبحانه إشارة مختصرة إلى العاقبة السعيدة و الحبور العظيم الذى يكون من نصيب المتّقين حيث يقول سبحانه: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ.

(نهر) على وزن (قمر)، و كذلك (نهر) على وزن (قهر) و الاثنان يعنيان مجرى الماء الكثير، و لهذا يطلق على الفضاء الواسع كذلك، أو الفيض العظيم أو النور المنتشر (نهر)- على وزن قمر-.

و بغضّ النظر عن الحديث اللاحق، يمكن أن يكون هذا المصطلح فى الآية أعلاه بنفس المعنى الأصلى، أى أنّ كلمة (نهر) بمعنى نهر الماء، و لا إشكال فى كون الكلمة بصيغة المفرد، لكونها تدلّ على معنى الجنس و الجمع، فينسجم مع (جنّات) جمع «جنّة»، و يمكن أن يكون المراد منها هو اتّساع الفيض الإلهى و النور العظيم فى ظلال الجنّة و رحابها الواسعة، و بذلك تشمل المعنيين.

و لكن نقرأ هنا فى حديث للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى نقل

عن الدرّ المنثور أنّه قال: «النهر: الفضاء و السعة، و ليس بنهر جار»[۳۴۵].

و فى آخر آية مورد البحث و التى هى آخر آية فى سورة القمر يوضّح البارئ بصورة أكثر (مستقر المتّقين) حيث يقول سبحانه أنّهم: فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ.

و يا له من وصف رائع و ظريف! حيث أنّ هذا الوصف يتميّز بخصوصيتين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۹

تجمعان كلّ السماوات الرائعة:

الأولى: أنّ المكان هو (مستقرّ صدق) و ليس فيه باطل، بل كلّه حقّ يجد فيه المتّقون كلّ ما وعدوا به كاملا غير منقوص.

الثانية: أنّهم فى جوار و قرب اللّه سبحانه، و هذا هو المستفاد من كلمة (عند) و الذى يشير إلى غاية القرب المعنوى. و هذا القرب هو من اللّه المالك القادر .. ما أروعه عن قرب من الربّ الكريم الوهّاب و الذى يمنح العطايا و الهبات لضيوفه المتّقين بجميل لطفه و عظيم إحسانه و واسع كرمه، حيث جميع ما فى الوجود تحت قبضته و إمرته و مالكيته، و هو المنّان الذى لا ينقصه شىء فى السماوات و الأرض، و الذى و عد المتّقين بالخير العظيم و أعدّ لهم عظيم العطايا و الإحسان.

و النقطة الجديرة بالذكر فى هاتين الآيتين و التى تتحدّث فيها عن الهبات و جزاء أصحاب اليمين، حيث فى البداية تتحدّث عن العطايا الماديّة التى تشمل البساتين الوارفة و الحدائق الغنّاء و الأنهار الجارية، ثمّ تتحدّث بعد ذلك عن الجزاء المعنوى العظيم، و الذى يتجسّد بحضورهم من المليك المقتدر. و ذلك تهيئة للإنسان من مرحلة إلى اخرى، يغمرها الشوق و الحبور، و الرغبة فى العمل الصالح، خصوصا أنّ تعابير (المليك) و (المقتدر) و (مقعد صدق) تدلّ جميعها على دوام و بقاء هذا الحضور و القرب المعنوى من الذات الإلهيّة.

بحوث

۱- التّقدير و الحساب فى كلّ شىء

تشير الآية الكريمة إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ رغم إيجازها إلى حقيقة مهمّة كامنة فى جميع الكون و حاكمة عليه، و هى دقّة الخلق و التقدير فى جميع الوجودات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۰

و مهما تطوّر العلم فانّ الإنسان يطّلع على مزيد من هذه الحسابات و التقديرات الإلهيّة الدقيقة فى عالم الوجود، و التى تشمل الكائنات المجهرية و الأجرام السماوية العظيمة.

فمثلا: نسمع عن روّاد الفضاء أنّهم طبقا للحسابات العلمية الدقيقة التى أنجزت بواسطة مئات الأفراد المتخصّصين المستخدمين العقول الإلكترونية، أنّهم سيهبطون بسفنهم الفضائية بنفس النقطة المحدّدة لهم على سطح القمر، مع العلم أنّ كلّ شىء سيتغيّر فى الفترة الزمنية التى تسير فيها السفينة الفضائية بين الأرض و القمر، حيث يدور القمر حول نفسه و كذلك حول الأرض و يتغيّر مكانه بصورة

کلیّة، و تدور الأرض حول نفسها، و کذلک حول الشمس و بسرعة فائقة. و لأنّ جمیع هذه التغییرات و الحرکات محسوبة، و مقدّرة بصورة مضبوطة و دقیقة بحیث لا تتخلّف عن هذه الأنظمة، یستطیع الفضائیون الهبوط فی النقطة المحدّدة لهم علی سطح القمر نتیجة تلک الحسابات و التقدیرات الدقیقة.

و یستطیع المنجّمون کذلک من التنبّؤ بالخسوف و الکسوف الجزئی و الکلّی، و قبل عشرات السنین، و فی مختلف نقاط العالم، و تلک قرائن و دلائل علی دقّة المقاییس فی هذا الوجود العظیم.

و فی الکائنات الصغیرة و الدیدان الدقیقة نلاحظ دقّة المقاییس و الحساب بصورة تدعو للظرافة و الإعجاب و الانبهار عند ما نشاهد طبیعة العروق و الأعصاب و الأجهزة المختلفة لهذه الکائنات.

و عند ما ندقّق فی الکائنات المجهریة کالمکروبات و الفیروسات و الأمیبیات یبلغ إعجابنا أوجه لما نلاحظه من الدقّة فیها، حیث إنّ الواحد علی الألف من الملیم و أصغر من ذلک یدخل فی عالم الحساب، و الأعجب من ذلک حینما ندخل عالم الذرّة حیث تصل الدقة فیها إلی حدّ لا یصدّق و خارج عن الحدود المألوفة.

إنّ هذه المقاییس لیست مختصّة بالمسائل الکمیّة فقط، بل إنّ الترکیبات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۱

الکیفیة أیضا تتمتّع بنفس الخصوصیات الحسابیة، فالنظام المتحکّم علی روح الإنسان و میوله و غرائزه، و کذلک المقاییس الدقیقة فی مسیر المتطلّبات الفردیة و الاجتماعیة للإنسان إذا طرأ علیها أی تغییر فإنّ النظام الحیاتی الفردی و الاجتماعی سیتعرّض للتغیّر و الانهیار.

و فی عالم الطبیعة هنالک موجودات یتغذّی بعضها علی البعض الآخر، و کلّ منها یوقف حالة النمو و التکاثر لکلّ منها، فالطیور الجارحة تتغذّی علی لحوم الطیور الصغیرة، و تمنع تزایدها بصورة أکثر من اللازم حتّی لا تضرّ المحاصیل الزراعیة، و لذا فإنّ الطیور الجارحة معمّرة، و هذه الطیور المعمّرة قلیلة البیض و الفراخ، و عدد محدود من هذه الأفراخ یستطیع العیش، حیث یستدعی نموّها و بقاؤها ظروفا خاصّة، و لو قدّر لهذه الطیور أن یکون لها فراخا کثیرة و بهذا العمر الطویل لأدّی ذلک إلی انقراض الطیور الصغیرة.

إنّ لهذه الحالة أمثلة عدیدة و واسعة فی عالم الحیوان و النبات، و المطالعات المختلفة فی هذا المجال تزیدنا وعیا فی فهم الآیة الکریمة: إِنَّا کُلَّ شَیْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ.

۲- التقدیر الإلهی و إرادة الإنسان

قد یتوهّم البعض من خلال ما طرحته الآیة الکریمة من الإعتقاد بالتقدیر و الحساب الإلهی أنّ أعمالنا و ممارساتنا التی قوم بها لا بدّ أن تکون واقعة ضمن هذا القانون فهی مخلوقة للّه تعالی أیضا و بالتالی فلسنا مسئولین عنها و لا اختیار لنا فیها.

و لکن کما قلنا سابقا فإنّ أعمالنا هی بتقدیر و مشیئة الباریء عزّ و جلّ، و لن تخرج عن دائرة قدرته و إرادته أبدا، و قد جعلنا اللّه سبحانه مختارین فیها ضمن ما قدّر لنا، و لذلک عیّن لنا مسئولیات و تکالیف فلو لم نکن مختارین فإنّ هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۲

المسؤولیات و التکالیف ستکون بلا معنی حیث أنّ فقدان الإرادة یجعلنا مجبورین فی أعمالنا، و هذا خلاف التقدیر الإلهی.

و نلاحظ فی مقابل إفراط (الجبریین) تفریط جماعة (القدریین) أو المفوّضة الذین یذهبون صراحة إلی القول بأنّ اللّه لا یتدخّل فی أعمالنا و ممارساتنا، حیث إنّهم یحدّون و یحجمون دائرة الهیمنة الإلهیّة علی الإنسان و یعتقدون باستقلالیتهم تماما عن المشیئة الإلهیّة، و بذلک سلکوا طریق الشرک من هذه الجهة.

و الحقيقة أنّ الجمع بين أصلى (التوحيد و العدل) يحتاج إلى دقّة و ضبط، فلو فسّرنا التوحيد بأنّ اللّه خالق كلّ شيء حتّى أعمالنا بشكل لا- نملك أى إختيار فيها فإنّنا نكون بذلك قد أنكرنا أصل العدل، لأنّ مقترفى الذنوب مجبرون على ارتكاب المعاصى ثمّ ينتظرهم الجزاء المتمثّل بالعقاب، و هذا خلاف العدالة.

و إذا فسّرنا «العدل» بأنّ اللّه تعالى ليس له أى لون من التدخّل فى أعمالنا فإنّنا سنخرج الإرادة الإلهيّة من الهيمنة علينا، و عندئذ نقع فى وادى الشرك.

و يمثّل مفهوم «الأمر بين الأمرين» الإيمان الخالص و الصراط المستقيم و خطّ الوسط بين (الجبريين و القدريين) و هو أن نعتقد بأنّنا مختارين، و اختيارنا هذا يكون ضمن الهيمنة الإلهية، حيث تستطيع الإرادة الإلهية فى أى لحظة أن تسلب منّا هذا الإختيار، و هذا ما يذهب إليه أهل البيت عليهم السّلام.

و النقطة الجديرة بالذكر أنّه وردت فى نهاية الآيات مورد البحث روايات عديدة فى ذمّ هاتين الجماعتين فى كتب تفسير أهل السنّة و الشيعة، و من جملتها نقرأ

فى حديث النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «صنفان من امّتى ليس لهم فى الإسلام نصيب المرجئة و القدرية، أنزلت فيهم آية فى كتاب اللّه: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ»[۳۴۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۳

«المرجئة» من مادّة (إرجاء) بمعنى تأخير الشيء، و هذا اصطلاح يستعمل للجبريين، لأنّهم لم يلاحظوا الأوامر الإلهيّة و ارتكبوا المعاصى لظنّهم أنّهم مجبورون، أو لاعتقادهم أنّ مصير مرتكبى الذنوب الكبيرة غير معلوم لتصوّرهم أنّ البتّ فيها مؤجّل إلى يوم القيامة[۳۴۷].

كما نقرأ

فى حديث للإمام الباقر عليه السّلام: «نزلت هذه الآية فى القدرية: ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا* كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ[۳۴۸].

إشارة إلى أنّ المقصود من التقدير و الحساب هنا أنّ اللّه سبحانه قد جعل لكلّ ذنب ما يناسبه من الحساب و الجزاء الدقيق. و هذا تفسير آخر ممّا فسّرت به الآية.

أو أنّ المقصود بها إلفات نظر الذين أنكروا التقدير الإلهى و ظنّوا أنّ اللّه تعالى ليست له تدخّل فى أعمالهم و أنّهم قادرون على كلّ شيء، و يأتى إليهم التنبيه الإلهى فى ضرورة ملاحظة القدرة الإلهية العظيمة، و إلّا فعليكم أن تذوقوا جزاء انحرافكم و هو مسّ سقر).

۳- الأمر الإلهى كلمة واحدة

من الواضح أن لا فاصلة زمانية بين العلّة التامّة و المعلول، لذلك ورد فى اصطلاح الفلاسفة أن تقدّم العلّة على المعلول أمر رتبى، و بالنسبة إلى الإرادة الإلهية فى أمر الإيجاد و الخلق و الذى هو أوضح مصداق للعلّة التامّة، أو أنّه مصداق وحيد للعلّة التامّة يتّضح هذا المعنى أكثر.

و لذلك فإذا فسّروا الآية: وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ بكلمة (كن) فإنّها من ضيق البيان. و إلّا فإنّ كلمة (كن) مركّبة من الكاف و النون، و هى أيضا تحتاج إلى زمان، حتّى (الفاء) فى (فيكون) و التى توضّح نوعا من الزمان فإنّها من ضيق البيان كذلك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۴

بل حتّى تشبيه كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ[۳۴۹][۳۵۰].

و عند ما يتحدّث عن الأمر الإلهى فى يوم القيامة و يشبهه ب (لمح بالبصر) يضيف (أو هو أقرب).

و على كلّ حال فإنّ الحديث هنا عن الزمان حسب التعبيرات اليوميـة لنا، و كـذلك فإنّ القرآن الكريم يخاطبنا بلغتنا، و إلّا فإنّ أوامر اللّه تعالى فوق الزمان.

و ضمنا فإنّ التعبير ب (واحـدة) يمكن أن يكون إشارة لهـذا المعنى، و هو أنّ أمرا واحـدا يكفى و لا يحتاج إلى تكرار، أو أنّها إشارة إلى أنّ أمره تعالى حول الصغير و الكبير و حتّى خلق السموات الواسعة أجمع لا يختلف عن خلقه لذرّة التراب.

و فى الأصل فإنّ الكبير و الصـغير و السـهل الصـعب يكون فى مقاييسنا الفكرية المحدودة و قدرتنا الضئيلة، أمّا عند ما يكون الحديث عن القدرة الإلهية العظيمة فإنّ هذه المفاهيم تتلاشى تماما، و يصبح الكلّ بلون واحد و شكل واحد، (فتدبّر).

و يطرح هنا «سؤال»: و هو إذا صـحّ معنى الجملـة أعلاه و هو أنّ كلّ شـىء يوجـد آنا (فى الآن) فإنّ هـذا الأمر لا يتناسب مع مشاهـدة التدرّج فى حوادث العالم.

و يتّضـح «الجواب» عنـد ما نلاحظ هذه النقطة، و هى أنّ أمره تعالى فى كلّ مكان و كلّ شـىء هو (كلمة واحدة) و التى تكون أسـرع من لمح البصر، و لكن محتوى الأمر الإلهى متفاوت و مختلف، فإذا صدر الأمر الإلهى للجنين أن يكمل دورته تسعة أشهر، فلن تزيد و تنقص لحظـة واحـدة. و الفورية هنا هى أن يكمل الجنين الدورة فى نهاية المدّة المحدّدة، و لو اعطى أمر للكرة الأرضـية أن تدور فى كلّ أربع و عشـرين ساعة مرّة حول نفسـها؟ فإنّ هذا الأمر غير قابل للتخلّف، و بتعبير آخر فإنّ تنفيذ أمره تعالى لا يحتاج إلى أىّ وقت زمانى، و الموجود هنا هو محتوى الأمر. و من خلال معرفة السنّة التدريجية للعالم المادّى و خاصيّته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۵

و طبيعة الحركة- نلاحظ أنّها تتأثّر بالزمان.

۴- بداية و نهاية سورة القمر

النقطـة الجـديرة بالـذكر أنّ «سورة القمر» بدأت بإنذار و تخويف المشـركين بقرب وقوع يوم القيامة، و انتهت بهدوء يطمئن المؤمنين الحقيقيين فى مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر، و هـذا هو الطريق المرسوم للتربيـة، حيث يبـدأ بالتحـذير و التخويف و ينتهى بطمـأنة النفوس المضـطربة و تقويم الأهواء المنحرفة و رفع الخوف و الاضـطراب و عندئذ تغمر الأرواح بالسـكينة و الهدوء بالقرب من الجوار الإلهىّ الأبدى.

و الحقيقـة أنّ الإيمـان بـأنّ اللّه هو المالـك الـذى ليس له منـازع و الحـاكم الـذى لا رادّ لحكمه فى كلّ الوجود، و اليقين بأنّ اللّه هو المقتدر، النافذة قدرته على كلّ شىء ... يبعث فى الإنسان هدوءا منقطع النظير.

و قد نقل بعض المفسّرين أنّ هذين الاسمين المقدّسين مليك و مقتدر لهما تأثير عميق فى استجابة الدعاء حتّى نقل بعض الرواة: إنّنى داخل المسجد و كنت أتصوّر بأنّه الصبح و لكن تبيّن لى عدم انقضاء الليل و بقى قسط كبير منه، و لم يكن أحد غيرى فى المسجد، و فجأة سـمعت حركة من ورائى، فخفت و لكنّى رأيت أنّ شـخصا مجهولا قد نادانى: أيّها الشـخص المملوء قلبك خوفا لا تخف و قل: «اللهم إنّـك مليك مقتـدر، ما تشاء من أمر يكون». ثمّ اطلب ما تريـد، فيقول: إنّى قرأت هـذا الـدعاء المختصـر و لم أطلب شـيئا إلّا و أجيب [۳۵۱].

ربّنـا، أنت المليـك المقتـدر فتفضّـل علينـا بـالتوفيق فى كـلّ إيمـان و عمل و تقوى، كى نكون فى مقعـد صـدق و فى جوار قربك و رحمتك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۶

إلهنا، نحن نؤمن أنّ يوم القيامة يوم رهيب و صعب و مرّ للعاصين، أملنا فى ذلك اليوم بلطفك و كرمك.

ربّاه، امنحنا روحا يقظة و عقلا واعيا لكى نتّعظ بمصير السابقين و لا نسير فى مسارهم المهلك ..

نهاية سورة القمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۷

سورة الرّحمن

اشارة

مكّية و عدد آياتها ثمان و سبعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۹

«سورة الرّحمن»

محتوى السورة:

توضّح هذه السورة بصورة عامّة النعم الإلهية المختلفة، سواء كانت ماديّة أو معنوية، و التى تفضّل بها البارئ عزّ و جلّ على عباده و غمرهم بها، و يمكن تسميتها لهذا السبب ب (سورة الرحمة) أو (سورة النعمة) و لهذا فإنّها بدأت بالاسم المبارك (الرحمن) الذى يشير إلى صنوف الرحمة الإلهية الواسعة، و تنهى هذه السورة آياتها بإجلال و إكرام البارئ سبحانه، و بإقرار عباده بالنعم التى تفضّل بها عليهم (إحدى و ثلاثين مرّة) و ذلك من خلال تكرار آية: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و بناء على هذا فإنّ السياق العام للسورة يتعلّق بالحديث عن المنن و النعم الإلهيّة المختلفة و العظيمة. و من جهة اخرى فإنّنا نستطيع أن نقسّم محتويات السورة إلى عدّة أقسام:

القسم الأوّل: الذى يشمل أوّل آيات السورة حيث الحديث عن النعم الإلهية الكبيرة، سواء تلك التى تتعلّق بخلق الإنسان أو تربيته و تعليمه، أو الحساب و الميزان، و كذلك سائر الأمور الاخرى التى يتجسّد فيها الخير للإنسان، إضافة إلى الغذاء الروحى و الجسمى له.

القسم الثّانى: يتناول توضيح مسألة خلق الإنس و الجنّ.

القسم الثّالث: يتضمّن توضيح الآيات و الدلائل الإلهيّة فى الأرض و السماء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۰

القسم الرّابع: و فيه بعد تجاوز النعم الإلهية على الإنسان فى الدنيا تتحدّث الآيات عن نعم اللّه فى عالم الآخرة بدقّة و ظرافة، خاصّة عن الجنّة، و بصورة أعمّ و أشمل عن البساتين و العيون و الفاكهة و حور العين و أنواع الملابس من السندس و الإستبرق ...

و أخيرا فى القسم الخامس نلاحظ الحديث باختصار عن مصير المجرمين و جزائهم المؤلم المحسوب ... و لأنّ الأصل فى هذه السورة أنّها مختّصة ببيان الرحمة الإلهيّة، لذا لم نلاحظ تفاصيل كثيرة حول مصيرهم، خلافا لما نلاحظه فى موضوع الحديث عن النعم الخروية حيث التفصيل و الشمول الذى يشرح قلوب المؤمنين و يغمرها بالسعادة و الأمل، و يزيل عنها غبار الحزن و الهمّ، و يغرس الشوق فى نفوسهم ...

إنّ تكرار آية: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ و فى مقاطع قصيرة أعطت وزنا متميّزا للسورة، و خاصّة إذا قرىء بالمعنى المعبّر الذى يستوحى منها ... فإنّ حالة من الشوق و الانبهار تحصل لدى الإنسان المؤمن.

و لذلك فلا نعجب عند ما نقرأ

فى حديث للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «لكلّ شىء عروس، و عروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره»[۳۵۲].

و الجدیر بالذکر أنّ مصطلح «العروس» یطلق فی اللسان العربی علی المرأة و الرجل ما داموا فی مراسیم الزواج [۳۵۳].

و بما أنّ المرأة و الرجل فی تلک المراسم فی أفضل و أتمّ الحالات و أکمل الاحترامات، و من هنا فإنّ هذا المصطلح یطلق علی الموجودات اللطیفة جدّا و موضع الاحترام.

إنّ سبب إختیار اسم (الرحمن) لهذه السورة لتتناسب التسمیة مع المضمون، و هذا واضح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۱

فضیلة تلاوة سورة الرحمن:

إنّ اتّصاف هذه السورة بما یثیر الإحساس بالشکر علی أفضل صورة، و کذلک توضیح و بیان النعم الإلهیة (المادیة و المعنویة) فیها و التی تزید من شوق الطاعة و العبادة فی قلوب المؤمنین کلّ ذلک أدّی إلی ورود روایات کثیرة فی فضل تلاوة هذه السورة تلک التلاوة التی ینبغی أن تنفذ إلی أعماق النفس الإنسانیة و تحرکها باتّجاه الطاعات و بعیدا عن لقلقة اللسان.

و من جملة ما نقرأ

حدیث الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث یقول: «من قرأ سورة الرحمن رحم اللّه ضعفه، و أدّی شکره، و أنعم اللّه علیه»[۳۵۴].

و

عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام أنّه قال: «لا تدعوا قراءة سورة الرحمن و القیام بها، فإنّها لا تقرّ فی قلوب المنافقین، و یأتی بها ربّها یوم القیامة فی صورة آدمی فی أحسن صورة، و أطیب ریح حتّی یقف من اللّه موقفا لا یکون أحد أقرب إلی اللّه منها فیقول لها: من الذی کان یقوم بک فی الحیاة الدنیا و یدمن قراءتک؟ فیقول:

یا ربّ فلان و فلان، فتبیض وجوهم. فیقول لهم: اشفعوا فیمن أحببتم فیشفعون حتّی لا یبقی لهم غایة و لا أحد یشفعون له، فیقول لهم: ادخلوا الجنّة و اسکنوا فیها حیث شئتم»[۳۵۵].

و

فی حدیث آخر عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الرحمن فقال عند کلّ: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ لا شیء من آلائک ربّی أکذّب، فإنّ قرأها لیلا ثمّ مات مات شهیدا، و إن قرأها نهارا فمات مات شهیدا»[۳۵۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۲

الآیات [سورة الرحمن (۵۵): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
الرَّحْمنُ (۱) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (۲) خَلَقَ الْإِنْسانَ (۳) عَلَّمَهُ الْبَیانَ (۴)
الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (۵) وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ یَسْجُدانِ (۶)

التّفسیر

بدایة النعم الإلهیة:

لمّا کانت هذه السورة- کما قلنا- تبیّن أنواع النعم و الهبات الإلهیّة العظیمة، فإنّها تبدأ باسم (الرحمن) و الذی یرمز إلی الرحمة الواسعة، و لو لم تکن (الرحمانیة) من صفاته لم ینعم بهذا الخیر العمیم علی عباده الصالحین و العاصین، لذلک یقول: الرَّحْمنُ [۳۵۷].

عَلَّمَ الْقُرْآنَ و بهذا فإنّ أوّل و أهمّ نعمة تفضّل بها اللّه سبحانه، هی نعمة «تعلیم القرآن»، و ما أروعه من تعبیر! حیث أنّنا إذا تأمّلنا جیّدا فإنّنا ندرک أنّ هذا الکتاب العظیم هو مصدر کلّ الخیر و النعم و العطایا الإلهیّة العظیمة، کما أنّه وسیلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۳

للوصول إلی السعادة و الخیرات المادیة و المعنویة.

و الظریف هنا أنّ بیان نعمة (تعلیم القرآن) ذکرت قبل خَلَقَ الْإِنْسانَ و عَلَّمَهُ الْبَیانَ فی الوقت الذی یفترض فیه أن تکون الإشارة أوّلا إلی مسألة خلق الإنسان، و من ثمّ نعمة تعلیم البیان، ثمّ نعمة تعلیم القرآن، و ذلک استنادا للترتیب الطبیعی، إلّا أنّ عظمة القرآن الکریم أوجبت أن نعمل خلافا للترتیب المفترض.

و قد جاءت هذه الآیة جوابا لمشرکی العرب حینما طلب منهم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم السجود للرحمن، فسألوه «و ما الرحمن»؟ (- الفرقان-) فأجابهم بتوضیح ذلک حیث یقول سبحانه: «الرحمن هو الذی علّم القرآن و خلق الإنسان و علّمه البیان».

و علی کلّ حال فإنّ لاسم «الرحمن» أوسع المفاهیم بین أسماء الباریٔ عزّ و جلّ بعد اسم الجلالة (اللّه) لأنّنا نعلم أنّ للّه رحمتین: (الرحمة العامّة) و (الرحمة الخاصّة) و اسم «الرحمن» یشیر إلی رحمة اللّه العامّة التی تشمل الجمیع، کما أنّ اسم «الرحیم» یشیر إلی «الرحمة الخاصّة» بأهل الإیمان و الطاعة، و لعلّه لهذا السبب لا یطلق اسم الرحمن علی غیر اللّه سبحانه (إلّا إذا کانت کلمة عبد قبله)، أمّا وصف «الرحیم» فیقال لغیر اللّه أیضا، و ذلک لأنّه لا أحد لدیه الرحمة العامّة سوی اللّه تعالی، الرحمة أمّا الرحمة الخاصّة فإنّها موجودة فی المخلوقات و إن کانت بصورة محدودة.

و

فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام نقرأ ما یلی: «الرحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، و الرحیم اسم عام بصفة خاصّة».

(یعنی أنّه اسم مخصوص للّه، و رحمته تشمل جمیع خلقه)، لکن الرحیم اسم عام لصفة خاصّة (یعنی أنّه وصف یستعمل للّه و للخلق)، و کما عرّف القرآن المجید الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّه (رؤوف رحیم) حیث یقول سبحانه: بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ [۳۵۸]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۴

و هنا یطرح التساؤل التالی: من الذی علّمه اللّه سبحانه القرآن الکریم.

ذکر المفسّرون فی ذلک تفسیرات عدیدة، فبعضهم قال: إنّ اللّه علّم القرآن لجبرئیل و الملائکة، و قال آخرون: إنّ اللّه سبحانه علّمه للرسول، و ذکر ثالث: أنّه علّم للإنس و الجنّ.

و لکون هذه السورة تبیّن الرحمة الإلهیّة للإنس و الجنّ و لذا أکّد سبحانه إقرارهم بنعمه إحدی و ثلاثین مرّة، و ذلک بقوله: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ لهذا فإنّ التّفسیر الأخیر هو الأنسب، أی أنّ اللّه علّم القرآن للإنس و الجنّ بواسطة نبیّه الکریم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم [۳۵۹].

و بعد ذکره سبحانه لنعمة القرآن التی لا مثیل لها ینتقل إلی أهمّ نعمة فی الترتیب المذکور و یقول: خَلَقَ الْإِنْسانَ

من الطبیعی أنّ المقصود هنا هو نوع الإنسان و لیس آدم علیه السّلام فقط، حیث سیتحدّث عنه سبحانه فی الآیات اللاحقة بصورة مستقلّة، کما أنّه لیس المقصود بذلک النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع العلم أنّ الرّسول محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو أفضل و أعلی مصداق للإنسان.

و إطلاق کلمة (البیان) التی تأتی بعد خلق الإنسان دلیل آخر علی عمومیة کلمة الإنسان، و بناء علی هذا فإنّ التفاسیر الاخری التی

ذكرت لم تكن صحيحة.

و الحقيقة أنّ خلق الإنسان هذا الكائن الذى تتجمّع فيه كلّ عجائب الوجود، هذا الموجود الذى هو خلاصة الموجودات الاخرى، هذا العالم الصغير الذى اندرج فيه العالم الكبير، لهو نعمة منقطعة النظير حيث إنّ كلّ بعد من أبعاد وجوده المختلفة نعمة كبيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۵

و بالرغم من أنّ بداية الإنسان ليست أكثر من نطفة لا قيمة لها، بل الأصحّ أنّ بدايته عبارة عن موجود مجهرى يسبح فى نطفة لا وزن لها، إلّا أنّه فى ظلّ الرعاية الإلهيّة يسير فى مراحل التكامل بصورة يرتقى فيها إلى مقام أشرف موجود فى عالم الخلق.

أنّ ذكر اسم «الإنسان» بعد «القرآن» هو الآخر يستوجب التأمّل، ذلك لأنّ القرآن الكريم يمثّل مجموعة أسرار الكون بصورة مدوّنة «الكتاب التدوينى»، و الإنسان هو خلاصة هذه الأسرار بصورة تكوينية «الكتاب التكوينى»، كما أنّ كلّ واحدة منها هو صورة من هذا العالم الكبير.

و تشير الآية اللاحقة إلى أهمّ النعم بعد نعمة خلق الإنسان حيث يقول البارئ عزّ و جلّ: عَلَّمَهُ الْبَيانَ

كلمة (البيان) لها معنى لغوى واسع، حيث تقال لكلّ شىء يوضّح و يبيّن شيئا معيّنا، و بناء على هذا فإنّها لا تشمل النطق و الكلام فحسب، بل تجمع الكتابة و الخطّ و أنواع الاستدلالات العقليّة و المنطقية التى تبيّن المسائل المختلفة و المعقّدة أيضا رغم أنّ معالم هذه المجموعة هى التكلّم و النطق.

و نظرا لتعوّدنا ممارسة الكلام، فقد نتصوّر أنّه أمر بسيط و سهل، و الحقيقة أنّ التكلّم من أعقد و أظرف أعمال الإنسان، و يمكننا القول بعدم وجود عمل على شاكلته من ناحية التعقيد و الظرافة.

فمن جهة نجد أنّ الأجهزة المختّصة لإصدار الصوت تتساعد و تتعاون مع بعضها لإيجاد الأصوات المختلفة. فالرئة تجمع الهواء لتخرجه من الحنجرة تدريجيّا، و الأوتار الصوتية تهتزّ لتولّد أصواتا مختلفة تماما، بعضها تعبّر عن حالة الرضى، و الاخرى عن الغضب، و الثالثة تعبّر عن النجدة و الإستغاثة و طلب العون، و الرابعة عن المحبّة أو العداوة و هكذا. ثمّ إنّ هذه الأصوات- بمساعدة اللسان و الشفتين و الأسنان و الحلق- تصنع الحروف الأبجدية بسرعة و ظرافة خاصّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۶

و بتعبير آخر: إنّ الصوت الممتدّ و المتساوى الذى يخرج من الحنجرة يقطّع إلى أشكال و قياسات مختلفة حيث تتشكّل منه الحروف.

و من جهة اخرى فهناك مسألة اللغات، حيث إنّ الإنسان يبتدع لغات مختلفة حسب احتياجاته الماديّة و المعنوية، و ذلك إثر تطوّره و تقدّمه الفكرى، و العجيب هنا عدم وجود أى محدودية فى وضع اللغات، حيث نلاحظ تعدّد الألسن فى علامنا هذا بصورة يصعب إحصاؤها بصورة دقيقة، كما أنّنا نلحظ أيضا نشوء لغات جديدة و ألسن جديدة بصورة تدريجيّة مع مرور الزمن. و يعتقد البعض أنّ عدد اللغات الموجودة فى عالمنا اليوم يصل إلى ثلاثة آلاف لغة، و يذهب آخرون إلى أكثر من ذلك ۳۶۰].

و الظاهر أنّ ذلك يتعلّق باللغات و الألسن الأصليّة، أمّا إذا أخذت اللهجات المحليّة بنظر الإعتبار فإنّها ستصبح أكثر من ذلك بكثير قطعا، حيث لا حظ المتتبعون لأمور اللهجات أنّ قريتين متجاورتين تتحدّثان بلسانين مختلفين أحيانا.

و من جهة ثالثة هناك مسألة ترتيب الجمل و الاستدلال و بيان العواطف عن طريق العقل و الفكر، لأنّها تمثّل روح البيان و النطق ... و لهذا الأمر فإنّ التكلّم أمر خاصّ بالإنسان فقط.

صحيح أنّ الكثير من الحيوانات تحدث أصواتا مختلفة كى تعبّر عن احتياجاتها، إلّا أنّ عدد هذه الأصوات محدود جدّا و مبهم و غير معلوم، فى حين أنّ البيان وضع فى إختيار الإنسان بصورة واسعة و غير محدودة، لأنّ اللّه تعالى قد أعطاه القدرة الفكرية اللازمة للتكلّم.

و إذا تجاوزنا كلّ ذلك و أخذنا دور البيان فى تكامل و تقدّم الحياة الإنسانية،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۷

فمن الواضح أنّ الإنسان لم يكن بمقدوره و إمكانه أن ينقل تجاربه و علومه من جيل إلى آخر بهذه السهولة و بالتالى أدّى إلى التقدّم و العلم و الدين و الأخلاق ...

و إذا ما سلبت هذه النعمة العظيمة من الإنسان ليوم واحد فإنّ المجتمع الإنسانى سوف يأخذ طريقه نحو التقهقر بسرعة، و لو أخذنا «البيان» بمعناه الواسع الذى يشمل الخطّ و الكتابة و الفنون المختلفة، فإنّه سيتّضح لدينا بصورة أكثر دوره الهامّ فى الحياة الإنسانية.

و من هنا ندرك لماذا جاءت عبارة (تعليم البيان) بعد نعمة خلق الإنسان فى سورة الرحمن التى هى مجموعة من هبات اللّه تعالى.

و يتطرّق بعد ذلك إلى النعمة الإلهيّة الرابعة و التى هى هبة من هبات اللّه العظيمة أيضا، حيث يقول تعالى: الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ [۳۶۱].

إنّ أصل وجود الشمس من أكبر النعم الإلهيّة للإنسان، لأنّ العيش فى المنظومة الشمسية بدون نور و حرارة الشمس أمر غير ممكن، و كما بيّنا سابقا فإنّ كلّ حركة فى الكرة الأرضية مصدره حرارة الشمس، حيث أنّ نمو و نضج النبات و المواد الغذائية أجمع، بالإضافة إلى سقوط الأمطار و هبوب الرياح، كلّها ببركة هذه الهبة الإلهيّة.

كما أنّ للقمر دورا هامّا فى حياة الإنسان، فبالإضافة إلى أنّه يضىء الليالى المعتمة، فإنّ جاذبيته هى علّة المدّ و الجزر فى البحار و المحيطات، و هى عامل لبقاء الحياة فى البحار، كما أنّها تقوم بدورها فى إرواء كثير من المناطق القريبة للسواحل و التى تصبّ الأنهار بالقرب منها.

و بالإضافة إلى ذلك فإنّه ثبات الانتظام لهاتين الحركتين (حركة القمر حول الأرض، و حركة الأرض حول الشمس) هو السبب فى الظهور المنتظم لليل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۸

و النهار و السنين و الشهور و الفصول المختلفة، و بالتالى فإنّه سبب أساسى لانتظام الحياة الإنسانية و برمجة الأمور التجارية و الصناعية و الزراعية، و إن فقد الانتظام فيها فسوف تضطرب الحياة البشرية و تختلّ الكثير من مرتكزاتها.

و ليس لحركة هذين الكوكبين نظام دقيق جدّا فحسب، بل إنّ مقدار كثافة و جاذبية و مسافة كلّ منهما عن الأرض هى الاخرى محسوبة بدقّة و حساب (و حسبان).

و من المؤكّد أنّ اختلال كلّ واحدة من هذه الأمور سيولّد اختلالات عظيمة فى المنظومة الشمسية، و من ثمّ فى النظام الحياتى للبشر.

و العجيب هنا أنّ هذه الأجزاء عند ما انفصلت من الشمس كانت فى حالة من الاضطراب و الفوضى، إلّا أنّها ثبتت و استقرّت أخيرا بالشكل الحالى، حيث يقول فى هذا المجال أحد علماء العلوم الطبيعيّة:

«وجدت منظومتنا الشمسية- فى الظاهر- من مخلوط من مواد متنوّعة و عناصر مختلفة انفصلت عن الشمس بدرجة حرارية عالية تبلغ (۱۲ /۰۰۰) درجة و بسرعة فائقة تناثرت فى الفضاء الواسع.

و بالرغم من هذا الاضطراب الظاهرى فقد لوحظ الانتظام الدقيق و الترتيب المنسّق بحيث أنّنا نستطيع أن نتنبّا بالحوادث المستقبلة حتّى بالدقائق و اللحظات، و نتيجة لهذا النظام و الترتيب نلاحظ أنّ الأوضاع الفلكية هذه باقية على هذا الحال مدّة ألف مليون سنة»[۳۶۲].

و الجدير بالذكر أنّ الشمس بالرغم من أنّها فى وسط المنظومة الشمسية و تبدو ساكنة و ثابتة، إلّا أنّها مع جميع كواكبها و أقمارها تسير فى وسط المجرّة المتعلّقة بها إلى نقطة معيّنة (تسمّى هذه النقطة بنجمة فيكا) و هذه الحركة لها أيضا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۹

نظام و سرعة معينان.

ثمّ يتحوّل بنا اللّه إلى نعمة عظيمة اخرى هى الخامسة فى مسلسل ما ذكره سبحانه من النعم فى هذه السورة المباركة، حيث يوجّه النظر

إلى ألطافه فی الأرض حیث یقول: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ یَسْجُدانِ

«النجم» یأتی أحیانا بمعنى کوکب، و یأتی اخرى بمعنى النبات الذی لا ساق له، و لمّا جاءت الکلمة هنا بقرینة «الشجر» فیکون المقصود هو المعنى الثانی، أی النباتات بدون سیقان ۳۶۳].

و هذا المصطلح معناها فی الأصل (الطلوع) و إذا أطلق على النباتات (نجم) فلأنّها تخرج من الأرض، و إذا أطلق على النجمة فلأنّها تطلع.

و من الواضح أنّ النبات مصدر جمیع المواد الغذائیة للإنسان، حیث یستهلک قسما مباشرا منه، و القسم الآخر تستهلکه الحیوانات الاخرى التی هی جزء أساسی من غذاء الإنسان، و من هنا فإنّ النبات هو مصدر غذاء الإنسان بصورة مباشرة أو غیر مباشرة.

و هذا المعنى یصدق أیضا فی عالم الحیوانات البحریة، لأنّها تتغذّى على نباتات صغیرة جدّا تنبت فی البحر و توجد بکثرة هائلة تقدّر بملایین البلیارات، و هی المصدر الغذائی لهذه الحیوانات البحریة. و تنمو هذه النباتات الصغیرة فی البحر بتأثیر الضوء (أشعّة الشمس) التی تتحرّک بین الأمواج.

و بهذا فإنّ «النجم» أنواع من النباتات الصغیرة الزاحفة (مثل الیقطین و الخیار و أمثاله). أمّا (الشجر) فإنّه النوع الآخر من النباتات التی لها سیقان و تشمل أشجار الفاکهة و نباتات الغلّات و غیر ذلک.

و تعبیر (یسجدان) إشارة إلى التسلیم و الخضوع أمام القدرة الإلهیّة و قوانین

الخلقة و الإبداع الإلهی لأجل نفع الإنسان، هذا المسیر الذی عیّنه اللّه لهم یسیرون فیه بدون أی تخلّف، و ذلک بموجب الإرادة الإلهیة.

و هنا إشارة إلى الأسرار التوحیدیة أیضا حیث توجد فی کلّ ورقة و کلّ بذرة آیات عجیبة من عظمة و قدرة اللّه سبحانه ۳۶۴].

کما یحتمل أن یکون المقصود من «النجم» فی الآیة المذکورة هی «النجوم»، و لکن المعنى الأوّل طبقا للقرائن الموجودة فی الآیة الکریمة هو الأنسب.

ملاحظة

تأمّلات فی الرّوایات

نقلت المصادر الإسلامیة فی هامش الآیات أعلاه روایات من قبیل التّفسیر بالمصداق واضح، حیث أنّ کلّ واحدة منها تلقی الضوء على قسم من الآیات الکریمة.

ففی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر عَلَّمَهُ الْبَیانَ یقول: «البیان الاسم الأعظم الذی به علم کلّ شیء»[۳۶۵].

و حول «الاسم الأعظم» و تفسیره فقد أوردنا بحثا فی هامش الآیة ۱۸۰ من سورة الأعراف.

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام علی بن موسى الرضا علیه السّلام ذکر أنّ المقصود من «الرحمن علّم القرآن» أنّ اللّه تعالى قد علّم القرآن للرسول صلّى اللّه علیه و آله و سلّم. و المقصود

من «خلق الإنسان» هو خلق أمير المؤمنين عليه السّلام، و «علّمه البيان» هو بيان كلّ الأمور التى يحتاجها الناس.

و من الواضح أنّ الرّوايات أعلاه لا تحدّد عمومية مفهوم هذه الآيات، بل توضّح مصاديقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۲

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۷ الى ۱۳]

اشارة

وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ (۷) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (۸) وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (۹) وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (۱۰) فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (۱۱)

وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ (۱۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۳)

التّفسير

السماء رفعها و وضع الميزان:

هذه الآيات هى استمرار لبيان النعم الإلهيّة التى جاء ذكر خمس منها فى الآيات السابقة، حيث تحدّث عن أهمّ الهبات التى منحها اللّه سبحانه.

و فى الآية مورد البحث يتحدّث سبحانه عن النعمة السادسة، ألا و هى نعمة خلق السماء حيث يقول: وَ السَّماءَ رَفَعَها.

(السماء) فى هذه الآية سواء كانت بمعنى جهة العلو، أو الكواكب السماوية، أو جو الأرض (و الذى يعنى الطبقة العظيمة من الهواء و التى تحيط بالأرض كدرع يقيها من الأشعّة الضارّة و الصخور السماوية و حرارة الشمس، و الرطوبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۳

المتصاعدة من مياه البحار لتتكوّن الغيوم و تنزل الأمطار) ... إنّ كلّ واحدة من هذه المعانى هبة عظيمة و نعمة لا مثيل لها، و بدونها تستحيل الحياة أو تصبح ناقصة.

نعم إنّ النور الذى يمنحنا الدفء و الحرارة و الهداية و الحياة و الحركة يأتينا من السماء و كذلك الأمطار، و الوحى أيضا، و بذلك فإنّ للسماء مفهوما عامّا، مادّيا و معنويا).

و إذا تجاوزنا كلّ هذه الأمور، فإنّ هذه السماء الواسعة مع كلّ عوالمها هى آية عظيمة من آيات اللّه، و هى أفضل وسيلة لمعرفة اللّه سبحانه، و عند ما يتفكّر أولو الألباب فى عظمتها فسوف يقولون دون إختيار رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا.[۳۶۶] ثمّ يستعرض سبحانه النعمة السابعة حيث يقول تعالى: وَ وَضَعَ الْمِيزانَ

«الميزان» كلّ وسيلة تستعمل للقياس، سواء كان قياس الحقّ من الباطل، أو العدل من الظلم و الجور، أو قياس القيم و قياس حقوق الإنسان فى المراحل الاجتماعية المختلفة.

و (الميزان) يشمل كذلك كلّ نظام تكوينى و دستور اجتماعى، لأنّه وسيلة لقياس جميع الأشياء.

و «الميزان» لغة: (المقياس) و هو وسيلة لوزن الأجسام المادّيّة المختلفة، إلّا أنّ المقصود فى هذه الآية- و الذى ذكر بعد خلق السماء- أنّ لها مفهوما واسعا يشمل كلّ وسيلة للقياس بما فى ذلك القوانين التشريعيّة و التكوينيّة، و ليس وسيلة منحصرة بقياس الأوزان المادّيّة فقط.

و من هنا فلا یمکن أن تکون الأنظمة الدقیقة لهذا العالم، و التی تحکم ملایین الأجرام السماویة بدون میزان و قوانین محسوبة.

و عند ما نری فی بعض العبارات أنّ المقصود بالمیزان هو «القرآن الکریم»، أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۴

«العدل»، أو «الشریعة»، أو «المقیاس». ففی الحقیقة إنّ کلّ واحدة من هذه المعانی مصداق لهذا المفهوم الواسع الشامل.

و نستنتج من الآیة اللاحقة استنتاجا رائعا حول هذا الموضوع حیث یضیف بقوله تعالی: أَلَّا تَطْغَوْا فِی الْمِیزانِ

حیث یوجّه الخطاب لبنی الإنسان الذین یشکّلون جزءا من هذا العالم العظیم و یلفت انتباههم إلی أنّهم لا یستطیعون العیش بشکل طبیعی فی هذا العالم إلّا إذا کان له نظم و موازین، و لذلک فلا بدّ أن تکون للبشر نظم و موازین أیضا حتی یتلاءموا فی العیش مع هذا الوجود الکبیر الذی تحکمه النوامیس و القوانین الإلهیّة، خاصّة أنّ هذا العالم لو زالت عنه القوانین التی تسیّره فإنّه سوف یفنی، و لذا فإنّ حیاتکم إذا فقدت النظم و الموازین فإنّکم ستتجهون إلی طریق الفناء لا محالة.

یا له من تعبیر رائع حیث یعتبر القوانین الحاکمة فی هذا العالم الکبیر منسجمة مع القوانین الحاکمة علی حیاة الإنسان (العالم الصغیر) و بالتالی ینقلنا إلی حقیقة التوحید، حیث مصدر جمیع القوانین و الموازین الحاکمة علی العالم هی واحدة فی جمیع المفردات و فی کلّ مکان.

و یؤکّد مرّة اخری علی مسألة العدالة و الوزن حیث یقول سبحانه: وَ أَقِیمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِیزانَ

و النقطة الجدیرة بالذکر هنا أنّ کلمة «المیزان» ذکرت ثلاث مرّات فی هذه الآیات، و کان بالإمکان الاستفادة من الضمیر فی المرحلة الثانیة و الثالثة، و هذا ما یدلّل، علی أنّ کلمة (المیزان) هنا قد جاءت بمعان متعدّدة فی الآیات الثلاث السابقة، لذا فإنّ الاستفادة من الضمیر لا- تفی بالغرض المطلوب، و ضرورة التناسب للآیات یوجب تکرار کلمة «المیزان» ثلاث مرّات، لأنّ الحدیث فی المرحلة الاولی، کان عن الموازین و المعاییر و القوانین التی وضعها اللّه تعالی لکلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۵

عالم الوجود.

و فی المرحلة الثانیة یتحدّث سبحانه عن ضرورة عدم طغیان البشر فی کلّ موازین الحیاة، سواء کانت الفردیة أو الاجتماعیة.

و فی المرحلة الثالثة یؤکّد علی مسألة الوزن بمعناها الخاصّ، و یأمر البشر أنّ یدقّقوا فی قیاس و وزن الأشیاء فی التعامل، و هذه أضیق الدوائر.

و بهذا الترتیب نلاحظ الروعة العظیمة للانسجام فی الآیات المبارکة، حیث تسلسل المراتب و حسب الأهمیة فی مسألة المیزان و المقیاس، و الانتقال بها من الدائرة الأوسع إلی الأقل فالأقل [۳۶۷].

إنّ أهمیّة المیزان فی أی معنی کان عظیمة فی حیاة الإنسان بحیث إنّنا إذا حذفنا حتّی مصداق المیزان المحدود و الصغیر و الذی یعنی (المقیاس) فإنّ الفوضی و الارتباک سوف تسود المجتمع البشری، فکیف بنا إذا ألغینا المفهوم الأوسع لهذه الکلمة، حیث ممّا لا شکّ فیه أنّ الاضطراب و الفوضی ستکون بصورة أوسع و أشمل.

و یستفاد من بعض الرّوایات أنّ (المیزان): قد فسّر بوجود (الإمام)، و ذلک لکون الوجود المبارک للإمام المعصوم هو وسیلة لقیاس الحقّ من الباطل، و معیار لتشخیص الحقائق و عامل مؤثّر فی الهدایة[۳۶۸]. و هکذا فی تفسیر «المیزان» بالقرآن الکریم ناظر إلی هذا المعنی.

و نظرا إلی أنّ هذه الآیات تتحدّث عن النعم الإلهیة، فإنّ وجود المیزان سواء فی نظم العالم أجمع أو المجتمع الإنسانی أو الروابط الاجتماعیة أو مجال العمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۶

التجاری ... فإنّها جمیعا نعم من قبل اللّه سبحانه.

ثمّ ینتقل سبحانه من السماء إلی الأرض فیقول عزّ و جلّ: وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ «الأنام» فسّرها البعض بمعنی (الناس)، و فسّرها آخرون بمعنی (الإنس و الجنّ)، و فسّروها أیضا بأنّها تشمل کلّ موجود (ذی روح).

إلّا أنّ قسما من أئمّة اللغة فسّرها بمطلق (الخلق) و لکن القرائن الموجودة فی السورة و طبیعة النداءات الموجّهة للإنس و الجنّ تدلّل علی أنّها المقصود هنا (الجنّ و الإنس).

نعم، إنّ الکرة الأرضیة التی ذکرت هنا بعنوان هبة إلهیّة مهمّة، و فی آیات اخری ذکرت بعنوان (مهاد) مأوی و مستقرّ للإنسان الذی لا یدرک قدرها غالبا فی الحالات الاعتیادیة، إلّا أنّه فی حالة حدوث تغیّر بسیط کزلزلة مدمّرة أو برکان بإمکانه أن یدفن مدینة بأکملها تحت المواد المذابة و عتمة الدخان و لهیب النار، هنا ندرک کم أنّ هدوء الأرض نعمة عظیمة، خصوصا إذا وضعنا الأرقام التی توصّل إلیها العلماء أمامنا فیما یتعلّق بسرعة حرکة الأرض حول نفسها و حول الشمس ۳۶۹]، عند ذلک یتبیّن لنا أهمیّة هذا الهدوء الکامن فی أعماق هذه الحرکة السریعة جدّا و التی هی لیست نوعا واحدا، بل أنواع مختلفة.

التعبیر ب (وضع) عن الأرض فی مقابل (رفع) عن السماء، إضافة إلی الروعة البلاغیة فی هذا التقابل فهو إشارة إلی تسخیر الأرض و منابعها للإنسان حیث یقول سبحانه: هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِی مَناکِبِها وَ کُلُوا مِنْ رِزْقِهِ [۳۷۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۷

و بهذا الترتیب فقد ذکر لنا سبحانه النعمة العظیمة الثامنة فی هذه السلسلة.

و فی الآیة اللاحقة یستعرض ذکر النعمتین التاسعة و العاشرة من النعم الإلهیة، و التی تتضمّن قسما من المواد الغذائیة التی وهبها اللّه سبحانه للإنسان حیث یقول تعالی: فِیها فاکِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَکْمامِ

«الفاکهة» تشمل کلّ نوع من الفاکهة کما یقول الراغب فی المفردات، و فسّرها البعض بأنّها تشمل جمیع أنواع الفاکهة باستثناء التمر، حیث ذکر «النخیل» فی هذه السورة بصورة مستقلّة، و یمکن أن یکون ذکر النخیل بسبب أهمیّة النخل و التمر لا استثناء من عموم لفظ الفاکهة.

«و قد أوردنا بحثا مفصّلا حول فوائد التمر من الناحیة الغذائیة و المواد الحیاتیة المختلفة لدی تفسیر الآیة ۱۱ من سورة النحل، و الآیة ۲۵ من سورة مریم».

«أکمام» جمع (کم) علی وزن (جن) تطلق علی الغلاف الذی یغطّی الفاکهة. و (کم) علی وزن (قم) القسم الخاصّ بالیدین من الثوب، و (کمة) علی وزن (قبة) بمعنی القبعة التی تغطّی الرأس ۳۷۱].

إنّ إختیار هذا الوصف لفاکهة شجرة النخل- و التی تکون فی البدایة مختفیة فی غلاف ثمّ ینشقّ الغلاف عن ثمر منظود و بشکل جمیل و جذّاب- یمکن أن یکون لهذا الجمال الأخّاد، أو للمنافع الجمّة الکامنة فی هذا الغلاف، فهو بالإضافة إلی کونه یقوم بمهمّة حفظ الثمرة من الآفات لحین النمو المناسب و القدرة الملائمة و یکون دوره کرحم الامّ الذی یحافظ علی الجنین فترة زمنیة مناسبة قبل خروجه إلی عالم الدنیا ... فإنّه کذلک یحوی عصارة (الأسانس) الخاصّة و التی تتمیّز بالمنافع الطبیّة و الغذائیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۸

کما أنّ الروعة تکمن فی الوضع الخاصّ لفاکهة هذه الشجرة أیضا، حیث تتجمّع فی کمّیات کبیرة منها بصورة عنا قید لتسهّل عملیة قطف ثمارها، و لو افترضنا أنّ ثمار هذه الشجرة متناثرة کما فی شجرة التفاح فإنّ عملیة قطف الثمار ستکون صعبة للغایة قیاسا لطول شجرة النخل.

ثمّ یتحدّث سبحانه عن النعمة الحادیة عشرة و الثانیة عشرة حیث یقول سبحانه: وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّیْحانُ

الحبوب مصدر أساسی لغذاء الإنسان، و أوراقها الطازجة و الیابسة هی غذاء للحیوانات التی هی لخدمة الإنسان، حیث یستفید من

حليبها و لحومها و جلودها و أصوافها، و بهذا الترتيب فلا يوجد شيء فيها غير ذى فائدة.

و من جهة اخرى، فإنّ اللّه تعالى خلق الأزاهير المعطّرة و الورود التى تعطّر مشام الجسم و الروح و تبعث الاطمئنان و النشاط، و لذا فإنّ اللّه سبحانه قد أتمّ نعمه على الإنسان.

(الحبّ) يقال لكلّ نوع من أنواع الحبوب.

(عصف) على وزن «حرب» بمعنى الأوراق و الأجزاء التى تنفصل عن النبات و ينشرها الهواء فى جهات مختلفة، و يقال لها التبن أيضا.

و ذكروا أنّ «للريحان» معانى عديدة من جملتها النباتات المعطّرة، و كذلك كلّ رزق، و المعنى الأوّل هو الأنسب هنا.

و بعد ذكر هذه النعم العظيمة (المادية و المعنوية) ينقلنا فى آخر آية من البحث مخاطبا الجنّ و الإنس بقوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ حيث يلفت نظرهم إلى كلّ هذه النعم الكبيرة التى شملت كلّ مجالات الحياة و كلّ واحدة منها أثمن و أعظم من الاخرى ... ألا يدلّ كلّ هذا على لطف و حنان الخالق ... فكيف يمكن التكذيب بها إذا؟

إنّ هذا الاستفهام استفهام تقريرى جيء به فى مقام أخذ الإقرار، و قد قرأنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۹

فى بداية السورة رواية تؤكّد على ضرورة تعقيبنا بهذه العبارة (لا شيء من آلائك ربّى أكذّب) بعد كلّ مرّة نتلو فيها الآية الكريمة: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و بالرغم من أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن الإنسان فقط، و لم يأت حديث عن طائفة (الجنّ) إلّا أنّ الآيات اللاحقة تبيّن أنّ المخاطب فى ضمير التثنية هم (الجنّ) كما سنرى ذلك.

و على كلّ حال، فإنّ اللّه تعالى يضع (الإنس و الجنّ) فى هذه الآية مقابل الحقيقة التالية: و هى ضرورة التفكّر فى النعم الإلهيّة السابقة التى منحها اللّه لكم و تسألون أنفسكم و عقولكم هذا السؤال: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنّ لم تكذّبوا بهذه النعم، فلما ذا تتنكّرون لولىّ نعمتكم؟ و لماذا لا تجعلون شكره وسيلة لمعرفته؟ و لماذا لا تعظّمون شأنه؟

إنّ التعبير ب (أى) إشارة إلى أنّ كلّ واحدة من هذه النعم دليل على مقام ربوبية اللّه و لطفه و إحسانه، فكيف بها إذا كانت هذه النعم مجتمعة؟

تعقيب

۱- معرفة النعم طريق لمعرفة اللّه:

إذا تأمّلنا قليلا النعم التى سبق و أن تناولتها الآيات الكريمة: (نعمة القرآن، و خلق الإنسان، و تعليم البيان، و الحساب المنظّم للزمان، خلق النباتات و مختلف الأشجار، و حاكمية السماء و السنن و القوانين، و خلق الأرض بخصوصياتها المتعدّدة، و خلق الفاكهة و النخل و الحبوب و الورود و النباتات المعطّرة ...) مع جميع جزئياتها و الأسرار الخفيّة فى كلّ واحدة منها لكانت كافية لأنّ تبعث الإحساس بالشكر فى الإنسان و تدفعه إلى معرفة مبدئ هذه النعم و هو اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۰

و لهذا السبب فإنّ اللّه تعالى يأخذ الإقرار من عباده بعد ذكر كلّ واحدة من هذه النعم، و تتكرّر الآية فى الآيات اللاحقة أيضا، و بعد ذكر نعم اخرى، بحيث يصبح عددها ۳۱ مرّة.

إنّ هذا التكرار ليس فقط لا يتنافى مع الفصاحة، بل إنّه فنّ من فنونها، و يشبه هذا الأمر التكرار الذى يؤكّده الأب لابنه الذى يغفل عن

وصاياه بصورة مستمرّة، فيخاطبه بصيغ مختلفة تأكيدا لعدم الغفلة و النسيان حيث يقول له: أنسيت يا ولدى ضعفك و طفولتك؟ أتعرف كم من الجهد بذلت من أجل تنميتك و تربيتك.

أنسيت يا ولدى كم أحضرت من الأطباء الأخصائيين يوم مرضك، و كم بذلت سعيا و جهدا فى ذلك.

أنسيت يا ولدى حينما بلغت سنّ الشباب ما بذلته من جهد فى زواجك حيث انتخبت لك زوجة من أكثر النساء عفّة و طهرا؟

أنسيت يا ولدى جهدى فى مسألة إعداد بيتك و مستلزماته؟ ... فإذا لم تنس كلّ هذا فلما ذا العناد و الطغيان و القسوة و عدم الوفاء إذا؟

إنّ اللّه تعالى يذكّر عباده الغافلين بصورة مستمرّة بنعمه المختلفة، و هكذا يسألهم بعد كلّ نعمة من هذه النعم فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فلما ذا هذا العصيان و الطغيان فى حين أنّ طاعتى هى رمز لتكاملكم و تقدّمكم، و إنّ هذا ينفعكم و لن ينفع اللّه شيئا؟!

۲- مسألة النظم و الحساب فى الحياة:

يوجد فى جسم الإنسان أكثر من عشرين عنصرا معدنيا، و كلّ واحد منها بكيفية خاصّة و كمية معيّنة، و إذا ما حصل أقل تغيّر فى مقاديرها و نسبها فإنّ حياتنا تكون فى خطر، فمثلا فى فصل الصيف إذا تعرّق الإنسان أكثر من اللازم عندئذ يصاب بالصدمة التى قد تؤدّى إلى الموت و السبب فى ذلك بسيط جدّا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۱

و هو نقص ماء الجسم و أملاح الدم و علاجه لا يكون إلّا بشرب الماء و تناول الأملاح الإضافية.

هذا نموذج بسيط من النظم و الحساب فى تركيب جسمنا، كما نلاحظ أحيانا أنّ دقّة المقاييس فى تركيب مخلوقات أدقّ و أظرف كالخلايا، و أدقّ منها عالم الذرّات تكون إلى درجة من الدقّة بحيث تقاس ب (واحد على الألف) و أحيانا ب (واحد على المليون) من الملمتر أو الملغرام، حيث أنّ العلماء اضطرّوا لحساب هذه الموازين الدقيقة إلى الاستعانة بالعقول الألكترونية.

هذا فى النظام الكونى، و الأمر كذلك فى الأمور الاجتماعية، حيث أنّ أى انحراف فى تطبيق قوانين العدل قد يؤدّى إلى فناء شعب.

و قد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرنا و ذكر كلّ ما يستحقّ الذكر بهذا الصدد حيث يقول سبحانه: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ

لقد جعل اللّه سبحانه الطغيان و التمرّد على القوانين الشرعية، مقارنا مع الطغيان و التمرّد على القوانين الكونية التى تحكم الوجود كلّه، إنّه تصوير رائع استعمله القرآن الكريم عن عالم الوجود تارة، و عالم الإنسان اخرى، كما ورد فى الآيات الكريمة. و ليس هذا فحسب، بل إنّه سبحانه شمل بوصفه هذا عالم الآخرة (يوم الحساب) و نصب الموازين، بل و حتّى طبيعة الحساب و الموازين حيث إنّها من الدقّة على قدر عجيب! ... و لهذا السبب فقد أمرنا- كما ورد ذلك فى الرّوايات الإسلامية- أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب و أن نزنها قبل أن توزن.

«و حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۲

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱۴ الى ۱۸]

اشارة

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (۱۴) وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (۱۵) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۶) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (۱۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۸)

التّفسير

الصلصال و خلق، الإنسان:

إنّ اللّه تعالى بعد ذكره للنعم السابقة و التى من جملتها خَلَقَ الْإِنْسانَ

يتعرّض فى الآيات مورد البحث إلى شرح خاص حول خلق الإنس و الجنّ كدليل على قدرته العظيمة، من جهة و موضع درس و عبرة للجميع من جهة اخرى، فيقول سبحانه: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ.

«صلصال» فى الأصل معناه (ذهاب و رجوع أو تردّد الصوت فى الأجسام الصلبة) ثمّ أطلقت الكلمة على الطين اليابس الذى يخرج صوتا، كما تطلق (الصلصلة) على الماء المتبقّى فى الوعاء، لأنّه يخرج صوتا عند حركته فى الوعاء.

و يفسّر البعض كلمة (صلصال) بمعنى الطين الخبيث الرائحة، إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأشهر و الأعرف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۳

«فخار» من مادّة (فخر) بمعنى الشخص الذى يفخر كثيرا، و لكون الأشخاص الذين يعيشون الفراغ فى شخصياتهم و معنوياتهم يكثرون الثرثرة و الادّعاء عن أنفسهم، فإنّ هذه الكلمة تستعمل لكلّ إناء من الطين أو «الكوز»، و ذلك بسبب الأصوات الكثيرة التى يولّدها[۳۷۲].

و من هنا يستفاد بوضوح من الآيات القرآنية المختلفة حول مبدأ خلق الإنسان، أنّه كان من التراب ابتداء، قال تعالى: فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ [۳۷۳] ثمّ خرج مع الماء و أصبح طينا. هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ [۳۷۴] ثمّ أصبح بصورة طين خبيث الرائحة إِنِّى خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [۳۷۵] ثمّ أصبح مادّة فى حالة لاصقة، إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ ۳۷۶] و من ثمّ يتحوّل إلى حالة يابسة و يكون من صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ كما ذكر فى الآية مورد البحث.

هذه المراحل كم تستغرق من الوقت؟ و كم هى المدّة التى يتوقّف فيها الإنسان فى كلّ مرحلة من هذه المراحل؟، و فى أى ظروف تحدث هذه التطوّرات؟

هذه المسائل خفيت عن علمنا و إدراكنا، و اللّه وحده هو العالم بها فقط.

و من الواضح أنّ هذه التعابير تبيّن حقيقة ترتبط ارتباطا وثيقا مع الأمور التربوية للإنسان، حيث أنّ المادّة الأوّلية فى خلق الإنسان هى مادّة لا قيمة لها، و من أحقر المواد على الأرض، إلّا أنّ اللّه تعالى قد خلق من تلك المادّة الحقيرة مخلوقا ذا شأن، بل يمثّل قمّة المخلوقات على وجه الأرض، حيث أنّ القيمة الواقعيّة للإنسان هى الروح الإلهية (النفخة الربّانية) فيه، و التى ذكرت فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۴

القرآنية الاخرى (كما فى سورة الحجر/ ۲۹) و ذلك ليعرف الإنسان قيمته الحقيقيّة فى عالم الوجود و يسير فى طريق التكامل على بيّنة من أمره.

ثمّ يتطرّق سبحانه لخلق الجنّ حيث يقول: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ.

«مارج» فى الأصل من (مرج) على وزن (مرض) بمعنى الاختلاط و المزج، و المقصود هنا اختلاط شعل النيران المختلفة، و ذلك لأنّ النيران أحيانا تكون بألوان مختلفة الأحمر، الأصفر، الأزرق، و أخيرا اللون الأبيض.

و يقول البعض: إنّ معنى التحرّك موجود فيها أيضا، و ذلك من (أمرجت الدابة) يعنى (تركت الحيوان فى المرتع) لأنّ أحد معانى «المرج» هو المرتع.

و لكن كيف خلق الجنّ من هذه النيران المتعدّدة الألوان؟ هذا ما لم يعرف بصورة دقيقة، كما أنّ الخصوصيات الاخرى عن هذا المخلوق، قد بيّنت لنا عن طريق الوحى الربّانى و كتاب اللّه الكريم، و لكن محدودية معلوماتنا لا تعنى السماح لنا أبدا بإنكار هذه الحقائق أو تجاوزها، خاصّة بعد ما ثبتت عن طريق الوحى الإلهى.

(و سيكون لنا إن شاء اللّه شرح مفصّل حول خلق الجنّ و خصوصيات هذا المخلوق فى تفسير سورة الجنّ).

و على كلّ حال، فإنّ أكثر الموجودات التى نتحدّث عنها هى: الماء و التراب و الهواء و النار، سواء كانت هذه الموجودات عناصر بسيطة كما كان يعتقد القدماء، أو مركّبة كما يعتقد العلماء اليوم، و لكن على كلّ حال فإنّ مبدأ خلق الإنسان هو الماء و التراب، فى حين أنّ مبدأ خلق الجنّ هو الهواء و النار، و هذا الاختلاف فى مبدأ خلقة هذين الموجودين مصدر اختلافات كثيرة بين هذين المخلوقين.

و بعد أن تحدّث عن النعم التى كانت فى بداية خلق الإنسان يكرّر تعالى قوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

فى الآية اللاحقة يستعرض نعمة اخرى حيث يقول سبحانه: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۵

وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ

بما أنّ الشمس فى كلّ يوم تشرق من نقطة و تغرب من اخرى، و بعدد أيّام السنة لها شروق و غروب، و لكن نظرا للحدّ الأكثر من الميل الشمالى للشمس و الميل الجنوبى لها، ففى الحقيقة أنّ للشمس مشرقين و مغربين و البقيّة بينهما[۳۷۷].

إنّ هذا النظام الذى هو سبب وجود الفصول الأربعة له فوائد و بركات كثيرة، و يؤكّد و يكمّل ما مرّ بنا فى الآيات السابقة، و ذلك لأنّ الحديث كان عن حساب سير الشمس و القمر، و كذلك عن وجود الميزان فى خلق السماوات، و إجمالا فإنّه يبيّن النظام الدقيق للخلقة و حركة الأرض و القمر و الشمس، و كذلك فإنّه يشير إلى النعم و البركات التى هى موضع استفادة الإنسان.

و يرى البعض أنّ المقصود بالمشرقين و المغربين هو طلوع و غروب الشمس، و طلوع و غروب القمر و يعتبرون هذا هو المناسب لتفسير الآية الكريمة الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب، خصوصا و أنّ الرّوايات الإسلامية قد أشارت إلى ذلك.

و من جملة هذه الرّوايات

حديث لأمير المؤمنين عليه السّلام فى تفسير هذه الآية حيث يقول: «إنّ مشرق الشتاء على حدة، و مشرق الصيف على حدّه، أما تعرف ذلك من قرب الشمس و بعدها؟»[۳۷۸].

و يتّضح بذلك معنى قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ [۳۷۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۶

حيث يشير هنا إلى جميع مشارق و مغارب الشمس على طول أيّام السنة. فى الوقت الذى تشير الآية مورد البحث إلى نهاية القوس الصعودى و النّزولى لها فقط.

و على كلّ حال فإنّ اللّه تعالى يؤكّد هذه النعمة بعد نعمة خلق الإنس و الجنّ بقوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۷

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱۹ الى ۲۵]

اشارة

مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ یَلْتَقِیانِ (۱۹) بَیْنَهُما بَرْزَخٌ لا یَبْغِیانِ (۲۰) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۲۱) یَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ (۲۲) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۲۳)

وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِی الْبَحْرِ کَالْأَعْلامِ (۲۴) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۲۵)

التّفسیر

البحار و ذخائرها الثمینة:

استمرارا لشرح النعم الإلهیّة یأتی الحدیث هنا عن البحار، و لکن لیس عن خصوصیات البحار بصورة عامّة، بل عن کیفیة خاصّة و مقاطع معیّنة منها تمثّل ظواهر عجیبة و آیة علی القدرة اللامتناهیة للحقّ، بالإضافة إلی ما فیها من النعم التی هی موضع استفادة البشریة.

یقول تعالی: مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ یَلْتَقِیانِ و لکن بین هذین البحرین المتلاقیین فاصل یمنع من طغیان و غلبة أحدهما علی الآخر: بَیْنَهُما بَرْزَخٌ لا یَبْغِیانِ

مادّة (مرج) علی وزن (فلج) بمعنی الاختلاط، أو إرسال الشیء و ترکه، و هنا وردت بمعنی إرسال الشیء و وضعه جنبا إلی جنب بقرینة الآیة: بَیْنَهُما بَرْزَخٌ لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۸

یَبْغِیانِ

المقصود من البحرین هما الماء العذب و الماء المالح، و ذلک بالاستدلال بقوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَیْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً.[۳۸۰] و التساؤل هنا عن مکان هذین البحرین اللذین لا یمتزجان مع بعضهما، و ما هو البرزخ الموجود بینهما؟ هناک کلام کثیر بین المفسّرین حول هذه المسألة، إلّا أنّ بعض التّفسیرات تدلّل علی عدم اطّلاعهم علی أوضاع البحار فی ذلک الزمان، منها أنّهم ذکروا أنّ المقصود من البحرین هما (بحر فارس و بحر الروم) فی الوقت الذی نعلم أنّ ماء هذین البحرین مالح، و لا یوجد بینهما برزخ.

أو قولهم: إنّ المقصود بذلک هو بحر السماء و بحر الأرض، و الذی یکون الأوّل عذبا و الثانی مالحا، فی الوقت الذی نعلم أیضا بعدم وجود بحر فی السماء باستثناء الغیوم و البخار التی یتبخّر من المحیطات.

و قالوا أیضا: إنّ المقصود من البحر العذب هو المیاه التی تحت الأرض و التی لا تختلط مع میاه البحار، و البرزخ الموجود بینهما هی جدران هذه الآبار.

فی الوقت الذی نعلم أیضا أنّ الماء الموجود تحت الأرض أقلّ من أن یشکل بحرا.

نعم إنّ جزئیات الماء المخفیة بین طبقات التراب و الرمل تتجمّع تدریجیّا، و تخرج عند ما یحفر بئر فی نقطة معیّنة، و هی کمیّة محدودة بالإضافة إلی عدم وجود اللؤلؤ و المرجان فیها.

إذا ما هو المقصود من هذین البحرین؟

لقد أشرنا سابقا إلی هذه الحقیقة فی تفسیر سورة الفرقان، و هی أنّ الأنهار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۹

العظیمة ذات المیاه العذبة عند ما تصبّ فی البحار و المحیطات فإنّها تشکّل بحرا من الماء الحلو إلی جنب الساحل و تطرد الماء المالح إلی الخلف، و العجیب أنّ هذین الماءین لا یمتزجان مع بعضهما لمدّة طویلة بسبب اختلاف درجة الکثافة.

و تلاحظ هـذه المناظر بوضوح عند السـفر بالطائرة فی المناطق التی تكون فيها هذه الظاهرة، حيث المياه العذبة تمثّل بحرا منفصـلا فی داخل البحر المالـح و منفصـلة عنها، و عنـد ما تمتزج أطراف هـذين البحرين فإنّ المياه العذبـة الجديـدة تأخذ مكانها بحيث أنّ هذين البحرين منفصلان على الدوام بشكل ملفت للنظر.

و الظريف هنا ما يحصل فی حالـة (مـدّ البحر) فبارتفاع سـطح المحيط إلى الأعلى، فإنّ المياه العذبة ترجع إلى الداخل دون أن تختلط مع المياه المالحـة- باسـتثناء سـنوات الجدب التی تنعدم فيها الأمطار و يشحّ الماء- و تغطّی قسـما من اليابسة، لذلك فكثيرا ما تسـتثمر هذه الحالة بإيجاد أنهار و قنوات فی المناطق الساحلية حيث تسقى بهذه الطريقة الكثير من الأراضی الزراعية.

إنّ هـذه الأنهر توجـد ببركة و حركة (المدّ و الجزر) الساحليتين و تأثيرهما على مياه هذه الأنهار التی تمتلئ و تفرغ مرّتين فی كلّ يوم بالماء العذب، ممّا يتيح فرصة طيّبة لسقی مناطق واسعة من الأراضی الزراعية.

و يوجد تفسير رائع آخر لهذين البحرين، حيث قالوا: إنّ المقصود منهما يحتمل أن يكون ظاهرة (كلف استريم) و الذی سيأتی شرحها فی آخر هذه الآيات إن شاء اللّه.

و مرّة اخرى يخاطب اللّه تعالى عباده فی معرض حديثه عن هذه النعم حيث يسألهم سبحانه: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و استمرارا لهذا الحديث يقول عزّ و جلّ: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

اللؤلؤ و المرجان: وسيلتان للتجميل و الزينة، و يستفاد منهما أيضا فی معالجة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۰

بعض الأمراض، كما أنّهما ثروة تجارية أيضا و وسيلة جيّدة للربح الوفير، و لهذه الموارد أشير إليهما كنعمتين إلهيتين للعباد.

أمّا «اللؤلؤ» فهو حبّة شـفّافة ثمينة تنمو فی داخل الصدف فی أعماق البحار، و كلّما كبر حجمها زاد ثمنها، و لها اسـتعمالات واسعة فی الطبّ، حيث كان الأطباء سابقا يستحضـرون منها بعض الأدويـة التی تفيد فی تقوية القلب و الأعصاب، و علاج أنواع الخفقان و تقوية الكبد و علاج اليرقان، و معالجة الخوف و الوحشة، و رفع الرائحة النتنة من الفمّ، و كذلك الحصى فی الكلية و لمثانة، و يستفاد منهما أيضا فی علاج بعض أمراض العين.

«المرجان»: فسّر البعض المرجان بأنّه اللؤلؤ الصـغيرة، إلّا أنّه فی الحقيقة شیء آخر، فهو كائن حیّ يشبه الغصن الصغير للشجرة، و ينشأ فی أعمـاق البحـار، و كـان العلمـاء يتصوّرون لفترة زمنيـة أنّ هـذه الشـجرة نوع من أنواع النباتات، إلّا أنّه اتّضـح فيما بعـد أنّه نوع من الحيوانـات، بالرغم من أنّه يلتصق بالصـخور الموجودة فی أعماق البحر و يغطّی مساحات واسـعة أحيانا و ينمو تـدريجيّا بحيث يشـكّل جزرا تعرف بالجزر المرجانية، و ينمو المرجان غالبا فی المياه الراكدة، و يصـطاده الصـيادون من سواحل البحر الأحمر و البحر الأبيض المتوسّط و فی مناطق اخرى.

و أفضل أنواع المرجان الـذی يسـتعمل للزينة هو المرجان ذو اللون الأحمر، و كلّما كان احمراره أشدّ كانت قيمته أغلى و أثمن، و هو مادّة خصبة لتشبيهات الشعراء، كما أنّ أردأ أنواع المرجان هو المرجان الأبيض و يوجد بكثرة، و ما بين النوعين هو المرجان الأسود.

و إضافـة إلى اسـتعمال المرجان كحلیّ و زينـة، فإنّ له اسـتعمالات طبيّة حيث ذكروا له خواصا كثيرة منها أنّه يصـنع منه بعض الأدوية الخاصّة بتقوية القلب، و كذلك دفع سمّ الأفعی، و تقوية الأعصاب، و معالجة الإسهال، و نزيف الرحم،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۱

و علاج الصرع [۳۸۱].

و النقطة الاخرى التی يجدر بنا ذكرها هنا أنّ بعض المفسّـرين صرّحوا بأنّ اللؤلؤ و المرجان ينشآن فقط فی المياه المالحة، ممّا أوقعهم فی إشكال فی تفسير الآية يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ فذهبوا إلى أنّ المقصود هو أحدهما كما فی الآية (۳۱) من سورة الزخرف.

إلّا أنّ مثل هذا التّفسير لا يدعمه دليل، حيث صرّح البعض بأنّ اللؤلؤ و المرجان يعيشان فی الماء العذب و المالح على السواء.

و استمرارا لهذا القسم من النعم الإلهيّة يشير سبحانه إلى موضوع (السفن) التى هى فى الحقيقة أكبر و أهمّ وسيلة لنقل البشر و حمل الأمتعة فى الماضى و الحاضر، حيث يقول سبحانه: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ

«جوار»: جمع جارية، و هى وصف للسفن، و حذفت للاختصار لأنّ التركيز الأكثر كان على سير و حركة السفن، لذا اعتمد هذا الوصف.

كما تطلق جارية على (الأمة)، و ذلك بسبب حركتها و سعيها فى إنجاز الأعمال و الخدمات، و تطلق أيضا على الفتيات الشابّات و ذلك لجريان النشاط فيهنّ.

«منشآت» جمع (منشأ) و هو اسم مفعول من (إنشاء) بمعنى إيجاد، و الظريف هنا أنّه فى الوقت الذى يعبّر عن «منشآت» و التى تحكى أنّها مصنوعة بواسطة الإنسان، يقول سبحانه (و له) أى للّه تعالى و هو إشارة إلى أنّ جميع الخواص التى يستفاد منها فى صناعة السفن، و التى منحها اللّه للبشر المخترعين لهذه الصناعة هى للّه، و كذلك فانّه هو الذى أعطى خاصية السيولة لمياه البحر و القوّة للرياح، و أنّ اللّه تعالى هو الذى أوجد هذه الخواص فى المواد المتعلّقة بالسفينة، و هذا ما عبّر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۲

عنه القرآن الكريم بالتسخير أيضا، حيث يقول سبحانه: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ [۳۸۲] و فسّر البعض «منشأ» من مادّة (إنشاء) بمعنى ارتفاع الشيء، و اعتبروها إشارة إلى أشرعة السفن التى تستخدم كقوّة فى حركة السفينة، و ذلك بسبب دفع الرياح لها.

«أعلام»: جمع (علم) على وزن (قلم)، بمعنى (جبل) بالرغم من أنّها فى الأصل بمعنى (علامة و أثر) و الذى يخبر عن شىء معيّن، و لأنّ الجبال تكون واضحة من بعد فإنّه يعبّر عنها ب (العلم) كما أنّ لفظة (علم) تطلق أيضا على «الراية».

و بهذا فإنّ القرآن الكريم نوّه هنا بالسفن الكبيرة التى تتحرّك على سطح المحيطات و البحار، و على خلاف ما يتصوّره البعض فانّ السفن الكبيرة لا تختص بعصر الماكنة و البخار، بل لقد استفاد اليونانيون و غيرهم من السفن الكبيرة فى نقل قواتهم و جيوشهم.

و مرّة اخرى يكرّر سبحانه هذا السؤال العميق المغزى بقوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

بحوث

۱- البحر مركز النعم الإلهيّة

لاحظنا فى هذا القسم من الآيات إشارة إلى البحر و أهميّته فى الحياة البشرية، و كما نعلم فإنّ مياه البحار و المحيطات تشكّل ثلاثة أرباع سطح الكرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۳

الأرضية، و هى منبع عظيم للمواد الغذائية، و الطبية، و أدوات الزينة، و وسيلة مهمّة لنقل البشر و حمل البضائع، و الأهمّ من ذلك فإنّ نزول الأمطار و اعتدال الهواء، و حتّى قسم من هبوب الرياح هى من بركات البحار، فإذا كان سطح البحار أقلّ أو أكثر ممّا هو عليه، فإنّ الكرة الأرضية إمّا أن تصبح يابسة أو رطبة لدرجة لا يمكن العيش فيها.

لذلك نرى أنّ القرآن الكريم قد ذكّر الإنسان- لعدّة مرّات و بتعبيرات مختلفة بهذه النعمة العظيمة، و دعاه للتفكير بها، حيث يقول سبحانه: سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ الجاثية/ ۱۲.

و يقول مرّة اخرى: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ إبراهيم/ ۳۲.

و قال سبحانه: سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ الحجّ/ ۶۵.

و إذا تجاوزنا كلّ ذلك فإنّ البحر هو دار العجائب حيث فيه أصغر النباتات المجهرية، و كذلك أطول أشجار العالم، و فيه أيضا أصغر الحيوانات و كذلك أعظمها و أضخمها.

كما أنّ الحياة فى أعماق البحار حيث لا ضوء و لا غذاء عجيبة إلى درجة أنّ الشخص لا يملّ من مطالعتها و الاطلاع عليها، و كلّما تعرف الإنسان على شىء منها إزداد شغفا بها، و العجيب أيضا أنّ قسما من الحيوانات هنالك تشعّ أضواء و تصنع مادّتها الغذائية على سطح البحر و من ثمّ تترسّب، كما أنّ أطرافها محكمة و مقاومة إلى درجة أنّها تتحمّل ضغط الماء العظيم الذى إذا وضع الإنسان فى حالته الطبيعيّة هناك فانّ عظامه تتحوّل إلى طحين.

۲- الأنهار البحرية العظيمة و الكلف استيرين

من العجائب الموجودة فى محيطات العالم هو وجود أنهار عظيمة و تيارات بحرية كبيرة، و أقوى هذه الأنهار يسمّى (گلف استيرين). إنّ هذا النهر العظيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۳۹۴

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۴

يتحرّك من سواحل أمريكا المركزية و يسير فى جميع المحيط الأطلسى حتّى يصل إلى سواحل أوروبا الشمالية.

و المعروف أنّ مياهه التى تسير من مناطق قريبة من خطّ الإستواء تكون حارة بل حتّى أنّ لونها يختلف عن لون المياه المجاورة، و العجيب أنّ عرض هذا النهر البحرى العظيم (الكلف استيرين) بحدود (۱۵۰) كم، كما أنّ أعمق نقطة فيه تبلغ مئات الأمتار، و سرعته فى بعض المناطق شديدة بحيث تبلغ فى اليوم الواحد ب ۱۶۰ كم.

إنّ اختلاف درجة حرارة هذا النهر مع المياه المجاورة بحدود ۱۰- ۱۵ درجة مئوية، لذا فإنّ ساحله الغربى يسمّى بالجدار البارد.

و الكلف أستيرين يسبّب رياحا حارّة و يدفع قسما كبيرا من حرارته باتّجاه مدن أوروبا الشمالية، حيث يؤثّر على مناخ تلك البلدان بحيث يكون معتدلا للغاية، و يحتمل أن يكون العيش صعبا للغاية فى هذه المناطق لو لم يوجد هذا المجرى العظيم.

و نكرّر مرّة اخرى أنّ (الكلف استيرين) هو أحد الأنهار فى المحيطات، و هناك أنهار اخرى كثيرة فى بحار و محيطات العالم.

إنّ السبب الأساس فى تكوين هذه الأنهار البحرية هو اختلاف حرارة المنطقة الإستوائية و المناطق القطبية و التى توجد هذه الحركة فى مياه البحار.

و يمكن استيعاب هذا الموضوع بتجربة بسيطة:

فإذا كان لدينا ماء فى وعاء كبير، و وضعنا فى جانب منه قطعة ثلجية، و فى الجهة الاخرى قطعة حديدية حارّة، و وضعنا على سطح الماء قليلا من التبن، فإنّنا سنلاحظ ظهور حركة على سطح الماء حيث يتحرّك الماء ببطء من المنطقة الحارّة باتّجاه المنطقة الباردة.

إنّ مثل هذه الحالة تحصل فى كلّ بحار العالم، و هى مصدر ظهور هذه الأنهار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۵

البحرية.

و العجيب أنّ هذه الأنهار العظيمة لا تمتزج مع المياه حولها إلّا قليلا، و تسير آلاف الكيلومترات على هذه الصورة، و بذلك تعبّر عن مصداقية الآية الكريمة مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ

و الملفت للنظر أنّ فى نقطة التقاء هذه المياه الحارّة مع المياه الباردة، تحدث ظاهرة مفيدة جدّا للإنسان، و هى حدوث حالة من

الإغماء أو الموت الجماعی للحیوانات المجهریة المعلّقة فی الماء و ذلک فی نقطة التماس و الالتقاء بین المیاه الحارّة و المیاه الباردة و بهذا تتوفّر فی هذه المناطق مواد غذائیة کثیرة لا حصر لها و تکون سببا فی جذب قطعان الأسماک الکبیر، حیث یقصد الصیادون هذه المناطق للاستفادة من صید هذه الحیوانات، و تعتبر هذه المنطقة من أفضل المناطق فی العالم لصید الأسماک [۳۸۳].

و هذا یمثّل أحد التفاسیر للآیات أعلاه، و هو لا یتنافی مع التفاسیر الاخری، و لذا یمکن الجمع بینهما.

۳- تفسیر من أعماق الآیات

نقل

فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ یَلْتَقِیانِ أنّه قال: «و علی و فاطمة علیهما السّلام بحران عمیقان لا یبغی أحدهما علی صاحبه. یَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ قال: الحسن و الحسین»[۳۸۴].

و نقل هذا المعنی عن بعض أصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر الدرّ المنثور[۳۸۵].

و نقله العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان مع اختلاف یسیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۶

و من هنا نعلم أنّ القرآن الکریم له بطون، و أنّ آیة واحدة یمکن أن تکون لها معان متعدّدة بل عشرات المعانی. و التّفسیر الأخیر هو من بطون القرآن، و لا یتنافی مع المعانی الظاهریة له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۷

الآیات [سورة الرحمن (۵۵): الآیات ۲۶ الی ۳۰]

اشارة

کُلُّ مَنْ عَلَیْها فانٍ (۲۶) وَ یَبْقی وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ (۲۷) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۲۸) یَسْئَلُهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ (۲۹) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۳۰)

التّفسیر

کلّ شیء هالک إلّا وجهه:

استمرارا لشرح النعم الإلهیّة، فی هذه الآیات یضیف سبحانه قوله: کُلُّ مَنْ عَلَیْها فانٍ و هنا یتساءل کیف یکون الفناء نعمة إلهیة؟

و للجواب علی هذا السؤال نذکر ما یلی: یمکن ألّا یکون المقصود بالفناء هنا هو الفناء المطلق، و إنّما هو الباب الذی یطلّ منه علی عالم الآخرة، و الجسر الذی لا بدّ منه للوصول إلی دار الخلد، بلحاظ أنّ الدنیا بکلّ نعمها هی سجن المؤمن، و الخروج منها هو التحرر من هذا السجن المظلم.

أو أنّ النعم الإلهیّة الکثیرة- المذکور سابقا- یمکن أن تکون سببا لغفلة البعض و إسرافهم فیها بأنواع الطعام و الشراب و الزینة و الملابس و المراکب و غیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۸

ذلك. ممّا يستلزم تحذيرا إلهيّا للإنسان، بأنّ هذه الدنيا ليست المستقّر، فالحذر من التعلّق بها، و لا بدّ من الاستفادة من هذه النعم فى طاعة اللّه .. إنّ هذا التنبيه و التذكير بالرحيل عن هذه الدنيا هو نعمة عظيمة.

الضمير فى (عليها) يرجع إلى الأرض التى ورد ذكرها فى الآيات السابقة، بالإضافة إلى القرائن الاخرى الموجودة، لذا فهو واضح.

كما أنّ المقصود مَنْ عَلَيْها هم الجنّ و الإنس مع العلم أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّ الحيوانات و الكائنات الحيّة جميعا مشمولة بهذا المعنى.

و بما أنّ كلمة (من) تستعمل غالبا للعاقل، لذا فالمعنى الأوّل هو الأنسب.

صحيح أنّ مسألة الفناء لا تنحصر بالإنس و الجنّ فقط، و لا تختّص بالكائنات الموجودة على الأرض فحسب، حيث يصرّح القرآن الكريم بأنّ أهل السماء و الأرض جميعا يفنون، و ذلك فى قوله: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [۳۸۶] و لكن لمّا كان الحديث يدور حول أهل الأرض، لذا فهم المقصودون.

و يضيف فى الآية اللاحقة قوله سبحانه: وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ

«وجه» معناه اللغوى معروف و هو القسم الأمامى للشيء بحيث يواجهه الإنسان فى الطرف المقابل، و استعمالها بخصوص لفظ الجلالة يقصد به (الذات المقدّسة).

فسّر البعض وَجْهُ رَبِّكَ بمعنى الصفات الإلهية المقدّسة، التى عن طريقها تنزل نعم و بركات اللّه على الإنسان كالرحمة و المغفرة و العمل و القدرة.

و يحتمل أن يكون المقصود هى الأعمال التى تنجز من أجل اللّه، و بناء على هذا فالجميع يفنى، و الشيء الباقى هى الأعمال التى تنجز بإخلاص و لرضى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۹

تعالى ..

إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

أمّا ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ و الذى هو وصف ل (الوجه) فإنّه يشير إلى صفات الجمال و الجلال للّه سبحانه، لأنّ ذُو الْجَلالِ تتبّئنا عن الصفات التى يكون اللّه أسمى و أجلّ منها (الصفات السلبية). و كلمة «الإكرام» تشير إلى الصفات التى تظهر حسن و قيمة الشيء، و هى الصفات الثبوتية للّه سبحانه كعلمه و قدرته.

و بناء على هذا فإنّ معنى الآية بصورة عامّة يصبح كالآتى: إنّ الباقى فى هذا العالم هو الذات المقدّسة للّه سبحانه، و التى تتّصف بالصفات الثبوتية و المنزّهة عن الصفات السلبية.

كما فسّر البعض أنّ (ذو الإكرام) هو إشارة إلى الألطاف و النعم الإلهية التى تفضّل اللّه بها و أكرمها لخاصّة أوليائه، و من الممكن الجمع بين هذه المعانى المختلفة للآية أعلاه.

و نقرأ

فى حديث أنّ رجلا كان يصلّى فى محضر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث دعا اللّه سبحانه كذلك: «اللهمّ إنّى أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلّا أنت المنّان، بديع السماوات و الأرض، ذو الجلال و الإكرام، يا حىّ يا قيّوم».

فقال الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأصحابه: «أ تدرون بأى اسم دعا اللّه؟» فقالوا: اللّه و رسوله أعلم.

قال: «و الذى نفسى بيده، لقد دعا اللّه باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، و إذا سئل به أعطى»[۳۸۷].

ثمّ يخاطب الخلائق مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و مضمون الآية اللاحقة فى الحقيقة هى نتيجة للآيات السابقة، حيث يقول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۰

سبحانه: یَسْئَلُهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و لماذا لا یکون کذلک فی الوقت الذی یفنی الجمیع و یبقی وحده سبحانه، و لیس هذا فی نهایة العالم فقط، و إنّما الآن أیضا فانّ الکائنات فانیة فی مقابله و بقاءها مرتبط بمشیئته، و إذا أعرض بلطفه فسیتلاشی الکون بأجمعه، و علی هذا فهل یوجد أحد سواه یطلب أهل السماوات و الأرض قضاء حوائجهم منه و یسألونه تدبیر شؤونهم؟! التعبیر ب (یسأله) جاء بصیغة المضارع، و هو دلیل علی أنّ السؤال و الطلب فی الکائنات و مستمر من الذات الإلهیّة المقدّسة، و الجمیع یستلهمون من مبدأ فیضه، و لسان حالهم یطلب الوجود و البقاء و قضاء الحوائج، و هذا شأن الموجود الممکن الذی هو مرتبط بواجب الوجود لیس فی الحدوث فقط. و إنّما فی البقاء أیضا.

ثمّ یضیف سبحانه: کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ

نعم إنّ خلقه مستمر، و إجاباته لحاجات السائلین و المحتاجین لا تنقطع، کما أنّ إبداعاته مستمرّة فیجعل الأقوام یوما فی قوّة و قدرة، و فی یوم آخر یهلکهم، و یوما یعطی السلامة و الشباب، و فی یوم آخر الضعف و الوهن، و یوما یذهب الحزن و الهمّ من القلوب و آخر یکون باعثا له. و خلاصة الأمر أنّه فی کلّ یوم- و طبقا لحکمته و نظامه الأکمل- یخلق ظاهرة جدیدة و خلقا و أحداثا جدیدة.

و الالتفات إلی هذه الحقیقة من جهة یوضّح احتیاجاتنا المستمرّة لذاته المقدّسة، و من جهة اخری فإنّه یذهب الیأس و القنوط من القلوب، و من جهة ثالثة فإنّه یلوی الغرور و یکسر الغفلة فی النفوس.

نعم، إنّه سبحانه له فی کلّ یوم شأن و عمل.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین ذکروا قسما من هذا المعنی الواسع تفسیرا للآیة، إلّا أنّ البعض ذکر فی تفسیرها، أنّها مغفرة الذنوب، و ذهاب الحزن، و إعزاز أقوام و إذلال آخرین فقط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۱

و البعض الآخر قال: إنّها مسألة الخلق و الرزق و الحیاة و الموت و العزّة و الذلّة فقط.

و البعض الآخر عنون مسألة الخلق و الموت بالنسبة للإنسان و قال: إنّ للّه جیوشا ثلاثة: جیش ینتقل من أصلاب الآباء إلی أرحام الامّهات، و جیش یخرج إلی عالم الدنیا من أرحام الامّهات، و جیش یساق من عالم الدنیا إلی القبور.

و کما قلنا فإنّ للآیة مفهوما واسعا یشمل کلّ خلق جدید و خلقة جدیدة، و یشمل کلّ تغییر و تحوّل فی هذا العالم.

و نقرأ

فی روایة لأمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال فی أحد خطبه: «الحمد للّه الذی لا یموت و لا تنقضی عجائبه لأنّه کلّ یوم هو فی شأن، من إحداث بدیع لم یکن»[۳۸۸].

و نقرأ

فی حدیث آخر للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیره الآیة الکریمة: «من شأنه أن یغفر ذنبا و یفرّج کربا و یرفع قوما و یضع آخرین»[۳۸۹].

و لا بدّ من الانتباه لهذه النقطة أیضا: إنّ المقصود من (یوم) هو لیس (النهار) فی مقابل (اللیل) بل یشمل الأحقاب المتزامنة، و کذلک الساعات و اللحظات، و مفهومه أنّ اللّه المتعال فی کلّ زمان فی شأن و عمل.

کما أنّ البعض ذکروا شأنا نزولیا للآیة، و هو أنّها نزلت ردّا علی قول الیهود الذین یعتقدون أنّ اللّه عزّ و جلّ یعطّل کلّ الأعمال فی یوم السبت، و لا یصدر أی حکم ۳۹۰]. فالقرآن الکریم یقول: إنّ خلق اللّه و تدبیره لیس له توقّف.

و مرّة اخری- بعد هذه النعم المستمرّة و الإجابة لاحتیاجات جمیع خلقه من أهل السماوات و الأرض یکرّر قوله سبحانه: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۲

بحوث

۱- ما هی حقیقة الفناء؟

ما مرّ بنا فی الآیات السابقة و هو أنّ «الکلّ یفنی إلّا اللّه» لیس بمعنی الفناء المطلق، و أنّ روح الإنسان تفنی أیضا أو أنّ التراب الناشئ من بدنه بعد الموت سینعدم أیضا، إذ أنّ الآیات القرآنیة صرّحت بوجود عالم البرزخ إلی یوم القیامة[۳۹۱].

و من جهة اخری فإنّ اللّه سبحانه یذکر لمرّات عدّة أنّ الموتی یخرجون من قبورهم یوم القیامة[۳۹۲].

و یذکر سبحانه فی آیة اخری أنّ رمیم العظام یلبس الحیاة مرّة اخری بأمر اللّه ۳۹۳].

و هذه الآیات کلّها شاهد علی أنّ الفناء فی الآیة و الآیات الاخری بمعنی اضطراب نظام الجسم و الروح و قطع الارتباط بینهما و اضطراب عالم الخلقة کذلک، و حلول عالم جدید محلّ العالم السابق.

۲- استمرار الخلق و الإبداع

قلنا: إنّ الآیة الکریمة: کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ تدلّ علی دوام الخلقة و استمرار الخلق، و أنّها مبعث أمل من جهة، و نافیة للغرور من جهة اخری، لذا فانّ القادة الإسلامیین یعتمدون علیها کثیرا لبعث الأمل فی النفوس، کما نقرأ ذلک فی تبعید الصحابی الجلیل «أبی ذرّ الغفاری» إلی (الربذة) حیث یذکر التاریخ أنّ علیا علیه السّلام جاء لتودیعه فواساه بکلمات مؤثّرة، ثمّ أعقبه ابنه الإمام الحسن علیه السّلام حیث خاطب أبا ذر رضی اللّه عنه بقوله «یا عمّاه» تکریما له و أعقبه أخوه سیّد الشهداء الإمام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۳

الحسین علیه السّلام بقوله لأبی ذرّ: «یا عمّاه إنّ اللّه تعالی قادر علی أن یغیّر ما قد تری. اللّه کلّ یوم فی شأن، و قد منعک هؤلاء القوم دنیاهم و منعتهم دینک فاسأل اللّه الصبر و النصر[۳۹۴] ...

و نقرأ أیضا أنّ الإمام الحسین علیه السّلام و هو فی طریقه إلی کربلاء لقی الشاعر «الفرزدق» عند (صفاح) فسأله الإمام علیه السّلام عن خبر الناس خلفه- إشارة إلی أهل العراق- فقال: الخبیر سألت، قلوب الناس معک، و سیوفهم مع بنی أمیّة، و القضاء ینزل من السماء و اللّه یفعل ما یشاء.

فقال الإمام الحسین علیه السّلام: (صدقت للّه الأمر یفعل ما یشاء و کلّ یوم ربّنا فی شأن)[۳۹۵].

و کلّ ذلک یرینا أنّ هذه الآیة هی الآیة باعثة للأمل فی نفوس المؤمنین.

و ثمّة قصّة اخری فی هذا الصدد حیث ذکروا أنّ أحد الأمراء سأل وزیره عن تفسیر هذه الآیة، إلّا أنّ الوزیر أعلن عن عدم علمه بها و طلب مهلة لیوم غد، و رجع إلی البیت محزونا، و کان لدیه غلام أسود ذو علم و معرفة، فسأله عمّا به، فحدّث غلامه بالقصّة، فأجابه: إذا ذهبت إلی الأمیر فأخبره إذا کان یرغب فی معرفة تفسیر هذه الآیة فأنا مستعدّ لذلک ... فطلبه الأمیر و سأله، فأجابه الغلام:

یا أمیر، شأنه یولج اللیل فی النهار، و یولج النهار فی اللیل، و یخرج الحیّ من المیّت، و یخرج المیّت من الحیّ، و یشفی سقیما، و یسقم سلیما، و یبتلی معافی، و یعافی مبتلی، و یعزّ ذلیلا، و یذلّ عزیزا، و یفقر غنیّا، و یغنی فقیرا ..

فقال الأمیر: «فرّجت عنّی فرّج اللّه عنک» ثمّ أکرمه و أنعمه ۳۹۶].

۳- الحركة الجوهرية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۴

بعض المؤيدين للحركة الجوهرية يستدلّون لإثبات مرادهم بالآيات القرآنية أو يعتبرونها إشارة لمقصودهم، و من ضمن ما يستشهدون به الآية الكريمة: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ

التوضيح: يعتقد الفلاسفة القدماء أنّ للحركة أربع مقولات عرضية هى: (أين، كيف، كم، وضع).

و بتعبير أوضح أنّ حركة الجسم تكون بتغيير مكانه و ذلك بانتقاله، و هذه هى مقولة (الأين)، أو بنموّه أو زيادة كمّيته و هذه مقولة «الكم». أو تغيّر اللون و الطعم و الرائحة (كشجرة التفاح) و هذا المقصود من «الكيف»، أو أن يدور فى مكانه حول نفسه كالحركة الوضعية للأرض و هذا ما يراد به من «الوضع».

و قد كان سائدا أنّ الحركة غير ممكنة فى جوهر و ذات الجسم أبدا، لأنّه فى كلّ حركة يجب أن تكون ذات الجسم المتحرّك ثابتة، إلّا أنّ عوارضه قد تتغيّر، فالحركة لا تتصوّر فى ذات الشيء و جوهره، بل فى اعراضه.

لكنّ الفلاسفة المتأخّرين رفضوا هذه النظرية و اعتقدوا بالحركة الجوهرية، و قالوا: إنّ أساس الحركة هى الذات، الجوهر، و التى تظهر آثارها فى العوارض.

و أوّل شخص طرح هذه النظرية بشكل تفصيلى استدلالى هو المولى صدر الدين الشيرازى حيث قال: إنّ كلّ ذرّات الكائنات و عالم المادّة فى حركة دائبة، أو بتعبير آخر: إنّ مادّة الأجسام وجود سيّال متغيّر الذات دائما، و فى كلّ لحظة له وجود جديد يختلف عن الوجود السابق له، و لكون هذه التغيّرات متّصلة مع بعضها فإنّها تحسب شيئا واحدا، و بناء على هذا فإنّ لنا فى كلّ لحظة وجودا جديدا، إلّا أنّ هذه الوجودات متصلة و مستمرة و لها صورة واحدة، أو بتعبير آخر: إنّ المادة لها أربعة أبعاد (طول و عرض و عمق و أمّا البعد الآخر فهو ما نسمّيه (الزمان) و هذا الزمان ليس بشيء إلّا مقدار الحركة فى الجوهر) لاحظوا جيّدا.

و ممّا يجدر ذكره أنّ الحركة الجوهرية لا ترتبط بمسألة الحركة فى داخل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۵

الذرّة لأنّها حركة وضعية و عرضية، أمّا الحركة فى الجوهر فلها مفهوم عميق جدّا تشمل الذات و الجوهر.

و العجيب هنا أنّ المتحرّك هو نفس الحركة.

و لإثبات هذا المقصود فإنّهم يستدلّون بدلائل عديدة لا مجال لذكرها هنا، إلّا أنّه لا بأس بالإشارة إلى نتيجة هذا الرأى الفلسفى و هو أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ إدراكنا لمسألة معرفة اللّه أوضح من أى زمان، لأنّ الخلق و الخلقة لم تكن فى بداية الخلق فحسب، بل إنّها فى كلّ ساعة و كلّ لحظة، و إنّ اللّه سبحانه مستمر فى خلقه، و نحن مرتبطون به دائما و مستفيضون من فيض ذاته و هذا معنى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ

و من الطبيعى أن لا مانع من أن يكون هذا المفهوم جزءا من المفهوم الواسع للآية الكريمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۶

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۳۱ الى ۳۶]

اشارة

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (۳۱) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۲) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ

الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطانٍ (۳۳) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَما تُكَذِّبانِ (۳۴) يُرْسَلُ عَلَيْكَما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (۳۵) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۶)

التّفسير

التحدّی المشروط:

النعم الإلهيّة التی استعرضتها الآيات السابقة كانت مرتبطة بهذا العالم، إلّا أنّ الآيات مورد البحث تتحدّث عن أوضاع يوم القيامة، و خصوصيات المعاد، و فی الوقت الذی تحمل تهديدا للمجرمين، فإنّها وسيلة لتربية و توعية و إيقاظ المؤمنين، بالإضافة إلى أنّها مشجّعة لهم للسير فی طريق مرضاته سبحانه، و من هنا فإنّنا نعتبرها نعمة. لذلک بعد ذكر كلّ واحدة من هذه النعم يتكرّر نفس السؤال الذی كان يعقّب ذكر كلّ نعمة من النعم السابقة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۷

يقول سبحانه فی البداية: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ ۳۹۷][۳۹۸].

نعم، إنّ اللّه العالم القادر سيحاسب فی ذلک اليوم الإنس و الجنّ حسابا دقيقا على جميع أعمالهم و أقوالهم و نيّاتهم، و يعيّن لكلّ منهم الجزاء و العقاب.

و مع علمنا بأنّ اللّه سبحانه لا يشغله عمل عن عمل، و علمه محيط بالجميع فی آن واحد، و لا يشغله شیء عن شیء (و لا يشغله شأن عن شأن) و لكنّنا نواجه التعبير فی (سنفرغ) و التی تستعمل غالبا بالتوجّه الجادّ لعمل ما، و الانصراف الكلّی له، و هذا من شأن المخلوقات بحكم محدوديتها.

إلّا أنّه استعمل هنا للّه سبحانه، تأكيدا على مسألة حساب اللّه تعالى لعباده بصورة لا يغادر فيها صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها، و لا يغفل عن مثقال ذرّة من أعمال الإنسان خيرا أو شرّا، و الأظرف من ذلک أنّ اللّه الكبير المتعال هو الذی يحاسب بنفسه عبده الصغير، و علينا أن نتصوّركم هی مرعبة و مخيفة تلک المحاسبة.

(الثقلان) من مادّة (ثقل) على وزن (كبر) بمعنى الحمل الثقيل و جاءت بمعنى الوزن أيضا، إلّا أنّ (ثقل) على وزن (خبر) تقال عادة لمتاع و حمل المسافرين، و تطلق على جماعة الإنس و الجنّ و ذلک لثقلهم المعنوی، لأنّ اللّه تبارک و تعالى قد أعطاهم عقلا و شعورا و علما و وعيا له وزن و قيمة بالرغم من أنّ الثقل الجسدی لهم ملحوظ أيضا كما قال تعالى: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها،[۳۹۹] حيث ورد أنّ أحد معانيها هو خروج الناس من القبور فی يوم القيامة، إلّا أنّ التعبير فی الآية مورد البحث جاء باللحاظ المعنوی، خاصّة و أنّ الجنّ ليس لهم ثقل مادّی.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۸

التأكيد على هاتين الطائفتين بالخصوص لأنّ التكاليف الإلهيّة مختّصة بهما فی الغالب.

و بعد هذا يكرّر اللّه سبحانه سؤاله مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و تعقيبا على الآية السابقة التی كانت تستعرض الحساب الإلهی الدقيق، يخاطب الجنّ و الإنس مرّة اخرى بقوله: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ للفرار من العقاب الإلهی فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ أی بقوّة إلهية، فی حين أنّكم فاقدون لمثل هذه القوّة و القدرة.

و بهذه الصورة فإنّكم لن تستطيعوا أن تفرّوا من محكمة العدل الإلهی، فحيثما تذهبون فهو ملكه و تحت قبضته و محلّ حكومته

تعالى، و لا مناصّ لهذا المخلوق الصغير من الفرار من ميدان القدرة الإلهيّة؟ كما

قال الإمام على عليه السّلام فى دعاء كميل بن زياد المربى للروح: (و لا يمكن الفرار من حكومتك).

«معشر» فى الأصل من (عشر) مأخوذ من عدد «عشرة»، و لأنّ العدد عشرة عدد كامل، فإنّ مصطلح (معشر) يقال: للمجموعة المتكاملة و التى تتكوّن من أصناف و طوائف مختلفة.

«أقطار» جمع (قطر) بمعنى أطراف الشيء.

«تنفذوا» من مادّة (نفوذ)، و هى فى الأصل بمعنى خرق و عبور من شىء، و التعبير (من أقطار) إشارة إلى شقّ السماوات و تجاوزها إلى خارجها.

و بالمناسبة فإنّ تقديم «الجنّ» هنا جاء لاستعدادهم الأنسب للعبور من السماوات، و قد ورد اختلاف بين المفسّرين على أنّ الآية أعلاه هل تتحدّث عن القيامة، أو أنّ حديثها عن عالم الدنيا، أو كليهما؟

و لأنّ الآيات السابقة و اللاحقة تتحدّث عن وقائع العالم الآخر، فإنّ المتبادر إلى الذهن أنّ الآية تتحدّث عن الهروب و الفرار من يد العدالة الإلهية الذى يفكّر به

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۹

العاصون فى ذلك اليوم.

إلّا أنّ البعض بلحاظ جملة: لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ اعتبرها إشارة إلى الرحلات الفضائية للإنسانية، و قد ذكر القرآن شروطها من القدرة العلمية و الصناعية.

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود منها هو عالم الدنيا و عالم القيامة، يعنى أنّكم لن تتمكّنوا من النفوذ بدون قدرة اللّه فى أقطار السماوات ليس فى هذه الدنيا فحسب، بل فى عالم الآخرة أيضا، حيث وضعت فى الدنيا وسيلة محدودة لاختباركم، أمّا فى الآخرة فلا توجد أيّة وسيلة لكم.

و فسّرها البعض تفسيرا رابعا حيث قالوا: إنّ المقصود بالنفوذ هو النفوذ الفكرى و العلمى فى أقطار السماوات، الذى يمكن للبشر إنجازه بواسطة القدرة الاستدلالية.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل مناسب أكثر، خاصّة و أنّ بعض الأخبار التى نقلت من المصادر الإسلامية تؤيّده، و من جملتها حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث يقول:

«إذا كان يوم القيامة جمع اللّه العباد فى صعيد واحد، و ذلك أن يوحى إلى السماء الدنيا أن اهبطى بمن فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجنّ و الإنس و الملائكة، ثمّ يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين، فلا يزالون كذلك حتّى يهبط أهل سبع سماوات فتصير الجنّ و الإنس فى سبع سرادقات من الملائكة ثمّ ينادى مناد، يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبع أطواق من الملائكة»[۴۰۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۰

كما أنّ الجمع بين التفاسير ممكن أيضا.

و يخاطب سبحانه هاتين المجموعتين «الجنّ و الإنس» بقوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و التهديد هنا لطف إلهى أيضا، فالبرغم من أنّه يحمل تهديدا ظاهريا، إلّا أنّه عامل للتنبيه و الإصلاح و التربية، حيث أنّ وجود المحاسبة فى كلّ نظام هو نعمة كبيرة.

و ما ورد فى الآية اللاحقة تأكيد لما تقدّم ذكره فى الآيات السابقة، و الذى يتعلّق بعدم قدرة الجنّ و الإنس من الفرار من يد العدالة الإلهيّة حيث يقول سبحانه: يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ

«شواظ» کما ذکر الراغب فی المفردات، و ابن منظور فی لسان العرب، و کثیر من المفسّرین أنّه بمعنی (الشعلة العدیمة الدخان) و فسّرها آخرون بأنّها (ألسنة النار) التی تقتطع من النار نفسها حسب الظاهر، و تکون خضراء اللون. و علی کلّ حال فإنّ هذا التعبیر یشیر إلی شدّة حرارة النار.

و «نحاس» بمعنی الدخان أو (الشعل ذات اللون الأحمر مصحوبة بالدخان) و التی تکون بلون النحاس، و فسّرها البعض بأنّها (النحاس المذاب) و هی لا تتناسب فی الظاهر مع ما ورد فی الآیة مورد البحث، لأنّها تتحدّث عن موجود یحیط بالإنسان فی یوم القیامة و یمنعه من الفرار من حکومة العدل الإلهی.

و کم هی عجیبة (محکمة القیامة) حین یحاط الإنسان إحاطة تامّة بالملائکة و النار الحارقة و الدخان القاتل، و لا مناص إلّا التسلیم لحکم الواحد الأحد فی ذلک الیوم الرهیب.

ثمّ یضیف سبحانه قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

و الکلام هنا عن النعم و الآلاء من أجل ما ذکرنا من اللطف فی الآیة السابقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۱

الآیات [سورة الرحمن (۵۵): الآیات ۳۷ الی ۴۵]

اشارة

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَکانَتْ وَرْدَةً کَالدِّهانِ (۳۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۳۸) فَیَوْمَئِذٍ لا یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ (۳۹) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۴۰) یُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِیماهُمْ فَیُؤْخَذُ بِالنَّواصِی وَ الْأَقْدامِ (۴۱)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۴۲) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِی یُکَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (۴۳) یَطُوفُونَ بَیْنَها وَ بَیْنَ حَمِیمٍ آنٍ (۴۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۴۵)

التّفسیر

یعرف المجرمون بسیماهم:

تکملة للآیات السابقة یتحدّث القرآن الکریم عن بعض مشاهد یوم القیامة، و الآیات أعلاه تذکر خصوصیات من مشاهد ذلک الیوم الموعود، و عن کیفیة الحساب و الجزاء و العقاب، یقول سبحانه فی بدایة الحدیث: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۲

فَکانَتْ وَرْدَةً کَالدِّهانِ ۴۰۱].

و یستفاد من مجموع آیات «القیامة» بصورة واضحة أنّ النظام الحالی للعالم سوف یتغیّر و یضطرب و تقع حوادث مرعبة جدّا فی کلّ الوجود، فتتغیّر الکواکب و السیّارات و الأرض و السماء، و تحصل تغیّرات یصعب تصورها، و من جملتها ما ذکر فی الآیة أعلاه، و هی انشقاق و تناثر الکرات السماویة، حیث یصبح لونها أحمر بصورة مذابة کالدهن.

(وردة) و (ورد) هو الورد المتعارف، و لأنّ لون الورد فی الغالب یکون أحمر، فإنّ معنی الاحمرار یتداعی للذهن منها.

و یأتی هذا المصطلح أیضا بمعنی «الخیل الحمر»، و بما أنّ لونها یتغیّر فی فصول السنة حین یکون فی الربیع مائلا إلی الصفرة، و فی الشتاء یحمّر، و یقتم لونها فی البرد الشدید، فتشبیه السماء یوم القیامة بها هو بلحاظ التغیّرات التی تحصل فی ألوانها فتارة یکون لونها

کالشعلة الوهاجة أحمر حارقا، و أحیانا أصفر، و اخری أسود قاتم و معتم.

«دهان» علی وزن (کتاب)، بمعنی الدهن المذاب، و تطلق أحیانا علی الرسوبات المتخلّفة للمادّة الدهنیة، و غالبا ما تکون لها ألوان متعدّدة، و من هنا ورد هذا التشبیه حیث یصبح لون السماء کالدهن المذاب بلون الورد الأحمر، أو إشارة إلی ذوبان الکرات السماویة أو اختلاف لونها.

و فسّر البعض «الدهان» بمعنی الجلد أو اللون الأحمر، و علی کلّ حال فإنّ هذه التشبیهات تجسّد لنا صورة من مشهد ذلک الیوم العظیم. حیث أنّ حقیقة الحوادث فی ذلک الیوم لیس لها شبیه مع أیّة حوادث اخری من حوادث عالمنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۳

هذا. فهذه المشاهد لا نستطیع إدراکها إلّا إذا رأیناها.

و لأنّ الإخبار بوقوع هذه الحوادث المرعبة فی یوم القیامة- أو قبلها- تنبیه و إنذار للمؤمنین و المجرمین علی السواء، و لطف من ألطاف اللّه سبحانه، یتکرّر هذا السؤال: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

و فی الآیة اللاحقة ینتقل الحدیث من الحوادث الکونیة لیوم القیامة إلی حالة الإنسان المذنب فی ذلک الیوم، حیث یقول سبحانه: فَیَوْمَئِذٍ لا یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ

و لماذا هذا السؤال و کلّ شیء واضح فی ذلک الیوم، فهو یوم البروز، و کلّ شیء یقرأ فی وجه الإنسان.

قد یتوهّم أنّ المعنی الوارد فی هذه الآیة یتنافی مع الآیات الاخری التی تصرّح و تؤکّد مسألة سؤال اللّه تعالی لعباده فی یوم القیامة، کما ورد فی الآیة:

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ [۴۰۲] و کما فی قوله تعالی: فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ عَمَّا کانُوا یَعْمَلُونَ [۴۰۳] و یحلّ هذا الإشکال إذا علمنا أنّ یوم القیامة یوم طویل جدّا، و علی الإنسان أن یجتاز محطّات و مواقف متعدّدة فیه، حیث لا بدّ من التوقّف فی کلّ محطّة مدّة زمنیة، و طبقا لبعض الرّوایات فإنّ عدد هذه المواقف خمسون موقفا، و فی بعضها لا یسأل الإنسان إطلاقا، إذ أنّ سیماء وجهه تحکی عمّا فی داخله، کما ستبیّنه الآیات اللاحقة.

کما أنّ بعض المواقف الاخری لا یسمح له بالکلام، حیث تشهد علیه أعضاء بدنه قال تعالی: الْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلی أَفْواهِهِمْ وَ تُکَلِّمُنا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۴

[۴۰۴] کما أنّ فی بعض المحطّات یسأل الإنسان و بدقّة متناهیة عن کافّة أعماله ۴۰۵].

و فی بعض المواقف یسلک الإنسان سبیل الجدل و الدفاع و المخاصمة[۴۰۶].

و خلاصة القول: إنّ کلّ محطّة لها شروطها و خصوصیاتها، و کلّ واحدة منها أشدّ رعبا من الاخری.

و مرّة اخری یخاطب سبحانه عباده حیث یقول: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

نعم إنّه لا یسأل حیث یُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِیماهُمْ ۴۰۷] فهناک وجوه تطفح بالبشر و النور و تعبّر عن الإیمان و صالح الأعمال، و اخری مسودّة قاتمة مکفهّرة غبراء تحکی قصّة کفرهم و عصیانهم قال تعالی: وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِکَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَ وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ عَلَیْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ.[۴۰۸] ثمّ یضیف سبحانه: فَیُؤْخَذُ بِالنَّواصِی وَ الْأَقْدامِ

«النواصی»: جمع ناصیة و کما یقول الراغب فی المفردات أنّ الأصل بمعنی الشعر بمقدّمة الرأس من مادّة (نصأ) علی وزن (نصر) و تعنی الاتّصال و الارتباط، «و أخذ بناصیته» بمعنی أخذه من شعره الذی فی مقدّمة رأسه، کما تأتی أحیانا کنایة عن الغلبة الکاملة علی الشیء.

أقدام: جمع «قدم» بمعنی الأرجل.

و المعنى الحقيقى للآيـة المباركـة هـو أنّ الملائكـة تأخـذ المجرمين فى يوم القيامـة من نواصـيهم و أرجلهم، و يرفعونهم من الأرض بمنتهى الذلّة و يلقونهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۱۵

جهنّم، أو أنّه كناية عن منتهى ضعف المجرمين و عجزهم أمام ملائكة الرحمن، حيث يقذفونهم فى نار جهنّم بذلّة تامّة، فما أشدّ هذا المشهد و ما أرعبه!! و مرّة اخرى يضيف سبحانه: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ لأنّ التذكير بيوم القيامة هو لطف منه تعالى.

ثمّ يقول سبحانه: هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ

و ذكر المفسّرون تفاسير مختلفـة حول المخاطبين المقصودين فى هذه الآية الكريمة، و هل هم حضّار المحشر؟ أو أنّ المخاطب هو شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فحسب، و قد ذكر له هذا المعنى فى الدنيا؟ و المرجّح فى رأينا هو المعنى الثانى خاصّة، لأنّ الفعل (يكذّب) جاء بصيغة المضارع. و أستفيد من (المجرمون) ما يحمل على الغائب، و هذا يوضّح أنّ اللّه تعالى قال لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هذه أوصاف جهنّم التى ينكرها المجرمون باستمرار فى هذه الدنيا. و قيل: إنّ المخاطب هو جميع الجنّ و الإنس حيث يوجّه لهم إنذار يقول لهم فيه: هذه جهنّم التى ينكرها المجرمون، لها مثل هذه الأوصاف التى تسمعونها، لذلك يجب أن تنتبهوا و تحذروا أن يكون مصيركم هذا المصير.

و يضيف سبحانه فى وصف جهنّم و عذابها المؤلم الشديد حيث يقول:

يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ

«آن» و «آنى» هنا بمعنى الماء المغلى و فى منتهى الحرارة و الإحراق، و فى الأصل من مادّة (إنّا) على وزن (رضا) بمعنى الوقت لأنّ الماء الحارق وصل إلى وقت و مرحلة نهائية.

و بهذه الحالة فإنّ المجرمين يحترقون وسط هذا اللهيب الحارق لنار جهنّم، و يظمأون و يستغيثون للحصول على ماء يروى ظمأهم، حيث يعطى لهم ماء مغلى (أو يصبّ عليهم) ممّا يزيد و يضاعف عذابهم المؤلم.

و يستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ (عين حميم) الحارقة تكون بجنب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۱۶

جهنّم، و يلقى فيها من يستحقّ عذابها ثمّ فى النار يسجرون، قال تعالى: يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [۴۰۹] و التعبير ب يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ فى الآية مورد البحث، يتناسب أيضا مع هذا المعنى.

و مرّة اخرى بعد هذا التنبيه و التحذير الشديد الموقظ، الذى هو لطف من اللّه يقول البارئ عزّ و جلّ: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۱۷

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۴۶ الى ۵۵]

اشارة

وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (۴۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۷) ذَواتا أَفْنانٍ (۴۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۹) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (۵۰)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۱) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (۵۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۳) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (۵۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۵)

التّفسير

الجنّتان اللتان أعدتا للخائفين:

يترک القرآن الكريم وصفه لأهل النار و حالاتهم البائسة لينقلنا إلى صفحة جديدة من صفحات يوم القيامة، و يحدّثنا فيها عن الجنّة و أهلها، و ما أعدّ لهم من النعم فيها، و التى يصوّرها سبحانه بشكل مشوّق و مثير ينفذ إلى أعماق القلوب فى عملية مقارنة لما عليه العاصون من عذاب شديد يحيط بهم و التى تحدّثت عنها الآيات السابقة، و ما ينتظر المؤمنين من جنّات و عيون و قصور و حور فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۸

أعلاه، يقول سبحانه: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ

«الخوف» من مقام اللّه، جاء بمعنى الخوف من مواقف يوم القيامة و الحضور أمام اللّه للحساب، أو أنّها بمعنى الخوف من المقام العلمى للّه و مراقبته المستمرّة لكلّ البشر[۴۱۰].

و التّفسير الثّانى يتناسب مع ما ذكر فى الآية (۳۳) من سورة الرعد: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ و نقرأ

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى تفسيره لهذه الآية أنّه قال: «و من علم أنّ اللّه يراه و يسمع ما يقول، و يعلم ما يعلمه من خير أو شرّ فيحجزه ذلک عن القبيح من الأعمال، فذلک الذى خاف مقام ربّه و نهى النفس عن الهوى»[۴۱۱].

و يوجد هنا تفسير ثالث. هو أنّ الخوف من اللّه تعالى لا يكون بسبب نار جهنّم، و الطمع فى نعيم الجنّة، بل هو الخوف من مقام اللّه و جلاله فقط.

و هنالک تفسير رابع أيضا، و هو أنّ المقصود من (مقام اللّه) هو الخوف من مقام عدالته، لأنّ ذاته المقدّسة لا تستلزم الخوف، إنّما هو الخوف من عدالته، الذى مردّه هو خوف الإنسان من أعماله، و الإنسان المنزّه لا يخشى الحساب.

و من المعروف أنّ المجرمين إذا مرّوا بالمحكمة أو السجن ينتابهم شيء من الخوف بسبب جناياتهم على عكس الأبرار حيث يتعاملون بصورة طبيعيّة مع الأماكن المختلفة.

و للخوف من اللّه أسباب مختلفة، فأحيانا يكون بسبب قبح الأعمال و انحراف الأفكار، و اخرى بسبب القرب من الذات الإلهيّة حيث الشعور بالخوف و القلق من الغفلة و التقصير فى مجال طاعة اللّه، و أحيانا اخرى لمجرّد تصوّرهم لعظمة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۹

اللامتناهية و ذاته اللامحدودة فينتابهم الشعور بالخوف و الضعة أمام قدسيته العظيمة .. و هذا النوع من الخوف يحصل من غاية المعرفة للّه سبحانه، و يكون خاصا بالعارفين و المخلصين لحضرته.

و لا تضادّ بين هذه التفاسير فيمكن جمعها فى مفهوم الآية.

و أمّا (جنّتان) فيمكن أن تكون الاولى مادّيّة جسمية، و الثانية معنوية روحية، كما فى قوله تعالى: لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ [۴۱۲] ففى هذه الآية مضافا إلى الجنّة المادّيّة حيث الأنهار تجرى من تحت الأشجار و المطهّرات من الزوجات، هناک جنّة معنوية أيضا حيث الحديث عن رضوان اللّه تعالى.

أو أنّ الجنّة الاولى جزاء أعمالهم، و الجنّة الثانية تفضل على العباد و زيادة فى الخير لهم، يقول سبحانه: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [۴۱۳] أو أنّ هناک جنّة للطاعة و اخرى لترک المعصية.

أو أنّ أحدهما للإيمان، و الثانية للأعمال الصالحة.

أو لأنّ المخاطبین من الجنّ و الإنس، لذا فإنّ کلّ واحدة من هاتین الجنّتین تتعلّق بطائفة منهما.

و من الطبیعی أن لا دلیل علی کلّ واحد من هذه التفاسیر، و یمکن جمعها فی مفهوم هذه الآیة، إلّا أنّ من الطبیعی أنّ اللّه تعالی هیّأ لعباده الصالحین نعما عدیدة لهم فی الجنّة حیث مستقرّهم، و لأهل النار (میاه حارقة و سعیر لا یطاق).

و مرّة اخری: و بعد ذکر هذه النعم العظیمة یخاطب الجمیع بقوله: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۰

ثمّ یضیف سبحانه فی وصفه لهاتین الجنّتین بقوله: ذَواتا أَفْنانٍ

«ذواتا» تثنیة (ذات) بمعنی صاحب و مالک [۴۱۴].

«أفنان» جمع (فنن) علی وزن (قلم) و الکلمة فی الأصل بمعنی الغصون الطریّة المملوءة من الأوراق، کما تأتی أحیانا بمعنی «النوع». و یمکن أن یستعمل المعنیان فی الآیة مورد البحث، حیث فی الصورة الاولی إشارة إلی الأغصان الطریة لأشجار الجنّة، علی عکس أشجار الدنیا حیث غصونها هرمة و یابسة.

کما یشیر فی الصورة الثانیة إلی تنوّع نعم الجنّة و أنواع الهبات فیها، لذا فلا مانع من استعمال المعنیین.

کما یحتمل أن یراد معنی آخر و هو أنّ لکلّ شجرة عدّة غصون مختلفة و فی کلّ غصن نوع من الفاکهة.

و بعد ذکر هذه النعم یکرّر سبحانه السؤال مرّة اخری فیقول: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

و لأنّ البساتین النضرة و الأشجار الزاهیة ینبغی أن تکون لها عیون، أضاف سبحانه فی وصفه لهذه الجنّة بقوله: فِیهِما عَیْنانِ تَجْرِیانِ

ثمّ یطرح مقابل هذه النعمة الإضافیة قوله: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

و بالرغم من أنّ الآیة أعلاه لم توضّح لنا شیئا عن طبیعة هاتین العینین الجاریتین و عبّرت عنها بصیغة نکرة، فإنّ هذه الموارد عادة تکون دلیلا علی العظمة الإلهیّة، و قد ذکر بعض المفسّرین أنّ المقصود بهاتین العینین هما «سلسبیل» و تسنیم» قال تعالی: عَیْناً فِیها تُسَمَّی سَلْسَبِیلًا،[۴۱۵] و قال تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۱

وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِیمٍ [۴۱۶] و قیل أیضا أنّ هاتین العینین هما، الاولی: «الشراب الطهور»، و الثانیة:

«العسل المصفّی» و قد جاءتا کلیهما فی سورة محمّد، الآیة ۱۵.

و إذا فسّرنا ال «جنّتان» فی الآیات السابقة ب (الجنّتین المعنویة و المادیة) فإنّ (العینین) یمکن أن تکونا عین معنویة و هی (عین المعرفة) و عین مادیّة (عیون الماء الزلال أو الحلیب أو العسل أو الشراب الطهور) و لکن لا یوجد دلیل خاصّ لأیّ من هذه التفاسیر.

و فی الآیة اللاحقة ینتقل البحث إلی فاکهة هاتین الجنّتین حیث یقول سبحانه:

فِیهِما مِنْ کُلِّ فاکِهَةٍ زَوْجانِ قسم یشاهد مثله فی الدنیا، و الآخر لا نظیر له فی هذا العالم أبدا. کما فسّرها البعض أنّهما نوعان من الفاکهة صیفی و شتوی، أو یابس و طری، أو صغیر و کبیر، إلّا أنّه لا یوجد دلیل واضح علی أی من هذه الآراء.

إلّا أنّ من المسلّم به، أنّ الفاکهة الموجودة فی الجنّة متنوّعة و مختلفة تماما عن فواکه الدنیا و لا یقاس طعم فواکه الجنّة بطعم فواکه الدنیا و مذاقها.

ثمّ یضیف سبحانه قوله: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

لقد طرحت فی الآیات السابقة ثلاث صفات لهاتین الجنّتین، و تستعرض الآیة الکریمة التالیة الصفة الرابعة حیث یقول تعالی: مُتَّکِئِینَ عَلی فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ [۴۱۷].

و فی الغالب أنّ الإنسان عند ما یتکئ یکون فی جوّ هادئ و فی أمان تامّ، و هذا التعبیر یدلّل علی الهدوء الکامل و الاستقرار التامّ لدی أهل الجنّة.

«فرش» على وزن «حجب»، جمع فراش، و هو الفراش الذى يبسط.

و «بطائن» جمع بطانة، و هى القماش الداخلى للفرش.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۲

و «إستبرق» بمعنى الحرير السميك.

و الشيء الظريف هنا أنّ أثمن قماش يتصوّر فى هذه الدنيا يكون بطانة لتلك الفرش، إشارة إلى أنّ القسم الظاهر لا يمكننا و صفه من حيث الجمال و الجاذبية.

حيث أنّ البطانة غالبا ما تستعمل من القماش الردىء قياسا للوجه الظاهرى، و على هذا فإنّنا نلاحظ أنّ أراد نوع من القماش فى ذلك العالم يعتبر من أثمن و أرقى أنواع القماش فى الدنيا، فكيف الحال بالثمين من متاع الجنّة؟

و من المسلّم أنّ الهبات الإلهية فى عالم الآخرة لا نستطيع وصفها بالألفاظ، و لا حتّى تصوّرها، إلّا أنّ الآيات الكريمة تعكس لنا شبحا و ظلالا عنها من خلال ألفاظها المعبّرة.

و نقرأ أيضا فى وصف المتع لأهل الجنّة حيث يحدّثنا القرآن عنهم بأنّهم يتكئون على «الأرائك»- التخت الذى له متّكأ- و «السرير» هو- التخت الذى ليس له متكأ- و الاتّكاء هنا على فرش، و علينا عندئذ أن نتصوّركم هى اللذات المتنوّعة فى الجنّة، حيث تارة يتكأ على الأرائك و اخرى على السرر المفروشة بهذه الأفرشة الثمينة، و قد تكون امور اخرى من هذه النعم لا نستطيع إدراكها نحن سكّان هذا العالم.

و أخيرا، و فى خامس نعمة يشير سبحانه إلى كيفية هذه النعم العظيمة حيث يقول: وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ

نعم لا توجد صعوبة فى قطف ثمار الجنّة كالصعوبة التى نواجهها فى عالمنا هذا.

(جنى) على وزن (بقى) و تعنى الفاكهة التى نضج قطفها. (دان) فى الأصل (دانى) بمعنى قريب.

و مرّة اخرى يخاطب الجميع سبحانه بقوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۳

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۵۶ الى ۶۱]

اشارة

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جانٌّ (۵۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۷) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ (۵۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۹) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (۶۰)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۱)

التّفسير

الجنّة و الزوجات الحسان:

فى الآيات السابقة ذكرت خمسة أقسام من هبات و خصوصيات الجنّتين، و هنا نتطرّق لذكر النعمة السادسة و هى الزوجات الطاهرات، حيث يقول سبحانه:

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ ۴۱۸] قد قصرن نظرهنّ على أزواجهنّ، و ليس لهنّ معشوق سواهم. ثمّ يضيف تعالى: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ

لا جَانٌّ ۴۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۴

و بناء على هذا فإنّهن بواكر و لم يمسهنّ أحد .. طاهرات من كلّ الجوانب.

نقل عن (أبى ذرّ) أنّ (زوجة الجنّة تقول لزوجها .. أقسم بعزّة ربّى إنّى لم أجد شيئا أفضل منك فى الجنّة، فالشكر للّه وحده، الذى جعلنى زوجة لك و جعلك زوجا لى)[۴۲۰].

«طرف» على وزن (حرف) بمعنى جانب العين، و بما أنّ الإنسان عند ما يريد النظر يحرّك أجفانه، لذا فقد استعمل هذا اللفظ كناية عن النظر، و بناء على هذا فإنّ التعبير بقاصرات الطرف إشارة إلى النساء اللواتى يقصرن نظراتهنّ على أزواجهنّ. و يعنى أنّهنّ يكنّنّ الحبّ و الودّ لأزواجهنّ فقط، و هذه هى إحدى ميزات الزوجة التى لا تفكّر بغير زوجها و لا تضمر لسواه الودّ.

و فى التعقيب على نعمة الجنّة هذه يكرّر قوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

ثمّ يتطرّق إلى المزيد من وصف الزوجات الموجودات فى الجنّة حيث يقول:

كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ حيث تكون بشرتهنّ باحمرار وصفاء و لمعان الياقوت و بياض و جمال غصون المرجان، و عند ما يختلط هذان الوصفان (الأبيض و الأحمر الشفّاف) فإنّه يمنحهنّ روعة الجمال التى لا مثيل لها.

الياقوت: حجر معدنى و يكون غالبا أحمر اللون.

و المرجان: هو حيوان بحرى يشبه أغصان الشجر، يكون أبيض اللون أحيانا و اخرى أحمر و ألوان اخرى، و الظاهر أنّ المقصود به هنا هو النوع الأبيض ۴۲۱].

و مرّة اخرى، و بعد ذكر هذه النعمة يقول سبحانه: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و فى نهاية هذا البحث يقول عزّ و جلّ: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ ۴۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۵

و هل ينتظر أن يجازى من عمل عملا صالحا فى الدنيا بغير الإحسان الإلهى؟

و بالرغم من أنّ بعض الرّوايات الإسلامية فسّرت «الإحسان» فى هذه الآية بالتوحيد فقط، أو التوحيد و المعرفة، أو الإسلام، إلّا أنّ الظاهر أنّ كلّ واحد فى هذه التفاسير هو مصداق لهذا المفهوم الواسع الذى يشمل كلّ إحسان فى العقيدة و القول و العمل.

جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «آية فى كتاب اللّه مسجّلة. قلت:

و ما هى؟ قال: قول اللّه عزّ و جلّ: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ جرت فى الكافر و المؤمن و البرّ و الفاجر، من صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، و ليس المكافأة أن تصنع كم صنع حتّى تربى، فإنّ صنعت كما صنع كان له الفضل فى الابتداء»[۴۲۳].

و بناء على هذا فالجزاء الإلهى فى يوم القيامة يكون أكثر من عمل الإنسان فى هذه الدنيا. و ذلك تماشيا مع الاستدلال المذكور فى الحديث أعلاه.

يقول الراغب فى المفردات: الإحسان فوق العدل، و ذاك أنّ العدل هو أن يعطى ما عليه، و يأخذ ماله، و الإحسان أن يعطى أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلّ ممّا له فالإحسان زائد على العدل ..

و يتكرّر قوله سبحانه مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و ذلك لأنّ جزاء الإحسان بالإحسان نعمة كبيرة من قبل اللّه تعالى، حيث يؤكّد سبحانه أنّ جزاءه مقابل أعمال عباده مناسب لكرمه و لطفه و ليس لأعمالهم، مضافا إلى أنّ طاعاتهم و عباداتهم إنّما هى بتوفيق اللّه و لطفه، و بركاتها تعود عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۶

بحث

جزاء الإحسان:

ما قرأناه فی الآیـة الکریمة: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ هو قانون عام فی منطق القرآن الکریم، حیث یشـمل اللّه سبحانه و الخلق و کافّة العباد، و المسـلمون جمیعا یعلمون بعمومیـة هذا القانون و علیهم مقابلة کلّ خیر بزیادة، کما ذکر الإمام الصادق علیه السّلام فی حـدیثه أعلاـه حیث یفترض أن یکون التعویض أفضـل من العمل المنجز (المقـدّم) و لیس مساویا له، و إلّا فإنّ المبتـدئ بالإحسان هو صاحب الفضل.

و حول أعمالنا فی حضـرة الباریٔ عزّ و جلّ فإنّ المسألـة تأخـذ بعـدا آخر، حیث أنّ أحـد الطرفین هو اللّه العظیم الکریم الذی شـملت رحمته و ألطافه کلّ عالم الوجود، و إنّ عطاءه و کرمه یلیق بـذاته و لیس علی مسـتوی أعمال عباده، و بناء علی هذا فلا عجب أن نقرأ فی تأریـخ الأمم بصورة متکرّرة أنّ أشـخاصا قـد شـملتهم العنایـة الإلهیّة الکبیرة بالرغم من إنجازهم لأعمال صـغیرة، و ذلک لخلوص نیّاتهم و من ذلک القصّة التالیة:

نقل بعض المفسّرین أنّ شخصا مسلما شاهد امرأة کافرة تنثر الحبّ للطیور فی الشتاء فقال لها: لا یقبل هذا العمل من أمثالک، فأجابته: إنّی أعمل هـذا سواء قبل أم لم یقبل، و لم یمض وقت طویل حتّی رأی الرجل هـذه المرأة فی حرم الکعبـة. فقالت له: یا هـذا، إنّ اللّه تفضّل علیّ بنعمة الإسلام ببرکة تلک الحبوب القلیلة[۴۲۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۷

الآیات [سورة الرحمن (۵۵): الآیات ۶۲ الی ۶۹]

اشارة

وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (۶۲) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۶۳) مُدْهامَّتانِ (۶۴) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۶۵) فِیهِما عَیْنانِ نَضَّاخَتانِ (۶۶) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۶۷) فِیهِما فاکِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (۶۸) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ (۶۹)

التّفسیر

جنّتان بأوصاف عجیبة:

بعـد بیان صـفات جنّتی الخائفین و خصوصـیاتهما المتمیّزة، و اسـتمرارا للبحث ینتقل الحدیث فی الآیات التالیة عن جنّتین بمرتبة أدنی من السـابقتین یکونـان لأشـخاص أقلّ خوفـا و إیمانـا باللّه تعالی من الفئـة الاولی، حیث إنّ هـدف العرض هو بیان سلسـلة درجات و مراتب للجنان تتناسب مع الإیمان و العمل الصالح للأفراد.

یقول سبحانه فی البدایة: وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ

ذکر تفسیر أنّ لهذه الآیة الأوّل: أحدهما ما بیّناه أعلاه.

و التّفسیر الآخر هو أنّه توجد جنّتان أخریان غیر تلکما الجنّتین لهؤلاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۸

الأشخاص أنفسهم حيث يتجوّلون و يتنقّلون بين حدائق هذه الجنان، لأنّ طبع الإنسان ميّال للتنوّع و التبدّل.

و بالنظر إلى لحن هذه الآيات و الرّوايات التي وردت في تفسيرها فانّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

و نقرأ

حديثا للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في تفسير هذه الآية أنّه قال: «و جنّتان من فضّة آنيتهما و ما فيهما، جنّتان من ذهب آنيتهما و ما فيهما» (أنّ التعبير بالذهب و الفضّة يمكن أن يكون كناية عن اختلاف مرتبة و درجة كلّ من الجنّتين)[۴۲۵].

و نقرأ

في حديث للإمام الصادق عليه السّلام في تفسير هذه الآية قال: «لا تقولنّ الجنّة الواحدة، إنّ اللّه تعالى يقول: «و من دونهما جنّتان»، و لا تقولنّ درجة واحدة، إنّ للّه تعالى يقول «درجات بعضها فوق بعض» إنّما تفاضل القوم بالأعمال»[۴۲۶].

و في نفس الموضوع

ورد حديث للرسول محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «جنّتان من ذهب للمقرّبين، و جنّتان من ورق لأصحاب اليمين»[۴۲۷]

أي من فضّة.

ثمّ يضيف سبحانه: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

ثمّ ذكر القرآن الخصوصيات الخمس لهاتين الجنّتين التي تشبه- إلى حدّ ما- ما ذكر حول الجنّتين السابقتين، كما أنّهما تختلفان في بعض الخصوصيات الاخرى حيث يقول سبحانه: مُدْهامَّتانِ

«مدهامتان»: من مادّة (أدهيمام) و من أصل (دهمه) على وزن (تهمه) و معناها في الأصل السواد و ظلمة الليل، ثمّ أطلقت على الخضرة الغامقة المعتمة، و لأنّ مثل هذا اللون يحكي عن غاية النضرة للنباتات و الأشجار، ممّا يعكس منتهى السرور

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۹

و الإنشراح، لهذا فقد استعمل لهذا المعنى.

و يضيف سبحانه مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و في الآية اللاحقة يصف الجنّة وصفا إضافيا حيث يقول سبحانه: فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ

«نضّاختان» من مادّة (نضخ) بمعنى فوران الماء.

و مرّة اخرى يسأل سبحانه عن الإنس و الجنّ سؤالا استنكاريا فيقول: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و تتحدّث الآية التالية حول فاكهة هاتين الجنّتين حيث تقول: فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ

لا شكّ أنّ للفاكهة مفهوما واسعا يشمل جميع أنواعها، إلّا أنّ التمر و الرمّان خصّا بالذكر هنا لأهميّتهما الخاصّة، لا كما يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ ذكرهما هو لأنّهما لا يدخلان ضمن مفهوم الفاكهة، إذ أنّ هذا التصوّر خاطئ، لأنّ علماء اللغة أنكروا ذلك، بالإضافة إلى أنّ عطف الخاصّ على العام في الموارد التي لها امتيازات أمر معمول به و طبيعي. قال تعالى: مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ [۴۲۸] و هنا جاءت عبارة (جبريل و ميكال) و هما من الملائكة العظام بعد ذكر لفظ الملائكة بصورة عامّة.

و يكرّر سبحانه السؤال مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۰

بحث

قیمة الفاکهة:

الشیء الجدیر بالذکر أنّ الآیات أعلاه خصّت الفاکهة بالذکر من بین مختلف أنواع أغذیة الجنّة کما خصّت فاکهتی (الرطب و الرمّان) بالذکر من بین جمیع فواکه الجنّة أیضا.

و الغریب هنا ذکر النخل بدلا من الرطب، أمّا الرمّان فقد ذکر باسمه، و لا بدّ أن یکون لکلّ واحد من هذه الفواکه خصوصیة.

أمّا ذکر الفاکهة بالخصوص من بین عموم الأغذیة الموجودة فی الجنّة فذلک لأهمیّة الفاکهة فی تغذیة الإنسان: حتّی قیل: أنّ الإنسان موجود آکل للفاکهة، و للفاکهة دور مهمّ فی وجود الإنسان و دوام حیاته لا علی الصعید العلمی فقط، بل من الناحیة التجریبیّة لعموم الناس أیضا.

أمّا ذکر شجرة النخیل بدل فاکهتها فیمکن أن یکون للحاظ أنّ هذه الشجرة موضع استفادة من جهات عدیدة، فی حین أنّ شجرة الرمّان لیست کذلک.

فالنخلة یستفاد من ورقها فی صنع وسائل عدیدة من لوازم الحیاة کالفرش و القبّعات و الملابس و وسائل الحمل و النقل و الأسرّة، و یستفاد من ألیافها فی امور شتّی کذلک، کما أنّ البعض منها له خواص طبیة، و حتّی أنّ جذعها یستخدم کأعمدة فی البناء أو جسور لعبور الأنهار.

أمّا إختیار هاتین الفاکهتین من بین جمیع فواکه الجنّة فهو بسبب تنوّعهما:

فأحدهما: ینمو فی المناطق الحارّة (النخیل). و الاخری: تنمو فی المناطق الباردة (الرمّان). أحدهما تتمیّز بالمادّة السکریة، و الاخری تتمیّز بالمادّة الحامضیة، واحدة حارّة من حیث طبیعتها و الاخری باردة، إحداهما مغذّیة و الاخری مرویّة.

کما أنّ التمر یتمتّع بالکثیر من المواد الحیاتیة و أنواع الفیتامینات، و قد اکتشفت ثلاث عشرة مادّة حیاتیة فیه، و خمس أنواع من الفیتامینات بالإضافة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۱

إلی بقیّة خواصها الاخری، (و قد بحثناها فی نهایة الآیة رقم (۵) من سورة مریم فی هذا التّفسیر تحت عنوان: التمر غذاء مقوّ و باعث للنشاط).

و أمّا «الرمّان» الذی عرّف فی بعض الرّوایات الإسلامیة بأنّه سیّد الفواکه ۴۲۹]، فقد ذکر العلماء تفاصیل کثیرة حول فوائد هذه الفاکهة و منها تنقیة الدم، و احتوائها علی مقادیر کبیرة من فیتامین (سی). کما ذکرت فی الکتب فوائد کثیرة اخری للرمّان (الحلو و الحامض) کتقویة المعدة، و دفع الحمی الصفراء، و الیرقان، و الجرب (مرض جلدی) و تقویة البصر، و رفع التقیّحات المزمنة، و تقویة اللثة، و دفع الإسهال ... کما نقرأ

فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام فی التأکید علی هذه الفاکهة: «أطعموا صبیانکم الرمّان فإنّه أسرع لشبابهم»[۴۳۰].

و

جاء فی حدیث آخر: «فإنّه أسرع لألسنتهم»[۴۳۱].

و

جاء فی حدیث آخر للإمام الصادق علیه السّلام و الإمام الباقر علیه السّلام أنّهما قالا: «و ما علی وجه الأرض ثمرة کانت أحبّ إلی رسول اللّه من الرمّان»[۴۳۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۲

الآیات [سورة الرحمن (۵۵): الآیات ۷۰ الی ۷۸]

اشارة

فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (٧۴)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٧۵) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (٧۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٧٧) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (٧٨)

التّفسير

زوجات الجنّة .. مرّة اخرى:

استمرار لشرح نعم الجنّتين التى ذكرت فى الآيات السابقة، تتحدّث هذه الآيات عن قسم آخر من هذه النعم التى تزخر بها جنان اللّه التى أعدّها للصالحين من عباده، حيث يقول سبحانه فى البداية: فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ ۴۳۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۳۳

تستعمل كلمة (خير) غالبا للصفات الجيّدة و الجمال المعنوى، أمّا «حسن» فإنّها تستعمل للجمال الظاهر. لذا فإنّ المقصود ب خَيْراتٌ حِسانٌ أولئك النسوة اللواتى جمعن بين حسن السيرة، و حسن الظاهر.

و جاء فى الرّوايات فى تفسير هذه الآية أنّ الصفات الحسنة للزوجات فى الجنّة كثيرة و من جملتها طيب اللسان و النظافة و الطهارة، و عدم الإيذاء، و عدم النظر للرجال الأجانب .. و الخلاصة أنّ جميع صفات الخير و الجمال التى يجب أن تكون فى الزوجة الصالحة موجودة فيهنّ، و هذه الصفات إشارة للصفات العالية التى يجب أن تكون فى نساء هذه الدنيا و يجسّدن الاسوة بذلك لجميع الناس و القرآن الكريم يعبّر عنهنّ باختصار رائع أنهنّ خَيْراتٌ حِسانٌ ۴۳۴].

ثمّ يضيف مستمرّا فى وصف الزوجات فى الجنّة: حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ

«حور»: جمع حوراء و أحور، و تطلق على الشخص الذى يكون سواد عينه قاتما و بياضها ناصعا، و أحيانا تطلق على النساء اللواتى يكون لون وجوههنّ أبيض.

و التعبير ب «مقصورات» إشارة إلى أنهنّ مرتبطات و متعلّقات بأزواجهنّ و محجوبات عن الآخرين.

«خيام»: جمع خيمة، و كما ورد فى الرّوايات الإسلامية، فإنّ الخيم الموجودة فى الجنّة لا تشبه خيم هذا العالم من حيث سعتها و جمالها.

و «الخيمة» كما ذكر علماء اللغة و بعض المفسّرين لا تطلق على الخيم المصنوعة من القماش المتعارف فحسب. بل تطلق أيضا على البيوت الخشبية و كذلك كلّ بيت دائرى. و قيل أنّها تطلق على كلّ بيت لم يكن من الحجر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۳۴

و أشباهه ۴۳۵].

و مرّة اخرى يكرّر السؤال نفسه بقوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و يضيف سبحانه وصفا آخر لحوريات الجنّة حيث يقول: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ ۴۳۶].

و يستفاد من الآيات القرآنية أنّ الزوجين المؤمنين فى هذه الدنيا سيلتحقان فى الجنّة مع بعضهما و يعيشان فى أفضل الحالات ۴۳۷].

و يستفاد أيضا من الرّوايات أنّ درجة و مقام زوجات المؤمنين الصالحات أعلى و أفضل من حوريات الجنّة[۴۳۸] و ذلك بما قمن به فى الدنيا من صالح الأعمال و عبادة اللّه سبحانه.

ثمّ يضيف تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و فى آخر وصف للنعم الموجودة فى هذه الجنّة يذكر سبحانه تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ

«رفرف» فى الأصل بمعنى الأوراق الواسعة للأشجار، ثمّ أطلقت على الأقمشة الملوّنة الزاهية التى تشبه مناظر الحدائق.

«عبقرى» فى الأصل بمعنى كلّ موجود قلّ نظيره، و لذا يقال للعلماء الذين يندر وجودهم بين الناس (عباقرة) و يعتقد الكثير أنّ كلمة (عبقر) كان فى البداية اسما لمدينة (بريان) انتخبه العرب لها، لأنّ هذه المدينة كانت فى مكان غير معلوم و نادر. لذا فإنّ كلّ موضوع يقلّ نظيره ينسب لها و يقال «عبقرى»، و ذكر البعض أنّ «عبقر» كانت مدينة تحاك فيها أفضل المنسوجات الحريرية[۴۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۵

و المعنى الأصلى لهذه الكلمة متروك فى الوقت الحاضر و تستعمل كلمة «عبقرى» ككلمة مستقلّة بمعنى نادر الوجود، و تأتى جمعا فى بعض الأحيان، كما فى الآية مورد البحث.

و (حسان) جمع (حسن) على وزن «نسب» بمعنى جيّد و لطيف.

و على كلّ حال فإنّ هذه التعابير حاكية جميعا عن أنّ كلّ موجودات الجنّة رائعة: الفاكهة، الغذاء، القصور، الأفرشة ... و الخلاصة أنّ كلّ شيء فيها لا نظير له و لا شبيه فى نوعه، و لا بدّ من القول هنا أنّ هذه التعبيرات لا تستطيع أبدا أن تعكس تلك الإبداعات العظيمة بدقّة، و إنّها تستطيع- فقط- أن ترسم لنا صورة تقريبية من الصورة الحقيقيّة للموجودات فى الجنّة.

و للمرّة الأخيرة و هى (الحادية و الثلاثون) يسأل سبحانه جميع مخلوقاته من الجنّ و الإنس هذا السؤال: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

هل النعم المعنوية؟ أم النعم الماديّة؟ أم نعم هذا العالم؟ أم الموجودة فى الجنّة؟ إنّ كلّ هذه النعم شملت وجودكم و غمرتكم .. إلّا أنّه- مع الأسف- قد أنساكم غروركم و غفلتكم هذه الألطاف العظيمة، و مصدر عطائها و هو اللّه سبحانه الذى أنتم بحاجة مستمرّة إلى نعمه فى الحاضر و المستقبل .. فأيّا منها تنكرون و تكذّبون؟

و يختم السورة سبحانه بهذه الآية الكريمة: تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ

«تبارك» من أصل (برك) على وزن (درك) بمعنى صدر البعير، و ذلك لأنّ الجمال حينما تبرك تضع صدرها على الأرض أوّلا، و من هنا استعمل هذا المصطلح بمعنى الثبات و الدوام و الاستقامة، لذا فإنّ كلمة (مبارك) تقال للموجودات الكثيرة الفائدة، و أكرم من تطلق عليه هذه الكلمة هى الذات الإلهيّة المقدّسة باعتبارها مصدرا لجميع الخيرات و البركات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۶

و استعملت هذه المفردة هنا لأنّ جميع النعم الإلهيّة- سواء كانت فى الأرض و السماء فى الدنيا و الآخرة و الكون و الخلق- فهى من فيض الوجود الإلهى المبارك، لذا فإنّ هذا التعبير من أنسب التعابير المذكورة فى الآية لهذا المعنى.

و المقصود من (اسم) هنا هو صفات اللّه تعالى خصوصا الرحمانية التى هى منشأ البركات، و بتعبير آخر فإنّ أفعال اللّه تعالى مصدرها من صافته، و إذا خلق عالم الوجود فذلك من إبداعه و نظام خلقه، و إذا وضع كلّ شيء فى ميزان فذلك ما أوجبته حكمته، و إذا وضع قانون العدالة حاكما على كلّ شيء فإنّ (علمه و عدالته) توجبان ذلك. و إذا عاقب المجرمين بأنواع العذاب الذى مرّ بنا فى هذه السورة فإنّ (انتقامه يقضى ذلك، و إذا شمل المؤمنين الصالحين بأنواع الهبات و النعم العظيمة الماديّة و المعنوية- فى هذا العالم و فى الآخرة- فإنّ رحمته الواسعة أوجبت ذلك، و بناء على هذا فإنّ اسمه يشير إلى صفاته و صفاته هى نفس ذاته المقدّسة.

و التعبير ب ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ إشارة إلى كلّ صفات جماله و جلاله: ذِي الْجَلالِ إشارة إلى الصفات السلبية، و (ذى الإكرام) إشارة إلى الصفات الثبوتية.

و الملفت للنظر هنا أنّ هذه السورة بدأت باسم اللّه (الرحمن) و انتهت باسم اللّه ذی الجلال و الإكرام) و كلاهما ينسجمان مع مجموعة مواضيع السورة.

ملاحظات

۱- فی الآیة رقم (۳۷) من هذه السورة بعد ذكر النعم الإلهيّة المختلفة المعنوية و الماديّة فی الدنيا يقول سبحانه: وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرام

و فی نهاية السورة و بعد ذكر أنواع النعم الاخروية يقول سبحانه: تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِی الْجَلالِ وَ الْإِكْرام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۷

إنّ هاتين الآيتين توضّحان حقيقة مهمّة و هی أنّ جميع الخطوط تنتهی إلى ذاته المقدّسة، و أنّ جميع ما فی الوجود مصدره اللّه سبحانه، فالدنيا منه، و العقبى كذلك، و إنّ جلاله و إكرامه قد شمل كلّ شیء.

۲- و نقرأ

فی حديث للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ رجلا كان يدعو اللّه فی حضرته حيث قال: «يا ذا الجلال و الإكرام فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قد استجيب لك فسل ۴۴۰].

و

جاء فی حديث آخر أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شاهد رجلا يقيم الصلاة حيث دعا بعد الركوع و السجود و التشهّد بهذا الدعاء: اللهمّ انّی أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، المنّان بديع السماوات و الأرض يا ذا الجلال و الإكرام يا حی يا قيّوم انّی أسألك ... فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لقد دعا اللّه باسمه العظيم الذی إذا دعی به أجاب، و إذا سئل به أعطى»[۴۴۱].

۳- نقرأ

فی حديث للإمام الباقر عليه السّلام فی تفسير الآية: تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِی الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ أنّه قال: «نحن جلال اللّه و كرامته التی أكرم العباد بطاعتنا»[۴۴۲].

و من الواضح أنّ أهل البيت عليه السّلام لا يدعون لغير اللّه، و لا يأمرون بغير طاعته و هم هداة الطريق إليه، و سفن النجاة فی بحر الحياة المتلاطم. و بناء على هذا، فإنّهم يمثّلون مصاديق جلال اللّه و إكرامه، لأنّ اللّه تعالى قد شمل الناس بنعمة الهداية بواسطة أوليائه.

۴- ذكر البعض أنّ أوّل آيات قرئت فی مكّة على قريش علنا هی الآيات الأوائل لهذه السورة يقول عبد اللّه بن مسعود رضی اللّه عنه قال: اجتمع يوما أصحاب رسول اللّه فقالوا: و اللّه ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قطّ. فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد اللّه بن مسعود: أنا، قالوا: إنّا نخشاهم عليك، إنّما نريد رجلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۸

له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعونی فإنّ اللّه سيمنعنی، قال: فغدا ابن مسعود حتّى أتى المنام فی الضحى، و قريش فی أنديتها، حتّى قام عند المقام ثمّ قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ رافعا بها صوته: الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ قال: ثمّ استقبلها يقرؤها قال: فتأمّلوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أمّ عبد؟ قال: ثمّ قالوا:

إنّه ليتلو بعض ما جاء به محمّد فقاموا إليه فجعلوا يضربون فی وجهه، و جعل يقرأ حتّى بلغ منها ما شاء اللّه أن يبلغ. ثمّ انصرف إلى أصحابه و قد أثّروا فی وجهه.

فقالوا له: هذا الذى خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء اللّه أهون علىّ منهم الآن، و لئن شئتم لأغادينّهم بمثلها غدا، قالوا: لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون ۴۴۳].

و لهذا السبب فقد اعتبر ابن مسعود أوّل مسلم جهر بالقرآن فى مكّة أمام المشركين ۴۴۴].

ربّنا، يا ذا الجلال و الإكرام، نقسم عليك بجلالك و إكرامك ألّا تحرمنا من نعم و هبات الجنّة.

ربّاه، إنّ دائرة رحمتك واسعة جدّا، و إنّنا لم نعمل عملا يليق برحمتك، فعاملنا بما يليق بمقام رحمانيّتك.

إلهنا، نحن لا نكذّب أيّا من نعمك، و نعتبر أنفسنا غارقين بإحسانك دائما، فأدم نعمك علينا.

آمين يا ربّ العالمين.

نهاية سورة الرحمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۹

سورة الواقعة

اشارة

مكّية و عدد آياتها ستّ و تسعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۱

«سورة الواقعة»

محتوى السورة:

نقل فى كتاب «تأريخ القرآن» عن ابن النديم أنّ سورة الواقعة هى السورة الرابعة و الأربعين التى نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۴۴۵]، و كانت قبلها سورة (طه) و بعدها (الشعراء).

هذه السورة- كما هو واضح من لحنها، و ذكره المفسّرون أيضا- نزلت فى مكّة، بالرغم من أنّ بعضهم قال: إنّ الآيتين (۸۱، ۸۲) نزلتا فى المدينة، إلّا أنّ هذا الادّعاء ليس له دليل، كما أنّ محتوى الآيتين الكريمتين لا يساعدان على ذلك أيضا.

و سورة الواقعة- كما هو واضح من اسمها- تتحدّث عن القيامة و خصوصياتها، و هذا المعنى واضح فى جميع آيات السورة الستّ و التسعين. و لذا فإنّ هذا الموضوع هو الأساس فى البحث.

إلّا أنّنا نستطيع أن نلخّص موضوعات السورة فى ثمانية أقسام:

۱- بداية ظهور القيامة و الحوادث المرعبة المقترنة بها.

۲- تقسيم أنواع الناس فى ذلك اليوم إلى ثلاثة طوائف: (أصحاب اليمين، و أصحاب الشمال، و المقرّبين).

۳- بحث مفصّل حول مقام المقرّبين، و أنواع الجزاء لهم فى الجنّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۲

۴- بحث مفصّل حول القسم الثانى فى الناس و هم أصحاب اليمين، و أنواع الهبات الإلهيّة الممنوحة لهم.

۵- بحث حول أصحاب الشمال و ما ينتظرهم من جزاء مؤلم فى نار جهنّم.

۶- بيان أدلّة مختلفة حول مسألة المعاد من خلال بيان قدرة اللّه عزّ و جلّ، و خلق الإنسان من نطفة حقيرة، و ظهور الحياة فى النباتات، و نزول المطر، اشتعال النار .. و التى تدخل أيضا ضمن أدلّة التوحيد.

۷- وصف حالة الاحتضار و الانتقال من هذا العالم إلى حيث العالم الاخروى و التى تعتبر من مقدّمات يوم القيامة.

۸- و أخيرا نظرة إجمالية كليّة حول جزاء المؤمنين و عقاب الكافرين.

و أخيرا تنهى السورة آياتها باسم اللّه العظيم.

فضيلة تلاوة هذه السورة:

حول فضيلة تلاوة هذه السورة ذكرت روايات كثيرة فى المصادر الإسلامية نقرأ منها

حديثا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: «من قرأ سورة الواقعة لم يكتب من الغافلين»[۴۴۶]

و ذلك لأنّ آيات هذه السورة تتّصف بالتحريك و الإيقاظ بصورة لا تسمح للإنسان أن يبقى فى جوّ الغفلة.

و حول هذا المعنى نقرأ حديثا آخر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث

يقول: «شيّبتنى هود و الواقعة و المرسلات و عمّ يتساءلون»[۴۴۷]

و ذلك لأنّ الأخبار التى وردت فى هذه السورة أخبار مثيرة عن القيامة و الحشر و الحوادث المرعبة و عقاب المشركين، و ذكر حالة الأقوام السابقة و ما حلّ بهم من البلاء.

و نقرأ أيضا

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ فى كلّ ليلة جمعة

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۳

الواقعة أحبّه اللّه و حبّبه إلى الناس أجمعين، و لم ير فى الدنيا بؤسا أبدا و لا فقرا و لا فاقة، و لا آفة من آفات الدنيا، و كان فى رفقاء أمير المؤمنين»[۴۴۸].

و

جاء فى حديث آخر أنّ عثمان بن عفّان عاد عبد اللّه بن مسعود فى مرضه الذى توفّى فيه فقال له: ماذا تشتكى؟ قال: ذنوبى، قال: فيم ترغب؟ قال: فى رحمة ربّى، قال: ألا ألتمس لك طبيبا؟ قال: أمرضنى الطبيب؟ قال: ألا آمر لك بعطيّة؟ قال: لم تأمر لى بها إذ كنت أحوج إليها، و تأمر لى الآن و أنا مستغن عنها، قال: فلتكن هى لبناتك، قال: لا حاجة لهنّ بها فإنّى قد أمرتهنّ بقراءة سورة الواقعة، و إنّى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاقة يقول: «من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه أبدا»[۴۴۹].

و لهذا السبب سمّيت سورة الواقعة حسب ما ورد فى رواية اخرى بسورة الغنى ۴۵۰].

و من الواضح أنّنا لا نستطيع الحصول على جميع البركات التى وردت لهذه السورة بالقراءة السطحية، بل ينبغى بعد تلاوتها التفكّر و التدبّر، و من ثمّ الحركة و العمل.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۴

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۱ الى ۱۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (۲) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (۳) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (۴)

وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (۵) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (۶) وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (۷) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۸) وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (۹)

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (۱۰) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (۱۱) فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۱۲) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۱۴)

التّفسير

الواقعة العظيمة:

إنّ الأحداث المرتبطة بالقيامة تذكر غالبا فى القرآن الكريم مقترنة بحوادث أساسيّة عظيمة قاصمة و مدمّرة، و هذا ما يلاحظ فى الكثير من السور القرآنية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۵

تتحدّث عن القيامة.

و فى سورة الواقعة حيث يدور البحث حول محور المعاد، نجد هذا واضحا فى الآيات الاولى منها، حيث يبدأ سبحانه بقوله: إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ[۴۵۱].

لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ و ذلك لأنّ الحوادث التى تسبقها عظيمة و شديدة بحيث تكون آثارها واضحة فى كلّ ذرّات الوجود.

«الواقعة» تشير إشارة مختصرة إلى مسألة الحشر، و لأنّ وقوعها حتمى فقد عبّر عنها ب (الواقعة) و اعتبر البعض أنّها إحدى أسماء القيامة.

كلمة (كاذبة) هنا أخذت بمعناها المصدرى، و هى إشارة إلى أنّ وقوع القيامة ظاهر و واضح إلى حدّ لا يوجد أى مجال لتكذيبه أو بحثه و النقاش فيه.

كما أنّ البعض فسّرها بمعناها الظاهرى الذى هو اسم الفاعل، حيث قالوا بعدم وجود من يكذّب هذا الأمر[۴۵۲].

و على كلّ حال فإنّ الحشر لا يقترن بتغيير الكائنات فحسب، بل إنّ البشر يتغيّر كذلك كما يقول سبحانه فى الآية اللاحقة خافِضَةٌ رافِعَةٌ[۴۵۳].

أجل، أنّها تذلّ المستكبرين المتطاولين، و تعزّ المحرومين المؤمنين و ترفع المستضعفين الصادقين بعض يسقط إلى قاع جهنّم، و بعض آخر إلى أعلى عليين فى الجنّة.

و هذه هى خاصية المبادئ الإلهيّة العظيمة.

و لذلك نقرأ

فى رواية الإمام على بن الحسين عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «خافضة خفضت و اللّه أعداء اللّه فى النار، رافعة رفعت و اللّه أولياء اللّه إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۶

الجنّة»[۴۵۴].

ثمّ يستعرض القرآن الكريم وصفا أوسع فى هذا الجانب حيث يقول: إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا.

يا له من زلزال عظيم و شديد إلى حدّ أنّ الجبال فيه تندكّ و تتلاشى، قال تعالى: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا.

(رجّت) من مادّة (رجّ) على وزن (حجّ) بمعنى التحرّك الشديد للشىء و تقال رجرجة للاضطراب.

«بسّت» من مادّة (بسّ) على وزن (حجّ). و الأصل بمعنى تليين الطحين و تعجنه بواسطة الماء.

«هباء» بمعنى غبار، و «منبث» بمعنى منتشر. قال البعض: إنّ «هباء» هو ذرّات الغبار الصغيرة المعلّقة بالفضاء و لا ـ ترى فى الحالة الاعتيادية، إلّا إذا دخل نور الشمس من نافذة إلى مكان مظلم.

و الآن يجب التفكير بهذه الزلزلة و الإنفجار، كم هو عظيم بحيث تتلاشى الجبال مع ما لها من القوّة و الصلابة بحيث تتحوّل إلى غبار منتشر، و الأعظم هو شدّة الصوت الذى ينتج من هذا الإنفجار الرهيب.

و على كلّ حال فقد نلاحظ فى الآيات القرآنية تعبيرات مختلفة حول وضع الجبال قبل يوم القيامة، و تكشف لنا المراحل المتعدّدة للانفجار العظيم الذى يطرأ على الجبال، حيث يقول عزّ و جلّ فى هذا الصدد:

وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً الطور/ ١٠.

وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ المرسلات/ ١٠.

فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً الحاقّة/ ١۴.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۴٧

وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا المزمل/ ١۴ أى كالرمل المتراكم.

فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا الواقعة/ ۶ الآية محلّ البحث.

و أخيرا وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ القارعة/ ٢ أى كالصوف المنفوش حيث لا يرى منها إلّا لونها.

و من الواضح أن لا أحد يعلم إلّا اللّه بحقيقة حصول هذه التغيّرات التى لا تحملها الألفاظ، و لا تجسّدها العبارات، اللهمّ إلّا إشارات معبّرة تحكى عظمة و هول هذا الإنفجار العظيم.

و بعد بيان وقوع هذه الظاهرة العظيمة و الحشر الكبير يستعرض القرآن المجيد ذكر حالة الناس فى ذلك اليوم، حيث قسّم الناس إلى ثلاثة أقسام بقول سبحانه: وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً.

لفظ (الزوج) لا يقال دائما لجنس المؤنث و المذكّر، بل تطلق هذه اللفظة على الأمور المتقارنة مع بعض، و لكون أصناف الناس فى القيامة و الحشر و النشر تكون متقارنة مع بعضها، لذا يطلق عليها لفظ أزواج.

و حول القسم الأوّل يحدّثنا القرآن الكريم بقوله: فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ[۴۵۵].

المقصود من أصحاب الميمنة هم الأشخاص الذين يعطون صحيفة أعمالهم بأيديهم اليمنى، و هذا الأمر رمز لأهل النجاة، و دليل الأمان للمؤمنين و الصالحين فى يوم القيامة، كما ذكر هذا مرارا فى الآيات القرآنية.

أو أنّ كلمة (ميمنة) من مادّة (يمن) التى أخذت من معنى السعادة، و على هذا التّفسير فإنّ القسم الأوّل هم طائفة السعداء و أهل الحبور و السرور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۴٨

و بالنظر إلى أنّ الآية اللاحقة تعرّف المجموعة الثانية ب أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ و التى هى مأخوذة من مادّة (شؤم) فإنّ التّفسير الأخير هو الأنسب ۴۵۶].

عبارة «ما أصحاب الميمنة» هو بيان حقيقة السعادة التى ليس لها حدّ و لا يمكن تصوّرها لهؤلاء المؤمنين، و هذه قمّة الروعة فى الوصف لمثل هذه الحالات، و يمكن تشبيه ذلك بقولنا: فلان إنسان يا له من إنسان! ثمّ يستعرض اللّه تعالى المجموعة الثانية بقوله: وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ حيث الشؤم و التعاسة، و استلام صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى التى هى رمز سوء عاقبتهم و عظيم جرمهم و جنايتهم، نتيجة عمى البصيرة و السقوط فى وحل الضلال.

و التعبير ب «ما أصحاب المشئمة» هو الآخر يعكس نهاية سوء حظّهم و شقاوتهم.

و أخيرا يصف المجموعة الثالثة أيضا بقوله سبحانه: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۴۵۷] أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ

(السابقون) ليسوا الـذين سـبقوا غيرهم بالإيمان فحسب، بل في أعمال الخير و الأخلاق و الإخلاص، فهم أسوة و قدوة و قادة للناس، و لهذا السبب فهم من المقرّبين إلى الحضرة الإلهيّة.

و بناء على هذا، فما نرى من تفسير أسبقية السابقين بالسبق في طاعة اللّه، أو

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۹

أداء الصلـوات الخمس، أو الجهاد و الهجرة و التوبة فإنّ كلّ واحد من هذه التفاسير تمثّل جانبا من هذا المفهوم الواسع، و إلّا فإنّ هذه الكلمة (السابقون) تشمل جميع هذه الأعمال، و الطاعات و غيرها.

و إذا فسّـِرت (السابقون) كما في بعض الرّوايات الإسـلامية بأنّها تعنى الأشخاص الأربعة و هم «هابيل»، و «مؤمن آل فرعون»، و «حبيب النجّار» الذين تميّز كلّ منهم بأسـبقيته في قومه، و كذلك «أمير المؤمنين» عليه السّـلام الذى هو أوّل من دخل في الإسلام من الرجال، فإنّ هذا التّفسير في الحقيقة هو بيان للمصاديق الواضحة، و ليس تحديدا لمفهوم الآية[۴۵۸].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۴۴۹

جاء في حديث آخر أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أ تدرون من السابقون إلى ظلّ اللّه في يوم القيامة؟ فقال أصحابه: اللّه و رسـوله أعلم، قـال صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: (الـذين إذا أعطـوا الحقّ قبلوه، و إذا سـألوه بـذلوه، و حكموا للنـاس كحكمهم لأنفسهم»[۴۵۹].

و جاء في بعض الرّوايات أيضا أنّ المقصود ب (السابقون) همالأنبياء المرسلون و غير المرسلين ۴۶۰].

«و نقرأ

في حـديث لابن عبّاس أنّه قال: «سألت رسول اللّه حول هذه الآية فقال: «هكذا أخبرني جبرائيل، ذلك علي و شيعته هم السابقون إلى الجنّة، المقرّبون من اللّه لكرامته لهم»[۴۶۱].

و كما تقدّم إنّه بيان للمصاديق الواضحة من المفهوم الذى ذكر أعلاه، الذى يشمل جميع (السابقين) في كلّ الأمم و الشعوب.

ثمّ يوضّح- في جملة قصيرة- المقام العالي للمقرّبين حيث يقول سبحانه:

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۰

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۴۶۲].

التعبير ب جَنَّاتِ النَّعِيمِ يشـمل أنواع النعم الماديـة و المعنويـة، و يمكن اعتبار هـذا التعبير إشارة إلى أنّ بساتين الجنّة هي وحدها مركز النعمـة و الراحة في مقابل بساتين الدنيا التي تحتاج إلى الجهد و التعب، كما أنّ حالة المقربين في الدنيا تختلف عن حالة المقرّبين في الآخرة، حيث أنّ مقامهم العالي في الدنيا كان توأما مع المسؤوليات و الطاعات في حين أنّ مقامهم في الآخرة سبب للنعمة فقط.

و من البـديهي أنّ المقصود من «القرب» ليس «القرب المكاني» لأنّ اللّه ليس له مكان، و هو أقرب إلينا من أنفسـنا، و المقصود هنا هو «القرب المقامي».

و يشير في الآية اللاحقة إلى الحالة العددية في الأمم السابقة و في هذه الامّة أيضا حيث يقول سبحانه:

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ أي أنّهم جماعة كثيرة في الأمم السالفة و الأقوام الاولى.

وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ

(ثلّة) كما يقول الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل قطعة مجتمعة من الصوف، ثمّ تحوّلت إلى معنى مجموعة من الأشخاص.

و أخذها البعض أيضا من (ثلّ عرشه) بمعنى سقط و انهار، يقال (سقط عرشه و انقلعت حكومته) و اعتبرها البعض (قطعة)، و ذلك بقرينة المقابلة ب (قليل من الآخرين) يكون المعنى القطعة العظيمة.

و طبقا لهاتين الآيتين فإنّ قسما كبيرا من المقرّبين هم من الأمم السابقة، و قسم قليل منهم فقط هم من امّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يثار سؤال هنا و هو: كيف يتناسب العدد القليل من مقرّبى امّة محمّد مع الأهميّة البالغة لهذه الامّة التى وصفها القرآن الكريم بأنّها من أفضل الأمم؟ قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۱

تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...[۴۶۳].

و للجواب على هذا السؤال يجدر الالتفات إلى نقطتين:

الاولى: إنّ المقصود من المقرّبين هم السابقون فى الإيمان، و من المسلّم أنّ السابقين لقبول الإسلام فى المصدر الأوّل منه كانوا قلّة، أوّلهم من الرجال الإمام على عليه السّلام، و من النساء خديجة (رض)، فى الوقت الذى نعلم أنّ كثرة الأنبياء السابقين و تعدّد أممهم، و وجود السابقين فى كلّ امّة يؤدّى إلى زيادتهم من الناحية العددية.

و النقطة الثانية: أنّ الكثرة العددية ليست دليلا على الكثرة النوعية، حيث يمكن أن يكون عدد السابقين فى هذه الامّة قليلا، إلّا أنّ مقامهم أفضل كثيرا، كما هو المعروف بين الأنبياء أنفسهم، إذ يختلفون باختلاف درجاتهم: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ [۴۶۴] و ممّا يلزم ذكره أنّ قسما من المؤمنين لم يندرجوا فى زمرة السابقين فى الإيمان، مع توفّر الصفات و الخصوصيات فيهم و التى تجعلهم بنفس درجة السابقين من حيث الأجر و الجزاء، لذلك فقد نقل فى بعض الرّوايات

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «نحن السابقون السابقون و نحن الآخرون»[۴۶۵].

و

جاء فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه خاطب مجموعة من أصحابه فقال لهم: «أنتم السابقون الأوّلون و السابقون الآخرون، و السابقون فى الدنيا إلى و لا يتنا، و فى الآخرة إلى الجنّة»[۴۶۶].

و من الجدير بالملاحظة أنّ بعض المفسّرين فسّر «الأوّلين و الآخرين» ب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۲

(الأوّلين فى الامّة الإسلامية و الآخرين فيها) و انسجاما مع هذا الرأى فإنّ جميع المقرّبين هم من الامّة الإسلامية.

إلّا أنّ هذا التّفسير لا يتناسب مع ظاهر الآيات و الرّوايات التى وردت فى ذيل هذه الآيات، حيث أنّها عرّفت أشخاصا من الأمم السابقة بالخصوص بعنوان أنّهم من السابقين الأوّلين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۳

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۱۵ الى ۲۶]

اشارة

عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (۱۶) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (۱۷) بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۱۸) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ (۱۹)

وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (۲۰) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۱) وَ حُورٌ عِينٌ (۲۲) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (۲۳) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً (۲۵) إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً (۲۶)

التّفسير

الجنّة بانتظار المقرّبين:

هـذه الآيات تتحـدّث عن أنواع نعم الجنّة التى أعـدّها اللّه سـبحانه للقسم الثالث من عباده المقرّبين، و التى كلّ واحدة منها أعظم من أختها و أكرم.

و قد لخّصت هذه النعم بسبعة أقسام:

يقول تعالى فى البداية: عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ

«سرر» جمع سرير من مادّة (سرور) بمعنى التخت الذى يجلس عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۴

المنعّمين فى مجالس الانس و السرور[۴۶۷].

(موضـون) مـن مـادّة (و ضنّ) على وزن (وزن) و هى فى الأصـل بمعنى نسـج الـدرع، ثمّ أطلقت على كـلّ منسـوج محكم الخيـوط و النسيج. و المقصود هنا هى الأسرة الموضوعة جنبا إلى جنب بصورة متراصّة. أو أنّ لهذه الأسرة حياكة مخصوصة من اللؤلؤ و الياقوت و ما إلى ذلك، كما قال بعض المفسّرين.

و على كلّ حال، فإنّ بناء هذه الأسـرة و كيفية وضـعها، و مجلس الانس الذى يتشـكّل عليها، و أجواء السـرور و الفرح التى تغمرها، لا نستطيع وصفه بأى بيان.

و نلاحظ اسـتمرار الأوصاف الرائعة فى القرآن الكريم لسرر الجنّة، و مجالس أهلها، و منتديات أحبّتها ممّا يدلّ على أنّ من أهم نعم و ملذّات هؤلاء هى جلسات الانس هذه ...

أمّـا أحـاديثهم و مـا يـدور فى حفلاتـهم فليس هنالك أحـد يعلم حقيقتها، فهل هى عن أسـرار الخلق و عجائب الكون؟ أو عن اصول المعرفة و أسـماء اللّه و صـفاته الحسـنى؟ أو عن الحوادث التى حدثت فى هذا العالم؟ أو عن الراحة التى هم عليها بعد التعب و العناء؟ أو عن امور اخرى لا نستطيع إدراكها ...؟ هذا هو سرّ لا يعلمه إلّا اللّه.

ثمّ يتحدث سبحانه عن نعمة اخرى لهم حيث يقول: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ

التعبير ب «يطوف» من مادّة (طواف) إشارة إلى استمرار خدمة هؤلاء (الطوافين) لضيوفهم.

و التعبير ب «مخلّدون» إشارة إلى خلود شبابهم و نشاطهم و جمالهم و طراوتهم، و الأصل أن جميع أهل الجنّة مخلّدون و باقون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۵

أمّا من هم هؤلاء الولدان؟

قال البعض: إنّهم أبناء البشـر من هـذه الـدنيا الـذين توفّوا قبل البلوغ، و صـحيفة أعمالهم بيضاء لم تـدنّس بعـد، فقـد بلغوا هذه المرتبة بلطف اللّه سـبحانه، و خـدمتهم للمقرّبين تقترن بارتيـاح عظيم و رغبـة عميقـة و لـذّة من أفضل اللـذّات، لأنّهم فى خدمـة المقرّبين من الحضرة الإلهيّة.

و قد ورد فى هذا المعنى حديث للإمام على عليه السّلام.

إلّا أنّنا نقرأ فى تفسير آخر أنّهم أطفال المشركين و لأنّهم لم يرتكبوا ذنبا فقد حصلوا على هذه المرتبة، و أطفال المؤمنين يلتحقون بآبائهم و امّهاتهم.

و نقرأ فى تفسير ثالث أنّهم خدّام الجنّة، حيث إنّ اللّه سبحانه قد أعدّهم لهذه المهمّة بشكل خاصّ.

و يضيف القرآن أنّ هؤلاء الولدان يقدّمون لأصحاب الجنّة أقداح الخمر و كؤوس الشراب المأخوذ من أنهار الجنّة بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۴۶۸] و شرابهم هذا ليس من النوع الذى يأخذ لباب العقل و الفكر، حيث يقول تعالى: لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ ۴۶۹].

إنّ الحالة التى تنتابهم من النشوة الروحية حين تناولهم لهذا الشراب لا يمكن أن توصف، إذ تغمر كلّ وجودهم بلذّة ليس لها مثيل.

ثمّ يشير سبحانه إلى رابع و خامس قسم من النعم المادية التى وهبها اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۶

للمقرّبين فى الجنّة، حيث يقول سبحانه: وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۴۷۰] وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ

إنّ تقديم الفاكهة على اللحم بلحاظ كون الفاكهة أفضل من الناحية الغذائية بالإضافة إلى نكهتها الخاصّة عند أكلها قبل الطعام.

و الذى يستفاد من بعض الرّوايات أنّ غصون أشجار الجنّة تكون فى متناول أيدى أهل الجنّة، بحيث يستطيعون بكلّ سهولة أن يتناولوا أى نوع من الفاكهة مباشرة، و هكذا الحال بالنسبة لبقيّة الأغذية الموجودة فى الجنّة. إلّا أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ تقديم الغذاء من قبل (الولدان المخلّدين) له صفاء خاصّ و لطف متميّز حيث أنّ تقديم الطعام يعبّر عن مزيد الاحترام و الإكرام لأهل الجنّة، و تضفى رونقا و بهاء أكثر على مجالس أنسهم. و من المتعارف عليه اجتماعيا بيننا أنّ تقديم الفاكهة و تقريبها من الضيوف من قبل المضيف نفسه يعبّر عن التقدير و المحبّة و الاحترام.

و خصّت لحوم الطيور بالذكر هنا لفضلها على بقيّة أنواع اللحوم، لذا فقد تكرّر ذكرها.

إنّ استعمال تعبير «يتخيّرون» بالنسبة ل (الفاكهة) و يشتهون بالنسبة ل (اللحوم) لا يدلّل على وجود اختلاف بين التعبيرين كما ذهب إليه بعض المفسّرين، بل هما بمعنى واحد بعبارتين مختلفتين، و المقصود بهما أنّ أى غذاء يشتهيه أهل الجنّة يوضع باختيارهم من قبل (الولدان المخلّدين).

ثمّ يشير سبحانه إلى سادس نعمة و هى الزوجات الطاهرات الجميلات حيث يقول سبحانه: حُورٌ عِينٌ ۴۷۱] كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۷

«حور» كما قلنا سابقا جمع حوراء و أحور، و يقال للشخص الذى يكون سواد عينه شديدا و بياضها شفافا، و (عين) جمع (عيناء) و أعين، بمعنى العين الواسعة، لأنّ أكثر جمال الإنسان فى عيونه، فقد ذكر هذا الوصف خصوصا.

و قال البعض: إنّ «حور» أخذت من مادّة (حيرة) يعنى أنّهنّ جميلات إلى حدّ تصاب العيون بالحيرة عند رؤيتهنّ ۴۷۲].

«مكنون» بمعنى مستور، و المقصود هنا الاستتار فى الصدف، لأنّ اللؤلؤ عند ما يكون مختفيا فى الصدف و بعيدا عن لمس الأيدى يكون شفّافا و ناصعا أكثر من أى وقت. و بالإضافة إلى ذلك قد يكون المقصود أنهنّ مستورات عن أعين الآخرين بصورة تامّة، لا يد تصل إليهنّ و لا عين تقع عليهنّ.

و بعد الحديث عن هذه المنح، و العطايا المادية الستّة، يضيف سبحانه: جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ كى لا يتصوّر أحد أنّ هذه النعم تعطى جزافا، بل إنّ الإيمان و العمل الصالح هو السبيل لنيلها و الحصول عليها، حيث يلزم للإنسان العمل المستمرّ الخالص حتّى تكون هذه الألطاف الإلهيّة من نصيبه.

«و يلاحظ بأنّ (يعملون) فعل مضارع يعطى معنى الاستمرار».

و يتحدّث القرآن الكريم عن سابع نعمة من نعم أهل الجنّة، و هى التى تتسم بالطابع الروحى المعنوى حيث يقول تعالى: لا يَسْمَعُونَ

فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً.

فالجوّ هناك جوّ نزيه خالص بعيد عن الدنس، فلا كذب، و لا تهم، و لا افتراءات، و لا استهزاء و لا غيبة و لا ألفاظ نابية و عبارات لاذعة .. و ليس هنالك لغو و لا كلام فارغ .. بل الموجود هناك هو اللطف و الصفاء و الجمال و المتعة و الأدب و الطهارة، و كم هو طاهر ذلك المحيط البعيد عن الأحاديث المدنّسة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۵۸

هى السبب فى أكثر انزعاجنا و عدم ارتياحنا فى هذه الدنيا، حيث اللغو و الثرثرة و الكلام اللامسئول و التعبيرات الجارحة! ثمّ يضيف سبحانه: إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً[۴۷۳].

و يسأل هنا: هل أنّ هذا السلام من قبل اللّه تعالى؟ أو أنّه من قبل الملائكة؟ أو هو سلام متبادل بين أهل الجنّة، أو كلّ هذه الأمور؟

الظاهر أنّ الرأى الأخير هو الأنسب، كما أشارت الآيات القرآنية الاخرى إلى ذلك [۴۷۴].

نعم إنّهم لا يسمعون شيئا إلّا السلام، سلام و تحيّة من اللّه، و من الملائكة المقرّبين، و سلامهم و تحيّتهم لبعضهم البعض فى تلك المجالس العامرة المملوءة بالصفاء و التى تفيض بالودّ و الاخوّة و الصدق.

إنّ محيطهم و أجواءهم المغمورة بالسلام و السلامة تسيطر على وجودهم، و إنّ أحاديثهم و حواراتهم المختلفة تنتهى إلى السلام و الاخوّة و الصفاء، و أساسا فإنّ الجنّة هى دار السلام و بيت السلامة و الأمن و الأمان، كما نقرأ فى قوله تعالى:

لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۴۷۵][۴۷۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۵۹

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۲۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (۲۷) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (۲۸) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (۲۹) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (۳۰) وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ (۳۱) وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (۳۲) لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ (۳۳) وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (۳۴) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (۳۵) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (۳۶) عُرُباً أَتْراباً (۳۷) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (۳۸) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۳۹) وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۴۰)

التّفسير

أصحاب اليمين و هباتهم:

بعد بيان الهبات و النعم الماديّة و المعنوية (للمقرّبين) يأتى الدور فى الحديث عن (أصحاب اليمين) تلك الجماعة السعيدة التى تستلم صفحة أعمالها فى (اليد اليمنى) إشارة لنيل الفوز و النجاح فى الامتحان الربّانى.

و يشير سبحانه إلى نعم ستّ، ممّا أنعم به عليهم تمثّل مرحلة أدنى فى مقابل سبع نعم منحها سبحانه إلى المقرّبين من عباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٧، ص: ۴۶۰

تبدأ الآيات فى الحديث عنهم أوّلا من حيث مقامهم العالى، حيث يقول عزّ و جلّ: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ ۴۷۷].

إنّ هذا الوصف هو أروع وصف هؤلاء، لأنّ هذا التعبير يستعمل فى موارد لا تستطيع الألفاظ التعبير عنه، و هو تعبير عن المقام العالى لأصحاب اليمين.

و تشير الآيـة اللاحقـة إلى أوّل نعمـة منحت لهـذه الجماعة حيث تقول: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ[۴۷۸]. و فى الحقيقـة أنّ هـذا أنسب و أليق وصف توصف به أشـجار الجنّة فى دائرة ألفاظنا الدنيويـة، لأنّ (السدر) كما يقول أئمّة اللغة: شـجر قوى معمّر يصل طوله إلى أربعين مترا أحيانـا و عمره يقرب من ألفى سـنة، و لها ظلّ ظليل و لطيف، و السلبية الموجودة فى هـذا الشـجر أنّه ذو شوك إلّا أنّ وصـفه ب (مخضود) من مادّة (خضد)- على وزن (مجد)- بمعنى (إزالة الشوك) تنهى آثار هذه السلبية فى شجر سدر الجنّة.

و

جاء فى حـديث: كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقولون: إنّ اللّه ينفعنا بالأعراب و مسائلهم، أقبل أعرابى يوما، فقال: يا رسول اللّه لقد ذكر اللّه فى القرآن شجرة مؤذية و ما كنت أرى أنّ فى الجنّة شجرة تؤذى صاحبها؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و ما هى» قال: السدر، فإنّ لها شوكا.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أليس يقول اللّه: فى سدر مخضود، يخضده اللّه من شوكه فيجعل مكان كلّ شوكة ثمرة، إنّها تنبت ثمرا يفتق الثمر منها عن إثنين و سبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر»[۴۷۹].

ثمّ يأتى الحديث عن ثانى هبة لهم حيث يقول سبحانه: وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ.

«الطلح»: شجرة خضراء لطيفة اللون و الرائحة، و ذكر البعض أنّها شجرة الموز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۱

التى تتميّز بأوراق عريضة جدّا و خضراء و جميلة، و فاكهتها حلوة و لذيذة.

و «منضود»: من مادّة (نضد) بمعنى متراكم.

و ممكن أن يشير هذا التعبير إلى تراكم الأوراق أو تراكم الفاكهة أو كليهما، حتّى أنّ البعض قال: إنّ هذه الأشجار مليئة بالفاكهة إلى حدّ أنّها تغطّى سيقان و أوراق الأشجار.

و قال بعض المفسّرين: بالنظر إلى أنّ أوراق شجر السدر صغيرة جدّا، و أوراق شجر الموز كبيرة جدّا، فإنّ ذكر هاتين الشجرتين إشارة جميلة إلى جميع أشجار الجنّة التى تكون صفاتها بين صفات هاتين الشجرتين ۴۸۰].

ثمّ يستعرض سبحانه ذكر النعمة الثالثة من نعم أهل اليمين بقوله: وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ.

فسّر البعض هذا (الظلّ الواسع) بحالة شبيهة للظلّ الذى يكون بين الطلوعين من حيث انتشاره فى كلّ مكان، و قد نقل حديث للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا المعنى فى روضة الكافى ۴۸۱].

و المقصود هنا أن لا حرّ فى الجنّة، و أنّ أهلها فى ظلال لطيفة و اسعد تلطّف الروح.

و ينتقل الحديث إلى مياه الجنّة حيث يقول سبحانه: وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ

«مسكوب» من مادّة (سكب) على وزن «حرب» و تعنى فى الأصل الصبّ، و لأنّ صبّ الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيّار أو شلّال فإنّه بذلك يصوّر لنا مشهدا رائعا حيث إنّ خرير المياه ينعش الروح، و يبهر العيون، و هذه هى إحدى الهبات التى منحها اللّه لأهل الجنّة، و من الطبيعى أنّ هذه الجنّة المليئة بالأشجار العظيمة، و المياه الجارية، لا بدّ أن تكون فيها فواكه كثيرة، و هذا ما ذكرته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۲

الآية الكريمة، حيث يقول سبحانه فى ذكر خامس نعمة: وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ.

نعم، ليست كفواكه الدنيا من حيث محدوديتها فى فصول معيّنة من أسابيع أو شهور، أو يصعب قطفها بلحاظ الأشواك، أو العلو مثل النخيل، أو مانع ذاتى فى نفس الإنسان، أو أنّ المضيف الأصلى الذى هو اللّه و الملائكة الموكّلين بخدمة أهل الجنّة يبخلون عليهم .. كلّا، لا يوجد شيء من هذا القبيل، فالمقتضى موجود بشكل كامل، و المانع بكلّ أشكاله مفقود.

ثمّ يشير سبحانه إلى نعمة اخرى حيث يقول: وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ أى الزوجات الرفيعات القدر و الشأن.

«فرش»: جمع فراش و تعنی فی الأصل كلّ فراش يفرش و لهذا التناسب فإنّها تستعمل فی بعض الأحيان كناية عن الزوج (سواء كان رجلا أو امرأة) لذا جاء

فی الحديث عن الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: (الولد للفراش و للعاهر الحجر).

و فسّر البعض الفرش بمعناها الحقيقی و ليس كناية، و اعتبرها إشارة إلی الفرش الثمينة و التی لها قيمة عظيمة فی الجنّة. و لكن إذا فسّرت بهذه الصورة، فسيقطع ارتباط هذه الآية مع الآيات اللاحقة التی تتحدّث عن حوريات و زوجات الجنّة.

و يصف القرآن الكريم زوجات الجنّة بقوله تعالی: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً.

و هذه الآية لعلّها تشير إلی الزوجات المؤمنات فی هذه الدنيا حيث يمنحهنّ اللّه سبحانه خلقا جديدا فی يوم القيامة، و يدخلن الجنّة و هنّ فی قمّة الحيوية و الشباب و الجمال و الكمال الظاهر و الباطن، و بشكل يتناسب مع كمال الجنّة و خلوّها من كلّ نقص و عيب.

و إذا كان المقصود بذلك (الحوريات) فإنّ اللّه تعالی خلقهنّ بصورة لا يعتريهنّ فيها غبار العجز و الضعف، و يمكن أن يكون التعبير بالإنشاء إشارة إلی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۳

المعنيين أيضا.

ثمّ يضيف تعالی: فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً.

و احتمال أن يكون الوصف مستمرّا، كما صرّح كثير من المفسّرين بذلك، و أشير له فی الرّوايات الإسلامية أيضا، حيث الزواج لا يغيّر وضعهنّ و يبقين أبكارا[۴۸۲].

و يضيف فی وصفهنّ بوصف آخر فيقول تعالی: عُرُباً.

(عربا) جمع (عروبة) علی وزن (ضرورة) بمعنی المرأة التی يحكی وضع حالها عن مقام عفّتها و طهارتها، و عمّا تكنّه من المحبّة لزوجها، (إعراب): علی وزن (إظهار) معناه هو نفس مدلول الإظهار، و يأتی هذا المصطلح أيضا بمعنی الفصاحة و لطافة الكلام، و يمكن جمع المعنيين فی هذه الآية.

و الوصف الآخر لهن أَتْراباً أی أنّها متماثلات فی الجمال و أتراب فی الظاهر و الباطن، و متماثلات فی العمر مع أزواجهنّ.

(أتراب) جمع (ترب) علی وزن (ذهن) بمعنی المثل و الشبيه، و قال البعض: إنّ هذا المعنی أخذ من الترائب و هی عظام قفص الصدر، لأنّها تتشابه الواحدة مع الاخری.

إنّ هذا الشبه و التماثل يمكن أن يكون فی أعمار الزوجات بالنسبة لأزواجهنّ، كی يدركن إحساسات و مشاعر أزواجهنّ كاملة، و بذلك تصبح الحياة أكثر سعادة و انسجاما، بالرغم من أنّ السعادة تحصل مع اختلاف العمر أحيانا، إلّا أنّ الغالب ليس كذلك. كما يمكن أن يكون المقصود بالتشابه و التساوی فی الصفات الجمالية و النفسية و حسن الظاهر و الباطن.

ثمّ يضيف تعالی: لِأَصْحابِ الْيَمِينِ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۴

و هذا تأكيد جديد علی اختصاص هذه الصفات و النعم الإلهيّة بهم.

و يحتمل أيضا أن تكون هذه الجملة مكمّلة لجملة إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً[۴۸۳].

و فی نهاية هذا العرض يقول سبحانه: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ

«ثلّة»: فی الأصل بمعنی قطعة مجتمعة من الصوف، ثمّ أطلقت علی كلّ مجموعة من الناس عظيمة و متماسكة، و بهذا الترتيب فإنّ مجموعة عظيمة من أصحاب اليمين هم من الأمم السابقة، و مجموعة عظيمة من الامّة الإسلامية، لأنّ بين المجموعتين كثير من الصالحين و المؤمنين. بالرغم من أنّ السابقين للإيمان فی الامّة الإسلامية أقلّ من السابقين للإيمان فی الأمم السابقة، و ذلك لكثرة

تلک الأمم و کثرة أنبیائها.

و قال البعض: إنّ هاتین المجموعتین کلاهما من الامّة الإسلامیة، قسم من أوّلهم و قسم من آخرهم، إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أصحّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۵

الآیات [سورة الواقعة (۵۶): الآیات ۴۱ الی ۵۰]

اشارة

وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (۴۱) فِی سَمُومٍ وَ حَمِیمٍ (۴۲) وَ ظِلٍّ مِنْ یَحْمُومٍ (۴۳) لا بارِدٍ وَ لا کَرِیمٍ (۴۴) إِنَّهُمْ کانُوا قَبْلَ ذلِکَ مُتْرَفِینَ (۴۵)

وَ کانُوا یُصِرُّونَ عَلَی الْحِنْثِ الْعَظِیمِ (۴۶) وَ کانُوا یَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۴۷) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۴۸) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِینَ وَ الْآخِرِینَ (۴۹) لَمَجْمُوعُونَ إِلی مِیقاتِ یَوْمٍ مَعْلُومٍ (۵۰)

التّفسیر

العقوبات المؤلمة لأصحاب الشمال:

بعد الاستعراض الذی مرّ بنا حول النعم و الهبات العظیمة التی منحها اللّه سبحانه للمقرّبین من عباده و لأصحاب الیمین من أولیائه، یتطرّق الآن إلی ذکر المجموعة الثالثة أَصْحابُ الشِّمالِ و العذاب المؤلم و العاقبة السیّئة التی حلّت بهم، فی عملیة مقارنة لوضع المجموعات الثلاثة حیث یقول الباریء: وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۶

أصحاب الشمال هم الذین یستلمون صحائف أعمالهم بأیدیهم الیسری إشارة إلی سوء عاقبتهم، و أنّهم من أهل المعاصی و الذنوب، و ممّن تکون النار مصیرا لهم، و یستعمل هذا التعبیر عادة لبیان (حسن) أو (سوء) نهایة الإنسان کما فی قولنا: السعادة أقبلت علینا یا لها من سعادة!. أو المصیبة داهمتنا یا لها من مصیبة. و کذلک فی قوله تعالی: وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ

ثمّ یشیر سبحانه إلی ثلاثة أنواع من العقوبات التی یواجهونها، الهواء الحارق القاتل من جهة سَمُومٍ و الماء المغلی المهلک من جهة اخری وَ حَمِیمٍ و ظلّ الدخان الخانق الحارّ من جهة ثالثة وَ ظِلٍّ مِنْ یَحْمُومٍ هذه الألوان من العذاب تحاصرهم و تطوقهم و تسلب منهم الصبر و القدرة ... إنّها آلام و عذاب لا یطاق، و لو لم یکن غیره من جزاء لکفاهم.

«سموم»: من مادّة (سمّ) بمعنی الهواء الحارق الذی یدخل فی مسام الجلد فتهلکهم، (و یقال للسمّ سمّا لأنّه ینفذ فی جمیع خلایا الجسم).

و «حمیم»: بمعنی الشیء الحارّ، و هنا جاء بمعنی الماء الحارق و الذی أشیر له فی آیات قرآنیة سابقة کما فی قوله تعالی یُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِیمُ [۴۸۴] «یحموم»: من نفس المادّة أیضا، و هنا بمناسبة الظلّ فسّرت الکلمة بمعنی الظلّ الغلیظ الأسود و الحارّ.

ثمّ یضیف الباریء مؤکّدا فیقول: لا بارِدٍ وَ لا کَرِیمٍ

المظلّة عادة تحمی الإنسان من الشمس و المطر و الهواء و لها منافع اخری، و الظلّ المشار إلیه فی الآیة الکریمة لیس له من هذه الفوائد شیء یذکر.

و التعبیر ب (کریم) من مادّة (کرامة) بمعنی مفید فائدة، و لذلک فإنّ المتعارف بین العرب إذا أرادوا أن یعرفوا شیئا أو شخصا بأنّه

غیر مفید یقولون (لا کرامة

فیه).

و من الطبیعی أنّ مظلّة من الدخان الأسود الخانق لا ینتظر منها إلّا الشرّ و الضرر (لا کرامة).

و بالرغم من أنّ أجزاء أهل النار له أنواع مختلفة مرعبة من العذاب، إلّا أنّ ذکر الأقسام الثلاثة یکفی لإعطاء فکرة عن بقیّة الأهوال.

و فی الآیات اللاحقة یذکر الأسباب التی أدّت بأصحاب الشمال إلی هذا المصیر المخیف و المشؤوم، و ذلک بثلاث جمل، یقول فی البدایة: إِنَّهُمْ کانُوا قَبْلَ ذلِکَ مُتْرَفِینَ

«مترف»: کما ورد فی لسان العرب من مادّة ترف- علی وزن (سبب)- بمعنی التنعّم، و تطلق علی الشخص الذی ملکته الغفلة و جعلته مغرورا سکران، و جرّته إلی الطغیان.[۴۸۵] صحیح أنّ أصحاب الشمال لیسوا جمیعا من زمرة المترفین، إلّا أنّ المقصودین فی القرآن الکریم هم أربابهم و أکابرهم.

و الملاحظ فی عصرنا الحاضر أنّ فساد المجتمعات و عوامل الانحراف و رأس الحروب و الدمار و نزیف الدم و أنواع الظلم و مرکز الشهوات و الفساد فی العالم أجمع بید «الزمرة» المترفة المغرورة، و لهذا فالقرآن الکریم قد شخّصهم و حدّد موقفه منهم ابتداء.

و هنالک رأی ثان و هو: إنّ نعم اللّه سبحانه واسعة و عدیدة و لا تنحصر بالأموال فقط، بل تشمل الصحّة و الشباب و العمر .. فإذا کانت هذه النعم أو بعضها مبعثا للغرور و الغفلة، فإنّها ستکون مصدرا أساسیا للذنوب، و هذا المفهوم یسری علی أصحاب الشمال.

ثمّ یشیر سبحانه إلی العامل الثانی الذی کان مصدرا و سببا لعذاب أصحاب الشمال، فیقول سبحانه: وَ کانُوا یُصِرُّونَ عَلَی الْحِنْثِ الْعَظِیمِ

«الحنث» فی الأصل یعنی کلّ نوع من الذنوب، و قد استعمل هذا المصطلح فی کثیر من الموارد بمعنی نقض العهد و مخالفة القسم، لکونه مصداقا واضحا للذنب، و بناء علی هذا فإنّ خصوصیة أصحاب الشمال لیس فقط فی ارتکاب الذنوب و لکن فی الإصرار علیها، لأنّ الذنب یمکن صدوره من أصحاب الیمین أیضا، إلّا أنّهم لا یصرّون علیه أبدا، و یستغفرون ربّهم و یعلنون التوبة إلیه عند تذکّره.

و فسّر البعض «الحنث العظیم» بمعنی الشرک، لأنّه لا ذنب أعظم من الشرک.

قال تعالی: إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ[۴۸۶].

و فسّر (الحنث) بالکذب، لأنّه أعظم الذنوب، و مفتاح المعاصی، خصوصا حینما یکون الکذب توأما لتکذیب للأنبیاء علیه السّلام و المعاد.

و الظاهر أنّ هذه جمیعا تعتبر مصادیق للحنث العظیم.

و ثالث عمل سبب لهم هذا الویل و العذاب، هو أنّهم قالوا: وَ کانُوا یَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ

و علی هذا فإنّ إنکار القیامة و الذی هو بحدّ ذاته مصدر للکثیر من الذنوب، هو وصف آخر لأصحاب الشمال، و مصدر لشقائهم. و تعبیر کانُوا یَقُولُونَ یوضّح لنا أنّهم کانوا یصرّون و یعاندون فی إنکار یوم القیامة أیضا.

و هنا مطلبان جدیران بالملاحظة و هما:

الأوّل: أنّ القرآن الکریم فی معرض حدیثه عن (المقرّبین) و (أصحاب الیمین) لم یعط توضیحا عن أعمالهم التی سبّبت لهم تلک النعم و ذلک الجزاء، إلّا ضمن إشارة عابرة. أمّا عند ما جاء دور الحدیث عن أصحاب الشمال فقد وضّحت

أفعالهم بصورة کافیة، و ذلک لیکون إتماما للحجّة علیهم من جهة، و إظهار أنّ جزاءهم هذا کان انسجاما مع مبادئ العدالة تماما من

جهة اخری.

و المسألة الاخری: أنّ الذنوب الثلاثة التی أشیر إلیها فی الآیات الثلاثة السابقة کانت بمثابة نفی اصول الدین الثلاثة من قبل أصحاب الشمال.

ففی آخر آیة تحدّث القرآن الکریم عن تکذیبهم لیوم القیامة، و فی الآیة الثانیة عن إنکار التوحید، و فی الآیة الاولی کانت الحدیث عن المترفین و هی إشارة إلی تکذیب الأنبیاء کما جاء فی قوله تعالی: وَ کَذلِکَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [۴۸۷] و التعبیر ب تُراباً وَ عِظاماً لعلّه إشارة إلی أنّ لحومنا تتحوّل إلی تراب، و عظامنا إلی رمیم، و مع ذلک فکیف نکون خلقا جدید؟

و لمّا کانت عودة الحیاة إلی التراب أبعد من عودتها إلی العظام لذا ذکر فی البدایة حیث یقول تعالی: تُراباً وَ عِظاماً.

و العجیب أنّ هؤلاء یرون مشاهد المعاد بأعینهم فی هذه الدنیا و مع ذلک فإنّهم ینکرونها[۴۸۸]. ألم یروا إلی الکثیر من الموجودات الحیّة کالنباتات تموت و تجفّ و تصبح ترابا ثمّ تلبس لباس الحیاة مرّة اخری، و أساسا فإنّ الذی خلق الخلق أوّل مرّة لن یعییه إعادة الخلق ثانیة، و لن یکون علیه ذلک صعبا و عسیرا و لکنّهم مع ذلک یصرّون علی إنکار المعاد.

إنّهم لم یکتفوا بما ذکروا و ذهبوا إلی أکثر من ذلک حیث قالوا بتعجّب: أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۴۸۹] الذین لم یبق منهم أثر و تناثرت کلّ ذرّة من تراب أجسادهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۰

فی جهة، أو أصبحت جزءا من بدن کائن آخر؟

و لکن، کما قیل مفصّلا فی نهایة سورة یاسین، فإنّ هذه التساؤلات و غیرها لیست سوی حجج واهیة أمام الدلائل القویّة المتوفّرة حول مسألة المعاد.

ثمّ إنّ القرآن الکریم یأمر الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یجیبهم: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِینَ وَ الْآخِرِینَ لَمَجْمُوعُونَ إِلی مِیقاتِ یَوْمٍ مَعْلُومٍ ۴۹۰].

«میقات» من مادّة (وقت) بمعنی الزمان الذی یحدّد لعمل ما أو موعد.

و المقصود من المیقات هنا هو نفس الوقت المقرّر للقیامة، حیث یجتمع کلّ البشر للحساب، و یأتی أحیانا کنایة عن المکان الذی عین لإنجاز عمل معیّن، مثل مواقیت الحجّ، التی هی أسماء أماکن خاصّة للشروع بالإحرام.

و یستفاد من التعابیر المختلفة التی وردت فی الآیة السابقة و التأکیدات العدیدة حول مسألة الحشر، مثل: (إنّ، اللام، «مجموعون» التی جاءت بصیغة اسم مفعول، و وصف «یوم» بأنّه معلوم) ممّا یکون واضحا و مؤکّدا أنّ حشر جمیع الناس ینجز فی یوم واحد، و جاء هذا المعنی فی آیات قرآنیة اخری أیضا[۴۹۱].

و من هنا یتّضح جیّدا أنّ الذین کانوا یتصوّرون أنّ القیامة تقع فی أزمنة متعدّدة حیث إنّ لکلّ امّة قیامة، هم غرباء عن آیات اللّه تماما.

و لا بدّ من الإشارة هنا إلی أنّ معلومیة یوم القیامة هی عند اللّه فقط، و إلّا فإنّ جمیع البشر بما فیهم الأنبیاء و المرسلون و المقرّبون و الملائکة لیس لهم علم بتوقیتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۱

الآیات [سورة الواقعة (۵۶): الآیات ۵۱ الی ۵۶]

اشارة

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (۵۱) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (۵۲) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۵۳) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (۵۴)
فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (۵۵)
هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (۵۶)

التّفسير

عقوبات جديدة للمجرمين:

هذه الآيات استمرار للأبحاث المرتبطة بعقوبات أصحاب الشمال، حيث يخاطبهم بقوله: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ۴۹۲].

كان الحديث فى الآيات السابقة حول الأجواء التى تحيط ب (أصحاب الشمال) و ينتقل الحديث فى الآيات أعلاه إلى مشربهم و مأكلهم مقارنا بمأكل و مشرب المقرّبين و أصحاب اليمين.

و الجدير بالذكر أنّ المخاطبين فى هذه الآيات هم «الضالّون المكذّبون»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۲

الذين يتّسمون مضافا إلى الضلال و الانحراف بأنّ لديهم روح العناد و الإصرار على الباطل فى مقابل الحقّ.

(زقّوم) كما ذكرنا سابقا: نبات مرّ نتن الرائحة و طعمه غير مستساغ، و فيه عصارة إذا دخلت جسم الإنسان يصاب بالتورّم، و تقال أحيانا لكلّ نوع من الغذاء المنفّر لأهل النار[۴۹۳].

و للمزيد حول (الزقّوم) يراجع نهاية الآية (۶۲) سورة الصافات، و كذلك نهاية الآية (۴۳) سورة الدخان.

و التعبير ب فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ إشارة إلى الجوع الشديد الذى يصيبهم بحيث إنّهم يأكلون بنهم و شره من هذا الغذاء النتن و غير المستساغ جدّا فيملئون بطونهم.

و عند تناولهم لهذا الغذاء السيء يعطشون. و لكن ما هو شرابهم؟! يتبيّن ذلك فى قوله تعالى: فَشارِبُونَ عَلَيْهِ ۴۹۴] مِنَ الْحَمِيمِ فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ

إنّ البعير الذى يبتلى بداء العطش فإنّ شدّة عطشه تجعله يشرب الماء باستمرار حتّى يهلك، و هذا هو نفس مصير الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ فى يوم القيامة.

«حميم»: بمعنى الماء الحارّ جدّا و الحارق، و تطلق عبارة (ولىّ حميم) على طبيعة العلاقة الصادقة الوديّة الحارّة، و «حمّام» مشتقّ من نفس المادّة أيضا.

(هيم) على وزن (ميم) جمع هائم، و اعتبرها البعض جمع أهيم و هيماء، و هى فى الأصل من (هيام) على وزن (فرات) بمعنى مرض العطش الذى يصيب البعير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۳

و يستعمل هذا التعبير للعشق الحادّ أو للعشّاق الذين لا يقرّ لهم قرار.

و يعتبر بعض المفسّرين أنّ معنى (هيم) هى الأراضى الرملية و التى كلّما سقيت بماء تسرّب منها فتظهر الظمأ دائما.

و فى آخر آية- مورد البحث- يشير سبحانه إلى طبيعة مأكلهم و مشربهم فى ذلك اليوم حيث يقول: هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ

فأين نزلهم و نزل أصحاب اليمين الذين ينعمون بالاستقرار فى ظلال الأشجار الوارفة، و يتناولون ألذّ الفواكه و أطيب الأطعمة، و

أعذب الشراب الطهور، و يطوف حولهم الولدان المخلّدون و حور العين، و هم سكارى من عشق البارئ عزّ و جلّ؟

أين أولئك؟ و أين هؤلاء؟

مصطلح (نزل) كما قلنا سابقا بمعنى الوسيلة التى يكرمون بها الضيف العزيز، و تطلق أحيانا على أوّل طعام أو شراب يؤتى به للضيوف، و من الطبيعى أنّ أهل النار ليسوا ضيوفا، و أنّ الزقّوم و الحميم ليس وسيلة لضيافتهم. بل هو نوع من الطعن فيهم، و أنّه إذا كان كلّ هذا العذاب هو مجرّد استقبال لهم، فكيف بعد ذلك سيكون حالهم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۵۷ الى ۶۲]

اشارة

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ (۵۷) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (۵۸) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (۵۹) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۶۰) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (۶۱)

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ (۶۲)

التّفسير

سبعة أدلّة على المعاد:

بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن تكذيب الضالّين ليوم المعاد، فإنّ الآيات اللاحقة استعرضت سبعة أدلّة على هذه المسألة المهمّة، كى يتركّز الإيمان و تطمئن القلوب بالوعود الإلهيّة التى وردت فى الآيات السابقة حول «المقرّبين و أصحاب اليمين و أصحاب الشمال»، و أساسا فإنّ أبحاث هذه السورة تتركّز على بحث المعاد بشكل عامّ.

يقول سبحانه فى المرحلة الاولى: نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ أى لم لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۵

تصدّقون بالمعاد[۴۹۵]؟! لماذا تتعجّبون من الحشر و المعاد الجسمى بعد أن تصبح أجسامكم ترابا؟ ألم نخلقكم من التراب أوّل مرّة؟ أليس حكم الأمثال واحدا؟

هذه الاستدلالات فى الحقيقة شبيهة بما جاء فى قوله تعالى: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [۴۹۶] و فى الآية اللاحقة يشير البارئ إلى دليل ثان حول هذه المسألة فيقول:

أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ۴۹۷] أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ

من الذى يجعل من هذه النطفة الحقيرة التى لا قيمة لها فى كلّ يوم بخلق جديد و شكل جديد، و خلق بعد خلق؟! هذه التطورات العجيبة التى بهرت العقول و اولى الألباب من المفكّرين، هل كانت من خلقكم أم من خلق اللّه تعالى؟

و هل أنّ القادر على الخلق المتكرّر يعجز عن إحياء الموتى فى يوم القيامة؟

إنّ المفاهيم التى وردت فى هذه الآية تحكى نفس المفاهيم التى جاءت فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا.[۴۹۸] و إذا تجاوزنا ذلك و أخذنا بنظر الإعتبار ما يقوله علماء اليوم حول قطرة الماء هذه (النطفة) التى فى ظاهر الأمر

لا قیمة لها، سوف یتّضح لنا الحال أکثر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۶

حیث یقولون: إنّ الحیمن (الأسبر) هو حیوان مجهری صغیر جدّا و إنّ منیّ الرجل یحتوی علی عدد هائل من الحیامن فی کلّ إنزال تقدّر بین (۲- ۵) ملیون حیمن و هذا یمثّل مقدار مجموع سکّان عدّة (بلدان فی العالم)[۴۹۹] هذا الحیوان المنوی یتّحد مع بویضة المرأة (أوول)، فتتکوّن البیضة المخصّبة التی تنمو بسرعة و تتکاثر بصورة عجیبة، حیث تصنع خلایا جسم الإنسان، و مع أنّ الخلایا متشابهة فی الظاهر، إلّا أنّها تتوزّع بسرعة إلی مجامیع عدیدة، فقسم منها یختص بالقلب، و الآخر بالأطراف، و الثالث بالاذن و الحنجرة، و کلّ مجموعة مستقرّة فی مکانها المحدّد له، فلا خلایا الکلیة تنتقل إلی خلایا القلب، و لا خلایا القلب تتحوّل إلی خلایا العین، و لا العکس.

و الخلاصة أنّ «النطفة المخصّبة» فی المرحلة الجنینیّة تمرّ بعوالم عدیدة مختلفة حتّی تصبح جنینا، و کلّ هذا فی ظلّ خالقیة إلهیّة مستمرّة، فی حین أنّ دور الإنسان فی هذه العملیة بسیط جدّا، و یقتصر علی وضع النطفة فی الرحم، و الذی ینجز بلحظة واحدة.

أ لیست هذه المسألة دلیلا حیّا علی مسألة المعاد؟

أو لیست هذه القدرة العظیمة تدلّل علی قدرة إحیاء الموتی أیضا[۵۰۰].

ثمّ یستعرض ذکر الدلیل الثالث حیث یقول سبحانه: نَحْنُ قَدَّرْنا بَیْنَکُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِینَ

نعم، إنّنا لن نغلب أبدا، و إذا قدّرنا الموت فلا یعنی ذلک أنّنا لا نستطیع أن نمنح العمر السرمدی، بل أنّ الهدف هو أن نذهب بقسم من الناس و نأتی بآخرین محلّهم. و أخیرا نعیدکم خلقا جدیدا فی عالم لا تعلمون عنه شیئا عَلی أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَکُمْ وَ نُنْشِئَکُمْ فِی ما لا تَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۷

و فی تفسیر هاتین الآیتین هناک و جهة نظر اخری و هی: أنّ الآیة الثانیة لم تأت لبیان هدف الآیة الاولی و لکن تکملة لها، حیث یرید سبحانه أن یبیّن المعنی التالی و هو: أنّنا لسنا بعاجزین و مغلوبین علی أن نذهب بقسم و نأتی بآخرین مکانهم ۵۰۱].

و یوجد تفسیران لجملة عَلی أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَکُمْ

الأوّل: هو نفس التّفسیر المذکور أعلاه، و الذی هو المشهور بین المفسّرین، و طبقا لهذا الرأی تکون عملیة تبدیل الأقوام فی هذه الدنیا.

و الثانی هو: أنّ المقصود من (أمثال) هم نفس البشر الذین یبعثون فی یوم القیامة، و التعبیر ب (مثل) لأنّ الإنسان لا یبعث مرّة اخری بکلّ خصوصیاته التی کان علیها، إذ أنّه سیکون فی وقت جدید و کیفیات جدیدة من حیث الروح و الجسم.

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر.

و علی کلّ حال، فإنّ الهدف هو الاستدلال علی المعاد من خلال مسألة الموت، و یمکن توضیح الدلیل بالصورة التالیة: إنّ اللّه الحکیم الذی خلق الإنسان و قدّر له الموت فطائفة یموتون و آخرین یولدون باستمرار، من البدیهی أنّ له هدف.

فإذا کانت الحیاة الدنیا هی الهدف فالمناسب أن یکون عمر الإنسان خالدا و لیس بهذا المقدار القصیر المقترن مع ألوان الآلام و المشاکل.

و سنّة الموت تشهد أنّ الدنیا معبرا و لیست منزلا و أنّها جسر و لیست مقصدا، لأنها لو کانت مستقرّا و مقصد للزم أن تدوم الحیاة فیها.

جملة وَ نُنْشِئَکُمْ فِی ما لا تَعْلَمُونَ ظاهرا إشارة إلی خلق الإنسان یوم القیامة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۸

و التی هی الهدف لحیاة و فناء هذه الدنیا، و من البدیهی لأی شخص لم یر الدار الآخرة أنّه لن یستطیع إدراکها و معرفة قوانینها و

الأنظمـة المسيطرة عليهـا من خلال الألفـاظ و الصور التى تنقـل لنـا عنهـا، نعم إنّنا نسـتطيع أن نرى شـبحها و ظلالها فقط من التصوير اللفظى لها، و لـذا فإنّ الآيـة أعلاه تعكس هـذه الحقيقـة، حيث تـذكر أنّ اللّه سيخلقنا فى عالم جديـد و بأشكال و ظروف جديدة لا ندرك أسرارها[۵۰۲].

و فى آخر آية- مورد البحث- يتحدّث سبحانه عن رابع دليل للمعاد حيث يقول: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ

هذا الدليل نستطيع بيانه بصورتين:

الاولى: فى المثال التالى: إذا كنا نسير فى صحراء و شاهدنا قصرا مهيبا عظيما مثيرا للإعجاب فى محتوياته و مواد بنائه و هندسته، و قيل لنا: إنّ الهدف من هذا القصـر هو استعماله كمحطّة للراحة و الهدوء لعدّة ساعات فقط لقافلة صـغيرة .. فإنّنا سنحكم فى أنفسنا بصورة قاطعة على عدم الحكمة فى هذا العمل، إذ من المناسب لمثل الهدف المتقدّم ذكره أن تعد خيمة صغيرة فقط.

و على هذا فإنّ خلق هذه الدنيا العظيمة و ما فيها من أجرام سماوية و شمس و قمر و أنواع المخلوقات الأرضية الاخرى، هل يمكن أن يكون لهـدف صـغير محـدود، كـأن يعيش الإنسـان فيهـا بضـعة أيّام؟ كلّا ليس كـذلك، و إلّا فانّه يعنى أنّ خلق العالم سيكون بـدون هـدف، و لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المخلوقات العظيمة قد خلقت لموجود شـريف- مثل الإنسان- ليعرف اللّه سـبحانه من خلالها، معرفة تكون رأسماله الوحيد فى الدار الآخرة، فالهدف إذن هو الدار الآخرة، و هذا دليل آخر على المعاد.

و هذا البيان هو ما نجده فى الآية الشريفة:

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا.[۵۰۳] الثانيـة: هو أنّنا نلاحظ مشاهـد المعاد فى هذا العالم تتكرّر أمامنـا فى كلّ سـنة و فى كلّ زاويـة و كلّ مكان، حيث مشـهد القيامـة و الحشـر فى عالم النبات، فتحيى الأرض الميتـة بهطول الأمطار الباعثة للحياة قال تعالى: إِنَّ الَّذِى أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى [۵۰۴] و قد أشير إلى هذا المعنى كذلك فى الآية ۶ من سورة الحجّ.

ملاحظة

حجيّة القياس:

إنّ هـذه المسألـة تطرح عـادة فى اصول الفقه، و هى أنّنـا لاـ نسـتطيع إثبـات الحكم الشـرعى عن طريق القياس كقولنا مثلا: (إنّ المرأة الحـائض التى يجب أن تقضـى صومها يجب أن تقضـى صـلاتها كـذلك)- أى يجب أن تكون اسـتنتاجاتنا من الكلّى إلى الجزئى، و ليس العكس- و بالرغم من أنّ علماء أهل السنّة قد قبلوا القياس فى الغالب كأحد مصادر التشـريع فى الفقه الإسلامى، فإنّ قسما منهم يوافقوننا فى مسألة (نفى حجيّة القياس).

و الظريف هنا أنّ بعض مؤيّدى القياس أرادوا أن يسـتدلّوا بمقصودهم بالآية التالية: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى أى قيسوا النشأة الاخرى (القيامة) على النشأة الاولى (الدنيا).

إلّا أنّ هذا الاستدلال عجيب، لأنّه أوّلا: إنّ المذكور فى الآية هو استدلال عقلى و قياس منطقى، ذلك أنّ منكرى المعاد كانوا يقولون: كيف تكون للّه القدرة على إحياء العظام النخرة؟ فيجيبهم القرآن الكريم بالمفهوم التالى: إنّ القوّة التى

كـانت لها القـدرة على خلقكم فى البدايـة هى نفسـها سـتكون لها القـدرة لخلقكم مرّة ثانيـة، فى الوقت الـذى لا يكون القياس الظنّى بالأحكام الشرعية بهذه الصورة أبدا، لأنّنا لا نحيط بمصالح و مفاسد كلّ الأحكام الشرعية.

و ثانيا: إنّ من يقول ببطلان القياس يستثنى قياس الأولوية، فمثلا يقول تعالى:

فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما و نفهم بطريق أولى ألّا تؤذيهما من الناحية البدنية.

و الآية مورد البحث من قبيل قياس الأولوية و ليس لها ربط بالقياس الظنّى مورد الخلاف و النزاع، لأنّه لم يكن شىء من المخلوقات فى البداية، و اللّه عزّ و جلّ خلق الوجود من العدم و خلق الإنسان من التراب، و لذا فإنّ إعادة الإنسان إلى الوجود مرّة اخرى أيسر من خلقه ابتداء، و تعكس الآية الكريمة التالية هذا المفهوم حيث يقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [۵۰۵] و ننهى حديثنا هذا بالحديث التالى:

«عجبا كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الاخرى و هو يرى النشأة الاولى، و عجبا للمصدّق بالنشأة الاخرى و هو يسعى لدار الغرور»[۵۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۱

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۶۳ الى ۶۷]

اشارة

أ فَرَأَيْتُم ما تَحْرُثُونَ (۶۳) أ أَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (۶۴) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (۶۵) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (۶۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۶۷)

التّفسير

هل أنتم الزارعون أم اللّه؟

استعرضنا لحدّ الآن أربعة أدلّة من الأدلّة السبعة التى جاء ذكرها فى هذه السورة حول المعاد، و الآيات- مورد البحث و اللاحقة لها- تستعرض الأدلّة الاخرى المتبقّية و التى كلّ منها مصداق لقدرة اللّه اللامتناهية.

فالدليل الأوّل يرتبط بخلق الحبوب الغذائية، و الثانى يرتبط بخلق الماء، و الثالث يتعلّق بالنار. و هذه المحاور تشكّل الأركان الأساسيّة فى الحياة الإنسانية، فالحبوب النباتية أهمّ مادّة غذائية للإنسان، و الماء أهمّ عنصر للحياة، و النار أهمّ وسيلة لإصلاح المواد الغذائية و سائر امور الحياة الاخرى.

يقول سبحانه فى البداية: أ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۲

الملفت للنظر هنا أنّ الآية استعملت تعبير (تحرثون) من مادّة (حرث) على وزن (درس) و هو يعنى الزراعة و نشر الحبوب و تهيئتها للإنبات، و فى الآية الثانية كان التعبير ب (تزرعونه) من مادّة «زراعة» بمعنى النمو و النضج.

و من البديهى أنّ عمل الإنسان هو الحرث فقط، أمّا النمو فهو من عمل اللّه سبحانه فقط، و لذا نقل

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا يقولنّ أحدكم زرعت و ليقل حرثت، فإنّ الزارع هو اللّه»[۵۰۷].

شرح هذا الدليل هو أنّ عمل الإنسان فى الزرع كعمله فى الإنجاب حيث ينثر البذرة و يتركها، و اللّه سبحانه هو الذى يخلق فى وسط هذه البذرة الحياة، فعند ما توضع البذرة فى محيط مهيّأ من حيث التربة و الضوء و الماء، فإنّها تستفيد ابتداء من المواد الغذائية المخزونة فيها إلى أن تصبح برعما و تولّد جذرا، ثمّ تنمو بسرعة عجيبة مستفيدة من المواد الغذائية الموجودة فى الأرض حيث تعمل أجهزة عظيمة و تحدث تغييرات عميقة فى داخل النبات، تتمخّض عن أغصان و سيقان و أوراق و ثمار .. و أحيانا تنتج البذرة الواحدة

عدّة آلاف من البذور[۵۰۸].

يقول العلماء: إنّ التركيبات الموجودة فى بناء نبات واحد أعجب و أعقد بمراتب من التشكيلات الموجودة فى مدينة صناعية عظيمة مع معاملها المتعدّدة.

هل أنّ القوّة التى لها مثل هذه القدرة تعجز عن إحياء الموتى مرّة اخرى؟

و فى الآية اللاحقة يؤكّد الدور الهامشى للإنسان فى نمو و رشد النباتات فيقول: لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ

نعم، يستطيع البارئ أن يرسل رياحا سامّة تقتل البذور قبل الإنبات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۳

و تحطّمها، أو يسلّط عليها آفة تتلفها بعد الإنبات كالجراد، أو تنزل عليها صاعقة كبيرة بحيث لا تبقى و لا تذر إلّا شيئا من التبن اليابس، و عند ذلك تضطربون و تندمون عند مشاهدتكم لمنظرها.

هل كان بالإمكان حدوث مثل هذه الأمور إذا كنتم أنتم الزارعون الحقيقيون؟ إذا فاعلموا أنّ كلّ هذه البركات من مصدر آخر.

«حطام»: من مادّة (حطم) على وزن (حتم) تعنى فى الأصل كسر الشىء، و غالبا ما تطلق على كسر الأشياء اليابسة كالعظام النخرة و سيقان النباتات الجافّة، و المقصود هنا هو التبن.

و يحتمل أيضا أنّ المقصود بالحطام هنا هو فساد البذور فى التربة و عدم نموّها[۵۰۹].

«تفكّهون»: من مادّة (فاكهة) بمعناها المتعارف، كما تطلق فكاهة على المزاح و ذكر الطرائف التى هى فاكهة جلسات الانس، و يأتى هذا المصطلح أحيانا للتعجّب و الحيرة، و الآية مورد البحث من هذا القبيل.

فى بعض الأحيان يضحك الإنسان فى الحالة العصبية و تسمّى هذه الضحكة ب (ضحكة الغضب) كما فى المزاح الذى يكون عند الظروف الصعبة و المصائب الثقيلة، و بناء على هذا فالمقصود: بالفاكهة- أحيانا- هو المزاح المقترن بالألم.

نعم تتعجّبون و تغمركم الحيرة و تقولون إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۵۱۰][۵۱۱] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ

و إذا كنتم أنتم الزارعين الحقيقيين، فهل بإمكانكم أن تمنعوا و تدفعوا عن زرعكم الأضرار و المصير المدمّر و النتيجة البائسة؟ و هذا التحدّى يؤكّد لنا أنّ جميع امور الخلق من اللّه سبحانه، و كذلك فإنّه هو الذى ينبت من بذرة لا قيمة لها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۴

نباتات طريّة و أحيانا مئات أو آلاف البذور منها، تلك النباتات التى يتغذّى عليها الإنسان بشكل أساسى و يستفيد من أغصانها و أوراقها و أحيانا جذورها و بقيّة أجزائها غذاء للحيوان و دواء للأمراض و الأسقام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۵

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۶۸ الى ۷۴]

اشارة

أ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (۶۸) أ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (۶۹) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ (۷۰) أ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ (۷۱) أ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (۷۲)

نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (۷۳) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۷۴)

التّفسير

من الذی خلق الماء و النار؟

یشیر سبحانه فی هذه الآیات إلی سادس و سابع دلیل للمعاد فی هذا القسم من آیات سورة الواقعة، التی تبیّن قدرة اللّه تعالی علی إحیاء الموتی، بل فی کلّ شیء.

أَ فَرَأَیْتُمُ الْماءَ الَّذِی تَشْرَبُونَ

أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ

«مزن»: علی وزن (حزن) کما یقول الراغب فی المفردات تعنی (الغیوم

البیضاء) و فسّرها البعض بأنّها (الغیوم الممطرة)[۵۱۲].

إنّ هذه الآیات تجعل الوجدان الإنسانی أمام استفسارات عدّة کی تأخذ إقرارا منه، حیث یسأل اللّه سبحانه: هل فکّرتم بالماء الذی تشربونه باستمرار و الذی هو سرّ حیاتکم؟

و هل تدبّرتم من الذی یأمر الشمس بالشروق علی صفحات المحیط حیث تفصل جزئیات الماء الخالص الحلو و الطاهر من بین المیاه المالحة؟

و هل علمتم من الذی یحمل هذا البخار نحو السماء؟

و من الذی یأمر البخار بالتجمّع و تشکیل غیوم الأمطار؟

و من الذی یأمر الریاح بالتحرّک و حمل الغیوم إلی الأراضی القاحلة و المیتة؟

و من الذی یمنح للطبقات العلیا فی الجوّ هذه الخاصیّة من البرودة بحیث تمنح استمرار صعود البخار نحو الأعلی، کی یتحوّل البخار إلی قطرات صغیرة و ملائمة تسقط علی الأرض بهدوء و تعاقب؟

و هل نعلم ماذا سیحدث لو انقطعت الشمس عن الشروق لمدّة سنة واحدة؟

أو توقّفت الریاح عن التحرّک؟

أو رفضت الطبقات العلیا حفظ البخار من الصعود إلی الأعلی؟

أو حبسته من النّزول إلی الأرض؟

لا شکّ أنّ الذی سیحدث یمثّل کارثة، حیث یموت الزرع و النخیل و تهلک مزارعکم و حدائقکم و حیواناتکم، بل ستهلکون أنتم من الظمأ أیضا.

إنّ القوّة التی أعطت هذه القدرة و منحت کلّ هذه النعم و البرکات العظیمة، بما أودعته من قوانین و نظم فی عالم الخلق، أ تظنّون أنّها غیر قادرة علی إحیاء الموتی؟

و هل أنّ إحیاء الموتی غیر هذا؟

ألیس إحیاء الأراضی المیتة نوعا من أنواع إحیاء الموتی؟

نعم، إنّه دلیل علی ذلک، و هو دلیل علی التوحید و عظمة القدرة الإلهیّة، و دلیل أیضا علی الحشر و المعاد.

و إذا لاحظنا فی الآیات أعلاه عملیة استعراض لماء الشرب- فقط- و عدم التحدّث عن تأثیره فی حیاة الحیوانات أو النباتات فإنّ السبب هو الأهمیّة البالغة للماء فی حیاة الإنسان نفسه، بالإضافة إلی أنّه قد أشیر له فی الآیات السابقة فی الحدیث الزرع، لذا لا حاجة لتکرار ذلک.

و الطريف هنا أنّ أهميّة الماء و تأثيره فى حياة الإنسان تزداد مع مرور الزمن و تقدّم الصناعة و العلم و المعرفة الإنسانية، فالإنسان الصناعى يحتاج إلى الماء بصورة متزايدة، لذلك فإنّ كثيرا من المؤسسات الصناعية العظيمة لا تكون لها القدرة على الفاعلية إلّا حينما تكون على ضفاف الأنهار العظيمة.

و أخيرا- و لإكمال البحث فى الآية اللاحقة- يقول سبحانه: لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ [۵۱۳].

نعم، لو أراد اللّه تعالى، للأملاح المذابة فى مياه البحار أن تتبخّر مع ذرّات الماء، و تصعد إلى السماء معها و تشكّل غيوما مالحة و مرّة، و تنزل قطرات المطر مالحة مرّة أيضا كمياه البحر، فهل هنالك من قوّة تمنعه؟ و لكنّه بقدرته الكاملة لم يسمح للأملاح بذلك، و لا للمكروبات- أيضا- أن تصعد إلى السماء مع بخار الماء.

و لهذا فإنّ قطرات المطر عند ما يكون الجوّ غير ملوّث تعتبر أنقى و أطهر و أعذب المياه.

«أجاج»: من مادّة (أجّ) على وزن (حجّ) و قد أخذت فى الأصل من «أجيج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۸

النار» يعنى اشتعالها و احتراقها، و يقال «أجاج» للمياه التى تحرق الفمّ عند شربها لشدّة ملوحتها و مرارتها و حرارتها.

نختتم حديثنا هذا بحديث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث ذكر الرواة

أنّ النّبى كان إذا شرب الماء قال: «الحمد للّه الذى سقانا عذبا فراتا برحمته، و لم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا»[۵۱۴].

و أخيرا نصل إلى سابع- و آخر- دليل للمعاد فى هذه السلسلة من الآيات الكريمة، و هو خلق النار التى هى أهمّ وسيلة لحياة الإنسان و أكثرها أهميّة له فى المجالات الصناعية المختلفة، حيث يقول سبحانه: أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ

«تورون»: من مادّة «ورى» على وزن (نفى) بمعنى الستر، و يقال للنار التى تكون مخفية فى الوسائل التى لها القابلية على الاشتعال و التى تظهر بشرارة «ورى» و «ايراء»، و خروجها يكون عن.

و توضيح ذلك: إنّ لإشعال النار و إيجاد الشرارة الاولى، و التى تستحصل اليوم بواسطة الكبريت و القداحات و ما إلى ذلك، فإنّهم كانوا يحصلون عليها من الحديد و الحجر المخصّص للقدح، حيث تظهر الشرارة بضرب الواحد بالآخر، أمّا أعراب الحجاز فكانوا يستفيدون من نوعين من الشجر الخاصّ الذى ينمو فى الصحراء و هما (المرخ) و (العفار) حيث يأخذون قطعتى خشب و يضعون الاولى أسفل و العفار فوقه فتتولّد الشرارة منها كما تتولّد من الحجر المستعمل للقدح.

و فسّر أغلب المفسّرين الآية بأنّها دليل آخر على قدرة اللّه البالغة فى النار المخفية فى خشب الأشجار الخضراء كمولّد للشرر و النار، فى الوقت الذى تكون فيه الأشجار الخضراء مشبّعة بالماء، فأين الماء؟ و أين النار؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۹

هذا الخالق العظيم الذى يتميّز بهذه القدرة، الذى وضع الماء و النار جنبا إلى جنب الواحد داخل الآخر، كيف لا يستطيع أن يلبس الموتى لباس الحياة، و يحييهم فى الحشر.

و قد ورد دليل شبيه بهذا حول المعاد فى آخر آيات سورة «يس» أيضا يقول تعالى: الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ [۵۱۵] و لكن كما ذكرنا فى تفسير الآية أعلاه فإنّ تعبير القرآن يمكن أن يكون إشارة إلى دليل أظرف، و هو حشر و تحرّر الطاقات و انطلاقها.

و بتعبير آخر: فإنّ الحديث هنا ليس فقط عن (القادحات) بل عن المواد التى لديها قابلية الاشتعال- كالخشب و الحطب- حيث تولّد عند احتراقها كلّ هذه الحرارة و الطاقة.

و توضيح ذلك: أنّه ثبت من الناحية العلمية أنّ النار التى نشاهدها اليوم عند احتراق الأخشاب هى نفس الحرارة التى أخذتها الأشجار

من الشمس على مرّ السنين و ادّخرتها فى داخلها، فنحن نتصوّر أنّ أشعّة الشمس طيلة إشراقها على الشجر خلال خمسين سنة قد ذهبت آثارها غافلين عن أنّ حرارتها قد ادّخرت فى الشجرة، و عند ما تصل شرارة النار إلى الأخشاب اليابسة تبدأ بالاحتراق و تطلق الحرارة الكامنة فيها.

و بذلك يكون هنا أيضا معاد و محشر و تحيا الطاقات من جديد مرّة اخرى، و لسان حال الأشجار يقول: إنّ الخالق الذى هيّأ لنا الحشر قادر أن يهيّأ لكم حشرا يا بنى البشر. (و لمزيد من الاطلاع فى هذا المجال راجعوا البحث المفصّل الذى بيّناه فى الآية من سورة يس).

جملة (يورون)- بمعنى إشعال النار- بالرغم من أنّها فسّرت هنا بما يستفاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۰

منه توليد النار، إلّا أنّه لا مانع من أن تشمل الأشياء المشتعلة أيضا كالحطب باعتباره نارا خفيّة تظهر وقت توفّر الشروط المناسبة لها.

و لا تنافى بين المعنيين، حيث المعنى الأوّل يفهمه العامّة من الناس، و الثانى أدقّ، يتوضّح مع مرور الزمن و تقدّم العلم و المعرفة.

و فى الآية اللاحقة يضيف مؤكّدا الأبحاث أعلاه بقوله سبحانه: نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ

إنّ عودة النار من داخل الأشجار الخضراء تذكّرنا برجوع الأرواح إلى الأبدان فى الحشر من جهة، و من جهة اخرى تذكّرنا هذه النار بنار جهنّم.

يقول الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزاء من نار جهنّم»[۵۱۶].

أمّا تعبير مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ فإنّه إشارة قصيرة و معبّرة للفوائد الدنيوية لهذه النار، و قد ورد تفسيران لمعنى المقوين:

الأوّل: أنّ (مقوين) من مادّة (قواء) على وزن (كتاب) بمعنى الصحراء اليابسة المقفرة، و لهذا أطلقت كلمة (المقوين) على الأشخاص الذين يسيرون فى الصحارى، و لأنّ أفراد البادية فقراء، لذا فقد جاء هذا التعبير بمعنى «الفقير» أيضا.

و التّفسير الثانى: أنّ (مقوين) من مادّة (قوّة) بمعنى أصحاب القوّة، و بناء على هذا فإنّ المصطلح المذكور هو من الكلمات التى تستعمل بمعنيين متضادّين ۵۱۷].

صحيح أنّ النار هى مورد استفادة الجميع- و لكن المسافرين يستفيدون منها و يعتمدون عليها فى الدفء و الطهى و خاصّة فى أسفارهم فى الأزمنة القديمة أكثر من الآخرين.

و استفادة «الأقوياء» من النار واضحة أيضا، و ذلك لاتّساع المجالات التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۱

يستعلمون النار فيها فى امور حياتهم المختلفة، خصوصا مع اتّساع دائرة البحث العلمى كما فى عالمنا المعاصر، حيث إنّ الحرارة الناشئة من أنواع النار تحرّك عجلة المصانع العظيمة، و إذا ما تعطّلت هذه الوسيلة المهمّة و انطفأت شعلتها العظيمة- و التى جميعها من الشجر- بما فى ذلك النار المأخوذة من الفحم الحجرى أو المواد النفطية حيث ترجع إلى النباتات بصورة مباشرة أو غير مباشرة- فإنّها ستتعطّل الحياة المدنية، بل و ستنطفئ حياة الإنسان أيضا.

و بدون شكّ فإنّ النار من أهمّ كتشافات البشر، فى حين أنّ اللّه تعالى هو الذى أوجدها و دور الإنسان فيها بسيط و عادى جدّا.

لقد قفز اكتشاف النار بالإنسانية مرحلة مهمّة حيث بدأت تسير من ذلك الوقت فى مراحل جديدة من التمدّن و الرقى.

نعم هذه الحقائق جميعا عبّر عنها القرآن الكريم بجملة قصيرة: نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ

و ممّا يجدر ذكره أنّ الآية أعلاه استعرضت فى البداية الفوائد المعنوية للنار، و التى تذكّرنا بيوم القيامة، و التى هى محور الحديث فى هذا البحث، ثمّ انتقلت إلى ذكر تفاصيل الفوائد الدنيوية لها، لأنّ للناحية الاولى أهميّة أكثر، بل تمثّل الأصل و الأساس فى البحث.

بعد ذكر النعم الثلاث (الحبوب الغذائية، و الماء، و النار) و التى روعى ترتيب أهميّتها وفق تسلسل طبيعى- لأنّ اهتمام الإنسان يبدأ أوّلا بالحبوب الغذائية ثمّ يمزجها بالماء و من ثمّ يطهوها و يهيّؤها للغذاء بواسطة النار- يستنتج سبحانه نتيجة مهمّة بعد ما ركّز على

أهمیّة هذه النعم للإنسان و ذلک بتسبیحه و الشکر له تعالی باعتباره المصدر الوحید لهذه النعم .. فیقول سبحانه فی آخر آیة مورد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۲

البحث: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ ۵۱۸].

نعم، إنّ اللّه الذی خلق کلّ هذه النعم، و التی کلّ منها تذکّرنا بقدرته و توحیده و عظمته و معاده، لائق للتسبیح و التنزیه من کلّ عیب و نقص.

إنّه ربّ، و کذلک فإنّه «عظیم» و قادر و مقتدر، و بالرغم من أنّ المخاطب فی هذه الآیة هو الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا أنّ من الواضح أنّ جمیع البشر هم المقصودون.

تعقیب

من المناسب هنا الإشارة إلی بعض الأحادیث الشریفة- حول الآیات أعلاه- عن الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کذلک عن الإمام علی علیه السّلام.

أوّلا: نقرأ

فی تفسیر روح المعانی حدیثا للإمام علی علیه السّلام أنّه فی إحدی اللیالی کان الإمام یصلّی و یقرأ سورة الواقعة- و لمّا وصل إلی الآیة: أَ فَرَأَیْتُمْ ما تُمْنُونَ أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ قال ثلاث مرّات: بعد انتهاء صلاته «بل أنت یا ربّ» و عند ما وصل إلی الآیة: أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ قال ثلاث مرّات «بل أنت یا ربّ» و عند ما وصل إلی قوله تعالی: أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ قال ثلاث مرّات أیضا «بل أنت یا ربّ» ثمّ تلا قوله تعالی: أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ قل ثلاث مرّات «بل أنت یا ربّ»[۵۱۹].

و موضع العبرة فی هذا الحدیث هی ضرورة ملاحظة هذه الآیات التی وردت فی القرآن الکریم بعنوان استفهام تقریری و أن یعطی الإنسان جوابا إیجابیا للّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۳

سبحانه الذی یتحدّث معه لترکیز هذه الحقائق فی روحه و نفسه، و علیه أن یتعمّق فی ذلک من خلال القراءة المتدبّرة الواعیة، و لا یقتنع بالتلاوة الفارغة.

ثانیا: جاء

فی حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لا- تمنعوا عباد اللّه فضل ماء و لا کلأ و لا نار فإنّ اللّه تعالی جعلها متاعا للمقوین، و قوّة للمستضعفین»[۵۲۰].

ثالثا: و نقرأ

فی حدیث آخر أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال حینما نزلت الآیة الکریمة:

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ «اجعلوها فی رکوعکم»[۵۲۱]،

أی قولوا فی رکوعکم:

سبحان ربّی العظیم و بحمده.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۴

الآیات [سورة الواقعة (۵۶): الآیات ۷۵ الی ۸۲]

اشارة

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (۷۵) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (۷۶) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (۷۷) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (۷۸) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (۷۹)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۸۰) أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (۸۱) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (۸۲)

التّفسير

المطهّرون و معرفة أسرار القرآن:

استمرارا للأبحاث التى جاءت فى الآيات السابقة، و التى تركّز الحديث فيها حول الأدلّة السبعة الخاصّة بالمعاد، ينتقل الحديث الآن عن أهميّة القرآن الكريم باعتباره يشكّل مع موضوع النبوّة ركنين أساسيين بعد مسألة المبدأ و المعاد و التى بمجموعها تمثّل أهمّ الأركان العقائدية، فبالإضافة إلى أنّ للقرآن الكريم أبحاثا عميقة حول أصلى التوحيد و المعاد، فإنّه يعتبر تحكيما لهذين الأصلين.

يبدأ الحديث بقسم عظيم، حيث يقول سبحانه: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ

يعتقد الكثير من المفسّرين أن (لا) التى جاءت هنا ليست بمعنى النفى حيث إنّها زائدة و للتأكيد، كما جاء نفس هذا التعبير فى الآيات القرآنية الاخرى حول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۵

القسم بيوم القيامة و النفس اللوامة و ربّ المشارق و المغارب و الشفق، و ما إلى ذلك.

فى الوقت الذى اعتبر البعض الآخر أنّ (لا) هنا جاءت للنفى، حيث قالوا: إنّ المطلب (مورد القسم) أهمّ من أن يقسم به، كما نقول فى تعبيراتنا اليوميّة: نحن لا نقسم بالموضوع الفلانى، أى نفى القسم و أنّ (لا) هنا جاءت إشارة لذلك.

إلّا أنّ التفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، لأنّه قد ورد فى القرآن الكريم القسم باللّه صراحة، فهل أنّ النجوم أفضل من الذات الإلهيّة حتّى لا يقسم بها؟

و حول (مواقع النجوم) فقد ذكر المفّسرون تفسيرات عديدة لها:

الأوّل: هو المعنى المتعارف عليه من حيث مداراتها و أبراجها و مسيرها.

و الآخر: هو أنّ المقصود بذلك مواقع طلوعها و غروبها.

و الثّالث: هو سقوط النجوم فى الحشر و القيامة.

و فسّرها آخرون: بأنّ معناه هو غروب النجوم فقط.

و اعتبرها آخرون إشارة و انسجاما مع قسم من الرّوايات حول نزول آيات و سور القرآن الكريم فى فواصل زمنية مختلفة، و ذلك لأنّ «النجوم» جمع نجمة تستعمل للأعمال التى تنجز بصورة تدريجيّة.

و بالرغم من أنّ المعانى لا تتنافى حيث يمكن جمعها فى الآية أعلاه، إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، و ذلك لأنّ أكثر الناس كانوا لا يعلمون أهميّة هذا القسم عند نزول الآيات، بعكس الحالة اليوم، و التى توضّح لنا أنّ لكلّ نجمة من النجوم مكانها المخصّص و مدارها و مسارها المحدّد لها بدقّة و حساب، و ذلك طبقا لقانون الجاذبية، و إنّ سرعة السير لكلّ منها محدّدة أيضا وفق قانون معيّن و ثابت.

و هذه المسألة بالرغم من أنّها غير قابلة للحساب بصورة دقيقة فى الأجرام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۶

السماویة البعیدة، إلّا أنّ المجامیع الموجودة فی المنظومة الشمسیة التی تشکّل النجوم القریبة لنا، قد درست بدقّة و تبیّن أنّ نظام مداراتها دقیق إلی حدّ مدهش.

و عند ما یلاحظ الإنسان- طبقا لتصریحات العلماء- أنّ فی (مجرّتنا) فقط ألف ملیون نجمة، و توجد فی الکون مجرّات کثیرة، و کلّ واحدة منها لها مسار خاصّ، عندئذ ستتوضّح لنا أهمیّة هذا القسم القرآنی.

و نقرأ فی کتاب (اللّه و العلم الحدیث) ما یلی:

«یعتقد العلماء الفلکیون أنّ هذه النجوم التی تتجاوز الملیاردات، و التی نری قسما منها بالعین المجرّدة، و القسم الکثیر منها لا یمکن رؤیته إلّا بالتلسکوبات بل إنّ قسما منها لا نستطیع مشاهدته حتّی بالتلسکوبات، اللهمّ إلّا بوسائل خاصّة نستطیع أن نصوّرها بها.

کلّ من هذه النجوم تدور فی مدارها الخاصّ، و لا یوجد أی احتمال أنّ واحدة منها تکون فی حقل الجاذبیة لنجمة اخری. أو أنّ بعضها یصطدم بالبعض الآخر، و فی الواقع أنّ حالة التصادم المفترضة مثل ما لو افترضنا أنّ سفینة فی المحیط الهادیء تصطدم مع سفینة اخری تجری فی البحر الأبیض المتوسّط و کلّ منها سائرة بموازاة الاخری و بسرعة واحدة ... إنّ هذا الأمر لو لم یکن محالا فهو بعید جدّا. کذلک الأمر بالنسبة للنجوم حیث أنّ کلا منها لها مدارها الخاصّ بها و لن تصطدم بالأخری رغم السرعة الهائلة لکلّ منها»[۵۲۲].

و بالنظر إلی هذه الاکتشافات العلمیة عن وضع النجوم، تتوضّح أهمیّة القسم أعلاه، و لهذا السبب فإنّه تعالی یضیف فی الآیة اللاحقة:

وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِیمٌ

التعبیر ب لَوْ تَعْلَمُونَ یوضّح و بشکل جلیّ أنّ معرفة البشر فی ذلک الزمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۷

لم تدرک هذه الحقیقة بصورة کاملة، و هذه بحدّ ذاتها تعتبر إعجازا علمیّا للقرآن الکریم، حیث فی الوقت الذی کانت تعتبر النجوم عبارة عن مسامیر فضائیة رصّعت السماء بها فانّ مثل هذا البیان القرآنی الرائع فی ظلّ ظروف و أوضاع یخیّم علیها الجهل، محال أن یصدر من بشر عادی.

و توضّح الآیة اللاحقة ما هو المقصود من ذکر هذا القسم؟ حیث یقول سبحانه: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ

و بهذه الصورة فإنّه یردّ علی المشرکین المعاندین الذین یصرّون باستمرار علی أنّ هذه الآیات المبارکة هی نوع من التکهّن- و العیاذ باللّه- أو أنّه حدیث جنونی أو شعر، أو أنّه من قبل الشیطان .. فیردّ علیهم سبحانه بأنّه وحی سماوی و حدیث بیّن و عظمته و أصالته لا غبار علیها، و محتواه یعبّر عن مبدأ نزوله، و أنّ هذا الموضوع واضح بحیث لا یحتاج لبیان المزید.

إنّ وصف القرآن ب «الکریم» (بما أنّ الکرم بالنسبة للّه هو: الإحسان و الإنعام، و یستعمل للبشر بمعنی اتّصاف الشخص بالأخلاق و الإحسان، و بصورة عامّة فهو إشارة إلی المحاسن العظیمة)[۵۲۳] إشارة للجمال الظاهری للقرآن من حیث الفصاحة و بلاغة الألفاظ و الجمل، و کذلک فإنّها إشارة لمحتواه الرائع، لأنّه نزل من قبل مبدأ و منشأ کلّه کمال و جمال و لطف.

نعم، إنّ القرآن کریم و قائله کریم و من جاء به کذلک، و أهدافه کریمة أیضا.

ثمّ یستعرض الوصف الثانی لهذا الکتاب السماوی العظیم حیث یقول تعالی:

فِی کِتابٍ مَکْنُونٍ

إنّه فی «لوح محفوظ» فی علم اللّه، محفوظ من کلّ خطأ و تغییر و تبدیل، و طبیعی أنّ الکتاب الذی یستلهم مفاهیمه و أفکاره من المبدأ الأعلی و أصله عند

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۸

اللّه، فإنّه مصون من كلّ تحريف و خطأ و اشتباه.

و فى ثالث وصف له يقول سبحانه: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۵۲۴].

ذكر الكثير من المفسّرين- تماشيا مع بعض الرّوايات الواردة عن الأئمّة المعصومين- بعدم جواز مسّ (كتابة) القرآن الكريم بدون غسل أو وضوء.

فى الوقت الذى اعتبر بعض آخر أنّها إشارة إلى الملائكة المطهّرين الذين لهم علم بالقرآن، و نزلت بالوحى على قلب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مقابل قول المشركين الذين كانوا يقولون: إنّ هذه الكلمات قد نزلت بها الشياطين على محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

كما اعتبر بعضهم أنّها إشارة إلى أنّ الحقائق و المفاهيم العالية فى القرآن الكريم لا يدركها إلّا المطهّرون، كما فى قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [۵۲۵] و بتعبير آخر فإنّ طهارة الروح فى طلب الحقيقة تمثّل حدّا أدنى من مستلزمات إدراك الإنسان لحقائق القرآن، و كلّما كانت الطهارة و القداسة أكثر كان الإدراك لمفاهيم القرآن و محتوياته بصورة أفضل.

إنّ التفاسير الثلاثة المارّة الذكر لا تتنافى مع بعضها البعض أبدا و يمكن جمعها فى مفهوم الآية مورد البحث.

و فى رابع و آخر وصف للقرآن الكريم يقول تعالى: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ۵۲۶] إنّ اللّه المالك و البارئ لجميع الخلق، قد نزّل هذا القرآن لهداية البشر، و قد أنزله سبحانه على قلب النّبى الطاهر، و كما أنّ العالم التكوينى صادر منه و هو تعالى ربّ العالمين فكذلك الحال فى المجال التشريعى، فكلّ نعمة و هداية فمن ناحيته و من عطائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۹

ثمّ يضيف سبحانه: أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ هل أنتم بهذا القرآن و بتلك الأوصاف المتقدّمة تتساهلون، بل تنكرونه و تستصغرونه فى حين تشاهدون الأدلّة الصادقة و الحقّة بوضوح، و ينبغى لكم التسليم و القبول بكلام اللّه سبحانه بكلّ جديّة، و التعامل مع هذا الأمر كحقيقة لا مجال للشكّ فيها.

عبارة «هذا الحديث» فى الآية الكريمة إشارة للقرآن الكريم، و «مدهنون» فى الأصل من مادّة (دهن) بالمعنى المتعارف عليه، و لأنّ الدهن يستعمل للبشرة و امور اخرى، فإنّ كلمة (أدهان) جاءت بمعنى المداراة و المرونة، و فى بعض الأحيان بمعنى الضعف و عدم التعامل بجدية ... و لأنّ المنافقين و الكاذبين غالبا ما يتّصفون بالمداراة و المصانعة، لذا استعمل هذا المصطلح أحيانا بمعنى التكذيب و الإنكار، و يحتمل أن يكون المعنيان مقصودان فى الآية.

و الأصل فى الإنسان أن يتعامل بجديّة مع الشىء الذى يؤمن به، و إذا لم يتعامل معه بجديّة فهذا دليل على ضعف إيمانه به أو عدم تصديقه.

و فى آخر آية- مورد البحث- يقول سبحانه إنّكم بدلا من أن تشكروا اللّه تعالى على نعمه و رزقه و خاصّة نعمة القرآن الكبيرة، فانّكم تكذّبون به: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۵۲۷].

قال البعض: إنّ المقصود أنّ استفادتكم من القرآن هى تكذيبكم فقط، أو أن التكذيب تجعلونه وسيلة لرزقكم و معاشكم ۵۲۸].

إلّا أنّ التّفسير الأوّل مناسب للآيات السابقة و لسبب النّزول أكثر من التّفسيرين الأخيرين.

و انسجاما مع هذا الرأى فقد نقل كثير من المفسّرين عن ابن عبّاس قوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۰

أصاب الناس عطش فى بعض أسفاره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسقوا، فسمع رجلا يقول: مطرنا بنوء كذا، فنزلت الآية (لأنّ العرب كانوا يعتقدون فى الجاهلية بالأنواء و أنّ لها الأثر فى نزول المطر، و يقصد بها النجوم التى تظهر بين آونة و اخرى فى السماء، و أنّ ظهورها يصاحبه نزول المطر، كما يعتقدون، و لهذا يقولون: مطرنا بنوء كذا، أى ببركة طلوع النجم الفلانى، و هذا بذاته أحد مظاهر

الشرک الجاهلی و عبادة النجوم)[۵۲۹].

و النقطة الجدیرة بالملاحظة هنا أنّه جاء فی بعض الرّوایات عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه فلّما کان یفسّر الآیات، و إجمالا کان یتصدّی للتفسیر عند ما تستلزم الضرورة، کما فی هذا المورد حیث أخبر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ المقصود من وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَکُمْ أَنَّکُمْ تُکَذِّبُونَ «و تجعلون شکرکم أنّکم تکذّبون»[۵۳۰].

تعقیب

أوّلا: خصوصیة القرآن الکریم

یستنتج من الأوصاف الأربعة- التی ذکرت فی الآیات أعلاه- حول القرآن، أنّ عظمة القرآن هی فی عظمة محتواه من جهة، و عمق معناه من جهة اخری، و من جهة ثالثة فإنّ القداسة القرآنیة لا یستوعبها إلّا الطاهرون و المؤمنون، و من جهة رابعة: فی الجانب التربوی المتمیّز فیه، لأنّه نزل من ربّ العالمین، و کلّ واحدة من هذه الصفات تحتاج إلی بحث مفصّل أوضحناه فی نهایة الآیات المناسبة لکلّ موضوع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۱

ثانیا: القرآن و الطهارة

نقرأ فی القرآن الکریم قوله تعالی: لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ و قلنا: إنّ المسّ یفسّر بالمسّ الظاهری و بالمعنوی کذلک، و لا تضادّ بینهما، و هما مجموعان فی المفهوم الکلّی للآیة.

و فی القسم الأوّل نقلت روایات لأهل البیت علیهم السّلام

عن أبی الحسن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أنّه قال: (المصحف لا تمسّه علی غیر طهر، و لا جنب و لا تمسّ خطّه و لا تعلّقه، إنّ اللّه تعالی یقول: لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۵۳۱].

و نقل نفس المعنی فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام مع اختلاف مختصر[۵۳۲].

و جاء فی مصادر أهل البیت علیهم السّلام من طرق مختلفة

أنّ الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «لا یمسّ القرآن إلّا الطاهر»[۵۳۳].

و حول اللمس المعنوی

نقل عن ابن عبّاس عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّه لقرآن کریم فی کتاب مکنون» قال: «عند اللّه فی صحف مطهّرة» لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال: «المقرّبون»[۵۳۴].

و هذا المعنی یمکن الاستدلال علیه بواسطة العقل أیضا، لأنّه رغم، أنّ القرآن الکریم هو کتاب هدایة لعموم الناس، و لکنّنا نعلم أنّ الکثیر ممّن سمعوا القرآن من فم النّبی الأکرم، و رأوا هذا الماء الزلال فی عین الوحی الصافیة، إلّا أنّهم بسبب تلوّثهم بالعصبیة و العناد و الغرور لم یؤثّر فیهم أی تأثیر و لم ینتفعوا به أقلّ انتفاع، و هناک أشخاص اهتدوا به لمجرّد أنّهم سعوا و لو قلیلا لتطهیر أنفسهم و تهذیبها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۲

و جاءوا إلى القرآن بروح باحثة عن الحقّ و الحقيقة، فعلى هذا كلّما ازدادت طهارة و تقوى الإنسان فإنّه مرشّح لاستيعاب المفاهيم القرآنية بصورة أعمق، و من هنا فإنّ الآية تصدق فى البعدين (المادّى و المعنوى) و (الجسمى و الروحى).

و ممّا لا شكّ فيه أنّ شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام و الملائكة المقرّبين هم أوضح مصداق للمقرّبين الذين أدركوا حقائق القرآن الكريم بصورة متميّزة عن الجميع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۳

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۸۳ الى ۸۷]

اشارة

فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (۸۳) وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (۸۴) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ (۸۵) فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (۸۶) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۸۷)

التّفسير

عند ما تصل الروح إلى الحلقوم:

من اللحظات الحسّاسة التى تقلق الإنسان دائما هى لحظة الاحتضار و نهاية العمر، فى تلك اللحظة يكون كلّ شىء قد انتهى، و قد جلس أهله و أحبّاؤه ينظرون إليه بيأس كشمعة قد انتهى أمدها و ستنطفئ رويدا رويدا، حيث يودّع الحياة دون أن يستطيع أحد أن يمدّ إليه يد العون.

نعم، إنّ الضعف التامّ للإنسان يتجسّد فى تلك اللحظات الحسّاسة ليس فى العصور القديمة فحسب بل حتّى فى عالمنا المعاصر، فمع توفّر جميع الإمكانات الطبيّة و الفنيّة و الوسائل العلاجية فإنّ الضعف يتجلّى فى ساعة الاحتضار.

و تكملة لأبحاث المعاد و الردّ على المنكرين و المكذّبين فإنّ القرآن الكريم يرسم لنا صورة معبّرة و مجسّدة لهذه اللحظات حيث يقول سبحانه: فَلَوْ لا إِذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۴

بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ و لا تستطيعون عمل شىء من أجله [۵۳۵].

و المخاطبون هنا هم أقارب المحتضر الذين ينظرون إلى حالته فى ساعة الاحتضار من جهة، و يلاحظون ضعفه و عجزه من جهة ثانية، و تتجلّى لهم قدرة اللّه تعالى على كلّ شىء، حيث أنّ الموت و الحياة بيده، و أنّهم- أى أقاربه- سيلاقون نفس المصير[۵۳۶].

ثمّ يضيف سبحانه وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ

نعم، نحن الذين نعلم بصورة جيّدة ما الذى يجول فى خواطر المحتضر؟ و ما هى الإزعاجات التى تعتريه؟ نحن الذين أصدرنا أمرنا بقبض روحه فى وقت معيّن، إنّكم تلاحظون ظاهر حاله فقط، و لا تعلمون كيفية انتقال روحه من هذه الدار إلى الدار الآخرة، و طبيعة المخاضات الصعبة التى يعيشها فى هذه اللحظة.

و بناء على هذا فالمقصود من الآية هو: قرب اللّه عزّ و جلّ من الشخص المحتضر، بالرغم من أنّ البعض احتمل المقصود بالقرب (ملائكة قبض الروح) إلّا أنّ التّفسير الأوّل منسجم مع ظاهر الآية أكثر.

و على كلّ حال فإنّ اللّه سبحانه ليس فى هذه اللحظات أقرب إلينا من كلّ أحد، بل هو فى كلّ وقت كذلك، بل هو أقرب إلينا حتّى

من أنفسنا، بالرغم من أنّنا بعيدون عنه نتيجة غفلتنا و عدم و عينا، و لكن هذا المعنى فى لحظة الاحتضار يتجلّى أكثر من أى وقت آخر.

ثمّ للتأكيد الأشدّ فى توضيح هذه الحقيقة يضيف تعالى: فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۵

إنّ ضعفكم هذا دليل أيضا على أنّ مالك الموت و الحياة واحد، و أنّ الجزاء بيده، و هو الذى يحى و يميت.

«مدينين»: جمع (مدين) من مادّة (دين) بمعنى الجزاء، و فسّرها البعض بمعنى المربوبين. و المعنى هو: يا أيّها العباد، إن كنتم تحت ربوبية موجود آخر، و مالكى نواصى أموركم، فارجعوا أرواحكم التى قبضناها، و هيهات تقدرون! و هذا دليل آخر على أنّكم فى قبضة الحكومة الإلهية.

تعقيب

۱- لحظة ضعف الجبّارين

إنّ الهدف من هذه الآيات- فى الحقيقة- هو بيان قدرة اللّه عزّ و جلّ على مسألة الموت و الحياة، كى ينتقل منها إلى مسألة المعاد و إختيار لحظات الاحتضار و الموت هنا لظهور غاية الضعف الإنسانى بالرغم من كلّ القوّة التى يتصوّرها لنفسه.

و من المفيد أن نستعرض بعض حالات الجبّارين لحظة احتضارهم بالرغم من أنّهم كانوا فى أوج القدرة حتّى يتّضح المعنى العميق لهذه الآية بصورة أفضل.

حكى المسعودى فى مروج الذهب فى أخبار المأمون و غزاته أرض الروم ما هذا ملخّصه: و انصرف من غزاته إلى منزل على (عين البديدون) المعروفة بالقشيرة فأقام هنالك، فوقف على العين فأعجبه برد مائها و صفاؤه و بياضه و طيب حسن الموضع، و كثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طويل منبسط على العين كالجسر، و جعل فوقه كالأزج من الخشب و ورق الشجر، و جلس تحت الكنسية التى عقدت له، و الماء تحته، و طرح فى الماء درهم صحيح، فقرأ كتابته و هو فى قرار الماء لصفاء الماء، و لم يقدر أحد أن يدخل يده من شدّة برده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۵۰۶

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۶

فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنّها سبيكة فضّة، فجعل لمن يخرجها سيفا فبدر بعض الفراشين فأخذها و صعد فلمّا صارت على حرف العين أو على الخشب الذى عليه المأمون اضطربت و انفلتت من يد الفراش فوقعت فى الماء كالحجر، فنضح من الماء على صدر المأمون و نحره و ترقوته فبلّت ثوبه، ثمّ انحدر الفرّاش ثانية فأخذها و وضعها بين يدى المأمون فى منديل تضطرب، فقال المأمون: تقلى الساعة ثمّ أخذته رعدة من ساعته، فلم يقدر يتحرّك من مكانه، فغطّى باللحف و الدواويج و هو يرتعد كالسعفة و يصيح: البرد البرد، ثمّ حوّل إلى المغرب و دثّر و أوقدت النيران حوله و هو يصيح: البرد البرد، ثمّ أتى بالسمكة و قد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها و شغله ما هو فيه عن تناول شىء منها.

و لمّا اشتدّ به الأمر سأل المعتصم بختيشوع و ابن ماسوية فى ذلك الوقت عن المأمون و هو فى سكرات الموت، و ما الذى يدلّ عليه علم الطبّ من أمره، و هل يمكن برؤه و شفاؤه، فتقدّم ابن ماسوية و أخذ إحدى يديه و بختيشوع الاخرى، و أخذا يجسّان كلتا يديه

فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء و الانحلال، و التزقت أیدیهما ببشرته لعرق کان یظهر منه من سائر جسده کالزیت أو کلعاب بعض الأفاعی، فأخبر المعتصم بذلک، فسألهما عن ذلک فأنکرا معرفته، و أنّهما لم یجداه فی شیء من الکتب و أنّه دالّ علی انحلال الجسد، فأحضر المعتصم الأطباء حوله و هو یأمل خلاصة ممّا هو فیه، فلمّا ثقل قال: أخرجونی أشرف علی عسکری و أنظر إلی رحالی و أتبیّن ملکی، و ذلک فی اللیل، فاخرج فأشرف علی الخیم و الجیش و انتشاره و کثرته و ما قد وقد من النیران، فقال: یا من لا یزول ملکه، ارحم من زال ملکه، ثمّ ردّ إلی مرقده و أجلس المعتصم رجلا یشهده.

و لمّا ثقل رفع الرجل صوته لیقولها (أی الشهادة) فقال له ابن ماسویة: لا تصحّ فو اللّه ما یفرّق بین ربّه و بین ما نی فی هذا الوقت، ففتح عینیه من ساعته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۷

و بهما من العظمة و الکبر و الاحمرار ما لم یر مثله قطّ. و أقبل یحاول البطش بیدیه بابن ماسویه، و رام مخاطبته فعجز عن ذلک، و قضی عن ساعته و ذلک لثلاث عشرة لیلة بقیت من رجب سنة ثمان عشرة و مائتین و حمل إلی طرطوس فدفن بها[۵۳۷].

و یحتمل أن یکون لمرضه سابقة، و یقول بعض المؤرخّین: إنّ کلّ شخص شرب من ماء تلک العین مرض، أو أنّ السمکة کانت تحتوی علی رشح سامّ، و کیفما کان فإنّ الحکومة بتلک العظمة قد انهارت فی بعض لحظات، و انحنی بطل میادین الحرب أمام شراع الموت، و لم تکن القدرة لأی شخص أن یصنع شیئا للمأمون، أو علی الأقل لیوصله إلی مقرّه و مسکنه.

و للتاریخ خواطر و قصص کثیرة فیها دروس و عبر من هذا القبیل.

ثانیا: هل أنّ قبض الروح یکون تدریجیّا؟

إنّ التعبیر بوصول الروح إلی الحلقوم کما فی قوله تعالی: فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ کنایة عن آخر لحظات الحیاة، کما أنّه من المحتمل أن یکون منشؤها هو أنّ غالبیة أعضاء جسم الإنسان کالأیدی و الأرجل تتعطّل عند الموت قبل بعض الأعضاء الاخری، و الحلقوم هو العضو الأخیر الذی یتوقّف عن العمل. قال تعالی:

کَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِیَ [۵۳۸] (و الترقوة) هی العظام التی تحیط بأطراف الحلق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۸

الآیات [سورة الواقعة (۵۶): الآیات ۸۸ الی ۹۶]

اشارة

فَأَمَّا إِنْ کانَ مِنَ الْمُقَرَّبِینَ (۸۸) فَرَوْحٌ وَ رَیْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِیمٍ (۸۹) وَ أَمَّا إِنْ کانَ مِنْ أَصْحابِ الْیَمِینِ (۹۰) فَسَلامٌ لَکَ مِنْ أَصْحابِ الْیَمِینِ (۹۱) وَ أَمَّا إِنْ کانَ مِنَ الْمُکَذِّبِینَ الضَّالِّینَ (۹۲)

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِیمٍ (۹۳) وَ تَصْلِیَةُ جَحِیمٍ (۹۴) إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْیَقِینِ (۹۵) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ (۹۶)

التّفسیر

مصیر الصالحین و الطالحین:

هـذه الآيات فى الحقيقـة نوع من الخلاصـة للآيات الاولى و الأخيرة من هذه السورة، كما أنّها تجسّد حالة التفاوت بين البشـر فى حالة الاحتضار، و كيف أنّ قسما منهم يلفظون أنفسهم بهدوء و راحة فى تلك اللحظات الصعبة، و آخرين تلوح لهم من بعيد النار الحامية، و يسيطر عليهم الخوف و الاضطراب و الهلع فيلفظون أنفاسهم بصعوبة بالغة.

يقول سبحانه فى البداية: فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۹

«روح»: على وزن (قول)- كما ذكر ذلك أئمّة اللغة- فى الأصل بمعنى التنفّس.

«الريحان»: بمعنى النبات أو الشـىء ذى العطر، ثمّ اصطلح على كلّ شىء باعث للحياة و الراحة، كما أنّ الريحان يطلق على كلّ نعمة و رزق كريم.

و بناء على هذا فإنّ الروح و الريحان الإلهيين يشملان كلّ وسائل الراحة و الطمأنينة للإنسان، و كلّ نعمة و بركة إلهيّة.

و بتعبير آخر: يمكن القول أنّ الروح إشارة إلى كلّ الأمور التى تخلّص الإنسان من الصعوبات ليتنفّس براحة، و أمّا الريحان فإنّه إشارة إلى الهبات و النعم التى تعود إلى الإنسان بعد إزالة العوائق.

و قد ذكر المفسّرون الإسلاميون تفاسير متعدّدة لهذين المصطلحين قد تصل إلى عشرة تفاسير:

فقالوا: «الروح» بمعنى الرحمة، و «الريحان» يشمل كلّ فضيلة و شرف.

و قالوا: إنّ الروح هى النجاة من نار جهنّم، و الريحان دخول الجنّة.

و ذكروا أيضا أنّ الروح بمعنى الهدوء فى القبر، و الريحان دخول الجنّة.

و فسّر آخرون الروح بمعنى كشف الكروب، و الريحان بمعنى غفران الذنوب.

و قال آخرون: الروح بمعنى النظر إلى وجه اللّه سبحانه، و الريحان الاستماع إلى كلام اللّه. و ما إلى ذلك.

و يمكن القول أنّ جميع هذه التفاسير مصاديق لهذا المفهوم الكلّى و الجامع، و الذى ذكر فى تفسير الآية أعلاه.

و الجـدير بالملاحظة أنّ الحديث عن «جنّة النعيم» جاء بعد ذكر الروح و الريحان و قد يستفاد من هذا أنّ الروح و الريحان يكون من نصيب المؤمنين فى الاحتضار و القبر و البرزخ، و أمّا الجنّة ففى الآخرة، كما نقرأ فى حـديث للإمام الصادق عليه السّـلام فى تفسيره لهذه الآية حيث قال: فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۰

وَ رَيْحانٌ يعنى فى قبره (و جنّة نعيم) يعنى فى الآخرة[۵۳۹][۵۴۰].

ثمّ يضـيف سـبحانه: وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْـحابِ الْيَمِينِ و هم تلك الثلّة الصالحة من الرجال و النساء الذين يسـتلمون صـحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى كعلامة للفوز و النصر و النجاح فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ

و بهـذا الـترتيب فـإنّ ملائكـة اللّه المختصّـين بقبض الروح فى لحظـات الانتقـال من هـذه الـدنيا يوصـلون سـلام أصـحاب اليمين إلى المحتضر. كما قال تعالى فى وصف أهل الجنّة و كلامهم: إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً[۵۴۱].

و يوجـد احتمـال آخر أيضـا فى تفسير هـذه الآيـة و هو أنّ السـلام يكون من قبـل الملائكـة حين يقولون له: سـلام عليـك أيّها العبد الصالح، يا من هو من أصحاب اليمين، أى يكفيك من الافتخار و الوصف أن تكون فى صفّ هؤلاء[۵۴۲].

و تبيّن بعض الآيات القرآنية الاخرى أيضا أنّ المؤمنين و هم فى حالة الاحتضار يتلقّون سـلاما من الملائكة كما فى قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۵۴۳].

و على كلّ حال فإنّ تعبير (سـلام) تعبير ذو معنى، سواء كان من الملائكة أو من أصـحاب اليمين، فالسلام يعبّر عن الروح و الريحان و كلّ أنواع الهدوء و النعمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۱

و السلامة[۵۴۴].

و ینبغی الانتباه إلی أنّ التعبیر ب «أصحاب الیمین» سببه أنّ الإنسان فی الغالب یتصدّی لإنجاز أعماله الأساسیة و المهمّة بیده الیمنی، لذلک فإنّ الید الیمنی دلالة القدرة، و المهارة و القابلیة و النجاح.

و نقرأ

فی حدیث للإمام الباقر علیه السّلام فی تعقیبه علی نهایة هذه الآیة أنّه قال: «هم شیعتنا و محبّونا»[۵۴۵].

ثمّ تستعرض الآیات الکریمة القسم الثالث الذین مرّ ذکرهم فی أوائل هذه السورة عبر التصنیف الذی ذکر و اصطلح علیهم ب (أصحاب الشمال) حیث یقول تعالی: وَ أَمَّا إِنْ کانَ مِنَ الْمُکَذِّبِینَ الضَّالِّینَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِیمٍ وَ تَصْلِیَةُ جَحِیمٍ ۵۴۶].

نعم، إنّهم علی مشارف الموت حیث یذوقون أوّل عذاب إلهی، و یتجرّعون مرارة عقاب یوم القیامة فی القبر و البرزخ، و لأنّ الحدیث عن حال المحتضر فإنّ جملة فَنُزُلٌ مِنْ حَمِیمٍ من الأنسب أن یکون المراد منها هو عذاب البرزخ، وَ تَصْلِیَةُ جَحِیمٍ إشارة إلی عذاب یوم القیامة.

و نقل فی هذا المعنی روایات عدیدة لأئمّة أهل البیت علیهم السّلام ۵۴۷].

و النقطة الجدیدة بالذکر هنا أنّ کلمة (المکذّبین الضالّین) ذکرت الواحدة تلو الاخری، حیث أنّ الاولی تشیر إلی تکذیب القیامة و وحدانیة اللّه سبحانه و نبوّة الرّسول، و الثانیة تشیر إلی الأشخاص الذین انحرفوا عن طریق الحقّ.

و هذا التعبیر بالإضافة إلی أنّه یؤدّی معنی التأکید، فإنّه یمکن أن یکون إشارة إلی أنّ قسما من الأشخاص الضالّین من فصیلة الأفراد المستضعفین أو الجهلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۲

القاصرین الذین لیس لدیهم إصرار و عناد علی الباطل، یمکن أن تشملهم الألطاف الإلهیّة. أمّا المکذّبون المعاندون فإنّهم سیبتلون بالمصیر البائس و العاقبة السیّئة التی تقدّم ذکرها.

«حمیم»: بمعنی الماء الحارق أو الریاح الحارة و السموم. و (تصلیة) مأخوذة من مادّة (صلی) علی وزن (سعی) بمعنی الاحتراق و الدخول فی النار.

أمّا (تصلیة) المتعدیة فتأتی بمعنی الإحراق فقط.

و فی نهایة هذا الحدیث یضیف سبحانه: إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْیَقِینِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ

و المعروف بین المفسّرین أنّ «حقّ الیقین» من قبیل الإضافة البیانیة، یعنی أنّ الذی تقدّم ذکره حول الأقسام الثلاثة و هم (المقرّبون و أصحاب الیمین و المکذّبون) فهو عین الحقیقة و الحقّ و الیقین.

و هنا یوجد احتمال أیضا و هو: بما أنّ للیقین درجات متعدّدة، فإنّ أعلی مرحلة له هی (حقّ الیقین) أی یقین واقعی کامل و خال من کلّ شکّ و شبهة و ریب ۵۴۸].

و ممّا قلنا یتّضح أنّ (هذا) فی هذه الآیة إشارة إلی أحوال الأقسام الثلاثة الآنفة الذکر، کما احتمل البعض أیضا أنّها إشارة إلی کلّ محتویات سورة الواقعة أو القرآن أجمع، إلّا أنّ التّفسیر الأوّل هو الأنسب.

و هنا نقطة جدیرة بالذکر أیضا و هی أنّ التعبیر ب (فسبّح)- الفاء تفریعیّة- هو إشارة إلی أنّ ما قیل حول الأقسام الثلاثة هو عین العدالة، و بناء علی هذا اعتبر (ربّک) منزّها من کلّ ظلم، و إذا ما أرید الابتعاد عن مصیر أصحاب الشمال فعلینا أن نتنزّه من کلّ شرک و ظلم المتلازمان مع إنکار القیامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۳

و نقل كثیر من المفسّرین حول نهایة آخر الآیة بعد ما نزلت علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

أنّه قال: «اجعلوها فی ركوعكم»

(أی قولوا: سبحان ربّی العظیم) و عند ما نزلت: سبّح اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَی

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «اجعلوها فی سجودكم»،

أی قولوا:

سبحان ربّی الأعلی ۵۴۹].

و فی تفسیر الآیة ۷۴ من نفس السورة نقلنا ما هو شبیه بهذه الرّوایة عن بعض المفسّرین.

تعقیب

عالم البرزخ:

أشارت الآیات أعلاه إلی عالم البرزخ، و قد بیّنا عند تفسیرها أنّ الإنسان- فی حالة احتضاره و هو علی مشارف الموت یتهیّأ للانتقال من دار الدنیا إلی عالم الآخرة- سیواجه واحدة من هذه الحالات، أمّا النعم و الهبات الإلهیّة و الجزاء الربّانی بالروح و الریحان، أو العقاب و الجزاء المؤلم، و العاقبة البائسة.

كما أنّ القرائن الموجودة فی الآیات ترینا أنّ قسما ممّا یثاب به أو یعاقب علیه مرتبط بیوم القیامة، و القسم الآخر مرتبط بالقبر و البرزخ، و یعدّ هذا دلیلا علی وجود عالم البرزخ.

و

فی حدیث لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقرأ ما یلی: «إنّ أوّل ما یبشّر به المؤمن عند الوفاة بروح و ریحان و جنّة نعیم، و إنّ أوّل ما یبشّر به المؤمن فی قبره أن یقال له:

أبشر برضا اللّه تعالی و الجنّة قدمت خیر مقدم، و قد غفر اللّه لمن یشیّعك إلی قبرك،

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۴

و صدّق من شهد لك، و استجاب لمن استغفر لك»[۵۵۰].

و

فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین أنّه قال: «إنّ ابن آدم إذا كان فی آخر یوم من أیّام الدنیا و أوّل یوم من أیّام الآخرة، مثل له ماله و ولده و عمله فیلتفت إلی عمله فیقول: و اللّه إنّی كنت فیك لزاهد، و إن كنت علیّ لثقیلا، فما ذا عندك؟ فیقول:

أنا قرینك فی قبرك، و یوم نشرك حتّی أعرض أنا و أنت علی ربّك، قال: فإنّ كان للّه ولیّا أتاه أطیب الناس ریحا، و أحسنهم منظرا، و أحسنهم ریاشا، فیقول: أبشر بروح و ریحان، و جنّة نعیم، و مقدمك خیر مقدم، فیقول له: من أنت؟ فیقول: أنا عملك الصالح، ارتحل من الدنیا إلی الجنّة»[۵۵۱].

و قد سبق لنا بحث مفصّل حول عالم البرزخ فی نهایة الآیة (۱۰۰) من سورة (المؤمنون).

اللهمّ، اجعلنا فی صفّ المقرّبین و أصحاب الیمین، و خاصّة أولیائك و أحبّتك، و اشملنا بروح و ریحان و جنّة نعیم عند مشارف الموت.

اللهمّ، إنّ عذاب الحشر عذاب أليم لا يطيقه أحد، و ثوابك الاخروى عظيم لا يستوجبه أى شخص بأعماله، و إنّ رأسمالنا فى ذلك اليوم هو لطفك و كرمك يا كريم.

إلهى، أيقظنا قبل وصول القيامة الكبرى و القيامة الصغرى- و الذى هو الموت- لنعدّ أنفسنا للسفر العظيم الذى يواجهنا ..

آمين يا ربّ العالمين.

نهاية سورة الواقعة

---

[۱] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۱۷۱.

[۲] (۲)- تفسير فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۵۴۷.

[۳] (۳)- تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۴۰.

[۴] (۱)- و تقدير الكلام هكذا« ق» و القرآن المجيد إنّك لرسول اللّه» أو .. لتبعثنّ أو أنّ البعث حقّ إلخ.

[۵] (۲)- سورة ابراهيم، ۱۰.

[۶] (۳)- سورة المؤمنون، ۳۳.

[۷] (۴)- سورة الفرقان، ۷.

[۸] (۱)- جواب إذا محذوف و يعرف من الجملة التالية و تقديرها:« إذا متنا و كنّا ترابا نرجع و نردّ أحياء ذلك رجع بعيد».

[۹] (۱)- كنّا قد بحثنا فوائد إيجاد الجبال و اتّساع الأرض و بسطها و زوجية النباتات بحثا مفصّلا فى سورة الرعد ذيل الآية(۳).

[۱۰] (۲)- يمكن أن تكون تبصرة مفعولا لأجله كما يمكن أن تكون مفعولا مطلقا .. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب، و مثل هذا يقع الكلام على كلمة« ذكرى».

[۱۱] (۱)- بحثنا هذا الموضوع فى آيات اخرى أيضا فراجع ذيل الآية(۹) من سورة فاطر و ذيل الآيات الأخيرة من سورة(يس).

[۱۲] (۱)- لمزيد الإيضاح يراجع ذيل الآيات(۷۸) من سورة الحجر و(۱۷۶) من سورة الشعراء.

[۱۳] (۱)- لمزيد الإيضاح يراجع ذيل الآية(۳۷) من سورة الدخان.

[۱۴] (۲)- فى الجملة الآنفة إيجاز حذف و تقدير الكلام فى تماميته أن يقال« أ فعيينا بالخلق الأوّل حتّى نعجز عن الثانى».

[۱۵] (۱)- سورة الأنفال، ۲۴.

[۱۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۰۸.

[۱۷] (۱)- كلمة إذ فى جملة(إذ يتلقّى المتلقّيان) ظرف متعلّق بمحذوف و تقديره و اذكروا إذ يتلقّى المتلقّيان و لهذا المعنى ذهب إليه جماعة من المفسّرين، إلّا أنّ جماعة اخرى يرون بأنّ إذ متعلّقة بكلمة أقرب الواردة فى الآية الآنفة إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أصحّ لأنّ كلّا من الجملتين« و نحن أقرب إليه من حبل الوريد» و« إذ يتلقّى المتلقّيان» إلخ تحتفظ باستقلالها دون أن يتقيّد كلّ بالأخرى و لا يتناسب الصدر و الذيل فى التّفسير الثانى.

[۱۸] (۲)- كلمة قعيد مفردة مع أنّ كلمة المتلقّيان تثنية لأنّ فى الآية حذفا و تقديرها إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين قعيد و عن الشمال قعيد» و قد وقع هذا الحذف بقرينة ذكر الآخر.

[۱۹] (۱)- المصدر السابق.

[۲۰] (۲)- روح المعانی، ج ۲۶، ص ۱۶۵ ذیل الآیات محل البحث، و هذا المضمون نفسه منقول عن الإمام الصادق فی کتاب الکافی و کذلک بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۱۸۷ فی الرّوایتین ۳۴ و ۳۵».

[۲۱] (۳)- الضمیر فی لدیه یرجع إلی کلمة قول کما یحتمل أن یکون عائدا علی الذی یلفظ القول، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

[۲۲] (۱)- اصول الکافی طبقا لما نقل فی نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۱۰.

[۲۳] (۱)- السّکر- علی زنة المکر- معناه فی الأصل سدّ طریق الماء، و السکر- علی زنة الفکر- معناه المحلّ المسدود، و حیث أنّ حالة الثمل تقع حاجزا و سدّا بین الإنسان و عقله فقد سمّیت بالسکر علی زنة الشکر.

[۲۴] (۲)- روح المعانی، ج ۹، ص ۱۱۸

[۲۵] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۹.

[۲۶] (۴)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۰.

[۲۷] (۱)- کلمة تحید مشتقّة من مادّة حید- علی وزن صید- و معناها العدول عن الشیء و الفرار منه.

[۲۸] (۱)- نهج البلاغة- الکلمات القصار- الکلمة ۱۴۷.

[۲۹] (۱)- فی المراد من الباء فی کلمة بالحقّ هناک احتمالات عدیدة، فمنهم قال معناه التعدیة و الحقّ معناه الموت، و یکون معنی الجملة إنّ سکرات الموت لها واقعیة أی أنّ السکرات تصحب معها الموت، و قیل أنّ الباء للملابسة، أی أنّ سکرات الموت تأتی مع الحقّ.

[۳۰] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۵۵[و یظهر أنّ المراد من الإمام محمّد بن علی هو الإمام التاسع محمّد الجواد علیه السّلام .

[۳۱] (۱)- معانی الأخبار ص ۲۸۹ باب معنی الموت الحدیث ۳.

[۳۲] (۲)- المصدر السابق.

[۳۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۵۶.

[۳۴] (۲)- المصدر نفسه مع شیء من التلخیص: نقرأ فی سورة مریم الآیة ۱۵ فی شأن یحیی\:i وَ سَلامٌ عَلَیْهِ یَوْمَ وُلِدَ وَ یَوْمَ یَمُوتُ وَ یَوْمَ یُبْعَثُ حَیًّا\E کما نقرأ فی شأن عیسی بن مریم فی السورة ذاتها\i وَ السَّلامُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیًّا\E.

[۳۵] (۱)- التغابن، الآیة ۱۵.

[۳۶] (۲)- سورة ق، الآیة ۱۹.

[۳۷] (۳)- تفسیر روح البیان، ج ۹، ص ۱۱۸.

[۳۸] (۱)- روح المعانی، ج ۲۶، ص ۱۶۸.

[۳۹] (۱)- الإسراء، الآیة ۶۳.

[۴۰] (۲)- سورة ص، الآیة ۸۵.

[۴۱] (۱)- لدی ظرف متعلق ب« یبدل» و احتمل بعض المفسرین أنه متعلق بالقول، إلا أن المعنی الأول أنسب ..

[۴۲] (۱)- بأی کلمة متعلّق لفظ« یوم»؟ هناک ثلاثة وجوه- الوجه الأوّل أنّه متعلّق بمحذوف و تقدیره اذکروا. و الوجه الثانی أنّه متعلّق بیبدّل. و الوجه الثالث أنّه متعلّق بظلّام، إلّا أنّ الأوّل أولی.

[۴۳] (۱)- یراجع ذیل الآیة ۴۴ من سورة الإسراء.

[۴۴] (۱)- غیر بعید فیها ثلاثة أوجه إعرابیة، فیحتمل أن تکون ظرفا، کما یحتمل أن تکون حالا، و یحتمل أن تکون صفة لمحذوف تقدیره إزلافا غیر بعید.

[۴۵] (۱)- لسان العرب مادّة القلب.[ق ل ب .

[۴۶] (۲)- أصول الکافی، ج ۱- کتاب العقل و الجهل، الحدیث ۱۱.

[۴۷] (۱)- سورة الفتح، الآیة ۴.

[۴۸] (۲)- سورة الرعد، الآیة ۲۸.

[۴۹] (۳)- لاحظوا أنّ الآیتین عطفت الموضوعین« بأو» و هذا یدلّ علی أنّ واحدا منهما علی الأقل ضروری للإنسان! ..

[۵۰] (۱)- راجع تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۱۰.

[۵۱] (۲)- راجع سورة الأعراف الآیة ۵۴، سورة یونس الآیة ۳، سورة هود الآیة ۷، سورة السجدة الآیة ۴، الحدید الآیة ۴، الفرقان الآیة ۵۹.

[۵۲] (۱)- مجمع البیان- ذیل الآیات محلّ البحث-.

[۵۳] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ إدبار هنا جاءت بالکسر علی زنة« إقبال» أمّا فی الآیة محلّ البحث فجاءت أدبار بفتح الهمزة علی زنة أفکار، و هی هنا جمع دبر و معناه العقب، فیکون المعنی فی أدبار السجود أی بعد کلّ سجدة، و أمّا معنی إدبار النجوم أی عند تفرّق النجوم.

[۵۴] (۲)- مجمع البیان، ذیل الآیة محلّ البحث-.

[۵۵] (۳)- المصدر آنف الذکر.

[۵۶] (۱)- راجع اصول الکافی، طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۱۷.

[۵۷] (۱)- بناء علی التّفسیر الأوّل فإنّ« یوم» مفعول استمع و بناء علی التّفسیر الثّانی فإنّ مفعول استمع محذوف و تقدیره استمع حدیث ربّک فیکون نصب کلمة یوم علی فعل مقدّر من الخروج و تقدیره یخرجون یوم ینادی المنادی من مکان قریب.

[۵۸] (۲)- یری جماعة من المفسّرین أنّ المکان القریب یحتمل أن تکون صخرة بیت المقدس- تلک الصخرة الخاصّة التی عرج منها الرّسول الأکرم علیه السّلام نحو السماء فیقف المنادی علی طرفها و یصیح أیّتها العظام البالیة و الأوصال المتقطّعة و اللحوم المتمزّقة قومی لفصل القضاء و ما أعدّ اللّه لکم من الجزاء .. لکن لا دلیل بیّن علی ذلک.

[۵۹] (۱)-« سراعا» منصوب علی أنّه حال للفاعل فی« یخرجون» المحذوف و التقدیر« یخرجون سراعا» و هو مجمع لکلمة« سریع» کما فی« کرام» جمع« کریم» و البعض یری أنّ« سراع» مصدر فی موضع الحال.

[۶۰] (۲)- کتاب الخصال: طبقا لما نقل فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۱۹.

[۶۱] (۳)- کلمة وعید أصلها وعیدی، و حذفت یاؤها و أبقیت الکسرة لتدلّ علیها و هی مفعول للفعل یخاف.

[۶۲] (۱)- القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۹۸.

[۶۳] (۱)- مجمع البیان- بدایة سورة الذاریات- و ثواب الأعمال طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۲۰.

[۶۴] (۱)- الذاریات: جمع الذاریة و معناها الریح التی تحمل معها الأشیاء و تنشرها فی الفضاء.

[۶۵] (۲)- الوقر- علی زنة الفکر- معناه ذو الوزن الثقیل کما یأتی معنی ثقل السمع و الوقار ثقل الحرکات و الحلم و الهدوء أیضا.

[۶۶] (۳)- الجاریات جمع جاریة، و معناها هنا السفن کما تأتی بمعنی الأنهار لجریانها و قد ورد قوله تعالی\:i فِیها عَیْنٌ جارِیَةٌ\E فی الآیة(۱۲) من سورة الغاشیة کما تطلق الجاریة علی الشمس لجریها فی السماء، و تطلق الجاریة أیضا علی الفتاة لأنّ نشاط الشباب یجری فی کیانها.

[۶۷] (۴)- کان یدعی بعبد اللّه، و کان من المنافقین فی زمان الإمام علی، و أشدّ أعدائه و کان یزعم أنّه من أصحابه إلّا أنّه کان یتآمر علیه.

[۶۸] (۱)- أشار إلی هذا المعنی تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۸، ص ۱۹۵.

[۶۹] (۲)- ينبغى الالتفات إلى أنّ الواو فى(و الذاريات) هى للقسم، إلّا أنّ الفاء فى الآيات التى تليها عاطفة و هى تحمل مفهوم القسم كما أنّها فى الوقت ذاته بمثابة علاقة و رباط بين الأقسام الأربعة هنا.

[۷۰] (۱)- ينبغى الالتفات إلى أنّ« ما» هنا اسم موصول، و هو اسم لأنّ و خبرها لصادق.

[۷۱] (۱)- يراجع« لسان العرب» و المفردات للراغب مادّة الحبك.

[۷۲] (۱)- هناك شرح مفصّل فى تفسير هذه الآية فراجعه فى سورة« المؤمنون».

[۷۳] (۱)- كلمة« فى» بدخولها على الجنّات واضحة المعنى، لأنّ المتّقين داخل الجنان إلّا أنّ دخولها على العيون بالعطف ليس معناه أنّ المتّقين داخل العيون بل تعنى أنّهم فى جنّات تتخلّلها العيون.

[۷۴] (۲)- المراد من« قبل ذلك» .. كما قلنا سابقا يعنى قبل يوم القيامة و الدخول إلى الجنّة أى فى عالم الدنيا، إلّا أنّ بعض المفسّرين قال بأنّ قبل ذلك يعنى قبل ورود الشرع، و هو إشارة إلى تمسكّهم بالمستقلّات العقلية حتّى قبل نزول الوحى إلّا أنّ هذا المعنى يبدو بعيدا ..

[۷۵] (۳)- أشار العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان إلى هذا الحديث ج ۹ ص ۱۵۵، كما أنّ هذا الحديث منقول فى تفسير الصافى عن الكافى بهذه الصورة: كانوا أقلّ الليالى تفوتهم لا يقومون فيها(تفسير الصافى: ذيل الآية محلّ البحث).

[۷۶] (۱)- كلمة« ما» فى قوله ما يهجعون يمكن أن تكون زائدة و للتأكيد أو موصولة أو مصدرية كما ورد ذلك فى تفسير الفخر الرازى و الميزان، و قال بعضهم بأنها زائدة أو مصدرية فحسب كما جاء فى تفسير القرطبى و روح البيان، و ما احتمله بعضهم بأنها نافية فهو بعيد.

[۷۷] (۲)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۱۱۳.

[۷۸] (۳)- مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث.

[۷۹] (۱)- مؤدّى ما ورد فى كنز العرفان، ج ۱، ص ۲۲۶.

[۸۰] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۷۲ باب ما تجب فيه الزكاة الباب السابع الحديث الثانى.

[۸۱] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۲۷ أبواب ما تجب فيه الزكاة الباب السابع الحديث ۳.

[۸۲] (۳)- سورة البقرة، الآية ۲۷۳.

[۸۳] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۷۳.

[۸۴] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۷۵.

[۸۵] (۳)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۷۷.

[۸۶] (۴)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۷۹.

[۸۷] (۵)- بحار الأنوار، ج ۸۷ ص ۱۴۸.

[۸۸] (۶)- بحار الأنوار، ج ۸۷ ص ۱۴۶.

[۸۹] (۱)- للاطلاع على هذه الرّوايات يراجع الجزء الخامس من وسائل الشيعة و الجزء الأوّل من مستدرك الوسائل، و الجزء ۸۷ من بحار الأنوار.

[۹۰] (۲)- نزول هذه الآيات بمكّة و ورود هذا الحكم فى خصوص أهل الجنّة الصالحين و روايات أهل البيت كلّها قرائن على أنّ الحقّ فى الآية غير الزكاة ..

[۹۱] (۱)- الكاتب كرسى موريسين فى كتابه(أسرار خلق الإنسان) من ص ۳۳ إلى ۳۶.

[۹۲] (۲)- سفرة فى أعماق وجود الإنسان قسم الخلايا.

[۹۳] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۶۰۳ مادّة نفس.

[۹۴] (۱)- هناك كلام بين المفسّرين فى أنّ مرجع الضمير فى« أنّه» على أى شىء يعود؟ قال بعضهم يعود على الرزق، و قال بعضهم يعود على ما توعدون و قال بعضهم يعود على النّبى و القرآن إلّا أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

[۹۵] (۲)- كان يـدعى« عبد الملك بن قريب» و كان يعيش فى عهد هارون الرشـيد و له حافظة عجيبة و اطّلاعات واسـعة عن تاريخ العرب و أشعارها و توفّى فى البصرة سنة ۲۱۶ الكنى و الألقاب، ج ۲، ص ۲۷.

[۹۶] (۱)- تفسير الكشّاف، ج ۴، ص ۴۰۰.

[۹۷] (۲)- آل عمران، الآية ۱۳۳.

[۹۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۲۶.

[۹۹] (۲)- المصدر السابق.

[۱۰۰] (۳)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۲۵ الحديث ۳۱.

[۱۰۱] (۴)- المصدر السابق، ص ۱۲۶(الحديثان ۳۵ و ۳۷).

[۱۰۲] (۵)- المصدر السابق.

[۱۰۳] (۱)-« الضـيف» له معنى وصـفى، و يطلق على المفرد كما يطلق على الجمع أيضا .. و لـذلك فقد وصف بالمكرمين، و ما قاله بعضهم إنّه مصدر و لا يثنّى و لا يجمع فلا يبدو صحيحا. و لكن كما يقول الزمخشرى فى الكشّاف حيث إنّه كان فى الأصل مصدرا و بعد أن أصبح ذا معنى وصفى فإنّه استعمل فى المفرد و الجمع معا، فلاحظوا بدقّة.

[۱۰۴] (۲)- سلاما منصوب بفعل محذوف و تقديره: نسلّم عليكم سلاما: أمّا سلام فهو مبتدا و خبره محذوف و أصله عليكم سلام أو سلام عليكم فكأنّ إبراهيم أراد أن يحيّهم بأحسن من تحيّتهم، لأنّ الجملة الاسمية تدلّ على الثبات و الدوام تفسير الكشّاف، ج ۴، ص ۴۰۱.

[۱۰۵] (۱)- اقتباس عن روح البيان و حاشية تفسير الصافى ذيل الآيات محلّ البحث.

[۱۰۶] (۱)- ينبغى الالتفـات إلى أنّ« خطب» لا ـ يطلق على كـلّ عمل، بل هو خاصّ فى الأمور و الأعمال المهمّـ ة فى حين أنّ كلمات مثل عمل، شغل، أمر، فعل، لها معان عامّة.

[۱۰۷] (۲)- ينبغى الالتفـات إلى أنّه فى سورة هود جاء التعبير هكـذا: إنّا أرسـلنا إلى قوم لوط، و هـذا التفاوت فى التعابير بين الآيات محلّ البحث و آيات سورة هود هو لأنّ كلا من الآيات يـذكر قسـما ممّا جرى و بتعبير آخر هـذه المسائل كلّها واقعة، غاية ما فى الأمر أنّ بعضها مذكور فى الآيات محلّ البحث و بعضها فى الآيات الآنفة من سورة هود.

[۱۰۸] (۱)- يراجع ذيل الآية(۸۱) من سورة هود.

[۱۰۹] (۲)- الجـدير بالنظر أن فى سورة هود بيانا لهذه القصة لكن التعابير فيها تدل بوضوح أن لقاء الملائكة لإبراهيم كان قبل معاقبة قوم لوط و هلاكهم مع أنّ الآيات محلّ البحث فيها تعابير تشـير إلى أنّ اللقاء تمّ بعـد المعاقبـة و الجزاء، و طريق الحلّ هو أن نقول أنّ الآيات الوارد ذكرها آنفا إلى قوله:« مسوّمـة عنـد ربّك للمسـرفين» هى كلام الملائكـة، و أمّا الآيات الثلاث بعـدها فقول اللّه يخاطب نبيّه و المسلمين يتحدّث عنها على أنّها قصّة وقعت فيما مضى« فلاحظوا بدقّة»!

[۱۱۰] (۱)- مقتبس من كتاب القاموس المقدّس.

[۱۱۱] (۱)- الأسطوانة معربة عن كلمة ستون الفارسية.

[۱۱۲] (۲)- فتكون الباء فى بركنه حسب التّفسير الأوّل للمصاحبة، و حسب التّفسير الثانى للسببية، و حسب التّفسير الثالث للتعدية ..

[۱۱۳] (۱)- المراد بـالمليم ذو الملامـة- فهو اسم فاعـل من اللوم و بـابه الأفعال الام يليم أى هو الشـخص الـذى يرتكب عملا يكون

بنفسه ملامة مثل المغرب الذى يأتى بالعجيب الغريب ... و لمزيد التوضيح فى قصّة موسى و فرعون يراجع ذيل الآية ۱۳۶ من سورة الأعراف.

[۱۱۴] (۲)- راجع: المفردات للراغب مادّة رمّ.

[۱۱۵] (۳)- راجع: لسان العرب و المفردات مادّة رمّ.

[۱۱۶] (۱)- الأعراف، الآية ۷۷.

[۱۱۷] (۱)- هناك حذف فى الجملة المتقدّمة و تقديره كما يقول« الزمخشرى» فى« الكشّاف» و أهلكنا قوم نوح من قبل، بالرغم من أنّ أهلكنا لم تكن فى الآيات المتقدّمة إلّا أنّ هذه الكلمة تستفاد منها بصورة جيّدة.

[۱۱۸] (۱)- وقع خطأ أو اشتباه عند بعض المفسّرين و غيرهم هنا، و ينبغى التنويه إليه.

أ- قال بعض المفسّرين أنّ للأيد« معنيين»:« القدرة» و« النعمة» مع أنّ الأيد تعنى القدرة لغة إلّا أنّ اليد تجمع على أيدى و جمع جمعها أياد تأتى بمعنى القدرة و النعمة، و قد ذكرنا المعنيين أيضا فى الآية(۱۷) من سورة ص تبعا للمرحوم الطبرسى صاحب مجمع البيان و نصحّحه هنا ..

ب- جاء فى المعجم المفهرس لمحمّد فؤاد عبد الباقى ذكر اليد فى الآية محلّ البحث بيائيين(أييد) و يظهر أنّ هذا الاشتباه ناشئ من بعض الرسم فى كتابة المصاحف و إلّا فإنّ المفسّرين ذكروا معنى القدرة لليد.

[۱۱۹] (۱)- حدود النجوم، ص ۳۳۸ إلى ص ۳۴۰.

[۱۲۰] (۲)- حدود النجوم، ص ۳۳۸- ۳۴۰.

[۱۲۱] (۳)- بداية العالم و نهايته، الصفحات ۷۴- ۷۷ بتلخيص.

[۱۲۲] (۴)- المصدر السابق.

[۱۲۳] (۱)- توحيد الصدوق طبقا لما ورد فى نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۳۰.

[۱۲۴] (۲)- نقل فى تفسير نور الثقلين فى هذا الصدد بضعة أحاديث عن الإمامين الباقر و الصادق الجزء الخامس ص ۱۳۰- ۱۳۱.

[۱۲۵] (۱)- كذلك خبر لمبتدأ محذوف و تقدير الكلام: الأمر كذلك.

[۱۲۶] (۱)- بل فى الآية الآنفة للإضراب.

[۱۲۷] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۶۱.

[۱۲۸] (۱)- سورة الملك، الآية ۶.

[۱۲۹] (۱)- سورة الطلاق، الآية ۱۲.

[۱۳۰] (۲)- هود الآيتان ۱۱۸ و ۱۱۹.

[۱۳۱] (۱)- قبل بنى على الضمّ و إن سبقه الخافض لأنّه مضاف- و المضاف إليه محذوف لفظا و تقديره من قبل خلق الإنسان.

[۱۳۲] (۱)- حسن: خبر لمبتدأ محذوف تقديره كلامكم أو سؤالكم حسن.

[۱۳۳] (۱)- توحيد الصدوق طبقا لما نقل فى الميزان، ج ۱۸، ص ۴۲۳.

[۱۳۴] (۲)- علل الشرائع للصدوق- طبقا للمصدر الآنف.

[۱۳۵] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵، ص ۳۱۴ الحديث ۷.

[۱۳۶] (۲)- المصدر السابق.

[۱۳۷] (۳)- يتّضح ممّا ذكرنا آنفا أنّ الألف و اللام فى« الجنّ و الإنس» للاستغراق، و تشمل الآية جميع الأفراد، لا أنّ الألف و اللام للجنس، بحيث تشمل جماعة منهم كما ورد فى بعض التفاسير و اللّه العالم.

[۱۳۸] (۱)- الفعل فلا يستعجلون مجزوم بلا الناهية كما هو واضح، و النون هنا للوقاية و قد كسرت للدلالة على أنّ ياء المتكلّم محذوفة لفظا أو رسما و مقدرة معنى ..

[۱۳۹] (۱)- يقول بعض الشعراء العرب:

لنا ذنوب و لكم ذنوبفإن أبيتم فلنا القليب. [۱۴۰] (۲)- تراجع الآيتان(۵۷) و ۵۸) من سورة الأنعام، و الآية(۷۲) من سورة النمل و أمثالها، و هذا التعبير فى القرآن قد يستعمل فى شأن القيامة أيضا.

[۱۴۱] (۱)- يرى بعض المفسّرين أنّ هذه الآية تشير إلى عذاب الدنيا. مع أنّ مثل هذا التعبير فى القرآن يكون ليوم القيامة غالبا ..

[۱۴۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۶۲- تفسير البرهان، ص ۲۴۰

[۱۴۳] (۲)- المصدر السابق.

[۱۴۴] (۱)- ورد فى بحار الأنوار أكثر من عشر روايات فى هذا المجال، ج ۵۸، ص ۵۵ و ما بعدها.

[۱۴۵] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

[۱۴۶] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۳۸.

[۱۴۷] (۳)- سورة القصص، الآية ۸۱.

[۱۴۸] (۱)- الأعراف، الآية ۱۷۱.

[۱۴۹] (۱)- كلمة« يوم» منصوبة على أنّها ظرف و هى متعلّقة باسم الفاعل« واقع» الواردة فى الآيات المتقدّمة.

[۱۵۰] (۱)- سورة القارعة، الآية ۵.

[۱۵۱] (۲)- لمزيد التوضيح يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية(۱۰۵) من سورة طه.

[۱۵۲] (۳)- إلقاء هنا للتفريع، أى حيث تكون الأرض قاعا صفصفا و لا ملجأ من اللّه فويل يومئذ للمكذّبين.

[۱۵۳] (۱)- دعّ على وزن جدّ معناه الدفع الشديد و السوق بخشونة و عنف و« اليوم» فى الآية منصوب على الظرفية أو البدلية من يومئذ فى الآية السابقة.

[۱۵۴] (۱)- سورة الزمر، الآية ۷۳.

[۱۵۵] (۱)- كلمة« فاكهين» مشتقّة من فكه على وزن نظر- و فكاهة على وزن شباهة، و معناها كون الإنسان مسرورا، و جعل الآخرين مسرورين بالكلام العذب، و يقول الراغب فى مفرداته: الفاكهة معناها كلّ نوع من الثمار. و الفكاهة أحاديث أهل الأنس .. و قد احتمل بعضهم أنّ الآية: فاكهين بما أتاهم ربّهم إشارة إلى تناول أنواع الفواكه و هذا المعنى يبدو بعيدا ..

[۱۵۶] (۱)- يقول الراغب فى مفرداته: الهنىء كلّ ما لا يلحق فيه المشقّة و لا يعقبه و خامة ..

[۱۵۷] (۲)-« الحور»: جمع(حوراء) و أحور، فهو جمع للمذكّر و المؤنث سواء، و يطلق على من حدقة عينه سوداء و بياضها شفّاف أو هو كناية عن الجمال، لأنّ الجمال يتجلّى فى العينين قبل كلّ شيء، و العين جمع لأعين و عيناء معناه العين الواسعة، و هكذا فإنّ الحور العين مفهوما واسع يشمل الأزواج جميعا الذكور و الإناث من أهل الجنّة فالذكور للإناث و بالعكس.

[۱۵۸] (۱)- الظاهر أنّ جملة و الذين آمنوا جملة مستقلّة و الواو للاستئناف، و قد اختار جماعة من المفسّرين هذا المعنى« كالعلّامة الطباطبائى و المراغى و سيّد قطب» إلّا أنّ العجب أن يعدّ الزمخشرى هذه الجملة معطوفة على و زوجناهم بحور عين مع أنّه لا يتناسب هذا المعنى و مفهوم النصّ و لا ينسجم مع فصاحة القرآن و بلاغته.

[۱۵۹] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۳۹ بتصرّف و تلخيص.

[۱۶۰] (۱)- الفعل ألتناهم مشتق من مادّة ألت على وزن ثبت: و معناه الإنقاص.

[۱۶۱] (۲)- تفسير المراغى، ج ۲۷، ص ۲۶.

[۱۶۲] (۱)- لسان العرب، مادّة رهن.

[۱۶۳] (۲)- مجمع البحرين، مادّة رهن.

[۱۶۴] (۳)- نهج البلاغة، من كتاب له ۴۵.

[۱۶۵] (۱)- هناك تفاسير أخر فى أصحاب اليمين سنتناولها ذيل الآية من سورة المدثر إن شاء اللّه.

[۱۶۶] (۱)- قال الراغب فى مفرداته: الكأس: الإناء بما فيه من الشراب و قال فى مجمع البحرين كذلك فإذا خلا الإناء سمّى« قدحا».

[۱۶۷] (۱)- مجمع البيان، الكشّاف، روح البيان، أبو الفتوح الرازى.

[۱۶۸] (۱)- دار الندوة هى دار« قصى بن كلاب» جدّ العرب المعروف، و كانوا يجتمعون فيها للمشاورة فى الأمور المهمّة، و كانت هذه الدار إلى جوار بيت اللّه و تفتح بابه نحو جهة الكعبة، و كانت هذه الدار ذات مركزية فى زمن قصى بن كلاب نفسه(راجع سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۲۴ و ج ص ۱۳۲).

[۱۶۹] (۱)- راجع تفسير المراغى، ج ۲۷، ص ۳۱.

[۱۷۰] (۱)- راجع« لسان العرب» و« المفردات للراغب» و« المنجد» و« تفسير القرطبى».

[۱۷۱] (۱)- راجع المفردات للراغب.

[۱۷۲] (۲)- القرطبى، ج ۹، ص ۶۲۴۲.

[۱۷۳] (۱)- هناك احتمالات و أقوال بين المفسّرين فى معنى« أم» هنا أ هى استفهامية أم منقطعة و بمعنى بل كلّ له رأيه فيها و إن كان الرأى الثانى أكثر ترجيحا عندهم، إلّا أنّ سياق الآيات يتناسب و المعنى الأوّل غير أنّه ينبغى أن يعرف بأنّ أم فى مثل هذه المواطن ينبغى أن تكون مسبوقة بهمزة الاستفهام و لذلك فإنّ الفخر الرازى قدر لها ما يلى:« أ أنزل عليهم ذكر أم تأمرهم أحلامهم بهذا» و هو يشير إلى أنّ الإسلام ينبغى أن يتّبع دليل أو النقل أو العقل!.

[۱۷۴] (۱)- يقول صاحب مجمع البيان: التقوّل: تكلّف و لا يقال ذلك إلّا فى الكذب.

[۱۷۵] (۱)- فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۶۰۵.

[۱۷۶] (۱)- هناك تفسيرات أخر و احتمالات متعدّدة فى وجوه هذه الآية، منها أنّ مفادها: هل خلقوا بلا هدف و لم يك عليهم أيّة مسئولية؟! .. و بالرغم أنّ جماعة من المفسّرين اختاروا هذا الوجه إلّا أنّه مع الالتفات لبقيّة الآية\:i أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ E يتّضح أنّ المراد هو ما ذكر فى المتن، أى خلقوا من دون علّة. أم هم علّة أنفسهم؟!.

[۱۷۷] (۱)- الخزائن جمع الخزينة و معناها مكان كلّ شىء محفوظ لا تصل إليه اليد و يدّخر فيه ما يريد الإنسان يقول القرآن فى هذا الصدد\i وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ E[الحجر الآية ۲۱].

[۱۷۸] (۱)- سلّم يعنى« المصعد» كما يأتى بمعنى أيّة وسيلة كانت و قد اختلف المفسّرون فى المراد من الآية فأىّ شىء كانوا يدعونه؟! فقال بعضهم: ادّعوا الوحى و قال آخرون هو ما كانوا يدّعونه فى النّبى بأنّه شاعر أو مجنون أو ما كانوا يدّعون من الأنداد و الشركاء للّه ... و فسّر بعضهم ذلك بنفى نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» و لا مانع من الجمع بين هذه المعانى و إن كان المعنى الأوّل أجلى».

[۱۷۹] (۲)- كانت لنا بحوث مفصّلة فى سبب جعل العرب الملائكة بنات اللّه فى الوقت الذى كانوا يستاءون من البنات. و ذكرنا الدلائل الحيّة التى أقامها القرآن ضدّهم فليراجع ذيل الآية(۵۷) سورة النحل و ذيل الآية(۱۴۹) من سورة الصافات ..

[۱۸۰] (۱)- قال بعض المفسرين أنّ المراد بالغيب هو اللوح المحفوظ، و قال بعضهم: بل هو إشارة إلى ادّعاءات المشركين و قولهم إذ كانت القيامة فسيكون لنا عند اللّه مقام كريم. إلّا أنّ هذه التفاسير لا تتناسب و الآية محلّ البحث و لا يرتبط بعضها ببعض.

[۱۸۱] (۱)- الكيد على وزن صيد نوع من الحيلة و قد يستعمل فى التحيّل إلى سبيل الخير، إلّا أنّه غالبا ما يستعمل فى الشرّ، و تعنى

هذه الكلمة المكر و السعى أو الجدّ كما تعنى الحرب أحيانا ..

[۱۸۲] (۱)-« الكشف»: على وزن فسق- معناه القطعة من كلّ شىء، و مع ملاحظة بقيّة التعبير.« من السماء»: يظهر المراد منه هنا القطعة من حجر السماء، و قد دلّت عليه بعض كتب اللغة و هذه الكلمة تجمع على كسف على وزن عنب، إلّا أنّ أغلب المفسّرين يرون بأنّ الكلمة هنا مفردة و ظاهر الآية أنّها مفردة أيضا، لأنّها و صفتها بالمفرد ساقطا ..

[۱۸۳] (۱)- من قال بأنّ جملة فيه يصعقون تشير إلى يوم القيامة فسّر العذاب« فى الآية» محلّ البحث بعذاب البرزخ فى القبر، إلّا أنّه حيث كان تفسيرها ضعيفا فهذا الاحتمال ضعيف أيضا.

[۱۸۴] (۱)- قد يكون المراد من« حكم ربّك» هو تبليغ حكم اللّه الذى امر النّبى به، فعليه أن يصير عند إبلاغه، أو أنّه عذاب اللّه الذى و عد أعداؤه به أى: اصبر يا رسول اللّه حتّى يعذّبهم اللّه، أو المراد منه أوامر أى بما إنّ اللّه أمرك فاصبر لحكمه، و الجمع بين هذه المعانى و إن كان ممكنا إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب خاصّة بملاحظة فإنّك بأعيننا.

[۱۸۵] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۲۴

[۱۸۶] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۲۰.

[۱۸۷] (۳)- مجمع البيان ذيل الآية(۴۰)، سورة ق، ج ۹، ص ۱۵۰.

[۱۸۸] (۱)- تفسير القرطبى ج ۹ ص ۶۲۵۱ ذيل الآيات محلّ البحث.

[۱۸۹] (۱)- تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۲۰۸.

[۱۹۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۹۱] (۳)- تفسير المراغى، ج ۲۷، ص ۴۱.

[۱۹۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۷۰.

[۱۹۳] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۳۰۵.

[۱۹۴] (۱)- الثريا مجموعة النجوم السبعة التى ستّة منها واضحة و واحد منها خافت النور و عادة يختبر بها قوّة البصر فيمتحن الناس بالنظر إليها، و القسم بهذه المجموعة من النجوم لعلّه لمسافتها البعيدة عنّا ..

[۱۹۵] (۲)-« الشعرى»: واحد من نجوم السماء و اللامعة و سيأتى البحث عن هذا النجم ذى ذيل الآية(۴۹) من هذه السورة ذاتها بإذن اللّه، و القسم بهذا النجم لعلّه لإشراقه الشديد و لخصائصه المتميّز بها.

[۱۹۶] (۳)- الأنعام، الآية ۷۶.

[۱۹۷] (۱)- و ما ورد فى بعض الرّوايات من أنّ المراد بالنجم هو شخص النّبى و المراد من هوى هو نزوله من السماء فى ليلة المعراج، فهذا التّفسير فى الحقيقة يعدّ من بطون الآية لا من ظاهرها!

[۱۹۸] (۱)- نهج البلاغة، و من كلام له عليه السّلام رقم ۴۲.

[۱۹۹] (۱)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۲۲ من شىء من التلخيص.

[۲۰۰] (۱)- مقتبس من« روح المعانى» ذيل الآيات محلّ البحث.

[۲۰۱] (۱)- قالوا: هنا قلب فى الكلام، و أصله فكان قابى قوس.

[۲۰۲] (۲)- هذا التّفسير و هو أنّ المراد من« شديد القوى»« جبرئيل» اختاره جماعة كثيرون منهم الطبرسى فى مجمع البيان، و البيضاوى فى أنوار التنزيل، و الزمخشرى فى الكشّاف، و القرطبى فى تفسيره روح البيان، و الفخر الرازى فى تفسيره الكبير، و سيّد قطب فى تفسيره فى ظلال القرآن، و المراغى فى تفسيره و تعبيرات العلّامة الطباطبائى فى ميزانه تحميل إلى هذا الرأى أيضا ..

[۲۰۳] (۱)- فى دعاء الندبة تعبير يناسب هذا المعنى أيضا إذ يقول: يا ابن من دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى دنوا و اقترابا من

الملأ الأعلى و فى ذيل هذا الدعاء ورد بعض القاب اللّه« شديد القوى» إذ يقول: و أره سيّده يا شديد القوى ..

[۲۰۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۴۹.

[۲۰۵] (۳)- المصدر السابق

[۲۰۶] (۱)- المصدر ذاته، ص ۱۴۸.

[۲۰۷] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۲۳.

[۲۰۸] (۳)- سورة الأنعام، الآية ۱۰۳.

[۲۰۹] (۴)- سورة البقرة، الآية ۱۱۵.

[۲۱۰] (۵)- سورة الحديد، الآية ۴.

[۲۱۱] (۶)- روح المعانى، ج ۹، ص ۲۱۹.

[۲۱۲] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۹.

[۲۱۳] (۱)- الضمير فى: فاستوى و الضمير فى: و هو بالأفق الأعلى يمكن أن يعودا على شخص النبى، كما يمكن أن يعودا على ذات اللّه المقدّسة.

[۲۱۴] (۱)- لا بأس بذكر هذه اللطيفة هنا إجمالا و هى أنّ المعراج هل حدث للنبى مرّة فى عمره أو مرّتين؟ هناك كلام بين العلماء. و لعلّ هذه الآيات فيها إشارة إلى شهودين فى معراجين.

[۲۱۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۸۷ ذيل مبحث المعراج.

[۲۱۶] (۱)- الفعل« طغى» مضارعه يطغو، و طغى مضارعه يطغى، و باب الأول نصر ينصر، و باب الثانى فرح يفرح، و كلاهما بمعنى واحد، و من هذا القبيل صغا يصغو و صغى يصغى.

[۲۱۷] (۱)- قال بعض أصحاب(اللغة) و المفسّرين معنى النزلة هنا« مرّة» و ليس المراد منها النّزول، فالنزلة الاخرى تعنى المرّة الثانية لا غير، لكن لا ندرى لم عرفوا عن المادّة الأصلية للنزلة فى حين أنّ غيرهم أشاروا إليها و فسّروها بما بيّنا آنفا[فلاحظوا بدقّة].

[۲۱۸] (۲)- مجمع البيان: ذيل الآيات محلّ البحث.

[۲۱۹] (۳)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۵۵

[۲۲۰] (۱)- المأوى فى الأصل معناه الانضمام، و حيث أنّ سكون الأفراد فى محلّ ما يسبّب انضمام بعضهم لبعض فقد استعملت هذه الكلمة« المأوى» على محلّ السكن مطلقا.

[۲۲۱] (۲)- آل عمران، الآية ۱۳۳.

[۲۲۲] (۱)- جاء فى تفسير الميزان أنّ الزيغ هو الخطأ فى مشاهدة كيفية الشىء و أنّ الطغيان فى البصر هو الخطأ فى أصل الرؤية إلّا أنّه لا دليل واضح على هذا التفاوت .. بل ما ورد فى اللغة هو ما بيّناه فى المتن.

[۲۲۳] (۱)- جاء فى آيات القرآن« أنّ المتّقين يساقون إلى الجنّة زمرا و أنّ الكفّار يساقون إلى النار زمرا(الزّمر الآيات ۷۱- ۷۳) و جاء هذا المعنى فى سورة اخرى كالآية(۷۰) من الزخرف، و الآيتين(۸۵) و ۸۶) من سورة مريم، و الآية(۴۷) من سورة الدخان.

[۲۲۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۳۱۹.

[۲۲۵] (۲)- طبقا لبعض آيات القرآن كالآية السادسة من سورة الصافات\:i إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ E ما نراه من العالم العلوى من النجوم و المجرّات هو فى السماء الاولى فحسب أمّا السماوات الستّ الاخرى فهى فوقها ..

[۲۲۶] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۲۹(ذيل الآيات الاولى من سورة الإسراء بحث روائى).

[۲۲۷] (۱)- ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ اسم النّبى فى كلّ مكان من هذا الحديث ورد بلفظ أحمد إلّا فى بدايته، أجل فاسم النّبى فى

الأرض محمّد و فی السماء أحمد و لم لا یکون کذلک مع أنّ أحمد بالإضافة إلی أنّه اسم تفضیل مبین للحمد و التکریم أکثر، و قد کان علی النّبی فی تلک اللیلة التاریخیة أن یتجاوز من« محمّد» إلی« أحمد» لأنّ الفاصلة بین أحمد واحد غیر بعیدة.

[۲۲۸] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۷، ص ۲۱- ۳۰ بشیء من التلخیص.

[۲۲۹] (۱)- سنتحدّث عن الأصنام الثلاثة المشار إلیها فی الآیات محلّ البحث بإذن اللّه، لکن ممّا ینبغی الالتفات إلیه هو التعبیر بمناة الثالثة الاخری فقد ذکر لهذه الآیة تفاسیر عدیدة أغلبها عار من الصحّة و لا أساس له و لکن المناسب من هذه التفاسیر أنّ أهمیّة هذه الأصنام عند مشرکی العرب کانت بحسب ما ذکره القرآن فالتعبیر بمناة الثالثة أی ثالث الأصنام(فی الأهمیّة) عند العرب و التعبیر بالأخری هو لتأخّر رتبتها عندهم!

[۲۳۰] (۱)- ضیزی أی ناقصة و غیر منصفة.

[۲۳۱] (۱)- السلطان: معناه السلطة و الغلبة، و یطلق علی الدلیل القاطع أنّه سلطان أیضا، لأنّه أساس الغلبة علی الخصم.

[۲۳۲] (۲)-« ما» فی« ما تهوی الأنفس» موصولة، و یحتمل أن تکون مصدریة، و لا فرق کبیر بینهما.

[۲۳۳] (۱)- بلوغ الإرب فی معرفة أحوال العرب، ج ۲، ص ۲۰۲ و ۲۰۳.

[۲۳۴] (۲)- کلمة« اللات» کان ینبغی أن تکتب اللاة بالتاء القصیرة و لکنّها لمّا کانت فی الوقف تبدّل هاء فتصیر اللاه و یوهم لفظها بالاسم الکریم اللّه کتبت بالصورة الآنفة اللات.

[۲۳۵] (۱)- الاحتمال الأوّل جاء فی الکشّاف و الثانی فی بلوغ الإرب.

[۲۳۶] (۲)- بلوغ الإرب، ج ۲، ص ۲۰۲ و ۲۰۳.

[۲۳۷] (۱)- نقل الطبری هذه القصّة الخرافیة فی تاریخه، ج ۲، ص ۷۵ فما بعد.

[۲۳۸] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار- الکلمة رقم ۲۵۰.

[۲۳۹] (۱)- مع أنّ کلمة ملک فی الآیة مفردة فقد عاد الضمیر علیها جمعا فی« شفاعتهم» و ذلک لمفهوم الکلام و رعایة للمعنی!

[۲۴۰] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۲۶۱(باب تمنّی الخیرات).

[۲۴۱] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۲] (۳)- التعبیر ب« من یشاء» الوارد فی الآیة المتقدّمة یمکن أن یکون إشارة إلی الناس الذین یأذن اللّه لهم بالشفاعة، أو إشارة إلی الملائکة الذین یأذن اللّه لهم بالشفاعة، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

[۲۴۳] (۱)- جاء هذا الدعاء من دون الإشارة إلی أنّه من أعمال شهر شعبان فی مجمع البیان و فی تفاسیر اخری ذیل الآیة محلّ البحث.

[۲۴۴] (۱)-« اللام» فی(لیجزی) هی لام الغایة، فبناء علی ذلک الجزاء هو غایة الخلق، و إن کان بعضهم یعتقد بأنّ« لیجزی» متعلّق بأعلم فی الآیة السابقة، و أنّ جملة(و للّه ما فی السماوات و الأرض) معترضة، إلّا أنّ هذا الاحتمال یبدو بعیدا ..

[۲۴۵] (۲)- الکافی، ج ۲ کتاب الإیمان و الکفر باب اللمم ۳۲۰.

[۲۴۶] (۳)- المصدر السابق.

[۲۴۷] (۱)- الکافی، ج ۲ باب اللمم ص ۳۲۱.

[۲۴۸] (۱)- الأجنّة: جمع جنین: الطفل الذی فی بطن امّه ..

[۲۴۹] (۲)- روح المعانی، ج ۷، ص ۵۵.

[۲۵۰] (۱)- اللطیفة: ما فیها من دقّة و خفاء.

[۲۵۱] (۲)- کما فی النساء الآیة(۳۱) و الشوری الآیة(۳۷) و الآیات محلّ البحث.

[۲۵۲] (۱)- الوسائل، ج ۱۱- أبواب جهاد النفس الباب ۴۶ الحدیث ۱.

[۲۵۳] (۲)- لمزید الإیضاح یراجع المصدر السابق الباب ۴۶ من أبواب جهاد النفس و قد جاء فی هذا الباب سبع و ثلاثون روایة ..

[۲۵۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۶۵.

[۲۵۵] (۱)- نهج البلاغة، من کتاب له برقم ۲۸.

[۲۵۶] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۶۶.

[۲۵۷] (۱)- ذکره الطبرسی فی مجمع البیان و مفسّرون آخرون أمثال الزمخشری فی الکشّاف و الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر .. و یضیف الطبرسی أنّه ذکره ابن عبّاس و السدی و الکلبی و جماعة من المفسّرین! ..

[۲۵۸] (۲)- ذکر هذا الشأن صاحب مجمع البیان و القرطبی و روح البیان .. و روح المعانی و بعض التفاسیر الاخر.

[۲۵۹] (۳)- أکدی مأخوذ من الکدیة و معناه الصلابة، ثمّ أطلق علی من یمسک و البخیل.

[۲۶۰] (۱)- وفّی مصدره توفیة معناه البذل و الأداء التامّ ..

[۲۶۱] (۲)- روح البیان، ج ۹، ص ۲۴۶.

[۲۶۲] (۱)- أتت لفظ الوازرة لکونه وصفا للنفس المحذوفة فی الآیة و مثلها تأنیث اخری.

[۲۶۳] (۲)- کلمة« ما» فی« ما سعی» مصدریة.

[۲۶۴] (۳)- نائب الفاعل فی یجزاه ضمیر یعود علی الإنسان و الهاء فی یجزاه تعود علی العمل(مع حذف حرف الجرّ) و تقدیر الآیة هکذا ثمّ یجزی الإنسان بعمله أو علی عمله الجزاء الأوفی .. یقول الزمخشری فی الکشّاف: یمکن أن لا یکون هناک حرف مقدّر لأنّه یقال یجزی العبد سعیه .. إلّا أنّه ینبغی الالتفات إلی أنّه یقال مثلا جزاه اللّه علی عمله و یندر أن یقال جزاه اللّه عمله، و الجزاء الأوفی یمکن أن یکون مفعولا ثانیا أو مفعولا مطلقا.

[۲۶۵] (۱)- جاء هذا الأصل فی قصّة موسی و شعیب فی سورة القصص الآیة(۲۷).

[۲۶۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۷۶ و ذکر هذا الحدیث فی روح البیان أیضا، ج ۹، ص ۲۴۶.

[۲۶۷] (۲)- کتاب حزقیل، الفصل ۱۸ ص ۲۰.

[۲۶۸] (۳)- التوراة، سفر التثنیة، باب ۲۴ الرقم ۱۶.

[۲۶۹] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لما جاء فی نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۷۰.

[۲۷۰] (۲)- هذه الأفعال و إن جاءت بصیغة الماضی إلّا أنّها تعطی معنی الفعل المضارع أیضا و الدلالة علی الدوام ...(فلاحظوا بدقّة).

[۲۷۱] (۳)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۷۲.

[۲۷۲] (۱)- راجع المفردات للراغب، مادّة قنی.

[۲۷۳] (۱)- دائرة المعارف الإسلامیة مادّة، شعری.

[۲۷۴] (۱)- تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۳۰.

[۲۷۵] (۱)- ینبغی الالتفات بأنّ هذه المسائل أو المواضیع المشار إلیها فی القرآن فی أحد عشر فصلا، کلّها بدأت بأنّ: فأوّلها جاء فی الآیة ۳۸ ألا تزر وازرة وزر اخری و آخرها و أنّه أهلک عادا الاولی.

[۲۷۶] (۱)- مجمع البیان و روح المعانی، و تفسیر الرازی.

[۲۷۷] (۲)-« ما» فی ما غشّی یمکن أن تکون مفعولا به أو فاعلا نظیر و السماء و ما بناها إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أکثر انسجاما مع ظاهر الآیة .. و علی کلّ حال فإنّ هذا التعبیر یأتی للتهویل!

[۲۷۸] (۱)- بالرغم من أنّ باب التفاعل فی اللغة العربیة یدلّ علی اشتراک طرفین فی الفعل، إلّا أن تتماری هنا مخاطب به شخص واحد، و هو أمّا لتعدّد الحالات أو للتأکید ..« فلاحظوا بدقّة».

[۲۷۹] (۱)- الضمیر فی لها یعود علی الآزفة و تأنیث الکاشفة، لأنّها صفة للنفس المحذوفة، و قال آخرون هی تاء المبالغة کالتاء فی العلامة.

[۲۸۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۹(بدایة سورة القمر).

[۲۸۱] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۹.

[۲۸۲] (۲)- ذکر فی مجمع البیان و کتب تفسیر اخری فی هامش تفسیر الآیة مورد البحث.

[۲۸۳] (۱)- التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۸، أوّل سورة القمر.

[۲۸۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۳۵۴ حدیث(۸).

[۲۸۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۳۵۲ حدیث(۱).

[۲۸۶] (۳)- بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۳۵۵ حدیث(۱۰).

[۲۸۷] (۴)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۲۳.

[۲۸۸] (۱)-(حکمة بالغة) خبر لمبتدأ محذوف تقدیره(هذه حکمة بالغة).

[۲۸۹] (۲)- نذر جمع نذیر و یعنی(المنذرین) و المقصود بالمنذرین هی الآیات القرآنیة و أخبار الأمم و الأنبیاء الذین وصل صوتهم إلی أسماع الناس، و یحتمل البعض أنّ(نذر) مصدر بمعنی إنذار. لکن المعنی الأوّل هو الأنسب. و ضمنا فإنّ(ما) فی عبارة(ما تغن بالنذر) نافیة و لیست استفهامیة.

[۲۹۰] (۳)- فی الآیة أعلاه(یوم) یتعلّق بمحذوف تقدیره(اذکر) و یحتمل البعض أنّها تتعلّق ب(یخرجون) و لکن ذلک مستبعد.

[۲۹۱] (۱)- الإسراء ۲

[۲۹۲] (۲)-(نکر) مفرد من مادّة(نکارة) و تعنی الشیء المبهم المخیف.

[۲۹۳] (۱)- الحجّ، ۲.

[۲۹۴] (۲)- الفرقان، ۲۶.

[۲۹۵] (۱)- الکهف، ۴۹.

[۲۹۶] (۲)- لقمان، ۱۶.

[۲۹۷] (۳)- البقرة، ۴۸.

[۲۹۸] (۴)- الأنعام، ۲۷.

[۲۹۹] (۱)- الحجّ، ۲.

[۳۰۰] (۲)- المعارج، ۱۱- ۱۵.

[۳۰۱] (۱)- الشعراء، ۱۱۶.

[۳۰۲] (۲)- تفسیر الکشّاف و أبو الفتوح و الرازی هامش الآیة مورد البحث

[۳۰۳] (۱)-(انتصر): طلب العون کما فی الآیة(۴۱) سورة الشوری، و هنا جاءت بمعنی طلب الانتقام علی أساس العدل و الحکمة کما فسّرها البعض فی التقدیر(انتصر لی).

[۳۰۴] (۲)- روح المعانی هامش الآیة مورد البحث.

[۳۰۵] (۱)-« عیونا»: یمکن أن تکون تمیّزا للأرض و التقدیر فجرنا عیون الأرض، ثمّ إنّ العیون مفعول به منفصل و قد جاءت بصورة

تمییز کی تعبّر عن المبالغة و الأهمیّة و کأنّ الأرض جمیعا تحوّلت إلی عیون.

[۳۰۶] (۱)-« أعین» جمع عین، و إحدی معانیها العین الباصرة، و المعنی الآخر لها هو: الشخصیة المعتبرة، و لها معان اخری.

[۳۰۷] (۲)- یجدر بالملاحظة هنا أنّ فعل(کفر) مبنی للمجهول، و المراد به نوح علیه السّلام الذی کفر به، و لیس فعلا معلوما یشیر إلی الکفّار.

[۳۰۸] (۱)- إذا لم یکن فی الآیة شیء مقدّر فیکون نائب الفاعل للفعل(کفر) هو شخص نوح علیه السّلام حین أنّه علیه السّلام یکون النعمة التی(کفر) بها، أمّا إذا قلنا أنّ للآیة محذوف مقدّر، فیکون تقدیره(کفر به) فعندئذ تکون إشارة إلی عدم الإیمان بنوح علیه السّلام و تعالیمه.

[۳۰۹] (۲)- لقد ذکرت أبحاث مفصّلة حول قصة قوم نوح علیه السّلام فی هامش الآیات الکریمة ۲۵- ۴۹ من سورة هود

[۳۱۰] (۱)- الحاقّة، ۷

[۳۱۱] (۲)- الأحقاف، ۲۴.

[۳۱۲] (۱)- یجدر الانتباه إلی أنّ نحسات جاءت صفة للأیّام، و ذلک یعنی أنّ الأیّام المذکورة و صفت بالنحوسة، فی الوقت الذی ذکرت کلمة(یوم) فی الآیة الکریمة(فی یوم نحس مستمر) إضافة ل(النحس) و لیست وصفا و لکن بقرینة الآیة أعلاه یجب القول: إنّ الإضافة هنا تکون إضافة موصوف إلی صفة(یرجی الانتباه).

[۳۱۳] (۲)- فصّلت، ۱۶.

[۳۱۴] (۳)- الدخان، ۳.

[۳۱۵] (۴)- بحار الأنوار، ج ۵۹ کتاب السماء و العالم، ص ۱- ۹۱ و ما بعدها.

[۳۱۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۸۳ حدیث(۲۵).

[۳۱۷] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۰۵.

[۳۱۸] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۸.

[۳۱۹] (۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۱.

[۳۲۰] (۵)- بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۹۲.

[۳۲۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۳۹، حدیث ۷.

[۳۲۲] (۲)- المصدر السابق، ص ۲۸.

[۳۲۳] (۱)- تحف العقول، عن بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۲ باختصار.

[۳۲۴] (۱)- الفرقان، ۷.

[۳۲۵] (۲)- الزخرف، ۳۱.

[۳۲۶] (۱)-« محتضر» اسم مفعول من مادّة(حضور) و(شرب) بمعنی السهم و النوبة الخاصّة بالماء، و بناء علی ذلک فإنّ مفهوم جملة(کلّ شرب محتضر) أی أنّ توبة کلّ شخص من الماء حاضرة له، و لا یحقّ للآخرین الحضور و التزاحم علیها.

[۳۲۷] (۲)- قدارة علی وزن(منارة)- کان رجلا قبیح الشکل و السیرة، و من أکثر الأشخاص شؤما فی التاریخ.

[۳۲۸] (۱)- کما بیّنا شرح هذا الموضوع تحت عنوان(الارتباط الرسالی) فی الآیة ۶۵ سورة هود.

[۳۲۹] (۱)- فصّلت، ۱۳.

[۳۳۰] (۱)- هود، ۸۲.

[۳۳۱] (۱)- توجد أبحاث اخری حول هذا الموضوع فی الآیة(۸۲) من سورة هود.

[۳۳۲] (۲)- هود، ۸۱.

[۳۳۳] (۳)- يقول الراغب فى المفردات: السحر اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار.

[۳۳۴] (۴)- نعمة مفعول به لفعل مقدّر من نفس جنسه، أو أنّه مفعول له ل(نجّينا) الذى ورد فى الآية السابقة.

[۳۳۵] (۱)- الحجر، ۷۱

[۳۳۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۸۵.

[۳۳۷] (۱)-(نذر) بالإضافة إلى كونها جمع(نذير)، فإنّها تعطى أيضا معنى المصدر أو اسم المصدر، و لكون المصدر يطلق على المعنى الوصفى أيضا، لذا يمكن جمع الإثنين فى مفهوم واحد.

[۳۳۸] (۲)- المعجزات التسع لموسى عليه السّلام و بالنظر إلى الآيات القرآنية المختلفة فهى عبارة عن:« تبديل العصا لثعبان عظيم»(طه/ ۲۰)(۲)« يد بيضاء» و لمعان يد موسى عليه السّلام كمصدر نور(طه/ ۲۲)(۳) الطوفانات المحطّمة الأعراف/ ۱۳۳(۴)(الجراد) الذى سلّط على المزارع،(۵)(و القمل)(و هو نوع من الآفات الزراعية)،(۶)(الضفادع) التى خرجت من نهر النيل و بعد مدّة قصيرة غطّت سطحه(۷)(الدم) حيث أصبح لون نهر النيل بلون الدم(الأعراف/ ۱۳۳)،(۸)،(۹) عدم نزول الأمطار و نقص الثمرات(الأعراف/ ۱۳۰).

[۳۳۹] (۱)- الضمير فى« كفّاركم» يرجع فى الظاهر(المشركى العرب) بقرينة الجملة\i أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ\E.

[۳۴۰] (۲)- بالرغم من أنّ(نحن) ضمير جمع فانّ خبرها(جميع) قد جاء مفردا، و كذلك منتصر و التى جاءت خبرا بعد خبر أو صفة ل(جميع)، و السبب فى ذلك فإنّ لفظ(جميع) و إن كانت مفردة إلّا أنّ المعنى(جمع).

[۳۴۱] (۱)- مع العلم أنّ من المناسب أن يقال(يولّون الأدبار) إلّا أنّه قيل هنا:(يولّون الدبر)، لأنّ لهذه المعنى(جنس) حيث تكون فى حكم الجمع.

[۳۴۲] (۱)-« سعر»: كما بيّنا سابقا فى آخر الآية(۲۴) من نفس السورة لها معنيان: الأوّل: انّها جمع سعير بمعنى اشتعال النار.

و الثّانى: بمعنى الجنون، و الهيجان الذى يلازمه اضطراب التوازن الفكرى، و فى الآية مورد البحث يمكن أن يكون بالمعنيين معا، و إذا قصدنا المعنى الثانى فيكون مفهوم الآية كذلك: أنّهم كانوا يقولون إذا اتّبعنا إنسانا مثلنا فإذا نحن فى ضلال و جنون، و هنا يردّ القرآن الكريم عليهم بقوله: ستعلمون يوم القيامة آثاركم و تكذيبكم للأنبياء هو الضلال و الجنون.

[۳۴۳] (۲)- تفسير الصافى ذيل الآية مورد البحث.

[۳۴۴] (۱)- الكهف، ۴۹.

[۳۴۵] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۳۹.

[۳۴۶] (۱)- تفسير روح المعانى نقل عن البخارى و الترمذى و ابن ماجة و ابن عدى و ابن مردويه و ابن عبّاس، ج ۲۷، ص ۸۱، و ذكر القرطبى مثل هذا الحديث فى تفسيره، ج ۹، ص ۶۳۸.

[۳۴۷] (۱)- مجمع البحرين مادّة(رجا).

[۳۴۸] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۸۶.

[۳۴۹] (۱)-« لمح» على وزن(مسح) و الأصل بمعنى لمعان البرق ثمّ جاءت بمعنى النظر السريع.

[۳۵۰] (۲)- النحل، ۷۷.

[۳۵۱] (۱)- روح المعانى، ج ۲۷، ص ۸۳.

[۳۵۲] (۱)- مجمع البيان بداية سورة الرحمن، و جاء كذلك فى الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۴۰.

[۳۵۳] (۲)- لسان العراب و مجمع البحرين و صحاح اللغة و.

[۳۵۴] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۸۷.

[۳۵۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۳۰۶.

[۳۵۶] (۳)- المصدر السابق.

[۳۵۷] (۱)- الرحمن: مبتدأ و خبرها(علّم القرآن)، و(خلق الإنسان) خبر بعد خبر، كما توجد احتمالات اخرى أيضا لإعراب هذه الجملة لم تذكر هنا لعدم أهميّتها.

[۳۵۸] (۱)- التوبة، ۱۲۸.

[۳۵۹] (۱)- اختلف المفسّرون حول أنّ المفعول الأوّل ل(علّم) هو المحذوف، أو أنّ المحذوف هو المفعول الثانى، و الأنسب أنّ المفعول الأوّل هو المحذوف حيث فى التقدير يكون:(علّم الإنس و الجنّ القرآن).

كما يحتمل البعض أنّ(علّم) لم تأخذ أكثر من مفعول واحد بمعنى موضع العلاقة و هذا مستبعد جدّا.

[۳۶۰] (۱)- دائرة المعارف لفريد وجدى، ج ۸، ص ۳۶۴ مادّة(لغة).

[۳۶۱] (۱)-« حسبان» على وزن(غفران) و هى مصدر بمعنى الحساب و النظم و الترتيب، و للآية محذوف تقديره(و الشمس و القمر تجريان بحسبان).

[۳۶۲] (۱)- سرّ خلق الإنسان، ص ۲۸.

[۳۶۳] (۱)- الراغب فى مفرداته حيث يقول: النجم ما لا ساق له من النبات.

[۳۶۴] (۱)- بحثنا تفصيلا حول معنى(سجود الموجودات المختلفة فى عالم الوجود) فى هامش الآية رقم ۱۸ سورة الحجّ. و كذلك فى هامش الآية ۴۴ من سورة الإسراء.

[۳۶۵] (۲)- تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۹۷.

[۳۶۶] (۱)- آل عمران، ۱۹۱.

[۳۶۷] (۱)- يقول الفخر الرازى فى تفسير لكلمة(الميزان) فى الآية الاولى: إنّها اسم(آلة) بمعنى وسيلة للقياس، و فى الآية الثانية جاء مصدرا(يعنى الوزن)، و فى الآية الثالثة أتى مفعولا بمعنى(جنس الموزون).

[۳۶۸] (۲)- روى هذا الحديث فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام و الحديث مفصّل و قد ذكر مضمونه هنا فقط(تفسير على بن إبراهيم، ج ۲، ص ۳۴۳).

[۳۶۹] (۱)- سرعة الأرض حول الشمس(الحركة الانتقالية) ۳۵ كم فى الثانية، و سرعة سيرها حول نفسها بحدود(۱۶۰۰) كم فى الساعة(فى المناطق الاستوانية).

[۳۷۰] (۲)- الملك، ۱۵.

[۳۷۱] (۱)- لنا بحث مفصّل فى هذا الموضوع فى تفسيرنا هذا، ذيل الآية(۴۷) من سورة فصّلت.

[۳۷۲] (۱)- المفردات للراغب.

[۳۷۳] (۲)- الحجّ، ۵.

[۳۷۴] (۳)- الأنعام، ۲.

[۳۷۵] (۴)- الحجر، ۲۸

[۳۷۶] (۵)- الصافات، ۱۱.

[۳۷۷] (۱)- توضيح: لما كان محور الأرض مائلا بالنسبة لسطح مدارها و بشكل زاوية بحدود ۲۳ درجة، و الأرض بهذه الصورة تدور حول الشمس، لذا فإنّ شروق الشمس و غروبها متغيّر دائما أيضا كما يبدو من ۲۳ درجة و التى تمثّل أعظم الانحراف باتّجاه

الشمال(فی بدایة الصیف) إلی ۲۳ درجة فی قمّة الانحراف باتّجاه الجنوب(بدایة الشتاء)، و یسمّی المدار الأوّل لها مدار« رأس السرطان» و المدار الثانی مدار« رأس الجدی»، و هذان هما مشرقا و مغربا الشمس، و بقیّة المدارات فی داخل هذین المدارین.

[۳۷۸] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹۰(المقصود هو ارتفاع الشمس فی السماء فی فصل الصیف و نزولها فی فصل الشتاء).

[۳۷۹] (۳)- المعارج، ۴۰.

[۳۸۰] (۱)- الفرقان، ۵۳.

[۳۸۱] (۱)- دائرة المعارف فرید و جدی و کتب اخری.

[۳۸۲] (۱)- إبراهیم، ۳۲.

[۳۸۳] (۱)- دائرة المعارف(الثقافیة) ج ۱۲ ص ۱۲۲۸، و کذلک مجلة المیناء و البحر عدد ۴ ص ۱۰۰ بالإضافة إلی مصادر اخری.

[۳۸۴] (۲)- تفسیر القمّی، ج ۲، ص ۳۴۴.

[۳۸۵] (۳)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۴۲.

[۳۸۶] (۱)- القصص، ۸۸.

[۳۸۷] (۱)- تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۹۵.

[۳۸۸] (۱)- أصول الکافی مطابق نقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹۳.

[۳۸۹] (۲)- مجمع البیان نهایة الآیة مورد البحث، و نقل هذا الحدیث أیضا فی روح المعانی من صحیح البخاری.

[۳۹۰] (۳)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۰۲.

[۳۹۱] (۱)- المؤمنون، ۱۰۰.

[۳۹۲] (۲)- سورة یس، ۵۱.

[۳۹۳] (۳)- سورة یس، ۷۹.

[۳۹۴] (۱)- الغدیر، ج ۸، ص ۳۰۱.

[۳۹۵] (۲)- الکامل لابن الأثیر، ج ۴، ص ۴۰.

[۳۹۶] (۳)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۳۳۷.

[۳۹۷] (۱)- یجب الالتفات إلی أنّ رسم الخطّ القدیم فی القرآن المجید کتبت(أیها) فی موارد بصورة(أیه) و التی هی فی الآیة مورد البحث و آیتین أخریین(النور آیة ۳۱، و الزخرف آیة ۴۹) فی الوقت الذی تکتب(أیها) فی الحالات الاخری بالألف الممدودة، و الملاحظ أنّها کانت علی أساس قاعدة رسم الخطّ القدیم.

[۳۹۸] (۲)- مع کون« الثقلین» تنبیه فالضمیر فی لکم أتی جمعا و ذلک إشارة إلی مجموعتین.

[۳۹۹] (۳)- الزلزلة، ۲.

[۴۰۰] (۱)- تفسیر الصافی ص ۵۱۷ و تفسیر مجمع البیان ج ۹ ص ۲۰۵.

[۴۰۱] (۱)- توجد احتمالات متعدّدة فی أنّ(إذا) فی الآیة هل هی شرطیة، أم فجائیة، أم ظرفیة، و الظاهر أنّ الاحتمال الأوّل هو الأولی، و جزاء الشرط محذوف و یمکن تقدیره هکذا:(فإذا انشقّت السماء فکانت وردة کالدهان، کانت أهوال لا یطیقها البیان).

[۴۰۲] (۱)- الصافات، ۲۴.

[۴۰۳] (۲)- الحجر، ۹۲- ۹۳.

[۴۰۴] (۱)- سورة یس، ۶۵.

[۴۰۵] (۲)- کما ورد فی الآیة موضع البحث و الآیتین المشار لهما أعلاه.

[۴۰۶] (۳)- كما ورد فى الآية فى سورة النحل الآية(۱۱۱).

[۴۰۷] (۴)-(سيما) فى الأصل بمعنى العلامة، و تشمل كلّ علامة فى الوجه و سائر مواضع البدن، و لأنّ علامة الرضا و الغضب تبدو فى الوجه أوّلا، فإنّه يتداعى ذكر الوجه فى ذكر هذه المفردات.

[۴۰۸] (۵)- عبس. ۳۹- ۴۱.

[۴۰۹] (۱)- المؤمن، ۷۱- ۷۲.

[۴۱۰] (۱)- فى الصورة الاولى يكون المقام اسم مكان، و فى الثانية يكون مصدرا(ميميّا).

[۴۱۱] (۲)- اصول الكافى طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۹۷ حيث يستفاد من ذيل الحديث أنّ الإمام عليه السّلام ذكر هذا فى تفسير الآية\i وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى E سورة النازعات/ ۴۰ بالرغم من كون محتوى الآيتين واحد

[۴۱۲] (۱)- آل عمران، ۱۵.

[۴۱۳] (۲)- النور، ۳۸.

[۴۱۴] (۱)- يعتقد البعض أنّ أصل ذات و التى هى مفرد مؤنث كانت ذوات، و الواو حذفت للتخفيف و أصبحت ذات و لكون التثنية ترجع الكلمة إلى أصلها، لذا أصبحت(ذواتان) و قد حذفت النون عند الإضافة، و جاء فى مجمع البحرين أنّ أصل(ذو) هو(ذوا) على وزن(عصا) و لذلك فلا عجب أنّ مؤنثها يصبح(ذوات).

[۴۱۵] (۲)- الإنسان، ۱۸.

[۴۱۶] (۱)- المطففون، ۲۷

[۴۱۷] (۲)- متكئين حال لأهل الجنّة الذين ذكروا فى الآيات السابقة بعنوان أنّهم i وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ E.

[۴۱۸] (۱)- إنّ ضمير الجمع فى(فيهنّ) يمكن أن يرجع إلى قصور الجنّة أو الحدائق المختلفة لتلك« الجنّتين» أو« نعمها و هباتها».

[۴۱۹] (۲)-\i لَمْ يَطْمِثْهُنَّ E من مادّة(طمث)، فى الأصل بمعنى دم الدورة الشهرية، و جاءت بمعنى زوال البكارة، و المراد هنا أنّ النساء الباكرات فى الجنّة لم يكنّ لهنّ أزواج قطّ.

[۴۲۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۰۸.

[۴۲۱] (۲)- بيّنا شرحا تفصيليا حول المرجان فى نهاية الآية(۲۲) من هذه السورة.

[۴۲۲] (۳)- ورد السؤال« هل» هنا بصيغة الاستفهام الاستنكارى، و فى الحقيقة أنّ هذه الآية هى نتيجة للآيات السابقة و التى تحدثت عن ستّ نعم من نعم الجنّة.

[۴۲۳] (۱)- تفسير العياشى طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۹۹، تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۰۸.

[۴۲۴] (۱)- روح البيان، ج ۹، ص ۳۱۰.

[۴۲۵] (۱)- مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث.

[۴۲۶] (۲)- المصدر السابق.

[۴۲۷] (۳)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۴۶ و كما ذكرنا أنّ التعبير بالذهب و الفضّة يمكن أن يكون إشارة إلى اختلاف درجة هاتين الجنّتين.

[۴۲۸] (۱)- البقرة، ۹۸.

[۴۲۹] (۱)- نقل هذا التعبير فى حديث للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم(بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۱۶۳).

[۴۳۰] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۱۶۴ حيث جاء فى حديث آخر أنّه أسرع لألسنتهم.

[۴۳۱] (۳)- المصدر السابق، ص ۱۶۵.

[۴۳۲] (۴)- الكافى، ج ۶، ص ۳۵۲.

[۴۳۳] (۱)- الضمير فى(فيهنّ) و الذى هو جمع مؤنث يمكن أن يرجع إلى مجموع الجنّات الأربع، و يمكن أن يكون إشارة إلى الجنّتين اللتين ذكرتا أخيرا، بلحاظ ما فيهما من حدائق عديدة و قصور مختلفة، و هذا أنسب لأنّه فى هذا فصل بين الجنّتين

[۴۳۴] (۱)- قال البعض: إنّ خيرات جمع(خيّرة) على وزن(سيّدة)، و قيل لها خيرات للتخفيف، و اعتبرها آخرون أنّها جمع(خيرة) على وزن(حيرة) و على كلّ حال فإنّها تعطى معنى الوصف، و ليس بمعنى(أفعل التفضيل) لأنّه لا يجمع.

[۴۳۵] (۱)- لسان العرب و مجمع البحرين و المنجد.

[۴۳۶] (۲)- حول معنى الطمث أعطينا توضيحا كافيا فى نهاية الآية رقم(۵۶) من نفس السورة.

[۴۳۷] (۳)- الرعد، ۲۳، و المؤمن، ۸.

[۴۳۸] (۴)- الدّر المنثور، ص ۱۵۱.

[۴۳۹] (۵)- تفسير أبو الفتوح الرازى نهاية الآية مورد البحث.

[۴۴۰] (۱)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶ ص ۱۵۳.

[۴۴۱] (۲)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۵۳.

[۴۴۲] (۳)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۲۷۲.

[۴۴۳] (۱)- سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۳۶.

[۴۴۴] (۲)- اسد الغابة، ج ۳، ص ۲۵۷.

[۴۴۵] (۱)- تأريخ القرآن لمؤلّفه أبو عبد اللّه الزنجانى، ص ۵۹.

[۴۴۶] (۱)- تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۱۲، و تفسير البرهان، ج ۴، ص ۲۷۳.

[۴۴۷] (۲)- خصال الصدوق، الباب الرابع، حديث ۱۰.

[۴۴۸] (۱)- ثواب الأعمال، طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۳.

[۴۴۹] (۲)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۱۲.

[۴۵۰] (۳)- روح المعانى، ج ۲۷، ص ۱۱۱.

[۴۵۱] (۱)- تعتبر(إذا) منصوبة على الظرفية و الناصب له« ليس» الوارد فى الآية الثانية مثل أن نقول« يوم الجمعة ليس لى شغل» و يحتمل أن تكون منصوبة بفعل مقدّر تقديره(ذكر) إلّا أنّ الرأى الأوّل هو الأنسب.

[۴۵۲] (۲)- إنّ سبب كون الضمير مؤنثا لتقديره(نفس كاذبة) أو(قضيّة كاذبة) و اعتبر البعض أنّ(اللام) فى(لوقعتها) للتوقيت، إلّا أنّ الظاهر أنّها للتعدية.

[۴۵۳] (۳)-« خافضة رافعة» خبر لمبتدأ محذوف، و فى الأصل(هى خافضة رافعة).

[۴۵۴] (۱)- الخصال طبقا، نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۴.

[۴۵۵] (۱)- فى تركيب هذه الجملة توجد احتمالات عديدة و أنسبها أن نقول:« أصحاب الميمنة» مبتدأ، و« ما» استفهامية مبتدأ ثان، و أصحاب الميمنة الثانية خبرها، و الخلاصة أنّ جملة(ما أصحاب الميمنة) خبر للمبتدأ الأوّل، و الفاء فى بداية الجملة تفريعيّة و تفسيرية.

[۴۵۶] (۱)- جاء فى الآيات اللاحقة استعمال أصحاب الشمال بدلا من أصحاب المشئمة.

[۴۵۷] (۲)- فى تركيب هذه الآية و الآيات اللاحقة احتمالات عديدة: الأوّل: أنّ i السَّابِقُونَ E الأولى مبتدأ، و الثانية وصف أو تأكيد له\،i أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ E مبتدأ و خبر و التى هى فى المجموع خبر لكلمة\i السَّابِقُونَ E الاولى، و يحتمل البعض الآخر أنّ i السَّابِقُونَ

السَّابِقُونَ E مبتدأ و خبر، و شبّه بشعر أبى النجم المعروف حين يقول:(أنا أبو النجم و شعرى شعرى) و الذى هو فى الواقع نوع من الوصف العالى.

و هناك احتمال آخر و هو أنّ(السابقون) الاولى هى بمعنى السابقين فى الإيمان، و السابقون الثانية بمعنى السابقين إلى الجنّة و التى ستكون كذلك مبتدأ و خبر.

[۴۵۸] (۱)- نقل هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۱۵.

[۴۵۹] (۲)- تفسير المراغى، ج ۲۷، ص ۱۳۴.

[۴۶۰] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۶.

[۴۶۱] (۴)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۹.

[۴۶۲] (۱)- الجار و المجرور الموجود فى الآية(جنّات النعيم) ممكن أن يكون متعلّق بما قبله يعنى(المقرّبين)، أو مرتبطة بحال محذوف جاء للمقرّبين و تقديره(كائنين فى جنّات النعيم)، أو يكون خبرا بعد خبر.

[۴۶۳] (۱)- آل عمران، ۱۱۰.

[۴۶۴] (۲)- البقرة، ۲۵۳.

[۴۶۵] (۳)- تفسير الصافى نهاية الآية مورد البحث.

[۴۶۶] (۴)- تفسير الصافى نهاية الآية مورد البحث

[۴۶۷] (۱)- مفردات الراغب مادّة(سر).

[۴۶۸] (۱)- أكواب جمع كوب بمعنى القدح أو الإناء الذى لا عروة له، و أباريق جمع إبريق و هى فى الأصل أخذت من الفارسية(آبريز) بمعنى الأوانى ذات اليد من جهة، و من الاخرى ذات أنبوب لصبّ السائل، و كلمة كأس تقال للإناء المملوء بالسائل لدرجة يفيض من جوانبه، و معين من مادّة(معن) على وزن(صحن) بمعنى الجارى.

[۴۶۹] (۲)-(يصدّعون) من مادّة(صداع) على وزن(حباب)، بمعنى وجع الرأس، و هذا المصطلح فى الأصل من(صدع) بمعنى(الانفلاق) لأنّ الإنسان عند ما يصاب بوجع رأس شديد فكأنّ رأسه يريد أن ينفلق من شدّة الألم، لذا فإنّ هذه الكلمة قد استعملت فى هذا المعنى.(و ينزفون) من أصل(نزف) على وزن(حذف) بمعنى سحب جميع مياه البشر بصورة تدريجيّة، و تستعمل أيضا حول(السكر) و فقدان العقل.

[۴۷۰] (۱)-(فاكهة و لحم) كلاهما معطوف على أكواب و هذه الأشياء تهدى من قبل(الولدان المخلّدون) إلى المقرّبين.

[۴۷۱] (۲)- بالرغم من تصوّر البعض أنّ(حور عين) عطف على(الولدان المخلّدون) و على هذا الرأى فإنّ ال(حور عين) يطفن- أيضا حول أصحاب الجنّة، و نظرا لعدم تناسب هذا المعنى خصوصا فى المجالس الجماعية لأهل الجنّة، لذا فالظاهر أنّه مبتدأ لخبر محذوف، و التقدير هكذا(و لهم حور عين).

[۴۷۲] (۱)- أبو الفتوح الرازى، ج ۱۱ نهاية الآية مورد البحث.

[۴۷۳] (۱)- سلاما مفعول به ل(قيلا) و الذى هو مصدر، و المقصود أنّ كلامهم هنالك هو(السلام) و يحتمل أن تكون(سلاما) صفة ل(قيلا) أو مفعول به(أو مفعول مطلق) لفعل محذوف تقديره،(يسلّمون سلاما) إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأرجح، و سلاما(الثانية) للتأكيد.

[۴۷۴] (۲)- سورة يس ۵۸- الرعد ۲۴- يونس ۱۰.

[۴۷۵] (۳)- يجب الانتباه إلى أنّ الاستثناء فى الآية\i إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً\E هو استثناء منقطع و يفيد للتأكيد.

[۴۷۶] (۴)- الأنعام، ۱۲۷.

[۴۷۷] (۱)- إنّ الحديث عن تركيب هذه الجملة جاء فى نهاية الآية(۸) من نفس هذه السورة.

[۴۷۸] (۲)- الجار و المجرور متعلّق بعامل مقدّر و الخلاصة أنّها خبر لمبتدأ محذوف تقديره(هم فى سدر مخضود).

[۴۷۹] (۳)- روح المعانى ج ۲۷ ص ۱۲۰، و الدرّ المنثور ج ۶ ص ۱۵۶.

[۴۸۰] (۱)- الفخر الرازى فى التّفسير الكبير نهاية الآية مورد البحث، ج ۲۹، ص ۱۶۲.

[۴۸۱] (۲)- روضة الكافى، مطابق نقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۱۶.

[۴۸۲] (۱)- روح المعانى، ج ۲۷، ص ۱۲۳ و بالضمن يجدر الانتباه إلى أنّ هذه الحالة، مع فاء التفريع عطفت على الآية السابقة.

[۴۸۳] (۱)- فى الصورة الاولى عبارة(أصحاب اليمين) خبر لمبتدأ محذوف، و فى التقدير تصبح هكذا:(هذه كلّها لأصحاب اليمين) و فى الصورة الثانية جار و مجرور متعلّق بأنشأناهنّ، و التّفسير الأوّل أصحّ.

[۴۸۴] (۱)- الحجّ. ۱۹.

[۴۸۵] (۱)- لسان العرب، ج ۹، ص ۱۷.

[۴۸۶] (۱)- النساء، آية ۴۸.

[۴۸۷] (۱)- الزخرف، ۲۳.

[۴۸۸] (۲)- يجب الانتباه هنا إلى تكرا حرف الاستفهام و التعبير ب(أنّ) كلّها للتأكيد.

[۴۸۹] (۳)- الهمزة فى(أو آبائنا الأوّلون) استفهامية، و الواو واو عطف و هنا قدّمت الهمزة الاستفهامية عليها.

[۴۹۰] (۱)- استعملت(إلى) فى هذه الجملة إشارة إلى أنّ القيامة تكون فى نهاية هذا العالم، و يمكن أن تكون هنا بمعنى ب« لام» كما هو فى الكثير من الآيات القرآنية وردت(لميقات).

[۴۹۱] (۲)- هور، الآية ۱۰۳، مريم، الآية ۹۵.

[۴۹۲] (۱)-(من) فى(من شجر) تبعيضية، و(من) فى(زقّوم) بيانية.

[۴۹۳] (۱)- مجمع البحرين و مفردات الراغب، و لسان العرب، و تفسير روح المعانى.

[۴۹۴] (۲)- الجدير بالذكر أنّ فى الآية السابقة كان الضمير مؤنثا(منها) يعود على(شجر من زقّوم) و فى هذه الآية كان الضمير مذكرا(عليه) يعود على الشجر، و ذلك لأنّ الشجر اسم جنس يستعمل للذكر و المؤنث، و كذلك ثمر،(مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث).

[۴۹۵] (۱)-(لولا) فى الاصطلاح تستعمل للحضّ و التحريك لإنجاز عمل ما، و كما يقول البعض فإنّها فى الأصل مركّبة من(لم) و(لا) و التى تعطى معنى السؤال و النفى ثمّ تبدّلت الميم إلى واو، و يستعمل هذا المصطلح فى مكان يتسامح فيه فرد أو أفراد فى إنجاز عمل ما، و يقال لهم: لماذا لا تعملون هكذا و هكذا؟

[۴۹۶] (۲)- سورة يس، ۷۸- ۷۹.

[۴۹۷] (۳)- جاءت« رأيتم» هنا من الرؤية بمعنى العلم و ليست المشاهدة بالعين المجرّدة.

[۴۹۸] (۴)- الحجّ، ۵.

[۴۹۹] (۱)- كتاب أوّل جامعة، ج ۱(بحث معرفة الجنين)، ص ۲۴۱.

[۵۰۰] (۲)- فى هذا الموضوع ذكرنا توضيحات اخرى فى نهاية الآية(۵) من سورة الحجّ.

[۵۰۱] (۱)- طبقا للتفسير الأوّل فإنّ الجار و المجرور فى(على أنّ نبدّل) متعلّق ب(قدّرنا) و الذى جاء فى الآية السابقة، طبقا للتفسير الثانى فإنّها متعلّقة ب(مسبوقين)(يرجى الانتباه).

[۵۰۲] (۱)- اعتبر البعض أن الآية هى إشارة إلى مسخ الأقوام السابقين فى هذا العالم، حيث إن الله سبحانه قد مسخهم بأشكال لا

یعلمونها، إلا أن هذا المعنی لا ینسجم مع ظاهر الآیة.

[۵۰۳] (۱)- سورة ص، ۳۷.

[۵۰۴] (۲)- فصّلت، ۳۹.

[۵۰۵] (۱)- الروم، ۲۷.

[۵۰۶] (۲)- ذکر هذا الحدیث فی تفسیر روح البیان و روح المعانی و القرطبی و المراغی باختلاف مختصر بعنوان خبر، و بدون تصریح باسم الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا أنّ ظاهر تعبیراتهم أنّ الحدیث للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و فی کتاب الکافی أیضا نقل القسم الأوّل من هذا الحدیث عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام.

[۵۰۷] (۱)- القسم الأوّل من الحدیث جاء فی تفسیر مجمع البیان نهایة الآیة مورد البحث، و نقل القسم الثانی فی روح البیان کإضافة علیه.

[۵۰۸] (۲)- بالرغم من أنّ الحبّة الواحدة من الحنطة لا تنبت سوی عدّة مئات من الحبوب، إلّا أنّه کما قلنا فی ج ۲ من هذا التّفسیر: أنّه قد وجد فی بعض مزارع القمح فی إحدی المحافظات الجنوبیة لإیران أنّ سنبلة واحدة تحوی علی أربعة آلاف حبّة و ذلک طبقا لما أعلنته منشورات صحفیة.

[۵۰۹] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی نهایة الآیة مورد البحث.

[۵۱۰] (۲)- لجملة\i إِنَّا لَمُغْرَمُونَ E محذوف، تقدیره(و تقولون إنّا لمغرمون).

[۵۱۱] (۳)-« مغرمون»: من مادّة(غرامة) بمعنی الضرر و فقدان الوقت و المال.

[۵۱۲] (۱)- لسان العرب مادّة مزن.

[۵۱۳] (۱)- فی هذه الجملة حذفت اللام و فی التقدیر هکذا« لو نشاء لجعلناه».

[۵۱۴] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۲۷، ص ۱۴۸، و تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۱۲۹.

[۵۱۵] (۱)- سورة یس، الآیة ۸۰.

[۵۱۶] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۳۹۲، و تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۱۳۱.

[۵۱۷] (۲)- من الجدیر بالملاحظة أنّ کلمة(متاع) تطلق علی کلّ وسیلة یستفید منها الإنسان فی حیاته.

[۵۱۸] (۱)- الباء فی(باسم ربّک) یمکن أن تکون للتعدیة(حیث إنّ الفعل المتعدّی سبّح یؤخذ بمنزلة اللازم) و احتمل البعض أیضا أنّ الباء هنا جاءت للاستعانة أو زائده أو ملابسة، إلّا أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب.

[۵۱۹] (۲)- تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۱۳۰.

[۵۲۰] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۶۱.

[۵۲۱] (۲)- ذکر هذا الحدیث المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان بکونه حدیثا صحیحا، ج ۹، ص ۲۲۴، و جاء أیضا فی کتاب(من لا یحضره الفقیه) مطابقا لنقل نور الثّقلین، ج ۵، ص ۲۲۵، و کذلک فی تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۶۸.

[۵۲۲] (۱)- اللّه و العلم الحدیث، ص ۳۳.

[۵۲۳] (۱)- الراغب فی المفردات مادّة(کریم).

[۵۲۴] (۱)-« لا یمسّه» جملة خبریة یمکن أن تکون بمعنی النهی أو النفی.

[۵۲۵] (۲)- البقرة، ۲.

[۵۲۶] (۳)- تنزیل هنا مصدر بمعنی اسم مفعول أی(منزل) و هو خبر لمبتدأ محذوف، أو أنّه خبر بعد خبر.

[۵۲۷] (۱)- طبقا لهذا التّفسیر فإنّ کلمة(شکر) هنا محذوفة و تقدیرها کالتالی:« و تجعلون شکر رزقکم أنّکم تکذّبون»، أو أنّ الرزق

كناية عن(شكر الرزق).

[۵۲۸] (۲)- طبقا لهذين التّفسيرين فلا يوجد شيء مقدّر.

[۵۲۹] (۱)- نقل هذا الحديث الطبرسى فى مجمع البيان و نقل أيضا فى الدّر المنثور، ج ۶، ص ۱۶۳، و القرطبى، ج ۹، ص ۶۳۹۸: و المراغى، ج ۲۷، ص ۱۵۲، و روح المعانى، ج ۲۷، ص ۱۵۳ فى نهاية الآيات مورد البحث باختلاف يسير.

[۵۳۰] (۲)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۶۳، و نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۲۷.

[۵۳۱] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱، ص ۲۶۹، الحديث(۳) و طبقا لهذا الحديث فإنّ النفى فى الآية أعلاه كناية عن النهى.

[۵۳۲] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱، ص ۲۷۰، الحديث ۵.

[۵۳۳] (۳)- نقل هذا الحديث فى الدرّ المنثور عن عبد اللّه بن عمر و معاذ بن جبل و ابن حزم الأنصارى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ج ۹، ص ۱۶۲.

[۵۳۴] (۴)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۶۲.

[۵۳۵] (۱)- للآية محذوف تقديره(فلو لا إذا بلغت الحلقوم لا ترجعونها و لا تملكون شيئا) و هذا ما يستفاد من الآيات اللاحقة و قد لحقت تاء التأنيث بالفعل لأنّها متعلّقة بالنفس.

[۵۳۶] (۲)- احتمل البعض أنّ المخاطب هنا هو الشخص المحتضر، و هذا بعيد جدّا حسب الظاهر، لأنّ الآية اللاحقة توضّح بصورة جيّدة أنّ المخاطب هم متعلّقوا المحتضر.

[۵۳۷] (۱)- مروج الذهب، طبق لنقل سفينة البحار، ج ۱، ص ۴۴.

[۵۳۸] (۲)- القيامة، ۲۶.

[۵۳۹] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۲۸، حديث ۱۰۳، ۱۰۴.

[۵۴۰] (۲)-« روح» من الممكن أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره(فجزاؤه روح)، أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره(فله روح)، و جملة(فروح و ريحان و جنّة نعيم) تكون جزاء(أمّا) و انّ الشرطية مع وجود هذا الجزاء مستغنية من الجزاء الآخر(يرجى الانتباه).

[۵۴۱] (۳)- الواقعة، ۲۶.

[۵۴۲] (۴)- و بناء على هذا فللآية تقديران، الأوّل بلحاظ أنّ(من) بيانية، و عندئذ تكون الصورة كما يلى: يقال له: سلام لک من أصحاب اليمين. أمّا الصورة الثانية فبلحاظ أنّ(من) ابتدائية فتكون بالشكل التالى: سلام لک انّک كنت من أصحاب اليمين. إلّا أنّه بملاحظة التّفسير الأوّل فإنّ له تقديرا واحدا و هو:(يقال له ...).

[۵۴۳] (۵)- النمل، ۳۲.

[۵۴۴] (۱)- حول التحيّات التى تقدّم لأصحاب الجنّة، جاء بحث مفصّل عنها فى نهاية الآية(۵۸) من سورة يونس.

[۵۴۵] (۲)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۲۸۵.

[۵۴۶] (۳)- نزل خبر لمبتدأ محذوف تقديره فجزاؤه نزل من حميم، أو مبدأ لخبر محذوف تقديره، فله نزل من حميم.

[۵۴۷] (۴)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۲۹.

[۵۴۸] (۱)- طبقا لهذا التّفسير فإنّ إضافه حقّ إلى كلمة(يقين) جاءت للاختصاص و التقييد، و اعتبرها البعض- أيضا- من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة و قالوا بمعنى(اليقين) الحقّ.

[۵۴۹] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى، و روح المعانى، و روح البيان، القرطبى، و الدرّ المنثور، و تفسير المراغى، فى نهاية الآيات مصدر البحث.

[۵۵۰] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶ ص ۱۶۶.

[۵۵۱] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۲۸، حدیث ۱۰۶.

الجزء الثامن عشر

«سورة الحدید»

محتوى السورة:

نزلت هذه السورة فی المدینة، و ادّعى البعض الإجماع على ذلک، لذا فإنّ خصائصها هی نفس خصائص السور المدنیة، فإنّها بالإضافة إلى تحکیم الضوابط العقائدیة فإنّها تستعرض تعلیمات عملیة عدیدة خصوصا فی المجادلات الاجتماعیة و الحکومیة، کما نشاهد نماذج لذلک فی الآیات (۱۰، ۱۱، ۲۵) من هذه السورة.

و نستطیع أن نقسّم موضوعات هذه السورة إلى سبعة أقسام:

الأوّل: الآیات الاولى من هذه السورة لها بحث جامع و لطیف حول التوحید و صفات اللّه تعالى، و تذکّر ما یقرب من عشرین صفة من الصفات الإلهیّة، حیث تجعل الإنسان المدرک لها فی مستوى عال من المعرفة الإلهیّة.

الثانی: یتحدّث عن عظمة القرآن، هذا النور الإلهی الذی أشرق فی ظلمات الشرک.

الثالث: یستعرض وضع المؤمنین و المنافقین فی یوم القیامة، حیث أنّ القسم الأوّل یأخذ طریقه إلى الجنّة فی ظلّ نور إیمانهم، و القسم الثانی یبقى فی ظلمات الشرک و الکفر، و بهذا تعکس السورة فی أبحاثها الأصول الإسلامیة الثلاثة:

التوحید و النبوّة و المعاد.

الرابع: تتحدّث الآیات فیه عن الدعوى إلى الإیمان و الخروج من الشرک، و عن مصیر الأقوام الضالّة من الأمم السابقة.

الخامس: جزء مهمّ من هذه السورة یتحدّث حول الإنفاق فی سبیل اللّه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸

و خصوصا فی تقویة أسس الجهاد فی سبیل اللّه، و أنّ مال الدنیا لیس له وزن و قیمة.

السادس: فی قسم قصیر من الآیات- إلّا أنّه واف و مستدلّ- یأتی الحدیث عن العدالة الاجتماعیة و التی هی إحدى الأهداف الأساسیة للأنبیاء.

السابع: و فیه تتحدّث الآیات عن سلبیة الرهبانیة و الانزواء الاجتماعی و أنّ ذلک یمثّل ابتعادا عن الخطّ الإسلامی.

و من الطبیعی أنّ بین ثنایا هذه البحوث وردت نقاط اخرى متناسبة شکلت فی النهایة مجموعة اتّجاهات بنّاءة فی مجال الإیقاظ و الهدایة.

و بالضمن فإنّ تسمیة هذه السورة ب (سورة الحدید) هو لما جاء فی الآیة ۲۵ من السورة من ذکر کلمة الحدید.

فضیلة تلاوة سورة الحدید:

وردت فی الروایات الإسلامیة نقاط جدیرة بالملاحظة حول فضیلة تلاوة سورة الحدید، و ممّا لا شکّ فیه أنّ المقصود فی التلاوة هی تلاوة التدبّر و التفکّر الذی یکون توأما، مع العمل.

قال رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم: (من قرأ سورة الحدید کتب من الذین آمنوا باللّه و رسوله)[۱].

و نقل

فی حدیث آخر عن الرّسول الأکرم صلّى اللّه علیه و آله و سلّم أنّه کان یتلو (المسبّحات) قبل النوم (و المسبّحات هی السور التی تبدأ

ب (سبّح للّه، أو يسبّح للّه. و هى خمس سور: سورة الحديد و الحشر و الصفّ و الجمعة و التغابن) و يقول: «إنّ فيهنّ آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹

أفضل من ألف آية»[۲].

و طبيعى أنّ الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يعيّن هذه الآية، إلّا أنّ بعض المفسّرين احتمل أن تكون آخر آية فى سورة الحشر، بالرغم من عدم وجود دليل واضح على هذا المعنى ۳].

و نقرأ حديثا

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: (من قرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام لم يمت حتّى يرى القائم، و إن مات كان فى جوار رسول اللّه».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰

الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۳)

التّفسير

آيات للمتفكّرين:

قلنا: إنّ هذه السورة بدأت بقسم التوحيد، الذى يشتمل على عشرين صفة من صفات اللّه سبحانه، تلك الصفات التى بمعرفتها يصل الإنسان إلى مستوى عال من المعرفة الإنسانية باللّه، و تعمّق معرفته بذاته المقدّسة، و هذه الأوصاف و التى تشير إلى جانب من صفات جلاله و جماله، كلّما تعمّق العلماء و أهل الفكر فيها توصّلوا إلى حقائق جديدة عن الذات الإلهيّة المقدّسة.

عند ما

سئل الإمام على بن الحسين عليه السّلام عن التوحيد أجاب: «إنّ اللّه عزّ و جلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱

علم أنّه يكون فى آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل اللّه تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، و الآيات فى سورة الحديد إلى قوله: عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ و من رام وراء ذلك فقد هلك»[۴].

يستفاد من هذا الحديث أنّ هذه الآيات تعطى للظمأى من طلّاب الحقيقة أقصى حدّ للمعرفة الممكنة.

و على كلّ حال فإنّ أوّل آية من هذه السورة بدأت بتسبيح و تنزيه اللّه عزّ و جلّ حيث يقول سبحانه: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

لقد انتهت السورة السابقة بأمر التسبيح، و ابتدأت هذه السورة المباركة بالتسبيح الإلهى أيضا. و الجدير بالملاحظة أنّ فى سور

المسبّحات الخمس جاءت كلمة التسبيح ثلاث مرّات بصيغة الماضى (سبّح) فى سور الحديد و الحشر و الصفّ، و فى موردين جاءت بصيغة المضارع (يسبّح) فى سور الجمعة و التغابن، و هذا الاختلاف فى التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ جميع الكائنات فى العالم قد سبّحت و تسبّح لذاته المقدّسة فى الماضى و المستقبل.

و حقيقة «التسبيح» عبارة عن نفى كلّ عيب و نقص ۵] عن الذات الإلهيّة، و شهادة جميع الكائنات فى هذا العالم بطهارة ذاته من كلّ عيب، حيث أنّ النظم و الحساب و الحكمة و العجائب فى نظام الكائنات .. هذه جميعها تذكر (اللّه) بلسان حالها و تسبّحه و تحمده و تنزّهه و تؤكّد أنّ لخالقها قدرة لا متناهية، و حكمة لا محدودة.

و لذا جاء فى نهاية هذه الآية: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

كما يحتمل أن تتمتّع جميع ذرّات الوجود بنوع من الإدراك و الشعور بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲

تسبّح و تحمد اللّه عزّ و جلّ فى عالمها الخاصّ، بالرغم من عدم معرفتنا لذلك بسبب محدودية علمنا و اطّلاعنا.

من أجل تفصيل أكثر حول حمد و تسبيح الكائنات أجمع يراجع نهاية الآية (۴۴) من سورة الإسراء.

و يجدر الانتباه إلى أنّ (ما) فى جملة (سبّح للّه ما فى السماوات) لها معنى واسع بحيث تشمل كلّ موجودات العالم، أعمّ من ذوى العقول و الأحياء و الجمادات ۶].

و بعد ذكر صفتين من صفات الذات الإلهية يعنى (العزّة و الحكمة) يتطرّق إلى (مالكيّته و تدبيره، و قدرته فى عالم الوجود) و التى هى من مستلزمات القدرة و الحكمة، حيث يقول تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إنّ مالكية اللّه عزّ و جلّ لعالم الوجود ليست مالكية اعتبارية و تشريعية، إذ أنّها مالكية حقيقيّة و تكوينيّة. و هذا يعنى أنّ اللّه سبحانه محيط بكلّ شىء، و أنّ جميع العالم فى قبضته و قدرته و تحت إرادته و أوامره، لذا فقد جاء الحديث بعد هذا الكلام عن (الإحياء و الإفناء) و القدرة على كلّ شىء.

إلى هنا ذكرت فى الآيتين الآنفتين ستّة أوصاف من صفاته الكريمة.

الاختلاف بين «العزّة» و «القدرة» هو أنّ العزّة أكثر دلالة على تحطيم المقابل و القدرة تعنى توفير الأسباب و إيجادها. و بناء على هذا فإنّهما يعدّان و صفين مختلفين بالرغم من أنّهما مشتركان فى أصل القدرة (يرجى ملاحظة ذلك).

مسألة (الإحياء و الإماتة) قد ذكرت فى آيات عديدة فى القرآن الكريم، و فى الواقع انّهما من الموضوعات التى لم تتوضّح أسرارهما المعقّدة لأى شخص، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳

لا- يوجد شخص يعلم- بوضوح- حقيقة الحياة و لا حقيقة الموت، إلّا أنّ الذى نعلمه عنهما هو آثارهما. و العجيب أنّ الحياة أقرب شيء لنا و لكنّنا لا نعرف أى شيء عن حقيقتها و أسرارها.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا أنّ جملة (يحيى و يميت) جاءت بصورة فعل مضارع ممّا يدلّل على استمرار مسألة الحياة و الموت على طول الأزمنة، و إطلاق هذين المعنيين لا يشمل حياة و موت الإنسان فى هذا العالم فقط، بل يشمل كلّ حياة و ممات بدءا من الملائكة و انتهاء بكلّ موجود حىّ من الحيوانات و النباتات المختلفة، كما أنّها لا تقتصر على الحياة الدنيا فقط، بل تشمل حياة البرزخ و القيامة أيضا.

نعم، إنّ الموت و الحياة بكلّ أشكالها بيد القدرة الإلهية المتعالية.

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى ذكر خمس صفات اخرى حيث يقول: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الوصف هنا ب الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ تعبير رائع عن أزليّته و أبديّته تعالى، لأنّنا نعلم أنّه وجود لا متناهى و أنّه (واجب الوجود) أى أنّ وجوده

من نفس ذاته، و ليس خارجا عنه حتّى تكون له بداية و نهاية، و بناء على هذا فإنّه كان من الأزل و سيبقى إلى الأبد.

إنّه بداية عالم الوجود، و هو الذى سيبقى بعد فناء العالم أيضا.

و بناء على هذا فإنّ التعبير ب الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ ليس له زمان خاصّ أبدا، و ليس فيه إشارة إلى مدّة زمنية معيّنة.

و الوصف ب الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ هو تعبير آخر عن الإحاطة الوجودية- أى وجود اللّه- بالنسبة لجميع الموجودات، أى أنّه أظهر من كلّ شىء لأنّ آثاره شملت جميع مخلوقاته فى كلّ مكان، و هو خفىّ أكثر من كلّ شىء أيضا لأنّ كنه ذاته لم يتّضح لأحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴

و لقد عبّر بعض المفسّرين عن ذلك بأنّه: الأوّل بلا ابتداء، و الآخر بلا انتهاء، و الظاهر بلا اقتراب، و الباطن بلا احتجاب.

و عبّر البعض الآخر عنه تعبيرا رائعا آخر: الأوّل ببرّه، و الآخر بعفوه، و الظاهر بإحسانه و توفيقه إذا أطعته، و الباطن بستره إذا عصيته.

و باختصار فإنّه محيط بكلّ شىء، و إنّه (بداية و نهاية، و ظاهر و باطن) عالم الوجود.

و فسّر بعض المفسّرين (الظاهر) هنا بمعنى «الغالب» (من الظهور بمعنى الغلبة) و نلاحظ فى بعض خطب نهج البلاغة قرينة على هذا المعنى حيث يقول عليه السّلام حول خلق الأرض:

«هو الظاهر عليها بسلطانه و عظمته، و هو الباطن لها بعلمه و معرفته»[۷].

و لا مانع من جمع هذين التّفسيرين.

و على كلّ حال فإنّ أحد نتائج هذه الصفات المتقدّمة هو ما جاء فى نهاية الآية الكريمة: وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إذ أنّ من كان فى البداية و يبقى فى النهاية، و موجود فى ظاهر و باطن العالم .. سيكون عالما بكلّ شىء قطعا.

بحث

جمع الأضداد فى صفات اللّه:

من الواضح أنّ الكثير من الصفات لا يمكن جمعها فينا نحن البشر، و كذا الأمر بالنسبة للموجودات الاخرى. فمثلا: من كان فى أوّل الصفّ لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت فى آخره، و كذلك إذا كنت ظاهرا فليس بالمقدور أن تكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵

فى نفس الوقت باطنا و العكس صحيح أيضا. و السبب فى ذلك هو محدودية وجودنا، فالوجود المحدود لا يستطيع أن يكون غير ذلك، إلّا أنّ الحديث عند ما يكون عن صفات اللّه فسيتغيّر الأمر، حيث يمكن الجمع فى هذه الحالة بين الظاهر و الباطن، و بين البداية و النهاية، و ذلك لطبيعة صفات الذات الإلهيّة المقدّسة اللامتناهية، و لذلك فلا عجب هنا.

و قد وردت أحاديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فيها توضيحات رائعة تساعد على تفسير هذه الآيات ذات المحتوى العميق، و من جملتها ما

ورد فى صحيح مسلم عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «اللهمّ أنت الأوّل فليس قبلك شىء، و أنت الآخر فليس بعدك شىء، و أنت الظاهر فليس فوقك شىء، و أنت الباطن فليس دونك شىء»[۸].

و

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام: «ليس لأوّليّته ابتداء، و لا لأزليّته انقضاء، هو الأوّل لم يزل، و الباقى بلا أجل .. الظاهر لا يقال ممّ؟ و الباطن لا يقال فيم؟»[۹].

و

يقول الإمام المجتبى عليه السّلام فى خطبة له: «الحمد للّه الذى لم يكن فيه أوّل معلوم، و لا آخر متناه ... فلا تدرك العقول و أوهامها، و لا الفكر و خطراتها. و لا الألباب و أذهانها صفته، فتقول متى و لا بدع ممّا؟ و لا ظاهر على ما؟ و لا باطن فيما؟»[۱۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶

الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۵) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۶)

التفسير

على عرش القدرة دائما:

تحدّثت الآيات السابقة عن إحدى عشرة صفة للذات الإلهيّة المقدّسة، و تبيّن الآيات أعلاه أوصافا اخرى حيث أشير فى الآية الاولى مورد البحث إلى خمسة أوصاف اخرى من صفات جلاله و جماله.

و يبدأ الحديث عن مسألة الخلقة حيث يقول سبحانه: هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷

لقد ذكرت مسألة الخلقة فى (ستّة أيّام) سبع مرّات فى القرآن الكريم، المرّة الاولى فى الآية ۵۴ من سورة الأعراف، و الأخيرة هى هذه الآية مورد البحث (الحديد- الآية ۴).

و كما قلنا سابقا فإنّ المقصود من (اليوم) فى هذه الآيات ليس المعنى المتعارف (لليوم)، بل المقصود هو (الزمان) سواء كان هذا الزمان قصيرا أو طويلا حتّى لو بلغ ملايين السنين، و هذا التعبير يستعمل أيضا فى لغة العرب و اللغات المختلفة، كما يقال مثلا: اليوم يحكم فلان، و غدا سيكون لغيره، بمعنى الدورة الزمنية.

و قد بيّنا هذا المعنى مع شرح و أمثلة فى نهاية الآية ۵۴ من سورة الأعراف.

و طبيعى أنّه لا يوجد أى مانع للّه عزّ و جلّ من خلق جميع العالم فى لحظة واحدة، و لكن فى هذه الحالة سوف لا تتجلّى عظمة اللّه و قدرته و علمه بشكل جيّد، و بعكس عظمة و قدرة و علم اللّه بصورة أقل، ذلك خلق هذه العوالم خلال مليارات السنين و فى أزمنة و حالات مختلفة و وفقا لبرامج منظّمة و محسوبة سيدلل أكثر على قدرته و حكمته، بالإضافة إلى أنّ التدرّج فى الخلق سيكون نموذجا للسير التكاملى للإنسان، و عدم السرعة و الاستعجال فى الوصول إلى الأهداف المختلفة.

ثمّ تتطرّق الآيات إلى مسألة الحكومة و تدبير العالم حيث يقول سبحانه: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ

إنّ زمام حكومة و تدبير العالم كانت دائما بيده و لا زالت، و بدون شكّ فإنّ اللّه تعالى ليس جسما، و لذا فليس معنى «العرش» هنا هو عرش السلطة، و التعبير كناية لطيفة عن الحاكمية المطلقة للّه سبحانه و نفوذ تدبيره فى عالم الوجود.

«عرش» فى اللغة بمعنى الشىء المسقوف، و تطلق أحيانا للسقف نفسه، و يعنى أيضا التخوت العالية (عرش السلاطين).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸

و تستعمل هذه اللفظة کنایة عن القدرة أیضا کما یقال فی اللغة العربیة: (فلان ثلّ عرشه)[۱۱].

و علی کلّ حال- و خلافا لما یتصوّره البعض ممّن أعمی اللّه بصیرتهم أنّه سبحانه و تعالی قد خلق العالم و ترکه و شأنه- فإنّ زمام تدبیر العالم و تسییر حکومته فی کفّ قدرته، و ارتباط أنظمة العالم، بل کلّ فرد من أفراد الوجود بذاته المقدّسة، بحیث إذا أعرض لحظة واحدة عن الکائنات و قطع فیضه عنهم فإنّ الوجود سینتهی.

و التوجّه إلی هذه الحقیقة یعطی للإنسان إدراکا و بصیرة، و هی أنّ اللّه تعالی فی کلّ مکان و مع کلّ شیء، و هو یری و یسمع و یراقب و یدیر الوجود بحکمته و لطفه.

ثمّ یستعرض نوعا آخر من علمه اللامتناهی بقوله تعالی: یَعْلَمُ ما یَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ ما یَخْرُجُ مِنْها وَ ما یَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما یَعْرُجُ فِیها.

و بالرغم من أنّ جمیع هذه الأمور التی ذکرت فی الآیات السابقة قد جمعت فی تعبیر وَ هُوَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ إلّا أنّ توضیح هذه الأمور یعطی للإنسان توجّها أکثر فی مجال سعة علم اللّه.

نعم، إنّ جمیع ما ینفذ فی الأرض یعلم به اللّه، سواء قطرات المطر و السیول.

و من بذور النبات التی تنتشر فی الأرض بمساعدة الهواء و الحشرات.

و من جذور الأشجار التی تنفذ- بحثا عن الماء و الغذاء- إلی أعماق الأرض.

و من أنواع المعادن و الذخائر التی کانت یوما علی سطح الأرض ثمّ دفنت فیها.

من أجساد الموتی و أنواع الحشرات ... نعم انّه یعلم بکلّ ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹

ثمّ انّه یعلم بالنباتات التی تخرج من الأرض.

و بالعیون التی تفور من أعماق التراب و الصخور.

و بالمعادن و الکنوز التی تظهر.

و بالبشر الذین ظهروا ثمّ ماتوا.

و بالبراکین التی تخرج من أعماقها.

و بالحشرات التی تخرج من بیوتها و جحورها.

و بالغازات التی تتصاعد منها.

و بأمواج الجاذبیة التی تصدر منها الجاذبیة .. اللّه تعالی یعلم بذلک جزءا جزءا و ذرّة ذرّة.

و کذلک ما ینزل من السماء من قطرات المطر إلی أشعّة الشمس الباعثة للحیاة.

و من الأعداد العظیمة من الملائکة إلی أنوار الوحی و الکتب السماویة.

و من أشعّة الکونیة إلی الشهب و النیازک المنجذبة نحو الأرض، إنّه عالم بأجزاء کلّ ذلک.

و کذلک ما یصعد إلی السماء، أعمّ من الملائکة، و أرواح البشر، و أعمال العباد، و أنواع الأدعیة، و أقسام الطیور، و الأبخرة، و الغیوم و غیر ذلک، ممّا نعلمه و ممّا لا نعلمه، فإنّه واضح عند اللّه و فی دائرة علمه.

و إذا فکّرنا قلیلا بأنّ فی کلّ لحظة تدخل الأرض ملایین الملایین من الموجودات المختلفة، و ملایین الملایین من الموجودات تخرج منها، و ملایین الملایین تنزل من السماء أو تصعد إلیها، حیث تخرج عن العدّ و الحصر و الحدّ، و لا یستطیع أی مخلوق أن یحصیها .. إذا فکّرنا بهذا الموضوع قلیلا فسنعرف مدی اتّساع علمه سبحانه.

و أخیرا فی رابع و خامس صفة له سبحانه یرکّز حول نقطة مهمّة حیث یقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰

وَ هُوَ مَعَکُمْ أَيْنَ ما کُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ.

و کیف لا یکون معنا فی الوقت الـذی نعتمد علیه، لیس فی إیجادنا فحسب بل فی البقاء لحظة بلحظة- أیضا- و نسـتمدّ منه العون، إنّه روح عالم الوجود، بل هو أعلی من ذلک و أسمی.

فـاللّه معنا فی کلّ الحالات و فی کلّ الأوقات، فهو معنا یوم کنّا ذرّة تراب مهملـة، و هو معنا یوم کنّا أجنّة فی بطون أمّهاتنا، و هو معنا طیلة عمرنا، و فی عالم البرزخ ... فهل بالإمکان- مع هذا- ألّا یکون مطّلعا علینا؟

الحقیقـة أنّ الإحسان بأنّ اللّه معنا فی کلّ مکان یعطی للإنسان عظمة و جلالا من جهة، و من جهة اخری یخلق فیه اعتمادا علی النفس و شجاعة و شهامة، و من جهة ثالثة فإنّه یثیر إحساسا شدیدا بالمسؤولیة، لأنّ اللّه حاضر معنا فی کلّ مکان، و ناظر و مراقب لأعمالنا، و هذا أکبر درس تربوی لنا. و هذا الإعتقاد یمثّل دافعا جدّیا للتقوی و الطهارة و العمل الصالح فی الإنسان، و یعتبر رمز عظمته و عزّته.

أجـل: إنّ مسألـة أنّ اللّه تعالی معنا دائما و فی کلّ مکان هی حقیقـة و لیست کنایـة و مجازا، حقیقـة مقبولـة للنفس و مربّیـة للروح، و مولّدة للخوف و المسؤولیة.

و لذا

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ من أفضل إیمان المرء أن یعلم أنّ اللّه تعالی معه حیث کان»[۱۲].

و نقرأ

فی حدیث آخر أنّ موسی علیه السّلام قال: «أین أجدک یا ربّ، قال عزّ و جلّ:

یا موسی إذا قصدت إلیّ فقد وصلت إلیّ»[۱۳].

و فی الأساس فإنّ هـذه (المعیّة) أی کون اللّه عزّ و جلّ مع عباده، ظریفة و دقیقة بحیث أنّ کلّ إنسان مؤمن متفکّر یدرکها بقدر فکره و إیمانه.

و بعد مسألة الحاکمیة و التدبیر یأتی الحدیث عن مسألة مالکیته سبحانه فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱

کلّ عالم الوجود، حیث یقول: لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و أخیرا یشیر إلی مسألة مرجعیّته فیقول تعالی: وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

نعم، عند ما یکون الخالق و المالک و المدبّر معنا فی کلّ مکان، فمن البدیهی أن یکون رجوعنا و رجوع أعمالنا إلیه کذلک.

نحن سلکنا طریق عشقه و محبّته، و بدأنا المسیر حاملین معنا الأمل من نقطة العدم باتّجاهه، و قد سلکنا شوطا طویلا إلی أن وصلنا إلی مرتبة الوجود .. نحن من اللّه سبحانه، و إلیه نرجع، لما ذا؟ لأنّه هو المبدئ و إلیه المنتهی.

و الجدیر بالذکر أنّ الآیات الثلاث الآنفة الذکر قد جاء فیها مثل هذا الوصف أیضا: لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و یمکن أن یکون التکرار هنا بلحاظ أنّ الحـدیث کان- فقط- عن مسألة حیاة و موت الموجودات الحیّة، و هنا نلاحظ توسّع البحث و شمولیّته فی رجوع کلّ شیء للّه سبحانه.

و فی تلک الآیات مقدّمة عن بیان قدرة اللّه عزّ و جلّ علی کلّ شـیء، و هنا مقدّمة لرجوع کلّ شـیء إلیه، و هاتان القضیّتان تستلزمان مالکیّة اللّه عزّ و جلّ للأرض و السماء.

التعبیر ب «الأمور» جاء- هنا- بصـیغة الجمع، أی: أنّ جمیع الموجودات- و لیس الإنسان فحسب- تتحرّک باتّجاهه حرکـة دائمة و غیر قابلة للتوقّف.

و بنـاء علی هـذا فـإنّ معنی الآیـة لا- ینحصـر- فقـط- برجوع البشـر إلیه فی الآخرة، بالرغم من أنّ موضوع المعاد من المصادیق البارزة

لذلك الرجوع العامّ.

و فى آخر مورد للبحث يشير إلى صفتين أخريين بقوله تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲

نعم، بالتدريج ينقص أحد الوقتين (الليل و النهار) ليضيف للآخر، و تبعا لذلك يتغيّر طول النهار و الليل فى السنة، و هذا التغيّر يكون مصحوبا بالفصول الأربعة فى السنة مع كلّ البركات التى تكون مختّصة فى هذه الفصول لبنى الإنسان.

و هناك تفسير آخر لهذه الآية و هو: إنّ شروق و غروب الشمس لن يحدثا فجأة و دون مقدّمات حتّى لا تجلب هذه الحالة المشاكل للإنسان و الموجودات الحيّة الاخرى، بل يتمّ هذا التغيير بصورة تدريجيّة، و تنتقل الموجودات رويدا رويدا من عالم الضوء فى النهار إلى ظلمة الليل، و من ظلمة الليل إلى ضوء النهار، و يعلن كلّ منهما وصولهما قبل مدّة حتّى يتهيّأ الجميع لذلك.

و الجمع بين التّفسيرين لمفهوم الآية ممكن أيضا.

و يضيف سبحانه فى النهاية: وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

فكما أنّ أشعّة الشمس الباعثة للحياة تنفذ فى أعماق ظلمات الليل، و تضىء كلّ مكان، فإنّ اللّه عزّ و جلّ ينفذ كذلك فى كلّ زوايا قلب و روح الإنسان، و يطّلع على كلّ أسراره.

و النقطة الجديرة بالملاحظة فى الآيات السابقة أنّ الحديث كان عن علم اللّه سبحانه بأعمالنا (و الله بصير عليم) و هنا الكلام عن علم اللّه عزّ و جلّ بأفكارنا و عقائدنا و ما تكنّه صدورنا، وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

كلمة (ذات) فى الاصطلاح الفلسفى تعنى (عين الشىء و حقيقته) إلّا أنّها فى اللغة بمعنى (صاحب الشىء) و بناء على هذا فإنّ (ذات الصدور) إشارة إلى النيّات و الإعتقادات التى استولت على قلوب البشر.

و كم هو رائع أن يؤمن الإنسان بكلّ هذه الصفات الإلهيّة من أعماق نفسه، و يحسّ حضوره سبحانه فى كلّ أعماله و نيّاته و عقائده، إحساسا لا يخرجه عن جادّة الطاعة و طريق العبودية، إحساسا يبعده عن طريق العصيان و السوء و الانحراف ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳

تعقيب

آيات الاسم الأعظم:

قسّم الفلاسفة و المتكلّمون الصفات الإلهيّة إلى قسمين:

أحدهما: «صفات الذات» و التى تبيّن أوصاف جلاله و جماله. و الاخرى:

«صفات الفعل» التى تبيّن الأفعال الصادرة من ذاته المباركة، كما جاء فى الآيات الستّ فى بداية هذه السورة المباركة، و التى يجدر أن تسمّى: ب (آيات المتعمّقين) تماشيا مع حديث فى هذا الصدد.

و قد وردت عشرون صفة من أوصاف الذات الإلهيّة و الأفعال بدءا من علمه و قدرته و حكمته و أزليّته و أبديّته سبحانه، إلى خلقه و تدبيره و مالكيّته و إحاطته عزّ و جلّ بكلّ الموجودات و حضوره فى كلّ مكان، هذه الأوصاف و التعابير تعطينا عمقا أكثر فى التوجّه إلى الإيمان و السعى لإضاءة مشعل وجودنا و أفكارنا المحدودة ليكون عونا أفضل فى إمدادنا بما يجعلنا فى المسير التكاملى نحو اللّه سبحانه.

و

جاء فی حدیث «براءة بن عازب» أنّه قال: قلت لعلی علیه السّلام: یا أمیر المؤمنین، أسألک باللّه و رسوله ألا خصّصتنی بأعظم ما خصّک به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اختصّه به جبرائیل، و أرسله به الرحمن، فقال علیه السّلام: «إذا أردت أن تدعو باسمه الأعظم، فاقرأ من أوّل سورة الحدید إلی آخر ستّ آیات منها علیم بذات الصدور، و آخر سورة الحشر یعنی أربع آیات ثمّ ارفع یدیک فقل: یا من هو هکذا أسألک بحقّ هذه الأسماء أن تصلّی علی محمّد و أن تفعل بی کذا و کذا- ممّا ترید- فو اللّه الذی لا إله غیره لتنقلبنّ بحاجتک إن شاء اللّه»[۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴

و فی عظمة هذه الآیات و أهمیّة محتواها نکتفی بهذا الحدیث، و یجب ألّا ننسی أنّ اسم اللّه العظیم لیس بالألفاظ فقط، إذ یجب التخلّق بمعانیه أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵

الآیات [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۷ الی ۱۱]

اشارة

آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَکُمْ مُسْتَخْلَفِینَ فِیهِ فَالَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ کَبِیرٌ (۷) وَ ما لَکُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ یَدْعُوکُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّکُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِیثاقَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۸) هُوَ الَّذِی یُنَزِّلُ عَلی عَبْدِهِ آیاتٍ بَیِّناتٍ لِیُخْرِجَکُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِکُمْ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (۹) وَ ما لَکُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِیراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا یَسْتَوِی مِنْکُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولئِکَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِینَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَ کُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنی وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۱۰) مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَیُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ کَرِیمٌ (۱۱)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶

التّفسیر

الإیمان و الإنفاق أساسان للنجاة

بعد البیان الذی تقدّم حول دلائل عظمة اللّه فی عالم الوجود و أوصاف جماله و جلاله، تلک الصفات المحفّزة للحرکة باتّجاه اللّه تعالی، ننتقل الآن إلی جوّ هذه الآیات المفعم بالدعوة للإیمان و العمل ..

یقول سبحانه فی البدایة آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ إنّ هذه الدعوة دعوة عامّة لجمیع البشر، فهی تدعو المؤمنین إلی إیمان أکمل و أرسخ، و تدعو- أیضا- غیر المؤمنین إلی التصدیق و الإیمان بما جاء به الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هذه الدعوة إلی الإیمان جاءت توأما مع أدلّة التوحید التی تناولتها الآیات التوحیدیة السابقة.

ثمّ یدعو إلی أحد الالتزامات المهمّة للإیمان و هی: (الإنفاق فی سبیل اللّه) حیث یقول تعالی: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَکُمْ مُسْتَخْلَفِینَ فِیهِ إنّها دعوة إلی الإیثار و التضحیة، و ذلک بالإنفاق و العطاء ممّا منّ اللّه به علی الإنسان، و لکن هذه الدعوة مصحوبة بملاحظة، و هی أنّ المالک الحقیقی هو اللّه عزّ و جلّ، و هذه الأموال و الممتلکات قد وضعها اللّه عند الإنسان بعنوان أمانة لفترة محدودة، کما وضعت کذلک باختیار الأقوام السابقة.

و الحقیقة أنّها کذلک، إذ مرّ بنا فی الآیات السابقة أنّ المالک الحقیقی لکلّ العالم هو اللّه سبحانه، و أنّ الإیمان بهذه الحقیقة و

العمل بها تبيّن أنّنا أمناء على ما استخلفنا به من قبل اللّه تعالى، و لا بدّ للمؤمن من أن يأخذ بنظر الإعتبار أمر صاحب الأمانة.

الإيمان بهذه الحقيقة يمنح الإنسان روح السخاء و الإيثار و يفتح قلبه و يديه على الإنفاق.

عبارة (مستخلفين) قد تكون إشارة إلى أنّ الإنسان خليفة اللّه تعالى على الأرض، أو أنّه مستخلف عن الأقوام السابقة أو كلا المعنيين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷

و تعبير (ممّا) تعبير عام و لا يشمل الأموال فحسب بل كلّ الممتلكات و الهبات الإلهيّة. و هنا يعنى أنّ للإنفاق مفهوما واسعا و لا ينحصر بالمال فقط، بل يشمل- أيضا- العلم و الهداية و السمعة الاجتماعية و رؤوس الأموال المعنوية و المادية.

ثمّ يقول تعالى فی الحثّ على الإنفاق: فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

إنّ وصف الأجر بأنّه «كبير» إشارة إلى عظمة الألطاف الإلهية و الهبات الإلهية، و أبديّتها و خلوصها و دوامها ليس فی الآخرة فحسب، بل فی عالم الدنيا أيضا حيث أنّ قسما من الأجر سوف يكون من نصيب الإنسان فی الدنيا.

و بعد الأمر بالإيمان و الإنفاق يعطی بيانا لكلّ منهما، و هو بمثابة الاستدلال و البرهان، و ذلك بصورة استفهام توبيخی ابتداء، حيث يستفسر عن علّة عدم قبول دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حول الإيمان باللّه فيقول سبحانه: وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يعنی أنّكم إذا كنتم مستعدّين حقيقة و صدقا لقبول الحقّ، فإنّ دلائله واضحة عن طريق الفطرة و العقل، و كذلك عن طريق النقل.

و هذا رسول اللّه قد أتى لكم بدلائل واضحة و آيات و معجزات باهرة، و هذه آثار اللّه سبحانه فی عالم الخلق و فی أنفسكم و قد أخذ نوعا من العهد التكوينی منكم، فآمنوا به، إلّا أنّكم- مع الأسف- لا تقيمون و زنا لعقلكم و فطرتكم، و كذلك لا تعيرون اهتماما لتوجيهات الوحی، و يبدو أنّكم غير مستعدّين و مهيّئين للإيمان أصلا، و قد غلب الجهل و التعصّب و التقليد الأعمى على أفكاركم و نفوسكم.

و يتوضّح ممّا قلناه أنّ المقصود من جملة إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هو أنّكم إذا كنتم مستعدّين للإيمان بشیء و تقبلون أدلّته فهذا هو محلّه، لأنّ دلائله واضحة من كلّ جهة.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا هی معرفة السبب الذی يمنع هؤلاء الذين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸

شاهدوا الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و آله و سلّم و سمعوا دعوته مباشرة و بلا واسطة، و شاهدوا معجزاته بأعينهم، من الإيمان بدعوته.

فی هذا الصدد نقرأ

الحديث التالی: أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و آله و سلّم قال لأصحابه يوما: (أیّ المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟» قالوا: الملائكة. قال: «و ما لهم لا يؤمنون و هم عند ربّهم؟» قالوا: الأنبياء. قال: «و ما لهم لا يؤمنون و الوحی ينزل عليهم؟» قالوا: نحن. قال: «و ما لكم لا تؤمنون و أنا بين أظهركم؟ و لكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بها»[۱۶].

و هذه حقيقة لا غبار عليها، و هی أنّ الأشخاص الذين يطلّون على عالم الوجود بعد سنوات طويلة من رحلة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و آله و سلّم و يشاهدون آثاره فی الكتب- فقط- و يؤمنون بأحقيّة دعوته، فإنّ لهم ميزة كبيرة على الآخرين.

إنّ التعبير ب «الميثاق» يمكن أن يكون إشارة إلى الفطرة التوحيدية أو الدلائل العقلية التی بمعرفتها يتبيّن للإنسان (نظام الخلقة)، و عبارة (بربّكم) إشارة إلى التدبير الإلهی فی عالم الخلقة، و هو شاهد على هذا المعنى أيضا.

و اعتبر البعض كلمة (ميثاق) إشارة إلى (عالم الذرّ) إلّا أنّ هذا المعنى مستبعد إلّا أن يراد به التّفسير الذی ذكرناه سابقا لعالم الذرّ[۱۷].

و جاءت الآية اللاحقة لتأكيد و توضيح نفس هذا المعنى حيث تقول: هُوَ الَّذِی يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ

إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

فسّر البعض آياتٍ بَيِّناتٍ هنا بكلّ المعجزات، و قال قسم آخر: إنّه (القرآن الكريم) إلّا أنّ مفهوم الآية واسع يستوعب كلّ ذلك، بالرغم من أنّ التعبير يُنَزِّلُ يناسب (القرآن) أكثر، هذا الكتاب العظيم الذى يمزّق حجب ظلام الكفر و الجهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹

و الضلال و يشرق شمس الوعى و الإيمان فى النفوس، و الذى هو رحمة و نعمة إلهيّة عظيمة.

أمّا التعبير ب لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ فهو إشارة لطيفة إلى حقيقة أنّ هذه الدعوة الإلهية العظيمة إلى الإيمان و الإنفاق تمثّل مظهرا من مظاهر الرحمة الإلهيّة التى جاءت إليكم جميعا، كما أنّ جميع بركاتها فى هذا العالم و العالم الآخر ترجع إليكم.

و سؤال يثار هنا و هو: هل يوجد اختلاف بين (الرؤوف) و بين (الرحيم)؟ و ما هى خصوصيات كلّ منهما؟

ذكر المفسّرون فى ذلك آراء، و المناسب من بين كلّ الآراء التى ذكرت هو: أنّ كلمة (رؤوف) جاءت هنا إشارة إلى محبّته و لطفه الخاص بالنسبة إلى المطيعين، فى حين أنّ كلمة (رحيم) إشارة إلى رحمته بخصوص العاصين.

قال البعض: إنّ «الرأفة» تقال للرحمة قبل ظهورها، و «الرحمة» تعبير يطلق على الحالة بعد ظهورها.

ثمّ يأتى استدلال آخر على ضرورة الإنفاق حيث يقول تعالى: وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ، وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى أنّكم سترحلون عن هذه الدنيا و تتركون كلّ ما منحكم اللّه فيها، و تذهبون إلى عالم آخر، فلما ذا لا تستفيدون من هذه الأموال التى جعلها اللّه تحت تصرفكم بتنفيذ أمره بالإنفاق؟.

(ميراث) فى الأصل- كما قال الراغب فى المفردات- هى الأموال التى تنتقل للإنسان بدون اتّفاق مسبق، و ما ينتقل من الميّت إلى ورثته هو أحد مصاديق ذلك، و لكن لكثرة استعمالها بهذا المعنى يتداعى لسامعها هذا المعنى عند إطلاقها.

و جملة لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بمعنى ليست جميع الأموال و الثروات الموجودة فوق الأرض، بل كلّ ما هو فى السماء و الأرض و عالم الوجود يرجع إليه، حيث تموت جميع الخلائق و اللّه سبحانه هو الوارث لها جميعا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰

و لأنّ للإنفاق قيما مختلفة و أحوالا متفاوتة الشرائط و الظروف، يضيف سبحانه: لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ ۱۸].

هناك اختلاف بين المفسّرين حول المقصود من كلمة «الفتح» التى وردت فى الآية، فقد اعتبرها البعض إشارة لفتح مكّة فى السنة الثامنة للهجرة، و اعتبرها آخرون إشارة إلى فتح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة.

و بالنظر إلى أنّ كلمة «الفتح» فسّرت (بفتح الحديبية) فى سورة: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً فالمناسب هنا أن يكون المقصود بها فتح الحديبية أيضا. إلّا أنّ كلمة (قاتل) تناسب فتح مكّة، لأنّه لم يحصل قتال فى صلح الحديبية، بعكس فتح مكّة الذى حصل فيه قتال سريع و قصير، إذ لم يواجه بمقاومة شديدة.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد من «الفتح» فى هذه الآية هو جنس الفتح، و الذى يمثّل انتصار كلّ المسلمين فى الحروب الإسلامية. و المقصود إجمالا أنّ الذين بذلوا المال و النفس فى الظروف الحرجة مفضّلون على الذين ساعدوا الإسلام بعد سكون الموج و هدوء العاصفة، لذلك و للتأكيد أكثر يضيف تعالى:

أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا.

و العجيب هنا أنّ بعض المفسّرين الذين اعتبروا مقصود الآية هو فتح مكّة، أو فتح الحديبية، اعتبروا مصداق المنفق فى هذه الآية هو «أبو بكر». فى حين أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ عدّة حروب و غزوات حصلت بين هجرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نزول آية الفتح و الذى استغرق من (۶- ۸) سنوات، و فى هذه الفترة قاتل و أنفق الآلاف من الأشخاص فى طريق الإسلام، إذ شارك فى فتح مكّة فقط عشرة آلاف شخص، طبقا لما ورد فى كتب التاريخ. و من الواضح أنّ أعدادا كبيرة فى هذه المجموعة قدّمت الكثير من

الأموال فی سبیل اللّه و أعانت الإسلام فی المجهود الحربی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱

و واضح أنّ کلمهٔ (قبل) تعنی الإنفاق فی مشارف هذا الفتح و لیس فی بدایهٔ الإسلام و قبل إحدی و عشرین سنهٔ.

یجدر الانتباه إلی أنّ بعض المفسّرین یصرّون علی أنّ الإنفاق أفضل من الجهاد، و ذلک انسجاما مع رأیهم السابق، و یدلّلون علی صحّته من خلال ما ورد فی الآیهٔ أعلاه من تقدیم الإنفاق المالی علی الجهاد باعتبار أنّ الوسائل و المقدّمات و الآلات الحربیهٔ، تتهیّأ بواسطته. إلّا أنّ ممّا لا شکّ فیه أنّ بذل النفس و التهیّؤ للشهادهٔ أعلی و أفضل من الإنفاق المالی.

و علی کلّ حال، بما أنّ القسمین (الإنفاق و الجهاد) مشمولان بعنایهٔ الحقّ تعالی مع اختلاف الدرجهٔ، فیضیف فی النهایهٔ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنی

و هذا تقدیر لعموم الأشخاص الذین ساهموا فی هذا الطریق.

و کلمهٔ (حسنی) لها مفهوم واسع، حیث تشمل کلّ ثواب و جزاء و خیر فی الدنیا و الآخرهٔ.

و لکون قیمهٔ العمل بإخلاصه للّه سبحانه فیضیف فی نهایهٔ الآیهٔ: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ.

نعم، إنّه یعلم بکیفیهٔ و کمیّهٔ أعمالکم. و کذلک نیّاتکم و مقدار خلوصکم.

و لغرض الحثّ علی ضرورهٔ الإنفاق فی سبیل اللّه، و من خلال تعبیر رائع یؤکّد سبحانه ذلک فی الآیهٔ مورد البحث بقوله: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فینفق ممّا آتاه اللّه فی سبیل اللّه فَیُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ کَرِیمٌ

إنّه تعبیر عجیب حقّا، حیث إنّ اللّه الواهب لکلّ النعم و جمیع ذرّات وجودنا- هی من بحر فیضه اللامتناهی. و بالإضافهٔ إلی أنّنا عبید له یعبّر عنّا بأنّنا أصحاب الأموال، و یدعونا لإقراضه ضمن شروط مغریهٔ، حیث أنّ السائد أنّ الدیون العادیهٔ تسترجع بنفس مقادیرها، إلّا أنّه سبحانه- بفضل منه- یضاعفها لنا بالمئات أحیانا و بالآلاف أحیانا اخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲

و إضافهٔ إلی ذلک فإنّه قد وعدنا بأجر کریم أیضا، و هو جزاء عظیم لا یعلمه إلّا هو.

بحوث

۱- بواعث الإنفاق

الشیء الجدیر بالانتباه أنّنا نلاحظ فی الآیات السابقهٔ تعبیرات مختلفهٔ للحثّ علی الإنفاق، أعمّ من المساعدهٔ و المساهمهٔ فی موضوع الجهاد أو أنواع الإنفاق الأخری للمحتاجین، و التی یعتبر کلّ منها عاملا أساسیّا و محرّکا باتّجاه تحقیق الهدف.

و تشیر الآیهٔ السابعهٔ لمسألهٔ استخلاف الناس بعضهم لبعض أو عن اللّه تعالی فی هذه الثروهٔ، و بما أنّ المالکیهٔ الحقیقهٔ للّه تعالی، و الجمیع نوابا له فی هذه الأموال. فهذا الفهم یستطیع أن یفتح فی الحقیقهٔ ید الإنسان و قلبه للإنفاق و یکون عاملا للحرکهٔ فی هذا المجال.

أمّا فی الآیهٔ العاشرهٔ فقد ورد مفهوم آخر یتحدّث فیه عن حالهٔ عدم استقرار الأموال و الممتلکات و بقائها بعد فناء الناس جمیعا، لذا یعبّر عنها ب مِیراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و أنّها للّه تعالی.

و فی الآیهٔ الحادیهٔ عشرهٔ ورد تعبیر مرهف بالحساسیهٔ، حیث یعتبر اللّه سبحانه الإنسان هو المقرض و أنّه تعالی هو المستقرض، و لیس فی هذا القرض ربا، بل فیه أرباح مضاعفهٔ، و أحیانا مضاعفهٔ بالآلاف عوض هذا القرض، بالإضافهٔ إلی الجزاء العظیم الذی لا نستطیع

تصوّره.

إنّ هـذا كلّه لإزالـة النظرات الخاطئـة و المنحرفـة و دوافع الحرص و الحسد و حبّ الذات و طول الأمل التى تمنع من الإنفاق، لتكوين مجتمع على أسس ودّية و تعاون عميق و روح اجتماعية بنّاءة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳

۲- شروط الإنفاق فى سبيل اللّه!

إنّ التعبير ب قَرْضاً حَسَناً فى الآية أعلاه يشير إلى هذه الحقيقة و هى أنّ إعطاء القرض بحدّ ذاته (أقسام و أنواع) فبعضـها يعتبر قرضـا حسنا، و الآخر قرضا قليل الفائدة، أو حتّى عديم الفائدة أيضا.

و القرآن الكريم يبيّن شـروط القرض الحسن للّه سـبحانه كمـا وضّـح ذلـك فى الآيات المختلفـة، و بعض المفسّـرين اسـتنتجوا عشـرة شروط فى مجموع الآيات القرآنية التى تتحدّث عن الإنفاق، و هى كما يلى:

الشـرط الأـوّل: انتخـاب أجود الأـموال للإنفاق و ليس من أرخصـها شأنا و قيمـة، قال سـبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَـبْتُمْ، وَ مِمَّا أَخْرَجْنـا لَكُـمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لاـ تَيَمَّمُـوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْـتُمْ بِآخِـذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُـوا فِيهِ وَ اعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[۱۹].

ثانيـا: يجـدر أن يكـون الإنفـاق و الإقـراض من الأـموال الـتى هى موضع حاجـة الشـخص المنفق، حيث يقول سـبحانه: وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ[۲۰].

ثالثا: يجب أن يكون الإنفاق للأشـخاص الـذين هم موضع حاجـة شديـدة إليه، و تؤخـذ بنظر الإعتبار الأولويات فى إنفاقه، قال تعالى: لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۲۱].

رابعا: الأفضل و الأولى فى الإنفاق أن يكون محاطا بالسّرية و الكتمان قال تعالى: وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴

خامسا: أن لا يقترن الإنفاق منّ و لا أذى أبدا، قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى ۲۳].

سادسا: أن يكون توأما مع خلوص النيّة قال تعالى: يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ ۲۴].

سابعا: الشـعور بضـئالة العطاء و أنّه صـغير لا قيمـة له حتّى و إن كان كثيرا و مهمّا، و ذلك تلبيـة لأمر اللّه و انتظارا للجزاء الـذى أعـدّه للمنفقين. قال تعالى: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ[۲۵][۲۶].

ثامنـا: أن يكون الإنفـاق ممّـا تعلّق قلبه به من الأـموال، و خاصّـة تلـك التى تكون موضع تعلّق و شـغف، قال تعالى: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۲۷].

تاسـعا: أن لا يرى المنفق أنّه هو المالک للأموال، حيث أنّ المالک الحقيقى هو اللّه سـبحانه، و يعتبر المنفق نفسه واسطة بين الخالق و المخلوق، قال تعالى:

وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۲۸].

عاشرا: أن يكون الإنفاق من المال الحلال، لأنّه هو الذى يقبل فقط من قبل اللّه سبحانه، قال تعالى: إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۲۹].

و

جاء فى حديث أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لا يقبل اللّه صدقة من غلول»[۳۰].

و الذى ذكرناه أعلاه هو قسم مهمّ من الضوابط و الشروط اللازمة للإنفاق، و لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵

تنحصر به، و نستطیع من خلال التدقیق و التأمّل فی الآیات الکریمة و الروایات الإسلامیة أن نتعرّف علی شروط أخری أیضا.

ثمّ إنّ ما قیل من الشروط بعضها واجب ک (عدم الأذی و المنّ و الإعلان فی العطاء) و البعض الآخر مستحبّ و من شروط الکمال ک (الإیثار علی النفس) حیث إنّ عدمه لا یقلّل من قیمة الإنفاق، بالرغم من أنّ الإنفاق فی هذه الحالة لا یرتقی إلی مستوی الإنفاق العالی من حیث الدرجة.

و مع أنّ ما قیل هنا خاصّ فی الإنفاق فی سبیل اللّه (الإقراض للّه) إلّا أنّه أیضا یصدق فی کثیر من القروض العادیة، لأنّ هذه الشروط من الأمور اللازمة أو من شروط الکمال للقرض الحسن.

و حول أهمیّة الإنفاق فی سبیل اللّه فقد ذکرنا شرحا مفصّلا تفسیر الآیات من (۲۶۱- ۲۶۷) من سورة البقرة.

۳- السابقون فی الإیمان و الجهاد و الإنفاق

الأشخاص الذین یتقدّمون علی غیرهم بالإیمان و العمل الصالح فهم ذوو وعی و شجاعة و إیثار و تضحیة أکثر من الآخرین بلا شکّ، و لذا فإنّ درجات المؤمنین غیر متساویة عند اللّه، و الآیة الکریمة اعتمدت هذا المفهوم و میّزت بین الأشخاص الذین أنفقوا قبل الفتح: (سواء کان فتح مکّة أو الحدیبیة أو مطلق الفتوحات الإسلامیة) و جاهدوا أیضا، و بین الذین أنفقوا و قاتلوا من بعد.

نقل فی حدیث عن (أبی سعید الخدری) أنّه قال: «خرجنا مع رسول اللّه فی عام الحدیبیة (السنة السادسة للهجرة) حتّی إذا کان بعسفان- مکان قریب من مکّة- قال رسول اللّه: «یوشک أن یأتی قوم تحقّرون أعمالکم مع أعمالهم» قلنا: من یا رسول اللّه؟ أ قریش؟ قال: «لا، و لکنّهم أهل الیمن، هم أرقّ أفئدة و ألین قلوبا» قلنا: أهم خیر منّا یا رسول اللّه؟ قال: «لو کان لأحدهم جبل ذهب فأنفقه ما أدرک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶

مدّ[۳۱] أحدکم و لا نصفیه، ألا إنّ هذا فصل ما بیننا و بین النساء لا یتسوّی منکم من أنفق من قبل الفتح و قاتل»[۳۲].

و النقطة التالیة جدیرة بالملاحظة أیضا و هی: أنّ الإقراض للّه تعالی هو کلّ إنفاق فی سبیله، و أحد مصادیقه المهمّة الدعم الذی یقدّم للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة المسلمین من بعده، کی یستعمل فی الموارد اللازمة لإدارة الحکومة الإسلامیة. لذا

نقل فی الکافی روایة عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه لم یسأل خلقه ممّا فی أیدیهم قرضا من حاجة به إلی ذلک، و ما کان للّه من حقّ فإنّما هو لولیّه»[۳۳].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الکاظم علیه السّلام حول نهایة الآیة مورد البحث: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ... أنّه قال: «نزلت فی صلة الإمام»[۳۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷

الآیات [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۱۲ الی ۱۵]

اشارة

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۲) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (۱۳) يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۱۴) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۵)

التفسير

انظرونا نقتبس من نوركم:

لقد بشّر اللّه المنفقين فی آخر آیة من الآیات السابقة بالأجر الکریم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸

و استمرارا للبحث فالآیات أعلاه تتحدّث عن هذا الأجر، و تبیّن مدی قیمته و عظمته فی الیوم الآخر، یقول سبحانه: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ

و بالرغم من أنّ المخاطب هنا هو الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا أنّ من الواضح أنّ الآخرین یرقبون هذا المشهد أیضا، و لکن بما أنّ تشخیص المؤمنین من الأمور اللازمة للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیتفقدهم فکانت هذه العلامة: (نورهم الذی یسعی بین أیدیهم ...) دالّة علیهم، و بذلک تکون معرفتهم أیسر.

و بالرغم من أنّ المفسّرین ذکروا احتمالات متعدّدة لهذا «النور إلّا أنّ المقصود منه- فی الواقع- تجسیم نور الإیمان، لأنّه سبحانه عبّر ب (نورهم) و لا عجب، لأنّ فی ذلک الیوم تتجسّد أعمال البشر، فیتجسّد الإیمان الذی هو نور هدایتهم بصورة نور ظاهری، و یتجسّد الکفر الذی هو الظلام المطلق بصورة ظلمة ظاهریة. کما نقرأ فی الآیة الکریمة: يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ۳۵].

و جاء فی الآیات القرآنیة الاخری أنّ اللّه تعالی یهدی المؤمنین من الظلام إلی النور: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

التعبیر ب «یسعی» من مادّة (سعی)- بمعنی الحرکة السریعة- دلیل علی أنّ المؤمنین أنفسهم یسیرون بسرعة فی طریق المحشر باتّجاه الجنّة حیث مرکز السعادة السرمدیة، ذلک لأنّ الحرکة السریعة لنورهم لیست منفصلة عن حرکتهم السریعة.

و الجدیر بالملاحظة هنا أنّ الحدیث جاء عن (نورین) (النور الذی یتحرّک أمامهم، و النور الذی یکون عن یمینهم) و هذا التعبیر یمکن أن یکون إشارة إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹

قسمین مختلفین من المؤمنین:

قسم المقرّبین و أصحاب الوجوه النورانیة، و هؤلاء نورهم یتحرّک أمامهم.

و القسم الثانی و هم أصحاب الیمین و یکون نورهم عن أیمانهم، و ذلک کنایة عن صحیفة أعمالهم التی تعطی بأیدیهم الیمنی و یخرج النور منها.

کما یوجد احتمال آخر أیضا و هو أنّ النورین إشارة إلی مجموعة واحدة، و ما یقصد بنور الیمین هو کنایة عن النور الذی یصدر عن أعمالهم الصالحة و یضیء جمیع أطرافهم.

و على كلّ حال فإنّ هذا النور هو دليلهم إلى الجنّة، و على ضوئه يسيرون بسرعة إليها.

و من جهة ثالثة بما أنّ مصدر هذا النور الإلهى هو الإيمان و العمل الصالح فلا شكّ أنّه يختلف باختلاف درجات الإيمان و مستوى الأعمال الصالحة للبشر، فالأشخاص ذوو الإيمان الأقوى فإنّ نورهم يضىء مسافة أطول، و الذين لهم مرتبة أقل يتمتّعون بنور يناسب مرتبتهم، حتّى أنّ نور بعضهم لا يضىء موضع أقدامهم، كما ورد فى تفسير على بن إبراهيم فى نهاية الآية مورد البحث: «يقسّم النور بين الناس يوم القيامة على قدر إيمانهم»[۳۶].

و هنا يصدر هذا النداء الملائكى باحترام للمؤمنين: بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

أمّا المنافقون الذين سلكوا طريق الظلام و الكفر و الذنوب و المعصية، فإنّ صراخهم يعلو فى مثل تلك الساعة و يلتمسون من المؤمنين شيئا من النور، لكنّهم يواجهون بالرد و النفى. كما فى قوله تعالى: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ۳۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰

«اقتباس» فى الأصل من مادّة (قبس) بمعنى أخذ شعلة من النار، ثمّ استعملت على أخذ نماذج اخرى أيضا.

المقصود من جملة (انظرونا) هو أن انظروا لنا كى نستفيد من نور وجوهكم لنجد طريقنا، أو انظروا لنا نظر لطف و محبّة و أعطونا سهما من نوركم، كما يحتمل أنّ المقصود هو أنّ (انظرونا) مشتقة من (الانتظار) بمعنى أعطونا مهلة قليلة حتّى نصل إليكم و فى ظلّ نوركم نجد الطريق.

و على كلّ حال يأتى الجواب على طلبهم بقوله تعالى: قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً.

كان من الممكن أن تحصلوا على النور من الدنيا التى تركتموها و وراءكم، و ذلك بإيمانكم و أعمالكم الصالحة، إلّا أنّ الوقت انتهى، و فاتت الفرصة عليكم و لا أمل هنا فى حصولكم على النور.

فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ و هذا الباب أو هذا الجدار من نوع خاص و أمره فريد، حيث إنّ كلا من طرفيه مختلف عن الآخر تماما، حيث: باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ

«السور» فى اللغة هو الحائط الذى يحيط بالمدن- كما كان فى السابق- للمحافظة عليها، و فيه نقاط مراقبة عديدة يستقرّ بها الحرّاس للمحافظة و رصد الأعداء تسمّى بالبرج و الأبراج.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا حيث يقول تعالى: باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ حيث أنّ المؤمنين كسكّان المدينة داخل البستان، و المنافقين كالغرباء القسم الصحراوى، فهم فى جوّين مختلفين و عالمين متفاوتين، و يحكى ذلك عن كون هؤلاء كانوا فى مجتمع واحد جنبا إلى جنب و لكن يفصل بينهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱

حاجز عظيم من الإعتقادات و الأعمال المختلفة، ففى يوم القيامة يتجسّد نفس المعنى أيضا.

و لما ذا هذا «الباب»، و لأى الأهداف؟

للجواب على هذا التساؤل نقول: من الممكن أن يكون هذا الباب من أجل أن يرى المنافقون من خلاله نعم الجنّة و يتحسّرون عليها، أو أنّ من كان قليل التلوّث بالذنوب و قد نال جزاءه من العذاب بإمكانه أن يدخل منها و يكون مع المؤمنين فى نعيمهم.

غير أنّ هذا الحائط ليس من النوع الذى يمنع عبور الصوت حيث يضيف سبحانه: أنّ المنافقين يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ لقد كنّا نعيش معكم فى هذه الدنيا فما الذى حدث و انفصلتم عنّا و ذهبتم إلى الروح و الرحمة الإلهية و تركتمونا فى قبضة العذاب؟

قالُوا: بَلى كنّا معكم فى أماكن كثيرة فى الأزقّة و الأسواق، فى السفر و الحضر، و كنّا أحيانا جيرانا أو فى بيت واحد .. نعم كنّا معا، إلّا أنّ اختلافاتنا فى العقيدة و العمل كانت هى الفواصل بيننا، لقد كنتم تسيرون فى خطّ منفصل عن خطّنا و كنتم غرباء عن اللّه فى

الأصول و الفروع، لذا فأنتم بعيدون عنّا. ثمّ يضيفون:

لقد ابتليتم بخطايا و ذنوب كثيرة من جملتها:

۱- وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ و خدعتموها بسلوك طريق الكفر و الضلال.

۲- وَ تَرَبَّصْتُمْ و انتظرتم موت النبى و هلاك المسلمين و انهدام أساس الإسلام، بالإضافة إلى التهرّب من إنجاز كلّ عمل إيجابى و كلّ حركة صحيحة، حيث تتعلّلون و تماطلون و تسوّفون إنجازها.

۳- وَ ارْتَبْتُمْ فى المعاد و حقّانية دعوة النبى و القرآن ..

۴- و خدعتكم الآمال وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ

نعم هذه الأمانى لم تعطكم مجالا- حتّى لحظة واحدة- للتفكّر الصحيح، لقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲

كنتم مغمورين فى تصوّراتكم و تعيشون فى عالم الوهم و الخيال، و استولت عليكم أمنية الوصول إلى الشهوات و الأهداف المادية.

۵- وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ إنّ الشيطان غرّكم بوساوسه فى مقابل وعد اللّه عزّ و جلّ، فتارة صوّر لكم الدنيا خالدة باقية و اخرى صوّر لكم القيامة بعيدة الوقوع. و فى بعض الأحيان غرّكم بلطف اللّه و الرحمة الإلهية، و أحيانا جعلكم تشكّون فى أصل وجود اللّه العظيم الخالق.

هذه العوامل الخمسة فهى التى فصلت خطّكم عنّا بصورة كليّة و أبعدتنا عنكم و أبعدتكم عنّا.

«فتنتم» من مادّة (فتنة) جاءت بمعانى مختلفة ك (الامتحان و الانخداع، و البلاء و العذاب، و الضلالة و الانحراف، و الشرك و عبادة الأصنام) و المعنيان الأخيران هنا أنسب أى الضلال و الشرك.

«تربّصتم» من مادّة (تربّص) فى الأصل بمعنى الانتظار، سواء كان انتظار البلاء و المصيبة أو الكثرة و النعمة، و المناسب الأكثر هنا هو انتظار موت الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انتكاسة الإسلام، أو أنّ الانتظار بمعنى التعلّل فى التوبة من الذنوب و إنجاز كلّ عمل من أعمال الخير.

«و ارتبتم» من مادّة (ريب) تطلق على كلّ شكّ و ترديد و ما سيتوقّع فيما بعد، و المعنى الأنسب هنا هو الشكّ بالقيامة أو حقّانية القرآن الكريم.

و بالرغم من أنّ مفهوم الكلمات المستعملة فى الآية واسع، إلّا أنّ من الممكن أن تكون لبيان المسائل المذكورة بالترتيب، من مسألة «الشرك» و انتظار «نهاية عمر الإسلام و الرّسول» و من ثمّ «الشكّ فى المعاد» الذى يؤدّى إلى «التلوّث العملى» عن طريق «الانخداع بالأمانى» و الشيطان، و بناء على هذا فالجمل الثلاث الاولى من الآية ناظرة إلى الأصول الثلاثة للدين، و الجملتان الأخيرتان بعد هما ناظرتان إلى فروع الدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳

و أخيرا فإنّ المؤمنين- بلحاظ ما تقدّم- يخاطبون المنافقين بقولهم: فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا و بهذا الترتيب يواجه المنافقون نفس مصير الكفّار أيضا، و كلّهم رهينة ذنوبهم و أعمالهم القبيحة، و لا يوجد لهم أى طريق للخلاص.

ثمّ يضيف سبحانه: مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ ۳۸] وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

الإنسان- عادة- لكى ينجو من العقوبة المتوقّعة فى الدنيا، يتوسّل للخلاص منها إمّا بالغرامة المالية أو طلب العون و المساعدة من قوّة شفيعة، إلّا أنّه هناك- فى يوم القيامة- لا يوجد أى منهما ينقذ الكفّار و المنافقين من العذاب المحتوم عليهم.

و فى يوم القيامة- عادة- تنقطع كلّ الأسباب و الوسائل المادية المتعارف عليها فى هذا العالم للوصول إلى المقاصد المرجوة، كما تنفصم الروابط حيث يقول سبحانه: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ ۳۹].

يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ[۴۰].

وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ ۴۱] يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً[۴۲].

يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً[۴۳].

فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ[۴۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ[۴۵] و بهذه الصورة یوضّح القرآن الکریم أنّ الوسیلة الوحیدة للنجاة فی ذلک الیوم هی الإیمان و العمل الصالح فی الدنیا، حتّی أنّ دائرة الشفاعة محدودة للأشخاص الذین خلطوا عملا- صالحا و آخر سیّئا و لیسوا من الغرباء مطلقا عن الإیمان و الذین قطعوا ارتباطهم بصورة کلیّة من اللّه و أولیائه و عصوا أوامره.

ملاحظة

الإستغاثة العقیمة للمجرمین:

نظرا إلی أنّ الکثیر من الناس فی یوم القیامة یجهلون طبیعة النظام المهیمن هنالک و یتصوّرون أنّ نفس أنظمة الدنیا تحکم هناک أیضا، فیحاولون استخدامها.

إلّا أنّه سرعان ما یتبیّن الخطأ الکبیر الذی وقعوا فیه.

فأحیانا یتوسّل المجرمون بالمؤمنین بقولهم لهم: انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ... إلّا أنّه بسرعة یواجهون الردّ الحاسم، و هو أنّ منبع النور لیس هنا، إنّما فی دار الدنیا حیث تخلّفتم عنه بالغفلة و عدم المعرفة.

و أحیانا یطلب کلّ منهم العون من الآخر (الأتباع من قائدهم) فیقولون:

فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ[۴۶] و هنا یواجهون الردّ المخیّب لآمالهم أیضا.

ثمّ إنّهم یستنجدون و یلتمسون العون من خزنة جهنّم حیث یقولون: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ ۴۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵

و أحیانا یتجاوزن ذلک و یلتمسون من اللّه أن یخفّف عنهم حیث یقولون:

رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ ۴۸] و لکن هذا الطریق هو الآخر مغلق علیهم أیضا، لأنّ عهد التکلیف قد انقضی و هذه دار الجزاء و العقاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶

الآیات [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۱۶ الی ۱۸]

اشارة

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۱۶) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۷) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (۱۸)

سبب النزول

وردت لنزول الآیة الاولی أعلاه عدّة أسباب: منها أنّ الآیة المذکورة نزلت- بعد سنة من هجرة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- تتحدّث عن المنافقین، و ذلک أنّهم سألوا سلمان الفارسی: حدّثنا عمّا فی التوراة، فخبّرهم أنّ القرآن أحسن القصص کما فی قوله تعالی: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷

رَبَّهُمْ ...[۴۹] و عاودوا بعدها سؤال سلمان فجاءهم هذا التوبیخ و العتاب.

و قیل کان الصحابة بمکّة مجدبین، فلمّا هاجروا أصابوا الخیر و النعمة، فتغیّروا عمّا کانوا علیه، فقست قلوبهم فعوتبوا من ذلک [۵۰].

کما نلاحظ أسباب نزول اخری للآیة، و بما أنّها تتحدّث عن نزول هذه الآیة فی مکّة، لذا فإنّها غیر قابلة للاعتماد، لأنّ المشهور أنّ جمیع هذه السورة قد نزلت فی المدینة.

التّفسیر

إلی متی هذه الغفلة؟

بعد ما وجّهت الآیات السابقة مجموعة من الإنذارات الصارمة و التنبّهات الموقظة، و بیّنت المصیر المؤلم للکفّار و المنافقین فی یوم القیامة، جاءت الآیة الاولی مورد البحث بشکل استخلاص نتیجة کلیّة من ذلک، فتقول: أَ لَمْ یَأْنِ لِلَّذِینَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِکْرِ اللَّهِ، وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَ لا یَکُونُوا کَالَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَیْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ کَثِیرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ [۵۱].

«تخشع» من مادّة «خشوع» بمعنی حالة التواضع مقترنة بالأدب الجسمی و الروحی، حیث تنتاب الإنسان هذه الحالة- عادة- مقابل حقیقة مهمّة أو شخصیة کبیرة.

و من الواضح أنّ ذکر اللّه عزّ و جلّ إذا دخل أعماق روح الإنسان، و سماع الآیات القرآنیة بتدبّر فإنّها تکون سببا للخشوع، و القرآن الکریم هنا یلوم بشدّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸

قسما من المؤمنین لعدم خشوعهم أمام هذه الأمور. لأنّه قد ابتلی کثیر من الأمم السابقة بمثل هذا من الغفلة و الجهل. و هذه الغفلة تؤدّی إلی قساوة القلب و بالتالی إلی الفسق و العصیان.

و لهذا هل نقتنع بادّعاء الإیمان، و العیش فی رفاه و الانشغال بالأکل و الشرب و نمرّ أمام هذه المسائل المهمّة ببساطة؟ و هل أنّ أعمالنا و مسئولیاتنا تتناسب مع الإیمان الذی ندّعیه؟

هذه التساؤلات لا بدّ من الإجابة عنها مع أنفسنا بهدوء و موضوعیة.

جملة: فَطالَ عَلَیْهِمُ الْأَمَدُ قد تکون إشارة إلی الفاصلة الزمنیة بینهم و بین أنبیائهم، و یحتمل أن یکون المقصود بها طول العمر، أو طول الأمانیّ، أو عدم نزول العذاب الإلهی منذ مدّة طویلة، أو کلّ ذلک، لأنّ کلّ واحدة من هذه الأسباب یمکن أن تکون عاملا للغفلة و القساوة، و هی بدورها تسبّب الذنب و الإثم.

جاء فی حدیث للإمام علی علیه السّلام: «لا تعالجوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، و لا یطولنّ علیکم الأمد فتقسوا قلوبکم»[۵۲].

و نقرأ

فی حدیث آخر عن لسان عیسی المسیح علیه السّلام: «لا تکثروا بالکلام بغیر ذکر اللّه فتقسوا قلوبکم، فإنّ القلب القاسی بعید من اللّه،

و لا ـ تنظروا فی ذنوب العباد کأنّکم أرباب، و انظروا فی ذنوبکم کأنّکم عبید، و الناس رجلان: مبتلی و معافی، فارحموا أهل البلاء، و احمدوا اللّه علی العافیة»[۵۳].

و لأنّ إحیاء القلوب المیتة لا یکون إلّا بالذکر الإلهی، الحیاة الروحیة التی لن تکون إلّا بظلّ الخشوع و الخضوع و خاصّیة فی أجواء القرآن الکریم .. لذا فإنّ القرآن یشبّه عملیة إحیاء القلوب المیتة بإحیاء الأراضی المیتة، فکما أنّ هذه تحیا ببرکة نزول الأمطار کذلک فإنّ القلوب تحیا بذکر اللّه سبحانه .. حیث یضیف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹

سبحانه فی الآیة اللاحقة: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَیَّنَّا لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ

هذه الآیة تشیر إلی إحیاء الأراضی بوسیلة المطر، کذلک فإنّ إحیاء القلوب المیتة یکون بواسطة ذکر اللّه و قراءة القرآن المجید الذی نزل من سماء الوحی علی القلب الطاهر للنبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کلاهما جدیران بالتدبّر و التعقّل، لذا أشیر فی الروایات السابقة إلی کلیهما.

و نقرأ

فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیره لهذه الآیة أنّه قال: «لعدل بعد الجور»[۵۴].

کما نقرأ

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیره للآیة: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قال: «یحیی اللّه تعالی الأرض بالقائم بعد موتها، یعنی بموتها کفر أهلها، و الکافر میّت»[۵۵].

و من الواضح أنّ هذه التفاسیر فی الحقیقة هی بیان لمصادیقها البارزة، و لا تحدّ من مفهوم الآیة أبدا.

و جاء

فی حدیث آخر عن الإمام الکاظم علیه السّلام: «فإنّ اللّه یحیی القلوب المیتة بنور الحکمة کما تحیا الأرض المیتة بوابل المطر»[۵۶].

و یرجع مرّة اخری فی الآیة اللاحقة إلی مسألة الإنفاق، و التی هی إحدی ثمار شجرة الإیمان و الخشوع، حیث یتکرّر نفس التعبیر الذی قرأناه فی الآیات السابقة مع إضافة، حیث یقول تعالی: إِنَّ الْمُصَّدِّقِینَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً یُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ کَرِیمٌ ۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰

أمّا لما ذا طرحت مسألة الإنفاق بعنوان القرض الحسن للّه سبحانه؟ و لما ذا کان الجزاء المضاعف الأجر الکریم؟

یمکن معرفة الإجابة علی هذه التساؤلات فی البحث الذی بیّناه فی نهایة الآیة (۱۱) من نفس هذه السورة.

احتمل البعض أنّ المقصود من القرض الحسن للّه فی هذه الآیات و الآیات المشابهة[۵۸] بمعنی الإقراض للعباد، لأنّ اللّه تعالی لیس بحاجة للقرض، بل إنّ العباد المؤمنین هم الذین بحاجة إلی القرض، و لکن بملاحظة سیاق الآیات یفهم أنّ المقصود من «القرض الحسن» فی کلّ هذه الآیات هو الإنفاق فی سبیل اللّه، بالرغم من أنّ القرض لعباد اللّه هو من أفضل الأعمال أیضا.

و یری «الفاضل المقداد» أیضا فی کنز العرفان فی تفسیر القرض الحسن بأنّه کلّ الأعمال الصالحة[۵۹].

موعظة و توبة:

إنّ آیة: أَ لَمْ یَأْنِ لِلَّذِینَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِکْرِ اللَّهِ ... من الآیات المثیرة فی القرآن الکریم، حیث تلیّن القلب، و ترطّب الروح و تمزّق حجب الغفلة و تعلن متبّهة: ألم یأن للقلوب المؤمنة أن تخشع مقابل ذکر اللّه و ما نزّل من الحقّ! و تحذّر من الوقوع فی شراک

الغفلة كما كان بالنسبة لمن سبق حيث آمنوا و تقبّلوا آيات الكتاب الإلهى، و لكن بمرور الزمن قست قلوبهم.

لذلك نلاحظ بصورة مستمرة أنّ أفرادا مذنبين جدّا قد هداهم اللّه إلى طاعته بعد سماعهم هذه الآية التى وقعت فى نفوسهم كالصاعقة، و أيقظتهم من سباتهم و غفلتهم التى كانوا فيها، و لهذا شواهد عديدة حيث تنقل لنا كتب التاريخ العديد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱

منها، حتّى أنّ البعض منهم أصبح فى صفّ الزهّاد و العبّاد، و من جملتهم العابد المعروف «فضيل بن عيّاض» الزاهد.

حيث يحكى عنه أنّه كان فى أوّل أمره يقطع الطريق بين «أبيورد» و «سرخس»، و عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ قال: (بلى و اللّه قد آن) فرجع و أوى إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، و قال بعضهم: حتّى نصبح، فإنّ فضيلا قد قطع الطريق علينا. فتاب الفضيل و أمّنهم.

و حكى أنّه جاور الحرم حتّى مات ۶۰].

و نقل بعض المفسّرين أنّ أحد رجال البصرة المعروفين قال: بينما كنت أسير فى طريق فسمعت فجأة صيحة، فذهبت متتبعا آثارها، فشاهدت رجلا مغمى عليه على الأرض، قلت: ما هذا! قالوا: رجل واعى القلب سمع آية من القرآن و اندهش، قلت: أى آية؟ قالوا: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... و فجأة أفاق الرجل عند سماع صوتنا و بدأ بقراءة هذا الشعر المؤثّر:

أما آن للهجران أن ينصر ماو للغصن غصن البان أن يتبسّما

و للعاشق الصبّ الذى ذاب و انحنىألم يأن أن يبكى عليه و يرحما

كتبت بماء الشوق بين جوانحىكتابا حكى نقش الوشى المنمنما

قال ذلك ثمّ سقط على الأرض. مدهوشا مرّة اخرى، فحرّكناه و إذا به قد سلّم روحه إلى بارئه و ربّه ۶۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲

الآيتان [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۱۹) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (۲۰)

التفسير

الدنيا متاع الغرور:

استمرارا للبحث الذى تناولته الآيات السابقة فى بيان حال المؤمنين و أجرهم عند اللّه تعالى، تضيف الآيات التالية بهذا الصدد قوله تعالى: وَ الَّذِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳

آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ

«الصدّيق» صيغة مبالغة من (الصدق) بمعنى الشخص الذى يستوعب الصدق جميع وجوده، حيث يصدّق عمله قوله، و هو النموذج التامّ للصدق.

«شهداء» جمع «شهيد» من مادّة (شهود) بمعنى الحضور مع المشاهدة سواء كانت بالعين المجرّدة أو البصيرة، و إذا أطلقت على «الشاهد» كلمة شاهد و شهيد، فالسبب هو حضوره و مشاهدته فى المكان، كما يطلق هذا المصطلح على «الشهداء فى سبيل اللّه» بسبب حضورهم فى ميدان الجهاد.

إلّا أنّ المراد من (الشهداء) فى الآية مورد البحث قد يكون الشهادة على الأعمال، كما يستفاد من الآيات القرآنية الاخرى، فالأنبياء شهداء على أعمال أممهم، و رسول الإسلام شاهد عليهم و على الامّة الإسلامية، و المسلمون أيضا شهداء على أعمال الناس ۶۲].

و بناء على هذا، فإنّ الشهادة على الأعمال مقام عال، و الذى يكون من نصيب المؤمنين.

و احتمل البعض أنّ (شهداء) هنا هو الشهداء فى سبيل اللّه، أى الأشخاص المؤمنون الذين لهم أجر و ثواب الشهادة، يحسبون بمنزلة الشهداء، لذا ذكر

فى حديث أنّ شخصا ذهب إلى الإمام الصادق عليه السّلام، فقال له: ادع اللّه أن يرزقنى الشهادة. فقال الإمام عليه السّلام أنّ المؤمن شهيد، ثمّ قرأ هذه الآية: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ..[۶۳].

و من الطبيعى أنّه يمكن الجمع بين المعنيين، خصوصا أنّ القرآن الكريم أطلق مصطلح «شهيد و شهداء» فى الغالب على الأعمال و ما إلى ذلك.

و على كلّ حال، فإنّ اللّه تعالى يصف المؤمنين الحقيقيين هنا بوصفين: الأوّل:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴

«الصدّيق» و الآخر: «الشهيد»، و هذا يرينا أنّ المقصود من المؤمنين فى الآية مورد البحث هم أصحاب الدرجات العالية فى الإيمان لا المؤمن العادى ۶۴].

ثمّ يضيف تعالى: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ

إنّ هذا التعبير المختصر يشير إلى عظيم الأجر و النور الذى ينتظرهم.

و فى النهاية يضيف تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ و ذلك كى تتوضّح بهذه المقارنة النتيجة التى آلت إليها المجموعتان، و التى تتدرّج بين القمّة و القاع، حيث إنّ القسم الأوّل فى المقام العالى من دار الخلد، و القسم الثانى فى الدرك الأسفل من النار يندبون سوء حظّهم و انحطاط مصيرهم.

و بما أنّ المجموعة الاولى كانت فى أعلى مستويات الإيمان، ففى المقابل أيضا ذكرت الآية أيضا الكفر بأسوأ صوره فى الجماعة الثانية المقارن للتكذيب بآيات اللّه.

و لأنّ حبّ الدنيا مصدر كلّ رذيلة، و رأس كلّ خطيئة، فالآية اللاحقة ترسم بوضوح وضع الحياة الدنيا و المراحل المختلفة و المحفّزات و الظروف و الأجواء التى تحكم كلّ مرحلة من هذه المراحل، حيث يقول سبحانه: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ.

و بهذه الصورة فإنّ «الغفلة» و «اللهو» و «الزينة» و «التفاخر» و «التكاثر» تشكّل المراحل الخمس لعمر الإنسان.

ففى البداية مرحلة الطفولة، و الحياة فى هذه المرحلة عادة مقترنة بحالة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵

الغفلة و الجهل و اللعب.

ثمّ مرحلة المراهقة حيث يأخذ اللهو مكان اللعب، و فى هذه المرحلة يكون الإنسان لاهثا وراء الوسائل و الأمور التى تلهيه و تبعده عن

الأعمال الجدّية.

و المرحلة الثالثة هى مرحلة الشباب و الحيوية و العشق وحبّ الزينة.

و إذا ما تجاوز الإنسان هذه المرحلة فإنّه يصل إلى المرحلة الرابعة حيث تتولّد فى نفسه دوافع العلو و التفاخر.

و أخيرا يصل إلى المرحلة الخامسة حيث يفكّر فيها بزيادة المال و الأولاد و ما إلى ذلك.

و المراحل الاولى تشخّص حسب العمر تقريبا، إلّا أنّ المراحل اللاحقة تختلف عند الأشخاص تماما، و البعض من هذه المراحل تستمر مع الإنسان إلى نهاية عمره، كمرحلة جمع المال، و بالرغم من أنّ البعض يعتقد أنّ كلّ مرحلة من هذه المراحل الخمس تأخذ سنين من عمر الإنسان مجموعها أربعون سنة، حيث تتثبت شخصية الإنسان عند وصوله إلى هذا العمر.

كما أنّ بعض الأشخاص يمكن أن تتوقّف شخصيتهم فى المرحلة الاولى و الثانية حتّى مرحلة الهرم، و لذا فإنّ سمات هذه المرحلة تبقى هى الشاخصة فى سلوكهم و تكوين شخصياتهم، حيث اللعب و الشجار و اللهو هو الطابع العامّ لهم، و تفكيرهم منهمك للغاية فى تهيئة البيت الأنيق و الملابس الفاخرة و غير ذلك من متع الحياة الدنيا حتّى الموت .. إنّهم أطفال فى سنّ الكهولة، و شيوخ فى روحية الأطفال.

و يذكر سبحانه مثالا لبداية و نهاية الحياة و يجسّد الدنيا أمام أعين الناس بهذه الصورة حيث يقول سبحانه: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶

ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً[۶۵].

«كفّار» هنا ليس بمعنى الأشخاص غير المؤمنين، و لكن بمعنى «الزرّاع» لأنّ أصل الكفر هو التغطية، و بما أنّ الزارع عند ما ينثر البذور يغطّيها بالتراب، فقد قيل له كافر، و يقال أنّ «الكر» جاء بمعنى القبر أحيانا، لأنّه يغطّى جسم الميّت كما ورد فى (سورة الفتح الآية/ ۲۹).

و فى الحديث عن النمو السريع للنبات يقول تعالى: يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ إذ وردت هنا كلمة «الزرّاع» بدلا من الكفّار.

و يحتمل بعض المفسّرين أيضا أنّ المقصود من «الكفّار» هنا هو نفس الكفر باللّه تعالى و ذكروا عدّة توجيهات لهذا، و الظاهر أنّ هذا التّفسير لا يتناسب و سياق الآية، إذ أنّ المؤمن و الكافر شريكان فى هذا التعجّب.

(حطام) من مادّة (حطم) بمعنى التكسير و التفتيت، و يطلق على الأجزاء المتناثرة للتبن (حطام) و هى التى تأخذها الرياح باتّجاهات مختلفة.

إنّ المراحل التى يمرّ بها الإنسان مدّة سبعين سنة أو أكثر تظهر فى النبات بعدّة أشهر، و يستطيع الإنسان أن يسكن بجوار المزرعة و يراقب بداية و نهاية العمر فى وقت قصير.

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم إلى حصيلة العمر و نتيجته النهائية حيث يقول سبحانه: وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ

و أخيرا تنهى الآية حديثها بهذه الجملة: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ.

«غرور» فى الأصل من مادّة (غرّ) على وزن «حرّ» بمعنى الأثر الظاهر للشىء، و يقال (غرّة) للأثر الظاهر فى جبهة الحصان، ثمّ أطلقت الكلمة على حالة الغفلة، حيث أنّ ظاهر الإنسان واع، و لكنّه غافل فى الحقيقة، و تستعمل أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷

بمعنى الخدعة و الحيلة.

«المتاع» بمعنى كلّ نوع و وسيلة يستفاد منها، و بناء على هذا فإنّ جملة (الدنيا متاع الغرور) كما جاءت فى قوله تعالى: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ تعنى أنّها وسيلة و أداة للحيلة و الخدعة للفرد و للآخرين.

و طبيعى أنّ هـذا المعنى وارد فى الأشـخاص الـذين يعتبرون الـدنيا هـدفهم النهـائى، و تكون منتهى غاياتهم، و لكن إذا كانت الهبات المادية فى هذا العالم وسيلة للوصول بالإنسان للسعادة الأبدية، فذلك لا يعدّ من الدنيا، بل ستكون جسرا و قنطرة و مزرعة للآخرة التى ستتحقّق فيها تلك الأهداف الكبيرة حقّا.

من البديهى أنّ النظر إلى الدنيا باعتبار أنّها «مقرّ» أو «جسر» سوف يعطى للإنسان توجّهين مختلفين، الأوّل: يكون سـببا للنزاع و الفساد و التجاوز و الظلم، و الطغيان و الغفلة، و الثانى: وسيلة للوعى و التضحية و الاخوة و الإيثار.

تعقيب

۱- مقام الصدّيقين و الشهداء

وصف القرآن الكريم الأنبياء العظام و أمثالهم بأنّهم (صدّيقون) و من جملتهم إبراهيم عليه السّلام: إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[۶۶].

و وصف إدريس عليه السّلام بنفس الوصف قال تعالى: وَ اذْكُرْ فِى الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[۶۷].

و حول امّ المسيح السيّدة مريم عليه السّلام نقرأ قوله تعالى: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ[۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸

كمـا جـاء ذكر (الصـدّيقين) على مسـتوى الأنبياء أو من معهم فى بعض الآيات القرآنيـة، كما فى قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً[۶۹] و كمـا قلنا فإنّ هـذا المصـطلح صـيغة مبالغـة من مـادّة (صـدق) تقال للشـخص الـذى يحيط الصـدق كلّ وجوده، و ينعكس الصـدق فى أفكاره و أقواله و أعماله و كلّ حياته، و هذا يعكس لنا أهميّة مقام الصدق.

أمّا (الشـهداء) فكما قلنا يمكن أن يقصـد بهم الشـهداء على الأعمال أو بمعنى الشـهداء فى سبيل اللّه، و فى الآيـة مورد البحث يمكن الجمع بين الرأيين.

و من الطبيعى أنّ «الشـهيد» فى الفكر الإسـلامى لاـ ينحصـر بالشـخص الـذى يقتـل فى ميـدان الجهاد، بالرغم من أنّه أوضـح مصـداق لمفهوم الشهيد، بل ينطبق على كلّ الأشخاص الذين يؤمنون بالعقيدة الإلهيّة و يسيرون فى طريق الحقّ حتّى رحيلهم من الدنيا، و ذلك تماشيا مع الروايات الإسلامية فإنّها تعدّ هؤلاء فى زمرة الشهداء.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «العارف منكم هذا الأمر المنتظر له المحتسب فيه الخير، كمن جاهد و اللّه مع قائم آل محمّد بسيفه. ثمّ قال:

بل و اللّه كمن جاهـد مع رسول بسـيفه. ثمّ قال الثالثـة: بل و اللّه كمن استشـهد مع رسول اللّه فى فسـطاطه، و فيكم آية من كتاب اللّه، قلت: و أى آية جعلت فداك؟

قال: قول اللّه عزّ و جلّ: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ... ثمّ قال: «صرتم و اللّه صادقين شهداء عند ربّكم»[۷۰].

و ننهى هذا الموضوع بحديث: لأمير المؤمنين ۷۱] عند ما كان بعض أصحابه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹

يستعجلون فى أمر الجهاد و نيل الشهادة .. حيث

قـال: «لاـ تسـتعجلوا مـا لم يعجله اللّه لكم، فـإنّه من مـات منكم على فراشه و هـو على معرفـة حقّ ربّه و حقّ رسوله و أهـل بيته مـات

شهیدا»[۷۲].

۲- الحیاة الدنیا .. لهو و لعب

یصف القرآن الکریم- أحیانا- الحیاة الدنیا بأنّها لهو و لعب، کما فی قوله تعالی: وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ[۷۳].
و یصفها أحیانا باللهو و اللعب و الزینة و التفاخر و التکاثر، کما فی الآیات مورد البحث.
و یصفها أحیانا بأنّها (متاع الغرور) کما فی قوله تعالی وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ[۷۴].
و یصفها أحیانا بأنّها (متاع قلیل) کما جاء فی: (الآیة ۷۷ من سورة النساء).
و أحیانا یصفها بأنّها عارض ظاهری سریع الزوال. «النساء»/ ۹۴.
و مجموع هذه التعبیرات و الآیات القرآنیة توضّح لنا وجهة نظر الإسلام حول الحیاة المادیة و نعمها، حیث إنّه یعطیها القیمة المحدودة التی تتناسب مع شأنها، و یعتبر المیل إلیها و الانشداد لها ناشئا من توجّه غیر هادف (لعب) و (لهو) و تجمّل و (زینة) و حبّ المقام و الرئاسة و الأفضلیة علی الآخرین (تفاخر) و الحرص و طلب المال و الأولاد بکثرة (التکاثر) و یعتبر التعلّق بها مصدرا للذنوب و الآثام و المظالم.
أمّا إذا تحوّلت النظرة إلی هذه النعم الإلهیّة، و أصبحت سلّما للوصول إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰

الأهداف الإلهیّة، عندئذ تصبح رأسمال یشتریها اللّه من المؤمنین و یعطیهم عوضها جنّة خالدة و سعادة أبدیّة، قال تعالی: إِنَّ اللَّهَ اشْتَری مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...[۷۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۱

الآیات [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۲۱ الی ۲۴]

اشارة

سابِقُوا إِلی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها کَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِکَ فَضْلُ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ (۲۱) ما أَصابَ مِنْ مُصِیبَةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی أَنْفُسِکُمْ إِلَّا فِی کِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیرٌ (۲۲) لِکَیْلا تَأْسَوْا عَلی ما فاتَکُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاکُمْ وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۲۳) الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ (۲۴)

التّفسیر

المسابقة المعنویة الکبری!!

بعد ما بیّنت الآیات السابقة قیمة هذه الدنیا المتواضعة الفانیة، و کیف أنّ الناس فیها منهمکون فی اللذات و التکاثر و التفاخر و جمع الأموال ... تأتی الآیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۲

مورد البحث لتدعو الناس إلى العمل للحصول على موقع في الدار الآخرة، ذلك الموقع المتّسم بالثبات و البقاء و الخلود، و تدعوهم إلى السباق في هذا المجال و بذل الجهد فيه، حيث يقول سبحانه: سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ

و في الحقيقة أنّ مغفرة اللّه هي مفتاح الجنّة، تلك الجنّة التي عرضها السماوات و الأرض و قد أعدّت من الآن لضيافة المؤمنين، حتّى لا يقول أحد إنّ الجنّة نسيئة و دين و لا أمل في النسيئة، فعلى فرض أنّها نسيئة فانّها أقوى من كلّ نقد، لأنّها ضمن وعد اللّه القادر على كلّ شيء و أصدق من كلّ وعد، فكيف الحال و هي موجودة الآن و بصورة نقد؟! و قد ورد نفس هذا المعنى في سورة آل عمران (الآية رقم ۱۳۳) مع اختلاف بسيط، حيث إنّ في الآية مورد البحث جاءت كلمة (سابقوا) من مادّة (المسابقة) و هنا لك وردت كلمة (سارعوا) من مادّة (المسارعة)، و كلاهما قريب من الآخر بالنظر إلى مفهوم باب «المفاعلة» حيث تتجسّد غلبة شخصين أحدهما على الآخر.

و الاختلاف الآخر هو أنّها هنا لك قد جاءت بوصف: عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ و هنا جاءت: عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و إذا دقّقنا قليلا يتّضح أنّ هذين التعبيرين يوضّحان حقيقة واحدة أيضا.

و يقول سبحانه هناك: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ و هنا يقول: أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

و لأنّ المتّقين ثمرة شجرة الإيمان الحقيقي، فإنّ هذين التعبيرين في الواقع كلّ منها لازم و ملزوم للآخر.

و بهذه الصورة فإنّ الإثنين يتحدّثان عن حقيقة واحدة ببيانين مختلفين، و لهذا فما ذكره البعض من أنّ الآية (سورة آل عمران تشير إلى «جنّة المقرّبين»، و آية مورد البحث تشير إلى «جنّة المؤمنين»، صحيح حسب الظاهر.

و على كل حال فالتعبير ب (عرض) هنا ليس في مقابل (الطول) كما قال بعض

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۳

المفسّرين حيث كانوا يبحثون عن طول تلك الجنّة التي عرضها مثل السماء و الأرض، و لهذا السبب فإنّهم واجهوا صعوبة في توجيه ذلك، حيث إنّ العرض في مثل هذه الاستعمالات بمعنى «السعة».

و التعبير ب «المغفرة» قبل البشارة بالجنّة- الذي ورد في الآيتين- هو إشارة لطيفة إلى أنّه ليس من اللائق الدخول إلى الجنّة و القرب من اللّه قبل المغفرة و التطهير.

و ممّا ينبغي ملاحظته أنّ المسارعة لمغفرة اللّه لا بدّ أن تكون عن طريق أسبابها كالتوبة و التعويض عن الطاعات الفائتة، و أساسا فانّ طاعة اللّه عزّ و جلّ يعني تجنّب المعاصي، و لكنّنا نجد في بعض الأحاديث تأكيد على القيام بالواجبات و بعض المستحبّات كالتقدّم للصفّ الأوّل في الجماعة، أو الصفّ الأوّل في الجهاد، أو تكبيرة الإحرام مع إمام الجماعة، أو الصلاة في أوّل وقتها، فهذه من قبيل بيان المصداق و لا يقلّل شيئا من المفهوم الواسع للآية.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۶۳

يضيف تعالى في نهاية الآية: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

و من المؤكّد أنّ جنّة بذلك الاتّساع و بهذه النعم، ليس من السهل للإنسان أن يصل إليها بأعماله المحدودة، لذا فإنّ الفضل و اللطف و الرحمة الإلهية- فقط- هي التي تستطيع أن تمنحه ذلك الجزاء العظيم في مقابل اليسير من أعماله، إذ أنّ الجزاء الإلهي لا يكون دائما بمقياس العمل، بل إنّه بمقياس الكرم الإلهي.

و على كلّ حال فإنّ هذا التعبير يرينا بوضوح أنّ الثواب و الجزاء لا يتناسب مع طبيعة العمل، حيث أنّه نوع من التفضل و الرحمة.

و لمزيد من التأكيد على عدم التعلّق بالدنيا، و عدم الفرح و الغرور عند إقبالها، أو الحزن عند إدبارها، يضيف سبحانه: ما أَصابَ مِنْ

مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۴

أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[۷۶].

نعم، إنّ المصائب التى تحدث فى الطبيعة كالزلازل و السيول و الفيضانات و الآفات المختلفة، و كذلك المصائب التى تقع على البشر كالموت و أنواع الحوادث المؤلمة التى تشمل الإنسان، فإنّها مقدّرة من قبل و مسجّلة فى لوح محفوظ.

و الجدير بالانتباه أنّ المصائب المشار إليها فى الآية هى المصائب التى لا يمكن التخلّص منها، و ليست ناتجة عن أعمال الإنسان. (بتعبير آخر الحصر هنا حصر إضافى).

و الشاهد فى هذا الكلام قوله تعالى: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ[۷۷] و بملاحظة أنّ الآيات يفسّر بعضها البعض الآخر يتبيّن لنا عند ما نضع هاتين الآيتين جنبا إلى جنب أنّ المصائب التى يبتلى بها الإنسان على نوعين:

الأوّل: المصائب التى تكون مجازاة و كفّارة للذنوب، كالظلم و الجور و الخيانة و الانحراف و أمثالها، فإنّها تكون مصدرا للكثير من مصائب الإنسان.

الثانى: من المصائب هو ما لا تكون للإنسان يد فيه، و تكون مقدّرة و حتمية و غير قابلة للاجتناب حيث يبتلى فيها الفرد و المجتمع، لذا فإنّ الكثير من الأنبياء و الأولياء و الصالحين يبتلون بمثل هذه المصائب.

إنّ هذه المصائب لها فلسفة دقيقة حيث أشرنا إليها فى أبحاث معرفة اللّه و العدل الإلهى و مسألة الآفات و البلايا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۵

و نقرأ فى هذا الصدد القصّة التالية: عند ما أدخل الإمام على بن الحسين عليه السّلام مغلولا مكبّلا فى مجلس يزيد بن معاوية، فالتفت يزيد إلى الإمام، و قرأ آية سورة الشورى: ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ و كان يريد أن يظهر أنّ مصائبكم كانت نتيجة أعمالكم، و بهذا أراد الطعن، بالإمام عليه السّلام بهذا الكلام، إلّا أنّ الإمام ردّ عليه فورا و قال: كلّا، ما نزلت هذه فينا، إنّما نزلت فينا: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها[۷۸].

و لنا بحث مفصّل فى هذا المجال فى تفسير الآية رقم ۳۰ من سورة الشورى ۷۹].

أتباع أهل البيت أيضا عرفوا نفس المعنى، فى هذه الآية، إذ نقل أنّ الحجّاج عند ما جيء له بسعيد بن جبير و صمّم على قتله، بكى رجل من الحاضرين. قال سعيد: و ما يبكيك؟ فأجاب: للمصاب الذى حلّ بك، قال: لا تبك فقد كان فى علم اللّه أن يكون ذلك، ألم تسمع قوله تعالى: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها[۸۰].

و من الطبيعى أنّ كلّ الحوادث التى تحدث فى هذا العالم مسجّلة فى لوح محفوظ و فى علم اللّه عزّ و جلّ اللّامحدود، و إذا أشرنا هنا إلى المصائب التى تقع فى الأرض و فى الأنفس فقط، فلأنّ موضوع الحديث بهذا الاتّجاه، كما سنرى فى الآية اللاحقة التى يستنتج منها الموضوع نفسه.

و بالضمن فإنّ جملة: إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ تشير إلى تسجيل و حفظ كلّ هذه الحوادث فى لوح محفوظ مع كثرتها البالغة، و ذلك سهل يسير على اللّه تعالى.

و المقصود من «اللوح المحفوظ» هو: العلم اللامتناهى للّه سبحانه، أو صحيفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۶

عالم الخلقة و نظام العلّة و المعلول، و التى هى مصداق العلم الفعلى للّه سبحانه «فتدبّر».

و لنلاحظ الآن ما هى فلسفة تقدير المصائب فى اللوح المحفوظ، و من ثمّ بيان هذه الحقيقة فى القرآن الكريم؟

الآية اللاحقة تزيح هذا الحجاب عن هذا السرّ المهمّ حيث يقول تعالى:

لِکَیْلا تَأْسَوْا عَلی ما فاتَکُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاکُمْ

هاتان الجملتان القصیرتان تحلّان- فی الحقیقهٔ- إحدی المسائل المعقّدهٔ لفلسفهٔ الخلقهٔ، لأنّ الإنسان یواجه دائما مشاکل و صعوبات و حوادث مؤسفهٔ فی عالم الوجود، و یسأل دائما نفسه هذا السؤال و هو: رغم أنّ اللّه رحمن رحیم و کریم ..، فلما ذا هذه الحوادث المؤلمهٔ؟! و یجیب سبحانه أنّ هدف ذلک هو: ألا تأسرکم مغریات هذه الدنیا و تنشدّوا إلیها و تغفلوا عن أمر الآخرهٔ .. کما ورد فی الآیهٔ أعلاه.

و المطلوب أن تتعاملوا مع هذا المعبر و الجسر الذی اسمه الدنیا بشکل لا تستولی علی لباب قلوبکم، و تفقدوا معها شخصیّتکم و کیانکم و تحسبون أنّها خالدهٔ و باقیهٔ، حیث إنّ هذا الانشداد هو أکبر عدوّ لسعادتکم الحقیقیهٔ، حیث یجعلکم فی غفلهٔ عن ذکر اللّه و یمنعکم من مسیرهٔ التکامل.

هذه المصائب هی إنذار للغافلین و سوط علی الأرواح التی تعیش الغفلهٔ و السبات، و دلالهٔ علی قصر عمر الدنیا و عدم خلودها و بقائها.

و الحقیقهٔ أنّ المظاهر البرّاقهٔ لدار الغرور تبهر الإنسان و تلهیه بسرعهٔ عن ذکر الحقّ سبحانه، و قد یستیقظ فجأهٔ و یری أنّ الوقت قد فات و قد تخلّف عن الرکب.

هذه الحوادث کانت و لا تزال فی الحیاهٔ، و ستبقی بالرغم من التقدّم العلمی العظیم، و لن یستطیع العلم أن یمنع حدوثها و نتائجها المؤلمهٔ، کالزلازل و الطوفان و السیول و الأمطار و ما إلی ذلک .. و هی درس من قسوهٔ الحیاهٔ و صرخهٔ مدوّیهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۷

فیها ..

و هذا لا یعنی أن یعرض الإنسان عن الهبات الإلهیهٔ فی هذا العالم أو یمتنع من الاستفادهٔ منها، و لکن المهمّ ألّا یصبح أسیرا فیها، و ألّا یجعلها هی الهدف و النقطهٔ المرکزیهٔ فی حیاته.

و الجدیر بالملاحظهٔ هنا أنّ القرآن الکریم استعمل لفظ (فاتکم) للدلالهٔ علی ما فقده الإنسان من أشیاء، أمّا ما یخصّ الهبات و النعم التی حصل علیها فإنّه ینسبها للّه، (بما آتاکم)، و حیث أنّ الفوت و الفناء یکمن فی ذات الأشیاء، و هذا الوجود هو من الفیض الإلهی.

نعم، إنّ هذه المصائب تکسر حدّهٔ الغرور و التفاخر و حیث یقول سبحانه فی نهایهٔ الآیهٔ: إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ.

«مختال» من مادّهٔ (خیال) بمعنی متکبر، لأنّ التکبر من التخیّل، أی من تخیّل الإنسان الفضل لنفسه، و تصوّره أنّه أعلی من الآخرین. و (فخور) صیغهٔ مبالغهٔ من مادّهٔ (فخر) بمعنی الشخص الذی یفتخر کثیرا علی الآخرین.

و الشخص الوحید الذی یبتلی بهذه الحالات هو المغرور الذی أسکرته النعم، و هذه المصائب و الآفات بإمکانها أن توقظه عن هذا السکر و الغفلهٔ و تهدیه إلی سیر التکامل.

و من ملاحظهٔ ما تقدّم أعلاه فإنّ المؤمنین عند ما یرزقون النعم من قبل اللّه سبحانه فإنّهم یعتبرون أنفسهم مؤتمنین علیها، و لا یأسفون علی فقدانها و فواتها، و لا یغفلون و یسکرون بوجودها. إذ یعتبرون أنفسهم کالأشخاص المسؤولین عن بیت المال إذ یستلمون فی یوم أموالا کثیرهٔ و یدفعونها فی الیوم الثانی، و عندئذ لا یفرحون باستلامها، و لا یحزنون علی إعطائها.

و کم هو تعبیر رائع ما

قاله أمیر المؤمنین علیه السّلام حول هذه الآیهٔ: «الزهد کلّه بین کلمتین فی القرآن الکریم قال تعالی: لِکَیْلا تَأْسَوْا عَلی ما فاتَکُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۸

آتاکُمْ و من لم یأس علی الماضی و لم یفرح بالآتی فقد أخذ الزهد بطرفیه»[۸۱].

و النقطهٔ الاخری الجدیرهٔ بالملاحظهٔ هی أنّ هذا الأصل- وجود المصائب- فی حیاهٔ الإنسان أمر قدّر علیه طبقا لسنّهٔ حکیمهٔ، حیث أنّ الدنیا فی حالهٔ غیر مستقرّهٔ، و هذا الأصل یعطی للإنسان الشجاعهٔ لتحمّل المصائب و یمنحه الصلاهٔ و السکینهٔ أمام الحوادث و یکون مانعا له من الجزع و الضجر ..

و نؤکّد مرّهٔ اخری أنّ هذا یتعلّق- فقط- بالمصائب المقدّرهٔ و الغیر قابلهٔ للردّ، و إلّا فإنّ المصائب و المصاعب التی تکون بسبب ذنوب الإنسان و تسامحه فی الطاعات، و الالتزامات الإلهیّهٔ، فإنّها خارجهٔ عن هذا البحث، و لمواجهتها لا بدّ من وضع برنامج صحیح فی حیاهٔ الإنسان.

و ننهی هذا البحث بما ذکر فی التاریخ حیث نقل عن بعض المفسّرین ما یلی:

قال: «قتیبهٔ بن سعید»[۸۲]: دخلت علی إحدی قبائل العرب فرأیت صحراء مملوءهٔ بجمال میّتهٔ لا- تعدّ، و کانت بقربی امرأهٔ عجوز فسألتها: لمن هذه الجمال؟

قالت: لذلک الرجل الجالس فوق التل الذی تراه یغزل، فذهبت إلیه و قلت: هل هذا کلّه لک؟ قال: کانت باسمی، قلت: ما الذی جری و أصبحن بهذا الحال؟

فأجابنی- دون الإشارهٔ إلی علّهٔ موتهنّ- إنّ المعطی قد أخذ. قلت: هل ضجرت لما أصابک؟ و هل قلت شیئا بعد مصابک؟ قال: بلی. و أنشد هذین البیتین:

لا و الذی أنا عبد من خلائقهو المرء فی الدهر نصب الرزء و المحن

ما سرّنی أنّ إبلی فی مبارکهاو ما جری من قضاء اللّه لم یکن

أنا راض برضی اللّه تعالی فقط و کلّما یقدّر فأنا أقبله ۸۳].

و فی آخر آیهٔ مورد البحث نلاحظ توضیحا و تفسیرا لما جاء فی الآیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۹

السابقهٔ، و الذی یوضّح حقیقهٔ الإنسان المختال الفخور حیث یقول عنه تعالی:

الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۸۴].

نعم، إنّ الانشداد العمیق لزخارف الدنیا ینتج التکبر و الغرور، و لازم التکبّر و الغرور هو البخل و دعوهٔ الآخرین للبخل. أمّا البخل فلأنّ التکبّر و الغرور کثیرا ما یکون بسبب ثراء الإنسان الذی یدفعه إلی أن یحرص علیه، و بالتالی یبخل فی إنفاقه، و من هنا فإنّ لازمهٔ الغرور و التکبّر هو البخل.

أمّا دعوهٔ الآخرین إلی البخل، فلأنّ سخاء الآخرین سیفضح غیرهم من البخلاء، هذا أوّلا، و الثانی أنّ البخیل یحبّ البخل، لذا فإنّه یدعو للشیء الذی یرغب فیه.

و لکی لا یتصوّر أنّ تأکید اللّه سبحانه علی الإنفاق و ترک البخل، أو کما عبّرت عنه الآیات السابقهٔ ب (القرض لله) مصدره احتیاج ذاته المقدّسهٔ، فإنّه یقول فی نهایهٔ الآیهٔ: وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ.

بل نحن کلّنا محتاجون إلیه و هو الغنی عنّا جمیعا، لأنّ جمیع خزائن الوجود عنده و تحت قبضته، و لأنّه جامع لصفات الکمال فإنّه یستحقّ کلّ شکر و ثناء.

و بالرغم من أنّ الآیهٔ أعلاه تتحدّث عن البخل المالی. إلّا أنّه لا ینحصر علیه، لأنّ مفهوم البخل واسع یستوعب فی دائرته البخل فی العلم و أداء الحقوق و ما إلی ذلک أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۰

الآیهٔ [سورهٔ الحدید (۵۷): آیهٔ ۲۵]

اشارة

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲۵)

التّفسير

الهدف الأساس من بعثة الأنبياء:

ابتـدأ اللّه سـبحانه و تعـالى عبـاده بـالنعم فكـانت رحمته و لطفه و مغفرته، و نعمه الكثيرة التى لا تحصـى و التى أشـير إليها فى الآيات السابقـة .. و لأنّ هـذه النعم تحتـاج إلى تقنين فى اسـتعمالها، و نظم و شـرائط لنيـل نتائجهـا المرجوّة، لـذا فـانّه يحتـاج إلى قيادة تقوم بمباشـرتها و الإشراف عليها و إعطاء التوجيهات الإلهية بشأنها، و هؤلاء القادة يجب أن يكونوا (قادة إلهيين) و الآية مورد البحث- التى تعتبر من أكثر الآيـات القرآنيـة محتوى- تشـير إلى هـذا المعنى، و تبيّن هـدف إرسـال الأنبيـاء و منـاهجهم بصورة دقيقـة، حيث يقول سبحانه: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۱

وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.

«البيّنات» هى الدلائل الواضحة، و لها معنى واسع يشمل المعجزات و الدلائل العقليّة التى تسلّح بها الأنبياء و الرسل الإلهيّون.

المقصود من (كتاب) هو نفس الكتب السماوية، و لأنّ روح و حقيقة الجميع شيء واحد، لذا فإنّ التعبير ب (كتاب) جاء بصيغة مفرد.

و أمّا «الميزان» فيعنى وسيلة للوزن و القياس، و مصداقها الحسّى هو الميزان الذى يقاس به وزن البضائع، و من الواضح أنّ المقصود هو المصـداق المعنوى، أى الشـيء الـذى نسـتطيع أن نقيس به كلّ أعمال الإنسان، و هى الأحكام و القوانين الإلهيّة أو الأفكار و المفاهيم الرّبّانية، أو جميع هذه الأمور التى هى معيار لقياس الأعمال الصالحة و السيّئة.

و بهـذه الصورة فـإنّ الأنبيـاء كـانوا مسـلّحين بثلاث وسائل و هى: «الـدلائل الواضـحة»، و «الكتب السـماوية»، و «معيار قياس الحقّ من الباطل» و الجيّـد من الردىء. و لا يوجـد مانع من أن يكون القرآن (بيّنـة) أى معجزة، و هو كـذلك كتاب سـماوى و مبيّن للأحكام و القوانين، أى أنّ الأبعاد الثلاثة تصبّ فى محتوى واحد و هى موجودة فى القرآن الكريم.

و على كلّ حال، فإنّ الهدف من تعبئة هؤلاء الرجال العظام بهذه الأسلحة الأساسية، هو إقامة القسط و العدل.

و فى الحقيقة أنّ هذه الآية تشير إلى أحد الأهداف العديدة لإرسال الرسل، لأنّنا نعلم أنّ بعث الأنبياء و سعيهم كان من أجل أهداف عدّة:

منهـا: التعليم و التربيـة، كما جاء فى الآيـة التاليـة: هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ ...[۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۲

و الهدف الآخر كسر الأغلال و القيود التى أسّرت الإنسان، كما قال تعالى:

وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِى كانَتْ عَلَيْهِمْ ۸۶].

و الهدف الثالث إكمال القيم الأخلاقية، كما

جاء فی الحدیث المشهور: «بعثت لأتمّم مکارم الأخلاق»[۸۷].

و الهدف الرابع إقامة القسط و العدل، الذی أشیر إلیه فی الآیة مورد البحث.

و بهذا الترتیب نستطیع تلخیص بعثة الأنبیاء فی الأهداف التالیة: (الثقافیة، الأخلاقیة، السیاسیة، الاجتماعیة).

و من الواضح أنّ المقصود من الرسل فی الآیة مورد البحث، و بقرینة إنزال الکتب، هم الأنبیاء أولی العزم و من یمثّلهم.

و ممّا یجدر ذکره أنّ المقصود من التعبیر القرآنی: لِیَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ أی أن یتحرّک الناس أنفسهم لتحقیق القسط، و لیس المقصود أن یلزم الأنبیاء علی إقامة القسط، و لهذا یمکن القول بأنّه المراد من الآیة و هدفها هو أن یعمل الناس بمفاهیم القسط و یتحرّکوا لتطبیقها.

و المهمّ أن یتربّی الناس علی العدل و القسط بحیث یصبحون و أعین له داعین إلیه، منفّذین لبرامجه و سائرین فی هذا الاتّجاه بأنفسهم.

ثمّ إنّ أی مجتمع إنسانی مهما کان مستواه الأخلاقی و الاجتماعی و العقائدی و الروحی عالیا، فإنّ ذلک لا یمنع من وجود أشخاص یسلکون طریق العتو و الطغیان، و یقفون فی طریق القسط و العدل، و استمرارا لمنهج الآیة هذه یقول سبحانه: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ فِیهِ بَأْسٌ شَدِیدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ

نعم، إنّ هذه الأسلحة الثلاثة التی وضعت تحت تصرّف الأنبیاء هی بهدف أن تکون الأفکار و المفاهیم التی جاء بها الأنبیاء فاعلة و مؤثّرة، و تحقّق أهدافها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۳

المنشودة، فقد وضع الحدید و البأس الشدید فی خدمة رسل اللّه.

و بالرغم من أنّ البعض یتصوّر أنّ تعبیر (أنزلنا) یعکس لنا أنّ الحدید جاء من کرات سماویة إلی الأرض، إلّا أنّ الصحیح أنّ التعبیر ب (الإنزال) فی مثل هذه الحالات هو إشارة إلی الهبات التی تعطی من المقام الأعلی إلی المستوی الأدنی، و لأنّ خزائن کلّ شیء عند اللّه تعالی فهو الذی خلق الحدید لمنافع مختلفة، فعبّر عنه بالإنزال، و هنا حدیث لأمیر المؤمنین علیه السّلام فی تفسیره لهذا القسم من الآیة حیث

قال: «إنزاله ذلک خلقه إیّاه»[۸۸].

کما نقرأ فی الآیة (۶) من سورة الزمر حول الحیوانات حیث یقول سبحانه:

وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِیَةَ أَزْواجٍ

و فسّر البعض (أنزلنا) بأنّها من مادّة (نزل) علی وزن (شبر) بمعنی الشیء الذی یهیّأ لاستقبال الضیوف، و لکن الظاهر أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب.

«البأس» فی اللغة بمعنی الشدّة و القسوة و القدرة، و یقال للحرب و المبارزة (بأس) أیضا، و لذا فإنّ المفسّرین فسّروها بأنّها الوسائل الحربیة، أعمّ من الدفاعیة و الهجومیة، و

نقل فی روایة عن أمیر المؤمنین علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «یعنی السلاح و غیر ذلک»[۸۹].

و الواضح أنّ هذا من قبیل بیان المصداق.

و المقصود من «المنافع» هنا هو کلّ ما یفید الإنسان من الحدید، و تتبیّن الأهمیّة البالغة للحدید فی حیاة الإنسان أنّ البشریة قد بدأت عصرا جدیدا بعد اکتشافه، سمّی بعصر الحدید، لأنّ هذا الاکتشاف قد غیّر الکثیر من معالم الحیاة فی أغلب المجالات، و هذا یمثّل أبعاد کلمة (المنافع) فی الآیة الکریمة أعلاه.

و قد أشیر إلی هذا المعنی بآیات مختلفة فی القرآن، منها قوله تعالی بشأن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۴

تصمیم ذی القرنین علی صنع سدّه العظیم: آتُونِی زُبَرَ الْحَدِیدِ[۹۰].

و کذلک قوله سبحانه: وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِیدَ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ ۹۱] و ذلک عند ما شمل لطفه عزّ و جلّ داود علیه السّلام بتلیین الحدید له لیستطیع أن یصنع دروعا منه یقلّل فیها أخطار الحروب و هجمات العدو.

ثمّ یشیر سبحانه إلی هدف آخر من أهداف إرسال الأنبیاء و إنزال الکتب السماویة، و خلقه و تسخیره الوسائل المفیدة للإنسان کالحدید مثلا، حیث یقول تعالی: وَ لِیَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ یَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَیْبِ

المقصود من (علم اللّه) هنا هو التحقّق العینی لیتوضّح من هم الأشخاص الذین یقومون بنصرة اللّه و مبدئه، و یقومون بالقسط؟ و من هم الأشخاص الذین یتخلّفون عن القیام بهذه المسؤولیة العظیمة؟

و مفهوم هذه الآیة یشبه ما ورد فی قوله تعالی: ما کانَ اللَّهُ لِیَذَرَ الْمُؤْمِنِینَ عَلی ما أَنْتُمْ عَلَیْهِ حَتَّی یَمِیزَ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ ۹۲].

و بهذه الصورة نلاحظ أنّ المسألة هنا مسألة اختبار و تمحیص و استخراج الصفوة التی استجابت لمسؤولیتها و القیام بواجبها الإلهی، و هذا هو هدف آخر من الأهداف الأساسیة فی هذا البرنامج.

و من الطبیعی أنّ المقصود ب (نصرة اللّه) أنّها نصرة الدین و المبدأ و الحاملین وحی الرسالة، و إقامة الحقّ و القسط .. و إلّا فإنّ اللّه لیس بحاجة إلی نصرة أحد، بل الکلّ محتاج إلیه، و لتأکید هذا المعنی تنتهی الآیة بقوله تعالی: إِنَّ اللَّهَ قَوِیٌّ عَزِیزٌ.

حیث بإمکانه سبحانه أن یغیّر ما یشاء من العالم، بل یقلبه رأسا علی عقب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۵

بإشارة واحدة، و یهلک أعداءه، و ینصر أولیاءه .. و بما أنّ الهدف الأساس له سبحانه هو التربیة و تکامل البشر، لذا فقد دعاهم عزّ و جلّ إلی نصرة مبدأ الحقّ.

تعقیب

۱- الحدود بین القوّة و المنطق

رسمت الآیة أعلاه صورة وافیة و مفصّلة من وجهة النظر الإسلامیة فی مجال التربیة و التعلیم، و توسعة دائرة العدل و إقامة القسط فی المجتمع الإنسانی.

ففی البدایة أکّدت الآیة علی ضرورة الاستفادة من الدلائل و البیّنات و الکتب السماویة، و ضوابط القیم، و بیان الأحکام و القوانین .. و ذلک لترسی أساسا لثورة فکریة و ثقافیة متینة مرتکزة علی قاعدة من العقل و المنطق.

إلّا أنّه فی حالة عدم جدوی تلک الوسائل و الأسالیب، و حین الوصول إلی طریق مغلق فی الاستفادة من الأسلوب المتقدّم بسبب تعنّت الطواغیت، و مواجهة الاستکبار لرسل الحقّ و القسط، و الإعراض عن قیم و ضوابط و أحکام (الکتاب و المیزان) .. فهنا یأتی دور «الحدید» الذی فیه «بأس شدید» حین یوجّه صفعة قویّة علی رؤوس الجبابرة بهذا السلاح کی یستسلموا للقسط و العدل و دعوة الحقّ التی جاء بها الأنبیاء علیهم السّلام، و من الطبیعی أنّ نصرة المؤمنین أساسیّة فی هذا المجال.

و

ورد حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا الصدد حیث قال: «بعثت بالسیف بین یدیّ الساعة، حتّی یعبد اللّه وحده لا شریک له، و جعل رزقی، تحت ظلّ رمحی»[۹۳].

و هذا الحدیث إشارة إلی أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مأمور بحمل السلاح أمام الکفر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۶

و الاستکبار، و لکن لا بلحاظ أنّ هذا هو الأصل و الأساس فی المنهج الإسلامی کما جاء ذلک صراحة فی الآیة الکریمة أعلاه.

و نقرأ فی حدیث آخر

عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «الخیر کلّه فی السیف، و تحت السیف، و فی ظلّ السیف»[۹۴].

و

جاء عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال فی هذا الصدد: «إنّ اللّه عزّ و جلّ فرض الجهاد و عظّمه و جعله نصره و ناصره، و اللّه ما صلحت دنیا و لا دین إلّا به»[۹۵].

و نختم حدیثنا

بقول آخر لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا یقیم الناس إلّا بالسیف، و السیوف مقالید الجنّة و النار»[۹۶].

و بناء علی هذا فإنّ القادة الإلهیین یحملون فی ید الکتب السماویة و هی مشعل الحقّ، و بالید الاخری السیف. یدعون الناس أوّلا بالعقل و المنطق إلی الحقّ و العدل، فإنّ أعرض الطواغیت عن المنطق، و رفض المستکبرون الاستجابة لنهج الحقّ و العقل عندئذ یأتی دور السیف و القوّة لتحقیق أهدافهم الإلهیة.

۲- الحدید و احتیاجات الحیاة الأساسیة

بعض المفسّرین شرح هدف الآیة أعلاه بما یلی:

إنّ الحیاة الإنسانیة بصورة عامّة تتقوّم بأربعة مرتکزات (الزراعة، و الحیاکة، أی الصناعة،- و السکن، و السلطة)، و لهذا السبب فإنّ الحاجات الأساسیة للإنسان باعتباره موجودا اجتماعیا تترکّز ب (الغذاء و السکن و اللباس) و التی لا یستطیع أن یوفّرها لنفسه بصورة فردیة، و مسألة تأمینها بشکل عام لا بدّ أن تکون بواسطة المجتمع و لأنّ کلّ مجتمع لا یخلو من تزاحم المصالح، و کذلک العدید من المشاکل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۷

و التعقیدات. لهذا، فإنّه بحاجة إلی (سلطة) تجری العدل فیه و ترعی الحقوق و تنظّم الحیاة ... و الملفت هنا أنّ هذه الاسس الأربعة المتقدّمة الذکر تعتمد جمیعها بشکل أساسی علی الحدید، و علینا أن نتصوّرکم ستکون حیاة الإنسان صعبة لو لم یکن هذا المعدن (الحدید) فی خدمتها.

و لأنّ الحاجة إلیه ماسّة و متزایدة، فإنّ اللّه سبحانه قد و فّره بحیث سهّل و یسّر عملیة الحصول علیه، و بالرغم من عدم إغفال الدور المفید لکلّ من الفلّزات الاخری، إلّا أنّ الحدید یبقی له دور أساس فی حیاة الإنسان.

و من هنا یتوضّح مقصود قول اللّه عزّ و جلّ: فِیهِ بَأْسٌ شَدِیدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ ۹۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۸

الآیتان [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۲۶ الی ۲۷]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۲۶) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّينا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۲۷)

التّفسير

تعاقب الرسل واحدا بعد الآخر:

للقرآن الكريم منهجه المتميّز، و من خصوصياته أنّه بعد بيان سلسلة من الأصول العامّة يشير و يذكّر بمصير الأقوام السابقة، لكى يكون ذلك شاهدا و حجّة.

و هنا أيضا يتجسّد هذا المنهج: حيث يشير فى المقدّمة إلى إرسال الرسل مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۹

البيّنات و الكتاب و الميزان و الدعوة إلى الإيمان بالحقّ، لنيل مرضاته سبحانه و الفوز بالسعادة الأبديّة .. ثمّ يتحدّث عن بعض الأمم السابقة و أنبيائهم و يعكس هذه الاسس فى منهج دعوتهم.

و يبدأ بشيوخ الأنبياء و بداية سلسلة رسل الحقّ، نوح و إبراهيم عليهما السّلام، حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ

و ممّا يؤسف له أنّ الكثيرين لم يستفيدوا من هذا الميراث العظيم، و النعم الإلهيّة الفيّاضة، و الهبات و الألطاف العميمة، حيث يقول عزّ و جلّ: فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ

نعم، لقد بدأت النبوّة بنوح عليه السّلام توأما مع الشريعة و المبدأ، و من ثمّ إبراهيم عليه السّلام من الأنبياء اولى العزم فى امتداد خطّ الرسالة، و هكذا حلقات متواصلة على مرّ العصور و القرون، فإنّ القادة الإلهيين من ذريّة إبراهيم عليه السّلام يتصدّون للقيام بمسؤولية الرسالة، إلّا أنّ المستفيد من هذا النور الإلهى العظيم هم القلّة أيضا، فى حين أنّ الغالبية سلكت طريق الانحراف.

ثمّ يشير إشارة مختصرة إلى قسم آخر من سلسلة الأنبياء الكرام التى تختتم بعيسى عليه السّلام آخر رسول قبل نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول سبحانه: ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا.

حيث حملوا نور الهداية للناس ليضيئوا لهم الطريق، و تعاقبوا فى حملها الواحد بعد الآخر، حتّى وصل الدور إلى السيّد المسيح عليه السّلام: وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

«قفّينا» من (قفا) بمعنى الظهر، و يقال للقافية قافية بسبب أنّ بعضها يتبع بعضا، و تطلق عادة على الحروف المتشابهة فى آخر كلّ بيت من بيوت الشعر، و المقصود فى الجملة من الآية أعلاه أنّ الأنبياء جاءوا بلحن واحد و أهداف منسجمة، الواحد تلو الآخر، و بدأوا و أكملوا التعليمات التى حملوها من اللّه إلى أقوامهم ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۰

و هذا التعبير جميل جدّا، و هو إشارة لطيفة إلى مبدأ وحدة الرسالات و توحيد النبوّة.

ثمّ يشير هنا إلى الكتاب السماوى للسيّد المسيح عليه السّلام حيث يقول: وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ و يستمرّ متحدّثا عن خصوصيات أتباعه فيقول سبحانه: وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً.

و يرى بعض المفسّرين أنّ مصطلحى «الرأفة» و «الرحمة» بمعنى واحد، إلّا أنّ قسما آخر اعتبرهما مختلفين و قالوا: إنّ «الرأفة» تعنى

الرغبة فى دفع الضرر، و «الرحمة» تعنى الرغبة فى جلب المنفعة.

و لهذا تذكر الرأفة قبل الرحمة غالبا، لأنّ قصد الإنسان ابتداء هو دفع الضرر و من ثمّ يفكّر فى جلب المنفعة.

و ممّا يدلّل به على هذا الرأى ما استفيد من آية حدّ الزانى و الزانية حيث يقول سبحانه: وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ۹۸].

إنّ موضوع الرأفة و الرحمة بالنسبة للأتباع الحقيقيين للسيّد المسيح عليه السّلام لم يذكر فى هذه الآية فقط، بل ورد هذا المعنى أيضا فى قوله تعالى: وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۹۹] و بالرغم من أنّ الآية الكريمة أخذت بنظر الإعتبار مسيحيى الحبشة و شخص «النجاشى» بالذات، حيث آوى المسلمين و عاملهم بإحسان و محبّة خاصّة، إلّا أنّها بشكل عام تشير إلى الرأفة و الرحمة و العواطف الإيجابية للمسيحيين الحقيقيين.

و من الطبيعى ألّا يكون المقصود هنا المسيحيين الذين يمارسون أقذر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۱

الأعمال و أكثرها إجراما و انحطاطا بحقّ الشعوب المستضعفة، هؤلاء الذين تلبّسوا بلباس الإنسانية، و هم فى الحقيقة ذئاب مفترسة تصبغ حياة المحرومين بلون الدم و الظلام .. ثمّ يضيف سبحانه: وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ ۱۰۰].

و ممّا تقدّم يتّضح لنا أنّ هؤلاء ليسوا ممّن لم يراعوا مبدأ التوحيد للسيّد المسيح عليه السّلام فقط، بل دنسوه بأنواع الشرك، و لم يراعوا أيضا حتّى حقّ الرهبانية التى ابتدعوها باسم الزهد، حيث وضعوا مكائد فى طريق خلق اللّه، و جعلوا من الأديرة و الكنائس مراكز لأنواع الفساد، و أوجدوا انحرافا خطيرا فى رسالة السيّد المسيح عليه السّلام.

و من مفهوم الآية يتّضح لنا أنّ الرهبانية لم تكن جزءا من رسالة السيّد المسيح عليه السّلام، إلّا أنّ أتباعه هم الذين ابتدعوها من بعده، حيث بدأت بشكل معتدل ثمّ مالت نحو الانحراف.

و طبقا لتفسير آخر فإنّ نوعا من الرهبانية و الزهد كان من مبدأ السيّد المسيح عليه السّلام، إلّا أنّ أتباعه و أصحابه ابتدعوا نوعا آخر من الرهبانية لم يقرّرها اللّه لهم ۱۰۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۲

و التّفسير الأوّل هو الأكثر شهرة، و المناسب أكثر من بعض الجهات.

و على كلّ حال، فالمستفاد من الآية أعلاه إجمالا- هو أنّ الرهبانية لم تكن فى شريعة السيّد المسيح عليه السّلام، و أنّ أصحابه ابتدعوها من بعده، و كان ينظر إليها فى البداية على أنّها نوع من أنواع الزهد و الإبداعات الخيّرة لكثير من السنن الحسنة التى تشيع بين الناس. و لا تتّخذ عنوان التشريع أو الدستور الشرعى، إلّا أنّ هذه السنّة تعرّضت إلى الانحراف- فيما بعد- و تحريف التعاليم الإلهية، بل اقترنت بممارسات قبيحة على مرّ الزمن.

و التعبير القرآنى بجملة: فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها دليل على أنّه لو اعطى حقّها لكانت سنّة حسنة.

و ما ورد فى الآية التالية التى تتحدّث عن الرهبان و القساوسة يتناول هذا المعنى حيث يقول تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۱۰۲] (يرجى ملاحظة ذلك).

و هكذا يتبيّن أنّ كلمة «الرهبانية» كلّما كانت بمعنى الرأفة و الرحمة فإنّها تشكّل دليل إضافيا على صحّة الادّعاء أعلاه، لأنّها ستكون بمعنى مستوى الرأفة و الرحمة التى وضعها اللّه فى قلوبهم بعنوان أنّها صفة حميدة.

و مختصر الكلام هو: إذا وجدت سنّة حسنة بين الناس تكون أصولها الكليّة و خطوطها العريضة فى دائرة المبدأ الحقّ (كالزهد، مثلا، فإنّ ذلك ليس عملا قبيحا، بل يعتبر مصداقا من مصاديق الخطّ العام للمبدأ، خاصّة إذا لم تنسب هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۳

السنّة إلی المبدأ الإلهی .. و لسوء الحظّ فإنّ جملة من الإفراطات و التفریطات وجدت بین ظهرانینا تحت قناع الدین و تحوّلت إلی سنّة سیّئة.

إنّ مراسم الأعیاد و التعازی و الوفیّات الخاصّة بعظماء الإسلام و ما یتعلّق بإحیاء ذکری الشهداء و الأحبّة الراحلین- سواء فی یوم استشهادهم، أو الیوم السابع، أو بعد مرور أربعین یوما من الشهادة أو الوفاة، و کذا ما یتعلّق بذکراهم السنویة- هو مصداق للمفاهیم الکلیّة فی الإسلام حول تعظیم شعائر اللّه تعالی، و إحیاء ذکر قادة الإسلام و عموم شهداء المسلمین، و بغضّ النظر عن الجزئیات و التفاصیل فإنّ هذه المراسم مصداق من الأصل الکلّی فقط، و لا یمکن اعتبارها مبادئ شرعیة.

و کلّما أنجزت هذه المراسم بدون تجاوز للحدود الشرعیة و عدم تدنیسها بالخرافات و الممارسات اللاشرعیّة، فإنّها- من المسلّم- مصداق لابتغاء رضوان اللّه، و مصداق سنّة حسنة، و فی غیر هذه الصورة فإنّها ستکون بدعة الشؤم و السنّة السیّئة.

«الرهبانیة» من مادّة (رهب) مأخوذة من معنی الخوف من اللّه، و یفهم أنّها کانت فی البدایة مصداقا للزهد و عدم الاهتمام بشؤون الدنیا، إلّا أنّها تعرّضت فیما بعد لانحرافات واسعة، و إذا ما لا حظنا موقف الإسلام المناهض و المقاوم للرهبانیة بشدّة فمن هذا الباب و بهذا اللحاظ. کما سنستعرض ذلک فیما یلی:

بحوث

۱- الإسلام و الرهبانیة

ذکرنا أنّ الرهبانیة أخذت من «الرهبة» التی جاءت بمعنی الخوف من اللّه، و کما یقول الراغب فی المفردات، الخوف الذی یکون ممزوجا بالزهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۴

و الاضطراب و الترهّب یعنی: (التعبّد و العبادة) .. و الرهبانیة بمعنی: (شدّة التعبّد).

و إذا فسّرنا الآیة أعلاه بأی شکل، فإنّها ترینا أنّها کانت نوعا من الرهبانیة الممدوحة بین المسیحیین، بالرغم من أنّها لم تکن أصلا و إلزاما فیما جاء به السیّد المسیح من عند اللّه تعالی، إلّا أنّ أتباع السیّد المسیح علیه السّلام أخرجوا (الرهبانیة) من حدودها و جرّوها إلی الانحراف و التحریف، و لهذا فإنّ الإسلام ندّد فیها بشدّة، حتّی أنّ الکثیر من المصادر الإسلامیة أوردت

الحدیث المعروف: «لا رهبانیة فی الإسلام»[۱۰۳].

و من جملة الممارسات القبیحة للمسیحیین فی مجال الرهبانیة تحریم الزواج للنساء و الرجال بالنسبة لمن یتفرّغ (للرهبنة) و الانزواء الاجتماعی، و إهمال کافّة المسؤولیات الإنسانیة فی المجتمع، و الرکون إلی الصوامع و الأدیرة البعیدة، و العیش فی محیط منزو عن المجتمع .. بالإضافة إلی جملة من المفاسد التی حصلت فی الأدیرة و مراکز الرهبان، کما سنشیر إلی جوانب منها فی هذا البحث إن شاء اللّه.

و بالرغم من أنّ هؤلاء الرجال البعیدین عن الدنیا (الرهبان و الراهبات) قد أدّوا خدمات إیجابیة کثیرة کتمریض المصابین بأمراض خطرة کالجذام و ما شابهه، بالإضافة إلی القیام بالتبلیغ و الإرشاد بین أقوام بدائیة متوحّشة، و قیامهم ببرامج للدراسة و التحقیق .. إلّا أنّ هذه الأمور تعتبر قلیلة الأهمیّة قیاسا إلی المفاسد التی اقترنت معها.

و أساسا فإنّ الإنسان مخلوق اجتماعی، و تکامله المادّی و المعنوی مبتن علی هذا الأساس، و ما جاءت به الأدیان السماویة لا ینفی

دور الإنسان فی المجتمع، بل یحکم قواعده و أسسه بصورة أفضل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۵

إنّ اللّه سبحانه أوجد الغریزة الجنسیة فی الإنسان لحفظ النسل، و کلّ مذهب أو قانون یتعارض مع هذه الغریزة فإنّه باطل.

الزهد الإسلامی الذی یعنی البساطة فی الحیاة و الابتعاد عن الکمالیات، و عدم الوقوع فی أسر المال و الموقع- لا یرتبط أصلا بمسألة الرهبانیة، لأنّ الرهبانیة تعنی الانفصال و الغربة عن المجتمع، و الزهد یعنی التحرّر من المادّیّات و الترفّع عن المغریات لکی تتمّ المعایشة بصورة اجتماعیة أفضل.

و نقرأ فی قصّة «عثمان بن مظعون» فی موت ولده أنّه لم یعد یخرج للعمل حزنا علیه، و انشغل فی العبادة و ترک کلّ عمل سواها و جعل من بیته مسجدا ...

فعند ما وصل خبره للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أحضره و

قال له: «یا عثمان، إنّ اللّه تبارک و تعالی لم یکتب علینا الرهبانیة، إنّما رهبانیة امّتی الجهاد فی سبیل اللّه»[۱۰۴].

و ذلک إشارة إلی أنّ الإعراض عن الحیاة المادیّة و الانزواء الاجتماعی، و تعطیل الأعمال بصورة سلبیة، یجب أن یصبّ فی مسیر إیجابی، و ذلک بالجهاد فی سبیل اللّه. ثمّ أنّ الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بیّن له بعض فضائل صلاة الجماعة، و التی هی تأکید علی نفی الرهبانیة فی الشرع الإسلامی.

و

فی حدیث عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام عند ما سأله أخوه علی بن جعفر:

الرجل المسلم هل یصلح أن یسیح فی الأرض أو یترهّب فی بیت لا یخرج منه قال علیه السّلام: «لا».

و توضیح ذلک: إنّ السیاحة التی نهی عنها فی هذه الروایة، هی تلک الممارسة التی تکون علی مستوی الرهبانیة و یمکن أن نطلق علیها (الرهبانیة السیّارة) و ذلک أنّ بعض الأفراد قبل أن یوفّروا لأنفسهم المستلزمات الأساسیة لحیاتهم من سکن أو عمل أو مصدر عیش .. فإنّهم یقومون بالسیاحة و التجوّل فی ربوع الدنیا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۶

و بدون تهیئة مستلزمات الطریق من الزاد و المال .. بل یعتمدون علی أخذ المساعدات من الناس عند کلّ نقطة یصلون إلیها، ظانّین أنّ ذلک نوعا من الزهد و ترک الانشغال بالدنیا.

إلّا أنّ الإسلام کما نفی الرهبانیة الثابتة، فإنّه قد نفی الرهبانیة السّیارة أیضا انسجاما مع التعالیم الإسلامیة، فإنّ الزهد و الصلاح مهمّ للإنسان المسلم، شریطة أن یکون فی قلب المجتمع و لیس فی الانزواء و الغربة عنه و البعد منه.

۲- المصدر التأریخی للرهبانیة

لم تکن الرهبانیة موجودة بشکلها الحالی فی القرون الاولی للتاریخ المسیحی، و قد ظهرت بعد القرن المیلادی الثالث فی حکم الإمبراطور الرومانی (دیسیوس)- و قتاله الشدید لأتباع السیّد المسیح علیه السّلام، و نتیجة لما لحق بهم من الأذی من قبل هذا الإمبراطور المتعطّش للدماء، فإنّهم لجأوا إلی الجبال و الصحاری ۱۰۵].

و جاء هذا المعنی بصورة أدقّ فی الروایات الإسلامیة حیث

نقل عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال لابن مسعود: «هل تدری من أین أحدثت بنو إسرائیل الرهبانیة؟

فقلت: اللّه و رسوله أعلم.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ظهرت علیهم الجبابرة بعد عیسی یعملون بمعاصی اللّه، فغضبت أهل الإیمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإیمان ثلاث مرّات، فلم یبق منهم إلّا القلیل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا و لم یبق للدین أحد یدعو إلیه، فتعالوا نتفرّق فی الأرض إلی أن یبعث اللّه النبی الذی و عدنا به عیسی علیه السّلام (یعنون محمّدا)- فتفرّقوا فی غیران الجبال و أحدثوا رهبانیة، فمنهم من تمسّک بدینه، و منهم من کفر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۷

ثمّ قال: «أ تدری ما رهبانیة أمّتی؟» قلت: اللّه و رسوله أعلم.

قال: «الهجرة و الجهاد و الصلاة و الصوم و الحجّ و العمرة»[۱۰۶].

و المؤرّخ المسیحی المشهور (ویل دورانت) ینقل فی تأریخه المعروف فی ج ۱۳ بحثا مفصّلا حول الرهبانیة، حیث یعتقد أنّ ارتباط الراهبات (النساء) التارکات للدنیا) بالرهبان بدأ منذ القرن العاشر المیلادی ۱۰۷].

و بدون شکّ فإنّ هذه الظاهرة الاجتماعیة- کما هو شأن کلّ ظاهرة اخری لها أسسا روحیة بالإضافة إلی الاسس التأریخیة، حیث یمکن الإشارة إلی هذه الحقیقة، و هی أنّ مسألة ردّ الفعل الروحی للأشخاص و الأقوام تختلف فیما بینها مقابل الانحدارات و المصاعب التی یواجهوها. حیث یمیل البعض نتیجة لذلک إلی الانزواء و الانشغال بالأمور الشخصیة فقط، و یبعدون أنفسهم بصورة کاملة عن المجتمع و النشاطات الاجتماعیة، فی الوقت الذی یتعلّم آخرون من الانتکاسات و المصاعب دروس الاستقامة و الصلابة و القدرة علی تحدّی المشاکل و مقاومتها.

و من هنا فإنّ القسم الأوّل یلتمس طریق الرهبانیة أو أی سلوک مشابه له، بعکس القسم الثانی الذی یصبح أکثر تماسا بالمجتمع و أقوی فی مواجهة تحدّیاته.

۳- المفاسد الأخلاقیة و الاجتماعیة الناشئة من الرهبانیة

إنّ الانحراف عن قوانین الخلقة غالبا ما یکون مصحوبا بانفعالات سلبیة، و بناء علی هذا فلا عجب فیمن یبتعد عن الحیاة الاجتماعیة التی هی جزء من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۸

فطرته أن یصاب بردود فعل شدیدة، لذلک فإنّ الرهبانیة- لأنّ منهجها خلافا لطبیعة الإنسان و فطرته- فإنّها استبطنت مفاسد کثیرة من جملتها:

أوّلا: أنّ الرهبانیة تتعارض مع طبیعة الإنسان المدنیة و بالتالی فإنّها تؤدّی بالمجتمعات الإنسانیة إلی الانحطاط و التخلّف.

ثانیا: لیست الرهبانیة عائقا عن کمال النفس و تهذیب الروح و الأخلاق فقط، بل تجرّ إلی الانحرافات الأخلاقیة و الکسل و سوء الظنّ و الغرور و العجب و التشاؤم و ما إلی ذلک، و علی فرض أنّ الإنسان استطاع أن یصل إلی فضیلة أخلاقیة فی حالة الانزواء، فإنّها فی الواقع لا تعدّ کذلک، إذ أنّ الفضیلة أن یحرّر الإنسان نفسه من التلوث الأخلاقی فی قلب المجتمع.

ثالثا: إنّ ترک الزواج و الإعراض عنه، و الذی هو من مبادئ الرهبانیة، لیس فقط یعوق عن الکمال، بل هو سبب لظهور العقد و الأمراض النفسیة و ما إلی ذلک.

و نقرأ فی دائرة المعارف أنّ بعض الرهبان کانوا یعتبرون الاهتمام بجنس المرأة عمل شیطانی، لحدّ أنّهم منعوا وجود أنثی أی حیوان فی الدیر خوفا من الروح الشیطانیة لهذه الأنثی التی قد تدنّس روحانیّتهم و تسبّب لها انتکاسة.

و مع هـذه الحالـة فإنّ التأريخ يذكر لنا فضائح عديدة من الأديرة إلى حدّ أن وصـفها (ويل دورانت) بأنّها بيوت للفحشاء و الدعارة، و مراكز لتجمّع عبّاد البطون و طلّاب الدنيا و اللاهين، بحيث أنّ أفضل المشروبات كانت توجد فى الأديرة.

و طبقا لشـهادة التأريخ فإنّ السيّد المسيح عليه السّلام لم يتزوّج أبدا، و هذا لم يكن بسبب موقف له من سنّة الزواج، بل لقصر عمره، و انشـغاله المستمر فى مسـئولياته الرساليـة التى كانت تسـتدعى منه السـفر و التجوّل و التبليغ فى المناطق النائية فى العالم، و هى التى لم تسمح له بالزواج.

إنّ البحث حول الرهبانية يستحقّ كتابا مستقلا، و إذا أردنا أن نستفيض فى هذا البحث فإنّنا سنخرج عن بحث التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۹

و ننهى بحثنـا هـذا بحـديث للإمـام على عليه السّـلام تعقيبـا على المفهوم الـذى طرحته الآيـة التاليـة حيث تقول الآيـة: قُـلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً[۱۰۸] فقد قال عليه السّلام فى تفسيرها: «هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى»[۱۰۹].

۴- إنجيل أم أناجيل!

«الإنجيل» فى الأصل مصطلح يونانى بمعنى البشارة أو تعليم جديد، و هو اسم الكتاب الذى نزّل على السيّد المسيح عليه السّلام، و جاء هذا المصطلح اثنى عشرة مرّة فى القرآن الكريم، و قد استعمل بهذا المعنى.

و الجدير بالملاحظة هنا أنّ ما يعرف باسم الإنجيل اليوم كتب كثيرة يعبّر عنها بالأناجيل، و المشهور منها أربعة و هى «لوقا» و «مرقس» و «متّى» و «يوحنّا» و يعتقد المسـيحيون أنّ هذه الأناجيل كتبت بواسطة أربعة من أصحاب السيّد المسيح عليه السّلام أو طلّابه، و تأريخ تأليفها يرجع إلى ثمان و ثلاثين سـنة بعـد السـيّد المسـيح عليه السّـلام إلى غاية قرن بعده، و بناء على هذا فإنّ الكتاب الأصـلى للسـيّد المسيح- الـذى هو كتـاب سـماوى مسـتقل- قـد انـدثر، و بقى بعضه فى ذاكرة طلّابه الأربعـة، حيث مزج مع أفكارهم و حرّرت هـذه الأناجيل.

و لدينا بحث مفصّل أكثر فى هذا المجال فى نهاية الآية (۳) من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۰

الآيتان [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۸ الى ۲۹]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۸) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۹)

سبب النّزول

نقل كثير من المفسّرين أنّ للآيات أعلاه سببا للنزول خلاصته ما يلى:

بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جعفرا فى سبعين راكبا إلى النجاشى يدعوه، فقدم عليه و دعاه فاستجاب له، و آمن به، فلمّا كان عنـد انصـرافه، قال ناس ممّن آمن به من أهل مملكته، و هم أربعون رجلا: ائـذن لنا فنأتى هـذا النبى فنسـلم به، فقدموا مع جعفر،

فلمّا رأوا ما بالمسلمین من الخصاصة، استأذنوا و قالوا: یا نبی اللّه إنّ لنا أموالا و نحن نری ما بالمسلمین من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا، فجئنا بأموالنا فواسینا المسلمین بها، فأذن لهم فانصرفوا، فأتوا بأموالهم فواسوا بها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۱

المسلمین، فأنزل اللّه تعالی فیهم: الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ یُؤْمِنُونَ إلی قوله تعالی: .. وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ ۱۱۰] فکانت النفقة التی واسوا بها المسلمین.

فلمّا سمع أهل الکتاب ممّن یؤمن به قوله: أُولئِکَ یُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَیْنِ بِما صَبَرُوا فخروا علی المسلمین فقالوا: یا معشر المسلمین: أمّا من آمن بکتابکم و کتابنا فله أجر کأجورکم فما فضلکم علینا، فنزلت: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ الآیة، فجعل لهم أجرین و زادهم النور و المغفرة[۱۱۱].

التّفسیر

الذین لهم سهمان من الرحمة الإلهیة:

بما أنّ الحدیث فی الآیات السابقة کان عن أهل الکتاب و المسیحیین، فإنّ الآیات مورد البحث مکمّلة لما جاء فی الآیات السابقة، یقول سبحانه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ

و للمفسّرین رأیان حول طبیعة المخاطب فی هذه الآیة:

الأوّل: إنّ المخاطب هم المؤمنون، حیث یبیّن لهم سبحانه أنّ الإیمان الظاهری غیر کاف للفرد، و لا بدّ أن یکون الإیمان عمیقا توأما مع التقوی و العمل، کی ینالوا الأجر العظیم و الذی ستتعرّض له الآیة الکریمة.

الثانی: إنّ المخاطب هنا هم مؤمنو أهل الکتاب، و یعنی: یا من آمنتم بالأنبیاء و الکتب السابقة آمنوا برسول الإسلام، و لتکن تقوی اللّه نصب أعینکم کی یشملکم سبحانه بأنواع أجره و جزائه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۲

و الذی یؤیّد الرأی الثانی هو ذکر (الأجر المضاعف) و الذی ورد فی نهایة الآیة و المقصود به جزاء الإیمان بالأنبیاء السابقین، و جزاء الإیمان برسول الإسلام.

إلّا أنّ هذا التّفسیر إضافة إلی أنّه لا یتناسب مع الآیة اللاحقة- کما سنوضّح- فإنّه کذلک لا ینسجم مع سبب نزول الآیة و طبیعة الإطلاق الذی ورد فیها بقوله:

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا.

و بناء علی هذا فلا بدّ من تبنّی الرأی القائل بأنّ المقصود بالمخاطب هم جمیع المؤمنین الذین قبلوا- بالظاهر- دعوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکنّهم لم یؤمنوا بها الإیمان الراسخ الذی یضیء أعماق النفوس و یتجسّد فی أعمالهم و ممارساتهم.

و تکملة للآیة الکریمة یشیر القرآن الکریم إلی ثلاث نعم عظیمة تحصل فی ظلّ الإیمان العمیق و التقوی حیث یقول تعالی: یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ یَجْعَلْ لَکُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ

«کفل» علی وزن (طفل) بمعنی الحصّة التی توفّر للإنسان حاجته، و یقال للضامن «کفیل» أیضا بهذا اللحاظ، حیث یکفل الطرف المقابل و یضمنه بنفسه ۱۱۲].

و المقصود من هاتین الحصّتین أو النصیبین هو ما جاء فی قوله تعالی: رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ حَسَنَةً.

و احتمل أيضا أنّ هذين النصيبين يمكن أن يكون أحدهما الإيمان برسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الآخر الإيمان بالأنبياء السابقين، لأنّ كلّ مسلم ملزم بموجب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۳

اعتقاده أن يؤمن بكلّ الأنبياء السابقين و الكتب السماوية و يحترمها.

و ذكر البعض أنّ المقصود هو الأجر المستمر و المتعاقب و المضاعف.

إلّا أنّ الجمع بين جميع هذه المعانى ممكن أيضا.

و حول القسم الثانى من الجزاء و الأجر يقول تعالى: وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بذلك هو نور الإيمان الذى يسبق المؤمنين فى سيرهم يوم القيامة، و يبدّد ظلمات الحشر، حيث يتقدّمون إلى الجنّة و السعادة الأبديّة. كما جاء فى الآية الكريمة: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ ۱۱۳].

فى الوقت الذى اعتبرها البعض الآخر إشارة إلى نور القرآن الذى يشعّ على المؤمنين فى الدنيا، كما جاء فى قوله تعالى: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ ۱۱۴].

إلّا أنّ للآية مفهوما مطلقا واسعا حسب الظاهر و لا يختص بالدنيا فقط و لا بالآخرة فحسب، و بتعبير آخر فإنّ الإيمان و التقوى هى التى تسبّب زوال الحجب عن قلوب المؤمنين، حيث يتبيّن لهم وجه الحقيقة واضحا و بدون حجاب، و فى ظلّ الإيمان و التقوى هذين سيكون للإنسان وعى و بصيرة حرّم غير المؤمنين منها.

جاء فى روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ المقصود بالنور فى الآية أعلاه هو:

«إمام تأتمون به»

و هو فى الحقيقة بيان واحد من المصاديق الواضحة[۱۱۵].

و أخيرا فإنّ ثالث جزاء للمؤمنين المتّقين هو (غفران الذنوب) لأنّ بدونه لا يكون للإنسان هناء بأى نعمة من اللّه عليه، حيث يجب أن يكون فى البداية فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۴

مأمن من العذاب الإلهى ثمّ ينتقل إلى المسير فى طريق النور و التقوى لينال الرحمة الإلهية المضاعفة.

و فى الآية اللاحقة- و التى هى آخر آيات هذه السورة- بيان و دليل لما جاء فى الآية الآنفة الذكر حيث يقول تعالى: لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۱۱۶].

إنّه جواب لهؤلاء الكتابيّين الذين زعم قسم منهم: أنّ لهم أجرا واحدا كبقيّة المسلمين حينما رفضوا الإيمان بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمّا الذين آمنوا بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منهم فلهم أجران: أجر الإيمان بالرسل السابقين، و أجر الإيمان بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث يجيبهم القرآن و يردّ عليهم بأنّ المقصود بالآية هم المسلمون.

فهؤلاء هم الذين لهم أجران، لأنّهم آمنوا جميعا برسول اللّه بالإضافة إلى إيمانهم بكلّ الأنبياء السابقين، أمّا أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا برسول اللّه فليس لهم أى نصيب أو سهم من الأجر، ذلك ليعلموا أنّ الرحمة الإلهية ليست فى اختيارهم حتّى يهبوا ما يشاءون منها وفق مشتهياتهم، و يمنعوها عن الآخرين.

و هذه الآية تتضمّن كذلك جوابا لما ورد من ادّعاءات واهية من بعض اليهود و النصارى الذين اعتبروا الجنّة و الرحمة الإلهية منحصرة بهم، ظانّين أنّ غيرهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۵

محروم منها، حيث يقول سبحانه: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ، قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِینَ ۱۱۷]

بحث

التقوی و الوعی:

لقد بیّن القرآن الکریم آثارا کثیرة للتقوی، و من جملتها إزالة الحجب عن فکر الإنسان و قلبه.

و قد أشار القرآن الکریم إلی ارتباط «الإیمان و التقوی» مع «البصیرة» منها قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً[۱۱۸] و منها قوله تعالی: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ یُعَلِّمُکُمُ اللَّهُ ۱۱۹] و جاء هذا المعنی صراحة فی الآیات مورد البحث حیث قال تعالی: إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا سیجعل الله لکم نورا علی ضوئه تستطیعون السیر.

و العلاقة بین هاتین الآیتین- بالإضافة إلی الجوانب المعنویة التی بقیت مجهولة لنا- قابلة للإدراک العقلی أیضا، لأنّ أکبر حاجز عن المعرفة و أهمّ مانع لها هو الحجاب الذی یغطّی قلب الإنسان، و الذی هو هوی النفس و النزعات الذاتیة و الأمانی الفارغة، و الآمال البعیدة، و الوقوع فی أسر المادّة و مغریات الدنیا، حیث لا تسمح للإنسان أن یری الحقائق بصورتها الطبیعیة، و بالتالی فإنّ الحکم علی الأشیاء یکون بعیدا فی منطق العقل و الصواب.

إلّا أنّ استقرار الإیمان و التقوی فی القلوب یبدّد هذه الحجب و یزیل عتمتها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۶

و ظلامها عن صفحة القلب، و یجعل الروح الإنسانیة تفیض بشمس الحقیقة و تتعرّف علی الحقائق بصورتها الناصعة و تشعر باللذّة و النشوة من هذا الإدراک الصحیح و العمیق للأشیاء، و تتفتّح أمامه السبل السلیمة للأهداف المقدّسة التی یسعی نحوها و یتقدّم باتّجاهها.

نعم إنّ التقوی هی التی تعطی للإنسان الوعی و الوضوح، کما أنّ الوعی یعطی للإنسان التقوی، أی أنّ لکلّ من التقوی و الوعی تأثیر متبادل بعضهما علی البعض الآخر.

و نقرأ هنا

فی حدیث معروف یقول: «لو لا أنّ الشیاطین یحومون علی قلوب بنی آدم لنظروا إلی ملکوت السماوات».

و لإدراک هذا الحدیث نصغی لما

قاله الإمام علی علیه السّلام: «لا دین مع هوی، لا عقل مع هوی، من اتّبع هواه أعماه و أصمّه، و أذلّه و أضلّه»[۱۲۰].

ربّاه، احفظنا من هوی النفس و تفضّل علینا بالتقوی و البصیرة.

إلهنا، کلّ الفضل و الرحمة بیدک، فلا تحرمنا من فضلک العظیم.

ربّنا، وفّقنا لإقامة الحقّ و العدل و القسط و حراسة حدود الکتاب و المیزان و الوقوف بوجه الظالمین.

آمین ربّ العالمین نهایة سورة الحدید

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۷

بدایة الجزء الثامن و العشرون من القرآن الکریم

سورة المجادلة

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها اثنان و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۹

«سورة المجادلة»

محتوی السورة:

نزلت هـذه السورة فی المدینـة، و انسـجاما مع موضوعات السورة المدنیّـة فإنّها تتحـدّث فی الغالب عن الأحکام الفقهیّة، و نظام الحیاة الاجتماعیة، و العلاقات بین المسلمین و غیرهم .. و نستطیع أن نلخّص أهمّ أبحاثها فی ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: یتحـدّث عن حکم (الظهار) الـذی کان یعتبر نوعا من الطلاق و الانفصال الـدائم، حیث قوّمه الإسـلام و جعله فی الطریق الصحیح.

الثانی: یتحدّث عن مجموعة من التعلیمات الخاصّة بآداب المجالسة، و التی منها: «التفسّح» فی المجالس و منع النجوی.

الثالث: یتعرّض إلی بحث واف و مفصّل عن المنافقین، تلک الفئة التی تتظاهر بالإسـلام، إلّا أنّها تتعاون مع أعدائه، و یحذّر المسـلمین المؤمنین من الدخول فی حزب الشیطان و النفاق، و یدعوهم إلی الحبّ فی اللّه و البغض فی اللّه و الالتحاق بحزب اللّه.

و قد سمّیت هذه السورة ب (سورة المجادلة) و ذلک بسبب اللفظة التی وردت فی الآیة الاولی منها.

فضیلة تلاوة سورة المجادلة:

لقد نقلت روایتان فی فضیلة تلاوة سورة المجادلة إحداهما عن الرّسول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۰

الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و الثانیة عن الإمام الصادق علیه السّلام.

جاء فی الروایة الاولی: «من قرأ سورة المجادلة کتب من حزب اللّه فی یوم القیامة».

و

جاء فی الروایة الثانیة: «من قرأ سورة الحدید و المجادلة فی صـلاة فریضة و أدمنها لم یعذّبه اللّه حتّی یموت أبدا، و لا یری فی نفسه و لا فی أهله سوءا أبدا، و لا خصاصة فی بدنه».

و حیث أنّ موضوعات هـذه السورة تتناسب مع الجزاء المرتقب من اللّه تعالی، لذلک فإنّ الروایات أعلاه توضّح لنا الهدف من التلاوة من أجل العمل بمحتویاتها، و لیس بتلک التلاوة الخالیة من الفکر و العمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۱

الآیات [سورة المجادلة (۵۸): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِی تُجادِلُکَ فِی زَوْجِها وَ تَشْتَکِی إِلَی اللَّهِ وَ اللَّهُ یَسْمَعُ تَحاوُرَکُما إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ (۱) الَّذِینَ یُظاهِرُونَ مِنْکُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِی وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَیَقُولُونَ مُنْکَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۲) وَ الَّذِینَ

يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (۴)

سبب النّزول

نقل أغلب المفسّرين أنّ للآيات الاولى فى هذه السورة سببا للنزول،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۲

و مضمونها بشكل عامّ واحد، بالرغم من وجود اختلافات فى الجزئيّات، إلّا أنّ هذه الاختلافات لا تؤثّر على ما نحتاجه من البحث التّفسيرى.

و

جاء فى تفسير القمّى: حدّثنا على بن الحسين قال: حدّثنا محمّد بن أبى عبد اللّه، عن الحسن بن محبوب، عن أبى ولّاد، عن حمران، عن أبى جعفر عليه السّلام قال: «إنّ امرأة من المسلمات أتت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت: يا رسول اللّه إنّ فلان زوجى قد نثرت له بطنى و أعنته على دنياه و آخرته، لم ير منّى مكروها أشكوه إليك. قال:

فيم تشكينه؟ قالت: إنّه قال: أنت علىّ حرام كظهر أمّى، و قد أخرجنى من منزلى فانظر فى أمرى. فقال لها رسول اللّه: ما أنزل اللّه تبارك و تعالى كتابا أقضى فيه بينك و بين زوجك، و أنا أكره أن أكون من المتكلّفين، فجعلت تبكى و تشتكى ما بها إلى اللّه عزّ و جلّ و إلى رسول اللّه و انصرفت.

قال: فسمع اللّه تبارك و تعالى مجادلتها لرسول اللّه فى زوجها و ما شكت إليه و أنزل اللّه فى ذلك قرآنا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها- إلى قوله- وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

قال فبعث رسول اللّه إلى المرأة، فأتته فقال لها: جيئى بزوجك، فأتته فقال له:

أ قلت لامرأتك هذه: أنت حرام علىّ كظهر امّى؟ فقال: قد قلت لها ذلك. فقال له رسول اللّه قد أنزل اللّه تبارك و تعالى فيك و فى امرأتك قرآنا و قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها- إلى قوله تعالى- إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ، فضمّ إليك امرأتك فإنّك قد قلت منكرا من القول و زورا، و قد عفى اللّه عنك و غفر لك و لا تعد.

قال: فانصرف الرجل و هو نادم على ما قاله لامرأته، و كره اللّه عزّ و جلّ ذلك للمؤمنين بعد و أنزل اللّه: وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا يعنى ما قال الرجل لامرأته أنت علىّ كظهر أمّى.

قال: فمن قالها بعد ما عفى اللّه و غفر للرجل الأوّل فإنّ عليه «تحرير رقبة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۳

قبل أن يتماسّا- يعنى مجامعتها- ذلكم توعظون به و اللّه بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستّين مسكينا، قال: فجعل اللّه عقوبة من ظاهر بعد النهى هذا. ثمّ قال: «ذلك لتؤمنوا باللّه و رسوله و تلك حدود اللّه» قال: هذا حدّ الظهار»[۱۲۱].

و كما قلنا فإنّ كثيرا من المفسّرين ذكروا لها هذا السبب للنزول، و من جملتهم القرطبى، و روح البيان، و روح المعانى، و الميزان، و الفخر الرازى، و فى ظلال القرآن، و أبو الفتوح الرازى و كنز العرفان، و كثير من كتب الحديث و التاريخ مع وجود اختلافات.

التّفسير

الظهار عمل جاهلی قبیح:

بالنظر إلی ما قیل فی سبب النزول، و کذلک طبیعة الموضوعات التی وردت فی السورة، فإنّ الآیات الاولی منها واضحة فی دلالتها حیث یقول سبحانه: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِی تُجادِلُکَ فِی زَوْجِها.

«تجادل» من المجادلة مأخوذة من مادّة (جدل) و تعنی فی الأصل (فتل الحبل) و لأنّ الجدال بین الطرفین و إصرار کلّ منهما علی رأیه فی محاولة لإقناع صاحبه، اطلق علی هذا المعنی لفظ (المجادلة).

ثمّ یضیف تعالی: وَ تَشْتَکِی إِلَی اللَّهِ وَ اللَّهُ یَسْمَعُ تَحاوُرَکُما.

«تحاور» من مادّة (حور) علی وزن (غور) بمعنی المراجعة فی الحدیث أو الفکر، و تطلق کلمة «المحاورة» علی بحث بین طرفین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۴

إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ نعم إنّ اللّه عالم بکلّ المسموعات و المرئیات، بدون أن یحتاج إلی حواس نظر أو سمع، لأنّه حاضر و ناظر فی کلّ مکان، یری کلّ شیء و یسمع کلّ حدیث.

ثمّ یستعرض تعالی حکم الظهار بجمل مختصرة و حاسمة تقضی بقوّة علی هذا المفهوم الخرافی حیث یقول سبحانه: الَّذِینَ یُظاهِرُونَ مِنْکُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِی وَلَدْنَهُمْ

«الامّ» و «الولد» لیس بالشیء الذی تصنعه الألفاظ، بل إنّهما حقیقة واقعیة عینیة خارجیة لا یمکن أن تکون من خلال اللعب بالألفاظ، و بناء علی هذا فإذا حدث أن قال الرجل لزوجته مرّة: (أنت علیّ کظهر امّی) فإنّ هذه الکلمة لا تجعل زوجته بحکم والدته، إنّه قول هراء و حدیث خرافة.

و یضیف تعالی مکمّلا الآیة: وَ إِنَّهُمْ لَیَقُولُونَ مُنْکَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً[۱۲۲].

و بالرغم من أنّ قائل هذا الکلام لا یرید بذلک الإخبار، بل إنّ مقصوده إنشائی، یرید أن یجعل هذه الجملة بمنزلة (صیغة الطلاق) إلّا أنّ محتوی ذلک واه، و یشبه بالضبط خرافة (جعل الولد) حین کانوا فی زمن الجاهلیة یتبنّون طفلا معیّنا کولد لهم، و یجرون أحکام الولد علیه، حیث أدان القرآن الکریم هذه الظاهرة و اعتبرها عملا باطلا و لا أساس له، حیث یقول عزّ و جلّ: ذلِکَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ ۱۲۳]، و لیس له أی واقعیة.

و تماشیا مع مفهوم هذه الآیة فإنّ «الظهار» عمل محرّم و منکر، و مع أنّ التکالیف الإلهیة لا تشمل الممارسات السابقة، إلّا أنّها ملزمة لحظة نزول الحکم، و لا بدّ عندئذ من ترتیب الأثر، حیث یضیف اللّه سبحانه هذه الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۵

وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

و بناء علی هذا فإذا کان المسلم قد ارتکب مثل هذا العمل قبل نزول الآیة فلا بأس علیه لأنّ اللّه سیعفو عنه.

و یعتقد بعض الفقهاء و المفسّرین أنّ «الظهار» ذنب مغفور الآن، کما فی الذنوب الصغیرة حیث وعد اللّه بالعفو عنها[۱۲۴]- فی صورة ترک الکبائر- إلّا أنّه لا دلیل علی هذا الرأی، و الجملة أعلاه لا تقوی أن تکون حجّة فی ذلک.

و علی کلّ حال فإنّ مسألة الکفّارة باقیة بقوّتها.

و فی الحقیقة أنّ هذا التعبیر شبیه لما جاء فی الآیة (۵) من سورة الأحزاب، حیث یقول سبحانه: وَ لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ فِیما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لکِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُکُمْ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً.

و ذلک بعد نهیه عن مسألة التبنّی.

و يثار تساؤل عن الفرق الموجود بين (العفوّ) و (الغفور).

قال البعض: (العفو) إشارة إلى اللّه تعالى (الغفور) إشارة إلى تغطية الذنوب إذ أنّ من الممكن أن يعفو شخص عن ذنب ما، و لكن لا يستره أبدا، غير أنّ اللّه تعالى يعفو و يستر فی نفس الوقت.

و قيل أنّ «الغفران» هو الستر من العذاب، حيث أنّ مفهومها مختلف عن العفو بالرغم من أنّ النتيجة واحدة.

إلّا أنّ مثل هذا العمل القبيح (الظهار) لم يكن شيئا يستطيع الإسلام أن يغضّ النظر عنه، لذلك فقد جعل له كفّارة ثقيلة نسبيّا كی يمنع من تكراره، و ذلك بقوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۶

و قد ذكر المفسّرون احتمالات عديدة فی تفسير جملة: ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا حيث ذكر المقداد- فی كنز العرفان ستّة تفاسير لها، إلّا أنّ الظاهر- خصوصا بالنظر إلى جملة: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا- أنّ هؤلاء قد ندموا لقولهم و أرادوا الرجوع إلى حياتهم العائلية، و قد ذكر هذا المعنى فی روايات أهل البيت عليهم السّلام أيضا[۱۲۵].

و ذكرت تفاسير اخرى لهذا المقطع من الآية، إلّا أنّها لا تتناسب بصورة تامّة مع معنى الآية و نهايتها. منها أنّ المراد من «العود» هو تكرار الظهار، أو أنّ المقصود من العود هو العودة إلى السنّة الجاهلية فی مثل هذه الأمور، أو أنّ العود بمعنى تدارك و تلافی هذا العمل و ما إلى ذلك ۱۲۶].

«رقبة» جاءت هنا كناية عن الإنسان، و هذا بلحاظ أنّ الرقبة أكثر أعضاء الجسم حسّاسية، كما تأتی كلمة «رأس» بهذا المعنى، لذا فإنّه يقال بدلا من خمسة أشخاص- مثلا- خمسة رؤوس.

ثمّ يضيف تعالى: ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ

أی يجب ألّا تتصوّروا أنّ مثل هذه الكفّارة فی مقابل الظهار، كفّارة ثقيلة و غير متناسبة مع الفعل. إنّ المقصود بذلك هو الموعظة و الإيقاظ لنفوسكم، و الكفّارة عامل مهمّ فی وضع حدّ لمثل هذه الأعمال القبيحة و المحرّمة، و من ثمّ السيطرة على أنفسكم و أقوالكم.

و أساسا فإنّ جميع الكفّارات لها جنبة روحية و تربوية، و الكفّارات المالية يكون تأثيرها غالبا أكثر من التعزيرات البدنية.

و لأنّ البعض يحاول أن يتهرّب من إعطاء الكفّارة بأعذار واهية فی موضوع الظهار، يضيف عزّ و جلّ أنّه يعلم بذلك حيث يقول فی نهاية الآية:

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۷

وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

إنّه عالم بالظهار، و كذلك عالم بالذين يتهرّبون من الكفّارة، و كذلك بنيّاتكم! و لكن كفّارة تحرير (رقبة) قد لا تتيسّر لجميع من يرتكب هذا الذنب كما لا حظنا ذلك- فی موضوع سبب نزول هذه الآية المباركة، حيث أنّ «أوس بن الصامت»- الذی نزلت الآيات الاولى بسببه- قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّی غير قادر على دفع مثل هذه الكفّارة الثقيلة، و إذا فعلت ذلك فقدت جميع ما أملك. و قد يتعذّر وجود المملوك. ليقوم المكلّف بتحرير رقبته حتّى مع قدرته المالية، كما فی عصرنا الحاضر، لهذا كلّه و لأنّ الإسلام دين عالمی خالد فقد عالج هذه المسألة بحكم آخر يعوّض عن تحرير الرقبة، حيث يقول عزّ و جلّ: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا.

و هذا اللون من الكفّارة فی الحقيقة له أثر عميق على الإنسان، حيث أنّ الصوم بالإضافة إلى أنّه وسيلة لتنقية الروح و تهذيب النفس، فإنّ له تأثيرا عميقا و فاعلا فی منع تكرّر مثل هذه الأعمال فی المستقبل.

و من الواضح- كما فی ظاهر الآية- أنّ مدّة الصوم يجب أن تكون ستّين يوما متتابعا، و كثير من فقهاء أهل السنّة أفتوا طبقا لظاهر الآية، إلّا أنّه قد ورد فی روايات أئمّة أهل البيت عليهم السّلام أنّ المكلّف إذا صام أيّام قلائل حتّى و لو يوما واحدا بعد صوم الشهر

الأوّل، فإنّ مصداق التتابع فی الشهرین یتحقّق، و هذا الرأی حاکم علی ظاهر الآیة[۱۲۷].

و هذا یوضّح لنا أنّ المقصود من التتابع فی الآیة أعلاه و الآیة (۹۲) من سورة النساء فی موضوع کفّارة القتل غیر المتعمّد. أنّ المقصود هو التتابع بصورة إجمالیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۸

و طبیعی أنّ مثل هذا التّفسیر لا یسمع إلّا من إمام معصوم، حیث أنّه وارث لعلوم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هذا النوع من الصیام یکون تسهیلا للمکلّفین.

(تراجع الکتب الفقهیة فی الصوم و أبواب الظهار و کفّارة القتل، للحصول علی شرح أو فی حول هذا الموضوع)[۱۲۸].

و ضمنا فإنّ المقصود من جملة: فَمَنْ لَمْ یَجِدْ لا- یعنی عدم وجود أصل المال لدیه، بل المقصود منه ألّا یوجد لدیه فائض علی احتیاجاته و ضروریات حیاته کی یشتری عبدا و یحرّره.

و لأنّ الکثیر من الناس غیر قادرین علی الوفاء بالکفّارة الثانیة، و هی صوم الشهرین المتتابعین، فقد ذکر لذلک بدیل آخر حیث یقول سبحانه: فَمَنْ لَمْ یَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّینَ مِسْکِیناً.

و الظاهر من الإطعام أن یعطی غذاء یشبع الشخص فی وجبة طعام، إلّا أنّ الروایات الإسلامیة ذکرت أنّ المقصود بذلک هو (مدّ) لإطعام کلّ واحد (و المدّ یعادل ۷۵۰ غم) رغم أنّ بعض الفقهاء قد حدّدها بمدّین أی ما یعادل (۵۰۰، ۱) غم ۱۲۹].

ثمّ یشیر تعالی فی تکملة الآیة مرّة اخری إلی الهدف الأساس لمثل هذه الکفّارات: ذلِکَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ

نعم إنّ إزالة الذنوب بوسیلة الکفّارات تقوّی أسس الإیمان، و تربط الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۹

بالتعالیم الإلهیّة قولا و عملا.

و فی نهایة الآیة یؤکّد سبحانه بصورة قاطعة علی الالتزام بأوامره حیث یقول:

وَ تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْکافِرِینَ عَذابٌ أَلِیمٌ

و یجدر الانتباه إلی أنّ مصطلح (الکفر) له معانی مختلفة، منها «الکفر العملی» الذی یعنی المعصیة و اقتراف الذنوب، و قد أرید فی الآیة الکریمة هذا المعنی، و کما جاء فی الآیة (۹۷) من سورة آل عمران بالنسبة للمتخلّفین عن أداء فریضة الحجّ، حیث یقول سبحانه:

وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ

«حدّ» بمعنی الشیء الذی یفصل بین شیئین، و من هنا یقال لحدود البلدان (حدود) و بهذا اللحاظ یقال للقوانین الإلهیة إنّها حدود، و ذلک لحرمة تجاوزها، و لدینا شرح أوفی فی هذا المجال فی نهایة الآیة (۱۸۷) من سورة البقرة.

ملاحظات

۱- قسم من أحکام الظهار

أشیر للظهار بآیتین فی القرآن الکریم (الآیة مورد البحث، و الآیة رقم (۴) من سورة الأحزاب) و هو من الأعمال و العادات القبیحة فی عصر الجاهلیة، حیث یمارس هذا الفعل فی حالة سأم و ضجر الرجل من زوجته، و کی یوقعها فی حرج و یرکعها لإرادته یقول لها (أنت علیّ کظهر امّی)[۱۳۰] و کانوا یعتقدون بعد إطلاق هذه الصیغة أنّ الزوجة تحرم علی زوجها إلی الأبد، و لا تستطیع أن تختار زوجا آخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۰

لها.

و قد أدان الإسلام هذا التصرّف و شرّع له حكم الكفّارة.

و بناء على هذا فكلّما جعل الرجل على زوجته ظهارا فإنّ الزوجة تستطيع أن تراجع الحاكم الشرعى و تلزمه، إمّا أن يطلّقها بصورة شرعية، أو يرجعها إلى حالتها الزوجية السابقة، بعد دفعه للكفّارة بالصورة التى مرّت بنا سابقا، و هى إمّا تحرير رقبة فى حالة القدرة، أو صوم شهرين متتابعين فى حالة الاستطاعة، و إلّا فإطعام ستّين مسكينا، و هذا يعنى أنّ خصال الكفّارة ليست مخيّرة، بل مرتّبة.

۲- الظهار من كبائر الذنوب

لحن الآيات أعلاه شاهد معبّر عن هذا المضمون، و البعض يعتبرونه من الصغائر و مورد عفو، إلّا أنّها نظرة خاطئة.

۳- إذا كان الشخص غير قادر على أداء الكفّارة بمختلف صورها، فهل يستطيع أن يرجع إلى حياته الزوجية السابقة بالتوبة و الاستغفار فقط؟

هنالك وجهات نظر مختلفة بين الفقهاء حول هذه المسألة، فقسم منهم- بالاستناد على الحديث المنقول عن الإمام الصادق عليه السّلام ۱۳۱]- يعتقد أنّ التوبة و الاستغفار تكفى فى الكفّارات- عند عدم القدرة- إلّا فى كفّارة الظهار حيث لا تكفى التوبة و تجب الكفّارة.

فى حين يرى البعض الآخر أنّ الاستغفار و التوبة تعوضان عن الكفّارة، و دليلهم هو الرواية الأخرى التى نقلت عن الإمام الصادق عليه السّلام فى هذا المجال ۱۳۲].

و يعتقد آخرون بوجوب صوم ثمانية عشر يوما فى هذه الصورة[۱۳۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۱

و الجمع بين الروايات لا- يستبعد أيضا، ففى صورة عدم القدرة بكلّ شكل من الأشكال السابقة، فإنّه يستطيع أن يرجع إلى حياته الزوجية مستغفرا اللّه، بالرغم من أنّ المستحبّ فى مثل هذه الحالة أن يطلّق زوجته (لأنّ مثل هذا الجمع جمع معروف و توجد له مظانّ كثيرة فى الفقه، و ذلك بالنظر إلى صحّة سند الحديثين).

۴- يرى الكثير من الفقهاء أنّ الشخص إذا كرّر الظهار عدّة مرّات (يعنى الجملة السابقة بقصد جدّى) يجب أن يدفع عدّة كفّارات، بالرغم من أنّ التكرار حدث فى جلسة واحدة. إلّا أن يكون مقصوده من التكرار هو التأكيد، و ليس الظهار الجديد.

۵- إذا قارب زوجته قبل الكفّارة وجبت عليه كفّارتان، كفّارة للظهار و كفّارة للمواقعة الجنسية، و هذا الحكم مورد اتّفاق بين الفقهاء، و الآيات أعلاه لم تذكر هذه المسألة، إلّا أنّ روايات أهل البيت عليهم السّلام أشارت إليها[۱۳۴].

۶- التعامل القاطع الجدّى مع مسألة الظهار، تؤكّد على حقيقة أنّ الإسلام لا يسمح أبدا أن تهضم حقوق المرأة عن طريق تسلّط الرجال و استبدادهم، و ذلك باستثمار الأعراف و التقاليد الظالمة، حيث أنّ السنّة الخاطئة و الخرافية فى هذا المجال كلّما كانت مستحكمة كان تأثيرها المدمّر أقوى.

۷- بالنسبة لموضوع (تحرير الرقبة) و التى هى أوّل كفّارة للظهار، فبالإضافة إلى كونها إجراء مناسبا للقضاء على ظاهرة المرأة فى قبضة الاستبداد، فإنّما تمثّل رغبة الإسلام فى القضاء على العبودية بكلّ طريق، و ذلك ليس فقط فى كفّارة الظهار بل فى كفّارة القتل الخطأ، و كفّارة عدم صيام شهر رمضان- الإفطار المتعمّد- و كذلك فى كفّارة مخالفة القسم، أو عدم الوفاء بالنذر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۲

الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۵ الى ۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (۵) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۶) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷)

التّفسير

أولئک أعداء اللّه:

إذا كانت آخر جملة فى الآيات السابقة تحثّ الجميع بضرورة الالتزام بالحدود الإلهيّة و عدم تجاوزها، فإنّ الآيات مورد البحث لا تتحدّث عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۳

الأشخاص الذين تجاوزوا حدود اللّه فحسب، بل عن الذين حاربوا اللّه و رسوله، و توضّح عاقبتهم و مصيرهم فى هذه الدنيا و العالم الآخر كذلك.

يقول سبحانه فى البداية: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

«يحادون» من مادّة (محادة) بمعنى الحرب المسلّحة و الاستفادة من الحديد و قال أيضا للحرب غير المسلّحة.

و قال البعض: إنّ (المحادّة) فى الأصل بمعنى الممانعة من مادّة (حدّ) و التى تجىء بمعنى المانع بين شيئين، و لذلك يقال للحارس (حداد)، و المعنيان من حيث النتيجة متقاربان بالرغم من أنّهما مأخوذان من أصلين مختلفين.

«كبتوا» من مادّة (كبت) على وزن (ثبت) بمعنى المنع بذلّة، و (كبتوا) إشارة إلى أنّ اللّه تعالى يجعل جزاء المحاربين للّه و رسوله الذلّة و الهوان و يمنعهم من لطفه الشامل ۱۳۵].

و هذا التعبير شبيه ما ورد فى الآية (۱۱۴) من سورة البقرة التى تتحدّث عن الأشخاص الذين يمنعون الناس من المساجد و عبادة اللّه سبحانه، و يحاربون مبدأ الحقّ حيث يقول سبحانه: لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ

أو كما ورد فى الآية (۳۳) من سورة المائدة فى الحديث عن مصير الأشخاص الذين يحاربون اللّه و رسوله و يفسدون فى الأرض حيث يقول: ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ

ثمّ يضيف البارى سبحانه: وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ

و بناء على هذا فقد تمّت الحجّة بشكل كامل، و لم يبق عذر، و حجّة للمخالفة، و مع ذلك فإن خالفوا، فلا بدّ من أن يجازوا، ليس فى هذه الدنيا فحسب، بل فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۴

القيامة: وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ

و بهذه الصورة فقد أشير إلى عذابهم الدنيوى فى الجملة السابقة، و فى هذه الجملة إلى العذاب الاخروى، و الشاهد على هذا المعنى

فى الآية الكريمة التالية:

كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كما أنّ الآية اللاحقة تؤكّد هذا المعنى أيضا.

و على كلّ حال فإنّ هذا التهديد الإلهى للأشخاص الذين يقفون بوجه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن الكريم قد تحقّق، حيث واجهوا الذلّة و الانكسار فى غزوة بدر و خيبر و الخندق و غير ذلك، و أخيرا فى فتح مكّة حيث كسرت شوكتهم و أحبط كيدهم بانتصار الإسلام فى كلّ مكان.

و الآية اللاحقة تتحدّث عن استعراض زمان وقوع العذاب الاخروى عليهم حيث يقول عزّ و جلّ: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا[۱۳۶] نعم أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ

و لذا فعند ما تقدّم لهم صحيفة أعمالهم يصرخون: ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها[۱۳۷].

و هذا بحدّ ذاته عذاب مؤلم، لأنّ اللّه تعالى يذكّرهم بذنوبهم المنسيّة و يفضحهم فى مشهد الحشر أمام الخلائق.

و فى نهاية الآية يقول البارئ سبحانه: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

و هذه فى الحقيقة بمثابة الدليل على ما ورد فى الجملة السابقة، فانّ حضور اللّه سبحانه فى كلّ مكان و فى كلّ زمان و فى الداخل و الخارج، يوجب ألّا يحصى أعمالنا- فقط- بل نيّاتنا و عقائدنا، و فى ذلك اليوم الكبير الذى هو «يوم البروز» يعرف كلّ شىء. و لكى يعلم الإنسان السبب فى صعوبة الجزاء الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۵

و لتأكيد حضور اللّه سبحانه فى كلّ مكان و علمه بكلّ شىء ينتقل الحديث إلى مسألة «النجوى» حيث يقول سبحانه: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ

بالرغم من أنّ المخاطب فى هذه الآية هو الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ المقصود هو عموم الناس ۱۳۸]، و مقدّمة لبيان مسألة النجوى.

ثمّ يضيف تعالى: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ، وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۱۳۹].

نلاحظ هنا عدّة نقاط تستحقّ الانتباه:

۱- «النجوى» و «النجاة» فى الأصل بمعنى المكان المرتفع الذى انفصل عن أطرافه و جوانبه بسبب ارتفاعه، و لأنّ الإنسان إذا أراد التكتم على حديثه يعتزل فى مكان بعيد عن الآخرين، أو بلحاظ أنّ المتحدّث بالنجوى يريد أن ينجى أسراره من الكشف و يبعدها عن تناول أسماع الآخرين.

۲- يرى البعض أنّ «النجوى» يجب أن تكون بين ثلاثة أشخاص أو أكثر، و إذا كانت بين شخصين فيقال لها (سرار) على وزن (ستار) إلّا أنّ هذا خلاف ظاهر الآية، لأنّ الجملة: وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ تشير إلى أقلّ من ثلاثة أشخاص- أى شخصين- و من الطبيعى أنّه إذا تناجى شخصان فلا بدّ من أن يكون شخص ثالث قريب منهما، و إلّا فلا ضرورة للنجوى. إلّا أنّ ذلك لا يرتبط بما ذكرنا.

۳- و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا هى أنّ الآية أعلاه تحدّثت فى البداية عن نجوى ثلاثة، و من ثمّ عن نجوى خمسة، و لم يرد الكلام عن نجوى أربعة أشخاص و التى هى بين المرتبتين (ثلاثة و خمسة)، و بالرغم من أنّ كلّ ذلك جاء من باب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۶

المثال، إلّا أنّ بعض المفسّرين ذكروا له وجوها مختلفة، و أنسبها أنّ المقصود بذلك رعاية الفصاحة فى الكلام و عدم التكرار، لأنّه إذا قال تعالى (كلّ ثلاثة أشخاص يتناجون فإنّ اللّه رابعهم، و كلّ أربعة أشخاص يتناجون فإنّ اللّه خامسهم) فإنّ العدد (أربعة) يتكرّر هنا، و هذا بعيد عن البلاغة. و قال البعض: إنّ هذه الآيات نزلت حول مجموعة من المنافقين الذين كان عددهم نفس العدد المذكور.

۴- المقصود من أنّ «اللّه» رابعهم أو سادسهم هو أنّ اللّه عزّ و جلّ موجود حاضر و ناظر فى كلّ مكان و عالم بكلّ شيء، و إلّا فإنّ ذاته المقدّسة لا- مكان لها، و لا يوصف بالعدد أبدا، و وحدانيّته أيضا ليست وحدة عدديّة، بل بمعنى أنّه لا شبيه له، و لا نظير و لا مثيل.

۵- و جدير بالذكر أنّ الحديث فى ذيل الآية يتجاوز النجوى، حيث تؤكّد الآية أنّ اللّه مع الإنسان فى كلّ مكان، و سوف يطلع الإنسان على أعماله يوم القيامة .. و تنتهى الآية بالإحاطة العلمية للّه سبحانه، كما ابتدأت بالإحاطة العلمية بالنسبة لكلّ شيء.

۶- نقل بعض المفسّرين أنّ سبب نزول الآية، ما ورد عن ابن عبّاس أنّه قال:

إنّ الآية نزلت حول ثلاثة أشخاص، هم (ربيعة و حبيب و صفوان) كانوا يتحدّثون مع بعضهم، و قال أحدهم للآخر: هل يعلم اللّه ما نقول؟ قال الثانى: قسم يعلمه و قسم لا يعلمه. و قال الثالث: إذا كان يعلم قسما منه فإنّه يعلم جميعه، فنزلت الآية و أعلنت أنّ اللّه تعالى حاضر فى كلّ نجوى و فى كلّ مكان فى الأرض و فى السماء، كى يتّضح خطأ الغافلين عمى القلوب ۱۴۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۷

بحث

حضور اللّه سبحانه فى كلّ نجوى:

تقدّم آنفا أنّ اللّه تعالى ليس جسما و ليست له عوارض جسمانية، و من هنا فلا يمكن أن نتصوّر له زمانا أو مكانا، و لكن توهّم أن يوجد مكان لا يكون للّه عزّ و جلّ فيه حاضرا و ناظرا يستلزم القول بتحديده سبحانه.

و بتعبير آخر فإنّ للّه سبحانه إحاطة علمية بكلّ شيء فى الوقت الذى لا يكون له مكان، مضافا إلى أنّ ملائكته حاضرون فى كلّ مكان، و يسمعون كلّ الأقوال و الأعمال و يسجّلونها.

لذا نقرأ

فى حديث لأمير المؤمنين عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «إنّما أراد بذلك استيلاء أمنائه بالقدرة التى ركبها فيهم على جميع خلقه، و إن فعلهم فعله»[۱۴۱].

و طبيعى أنّ هذا هو بعد من أبعاد الموضوع، و أمّا البعد الآخر فيطرح فيه حضور ذات اللّه عزّ و جلّ، كما نقرأ

فى حديث آخر هو أنّ أحد كبار علماء النصارى سأل عن أمير المؤمنين عليه السّلام: أين اللّه؟ قال عليه السّلام: هو هاهنا و هاهنا و فوق و تحت، و محيط بنا و معنا، و هو قوله: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ ۱۴۲].

و

فى الحديث المعروف (الإهليلجة) نقرأ عن الإمام الصادق عليه السّلام: إنّ اللّه تعالى سمّى «السميع» بسبب أنّه لا- يتناجى ثلاثة أشخاص إلّا هو رابعهم ... ثمّ أضاف:

يسمع دبيب النمل على الصفا و خفقان الطير فى الهواء، لا يخفى عليه خافية، و لا شيء ممّا تدركه الأسماع و الأبصار، و ما لا تدركه الأسماع و الأبصار، ما جلّ من ذلك و ما دقّ و ما صغر و ما كبر[۱۴۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۸

الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

سبب النّزول

نقلت روايتان حول سبب نزول الآية الاولى أعلاه، و كلّ واحدة منهما تخصّ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۹
قسما من الآية الكريمة.

تقول الرواية الاولى: إنّ الآية نزلت في اليهود و المنافقين حيث كانوا يتناجون فيما بينهم بمعزل عن المؤمنين، مع الإشارة إليهم بأعينهم غمزا، فلمّا رأى المؤمنون نجواهم ظنّوا أنّ سوءا حصل لإخوانهم في السرايا فحزنوا لذلك، و بثّوا حزنهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأمرهم الرّسول ألّا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك و عادوا إلى مناجاتهم فنزلت الآية أعلاه و هدّدتهم بشدّة[۱۴۴].

أمّا الرواية الثانية

فقد نقل في صحيح مسلم و البخاري و كثير من كتب التّفسير أنّ قسما من اليهود جاءوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بدلا من قولهم له: السّلام عليكم، قالوا: أسام عليك يا أبا القاسم (و التي تعني الموت عليك أو الملالة و التعب) فكان ردّ الرّسول عليهم (و عليكم) تقول عائشة: إنّي فهمت مرادهم و قلت: (عليكم السام و لعنكم اللّه و غضب عليكم).

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا عائشة عليك بالرفق و إيّاك العنف و الفحش، فقلت:

ألا تسمعهم يولون السام؟ فقال: و أما سمعت ما أقول عليكم فأنزل اللّه تعالى: إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ ...[۱۴۵].

التّفسير

النجوى من الشيطان:

البحث في هذه الآيات هو استمرار لأبحاث النجوى السابقة، يقول سبحانه:

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ

و يستفاد من هذه الآية بصورة جليّة أنّ المنافقين و اليهود قد نهوا من قبل
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۰
و منعوا من النجوى التي تولّد سوء الظنّ عند الآخرين و تسبّب لهم القلق، إلّا أنّهم لم يعيروا أي اهتمام لمثل هذا التحذير، و الأدهى من ذلك أنّ نجواهم كانت تدور حول ارتكاب الذنوب و مخالفة أوامر اللّه و رسوله.

و الفرق بين «الإثم» و «العصيان» و «معصية الرّسول»، هو أنّ «الإثم» يشمل الذنوب التي لها جانب فردي كشرب الخمر، أمّا «العدوان»

فإنّها تعنی التجاوز علی حقوق الآخرین، و أمّا «معصیة الرّسول» فإنّها ترتبط بالأمور و التعلیمات التی تصدر من شخص الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتباره رئیسا للدولة الإسلامیة، و یتصدّی لمصالح المجتمع الإسلامی. و بناء علی هذا فإنّهم یطرحون فی نجواهم کلّ عمل مخالف، و هو أعمّ من الأعمال التی تکون مرتبطة بهم أو بالآخرین أو الحکومة الإسلامیة و شخص الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و التعبیر ب (یعودون) و (یتناجون) جاء هنا بصیغة مضارع، حیث یوضّح لنا أنّ هذا العمل یتکرّر باستمرار، و قصدهم به إزعاج المؤمنین.

و علی کلّ حال، فالآیة جاءت بعنوان إخبار غیبی یکشف مخالفاتهم و یظهر خطّهم المنحرف.

و استمرارا لهذا الحدیث فإنّ القرآن الکریم یشیر إلی مورد آخر من أعمال التجاوز و المخالفة للمنافقین و الیهود، حیث یقول تعالی: وَ إِذا جاؤُکَ حَیَّوْکَ بِما لَمْ یُحَیِّکَ بِهِ اللَّهُ

«حیّوک» من مادّة (تحیة) مأخوذة فی الأصل من الحیاة بمعنی الدعاء بالسلام و الحیاة الاخری، و المقصود بالتحیة الإلهیة فی هذه الآیة هو: (السّلام علیکم) أو (سلام اللّه علیک) و التی وردت نماذج منها فی الآیات القرآنیة عن الأنبیاء و أصحاب الجنّة، و من جملتها قوله تعالی: سَلامٌ عَلَی الْمُرْسَلِینَ ۱۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۱

و أمّا التحیّة التی لم یحیّ بها اللّه، و لم یکن قد سمح بها هی جملة: (أسام علیک).

و یحتمل أیضا أن تکون التحیة المقصودة بالآیة الکریمة هی تحیّة الجاهلیة حیث کانوا یقولون: (أنعم صباحا) و (أنعم مساء) و ذلک بدون أن یتوجّهوا بکلامهم إلی اللّه سبحانه و یطلبون منه السلامة و الخیر للطرف الآخر.

هذا الأمر مع أنّه کان سائدا فی الجاهلیة، إلّا أنّ تحریمه غیر ثابت، و تفسیر الآیة أعلاه له بعید.

ثمّ یضیف تعالی أنّ هؤلاء لم یرتکبوا مثل هذه الذنوب العظیمة فقط بل کانوا مغرورین متعالین و کأنّهم سکاری فیقول عزّ و جلّ: وَ یَقُولُونَ فِی أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا یُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ و بهذه الصورة فإنّهم قد أثبتوا عدم إیمانهم بنبوّة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کذلک عدم إیمانهم بالإحاطة العلمیة للّه سبحانه.

و بجملة قصیرة یرد علیهم القرآن الکریم: حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ یَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِیرُ.

و الطبیعی أنّ هذا الکلام لا ینفی عذابهم الدنیوی، بل یؤکّد القرآن علی أنّه لو لم یکن لهؤلاء سوی عذاب جهنّم، فإنّه سیکفیهم و سیرون جزاء کلّ أعمالهم دفعة واحدة فی نار جهنّم.

و لأنّ النجوی قد تکون بین المؤمنین أحیانا و ذلک للضرورة أو لبعض المیول، لذا فإنّ الآیة اللاحقة تخاطب المؤمنین ستکون مناجاتهم فی مأمن من التلوّث بذنوب الیهود و المنافقین حیث یقول الباریٔ عزّ و جلّ: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا تَناجَیْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِیَةِ الرَّسُولِ، وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوی وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ

یستفاد من هذا التعبیر- بصورة واضحة- أنّ النجوی إذا کانت بین المؤمنین فیجب أن تکون بعیدة عن السوء و ما یثیر قلق الآخرین، و لا بدّ أن یکون مسارها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۲

التواصی بالخیر و الحسنی، و بهذه الصورة فلا مانع منها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۱۲۲

لکن کلّما کانت النجوی بین أشخاص کالیهود و المنافقین الذین یهدفون إلی إیذاء المؤمنین، فنفس هذا العمل حرام و قبیح، فکیف

الحال إذا كانت نجواهم شيطانية و تآمرية، و لذلك فإنّ القرآن يحذّر منها أشدّ تحذير فى آخر آية مورد للبحث، حيث يقول تعالى: إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا و لكن يجب أن يعلموا أنّ الشيطان لا يستطيع إلحاق الضرر بأحد إلّا أن يأذن اللّه بذلك وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

ذلك لأنّ كلّ مؤثّر فى عالم الوجود يكون تأثيره بأمر اللّه حتّى إحراق النار و قطع السيف.

وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ إذ أنّهم- بالروح التوكّلية على اللّه، و بالاعتماد عليه سبحانه- يستطيعون أن ينتصروا على جميع هذه المشاكل، و يفسدوا خطط أتباع الشيطان، و يفشلوا مؤامراته.

بحثان

۱- أنواع النجوى

لهذا العمل من الوجهة الفقهيّة الإسلامية أحكام مختلفة حسب اختلاف الظروف، و يصنّف إلى خمسة حالات تبعا لطبيعة الأحكام الإسلامية فى ذلك.

فتارة يكون هذا العمل «حراما» و فيما لو أدّى إلى أذى الآخرين أو هتك حرمتهم- كما أشير له فى الآيات أعلاه- كالنجوى الشيطانية حيث هدفها إيذاء المؤمنين.

و قد تكون النجوى أحيانا (واجبة) و ذلك فى الموضوعات الواجبة السرّية، حيث أنّ إفشاءها مضرّ و يسبّب الخطر و الأذى، و فى مثل هذه الحالة فإنّ عدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۳

العمل بالنجوى يستدعى إضاعة الحقوق و إلحاق خطر بالإسلام و المسلمين.

و تتصف النجوى فى صورة اخرى بالاستحباب، و ذلك فى الأوقات التى يتصدّى فيها الإنسان لأعمال الخير و البرّ و الإحسان، و لا يرغب بالإعلان عنها و إشاعتها و هكذا حكم الكراهة و الإباحة.

و أساسا، فإنّ كلّ حالة لا يوجد فيها هدف مهمّ فالنجوى عمل غير محمود، و مخالف لآداب المجالس، و يعتبر نوعا من اللامبالاة و عدم الاكتراث بالآخرين.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه»[۱۴۷].

كما نقرأ

فى حديث عن أبى سعيد الخدرى أنّه قال: كنّا نتناوب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يطرقه أمر أو يأمر بشىء فكثر أهل الثوب المحتسبون ليلة حتّى إذا كنّا نتحدّث فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الليل فقال: ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى»[۱۴۸].

و يستفاد من روايات أخرى أنّ الشيطان- لإيذاء المؤمنين- يستخدم كلّ وسيلة ليس فى موضوع النجوى فقط، بل أحيانا فى عالم النوم حيث يصوّر لهم مشاهد مؤلمة توجب الحزن و الغمّ، و لا بدّ للإنسان المؤمن فى مثل هذه الحالات أن يلتجئ إلى اللّه و يتوكّل عليه، و يبعد عن نفسه هذه الوساوس الشيطانية[۱۴۹].

۲- كيف تكون التحيّة الإلهيّة؟

من المتعارف علیه اجتماعیا فی حالهٔ الدخول إلی المجالس تبادل العبارات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۴

التی تعبّر عن الودّ و الاحترام بین الحاضرین- کلّ منهم للآخر- و یسمّی هذا بالتحیّهٔ، إلّا أنّ المستفاد من الآیات أعلاه أن یکون للتحیّهٔ محتوی إلهی، کما فی بقیّهٔ القواعد الخاصّهٔ بآداب المعاشرهٔ.

ففی التحیّهٔ بالإضافهٔ إلی الاحترام و الإکرام لا بدّ أن تقرن بذکر اللّه فی حالهٔ اللقاء، کما فی (السّلام) الذی تطلب فیه من اللّه السلامهٔ للطرف الآخر.

و قد ورد فی تفسیر علی بن إبراهیم- فی نهایهٔ الآیات مورد البحث- أنّ مجموعهٔ من أصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند ما کانوا یقدمون علیه یحیّونه بقولهم (أنعم صباحا) و (أنعم مساء) و هذه تحیهٔ أهل الجاهلیهٔ فأنزل اللّه: وَ إِذا جاؤُکَ حَیَّوْکَ بِما لَمْ یُحَیِّکَ بِهِ اللَّهُ

فقال لهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «قد أبدلنا اللّه بخیر تحیّهٔ أهل الجنّهٔ السّلام علیکم»[۱۵۰].

کما أنّ من خصوصیات السّلام فی الإسلام أن یکون مقترنا بذکر اللّه تعالی، هذا من جههٔ، و من جههٔ اخری ففی السّلام سلامهٔ کلّ شیء أعمّ من الدین و الإیمان و الجسم و الروح ... و لیس منحصرا بالراحهٔ و الرفاه و الهدوء[۱۵۱].

(و حول حکم التحیهٔ و السّلام و آدابها کان لدینا بحث مفصّل فی نهایهٔ الآیهٔ (۸۶) فی سورهٔ النساء).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۵

الآیهٔ [سورهٔ المجادلهٔ (۵۸): آیهٔ ۱۱]

اشارهٔ

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا قِیلَ لَکُمْ تَفَسَّحُوا فِی الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا یَفْسَحِ اللَّهُ لَکُمْ وَ إِذا قِیلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا یَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۱۱)

سبب النّزول

نقل العلّامهٔ الطبرسی فی مجمع البیان، و الآلوسی فی روح المعانی، و جمع آخر من المفسّرین، أنّ هذه الآیهٔ نزلت یوم الجمعهٔ و کان رسول اللّه یومئذ فی (الصفّهٔ) و کان یکرم أهل بدر من المهاجرین و الأنصار، فجاء ناس من أهل بدر.

قد سبقوا إلی المجالس، فقاموا حیال رسول اللّه فقالوا: السّلام علیک أیّها النبی و رحمهٔ اللّه و برکاته. فردّ النبی علیهم، ثمّ سلّموا علی القوم بعد ذلک فردّوا علیهم، فقاموا علی أرجلهم ینظرون أن یوسّع لهم، فعرف النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما یحملهم علی القیام، فشقّ ذلک علی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فقال لمن حوله من المهاجرین و الأنصار من غیر أهل بدر! قم یا فلان، قم یا فلان، فلم یزل یقیمهم بعدّهٔ النفر الذین هم قیام بین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۶

یدیه من المهاجرین و الأنصار- أهل بدر- فشقّ ذلک علی من أقیم من مجلسه، و عرف النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الکراههٔ فی وجوههم، فقال المنافقون: أ لستم تزعمون أنّ صاحبکم هذا یعدل بین الناس؟ و اللّه ما رأیناه قد عدل علی هؤلاء! إنّ قوما أخذوا مجالسهم و أحبّوا القرب من نبیّهم، فأقامهم و أجلس من أبطأ عنه .. فبلغنا

أنّ رسول اللّه قال: «رحم اللّه رجلا یفسح لأخیه»

فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا، فيفسح القوم لإخوانهم و نزلت هذه الآية[۱۵۲].

التفسير

احترام أهل السابقة و الإيمان:

تعقيبا على الموضوع الذى جاء فى الرّوايات السابقة حول ترك (النجوى) فى المجالس، يتحدّث القرآن عن أدب آخر من آداب المجالس حيث يقول سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا[۱۵۳] يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ

«تفسّحوا» من مادّة (فسح) على وزن قفل بمعنى المكان الواسع، و بناء على هذا، فإنّ التفسّح بمعنى التوسّع، و هذه واحدة من آداب المجالس، فحين يدخل شخص إلى المجلس فإنّ المرجو من الحاضرين أن يجلسوا بصورة يفسحوا بها مجالا له، كى لا يبقى فى حيرة و خجل، و هذا الأدب أحد عوامل تقوية أواصر المحبّة و الودّ على عكس النجوى التى أشير إليها فى الآيات السابقة، و التى هى أحد عوامل التفرقة و الشحناء، و إثارة الحساسيات و العداوة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۷

و الشيء الملاحظ أنّ القرآن الكريم، الذى هو بمثابة دستور لجميع المسلمين لم يهمل حتّى هذه المسائل الجزئية الأخلاقية فى الحياة الاجتماعية للمسلمين، بل أشار إليها بما يناسبها ضمن التعليمات الأساسية، حتّى لا يظنّ المسلمون أنّه يكفيهم الالتزام بالمبادئ الكلّية.

جملة يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ فسّرها بعض المفسّرين بتوسّع المجالس فى الجنّة، و هو ثواب يعطيه اللّه تعالى للأشخاص الذين يراعون هذه الآداب فى عالم الدنيا، و يلتزمون بها، و بلحاظ كون الآية مطلقة و ليس فيها قيد أو شرط فإنّ لها مفهوما واسعا، و تشمل كلّ سعة إلهيّة، سواء كانت فى الجنّة أو فى الدنيا أو فى الروح و الفكر أو فى العمر و الحياة، أو فى المال و الرزق، و لا عجب من فضل اللّه تعالى أن يجازى على هذا العمل الصغير بمثل هذا الأجر الكبير، لأنّ الأجر بقدر كرمه و لطفه لا بقدر أعمالنا.

و بما أنّ المجالس تكون مزدحمة أحيانا بحيث أنّه يتعذّر الدخول إلى المجلس فى حالة عدم التفسّح أو القيام، و إذا وجد مكان فإنّه غير متناسب مع مقام القادمين و استمرارا لهذا البحث يقول تعالى: وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا[۱۵۴] أى إذا قيل لكم قوموا فقوموا.

و لا ينبغى أن تضجروا أو تسأموا من الوقوف، لأنّ القادمين أحيانا يكونون أحوج إلى الجلوس من الجالسين فى المجلس، و ذلك لشدّة التعب أو الكهولة أو للاحترام الخاصّ لهم، و أسباب اخرى.

و هنا يجب أن يؤثّر الحاضرون على أنفسهم و يتقيّدوا بهذا الأدب الإسلامى، كما مرّ بنا فى سبب نزول الآية، حيث كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمر المجموعة التى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۸

كانت جالسة بالقرب منه بالتفسّح للقادمين الجدد لأنّهم كانوا من مجاهدى بدر، و أفضل من الآخرين من ناحية العلم و الفضيلة.

كما فسّر بعض المفسّرين (انشزوا) بمعناها المطلق و بمفهوم أوسع، حيث تشمل أيضا القيام للجهاد و الصلاة و أعمال الخير الاخرى، إلّا أنّه من خلال التمعن و التدقيق فى الجملة السابقة لها و التى فيها قيد «فى المجالس»، فالظاهر أنّ هذه الآية مقيّدة بهذا القيد، فيمتنع إطلاقها بسبب وجود القرينة.

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى الجزاء و الأجر الذى يكون من نصيب المؤمنين إذا التزموا بالأمر الإلهى، حيث يقول عزّ و جلّ: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ ۱۵۵].

و ذلك إشارة إلى أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا أمر البعض بالقيام و إعطاء أماكنهم للقادمين، فإنّه لهدف إلهى مقدّس،

و احتراما للسابقين فى العلم و الإيمان.

و التعبير ب (درجات) بصورة نكرة و بصيغة الجمع، إشارة إلى الدرجات العظيمة و العالية التى يعطيها اللّه لمثل هؤلاء الأشخاص، الذين يتميّزون بالعمل و الإيمان معا، أو فى الحقيقة أنّ الأشخاص الذين يتفسّحون للقادمين لهم درجة، و أولئك الذين يؤثرون و يعطون أماكنهم و يتّصفون بالعلم و التقوى لهم درجات أعلى.

و بما أنّ البعض يؤدّى هذه التعليمات و يلتزم بهذه الآداب عن طيب نفس و رغبة، و الآخرون يؤدّونها عن كراهية أو للرياء. و التظاهر .. فيضيف تعالى فى نهاية الآية: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۹

بحثان

۱- مقام العلماء

بالرغم من أنّ الآية نزلت فى مورد خاصّ، إلّا أنّ لها مفهوما عامّا، و بملاحظة أنّ ما يرفع مقام الإنسان عند اللّه شيئان: الإيمان، و العلم.

و بالرغم من أنّ «الشهيد» فى الإسلام يتمتع بمقام سام جدّا، إلّا أنّنا نقرأ حديثا للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبيّن لنا فيه مقام أهل العلم حيث

قال: «فضل العالم على الشهيد درجة، و فضل الشهيد على العابد درجة .. و فضل العالم على سائر الناس، كفضلى، على أدناهم»[۱۵۶]. و

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام نقرأ الحديث التالى: «من جاءته منيّته و هو يطلب العلم فبينه و بين الأنبياء درجة»[۱۵۷].

و معلوم أنّ الليالى المقمرة لها بهاء و نضرة، خصوصا ليلة الرابع عشر من الشهر، حيث يكتمل البدر و يزداد ضوؤه بحيث يؤثّر على ضوء النجوم .. هذا المعنى الظريف

ورد فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[۱۵۸].

و الطريف هنا أنّ العابد ينجز عبادته التى هى الهدف من خلق الإنسان، و لكن بما أنّ روح العبادة هى المعرفة، لذا فإنّ العالم مفضّل عليه بدرجات.

و ما جاء حول أفضلية العالم على العابد فى الروايات أعلاه يقصد منه بيان الفرق الكبير بين هذين الصنفين، لذا ورد فى حديث آخر حول الاختلاف بينهما بدلا من درجة واحدة مائة درجة، و المسافة بين درجة و اخرى بمقدار عدو الخيل فى سبعين سنة[۱۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۰

و واضح أيضا أنّ مقام الشفاعة لا يكون لأى شخص فى يوم القيامة، بل هى مقام المقرّبين فى الحضرة الإلهية، و لكن نقرأ فى حديث للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء»[۱۶۰].

و فى الحقيقة أنّ الموفّقية فى طريق التكامل و جلب رضا اللّه و القرب منه مرهون بعاملين أساسين هما: الإيمان و العلم، أو الوعى و التقوى و كلّ منهما ملازم للآخر، و لا تتحقّق الهداية بأحدهما دون الآخر.

۲- آداب المجلس فى القرآن الكريم

أشار القرآن الكريم مرّات عديدة إلى الآداب الإسلامية فى المجالس ضمن المسائل الأساسية، و منها آداب التحيّة، و الدخول إلى المجلس، و آداب الدعوة إلى الطعام. و آداب التكلّم مع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و آداب التفسّح للأشخاص القادمين، خصوصا ذوى الفضيلة و السابقين فى العلم و الإيمان ۱۶۱].

و هذا يرينا بوضوح أنّ القرآن الكريم يرى لكلّ موضوع فى محلّه أهميّة و قيمة خاصّة، و لا يسمح لتساهل الأفراد و عدم اهتمامهم أن تؤدّى إلى الإخلال بالآداب الإنسانية للمعاشرة.

و قد نقلت فى كتب الحديث مئات الروايات عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة الأطهار عليهم السّلام حول آداب المعاشرة مع الآخرين. جمعها المحدّث الكبير الشيخ الحرّ العاملى فى كتابه وسائل الشيعة، ج ۸، حيث رتّبها فى ۱۶۶ بابا.

و ملاحظة الجزئيّات الموجودة فى هذه الروايات ترشدنا إلى مبلغ اهتمام الإسلام بالآداب الاجتماعية. حيث تتناول هذه الروايات حتّى طريقة الجلوس،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۱

و طريقة التكلّم و الابتسامة و المزاح و الإطعام، و طريقة كتابة الرسائل، بل حتّى طريقة النظر إلى الآخرين، و قد حدّدت التعليمات المناسبة لكلّ منها، و الحديث المفصّل عن هذه الروايات يخرجنا عن البحث التّفسيرى، إلّا أنّنا نكتفى بحديث واحد

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام حيث يقول: «ليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس، و الاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم فى لين كلامك و حسن سيرتك، و يكون استغناؤك عنهم فى نزاهة عرضك و بقاء عزّك»[۱۶۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۲

الآيتان [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۲ الى ۱۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۲) أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۳)

سبب النّزول

نقل العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان و كذلك جمع آخر من المفسّرين أنّ هذه الآية أنزلت فى الأغنياء، و ذلك أنّهم كانوا يأتون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيكثرون مناجاته- و هذا العمل بالإضافة إلى أنّه يشغل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يأخذ من وقته فإنّه كان يسبّب عدم ارتياح المستضعفين منه، و حيث يشعرهم بامتياز الأغنياء عليهم- فأمر سبحانه ب (الصدقة) عند المناجاة، فلمّا رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته، فنزلت آية الرخصة التى لامت الأغنياء و نسخت حكم الآية الاولى و سمح للجميع بالمناجاة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۳

حيث أنّ النجوى هنا حول عمل الخير و طاعة المعبود[۱۶۳].

و صرّح بعض المفسّرين أيضا أنّ هدف البعض من «النجوى» هو الاستعلاء على الآخرين بهذا الأسلوب. و بالرغم من أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان غير مرتاح لهذا الأسلوب، إلّا أنّه لم يمنع منه، حتّى نهاهم القرآن من ذلك ۱۶۴].

التّفسير

الصدقة قبل النجوى (اختبار رائع):

فى قسم من الآيات السابقة كان البحث حول موضوع النجوى، و فى الآيات مورد البحث استمرارا و تكملة لهذا المطلب.

يقول سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً و كما ذكرنا فى سبب نزول هذه الآيات، فإنّ بعض الناس و خاصّة الأغنياء منهم كانوا يزاحمون الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باستمرار و يتناجون معه ... و لمّا كان هذا العمل يسبّب إزعاجا للرسول بالإضافة إلى كونه هدرا لوقته الثمين، و فيه ما يشعر بالخصوصية لهؤلاء الذين يناجونه بدون مبرّر لذا نزل الحكم أعلاه، و كان امتحانا لهم، و مساعدة للفقراء، و وسيلة مؤثّرة للحدّ من مضايقة هؤلاء لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يضيف بقوله تعالى: ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ.

أمّا كون الصدقة «خير» فإنّها كانت للأغنياء موضع أجر و للفقراء مورد مساعدة، و أمّا كونها (أطهر) فلأنّها تغسل قلوب الأغنياء من حبّ المال، و قلوب الفقراء من الغلّ و الحقد، لأنّه عند ما تكون النجوى مقرونة بالصدقة تكون دائرتها أضيق ممّا كانت عليه فى الحالة المجانية، و بالتالى فإنّها نوع من التصحيح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۴

و التهذيب الفكرى و الاجتماعى للمسلمين.

و لكن لو كان التصدّق قبل النجوى واجبا على الجميع، فإنّ الفقراء عندئذ سيحرمون من طرح المسائل المهمّة كاحتياجاتهم و مشاكلهم أمام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلذا جاء فى ذيل الآية إسقاط هذا الحكم عن المجموعة المستضعفة ممّا مكّنهم من مناجاة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و التحدّث معه فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و بهذه الصورة فإنّ دفع الصدقة قبل النجوى كان واجبا على الأغنياء دون غيرهم.

و الطريف هنا أنّ للحكم أعلاه تأثيرا عجيبا و امتحانا رائعا أفرزه على صعيد الواقع من قبل المسلمين فى ذلك الوقت، حيث امتنع الجميع من إعطاء الصدقة إلّا شخص واحد، ذلك هو الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام، و هنا اتّضح ما كان يجب أن يتّضح، و أخذ المسلمون درسا فى ذلك، لذا نزلت الآية اللاحقة و نسخت الحكم حيث يقول سبحانه: أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ

حيث اتّضح أنّ حبّ المال كان فى قلوبكم أحبّ من نجواكم للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اتّضح أيضا أنّ هذه النجوى لم تكن تطرح فيها مسائل أساسية، و إلّا فما المانع من أن تقدّم هذه المجموعة صدقة قبل النجوى، خاصّة أنّ الآية لم تحدّد مقدار الصدقة فبإمكانهم دفع مبلغ زهيد من المال لحلّ هذه المشكلة!! ثمّ يضيف تعالى: فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

و يعكس لنا التعبير ب (التوبة) أنّهم فى نجواهم السابقة كانوا قد ارتكبوا ذنوبا، سواء فى التظاهر و الرياء، أو أذى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو أذى المؤمنين الفقراء.

و بالرغم من عدم التصريح بجواز النجوى فى هذه الآية بعد هذا الحادث، إلّا أنّ تعبير الآية يوضّح لنا أنّ الحكم السابق قد رفع.

أمّا الدعوة لإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و إطاعة اللّه و رسوله فقد أكّد عليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۵

بسبب أهميّتها، و كذلك هى إشارة إلى أنّه إذا تناجيتم فيما بعد فيجب أن تكون فى خدمة الأهداف الإسلامية الكبرى و فى طريق

طاعة اللّه و رسوله.

بحوث

١- الملتزم الوحيد بآية الصدقة قبل النجوى

إنّ الشـخص الوحيد الذى نفّذ آية الصدقة فى النجوى- كما فى أغلب كتب مفسّرى الشيعة و أهل السنّة- و عمل بهذه الآية هو الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام، كما

ينقل ذلك الطبرسـى فى روايـة عنه عليه السّلام أنّه قال: «آية من كتاب اللّه لم يعمل بها أحد قبل و لم يعمل بها أحد بعدى، كان لى دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا جئت إلى النبى تصدّقت بدرهم»[١۶۵].

كما نقل هذا المضمون «الشوكانى» عن «عبد الرّزاق» و «ابن المنذر» و «ابن أبى حاتم» و «ابن مردويه»[١۶۶].

و نقل «الفخر الرازى» هذا الحديث أيضا عن بعض المحدّثين عن ابن عبّاس و العامل الوحيد بمضمون الآية هو الإمام على عليه السّلام [١۶٧.

و جاءت فى الدرّ المنثور- أيضا- روايات متعدّدة بهذا الصدد، فى نهاية تفسير الآيات أعلاه ١۶٨].

و فى تفسير روح البيان نقل عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب أنّه قال: «كان لعلى ثلاثة! لو كانت فىّ واحدة منهنّ لكانت أحبّ إلىّ من حمر النعم: تزويجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ١٣۶

فاطمة، و إعطاؤه الراية يوم خيبر و آية النجوى»[١۶٩].

إنّ ثبوت هذه الفضيلة العظيمة للإمام على عليه السّلام قد جاء فى أغلب كتب التّفسير، و هى مشهورة بحيث لا حاجة لشرحها أكثر.

٢- فلسفة تشريع و نسخ حكم الصدقة

لما ذا كانت الصدقة قبل النجوى مع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تشريعية؟ ثمّ لما ذا نسخت بعد فترة وجيزة؟

يمكن الإجابة على هذا التساؤل- بصورة جيّدة- من خلال القرائن الموجودة فى الآية محلّ البحث و من سبب النزول كذلك.

الهدف هو اختبار الأفراد المدّعين الذين يتظاهرون بحبّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه الوسيلة، فاتّضح أنّ إظهار الحبّ هذا إنّما يكون إذا كانت النجوى مجانية، و لكن عند ما أصبحت النجوى مقترنة بدفع مقدار من المال تركوا نجواهم.

و مضافا إلى ذلك فإنّ هـذا الحكم قـد ترك تأثيره على المسـلمين، و وضّح حقيقة عدم إشـغال وقت الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كـذلك القادة الإسـلاميين الكبار فى النجوى، إلّا لضـرورات العمل الأساسـية، لأنّ ذلك تضـييعا للوقت و جلبا لسـخط الناس و عدم رضاهم. فكان هذا التشريع فى الحقيقة تقنينا للنجوى المستقبلة.

و بناء على هـذا فالحكم المذكور كان فى البداية مؤقتا، و بعد ما تحقّق المطلوب نسخ، لأنّ استمراره سـيثير مشـكلة، لأنّ هناك بعض المسائـل الضـرورية التى تستدعى أن يطّلع عليهـا النبى على انفراد. و مع بقـاء حكم الصدقـة فقـد تهمـل بعض المسائـل الضـرورية، و بصورة عامّة ففى موارد النسخ يكون للحكم منذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ١٣٧

البدایة جانب محدود و مؤقت بالرغم من أنّ الناس أحیانا لا یعلمون بذلک و یتصوّرونه بصورة دائمة.

۳- هل الالتزام بالصدقة فضیلة؟

ممّا لا شکّ فیه أنّ الإمام علی علیه السّلام لم یکن من طائفة الأغنیاء من أصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث البساطة فی حیاته و زهده فی عیشه، و مع هذا الحال و احتراما للحکم الإلهی، تصدّق فی تلک الفترة القصیرة- و لمرّات عدیدة، و ناجی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هذه المسألة واضحة و مسلّمة بین المفسّرین و أصحاب الحدیث کما أسلفنا.

إلّا أنّ البعض- مع قبول هذا الموضوع- یصرّون علی عدم اعتبار ذلک فضیلة و حجّتهم فی ذلک أنّ کبار الصحابة عند ما أحجموا عن هذا العمل فذلک لأنّهم لم تکن لهم حاجة عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أو لم یکن لدیهم وقت کاف، أو أنّهم کانوا یفکّرون بعدم إحراج الفقراء .. و بناء علی هذا فإنّها لا تحسب فضیلة للإمام علی، أو أنّها لا تسلب فضیلة من الآخرین ۱۷۰].

و یبدو أنّهم لم یدقّقوا فی متن الآیة التالیة حیث یقول سبحانه موبّخا:

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیْ نَجْواکُمْ صَدَقاتٍ حتّی أنّه سبحانه یعبّر فی نهایة الآیة بالتوبة، و التی ظاهرها دالّ علی هذا المعنی، و یتّضح من هذا التعبیر أنّ الإقدام علی الصدقة و النجوی مع الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت عملا حسنا، و إلّا فلا ملامة و لا توبة.

و بدون شکّ فإنّ قسما من أصحاب الرّسول المعروفین قبل هذا الحادث کانت لهم نجوی مع الرّسول (لأنّ الأفراد العادیین و البعیدین قلّما احتاجوا إلی

مناجاة الرّسول).

إلّا أنّ هؤلاء الصحابة المعروفین بعد حکم الصدقة، امتنعوا من النجوی، و الشخص الوحید الذی احترم و نفّذ هذا الحکم هو الإمام علی علیه السّلام.

و إذا قبلنا ظاهر الآیات و الروایات التی نقلت فی هذا المجال و فی الکتب الإسلامیة المختلفة و لم نقم أهمیّة للاحتمالات الضعیفة الواهیة فلا بدّ أن نضمّ صوتنا إلی صوت عبد اللّه بن عمر بن الخطاب الذی جعل هذه الفضیلة بمنزلة تزویج فاطمة، و إعطاء الرایة یوم فتح خیبر، و أغلی من حمر النعم.

۴- مدّة الحکم و مقدار الصدقة:

و حول مدّة الحکم بوجوب الصدقة قبل النجوی مع الرّسول توجد أقوال مختلفة، فقد ذکر البعض أنّها ساعة واحدة، و قال آخرون: إنّها لیلة واحدة، و ذکر البعض أنّها عشرة أیّام، إلّا أنّ الأقوی هو القول الثالث، لأنّ الساعة و اللیلة لا تکفی أبدا لمثل هذا الامتحان، لأنّ بالإمکان الاعتذار فی هذه المدّة القصیرة عن عدم وجود حاجة للنجوی، إلّا أنّ مدّة عشرة أیّام تستطیع أن توضّح الحقائق و تهیء أرضیة للوم المتخلّفین.

أمّا مقدار الصدقة فإنّها لم تذکر فی الآیة و لا فی الروایات الإسلامیة، و لکن المستفاد من عمل الإمام علی علیه السّلام هو کفایة الدرهم الواحد فی ذلک.

الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۴ الى ۱۹]

اشارة

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۴) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۵) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۱۶) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۷) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (۱۸)

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۹)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۰

التّفسير

حزب الشيطان:

هذه الآيات تفضح قسما من تآمر المنافقين و تعرض صفاتهم للمسلمين، و ذكرها بعد آيات النجوى يوضّح لنا أنّ قسما ممّن ناجوا الرّسول كانوا من المنافقين، حيث كانوا بهذا العمل يظهرون قربهم للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتستّرون على مؤامراتهم، و هذا ما سبّب أن يتعامل القرآن مع هذه الحالة بصورة عامّة.

يقول تعالى فى البداية: أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

هؤلاء القوم الذين «غضب اللّه عليهم» كانوا من اليهود ظاهرا كما عرّفتهم الآية (۶۰) من سورة المائدة بهذا العنوان حيث يقول تعالى: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ ۱۷۱].

ثمّ يضيف تعالى: ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ فهم ليسوا أعوانكم فى المصاعب و المشاكل، و لا أصدقاءكم و ممّن يكنون لكم الودّ و الإخلاص، إنّهم منافقون يغيّرون وجوههم كلّ يوم و يظهرون كلّ لحظة لكم بصورة جديدة.

و طبيعى أنّ هذا التعبير لا يتنافى مع قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۱۷۲]، لأنّ المقصود هناك أنّهم بحكم أعدائكم، بالرغم من أنّهم فى الحقيقة ليسوا منهم.

و يضيف- أيضا- و استمرارا لهذا الحديث أنّ هؤلاء و من أجل إثبات وفاءهم لكم فإنّهم يقسمون بالأيمان المغلّظة: وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

و هذه طريقة المنافقين، فيقومون بتغطية أعمالهم المنفّرة و وجوههم القبيحة بواسطة الأيمان الكاذبة و الحلف الباطل، فى الوقت الذى تكون أعمالهم خير كاشف لحقيقتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۱

ثمّ يشير تعالى إلى العذاب المؤلم لهؤلاء المنافقين المصرّين على الباطل و المعاندين للحقّ، حيث يقول تعالى: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً و بدون شك فإنّ هذا العذاب عادل و ذلك: إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

ثمّ للتوضيح الأكثر حول بيان سمات و صفات المنافقين يقول سبحانه:

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۱۷۳].

يحلفون أنّهم مسلمون و ليس لهم هدف سوى الإصلاح، فى حين أنّهم منهمكون بفسادهم و تخريبهم و مؤامراتهم .. و فى الحقيقة فإنّهم يستفيدون من الاسم المقدّس للّه للصدّ و المنع عن سبيل اللّه تعالى ...

نعم، إنّ الحلف الكاذب هو أحد علائم المنافقين، حيث ذكره سبحانه أيضا فى سورة المنافقين الآية (۲) فى معرض بيان أوصافهم.

و يضيف تعالى فى النهاية: فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أى مذلّ.

إنّهم أرادوا بحلفهم الكاذب تحسين سمعتهم و تجميل صورتهم، إلّا أنّ اللّه سيبتليهم بعذاب أليم مذلّ، و قبل ذلك عبّر عنه سبحانه بأنّه «عذاب شديد»، كما فى الآية (۱۵) من هذه السورة، لأنّهم يحزنون قلوب المؤمنين بشدّة.

و الظاهر أنّ كلا العذابين مرتبط بالآخرة، لأنهما ذكرا بوصفين مختلفين:

(مهين و شديد) فليس تكرارا، لأنّ وصف العذاب بهذين الوصفين فى القرآن الكريم يأتى عادة لعذاب الآخرة، بالرغم من أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّ العذاب الأوّل مختّص بالدنيا أو عذاب القبر، و أنّ الثانى مختّص بعذاب الآخرة.

و لأنّ المنافقين يعتمدون فى الغالب على أموالهم و أولادهم و هما (القوّة الاقتصادية و القوّة البشرية) فى تحقيق مآربهم و حلّ مشاكلهم، فإنّ القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى بقوله تعالى: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۲

[۱۷۴].

و هذه الأموال ستصبح لعنة عليهم و طوقا فى أعناقهم و سببا لعذابهم المؤلم، كما يوضّح اللّه سبحانه و تعالى ذلك فى قوله: سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ[۱۷۵].

و كذلك بالنسبة لأولادهم الضالّين فإنّهم سيكونون سببا لعذابهم، و أمّا الصالحون و المؤمنون فيستبرءون منهم.

نعم، فى يوم القيامة لا ملجأ إلّا اللّه، و حينئذ يتجلّى خواء الأسباب الاخرى، كما يتبيّن ذلك فى قوله تعالى: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ ۱۷۶] و فى ذيل الآية يهدّدهم و يقول: أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و بهذه الصورة فقد و صف القرآن الكريم عذابهم أحيانا بأنّه «شديد»، و أحيانا بأنّه مذلّ و «مهين»، و ثالثة بأنّه «خالد»، و كلّ واحدة من هذه الصفات متناسبة مع طبيعة أعمالهم.

و العجيب أنّ المنافقين لا يتخلّون عن نفاقهم حتّى فى يوم القيامة أيضا، كما يوضّح اللّه سبحانه ذلك فى قوله: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۱۷۷].

إنّ يوم القيامة يوم تتجلّى فيه الأعمال، و حقيقة الإنسان التى كان عليها فى الدنيا، و لأنّ المنافقين أخذوا هذه الحالة النفسية معهم إلى القبر و البرزخ، فإنّها ستتضح يوم القيامة أيضا، و مع علمهم بأنّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه شىء و أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۳

علّام الغيوب، إلّا أنّهم- انسجاما مع سلوكهم المعهود- فإنّهم يحلفون أمام اللّه حلفا كاذبا.

و طبيعى أنّ هذا لا يتنافى مع اعترافهم و إقرارهم بذنوبهم فى بعض محاضر محكمة العدل الإلهى، لأنّ فى يوم القيامة محطّات و مواقف مختلفة و فى كلّ واحدة منها برنامج.

ثمّ يضيف عزّ و جلّ أنّهم بهذا اليمين الكاذب يظنّون أنّه بإمكانهم كسب منفعة أو دفع ضرر: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ.

إنّ هذا التصور الواهى ليس أكثر من خيال، إلّا أنّ تطبّعهم على هذه الأساليب فى الدنيا و تخلّصهم ممّا يحدق بهم من أخطار بواسطة الأيمان الكاذبة و نيل بعض المنافع الدنيوية لأنفسهم، و بذلك فإنّهم يحملون هذه الملكات السيّئة معهم إلى هناك، حيث تفصح عن حقيقتها.

و أخيرا تنتهى الآية بهذه الجملة: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ

و یمکن أن یکون التصریح مرتبطا بالدنیا، أو القیامة، أو کلیهما، و بهذه الصورة سیفتضح.

و فی آخر آیة مورد البحث یبیّن الباری عزّ و جلّ المصیر النهائی للمنافقین العمی القلوب بقوله تعالی: اسْتَحْوَذَ عَلَیْهِمُ الشَّیْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِکْرَ اللَّهِ أُولئِکَ حِزْبُ الشَّیْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّیْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ

«استحوذ» من مادّة (حوذ) علی وزن (موز) فی الأصل بمعنی الجزء الخلفی لفخذ البعیر، و لأنّ أصحاب الإبل عند ما یسوقون جمالهم یضربونها علی أفخاذها، فقد جاء هذا المصطلح بمعنی التسلّط أو السوق بسرعة.

نعم، إنّ المنافقین المغرورین بأموالهم و مقامهم، لیس لهم مصیر سوی أن یکونوا تحت سیطرة الشیطان و إختیاره و وساوسه بصورة تامّة، و ینسون اللّه بصورة کلیّة، إنّهم لیسوا منحرفین فحسب، بل إنّهم فی زمرة الشیطان و هم أنصاره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۴

و حزبه و جیشه فی إضلال الآخرین.

یقول الإمام علی علیه السّلام فی بدایة وقوع الفتن و الخلافات «أیّها الناس، إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، و أحکام تبتدع، یخالف فیها کتاب اللّه، یتولّی فیها رجال رجالا، فلو أنّ الباطل خلص لم یخف علی ذی حجی، و لو أنّ الحقّ خلص لم یکن اختلاف، و لکن یؤخذ من هذا ضغث، و من هذا ضغث فیمزجان فیجیئان معا، فهنالک استحوذ الشیطان علی أولیائه، و نجا الذین سبقت لهم من اللّه الحسنی»[۱۷۸].

کما یلاحظ نفس هذا التعبیر

فی کلام الإمام الحسین علیه السّلام عند ما شاهد صفوف أهل الکوفة بکربلاء کاللیل المظلم و السیل العارم أمامه، حیث قال: «فنعم الربّ ربّنا و بئس العباد، أنتم أقررتم بالطاعة و آمنتم بالرّسول محمّد ثمّ أنّکم رجعتم إلی ذرّیته و عترته تریدون قتلهم، لقد استحوذ علیکم الشیطان فأنساکم ذکر اللّه العظیم ثمّ أضاف علیه السّلام: فتبّا الموت لکم و لما تریدون، إنّا للّه و إنّا إلیه راجعون»[۱۷۹].

و سنتطرّق إلی بحث تفصیلی حول حزب الشیطان و حزب اللّه، فی نهایة الآیات اللاحقة إن شاء اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۵

الآیات [سورة المجادلة (۵۸): الآیات ۲۰ الی ۲۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ یُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِکَ فِی الْأَذَلِّینَ (۲۰) کَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی إِنَّ اللَّهَ قَوِیٌّ عَزِیزٌ (۲۱) لا تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ أُولئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ یُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِکَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۲۲)

التّفسیر

حزب اللّه .. و النصر الدائم!!

کان الحدیث عن المنافقین و أعداء اللّه و بیان بعض صفاتهم و خصائصهم فی الآیات السابقة، و استمرارا لنفس البحث- فی هذه الآیات التی هی آخر آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۶

سورة المجادلة- تطرح خصوصیات اخری لهم، و یتّضح المصیر الحتمی لهم حیث الموت و الانحدار، یقول تعالی فی البدایة: إِنَّ الَّذِینَ یُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِکَ فِی الْأَذَلِّینَ أی أذلّ الخلائق ۱۸۰].

و الآیة اللاحقة فی الحقیقة دلیل علی هذا المعنی حیث یقول سبحانه: کَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی إِنَّ اللَّهَ قَوِیٌّ عَزِیزٌ.

و بنفس القدر الذی یکون فیه اللّه قویّا عزیزا فإنّ أعداءه یکونون ضعفاء أذلّاء، و هذا بنفسه بمثابة الدلیل علی ما ورد فی الآیة السابقة من وصف الأعداء بأنّهم فِی الْأَذَلِّینَ

و التعبیر ب (کتب) یعنی التأکید علی أنّ الإنتصار قطعی.

و جملة «لأغلبنّ» مع (لام التأکید) و (نون التوکید الثقلیة)، هی دلالة تأکید هذا النصر بصورة لا یکون معه أی مجال للشکّ و الریبة.

و هذا التشبیه هو نفس الذی ورد فی قوله تعالی: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِینَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ ۱۸۱].

و لقد اتّضح علی مرّ العصور هذا الإنتصار للمرسلین الإلهیین فی أوجه مختلفة، سواء فی أنواع العذاب الذی أصاب أعداءهم و صوره المختلفة کطوفان نوح و صاعقة عاد و ثمود و الزلازل المدمّرة لقوم لوط و ما إلی ذلک، و کذلک فی الانتصارات فی الحروب المختلفة کغزوات بدر و حنین و فتح مکّة، و سائر غزوات رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و أهمّ من ذلک کلّه انتصارهم الفکری و المنطقی علی أفکار الشیطان و أعداء الحقّ و العدالة، و من هنا یتّضح الجواب علی تساؤل من یقول: إذا کانت هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۷

الوعود قطعیّة فلما ذا استشهد الکثیر من الرسل الإلهیین و الأئمّة المعصومین و المؤمنین الحقیقیین دون تحقیق النصر؟

هؤلاء المنتقدین و المتسائین لم یشخّصوا فی الحقیقة معنی الإنتصار بصورة صحیحة، فمثلا هل یمکن أن نتصوّر أنّ الإمام الحسین علیه السّلام قد اندحر لأنّه استشهد فی کربلاء هو و أصحابه، فی حین نعلم جیّدا بأنّه علیه السّلام قد حقّق هدفه النهائی فی فضح بنی امیّة، و بنی صرح العقیدة و الحریة، و أعطی الدروس لکلّ أحرار العالم، و إنّه یعتبر الآن زعیم أحرار عالم الإنسانیة و سیّد شهداء الدنیا، بالإضافة إلی انتصار خطّه الفکری و منهجه بین أوساط مجموعة عظیمة من الناس؟[۱۸۲].

و الجدیر بالذکر أنّ هذا الإنتصار القطعی ثابت وفقا للوعد الإلهی بالنصر للسائرین علی خطّ الأنبیاء و الرسالة، و هذا یعنی انتصار مضمون و أکید من قبل اللّه تعالی، کما فی قوله عزّ و جلّ: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ[۱۸۳].

و من الطبیعی أنّ کلّ من یطلب العون من اللّه فإنّ اللّه سوف ینصره، إلّا أنّه یجب ألّا ننسی أنّ هذا الوعد الحقیقی للّه سبحانه لن یکون بدون قید أو شرط، حیث أنّ شرطه الإیمان و آثاره، شرطه ألّا یجد الضعف طریقه إلی نفوسنا، و لا نخاف و لا نحزن من المصائب، و نجسّد قوله تعالی: وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ ۱۸۴].

و الشرط الآخر أن نبدأ التغییر من داخل نفوسنا، لأنّ اللّه تعالی لا یغیّر ما بقوم حتّی یغیّروا ما بأنفسهم قال تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۸

ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلی قَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ۱۸۵].

کما یجب أن نوثّق علاقتنا بالسلسلة المرتبطة بالخطّ الإلهی و نوحّد صفوفنا، و نجنّد قوانا و نخلص نیّاتنا، و نکون مطمئنّین بأنّ کلّما کان العدو قویّا، و کنّا قلیلی العدّة و العدد .. فإنّنا سننتصر بالجهاد و السعی و التوکّل علی اللّه تعالی.

و ذکر بعض المفسّرین أنّ سبب نزول الآیة أعلاه أنّ قسما من المسلمین تنبّأوا أنّ اللّه سیفتح لهم أرض الروم و فارس، بعد ما شاهدوا بعض قری الحجاز، إلّا أنّ المنافقین و المرجفین قالوا لهم: أ تتصوّرون أنّ فارس و الروم کقری الحجاز، و أنّ بإمکانهم فتحها، عند

ذلک نزلت الآیة أعلاه و وعدتهم بالنصر.

آخر آیـة مورد البحث- و التی هی آخر آیة من سورة المجادلة- تعدّ من أقوی الآیات القرآنیة التی تحذّر المؤمنین من إمکانیة الجمع بین حبّ اللّه و حبّ أعدائه، إذ لا بدّ من إختیار طریق واحد لا غیر، و إذا ما کانوا حقّا مؤمنین صادقین فعلیهم اجتناب حبّ أعداء اللّه، یقول تعالی: لا تَجِدُ قَوْماً یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ یُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ کانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِیرَتَهُمْ نعم، لا- یجتمع حبّ-ان متضـادّان فی قلب واحـد، و الـذین یـدّعون إمکانیـة الجمع بین الإ-ثنین، فإنّهم إمّا ضـعفاء الإیمان أو منافقون، و لذلک نلاحظ فی الغزوات الإسـلامیة أنّ جمعا من أقرباء المسـلمین کانوا فی صفّ المخالفین و الأعداء، و مع ذلک قاتلهم المسلمون حتّی قتلوا قسما منهم.

إنّ حبّ الآباء و الأبناء و الاخوان و العشـیرة شـیء ممدوح، و دلیل علی عمق العواطف الإنسانیة، إلّا أنّ هذه المحبّة حینما تکون بعیدة عن حبّ اللّه فإنّها ستفقد خاصیّتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۹

و طبیعی أنّ من یتعلّق بهم الإنسان لیس مختصا بالأقسام الأربعـة التی استعرضـتها الآیـة الکریمة، و لکن هؤلاء أقرب عاطفیا من غیرهم للإنسان، و بملاحظة الموقف من هؤلاء سیتّضح الموقف من الآخرین.

و لذلک لم یأت الحدیث عن الزوجات و الأموال و التجارة و الممتلکات، فی حین أنّ ذلک قد لوحظ فی الآیة (۲۴) من سورة التوبة، حیث یقول سبحانه: قُلْ إِنْ کانَ آباؤُکُمْ وَ أَبْناؤُکُمْ وَ إِخْوانُکُمْ وَ أَزْواجُکُمْ وَ عَشِیرَتُکُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ کَسادَها وَ مَساکِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَیْکُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِی سَبِیلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ

و السـبب الآخر فی عـدم ذکر المتعلّقات الاخری بالإنسان فی الآیـة مورد البحث، هو ما ورد فی سـبب نزول الآیـة الکریمـة و التی من جملتهـا أنّ «حـاطب بن أبی بلتعـة» کتب رسالـة إلی أهـل مکّة ینـذرهم بقـدوم رسول اللّه إلیهم، و لمّا انکشـفت الوشایـة و عرف أنّ حاطب بن أبی بلتعة وراء هذا الأمر، اعتذر قائلا: «أهلی بمکّة أحببت أن یحوطوهم بید تکون لی عندهم»[۱۸۶].

و قیل: إنّ هـذه الآیة قد نزلت بشأن «عبد اللّه بن أبی»، الذی کان له ولد مؤمن أراد الخیر لأبیه، حیث رأی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم یوما یشرب الماء، فطلب من رسول اللّه سؤره المتبقّی فی الإناء لیعطیه لأبیه، عسی أن یطهّر قلبه، إلّا أنّ الأب امتنع من شربه و تجاسـر علی رسول اللّه. عنـد ذلـک جـاء الولـد یطلب من رسول اللّه الإـذن فی قتل أبیه، فلم یسـمح له صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بذلک و قال: «بل ترفّق به» یداریه، (و أن یتبرّأ من أعماله فی قلبه).

ثمّ یتطرّق القرآن الکریم إلی الجزاء العظیم لهذه المجموعة التی سـخّرت قلوبها لعشق اللّه تعالی، حیث یسـتعرض خمسة من أوصافهم و التی یمثّل بعضها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۰

مددا و توفیقا من اللّه تعالی، و الآخر نتیجة العمل الخالص له سبحانه ...

و فی بیان القسم الأوّل و الثانی یقول تعالی: أُولئِکَ کَتَبَ فِی قُلُوبِهِمُ الْإِیمانَ وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ

و من الطبیعی أنّ هـذا الإمـداد و اللطف الإلهی لا یتنافی أبـدا مع أصل حریـة الإرادة و إختیار الإنسان، لأنّ الخطوات الاولی فی ترک أعداء اللّه قد قرّرها المؤمنون ابتداء، ثمّ جاء الإمداد الإلهی بصورة استقرار الإیمان حیث عبّر عنه ب (کتب).

هل هذه الروح الإلهیة التی یؤیّد اللّه سـبحانه المؤمنین بها هی تقویة الاسـس الإیمانیة، أو أنّها الدلائل العقلیة، أو القرآن، أو أنّها ملک إلهی عظیم یسمّی بالرّوح؟

ذکرت لذلک احتمالات و تفاسیر مختلفة، إلّا أنّه یمکن الجمع بینهما، و خلاصة الأمر أنّ هذه الروح نوع من الحیاة المعنویة الجدیدة التی أفاضها اللّه تعالی علی المؤمنین.

و یقول تعالی فی ثالث مرحلة: وَ یُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها.

و یضیف فی رابع مرحلة لهم: رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ

إنّ أعظم ثواب معنوی و جزاء روحانی لأصحاب الجنّة فی مقابل النعم المادیّة العظیمة فی القیامة من جنان و حور و قصور هو شعورهم و إحساسهم أنّ اللّه راض عنهم و أنّ رضی مولاهم و معبودهم یعنی أنّهم مقبولون عنده، و فی کنف حمایته و أمنه، حیث یجلسهم علی بساط قربه، و هذا أعظم إحساس ینتابهم، و نتیجته رضاهم الکامل عن اللّه سبحانه.

نعم، لا تصل أی نعمة إلی هذا الرضا ذی الجانبین المادّی و المعنوی، و الذی هو مفتاح للهبات و العطایا الإلهیة الاخری، لأنّه سبحانه عند ما یرضی. عن عبد فإنّه یعطیه ما یطلب منه، فهو القادر و الکریم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۱

و ما أروع التعبیر القرآنی: رَضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أی أنّ مقامهم رفیع إلی درجة بحیث أنّ أسماءهم تکون مقترنة باسمه، و رضاهم إلی جانب رضاه تعالی.

و فی آخر مرحلة یضیف تعالی بصورة إخبار عام یحکی عن نعم و هبات اخری حیث یقول: أُولئِکَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

و لیس المقصود بالفلاح هنا ما یکون فی عالم الآخرة و نیل النعم المادیة و المعنویة فی یوم القیامة فحسب، بل کما جاء فی الآیات السابقة أنّ اللّه تعالی ینصرهم بلطفه فی هذه الدنیا أیضا علی أعدائهم و ستکون بأیدیهم حکومة الحقّ و العدل التی تستوعب هذا العالم أخیرا

بحثان

۱- العلامة الفارقة بین حزب اللّه و حزب الشیطان

أشیر فی القرآن الکریم إلی حزب اللّه بآیتین، الآیة مورد البحث، و الآیة (۵۶) من سورة المائدة، و قد أشار فی آیة واحدة إلی حزب الشیطان، و فی کلا الآیتین التی تحدّث فیهما عن حزب اللّه، أکّد علی مسألة «الحبّ فی اللّه و البغض فی اللّه» و موالاة أهل الحقّ.

ففی آیة سورة المائدة و بعد بیان مسألة الولایة و الحکم و وجوب طاعة اللّه و طاعة الرّسول، و طاعة الذین أعطوا الزکاة فی صلاة (الإمام علی علیه السّلام) یقول سبحانه: وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ

و فی الآیات مورد البحث- أیضا- أکّد سبحانه علی قطع (الودّ) مع أعداء اللّه، و بناء علی هذا فإنّ خطّ «حزب اللّه» هو خطّ الولایة نفسه، و البراءة من غیر اللّه و رسوله و أوصیائه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۲

و فی المقابل عند ما یصف «حزب الشیطان» الذی أشیر إلیه فی الآیات الآنفة الذکر من هذه السورة، فإنّ أهمّ میزة لهم هی النفاق و عداء الحقّ و الکذب و المکر، و نسیان ذکر اللّه.

و النقطة الجدیرة بالذکر هنا قوله سبحانه: فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ و فی مورد آخر یقول سبحانه: أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و بالنظر إلی أنّ الفلاح یقترن دائما مع النصر و الغلبة، لذا فإنّ معنی الآیتین واحد مع وجود قید، هو أنّ للفلاح مفهوما أعمق من مفهوم الغلبة، لأنّه یشخّص مسألة الوصول إلی الهدف أیضا.

علی عکس حزب الشیطان، حیث وصفهم سبحانه بالهزیمة و الخیبة و عدم الموفّقیة فی برامجهم و التخلّف عن أهدافهم.

إنّ مسألـة الولایـة بـالمعنی الخـاصّ، و مسألـة الحبّ فی اللّه و البغض فی اللّه بـالمعنی العامّ، ورد التأکیـد علیهما فی کثیر من الروایات الإسـلامیة حتّی أنّ الصـحابی الجلیل سلمان الفارسی قال لأمیر المؤمنین علیه السّلام: یا أبا الحسن، ما اطلعت علی رسول اللّه إلّا ضرب بین کتفی، و قال یا سلمان «هذا- و أشار إلی الإمام علی- و حزبه هم المفلحون»[۱۸۷].

وحول المورد الثانی- یعنی الولایهٔ نقرأ

فی حدیث عن الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ودّ المؤمن للمؤمن فی اللّه من أعظم شعب الإیمان»[۱۸۸].

و

جاء فی حـدیث آخر أنّه: «قال اللّه تعالی لموسـی: هل علمت فیّ عملا قطّ، قال: صـلّیت لک، و صـمت و تصـدّقت، و ذکرت للّه. قال اللّه تبارک و تعالی: و أمّا الصـلاهٔ فلک برهان، و الصوم جنّـهٔ، و الصدقـهٔ ظلّ و الزکاهٔ و الـذکر نور، فأی عمل عملت لی؟ قال موسـی علیه السّلام: دلّنی علی العمل الذی هو لک. قال یا موسی: هل

والیت لیّ ولیّا؟ و هل عادیت لی عدوّا قطّ، فعلم موسی أنّ أفضل الأعمال الحبّ فی اللّه و البغض فی اللّه»[۱۸۹].

و

جاء فی حـدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّـلام: «لا یمحّض رجل الإیمان فی اللّه حتّی یکون اللّه أحبّ إلیه من نفسه و أبیه و امّه و ولده و أهله و ماله و من الناس کلّهم»[۱۹۰].

کمـا توجـد روایـات کثیرهٔ حول هـذا الموضوع فی جانبه الإیجابی (حبّ أولیاء اللّه) و کـذلک الجانب السـلبی (البغض لأولیاء اللّه) و یطول بنا ذکرها هنا، و من المناسب أن ننهی الحدیث عنها

بحـدیث عن الإمام الصادق علیه السّـلام حیث یقول: «إذا أردت أن تعلم انّ فیک خیرا فانظر إلی قلبک، فإن کان یحبّ أهل طاعهٔ اللّه عزّ و جلّ و یبغض أهل معصیته، ففیک خیر و اللّه یحبّک، و إن کان یبغض أهل طاعهٔ اللّه و یحبّ أهل معصیته فلیس فیک خیر و اللّه یبغضک، و المرء مع من أحبّ»[۱۹۱].

۲- جزاء الحبّ فی اللّه و البغض فی اللّه

رأینـا فی الآیات أعلاه أنّ اللّه تعالی یثیب الأشـخاص الـذین یجعلون أساس کلّ علاقـهٔ و ودّ هو الحبّ المرتبط باللّه، و من هنا یحبّون أحبّاء اللّه و یعادون أعداءه، و هذا الجزاء العظیم یکون علی خمسهٔ أنواع، ثلاثهٔ فی الدنیا، و اثنان فی یوم القیامهٔ.

و أوّل هذه النعم فی عالم الدنیا هو اسـتقرار و ثبات إیمانهم، حیث یجعل الإیمان فی قلوبهم بحیث لا تستطیع الحوادث و الأعاصیر أن تؤثّر علیه، و مضافا إلی ذلک فإنّ اللّه تعالی یؤیّدهم و یقوّیهم بروحیهٔ متسامیهٔ، و فی المرحلهٔ الثالثهٔ

یجعلهم فی حزبه و ینصرهم علی أعدائه.

کما یمنحهم فی الآخرهٔ جنّهٔ خالدهٔ مع جمیع نعمها، و بالإضافهٔ إلی ذلک فإنّه یعلن عن رضاه المطلق عنهم.

و

جاء فی حـدیث للإمام الصادق علیه السّـلام بهـذا الصـدد: «ما من مؤمن إلّا و لقلبه أذنان فی جوفه، اذن ینفذ فیها الوساوس الخنّاس، و اذن ینفذ فیها الملک، فیؤیّد اللّه المؤمن بالملک فذلک قوله: وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [۱۹۲].

و

فی حـدیث آخر عن الإمـام الباقر علیه السّـلام فی تفسـیره لکلام الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم حیث قال: «إذا زنی الرجل فارقه روح الإیمان» قال علیه السّلام: «هذه روح الإیمان التی ذکرها اللّه فی کتابه حیث یقول: وَ أَیَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [۱۹۳].

و یتّضـح من الأحادیث أعلاه سـعهٔ معنی «روح الإیمان» و شـمولها للملک و المرتبـهٔ العالیهٔ للروح الإنسانیهٔ، و فی الضـمن توضّح هذه الحقیقـهٔ و هی أنّ وجود هـذه المرحلـهٔ من الإیمان للإنسان یمنعه من التلوّث بالمعاصـی کالزنا و شـرب الخمر و أمثالها، حیث تصـبح لدیه حصانهٔ تمنعه من ذلک.

نهایهٔ سورهٔ المجادلهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۵

سورهٔ الحشر

اشارهٔ

مدنیّهٔ و عدد آیاتها أربع و عشرون آیهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۷

«سورهٔ الحشر»

محتوی السورهٔ:

تأخذ هذه السورهٔ بصورهٔ متمیّزهٔ قصّهٔ حرب المسـلمین مع بعض الیهود (یهود بنی النضیر) و التی انتهت بإخراجهم من المدینهٔ و تطهیر هذه المدینهٔ المقدّسهٔ منهم.

و هذه السورهٔ من السور المهمّهٔ و المثیرهٔ و الموقظهٔ فی القرآن الکریم، و لها انسـجام قریب جدّا مع الآیات الأخیرهٔ مع السورهٔ السابقهٔ، و التی وعدت «حزب اللّه» بالنصر. و النصر الوارد فی هذه السورهٔ یعدّ مصداقا بارزا لذلک النصر الموعود.

و یمکن تلخیص موضوعات هذه السورهٔ فی ستّهٔ أقسام هی:

الأوّل: من هـذه السورهٔ- الـذی هو آیـهٔ واحـدهٔ فقط- یعتبر مقدّمـهٔ للأبحاث المختلفـهٔ التی وردت فی هذه السورهٔ، فتتحدّث الآیهٔ عن تسبیح اللّه الحکیم العلیم من قبل الموجودات جمیعا.

الثّانی: الذی یبدأ من الآیهٔ الثانیهٔ إلی الآیهٔ العاشرهٔ، و الذی یشمل تسع آیات- فإنّه یوضّح قصّهٔ اشتباک المسلمین مع ناقضی العهد من یهود المدینهٔ.

الثّالث: و الذی یتکوّن من الآیهٔ الحادیهٔ عشـرهٔ إلی الآیهٔ السابعهٔ عشـر- و فیه یستعرض القرآن قصّهٔ منافقی المدینهٔ مع الیهود و التعاون بینهما.

الرّابع: الـذی یتجاوز بضع آیات- یشـمل مجموعـهٔ من التوجیهات و النصائـح العامّـهٔ لعموم المسـلمین، و هی تمثّل اسـتنتاجا للأحداث أعلاه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۸

الخامس: الذی یشـمل آیهٔ واحدهٔ فقط و هی الآیهٔ الحادیهٔ و العشرون- فهو عبارهٔ عن وصف بلیغ للقرآن الکریم و بیان أثره فی تطهیر الروح و النفس.

القسم الأخیر- الـذی هو آخر قسم من السورة، و یبـدأ من الآیـة الثانیة و العشـرین إلی الآیة الرابعة و العشـرین- فیتناول قسـما مهمّا من أوصاف جلال و جمال الـذات الإلهیـة المقدّسـة، و بعض أسـمائه الحسـنی، و هـذه الصـفات تکون عونا للإنسان فی طریق معرفـة اللّه سبحانه.

و بالضـمن فإنّ اسم هـذه السورة مأخوذ من الآیـة الثانیـة فیها، و التی تتحـدّث عن «الحشـر»، و الذی یعنی هنا تجمّع الیهود للرحیل عن المدینة، أو حشر المسلمین الیهود لطردهم منها، و من هنا یتّضح أنّ مقصود هذه الکلمة هنا لا یرتبط بیوم القیامة.

کما أطلق البعض علی هذه السورة اسم (سورة بنی النضیر) لأنّ قسما کبیرا من آیاتها تتحدّث عنهم.

و أخیرا فإنّ هذه السور هی إحدی (سور المسبّحات) و التی بدأت بتسبیح اللّه، و انتهت بتسبیح اللّه أیضا.

فضیلة تلاوة هذه السورة:

ذکرت لهذه السورة فضائل عدیدة منها:

ورد فی الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الحشر لم یبق جنّة و لا نار، و لا عرش و لا کرسی و لا حجاب، و لا السـماوات السبع و لا الأرضون السبع، و الهوام و الریاح و الطیر و الشجر و الدواب، و الشمس و القمر و الملائکة، إلّا صلّوا علیه، و استغفروا له، و إن مات من یومه أو لیلته مات شهیدا»[۱۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۹

کما نقرأ

فی حـدیث آخر عـن الإمـام الصـادق علیـه السّـلام: «مـن قرأ إذا أمسـی الرحمـن و الحشـر، وکّـل اللّه بـداره ملکـا شـاهرا سـیفه حتّی یصبح»[۱۹۵].

و ممّا لا شکّ فیه أنّ هذا من آثار التفکّر و التدبّر فی محتوی هذه السورة و عند قراءتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۰

الآیات [سورة الحشر (۵۹): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱) هُوَ الَّذِی أَخْرَجَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ مِنْ دِیارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ یَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ یُخْرِبُونَ بُیُوتَهُمْ بِأَیْدِیهِمْ وَ أَیْدِی الْمُؤْمِنِینَ فَاعْتَبِرُوا یا أُولِی الْأَبْصارِ (۲) وَ لَوْ لا أَنْ کَتَبَ اللَّهُ عَلَیْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِی الدُّنْیا وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (۳) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ یُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ (۴)

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِینَةٍ أَوْ تَرَکْتُمُوها قائِمَةً عَلی أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِیُخْزِیَ الْفاسِقِینَ (۵)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۱

سبب النّزول

ذکر المفسّرون و المحدّثون و المؤرّخون بصورة مفصّلة سبب نزول هذه الآیات، و خلاصة ما ذکروه هی ما یلی:

كان فى المدينة ثلاث قبائل من اليهود و هم: «بنو النضير»، و «بنو قريظة»، و «بنو قينقاع»، و يذكر أنّهم لم يكونوا من أهل الحجاز أصلا، و إنّما قدموا إليها و استقرّوا فيها، و ذلك لما قرءوه فى كتبهم العقائدية من قرب ظهور نبى فى أرض المدينة، حيث كانوا بانتظار هذا الظهور العظيم.

و عند ما هاجر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة عقد معهم حلفا بعدم تعرّض كلّ منهما للآخر، إلّا أنّهم كلّما وجدوا فرصة مناسبة لم يألوا جهدا فى نقض العهد.

و من جملة ذلك أنّهم نقضوا العهد بعد غزوة احد، التى وقعت فى السنة الثالثة للهجرة.

فقد ذهب «كعب بن الأشرف» زعيم قبيلة «بنى النضير» مع أربعين فارسا إلى مكّة، و هنالك عقد مع قريش حلفا لقتال محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و جاء أبو سفيان مع أربعين شخصا، و كعب بن الأشرف مع أربعين نفرا من اليهود، و دخلا معا إلى المسجد الحرام و وثقوا العهد فى حرم الكعبة، فعلم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك عن طريق الوحى.

و المؤامرة الاخرى هى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دخل يوما مع شيوخ الصحابة و كبارهم إلى حى بنى النضير، و ذلك بحجّة استقراض مبلغ من المال منهم كديّة لقتيلين من طائفة بنى عامر، قتلهما (عمرو بن اميّة) أحد المسلمين، و ربّما كان الهدف من ذلك هو معرفة أخبار اليهود عن قرب حتّى لا يباغت المسلمون بذلك.

فبينما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتحدّث مع كعب بن الأشرف إذ حيكت مؤامرة يهودية لاغتيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تنادى القوم: إنّكم لا تحصلون على هذا الرجل بمثل هذه الحالة و ها هو قد جلس بالقرب من حائطكم، فليذهب أحدكم إلى السطح و يرميه بحجر عظيم و يريحنا منه، فقام «عمرو بن جحاش» و أبدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۲

استعداده لتنفيذ الأمر، و ذهب إلى السطح لتنفيذ عمله الإجرامى، إلّا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علم عن طريق الوحى بذلك، فقفل راجعا إلى المدينة دون أن يتحدّث بحديث مع أصحابه، إلّا أنّ الصحابة تصوّروا أنّ الرّسول سيعود مرّة اخرى، و لمّا عرفوا فيما بعد أنّ الرّسول فى المدينة عاد الصحابة إليها أيضا.

و هنا أصبح من المسلّم لدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقض اليهود للعهد، فأعطى أمرا للاستعداد و التهيّؤ لقتالهم.

و جاء فى بعض الروايات أيضا أنّ أحد شعراء بنو النضير هجا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشعر يتضمّن مسّا بكرامة الرّسول و هذا دليل آخر لنقضهم العهد.

و بدأت خطّة المسلمين فى مواجهة اليهود و كانت الخطوة الاولى أن أمر رسول اللّه (محمّد بن سلمة) أن يقتل كعب بن الأشرف زعيم اليهود، إذ كانت له به معرفة، و قد نفّذ هذا العمل بعد مقدّمات و قتله.

إنّ قتل كعب بن الأشرف أوجد هزّة و تخلخلا فى صفوف اليهود، عند ذلك أعطى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمرا للمسلمين أن يتحرّكوا لقتال هذه الفئة الباغية الناقضة للعهد.

و عند ما علم اليهود بهذا لجأوا إلى قلاعهم المحكمة و حصونهم القويّة، و أحكموا الأبواب، إلّا أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر أن تقلع أشجار النخيل القريبة من القلاع.

لقد أنجز هذا العمل لأسباب عدّة: منها أنّ حبّ اليهود لأموالهم قد يخرجهم من قلاعهم بعد رؤية تلف ممتلكاتهم، و بالتالى يكون اشتباك المسلمين معهم مباشرة، كما يوجد احتمال آخر، و هو أنّ هذه الأشجار كانت تضايق المسلمين فى مناوراتهم مع اليهود قرب قلاعهم و كان لا بدّ من أن تقلع.

و على كلّ حال، فقد ارتفع صوت اليهود عند ما شعروا بالضيق، و هم محاصرون فى حصونهم .. فقالوا: يا محمّد، لقد كنت تنهى عن هذا، فما الذى حدا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۳

بک لتأمر قومک بقطع نخیلنا؟

فنزلت الآیة (۵) من الآیات محلّ البحث و بیّنت بأنّ هذا العمل هو أمر من اللّه عزّ و جلّ.

و استمرّت المحاصرة لعدّة أیّام، و منعا لسفک الدماء اقترح رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علیهم أن یترکوا دیارهم و أراضیهم و یرحلوا من المدینة، فوافقوا علی هذا و حملوا مقدارا من أموالهم تارکین القسم الآخر .. و استقرّ قسم منهم فی «أذرعات الشام»، و قلیل منهم فی «خیبر»، و جماعة ثالثة فی «الحیرة»، و ترکوا بقیّة أموالهم و أراضیهم و بساتینهم و بیوتهم بید المسلمین بعد أن قاموا بتخریب ما یمکن لدی خروجهم منها.

و قد حدثت هذه الحادثة بعد غزوة (احد) بستّة أشهر، إلّا أنّ آخرین قالوا:

إنّها وقعت بعد غزوة بدر بستّة أشهر[۱۹۶].

التّفسیر

نهایة مؤامرة یهود بنی النضیر:

بدأت هذه السورة بتنزیه و تسبیح اللّه و بیان عزّته و حکمته، یقول سبحانه:

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

و هذه فی الحقیقة مقدّمة لبیان قصّة یهود بنی النضیر، أولئک الذین انحرفوا عن طریق التوحید و معرفة اللّه و صفاته، و بالإضافة إلی کونهم مغرورین بإمکاناتهم و قدرتهم و عزّتهم و یتآمرون علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

التسبیح العامّ الوارد فی الآیة لجمیع موجودات الأرض و السماء، أعمّ من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۴

الملائکة و البشر و الحیوانات و النباتات و الجمادات یمکن أن یکون بلسان «القال» و یمکن أن یکون بلسان «حال» هذه المخلوقات حول دقّة النظام المثیر للعجب لها فی خلق کلّ ذرّة من ذرّات هذا الوجود، و هو التسلیم المطلق للّه سبحانه و الاعتراف بعلمه و قدرته و عظمته و حکمته.

و من جهة اخری فإنّ قسما من العلماء یعتقدون أنّ کلّ موجود فی العالم له نصیب و قدر من العقل و الإدراک و الشعور، بالرغم من أنّنا لم ندرکه و لم نطلع علیه، و بهذا الدلیل فإنّ هذه المخلوقات تسبّح بلسانها، بالرغم من أنّ آذاننا لیس لها القدرة علی سماعها، و العالم بأجمعه منشغل بحمد اللّه و تسبیحه و إن کنّا غیر مطّلعین علی ذلک.

الأولیاء الذین فتحت لهم عین الغیب یتبادلون أسرار الوجود مع کلّ موجودات العالم، و یسمعون نطق الماء و الطین بصورة واضحة، إذ أنّ هذا النطق محسوس من قبل أهل المعرفة. (و هناک شرح أکثر حول هذا الموضوع فی تفسیر الآیة ۴۴ من سورة الإسراء).

و بعد بیان المقدّمة أعلاه نستعرض أبعاد قصّة یهود بنی النضیر فی المدینة حیث یقول سبحانه: هُوَ الَّذِی أَخْرَجَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ مِنْ دِیارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ.

«حشر» فی الأصل تحریک جماعة و إخراجها من مقرّها إلی میدان حرب و ما إلی ذلک، و المقصود منه هنا اجتماع و حرکة المسلمین من المدینة إلی قلاع الیهود، أو اجتماع الیهود لمحاربة المسلمین، و لأنّ هذا أوّل اجتماع من نوعه فقد سمّی فی القرآن الکریم بأوّل الحشر، و هذه بحدّ ذاتها إشارة لطیفة إلی بدایة المواجهة المقبلة مع یهود بنی النضیر و یهود خیبر و أمثالهم.

و العجیب أنّ جمعا من المفسّرین ذکروا احتمالات للآیـة لا تتناسب أبدا مع محتواها، و من جملتها أنّ المقصود بالحشر الأوّل ما یقع مقابل حشر یوم القیامة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۵

و هو القیام من القبور إلی الحشر، و الأعجب من ذلک أنّ البعض أخذ هذه الآیة دلیلا علی أنّ حشر یوم القیامة یقع فی أرض الشام التی ابعد الیهود إلیها، و هذه الاحتمالات الضعیفة ربّما کان منشؤها من وجود کلمة «الحشر»، فی حین أنّ هذه الکلمة لم تکن تستعمل هذا بمعنی الحشر فی القیامة، بل تطلق علی کلّ اجتماع و خروج إلی میدان ما، قال تعالی: وَ حُشِرَ لِسُلَیْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّیْرِ[۱۹۷].

و کذلک ما ورد فی الاجتماع العظیم لمشاهدة المحاججة التی خاضها موسی علیه السّلام مع سحرة فرعون حیث یقول سبحانه: وَ أَنْ یُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًی ۱۹۸].

و یضیف الباریٔ عزّ و جلّ: ما ظَنَنْتُمْ أَنْ یَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ لقد کانوا مغرورین و راضین عن أنفسهم إلی حدّ أنّهم اعتمدوا علی حصونهم المنیعة، و قدرتهم المادیّة الظاهریة. إنّ التعبیر الذی ورد فی الآیة یوضّح لنا أنّ یهود بنی النضیر کانوا یتمتّعون بإمکانات واسعة و تجهیزات و عدد کثیرة فی المدینة، بحیث أنّهم لم یصدّقوا أنّهم سیغلبون بهذه السهولة، و ذلک ظنّ الآخرین أیضا.

و لأنّ اللّه سبحانه یرید أن یوضّح للجمیع أن لا قوّة فی الوجود تقاوم إرادته، فإنّ إخراج الیهود من أراضیهم و دیارهم بدون حرب، هو دلیل علی قدرته سبحانه، و تحدّ للیهود الذین ظنّوا أنّ حصونهم مانعتهم من اللّه.

و لذلک یضیف- استمرارا للبحث الذی ورد فی الآیة- قوله تعالی: فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ یُخْرِبُونَ بُیُوتَهُمْ بِأَیْدِیهِمْ وَ أَیْدِی الْمُؤْمِنِینَ نعم، إنّ هذا الجیش غیر المرئی هو جیش الخوف الذی یرسله اللّه تعالی فی کثیر من الحروب لمساعدة المؤمنین، و قد خیّم علی قلوبهم، و سلب منهم قدرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۶

الحرکة و المقاومة، لقد جهّزوا و هیّئوا أنفسهم لقتال المهاجرین و الأنصار غافلین عن إرادة اللّه تعالی، حیث یرسل لهم جیشا من داخلهم و یجعلهم فی مأزق حرج إلی حدّ ینهمکون فیه علی تخریب بیوتهم بأیدیهم و أیدی أعدائهم من المسلمین.

صحیح أنّ مقتل زعیمهم «کعب بن الأشرف»- قبل الهجوم علی قلاعهم و حصونهم- کان سببا فی إرباکهم و اضطراب صفوفهم، إلّا أنّ من الطبیعی أنّ مقصود الآیة غیر ما تصوّره بعض المفسّرین، فإنّ ما حدث کان نوعا من الإمداد الإلهی للمسلمین الذین حصل لهم مرّات عدیدة حین جهادهم ضدّ الکفّار و المشرکین.

و الطریف هنا أنّ المسلمین کانوا یخرّبون الحصون من الخارج لیدخلوا إلی عمق قلاعهم، و الیهود کانوا یخرّبونها من الداخل حتّی لا یقع شیء مفید منها بأیدی المسلمین، و نتیجة لهذا فقد عمّ الخراب التامّ جمیع قلاعهم و حصونهم.

و ذکرت لهذه الآیة تفاسیر اخری أیضا منها: أنّ الیهود کانوا یخربونها من الداخل لینهزموا، أمّا المسلمون فتخریبهم لها من الخارج لیظفروا بالیهود و یجهّزوا علیهم (إلّا أنّ هذا الاحتمال مستبعد).

أو یقال إنّ لهذه الآیة معنی کنائی، و ذلک کقولنا: إنّ الشخص الفلانی هدم بیته و حیاته بیده، یعنی أنّه بسبب جهله و تعنّته دمّر حیاته.

أو أنّ المقصود من تخریب الیهود لبعض البیوت، هو من أجل إغلاق الأزقّة الموجودة داخل القلاع و منع المسلمین من التقدّم و لکی لا یستطیعوا السکن فیها.

أو أنّهم هدموا قسما من البیوت داخل القلعة حتّی إذا ما تحوّلت الحرب إلی داخلها یکون هنا لک مکان کاف للمناورة و الحرب.

أو أنّ مواد بناء بعض البيوت كان ثمينا فخرّبوها لكى يحملوا ما هو مناسب منها، إلّا أنّ التّفسير الأوّل أنسب من الجميع.

و فى نهاية الآية- بعنوان استنتاج كلّى- يقول تعالى: فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۷

الْأَبْصارِ.

«اعتبروا» من مادّة (اعتبار) و فى الأصل مأخوذة من العبور، أى العبور من شىء إلى شىء آخر، و يقال لدمع العين «عبرة» بسبب عبور قطرات الدموع من العين، و كذلك يقال (عبارة) لهذا السبب، حيث أنّها تنقل المطالب و المفاهيم من شخص إلى آخر، و إطلاق «تعبير المنام» على تفسير محتواه، بسبب أنّه ينقل الإنسان من ظاهره إلى باطنه.

و بهذه المناسبة يقال للحوادث التى فيها دروس و عظات (عبر) لأنّها توضّح للإنسان سلسلة من التعاليم الكلية و تنقله من موضوع إلى آخر.

و التعبير ب «اولى الأبصار» إشارة إلى الأشخاص الذين يتعاملون مع الحوادث بعين واقعية و يتوغلون إلى أعماقها.

كلمة (بصر) تقال دائما للعين الباصرة، و «البصيرة» تقال للإدراك و الوعى الداخلى ۱۹۹].

و فى الحقيقة أنّ «أولى الأبصار» هم أشخاص لهم القابلية على الاستفادة من (العبر)، لذلك فإنّ القرآن الكريم يلفت نظرتهم للاستفادة من هذه الحادثة و الاتّعاظ بها.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ المقصود من الإعتبار هو مقايسة الحوادث المتشابهة من خلال إعمال العقل، كمقارنة حال الكفّار مع حال ناقضى العهد من يهود بنى النضير، إلّا أنّ هذه الجملة لا ترتبط أبدا ب «القياسات الظنّية» التى يستفيد منها البعض فى استنباط الأحكام الدينيّة.

و العجيب هنا أنّ بعض فقهاء أهل السنّة استفادوا من الآية أعلاه لإثبات هذا المقصود، بالرغم من أنّ البعض الآخر لم يرتضوا ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۸

و الخلاصة أنّ المقصود من العبرة و الإعتبار فى الآية أعلاه هو الانتقال المنطقى و القطعى من موضوع إلى آخر، و ليس العمل على أساس التصوّر و الخيال.

و على كلّ حال فإنّ مصير طائفة «بنى النضير» بتلك القدرة و العظمة و الشوكة، و بتلك الصورة من الاستحكامات القويّة، صار موضع (عبرة) حيث أنّهم استسلموا لجماعة من المسلمين لا تقارن قوّاتها بقوّاتهم، و بدون مواجهة مسلّحة، بحيث كانوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم و تركوا بقيّة أموالهم للمسلمين المحتاجين، و تفرّقوا فى بقاع عديدة من العالم، فى حين أنّ اليهود سكنوا فى المدينة من أجل أن يدركوا النبى الموعود الذى ورد فى كتبهم، و يكونوا فى الصفّ الأوّل من أعوانه كما ذكر المؤرّخون ذلك.

و بهذا الصدد نقرأ حديثا

ورد عن الإمام الصادق حيث يقول: «كان أكثر عبادة أبى ذرّ رحمه اللّه التفكّر و الإعتبار»[۲۰۰].

و مع الأسف فإنّ كثير من الناس يفضّلون تجربة الشدائد و المحن و المصائب بأنفسهم و يذوقوا مرارة الخسائر شخصيّا، و لا يعتبرون و لا يتّعظون بوضع الآخرين و ما يواجهونه فى أمثال هذه الموارد، و

يقول الإمام على عليه السّلام «السعيد من وعظ بغيره»[۲۰۱].

و تضيف الآية اللاحقة وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا.

و بدون شكّ فإنّ الجلاء عن الوطن و ترك قسم كبير من رؤوس الأموال التى جهدوا جهدا بليغا فى الحصول عليها، هو بحدّ ذاته أمر مؤلم لهم، و بناء على هذا فإنّ مراد الآية أعلاه أنّه لو لم يحلّ بهم هذا العذاب، فإنّ بانتظار هم عذابا آخر هو القتل أو الأسر بيد المسلمين ... إلّا أنّ اللّه سبحانه أراد لهم التيه فى الأرض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۹

و التشرّد فی العالم، لأنّ هذا أشدّ ألما و أسی علی نفوسهم، إذ کلّما تذکّروا أرضهم و دیارهم و مزارعهم و بساتینهم التی أصبحت بید المسلمین. و کیف أنّهم شردوا منها بسبب نقضهم العهد و مؤامراتهم ضدّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فإنّ ألمهم و حزنهم و متاعبهم تضاعف و خاصّة علی المستوی النفسی.

نعم، إنّ اللّه أراد لهذه الطائفة المغرورة و الخائنة، أن تبتلی بمثل هذا المصیر البائس.

و کان هذا عذابا دنیویا لهم، إلّا أنّ لهم جولة اخری مع عذاب أشدّ و أخزی، ذلک هو عذاب الآخرة، حیث یضیف سبحانه فی نهایة الآیة وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ.

هذه عاقبتهم فی الدنیا و الآخرة، و هی درس بلیغ لکلّ من أعرض عن الحقّ و العدل و رکب هواه، و غرّته الدنیا و أعماه حبّ ذاته.

و بما أنّ ذکر هذه الحادثة مضافا إلی تجسید قدرة اللّه و صدق الدعوة المحمّدیة، فهی فی نفس الوقت تمثّل إنذارا و تنبیها لکلّ من یروم القیام بأعمال مماثلة لفعل بنی النضیر، لذا ففی الآیة اللاحقة یرشدنا سبحانه إلی هذا المعنی:

ذلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ یُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ ۲۰۲].

«شاقّوا» من مادّة (شقاق) و هی فی الأصل بمعنی الشقّ و الفصل بین شیئین، و بما أنّ العدو یکون دائما فی الطرف المقابل، فإنّ کلمة (شقاق) تطلق علی هذا العمل.

و جاء مضمون هذه الآیة باختلاف جزئی جدّا فی سورة الأنفال الآیة ۱۳، و ذلک بعد غزوة بدر و انکسار شوکة المشرکین، و التی تبیّن عمومیة محتواها من کلّ جهة، فی قوله تعالی: ذلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ، وَ مَنْ یُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۰

و الشیء الجدیر بالملاحظة أنّ بدایة الآیة الکریمة طرحت مسألة العداء للّه و رسوله، إلّا أنّ الحدیث فی ذیل الآیة اقتصر عن العداء للّه سبحانه فقط، و هو إشارة إلی أنّ العداء لرسول اللّه هو عداء للّه أیضا.

و التعبیر ب شَدِیدُ الْعِقابِ لا یتنافی مع کون اللّه «أرحم الراحمین» لأنّه فی موضع العفو و الرحمة فاللّه أرحم الراحمین، و فی موضع العقاب و العذاب فإنّ اللّه هو أشدّ المعاقبین، کما

جاء ذلک فی الدعاء: «و أیقنت أنّک أرحم الراحمین فی موضع العفو و الرحمة، و أشدّ المعاقبین فی موضع النکال و النقمة»[۲۰۳].

و فی الآیة الأخیرة من الآیات مورد البحث نلاحظ جوابا علی اعتراض یهود بنی النضیر علی قطع المسلمین لنخیلهم- کما ورد فی شأن النزول- بأمر من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لتهیئة ظروف أفضل لقتال بنی النضیر أو لزیادة حزنهم و ألمهم، فیضطرّوا للنزول من قلاعهم و منازلة المسلمین خارج القلعة .. و قد أثار هذا العمل غضب الیهود و حنقهم، فقالوا: یا محمّد، ألم تکن الناهی عن مثل هذه الأعمال؟

فنزلت الآیة الکریمة مبیّنة لهم أنّ ذلک من أمر اللّه سبحانه حیث یقول الباری:

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِینَةٍ أَوْ تَرَکْتُمُوها قائِمَةً عَلی أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ ۲۰۴] وَ لِیُخْزِیَ الْفاسِقِینَ

«لینة» من مادّة (لون) تقال لنوع جیّد من النخل، و قال آخرون: إنّها من مادّة (لین) بمعنی اللیونة التی تطلق علی نوع من النخل، و التی لها أغصان لیّنة قریبة من الأرض و ثمارها لیّنة و لذیذة.

و تفسّر (لیّنة) أحیانا بألوان و أنواع مختلفة من شجر النخیل، أو النخل الکریم، و التی جمیعها ترجع إلی شیء واحد تقریبا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۱

و علی کلّ حال فإنّ قسما من المسلمین أقدموا علی قطع بعض نخیل بنی النضیر، فی الوقت الذی خالف البعض الآخر ذلک، و هنا نزلت الآیة أعلاه و فصلت نزاعهم فی هذا الموضوع ۲۰۵].

و قال البعض الآخر: إنّ الآیة دالّة علی عمل شخصین من الصحابة، و قد کان أحدهم یقوم بقطع الجیّد من شجر النخل لیغضب الیهود و یخرجهم من قلاعهم، و الآخر یقوم بقطع الردیء من الأشجار کی یبقی ما هو جیّد و مفید، و حصل خلاف بینهم فی ذلک، فنزلت الآیة حیث أخبرت أنّ عملهما بإذن اللّه ۲۰۶].

و لکن ظاهر الآیة یدلّ علی أنّ المسلمین قطعوا بعض نخل (اللینة) و هی نوع جیّد من النخل، و ترکوا قسما آخر، ممّا أثار هذا العمل الیهود، فأجابهم القرآن الکریم بأنّ هذا العمل لم یکن عن هوی نفس، بل عن أمر إلهی صدر فی هذا المجال، و فی دائرة محدودة لکی لا تکون الخسائر فادحة.

و علی کلّ حال فإنّ هذا العمل کان استثناء من الأحکام الإسلامیة الأوّلیة التی تنهی عن قطع الأشجار و قتل الحیوانات و تدمیر و حرق المزارع .. و العمل أعلاه کان مرتبطا بمورد معیّن حیث أرید إخراج العدو من القلعة و جرّه إلی موقع أنسب للقتال و ما إلی ذلک- و عادة توجد استثناءات جزئیّة فی کلّ قانون، کما فی جواز أکل لحم المیّت عند الضرورة القصوی و الإجبار.

جملة وَ لِیُخْزِیَ الْفاسِقِینَ ترینا علی الأقل أنّ أحد أهداف هذا العمل هو خزی ناقضی العهد هؤلاء، و کسر لشوکتهم و تمزیق لروحیّتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۲

بحثان

۱- الجیوش الإلهیّة اللامرئیّة:

فی الوقت الذی تعتبر القوی المادیّة أکبر سلاح لتحقیق الإنتصار من وجهة نظر المادیین، فإنّ اعتماد المؤمنین یتمرکز حول محورین (القیم المعنویة و الإمکانات المادیة) و الذی قرأنا نموذجا منه فی قصّة اندحار بنی النضیر کما بیّنت ذلک الآیات السابقة.

و نقرأ فی هذه الآیة أحد العوامل المؤثّرة فی هذا الإنتصار حیث ألقی اللّه سبحانه الرعب فی قلوب الیهود، بحیث أخذوا یخرّبون بیوتهم بأیدیهم، و تخلّوا عن دیارهم و أموالهم مقابل السماح لهم بالخروج من المدینة.

و قد ورد هذا المعنی بصورة متکرّرة فی القرآن الکریم، منها ما ورد فی قصّة اخری حول قسم آخر من الیهود و هم (بنو قریظة). حیث اشتبکوا اشتباکا شدیدا مع المسلمین بعد غزوة الأحزاب، و فی هذا المعنی یقول سبحانه: وَ أَنْزَلَ الَّذِینَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ مِنْ صَیاصِیهِمْ وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِیقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِیقاً.

و جاء هذا المعنی فی غزوة بدر حیث یقول تعالی: سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِینَ کَفَرُوا الرُّعْبَ

و بعض هذا الخوف الذی هو عبارة عن جیش إلهی غیر مرئی یکاد یکون أمرا طبیعیّا، و لکن بعضه یمثّل سرّا من الأسرار غیر الواضحة لنا، أمّا الطبیعی منه فانّ المؤمنین یرون أنفسهم منتصرین سواء قتل أو تغلّب علی العدوّ. و الشخص الذی یؤمن بهذا الإعتقاد لا یجد الخوف طریقا إلیه، و مثل هذا الإنسان سیکون أعجوبة فی صموده و ثباته کما یکون- أیضا- مصدر خوف و قلق لأعدائه، و الذی نلاحظه فی عالم الیوم أنّ بلدانا عدیدة تملک قدرات هائلة من الإمکانات العسکریة المتطورة و المادیة الکبیرة، تخشی من ثلّة من المؤمنین الصادقین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۳

الذائدین عن الحقّ، و یحاولون دائما تحاشی مواجهتهم.

و

فی حدیث حول هذا المعنی یقول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «نصرت بالرعب مسیرة شهر»[۲۰۷].

یعنی أنّ الرعب لم یصب الأعداء فی خطّ المواجهة فحسب، بل أصاب من کان من الأعداء علی مسافة شهر واحد من جیش الإسلام.

و حول جیوش الإمام المهدی علیه السّلام نقرأ أنّ ثلاثة جیوش تحت أمره و هم:

(الملائکة، و المؤمنون، و الرعب)[۲۰۸].

و فی الحقیقة، إنّ الأعداء یبدلّون کافّة إمکاناتهم لتجنّب الضربة من الخارج، إلّا أنّهم غفلوا عن أنّ اللّه سبحانه یهزمهم داخلیّا، حیث أنّ الضربة الداخلیة أوجع للنفس، و لا یمکن تدارکها بسهولة، حتّی لو وضعت تحت تصرّفهم کلّ الأسلحة و الجیوش، فإنّها غیر قادرة علی أن تحقّق النصر مع فقدان المعنویة العالیة و الروحیة المؤهّلة لخوض القتال، و بالتالی فإنّ الفشل و الخسران أمر متوقّع جدّا لأمثال هؤلاء.

۲- مؤامرات الیهود المعاصرة

إنّ التاریخ الإسلامی اقترن منذ البدایة بمؤامرات الیهود، ففی کثیر من الحوادث الألیمة و الفجائع الدامیة تری أصابعهم مشهودة بشکل مباشر أو غیر مباشر. و العجیب أنّ هؤلاء نزحوا إلی دیار الحجاز طمعا فی أن یکونوا فی الصفّ الأوّل من أصحاب النبی الموعود إلّا أنّهم بعد ظهوره أصبحوا من ألدّ أعدائه.

و عند ما نستقرئ حالتهم المعاصرة فإنّنا نلاحظ أیضا أنّهم متورّطون فی أغلب المؤامرات المدبّرة ضدّ الإسلام، و یتجسّد موقفهم هذا فی داخل الأحداث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۴

تارة و من خارجها اخری، و فی الحقیقة فإنّ هذا هو موضع تأمّل و اعتبار لمن کان له قلب و بصیرة.

و الطریق الوحید لکسر شوکتهم کما یؤکّده تاریخ صدر الإسلام، هو التعامل الحدّی و الجدّی معهم، خصوصا مع الصهاینة الذین لا یتعاملون بمبادئ العدل و الحقّ أبدا، بل منطقهم القوّة، و بغیرها لا- یمکن التفاهم معهم، و مع هذا فإنّ خوفهم الحقیقی هو من المؤمنین الصادقین.

و إذا کان المسلمون المعاصرون مسلّحین بالإیمان و الاستقامة المبدئیة- کأصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- فإنّ الرعب سیستحوذ علی قلوب الیهود و نفوسهم، و بالإمکان عندئذ إخراجهم من الأرض الإسلامیة التی اغتصبوها بهذا الجیش الإلهی.

و هذا درس علّمنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إیّاه قبل أربعة عشر قرنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۵

الآیتان [سورة الحشر (۵۹): الآیات ۶ الی ۷]

اشارة

وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلی رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَیْهِ مِنْ خَیْلٍ وَ لا رِکابٍ وَ لکِنَّ اللَّهَ یُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلی مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۶) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلی رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُری فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ کَیْ لا یَکُونَ دُولَةً بَیْنَ الْأَغْنِیاءِ مِنْکُمْ وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ (۷)

سبب النّزول

بما أنّ هـذه الآيات تكملـة للآيات القرآنية السابقة التى تتحدّث عن اندحار يهود بنى النضير، لذا فإنّ سـبب نزولها هو اسـتمرار لنفس أسباب نزول الآيات السابقة. و التوضيح كما يلى:

بعد خروج يهود بنى النضير من المدينة بقيت بساتينهم و أراضيهم و بيوتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۶

و قسم من أموالهم فى المدينة، فأشار بعض شـيوخ المسـلمين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تماشيا مع سنّة جاهلية- حيث قالوا له خـذ الصـفوة من أموالهم و ربع ممتلكاتهم، و اترك لنا المتبقّى كى نقسّـمه بيننا، فنزلت الآيات أعلاه حيث أعلنت صـراحة أنّ هـذه الغنائم التى لم تكن بسـبب قتال، و لم تكن نتيجـة حرب، فإنّها جميعا من مختصات الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم باعتباره رئيسا للدولة الإسلامية، و يتصرّف بها كما يشاء، وفقا لما يقدره من المصلحة فى ذلك.

و سـنلاحظ أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قسّم هـذه الأموال بين المهاجرين الفقراء فى المدينـة، و على قسم من الأنصار من ذوى الفاقة[۲۰۹].

التّفسير

حكم الغنائم بغير الحرب:

إنّ هـذه الآيات- كما ذكر سابقا- تبيّن حكم غنائم بنى النضـير، كما أنّها فى نفس الوقت توضّح حكما عاما حول الغنائم التى يحصـل عليها المسلمون بدون حرب، كما ذكر ذلك فى كتب الفقه الإسلامى بعنوان (الفىء).

يقول اللّه تعالى: وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ ۲۱۰].

«أفاء» من مادّة (فىء) على وزن شـىء- و هى فى الأصل بمعنى الرجوع، و إطلاق كلمـة (فىء) على هـذا اللون من الغنائم لعلّه باعتبار أنّ اللّه سبحانه قد خلق هذه النعم و الهبات العظيمة فى عالم الوجود فى الأصل للمؤمنين، و على رأسهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۷

الرّسول الأعظم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم الذى هو أشرف الكائنات، و بناء على هذا فإنّ الجاحدين لوجود اللّه و العاصين له بالرغم من امتلاكهم للبعض من هـذه النعم بموجب القواعد الشرعية و العرفية، إلّا أنّهم يعتبرون غاصبين لها، و لذلك فإنّ عودة هذه الأموال إلى أصحابها الحقيقيين (و هم المؤمنون) يسمّى (فيئا) فى الحقيقة.

«أوجفتم» من مادّة (إيجاف) بمعنى السّوق السريع الذى يحدث غالبا فى الحروب.

«خيل» بمعناه المتعارف عليه (و هى اسم جنس و جمعها خيول)[۲۱۱].

«ركاب» من مادّة (ركوب) و تطلق فى الغالب على ركوب الجمال.

و الهـدف من مجموع الجملة أنّ جميع الموارد التى لم يحدث فيها قتال و فيها غنائم، فإنّها لا توزّع بين المقاتلين، و توضع بصورة تامّة تحت تصرّف رئيس الدولة الإسلامية و هو يصرفها فى الموارد التى سيأتى الحديث عنها لا حقا.

ثمّ يضيف سبحانه أنّ الانتصارات لا تكون غالبا لكم وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

نعم، لقـد تحقّق الإنتصـار على عـدو قوى و شديـد كيهود (بنى النضـير) و ذلك بالمـدد الإلهى الغيبى، و لتعلموا أنّ اللّه قادر على كلّ شىء، و يستطيع سبحانه بلحظة واحدة أن يذلّ الأقوياء، و يسلّط عليهم فئة قليلة توجّه لهم ضربات موجعة و تسلب جميع إمكاناتهم.

و لا بـدّ للمسـلمين أن يتعلّموا من ذلك دروس المعرفـة الإلهيـة، و يلاحظوا علائم حقّانية النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و يلتزموا

منهج الإخلاص و التوكّل على الذات الإلهية المقدّسة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۸

فى جميع ممارساتهم.

و هنا قد يتبادر سؤال و هو: إنّ الحصول على غنائم بنى النضير لم يتمّ بدون حرب، بل إنّ المسلمين زحفوا بجيشهم نحو قلاعهم و حاصروها، و قيل أنّ اشتباكا مسلّحا قد حصل فى حدود ضيّقة بين الطرفين.

و فى مقام الجواب نقول: بأنّ قلاع بنى النضير- كما ذكروا- لم تكن بعيدة عن المدينة، و ذكر بعض المفسّرين أنّ المسافة بين المدينة و القلاع ميلان و أنّ المسلمين ذهبوا إليها سيرا على أقدامهم، و بناء على هذا فلم يواجهوا مشقّة حقيقية. أمّا بالنسبة لموضوع الاشتباك المسلّح فإنّه لم يثبت من الناحية التأريخية، كما أنّ الحصار لم يستمرّ طويلا، و بناء على هذا فإنّنا نستطيع القول بأنّه لم يحدث شيء يمكن أن نسمّيه قتالا، و لم يرق دم على الأرض.

و الآية اللاحقة تبيّن بوضوح مورد صرف (الفيء) الوارد فى الآية السابقة و تقول بشكل قاعدة كليّة: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ

و هذا يعنى أنّ هذه الغنائم ليست كباقى الغنائم الحربية التى يكون خمس منها فقط تحت تصرّف الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سائر المحتاجين، و الأربعة الأخماس الاخرى للمقاتلين.

و إذا ما صرّحت الآية السابقة برجوع جميع الغنائم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلا يفهم من ذلك أن يصرفها جميعا فى موارده الشخصية، و إنّما أعطيت له لكونه رئيسا للدولة الإسلامية، و خاصّة كونه المتصدّى لتغطية حاجات المعوزين، لذا فإنّ القسم الأكبر يصرف فى هذا المجال.

و قد ذكر فى هذه الآية بصورة عامّة ستّ مصارف للفيء.

۱- سهم للّه، و من البديهى أنّ اللّه تعالى مالك كلّ شيء، و فى نفس الوقت غير محتاج لأى شيء، و هذا نوع من النسبة التشريفية، حتّى لا يحسّ بقيّة الأصناف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۹

اللاحقة بالحقارة و الذلّة، بل يرون سهمهم مرادفا لسهم اللّه عزّ و جلّ، فلا ينقص من قدرهم شيء أمام الناس.

۲- سهم الرّسول: و من الطبيعى أن يصرف لتأمين احتياجاته الشخصية صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما يحتاجه لمقامه المقدّس و توقّعات الناس منه.

۳- سهم ذوى القربى: و المقصود بهم هنا و بدون شكّ أقرباء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بنى هاشم، حيث أنّهم مستثنون من أخذ الزكاة و التى هى جزء من الأموال العامّة للمسلمين ۲۱۲].

و أساسا لا دليل على أنّ المقصود من ذوى القربى هم أقرباء الناس جميعا، لأنّه فى هذه الحالة ستشمل جميع المسلمين، لأنّ الناس بعضهم أقرباء بعض.

و لكن هل هناك شرط يقضى أن يكون ذوو القربى من المحتاجين و الفقراء أو لا يشترط ذلك؟ لقد اختلف المفسّرون فى ذلك بالرغم من أنّ القرائن الموجودة فى نهاية هذه الآية و الآية اللاحقة توضّح لزوم شرط الحاجة.

(۴، ۵، ۶): «سهم اليتامى» و «المساكين» و «أبناء السبيل»، و هل أنّ جميع هؤلاء يلزم أن يكونوا هاشميين أو أنّها تشمل عموم اليتامى و المساكين و أبناء السبيل؟

اختلف المفسّرون فى ذلك، ففقهاء أهل السنّة و مفسّروهم يعتقدون أنّ هذا الأمر يشمل العموم، فى الوقت الذى اختلفت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام فى هذا المجال، إذ يستفاد من قسم منها أنّ هذه الأسهم الثلاثة تخصّ اليتامى و المساكين و أبناء

السبیل من بنی هاشم فقط، فی حین صرّحت روایات اخری بعمومیة هذا الحکم، و
نقل أنّ الإمام الباقر علیه السّلام قال: «کان أبی یقول: لنا سهم رسول

اللّه، و سهم ذی القربی و نحن شرکاء الناس فیما بقی»[۲۱۳].

و الآیات الثامنة و التاسعة من هذه السورة، التی هی توضیح لهذه الآیة، تؤیّد أیضا أنّ هذا السهم لا یختّص ببنی هاشم، لأنّ الحدیث دالّ علی عموم فقراء المسلمین من المهاجرین و الأنصار.

و بالإضافة إلی ذلک، فقد نقل المفسّرون أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد حادثة بنی النضیر قسّم الأموال المتبقیة بین المهاجرین من ذوی الحاجة و المسکنة، و علی ثلاثة أشخاص من طائفة الأنصار، و هذا دلیل آخر علی عمومیة مفهوم الآیة. و إذا لم تکن بعض الروایات متناسبة معها، فینبغی ترجیح ظاهر القرآن ۲۱۴].

ثمّ یستعرض سبحانه فلسفة هذا التقسیم الدقیق بقوله تعالی: کَیْ لا یَکُونَ دُولَةً بَیْنَ الْأَغْنِیاءِ مِنْکُمْ فیتداول الأغنیاء الثروات فیما بینهم و یحرم منها الفقراء[۲۱۵].

و ذکر بعض المفسّرین سببا لنزول هذه الجملة بشکل خاصّ، و أشیر له بشکل إجمالی فی السابق، و هو أنّ مجموعة من زعماء المسلمین قد جاؤوا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد واقعة بنی النضیر، و قالوا له: خذ المنتخب و ربع هذه الغنائم، و دع الباقی لنا نقتسمه بیننا، کما کان ذلک فی زمن الجاهلیة. فنزلت الآیة أعلاه تحذّرهم من تداول هذه الأموال بین الأغنیاء فقط.

و المفهوم الذی ورد فی هذه الآیة یوضّح أصلا أساسیّا فی الإقتصاد الإسلامی و هو: وجوب التأکید فی الإقتصاد الإسلامی علی عدم تمرکز الثروات بید فئة محدودة و طبقة معیّنة تتداولها فیما بینها، مع کامل الاحترام للملکیة

الشخصیة، و ذلک بإعداد برنامج واضح بهذا الصدد یحرّک عملیة تداول الثروة بین أکبر قطاع من الامّة.

و من الطبیعی ألّا نقصد من ذلک وضع قوانین و تشریعات من تلقاء أنفسنا و نأخذ الثروات من فئة و نعطیها لآخرین، بل المقصود تطبیق القوانین الإسلامیة فی مجال کسب المال، و الالتزام بالتشریعات المالیة الاخری کالخمس و الزکاة و الخراج و الأنفال بصورة صحیحة، و بذلک نحصل علی النتیجة المطلوبة، و هی احترام الجهد الشخصی من جهة، و تأمین المصالح الاجتماعیة من جهة اخری، و الحیلولة دون انقسام المجتمع إلی طبقتین: (الأقلیّة الثریّة و الأکثریة المستضعفة).

و یضیف سبحانه فی نهایة الآیة: وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ

و بالرغم من أنّ هذا القسم من الآیة نزل بشأن غنائم بنی النضیر، إلّا أنّ محتواها حکم عام فی کلّ المجالات، و مدرک واضح علی حجیّة سنّة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و طبقا لهذا الأصل فإنّ جمیع المسلمین ملزمون باتّباع التعالیم المحمّدیة، و إطاعة أوامر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و اجتناب ما نهی عنه، سواء فی مجال المسائل المرتبطة بالحکومة الإسلامیة أو الاقتصادیة أو العبادیة و غیرها، خصوصا أنّ اللّه سبحانه هدّد فی نهایة الآیة جمیع المخالفین لتعالیمه بعذاب شدید.

بحوث

۱- مصارف الفیء

«الفيء» كما قلنا هو الغنائم التى يحصل عليها المسلمون بدون حرب، و هذه الأموال كانت توضع تحت تصرّف الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره رئيسا للدولة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۲

الإسلامية، و هى أموال كثيرة فى الغالب، و خاصّة فى بداية الفتوحات الإسلامية و يقدر لهذه الأموال أن تلعب دورا هامّا فى تنمية الثروة فى المجتمع الإسلامى، خلافا لما كان متّبعا فى الجاهلية حيث تقسّم هذه الأموال بين أغنياء القوم فقط، فى حين أنّها وضعت مباشرة تحت تصرّف رئيس الدولة الإسلامية فى التشريع الإسلامى فيصرفها كما يرى حسب الأولويات.

و كما قلنا فى بحث الأنفال فإنّ هذه الأموال تشكّل قسما من «الفيء»، و القسم الآخر من الفيء هو كلّ الأموال التى يكون مالكها مجهولا، كما وضّح ذلك فى الفقه الإسلامى، و تبلغ اثنتا عشرة فقرة، و بهذا فإنّ قسما كبيرا من النعم و الهبات الإلهيّة توضع تحت تصرّف رئيس الدولة الإسلامية عن هذا الطريق، و من ثمّ تحت تصرّف المحتاجين ۲۱۶].

و يتّضح ممّا تقدّم أن لا تضادّ بين الآية الاولى و الآية الثانية، بالرغم من أنّ الآية الاولى تضع الفيء تحت تصرّف شخص الرّسول، و الآية الثانية توضّح لنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۳

ستّة أبواب لمصارف الفيء، على أن يراعى فى صرفها الأولويات الخاصّة.

و بتعبير آخر، فإنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يريد الأموال لاموره الشخصية، بل بعنوان قائد المسلمين و رئيس دولتهم يصرفها فى الأمور التى تحقّق مصلحة الدولة الإسلامية بشكل عامّ.

و ممّا يجدر بالملاحظة أنّ هذا الحقّ ينتقل من بعد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الأئمّة المعصومين عليهم السّلام، و من بعدهم إلى نوّابهم، يعنى (كلّ مجتهد جامع للشرائط) لأنّ الأحكام الإسلامية لا تعطّل، و الحكومة الإسلامية من أهمّ المسائل التى يتعامل المسلمون معها. و قسم من هذه الاسس قنّنت ضمن الهيكل الاقتصادى العامّ للمجتمع الإسلامى، كما أنّها تمثّل مبدأ أساسيّا فى النظام الاقتصادى للدولة الإسلامية.

۲- جواب على سؤال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۱۸۳

كن أن يطرح هذا السؤال: كيف ألزم اللّه سبحانه جميع الناس- بدون استثناء- بقبول التعاليم الصادرة من قبل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدون قيد و شرط؟

و يتّضح الجواب على هذا السؤال بملاحظة أنّنا نعتبر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معصوما، لذا كان هذا الحقّ له و لخلفائه المعصومين من بعده ضمن هذا الفهم أيضا.

و الملفت للنظر أنّ الروايات العديدة قد أشارت لهذه المسألة أيضا، و هى أنّ اللّه سبحانه منح كلّ تلك الامتيازات للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ اللّه عزّ و جلّ اختبره و امتحنه بشكل كامل و لما له من خلق عظيم و سجايا حميدة، لذا فوّض له مثل هذا الحقّ ۲۱۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۴

۳- القصّة المؤلمة ل (فدک)

«فدك»: إحدى القرى المثمرة فى أطراف المدينة، و تبعد ۱۴۰ كم عن خيبر تقريبا، و لمّا سقطت قلاع «خيبر» فى السنة السابعة للهجرة، الواحدة تلو الاخرى أمام قوّة المسلمين، و اندحر اليهود .. جاء ساكنو فدك يطلبون الصلح مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعطوا نصف أراضيهم و بساتينهم لرسول اللّه و احتفظوا بالقسم الآخر لأنفسهم، و تعهّدوا للرسول بزراعة أراضيه و أخذ الاجرة عوض الجهد الذى يبذلونه.

و من خلال ملاحظة التفاصيل التى وردت حول (الفيء) فى هذه السورة، فإنّ هذه الأرض كانت من مختصّات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من صلاحيته أن يصرفها فى شؤونه الشخصية، أو ما يراه من المصارف الاخرى التى أشير إليها فى الآية السابعة من نفس هذه السورة، لذلك فإنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وهبها لابنته فاطمة عليها السّلام.

و هذا الحديث صرّح به الكثيرون من المؤرّخين و المفسّرين من أهل السنّة و الشيعة، و من جملة ما ورد فى تفسير الدرّ المنثور، نقلا عن ابن عبّاس فى تفسير قوله تعالى: فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ ۲۱۸] أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما نزلت هذه الآية عليه أعطى فدكا لفاطمة. (أقطع رسول اللّه فاطمة فدكا)[۲۱۹].

و جاء فى كتاب كنز العرفان، أنّه جاء فى حاشية مسند (أحمد) حول مسألة صلة الرحم أنّه نقل عن أبى سعيد الخدرى أنّ الآية أعلاه عند ما نزلت على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعا الرّسول فاطمة، و قال: «يا فاطمة لك فدك»[۲۲۰].

و قد أورد الحاكم النيسابورى هذا المعنى فى تأريخه ۲۲۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۵

و قد ذكر ابن أبى الحديد قصّة فدك بصورة مفصّلة فى شرح نهج البلاغة[۲۲۲]، كما ذكرت كذلك فى كتب اخرى كثيرة.

إلّا أنّ بعض أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعتقد أنّ وجود (فدك) بيد زوجة الإمام على عليه السّلام تمثّل قدرة اقتصادية يمكن أن تستخدم فى مجال التحرّك السياسى الخاصّ بالإمام على عليه السّلام. و من جهة اخرى كان هنالك موقف و تصميم على تحجيم حركة الإمام عليه السّلام و أصحابه فى المجالات المختلفة، لذا تمّت مصادرة تلك الأرض بذريعة

الحديث الموضوع: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث).

مع أنّ (فدك) كانت بيد فاطمة عليها السّلام، و ذو اليد لا يطالب بشهادة أو بيّنة. و الجدير بالذكر أنّ الإمام على عليه السّلام قد أقام الشهادة على أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد منح فدكا إلى فاطمة.

إلّا أنّهم مع كلّ هذا لم يرتّبوا أثرا على هذه الشهادة.

و قد استعملت قضيّة فدك عبر العصور التأريخية المختلفة كموضوع يراد التظاهر من خلاله بالودّ لأهل البيت عليهم السّلام من قبل بعض الخلفاء و ذلك لمآرب سياسيّة، فكانوا يرجعون فدكا لآل الرّسول تارة، و يصادرونها ثانية، و قد تكرّر هذا الفعل عدّة مرّات فى فترات حكم خلفاء بنى اميّة و بنى العبّاس.

و قصّة فدك و ما رافقها من أحداث مؤلمة وقعت فى صدر الإسلام هى من أكثر القصص ألما و حزنا، و فى نفس الوقت تكاد أن تكون من أكثر حوادث التاريخ عبرة، و لا بدّ من التوقّف عندها و التأمّل فى أحداثها المختلفة ضمن بحث محايد دقيق.

و الجدير بالملاحظة أنّه

روى مسلم فى صحيحة قال: (حدّثنى محمّد بن رافع، أخبرنا حجين، حدّثنا ليث بن عقيل، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة، أنّها أخبرته أنّ فاطمة بنت رسول أرسلت إلى أبى بكر الصدّيق تسأله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۶

ميراثها من رسول اللّه ممّا أفاء اللّه عليه بالمدينة و فدك و ما بقى من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إنّ رسول اللّه قال: «لا نورّث ما تركناه صدقة إنّما يأكل آل محمّد فى هذا المال» و انّى و اللّه لا اغيّر شيئا من صدقة رسول اللّه عن حالها التى كانت عليها فى عهد رسول اللّه ... فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئا، فوجدت فاطمة على أبى بكر فى ذلك. قال: فهجرته فلم تكلّمه حتّى توفّيت)[۲۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۷

الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۸) وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۹) وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۰)

التّفسير

السمات الأساسية للأنصار و المهاجرين و التابعين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۸

هذه الآيات- التى هى استمرار للآيات السابقة- تتحدّث حول طبيعة مصارف الفىء الستّة، التى تشمل الأموال و الغنائم التى حصل عليها المسلمون بغير حرب، و قد أوضحت الآية المعنى باليتامى و المساكين و أبناء السبيل، مع التأكيد على المقصود من أبناء السبيل بلحاظ أنّهم يشكّلون أكبر رقم من عدد المسلمين المهاجرين فى ذلك الوقت، حيث تركوا أموالهم و وطنهم نتيجة الهجرة، و كانوا فقراء بعد أن هجروا الدنيا من أجل دينهم.

يقول تعالى: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ ۲۲۴] يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

هنا بيّنت الآية ثلاثة أوصاف مهمّة و أساسية للمهاجرين الأوائل، تتلخص ب (الإخلاص و الجهاد و الصدق).

ثمّ تتناول الآية مسألة (ابتغاء فضل اللّه و رضاه) حيث تؤكّد هذه الحقيقة و هى: أنّ هجرتهم لم تكن لدنيا أو لهوى نفس، و لكن لرضا اللّه و ثوابه.

و بناء على هذا ف (الفضل) هنا بمعنى الثواب. و «الرضوان» هو رضا اللّه تعالى الذى يمثّل مرحلة أعلى من مرتبة الثواب. كما بيّنت ذلك آيات عديدة فى القرآن الكريم، و منها ما جاء فى الآية ۲۹ من سورة الفتح، حيث وصف أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الوصف تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً.

و لعلّ التعبير ب (الفضل) إشارة إلى أنّ هؤلاء المؤمنين يتصوّرون أنّ أعمالهم قليلة جدّا لا تستحقّ الثواب، و يعتقدون أنّ الثواب الذى غمرهم هو لطف إلهى.

و يرى بعض المفسّرين «الفضل» هنا بمعنى الرزق، أى رزق الدنيا، فقد ورد فى بعض الآيات القرآنية بهذا المعنى أيضا، و لكن بما أنّ المقام هو مقام بيان إخلاص المهاجرين، لذا فإنّ هذا المعنى غير مناسب، و المناسب هو الجزاء

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۹

و الثواب الإلهى.

كما لا يستبعد أن يكون المراد من «الفضل» إشارة للنعم الجسمية، و «الرضوان» هو إشارة للنعم الروحية و المعنوية، و الجميع مرتبط بالآخرة و ليس بالدنيا.

ثمّ إنّ «المهاجرين» ينصرون المبدأ الحقّ دائما، و عونا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يتوقّفوا فى جهادهم بهذا السبيل لحظة واحدة (يرجى ملاحظة: أنّ فعل (ينصرون) بصيغة المضارع، و هو دليل على الاستمرار).

و من هنا يتّضح أنّ هؤلاء المهاجرين ليسوا من أصحاب الادّعاءات الفارغة، بل هم رجال حقّ و جهاد، و قد صدقوا اللّه بإيمانهم و تضحياتهم المستمرة.

و فى مرحلة ثالثة يصفهم سبحانه بالصدق، و مع أنّ الصدق له مفهوم واسع، إلّا أنّ صدق هؤلاء يتجسّد فى جميع الأمور: بالإيمان، و فى محبّة الرّسول، و فى التزامهم بمبدإ الحقّ ..

و من الواضح أنّ هذه الصفات كانت لأصحاب الرّسول فى زمن نزول هذه الآيات، إلّا أنّنا نعلم أنّ أشخاصا من بينهم قد فرّطوا بالنعم الإلهية التى غمرتهم، و سلكوا سبيل الضلال كالذين أشعلوا نار حرب الجمل فى البصرة، وصفين فى الشام، و حاربوا خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى كان واجب الطاعة بإجماع المسلمين، و أراقوا دماء الآلاف من المسلمين ...

و فى الآية اللاحقة يستعرض سبحانه ذكر مورد آخر من موارد صرف هذه الأموال، و من بين ما يستعرضه فى الآية الكريمة أيضا وصف رائع و معبّر جدّا عن طائفة الأنصار، و يكمل البحث الذى جاء فى الآية السابقة حول المهاجرين، فيقول سبحانه: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

«تبوّؤا» من مادّة (بواء) على وزن (دواء) و هى فى الأصل بمعنى تساوى أجزاء المكان، و بعبارة اخرى يقال: (بواء) لترتيب و تسوية مكان (ما)، هذا التعبير

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۰

كناية لطيفة لهذا المعنى، و هو أنّ طائفة الأنصار- أهل المدينة- قد هيّئوا الأرضية المناسبة للهجرة، و كما يخبرنا التاريخ فإنّ الأنصار قدموا مرّتين إلى «العقبة»- و هى مضيق قرب مكّة- و بايعوا رسول اللّه متنكّرين، و رجعوا إلى المدينة مبلّغين، و معهم «مصعب بن عمير» ليعلّمهم امور دينهم و ليهيئ الأرضية المناسبة لهجرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بناء على هذا فإنّ الأنصار لم يهيّؤوا بيوتهم لاستقبال المهاجرين فحسب، بل إنّهم فتحوا قلوبهم و نفوسهم و أجواء مجتمعهم قدر المستطاع للتكيّف فى التعامل مع وضع الهجرة المرتقب.

و التعبير مِنْ قَبْلِهِمْ يوضّح لنا أنّ كلّ تلك الأمور كانت قبل هجرة مسلمى مكّة، و هذا أمر مهمّ.

و انسجاما مع هذا التّفسير، فإنّ أنصار المدينة كانوا مستحقّين لهذه الأموال، و هذا لا يتنافى مع ما نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه أعطى شخصين أو ثلاثة أشخاص من الأنصار- فقط- من أموال بنى النضير، إذ من الممكن أن لا يكون بين الأنصار أشخاص فقراء و مساكين غير هؤلاء، بعكس المهاجرين فإنّهم إن لم يكونوا مصداقا للفقير، فيمكن اعتبارهم مصداقا لأبناء السبيل [۲۲۵].

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى بيان ثلاث صفات اخرى توضّح روحية الأنصار بصورة عامّة، حيث يقول تعالى: يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ

فلا فرق بين المسلمين فى وجهة نظرهم و المهمّ لديهم هو مسألة الإيمان و الهجرة و هذا الحبّ كان يعتبر خصوصية مستمرّة لهم.

و الأمر الآخر: وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا فهم لا يطمعون بالغنائم التى أعطيت للمهاجرين، و لا يحسدونهم عليها، و لا حتّى يحسّون بحاجة

إلى ما اعطى للمهاجرين منها، و أساسا فإنّ هذه الأمور لا تخطر على بالهم. و هذه الصورة تعكس لنا منتهى السمو الروحى للأنصار.

و يضيف تعالى فى المرحلة الثالثة إلى وصفهم وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ[۲۲۶].

و من هذه السمات الثلاث: «المحبّة» و «عدم الطمع» و «الإيثار»، كانت تتشكّل خصوصية الأنصار المتميّزة.

و نقل المفسّرون قصصا متعدّدة فى شأن نزول هذه الآية:

يقول ابن عبّاس: إنّ الرّسول بيّن للأنصار يوم الإنتصار على يهود بنى النضير، إذا كنتم ترومون المشاركة فى حصّة المهاجرين من الغنائم فشاطروهم بتقسيم أموالكم و بيوتكم، و إذا أردتم أن تبقى بيوتكم و أموالكم لكم فلا شىء لكم من هذه الغنائم؟ فقال الأنصار: علام نتقاسم بيوتنا و أموالنا معهم، نقدّم المهاجرين علينا و لا نطمع بشىء من الغنائم؟ فنزلت هذه الآية تعظّم هذه الروح العالية[۲۲۷].

و نقرأ

فى حديث آخر أنّ شخصا أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتشكا إليه الجوع، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى منزله، فقالت زوجته: ما عندنا إلّا الماء، فقال رسول اللّه:

من لهذا الرجل الليلة، فتعهّده رجل من الأنصار و صحبه إلى بيته، و لم يكن لديه إلّا القليل من الطعام لأطفاله. و طلب أن يؤتى بالطعام إلى ضيفه و أطفأ السراج، ثمّ قال لزوجته: نوّمى الصبية، ثمّ جلس الرجل و زوجته على سماط الطعام فتظاهروا بالأكل و لم يضعوا شيئا فى أفواههم، و ظنّ الضيف أنّهم يأكلون معه، فأكل حتّى شبع و ناموا الليلة، فلمّا أصبحوا قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنظر إليهم و تبسّم (دون أن يتكلّم)، فنزلت الآية أعلاه و أثنت على إيثارهم.

و نقرأ فى الروايات التى وصلتنا عن طريق أهل البيت عليهم السّلام أنّ المضيف هو الإمام على عليه السّلام و أطفاله الحسن و الحسين عليهم السّلام، و المرأة التى نوّمت الصبية جياعا هى فاطمة الزهراء عليها السّلام ۲۲۸].

و يجدر الانتباه هنا إلى أنّ القصّة الاولى يمكن أن تكون سببا لنزول الآية، و القصّة الثانية من مصاديق تطبيق هذه الآية الكريمة.

و بناء على هذا فإنّ نزول الآيات حول الأنصار لا يتنافى مع كون المضيف هو الإمام على عليه السّلام.

و ذكر البعض- أيضا- أنّ هذه الآية نزلت فى مقاتلى غزوة احد، حيث أنّ سبعة أشخاص منهم جرحوا فى المعركة و قد أنهكهم العطش، فجىء بماء يكفى لأحدهم، فأبى أن يشرب و أومأ إلى صاحبه، و كان الساقى كلّما ذهب إلى أحدهم يشير إلى الآخر و يؤثره على نفسه مع شدّة عطشه، إلى أن وصل إلى الأخير فوجده قد فارق الحياة ثمّ رجع إلى الأوّل فوجده قد فارق الحياة أيضا، و حتّى انتهى إليهم جميعا و هم موتى فأثنى اللّه تعالى على إيثارهم هذا[۲۲۹].

و لكن من الواضح أنّ هذه الآية نزلت فى بنى النضير، و بسبب عمومية مفهومها فإنّها قابلة للتطبيق فى موارد متشابهة.

و فى نهاية الآية- و لمزيد من التأكيد لهذه الصفات الكريمة، و بيان تأثيرها الإيجابى العميق- يضيف سبحانه: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

«الشحّ» كما يقول الراغب فى المفردات: البخل مقترنا بالحرص عادة.

«يوق» من مادّة وقاية، و بالرغم من أنّه بصيغة فعل مجهول، إلّا أنّه من الواضح أنّ الفاعل هو اللّه سبحانه، و يعنى أنّ كلّ شخص حفظه اللّه سبحانه من هذه الصفة الذميمة فإنّه سيفلح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۳

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال لأحد أصحابه: أ تدرى ما الشحّ؟ فأجاب: هو البخيل، قال عليه السّلام: «الشحّ أشدّ من البخل، إنّ البخيل يبخل ممّا فى يده، و الشحيح يشحّ بما فى أيدى الناس، و على ما فى يده، حتّى لا يرى فى أيدى الناس شيئا إلّا تمنّى أن يكون له بالحلّ و الحرام، و لا يقنع بما رزقه اللّه عزّ و جلّ»[۲۳۰].

و نقرأ

فى حديث ثان: «لا يجتمع الشحّ و الإيمان فى قلب رجل مسلم، و لا يجتمع غبار فى سبيل اللّه و دخان جهنّم فى جوف رجل مسلم»[۲۳۱].

و بالجملة، فما يستفاد بوضوح من الآية أعلاه أنّ ترك المرء للشحّ يوصله إلى الفلاح، و من يتّصف بهذه الصفة المذمومة فإنّه يهدم بناء سعادته.

و فى آخر آية مورد البحث يأتى الحديث عن آخر طائفة من المسلمين، الذين عرفوا بيننا باصطلاح القرآن الكريم ب (التابعين)، و الذين يشكّلون المجموعة الغالبة من المسلمين بعد المهاجرين و الأنصار الذين تحدّثت عنهم الآيات السابقة.

يقول تعالى: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ، وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ

بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد حدّد مفهوم هذه الآية بمجموعة من الأشخاص الذين التحقوا بالمسلمين بعد انتصار الإسلام و فتح مكّة، إلّا أنّه لا يوجد دليل على هذه المحدوديّة الخاصّة بل تشمل جميع المسلمين إلى يوم القيامة، و على فرض أنّ هذه الآية ناضرة إلى فئة خاصّة، إلّا أنّها عامّة من حيث الملاك و المعيار و النتيجة.

و بهذا فإنّ الآيات الثلاثة المتقدّمة تشمل جميع مسلمى العالم، الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۴

ينضوون إلى واحدة من هذه الطوائف الثلاثة، و هم: (المهاجرون و الأنصار و التابعون).

جملة وَ الَّذِينَ جاؤُ ... حسب الظاهر عطف على لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ و ذلك لبيان هذه الحقيقة، و هى أنّ أموال «الفىء» لا تنحصر بمحتاجى المهاجرين و الأنصار فقط، بل تشمل سائر المحتاجين من المسلمين على مرّ العصور.

و يحتمل أيضا أنّ الجملة مستقلّة (بأن تكون جملة وَ الَّذِينَ جاؤُ ... مبتدأ (و يقولون) خبر) إلّا أنّ التّفسير الأوّل- بالنظر إلى انسجامه مع الآيات السابقة- هو الأنسب.

و الملاحظ هنا هو أنّ الآية تذكر ثلاث صفات للتابعين:

الاولى: أنّهم يفكّرون فى إصلاح أنفسهم، و طلب العفو و المغفرة و التوبة من اللّه تعالى.

و الثّانية: النظرة المقترنة بالإكبار و الإجلال و الاحترام إلى من سبقهم بالإيمان، و يطلبون لهم أيضا العفو و المغفرة من اللّه تعالى.

الثّالثة: أنّهم يسعون بكلّ وسيلة إلى تهذيب أنفسهم و تطهيرها من الحقد و الحسد و البغض و العداء، و يطلبون العون من اللّه الرؤوف الرحيم لمساعدتهم فى هذا الطريق.

و بهذا الترتيب فإنّ خصوصياتهم هى: (تربية النفس) و (الاحترام للسابقين فى الإيمان) و (الابتعاد عن الحسد و البغضاء).

«غلّ» على وزن (سلّ)، جاءت فى الأصل بمعنى نفوذ الشىء بخفية، و لذا يقال للماء الجارى بين الأشجار (غلل) و لأنّ الحسد و العداوة و البغضاء تنفذ فى قلب الإنسان بصورة خفيّة، يقال لها: «غل». و بناء على هذا فإنّ (الغلّ) ليس فقط بمعنى الحسد، و لكنّه مفهوم واسع يشمل الكثير من الصفات الخفيّة و القبيحة أخلاقيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۵

و التعبير ب (إخوان) و الاستمداد من الرؤوف الرحيم فى نهاية الآية يحكى عن روح المحبّة و الصفاء و الاخوّة التى يجب أن تسود المجتمع الإسلامى أجمع. فكلّ شخص يتمنّى صفة حسنة لا يتمنّاها لنفسه فحسب، بل للآخرين أيضا، و لتشمل المجتمع بصورة عامّة، و بذلك تطهّر القلوب من كلّ أنواع العداء و البغضاء و الحسد و الحرص، و هذا هو المجتمع الإسلامى النموذجى.

بحث

الصحابة فى ميزان القرآن و التاريخ:

يصرّ بعض المفسّرين- بدون الالتفات إلى الصفات التى مرّت بنا فى الآيات السابقة لكلّ من المهاجرين و الأنصار و التابعين- على اعتبار جميع الصحابة بدون استثناء متّصفين بجميع الصفات الإيجابية (للمهاجرين و الأنصار و التابعين) و أنّهم نموذج يقتدى بهم من حيث نزاهتهم و طهرهم و التسامح فيما بينهم، و كلّ خلاف صدر منهم أحيانا سواء فى زمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو من بعده فإنّهم يغضّون النظر عنه، و بهذا اعتبروا كلّ مهاجر و أنصارى و تابع شخصا محترما و مقدّسا بصورة عامّة، دون الالتفات إلى أعمالهم و تقييمها حسب الموازين الشرعية.

إلّا أنّ الملاحظ أنّ فى الآيات أعلاه رفض واضح إزاء هذا الفهم، حيث تحدّد الآية التقييم وفق ضوابط و موازين دقيقة للمهاجرين الحقيقيين و الأنصار و التابعين.

ففى «المهاجرين»: الإخلاص و الجهاد و الصدق.

و فى «الأنصار»: المحبّة للمهاجرين و الإيثار، و الابتعاد عن كلّ حرص و بخل.

و فى «التابعين»: بناء أنفسهم، و الاحترام للسابقين فى الإيمان، و الابتعاد عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۶

كلّ بغض و حسد.

و مع كلّ هذا، كيف يمكن أن نحترم الأشخاص الذين قاتلوا الإمام على عليه السّلام فى معركة الجمل و شهروا سيفهم عليه، و لم يراعوا اخوته فى اللّه، و لم يطهّروا قلوبهم من البغض و الحسد تجاهه، و لا احترموا أسبقيته فى الإيمان، و بعد كلّ ذلك لا يجوز لنا انتقادهم، بل يجب علينا التسليم و بدون نقاش لأحاديث هذا و ذاك دون تمحيص و تثبّت.

و بناء على هذا فإنّنا فى الوقت الذى نحترم فيه السابقين فى خطّ الرسالة و الإيمان، يجدر بنا أن ندقّق فى سوابقهم و ملفّ فعالهم، سواء على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو المخاضات المختلفة التى حدثت بعده فى التأريخ الإسلامى، و على أساس الضوابط و المعايير الإسلامية المستلهمة من هذه الآيات المباركات نحكم لهم أو عليهم، و عندئذ نقوّى أواصرنا مع من بقى على العهد، و نقطعها أو نحدّدها- بما يناسب- مع من ضعفت روابطهم أو قطعوها مع تلك الموازين و الضوابط، و هذا هو المنطق الصحيح و المنسجم مع حكم القرآن و العقل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱۱ الى ۱۴]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۱) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (۱۲) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۱۳) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (۱۴)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرین سببا لنزول الآیات أعلاه، و الذی خلاصته ما یلی:

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۸

إنّ قسما من منافقی المدینة- كعبد اللّه بن أبی و أصحابه- أرسلوا شخصا إلی یهود بنی النضیر و أبلغهم بما یلی: أثبتوا فی أماكنكم بقوّة، و لا تخرجوا من بیوتكم، و حصّنوا قلاعكم، و سیكون إلی جنبكم ألفا مقاتل من قومنا مدد لكم، و إنّنا معكم حتّی النهایة. كما أنّ بنی قریظة و قبیلة غطفان و المتعاطفین معكم سیلتحقون بكم أیضا.

إنّ هذه الرسالة- التی وجّهها المنافق عبد اللّه بن أبی إلی الیهود بنی النضیر- أوجدت لدیهم الإصرار و العناد علی مخالفة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الخروج عن أمره، و فی هذه الحالة انبری (سلام) أحد كبار یهود بنی النضیر إلی «حی بن أخطب» الذی كان أحد وجوه بنی النضیر و قال له: لا تهتّموا بكلام عبد اللّه بن أبی، إنّه یرید أن یدفعكم لقتال محمّد و یجلس فی داره و یسلّمكم للحوادث، قال حی: نحن لا نعرف شیئا إلّا العداء ل (محمّد) و القتال له، فأجابه سلام: اقسم باللّه أنّی أراهم سیخرجوننا قریبا و یهدرون أموالنا و شرفنا و تؤسر أطفالنا و یقتل مقاتلونا[۲۳۲].

و أخیرا تبیّن الآیات أعلاه نهایة المطاف لهذا المشهد.

و یعتقد البعض أنّ هذه الآیات نزلت قبل قصّة یهود بنی النضیر، حیث تتحدّث عن الحوادث المستقبلیة لهذه الوقائع، و بهذا اللحاظ فإنّهم یعتبرونها إحدی المفردات الغیبیة للقرآن الكریم.

و رغم أنّ التعابیر التی وردت فی الآیات الكریمة كانت بصیغة المضارع و بذلك تؤیّد وجهة النظر هذه، إلّا أنّ العلاقة بین هذه الآیات و الآیات السابقة التی نزلت بعد اندحار بنی النضیر و إبعادهم عن المدینة، تؤكّد لنا أنّ هذه الآیات أیضا نزلت بعد هذا الحادث، و لذا كان التعبیر بصیغة المضارع بعنوان حكایة الحال.

«فتدبّر»

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۹

التّفسیر

دور المنافقین فی فتن الیهود:

بعد بیان ما جری لیهود بنی النضیر فی الآیات السابقة، و بیان حالة الأصناف الثلاثة من المؤمنین (المهاجرین و الأنصار و التابعین) و خصوصیات كلّ منهم فی الآیات مورد البحث، یتعرّض القرآن الكریم الآن لشرح حالة المنافقین و دورهم فی هذا الحادث، و بیان حالهم بالقیاس مع الآخرین، و هذا هو منهج القرآن الكریم، حیث یعرّف كلّ طائفة بمقارنتها مع الاخری.

و فی البدایة یتحدّث مع الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث یقول سبحانه: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ

و هكذا فانّ هؤلاء المنافقين و عدوا طائفة اليهود بأمور ثلاثة، و جميعها كانت كاذبة:

الأوّل: إذا أخرجتم من هذه الأرض فإنّنا سوف لن نبقى بعدكم نتطلّع إلى خواء أماكنكم و دياركم.

و الأمر الآخر: إذا صدر أمر ضدّكم من أى شخص، و فى أىّ مقام، و فى أى وقت، فإنّ موقفنا الرفض له و عدم الاستجابة.

و الأمر الثالث: إنّه إذا وصل الأمر للقتال فإنّنا سوف نقف إلى جانبكم و لا نتردّد فى نصرتكم أبدا.

نعم، هذه هى الوعود التى أعطاها المنافقون لليهود قبل هذا الحادث، إلّا أنّ الحوادث اللاحقة أو ضحت كذب ادّعاءاتهم و وعودهم.

و لهذا السبب يقول القرآن الكريم بصراحة وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

كم هو تعبير رائع و مثير و مقترن بتأكيدات عديدة، من شهادة اللّه عزّ و جلّ، و كون الجملة اسمية، و كذلك الاستفادة من (إنّ) و اللام للتأكيد، و كلّها تفيد أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۰

الكذب و النفاق ممتزجان بهم لحدّ لا يمكن فصلهما، لقد كان المنافقون كاذبين دائما، و الكاذبون منافقين غالبا.

و التعبير ب (إخوانهم) يوضّح لنا طبيعة العلاقة الحميمة جدّا بين «المنافقين» و «الكفّار»، كما ركّزت الآيات السابقة على علاقة الاخوة بين المؤمنين، مع ملاحظة الاختلاف بين الفصيلتين، و هو أنّ المؤمنين صادقون فى اخوتهم لذلك فهم لا يتبرّمون بكلّ ما يؤثرون به على أنفسهم، على عكس المنافقين حيث ليس لهم وفاء أو مواساة بعضهم لبعض، و تتبيّن حقيقتهم بصورة أوضح فى اللحظات الحرجة حيث يتخلّون عن أقرب الناس لهم، بل حتّى عن إخوانهم، و هذا هو محور الاختلاف بين نوعين من الاخوة، اخوة المؤمنين و اخوة المنافقين.

و جملة: وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً تشير إلى موقف المنافقين الذى أعلنوه لليهود بأنّهم سوف لن يراعوا التوصيات و الإنذارات التى أطلقها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهم.

ثمّ .. للإيضاح و التأكيد الأكثر حول كذب المنافقين يضيف سبحانه:

لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ

وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ

وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ.

ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ

إنّ اللحن القاطع و القوى لهذه الآيات قد أدخل الرعب و الهلع فى قلوب المنافقين و أقلق بالهم.

و بالرغم من أنّ الآية نزلت فى مورد معيّن، إلّا أنّها- من المسلّم- لا تختص به، بل بيان أصل عامّ فى علاقة المنافقين مع سائر أعداء الإسلام، بالإضافة إلى الوعود الكاذبة التى يمنحها كلّ منهم للآخر، و تقرّر بطلان و خواء كلّ هذه الروابط و الوعود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۱

و لا- يختّص هذا الأمر بما حدث تأريخيا فى صدر الإسلام، بل إنّنا نلاحظ اليوم بأعيننا نماذج و صورا حيّة لا تخفى على أحد، فى طبيعة تعامل المنافقين فى الدولة الإسلامية مع مختلف الفصائل المعادية للإسلام، و سوف تصدق أيضا فى المستقبل القريب و البعيد.

و من المسلّم أنّ المؤمنين الصادقين إذا التزموا بواجباتهم فإنّهم سينتصرون عليهم، و يحبطون خططهم.

و الآية اللاحقة تتحدّث عن سبب هذا الاندحار، حيث يقول سبحانه: لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ

و لأنّهم لا يخافون اللّه، فإنّهم يخافون كلّ شىء خصوصا إذا كان لهم أعداء مؤمنون مثلكم ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ

«رهبة» فى الأصل بمعنى الخوف المقترن بالاضطراب و الحذر، فهو خوف عميق له جذور و تظهر آثاره فى العمل.

و بالرغم من أنّ الآية أعلاه نزلت فى يهود بنى النضير و أسباب اندحارهم أمام المسلمين، إلّا أنّ مقصودها حكم عام و كلّى، لأنّه لن يجتمع فى قلب الإنسان خوفان: الخوف من اللّه، و الخوف من غيره. لأنّ كلّ شىء مسخّر بأمر اللّه، و كلّ إنسان يخشى اللّه و يعلم مدى قدرته لا ينبغى أن يخاف من غيره.

إنّ مصدر جميع هذه الآلام هو الجهل و عدم إدراك حقيقة التوحيد، و لو كان مسلمو اليوم بالمعنى الواقعى (يعنى مؤمنين موحّدين حقّا) فإنّهم لا يقفون بشجاعة أمام القوى الكبرى بإمكاناتها المادية و العسكرية فحسب، بل إنّ القوى الكبرى هى التى تخشاهم و تخاف منهم، كما نلاحظ نماذج حيّة لهذا المعنى، حيث نرى دولا كبرى مع ما لديها من الأسلحة و الوسائل المتطوّرة تخشى شعبا صغيرا لأنّه مسلّح بالإيمان و متّصف بالتضحية.

و شبيه هذا المعنى ما ورد فى قوله تعالى: سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۲

الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ۲۳۳].

ثمّ يستعرض دليلا واقعيا واضحا يعبّر عن حالة الخوف و الاضطراب حيث يقول سبحانه: لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِى قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ.

«قرى» جمع قرية، أعمّ من المزروعة و غير المزروعة، و تأتى أحيانا بمعنى الناس المجتمعين فى مكان واحد.

«محصّنة» من مادّة (حصن) على وزن «جسم» بمعنى مسوّرة، و بناء على هذا فإنّ (القرى المحصّنة) تعنى القرى التى تكون فى أمان بوسيلة أبراجها و خنادقها و المواضع التى تعيق تقدّم العدو فيها.

«جدر» جمع جدار، و الأساس لهذه الكلمة بمعنى الارتفاع و العلو.

نعم، بما أنّهم خرجوا من حصن الإيمان و التوكّل على اللّه، فإنّهم بغير الالتجاء و الاتّكاء على الجدران و القلاع المحكمة لا يتجرّؤون على مواجهة المؤمنين.

ثمّ يوضّح أنّ هذا ليس ناتجا عن جهل بمعرفة فنون الحرب، أو قلّة فى عددهم و عدّتهم، أو عجز فى رجالهم، بل إنّ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ.

إلّا أنّ المشهد الذى عرض يتغيّر فى حالة مواجهتهم لكم و يسيطر عليهم الرعب و الاضطراب بصورة مذهلة.

و هذا الأمر تقريبا يمثّل أصلا كليّا فى مورد اقتتال الفئات غير المؤمنة فيما بينهم، و كذلك محاربتهم للمؤمنين.

و نشاهد مصاديق هذا المعنى بصورة متكرّرة أيضا فى التأريخ المعاصر، حيث نلحظ عند اشتباك مجموعتين غير مؤمنتين مع بعضهما شدّة الفتك و قسوة الانتقام و شراسة المواجهة بينهما بصورة لا تدعو للشكّ فى قوّة كلّ منهما ... و لكن لو تغيّرت المعادلة، و أصبحت المواجهة بين مجموعة غير مؤمنة باللّه و اخرى مؤمنة مستعدّة للشهادة فى سبيل اللّه، عند ذلك نرى أعداء الحقّ يلوذون إلى القلاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۳

المحكمة و يخفون أنفسهم فى المواضع و وراء المتاريس و خلف الأسلحة، و يسيطر عليهم الخوف و يهيمن عليهم الرعب و يملأ كلّ وجودهم، و الحقيقة أنّ المسلمين إذا جعلوا إيمانهم و قيمهم الإسلامية هى الأساس فإنّهم منتصرون و متفوقون على الأعداء بلا ريب.

و لهذا السبب- و استمرارا لما ورد فى نفس الآية- نستعرض سببا آخر من أسباب اندحار المنافقين، حيث يقول سبحانه: تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ

«شتّى» بمعنى (شتيت) أى متفرّق.

إنّ القرآن الكريم فى تحليل المسائل بشكل دقيق جدّا و ملهم يؤكّد على أنّ (التفرقة و النفاق الداخلى) وليدة (الجهل و عدم المعرفة)

لأنّ الجهل عامل الشرك، و الشرك عامل للتفرقة، و التفرقة تسبّب الهزيمة. و بالعكس فإنّ «العلم» عامل لوحدة العقيدة و العمل و الانسجام و الاتّفاق، و هذه الصفات بحدّ ذاتها مصدر للانتصار.

و هكذا فإنّ الانسجام الظاهرى للعناصر غير المؤمنة و الاتفاقيات العسكرية و الاقتصادية يجب ألّا تخدعنا أبدا، لأنّ وراءها قلوب متناحرة متنافرة، و دليلها واضح و هو انهماك كلّ منهم بمنافعه المادية بشكل شديد، و بما أنّ المنافع غالبا ما تكون متعارضة، فعندئذ تبرز الاختلافات و الشحناء فيما بينهم، و لن تغنى عن ذلك العهود و الاتّفاقيات و شعارات الوحدة و الانسجام الظاهرى. فى الوقت الذى تكون فيه وحدة و انسجام المؤمنين على قواعد و اصول ربّانية كأصل الإيمان و التوحيد و القيم الإلهية، و إذا أصيب المسلمون بانتكاسة فى أعمالهم فإنّ ذلك دليل على ابتعادهم عن حقيقة الإيمان و ما لم يعودوا إلى الإيمان فإنّ وضعهم لن يتحسّن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۴

الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱۵ الى ۲۰]

اشارة

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۵) كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (۱۶) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِى النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (۱۷) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۱۹)

لا يَسْتَوِى أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰)

التّفسير

حيل الشيطان و المهالك:

يستمرّ البحث فى هذه الآيات حول قصّة بنى النضير و المنافقين و رسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۵

خصوصية كلّ منهم فى تشبيهين رائعين:

يقول سبحانه فى البداية: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ۲۳۴].

تحدّثنا هذه الآية عن ضرورة الإعتبار بما جرى لبنى النضير و القوم الذين كانوا من قبلهم و ما جرى لهم، خاصّة و أنّ الفترة الزمنية بين الحادثتين غير بعيدة.

و يعتقد البعض أنّ المقصود بقوله: الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هم مشركو مكّة الذين ذاقوا مرارة الهزيمة بكلّ كبريائهم فى غزوة «بدر»، و أنهكتهم ضربات مقاتلى الإسلام، لأنّ هذه الحادثة لم يمرّ عليها وقت طويل بالنسبة لحادثة بنى النضير، ذلك لأنّ حادثة بنى النضير- كما أشرنا سابقا- حدثت بعد غزوة «احد»، و غزوة بدر قبل غزوة احد بسنة واحدة، و بناء على هذا فلم يمض وقت طويل بين الحادثتين.

فى الوقت الذى يعتبرها كثير من المفسّرين إشارة إلى قصّة يهود «بنى قينقاع»، التى حدثت بعد غزوة بدر، و انتهت بإخراجهم من المدينة.

و طبیعی أنّ هـذا التّفسیر مناسب أکثر- حسب الظاهر- باعتباره متلائما أکثر مع یهود بنی النضیر، لأنّ یهود بنی قینقاع کیهود بنی النضیر کانوا ذوی ثراء و مغرورین بقدرتهم القتالیة، یهدّدون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین بقوّتهم و قدرتهم العسکریة- کما سنذکر ذلک تفصیلا إن شاء اللّه- إلّا أنّ العاقبة لم تکن غیر حصاد التیه و التعاسة فی الدنیا و العذاب فی الآخرة.

«و بال» بمعنی (عاقبة الشؤم و المرارة) و هی فی الأصل مأخوذة من (وابل) بمعنی المطر الغزیر، لأنّ المطر الغزیر غالبا ما یکون مخیفا و یقلق الإنسان من عاقبته المرتقبة، کالسیول الخطرة و الدمار و ما إلی ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۶

ثمّ یستعرض القرآن الکریم تشبیها للمنافقین حیث یقول سبحانه: کَمَثَلِ الشَّیْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اکْفُرْ فَلَمَّا کَفَرَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ ۲۳۵].

ما المقصود ب «الإنسان» فی هذه الآیة؟

هل هو مطلق الإنسان الذی یقع تحت تأثیر الشیطان، و ینخدع بأحابیله و وعوده الکاذبة، و یسیر به فی طریق الکفر و الضلال، ثمّ إنّ الشیطان یترکه و یتبرّأ منهم؟.

أو أنّ المقصود به شخص خاصّ أو (إنسان معیّن) کأبی جهل و أتباعه، حیث أنّ ما حصل لهم فی غزوة بدر کان نتیجة تفاعلهم مع الوعود الکاذبة للشیطان، و أخیرا ذاقوا و بال أمرهم و طعم المرارة المؤلمة للهزیمة و الانکسار، کما فی قوله تعالی: وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّی جارٌ لَکُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَکَصَ عَلی عَقِبَیْهِ وَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ إِنِّی أَری ما لا تَرَوْنَ، إِنِّی أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ ۲۳۶].

أو أنّ المقصود منه هنا هو (برصیصا) عابد بنی إسرائیل، حیث انخدع بالشیطان و کفر باللّه، و فی اللحظات الحاسمة تبرّأ الشیطان منه و ابتعد عنه، کما سیأتی شرح ذلک إن شاء اللّه ...؟

التّفسیر الأوّل هو الأکثر انسجاما مع مفهوم الآیة الکریمة، أمّا التّفسیران الثانی و الثالث فنستطیع أن نقول عنهما: إنّهما بیان بعض مصادیق هذا المفهوم الواسع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۷

و علی کلّ حال فإنّ العذاب الذی یخشاه الشیطان- فی الظاهر- هو عذاب الدنیا، و بناء علی هذا فإنّ خوفه جدّی و لیس هزلا أو مزاحا، ذلک لأنّ الکثیر من الأشخاص یخشون العقوبات الدنیویة المحدودة، إلّا أنّهم لا یأبهون للعقوبات البعیدة المدی و لا یعیرون لها اهتماما.

نعم، هکذا حال المنافقین حیث یدفعون بحلفائهم من خلال الوعود الکاذبة و المکر و الحیلة إلی اتون المعارک و المشاکل ثمّ یترکونهم لوحدهم، و یتخلّون عنهم، لأنّ الوفاء لا یجتمع و النفاق.

و تتحدّث الآیة اللاحقة عن مصیر هاتین الجماعتین (الشیطان و أتباعه، و المنافقین و حلفائهم من أهل الکفر) و عاقبتهما البائسة، حیث النار خالدین فیها، فیقول سبحانه عنهم: فَکانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِی النَّارِ خالِدَیْنِ فِیها وَ ذلِکَ جَزاءُ الظَّالِمِینَ ۲۳۷].

و هذا أصل کلّی فإنّ عاقبة تعاون الکفر و النفاق، و الشیطان و حزبه، هو الهزیمة و الخذلان، و عدم الموفّقیة، و عذاب الدنیا و الآخرة، فی الوقت الذی تکون ثمره تعاون المؤمنین و أصدقائهم تعاون وثیق و بنّاء، و عاقبته الخیر و نهایته الإنتصار و التمتع بالرحمة الإلهیة الواسعة فی عالم الدنیا و الآخرة.

و توجّه الآیة اللاحقة حدیثها للمؤمنین بعنوان استنتاج من حالة الشؤم و البؤس التی اعترت المنافقین و بنی النضیر و الشیاطین، حیث یقول تعالی:

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ[۲۳۸].

ثمّ يضيف تعالى مرّة اخرى للتأكيد بقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۸

نعم، التقوى و الخوف من اللّه يدعوان الإنسان للتفكير بيوم غده (القيامة) بالإضافة إلى السعى إلى تنقية و تخليص و تطهير أعماله.

إنّ تكرار الأمر بالتقوى هنا تأكيد محفّز للعمل الصالح، كما أنّ الرادع عن ارتكاب الذنوب هو التقوى و الخوف من اللّه تعالى.

و احتمل البعض أنّ الأمر الأوّل للتقوى هو بلحاظ أصل إنجاز الأعمال، أمّا الثانى فإنّه يتعلّق بطبيعة الإخلاص فيها.

أو أنّ الأوّل ملاحظ فيه إنجاز أعمال الخير، بقرينة جملة (ما قدّمت). و الثانى ملاحظ فيه ما يتعلّق بتجنّب المعاصى و الذنوب.

أو أنّ الأوّل إشارة إلى التوبة من الذنوب الماضية، و الثانى (تقوى) للمستقبل.

إلّا أنّه لا توجد قرينة فى الآيات لهذه التفاسير، لذا فإنّ التأكّد أنسب.

و التعبير ب (غد) إشارة إلى يوم القيامة، لأنّه بالنظر إلى قياس عمر الدنيا فإنّه يأتى مسرعا، كما أنّ ذكره هنا بصيغة النكرة جاء لأهميّته.

و التعبير ب (نفس) دلالة على مفرد، و يمكن أن تعنى كلّ نفس، يعنى كلّ إنسان يجب أن يفكّر ب (غده) بدون أن يتوقّع من الآخرين إنجاز عمل له، و ما دام هو فى هذه الدنيا فإنّه يستطيع أن يقدّم لآخرته بإرسال الأعمال الصالحة من الآن إليها.

و قيل أنّه إشارة إلى قلّة الأشخاص الذين يفكّرون بيوم القيامة، كما نقول:

(يوجد شخص واحد يفكّر بنجاة نفسه) إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، كما أنّ خطاب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا و عمومية الأمر بالتقوى، دليل على عمومية مفهوم الآية.

و أكّدت الآية اللاحقة بعد الأمر بالتقوى و التوجّه إلى يوم القيامة على ذكر اللّه سبحانه، حيث يقول تعالى: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ

و أساسا فإنّ جوهر التقوى شيئان: ذكر اللّه تعالى، و ذلك بالتوجّه و الانشداد إليه من خلال المراقبة الدائمة منه و استشعار حضوره فى كلّ مكان و فى كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۹

الأحوال، و الخشية من محكمة عدله و دقّة حسابه الذى لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها فى صحيفة أعمالنا .. و لذا فإنّ التوجّه إلى هذين الأساسين (المبدأ و المعاد) كان على رأس البرامج التربوية للأنبياء و الأولياء، و ذلك لتأثيرها العميق فى تطهير الفرد و المجتمع.

و النقطة الجديرة بالملاحظة أنّ القرآن الكريم يعلن هنا- بصراحة- أنّ الغفلة عن اللّه تسبّب الغفلة عن الذات، و دليل ذلك واضح أيضا، لأنّ نسيان اللّه يؤدّى من جهة إلى انغماس الإنسان فى اللذات المادية و الشهوات الحيوانية، و ينسى خالقه، و بالتالى يغفل عن ادّخار ما ينبغى له فى يوم القيامة.

و من جهة اخرى فانّ نسيان اللّه و نسيان صفاته المقدّسة و أنّه سبحانه هو الوجود المطلق و العالم اللامتناهى، و الغنى اللامحدود .. و كلّ ما سواه مرتبط به، و محتاج لذاته المقدّسة .. كلّ ذلك يسبّب أن يتصوّر نفسه مستقلا و مستغنيا عن المبدأ[۲۳۹].

و أساسا فإنّ النسيان- بحدّ ذاته- من أكبر مظاهر تعاسة الإنسان و شقائه، لأنّ قيمة الإنسان فى قابلياته و لياقاته الذاتية و طبيعة خلقه التى تميّزه عن الكثير من المخلوقات، و إذا نسيها فهذا يعنى نسيان إنسانيته، و فى مثل هذه الحالة يسقط الإنسان فى وحل الحيوانية، و يصبح همّه الأكل و الشرب و النوم و الشهوات.

و هذه كلّها عامل أساس للفسق و الفجور، بل إنّ نسيان الذات هو من أسوأ مصاديق الفسق و الخروج عن طاعة اللّه، و لهذا يقول سبحانه: أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

و ممّا يجدر بيانه أنّ الآية لم تقل «لا تنسوا اللّه»، بل وردت بعبارة وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ أى كالأشخاص الذين نسوا اللّه

فأنساهم أنفسهم، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۰

فى الحقيقة بيان مصداق حسّى و واضح يمكن للإنسان أن يرى فيه عاقبة نسيان اللّه تعالى.

و الظاهر أنّ المقصود فى هذه الآية هم المنافقون و الذين أشير لهم فى الآيات السابقة، أو أنّ الملاحظ فيها هم يهود بنى النضير، أو كلاهما.

و جاء نظير هذا المعنى فى قوله تعالى: الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ ۲۴۰].

و مع وجود قدر من التفاوت بين الآيتين، أنّه ذكر نسيان اللّه هناك كسبب لقطع رحمة اللّه عن الإنسان، و فى هذه الآية محل البحث سبب لنسيان الذات. و بالتالى فإنّ الآيتين تنتهيان إلى نقطة واحدة. «فلاحظ» و فى آخر آية- مورد البحث- يستعرض سبحانه مقارنة بين هاتين الجماعتين: الجماعة المؤمنة المتّقية السائرة باتّجاه المبدأ و المعاد، و الجماعة الغافلة عن ذكر اللّه، التى ابتليت كنتيجة للغفلة عن اللّه بنسيان ذاتها.

حيث يقول سبحانه: لا يَسْتَوِى أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ.

ليس فى الدنيا، و لا- فى المعتقدات، و ليس فى طريقة التفكير و المنهج، و ليس فى طريقة الحياة الفردية و الاجتماعية للإنسان و أهدافه، و لا فى المحصّلة الأخروية و الجزاء الإلهى .. إذ أنّ خطّ كلّ مجموعة من هاتين المجموعتين فى اتّجاه متعارض .. متعارض فى كلّ شيء و كلّ مكان و كلّ هدف .. إحداهما تؤكّد على ذكر اللّه و القيامة و إحياء القيم الإنسانية الرفيعة، و القيام بالأعمال الصالحة كذخيرة ليوم لا ينفع فيه مال و لا بنون .. و الاخرى غارقة فى الشهوات و اللذات المادية، و أسيرة الأهواء و مبتلية بالنسيان ۲۴۱] .. و بهذا فإنّ الإنسان على مفترق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۱

طريقين، إمّا أن يرتبط بالقسم الأوّل، أو بالقسم الثانى، و ليس غيرهما من سبيل آخر.

و فى نهاية الآية نلاحظ حكما قاطعا حيث يضيف سبحانه: أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ

فليس فى الدار الآخرة فقط يوجد (فائزون و خاسرون) بل فى هذه الدنيا أيضا، حيث يكون الإنتصار و النجاة و السكينة من نصيب المؤمنين المتّقين، كما أنّ الهزيمة و الخسران فى الدارين تكون من نصيب الغافلين.

و نقرأ فى حديث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه فسّر (أصحاب الجنّة) بالأشخاص الذين أطاعوه، و تقبّلوا ولاية على عليه السّلام. و أصحاب النار بالأشخاص الذين رفضوا ولاية على عليه السّلام، و نقضوا العهد معه و حاربوه ۲۴۲].

و طبيعى أنّ هذا أحد المصاديق الواضحة لمفهوم الآية، و لا يحدّد عموميتها.

بحوث

۱- التعاون العقيم مع أهل النفاق

إنّ ما جاء فى الآيات أعلاه حول نقض العهد من قبل المنافقين و التخلّى عن حلفائهم فى المواقف الحرجة و الحاسمة، هو مسألة ملاحظة فى حياتنا العملية أيضا .. إنّهم شياطين يعدون هذا و ذاك بالعون و الدعم و يدفعونهم إلى لهوات الموت، و لكن حينما تحين ساعة الجدّ و الضيق يتخلّون عنهم و يهربون منهم حفاظا على أنفسهم، بالإضافة إلى أنّهم يملؤون قلوبهم بالشكّ و الوسوسة و

یدنسونهم بمختلف الذنوب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۲

و لیعلم بهذا کلّ من یروم التعاون مع النفاق و أهله، حیث سیلقی نفس المصیر السابق.

و النموذج الـذی نلاحظه فی عصرنا هو: طبیعة الاتفاقات التی تبرمها القوی الکبری و الشیاطین المعاصرین مع رؤوساء الحکومات المرتبطة بهم، و الـذی نلاحظه بصورة متکرّرة أنّ هذه الدول بالرغم من أنّها وضعت کلّ ما تملک فی طبق و قدّمته لهؤلاء المستکبرین .. إلّا أنّ هؤلاء خذلوهم فی المواطن الصعبة و الساعات الحرجة، فترکوهم لوحدهم حیث تتقاذفهم أعاصیر المحن و أمواج الأزمات، و حیث یتجسّد فیهم قول اللّه تعالی کما ورد فی القرآن الکریم بشأنهم:

کَمَثَلِ الشَّیْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اکْفُرْ فَلَمَّا کَفَرَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ

۲- قصّة العابد (برصیصا)

نقل بعض المفسّرین و أئمّة الحدیث فی نهایة الآیات روایة قصیرة عن عابد إسرائیلی اسمه (برصیصا) و هذه القصّة فی الحقیقة یمکن أن تکون موضع اعتبار و عظة للبشریة أجمع، کی یتجنّبوا طریق الهلاک، و یحذروا من الوقوع فی مصیدة الشراک الشیطانیة النخرة و التی تکون نتیجتها- حتما- السقوط فی الهاویة.

و خلاصة ما جاء فی هذه القصّة ما یلی:

یدّعی «برصیصا» قد عبد اللّه زمانا من الدهر حتّی کان یؤتی بالمجانین یداویهم و یعوذهم فیبرءون علی یدیه، و انّه أتی بامرأة قد جنّت و کان لها اخوة فأتوه بها فکانت عنده، فلم یزل به الشیطان یزیّن له حتّی وقع علیها فحملت، فلمّا استبان حملها قتلها و دفنها، فلمّا فعل ذلک ذهب الشیطان حتّی لقی أحد إخوتها فأخبره بالذی فعل الراهب و انّه دفنها فی مکان کذا، ثمّ أتی بقیّة إخوتها، و هکذا انتشر الخبر فساروا إلیه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذی فعل، فامر به فصلب، فلمّا رفع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۳

علی خشیته تمثّل له الشیطان فقال: أنا الذی ألقیت فی قلوب أهلها، و أنا و الذی أوقعتک فی هذا، فأطعنی فیما أقول أخلّصک ممّا أنت فیه، قال نعم. قال: اسجد لی سجدة واحدة، فقال: کیف أسجد لک و أنا علی هذه الحالة، فقال: أکتفی منک بالإیماء، فأومی له بالسجود فکفر باللّه و قتل، فهو قوله تعالی: کَمَثَلِ الشَّیْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اکْفُرْ ...[۲۴۳].

نعم هکذا هو مصیر من ابتلی بوسوسة الشیطان و سار فی خطّه.

۳- ما ینبغی عمله

أکّدت الآیات محل البحث وجوب اهتمام الإنسان بما یرسله من متاع سلفا لغده فی یوم القیامة، قال تعالی: وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ حیث أنّ هذه الذخیرة الاخرویة تمثّل أکبر رأسمال حقیقی للإنسان فی مشهد یوم القیامة، لذا فإنّ هذا النوع من الأعمال الصالحة یلزم إعداده و تهیئته و إرساله مسبقا، و إلّا فلا أحد یهتمّ له بعد وفاته و انقضاء أجله، و إذا أرسل شیئا فلیس له شأن یذکر.

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «تصدّقوا و لو بصاع من تمر، و لو ببضع صاع و لو بقبضة، و لو ببعض قبضة، و لو تمرة، و لو بشقّ تمرة، فمن لم یجد فبکلمة طیّبة، فإنّ أحدکم یلقی اللّه، فیقال له: ألم أفعل بک، ألم أفعل بک، أ لم أجعلک سمیعا بصیرا، أ لم أجعل لک مالا و ولدا؟ فیقول: بلی، فیقول اللّه تبارک و تعالی: فانظر ما قدّمت لنفسک، قال: فینظر قدّامه و خلفه و عن یمینه و عن

شماله، فلا یجد شیئا یقی به وجهه من النار»[۲۴۴].

و نقرأ

فی حدیث آخر أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان جالسا مع عدد من أصحابه، إذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۴

دخل قوم من قبیلهٔ «مضر»، متقلّدین السیف و متهیئین للجهاد فی سبیل اللّه، إلّا أنّ ملابسهم رثّهٔ، فعند ما رأی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم آثار الطاقهٔ و الجوع علیهم، تغیّرت ملامح وجهه، فدعا الناس إلی المسجد و ارتقی المنبر، فحمد اللّه و أثنی علیه ثمّ قال: «أمّا بعد، ذلکم فإنّ اللّه أنزل فی کتابه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ... تصدّقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدّقوا قبل أن یحال بینکم و بین الصدقهٔ، تصدّق امرؤ من دیناره، تصدّق امرؤ من درهمه، تصدّق امرؤ من برّه، من شعیرهٔ، من تمره، لا یحقّرن شیء من الصدقهٔ و لو بشقّ تمرهٔ».

فقام رجل من الأنصار، و أعطی کیسا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فظهرت آثار الفرحهٔ و السرور علی وجهه المبارک، ثمّ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من سنّ فی الإسلام سنّهٔ حسنهٔ فعمل بها کان له أجرها و مثل أجر من عمل بها، لا ینقص من أجورهم شیئا، و من سنّ سنّهٔ سیّئهٔ فعمل بها کان علیه وزرها و وزر من عمل بها، لا ینقص من أوزارهم شیئا. فقام الناس فتفرّقوا فمن ذی دینار و من ذی درهم و من ذی طعام و من ذی و من ذی فاجتمع فقسّمه بینهم».

و قد أکّدت هذا المعنی آیات قرآنیهٔ اخری و لمرّات عدیدهٔ، و من جملهٔ ذلک ما ورد فی قوله تعالی: وَ أَقِیمُوا الصَّلاهَٔ وَ آتُوا الزَّکاهَٔ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِکُمْ مِنْ خَیْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ[۲۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۵

الآیات [سورهٔ الحشر (۵۹): الآیات ۲۱ الی ۲۴]

اشارهٔ

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلی جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَهِٔ اللَّهِ وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (۲۱) هُوَ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَهِٔ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِیمُ (۲۲) هُوَ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِکُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَیْمِنُ الْعَزِیزُ الْجَبَّارُ الْمُتَکَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا یُشْرِکُونَ (۲۳) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی یُسَبِّحُ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۲۴)

التّفسیر

لو نزل القرآن علی جبل:

تکملهٔ للآیات السابقهٔ التی کانت تهدف إلی تحریک النفوس و القلوب الإنسانیهٔ، و خاصّهٔ عن طریق التذکیر بالنهایهٔ التی یکون علیها الإنسان، و المصیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۶

الذی ینتظره، و الذی یجدر أن یهیّئه فی أبهی و أفضل صورهٔ .. تأتی هذه الآیات المبارکات التی هی آخر آیات سورهٔ الحشر، و التی

تأخذ بنظر الإعتبار مجمل ما ورد من آيات هذه السورة، لتوضّح حقيقة اخرى حول القرآن الكريم، و هى: أنّ هذا الكتاب المبارك له تأثير عميق جدّا حتّى على الجمادات، حيث أنّه لو نزل على الجبال لهزّها و حرّكها و جعلها فى وضع من الاضطراب المقترن بالخشوع ..

إلّا أنّه- مع الأسف- هذا الإنسان القاسى القلب يسمع آيات اللّه تتلى عليه و لا تتحرّك روحه و لا يخشع قلبه، يقول سبحانه: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

فسّر الكثير من المفسّرين هذه الآيات بأنّها تشبيه، و قالوا: إنّ الهدف من ذلك هو بيان أنّ هذه الآيات إذا نزلت على الجبال بكلّ صلابتها و قوّتها إذا كان لها عقل و شعور- بدلا من نزولها على قلب الإنسان- فانّها تهتزّ و تضطرب إلى درجة أنّها تتشقّق، إلّا أنّ قسما من الناس ذوى القلوب القاسية و التى هى كالحجارة أو أشدّ قسوة لا يسمعون و لا يعون و لا يتأثّرون أدنى تأثير، و جملة: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ اعتبرت دليلا و شاهدا على هذا الفهم.

و قد حملها البعض الآخر على ظاهرها و قالوا: إنّ كلّ الموجودات فى هذا العالم- و من جملتها الجبال- لها نوع من الإدراك و الشعور الخاصّ بها، و إذا نزلت هذه الآيات عليها فانّها ستتلاشى، و دليل هذا ما ورد فى الآية (۷۴) من سورة البقرة فى وصف جماعة من اليهود، قال تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

و التعبير ب (مثل) يمكن أن يكون بمعنى هذا الوصف، كما جاءت هذه الكلمة مرارا مجسّدة لنفس المعنى، و بناء على هذا، فإنّ التعبير المذكور لا يتنافى مع هذا التّفسير.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۷

و الشيء الممكن ملاحظته هنا، أنّه تعالى يقول فى البداية: إنّ الجبال تخشع و تخضع للقرآن الكريم، و يضيف أنّها تتشقّق، إشارة إلى أنّ القرآن الكريم ينفذ تدريجيّا فيها، و بعد كلّ فترة تظهر عليها آثار جديدة من تأثيرات القرآن الكريم، إلى حدّ تفقد فيه قدرتها و استطاعتها فتكون كالعاشق الواله الذى لا قرار له ثمّ تنصدع و تنشقّ ۲۴۶].

الآيات اللاحقة تستعرض قسما مهمّا من صفات جمال و جلال اللّه سبحانه، التى لكلّ واحدة منها الأثر العميق فى تربية النفوس و تهذيب القلوب. و تحوى الآيات القرآنية الثلاثة خمسة عشر وصفا للّه سبحانه، أو بتعبير آخر فإنّ ثمانى عشرة صفة من صفاته العظيمة تذكرها ثلاث آيات، و كلّ منها تتعلّق ببيان التوحيد الإلهى و الاسم المقدّس، و توضّح للإنسان طريق الهداية إلى العالم النورانى لأسماء و صفات الحقّ سبحانه، يقول تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ

هنا و قبل كلّ شيء يؤكّد على مسألة التوحيد، التى هى أصل لجميع صفات الجمال و الجلال، و هى الأصل و الأساس فى المعرفة الإلهية، ثمّ يذكر علمه بالنسبة للغيب و الشهود.

«الشهادة» و «الشهود»- كما يقول الراغب فى المفردات- هى الحضور مقترنا بالمشاهدة سواء بالعين الظاهرة أو بعين البصيرة، و بناء على هذا، فكلّ مكان تكون للإنسان فيه إحاطة حسيّة و علمية يطلق عليها عالم شهود، و كلّ ما هو خارج عن هذه الحدود يطلق عليه «عالم الغيب» و كلّ ذلك فى مقابل علم اللّه سواء، لأنّ وجوده اللامتناهى فى كلّ مكان حاضر و ناظر، فلا مكان- إذن- خارج حدود علمه و حضوره، قال تعالى:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۸

وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ[۲۴۷].

و التوجّه بهذا الفهم نحو الذات الإلهية يؤدّى بالإنسان إلى الإيمان بأنّ اللّه حاضر و ناظر فى كلّ مكان، و عندئذ يتسلّح بالتقوى، ثمّ يعتمد على رحمته العامّة التى تشمل جميع الخلائق: (الرحمن) و رحمته الخاصّة التى تخصّ المؤمنين، (و الرحيم) لتعطى للإنسان

أملا، و لتعينه فى طريق بناء نفسه و التكامل بأخلاقه و سلوكه بالسير نحو اللّه، لأنّ هذه المرحلة- الحياة الدنيا- لا يمكن للإنسان أن يجتازها بغير لطفه، لأنّها ظلمات و خطر و ضياع.

و بهذا العرض- بالإضافة إلى صفة التوحيد- فقد بيّنت الآية الكريمة ثلاثة من صفاته العظيمة، التى كلّ منها تلهمنا نوعا من المعرفة و الخشية للّه سبحانه.

أمّا فى الآية اللاحقة، فبالإضافة إلى التأكيد على مسألة التوحيد فإنّها تذكر ثمانية صفات اخرى للّه سبحانه، حيث يقول البارئ عزّ و جلّ: هُوَ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

الْمَلِکُ الحاكم و المالك الحقيقى لجميع الكائنات.

الْقُدُّوسُ المنزّه من كلّ نقص و عيب.

السَّلامُ ۲۴۸] لا يظلم أحد، و جميع الخلائق فى سلامة من جهته.

و أساسا فإنّ دعوة اللّه تعالى هى للسلامة وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ ۲۴۹].

و هدايته أيضا باتّجاه السلامة يَهْدِی بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ۲۵۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٢١٩

و المقرّ الذى اعدّ للمؤمنين أيضا هو: بيت السلامة لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و تحيّة أهل الجنّة أيضا ليست بشىء سوى السّلام: إِلَّا قِیلًا سَلاماً سَلاماً[۲۵۱].

ثمّ يضيف سبحانه:

الْمُؤْمِنُ ۲۵۲] يعطى الأمان لأحبّائه، و يتفضّل عليهم بالإيمان.

الْمُهَیْمِنُ الحافظ و المراقب لكلّ شىء[۲۵۳].

الْعَزِیزُ القادر الذى لا يقهر.

الْجَبَّارُ مأخوذ من (جبر) يأتى أحيانا بمعنى القهر و الغلبة و نفوذ الإرادة، و أحيانا بمعنى الإصلاح و التعويض، و مرج الراغب فى المفردات كلا المعنيين حيث يقول: «و أصل (جبر) إصلاح شىء بالقوّة و الغلبة» و عند ما يستعمل هذا اللفظ للّه تعالى، فإنّه يبيّن أحد صفاته الكبيرة، حيث أنّ نفوذ إرادته، و كمال قدرته يصلح كلّ فساد. و إذا استعملت فى غير اللّه أعطت معنى المذمّة، و كما يقول الراغب فإنّها تطلق على الشخص الذى يريد تعويض نقصه بإظهاره لأمور غير لائقة، و قد ورد هذا المصطلح عشر مرّات فى القرآن الكريم، تسع مرّات حول الأشخاص الظالمين و المستكبرين المتسلّطين على رقاب الامّة و المفسدين فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٢٢٠

الأرض و مرّة واحدة فقط عن اللّه القادر المتعال، حيث ورد بهذا المعنى فى الآية مورد البحث.

ثمّ يضيف سبحانه: الْمُتَکَبِّرُ.

«المتكبر» من مادّة (تكبر) و جاءت بمعنيين:

الأوّل: استعملت صفة المدح، و قد أطلقت على لفظ الجلالة، و هو اتّصافه بالعلو و العظمة و السمات الحسنة بصورة عامّة.

و الثّانى: استعملت صفة الذمّ و هو ما يوصف به غير اللّه عزّ و جلّ، حيث تطلق على الأشخاص صغار الشأن و قليلى الأهميّة .. الذين يدّعون الشأن و المقام العالى، و ينعتون أنفسهم بصفات حسنة غير موجودة فيهم.

و لأنّ العظمة و صفات العلو و العزّة لا تكون لائقة لغير مقام اللّه سبحانه، لذا استعمل هذا المصطلح هنا بمعناه الإيجابى حول اللّه سبحانه. و كلّما استعمل لغير اللّه أعطى معنى الذمّ.

و فى نهاية الآية يؤكّد مرّة اخرى مسألة التوحيد التى كان الحديث حولها ابتداء حيث يقول تعالى: سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا یُشْرِکُونَ

و مع التوضيح المذكور فإنّ من المؤكّد أنّ كلّ موجود لا يستطيع أن يكون شريكا و شبيها و نظيرا للصفات الإلهية التى ذكرت هنا.

و فى آخر آية مورد للبحث يشير سبحانه إلى ستّ صفات اخرى حيث يقول تعالى:

هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ

الْبارِئُ ۲۵۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۱

الْمُصَوِّرُ.

و لأنّ صفات اللّه لا تنحصر فقط بالتى ذكرت فى هذه الآية فإنّه سبحانه يشير إلى صفة أساسية لذاته المقدّسة اللامتناهية، حيث يقول عزّ و جلّ: لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى

و لهذا السبب فإنّه سبحانه منزّه و مبرّأ من كلّ عيب و نقص يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و يعتبرونه تامّا و كاملا من كلّ نقص و عيب.

و أخيرا- للتأكيد الأكثر على موضوع نظام الخلقة- يشير سبحانه إلى وصفين آخرين من صفاته المقدّسة، التى ذكر أحدهما فى السابق بقوله تعالى: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

الاولى دليل كمال قدرته على كلّ شيء، و غلبته على كلّ قوّة.

و الثانية إشارة إلى علمه و اطّلاعه و معرفته ببرامج الخلق و تنظيم الوجود و تدبير الحياة.

و بهذه الصورة فإنّ مجموع ما ورد فى الآيات الثلاث بالإضافة إلى مسألة التوحيد التى تكرّرت مرّتين، فإنّ مجموع الصفات المقدّسة للّه سبحانه تكون سبع عشرة صفة مرتبة بهذا الشكل:

۱- عالم الغيب و الشهادة.

۲- الرحمن.

۳- الرحيم.

۴- الملك.

۵- القدّوس.

۶- السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۲

۷- المؤمن.

۸- المهيمن.

۹- العزيز.

۱۰- الجبّار.

۱۱- المتكبّر.

۱۲- الخالق.

۱۳- البارئ.

۱۴- المصوّر.

۱۵- الحكيم.

۱۶- له الأسماء الحسنى.

۱۷- الموجود الذی تسبّح له کلّ موجودات العالم.

و مع صفة التوحید یصبح عدد الصفات ثمانی عشرة صفة. و یرجی الانتباه إلی أنّ «التوحید» و «العزیز» جاء کلّ منها مرّتین.

و من بین مجموع هذه الصفات فإنّنا نلاحظ تنظیما خاصّا فی الآیات الثلاث و هو: فی الآیة الاولی یبحث عن أعمّ صفات الذات و هی (العلم) و أعمّ صفات الفعل و هی (الرحمة) التی هی أساس کلّ أعماله تعالی.

و فی الآیة الثانیة یتحدّث عن حاکمیته و شؤون هذه الحاکمیة و صفاته ک (القدّوس و السّلام و المؤمن و الجبّار و المتکبّر) و بملاحظة معانی هذه الصفات- المذکورة أعلاه- فإنّ جمیعها من خصوصیات هذه الحاکمیة الإلهیة المطلقة.

و فی الآیة الأخیرة یبحث مسألة الخلق و ما یرتبط بها من انتظام فی مقام تسلسل الخلقة و التصویر، و کذلک البحث فی موضوع القدرة و الحکمة الإلهیة.

و بهذه الصورة فإنّ هذه الآیات تأخذ بید السائرین فی طریق معرفة اللّه، و تقودهم من درجة إلی درجة و من منزل إلی منزل، حیث تبدأ الآیات أوّلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۳

بالحدیث عن ذاته المقدّسة، و من ثمّ إلی عالم الخلقة، و تارة اخری بالسیر نحو اللّه تعالی، حیث ترتفع روحیته إلی سمو الواحد الأحد، فیتطهّر القلب بالأسماء و الصفات الإلهیة المقدّسة، و یربی فی أجواء هذه الأنوار و المعارف، حیث تنمو براعم التقوی علی ظاهر أغصان وجوده، و تجعله لائقا لقرب جواره لکی یکون وجودا منسجما مع کلّ ذرّات الوجود، مردّدین معا ترانیم التسبیح و التقدیس.

لذا فلا عجب أن تختص هذه الآیة بصورة متمیّزة فی الروایات الإسلامیة التی سنشیر إلیها فیما یلی ..

ملاحظتان

۱- التأثیر الخارق للقرآن الکریم

إنّ لتأثیر القرآن الکریم فی القلوب و الأفکار واقعیة لا تنکر، و علی طول التاریخ الإسلامی لوحظت شواهد عدیدة علی هذا المعنی، و ثبت عملیا أنّ أقسی القلوب عند سماعها لآیات محدودة من القرآن الکریم تلین و تخضع و تؤمن بالذی جاء بالقرآن دفعة واحدة، اللهمّ عدا الأشخاص المعاندین المکابرین فقد استثنوا من ذلک حیث طبع اللّه علی قلوبهم فهم لا یفقهون، و لیس هنالک من أمل فی هدایة نفوسهم المدبرة عن اللّه سبحانه.

و نقرأ فی الآیات أعلاه العرض الرهیب الذی یصوّر نزول القرآن علی جبل، و ما هو الأثر سیحدثه حیث الخضوع و التصدّع و الخشوع، و هذه کلّها دلیل تأثیر هذا الکلام الإلهی الذی نحسّ بحلاوة طعمه عند التلاوة المقرونة بحضور القلب.

۲- عظمة الآیات الأخیرة لسورة الحشر

إنّ الآیات الأخیرة لهذه السورة- التی اشتملت علی قسم مهمّ من الأسماء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۴

و الصفات الإلهیة- آیات خارقة و عظیمة و ملهمة، و هی درس تربوی کبیر للإنسان، لأنّها تقول له: إذا کنت تطلب قرب اللّه، و ترید

العظمة و الکمال .. فاقتبس من هذه الصفات نورا یضیء وجودک.

و جاء فی بعض الرّوایات أنّ «اسم اللّه الأعظم» هو فی الآیات الأخیرة من سورة الحشر[۲۵۵].

و نقرأ

فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «من قرأ آخر الحشر غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر»[۲۵۶].

و

جاء فی حدیث آخر أنّه قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأ لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ .. إلی آخرها، فمات من لیلته مات شهیدا»[۲۵۷].

و

یقول أحد الصحابة: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الاسم الأعظم للّه، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «علیک بآخر الحشر و أکثر قراءتها»[۲۵۸].

حتّی أنّه جاء

فی حدیث: «أنّها شفاء من کلّ داء إلّا السأم، و السأم:

الموت»[۲۵۹].

و الخلاصة أنّ الروایات التی جاءت فی هذا المجال کثیرة فی کتب الشیعة و أهل السنّة، و تدلّ جمیعها علی عظمة هذه الآیات و لزوم التفکّر فی محتواها.

و الجدیر بالملاحظة أنّ هذه السورة کما أنّها بدأت بتسبیح اللّه و اسمه العزیز الحکیم، فکذلک انتهت باسمه العزیز الحکیم، إذ أنّ الهدف النهائی للسورة هو معرفة اللّه و تسبیحه و التعرّف علی أسمائه و صفاته المقدّسة.

و حول أسماء اللّه- التی أشیر إلیها فی الآیات أعلاه- کان لدینا بحث مفصّل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۵

فی نهایة الآیة (۱۸) من سورة الأعراف.

اللهمّ، نقسم علیک بعظمة أسمائک و صفاتک أن تجعل قلوبنا خاشعة خاضعة أمام القرآن الکریم.

ربّنا إنّ مصیدة الشیطان خطیرة، و لا خلاص لنا منها إلّا بلطفک، فاحفظنا فی ظلّ لطفک من وساوس الشیطان.

إلهنا، تفضّل علینا بروح الإیثار و التقوی و الابتعاد عن البخل و البغض و الحسد، و جنّبنا حبّ الذات و الأنانیة ..

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة الحشر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۷

سورة الممتحنة مدنیّة

اشارة

و عدد آیاتها ثلاث عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۹

«سورة الممتحنة»

محتوى السورة:

تتكوّن موضوعات هذه السورة من قسمين:

القسم الأوّل: يتحدّث عن موضوع «الحبّ فى اللّه» و «البغض فى اللّه»، و ينهى عن عقد الولاء و الودّ مع المشركين، و يدعو المسلمين لكى يستلهموا من سيرة الرّسول العظيم إبراهيم عليه السّلام فيما يتعلّق بموقفه من أقرب الأقربين إليه (أبيه آزر) بلحاظ ما يمليه عليه الموقف المبدئى، كما تذكر بعض الخصوصيات الاخرى فى هذا المجال و يتكرّر هذا المعنى فى نهاية السورة، كما فى بدايتها.

القسم الثانى: يتناول هذا القسم مسائل المرأة المهاجرة و ضرورة تمحيصها، كما يبيّن أحكاما اخرى فى هذا الصدد. و إختيار اسم (الممتحنة) لهذه السورة كان بلحاظ حالة التمحيص و الامتحان التى وردت فى الآية العاشرة من هذه السورة[۲۶۰].

كما ذكر اسم آخر لهذه السورة و هو (سورة المودّة) و ذلك بلحاظ النهى عن عقد الولاء و الودّ مع المشركين، و قد أكّدت عليه السورة كثيرا.

فضيلة تلاوة سورة الممتحنة:

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الممتحنة كان المؤمنون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۰

و المؤمنات له شفعاء يوم القيامة»[۲۶۱].

و جاء

فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام: «من قرأ سورة الممتحنة فى فرائضه و نوافله، امتحن اللّه قلبه للإيمان، و نوّر له بصره، و لا يصيبه فقر أبدا، و لا جنون فى بدنه و لا فى ولده»[۲۶۲].

و من الواضح أنّ كلّ هذه النعم و الألطاف الإلهية تكون للأشخاص الذين يجسّدون مفاهيم الآيات التى وردت فى هذه السورة فى مجال الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه و الجهاد فى سبيله، و يطبّقون محتواها، و لا يكتفون بالتلاوة السطحية الفارغة من محتوى الروح، و البعيدة عن العلم و العمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۱

الآيات [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (۲) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳)

سبب النّزول

صرّح أغلب المفسّرين (لكن باختلاف يسير) بأنّ هذه الآيات- أو الآية

الاولى بصورة أخصّ- نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة.

و فى هذا الصدد نذكر ما

أورده العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان حول ذلك حيث يقول: «إنّ سارة مولاة أبى عمرو بن صيفى بن هشام أتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة إلى المدينة بعد بدر بسنتين، فقال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أ مسلمة جئت؟ قالت: لا- قال: أ مهاجرة جئت؟ قالت: لا- قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل و العشيرة و الموالى و قد ذهب موالى و احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطونى و تكسونى و تحملونى. قال: فأين أنت من شباب مكّة؟ و كانت مغنية نائحة، فقالت: ما طلب منّى بعد وقعة بدر (و هذا يدلّ على عمق النازلة التى نزلت بمشركى قريش فى بدر) فحثّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليها بنى عبد المطّلب فكسوها و حملوها و أعطوها نفقة، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتجهّز لفتح مكّة، فأتاها حاطب بن أبى بلتعة و كتب معها كتابا إلى أهل مكّة و أعطاها عشرة دنانير و كساها بردا على أن توصل الكتاب إلى أهل مكّة و كتب فى الكتاب: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكّة إنّ رسول اللّه يريدكم فخذوا حذركم. فخرجت سارة و نزل جبرائيل فأخبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما فعل، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليا و عمّارا و عمر و الزبير و طلحة و المقداد بن الأسود و أبا مرثد و كانوا كلّهم فرسانا و قال لهم: انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فانّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتّى أدركوها فى ذلك المكان، فقالوا لها أين الكتاب؟ فحلفت باللّه ما معها من كتاب، فنحوها و فتّشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا، فهمّوا بالرجوع، فقال على عليه السّلام: و اللّه ما كذّبنا و لا كذّبنا، و سلّ سيفه و قال: أخرجى الكتاب و إلّا و اللّه لأضربنّ عنقك. فلمّا رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول اللّه و اللّه ما كفرت منذ أسلمت و لا غششتك منذ نصحتك، و لا أحببتهم منذ فارقتهم، و لكن لم يكن أحد من

المهاجرين إلّا و له بمكّة من يمنع عشيرته و كنت عريرا فيهم (أى غريبا) و كان أهلى بين ظهرانيهم فخشيت على أهلى فأردت أن أتّخذ عندهم يدا، و قد علمت أنّ اللّه ينزل بهم بأسه و أنّ كتابى لا يغنى عنهم شيئا. فصدّقه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عذره، فقام عمر بن الخطاب و قال: دعنى يا رسول اللّه أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما يدريك يا عمر لعلّ اللّه اطّلع على أهل بدر فغفر لهم فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. و كيفية العلاقة التى يجب أن تتحكّم بين المسلمين من جهة، و المشركين و أعداء اللّه من جهة اخرى، و التأكيد على إلغاء و تجنّب أى ولاء مع أعداء اللّه ۲۶۳].

التّفسير

نتيجة الولاء لأعداء اللّه:

علمنا ممّا تقدّم أنّ سبب نزول الآيات السابقة هو التصرّف المشين الذى صدر من أحد المسلمين (حاطب بن أبى بلتعة) و رغم أنّه لم يكن قاصدا التجسّس إلّا أنّ عمله نوع من إظهار المودّة لأعداء الإسلام، فجاءت الآيات الكريمة تحذّر المسلمين من تكرار مثل هذه التصرّفات مستقبلا و تنهاهم عنها.

یقول سبحانه فی البدایة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیاءَ مؤکّدا أنّ أعداء اللّه وحدهم هم الذین یضمرون العداء للمؤمنین و الحقد علیهم، و مع هذا التصوّر فکیف تمدّون ید الصداقة و الودّ لهم؟

و یضیف تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۴

تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ کَفَرُوا بِما جاءَکُمْ مِنَ الْحَقِّ یُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِیَّاکُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّکُمْ ۲۶۴].

إنّهم یخالفونکم فی العقیدة، کما أنّهم شنّوا علیکم الحرب عملیّا، و یعتبرون إیمانکم باللّه- الذی هو أکبر فخر لکم و أعظم قداسة تجلّلکم- غایة الجرم و أعظم الذنب، و لهذا السبب قاموا بإخراجکم من دیارکم و شتّتوکم من بلادکم .. و مع هذه الأعمال التی مارسوها معکم، هل من المناسب إظهار المودّة لهم، و السعی لإنقاذهم من ید العدالة و الجزاء الإلهی علی ید المقاتلین المسلمین المقتدرین؟

ثمّ یضیف القرآن الکریم موضّحا: إِنْ کُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِی سَبِیلِی وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِی ۲۶۵] فلا تعقدوا معهم أواصر الولاء و الودّ. فإذا کنتم ممّن تدّعون حبّ اللّه حقّا، و هاجرتم من دیارکم لأجله سبحانه و ترغبون فی الجهاد فی سبیله طلبا لرضاه تعالی، فإنّ هذه الأهداف العظیمة لا یناسبها إظهار الولاء لأعداء اللّه سبحانه.

ثمّ یضیف عزّ و جلّ للمزید من الإیضاح فیقول: تُسِرُّونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَیْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ ۲۶۶][۲۶۷].

و بناء علی هذا فما عسی أن یغنی الإخفاء و هو واقع بعلم اللّه فی الغیب و الشهود؟

و فی نهایة الآیة نجد تهدیدا شدیدا لمن یجانب السبیل الذی أمر به اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۵

سبحانه بقوله: وَ مَنْ یَفْعَلْهُ مِنْکُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِیلِ

فمن جهة انحرف عن معرفة اللّه تعالی بظنّه أنّ اللّه لا- یعلم و لا- یری ما یصنع، و کذلک انحرف عن طریق الإیمان و الإخلاص و التقوی، حینما یعقد الولاء و تقام أواصر المودّة مع أعداء اللّه، و بالإضافة إلی ذلک فانّه وجّه ضربة قاصمة إلی حیاته حینما أفشی أسرار المسلمین إلی الأعداء، و یمثّل ذلک أقبح الأعمال و أسوأ الممارسات حینما یسقط الشخص المؤمن بهذا الوحل و یقوم بمثل هذه الأعمال المنحرفة بعد بلوغه مرتبة الإیمان و القداسة.

و فی الآیة اللاحقة یضیف سبحانه للتوضیح و التأکید الشدید فی تجنّب موالاتهم: إِنْ یَثْقَفُوکُمْ یَکُونُوا لَکُمْ أَعْداءً وَ یَبْسُطُوا إِلَیْکُمْ أَیْدِیَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ[۲۶۸].

أنتم تکنّون لهم الودّ فی الوقت الذی یضمرون لکم حقدا و عداوة عمیقة و متأصّلة، و إذا ما ظفروا بکم فإنّهم لن یتوانوا عن القیام بأی عمل ضدّکم، و ینتقمون منکم و یؤذونکم بأیدیهم و بألسنتهم و بمختلف وسائل المکر و الغدر فکیف- إذن- تتألّمون و تحزنون علی فقدانهم مصالحهم؟

و الأدهی من ذلک هو سعیهم الحثیث فی ردّکم عن دینکم و إسلامکم، و العمل علی تجریدکم من أعظم مکسب و أکبر مفخرة لکم، و هی حقیقة الإیمان وَ وَدُّوا لَوْ تَکْفُرُونَ و هذه أوجع ضربة و أعظم مأساة و أکبر داهیة یریدون إلحاقها بکم.

و فی آخر آیة من هذه الآیات یستعرض سبحانه الجواب علی «حاطب بن أبی بلتعة» و من یسایره فی منهجه من الأشخاص، حینما قال فی جوابه لرسول اللّه عن السبب الذی حدا به إلی إفشاء أسرار المسلمین لمشرکی مکّة، حیث قال بلتعة: أهلی و عیالی فی مکّة، و أردت أن أمنع عنهم الأذی و أصونهم بعملی هذا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۶

(و اتّخذ عند أهلها یدا) یقول تعالی: لَنْ تَنْفَعَکُمْ أَرْحامُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ

و ذلـک لأنّ الأرحـام و الأولاد المشـرکین سوف لن یجلبوا خیرا و عزّة فی الـدنیا و لا نجاة فی الآخرة. إذن لماذا تتصـرّفون و تعملون مثل هذا العمل الذی یوجب سخط الباریٔ، و ذلک بالتقرّب من أعداء اللّه و إرضاء المشرکین و البعد عن أولیائه تعالی و جلب الضرر علی المسلمین؟

ثمّ یضیف تعالی: یَوْمَ الْقِیامَهًِْ یَفْصِلُ بَیْنَکُمْ ۲۶۹].

و هـذا تأکیـد علی أنّ مقـام أهل الإیمان هو الجنّـة، و أنّ أهل الکفر یساقون إلی جهنّم و بئس المصـیر، و هو بیان آخر و توضـیح لما تقـدّم سابقا من أنّ عملیـة الفرز و الفصل سـتکون فیما بینکم، حیث سـتقطع الأواصـر بصورة تامّـة بین الأرحام بلحاظ طبیعة الإیمان و الکفر الـذی هم علیه، و لن یغنی أحد عن الآخر شـیئا، و هذا المعنی مشابه لما ورد فی قوله تعالی: یَوْمَ یَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِیهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِیهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِیهِ ۲۷۰].

و فی نهایة الآیة یحذّر الجمیع مرّة اخری بقوله تعالی: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ.

إنّه عالم بنیّاتکم، و عالم بالأعمال التی تصـدر منکم، سواء کانت فی حالـة السـرّ أو العلن، و إذا کانت المصـلحة الإلهیـة تقتضـی عدم إفشاء أسـرارکم أحیانا کما فی حادثـة حاطب بن أبی بلتعـة، فلأنّها لحکمة أو مصـلحة یراها سـبحانه، و لیس لأنّه لا یعلم بها أو تخفی علیه خافیة.

و فی الحقیقة إنّ علم اللّه بالغیب و الشهود، و السرّ و العلن، وسیلة مؤثّرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۷

و عظیمة فی تربیة الإنسان حیث یشـعر دائما بأنّه فی محضـر الباریٔ عزّ و جلّ الرقیب علی قوله و عمله، بل حتّی علی نیّته، و هنا تصدق مقولة أنّ التقوی ولیدة المعرفة التامّة باللّه عزّ و جلّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۸

الآیات [سورة الممتحنة (۶۰): الآیات ۴ الی ۶]

اشارة

قَدْ کانَتْ لَکُمْ أُسْوَةٌ حَسَـنَهًٌْ فِی إِبْراهِیمَ وَ الَّذِینَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْکُمْ وَ مِمَّا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ کَفَرْنا بِکُمْ وَ بَدا بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّی تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ لَأَسْـتَغْفِرَنَّ لَکَ وَ ما أَمْلِکُ لَکَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَـیْءٍ رَبَّنا عَلَیْکَ تَوَکَّلْنـا وَ إِلَیْکَ أَنَبْنا وَ إِلَیْکَ الْمَصِـیرُ (۴) رَبَّنـا لاـ تَجْعَلْنـا فِتْنَهًًْ لِلَّذِینَ کَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۵) لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِیهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کانَ یَرْجُوا اللَّهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ (۶)

التّفسیر

أسوة للجمیع:

إنّ منهج القرآن (من أجل التأکید علی تعالیمه القیّمة) یعتمد فی کثیر من الموارد طریقة الاستشهاد بنماذج أساسیة فی عالم الإنسانیة و الحیاة، و بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۹

التشدیـد السابق الـذی مرّ بنا خلال آیات السابقـة فی تجنّب عقـد الولاء لأعداء اللّه، یتحدّث القرآن الکریم عن إبراهیم علیه السّـلام و

منهجه القدوة كنموذج رائد يحظى باحترام جميع الأقوام و خصوصا العرب منهم.

قال تعالى: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ ۲۷۱].

إنّ حياة إبراهيم عليه السّلام الذى هو كبير الأنبياء، تلهمنا دروس العبودية للّه، و الطاعة و الجهاد فى سبيله، و الوله و الحبّ لذاته المقدّسة، إنّ هذا النبى العظيم الذى كانت الامّة الإسلامية من بركة دعائه، و هى معتزّة بالتسمية التى أطلقها عليهم، هو لكم أسوة حسنة فى هذا المجال.

و المراد من تعبير الَّذِينَ مَعَهُ هم المؤمنون الذين ساروا برفقته فى هذا الطريق بالرغم من قلّة عددهم، و هنا رأى آخر فى تفسير الَّذِينَ مَعَهُ يرى أنّ المقصود هم الأنبياء الذين كانوا يشاركونه بالرأى، أو أنّ المقصود هم الأنبياء المعاصرون له، و هو احتمال مستبعد، خاصّة إذا أخذنا ما يناسب المقام فى تشبيه القرآن الكريم لرسول الإسلام محمّد بإبراهيم عليه السّلام، و تشبيه المسلمين بأصحابه و أعوانه.

و جاء فى التواريخ أيضا أنّ جماعة فى «بابل» آمنوا بإبراهيم عليه السّلام بعد مشاهدة المعاجز التى ظهرت على يديه، و صاحبوه فى الهجرة، قال ابن الأثير فى الكامل (ثمّ إنّ إبراهيم و الذين اتّبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم فخرج مهاجرا)[۲۷۲].

ثمّ يضيف سبحانه لتوضيح هذا المعنى:

إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۲۷۳].

و هكذا يكون الموقف القاطع و الحاسم من جانب المؤمنين إزاء أعداء اللّه، بقولهم لهم: إنّنا لا نرتضيكم و لا نقبلكم، لا أنتم و لا ما تؤمنون به من معتقدات، إنّنا نبتعد و ننفر منكم و من أصنامكم التى لا قيمة لها.

و مرّة أخرى يؤكّدون مضيفين: «كفرنا بكم»، و الكفر هنا هو كفر البراءة الذى أشير له فى بعض الروايات ضمن ما ورد فى تعدّد أقسام الكفر الخمسة[۲۷۴].

و يضيفون للمرّة الثالثة مؤكّدين بصورة أشدّ: وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ

و بهذا الإصرار و بهذه القاطعية و بدون أى تردّد أو مواربة يعلن المؤمنون انفصالهم و ابتعادهم و نفرتهم من أعداء اللّه حتّى يؤمنوا باللّه وحده، و هم مستمرّون فى موقفهم و إلى الأبد و لن يتراجعوا عنه أو يعيدوا النظر فيه إلّا إذا غيّر الكفّار مسارهم و تراجعوا عن خطّ الكفر إلى الإيمان.

و لأنّ هذا القانون العامّ كان له استثناء فى حياة إبراهيم عليه السّلام يتجسّد ذلك بإمكانية هداية بعض المشركين حيث يقول سبحانه معقّبا: إنّ هؤلاء قطعوا كلّ ارتباط لهم مع قومهم الكافرين حتّى الكلام الودود و الملائم: إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

إنّ هذا الاستثناء- فى الحقيقة- كان فى مسألة قطع كلّ ارتباط مع عبدة الأصنام من قبل إبراهيم عليه السّلام و أصحابه، كما أنّ هذا الاستثناء كانت له شروطه و مصلحته الخاصّة، لأنّ القرائن تظهر لنا أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يرى فى عمّه (آزر) استعدادا لقبول الإيمان.

و لمّا كان (آزر) قلقا من آثام سابقته الوثنية و عبادته للأصنام أوعده إبراهيم

عليه السّلام أنّه إذا تبنّى طريق التوحيد فإنّه عليه السّلام سيستغفر له اللّه سبحانه، و قد عمل بما وعده به، إلّا أنّ آزر لم يؤمن و بقى على ضلاله، و عند ما اتّضح لإبراهيم أنّه عدوّ اللّه و سوف لن يؤمن أبدا، لم يستغفر له ثانية و قطع علاقته به.

و لمّا كان المسلمون مطّلعين على منهج إبراهيم عليه السّلام فى تعامله مع «آزر» بصورة إجمالية، فقد كان من المحتمل أن يكون هذا

الموقف موضع إحتجاج لأشخاص مثل (حاطب بن أبی بلتعة) حیث کانوا یقیمون العلاقات و الارتباطات السریّة مع الکفّار، و لهذا فالقرآن الکریم یقطع الطریق علی مثل هذه التصوّرات و یعلن- صراحة- أنّ هذا الاستثناء قد تمّ تحت شروط خاصّة، و کان أسلوبا لاستدراج (آزر) إلی الهدی و إدخاله فی الإیمان، و لم یکن لأهداف دنیویة آنیة أو مصلحة وقتیة، لذا یقول عزّ و جلّ فی بیان هذا المعنی: وَ ما کانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِیَّاهُ فَلَمَّا تَبَیَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِیمَ لَأَوَّاهٌ حَلِیمٌ ۲۷۵].

إلّا أنّ بعض المفسّرین یری أنّ هذا الأمر کان استثناء من التأسّی ب (إبراهیم)، و قالوا یجب الاقتداء به فی جمیع الأمور إلّا فی استغفاره لعمّه آزر.

إلّا أنّ هذا المعنی بعیدا جدّا لأنّه:

أوّلا: کان علیه السّلام أسوة فی جمیع الأمور و من ضمنها إتّباع هذا المنهج، و ذلک بلحاظ أنّ الشروط التی توفّرت فی (آزر) توفّرت أیضا فی بعض المشرکین و عند ذلک لا بدّ من إظهاره المودّة لهم و تهیئة الأجواء الطیّبة لهم، و جذبهم للإیمان.

و ثانیا: أنّ إبراهیم علیه السّلام نبی معصوم من أنبیاء اللّه العظام و من المجاهدین اللامعین، و أعماله کلّها أسوة للمؤمنین، و عندئذ لا داعی لاستثناء هذه المسألة من التأسّی به فیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۲

و خلاصة القول أنّ إبراهیم علیه السّلام و أصحابه کانوا من أشدّ المخالفین و المحاربین للشرک، و لا بدّ لنا من الاقتداء بهم و أخذ الدروس و العبر من سیرتهم، بما فی ذلک ما یتعلّق بموقفه من «آزر» إذا توفّرت لنا نفس الشروط و الخصوصیات ..[۲۷۶].

و بما أنّ محاربة أعداء اللّه، و الصرامة و الشدّة معهم- خصوصا مع تمتّعهم بقدرة ظاهریة- سوف لن تکون فاعلة إلّا بالتوکّل علی اللّه تبارک و تعالی، یضیف سبحانه فی نهایة الآیة: رَبَّنا عَلَیْکَ تَوَکَّلْنا وَ إِلَیْکَ أَنَبْنا وَ إِلَیْکَ الْمَصِیرُ.

و نلاحظ ثلاثة امور فی هذه العبارة:

الأمر الأوّل: هو التوکّل، الثانی هو: التوبة و الإنابة، الثالث: التأکید علی حقیقة الرجوع النهائی فی کلّ شیء إلیه سبحانه، حیث أنّ کلّ أمر من هذه الأمور یکون علّة و بنفس الوقت معلولا للآخر، فالإیمان بالمعاد و الرجوع النهائی إلیه سبحانه یوجب التوبة، و التوبة تحیی روح التوکّل فی النفس الإنسانیة[۲۷۷].

و فی الآیة اللاحقة یشیر القرآن الکریم إلی طلب آخر مهمّ و حسّاس لإبراهیم علیه السّلام و أصحابه فی هذا المجال، حیث یقول تعالی: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِینَ کَفَرُوا.

من المحتمل أن یکون ما ورد فی الآیة إشارة إلی عمل «حاطب بن أبی بلتعة» و احتمال صدور شبیهه من أشخاص جهلة یکونون سببا فی تقویة الظالمین، من حیث لا یشعرون، بل یتصوّرون أنّهم یعملون لمصلحة الإسلام، أو إنّ المراد فی الحقیقة دعاء بأنّه لا تجعلنا نقع فی قبضة الکافرین فیقولوا: أنّ هؤلاء لو کانوا علی الحقّ ما غلبوا، و یؤدّی هذا التوهّم إلی ضلالهم أکثر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۳

و هذا یعنی أنّ المسلمین ما کانوا یأبهون بالخوف من خشیة علی مصالحهم أو علی أنفسهم، بل لکی لا یقع مبدأ الحقّ فی دائرة الشکّ و یکون الإنتصار الظاهری للکفّار دلیلا علی حقّانیتهم و هذا هو منهج الإنسان المؤمن الراسخ فی إیمانه، حیث أنّ جمیع ما یقوم به و یضحّی فی سبیله لا لأجل نفسه، بل للّه سبحانه، فهو مرتبط به وحده، قاطع کلّ علاقة بما سواه، طالب کلّ شیء لمرضاته.

و یضیف فی نهایة الآیة: وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

فقدرتک یا اللّه لا تقهر، و حکمتک نافذة فی کلّ شیء.

إنّ هذه الجملة قد تکون إشارة لطلب المغفرة من اللّه سبحانه و العفو عن الزلل فی حالة حصول المیل النفسی و الحبّ و الولاء لأعداء اللّه.

و هذا درس لکلّ المسلمین کی یقتدوا بهؤلاء. و إذا ما وجد بینهم شخص منحرف ک (حاطب) فلیستغفروا ربّهم و لینیبوا إلیه.

و مرّة اخری یؤکّد سبحانه فی آخر آیة من هذه الآیات علی نفس الأمر الذی ذکر فی أوّل آیة، حیث یقول تعالی: لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِیهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کانَ یَرْجُوا اللَّهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ[۲۷۸].

لقـد کانوا لنا أسوة، لیس فقط فی موقفهم ضـدّ منهـج الکفر و عبـدة الأوثان، بل هم أسوة لنا فی الـدعاء بین یدی البارئ عزّ و جلّ، و قدوة لنا فی طلب المغفرة منه کما استعرضت الآیات السابقة نماذج فی ذلک.

إنّ هـذا الاقتداء فی حقیقته یتمثّل فی الذین تعلّقوا باللّه سبحانه، و نوّر الإیمان بالمبدأ و المعاد قلوبهم، و نهجوا منهج الحقّ و تحرّکوا فی طریقه .. و بـدون شکّ فإنّ هذا التأسّـی و الاقتداء یرجع نفعه إلی المسـلمین أنفسـهم قبل الآخرین، لذا یضـیف سبحانه فی النهایة قوله: وَ مَنْ یَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۴

و ذلک أنّ عقد الولاء مع أعداء اللّه یقوّی عودهم و شوکتهم و بالتالی إلی هزیمة المسـلمین، و إذا تسلّطوا علیکم فسوف لن یرحموا صغیرکم و کبیرکم ۲۷۹].

بحوث

۱- نماذج خالدة

إنّ المشاریع العملیـة غالبا ما تکون منبثقـة عن قناعات تسـبقها، لأنّ العمل عادة یعبّر عن تجسـید حالة الإیمان العمیق للإنسان بما یقوم به، و یکون مجسّدا لأقواله و أفکاره و متبنیاته، و الحدیث یخرج من القلب لا بدّ أن یکون موضع تأثّر و تفاعل قائلة نفسه به.

و فی الغالب فإنّ وجود القدوة فی حیاة البشـر مؤثّر فی تربیتهم و توجیههم، و لهذا السبب فإنّ النبی الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومین علیهم السّـلام، و بقیّة الأنبیاء الکرام علیهم السّـلام کانوا موضع هدایة البشـریة من خلال أعمالهم و التزاماتهم، لذا فإنّنا حینما نتحدّث عن «السـنّة»، التی هی عبارة عن (قول) المعصوم و (فعله) و (تقریره)، أی أنّ کلام و عمل و سـکوت المعصوم کلّه حجّة و دلیل، لا بدّ من الالتزام به، و لهذا السبب فإنّ (العصمة) شرط أساسی لکلّ الأنبیاء و الأئمّة علیهم السّلام کی یکونوا لنا أسوة و قدوة فی جمیع المجالات.

و القرآن الکریم یؤکّد هذه المسألة المهمّة و الأساسـیة حیث یعرض للمؤمنین النماذج فی هذه المجالات و من جملتها ما جاء فی هذه الآیات، حیث یتحدّث عن النبی إبراهیم علیه السّـلام و أصـحابه مرّتین، کما یعرض القرآن الکریم فی سورة الأحزاب شـخص الرّسول الأکرم کقدوة و أسوة للمسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۵

«الأسوة» هنا لها معنی مصدری، بمعنی التأسّـی و الاقتداء العملی، بالرغم من أنّها تفهم فی الاسـتعمالات المتداولة بأنّها تعنی الشـخص موضع التأسّی.

فی غزوة الأحزاب الرهیبـة عرض القرآن الکریم النبی محمّد کنموذج و أسوة فی الاسـتقامة و الإیمان و الإخلاص و التحلّی بالهدوء و الصبر فی غزوة ملیئـة بالمخاطر، فی وقت کان المسـلمون موضع تمحیص، و تعرّضوا فیه إلی زلزال عصـیب، و طبعا فانّ هذه المعنی لا ینحصر فی هذه المناسبة فحسب، بل إنّ شخصیة رسولنا الأکرم قدوة و أسوة عظیمة لتربیتنا فی کلّ زمان و مکان.

إنّ شعار: (کونوا دعاة الناس بأعمالکم، و لا تکونوا دعاة بألسنتکم)[۲۸۰] المنقول عن الإمام الصادق علیه السّلام دلیل علی ضرورة أن

يكون المسلمون- أجمع و كلّ فى مجاله- أسوة و قدوة للآخرين، و بلسان العمل يمكن أن يعرّف المسلمون الإسلام للعالم، و حينئذ يمكن أن يستوعب الإسلام العالم أجمع.

۲- اللّه غنى عن الجميع

أكّد القرآن الكريم مرارا على نقطة مهمّة، و هى أنّ اللّه تعالى إذا أمر الإنسان بالالتزام بأحكام- و تكاليف معيّنة، فإنّ جميع منافعها تعود بالخير و المصلحة عليه، بالرغم من المشقّة أحيانا فى تطبيق هذه الأحكام و التكاليف. ذلك لأنّ اللّه تعالى ليس محتاجا لأى شيء فى عالم الوجود ليستعين بنا عليه، كما أنّه ليس لديه أى نقص فى أى شيء، إضافة إلى أنّ الإنسان لا يملك شيئا ليعطيه. بل كلّ ما لديه فهو للّه تعالى.

و

قد جاء فى الأحاديث القدسية: «يا عبادى أنّكم لن تبلغوا ضرّى فتضرّونى و لن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى لو أنّ أوّلكم و آخركم و إنسكم و جنّكم كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۶

على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى لو أنّ أوّلكم و آخركم و إنسكم و جنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا.

يا عبادى لو أنّ أوّلكم و آخركم و إنسكم و جنّكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كلّ إنسان مسألته ما نقص ذلك من عندى إلّا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر.

يا عبادى إنّما هى أعمالكم أحصيها لكم ثمّ اوفيكم إيّاها فمن وجد خيرا فليحمد اللّه و من وجد غير ذلك فلا يلو منّ إلّا نفسه»[۲۸۱].

۳- الأصل فى العلاقات الرسالية: (الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه).

إنّ أعمق رابطة تربط أبناء البشرية مع بعضهم هى الرابطة العقائدية، حيث تبتنى عليها سائر العلاقات الاخرى.

و لقد أكّد القرآن الكريم مرارا على هذا المعنى و هذا اللون من الارتباطات، و شجب صور الروابط القائمة على أساس الصداقة و الحميّة الجاهلية و المنافع الشخصية التى تكون على حساب مرتكزات المبدأ، إذ أنّ ذلك يعنى الاهتزاز و التصدّع فى بناء الشخصية الرسالية ..

و بالإضافة إلى ذلك فإنّ المعيار الأساس للإنسان هو الإيمان و التقوى، و لذا فإنّ إقامة العلاقات مع الأشخاص الذين يفقدون هذه المقوّمات أمر لا يقدم عليه الإنسان الملتزم و يحذّر من الوقوع فى شراكه، و لا بدّ من الرجوع إلى المعيار الإيمانى فى إقامة العلاقات وفق منهج الإسلام، و جعل العلاقة مع اللّه و الموقف من اللّه هو الحكم و الفصل فى طبيعة هذه العلاقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۷

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «من أحبّ للّه و أبغض للّه و أعطى للّه جلّ و عزّ فهو ممّن كمل إيمانه»[۲۸۲].

و نقرأ

فى حديث آخر عنه عليه السّلام: «من أوثق عرى الإيمان، أن تحبّ فى اللّه، و تبغض فى اللّه، و تعطى فى اللّه، و تمنع فى اللّه»[۲۸۳].

و لمزيد من الاطّلاع فى مجال «الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه» يراجع التّفسير الأمثل نهاية الآية (٢٢) من سورة المجادلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۲۴۷

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۸

الآيات [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۷ الى ۹]

اشارة

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)

التّفسير

مودّة الكفّار غير الحربيين:

يستمرّ الحديث فى هذه الآيات المباركات تكملة للموضوعات التى طرحت فى الآيات السابقة حول «الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه» و قطع العلاقة مع المشركين، بالرغم من أنّ قطع هذه الرابطة يولّد فراغا عاطفيا بالنسبة للبعض من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۹

المسلمين، فإنّ المؤمنين الصادقين، و أصحاب رسول اللّه المخلصين آمنوا بهذا المنهج و ثبتوا عليه، و اللّه تعالى بشّر هؤلاء ألّا يحزنوا، لأنّ الثواب هو جزاؤهم بالإضافة إلى أنّ هذه الحالة سوف لن تستمرّ طويلا، حيث يقول سبحانه: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً.

و يتحقّق هذا الوعد و تصدق البشارة فى السنة الثامنة للهجرة حيث منّ اللّه على المسلمين بفتح مكّة، و دخل أهلها جماعات جماعات فى دين الإسلام الحنيف، مصداقا لقوله تعالى: يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً و عند ذلك تتبدّد غيوم الظلمة و العداء و العناد من سماء حياتهم، و تشرق نفوسهم بنور الإيمان و حرارة الودّ و أجواء المحبّة و الصداقة.

بعض المفسّرين اعتبر هذه الآية إشارة إلى زواج الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من (أمّ حبيبة بنت أبى سفيان) التى كانت قد أسلمت و صحبت زوجها «عبيد اللّه بن جحش»[۲۸۴] فى هجرته للحبشة مع المهاجرين و مات زوجها هناك، فأرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شخصا إلى النجاشى و تزوّجها، و لأنّ الزواج بين القبائل العربية كان له تأثير فى تضييق دائرة العداء و بناء جسور المودّة بينهم، و هذه المسألة كان لها تأثير إيجابى على أبى سفيان و أهل مكّة.

إلّا أنّ هذا الاحتمال مستبعد، لأنّ هذه الآيات نزلت عند ما كان المسلمون على أبواب فتح مكّة، و لأنّ «حاطب بن أبى بلتعة» كان يروم من إرسال رسالته إلى مشركى مكّة إحاطتهم علما بعزم الرّسول على فتح مكّة، فى الوقت الذى نعلم أنّ «جعفر بن أبى طالب» و أصحابه رجعوا إلى المدينة قبل فتح مكّة (فتح خيبر)[۲۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۰

و على كلّ حال، إذا تباعد بعض الناس عن خطّ الإسلام و المسلمين و كانت تربطهم علاقات إيجابية مع المسلمين، ففى مثل هذه

الحالة لا ينبغى اليأس، لأنّ اللّه تعالى قادر على كلّ شىء، و يستطيع تغيير ما فى قلوبهم، فهو الذى يغفر الذنوب و الخطايا لعباده، حيث يضيف تعالى فى نهاية الآية: وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

كلمة (عسى) تستعمل عادة فى الموارد التى يؤمل فيها أن يتحقّق شىء ما، و بما أنّ هذا المعنى يستعمل أحيانا توأما مع (الجهل) أو (العجز) فإنّ كثيرا من المفسّرين فسّروها بمعنى رجاء الآخرين من اللّه و ليس العكس، إلّا أنّنا لا- نرى تعارضا فى أن يكون لهذا المصطلح المعنى الأصلى، و ذلك لأنّ الوصول إلى هدف معيّن لا- بدّ له فى أحيان كثيرة من وجود الشروط المناسبة، و إذا لم تستكمل هذه الشروط فإنّ هذه الكلمة تستعمل فى مثل هذه الموارد.

و تبيّن الآيات اللاحقة شارحة و موضّحة طبيعة علاقة المودّة مع المشركين، حيث يقول سبحانه: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و بهذه الصورة يقسّم القرآن الكريم «المشركين» إلى فئتين:

فئة: عارضوا المسلمين و وقفوا بوجوههم و شهروا عليهم السلاح و أخرجوهم من بيوتهم و ديارهم كرها، و أظهروا عداءهم للإسلام و المسلمين فى القول و العمل .. و موقف المسلمين إزاء هذه المجموعة هو الامتناع عن إقامة كلّ لون من ألوان علاقة المحبّة و صلة الولاء معهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۱

و المصداق الواضح لهذه المجموعة هم مشركو مكّة، و خصوصا سادات قريش، حيث بذل بعضهم كلّ جهدهم لحرب المسلمين و إيذائهم، و أعانوا آخرون على ذلك.

و فئة اخرى: مع كفرهم و شركهم- لا- يضمرون العداء للمسلمين، و لا- يؤذونهم و لا- يحاربونهم و لم يشاركوا فى إخراجهم من ديارهم و أوطانهم، حتّى أنّ قسما منهم عقد عهدا معهم بالسلم و ترك العداء.

إنّ الإحسان إلى هذه المجموعة و إظهار الحبّ لهم لا مانع منه، و إذا ما عقد معهم عهد فيجب الوفاء به، و أن يسعى لإقامة علاقات العدل و القسط معهم ..

و مصداق هذه الجماعة يتجسّد بطائفة (خزاعة) الذين كانوا قد عقدوا عهدا مع المسلمين على المسالمة معهم و ترك الخصام.

و بناء على ذلك فلا مجال لقول بعض المفسّرين من أنّ هذه الآية منسوخة بما ورد فى قوله تعالى: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۲۸۶].

حيث أنّ هذه الآية من سورة التوبة تتحدّث عن المشركين الذين نقضوا العهد و مارسوا أدوارا عدائية ضدّ الإسلام و المسلمين بصورة علنية، و يتبيّن ذلك من خلال الاستدلال بالآيات اللاحقة التى تلى هذه الآية الكريمة[۲۸۷].

و قد ذكر بعض المفسّرين فى حديثه حول هذه الآية أنّ زوجة أبى بكر المطلّقة أتت بهدايا لابنتها «أسماء» من مكّة، إلّا أنّ ابنتها امتنعت عن قبولها، بل إنّها امتنعت أيضا حتّى من السماح لامّها من دخول بيتها، فنزلت الآية أعلاه و أمرها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن تلتقى بامّها و تقبل هديّتها و تكرمها و تحسن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۲

ضيافتها[۲۸۸].

و تبيّن لنا هذه الرواية أنّ هذا الحكم لم يكن ليشمل أهل مكّة أجمع، حيث أنّ أقليّة منهم لم تكن تضمر العداء للمسلمين، و لم يكن لهم موقف عدائى إزاء المسلمين، و بشكل عام فإنّ المستفاد من الآيات الكريمة حول طبيعة و كيفية العلاقة بين المسلمين و غيرهم هو (أصل كلّى و أساسى) لا يختصّ بذلك الوقت فقط، بل يمثّل خطّا عامّا لطبيعة هذه العلاقة فى كلّ الأزمنة

سواء اليوم أو غدا، فى حياتنا المعاصرة و المستقبلية.

و واجب المسلمين وفق هذه الاسس أن يقفوا بكلّ صلابة أمام أيّة مجموعة، أو دولة، تتّخذ موقفا عدائيا منهم أو تعيّن من أراد بالإسلام و المسلمين سوءا ..

و قطع كلّ صلّة قائمة على أساس المحبّة و الصداقة معهم.

أمّا إذا كان الكفّار فى موقع محايد إزاء الإسلام و المسلمين، أو أنّهم متعاطفون معهم، عندئذ يستطيع المسلمون أن يقيموا علاقات حسنة و يرتبطوا و إيّاهم بروابط المودّة على أن لا تكون بالصورة التى تكون بين المسلمين أنفسهم، و لا بالشكل الذى يؤدّى إلى تغلغلهم فى صفوف المسلمين.

و إذا تغيّر موقف جماعة ما، أو دولة ما، و هى من الصنف الأوّل أو حصل عكس ذلك فى موقف الصنف الثانى، فبدّلوا سيرتهم من المسالمة إلى المحاربة و العداء، فيجب أن يتغيّر معيار التعامل معهم حسب موقفهم الجديد و واقعهم الفعلى، و تبنى معهم العلائق حسبما ورد من مفاهيم طبقا للآيات أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۳

الآيتان [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۱۰ الى ۱۱]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۰) وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۱۱)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين فى سبب نزول هذه الآيات: إنّ رسول اللّه أمضى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۴

الحديبية مع مشركى مكّة عهدا، و كان من ضمن بنود هذا العهد أنّ من أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أهل مكّة ردّه عليهم، و من أتى أهل مكّة من أصحاب رسول اللّه فهو لهم لا يردّوه عليه، و كتبوا بذلك كتابا وقّعوا عليه.

فى هذه الفترة جاءت (سبيعة بنت الحرث الأسلمية) مسلمة، و التحقت بالمسلمين فى أرض الحديبية بعد الانتهاء من توقيع العهد، فأقبل زوجها و كان كافرا، فقال: يا محمّد، اردد علىّ امرأتى، فإنّك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك و هذه طينة الكتاب لم تجف بعد فنزلت الآية أعلاه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ ... و أمرت بامتحان النسوة المهاجرات.

قال ابن عبّاس: امتحانهنّ أن يستحلفنّ ما خرجت من بغض زوج و لا رغبة عن أرض إلى أرض، و لا التماس دنيا، و ما خرجت إلّا حبّا للّه و رسوله. فاستحلفها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فحلفت باللّه الذى لا إله إلّا هو على ذلك، فأعطى رسول اللّه زوجها مهرها و ما أنفق عليها و لم يردّها عليه فكان رسول اللّه يرد من جاءه من الرجال، و يحبس من جاءه من النساء إذا امتحنهنّ ۲۸۹] و يعطى أزواجهنّ مهورهنّ.

التّفسير

تعويض خسائر المسلمين و الكفّار:

استعرضت الآيات السابقة موضوع «البغض فى اللّه» و ما يترتّب على ذلك من قطع أى صلة مع أعداء اللّه .. أمّا موضوع هذه الآيات فهو عن «الحبّ فى اللّه» و عن طبيعة العلاقة مع الذين انفصلوا عن الكفر و ارتبطوا بالإيمان.

و ينصبّ الحديث فى الآية الاولى- من هذه الآيات المباركات- عن النساء المهاجرات، حيث ضمّت هذه الآية سبع نقاط تتعلّق بالنساء المهاجرات، كما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۵

تناولت نقاطا اخرى تختّص بالنساء المشركات.

النقاط التى تختصّ بالنساء المهاجرات هى:

۱- إمتحان النساء المهاجرات، حيث يوجّه سبحانه الحديث إلى المؤمنين فيقول تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَ

فالأمر الأوّل هو إمتحان النساء المؤمنات، و بالرغم من تسميتهنّ بالمؤمنات إلّا أنّ إعلان الشهادتين ظاهريا لا يكفى، فمن أجل المزيد من الاطمئنان على انسجام الظاهر مع الباطن كان الأمر بالامتحان للوثوق و التأكّد.

أمّا طريقة و أسلوب هذا الامتحان فكما مرّ بنا، و هو أن يستحلفن أنّ هجرتهنّ لم تكن إلّا من أجل الإسلام، و أنّها لم تكن بسبب بغض أزواجهنّ أو علاقة مع شخص آخر، أو حبّا بأرض المدينة و ما إلى ذلك.

كما يوجد احتمال آخر حول كيفية إمتحان النسوة المهاجرات، و ذلك كما ورد فى الآية الثانية عشرة من نفس السورة قال تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ ...[۲۹۰].

و من الممكن أن يكون الكذب فى الحلف أيضا، فيقول البعض خلافا لما يعتقد به، إلّا أنّ التزام الكثير من الناس حتّى المشركين فى ذلك الزمان بمسألة البيعة و الحلف باللّه كان سببا فى تقليص دائرة غير الصادقين. و من هنا نلاحظ أنّ الامتحان المذكور بالرغم من أنّه لم يكن دليلا قطعيّا على الإيمان حقيقة، إلّا أنّه غالبا ما يكون كاشفا عن الحقيقة بصورة كبيرة.

لذا يضيف سبحانه فى العبارة التالية: اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۶

۲- يقول سبحانه فى الأمر اللاحق: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ.

و رغم أنّ البند المثبت فى (وثيقة صلح الحديبية) يشير إلى أنّ الأشخاص الذين أسلموا و هاجروا إلى المدينة يجب إرجاعهم إلى مكّة، إلّا أنّه خاصّ بالرجال و لا يشمل النساء، لذا فإنّ رسول اللّه لم يرجع أيّة امرأة إلى الكفّار. و إلّا فرجوع المسلمة إلى الكفّار يمثّل خطرا حقيقيّا على وضعها الإيمانى، و ذلك بلحاظ ضعفها و حاجتها إلى الرعاية المستمرّة.

۳- فى ثالث نقطة التى هى فى الحقيقة دليل على الحكم السابق يضيف تعالى: لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَ

فالإيمان و الكفر لا- يجتمعان فى مكان واحد، لأنّ عقد الزواج المقدّس لا- يمكن أن يربط بين محورين و خطّين متضادّين (خطّ الإيمان) من جهة و (الكفر) من جهة اخرى، إذ لا- بدّ أن يكون عقد الزواج يشكّل نوعا من الوحدة و التجانس و الانسجام بين الزوجين، و هذا ما لا- يمكن أن يتحقّق نتيجة الاختلاف و التضادّ التى سيكون عليها الزوجان فى حالة كون أحدهما مؤمنا و الآخر

کافرا.

و نلاحظ فی بدایة صدر الإسلام حالات من هذا القبیل لزوجین أحدهما مؤمن و الآخر کافر، و لم ینه عنها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث لم یزل المجتمع الإسلامی قلقا و غیر مستقرّ بعد، إلّا أنّه عند ما تأصّلت جذور العقیدة الإسلامیة و ترسّخت مبادئها، أعطی أمرا بالانفصال التامّ بین الزوجین بلحاظ معتقدهما، و خاصّة بعد صلح الحدیبیة، و الآیة- مورد البحث- هی إحدی أدلّة هذا الموضوع.

۴- کان المتعارف بین العرب أن یدفعوا للمرأة مهرها سلفا، و لهذا المعنی أشار سبحانه فی قوله فی الأمر الرابع: وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا. بالرغم من أنّ أزواج المؤمنات کفّار فلا بدّ من إعطائهم ما أنفقوا من مهور علی زوجاتهم، و ذلک لأنّ الطلاق و الانفصال قد تمّ بمبادرة من المرأة بسبب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۷

إیمانها، لذا توجب العدالة الإسلامیة دفع خسارة الزوج.

و یتساءل هنا: هل المقصود من الإنفاق هو المهر فقط، أو أنّه یشمل کافّة المصاریف التی بذلها الرجل لهذا الشأن؟

رجّح أغلب المفسّرین المعنی الأوّل، و هذا هو القدر المسلّم به، بالرغم من أنّ البعض- کأبی الفتوح الرازی- یری وجوب تحمّل کافّة النفقات الاخری أیضا[۲۹۱].

و طبیعی أنّ دفع المهر یکون لمن عقد معاهدة صلح من الکفّار مع المسلمین، کما فی صلح الحدیبیة.

و أمّا من الذی یدفع المهر؟ فالظاهر أنّ هذا العمل یجب أن تتبناه الدولة الإسلامیة (بیت المال) لأنّ جمیع الأمور التی لم یکن لها مسئول خاصّ فی المجتمع الإسلامی یجب أن تتصدّی الدولة لإدارتها، و خطاب الجمع فی الآیة مورد البحث دلیل علی هذا المعنی. (کما یلاحظ فی آیات حدّ السارق و الزانی).

۵- الحکم الآخر الذی یلی الحکم أعلاه، فهو قوله تعالی: وَ لا جُناحَ عَلَیْکُمْ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ إِذا آتَیْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ

و هنا تؤکّد الآیة الکریمة علی ضرورة إعطاء النساء المهاجرات مهورهنّ فی حالة الرغبة بالزواج منهنّ، شاجبة التصوّر الذی یدور فی خلد البعض بأنّ النساء المهاجرات لا یستحققن مهورا جدیدة بسبب استلامهنّ المهور من أزواجهنّ السابقین، و قد تحمّل بیت المال مبالغها و دفعها لأزواجهنّ السابقین.

إنّ زواجکم من هؤلاء النسوة لا یمکن أن یکون مجانیّا، و لا بدّ أن یؤخذ بنظر الإعتبار مهر یتناسب مع حرمة المرأة المؤمنة.

و من الضروری ملاحظة أنّ انفصال المرأة المؤمنة عن زوجها الکافر لا یحتاج إلی طلاق، إلّا أنّه لا بدّ من انتهاء العدّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۸

و قد ذکر الفقیه «صاحب الجواهر» فی شرحه لکلام «المحقّق الحلّی» «و أمّا فی الزوج و الزوجة غیر الکتابین، فالحکم فیهما انّ إسلام أحد الزوجین موجب لانفساخ العقد فی الحال ان کان قبل الدخول و ان کان بعده وقف علی انقضاء العدّة بلا خلاف فی شیء من ذلک و لا إشکال نصّا و فتوی، بل لعلّ الاتّفاق نقلا و تحصیلا علیه»[۲۹۲].

۶- أمّا إذا کان الأمر علی العکس، و کان الزوج قد آمن بالإسلام، و بقیت المرأة کافرة، فهنا تنفصل الرابطة الزوجیة، فتنقطع صلة زواجهما، کما فی قوله تعالی فی تکملة الآیة: وَ لا تُمْسِکُوا بِعِصَمِ الْکَوافِرِ.

«عصم»: جمع عصمة، و هی فی الأصل بمعنی المنع، و هنا- بمعنی النکاح و الزوجیة- لوجود القرائن- و صرّح البعض بأنّه النکاح الدائم- و التعبیر بالعصمة أیضا مناسب لهذا المعنی، لأنّه یمنع المرأة من الزواج من أیّ شخص آخر إلی الأبد.

«الکوافر» جمع کافرة، بمعنی النساء الکافرات.

و قد بحث الفقهاء فی أنّ هذا الحکم هل هو مختّص بالنساء المشرکات فقط، أم أنّه یشمل أهل الکتاب أیضا کالنسوة المسیحیات و

الیهودیات؟ و تختلف الروایات فی هذا المجال، حیث یجدر متابعتها فی کتب الفقه. إلّا أنّ ظاهر الآیة مطلق و یشمل جمیع النساء الکافرات، کما أنّ سبب النزول لم یحدّد ذلک.

أمّا مسألة «العدّة» فهی باقیة بطریق أولی، لأنّها إذا أنجبت طفلا فسیکون مسلما لأنّ أباه مسلم.

۷- أمّا آخر حکم ذکر فی الآیة الکریمة، فهو مهور النساء اللواتی ارتددن عن الإسلام و التحقن بالکفّار فانّ لکم الحقّ فی المطالبة بمهورهنّ مثلما للکفّار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۹

الحقّ فی المطالبة بمهور زوجاتهم اللاتی دخلن دائرة الإسلام و التحقن بالمسلمین، حیث یقول تعالی: وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْیَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا و هذا ما توجبه العدالة و الاحترام المتقابل للحقوق.

و فی نهایة الآیة- و تأکیدا لما سبق- یقول سبحانه: ذلِکُمْ حُکْمُ اللَّهِ یَحْکُمُ بَیْنَکُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ

إنّ هذه الأحکام المستلهمة من العلم الإلهی، الممتزجة بحکمته تعالی، و التی لاحظت فی تشریعاتها کافّة الحقوق، تنسجم مع مبادئ العدل و المرتکزات و الأصول الإسلامیة، و لا بدّ من الالتفات إلی حقیقة أنّ کون جمیع هذه الأحکام إلهیّة یعدّ أکبر ضمانة إجرائیة لها فی قوّة التنفیذ.

و استعرضت ثانی و آخر آیة من هذه الآیات متابعة لما تقدّم، بعض الأمور فی هذا الصدد یقول تعالی أنّه فی کلّ مرّة ترتدّ امرأة متزوّجة عن الإسلام و تلتحق بالکفّار، ثمّ حدثت معرکة بینکم و بین الکفّار و حالفکم النصر علیهم و غنمتم منهم مغانم فأعطوا الذین ذهبت زوجاتهم إلی الکفّار: وَ إِنْ فاتَکُمْ شَیْءٌ مِنْ أَزْواجِکُمْ إِلَی الْکُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِینَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا.

و تمشّیا مع النصّ القرآنی فإنّ بإمکان المسلمین الذین فقدوا زوجاتهم اللواتی التحقن بمعسکر الکفر أن یأخذوا مهورهنّ من الکفّار، کما کان یحقّ للکفّار استلام مهور زوجاتهم اللواتی اعتنقن الإسلام و هاجرن إلی المدینة.

و تحدّثنا بعض الروایات أنّه فی الوقت الذی طبّق المسلمون هذا الحکم العادل، فإنّ مشرکی مکّة امتنعوا عن الالتزام به و تنفیذه، لذا فقد امر المسلمون بصیانة حقّ هؤلاء الأفراد و ذلک بإعطائهم ما یعادل المهور التی دفعوها لزوجاتهم اللواتی التحقن بالمشرکین من الغنائم التی حصلوا علیها قبل تقسیمها علی الآخرین.

و یحتمل أن یکون هذا الحکم خاصّا بالجماعات التی لم یکن لها عهد مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۰

المسلمین، حیث من الطبیعی أنّ مثل هؤلاء لم یکونوا مستعدّین لدفع مهور أمثال هؤلاء النسوة للمسلمین، کما یمکن الجمع بین الرأیین أیضا.

«عاقبتم» من مادّة معاقبة، و هی فی الأصل من عقب (علی وزن کدر) بمعنی:

(کعب القدم) و لهذا السبب فإنّ کلمة «عقبی» جاءت بمعنی الجزاء و العقوبة، أی بمعنی عقاب لعمل فیه مخالفة. لذا فإنّ المعاقبة تستعمل بمعنی القصاص، کما یستعمل هذا المصطلح أیضا (معاقبة) بمعنی (التناوب) فی أمر ما، لکون الأشخاص الذین ینجزون عملا ما بشکل متناوب، یعقب کلّ منهم الآخر.

و لذا فإنّ کلمة (عاقبتم) فی الآیة أعلاه جاءت بمعنی انتصار المسلمین علی الکفّار و عقابهم، و أخذ الغنائم منهم، کما جاءت أیضا بمعنی «التناوب» أی یوم ینتصر فیه الکفّار علی المسلمین و یوم بالعکس.

و یحتمل أیضا المقصود من هذه العبارة هو: الوصول إلی نهایة و عاقبة عمل ما، و المراد من نهایة العمل هنا هو أخذ الغنائم الحربیة.

و أی من هذه المعانی کان، فإنّ النتیجة واحدة، إلّا أنّ طرق الوصول إلی هذه النتیجة متفاوتة.

و تدعو الآیة الکریمة فی نهایتها جمیع المسلمین إلی الالتزام بالتقوی حیث یقول تعالی: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ

و الأمر بالتقوى هنا يمكن أن يكون بمراعاة الدقّة و العدل في تعيين مقدار مهر الزوجة، باعتبار أنّ هذا الأمر يعتمد فيه على قول الزوج في الغالب، و لا يوجد سبيل لإثبات هذا الحقّ إلّا أقوال الزوجين، و لاحتمال أن تسبّب الوساوس الشيطانية في الادّعاء بمبلغ أكثر من المقدار الحقيقي للمهر، لذا يوصى بالتقوى.

و جاء في التواريخ و الروايات أنّ هذا الحكم الإسلامي قد شمل ستّ نسوة- فقط- انفصلنّ عن أزواجهنّ المسلمين و التحقن بالكفّار، و قد أعطى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أزواجهنّ مهورهنّ من الغنائم الحربية.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۱

العدل حتّى مع الأعداء:

من خلال استعراضنا الآيات الكريمة أعلاه نلاحظ عمق الدقّة و روعة الظرافة و اللطف في طبيعة الأحكام التي وردت فيها، موضّحة إلى أي حدّ يهتمّ الإسلام بأصل العدالة و القسط في تشريع أحكامه حتّى في أحرج الظروف و أصعبها، لأنّه يسعى لتعميم الخير و إبعاد الأذى و الضرر حتّى عن الكفّار.

في الوقت الذي نلاحظ أنّ العرف العامّ في حياتنا العملية يتعامل في الظروف و الأوقات العصيبة بخصوصية معيّنة و استثناء خاصّ و يتخلّى عن الكثير من قيم الحقّ و العدل و يدّعي أن لا مكان لإحقاق الحقّ فيها .. في حين تؤكّد التشريعات الإلهية على تحمّل كلّ صعوبة حتّى في أدقّ الظروف و أشدّها ضيقا منعا لهدر أيّ حقّ، لا للقريبين فقط. بل حتّى للأعداء، إذ يجب أن يحافظ على حقوقهم و ترعى حرماتهم.

إنّ مثل هذه الأحكام الإسلامية هي في الحقيقة نوع من الإعجاز، و دليل على حقّانية دعوة الرّسول الأعظم حيث السعي بمنتهى الجهد لإقامة العدل حتّى في أسوأ حالات الانتهاك للحرمات الإسلامية في مجال النفس و المال كما كان عليه فعل المجتمع الجاهلي.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۲

الآية [سورة الممتحنة (۶۰): آية ۱۲]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۲)

التّفسير

شروط بيعة النساء:

استمرارا للبحث الذي تقدّم في الآيات السابقة و الذي استعرضت فيه أحكام النساء المهاجرات، تتحدّث هذه الآية عن تفاصيل و أحكام بيعة النساء المؤمنات مع الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

لقد ذكر المفسّرون أنّ هذه الآية نزلت يوم فتح مكّة عند ما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على جبل (الصفا) يأخذ البيعة من الرجال، و كانت نساء مكّة قد أتين إلى رسول اللّه من أجل البيعة فنزلت الآية أعلاه، و بيّنت كيفية البيعة معهنّ،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۳

و یختّص خطاب الآیة برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث یقول تعالی: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذا جاءَکَ الْمُؤْمِناتُ یُبایِعْنَکَ عَلی أَنْ لا یُشْرِکْنَ بِاللَّهِ ... إلی قوله: ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

و بعد هذه الآیة أخذ رسول اللّه البیعة من النساء المؤمنات.

و کتب البعض حول کیفیة البیعة أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مر بإناء فیه ماء، و وضع یده المبارکة فیه، و وضع النسوة أیدیهنّ فی الجهة الاخری من الإناء. و قیل إنّ رسول اللّه بایع النساء من فوق الملابس.

و ممّا یجدر ملاحظته أنّ الآیة الکریمة ذکرت ستّة شروط فی بیعة النساء، یجب مراعاتها و قبولها جمیعا عند البیعة و هی:

۱- ترک کلّ شرک و عبادة للأوثان، و هذا شرط أساسی فی الإسلام و الإیمان.

۲- اجتناب السرقة، و یحتمل أن یکون المقصود بذلک هو سرقة أموال الزوج، لأنّ الوضع المالی السیء آنذاک، و قسوة الرجل علی المرأة، و انخفاض مستوی الوعی کان سببا فی سرقة النساء لأموال أزواجهنّ، و احتمال إعطاء هذه الأموال للمتعلّقین بهنّ.

و ما قصّة (هند) فی بیعتها لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا شاهد علی هذا المعنی، و لکن علی کلّ حال فإنّ مفهوم الآیة واسع.

۳- ترک التلوّث بالزنا، إذ المعروف تأریخیا أنّ الانحراف عن جادّة العفّة کان کثیرا فی عصر الجاهلیة.

۴- عدم قتل الأولاد، و کان القتل یقع بطریقتین، إذ یکون بإسقاط الجنین تارة، و بصورة الوأد تارة اخری (و هی عملیة دفن البنات و الأولاد أحیاء).

۵- اجتناب البهتان و الافتراء، و قد فسّر البعض ذلک بأنّ نساء الجاهلیة کنّ یأخذن الأطفال المشکوکین من المعابر و الطرق و یدّعین أنّ هذا الطفل من أزواجهنّ (و هذا الأمر محتمل فی حالة الغیاب الطویل للزوج).

و قد اعتبر البعض ذلک إشارة إلی عمل قبیح هو من بقایا عصر الجاهلیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۴

حیث کانت المرأة تتزوّج من رجال عدّة، و عند ما یولد لها طفل تنسبه إلی أیّ کان منهم، إذا ضمنت رغبته بالطفل.

و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ مسألة الزنا قد ذکرت سابقا، و لم یکن استمرار مثل هذا الأمر فی الإسلام ممکنا، لذا فإنّ هذا التّفسیر مستبعد، و التّفسیر الأوّل أنسب بالرغم من سعة مفهوم الآیة الشریفة الذی یشمل کلّ افتراء و بهتان.

کما أنّ التعبیر ب بَیْنَ أَیْدِیهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَ یمکن أن یکون إشارة إلی أطفال أبناء السبیل، حیث تکون وضعیة الطفل الرضیع عند رضاعته فی حضن امّه بین یدیها و رجلیها.

۶- الطاعة لأوامر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم التی تبنی الشخصیة المسلمة و تهذّبها و تربّیها علی الحقّ و الخیر و الهدی، و هذا الحکم واسع أیضا یشمل جمیع أوامر الرّسول، بالرغم من أنّ البعض اعتبره إشارة إلی قسم من أعمال النساء فی عصر الجاهلیة کالنوح بصوت عال علی الموتی، و تمزیق الجیوب و خمش الخدود و ما شابه، إلّا أنّ مفهوم الطاعة لا ینحصر بذلک.

و یمکن أن یطرح هنا هذا السؤال و هو: لماذا کانت البیعة مع النساء مشروطة بهذه الشروط، فی حین أنّ بیعة الرجال لم تکن مشروطة إلّا بالإیمان و الجهاد؟

و للإجابة علی ذلک نقول: إنّ الأمور الأساسیة المتعلّقة بالرجال فی ذلک المحیط هو الإیمان و الجهاد، و لأنّ الجهاد لم یکن مشروعا بالنسبة للنساء لذا ذکرت شروط اخری أهمّها ما أکّدت علیه الآیة الشریفة و التی تؤکّد علی صیانة المرأة من الانحراف فی ذلک المجتمع.

بحوث

۱- ارتباط بيعة النساء ببناء شخصيتهنّ الإسلامية

لقد ذكرنا فى تفسير سورة الفتح- فى نهاية الآية (۱۸)- بحثا مفصّلا حول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۵

البيعة و شروطها و خصوصياتها فى الإسلام، لذا لا ضرورة لتكرار ذلك ۲۹۳].

و ممّا يجدر التذكير به هنا أنّ مسألة بيعة النساء للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت بشروط بنّاءة و مربّية كما نصّت عليها الآية أعلاه.

إنّ هذه النقطة على خلاف ما يقوله الجهلة و المغرضون فى أنّ الإسلام حرم المرأة من الاحترام و القيمة و المكانة التى تستحقّها، فإنّ هذه الآية أكّدت على الاهتمام بالمرأة فى أهمّ المسائل و من ضمنها موضوع البيعة سواء كانت فى الحديبية فى العام السادس للهجرة أو فى فتح مكّة، و بذلك دخلن العهد الإلهى مع الرجال و تقبّلن شروطا إضافية تعبّر عن الهوية الإنسانية للمرأة الملتزمة تنقذها من شرور الجاهلية، سواء القديمة منها أو الجديدة، حيث تتعامل معها كمتاع بخس رخيص، و وسيلة لإشباع شهوة الرجال ليس إلّا.

۲- قصّة بيعة (هند) زوجة أبى سفيان

عند ما منّ اللّه على المسلمين بفتح مكّة، و جاءت النساء لبيعة الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كانت «هند» زوجة أبى سفيان من ضمن النساء اللواتى جئن لبيعة الرّسول أيضا. هذه المرأة التى ينقل عنها التاريخ قصصا مثيرة فى ممارساتها الإجرامية، و ما قصّة فعلها بحمزة سيّد الشهداء فى غزوة أحد، ذلك العمل الإجرامى القبيح، إلّا مفردة واحدة من الصور السوداء لهذه المرأة المشينة.

و بالرغم من أنّ الظروف قد اضطرّتها إلى الانحناء أمام عظمة الإسلام فأعلنت إسلامها ظاهريا، إلّا أنّ قصّة بيعتها تعكس أنّها فى الواقع كانت وفّية لما ارتبطت به من عقائد جاهلية سابقة، لذا فليس عجبا ما ارتكبه آل اميّة و أبناؤهم بحقّ آل الرّسول، بصورة لم يكن لها مثيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۶

و على كلّ حال، فقد كتب المفسّرون فى قصّة بيعة هند:

«روى أنّ النبى بايعهنّ و كان على الصفا، و هند بنت عتبة متنقّبة متنكّرة خوفا من أن يعرفها رسول اللّه، فقال أبايعكن على أن لا تشركن باللّه شيئا، فقالت هند:

انّك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال.

و ذلك انّه بايع الرجال يومئذ على الإسلام و الجهاد فقط، فقال رسول اللّه: و لا تسرقن. فقالت هند: إنّ أبا سفيان ممسك و انّى أصبت من ماله هنات فلا أدرى أ يحلّ لى أمّ لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالى فيما مضى و فيما غبر فهو لك حلال .. فضحك رسول اللّه و عرفها فقال لها: و انّك هند بنت عتبة، فقالت: نعم فاعف عمّا سلف يا نبى اللّه عفا اللّه عنك. فقال: و لا تزنين. فقالت هند: أو تزنى الحرّة، فتبسّم عمر بن الخطاب لما جرى بينه و بينها فى الجاهلية، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«و لا تقتلن أولادكن، فقالت هند: ربّيناهم صغارا و قتلوهم كبارا و أنتم و هم أعلم.

و كان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قتله على بن أبى طالب عليه السّلام يوم بدر. و قال النبى:

و لا تأتين ببهتان قالت هنـد: و اللّه إنّ البهتان قبيح و ما تأمرنا إلّا بالرشد و مكارم الأخلاق، و لمّا قال: و لا يعصـينك فى معروف قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا و فى أنفسنا أن نعصيك فى شيء»[۲۹۴].

۳- الطاعة بالمعروف

إنّ من جملـة النقاط الرائعـة المسـتفادة من الآيـة أعلاه هو تقييـد طاعة الرّسول بالمعروف، مع أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم معصوم، و لا يأمر بالمنكر أبـدا، و هذا التعبير الرائع يدلّل على أمر فى غاية السـمو، و هو أنّ الأوامر التى تصدر من القادة الإسـلاميين- مع كونهم يمثّلون القدوة و النموذج- لن تكون قابلة للتنفيذ و محترمة إلّا إذا كانت

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۷

منسجمة مع التعاليم القرآنية و اصول الشريعة و عندئذ تكون مصداقا (لا يعصينك فى معروف).

و كم هى الفاصـلة بعيدة بين الأشخاص الذين يعتبرون أوامر القادة واجبة الطاعة، مهما كانت و من أى شخص صدرت، ممّا لا ينسجم مع العقل و لا مع حكم الشـرع و القرآن، و بين التأكيـد على إطاعـة المعصوم و عـدم المعصـية فى معروف؟! و قال أمير المؤمنين عليه السّلام فى رسالته المشهورة التى أرسلها لأهل مصر حول و الولاية مالك الأشتر، و مع كلّ تلك الصفات المتميّزة فيه:

«فاسمعوا له و أطيعوا أمره فيما طابق الحقّ فإنّه سيف من سيوف اللّه»[۲۹۵].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۸

الآية [سورة الممتحنة (۶۰): آية ۱۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (۱۳)

التّفسير

بـدأت هـذه السورة بآيـة تؤكّـد على قطع كـلّ علاقـة بأعـداء اللّه، و تختتم هـذه السورة بآيـة تؤكّـد هى الاخرى على نفس المفهوم و الموقف من أعداء اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و بتعبير آخر فإنّ ختام السورة رجوع إلى مطلعها.

و يحذّر القرآن الكريم من أن يتّخذ أمثال هؤلاء أولياء و أن تفشى لهم الأسرار فيحيطون علما بخصوصيات الوضع الإسلامى.

و يرى البعض أنّ الآية صـريحة فى أنّ المراد بالمغضوب عليهم فيها هم (اليهود) إذن أنّهم ذكروا فى آيات قرآنية اخرى بهذا العنوان، قال تعالى: فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ ۲۹۶].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۹

و هـذا التّفسير يتناسب أيضا مع سبب النزول الـذى ذكر لهـذه الآية، حيث تحدّثنا بعض الرّوايات أنّ قسـما من فقراء المسـلمين كانوا يذهبون بأخبار المسلمين إلى اليهود مقابل إعطائهم شيئا من فواكه أشجارهم، فنزلت الآية أعلاه و نهتهم عن ذلك ۲۹۷].

و مع ذلك فإنّ للآية مفهوما واسـعا حيث يشمل جميع الكفّار و المشركين، و التعبير ب «الغضب» فى القرآن الكريم لا ينحصر باليهود فقط، إذ ورد بشأن المنافقين أيضا كما فى الآية (۶) من سورة الفتح، بالإضافة إلى أنّ سبب النزول لا يحدّد مفهوم الآية.

و بناء على هذا فإنّ ما جاء فى الآية الشريفة يتناسب مع أمر واسع جاء فى أوّل آية من هذه السورة تحت عنوان (موالاة أعداء اللّه).

ثمّ تتناول الآية أمرا يعتبر دليلا على هذا النهى حيث يقول تعالى: قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ[۲۹۸].

ذلك أنّ موتى الكفّار سيرون نتيجة أعمالهم فى البرزخ حيث لا رجعة لهم لجبران ما مضى من أعمالهم السيّئة، لذلك فإنّهم يئسوا تماما من النجاة، و هؤلاء المجرمون فى هذه الدنيا قد غرقوا فى آثامهم و ذنوبهم إلى حدّ فقدوا معه كلّ أمل فى نجاتهم، كما هو الحال بالنسبة للموتى من الكفّار.

إنّ مثل هؤلاء الأفراد من الطبيعى أن يكونوا أشخاصا غير أمناء و لا يعتد بكلامهم و عهدهم، و لا اعتبار لودّهم و صداقتهم، لأنّهم يائسون تماما من رحمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۰

اللّه، و لهذا السبب فإنّهم يرتكبون أقبح الجرائم و أرذل الأعمال، و جماعة هذه صفاتها كيف تثقون بها و تعتمدون عليها و تتّخذونها أولياء؟! اللهمّ، لا تحرمنا أبدا من لطفك و رحمتك الواسعة ..

ربّنا، وفّقنا لنكون أولياء لأوليائك و أعداء لأعدائك، و ثبّت أقدامنا فى هذا السبيل ..

إلهنا، وفّقنا للتأسّى بأنبيائك و أوليائك ..

آمين يا ربّ العالمين.

نهاية سورة الممتحنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۱

سورة الصّفّ

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها أربع عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۳

«سورة الصّف»

محتوى سورة الصّف:

تدور أبحاث هذه السورة إجمالا حول محورين أساسيين.

الأوّل: فضيلة الإسلام على جميع الأديان السماوية، و ضمان خلوده و بقائه.

و الثانى: وجوب الجهاد فى طريق حفظ المبدأ و ترسيخ أركانه و تطوير العمل لتقدّمه و الالتزام به.

إلّا أنّنا حينما نتأمّل فى الآيات الكريمة نلاحظ إمكانية تقسيمها إلى سبعة أقسام من خلال نظرة تفصيلية، و تشمل ما يلى:

۱- تتحدّث بداية السورة عن تنزيه و تسبيح البارئ العزيز الحكيم، و تمهّد الأرضية لتلقّى و قبول الحقائق و الموضوعات التى تليها.

۲- الدعوة إلى الانسجام بين القول و العمل، و الابتعاد عن الدعاوى الفارغة البعيدة عن المسار العملى.

۳- الدعوة إلى الجهاد بيقين ثابت و عزم راسخ.

۴- الإشارة إلى موقف اليهود من العهود و نقضهم لها، بالإضافة إلى بشارة السيّد المسيح عليه السّلام بظهور الإسلام العظيم.

۵- الضمان الإلهى لانتصار الإسلام على كافّة الأديان.

۶- الحثّ و التأكيد على الجهاد و استعراض المثوبات الدنيوية و الاخروية للمجاهدين فى سبيل الحقّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۴

۷- استعراض مختصر لحیاة حواری السیّد المسیح علیه السّلام و الدعوة لاستلهام الدروس من سیرتهم.

و من خلال نظرة شاملة لموضوعات هذه السورة الشریفة نلاحظ أنّ المحور الأساس لها هو (الإسلام و الجهاد).

إنّ إختیار اسم «الصّف» لهذه السورة کان بلحاظ العبارة التی وردت فی الآیة الرابعة منها، و تسمّی أحیانا بسورة «عیسی» علیه السّلام، أو سورة «الحواریین».

و المعروف أنّ هذه السورة نزلت فی المدینة، و یؤیّد هذا المعنی ما ورد فیها من آیات الجهاد الذی لم یشرع فی مکّة کما هو معلوم.

فضیلة تلاوة سورة الصّف:

فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول فضیلة تلاوة سورة الصفّ أنّه قال: «من قرأ سورة عیسی کان عیسی مصلّیا علیه مستغفرا له ما دام فی الدنیا و هو یوم القیامة رفیقه»[۲۹۹].

نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الصفّ و أدمن قراءتها فی فرائضه و نوافله، صفّه اللّه مع ملائکته و أنبیائه المرسلین»[۳۰۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۵

الآیات [سورة الصف (۶۱): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (۲) کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (۳) إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الَّذِینَ یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِهِ صَفًّا کَأَنَّهُمْ بُنْیانٌ مَرْصُوصٌ (۴)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون أسبابا عدیدة لنزول الآیة الشریفة: لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ بتفاوت یسیر فیما ذکروه، و ممّا جاء فی أقوالهم ما یلی:

۱- أنّ الآیة الکریمة نزلت فی جماعة من المؤمنین کانوا یقولون: إذا لقینا العدوّ لن نفرّ و لن نرجع عنهم، إلّا أنّهم لم یفوا بما قالوا یوم «احد» حتّی شجّ وجه الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کسرت رباعیته المبارکة.

۲- بعد بیان البارئ عزّ و جلّ الثواب العظیم لشهداء بدر، قال بعض الصحابة:

ما دام الأجر هکذا فإنّنا سوف لن نفرّ فی الغزوات المقبلة، إلّا أنّهم فرّوا فی غزوة أحد، فنزلت الآیة أعلاه موبّخة لهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۶

۳- دعا بعض المؤمنین قبل نزول حکم الجهاد أن یرشدهم اللّه إلی أفضل الأعمال لیعملوا بها و لم یمض وقت طویل حتّی أخبرهم اللّه سبحانه بأنّ (أفضل الأعمال الإیمان الخالص و الجهاد فی سبیله) إلّا أنّهم لم یتفاعلوا مع هذا التوجیه، و تعلّلوا فنزلت الآیة تلومهم و توبّخهم علی موقفهم هذا[۳۰۱].

التّفسیر

المقاتلون المؤمنون صفّ حدیدی منیع:

اعتبرت هذه السورة من السور المسبّحات، ذلک لأنّها تبدأ بتسبیح اللّه فی بدایتها: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ [۳۰۲].

و لم لا یسبّحونه و لا ینزّهونه من کلّ عیب و نقص: وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ القدیر الذی لا یقهر و الحکیم المحیط بکلّ شیء علما.

إنّ الالتفات إلی مسألة التسبیح العامّ للکائنات، الذی یتمّ بلسان الحال و القال، و کذلک النظام المدهش العجیب الحاکم فیها و الذی هو أفضل دلیل علی وجود خالق عزیز حکیم .. من شأنه تمکین أسس الإیمان فی القلوب، و من شأنه أیضا تمهید الطریق لأمر الجهاد.

ثمّ یضیف الباریء عزّ و جلّ فی معرض لوم و توبیخ للأشخاص الذین لم یلتزموا بأقوالهم: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ [۳۰۳].

و علی الرغم من أنّ سبب نزول الآیة کما مرّ بنا کان متعلّقا بالجهاد فی سبیل اللّه، و ما حدث من فرار فی غزوة احد، و لکن یستفاد من الآیة سعة المفهوم الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۷

تعرّضت له، و بهذا تستوعب کلّ قول لا- یقترن بعمل و یستحقّ اللوم و التوبیخ، سواء یتعلّق بالثبات فی میدان الجهاد أو أی عمل إیجابی آخر.

و ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ المخاطب فی هذه الآیات هم المتظاهرون بالإیمان و المنافقون، مع أنّ الخطاب فی هذه الآیة موجّه إلی الذین آمنوا، کما أنّ تعبیرات الآیات اللاحقة تبیّن لنا أنّ المخاطب بذلک هم المؤمنون، و لکنّهم لم یصلوا بعد إلی الإیمان الکامل و أعمالهم غیر منسجمة مع أقوالهم.

ثمّ یضیف سبحانه مواصلا القول: کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ [۳۰۴] حیث التصریحات العلنیة فی مجالس السمر و الادّعاء بالشجاعة، و لکن ما أن تحین ساعة الجدّ إلّا و نلاحظ الهروب و النکوص و الابتعاد عن تجسید الأقوال المدّعاة.

إنّ من السمات الأساسیة للمؤمن الصادق هو الانسجام التامّ بین أقواله و أعماله و کلّما ابتعد الإنسان عن هذا الأصل، فإنّه یبتعد عن حقیقة الإیمان.

«المقت» فی الأصل: (البغض الشدید لمن ارتکب عملا- قبیحا) و کان عرب الجاهلیة یطلقون عبارة (نکاح المقت) لمن یتزوّج زوجة أبیه. و فی الجملة السابقة نلاحظ اقتران مصطلح «المقت» مع «الکبر»، و الذی هو دلیل أیضا علی الشدّة و العظمة، کما هو دلیل علی الغضب الإلهی الشدید علی من یطلقون أقوالا و لا یقرنونها بالأعمال.

یقول المرحوم العلّامة الطباطبائی فی المیزان: فرق بین أن یقول الإنسان شیئا لا یرید أن یفعله، و بین الإنسان الذی لا ینجز عملا یقوله. فالأوّل دلیل النفاق، و الثانی دلیل ضعف الإرادة[۳۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۸

و توضیح ذلک أنّ الإنسان أنّ الإنسان الذی یقول شیئا لم یقرّر إنجازه منذ البدایة هو علی شعبة من النفاق، أمّا إذا قرّر القیام بعمل ما، و لکنّه ندم فیما بعد فهذا دلیل ضعف الإرادة.

و علی کلّ حال، مفهوم الآیة یشمل کلّ تخلّف عن عمد، سواء تعلّق بنقض العهود و الوعود أو غیر ذلک من الشؤون، حتّی أنّ البعض قال: إنّها تشمل حتّی النذور.

و نقرأ

فی رسالة الإمام علی علیه السّلام لمالک الأشتر أنّه قال: «إيّاك .. أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك .. و الخلف يوجب المقت عند اللّه و الناس، قال اللّه تعالى:

كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ [۳۰۶].

كما نقرأ

فی حديث عن الإمام الصادق أنّه عليه السّلام قال: «عدة المؤمن أخاه نذر لا كفّارة فيه، فمن أخلف فبخلف اللّه بدأ، و لمقته تعرّض، و ذلك قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ [۳۰۷].

ثمّ تطرح الآية اللاحقة مسألة مهمّة للغاية فی التشريع الإسلامی، و هی موضوع الجهاد فی سبيل اللّه، حيث يقول تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ [۳۰۸].

و نلاحظ هنا أنّ التأكيد ليس على القتال فحسب، بل على أن يكون «فی سبيله» تعالى وحده، و يتجسّد فيه- كذلك- الاتّحاد و الانسجام التامّ و التجانس و الوحدة، كالبنيان المرصوص.

«صف» فی الأصل لها معنى مصدری بمعنى (جعل شیء ما فی خطّ مستو) إلّا أنّها هنا لها معنى (اسم فاعل).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۹

«مرصوص» من مادّة (رصاص) بمعنى معدن الرصاص، و لأنّ هذه المادّة توضع بعد تذويبها بين طبقات البناء من أجل استحكامه و جعله قويّا و متينا للغاية، لذا أطلقت هذه الكلمة هنا على كلّ أمر قوی و محكم.

و المقصود هنا أن يكون وقوف و ثبات المجاهدين أمام العدو قويّا راسخا تتجسّد فيه وحدة القلوب و الأرواح و العزائم الحديدة و التصميم القوی، بصورة تعكس أنّهم صفّ متراصّ ليس فيه تصدّع أو تخلخل ..

يقول علی بن إبراهيم فی تفسيره موضّحا مقصود هذه الآية: «يصطفّون كالبنيان الذی لا يزول»[۳۰۹].

و

جاء فی حديث عن أمير المؤمنين علی عليه السّلام أنّه عند ما كان يهیء أصحابه للقتال بصفّين، قال: «إنّ اللّه تعالى قد أرشدكم إلى هذه المسؤولية حيث قال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ و على هذا فاحكموا صفوفكم كالبنيان المرصوص، و قدموا الدّارع، و أخّروا الحاسر، و عضّوا على الأضراس فإنّه أنبى للسيوف عن إلهام، و التووا فی أطراف الرماح، فإنّه أمور للأسنّة، و غضّوا الأبصار فإنّه أربط للجأش، و أسكن للقلوب، و أميتوا الأصوات، فإنّه أطرد للفشل، و رايتكم فلا تميلوها و لا تخلوها، و لا تجعلوها إلّا بأيدی شجعانكم ...»[۳۱۰].

بحثان

۱- ضرورة وحدة الصفوف

إنّ من العوامل المهمّة و المؤثّرة فی تحقيق النصر عامل الانسجام و وحدة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۰

الصفوف أمام الأعداء فی ميادين القتال، و هذا المبدأ لا يجدر بنا الالتزام به فی الحرب العسكرية فحسب، بل علينا تجسيده فی الحروب الاقتصادية و السياسية .. و إلّا فسوف لن نحقّق شيئا.

إنّ التشبيه القرآنی للعدو بأنّه سيل عارم و مدمّر لا يسيطر عليه إلّا من خلال سدّ حديدی محكم، تشبيه فی غاية الروعة و الجمال، و

التعبير بأن يكون المؤمنون ك (البنيان المرصوص) أروع تعبير جاء فی هـذا الصـدد، و ممّا لا شكّ فيه أنّ لكلّ جزء فی السـدّ أو البناء العظيم، دور معيّن فی مواجهة السيل، و هذا الدور مهمّ و مؤثّر على جميع الأجزاء، و فی حالة قوّته و تماسكه و عدم وجود تخلخل أو تشقّق أو ثغرات فيه، يصعب عندئذ نفوذ العدوّ منه، و إذا ما حاول ذلك فإنّ الجميع يوجّهون إليه صفعة مدمّرة.

و ممّا يؤسف له أنّ أمثال هذه التعاليم الإسـلامية قد نسيت اليوم، و اسـتبدلت حالة الوحدة و التراصّ فی مجتمعنا الإسـلامی بحالة من التشتّت و التمزّق، و أصبحت صفوفنا شتّى، و كلّ منها ينهش الآخر حتّى أدّى إلى تآكل قوانا و تفرّق جمعنا.

إنّ وحدة الصفّ ليست شعارا إعلاميا، إنّها تحتاج إلى وحدة العقيدة و التصورات و الأهداف .. و هذا ما يحتاج بالضرورة إلى خلوص النوايا و الالتزام بالمفاهيم القرآنية العظيمة، و اعتماد التربية الإلهية فی السلوك و المنهج العلمی السليم.

و إذا كان البارئ عزّ و جلّ يعلن حبّه للمجاهدين المتراصّين الذين يشكّلون وحدة متماسكة، فإنّه سبحانه فی نفس الوقت يعلن سخطه و غضبه على الجموع المسلمة إذا كانت متمزّقة و مشتّتة و نتيجته هو ما نراه الآن متجسّدا فی تسلّط مجموعة صغيرة من الصهاينة على أرضنا الإسلامية و عددنا يربو على المليار

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۱

مسلم.

إلهی: تفضّل علينا بمعرفة القرآن العظيم حقّ معرفته، و وفّقنا للالتزام بتعاليمه السامية.

۲- الأقوال المجرّدة عن العمل

يترجم اللسان فی الغالب ما يكنّه القلب و ما تضمره الروح، و إذا أصبح اللسان فی مسار بعيد عن تصوير خلجات القلب و إرادته. فإنّ ذلك دليل على حالة النفاق، و المنافق تبدو عليه علامات الاعتلال فی الفكر و الروح.

إنّ من أعظم الابتلاءات التی تبتلی بها المجتمعات الإنسانية هو تزعزع الثقة بين صفوفها و عدم الاطمئنان فيما بينها، و أمارة ذلك هی الأقوال البعيدة عن الالتزام و الادّعاءات الفارغة من المحتوى العملی، و أداة ذلك هم الأشخاص الذين يقولون ما لا يفعلون، و بذلك فهم يشكّلون بؤرة عميقة مخيّبة فی قبال حالات الانسجام و الوحدة و التماسك أمام المشاكل التی تواجههم، بل يشكّلون عاملا للضعف و التباغض و عدم الاحترام و تضييع الإمكانات و سقوط هيبتهم أمام الأعداء.

عند ما أغار جيش الشام على حدود العراق، و وصل خبر ذلك إلى

الإمام علی عليه السّلام خطب فی أهل الكوفة خطبته التی قال فيها: «أيّها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهی الصمّ الصلاب، و فعلكم يطمع فيكم الأعداء، تقولون فی المجالس كيت و كيت، فإذا جاء قلتم: حيدی حياد»[۳۱۱].

و الإمام عليه السّلام يتحدّث هنا بألم عن أهل العراق، و هذا ما تعكسه كلماته التی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۲

تشير التفاوت بين أقوالهم و أعمالهم.

و نقرأ

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يعنی بالعلماء من صدق فعله قوله، و من لم يصدق فعله قوله فليس بعالم»[۳۱۲].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۳

الآيتان [سورة الصف (۶۱): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۵) وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۶)

التّفسير

البشارة بظهور النّبى (أحمد):

تأتى الآيـة الكريمـة- أعلاه- مكمّلـة لمحورين أساسيين تحدّثت عنهما الآيات السابقة و هما (الانسجام بين القول و العمل) و (وحدة الصفّ الإيمـانى)، لتستعرض لنـا زاويـة من حيـاة النبيين العظيمين (موسى و عيسى) عليهمـا السّـلام، و متطرّقـة إلى طبيعـة التناقض و الانفصام بين أقوال أتباعهم و أعمالهم، بالإضافة إلى (عدم انسجام صفوفهم) و أخيرا المصير السيء الذى انتهوا إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۴

يقول تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

هذه الآية لعلّها إشارة إلى مخالفات بنى إسرائيل و ذرائعهم فى حياة موسى عليه السّلام، أو أنّها إشارة إلى قصّة (بيت المقدس) حيث قـال بنو إسرائيل لموسى عليه السّـلام: إِنَّا لَنْ نَـدْخُلَها أَبَـداً ما دامُوا فِيها- أى الجبارين- فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِـدُونَ ۳۱۳] و لهذا فقد بقوا فى وادى (التيه) أربعين سنة، ذاقوا فيها و بال أمرهم لتهاونهم فى أمر الجهاد، و لادّعاءاتهم الواهية.

و لكن مع الالتفات إلى الآية (۶۹) من سورة الأحزاب يظهر أنّ المراد من هذا الإيذاء هو ما كانوا ينسبونه لموسى عليه السّلام من تهم، كما يبيّن ذلك قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً.

حيث اتّهم عليه السّـلام بقتـل أخيه هـارون عليه السّـلام، و اخرى- معـاذ اللّه- بالعلاقـة مع امرأة فاسـقة (و ذلـك ضـمن مخطّط قارون للتهرّب من إعطاء الزكاة)، و ثالثـة بالسـحر و الجنون، كما ألصـقت به عليه السّـلام عدّة عيوب جسـمية اخرى، جاء شـرحها فى تفسير الآية- أعلاه- من سورة الأحزاب ۳۱۴].

كيف يستسيغ هؤلاء أدعياء الإيمان إلصاق أمثال هذه التّهم بأنبيائهم!؟

إنّ هذه الممارسة تمثّل فى الواقع نموذجا صارخا للتناقض بين القول و العمل، ممّا حدا بموسى عليه السّلام إلى مخاطبة أصحابه: لماذا تسيؤون إليّ مع علمكم بأنّى رسول اللّه إليكم؟

و ممّا لا شكّ فيه أنّ هـذه الممارسات لم تبق بـدون عقاب كما نقرأ ذلك فى نهاية الآية حيث، قال تعالى: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۵

و هكذا تنزل بمثل هذا الإنسان أعظم الدواهى، حيث يحرم من الهداية الإلهية و ينحرف قلبه عن الحقّ ۳۱۵].

إنّ مـا يستفاد من المفهوم الـذى استعرضـته الآيـة المباركـة أنّ الهدايـة و الضـلالة و إن كانت من قبل اللّه سـبحانه، إلّا أنّ مقوّماتها و أرضـيتها تكون من الإنسـان نفسه، حيث يقول سـبحانه: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ و ذلـك مـا يوضّـح أنّ الخطوة الاولى من الإنسان نفسه، و يقول سبحانه من جهة اخرى: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

فإذا صدر من الإنسان ذنب و معصية فقد يسلب منه التوفيق و الهداية الإلهية و عندئذ يصاب بالحرمان الأكبر.

و قد بحثنا مفصّلا فی هذا المجال فی تفسیر الآیة (۳۶) من سورة الزمر، (فراجع).

و تشیر الآیة اللاحقة إلی مسألة تکذیب بنی إسرائیل لرسالة عیسی علیه السّلام و مخالفتهم له، حیث یضیف تعالی: وَ إِذْ قالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ یا بَنِی إِسْرائِیلَ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَیْکُمْ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ یَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ.

و هذا بیان من عیسی علیه السّلام أنّه یمثّل همزة وصل و حلقة من الرسالة بین نبیین و کتابین و امّتین، فقد سبقته رسالة موسی علیه السّلام و کتابه، و ستلیه رسالة الإسلام علی ید النبی العظیم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و من هنا نلاحظ أنّ عیسی علیه السّلام لم یکن یدّعی غیر الرسالة الإلهیة و فی مقطع زمنی خاصّ، و أنّ ما نسب إلیه من الألوهیة، أو أنّه ابن (للّه) کان کذبا و افتراء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۶

محضا.

و بالرغم من أنّ قسما من بنی إسرائیل قد آمنوا بالرّسول الموعود، إلّا أنّ الأکثریة الغالبة کان لهم موقف عدائی متشدّد تجاهه، ممّا دعاهم و سوّل لهم إنکار معاجزه الواضحة، و ذلک ما یجسّده قوله تعالی: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَیِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِینٌ

العجیب هو أنّ الیهود کانوا قد شخّصوا الرّسول العظیم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قبل مشرکی العرب، و ترکوا أوطانهم شوقا إلی لقائه و الإیمان به، حیث استقرّوا فی المدینة ترقّبا لظهوره و لإجابة دعوته ..، إلّا أنّ المشرکین قد سبقوهم إلی الإیمان بالرّسول الموعود و بقی الکثیر من الیهود علی لجاجتهم و إصرارهم و عنادهم و إنکارهم له.

ذهب بعض المفسّرین إلی إرجاع الضمیر فی فَلَمَّا جاءَهُمْ إلی رسول الإسلام (محمّد) کما أوضحناه أعلاه، إلّا أنّ قسما آخر یری أنّه یعود إلی السیّد المسیح علیه السّلام، أی عند ما أتاهم المسیح بالمعاجز الواضحة أنکروها و ادّعوا أنّها سحر.

و من خلال ملاحظة الآیات اللاحقة یتبیّن لنا أنّ الرأی الأوّل أصحّ حیث یترکّز الحدیث فیها علی رسالة الإسلام و رسوله الکریم.

بحوث

۱- الصلة بین البشارة و تکامل الدین

إنّ التعبیر ب (البشارة) عن إخبار المسیح علیه السّلام بظهور الإسلام إشارة رائعة إلی تکامل هذا الدین قیاسا لما سبقه من الأدیان، إنّ دراسة الآیات القرآنیة و التعالیم الإسلامیة فی مجال العقائد و الأحکام و القوانین و المسائل الاجتماعیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۷

و الأخلاقیة، و مقارنتها بما جاء فی کتب العهدین (التوراة و الإنجیل) توضّح لنا هذه الأفضلیة، و تبیّن لنا بجلاء حالة التکامل المبدئی الذی جاءت به رسالة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و بالرغم من أنّ الآیة المتقدّمة لم توضّح لنا موضع تثبیت هذه البشارة، و هل أنّها کانت کتاب سماوی للمسیح علیه السّلام أم لا؟ إلّا أنّ الآیات القرآنیة الاخری تکشف أنّ موضع هذه البشارة هو الإنجیل نفسه یقول سبحانه: الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ ..[۳۱۶]، و کذلک فی قسم من الآیات الاخری ۳۱۷].

۲- بشارة العهدین و تعبیر (فارقلیطا):

ممّا لا شكّ فيه أنّ (التوراة و الإنجيل) اللذين بأيدى اليهود و النصارى ليسا من الكتب السماوية التى نزلت على الرّسولين الإلهيين العظيمين (موسى و عيسى) عليهما السّلام. إذ أنّها (كتب) ألّفها و جمعها بعض أصحابهم أو من أتى بعدهم.

إنّ مطالعة إجمالية لها تكشف هذه الحقيقة بوضوح، كما أنّ اليهود و المسيحيين لا ينكرون ذلك، و ممّا لا شكّ فيه أنّ قسما من تعاليم (موسى و عيسى) عليهما السّلام قد ثبتت فى هذه الكتب من خلال أقوال أتباعهم و حوارييهم، و لذا فلا يمكن اعتبار كلّ ما ورد فى العهد القديم (التوراة و الكتب الاخرى المتعلّقة به)، و كذلك العهد الجديد (الإنجيل و ما يرتبط به) مقبولا و صحيحا، كما لا يمكن رفض و إنكار جميع ما ورد فيها أيضا.

و الموقف المناسب ممّا ورد فيهما هو اعتبار ما جاء فيها من التعاليم خليطا من تعاليم النبيين (موسى و عيسى) عليهما السّلام و أفكار أتباعهما الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۸

و على كلّ حال فإنّنا نلاحظ تعبيرات عديدة فيها حول البشارة بظهور رجل عظيم لا تنطبق أوصافه و علاماته إلّا على نبىّ الإسلام الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و جدير بالذكر بالإضافة إلى ما تقدّم من وجود النبؤات التى وردت فى هذه الكتب و التى تنطبق على شخص الرّسول الأعظم، فقد وردت فى إنجيل (يوحنا) كلمة (فارقليط)[۳۱۸]. ثلاث مرّات، و حينما ترجمت كانت بمعنى (المعزى) لنقرأ النصّ فى إنجيل يوحنا: «و أنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد»[۳۱۹].

و جاء فى الباب الذى بعده: «و متى جاء المعزّى الذى سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحقّ الذى من عند الأب ينبثق فهو يشهد لى»[۳۲۰].

و جاء فى الباب الذى يليه ما نصّه: «لكنّى أقول لكم الحقّ أنّه خير لكم أن أنطلق لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّى و لكن إن ذهبت أرسله إليكم»[۳۲۱].

و الجدير بالذكر أنّ فى المتن السريانى للأناجيل المأخوذة من الأصل اليونانى جاء بدل (المسلّى) (پارقليطا). أمّا فى المتن اليونانى فلقد جاء (پيركلتوس) و هو بمعنى الشخص (الممتدح) من منظور الثقافة اليونانية و تعادل (محمّد، أحمد).

لقد شعر أسياد المعابد و الكنيسة أنّ انتشار هذه اللفظة يوجّه ضربة قاصمة و شديدة إلى كيانهم و مؤسساتهم، لذا فقد كتبوا (پاراكلتوس) بدل (پيركلتوس) و التى هى بمعنى (المسلّى). و مع هذا التحريف الواضح الذى غيّروا فيه هذا النصّ الحىّ إلّا أنّهم لم يستطيعوا إلغاء البشارة الصريحة بظهور نبى عظيم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۹

المستقبل ۳۲۲].

و قد ذكرنا فى تفسيرنا هذا شهادة حيّة لأحد القساوسة المعروفين، و الذى أسلم بعد مدّة، و قد أكّد بأنّ هذه البشائر كانت حول شخص باسم (أحمد) و (محمّد)[۳۲۳].

و يجدر الانتباه إلى نصّ ما ورد فى هذا الصدد فى دائرة المعارف الفرنسية المترجمة حيث يقول:

(محمّد مؤسّس دين الإسلام و رسول اللّه و خاتم الأنبياء، إنّ معنى كلمة (محمّد) تعنى المحمود كثيرا و هى مشتقّة من (الحمد) و التى هى بمعنى التجليل و التمجيد، و تشاء الصدفة العجيبة أن يذكر له اسم آخر من نفس الأصل (الحمد) ترادف لفظ (محمّد) يعنى (أحمد) و يحتمل احتمالا قويّا أنّ مسيحى الحجاز كانوا يطلقون لفظ (أحمد) بدلا عن (فارقليطا).

و (أحمد) يعنى: الممدوح و المجلّل كثيرا و هو ترجمة لفظ: (پيركلتوس) و الذى وضع بديلا عنه لفظ (پاراكلتوس) اشتباها، و لهذا فإنّ الكتاب المسلمين الملتزمين قد أشاروا مرارا إلى أنّ المراد من هذا اللفظ هو البشارة بظهور نبى الإسلام، و قد أشار القرآن

الکریم- أیضا- بوضوح إلی هذا الموضوع فی سورة الصفّ (الآیة، ۲)[۳۲۴].

و خلاصة الحدیث أنّ المقصود ب (فارقلیطا) لیس روح القدس أو المسلّی، بل هو معادل لمفهوم (أحمد)، لذا یرجی الانتباه إلی ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۰

۳- هل أنّ اسم رسول الإسلام کان (أحمد)

إنّ الاسم المعروف للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو (محمّد) و السؤال الذی یطرح هنا أنّ الآیات مورد البحث قد ذکرته باسم (أحمد). فکیف یمکن التوفیق بین هذین الاسمین؟

و للإجابة علی هذا السؤال یجدر الالتفات إلی النقاط التالیة:

أ- جاء فی کتب التاریخ أنّ لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اسمین منذ الطفولة، حتّی أنّ الناس کانوا یخاطبونه بهما أحدهما (حمد) و الآخر (محمّد)، الأوّل اختاره له جدّه عبد المطلّب و الآخر اختارته امّه آمنة.

و قد ذکر هذا الأمر بصورة تفصیلیة فی سیرة الحلبی.

ب- و المعروف أنّ من جملة الأشخاص الذین کانوا ینادون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باسم (أحمد) هو عمّه أبو طالب، حیث نجد فی کتاب (دیوان أبی طالب) أشعارا کثیرة یذکر فیها الرّسول الکریم بهذا الاسم کما فی الأبیات التالیة:

أرادوا بقتل أحمد ظالموهمو لیس بقتله فیهم زعیم

و قال:

و إن کان أحمد قد جاءهمبحقّ و لم یأتهم بالکذب [۳۲۵]

و لأبی طالب شعر آخر فی مدح رسول اللّه نقله ابن عساکر فی تاریخه:

لقد أکرم اللّه النبی محمّدافأکرم خلق اللّه فی الناس أحمد[۳۲۶]

ج- کما یلاحظ هذا التعبیر فی شعر (حسّان بن ثابت) الشاعر المعروف فی عصر الرّسول کقوله:

مفجعة قد شفها فقد أحمدفظلّت لآلاء الرّسول تعدّد[۳۲۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۱

و الأشعار التی ورد فیه ذکر اسم (أحمد) بدلا عن (محمّد) کثیرة، و لا یوجد مجال لذکرها جمیعا لذا فإنّنا سننهی بحثنا بما ورد من شعر علی بن أبی طالب علیه السّلام.

أ تأمرنی بالصبر فی نصر (أحمد)و و اللّه ما قلت الذی قلت جازعا

سأسعی لوجه اللّه فی نصر (أحمد)نبی الهدی المحمود طفلا و یافعا[۳۲۸]

د- إنّ المتتبع للرّوایات التی جاءت حول معراج الرّسول کثیرا ما یلاحظ أنّ اللّه سبحانه قد خاطب رسول الإسلام فی تلک اللیلة الکریمة ب (أحمد) و من هنا یمکن القول أنّ النبی قد اشتهر فی السماء ب (أحمد) و فی الأرض ب (محمّد).

و

جاء فی حدیث عن الإمام محمّد الباقر علیه السّلام فی هذا الشأن «إنّ لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عشرة أسماء، خمسة فی القرآن و خمسة لیست فی القرآن، فأمّا التی فی القرآن، محمّد، و أحمد، و عبد اللّه، و یس، و ن»[۳۲۹].

ه- عدم اعتراض أهل الکتاب- و خاصّة النصاری منهم- علی النبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من هذه الناحیة، حیث لم یقولوا

له: بعد سماع المشركين و سماعهم آيات سورة الصفّ: إنّ الإنجيل قد بشّر بمجى‏ء (أحمد) و أنت اسمك (محمّد) و عدم الاعتراض هذا دليل على شهرة هذا الاسم بينهم، و لو وجد مثل هذا الاعتراض لنقل لنا، خاصّة أنّ مختلف الاعتراضات قد دوّنت فى كتب التأريخ صغيرها و كبيرها.

لذا نستنتج من مجموع ما تقدّم فى هذا البحث أنّ اسم (أحمد) كان أحد الأسماء المعروفة لرسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم [۳۳۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۲

الآيات [سورة الصف (۶۱): الآيات ۷ الى ۹]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۷) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۸) هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (۹)

التّفسير

يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم:

لاحظنا فى الآيات السابقة موقف الإصرار و العناد لجموع أهل الكتاب من دعوة الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رغم ما بشّر به المسيح عليه السّلام حول ظهور رسول الإسلام، و ما اقترن بذلك من بيّنات و دلائل و معاجز واضحة.

و تبيّن الآيات- مورد البحث- عاقبة هؤلاء و مصيرهم السي‏ء و نتيجة عملهم الخائب.

فيقول تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۳

الْإِسْلامِ

نعم، إنّ أمثال هؤلاء المكذّبين لدعوة الرّسول الإلهى، الذين يعتبرون ما يأتى الرّسول به من إعجاز سحرا، و ما يتحدّث به من مبادئ إلهية سامية ضلالا و باطلا .. فإنّ هؤلاء هم أظلم الناس، لأنّهم يصدّون أنفسهم عن طريق الحقّ و الهداية و النجاة، و يصدّون سائر عباد اللّه عن منابع الفيض الإلهى و يحرمونهم من السعادة الأبدية.

و يضيف سبحانه فى نهاية الآية: وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

إنّ عمل اللّه سبحانه هو الهداية للحقّ، و إنّ ذاته المقدّسة الطاهرة هى النور و الضياء السامى: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و لا بدّ للهداية من استعداد و أرضية مناسبة فى النفس الإنسانية كى تؤثّر فيها، و هذا ما لا يحصل بالنسبة إلى الأشخاص الذين يجانبون الحقّ و يعرضون عن الحقيقة و يعادونها.

و الآية الكريمة تؤكّد مرّة اخرى على حقيقة أنّ الهداية و الضلالة بالرغم من أنّها من اللّه سبحانه، إلّا أنّ مقدّماتها و أرضيتها لا بدّ أن تبدأ من الإنسان نفسه، و لذا فلا جبر هنا.

جملة «و هو يدعى إلى الإسلام» إشارة إلى أنّ دعوة النبى الأكرم تتضمّن السلام فى الدنيا و الآخرة و نجاة الناس، و مع ذلك فمثل هذا الإنسان يحطّم أساس سعادته بيده.

لقد تكرّرت عبارة (من أظلم) خمس عشر مرّة فى القرآن الكريم و كانت آخرها فى الآية مورد البحث، بالغرم من أنّ ذكرها كان فى موارد مختلفة حسب الظاهر.

و لعلّ هذه المسألة كانت منشأ لهذا التساؤل، و هو: هل من الممكن أن يكون (أظلم الناس) يمثّل أكثر من صنف أو أكثر من جماعة، و أنّها جاءت متكرّرة بلحاظ تعدّد أقسام الظالمين؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۴

إنّ الملاحظة الدقيقة للآيات الكريمة تبيّن لنا أنّ السبب الأساس لذلك يرجع إلى مسألة منع الناس عن طريق الحقّ، و تكذيب الآيات الإلهية، و هذا هو منتهى الظلم، كما أنّ الصدّ عن الوصول إلى الهدى و السعادة الأبدية و قيم الخير، يمثّل أسوأ عمل و أعظم ظلم، حيث المنع عن الخير كلّه و فى كافّة المجالات.

ثمّ يستعرض القرآن الكريم نقطة اخرى و يبيّن لنا أنّ أعداء الحقّ ليسوا بقادرين على الوقوف بوجه مبادئ السماء و الأنوار الإلهيّة العظيمة، حيث يقول سبحانه: يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ

و هنا تشبيه رائع لعمل هؤلاء الأشخاص الذين يحاولون عبثا إطفاء نور الشمس التى تضىء العالم كلّه بنفخة، إنّهم كالخفافيش التى تتصوّر أنّها قادرة على تحدّى وهج الشمس و أشعّتها الساطعة بالنوم نهارا بعيدا عن نورها، و الظهور فى ظلمة الليل و عتمته.

و تاريخ الإسلام صورة ناطقة لهذا التنبّؤ القرآنى العظيم، فرغم ضخامة المؤامرات التى حيكت ضدّه و الجهود الجبّارة المقترنة بالإمكانات الهائلة من الأعداء لطمس معالم هذا الذين و القضاء عليه منذ اليوم الأوّل لظهوره إلى يومنا هذا .. فإنّ جميعها كانت خائبة و خاسئة و ذهبت أدراج الرياح .. و قد عمد هؤلاء إلى أساليب عدّة فى حربهم القدرة ضدّ الإسلام:

فتارة اتّبعوا أسلوب الأذى و السخرية.

و اخرى عن طريق الحصار الاقتصادى و الاجتماعى ..

و ثالثة فرض الحروب، ك (أحد و الأحزاب و حنين) و تجهيز الجيوش القوية لذلك.

و رابعة عن طريق التآمر الداخلى، كما كان عمل المنافقين.

و أحيانا عن طريق إيجاد الاختلافات فى داخل الصفّ الإسلامى.

و أحيانا اخرى الحروب الصليبية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۵

و تارة احتلال الأراضى كما فى القدس المقدّسة قبلة المسلمين الاولى.

و أحيانا اعتماد أسلوب تجزئة الوطن الإسلامى الواحد إلى أجزاء عديدة تربو على الأربعين جزءا.

و تارة التأثير على شباب هذه الامّة و إضعاف متبنّياتها المبدئية و السلوكية بعيدا عن الالتزام بخطّها العقيدى الأصيل و الأخلاقية القرآنية.

و تارة تشجيع الرذيلة و الفساد الأخلاقى بين صفوف المجتمع و إشاعة وسائل الميوعة و الانحراف خاصّة بين الشباب.

و تارة السيطرة الاستعمارية عسكريا و سياسيا و اقتصاديا.

إلى غير ذلك من الأساليب و الوسائل الماكرة.

إلّا أنّ هذه الجهود و المؤامرات الشيطانية غير قادرة على التأثير و إطفاء شعلة الوهج الرسالى الذى أتى به محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بذلك تحقّق التنبّؤ القرآنى فى الفشل الذريع الذى لحق بهؤلاء الذين أرادوا كيدا بالرسالة الإلهية .. بل إنّ النور الإلهى فى حالة انتشار و اتّساع يوما بعد يوم، كما تكشف ذلك لنا الإحصائيات، حيث أنّ عدد مسلمى العالم فى تزايد مستمرّ رغم الجهود المتظافرة من الصهاينة و الصليبيين و (المادّيين الشرقيين).

نعم، إنّهم يبذلون أقصى جهدهم باستمرار ليطفئوا نور اللّه و لكن لإرادة اللّه شأنا غير ذلك. و هذا الأمر بحدّ ذاته يمثّل معجزة خالدة من معاجز القرآن الكريم و هذا الدين العظيم.

و النقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ هذا المضمون قد ورد مرّتين في القرآن الكريم، و لكن مع قليل من الاختلاف، حيث جاء في الآية (۳۲) من سورة التوبة كالتالي: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا و هنا جاء بعبارة: يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا.

يقول: الراغب في (المفردات) في توضيحه لهذا الاختلاف: إنّ الآية الاولى إشارة إلى الإطفاء بدون مقدّمة، إلّا أنّه في الآية الثانية إشارة إلى الإطفاء

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۶

باستعمال المقدّمات التي تهيء الأرضية المناسبة لمثل هذا الأمر.

و على كلّ حال فإنّ مفهوم الآيتين يبيّن عدم إمكانية تحقيق هذا الأمر من قبل أعداء الإسلام، سواء هيّئوا الأرضية المناسبة لإطفاء النور الإلهي أو لم يهيّئوا.

و يتوضّح التأكيد الأكثر في آخر آية- مورد البحث- حيث يعلن القرآن الكريم ذلك صراحة بقوله عزّ و جلّ: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ

إنّ التعبير ب أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِ بمنزلة بيان الرمز لغلبة الإسلام و انتصاره، لأنّ طبيعة «الهداية» و (دين الحقّ) تنطوي على هذا الإنتصار، ذلك أنّ الإسلام و القرآن هما النور الإلهي الذي تظهر آثاره أينما حلّ. و كراهية الكفّار و المشركين لن تستطيع أن تغيّر من هذه الحقيقة شيئا، و لا تقف في طريق مسيرته العظيمة.

و من الظريف أيضا أنّنا نلاحظ أنّ هذه الآية قد وردت في القرآن الكريم ثلاث مرّات بتفاوت يسير:

الاولى: كانت في سورة التوبة الآية (۳۳).

و الثانية: في سورة الفتح الآية (۳۸).

و الأخيرة: في هذه السورة «الصفّ».

و يجب ألّا ننسى أنّ هذا التأكيد و التكرار جاء في وقت لم يكن الإسلام قد ثبت و استقرّ في الجزيرة العربية بعد، فكيف بنا مع هذه الآيات و قد وصل الإسلام إلى نقاط عديدة في العالم و شمل أصقاعا مختلفة؟

و بذلك أثبتت أحداث المستقبل صدق هذا التنبؤ العظيم، و غلبة الإسلام من الناحية المنطقية على كافّة المذاهب الاخرى و قد حقّق خطوات عظيمة في طريق التقدّم على الأعداء، و اكتسح مناطق واسعة من العالم، و هو الآن في تقدّم مستمر، و قوّة يخشى منها عالميّا.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۷

و من المسلّم أنّ النتيجة النهائية كما نعتقد سوف تكون للإسلام، و ذلك عند ظهور الإمام المهدي أرواحنا فداه. إنّ هذه الآيات بذاتها دليل على هذا الظهور العظيم، و قد أوضحنا ذلك بصورة مفصّلة في تفسير الآية (۲۳) من سورة التوبة حول المقصود من هذه الآية المباركة، و هل هو الغلبة و الإنتصار المنطقي، أم غلبة القدرة و القوّة على الأعداء؟ و كذلك حول مدى ارتباط هذا الإنتصار و تلك الغلبة بظهور الحجّة عليه السّلام.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۸

الآيات [سورة الصف (۶۱): الآيات ۱۰ الى ۱۳]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَـذابٍ أَلِيم (١٠) تُؤْمِنُونَ بِـاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكَمْ وَ أَنْفُسِـكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)

التّفسير

التجارة الرّابحة:

قلنـا فی بدايـة السورة أنّ الأهـداف المهمّـة لهـذه السورة هو الـدعوة إلی الإيمـان و الجهـاد فی سبيل اللّه، و ما الآيات مورد البحث إلّا تأكيد علی هذين الأصـلين، من خلال مثال رائع يبعث علی الحركة الإلهيّة فی روح الإنسان، و التی هی شرط انتصار الإسلام علی كلّ الأديان، و قد أشير إلی هذا العامل فی الآيات الماضية.

يقول تعالی فی البداية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٢٩٩

عَذابٍ أَلِيم

بـالرغم من أنّ الإيمـان و الجهاد من الواجبات المفروضـة، إلّا أنّ الآيات هنا لم تطرحها بصيغة الأمر. بل قـدّمتها بعرض تجاری مقترن بتعابير تحكی اللطف اللامتناهی للبارئ عزّ و جلّ، و ممّا لا شكّ فيه فإنّ (النجاة من العذاب الأليم) من أهمّ امنيات كلّ إنسان.

و لـذا فإنّ السؤال المثار هو: هل تريـدون من يدلّكم علی تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ و هو سؤال مثير لانتباه الجميع، و قد بادر فی نفس الوقت و بدون انتظار للإجابة متحدّثا عن هذه التجارة المتعدّدة المنافع، حيث يضيف تعالی:

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ [٣٣١].

و ممّا لا شكّ فيه أنّ اللّه سبحانه غنی عن هـذه التجارة النافعـة و أنّ جميع منافعها تعود علی المؤمنين، لذا يقول فی نهاية الآية: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

و الجـدير بالملاحظة هنا أنّ المخاطب هم المؤمنون بقرينة قوله تعالی: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لكنّه فی الوقت نفسه يدعوهم إلی الإيمان و الجهاد.

و ربّما كان هذا التعبير إشارة إلی أنّ الإيمان يلزم أن يكون عميقا و خالصا للّه سبحانه، حتّی يستطيع أن يكون منبعا لكلّ خير، و حافزا للإيثار و التضحية و الجهاد، و بذا لا يعتدّ بالإيمان الاسمی السطحی.

أو أنّ التأكيد علی الإيمان باللّه و رسوله هنا، هو شرح لمفهوم الإيمان الذی عرض بصورة إجمالية فی بداية الآية السابقة.

و علی كـلّ حال فإنّ الإيمان بالرّسول لا ينفصل عن الإيمان باللّه تعالی، كما أنّ الجهاد بالنفس لا ينفصل عن الجهاد بالمال، ذلك أنّ جميع الحروب تستلزم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٣٠٠

وجود الوسائل و الإمكانات المالية، و من هنا فإنّنا نلاحظ أنّ البعض قادر علی الجهاد بكلا النوعين (النفس و المال) و آخرين قادرون علی الجهاد بالمال فقط و فی المواقع الخلفيـة للجبهـة، و بعض آخر مسـتعدّ للجهاد بالنفس و الجود بها فی سبيل اللّه لأنّهم لا يملكون سواها.

إلّا أنّ الضـرورة تستلزم أن يكون هذان النوعان من الجهاد توأمين متلازمين كلّ منهما مع الآخر لتحقيق النصر، و عند التدقيق فی الآية

المبارکة نلاحظ أنّ تعالى قد قدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، لا باعتباره أکثر أهمیّة، بل بلحاظ أنّه مقدّمة للجهاد بالنفس، لأنّ مستلزمات الجهاد لا تتهیّأ إلّا عند توفّر الإمکانات المادیّة.

لقد تمّ تسلیط الأضواء على ثلاثة عناصر أساسیة فی هذه التجارة العظیمة و التی لا مثیل لها.

(فالمشتری) هنا هو اللّه سبحانه، و (البائع) هم المؤمنون، و (البضاعة) هی الأنفس و الأموال. و یأتی دور العنصر الرابع فی هذه الصفقة و هو الثمن و العوض لهذه المعاملة العظیمة.

یقول تعالى: یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ یُدْخِلْکُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساکِنَ طَیِّبَةً فِی جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ ۳۳۲].

و تستعرض الآیة مرحلة الجزاء الاخروی فی البدایة حیث غفران الذنوب باعتبارها أهمّ عوامل القلق و عدم الراحة الفکریة و النفسیة للإنسان، و عند ما یتحقّق الغفران له فمن المسلّم أنّ الراحة و الهدوء و الاطمئنان تنشر ظلالها علیه.

و من هنا نلاحظ أنّ أوّل هدیة یتحف اللّه سبحانه بها عباده الذین استشهدوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۱

فی سبیل طریق الحقّ و باعوا مهجهم فی سبیل الدین العظیم، هی مغفرة الذنوب جمیعا و لکن هل أنّ المقصود من غفران الذنوب الذی ورد فی الآیة الکریمة هی الذنوب التی تختّص بحقّ اللّه فقط، أم تشمل ما یتعلّق بحقوق الناس أیضا؟

و یتبیّن لنا فی هذا الشأن أنّ الآیة مطلقة و الدلیل هو عمومیتها، و نظرا إلی أنّ اللّه سبحانه قد أوکل حقّ الناس إلیهم لذا تردّد البعض فی القول بعمومیة الآیة الکریمة، و شکّکوا فی شمولها الحقّین.

و بهذه الصورة نلاحظ أنّ الآیات أعلاه قد تحدّثت عن مرتکزین أساسین من مرتکزات الإیمان و هما: (الإیمان باللّه و الرّسول) و عن مرتکزین أساسین أیضا من مرتکزات الجهاد و هما: (الجهاد بالمال و النفس) و کذلک عن مرتکزین من الجزاء الاخروی و هما: (غفران الذنوب و الدخول فی جنّة الخلد).

کما أنّنا نقرأ فی الآیة اللاحقة عن شعبتین من الهبات الإلهیة التی تفضل بها الباریٔ على عباده المؤمنین فی هذه الدنیا حیث یقول: وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِیبٌ ۳۳۳].

یا لها من تجارة مبارکة مربحة حیث تشتمل على الفتح و النصر و النعمة و الرحمة، و لذلک عبّر عنها الباریٔ سبحانه بقوله: الْفَوْزُ الْعَظِیمُ و نصر کبیر.

و لهذا فإنّه سبحانه یبارک للمؤمنین تجارتهم العظیمة هذه، و یزفّ لهم البشرى بقوله تعالى: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ

و

جاء فی الحدیث أنّه فی «لیلة العقبة»- اللیلة التی التقى بها رسول اللّه سرّا بأهل المدینة قرب مکّة و أخذ منهم البیعة- قال «عبد اللّه بن رواحة» لرسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم: اشترط لربّک و نفسک ما شئت.

فقال صلّى اللّه علیه و آله و سلّم: أشترط لربّی أن تعبدوه و لا تشرکوا به شیئا، و أشترط لنفسی أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۲

تمنعونی ممّا تمنعون منه أنفسکم و أموالکم.

قال: فما لنا إذا فعلنا ذلک؟

قال صلّى اللّه علیه و آله و سلّم: (الجنّة).

قال عبد اللّه: ربح البیع لا نقیل و لا نستقیل، أی لا نفسخ و لا نقبل الفسخ ۳۳۴].

بحوث

۱- أی فتح هو «الفتح القریب»!؟

من المعروف أنّ النصر الموعود فی هـذه الآیات قد تحقّق مرّات عدّة، لیس فی الجوانب العقائدیة و المنطقیة فحسب. بل فی المیادین الحربیة أیضا.

و قـد ذکر المفسّرون احتمالات عدیدة حول المقصود من (الفتح القریب)، فقال البعض: إنّ المراد من الفتح القریب فی الآیة هو (فتح مکّة). و قال آخرون: إنّ المقصود بها هو (فتح بلاد إیران و الروم). و قال البعض الآخر: إنّها تشمل جمیع الفتوحات الإسلامیة التی منّ اللّه بها علی المسلمین بعد الإیمان بالإسلام و الجهاد من أجله بفترة وجیزة.

و لأنّ المخاطب فی هذه الآیة لا ینحصر بصحابة رسول اللّه. بل یشمل جمیع المؤمنین و علی مدی التاریخ، لذا فإنّ جملة: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِیبٌ لها معنی واسع، و تمثّل بشارة للمؤمنین جمیعا، بالرغم من أنّ المصـداق الواضح لهذه الآیة کان فی عصـر الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و فی وقت نزول هذه الآیات إبان فتح مکّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۳

۲- ما هی خصائص المساکین الطیّبة؟

أکّدت الآیات الکریمة علی أنّ من ضـمن أنواع النعم الإلهیة فی الجنّة مسألة المسـکن الهادیء، موضع استقرار النفس، الذی تحیط به الحدائق من کلّ جانب فی جنّات الخلد، و سـبب التأکید هنا علی المسـکن لأنّه یشـکّل أحد العوامل الأساسیة لراحة الإنسان و هدوئه، خصوصا إذا تمیّز بالطهر و النظافة من کلّ أنواع التلوّث المادّی و المعنوی، حیث یسـتطیع الإنسان أن یستقرّ به و ینعم بطمأنینة الروح و راحة البال.

یقول (الراغب) فی المفردات: معنی (الطیب) فی الأصل هو الشیء الذی تلتذّ به الحواس الظاهریة و الباطنیة، و هذا المعنی جامع شامل لکلّ الشروط المناسبة لسکن ما.

و النقطة الجدیرة بالملاحظة هنا أنّ القرآن الکریم یری أنّ ثلاثة امور أساسیة توجب السکینة و الطمأنینة للإنسان و هی:

ظلام اللیل: وَ جَعَلَ اللَّیْلَ سَکَناً[۳۳۵].

الزوجة الصالحة: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها[۳۳۶].

البیوت السکنیة قال تعالی: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ بُیُوتِکُمْ سَکَناً[۳۳۷].

۳- الدنیا موضع تجارة أولیاء اللّه

جاء فی نهـج البلاغة أنّ الإمام علی علیه السّـلام قال لرجل کثیر الادّعاء و التملّق کان یذمّ الدنیا کثیرا: «أیّها الذامّ للدنیا المغترّ بغرورها المخدوع بأباطیلها أ تغترّ بالدنیا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۴

ثمّ تذمّها ... إنّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها و دار موعظة لمن اتّعظ بها .. إلى أن قال: و متجر أولياء اللّه اكتسبوا فيها الرحمة و ربحوا فيها الجنّة ..»[۳۳۸].

و إذا شبّهت الدنيا بأنّها مزرعة الآخرة، فقد شبّهت أيضا هنا بأنّها تجارة، حيث أنّ الإنسان يبيع البضاعة (رأس المال) التى أخذها من اللّه سبحانه يبيعها عليه تعالى شأنه بأغلى الأثمان و يستلم منه سبحانه أعظم الأرباح المتمثّلة بالنعم و الهبات الإلهية المختلفة مقابل متاع حقير.

إنّ جانب الإغراء فى هذه الصفقة التجارية النافعة كان من أجل تحريك و إثارة المحفّزات الإنسانية فى طريق الخير و جلب النفع للإنسان و دفع الضرر، لأنّ هذه التجارة الإلهية لا تنحصر أرباحها فى جلب النفع و الخير فحسب، بل إنّها تدفع العذاب الأليم أيضا.

و نظير هذا المعنى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ[۳۳۹].

و تقدّم شرح آخر فى تفسير الآية الآنفة من سورة التوبة[۳۴۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۵

الآية [سورة الصف (۶۱): آية ۱۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (۱۴)

التّفسير

كونوا كالحواريين:

فى الآية الأخيرة من سورة الصفّ يدور الحديث مرّة اخرى حول محور (الجهاد) الذى مرّ ذكره سابقا فى هذه السورة، إلّا أنّ الحديث عنه يستمرّ هنا فى هذه الآية- أيضا بأسلوب جديد.

لقد طرحت الآية الكريمة مسألة مهمّة غير الجنّة و النّار و ذلك بقوله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ

نعم، أنصار اللّه، اللّه الذى هو منشأ جميع القدرات، و مرجعها، صاحب القدرة التى لا تقهر و اللامتناهية، هذا الربّ العظيم و الإله الجبّار يطلب من عباده النصرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۶

و العون، و هذا فخر لا مثيل له، فالبرغم من أنّ معناه و مفهومه هو إعانة و نصرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مبدئه و عقيدته، إلّا أنّه ينطوى على طلب العون و النصرة للّه سبحانه، و هذا غاية اللطف و منتهى الرحمة و العظمة.

ثمّ يستشهد بنموذج تاريخى رائد كى يوضّح سبحانه أنّ هذا الطريق لن يخلو من السالكين و العشّاق الإلهيين حيث يضيف تعالى: كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللَّهِ

و يكون الجواب على لسان الحواريين بمنتهى الفخر و الاعتزاز: قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ و ساروا فى هذا الدرب حاملين لواء الخير و الهداية، و متصدّين لحرب أعداء الحقّ و الرسالة، حيث يقول سبحانه: فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ.

و هنا یأتی العون و النصر و الإغاثة و المدد الإلهی للطائفة المؤمنة حیث یقول سبحانه: فَأَیَّدْنَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلی عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِینَ

و أنتم أیضا یا حواریی محمّد، یشملکم هذا الفخر و تحیطکم هذه العنایة و اللطف الإلهی، لأنّکم أنصار اللّه، و إنّ النصر علی أعداء اللّه سیکون حلیفکم أیضا، کما انتصر الحواریون علیهم، و سوف تکون العزّة و السمو من نصیبکم فی هذه الدنیا و فی عالم الآخرة.

و هذا الأمر غیر منحصر أو مختّص بأصحاب و أعوان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فحسب، بل جمیع أتباع الحقّ الذین هم فی صراع دائم ضدّ الباطل و أهله، إنّ هؤلاء جمیعا هم أنصار اللّه، و ممّا لا شکّ فیه فإنّ النصر سیکون نصیبهم و حلیفهم لا محالة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۷

تعقیب

من هم الحواریون؟

جاء ذکر الحواریین فی القرآن الکریم خمس مرّات، مرتین منها فی هذه السورة المبارکة.

«الحواریون»: تعبیر یراد به الإشارة إلی اثنی عشر شخصا من الأنصار الخواص لعیسی علیه السّلام و قد ذکرت أسماؤهم فی الأناجیل المتداولة حالیا ک (إنجیل متّی، و لوقا باب ۶).

و هذا المصطلح من مادّة (حور) بمعنی الغسل و التبییض- جعل الشیء أبیض- کما مرّ بنا سابقا، لأنّهم یتمتّعون بقلوب طاهرة و أرواح نقیّة، و کانوا یسعون دائما لغسل نفوسهم و الآخرین من دنس الذنوب و تطهیرها من الآثام، لذا اطلق علیهم هذا المصطلح.

و جاء فی بعض الرّوایات أنّ المسیح علیه السّلام أرسلهم جمیعا ممثّلین عنه إلی مناطق مختلفة من العالم، و ذلک لإخلاصهم، و تضحیتهم و جهادهم و حربهم ضدّ الباطل، و کانوا أیضا ممّن یکنّون أعمق الحبّ و الولاء للمسیح علیه السّلام.

و تحدّثنا الرّوایات أنّ جمیعهم قد بقی علی العهد إلّا واحدا منهم فإنّه قد خان و نکص و اسمه (یهودای أسخر یوطی) ممّا حدا المسیح علیه السّلام فی نهایة المطاف إلی طرده.

و لقد تناولنا توضیحات عدیدة حول هذا فی تفسیر الآیة (۵۲) من سورة آل عمران.

جاء فی حدیث أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال للنفر الذین لاقوه بالعقبة: «أخرجوا إلیّ اثنی عشر رجلا منکم یکونوا کفلاء علی قومهم کما کفلت الحواریون لعیسی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۸

بن مریم»[۳۴۱]

ممّا یعکس أهمیّة هؤلاء العظام.

اللهمّ، وفّقنا للمشارکة مع أولیائک فی هذه التجارة الرابحة و الاستفادة من برکاتها العظیمة ..

ربّنا: إنّ الاختلاف و التفرقة فی صفوف المسلمین قد أضعفت مکانة المسلمین صفّا واحدا کالبنیان المرصوص فی مواجهة أعدائهم.

إلهنا، إنّ دینک القویم لم یبق یوما دون ناصر، فاکتبنا من أنصاره و حماته و أعوانه ..

آمین ربّ العالمین نهایة سورة الصفّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۹

سورة الجمعة

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها إحدی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۱

«سورة الجمعة»

محتوی السورة:

تدور هذه السورة حول محورین أساسیین:

الأوّل: هو التوحید و صفات اللّه و الهدف من بعثة الرّسول و مسألة المعاد.

و المحور الثّانی: هو الأثر التربوی لصلاة الجمعة و بعض الخصوصیات المتعلّقة بهذه العبادة العظیمة.

و لکن یمکن أن نجمل الأبحاث التی وردت فی هذه السورة المبارکة بالنقاط التالیة:

۱- تسبیح کافّة المخلوقات.

۲- الهدف التعلیمی و التربوی من بعثة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۳- تحذیر المؤمنین و تنبیههم من مغبّة الوقوع فی الانحراف الذی وقع فیه الیهود فابتعدوا عن جادّة الصواب و الحقّ.

۴- إشارة إلی قانون الموت العامّ و الشامل الذی یمثّل المعبر إلی عالم البقاء و الخلود.

۵- التأکید علی أداء فریضة صلاة الجمعة، و حثّ المؤمنین علی تعطیل العمل و الکسب من أجل المشارکة فیها.

فضیلة تلاوة سورة الجمعة:

وردت روایات کثیرة فی فضیلة تلاوة هذه السورة سواء کانت هذه التلاوة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۲

مستقلّة أو ضمن الصلوات الیومیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۱۸ ؛ ص۳۱۲

را

فی حدیث عن النبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «و من قرأ سورة الجمعة أعطی عشر حسنات بعدد من أتی الجمعة، و بعدد من لم یأتها فی أمصار المسلمین».

و

ورد فی حدیث آخر عن الصادق علیه السّلام أنّه قال: «الواجب علی کلّ مؤمن إذا کان لنا شیعة أن یقرأ فی لیلة الجمعة بالجمعة و سبّح اسم ربّک الأعلی، و فی صلاة الظهر بالجمعة و المنافقین، فإذا فعل ذلک فکإنّما یعمل بعمل رسول اللّه و کان جزائه و ثوابه علی اللّه الجنّة»[۳۴۲].

و قد ورد فی الروایات التأکید الکثیر علی قراءة سورة الجمعة و المنافقون فی صلاة الجمعة، و قد ورد فی بعض الروایات أن لا تترک قراءتها ما أمکن ۳۴۳]، و مع أنّ العدول فی القراءة عن سورة «التوحید» و «قل یا أیّها الکافرون» إلی سور اخری غیر جائز، إلّا أنّ هذه المسألة مستثناة فی صلاة الجمعة، فیجوز العدول عنهما إلی سورة «الجمعة» و «المنافقون» بل عدّ ذلک مستحبّا.

و كلّ ذلك دليل على الأهميّة العالية لهذه السورة القرآنية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۳

الآيات [سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲) وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۴)

التّفسير

الهدف من بعثة الرّسول:

تبدأ هذه السورة كذلك بالتسبيح للّه عزّ و جلّ، و تشير إلى بعض صفات الجمال و الجلال و الأسماء الحسنى للّه. و يعتبر ذلك فى الحقيقة مقدّمة للأبحاث القادمة، حيث يقول تعالى: يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ حيث يسبّحونه بلسان الحال و القال و ينزّهونه عن جميع العيوب و النقائض الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۴

و بناء على ذلك تشير الآية أوّلا إلى «المالكية و الحاكمية المطلقة»، ثمّ «تنزّهه من أى نوع من الظلم و النقص» و ذلك لارتباط اسم الملوك بأنواع المظالم و المآسى، فجاءت كلمة «قدّوس» لتنفى كلّ ذلك عنه جلّ شأنه.

و من جانب آخر فالآية تركّز على ركنين أساسيين من أركان الحكومة هما «القدرة» و «العلم» و سنرى أنّ هذه الصفات ترتبط بشكل مباشر بالأبحاث القادمة لهذه السورة.

و نشير هنا إلى أنّ ذكر صفات الحقّ تعالى فى الآيات القرآنية المختلفة جاءت ضمن نظام و ترتيب و حساب خاصّ.

و كنّا قد تعرّضنا سابقا لتسبيح كافّة المخلوقات.

و بعد هذه الإشارة الخاطفة ذات المعنى العظيم لمسألة التوحيد و صفات اللّه، يتحدّث القرآن عن بعثة الرّسول و الهدف من هذه الرسالة العظيمة المرتبطة بالعزيز الحكيم القدّوس. حيث يقول: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ

و ذلك من أجل أن يطهّرهم من كلّ أشكال الشرك و الكفر و الانحراف و الفساد وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و من الملفت للنظر أنّ بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه الخصوصيات التى لا يمكن تفسيرها إلّا عن طريق الإعجاز، تعتبر هى الاخرى إشارة إلى عظمته عزّ و جلّ و دليل على وجوده إذ يقول: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا ... و أبدع هذا الموجود العظيم بين أولئك الامّيين ..

«الامّيين» جمع (امّى) و هو الذى لا يعرف القراءة و الكتابة (و نسبته إلى الامّ باعتبار أنّه لم يتلقّ تعليما فى معهد أو مدرسة غير مدرسة الامّ).

و قال البعض: إنّ المقصود بها أهل مكّة، لأنّ مكّة كانت تسمّى (بامّ القرى)، و لكنّه بعيد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۵

قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بها «امّة العرب» مقابل اليهود و غيرهم، و اعتبروا الآية (۷۵) من سورة آل عمران شاهدة على هذا المعنى حيث يقول:

قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ و ذلك باعتبار أنّ اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم أهل الكتاب و هم أهل القراءة و الكتابة، بينما كان العرب على العكس من ذلك.

و لكن التّفسير الأوّل أنسب.

و الجدير بالذكر أنّ الآية تؤكّد على أنّ نبى الإسلام بعث من بين هؤلاء الامّيين الذين لم يتلقّوا ثقافة و تعليما و ذلك لبيان عظمة الرسالة و ذكر الدليل على حقّانيتها، لأنّ من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم و بذلك المحتوى العميق وليد فكر بشرى و فى ذلك المحيط الجاهلى و من شخص امّى أيضا، بل هو نور أشرق فى الظلمات، و دوحة خضراء فى قلب الصحراء، و هى بحدّ ذاتها معجزة باهرة و سندا قاطعا على حقّانيته ...

و لخّصت الآية الهدف من بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ثلاثة امور، جاء أحدها كمقدّمة و هو تلاوة الآيات عليهم، بينما شكّل الأمران الآخران أى (تهذيب و تزكية النفس) و (تعليمهم الكتاب و الحكمة) الهدف النهائى الكبير.

نعم، جاء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعطى الإنسانية و يعلّمها العلم و الأخلاق، لتستطيع بهذين الجناحين (جناح العلم و جناح الأخلاق) أن تحلّق فى عالم السعادة و تطوى مسيرها إلى اللّه لتنال القرب منه.

و الجدير بالملاحظة انّنا نجد بعض الآيات القرآنية تذكر «التزكية» قبل «التعليم» بينما تقدّم آيات اخرى «التعليم» على «التزكية». ففى ثلاثة من الموارد الأربعة التى ذكر فيها «التزكية» و «التعليم» تقدّمت التزكية على التعليم بينما تقدّم التعليم فى المورد الرابع.

و فى الوقت الذى يشار فى هذا التعبير إلى التأثير المتبادل لهذين العنصرين (الأخلاق وليدة العلم، كما أنّ العلم وليد الأخلاق) تظهر أيضا أصالة التربية و مدى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۶

الاهتمام بها. علما أنّ المقصود بالعلم العلوم الحقيقية لا العلوم التى اصطلح عليها بأنّها علم و ألبست ثوب العلم.

و يمكن أن يكون الفرق بين «الكتاب» و «الحكمة» هو أنّ الأوّل إشارة إلى القرآن و الثانى إشارة إلى سنّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يمكن أيضا أن يكون «الكتاب» إشارة إلى أصل العقائد و الأحكام الإسلامية، و الثانية إشارة إلى فلسفتها و أسرارها.

و من النقاط الجديرة بالملاحظة- كذلك- أنّ الحكمة تعنى المنع بقصد الإصلاح، و لهذا يقال للجام الفرس «حكمة» لأنّه يمنعها و يجعلها تسير فى مسارها الصحيح، و بناء على ذلك فإنّ مفهوم هذه الدلائل عقلى، و من هنا يتّضح أنّ ذكر الكتاب و الحكمة بشكل مترادف يراد منه التنبيه إلى مصدرين مهمّين من مصادر المعرفة (الوحى) و (العقل).

بعبارة اخرى: إنّ الأحكام السماوية و تعاليم الإسلام رغم أنّها نابعة من الوحى الإلهى غير أنّها يمكن تعقّلها و إدراكها بالعقل «المقصود كلّيات الأحكام».

و تعبير «الضلال المبين» إشارة مختصرة معبّرة إلى سابقة العرب و ماضيهم الجاهلى فى عبادة الأصنام. و أى ضلال أوضح و أسوأ من هذا الضلال الذى يعبد فيه الناس أحجارا و أخشابا يصنعونها بأنفسهم و يلجؤون إليها لحلّ مشاكلهم و إنقاذهم من المعضلات.

يدفنون بناتهم و هنّ أحياء ثمّ يتفاخرون بكلّ بساطة بهذا العمل قائلين: إنّنا لم ندع ناموسنا و عرضنا يقع بيد الأجانب.

كانت صلاتهم و دعاؤهم عبارة عن تصفيق و صياح إلى جانب الكعبة، و حتّى النساء كن يطفن حول الكعبة و هنّ عراة تماما، و

یحسبون ذلک عبادة.

کانت تسیطر علی أفکارهم مجموعة من الخرافات و الأوهام، و کانوا یفتخرون و یتباهون بالحرب و نزف الدماء و الإغارة علی بعضهم البعض. المرأة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۷

کانت تعدّ بضاعة لا قیمة لها عندهم، یلعبون علیها القمار، و یحرمونها من أبسط الحقوق الإنسانیة. کانوا یتوارثون العداوة و البغضاء، و لهذا أصبحت الحروب و إراقة الدماء أمرا عادیا لدیهم.

نعم لقد جاء الرّسول و أنقذهم- ببرکة الکتاب و الحکمة من هذا الضلال و التخبّط و زکّاهم و علّمهم. و حقّا إنّ تربیة و تغییر مثل هذا المجتمع الضالّ یعتبر أحد الأدلّة علی عظمة الإسلام و معاجز نبیّنا العظیمة.

و لکن لم یکن الرّسول مبعوثا لهذا المجتمع الامّی فقط، بل کانت دعوته عامّة لجمیع الناس، فقد جاء فی الآیة التالیة وَ آخَرِینَ مِنْهُمْ لَمَّا یَلْحَقُوا بِهِمْ ۳۴۴].

نعم، إنّ الأقوام الآخرین الذین جاؤوا بعد أصحاب الرّسول لیتربّوا فی مدرسة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یغترفوا من معین القرآن الصافی و السنّة المحمّدیة، کانوا- أیضا- مشمولین بهذه الدعوة العظیمة.

بناء علی ذلک تکون الآیة أعلاه شاملة لجمیع الأقوام الذین یأتون بعد أصحاب الرّسول من العرب و العجم. جاء فی الحدیث أنّ الرّسول بعد أن تلا هذه الآیة سئل من هؤلاء؟ فأشار الرّسول إلی سلمان و قال: «لو کان الإیمان فی الثریا لنالته رجال من هؤلاء»[۳۴۵].

و جاء فی آخر الآیة: وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

بعد أن یشیر إلی هذه النعمة الکبیرة- أی نعمة بعث نبی الإسلام الأکرم و برنامجه التعلیمی و التربوی- یضیف قائلا: ذلِکَ فَضْلُ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۸

و هذه الآیة فی الحقیقة کالآیة- ۱۶۴- فی سورة آل عمران التی تقول: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ إِذْ بَعَثَ فِیهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ إِنْ کانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ

و قد احتمل بعضهم جملة ذلِکَ فَضْلُ اللَّهِ إشارة إلی أصل مقام النبوّة الذی یعطیه اللّه لمن یکون لائقا به، غیر أنّ التّفسیر الأوّل أنسب، مع أنّه یمکن الجمع بین التّفسیرین بأن یقال: إنّ قیادة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت نعمة للامّة کما أنّ مقام النبوّة نعمة عظیمة لشخص الرّسول الکریم.

و لا نجد حاجة إلی القول بأنّ تعبیر مَنْ یَشاءُ لا یعنی أنّ اللّه ینزل رحمته و برکاته بدون حساب و بلا سبب، بل إنّ المشیئة هنا مرادفة للحکمة کما وصف الباری نفسه فی بدایة السورة بأنّه العزیز الحکیم.

یقول الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام فی معنی هذا الفضل الإلهی: «فانظروا إلی مواقع نعم اللّه علیهم حیث بعث إلیهم رسولا، فعقد بملّته طاعتهم و جمع علی دعوته ألفتهم، کیف نشرت النعمة علیهم جناح کرامتها، و أسالت لهم جداول نعیمها، و التفت الملّة بهم فی عوائد برکتها، فأصبحوا فی نعمتها غرقین. و فی خضرة عیشها فکهین».

ملاحظة

الفضل الإلهی له حساب:

جاء فی الحـدیث أنّ جمعا من الفقراء ذهبوا إلی رسول اللّه و قالوا: «یا رسول اللّه، إنّ للأغنیاء ما یتصدّقون و لیس لنا ما نتصدّق و لهم مـا یحجّون و لیس لنا ما نحـجّ و لهم ما یعتقون و لیس لنا ما نعتق. فقال صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: من کبّر مائـة مرّة کان أفضل من عتق رقبة، و من سبّح اللّه مائة مرّة کان أفضل من مائة فرس فی سبیل اللّه یسرجها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۹

و یلجمها. و من هلّل اللّه مائة مرّة کان أفضل الناس عملا فی ذلک الیوم إلّا من زاد.

فبلغ ذلک الأغنیاء فقالوه. فرجع الفقراء إلی النبی فقالوا: یا رسول اللّه قد بلغ الأغنیاء ما قلت فصنعوه، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ذلِکَ فَضْلُ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ، (و هذه إشارة إلی أنّ ذلک لأمثالکم فإنّکم مشتاقون إلی الإنفاق و لا تملکون ما تنفقون).

أمّا الأغنیاء فسبیل بلوغهم ثواب اللّه هو إنفاق أموالهم فی سبیله ۳۴۶].

هذا الحدیث شاهد علی ما ذکرنا سابقا من أنّ ثواب اللّه و فضله لا یعطی بدون حساب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۰

الآیات [سورة الجمعة (۶۲): الآیات ۵ الی ۸]

اشارة

مَثَلُ الَّذِینَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوهـا کَمَثَلِ الْحِمـارِ یَحْمِـلُ أَسْـفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا یَهْـدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ (۵) قُلْ یا أَیُّهَا الَّذِینَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّکُمْ أَوْلِیاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۶) وَ لا یَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ (۷) قُـلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِی تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِیکُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلی عالِمِ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸)

التّفسیر

الحمار الذی یحمل الأسفار:

جاء فی بعض الرّوایات أنّ الیهود قالوا: (إذا کان محمّـد قد بعث برسالة فإنّ رسالته لا تشـملنا) فردّت علیهم الآیة مورد البحث فی أوّل بیان لها بأنّ رسالته قد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۱

أشیر إلیها فی کتابکم السماوی لو أنّکم قرأتموه و عملتم به.

یقول تعـالی: مَثَلُ الَّذِینَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوهـا أی نزلت علیهم التوراة و کلّفوا بالعمـل بها و لکنّهم لم یؤدّوا حقّها و لم یعملوا بآیاتها فمثلهم کَمَثَلِ الْحِمارِ یَحْمِلُ أَسْفاراً.

لاـ یشـعر هـذا الحیوان بمـا یحمـل من کتب إلّـا بثقلهـا، و لا یمیّز بین أن یکون المحمول علی ظهره خشب أو حجر أو کتب فیها أدقّ أسرار الخلق و أحسن منهج فی الحیاة.

لقد اقتنع هؤلاء القوم بتلاوة التوراة و اکتفوا بذلک دون أن یعملوا بموجبها.

هؤلاء مثلهم کمثل الحمار الذی یضرب به المثل فی الغباء و الحماقة.

و ذلک أوضح مثال یمکن أن یکشف عن قیمة العلم و أهمیّته.

و يشمل هذا الخطاب جميع المسلمين الذين يتعاملون بألفاظ القرآن دون إدراك أبعاده و حكمه الثمينة. (و ما أكثر هؤلاء بين المسلمين).

و هناك تفسير آخر هو أنّ اليهود لمّا سمعوا تلك الآيات و الآيات المشابهة فى السور الاخرى التى تتحدّث عن نعمة بعث الرّسول قالوا: نحن أهل كتاب أيضا، و نفتخر ببعثة سيّدنا موسى عليه السّلام كليم اللّه، فردّ عليهم القرآن أنّكم جعلتم التوراة وراء ظهوركم و لم تعملوا بما جاء فيها.

على أى حال يعتبر ذلك تحذيرا للمسلمين كافّة من أن ينتهوا إلى ما انتهى إليه اليهود فقد شملتهم الرحمة الإلهية و نزل عليهم القرآن الكريم، لا لكى يضعوه على الرفوف يعلوه الغبار، أو يحملوه كما تحمل التعاويذ أو ما إلى ذلك. و قد لا يتعدّى اهتمام بعض المسلمين بالقرآن أكثر من تلاوته بصوت جميل فى أغلب الأحيان.

ثمّ يقول تعالى: بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ إذ لم يكتفوا بمخالفة القرآن عملا، بل أنكروه بلسانهم أيضا، حيث نصّت الآية (۸۷) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۲

البقرة و هى تصف اليهود قائلة: أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ

و يقول تعالى فى آخر الآية فى عبارة وجيزة: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

صحيح أنّ الهداية شأن إلهى، و لكن ينبغى أن تهيّأ لها الأرضية اللازمة، و هى الروح التواقة لطلب الحقّ و البحث عنه، و هى امور يجب أن يهيّئها الإنسان نفسه، و لا شكّ أنّ الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضية.

و أوضحنا سابقا أنّ اليهود اعتبروا أنفسهم امّة مختارة، أو نسيجا خاصّا لا يشبه غيره، و ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادّعوا أنّهم أبناء اللّه و أحبّاؤه المنتقمون، و هذا ما أشارت إليه الآية (۱۸) من سورة المائدة: وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ (رغم أنّهم يقصدون الأبناء المجازيين).

و لكن القرآن شجب هذا التعالى مرّة اخرى بقوله: قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ۳۴۷].

فالأحبّاء يتمنون اللقاء دائما، و لا يتمّ اللقاء المعنوى باللّه يوم القيامة إلّا عند ما تزول حجب عالم الدنيا و ينقشع غبار الشهوات و الهوى، و حينئذ سيرى الإنسان جمال المحبوب و يجلس على بساط قربه، و يكون مصداقا ل فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ فيدخل إلى حرم الحبيب.

إنّ خوفكم و فراركم من الموت دليل قاطع على أنّكم متعلّقون بهذه الدنيا و غير صادقين فى ادّعائكم.

و يوضّح القرآن الكريم هذا المعنى بتعبير آخر فى سورة البقرة آية (۹۶) عند ما يقول تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۳

وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ

ثمّ يشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

لأنّ خوف الإنسان من الموت ناشئ من عاملين أساسيين:

الأوّل: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت و اعتقاده أنّ الموت زوال و فناء.

و الثّانى: أعماله السيّئة التى يعتقد أنّه سيواجهها بعد مماته فى عالم الآخرة عند ما تقام المحكمة الإلهية.

و إنّما يخاف اليهود من الموت لسوء أعمالهم إذ أنّهم يعتقدون- أيضا- بيوم الحساب.

و قد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، و ذلك لأنّ الظلم يتّسع ليشمل جميع الأعمال السيّئة و الجرائم التى ارتكبوها، من قتلهم الأنبياء و قول الزور و غصب الحقوق و تلوّثهم بمختلف المفاسد الأخلاقية.

غير أنّ هذا الخوف و ذلك الفرار لا يجدى شيئا، فالموت أمر حتمى لا بدّ أن يدرك الجميع، إذ يقول تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الموت قانون عام يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء و الملائكة و جميع الناس كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ

و كذلك المثول أمام محكمة العدل الإلهى لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم اللّه تعالى بأعمال عباده بدقّة و بتفصيل كامل.

و بهذا سوف لا يكون هناك طريق للتخلّص من هذا الخوف سوى تقوى اللّه و تطهير النفس و القلب من المعاصى، و بعد أن يخلص الإنسان للّه تعالى فإنّه لن

يخاف الموت حينئذ.

و يعبّر

الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام عن هذه المرحلة بقوله: «هيهات بعد اللتيا و التى، و اللّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى امّه»[٣٤٨].

بحثان

١- العالم بلا عمل

ممّا لا شكّ فيه أنّ لطلب العلم تبعات و مسئوليات عديدة، و لكن مع كثرة هذه التبعات فإنّها لا تساوى شيئا أمام بركاته. و أشدّ ما يخيف الإنسان و يقلقه أن يتحمّل مصاعب طلب العلم، و يعانى فى سبيل ذلك الأمّرين دون أن يحصد بركاته، و عندها سيكون مثل هذا الإنسان كمثل الحمار الذى يحمل أسفارا على ظهره لا يعلم منها شيئا.

و قد شبّه العالم بلا عمل فى بعض الأمثال بأنّه (كالشجر بلا ثمر) أو (كالسحاب بلا مطر) أو (كالشمعة التى تحرق نفسها لتضىء أطرافها و لكنّها تفنى و تزول) أو (كالحيوان الذى يدير الطاحونة فإنّه يمشى ساعات طويلة دون أن يقطع أيّة مسافة بل يبقى دائما يدور حول نفسه)، و ما إلى ذلك من التشبيهات التى يوضّح كلّ واحد منها جانبا من جوانب النقص حينما لا يقرن العلم بالعمل.

و قد حملت الروايات بشدّة على مثل هؤلاء العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون،

ففى رواية عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من إزداد علما و لم يزدد هدى لم يزدد من اللّه إلّا بعدا»[٣٤٩].

و

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال: «العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل،

و العلم يهتف بالعمل فإنّ أجابه و إلّا ارتحل عنه»[٣٥٠].

و

فی روایة اخری عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یعتبر العالم الذی لا یعمل بموجب علمه غیر جدیر بهذا اللقب حیث یقول: «لا یکون المرء عالما حتّی یکون بعلمه عاملا»[۳۵۱].

و لیس أفضل من العالم الذی یعمل بعلمه دون أن یستفید من مزایا العلم ذاتیا و مادیا،

فقد ورد عن أمیر المؤمنین فی خطبة له علی المنبر «أیّها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلّکم تهتدون، إنّ العالم العامل بغیره، کالجاهل الحائر الذی لا یستفیق عن جهله بل قد رأیت أنّ الحجّة علیه أعظم و الحسرة أدوم»[۳۵۲].

و مثل هؤلاء العلماء سیکونون بلاء علی المجتمع و وبالا علیه، و سینتهی المجتمع الذی علماؤه من هذا القبیل إلی مصیر خطیر.

یقول الشاعر:

و راعی الشاة یحمی الذئب عنهافکیف إذا الرعاة لها ذئاب!

۲- لماذا أخاف الموت

قلّة من الناس فقط لا یخافون الموت و یبتسمون له و یحتضنونه و یهبون تلک النفس المتعبة لیحصلوا علی الخلود.

و الآن لماذا تخاف الموت الأغلبیة الغالبة من الناس و تخاف من أعراضه، بل حتّی من اسمه؟

إنّ السبب الأساسی وراء هذا الخوف هو عدم إیمان هؤلاء بالحیاة بعد الموت، أو إذا کانوا مؤمنین بذلک فإنّهم لم یصدّقوا به تصدیقا حقیقیّا، و لم یتمکّن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۶

من جمیع أفکارهم و إحساساتهم و مشاعرهم.

إنّ خوف الإنسان من العدم شیء طبیعی، بل إنّ الإنسان یخاف من الظلمة فی اللیل التی هی عدم النور، و أحیانا یصل بالإنسان الخوف إلی أنّه یخاف من المیّت.

و لکن إذا صدقت النفس أنّ

(الدنیا سجن المؤمن و جنّة الکافر)

و إذا أیقنت هذه النفس أنّ هذا البدن الترابی إنّما هو سجن للروح و سور یضرب الحصار علیها، إذا آمنت بذلک حقّا و کانت نظرة الإنسان إلی الموت هکذا فإنّه سوف لن یخشی الموت أبدا، و فی نفس الوقت الذی یعتزّ بالحیاة من أجل الارتقاء فی سلّم التکامل.

لهذا نجد فی قصّة عاشوراء: أنّه کلّما ضاقت حلقة الأعداء و إزداد ضغطهم علی الإمام الحسین و أصحابه ازدادت وجوههم إشراقا، حتّی أنّ الشیوخ من أصحابه کانت الابتسامة تطفو علی وجوههم فی صبیحة عاشوراء، و حینما کانوا یسألون یقولون: إنّنا سنستشهد بعد ساعات فنعانق الحور العین ۳۵۳].

و السبب الآخر الذی یجعل الإنسان یخاف من الموت هو التعلّق بالدنیا أکثر من اللازم، الأمر الذی یجعله یری الموت الشیء الذی سیفصله عن محبوبه و معشوقه التی هی الدنیا.

و کثرة السیّئات و قلّة الحسنات فی صحیفة الأعمال هی السبب الثالث وراء الخوف من الموت،

فقد جاء أنّ رجلا أتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: یا رسول اللّه، ما بالی لا أحبّ الموت؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لک مال؟ قال: نعم، قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: قد قدّمته؟ قال:

لا. قال: فمن ثمّة لا تحبّ الموت»[۳۵۴]

(لأنّ صحیفة أعمالک خالیة من الحسنات).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۷

و جاء رجل آخر و سأل (أبا ذرّ) نفس السؤال فأجابه أبو ذرّ قائلا: «لأنّكم عمّرتم الدنيا و خرّبتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب»[۳۵۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۸

الآيات [سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۹ الى ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰) وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۱۱)

سبب النّزول

نقل في سبب نزول هذه الآيات و خصوصا الآية وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً روايات مختلفة جميعها تخبر عن معنى واحد، هو أنّه في أحد السنوات «أصاب أهل المدينة جوع و غلاء سعر فقدم «دحيّة بن خليفة» بتجارة زيت من الشام و النبي يخطب يوم الجمعة فلمّا رأوه قاموا إليه بالبقيع خشية أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبي إلّا رهط فنزلت الآية

فقال: «و الذي نفسي بيده لو تتابعتم حتّى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادي نارا».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۹

و قال المقاتلان: بينا رسول اللّه يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحيّة بن خليفة بن فروة الكلبي ثمّ أخذ بني الخزرج ثمّ أخذ بني زيد بن مناة من الشام بتجارة و كان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق إلّا أتته و كان يقدم إذا قدم بكلّ ما يحتاج إليه من دقيق أو برّ أو غيره فينزل عند «أحجار الزيت»، و هو مكان في سوق المدينة ثمّ يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليتبايعوا معه فقدم ذات جمعة و كان ذلك قبل أن يسلم و رسول اللّه قائم على المنبر يخطب فخرج الناس فلم يبق في المسجد إلّا إثنا عشر رجلا و امرأة فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لو لا هؤلاء لسوّمت عليهم الحجارة من السماء و أنزل اللّه هذه الآية[۳۵۶].

التّفسير

أكبر تجمّع عبادي سياسي اسبوعي:

كانت الأبحاث السابقة تدور حول مسألة التوحيد و النبوّة و المعاد، و كذلك ذمّ اليهود عبيد الدنيا، بينما انصبّ الحديث في الآيات مورد البحث على الركائز الإسلامية المهمّة التي تؤثّر كثيرا على استقرار أساس الإيمان، و تمثّل الهدف الأساس للسورة، و هي صلاة الجمعة و بعض الأحكام المتعلّقة بها.

ففي البداية يخاطب اللّه تعالى المسلمين جميعا بقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

«نودی» من مادّة (نداء) و هی هنا بمعنی الأذان إذ لا نداء للصلاة غیر الأذان.

و جاء فی الآیة (۵۸) من سورة المائدة وَ إِذا نادَیْتُمْ إِلَی الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَعْقِلُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۰

فعند ما یرتفع الأذان لصلاة الجمعة یکون لزاما علی الناس أن یترکوا مکاسبهم و معایشهم، و یذهبوا إلی الصلاة و هی أهمّ ذکر للّه.

و عبارة ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ ... إشارة إلی أنّ إقامة صلاة الجمعة و ترک المکاسب و العمل فی هذا الوقت، خیر و أنفع للمسلمین من حطام الدنیا و ملاذها الزائلة لو کانوا یعقلون. و إلّا فإنّ اللّه غنی عن الجمیع.

هذه نظرة عابرة إلی فلسفة صلاة الجمعة و ما فیها من فضائل سنبحثها تباعا.

من الواضح أنّ لأمر ترک البیع و الشراء مفهوما واسعا یشمل کلّ عمل یمکن أن یزاحم الصلاة.

أمّا لماذا سمّی یوم الجمعة بهذا الاسم؟ فهو لاجتماع الناس فی هذا الیوم للصلاة، و هذه المسألة لها تاریخ سنبحثه فی النقاط القادمة.

و من الجدیر بالملاحظة أنّ بعض الروایات جاءت حول الصلاة الیومیة «إذا أقیمت الصلاة فلا تأتوها و أنتم تسعون و أتوها و أنتم تمشون و علیکم السکینة»[۳۵۷].

و قد عبّرت الآیة السابقة فیما یتعلّق بصلاة الجمعة بقولها (فاسعوا) لتعطی أهمیّة بالغة لصلاة الجمعة.

المقصود من (ذکر اللّه) بالدرجة الاولی هو الصلاة، و لکنّنا نعلم أنّ خطبتی صلاة الجمعة مشتملة هی الاخری و متضمّنة (لذکر اللّه) و هی فی الحقیقة جزء من صلاة الجمعة. و بناء علی ذلک ینبغی الإسراع لحضور الخطبتین أیضا.

تضیف الآیة التی تلیها قائلة: فَإِذا قُضِیَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِی الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْکُرُوا اللَّهَ کَثِیراً لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ

و رغم أنّ عبارة ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أو ما یشابهها من تعابیر، وردت فی القرآن الکریم للحثّ علی طلب الرزق و الکسب و التجارة، لکن الظاهر أنّ مفهوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۱

هذه الجملة أوسع من ذلک بکثیر. لهذا فسّرها بعضهم بعیادة المریض و زیارة المؤمن و طلب العلم و المعرفة، و لم یحصروها بهذه المعانی کذلک.

من الواضح أنّ الانتشار فی الأرض و طلب الرزق لیس أمرا وجوبیا، و لکن- کما هو معلوم أصولیّا «أمر بعد الحظر و النهی»- دلیل علی الجواز و الإباحة. مع أنّ البعض فهم من هذا التعبیر أنّ المقصود هو استحباب طلب الرزق و الکسب بعد صلاة الجمعة، و إشارة إلی کونه مبارکا أکثر.

و جاء فی الحدیث أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یمشی فی السوق بعد صلاة الجمعة.

جملة وَ اذْکُرُوا اللَّهَ کَثِیراً إشارة إلی ذکر اللّه تعالی الذی وهب کلّ تلک البرکات و النعم للإنسان. و قال بعضهم: إنّ الذکر هنا یعنی التفکّر کما

جاء فی الحدیث «تفکّر ساعة خیر من عبادة سنة»[۳۵۸].

و فسّرها آخرون بمعنی التوجّه إلی اللّه تعالی فی الکسب و المعاملات و عدم الانحراف عن جادّة الحقّ و العدالة.

غیر أنّه من الواضح أنّ للآیة مفهوما واسعا یشمل کلّ تلک المعانی، کما أنّه من المسلّم أنّ روح الذکر هو التفکّر. و الذکر الذی لا یکون مقرونا بالتفکّر لا یزید عن کونه لقلقة لسان، و إنّ الذکر الممزوج بالتفکّر هو سبب الفوز فی جمیع الحالات.

و ممّا لا شکّ فیه أنّ استمرار الذکر و المداومة علیه یرسخ الخوف من اللّه و یعمّقه فی نفس الإنسان، و یجعله یستشعر ذلک فی أعماق نفسه، و یقضی نهائیا علی أسباب الغفلة و الجهل اللذین یشکّلان السبب الأساس لکلّ الذنوب، و یضع الإنسان فی طریق الفلاح دائما. و هناک تتحقّق حقیقة لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ

فی آخر الآیة- مورد البحث- ورد ذمّ عنیف للأشخاص الذین ترکوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی صلاة الجمعة و أسرعوا للشراء من القافلة القادمة، إذ یقول تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۲

وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً.

و لکن قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

فمن المؤکّد، أنّ الثواب و الجزاء الإلهی و البرکات التی یحظی بها الإنسان عند حضوره صلاة الجمعة و الاستماع إلی المواعظ و الحکم التی یلقیها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ما ینتج عن ذلک من تربیة روحیة و معنویة، لا یمکن مقارنتها بأی شیء آخر. فإذا کنتم تظنّون انقطاع الرزق فإنّکم علی خطأ کبیر لأنّ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

التعبیر ب «اللهو» إشارة إلی الطبل و سائر آلات اللهو التی کانت تستعمل عند دخول قافلة جدیدة إلی المدینة. فقد کانت تستعمل کإعلان و إخبار عن دخول القافلة، إضافة إلی کونها وسیلة للترفیه و الدعایة و اللهو، کما نشاهد ما یشابه ذلک فی الغرب هذه الأیّام.

التعبیر ب «انفضّوا» بمعنی الانتشار و الانصراف عن صلاة الجمعة و الذهاب إلی القافلة. فقد ورد فی سبب النزول أنّ المسلمین ترکوا الرّسول فی خطبة الجمعة و تجمّعوا مع باقی الناس حول قافلة (دحیة)- الذی لم یکن قد أسلم بعد- و لم یبق فی المسجد إلّا ثلاثة عشر شخصا أو أقل، کما جاء فی روایة اخری.

و الضمیر فی «إلیها» یرجع إلی التجارة التی أسرعوا إلیها، و لم یکن «اللهو» هو الهدف المقصود بل کان مجرّد مقدّمة للإعلان عن وصول القافلة إلی المدینة، و کذلک للترفیه و الدعایة للبضاعة.

التعبیر ب «قائما» یکشف عن أنّ الرّسول کان واقفا یلقی خطبة الجمعة، کما

جاء فی حدیث عن جابر أنّه قال: (لم أر رسول اللّه قطّ یخطب و هو جالس، و کلّ من قال یخطب و هو جالس فکذّبوه)[۳۵۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۳

و جاء فی روایة اخری أنّه سئل عبد اللّه بن مسعود یوما: هل کان الرّسول یخطب واقفا؟ قال: أ لم تسمعوا قوله تعالی: وَ تَرَكُوكَ قائِماً[۳۶۰].

و جاء فی «الدرّ المنثور» أنّ معاویة کان أوّل شخص ألقی خطبة الجمعة و هو «قاعد».

بحوث

۱- أوّل صلاة جمعة فی الإسلام

جاء فی بعض الرّوایات أنّ مسلمی المدینة کانوا یتحدّثون مع بعضهم- قبل هجرة الرّسول إلیهم- أنّ للیهود یوما یجتمعون فیه هو (السبت) و للنصاری یوما یجتمعون فیه هو (الأحد) فلما ذا لا نتّخذ نحن یوما معیّنا نذکر اللّه فیه کثیرا و نشکره؟ و انتخبوا یوما قبل السبت و کان یسمّی (یوم العروبة) و ذهبوا إلی (أسعد بن زرارة)- أحد وجهاء المدینة و قد صلّی بهم جماعة و وعظهم و سمّی ذلک الیوم بیوم الجمعة لاجتماع المسلمین به. ثمّ أمر (أسعد) أن یذبحوا کبشا لیصنعوا منه غداء و عشاء لجمیع المسلمین الذین کان عددهم من القلّة بحیث کفاهم الکبش لهاتین الوجبتین. و کانت هذه أوّل جمعة تقام فی الإسلام.

أمّا أوّل جمعة أقامها الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع أصحابه فکانت بعد وصوله إلی المدینة بأربعة أیّام، و کان وصوله یوم الإثنین الثانی عشر من ربیع الأوّل، بقی بعدها أربعة أیّام فی قبا فبنوا (مسجد قبا) و تحرّکوا بعدها إلی المدینة، و کان ذلک یوم

الجمعة، و لم تکن المسافة بین قبا و المدینة طویلة (و تعتبر قبا الیوم من ضواحی المدینة).

و کان الرّسول قد وصل ضاحیة (بنی سالم) عند أذان الجمعة فأقیمت صلاة الجمعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۴

هناک. و هـذه هی أوّل جمعـة أقامها الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی الإسـلام، و قـد ألقی فیها خطبـة کانت هی بدورها أوّل خطبة لرسول اللّه فی المدینة المنوّرة)[۳۶۱].

نقل أحـد المحـدّثین عن عبـد اللّه بن کعب قوله: (إنّ أبی کان یترحّم علی أسـعد بن زرارة کلّما سـمع أذان صـلاة الجمعـة، و عند ما سـألته عن سـبب ذلـک أجـابنی: (لأنّه کـان أوّل رجل أقام صـلاة الجمعـة)، فقلت: کم کان عـددکم ذلک الیوم؟ قال: أربعون رجلا فقط)[۳۶۲].

۲- أهمیّة صلاة الجمعة

إنّ أفضـل دلیـل علی أهمیّـة هـذه الفریضـة العظیمـة هو الآیات الأخیرة فی هـذه السورة المبارکـة، التی أمرت جمیع المسـلمین و أهل الإیمان بمجرّد سـماعهم لأذان الجمعة أن یسرعوا إلیها و یترکوا الکسب و العمل، و کلّ ما من شأنه أن یزاحم هذه الفریضة، إلی الحدّ الـذی نهتهم عن الـذهاب إلی تلک القافلة رغم حاجتهم الماسّة إلی ما فیها من طعام إذ کانوا یعیشون القحط و المجاعة. و دعتهم إلی الاستمرار فی صلاة الجمعة حتّی النهایة.

ورد فی أحـادیث اخری فی هـذا المجـال- أیضا- منها الخطبـة التی نقلتها جمیع مصادر المسـلمین عن الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد جاء فیها

قوله: «إنّ اللّه تعـالی فرض علیکم الجمعـة، فمن ترکهـا فی حیـاتی أو بعـد موتی استخفافا بهـا أو جحودا لها، فلا جمع اللّه شـمله و لا بارک له فی أمره، ألا و لا صلاة له، ألا و لا زکاة له، ألا و لا حجّ له، ألا و لا صوم له، ألا و لا برّ له، حتّی یتوب»[۳۶۳].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام: «صلاة الجمعة فریضة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۵

و الاجتماع إلیها فریضـة مع الإمام، فإن ترک رجل من غیر علّة ثلاث جمع فقد ترک ثلاث فرائض و لا یدع ثلاث فرائض من غیر علّة إلّا منافق»[۳۶۴].

و

فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من أتی الجمعة إیمانا و احتسابا استأنف العمل»[۳۶۵].

أی استغفر ذنوبه و یبدأ العمل من جدید.

و الرّوایات کثیرة فی هذا المجال و لا یتّسع المجال لذکرها جمیعا، لذا نحاول أن ننهی هذا البحث بحدیث آخر، حیث

جاء رجل إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال:

یـا رسـول اللّه، إنّی تهیّأت عـدّة مرّات للحـجّ و لکنّی لـم اوفّق. قـال صـلّی اللّه علیه و آلـه و سـلّم: «علیـک بالجمعـة فإنّها حجّ المساکین»[۳۶۶].

و فی ذلک إشارة إلی أنّ ما یتضمّنه هذا المؤتمر الإسلامی الکبیر (أی الحجّ) من برکات، موجودة فی اجتماع صلاة الجمعة.

و من الملفت للنظر أنّه قد ورد ذمّ شدید لتارک صلاة الجمعة، حتّی عدّ التارکون للجمعة فی صفّ المنافقین عند ما تکون صلاة الجمعة واجبا عینیّا (أی فی زمن حضور الإمام المعصوم علیه السّلام) و أمّا فی زمن الغیبة- و بناء علی أنّه واجب مخیّر بین صلاة الجمعة و صلاة الظهر- فإنّه لا یکون مشمولا بهذا الذمّ و التقریع رغم عظمة صلاة الجمعة و أهمیّتها فی هذا الوقت أیضا (للتوسّع فی ذلک یجب الرجوع إلی الکتب الفقهیّة).

۳- فلسفة صلاة الجمعة العبادیة و السیاسیّة

إنّ صلاة الجمعة- قبل کلّ شیء- عبادة جماعیة و لها أثر العبادات عموما، حیث تطهّر الروح و القلب من الذنوب، و تزیل صدأ المعاصی عن القلوب، خاصّة و أنّها تکون دائما مسبوقة بخطبتین تشتملان علی أنواع المواعظ و الحکم، و الحثّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۶

علی التقوی و خوف اللّه.

أمّا من الناحیة السیاسیّة و الاجتماعیة فهی أکبر مؤتمر اسبوعی عظیم بعد مؤتمر الحجّ السنوی، لهذا نجد الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول فی الروایة التی نقلناها سابقا من أنّ الجمعة حجّ من لا یملک القدرة علی المشارکة فی الحجّ.

و یعطی الإسلام فی الحقیقة أهمیّة خاصّة لثلاثة مؤتمرات کبیرة:

التجمّعات التی تتمّ یومیا لصلاة الجماعة.

التجمّع الأسبوعی الأوسع فی صلاة الجمعة.

و مؤتمر الحجّ الذی یعقد فی کلّ سنة مرّة.

و دور صلاة الجمعة مهمّ جدّا خاصّة و أنّ من واجبات الخطیب هو التحدّث فی الخطبتین عن المسائل السیاسیة و الاجتماعیة و الاقتصادیة و بذلک سیکون هذا التجمّع العظیم و المهیب منشأ للبرکات و النعم التالیة:

أ- توعیة الناس علی المعارف الإسلامیة و الأحداث السیاسیة و الاجتماعیة المهمّة.

ب- توثیق الاتّحاد و الانسجام بین المسلمین أکثر لإخافة الأعداء.

ج- تجدید الروح الدینیة و تصعید معنویات المسلمین.

د- إیجاد التعاون لحلّ المشکلات العامّة التی تواجه المسلمین.

و لهذا فإنّ أعداء الإسلام یخافون دائما من صلاة الجمعة الجامعة للشرائط.

و لهذا أیضا- کانت صلاة الجمعة مصدر قوّة سیاسیة فی أیدی حکومات العدل کحکومة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذی استثمرها أحسن استثمار لخدمة الإسلام، و کذلک کانت مصدر قوّة أیضا لحکومات الجور کدولة بنی امیّة الذین استغلّوها لتحکیم قدرتهم و سیطرتهم و إضلال الناس.

و علی مدی التأریخ نلاحظ أنّ أی محاولة للتمرّد علی النظام تبدأ أوّلا بالامتناع عن صلاة الجمعة خلف الإمام المنصوب من قبل الحاکم، فقد جاء فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۷

قصّة عاشوراء أنّ بعض الشیعة اجتمعوا فی دار (سلیمان بن صرد الخزاعی) ثمّ بعثوا رسالة إلی الإمام الحسین من الکوفة جاء فیها (.. و النعمان بن بشیر فی قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه فی جمعة، و لا نخرج معه إلی عید، و لو قد بلغنا أنّک قد أقبلت إلینا أخرجناه حتّی نلحقه بالشام إن شاء اللّه»[۳۶۷].

و

فى الصحيفة السجادية عن الإمام السجّاد عليه السّلام: «اللهمّ إنّ هذا المقام لخلفائك و أصفيائك و مواضع أمنائك، فى الدرجة الرفيعة التى اختصصتهم بها قد ابتزّوها»[۳۶۸].

و فى خطبة الجمعة يتمّ تبديد جميع الإشاعات التى كان الأعداء قد بثّوها خلال الأسبوع، و تدبّ بعد ذلك الحياة فى جموع المسلمين و يبدأ دم جديد بالتدفّق.

و من الجدير بالإشارة إليه أنّ فقه أهل البيت عليهم السّلام ينصّ على عدم جواز إقامة أكثر من جمعة واحدة فى منطقة نصف قطرها فرسخ، كما يمكن أن يشارك فى صلاة الجمعة من كان يبعد عنها بمسافة فرسخين (أى ما يعادل أحد عشر كم).

كلّ هذا يعنى أنّه لا يمكن إقامة أكثر من صلاة جمعة فى مدينة واحدة صغيرة أو كبيرة، مع أطرافها و ضواحيها، و بناء على هذا فسيكون هذا التجمّع هو أوسع تجمّع يقام فى تلك المنطقة.

و لكنّنا نجد مع الأسف أنّ هذه المراسم العبادية السياسية التى تستطيع أن تكون مصدر حركة عظيمة فى المجتمعات الإسلامية، نجدها بسبب سيطرة الحكومات الفاسدة على بعض الدول الإسلامية قد فقدت روحها و معناها، إلى الحدّ الذى لا تترك أى أثر إيجابى، و أصبحت تقام باعتبارها مراسم حكومية رسمية لا أكثر، و ذلك ممّا يحزّ بالنفس و يؤلم كثيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۸

إنّ أهمّ صلاة جمعة تقام على طول العام هى الصلاة التى تقام قبل الذهاب إلى عرفات فى مكّة، حيث يشارك فيها عدد غفير من الحجّاج الذين تجمّعوا من مختلف أنحاء العالم. و يكون هناك تمثيل حقيقى لكلّ فئات المسلمين فى الكرة الأرضية، و من اللائق أن يهيّأ لمثل هذه الصلاة الحسّاسة خطبة عظيمة يشارك فى إعدادها أئمّة الجمع ليعرضوا فيها امور المسلمين المختلفة.

و من الطبيعى أن تعطى مثل هذه الخطبة أكلها، و تفيض بالبركات و الوعى بين المسلمين و تحلّ مشاكلهم الخطيرة.

و لكن مع شديد الأسف نرى أنّ خطبة الجمعة فى هذه الأيّام لا تتناول سوى الأمور الهامشية، أو يتمّ التحدّث عن امور معروفة للجميع، و لا يتمّ التحدّث عن الأمور الأساسية التى تهمّ المسلمين!! ألا ينبغى البكاء على ذهاب هذه الفرص الذهبية و ضياع هذه الثروة المعنوية؟! ألا يدعو ذلك إلى الأسف و يتطلّب الإسراع فى الإصلاح؟!

۴- آداب صلاة الجمعة و مضمون الخطبتين

تجب صلاة الجمعة- مع توافر الشروط اللازمة- على الرجال البالغين و الأصحاء الذين لهم القدرة على حضورها و المشاركة فيها، و لا تجب على المسافرين و المسنّين رغم جواز الحضور فيها للمسافر. و كذلك يمكن للنساء المشاركة فى صلاة الجمعة رغم أنّها غير واجبة عليهنّ.

أقلّ عدد يمكن انعقاد الجمعة به هو خمسة رجال.

صلاة الجمعة ركعتين و تقام بدلا عن صلاة الظهر، و تحسب الخطبتان اللتان يتمّ إلقاؤهما قبل صلاة الجمعة بدل الركعتين الأخيرتين.

و صلاة الجمعة كصلاة الصبح يستحبّ أن يقرأ فيها الحمد و السورة جهرا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۹

و يستحبّ كذلك أن تقرأ سورة الجمعة فى الركعة الاولى و المنافقون فى الركعة الثانية.

و هناك قنوتان فى صلاة الجمعة: أحدهما قبل ركوع الركعة الاولى، و الثانى بعد ركوع الركعة الثانية.

يجب إلقاء الخطبتين قبل الصلاة، كما يجب أن يقوم الخطيب واقفا لإلقاء الخطبة، و من يلقى الخطبة يجب أن يكون إمام صلاة

الجمعة. و یجب أن یرفع الخطیب صوته لیسمعه جمیع من یحضر الصلاة و یطّلع علی مضمون الخطبة.

و ینبغی السکوت و الإنصات إلی الخطیب و الجلوس فی مقابله.

و من اللائق أن یکون الخطیب فصیحا و بلیغا و مطّلعا علی أحوال المسلمین و عارفا بشؤون المجتمع الإسلامی، و شجاعا و صریح اللهجة و لا یتردّد فی إظهار الحقّ، و یجب أن تکون سیرته مدعاة للتأثیر علی الناس، و کذلک حدیثه ینبغی أن یربط الناس أکثر باللّه جلّ شأنه.

و من اللائق أن یرتدی الإمام أنظف الملابس، و یستخدم العطر، و یمشی بوقار و سکینة. و عند ما یرتقی المنبر یبدأ بالسلام علی الناس و یقف مقابلهم و یتکئ علی سیف أو عصی. و یجلس علی المنبر متی ینتهی الأذان. و یبدأ بخطبته بعد تمام الأذان.

و یحمد اللّه و یثنی علیه و یصلّی علی رسوله فی بدایة الخطبة الاولی (و یقرأ هذا القسم باللغة العربیة احتیاطا، و ما تبقّی بلسان الحاضرین).

و علیه أن یوصی الناس بتقوی اللّه، و یقرأ سورة من السور القصیرة، و یراعی هذا الأمر فی الخطبتین. و فی الخطبة الثانیة، بعد الصلاة علی النبی و أئمّة المسلمین، یدعو و یستغفر للمؤمنین و المؤمنات.

و من المناسب أن یناقش الخطیب فی خطبته شؤون المسلمین و ما یتعلّق بدینهم و دنیاهم مع الترکیز علی الأولویات. و ینبغی أن ینبههم إلی مؤامرات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۰

الأعداء و یحثّهم ضمن برنامج طویل أو قصیر المدّة.

خلاصة القول یجب أن تتوفّر فی الخطیب عناصر الوعی و التفکیر الصحیح و المتابعة لشؤون المسلمین، لیستثمر الخطبة فی تحقیق الأهداف الإسلامیة العلیا، و یدفع المسلمین نحوها[۳۶۹].

جاء فی حدیث عن الإمام الرضا علیه السّلام أنّه قال: «إنّما جعلت الخطبة یوم الجمعة لأنّ الجمعة مشهد عام، فأراد أن یکون للأمیر سبب إلی موعظتهم و ترغیبهم فی الطاعة و ترهیبهم من المعصیة، و توقیفهم علی ما أراد من مصلحة دینهم و دنیاهم، و یخبرهم بما ورد علیهم من الآفاق، من الأهوال التی لهم فیها المضرّة و المنفعة ... و إنّما جعلت خطبتین لتکون واحدة للثناء علی اللّه و التمجید و التقدیس للّه عزّ و جلّ، و الاخری للحوائج و الأعذار و الإنذار و الدعاء و لما یرید أن یعلّمهم من أمره و نهیه ما فیه الصلاح و الفساد»[۳۷۰].

۵- شرائط وجوب صلاة الجمعة

لا شکّ فی وجوب أن یکون إمام الجمعة- ککل إمام جماعة- عادلا إضافة إلی شروط إضافیة وقع خلاف فیها و فی وجوب توفّرها.

و قد ذهب البعض أنّ هذه الصلاة من وظائف الإمام المعصوم و نائبه الخاصّ، أو بتعبیر آخر أنّها- أی صلاة الجمعة- من شؤون عصر حضور الإمام المعصوم.

هذا فی وقت یری عدد کبیر من المحقّقین أنّ حضور الإمام المعصوم شرط للوجوب التعیینی لصلاة الجمعة، و لیس شرطا فی الوجوب التخییری، حیث یمکن إقامة صلاة الجمعة فی زمان الغیبة بدلا عن صلاة الظهر، و هذا هو الحقّ، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۱

إنّه إذا قامت الحکومة الإسلامیة بشرائطها من قبل النائب العامّ للإمام المعصوم علیه السّلام. فالاحتیاط هو أن ینصب إمام الجمعة من قبل نائب الإمام و یشارک المسلمون فی هذه الصلاة.

ثمّة كلام كثير فى هذا الصدد و فى باقى الأمور المرتبطة بصلاة الجمعة، غير أنّ بعضها خارج عن موضوع التّفسير و يدخل فى إطار البحوث الفقهية و الحديث ۳۷۱].

اللهمّ، وفّقنا لأن ننتفع كأحسن ما يكون الانتفاع لتزكية النفوس بهذه الشعائر الإسلامية العظيمة. و إنقاذ المسلمين من قبضة الأعداء.

ربّنا، اجعلنا من المشتاقين للقائك، الذين لا يخافون من الموت، اللهمّ لا تسلبنا نعمة الإيمان بأنبيائك و التعلّم منهم و الاقتداء بهم أبدا.

آمين ربّ العالمين.

نهاية سورة الجمعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۳

سورة المنافقون

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها إحدى عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۵

«سورة المنافقون»

محتوى السورة:

احتوت سورة «المنافقون» على مضامين عديدة، لكن المحور الأصلى لها هو صفات المنافقين و بعض الأمور الاخرى المرتبطة بهم. و قد جاء فى ذيل السورة بعض الآيات التى حملت مواعظ و نصائح للمسلمين فى مجالات مختلفة.

و يمكن تلخيص تلك الآيات فى أربعة امور:

۱- صفات المنافقين و تتضمّن نقاطا مهمّة و حسّاسة.

۲- تحذير المؤمنين من خطط المنافقين و وجوب الانتباه إلى ذلك و رصده بشكل دقيق.

۳- حثّ المؤمنين على عدم الاستغراق فى الدنيا و زخرفها و الانشغال بذلك عن ذكر اللّه.

۴- حثّ المسلمين على الإنفاق فى سبيل اللّه، و الانتفاع من الأحوال قبل الموت و قبل اشتعال الحسرة فى نفوسهم.

و السبب فى تسمية هذه السورة بسورة «المنافقون» واضح لا يحتاج إلى شرح.

و ما يجدر بالملاحظة هو أنّ من آداب صلاة الجمعة أن تقرأ سورة المنافقين فى الركعة الثانية، ليتذكّر المسلمون على طول الأسبوع مؤامرات المنافقين و خططهم، و يكونوا على حذر دائم من تحرّكاتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۶

فضيلة تلاوة سورة المنافقين:

جاء فى رواية عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة المنافقين برأ من النفاق»[۳۷۲].

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرأ فى ليلة الجمعة بالجمعة و سبّح اسم ربّك الأعلى، و فى صلاة الظهر بالجمعة و المنافقين، فإذا فعل ذلك فكإنّما يعمل بعمل رسول اللّه و كان جزاؤه و ثوابه على اللّه

الجنّة»[۳۷۳].

من الواضـح أنّ فضائل کلّ سورة و آثارها، و منها هذه السورة، لا یمکن أن تکون من ثمار التلاوة الخالیة من التفکّر و العمل فحسب، و الروایات أعلاه خیر شاهـد علی ذلک، فإنّ المرور علی هذه السور دون الاسـتفادة منها علی الصـعید العملی و جعلها برنامجا للحیاة، سوف لن یؤدّی إلی زوال روح النفاق و اجتثاث جذورها من نفس الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۷

الآیات [سورة المنافقون (۶۳): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذا جاءَکَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْـهَدُ إِنَّکَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ إِنَّکَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ یَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِینَ لَکاذِبُونَ (۱) اتَّخَذُوا أَیْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَـدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۲) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا فَطُبِعَ عَلی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا یَفْقَهُونَ (۳) وَ إِذا رَأَیْتَهُمْ تُعْجِبُـکَ أَجْسـامُهُمْ وَ إِنْ یَقُولُوا تَسْـمَعْ لِقَوْلِهِمْ کَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَـنَّدَةٌ یَحْسَـبُونَ کُلَّ صَـیْحَةٍ عَلَیْهِمْ هُمُ الْعَـدُوُّ فَاحْـذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّی یُؤْفَکُونَ (۴)

التّفسیر

مصدر النفاق و علامات المنافقین:

نـذکر مقدّمة قبل الدخول فی تفسیر هذه الآیات، و هی أنّ الإسـلام طرح مسألة النفاق و المنافقین مع هجرة الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه إلی المدینة، و بدایة استحکام أسس الإسلام و ظهور عزّه. فلم تبرز ظاهرة النفاق فی مکّة، لأنّ الأعداء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۸

کانوا لا یخشون الإسـلام و یسـتطیعون التعبیر عن کلّ شـیء بدون حذر. و لا حاجة إلی التخفّی أو اللجوء إلی النفاق فی وقوفهم بوجه الإسلام.

لکن عند ما اسـتحکم الإسـلام و اتّسع فی المدینة، و أصبح أعداؤه من الضعف بحیث یصعب علیهم التجاهر فی عدائهم، بل قد یتعذّر ذلک علیهم فی بعض الأحیان، لهذا اختار أعداء الإسـلام المهزومون أن یواصـلوا خططهم التخریبیة من خلال إظهار الإسـلام و إبطان الکفر، و انخرطوا ظاهرا فی صفوف المسلمین، بینما ظلّوا محافظین علی کفرهم فی باطنهم.

و هکذا تکون غالبا طبیعة أعداء کلّ ثورة و دعوة بعد اشتداد عودها و قوّة ساعدها، إذ تواجه الکثیر من الأعداء و کأنّهم أصدقاء.

و من هنا نستطیع أن نفهم لما ذا نزلت کلّ تلک الآیات التی تصف المنافقین و تشرح حالهم، فی المدینة و لم تنزل فی مکّة.

و ممّا یجـدر الإشارة إلیه أنّ هـذه المسألة- أی مسألة النفاق- غیر محصورة بعصـر الرّسول، بل إنّ جمیع المجتمعات- و خاصّة الثوریة منها- تکون عرضـة للإصابـة بهـذه الظاهرة الخطیرة، و لذلک یجب أن یدرس القرآن الکریم و ما جاء فیه من تجارب و إرشادات من خلال هـذه النظرة الحیویـة، لا من خلال اعتبارها مسألة تاریخیة لا علاقة لها بالواقع. و بهذا یمکن اسـتلهام الدروس و الحکم لمکافحة النفاق و خطوط المنافقین فی المجتمعات الإسلامیة فی الوقت الحاضر.

کذلک لا بدّ من معرفة صفاتهم التی ذکرها القرآن بشکل تفصیلی، لیتمّ التعرّف علیهم من خلالها استکناه خطوطهم و مؤامراتهم.

و ممّا تجدر الإشارة إليه أيضا أنّ خطر المنافقين يفوق خطر باقى الأعداء، لخفائهم و عدم القدرة على تشخيصهم بسهولة من جهة، و لكونهم أعداء يعيشون فى داخل الجسم الإسلامى و ربّما ينفذون إلى قلبه نفوذا يصعب معه فرزهم و تحديدهم من جهة اخرى.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۹

و يأتى خطرهم ثالثا من ارتباطاتهم مع سائر عناصر المجتمع بعلاقات بحيث تصعب مكافحتهم.

و لهذا نرى أنّ أكثر الضربات التى تلقّاها الإسلام على مدى التاريخ جاءته من هذا المعسكر- أى معسكر النفاق. و لهذا- أيضا- نلاحظ أنّ الإسلام شنّ حملات شديدة جدّا عليهم، و وجّه إليهم ضربات عنيفة لم يوجّهها إلى غيرهم.

و بعد هذه المقدّمة نرجع إلى تفسير الآيات.

إنّ أوّل صفة يذكرها القرآن للمنافقين هى: إظهار الإيمان الكاذب الذى يشكّل الظاهرة العامّة للنفاق، حيث يقول تعالى: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّکَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۳۷۴] و يضيف وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ

و هذه أوّل علامة من علامات المنافقين، حيث اختلاف الظاهر مع الباطن، ففى الوقت الذى يظهر المنافقون الإيمان و يدعونه بألسنتهم، نرى قلوبهم قد خلت من الإيمان تماما. و هذه الظاهرة تشكّل المحور الرئيسى للنفاق.

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الصدق و الكذب على نوعين: «صدق و كذب خبرى» و «صدق و كذب مخبرى»، يكون المعيار و المقياس فى القسم الأوّل هو موافقته و عدم موافقته للواقع، بينما يكون المقياس فى القسم الثانى هو موافقته و عدم موافقته للاعتقاد، فإذا جاء الإنسان بخبر مطابق للواقع و لكنّه غير مطابق لاعتقاده، فهذا من الكذب المخبرى، و فى حالة مطابقته لعقيدته فهو صادق.

و بناء على هذا فإنّ شهادة المنافقين على رسالة الرّسول ليست من قبيل الكذب الخبرى لأنّها مطابقة للواقع، و لكنّها من نوع الكذب المخبرى إذ تخالف إعتقاد المنافقين. لذلك جاء التعبير القرآنى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّکَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۰

بعبارة اخرى: إنّ المنافقين لم يريدوا الإخبار عن واقعية رسالة رسول اللّه و إنّما أرادوا الإخبار عن اعتقادهم برسالته، و هذا من الكذب المحض.

و من الملاحظ أنّ المنافقين استخدموا كلّ الطرق لتأكيد شهادتهم، غير أنّ اللّه كذّبهم بشدّة و بنفس اللهجة التى أكّدوا فيها شهادتهم. و هذه إشارة إلى أنّ المنافقين يجب أن يواجهوا بنفس الشدّة التى يؤكّدون فيها على صدقهم.

و نشير هنا إلى أنّ «المنافق» فى الأصل من مادّة (نفق) على وزن «نفخ» بمعنى النفوذ و التسرّب و «نفق» «على وزن شفق» أى القنوات و التجاويف التى تحدث فى الأرض، و تستغل للتخفّى و التهرّب و الاستتار و الفرار.

و أشار بعض المفسّرين إلى أنّ بعض الحيوانات كالذئاب و الحرباء و الفأر الصحراوى، تتّخذ لها غارين: الأوّل واضح تدخل و تخرج منه بصورة مستمرّة، و الآخر غير واضح و مخفى تهرع إليه فى ساعات الخطر و يسمّى «النفقاء»[۳۷۵].

و المنافق هو الذى اختار طريقا مشبوها و مخفيّا لينفذ من خلاله إلى المجتمع، و يهرب عند الخطر من طريق آخر.

و تذكر الآية اللاحقة العلامة الثانية: اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

ذلك لأنّهم يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر، و يضعون الموانع و العراقيل فى طريق هداية الناس، و ليس هناك أقبح من أن يمنع الإنسان غيره من الاهتداء.

«جنّة» من مادّة (جنّ) (على وزن فنّ) و هى فى الأصل بمعنى إخفاء شىء من الحسّ، و يطلق هذا الاسم على (الجنّ) لأنّه مخلوق غير واضح، و يقال للدرع الذى يستر الإنسان من ضربات العدو فى لغة العرب (جنّة) و يقال أيضا للبساتين المكتّظة بالشجر بسبب استتار أراضيها فتسمّى (جنّة).

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۱

علی کلّ حال فإنّ من علامات المنافقین التستر باسم اللّه المقدّس، و إیقاع الأیمان المغلّظۀ لإخفاء وجوهم الحقیقیّۀ، و إلفات أنظار الناس نحوهم. و بذلک یصدّونهم عن الرشد (الصدّ عن سبیل اللّه).

و بهذا یتّضح أنّ المنافقین فی حالۀ حرب دائمۀ ضدّ المؤمنین، و أنّ الظواهر التی یتخفّون وراءها لا ینبغی أن تخدع أحدا.

و قد یضطرّ الإنسان أحیانا إلی الیمین، أو أنّ هذا الیمین سیساعده علی إظهار أهمیّۀ الموضوع، بید أنّه لا ینبغی أن یکون یمینا کاذبا أو بدون ضرورة و لا موجب.

جاء فی الآیۀ (۷۴) من سورة التوبۀ: یَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا کَلِمَۀَ الْکُفْرِ.

ذکر المفسّرون مفهومین لمعنی التعبیر ب فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ الأوّل:

الإعراض عن طریق اللّه، و الآخر: منع الآخرین عن سلوک هذا الطریق. و قد لا یتعذّر الجمع بین المعنیین فی إطار الآیۀ (مورد البحث) غیر أنّ لجوءهم إلی الحلف باللّه کذبا یجعل المعنی الثانی أکثر مناسبۀ، لأنّ الهدف من القسم هو صدّ الآخرین و تضلیلهم.

فمرّة یقیمون مسجد (ضرار)، و عند ما یسألون ما هو هدفکم من ذلک؟

یحلفون أن لا هدف لهم سوی الخیر کما فی الآیۀ (۱۰۷) من سورة التوبۀ.

و مرّة اخری یعلنون استعدادهم للمشارکۀ فی الحروب القریبۀ السهلۀ التی یحتمل الحصول علی غنائم فیها، و لکن حینما یدعون إلی المشارکۀ فی معرکۀ تبوک الصعبۀ و الشاقّۀ تجدهم یختلقون الحجج و یلفّقون الأعذار، و یحلفون باللّه لو استطعنا لخرجنا معکم یُهْلِکُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ ۳۷۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۲

و فی یوم الحشر یلجأ المنافقون لنفس الأسلوب فی الحلف، کما جاء فی الآیۀ ۱۸ من سورة المجادلۀ.

و بذلک یتّضح أنّ هذا السلوک صار جزءا من کیانهم، فهم لا یمتنعون عنه حتّی فی مشهد الحشر بین یدی اللّه تعالی.

و تتطرّق الآیۀ اللاحقۀ إلی ذکر السبب الذی یقف وراء هذه الأعمال السیّئۀ، حیث یقول تعالی: ذلِکَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا فَطُبِعَ عَلی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا یَفْقَهُونَ

و المقصود بالإیمان- کما یعتقد بعض المفسّرین- هو الإیمان الظاهری الذی یخفی وراءه الکفر.

و لکن یبدو أنّ الآیۀ ترید أن تقول: إنّهم کانوا مؤمنین حقّا و ذاقوا طعم الإیمان و لمسوا حقّانیۀ الإسلام و القرآن، ثمّ انتهجوا منهج الکفر مع احتفاظهم بظاهر الإیمان أو الإیمان الظاهری. و قد سلب اللّه منهم حسّ التشخیص و حرمهم إدراک الحقائق، لأنّهم أعرضوا عن الحقّ، و أداروا له ظهورهم بعد أن شخّصوه و عرفوه حقّا.

و الواقع أنّ المنافقین مجموعتان:

المجموعۀ الاولی: کان إیمانها منذ البدایۀ ظاهریا و صوریا.

و الثانیۀ: کان إیمانها حقیقیّا فی البدایۀ ثمّ ارتدّوا و لزموا طریق النفاق.

و الظاهر أنّ الآیۀ- مورد البحث- تتعرّض للمجموعۀ الثانیۀ.

و تشبه هذه الآیۀ (۷۴) من سورة التوبۀ التی تقول: وَ کَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ

علی کلّ حال فإنّ عدم قدرتهم علی إدراک الحقائق الواضحۀ تعتبر علامۀ ثالثۀ من علامات نفاقهم.

و من الواضح أنّهم غیر مجبرین علی ذلک، لأنّهم قد هیّئوا مقدّماته بأنفسهم.

و توضّح الآیۀ اللاحقۀ علامات المنافقین بشکل أکثر وضوحا، إذ یقول تعالی: وَ إِذا رَأَیْتَهُمْ تُعْجِبُکَ أَجْسامُهُمْ فهم یتمتّعون بظواهر جمیلۀ و أجسام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۳

لطيفة.

وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ لأنّه ينطوى على شيء من التحسين و العذوبة.

و فى الوقت الذى يتأثّر الرّسول بحديث بعضهم- كما يبدو من ظاهر التعبير- فكيف بالآخرين؟! هذا فيما يخصّ ظاهرهم، أمّا باطنهم ف كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ.

فأجسامهم خالية من الروح، و وجوههم كالحة، و كيانهم خاو منخور من الداخل، ليس لهم أيّة إرادة و لا يتمتّعون بأيّة استقلالية (كالأخشاب المسنّدة) المكدّسة.

روى بعض المفسّرين فى صفة رئيس المنافقين (عبد اللّه بن أبى) «كان عبد اللّه بن أبى رجلا جسيما صبيحا فصيحا ذلق اللسان، و قوم من المنافقين فى مثل صفته، و هم رؤساء المدينة، و كانوا يحضرون مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيستندون فيه، و لهم جهارة المناظرة و فصاحة الألسن، فكان النبى و من حضر يعجبون بهياكلهم و يسمعون إلى كلامهم»[۳۷۷].

و كان هؤلاء يتميّزون بالضعف و الخواء فى داخلهم، لا يعرفون التوكّل و الاعتماد على اللّه و لا على أنفسهم، فهم كما يصفهم القرآن الكريم فى آية اخرى:

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ

يسيطر عليهم الخوف و الرعب و سوء الظنّ، و تغمر أرواحهم النظرة السوداء السيّئة .. تجدهم فى خوف دائم من ظلمهم و خيانتهم حتّى اعتبر ذلك علامة مميّزة لهم (الخائن خائف).

و قد نبّه القرآن الكريم فى نهاية الآية قائلا: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ أى هم الأعداء الواقعيون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۴

و يضيف قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى كيف ينحرفون عن الحقّ.

و لا يريد القرآن بهذا التعبير الإخبار، و إنّما يريد لعنهم و ذمّهم بشدّة، و هو أشبه بالتعابير التى يستخدمها الناس فى ذمّ بعضهم البعض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۵

الآيات [سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۵ الى ۸]

اشارة

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۵) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۶) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (۷) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸)

سبب النّزول

ذكرت كتب التاريخ و التّفسير سببا مسهبا لنزول هذه الآيات، و جاء فى الكامل فى التاريخ: أنّه بعد غزوة بنى المصطلق ازدحم الناس على الماء، وردت واردة الناس و مع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له: جهجاه، فازدحم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۶

هو و «سنان الجهنى» حليف بنى عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا- فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار. و صرخ جهجاه: يا معشر

المهاجرين.

فغضب عبد اللّه بن أبى سلول و عنده رهط من قومه فيهم «زيد بن أرقم» غلام حدث السنّ فقال: أو قد فعلوها؟ قد كاثرونا فى بلادنا، أما و اللّه (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل) ثمّ أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم و قاسمتموهم أموالكم، و اللّه لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فسمع ذلك زيد فمشى به إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك عند فراغ رسول اللّه من غزوه، فأخبره الخبر و عنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول اللّه مر به عبّاد بن بشر فليقتله،

فقال رسول اللّه: كيف إذا تحدّث الناس أنّ محمّدا قتل أصحابه؟ و لكن ائذن بالرحيل.

فارتحل فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، فلقيه أسيد بن حضير فسلّم عليه و قال: يا رسول اللّه، لقد رحت فى ساعة لم تكن تروح فيها؟

فقال: أو ما بلغك ما قال عبد اللّه بن أبى؟ قال: و ما ذا قال؟ قال: زعم أنّه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل. قال أسيد: فأنت و اللّه تخرجه إن شئت، فإنّك العزيز و هو الذليل.

ثمّ قال: يا رسول اللّه، ارفق به فو اللّه لقد منّ اللّه بك و إنّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنّه ليرى أنّك قد استلبته ملكا.

و سمع عبد اللّه بن أبى أنّ زيدا أعلم النبى قوله فمشى إلى رسول اللّه فحلف باللّه ما قلت ما قال و لا تكلّمت به، و كان عبد اللّه فى قومه شريفا، فقالوا: يا رسول اللّه عسى أن يكون الغلام قد أخطأ.

و أنزل اللّه: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ تصديقا لزيد. فلمّا نزلت أخذ رسول اللّه بأذن زيد و قال: هذا الذى أوفى اللّه باذنه، و بلغ ابن عبد اللّه بن سلول ما كان من أمر أبيه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۷

فأتى النبى فقال: يا رسول اللّه، بلغنى أنّك تريد قتل أبى، فإن كنت فاعلا فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، و أخشى أن تأمر غيرى بقتله فلا تدعنى نفسى نظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار.

فقال النبى: بل نرفق به و نحسن صحبته ما بقى معنا، فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثا عاتبه قومه و عنّفوه)[۳۷۸].

التّفسير

علامات اخرى للمنافقين:

تأتى هذه الآيات لتكمّل توضيح علامات المنافقين التى بدأتها الآيات التى سبقتها، يقول تعالى: إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

لقد وصل بهم الكبر و الغرور مبلغا حرمهم من استثمار الفرص و الاستغفار و التوبة و العودة إلى طريق الحقّ و الصواب. و كان «عبد اللّه بن أبى» هو النموذج البارز لهذا التكبّر و الطغيان، و قد تجسّد ذلك فى جوابه على من طلب منه الذهاب إلى رسول اللّه للاستغفار، عند ما قال «لقد أمرتمونى أن أؤمن فآمنت، و قلتم: أعط الزكاة فأعطيت، لم يبق بعد إلّا أن تأمرونى بأن أسجد لمحمّد».

إنّ حبّ المنافقين لأنفسهم و عبادتهم لذواتهم، جعلتهم أبعد ما يكونون عن الإسلام الذى يعنى التسليم و الرضا و الاستسلام الكامل للحقّ.

«لووا» من مادّة (لى) و هى فى الأصل بمعنى برم الحبل، و تأتى أيضا بمعنى إمالة الرأس و هزّه إعراضا و استكبارا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۸

«يصدّون» لها معنيان كما أوضحنا ذلك سابقا، (المنع) و (الإعراض) و هذا المعنى أكثر انسجاما مع الآية- مورد البحث- بينما يكون الأوّل أى (المنع) منسجما مع الآية الاولى.

و من أجل أن لا- يبقى هناك أى إبهام أو التباس قال تعالى: سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

بعبارة اخرى: إنّ استغفار النبى ليس علّة تامّة للمغفرة، بل هى مقتض تؤثّر حينما تكون الأرضية مهيّأة، أى عند ما يتوبون بصدق و إخلاص و يتّخذون طريقا آخر، و يهجرون الكذب و الغرور، و يستسلمون للحقّ، هنالك يؤثّر استغفار الرّسول و تقبل شفاعته.

و عبّرت الآية (۸۰) من سورة التوبة بما يشبه ذلك حينما وصفت قسما آخر من أهل النفاق، إذ قال تعالى: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

و من الواضح أنّ العدد (سبعين) ليس هو المقصود، بل المقصود أنّ اللّه لن يغفر لهم مهما استغفر لهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و ليس كلّ المذنبين من الفسّاق، فقد جاء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لإنقاذ المذنبين، فالمقصود إذن هم تلك المجموعة من الفسّاق أو المذنبين الذين يصرّون على ذنوبهم و يركبون رؤوسهم.

و الشاهد الآخر الذى يذكره القرآن كعلامة لهم واضحة جدّا، هو قوله تعالى:

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا فلا تعطوا المسلمين شيئا من أموالكم و إمكاناتكم لكى يتفرّقوا عن رسول اللّه.

وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ

إنّ هؤلاء فقدوا الوعى و البصيرة، و لم يعرفوا أنّ كلّ ما لدى الناس إنّما هو من اللّه، و كلّ الخلق عياله. و أن تقاسم الأنصار لأموالهم مع المهاجرين إنّما هو من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۹

دواعى الافتخار و الاعتزاز، و لا ينبغى أن يمنّوا به على أحد.

ثمّ يقول تعالى فى إشارة اخرى إلى مقالة اخرى سيّئة من مقالاتهم يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ

و هذا نفس الكلام الذى أطلقه «عبد اللّه بن أبى»، و يريدون من ورائه أنّهم أهل المدينة الأصليّون الذين سيخرجون منها الرّسول و أصحابه من المهاجرين، بعد عودتهم من غزوة بنى المصطلق التى مرّت الإشارة إليها.

و رغم أنّ هذا الحديث صدر عن رجل واحد، لكنّه كان لسان حال المنافقين جميعا، و هذا ما جعل القرآن يعبّر عنهم بشكل جماعى «يقولون ...» فيردّهم ردّا حازما إذ يقول: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ

و لم يكن منافقو المدينة وحدهم الذين رووا هذا الكلام، بل سبقهم إلى ذلك رؤساء قريش عند ما قالوا: (سينتهى أمر هذه المجموعة القليلة الفقيرة من المسلمين إذا حاصرناهم اقتصاديا أو أخرجناهم من مكّة).

و هكذا نرى اليوم الدول المستكبرة و هى تحذّر الشعوب التى ترفض الخضوع لسيطرتها، بأنّها تملك الدنيا و خزائنها، فان لم تخضع لها تحاصر اقتصاديا لتركيعها.

و هؤلاء هم الذين طبع على قلوبهم و اتّخذوا منهجا واحدا على مدى التاريخ، و ظنّوا أنّ ما لديهم باق، و لم يعلموا أنّ اللّه قادر على إزالته و إزهاقه بلمحة بصر.

و هذا النمط من التفكير (رؤية أنفسهم أعزّاء و الآخرين أذلّاء و توهّم أنّهم أصحاب النعمة و الآخرون محتاجون إليهم) هو تفكير

نفاقی متولّد من التکبّر و الغرور من جهة، و توهّم الاستقلال عن اللّه عزّ و جلّ من جهة اخری، فلو أنّهم أدرکوا حقیقة العبودیة و مالکیة اللّه لکلّ شیء فمن المحال أن یقعوا فی ذلک التوهّم الخطیر ..

و قد عبّرت عنهم الآیة السابقة بقولها: لا یَفْقَهُونَ و هنا قالت: لا یَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۰

و یمکن تفسیر الاختلاف فی التعبیر إلی ضرورات البلاغة، أو أنّه إشارة إلی صعوبة تفهّم أنّ اللّه مالک خزائن السموات و الأرض بالشکل الحقیقی، فی الوقت الذی لا یحتاج إدراک أنّ للّه العزّة و لرسوله و للمؤمنین إلی شیء من التعمّق و الدقّة.

بحوث

۱- للمنافقین علامات عشر

یمکن أن نجمل علامات المنافقین التی ذکرتها الآیات الکریمة بعشر علامات:

۱- الکذب الصریح و الواضح وَ اللَّهُ یَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِینَ لَکاذِبُونَ

۲- الاستفادة من الحلف الکاذب لتضلیل الناس اتَّخَذُوا أَیْمانَهُمْ جُنَّةً.

۳- عدم إدراک الواقع بسبب إعراضهم عن جادّة الصواب و طریق الهدایة بعد تشخصیه لا یَفْقَهُونَ

۴- تمتّعهم بظواهر مغریة و ألسنة ناعمة تخفی وراءها بواطن مظلمة خاویة، فارغة، منخورة وَ إِذا رَأَیْتَهُمْ تُعْجِبُکَ أَجْسامُهُمْ

۵- الحیاة الفارغة فی المجتمع، و رفضهم الخضوع لمنطق الحقّ، فهم کالخشبة الیابسة کَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ.

۶- یغلب علیهم سوء الظنّ و الخوف و الترقّب لما ینطوون علیه من نزعة خیانیة یَحْسَبُونَ کُلَّ صَیْحَةٍ عَلَیْهِمْ

۷- استهزاؤهم بالحقّ و استهتارهم به لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ

۸- الفسق و الفجور و ارتکاب المعاصی و الذنوب إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ

۹- یتملّکهم شعور بأنّ لهم کلّ شیء، و کلّ الناس فی حاجة ماسّة إلیهم هُمُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۱

الَّذِینَ یَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلی مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّی یَنْفَضُّوا.

۱۰- یتصوّرون و یتخیّلون دائما أنّهم أعزّاء، بینما الآخرون أذلّة لَیُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ

هذا علما بأنّ علامات المنافقین لا تنحصر بهذه العلامات، فقد وردت علامات اخری فی القرآن الکریم و نهج البلاغة و یمکن اکتشاف علامات اخری من خلال معاشرتهم. و یمکن اعتبار العلامات العشر المذکورة أهمّ تلک العلامات.

و صفهم

أمیر المؤمنین فی إحدی خطب نهج البلاغة بقوله: «أوصیکم عباد اللّه بتقوی اللّه و احذّرکم أهل النفاق، فإنّهم الضالّون المضلّون، و الزالّون المزلّون، یتلوّنون ألوانا و یفتنون افتنانا و یعمدونکم بکلّ عماد، و یرصدونکم بکلّ مرصاد.

قلوبهم دویّة و صفاحهم نقیّة، یمشون الخفاء و یدبّون الضراء، و صفهم دواء و قولهم شفاء و فعلهم الداء العیاء، حسدة الرخاء و مؤکّدو البلاء و مقنطو الرجاء، لهم بکلّ طریق صریع و إلی کلّ قلب شفیع و لکلّ شجو دموع، یتقارضون الثناء و یتراقبون الجزاء، و إن سألوا ألحفوا، و إن عذلوا کشفوا، و إن حکموا أسرفوا، قد أعدّوا لکلّ حقّ باطلا، و لکلّ قائم مائلا، و لکلّ حی قاتلا، و لکلّ باب مفتاحا، و لکلّ لیل مصباحا، یتوصّلون إلی الطمع بالیأس لیقیموا به أسواقهم، و ینفقوا به أعلاقهم، یقولون فیشبهون و یصفون

فیموهون، قد هونوا الطریق و أضلعوا المضیق، فهم لمّة الشیطان و حمة النیران:

أُولئِکَ حِزْبُ الشَّیْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّیْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ .

۲- خطر المنافقین

۱- یمثّل المنافقون- کما ورد فی مقدّمة البحث- الخطر الأعظم الذی یواجه المجتمع، و ذلک لکونهم یعیشون داخل المجتمعات، و علی اطّلاع بکافّة الأسرار.

۲- لا یمکن التعرّف علیهم بسهولة، و یظهرون من الحبّ و الصداقة بحیث لا

یستطیع الإنسان أن یری ما خلفها من البغض و الأحقاد.

۳- عدم افتضاح وجوههم الحقیقة للناس، الأمر الذی یجعل مواجهتهم بشکل مباشر عملا صعبا.

۴- امتلاکهم ارتباطات عدیدة بالمؤمنین (ارتباطات سببیة و نسبیة و غیرها).

۵- یطعنون المجتمع بشکل مباغت و من الخلف.

کلّ ذلک و غیره یجعل الخسائر التی تلحق بالمجتمع الإسلامی بسببهم کثیرة إلی الحدّ الذی لا یمکن تلافیها أحیانا. لهذا ینبغی وضع خطط حکیمة و دقیقة لدفع شرّهم، و إنقاذ الامّة من أحقادهم.

جاء فی حدیث عن الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّی لا أخاف علی امّتی مؤمنا و لا مشرکا، أمّا المؤمن فیمنعه اللّه بإیمانه، و أمّا المشرک فیخزیه اللّه بشرکه، و لکنّی أخاف علیکم کلّ منافق عالم اللسان، یقول ما تعرفون و یفعل ما تنکرون»[۳۷۹].

مرّت بحوث مفصّلة حول المنافقین فی التّفسیر الأمثل ذیل الآیات ۸- ۱۶- سورة البقرة.

و ذیل الآیات ۶۰ إلی ۸۵ سورة التوبة.

و ذیل الآیات ۱۲- ۱۷ سورة الأحزاب.

و ذیل الآیة ۴۳- ۴۵ سورة التوبة.

و الخلاصة أنّ القرآن الکریم اهتمّ بهذه المجموعة اهتماما خاصّا أکثر من اهتمامه بأیّة فئة اخری.

۳- المنافق فارغ و منخور

تهبّ العواصف علی مدی الحیاة و تتلاطم الأمواج العاتیة، و یتمسّک

المؤمنون بإیمانهم، و یضعون الخطط الحکیمة للنجاة من ذلک، فمرّة بالکرّ و الفرّ و اخری بالهجمات المتتالیة، و یبقی المنافق معرّضا للعواصف لا یقوی علی مصارعتها فینکسر و یتلاشی.

جاء فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «مثل المؤمن کمثل الزرع لا تزال الریح تمیله، و لا یزال المؤمن یصیبه البلاء، و مثل المنافق کمثل شجرة الأرز، لا تهتزّ حتّی تستحصد»[۳۸۰].

و تعنی «العزّة» فی اللغة العربیة القدرة و السلطان غیر القابل للتصدّع و التدهور، و قد جعل القرآن الکریم العزّة من الأمور التی یختصّ بها اللّه تعالی، کما فی الآیة العاشرة من سورة فاطر حیث یقول: مَنْ کانَ یُرِیدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِیعاً.

ثمّ یضیف القرآن الکریم قائلا: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ

فأولیاء اللّه و أحبّاؤه یقتبسون نورا من نور اللّه فیأخذون عزّا من عزّته، و لهذا فإنّ روایات إسلامیة عدیدة حذّرت المؤمنین من التنازل عن عزّتهم و نهتهم عن تهیأة أسباب الذلّة فی أنفسهم، و دعتهم بإلحاح إلی الحفاظ علی هذه العزّة.

فقد ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ

قال علیه السّلام «المؤمن یکون عزیزا و لا یکون ذلیلا .. المؤمن أعزّ من الجبل، إنّ الجبل یستفلّ منه بالمعاول و المؤمن لا یستفلّ من دینه شیء»[۳۸۱].

و

فی حدیث آخر له علیه السّلام قال فیه: «لا ینبغی للمؤمن أن یذلّ نفسه. قیل له:

و کیف یذلّ نفسه؟ قال علیه السّلام: یتعرّض لما لا یطیق»[۳۸۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۴

و

فی حدیث ثالث عن الإمام الصادق علیه السّلام جاء فیه: «إنّ اللّه تبارک و تعالی فوّض إلی المؤمن أموره کلّها، و لم یفوّض إلیه أن یذلّ نفسه، أ لم تر قول اللّه سبحانه و تعالی هاهنا: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ و المؤمن ینبغی أن یکون عزیزا و لا یکون ذلیلا»[۳۸۳].

کنّا قد تطرّقنا إلی بحث هذا الموضوع فی ذیل الآیة (۱۰) سورة فاطر، فی هذا التّفسیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۵

الآیات [سورة المنافقون (۶۳): الآیات ۹ الی ۱۱]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُلْهِکُمْ أَمْوالُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۹) وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ فَیَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِی إِلی أَجَلٍ قَرِیبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَکُنْ مِنَ الصَّالِحِینَ (۱۰) وَ لَنْ یُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَ اللَّهُ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۱)

التّفسیر

لا تلهکم أموالکم و لا أولادکم!

إنّ حبّ الدنیا و التکالب علی الأموال و الانشداد إلی الأرض، من الأسباب المهمّة التی تدفع باتّجاه النفاق، و هذا ما جعل القرآن یحذّر المؤمنین من مغبّة الوقوع فی هذه المصیدة الخطیرة یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُلْهِکُمْ أَمْوالُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ

و رغم أنّ الأموال و الأولاد من النعم الإلهیة التی یستعان بها علی طاعة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۶

و تحصیل رضوانه، لکنّها یمکن أن تتحوّل إلی سدّ یحول بین الإنسان و خالقه إذا ما تعلّق به الإنسان بشکل مفرط.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام يجسّد هذا المعنى بأوضح وجه «ما ذئبان ضاريان فى غنم ليس لها راع، هذا فى أوّلها و هذا فى آخرها، بأسرع فيها من حبّ المال و الشرف فى دين المؤمن»[۳۸۴].

اختلف المفسّرون فى معنى «ذكر اللّه» ففسّرها البعض بأنّه الصلوات الخمس، و قال آخرون: إنّه شكر النعمة و الصبر على البلاء و الرضى بالقضاء، و قيل: إنّه الحجّ و الزكاة و تلاوة القرآن، و قيل أنّه كلّ الفرائض.

و يبدو أنّ ل (ذكر اللّه) معنى واسعا يشمل كلّ تلك المصاديق.

و لهذا وصف القرآن الكريم أولئك الذين يرحلون عن الدنيا دون أن يستثمروا نعم اللّه فى بناء الحياة الخالدة و تعمير الآخرة بأنّهم «الخاسرون» فقد خرجوا من هذه الدنيا و هم منشغلون بالأموال و الأمور الزائلة التى لا بقاء و لا دوام لها.

بعد هذا التحذير الشديد يأمر اللّه تعالى بالإنفاق فى سبيله حيث يقول:

وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۳۸۵].

و الأمر بالإنفاق هنا يشمل كافّة أنواع الإنفاق الواجبة و المستحبّة، رغم قول البعض بأنّها تعنى التعجيل فى دفع الزكاة.

و الطريف أنّه جاء فى ذيل الآية فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ لبيان تأثير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۷

الإنفاق فى صلاح الإنسان، و إن فسّره البعض بأنّه أداء «مراسم الحجّ» كما عبّرت بعض الروايات عن نفس هذا المعنى فهو من قبيل ذكر المصداق البارز.

و أراد القرآن أن يلفت الأنظار إلى أنّ الإنسان لا يقول هذا الكلام بعد الموت، بل عند الموت و الاحتضار، إذ قال: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

و قال مِمَّا رَزَقْناكُمْ ليؤكّد أنّ جميع النعم- و ليس الأموال فقط- هى من عند اللّه، و أنّها ستعود إليه عمّا قريب، فلا معنى للبخل و الحرص و التقتير.

على أى حال فإنّ هناك عددا كبيرا من الناس يضطربون كثيرا حينما يجدون أنفسهم على و شك الانتقال إلى عالم البرزخ، و الرحيل عن هذه الدنيا، و ترك كلّ ما بنوا فيها من أموال طائلة و ملاذ واسعة، دون أن يستثمروها فى تعمير الآخرة.

عندئذ يتذكّر هؤلاء و يطلبون العودة إلى الحياة الدنيا مهما كان الرجوع قصيرا و عابرا، ليعوّضوا ما فات، و يأتيهم الجواب وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها.

و فى الآية ۳۴ من سورة الأعراف فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ

ثمّ تنتهى الآية بهذه العبارة وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ فقد سجل كلّ شىء عنكم و ستجدونه محضرا من ثواب و عقاب.

تعقيب

۱- طريقة التغلّب على الاضطرابات و القلق

جاء فى أحوال الشيخ و العالم الكبير «عبد اللّه الشوشترى» و هو من معاصرى العلّامة «المجلسى» أنّه كان يحبّ ولده كثيرا، فاتّفق أنّه مرض مرضا شديدا، فلمّا حضر أبوه المرحوم الشيخ عبد اللّه إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة كان مشدوه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۸

البال مشتّت الشعور- و حينما بلغ قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فى سورة المنافقون أخذ

یکرّرها مرّات عدیدة، و حینما سئل بعد الفراغ عن سبب ذلک قال: لقد تذکّرت ولدی حینما بلغت هذا المقطع من السورة، فجاهدت نفسی و روّضتها بتکرار هذه الآیة إلی الحدّ الذی اعتبرته میّتا و کأنّ جثمانه أمامی فانصرفت من الآیة[۳۸۶].

۲- النفاق العقائدی و النفاق العملی

للنفـاق معنی واسع یشـمل کـلّ أنـواع اختلاـف الظـاهر عن البـاطن، و مصـداقه البـارز هو النفـاق العقائـدی الـذی تتحـدّث عنه سورة المنافقون.

أمّا النفاق العملی فهو وصف لحالة بعض الناس المؤمنین بالإسـلام حقّا، و لکنّهم یرتکبون أعمالا تناقض اعتقادهم، کالکذب و نقض العهد و خیانة الأمانة.

جاء فی روایة عن الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم «ثلاث من کنّ فیه کان منافقا، و إن صام و صلّی و زعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، و إذا حدّث کذب، و إذا وعد أخلف»[۳۸۷].

و

فی حدیث آخر عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «ما زاد خشوع الجسد علی ما فی القلب فهو عندنا نفاق»[۳۸۸].

و

فی حدیث آخر عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام «إنّ المنافق ینهی و لا ینتهی، و یأمر بما لا یأتی»[۳۸۹].

اللهمّ، إنّ دائرة النفاق واسعة، و لا نجاة لنا منه دون لطفک و رحمتک فأعنّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۹

علی ذلک.

ربّنا، اجعلنا من الذین لا تأکلهم الحسرة عند تودیعهم لهذه الدنیا.

اللهمّ، إنّ العزّة لک و لأولیائک، و خزائن السموات و الأرض لک لا لغیرک.

فأنزل علینا من برکاتک، و لا تحرمنا من فیض خزائنک.

أمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة المنافقین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۱

سورة التّغابن

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها ثمانی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۳۷۳

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۳

«سورة التغابن»

محتوی السورة:

هناک خلاف شدید بین المفسّرین فی مکان نزول هذه السورة، هل هو المدینة أو مکّة؟ علما بأنّ الرأی المشهور هو أنّ السورة مدنیة.
و قال آخرون: إنّ الآیات الثلاث الأخیرة مدنیّة و الباقی مکیّة.
و من الواضح أنّ سیاق الآیات الأخیرة فی هذه السورة ینسجم مع السور المدنیة، و صدرها أکثر انسجاما مع السور المکیّة، و لکنّنا نری أنّها مدنیة طبقا للمشهور.
نقل «عبد اللّه الزنجانی» فی کتابه القیّم (تأریخ القرآن) عن فهرس «ابن الندیم» أنّ سورة التغابن هی السورة المدنیة الثالثة و العشرون.
و نظرا لأنّ مجموع السور المدنیة یبلغ ۲۸ سورة فستکون هذه السورة من أواخر السور المدنیة.
و یمکن تقسیم هذه السورة من حیث المواضیع التی احتوتها إلی عدّة أقسام:
۱- بدایة السورة التی تبحث فی التوحید و صفات و أفعال اللّه تعالی.
۲- حثّ الناس علی ملاحظة أعمالهم ظاهرا و باطنا، و أن لا یغفلوا عن مصیر الأقوام السابقین.
۳- فی قسم آخر من السورة یجری الحدیث عن المعاد، و أنّ یوم القیامة «یوم تغابن»، تغبن فیه جماعة و تفوز فیه جماعة، و اسم السورة مشتقّ من هذا المفهوم.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۴
۴- الأمر بطاعة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تحکیم قواعد النبوّة.
۵- و یأمر اللّه تبارک و تعالی فی القسم الأخیر من السورة بالإنفاق فی سبیله، و یحذّر من الانخداع بالأموال و الأولاد و الزوجات. و تختم السورة بذکر صفات اللّه تبارک و تعالی.

فضیلة تلاوة السورة:

فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة»[۳۹۰].
و
عن الإمام الصادق علیه السّلام «من قرأ سورة التغابن فی فریضة کانت شفیعة له یوم القیامة، و شاهد عدل عند من یجیز شهادتها، ثمّ لا تفارقه حتّی یدخل الجنّة»[۳۹۱].
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۵

الآیات [سورة التغابن (۶۴): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
یُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْکُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱) هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ فَمِنْکُمْ کافِرٌ وَ مِنْکُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۲) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَکُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَکُمْ وَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ (۳) یَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ یَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۴)
أَ لَمْ یَأْتِکُمْ نَبَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۵) ذلِکَ بِأَنَّهُ کانَتْ تَأْتِیهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ یَهْدُونَنا فَکَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَی اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِیٌّ حَمِیدٌ (۶)

التّفسير

يعلم ما تخفى الصدور:

تبـدأ هـذه السورة بتسبيـح اللّه، اللّه المالـك المهيمن على العالمين القادر على كلّ شـىء يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ و يضيف لَهُ الْمُلْكُ و الحاكمية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٣٧۶

على عالم الوجود كافّة، و لهذا السبب: وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و لا حاجـة للحـديث عن تسبيـح المخلوقات جميعا للّه الواحد الأحد بعد أن تطرّقنا إلى ذلك فى مواضع عديدة، و هذا التسبيح ملازم لقدرته على كلّ شىء و تملّكه لكلّ الأشياء، ذلك لأنّ كلّ أسرار جماله و جلاله مطوية فى هذين الأمرين.

ثمّ يشير تعالى إلى أمر الخلقة الملازم لقدرته، إذ يقول تعالى: هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ و أعطاكم نعمة الحرية و الإختيار فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ

و بناء على هذا فإنّ الامتحان الإلهى يجد له فى هذا الجو مبرّرا كافيا و معنى عميقا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

ثمّ يوضّح مسألة الخلقة أكثر بالإشارة إلى الهدف منها، إذ يقول فى الآية اللاحقة: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

فـإنّ هـذا الخلق الحقّ الـدقيق ينطوى على غايات عظيمـة و حكمـة بالغـة، حيث يقول تعالى فى الآيـة (٢٧) من سـورة ص: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا.

ثمّ يتحـدّث القرآن الكريم عن خلق الإنسان، و يـدعونا بعد آيات الآفاق إلى السـير فى آفاق الأنفس، يقول تعالى: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ لقـد صوّر الإنسان بأحسن الصور و أجملها، و جعل له من المواهب الباطنية الفكرية و العقلية ما جعل العالم كلّه ينطوى فيه. و أخيرا تنتهى الأمور إليه تعالى وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

نعم، إنّ هذا الإنسان الذى هو جزء من عالم الوجود، ينسـجم من ناحية الخلقة و الفطرة مع سـير هذا العالم أجمع و غاية الوجود، حيث يبدأ من أدنى المراتب و يرتقى إلى اللامحدود حيث القرب من الحقّ تبارك و تعالى.

جملـة: فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ يراد بهـا الإشـارة إلى المظهر الخـارجي و المحتوى الـداخلى على حـدّ سواء. و أنّ التأمّـل فى خلق الإنسان و صورته، يظهر مدى القدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٣٧٧

التى خلق بها البارئ هذا المخلوق الرائع، الذى امتاز على كلّ ما سواه من المخلوقات.

و لأـنّ الإنسـان خلق لهـدف سام عظيم، فعليه أن يكون دائما تحت إرادة البارئ و ضـمن طاعته، فإنّه يَعْلَمُ ما فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

تجسّد هذه الآية علم اللّه اللامتناهى فى ثلاثة مستويات: علمه بكلّ المخلوقات، و ما فى السموات و الأرض.

ثمّ علمه بأعمال الإنسان كافّة، سواء أضمرها أو أظهرها.

و الثالث علمه بنيّة الإنسان و عقائده الداخلية التى تحكم قلب الإنسان و روحه.

و لا شكّ أنّ معرفة الإنسان بهذا العلم الإلهى ستترك عليه آثارا تربوية كثيرة، و تحذّره بأنّ جميع تحرّكاته و سكناته و كلّ تصرّفاته و نيّاته، و فى أى مكـان كـانت، إنّما هى فى علم اللّه و تحت نظره تبارك و تعالى. و ممّا لا شكّ فيه أنّ ذلك سـيهيئ الإنسان للحركة نحو الرقى و التكامل.

ثمّ يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى أهمّ عامل فى تربيـة الإنسان و تعليمه، و هو الاتّعاظ بمصارع القرون و ما جرى على الأقوام السالفة حيث يقول: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

ألم تمرّوا على مـدنهم المهدّمـة و آثارهم المدمّرة فى طريقكم إلى الشام و الأماكن الاخرى، فتروا بامّ أعينكم نتيجة كفرهم و ظلمهم. اقرأوا أخبارهم فى التاريـخ، بعضـهم أخـذته العواصف، و آخرون أتى عليهم الطوفان، و كان هـذا عـذابهم فى الدنيا و فى الآخرة لهم عذاب أشدّ.

ثمّ تشير الآية اللاحقة إلى سبب هذه العاقبة المؤلمة و هو الغرور و التكبر على الأنبياء: ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۸

يَهْدُونَنا و بهذا المنطق عصوا و كفروا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا و اللّه فى غنى عن طاعتهم وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ فطاعتهم لأنفسـهم و عصـيانهم عليها وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

و لو كفرت كلّ الكائنات لما نقص من كبريائه تعالى شـى‌ء، كما أنّ طاعتهم لا تزيده شـيئا. نحن الذين نحتاج إلى كلّ هذه التعليمات و المناهج التربوية.

عبارة وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ مطلقـة تبيّن اسـتغناء البارئ عن الوجود كلّه، و عـدم حاجته إلى شـى‌ء أبـدا، بما فى ذلك إيمان الناس و طاعتهم، كى لا يتصوّروا- خطأ- أنّ اللّه عند ما يؤكّد على الطاعة و الإيمان فبسبب حاجة أو نفع يصيبه سبحانه.

و قـال آخرون فى معنى عبـارة اسْتَغْنَى اللَّهُ بأنّهـا إشـارة إلى الحكم و الآيـات و المواعظ التى أعطاها اللّه تعالى إيّاهم، إذ لا يحتاجون بعدها إلى شى‌ء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۹

الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۷) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۸) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۹) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۰)

التّفسير

يوم التغابن و ظهور الغبن:

فى أعقاب تلك الآيات التى بحثت مسألـة الخلقـة و الهـدف من الخلق، جاءت هـذه الآيات لتكمّل البحث الذى يطرح قضـيّة المعاد و القيامة، حيث يقول تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۰

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا.

«زعم» من مـادة (زعم)- على وزن طعم- تطلق على الكلام الـذى يحتمـل أو يتيقن من كـذبه، و تـارة تطلق على التصور الباطل و فى الآية المراد هو الأوّل.

و يستفاد من بعض كلمـات اللغـويين أنّ كلمـة «زعم» جـاءت بمعنى الإخبـار المطلق، بـالرغم من أنّ الاسـتعمالات اللغويـة و كلمـات المفسّرين تفيد أنّ هذا المصطلح قد ارتبط بالكذب ارتباطا وثيقا، و لذلك قالوا «لكلّ شيء كنية و كنية الكذب، الزعم».

على أي حـال فـإنّ القرآن الكريم يأمر الرّسول الأكرم فى أعقاب هـذا الكلام بقوله: قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

إنّ أهمّ شبهة يتمسّك بها منكرو المعاد هى كيفيـة إرجاع العظام النخرة التى صارت ترابا إلى الحياة مرّة اخرى، فتجيب الآية الكريمة: ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لأنّهم فى البداية كانوا عدما و خلقهم اللّه، فإعادتهم إلى الوجود مرّة أخرى أيسر ..

بل احتمل بعضهـم أنّ القسم ب (و ربّى) هو بحدّ ذاته إشارة لطيفة إلى الدليل على المعاد، لأنّ ربوبية اللّه تعالى لا بدّ أن تجعل حركة الإنسان التكاملية حركة لها غاية لا تنحصر فى حدود الحياة الدنيا التافهة.

بتعبير آخر إنّنا لو لم نقبل بمسألة المعاد، فإنّ مسألة ربوبية اللّه للإنسان و رعايته له لا يبقى لها مفهوما البتة.

و يعتقد البعض أنّ عبارة وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ترتبط بإخبار اللّه تعالى عن أعمال البشر يوم القيامة، التى جاءت فى العبارة السابقة، و لكن يبـدو أنّهـا ترجع إلى المضـمون الكلّى للآيـة. (أصل البعث و فرعه) الـذى هو الإخبار عن الأعمال التى تكون مقدّمـة للحساب و الجزاء.

و لا بـدّ أن تكون النتيجـة كما قرّرتها الآيـة اللاحقة و أنّه بعد أن ثبت أنّ المعاد حقّ: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۱

و بناء على ذلك يأمرهم البارئ أن يعدوا أنفسهم بالإيمان و العمل الصالح، و يستعدّوا للبعث و يوم الجزاء.

و الإيمان هنا لا بدّ أن يرتكز على ثلاثة اصول: (اللّه) و (الرّسول) و (القرآن) التى تتضمّن الأمور الاخرى جميعا.

التعبير عن القرآن الكريم بأنّه (نور) فى آيات متعـدّدة، و كـذلك (أنزلنا) شاهـدان آخران على ذلك. رغم وجود روايات متعدّدة عن أهل البيت عليهم السّلام فسّرت كلمـة (نور) فى الآيـة- مورد البحث- بجود الإمام، و يمكن أن ينظر إلى هذا التّفسير على أنّ وجود الإمـام يعتبر تجسيدا عمليـا لكتـاب اللّه، إذ يعبّر عن الرّسول و الإمـام ب (القرآن الناطق) فقـد جاء فى ذيل إحـدى هـذه الروايات عن الإمام الباقر قوله عن الآية: (و هم الذين ينورون قلوب المؤمنين)[۳۹۲].

و تصف الآيـة اللاحقة يوم القيامة بقولها: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ [۳۹۳] فإنّ أحد أسـماء يوم القيامة هو «يوم الجمع» الذى ورد كرارا بتعبيرات مختلفـة فى القرآن الكريم، منهـا ما جاء فى الآيـة (۴۹) و (۵۰) من سورة الواقعـة: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

ثمّ يضيف تعالى ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ [۳۹۴] أي اليوم الـذى يعرف فيه «الغابن» بالفوز عن «المغبون» بالغلبـة، و هو اليوم الذى ينكشف فيه من هم الناس الذى غبنوا و خسرت تجارتهم؟

اليوم الذى يرى فيه أهل جهنّم مكانهم الخالى فى الجنّة و يأسفون لذلك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۲

و يرى أهـل الجنّة مكـانهم الخالى فى النار فيفرحون لـذلك، فقـد ورد فى أحـد الأحاديث أنّ لكلّ إنسان مكانا فى الجنّة و آخر فى النار، فحينما يذهب إلى الجنّة يعطى مكانه فى جهنّم إلى أهل جهنّم، و يعطى مكان الجهنمى فى الجنّة إلى أهل الجنّة[۳۹۵].

و التعبير ب (الإرث) فى الآيات القرآنية ربّما يكون ناظرا إلى هذا المعنى.

ثمّ یتحدّث القرآن الکریم عن أحوال المؤمنین فی ذلک الیوم (یوم القیامة) أو (یوم التغابن) قائلا: وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ یَعْمَلْ صالِحاً یُکَفِّرْ عَنْهُ سَیِّئاتِهِ وَ یُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ

و ستتنزّل النعم الإلهیة و البرکات بتحقّق الشرطین الأساسیین، الإیمان و العمل الصالح. فتحلّ المغفرة و التجاوز عن الذنوب التی تشغل تفکیر الإنسان أکثر من أی شیء آخر، و کذلک دخول الجنّة، و ذلک هو الفوز العظیم الذی لا فوز بعده.

ثمّ یقول تعالی: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِینَ فِیها وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ.

و هناک عاملان أساسیان للشقاء یذکرهما القرآن، هما الکفر و التکذیب بالآیات الإلهیة، و هما النقیضان الواقعیان للإیمان و العمل الصالح.

و الاختلاف الأوّل الذی تذکره الآیة بین أهل الجنّة و أهل النار هو ذکره الغفران و العفو لأهل الجنّة بینما لم یذکر ذلک لأصحاب النار.

و الاختلاف الآخر هو التأکید علی خلود أهل الجنّة فی النعیم بقوله (أبدا) بینما اکتفی بالنسبة لأهل النار بذکر الخلود و البقاء فقط، فقد یکون هذا الاختلاف للإشارة إلی أنّ الذین خلطوا الإیمان بالکفر سوف یخرجون من النار و العذاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۳

آخر المطاف، أو إشارة لغلبة رحمته علی غضبه، علما أنّ بعض المفسّرین یعتقد أنّ عدم ذکر (أبدا) فی الجملة الثانیة کان نتیجة لذکرها فی الجملة الاولی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۴

الآیات [سورة التغابن (۶۴): الآیات ۱۱ الی ۱۳]

اشارة

ما أَصابَ مِنْ مُصِیبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ یُؤْمِنْ بِاللَّهِ یَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۱۱) وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَإِنَّما عَلی رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِینُ (۱۲) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۳)

التّفسیر

کلّ ما یصیبنا بإذنه و علمه:

فی أوّل آیة مورد البحث یشیر القرآن إلی أصل کلّی عن المصائب و الحوادث الألیمة التی تصیب الإنسان، و لعلّ ذلک یعود إلی أنّ الکفّار کانوا دائما یتذرّعون بوجود المصائب و البلایا لنفی العدالة الإلهیة فی هذا العالم، أو یکون المراد أنّ طریق الإیمان و العمل الصالح مقرون دائما بالمشاکل، و لا یصل الإنسان المؤمن إلی مرتبة مقاومتها، و بذلک یتّضح وجه الارتباط بین هذه الآیة و ما قبلها.

یقول تعالی أوّلا: ما أَصابَ مِنْ مُصِیبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

فما یجری من حوادث کلّها بإذن اللّه لا تخرج عن إرادته أبدا، و هذا هو معنی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۵

(التوحید الأفعالی) و إنّما بدأ بذکر المصائب باعتبارها هی التی یستفهم عنها الإنسان دائما و تشغل تفکیره. و عند ما نقول یقع ذلک بإرادة اللّه، فإنّما نعنی «الإرادة التکوینیة» لا الإرادة التشریعیة.

و هنا يطرح سؤال مهمّ و هو: إنّ كثيرا من هذه الحوادث و الكوارث التى تنزل بالناس تأتى من ظلم الظالمين و طغيان الجبابرة، أو أنّ الإنسان يبتلى بها بسبب الغفلة و الجهل و التقصير ... فهل أنّ ذلك كلّه بإذن اللّه؟

للإجابة على هذا السؤال نرجع إلى مجموع الآيات التى وردت فى هذا المجال، فنلاحظ أنّها عرضت المصائب على نوعين:

الأوّل: ما يكون جزءا من طبيعة تكوين الإنسان كالموت و الحوادث الطبيعية الاخرى، و هذه لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عنه، فيقرّر القرآن الكريم بأنّ ذلك يقع بإذن اللّه.

الثّانى: هو تلك المصائب التى تأتى من تقصير الإنسان و من عمل يده، و له الدور الأساسى فى تحقّقها، و هذه يقول القرآن: إنّها تصيبكم بسبب أعمالكم.

و بناء على ذلك فليس للإنسان أن يستسلم للظلم و الجهل و الفقر.

و من البديهى أنّ إرادة اللّه تتدخّل فى جميع الأمور حتّى تلك الخاضعة لإرادة الإنسان و فعله، إذ لا تأثير لجميع الأسباب إلّا بإذنه، و كلّ شىء خاضع لإرادته و سلطانه، و يبشّر القرآن المؤمنين بقوله: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ

فالمؤمن لا تهزمه المصائب و لا ييأس و لا يجزع. و اللّه يهدى الإنسان حينما يكون شكورا لنعمه، صابرا على بلائه، مستسلما لقضائه.

و لهداية القلوب معانى كثيرة منها (الصبر) و (التسليم) و (الشكر) و (الرضى) و قول: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ و عند ما يذكر المفسّرون أحد هذه الأمور، فإنّما يريدون بيان مصداق من مصاديق الآية لا معناها الكلّى.

و تقول الآية فى نهاية المطاف وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۶

و قد يراد من هذا التعبير الإشارة إلى الهدف من وراء هذه الامتحانات و الاختبارات الصعبة، و هو إيقاظ الناس و تربيتهم و إعدادهم لمجابهة الغرور و الغفلة، و سيؤثر ذلك حتما و يدفع الإنسان إلى طاعة اللّه و رسوله، و أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ

لا يخفى أنّ إطاعة الرّسول فرع عن إطاعة اللّه تعالى و طاعة الرّسول تقع فى طول طاعة اللّه، فهما فى خطّ واحد، و هذا ما جعله يكرّر كلمة إطاعة.

و إذا ما حاولنا الذهاب أبعد من ذلك، فإنّ طاعة اللّه تتعلّق بأصول القوانين و التشريعات الإلهيّة، بينما طاعة الرّسول فى تفسيرها و فى المسائل التنفيذية و فى التفاصيل، فعلى هذا تكون الاولى هى الأصل، و الثانية فرع.

ثمّ يضيف قائلا: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

نعم، إنّ الرّسول ملزم بتبليغ الرسالة، و سيتولّى البارئ جلّ شأنه محاسبتكم، و هذا نوع من التهديد الخفى الجادّ.

و يشير القرآن الكريم فى الآية اللاحقة إلى قضيّة التوحيد فى العبودية، التى تشكّل المبرّر الطبيعى لوجوب الطاعة، إذ يقول تعالى: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ و بما أنّه كذلك إذا: عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

فليس غير اللّه يستحقّ العبودية، لأنّه لا مالك و لا قادر و لا عالم غيره، و الغنى كلّه له، و كلّ ما لدى الآخرين فمنه و إليه، فيجب الرجوع له و الاستعانة به على كلّ شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۷

الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱۴ الى ۱۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّما

أَمْوالُكَمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۵) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكَمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۶) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (۱۷) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير القمّى فى روايـة أبى الجـارود (عـن أبى جعفر البـاقر عليه السّـلام فى قـوله تعـالى: إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ و ذلک أنّ الرجل إذا أراد الهجرة تعلّق به ابنه و امرأته و قالوا: ننشدک اللّه أن لا تذهب عنّا فنضيع بعدک،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۸

فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحـذّرهم اللّه أبناءهم و نساءهم، و نهاهم عن طاعتهم، و منهم من يمضـى و يـذرهم و يقول: أما و اللّه لئن لم تهـاجروا معى ثمّ جمع اللّه بينى و بينكم فى دار الهجرة لا أنفعكم بشـىء أبـدا. فلمّـا جمع اللّه بينه و بينهم أمر اللّه أن يتوق بحسـن وصله فقال: وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۳۹۶].

التّفسير

أولادكم و أموالكم وسيلة لامتحانكم:

حـذّر القرآن الكريم من مغبّة الوقوع فى الحبّ المفرط للأولاد و الأموال، الذى قد يجرّ إلى عدم الطاعة للّه و رسوله حيث قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ

إنّ هناک مظاهر عديدة لهذه العداوة، فأحيانا يتعلّقون بثيابكم ليحرموكم خير الهجرة، و اخرى ينتظرون موتكم ليسيطروا على أموالكم و ثروتكم، و ما إلى ذلک.

و ليس كلّ الأولاد، و لا كلّ الزوجات كذلک، لهذا جاءت «من» التبعيضيّة.

و تظهر هذه العداوة أحيانا بمظهر الصداقة و تقديم الخدمة، و حينا آخر تظهر بسوء النيّة و خبث المقصد.

و على كـلّ حـال فـإنّ الإنسان يصـبح على مفترق طريقين، فطريق اللّه و طريق الأهل و الأزواج، و لا ينبغى أن يتردّد الإنسان فى اتّخاذ طريق اللّه و إيثاره على غيره، ففيه النجاة و الصـلاح فى الـدنيا و الآخرة. و هـذا ما أكّـدت عليه الآية ۲۳ من سورة التوبـة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و من أجل أن لا يؤدّى ذلک إلى الخشونة فى معاملة الأهل، نجد القرآن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۹

يوازن ذلـک بقوله فى ذيـل نفس الآيـة: وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فإذا نـدموا و اعتـذروا و التحقوا بكم فلا تتعرّضوا لهم بعد ذلک، و اعفوا عنهم و اصفحوا كما تحبّون أن يعفوا اللّه عنكم.

جاء فى حـديث الإفک أنّ بعض المؤمنين أقسـموا أن يقاطعوا أقرباءهم الـذين ساهموا فى بثّ تلک الشائعـة الخبيثـة و ترويجها، و أن يمنعوا عنهم أى عون مالى، فنزلت الآية ۲۲ من تلک السورة: وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و كما يظهر من المعنى اللغوى فإنّ لغفران الـذنب مسـتويات ثلاثـة هى (العفو) بمعنى صـرف النظر عن العقوبة، و (الصـفح) فى مرتبة

أعلى، و يراد به ترك أى توبيخ و لوم، و (الغفران) الذى يعنى ستر الذنب و تناسبه، و بهذا فانّ الآية فى نفس الوقت الذى تدعو الإنسان إلى الحزم و عدم التسليم فى مقابل الزوجة و الأولاد فيما لو دعوه إلى سلوك خاطئ تدعوه كذلك إلى بذل العفو و المحبّة فى جميع المراحل و كلّ ذلك من أساليب التربية السليمة و تعميق جذور التديّن و الإيمان فى العائلة.

و تشير الآية اللاحقة إلى أصل كلّى آخر حول الأموال و الأولاد، حيث تقول:

إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ فإذا تجاوزتم ذلك كلّه فإنّ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

و قد تقدّم فى الآية السابقة الكلام عن عداء بعض الأزواج و الأولاد الذين يدعون الإنسان إلى الانحراف و سلوك طريق الشيطان و المعصية و الكفر، و فى هذه الآية نجد الكلام عن أنّ جميع الأموال و الأولاد عبارة عن «فتنة»، و فى الحقيقة فانّ اللّه يبتلى الإنسان دائما من أجل تربيته، و هذين الأمرين (الأموال و الأولاد) من أهمّ وسائل الامتحان و الابتلاء، لأنّ جاذبية الأموال من جهة، و حبّ الأولاد من جهة اخرى يدفعان الإنسان بشدّة إلى سلوك طريق معيّن قد لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۰

يكون فيه رضا اللّه تعالى أحيانا، و يقع الإنسان فى بعض الموارد فى مضيقة شديدة، و لذلك ورد التعبير فى الآية «إنّما» التى تدلّ على الحصر.

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام فى رواية عنه «لا يقولنّ أحدكم: اللهمّ إنّى أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلّا و هو مشتمل على فتنة، و لكن من استعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن فإنّ اللّه سبحانه يقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ[۳۹۷].

يلاحظ نفس هذا المعنى مع تفاوت يسير فى الآية ۲۸ سورة الأنفال.

و عن كثير من المفسّرين و المؤرخّين

(كان رسول اللّه يخطب فجاء الحسن و الحسين و عليهما قميصان أحمران يمشيان و يعثران فنزل رسول اللّه إليهما فأخذهما فوضعهما فى حجره على المنبر و قال: «صدق اللّه عزّ و جلّ: إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان و يعثران فلم أصبر حتّى قطعت حديثى و رفعتهما. ثمّ أخذ فى خطبته»[۳۹۸].

إن قطع الرّسول لخطبته لا يعنى أنّه غفل عن ذكر اللّه، أو عن أداء مسئوليته التبليغية، و إنّما كان على علم بما لهذين الطفلين من مقام عظيم عند اللّه، و لذا بادر إلى قطع الخطبة ليبرز مدى حبّه و احترامه لهما.

إنّ عمل الرّسول هذا كان تنبيها لكلّ المسلمين ليعرفوا شأن هذين الطفلين العظيمين ابنى على و فاطمة.

فقد ورد فى حديث نقلته المصادر المشهورة أنّ البراء بن عازب (صحابى معروف يقول: رأيت الحسن بن على على عاتق النبى و هو يقول: «اللهمّ إنّى أحبّه فأحبّه»[۳۹۹].

و

فى رواية اخرى أنّ الحسين عليه السّلام كان يصعد على ظهر الرّسول و هو ساجد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۱

دون أن يمنعه الرّسول ۴۰۰]

، كلّ ذلك لإظهار عظمة هذين الإمامين و مقامهما الرفيع.

و جاء فى الآية اللاحقة: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ لقد أمر اللّه تعالى أوّلا باجتناب الذنوب، ثمّ بإطاعة الأوامر، و تعدّ الطاعة فى قضيّة الإنفاق مقدّمة لتلك الطاعة، ثمّ يخبرهم أنّ خير ذلك يعود إليكم و لأنفسكم.

قال بعضهم: إن «خيرا» تعنى (المال) و هو وسيلة لتحقيق بعض الطاعات، و ما جاء فى آية الوصية يعتبر تعزيزا لهذا المعنى كُتِبَ عَلَيْكُمْ

إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ [۴۰۱] و ذهب البعض إلى أنّ كلمة (خيرا) جاءت بمعناها الواسع، و لم يعتبروها قيدا للإنفاق، بل هى متعلّقة بالآية ككل، فانّ ثمار الطاعة- كما يقولون- تعود لكم.

و ربّما يكون هذا التّفسير أقرب من غيره ۴۰۲].

و الأمر بالتقوى بقدر المستطاع لا يتنافى مع ما جاء فى الآية (۱۰۲) من سورة آل عمران حيث تقول: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ بل هى مكمّلة لتلك و من المسلّم أنّ أداء حقّ التقوى لا يكون إلّا بالقدر الذى يستطيعه الإنسان، إذ يتعذّر التكليف بغير المقدور.

فلا مجال لاعتبار الآية- مورد البحث- ناسخة لتلك الآية فى سورة آل عمران كما اعتقد البعض.

و للتأكيد على أهمّيّة الإنفاق ختمت الآية ب وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۲

«شحّ» بمعنى «البخل المرادف للحرص»، و من المعلوم أنّ هاتين الخصلتين السيّئتين من أكبر الموانع أمام فوز الإنسان، و تغلق عليه سبيل الإنفاق و تصدّه عن الخير، و من يتخلّص من هاتين الخصلتين السيّئتين فلا شكّ أنّه سيضمن السعادة.

هذا و توجد

رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام تقول: «من أدّى الزكاة فقد و قى شحّ نفسه»[۴۰۳].

و يبدو أنّ ذلك أحد المصاديق الحيّة فى مسألة الشحّ و ليس كلّ (الشحّ).

و

فى حديث آخر عن الصادق عليه السّلام- أيضا-: رأيت أبا عبد اللّه عليه السّلام يطوف من أوّل الليل إلى الصباح و هو يقول: «اللهمّ قنى شحّ نفسى» فقلت: جعلت فداك ما سمعتك تدعو، بغير هذا الدعاء قال: «و أى شىء أشدّ من شحّ النفس و أنّ اللّه يقول: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [۴۰۴].

و للتشجيع على الإنفاق و التحذير من البخل، يقول تعالى: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ

و كم هو رائع هذا التعبير الذى تكرّر مرّات عديدة فى القرآن الكريم فاللّه الخالق الواهب للنعم الذى له كلّ شىء، يستقرض منّا ثمّ يعدنا بأنّه سيعوّضنا أضعاف ذلك، إنّه لطف ما بعده لطف! و غير بعيد أن يكون ذلك إشارة إلى أهميّة الإنفاق من جهة، و إلى اللطف اللامحدود للّه تعالى الذى يغمر به عباده من جهة اخرى.

«القرض» فى الأصل بمعنى القطع، و لأنّها اقترنت بكلمة (حسن) فإنّها تعنى فصل المال عن النفس و إنفاقه فى الخير.

«يضاعفه» من مادّة «ضعف» (على وزن شعر) و كما قلنا سابقا: إنّها تشتمل على عدّة أضعاف و ليس ضعفا واحدا، كما جاء فى سورة البقرة آية ۱۶۱.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۳

و عبارة يَغْفِرْ لَكُمْ للإشارة إلى أنّ الإنفاق أحد عوامل غفران الذنوب.

«شكور» هو أحد صفات اللّه تعالى الذى يشكر عباده بمجازاتهم أفضل الجزاء و أجزل الجزاء. و كونه (حليم) أى يغفر الذنوب و لا يتعجّل العقوبة.

و يقول فى آخر الآية: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إنّه مطّلع على أعمال عباده و منها النفقة و البذل فى سبيل اللّه. و إنّه غير محتاج لكى يستقرض من عباده و إنّما هو إظهار لكمال لطفه و محبّته لعباده.

و بناء على ذلك فإنّ الصفات الخمس- المذكورة فى هذه الآية و الآية السابقة- للّه تعالى، ترتبط كلّها بمسألة الإنفاق فى سبيله و الحثّ عليه، و الاندكاك باللّه تعالى الذى يؤدّى إلى الاقتناع عن ارتكاب الذنوب و الاعتصام بالتقوى.

ملاحظة

حدیث مهمّ:

جاء عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «ما من مولود یولد إلّا فی شبابیک رأسه مکتوب خمس آیات من سورة التغابن»[۴۰۵].

و قد یکون المقصود بهذه الآیات الخمس آخر سورة التغابن التی تتحدّث عن الأموال و الأولاد. و کتابة هذه الآیات الخمس فی شبابیک الرأس إشارة إلی حتمیتها و کونها جزءا من کیان الإنسان و فطرته التی فطره اللّه علیها.

لعلّ التعبیر ب (شبابیک) جمع «شبّاک»- علی وزن خفّاش- بمعنی «المشتبک» إشارة إلی عظام الرأس التی تکون علی شکل قطع متداخلة مع بعضها. أو لعلّه إشارة إلی شبکات المخّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۴

علی کلّ فإنّها إشارة إلی وجود هذه المعانی فی مخّ النوع البشری.

اللهمّ، أعنّا علی هذا الامتحان الکبیر، امتحان الأموال و الأولاد و الزوجات.

ربّنا، لا تبتلنا بالبخل و الحرص و شحّ النفس، فإنّه من نجا من ذلک فقد فاز.

اللهمّ، جنّبنا الغبن یوم القیامة، یوم یظهر فیه غبن العاصین و تنکشف فیه معاصیهم و ذنوبهم، و اجعلنا فی کنف لطفک و رحمتک.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة التغابن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۵

سورة الطّلاق

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها اثنتا عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۷

«سورة الطّلاق»

محتوی السورة:

أهمّ مسألة طرحت فی هذه السورة، کما هو واضح من اسمها، هی مسألة «الطلاق» و أحکامه و خصوصیاته، و الأمور التی تلی ذلک، ثمّ تأتی بعدها أبحاث فی المبدأ و المعاد و نبوّة الرّسول و البشارة و الإنذار.

و من هنا نستطیع أن نقسّم محتوی هذه السورة إلی قسمین.

القسم الأوّل: الآیات السبع الاول التی تتحدّث عن الطلاق و ما یرتبط به من امور، و تتعرّض إلی جزئیّات ذلک بعبارات وجیزة بلیغة، و بشکل دقیق و طریف إلی حدّ الإشباع.

القسم الثانی: و یشکّل الدافع الحقیقی للقسم الأوّل من السورة، و یدور الحدیث فیه عن عظمة اللّه و مقام رسوله و ثواب الصالحین و جزاء العاصین علی شکل مجموعة منسجمة لضمان إجراء هذه المسألة الاجتماعیة المهمّة. و یذکر أنّ لهذه السورة أسماء اخری کسورة «النساء القصری» (علی وزن صغری) مقابل سورة «النساء» المعروفة «النساء الکبری».

فضیلة تلاوة السورة:

جاء فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأ سورة الطلاق مات علی سنّة رسول اللّه»[۴۰۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۸

الآیة [سورة الطلاق (۶۵): آیة ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یـا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّکُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُیُوتِهِنَّ وَ لا یَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ یَأْتِینَ بِفاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ وَ تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ یَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِی لَعَلَّ اللَّهَ یُحْدِثُ بَعْدَ ذلِکَ أَمْراً (۱)

التّفسیر

شرائط الطلاق و الانفصال:

تقدّم أنّ أهمّ بحث فی هذه السورة هو بحث الطلاق، حیث یشرّع القرآن فیها مخاطبا الرّسول الأکرم، بصفته القائد الکبیر للمسلمین، ثمّ یوضّح حکما عمومیّا بصیغة الجمع، حیث یقول: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ

هذا هو الحکم الأوّل من الأحکام الخمسة التی جاءت فی هذه الآیة، و طبقا لآراء المفسّرین إنّ المراد هو أن تجری صیغة الطلاق عند نقاء المرأة من الدورة الشهریة، مع عدم المقاربة الزوجیة، لأنّه- طبقا للآیة ۲۲۸ من سورة البقرة- فإنّ عدّة الطلاق یجب أن تکون بمقدار «ثلاثة قروء» أی ثلاثة طهورات متتالیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۹

و هنا یؤکّد أنّ الطلاق یجب أن یکون مع بدایة العدّة، و هذا یتحقّق فقط- فی حالة الطهارة و عدم المقاربة، فإذا وقع الطلاق فی حالة الحیض فإنّ بدایة زمان العدّة ینفصل عن بدایة الطلاق، و بدایة العدّة ستکون بعد الطهارة.

و إذا کانت فی حالة طهر و قد جامعها زوجها، فإنّ الطلاق لا یتحقّق أیضا، لأنّ مثل هذه الطهارة- بسبب المقاربة- لا یمکن أن تکون دلیلا علی عدم وجود نطفة فی الرحم.

علی کلّ حال هذا هو أوّل شرط للطلاق.

جاء فی روایات عدیدة عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «مر فلیراجعها، ثمّ لیترکها حتّی تطهر، ثمّ تحیض، ثمّ تطهر. ثمّ، إن شاء أمسک بعد، و إن شاء طلّق قبل أن یمسّ، فتلک العدّة التی أمر اللّه عزّ و جلّ أن یطلّق لها النساء»[۴۰۷].

و جاء نفس هذا المعنی فی روایات عدیدة عن أهل البیت علیهم السّلام، حتّی أنّها ذکرت علی أنّها تفسیر للآیة[۴۰۸].

ثمّ یذکر الحکم الثانی و هو حساب العدّة، حیث یقول تعالی: وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ.

«أحصوا» من مادّة «الإحصاء» بمعنی الحساب، و هی فی الأصل مأخوذة من «حصی» بمعناها المعروف، لأنّ کثیرا من الناس کانوا یلجأون فی حساب المسائل المختلفة إلی طریقة عدّ «الحصی» لعدم استطاعتهم القراءة و الکتابة.

و الجدير بالملاحظة هنا أنّ المخاطب فى «حساب العدّة» هم الرجال و ليس النساء، و ذلك لوقوع مسئولية «النفقة و السكن» على عاتق الرجال، كما أنّ «حقّ الرجوع» عن الطلاق يعود إليهم و ليس إلى النساء، و إلّا فهنّ ملزمات أيضا فى إحصاء العدّة لتعيين تكليفهنّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۰

بعد ذلك يدعو اللّه تعالى الناس جميعا إلى التقوى و اجتناب المعاصى، حيث يقول تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ فهو ربّكم الحريص على سعادتكم، فلا تعظوا له أمرا و لا تتركوا له طاعة، و خاصّة فى «حساب العدّة» و التدقيق بها.

ثمّ يذكر الحكم «الثالث» الذى يتعلّق بالأزواج و الحكم «الرابع» الذى يتعلّق بالزوجات، يقول تعالى: لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لا يَخْرُجْنَ

و رغم أنّ كثيرا من الجهلة لا يلتزمون بهذا الحكم عند الطلاق، حيث يسمح الرجل لنفسه أن يخرج المرأة بمجرّد إجراء صيغة الطلاق، كما تسمح المرأة لنفسها بالخروج من بيت زوجها و الرجوع إلى أقاربها بمجرّد ذلك.

و لكن يبقى لهذا الحكم فلسفته المهمّة و حكمته البالغة، فهو بالإضافة إلى إسداء الاحترام إلى المرأة، يهيئ أرضية جيّدة للانصراف و الإعراض عن الطلاق، و يؤدّى إلى تقوية الأواصر الزوجية.

إنّ عدم الالتزام بهذا الحكم الإسلامى الخطير، الذى جاء فى نصّ القرآن الكريم، يسبّب كثيرا من حالات الطلاق التى تؤدّى إلى الفراق الدائم، بينما كثيرا ما يؤدّى الالتزام بهذا الحكم إلى الرجوع و الصلح و العودة إلى الزوجية مجدّدا.

و لكن قد تقتضى بعض الظروف إخراج المرأة و عدم القدرة على الاحتفاظ بها فى البيت، فيجىء الحكم الخامس الاستثنائى إذ يقول تعالى: إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ.

كأن يكون الزوجان غير منسجمين إطلاقا، و يكون أحدهما مثلا سيء الأخلاق إلى الدرجة التى لا يمكن معها البقاء معه فى بيت واحد، و إلّا ستنشأ مشاكل جديدة و عديدة.

و يلاحظ هذا المعنى فى روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السّلام ۴۰۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۱

و لكن من الواضح أنّ ذلك لا يشمل كلّ بادرة للخلاف و عدم الانسجام، فإنّ التعبير ب «الفاحشة» يكشف عن كون ذلك العمل على قدر كبير من القبح، و خاصّة حينما وصفها بأنّها «مبيّنة».

و ربّما كان المقصود «بالفاحشة» عملا يتنافى مع العفّة، فقد جاء فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام ما يشابه ذلك المعنى، و أنّ الغرض من «الإخراج» هنا هو الإخراج لإجراء الحدّ، و من ثمّ الرجوع و العودة إلى البيت.

و يمكن الجمع بين هذين المعنيين.

بعد بيان هذه الأحكام يؤكّد القرآن الكريم- مرّة اخرى- بقوله: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لأنّ الغرض من هذه الأحكام هو إسعاد الناس أنفسهم، و التجاوز على هذه الأحكام- سواء من قبل الرجل أو المرأة- يؤدّى إلى توجيه ضربة قويّة إلى سعادتهم.

و يقول تعالى فى لفتة لطيفة إلى فلسفة العدّة، و الحكمة من تشريعا، و عدم السماح للنساء المعتقدات بالخروج من مقرّهن الأصلى البيت، يقول: لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً.

و مع مرور الزمن يهدأ طوفان الغضب و العصبية الذى قد يسبّب الطلاق، غير أنّ مرور الزمن و حضور الزوجة إلى جانب زوجها خلال هذه الفترة فى البيت، و إظهار ندم و محبّة كلّ واحد منهما إلى الآخر، و كذلك التفكير مليّا فى عواقب هذا العمل القبيح، خاصّة مع وجود الأطفال، كلّ هذه الأمور قد تهيئ أرضية صالحة للرجوع عن هذا القرار المشؤوم، و تساهم فى تبديد الغيوم التى تكدّر سماء العلاقة الزوجية.

و فى إشارة لطيفة إلى هذا المعنى

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام «المطلّقة تكتحل و تختضب و تطيّب و تلبس ما شاءت من الثياب، لأنّ اللّه عزّ و جلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۲

يقول: لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً لعلّها تقع فى نفسه فيراجعها»[۴۱۰].

نعود إلى القول بأنّ التصميم على الانفصال و الطلاق يحدث فى الغالب تحت تأثير الهيجان و الانفعالات العابر، التى قد تنتهى و تتبدّد بمرور الزمن (أى أثناء فترة العـدّة) فإنّ التفكير جيّدا فى هذا الأمر قد يؤدّى إلى رجوع أحدهما إلى الآخر، و تجاوز حالات عديدة من الخلاف أثناء هذه الفترة، و لكن بشرط أن تراعى الأحكام الإسلامية أثناء فترة العدّة بشكل دقيق.

و سيتّضح فيما بعد- إن شاء اللّه- أنّ ذلك كلّه يرتبط بحالة «الطلاق الرجعى».

ملاحظات

۱- أبغض الحلال إلى اللّه الطلاق

ممّا لا شكّ فيه أنّ عقـد الزوجية من جملة العقود و المواثيق القابلة للفسخ، فهناك حالات من الخلاف لا يمكن معها استمرار العلاقة الزوجية، و إلّا فإنّها ستؤدّى إلى مشاكل و مفاسد خطيرة و عديدة. و لهذا نجد الإسلام قد شرّع أمر الطلاق من الناحية المبدأية.

بينما نلاحظ المجتمعات المسيحية التى منعت الطلاق- بأى شكل من الأشكال- تعيش مشاكل متعدّدة نتيجة لذلك، فغالبا بما يعيش الزوجان المختلفان حالـة انفصال و تباعـد، أو حالـة طلاقـة من الناحية العملية، رغم عدم الاعتراف بذلك من الناحية الرسمية. و كثيرا يلجأ الزوجان إلى إختيار زوج آخر غير رسمى.

و بناء على ذلك فإنّ أصل الطلاق من الضروريات التى لا يمكن إلغاؤها بأى وجه من الوجوه، و لكن ينبغى أن لا يصار إليها إلّا فى الحالات التى يتعذّر فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۳

مواصلة العلاقة الزوجية و الحياة المشتركة.

و لهذا نجد أنّ الطلاق قد ذمّ فى روايات إسلامية عديدة، و ذكر على أنّه (أبغض الحلال إلى اللّه).

ففى رواية عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ما من شىء أبغض إلى اللّه عزّ و جلّ من بيت يخرّب فى الإسلام بالفرقة، يعنى الطلاق»[۴۱۱].

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «ما من شىء ممّا أحلّه اللّه أبغض إليه من الطلاق»[۴۱۲].

و

فى آخر عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «تزوّجوا و لا تطلّقوا فإنّ الطلاق يهتزّ منه العرش»[۴۱۳].

و كيف لا يكون كذلك؟! و الطلاق هو السبب وراء مآس عديدة تحلّ بالعوائل و الرجال و النساء، و أكثر منهم بالأطفال و الأولاد، و يمكن تقسيم تلك المآسى إلى ثلاثة أقسام:

۱- المشاكل العاطفية:

ممّا لا شکّ فیه أنّ انتهاء العلاقة الزوجیة بالطلاق و الفراق، بعد حیاة مشترکة عاشها الزوج و الزوجة معا، ستترک آثارا سیّئة علی الصعید العاطفی علی کلا الطرفین. و إذا أقدم أحدهما علی الزواج مرّة اخری فسیبقی ینظر بشیء من القلق و الارتیاب إلی الطرف الآخر، و ربّما أعرض بعضهم عن الزواج نهائیا تحت تأثیر التجربة الاولی الفاشلة.

۲- المشاکل الاجتماعیة:

غالبا ما تحرم النساء المطلّقات من الحصول علی الزوج المؤهّل و الکفوء مرّة اخری، کما قد یواجه الرجال نفس المسألة حینما یبدأون یفکّرون بالزواج مرّة اخری، و قد یضطرّ هؤلاء إلی الزواج رغم عدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۴

قناعاتهم، الأمر الذی یؤدّی إلی فقدان السعادة و الراحة إلی الأبد. خصوصا مع وجود أطفال من الزواج الأوّل.

۳- مشاکل الأطفال:

و هذه أهمّ المشاکل حیث یحرم الأطفال من حنان و رعایة الامّ، و یعیشون فی کنف زوجة أبیهم التی لا تنظر إلی هؤلاء الأطفال أو تعاملهم کما تعامل أطفالها الحقیقیین. و بهذا سیعیش الأبناء فراغا عاطفیا من هذا الجانب لا یعوّضه شیء.

و تتکرّر نفس الصورة فیما إذا حملت المرأة أطفالها معها إلی الزوج الجدید، فإنّ هذا الزوج الجدید لا یحلّ غالبا محلّ الأب الحقیقی.

و هذا لا یعنی أنّه لا یوجد نساء أو رجال یمتلکون المحبّة و الشفقة التی تمتلکها الأمّهات أو الآباء تجاه أطفالهم، و لکن مثل هؤلاء الناس قلیلون فی المجتمع و یندر الحصول علیهم.

و بناء علی ذلک سیعیش هؤلاء الأطفال المحرومون من حبّ الامّ و الأب عقدا معیّنة علی الصعید الروحی و العاطفی، و ربّما یؤدّی إلی فقدانهم السلامة الروحیة. و لهذا سیعانی المجتمع بأجمعه- و لیس العائلة فقط- من هؤلاء الأطفال الذین قد یشکّلون فی بعض الأحیان ظاهرة خطیرة عند ما یعیشون حالة النقص و حبّ الانتقام من المجتمع.

و عند ما وضع الإسلام کلّ تلک الموانع و الصعوبات بوجه الطلاق، فإنّما أراد أن یجنّب المجتمع الإسلامی الوقوع بتلک المشاکل. و لهذا السبب أیضا نلاحظ القرآن الکریم قد حثّ بشکل صریح کلا من الرجل و المرأة علی أن یتّجها إلی العائلة و الأقرباء لحلّ الاختلاف و المشاکل التی قد تنشأ بینهما، عن طریق تشکیل محکمة صلح عائلیة تعرض علیها الاختلافات و النزاعات بدل عرضها علی المحاکم الشرعیة و حصول الطلاق و الانفصال. (وضّحنا هذا الأمر- أی محکمة الصلح العائلیة فی ذیل الآیة ۳۵ سورة النساء).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۵

و فی نفس الوقت نجد أنّ الإسلام شجّع کلّ ما من شأنه تقویة الأواصر العائلیة و تقویتها، و شجب کلّ محاولة لإضعافها و تفکیکها.

۲- أسباب الطلاق:

لا یختلف الطلاق عن الظواهر الاجتماعیة الاخری التی تمدّ جذورها فی المجتمع و تشارک فی تکوینها أسباب و امور عدیدة متشابکة. و عملیّة منعها و الوقوف بوجهها تبقی بدون جدوی ما لم یتمّ النظر إلیها بشکل دقیق یتناول جمیع العوامل التی تقف وراءها،

و هی کثیرة جدّا منها:

أ- التوقّعات و الآمال المفرّطة التی یبنیها کلّ واحد منهما علی الطرف الثانی، فلو أنّهما جعلا توقّعهما فی دائرة محدودة و معقولة و تجنّبا التوغّل فی عالم الخیال، و أدرک کلّ واحد منهما الطرف الآخر جیّدا، و حصر التوقّع فی المجالات الممکنة، فحینئذ یمکن الحیلولة دون وقوع الکثیر من حالات الطلاق.

ب- استحکام روح طلب المادیّات و وسائل الرفاه المختلفة یجعل الإنسان- و خاصّة النساء- فی حالة عدم قناعة مستمرّة، ممّا یسهّل حصول عملیة الطلاق و الانفصال عند مواجهة أبسط الحوادث تحت ذرائع و حجج متنوّعة.

ج- تدخّلات الأقرباء فی الشؤون الخاصّة للزوجین، و خاصّة تلک التدخلات فی موارد الاختلافات بین الزوجین. و یعدّ ذلک من العوامل المهمّة التی تساعد علی الطلاق.

و نلاحظ من خلال التجربة أنّ خلافات الزوجین إذا ما ترکت لشأنها دون تدخّل من الأقارب فسوف تتلاشی و تنطفئ شیئا فشیئا. أمّا إذا تمّ دخول طرف من الأقارب و المتعلّقین دخولا متحیّزا متعصّبا، فإنّه سیؤدّی إلی إشعال هذه الخلافات و تعقیدها أکثر.

و لکن هذا لا یعنی أن یبعد الأقرباء أنفسهم عن هذه الاختلافات دائما و دون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۶

استثناء، فإنّ دخولهم حینما تکبر المشکلة و تخرج عن کونها خلافا جزئیا جانبیّا یکون لصالح العلاقة الزوجیة و دوامها، خصوصا إذا کان تدخّلا خالیا من التعصّب و الانحیاز.

د- عدم التفات کلّ من الزوجة و الزوج إلی رغبات و طلبات أحدهما من الآخر، ففی الوقت الذی یحبّ الزوج أن تکون زوجته دائما جذّابة نظیفة، کذلک تحبّ الزوجة لزوجها أن یکون کذلک. و لکن هذه الرغبات غالبا ما تکون مکبوتة لا یحاول کلّ منهما إبرازها و الإعلان عنها.

و هکذا فإنّ عدم اهتمام الأزواج بهندامهم و ترک التزیین و الترتیب، و عدم الاهتمام بالنظافة، کلّ تلک الأمور تمنع الزوج أو الزوجة من الاستمرار بمشروع الزواج، خاصّة إذا کان هناک من یهتمّ بهذه المسائل فی المحیط الذی یعیش فیه هؤلاء الزوجان.

لهذا نجد الروایات الإسلامیة أعطت أهمیّة خاصّة لهذا الجانب،

فقد ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام: «لا ینبغی للمرأة أن تعطّل نفسها»[۴۱۴].

و

جاء فی حدیث آخر عنه أیضا علیه السّلام: «و لقد خرجن نساء من العفاف إلی الفجور ما أخرجهنّ إلّا قلّة تهیئة أزواجهنّ»[۴۱۵].

ه- عدم تناسب المستوی الثقافی للعوائل، و کون الزوج یعیش نوعا من الثقافة العائلیة لا تنسجم مع ثقافة الزوجة العائلیة. و لهذا ینبغی التدقیق فی هذا الأمر قبل الإقدام علی الزواج، فالمطلوب لیس فقط «الکفاءة الشرعیة» أی الالتزامات الإسلامیة، و إنما یجب أن تتوفّر- أیضا- «الکفاءة الفرعیة» أی التماثل و التشابه فی الأمور الاخری بین الطرفین. و إلّا فحدوث تصدع فی العائلة غیر مستبعد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۷

۳- فلسفة ضبط و إحصاء العدّة

ممّا لا شکّ فیه أنّ للعدّة حکمتین أساسیتین أشیر إلیهما فی القرآن الکریم و الروایات الإسلامیة.

الاولی: مسألة حفظ النسل و اتّضاح وضع المرأة من حیث الحمل و عدمه.

و الاخری: توفیر فرصة جیّدة للرجوع عن الطلاق و العودة إلی الحیاة الاولی، و القضاء علی عوامل الانفصال التی تمّت الإشارة إلیها

فى الآية أعلاه، علما أنّ الإسلام يؤكّد على بقاء النساء فى بيوت الأزواج أثناء العدّة، ممّا يسمح بالبحث مرّة اخرى عن وسائل للعودة، و ترك الانفصال عن بعضهما.

و خصوصا فى حالة الطلاق الرجعى ۴۱۶] حيث لا يحتاج الرجوع إلى الزوجة إلى أيّة مراسيم أو أمور رسمية. و كلّ عمل يعتبر عودة عن هذا الطريق و لو بمجرّد وضع الرجل يده على جسم المرأة، حتّى لو كان بدون شهوة، فإنّه يعتبر رجوعا عن الطلاق.

و إذا ما مرّت هذه الفترة (أى فترة العدّة) دون أن تظهر أى بادرة للصلح و التوافق، فهذا يعنى أنّهما غير مستعدّين للاستمرار فى الحياة الزوجية.

أوردنا شرحا لهذا الموضوع فى ذيل الآية (۲۲۸) سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۸

الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۲ الى ۳]

اشارة

فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (۳)

التّفسير

فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف:

يشير فى الآية مورد البحث، و كاستمرار للأبحاث المرتبطة بالطلاق التى وردت فى الآيات السابقة، إلى عدّة أحكام اخرى، إذ يقول تعالى فى البداية:

فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

المراد ببلوغ الأجل «الوصول إلى نهاية المدّة» و ليس المقصود أن تنتهى العدّة تماما، بل تشرف على الانتهاء، فإنّ الرجوع بعد نهاية العدّة غير جائز، إلّا أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۹

يكون إبقاؤهنّ عن طريق صيغة عقد جديدة، و لكن هذا المعنى بعيد جدّا عن سياق و مفهوم الآية.

على أى حال فإنّ هذه الآية تطرح أهمّ الأواصر المرتبطة بالحياة الزوجية و أكثرها نضجا، و هى: إمّا أن يعيش الرجل مع المرأة بإحسان و معروف و توافق، أو أن ينفصلا بإحسان.

فالانفصال ينبغى أن يتمّ بعيدا عن الهياج و العربدة، و على اصول صحيحة، و يجب أن تحفظ فيه الحقوق و اللياقات لكى تكون أرضية صالحة و مهيّأة للعودة و الرجوع إذا ما قرّرا الرجوع إلى الحياة المشتركة فيما بعد، فإنّ العودة إذا تمّت فى جو مظلم ملبّد بالخلافات و التعدّيات، فسوف لا تكون عودة موفّقة تستطيع الاستمرار مدّة طويلة. هذا إضافة إلى أنّ الانفصال بالطريقة غير اللائقة قد يترك آثارا، ليس فقط على الزوج و الزوجة، و إنّما قد تتعدّى إلى عشيرة و أقرباء كلّ منهما، و تقطع طريق المساعدة لهما فى المستقبل.

و من اللطيف حقّا أن تحاط كلّ الصداقات و العلاقات المشتركة بين الناس بجوّ من الإحسان و الاحترام المتبادل للحقوق و الشعور بالمسؤولية، و حتّى لو وقع الطلاق فيجب أن يتمّ أيضا بإحسان و دون مشاكل، فإنّ ذلك يعتبر بحدّ ذاته نوعا من الإنتصار و الموفّقية لكلا الطرفين.

و يتّضح ممّا سبق أنّ (الإمساك بالمعروف و الطلاق بالمعروف) له معنى واسع يشمل جميع الواجبات و المستحبّات و الآداب و الأخلاق التى تقتضيها تلك العلاقة.

ثمّ يذكر القرآن الكريم الحكم الثانى حيث يقول: وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ

و ذلك لكى لا يستطيع أحد أن ينكر فى المستقبل ما جرى.

و بعض المفسّرين احتمل الإشهاد لكلا الأمرين: الطلاق و الرجوع، غير أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۰

الإشهاد ليس واجبا قطعا فى التزويج فضلا عن الرجوع. و على فرض أنّ المورد يشمل الرجوع فيكون من باب الاستحباب.

و فى الحكم الثالث يبيّن القرآن الكريم وظيفة الشهود، حيث يقول: وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ حذار أن يكون ميلكم و حبّكم لأحد الطرفين مانعا عن إظهار الحقّ، و ينبغى أن تتمّ الشهادة للّه و لإظهار الحقّ، و ينبغى أن يكون الشهود عدولا، و لما كانت عدالة الشاهد لا تعنى انّه معصوم من الذنب، و لهذا يحذّرهم اللّه تعالى لكى يراقبوا أنفسهم لئلّا ينحرفوا عن جادّة الحقّ بعلم أو بغير علم.

و ينبغى أن يشار إلى أنّ تعبير ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ دليل على أنّ الشاهدين يجب أن يكونا مسلمين عادلين و من الذكور.

و لتأكيد الأحكام السابقة جميعا تقول الآية الكريمة: ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

ربّما اعتبر البعض «ذلكم» إشارة- فقط- إلى مسألة التوجّه إلى اللّه و مراعاة العدالة من جانب الشهود، غير أنّ الظاهر أنّ هذا التعبير يشمل كلّ الأحكام السابقة حول الطلاق.

و على أيّة حال فإنّ هذا التعبير دليل على الأهمية القصوى التى يولّيها القرآن الكريم لأحكام الطلاق، التى إذا تجاوزها أحد و لم يتّعظ بها فكأنّه أنكر الإيمان باللّه و اليوم الآخر.

و بسبب المشاكل المعيشية و الحياة المستقبلية فإنّ الزوجين قد ينحرفان عن جادّة الصواب عند الطلاق و الرجوع، و قد تضغط هذه الظروف على الشاهدين فتمنعانهما عن أداء الشهادة الصحيحة و العادلة، لهذا تؤكّد الآية فى نهايتها قائلة:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً و يساعده حتما على إيجاد الحلّ لمشكلاته.

وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ و لا يتصوّر تحصيله.

وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ و سيكفيه ما يهمّه من أموره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۱

إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ لأنّ اللّه عزّ و جلّ قادر مطلق، و أمره نافذ فى كلّ شىء و تخضع جميع الكائنات لمشيئته و إرادته ...

و لهذا يحذّر النساء و الرجال و الشهود أن لا يخافوا قول الحقّ، و يحثّهم على الاعتماد عليه و اللجوء إليه فى تيسير الصعوبات، لأنّه قد تعهّد بأن ييسّر للمتّقين أمرهم، و يجعل لهم مخرجا و يرزقهم من حيث لا يحتسبون.

لقد تعهّد اللّه أن لا يترك من توكّل عليه يتخبّط فى حيرته، و إنّه لقادر على الوفاء بهذا التعهّد.

و رغم أنّ هذه الآيات نزلت بشأن الطلاق و الأحكام المتعلّقة به، لكنّها تحتوى مفاهيم واسعة و معانى عظيمة تشمل جميع المجالات التى يعاهد اللّه بها المتّقين، و يبعث فى نفوسهم الأمل بأنّه سيشملهم بلطفه و رعايته، فينجيهم من المآزق، و يرشدهم إلى الصواب، و يفتح أمامهم الآفاق الرحبة، و يرفع عنهم مشاكل الحياة و صعوباتها، و يبدّد الغيوم السوداء التى تلبّد سماء سعادتهم.

و فى إشارة لطيفة إلى النظام العامّ الذى يحكم التكوين و التشريع، يقول تعالى: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً فكلّ هذه الأحكام و

الأوامر التى فرضها اللّه فى شأن الطلاق، إنّما كانت ضمن حساب دقيق و مقاييس عامّة شاملة لا يغيب عنها شيء.

و هكذا يجب أن يلتزم الناس فى جميع المشاكل التى تنتاب حياتهم- و ليس فقط فى مسألة الطلاق- بالموازين و الأحكام الشرعية، و أن يواجهوا تلك الأمور بالتقوى و الصبر و طلب التوفيق من اللّه، لا أن يطلقوا ألسنتهم بالشكوى و ارتكاب الذنوب، و ما إلى ذلك و يتوسّلون بالطرق غير المشروعة لحلّ مشاكلهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ۴۱۲

بحثان

١- التقوى و النجاة من المشاكل

إنّ تلاوة الآيات السابقة تبعث- أكثر من غيرها- الأمل فى النفوس، و تمنح القلب صفاء خاصّا، و تمزّق حجب اليأس و القنوط، و تنير الأرواح بنور الأمل، إذ تعدّ كلّ المتّقين بحلّ مشاكلهم و تسهيل أمورهم.

جاء فى حديث عن أبى ذرّ الغفارى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّى لأعلم آية لو أخذها بها الناس لكفتهم وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً فما زال يقولها و يعيدها»[۴۱۷].

و

فى حديث آخر عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «من شبهات الدنيا، و من غمرات الموت، و شدائد يوم القيامة».

و هذا التعبير دليل على أنّ تيسير امور المتّقين ليس فى الدنيا فقط و إنّما يشمل القيامة أيضا.

و

فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أكثر الاستغفار جعله اللّه له من كلّ هم فرجا و من كلّ ضيق مخرجا»[۴۱۸].

قال بعض المفسّرين: إنّ أوّل الآية السابقة نزلت بحقّ (عوف بن مالك) و هو أحد أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى أسر ابنه فجاء يشكو هذا الحادث و فقر حاله و ضيق ذات يده إلى الرّسول فنصحه رسول اللّه

بقوله: «اتّق اللّه و اصبر، و أكثر من قول «لا حول و لا قوّة إلّا باللّه»

ففعل ذلك و فجأة بينما هو جالس فى بيته دخل عليه ولده، فتبيّن أنّه قد استغفل الأعداء و فرّ من قبضتهم و جاء بجمل معه منهم.

لذا نزلت هذه الآية التى تخبر عن تيسير معضلة هذا الرجل المتّقى من حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ۴۱۳

لا يحتسب ۴۱۹].

و لا يعنى هذا إطلاقا أنّ الآية تحثّ على ترك السعى و بذل الجهد و الجلوس فى البيت و الركون إلى اللّه و أن يردّد الإنسان قول «لا حول و لا قوّة إلّا باللّه» لينزل عليه الرزق من حيث لا يحتسب. إنّ ما تريد الآية الكريمة أن تركّز عليه هو أنّ السعى لا بدّ أن يكون معه و إلى جانبه تقوى، و إذا ما أغلقت الأبواب مع كلّ هذا حينئذ يتدخّل البارئ لفتح هذه الأبواب.

لهذا نجد فى الحديث أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام (عمر بن مسلم) انقطع فترة عن الإمام،

قال الإمام عليه السّلام ما فعل عمر بن مسلم عليه السّلام قلت: جعلت فداك أقبل على العبادة و ترك التجارة فقال: ويحه! أما علم أنّ

تارك الطلب لا يستجاب له، إنّ قوما من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا نزلت: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ أغلقوا الأبواب و أقبلوا على العبادة و قالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأرسل إليهم قال: «ما حملكم على ما صنعتم به» فقالوا:

يا رسول اللّه تكفّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»[۴۲۰].

۲- روح التوكّل

المقصود من التوكّل على اللّه هو أن يسعى الإنسان لأن يجعل عاقبة عمله و كدحه على اللّه و يوكّلها إليه، و يدعوه لتسهيل أمره، فإنّه لطيف بعباده رحيم بهم و على كلّ شىء قدير.

و الشخص الذى يعيش حقيقة «التوكّل على اللّه» لا يجد اليأس إليه منفذا، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۴

يدبّ فى عزمه الضعف، و لا يشعر بالنقص و الصغر أمام المشاكل مهما كبرت، و يبقى يقاوم و يواجه الأحداث بقوّة و إيمان راسخين. و يعطيه هذا الإيمان و التوكّل قدرة نفسية عظيمة يستطيع معها تجاوز الصعاب.

و من جانب آخر تنهمر عليه الإمدادات الغيبية و المساعدات التى وعده اللّه.

ففى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سألت من جبرائيل: ما التوكّل؟ قال «العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ و لا ينفع، و لا يعطى و لا يمنع، و استعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى اللّه، و لم يرج و لم يخف سوى اللّه، و لم يطمع فى أحد سوى اللّه فهذا هو التوكّل»[۴۲۱].

فالتوكّل بهذا المضمون العميق يمنح الإنسان شخصية جديدة و يكون له تأثير على جميع أعماله. لذا نقرأ

فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه سأل اللّه عزّ و جلّ فى ليلة المعراج: إلهى أى الأعمال أفضل؟ قال تعالى: «ليس شىء عندى أفضل من التوكّل علىّ و الرضا بما قسمت»[۴۲۲].

و من الطبيعى أنّ التوكّل بهذا المعنى سيكون توأما مع الجهاد و السعى و ليس مع الكسل و الفرار من المسؤوليات.

و قد أوردنا بحثا آخر فى هذا المجال فى ذيل الآية ۱۲ سورة إبراهيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۵

الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

وَ اللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (۴) ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (۵) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (۶) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (۷)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۶

التّفسیر

أحکام النساء المطلّقات و حقوقهنّ:

من بین الأحکام المستفادة من الآیات السابقة لزوم إحصاء العدّة بعد الطلاق، و لمّا کانت الآیة (۲۲۸) من سورة البقرة قد بیّنت حکم العدّة للنساء اللاتی یرین العادة الشهریة و ذلک بأن تعد ثلاث دورات شهریة متتالیة و بمشاهدة الثالثة تکون المرأة قد أنهت عدّتها. فقد ذکرت الآیات محلّ البحث حکم النسوة اللواتی لا حیض لدیهم لأسباب معیّنة، أو الحوامل لتکمل بحث العدّة.

یقول تعالی فی بدایة الأمر: وَ اللَّائِی یَئِسْنَ مِنَ الْمَحِیضِ مِنْ نِسائِکُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ فإذا شککتم فی وجود الحمل فمدّة العدّة حینئذ ثلاثة أشهر، و کذلک النسوة اللائی لم یرین الحیض و لم تحدث لهنّ العادة الشهریة بعد وَ اللَّائِی لَمْ یَحِضْنَ

ثمّ یشیر تعالی إلی ثالث مجموعة حیث یضیف قائلا: وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ یَضَعْنَ حَمْلَهُنَ

و بهذا اتّضح حکم المجامیع الثلاثة، مجموعتان یجب أن یحصین عدتهنّ ثلاثة أشهر، و المجموعة الثالثة- أی النساء الحوامل- تنتهی عدتهنّ بوضع الحمل، سواء کان بعد ساعة من الطلاق، أو بعد ثمانی أشهر مثلا.

و قد ذکرت ثلاثة احتمالات فی معنی عبارة إِنِ ارْتَبْتُمْ

۱- الشکّ فی وجود «الحمل» بمعنی أنّه هناک احتمال حمل بعد سنّ الیأس (خمسون سنة للنساء العادیات، و ستّون سنة للنساء القرشیات) فمن أجل هذا الاحتمال الضعیف الذی نادرا ما یقع، یجب أن تحتاط النساء فتحصی عدّتها ثلاثة أشهر[۴۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۷

۲- النساء اللائی لا یعلم بأنّهنّ وصلن إلی مرحلة الیأس أم لا.

۳- المراد هو الشکّ فی حکم هذه المسألة، فحکمها کما ورد فی هذه الآیة.

و یبدو أنّ الأنسب و الأقرب هو التّفسیر الأوّل فإنّ التعبیر ب وَ اللَّائِی یَئِسْنَ ... یوحی أنّ هؤلاء النساء قد بلغن سنّ الیأس.

و یشار إلی أنّ حکم النساء اللائی غابت عنهنّ العادة الشهریة لمرض أو غیره هو نفس حکم الیائسات، أی یعدّدن ثلاثة أشهر (یمکن أن یستفاد هذا الحکم عن طریق قاعدة الأولویة أو مشمولا بلفظ الآیة)[۴۲۴].

جملة وَ اللَّائِی لَمْ یَحِضْنَ یمکن أن تکون إشارة إلی النساء اللائی بلغن سنّ البلوغ، دون أن یشاهدن العادة الشهریة. و فی هذه الصورة یجب أن یحسبن عدّتهنّ ثلاثة أشهر.

و احتملوا أن تکون الآیة ناظرة لجمیع النساء اللائی لم یشاهدن العادة الشهریة، سواء بلغن سنّ الیأس أم لا. غیر أنّ المشهور بین فقهائنا أن لا عدّة للنساء اللائی یطلقن قبل بلوغهنّ سنّ البلوغ. و یوجد من خالف هذا الرأی و استدلّوا علی ذلک ببعض الروایات، کما أنّ ظاهر الآیة یوافقهم. (للتوسّع فی ذلک یجب الرجوع إلی الکتب الفقهیة)[۴۲۵].

و ذکر کسبب لنزول الجملة الأخیرة فی الآیة أنّ «أبی بن کعب» سأل الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن أنّ القرآن لم یذکر عدّة النساء الصغیرات و النساء الکبیرات «الیائسات» و الحوامل فنزلت السابقة تبیّن أحکامهنّ ۴۲۶].

و یذکر أنّ العدّة فی هذا المورد إنّما تکون فی حقّ النساء اللائی یحتمل فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۸

حقّهنّ الحمل، لأنّهنّ ذکرن فی الآیة معطوفات علی النساء الیائسات، و معنی ذلک أنّ حکمهنّ واحد[۴۲۷].

و أخیرا یؤکّد مرّة اخری فی نهایة الآیة علی التقوی حیث یقول تعالی:

وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ یُسْراً.

ییسّر أموره و یسهّلها فی هذا العالم، و کذلک فی العالم الآخر، بألطافه سواء فی هذه القضیّة أی قضیّة الطلاق أو فی قضایا اخری.

و للتأکید علی أحکام الطلاق و العدّة فقد أضاف تعالی فی الآیة اللاحقة قائلا:

ذلِکَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَیْکُمْ

وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یُکَفِّرْ عَنْهُ سَیِّئاتِهِ وَ یُعْظِمْ لَهُ أَجْراً.

قال بعض المفسّرین: إنّ المقصود من «السیّئات» هنا «الذنوب الصغیرة» و المقصود من «التقوی» اجتناب الذنوب الکبیرة.

و بناء علی ذلک فإنّ تجنّب الکبائر یؤدّی إلی غفران الصغائر، کما جاء فی الآیة ۳۱ من سورة النساء. و لازم هذا أنّ مخالفة الأحکام فی هذا المجال- أی فی الطلاق و العدّة- یعدّ من الذنوب الکبیرة[۴۲۸].

و رغم أنّ السیّئات تطلق أحیانا علی الذنوب الصغیرة، کما ورد فی آیات عدیدة من القرآن الکریم، و لکنّها تطلق فی آیات اخری علی کلّ الذنوب أعمّ من الصغیرة و الکبیرة، نقرأ فی الآیة ۶۵ من سورة المائدة: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْکِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَکَفَّرْنا عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ «و جاء ما یشابه هذا المعنی فی آیات أخر».

و من المسلّم أنّ الإیمان و الإسلام یؤدّیان إلی غفران الذنوب السابقة.

و تعطی الآیة اللاحقة توضیحا أوسع و أشمل لحقوق المرأة بعد الطلاق، من حیث «السکن» و «النفقة» و امور اخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۹

یقول تعالی فی سکن النساء المطلّقات: أَسْکِنُوهُنَّ مِنْ حَیْثُ سَکَنْتُمْ مِنْ وُجْدِکُمْ

«وجد» علی وزن (حکم)، بمعنی القدرة و التمکّن، و ذکر المفسّرون تفاسیر اخری ترجع فی النتیجة إلی نفس المعنی، إذ یقول الراغب فی المفردات: إنّ التعبیر ب مِنْ وُجْدِکُمْ یعنی بما تستطیعون و بما تقدرون علیه، و بمعنی اختاروا مسکنا مناسبا قدر الإمکان للنساء المطلّقات.

و من الطبیعی أنّه حینما یکون الإسکان علی نفقة الزوج و فی عهدته، فإنّ الأمور الاخری من الإنفاق ستقع هی الاخری علی عاتق الزوج، و الشاهد علی هذا المدّعی ذیل الآیة الذی یتحدّث عن نفقة النساء الحوامل.

ثمّ یتطرّق تعالی لذکر حکم آخر وَ لا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَیِّقُوا عَلَیْهِنَ

حذار أن یغرّکم البعض و یزرع بینکم البغض و العداوة و النفور، ممّا یؤدّی إلی إخراجکم عن جادّة الحقّ، فتحرمونهنّ حقوقهنّ الطبیعیة فی السکن و النفقة، و تجعلوهنّ تحت ضغوط لا یستطعن معها إلّا الهرب و ترک کلّ شیء.

یقول تعالی فی ثالث حکم حول النساء الحوامل وَ إِنْ کُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَیْهِنَّ حَتَّی یَضَعْنَ حَمْلَهُنَ

فما دمن حاملات فهنّ فی حالة عدّة یستحقّن النفقة و السکن علی الزوج.

و یقول تعالی فی الحکم الرابع حول حقوق النساء المرضعات فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَکُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ

اجرة تتناسب مع مقدار و زمان الإرضاع، و طبقا لما هو معروف و شائع عرفا و نظرا لأنّ الأطفال کثیرا ما یصبحون نقطة للنزاع و الخلاف بین الزوج و الزوجة بعد الطلاق، فقد أوضح القرآن فی الحکم الخامس هذا الأمر بشکل قاطع و لائق حیث قال: وَ أْتَمِرُوا بَیْنَکُمْ بِمَعْرُوفٍ و تشاوروا بینکم فی مصیر الأولاد و مستقبلهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۰

و یحذّر القرآن الکریم من مغبّة أن یکون الأطفال ضحیّة الخلاف الواقع بین الزوج و الزوجة، ممّا یترک علیهم آثارا واضحة علی تکوینهم الجسمی و النفسی، إذ یحرمون من حنان الامّ و الأب و شفقتهما فینبغی أن یتّقی الأبوان اللّه تعالی و یحفظا حقوق الأطفال

فإنّهم لا يستطيعون الدفاع عنها.

و جملة «و أتمروا» من مادّة «ايتمار» و تأتى أحيانا بمعنى «قبول الأمر» و أحيانا اخرى بمعنى «التشاور» و المعنى الثانى أقرب إلى معنى الآية.

و التعبير «بمعروف» تعبير جامع يشمل كلّ مشاورة فيها خير و صلاح.

و فى حالة عدم حصول التوافق و التفاهم بين الزوجين حول مصير الأطفال و قضيّة إرضاعهم، يقول القرآن فى سادس حكم فى هذا المجال وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى

إشارة إلى أنّ الخلافات إذا طالت و تعقّدت فأعطوا الأطفال إلى مرضعة اخرى، و رغم أنّ الامّ هى الأولى بذلك، لكن إذا بقى الأطفال ينتظرون، و ظلّ النزاع على حاله، فلا ينبغى أن ينسى الأطفال فى خضم هذا النزاع.

و تبيّن الآية اللاحقة سابع- و آخر حكم- فى هذا المجال حيث يقول تعالى:

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها.

فهل أنّ هذا الأمر يرتبط بالنساء اللائى يتعهدنّ رضاعة أطفالهنّ بعد الفرقة و الطلاق، أو أثناء العدّة التى أشير إليها بصورة إجمالية فى الآيات السابقة، أو أنّه يرتبط بكليهما معا.

و يبدو أنّ المعنى الأخير أنسب و أقرب، رغم أنّ بعض المفسّرين اعتبرها خاصّة بالنساء المرضعات فقط فى الوقت الذى أطلقت الآيات السابقة على هذا الأمر تعبير «أجر» و ليس «نفقة و إنفاق».

على كلّ حال لا ينبغى للذين ليس لهم القدرة أن يتشدّدوا و يعقدوا الأمور،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۱

كما أنّ الذين لا يملكون القدرة المالية غير مأمورين إلّا بالقدر الذى تسعه قدرتهم المالية و لا يحقّ للنساء مطالبتهم بأكثر من ذلك.

و بناء على هذا فالذين لديهم المقدرة و الاستطاعة ثمّ يبخلون بها فإنّهم يستحقّون اللوم و التقريع لا الذين لا يملكون شيئا.

و فى نهاية المطاف يبشّرهم اللّه تعالى بقوله: سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً أى لا تجزعوا و لا تحزنوا و لا يكن الضيق فى المعيشة سببا لخروجكم عن الطريق السوى، فإنّ الدنيا أحوال متقلّبة لا تبقى على حال، فحذار من أن تقطع المشاكل العابرة و المرحلية حبل صبركم.

و كانت هذه الآية بمثابة بشرى أبدية للمسلمين الذين كانوا حينذاك يعيشون ضنكا ماديا و عوزا فى متطلّبات الحياة، فهى تبعث الأمل فى نفوسهم و تبشّر الصابرين.

و لم تمض فترة طويلة حتّى فتح اللّه عليهم أبواب رحمته و بركته.

بحوث

۱- أحكام الطلاق الرجعى

قلنا أنّه فى الطلاق الرجعى يستطيع الزوج متى شاء أن يرجع إلى زوجته خلال فترة العدّة إلى آخر يوم منها، بلا حاجة إلى عقد أو ما شابه، و الطريق إلى ذلك سهل يسير يمكن أن يتمّ بأى حديث أو عمل يشمّ منه رائحة العودة و يدلّ على الرجوع فى العلاقة الزوجية، و قد اختصّت بعض الأحكام التى وردت فى الآيات أعلاه مثل «النفقة» و «السكن» بحالة الطلاق الرجعى، يضاف إلى ذلك عدم خروج المرأة من بيت زوجها أثناء العدّة، فإنّها أيضا من مختصّات الطلاق الرجعى أمّا الطلاق البائن غير القابل للرجوع، (كالطلاق

للمرّة الثالثة) فإنّه غير

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۲

مشمول بتلك الأحكام.

أمّا حقّ النفقة و السكن فهو ثابت للنساء الحوامل إلى حين وضع الحمل.

و التعبير ب لا تَدْرِی لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً إشارة إلى أنّ كلّ الأحكام السابقة- أو بعضها- مرتبط بالطلاق الرجعى ۴۲۹].

۲- لا يكلّف اللّه نفسا إلّا وسعها

ليس العقل وحده يحكم بذلك، و إنّما الشرع هو الآخر شاهد و دليل على ذلك. أى أنّ تكاليف البشر و مسئولياتهم إنّما هی بقدر طاقاتهم و تعبير لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها التی وردت ضمن الآيات السابقة هو إشارة إلى هذا المعنى.

و لكن ورد فی بعض الروايات أنّ المقصود ب ما آتاها هو «ما أعلمها» أی أنّ اللّه يكلّف الناس بقدر ما أعلمهم به. و لذا استدلّ بهذه الآية على إثبات «أصل البراءة» فی مباحث علم الأصول، فمن لا يعلم حكما ليس عليه مسئولية تجاه ذلك الحكم.

و نظرا لأنّ عدم الاطّلاع يؤدّی أحيانا إلى عدم المقدرة، فمن الممكن أن يكون المقصود هو الجهل الذی يكون مصدرا للعجز.

و بناء على هذا فإنّه سيكون للآية مفهوم واسع يشمل عدم القدرة و الجهل الذی يؤدّی إلى عدم القدرة على إنجاز التكليف.

۳- أهميّة النظام العائلی

إنّ الدقّة و الظرافة التی عالجت بها الآيات القرآنية أحكام النساء المطلّقات و حقوقهنّ و باقی الجزئيات المتعلّقة فی هذا المجال، الواردة فی آيات قرآنية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۳

اخرى، تمثّل بمجموعها المنهج و القانون الإسلامی لمواجهة هذه المشاكل.

كلّ ذلك يبرز الأهميّة الخاصّة التی يوليها الإسلام لنظام العائلة و رعاية حقوق المرأة و الأبناء. فهو يسعى لمنع وقوع الطلاق قدر الإمكان، و يحاول استئصال جذور هذا العمل البغيض، و لكن إذا وصلت هذه الجهود إلى طريق مسدود و أصبح الطلاق و الانفصال هو العلاج الوحيد، عندها يحذّر من ضياع حقوق الأطفال و يرفض أن تذهب هذه الحقوق ضحيّة هذا النزاع، حتّى أنّه شرع حكم الطلاق بطريقة يمكن فی ضوئها الرجوع عنه غالبا.

إنّ أوامر الإمساك بمعروف و الطلاق بمعروف، و كذلك عدم الإضرار و التضييق على النساء و التشدّد فی أمرهنّ، و التشاور الحسن فی شؤون الأطفال، و ما إلى ذلك كلّها شواهد على ذلك.

غير أنّ عدم اطّلاع المسلمين على هذه الأحكام و جهلهم بها، أو إعراضهم عن الالتزام بها رغم علمهم، أدّى إلى نشوء مشاكل عائلية عديدة حين الطلاق، و خاصّة فی شأن الأطفال. و ذلك نتيجة ابتعاد المسلمين عن مصدر الفيض الإلهی الذی هو القرآن. فمثلا فی الوقت الذی يدعو القرآن إلى عدم خروج النساء من بيت الزوج فی أيّام العدّة، و لا يحقّ للزوج إكراهها على الخروج أثناء تلك الفترة المحدّدة مما يؤدّی هذا الحكم إلى العدول عن الطلاق و رجوع النساء إلى الحياة الزوجية، نرى قلّة من النساء و الرجال يلتزمون بذلك بعد وقوع الطلاق، و هذا ما يدعو إلى الأسف حقّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۴

الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۸ الى ۱۱]

اشارة

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (۸) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (۹) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (۱۰) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (۱۱)

التّفسير

العاقبة المؤلمة للعاصين:

فی کثیر من الموارد یأتی القرآن علی ذکر الأمم السابقة بعد إیراد سلسلة من الأحکام و التکالیف، لکی یری المسلمون بأعینهم عاقبة کلّ من (الطاعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۵

و العصیان) فی تجارب الماضی و تأخذ القضیّة طابعا حسیّا.

و لم یخرج القرآن الکریم فی هذه السورة عن هذا النهج، فبعد ذکر وظائف کلّ من الرجال و النساء عند الطلاق، یحذّر العاصین و المتمرّدین من العواقب الوخیمة التی تنتظرهم بقوله فی البدایة: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً[۴۳۰].

و المقصود ب «القریة» هو محل اجتماع الناس، و هو أعمّ من المدینة و القریة، و المراد هو أهلها.

«عتت» من مادّة «عتو» علی وزن «غلو» بمعنی التمرّد علی الطاعة.

و «نکر» علی وزن «شکر» و یعنی العمل الصعب الذی لم یسبق له مثیل.

«حسابا شدیدا» أی الحساب الدقیق المقرون بالشدّة و الصرامة، و یعنی العقاب الشدید الذی هو نتیجة الحساب الدقیق. و هو علی کلّ حال إشارة إلی عاقبة الأقوام السابقة المتمرّدة العاصیة فی هذه الدنیا، التی هلکت بعضها بالطوفان، و بعضها بالزلازل، و آخرون بالصواعق و العواصف، و أمثالهم حلّ بهم الفناء و بقت دیارهم و آثارهم عبرة للأجیال بعدهم.

لذلک یضیف تعالی فی الآیة اللاحقة: فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً.

و أی خسارة أفدح من خسران رأس المال الذی وهبه اللّه، و الخروج من هذه الدنیا- لیس فقط بعدم شراء المتاع- و إنّما بالانتهاء إلی العذاب الإلهی و الدمار.

و یری البعض أنّ «حسابا شدیدا» و «عذابا نکرا» یشیران إلی «یوم القیامة»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۶

و اعتبروا الفعل الماضی من باب الماضی المراد به المستقبل، و لکن لا داعی لهذا التکلّف، خاصّة أنّ السورة تحدّثت عن یوم القیامة فی الآیات اللاحقة، فذلک یدلّ علی أنّ المراد بالعذاب هنا هو عذاب الدنیا.

ثمّ یشیر تعالی إلی عقابهم الاخروی بقوله: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً عذابا مؤلما، مخیفا، مذلا، فاضحا، دائما أعدّه لهم منذ الآن فی

نار جهنّم.

و الآن فَاتَّقُوا اللَّهَ یا أُولِی الْأَلْبابِ الَّذِینَ آمَنُوا.

إنّ الفکر و التفکّر من جهـة، و الإیمان و الآیات الإلهیـة من جهة اخری، تحذّرکم و تدعوکم لملاحظة مصائر الأقوام السابقة المتمرّدة التی عصت أمر ربّها، و الإعتبار بذلک و الحذر من أن تکونوا مثلهم، فقد ینزل علیکم اللّه غضبه و عذابه الذی لم یسبق له مثیل إضافة إلی عذاب الآخرة.

و بعد ذلک یخاطب اللّه تعالی المؤمنین الذین یتفکّرون فی آیات اللّه بقوله:

قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکُمْ ذِکْراً و هو الشیء الذی یوجب تذکرکم.

و أرسـل لکم رسولاـ یتلو علیکم آیـات اللّه الواضـحة رَسُولًا یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیاتِ اللَّهِ مُبَیِّناتٍ لِیُخْرِجَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ.

علما أنّ هناک خلافا بین المفسّرین فی معنی کلمة «ذکر» و لکلمة «رسولا» اعتبر بعضهم أنّ «الذکر» یعنی القرآن، بینما فسّرها البعض الآخر بأنّها تعنی (رسول اللّه) لأنّ الرّسول هو سبب تذکّر الناس، و طبقا لهذا التّفسیر فإنّ کلمة «رسولا» التی تأتی بعدها تعنی شخص الرّسول، و لیس فی البین کلام محذوف.

و لکن یصبح معنی «الإنزال» هنا هو وجود الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الامّة و بعثه فیها من قبل اللّه تعالی.

و لکن إذا أخـذنا «الـذکر» بمعنی «القرآن» فإنّ کلمـة «رسولا» لا یمکن أن تکون بدلا، و فی الجملة محذوف تقدیره «أنزل اللّه إلیکم ذکرا و أرسل إلیکم رسولا».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۷

قال البعض: أنّ «الرّسول» یقصد به «جبرائیل» و بهذا یکون النزول نزولا حقیقیّا، نزل من السماء، غیر أنّ هذا التّفسیر لا ینسجم مع عبارة یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیاتِ اللَّهِ لأنّ جبرائیل لم یقرأ الآیات القرآنیة بصورة مباشرة علی المسلمین.

و بصورة عامّـة، فإنّ کلّ أی من هـذه الآراء یحتوی علی نقاط قوّة و نقاط ضـعف، و یبقی التّفسـیر أو الرأی الأوّل أفضل الآراء أی أنّ «الـذکر» یقصـد به «القرآن» و «رسولاـ» یقصـد به رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم. و ذلک لأنّ القرآن الکریم أطلق علی نفسه «الذکر» فی آیات کثیرة، خصوصا أنّها کانت مقرونة بکلمة «إنزال» إلی الحدّ الذی أصبح کلّما جاءت عبارة «إنزال الذکر» تداعی إلی الأذهان القرآن الکریم.

ثمّ نقرأ فی الآیة (۴۴) من سورة النحل وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ

و جاء فی الآیة (۶) من سورة «الحجر» وَ قالُوا یا أَیُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ

و إذا جـاء فی بعض الروایـات عن أهل البیت علیهم السّـلام أنّ المقصود من «الـذکر» هو رسول اللّه و «أهل الـذکر» هم «الأئمّـة»، فقد یکون المقصود هو المعنی الباطنی للآیـة، لأنّنا نعلم أنّ «أهل الـذکر» فی آیـة فَسْـئَلُوا أَهْلَ الـذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ النحل (۴۳) لیس خصوص أهـل البیت علیهم السّـلام، بل إنّ شأن نزولها هو علماء أهل الکتاب، و لکن نظرا لاتّساع معنی الـذکر فإنّه یشـمل رسول اللّه کأحد مصادیقه.

علی أی حال فإنّ الهدف النهائی من إرسال الرّسول و إنزال هذا الکتاب السـماوی، هو لإخراج الناس من الظلمات و الکفر و الجهل و ارتکاب الذنوب و المآثم و المفاسد الأخلاقیة، إلی نور الإیمان و التوحید و التقوی.

و الواقع أنّ تمـام أهـداف بعثـة الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و نزول القرآن یمکن تلخیصـها بهـذه الجملـة، و هی الخروج من الظلمات إلی النور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۸

و تجدر الإشارة إلى أنّ «الظلمات» ذكرت بصيغة الجمع بينما ذكر النور بصيغة المفرد، لأنّ الكفر و الشرك و الفساد تؤدّى إلى الفرقة و الاختلاف، بينما يؤدّى الإيمان و التوحيد و التقوى إلى الوحدة و التلاحم.

و فى ختام الآية يشير إلى أجر العاملين المخلصين بقوله: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً.

و أشار بالفعل المضارع «يؤمن» و «يعمل» إلى أنّ إيمانهم و عملهم الصالح ليسا محدودين بحدود الزمان و المكان، و إنّما لهما استمرار و ديمومة[۴۳۱].

و التعبير ب (خالدين) دليل على كون الجنّة خالدة، و بذلك تكون كلمة «أبدا» التى جاءت بعدها تأكيد لهذا الخلود.

و التعبير ب «رزقا» بصيغة نكرة إشارة إلى عظمة و أهميّة الأرزاق الطيّبة التى يهيّؤها اللّه لهذه الجماعة، و قد يتّسع معناها ليشمل كلّ النعم الإلهية فى الدنيا و الآخرة، لأنّ الصالحين و المتّقين لهم حياتهم الكريمة حتّى فى الحياة الدنيا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۹

الآية [سورة الطلاق (۶۵): آية ۱۲]

اشارة

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (۱۲)

التّفسير

الهدف من خلق العالم:

هذه الآية هى آخر آية من سورة الطلاق، و فيها إشارة معبّرة و صريحة إلى عظمة و قدرة البارئ جلّ شأنه فى خلق السموات و الأرض و بيان الهدف النهائى للخلق، ثمّ تكمل الآية الأبحاث التى وردت فى الآيات السابقة حول الثواب العظيم الذى أعدّه اللّه للمؤمنين المتّقين، و العهود التى قطعها على نفسه لهم فيما يخصّ حلّ مشاكلهم المعقّدة. إذ من الطبيعى أنّ الذى أوجد هذا الخلق العظيم له القدرة على الوفاء بالعهود سواء فى هذا العالم أو العالم الآخر.

يقول تعالى أوّلا: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ

وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

بمعنى أنّ الأرضين سبع كما السماوات سبع، و هذه هى الآية الوحيدة التى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۰

تشير إلى الأرضين السبع فى القرآن الكريم.

و الآن لنر ما هو المقصود من السموات السبع و الأرضين السبع؟

مرّت أبحاث مطوّلة فى هذا المجال فى ذيل الآية (۲۹) من سورة البقرة، و فى ذيل الآية (۱۲) من سورة فصّلت، لذا نكتفى هنا بإشارة مقتضبة و هى:

إنّه من الممكن أن يكون المراد من عدد (۷) هو الكثرة، فكثيرا ما ورد هذا التعبير للإشارة إلى الكثرة فى القرآن الكريم و غيره، فنقول

أحيانا للمبالغة لو أتيت بسبعة أبحر لما كفت.

و بناء على هذا فسيكون المقصود بالسموات السبع و الأرضين السبع هو الإشارة إلى العدد العظيم و الهائل للكواكب السماوية و الكواكب التى تشبه الأرض.

أمّا إذا اعتبرنا العدد سبعة هو لعدد السموات و عدد الأرضين، فإنّ مفهوم هذه الآية مع الالتفات إلى الآية (۶) من سورة الصافات التى تقول: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ سيكون شيئا آخر، و هو أنّ علم البشر و معرفته مهما اتّسعت فهى محدودة و متعلّقة بالسماء الاولى التى توجد وراءها ثوابت و سيّارات ستة هى عبارة عن العوالم الاخرى التى لا تتسع لها معرفتنا المحدودة و لا ينالها إدراكنا الضيّق.

أمّا الأرضين السبع و ما حولها، فربّما تكون إشارة إلى طبقات الأرض المختلفة، لأنّ الأرض تتكوّن من طبقات مختلفة كما ثبت اليوم علميّا. أو لعلّها تكون إشارة إلى المناطق السبع التى تقسّم بها الأرض فى السابق و حاليا. علما أنّ هناك اختلافا بين التقسيم السابق و التقسيم الحالى، فالتقسيم الحالى يقسّم الأرض إلى منطقتين: منطقة المنجمد الشمالى، و المنجمد الجنوبى. و منطقتين معتدلتين، و أخريين حارتين، و منقطة استوائية. أمّا سابقا فكان هناك تقسيم آخر لهذه المناطق السبع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۱

و يمكن أن يكون المراد هنا من العدد «سبعة» المستفاد من تعبير (مثلهنّ) هو الكثرة أيضا التى أشير بها إلى الكرات الأرضية العديدة الموجودة فى العصر الراهن، حتّى قال بعض علماء الفلك: إنّ عدد الكرات المشابهة للأرض التى تدور حول الشموس يبلغ ثلاثة ملايين كرة كحدّ أدنى [۴۳۲].

و نظرا لقلّة معلوماتنا حول ما وراء المنظومة الشمسية، فإنّ تحديد عدد معيّن حول هذا الموضوع يبقى أمرا صعبا. و لكن على أى حال فقد أكّد علماء الفلك الآخرون أنّ هناك ملايين الملايين من الكواكب التى وضعت فى ظروف تشبه ظروف الكرة الأرضية، ضمن مجرّة المجموعة الشمسية، و هى تمثّل مراكز للحياة و العيش.

و ربّما ستكشف التطورات العلمية القادمة معلومات أوسع و أسرار اخرى حول تفسير مثل هذه الآيات.

ثمّ يشير تعالى إلى إدارة هذا العالم الكبير و تدبيره بقوله جلّ شأنه يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ

و واضح أنّ المراد من «الأمر» هنا هو الأمر التكوينى للّه تعالى فى خصوص إدارة و تدبير هذا العالم الكبير، فهو الهادى و هو المرشد و هو المبدع لهذا المسار الدقيق المنظّم، و الحقيقة أنّ هذه الآية تشبه الآية (۴) من سورة السجدة حيث تقول: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ

على أى حال فإنّ هذا العالم سيفنى و يتلاشى إذا ما رفعت عنه يد التدبير و الهداية الإلهية لحظة واحدة.

و أخيرا يشير تعالى إلى الهدف من وراء هذا الخلق العظيم حيث يقول:

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۲

كم هو تعبير لطيف، إذ يعتبر الهدف من هذا الخلق العظيم هو تعريف الإنسان بصفات اللّه فى علمه و قدرته، و هما صفتان كافيتان لتربية الإنسان.

و من ثمّ يجب أن يعلم الإنسان أنّ اللّه محيط بكلّ أسرار وجوده، عالم بكلّ أعماله ما ظهر منها و ما بطن. ثمّ يجب أن يعلم الإنسان أنّ وعد اللّه فى البعث و المعاد و الثواب و العقاب و حتمية انتصار المؤمنين، كلّ ذلك غير قابل للتخلّف و التأخّر.

نعم، إنّ هذا الخالق العظيم الذى له هذه «القدرة و العلم» و الذى يدير هذا العالم بأجمعه، لا بدّ أنّ أحكامه على صعيد تنظيم علاقات

البشر و قضایا الطلاق و حقوق النساء ستکون بمنتهی الدقّة و الإتقان.

أوردنا بحثا مفصّلا حول موضوع «الخلقة» فی ذیل الآیة (۵۶) من سورة الذاریات.

الجدیر بالذکر أنّ هناک إشارات وردت فی آیات عدیدة من القرآن الکریم تبیّن الهدف من خلق الإنسان أو الکون، و قد تبدو مختلفة، و لکن بالنظرة الدقیقة نلاحظ أنّها ترجع إلی حقیقة واحدة.

۱- فی الآیة (۵۶) من سورة الذاریات یعتبر «العبادة» هی الهدف من خلق الجنّ و الإنس وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ

۲- و فی الآیة (۷) من سورة هود یضع امتحان الإنسان و تمحیصه کهدف لخلق السموات و الأرض: هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ وَ کانَ عَرْشُهُ عَلَی الْماءِ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

۳- فی الآیة (۱۱۹) من سورة هود یقول: إنّ الرحمة الإلهیة هی الهدف «و لذلک خلقهم».

۴- و فی الآیة مورد البحث اعتبر العلم و المعرفة بصفات اللّه هی الهدف «... لتعلموا ...».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۳

إنّ تدقیقا بسیطا فی هذه الآیات یرینا أنّ بعضها مقدّمة للبعض الآخر، فالعلم و المعرفة مقدّمة للعبودیة، و العبادة هی الاخری مقدّمة للامتحان و تکامل الإنسان، و هذا مقدّمة للاستفادة من رحمة اللّه «فتأمّل!» ربّنا قد عرفتنا بهدف خلقک العظیم فأعنا علی الوصول إلی ذلک الهدف.

اللهمّ، إنّ رحمتک واسعة و کرمک دائم و قدرتک نافذة، فأفض علینا من رحمتک.

اللهمّ، إنّک أنزلت القرآن و الرّسول لتخرج الناس من الظلمات إلی النور فأخرجنا من ظلمات الذنوب و أهواء النفوس و أنر قلوبنا بنور الإیمان و التقوی.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الطلاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۵

سورة التّحریم

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها اثنتا عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۴۳۷

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۷

«سورة التّحریم»

محتوی السورة:

تتکوّن هذه السورة من أربعة أقسام رئیسیّة:

القسم الأوّل: یرتبط بقصّة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع بعض أزواجه حینما حرم بعض أنواع الطعام علی نفسه، فنزلت الآیات من ۱- ۵ و فیها لوم لزوجات الرّسول لأسباب سنذکرها فی سبب النزول.

القسم الثّانی: خطاب لکلّ المؤمنین فی شؤون التربیة و رعایة العائلة و لزوم التوبة من الذنوب، و هو من الآیة ۶- ۸.

القسم الثّالث: و هو الآیة التاسعة التی تتضمّن خطابا إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بضرورة مجاهدة الکفّار و المنافقین.

القسم الرّابع: و هو القسم الأخیر للسورة، من الآیة ۱۰- ۱۲ و یتضمّن توضیحا للأقسام السابقة بذکر نموذجین صالحین للنساء، و هما (مریم العذراء، و زوجة فرعون) و نموذجین غیر صالحین (زوجة نوح، و زوجة لوط) و یحذّر نساء النبی من هذین النموذجین الأخیرین و یدعوهنّ إلی الاقتداء بالنموذجین الأوّلین.

فضیلة تلاوة سورة التحریم:

فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة یا أیّها النّبی لم تحرّم ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۸

أحل اللّه لک أعطاه اللّه توبة نصوحا»[۴۳۳].

و

فی حدیث عن الإمام الصادق قال: «من قرأ سورة الطلاق و التحریم فی فریضة أعاذه اللّه من أن یکون یوم القیامة ممّن یخاف أو یحزن و عوفی من النار و أدخله اللّه الجنّة بتلاوته إیّاهما و محافظته علیهما لأنّهما للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم»[۴۳۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۹

الآیات [سورة التحریم (۶۶): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَکَ تَبْتَغِی مَرْضاتَ أَزْواجِکَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَکُمْ تَحِلَّةَ أَیْمانِکُمْ وَ اللَّهُ مَوْلاکُمْ وَ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ (۲) وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِیُّ إِلی بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِیثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَیْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَکَ هذا قالَ نَبَّأَنِیَ الْعَلِیمُ الْخَبِیرُ (۳) إِنْ تَتُوبا إِلَی اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُکُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَیْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِیلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمَلائِکَةُ بَعْدَ ذلِکَ ظَهِیرٌ (۴)

عَسی رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَکُنَّ أَنْ یُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَیْراً مِنْکُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَیِّباتٍ وَ أَبْکاراً (۵)

اسباب النّزول

وردت روایات عدیدة فی أسباب نزول هذه السورة فی کتب الحدیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۰

و التّفسیر و التاریخ، عن الشیعة و السنّة، انتخبنا أشهر تلک الروایات و أنسبها و هی:

کان رسول اللّه یذهب أحیانا إلی زوجته (زینب بنت جحش) فتبقیه فی بیتها حتّی «تأتی إلیه بعسل کانت قد هیّأته له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکن لمّا سمعت عائشة بذلک شقّ علیها الأمر، و لذا قالت: إنّها قد اتّفقت مع «حفصة» إحدی (أزواج الرّسول) علی أن یسألا الرّسول بمجرّد أن یقترب من أیّ منهما بأنّه هل تناول صمغ «المغافیر» (و هو نوع من الصمغ یترشّح من بعض أشجار الحجاز یسمّی «عرفط» و یترک رائحة غیر طیّبة، علما أنّ الرّسول کان یصرّ علی أن تکون رائحته طیّبة دائما) و فعلا سألت حفصة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذا السؤال یوما وردّ الرّسول بأنّه لم یتناول صمغ «المغافیر» و لکنّه تناول عسلا عند زینب بنت جحش، و

لهـذا أقسم بأنّه سوف لن یتناول ذلک العسل مرّة اخری، خوفا من أن تکون زنابیر العسل هـذا قد تغذّت علی شـجر صـمغ «المغافیر» و حذّرها أن تنقل ذلک إلی أحد لکی لا یشیع بین الناس أنّ الرّسول قد حرّم علی نفسه طعاما حلالا فیقتدون بالرّسول و یحرّمونه أو ما یشبهه علی أنفسهم، أو خوفا من أن تسمع زینب و ینکسر قلبها و تتألّم لذلک.

لکنّهـا أفشت السـرّ فتبیّن أخیرا أنّ القصّـهٔ کانت مدروسـهٔ و معـدّهٔ فتألّم الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لـذلک کثیرا فنزلت علیه الآیات السابقهٔ لتوضّح الأمر و تنهی من أن یتکرّر ذلک مرّهٔ اخری فی بیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ۴۳۵].

و جاء فی بعض الروایات أنّ الرّسول ابتعـد عن زوجاته لمـدّهٔ شـهر بعد هذا الحادث ۴۳۶]، انتشـرت علی أثرها شائعهٔ أنّ الرّسول عازم علی طلاق زوجاته، الأمر الذی أدّی إلی کثرهٔ المخاوف بینهنّ ۴۳۷] و ندمن بعدها علی فعلتهن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۱

التّفسیر

التوبیخ الشدید لبعض زوجات الرّسول:

ممّا لا شکّ فیه أنّ رجلا عظیما کالرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لا یمکن أن یهمّه أمره وحـده دون غیره، بل أمره یهمّ المجتمع الإسـلامی و البشـریهٔ جمعاء، و لهذا یکون التعامل مع أیّهٔ دسیسهٔ حتّی لو کانت بسیطهٔ تعاملا حازما و قاطعا لا یسمح بتکرّرها، لکی لا تتعرّض حیثیـهٔ الرّسول و اعتباره إلی أی نوع من التصـدّع و الخـدش و الآیات محلّ البحث تعتبر تحذیرا من ارتکاب مثل هذه الأعمال حفاظا علی اعتبار الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

البدایهٔ کانت خطابا إلی الرّسول: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَکَ تَبْتَغِی مَرْضاتَ أَزْواجِکَ

و من الواضـح أنّ هـذا التحریم لیس تحریمـا شـرعیّا، بـل هو- کمـا یسـتفاد من الآیـات اللاحقـهٔ- قسم من قبـل الرّسول الکریم، و من المعروف أنّ القسم علی ترک بعض المباحات لیس ذنبا.

و بناء علی هذا فإنّ جملهٔ لِمَ تُحَرِّمُ لم تأت کتوبیخ و عتاب، و إنّما هی نوع من الإشفاق و العطف.

تماما کما نقول لمن یجهد نفسه کثیرا لتحصیل فائدهٔ معیّنهٔ من أجل العیش ثمّ لا یحصل علیها، نقول له: لماذا تتعب نفسک و تجهدها إلی هذا الحدّ دون أن تحصل علی نتیجهٔ توازی ذلک التعب؟

ثمّ یضیف فی آخر الآیهٔ: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ ...

و هـذا العفو و الرحمهٔ إنّما هو لمن تاب من زوجات الرّسول اللاتی رتّبن ذلک العمل و أعددناه. أو أنّها إشارهٔ إلی أنّ الرّسول ما کان ینبغی له أن یقسم مثل هذا القسم الذی سیؤدّی- احتمالا- إلی- جرأهٔ و تجاسر بعض زوجاته علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و یضیف فی الآیهٔ اللاحقهٔ أنّ اللّه قد أوضح طریق التخلّص من مثل هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۲

القسم: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَکُمْ تَحِلَّهَ أَیْمانِکُمْ ۴۳۸] أی أعط کفّارهٔ القسم و تحرّر منه.

و یـذکر أنّ الترک إذا کـان راجحـا علی العمل فیجب الالتزام بالقسم و الحنث فیه ذنب تترتّب کفّارهٔ علیه، أمّا فی الموارد التی یکون فیهـا الترک شـیئا مرجوحـا مثل «الآیـهٔ مورد البحث» فإنّه یجوز الحنث فی القسم، و لکن من الأفضل دفع کفّارهٔ من أجل الحفاظ علی حرمهٔ القسم و احترامه ۴۳۹].

ثمّ یضیف: وَ اللَّهُ مَوْلاکُمْ وَ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ

فقد أنجاكم من مثل هذه الأقسام و وضع لكم طريق التخلّص منها طبقا لعلمه و حكمته.

و يستفاد من بعض الروايات أنّ النبى أعتق رقبة بعد هذا القسم و حلّل ما كان قد حرّمه بالقسم.

و فى الآيـة اللاحقـة يتعرّض لهذا الحادث بشـكل أوسع: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ

ما هذا السرّ الذى أسرّه النبى لبعض زوجاته ثمّ لم يحفظنه؟

طبقا لما أوردناه فى أسباب النزول فإنّ هذا السرّ يتكوّن من أمرين:

الأوّل: تناول العسل عند زوجته (زينب بنت جحش).

و الثانى: تحريم العسل على نفسه فى المستقبل.

أمّا الزوجة التى أذاعت السرّ و لم تحافظ عليه فهى «حفصة» حيث أنّها نقلت ذلك الحديث الذى سمعت به إلى عائشة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۳

أمّا الرّسـول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فقـد اطّلع على إفشـاء هـذا السرّ عن طريق الوحى، و ذكر بعضه «لحفصـة» و من أجـل عـدم إحراجها كثيرا لم يذكر لها القسم الثانى (و لعلّ القسم الأوّل يتعلّق بأصل شرب العسل، و الثانى هو تحريم العسل على نفسه).

و على كلّ فإنّه: فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.

و يتّضح من مجموع هذه الآيات أنّ بعض زوجات الرّسول لم يكتفين بإيذاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكلامهنّ، بل لا يحفظن سرّه، و حفظ السرّ من أهمّ صفات الزوجة الصالحة الوفيّة لزوجها، و كان تعامل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معهنّ على العكس من ذلك تماما إلى الحدّ الذى لم يذكر لها السرّ الذى أفشته كاملا لكى لا يحرجها أكثر، و اكتفى بالإشارة إلى جزء منه.

و لهذا

جاء فى الحديث عن الإمام على عليه السّلام: «ما استقصى كريم قطّ، لأنّ اللّه يقول: عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ۴۴۰].

ثمّ يتحدّث القرآن مع زوجتى الرّسول اللتين كانتا وراء هذا الحادث بقوله:

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما.

و قد اتّفق المفسّرون الشيعة و السنّة على أنّ تلك الزوجتين هما «حفصة بنت عمر» و «عائشة بنت أبى بكر».

«صغت» من مادّة «صغو» على وزن «عفو» بمعنى الميل إلى شىء ما، لذلك يقال «صغت النجوم» «أى مالت النجوم إلى الغروب» و لهذا جاء اصـطلاح «إصـغاء» بمعنى الاسـتماع إلى حـديث شـخص آخر. و المقصود من «صـغت قلوبكما» أى مالت من الحقّ إلى الباطل و ارتكاب الذنب ۴۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۴

ثمّ يضيف تعالى: وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ.

و يتّضـح من هـذا كم تركت هـذه الحادثـة من أثر مؤلم فى قلب الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و روحه العظيمـة، و رغم قـدرة الرّسول المتكاملة نشاهد أنّ اللّه يدافع عنه إذ يعلن حماية جبرائيل و المؤمنين له.

و من الجـدير بالـذكر أنّه ورد فى صـحيح البخارى (ما مضـمونه) عن ابن عبّاس أنّه قال: سألت عمر: من كانت المرأتان اللتان تظاهرتا على النبى من أزواجه، فقال: تلك حفصة و عائشة، قال: فقلت و اللّه إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا قال:

فلا تفعل ما ظننت أنّ عنـدى من علم فاسألنى فإن كان لى علم خبّرتك به، قال ثمّ قال عمر: و اللّه إن كنّ فى الجاهليـة ما تعـدّ للنساء أمرا حتّى أنزل اللّه فيهنّ ما أنزل و قسم لهنّ ما قسم ..»[۴۴۲].

و

فی تفسیر الدرّ المنثور، ورد أیضا عن ابن عبّاس ضمن حدیث مفصّل أنّه قال: قال عمر: «.. علمت بعد هذه الحادثة أنّ النبی اعتزل جمیع النساء، و أقام فی «مشربة أمّ إبراهیم»، فأتیته و قلت: یا رسول اللّه هل طلّقت نساءک؟ قال: لا. قلت:

اللّه أکبر، کنّا معشر قریش نغلب النساء، فلما قدمنا المدینة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا یتعلمن من نسائهم، فغضبت علی امرأتی یوما فإذا هی تراجعنی فأنکرت أن تراجعنی فقالت ما تنکر من ذلک فو اللّه إنّ أزواج النبی لیراجعنه و تهجره إحداهنّ الیوم إلی اللیل .. فقلت لابنتی حفصة لا تفعلی ذلک أبدا و إن فعلته جارتک (یعنی عائشة) لأنّک لست هی ..»[۴۴۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۵

فی آخر آیة من هذه الآیات یخاطب اللّه تعالی جمیع نساء النبی بلهجة لا تخلو من التهدید: عَسی رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَکُنَّ أَنْ یُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَیْراً مِنْکُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَیِّباتٍ وَ أَبْکاراً.

لذا فهو ینذرهنّ ألّا یتصورن أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سوف لن یطلّقهن، أو یتصوّرن أنّ النبی لا- یستبدلهنّ بنساء أخریات أفضل منهنّ، و ذلک لیکففن عن التآمر علیه و إلّا فسیحرمن من شرف منزلة «زوجة الرّسول» إلی الأبد، و ستأخذ نساء أخریات أفضل منهنّ هذا اللقب الکریم.

بحوث

۱– صفات الزوجة الصالحة:

یضع القرآن الکریم عدّة صفات للمرأة الصالحة التی یمکنها أن تکون نموذجا یقتدی به فی انتخاب الزوجة اللائقة.

الأوّل «الإسلام» ثمّ «الإیمان» أی الإعتقاد الذی ینفذ و یترسّخ فی أعماق قلب الإنسان. ثمّ حالة «القنوت» أی التواضع و طاعة الزوج. بعد ذلک «التوبة» و یقصد أنّ الزوجة إذا ما ارتکبت ذنبا بحقّ زوجها فإنّها سرعان ما تتوب و تعتذر عن ذلک. و تأتی بعد ذلک «العبادة» التی جعلها اللّه سبحانه لیطهّر بها قلب الإنسان و روحه و یصنعها من جدید، ثمّ «إطاعة أوامر اللّه» و الورع عن محارمه.

و ممّا یذکر أنّ جماعة من المفسّرین- بل أکثرهم- اعتبروا کلمة «سائح» بمعنی «صائم» و لکن طبقا لما أورده «الراغب» فی «المفردات» فإنّ الصوم علی قسمین: «صوم حکمی»: و هو الامتناع عن تناول الطعام و الماء، و «صوم حقیقی»:

و هو امتناع أعضاء الإنسان عن ارتکاب المعاصی.

و المقصود بالصوم هنا هو المعنی الثانی، «إذ أنّ مناسبات الحال و المقام تقوّی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۶

قول الراغب و تجعله مناسبا، غیر أنّه یجب أن یعلم أنّ السائح فسّر أیضا بمعنی السائر فی طریق طاعة اللّه»[۴۴۴].

و من الجدیر بالذکر أنّ القرآن لم یعط أهمیّة تذکر للباکر و غیر الباکر، فإنّه عند ما ذکر الصفات المعنویة للزوجة الصالحة ذکر هذه المسألة بصورة عابرة و دون أی ترکیز.

۲– من هم (صالح المؤمنین)؟

ممّا لا- شکّ فیه أنّ صالح المؤمنین، لها معان واسعة تشمل جمیع المؤمنین الصالحین الأتقیاء الذین کمل إیمانهم، و رغم أنّ کلمة (صالح) وردت هنا بصیغة المفرد، و لکن یمکن أن یستفاد منها العموم لأنّها تتضمّن معنی الجنس ۴۴۵].

و لکن ما هو المصداق الأکمل و الأتمّ لهذا المصطلح؟

یستفاد من روایات عدیدة أنّ المقصود هو الإمام علی أمیر المؤمنین علیه السّلام.

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام یقول: «لقد عرّف رسول اللّه علیا أصحابه مرّتین: أمّا مرّة فحیث قال: «من کنت مولاه فعلی مولاه» و أمّا الثانیة فحیث نزلت هذه الآیة: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِیلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِینَ ... أخذ رسول اللّه بید علی فقال: أیّها الناس، هذا صالح المؤمنین!!؟»

و قد نقل هذا المعنی فی کتب عدیدة لعلماء أهل السنّة منهم العلّامة «الثعلبی» و «الکنجی» فی «کفایة الطالب» و «أبو حیّان الأندلسی» و «السبط ابن الجوزی»

و غیرهم ۴۴۶].

و قد أورد جمع من المفسّرین منهم «السیوطی» فی «الدرّ المنثور» فی ذیل الآیة مورد البحث و «القرطبی» فی تفسیره المعروف، و کذلک «الآلوسی» فی «روح المعانی» فی تفسیر هذه الآیة أوردوا هذه الروایة.

و بعد أن نقل مؤلّف (روح البیان) هذه الروایة عن (مجاهد) قال: و یؤیّد هذه الروایة الحدیث المعروف: «حدیث المنزلة» الذی وصف فیه الرّسول مکانة علی علیه السّلام منه بقوله لعلی «أنت منّی بمنزلة هارون من موسی» نظرا لأنّ عنوان الصالحین استعمل فی القرآن الکریم للإشارة إلی الأنبیاء. منها وَ کُلًّا جَعَلْنا صالِحِینَ (سورة الأنبیاء الآیة ۷۲) و أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ ۴۴۷]. (حیث أطلق فی الاولی علی مجموع الأنبیاء و فی الثانیة علی یوسف).

و لکون علی بمنزلة هارون فإنّه سیکون کذلک مصداقا ل (الصالح) (فتأمّل)! خلاصة القول: أنّ هناک عددا کثیرا من الأحادیث وردت فی هذا المجال، فبعد أن نقل المفسّر المعروف (المحدّث البحرانی) فی تفسیر البرهان روایة فی هذا المجال عن محمد بن عبّاس ۴۴۸] أنّه جمع ۵۲ حدیثا تتناول هذا الموضوع من طریق الشیعة و السنّة ثم قام هو بنقل بعضها[۴۴۹].

۳- عدم رضا الرّسول عن بعض زوجاته

هناک علی طول التاریخ عظماء کثیرون لم یحظوا بزوجات تناسب شأنهم و اهتماماتهم، و نتیجة لعدم توفّر الشروط اللازمة بزوجاتهم، فقد ظلّوا یعانون من

ذلک کثیرا، و قد ذکر لنا القرآن الکریم نماذج من هذه المعاناة وقعت للأنبیاء العظام.

و ربّما توضّح الآیات السابقة أنّ معاناة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من بعض أزواجه کانت من هذا القبیل، فنظرا لوجود الغیرة و التسابق فیما بینهنّ کنّ یسبّبن متاعب للنبی الکریم. فقد کنّ أحیانا یعترضن علیه أو یفشین سرّه، الأمر الذی جعل القرآن الکریم یوجّه لهنّ خطابا مباشرا بالتوبیخ و أصدر أقوی البیانات فی هذا المجال، حتّی أنّه هدّدهنّ بالطلاق. و قد لا حظنا الرّسول قد غضب علی زوجاته و أظهر عدم رضاه لمدّة شهر تقریبا بعد نزول هذه الآیات أملا فی إصلاحهنّ.

و یمکن أن نلاحظ بشکل واضح- من خلال حیاة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- أنّ بعض زوجاته لم یدرکن مقام النبوّة فحسب، بل قد یتعاملن معه کإنسان عادی، و أحیانا یتعرضنّ له بالإهانة.

و بناء علی هذا فإنّه لا معنی للإصرار علی أنّ جمیع زوجات الرّسول کنّ علی قدر عال من الکمال و اللیاقة، خصوصا مع الأخذ بالاعتبار صراحة الآیات السابقة.

و لم یکن هـذا المعنی مقتصـرا علی حیـاة الرّسول فقـط، فبعـد و فـاته نقل لنا التاریـخ أمثلـة مشابهـة، خاصّـة فی قصّـة حرب الجمل و الموقف من خلیفة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ما جری من امور لیس هنا مجال الخوض فیها.

و من الواضح أنّ الآیات السابقة تقول بشکل صریح: إنّ اللّه سیعطی النبی زوجات صالحات تتوفّر فیهنّ الصفات المذکورة فی الآیات إذا طلّقکن و سرحکن، و هذا یکشف عن أنّ هناک من زوجات الرّسول ممّن لا تتوفّر فیهنّ تلک الصفات و الشروط.

و یؤیّد ذلک ما جاء فی سورة الأحزاب حول زوجات الرّسول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۹

۴- إفشاء السرّ

إنّ حفظ السرّ و المحافظة علیه و عدم إفشائه، لیس فقط من صفات المؤمنین، بل هی صفة ینبغی توفّرها بکلّ إنسان ذی شخصیة قویّة محترمة، و تتجلّی أهمیّة هذه الصفة أکثر مع الأصدقاء و الأقرباء و بالأخصّ بین الزوج و الزوجة. و قد لا حظنا فی الآیات السابقة کیف أنّ القرآن لام أزواج النبی بشدّة و وبّخهنّ علی إفشائهنّ للسرّ و عدم محافظتهنّ علیه.

ورد عـن أمیر المـؤمنین قـوله: «جمـع خیر الـدنیا و الآـخرة فی کتمـان السـرّ و مصادقـة الأخیـار، و جمـع الشـرّ فی الإذاعـة و مؤاخـاة الأشرار»[۴۵۰].

۵- لا تحرّموا علی أنفسکم ما أحلّه اللّه لکم

من المؤکّد أنّ اللّه لم یحلّل أو یحرّم شیئا إلّا طبقا لحسابات و مصالح دقیقة، و بناء علی هذا فلا مجال لأن یقوم الإنسان بتحلیل الحرام أو تحریم الحلال حتّی مع القسم، فإنّ الحنث جائز فی مثل هذه الموارد.

نعم، إذا کان مورد القسم من المباحات التی یکره عملها أو الأولی ترکها، یجب الالتزام بالقسم حینئذ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۰

الآیات [سورة التحریم (۶۶): الآیات ۶ الی ۸]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَکُمْ وَ أَهْلِیکُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ عَلَیْها مَلائِکَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا یَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ یَفْعَلُونَ ما یُؤْمَرُونَ (۶) یا أَیُّهَا الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْیَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَی اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسی رَبُّکُمْ أَنْ یُکَفِّرَ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ وَ یُدْخِلَکُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ یَوْمَ لا یُخْزِی اللَّهُ النَّبِیَّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ یَسْعی بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ بِأَیْمانِهِمْ یَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّکَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۸)

التّفسیر

قوا أنفسکم و أهلیکم النار:

تخاطب الآیات السابقة جمیع المؤمنین، و ترسم لهم المنهج الصالح لتربیة الزوجات و الأولاد و الأسرة بشکل عامّ، فهی تقول أوّلا: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قُوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۱

أَنْفُسَکُمْ وَ أَهْلِیکُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ.

و ذلک بحفظ النفس من الذنوب و عدم الاستسلام للشهوات و الأهواء، و حفظ العائلة من الانحراف بالتعلیم و التربیة و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و تهیئة الأجواء الصالحة و المحیط الطاهر من کلّ رذیلة و نقص.

و ینبغی مراعاة هذا البرنامج الإلهی منذ اللحظات الاولی لبناء العائلة، أی منذ أوّل مقدّمات الزواج، ثمّ مع أوّل لحظة لولادة الأولاد، و یراعی و یلاحظ بدقّة حتّی النهایة.

و بعبارة اخری: إنّ حقوق الزوجة و الأولاد لا تقتصر علی توفیر المسکن و المأکل، بل الأهمّ تربیة نفوسهم و تغذیتها بالأصول و التعالیم الإسلامیة و تنشئتها نشأة تربویة صحیحة.

و التعبیر ب «قوا» إشارة إلی أنّ ترک الأطفال و الزوجات دون أیّة متابعة أو إرشاد سیؤدّی إلی هلاکهم و دخولهم النار شئنا أم أبینا. لذا علیکم أن تقوهم و تحذّروهم من ذلک.

«الوقود» هو المادّة القابلة للاشتعال مثل (الحطب) و هو بمعنی المعطی لشرارة النار کالکبریت- مثلا- فإنّ العرب یطلقون علیه (الزناد).

و بناء علی هذا فإنّ نار جهنّم لیس کنیران هذا العالم، لأنّها تشتعل من داخل البشر أنفسهم و من داخل الصخور و لیس فقط صخور الکبریت التی أشار إلیها بعض المفسّرین، فإنّ لفظ الآیة مطلق یشمل جمیع أنواع الصخور.

و قد اتّضح فی هذا العصر أنّ کلّ قطعة من الصخور تحتوی علی ملیارات الملیارات من الذرّات التی إذا ما تحرّرت الطاقة الکافیة فیها فسینتج عن ذلک نار هائلة یصعب علی الإنسان تصوّرها.

و قال بعض المفسّرین: إنّ «الحجارة» عبارة عن تلک الأصنام التی کانوا یعبدونها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۲

و یضیف القرآن قائلا: عَلَیْها مَلائِکَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا یَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ یَفْعَلُونَ ما یُؤْمَرُونَ

و بهذا لا یبقی طریق للخلاص و الهروب، و لن یؤثّر البکاء و الالتماس و الجزع و الفزع.

و من الواضح أنّ أصحاب الأعمال و المکلّفین بتنفیذها، ینبغی أن تکون معنویاتهم و روحیّتهم تنسجم مع تلک المهام المکلّفین بتنفیذها. و لهذا یجب أن یتّصف مسئولو العذاب و المشرفون علیه بالغلظة و الخشونة، لأنّ جهنّم لیست مکانا للرحمة و الشفقة، و إنّما هی مکان الغضب الإلهی و محلّ النقمة و السخط الإلهیین. و لکن هذه الغلظة و الخشونة لا تخرج هؤلاء عن حدّ العدالة و الأوامر الإلهیة. إنّما: یَفْعَلُونَ ما یُؤْمَرُونَ دون أیّة زیادة أو نقصان.

و تساءل بعض المفسّرین حول تعبیر (لا یعصون) الذی ینسجم مع القول بعدم وجود تکلیف یوم القیامة. و لکن یجب الانتباه إلی أنّ الطاعة و عدم العصیان من الأمور التکوینیة لدی الملائکة لا التشریعیة.

بتعبیر آخر: إنّ الملائکة مجبولون علی الطاعة غیر مختارین، إذ لا رغبة و لا میل لهم إلی سواها.

فی الآیة اللاحقة یخاطب الکفّار و یصف وضعهم فی ذلک الیوم العصیب بقوله: یا أَیُّهَا الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْیَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

قد جاءت هذه الآیة بعد الآیة السابقة التی خاطب بها المؤمنین، لیکون واضحا أنّ عدم الالتزام بأوامر اللّه و عدم الاهتمام بالنساء و الأولاد و الأهل قد تکون نتیجته و عاقبته کعاقبة الکفّار یوم القیامة.

و التعبیر ب إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ یؤیّد هذه الحقیقة مرّة اخری، و هی أنّ جزاء المؤمنین یوم القیامة إنّما هو أعمالهم نفسها التی

تظهر أمامهم و ترافقهم.

و ممّا يؤيّد ذلک أيضا التعبير الذى ورد فى الآية السابقة الذى يقول إنّ نار جهنّم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۳

وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ.

و ممّا يجـدر ذكره أنّ عدم قبول الاعتذار ناتج عن كونه نوعا من التوبة، و التوبة لا تقبل فى غير هذا العالم، سواء كان قبل دخول النار أو بعد دخولها.

و يلقى القرآن الضوء فى الآية اللاحقة على طريق النجاة من النار حيث يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً.

نعم. إنّ أوّل خطوة على طريق النجاة هى التوبـة و الإقلاع عن الـذنب، التوبـة التى يكون هدفها رضا اللّه و الخوف منه. التوبة الخالصـة من أى هـدف آخر كالخوف من الآثار الاجتماعيـة و الآثار الدنيوية للذنوب. و أخيرا التوبة التى يفارق بها الإنسان الذنب و يتركه إلى الأبد.

و من المعلوم أنّ حقيقة التوبة هى الندم على الذنب، و شـرطها التصـميم على الترک فى المستقبل. و أمّا إذا كان العمل قابلا لأن يجبر و يعوّض فلا بـدّ من الجبران و التعويض، و التعبير ب يُكَفِّرَ عَنْكُمْ إشارة إلى هـذا المعنى. و بناء على هذا يمكننا تلخيص أركان التوبة بخمسة امور (ترک الذنب، الندم، التصميم على الاجتناب فى المستقبل، جبران ما مضى، الاستغفار).

«نصوح» من مادّة نصـح، بمعنى طلب الخير بإخلاص، و لـذلک يقال للعسل الخالص بأنّه (ناصـح) و بما أنّ من يريد الخير واقعا يجب أن يكون عمله توأما للإتقان جاءت كلمـة «نصـح» أحيانا بهـذا المعنى، و لذا يقال للبناء المتين بأنّه «نصاح»- على وزن كتاب- و يقال للخيّاط «ناصح»، و كلا المعنيين- أى الخلوص و المتانة- يجب توفّرهما فى التوبة النصوح [۴۵۱].

و أمّا حول المعنى الحقيقى للتوبة النصوح؟ فقد وردت تفاسير مختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۴

و متعدّدة حتّى أوصلها البعض إلى ۲۳ تفسيرا[۴۵۲].

غير أنّ جميع هذه التفاسير تعود إلى حقيقة واحدة و فروعها و الأمور المتعلّقة بها و شرائطها المختلفة.

و من هـذه التفاسير القول بأنّ التوبـة (النصوح) يجب أن تتوفّر فيها أربعـة شـروط: النـدم الداخلى، الاسـتغفار باللسان، ترک الذنب، و التصميم على الاجتناب فى المستقبل.

و قال البعض الآخر بأنّها (أى التوبة النصوح) ذات شروط ثلاثة (الخوف من عدم قبولها، و الأمل بقبولها، و الاستمرار على طاعة اللّه.

أو أنّ التوبة «النصوح» التى تجعل الذنوب دائما أمام أعين أصحابها، ليشعر الإنسان بالخجل منها.

أو أنّها تعنى إرجاع المظالم و الحقوق إلى أصحابها، و طلب التحليل و براءة الذمّة من المظلومين، و المداومة على طاعة اللّه.

أو هى التى تشتمل على امور ثلاثة: قلّة الأكل، قلّة القول، قلّة النوم.

أو التوبة النصوح هى التى يرافقها بكاء العين، و اشمئزاز القلب من الذنوب و ما إلى ذلک من فروع التوبة الواقعية و هى التوبة الخالصة التامّة الكاملة.

جاء فى حديث عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما سأله معاذ بن جبل عن «التوبة النصوح» أجابه قائلا: «أن يتوب التائب ثمّ لا يرجع فى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع»[۴۵۳].

و بهـذا التعبير اللطيف يتّضـح أنّ التوبة يجب أن تحدث انقلابا فى داخل النفس الإنسانية، و تسدّ عليها أى طريق للعودة إلى الذنب، و تجعل من الرجوع أمرا مستحيلا كما يستحيل إرجاع اللبن إلى الضرع و الثدى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۵

و قد جاء هذا المعنى فى روايات اخرى، و كلّها توضّح الدرجة العالية للتوبة النصوح، فإنّ الرجوع ممكن فى المراتب الدنيا من التوبة، و تتكرّر التوبة حتّى يصل الإنسان إلى المرحلة التى لا يعود بعدها إلى الذنب.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى آثار التوبة الصادقة النصوح بقوله: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ

وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ و يضيء لهم طريقهم فى المحشر و يوصلهم إلى الجنّة.

و هنا يتوجّهون إلى اللّه بطلب العفو: يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّکَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و بذلك تكون التوبة (النصوح) لها خمس ثمرات مهمّة:

الاولى: غفران الذنوب و السيّئات.

الثانية: دخول الجنّة المملوءة بنعم اللّه.

الثالثة: عدم الفضيحة فى ذلك اليوم العصيب الذى ترتفع فيه الحجب و تظهر فيه حقائق الأشياء، و يفتضح الكاذبون الفجّار. نعم فى ذلك اليوم سيكون للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين شأن عظيم، لأنّهم لم و لن يقولوا إلّا ما هو واقع.

الرابع: أنّ نور إيمانهم و عملهم يتحرّك بين أيديهم فيضيء طريقهم إلى الجنّة.

(و اعتبر بعض المفسّرين أنّ «النور» الذى يتحرّك أمامهم إنّما هو نور العمل، و كان لنا تفسير آخر أوردناه فى ذيل الآية ۱۲ من سورة الحديد).

الخامس: يتجهون إلى البارى أكثر من ذى قبل، و يرجونه تكميل نورهم و الغفران الكامل لذنوبهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۶

بحثان

۱- تعليم و تربية العائلة

من الواضح أنّ الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فريضة عامّة على جميع الناس و لا تخصّ بعضا دون آخر. غير أنّ مسئولية الإنسان تجاه زوجته و أبنائه أكد من غيرها و أشدّ إلزاما، كما يتجلّى ذلك بشكل واضح من الروايات الواردة فى مصادر عديدة، و كذلك الآيات السابقة التى تدعو الإنسان لأن يبذل أقصى جهده لتربية أهله و تعليمهم، و نهيهم عن ارتكاب الذنوب و حثّهم على اكتساب الخيرات، و لا ينبغى عليه أن يقنع و يكتفى بتوفير الغذاء الجسمى لهم.

و بما أنّ المجتمع عبارة عن عدد معيّن من وحدات صغيرة تدعى «العائلة» فإنّ الاهتمام بالعائلة و تربيتها تربية إسلامية صحيحة سيجعل أمر إصلاح المجتمع أسهل و أيسر.

و تبرز هذه المسؤولية أكثر و تكتسب أهميّة خاصّة فى العصر الراهن، حيث تجتاح المجتمع موجات من الفساد و الضلال الخطرة، و تحتاج إلى وضع برنامج دقيق و مدروس لتربية العائلة لمواجهة هذه الموجات دون التأثّر بها و الانجراف مع تيارها.

فنار الآخرة ليست هى النار الوحيدة التى يكون مصدرها الإنسان نفسه و من داخله، بل نار الدنيا هى الاخرى تستمدّ وجودها من هذا الإنسان، لهذا يجب على كلّ إنسان أن يقى نفسه و عائلته من هذه النار.

جاء فى الحديث أنّ أحد الصحابة سأل النبى بعد نزول الآية السابقة: كيف أقى أهلى و نفسى من نار جهنّم، فأجابه صلّى اللّه عليه و

آله و سلّم:

«تأمرهم بما أمر اللّه، و تنهاهم عمّا نهاهم اللّه، إن أطاعوک کنت قد وقیتهم، و إن عصوک کنت قد قضیت ما علیک»[۴۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۷

و

فی حدیث آخر جامع و لطیف عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «ألا کلّکم راع و کلّکم مسئول عن رعیته، فالأمیر علی الناس راع و هو مسئول عن رعیته، و الرجل راع علی أهل بیته و هو مسئول عنهم، و المرأة راعیة علی أهل بیت بعلها و ولده و هی مسئولة عنهم، ألا فکلّکم راع و کلّکم مسئول عن رعیته»[۴۵۵].

و نختم هذا البحث

بحدیث عن أمیر المؤمنین علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة قال فیه: «علّموا أنفسکم و أهلیکم الخیر و أدّبوهم»[۴۵۶].

۲- التوبة باب إلی رحمة اللّه

کثیرا ما تهجم علی الإنسان الذنوب و اللوابس- خاصّة فی بدایات توجّهه و سلوکه إلی اللّه- و إذا أغلقت جمیع أبواب العودة و الرجوع بوجهه، فإنّه سیبقی فی نهجه هذا إلی الأبد، و لهذا نجد الإسلام قد فتح بابا للعودة و سمّاه «التوبة»، و دعا جمیع المذنبین و المقصّرین إلی دخول هذا الباب لتعویض و جبران الماضی.

یقول الإمام علی بن الحسین علیه السّلام فی مناجاة التائبین: «إلهی أنت الذی فتحت لعبادک بابا إلی عفوک سمّیته التوبة، فقلت تُوبُوا إِلَی اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه!!»[۴۵۷].

و قد شدّدت الروایات علی أهمیّة التوبة إلی الحدّ الذی نقرأ

فی الحدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تعالی أشدّ فرحا بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته و زاده فی لیلة ظلماء فوجدها»[۴۵۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۸

کلّ هذه الروایات العظیمة تحثّ و تؤکّد علی هذا الأمر الحیاتی المهمّ.

لکن ینبغی التأکید علی أنّ التوبة لیست مجرّد (لقلقة لسان) و تکرار قول (استغفر اللّه) و إنّما للتوبة شروط و أرکان مرّت الإشارة إلیها فی تفسیر التوبة النصوح فی الآیات السابقة.

و کلّما تحقّقت التوبة بتلک الشروط و الأرکان فإنّها ستؤتی ثمارها و تعفی آثار الذنب من قلب و روح الإنسان تماما، و لذا

ورد فی الحدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام: «التائب من الذنب کمن لا ذنب له، و المقیم علی الذنب و هو مستغفر منه کالمستهزئ»[۴۵۹].

و قد وردت بحوث اخری عن التوبة فی ذیل الآیة (۱۷) من سورة النساء و فی ذیل الآیة (۵۳) من سورة الزمر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۹

الآیات [سورة التحریم (۶۶): الآیات ۹ الی ۱۲]

اشارة

يـا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِـدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِـيرُ (٩) ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْـدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَـيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قـالَتْ رَبِّ ابْنِ لِی عِنْـدَكَ بَيْتاً فِی الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِی مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (١٢)

التّفسير

نماذج من النساء المؤمنات و الكافرات:

بمـا أنّ المنـافقين يفرحون لإفشـاء أسـرار الرّسول و إذاعـة الأخبـار الداخليـة عن بيته، و يرحبون ببروز المشـاجرات و الاختلافـات بين زوجاته- التی مضت

الإشارة إليها فی الآيات السابقة- بل إنّهم كانوا يساهمون فی إشاعة تلك الأخبار و إذاعتها بشـكل أوسع، نظرا لكلّ ذلك فقد خاطب القرآن الكريم الرّسول بـأن يشـدّد على المنافقين و الكافرين و يغلّظ عليهم. حيث يقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِـدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

الجهاد ضـدّ الكفّار قد يكون مسلّحا أو غير مسلّح، أمّا الجهاد ضدّ المنافقين فإنّه بدون شكّ جهاد غير مسلّح، لأنّ التاريخ لم يحدّثنا أبدا عن أنّ الرّسول خاض مرّة معركة مسلّحة ضدّ المنافقين. لهذا

ورد فی الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ رسول اللّه لم يقاتل منافقا قطّ إنّما يتألّفهم»[۴۶٠].

و بناء على ذلك فإنّ المراد من الجهاد ضـدّ المنافقين إنّما هو توبيخهم و إنـذارهم و تحـذيرهم، بل و تهديدهم و فضـحهم، أو تأليف قلوبهم فی بعض الأحيان. فللجهاد معنى واسع يشـمل جميع ذلك. و التعبير ب «أغلظ عليهم» إشارة إلى معاملتهم بخشونة و فضحهم و تهديدهم، و ما إلى ذلك.

و يبقى هذا التعامل الخاصّ مع المنافقين، أی عدم الصدام المسلّح معهم، ما داموا لم يحملوا السـلاح ضدّ الإسلام و ذلك بسبب أنّهم مسلمون فی الظـاهر، و تربطهم بالمسـلمين روابـط كثيرة لاـ يمكن معهـا محـاربتهم كالكفّـار، أمّا إذا حملوا السـلاح فيجب أن يقابلوا بالمثل، لأنّهم سوف يتحوّلون إلى (محاربين).

و لم يحـدث مثـل ذلـك أيّام حياة الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لكنّه حـدث فی خلافـة أمير المؤمنين على عليه السّـلام حيث خاض ضدّهم معركة مسلّحة.

و ذهب بعض المفسّـرين إلى أنّ المقصود من «الجهـاد ضـدّ المنافقين» الـذی ورد ذكره فی الآيـة السابقـة هو إجراء الحـدود الشـرعية بحقّهم، فإنّ أكثر الذين كانوا تجری عليهم الحدود هم من المنافقين. و لكن لا دليل على ذلك، كما لا دليل على

أنّ الحدود كانت تجری على المنافقين غالبا.

الجدير بالذكر أنّ الآية السابقة وردت أيضا و بنفس النصّ فی سورة التوبة الآية ٧٣.

و من أجـل أن يعطى اللّه تعالى درسا عمليا حيّا إلى زوجات الرّسول الأعظم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عاد مرّة اخرى يـذكر بالعاقبة السيّئة لزوجتين غير تقيتين من زوجات نبيين عظيمين من أنبياء اللّه، و كذلك يذكر بالعاقبة الحسـنة و المصـير الرائع لامرأتين مؤمنتين

مضحيتين كانتا فى بيتين من بيوت الجبابرة، حيث يقول أوّلا: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما، فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ۴۶۱].

و بناء على هذا فإنّ القرآن يحذّر زوجتى الرّسول اللتين اشتركتا فى إذاعة سرّه، بأنّكما سوف لن تنجوا من العذاب لمجرّد كونكما من أزواج النبى كما فعلت زوجتا نوح و لوط فواجهتا العذاب الإلهى.

كما تتضمّن الآيات الشريفة تحذيرا لكلّ المؤمنين بأنّ القرب من أولياء اللّه و الانتساب إليهم لا يكفى لمنع نزول عذاب اللّه و مجازاته.

و ورد فى كلمات بعض المفسّرين أنّ زوجة نوح كانت تدعى «و الهة» و زوجة لوط «والعة»[۴۶۲] بينما ذكر آخرون عكس ذلك أى أنّ زوجة لوط اسمها (والهة) و زوجة نوح اسمها (والعة)[۴۶۳].

و على أيّة حال فإنّ هاتين المرأتين خانتا نبيّين عظيمين من أنبياء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۲

و الخيانة هنا لا تعنى الانحراف عن جادّة العفّة و النجابة، لأنّهما زوجتا نبيّين و لا يمكن أن تخون زوجة نبى بهذا المعنى للخيانة، فقد جاء عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما بغت امرأة نبى قطّ».

كانت خيانة زوجة لوط هى أن أفشت أسرار هذا النبى العظيم إلى أعدائه، و كذلك كانت زوجة نوح عليه السّلام.

و ذهب الراغب فى «المفردات» إلى أنّ للخيانة و النفاق معنى واحدا و حقيقة واحدة، و لكن الخيانة تأتى فى مقابل العهد و الأمانة، و النفاق يأتى فى الأمور الدينية و ما تقدّم من سبب النزول و مشابهته لقصّة هاتين المرأتين توجب كون المقصود من الخيانة هنا هو نفس هذا المعنى.

و على كلّ حال فإنّ الآية السابقة تبدّد أحلام الذين يرتكبون ما شاء لهم أن يرتكبوا من الذنوب و يعتقدون أنّ مجرّد قربهم من أحد العظماء كاف لتخليصهم من عذاب اللّه، و من أجل أن لا يظنّ أحد أنّه ناج من العذاب لقربه من أحد الأولياء، جاء فى نهاية الآية السابقة: فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ

ثمّ يذكر القرآن الكريم نموذجين مؤمنين صالحين فيقول: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ

من المعروف أنّ اسم زوجة فرعون (آسية) و اسم أبوها (مزاحم) و قد آمنت منذ أن رأت معجزة موسى عليه السّلام أمام السحرة، و استقرّ قلبها على الإيمان، لكنّها حاولت أن تكتم إيمانها، غير أنّ الإيمان برسالة موسى و حبّ اللّه ليس شيئا يسهل كتمانه، و بمجرّد أن اطّلع فرعون على إيمانها نهاها مرّات عديدة و أصرّ عليها أن تتخلّى عن رسالة موسى و ربّه، غير أنّ هذه المرأة الصالحة رفضت الاستسلام إطلاقا.

و أخيرا أمر فرعون أن تثبت يداها و رجلاها بالمسامير، و تترك تحت أشعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۳

الشمس الحارقة، بعد أن توضع فوق صدرها صخرة كبيرة. و فى تلك اللحظات الأخيرة كانت امرأة فرعون بهذا الدعاء إذ قالت: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و قد استجاب لها ربّها و جعلها من أفضل نساء العالم إذ يذكرها فى صفّ مريم.

فى رواية عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمّد و مريم بنت عمران، و آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون ۴۶۴].

و من الطريف أنّ امرأة فرعون كانت تستصغر بيت فرعون و لا تعتبره شيئا مقابل بيت فى الجنّة و فى جواره تعالى، و بذلك أجابت على نصائح الناصحين فى أنّها ستخسر كلّ تلك المكاسب و تحرم من منصب الملكة (ملكة مصر) و ما إلى ذلك. لسبب واحد هو

أنّها آمنت برجل راع کموسی.

و فی عبارة وَ نَجِّنِی مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ تضرب مثلا- رائعا للمرأة المؤمنة التی ترفض أن تخضع لضغوط الحیاة، أو تتخلّی عن إیمانها مقابل مکاسب زائلة فی هذه الدنیا.

لم تستطع بهارج الدنیا و زخارفها التی کانت تنعم بها فی ظلّ فرعون، و التی بلغت حدّا لیس له مثیل. لم تستطع کلّ تلک المغریات أن تثنیها عن نهج الحقّ، کما لم تخضع أمام الضغوط و ألوان العذاب التی مارسها فرعون. و قد واصلت هذه المرأة المؤمنة طریقها الذی اختارته رغم کلّ الصعاب و اتّجهت نحو اللّه معشوقها الحقیقی.

و تجدر الإشارة إلی أنّها کانت ترجوا أن یبنی اللّه لها بیتا عنده فی الجنّة لتحقیق بعدین و معنیین: المعنی المادّی الذی أشارت إلیه بکلمة «فی الجنّة»، و البعد المعنوی و هو القرب من اللّه «عندک» و قد جمعتهما فی عبارة صغیرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۴

موجزة.

ثمّ یضرب اللّه تعالی مثلا آخر للنساء المؤمنات الصالحات، حیث یقول جلّ من قائل: وَ مَرْیَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِی أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِیهِ مِنْ رُوحِنا[۴۶۵].

فهی امرأة لا زوج لها أنجبت ولدا صار نبیّا من أنبیاء اللّه العظام (من اولی العزم).

و یضیف تعالی قائلا: وَ صَدَّقَتْ بِکَلِماتِ رَبِّها وَ کُتُبِهِ و کانَتْ مِنَ الْقانِتِینَ

کانت فی القمّة من حیث الإیمان، إذ آمنت بجمیع الکتب السماویة و التعالیم الإلهیة، ثمّ إنّها کانت قد أخضعت قلبها للّه، و حملت قلبها علی کفّها و هی علی أتمّ الاستعداد لتنفیذ أوامر الباری جلّ شأنه.

و یمکن أن یکون التعبیر ب (الکتب) إشارة إلی کلّ الکتب السماویة التی نزلت علی الأنبیاء، بینما التعبیر ب (کلمات) إشارة إلی الوحی الذی لا یکون علی شکل کتاب.

و نظرا لرفعة مقام مریم و شدّة إیمانها بکلمات اللّه، فقد وصفها القرآن الکریم فی الآیة (۷۵) من سورة المائدة (صدّیقة).

و قد أشار القرآن إلی مقام هذه المرأة العظیمة فی آیات عدیدة، منها ما جاء فی السورة التی سمّیت باسمها أی (سورة مریم).

علی أیّة حال فإنّ القرآن الکریم تصدّی للشبهات التی أثارها بعض الیهود المجرمین حول شخصیة هذه المرأة العظیمة، و نفی عنها کلّ التّهم الرخیصة حول عفافها و طهارتها و کلّ ما یتعلّق بشخصیتها الطاهرة.

و التعبیر ب فَنَفَخْنا فِیهِ مِنْ رُوحِنا لإظهار عظمة و علو هذه الروح، کما أشرنا إلی ذلک سابقا. أو بعبارة اخری: إنّ إضافة کلمة (روح) إلی «اللّه» إضافة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۵

تشریفیة لبیان عظمة شیء مثل إضافة «بیت» إلی «اللّه».

و من الغریب ما کتبه بعض المفسّرین من اعتبارهم عائشة أفضل النساء، و أنّها أعظم من غیرها من النساء ذوات القدر الکبیر و الشأن عند اللّه. و لقد کان حریّا بهم أن لا یتطرّقوا إلی هذا الحدیث فی هذه السورة، التی نزلت لتعلن خلاف ما ذهبوا إلیه و بشکل صریح لا یقبل الجدل. فإنّ کثیرا من مفسّری و مؤرّخی أهل السنّة أکّدوا علی أنّ اللوم و التوبیخ اللذین وردا فی الآیات السابقة کانا موجّهین إلی زوجتی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «حفصة» و «عائشة» و منها ما جاء فی صحیح البخاری الجزء السادس صفحة ۱۹۵ و نحن ندعو بهذه المناسبة أهل التفکیر الحرّ جمیعا لأن یعیدوا تلاوة آیات هذه السورة ثمّ لیتعرّفوا علی قیمة و جدارة مثل هذه الأحادیث.

اللهمّ جنّبنا الحبّ الأعمی و البغض الأعمی الذی لا یقوم علی البرهان بقدر ما یقوم علی العصبیة، و اجعلنا من المستسلمین الخاضعین

بکلّ وجودنا إلى آيات قرآنک المجيد.

ربّنا و لا تجعلنا من الذين غضب عليهم الرّسول فلم يرض أعمالهم و طريقة حياتهم.

اللهمّ هب لنا استقامة لا نتأثّر معها بالضغوط، و لا نخضع لعذاب الفراعنة و جبابرة العصر.

آمين ربّ العالمين نهاية سورة التحريم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ۴۶۷

بداية الجزء التاسع و العشرون من القرآن الكريم

سورة الملک

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثلاثون آية

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ۴۶۹

«سورة الملک»

محتوى سورة الملک:

تمثّل هذه السورة بداية الجزء التاسع و العشرين من القرآن الكريم، و هی من السور التی نزلت جميع آياتها فی مكّة المكرّمة على المشهور، كما هو شأن غالبية سور هذا الجزء، إن لم يكن جميعها كما يذهب إلى ذلک بعض المفسّرين ۴۶۶]، بخلاف ما عليه سور الجزء السابق حيث كانت مدنية.

و لكن كما سنرى لا حقا أنّ سورة الدهر (سورة الإنسان) من السور المدنية.

و تسمّى سورة الملک أيضا ب (المنجية)، و كذلک تسمّى ب (الواقية) أو (المانعة) بلحاظ أنّها تحفظ الإنسان الذی يتلوها من العذاب الإلهی أو عذاب القبر، و هی من السور التی لها فضائل عديدة، و قد طرحت فی هذه السورة مسائل قرآنية مختلفة، إلّا أنّ الأصل فيها يدور حول ثلاثة محاور هی:

١- أبحاث حول المبدأ، و صفات اللّه سبحانه، و نظام الخلق العجيب و المدهش، خصوصا خلق السموات و النجوم و الأرض و ما فيها من كنوز عظيمة ..

و كذلک ما يتعلّق بخلق الطيور و المياه الجارية و الحواس كالاذن و العين، بالإضافة إلى وسائل المعرفة الاخرى.

٢- و فی المحور الثانی تتحدّث الآيات الكريمة عن المعاد و عذاب الآخرة،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ۴۷۰

و الحوار الذی يدور بين ملائكة العذاب الإلهی و أهل جهنّم، بالإضافة إلى امور اخرى فی هذا الصدد.

٣- و أخيرا فإنّ آيات المحور الثالث تدور حول التهديد و الإنذار الإلهی بألوان العذاب الدنيوی و الاخروی للكفّار و الظالمين.

و يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المحور الأساس لجميع هذه السورة يدور حول مالكية اللّه سبحانه و حاكميته و التی وردت فی أوّل آية منها[۴۶۷].

فضيلة تلاوة السورة:

نقلت روایات عدیدة عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة أهل البیت علیهم السّلام فی فضیلة تلاوة هذه السورة نقرأ منها ما یلی:

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة تبارک فکأنّما أحیی لیلة القدر»[۴۶۸].

و

جاء فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «وددت أن تبارک الملک فی قلب کلّ مؤمن»[۴۶۹].

و

جاء فی حدیث عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام أنّه قال: «سورة الملک هی المانعة، تمنع من عذاب القبر، و هی مکتوبة فی التوراة سورة الملک، و من قرأها فی لیلة فقد أکثر و أطاب و لم یکتب من الغافلین»[۴۷۰].

و الأحادیث کثیرة فی هذا المجال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۱

و من الطبیعی أنّ جمیع هذه الآثار العظیمة لا تکون إلّا من خلال التدبّر فی قراءة آیات هذه السورة و العمل بها، و الاستلهام من محتویاتها فی الممارسات الحیاتیة المختلفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۲

الآیات [سورة الملک (۶۷): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
تَبارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱) الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفُورُ (۲) الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَری فِی خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَری مِنْ فُطُورٍ (۳) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ کَرَّتَیْنِ یَنْقَلِبْ إِلَیْکَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِیرٌ (۴)
وَ لَقَدْ زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِمَصابِیحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّیاطِینِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِیرِ (۵)

التّفسیر

عالم الوجود المتکامل:

تبدأ آیات هذه السورة بمسألة مالکیة و حاکمیة اللّه سبحانه، و خلود ذاته المقدّسة، و هی فی الواقع مفتاح جمیع أبحاث هذه السورة المبارکة[۴۷۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۳

یقول تعالی: تَبارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

«تبارک»: من مادّة (برکة) فی الأصل من (برک) علی وزن (ترک) بمعنی (صدر البعیر)، و عند ما یقال: (برک البعیر) یعنی وضع صدره علی الأرض. ثمّ استعملت الکلمة بمعنی الدوام و البقاء و عدم الزوال، و أطلقت کذلک علی کلّ نعمة باقیة و دائمة، و من هنا یقال لمحلّ خزن الماء (برکة) لأنّ الماء یبقی فیها مدّة طویلة.

و قد ذكرت الآية أعلاه دليلا ضمنيا على أنّ الذات الإلهية مباركة، و هو مالكيته و حاكميته على الوجود، و قدرته على كلّ شيء، و لهذا السبب فإنّ وجوده تعالى كثير البركة و لا يعتريه الزوال.

ثمّ يشير سبحانه في الآية اللاحقة إلى الهدف من خلق الإنسان و موته و حياته، و هي من شؤون مالكيته و حاكميته تعالى فيقول: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

«الموت»: حقيقته الانتقال من عالم إلى عالم آخر، و هذا الأمر وجودي يمكن أن يكون مخلوقا، لأنّ الخلقة ترتبط بالأمور الوجودية، و هذا هو المقصود من الموت في الآية الشريفة، أمّا الموت بمعنى الفناء و العدم فليس مخلوقا، لذا فإنّه غير مقصود.

ثمّ إنّ ذكر الموت هنا قبل الحياة هو بلحاظ التأثير العميق الذي يتركه الالتفات إلى الموت، و ما يترتّب على ذلك من سلوك قويم و أعمال مقترنة بالطاعة و الالتزام، إضافة إلى أنّ الموت كان في حقيقته قبل الحياة.

أمّا الهدف من الامتحان فهو تربية الإنسان كي يجسّد الاستقامة و التقوى و الطهر في الميدان العملي ليكون لائقا للقرب من اللّه سبحانه، و قد بحثنا ذلك مفصّلا فيما سبق [۴۷۲].

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۴

كما أنّ الجدير بالملاحظة في قوله «أحسن عملا» هو التأكيد على جانب (حسن العمل)، و لم تؤكّد الآية على كثرته، و هذا دليل على أنّ الإسلام يعير اهتماما (للكيفية) لا (للكمّية)، فالمهمّ أن يكون العمل خالصا لوجهه الكريم، و نافعا للجميع حتّى و لو كان محدود الكمية.

لذا ورد في تفسير (أحسن عملا)، روايات عدّة،

فعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «أتمّكم عقلا، أشدّكم للّه خوفا، و أحسنكم فيما أمر اللّه به، و نهى عنه نظرا، و إن كان أقلّكم تطوّعا»[۴۷۳].

حيث أنّ العقل الكامل يطهّر العمل، و يجعل النيّة أكثر خلوصا للّه عزّ و جلّ و يضاعف الأجر.

و

جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال حول تفسير (أحسن عملا): «ليس يعني أكثر عملا، و لكن أصوبكم عملا، و إنّما الإصابة خشية اللّه و النيّة الصادقة. ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتّى يخلص، أشدّ من العمل، و العمل الخالص هو الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا اللّه عزّ و جلّ»[۴۷۴].

و تحدّثنا في تفسير الآية: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۴۷۵]، و قلنا: أنّ الهدف من خلق الإنسان في تلك الآية هو العبودية للّه عزّ و جلّ، و هنا نجد الهدف:

(اختباره بحسن العمل). و ممّا لا شكّ فيه أنّ مسألة الاختبار و الامتحان لا تنفكّ عن مسألة العبودية للّه سبحانه، كما أنّ لكمال العقل و الخوف من اللّه تعالى و النيّة الخالصة لوجهه الكريم- و التي أشير لها في الروايات أعلاه، أثرا في تكامل روح العبودية.

و من هنا نعلم أنّ العالم ميدان الامتحان الكبير لجميع البشر، و وسيلة هذا

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۵

الامتحان هو الموت و الحياة، و الهدف منه هو الوصول إلى حسن العمل الذي مفهومه تكامل المعرفة، و إخلاص النيّة، و إنجاز كلّ عمل خيّر.

و إذا لاحظنا أنّ بعض المفسّرين فسّر (أحسن عملا) بمعنى ذكر الموت أو التهيّؤ و ما شابه ذلك، فإنّ هذا في الحقيقة إشارة إلى مصاديق من المعنى الكلّي.

و بما أنّ الإنسان يتعرّض لأخطاء كثيرة في مرحلة الامتحان الكبير الذي يمرّ به، فيجدر به ألّا يكون متشائما و يائسا من عون اللّه

سبحانه و مغفرته له، و ذلک من خلال العزم علی معالجة أخطائه و نزواته النفسیة و إصلاحها، حیث یقول تعالی:

وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْغَفُورُ.

نعم، إنّه قادر علی کلّ شیء، و غفّار لکلّ من یتوب إلیه.

و بعد استعراض نظام الموت و الحیاة الذی تناولته الآیة السابقة، تتناول الآیة اللاحقة النظام الکلّی للعالم، و تدعو الإنسان إلی التأمّل فی عالم الوجود، و التهیّؤ لمخاض الامتحان الکبیر عن طریق التدبّر فی آیات هذا الکون العظیم، یقول تعالی: الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً.

بالنسبة إلی موضوع السموات السبع فقد استعرضنا شیئا حولها فی تفسیر الآیة (۱۲) من سورة الطلاق، و نضیف هنا أنّ المقصود من (طباقا) هو أنّ السموات السبع، کلا منها فوق الاخری، إذ أنّ معنی (المطابقة) فی الأصل هو الشیء فوق شیء آخر.

و یمکن اعتبار «السموات السبع» إشارة إلی الکرات السبع للمنظومة الشمسیة، و التی یمکن رؤیتها بالعین المجرّدة، حیث تبعد کلّ منها مسافة معیّنة عن الشمس أو تکون کلّ منها فوق الاخری.

أمّا إذا اعتبرنا أنّ جمیع ما نراه من النجوم الثابتة و السیارة ضمن السماء الاولی، فیتّضح لنا أنّ هنالک عوالم اخری فی المراحل العلیا، حیث أنّ کلّ واحد منها یکون فوق الآخر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۶

ثمّ یضیف سبحانه: ما تَری فِی خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ

إنّ الآیة أعلاه تبیّن لنا أنّ عالم الوجود- بکلّ ما یحیطه من العظمة- قائم وفق نظام مستحکم، و قوانین منسجمة، و مقادیر محسوبة، و دقّة متناهیة، و لو وقع أی خلل فی جزء من هذا العالم الفسیح لأدّی إلی دماره و فنائه.

و هذه الدقّة المتناهیة، و النظام المحیّر، و الخلق العجیب، یتجسّد لنا فی کلّ شیء، ابتداء من الذرّة الصغیرة و ما تحویه من الإلکترونات و النیوترونات و البروتونات، و انتهاء بالنظم الحاکمة علی جمیع المنظومة الشمسیة و المنظومات الاخری، کالمجرّات و غیرها .. إذ أنّ جمیع ذلک یخضع لسیطرة قوانین متناهیة فی الدقّة، و یسیر وفق نظام خاصّ.

و خلاصة القول أنّ کلّ شیء فی الوجود له قانون و برنامج، و کلّ شیء له نظام محسوب.

ثمّ یضیف تعالی مؤکّدا: فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَری مِنْ فُطُورٍ.

«فطور» من مادّة (فطر)، علی وزن (سطر) بمعنی الشقّ من الطول، کما تأتی بمعنی الکسر (کإفطار الصیام) و الخلل و الإفساد، و قد جاءت بهذا المعنی فی الآیة مورد البحث.

و یقصد بذلک أنّ الإنسان کلّما دقّق و تدبّر فی عالم الخلق و الوجود، فإنّه لا یستطیع أن یری أی خلل أو اضطراب فیه.

لذا یضیف سبحانه مؤکّدا هذا المعنی فی الآیة اللاحقة حیث یقول: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ کَرَّتَیْنِ یَنْقَلِبْ إِلَیْکَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِیرٌ.

«کرّتین» من مادّة (کر) علی وزن (شرّ) بمعنی التوجّه و الرجوع إلی شیء معیّن، و (کرّة) بمعنی التکرار و (کرّتین) مثنّاها.

إلّا أنّ بعض المفسّرین ذکر أنّ المقصود من ال (کرّتین) هنا لیس التثنیة، بل الالتفات و التوجّه المتکرّر المتعاقب و المتعدّد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۷

و بناء علی هذا فإنّ القرآن الکریم یأمر الناس فی هذه الآیات أن یتطلّعوا و یتأمّلوا و یدقّقوا النظر فی عالم الوجود ثلاث مرّات- کحدّ أدنی- و یتدبّروا أسرار الخلق. و بمعنی آخر فإنّ علی الإنسان أن یدقّق فی خلق اللّه سبحانه مرّات و مرّات، و عند ما لا یجد أی خلل أو نقص فی هذا النظام العجیب و المحیّر لخلق الکون، فإنّ ذلک سیؤدّی إلی معرفة خالق هذا الوجود العظیم و مدی علمه و قدرته اللامتناهیة، ممّا یؤدّی إلی عمق الإیمان به سبحانه و القرب من حضرته المقدّسة.

«خاسئ» من مادّة (خسأ) و (خسوء) علی وزن (مدح، و خشوع) و إذا کان مورد استعمالها العین، فیقصد بهما التعب و العجز، أمّا إذا

استعملت للكلب فيقصد منها طرده و إبعاده.

«حسير» من مادّة (حسر)، على وزن (قصر) بمعنى جعل الشيء عاريا، و إذا ما فقد الإنسان قدرته و استطاعته بسبب التعب، فإنّه يكون عاريا من قواه، لذا فإنّها جاءت بمعنى التعب و العجز.

و بناء على هذا فإنّ كلمتى (خاسئ) و (حسير) اللتين وردتا فى الآية أعلاه، تعطيان معنى واحدا فى التأكيد على عجز العين، و بيان عدم مقدرتها على مشاهدة أى خلل أو نقص فى نظام عالم الوجود.

و فرّق البعض بين معنى الكلمتين، إذ قال: إن (خاسئ) تعنى المحروم و غير الموفّق، و (حسير) بمعنى العاجز.

و على كلّ حال فيمكن استنتاج أساسين من الآيات المتقدّمة:

الأوّل: أنّ القرآن الكريم يأمر جميع السائرين فى درب الحقّ أن يتدبّروا و يتأمّلوا كثيرا فى أسرار عالم الوجود و ما فيه من عجائب الخلق، و أن لا يكتفوا بالنظر إلى هذه المخلوقات مرّة واحدة أو مرّتين، حيث أنّ هنالك أسرارا كثيرة و عظيمة لا تتجلّى و لا تظهر من خلال النظرة الاولى أو الثانية. بل تستدعى النظر الثاقب و المتعاقب و الدقّة الكثيرة، حتّى تتّضح الأسرار و تتبيّن الحقائق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۸

الأمر الثّانى: الذى يتبيّن لنا من خلال التدقيق فى هذا النظام، هو إدراك طبيعة الانسجام العظيم بين مختلف جوانب الوجود، بالإضافة إلى خلوه من كلّ نقص و عيب و خلل.

و إذا ما لوحظ فى النظرة الأوّلية لبعض الظواهر الموجودة فى هذا العالم (كالزلازل و السيول، و الأمراض، و الكوارث الطبيعية الاخرى، و التى تصيب البشر أحيانا فى حياتهم) و اعتبرت شرورا و آفات و فسادا، فإنّه من خلال الدراسات و التدقيقات المتأمّلة يتبيّن لنا أنّ هذه الأمور هى الاخرى تمثّل أسرارا أساسية غاية فى الدقّة[۴۷۶].

إنّ لهذه الآيات دلالة واضحة على دقّة النظام الكونى، حيث معناها أنّ وجود النظام فى كلّ شيء دليل على وجود العلم و القدرة على خلق ذلك الشيء، و إلّا، فإنّ حصول حوادث عشوائية غير محسوبة لا يمكن أبدا أن تكون منطلقا للنظام و مبدأ للحساب.

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى حديث مفضّل المعروف عنه «إنّ الإهمال لا يأتى بالصواب، و التضادّ لا يأتى بالنظام»[۴۷۷].

ثمّ تتناول الآية التالية صفحة السماء التى يتجسّد فيها الجمال و الروعة، حيث النجوم المتلألئة فى جوّ السماء المشعّة بضوئها الساحر فى جمال و لطافة، حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ.

إنّ نظرة متأمّلة فى ليلة مظلمة خالية من الغيوم إلى جوّ السماء المليء بالنجوم كاف لإثارة الانتباه فينا إلى تلك العوالم العظيمة، و خاصّة طبيعة النظم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۹

الحاكمة عليها، و الروعة المتناهية فى جمالها و لطافتها و عظمتها، و سكونها المقترن بالأسرار العجيبة، و الهيبة التى تلقى بظلالها على جميع العوالم، ممّا يجعل الإنسان أمام عالم مليء بالمعرفة و نور الحقّ، و يدفعه باتّجاه عشق البارئ عزّ و جلّ الذى لا يمكن وصفه و التعبير عنه بأى لسان.

و تؤكّد الآية الكريمة- مرّة اخرى- الحقيقة القائلة بأنّ جميع النجوم التى نشاهدها ما هى إلّا جزء من المساء الاولى، و التى هى أقرب إلينا من أى سماء اخرى من السموات السبع، لذا أطلق عليها اسم (السماء الدنيا) أى السماء القريبة و التى هى أسفل جميع السموات الاخرى.

«الرجوم» بمعنى (الرصاص) و هى إشارة إلى الشهب التى تقذف كرصاصة من جهة إلى اخرى من السماء، كما أنّ (الشهب) هى بقايا النجوم المتلاشية و التى تأثّرت بحوادث معيّنة، و بناء على هذا، فإنّ المقصود بجعل الكواكب رجوما للشياطين، هو هذه الصخور المتبقّية.

أمّا کیفیة رجم الشیاطین برصاصات الشهب (الأحجار الصغیرة) التی تسیر بصورة غیر هادفة فی جو السماء، فقد بیّناه بشکل تفصیلی فی التّفسیر الأمثل فی تفسیر الآیة (۱۸) من سورة الحجر، و کذلک فی تفسیر الآیة (۲۰) من سورة الصافات.

ملاحظة

عظمة عالم الخلق:

بالرغم من أنّ القرآن الکریم نزل فی مجتمع الجاهلیة و التأخر .. إلّا أنّنا عند ما نلاحظ آیاته نراها غالبا ما تدعو المسلمین إلی التفکّر و التأمّل بالأسرار العظیمة التی یزخر بها عالم الوجود، الأمر الذی لم یکن مفهوما فی ذلک العصر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۰

و هذا دلیل واضح علی أنّ القرآن الکریم صادر من مبدأ آخر، و أنّ العلم و المعارف الإنسانیة کلّما تقدّمت فإنّها تؤکّد عظمة القرآن الکریم أکثر فأکثر.

فالکرة الأرضیة التی نعیش علیها- مع کبر حجمها و سعتها- صغیرة فی مقابل مرکز المنظومة الشمسیة (قرص الشمس)، بحیث أنّها تساوی ملیون و مائتی ألف کرة أرضیة مثل أرضنا.

هذا من جهة، و من جهة اخری فإنّ منظومتنا الشمسیة جزء من مجرّة عظیمة، یطلق علیها اسم «درب التبانة»[۴۷۸].

و طبقا لحسابات العلماء الفلکیین فإنّه یوجد فی مجرتنا فقط (۰۰۰/ ۰۰۰/ ۰۰۰/ ۱۰۰)- مائة ملیارد- نجمة، حیث تکون الشمس و مع ما علیها من عظمة إحدی نجومها المتوسطة.

و من جهة ثالثة فإنّ فی هذا العالم الواسع مجرّات کثیرة إلی حدّ أنّها تخرج عن الحساب و العدد، و کلّما تطوّرت التلسکوبات الفلکیة العظیمة تمّ کشف مجرّات اخری عدیدة.

فما أعظم قدرة هذا الربّ الذی وضع هذه الأسرار الکبیرة مع ذلک النظام الدقیق «العظمة للّه الواحد القهّار».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۱

الآیات [سورة الملک (۶۷): الآیات ۶ الی ۱۱]

اشارة

وَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ (۶) إِذا أُلْقُوا فِیها سَمِعُوا لَها شَهِیقاً وَ هِیَ تَفُورُ (۷) تَکادُ تَمَیَّزُ مِنَ الْغَیْظِ کُلَّما أُلْقِیَ فِیها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ یَأْتِکُمْ نَذِیرٌ (۸) قالُوا بَلی قَدْ جاءَنا نَذِیرٌ فَکَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَیْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِی ضَلالٍ کَبِیرٍ (۹) وَ قالُوا لَوْ کُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما کُنَّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ (۱۰)

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِیرِ (۱۱)

التّفسیر

لو کنّا نسمع أو نعقل:

كان الحـديث فی الآيات السابقـة عن معالم العظمـة و القـدرة الإلهية و دلائلها فی عالم الوجود، أمّا فی الآيات مورد البحث فإنّه تعالى يتحدّث عن الأشخاص الذين يعرضون و يتنكّبون عن أدلّة الحقّ، و يكابرون فی تحدّی البراهين الدامغة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۲

و يسلكون طريق الكفر و الشرك، و يقذفون أنفسهم كالشياطين فی اتون العذاب الإلهی.

يقول تعالى فی البداية: وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

ثمّ يستعرض توضيحا لهذا اللون من العذاب الرهيب فيقول تعالى: إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ.

نعم، إنّهم عنـد ما يلقون فيها بمنتهى الذلّ و الحقارة تقترن حالة إلقائهم بصدور صوت مرعب و شديد من جهنّم، حيث يسيطر الرعب و الخوف على جميع وجودهم.

«شـهيق» فی الأصل بمعنى صوت قبيح و منكر كصوت الحمار، و يقال أنّه مأخوذ من مادّة (شـهوق) بمعنى كونه طويلا (لذا يطلق على الجبل العالی بأنّه شاهق) و من هنا فإنّه (شهيق) جاءت بمعنى الأنين الطويل.

و قال البعض: إنّ (الزفير) هو الصوت الذی يتردّد فی الحلق، أمّا (الشـهيق) فهو الصوت الذی يتردّد فی الصدر، و فی كلّ الأحوال فإنّها إشارة إلى الأصوات المرعبة و المؤلمة.

ثمّ يضيف تعالى مستعرضا شدّة غضب (جهنّم) و شدّة هيجانها و انزعاجها بقوله تعالى: تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ[۴۷۹].

إنّها حرارة هائلـة جـدّا و نار حارقـة مزمجرة كما لو وضـعنا إناء كبير على نار محتدمة فانّه لا يلبث أن يفور و يغلی بشـكل يكاد فيه أن يتلاشى و يذوب، أو كإنسان يكاد أن يتفجّر من شدّة الغضب و الثورة و الانفعال، هكذا هو منظر جهنّم، مركز الغضب الإلهی.

ثمّ يستمرّ تعالى بقوله: كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۳

فلما ذا إذن أوقعتم أنفسـكم فی هـذا المصـير البائس، و هـذا البلاء العظيم و الساعـة الرهيبـة، إنّ الملائكـة (خزنـة جهنّم) يسـتغربون و يكـادون أن يصـعقوا لما أصابكم و ما أوقعتم به أنفسـكم، فی مثل هـذه الداهيـة مع الوعی الـذی حباكم به اللّه سـبحانه و ما تفضّل به عليكم من نعمة الرسل الإلهيين و القادة من الأنبياء و المرسلين .. فكيف اخترتم لأنفسكم مقرّا كهذا؟

قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ، فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ.

و هكذا يأتی الاعتراف: نعم قد جاءنا الرسل إلّا أنّنا كذّبناهم و لم نسمع نداءهم المحيی للنفوس بل خالفناهم و عارضناهم و اعتبرناهم ضالّين، و أخرجناهم من بين صفوفنا، و أبعدناهم عنّا ..

ثمّ يذكر القرآن الدليل الأصلی على شـقائهم و تعاسـتهم و لكن على لسانهم فيقول: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ، أجل هكذا يأتی اعترافهم بذنوبهم بعد فوات الأوان فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ.

و فی هذه الآيات و ضـمن بيان المصير المرعب لهؤلاء يشير إلى السبب الحقيقی لذلك، فمن جهة أعطاهم اللّه تعالى الاذن السامعة و العقل، و من جهة اخرى بعث إليهم الرسل و الأنبياء بالدلائل الواضـحة فلو اقترن هذان الأمران فالنتيجة هی ضـمان سـعادة الإنسان، أمّا لو كان للإنسان اذن لا يسـمع بها، و عين لا يبصـر بها، و عقل لا يفكّر به، فلو جاءه جميع الأنبياء و المرسلين بكافّة معاجزهم و كتبهم، لم ينتفع بشیء. و

قد ورد فی الحديث الشـريف، أنّ بعض المسـلمين ذكروا شـخصا عند رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أثنوا عليه، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: «كيف عقـل الرجـل» فقيـل: يـا رسول اللّه نحن نسأل عن سـعيه و عبادته و خيراته و أنت تسأل عن عقله؟! فقال صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: «إنّ الأحمق يصـيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، و إنّما يرتفع العباد غـدا فی الدرجات و ينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم!».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۴

«سحق» علی وزن (قفل) و هی فی الأصل بمعنی طحن الشیء و جعله ناعما کما تطلق علی الملابس القدیمة، إلّا أنّها هنا بمعنی البعد عن رحمة اللّه، و بناء علی هذا فإنّ مفهوم قوله تعالی: فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِیرِ هو: فبعدا لأصحاب النار عن رحمة اللّه، و لأنّ لعنة و غضب اللّه تعالی یکون توأما مع التجسید الخارجی له، فإنّ هذه الجملة بمثابة الدلیل علی أنّ هذه المجموعة بعیدة عن رحمة اللّه بشکل کلّی.

ملاحظة

المقام السامی للعقل:

لیست هذه هی المرّة الاولی التی یشیر فیها القرآن الکریم إلی مقام العقل السامی، کما أنّها لیست المرّة الاولی التی یصرّح فیها بأنّ العامل الأساسی لتعاسة الإنسان و دخوله عوالم الخسران و الضیاع و العاقبة التعیسة، و سقوطه و فی وحل الذنوب و جهنّم .. هو عدم الاستفادة من هذه القوّة الإلهیّة العظیمة، و إغفال هذه القدرة الجبّارة، و عدم استثمار هذه الجوهرة و النعمة الربّانیة، و ذلک واضح و بیّن لکل من قرأ القرآن و تدبّر آیاته، حیث یلاحظ أنّ هذا الأمر مؤکّد علیه فی مناسبات شتّی ..

و علی الرغم من الأکاذیب التی یطلقها البعض بأنّ الدین هو وسیلة لتخدیر العقول و الإعراض عن أوامرها و متطلّباتها، فإنّ الإسلام قد وضع أساس معرفة اللّه تعالی و سلوک طریق السعادة و النجاة، ضمن مسئولیة العقل.

لذا فإنّ القرآن الکریم یوجّه نداءاته بصورة مستمرّة و فی کلّ مکان إلی (أولو الألباب) و (أولو الأبصار) و أصحاب الفکر من العلماء و المتعمّقین فی شؤون المعرفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۵

و لقد وردت فی المصادر الإسلامیة روایات کثیرة فی هذا الصدد، بشکل لا یمکن إحصاؤه، و الطریف أنّ کتاب الکافی المعروف، و الذی هو أکثر الکتب اعتبارا فی مجال الحدیث یحتوی علی (أبواب) أو (کتب) أوّلها کتاب باسم کتاب (العقل و الجهل) و کلّ من یلاحظ الروایات التی وردت بهذا الخصوص یدرک عمق النظرة الإسلامیة إلی هذه المسألة.

و نحن هنا نقتطف منها روایتین:

جاء فی حدیث عن الإمام علی علیه السّلام أنّه قال: «هبط جبرائیل علی آدم، فقال:

یا آدم، إنّی أمرت أن أخیّرک واحدة من ثلاث فاخترها ودع إثنین، فقال له آدم:

یا جبرائیل و ما الثلاث؟ فقال: العقل و الحیاء و الدین، فقال آدم إنّی قد اخترت العقل، فقال جبرئیل للحیاء و الدین: انصرفا و دعاه.

فقالا: یا جبرئیل، إنّا أمرنا أن نکون مع العقل حیث کان، قال: فشأنکما و عرج»[۴۸۰].

و هذا من أجمل ما یمکن أن یقال فی العقل، و طبیعة علاقته مع الحیاء و الدین، إذ أنّ العقل إذا ما انفصل عن الدین فإنّ الدین سیکون فی مهبّ الریاح و یتعرّض إلی الانحراف بسبب الأهواء و فقدان الموازن الموضوعیة الأساسیة.

أمّا «الحیاء» الذی هو المانع و الرادع للإنسان عن ارتکاب القبائح و الذنوب، فهو الآخر من ثمار شجرة العقل و المعرفة.

و هکذا نری أنّ آدم علیه السّلام کان یتمتّع بدرجة عالیة من العقل، حیث أنّه علیه السّلام اختار العقل ممّا خیّر به من الأمور الثلاث، و بذلک اصطحب الدین و الحیاء أیضا.

و نقرأ

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من كان عاقلا كان له دين و من كان له دين دخل الجنّة»[۴۸۱].

و بناء على هذا فإنّ الجنّة هى مكان اولى الألباب، و من الطبيعى أنّ المقصود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۶

من العقل هنا: هو المعرفة الحقيقيّة الراسخة و ليس ألاعيب الشياطين التى تلاحظ فى أعمال و ممارسات السياسيين و الظالمين و المستكبرين فى عالمنا المعاصر.

حيث أنّ ذلك كما

يقول الإمام الصادق هو (شبيهة بالعقل، و ليست بالعقل)[۴۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۷

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۲) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۱۳) أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (۱۴)

التّفسير

خالق الوجود عليم بأسراره:

بعد ما بيّنا- فى الأبحاث التى تناولتها الآيات السابقة- مصير الكفّار يوم القيامة، فإنّ القرآن الكريم يتناول فى الآيات مورد البحث حالة المؤمنين و جزاءهم العظيم عند اللّه سبحانه ..

يقول فى البداية: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

«الغيب» هنا إشارة لمعرفة اللّه تعالى غير المرئية، أو الإشارة إلى المعاد غير المشاهد، أو يقصد به الأمران معا.

كما يحتمل أن يكون إشارة إلى الخوف من اللّه تعالى بسبب ما عمل الإنسان من خطايا و ذنوب فى السرّ، ذلك أنّ الإنسان إذا لم يقترف ذنوبا فى السرّ، فإنّه لن يجرأ عليها فى العلانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۸

و يحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى خلوص النيّة فى الابتعاد عن الذنوب و المعاصى، و الالتزام بالأوامر الإلهية، إذ أنّ العمل السرّى يكون أبعد عن الرياء.

كما لا مانع من الجمع بين هذه الآراء.

التعبير ب (مغفرة) بصورة (نكرة)، و كذلك (أجر كبير) إشارة إلى عظمته و أهميّته، إذ أنّ هذه المغفرة و هذا الأجر من العظمة أنّه غير معروف و لا واضح للجميع.

ثمّ يضيف للتأكيد: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

نقل بعض المفسّرين عن (ابن عبّاس) قوله فى سبب نزول هذه الآية: (إنّ جماعة من الكفّار- أو المنافقين- كانوا يذكرون الرّسول بالسوء بدون علمه، و كان جبرئيل عليه السّلام يخبر الرّسول بذلك، و كان بعضهم يقول للآخر (أسرّوا قولكم) فنزلت الآية أعلاه

موضّحة أنّ جهرهم أو إخفاءهم لأقوالهم هو ممّا يعلمه اللّه تعالى)[۴۸۳].

و تأتى الآية اللاحقة دليلا و تأكيدا على ما ورد فى الآية السابقة، حيث يقول تعالى: أ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

ذكرت احتمالات متعدّدة فى تفسير عبارة: أ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ فقال البعض:

إنّ القصد منها هو أنّ الذى خلق القلوب يعلم ما تكنّ فيها من أسرار.

أو أنّ الربّ الذى خلق العباد هل يجهل أسرارهم.

أو أنّه تعالى الـذى خلق عالم الوجود جميعا عارف و مطلع بجميع أسـراره، و عندئـذ هل تكون أسـرار الإنسان- الذى هو جزء من هذا العالم العظيم- خافية على اللّه تعالى؟

و لإدراك هـذه الحقيقـة لاـ بـدّ من الالتفات إلى أنّ مخلوقات اللّه تعالى دائما تحت رعايته، و ذلك يعنى أنّ فيض وجوده يصل كلّ لحظة إلى مخلوقاته، فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۹

سبحانه لم يخلقهم ليتركهم بـدون رعايـة. و فى الأصل فإنّ جميع الممكنات مرتبطـة دائما بوجوده تعالى، و إذا ما فقـدت تعلّقها بذاته المقدّسة لحظة واحدة فإنّها ستسـلك طريق الفناء، إنّ الانتباه و إدراك طبيعة هذه العلاقة القائمة و الخلقة و الأواصر الثابتة، هى أفضل دليل على علم اللّه بأسرار جميع الموجودات فى كلّ زمان و مكان.

«اللطيف» مأخوذ فى الأصل من (اللطف) و يعنى كلّ موضوع دقيق و ظريف، و كلّ حركـة سـريعة و جسم لطيف، و بناء على هذا فإنّ وصف اللّه تعـالى ب (اللطيف) إشـارة إلى علمه عزّ و جـلّ بالأسـرار الدقيقـة للخلق، كما جاءت أحيانا بمعنى خلق الأجسام اللطيفـة و الصغيرة و المجهرية و ما فوق المجهرية.

إنّ جميع ما ذكرنا سابقا إشارة إلى أنّ اللّه اللطيف عارف و مطّلع على جميع النوايا القلبية الخفية، و كذلك أحاديث السرّ، و الأعمال القبيحة التى تنجز فى الخفاء و الخلوة .. فهو تعالى يعلم بها جميعا.

قال بعض المفسّرين فى تفسير (اللطيف): (هو الذى يكلّف باليسير و يعطى الكثير).

و فى الحقيقة فإنّ هذا نوع من الدقّة فى الرحمة.

و قـال البعض أيضـا: إنّ وصـفه تعـالى ب (اللطيف) بلحـاظ نفوذه سـبحانه فى أعماق كلّ شـىء، و لا يوجـد مكان خال منه تعالى فى العالم أجمع، فهو فى كلّ مكان و كلّ شىء.

إنّ جميع هـذه الأمور ترجع إلى حقيقة واحدة، و هى التأكيد على عمق معرفة اللّه سـبحانه و علمه بالأسـرار الظاهرة و الباطنة لجميع ما فى الوجود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۰

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۱۵ الى ۱۸]

اشارة

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (۱۵) أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِىَ تَمُورُ (۱۶) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (۱۷) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۱۸)

التّفسير

لا أمان للعاصين من عقاب اللّه:

بعد الأبحاث التی استعرضناها فی الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب النار و أصحاب الجنّة، و الكافرين و المؤمنين، يشير تعالى فی الآيات مورد البحث إلى بعض النعم الإلهية، ثمّ إلى أنواع من عذابه، و ذلك للترغيب و التشويق بالجنّة لأهل الطاعة، و الإنذار بالنار لأهل المعصية، يقول تعالى: هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا.

فَامْشُوا فِی مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۱

«ذلول» بمعنى (مطيع) و هو أجمل تعبير يمكن أن يطلق على الأرض، لأنّ هذا المركب السريع السير جدّا، مع حركته المتعدّدة، يلاحظ هادئا إلى حدّ يبدو و كأنّه ساكنا بصورة مطلقة.

يقول بعض العلماء: إنّ للأرض أربع عشرة حركة مختلفة، ثلاث منها هی:

الاولى: حركتها حول نفسها.

و الثانية: حول الشمس.

و الثالثة: مع مجموعة المنظومة الشمسية فی وسط المجرّة.

هذه الحركات التی تكون سرعتها عظيمة، هی من التناسب و الانسجام إلى حدّ لم يكن ليصدق أحد أنّ للأرض حركة لو لا إقامة البراهين القطعية على حركتها.

هذا من جهة، و من جهة اخرى. فإنّ قشرة الأرض ليست قويّة و قاسية إلى حدّ لا يمكن معه العيش فوقها، و لا ضعيفة ليّنة لا قرار لها و لا هدوء، و بذلك فإنّها مناسبة لحياة البشر تماما، فلو كان معظم سطح الكرة الأرضية مغمورا بالوحل، و المستنقعات- مثلا- فعندئذ تتعذّر الاستفادة منها، و كذلك لو كانت الرمال الناعمة تغمرها فإن قدم الإنسان تغور فيها حتّى الركب، و كذا لو كانت مكوّناتها من الصخور الحادّة القاسية فعندئذ يتعذّر المشیء عليها، و من هنا يتّضح معنى استقرار الأرض و هدوئها.

و من جهة ثالثة فإنّ بعدها عن الشمس ليس هو بالقريب منها إلى حدّ يؤدّی بحرارة الشمس إلى أن تحرق كلّ شیء على وجهها، و لا هو ببعيد عنها بحيث يتجمّد كلّ شیء على سطحها.

و كذلك بالنسبة لضغط الهواء على الكرة الأرضية، فإنّه متناسب بما يؤدّی إلى هدوء الإنسان و راحته، فهو ليس بالشديد بالصورة التی يسبّب له الاختناق، و لا بالمنخفض بالشكل الذی يتلاشى فيه معه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۲

و الأمر نفسه يقال فی الجاذبية الأرضية، هی ليست شديدة إلى حدّ تتهشّم فيها عظام الإنسان، و لا بالضعيفة التی يكون فيها معلّقا لا يستطيع الاستقرار فی مكان.

و الخلاصة: إنّ الأرض (ذلول) و مطيعة و مسخّرة لخدمة الإنسان فی جميع المجالات، و الظريف هنا بعد وصفه تعالى للأرض بأنّها (ذلول) أمره لعباده بأن يسيروا فی (مناكبها).

و «مناكب» جمع (منكب) على وزن (مغرب) بمعنى الكتف، و بذلك تسخر الأرض للإنسان و يضع قدميه عليها سائرا على كتفها و هی هادئة و متوازية و محتفظة بتعادلها.

كما تحمل فی نفس الوقت إشارة إلى ضرورة السعی فی الأرض فی طلب الرزق و الحصل عليه، و إلّا فسيكون الحرمان نصيب القاعدين و المتخلّفين عن السعی.

إنّ التعبير ب (الرزق)- هنا- تعبير جامع و شامل، حيث يعنى كافّة الموارد الأرضية، و هو أعمّ من النعم الحيوانية و النباتية و المعدنية التى فيها.

و يجب الالتفات إلى أنّ هذا ليس هو الهدف الأساس لخلقكم، إذ أنّ كلّ ذلك وسائل فى طريق (نشوركم) و بعثكم و حياتكم الأبدية.

و بعد هذا الترغيب و التشويق يستعرض تعالى أسلوب التهديد و الإنذار فيقول سبحانه: أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ.

نعم، إنّ البارئ تعالى إذا أمر أو أراد فإنّ هذه الأرض الذلول الهادئة تكون فى حالة هيجان و طغيان كدابة جموح، تبدأ بالزلازل، و تتشقّق و تدفنكم و بيوتكم و مدنكم تحت ترابها و حجرها، و تبقى راجفة مضطربة مزمجرة بعد أن تقضى عليكم و على مساكنكم التى متّعتم فيها برهة من الزمن.

جملة (فإذا هى تمور) يمكن أن تكون إشارة إلى قدرة اللّه سبحانه على أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۳

يأمر الأرض أن تبتلعكم، و تنقلكم باستمرار- و أنتم فى داخلها- من مكان إلى آخر بحيث أنّ الهدوء لا يشملكم حتّى و أنتم فى قبوركم.

و هكذا تفقد الأرض استقرارها و هدوأها إلى الأبد، و تسيطر الزلازل عليها، و هذا الأمر سهل الإدراك و التصوّر للذين عاشوا فى المناطق الزلزالية، و شاهدوا كيف أنّ الزلازل تستمر عدّة أيّام أحيانا و تبقى الأرض غير مستقرّة و تسلب من سكّان تلك المناطق لذّة النوم و الأكل و الراحة، غير أنّ تصوّر هذا الأمر بالنسبة إلى عامّة الناس الذين ألّفوا هدوء الأرض أمر صعب.

التعبير ب (من فى السماء) إشارة إلى ذات اللّه المقدّسة، و لمّا كانت حاكميته على جميع السماوات و من فيها من الأمور المسلّمة، فما بالك بحاكميته على الأرض، إنّها من الأمور التى لا شكّ فيها- أيضا- بل هى من باب الاولى.

قال البعض: إنّ العبارة السابقة إشارة إلى ملائكة اللّه سبحانه فى السماء المكلّفين بتنفيذ أوامره تعالى.

ثمّ يضيف سبحانه: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فلا يلزم حتما حدوث زلزلة لتدميركم، بل يكفى أن نأمر عاصفة رملية لتدفنكم تحت رمالها .. و حينئذ ستعلمون حقيقة إنذارى و تهديدى: فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ.

إنّ إدراك طبيعة هذا التساؤل سهل بالنسبة إلى الأشخاص الذين عاشوا فى المناطق الرملية المتحرّكة و الرياح (الحاصبة)، (و هى الرياح التى تحرّك كميّات الحصى المتراكمة و تنقلها من مكان إلى آخر) فهؤلاء يدركون إمكانية دفن البيوت أو القرى فى لحظات تحت تلال من الحصى و الرمال المتحرّكة، و كذلك القوافل السائرة فى وسط الصحراء.

و فى الحقيقة فإنّ الآيات أعلاه تؤكّد أنّ عذاب العاصين و المجرمين لا ينحصر فى يوم القيامة فقط، حيث يستطيع البارئ عزّ و جلّ أن يقضى على حياتهم فى هذه الدنيا بحركة بسيطة للأرض، أو بحركة الرياح، و إن أفضل دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۴

على هذه الإمكانية الإلهية هو وقوع مثل هذه الأمور فى الأمم السابقة.

لذا فإنّ اللّه تعالى يقول فى آخر آية من هذه الآيات: وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ[۴۸۴].

نعم فلقد عاقبنا قسما من هؤلاء بالزلازل المدمّرة، و أقواما آخرين بالصواعق، و بالطوفان، و بالرياح .. و بقيت مدنهم المدمّرة موضع درس و اعتبار لمن كان له قلب واع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۵

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۱۹ الى ۲۱]

اشارة

أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (٢١)

التّفسير

انظروا إلى الطير فوقكم:

فى الآيات الاولى لهذه السورة كان البحث عن قدرة اللّه سبحانه و مالكيته، و عن السموات السبع و النجوم و الكواكب .. و يستمرّ هذا اللون من الحديث فى أوّل آية- مورد البحث- و ذلك بذكر مفردة اخرى من كائنات هذا الوجود، و التى تبدو فى ظاهرها صغيرة و يقول تعالى: أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ۴۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۶

هذه الأجسام بالرغم من قانون الجاذبية الأرضية تنطلق من الأرض و تحلّق ساعات فى السماء بكلّ راحة، و أحيانا أيّاما و أسابيع و شهورا، و تستمر بحركتها السريعة المرنة و بدون أى مشاكل.

فالبعض منها يفتح جناحية عند الطيران (صافات) و كأنّ هنالك قوّة خفيّة تحرّكه، و الاخرى ترفرف بأجنحتها عند الطيران بصورة مستمرة و قد تكون (يقبضن) إشارة إلى هذا المعنى.

و تطير مجاميع اخرى بتحريك أجنحتها تارة و فتحها اخرى. كما أنّ هنالك قسما آخر يحرّك أجنحته لفترة عند الطيران، و عند ما يحقّق سرعة معيّنة يجمعها بصورة كلية ك (العصفور).

و خلاصة القول: فإنّ الطيران واحد، إلّا أنّ صوره مختلفة و لكلّ طريقته و برنامجه الخاصّ به.

فمن يا ترى خلق أجسام هذه الطيور بهذه الصورة التى جعلها تستطيع السير فى الهواء بكلّ سهولة و راحة؟. و من ذا الذى وهبها هذه القدرة و علّمها الطيران، خصوصا حالات الطيران الجماعى المعقد للطيور المهاجرة، التى تستمرّ- أحيانا- شهورا عديدة، و تقطع فى رحلتها هذه الاف الكيلومترات، و تمرّ بأجواء بلدان كثيرة، و تجتاز الجبال و الوديان و الغابات و البحار حتّى تصل إلى مقصدها؟ فمن يا ترى علم و أعطى هذه الطيور كلّ هذه القوّة، و هذا الوعى و المعرفة؟

لذا يقول فى ختام الآية ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ.

إنّه اللّه تعالى الذى وضع باختيارها الوسائل و القوى و الإمكانات المختلفة للطيران، نعم، إنّ اللّه الرحمن الذى شملت رحمته الواسعة جميع الكائنات، و أعطى للطيور ما هو موضع حاجتها فى الطيران، و حافظ عليها فى السماء، هو بذاته المقدّسة يحفظ الأرض و الكائنات الاخرى. و عند ما يشاء غير ذلك فلن يكون عندئذ للطيور قدرة الطيران و لا للأرض حالة الهدوء و الاستقرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۷

التعبير ب (الصافات و يقبضن) لعلّه إشارة إلى طيور مختلفة أو لحالات متنوّعة من الطيران ۴۸۶].

و لقد بحثنا بشكل تفصيلى عجائب عالم الطيور و غرائب مسألة الطيران فى تفسير الآية (۷۹) من سورة النحل.

ثمّ يشير تعالى فى الآية اللاحقة إلى أنّ الكافرين ليس لهم أى عون أو مدد مقابل قدرة اللّه عزّ و جلّ حيث يقول: أَمَّنْ هذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ ۴۸۷].

إنّ هؤلاء الذين هم (جند لكم) ليسوا عاجزين عن مساعدتكم و نصرتكم فحسب، بل إذا شاء الرحمن جعلها سبب عذابكم و دماركم، و حتّى هذه النعم المسخّرة لسعادتكم كالماء و الهواء و التراب و النار و التى تمثّل ركنا أساسيا من أركان حياتكم لا يمكنها أن تنقذكم من البلاء، بل إنّها نفسها إذا أمرت فإنّها ستكون موضع عذابكم و موتكم و نقمة عليكم.

نعم لقد كانت هذه النعم سببا لهلاك و دمار كثير من الأقوام العاصين و يحدّثنا التاريخ أنّ الكثير من الجبابرة و الطغاة و المتمرّدين على أوامر اللّه كان هلاكهم على يد أقرب الناس إليهم، و هذا ما يلاحظ كذلك فى عصرنا أيضا، حيث أنّ أكثر المجاميع وفاء للسلطة تثور ضدّهم و ينتقم اللّه من هؤلاء الظالمين بالظالمين الذين كانوا عونا لهم.

ألا إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ فلقد أعمت عقولهم حجب الجهل و الغرور، و لا يعتبرون أو يتّعظون بما حصل للأقوام البائدة السابقة، و لا لما يصيب الآخرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۸

فى حياتنا المعاصرة.

«جند» فى الأصل بمعنى الأرض غير المستوية و القويّة، و التى تتجمّع فيها الصخور الكثيرة، و لهذا السبب فإنّ هذه الكلمة (جند) تطلق على العدد الكثير من الجيش.

و قد اعتبر بعض المفسّرين كلمة (جند) فى الآية- مورد البحث- إشارة إلى الأصنام، التى لا تستطيع مطلقا تقديم العون للمشركين فى يوم القيامة، إلّا أنّ للآية فى الظاهر مفهوما واسعا و الأصنام أحد مصاديقها.

ثمّ يضيف سبحانه مؤكّدا ما سبق: أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۴۸۸].

فإذا أمر اللّه السماء أن تمتنع عن المطر، و الأرض عن الإنبات، و أمر الآفات الزراعية بالفتك بالمحاصيل .. فمن القادر غيره أن يطعمكم الطعام؟

و إذا ما قطع اللّه الرزق المعنوى عنكم و الوحى السماوى من الوصول إليكم، فمن القادر غيره على إرشادكم و إنقاذكم من براثن الضلال؟ إنّها لحقائق واضحة و أدلّة دامغة، إلّا أنّ العناد هو الذى يشكّل حجابا للإدراك و للشعور الحقّ: بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ.

و حتّى فى حياتنا المعاصرة و مع كلّ ألوان التقدّم العلمى فى الجوانب المختلفة، خصوصا فى مجال الصناعة الغذائية. فإذا ما منع اللّه المطر عن الأرض سنة واحدة فيا لها من فاجعة عظمى تحلّ بالعلم، و إذا ما أصيبت النباتات بالجراد و الآفات سنة واحدة فيا لها من كارثة كبرى تحلّ بالبشرية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۹

ملاحظة

العوامل الأربعة فى محرومية البشر:

استعرضت الآيات السابقة أهمّ العوامل التى أدّت بالعصاة و المتمرّدين على أوامر البارئ عزّ و جلّ إلى المصير البائس و العاقبة الخائبة.

و كانت أهمّ هذه العوامل: إعراض آذانهم عن الإصغاء، و عقولهم عن الفهم، و قلوبهم عن الوعى ..

كما كانت فى الآيات مورد البحث أربعة عوامل اخرى ساهمت فى العاقبة السيّئة لهؤلاء التى هى: بؤس الإنسان و ضلاله، هذه العوامل هى: (الغرور) و (اللجاجة) و (العتوّ) و (النفور).

و إذا ما أمعنا النظر جيّدا فى هذه العوامل فإنّنا نلاحظ أنّ لها ارتباطا مع العوامل السابقة، حيث أنّ هذه الصفات الرديئة تولّد حجابا

على الآذان و العيون و البصائر، و تمنع الإنسان من إدراك الحقائق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۵۰۰

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۰

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۲۲ الى ۲۷]

اشارة

أ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۲) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (۲۳) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۵) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۶)
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (۲۷)

التّفسير

السائر سويّا على جادّة التوحيد:

تعقيبا لما ورد فى الآيات السابقة بالنسبة إلى الكافرين و المؤمنين، فإنّ اللّه تعالى يصوّر لنا- فى أوّل آية من هذه الآيات- حالة هاتين المجموعتين ضمن تصوير رائع و لطيف، حيث يقول تعالى: أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۱

يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

فهنا شبه المعاندين و المغرورين كمن يسير فى جادّة متعرّجة غير مستوية كثيرة المنعطفات و قد وقع على وجهه، يحرّك يديه و رجليه للاهتداء إلى سبيله، لأنّه لا يبصر طريقه جيّدا، و ليس بقادر على السيطرة على نفسه، و لا بمطّلع على العقبات و الموانع، و ليست لديه القوّة للسير سريعا، و بذلك يتعثّر فى سيره .. يمشى قليلا ثمّ يتوقّف حائرا.

كما شبّه المؤمنين برجال منتصبى القامات، يسيرون فى جادّة مستوية و مستقيمة ليس فيها تعرّجات و اعوجاج، و يمشون فيها بسرعة و وضوح و قدرة و وعى و علم و راحة تامّة.

إنّه- حقّا- لتشبيه لطيف فذّ، حيث إنّ آثار هذين السبيلين واضحة تماما، و انعكاساتها جليّة فى حياة هذين الفريقين، و ذلك ما نلاحظه بأمّ أعيننا.

و يرى البعض أنّ مصداق هاتين المجموعتين هما: (الرّسول الأكرم) و (أبو جهل) فهما مصاديق واضحة للآية الكريمة، إلّا أنّ ذلك لا يحدّد عمومية الآية.

و ذكرت احتمالات متعدّدة فى تفسير (مكبا على وجهه). إلّا أنّ أكثر الاحتمالات المنسجمة مع المفهوم اللغوى للآية هو ما ذكرناه أعلاه، و هو أنّ الإنسان غير المؤمن يكون مكبّا على وجهه و يمشى زاحفا بيده و رجليه و صدره.

و قيل أنّ المقصود من (مكبّا) هو المشى الاعتيادى و لكنّه مطأطئ الرأس لا يشخّص مسيره بوضوح أبدا.

كما يرى آخرون أنّ المقصود ب (مكبّا) هو الشخص الذى لا يستطيع أن يحفظ توازنه فى السير، فهو يخطو خطوات معدودة ثمّ ما

یلبث أن یسقط علی الأرض و ینهض لیمشی، ثمّ تتکرّر هذه الحالة.

و یستفاد ممّا ذکره الراغب فی مفرداته أنّ المقصود ب (مکبّا) هو الشخص الذی یدور حول محور الذات و الأنانیة، معرضا عن الاهتمام بغیره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۲

إلّا أنّ المعنی الأوّل أنسب حسب الظاهر، و ذلک بقرینة المقابلة مع وضع المؤمنین و الذین عبّرت عنهم الآیة ب (سویّا).

و علی کلّ حال، فهل أنّ هذه الحالة (مکبّا) و (سویّا) تمثّل وضع الکفّار و المؤمنین فی الآخرة فقط؟ أم فی العالمین (الدنیا و الآخرة)؟ لا دلیل علی محدودیة مفهوم الآیة و انحصارها فی الآخرة، فهما فی الدنیا کما هما فی الآخرة.

إنّ هؤلاء الأنانیین المنشدّین إلی مصالحهم المادیّة و المنغمسین فی شهواتهم، السائرین فی درب الضلال و الهوی، کمن یروم العبور من مکان ملیء بالأحجار زاحفا علی صدره، بخلاف من تحرّر من قید الهوی فی ظلّ الإیمان حیث یکون مسیره واضحا و مستقیما و نظراته عمیقة و ثاقبة.

ثمّ یوجّه اللّه تعالی الخطاب إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیة اللاحقة فیقول: قُلْ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِیلًا ما تَشْکُرُونَ

إنّ اللّه تعالی جعل لکم وسیلة للمشاهدة و الإبصار (العین) و کذلک وسیلة و قناة للاطّلاع علی أفکار الآخرین و معرفة و جهات نظرهم من خلال الاستماع (الإذن) ثمّ وسیلة اخری للتفکّر و التدبّر فی العلوم و المحسوسات و اللامحسوسات (القلب).

و خلاصة الأمر إنّ اللّه تعالی قد وضع جمیع الوسائل اللازمة لکم لتتعرّفوا علی العلوم العقلیة و النقلیة، إلّا أنّ القلیل من الأشخاص من یدرک هذه النعم العظیمة و یشکر اللّه المنعم، حیث أنّ شکر النعمة الحقیقی یتجسّد بتوجیه النعمة نحو الهدف الذی خلقت من أجله، تری من هو المستفید من هذه الحواس (العین و الاذن و العقل) بصورة صحیحة فی هذا الطریق؟

ثمّ یخاطب الرّسول مرّة اخری حیث یقول تعالی: قُلْ هُوَ الَّذِی ذَرَأَکُمْ فِی الْأَرْضِ وَ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ

و فی الحقیقة فإنّ الآیة الاولی تعیّن (المسیر)، و الثانیة تتحدّث عن (وسائل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۳

العمل) أمّا الآیة- مورد البحث- فإنّها تشخّص (الهدف و الغایة) و ذلک بالتأکید علی أنّ السیر یجب أن یکون فی الطریق المستقیم، و الصراط الواضح المتمثّل بالإسلام و الإیمان، و بذل الجهد للاستفادة من جمیع وسائل المعرفة بهذا الاتّجاه، و التحرّک نحو الحیاة الخالدة.

و الجدیر بالملاحظة هنا أنّ التعبیر فی الآیة السابقة ورد ب (أنشأکم) و فی الآیة مورد البحث ب (ذرأکم)، و لعلّ تفاوت هذین التعبیرین هو أنّه فی الأولی إشارة إلی الإنشاء و الإیجاد من العدم (أی إنّکم لم تکونوا شیئا و قد خلقکم اللّه تعالی) و فی الثانیة إشارة إلی خلق الإنسان من مادّة التراب، و ذلک یعنی أنّ اللّه خلق الإنسان من التراب.

ثمّ یستعرض سبحانه قول المشرکین فی هذا المجال و الردّ علیهم، فیقول تعالی: وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ

إنّ المشرکین یطالبون بتعیین التاریخ بصورة دقیقة لیوم القیامة، کما أنّهم یطالبون بحسم هذا الأمر الذی یتعلّق بمصیر الجمیع مَتی هذَا الْوَعْدُ؟.

و ذکروا احتمالین فی المقصود من (هذا الوعد): الأوّل: هو وعد یوم القیامة، و الآخر: هو تنفیذ الوعد بالنسبة للعقوبات الدنیویة المختلفة، کوقوع الزلازل و الصواعق و الطوفانات. إلّا أنّ المعنی الأوّل أکثر تناسبا حسب الظاهر، و ذلک بلحاظ ما ورد فی الآیة السابقة. کما أنّ بالإمکان الجمع بین المعنیین.

و یجیبهم اللّه سبحانه علی تساؤلهم هذا بقوله تعالی: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ

إنّ هذا التعبير يشبه تماما ما ورد فى الآيات القرآنية العديدة التى من جملتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۴

قوله تعالى: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی ۴۸۹].

و لا بدّ أن يكون الجواب بهذه الصورة، حيث أنّ تحديد تأريخ يوم القيامة إن كان بعيدا فإنّ الناس سيغرقون بالغفلة، و إن كان قريبا فإنّهم سيعيشون حالة الهلع و الاضطراب. و على كلّ حال فإنّ الأهداف التربوية تتعطّل فى الحالتين.

و يضيف فى آخر آية من هذه الآيات بأنّ الكافرين حينما يرون العذاب و الوعد الإلهى من قريب تسودّ وجوههم: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فسيماهم طافحة بآثار الحزن و الندم وَ قِيلَ هذَا الَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ

«تدعون» من مادّة (دعاء) يعنى أنّكم كنتم تدعون و تطلبون دائما أن يجىء يوم القيامة، و ها هو قد حان موعده، و لا سبيل للفرار منه ۴۹۰].

و هذا المضمون يشبه ما جاء فى قوله تعالى مخاطبا الكفّار فى يوم القيامة:

هذَا الَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۴۹۱].

و على كلّ حال، فإنّ الآية الشريفة ناظرة إلى عذاب يوم القيامة كما ذهب إليه أغلب المفسّرين، و هذا دليل على أنّ جملة مَتى هذَا الْوَعْدُ إشارة إلى موعد يوم القيامة.

يقول الحاكم أبو القاسم الحسكانى: عند ما شاهد الكفّار شأن و مقام الإمام على عليه السّلام عند اللّه تعالى. اسودّت وجوههم (من شدّة الغضب)[۴۹۲].

و نقل هذا المعنى أيضا

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّ هذه الآية نزلت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۵

بحقّ أمير المؤمنين على عليه السّلام و أصحابه ۴۹۳].

و هذا التّفسير نقل عن طرق الشيعة و أهل السنّة، و هو نوع من التطبيق المصداقى، و إلّا فإنّ هذه الآية تناولت موضوع (القيامة) و مثل هذه التطبيقات ليست قليلة فى عالم الروايات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۶

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (۲۸) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِی ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (۳۰)

التّفسير

من الذى يأتيكم بالمياه الجارية؟

إنّ الآيـات أعلاه، التى هى آخر آيات سورة الملك، تبـدأ جميعها بكلمـة (قل) مخاطبـة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث أنّها تمثّل استمرارا للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة حول الكفّار، و تعكس هذه الآيات الكريمة جوانب اخرى من البحث. يخاطب البارئ عزّ و جلّ- فى البداية- الأشـخاص الذين يرتقبون وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه، و يتصوّرون أنّ بوفاته سوف يمحى دين الإسلام و ينتهى كلّ شىء. و هذا الشعور كثيرا ما ينتاب الأعداء المخذولين إزاء القيادات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۷

القويّة و المؤثّرة، يقول تعالى مخاطبا إيّاهم: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيم

ورد فى بعض الروايـات أنّ كفّار مكّـة، كانوا دائما يسبّون الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين، و كانوا يتمنّون موته ظنّا منهم أنّ رحيله سينهى دعوته كذلك، لذا جاءت الآية أعلاه ردّا عليهم.

كما جاء شبيه هذا المعنى فى قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۴۹۴].

لقد كانوا غافلين عن وعد اللّه سبحانه لرسوله الأمين، بأنّ اسـمه سيكون مقترنا مع مبدأ الحقّ الذى لا يعتريه الفناء و إذا جاء أجله فإنّ ذكره لن ينـدرس، نعم، لقـد وعده اللّه سـبحانه بانتصار هذا المبدأ، و أن ترفرف راية هذا الدين على كلّ الدنيا، و حياة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو موته لن يغيّرا من هذه الحقيقة شيئا.

كما ذكر البعض تفسيرا آخر لهذه الآية و هو: إنّ خطاب اللّه لرسوله الكريم- الذى يشمل المؤمنين أيضا- مع ما عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الإيمان الراسخ، كان يعكس الخوف و الرجاء معا فى آن واحد. فكيف بكم أنتم أيّها الكافرون؟ و ما الذى تفكّرون به لأنفسكم؟

و لكن التّفسير الأوّل أنسب حسب الظاهر.

و استمرارا لهذا البحث، يضيف تعالى: قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِين

و هـذا يعنى أنّنـا إذا آمنا باللّه، و اتّخـذناه وليّا و وكيلا لنا، فإنّ ذلك دليل واضـح على أنّه الربّ الرحمن، شـملت رحمته الواسـعة كلّ شىء، و غمر فيض ألطافه و نعمه الجميع (المؤمن و الكافر)، إنّ نظرة عابرة إلى عالم الوجود و صفحة الحياة تشهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۸

على هذا المدّعى، أمّا الذين تعبدونهم من دون اللّه فما ذا عملوا؟ و ما ذا صنعوا؟

و بالرغم من أنّ ضـلالكم واضح هنا فى هذه الدنيا، إلّا أنّه سيتّضح بصورة أكثر فى الدار الآخرة. أو أنّ هذا الضلال و بطلان دعاواكم الفارغة ستظهر فى هذه الدنيا عند ما ينتصر الإسلام بالإمدادات الإلهية على جيش الكفر بشكل إعجازى و خارق للعادة، عندئذ ستتبيّن الحقيقة أكثر للجميع.

إنّ هـذه الآيـة- فى الحقيقـة- نوع من المواساة للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، كى لا يظنّوا أو يتصوّروا أنّهم وحدهم فى هذا الصراع الواسع بين الحقّ و الباطل، حيث أنّ الرحمن الرحيم خير معين لهم و نعم الناصر.

و يقول تعالى فى آخر آية، عارضا لمصداق من رحمته الواسـعة، و التى غفل عنها الكثير من الناس: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِين

إنّ للأرض فى الحقيقة قشرتين متفاوتين: (قشرة قابلة للنفوذ) يدخل فيها الماء، و اخرى (غير قابلة للنفوذ) تحفظ بالماء، و جميع العيون و الآبـار و القنوات تولّـدت من بركـات هـذا التركيب الخـاصّ للأـرض، إذ لو كانت القشـرة القابلـة للنفوذ لوحـدها على سـطح الكرة الأرضـية جميعـا و لأعماق بعيـدة، فإنّ جميع المياه التى تـدخل جوف الأرض لا يقرّ لها قرار، و عندئـذ لا يمكن أن يحصل أحـد على قليـل من المـاء. و لو كـانت قشـرة الأرض غير قابلـة للنفوذ لتجمّعت المياه على سـطحها و تحوّلت إلى مستنقع كبير، أو أنّ المياه التى تكون على سطحها سرعان ما تصبّ فى البحر، و هكذا يتمّ فقدان جميع الذخائر التى هى تحت الأرض.

إنّ هذا نموذج صغير من رحمة اللّه الواسعة يتعلّق بموت الإنسان و حياته.

«معين» من مادّة (معن)، على وزن (طعن) بمعنى جريان الماء.

و قال آخرون: إنّها مأخوذة من (عين) و الميم زائدة. لذا فإنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ معنى (معين) تعنى الماء الذى يشاهد بالعين بغضّ النظر عن جريانه.

إلّا أنّ الغالبية فسّروه بالماء الجارى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ۵۰۹

و بالرغم من أنّ الماء الصالح للشرب لا ينحصر بالماء الجارى، إلّا أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ الماء الجارى يمثّل أفضل أنواع ماء الشرب، سواء كان من العيون أو الأنهار أو القنوات أو الآبار المتدفّقة ..

و نقل بعض المفسّرين أنّ أحد الكفّار عند ما سمع قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ قال: (رجال شداد و معاول حداد) و عند نومه ليلا- نزل الماء الأسود فى عينيه، و فى هذه الأثناء سمع من يقول: أتى بالرجال الشداد و المعاول الحداد ليخرجوا الماء من عينيك.

و من الواضح أنّه فى حالة عدم وجود القشرة الصلبة و غير القابلة للنفوذ، فإنّه لا يستطيع أى إنسان قوى و لا أى معول حادّ أن يستخرج شيئا من الماء[۴۹۵].

تعقيب

جاء فى الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد من الآية الأخيرة من هذه السورة هو ظهور الإمام المهدى عليه السّلام و عدله الذى سيعمّ العالم.

فقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «نزلت فى الإمام القائم عليه السّلام، يقول: إن أصبح إمامكم غائبا عنكم، لا تدرون أين هو؟ فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم بأخبار السموات و الأرض، و حلال اللّه و حرامه؟ ثمّ قال: و اللّه ما جاء تأويل هذه الآية، و لا بدّ أن يجىء تأويلها»[۴۹۶].

و الروايات فى هذا المجال كثيرة، و ممّا يجدر الانتباه له أنّ هذه الروايات هى من باب (التطبيق).

و بعبارة اخرى فإنّ ظاهر الآية مرتبط بالماء الجارى، و الذى هو علّة حياة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ۵۱۰

الموجودات الحيّة. أمّا باطن الآية فإنّه يرتبط بوجود الإمام عليه السّلام و علمه و عدالته التى تشمل العالم، و التى هى الاخرى تكون سببا لحياة و سعادة المجتمع الإنسانى.

و لقد ذكرنا مرّات عدّة أنّ للآيات القرآنية معانى متعدّدة، حيث لها معنى باطن و ظاهر، إلّا أنّ فهم باطن الآيات غير ممكن إلّا للرسول و الإمام المعصوم، و لا- يحقّ لأى أحد أن يطرح تفسيرا ما لباطن الآيات. و ما نستعرضه هنا مرتبط بظاهر الآيات، أمّا ما يرتبط بباطن الآيات فعلينا أن نأخذه من المعصومين عليهم السّلام فقط.

لقد بدأت سورة الملك بحاكمية اللّه و مالكيته تعالى، و انتهت برحمانيته، و التى هى الاخرى فرع من حاكميته و مالكيته سبحانه، و بهذا فإنّ بدايتها و نهايتها منسجمتان تماما.

اللهمّ، أدخلنا فى رحمتك العامّة و الخاصّة، و أرو ظمآنا من كوثر ولاية أوليائك.

ربّنا، عجّل لنا ظهور عين ماء الحياة الإمام المهدى، و اطفئ عطشنا بنور جماله ..

ربّنا، ارزقنا اذنا صاغية و عينا بصيرة و عقلا كاملا، فأقشع عن قلوبنا حجب الأنانية و الغرور لنرى الحقائق كما هى، و نسلك إليك

على الصراط المستقيم بخطوات محكمة و قامة منتصبة ..

آمين ربّ العالمين نهاية سورة الملك

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۱

سورة القلم

اشارة

مكيّة و عدد آياتها اثنتان و خمسون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۳

«سورة القلم»

محتوى السورة:

بالرغم من أنّ بعض المفسّرين شكّك في كون السورة بأجمعها نزلت في مكّة، إلّا أنّ نسق السورة و محتوى آياتها ينسجم تماما مع السور المكيّة، لأنّ المحور الأساسي فيها يدور حول مسألة نبوّة رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مواجهة الأعداء الذين كانوا ينعتونه بالجنون و غيره، و التأكيد على الصبر و الاستقامة و تحدّي الصعاب، و إنذار و تهديد المخالفين لهذه الدعوة المباركة بالعذاب الأليم.

و بشكل عامّ يمكن تلخيص مباحث هذه السورة بسبعة أقسام:

۱- في البداية تستعرض السورة بعض الصفات الخاصّة لرسول الإنسانية محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خصوصا أخلاقه البارّة السامية الرفيعة، و لتأكيد هذا الأمر يقسم البارئ عزّ و جلّ في هذا الصدد.

۲- ثمّ تتعرّض بعض الآيات الواردة في هذه السورة إلى قسم من الصفات السيّئة و الأخلاق الذميمة لأعدائه.

۳- كما يبيّن قسم آخر من الآيات الشريفة قصّة (أصحاب الجنّة) و التي هي بمثابة توجيه إنذار و تهديد للسالكين طريق العناد من المشركين.

۴- و في قسم آخر من السورة ذكرت عدّة امور حول القيامة و العذاب الأليم للكفّار في ذلك اليوم.

۵- كما جاء في آيات اخرى جملة إنذارات و تهديدات للمشركين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۴

۶- و نلاحظ في آيات اخرى من السورة الأمر الإلهي للرسول العظيم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يواجه الأعداء بصبر و استقامة و قوّة و صلابة.

۷- و أخيرا تختتم السورة موضوعاتها بحديث حول عظمة القرآن الكريم، و طبيعة المؤامرات التي كان يحوكها الأعداء ضدّ الرّسول محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

انتخاب (القلم) اسما لهذه السورة المباركة، كان بلحاظ ما ورد في أوّل آية منها، و ذكر البعض الآخر أنّ اسمها (ن).

و يستفاد من بعض الروايات التي وردت في فضيلة هذه السورة أنّ اسمها «ن و القلم».

فضيلة تلاوة سورة القلم:

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم فی فضیلة تلاوة هذه السورة أنّه قال: «من قرأ (ن و القلم) أعطاه اللّه ثواب الذین حسن أخلاقهم»[۴۹۷].

کما نقرأ

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة (ن و القلم) فی فریضة أو نافلة، آمنه اللّه أن یصیبه فی حیاته فقر أبدا، و أعاذه إذا مات من ضمّة القبر، إن شاء اللّه»[۴۹۸].

و هـذا الأجر و الجزاء یتناسب تناسبا خاصّا مع محتوى السورة، و الهـدف من التأکید على هذا النوع من الأجر من تلاوة السورة هو أن تکون التلاوة مقرونة بالوعی و المعرفة و من ثمّ العمل بمحتواها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۵

الآیات [سورة القلم (۶۸): الآیات ۱ الى ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

ن وَ الْقَلَمِ وَ ما یَسْطُرُونَ (۱) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ (۲) وَ إِنَّ لَکَ لَأَجْراً غَیْرَ مَمْنُونٍ (۳) وَ إِنَّکَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِیمٍ (۴)
فَسَتُبْصِرُ وَ یُبْصِرُونَ (۵) بِأَیِّکُمُ الْمَفْتُونُ (۶) إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۷)

التّفسیر

عجبا لأخلاقک السامیة:

هذه السورة هی السورة الوحیدة التی تبدأ بحرف (ن) حیث یقول تعالى:

ن

و قد تحدّثنا مرّات عدیدة حول الحروف المقطّعة، خصوصا فی بدایة سورة (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف) و الشـیء الذی یجدر إضـافته هنـا هو مـا اعتـبره البعض من أنّ (ن) هنـا تخفیف لکلمـة (الرحمن) فهی إشـارة لـذلک. کمـا أنّ البعض الآـخر فسّـرها بمعنى (اللوح) أو (الدواة) أو (نهر فی الجنّة) إلّا أنّ کلّ تلک الأقوال لیس لها دلیل واضح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۶

و بناء على هذا فإنّ الحرف المقطّع هنا لا یختلف عن تفسیر بقیّة الحروف المقطّعة و التی أشرنا إلیها سابقا.

ثمّ یقسم تعالى بموضوعین یعتبران من أهمّ المسائل فی حیاة الإنسان، فیقول تعالى: وَ الْقَلَمِ وَ ما یَسْطُرُونَ

کم هو قسم عجیب؟ و قد یتصوّر أنّ القسم هنا یتعلّق ظاهرا بمواضـیع صـغیرة، أی قطعة من القصب- أو شیء یشبه ذلک- و بقلیل من مادّة سوداء، ثمّ السطور التی تکتب و تخطّ على صفحة صغیرة من الورق.

إلّا أنّنا حینما نتأمّل قلیلا فیه نجـده مصـدرا لجمیع الحضارات الإنسانیـة فی العالم أجمع، إنّ تطور و تکامل العلوم و الوعی و الأفکار و تطور المـدارس الدینیـة و الفکریـة، و بلورة الکثیر من المفاهیم الحیاتیـة .. کـان بفضـل مـا کتب من العلوم و المعـارف الإنسانیـة فی الحقول المختلفة، ممّا کان له الأثر الکبیر فی یقظة الأمم و هدایة الإنسان .. و کان ذلک بواسطة (القلم).

لقد قسّـمت حیاة الإنسان إلى عصرین: (عصر التأریخ) و (عصر ما قبل التأریخ) و عصر تأریخ البشر یبدأ منذ أن اخترع الإنسان الخطّ و

استطاع أن يدوّن قصّة حياته و أحداثها على الصفحات، و بتعبير آخر، يبدأ عند ما أخذ الإنسان القلم بيده، و دوّن للآخرين ما توصّل إليه (و ما يسطرون) تخليدا لماضيه.

و تتّضح عظمة هذا القسم بصورة أكثر عند ما نلاحظ أنّ هذه الآيات المباركة حينما نزلت لم يكن هنالك كتاب و لا أصحاب قلم، و إذا كان هنالك أشخاص يعرفون القراءة و الكتابة، فإنّ عددهم فى كلّ مكّة- التى تمثّل المركز العبادى و السياسى و الاقتصادى لأرض الحجاز- لم يتجاوز ال (۲۰) شخصا. و لذا فإنّ القسم ب (القلم) فى مثل ذلك المحيط له عظمة خاصّة.

و الرائع هنا أنّ الآيات الاولى التى نزلت على قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى (جبل النور) أو (غار حراء) قد أشير فيها أيضا إلى المنزلة العليا للقلم، حديث يقول تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۷

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ، الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ ۴۹۹].

و الأروع من ذلك كلّه أنّ هذه الكلمات كانت تنطلق من فمّ شخص لم يكن يقرأ أو يكتب، و لم يذهب للمكاتب من أجل التعليم قطّ، و هذا دليل أيضا على أنّ ما ينطق به لم يكن غير الوحى السماوى.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ كلمة (القلم) هنا يقصد بها: (القلم الذى تخطّ به ملائكة اللّه العظام الوحى السماوى)، (أو الذى تكتب به صفحة أعمال البشر)، و لكن من الواضح أنّ للآية مفهوما واسعا، و هذه الآراء تبيّن مصاديقها.

كما أنّ لجملة ما يَسْطُرُونَ مفهوما واسعا أيضا، إذ تشمل جميع ما يكتب فى طريق الهداية و التكامل الفكرى و الأخلاقى و العلمى للبشر، و لا ينحصر بالوحى السماوى أو صحائف أعمال البشر[۵۰۰].

ثمّ يتطرّق سبحانه لذكر الأمر الذى أقسم من أجله فيقول تعالى: ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ

إنّ الذين نسبوا إليك هذه النسبة القبيحة هم عمى القلوب و الأبصار، و إلّا فأين هم من كلّ تلك النعم الإلهية التى وهبها اللّه لك؟ نعمة العقل و العلم الذى تفوّقت بها على جميع الناس و نعمة الأمانة و الصدق و النبوّة و مقام العصمة ... إنّ الذين يتّهمون صاحب هذا العقل الجبّار بالجنون هم المجانين فى الحقيقة، إنّ ابتعادهم عن دليل الهداية و موجّه البشرية لهو الحمق بعينه.

ثمّ يضيف تعالى بعد ذلك: وَ إِنَّ لَکَ لَأَجْراً غَیْرَ مَمْنُونٍ أى غير منقطع، و لم لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۸

يكون لك مثل هذا الأجر، فى الوقت الذى وقفت صامدا أمام تلك التّهم و الافتراءات اللئيمة، و أنت تسعى لهدايتهم و نجاتهم من الضلال و واصلت جهدك فى هذا السبيل دون تعب أو ملل؟

«ممنون» من مادّة (منّ) بمعنى (القطع) و يعنى الأجر و الجزاء المستمرّ الذى لا ينقطع أبدا، و هو متواصل إلى الأبد، يقول البعض: إنّ أصل هذا المعنى مأخوذ من «المنّة»، بلحاظ أنّ المنّة توجب قطع النعمة.

و قال البعض أيضا: إنّ المقصود من غَیْرَ مَمْنُونٍ هو أنّ اللّه تعالى لم تكن لديه منّة مقابل هذا الأجر العظيم. إلّا أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و تعرض الآية اللاحقة و صفا آخر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك بقوله تعالى:

وَ إِنَّکَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِیمٍ

تلك الأخلاق التى لا- نظير لها، و يحار العقل فى سموّها و عظمتها من صفاء لا يوصف، و لطف منقطع النظير، و صبر و استقامة و تحمّل لا مثيل لها، و تجسيد لمبادئ الخير حيث يبدأ بنفسه أوّلا فيما يدعو إليه، ثمّ يطلب من الناس العمل بما دعا إليه و الالتزام به.

عند ما دعوت- يا رسول اللّه- الناس- لعبادة اللّه، فقد كنت أعبد الناس جميعا، و إذ نهيتهم عن سوء أو منكر فإنّك الممتنع عنه قبل الجميع، تقابل الأذى بالنصح، و الإساءة بالصفح، و التضرّع إلى اللّه بهدايتهم، و هم يؤلمون بدنك الطاهر رميا بالحجارة، و استهزاء بالرسالة، و تقابل وضعهم للرماد الحارّ على رأسك الشريف بدعائك لهم بالرشد.

نعم لقد كنت مركزا للحبّ و منبعا للعطف و منهلا للرحمة، فما أعظم أخلاقك؟

«خلق» من مادّة (الخلقة) بمعنى الصفات التى لا تنفكّ عن الإنسان، و هى ملازمة له، كخلقة الإنسان.

و فسّر البعض الخلق العظيم للنبى ب (الصبر فى طريق الحقّ، و كثرة البذل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۹

و العطاء، و تدبير الأمور، و الرفق و المداراة، و تحمّل الصعاب فى مسير الدعوة الإلهية، و العفو عن المتجاوزين، و الجهاد فى سبيل اللّه، و ترك الحسد و البغض و الغلّ و الحرص ..، و بالرغم من أنّ جميع هذه الصفات كانت متجسّدة فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ الخلق العظيم له لم ينحصر بهذه الأمور فحسب، بل أشمل منها جميعا.

و فسّر الخلق العظيم أيضا ب (القرآن الكريم) أو (مبدأ الإسلام) و من الممكن أن تكون الموارد السابقة من مصاديق المفهوم الواسع للآية أعلاه.

و على كلّ حال فإنّ تأصّل هذا (الخلق العظيم) فى شخصية الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو دليل واضح على رجاحة العقل و غزارة العلم له و نفى جميع التّهم التى تنسب من قبل الأعداء إليه.

ثمّ يضيف سبحانه بقوله: فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ أى من منكم هو المجنون ۵۰۱].

«مفتون»: اسم مفعول من (الفتنة) بمعنى الابتلاء، و ورد هنا بقصد الابتلاء بالجنون.

نعم، إنّهم ينسبون هذه النسب القبيحة إليك ليبعدوا الناس عنك، إلّا أنّ للناس عقلا و إدراكا، يقيّمون به التعاليم التى يتلقّونها منك، ثمّ يؤمنون بها و يتعلّمونها تدريجيّا، و عندئذ تتّضح الحقائق أمامهم، و هى أنّ هذه التعاليم العظيمة مصدرها البارئ عزّ و جلّ، أنزلها على قلبك الطاهر بالإضافة إلى ما منحك من نصيب عظيم فى العقل و العلم.

كما أنّ مواقفك و تحرّكاتك المستقبلية المقرونة بالتقدّم السريع لانتشار الإسلام، ستؤكّد بصورة أعمق أنّك منبع العلم و العقل الكبيرين، و أنّ هؤلاء الأقزام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۰

الخفافيش هم المجانين، لأنّهم تصدّوا لمحاربة نور هذه الشمس العظيمة المتمثّلة بالحقّ الإلهى و الرسالة المحمّدية.

و من الطبيعى فإنّ هذه الحقائق ستتوضّح أمامهم يوم القيامة بصورة دامغة، و يخسر هنالك المبطلون، حيث تتبيّن الأمور و تظهر الحقيقة.

و للتأكيد على المفهوم المتقدّم يقول سبحانه مرّة اخرى: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

و بلحاظ معرفة البارئ عزّ و جلّ بسبيل الحقّ و بمن سلكه و من جانبه و تخلّف أو انحرف عنه، فإنّه يطمئن رسوله الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه و المؤمنون فى طريق الهداية و الرشد، أمّا أعداؤه فهم فى متاه الضلالة و الغواية.

و جاء فى حديث مسند أنّ قريشا حينما رأت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقدم الإمام على عليه السّلام على الآخرين و يجلّه و يعظّمه، غمزه هؤلاء و قدحوا به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: (لقد فتن محمّد به) هنا أنزل اللّه تعالى قرآنا و ذلك قوله: ن وَ الْقَلَمِ و أقسم بذلك، و إنّك يا محمّد غير مفتون و مجنون حتّى قوله تعالى: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ حيث اللّه هو العالم بالأشخاص الذين ضلّوا و انحرفوا عن سواء السبيل، و هى إشارة إلى قريش التى كانت تطلق هذه الاتّهامات، كما أنّه تعالى أعرف بمن اهتدى، و هى إشارة إلى الإمام على عليه السّلام ۵۰۲].

بحثان

۱- دور القلم فی حیاة الإنسان

إنّ من أهمّ معالم التطور فی الحیاة البشریة- کما أشرنا سابقا- هو ظهور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۱

الخطّ و ما ثبته القلم علی صحائف الأوراق و الأحجار، إذ أنّ هذا الحدث أدّی إلی فصل (عصر التاریخ) عن (عصر ما قبل التاریخ).

إنّ ما یثبته القلم علی صفحات الورق هو الذی یحدّد طبیعة الإنتصار أو الانتکاسة لمجتمع ما من المجتمعات الإنسانیة، و بالتالی فإنّ ما یسطّره القلم یحدّد مصیر البشر فی مرحلة ما أو مکان ما .. ف (القلم) هو الحافظ للعلوم، المدوّن للأفکار، الحارس لها، و حلقة الاتّصال الفکری بین العلماء، و القناة الرابطة بین الماضی و الحاضر، و الحاضر و المستقبل. بل حتّی موضوع ارتباط الأرض بالسماء قد حصل هو الآخر عن طریق اللوح و القلم أیضا.

فالقلم یربط بین بنی البشر المتباعدین من الناحیة الزمانیة و المکانیة، و هو مرآة تعکس صور المفکّرین علی طول التاریخ فی کلّ الدنیا و تجمعها فی مکتبة کبیرة.

و القلم: حافظ للأسرار، مؤتمن علی ما یستودع، و خازن للعلم، و جامع للتجارب عبر القرون و الأعصار المختلفة. و إذا کان القرآن قد أقسم به فلهذا السبب، لأنّ القسم غالبا لا یکون إلّا بأمر عظیم و ذی قیمة و شأن.

و من الطبیعی عندئذ أن یکون (القلم) وسیلة ل (ما یسطرون) من الکتابة، و نلاحظ القسم بکلیهما لقد أقسم القرآن الکریم ب (الوسیلة) و کذلک (بحصاد) تلک الوسیلة (و ما یسطرون).

و جاء

فی بعض الروایات «إنّ أوّل ما خلق اللّه القلم».

نقل هذا الحدیث محدّثوا الشیعة عن الإمام الصادق علیه السّلام ۵۰۳].

و جاء هذا المعنی أیضا فی کتب أهل السنّة فی خبر معروف ۵۰۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۲

و جاء

فی روایة اخری: (أوّل ما خلق اللّه تعالی جوهرة)[۵۰۵].

و

ورد فی بعض الأخبار أیضا: (إنّ أوّل ما خلق اللّه العقل)[۵۰۶].

و یمکن ملاحظة طبیعة الارتباط الخاصّ بین کلّ من (الجوهرة) و (القلم) و (العقل) الذی یوضّح مفهوم کونهم أوّل ما خلق اللّه سبحانه من الوجود.

جاء فی نهایة الحدیث الذی نقلناه عن الإمام الصادق علیه السّلام إنّ اللّه تعالی قال للقلم بعد خلقه إیّاه: أکتب، و أنّه کتب ما کان و ما سیکون إلی یوم القیامة.

و بالرغم من أنّ المقصود من القلم فی هذه الروایة هو قلم التقدیر و القضاء، إلّا أنّ جمیع ما هو موجود من أفکار و علوم و تراث، و ما توصّل إلیه العقل البشری علی طول التأریخ، و ما هو مثبت من مبادئ و رسالات و تعالیم و أحکام .. یؤکّد علی دور القلم فی الحیاة الإنسانیة و مصیر البشریة.

إنّ قادة الإسلام العظام لم یکتفوا بحفظ الأحادیث و الروایات و العلوم و المعارف الإلهیة فی ذاکرتهم بل کانوا یؤکّدون علی کتابتها، لتبقی محفوظة لأجیال المستقبل ۵۰۷].

و قال بعض العلماء: (البیان بیانان: بیان اللسان، و بیان البنان، و بیان اللسان تدرسه الأعوام، و بیان الأقلام باق علی مرّ الأیّام)[۵۰۸].

و قالوا أیضا: (إنّ قوام امور الدین و الدنیا بشیئین: القلم و السیف، و السیف تحت القلم)[۵۰۹].

و قد نظّم بعض شعراء العرب هذا المعنی بقولهم:

کذا قضی اللّه للأقلام مذ بریتأنّ السیوف لها مذ أرهفت خدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۳

(إنّ هذا التعبیر إشارة بدیعة إلی بری القلم بواسطة السکین، و جعل الشفرة الحادّة بخدمة القلم من البدایة)[۵۱۰].

و یقول شاعر آخر، فی هذا الصدد و من وحی الآیات مورد البحث:

إذا أقسم الأبطال یوما بسیفهمو عدوّه ممّا یجلب المجد و الکرم

کفی قلم الکتاب فخرا و رفعةمدی الدهر إنّ اللّه أقسم بالقلم ۵۱۱]

و إنّه لحقّ، و ذلک أنّه حتّی الانتصارات العسکریة إذا لم تستند و ترتکز علی ثقافة قویّة فإنّها لن تستقیم طویلا. لقد سجلّ المغول أکبر الانتصارات العسکریة فی البلدان الإسلامیة، و لأنّهم کانوا شعبا سطحیا فی مجال المعرفة و الثقافة فلم یؤثّروا شیئا، و أخیرا اندمجوا فی حضارة الإسلام و ثقافة المسلمین و غیّروا مسارهم.

و مجال البحث فی هذا الباب واسع جدّا، إلّا أنّنا- التزاما بمنهج التّفسیر و عدم الخروج عنه- ننهی کلامنا هنا بحدیث معبّر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا الموضوع حیث

یقول: «ثلاثة تخرق الحجب، و تنتهی إلی ما بین یدی اللّه: صریر أقلام العلماء، و وطئ أقدام المجاهدین، و صوت مغازل المحصنات»[۵۱۲].

و من الطبیعی أنّ کلّ ما قیل فی هذا الشأن، یتعلّق بالأقلام التی تلتزم جانب الحقّ و العدل، و تهدی إلی صراط مستقیم، أمّا الأقلام المأجورة و المسمومة و المضلّة، فإنّها تعتبر أعظم بلاء و أکبر خطر علی المجتمعات الإنسانیة.

۲- نموذج من أخلاق الرّسول

بالرغم من أنّ الانتصارات التی تمّت علی ید الرّسول محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۴

برعایة اللّه سبحانه و إمداده، إلّا أنّ ذلک کان اقترانا بعوامل عدیدة أیضا، و لعلّ أحد أهمّ هذه العوامل هو: سمو الأخلاق عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جاذبیته الشخصیة، إنّ أخلاقیته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت من العلو و الصفات الإنسانیة السامیة لدرجة أنّ ألدّ أعدائه کان یقع تحت تأثیرها کما أنّ مکارم الأخلاق التی أودعت فیه کانت تجذب و تشدّ المحبّین و المریدین إلیه بصورة عجیبة.

و إذا ما ذهبنا إلی القول بأنّ السمو الأخلاقی لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان معجزة أخلاقیة، فإنّنا لا نبالغ فی ذلک، کما سنوضّح لذلک نموذجا من هذا الإعجاز الأخلاقی .. ففی فتح مکّة و عند ما استسلم المشرکون أمام الإرادة الإسلامیة، و رغم کلّ حربهم للإسلام و المسلمین و شخص الرّسول الکریم بالذات، و بعد تمادیهم اللئیم و کلّ ممارساتهم الإجرامیة ضدّ الدعوة الإلهیة .. بعد کلّ هذا الذی فعلوه، فإنّ رسول الإنسانیة أصدر أمرا بالعفو العامّ عنهم جمیعا، و غضّ الطرف عن جمیع الجرائم التی صدرت منهم، و کان هذا مفاجأة للمقرّبین و البعیدین، الأصدقاء و الأعداء، و کان سببا فی دخولهم فی دین اللّه أفواجا، بمصداق قوله تعالی: وَ رَأَیْتَ النَّاسَ یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اللَّهِ أَفْواجاً.

لقد وردت فى كتب التّفسير و التاريخ قصص كثيرة حول حسن خلق الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى عفوه و تجاوزه و عطفه و رأفته، و تضحيته و إيثاره و تقواه ... بحيث أنّ ذكرها جميعا يخرجنا عن البحث التّفسيرى .. إلّا أنّنا سنكتفى بما يلى:

و

جاء فى حديث عن الحسين بن على عليه السّلام أنّه قال: سألت أبى أمير المؤمنين عن رسول اللّه كيف كان سيرته فى جلسائه؟ فقال: كان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظّ، و لا غليظ و لا صخّاب، و لا فحّاش، و لا عيّاب، و لا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهى، فلا يؤيّس منه و لا يخيب فيه مؤمّليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء و الإكثار و ما لا يعنيه، و ترك الناس من ثلاث كان لا يذمّ أحدا و لا يعيّره، و لا يطلب عثراته و لا عورته و لا يتكلّم إلّا فى ما رجا ثوابه، إذا تكلّم أطرق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۵

جلساؤه كأنّما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا، و لا يتنازعون عنده الحديث ...»[۵۱۳].

نعم لو لم تكن هذه الأخلاق الكريمة و هذه الملكات الفاضلة، لما أمكن تطويع تلك الطباع الخشنة و القلوب القاسية، و لما أمكن تليين أولئك القوم الذين كان يلفّهم الجهل و التخلّف و العناد، و يحدث فيهم انعطافا هائلا لقبول الإسلام ..

و لتفرّق الجميع من حوله بمصداق قوله تعالى: لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

و كم كان رائعا لو أحيينا و التزمنا بهذه الأخلاق الإسلامية القدوة، و كان كلّ منّا يحمل قبسا من إشعاع خلق و أخلاق رسولنا الكريم و خاصّة فى عصرنا هذا حيث ضاعت فيه القيم، و تنكبّ الناس عن الخلق القويم.

و الروايات فى هذا الصدد كثيرة، سواء ما يتعلّق منها حول شخص الرّسول الكريم أو ما يتعلّق بواجب المسلمين فى هذا المجال، و نستعرض الآن بعضا من الروايات فى هذا الموضوع.

۱-

جاء فى حديث أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[۵۱۴].

و لذا فإنّ أحد الأهداف الأساسية لبعثة الرّسول السعى لتكامل الأخلاق الفاضلة و تركيز الخلق السامى.

۲- و

جاء فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل و صائم النهار»[۵۱۵].

۳- و

ورد عنه أيضا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما من شىء أثقل فى الميزان من خلق حسن»[۵۱۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۶

۴- و

نقل عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «أحبّكم إلى اللّه أحسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون و يؤلّفون. و أبغضكم إلى اللّه المشاءون بالنميمة، المفرّقون بين الإخوان، الملتمسون للبراء العثرات»[۵۱۷].

۵- و نقرأ

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أكثر ما يدخل الناس الجنّة تقوى اللّه و حسن الخلق»[۵۱۸].

۶- و

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: (إنّ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا»[۵۱۹].

۷- و

ورد حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «عليكم بحسن الخلق، فإنّ حسن

الخلق فی الجنّة لا محالة، و إیّاکم و سوء الخلق، فإنّ سوء الخلق فی النار لا محالة»[۵۲۰].

إنّ ما یستفاد من مجموع الأخبار- أعلاه- بشکل واضح و جلیّ، أنّ حسن الخلق مفتاح الجنّة، و وسیلة لتحقیق مرضاة اللّه عزّ و جلّ، و مؤشّر على عمق الإیمان، و مرآة للتقوى و العبادة .. و الحدیث فی هذا المجال کثیر جدّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۷

الآیات [سورة القلم (۶۸): الآیات ۸ الى ۱۶]

اشارة

فَلا تُطِعِ الْمُکَذِّبِینَ (۸) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَیُدْهِنُونَ (۹) وَ لا تُطِعْ کُلَّ حَلَّافٍ مَهِینٍ (۱۰) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِیمٍ (۱۱) مَنَّاعٍ لِلْخَیْرِ مُعْتَدٍ أَثِیمٍ (۱۲) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِکَ زَنِیمٍ (۱۳) أَنْ کانَ ذا مالٍ وَ بَنِینَ (۱۴) إِذا تُتْلى عَلَیْهِ آیاتُنا قالَ أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۱۵) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (۱۶)

التّفسیر

اجتنب أصحاب هذه الصفات:

بعد أن تعرّضت الآیات السابقة إلى الأخلاق السامیة لرسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم، تلتها الآیات أعلاه مستعرضة أخلاق أعدائه لیتّضح لنا الفرق بین الأخلاقیتین، و ذلک من خلال المقارنة بینهما.

یقول تعالى فی البدایة: فَلا تُطِعِ الْمُکَذِّبِینَ

إنّهم أناس ضالّون، و یدفعون الآخرین للتکبر على اللّه و رسوله، و ینهونهم عن قبول مبدأ الهدایة، و قد استهانوا، و استخفّوا بقیم الحقّ، و إنّ الطاعة و الاستجابة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۸

لهؤلاء سوف لن تکون نتیجتها إلّا الضلال و الخسران.

ثمّ یشیر تعالى إلى جهد هؤلاء المتواصل فی إقناع الرّسول صلّى اللّه علیه و آله و سلّم بمصالحتهم و الإعراض عن آلهتهم و ضلالهم فیقول: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَیُدْهِنُونَ

إنّ من أمانیهم و رغبتهم أن تلین و تنعطف باتّجاههم، و تغضّ الطرف عن تکلیفک الرسالی من أجلهم.

و نقل المفسّرون أنّ هذه الآیات نزلت حینما دعا رؤساء مکّة و ساداتها رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم للسیر على نهج أجدادهم فی الشرک باللّه و عبادة الأوثان، و قد نهى اللّه تعالى رسوله الکریم عن الاستجابة لهم و إطاعتهم ۵۲۱].

و نقل البعض الآخر أنّ (الولید بن المغیرة) و کان أحد زعماء الشرک قد عرض على رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم أموالا طائلة، و حلف أنّه سیعطیها ل (محمّد) إذا تخلّى عن مبدئه و دینه ۵۲۲].

و الذی یستفاد من لحن الآیات- بصورة واضحة- و ممّا جاء فی التواریخ، أنّ المشرکین الذین أعمى اللّه بصیرتهم، عند ما شاهدوا التقدّم السریع للإسلام و انتشاره، حاولوا إعطاء رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم بعض المکاسب فی مقابل تقدیم تنازلات مماثلة، فی محاولة لترتیب نوع من الصلح معه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم. و هذا هو منهج أهل الباطل- دائما- فی الظروف و الأحوال التی یشعرون فیها أنّهم سیخسرون کلّ شیء و یفقدون مواقفهم، لذا فإنّهم اقترحوا علیه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم إعطاءه أموالا طائلة، کما اقترحوا تزویجه بأجمل بناتهم، کما عرضوا علیه جاها و مقاما و ملکا بارزا، و ما إلى ذلک من امور کانوا متعلّقین بها و

متفاعلین معها و متهالکین علیها، و یقیسون الرّسول بقیاسها».

إلّا أنّ القرآن الکریم حذّر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرارا من مغبّة إبداء أی تعاطف مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۹

عروضهم و اقتراحاتهم الماکرة و أکّد علی عدم مداهنة أهل الباطل أبدا.

کما جاء فی قوله تعالی: وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکَ

«یدهنون» من مادّة (مداهنة) مأخوذة فی الأصل (الدهن) و تستعمل الکلمة فی مثل هذه الموارد بمعنی إظهار اللین و المرونة، و فی الغالب یستعمل هذا التعبیر فی مجال إظهار اللین و المیل المذموم کما فی حالة النفاق.

ثمّ ینهی سبحانه مرّة اخری عن اتّباعهم و طاعتهم، حیث یسرد الصفات الذمیمة لهم، و التی کلّ واحدة منها یمکن أن تکون وحدها سببا للابتعاد عنه و الصدود عن الاستجابة لهم.

یقول تعالی: وَ لا تُطِعْ کُلَّ حَلَّافٍ مَهِینٍ

تقال کلمة «حلّاف» علی الشخص الکثیر الحلف، و الذی یحلف علی کلّ صغیرة و کبیرة، و هذا النموذج فی الغالب لا یتّسم بالصدق، و لذا یحاول أن یطمئن الآخرین بصدقه من خلال الحلف و القسم.

«مهین» من (المهانة) بمعنی الحقارة و الضّعة، و فسّرها البعض بأنّها تعنی الأشرار أو الجهلة أو الکاذبین.

ثمّ یضیف عزّ و جلّ: هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِیمٍ

«همّاز» من مادّة (همز)، (علی وزن رمز) و یعنی: الغیبة و استقصاء عیوب الآخرین.

«مشّاء بنمیم» تطلق علی الشخص الذی یمشی بین الناس بإیجاد الإفساد و الفرقة، و إیجاد الخصومة و العداء فیما بینهم (و ممّا یجدر الالتفات إلیه أنّ هذین الوصفین وردا بصیغة المبالغة، و التی تحکی غایة الإصرار فی العمل و الاستمرار بهذه الممارسات القبیحة).

ثمّ یسرد تعالی أوصافا اخری لهم، حیث یقول فی خامس و سادس و سابع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۰

صفة ذمیمة لأخلاقهم: مَنَّاعٍ لِلْخَیْرِ مُعْتَدٍ أَثِیمٍ

و من صفاتهم أیضا أنّهم لیسوا فقط مجانبین لعمل الخیر، و لا یسعون فی سبیله، و لا یساهمون فی إشاعته و العون علیه .. بل إنّهم یقفون سدّا أمام أی ممارسة تدعو إلیه، و یمنعون کلّ جهد فی الخیر للآخرین، و بالإضافة إلی ذلک فإنّهم متجاوزون لکلّ السنن و الحقوق التی منحها اللّه عزّ و جلّ لکلّ إنسان ممّا تلطف به من خیرات و برکات علیه.

و فوق هذا فهم مدنسون بالذنوب، محتطبون للآثام، بحیث أصبح الذنب و الإثم جزءا من شخصیاتهم و طباعهم التی هی منّاعة للخیر، معتدیة و آثمة.

و أخیرا یشیر إلی ثامن و تاسع صفة لهم حیث یقول تعالی: عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِکَ زَنِیمٍ

«عتل» کما یقول الراغب فی المفردات: تطلق علی الشخص الذی یأکل کثیرا و یحاول أن یستحوذ علی کلّ شیء، و یمنع الآخرین منه.

و فسّر البعض الآخر کلمة (عتلّ) بمعنی الإنسان السیء الطبع و الخلق، الذی تتمثّل فیه الخشونة و الحقد، أو الإنسان سیء الخلق عدیم الحیاء.

«زنیم» تطلق علی الشخص المجهول النسب، و الذی ینتسب لقوم لا نسبة له معهم، و هی فی الأصل من (زنمة)، (علی وزن عظمة) و تقال للجزء المتدلّی من اذن الغنم، فکأنّها لیست من الاذن مع أنّها متصلة بها.

و التعبیر بشکل عام إشارة إلی أنّ هاتین الصفتین هما أشدّ قبحا و ضعة من الصفات السابقة کما استفاد ذلک بعض المفسّرین.

و خلاصة البحث أنّ اللّه تعالى قد أوضح السمات الأساسية للمكذّبين، و بيّن صفاتهم القبيحة و أخلاقهم الذميمة بشكل لا نظير له فى القرآن بأجمعه، و بهذه الصورة يوضّح لنا أنّ الأشخاص الذين وقفوا بوجه الإسلام و القرآن، و عارضوا الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا من أخسّ الناس و أكثرهم كذبا و انحطاطا و خسّة، فهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۱

يتتبعون عيوب الآخرين، نمّامون، معتدون، آثمون، ليس لهم أصل و نسب، و فى الحقيقة أنّنا لا نتوقّع أن يقف بوجه النور الرسالى إلّا أمثال هؤلاء الأشرار.

و يحذّر سبحانه فى الآية اللاحقة من الاستجابة لهم و التعامل معهم بسبب كثرة أموالهم و أولادهم: بقوله: أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ بَنِينَ

و ممّا لا شكّ فيه أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن ليستسلم لهؤلاء أبدا، و هذه الآيات ما هى إلّا تأكيد على هذا المعنى، كى يكون خطّه الرسالى و طريقته العملية واضحة للجميع، و لن تنفع جميع الإغراءات الماديّة فى عدوله عن مهمّته الرسالية.

و بناء على هذا فإنّ الجملة أعلاه تأتى تكملة للآية الكريمة: وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ

إلّا أنّ البعض اعتبر ذلك بيانا و علّة لظهور هذه الصفات السلبية، حيث الغرور الناشئ من الثروة و كثرة الأولاد جرّهم و دفعهم إلى مثل هذه الرذائل الأخلاقية.

و لهذا يمكن ملاحظة هذه الصفات فى الكثير من الأغنياء و المقتدرين غير المؤمنين. إلّا أنّ لحن الآيات يتناسب مع التّفسير الأوّل أكثر، و لهذا اختاره أغلب المفسّرين.

و توضّح الآية اللاحقة ردود فعل هؤلاء الأشخاص ذوى الصفات الأخلاقية المريضة إزاء الآيات الإلهية، حيث يقول تعالى: إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ

و بهذا المنطق السقيم و الحجج الواهية يعرض عن آيات اللّه عزّ و جلّ، فيضلّ و يغوى و يدعو الآخرين للغى و الضلال، و لهذا يجب عدم الاستجابة لهؤلاء و عدم السماع لهم فى مثل هذه الأمور، و الإعراض عنهم و عدم طاعتهم، و هذا تأكيد للنهى عن طاعتهم الذى تعرّضت إليه الآيات السابقة.

و توضّح لنا آخر آية- من هذه الآيات- مفردة من مفردات الجزاء الذى سيلاقيه أمثال هؤلاء فيضيف سبحانه: سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ

و هذا التعبير كاشف و معبّر عن سوء النهاية المذلّة لهؤلاء، إذ جاء التعبير أوّلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۲

بالخرطوم الذى يستعمل للفيل و للخنزير فقط، و هو دلالة واضحة فى تحقيرهم.

و ثانيا: أنّ الأنف فى لغة العرب غالبا ما يستعمل كناية عن العزّة و العظمة، كما يقال للفارس حين إذلاله: مرّغوا أنفه بالتراب، كناية عن زوال عزّته.

و ثالثا: أنّ وضع العلّامة تكون عادة للحيوانات فقط، بل حتّى بالنسبة إلى الحيوانات فإنّها لا تعلّم فى وجوهها- خصوصا أنوفها- أضف إلى ذلك أنّ الإسلام قد نهى عن مثل هذا العمل.

و مع كلّ ما تقدّم تأتى الآية الكريمة ببيان معبّر واف و واضح أنّ اللّه تعالى سيذلّ هؤلاء الطغاة الذين امتلؤا عجبا بذواتهم، المتمادين فى عنادهم و إصرارهم على الباطل، و تجاوزهم على الرّسول و الرسالة .. سيذلّهم بتلك الصورة التى تحدّثت عنها الآية و يفضحهم على رؤوس الأشهاد ليكونوا موضع عبرة للجميع.

إنّ التاريخ الإسلامى ينقل لنا كثيرا من صور الإذلال و الامتهان لأمثال هذه المجموعة المخالفة للحقّ المعاندة فى ضلالها، المكابرة فى تمسّكها بالباطل، بالرغم من تقدّم الرسالة الإسلامية و قوّتها و انتصاراتها، كما أنّ فضيحتهم فى الآخرة ستكون أدهى و أمرّ.

قال بعض المفسّرين: إنّ أكثر آيات هذه السورة كان يقصد بها (الوليد بن المغيرة) أحد رموز الشرك الذى واجه الإسلام و تعرّض

لرسوله الأمين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ من المسلّم به أنّ هذا القصد، لا يمنع من تصميم و توسعة مفهوم الآيات الكريمة و شموليته ۵۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۳

بحثان

۱- الرذائل الأخلاقية

بالرغم من أنّ الآيات أعلاه تحدّثت عن الصفات الأخلاقية الرذيلة للمخالفين و المعاندين لرسول الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّها فى الوقت نفسه تعكس لنا نماذج و مفردات للصفات السلبية التى تبعد الإنسان عن اللّه عزّ و جلّ، و تسقطه فى وحل الشقاء و البؤس، ممّا يستدعى من المؤمنين الملتزمين أن يكونوا على حذر منها و يراقبوا أنفسهم بدقّة من التلوّث بها، و لذا فقد أكّدت الروايات الإسلامية كثيرا على هذا المعنى. و من جملة ذلك ما يلى:

۱- نقرأ

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ألا أنبّئكم بشراركم؟ قالوا:

بلى يا رسول اللّه، قال: المشّاءون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباعثون للبرءاء المعايب»[۵۲۴].

لقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤكّد كثيرا على البناء الأخلاقى للشخصية الإسلامية، حتّى أنّه

قال: «لا يبلّغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا، فإنّى أحبّ أن أخرج إليكم و أنا سليم الصدر»[۵۲۵].

۲- و أخيرا نقرأ

فى حديث عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا يدخل الجنّة جواظ، و لا جعظرى، و لا عتل زنيم».

يقول الراوى: قلت: فما الجواظ؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: كلّ جمّاع منّاع، قلت: فما الجعظرى؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الفضّ الغيظ؟ قلت: فما العتل الزنيم؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: رحب الجوف سىء الخلق أكول شروب غشوم ظلوم»[۵۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۴

۲- المداهنة و الصلح

إنّ من جملة الخصائص التى يتميّز بها تجّار السياسة، و الأشخاص و المجاميع غير الرسالية، أنّهم يتلوّنون و يتصرّفون بالشكل الذى يتماشى مع مصالحهم، فلا ضوابط و لا ثوابت تحكمهم، بل هم على استعداد دائم للتنازل عن كثير من الشعارات المدعاة من جانبهم، مقابل تحقيق بعض المكاسب أو الحصول على بعض الامتيازات. أمّا متبنّياتهم المدعاة فلا تشكّل شيئا مقدسا بالنسبة إليهم، و يحوّرونها بما تقتضيه مصالحهم، و هذا المفهوم هو ما تشير إليه الآية الكريمة حيث يقول تعالى: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ

أمّا أهل المبادئ و الالتزام فإنّهم لا يضحّون بأهدافهم المقدّسة مطلقا و لا يساومون عليها أو يداهنون أبدا، و لن يتخلّوا عن متبنّياتهم و يقوموا بعمل أو صلح على خلاف ما تمليه عليهم مبادئهم العقائدية، خلافا لما عليه تجّار السياسة ..

إنّ هذا المقياس من أفضل الدلائل لتشخيص السياسيين المنحرفين عن غيرهم من المبدئيين، و الأشخاص الذين يسايرون هؤلاء

المنحرفین لا شکّ أنّهم بعیدون عن طریق اللّه و أولیائه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۵

الآیات [سورة القلم (۶۸): الآیات ۱۷ الی ۲۵]

اشارة

إِنَّا بَلَوْناهُمْ کَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّها مُصْبِحِینَ (۱۷) وَ لا یَسْتَثْنُونَ (۱۸) فَطافَ عَلَیْها طائِفٌ مِنْ رَبِّکَ وَ هُمْ نائِمُونَ (۱۹) فَأَصْبَحَتْ کَالصَّرِیمِ (۲۰) فَتَنادَوْا مُصْبِحِینَ (۲۱)

أَنِ اغْدُوا عَلی حَرْثِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صارِمِینَ (۲۲) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ یَتَخافَتُونَ (۲۳) أَنْ لا یَدْخُلَنَّهَا الْیَوْمَ عَلَیْکُمْ مِسْکِینٌ (۲۴) وَ غَدَوْا عَلی حَرْدٍ قادِرِینَ (۲۵)

التّفسیر

قصّة (أصحاب الجنّة):

فی الآیات أعلاه یستعرض لنا القرآن الکریم- بما یتناسب مع البحث الذی ورد فی الآیات السابقة- قصّة أصحاب الجنّة کنموذج لذوی المال الذین غرقوا فی أنانیتهم، فأصابهم الغرور، و تخلّوا عن القیم الإنسانیة الخیّرة، و أعماهم حبّ المال عن کثیر من الفضائل .. فالآیات الکریمة تذکر لنا قصّة مجموعة من الأغنیاء کانت لهم جنّة (بستان مثمر) إلّا أنّهم فقدوها فجأة، و ذلک لعتوّهم و غرورهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۶

و کبرهم علی فقراء زمانهم.

و یبدو أنّها قصّة معروفة فی ذلک الزمان بین الناس، و لهذا السبب استشهد بها القرآن الکریم.

یقول فی البدایة: إِنَّا بَلَوْناهُمْ کَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ.

لقد تعدّدت الرّوایات فی مکان هذه الجنّة، فقیل: إنّها فی أرض الیمن بالقرب من صنعاء، و قیل: هی فی الحبشة، و هناک قول بأنّها فی أرض الشام، و ذهب آخرون إلی أنّها فی الطائف .. إلّا أنّ المشهور أنّها کانت فی أرض الیمن.

و موضوع القصّة هو: أنّ شیخا مؤمنا طاعنا فی السنّ کان له بستان عامر، یأخذ من ثمره کفایته و یوزّع ما فضل من ثمرته للفقراء و المعوزین، و قد ورثه أولاده بعد وفاته، و قالوا: نحن أحقّ بحصاد ثمار هذا البستان، لأنّ لنا عیالا و أولادا کثیرین، و لا طاقة لنا باتّباع نفس الأسلوب الذی کان أبونا علیه .. و لهذا فقد صمّموا علی أن یستأثروا بثمار البستان جمیعا، و یحرموا المحتاجین من أی عطاء منها، فکانت عاقبتهم کما تحدّثنا الآیات الکریمة عنه ..

یقول تعالی: إِذْ أَقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّها مُصْبِحِینَ ۵۲۷].

وَ لا یَسْتَثْنُونَ أی لا یترکون منها شیئا للمحتاجین.

و عند التدقیق فی قرارهم هذا یتّضح لنا أنّ تصمیمهم هذا لم یکن بلحاظ الحاجة أو الفاقة، بل إنّه ناشئ عن البخل و ضعف الإیمان، و اهتزاز الثقة باللّه سبحانه، لأنّ الإنسان مهما اشتدّت حاجته، فإنّه یستطیع أن یترک للفقراء شیئا ممّا أعطاه اللّه.

و قیل: إنّ المقصود من عدم الاستثناء هو عدم قولهم (إن یشاء اللّه) حیث کان الغرور مسیطرا علیهم، ممّا حدا بهم إلی أن یقولوا: غدا سنذهب و نفعل ذلک،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۷

معتبرین الأمر مختصّا بهم، و غافلین عن مشیئة اللّه، و لذا لم یقولوا: (إن شاء اللّه).

إلّا أنّ الرأی الأوّل أصحّ ۵۲۸].

ثمّ یضیف تعالی استمرارا لهذا الحدیث: فَطافَ عَلَیْها طائِفٌ مِنْ رَبِّکَ وَ هُمْ نائِمُونَ

لقد سلّط اللّه علیها نارا حارقة، و صاعقة مهلکة، بحیث أنّ جنّتهم صارت متفحّمة سوداء فَأَصْبَحَتْ کَالصَّرِیمِ و لم یبق منها شیء سوی الرماد.

«طائف» من مادّة (طواف)، و هی فی الأصل بمعنی الشخص الذی یدور حول شیء معیّن، کما تستعمل أحیانا کنایة عن البلاء و المصیبة التی تحلّ فی اللیل، و هذا المعنی هو المقصود هنا.

«صریم» من مادّة (صرم) بمعنی (القطع) و هنا بمعنی (اللیل المظلم) أو (الشجر بدون الثمار) أو (الرماد الأسود) لأنّ اللیل یقطع عند مجیء النهار، کما أنّ النهار یقطع عند مجیء اللیل، و لذا یقال أحیانا للیل و النهار (صریمان)، و المقصود بذلک هو: البلاء السماوی الذی تمثّل بصاعقة عظیمة- فیما یبدو- أحالت البستان إلی فحم و رماد أسود، و هکذا فعل الصواعق غالبا.

و علی کلّ حال فإنّ أصحاب البستان بقوا علی تصوّرهم لأشجار جنّتهم المملوءة بالثمر، جاهزة للقطف: فَتَنادَوْا مُصْبِحِینَ ۵۲۹].

و قالوا: أَنِ اغْدُوا عَلی حَرْثِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صارِمِینَ

« (أغدوا» من مادّة (غدوة) بمعنی بدایة الیوم، و لذا یقال للغذاء الذی یؤکل فی أوّل الیوم- وجبة الإفطار- غداء، بالرغم من أنّ (غداء) تقال فی التعابیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۸

المستعملة حالیا لوجبة الأکل المتناولة فی وقت الظهر.

و علی ضوء المقدّمات السابقة: فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ یَتَخافَتُونَ

لقد کانوا یتکلّمون بهدوء حتّی لا یصل صوتهم إلی الآخرین، و لا یسمعهم مسکین، و یأتی لمشارکتهم فی عملیة جنی الثمر أو تناول شیء من الفاکهة.

و یرتقب الفقراء یوم الحصاد بفارغ الصبر فی مثل هذه الأیّام، لأنّهم تعوّدوا فی کلّ سنة أن ینالهم شیء من الفاکهة کما کان یفعل ذلک الشیخ المؤمن، إلّا أنّ تصمیم الأبناء البخلاء علی حرمان الفقراء من العطاء، و السریّة التی غلفوا بها تحرّکاتهم، لم تدع أحدا یتوقّع أنّ وقت الحصاد قد حان .. حیث یطّلع الفقراء علی الأمر بعد انتهائه، و بهذا تکون النتیجة: وَ غَدَوْا عَلی حَرْدٍ قادِرِینَ

«حرد» علی وزن «فرد» بمعنی الممانعة التی تکون توأما مع الشدّة و الغضب، نعم إنّهم کانوا فی حالة عصبیة و انفعالیة من حاجة الفقراء لهم و انتظار عطایاهم، و لذا کان القرار بتصمیم أکید علی منعهم من ذلک.

و تطلق کلمة (حرد) أیضا علی السنوات التی ینقطع فیها المطر، و علی الناقة التی ینقطع حلیبها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۹

الآیات [سورة القلم (۶۸): الآیات ۲۶ الی ۳۳]

اشارة

فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (۲۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۲۷) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ (۲۸) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ (۲۹) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلی بَعْضٍ یَتَلاوَمُونَ (۳۰)

قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (٣١) عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (٣٢) كَذلِكَ الْعَذابُ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

التّفسير

أصحاب البستان و المصير المؤلم:

الآيات الشريفة- أعلاه- استمرار لقصّة أصحاب الجنّة، التى مرّت علينا فى الآيات السابقة .. فلقد تحرّكوا فى الصباح الباكر على أمل أن يقطفوا محصولهم الكثير، و يستأثروا به بعيدا عن أنظار الفقراء و المحتاجين، و لا يسمحوا لأى أحد من الفقراء بمشاركتهم فى هذه النعمة الإلهية الوافرة، غافلين عن تقدير اللّه ... فإذا بصاعقة مهلكة تصيب جنّتهم فى ظلمة الليل فتحوّلها إلى رماد، فى وقت كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٥٤٠

أصحاب الجنّة يغطّون فى نوم عميق.

يقول القرآن الكريم: فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ

المقصود من (ضالّون) يمكن أن يكون عدم الاهتداء إلى طريق البستان أو الجنّة، أو تضييع طريق الحقّ كما احتمل البعض، إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب حسب الظاهر.

ثمّ أضافوا: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى أردنا أن نحرم الفقراء و المحتاجين من العطاء إلّا أنّنا حرمنا أكثر من الجميع، حرمنا من الرزق المادّى، و من البركات المعنوية التى تحصل عن طريق الإنفاق فى سبيل اللّه للفقراء و المحتاجين.

قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ

ألم أقل لكم اذكروا اللّه بالتعظيم و تجنّبوا مخالفته و اشكروا نعمته و امنحوا المحتاجين شيئا ممّا تفضّل اللّه به عليكم؟! لكنّكم لم تصغوا لما قلته لكم، و أخيرا وصلتم إلى هذه النتيجة البائسة فى هذا اليوم الأسود.

و يستفاد ممّا تقدّم أنّ أحدهم كان شخصا مؤمنا ينهاهم عن البخل و الحرص، إلّا أنّهم كانوا لا يسمعون كلامه، و لقد أفصح عن رأيه بقوّة بعد هذه الحادثة، و أصبح منطقه أكثر حدّة و قاطعية. و قد وبّخهم كثيرا على موقفهم من الفقراء، و وجّه لهم ملامة عنفية.

و تستيقظ ضمائرهم فى تلك اللحظة و يعترفون بخطئهم و ذنوبهم و قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ

إنّ التعبير ب (أوسطهم) فى الآية السابقة يمكن أن يكون بلحاظ حدّ الاعتدال فى العقل و الفكر و العلم و قيل: إنّه الوسط فى السنّ و العمر. إلّا أنّه مستبعد جدّا، و ذلك لعدم وجود ارتباط بين العمر و هذه المقالة الوافية المعبّرة. و الارتباط يكون عادة- بمثل هذا الكلام بين العقل و الفكر.

و التعبير ب لَوْ لا تُسَبِّحُونَ مأخوذ بلحاظ أنّ أصل و جذر كلّ الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ٥٤١

الصالحة هو الإيمان و معرفة اللّه و تسبيحه و تنزيهه.

و قد فسّر البعض «التسبيح» هنا بمعنى (شكر النعمة) و التى من ملازماتها إعانة المحرومين، و هذان التّفسيران لا يتنافيان مع بعضهما البعض، و هما مجموعان فى مفهوم الآية الكريمة.

لقد سبق تسبيحهم (الاعتراف بالذنب)، و لعلّ هذا كان لرغبتهم فى تنزيه اللّه تعالى عن كلّ ظلم بعيدا عمّا نزّل بجنّتهم من دمار و بلاء عظيم، و كأنّ لسان حالهم يقول: ربّنا إنّنا كنّا نحن الظالمين لأنفسنا و للآخرين، و لذا حقّ علينا مثل هذا العذاب، و ما أصابنا منك هو

العدل و الحکمة.

کما یلاحظ فی قسم آخر من آیات القرآن الکریم- أیضا- أنّ التسبیح قبل الإقرار بالظلم، حیث نقرأ ذلک فی قصّة یونس علیه السّلام عند ما أصبح فی بطن الحوت، و ذلک قوله: لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظَّالِمِینَ ۵۳۰].

و الظلم بالنسبة لهذا النبی العظیم هو بمعنی ترک الأولی، کما أوضحنا ذلک فی تفسیر هذه الآیة.

إلّا أنّ المسألة لم تنته إلی هذا الحدّ، حیث یقول تعالی: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلی بَعْضٍ یَتَلاوَمُونَ

و الملاحظ من منطوق الآیة أنّ کلّ واحد منهم فی الوقت الذی یعترف بذنبه، فإنّه یلقی بأصل الذنب علی عاتق الآخر، و یوبّخه بشدّة، و أنّه کان السبب الأساس فیما و صلوا إلیه من نتیجة بائسة مؤلمة، و کلّ منهم- أیضا- یؤکّد أنّه لم یکن غریبا عن اللّه و العدالة إلی هذا الحدّ.

نعم، هکذا تکون عاقبة کلّ الظالمین عند ما یصبحون فی قبضة العذاب الإلهی.

و مع الإقرار بالذنب فإنّ کلا منهم یحاول التنصّل ممّا لحق بهم، و یسعی جاهدا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۲

لتحویل مسئولیة البؤس و الدمار علی الآخرین.

و یحتمل أن یکون شعور کلّ منهم- أو غالبیتهم- بالأدوار المحدودة لهم فیما حصل، هو الذی دفع کلا منهم للتخلّی عن مسئولیة ما حصل، و ذلک کأن یقترح شخص شیئا، و یؤیّده الآخر فی هذا الاقتراح، و یتبنّی ثالث هذا العمل، و یظهر الرابع رضاه بسکوته .. و من الواضح فی مثل هذه الأحوال مساهمة الجمیع فی هذه الجریمة و مشارکتهم فی الذنب.

ثمّ یضیف تعالی: قالُوا یا وَیْلَنا إِنَّا کُنَّا طاغِینَ

لقد اعترفوا فی المرحلة السابقة بالظلم، و هنا اعترفوا بالطغیان، و الطغیان مرحلة أعلی من الظلم، لأنّ الظالم یمکن أن یستجیب لأصل القانون إلّا أنّ غلبة هواه علیه یدفعه إلی الظلم، أمّا الطاغی فإنّه یرفض القانون و یعلن تمرّده علیه و لا یعترف برسمیّته.

و یحتمل أن یکون المقصود بالظلم هو: (ظلم النفس)، و المقصود بالطغیان هو (التجاوز علی حقوق الآخرین).

و ممّا یجدر ملاحظته أنّ العرب تستعمل کلمة (ویس) عند ما یواجهون مکروها و یعبّرون عن انزعاجهم منه، کما أنّهم یستعملون کلمة (ویح) أحیانا، و أحیانا اخری (ویل) و عادة یکون استعمال الکلمة الاولی فی المصیبة البسیطة، و الثانیة للأشدّ، و الثالثة للمصیبة الکبیرة، و استعمال کلمة (الویل) من قبل أصحاب البستان یکشف عن أنّهم کانوا یعتبرون أنفسهم مستحقّین لأشدّ حالات التوبیخ.

و أخیرا- بعد عودة الوعی إلی ضمائرهم و شعورهم. بل و اعترافهم بالذنب و الإنابة إلی اللّه- توجّهوا إلی البارئ عزّ و جلّ داعین، و قالوا: عَسی رَبُّنا أَنْ یُبْدِلَنا خَیْراً مِنْها إِنَّا إِلی رَبِّنا راغِبُونَ ۵۳۱] فقد توجّهنا إلیه و نرید منه انفاذنا ممّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۳

تورّطنا فیه ..

و السؤال المطروح هنا: هل أنّ هؤلاء ندموا علی العمل الذی أقدموا علیه، و قرّروا إعادة النظر فی برامجهم المستقبلیة، و إذا شملتهم النعمة الإلهیة مستقبلا فسیؤدّون حقّ شکرها؟ أم أنّهم وبّخوا أنفسهم و کثر اللوم بینهم بصورة موقتة، شأنهم شأن الکثیر من الظالمین الذین یشتدّ ندمهم وقت حلول العذاب، و ما إن یزول الضرّ الذی حاقّ بهم إلّا و نراهم یعودون إلی ما کانوا علیه سابقا من ممارسات مریضة؟

اختلف المفسّرون فی ذلک، و المستفاد من سیاق الآیة اللاحقة أنّ توبتهم لم تقبل، بلحاظ عدم اکتمال شروطها و شرائطها، و لکن یستفاد من بعض الرّوایات قبول توبتهم، لأنّها کانت عن نیّة خالصة، و عوضهم عن جنّتهم بأخری أفضل منها، ملیئة بأشجار العنب المثمرة.

و یقول تعالی فی آخر آیـهٔ من هـذه الآیات، بلحاظ الاسـتفادهٔ من هـذا الدرس و الإعتبار به: کَذلِکَ الْعَذابُ وَ لَعَذابُ الْآخِرَهِٔ أَکْبَرُ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ

و هکـذا توجّه الآیـهٔ خطابها إلی کلّ المغرورین، الذین سـحرهم المال و أبطرتهم الثروهٔ و الإمکانات المادیهٔ، و غلب علیهم الحرص و الاستئثار بکلّ شـیء دون المحتاجین .. بأنّه لن یکون لکم مصیر أفضل من ذلک. و إذا ما جاءت صاعقـهٔ و أحرقت تلک الجنّهٔ، فمن الممکن أن تأتی صاعقـهٔ أو عـذاب علیکم من أمثال الآفات و الحروب المحلیهٔ و العالمیهٔ المدمّرهٔ، و ما إلی ذلک، لتذهب بالنعم التی تحرصون علیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۴

بحثان

۱- الاستئثار بالنعم بلاء عظیم

جبل الإنسان و طبع علی حبّ المال، و یمثّل هـذا الحبّ غریزهٔ فی نفسه، لأنّ له فوائـد شتّی، و هـذا الحبّ غیر مـذموم إذا کان فی حدّ الاعتدال، و جعل نصیب منه للمحتاجین، و هذا لا یعنی الاقتصار علی أداء الحقوق الشرعیهٔ فقط، بل أداء بعض الإنفاقات المستحبّهٔ.

و جاء فی الرّوایات الإسـلامیهٔ ضرورهٔ جعل نصیب للمحتاجین الحاضرین ممّا یقطف من ثمار البساتین و حصاد الزرع. و هذا ما یعرف بعنوان (حقّ الحصاد) و هو مقتبس من الآیهٔ الشریفهٔ: وَ آتُوا حَقَّهُ یَوْمَ حَصادِهِ ۵۳۲]، و هذا الحقّ غیر حقّ الزکاهٔ، و ما یعطی للمحتاجین الحاضرین منه أثناء قطف الثمار أو حصاد الزرع غیر محدود بحدّ معیّن ۵۳۳].

إلّا أنّ التعلّق بالمال حینما یکون بصورهٔ مفرطهٔ و جشـعهٔ فإنّه یأخذ شکلا منحرفا و أنانیا، و قد لا یکون بحاجهٔ إلیه، فحرمان الآخرین و الاستئثار بالأموال و التلـذّذ بحیازهٔ النعم و المواهب الإلهیـهٔ دون سواه، مرض و بلاء کما نلاحظ فی حیاتنا المعاصـرهٔ مفردات و نماذج کثیرهٔ فی مجتمعاتنا البشریهٔ تعیش هذه الحالهٔ.

و قصّهٔ (أصـحاب الجنّهٔ) التی حدّثتنا الآیات السابقهٔ عنها، هی کشف و تعریهٔ واضـحهٔ لهذه النفسیات المریضهٔ لأصحاب الأموال الذین یسـتأثرون بالخیر و النعم و الهبات الإلهیـهٔ، و یؤکّـدون بحصـرها فیهم دون سواهم .. و یتجسّـد هـذا المعنی فی الخطّهٔ التی اعدّت من جانب أصحاب الجنّهٔ فی حرمان المحتاجین، بالتفصیل الذی ذکرته الآیات الکریمهٔ ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۵

و غـاب عن بـالهم أنّ آهات هؤلاء المحرومون تتحوّل فی أحیان کثیرهٔ إلی صواعق محرقـهٔ، تحیل سـعادهٔ هؤلاء الأغنیاء الظالمین إلی وبال، و تظهر هذه الصواعق علی شکل کوارث و مفاجات و ثورات، و یشاهدون آثارها المدمّرهٔ بامّ أعینهم، و یتحوّل ترفهم و بذخهم إلی زفرات و آهات و صرخات تشقّ عنان السماء، معلنین التوبهٔ و الإقلاع عن الممارسات الاستئثاریهٔ، و لات ساعهٔ متاب.

۲- العلاقهٔ بین (الرزق) و (الذنوب)

ممّا یستفاد- ضمنا- من القصّهٔ أعلاه وجود علاقهٔ بین الذنب و الرزق، و ممّا یؤیّد هذا ما

ورد فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّـلام أنّه قال: «إنّ الرجل لیذنب الذنب، فیدرأ عنه الرزق، و تلا هذه الآیهٔ: إِذْ أَقْسَـمُوا لَیَصْرِمُنَّها مُصْبِحِینَ وَ لا یَسْتَثْنُونَ، فَطافَ عَلَیْها طائِفٌ مِنْ رَبِّکَ وَ هُمْ نائِمُونَ ۵۳۴].

و نقل عن ابن عبّاس أيضا أنّه قال: إنّ العلاقة بين الذنب و قطع الرزق، أوضح من الشمس، كما بيّنها اللّه عزّ و جلّ فى سورة ن و القلم ۵۳۵].

الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۳۴ الى ۴۱]

اشارة

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۳۴) أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (۳۵) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۶) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (۳۷) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (۳۸)

أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (۳۹) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (۴۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۴۱)

التّفسير

۱- استجواب كامل:

إنّ طريقة القرآن الكريم فى الكشف عن الحقائق، و استخلاص المواقف، تكون من خلال عملية مقارنة يعرضها اللّه سبحانه فى الآيات الكريمة، و هذا الأسلوب مؤثّر جدّا من الناحية التربوية .. فمثلا تستعرض الآيات الشريفة حياة الصالحين و خصائصهم و ميزاتهم و معاييرهم .. ثمّ كذلك بالنسبة إلى الطالحين و الظالمين، و يجعل كلا منهما فى ميزان، و يسلّط الأضواء عليهما من خلال عملية

مقارنة، للوصول إلى الحقيقة.

و تماشيا مع هذا المنهج و بعد استعراض النهاية المؤلمة ل (أصحاب الجنّة) فى الآيات السابقة، يستعرض البارئ عزّ و جلّ حالة المتّقين فيقول: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

«جنّات» من (الجنّة) حيث كلّ نعمة متصوّرة على أفضل صورة لها تكون هناك، بالإضافة إلى النعم التى لم تخطر على البال.

و لأنّ قسما من المشركين و المترفين كانوا يدّعون علوّ المقام و سموّه فى يوم القيامة كما هو عليه فى الدنيا، لذا فإنّ اللّه يوبّخهم على هذا الادّعاء بشدّة فى الآية اللاحقة. بل يحاكمهم فيقول: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

هل يمكن أن يصدّق إنسان عاقل أنّ عاقبة العادل و الظالم، المطيع و المجرم، المؤثر و المستأثر واحدة و متساوية؟ خاصّة عند ما تكون المسألة عند إله جعل كلّ مجازاته و مكافآته وفق حساب دقيق و برنامج حكيم.

و تستعرض الآية (۵۰) من سورة فصّلت موقف هؤلاء الأشخاص المماثل لما تقدّم، حيث يقول تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي، وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً، وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى

نعم، إنّ الفئة المغرورة المقتنعة بتصرّفاتها الراضية عن نفسها .. تعبر أنّ الدنيا و الآخرة خاصّة بها و ملك لها.

ثمّ يضيف تعالى أنّه لو لم يحكم العقل بما تدعون، فهل لديكم دليل نقلى ورد فى كتبكم يؤيّد ما تزعمون: أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ ۵۳۶] أى ما اخترتم من الرأى ..

إن توقّعكم فى أن تكون العناصر المجرمة من أمثالكم مع صفوف المسلمين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۸

و علی مستواهم ...، حدیث هراء لا یدعمه العقل، و لم یأت فی کتاب یعتدّ به و لا هو موضع اعتبار.

ثمّ تضیف الآیة اللاحقة أنّه لو لم یکن لدیکم دلیل من العقل أو النقل، فهل أخذتم عهدا من اللّه أنّه سیکون معکم إلی الأبد: أَمْ لَکُمْ أَیْمانٌ عَلَیْنا بالِغَةٌ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ إِنَّ لَکُمْ لَما تَحْکُمُونَ

و تتساءل الآیة الکریمة عن هؤلاء مستفسرة عمّن یستطیع الادّعاء منهم بأنّه قد أخذ عهدا من اللّه سبحانه فی الاستجابة لمیوله و أهوائه، و إعطائه ما یشاء من شأن و مقام، و بدون موازین أو ضوابط، و بصورة بعیدة عن مقاییس السؤال و موازین الاستجابة؟ حتّی یمکن القول بأنّ المجرمین متساوون مع المؤمنین ۵۳۷].

و یضیف سبحانه- استمرارا لهذه التساؤلات- کی یسدّ علیهم جمیع الطرق و من کلّ الجهات، فیقول: سَلْهُمْ أَیُّهُمْ بِذلِکَ زَعِیمٌ فمن منهم یضمن أنّ المسلمین و المجرمین سواء، أو یضمن أنّ اللّه تعالی سیؤتیه کلّ ما یرید؟!.

و فی آخر مرحلة من هذا الاستجواب العجیب یقول تعالی: أَمْ لَهُمْ شُرَکاءُ فَلْیَأْتُوا بِشُرَکائِهِمْ إِنْ کانُوا صادِقِینَ

فالآیة تطلب من المشرکین تقدیم الدلیل الذی یثبت أنّ هذه الأصنام المنحوتة من الحجارة، و التی لا قیمة لها و لا شعور، تکون شریکة اللّه تعالی و تشفع لهم عنده.

و ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ (شرکاء) هنا بمعنی (شهداء).

و من خلال العرض المتقدّم نستطیع القول: إنّ هؤلاء المجرمین لإثبات ادّعاءاتهم فی التساوی مع المؤمنین فی یوم القیامة، بل أفضلیتهم أحیانا کما یذهب بعضهم لذلک، لا بدّ لهم أن یدعموا قولهم هذا بإحدی الوسائل الأربعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۹

التالیة: إمّا دلیل من العقل، أو کتاب من الکتب السماویة، أو عهد من اللّه تعالی، أو بواسطة شفاعة الشافعین و شهادة الشاهدین. و بما أنّ جواب جمیع هذه الأسئلة سلبی، لذا فإنّ هذا الادّعاء فارغ من الأساس و لیست له أیّة قیمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۰

الآیات [سورة القلم (۶۸): الآیات ۴۲ الی ۴۵]

اشارة

یَوْمَ یُکْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ فَلا یَسْتَطِیعُونَ (۴۲) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ کانُوا یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ (۴۳) فَذَرْنِی وَ مَنْ یُکَذِّبُ بِهذَا الْحَدِیثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَیْثُ لا یَعْلَمُونَ (۴۴) وَ أُمْلِی لَهُمْ إِنَّ کَیْدِی مَتِینٌ (۴۵)

التّفسیر

العجز عن السجود:

تعقیبا للآیات السابقة التی استجوب اللّه تعالی فیها المشرکین و المجرمین استجوابا موضوعیا، تکشف لنا هذه الآیات جانبا من المصیر البائس فی یوم القیامة لهذه الثلّة المغرمة فی حبّها لذاتها، و المکثرة للادّعاءات، هذا المصیر المقترن بالحقارة و الذلّة و الهوان.

یقول تعالی: یَوْمَ یُکْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ فَلا یَسْتَطِیعُونَ ۵۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۱

جملة يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ كما قال جمع من المفسّرين، كناية عن شدّة الهول و الخوف و الرعب و سوء الحال، إذ أنّ المتعارف بين العرب عند مواجهتهم أمرا صعبا أنّهم يشدّون ثيابهم على بطونهم ممّا يؤدّى إلى كشف سيقانهم.

و نقرأ جواب ابن عبّاس المفسّر المعروف عند ما سئل عن تفسير هذه الآية قال: كلّما خفى عليكم شيء من القرآن ارجعوا إلى الشعر فإنّ الشعر ديوان العرب، أ لم تسمعوا قول الشاعر:

و قامت الحرب بنا على ساق.

إنّ هذا القول كناية عن شدّة أزمة الحرب.

و قيل: إنّ (ساق) تعنى أصل و أساس الشيء، كساق الشجرة، و بناء على هذا فإنّ جملة (يكشف عن ساق) تعنى أنّ أساس كلّ شيء يتّضح و يتبيّن فى ذلك اليوم، إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب حسب الظاهر.

و فى ذلك اليوم العظيم يدعى الجميع إلى السجود للبارئ عزّ و جلّ، فيسجد المؤمنون، و يعجز المجرمون عن السجود، لأنّ نفوسهم المريضة و ممارساتهم القبيحة قد تأصّلت فى طباعهم و شخصياتهم فى عالم الدنيا، و تطفح هذه الخصال فى اليوم الموعود و تمنعهم من إحناء ظهورهم للذات الإلهية المقدّسة.

و هنا يثار سؤال: إنّ يوم القيامة ليس بيوم تكاليف و واجبات و أعمال، فلم السجود؟

يمكن استنتاج الجواب من التعبير الذى ورد فى بعض الأحاديث، نقرأ

فى الحديث التالى عن الإمام الرضا عليه السّلام فى قوله تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ قال: «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجّدا و تدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود»[۵۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۲

و بتعبير آخر: فى ذلك اليوم تتجلّى العظمة الإلهية، و هذه العظمة تدعو المؤمنين للسجود فيسجدون، إلّا أنّ الكافرين حرموا من هذا الشرف و اللطف.

و تعكس الآية اللاحقة صورة جديدة لحالتهم حيث يقول سبحانه: خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ[۵۴۰].

هذه الآية الكريمة تصف لنا حقيقة المجرمين عند ما يدانون فى إجرامهم و يحكم عليهم، حيث نلاحظ الذلّة و الهوان تحيط بهم، و تكون رؤوسهم مطأطئة تعبيرا عن هذه الحالة المهينة.

ثمّ يضيف تعالى: وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ

إلّا أنّهم لن يسجدوا أبدا، لقد صحبوا روح التغطرس و العتوّ و الكبر معهم فى يوم القيامة فكيف سيسجدون؟

إنّ الدعوة للسجود فى الدنيا لها موارد عديدة، فتارة بواسطة المؤذّنين للصلاة الفردية و صلاة الجماعة، و كذلك عند سماع بعض الآيات القرآنية و أحاديث الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام .. و لذا فإنّ الدعوة للسجود لها مفهوم واسع و تشمل جميع ما تقدّم.

ثمّ يوجّه البارئ عزّ و جلّ الخطاب لنبيّه الكريم و يقول: فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ

و هذه اللهجة تمثّل تهديدا شديدا من الواحد القهّار لهؤلاء المكذّبين المتمردين، حيث يخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله: لا تتدخّل، و اتركنى مع هؤلاء، لاعاملهم بما يستحقّونه. و هذا الكلام الذى يقوله ربّ قادر على كلّ شيء،- بالضمن- باعث على اطمئنان الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين أيضا، و مشعرا لهم بأنّ اللّه معهم و سيقتصّ من جميع الأعداء الذين يثيرون المشاكل و الفتن و المؤامرات أمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۳

الرّسول و الرسالة، و لن يتركهم اللّه تعالى على تماديهم.

ثمّ يضيف سبحانه: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إذا أحدث العبد ذنبا جدّد له نعمة فيدع الاستغفار، فهو الاستدراج»[۵۴۱].

و الذى يستفاد من هذا الحديث- و الأحاديث الاخرى فى هذا المجال- أنّ اللّه تعالى يمنح- أحيانا- عباده المعاندين نعمة و هم غارقون فى المعاصى و الذنوب و ذلك كعقوبة لهم. فيتصوّرون أنّ هذا اللطف الإلهى قد شملهم لجدارتهم و لياقتهم له فيأخذهم الغرور المضاعف، و تستولى عليهم الغفلة .. إلّا أنّ عذاب اللّه ينزل عليهم فجأة و يحيط بهم و هم بين أحضان تلك النعم الإلهية العظيمة .. و هذا فى الحقيقة من أشدّ ألوان العذاب ألما.

إنّ هذا اللون من العذاب يشمل الأشخاص الذين وصل طغيانهم و تمرّدهم حدّه الأعلى، أمّا من هم دونه فى ذلك فإنّ اللّه تعالى ينبّههم و ينذرهم عن ممارساتهم الخاطئة عسى أن يعودوا إلى رشدهم، و يستيقظوا من غفلتهم، و يتوبوا من ذنوبهم، و هذا من ألطاف البارئ عزّ و جلّ بهم.

و بعبارة اخرى: إذا أذنب عبد فإنّه لا يخرج من واحدة من الحالات الثلاث التالية:

إمّا أن ينتبه و يرجع عن خطئه و يتوب إلى ربّه.

أو أن ينزل اللّه عليه العذاب ليعود إلى رشده.

أو أنّه غير أهل للتوبة و لا للعودة للرشد بعد التنبيه له، فيعطيه اللّه نعمة بدل البلاء و هذا هو: (عذاب الاستدراج) و الذى أشير له فى الآيات القرآنية بالتعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۴

أعلاه و بتعابير اخرى.

لذا يجب على الإنسان المؤمن أن يكون يقظا عند إقبال النعم الإلهية عليه، و ليحذر من أن يكون ما يمنحه اللّه من نعم ظاهرية يمثّل فى حقيقته (عذاب الاستدراج) و لذلك فإنّ المسلمين الواعين يفكّرون فى مثل هذه الأمور و يحاسبون أنفسهم باستمرار، و يعيدون تقييم أعمالهم دائما، كى يكونوا قريبين من طاعة اللّه، و يؤدّون حقّ الألطاف و النعم التى وهبها اللّه لهم.

جاء فى حديث أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام قال: إنّى سألت اللّه تبارك و تعالى أن يرزقنى مالا فرزقنى، و إنّى سألت اللّه أن يرزقنى ولدا فرزقنى، و سألته أن يرزقنى دارا فرزقنى، و قد خفت أن يكون ذلك استدراجا؟ فقال: «أمّا مع الحمد فلا»[۵۴۲].

و التعبير ب (أملى لهم) إشارة إلى أنّ اللّه تعالى لا يستعجل أبدا بجزاء الظالمين، و الاستعجال يكون عادة من الشخص الذى يخشى فوات الفرصة عليه، إلّا أنّ اللّه القادر المتعال أيّما شاء و فى أى لحظة فإنّه يفعل ذلك، و الزمن كلّه تحت تصرّفه.

و على كلّ حال فإنّ هذا تحذير لكلّ الظالمين و المتطاولين بأن لا تغرّهم السلامة و النعمة أبدا، و ليرتقبوا فى كلّ لحظة بطش اللّه بهم [۵۴۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۵

الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۴۶ الى ۵۰]

اشارة

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۶) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۷) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ (۴۸) لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (۴۹) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۵۰)

التّفسیر

لا تستعجل بعذابهم:

استمرارا للاستجواب الذی تمّ فی الآیات السابقة للمشرکین و المجرمین، یضیف الباریٔ عزّ و جلّ سؤالین آخرین، حیث یقول فی البدایة: أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ

أی إذا کانت حجّتهم أنّ الاستجابة لدعوتک تستوجب أجرا مادیا کبیرا، و أنّهم غیر قادرین علی الوفاء به، فإنّه کذب، حیث أنّک لم تطالبهم بأجر، کما لم یطلب أی من رسل اللّه أجرا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۶

«مغرم» من مادّة (غرامة) و هی ما یصیب الإنسان من ضرر دون أن یرتکب جنایة، و (مثقل) من مادّة (ثقل) بمعنی الثقل، و بهذا فإنّ اللّه تعالی أسقط حجّة اخری ممّا یتذرّع به المعاندون.

و قد وردت الآیة أعلاه و ما بعدها (نصّا) فی سورة الطور (آیة ۴۰- ۴۱).

ثمّ یضیف و استمرارا للحوار بقوله تعالی: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَیْبُ فَهُمْ یَکْتُبُونَ

حیث یمکن أن یدّعی هؤلاء بأنّ لهم ارتباطا باللّه سبحانه عن طریق الکهنة، أو أنّهم یتلقّون أسرار الغیب عن هذا الطریق فیکتبونها و یتداولونها، و بذلک کانوا فی الموقع المتمیّز علی المسلمین، أو علی الأقل یتساوون معهم.

و من المسلّم به أنّه لا دلیل علی هذا الادّعاء أیضا، إضافة إلی أنّ لهذه الجملة معنی (الاستفهام الإنکاری)، و لذا فمن المستبعد ما ذهب إلیه البعض من أنّ المقصود من الغیب هو (اللوح المحفوظ)، و المقصود من الکتابة هو القضاء و القدر، و ذلک لأنّهم لم یدّعوا أبدا أنّ القضاء و القدر و اللوح المحفوظ فی أیدیهم.

و لأنّ العناد و اللامنطقیة التی کان علیها أعداء الإسلام تؤلم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تدفعه إلی أن یدعو اللّه علیهم، لذا فإنّه تعالی أراد أن یخفّف شیئا من آلام رسوله الکریم، فطلب منه الصبر و ذلک قوله تعالی: فَاصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ

أی انتظر حتّی یهیء اللّه لک و لأعوانک أسباب النصر، و یکسر شوکة أعدائک، فلا تستعجل بعذابهم أبدا، و اعلم بأنّ اللّه ممهلهم و غیر مهملهم، و ما المهلة المعطاة لهم إلّا نوع من عذاب الاستدراج.

و بناء علی هذا فإنّ المقصود من (حکم ربّک) هو حکم اللّه المقرّر الأکید حول انتصار المسلمین.

و قیل أنّ المقصود منها هو: أن تستقیم و تصبر فی طریق إبلاغ أحکام اللّه تعالی.

کما یوجد احتمال آخر أیضا و هو أنّ المقصود بالآیة أنّ حکم اللّه إذا جاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۷

فعلیک أن تستسلم لأمره تعالی و تصبر، لأنّه سبحانه قد حکم بذلک ۵۴۴].

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أنسب.

ثمّ یضیف تعالی: وَ لا تَکُنْ کَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادی وَ هُوَ مَکْظُومٌ

و المقصود من هذا النداء هو ما ورد فی قوله تعالی: فَنادی فِی الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظَّالِمِینَ ۵۴۵].

و بذلک فقد اعترف النبی یونس علیه السّلام بترک الأولی، و طلب العفو و المغفرة من اللّه تعالی. کما یحتمل أن یکون المقصود من هذا النداء هو اللعنة التی أطلقها علی قومه فی ساعة غضبه. إلّا أنّ المفسّرین اختاروا التّفسیر الأوّل لأنّ التعبیر ب «نادی» فی هذه الآیة یتناسب مع ما ورد فی الآیة (۸۷) من سورة الأنبیاء، حیث من المسلّم انّه نادی ربّه عند ما کان علیه السّلام فی بطن الحوت.

«مكظوم» من مادّة (كظم) على وزن (هضم) بمعنى الحلقوم، و (كظم السقاء) بمعنى سدّ فوهة القربة بعد امتلائها، و لهذا السبب يقال للأشخاص الذين يخفون غضبهم و ألمهم و يسيطرون على انفعالاتهم و يكظمون غيظهم ... بأنّهم: كاظمون، و المفرد: كاظم، و لهذا السبب يستعمل هذا المصطلح أيضا بمعنى (الحبس).

و بناء على ما تقدّم فيمكن أن يكون للمكظوم معنيان فى الآية أعلاه: المملوء غضبا و حزنا، أو المحبوس فى بطن الحوت، و المعنى الأوّل أنسب، كما ذكرنا.

و يضيف سبحانه فى الآية اللاحقة: لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ ۵۴۶].

من المعلوم أنّ يونس عليه السّلام خرج من بطن الحوت، و القى فى صحراء يابسة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۵۵۸

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۸

عبّر عنها القرآن الكريم ب (العراء) و كان هذا فى وقت قبل اللّه تعالى فيه توبته و شمله برحمته، و لم يكن أبدا مستحقّا عليه السّلام للذمّ.

و نقرأ فى قوله تعالى: فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ۵۴۷] كى يستريح فى ظلالها.

كما أنّ المقصود من (النعمة) فى الآية أعلاه هو توفيق التوبة و شمول الرحمة الإلهية لحاله عليه السّلام حسب الظاهر.

و هنا يطرح سؤالان:

الأوّل: هو ما جاء فى الآيتين ۱۴۳، ۱۴۴ من سورة الصافات فى قوله تعالى:

فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ و هذا مناف لما ورد فى الآية مورد البحث.

و للجواب على هذا السؤال يمكن القول: كانت بانتظار يونس عليه السّلام عقوبتان:

إحداهما شديدة، و الاخرى أخفّ وطأة. الاولى الشديدة هى أن يبقى فى بطن الحوت إلى يوم يبعثون، و الأخفّ: هو أن يخرج من بطن الحوت و هو مذموم و بعيد عن لطف اللّه سبحانه، و قد كان جزاؤه عليه السّلام الجزاء الثانى، و رفع عنه ما ألمّ به من البعد عن الألطاف الإلهية حيث شملته بركة اللّه عزّ و جلّ و رحمته الخاصّة.

و السؤال الآخر يتعلّق بما جاء فى قوله تعالى: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ ۵۴۸] و إنّ ما يستفاد من الآية مورد البحث أنّه عليه السّلام لم يكن ملوما و لا مذموما.

و يتّضح الجواب على هذا السؤال بالالتفات إلى أنّ الملامة كانت فى الوقت الذى التقمه الحوت توّا، و أنّ رفع المذمّة كان متعلّقا بوقت التوبة و قبولها من قبل اللّه تعالى، و نجاته من بطن الحوت.

لذا يقول البارئ عزّ و جلّ فى الآية اللاحقة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۹

فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

و بذلك فقد حمّله اللّه مسئولية هداية قومه مرّة اخرى، و عاد إليه يبلّغهم رسالة ربّه، ممّا كانت نتيجته أن آمن قومه جميعا، و قد منّ اللّه تعالى عليهم بألطافه و نعمه و أفضاله لفترة طويلة.

و قد شرحنا قصّة يونس عليه السّلام و قومه، و كذلك بعض المسائل الاخرى حول تركه ل (الأولى) و استقراره فترة من الزمن فى بطن الحوت و الإجابة على بعض التساؤلات المطروحة فى هذا الصدد بشكل مفصّل فى تفسير الآيات (۱۳۹ - ۱۴۸) من سورة الصافات و كذلك فى تفسير الآيات (۸۷، ۸۸) من سورة الأنبياء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۰

الآيتان [سورة القلم (۶۸): الآيات ۵۱ الى ۵۲]

اشارة

وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (۵۱) وَ ما هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۵۲)

التّفسير

يريدون قتلک .. لكنّهم عاجزون

هاتان الآيتان تشكّلان نهاية سورة القلم، و تتضمّنان تعقيبا على ما ورد فى بداية السورة من نسبة الجنون إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل الأعداء.

يقول تعالى: وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ

«ليزلقونک» من مادّة (زلق) بمعنى التزحلق و السقوط على الأرض، و هى كناية عن الهلاک و الموت.

ثمّة أقوال مختلفة فى تفسير هذه الآية:

۱- قال كثير من المفسّرين: إنّ الأعداء حينما يسمعون منک هذه الآيات العظيمة للقرآن الكريم، فإنّهم يمتلئون غضبا و غلا، و تتوجّه إليک نظراتهم الحاقدة و بمنتهى الغيظ، و كأنّما يريدون أن يطرحوک أرضا و يقتلوک بنظراتهم الخبيثة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۱

الغاضبة.

و أضاف قسم آخر فى توضيح هذا المعنى، أنّهم يريدون قتلک بالحسد عن طريق العين، و هو ما يعتقد به الكثير من الناس، لوجود الأثر المرموز فى بعض العيون و التى يمكن أن تؤثّر على الطرف الآخر بنظرة خاصّة تميت المنظور.

۲- و قال البعض الآخر: إنّها كناية عن نظرات ملؤها الحقد و الغضب، كما يقال عرفا: إنّ فلانا نظر إلىّ نظرة و كأنّه يريد التهامى أو قتلى.

۳- و يوجد تفسير آخر للآية الكريمة يحتمل أن يكون أقرب التفاسير، و هو أنّ الآية الكريمة أرادت أن تظهر التناقض و التضادّ لدى هؤلاء المعاندين، و ذلک أنّهم يعجبون و يتأثّرون كثيرا عند سماعهم الآيات القرآنية بحيث يكادون أن يصيبوک بالعين (لأنّ الإصابة بالعين تكون غالبا فى الأمور التى تثير الإعجاب كثيرا) إلّا أنّهم فى نفس الوقت يتّهمونک بالجنون، و هذا يمثّل التناقض حقّا. إذ أين الجنون و لغو الكلام و أين هذه الآيات المثيرة للإعجاب و النافذة فى القلوب؟

إنّ هؤلاء ذوى العقول المريضة لا يدركون ما يقولون و ما وقعوا فيه من التناقض فيما ينسبونه إليک.

و على كلّ حال فإنّ ما يتعلّق بموضوع حقيقة إصابة العين و صحّتها- من وجهة النظر الإسلامية أو عدمها، و كذلک من وجهة نظر العلوم الحديثة، فهذا ما سنستعرضه فى البحوث التالية إن شاء اللّه.

و أخيرا يضيف تعالى فى آخر آية: وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ

حيث أنّ معارف القرآن الكريم واضحة، و إنذاراته موقظة، و أمثاله هادفة، و ترغيباته و بشائره مربّية، و بالتالى فهو عامل و سبب ليقظة النائمين و تذكرة للغافلين، و مع هذا فكيف يمكن أن ينسب الجنون إلى من جاء به؟

و تماشیا مع هذا الرأی فإنّ (ذکر) علی وزن (فکر) تکون بمعنی (المذکّر).

و فسّرها البعض الآخر بمعنی (الشرف)، و قالوا: إنّ هذا القرآن شرف لجمیع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۲

العالمین، و هذا ما هو وارد- أیضا- فی قوله تعالی: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ ۵۴۹].

إلّا أنّ (الذکر) هنا بمعنی المذکّر و المنبّه، بالإضافة إلی أنّ أحد أسماء القرآن الکریم هو (الذکر) و بناء علی هذا، فإنّ التّفسیر الأوّل أصحّ حسب الظاهر.

بحث

هل أنّ إصابة العین لها حقیقة؟

یعتقد الکثیر من الناس أنّ لبعض العیون آثارا خاصّة عند ما تنظر لشیء بإعجاب، إذ ربّما یترتّب علی ذلک الکسر أو التلف، و إذا کان المنظور إنسانا فقد یمرض أو یجنّ ..

إنّ هذه المسألة لیست مستحیلة من الناحیة العقلیة، حیث یعتقد البعض من العلماء المعاصرین بوجود قوّة مغناطیسیة خاصّة مخفیة فی بعض العیون بإمکانها القیام بالکثیر من الأعمال، کما یمکن تدریبها و تقویتها بالتمرین و الممارسة، و من المعروف أنّ «التنویم المغناطیسی» یکون عن طریق هذه القوّة المغناطیسیة الموجودة فی العیون.

إنّ (أشعة لیزر) هی عبارة عن شعاع لا مرئی یستطیع أن یقوم بعمل لا یستطیع أی سلاح فتّاک القیام به، و من هنا فإنّ القبول بوجود قوّة فی بعض العیون تؤثّر علی الطرف المقابل، و ذلک عن طریق أمواج خاصّة لیس بأمر مستغرب.

و یتناقل الکثیر من الأشخاص أنّهم رأوا بامّ أعینهم أشخاصا لهم هذه القوّة المرموزة فی نظراتهم، و أنّهم قد تسبّبوا فی إهلاک آخرین (أشخاص و حیوانات و أشیاء) و ذلک بإصابتهم بها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۳

لذا فلا ینبغی الإصرار علی إنکار هذه الأمور. بل یجدر تقبّل احتمال وجود مثل هذا الأمر من الناحیة العقلیة و العلمیة.

کما جاء فی بعض الرّوایات الإسلامیة- أیضا- ما یؤیّد وجود مثل هذا الأمر بصورة إجمالیة کما

فی الروایة التالیة: «إنّ أسماء بنت عمیس قالت: یا رسول اللّه إنّ بنی جعفر تصیبهم العین أ فأسترقی لهم؟ قال: نعم، فلو کان شیء یسبق القدر لسبقه العین».

(المقصود من (الرقیة) هی الأدعیة التی یکتبونها و یحتفظ بها الأشخاص لمنع الإصابة بالعین و یقال لها التعویذة أیضا)[۵۵۰].

و

جاء فی حدیث آخر أنّ أمیر المؤمنین علیه السّلام قال: النّبی رقی حسنا و حسینا فقال: «أعیذکما بالکلمات التامّة و أسمائه الحسنی کلّها عامّة، من شرّ السامّة و الهامّة، و من شرّ کلّ عین لامّة، و من شرّ حاسد إذا حسد» ثمّ التفت النّبی إلینا فقال: هکذا کان یعوّذ إبراهیم إسماعیل و إسحاق ۵۵۱].

و

جاء فی نهج البلاغة أیضا: «العین حقّ، و الرقی حقّ»[۵۵۲].

و لمّا کانت الأدعیة توسّلا للبارئ عزّ و جلّ فی دفع الشرّ و جلب الخیر، فبأمر من اللّه تعالی یمنع تأثیر القوّة المغناطیسیة للعیون، و لا

مانع من ذلک، کما أنّ للأدعیة تأثیرا فی کثیر من العوامل و الأسباب الضارّة و تبطل مفعولها بأمر اللّه تعالی.

کما یجدر الالتفات إلی هذه النقطة- أیضا- و هی: إنّ قبول تأثیر الإصابة بالعین بشکل إجمالی لا یعنی الإیمان بالأعمال الخرافیة، و ممارسات الشعوذة التی تنتشر بین العوام، إذ أنّ ذلک مخالف لأوامر الشرع، و یثیر الشکّ فی أصل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۴

الموضوع عند غیر المسلمین بهذه المسائل، کما أنّ هذه الأعمال تربک و تشوش الکثیر من الحقائق بما یدس بها من الأوهام و الخرافات، و بذلک یکون الانطباع عنها سلبیا فی الأذهان.

اللهمّ: احفظنا بحفظک من شرّ الأشرار، و مکائد الأعداء.

ربّنا، تفضّل علینا بالصبر و الاستقامة فی سبیل تحصیل رضاک.

إلهی، وفّقنا للاستفادة من نعمک اللامتناهیة و أداء شکرها قبل أن تسلب منّا.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة القلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۵

سورة الحاقّة

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها اثنتان و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۷

«سورة الحاقّة»

محتوی السورة:

تدور موضوعات سورة الحاقّة حول ثلاثة محاور:

المحور الأوّل: و هو أهمّ محاور هذه السورة، یرتبط بمسائل یوم القیامة و بیان خصوصیاتها، و قد وردت فیه ثلاثة أسماء من أسماء یوم القیامة و هی: (الحاقّة) و (القارعة) و (الواقعة).

أمّا المحور الثانی: فتدور أبحاثه حول مصیر الأقوام الکافرین، خصوصا قوم عاد و ثمود و فرعون، و تشتمل علی إنذارات شدیدة لجمیع الکفّار و منکری یوم البعث و النشور.

و تتحدّث أبحاث المحور الثالث حول عظمة القرآن الکریم، و مقام الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جزاء المکذّبین.

فضیلة تلاوة سورة الحاقّة

جاء فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأ سورة الحاقّة حاسبه اللّه حسابا یسیرا»[۵۵۳].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: (أکثروا من قراءة الحاقّة، فإنّ قراءتها فی الفرائض و النوافل من الإیمان باللّه و رسوله، و لم یسلب قارئها دینه حتّی یلقی اللّه)[۵۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۸

الآیات [سورة الحاقة (۶۹): الآیات ۱ الی ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
الْحَاقَّةُ (۱) مَا الْحَاقَّةُ (۲) وَ ما أَدْراکَ مَا الْحَاقَّةُ (۳) کَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ (۴)
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِکُوا بِالطَّاغِیَةِ (۵) وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِکُوا بِرِیحٍ صَرْصَرٍ عاتِیَةٍ (۶) سَخَّرَها عَلَیْهِمْ سَبْعَ لَیالٍ وَ ثَمانِیَةَ أَیَّامٍ حُسُوماً فَتَرَی الْقَوْمَ فِیها صَرْعی کَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِیَةٍ (۷) فَهَلْ تَری لَهُمْ مِنْ باقِیَةٍ (۸)

التّفسیر

الطغاة و العذاب الألیم:

تبدأ هذه السورة بعنوان جدید لیوم القیامة، یقول تعالی: الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَ ما أَدْراکَ مَا الْحَاقَّةُ[۵۵۵] و المراد من الحاقّة هو الیوم الذی سیتحقّق حتما.

ذهب أغلب المفسّرین إلی أنّ (الحاقّة) اسم من أسماء یوم القیامة، باعتباره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۹

قطعی الوقوع، کما هو بالنسبة ل (الواقعة) فی سورة (الواقعة)، و قد جاء فی الآیة (۱۶) من هذه السورة الاسم نفسه، و هذا یؤکّد یقینیة ذلک الیوم العظیم.

«ما الحاقّة»: تعبیر لبیان عظمة ذلک الیوم، کما یقال: إنّ فلانا إنسان، یا له من إنسان، و یقصد من هذا التعبیر وصف إنسانیّته دون تقیید حدّها.

و التعبیر ب ما أَدْراکَ مَا الْحَاقَّةُ للتأکید مرّة اخری علی عظمة الأحداث فی ذلک الیوم العظیم حتّی أنّ الباریٔ عزّ و جلّ یخاطب رسوله الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّک لا تعلم ما هو ذلک الیوم؟[۵۵۶].

و کما لا- یمکن أن یدرک الجنین الذی فی بطن امّه المسائل المتعلّقة بالدنیا، فإنّ أبناء الدنیا کذلک لیس بمقدورهم إدراک الحوادث التی تکون فی یوم القیامة.

و یحتمل أنّ المقصود من (الحاقّة) هو الإشارة إلی العذاب الإلهی الذی یحلّ فجأة فی هذه الدنیا بالمشرکین و المجرمین و الطغاة و أصحاب الهوی و المتمرّدین علی الحقّ.

کما فسّرت (القارعة) التی وردت فی الآیة اللاحقة بهذا المعنی- أیضا و بلحاظ أنّ هذا التّفسیر یتناسب بصورة أکثر مع ما جاء فی الآیات اللاحقة التی تتحدّث عن حلول العذاب الشدید بقوم عاد و ثمود و فرعون و قوم لوط، فقد ذهب بعض المفسّرین إلی هذا الرأی أیضا.

و جاء فی تفسیر (علی بن إبراهیم) قوله: إنّ (الحاقّة هی الحذر من نزول العذاب) و هو نظیر ما جاء فی الآیة التالیة: وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ ۵۵۷[۵۵۸] ثمّ تستعرض الآیات الکریمة اللاحقة مصیر الأقوام الذین أنکروا یوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۰

القيامة، و كذلك نزول العذاب الإلهى فى الدنيا، حيث يضيف تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ.

لقد كان (قوم ثمود) يسكنون فى منطقة جبلية بين الحجاز و الشام، فبعث اللّه النبى صالح عليه السّلام إليهم، و دعاهم إلى الإيمان باللّه ... إلّا أنّهم لم يستجيبوا له، بل حاربوه و تحدّوه فى إنزال العذاب الذى أوعدهم به إن كان صادقا، و فى هذه الحالة من التمرّد الذى هم عليه، سلّط اللّه عليهم (صاعقة مدمّرة) أنهت كلّ وجودهم فى لحظات، فخربت بيوتهم و قصورهم المحكمة، و تهاوت أجسادهم على الأرض.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا هى أنّ القرآن الكريم يعبّر عن عقاب هؤلاء الأقوام المتمردين ب (العذاب الشديد)، و قد كان العذاب الشديد بصور متعدّدة حيث عبّر عنه ب (الطاغية) كما جاء فى الآية مورد البحث و اخرى بال (رجفة) كما جاء فى سورة الأعراف الآية (۷۸) و ثالثة كان بصورة (صاعقة) كما ورد فى سورة فصّلت الآية (۱۳)، و رابعة كان على شكل (صيحة) كما جاء فى سورة هود الآية (۶۷).

و فى الحقيقة فإنّ جميع هذه التعابير ترجع إلى معنى واحد، لأنّ الصاعقة دائما تكون مقرونة: بصوت عظيم، و رجفة على النقطة التى تقع فيها، و عذاب طاغ عظيم.

ثمّ تتطرّق الآية اللاحقة لتحدّثنا عن مصير (قوم عاد) الذين كانوا يسكنون فى أرض الأحقاف الواقعة (فى شبه جزيرة العرب أو اليمن) و كانوا ذوى قامات طويلة، و أجساد قوية، و مدن عامرة، و أراض خضراء خصبة، و حدائق نضرة ..

و كان نبيّهم (هود) عليه السّلام يدعوهم إلى الهدى و الإيمان باللّه ... إلّا أنّهم أصرّوا على كفرهم و تمادوا فى طغيانهم و تمرّدوا على الحقّ، فانتقم اللّه منهم شرّ انتقام، و أقبرهم تحت الأرض بعد أن سلّط عليهم عذابا شديدا مؤلما، سنوضّح شرحه فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۱

الآيات التالية.

يقول تعالى: وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ.

«صرصر» على وزن (دفتر) تقال للرياح الباردة أو المقترنة بصوت و ضوضاء، أو المسمومة، و قد ذكر المفسّرون هذه المعانى الثلاث فى تفسيرها، و الجمع بين جميع هذه المعانى ممكن أيضا.

«عاتية» من مادّة (عتو) على وزن (علو) بمعنى التمرّد على القانون الطبيعى للرياح و ليست على أمر اللّه.

ثمّ تبيّن الآية التالية وصفا آخر لهذه الرياح المدمّرة، حيث يقول تعالى:

سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً.

«حسوما» من مادّة (حسم) على وزن (رسم) بمعنى إزالة آثار شىء ما، و قيل للسيف (حسام) على وزن (غلام)، و يقال: (حسم) أحيانا لوضع الشىء الحارّ على الجرح للقضاء عليه من الأساس.

لقد حطّمت و أفنت هذه الريح المدمّرة فى الليالى السبع و الأيّام الثمانية جميع معالم حياة هؤلاء القوم، و التى كانت تتميّز بالابّهة و الجمال، و استأصلتهم من الجذور[۵۵۹].

و يصوّر لنا القرآن الكريم مآل هؤلاء المعاندين بقوله تعالى: فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ.

إنّه لتشبيه رائع يصوّر لنا ضخامة قامتهم التى اقتلعت من الجذور، بالإضافة إلى خواء نفوسهم، حيث أنّ العذاب الإلهى جعل الريح تتقاذف أجسادهم من جهة إلى اخرى.

«خاوية» من مادّة (خواء) على وزن (حواء) فى الأصل بمعنى كون الشىء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۲

خاليا، و يطلق هذا التعبير أيضا على البطون الجائعة، و النجوم الخالية من المطر (كما فى إعتقاد عرب الجاهلية)، و تطلق كذلك على

الجوز الأجوف الفارغ من اللب.

و يضيف في الآية التالية: فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ[۵۶۰].

نعم لم يبق اليوم أي أثر لقوم عاد، بل حتّى مدنهم العامرة، و عماراتهم الشامخة و مزارعهم النضرة لم يبق منها شيء يذكر أبدا.

لقد بحثنا قصّة قوم عاد بصورة مفصّلة في التّفسير الأمثل، تفسير الآيات (۵۸- ۶۰) من سورة هود.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۳

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (۹) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (۱۰) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (۱۱) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (۱۲)

التّفسير

أين الآذان الواعية؟

بعد ما استعرضت الآيات الكريمة السابقة الأحداث التي مرّت بقومي عاد و ثمود، و تستمرّ هذه الآيات في التحدّث عن الأقوام الاخرى كقوم (نوح) و قوم (لوط) لتكون درسا و عبرة لمن وعى و كان له قلب سليم .. يقول تعالى وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ.

ال «خاطئة» بمعنى الخطأ و (لكليهما معنى مصدري) و المراد من الخطأ هنا هو الشرك و الكفر و الظلم و الفساد و أنواع الذنوب.

ال «المؤتفكات» جمع (مؤتفكة) من مادّة (ائتفاك) بمعنى الانقلاب، و هي هنا

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۴

إشارة إلى ما حصل في مدن قوم لوط، حيث انقلبت بزلزلة عظيمة.

و المقصود ب وَ مَنْ قَبْلَهُ هم الأقوام الذين كانوا قبل قوم فرعون، كقوم شعيب، و قوم نمرود الذين تطاولوا على رسولهم.

ثمّ يضيف تعالى: فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً.

لقد خالف الفراعنة (موسى و هارون) عليهما السّلام و واجهوهما بمنتهى العنف و التشكيك و الملاحقة .. و كذلك كان موقف أهل مدينة (سدوم) من لوط عليه السّلام الذي بعث لهدايتهم و إنقاذهم من ضلالهم .. و هكذا كان- أيضا- موقف أقوام آخرين من رسلهم حيث التطاول. و التشكيك و الإعراض و التحدّي ..

إنّ كلّ مجموعة من هؤلاء الأقوام المتمرّدين قد ابتلاهم اللّه بنوع من العذاب، و أنزل عليه رجزا من السماء بما يستحقّون، فالفراعنة أغرقهم اللّه سبحانه في وسط النيل الذي كان مصدرا لخيراتهم و بركة بلدهم و إعمار أراضيهم و ديارهم، و قوم لوط سلّط اللّه عليهم (الزلزال) الشديد ثمّ (مطر من الحجارة) ممّا أدّى إلى موتهم و فنائهم من الوجود.

«رابية» و (ربا) من مادّة واحدة، و هي بمعنى الإضافة، و المقصود بها هنا العذاب الصعب و الشديد جدّا.

لقد جاء شرح قصّة قوم فرعون في الكثير من سور القرآن الكريم، و جاءت بتفصيل أكثر في ما ورد من سورة الشعراء الآية (۱۰- ۶۸) يراجع التّفسير الأمثل، و كذلك في سورة الأعراف من الآية (۱۰۳- ۱۳۷) راجع التّفسير الأمثل، و كذلك في سورة طه من الآية (۲۴-

۷۹) راجع التّفسیر الأمثل.

و جاءت قصّهٔ لوط أیضا فی الکثیر من السور القرآنیهٔ من جملتها ما ورد فی سورهٔ الحجر الآیهٔ (۶۱- ۷۷) فی التّفسیر الأمثل.

و أخیرا تعرّض بإشارهٔ موجزهٔ إلی مصیر قوم نوح و العذاب الألیم الذی حلّ بهم، قال تعالی: إِنَّا لَمَّا طَغَی الْماءُ حَمَلْناکُمْ فِی الْجارِیَهِٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۵

إنّ طغیان الماء کان بصورهٔ غطّی فیها السحاب و من هنا جاء تعبیر (طغی) حیث هطل مطر غزیر جدّا و کأنّه السیل ینحدر من السماء، و فاضت عیون الأرض، و التقت میاههما بحیث أصبح کلّ شیء تحت الماء (القوم و بیوتهم و قصور أکابرهم و مزارعهم و بساتینهم ...) و لم تنج إلّا مجموعهٔ المؤمنین التی کانت مع نوح علیه السّلام فی سفینهٔ.

جملهٔ (حملناکم) کنایهٔ عن حمل و إنقاذ أسلافنا و أجدادنا من الغرق، و إلّا ما کنّا فی عالم هذا الوجود[۵۶۱].

ثمّ یبیّن اللّه سبحانه الغایهٔ و الهدف من هذا العقاب، حیث یقول تعالی:

لِنَجْعَلَها لَکُمْ تَذْکِرَهًٔ وَ تَعِیَها أُذُنٌ واعِیَهٌٔ.

إنّنا لم نرد الانتقام منکم أبدا، بل الهدایهٔ و الخیر و السعادهٔ، کنّا نروم أن تکونوا فی طریق الکمال و النضج التربوی و الوصول إلی ما ینبغی أن یکون علیه الإنسان المکرم.

«تعیها» من مادّهٔ (وعی) علی وزن (سعی) یقول (الراغب) فی المفردات، و (ابن منظور) فی لسان العرب: إنّها فی الأصل بمعنی الاحتفاظ بشیء معیّن فی القلب، و من هنا قیل لإناء (وعاء) لأنّه یحفظ الشیء الذی یوضع فیه، و قد ذکرت هذه الصفهٔ (الوعی) للآذان فی الآیات مورد البحث، و ذلک بلحاظ أنّها تسمع الحقائق و تحتفظ بها.

و الإنسان تارهٔ یسمع کلاما إلّا أنّه کأن لم یسمعه، و فی التعبیر السائد: یسمع بإذن و یخرجه من الاخری.

و تارهٔ اخری یسمع الکلام و یفکّر فیه و یتأمّله. و یجعل ما فیه خیر فی قلبه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۶

و یعتبر الإیجابی منه منارا یسیر علیه فی طریق حیاته ... و هذا ما یعبّر عنه ب (الوعی).

تعقیب

۱- فضیلهٔ اخری من فضائل الإمام علی علیه السّلام

جاء فی کثیر من الکتب الإسلامیهٔ المعروفهٔ- أعمّ من کتب التّفسیر و الحدیث-

أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال عند نزول الآیهٔ أعلاه وَ تَعِیَها أُذُنٌ واعِیَهٌٔ: «سألت ربّی- أن یجعلها اذن علی»، و بعد ذلک

کان یقول الإمام علی علیه السّلام: «ما سمعت من رسول اللّه شیئا قطّ فنسیته، إلّا و حفظته»[۵۶۲].

و نقل فی (غایهٔ المرام) ستّهٔ عشر حدیثا فی هذا المجال عن طریق الشیعهٔ و أهل السنّهٔ، کما ینقل (المحدّث البحرانی) أیضا فی تفسیر (البرهان) عن (محمّد بن عبّاس) ثلاثین حدیثا فی هذا المجال نقلت عن طریق العامّهٔ و الخاصّهٔ.

و هذه فضیلهٔ عظیمهٔ لقائد الإسلام العظیم الإمام علی علیه السّلام حیث یکون موضع أسرار الرّسول، و وارث علمه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لهذا السبب فإنّ الجمیع کانوا یرجعون إلیه- الموافق له و المخالف- بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذلک عند ما یواجهون المشاکل الاجتماعیهٔ و العلمیهٔ المختلفهٔ، و یطلبون منه التدخّل فی حلّها، کما تحدّثنا بذلک کتب التواریخ بشکل

تفصيلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۷

۲- التناسب بين (الذنب) و (العقاب)

وردت فى الآيات أعلاه تعبيرات ملفتة للنظر، فتعبير (الطاغية) جاء فى مورد العذاب الذى سلّط على قوم ثمود، و عبارة (العاتية) جاءت فى مورد العذاب الذى حلّ بقوم عاد، و بالنسبة إلى ما أصاب قوم فرعون و قوم لوط فقد ورد تعبير (الرابية) كما وردت عبارة (طغى الماء) فيما يتعلّق بطبيعة العذاب الذى شمل قوم نوح .. و الملاحظ من التعبيرات السابقة أنّها جميعا تشترك فى مفهوم واحد و هو: (الطغيان و التمرّد) و هو نتيجة طبيعية لما كانت عليه هذه الأقوام جميعا أى إنّ عذاب هؤلاء الطغاة تحقّق بطغيان بعض المواهب الإلهية للناس أعمّ من الماء و الهواء و التراب و النار.

كما أنّ هذه التعبيرات- أيضا- تؤكّد على حقيقة مهمّة، و هى أنّ العقوبات التى نواجهها فى الدنيا و الآخرة ما هى إلّا تجسيد لحقيقة أعمالنا، و أنّ أعمالنا نحن البشر تعود علينا خيرا كانت أم شرّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۸

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱۳ الى ۱۷]

اشارة

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (۱۳) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (۱۴) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱۵) وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (۱۶) وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (۱۷)

التّفسير

الصّيحة العظيمة:

استمرارا لما تعرّضت له الآيات الاولى من هذه السورة، و التى كانت تتعلّق بمسألة الحشر و القيامة، تعرض لنا هذه الآيات صورة عن الحوادث العظيمة فى ذلك اليوم الرهيب بأسلوب محرّك و مؤثّر فى النفوس كى تحيط الإنسان علما بما ينتظره من حوادث ذات شأن كبير فى ذلك الموقف الرهيب.

يقول تعالى فى البداية: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ.

لقد بيّنا فيما سبق أنّ ممّا يستفاد من القرآن الكريم أنّ نهاية عالم الدنيا و بداية عالم الآخرة تكون بصوت مفاجئ عظيم، و ذلك ما عبّر عنه ب (نفخة الصور).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۹

و لهذا السبب استعمل البوق فى الماضى و الحاضر للاستفادة منه فى جمع و تهيئة الجيوش، و كذلك فى الإعلان عن موعد الاستراحة، حيث يتمّ العزف بألحان مختلفة حسب طبيعة الموضوع. الذى يعلن عنه، فالعزف للنوم و الاستراحة يختلف عن عزف التجمّع و التهيّؤ للحركة و التدريب ...

إنّ مسألـة انتهاء هـذا العالم، و بدايـة العالم الجديد عالم الآخرة، هى عند اللّه بسـيطة و هيّنة فى مقابل قدرته العظيمة، فبأمر واحد و فى لحظة مفاجئة ينتهى و يفنى من فى السموات و الأرضين، و بأمر آخر يلبس سبحانه الجميع لباس الحياة و يستعدّون للحساب، و هذا هو مقصود الآية الكريمة.

لقد تحدّثنا بصورة مفصّلة حول خصوصيات (الصور) و كيفية (النفخ) فيه، و عدد النفخات، و الفاصلة الزمنية بين كلّ نفخة، و ذلك فى تفسير سورة (الزمر) الآية ۶۸ من التّفسير الأمثل، لذا لا نرى ضرورة لتكرار ذلك.

و الشيء الوحيد الذى نذكّر به هنا هو (نفخة الصور) و كما أشرنا أعلاه فهى (نفختان): (نفخة الموت)، و (نفخة الحياة الجديدة)، لكن هل المقصود فى هـذه الآيـة الكريمـة هو (النفخة الاولى) أم (الثانية)؟ فهذا ما لا يوجد فيه رأى موحّد بين المفسّرين، لأنّ الآيات التى ستأتى لاحقا بعضـها يتناسب مع نفخة الموت، و الآخر يتناسب مع نفخة الحياة و الحشـر، إلّا أنّ منطوق الآيات بشكل إجمالى فى رأينا تتناسب أكثر مع النفخة الاولى التى تحصل فيها نهاية عالم الدنيا.

ثمّ يضيف تعالى: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً.

«دكّ» كمـا يقول الراغب فى المفردات، و فى الأصـل بمعنى (الأرض المسـتوية) و لأنّ الأرض غير المسـتوية تحتاج إلى الـدك حتّى تستوى، لذا استعمل هذا المصطلح فى الكثير من الموارد بمعنى «الدق الشديد».

كما يستفاد من مصادر اللغة أنّ أصل معنى (دک) هو (الدقّ و التخريب) و لازم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۰

ذلک الإستواء، لذا استعمل هذا المصطلح فى هذا المعنى أيضا[۵۶۳].

و على كلّ حال فإنّ المقصود من هـذه الكلمة- فى الآية مورد البحث- هو الدقّ الشديد للجبال و الأراضـى اللامسـتوية بعضـها ببعض بحيث تستوى و تتلاشى فيها جميع التعرجات.

ثمّ يضيف تعالى: فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ.

فى ذلـك اليوم العظيم لا- تتلاشـى فيه الأرض و الجبال فحسب، بل يقع حـدث عظيم آخر، و ذلك قوله تعالى: وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ و ذلك بيان لما تتعرّض له، الأجرام السـماوية العظيمة من انفلاقات و تناثر و تلاشى، حيث تضطرب هذه الأجرام الهائلة و تتحوّل فيها النظام إلى فوضـى و التماسك إلى ضـعف، و الاسـتحكام إلى خواء بشكل عجيب. و ذلك من خلال حركات و تحوّلات مرعبة جدّا، كما يعبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ الرحمن/ ۳۷.

و بعبارة اخرى فإنّ الأرض و السـماء الحاليتين تتدمران و تنتهيان، و يحدث عالم جديد على انقاض العالم السابق يكون أكمل و أتمّ و أعلى من عالمنا الدنيوى.

وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها.

«أرجاء» جمع (رجـا) بمعنى جوانب و أطراف شـىء معيّن، و (الملـک) هنـا بـالرغم من ذكرها بصيغة المفرد، إلّا أنّ المقصود بها هو الجنس و الجمع.

إنّ ملائكـة الرحمن- فى الآيـة أعلاه- يصـطفون على جوانب و أطراف السـماوات ينتظرون تلقّى أمر الواحـد الأحـد لإنجـازه بمجرد الإشارة، و كأنّهم جنود جاهزون لما يؤمرون به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۱

ثمّ يقول تعالى: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ.

إنّ حملـة العرش بـالرغم من أنّهم لم يشـخّصوا بصورة صـريحة فى هـذه الآيـة و هل هم من الملائكـة أم من جنس آخر؟ إلّا أنّ ظاهر تعـبير الآيـة الكريمـة أنّهم من الملائكـة، و من غير المعلوم أنّ المقصـود ب (ثمانيـة) هـل هم ثمانيـة ملائكـة؟ أم ثمانيـة مجـاميع من

الملائکة؟ سواء کانت هذه المجامیع صغیرة أو کبیرة.

جاء فی الروایات الإسلامیة أنّ حملة العرش فی عالم الدنیا أربعة أشخاص أو أربع (مجامیع) إلّا أنّهم فی یوم القیامة یکونون ضعف ذلک، کما نقرأ ذلک

فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: (إنّهم الیوم أربعة، فإذا کان یوم القیامة أیّدهم اللّه بأربعة آخرین فیکونون ثمانیة)[۵۶۴].

أمّا ما یتعلّق بحقیقة العرش، و ماهیة الملائکة، فذلک کما یلی:

المقصود ب (العرش) کما هو واضح لیس تختا ممّا یکون للسلاطین، و لکنّه- کما بیّنا سابقا فی تفسیر کلمة (العرش)- بأنّها تعنی (مجموعة عالم الوجود) حیث أنّه عرش حکومة اللّه سبحانه، و یدبّر حکومته تعالی من خلاله بواسطة الملائکة الذین هم جاهزون لتنفیذ أمره سبحانه.

و جاء فی روایة اخری أنّ حملة العرش فی یوم القیامة أربعة من الأوّلین، و أربعة من الآخرین، و الأشخاص الأوّلون الأربعة هم: (نوح) و (إبراهیم)، و (موسی)، و (عیسی)، أمّا الأشخاص الآخرون الأربعة فهم (محمّد) و (علی) و (الحسن)، و (الحسین)[۵۶۵].

و هذا الحدیث من الممکن أن یکون إشارة إلی مقام شفاعتهم للأوّلین و الآخرین، و الشفاعة- عادة- تکون لمن هم أهل لها، و ممّن لهم لیاقة لنیلها، و مع ذلک فإنّه یوضّح المفهوم الواسع للعرش.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۲

أمّا إذا کان حملة العرش ثمانیة مجامیع، فمن الطبیعی أن تتعهّد المجامیع للقیام بهذه المهمّة، سواء کان هؤلاء من الملائکة أو الأنبیاء أو الأولیاء، و ممّا تقدّم نلاحظ أنّ قسما من تدبیر نظام و شؤون ذلک الیوم هو من مهمّة الملائکة و قسم من الأنبیاء، حیث أنّ الجمیع جاهزون لتنفیذ أمر اللّه، و یتحرّک بإرادته تعالی.

هنالک آراء فی أنّ الضمیر فی (فوقهم) هل یرجع إلی «البشر»؟ أم إلی (الملائکة)؟ و بما أنّ الحدیث فی الجملة السابقة کان حول الملائکة، فإنّ الضمیر یرجع إلیهم حسب الظاهر، و بهذه الصورة فإنّ الملائکة تحیط بالعالم من جمیع جهاته، و لهذا فإنّ المقصود ب (من فوقهم) هو (العلو من حیث المقام).

و هنالک احتمال بأنّ حملة عرش اللّه هم أشخاص أعلی و أفضل من الملائکة، و تماشیا مع هذا الاحتمال فإنّ ما جاء فی الحدیث السابق منسجم معه، حیث ورد فیه أنّ حملة عرش اللّه هم ثمانیة من الأنبیاء و الأولیاء.

و بما أنّ الحوادث المتعلّقة بیوم القیامة لیست واضحة لنا نحن سکنة هذا العالم المحدود، لذا فلیس بمقدورنا إذا إدراک المسائل المتعلّقة بحملة العرش فی ذلک الیوم. إنّ الذی نتحدّث به عن هذه الأمور ما هو إلّا شبح یتراءی لنا من بعید فی ظلّ الآیات الإلهیة، و إلّا فلا تتمّ رؤیة الحقیقة بدون معایشة الواقع ۵۶۶].

و ممّا یجدر ملاحظته أنّ فی (النفخة الاولی للصور) یموت و یفنی جمیع من فی السموات و الأرض، و بناء علی هذا فإنّ مسألة بحث «حملة العرش» مرتبط «بالنفخة الثانیة»، حیث یتمّ إحیاء الجمیع، و بالرغم من أنّه لم یأت ذکر للنفخة الثانیة فی الآیة أعلاه، إلّا أنّ ذلک یتّضح من خلال القرائن، و المطالب التی سترد فی الآیات اللاحقة تتعلّق بالنفخة الثانیة أیضا[۵۶۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۳

الآیات [سورة الحاقة (۶۹): الآیات ۱۸ الی ۲۴]

اشارة

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (۱۸) فَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (۱۹) إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاقٍ حِسابِيَهْ (۲۰)

فَهُوَ فِی عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۲۱) فِی جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۲۲)

قُطُوفُها دانِيَةٌ (۲۳) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِی الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (۲۴)

التّفسیر

یا أهل المحشر: اقرؤا صحیفة أعمالی

قلنا فی تفسیر الآیات السابقة أنّ (نفخ الصور) یحدث مرّتین.

الاولی: عند ما یأمر تعالی بنهایة العالم و موت الأحیاء و تلاشی الوجود.

و الثانیة: بحدوث العالم الجدید، عالم الآخرة حیث البعث و النشور ...، و کما ذکرنا فإنّ بدایة الآیات تخبرنا عن النفخة الاولی، و لم تستعرض تفاصیل النفخة الثانیة.

و استمرارا للحدیث فی هذا الصدد، و خصوصیات العالم الجدید الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۴

سیکون عند النفخة الثانیة، تحدّثنا هذه الآیات عن شیء من ذلک حیث یقول تعالی: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ.

«تعرضون» من مادّة (عرض) بمعنی عرض شیء معیّن، بضاعة أو غیرها.

و ممّا لا شکّ فیه أنّ جمیع ما فی الوجود- بشرا و غیره- هو بین یدی اللّه سبحانه، سواء فی هذه الدنیا أو فی عالم الآخرة، إلّا أنّ هذا الأمر یظهر و یتّضح بصورة أشدّ فی یوم القیامة، کما فی مسألة حاکمیة اللّه المطلقة و الدائمة علی عالم الوجود، حیث تتّضح فی یوم القیامة أکثر من أی وقت آخر.

إنّ جملة: تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ یمکن أن تکون إشارة إلی أنّ الأسرار الخاصّة بالإنسان و ما یحاول إخفاءه یتحوّل فی ذلک الیوم إلی حالة من الظهور و الوضوح کما یقول تعالی: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[۵۶۸] فی ذلک الیوم لن یقتصر الوضوح و الظهور علی أعمال البشر الخفیّة فحسب، بل علی صفات و روحیات و أخلاقیات و نیّات الجمیع فإنّها هی الاخری تبرز و تظهر، و هذا أمر عظیم جدّا، بل إنّه أعظم من انفجار الأجرام السماویة و تلاشی الجبال- کما یقول البعض- حیث الفضیحة الکبری للطالحین، و العزّة و الرفعة للمؤمنین بشکل لا نظیر له، یوم یکون الإنسان عریانا لیس من حیث الجسم فقط، بل أعماله و أسراره الخفیة تکون علی رؤوس الأشهاد، نعم لا یبقی أمر مخفی من وجودنا و کیاننا أجمع فی ذلک الیوم العظیم.

و یمکن أن یکون المراد هو الإشارة للإحاطة العلمیة للّه تعالی بجمیع المخلوقات، و لکن التّفسیر الأوّل أنسب.

لذا یقول سبحانه بعد ذلک: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ ۵۶۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۵

إنّ الفرحة تملؤه بصورة لا مثیل لها، حتّی یکاد یطیر من شدّة فرحته، حیث أنّ کلّ ذرّة من ذرّات وجوده تغمرها الغبطة و السعادة و الشکر للّه سبحانه علی هذه النعم و التوفیق و الهدایة التی منّ اللّه بها علیه و یصرخ (الحمد للّه).

ثمّ یعلن بافتخار عظیم فیقول: إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاقٍ حِسابِيَهْ ۵۷۰].

«ظنّ» فی مثل هذه الموارد تکون بمعنی (الیقین) إنّه یرید أن یقول: إنّ ما تفضّل به اللّه تعالی علیّ کان بسبب إیمانی بهذا الیوم، و الحقیقة أنّ الإیمان بالحساب و الکتاب یمنح الإنسان روح التقوی، و التعهّد و الإحساس بالمسؤولیة، و هذا من أهمّ عوامل تربیة

الإنسان.

ثمّ يبيّن اللّه تعالى فى الآيات اللاحقة جانبا من جزاء و أجر هؤلاء الأشخاص حيث يقول: فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ[۵۷۱].

و بالرغم من أنّ الجملة أعلاه تجسّد كلّ ما يستحقّ أن يقال فى هذا الموضوع، إلّا أنّه سبحانه يضيف للتوضيح الأكثر: فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ.

إنّ الجنّة التى تكون عالية و رفيعة بشكل لم ير أحد مثلها قطّ، و لم يسمع بها، و لم يتصور مثلها.

قُطُوفُها دانِيَةٌ[۵۷۲].

حيث لا ـ جهد مكلّف و لا مشقّة و لا صعوبة فى قطف الثمار، و لا عائق يحول من الاقتراب للأشجار المحمّلة بالثمار، و جميع هذه النعم فى متناول الأيدى بدون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۶

استثناء.

و فى آخر آية- مورد البحث- يوجّه البارئ عزّ و جلّ خطابه المملوء بالحبّ و المودّة و الاعتزاز إلى أهل الجنّة بقوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ.

و هكذا كانت هذه النعمة العظيمة التى منحها اللّه لهؤلاء المتقين جزاء أعمالهم الصالحة التى ادّخروها ليوم كان فيه الحساب الحقّ، و أرسلوها سلفا أمامهم، و إنّ الأعمال الخيّرة و المحدودة هى التى أثمرت هذه الثمار الكبيرة حيث ظلّ الرحمة الإلهية و اللطف الربّانى.

ملاحظات

۱- تفسير آخر لكلمة (العرش)

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «حملة العرش- و العرش العلم- ثمانية، أربعة منّا، و أربعة ممّن شاء اللّه»[۵۷۳].

و

جاء أيضا فى حديث آخر لأمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «فالذين يحملون العرش، هم العلماء، الذين حمّلهم اللّه علمه»[۵۷۴].

و نقرأ

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال: «العرش ليس هو اللّه، و العرش اسم علم و قدرة»[۵۷۵].

إنّ ما يستفاد من هذه الأحاديث- بشكل عام- أنّ للعرش تفسيرا آخر بالإضافة إلى التّفسير السابق الذى ذكرناه سابقا- و هو (صفات اللّه)- صفات مثل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۷

(العلم) و (القدرة)، و بناء على هذا، فإنّ حملة العرش الإلهى هم حملة علمه، و كلّما كان الإنسان أو الملك أكثر علما، كان له سهم أكبر فى حمل العرش العظيم.

و من هنا فإنّ هذه الحقيقة تتبلور بصورة أفضل و هى: أنّ العرش ليس تختا جسمانيا يشبه تخوت السلاطين، بل له معان عديدة كنائية مختلفة إذا استعمل منسوبا إلى اللّه تعالى.

۲- مقام الإمام على عليه السّلام و شيعته

جاء فی روایات عدیدة أنّ الآیة: فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ .. نزلت فی حقّ الإمام علی علیه السّلام و شیعته ۵۷۶].

۳- جواب علی سؤال

و السؤال المطروح هو: هل أنّ دعوة المؤمنین لأهل المحشر لقراءة کتاب حسابهم و صحیفة أعمالهم- طبقا لما جاء فی الآیة الکریمة: فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَیَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا کِتابِیَهْ تعنی أنّ صحیفة أعمالهم خالیة من أی ذنب؟

و فی مقام الجواب یمکن أن نستفید من بعض الأحادیث منها

حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث یقول: «یدنی اللّه العبد یوم القیامة، فیقرره بذنوبه کلّها، حتی إذا رای أنّه قد هلک قال اللّه تعالی: إنّی سترتها علیک فی الدنیا و أنا أغفرها لک الیوم، ثمّ یعطی کتاب حسناته بیمینه»[۵۷۷] (۲).

و قال البعض أیضا: إنّ اللّه تعالی یبدّل سیّئات المؤمنین فی ذلک الیوم إلی (حسنات) و بذلک لا تبدو أی نقطة سوداء فی صحائف أعمالهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۸

الآیات [سورة الحاقة (۶۹): الآیات ۲۵ الی ۲۹]

اشارة

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِشِمالِهِ فَیَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِیَهْ (۲۶) یا لَیْتَها کانَتِ الْقاضِیَةَ (۲۷) ما أَغْنی عَنِّی مالِیَهْ (۲۸) هَلَکَ عَنِّی سُلْطانِیَهْ (۲۹)

التّفسیر

یا لیتنی متّ قبل هذا:

کان الحدیث فی الآیات السابقة عن (أصحاب الیمن) حیث صحائف أعمالهم بأیدیهم الیمنی، و یوجّهون نداءهم إلی أهل المحشر بکلّ فخر للاطلاع علی صحیفة أعمالهم و قراءتها، ثمّ یدخلون جنّات الخلد حیث تکون مستقرّهم الأبدی.

أمّا هذه الآیات فتستعرض الطرف المقابل لأصحاب الیمین و هم (أصحاب الشمال) و تقدّم مقارنة بین المجموعتین، حیث یقول تعالی: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِشِمالِهِ، فَیَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ ۵۷۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۹

وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِیَهْ یا لَیْتَها کانَتِ الْقاضِیَةَ[۵۷۹].

نعم، فی ذلک الیوم العظیم، یوم البعث و یوم البروز و الظهور، یوم الحساب و المحکمة الإلهیة العظیمة، حیث تتوضّح و تنکشف حقیقة الأعمال القبیحة و السیّئة للإنسان .. و عند ما یواجهها یبدأ یجأر و یصرخ و یطلق الزفرات الساخنة المتلاحقة من الأعماق علی المصیر السیء الذی أوصل نفسه إلیه، و الشرّ الذی جلبه علیها، و یتمنّی أن یقطع علاقته بماضیه الأسود تماما، و یتمنّی أن یموت و یفنی و یتخلّص من هذه الفضیحة الکبیرة المهلکة، و یعبّر عن هذا الشعور قوله تعالی: وَ یَقُولُ الْکافِرُ یا لَیْتَنِی کُنْتُ تُراباً[۵۸۰] و ذکرت تفاسیر اخری- أیضا- لمعنی قوله: یا لَیْتَها کانَتِ الْقاضِیَةَ منها أنّ المقصود من (القاضیة) هی الموتة الاولی، یعنی یا لیتنا لم نحی مرّة

اخری و نبعث من جدید، فی حین کان أقبح شیء فی نظرهم هو الموت، و یتمنّی هؤلاء أن لو استمرّ موتهم و لم یواجهوا الخزی فی حیاتهم الثانیة فی المحکمة الإلهیة العادلة.

و قیل أنّ المقصود من «القاضیة» (نفخة الصور) الاولی حیث عبّر عنها ب (القارعة) أیضا، و یعنی ذلک تمنّیهم عدم حدوث النفخة الثانیة، لذا فهم یقولون: یا لیت لم تکن هذه النفخة، إلّا أنّ التّفسیر الذی تحدّثنا عنه فی البدایة أنسب من الجمیع.

ثمّ یضیف تعالی مستعرضا اعتراف المجرمین بذنوبهم فیقول: ما أَغْنی عَنِّی مالِیَهْ فالأموال التی کنت أجمعها فی الدنیا لم تنقذنی الآن و لم تغنّی و لم تدفع عنّی الأهوال أو تحلّ مشاکلی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۰

هَلَکَ عَنِّی سُلْطانِیَهْ فلیست أموالی لم تسعفنی فی هذه الشدّة، بل أنّ قدرتی و مقامی و سلطتی هی الاخری هلکت و زالت عنّی.

و خلاصة الأمر: إنّ الأموال و المقام و السلطان و القوّة .. کلّها لم تفدنی و لم تدفع عنّی ما أنا ملاقیه من عقاب علی ما أسرفت فی السابق، و قد وقفت بین یدی محکمة العدل الإلهی، و أنا لا أملک أی قوّة تنفعنی فی هذا الیوم، فقد ذهبت قدرتی، و قطع أملی من کلّ شیء، و تعطّلت بی الأسباب. و هکذا یکون المجرمون فی نهایة الذلّ و الخزی و الندم، و لات ساعة مندم.

اعتبر البعض معنی ال (سلطان) هنا هو الدلیل و البرهان الذی یکون عاملا فی الإنتصار، و بذلک یکون تفسیر الآیة، أنّ المذنب یقول فی ذلک الیوم: إنّی لا أملک أی دلیل و حجّة أستطیع بها تبریر أعمالی فی حضرة الباریٔ عزّ و جلّ.

و قیل أیضا أنّ المراد من (السلطان) هنا لیس السلطة الحکومیة، ذلک لأنّ الداخلین إلی جهنّم لیسوا جمیعا سلاطین أو أمراء، بل إنّ المراد هو سلطة الإنسان علی نفسه و حیاته و إرادته، و لکن بما أنّ الکثیر من أهل النار کانوا یتمتعون بسلطة و نفوذ فی عالم الدنیا، أو أنّهم کانوا من أصحاب الأموال .. لذا یمکن اعتبار وجهة النظر هذه صحیحة حسب الظاهر.

ملاحظة

بعض القصص المثیرة:

نقلت فی هذا المجال قصص کثیرة تؤکّد علی المفاهیم العامّة التی احتوتها الآیات الکریمة أعلاه، کموضع شاهد و عبرة و تأیید لما ذهبت إلیه الآیات المبارکات، لتکون درسا لأولئک الذین جعلوا (المال و السلطان) همّهم الأوّل، و انغمسوا حتّی الأذقان فی الغفلة و الغرور و الذنوب من أجلهما، و من جملتها ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۱

یلی:

۱- نقل فی (سفینة البحار) عن کتاب (النصائح) ما نصّه: (عند ما اشتدّ مرض هارون الرشید فی خراسان أمر بإحضار طبیب من طوس، ثمّ أوصی أن یعرض إدراره مع إدرار قسم من المرضی و الأصحاء علی الطبیب، ففحص الطبیب قنانی الإدرار الواحدة بعد الاخری، حتّی وصل إلی القنینة قال: قولوا لصاحب هذه القنینة أن یوصی، لأنّ قواه قد انهدّت و بنیته قد هدمت، فعند سماع هارون هذا الکلام یئس من حیاته، و تلا هذه الأبیات الشعریة:

إنّ الطبیب بطبّه و دوائه‌لا یستطیع دفاع نحب قد أتی

ما للطبیب یموت بالداء الذی‌قد کان یبرئ مثله فیما مضی

و فی هذه الأثناء سمع الناس یتداولون خبر موته، و لکی یبطل مفعول هذه الإشاعة، أمر باستحضار دابة، و طلب أن یرکب علیها، و

عند ما امتطى الدابة ضعفت أرجلها عن حمله، قال: أنزلونى، فإنّ الذى أشاع هذه الشائعة قد صدق. ثمّ أمر بجلب أكفان له، و اختار كفنا منها نال إعجابه، و قال احضروا لى قبرا بالقرب من فراشى هذا، ثمّ نظر إلى قبره، و تلا هذه الآيات: ما أَغْنى عَنِّی مالِیَهْ، هَلَکَ عَنِّی سُلْطانِیَهْ ۵۸۱].

۲- و نقل- أيضا- فى نفس المصدر عن العالم الكبير (الشيخ البهائى) ما نصّه هكذا: (كان هنالك رجل كثير الحساب لنفسه و اسمه (توبة)، حوّل عمره البالغ ستّين عاما إلى أيّام فكان مجموعها (۲۱۵۰۰) و عند ذلك قال: يا ويلى إذا لم أكن قد أذنبت فى اليوم إلّا ذنبا واحدا فإنّ مجموع ذنوبى الآن يربو على واحد و عشرين ألف ذنب؟ فكيف الاقى ربّى بواحد و عشرين ألف ذنب؟ و بينما هو فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۲

هذه الحال إذ صرخ صرخة سقط على أثرها على الأرض و سلّم روحه إلى بارئها)[۵۸۲].

۳- ورد فى كتاب «اليتيمة» للثعالبى أنّه لمّا حانت وفاة عضد الدولة لم يتحرّك لسانه إلّا بهذه الآية ما أَغْنى عَنِّی مالِیَهْ هَلَکَ عَنِّی سُلْطانِیَهْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۳

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۳۰ الى ۳۷]

اشارة

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ الْجَحِیمَ صَلُّوهُ (۳۱) ثُمَّ فِی سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُکُوهُ (۳۲) إِنَّهُ کانَ لا یُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِیمِ (۳۳) وَ لا یَحُضُّ عَلی طَعامِ الْمِسْکِینِ (۳۴)

فَلَیْسَ لَهُ الْیَوْمَ هاهُنا حَمِیمٌ (۳۵) وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِینٍ (۳۶) لا یَأْکُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ (۳۷)

التّفسير

خذوه فغلّوه:

استمرارا للآيات السابقة التى كانت تتحدّث عن (أصحاب الشمال) الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى، فتنطلق الآهات و الأنّات، و يتمنّى أحدهم الموت- يشير تعالى فى الآيات أعلاه إلى قسم من العذاب الذى يلاقونه يوم القيامة فيقول: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ «غلّوه» من مادّة (غلّ)، و كما قلنا سابقا أنّ المراد هو السلسلة التى كانوا يربطون بها أيدى و أرجل المجرمين إلى أعناقهم مقترن بالكثير من المشقّة و الألم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۴

ثُمَّ الْجَحِیمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِی سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُکُوهُ

«السلسلة» فى الأصل مأخوذة من مادّة (تسلسل) بمعنى الاهتزاز و الارتعاش، لأنّ حلقات السلسلة الحديدية تهتزّ و تتحرّك.

التعبير ب (سبعون ذراعا) يمكن أن يكون من باب (الكثرة) إذ أنّ العدد سبعين كثيرا ما يستعمل للكثرة، كما يمكن أن يكون المقصود هو العدد (سبعون) نفسه، و على كلّ حال، فإنّ مثل هذا الزنجير يطوق به المجرمون بحيث يربطون به من كلّ جانب.

و قال بعض المفسّرين: إنّ هذه السلاسل الطويلة ليست لشخص واحد. بل لمجاميع يربط كلّ منها بسلسلة، و ذكر هذه العقوبة بعد ذكر الغلّ فى الآيات السابقة يتناسب أكثر مع هذا المعنى.

«ذراع»: بمعنى الفاصلة بين الساعة و نهاية الأصابع، (و قياسها بحدود نصف متر) و كانت وحدة الطول المستعملة عند العرب، و هى قياس طبيعى، و قال البعض إنّ (الذراع) الوارد فى الآية الكريمة هو غير الذراع المتعارف عليه، حيث أنّ كلّ وحدة منه تمثّل فواصل عظيمة، و يربط بهذا الزنجير جميع أهل جهنّم.

و نكرّر هنا مرّة اخرى قولنا أنّ المسائل المرتبطة بالقيامة لا نستطيع تصويرها بالكامل بواسطة بياننا نحن سكّان الدنيا، إلّا أنّنا نعكس شبحا- فقط- من خلال ما جاء فى الآيات و الروايات.

التعبير ب (ثمّ) فى هذه الآية يوضّح لنا أنّ المجرمين بعد دخولهم فى النار يربطون بالسلسلة ذات السبعين ذراعا، و هذه عقوبة جديدة لهم. كما يوجد احتمال أنّ هذه السلاسل الفردية أو الجماعية تكون قبل الدخول فى جهنّم، و (ثم) جاءت للتأخير فى الذكر.

و تتطرق الآيتان التاليتان لبيان السبب الرئيسى لهذا العذاب العسير، فيقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۵

تعالى: إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ

و كلّما كان الأنبياء و الأولياء و رسل اللّه تعالى يدعونه للتوجّه إلى (الواحد الأحد) لم يكن ليقبل، و لذا فإنّ ارتباطه بالخالق كان مقطوعا بصورة تامّة.

وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ

و بهذا الشكل فإنّ هؤلاء قد قطعوا علاقتهم مع (الخلق) أيضا.

و بهذا اللحاظ فإنّ العامل الأساسى لبؤس هؤلاء المجرمين هو قطع علاقتهم مع (الخالق) و (الخلق).

و يستفاد من التعبير السابق- بصورة واضحة- أنّه يمكن تلخيص أهمّ الطاعات و العبادات و أوامر الشرع بهذين الأساسين: (الإيمان) و (إطعام) المسكين) و هذا يمثّل إشارة إلى الأهميّة البالغة لهذا العمل الإنسانى العظيم و الحقيقة كما يقول البعض: إنّ أردأ العقائد هو (الكفر) كما أنّ أقبح الرذائل الأخلاقية هو (البخل).

و الطريف فى التعبير أنّه لم يقل (كان لا يطعم)، بل قال: كان لا يحثّ الآخرين على الإطعام، إشارة إلى:

أوّلا: إنّ حلّ مشكلة المحتاجين و إشباع الجائعين لا يمكن أن يتغلّب عليها شخص واحد، بل يجب دعوة الآخرين أيضا للمساهمة بمثل هذا العمل، ليعمّ الخير و الفضل و الإحسان جميع الناس.

ثانيا: قد يكون الشخص عاجزا عن إطعام المساكين، و لكن الجميع بإمكانهم حثّ الآخرين على ذلك.

ثالثا: محاربة صفة البخل، حيث أنّ من صفات البخيل أنّه يمتنع عن العطاء و البذل، و لا يرغب أو يرتاح لبذل و عطاء الآخرين أيضا.

و ينقل أنّ شخصا من القدماء كان يأمر زوجته بأن تطبخ طعاما أكثر من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۶

حاجتهم لإعطاء المساكين، ثمّ كان يقول: (أخرجنا نصف السلسلة من أعناقنا و ذلك بالإيمان باللّه، و النصف الآخر بالإطعام)[۵۸۳].

ثمّ يضيف تعالى: فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ أى صديق مخلص و حميم وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ أى القيح و الدم.

و الجدير بالملاحظة هنا هو أنّ (الجزاء) و (العمل) لهؤلاء الجماعة متناسبان تماما، فبسبب قطع علاقتهم باللّه، فليس لهم هنالك من صديق و لا حميم، كما أنّ سبب امتناعهم عن إطعام المحتاجين فإنّ طعامهم فى ذلك اليوم لن يكون إلّا القيح و الدم، لأنّهم حرموا المساكين من الإطعام و تركوهم نهبا للجوع و الألم فى الوقت الذى كانوا يتمتّعون لسنين طويلة بألذّ و أطيب الأطعمة.

يقول الراغب فى المفردات: «غسلين» غسالة أبدان الكفّار فى النار، إلّا أنّ المتعارف عليه أنّ المقصود به هو الدم و القيح النازل من أجسام أهل النار، و يحتمل أنّ (الراغب) قد قصد هذا المعنى أيضا.

كما أنّ التعبير ب (الطعام) يناسب هذا المعنى كذلك.

و هنا یطرح سؤال، و هو متعلّق بما ورد فی الآیة الکریمة فی قوله تعالی:

لَیْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِیعٍ ۵۸۴]، و قد فسّروا (الضریع) بأنّه نوع من الشوک.

و کذلک ما ورد بهذا الشأن فی قوله تعالی: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِیمِ ۵۸۵]، و قد فسّروا (الزقوم) بأنّه نبات مرّ غیر مستساغ الطعم ذو رائحة نتنة حیث یکثر وجود مثل هذا النبات فی أرض (تهامة) و هو مرّ و حارق و ذو صمغ.

و السؤال هو: کیف یمکن الجمع بین هذه الآیات و الآیة مورد البحث؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۷

قال البعض فی الجواب: إنّ هذه الکلمات الثلاث (الضریع، و الزقوم، و الغسلین) إشارة إلی موضوع واحد و هو (نبات خشن غیر مستساغ الطعم یکون طعام أهل النار).

و قیل: إنّ أهل النّار فی طبقات مختلفة، و إنّ کلّ صنف من هذه النباتات و الأطعمة یکون غذاء لمجموعة منهم، أو طبقة من طبقاتهم.

و قیل: إنّ غذاء أهل النار هو (الزقوم و الضریع)، و شرابهم (الغسلین)، و التعبیر ب (الطعام) عن الشراب فی هذه الآیة لیس بالجدید.

و یضیف سبحانه فی آخر آیة مورد البحث فی قوله تعالی للتأکید: لا یَأْکُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ

قال بعض المفسّرین: إنّ (خاطئ) تقال للشخص الذی یرتکب خطأ عمدا، أمّا (المخطئ) فتطلق علی من ارتکب خطأ بصورة مطلقة (عمدا أو سهوا) و بناء علی ما تقدّم فإنّ طعام أهل جهنّم خاصّ للأشخاص الذین سلکوا درب الشرک و الکفر و البخل و الطغیان تمردّا و عصیانا و عمدا.

ملاحظة

بدایة وضع الحرکات علی حروف القرآن الکریم:

أخرج «البیهقی» فی شعب الإیمان عن «صعصعة بن صوحان» قال: جاء أعرابی إلی علی بن أبی طالب فقال: کیف هذا الحرف «لا یأکله إلّا الخاطون» کلّ و اللّه یخطو؟ (أی إنّ جمیع الناس تخطو و تمشی فهل انّ الجمیع سوف یأکل من هذا الطعام؟) فتبسّم علی و قال: یا أعرابی (لا یأکله إلّا الخاطئون) قال: صدقت و اللّه یا أمیر المؤمنین ما کان اللّه لیسلّم عبده، ثمّ التفت علی علیه السّلام إلی أبی الأسود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۸

فقال: «إنّ الأعاجم قد دخلت فی الدین کافّة فضع للناس شیئا یستدلّون به علی صلاح ألسنتهم، فرسم لهم الرفع و النصب و الخفض»[۵۸۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۹

الآیات [سورة الحاقة (۶۹): الآیات ۳۸ الی ۴۳]

اشارة

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (۳۸) وَ ما لا تُبْصِرُونَ (۳۹) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ (۴۰) وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِیلاً ما تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لا بِقَوْلِ کاهِنٍ قَلِیلاً ما تَذَکَّرُونَ (۴۲)

تَنْزِیلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ (۴۳)

التّفسير

القرآن كلام اللّه قطعا:

بعد الأبحاث التى مرّت بنا فى الآيات السابقة حول القيامة و ما أعدّه اللّه سبحانه للمؤمنين و الكفّار، يبيّن البارئ عزّ و جلّ فى هذه الآيات بحثا وافيا حول القرآن و النبوّة، ليكون البحثان (النبوّة) و (المعاد) كلا منهما مكمّلا للآخر.

يقول الراغب فى البداية: فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَ ما لا تُبْصِرُونَ

المعروف أنّ كلمة (لا) زائدة و للتأكيد فى مثل هذه الموارد، و لكن ذهب البعض إلى أنّ (لا) تعطى معنى النفى أيضا، و يعنى ذلك أنّنى لا اقسم بهذا الأمر، لأنّه أوّلا: لا توجد ضرورة لمثل هذا القسم. و ثانيا: يجب أن يكون القسم باسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۰

اللّه، إلّا أنّ هذا القول ضعيف، و المناسب هو المعنى الأوّل، إذ ورد فى القرآن الكريم قسم باسم اللّه و بغيره فى الكثير من الآيات.

جملة بِما تُبْصِرُونَ وَ ما لا تُبْصِرُونَ لها معنى واسع، حيث تشمل كلّ ما يراه البشر و ما لا يراه، و بعبارة اخرى تشمل كلّ عالم (الشهود) و (الغيب).

و قد ذكرت احتمالات اخرى لتفسير هاتين الآيتين، منها: أنّ المقصود من عبارة بِما تُبْصِرُونَ هو عالم الخلقة، و من وَ ما لا تُبْصِرُونَ هو الخالق عزّ و جلّ.

و قيل إنّ المقصود بالأولى هو النعم الظاهرية، و فى الثانية النعم الباطنية. أو أنّ المقصود بهما: البشر و الملائكة على التوالى، أو الأجسام و الأرواح، أو الدنيا و الآخرة.

إلّا أنّ سعة مفهوم هاتين العبارتين يمنع من تحديدهما. و بناء على هذا فإنّ كلّ ما يدخل فى دائرة المشاهدة و ما هو خارج عنها مشمول للقسم، إلّا أنّه يستبعد شمولهما للبارئ عزّ و جلّ، بلحاظ أنّ جعل الخالق مقترنا بالخلق أمر غير مناسب، خصوصا مع تعبير (ما) الذى جاء فى الآية الكريمة و الذى يستعمل فى الغالب لغير العاقل.

و يستفاد ضمنا من هذا التعبير بصورة جيّدة أنّ الأمور و الأشياء التى لا يراها الإنسان كثيرة جدّا، و قد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة، و هى أنّ المحسوسات التى تحيطنا تشمل دائرة محدودة من الموجودات- و الأشياء غير المحسوسة- سواء فى مجال الألوان و الأصوات و الأمواج و المذاقات و غيرها- هى فى الواقع أوسع دائرة من الأمور الحسيّة.

فالنجوم التى يمكن رؤيتها فى مجموع نصفى الكرة الأرضية بحدود خمسة آلاف نجمة، طبقا لحسابات علماء الفلك، أمّا النجوم التى لا يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة فهى تعدّ بالمليارات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۱

و الأمواج الصوتية التى تستطيع اذن الإنسان سماعها هى أمواج محدودة، أمّا الأمواج الصوتية الاخرى التى لا تستطيع الاذن سماعها فتقدّر بالآلاف.

و بالنسبة للألوان التى نستطيع رؤيتها فهى سبعة ألوان معروفة، و قد أصبح من المسلّم اليوم وجود ما لا نهاية له من الألوان الاخرى، كلون ما وراء البنفسجى، و ما دون الأحمر، حيث لا يمكن أن تراها أعيننا.

أمّا عدد الحيوانات المجهرية التى لا ترى بالعين المجرّدة فهى كثيرة جدّا إلى حدّ أنّها ملأت جميع العالم، إذ توجد فى قطرة الماء أحيانا آلاف الآلاف منها، فما أضيق تفكير من يضع نفسه فى إطار المحسوسات المادية فقط، و يبقى جاهلا لأمور كثيرة لا تستطيع

الحواس أن تدركها، أو أنّه ينكرها أحيانا؟

لقـد أثبتت الـدلائل العقليـة و التجريبيـة أنّ عـالم الأـرواح عالم أوسع بكثير من عالم أجسامنا، فلما ذا نحبس أنفسـنا و عقولنا فى إطار المحسوسات؟

ثمّ تستعرض الآيـة اللاحقـة جواب هذا القسم العظيم، حيث يقول تعالى بأنّ هذا القرآن هو قول رسول كريم: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ و المقصود من الرّسول هنا- بدون شكّ- هو الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس جبرائيل، لأنّ الآيات اللاحقة تبيّن هذا المعنى بوضوح.

و السـبب فى نسبـة القرآن إلى الرّسول بالرغم من أنّنا نعرف أنّه قول اللّه تعالى، لأنّ الرّسول مبلّغ عنه، و خاصّـة أنّ الآيـة ذكرت كلمة «رسول» و هذا يعنى أنّ كلّ ما يقوله الرّسول فهو قول مرسله، بالرغم من أنّه يجرى على لسان الرّسول، و يسمع من فمه الشريف.

ثمّ يضيف تعالى: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ ۵۸۷] وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۲

تنفى هاتان الآيتان ما نسبه المشركون و المخالفون من تهم باطلة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ كانوا يقولون أحيانا: إنّه (شاعر) و إنّ هذه الآيات من شعره، كما كانوا يقولون أحيانا: إنّه (كاهن) و إنّ الذى يقوله هو (كهانة) لأنّ الكهنة أشخاص كانوا يتنبّئون بأسرار الغيب أحيانا، و ذلك لارتباطهم بالجنّ و الشياطين، و كانوا يطلقون عن قصد كلاما مسجعا و جملا موزونة.

و لأنّ القرآن الكريم أيضا كان يتنبأ و يتحدّث عن امور غيبية، و إنّ ألفاظه و عباراته لها نظام خاصّ، لذا اتّهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه التّهم، فى حين أنّ الفرق بين الإثنين كالفرق بين الأرض و السماء.

لقد نقل البعض فى سبب نزول هذه الآية أنّ (أبا جهل) نسب قول الشعر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أنّ (عقبة) أو (عتبة) هو الذى نسب الكهانة إلى رسولنا الكريم و كذلك الآخرون أيضا كانوا يردّدون هذه التّهم.

و فى الحقيقة فإنّ للقرآن الكريم ألفاظا منسجمة، و تعابير ذات نظم جميل تسحر الآذان و تبعث الاطمئنان فى الأرواح. إلّا أنّ هذا ليس له أى ارتباط مع شعر الشعراء، و لا مع سجع الكاهنين.

الشعر فى الغالب وليد الخيال، و معبّر عن الأحاسيس الجياشة فى النفوس، و العواطف الملتهبة، و لهذا فإنّه يجسّد حالة عدم الاستقرار و عدم التوازن صعودا و نزولا، شدّة و انخفاضا، فى الوقت الذى نلاحظ أنّ القرآن الكريم، و هو يمثّل قمّة الروعة و الجاذبية، فإنّه كتاب استدلالى و منطقى فى عرضه للمفاهيم، و عقلانى فى محتواه، و ما فيه من التنبّؤ المستقبلى لا يشكّل قاعدة أساسية للقرآن الكريم، بالإضافة إلى أنّها صادقة جميعا بخلاف ما عليه تنبّؤ الكهنة.

التعبير ب قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ و قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ هو توبيخ و لوم للأشخاص الذين يسمعون الوحى السماوى مقرونا بدلائل واضحة، إلّا أنّهم يعتبرونه (شعرا) أحيانا، و (كهانة) أحيانا اخرى. و قليلا ما يؤمنون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۳

و يقول سبحانه فى آخر آية- مورد البحث- كتأكيد على هويّة القرآن الربانية: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ۵۸۸].

و بناء على هذا فإنّ القرآن الكريم ليس بشعر و لا كهانة، و ليس هو إنتاج فكر الرّسول، و لا قول جبرائيل .. بل إنّه كلام اللّه سبحانه، حيث نزل بواسطة الوحى على القلب الطاهر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جاء هذا المعنى بعبارات مختلفة إحدى عشرة مرّة فى القرآن الكريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۴

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۴۴ الى ۵۲]

اشارة

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (۴۴) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (۴۵) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (۴۶) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (۴۷) وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۴۸)

وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (۴۹) وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (۵۰) وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (۵۱) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۵۲)

التّفسير

استمرارا للأبحاث المتعلّقة بالقرآن الكريم، تستعرض الآيات التالية دليلا واضحا يؤكّد يقينية كون القرآن من اللّه سبحانه، حيث يقول:

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ ۵۸۹].

«أقاويل»: جمع (أقوال) و (أقوال) بدورها جمع (قول) و بناء على هذا فإنّ أقاويل جمع الجمع، و المقصود منها هنا هو الحديث الكذب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۵

«و تقوّل» من مادّة (تقوّل) على وزن (تكلّف) بمعنى الحديث المصطنع الذي لا أساس له من الصحّة و الحقيقة.

جملة لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ تعني: لأخذنا من يده اليمنى و لعاقبناه و جازيناه و كلمة «اليمين» هنا كناية عن القدرة، و ذلك بلحاظ أنّ الإنسان الذي ينجز أعمالا معيّنة بيده اليمنى يتمتّع بقدرة و قوّة أفضل.

كما أورد بعض المفسّرين احتمالات اخرى أيضا في تفسير هذه الآية، أعرضنا عن ذكرها بلحاظ كونها غير مشهورة و لا موزونة.

«وتين» بمعنى (عرق القلب) و المقصود به هو الشريان الذي عن طريقه يصل الدم إلى جميع أعضاء جسم الإنسان، و إذا قطع فإنّ الإنسان يتعرّض للموت فورا، و هذا تعبير عن أسرع عقوبة يمكن أن يعاقب بها الإنسان.

و فسّر البعض (الوتين) بأنّه العرق الذي يكون القلب معلّقا به، أو العرق الذي يوصل الدم إلى الكبد، أو أنّه عرق النخاع الذي هو في وسط العمود الفقري، إلّا أنّ التّفسير الأوّل أصحّ من الجميع حسب الظاهر.

«حاجزين» جمع (حاجز) بمعنى المانع.

و قد يتساءل البعض قائلا: إذا كان الموت الفوري و الهلاك الحتمي هو عقوبة كلّ من يكذب على اللّه سبحانه، فهذا يستلزم هلاك جميع من يدّعي النبوّة كذبا و بسرعة، و هذا ما لم يلاحظ في حياتنا العملية، حيث بقي الكثير منهم لسنين طويلة. بل حتّى معتقداتهم الباطلة بقيت أيضا فترة زمنية من بعدهم.

الجواب يتّضح جليّا بالانتباه إلى ما يلي: و هو أنّ القرآن الكريم لم يقل بأنّ اللّه يهلك كلّ مدّع يدّعي النبوّة .. بل إنّه سبحانه خصّص هذه العقوبة لشخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما لو انحرف عن طريق الحقّ، فسوف لن يهمل لحظة واحدة، لأنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۶

يكون سببا لضياع الرسالة و ضلال الناس ۵۹۰].

أمّا الأشخاص الذين يدّعون ادّعاءات باطلة، و ليس لديهم أي دليل عليها، فليس هنالك ضرورة لأنّ يهلكهم اللّه فورا، لأنّ بطلان ادّعاءاتهم واضح لكلّ من يطلب الحقّ، إلّا أنّ الأمر يلتبس و يصعب حينما يكون الادّعاء بالنبوّة مقترنا بأدلّة و معاجز دامغة كما هو بالنسبة للنبي الإلهي، فإنّ ذلك ممّا يؤدّي إلى الانحراف عن طريق الحقّ.

و من هنا يتّضح بطلان ادّعاء بعض (الفرق الضالّة) لإثبات ما يقوله أسيادهم من خلال الاستشهاد بهذه الآية المباركة. فلو صحّ ذلك لكان (مسيلمة الكذّاب) و كلّ مدّع كاذب من أمثاله يستطيعون إثبات ادّعاءاتهم من خلال الاستدلال بهذه الآية أيضا.

و یـذکّر سبحانه مرّة اخری فی الآیـة اللاحقـة مؤکّـدا ما سبق عرضه فی الآیات السابقـة وَ إِنَّهُ لَتَـذْکِرَةٌ لِلْمُتَّقِینَ إنّ کتاب اللّه هذا أنزله للأشـخاص الذین یریدون أن یطهّروا أنفسـهم من الذنوب، و یسیروا فی طریق الحقّ، و یبحثوا عن الحقیقة، و یسعوا للوصول إلیها، أمّا من لم یصل إلی هـذا الحـدّ من صـفاء النظرة و تقوی النفس، فمن المسلّم أنّه لن یسـتطیع أن یسـتلهم تعالیم القرآن الکریم و یتـذوّق حلاوة معرفة الحقّ المبین.

إنّ التأثیر العمیق الفذّ للقرآن الکریم الذی یحدثه فی نفوس سامعیه و قارئیه، هو بحدّ ذاته علامة علی إعجازه و حقّانیته.

ثمّ یضیف تعالی: وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْکُمْ مُکَذِّبِینَ

إنّ وجود المکذّبین المعاندین لم یکن مانعا أبدا من الدلیل علی عدم حقّانیتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۷

إنّ المتّقین و طلّاب الحقّ یتّعظون به، و یرون فیه سمات الحقّ، و إنّه عون لهم فی الوصول إلی طریق اللّه سبحانه.

و بناء علی هـذا فکما یجـدر بالإنسان- بل یجب علیه- أن یفتـح عینه للاسـتفادة من إشـعاع النور، فإنّ علیه کـذلک أن یفتح عین قلبه للاستفادة من نور القرآن العظیم.

و یضیف فی الآیة اللاحقة: وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَی الْکافِرِینَ

إنّ هؤلاء الکفرة الـذین یتحدّون القرآن الکریم الیوم و یکذّبونه، فإنّهم غدا حیث (یوم الظهور) و (یوم البروز) و هو و فی نفس الوقت (یوم الحسـرة) یدرکون مدی عظمة النعمة التی فرّطوا بها بسبب لجاجتهم و عنادهم، و ما جلبوه لأنفسهم من ألیم العذاب، ذلک الیوم الـذی یشاهـدون فیه مـا علیه المؤمنـون من نعیم و نعمـة، و عندئـذ تکون المقارنـة بین هؤلاء و بین من غضب اللّه علیهم، فعنـد ذلک سیعضّون أصابع الندم، یقول تعالی: وَ یَوْمَ یَعَضُّ الظَّالِمُ عَلی یَدَیْهِ یَقُولُ یا لَیْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِیلًا[۵۹۱].

و لکی لا یتصور أحـد أنّ التکـذیب و التشـکیک کان بلحاظ غموض و إبهام مفاهیم القرآن الکریم، فیضـیف فی الآیة اللاحقة: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْیَقِینِ

التعبیر ب (حقّ الیقین) فی إعتقـاد بعض المفسّـرین هو فی قبیـل (إضافـة شـیء إلی نفسه) لأنّ (الحقّ) هو (الیقین) نفسه و (الیقین) هو (عین الحقّ) و ذاته، و ذلک کما یقال: (المسـجد الجامع) أو (یوم الخمیس)، و یقال له باصـطلاح النحاة (إضافة بیانیة) إلّا أنّ الأفضـل أن یقال فی مثل هذه الإضافة: إضافة (الموصوف إلی الصفة).

یعنی أنّ القرآن الکریم هو (یقین خالص) أو بتعبیر آخر أنّ للیقین مراحل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۸

مختلفـة، حیث یحصل أحیانا بالـدلیل العقلی کما فی حصول الیقین بوجود النار من خلال مشاهـدة دخّان من بعید، لذا یقال لمثل هذا الأمر (علم الیقین).

و حینما نقترب أکثر و نری اشتعال النار بامّ أعیننا، فعند ذلک یصبح الیقین أقوی و یسمّی عندئذ ب (عین الیقین).

و عند ما یکون اقترابنا أکثر فأکثر و نصبح فی محاذاة النار أو فی داخلها و نلمس حرارتها بأیدینا، فإنّ من المسلّم أنّ هذه أعلی مرحلة من مراحل الیقین، و تسمّی ب (حقّ الیقین).

و الآیة أعلاه تقول: إنّ القرآن الکریم فی مثل هذه المرحلة من الیقین، و مع هذا فإنّ عدیمی البصیرة ینکرونه و یشکّکون فیه.

و أخیرا یقول سبحانه فی آخر آیة- مورد البحث، و التی هی آخر آیة من سورة (الحاقّة)- فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِیمِ

و الجـدیر بالملاحظة- هنا- أنّ مضـمون هذه الآیة و الآیة السابقة قد جاء بتفاوت یسـیر مع ما ورد فی سورة الواقعة، و هذا التفاوت هو أنّ الآیـة وصـفت القرآن الکریم هنا بأنّه (حقّ الیقین) أمّا فی نهایـة سورة (الواقعـة) فکان الحـدیث عن المجامیع المتباینـة للصالحین و الطالحین فی یوم القیامة.

ملاحظة

وصف القرآن الکریم فی هـذه الآیـات المبارکـة بأوصـاف أربعـة و هی «تنزیل» و «تـذکرة» و «حسـرة» و «حقّ الیقین». حیث یقول فی البدایة: تَنْزِیلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ ثمّ یقول: وَ إِنَّهُ لَتَذْکِرَةٌ لِلْمُتَّقِینَ ثمّ یقول تعالی: وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَی الْکافِرِینَ و یضیف فی آخر وصف له بقوله: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْیَقِینِ

و ذلک أنّ الآیة الاولی موجّهة لجمیع البشر، و الثانیة مختصّة بالمتّقین و الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۹

الثالثة تعنی الکافرین، و الرابعة خاصّة بالمقرّبین.

اللهمّ: إنّک تعلم إنّه لا شیء أفضل من الیقین، فارزقنا منه ما یکون معه إیماننا مصداقا لحقّ الیقین.

ربّنا: إنّ یوم القیامة هو یوم الحسرة، فلا تجعلنا فی ذلک الیوم من الذین یتحسّرون لکثرة ذنوبهم، بل من قلّة طاعاتهم علی الأقل ..

ربّنا: آتنا صحیفة أعمالنا بیدنا الیمنی، و أدخلنا فی جنّة عالیة فی عیشة راضیة.

آمین ربّ العالمین نهایة سورة الحاقّة و نهایة المجلد الثّامن عشر

---

[۱] (۱)- مجمع البیان بدایة سورة الحدید.

[۲] (۱)- نفس المصدر إضافة إلی الدرّ المنثور ج ۶، ص ۱۷.

[۳] (۲)- مجمع البیان بدایة سورة الحدید.

[۴] (۱)- أصول الکافی طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۳۱.

[۵] (۲)-« التسبیح» فی الأصل من مادّة(سبح) علی وزن(مسح) بمعنی الحرکة السریعة فی الماء و الهواء. و التسبیح أیضا هو الحرکة السریعة فی مسیر عبادة اللّه عزّ و جلّ(الراغب فی المفردات).

[۶] (۱)- بالرغم من أنّ(سبّح) فعل متعدّ بدون حرف جرّ حیث یقال مثلا سبّحوه إلّا أنّه هنا قد عدی باللام، و من المحتمل أن یکون ذلک للتأکید.

[۷] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۸۶.

[۸] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۴۰۶.

[۹] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۱۶۳.

[۱۰] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۳۶.

[۱۱] (۱)- لقد ذکرنا توضیحات أکثر حول حقیقة العرش فی نهایة الآیة(۵۴) من سورة الأعراف، و فی نهایـة الآیة(۲۵۵) من سورة البقرة.

[۱۲] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۷۱.

[۱۳] (۲)- روح البیان، ج ۹، ص ۳۵۱.

[۱۴] (۱)-« یولـج» من مـادّة(إیلاـج) و هی الاـخری مأخوذة من مـادّة(و لوج) و الولوج بمعنی الـدخول و النفوذ، و الإیلاج بمعنی

الإدخال و الإنفاذ.

[۱۵] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۷۱.

[۱۶] (۱)- صحیح البخاری طبقا لنقل تفسیر المراغی تفسیر ظلال نهایة القرآن فی نهایة الآیات مورد البحث.

[۱۷] (۲)- راجع هذا التّفسیر، نهایة الآیة(۱۷۲) من سورة الأعراف.

[۱۸] (۱)- للآیة محذوف یستفاد من المذکور، و تقدیره(لا یستوی من أنفق من قبل الفتح و قاتل و الذین أنفقوا بعد الفتح و قاتلوا).

[۱۹] (۱)- البقرة، الآیة ۲۶۷.

[۲۰] (۲)- الحشر، الآیة ۹.

[۲۱] (۳)- البقرة، الآیة ۲۷۳.

[۲۲] (۴)- البقرة، الآیة ۲۷۱.

[۲۳] (۱)- البقرة، الآیة ۲۶۴.

[۲۴] (۲)- البقرة، الآیة ۲۶۵.

[۲۵] (۳)- لهذه الآیة تفاسیر متعدّدة، أحدها ما ذکر أعلاه و ستطالعون بعون اللّه شرحا أکثر فی تفسیر سورة المدثر إن شاء اللّه.

[۲۶] (۴)- المدثر، الآیة ۶.

[۲۷] (۵)- آل عمران، الآیة ۹۲.

[۲۸] (۶)- الحدید، الآیة ۷.

[۲۹] (۷)- المائدة، الآیة ۲۷.

[۳۰] (۸)- ذکر الطبرسی قدّس سرّه هذه الشروط العشرة فی مجمع البیان و الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر و الآلوسی فی روح المعانی و قد أدرجناها باختصار.

[۳۱] (۱)- الظاهر أنّ المقصود من(المدّ الواحد من الطعام) هو أقلّ من الکیلو.

[۳۲] (۲)- الدّرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۷۲.

[۳۳] (۳)- تفسیر الصافی، ص ۵۲۲.

[۳۴] (۴)- تفسیر الصافی، ص ۵۲۲.

[۳۵] (۱)- التحریم، الآیة ۸.

[۳۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۴۱، حدیث ۶۰.

[۳۷] (۲)- انظرونا من مادّة(نظر) فی الأصل بمعنى الفکر أو النظر لمشاهدة إدراک شیء، و تأتی أحیانا بمعنى التأمّل و البحث. و کلّما تعدّت ب(إلى) فإنّها تأتی بمعنى النظر إلى شیء، و کلّما تعدّت ب(فی) فإنّها تأتی بمعنى التأمّل و التدبّر، و عند ما لا تتعدّى بدون حرف جرّ کأن نقول:(نظریة و أنظرته و انتظرته) فإنّها تأتی بمعنى التأخیر أو الانتظار(من المفردات للراغب).

[۳۸] (۱)-« مولى» هنا من الممکن أن تکون بمعنى الولی، أو بمعنى الشخص أو الشیء الذی تکون له الأولویة للإنسان.

[۳۹] (۲)- البقرة، الآیة ۱۶۶.

[۴۰] (۳)- البقرة، الآیة ۲۵۴.

[۴۱] (۴)- البقرة، الآیة ۴۸.

[۴۲] (۵)- الدخان، الآیة ۴۱.

[۴۳] (۶)- الطور، الآیة ۴۶.

[۴۴] (۷)- المؤمنون، الآیة ۱۰۱.

[۴۵] (۱)- المدثر، الآیة ۳۸.

[۴۶] (۲)- إبراهیم، الآیة ۲۱.

[۴۷] (۳)- المؤمن، الآیة ۴۹.

[۴۸] (۱)- المؤمنون، الآیة ۱۰۷.

[۴۹] (۱)- الزمر، الآیة ۲۳.

[۵۰] (۲)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۲۳۷ کما جاء فی تفسیر الدرّ المنثور أیضا أسباب نزول کثیرة للآیة من جملتها سبب النزول الثانی(الدرّ المنثور، ج ۶ ص ۱۷۵) و أتی البیضاوی أیضا فی تفسیر(أنوار التنزیل) بنفس سبب النزول المذکور.

[۵۱] (۳)-(یأن) من مادّة(أنّی) من مادّة(إنا) علی وزن(ندا) و من مادّة(أناء) علی وزن جفاء بمعنی الاقتراب و حضور وقت الشیء.

[۵۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۸۳، الحدیث ۸۵.

[۵۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۳۸.

[۵۴] (۱)- روضة الکافی مطابق لنقل الثقلین، ج ۵، ص ۲۴۳

[۵۵] (۲)- کمال الدین مطابق لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۴۲.

[۵۶] (۳)- بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۳۰۸.

[۵۷] (۴)- المصدّقین و المصدّقات بمعنی« المتصدقین و المتصدقات»، و عطف(أقرضوا اللّه) الذی هو« جملة فعلیة» علی« الجملة الاسمیة» السابقة، لأنّ معنی هذه الجملة هو« الذین أقرضوا اللّه».

[۵۸] (۱)- تراجع الآیة(۲۴۵ من سورة البقرة)(الحدید الآیة ۱۱) و(التغابن آیة ۱۷) و(المزمل آیة ۲۰).

[۵۹] (۲)- کنز العرفان، ج ۲، ص ۵۸.

[۶۰] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۳۶۹. و روح البیان، ج ۹، ص ۳۶۵. و تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۴۲.

[۶۱] (۲)- تفسیر نور المعانی، ج ۲۷، ص ۱۵۶.

[۶۲] (۱)- یراجع التّفسیر الأمثل، تفسیر الآیة(۷۸) من سورة الحجّ، و تفسیر الآیة(۴۱) من سورة النساء.

[۶۳] (۲)- تفسیر العیاشی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۴۴.

[۶۴] (۱)- طبقا للتفسیر أعلاه فإنّ جملة(أولئک هم الصدّیقون و الشهداء، عند ربّهم) لیس لها أی تقدیر، إذ أنّ هؤلاء الجماعة من المؤمنین اعتبروا مصداقا للصدّیقین و الشهداء، إلّا أنّ بعض المفسّرین یعتقد أنّ هؤلاء بمنزلة الصدّیقین و الشهداء، و لهم نفس الأجر، و لکن لیس لهم کامل ممیّزاتهم و مفاخرهم. و یقولون: إنّ الآیة تقدیرها(أولئک لهم مثل أجر الصدّیقین و الشهداء).
تفسیر روح المعانی، المیزان نهایة الآیات مورد البحث، و طبعا فإنّ مرجع الضمائر(لهم، و أجرهم) یختلف أیضا. إلّا أنّ هذا التّفسیر لا یتناسب مع ظاهر الآیة(یرجی الانتباه).

[۶۵] (۱)-« یهیج» من مادّة هیجان جاءت هنا بمعنیین الأوّل: جفاف النبات، و الآخر: التحرّک و الحیویة، و قد یرجع هذان المعنیان إلی أصل واحد، لأنّ النبات عند جفافه یکون مهیّأ للاندثار و الانتشار بحرکة الریاح.

[۶۶] (۱)- مریم، آیة ۴۱.

[۶۷] (۲)- مریم، الآیة ۵۶.

[۶۸] (۳)- الجاثیة، الآیة ۷۵.

[۶۹] (۱)- النساء، الآیة ۶۹.

[۷۰] (۲)- تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۳۸.

[۷۱] (۳)- نهج البلاغة، خطبة ۱۹۰.

[۷۲] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۹۰.

[۷۳] (۲)- الأنعام، الآية ۳۲.

[۷۴] (۳)- آل عمران، الآية ۱۸۵.

[۷۵] (۱)- التوبة، الآية ۱۱۱.

[۷۶] (۱)- بالنسبة لعود الضمير فی(نبرأها) فقد ذكروا احتمالات متعدّدة حيث اعتبر البعض أنّ مرجعها للأرض و الأنفس، و البعض الاخر اعتبرها للمصيبة، و بعض جميعها، إلّا أنّه بالنظر إلى ذيل الآية فإنّ المعنى الأوّل هو الأنسب لأنّه يريد أن يقول: حتّى قبل خلق السماء و الأرض و خلقكم فإنّ هذه المصائب مقدّرة.

[۷۷] (۲)- الشورى، الآية ۳۰.

[۷۸] (۱)- تفسير على بن إبراهيم مطابق لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۴۷.

[۷۹] (۲)- كان لدينا بحث آخر فی نهاية الآية(۷۸)،(۷۹) من سورة النساء و التی تتناسب مع الآيات مورد البحث.

[۸۰] (۳)- روح البيان ج ۹، ص ۳۷۵.

[۸۱] (۱)- نهج البلاغة، كلمات قصار ۴۳۹.

[۸۲] (۲)- قتيبة بن سعيد أحد المحدّثين الذی يروی عن مالك بن أنس(منتهى الأرب).

[۸۳] (۳)- تفسير أبو الفتوح الرازی، ج ۱۱، ص ۵۳ و جاء نظير هذا المعنى فی تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۳۷۶.

[۸۴] (۱)-« الذين» بدل من(كلّ مختال فخور) و تفسير الكشّاف ذيل الآية مورد البحث) و بالضمن يجدر الانتباه إلى أنّ البدل و المبدّل منه ليس بالضرورة أن يتطابقا فی المعرفة و النكرة.

[۸۵] (۱)- الجمعة، الآية ۲.

[۸۶] (۱)- الأعراف، الآية ۱۵۷.

[۸۷] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۳۷۲ باب حسن الخلق نهاية الحديث الأوّل.

[۸۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۵۰، حديث ۱۰۰.

[۸۹] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۵۰، حديث ۱۰۱.

[۹۰] (۱)- الكهف، الآية ۹۶.

[۹۱] (۲)- سبأ، الآية ۱۰- ۱۱.

[۹۲] (۳)- آل عمران، الآية ۱۷۹.

[۹۳] (۱)- تفسير المراغی، ج ۲۷، ص ۱۸۳.

[۹۴] (۱)- فروع الكافی، ج ۵، ص ۸ حديث ۱۱، ۱۵.

[۹۵] (۲)- المصدر السابق.

[۹۶] (۳)- فروع الكافی، ج ۵، ص ۲، حديث ۱.

[۹۷] (۱)- مقتبس من التّفسير الكبير فخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۴۲.

[۹۸] (۱)- النور، الآية ۲.

[۹۹] (۲)- المائدة، الآية ۸۲.

[۱۰۰] (۱)- حول ترکیب و معنی هذه الآیة یوجد اختلاف کثیر بین المفسّرین، حیث اعتبرها البعض عطفا علی الرأفة و الرحمة، و أخذوا بنظر الإعتبار(حبّ) قبل الرهبانیة تقدیرا، لأنّ الرهبانیة لیست شیئا یکون فی القلب، بل أنّ حبّها و التعلّق بها یکون فی القلب، و اعتبرها آخرون منصوبة بفعل مضمر حیث إنّ(ابتدعوها) تفسّر ذلک فی تقدیر: ابتدعوا رهبانیة، ابتدعوها.

و بالنسبة ل(إلّا ابتغاء رضوان اللّه) توجد وجهتا نظر: الاولی: أنّها استثناء منقطع، و مفهومه هو:(و لکنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان اللّه). و الاخری: أنّها استثناء متّصل و مفهومها أنّنا قرّرنا و وضعنا نوعا من الرهبانیة علیهم، و الهدف من ذلک هو جلب رضی اللّه تعالی، و لکنّهم حرّفوا الرهبانیة إلی نوع آخر کان خلافا لرضی اللّه، و الظاهر أنّ التفسیر الأوّل فی کلا- الموردین مناسب أکثر، لذا یرجی الانتباه هنا.

[۱۰۱] (۲)- طبقا للتفسیر الأوّل حسب الرأی الذی یقول بأنّه استثناء منقطع، و التّفسیر الثانی یقول بالاستثناء المتّصل. و هذه النقطة أیضا جدیرة بالملاحظة و هی: إذا کانت الرهبانیة عطف علی الرأفة و الرحمة کما اخترناه فی المتن، فإنّ المقصود من جعلها فی القلوب هو نفس المیل القلبی لهم إلی هذه المسألة، فی حین أنّ المقصود من(ما کتبناها) هو أنّ مسألة الرهبانیّة لم تکن حکم اللّه فی دین السیّد المسیح، بالرغم من أنّ اللّه تعالی قد وضع حبّها فی قلوبهم، و بناء علی هذا فلا تتنافی مع جملة(ابتدعوها).

[۱۰۲] (۱)- المائدة، الآیة ۸۲.

[۱۰۳] (۱)- جاء هذا الحدیث فی مجمع البحرین فی مادّة(رهب) کما ذکر ذلک فی النهایة لابن الأثیر.

[۱۰۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۱۴ باب النهی عن الرهبانیة، حدیث ۱.

[۱۰۵] (۱)- دائرة المعارف القرن العشرین مادّة(رهب).

[۱۰۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۴۳ بتلخیص قلیل، و نقل حدیث آخر شبیه بهذا فی الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۷۷.

[۱۰۷] (۲)- تاریخ ویل دورانت، ج ۱۳، ص ۴۴۳.

[۱۰۸] (۱)- الکهف، الآیة ۱۰۳- ۱۰۴.

[۱۰۹] (۲)- کنز العمّال، ج ۲، و الحدیث ۴۴۹۶.

[۱۱۰] (۱)- القصص، الآیة ۵۲- ۵۴.

[۱۱۱] (۲)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۴۴، و نقل نفس المعنی فی تفسیر أبو الفتوح الرازی و روح المعانی مع بعض الاختلاف فی نهایة الآیات مورد البحث.

[۱۱۲] (۱)- یعتقد البعض أنّ هذا المصطلح مأخوذ من(کفل) علی وزن« عسل» و المقصود به هو ما یضعونه علی کفل- القسم الأخیر من الظهر- الحیوانات کی لا یسقط الراکب، و لذلک فإنّه یقال لکلّ شیء یسبّب الحفظ(کفل)، و من هنا أطلق علی الضامن اسم« الکفیل» بسبب هذا المعنی.(أبو الفتوح الرازی نهایة الآیة مورد البحث).

و یستفاد من الراغب أنّ لهذا المصطلح معنیین: الأوّل هو المعنی أعلاه، و المعنی الثانی یطلق علی الشیء الردیء الذی لا قیمة له، و التشبیه بکفل الحیوانات یکون بلحاظ أنّ کلّ شخص یرکب علی کفلها فاحتمال سقوطه وارد(یرجی ملاحظة ذلک).

[۱۱۳] (۱)- الحدید، الآیة ۱۲.

[۱۱۴] (۲)- المائدة، الآیة ۱۵.

[۱۱۵] (۳)- نقلت هذه الروایات فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۵۲، ۲۵۳.

[۱۱۶] (۱)- فی(لا) فی(لئلّا) یعلم أهل الکتاب زائدة أو أصلیة، یوجد نقاش بین المفسّرین حول هذه المسألة، حیث اعتبر الکثیرون أنّ(لا) زائدة و تفید التأکید(کما ذکرنا أعلاه) و بناء علی أنّ(لا) أصلیة، فقد وردت معانی مختلفة للآیة من جملتها أنّ المقصود سیکون کالتالی و هو: أن یعلم أهل الکتاب بأنّه إذا قبلوا الإیمان و الإسلام فإنّهم یستطیعون أن یهیّؤوا الفضل الإلهی لهم. و بتعبیر آخر

فإنّ نفى النفى هنا بمعنى(الإثبات) أو يكون المقصود كالتالى: نحن الذين أعطينا كلّ هذه الهبات للمسلمين حتّى لا يتصوّروا أهل الكتاب أن لا نصيب للمسلمين فى الفضل الإلهى.

إلّا أنّه بملاحظة نهاية الآية التى تقول\:i وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ E و كذلك بملاحظة سبب نزولها الذى مرّ بنا سابقا فإنّ كون(لا) زائدة هو الأنسب ظاهرا، بل و حسب إعتقاد البعض أنّه فى الكثير من الموارد التى تشتمل الجملة على نفى، فإنّ:(لا) تكون زائدة كما فى قوله تعالى\:i ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ E الأعراف/ ۱۲. و فى قوله تعالى أيضا\:i وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ E الأنعام، الآية ۱۰۹(يرجى ملاحظة ذلك).

[۱۱۷] (۱)- البقرة، الآية ۱۱۱.

[۱۱۸] (۲)- الأنفال، الآية ۲۹.

[۱۱۹] (۳)- البقرة، الآية ۲۸۲.

[۱۲۰] (۱)- كان لنا بحث مفصّل فى هذا المجال فى نهاية الآية(۲۹) من سورة الأنفال.

[۱۲۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۴۶ مع تلخيص قليل.

[۱۲۲] (۱)-« زور» فى الأصل بمعنى الانحناء الموجود على الصدر و جاءت أيضا بمعنى الانحراف، و لأن حدود الكذب و الباطل منحرفة عن الحق، فيقال له(زور) كما يطلق على الصنم أيضا بهذا اللحاظ.

[۱۲۳] (۲)- الأحزاب، الآية ۴.

[۱۲۴] (۱)- كنز العرفان، ج ۲، ص ۲۹۰ كما يلاحظ فى الميزان إشارة لهذا المعنى أيضا.

[۱۲۵] (۱)- مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث.

[۱۲۶] (۲)- يراجع كنز العرفان، ج ۲، ص ۲۹۰، و مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۴۷.

[۱۲۷] (۱)- يراجع وسائل الشيعة، ج ۷، ص ۲۷۱، الباب الثالث من أبواب بقية الصوم الواجب.

[۱۲۸] (۱)- إذا كان المقصود هو توالى الشهرين و ليس توالى جميع أيّامها، فإنّ هذا النوع من التوالى يحصل بمجرّد البدء فى الشهر الثانى(يرجى ملاحظة ذلك).

[۱۲۹] (۲)- المشهور بين الفقهاء- كما قلنا سابقا- هو(مدّ واحد) و دليله روايات كثيرة لعلّها بلغت حدّ التواتر، فقد ورد بعضها فى كفّارة القتل الخطأ، و بعض فى كفّارة القسم، و بعض فى كفّارة شهر رمضان، بضميمة أنّ الفقهاء لم يوجدوا أى فرق بين أنواع الكفّارات، إلّا أنّه نقل عن المرحوم الطوسى فى الخلاف و المبسوط و النهاية و التبيان أنّ مقدار الكفّارة(مدّان)، و فى هذا المجال يستدلّ الشيخ رحمه اللّه برواية أبى بصير التى وردت فى كفّارة الظهار حيث عيّن حدّها(مدّين). إلّا أنّ هذه الرواية إمّا أن تكون مخصوصة فى كفّارة الظهار، أو أنّها تحمل على الاستحباب.

[۱۳۰] (۱)-« ظهر» فى العبارة أعلاه ليس بمعناها المتعارف عليه كما قال بعض المفسّرين، بل إنّها كناية عن طبيعة العلاقة الزوجية الجاهلية، و بناء على هذا فإنّ معنى الجملة يصبح هكذا(الزوجية معك كالزوجية مع أمّى) يراجع لسان العرب مادّة ظهر و التّفسير الكبير للفخر الرازى.

[۱۳۱] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۵، ص ۵۴۴،(حديث ۱ باب ۶).

[۱۳۲] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۵، ص ۵۵۵، حديث ۴.

[۱۳۳] (۳)- كنز العرفان، ج ۲، ص ۲۹۲.

[۱۳۴] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۵، ص ۵۲۶، الأحاديث(۱، ۲، ۳، ۴، ۵، ۶).

[۱۳۵] (۱)- فسّر بعض المفسّرين(كبتوا) بمعنى اللعنة، و لأنّ اللعنة من قبل اللّه تعالى القادر على كلّ شىء دليل على تحقيقها،

فالنتيجة هى الذلّة و الهوان لهذه المجموعة فى الدنيا، إلّا أنّ ظاهر تعبير الآية أنّها جملة خبريّة و ليست إنشائية.

[۱۳۶] (۱)- يوم ظرف و متعلّق بالكافرين أو بالمهيمن، و الاحتمال الأوّل أنسب، و اختاره كثير من المفسّرين. و احتمال البعض انّ المتعلّق مقدّر بمعنى(اذكر) مستبعد.

[۱۳۷] (۲)- الكهف، الآية ۴۹.

[۱۳۸] (۱)-« ألم تر»: من مادّة(رؤية) فى الأصل بمعنى المشاهدة الحسيّة، إلّا أنّها فى كثير من الموارد جاءت بمعنى الشهود القلبى و العلم و المعرفة.

[۱۳۹] (۲)-« نجوى» بالرغم من أنّها مصدر إلّا أنّها جاءت هنا اسم فاعل، أى من قبيل(زيد عادل).

[۱۴۰] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۹، ص ۲۶۵.

[۱۴۱] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۵۸، حديث ۲۰.

[۱۴۲] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۵۹، الحديث ۲۳.

[۱۴۳] (۳)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۵۸، حديث ۲۱.

[۱۴۴] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۴۹.

[۱۴۵] (۲)- تفسير المراغى، ج ۲۸، ص ۱۳.

[۱۴۶] (۱)- الصافات، الآية ۱۸۱.

[۱۴۷] (۱)- تفسير مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث، و الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۸۴ و اصول الكافى، ج ۲، ص ۴۸۳(باب المناجاة) حديث ۱، ۲.

[۱۴۸] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۸۴.

[۱۴۹] (۳)- للاطلاع الأكثر على هذه الروايات يراجع تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۶۱- ۲۶۲، حديث ۳۱، ۳۲.

[۱۵۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، حديث ۳۰.

[۱۵۱] (۲)- فى كتاب« بلوغ الإرب فى معرفة أحوال العرب» جاء بحث مفصّل حول تحيّة العرب فى الجاهلية و تفسير عبارة(أنعم صباحا) و(أنعم مساء)، ج ۲، ص ۱۹۲.

[۱۵۲] (۱)- تفسير روح المعانى، ج ۲۸، ص ۲۵. و مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۵۲، و نقل مفسّرون آخرون نفس النصّ باختلاف قليل كالفخر الرازى و القرطبى و السيوطى فى الدرّ المنثور و فى ظلال القرآن أيضا فى نهاية الآية مورد البحث.

[۱۵۳] (۲)- إنّ اختلاف التعبيرين- تفسّحوا و افسحوا- عن الآخر و هو أنّ أحدهما من تفعّل، و الآخر من الثلاثى المجرّد، و يمكن أن يكون الفرق أنّ الأوّل له صفة التكلّف، و الآخر خال من هذه الصفة، يعنى كما لو قال قائل: افسحوا للشخص الذى يقدم توّا، فإنّ الجالسين بدون أن يشعروا بالتكلّف يتفسّحون،(يرجى ملاحظة ذلك).

[۱۵۴] (۱)-« انشزوا» من مادّة(نشز) على وزن(نصر) مأخوذة من معنى الأرض العالية، لذلك استعمل بمعنى القيام، و« المرأة الناشزة» تطلق على كلّ من تعتبر نفسها أعلى من أن تطيع أمر زوجها، و استعمل هذا المصطلح أحيانا بمعنى الإحياء، لأنّ هذا الأمر سبب للقيام من القبور.

[۱۵۵] (۱)-« يرفع» فى الآية أعلاه مجزومة بسبب صيغة الأمر التى جاءت قبلها، و التى فى الحقيقة تعطى مفهوم الشرط، و يرفع بمنزلة جزاء هذا الشرط.

[۱۵۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۵۳.

[۱۵۷] (۲)- المصدر السابق.

[۱۵۸] (۳)- جوامع الجامع، مطابق لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۶۴، و القرطبى، ج ۹، ص ۶۴۷۰.

[۱۵۹] (۴)- المصدر السابق.

[۱۶۰] (۱)- روح المعانى، ج ۲۸، ص ۲۶، و القرطبى، ج ۹، ص ۶۴۷۰.

[۱۶۱] (۲)- جاءت هذه التعليمات من خلال التسلسل فى الآيات التالية: آداب التحيّة و السّلام. النساء/ ۸۶، آداب الدعوة إلى الطعام. الأحزاب/ ۵۳، آداب التكلّم مع الرّسول. الحجرات/ ۲، و آداب التفسّح. فى الآيات مورد البحث.

[۱۶۲] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۴۰۱.

[۱۶۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۵۲، و كثير من التفاسير الأخرى نهاية الآيات مورد البحث.

[۱۶۴] (۲)- روح المعانى، ج ۲۸، ص ۲۷.

[۱۶۵] (۱)- تفسير الطبرى، ج ۲۸، ص ۱۵.

[۱۶۶] (۲)-(البيان فى تفسير القرآن)، ج ۱، ص ۳۷۵، و نقل سيّد قطب أيضا هذه الرواية فى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۲۱.

[۱۶۷] (۳)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۹، ص ۲۷۱.

[۱۶۸] (۴)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۸۵.

[۱۶۹] (۱)- تفسير روح البيان، ج ۶، ص ۴۰۶، كما نقل هذا الحديث الطبرسى فى مجمع البيان، و الزمخشرى فى الكشّاف، و القرطبى فى تفسير الجامع و ذلك فى نهاية الآيات مورد البحث.

[۱۷۰] (۱)- الفخر الرازى و روح البيان نهاية الآيات مورد البحث.

[۱۷۱] (۱)- المائدة، الآية ۶۰.

[۱۷۲] (۲)- المائدة، الآية ۵۱.

[۱۷۳] (۱)-« جنة» فى الأصل من مادة(جن) على وزن(فن) بمعنى تغطية الشيء، و لأن الدرع يغطى الإنسان من ضربات العدو فيقال له(جنة و مجن و مجنة).

[۱۷۴] (۱)- اعتبر بعض المفسّرين أنّ كلمة« عذاب» هنا مقدرة و قالوا: إنّ المقصود هو(من عذاب اللّه)،(القرطبى و روح البيان و الكشّاف)، و يوجد هنا احتمال آخر، و هو أنّ الآية ليس لها تقدير و المراد من كلمة(اللّه) هو أنّهم لا يجدون ملجأ آخر غيره.

[۱۷۵] (۲)- آل عمران، الآية ۱۸۰.

[۱۷۶] (۳)- البقرة، الآية ۱۶۶.

[۱۷۷] (۴)-« يوم» ظرف و متعلّق ب(اذكر) المحذوفة، أو متعلّق بما قبله يعنى« لهم عذاب مهين»، أو« أولئك أصحاب النار»، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

[۱۷۸] (۱)- اصول الكافى مطابق لنقل نور الثقلين، ج ۵ ص ۲۶۷.

[۱۷۹] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۶۶.

[۱۸۰] (۱)-« يحادّون» من مادّة(محادّة) بمعنى الحرب المسلّح و غير المسلّح، أو بمعنى الممانعة(و قد أعطينا توضيحا آخر فى هذا المجال فى نهاية الآية(۵) من نفس السورة).

[۱۸۱] (۲)- الصافات، الآية ۱۷۱، ۱۷۳.

[۱۸۲] (۱)- للتوضيح الأشمل فى هذا المجال يراجع تفسير الآية(۱۷۱) من سورة الصافات.

[۱۸۳] (۲)- المؤمن، الآية ۵۱.

[۱۸۴] (۳)- آل عمران، الآية ۱۳۹.

[۱۸۵] (۱)- الأنفال، الآية ۵۳.

[۱۸۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۵۵.

[۱۸۷] (۱)- نقل هذا الحديث فى تفسير البرهان عن كتب أهل السنّة(البرهان ج ۴ ص ۳۱۲).

[۱۸۸] (۲)- اصول الكافى ج ۲ باب الحبّ فى اللّه حديث ۳.

[۱۸۹] (۱)- سفينة البحار ج ۱ ص ۲۰۱.

[۱۹۰] (۲)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۲۰۱.

[۱۹۱] (۳)- المصدر السابق.

[۱۹۲] (۱)- الكافى مطابق لنقل تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۲۸۸.

[۱۹۳] (۲)- المصدر السابق.

[۱۹۴] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۵۵، ۲۵۶، و نقل القرطبى هذا الحديث أيضا فى بداية هذه السورة.

[۱۹۵] (۱)- المصدر السابق.

[۱۹۶] (۱)- مجمع البيان و تفسير على بن إبراهيم و تفسير القرطبى و نور الثقلين(نهاية الآيات مورد البحث) مقتبس باختصار.

[۱۹۷] (۱)- النمل، الآية ۱۷.

[۱۹۸] (۲)- سورة طه، الآية ۵۹.

[۱۹۹] (۱)- المفردات للراغب.

[۲۰۰] (۱)- كتاب الخصال مطابق لنقل نور الثقلين، ج ۵ ص ۲۷۴.

[۲۰۱] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۸۶.

[۲۰۲] (۱)-« من» شرطية و جزاؤها محذوف و تقديره: و من يشاقق الله يعاقبه فإن الله شديد العقاب.

[۲۰۳] (۱)- دعاء الافتتاح(من أدعية شهر رمضان المبارك).

[۲۰۴] (۲)-« ما» فى الآية أعلاه شرطية و جزاؤها(فبإذن اللّه).

[۲۰۵] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ۱۱، ص ۹۳، و جاء هذا المعنى فى الدرّ المنثور، ج ۹، ص ۱۸۸.

[۲۰۶] (۲)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۹، ص ۲۸۳.

[۲۰۷] (۱)- مجمع البيان، ج ۲، ص ۵۱۹،(نهاية الآية ۱۵۱/ آل عمران).

[۲۰۸] (۲)- إثبات الهداة، ج ۷، ص ۱۲۴.

[۲۰۹] (۱)- مجمع البيان نهاية الآيات مورد البحث و تفاسير اخرى.

[۲۱۰] (۲)-« ما» فى(ما أفاء اللّه و رسوله) موصولة فى محلّ رفع مبتدأ و ما فى i فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ E نافية، و مجموع هذه الجملة خبر، و هنالك احتمال ثان: و هو أنّ(ما) فى(ما أفاء) شرطية،(و ما) الثانية مع جملتها تكون جوابا للشرط و مجيء(الفاء) فى صدر جملة الخبر حينما تكون فيها شبهة بالشرط، فلا إشكال فيه.

[۲۱۱] (۱)- يقول الراغب فى المفردات: إنّ الخيل فى الأصل من مادّة(خيال) بمعنى التصوّرات الذهنية، و خيلاء بمعنى التكبّر و التعالى على الآخرين لأنّه ناتج من تخيّل الفضيلة، و لأنّ ركوب الإنسان على الحصان يشعر بالإحساس بنوع من الفخر و الزهو غالبا، لذلك أطلق لفظ الخيل على الحصان، و النقطة الجديرة بالملاحظة أنّ خيل تطلق على الحصان و كذلك على راكبيه.

[۲۱۲] (۱)- هذا التّفسير لم يأت به الشيعة فقط، حيث جاء ذكره فى تفاسير أهل السنّة أيضا، كما ذكر ذلك الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، و البرسونى فى روح البيان، و سيّد قطب فى ظلال القرآن، و المراغى فى تفسيره و الآلوسى فى روح المعانى.

[۲۱۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۱، و وسائل الشيعة، ج، ص ۳۶۸، حديث ۱۲ و باب واحد من أبواب الأنفال.

[۲۱۴] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۳۵۶،(حديث ۴، باب واحد من أبواب الأنفال).

[۲۱۵] (۳)-(دولة) بفتح الدال و ضمّها بمعنى واحد، و فرّق البعض بين الإثنين و ذكر أنّ(دولة) بفتح الدال تعنى الأموال، أمّا بضمّها فتعنى الحرب و المقام، و قيل أنّ الأوّل اسم مصدر، و الثانى مصدر، و على كلّ حال فإنّ لها أصلا مشتركا من مادّة« تداول» بمعنى التعامل من يد إلى اخرى.

[۲۱۶] (۱)- الموارد الإثنى عشر للأنفال هى:

۱- الأراضى التى تركها أهلها و رحلوا عنها ك(أراضى يهود بنى النضير).

۲- الأراضى التى تركها أصحابها برغبة منهم إلى رئيس الدولة الإسلامية مثل(فدك).

۳- أراضى الموات.

۴- سواحل البحار.

۵- قمم الجبال.

۶- الوديان.

۷- الغابات و الآجام.

۸- الغنائم الحربية الثمينة الخاصّة بالملوك.

۹- ما يختاره قائد المسلمين من الغنائم العامّة لنفسه.

۱۰- الغنائم الحاصلة من الحروب التى لم يأذن بها الحاكم الشرعى.

۱۱- المعادن.

۱۲- ميراث من لا وارث له.

و من الطبيعى أنّ فى بعض الموارد أعلاه قد حصلت اختلافات بين الفقهاء إلّا أنّ الأكثرية الغالبة قد اعتبرت هذه الموارد، و يمكن مراجعة ذلك فى الكتب الفقهية.

[۲۱۷] (۱)- الروايات التى تناولت هذا البحث عديدة يمكن مراجعتها فى ج ۵، ص ۲۷۹- ۲۸۳ من تفسير نور الثقلين.

[۲۱۸] (۱)- الروم، الآية ۳۸.

[۲۱۹] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۴، ص ۱۷۷.

[۲۲۰] (۳)- كنز العمّال، ج ۲، ص ۱۵۸.

[۲۲۱] (۴)- يراجع كتاب فدك، ص ۴۹.

[۲۲۲] (۱)- شرح ابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۲۰۹ و ما بعدها.

[۲۲۳] (۱)- صحيح مسلم، ج ۳ ص ۱۳۸۰، حديث ۵۲ عن كتاب الجهاد.

[۲۲۴] (۱)-« للفقراء» بدل و تفسير لابن السبيل.

[۲۲۵] (۱)- إلّا أنّه و طبقا لتفسير آخر فإنّ(و الذين تبوّؤا الدار) تكون مبتدأ، و(يحبّون) خبرها، و إجمالا فإنّها تشكّل جملة مستقلّة، و لا ترتبط بالجملة السابقة التى تتحدّث حول مصاريف الفيء، إلّا أنّ من الواضح أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

[۲۲۶] (۱)-« خصاصة» من مادّة(خصاص) على وزن(أساس) بمعنى الشقوق التى توجد فى جدران البيت، و لأنّ الفقر فى حياة الإنسان يمثّل شقّا، لذا عبّر عنه بالخصاصة.

[۲۲۷] (۲)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۰.

[۲۲۸] (۱)- المصدر السابق.

[۲۲۹] (۲)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۰.

[۲۳۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۹۱، حديث ۶۴.

[۲۳۱] (۲)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۲.

[۲۳۲] (۱)- روح البيان، ج ۹، ص ۴۳۹، و جاء نفس هذا المعنى باختلافات عديدة فى تفسير الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۹۹.

[۲۳۳] (۱)- آل عمران، الآية ۱۵۱.

[۲۳۴] (۱)- هذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره: مثلهم كمثل الذين من قبلهم.

[۲۳۵] (۱)- بالرغم من أنّ التعبير ب(كمثل) فى هذه الآية و فى الآية السابقة متشابهان، فإنّ بعض المفسّرين اعتبر الإثنين دليلا على مجموعة واحدة، إلّا أنّ القرائن تبيّن بوضوح أنّ الأوّل يحكى وضع يهود بنى النضير، و الثانى يحكى وضع المنافقين، و على كلّ حال فإنّ هذه العبارة أيضا خبر لمبتدأ محذوف تقديره مثلهم كمثل الشيطان.

[۲۳۶] (۲)- الأنفال، الآية ۴۸.

[۲۳۷] (۱)-« عاقبتهما» خبر« كان» و منصوب، و(إنّهما فى النار) جاءت بمكان اسم كان و« خالدين» حال لضمير« هما».

[۲۳۸] (۲)-« ما» فى(ما قدّمت لغد) هل أنّها موصولة أو استفهامية؟ هناك احتمالان، و الآية الشريفة لها القدرة على تقبّل الاحتمالين، بالرغم من أنّ الاستفهامية أنسب.

[۲۳۹] (۱)- الميزان، ج ۱۹، ص ۲۵۳.

[۲۴۰] (۱)- التوبة، الآية ۶۷.

[۲۴۱] (۲)- حذف المتعلّق أى متعلّق« لا يستوى» دليل على العموم.

[۲۴۲] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۹۲.

[۲۴۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۵، تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۵۱۸، و جاءت هذه القصّة مفصّلة أكثر فى روح البيان، ج ۹، ص ۴۴۶.

[۲۴۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۹۲.

[۲۴۵] (۱)- البقرة، الآية ۱۱۰.

[۲۴۶] (۱)-« متصدع» من مادة(صدع)، بمعنى شق الأشياء القوية، كالحديد و الزجاج، و إذا قيل لوجع الرأس: صداع، فإنه بسبب شعور الإنسان أن رأسه يريد أن يتشقق من الألم.

[۲۴۷] (۱)- الأنعام، الآية ۵۹.

[۲۴۸] (۲)- فسّر البعض كلمة« سلام» هنا بمعنى« السلامة من كلّ عيب و نقص و آفة»، و بالنظر إلى أنّ هذا المعنى مندرج فى القدّوس و التى جاءت سابقا، بالإضافة إلى أنّ كلمة سلام تقال فى القرآن الكريم فى الغالب بمعنى إعطاء السلامة للآخرين، و أساسا فإنّ كلمة سلام تقال عند اللقاء و تعنى إظهار الصداقة و المحبّة و بيان الروابط الحميمة مع الطرف المقابل، فإنّ ما ذكرناه أعلاه هو الأنسب حسب الظاهر.(يرجى الانتباه لذلك).

[۲۴۹] (۳)- يونس، الآية ۲۵.

[۲۵۰] (۴)- المائدة، الآية ۱۶.

[۲۵۱] (۱)- الواقعة، الآية ۲۶.

[۲۵۲] (۲)- ذكر بعض المفسّرين أنّ المؤمن هنا بمعنى صاحب الإيمان، إشارة إلى أنّه أوّل شخص مؤمن بذات اللّه الطاهرة، و

صفاته و رسله(و هو اللّه تعالى) إلّا أنّ الذى ذكر أعلاه أنسب.

[۲۵۳] (۳)- في الأصل لهذا المصطلح قولان بين المفسّرين و أرباب اللغة، حيث اعتبره البعض من مادّة(هيمن) و التى تعنى المراقبة، و الحفظ، و البعض الآخر اعتبره من مادّة(إيمان) تبدّلت الهمزة إلى الهاء بمعنى الباعث للهدوء، و ورد هذا المصطلح مرّتين فى القرآن الكريم: الاولى: حول القرآن نفسه، كما فى الآية(۴۸) من سورة المائدة، و الثانية: في وصف اللّه سبحانه فى الآية مورد البحث. و الموردان مناسبان للمعنى الأوّل،(لسان العرب و كذلك تفسير روح المعانى و الفخر الرازى).

كما نقل أبو الفتوح الرازى فى نهاية الآية مورد البحث عن أبى عبيدة أنّه جاء فى كلام العرب خمس كلمات فقط على هذا الوزن:(مهيمن، مسيطر، مبيطر(طبيب الحيوانات) مبيقر(الذى يشقّ طريقه و يمضى فيه) مخيمر(اسم جبل).

[۲۵۴] (۱)- البارئ من مادّة« برء» على وزن(قفل) و هى فى الأصل بمعنى التحرّر و التخلّص من الأمور السلبية، و لذا يقال(بارئ) للشخص الذى يوجد شيئا غير ناقص و موزون بصورة تامّة. و أخذه البعض- أيضا- من مادّة(برى) على وزن(نفى) قطّ الخشب، حيث ينجز هذا العمل بقصد الموزونية، و صرّح بعض أئمّة اللغة أيضا بأنّ البارئ هو الذى يبدأ شيئا لم يكن له نظير فى السابق.

[۲۵۵] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۷.

[۲۵۶] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۵ ص ۲۹۳.

[۲۵۷] (۳)- المصدر السابق.

[۲۵۸] (۴)- المصدر السابق.

[۲۵۹] (۵)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۰۱.

[۲۶۰] (۱)- قرأها البعض« ممتحنة» بفتح الحاء و ذلك بسبب حالة التمحيص و الامتحان للنسوة المهاجرات، و قرأها آخرون ممتحنة- بكسر الحاء- و ذلك لأنّ موضوعات السورة- أجمع- كانت وسيلة للامتحان و التمحيص.

[۲۶۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۷.

[۲۶۲] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۹۹.

[۲۶۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۶۹، بتلخيص مختصر، كما نقل هذا فى سبب النزول: البخارى فى صحيحه، ج ۹، ص ۱۸۵، و الفخر الرازى، و ورد كذلك فى تفسير روح المعانى، و روح البيان، و فى الظلال، و القرطبى، و المراغى، و فى تفاسير اخرى باختلاف.

[۲۶۴] (۱)- جملة\:i تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ\E قالوا: إنّها حال من ضمير(لا تتّخذوا) كما قيل: إنّها جملة استئنافية(الكشّاف، ج ۴، ص ۵۱۲).

الباء فى(المودّة) إمّا زائدة للتأكيد كما فى قوله تعالى\:i وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ\E أو أنّها سببيّة بحذف المفعول الذى تقديره:(تلقوا إليهم أخبار رسول اللّه بسبب المودّة التى بينكم و بينهم) الكشّاف أيضا.

[۲۶۵] (۲)- يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذه الجملة الشرطية لها جزاء محذوف يستفاد من الجملة السابقة تقديره:(و إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى و ابتغاء مرضاتى لا تتولّوا أعدائى).

[۲۶۶] (۳)- الجملة أعلاه جملة استئنافية.

[۲۶۷] (۴)- التعبير هنا ب(ما أخفيتم) عوض(ما أسررتم) جاء تأكيدا للمبالغة، لأنّ الإخفاء مرحلة أعمق من السرّ(تفسير الفخر الرازى نهاية الآيات مورد البحث).

[۲۶۸] (۱)- يثقفوكم من مادّة:(ثقف ثقافة) بمعنى المهارة فى تشخيص أو إنجاز شىء ما، و لهذا السبب تستعمل- أيضا- بمعنى الثقافة أو التمكّن و التسلّط المقترن بمهارة على الشىء.

[۲۶۹] (۱)- یعتقد أکثر المفسّرین أنّ:(یوم القیامة) متعلّقة ب(یفصل) إلّا أنّ البعض الآخر یعتقد بأنّها متعلّقة ب(لن تنفعکم) و النتیجة أنّ کلا الرأیین متقاربان بالرغم من أنّ المعنى الأوّل أنسب حسب الظاهر.

کما أنّ الملاحظ أنّ البعض فسّر(یفصل) بمعنى فصل شیئین بالمعنى المتعارف، و البعض الآخر اعتبرها من(فصل) بمعنى الحکم و القضاء بین إثنین، إلّا أنّ المعنى الأوّل أصحّ.

[۲۷۰] (۲)- عبس، الآیة ۳۴- ۳۶.

[۲۷۱] (۱)- ذکر المفسرون احتمالات عدة فی إعراب هذه الجملة، و الظاهر أن(أسوة حسنة) اسم کان، و(لکم) خبرها و(فی إبراهیم) متعلق ب(أسوة حسنة) و لا بد من الالتفات ضمنا إلى أن أسوة بمعنى التأسی و الاقتداء الذی یکون أحیانا بالأعمال الجیدة و اخرى بالسیئة و لذا قیدت هنا ب(الحسنة).

[۲۷۲] (۲)- الکامل فی التاریخ، لابن الأثیر، ج ۱، ص ۱۰۰.

[۲۷۳] (۱)-« براء» جمع« برىء» مثل« ظرفاء- ظریف».

[۲۷۴] (۲)- اصول الکافی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۰۲.

[۲۷۵] (۱)- التوبة، الآیة ۱۱۴.

[۲۷۶] (۱)- یتّضح لنا ممّا تقدّم أنّ الاستثناء هنا متّصل، و المستثنى منه جملة محذوفة یدلّ علیها صدر الآیة، و تقدیرها: إنّ إبراهیم و قومه تبرّأوا منهم، و لم یکن لهم قول یدلّ على المحبّة إلّا قول إبراهیم، و طبقا للتفسیر الثانی فإنّ الاستثناء سوف یکون منقطعا، و هذا بحدّ ذاته إشکال آخر علیه.

[۲۷۷] (۲)- یتّضح ممّا قلناه أنّ هذه الجملة هی کلام إبراهیم علیه السّلام و أصحابه، بالرغم من أنّ بعض المفسّرین احتمل کونها جملة مستقلّة و نزلت بعنوان إرشاد للمسلمین ضمن هذه الآیات، و هو احتمال بعید.

[۲۷۸] (۱)- قال بعض المفسّرین: إنّ(لمن) فی الآیة أعلاه« بدل» عن(لکم):(تفسیر الفخر الرازی، و روح المعانی، فی نهایة هذه الآیات).

[۲۷۹] (۱)- بناء على هذا فإنّ جملة(من یتولّ) جملة شرطیة، و لها جزاء محذوف تقدیره: من یتولّ فقد أخطأ حظّ نفسه و أذهب ما یعود نفعه إلیه(مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۷۲).

[۲۸۰] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۲۷۸، مادّة عمل.

[۲۸۱] (۱)- روح البیان، ج ۹، ص ۴۷۴.

[۲۸۲] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب الحبّ فی اللّه حدیث(۱، ۲).

[۲۸۳] (۲)- اصول الکافی، ج ۲، باب الحبّ فی اللّه، حدیث(۱، ۲).

و الأحادیث فی هذا المجال کثیرة جدّا و یراجع المجلّد الثانی من کتاب اصول الکافی، باب الحبّ فی اللّه، حیث نقل العلّامة الکلینی فی هذا الباب(۱۶) حدیثا حول هذا الموضوع.

[۲۸۴] (۱)- عبید اللّه بن جحش هو أخو عبد اللّه بن جحش، لم یبق على الإسلام بل اختار المسیحیة فی الحبشة، و لهذا السبب فإنّ أمّ حبیبة انفصلت عنه، أمّا أخوه(عبد اللّه) فقد بقی مسلما و کان من مجاهدی أحد، و استشهد فی تلک الغزوة.

[۲۸۵] (۲)- إنّ خلاصة هذه القصّة قد نقلها کثیر من المفسّرین، و یمکن مراجعة شرحها فی کتاب اسد الغابة فی معرفة الصحابة، ج ۵، ص ۵۷۳.

[۲۸۶] (۱)- التوبة، الآیة ۵.

[۲۸۷] (۲)- احتمل بعض المفسّرین أنّ الآیة تمثّل رخصة عقد الولاء بالنسبة للمؤمنین الذین کانوا قد قبلوا الإسلام، إلّا أنّهم بقوا فی

مكّة، و لم يهاجروا. إلّا أنّ لحن الآيات يبيّن لنا أنّ الحديث كان مختصا بغير المسلمين.

[۲۸۸] (۱)- روح البيان، ج ۹، ص ۴۸۱، جاءت هذه الرواية فى صحيح البخارى و كثير من كتب التّفسير أيضا باختلافات.

[۲۸۹] (۱)- جاء سبب النزول أعلاه فى كثير من كتب التّفسير، و نحن اقتبسناه من مجمع البيان بتلخيص قليل، كما نقل الطبرسى هذا الحديث عن ابن عبّاس.

[۲۹۰] (۱)- الممتحنة، الآية ۱۲.

[۲۹۱] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ۱۱، ص ۱۲۶.

[۲۹۲] (۱)- جواهر الكلام، ج ۳۰، ص ۵۴.

[۲۹۳] (۱)- يراجع فى هذا الصدد التّفسير الأمثل الآية(۱۸) سورة الفتح.

[۲۹۴] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۶، و جاء القرطبى فى تفسيره بهذه القصّة باختلاف يسير، و كذلك السيوطى فى الدرّ المنثور، و أبو الفتوح فى تفسير روح الجنان(فى نهاية الآيات مورد البحث).

[۲۹۵] (۱)- نهج البلاغة، رسالة رقم(۳۸) و هى رسالة قصيرة كتبها الإمام عليه السّلام لأهل مصر هى غير ما كتبه الإمام عليه السّلام من العهد المعروف لمالك الأشتر.

[۲۹۶] (۱)- البقرة، الآية ۹۰.

[۲۹۷] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۶.

[۲۹۸] (۲)- ذهب بعض المفسّرين إلى احتمالات اخرى فى تفسير هذه الآية من جملتها: أنّهم ينسوا من ثواب الآخرة كما يئس المشركون من إحياء أصحاب القبور، إلّا أنّ التّفسير الذى ذكرناه أعلاه أنسب(و ممّا يجدر الانتباه إليه أنّه طبقا للتفسير الأوّل فإنّ(من أصحاب القبور) وصف للكفّار و طبقا للتفسير الأخير فإنّها متعلّقة ب(يئس).

[۲۹۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۸، كما ذكر بقيّة المفسّرين أيضا أسباب النزول هذه باختلافات.

[۳۰۰] (۲)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۷، نور الثقلين، ج ۹، ص ۳۰۹.

[۳۰۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۷، نور الثقلين، ج ۹، ص ۳۰۹.

[۳۰۲] (۲)- تحدّثنا مرارا فى هذا التّفسير حول كيفية التسبيح العام لكائنات العالم و من ضمن ذلك ما ورد فى نهاية الآية(۴۴) من سورة الإسراء و نهاية الآية(۴۱) من سورة النور.

[۳۰۳] (۳)-(لم) فى الأصل كانت(لما)(مركبة من لام جارّة، و ما استفهامية) ثمّ سقطت الفها بسبب كثرة الاستعمال.

[۳۰۴] (۱)- اعتبر بعض المفسّرين(كبر) من أفعال(المدح و الذمّ)،(تفسير روح البيان نهاية الآيات مورد البحث)، كما فهم البعض منها معنى التعجّب(تفسير الكشّاف).

[۳۰۵] (۲)- الميزان، ج ۱۹، ص ۲۸۷.

[۳۰۶] (۱)- نهج البلاغة الرسالة رقم ۵۳ ص ۴۴۴ صبحى الصالح.

[۳۰۷] (۲)- اصول الكافى، ج ۲، باب خلف الوعد.

[۳۰۸] (۳)-(صفّا) منصوبة على أنّها حال.

[۳۰۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۱۱.

[۳۱۰] (۲)- نهج البلاغة، خطبة(۱۲۴)، صبحى الصالح.

[۳۱۱] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۲۹.

[۳۱۲] (۱)- اصول الكافى، ج ۱(باب صفة العلماء/ حديث رقم ۲).

[۳۱۳] (۱)- المائدة، الآیة ۲۴.

[۳۱۴] (۲)- التفسیر الأمثل الآیة أعلاه من سورة الأحزاب.

[۳۱۵] (۱)-« زاغوا»: من مادّة(زیغ) بمعنی الانحراف عن الطریق المستقیم.

[۳۱۶] (۱)- الأعراف، الآیة ۱۵۷.

[۳۱۷] (۲)- المیزان، ج ۱۹، ص ۲۹۰.

[۳۱۸] (۱)- جاء هذا التعبیر فی إنجیل عربی طبع فی لندن فی مطبعة ویلیام وطسس سنة ۱۸۵۷ م.

[۳۱۹] (۲)- إنجیل یوحنا باب ۱۴، جملة ۱۶.

[۳۲۰] (۳)- إنجیل یوحنا، باب ۱۵، جملة ۲۶.

[۳۲۱] (۴)- إنجیل یوحنا، باب ۱۷، جملة ۷.

[۳۲۲] (۱)- الفرقان فی تفسیر القرآن، ج ۲۷، و ج ۲۸، ص ۳۰۶، فی تفسیر الآیة مورد البحث، و جاء فی هذا الکتاب المتن السریانی للجمل أعلاه بصورة دقیقة.

[۳۲۳] (۲)- راجع تفسیر الآیة ۴۱، من سورة البقرة.

[۳۲۴] (۳)- دائرة المعارف الکبیرة الفرنسیة، ج ۲۳، ص ۴۱۷۶.

[۳۲۵] (۱)- دیوان أبو طالب، ص ۲۵، ۲۹.

[۳۲۶] (۲)- تاریخ ابن عساکر، ج ۱، ص ۲۷۵.

[۳۲۷] (۳)- دیوان حسّان بن ثابت ص ۵۹، تحقیق محمّد عزّت نصر اللّه.

[۳۲۸] (۱)- الغدیر، ج ۷، ص ۳۵۸.

[۳۲۹] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۱۳، کما جاءت فی تفسیر الدرّ المنثور روایات فی هذا المجال، ج ۶، ص ۲۱۴، حیث أنّ نقلها جمیعا یطیل البحث.

[۳۳۰] (۳)- استفید فی هذا البحث و البحث السابق من کتاب(أحمد موعود الإنجیل) و(تفسیر الفرقان) أیضا.

[۳۳۱] (۱)- جملة:(تؤمنون باللّه) جملة استثنافیة تفسّر التجارة، و اعتبر البعض أنّها عطف بیان، و علی کلّ حال فإنّ هذه(الجملة الخیریة) لها معنی الأمر.

[۳۳۲] (۱)- جملة(یغفر لکم) هی بمنزلة(جزاء) لشرط محذوف مستفاد من الآیة السابقة و فی التقدیر هکذا: و إن تؤمنوا باللّه و رسوله و تجاهدوا فی سبیله .. یغفر لکم ذنوبکم ...) کما یحتمل- أیضا- أنّ الجملة جواب(الأمر) ذلک الأمر مستفاد من الجملة الخبریة(تؤمنون) و(تجاهدون).

[۳۳۳] (۱)-« اخری» صفة لموصوف محذوف مثل نعمة أو خصلة، و قال البعض أیضا: إنّ الموصوف هو(التجارة) إلّا أنّ هذا مستبعد.

[۳۳۴] (۱)(ظلال القرآن)، ج ۸، ص ۸۷.

[۳۳۵] (۱)- الأنعام، الآیة ۹۶.

[۳۳۶] (۲)- الروم، الآیة ۲۱.

[۳۳۷] (۳)- النحل، الآیة ۸۰.

[۳۳۸] (۱)- نهج البلاغة، کلمات قصار، الجملة رقم ۱۳۱ بتلخیص.

[۳۳۹] (۲)- التوبة، الآیة ۱۱۱.

[۳۴۰] (۳)- راجع تفسیر الآیة ۱۱۱ من سورة التوبة.

[۳۴۱] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۱۴.

[۳۴۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۲۰، ح ۱.

[۳۴۳] (۲)- نفس المصدر، ص ۳۲۱.

[۳۴۴] (۱)-« آخرین» عطف علی(امّیین) و ضمیر منهم متعلّق ب« المؤمنین» کما یفهم من سیاق الآیات. و احتمل بعضهم أنّه معطوف علی ضمیر« یعلّمهم». و لکن المعنی الأوّل أنسب.

[۳۴۵] (۲)- أورده الطبرسی فی(مجمع البیان) و الطباطبائی فی(المیزان) و السیوطی فی(الدرّ المنثور) و الزمخشری فی الکشّاف، و القرطبی، و المراغی فی تفسیرهما، و سیّد قطب فی تفسیره(فی ظلال القرآن) فی ذیل الآیة مورد البحث، و هو فی الأصل من(صحیح البخاری).

[۳۴۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۸۴.

[۳۴۷] (۱)- اعتبر بعض المفسرین(من دون الناس) حالا لاسم إن، بینما قال آخرون: إنها صفة لأولیاء.

[۳۴۸] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۵.

[۳۴۹] (۲)- المحجّة البیضاء، ج ۱، ص ۱۲۵، ۱۲۶.

[۳۵۰] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار(۳۶۶).

[۳۵۱] (۲)- اصول الکافی، ج ۱، باب استعمال العلم، حدیث ۲۲۶.

[۳۵۲] (۳)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۶۰۳.

[۳۵۳] (۱)- مقتل الحسین- المقرّم- ص ۲۶۳.

[۳۵۴] (۲)- المحجّة البیضاء، ج ۸، ص ۲۵۸.

[۳۵۵] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۸، ص ۲۵۸.

[۳۵۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۸۷، و أغلب التفاسیر الاخری.

[۳۵۷] (۱)- روح المعانی، ج ۲۸، ص ۹۰.

[۳۵۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۲۸۹.

[۳۵۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۲۸۶.

[۳۶۰] (۱)- تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۲۲، و مفسّرین آخر ک(الآلوسی فی روح المعانی و القرطبی).

[۳۶۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۲۸۶.

[۳۶۲] (۲)- روح المعانی، ج ۲۸، ص ۸۸.

[۳۶۳] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۷، باب وجوب صلاة الجمعة، حدیث ۲۸.

[۳۶۴] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۴، حدیث ۸.

[۳۶۵] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۵، حدیث ۱۰.

[۳۶۶] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۵، حدیث ۱۷.

[۳۶۷] (۱)- البحار، ج ۴۴، ص ۳۳۳.

[۳۶۸] (۲)- الصحیفة السجادیة، دعاء ۴۲.

[۳۶۹] (۱)- هناک خلاف فی جزئیات و أحکام صلاة الجمعة ینبغی الرجوع فیها إلی فتاوی الفقهاء، و هذا المذکور خلاصة لتلک

الآراء.

[۳۷۰] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۳۹.

[۳۷۱] (۱)- ذكر العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۸۹، ۹۰ هذه المسألة المهمّة و خصوصياتها الاخرى.

[۳۷۲] (۱)- مجمع البيان بداية سورة المنافقين.

[۳۷۳] (۲)- ثواب الأعمال طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۳۱.

[۳۷۴] (۱)- ذكرت« إنّ» هنا مكسورة، لأنّ لأن لام التأكيد قد جاءت فى بداية الخبر، و فى هذه الصورة يقدّم التقدير.

[۳۷۵] (۱)- روح البيان، ج ۹، ص ۵۲۹.

[۳۷۶] (۱)- التوبة، الآية ۴۲.

[۳۷۷] (۱)- الكشّاف، ج ۴، ص ۵۴۰.

[۳۷۸] (۱)- الكامل فى التاريخ لابن الأثير، ج ۲، ص ۸۱- ۸۲.

[۳۷۹] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۶۰۶.

[۳۸۰] (۱)- صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۶۳.

[۳۸۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۳۶، عن الكافى.

[۳۸۲] (۳)- المصدر السابق.

[۳۸۳] (۱)- المصدر السابق.

[۳۸۴] (۱)- اصول الكافى، ج ۲، باب حبّ الدنيا، حديث ۳.

[۳۸۵] (۲)- يلاحظ فى الآية أعلاه: أنّ« أصّدّق» منصوب و« أكن» مجزوم، و كلاهما معطوف على الآخر، لأنّ« أكن» عطف على محلّ« أصدّق» و فى التقدير هكذا:« إن أخّرتنى أصدّق و أكن من الصالحين».

[۳۸۶] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۱۷۱.

[۳۸۷] (۲)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۶۰۵.

[۳۸۸] (۳)- اصول الكافى ج ۲(باب صفة النفاق حديث ۶).

[۳۸۹] (۴)- نفس المصدر، حديث ۳.

[۳۹۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۲۹۶.

[۳۹۱] (۲)- المصدر السابق.

[۳۹۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۴۱.

[۳۹۳] (۲)-« يوم يجمعكم» متعلّقة ب(لتبعثنّ) أو بجملة(لتنبئن) أو(خبير) أو أنّها متعلّقة بجملة محذوفة مثل« اذكر» لكن هذا بعيد. و المناسب هو أحد الاحتمالات السابقة.

[۳۹۴] (۳)-« التغابن» من باب تفاعل، و عادة ما يأتى فى حالة وجود طرفين تتعارض و تزاحم و هذا المعنى بالنسبة ليوم القيامة ربّما لظهور نتائج تعارض المؤمنين و الكفّار، أى يوم القيامة يوم ظهور التغابن، و يستفاد من بعض كلمات أهل اللغة أنّ باب التفاعل لا يأتى دوما بهذا المعنى، فهنا بمعنى ظهور الغبن(مفردات الراغب- مادّة غبن).

[۳۹۵] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۳۲.

[۳۹۶] (۱)- تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۴۲، و نقل هذا المعنى باختصار أشدّ فى(الدرّ المنثور) و تفاسير اخرى لم تكن شاملة كالرواية أعلاه.

[۳۹۷] (۱)- نهج البلاغهٔ، الجمل القصار ۹۳.

[۳۹۸] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۱.

[۳۹۹] (۳)- صحیح مسلم، ج ۴، ص ۱۸۸۳، حدیث ۵۸.

[۴۰۰] (۱)- البحار، ج ۴۳، ص ۲۹۶، حدیث ۵۷.

[۴۰۱] (۲)- البقرهٔ، الآیهٔ ۱۸۰.

[۴۰۲] (۳)- علی التّفسیر الأوّل تکون« خیرا» مفعول للفعل« أنفقوا»، و علی الثانی تکون خبرا لفعل مقدّر، و تقدیره« یکن خیرا لکم».

[۴۰۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۱.

[۴۰۴] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۴۶.

[۴۰۵] (۱)- روح البیان، ج ۱۰، ص ۲۴.

[۴۰۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۲.

[۴۰۷] (۱)- کتاب الطلاق عن صحیح مسلم، ج ۳، ص ۱۰۹۳ فما بعد.

[۴۰۸] (۲)- وسائل الشیعهٔ، ج ۱۵، ص ۳۴۸« باب کیفیهٔ طلاق العدّهٔ».

[۴۰۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۰- ۳۵۱، أحادیث ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰.

[۴۱۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۲، حدیث ۳۴.

[۴۱۱] (۱)- وسائل الشیعهٔ، ج ۱۵، ص ۲۶۶، حدیث ۱.

[۴۱۲] (۲)- نفس المصدر، حدیث ۵.

[۴۱۳] (۳)- نفس المصدر، حدیث ۷.

[۴۱۴] (۱)- مکارم الأخلاق، ص ۹۱- ۱۰۷.

[۴۱۵] (۲)- المصدر السابق.

[۴۱۶] (۱)- المقصود من« الطلاق الرجعی»- هو الطلاق الذی یحدث بإصرار و مبادرهٔ من الرجل أوّل و ثانی مرّهٔ-.

[۴۱۷] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۶، حدیث ۴۴.

[۴۱۸] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۷، حدیث ۴۵.

[۴۱۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۶، و بهذا المعنی جاء فی تفسیر« الفخر الرازی» و« روح البیان». مع اختلاف بسیط بعضهم قال أنّه جلب مائهٔ بعیر.

[۴۲۰] (۲)- الکافی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۴، ح ۳۵.

[۴۲۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۳۷۳، حدیث ۱۹.

[۴۲۲] (۲)- سفینهٔ البحار، ج ۲، ص ۶۸۳، مادّهٔ التوکّل.

[۴۲۳] (۱)- الجواهر، ج ۳۲، ص ۲۴۹، وسائل الشیعهٔ، ج ۱۵، باب ۴، حدیث ۷.

[۴۲۴] (۱)- طبعا المشهور بین الفقهاء أنّ المرأهٔ عند ما تصل إلی سنّ الیأس سوف لا تکون لها عدّهٔ مطلقا، و لکن فی مقابل ذلک کان عدد من الأصحاب المتقدّمین یقولون بوجوب العدّهٔ، و تساعدهم بعض الروایات رغم معارضهٔ روایات اخری. و ما یتطابق مع ظاهر الآیهٔ هو أنّه فی حالهٔ الشکّ فی الحمل فهناک عدّهٔ.

[۴۲۵] (۲)(للتوسّع أکثر راجع جواهر الکلام، ج ۳۲، ص ۲۳۲ و کتب فقهیهٔ اخری).

[۴۲۶] (۳)- کنز العرفان، ج ۲، ص ۲۶۰.

[۴۲۷] (۱)- قال الطبرسی فی مجمع البیان: إنّ التقدیر« و اللائی لم یحضن إذا ارتبتم فعدتهنّ أیضا ثلاثة أشهر».

[۴۲۸] (۲)- المیزان، ج ۱۹، ص ۳۶۷.

[۴۲۹] (۱)- راجع الکتب الفقهیّة للتوسّع فی ذلک و منها کتاب« جواهر الکلام، ج ۳۲، ص ۱۲۱».

[۴۳۰] (۱)-« کأین» علی الرّأی المشهور لعلماء الأدب اسم مرکب من« کاف» التشبیه و« أی» مع التنوین الذی دخل فی بناء هذا الاسم، و یقرأ مع الوقف کذلک، و کتب أیضا فی کتابة المصاحف و معناها کمعنی« کم» الخبریة، رغم وجود فرق بسیط بینهما.

و علی الرأی غیر المشهور فإنّها اسم بسیط و کافها و نونها جزء من الکلمة.

[۴۳۱] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ الضمائر فی الآیة بعضها بصیغة الجمع و بعضها الآخر بصیغة المفرد، و هذا یعنی انّه فی الموارد التی جاء بصیغة المفرد یکون بمعنی الجنس و الجمع أیضا.

[۴۳۲] (۱)-

\i\i تفسیر« المراغی»، ج ۲۸، ص ۱۵۱، فی حدیث نقل عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال\:E« لهذه النجوم التی فی السماء مدائن مثل المدائن التی فی الأرض\.i(تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۱۵\).E\E

[۴۳۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۱۱.

[۴۳۴] (۲)(ثواب الأعمال) طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۶۷.

[۴۳۵] (۱)- هذا الحدیث أورده فی الأصل(البخاری) فی ج ۶، من صحیحه ص ۱۹۴، و التوضیحات التی ذکرت فی الأقواس تستفاد من کتب اخری.

[۴۳۶] (۲)- تفسیر القرطبی و تفاسیر اخری ذیل الآیة مورد البحث.

[۴۳۷] (۳)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۱۶۳.

[۴۳۸] (۱)-« الراغب» فی« المفردات»، یقول: إذا جاءت کلمة« فرض» مع« علی» فإنّها تدلّ علی الوجوب، و أمّا إذا جاءت معها« لام» فإنّها تدلّ علی عدم المنع و بهذا یکون الفرض فی الآیة السابقة هو السماح و الإباحة و لیس الوجوب.

و عبارة« تحلّة»- مصدر من باب تفعیل- بمعنی إباحة و الحلّیة، أو بتعبیر آخر العمل علی فتح عقدة القسم، و هو الکفّارة.

[۴۳۹] (۲)- کفّارة القسم حسب ما یستفاد من الآیة(۸۶) من سورة المائدة عبارة عن إطعام عشرة مساکین، أو إکساؤهم، أو تحریر رقبة. و إن کان لا یقدر علی شیء من ذلک فصیام ثلاثة أیّام.

[۴۴۰] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۹، ص ۳۹۲.

[۴۴۱] (۲)- طبقا للتفسیر الذی ذکرناه و الذی اختاره أکثر المفسّرین فإنّ هناک شیئا محذوفا فی الآیة تقدیره« إن تتوبا إلی اللّه کان خیر لکما» أو تقدیر آخر مشابه، و لکن احتمل بعض آخر أنّه لیس هناک محذوف فی الآیة و جملة(صغت قلوبکما) جزاء الشرط(بشرط أن یکون المیل إلی الحقّ و لیس العکس). و لکن هذا الاحتمال بعید جدّا لأنّ الشرط جاء بصیغة الفعل المضارع بینما الجزاء بصیغة الفعل الماضی و هذا غیر جائز فی عرف أکثر النحویین، و یذکر أنّ« قلوبکما» جاءت بصیغة الجمع لا المثنی، و ذلک لتلافی اجتماع ألفاظ التثنیة بصورة متتالیة الذی لا یتناسب مع بلاغة القرآن و فصاحته.

[۴۴۲] (۱)- صحیح البخاری، ج ۶، ص ۱۹۵.

[۴۴۳] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۴۳.

[۴۴۴] (۱)-« سائح» من مادّة« السیاحة» و کانت تطلق فی الأصل بمعنی الجولان فی العالم، بدون زاد و متاع، و العیش اعتمادا علی مساعدات الناس، لذلک فالصائم الذی یمسک عن الطعام حتّی یحین وقت الإفطار، شبیه بالسائح، من هذه الناحیة، لذا أطلقت هذه اللفظة« السائح» علی« الصائم».

[۴۴۵] (۲)- یری البعض أنّ کلمة« صالح» هنا، تأتی بمعنی الجمع، نظرا لأنّ واو« صالحوا» حذفت للإضافة لذا فإنّها لم تظهر فی رسم الخطّ القرآنی إلّا أنّ هذا المعنی بعید فی نظرنا.

[۴۴۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۱۶.

[۴۴۷] (۲)- یوسف، الآیة ۱۰۱.

[۴۴۸] (۳)- یبدو أنّ محمّد بن عبّاس هنا هو(أبو عبد اللّه المعروف ب« ابن الحجّام» مؤلّف کتاب« ما أنزل من القرآن فی أهل البیت» الذی قال جمع من العلماء: إنّه لم یؤلّف کتاب مثله إلی الآن) جامع الرواة، ج ۲، ص ۱۳۴.

[۴۴۹] (۴)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۳۵۳، ذیل الحدیث ۲.

[۴۵۰] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۴۶۹، مادّة الکتمان.

[۴۵۱] (۱)- یتصوّر البعض أنّ« نصوح» اسم شخص معیّن، و ذکروا له قصّة مفصّلة، و لکن یجب الالتفات إلی أنّ« نصوح» لیس اسما لشخص، بل یعطی معنی و صفیّا رغم أنّه لا یبعد صحّة القصّة المذکورة.

[۴۵۲] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۶ و ۶۷.

[۴۵۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۱۸.

[۴۵۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۷۲.

[۴۵۵] (۱)(مجموعة ورام)، ج ۱، ص ۶.

[۴۵۶] (۲)(الدرّ المنثور)، ج ۶، ص ۲۴۴.

[۴۵۷] (۳)- المناجاة الخامسة عشر.

[۴۵۸] (۴)- اصول الکافی، ج ۲، باب التوبة، الحدیث ۸.

[۴۵۹] (۱)- اصول الکافی، ج ۲، باب التوبة، الحدیث ۱۰.

[۴۶۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۱.

[۴۶۱] (۱)-« ضرب» أخذ هنا مفعولین، الأوّل« امرأة نوح» ذکره مؤخّرا، و الثانی« مثلا»، و یحتمل أن« ضرب» أخذت مفعولا واحدا و هو« مثلا» و کلمة« امرأة نوح» بدل.(البیان فی غریب اعراب القرآن، ج ۲، ص ۴۴۹).

[۴۶۲] (۲)-« القرطبی» ج ۱۰، ص ۶۶۸۰.

[۴۶۳] (۳)-« روح المعانی» ج ۲۸، ص ۱۴۲(و قیل أنّ اسم امرأة نوح« واغلة» أو« والغة»).

[۴۶۴] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۴۶.

[۴۶۵] (۱)- یوجد شرح مفصّل فی کتابنا هذا فی ذیل الآیة(۹۱) من سورة الأنبیاء یتعلّق بما هو المقصود من تعبیر« الفرج».

[۴۶۶] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۱۸۰.

[۴۶۷] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۱۸۴.

[۴۶۸] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۲۰.

[۴۶۹] (۳)- المصدر السابق.

[۴۷۰] (۴)- المصدر السابق.

[۴۷۱] (۱)- هذه السورة هی ثانی سورة تبدأ بکلمة(تبارک) و سورة الفرقان هی الاخری بدأت ب\i تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً\E.

[۴۷۲] (۱)- یمکن مراجعة الشرح الوافی حول الامتحانات الإلهیة فی تفسیر الآیة(۱۵۵) من سورة البقرة.

[۴۷۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۲۲.

[۴۷۴] (۲)- تفسیر الصافی، الآیات مورد البحث.

[۴۷۵] (۳)- الذاریات، الآیة ۵۶.

[۴۷۶] (۱)- ذکرنا شرحا لهذا الموضوع فی مباحث(إثبات وجود اللّه) و ذلک عند جوابنا علی أدلّة المادیین فی موضوع(الآفات و البلایا)، یرجی مراجعة کتاب(خالق العالم).

[۴۷۷] (۲)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۶۳.

[۴۷۸] (۱)(المجرّات) هی: مجامیع من النجوم تعرف باسم(مدن النجوم)، و مع أنّ بعضها قریب من البعض الآخر نسبیا، إلّا أنّ الفاصلة بین بعضها و البعض الآخر تکون أحیانا ملایین السنین الضوئیة.

[۴۷۹] (۱)(تمیّز) بمعنی التلاشی و التشتّت و کانت فی الأصل(تتمیّز).

[۴۸۰] (۱)- اصول الکافی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۸۲.

[۴۸۱] (۲)- اصول الکافی طبقا لنور الثقلین، ج ۵، ص ۳۸۲.

[۴۸۲] (۱)- نفس المصدر أعلاه.

[۴۸۳] (۱)- الفخر الرازی، ج ۳، ص ۶۶، و روح البیان، ج ۱۰، ص ۸۶ تفسیر الآیات مورد البحث.

[۴۸۴] (۱)-« نکیر» بمعنی(الإنکار) و جاءت هنا کنایة عن العقوبة، لأنّ إنکار اللّه تعالی مقابل أفعال هؤلاء القوم جاءت عن طریق مجازاتهم، و ممّا یجب الانتباه له أنّ هذه الکلمة کانت فی الأصل(نکیری)، کما أنّ(نذیر) فی الآیة السابقة أصلها(نذیری)، فحذفت یاء المتکلّم و بقیت الکسرة تدلّ علیها.

[۴۸۵] (۱)-« الطیر»: جمع(طائر).

[۴۸۶] (۱)- سبب ذکر(الصافات) بصورة صفة و(یقبضن) بصورة فعل مضارع، لأنّ انفتاح أجنحة الطیور برنامج علی نمط واحد و لا یحصل فیه تغییر، فی الوقت الذی نلاحظ فیه أنّ انفتاح و انقباض الأجنحة یکون عملا مکرّرا(فتأمّل).

[۴۸۷] (۲)(أم) فی هذه الجملة حرف عطف، و(من) مبتدأ و(هذا) مبتدأ(ثان) و(الذی) خبرها و(هو جند لکم) صلتها، و(ینصرکم) یکون وصفا لل(جند)، و الجملة هی خبر للمبتدأ الأوّل.(البیان فی غریب إعراب القرآن ج ۲ ص ۴۵۹) إلّا أنّ المناسب هو أن یکون(الذی) عطف بیان و(ینصرکم) خبر، لأنّ الجملة بدونه ناقصة.(فتأمّل).

[۴۸۸] (۱)- نلاحظ أنّ جزاء الشرط فی الآیة محذوف تقدیره(إن أمسک رزقه من یرزقکم غیره).

[۴۸۹] (۱)- الأعراف، الآیة ۱۸۷.

[۴۹۰] (۲)-« تدعون» من باب(افتعال)، و من مادّة دعاء، بمعنی الطلب و الرجاء، أو من مادّة(دعوا) بمعنی الطلب أو إنکار شیء معیّن.

[۴۹۱] (۳)- الذاریات، الآیة ۱۴.

[۴۹۲] (۴)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۰.

[۴۹۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۸۵.

[۴۹۴] (۱)- الطور، الآیة ۳۰.

[۴۹۵] (۱)- أبو الفتوح الرازی، ج ۱۱، ص ۲۱۹.

[۴۹۶] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۸۷.

[۴۹۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۸۷.

[۴۹۸] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۰.

[۴۹۹] (۱)- العلق، الآیة ۱- ۵.

[۵۰۰] (۲)- اعتبر البعض أنّ(ما) فی(ما یسطرون) مصدریة، و اعتبرها بعض آخر بأنّها(موصولة) و المعنی الثانی أنسب، و التقدیر هکذا:(ما یسطرونه)، کما اعتبرها البعض أیضا بمعنی(اللوح) أو(القرطاس) الذی یکتب علیه، و فی التقدیر(ما یسطرون فیه) کما اعتبر البعض(ما) هنا إشارة لذوی العقول و الأشخاص الذین یکتبون هذه السطور، إلّا أنّ المعنی الذی ذکرناه فی المتن أنسب من الجمیع حسب الظاهر.

[۵۰۱] (۱)(الباء) فی(بأیّکم) زائدة و(أیّکم) مفعول للفعلین السابقین.

[۵۰۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۴،(نقل الطبرسی هذا الحدیث بسنده عن أهل السنّة).

[۵۰۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۸۹، حدیث ۳.

[۵۰۴] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳، ص ۷۸.

[۵۰۵] (۱)- المصدر السابق.

[۵۰۶] (۲)- المصدر السابق.

[۵۰۷] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۵۶(حدیث ۱۴، ۱۶، ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰).

[۵۰۸] (۴)- تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۲.

[۵۰۹] (۵)- المصدر السابق.

[۵۱۰] (۱)- المصدر السابق.

[۵۱۱] (۲)- روح البیان، ج ۱۰، ص ۱۰۲.

[۵۱۲] (۳)(الشهاب فی الحکم و الآداب)، ص ۲۲.

[۵۱۳] (۱)- معانی الأخبار، ص ۸۳(بتلخیص قلیل).

[۵۱۴] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۳۳.

[۵۱۵] (۳)- المصدر السابق.

[۵۱۶] (۴)- المصدر السابق.

[۵۱۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۳۳.

[۵۱۸] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۴۱۰، و جاء هذا المضمون فی وسائل الشیعة، ج ۸ فی ۵۰۴، و کذلک فی تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۷۰۷.

[۵۱۹] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۸ ص ۵۰۶، حدیث ۲۱.

[۵۲۰] (۴)- روح البیان، ج ۱، ص ۱۰۸.

[۵۲۱] (۱)- الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۸۵ و المراغی، ج ۲۹، ص ۳۱.

[۵۲۲] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۱، ص ۶۷۱۰.

[۵۲۳] (۱)- قال البعض: إنّ وضع العلامة علی الأنف قد تحقّق عملیّا فی غزوة بدر، حیث وجّهت ضربات إلی انوف بعض سادات الکفر و کبرائهم، و قد بقیت آثارها علی أنوفهم، و إذا کان المقصود فی ذلک(الولید بن المغیرة) فقد توفّی بذلّ قبل غزوة بدر.

و

\i\i جاء فی الخطبة المعروفة للإمام علی بن الحسین علیه السّلام E فی مسجد الشام قوله:« أنا ابن من ضرب خراطیم الخلق حتّی قالوا:

لا إله إلّا اللّه\»E

یقصد الإمام علی علیه السّلام بحار الأنوار، ج ۴۵، ص ۱۳۸.

إنّ لهذا التعبیر و بلحاظ ما جاء فی الآیة مورد البحث، حیث یقول تعالی:(سنسمه علی الخرطوم) دلالة فی غایة اللطف و الروعة، حیث یرینا أنّ الإرادة الإلهیة قد تحقّقت علی ید عبده المخلص علی بن أبی طالب علیه السّلام.

[۵۲۴] (۱)- اصول الكافی، ج ۲، باب النمیمة/ حدیث رقم ۱.

[۵۲۵] (۲)(سنن أبی داود) أو(صحیح الترمذی) مطابقا لما نقل فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۲۳۰.

[۵۲۶] (۳)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹۴.

[۵۲۷] (۱)-« یصرمن» من مادّة(صرم)،(علی وزن ضرب) بمعنی حصد الفاكهة، و بمعنی القطع المطلق، و جاءت أیضا بمعنی تقویة عمل ما و إحكامه.

[۵۲۸] (۱)- بالإضافة إلی التناسب الخاص الموجود بین المعنی الأوّل مع أصل القصّة، فإنّنا إذا اعتبرنا المعنی الثانی هو المقصود، كان یجب أن یقال(و لم یستثنوا) بدلا عن(و لا یستثنون).

[۵۲۹] (۲)- یقول الراغب فی المفردات: إن(تنادوا). أصلها من(نداء) مشتقّة من(ندی)، بمعنی الرطوبة المأخوذة، لأنّ المعروف أنّ الأشخاص الذین تكون فی أفواههم رطوبة كافیة یتكلّمون براحة، و یتّصف كلامهم بالفصاحة.

[۵۳۰] (۱)- الأنبیاء، الآیة ۸۷.

[۵۳۱] (۱)-« راغبون»: من مادّة(رغبة)، هذه المادّة كلّما كانت متعدیة ب(إلی) أو(فی) تكون بمعنی المیل إلی شیء معیّن، و كلّما كانت متعدّیة ب(عن) تكون بمعنی الانصراف و عدم الاعتناء بشیء معیّن.

[۵۳۲] (۱)- الأنعام، الآیة ۱۴۱.

[۵۳۳] (۲)- یمكن مطالعة الروایات التی جاءت فی هذا المجال فی ج ۶، من(وسائل الشیعة) أبواب زكاة الغلات، باب ۱۳، و فی(سنن البیهقی) ج ۴، ص ۱۳۳.

[۵۳۴] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۹۵،(حدیث ۴۴).

[۵۳۵] (۲)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۳۷.

[۵۳۶] (۱)- جملة(إنّ لكم ..) مفعول به ل(تدرسون) و طبقا للقواعد فإنّها یجب أن تقرأ(أن) ب(فتح الهمزة). إلّا أنّ مجیء اللام علی رأس اسم(أن) جعلها تقرأ(إن) ب(كسر الهمزة) و ذلك لأنّ الفعل یصبح معلّقا عن العمل.

[۵۳۷] (۱)- فسّر البعض مصطلح(بالغة) هنا بمعنی(مؤكّد)، و فسّرها البعض الآخر بأنّها(مستمر) و المعنی الثانی أنسب، و بناء علی هذا فإنّ(الجارّ و المجرور) فی(إلی یوم القیامة) تكون متعلّقة ب(بالغة).

[۵۳۸] (۱)-« یوم» ظرف متعلّق بمحذوف تقدیره:(اذكروا یوم ...)، و احتمل البعض- أیضا- أنّه متعلّق ب(فلیأتوا) فی الآیة السابقة، إلّا أنّ هذا المعنی مستبعد.

[۵۳۹] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۹۵، ح ۴۹.

[۵۴۰] (۱)-« ترهقهم» من مادّة(رهق)،(علی وزن شفق) بمعنی التغطیة و الإحاطة.

[۵۴۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۴۰.

[۵۴۲] (۱)- اصول الكافی نقلا عن نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۹۷، ح ۵۹.

[۵۴۳] (۲)- سبق كلام حول عقوبة(الاستدراج) فی الآیة(۱۸۳) من سورة الأعراف، و كذلك فی الآیة(۱۷۸) سورة آل عمران.

[۵۴۴] (۱)- فی هذه الصورة ستكون اللام فی(لحكم ربّك) هی لام التعلیل.

[۵۴۵] (۲)- الأنبیاء، الآیة ۸۷.

[۵۴۶] (۳)- مع انّ(النعمة) مؤنث، إلّا أنّ فعلها(تدارکه) جاء بصورة مذکر، و سبب هذا أنّ فاعل المؤنث یکون لفظیا، و أنّ الضمیر المفعول أصبح فاصلا بین الفعل و الفاعل(فتأمّل!).

[۵۴۷] (۱)- الصافات، الآیة ۱۴۵ و ۱۴۶.

[۵۴۸] (۲)- الصافات، الآیة ۱۴۳.

[۵۴۹] (۱)- الزخرف، الآیة ۴۴.

[۵۵۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۴۱.

[۵۵۱] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۰۰.

[۵۵۲] (۳)- نهج البلاغة، من الکلمات القصار جملة(۴۰۰)،(نقل هذا الحدیث أیضا فی صحیح البخاری، ج ۷، ص ۱۷۱ باب(العین حقّ) و لما ذکرناه فالعین حقّ) و کذلک فی(المعجم المفهرس لألفاظ الحدیث النبوی)، کما نقل هذا المعنی من منابع مختلفة ج ۴، ص ۴۵۱.

[۵۵۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۴۲.

[۵۵۴] (۲)- المصدر السابق.

[۵۵۵] (۱)- هناک وجهات نظر عدّة فی إعراب جملة(الحاقّة، ما الحاقّة)، إلّا أنّ الأنسب فی هذه الآراء هو أن یقال: إنّ(الحاقّة) مبتدأ، و(ما) الاستفهامیة مبتدأ ثان و(الحاقّة) الثانیة خبر للمبتدأ الثانی، و جملة(ما الحاقّة) خبر للمبتدأ الأوّل.

[۵۵۶] (۱)- ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ جملة(ما أدراک) تتحدّث عن المسائل المعلومة و المسلّمة، بینما جاءت(و ما یدریک) فی الموارد و المسائل المبهمة. مجمع البیان ج ۱۰، ص ۳۴۳، کما نقل بعض المفسّرین هذا المعنی أیضا و منهم القرطبی.

[۵۵۷] (۲)- تفسیر(علی بن إبراهیم) ج ۲، ص ۳۸۳، و مما یجدر الانتباه إلیه أن کلمة(الحاقة) و(الحاق) من مادة واحدة.

[۵۵۸] (۳)- المؤمن، الآیة ۴۵.

[۵۵۹] (۱)-« حسوما» جاءت هنا صفة ل(سبع لیال و ثمانیة أیّام)، کما اعتبرها البعض(حالا) ل(ریح) أو(مفعولا به).

[۵۶۰] (۱)(باقیة): صفة لموصوف مقدر، و کانت فی الأصل(نفس باقیة).

[۵۶۱] (۱)- و من هنا قال البعض: إنّ للآیة محذوف تقدیره(حملنا آباؤکم).

[۵۶۲] (۱)- تفسیر(القرطبی)، ج ۱۰، ص ۶۷۴۳، و(مجمع البیان)،(و روح المعانی)، و(روح البیان)، و(أبو الفتوح الرازی) و(المیزان) نهایة الآیات مورد البحث، و جاء هذا الحدیث أیضا فی مناقب ابن المغازلی الشافعی) ص ۲۶۵(الطبعة الإسلامیة).

[۵۶۳] (۱)-« أقرب الموارد»(مادّة: دک).

[۵۶۴] (۱)- تفسیر(علی بن إبراهیم) ج ۲، ص ۳۸۴.

[۵۶۵] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۴۶.

[۵۶۶] (۱)- تطرقنا مرارا فی هذا التّفسیر إلی المعانی التی وردت حول(العرش) لغویا و قرآنیا، و من ضمن ما بحثناه حول هذه المسألة ما جاء فی نهایة الآیة ۵۴ من سورة الأعراف.

[۵۶۷] (۲)- فی الحقیقة أنّه توجد آیة محذوفة بتقدیر« ثمّ نفخ فیه اخری».

[۵۶۸] (۱)- الطارق، الآیة ۹.

[۵۶۹] (۲)-« هاؤم» کما یقول أصحاب اللغة هی بمعنی(خذوا) و إذا کان المخاطب جمع مذکر، فیقال:(هاؤم)، و إذا جمعت جمع مؤنث(هائن) و إذا کان مفردا مذکرا کان(هاء) و تکون(بالفتح)، و إذا کان مفردا مؤنثا فإنّ(الهاء) تکون مکسورة، و للتثنیة هاؤما،

يقول الراغب فى المفردات:(هاء) تستعمل بمعنى الأخذ، و(هات) بمعنى العطاء.

[۵۷۰] (۱)- ال« هاء» فى(حسابيه) تكون(هاء الاستراحة)، أو(هاء السكتة)، و ليس لها معنى خاص. أيضا فى(كتابيه).

[۵۷۱] (۲)-« الرضا» تكون عادة حالة و صفة للأشخاص، إلّا أنّه سبحانه جعلها صفة للحياة نفسها فى الآية أعلاه، و هذه تمثّل نهاية التأكيد، يعنى أنّها حياة يعمّها الرضا و السرور.

[۵۷۲] (۳)-« قطوف» جمع(قطف) على وزن(حزب) بمعنى أنّ الثمر قد اقتطف، و تأتى أحيانا بمعنى الثمار المهيّئة للاقتطاف أيضا.

[۵۷۳] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۰۶(حديث ۲۸).

[۵۷۴] (۲)- المصدر السابق،(حديث ۲۶).

[۵۷۵] (۳)- المصدر السابق،(حديث ۲۷).

[۵۷۶] (۱)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۶۶.

[۵۷۷] (۲)(فى ضلال القرآن) ج ۸ ص ۲۵۶.

[۵۷۸] (۱)- ال(هاء) فى(كتابيه) و(حسابيه) و(ماليه) و(سلطانيه) و كذلك فى الكلمات التى ستأتى فى الآيات اللاحقة هى(هاء السكتة) أو(الاستراحة) و كما قلنا فإنّ هذه الهاء ليس لها معنى خاصّ، بل إنّها تعتبر وقفا لطيفا فى مثل هذه الكلمات، و لها تناسب مع الوضع الروحى و حالة الأشخاص الذين يقولون مثل هذا الكلام(يرجى الانتباه لذلك).

[۵۷۹] (۱)- جملة(كانت القاضية) لها محذوف تقديره:(كانت هذه الحالة القاضية).

[۵۸۰] (۲)- النبأ، الآية ۴۰.

[۵۸۱] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۵۲۳، مادّة رشد.

[۵۸۲] (۱)- نفس المصدر، ص ۴۸۸ مادّة ذنب(باقتباس).

[۵۸۳] (۱)- روح المعانى، ج ۲۹، ص ۵۱.

[۵۸۴] (۲)- الغاشية، الآية ۶.

[۵۸۵] (۳)- الدخان، ۴۳- ۴۴.

[۵۸۶] (۱)- تفسير(الدرّ المنثور) لجلال الدين السيوطى، ج ۸ ص ۲۷۵.

[۵۸۷] (۱)(قليلا) فى هذه الآية و فى الآية اللاحقة هى صفة(لمفعول مطلق) محذوف. و(ما) زائدة و فى التقدير هكذا،(و تؤمنون إيمانا قليلا).

[۵۸۸] (۱)-« تنزيل» مصدر بمعنى(اسم مفعول)، و هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره(هو منزل من ربّ العالمين).

[۵۸۹] (۱)(من) فى(من أحد) زائدة و للتأكيد.

[۵۹۰] (۱)- و هذا هو نفس ما طرح فى كتب علم الكلام بعنوان:(جعل المعجزة فى يد الكاذب) و قد قبّح هذا الأمر.

[۵۹۱] (۱)- الفرقان، الآية ۲۷.

الجزء التاسع عشر

سورة المعارج

اشارة

مكية و عدد اياتها اربع و أربعون اية «سورة المعارج»

محتوى السورة:

المعروف بين المفسّرين هو أنّ سورة المعارج من السور المكّية، و على أساس ما ينقله (فهرست ابن النديم) و (كتاب نظم الدرر) و (تناسق الآيات و السور) المطابق لما نقله (تاريخ القرآن) لأبى عبد اللّه الزنجانى أنّ هذه السورة هى السورة السابعة و السبعون و التى نزلت فى مكّة.

و لكن هذا يتنافى مع كون بعض آياتها مدنية، و هذا ليس منحصرا فى سورة المعارج، فإنّ كثيرا من سور القرآن الكريم هى مكّية و لكنّها تحوى على آية أو آيات مدنية فى نفس الوقت، و بالعكس بعض السور المدنية تحوى على آيات مكّية.

و لقد نقل العلّامة الأمينى رحمه اللّه نماذج كثيرة من هذا الموضوع فى كتابه (الغدير)، و هناك روايات كثيرة سوف يأتى ذكرها بعد إن شاء اللّه تدل على أنّ الآيات الأولى من هذه السورة هى آيات مدنية.

على أية حال فإنّ خصوصيات السور المكّية كالبحث حول اصول الدين و خاصّة المعاد و إنذار المشركين و المخالفين، و هذه الخصوصيات واضحة جدّا فى هذه السورة، و على هذا فإنّ لهذه السورة أربعة أقسام:

القسم الأوّل: يتحدث عن العذاب السريع الذى حلّ بأحد الأشخاص ممن أنكر أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: لو كان هذا القول حقّا فلينزل علىّ العذاب. فنزل (الآية ۱- ۳).

القسم الثّانى: ذكر الكثير من خصوصيات يوم القيامة و مقدماتها و حالات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶

الكفار فى ذلك اليوم.

القسم الثّالث: توضح هذه السورة بعض الصفات الإنسانية الحسنة و السيئة و التى تعيّن هذا الشخص من أهل الجنان أم من أهل النّار.

القسم الرّابع: يشمل إنذارات تخصّ المشركين و المنكرين و تبيان مسألة المعاد و ينهى بذلك السورة.

فضيلة هذه السورة:

نقرأ

فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ (سأل سائل) أعطاه اللّه ثواب الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون و الذين هم على صلواتهم يحافظون»

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من أدمن قراءة (سأل سائل) لم يسأله اللّه يوم القيامة عن ذنب عمله و أسكنه جنّته مع محمّد». و نقل مثله عن الإمام الصّادق عليه السّلام.

من البديهى أنّ الإنسان يحصل على مثل هذا الثّواب العظيم إذا كانت قراءته بإيمان و عقيدة، و ثمّ يقترن ذلك بالعمل، لا أن يقرأ الآيات و السور من دون أن تؤثر فى روحه و فكره و عمله شيئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (۱) لِلْکافِرینَ لَیْسَ لَهُ دافِعٌ (۲) مِنَ اللَّهِ ذِی الْمَعارِجِ (۳)

سبب النّزول

نقل الکثیر من المفسّرین و أصحاب الحدیث أحادیث عن سبب نزول هذه الآیة و حاصلها: أنّه عند ما نصّب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علیّا علیه السّلام

فی یوم (غدیر خم) قال فی حقّه: «من کنت مولاه فعلیّ مولاه» و لم ینقض مدّة حتی انتشر ذلک فی البلاد و المدن، فقدم النعمان بن حارث الفهری علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: أمرتنا عن اللّه أن نشهد أن لا إله إلّا اللّه و أنّک رسول اللّه، و أمرتنا بالجهاد و الحج و الصّوم و الصّلاة و الزکاة فقبلناها، ثمّ لم ترض حتی نصّبت هذا الغلام فقلت من کنت مولاه فعلیّ مولاه، فهذا شیء منک أو أمر من عند اللّه.

فقال: «و اللّه، و الذی لا إله إلّا هو إنّ هذا من اللّه» فولی النعمان بن حارث و هو یقول: اللّهم إن کان هذا هو الحقّ من عندک فأمطر علینا حجارة من السماء فرماه اللّه بحجر علی رأسه فقتله و أنزل اللّه تعالی سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ و ما ذکرناه هو مضمون ما روی عن أبی القاسم الحسکانی فی مجمع البیان بإسناده إلی أبی عبد اللّه الصّادق علیه السّلام ۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸

هذا المعنی مروی عن کثیر من المفسّرین من العامّة، فقد نقل رواة الحدیث هذا المعنی بشیء من الاختلاف البسیط.

و ینقل «العلّامة الأمینی» ذلک فی کتابه (الغدیر) عن ثلاثین عالما مشهورا من أهل السنّة (مع ذکر السند و النّص) و من ذلک:

تفسیر غریب القرآن (للحافظ أبی عبید الهروی).

تفسیر شفاء الصدور (لأبی بکر النقاشی الموصلی).

تفسیر الکشف و البیان (لأبی إسحاق الثعالبی).

تفسیر أبی بکر یحیی (القرطبی).

تذکرة أبو إسحاق (الثعلبی).

کتاب فرائد السمطین (للحموینی).

کتاب درر السمطین (للشّیخ محمّد الزرندی).

کتاب السراج المنیر (لشمس الدین الشّافعی).

کتاب (سیرة الحلبی).

کتاب نور الأبصار (للسّید مؤمن الشبلنجی).

و کتاب شرح الجامع الصّغیر للسیوطی من (شمس الدین الشّافعی و غیر ذلک.[۲] و فی کثیر من هذه الکتب علم ورد أنّ هذه الآیات قد نزلت بهذا الشأن، و بالطبع هناک اختلاف بشأن الحارث بن النعمان أو جابر بن نذر أو النعمان بن حارث الفهری، و من الواضح أنّ هذا الأمر لا یؤثر فی أصل المطلب.

بالطبع أنّ بعض المفسّرین أو المحدّثین بفضائل الإمام علی علیه السّلام من أهل السنّة یتقبلون ذلک، و لکن علی مضض و عدم ارتیاح، و تمسکوا بإشکالات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹

مختلفة علی سبب نزول الآیة، و سنوضح فی نهایة المطاف بإذن اللّه بحثا تفسیریا عن هذا الموضوع.

***

التّفسير

العذاب العاجل:

من هنا تبدأ سورة المعارج حيث تقول: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ هذا السائل كما قلنا فى سبب النزول هو النعمان بن الحارث أو النضر بن الحارث و كان هذا بمجرّد تعيين الإمام على عليه السّلام خليفة و وليّا فى (غدير خم) و انتشار هذا الخبر فى البلاد، حيث رجع مغتاظا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: هل هذا منك أم من عند اللّه؟

فأجابه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مصرّحا: «من عند اللّه»،

فازداد غيظة و قال: اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه اللّه بحجارة من السماء فقتله.[۳] هناك تفسير آخر أعم من هذا التّفسير و أعم منه، و هو أنّ سائل سأله لمن هذا العذاب الذى تتحدث عنه؟ فيأتى الجواب فى الآية الاخرى: لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ

و حسب تفسير ثالث يكون هذا السائل هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى دعا على الكافرين بالعذاب فنزل.

و لكن مع أنّ التّفسير الأوّل أكثر ملاءمة للآية فإنّه منطبق تماما على روايات سبب النزول.

ثمّ يضيف بأنّ هذا العذاب خاص بالكفار و لا يستطيع أحد دفعه عنهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰

لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ [۴] و تصف الآية الاخرى من ينزل العذاب منه، و هو اللّه ذى المعارج فتقول الآية: مِنَ اللَّهِ ذِى الْمَعارِجِ أى صاحب السماء التى يعرج إليها الملائكة.

«المعرج» جمع «معرج» بمعنى المصعد أو المكان الذى منه يصعدون، إذ أنّ اللّه جعل للملائكة مقامات مختلفة يتوجهون بها إلى قربه بالتدريج، و قد وصف اللّه تعالى بذى المعارج.

نعم، الملائكة المأمورون بتعذيب الكفّار و المجرمين، و الذين هبطوا على إبراهيم عليه السّلام، و أخبروه بأنّهم قد أمروا بإبادة قوم لوط، و فعلوا ذلك إذ قلبوا بلاد أولئك القوم الفاسقين رأسا على عقب.

و هم الذين أمروا كذلك بتعذيب المجرمين الباقين.

و قيل المراد ب- (المعارج) الفضائل و المواهب الإلهية، و قيل المراد بها (الملائكة)، و لكن المعنى الأوّل هو أنسب، و هو ملائم للمفهوم اللّغوى.

ملاحظة:

إشكالات المعاندين الواهية!

كثيرا ما نرى فى مورد الآيات أو الرّوايات التى تذكر فضائل أمير المؤمنين عليه السّلام إصرار البعض إلى حدّ ما فى أن يغضّ النظر عنها، أو يقوم بتوجيهها توجيها محرّفا و يدقق فى أمرها بوسوسة بالغة، فى حين أنّ هذه الفضائل لو كانت واردة فى الآخرين لقبلوها بسهولة و بساطة.

النموذج الحی الکلام هو الإشکالات السباعیة التی ذکرها ابن تیمیة فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱

کتابه (منهاج السنّة) فی أحادیث مرویة فی أسباب نزول الآیات المذکورة و هی:

۱- حدیث قصّة یوم الغدیر بعد رجوع الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من حجّة الوداع أی فی السنة العاشرة للهجرة، فی حین أنّ السورة المعارج من السور المکّیة و قد نزلت قبل الهجرة.

الجواب: کما بیّنا من قبل فإنّ کثیرا من السور تسمّی مکّیة فی حین أنّ بعض آیاتها مدنیة کما یقول المفسّرون، و بالعکس فإنّ هناک سورا مدنیة نزلت بعض آیاتها فی مکّة.

۲- جاء فی الحدیث أنّ (الحارث بن النعمان) حضر عند النّبی فی (الأبطح)، و المعروف أنّ (الأبطح)، واد فی مکّة، و هذا لا یتفق مع نزول الآیة بعد حادثة الغدیر.

الجواب: إنّ کلمة الأبطح وردت فی بعض الرّوایات، لا- کلّ الرّوایات، کما أنّ الأبطح و البطحاء تعنی کل أرض صحراء رملیة و تجری فیها السیول، و کذلک هناک مناطق فی المدینة تسمّی بالأبطح و البطحاء، و قد أشار العرب إلی ذلک فی کثیر من أقوالهم و أشعارهم.

۳- المشهور أنّ آیة: وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ کانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ الجواب: لیس منّا من یقول: إنّ حادثة الغدیر هی سبب نزول تلک الآیة، بل الحدیث هو فی آیة: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ و أمّا الآیة (۳۳) من سورة الأنفال فهی أنّ الحارث بن النعمان قد استخدمها فی کلامه، و هذا لا یرتبط بأسباب النزول، و لکن العصبیة المفرطة تجعل الإنسان غافلا عن هذا الموضوع الواضح.

۴- یقول القرآن المجید: وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ وَ ما کانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ الأنفال الآیة (۳۳)، تقول الآیة: لم ینزل العذاب أبدا ما دام الرسول فیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲

الجواب: المعروف أنّ العذاب العام و الجماعی مرفوع عن الأمّة لأجل الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و أمّا العذاب الخاص و الفردی فقد نزل مرارا علی بعض الأفراد، و التاریخ الإسلامی شاهد علی أنّ أناسا معدودین مثل «أبی زمعة» و «مالک بن طلالة» و «الحکم بن أبی العاص» و غیرهم قد ابتلوا بالعذاب للعن الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلم لهم أو بدون ذلک.

بالإضافة إلی ذلک فإنّ الآیة السالفة لها تفاسیر أخری، و طبقا لذلک فإنّ لا یمکن الاستدلال بها فی المکان (راجع التّفسیر الأمثل ذیل الآیة ۳۳ الأنفال).

۵- إذا کان سبب النزول هذا صحیحا فلا بدّ أن یکون معروفا کقصّة أصحاب الفیل؟

الجواب: إنّ سبب النزول لهذه الآیة معروف و مشهور، کما أشرنا من قبل، إلی حدّ ألّف فیه ثلاثون کتابا من کتب التّفسیر و الحدیث، و العجیب بعدئذ أن نتوقع من حادثة خاصّة أن تعطی انعکاسا و أثرا کقصّة أصحاب الفیل، فی حین أنّ تلک القصّة کانت لها صفة عامّة، و قد استولت علی أنحاء مکّة، و أبیدت فیها جیوش کبیرة، و أمّا قصّة الحارث بن النعمان، فإنّها کانت تخصّ فردا واحدا فقط!.

۶- ما یستفاد من هذا الحدیث هو أنّ الحارث بن النعمان کان معتقدا بأسس و اصول الإسلام، فکیف یمکن لمسلم یعاصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یبتلی بمثل هذا العذاب؟

الجواب: هذا الإحتجاج ناشئ أیضا من التعصب الأعمی، لأنّ الأحادیث المذکورة سلفا تشیر إلی أنّه لم ینکر نبوّة الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فحسب، بل أنّه أنکر حتی الشهادة بالوحدانیة، و اعترض علی الأمر الإلهی الذی صدر للرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حقّ علی علیه السّلام و هذا یدل علی أشدّ مراحل الکفر و الارتداد.

۷- لا نجد اسما للحارث بن النعمان فى الكتب المشهورة كالاستيعاب الذى جاء فيه ذكر الصحابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳

الجواب: ما جاء فى هذا الكتاب و مثله من ذكر الصحابة يرتبط فقط بقسم من الصحابة، فمثلا فى كتاب (أسد الغابة) الذى يعدّ من أهم الكتب و فيه يذكر أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد عدّ منهم فقط سبعة آلاف و خمسمائة و أربعة و خمسين صحابيا، فى حين أننا نعلم أنّ الجمع الذى كان حاضرا عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حجّة الوداع مائة ألف أو يزيدون، و ممّا لا شك فيه أنّ كثيرا من أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يأت ذكرهم فى هذه الكتب.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۴) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا (۵) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (۶) وَ نَراهُ قَرِيباً (۷)

التّفسير

يوم مقداره خمسين ألف سنة:

بعد إيراد قصّة العذاب الدنيوى الذى أصاب من طلب العذاب تبحث الآيات أمر المعاد و العذاب الأخروى للمجرمين فى ذلك اليوم.

فى البداية يقول تعالى: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ أى إلى الله- فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ المشهور أنّ المراد من عروج الملائكة هو العروج الروحى، و ليس العروج الجسمى، يعنى أنّهم يسرعون فى التقرب إلى المقام الإلهى و هم مهيّئون لاستلام الأوامر فى ذلك اليوم الذى يراد به يوم القيامة، و كما قلنا سابقا فى تفسير الآية (۱۷) من سورة الحاقة من أنّ المراد من الآية وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها هو اليوم الذى يجتمعون فيه فى السماء ينتظرون لتنفيذ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵

يأمرون ۵].

و المراد بالرّوح هو (الرّوح الأمين) و هو أكبر الملائكة، و هذا ما أشير إليه أيضا فى سورة القدر حيث يقول تعالى: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ و من الطبيعى أنّ الرّوح لها معان مختلفة بحسب تناسب مع القرائن الموجودة، فمن الممكن أن يعطى فى كلّ موضوع معنى خاص، و الرّوح يراد به روح الإنسان، و كذا يراد منه القرآن، و بمعنى روح القدس، و بمعنى ملك الوحى، كلّ ذلك من معانى الرّوح، و هذا ما يشار إليه فى بقية آيات القرآن.

و أمّا المراد بكون (خمسين ألف سنة) هو ذلك اليوم الذى بحيث لو وقع فى الدنيا كان مقداره خمسين ألف سنة من سنى الدنيا، و هذا لا ينافى ما جاء فى الآية (۵) من سورة السجدة من إنّ ذلك يوم مقداره ألف سنة، و لأجل ذلك ذكر فى الرّوايات أنّ ليوم القيامة خمسين موقفا، و كلّ موقف منه يطول بمقدار ألف سنة.[۶] و احتمل البعض أيضا أنّ هذا العدد (خمسين ألف سنة) للكثرة لا العدد، أى أنّ ذلك اليوم طويل جدّا.

على أيّ حال فقد كان هذا ما يخصّ المجرمين و الظلمة و الكفار، و لهذا

روی فی حدیث عن أبی سعید الخدری أنّه سأل سائل من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد نزول هذه الآیة عن طول ذلک الیوم؟ فقال: «و الذی نفس محمّد بیده إنّه لیخف علی المؤمن حتی یکون أخف علیه من صلاة مکتوبة یصلیها فی الدنیا»[۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶

ثمّ یخاطب اللّه تعالی رسوله الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیة الأخری و یقول: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِیلًا.

المراد ب (الصبر الجمیل) هو ما لیس فیه شائبة الجزع و التأوه و الشکوی، و فی غیر هذا الحال لا یکون جمیلا.[۸] ثمّ یضیف: إِنَّهُمْ یَرَوْنَهُ بَعِیداً وَ نَراهُ قَرِیباً إنّهم لا یصدقون بوجود مثل ذلک الیوم الذی یحاسب فیه جمیع الخلائق حتی أصغر حدیث و عمل لهم، و ذلک فی الیوم مقداره خمسون ألف سنة، و لکنّهم فی الواقع ما عرفوا اللّه و فی قلوبهم ریب بقدرة اللّه.

إنّهم یقولون: کیف یمکن جمع العظام البالیة و التراب المتناثر فی کل حدب و صوب ثمّ یردّ إلی الحیاة؟ (و قد ذکر القرآن کلامهم هذا فی کثیر من آیاته) ثمّ کیف یمکن أن یکون الیوم بمقدار خمسین ألف سنة.

الطریف أنّ العلم الحاضر یقول: إنّ مقدار کلّ یوم فی أی من الأجرام السماویة یختلف عن بعضها الآخر، لأنّ دوران الجرم السماوی حول نفسه مرّة واحدة تابع إلی فترة زمنیة معینة، و لهذا فإنّ الیوم فی القمر بمقدار أسبوعین علی ما هو فی الأرض، حتی أنّهم یقولون: یمکن أن تقل سرعة الحرکة الوضعیة للأرض و ذلک بمرور الزمن و یصبح الیوم الواحد فیها کالشهر أو کالسنة أو مئات السنین، و نحن لا نقول، إنّ الزمان فی یوم القیامة کذلک، بل نقول إن الیوم الذی یبلغ مقداره خمسین ألف سنة، لیس عجیبا فی مقاییس عالم الدنیا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷

الآیات [سورة المعارج (۷۰): الآیات ۸ الی ۱۸]

اشارة

یَوْمَ تَکُونُ السَّماءُ کَالْمُهْلِ (۸) وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ (۹) وَ لا یَسْئَلُ حَمِیمٌ حَمِیماً (۱۰) یُبَصَّرُونَهُمْ یَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ یَفْتَدِی مِنْ عَذابِ یَوْمِئِذٍ بِبَنِیهِ (۱۱) وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِیهِ (۱۲)

وَ فَصِیلَتِهِ الَّتِی تُؤْوِیهِ (۱۳) وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً ثُمَّ یُنْجِیهِ (۱۴) کَلَّا إِنَّها لَظی (۱۵) نَزَّاعَةً لِلشَّوی (۱۶) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّی (۱۷) وَ جَمَعَ فَأَوْعی (۱۸)

التّفسیر

تضیف هذا الآیات علی البحوث السابقة حول القیامة إیضاحات أکثر، حیث یقول اللّه تعالی: یَوْمَ تَکُونُ السَّماءُ کَالْمُهْلِ ۹]، وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ

«المهل»: علی وزن (قفل) و هو المذاب من المعدن کالنحاس و الذهب و غیرهما، و یراد له أحیانا دردی الزیت المتخلف من زیت الزیتون، و هذا هو ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸

یناسب المعنی الأوّل، و إن لم یکن هناک اختلاف فی مقام التشبیه.

«العهن»: مطلق الصوف المصبوغ ألوانا.

نعم، فی مثل ذلک الیوم تتلاشی السموات و تذوب، تتدکدک الجبال ثمّ تتناثر فی الهواء کالصوف فی مهب الرّیح، و بما أنّ الجبال

ذات ألوان مختلفة فإنّها شبهت بالصوف المصبوغ بالألوان، ثمّ يتحقق عالم جديد و حياة جديدة للبشرية بعد كلّ هذا الخراب.

و عند ما يحلّ يوم القيامة فی ذلک العالم الجديد فسيكون فيه الحساب عسيرا و مرعبا بحيث ينشغل كل بنفسه، و لا يفكر بالآخر حتى لو كان من خلّص اصدقائه و أحبائه: وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً[١٠].

الكلّ مشغول بنفسه، و يفكر بخلاص نفسه يقول فی سورة عبس (٣٧):

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ١١].

و لا- يعنی ذلک أنّ الأصدقاء و الأقرباء ينكر بعضهم بعضا، بل إنّهم يعرفونهم و يقول تعالى: يُبَصَّرُونَهُمْ ١٢]، غاية الأمر هو أنّ هول الموقف و وحشته لا يمكنه من التفكر بغيره.

و إكمالا للحديث و توضيحا لذلک الموقف الموحش، يضيف تعالى: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِی مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ

و ليس ببنيه فحسب بل، يودّ أن يفتدى العذاب بزوجته و أخيه أيضا وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ

وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِی تُؤْوِيهِ أی عشيرته و أقربائه الذين كان يأوى إليهم فی الدنيا:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ١٩

وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ

نعم، إنّ عذاب اللّه شديد فی ذلک اليوم المهول الى حدّ يودّ الإنسان فيه أن يفدى أعزّته و هم أربع مجاميع: «الأولاد، الزوجات، الإخوان، عشيرته الأقربون الناصرون له» فيضحی بهم لخلاص نفسه، و ليس فقط أولئک بل إنّه مستعد للافتداء بمن فی الأرض جميعا لينجی نفسه! «يود»: من (الود) على وزن (حبّ) أی يحب و يتمنى، و يقول الراغب: يمكن استعمال أحد المعنيان (بل الاثنان معا).

«يفتدى»: من (الفداء) أی حفظ النفس من المصائب و المشاكل بوسيلة تسديد أو دفع شیء ما.

«الفصيلة»: هی العشيرة و العائلة التی انفصل و تولّد منها الإنسان.

«تؤيه»: من (الإيواء) من الشدائد و اللجوء إليها و يأوی إليها فی النسب.

و قال بعض المفسّرين بأنّ (ثمّ) فی ثُمَّ يُنْجِيهِ تدل على أنّهم يعملون أنّ هذا الافتداء لا ينفع شيئا، و أنّه محال (لأنّ ثمّ تأتی عادة فی المسافة و البعد).

و لكنّه يجيب على كلّ هذه الأمانی و الآمال فی قوله: كَلَّا أی لا تقبل الفدية و الافتداء.

إِنَّها لَظى نار ملتهبة تحرق كلّ من بجانبها و فی مسيرها.

نَزَّاعَةً لِلشَّوى تقلع اليد و القدم و جلد الوجه.

«لظى»: تعنی لهيب النّار الخالص، و هی اسم من أسماء جهنم أيضا، يمكن الأخذ بالمعنيين الآية.

«نزاعة»: أی أنّها تقتلع و تفصل بالتوالی.

و «شوى»: الأطراف كاليد و الأرجل، و تأتی أحيانا بمعنى الشواء، و لكن المراد هنا هو المعنى الأوّل، لأنّه عند ما تتصل النّار المحرقة و لييها بشیء فإنّها تحرق و تفصل أوّلا الأطراف و الجوانب و فروع ذلک.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٢٠

و يرى بعض من المفسّرين أنّ الشوى هو جلد البدن، و البعض يقول أنّه أم الرأس، و البعض الآخر: يفسّره بلحم الساق، و قد أجمع الجميع على المعنى الأوّل الذی قلناه، و العجيب أنّه مع هذا الحال فليس فی الأمر موت! ثمّ يشير إلى من يكون فريسة لمثل هذه النّار، فيقول: تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى وَ جَمَعَ فَأَوْعى

و بهذا فإنّ هذه النّار المحرقة تدعو أولئک المجرمين إلى نفسها سواء بلسان حالها و جاذبيتها الخاصّة المودعة فيها تجاه المجرمين، أو بلسان مقالها الذی أعطاها اللّه إيّاها: إنّها تدعو أولئک المتصفين: بهاتين الصفتين الإعراض عن الإيمان و عدم طاعة اللّه و رسوله، و

من جهـة أخرى يفكرون دائمـا بجمع الأموال من الحرام و الحلال و ادخارها من دون أن يلتفتوا إلى حقوق البائسين و المحرومين، أو أنّهم يجهلون فلسفة المال الذى يعتبر من النعم الإلهية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۱۹ الى ۲۸]

اشارة

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (۲۱) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (۲۲) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (۲۳)

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (۲۴) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۲۵) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۲۶) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۲۷) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (۲۸)

التّفسير

أوصاف المؤمنين:

بعد ذكر أوصاف الصالحين و جوانب من أنواع العذاب فى يوم القيامة، يأتى هنا وصف المؤمنين للتعرف عن سبب انقسام النّاس إلى صنفين، و هنا: المعذبون و الناجون، يقول أوّلا: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً.

إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.

يراد ب «الهلوع» كما يقول المفسّرون و أصحاب اللغة «الحريص»، و آخرون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲

فسّروه بالجزع، و بناء على التّفسير الأوّل فإنّه يشار إلى ثلاثة أمور رذيلة يتصف بها هؤلاء و هى: الحرص، و الجزع، و البخل، و للتّفسير الثّانى صفتان هما: الجزع، و البخل، لأنّ الثّانية و الثّالثة هى تفسير لمعنى الهلوع.

و هنا احتمال آخر و هو أنّ المعنيين يجتمعان فى هـذه الكلمـة، لأنّ هاتين الصـفتين متلازمتان مع بعضـهما، فالناس الحريصون غالبا ما يكونون بخلاء، و يجزعون عند الشدائد، بالعكس أيضا صحيح.

و هنا يطرح هذا السؤال، و هو كيف أنّ اللّه خلق الإنسان للسعادة و الكمال و جعل فيه الشرّ و السوء؟

و هل يمكن أن يخلق اللّه شيئا ذا متصـفا بصـفة، ثمّ و بعـد يـذم خلقه؟ بالإضافة إلى ذلك فإنّ القرآن الكريم يصـرّح فى سورة التين الآية (۴): لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

بالتأكيـد ليس من أن ظاهر الإنسان حسن و باطنه سـيء، بل إنّ الخلقـة الكلية للإنسان هى فى صورة «أحسن تقويم». و هناك كذلك آيات أخرى تمدح المقام الرفيع للإنسان، فكيف تتفق هذه الآيات مع الآية التى نحن بصددها؟

أجوبـة هـذه الأسـئلة تتّضـح بالالتفـات إلى نقطـة واحـدة، و هى أنّ اللّه خلق القوى و الغرائز و الصـفات فى الإنسـان كوسائـل لتكامل الإنسان و بلوغ سعادته، لكن عنـد ما يسـتخدمها الإنسان فى الطريق المنحرف و يسـيء تـدبيرها و الاسـتفادة منها فسـتكون العاقبة هى التعاسة و الشـرّ و الفساد، فمثلا الحرص هو الذى لا يتيح فرصة الإنسان للتوقف عن السعى و الحركة و الاكتفاء بما لديه من نعمة و هو العطش المحرق الـذى يسـيطر على الإنسـان، فلو أنّ هـذه الصـفة وقعت فى الطريق العلم لوجـدنا الإنسان حريصا على التعلم، أو بعبارة

أخری یتعطش العلم و یعشقه، و بذلک سوف یکون سببا لکماله، و أمّا إذا أخذت مسیرها فی المادیات فإنّها ستکون سببا للتعاسة و البخل، و بتعبیر آخر: إنّ هذا الصفة فرع من فروع حبّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳

الذات، و حبّ الذات غریزة توصل الإنسان إلی الکمال، و لکن إذا انحرف فی مسیرة فإنّه سوف یجرّه إلی الحسد و البخل و إلی غیر ذلک.

و فی هذا الشأن هناک مواهب أخری أیضا بهذا الشکل: إنّ اللّه أودع قدرة عظیمة فی قلب الذرة، من المؤکد أنّها نافعة و مفیدة، و لکن إذا ما اسیء استخدام هذه القدرة و صنع من ذلک القنابل الفتاکة و لم یستخدم فی تولید الطاقة الکهربائیة و الوسائل الصناعیة و السلیة الأخری، فسیکون مدعاة للشرّ و الفساد، و بالتعمق فیما ذکرنا یمکن أن الجمع فی ما ورد فی الإنسان و ذلک من خلال الآیات القرآنیة المبیّنة لحالات الإنسان ۱۳].

ثمّ تذکر الآیات الکریمة صفات الأشخاص الجیدین علی شکل استثناء، و تبیّن لهم تسع صفات ایجابیة بارزة، فیقول تعالی: إِلَّا الْمُصَلِّینَ

الَّذِینَ هُمْ عَلی صَلاتِهِمْ دائِمُونَ

هذا هی الخصوصیة الأولی لهم و أنّهم مرتبطین باللّه بشکل دائم، و هذه الرابطة تتوثق بالصلاة، الصلاة التی تنهی عن الفحشاء و المنکر، و الصلاة التی تربی روح الإنسان و تذکره دائما باللّه تعالی، و السیر بهذا الاتجاه سوف یمنعه من الغفلة و الغرور، و الغرق فی بحر الشهوات، و الوقوع فی قبضة الشیطان و هوی النفس.

و من الطبیعی أنّ المراد من الإدامة علی الصلاة لیس أن یکون دائما فی حال الصلاة، بل هو المحافظة علی أوقات الصلاة المعینة.

من المعروف أنّ کل عمل جید یقوم به الإنسان إنّما یترک فیه أثرا صالحا فیما لو کان مستدیما، و لهذا نقرأ

فی الحدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ أحبّ الأعمال إلی اللّه ما دام و إنّ قلّ»[۱۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴

و نلاحظ

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «إذا فرض علی نفسه شیئا من النوافل دام علیه»[۱۵].

و

ورد فی حدیث عنه علیه السّلام أنّه قال: «هذه الآیة تعنی النافلة، آیة وَ الَّذِینَ هُمْ عَلی صَلاتِهِمْ یُحافِظُونَ (و التی تأتی فیما بعد) تعنی صلاة الفریضة».

و تجوز هذه المراعاة هنا، إذ أنّ التعبیر بالمحافظة هو ما یناسب الصلاة الواجبة و التی یجب المحافظة علی أوقاتها المعینة، و أمّا التعبیر بالمداومة فهو ما یناسب الصلاة المستحبة و ذلک بأنّ الإنسان یمکنه الإتیان بها أحیانا و ترکها أحیانا أخری.

علی کل حال بعد توضیح أهمیّة الصلاة و أنّها من أهم الأعمال و من أهم أوصاف المؤمنین تنتقل الآیات إلی ذکر الصفة الثّانیة فیضیف تعالی: وَ الَّذِینَ فِی أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ

و بهذا سوف یحافظون علی ارتباطهم بالخالق من جهة، و علاقتهم بخلق اللّه من جهة اخری.

و یعتقد بعض المفسّرین أنّ المراد هنا من «حقّ المعلوم» هو الزّکاة المفروضة التی فیها المقدار المعین، و موارد صرف ذلک المقدار هو السائل و المحروم، و لکن هذه السورة مکّیة و حکم الزّکاة لم یکن قد نزل فی مکّة، و لو فرض نزوله لم یکن هناک تعیّن للمقدار، و لذا یعتقد البعض أنّ المراد من حقّ المعلوم هو شیء غیر الزّکاة و الذی یجب علی الإنسان منحه للمحتاجین، و الشّاهد علی هذا ما

نقل عن الإمام الصّادق علیه السّلام عند ما سئل عن تفسیر هذه الآیة و هل هذا شیء غیر الزّکاة فقال علیه السّلام: «هو الرجل یؤتیه اللّه الثروة من المال، فیخرج منه الألف و الألفین و الثلاثة و آلاف و الأقل و الأکثر، فیصل به رحمه، و یحمل به الکلّ عن قومه»[۱۶].

و الفرق بین «السائل» و «المحروم» هو أنّ السائل یفصح عن حاجته و یسأل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵

و المحروم هو الذی لا یسأل لتعففه و حیائه، و

جاء فی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السّلام: «المحروم من یجد المشقّة فی کسبه و عمله و هو محارف»[۱۷].

هذا الحدیث هو أیضا یوافق ذلک التّفسیر المذکور سلفا، لأن مثل هؤلاء یکونون متعففین.

فی جاء فی تفسیرنا هذا فی ذیل الآیة (۱۹) من سورة الذرایات بحث حول الحقّ المذکور و تفسیر السائل و المحروم.

علی کلّ، فإنّ هذا العمل له أثره الاجتماعی فی مجاهدة الفقر و الحرمان من جهة، و من جهة أخری یترک آثارا خلقیة جیدة علی الذین یؤدّون ذلک العمل، و ینتزع ما فی قلوبهم و أرواحهم من أدران الحرص و البخل و حبّ الدنیا.

الآیة الأخری أشارت الی الخصوصیة الثّالثة لهم فیضیف: وَ الَّذِینَ یُصَدِّقُونَ بِیَوْمِ الدِّینِ و الخصوصیة الرّابعة هی: وَ الَّذِینَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ

إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَیْرُ مَأْمُونٍ

إنّهم یؤمنون من جهة بیوم الدین، و مع الالتفات الی کلمة «یصدقون» و هو فعل مضارع یدل علی الاستمراریة، فهذا یعنی إنّهم باستمرار یدرکون أنّ فی الأمر حسابا و جزاء، بعض المفسّرین فسّر ذلک المعنی «بالتصدیق العملی» أی الإتیان بالواجبات و ترک المحرمات، و لکن الآیة ظاهرها الإطلاق، أی أنّها تشمل التصدیق العلمی و العملی.

و لکن من الممکن أن هناک من یؤمن بیوم الدین و یری نفسه ممن لا یعاقب، لذا تقول: وَ الَّذِینَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ یعنی أنّهم یدرکون أهمیة الأمر، فلا یستکثرون حسناتهم و لا یستصغرون سیئاتهم، و لهذا

ورد فی الحدیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶

عن أمیر المؤمنین علیه السّلام و هو ینصح ولده: «بنی خف اللّه أنّک لو أتیته بحسنات أهل الأرض لم یقبلها منک، و أرج اللّه رجاء أنّک لو أتیته بسیئات أهل الأرض غفرها لک»[۱۸].

و حتی

أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یقول: «لن یدخل الجنّة أحدا عمله».

قالوا: و لا أنت یا رسول اللّه؟

قال: «و لا أنا، إلّا أن یتغمدنی اللّه برحمته».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷

الآیات [سورة المعارج (۷۰): الآیات ۲۹ الی ۳۵]

اشارة

وَ الَّذِینَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۲۹) إِلاَّ عَلی أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَیْرُ مَلُومِینَ (۳۰) فَمَنِ ابْتَغی وَراءَ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ

العادُونَ (۳۱) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (۳۲) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (۳۳)
وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (۳۴) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (۳۵)

التّفسير

القسم الآخر من صفات أهل الجنّة:

فى الآيات السابقة ذكرت أربعة أوصاف من الأوصاف الخاصّة بالمؤمنين الصادقين من أهل الجنان، و فى هذه الآيات ذكر لخمسة من الأوصاف الأخرى فيكون المجموع تسعة أوصاف.

فى الوصف الأوّل يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ ۱۹] حافِظُونَ إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸

لا شك فى أنّ الغريزة الجنسية من غرائز الإنسان الشديدة و الطاغية، و الكثير من الجرائم الكبيرة سببها هى هذه الغريزة، و لذا كانت السيطرة على هذه الغريزة و حفظ حدودها من العلامات المهمّة للتقوى، و بهذا ذكرت أهمية السيطرة على هذه الغريزة بعد تبيان أهمية الصلاة و إعانة المحتاجين و الإيمان بيوم القيامة و الإشفاق من عذاب اللّه.

و قد جاء فى الذيل الآية استثناء يدلّ على أنّ منطق الإسلام يرفض أن يقف الإنسان موقفا سلبيا تماما من هذه الغريزة و يكون كالرهبان و القسيسين يسير بخلاف قانون الخلقة، و هذا العمل غالبا ما يكون محالا و على فرض إمكانه فهو أمر غير منطقى، و لهذا نجد الرهبان من لم يستطيعوا أيضا حذف هذه الغريزة من حياتهم، و إذا لم يكونوا قد تزوجوا بالطريقة الرسمية فإنّ الكثير منهم ينصرف إلى ارتكاب الفحشاء عند الاختلاء.

الفضائح الناتجة من هذا المسلك ليست قليلة، فقد كشف المؤرخون المسيحيون مثل (ول دورانت) و غيره النقاب عن ذلك.

المراد ب- «الأزواج» الزوجات الدائمة و المؤقتة فإنّه يشمل الإثنين، و قد ظنّ البعض أنّ هذه الآية تنهى عن الزواج المؤقت و للم يعلموا أنّ ذلك هو نوع من الزواج.

و فى الآية الأخرى يؤكّد بشكل أكثر على نفس الموضوع فيضيف: فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ و بهذه الطريقة فإنّ الإسلام يخطط لمجتمع يحافظ على غرائزه الفطرية، و لا يؤدّى به إلى الغرق بالفحشاء و الفساد الجنسى و المضارّ الناتجة منه، و بالطبع أنّ للجوارى فى نظر الإسلام كثيرا من شرائط الزوجة و الضوابط القانونية للزوج و إن كان الموضوع منتف أساسا فى زماننا الحاضر.

عندئذ يشير إلى الصفات السادسة و السابعة، فيقول: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹

وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ من الطبيعى أنّ لأمانة معنى واسع و ليست هى الأمانات المادية المتنوعة للناس فحسب، بل أنّها تشمل الأمانات الإلهية و أمانات الأنبياء و كلّ الأئمّة المعصومين عليهم السّلام.

إنّ كلّ نعمة من النعم الإلهية هى من أماناته تعالى، منها المقامات الاجتماعية و بالخصوص المسؤولون فى الدولة فإنّها تعتبر من أهم الأمانات، و لهذا ورد فى الحديث عن الإمام الباقر و الإمام الصّادق عليهما السّلام فى تفسير الآية إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها، بأنّ المراد من الأمانات هنا «الولاية و الحاكمية»[۲۰]، و قرأنا كذلك فى سورة الأحزاب (۷۲)، إنّ التكليف و المسؤولية تعنى الأمانة الإلهية الكبيرة. إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و الأهم من ذلك كله هو الدين و الشريعة الإلهية و كتاب اللّه، و هو من الأمانات الكبيرة التى يجب الحفاظ عليها بالسعى.

«العهد»: و له مفهوم واسع أيضا، يشمل العهود الإنسانية و كذلك العهود الإلهية، لأنّ العهد هو كل ما التزم به الإنسان لغيره، و ممّا لا شك فيه أنّ الإيمان باللّه و برسوله يعنى الالتزام بما كلّف به.

الإسلام أعطى أهمية بالغة لحفظ الأمانات و العهود و الالتزام بها، و قد عرف ذلك بأنّه أهمّ علامات الإيمان.

و لمزيد من الاطلاع راجع تفسيرنا هذا، ذيل الآية (۵۸) من سورة النساء.

و يضيف في الوصف الثامن: وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ لأنّ القيام بالشهادة العادلة و ترک کتمانها من أهم بنود إقامة العدل في المجتمع البشرى.

و قد يرفض بعض الناس أداء الشهادة بحجّة إننا لماذا نشترى عداوة هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰

و ذاک، و نسبب المتاعب لأنفسنا بأداء الشهادة، هؤلاء أشخاص لا يبالون بالحقوق الإنسانية و يفقدون الروح الاجتماعية، و لا يؤمنون بتطبيق العدالة، و لهذا نرى القرآن الكريم في كثير من آياته يدعو المسلمين إلى أداء الشهادة و يعدّ كتمانها ذنبا[۲۱].

و في الوصف الأخير، و هو الوصف التاسع من هذه المجموعة، يعود مرّة أخرى إلى موضوع الصلاة، كما كان البدء بالصلاة، يقول تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ

و كما أشرنا سابقا أنّ الصلاة هنا بملاحظة القرائن تشير إلى الفريضة، و في الآية السابقة تشير إلى النافلة.

و من الطبيعى أن الوصف الأوّل كان إشارة إلى المداومة، و لكن الخطاب هنا حول حفظ آداب و شروط الصلاة و خصائصها، و الآداب التي تكمن في ظاهر الصلاة و التي تنهى عن الفحشاء و المنكر من جهة، و تقوى روح الصلاة بحضور القلب من جهة أخرى و تمحو الأخلاق الرذيلة التي تكون كحجر عثرة أمام قبولها، و لهذا لا يعتبر ذكرها مرّة أخرى من قبيل التكرار.

هذه البداية و النهاية تشير إلى أنّ الصلاة من بين الصفات الحميدة المذكورة هى الأهم، و لم لا تكون كذلك و الصلاة هى المدرسة العالية للتربية، و أهم وسيلة لتهذيب النفوس المجتمع.

و في النهاية تبيّن الآية الأخيرة عاقبة المتّصفين بهذه الأوصاف، كما بيّنت في الآيات السابقة المسير النهائى للمجرمين، فيقول تعالى هنا في جملة مختصرة و غنية بالمعانى: أُولئِکَ فِي جَنَّاتٍ مُکْرَمُونَ [۲۲]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱

لماذا لا يكونون مكرمين؟ و هم ضيوف اللّه، و قد وفرّ اللّه القادر الرحمن لهم جميع وسائل الضيافة، و في الحقيقة أنّ هذين التعبيرين «جنات» و «مكرمون» إشارة إلى النعم المادية و المعنوية التي يغرق فيها هؤلاء المكرمين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۳۶ الى ۴۱]

اشارة

فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِينَ (۳۶) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (۳۷) أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (۳۸) كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (۳۹) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (۴۰)

عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۴۱)

التّفسير

الطمع الواهی فی الجنّة:

جاء البحث فی الآیات السابقة من هذه السورة حول علامات المؤمنین و الکفار، و مصیر کلّ من المجموعتین، فی الآیات یعود لیوضح أحوال الکفار و استهزاءهم بالمقدسات.

قال البعض: إنّ هذه الآیات نزلت فی جماعة من المشرکین فعند ما کان الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتلو علی المسلمین آیات المعاد، کان هؤلاء الکفار یقدمون من کلّ صوب و حدب و یقولون: إذا کان هناک معاد فإنّ حالنا فی الآخرة أحسن من حال من آمن بک، کما أنّ حالنا فی هذه الدنیا أحسن منهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳

یقول القرآن الکریم فی جوابهم: فَما لِ الَّذِینَ کَفَرُوا قِبَلَکَ مُهْطِعِینَ أی یقبلون نحوک من کل جانب مسرعین.

عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِینَ أی جماعات متفرقین.

أَ یَطْمَعُ کُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ یُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِیمٍ بأی إیمان و بأی عمل یستحقون ذلک؟! «مهطعین»: جمع مهطع، و تعنی الذی یمدّ عنقه مقبلا علی شیء بسرعة للبحث عنه، و أحیاناً تأتی- فقط- بمعنی مدّ العنق لاستطلاع الأمر.

«عزین»: جمع عزة، علی وزن «هبة» و تعنی جماعات فی متفرقین، و أصلها «عزو»- علی وزن جذب- بمعنی النسبة، و بما أنّ کلّ جماعة یرتبط أفرادها بعضهم ببعض بنسبة معینة: أو یهدفون إلی غرض معین أطلقت کلمة «عزة» علی الجماعة.

علی کل حال فإنّ المشرکین المتکبرین کان لهم الکثیر من الادعاءات الباطلة الواهیة، و کانت الرّفاهیة فی حیاتهم الدنیویة و غالبا ما کان یتمّ ذلک بطریق غیر مشروع کالإغارة و السلب و غیر ذلک ما کان یجعلهم یظنون بأنّهم قد حصلوا علی هذه المقامات العالیة و لمکانتهم عند اللّه، فکانوا ینسبون إلی أنفسهم المقامات الرفیعة فی یوم القیامة.

صحیح أنّهم لم یکونوا یعتقدون بالمعاد بتلک الصورة التی یبیّنها القرآن، و لکنّهم کانوا یحتملون وقوعه أحیانا، و یقولون: إذا وقع المعاد فإنّ حالنا فی العالم الآخر سیکون کذا کذا، و لعلهم کانوا یریدون بذلک الاستهزاء.

و هنا یجیبهم القرآن المجید فیقول: کَلَّا لیس الأمر کذلک و لیس لهم حقّ الدخول إلی الجنّة إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا یَعْلَمُونَ

فی الحقیقة أنّ اللّه یرید بهذه الجملة أن یحطم غرورهم، لأنّه یقول: إنّکم تعلمون جیدا مم خلقناکم؟ من نطفة قذرة، من ماء آسن مهین، فلما ذا کلّ هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴

الغرور؟ و یجیب ثانیا علی المستهزئین بالمعاد فیقول: إذا کنتم فی شک من المعاد فتمعنوا فی حال هذه النطفة، و انظروا کیف خلقنا موجودا بدیعا من قطرة ماء قذرة یتطور فیها الجنین کلّ یوم یتّخذ شکلا جدیدا، أ لم یقدر خالق الإنسان من هذه النطفة أن یعید إلیه الحیاة بعد دفنه.

ثالثا: کیف یطمعون فی الجنّة و فی صحائفهم کل هذه الذنوب؟ لأنّ الموجود الذی خلق من نطفة لا یمکن أن یکون له قیمة مادیة، و إذا کانت له قیمة و کرامة فإنّ ذلک لإیمانه و عمله الصالح، و أولئک قد فقدوا هذه الصفات، فکیف ینتظرون الدخول إلی الجنّة؟![۲۳] ثمّ یقول تعالی مؤکّدا ذلک: فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ عَلی أَنْ نُبَدِّلَ خَیْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِینَ لعل هذه الجملة إشارة إلی أنّنا لسنا قادرین علی أن نعید لهم الحیاة بعد الموت فحسب، بل إنّنا نستطیع أن نبدله إلی أکمل الموجودات و أفضلها، و لا یمنعنا من ذلک شیء.

و علی هذا فإنّ السیاق هو إدامة لبحث المعاد، أو هو إشارة إلی أنّنا نهلککم جزاء لأعمالکم و لا یمنعنا من ذلک شیء، و نستبدل بکم مؤمنین و أعین، لیکونوا أنصارا للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا یضرّنا ذلک شیئا، و لهذا إن کنّا نلح علیکم أن تؤمنوا فلیس

من باب العجز و الاحتیاج، بل من أجل تربیة البشریة و هدایتها.

یمکن أن یکون المراد ب- بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ بأن اللّه الذی یقدر علی أن یجعل للشمس العظیمة مشرقا و مغربا جدیدین فی کل یوم، و یکون بنظام دقیق من دون أیة زیادة و نقصان مدی ملایین السنین قادر علی أن یعید الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵

مرّة أخری إلی الحیاة الجدیدة و یستبدلهم بقوم أفضل منهم.

ملاحظة

ربّ المشارق و المغارب:

قد یأتی تعبیر المشرق و المغرب فی أحیانا بصیغة المفرد کالآیة (۱۱۵) من سورة البقرة: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ و أحیانا بصیغة المثنی کما فی الآیة (۱۷) من سورة الرحمن: رَبُّ الْمَشْرِقَیْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَیْنِ و أحیانا أخری بصیغة الجمع الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ کالآیة التی هو مورد بحثنا.

البعض من ذوی النظرات الضیقة یظنون تضاد هذه التعابیر، فی حین أنّها مترابطة، و کل منها یشیر إلی بیان خاص، فالشمس فی کلّ یوم تطلع من نقطة جدیدة، و تغرب من نقطة جدیدة أخری، و علی هذا الأساس لدینا بعدد أیّام السنة مشارق و مغارب، و من جهة أخری فإنّ من بین کل هذه المشارق و المغارب هناک مشرقان و مغربان ممتازان، إذ أن أحدهما یظهر فی بدء الصیف أی الحد الأعلی لبلوغ ذروة ارتفاع الشمس فی المدار الشمالی، و الآخر فی بدء الشتاء أی الحد الأدنی لنزول الشمس فی المدار الجنوبی، (و یعبرون عن أحدهما بمدار «رأس السرطان»، و عن الآخر بمدار «رأس الجدی»،) و قد اعتمد علی ذلک لأنّهما واضحان تماما، بالإضافة إلی هذین المشرقین و المغربین الآخرین الّذین سمّیا بالمشرق و المغرب و الاعتدالیان (و هو أوّل الربیع و أوّل الخریف، عند تساوی ساعات اللیل و النهار فی جمیع الدنیا) و لذا ذهب البعض إلی هذا المعنی فی تفسیر الآیة: «ربّ المشرقین و المغربین» و هو معنی مقبول أیضا.

و أمّا ما جاء بصیغة المفرد فإنّ المراد به ماهیته، لأنّ الملاحظ فیه أصل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶

المشرق و المغرب بدون الالتفات إلی الأفراد، و بهذا الترتیب فإنّ لکلّ من العبارات المختلفة أعلاه مسألة تلفت نظر الإنسان إلی التغییرات المختلفة لطلوع و غروب الشمس، و التغییر المنتظم لمدارات الشمس.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷

الآیات [سورة المعارج (۷۰): الآیات ۴۲ الی ۴۴]

اشارة

فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتَّی یُلاقُوا یَوْمَهُمُ الَّذِی یُوعَدُونَ (۴۲) یَوْمَ یَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً کَأَنَّهُمْ إِلی نُصُبٍ یُوفِضُونَ (۴۳) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِکَ الْیَوْمُ الَّذِی کانُوا یُوعَدُونَ (۴۴)

التّفسير

كأنّهم يهرعون إلى الأصنام!!

هـذه الآيات و هى آخر آيات سورة المعارج جاءت لتنـذر و تهـدد الكفار المعاندين و المسـتهزئين، يقول سبحانه: فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ۲۴].

لاـ يلزم الاسـتدلال و الموعظة أكـثر من هـذا، فـإنّهم لاـ يتعضـون و ليس لهم الاسـتعداد للاستيقـاظ، دعهم يخوضون فى أبـاطيلهم و أراجيفهم كما يلعب الأطفال حتى يحين يومهم الموعود، يوم البعث و يرون كل شىء بأعينهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸

هذه الآية و بهذا التعبير وردت فى سورة الزخرف (۸۳).

ثمّ تبيّن الآيـة التاليـة اليوم الموعود، و تذكر بعض علامات ذلك اليوم المرعب فيقول تعالى: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِـراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ

يـا له من تعبير عجيب، إنّه وصف يوم القيامـة فى وقت يتجهون فيه سـراعا إلى محكمـة العـدل الإلـهى اتجاها يشـبه إسـراعهم فى يوم احتفال أو عزاء باتجاه أصنام، و لكن أين ذلك من هذا؟ إنّه فى الحقيقة استهزاء بعقائدهم المجونة التى كانوا يعتقدون بها فى الدنيا.

«الأجداث»: جمع جدث- على وزن (عبث)- و تعنى القبر.

«سراع»: جمع سريع، مثل (ظراف و ظريف) و تعنى الحركة السريعة للشىء أو الإنسان.

«نصب»: جمـع نصـيب، و يقـول البعض: إنّه جمع نصب- على وزن (سـقف)- المراد منه هو مـا ينصب كعلامـة، و تطلق على الأصـنام الحجرية إذ كانوا ينصـبونها فى مكان ما ليعبدوها و يقدّم لها القرابين ثمّ يلطخون دماءها عليها، و اختلافه مع الصـنم هو أنّ الصنم كان على هيئة صورة و شكل خاص، و أمّا النصب فهو قطعة من الحجر لا شكل له، و كانوا يعبدونه لسبب ما، و نقرأ فى الآية (۳) من سورة المائدة: وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ أى أنّ من جملة اللحوم المحرّمة هى ما يذبحون من الحيوانات على النصب.

«يوفضون»: من (إفاضة) و تعنى الحركة السريعة المشابهة لحركة الماء المنحدر من العين، و قال البعض: إنّ المراد من النصب فى الآية التى نحن بصددها هو الأعلام التى ينصبونها فى وسط الجيش أو القوافل، و على كل منهم أن يوصل نفسه بسرعة إليها، و لكن التّفسير الأوّل هو الأنسب.

ثمّ تذكر الآيات حالات أخرى لهؤلاء فتضيف: خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹

ذِلَّةٌ[۲۵] من شدّة الهول و الوحشة و قد غرقوا فى ذلّة مهينة و فى آخر الآية يتابع قوله: ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ

نعم هذا هو اليوم الموعود الذى كان يسـخرون منه و يقولون أحيانا: لنفترض أنّ هناك يوما كهذا، فإنّ حالنا فى ذلك اليوم هو أفضل من حال المؤمنين، و لكنّهم لا يجرؤون أن يرفعوا رؤوسـهم فى ذلك اليوم لشدّة الخوف و الوحشة، و قد تعفرت وجوههم و رؤوسهم بغبار الذلّة، و غرقوا فى كل الهموم الهائلة، و من المؤكّد أنّهم يندمون فى ذلك اليوم، و لكن ما الفائدة؟

اللّهم: ألبسنا ثوب رحمتك فى ذلك اليوم المهول.

ربّنا: إنّ مصائـد الشـيطان و حبائله قويـة، و هوى النفس غالب، و الآمال الطويلة و البعيدة خداعة، فترحم علينا باليقظة و عدم الانحراف عن المسار الصحيح.

اللّهم: اجعلنا ممن آمن و وفى بعهده و بذل عمره فى طاعتك.

آمین ربّ العالمین نهایة سورة المعارج***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱

سورة نوح

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثمان و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳

«سورة نوح»

محتوى سورة:

هذه السورة، کما هو واضح من اسمها، تشیر إلى قصّة نوح علیه السّلام، و أشیر إلى قصّة هذا النّبی العظیم کذلک فی سورة متعددة فی القرآن المجید، منها: سورة الشعراء، و المؤمنون، و الأعراف، و الأنبیاء، و بشکل أوسع فی سورة هود، و تحدثت (۲۵) آیة حول هذا النّبی العظیم الذی یعتبر من اولی العزم (من الآیة ۲۵ إلى ۴۹).

و ما جاء فی سورة نوح عن قصّته علیه السّلام هو مقطع خاص من حیاته، و هو أقل ممّا ذکر فی بقیة السور، و هذا القسم یرتبط بدعوته المستمرة و المتتابعة إلى التوحید، و ترتبط بکیفیتها و عناصرها، و التخطیط الدقیق الماهر فی هذا الأمر الهام، و ذلک مقابل قوم معاندین و متکبرین یأنفون من الانقیاد إلى الحقّ.

بلحاظ أنّ هذه السورة نزلت فی مکة، و أنّ النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین القلائل فی ذلک الزمان کانوا یعیشون ظروفا مشابهة لظروف عصر نوح علیه السّلام و أعوانه، فإنّها تعلمهم أمور کثیرة، و کانت هذه واحدة من أهداف إیراد هذه القصّة، و منها:

۱- أنّها تذکرهم کیف یبلغون الرسالة للمشرکین عن طریق الاستدلال المنطقی المقترن بالمحبّة و المودّة، و استخدام کلّ طریقة تکون مفیدة و مؤثرة فی الدعوة.

۲- أنّها تعلّمهم الثبات و النشاط فی طریق الدعوة إلى اللّه و عدم التکاسل مهما طالت الأعوام، و مهما وضع الأعداء العوائق.

۳- أنّها تعلّمهم کیف یرغبونهم و یشجعونهم تارة، و تکون لدیهم عوامل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴

الإنذار و الرّهبة تارة أخرى و الاستفادة من کلا الطریقین فی الدعوة إلى اللّه جلّ و علا.

۴- الآیات الأخیرة من هذه السورة هی تحذیر للمشرکین المعاندین، بأن عاقبتهم وخیمة إذا لم یستسلموا للحق، و تخلّفوا عن أمر اللّه.

۵- بالاضافة إلى ذلک، فإنّ هذا السورة جاءت لتهدئة مشاعر النّبی و المؤمنین الأوائل و من یعیش مثل ظروفهم، لیصبروا على الصعوبات، و یطمئنوا فی مسیرهم بلطف من اللّه.

و بعبارة أخرى فإنّ هذه السورة ترسم أبعاد الکفاح الدائم بین أصحاب الحق و أصحاب الباطل، ترسم منهج أصحاب الحق الذی یجب علیهم إتّباعه.

فضیلة هذه السورة:

ورد فی حدیث عن النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة نوح کان من المؤمنین الذین تدرکهم دعوة نوح».[۲۶]

و

فى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السّلام قال: «من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر و يقرأ كتابه فلا يدع أن يقرأ سورة: إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً فأى عبد قرأها محتسبا صابر فى فريضة أو نافلة، أسكنه اللّه مساكن الأبرار و أعطاه ثلاث جنان من جنّته كرامة من اللّه».[۲۷]

و لا يخفى أنّ الهدف من قراءة السورة هو الاقتباس من منهج و سلوك هذا النّبى العظيم من صبره و استقامته فى طريق الدعوة إلى اللّه تعالى ليدركوا دعوة النّبى، و ليس المراد القراءة الخالية من التفكير، و لا التفكر الخالى من العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (۳) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴)

التّفسير

رسالة نوح الأولى:

قلنا: إنّ هذه السورة تبيّن من أحوال نوح عليه السّلام و ما يرتبط بأمر دعوته، و تعلم السائرين فى طريق اللّه تعالى أمورا مهمّة فى إطار الدعوة إلى الحق و بالخصوص فى قابل الأمم المعاندة، و تبدأ أوّلا بذكر فى بعثته عليه السّلام فيقول تعالى:

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

من الممكن أن يكون هذا العذاب الأليم هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، و الأنسب أن يكون الاثنان معا، و إن كانت القرائن فى آخر آيات هذه السورة تشير إلى أن هذا العذاب هو عذاب الدنيا.

التأكيد على الإنذار و الترهيب غالبا ما يؤثر تأثيرا بالغا، مع أنّ الأنبياء كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶

منذرين تارة و مبشرين تارة أخرى، كما يتمّ الاعتماد فى سائر الدينا على التحذيرات و العقوبات لضمان تطبيق القوانين.

نوح عليه السّلام الذى كان هو من أولى العزم، و صاحب أوّل شريعة إلهية، و له دعوة عالمية، جاء إلى قومه بعد صدور هذا الأمر إليه قال: قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

الهدف هو أن تعبدوا اللّه الذى لا إله إلّا هو، و تتركوا من دونه، و تتقوا و تطيعوا أمرى الذى هو أمر اللّه: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ

فى الحقيقة أنّ نوحا عليه السّلام قد لخّص مضمون دعوته فى ثلاث جمل: عبادة اللّه الواحد، و الحفاظ على التقوى، و طاعة القوانين و الأوامر التى جاء بها من عند اللّه و التى تمثل مجموعة من العقائد و الأخلاق و الأحكام.

ثمّ ذكر النتائج المهمّة المترتبة على استجابتهم الدعوة فى جملتين لترغيبهم فقال: يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ [۲۸] فى الحقيقة أنّ القاعدة المعروفة «الإسلام يجب ما قبله» هى قانون موجود فى كل الأديان الإلهية و التوحيدية و ليست منحصرة بالإسلام.

ثمّ يضيف: وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يستفاد جيدا من هذا الآية أنّ «الأجل» و موعد عمر الإنسان قسمان، هما: الأجل المسمّى، و الأجل النهائى، أو بعبارة أخرى الأجل الأدنى، و الأجل الأقصى أو الأجل المعلق، و الأجل الحتمى، القسم الأوّل للأجل قابل للتغير و التبديل، فقد يتدنى و يقل عمر الفرد كثيرا بسبب الذنوب و الأعمال السيئة

الامثل فی تفسير کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷

و هذا نوع من أنواع العذاب الإلهى، و بالعكس فإنّ التقوى و حسن العمل و التدبير يمكن أن تكون سببا لتأخير الأجل، و لكن الأجل النهائى لا يتغير بأى حال من الأحوال، و يمكن توضيح هذا الموضوع بمثال واحد، و هو أنّه ليس باستطاعة الإنسان أن يبقى خالدا، و إذا كانت جميع الأجهزة البدنية تعمل جيدا ففى النهاية سوف يصل شيئا فشيئا إلى زمن ينتهى عمره بعجز فى القلب، و لكن تطبيق الأوامر الصحية و مجابهة الأمراض يمكن أن يطيل فى عمر الإنسان، و فى حالة عدم مراعاة هذه الأمور فإنّ من المحتمل أن يقلل ذلك من عمر و ينهى عمره بسرعة.[۲۹]***

ملاحظة

العوامل المعنوية لزيادة و نقصان العمر:

النقطة الأخرى التى يمكن استفادتها من هذه الآية هو تأثير الذنوب فى تقصير العمر، لأنّه يقول: «إنّ كنتم تؤمنون باللّه و تتقوه يهب لكم عمرا طويلا و يؤخر موتكم» و هذا يعنى أنّ الذنوب توجّه ضربات مهولة للجسم و الروح بحيث تساعد فى القضاء عليه.

و فى الرّوايات الإسلامية أيضا تأكيد كبير على هذا المعنى، منها ما

ورد فى حديث غنى المحتوى عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال، و من يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار».[۳۰]

الامثل فی تفسير کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۵ الى ۹]

اشارة

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً (۵) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً (۶) وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (۷) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (۸) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (۹)

التّفسير

استخدام مختلف الوسائل لهدايتهم، و لكن!!!

تتحدث هذا الآيات عن استمرار مهمّة نوح فى دعوته قومه و لكن هذه المرّة جاء الحديث على لسانه مخاطبا ربّه و شاكيا إليه أمره معهم بعبارة مأثرة بليغة.

خطاب نوح عليه السّلام فى هذا الإطار يمكن أن يعبّد الطريق لكلّ المبلغين الرساليين، فيقول: رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً.

و إنّنى لم أتوانى لحظة واحدة فى إرشادهم و إبلاغ الرسالة لهم، ثمّ يقول:

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً.

و من العجيب أن تكون الدعوة سببا لفرارهم، و لكن بما أنّ كلّ دعوة تحتاج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹

إلى نوع من الاستعداد و صفاء القلب و التجاذب المتبادل فليس عجيبا أن يكون هنا أثر معاكس فى القلوب الخاملة، و بمعنى آخر أنّ أعداء الحق المعاندين عند ما يستمعون لدعوة المؤمنين الرساليين يظهرون لهم المقاومة و الإصرار على العناد، و هذا ما يبعدهم عن اللّه بصورة أكثر، و يقوى عندهم روح الكفر و النفاق.

و هذا ما أشير إليه فى سورة الإسراء (۸۲): وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً.

و ما نقرأ كذلك فى آيات هذا الكتاب السماوى أنّه سبب لهداية المتقين:

... هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [۳۱] و لهذا لا بدّ أن يكون هناك مرحلة من التقوى فى وجود الإنسان و إن كانت ضعيفة، حتى يتهيأ لقبول الحقّ، هذه المرحلة هى مرحلة (الروح الباحثة عن الحقيقة) و الاستعداد لتقبل كلمات الحق.

ثمّ إنّ نوحا عليه السّلام يضيف: وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً.

و لكى لا يسمعوا صوت الحق كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم، و يلفون ثيابهم حول أنفسهم أو يضعونها على رؤوسهم لئلا تصل أمواج الصوت إلى أدمغتهم! و ربّما كانوا يتقنعون لئلا تقع أعينهم على الهيئة الملكوتية لهذا النّبى العظيم، و فى الحقيقة كانوا يصرون على أن تتوقف الآذان عن السماع و العيون عن النظر! و هذا فى الواقع أمر مدهش أن يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من العداوة للحق إلى حدّ لا يعطى لنفسه فرصة النظر و السماع و التفكر.

و قد ورد فى بعض التفاسير أنّ بعض أولئك المعاندين كان يذهب بابنه إلى نوح عليه السّلام فيقول له: إحذر هذا لا يغوينك، فإنّ أبى قد جاء بى إليه و أنا صغير مثلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۰

فحذّرنى مثل ما حذّرتك ۳۲]، (حتى أكون ممّا وفى بحق الوصية و حبّ الخير).

هذا يدل على أنّ نوحا عليه السّلام كان مستمرا فى دعوته الإلهية طوال عمره الشريف و لعدّة أجيال و كان لا يعرف التعب أبدا.

و كذلك تتضمّن الآية الإشارة إلى أحد الأسباب المهمّة لتعاستهم و هو الغرور و التكبر، لأنّهم كانوا يرون أنفسهم أكبر من أن يتنازلوا لإنسان مثلهم، و إن كان ممثلا عن اللّه و تقيّا، و مهما كان قلبه عامرا بالعلم، فكان هذا الغرور و الكبر أحد الموانع المهمّة و الدائمة فى طريق الحق، و نحن نشاهد النتائج المشؤومة لذلك على طول التاريخ فى حياة أناس لا إيمان لهم.

و استمر نوح عليه السّلام فى حديثه عند المقام الإلهى، فيقول: ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً.

دعوتهم إلى الإيمان فى حلقات عامّة و بصوت جهور، ثمّ لم اكتفى بهذا: ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً قال بعض المفسّرين: إنّ نوحا عليه السّلام اتّبع فى دعوته ثلاثة أساليب مختلفة حتى يستطيع من النفوذ فى هذا الجمع المعاند و المتكبر: كان يدعو أحيانا فى الخفاء فواجه أربعة أنواع من الرفض (وضع الأصابع فى الآذان، تغطية الوجوه بالملابس، الإصرار على الكفر، و الاستكبار).

و كان يدعو أحيانا بالإعلان، و أحيانا أخرى يستفيد من طريق التعليم العلنى و السرى و لكن أيّا من هذه الأمور لم يكن مؤثرا[۳۳].

من المعلوم أنّ الإنسان إذا ما نهج طريق الباطل إلى حدّ تتعمق فى وجوده جذور الفساد و تنفذ فى أعماق وجوده حتى تتحول إلى طبيعة ثانية فيه، فإنّه سوف لا تؤثر فيه دعوة الصالحين و لا ينفع معه خطابات رسل اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۱

ملاحظتان

۱- أسلوب الإبلاغ و منهجه

ما جاء فی هذا الآیات حول دعوة نوح یمثل برنامج عام لجمیع المبلغین فی طریق اللّه، و فی نفس الوقت تسلیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه المؤمنین القلائل الذین کانوا قد التفوا حوله فی مکّة.

إنّه علیه السّلام لم یکن یتوقع أن یستجیب الناس لدعوته، و لم یکونوا یجتمعون فی وسط المدینة لیلقی فیهم خطابه الإلهی بهدوء و اطمئنان، و الناس یصغون إلیه، و یشخصون إلیه أعینهم، بل یستفاد من سیاق الآیات (کما جاء أیضا فی بعض الرّوایات) أنّه کان أحیانا یذهب إلی بیوتهم، أو أنّه یدعوهم فی الأزقة و الأسواق علی انفراد، و یبلغهم المفاهیم و یتحدّث إلیهم بتودد و تحبب و تصبر، و أحیانا کان یخاطبهم بأوامر اللّه تعالی علنا و بصوت عال، و ذلک باغتنامه فرص انعقاد المحافل أو مجالس العزاء، فکان یقابل بالإهانة و الاستهزاء و أحیانا بالضرب المبرح، و لکنّه مع ذلک کان لا ینتهی عن ذلک و یواصل مسیره.

کان صبره عجیبا، و الأعجب ما فیه رأفته، و کانت همته و استقامته الفریدة رأس ماله فی السیر فی طریق الدعوة إلی دین الحق.

و الأعجب من ذلک هو أنّ طیلة دعوته التی دامت (۹۵۰) عاما لم یؤمن به إلّا ثمانون شخصا، و لو قسمنا هذه المدّة علی عدد الأنفار یتّضح لنا أنّ مدّة هدایته لکل فرد دامت اثنتی عشرة سنة تقریبا!! لو کان المبلّغون یتعاملون بمثل هذه الاستقامة و الهمة لأصبح الإسلام عالمیا غنی المحتوی.

۲- لماذا الفرا من الحقیقة؟

یتعجب الإنسان أحیانا و یتساءل هل یمکن أن یکون هناک أناس یعیشون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۲

تحت هذه السماء لیس لدیهم الاستعداد لسماع کلمة الحق بل یفرون منه؟

و السؤال عن السماع فقط و لیس عن قبول الکلمة.

و لکن التاریخ یتحدّث عن کثرة أمثال هؤلاء، لیس فقط قوم نوح هم الذین وضعوا أصابعهم فی آذانهم و غشوا رؤوسهم و وجوههم بثیابهم عند دعوته لهم، بل هناک فئة فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و بصریح القرآن کانوا یستعینون بالصفیر و التهریج و الصراخ العالی لیحولوا بین صوت النّبی و هو یتلو آیات اللّه و بین الناس: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَغْلِبُونَ ۳۴].

و جاء فی تاریخ کربلاء الدامیة کذلک أنّه عند ما کان سیّد الشّهداء الإمام الحسین علیه السّلام یدعو الأعداء المنحرفین إلی الرشاد و یوقظهم کانوا یستخدمون هذا الأسلوب من الصراخ و التهریج حتی لا یسمع الناس تصوته ۳۵]، و هذه الخطة مستمرة إلی یومنا هذا، و لکن بأشکال و صور أخری، فلقد وفّر أصحاب الباطل جوا من المسلیات المفسدة کالموسیقی الراقصة و المواد المخدرة و غیر ذلک یبغون بذلک الفصل بین الناس- بالخصوص الشباب- و بین سماع أصوات أهل اللّه تعلیماتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۳

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۱۰ الى ۱۴]

اشارة

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (۱۰) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (۱۱) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (۱۲) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (۱۳) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (۱۴)

التّفسير

ثمرة الإيمان فی الدنيا:

يستمر نوح عليه السّلام فی تبليغه المؤثر لقومه المعاندين العصاة، و يعتمد هذه المرّة على عامل الترغيب و التشجيع، و يوعدهم بانفتاح أبواب الرحمة الإلهية من كل جهة إذا ما تابوا من الشرك و الخطايا، فيقول: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً.

و لا يطهركم من الذنوب فحسب بل: يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً[۳۶].

و الخلاصة: إنّ اللّه تعالى يفيض عليكم بأمطار الرحمة المعنوية، و كذلك

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۴

بالامطار المادية المباركة.

و من الملاحظ فی سياق هذه الآية أنّه يقول «يرسل السماء» فالسماء تكاد أن يهبط من شدّة هطول الأمطار! و بما أنّها أمطار رحمة و ليست نقمة، فلذا لا تسبب خرابا و أضرارا، بل تبعث على الإعمار و البركة و الحياة.

ثمّ يضيف: وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً و بهذا فإنّه وعدهم بنعمة معنوية كبيرة، و بخمس نعم أخرى مادية كبيرة، و النعمة المعنوية الكبيرة هی غفران الذنوب و التطهير من درن الكفر و العصيان، و أمّا النعم المادية فهی هطول الأمطار المفيدة و المباركة فی حينها، كثرة الأموال، كثرة الأولاد (الثروات الإنسانية)، الحدائق المباركة و الأنهار الجارية.

نعم، إنّ الإيمان و التقوى يبعثان على عمران الدنيا و الآخرة بشهادة القرآن المجيد، و ورد فی بعض الرّوايات انّ قوم نوح المعاندين لما امتنعوا من قبول دعوته حلّ عليهم القحط و هلك كثير من أولادهم، و تلفت أموالهم، و أصاب نساءهم العقم، و قلّ عندهنّ الإنجاب، فقال لهم: نوح عليه السّلام: إن تؤمنوا فسيدفع عنكم كل هذه البلايا و المصائب، و لكنّهم ما اتعظوا بذلك و استمروا فی غيّهم و طغيانهم حتى حلّ العذاب النهائی.

و يعود نوح عليه السّلام مرّة أخرى لينذرهم، فيقول: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً[۳۷]، و لا تخافون عقابه و قد خلقكم فی مراحل مختلفة: و يقول أيضا: وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً.

كنتم فی البداية نطفة لا قيمة لها، ثمّ صوركم علقة ثمّ مضغة، ثمّ وهبكم الشكل الإنسانی، ثمّ ألبسكم لباس الحياة، فوهب لكم الروح و الحواس و الحركة، و هكذا طويتم المراحل الجنينية المختلفة الواحدة بعد أخرى، حتى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۵

ولدتكم أمهاتكم بهيئة الإنسان الكامل، و هكذا تستمر المراحل الأخرى و المختلفة للمعيشة فی الحياة، و أنتم خاضعون دائما لربوبيته تعالى، و تتجددون دائما، و تخلقون خلقا جديدا، فكيف لا تطأطئوا رؤوسكم أمام خالقكم؟

و لستم تتخذون أشكالا مختلفة من جهة الجسم، بل أنّ الروح هی أيضا فی تغيّر مستمر، و لكلّ منكم استعداده الخاص، ففی كل

رأس ذوق خاصّ، و فى كل قلب جحّ خاصّ، و كلكم تتغيرون باستمرار، فتنتقل مشاعر و أحاسيس الطفولة إلى أحاسيس الشبيبة، و هذه بدورها إلى الكهولة و الشيخوخة، و على هذا فإنّه معكم فى كلّ مكان هو يهديكم فى كل خطوة و يشملكم بلطفه و عنايته، فلم كل هذا الكفران و الاستهانة؟!***

ملاحظة

الرّابطة بين التقوى و العمران:

نستفيد من الآيات المختلفة فى القرآن، و منها الآيات التى هى محل بحثنا، أنّ الإيمان و العدالة سبب لعمران المجتمعات، و الكفر و الظلم و الخطايا سبب للدمار، نقرأ فى الآية (۹۶) من سورة الأعراف: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و فى الآية (۴۱) من سورة الروم نقرأ:

ظَهَرَ الْفَسادُ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ و فى الآية (۳۰) من سورة الشورى: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ و فى الآية (۶۶) من سورة المائدة: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

و آيات أخرى من هذا القبيل.

هذه الرابطة ليست رابطة معنوية، بل هناك رابطة مادية واضحة فى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۶

المجال أيضا.

الكفر و عدم الإيمان هو عين الإحساس بالمسؤولية، و هو الخروج عن القانون، و تجاهل القيم الأخلاقية، و هذه الأمور هى التى تسبب فقدان وحدة المجتمعات، و تزلزل أعمدة الاعتماد و الطمأنينة، و هدر الطاقات البشرية و الاقتصادية، و اضطراب العدالة الاجتماعية.

و من البديهى أنّ المجتمع الذى تسيطر عليه هذه الأمور سوف يتراجع بسرعة، و يتخذ طريقه إلى السقوط و الفناء.

و إذا كنّا نرى أنّ هناك مجتمعات تحظى بتقدم نسبى فى الأمور المادية مع كفرهم و انعدام التّقوى فيهم، فإنّ علينا أن نعرف أيضا أنّه لا بدّ أن يكون ذلك مرهونا بالمحافظة النسبية لبعض الأصول الأخلاقية، و هذا هو حصيلة ميراث الأنبياء و السابقين، و نتيجة أتعاب القادة الإلهيين و العلماء على طول القرون، و بالإضافة إلى الآيات السالفة هناك روايات كثيرة أيضا اعتمدت هذا المعنى، و هو أنّ الاستغفار و ترك المعاصى يبعث على إصلاح المعيشة و ازدياد الرّزق.

ففى حديث ورد عن الإمام على عليه السّلام: «أكثر الاستغفار تجلب الرّزق»[۳۸].

و نقل

فى حديث آخر عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من أنعم اللّه عليه نعمة فليحمد اللّه تعالى و من استبطأ الرّزق فليستغفر اللّه، و من حزنه أمر فيقل: لا حول و لا قوّة إلّا باللّه»[۳۹].

و نقرأ

فى نهج البلاغة أيضا[۴۰]: «و قد جعل اللّه سبحانه الاستغفار سببا على الرّزق و رحمة الخلق، فقال سبحانه: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۷

و الحقيقة أنّ الحرمان فى هذا العالم سببه العقوبات على الذنوب، و فى الوقت الذى يتوب فيه الإنسان و يتخذ طريق الطهارة و التقوى

یصرف اللّه تعالی عنه هذه العقوبات ۴۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۸

الآیات [سورة نوح (۷۱): الآیات ۱۵ الی ۲۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَوْا کَیْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (۱۵) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِیهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (۱۶) وَ اللَّهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (۱۷) ثُمَّ یُعِیدُکُمْ فِیها وَ یُخْرِجُکُمْ إِخْراجاً (۱۸) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (۱۹)
لِتَسْلُکُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً (۲۰)

التّفسیر

خلقکم اللّه من الأرض کالنبات:

کان نوح علیه السّلام یبیّن للمشرکین المعاندین حقائق عمیقة و مستدلة، إذ کان یأخذ بهم إلی أعماق وجودهم لیرون حقائق هذه الآیات (کما مرّ فی الآیات السابقة) و دعاهم إلی ما خلق اللّه من علامات فی هذا العالم الکبیر، فکان یسیر بهم إلی تلک الآفاق ۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۹

یبدأ أوّلا بالسماء فیقول: أَ لَمْ تَرَوْا کَیْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً[۴۳] «طباقا»: مصدر من باب (مفاعلة) بمعنی «مطابقة»، و أحیانا تأتی بمعنی وضع الشیء فوق شیء آخر، و تأتی أحیانا أخری بمعنی مطابقة و مماثلة شیئین أحدهما مع الآخر، و المعنیان یصدقان هنا.

و ما طبق للمعنی الأوّل أنّ السماوات بعضها فوق بعض، و کما قلنا فی سابقا حسب تفسیر السموات السبع فإنّ کل ما نراه من الکواکب المتحرکة و الثابتة بالعین المجرّدة أو غیرها هی من السماء الاولی، ثمّ تلیها السموات الست الأخری متطابقة بعضها فوق الأخری، و لم یصل علم الإنسان إلی هذه المرتبة فعلا، و لکن یمکن فی المستقبل أن یتطور علم الإنسان فیکشف ما فی السموات من عجائب الواحدة بعد الأخری ۴۴].

و علی الاحتمال الثّانی فإنّ القرآن یشیر إلی مطابقة و تناسق السماوات السبع فی النظم و العظمة و الجمال.

ثمّ یضیف: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِیهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً[۴۵].

صحیح أنّ فی السماوات السبع ملیارات من الکواکب المضیئة و التی هی أکثر ضیاء من الشمس، و لکن ما یهمنا و ما یؤثر فی حیاتنا هی هذه الشمس و کذلک القمر، هذه المنظومة الشمسیة التی تضیء الشمس فیها بالنهار و القمر بدوره ینیر اللیل.

التعبیر بالسراج للشمس و بالنور للقمر هو أنّ نور الشمس ینشأ من ذاتها کالسراج، و أمّا نور القمر فإنّه لیس من باطنه بل انعکاس لنور الشمس، و لهذا فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۰

کلمة نور ذات المفهوم العام هی المستخدمة فی هذا المورد، و یشاهد اختلاف التعابیر فی آیات القرآن أیضا، و قد أوردنا شرحا مفصلا فی هذا الباب فی ذیل الآیة (۵) من سورة یونس علیه السّلام.

ثمّ یعود ذلک إلی الإنسان فیقول: وَ اللَّهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً[۴۶].

التعبیر ب «الإنبات»، فی شأن الإنسان لأسباب، أوّلا: خلق الإنسان الأوّل من التراب.

ثانیا: إنّ المواد الغذائیة التی یتناولها الإنسان و بها ینمو و یحیی هی من الأرض، فهو إمّا یتناول الخضار و الحبوب الغذائیة أو الفواکه مباشرة، أو بطریق غیر مباشر کلحوم الحیوانات.

ثالثا: هناک تشابه کثیر بین الإنسان و النبات، و هناک کثیر من القوانین التی یسری حکمها علی نمو و تغذیة النباتات هی ساریة أیضا علی الإنسان.

و هذا التعبیر فی شأن الإنسان غنی بالمعانی، و یدل علی أنّ التدبیر الإلهی فی مسألة الهدایة لیس فقط کتدبیر و عمل المعلم و حسب، بل هو کعمل الزارع الذی ینثر البذور فی محیط جید یساعدها علی النمو، و فی الآیة (۳۷) من سورة آل عمران یقول اللّه تعالی بشأن مریم علیها السّلام: وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً و کلّ هذا إشارة إلی ذلک المضمون اللطیف.

ثمّ یمضی إلی مسألة المعاد و التی کانت من المسائل المعقدة عند المشرکین فیقول: ثُمَّ یُعِیدُکُمْ فِیها وَ یُخْرِجُکُمْ إِخْراجاً.

کنتم فی البدء ترابا، ثمّ تعودون إلی التراب ثانیة، و من کانت له القدرة علی أن یخلقکم من التراب هو قادر علی أن یحییکم بعد الموت.

هذا الانتقال من التوحید إلی المعاد الذی جاء فی سیاق هذه الآیات بصورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۱

لطیفة یشیر إلی العلاقة القریبة بینهما، و هکذا کان نوح علیه السّلام یوضح لمخالفیه أمر التوحید بالاستدلال عن طریق نظام الخلقة و یستدل کذلک بها علی المعاد.

ثمّ یعود مرّة أخری إلی آیات الآفاق و علامات التوحید فی هذا العالم الکبیر، و یتحدث عن نعم وجود الأرض فیقول: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ بِساطاً[۴۷].

لیست هی بتلک الخشونة بحیث لا یمکنکم الانتقال و الاستراحة علیها، و لیست بتلک النعومة بحیث تغطسون فیها، و تفقدون القدرة علی الحرکة، لیست حارقة و ساخنة بحیث تلقون مشقّة من حرّها، و لیست باردة بحیث تتعسر حیاتکم فیها، مضافا إلی ذلک فهی کالبساط الواسع الجاهز المتوفر فیه جمیع متطلباتکم المعیشیة.

و لیست الأراضی المسطحة کالبساط الواسع فحسب، بل بما فیها من الجبال و الودیان و الشقوق المتداخلة بعضها فوق البعض و التی یمکن العبور من خلالها.

لِتَسْلُکُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً.

«فجاج» علی وزن (مزاج)، و هو جمع فج، و بمعنی الوادی الفسیح بین الجبلین، و قیل الطریق الواسعة[۴۸].

و بهذا فإنّ نوح علیه السّلام یشیر فی خطابه تارة إلی العلامات الإلهیة فی السماوات و الکواکب و السماویة، و تارة أخری إلی النعم الإلهیة الموجودة فی البسیطة، و ثالثة الی وجود الإنسان الذی یعتبر بحدّ ذاته دلیل علی معرفة اللّه تعالی و إثبات المعاد، و لکن لم تؤثر أی من هذه الإنذارات و البشائر و الرغائب و الاستدلالات المنطقیة فی قلوب هؤلاء القوم المعاندین الذین استمروا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۲

مخالفتهم و کفرهم، و أخذتهم الأنفة عن الانقیاد لحمید العاقبة، و سنری عاقبة هذا العناد فی الآیات القادمة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۳

الآیات [سورة نوح (۷۱): الآیات ۲۱ الی ۲۵]

اشارة

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ یَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (۲۱) وَ مَکَرُوا مَکْراً کُبَّاراً (۲۲) وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا یَغُوثَ وَ یَعُوقَ وَ نَسْراً (۲۳) وَ قَدْ أَضَلُّوا کَثِیراً وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِینَ إِلاَّ ضَلالاً (۲۴) مِمَّا خَطِیئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ یَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (۲۵)

التّفسیر

لطف اللّه معک:

عند ما رأی نوح علیه السّلام عناد قومه و قد بذل فی سبیل هدایتهم منتهی مساعیه التی طالت مئات السنین، و ما کانوا یزدادون فیها إلّا فسادا و ضلالا، یئس منهم و توجّه إلی ربّه لیناجیه و یطلب منه أن یعاقب قومه، کما نقرأ فی هذه الآیات محل البحث، قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ یَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۴

تشیر هذه الآیة إلی أنّ رؤساء هؤلاء القوم یمتازون بکثرة الأموال و الأولاد، و لکنّها لا تستخدم لخدمة الناس بل للفساد و العدوان، و لا یخضعون للّه تعالی، و هذه الامتیازات الکثیرة سببت فی طغیانهم و غیهم.

و إذا ما نظرنا إلی تاریخ الإنسان لوجدنا أنّ الکثیر من رؤساء القبائل هم من هذا القبیل، من الذین یجمعون المال الحرام، و لهم ذرّیة فاسدة، و یفرضون فی النهایة أفکارهم علی المجتمعات المستضعفة، و یکبّلونهم بقیود الظلم.

ثمّ یضیف فی قوله تعالی: وَ مَکَرُوا مَکْراً کُبَّاراً.

«کبّار» صیغة مبالغة من الکبر، و ذکر بصیغة النکرة، و یشیر إلی أنّهم کانوا یضعون خططا شیطانیة واسعة لتضلیل الناس، و رفض دعوة نوح علیه السّلام، و من المحتمل أن یکون عبادة الأصنام واحدة من هذه الخطط و الأسالیب، و ذلک طبقا للرّوایات التی تشیر إلی عدم وجود عبادة الأصنام قبل عصر نوح علیه السّلام و أن قوم نوح هم الذین أوجدوها، و ذکر أنّ فی المدّة الزمنیة بین آدم و نوح علیهما السّلام کان هناک أناس صالحون أحبّهم الناس، و لکن الشیطان «أو الأشخاص الشیطانیین» عمد إلی استغلال هذه العلاقة، و ترغّبهم فی صنع تماثیل أولئک الصالحین بحجّة تقدیسهم و إجلالهم، و بعد مضی الزمن نسیت الأجیال هذه العلاقة التاریخیة، و تصورت أنّ هذه التماثل هی موجودات محترمة و نافعة یجب عبادتها، و هکذا شغلوا بعبادة الأصنام، و عمد الظالمون و المستکبرون إلی إغفال الناس و تکبیلهم بحبائل الغفلة، و هکذا تحقق المکر الکبیر.

و تدل الآیة الأخری علی هذا الأمر، إذ أنّها تضیف بعد الإشارة إلی خفاء هذا المکر فی قوله تعالی: وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ

و لا تقبلوا دعوة نوح إلی اللّه الواحد، و غیر المحسوس، و أکدوا بالخصوص علی خمسة أصنام، و قالوا: وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا یَغُوثَ وَ یَعُوقَ وَ نَسْراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۵

و یستفاد من القرائن أنّ لهذه الأصنام الخمسة ممیزات و خصائص، و أنّها لقیت عنایة بالغة من القوم الظالمین، و لهذا کان رؤسائهم المستغلون لهم یعتمدون علی عبادتهم لها.

و هناک روایات متعددة تشیر إلی وجود و ابتداع هذه الأصنام، و هی:

۱- قال البعض: إنّها أسماء خمسة من الصالحین کانوا قبل نوح علیه السّلام و عند ما رحلوا من الدنیا اتّخذوا لهم تماثیل لتبقی ذکری،

و ذلک بتحریک و إیحاء من إبلیس، فوقّروها حتی عبدت تدریجیا بمرّ العصور.

۲- قیل أنّها أسماء خمسة أولاد لآدم علیه السّلام کان کلّما یموت أحدهم یضعون له تمثالا و ذلک لتخلید ذکراه، و بمرور الزمن نسی ذلک الغرض و أخذوا یروجون عبادتها بکثرة فی زمن نوح علیه السّلام.

۳- البعض الآخر یعتقد أنّها أسماء لأصنام فی زمن نوح علیه السّلام، و ذلک لأنّ نوحا علیه السّلام کان یمنع الناس من الطواف حول قبر آدم علیه السّلام فاتخذوا مکانه تماثیل بإیعاز من إبلیس و شغلوا بعبادتها[۴۹].

و هکذا انتقلت هذه الأصنام الخمسة إلی الجاهلیة العربیة، و انتخبت کل قبیلة واحدة من هذه الأصنام لها، و من المستبعد أن تکون الأصنام قد انتقلت إلیهم، بل إنّ الظاهر هو انتقال الأسماء إلیهم ثمّ صنعهم التماثیل لها، و لکن بعض المفسّرین نقلوا عن این عباس أنّ هذه الأصنام الخمسة قد دفنت فی طوفان نوح علیه السّلام، ثمّ أخرجها الشیطان فی عهد الجاهلیة و دعا الناس إلی عبادتها[۵۰].

و فی کیفیة تقسیم هذه الأصنام علی القبائل العربیة فی الجاهلیة، قال البعض: إنّ الصنم (ود) قد اتّخذته قبیلة بنی کلب فی أراضی دومة الجندل، و هی مدینة قریبة من تبوک تدعی الیوم بالجوف، و اتّخذت قبیلة هدیل (سواعا) و کانت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۶

فی بقاع رهاط، و اتّخذت قبیلة بنی قطیف أو قبیلة بنی مذحج (یغوث)، و أمّا همدان فاتّخذت (یعوق)، و اتّخذت قبیلة ذی الکلاع (نسرا)، و هی قبائل حمیر[۵۱].

و علی کل حال، فإنّ ثلاثة منها أی (یغوث و یعوق و نسر) و کانت فی الیمن و لکنّها اندثرت عند ما سیطر ذو نؤاس علی الیمن، و اعتنق أهلها الیهودیة[۵۲].

یقول المؤرخ الشهیر الواقدی: کان الصنم (ود) علی صورة رجل، و (سواع) علی صورة امرأة و (یغوث) علی صورة أسد و (یعوق) علی صورة فرس و (نسر) علی صورة نسر (الطائر المعروف).[۵۳] و بالطبع أنّ هناک أصنام أخری کانت لعرب الجاهلیة، منها «هبل» الذی کان من أکبر أصنامها التی وضعوها داخل الکعبة، و کان طوله ۱۸ ذراعا، و الصنم (أساف) المقابل للحجر الأسود، و الصنم (نائلة) الذی کان مقابل الرکن الیمانی (الزاویة الجنوبیة للکعبة) و کذلک کانت (اللات) و (العزی).[۵۴] ثمّ یضیف عن لسان نوح علیه السّلام: وَ قَدْ أَضَلُّوا[۵۵] کَثِیراً وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِینَ إِلَّا ضَلالًا المراد من زیادة الضلال للظالمین هو الدعاء بسلب التوفیق الإلهی منهم: لیکون سببا فی تعاستهم، أو أنّه دعاء منه أن یجازیهم اللّه بکفرهم و ظلمهم و یسلبهم نور الإیمان، و لتحلّ محله ظلمة الکفر.

أو أنّ هذه هی خصوصیة أعمالهم التی تنسب إلی اللّه تعالی، و ذلک لأنّ کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۷

موجود یؤثر أی تأثیر فهو بأمر من اللّه تعالی، و لیس هناک ما ینافی الحکمة الإلهیة فی مسألة الإیمان و الکفر و الهدایة و الضلالة و لا یسبب سلب الإختیار.

و بالتالی فإنّ الآیة الأخیرة فی البحث، یقول اللّه تعالی فیها:

مِمَّا خَطِیئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ یَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً.[۵۶] تشیر الآیة إلی ورودهم النّار بعد الطوفان، و ممّا یثیر العجب هو دخولهم النّار بعد الدخول فی الماء! و هذه النّار هی نار البرزخ، لأنّ بعض الناس یعاقبون بعد الموت، و ذلک فی عالم البرزخ کما هو ظاهر فی سیاق بعض الآیات القرآنیة، و کذا ذکرت الرّوایات أنّ القبر إمّا روضة من ریاض الجنّة، أو حفرة من حفر النیران.

و قیل من المحتمل أن یکون المراد بالنّار هو یوم القیامة، و لکن بما أنّ وقوع یوم القیامة أمر حتمی و هو غیر بعید، فإنّها ذکرت بصورة الفعل الماضی.[۵۷] و احتمل البعض أنّ المراد هی النّار فی الدنیا، حیث یقولون أنّ نارا قد ظهرت بین تلک الأمواج بأمر من اللّه تعالی و ابتلعتهم.[۵۸]***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۸

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (۲۶) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (۲۷) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً (۲۸)

التّفسير

على الفاسدين و المفسدين أن يرحلوا:

هذه الآيات تشير إلى استمرار نوح عليه السّلام فى حديثه و دعائه عليهم فيقول تبارك و تعالى: وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً.

دعا نوح عليه السّلام بهذا الدعاء عند ما يئس من هدايتهم بعد المشقّة و العناء فى دعوته إيّاهم، فلم يؤمن إلّا قليل منهم.

و التّعبير ب «على الأرض» يشير إلى أنّ دعوة نوح عليه السّلام كانت تشمل العالم، و كذا مجيء الطوفان و العذاب بعده.

«ديار»: على وزن سيار، من أصل دار، و تعنى من سكن الدّار، و هذه اللفظة تأتى عادة فى موارد النفى المطلق كقول: ما فى الدار ديّار، أى ليس فى الدار أحد.[۵۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۹

ثمّ يستدل نوح عليه السّلام للعنه القوم فيقول: إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً، و هذا يشير إلى أنّ دعاء الأنبياء و من بينهم نوح عليه السّلام لم يكن ناتجا عن الغضب و الانتقام و الحقد، بل إنّه على أساس منطقى، و أنّ نوحا عليه السّلام ليس ممن يتضجر و يضيق صدره لأوهن الأمور فيفتح فمه بالدعاء عليهم. بل إنّ دعا عليهم بعد تسعمائة و خمسين عاما من الصبر و التألم و الدعوة و العمل المضنى.

و لكن كيف عرف نوح عليه السّلام أنّهم لن يؤمنوا أبدا و أنّهم كانوا يضللون من كان على البسيطة و يلدون أولادا فجرة و كفّارا.

قال البعض: إنّ ذلك ممّا أعطاه اللّه تعالى من الغيب، و احتمل أنّه أخذ ذلك عن طريق الوحى الإلهى حيث يقول اللّه تعالى: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ [۶۰][۶۱] و يمكن أن يكون نوح قد توصل إلى هذه الحقيقة بالطريق الطبيعى و الحسابات المتعارفة، لأنّ القوم الذين بلّغ فيهم نوح عليه السّلام تسعمائة و خمسين عاما بأفصح الخطب و المواعظ لا أمل فى هدايتهم، ثمّ إنّ الغالبية منهم كانوا من الكفار و الأثرياء و هذا ممّا كان يساعدهم على إغواء و تضليل الناس، مثل أولئك لا يلدون إلّا فاجرا كفّارا و يمكن الجمع بين هذه الاحتمالات الثّلاثة.

«الفاجر»: يراد به من يرتكب ذنبا قبيحا و شنيعا.

«كفّار»: المبالغ فى الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۰

و الاختلاف بين هذين اللفظين هو أن أحدهما يتعلق بالجوانب العمليّة، و الآخر بالجوانب العقائديّة.

و يستفاد من هذه الآيات أنّ العذاب الإلهى إنّما ينزل بمقتضى الحكمة، فمن يكن فاسدا و مضللا و لأولاده و نسله لا يستحق الحياة بمقتضى الحكمة الإلهية، فينزل عليهم البلاء كالطوفان أو الصّاعقة و الزلازل ليمحو ذكرهم كما غسل طوفان نوح عليه السّلام تلك

الأرض التی تلوثت بأفعال و معتقدات تلک الأمة الشریرة، و بما أنّ هذا القانون الإلهی لا یختصّ بزمان و مکان معینین، فإنّ العذاب الإلهی لا بدّ أن ینزل إذا ما کان فی هذا العصر مفسدون و لهم أولاد فجرة کفّار، لأنّها سنّة إلهیة و لیس فیها من تبعیض.

و یمکن أن یکون المراد ب یُضِلُّوا عِبادَکَ الجماعة القلیلة المؤمنة التی کانت مع نوح علیه السّلام، و لعل المراد منها عموم الناس المستضعفین الذین یتأثرون بالطواغیت.

ثمّ یدعو نوح علیه السّلام، لنفسه و لمن آمن به فیقول: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِینَ إِلَّا تَباراً.[۶۲] طلب المغفرة هذا من نوح علیه السّلام کأنّه یرید أن یقول إننی و إن دعوة قومی مئات السنین و لقیت ما لقیت من العذاب و الإهانة، و لکن یمکن أن یکون قد صدر منّی الترک الأولی، فلذا أطلب العفو و المغفرة لا أبرئ نفسی أمام اللّه تعالی.

هذا هو حال أولیاء اللّه، فإنّهم یجدون أنفسهم مقصرین مع کلّ ما یلاقونه من محن و مصاعب، و لهذا تجدهم غیر مبتلین بآفات الغرور و التکبر، و لیس کالذین یتداخلهم الغرور عند إتمامهم لعمل صغیر ما یمنون به علی اللّه تعالی، و یطلب نوح علیه السّلام المغفرة لعدّة أشخاص و هم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۱

الأوّل: لنفسه، لئلا یکون قد مرّ علی بعض الأمور المهمّة مرورا سریعا، و لم یعتن بها.

الثّانی: لوالدیه، و ذلک تقدیرا لما تحمّلاه من متاعب و مشقّة.

الثّالث: لمن آمن به، و إن کانوا قلائل، الذین اصطحبوه فی سفینته التی کانت بمثابة الدار له علیه السّلام.

الرّابع: للمؤمنین و المؤمنات علی مرّ العصور، و من هنا یوثق نوح علیه السّلام العلاقة بینه و بین عموم المؤمنین فی العالم، و یؤکّد فی النهایة علی هلاک الظالمین، و أنّهم یستحقون هذا العذاب لما ارتکبوه من ظلم.

***

بحث

نوح علیه السّلام أوّل أنبیاء أولی العزم

ذکر نوح علیه السّلام فی کثیر من الآیات القرآنیة، و مجموع السور التی ذکر فیها علیه السّلام (۲۹) سورة، و أمّا اسمه علیه السّلام فقد فقد ورد ۴۳ مرّة.

و قد شرح القرآن المجید أقساما مختلفة من حیاته علیه السّلام شرحا مفصلا، و تتعلق أکثرها بالجوانب التعلیمیة و التربویة و المواعظ، و ذکر المؤرخون أنّ اسمه کان «عبد الغفار» أو «عبد الملک» أو «عبد الأعلی»، و لقب ب «نوح» لأنّه کان کثیر النیاحة علی نفسه أو علی قومه، و کان اسم أبیه «لمک» أو «لامک»، و فی مدّة عمره علیه السّلام اختلاف، فقال البعض: ۱۴۹۰ عاما، و جاء فی بعض الرّوایات أنّ عمره ۲۵۰۰ عام، و أمّا عن أعمار قومه الطویلة فقد قالوا ۳۰۰ عام، و المشهور هو أن عمره کان طویلا، و صرح القرآن بمدّة مکثه فی قومه و هی ۹۵۰ عاما، و هی مدّة التبلیغ فی قومه، کان لنوح علیه السّلام ثلاثة أولاد، و هم (حام) (سام) (یافث) و یعتقد المؤرخون بأنّ انتساب البشر یرجع إلی هؤلاء الثلاثة، فمن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۲

ینتسب إلی حام یقطن فی القارة الإفریقیة، و المنتسبون لسام یقطنون الأوسط و الأقصی، و أمّا المنتسبون إلی یافث فهم یقطنون الصین، و قیل أنّ المدّة التی عاشها بعد الطوفان ۵۰ عاما، و قیل ۶۰ عاما.

و ورد بحث مفصل عن حیاة نوح علیه السّلام فی التوراة المتواجد حالیا، إلّا أنّ هناک اختلافا کبیرا بینه و بین القرآن المجید، و هذا الاختلاف یدل علی تحریف التوراة، و قد ذکرت هذه البحوث فی الفصول ۶، ۷، ۸، ۹، ۱۰ من سفر التکوین للتوراة.

و کان لنوح علیه السّلام ابن آخر یدعی (کنعان) و کان مخالفا لأبیه، إذ رفض الالتحاق به فی السفینة ففقد بقعوده هذا الشرف الانتساب إلی بیت النبوّة، و کانت عاقبته الغرق فی الطوفان کبقیة الکفّار، و أمّا عن عدد المؤمنین الذین آمنوا به و رکبوا السفینة معه فقد قیل ۷۰ نفرا، و قیل ۷ أنفار، و لقد انعکست آثار کثیرة من قصّة نوح علیه السّلام فی لأدب العربی و أکثرها قد حکت عن الطوفان و سفینة النجاة.[۶۳] کان نوح علیه السّلام اسطورة للصبر و المقاومة، و قیل هو أوّل من استعان بالعقل و الاستدلال المنطقی فی هدایة البشر، بالإضافة الی منطق الوحی (کما هو واضح من آیات هذه السورة) و بهذا الدلیل یستحق التعظیم من قبل جمیع الناس.

و ننهی ما وضحناه عن نوح علیه السّلام

بحدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام إذ قال: «کان نوح علیه السّلام یدعو حین یمسی و یصح بهذا الدعاء: «أمسیت أشهد أنّه ما أمسی بی من نعمة فی دین أو دنیا فإنّها من اللّه لا شریک له، له الحمد بها علیّ و الشکر کثیرا، فأنزل اللّه: إِنَّهُ کانَ عَبْداً شَکُوراً فهذا کان شکره».[۶۴]

فی قوله تعالی: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِناً ... قیل فی معنی البیت هنا هو بیته الخاص، و قیل المسجد، و قیل سفینة نوح، و قیل هو دینه و شریعته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۷۳

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۳

و

ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «من دخل فی الولایة دخل فی بیت الأنبیاء».[۶۵]

اللّهمّ ارحمنا بقبول ولایة أهل البیت علیه السّلام حتی ندخل بیت الأنبیاء.

ربّنا، منّ علینا بالاستقامة کما مننت علی الأنبیاء کنوح علیه السّلام لنبقی دعاة إلی دینک بلا تقاعس.

اللّهم، نجّنا بسفینة نجاة لطفک و رحمتک عند نزول الطوفان غضبک و سخطک.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة نوح علیه السّلام***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۵

سورة الجنّ

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثمان و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۷

«سورة الجن»

محتوی السورة:

تتحدث هذه السورة حول نوع من الخلائق المستورین عن حواسنا، و هم الجن، کما سمّیت السورة باسمهم، و أنّهم یؤمنون بنبیّنا

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عن خضوعهم للقرآن و إيمانهم بالمعاد، و أنّ فيهم المؤمن و الكافر و غير ذلك، و في هذا القسم من السورة (١٩) آية من (٢٨) آية تصحح ما حرّف من معتقدات حول الجن، و هناك قسم آخر من السورة يشير إلى التوحيد و المعاد، و القسم الأخير يتحدث عن علم الذى لا يعلمه إلّا ما شاء اللّه.

فضيلة سورة الجن:

ورد في حديث عن الرّسول الأكرم: «من قرأ سورة الجن اعطى بعدد كلّ جنى و شيطان صدق بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذّب به عتق رقبة».[۶۶]

و

في حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السّلام: «من أكثر قراءة قُلْ أُوحِيَ لم يصبه في الحياة الدنيا شيء من أعين الجن و لا نفثهم و لا سحرهم، و لا كيدهم، و كان مع محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقول: يا ربّ، لا أريد منه بدلا، و لا أبغي عنه حولا».

و طبعا التلاوة مقدّمة و تمهيد لمعرفة محتوى السورة و التدبّر بها، ثمّ العمل بما فيها.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۸

الآيات [سورة الجن (٧٢): الآيات ١ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (٢) وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً (٣) وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (۴)

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (۵) وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (۶)

سبب النّزول

ما جاء في سبب نزول سورة الأحقاف في تفسير الآيات (٢٩- ٣٢) مطابق لسبب نزول هذه السورة، و يدل على أنّ السورتين يتعلقان بحادثة واحدة، و توضح سبب النّزول باختصار كما يلي:

١- انطلق الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى سوق عكاظ في الطائف بعد قدومه من مكّة ليدعو الناس إلى الإسلام، فرجع بعد رفض الناس لدعوته إلى واد يدعى وادى الجن، و بقي فيه ليلا و هو يقرأ القرآن، فاستمع إليه نفر من الجن فآمنوا به ثمّ راحوا

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۹

يدعون قومهم إليه.[۶۷] ٢- عن ابن عباس قال: كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منشغلا بصلاة الصبح، و كان يقرأ فيها القرآن، فاستمع إليه الجن و هم يبحثون عن علّة انقطاع الأخبار من السماء، فقالوا: هذه الذى حال بيننا و بين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم ليبلغوا ما سمعوا.[۶۸] ٣- بعد وفاة أبي طالب عليه السّلام اشتدّ الأمر برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فعزم على الذهاب إلى الطائف ليبحث عن أنصار له، و كان أعيان الطائف يكذبونه و يؤذونه، و يرمونه بالحجارة حتى أدميت قدماه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فالتجأ متعبا إلى ضيعة من الضياع، فرآه غلام صاحب الضيعة و كان اسمه «عداس»، فآمن بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثمّ رجع إلى مكّة ليلا و صلّى صلاة الصبح و هو بنخله، فاستمع إليه نفر من الجن من أهل نصيبين أو اليمن، و كانوا قد مرّوا بذلك

الطريق فآمنوا به ۶۹].

و قد نقل بعض المفسّرين ما يشابه هذا المعنى فى أوّل السورة، و لكن جاء فى سبب نزول هذه السورة ما يخالف هذا المعنى، و هو أنّ علقمة بن قيس قال:

قلت لعبد اللّه بن المسعود: من كان منكم مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليلة الجن؟ فقال: ما كان منّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة و نحن بمكّة فقلنا: اغتيل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو استطير، فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبلا من نحو حراء، فقلنا: يا رسول اللّه، اين كنت؟ لقد أشفقنا عليك، و قلنا له: بتنا الليلة بشرّ ليلة بات بها قوم حين فقدناك،

فقال: «إنّه أتانى الجن فذهبت أقرئهم القرآن»[۷۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۰

التّفسير

القرآن العجيب!!

نرجع إلى تفسير الآيات بعد ذكر ما قيل فى سبب النّزول يقول اللّه تعالى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً[۷۱].

التعبير ب أُوحِيَ إِلَيَ يشير إلى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يشاهد الجنّ بنفسه بل علم باستماعهم للقرآن عن طريق الوحى، و كذلك يعلم من مفهوم الآية أنّ للجن عقلا و شعورا و فهما و إدراكا، و أنّهم مكلّفون و مسئولون، و لهم المعرفة باللغات و يفرقون بين الكلام الخارق للعادة بين الكلام العادى، و بين المعجز و غير و المعجز، و يجدون أنفسهم مكلّفين بإيصال الدعوة إلى قومهم، و أنّهم هم المخاطبون فى القرآن المجيد، هذه بعض الخصوصيات لهذا الموجود المستور الحى الذى يمكن الاستفادة منها فى هذه الآية، و لهم خصوصيات اخرى سوف نبيّنها فى نهاية هذا البحث، و إنّ شاء اللّه تعالى.

إنّ لهم الحقّ فى أن يحسبوا هذا القرآن عجبا، للحنه العجيب، و لجاذبية محتواه، و لتأثيره العجيب، و لمن جاء به و الذى لم يكن قد درس شيئا و قد ظهر من بين الأميين، و كلام عجيب فى ظاهره و باطنه و يختلف عن أىّ حديث آخر و لهذا اعترفوا بإعجاز القرآن.

لقد تحدثوا لقومهم بحديث آخر تبيّنه السورة فى (۱۲) آية، و كل منها تبدأ ب (أن) و هى دلالة على التأكيد[۷۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۱

فيقول أوّلا: بأنّهم قالوا: يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً التعبير ب «الرّشد» تعبير واسع و جامع، و يمكن أن يستوعب كل امتياز، فهو الطريق المستقيم من دون اعوجاج، و هو الضياء و الوضوح الذى يوصل المتعلقين به إلى محل السعادة و الكمال.

و بعد إظهار الإيمان و نفى الشرك باللّه تعالى ينتقل كلامهم إلى تبيان صفات اللّه تعالى: وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً.

«جد»: لها معان كثيرة فى اللغة، منها: العظمة، و الشدّة، و الجد، و القسمة، و النصيب، و غير ذلك، و أمّا المعنى الحقيقى لها كما يقول الراغب فى المفردات فهو «القطع»، و تأتى بمعنى «العظمة» إذا كان هناك كائن عظيم منفصل بذاته عن بقية الكائنات، و كذلك يمكن الأخذ بما يناسب بقية المعانى التابعة لها، و إذا ما أطلقنا لفظة «الجد» على والدى لأبوين فإنّما يعود ذلك إلى كبر مقامهما أو عمرهما، و ذكر آخرون معانى محدودة لهذه الكلمة فقد فسّروها بالصفات، و القدرة، و الملك، و الحاكمية، و النعمة، و الاسم، و تجتمع كل هذه المعانى فى معنى العظمة، و هناك ادعاء فى أنّ المقصود هنا هو الأب الأكبر «الجد» و تشير الرّوايات إلى أنّ الجنّ و

لقلّة معرفتهم اختاروا هذا التعبير غير المناسب، هذا إشارة إلى نهيهم عن ذكر هذه التعابير[۷۳].

و يمكن أن يكون هـذا الحـديث ناظرا إلى الموارد التى يتداعى فيها هذا المفهوم، و إلّا فإنّ القرآن يذكر هذا التعبير بلحن الموافق فى هذه الآيات، و إلّا لم و قد ذكر هذا التعبير أيضا

فى نهج البلاغة، كما فى الخطبة (۱۹۱): «الحمد للّه الفاشى فى الخلق حمده، و الغالب جنده، و المتعالى جدّه».

و ورد فى بعض الرّوايات أنّ أنس بن مالك قد قال: كان الرجل إذا قرأ سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۲

البقرة جد فى أعيننا[۷۴].

على كل حال فإنّ استعمال هذه اللفظة فى المجد و العظمة مطابق لما ورد فى نصوص اللغة، و من الملاحظ أنّ خطباء الجن معتقدون بأنّ اللّه ليس له صاحبـة و لا ولـد، و يحتمل أن يكون هـذا التعبير نفى للخرافـة المتداولة بين العرب حيث قالوا: إنّ للّه بنات لزوجة من الجن قد اتّخذها لنفسه، و ورد هذا الاحتمال فى تفسير الآية (۱۵۸) من سورة الصافات: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً.

ثمّ قالوا: وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً.

و يحتمل أنّ التعبير ب «السـفيه» هنا بمعنى الجنس و الجمع، أى أنّ سفهاءنا قالوا: إنّ للّه زوجة و أطفالا، و اتّخذ لنفسه شريكا و شبيها، و إنّـه قـد انحرف عن الطريـق، و كـان يقـول شـططا، و احتمـل بعض المفسّـرين أنّ «السـفيه» هنـا له معنى انفرادى، و المقصـود به هو «إبليس» الذى نسب إلى اللّه نسب ركيكة، و ذلك بعد مخالفته لأمر اللّه، و اعتراضه على اللّه فى السـجود لآدم عليه السّـلام ظنّا منه أنّ له الفضل على آدم، و أنّ سجوده لآدم بعيد عن الحكمة.

و لمّا كان إبليس من الجن، و كان قد بدا منه ذلك، اشمأز منه المؤمنون من الجن و اعتبروا ذلك منه شططا، و إن كان عالما و عابدا، و لأن العالم بلا عمل، و العابد المغرور من المصاديق الواضحة للسفيه.

«شـطط» على وزن وسـط، و تعنى الخروج و الابتعـاد عن قول الحقّ، و لهـذا تسـمّى الأنهـار الكـبيرة التى ترتفع سواحلهـا عن المـاء ب «الشط».

ثمّ قالوا: وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً.

لعـل هـذا الكلام اشـارة إلى التقليـد الأعمى للغير، حيث كانوا يشـركون باللّه و ينسـبون إليه الزوجـة و الأولاد، و فهنا يقولوا: لقـد كنّا نصدقهم بحسن ظننا بهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۳

و نقول بمقالتهم الخاطئة، و ما كنّا نظنهم يتجرءون على اللّه بهذه الأكاذيب، و لكننا الآن نخطّئ هذا التقليد المزيف لما عرفنا من الحق و الإيمان بالقرآن، و نقر بما التبس علينا، بانحراف المشركين من الجنّ.

ثمّ ذكروا احدى الانحرافات للجن و الإنس و قالوا: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً.

«رهق» على وزن (شـفق) و يعنى غشـيان الشـىء بالقهر و الغلبـة، و فسّر بالضـلال و الذنب و الطغيان و الخوف الذى يسـيطر على روح الإنسان و قلبه و يغشـيه، و قيل إنّ هذه الآية تشـير إلى إحدى الخرافات المتداولة فى الجاهلية، و هى أنّ الرجل من العرب كان إذا نزل الوادى فى سفره ليلا قال: أعوذ بعزيز هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه ۷۵].

و بما أنّ الخرافات كانت منشأ لازدياد الانحطاط الفكرى و الخوف و الضـلال فقد جاء ذكر هذه الجملة فى آخر الآية و هى: فَزادُوهُمْ رَهَقاً.

و ذكر فى الآية بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ ممّا يستفاد منه أنّ فيهم إناثا و ذكورا[۷۶].

على كل حال فإنّ للآيـة مفهوما واسعا، يشـمل جميع أنواع الالتجاء إلى الجنّ، و الخرافة المذكورة هى مصداق من مصاديقها، و كان

فى أوساط العرب كهنة كثيرون يعتقدون أنّ الجن باستطاعتهم حلّ الكثير من المشاكل و إخبارهم بالمستقبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۴

الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (۷) وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (۸) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (۹) وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (۱۰)

التّفسير

كنّا من قبل نسترق السمع و لكن ...

يشير سياق الآية إلى استمرار حديث المؤمنين من الجن، و تبيان الدعوة لقومهم، و دعوتهم إلى الإسلام بالطرق المختلفة، و فيقولون: وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً.

لذا تبادروا لإنكار القرآن و تكذيب نبوّة الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كنا عند سماعنا لآيات القرآن أدركنا الحقائق، فلا تكونوا كالإنس و تتخذوا طريق الكفر فتبتلوا بما ابتلوا به.

و هذا تحذير للمشركين ليفيقوا عند سماعهم لكلام الجن و تحكيمهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۵

و ليتمسكوا بالقرآن و بالنّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قال البعض: إنّ الآية أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً تشير إلى إنكار البعث لا إلى إنكار بعثة الأنبياء، و قال آخرون: إنّ هذه الآية و التى قبلها هى من كلام اللّه تعالى و ليست من كلام مؤمنى الجنّ، و إنّها آيات عرضية جاءت فى وسط حديثهم، و المخاطبون هم مشركو العرب، و طبقا لهذا التّفسير يكون المعنى هكذا، يا مشركى العرب، إنّهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث اللّه أحدا، و لمّا سمعوا الذكر أدركوا خطأهم، و قد حان لكم أن تفيقوا، و لكن هذا القول يبدو بعيدا، بل الظاهر أن الخطاب هو لمؤمنى الجن و المخاطبون هم الكفار منهم.

ثمّ يشيرون إلى علامة صدق قولهم و هو ما يدركه الجن فى عالم الطبيعة، فيقولون: وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً[۷۷][۷۸].

و كنّا فى السابق نسترق السمع من السماء و نحصل على أخبار الغيب و نوصلها إلى أصدقائنا من الإنس و لكننا منعنا من ذلك الآن: وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً أليس هذا الوضع الجديد دليل على حقيقة التغيير العظيم الحاصل فى العالم عند ظهور الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كتاب اللّه السماوى، لماذا كانت لكم القدرة على استراق السمع و الآن سلبت منكم هذه القدرة؟ أليس معنى هذا انتهاء عصر الشيطنة و الكهانة و الخداع، و انتهاء ظلمة الجهل بشروق شمس الوحى و النّبوة؟

«شهاب» لهب من النار، و يطلق أيضا على الأنوار النّارية الممتدة فى السماء، و هى قطع حجرية صغيرة متحركة فى الفضاء الخارجى للكرة الأرضية، كما يقول علماء الفلك، و تتأثر بجاذبية الأرض عند وصولها إلى مقربة منها فتسقط على شكل شعلة نارية حارقة، لأنّها عند ما تصل إلى طبقات الهواء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۶

الکثیفة و تصطدم لها تتحول إلی شعلة ناریة، ثمّ تصل إلی الأرض بصورة رماد، و قد ذکرت الشهب کرارا فی القرآن المجید، و أنّها کالسهام ترمی صوب الشیاطین الذین یریدون أن یسترقوا السمع من السماء، و قد أوردنا بحوثا مفصّلة حول کیفیة إخراج الشیاطین من السماء بالشهب، و ما یراد من استراق السمع، و ذلک فی ذیل الآیة (۱۸) من سورة الحجر و ما یلیها، و فی ذیل الآیة (۱۰) من سورة الصافات و ما یلیها.

«رصد» علی وزن حسد، و هو التهیؤ لانتظار شیء و یعبّر عنه ب (الکمین) و تعنی أحیانا اسم فاعل بمعنی الشخص أو الشّیء الذی یمکن، و هذا ما أرید به فی هذه الآیات.

ثمّ قالوا: وَ أَنَّا لا نَدْرِی أَ شَرٌّ أُرِیدَ بِمَنْ فِی الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً.

أی مع کل هذا فإنّنا لا ندری أ کان هذا المنع من استراق السمع دلیل علی مکیدة تراد بأهل الأرض، أم أراد اللّه بذلک المنع أن یهدیهم، و بعبارة أخری أنّنا لا ندری هل هذه هو مقدمة لنزول البلاء و العذاب من اللّه، أم مقدمة لهدایتهم، و لکن لا یخفی علی مؤمنی الجن أنّ المنع من استراق السمع الذی تزامن مع ظهور نبیّنا الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو مقدمة لهدایة البشریة، و انحلال جهاز الکهانة و الخرافات الأخری، و لیس هذا إلّا انتهاء لعصر الظلام، و ابتداء عصر النّور.

و مع هذا، فإنّ الجن و لعلاقتهم الخاصّة بمسألة استراق السمع لم یکونوا یصدقون بما فی ذلک المنع من خیر و برکة، و إلّا فمن الواضح أن الکهنة فی العصر الجاهلی کانوا یستغلون هذا العمل فی تضلیل الناس.

و الجدیر بالذکر أنّ مؤمنی الجنّ صرّحوا بالفاعل لإرادة الهدیة فنسبوه إلی اللّه، و جعلوا فاعل الشّر مجهولا، و هذا إشارة إلی أنّ ما یأتی من اللّه فهو خیر، و ما یصدر من الناس فهو الشرّ و فساد إذا ما أساءوا التصرف بالنعم الإلهیة، ثمّ إنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۷

المفروض أن یذکر لفظ «الخیر» فی مقابل «الشرّ»، و لکن بما أنّ الخیر هنا تعنی الرّشد و الهدایة، لذا اکتفی بذکر المصداق فقط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۸

الآیات [سورة الجن (۷۲): الآیات ۱۱ الی ۱۵]

اشارة

وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِکَ کُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (۱۱) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِی الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (۱۲) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدی آمَنَّا بِهِ فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا یَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً (۱۳) وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِکَ تَحَرَّوْا رَشَداً (۱۴) وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَکانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (۱۵)

التّفسیر

إنّ سمعنا الحقّ فأطعناه:

فی هذه الآیات یستمر مؤمنو الجن فی حدیثهم و هم یبلغون قومهم الضالّین فیقولون: وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِکَ کُنَّا طَرائِقَ قِدَداً.

و یحتمل أن یکون المراد من قولهم هذا هو أن وجود إبلیس فیما بینهم قد أوجد شبهة لبعضهم، بأنّ الجن متطبّع علی الشرّ و الفساد و

الشیطنة، و محال أن یشرق نور الهدایة فی قلوبهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۹

و لکن مؤمنی الجن یوضحون فی قولهم هذا أنّهم یملکون الإختیار و الحریة، و فیهم الصالح و الطالح، و هذا یوفرّ لهم الأرضیة للهدایة، و أساسا فإنّ أحد العوامل المؤثرة فی التبلیغ هو إعطاء الشخصیة للطرف المقابل، و توجیهه إلی وجود عوامل الهدایة و الکمال فی نفسه.

و احتمل أیضا أنّ الجن قالوا ذلک لتبرئة ساحتهم من موضوع الإساءة فی مسألة استراق السمع أی: و إن کان منّا من یحصل علی الأخبار عن طریق استراق السمع و وضعها بأیدی الأشرار لتضلیل الناس، و لکن لا یعنی ذلک أنّ الجن کلهم کانوا کذلک، و لهذه الآیة تأثیر فی إصلاح ما اشتبه علینا نحن البشر فی عقائدنا حول الجن، لأنّ کثیر من الناس یتصورون أنّ لفظة الجن تعنی الشیطنة و الفساد و الضلال و الانحراف، و سیاق هذا الآیة یشیر إلی أنّ الجن فصائل مختلفة، صالحون و طالحون.

«قدد» علی وزن (ولد) و هو جمع قد، علی وزن (ضد) و تعنی المقطوع، و تطلق علی الجماعات المختلفة، لأنّها تکون علی شکل قطع منفصلة عن بعضها.

و فی إدامة حدیثهم یحذرون الآخرین فیقولون: وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِی الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً و إذا کنتم تتصورون أنّکم تستطیعون الفرار من جزاء و تلتجئون إلی زاویة من زوایا الأرض أو نقطة من نقاط السماوات فإنّکم فی غایة الخطأ.

و علی هذا الأساس، فإنّ الجملة الأولی إشارة إلی الفرار من قبضة القدرة الإلهیة فی الأرض، و الجملة الثّانیة إشارة إلی الفرار المطلق، الأرض و السماء.

و یحتمل أن یکون تفسیر الآیة هو أنّه الجملة الأولی إشارة إلی أنّه لا یمکن الغلبة علی اللّه، و الجملة الثّانیة إشارة إلی أنّه لا یمکن الفرار من قبضة العدالة، فإذا لم یکن هناک طریق للغلبة و لا للفرار، فلا علاج إلّا التسلیم لأمر اللّه تعالی و عدالته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۰

و أضاف مؤمنو الجن فی حدیثهم قائلین: وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدی آمَنَّا بِهِ و إذ ندعوکم لهدی القرآن فإنّنا ممّن عمل بذلک أوّلا، و لذا نحن لا ندعو الآخرین إلی أمر لم نکن فاعلیه.

ثمّ بیّنوا عاقبة الإیمان فی جملة قصیرة واحدة فقالوا: فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا یَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً.

«بخس»: علی وزن (شخص) و یراد به النقص علی سبیل الظلم.

«رهق»: علی وزن (سقف) یراد به- و کما أشرنا من قبل- غشیان السیء بالقهر، و قال البعض: إنّ البخس هو عدم نقصان شیء من حسناتهم، و الرهق: هو عدم إضافه شیء إلی سیئاتهم، قیل البخس: هو نقص الحسنات، و الرهق:

التکالیف الشاقة، علی کل حال فالمراد هو أن المؤمنین مهما یعملوا من عمل کبیرا کان أو صغیرا فإنّهم یستوفون أجور ذلک بلا نقص أو قلّة، و صحیح أنّ العدالة الإلهیة غیر منحصرة بالمؤمنین، لکنّ الطالحین لیس لهم عمل صالح، فلیس هناک ذکر لأجورهم.

و فی الآیة الأخری توضیح أکثر حول عاقبة المؤمنین و الکافرین فیقولون:

وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ ۷۹] فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِکَ تَحَرَّوْا رَشَداً.[۸۰] وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَکانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً.

الملاحظ فی الآیات أن کلمة «المسلم» جاءت مقابل کلمة «الظالم»، و إشارة إلی أن ما یقی الإنسان من الظلم هو الإیمان، و إذا لم یکن الفرد مؤمنا فإنّه سوف یظلم بأی شکل من الأشکال، و کذا تشیر إلی أنّ المؤمن الحقیقی هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۱

المؤمن الذی لا یظلم، کما

فی حدیث النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «المؤمن من آمنه الناس علی أنفسهم و أموالهم».[۸۱]

و

جاء فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده».[۸۲]

و التعبير ب تَحَرَّوْا رَشَداً يشير إلى أنّ المؤمنين إنّما يتوجهون إلى الهدى بالتحقيق و التوجه الصادق، و ليس بالغفلة و الأغماض، و جزاءهم الأوفى هو نيلهم الحقائق التى بظلها ينالون النعم الإلهية، و الظالمون هم فى أسوأ حال، حيث إنّهم حطب لجهنم، أى أنّ النار تلتهب فى أعماق وجودهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۲

الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۱۶ الى ۱۹]

اشارة

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (۱۶) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (۱۷) وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (۱۸) وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (۱۹)

التّفسير

الفتنة باغدق النعمة:

هذه الآيات تشير ظاهرا إلى استمرار الجن فى حديثهم مع قومهم: (و إن كان بعض المفسّرين يعتبرون هذه الآية معترضة بين كلام الجن) و لكن اعتراضها خلاف الظاهر، و سياق هذه الآيات يشابه السابقة و الذى كان من كلام الجن، و لذا يستبعد أن يكون هذا الكلام هو لغير الجن.[۸۳]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۳

على كل حال فإنّ سياق الآيات السابقة يشير إلى ثواب المؤمنين فى يوم القيامة، و فى هذه الآيات يتحدث عن ثوابهم الدّنيوى فيقول: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً ننزل عليهم مطر رحمتنا، و نذلل لهم منابع و عيون الماء الذى يهب الحياة و بوجود الماء يوجد كل شيء و على هذا فإنّنا نشملهم بأنواع النعم.

«غدق» على وزن شفق، و تعنى الماء الكثير القرآن المجيد اكّد و لعدّة مرات على أنّ الإيمان و التقوى ليست فقط منبعا للبركات المعنوية، بل تؤدّى إلى زيادة الأرزاق و النعم و العمران، أى (البركة و المادية).

(لنا بحث مفصل فى هذا الباب فى نفس المجلد فى تفسير سورة نوح عليه السّلام ذيل الآية ۱۲ تحت عنوان الرابطة بين الإيمان و التقوى و بين العمران).

الملاحظ حسب هذا البيان أنّ سبب زيادة النعمة هو الاستقامة على الإيمان، و ليس أصل الإيمان، لأنّ الإيمان المؤقت لا يستطيع أن يظهر هذه البركات، فالمهم هو الاستقامة و الاستمرار على الإيمان و التقوى، و لكن هناك الكثير ممن تزل أقدامهم فى هذا الطريق.

و الآية الأخرى إشارة إلى حقيقة أخرى بنفس الشأن، فيضيف: لِنَفْتِنَهُمْ هل أنّ كثرة النعم تتسبب فى غرورهم و غفلتهم؟ أم أنّها تجعلهم يفيقون و يشكرون و يتوجهون أكثر من ذى قبل إلى اللّه؟

و من هنا يتّضح أن وفور النعمة من إحدى الأسباب المهمّة فى الامتحان الإلهى، و ما يتفق عليه هو أنّ الاختبار بالنعمة أكثر صعوبة و تعقيدا من الاختبار بالعذاب، لأنّ طبيعة ازدياد النعم هو الانحلال و الكسل و الغفلة، و الغرق فى الملذات و الشهوات، و هذا ما يبعد

الإنسان عن اللّه تعالی و یهیء الأجواء لمکائد الشیطان، و الذین یستطیعون أن یتخلصوا من شراک النعم الوافرة هو الذاکرون للّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۴

علی کلّ حال، غیر الناسین له تعالی، حیث یحفظون قلوبهم بالذکر من نفوذ الشیاطین ۸۴].

و لذا یضیف تعقیبا علی ذلک: وَ مَنْ یُعْرِضْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِ یَسْلُکْهُ عَذاباً صَعَداً.

«صعد»: علی وزن (سفر) و تعنی الصعود إلی الأعلی، و أحیانا الشعب المتعرجة فی الجبل، و بما أنّ الصعود من الشعاب المتعرجة عمل شاق، فإنّ هذه اللفظة تستعمل بمعنی الأمور الشّاقة، و فسّرها الکثیر بمعنی العذاب الشّاق، و هو مماثل لما جاء فی الآیة (۱۷) من سورة المدّثر حول بعض المشرکین: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً.

و لکن، أنّه مع أنّ التعبیر أعلاه یبیّن کون هذا العذاب شاقّا شدیدا فإنّه یحتمل أن یشیر إلی الیوم الطویل، و علی هذا الأساس فإنّه یبیّن فی الآیات أعلاه رابطة الإیمان و التقوی بکثرة النعم من جهة، رابطة کثرة النعم بالاختبارات الإلهیة من جهة أخری و رابطة الإعراض عن ذکر اللّه تعالی بالعذاب الشاق الطویل من جهة ثالثة، و هذه حقائق أشیر إلیها فی الآیات القرآنیة الأخری کما نقرأ فی الآیة (۱۲۴) من سورة طه: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْکاً.

و کذا فی الآیة (۴۰) من سورة النمل عن لسان سلیمان علیه السّلام: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ، و ما جاء فی الآیة (۲۸) من سورة الأنفال:

وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُکُمْ وَ أَوْلادُکُمْ فِتْنَةٌ.

و قال مؤمنو الجن فی الآیة الأخری و هم یدعون إلی التوحید: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً و للمساجد فی هذه الآیة تفاسیر عدیدة منها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۵

أولا: قیل هی المواطن التی یسجد فیها للّه تعالی کالمسجد الحرام و بقیة المساجد، و بشکل أعم هی الأرض التی یصلّی فیها و یسجد علیها، و هو مصداق

القول الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «جعلت لی الأرض مسجدا و طهورا».[۸۵]

و هذا ردّ لمن اتّخذ الأصنام و الأوثان للعبادة فأشرک باللّه، و من اتّخذ الکعبة معبدا للأصنام، أو انصرف إلی إحیاء الطقوس المسیحیة حیث (التثلیث) أو عبد الأرباب الثّلاثة فی الکنائس و اللّه تعالی یقول: أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ثانیا: المراد بالمساجد السبعة الأعضاء السبعة، فیجب أن یکون وضعها علی الأرض خالصا للّه، و لا یجوز أن یکون لغیره، کما ورد فی الحدیث عن الإمام محمّد بن علی الجواد علیهما السّلام و هو یجیب المعتصم فی مجلسه الذی کان قد جمع فیه العلماء من أهل السنة حیث سأله عن ید السارق من أی موضع یجب أن تقطع؟ فقال بعض الجالسین تقطع من الساعد و استدلوا فی ذلک بآیة التیمم، و قال آخرون من المرفق و استدلوا فی ذلک بآیة الوضوء، فأراد المعتصم جواب ذلک من الإمام الجواد علیه السّلام فرفض و

قال: «أعفنی عن ذلک»

فأصرّ علیه المعتصم.

فقال الإمام الجواد علیه السّلام: «ما قیل فی ذلک خطأ، و إنّ القطع یجب أن یکون من مفصل أصول الأصابع فتترک الکف». فقال: و ما الحجّة فی ذلک؟

قال الإمام علیه السّلام: «قول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: السجود علی سبعة أجزاء، الوجه، و الیدین، و الرکبتین، و الرجلین، فإذا قطع من الکرسوع أو المرفق لم یدع له ید یسجد علیه، و قال اللّه تعالی شأنه: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ ... أی إنّ هذه الأعضاء السبعة خاصّة للّه، فما کان للّه لا یقطع»[۸۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۶

فتعجب المعتصم لجواب الإمام علیه السّلام و أمر أن تقطع ید السارق من مفصل اصول الأصابع، کما قال الإمام علیه السّلام و ذکرت فی ذلک أحادیث کثیرة.[۸۷] و لکن الأحادیث المنقولة بها الشأن هی مرسلة غالبا، أو أنّ سندها ضعیف، و هناک نقائض لها لیس من السهل الإجابة علیها، فمثلا ما هو مشهور فی أوساط الفقهاء أنّ السارق إذا ما سرق للمرّة الثّانیة تقطع الأقسام الأمامیة لقدمه، و یترکون کعب القدم سالما (هذا بعد إقامة الحدّ علیه جزاء السرقة الاولی) و الواضح أنّ الأصبع الکبیر للقدم یعتبر من المساجد السبعة، و کذا فی شأن المحارب فإنّ إحدی عقوباته هو مقطع قسم من الید و القدم.

ثالثا: قیل إنّ المراد بالمساجد هو السّجود، أی أنّ السجود یجب أن یکون دائما للّه تعالی و لا یکون لغیره، و هذا خلاف ظاهر الآیة حیث لا دلیل علیه.

و یستفاد من مجموع ما قیل أنّ ما یناسب ظاهر الآیة هو التّفسیر الأوّل، و کذا یناسب ظاهر الآیات السابقة و اللاحقة فی شأن التوحید، و تخصیص العبادة للّه، و التّفسیر الثّانی یمکن أن یکون موسعا لمعنی الآیة، و أمّا الثّالث فلا دلیل علیه.

و یضیف فی إدامة الآیة بیانا عن التأثیر غیر العادی للقرآن المجید و قیام الرّسول للدّعاء فیقول: وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ یَدْعُوهُ کادُوا یَکُونُونَ عَلَیْهِ لِبَداً[۸۸]، أی عند ما کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم یقوم للصلاة، فإنّ طائفة من الجن کانوا یجتمعون علیه بشکل متراحم.

«لبد»: علی وزن (فعل) و تعنی الأشیاء المجتمعة المتراکمة، و هذا التّعبیر بیان لتعجب الجنّ ممّا یشاهدونه من عبادته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قراءته قرآنا لم یسمعوا کلاما یماثله، و قیل فی ذلک قولان آخران:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۷

الأوّل: أنّهم- أی الجن- یبیّنون حال أصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المجتمعین علیه المقتدین به فی صلاته إذا صلّی و المنصتین لما یتلوه کلام اللّه، و المراد من ذلک هو الاقتداء الجنّ بهم و الإیمان فی ذلک.

الثّانی: لبیان حال المشرکین، أی لمّا قام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یعبد اللّه بالصلاة کاد المشرکون بازدحامهم أن یکونوا علیه لبدا مجتمعین متراکمین لیستهزئوا به.

و الوجه الأخیر لا یلائم هدف مبلغی الجن الذین أرادوا ترغیب الآخرین فی الإیمان و المناسب هو أحد القولین السابقین.

ملاحظة

التّحریف فی تفسیر الآیة: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ

إنّ مسألة التوسل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بأولیاء دین اللّه علیهم السّلام تعنی اتّخاذهم وسیلة و ذریعة الی اللّه تعالی، و هذا ممّا لا یتنافی مع حقیقة التوحید و لا مع آیات القرآن، بل هی تأکید علی التوحید و علی أنّ کلّ شیء هو من عند اللّه، و أشیر إلی الشفاعة و طلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المغفرة للمؤمنین فی کثیر من آیات القرآن ۸۹] و بهذا یصرّ بعض المبتدعین عن التعالیم الإسلامیة و القرآن الکریم علی إنکار شیء من قبیل التوسل و الشفاعة.

و قد تذرعوا بعدة ذرائع لإثبات مقاصدهم، منها ما یقولهم: إنّ الآیة: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً تعنی أنّ اللّه یأمر ألّا تدعوا معه أحدا، و لا ندعوا غیره أو نطلب الشفاعة من غیره! و الإنصاف أنّ ما قالوه لا یناسب سیاق الآیة و لا یرتبط هذا المعنی بالآیة، بل الهدف من الآیة نفی الشرک، أی جعل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۸

الشیء مع اللّه فی مرتبهٔ واحدهٔ فی العبادهٔ أو طلب الحاجهٔ، و بعبارهٔ أخری أنّ المشرک هو من یبتغی الحوائج من غیر اللّه تعالی و یجعل له الخیرهٔ و یظن أنّ قضاء حوائجه منه.

کما أنّ کلمهٔ (مع) فی الآیهٔ: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً تشیر إلی هذا المعنی، و هو ألّا یجعل مع اللّه أحدا، و یکون ذلک مبدءا للتأثیر المستقل، و لیست نفیا لتشفع الأنبیاء أو جعلهم وسطاء عند اللّه تعالی، بل إنّ القرآن الکریم یطلب أحیانا ذلک من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه و أحیانا أخری یأمر بطلب الشفاعهٔ من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما نقرأ فی الآیهٔ (۱۰۳) من سورهٔ التوبهٔ: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَکِّیهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَیْهِمْ إِنَّ صَلاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ

و کذا الآیهٔ (۹۷) من سورهٔ یوسف عن لسان إخوته و هم یخاطبونه أباهم:

یا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا کُنَّا خاطِئِینَ فلم یرفض النّبی یعقوب علیه السّلام ذلک الطلب، بل وعدهم فی ذلک و قال: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی

و لهذا فإنّ مسألهٔ التوسل و طلب الشّفاعهٔ کما تقدم هی من المفاهیم الصریحهٔ فی القرآن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۹

الآیات [سورهٔ الجن (۷۲): الآیات ۲۰ الی ۲۴]

اشارهٔ

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّی وَ لا أُشْرِکُ بِهِ أَحَداً (۲۰) قُلْ إِنِّی لا أَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً (۲۱) قُلْ إِنِّی لَنْ یُجِیرَنِی مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۲) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ یَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها أَبَداً (۲۳) حَتَّی إِذا رَأَوْا ما یُوعَدُونَ فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (۲۴)

التّفسیر

الأمور کلّها بید اللّه لا بیدی:

فی هذا الآیات یأمر اللّه تعالی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقول: قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّی وَ لا أُشْرِکُ بِهِ أَحَداً و ذلک لتقویهٔ قواعد التوحید، و نفی کلّ أنواع الشرک، کما مرّ فی الآیات السابقهٔ، ثمّ یأمره أن: قُلْ إِنِّی لا أَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً.

ثمّ یضیف: قل لهم بأنّی لو خالفت أمر اللّه تعالی فسوف یحیق بی العذاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۰

أیضا و لن یستطیع أحد أن ینصرنی أو یدفع عنّی عذابه: قُلْ إِنِّی لَنْ یُجِیرَنِی مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً[۹۰] و علی هذا الأساس لا یستطیع أحد أن یجیرنی منه تعالی و لا شیء یمکنه أن یکون لی ملجأ و هذا الخطاب یشیر من جهة إلی الإقرار الکامل بالعبودیهٔ للّه تعالی، و إلی نفی کلّ أنواع الغلو فی شأن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من جهة أخری، و یشیر من جهة ثالثهٔ إلی أنّه الأصنام لیس فقط لا تنفع و لا تحمی، بل إنّ نفس الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا مع ماله من العظمهٔ لا یمکنه أن یکون ملجأ من عذاب اللّه، و ینهی من جهة الذرائع و الآمال للمعاندین الذین کانوا یطلبون من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یریهم المعاجز الإلهیهٔ، و یثبت أن التوسل و الشفاعهٔ أیضا لا یتحققان إلّا بإذنه تعالی.

«ملتحدا»: هو المكان الآمن و هو من أصل (لحد)، و تعنى الحفرة المتطرفة، كالذى يتّخذ للأموات فى عمق القبر حتى لا ينهال التراب على وجه الميت و يطلق على كل مكان يلجأ و يطمأن إليه.

و من الملاحظ أنّ الآية: قُلْ إِنِّی لا أَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً و قد جعلت الضرّ فى قابل الرشد، لأنّ النفع الحقيقى يمكن فى الهداية، كما فى حديث الجن فى الآيات السابقة إذ اتّخذ الشرّ فى قبال الرشد، و الاثنان متماثلان معا.

و يضيف فى الآية الأخرى: إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ ٩١]، و قد مرّ ما يشابه هذا التعبير مرارا فى آيات القرآن الكريم، كما فى الآية (٩٢) من سورة المائدة: أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

و كذا فى الآية (١٨٨) من سورة لأعراف:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ١٠١

قُلْ لا أَمْلِکُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ وَ ما مَسَّنِیَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ

و قيل أيضا فى تفسير هذه الآية: إنّ المعنى: قل لن يجيرنى من اللّه أحد إلّا تبليغا منه و من رسالاته، أى إلّا أن أمتثل ما أمرنى به من التبليغ منه تعالى.[٩٢] و أمّا عن الفرق بين «البلاغ» و «الرسالات» فقد قيل: إنّ البلاغ يخص اصول الدين، و الرسالات تخصّ بيان فروع الدين.

و قيل المراد من إبلاغ الأوامر الإلهية، و الرسالات بمعنى تنفيذ تلك الأوامر، و لكن الملاحظ أنّ الإثنين يرجعان إلى معنى واحد، بقرينة الآيات القرآنية المتعددة: و كقوله تعالى فى الآية (٦٢) سورة الأعراف فيقول: أُبَلِّغُکُمْ رِسالاتِ رَبِّی و غيرها من الآيات، و يحذر فى نهاية الآية فيقول: وَ مَنْ یَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها أَبَداً.

الواضح أنّ المراد فيها ليس كلّ العصاة، بل المشركون و الكافرون لأنّ مطلق العصاة لا يخلدون فى النّار.

ثمّ يضيف: حَتَّی إِذا رَأَوْا ما یُوعَدُونَ فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً.[٩٣] و فى المراد من العذاب فى: ما يُوعَدُونَ هل هو العذاب الدنيوى أم الاخروى أم الاثنان معا؟ ورد فى ذلك أقوال، و الأوجه هو أن يكون المعنى عامّا، و فيما يخصّ الكثرة و القلّة و الضعف و القوّة للأنصار فإنّه متعلق بالدنيا، و لذا فسّره البعض بأنّه يتعلق بواقعة بدر التى كانت قوّة و قدرة المسلمين فيها ظاهرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ١٠٢

و واضحة و قيل حسب الرّوايات المتعددة أنّها تخصّ الإمام المهدى (أرواحنا فده) و إذا أردنا تفسير الآية بمعانيها فإنّها تشمل كلّ ذلك.

إضافة إلى ما جاء فى الآية (٧٥) من سورة مريم عليها السّلام: حَتَّی إِذا رَأَوْا ما یُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَکاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً و على كل حال فإنّ سياق هذه الآية يشير إلى أنّ أعداء الإسلام كانوا يتبجّجون قدرات جيوشهم و كثرة جنودهم أمام المسلمين يستضعفونهم، الأنصار لهذا كان القرآن يواسيهم و يبشرهم بأنّ العاقبة ستكون بانتصارهم و خسران عدوهم.

***

ملاحظات

١- صفاء القادة الإلهيين

إحدى خصوصيات القادة الإلهيين هى أنّهم بعكس العادة الشيطانيين، ليسوا بمغرورين و لا متكبرين و لا ممن يدّعون ما ليس فيهم.

فإذا كان فرعون ينادى لحماقته: أنّا ربّكم الأعلى! و هذه الأنهار تجرى من تحتى، فإنّ الإلهيون يرون أنفسهم من أصغر عباد اللّه لشدّة تواضعهم للّه، و ما كانوا يحسبون لأنفسهم قدرة أمام إرادة اللّه تعالى، كما نقرأ فى الآية (۱۱۰) من سورة الكهف: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ و ورد فى موضع آخر: وَ ما أَدْرِى ما يُفْعَلُ بِى وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ و نقرأ فى آية اخرى: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ [۹۴] حتى لو وصلوا إلى ذروة القدرة المادية فإنّهم لا يغترون بها و لا يتيهون فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۳

كما قال سليمان عليه السّلام: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى [۹۵] و من الطريف أنّ كثيرا من الآيات القرآنية توجّه خطابات حادة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تعاتبه ليكون فى أمره على حذر.

إنّ مجموع هذه الآيات و الآيات السابقة هى وثيقة حيّة على أحقّية هذا النّبى العظيم، و إلّا فما هو المانع من أن يدعى لنفسه المنازل العظيمة فوق ما يدركه البشر و هو يعيش فى فئة تتقبل منه ما يدّعيه و من دون احتجاج و تساؤل من الناس كما أشار التاريخ إلى ذلك فى شأن الظالمين.

نعم، إنّ هذا التعابير فى مثل هذه الآيات تكون شواهد حيّة لأحقّية دعوة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۲- ليس المهم الكم بل الكيف!

أخذ هذا الموضوع بنظر الإعتبار فى كثير من آيات القرآن، و هو أنّ طاغوت كل زمان يتظاهر بكثرة أعوانه، كما فى شأن فرعون عند ما كان يستهين بمن مع موسى عليه السّلام فقال: إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۹۶]، و قال مشركو العرب: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ و كان المعاند يتظاهر بأمواله و أعوانه، و يفتخر بذلك ليغيظ به المؤمنين، و يقول: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً.[۹۷] و لم يكن المؤمنون السائرون على خط الأنبياء يتأثرون بمظاهر الثروة و غيرها، بل كان قولهم هو: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ [۹۸] و

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام: «أيّها الناس لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۴

أهله»[۹۹]

إنّ تاريخ الأنبياء، و بالخصوص تاريخ حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، يشير كيف أن المعاندين على كثرتهم و امتلاكهم لجميع القدرات انكسروا و عجزوا أمام القلّة القليلة من المؤمنين، و تعكس الآيات القرآنية هذا المعنى جيدا و هى تروى قصص بنى إسرائيل و فرعون و طالوت و جالوت، و كذلك ما فى واقعة بدر و الأحزاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۲۵ الى ۲۸]

اشارة

قُلْ إِنْ أَدْرِى أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً (۲۵) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (۲۶) إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ

يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (۲۷) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (۲۸)

التّفسير

اللّه عالم الغيب:

لقد تبيّن فى الآيات السابقة حقيقة أنّ العصاة يبقون على عنادهم و استهزائهم حتى يأتى وعد اللّه بالعذاب، و هنا يطرح السؤال، و هو: متى يتحقق وعد اللّه؟ و قد بيّن المفسّرون سبب نزول الآية، و ذكروا أنّ بعض المشركين كالنضر بن الحارث سألوا عن وعد اللّه بعد نزول هذه الآيات أيضا، و قد أجاب القرآن على ذلك فقال: قُلْ إِنْ أَدْرِى أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً.

هذا العلم يخص ذاته المقدسة تعالى شأنه، و أراد أن يبقى مكتوما حتى عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۶

عباده المؤمنين، ليتحقق الاختبار الإلهى للبشرية، و إلّا فلم يؤثر الاختبار.

«أمد»: على وزن (صمد) و تعنى الزمان، و على ما يقوله الراغب فى مفرداته:

إنّ هناك اختلافا بين الزمان و الأمد، فالزمان يشمل الابتداء و الانتهاء، و أمّا الأمد فإنّها الغاية التى ينتهى إليها.

و قيل أيضا بتقارب المعنى فى الأمد و الأبد مع اختلاف، و هو أنّ الأبد يراد به المدّة غير المحدودة، و أمّا الأمد فهى المدّة المحدودة و إن طالت.

و على كل حال، فإنّنا كثيرا ما نواجه مثل هذه المعانى فى آيات القرآن، و عند ما يسأل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن يوم القيامة يجيب بأنّه ليس لهم علم بذلك، و أن علمه عند اللّه، و

ورد فى حديث أنّ جبرئيل عليه السّلام ظهر عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على هيئة أعرابى، فسأله عن الساعة، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» فأعاد عليه السؤال رافعا صوته: يا محمّد متى الساعة؟ فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«ويحك، إنّها كائنة فما أعددت لها؟» فقال الأعرابى: لم أعد كثيرا من الصلاة و الصيام، و لكن أحبّ اللّه و رسوله، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «فأنت مع من أحببت»، فقال أنس (و هو أحد الصحابة): فما فرح المسلمون بشىء كفرحهم بهذا الحديث.[۱۰۰]

ثمّ يبيّن فى هذا الحديث قاعدة كلية بشأن علم الغيب فيقول: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً.[۱۰۱] ثمّ يضيف مستثنيا: إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

أى يبلغه ما يشاء عن طريق الوحى الإلهى: فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۷

«رصد»: فى الأصل مصدر، و يراد به الاستعداد للمراقبة من شىء، و يطلق على الاسم الفاعل و المفعول، و يستعمل فى المفرد و الجمع، أى يطلق على المراقب و الحارس أو على المراقبين و الحرّس.

و يراد به هنا الملائكة الذين يبعثهم اللّه مع الوحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليحيطوه من كل جانب، و يحفظوا الوحى من شرّ شياطين الجنّ و الإنس و وساوسهم: و من كل شىء يخدش أصالة الوحى، ليوصلوا الرسالات إلى العباد من دون خدش أو زيادة أو نقصان، و هذا هو دليل من الأدلة على عصمة الأنبياء عليهم السّلام المحفوظين من الزّلات و الخطايا بالإمداد الإلهى و

القوة الغیبیة، و الملائکة.

فی بحثنا للآیة الأخیرة التی تنهی السورة تبیان لدلیل وجود الحراس و المراقبین فیقول: لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَیْهِمْ وَ أَحْصی کُلَّ شَیْءٍ عَدَداً[۱۰۲].

المراد من العلم هنا هو العلم الفعلی، و بعبارة أخری لیس معنی الآیة أنّ اللّه ما کان یعلم عن أنبیائه شیئا ثمّ علم، لأنّ العلم الإلهی أزلی و أبدی و غیر متناه، بل إنّ المراد هو تحقق العلم الإلهی فی الخارج، و یتخذ لنفسه صورة عینیة واضحة، أی لیتحقق إبلاغ الأنبیاء و رسالات ربّهم و یتمموا الحجّة بذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۸

بحوث

۱- تحقیق موسّع حول علم الغیب

من خلال التمعن فی الآیات المختلفة للقرآن الکریم یتّضح لنا أنّ الآیات المتعلقة بعلم الغیب قسمان:

القسم الأوّل: ما یتعلق بذاته جلّ شأنه و لا یعلمه إلّا هو، کما فی الآیة (۵۹) من سورة الأنعام: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَیْبِ لا یَعْلَمُها إِلَّا هُوَ و الآیة (۶۵) من سورة النمل: قُلْ لا یَعْلَمُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَیْبَ إِلَّا اللَّهُ و کما ورد فی شأن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیة (۵۰) من سورة الأنعام: قُلْ لا أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَیْبَ

و نقرأ فی الآیة (۱۸۸) من سورة الأعراف: وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ و أخیرا نقرأ فی الآیة (۲۰) من سورة یونس: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَیْبُ لِلَّهِ و غیرها من الآیات.

القسم الثّانی: یطرح بوضوح اطلاع أولیاء اللّه علی الغیب، کما نقرأ فی الآیة (۱۷۹) من سورة آل عمران: ما کانَ اللَّهُ لِیُطْلِعَکُمْ عَلَی الْغَیْبِ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَجْتَبِی مِنْ رُسُلِهِ مَنْ یَشاءُ و نقرأ فی معاجز المسیح صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ أُنَبِّئُکُمْ بِما تَأْکُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ ۱۰۳] و الآیة السابقة مورد البحث أیضا تشیر إلی أنّ اللّه تعالی یهب العلم لمن یرتضیه من رسله: (و ذلک لأنّ استثناء النفی إثبات)، و من جهة أخری فإنّ الآیات التی تشمل الأخبار الغیبیة لیست بقلیلة. کالآیة الثّانیة حتی الرّابعة من سورة الروم: غُلِبَتِ الرُّومُ فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ فِی بِضْعِ سِنِینَ و تقول الآیة (۸۵) من سورة القصص: إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۹

و تقول الآیة (۲۷) من سورة الفتح: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ

و من المعروف أنّ الوحی السماوی الذی یهبط علی الرسل هو نوع من الغیب الذی أطلعهم اللّه علیه، فکیف یمکن أن ننفی اطلاعهم بالغیب فی الوقت الذی یهبط علیهم الوحی.

بالإضافة إلی ذلک کلّه فإنّ هناک روایات کثیرة تدل علی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمة المعصومین علیهم السّلام مطّلعون علی الغیب، و یخبرون به أحیانا، فمثلا نجد ذلک فی قصّة «فتح مکّة» و حادث حاطب بن أبی بلتعة الذی کتب کتابا لأهل مکّة و سلمه لامرأة تدعی «سارة» لتوصله إلی مشرکی مکّة، و أطلعهم فیه علی نیّة الرّسول فی الهجوم علی مکّة، فأخفت تلک المرأة الکتاب فی ضفائرها، قصدت الذّهاب إلی مکّة، فأرسل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلیها أمیر المؤمنین علیه السّلام و معه بعض أصحابه و

قال لهم: «ستجدون امرأة عندها کتاب من حاطب إلی المشرکی قریش فی منزل یسمّی (خاخ)»

فلمّا وجدوها أنکرت علیهم الکتاب، و لکنّها سرعان ما اعترفت و أخذوا منها الکتاب ۱۰۴].

و کذلک إخبارهم بحوادث معرکة مؤتة، و استشهاد جعفر الطیار علیه السّلام و بعض القادة المسلمین، فی الوقت الذی کان الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یطلع الناس علی ذلک فی المدینة[۱۰۵]، و الأمثلة علی ذلک لیست قلیلة فی حیاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و ورد فی نهج البلاغة أیضا أخبار کثیرة سابقة لأوانها تشیر إلی حوادث مستقبلیة، أخبر عنها أمیر المؤمنین علیه السّلام، ممّا یدل علی اطلاعه علیه السّلام بأسرار الغیب، کما

جاء فی الخطبة (۱۳) فی ذمّة أهل البصرة حیث یقول: «کأنّی بمسجدکم کجؤجؤ لسفینة قد بعث اللّه علیها العذاب من فوقها و من تحتها و غرق من فی ضمنها».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۰

و وردت فی روایات أخری عن طریق الخاصّة و العامّة أخبار متعددة عنه علیه السّلام و هی سابقة لأوانها،

کقوله لحجر بن قیس: «إنّک من بعدی تجبر علی لعنی»[۱۰۶].

و ما

قاله فی مروان: «إنّه یحمل رایة الضلال بعد الکبر علی أکتافه»[۱۰۷].

و ما

قاله کمیل بن زیاد للحجاج أنّ أمیر المؤمنین علیه السّلام قد أخبرنی بأنّک قاتلی.[۱۰۸]

و ما

قاله علیه السّلام فی خوارج النهروان: «إنّه لا یقتل منّا فی حربهم عشرة و لا ینجو منهم إلّا عشرة»[۱۰۹]

و قد حدث ما قال علیه السّلام.

و ما قاله حول موضع قبر الإمام الحسین علیه السّلام عند مروره بکربلاء للأصبغ بن نباتة[۱۱۰]، و فی کتاب فضائل الخمسة وردت روایات کثیرة عن کتب أبناء العامّة حول علم الإمام الخارق للعادة، و ذکرها یطول فی هذا المقام ۱۱۱].

و ذکرت أیضا روایات عدیدة فی هذا الباب عن لسان الأئمّة المعصومین علیهم السّلام؛ منها ما ذکر فی کتاب الکافی المجلد الأوّل من تصاریح و إشارات متعددة فی أبواب عدیدة منه.

و قد أورد المرحوم العلّامة المجلسی فی کتابه بحار الأنوار المجلد (۲۶) أحادیث کثیرة فی هذا الإطار تبلغ ۲۲ حدیثا.

و مضافا إلی ذلک فإنّ روایات فی باب علم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الائمّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۱

المعصومین علیهم السّلام بأسرار الغیب هی علی حدّ التواتر، أمّا کیف نجمع بین هذه الآیات و الرّوایات التی ینفی بعضها علم الغیب لغیر اللّه و إثبات البعض الآخر لغیره تعالی؟ هناک طرق مختلفة للجمع بینها:

۱- أشهر طرق الجمع هو أنّ المراد من اختصاص علم الغیب باللّه تعالی هو العلم الذاتی و الاستقلالی، و لهذا لا یعلم الغیب إلّا هو، و ما یعلمونه فهو من اللّه، و ذلک بلطفه و عنایته، و الدلیل علی هذا الجمع هو تلک الآیة التی بحثت من قبل و التی تقول: عالِمُ الْغَیْبِ فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ

و قد أشیر إلی هذا المعنی

فی نهج البلاغة عند ما کان أمیر المؤمنین علیه السّلام یخبر عن الحوادث المقبلة (و هو یتصور هجوم المغول علی البلاد الإسلامیة)

فقال أحد أصحابه: یا أمیر المؤمنین، هل عندک علم الغیب؟ فتبسّم أمیر المؤمنین علیه السّلام و قال: «لیس هو بعلم غیب، إنّما هو تعلم من ذی علم».[۱۱۲]

و قد وافق علی هذا الجمع کثیر من العلماء المحققین.

۲- أسرار الغیب قسمان: قسم خاص باللّه عزّ و جلّ لا یعلمه إلّا هو کقیام الساعهٔ، و غیرها ممّا یشابه ذلک، و القسم الآخر علّمه الأنبیاء و الأولیاء، کما

یقول علی علیه السّلام فی نهج البلاغهٔ فی ذیل تلک الخطبهٔ المشار إلیها: «و إنّما علم الغیب علم الساعهٔ، و ما عدده اللّه سبحانه بقوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ، وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ [۱۱۳].

ثمّ أضاف الإمام علیه السّلام فی شرح هذا المعنی.

یمکن لبعض الناس أن یعلموا بزمان وضع الحمل أو نزول المطر و مثل ذلک علما إجمالیا، و أمّا العلم التفصیلی و التعرف علی هذه الأمور فهو خاص بذات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۲

اللّه تعالی المقدسهٔ و إنّ علمنا بشأن یوم القیامهٔ هو علم إجمالی و نجهل جزئیات و خصوصیات یوم القیامهٔ.

و إذا کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو الأئمّهٔ المعصومون علیهم السّلام قد أخبروا البعض فی أحادیثهم عمّن یولد أو عمن ینقضی عمره، فذلک یتعلق بالعلم الإجمالی.

۳- الطریق الآخر للجمع بین القسمین من الآیات و الرّوایات هو ثبوت أسرار الغیب فی مکانین: فی اللوح المحفوظ (الخزانهٔ الخاصّهٔ لعلم اللّه و هو غیر قابل للتغییر و لا یمکن لأحد أن یعلم عنه شیئا).

و لوح المحو و الإثبات الذی هو علم المقتضیات و لیس العلّهٔ التامهٔ، و لهذا فهو قابل للتغییر، و ما لا یدرکه الآخرون یرتبط بهذا القسم.

لذا نقرأ

فی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السّلام: «إنّ للّه علما لا یعلمه إلّا هو، و علما أعلمه ملائکته و رسله، فما أعلمه ملائکته و أنبیاءه و رسله فنحن نعلمه»[۱۱۴].

و

نقل عن علی بن الحسین علیه السّلام أیضا أنّه قال: «لولا آیهٔ فی کتاب اللّه لحدثتکم بما کان و ما یکون إلی یوم القیامهٔ» فقلت له: أیّهٔ آیهٔ؟ فقال: «قول اللّه:

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ۱۱۵].

و طبقا لهذا الجمع یکون تقسیم العلوم علی أساس حتمیته أو عدمه، و فی الجمع السابق یکون علی أساس مقدار المعلومات.

۴- و الطریق الآخر هو أنّ اللّه تعالی یعلم بکل أسرار الغیب، و أمّا الأنبیاء و الأولیاء فإنّهم لا یعلمونها کلّها، و لکنّهم إذا ما شاءوا ذلک أعلمهم اللّه تعالی بها، و بالطبع هذه الإرادهٔ لا تتمّ إلّا بإذن اللّه تعالی.

و محصلهٔ ذلک أنّ الآیات و الرّوایات التی تقول إنّهم لا یعلمون بالغیب هی إشارهٔ إلی عدم المعرفهٔ الفعلیهٔ، و التی تقول إنّهم یعلمون تشیر إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۳

إمکان معرفتهم لها.

و هـذا فی الحقیقهٔ کمن یسـلم رسالهٔ بید شـخص ما لیوصـلها إلی آخر، و یمکن القول هنا: إنّ الشـخص الموصل لها لا یعلم بمحتوی الرسالـهٔ، و لکن یمکنه فتحهـا و التعرف علی مـا فیهـا إذا ما حصل علی الموافقـهٔ علی قراءتها، ففی هـذه الصورهٔ یمکن القول علی أنّه عالم بمحتوی الرسالهٔ، و ربّما لا یسمح له ذلک.

و الدلیل علی هذا الجمع هو ما نقرأه فی الرّوایات المنقولهٔ فی کتاب الکافی للکلینی رحمه اللّه فی باب (أنّ الأئمّهٔ إذا شاءوا أن یعلموا اعلموا) و منها

فی حدیث ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام قال: «إذا أراد الإمام أن یعلم شیئا أعلمه اللّه ذلک».[۱۱۶]

و هذا الوجه من الجمع یمکن أن یحلّ الکثیر من المشاکل المتعلقهٔ بعلم النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و الأئمّهٔ علیهم السّلام، منها أنّهم کانوا یتناولون مثلا الغذاء المسـموم فی حین أن تناول ما یؤدی بالإنسان إلی الهلاک غیر جائز، فکیف یکون ذلک؟ فلهذا یجب القول: إنّ فی مثل هذه الموارد ما کان یسمح لهم معرفهٔ أسرار الغیب.

و هکـذا تقتضـی المصـلحهٔ أحیانا فی ألّا یتعرّف النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أو الإمام علی أمر من الأمور، أو یعرض إلی اختبار لیتکامل بتجاوزه مرحلهٔ الاختبار، کما جاء فی قصّهٔ لیلهٔ المبیت عند ما بات الإمام علی علیه السّلام فی فراش النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو لا یعلم هل أنّ الإمام علیه السّـلام سوف ینجو من المشـرکین عند ما یهجمون علی أم یستشـهد، فالمصلحهٔ هنا تقتضی ألّا یعلم الإمام عاقبـهٔ هـذا الأمر لیتحقق الاختبار الإلهی، و إذا کان الإمام بنجاته عنـد هجوم القوم علیه لم یکن له حینئذ أیّ، و لم یکن ما ذکر فی الآیات الکریمهٔ و الرّوایات فی أهمیهٔ هذا الإیثار محل من الاعراب.

نعم، إنّ مسألهٔ العلم الإرادی هی جواب لکلّ هذه الإشکالات.

۵- هناک طریق آخر أیضا لجمع الرّوایات المختلفهٔ فی علم الغیب (و إن کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۴

هـذا الطریق صادقـا فی بعض هـذه الرّوایـات) و ذلـک هو أنّ المخـاطبین فی هـذه الرّوایـات هم علی مسـتویات مختلفـهٔ، فمن کان له الاسـتعداد الکامـل و التهیؤ لقبول مسألـهٔ علم الغیب للأئمّـهٔ علیهم السّـلام کـانت تسـتوفی لهم المطـالیب بتمامهـا، و أمّـا المخالفون و الضعفاء فقد کان الحدیث معهم علی قدر عقولهم.

فنقرأ مثلا فی حـدیث أنّ أبا بصـیر و عدّهٔ من أصـحاب الإمام الصادق علیه السّـلام کانوا ذات یوم فی مجلس فدخل علیهم الإمام علیه السّلام غضبان، و عند ما جلس قال:

«یـا عجبا لأقوام یزعمون أنّا نعلم الغیب! ما یعلم الغیب إلّا اللّه عزّ و جلّ لقـد هممت بضـرب جاریتی فلانـهٔ، فهربت منّی فما علمت فی أی بیوت الدار هی».[۱۱۷]

یقول الراوی: فلمّا قام الإمام و دخل الدّار قمنا خلفه، و قلنا له: فدتک نفوسنا قلت هذا عن جاریتک، و نحن نعلم أنّ لکم علوما کثیرهٔ، و لا نسمّی ذلک بعلم الغیب؟ عندئذ

قال الإمام: «إنّ ما أردته کان العلم بأسرار الغیب».

یتّضح من ذلک أنّ الجالسین کانوا لا یملکون الاستعداد و التهیؤ لإدراک مثل هذه المعانی و یجهلون مقام الإمام علیه السّلام.

و یجب الالتفات إلی أنّ هذه الطریق الخمسهٔ لا تتنافی مع بعضها، و یمکن أن تکون کلّها صادقهٔ.

۲- الطریق الآخر لإثبات علم الغیب للأئمّهٔ علیهم السّلام

یوجد هنا طریقان لإثبات حقیقهٔ أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّهٔ علیهم السّلام المعصومین یعلمون الغیب بصورهٔ إجمالیهٔ:

الأوّل: هو أنّنا نعلم أنّ مهمتهم لم تجـدّد بمكان و زمان خاص، بل أنّ رسالـة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و إمامـة الأئمّـة عليهم السّلام هى عالمية و خالدة، فكيف يمكن لمن يملك هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۵

المهمّة ألّا يعلم شيئا سوى ما يحيط به و بزمانه؟ هل يمكن لمن يتسلم مهمّة الإمرة على إمارة، و المحافظة على قسم عظيم من بلاد ما و هو لا يعلم منها شيئا، و فى نفس الوقت يطلب منه أن ينفذ المهمّة على أحسن وجه؟! و بعبارة أخرى، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو الإمـام عليه أن يبيّن الأحكام الإلهيـة و يطبقها فى فترة حياته بحيث يلبّى احتياجات البشـرية فى كلّ زمان و مكان، و هـذا لا يمكن إلّا بمعرفته على الأقل لقسم من أسرار الغيب.

ثمّ هناك ثلاث آيات فى القرآن المجيـد إذا وضـعت إلى جانب بعضـها البعض فسرعان ما يتّضح لنا ما يتعلق بعلم الغيب النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة عليهم السّـلام فالأوّل ما يذكره القرآن حول من أحضـر عرش ملكة سبأ فى طرفة عين (و هو آصف بن برخيا) فيقول تعالى فى كتابه: قالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ۱۱۸]، و نقرأ فى آية أخرى: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ۱۱۹].

و من جهة أخرى

نقل فى أحاديث مختلفة فى كتب الخاصّة و العامّة أنّ أبا سعيد الخدرى قال سألت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن معنى الآية: الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ فقال: «هو وصـى أخى سليمان بن داود» قلت و من المراد فى: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ فقال: «ذاك أخى على بن أبى طالب»[۱۲۰].

فالملاحظ فيمـا يقوله إنّ (علم من الكتاب) الـذى جاء فيما يخص «آصف» هو علم جزئى، و أمّا حينما يقول فى (علم الكتاب) الـذى ورد فيمـا يخص عليـا عليه السّـلام هو علم كلى، و هـذا مـا يوضـح الاختلاف بين المقام العلمى لآصف و بين المقام العلمى لعلى عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۶

و من جهة ثالثة: نقرأ فى الآية (۸۹) من سورة النحل: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ فمن الواضح أنّ من يعلم بأسرار مثل هذا الكتـاب، لا بـدّ أن يكون مطّلعا على أسـرار الغيب، و هـذا دليل واضـح على إمكان الاطلاع و المعرفـة على أسـرار الغيب بأمر من اللّه لإنسان هو من أولياء اللّه.

و كانت لنا بحوث ح علم الغيب فى ذيل الآية (۵۰) و (۵۹) من سورة الأنعام و الآية (۱۸۸) من سورة الأعراف.

۳- تحقيق حول خلق الجن

الجن كما جاء فى المفهوم اللغوى هو نوع من الخلق المستور، و قد ذكرت له مواصفات كثيرة فى القرآن منها:

۱- إنّهم مخلوقون من النـار، بعكس الإنسـان المخلوق من التراب: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ[۱۲۱] ۲- إنّهم يمتلكون الإدراك و العلم و التمييز بين الحق و الباطل و القدرة على المنطق و الاستدلال، (كما هو واضح من آيات سورة الجن).

۳- إنّهم مكلّفون و مسئولون (كما فى آيات سورة الجن و الرحمن).

۴- و فيهم المؤمنون و الصالحون و الطالحون: وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ [۱۲۲] ۵- إنّهم يحشرون و ينشرون: وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً.[۱۲۳] ۶- لهم القدرة على النفوذ فى السماوات و أخذ الأخبار و استراق السمع، و لكنّهم منعوا من ذلك فيما بعد:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۷

وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً.[۱۲۴] ۷- كانوا يوجـدون ارتباطا مع بعض الناس لإغوائهم بما لـديهم مـن العلـوم المحـدودة التابعـة إلى بعض الأسـرار الروحيـة: وَ أَنَّهُ كـانَ رِجـالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً.[۱۲۵] ۸- و يوجد فيهم من يتمتع بالقدرة الفائقة كما وجود فى أوساط الإنس:

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ [۱۲۶] ۹- لهم القـدرة على قضاء بعض الحوائـج التى يحتاجها الإنسان وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ... يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ ۱۲۷].

۱۰- إنّ خلقهم كان قبل خلق الإنسان: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ۱۲۸] و لهم خصائص أخرى.

بالإضافـة إلى ذلـك فـإنّه يسـتفاد من الآيات القرآنيـة أنّ الإنسان هو نوع أفضل من الجن، و بخلاف ما هو مشـهور على الألسن لأنّهم أفضل منّا، و دليل اختيار الأنبياء من الإنس، و إنّهم آمنوا بنبى الإسـلام الـذى هو من الإنس و اتبعوه، و هكذا وجوب سـجود الشـيطان لآدم عليه السّلام كما صرّح القرآن بذلك، و كون الشيطان من أكابر طائفة الجن (الكهف ۵۰) هو دليل على أفضلية بنى الإنسان على الجنّ.

إلى هنا كان الحديث عن أمور تسـتفاد من القرآن المجيد حول هذا الخلق المسـتور و الخالية من كل الخرافات و المسائل غير العلمية، و لكنّنا نعلم أن السذج و الجهلاء ابتدعوا خرافات كثيرة فيما يخص هذا الكائن بما يتنافى مع العقل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۸

و المنطق، منها ما نسب إليهم الأشـكال الغريبـة و العجيبـة و المرعبـة، و أنّهم موجودات سامـة و ذوات أذناب! مؤذيـة، و مبغضة، سيئة التصـرف و السلوك إذ يمكن أن تحرق دورا بمجرّد أن يسكب إناء ماء مغلى فى بالوعة مثلا، و أوهام أخرى من هذا القبيل، فى حين أنّ أصـل الموضوع إذا تمّ تطهيره من هـذه الخرافات قابلا للقبول، لأننا لا نملك دليلا على حصـر الموجودات الحيـة بما نحن نراه، بل يقول علماء العلوم الطبيعية: إنّ الكائنات التى يستطيع الإنسان أن يدركها بحواسه ضئيلة بالنسبة للموجودات التى لا تدرك بالحواس.

و فى الفترة الأخيرة و قبل أن يكشف المجهر هـذه الكائنات الحيـة، لم يصـدق أحـد أنّ هناك الآلاف المؤلفـة من الموجودات الحية المتواجـدة فى قطرة المـاء أو الـدم لا يمكن للإنسان أن يراها و يقول أيضا: إنّ أعيننا ترى ألوانا محـدودة، و كـذا آذاننا تسـمع أمواجا صوتيـة محـدودة، و الألوان و الأصوات التى لا نـدركها بآذاننا و أعيننا أكثر بكثير من تلك التى تـدرك، و عنـد ما تكون الـدنيا بهـذا الشكل لا يبقى موضع للتعجب من وجود هذه الكائنات الحية، و التى لا يمكن لنا إدراكها بالحواس، و لم لا نتقبل ذلك عند ما يخبرنا انسان صادق كالنّبى العظيم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

على أى حال فإنّ القرآن المجيـد قـد أخبرنا من جهة بوجود الجن و خصوصـياته المذكورة سـلفا، و من جهة أخرى ليس هناك دليل عقلى على عدم وجود الجن، و لهذا لا بدّ من الإعتقاد بهم، و تجنب الأقوال التى لا تليق بهم كما فى خرافات العوام.

و ممّـا يلاحظ أيضا أنّ لفظ الجن يطلق أحيانا على مفهوم أوسع يشـمل أنواعا من الكائنات المستورة أعم من الكائنات ذوات العقل و الإدراك و لفاقدة لهما، و حتى مجاميع الحيوانات التى ترى بالعين و المختفية فى الأوكار أيضا، و الدليل على ذلك

روايات وردت عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم حيث قال: «خلق اللّه الجن خمسـة أصـناف: صـنف كالريح فى الهواء، و صـنف حيات، و صنف عقارب، و صنف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۹

حشرات الأرض، و صنف كنبى آدم عليهم الحساب و العقاب»[۱۲۹].

و بالتوجه إلى هذه الرّوايات و مفهومها فسوف تحلّ الكثير من المشاكل التى تطرح فى الرّوايات و القصص الخاصّة بالجن.

ففى رواية وردت عن أمير المؤمنين عليه السّـلام حيث قال: «لا تشرب الماء من ثلمة الإناء و لا عروته، فإنّ الشيطان يقعد على العروة و الثلمة».[۱۳۰]

لأنّ الشیطان هو من الجن، و لأنّ ثلمة الإناء و عروته محل لاجتماع المکروبات المتنوعة، فلا یستبعد أن یکون الجن و الشیطان بمفهومه العام شاملا لمثل هذه الکائنات، و إن کان المعنی الخاص له هو الکائن ذو فهم و شعور و إنّه مکلّف و مسئول، و الرّوایات کثیرة فی هذا الباب.

ربّنا! ألطف بنا یوم یحضر الجن و الإنس فی محکمة عدلک، و یوم یندم المسیؤون علی ما عملوا.

اللّهم! إنّ أرکان ملکک واسعة و معرفتنا و معلوماتنا محدودة فاحفظنا و صنّا من المزالق و الخطایا و الحکم بغیر الحقّ.

إلهنا! إنّ مقام رسولک الکریم من العظمة و السمو أن آمن به الجن مضافا إلی الإنس، فاجعلنا من المؤمنین بدعوته ...

آمین ربّ العالمین انتهاء سورة الجن***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۱

سورة المزّمّل

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۳

«سورة المزّمّل»

محتوی السورة:

یدل سیاق السورة علی وجود تشابه بینها و بین المکیة الأخری، و لهذا یستبعد ما قاله البعض من أنّها مدنیة، و اختلاف سیاق الآیات الأولی و الأخیرة منها یشیر إلی نزوله فی فترات متعددة و طویلة، فقد ذکر البعض: إنّه نزلت فی ثمانیة أشهر و قیل: سنة، و قیل: عشر سنوات.[۱۳۱] إنّ الکثیر من آیات هذه السورة تشیر إلی أنّها نزلت عند بدء الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لدعوته العلنیة، و اعتراض المخالفین و تکذیبهم له، و لکن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد أمر بالمسالمة و المجازاة لهم، و لذا یبعد احتمال نزولها جمیعا فی أوّل دعوته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یمکن احتمال ذلک فی شأن الآیات الأولی لها، و أمّا البقیة فلیست کذلک، لأنّ آیاتها تشیر إلی سعة الإسلام و الدعوة، و ذلک علی نطاق مکّة علی الأقل، و بروز مخالفة المخالفین و صراعهم مع الحق، و هذا ما لم یحصل فی السنوات الثلاث الأولی للدعوة.

و وردت روایات مختلفة و متفاوتة فی سبب نزول السورة أو بعض الآیات منها،

ففی بعض الرّوایات أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند ما استلم البلاغ الإلهی الأوّل رجع إلی خدیجة و فؤاده یرتجف فقال: «زملونی» فنزل جبرائیل علیه السّلام ب أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۴

فی حین أنّه جاء فی بعض الرّوایات أن شأن نزول هذه السورة یتعلق بإعلان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعوته، فکان أن اجتمع مشرکو قریش فی دار الندوة لیفکروا فی أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لیختاروا لمواجهته شعارا أو عنوانا خاصّا، فقال بعضهم: إنّه (کاهن) لکن بعضهم لم یوافق علی هذه التسمیة، فقال آخرون: إنّه (مجنون) إلّا جمعا آخر منهم لم یوافق علیه أیضا، و رجّح بعضهم أن یسمّی ب (الساحر) فلم یوافق الآخرون علی ذلک أیضا.

أخیرا قالوا: إنّه یفرق بین الأحباب، فبناء علی ذلک فهو ساحر ثمّ تفرق المشرکون، فبلغ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما قاله

المشـرکون، فـدثّر نفسـه تزّمـل بـأثوابه و رکـن إلی الرّاحـهٔ ... فجـاءه الـوحی فی ذلـک الحیـن بسـورتی، یـا أیّهـا المزّمـل، و یـا أیّها المدثر.[۱۳۲] و الحاصل هو ما أشـرنا إلیه فی أنّ ظاهر السورهٔ مکّیـهٔ، و نزول قسم منها بعـد الـدعوهٔ العلنیـهٔ و نفوذ الإسـلام النسبی فی مکّهٔ أمر حتمی، و إن کان یحتمل نزول آیات من أوّل السورهٔ فی أوّل البعثهٔ.

و یتلخص محتوی السورهٔ فی خمسهٔ أقسام:

القسم الأوّل: الآیات الأولی للسورهٔ و التی تأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقیام اللیل و الصلاهٔ فیه، لیستعد بذلک لنقل ما سیلقی علیه من القول الثقیل.

القسم الثّانی: یأمره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالصبر و المقاومهٔ و مداراهٔ المخالفین.

القسم الثّالث: بحوث حول المعاد، و إرسال موسی بن عمران إلی فرعون و ذکر عذابه الألیم.

القسم الرّابع: فیه تخفیف لمـا ورد فی الآیـات الأـولی من الأـوامر الشدیـدهٔ عن قیـام اللیل، و ذلک بسـبب محنـهٔ المسـلمین و الشـدائد المحیطهٔ بهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۵

القسم الخـامس: هو القسم الأـخیر من السورهٔ یعود لیـدعو إلی تلاـوهٔ القرآن و إقامـهٔ الصـلاهٔ و إیتـاء الزّکاهٔ، و الإنفاق فی سبیل اللّه و الاستغفار.

فضیلهٔ السّورهٔ:

ورد فی حدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأ سورهٔ المزمل رفع عنه العسر فی الدنیا و الآخرهٔ»[۱۳۳].

و

فی حـدیث آخر ورد عن الإمـام الصّـادق علیه السّـلام: «من قرأ سورهٔ المزّمل فی العشاء الآخرهٔ، أو فی آخر اللیل کان له اللیل و النهار شاهدین مع السورهٔ، و أحیاه اللّه حیاهٔ طیبهٔ و أماته میتهٔ طیبهٔ»[۱۳۴].

و من الطبیعی أنّ هذه الفضائل لا بدّ أن تکون ملازمهٔ مع قیام اللیل و قراءهٔ القرآن و الصبر و الاسـتقامهٔ و الإیثار و الإنفاق و العملی، و لیس بالتلاوهٔ الخالیهٔ من العمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۶

الآیات [سورهٔ المزمل (۷۳): الآیات ۱ الی ۵]

اشارهٔ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یا أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ (۱) قُمِ اللَّیْلَ إِلاَّ قَلِیلاً (۲) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِیلاً (۳) أَوْ زِدْ عَلَیْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلاً (۴)

إِنَّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً (۵)

التّفسیر

یشیر سـیاق الآیات کما بیّنا إلی دعوهٔ الرّسول الأکرم صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم للاسـتقامهٔ و الاستعداد لقبول مهمّهٔ کبیرهٔ و ثقیلهٔ، و هذا لا یتمّ إلّا بالبناء المسبق للذات، فیقول: یا أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۱۳۵]، قُمِ اللَّیْـلَ إِلَّا قَلِیلًا، نِصْـفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِیلًا، أَوْ زِدْ عَلَیْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ

تَرْتِيلًا.

الطريف فى هذه الآيات أنّ المخاطب هو الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن لا- بعنوان يا أيّها الرّسول، أو يا أيّها النّبى، بل بعنوان يا أيّها المزمل، إشارة إلى إنّ هذا ليس زمان التزمل و الانزواء، بل زمان القيام و البناء الذاتى و الاستعداد لأداء الرسالة العظيمة، و اختيار الليل لهذا العمل أوّلا: لأنّ أعين الأعداء نائمة، و ثانيا: تتعطل الأعمال المكاسب، و لهذا فإنّ الإنسان يستعد للتفكر و لتربية النفس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۷

و كذلك إختيار القرآن لأنّ يكون المادة الأولى فى البرنامج العبادى فى الليل إنّما هو لاقتباس الدروس اللازمة فى هذا الباب، و هو يعدّ من أفضل الوسائل لتقوية الإيمان و الاستقامة و التقوى و تربية النفوس، و التعبير بالترتيل الذى يراد به التنظيم و الترتيب الموزون هنا هو القراءة بالتأنى و الانتظام اللازم، و الأداء الصحيح للحروف، و تبيّن الحروف، و الدقّة و التأمل فى مفاهيم الآيات، و التفكر فى نتائجها.

و بديهى أنّ مثل هذه القراءة تعطى الإنسان الرّشد و النمو المعنوى السريع و الشهامة الخلقية و تهب التقوى، و إذا فسّره البعض بالصلاة فذلك لأنّ أحد أجزاء الصلاة المهمّة هى قراءة القرآن.

عبارة «قم الليل» تعنى النهوض فى مقابل النوم، و ليس الوقوف فحسب، و أمّا ما جاء من العبارات المختلفة فى هذه الآيات حول مقدار إحياء الليل فهو فى الحقيقة لتبيان التخيير، و أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مخيّر فى الاستيقاظ فى نصف الليل أو أقل من ذلك أو أكثر لقراءة القرآن، ففى المرحلة الأولى يذكر الليل كلّه إلّا قليلا منه، ثمّ يخففه ليوصله إلى النصف، و بعدئذ إلى أقل من النصف.

و قيل: المراد هو التخيير بين الثلث الثّانى و النصف و الثلث الأوّل، بقرينة الآية التى فى آخر السورة: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ و يستفاد من هذه الآية أيضا أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن وحده الذى يقوم الليل، بل معه عدّة من المؤمنين كانوا ملتزمين أيضا بهذا النظام للبناء الذاتى و التربية و الاستعداد متخذين النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أسوة لهم.

و قال البعض: إنّ المراد من «قم الليل إلّا قليلا»، هو القيام فى الليالى كلّها إلّا بعض الليالى، و ليس الاستثناء فى أجزاء الليل، و لكن هذا القول بعيد عن الصواب حيث أنّ الليل جاء بصيغة مفرد «ليل»، و جاء التعبير بالنصف أو أقل النصف.

ثمّ يبيّن الهدف النهائى لهذا الأمر المهم و الشاق فيقول: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۸

قَوْلًا ثَقِيلًا.

ذكر المفسّرين فى القول الثقيل أقوالا- مختلفة، لكن الملاحظ أن ثقل القول يراد به القرآن المجيد بأبعاده المختلفة ... ثقيل بلحاظ المحتوى و مفاهيم الآيات.

ثقيل بلحاظ حمل على القلوب له لما يقوله القرآن: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۱۳۶]. ثقيل بلحاظ الوعد و الوعيد و بيان المسؤوليات.

ثقيل بلحاظ التبليغ و مشاكل طريق الدعوة.

و ثقيل فى ميزان العمل و فى عرصة القيامة، و بالتالى ثقيل بلحاظ تخطيطه و تنفيذه بشكل تام.

نعم، و إن قراءة القرآن و أن كانت سهلة و جميلة و مؤثرة، و لكن تحقق مفاده ليس بأسهل اليسير بالخصوص فى أوائل الدعوة النّبوية فى مكّة حيث الظلام و الجهل و عبادة الأصنام و الخرافات، إذ أنّ الأعداء المتعصبين القساة كانوا قد تكاتفوا ضد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه القلائل استطاعوا أن يتغلبوا على كل تلك هذه المشاكل

باستمدادهم من تربیة القرآن، و الاستعانة بصلاة اللیل، و بالاستفادة من قربهم من ذات اللّه المقدسة، و استطاعوا بذلک حمل هذا القول الثقیل و الوصول إلی مرادهم.

***

بحوث

۱– قیام اللیل بتلاوة القرآن و الدعاء

قلنا إنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن کان هو المخاطب فی هذه الآیات، و لکن آخر السورة یشیر إلی وجود مؤمنین کانوا معه فی هذا العمل، و السؤال هو هل أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۹

إحیاء اللیل کان واجبا علی الجمیع فی أوائل دعوته أم لا؟ قال البعض: إنّ هذا الأمر کان واجبا فی البدء ثمّ نسخ بالآیة الأخیرة للسورة و مدّة ذلک حوالی السنة، حتی و أنّ البعض ذهب إلی أنّ هذا الحکم کان قبل تشریع الصلوات الخمس، ثمّ نسخ هذا الحکم بعد تشریعها، و لکن المرحوم الطبرسی رحمه اللّه کما ذکر فی تفسیره «مجمع البیان» أنّ ظاهر آیات هذه السورة لا یشیر إلی النسخ، الأفضل هو القول بأنّ هذه العبادة مستحبة و سنّة مؤکّدة، و لم یکن لها طابع الوجوب إلّا لشخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما فی بعض الآیات الأخری للقرآن، و لا مانع ذلک من وجوبها علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و استحبابها علی المؤمنین، و مضافا إلی أنّ الآیات المذکورة لا تنحصر بصلاة اللیل، لأنّها لم تشغل نصف ممن اللیل أو ثلثی اللیل بل و حتی ثلثه، و ما ذکر فی الآیة هو النهوض لترتیل القرآن.

فعلی هذا کان الحکم فی البدء مستحبّا مؤکّدا ثمّ خفف، و بما أنّ بدایة کلّ عمل بالخصوص بدایة الثورة العظیمة، یحتاج إلی قدره و قوّة أکثر من أی وقت، فلا عجب فی أن یصدر مثل الأمر العظیم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه، و ذلک أن یقوموا لقسط وافر من اللیل لیتعرفوا و یتفهموا محتوی هذا العمل الجدید و علی تعالیمه الثوریة، و لتطبیق ذلک لا بدّ أن یروضوا أرواحهم بالعلم و المعرفة.

۲– معنی التّرتیل

إنّ ما أکّدت علی الآیات المذکورة هو الترتیل و لیس قراءة القرآن، و وردت روایات عن الأئمّة المعصومین علیهم السّلام فی معنی الترتیل کلّ منها یشیر إلی بعد من أبعاد هذه الکلمة الواسعة.

فقد ورد فی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السّلام: «بینه بیانا و لا تهذّه هذّ الشعر و لا تنثره نثر الرمل، و لکن اقرع به القلوب القاسیة، و لا یکوننّ همّ أحدکم آخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۰

السورة»[۱۳۷].

و نقرأ

فی حدیث آخر ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام: «إذا مررت بآیة فیها ذکر الجنّة فأسأل اللّه الجنّة، و إذا مررت بآیة فیها ذکر النّار

فتعوذ باللّه من النار»[۱۳۸].

و

فی روایة اخری عنه علیه السّلام: «هو أن تتمکث فیه و تحسن به صوتک»[۱۳۹]،

و

عنه أیضا: «أنّ القرآن لا یقرأ هذرمة، و لکن یرتل ترتیلا و إذا مررت بآیة فیها ذکر النّار وقفت عندها و تعوذت باللّه من النّار»[۱۴۰].

و قد نقل عن حالات النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه کان یقطع قراءته آیة آیة، و یمد صوته مدّا[۱۴۱]، هذه الرّوایات و الرّوایات الأخری المنقولة بنفس المضمون فی کتاب الکافی و نور الثقلین و الدر المنثور و بقیة الکتب الأخری من کتب الحدیث و التّفسیر تشیر إلی ضرورة التمعن فی کلمات القرآن، و التدبّر فیها و تذکر بأنّ القرآن هو خطاب اللّه تعالی للإنسان.

و لکن و للأسف إنّ الکثیر من المسلمین ابتعدوا عن هذا الواقع، و اکتفوا بالتلفظ و غدا همّهم ختمه، من دون الاهتمام بمعرفة سبب نزوله و محتواه! صحیح أنّ ألفاظ القرآن عظیمة و لقراءتها فضیلة، و لکن لا ینبغی أن ننسی أنّ هذه الألفاظ و تلاوتها هی مقدمة لبیان المحتوی.

۳- فضیلة صلاة اللیل

هذه الآیات تبیّن أهمّیة إحیاء اللیل بالعبادة و قراءة القرآن عند ما یکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۱

الغافلون نیاما، و کما أشرنا من قبل فإنّ العبادة فی اللیل و بالخصوص عند السحر لها الأثر البالغ فی تصفیة الروح و تهذیب النفوس و التربیة المعنویة للإنسان و طهارة القلب و إیقاظه، و کذا فی تقویة الإیمان و الإرادة، و توکید ارکان التقوی فی الروح و القلب، و یمکن لمس ذلک بمجرّد الإختبار مرّة واحدة، و قد أکّدت الرّوایات علی ذلک بالإضافة إلی ما ذکرته الآیات القرآنیة.

منها

ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام: «إنّ من روح اللّه تعالی ثلاثة، التهجد باللیل، و إفطار الصّائم، و لقاء الإخوان»[۱۴۲].

و

عنه أیضا علیه السّلام فی تفسیر: إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ قال: «صلاة اللیل تذهب بذنوب النهار»[۱۴۳].

و لنا بحث مفصل فی هذا الباب فی ذیل الآیة (۷۹) من سورة الإسراء، و قد نقلنا بهذا الشأن عشرة أحادیث رائعة فی أهمیة صلاة اللیل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۲

الآیات [سورة المزمل (۷۳): الآیات ۶ الی ۱۰]

اشارة

إِنَّ ناشِئَةَ اللَّیْلِ هِیَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِیلًا (۶) إِنَّ لَکَ فِی النَّهارِ سَبْحاً طَوِیلًا (۷) وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ وَ تَبَتَّلْ إِلَیْهِ تَبْتِیلًا (۸) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَکِیلًا (۹) وَ اصْبِرْ عَلی ما یَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِیلًا (۱۰)

التّفسیر

تأثیر الدعاء و المناجاة فی أعماق اللیل:

تستمر هذه الآیات فی البحث حول عبادة اللیل و التعالیم المعنویة الموجودة قراءة القرآن فی اللیل، و هی بمنزلة بیان الدلیل علی ما جاء فی الآیات السالفة، فیقول تعالی: إِنَّ ناشِئَةَ اللَّیْلِ هِیَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِیلًا[۱۴۴].

«الناشئة»: من مادة (نشأ)، علی وزن نثر، و تعنی الحادثة، و قد ذکر هنا ثلاثة تفاسیر لما یراد منها.

الأوّل: المراد به ساعات اللیل الحادثة بالتوالی، أو أنّها تخصّ الساعات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۳

الأخیرة للیل و السحر.

و الآخر: إنّ المراد هو إحیاء اللیل بالصلاة و العبادة و قراءة القرآن کما

ورد فی حدیث عن الإمامین الصادق و الباقر علیهما السّلام حیث قالا: «هی القیام فی آخر اللیل إلی صلاة اللیل»[۱۴۵].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة، قال: «قیامه عن فراشه لا یرید إلّا اللّه».[۱۴۶]

و الثّالث: الحالات المعنویة و الروحیة و النشاط و الجذوة الملکوتیة التی تحصل فی القلب الإنسان و روحه فی هذه الساعات الخاصّیة باللیل، و التی تکون آثارها فی روح الإنسان أعمق و استمرارها أکثر، و التّفسیران الثّانی و الثّالث متلازمان، و یمکن جمعها فی ما یراد بمعنی الآیة.

«وطأ»: تعنی فی الأصل وضع القدم، و تعنی کذلک الموافقة.

و التعبیر ب أَشَدُّ وَطْئاً: العناء و المشقّة الحاصلة فی عبادة اللیل، أو أنّه یعنی التأثیرات الثابتة و الراسخة الحاصلة من شعاع هذه العبادات فی روح الإنسان، و المعنی الثّانی أوجه.

و یحتمل أن یراد له التوافق الحاصل بین قلب الإنسان و عینه و أذنه و بالتالی تعبئتها فی طریق العبادة.

«أقوم»: من القیام، و یراد بکونها أثبت للقول و أصوب لحضور القلب.

«قیلا»: تعنی القول، و تشیر هنا إلی ذکر اللّه و قراءة القرآن.

و محصلة ذلک أنّ هذه الآیة من الآیات التی تحتوی علی أبلغ الأحادیث حول العبادة اللیلة، و رمز إظهار المحبّة مع المحبوب فی ساعات یختلی فیها الحبیب بحبیبه و أکثر من غیرها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۴

و یضیف فی الآیة الأخری: إِنَّ لَکَ فِی النَّهارِ سَبْحاً طَوِیلًا.

أی إنّک مشغول بهدایة الخلق و إبلاغ الرسالة و حلّ المشاکل المتنوعة، و لا مجال لک بالتوجه التام إلی ربّک و الانقطاع إلیه بالذکر، فعلیک باللیل و العبادة فیه.

و هناک معنی أدق و تفسیر یناسب الآیات السابقة أیضا هو: أنّک تتحمل فی النهار مشاغل ثقیلة و مساعی کثیرة، فعلیک بعبادة اللیل لتقوی بها روحک و تستعد للفعالیات و النشاطات الکثیرة فی النهار.

«سبح»: علی وزن مدح، و تعنی فی الأصل الحرکة و الذهاب و الإیاب، و یطلق علی السباحة لما فیها من الحرکة المستمرة، و کأنّه یشبه المجتمع الإنسانی بالمحیط اللامتناهی الذی یغرق فیه الکثیر من الناس، و أمواجه المتلاطمة تتحرک فی کل الجهات، و فیها من السفن المضطربة التی تبحث عن الملجأ الأمین، و الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو المنجی الوحید للغریق، و قرآنه سفینة النجاة الوحیدة فی هذا المحیط، فعلی هذا السباح العظیم أن یهیء نفسه یومیا بالعبادة اللیلة لإتمام هذه المهمّة و الرسالة العظیمة.

و بعد الإشارة إلى العبادة الليلية، و الإشارة الإجمالية إلى آثارها العميقة يذكّر القرآن بخمسة أوامر اخرى مكملة لتلك فيقول: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ

و الطبيعى أنّ المراد ليس ذكر الاسم فحسب، بل التوجه إلى المعنى، لأنّ الذكر اللفظى مقدمة للذكر القلبى، و الذكر القلبى يبعث على صفاء القلب و الروح و يروى منهل المعرفة و التقوى فى القلب.

المراد ب «الربّ» هو الإشارة إلى التوجه إلى النعم اللامتناهية و ذلك عند الإتيان بذكره المقدس، و أن يكون ذكره ملازما مع التوجه إلى تربيته تعالى شأنه لنا، و يبيّن بعض المفسّرين مراحل لذكر الربّ تعالى.

المرحلة الاولى: ذكره تعالى كما أشير إلى ذلك.

المرحلة الثّانية: الذكر القلبى لذاته المقدسة، كما هو فى الآية (۲۰۵) من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۵

سورة الأعراف: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً.

ثمّ تبدأ المرحلة الثّالثة، و فيها يتعدى الذكر مقام الرّبوبية ليصل إلى مقام مجموعة الصفات الجمالية و الجلالية المجتمعة فى اللّه تعالى، كما هو فى الآية (۴۱) من سورة الأحزاب حيث يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً و على هذا الأساس يستمر هذا الذكر ليتكامل فى مراحلة ليوصل الذاكر نفسه إلى أوج الكمال.[۱۴۷] و يقول فى الأمر الثّانى: وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا.[۱۴۸] «التبتل»: من (البتل) على وزن (حتم)، و تعنى فى الأصل الانقطاع، و لهذا سمّيت «مريم العذراء» عليها السّلام بالبتول، لأنّها لم تتخذ لنفسها زوجا و سمّيت الزّهراء عليها السّلام بالبتول لأنّها كانت أفضل نساء عصرها فى السيرة و السلوك، و كانت بالغة درجة الانقطاع إلى اللّه تعالى.

فالتبتل هو التوجه القلبى التام إلى اللّه تعالى، و الانقطاع عن غيره إليه تعالى، و الإتيان بالأعمال الخالصة للّه، و كذا الخلوص له تعالى. و ما

روى عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «لا رهبانية، و لا تبتل فى الإسلام»[۱۴۹]

، فهو اشارة لما هو حاصل فى أوساط المسيحيين فى تركهم للدنيا، إذ أنّهم اعتزلوا الزواج لاعتزالهم الدنيا، و اعتزلوا بذلك الوظائف الاجتماعية، و هذا ما لم يكن حاصلا عند المسلمين، إذ أن أحدهم يعيش فى أوساط المجتمع الإنسانى و هو فى نفس الوقت متوجّه إلى اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۶

و ممّا روى عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام

«التبتل رفع اليد إلى اللّه حال الصّلاة»[۱۵۰]

و الواضح أنّ هذا هو مظهر من مظاهر الإخلاص و الانقطاع إلى اللّه.

على أىّ حال فإنّ ذلك الذكر للّه تعالى و هذا الإخلاص هما الثّروة العظيمة لأهل اللّه فى مهامهم الثقيلة لهداية الخلق.

ثمّ ينتهى إلى الأمر الثّالث فيقول: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا و هنا تأتى مسألة إيداع الأمور إلى اللّه، و ذلك بعد مرحلة ذكر اللّه و الإخلاص، إيداع الأمور للربّ الذى بيده الحاكمية و الرّبوبية على المشرق و المغرب و المعبود الوحيد المستحق للعبادة، و هذا التعبير فى الحقيقة هو بمنزلة الدليل على موضوع التوكل على اللّه، فكيف لا يتوكل الإنسان عليه، و لا يودعه أعماله، و ليس فى العالم الواسع من حاكم و آمر و منعم و مولى و معبود غيره؟

و بالتالى يقول فى الأمر الرّابع و الخمس: وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا.

و يأتى هنا مقام الصبر و الهجران، لكثرة اتهامات الأعداء و إيذاءهم له فى طريق الدعوة إلى اللّه، فالفلاح إذا أراد قطف الورود، عليه أن يصبر و يتحمل أذى الأشواك، مضافا إلى ذلك يلزم الابتعاد عنهم و هجرانهم أحيانا، و ليبقى فى مأمن من شرّهم، و يعطيهم

بذلک درسا بالغا، و لا یعنی ذلک قطع سبل التربیهٔ و التبلیغ و الدعوهٔ إلی اللّه.

و علی هذا فإنّ الآیات المذکورهٔ آنفا تعتبر وثیقهٔ من الأوامر تعطی للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لمن یحذو حذوه هذا المفهوم، و هو أن یستمد العون من عبادهٔ اللیل و الدعاء و التضرع إلی اللّه تعالی و یسقی هذه الشجرهٔ بماء الذکر اللّه تعالی، و الإخلاص و التوکل و الصبر و الهجران الجمیل، یا لها من صحیفهٔ جامعهٔ و جمیلهٔ!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۷

التعبیر ب «ربّ المشرق و المغرب» إشارهٔ إلی الحاکمیهٔ و الرّبوبیهٔ علی العالم المشهور کلّه.

«الهجر الجمیل»: کما أشرنا من قبل، یعنی الهجران الملازم للشفقهٔ و الاستمرار بالدعوهٔ إلی اللّه الذی یعتبر أحد طرق التربیهٔ فی مراحل خاصّهٔ، و لا یتنافی ذلک مع الجهاد فی المراحل الاخری، فلکل أمر مقام.

و بعبارهٔ اخری أنّ ذلک لا یعتبر من الابتعاد عنهم و عدم الاکتراث بهم، بل هو اکتراث بحدّ ذاته، و ما قیل من أنّ الجهاد نسخ هذه الآیات فلیس صحیحا.

یقول المرحوم الطّبرسی فی مجمع البیان فی ذیل الآیهٔ: و فی هذا دلالهٔ علی وجوب الصبر علی الأذی لمن یدعو إلی الدین و المعاشرهٔ بأحس الأخلاق، و استعمال الرفق لیکونوا أقرب إلی الإجابهٔ[۱۵۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۸

الآیات [سورهٔ المزمل (۷۳): الآیات ۱۱ الی ۱۹]

اشارهٔ

وَ ذَرْنِی وَ الْمُکَذِّبِینَ أُولِی النَّعْمَهِٔ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِیلاً (۱۱) إِنَّ لَدَیْنا أَنْکالاً وَ جَحِیماً (۱۲) وَ طَعاماً ذا غُصَّهٍٔ وَ عَذاباً أَلِیماً (۱۳) یَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ کانَتِ الْجِبالُ کَثِیباً مَهِیلاً (۱۴) إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَیْکُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَیْکُمْ کَما أَرْسَلْنا إِلی فِرْعَوْنَ رَسُولاً (۱۵) فَعَصی فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِیلاً (۱۶) فَکَیْفَ تَتَّقُونَ إِنْ کَفَرْتُمْ یَوْماً یَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِیباً (۱۷) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ کانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (۱۸) إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَهٌٔ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلی رَبِّهِ سَبِیلاً (۱۹)

التّفسیر

ذرنی و المکذبین المستکبرین:

أشارت فی الآیهٔ الأخیرهٔ من الآیات السابقهٔ إلی أقوال المشرکین البذیئهٔ، و عدائهم و إیذائهم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أمّا فی هذه الآیات فإنّ اللّه تعالی یهددهم بالعذاب الألیم، و یدعوهم إلی ترک ما هم علیه، و یواسی المؤمنین الأوائل، فیقول تعالی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۹

شأنه: وَ ذَرْنِی وَ الْمُکَذِّبِینَ أُولِی النَّعْمَهِٔ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِیلًا.

أی دعنی و ایّاهم، و اترک عقابهم لی و مهلهم قلیلا. لتتمّ الحجّهٔ علیهم و لتظهر ماهیتهم الحقیقیهٔ، و یثقلوا ظهورهم بالخطایا فعندها یحلّ علیهم غضبی.

و لم یمض کثیر حتی ازدادت شوکهٔ المسلمین، و وجهوا ضرباتهم القویهٔ لأعداء الرسالهٔ، و ذلک فی معارک بدر و حنین و الأحزاب، و بالتالی کان العذاب الإلهی ینتظرهم فی البرزخ، حتی یخلدوا بعد ذلک فی النّار فی یوم القیامهٔ.

و التعبیر ب «أولی النعمة» إشارة الغرور و الغفلة الناجمة من کثرة الأموال و الثروة المادیة، و لهذا یذکرهم القران فی النصف الأوّل من المخالفین علی طول تاریخ الأنبیاء، و فی الحقیقة أنّ هذه الآیة مشابهة للآیة (۳۴) من سورة سبأ حیث یقول تعالی: وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ کافِرُونَ فی حین أنّ هؤلاء لا بـدّ أن یلبوا دعوة الحق قبل غیرهم لیشکروا اللّه علی ما أنعم علیهم بهذا الوسیلة.

ثمّ یقول مصرّحا: إِنَّ لَدَیْنا أَنْکالًا وَ جَحِیماً.

«الأنکال»: جمع (نکل)، علی وزن (فکر) و هی السلاسل الثقال، و أصلها من نکول الضعف و العجز، أی أنّ الإنسان یفقد الحرکة بتقیید أعضائه بالسلاسل.

نعم، لقد تنعموا فی الدنیا و أخذوا حریتهم المطلقة، و لهذا لا بدّ لهم من القیود و النّار.

و کذا یضیف: وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِیماً.

هذا مصیر من کان یتلذذ بالطعام بعکس ما کان طعامهم فی الدنیا الحرام، حیث العذاب الألیم، و لمّا تمتع به المغرورون و المستکبرون من الراحة غیر المشروعة فی هذه الدنیا، و الطعام الموصوف بالغصّة هو بحدّ ذاته عذاب ألیم، ثمّ یتبع ذلک بذکر العذاب الألیم علی انفراد، و هذا یشیر إلی أنّ أبعاد العذاب الاخروی الذی لا یعلم شدّته و عظمته إلّا اللّه تعالی، و لهذا ورد فی حدیث أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۰

النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سمع قارئا یقرأ هذه فصعق.[۱۵۲] و جاء فی حدیث آخر أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو الذی کان یتلو الآیة فصعق ۱۵۳]، و کیف لا یکون هذا الطعام ذا غصّة فی حین الآیة (۶) من سورة الغاشیة تقول:

لَیْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِیعٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۱۴۰

کذا نقرأ فی الآیة (۴۳) و (۴۴) من سورة الدخان: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِیمِ

ثمّ یشرح ما یجری فی ذلک الیوم الذی یظهر فیه هذا العذاب فیقول: یَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ کانَتِ الْجِبالُ کَثِیباً مَهِیلًا.

«الکثیب»: یراد به الرمل المتراکم، و «المهیل» من هیل- علی وزن کیل- هو صبّ شیء ناعم کالرمل علی شیء، و یراد بالمعنی هنا الرمل الناعم و ما لا یستقر، و المعنی أنّ الجبال تتلاشی بحیث تظهر بهیئة الرمل الناعم، و إذا ما دیست بالأقدام فإنّها تطمس فیها.

و للقرآن المجید تعابیر مختلفة عن مصیر الجبال فی یوم القیامة، و تحکی عن انعدامها و تبدیلها بالأتربة الناعمة (أوردنا شرحا مفصلا حول المراحل المختلفة لانعدام الجبال و التعابیر المختلفة للقرآن فی هذا الباب فی ذیل الآیة ۱۰۵ من سورة طه).

ثمّ یقارن بین بعثة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و مخالفة الأشداء العرب، و بین نهوض موسی بن عمران بوجه الفراعنة فیقول تعالی: إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَیْکُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَیْکُمْ کَما أَرْسَلْنا إِلی فِرْعَوْنَ رَسُولًا.

إنّ هدف النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هدایتکم و الإشراف علی أعمالکم کما کان هدف موسی علیه السّلام هدایة فرعون و أتباعه و الإشراف علی أعمالهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۱

لم یکن جیش فرعون مانعا من العذاب الإلهی، و لم تکن سعة مملکتهم و أموالهم و ثراؤهم سببا لرفع هذا العذاب، ففی النهایة أغرقوا فی أمواج النیل المتلاطمة إذ أنّهم کانوا یتباهون بالنیل، فبماذا تفکرون لأنفسکم و أنتم أقل عدّة و عددا من فرعون و أتباعه و أضعف؟! و کیف تغترون بأموالکم و أعدادکم القلیلة؟! «الوبیل»: من (الوبل) و یراد به المطر الشدید و الثقیل، و کذا یطلق علی کل ما هو شدید و ثقیل بالخصوص فی العقوبات، و الآیة تشیر إلی شدّة العذاب النازل کالمطر.

ثمّ وجه الحديث إلى كفّار عصر بنىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يحذرهم بقوله: فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً[۱۵۴][۱۵۵].

بلى إنّ عذاب ذلك اليوم من الشدّة و الثقيل بحيث يجعل الولدان شيبا، و هذه كناية عن شدّة ذلك اليوم.

هذا بالنسبة لعذاب الآخرة، و هناك من يقول: إنّ الإنسان يقع أحيانا فى شدائد العذاب فى الدنيا بحيث يشيب منها الرأس فى لحظة واحدة.

على أى حال فإنّ الآية تشير إلى أنّكم على فرض أنّ العذاب الدنيوى لا ينزل عليكم كما حدث للفراعنة؟ فكيف بكم و عذاب يوم القيامة؟

فى الآية الاخرى يبيّن و صفا أدقّ لذلك اليوم المهول فيضيف: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا.

إنّ الكثير من الآيات الخاصّة بالقيامة و أشراط الساعة تتحدث عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۲

انفجارات عظيمة و زلازل شديدة و متغيرات سريعة، و الآية أعلاه تشير إلى جانب منها.

فما حيلة الإنسان الضعيف العاجز عند ما يرى تفطر السموات بعظمتها لشدّة ذلك اليوم؟![۱۵۶] و فى النّهاية يشير القرآن إلى جميع التحذيرات و الإنذارات السابقة فيقول تعالى: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ.

إنّكم مخيرون فى اختيار السبيل، فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا، و لا فضيلة فى اتّخاذ الطريق إلى اللّه بالإجبار و الإكراه، بل الفضيلة أن يختار الإنسان السبيل بنفسه و بمحض إرادته.

و الخلاصة أنّ اللّه تعالى هدى الإنسان إلى النجدين، و جعلهما واضحين كالشمس المضيئة فى وضح النهار، و ترك الإختيار للإنسان نفسه حتى يدخل فى طاعته سبحانه بمحض إرادته، و قد احتملت احتمالات متعددة فى سبب الإشارة إلى التذكرة، فقد قيل أنّها إشارة إلى المواعظ التى وردت فى الآيات السابقة، و قيل هى إشارة إلى السورة بكاملها، أو إشارة إلى القرآن المجيد.

و لعلها إشارة إلى إقامة الصلاة و قيام الليل كما جاء فى الآيات من السورة، و المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الآية تدل على توسعة الخطاب و تعميمه لسائر المسلمين، و لهذا فإنّ المراد من «السبيل» فى الآية هو صلاة الليل، و التى تعتبر سبيل خاصّ و مهمّة تهدى إلى اللّه تعالى، كما ذكرت فى الآية (۲۶) من سورة الدهر بعد أن أشير إلى صلاة الليل بقوله تعالى: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا.

و يقول بعد فاصلة قصيرة: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۳

و هى بعينها الآية التى نحن بصدد البحث فيها[۱۵۷].

و بالطبع هذا التّفسير مناسب، و الأنسب منه أن تكون الآية ذات مفهوم أوسع حيث تستوعب هذه السورة جميع مناهج صنع الإنسان و تربيته كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

***

ملاحظة

المراحل الأربع للعذاب الإلهى

الآيات السابقة تهدد المكذبين المغرورين بأربعة أنواع من العذاب الأليم:

النكال، الجحيم، الطعام ذو الغصّة، و العذاب الأليم، هذه العقوبات فى الحقيقة هى تقع فى مقابل أحوالهم فى هذه الحياة الدنيا.

فمن جهة كانوا يتمتعون بالحرية المطلقة.

الحياة المرفهة ثانيا.

لما لهم من الأطعمة السائغة من جهة ثالثة.

و الجهة الرابعة لما لهم من وسائل الراحة، و هكذا سوف يجزون بهذه العقوبات لما قابلوا هذه النعم بالظلم و سلب الحقوق و الكبر و الغرور و الغفلة عن اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۴

الآية [سورة المزمل (۷۳): آية ۲۰]

اشارة

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۰)

التّفسير

فاقرؤوا ما تيسر من القرآن:

هذه الآية هى من أطول آيات هذه السورة و تشتمل على مسائل كثيرة، و هى مكملة لمحتوى الآيات السابقة، و هناك أقوال كثيرة للمفسّرين حول ما إذا كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۵

هذه الآية ناسخة لحكم صدر السورة أم لا، و كذلك فى مكّيتها أو مدنيتها، و يتّضح لنا جواب هذه الأسئلة بعد تفسير الآية.

فيقول تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ[۱۵۸].

الآية تشير إلى نفس الحكم الذى أمر به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى صدر السورة من قيام الليل و الصلاة فيه، و ما أضيف فى هذه الآية هو اشتراك المؤمنين فى العبادة مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (بصيغة حكم استحبابى أو باحتمال حكم وجوبى لأنّ ظروف صدر الإسلام كانت تتجاوب مع بناء ذواتهم و الاستعداد للتبليغ و الدفاع عنه بالدروس العقائدية المقتبسة من القرآن المجيد، و كذا بالعمل و الأخلاق و قيام الليل، و لكن يستفاد من بعض الرّوايات أنّ المؤمنين كانوا قد وقعوا فى إشكالات ضبط الوقت للمدة المذكورة (الثلث و النصف و الثلثين) و لذا كانوا يحتاطون فى ذلك، و كان ذلك يستدعى استيقاظهم طول الليل و القيام حتى تتورم أقدامهم، و لذا بنى هذا الحكم على التخفيف، فقال: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

«لن تحصوه»: من (الإحصاء) و هو عد الشىء، أى علم أنّكم لا تستطيعون إحصاء مقدار الليل الذى أمرتم بقيامه و الإحاطة بالمقادير الثلاثة.

و قال البعض: إنّ معنى الآيـة أنّكم لا تتمكنون من المداومـة على هذا العمل طيلة أيّام السنة، و لا يتيسـر لعامّة المكلّفين إحصاء ذلك لاختلاف الليالى طولا و قصرا، مع وجود الوسائل التى توقظ الإنسان.

و المراد ب فَتابَ عَلَيْكُمْ خفف عليكم التكاليف، و ليس التوبـة من الـذنب، و يحتمل أنّه فى حال رفع الحكم الوجوبى لا يوجـد ذنب من الأساس، و النتيجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۶

تكون مثل المغفرة الإلهية.

و أمّا عن معنى الآيـة: فَاقْرَؤُا مـا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ فقـد قيـل فى تفسيرها أقوال، فقال بعضـهم: إنّها تعنى صـلاة الليل التى تتخللها قراءة الآيات القرآنية، و قال الآخرون: إنّ المراد منها قراءة القرآن، و إن لم تكن فى أثناء الصـلاة، و فسّـرها البعض بخمسين آية، و قيل مائة آية، و قيل مائتان، و لا دليل على ذلك، بل إنّ مفهوم الآية هو قراءة ما يتمكن عليه الإنسان.

و بديهى أنّ المراد من قراءة القرآن هو تعلم الدروس لبناء الذات و تقوية الإيمان و التقوى.

ثمّ يـبيّن دليلاـ آخرا للتخفيف فيضـيف تعـالى: عَلِمَ أَنْ سَـيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضـى وَ آخَرُونَ يَضْـرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ و هـذا تخفيف آخر كما قلنا فى الحكم، و لـذا يكرر قوله «فاقرؤوا ما تيسـر منه»، و الواضح أنّ المرض و الأسـفار و الجهاد فى سبيل اللّه ذكرت بعنوان ثلاثـة أمثلـة للأعـذار الموجهة و لا تعنى الحصـر، و المعنى هو أنّ اللّه يعلم أنّكم سوف تلاقون، كثيرا من المحن و المشاكل الحياتية، و بالتالى تؤدى إلى قطع المنهج الذى أمرتم به، فلذا خفف عليكم الحكم.

و هنا يطرح هـذا السؤال، و هو: هل أنّ هذا الحكم ناسخ للحكم الذى ورد فى صدر السورة، أم هو حكم اسـتثنائى؟ ظاهر الآيات يدل على النسـخ، و فى الحقيقة أنّ الغرض من الحكم الأوّل فى صدر السورة هو إقامة المنهج العبادى، و هذا ما حصل لمدّة معينة ثمّ نسـخ بعـد ذلك بهـذه الآية، و أصـبح أخف من ذى قبل، لأنّ ظاهر الآية يدل على وجود معذورين، فلذا حفف الحكم على الجميع، و ليس للمعذورين فحسب، و لذا لا يمكن أن يكون حكما استثنائيا بل هو حكم ناسخ.

و يرد سؤال آخر، هو: هـل أنّ الحكم المـذكور بقراءة مـا تيسّـر من القرآن واجب أم مستحب؟ إنّه مسـتحب، و احتمـل البعض الآخر الوجوب، لأنّ قراءة القرآن تبعث على معرفة دلائل التوحيد، و إرسال الرسل، و واجبات الدين، و على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۷

هذا الأساس تكون القراءة واجبة.

و لكن يجب الالتفـات إلى أنّ الإنسـان لا يلزم بقراءة القرآن ليلا أثناء صـلاة الليل، بل يجب على المكلّف أن يقرأ بمقـدار ما يحتاجه للتعليم و التربية لمعرفة اصول و فروع الإسـلام و حفظه و إيصاله إلى الأجيال المقبلة، و لا يختص ذلك بزمان و مكان معينين، و الحقّ هو وجوب القراءة لما فى ظاهر الأمر (فاقرؤا كما هو مبيّن فى اصول الفقه) إلّا أن يقال بقيام الإجماع على عـدم الوجوب، فيكون حينها مسـتحبا، و النتيجة هى وجوب القراءة فى صدر الإسلام لوجود الظروف الخاصّة لذلك، و اعطى التخفيف بالنسبة للمقدار و الحكم، و ظهر الاسـتحباب بالنسـبة للمقدار الميسّـر، و لكن صـلاة الليل بقيت واجبة على الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم طيلة حياته (بقرينة سائر الآيات و الرّوايات).

و نقرأ

فى حديث ورد عن الإمام الباقر عليه السّـلام حيث يقول: «... متى يكون النصف و الثلث نسخت هذه الآية فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ... و اعلموا أنّه لم يأت نبيّ قط إلّا خلا بصلاة الليل، و لا جاء نبى قط صلاة الليل فى أوّل الليل»[۱۵۹].

و الملاحظ فى الآيـة ذكر ثلاثـة نماذج من الأعذار، أحدها يتعلق بالجسم (المرض)، و الآخر بالمال (السـفر)، و الثالث بالدين (الجهاد فى سبيل اللّه)، و لذا قال البعض: إنّ المسـتفاد من الآية هو السعى للعيش بمثابة الجهاد فى سبيل اللّه! و قالوا: إنّ هذه الآية مدنيّة بدليل

سیاقها فی وجوب الجهاد، إلّا أنّ الجهاد لم یکن فی مکّهٔ، و لکن بالالتفات إلی قوله: سَیَکُونُ یمکن أن تکون الآیهٔ مخبرهٔ علی تشریع الجهاد فی المستقبل، أی بسبب ما لدیکم من الأعذار و ما سیکون من الأعذار، لم یکن هذا الحکم دائمیا، و بهذا الصورهٔ یمکن أن تکون الآیهٔ مکّیهٔ و لا منافاهٔ فی ذلک.

ثمّ یشیر إلی أربعهٔ أحکام اخری، و بهذه الطریقهٔ یکمل البناء الروحی للإنسان فیقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۸

وَ أَقِیمُوا الصَّلاهَٔ وَ آتُوا الزَّکاهَٔ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِکُمْ مِنْ خَیْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَیْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

هـذه الأوامر الأربعـهٔ (الصـلاهٔ، الزکاهٔ، القروض المسـتحبهٔ، الاسـتغفار) مع الأمر بالقراءهٔ و التـدبر فی القران الـذی ورد من قبل تشـکّل بمجموعها منهجا للبناء الروحی، و هذا مهم للغایهٔ بالخصوص لمن کان فی عصر صدر الإسلام.

و المراد من «الصـلاهٔ» هنـا الصـلوات الخمس المفروضـهٔ، و المراد من «الزکـاهٔ» الزکـاهٔ المفروضـهٔ و من إقراض اللّه تعـالی هو إقراض النـاس، و هـذه من أعظم العبـارات المتصورهٔ فی هـذا البـاب، فـإنّ مالک الملک یسـتقرض بمن لا یملک لنفسه شـیئا، لیرغبهم بهـذه الطریقهٔ للإنفاق و الإیثار و اکتساب الفضائل منها و لیتربی و یتکامل بهذه الطریقهٔ.

و ذکر «الاسـتغفار» فی آخر هـذه الأوامر یمکن أن یکون إشارهٔ إلی هـذا المعنی و إیّاکم و الغرور إذا ما أنجزتم هـذه الطاعات، و بأنّ تتصوروا بأنّ لکم حقّا علی اللّه، بل اعتبروا أنفسکم مقصرین علی الدوام و اعتذروا للّه.

و یری البعض أنّ التأکید علی هذه الأوامر هو لئلا یتصور المسـلّم أنّ التخفیف سار علی جمیع المناهج و الأوامر الدینیهٔ کما هو الحال فی التخفیف الذی امر به النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه فی قیام و قراءهٔ القرآن، بل إنّ المناهج و الأوامر الدینیهٔ باقیهٔ علی متانتها و قوّتها[۱۶۰].

و قیل إنّ ذکر الزکاهٔ المفروضـهٔ فی هـذه الآیـهٔ هو دلیل آخر علی مدنیّهٔ هـذه الآیهٔ، لأنّ حکم الزکاهٔ نزل بالمدینهٔ و لیس فی مکّهٔ، و لکن البعض قال: إنّ حکم الزکاهٔ نزل فی مکّهٔ من غیر تعیین نصاب و مقدار لها، و الذی فرض بالمدینهٔ تعیین الأنصاب و المقادیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۹

ملاحظات

۱- ضرورهٔ الاستعداد العقائدی و الثقافی

لغرض إیجاد ثورهٔ واسـعهٔ فی جمیع الشؤون الحیاتیهٔ أو إنجاز عمل اجتماعی ذی أهمیهٔ لا بدّ من وجود قوّهٔ عزم بشـریهٔ قبل کل شیء، و ذلک مع الإعتقاد الراسـخ، و المعرفهٔ الکاملهٔ، و التوجیه و الفکری و الثقافی الضـروری و التربوی، و التربیهٔ الأخلاقیهٔ، و هذا ما قام به النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی مکّهٔ فی السـنوات الاولی للبعثـهٔ، بل فی مـدّهٔ حیاته صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، و لوجود هـذا الأساس المتین للبناء أخذ الإسلام بالنمو السریع و الرشد الواسع من جمیع الجهات.

و ما جاء فی هـذه السورهٔ هو نموذج حی و منطقی لهذا المنهج المدروس، فقد خلّف القیام لثلثی اللیل أو ثلثه و قراءهٔ القرآن و التمعن فیه أثرا بالغا فی أرواح المؤمنین، و هیأهم لقبول القول الثقیل و السـبح الطویل، و تطبیق هذه الأوامر التی هی أشدّ وطأ و أقوم قیلا کما یعبّر عنه القرآن، هی التی أعطتهم هـذه الموفقیـهٔ، و جهزت هـذه المجموعـهٔ المؤمنـهٔ القلیلهٔ، و المستضـعفهٔ و المحرومهٔ بحیث أهلتهم لإدارهٔ مناطق واسـعهٔ من العالم، و إذا ما أردنا نحن المسـلمین إعادهٔ هـذه العظمـهٔ و القـدرهٔ القدیمهٔ علینا أن نسـلک هذا الطریق و هذا

المنهج، و لا یجب علینا إزالة حکومة الصهاینة بالاعتماد علی أناس عاجزین و ضعفاء لم یحصلوا علی ثقافة أخلاقیة.

۲- قراءة القرآن و التفکر

یستفاد من الرّوایات الإسلامیة أنّ فضائل قراءة القرآن لیس بکثرة القراءة، بل فی حسن القراءة و التدبر و التفکر فیها، و من الطریف أنّ هناک روایة

وردت عن الإمام الرضا علیه السّلام فی تفسیر ذیل الآیة: فَاقْرَؤُا ما تَیَسَّرَ مِنْهُ رواها عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۰

جدّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما تیسّر منه لکم فیه خشوع القلب و صفاء السر»[۱۶۱]،

لم لا یکون کذلک و الهدف الأساس للقراءة هو التعلیم و التربیة.

و الرّوایات فی هذا المعنی کثیرة.

۳- السعی للعیش کالجهاد فی سبیل اللّه

کما عرفنا من الآیة السابقة فإنّ السعی لطلب الرزق جعل مرادفا للجهاد فی سبیل اللّه، و هذا یشیر إلی أنّ الإسلام یعیر أهمیة بالغه لهذا الأمر، و لم لا یکون کذلک فلأمّة الفقیرة و الجائعة المحتاجة للأجنبی لا یمکن لها أن تحصل علی الاستقلال و الرفاه، و المعروف أنّ الجهاد الاقتصادی هو قسم من الجهاد مع الأعداء، و قد نقل فی هذا الصدد قول عن الصحابی المشهور عبد اللّه بن مسعود:

«أیما رجل جلب شیئا إلی مدینة من مدائن المسلمین صابرا محتسبا فباعه بسعر یومه کان عند اللّه بمنزلة الشهداء» ثمّ قرأ: وَ آخَرُونَ یَضْرِبُونَ فِی الْأَرْضِ ۱۶۲].

اللّهم! وفقنا للجهاد بکلّ أبعاده.

ربّنا! وفقنا لقیام اللیل و قراءة القرآن الکریم و تهذیب أنفسنا بواسطة هذا النور السماوی.

ربّنا! منّ علی مجتمعنا الإسلامی بمقام الرفعة و العظمة بالإلهام من هذه السورة العظیمة.

آمین ربّ العالمین نهایة سورة المزّمل***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۱

سورة المدّثّر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ستّ و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۳

«سورة المدّثّر»

محتوی السورة:

لا شک أنّ هذه السورة هی من السور المکّیة و لکن هناک تساؤل عن أنّ هذه السورة هل هی الاولی النازلة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أم نزلت بعد سورة العلق؟

یتّضح من التمعن فی محتوی سورة العلق و المدثر أنّ سورة العلق نزلت فی بدء الدعوة، و أنّ سورة المدثر نزلت فی زمن قد امر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیه بالدعوة العلنیة، و انتهاء فترة الدعوة السرّیة، لذا قال البعض أنّ سورة العلق هی أوّل سورة نزلت فی صدر البعثة، و المدثر هی السورة الاولی التی نزلت بعد الدعوة العلنیة، و هذا الجمع هو الصحیح.

و مهما یکن فإنّ سیاق السور المکّیة التی تشیر إلی الدعوة و إلی المبدأ و المعاد و مقارعة الشرک و تهدید المخالفین و إنذارهم بالعذاب الإلهی واضح الوضوح فی هذه السورة.

یدور البحث فی هذه السورة حول سبعة محاور و هی:

۱- یأمر اللّه تعالی رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإعلان الدعوة العلنیة، و یأمر أن ینذر المشرکین، و تمسک بالصبر و الاستقامة فی هذا الطریق و الاستعداد الکامل لخوض هذا الطریق.

۲- تشیر إلی المعاد و أوصاف أهل النّار الذین واجهوا القرآن بالتکذیب و الإعراض عنه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۴

۳- الإشارة إلی بعض خصوصیات النّار مع إنذار الکافرین.

۴- التأکید علی المعاد بالأقسام المکررة.

۵- ارتباط عاقبة الإنسان بعمله، و نفی کل أنواع التفکر غیر المنطقی فی هذا الإطار.

۶- الإشارة إلی قسم من خصوصیات أهل النّار و أهل الجنّة و عواقبهما.

۷- کیفیة فرار الجهلة و المغرورین من الحقّ.

فضیلة السورة:

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأ سورة المدثر اعطی من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمّد و کذب به بمکّة»[۱۶۳].

و

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام قال: «من قرأ فی الفریضة سورة المدثر کان حقّا علی اللّه أن یجعله مع محمّد فی درجته، و لا یدرکه فی حیاة الدنیا شقاء أبدا»[۱۶۴]

و بدیهی أنّ هذه النتائج العظیمة لا تتحقق بمجرّد قراءة الألفاظ فحسب، بل لا بدّ من التمعن فی معانیها و تطبیقها حرفیا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۵

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ (۲) وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ (۳) وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ (۴)

وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵) وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَکْثِرُ (۶) وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ (۷) فَإِذا نُقِرَ فِی النَّاقُورِ (۸) فَذلِکَ یَوْمَئِذٍ یَوْمٌ عَسِیرٌ (۹)

عَلَی الْکافِرِینَ غَیْرُ یَسِیرٍ (۱۰)

التّفسیر

قم و انذر النّاس:

لا شک من أنّ المخاطب فی هذه الآیات هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن لم یصرح باسمه، و لکن القرائن تشیر إلی ذلک، فیقول أوّلا: یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ فلقد ولی زمن النوم الاستراحة، و حان زمن النهوض و التبلیغ، و ورد التصریح هنا بالإنذار مع أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مبشر و نذیر، لأنّ الإنذار له أثره العمیق فی إیقاظ الأرواح النائمة خصوصا فی بدایة العمل.

و أورد المفسّرون احتمالات کثیرة عن سبب تدثره صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و دعوته إلی القیام و النهوض.

۱- اجتمع المشرکون من قریش فی موسم الحج و تشاور الرؤساء منهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۶

کأبی جهل و أبی سفیان و الولید بن المغیرة و النضر بن الحارث و غیرهم فی ما یجیبون به عن أسئلة القادمین من خارج مکّة و هم یناقشون أمر النّبی الذی قد ظهر بمکّة، و فکروا فی و أن یسمّی کلّ واحد منهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باسم، لیصدوا الناس عنه، لکنّهم رأوا فی ذلک فساد الأمر لتشتت أقوالهم، فاتفقوا فی أن یسمّوه ساحرا، لأنّ أحد آثار السحرة الظاهرة هی التفریق بین الحبیب و حبیبه، و کانت دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد أثّرت هذا الأثر بین الناس! فبلغ ذلک النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتأثر و اغتم لذلک، فأمر بالدثار و تدثر، فأتاه جبرئیل بهذه الآیات و دعاه إلی النهوض و مقابلة الأعداء.

۲- إنّ هذه الآیات هی الآیات الأولی التی نزلت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لما نقله جابر بن عبد اللّه قال: جاوزت بحراء فلمّا قضیت جواری نودیت یا محمّد، أنت رسول اللّه، فنظرت عن یمینی فلم أر شیئا، و نظرت عن شمالی فلم أر شیئا، و نظرت خلفی فلم أر شیئا، فرفعت رأسی فإذا الملک الذی جاءنی بحراء جالس علی کرسی بین السماء و الأرض، فملئت منه رعبا، فرجعت إلی خدیجة و قلت:

«دثرونی دثرونی، و اسکبوا علیّ الماء البارد»، فنزل جبرئیل بسورة: یا أَیُّهَا الْمُدَّثِّرُ.

و لکن بلحاظ أن آیات هذه السورة نظرت للدعوة العلنیة، فمن المؤکّد أنّها نزلت بعد ثلاث سنوات من الدعوة الخفیة، و هذا لا ینسجم و الروية المذکورة، إلّا أن یقال بأنّ بعض الآیات التی فی صدر السورة قد نزلت فی بدء الدعوة، و الآیات الأخری مرتبطة بالسنوات التی تلت الدعوة.

۳- إنّ النّبی کان نائما و هو متدثر بثیابه فنزل علیه جبرائیل علیه السّلام موقظا إیّاه، ثمّ قرأ علیه الآیات أن قم و اترک النوم و استعد لإبلاغ الرسالة.

۴- لیس المراد بالتدثر التدثر بالثیاب الظاهریة، بل تلبسه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالنبوّة و الرسالة کما قیل فی لباس التقوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۷

۵- المراد به اعتزاله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و انزواؤه و استعد لإنذار الخلق و هدایة العباد[۱۶۵] و المعنی الأوّل هو الأنسب ظاهرا.

و من الملاحظ أنّ جملة (فانذر) لم یتعین فیها الموضوع الذی ینذر فیه، و هذا یدل علی العمومیة، یعنی إنذار الناس من الشرک و عبادة الأصنام و الکفر و الظلم و الفساد، و حول العذاب الإلهی و الحساب المحشر ... إلخ (و یصطلح علی ذلک بأن حذف المتعلق یدل علی العموم). و یشمل ضمن ذلک العذاب الدنیوی و العذاب الاخروی و النتائج السیئة لأعمال الإنسان التی سیبتلی بها فی

المستقبل.

ثم يعطى للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خمسة أوامر مهمّة بعد الدعوة إلى القيام و الإنذار، تعتبر منهاجا يحتذى به الآخرون، و الأمر الأوّل هو فى التوحيد، فيقول: وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ[۱۶۶].

ذلك الربّ الذى هو مالكك مربيك، و جميع ما عندك فمنه تعالى، فعليك أن تضع غيره فى زاوية النسيان و تشجب على كلّ الآلهة المصطنعة، و امح كلّ آثار الشرك و عبادة الأصنام.

ذكر كلمة (ربّ) و تقديمها على (كبّر) الذى هو يدل على الحصر، فليس المراد من جملة «فكبر» هو (اللّه أكبر) فقط، مع أنّ هذا القول هو من مصاديق التكبير كما ورد من الرّوايات، بل المراد منه أنسب ربّك إلى الكبرياء و العظمة اعتقادا و عملا، قولا فعلا و هو تنزيهه تعالى من كلّ نقص و عيب، و وصفه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۸

بأوصاف الجمال، بل هو أكبر من أن يوصف، و لذا ورد فى الرّوايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فى معنى اللّه أكبر:

«اللّه أكبر من أن يوصف»،

و لذا فإنّ التكبير له مفهوم أوسع من التسبيح الذى هو تنزيهه من كل عيب و نقص.

ثمّ صدر الأمر الثّانى بعد مسألة التوحيد، و يدور حول الطهارة من الدنس فيضيف: وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ، التعبير بالثوب قد يكون كناية عن عمل الإنسان، لأنّ عمل الإنسان بمنزلة لباسه، و ظاهره مبين لباطنه، و قيل المراد منه القلب و الروح، أى طهر قلبك و روحك من كلّ الأدران، فإذا وجب تطهير الثوب فصاحبه اولى بالتطهير.

و قيل هو اللباس الظاهر، لأنّ نظافة اللباس دليل على حسن التربية و الثقافة، خصوصا فى عصر الجاهلية حيث كان الاجتناب من النجاسة قليلا و إن ملابسهم وسخة غالبا، و كان الشائع عندهم تطويل أطراف الملابس (كما هو شائع فى هذا العصر أيضا) بحيث كان يسحل على الأرض، و ما

ورد عن الإمام الصّادق عليه السّلام فى معنى أنّه: «ثيابك فقصر»[۱۶۷]،

ناظر إلى هذا المعنى.

و قيل المراد بها الأزواج لقوله تعالى: هُنَّ لِباسٌ لَکُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ ۱۶۸]، و الجمع بين هذه المعانى ممكن، و الحقيقة أنّ الآية تشير إلى أنّ القادة الإلهيين يمكنهم إبلاغ الرسالة عند طهارة جوانبهم من الأدران و سلامة تقواهم، و لذا يستتبع أمر إبلاغ الرسالة و لقيام بها أمر آخر، هو النقاء و الطهارة.

و يبيّن تعالى الأمر الثّالث بقوله: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ المفهوم الواسع للرجز كان سببا لأن تذكر فى تفسيره أقوال مختلفة، فقيل: هو الأصنام، و قيل: المعاصى، و قيل: الأخلاق الرّذيلة الذميمة، و قيل: حبّ الدنيا الذى هو رأس كلّ خطيئة، و قيل هو العذاب الإلهى النازل بسبب الترك و المعصية، و قيل: كل ما يلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۹

عن ذكر اللّه.

و الأصل أنّ معنى «الرجز» يطلق على الاضطراب و التزلزل ۱۶۹] ثمّ اطلق على كل أنواع الشرك، عبادة الأصنام، و الوساوس الشيطانية و الأخلاق الذميمة و العذاب الإلهى التى تسبب اضطراب الإنسان، فسّره البعض بالعذاب ۱۷۰]، و قد اطلق على الشرك و المعصية و الأخلاق السيئة و حبّ الدّنيا تجلبه من العذاب.

و ما تجدر الإشارة إليه أنّ القرآن الكريم غالبا ما استعمل لفظ «الرجز» بمعنى العذاب ۱۷۱]، و يعتقد البعض أنّ كلمتى الرجز و الرجس مرادفان ۱۷۲].

و هـذه المعانی الثلاثـة، و إن كانت متفاوتة، و لكنّها مرتبطة بعضـها بالآخر، و بالتالی فإنّ للآیة مفهوما جامعا، و هو الانحراف و العمل السیء، و تشمل الأعمال التی لا ترضی اللّه عزّ و جلّ، و الباعثة علی سخر اللّه فی الدنیا و الآخرة، و من المؤكّد أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قـد هجر و اتقی ذلك حتی قبل البعثـة، و تاریخه الـذی یعترف به العدو و الصدیق شاهد علی ذلك، و قد جاء هذا الأمر هنا لیكون العنوان الأساس فی مسیر الدعوة إلی اللّه، و لیكون للناس أسوة حسنة.

و یقول تعالی فی الأمر الرّابع: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ.

هنـا التعلـق محـذوف أیضـا، و یـدل علی سـعة المفهـوم كلیته، و یشـمل المنّـة علی اللّه و الخلائـق، أی فلاـ تمنن علی اللّه بسـعیك و اجتهادك، لأنّ اللّه تعالی هو الذی منّ علیك بهذا المقام المنیع.

و لا تستكثر عبادتك و طاعتك و أعمالك الصالحة، بل علیك أن تعتبر نفسك مقصرا و قاصرا، و استعظم ما وفقت إلیه من العبادة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۰

و بعبـارة أخری: لاـ تمنن علی اللّه بقیامـك بالإنـذار و دعوتك إلی التوحیـد و تعظیمك للّه و تطهیرك ثیابك و هجرك الرجز، و لا تسـتعظم كـل ذلـك، بـل أعلم أنّه لو قـدمت خدمـة للنـاس سواء فی الجوانب المعنویـة كالإرشـاد و الهدایـة، أم فی الجوانب المـادیة كالإنفاق و العطاء فلا ینبغی أن تقـدمها مقابل منّـة، أو توقع عوض أكبر ممّا أعطیت، لأنّ المنّـة تحبط الأعمال الصالحـة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذی ۱۷۳].

«لاـ تمنن» من مـادة «المنّـة» و تعنی فی هـذه الموارد الحـدیث عن تبیـان أهمیـة النعم المعطاة للغیر، و هنا یتّضـح لنا العلاقـة بینه و بین الاسـتكثار، لأنّ من یستصـغر عمله لا ینتظر المكافأة، فكیف إذن بالاسـتكثار، فإنّ الامتنان یؤدی دائما إلی الاسـتكثار، و هذا ممّا یزیل قیمة النعم، و ما جاء من الرّوایات یشیر لهذا المعنی:

«لا تعط تلتمس أكثر منها»[۱۷۴]

كما

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الآیة: «لا تستكثر ما عملت من خیر للّه»[۱۷۵]

و هذا فرع من ذلك المفهوم.

و یشـیر فی الآیة الأخری إلی الأمر الأخیر فی هذا المجال فیقول: وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ، و نواجه هنا مفهوما واسعا عن الصبر الذی یشمل كلّ شیء، أی اصبر فی طریق أداء الرسالة، و اصبر علی أذی المشـركین الجهلاء، و اسـتقم فی طریق عبودیة اللّه و طاعته، و اصبر فی جهاد النفس و میدان الحرب مع الأعداء.

و من المؤكّـد أنّ الصبر هو ضـمان لإجراء المناهج السابقة، و المعروف أنّ الصبر هو الثروة الحقیقیة لطریق الإبلاغ و الهدایة، و هذا ما اعتمده القرآن الكریم

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۱

كرارا، و لهذا نقرأ

فی حدیث أمیر المؤمنین علیه السّلام: «اصبر من الإیمان كالرأس من الجسد»[۱۷۶]،

و لقد كان الصبر و الاعتدال أحد الأصول المهمّة لمناهج الأنبیاء و المؤمنین. و كلما ازدادت علیهم المحن ازداد صبرهم.

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال حول أجر الصابرین: «قال اللّه تعالی:

إذا وجهت إلی عبـد من عبیدی مصـیبة فی بدنه أو ماله أو ولده، ثمّ اسـتقبل ذلك بصبر جمیل اسـتحییت منه یوم القیامة أن أنصب له میزانا أو أنشر له دیوانا».

ثمّ أنّ الآیـات الشـریفة و فی تعقیب لأـمر ورد فی الآیات السابقـة فی إطار القیام و إنـذار المشـركین، توكّـد مرّة اخری علی الإنـذار و

التحذير، فيقول تعالى:

فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ.

وردت احتمالات متعددة فی تركيب هذه الجملة، أفضلها ما جاء فی كتاب (البيان فی غريب إعراب القرآن) و الذی يقول: (ذلك مبتدأ و يومئذ بدل و يوم عسير خبره)، و الملاحظ أنّ (ناقور) هی فی الأصل من نقر، و يعنی الدق المؤدی إلی الإثقاب و منها سمّی المنقار، و هو ما تمتلكه الطيور لدق الأشياء و ثقبها، و لذلك يطلق اسم النّاقور علی مزمار الذی يخرق صوته اذن الإنسان و ينفذ إلی دماغه.

و يستفاد من الآيات القرآنية أنّ فی نهاية الدنيا و بدء المعاد بنفخ فی الصور مرّتين، أی أن له صوتين موحشين و مرعبين يملآن مسامع العالم بأسره، أوّلهما صوت الموت، و الثّانی صوت اليقظة و الحياة، و يعبر عنهما (نفخة الصور الاولی) و (نفخة الصور الثّانية) و هذا الآية تشير إلی نفخة الصور الثّانية، و التی يكون معها

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۲

يوم البعث و هو يوم صعب و ثقيل علی الكفّار، و لقد كان لنا بحث مفصل حول الصور و نفخة الصور فی ذيل الآية (۶۸) من سورة الزمر.

علی كل حال فإنّ الآيات المذكورة أعلاه تشير إلی حقيقة أنّ مشاكل الكفّار تظهر الواحدة بعد الأخری فی يوم نفخة البعث، و هو يوم أليم و مفجع، و يركّع أقوی الناس.

***

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۳

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۱۱ الی ۱۷]

اشارة

ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (۱۲) وَ بَنِينَ شُهُوداً (۱۳) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (۱۴) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (۱۵) كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (۱۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (۱۷)

سبب النّزول

ذكر سببان هذه الآيات، هما:

۱- اجتمعت قريش فی دار الندوة فالتفت الوليد بن المغيرة إليهم، و كان الوليد شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، و قال: وحدوا قولكم، فإنّ العرب يأتونكم من كل صوب و يسألونكم عمّا خفی عنهم لما عندكم من المنزلة السامية، ثمّ قال: ماذا تقولون فی الرجل- و كان يعنی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم- قالوا:

شاعر. فقبض الوليد وجهه، و قال إنّنا سمعنا الشعر و ما هو شعر، قالوا: كاهن، قال:

هل يصدر منه كلام الكهنة عند استماعكم إليه؟ هل يتحدث عن الغيب؟ قالوا:

مجنون. قال: لا يظهر عليه أثر الجنون. قالوا: ساحر: قال: كيف؟ قالوا: يفرق بين الحبيب و حبيبه، فقال: بلی- لافتراق من كان يسلّم عن جماعته، فتفرّقوا و صاروا يمرون برسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و ينادونه يا ساحر يا ساحر، فسمع النّبی صلّی اللّه عليه و آله و

سلّم ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۴

و اغتم لهذا الأمر، فنزلت بالآیات المذکورة فی صدر السورة حتی الآیة (۲۵) لمواساة الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قیل: لما نزلت علیه: حم تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِیدِ الْعِقابِ قام إلی المسجد و الولید بن المغیرة قریب منه یسمع قراءته، فلما فطن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآیة، فانطلق الولید حتی أتی مجلس قومه مخزوم، فقال: و اللّه، لقد سمعت من محمّد آنفا کلاما ما هو من کلام الإنس، و لا من کلام الجن، و إنّ له لحلاوة و إنّ علیه لطلاوة، و إنّ أعلاه لمثمر و أنّ أسفله لمغدق، و إنّه لیعلو و ما یعلی، ثمّ انصرف إلی منزله.

فقالت قریش: صبا- و اللّه- الولید، و اللّه لتصبأنّ قریش کلّها، و کان یقال للولید ریحانة قریش، فقال أبو جهل: أنا أکفیکموه، فانطلق فقعد إلی جانب الولید حزینا، فقال له الولید: ما أراک حزینا یا ابن أخی، قال: هذه قریش یعیبونک علی کبر سنّک، و یزعمون أنّک مدحت کلام محمّد فقام مع أبی جهل حتی أتی مجلس قومه، فقال: أ تزعمون أنّ محمّدا مجنون، فهل رأیتموه یخنق قط؟ فقالوا: اللّهمّ لا.

قال: أ تزعمون أنّه کاهن، فهل رأیتم علیه شیئا من ذلک؟ قالوا: اللّهم لا.

قال: أ تزعمون أنّه شاعر، فهل رأیتموه أنّه ینطق بشعر قط؟ قالوا: اللّهمّ لا.

قال: أ تزعمون أنّه کذّاب، فهل جربتم علی شیئا من الکذب؟ قالوا: اللّهمّ لا، و کان یسمی الصادق الأمین قبل النبوّة من صدقه، فقالت قریش للولید: فما هو؟! فتفکر فی نفسه، ثمّ نظر و عبس، فقال: ما هو إلّا ساحر، ما رأیتموه یفرق بین الرجل و أهله و ولده و موالیه فهو ساحر و ما یقوله سحر یؤثر[۱۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۵

التّفسیر

الولید بن المغیرة ... الثری المغرور:

تواصل هذه الآیات إنذار الکفّار و المشرکین کما فی الآیات السابقة مع فارق، و هو أنّ الآیات السابقة کانت تنذر الکافرین بشکل عام، و هذه تنذر أفرادا معینین بتعابیر قویة و بلیغة بأشدّ الإنذارات، فیقول تعالی: ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً و الآیات الآتیة نزلت فی الولید بن المغیرة کما قلنا، و هو من أقطاب قریش المشهورین و (وحیدا) یمکن أن یکون وصفا للخالق جلّ شأنه، و یمکن أن یکون للمخلوق، و هناک احتمالان للمعنی الأوّل للوحید.

الأوّل: ذرنی وحیدا مع هذا الکافر لاعذّبه عذابا شدیدا.

و الآخر: دعنی و من خلقته حال کونی وحیدا لا یشارکنی فی خلقه أحد، ثمّ دبّرت أمره أحسن التدبیر، و لا تحلّ بینی و بینه لکونه منکرا لنعمائی.

و أمّا المعنی الثّانی فهناک احتمالات أیضا، فقد یکون المعنی: دعنی و من خلقته حال کونه وحیدا فی بطن امّه و عند ولادته لا أموال عنده و لا أولاد، ثمّ وهبته من نعمائی.

أو أنّه سمّی نفسه بذلک کما فی المقولة المشهورة: «أنا الوحید ابن الوحید، لیس لی فی العرب نظیر، و لا لأبی نظیر[۱۷۸]»! و ذکر المعنی فی الآیة استهزاء بقوله و أحسن الوجوه الأربعة أوّلها.

ثمّ یضیف تعالی: وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً.

«الممدود»: یعنی فی الأصل المبسوط، و یشیر إلی کثرة أمواله و حجمها.

و قیل: إنّ أمواله بلغت حدّا من الکثرة بحیث ملک الإبل و الخیول و الأراضی الشاسعة ما بین مکّة و الطائف، و قیل إنّه یملک ضیاع و مزارع دائمة الحصاد، و له

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۶

مائة ألف دینار ذهب، و کل هذه المعانی تجتمع فی کلمة «الممدود».

ثمّ أشار تعالی إلی قوته فی قوله: وَ بَنِینَ شُهُوداً.

إذا کانوا یعینونه علی حیاته، و حضورهم إنس و راحة له، و ما کانوا مضطرین لأن یضربوا فی الأرض طلبا للعیش، و یترکوا أباهم وحیدا، إذ کان له عشرة بنین کما فی الرّوایات.

ثمّ یستطرد بذکر النعم التی وهبها له، یقول تعالی: وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِیداً و لم یهبه ما ینفع من المال و الأولاد فحسب، بل أغدق علیه ما یرید من جاه و قوّة.

«التمهید»: من (المهد) و هو ما یستخدم لنوم الطفل، و یطلق علی ما یتهیأ من وسائل الراحة و المقام و انتظام الأمور. و فی المجموع له معان واسعة تشمل المواهب الحیاتیة و الوسائل الحدیثة و التوفیق.

و لکنّه کفر بما أنعم اللّه علیه و هو بذلک یرید المزید: ثُمَّ یَطْمَعُ أَنْ أَزِیدَ، و لیس هذا منحصرا بالولید، بل إنّ عبید الدنیا علی هذه الشاکلة أیضا، فلن یروی عطشهم مطلقا، و لو أعطوا الأقالیم السبعة لما اکتفوا بذلک.

و الآیة الأخری تردع الولید بشدّة، یقول تعالی: کَلَّا إِنَّهُ کانَ لِآیاتِنا عَنِیداً و مع أنّه کان یعلم أنّ هذا القرآن لیس من کلام الجن أو الإنس، بل متجذر فی الفطرة، و له جاذبیة خاصّة و أغصان مثمرة. فکان یعاند و یعتبر ذلک سحرا و مظهره ساحرا.

«العنید»: من (العناد) و قیل هو المخالفة و العناد مع المعرفة، أی أنّه یعلم بأحقّیة الشیء ثمّ یخالفه عنادا، و الولید مصداق واضح لهذا المعنی.

و التعبیر ب (کان) یشیر إلی مخالفته المستمرة و الدائمة.

و أشار فی آخر آیة إلی مصیره المؤلم بعبارات قصیرة و غنیة فی المعنی، فیقول تعالی: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً.

«سأرهقه»: من (الإرهاف) و هو غشیان الشیء بالعنف، و تعنی أیضا فرض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۷

العقوبات الصعبة، جاء بمعنی الابتلاء بأنواع العذاب، و الصعود، إشارة إلی ما سیناله من سوء العذاب، و یستعمل فی العمل الشاق، إذا یشق صعود الجبل، و لذا فسّر البعض ذلک بالعذاب الإلهی، و قیل هو جبل فی النار یصعد فیه الکافر عنفا ثمّ یهوی، و هو کذلک فیه أبدا.

و یحتمل أن یراد به العذاب الدنیوی للولید بن المغیرة، فقد ذکر التاریخ عنه أنّه بلغ ذروة الجاه و الرفاه فی حیاته، ثمّ عاقبه اللّه تعالی بنقصان ماله و ولده حتی هلک ۱۷۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۸

الآیات [سورة المدثر (۷۴): الآیات ۱۸ الی ۲۵]

اشارة

إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (۱۸) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۱۹) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۲۰) ثُمَّ نَظَرَ (۲۱) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (۲۲)
ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (۲۳) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (۲۴) إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (۲۵)

التّفسير

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ فی هـذه الآيـات توضـيحات كثيرة عمّن أعطاه اللّه المال و البنين و خالف بـذلك رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أی الوليد بن المغيرة، يقول تعالى: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ.

لاـ بـأس بـالتفكير، و هو حسن، و لكن يشترط أن يكون فی طريق الحق، و تفكر ساعـة أفضـل من عبادة أو عمر بكامله، لما يمكن أن يتغير مصير الإنسان فيها، و أمّا إذا كان التفكر فی طريق الكفر و الفساد فهو مذموم، و تفكر «الوليد» كان من هذه النوع.

«قـدّر»: من التقدير، و هو التهيؤ لنظم أمر فی الذهن و التصـميم على تطبيقه، ثمّ يضـيف فی مذمته: فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ بعدئذ يؤكّد ذلك فيضيف: ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ و هذا إشارة لما قيل فی سبب النّزول حيث كان يرى توحيد الأقوال فيما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۹

يقـذف به الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و عند ما سـمّوه بالشاعر لم يقبل بذلك، فقالوا: كاهن فلم يقبل، قالوا: مجنون فرفض، فقالوا: ساحر، قال: بلى، و ذلك لمخالفتهم فكرة السـحر الذی كان يفرق بين المرء و أهله، أو يجمع الواحد و الآخر، و إنّما ظهر ذلك فی عصـر الإسـلام، قـد عبّر القرآن عن هـذه الحالـة التی حـدثت عنـد الوليـد بتعبير مختصـر و بليغ لمطالعته للأمر و تفكره، ثمّ تقديره لذلك و إن كان أصل الاقتراح من قريش، و على كل حال فإنّ تكرار المعنى فی الآيتين دليل على دهاء الوليد فی تفكره الشيطانی، و لذا كانت شدّة تفكره سببا للتعجب.

بعدئذ يضـيف اللّه تعالى: ثُمَّ نَظَرَ، أی نظر بعد التفكر و التقدير نظرة من يريد أن يقضی فی أمر مهمّ ليطمئن من استحكامه و انسجامه: ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ، فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، بهذه الأقوال يظهره عداءه للقرآن المجيد، و ذلك بعـد تفكره الشيـطانی، و بقوله هذا صار يمدح القرآن من حيث لا يدری، و إذا أشار إلى جاذبيـة القرآن الخارقة و تسـخيره للقلوب، و سحر القرآن الـذی يسـحر القلوب كما فی قولته، و ما كان للقرآن من شـبه بسـحر الساحرين، بل إنّه كلام منطقی و موزون، و هذا هو دليل على نزول الوحی به، و ليس هو بكلام البشر، بل صدر من عالم ما وراء الطبيعة من علم اللّه اللامتناهی، الذی جمع فی انسجامه و استحكامه كلّ المحاسن.

«عبس»: يعبس عبوسا، و العبوس الذی يقبض وجهه.

«بسـر»: من (البسور) و تعنی أحيانا العجلة فی إتمام العمل الذی لو يحن حان وقته، و أحيانا بمعنى قبض الوجه و تغيره، و المعنى الثّانی يناسب العبس، و على المعنى الأوّل يكون إشارة إلى اتّخاذ القرار العاجل فی الصاق ما لا يليق بالقرآن المجيد.

«يؤثر»: من (الأثر)، و هو ما يروى عن الماضين ممّا بقی من الآثار، و قيل من «الإيثار» بمعنى الترجيح و التقديم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۰

و ممّا يؤيد المعنى الأوّل أنّ الوليد يقول: إنّه سحر يروى و يتعلم من السحرة.

و على المعنى الثّانی فإنّه يقول: سحر تؤثر حلاوته فی قلوب الناس و بالتالی فإنّ الناس يرجحونه على غيره.

على كـلّ حـال هو إقرار ضـمنی بإعجـاز القرآن. و ليس للقرآن أی علاقـة و تشبيه بأعمال السـحرة، فهو كلام رصـين عميق المعانی و جـذاب لا نظير له كما يقول الوليد، فإنّه ليس من كلام البشـر، و إن كان كذلك لكانوا قد أتوا بمثله، و هذا ما دعا إليه القرآن كرارا، فلم يستطع أحد من بلغاء العرب أن يأتی بمثله، بل سورة من مثله، و هذه هی معجزة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۱

الآیات [سورة المدثر (۷۴): الآیات ۲۶ الی ۳۰]

اشارة

سَأُصْلِیهِ سَقَرَ (۲۶) وَ ما أَدْراکَ ما سَقَرُ (۲۷) لا تُبْقِی وَ لا تَذَرُ (۲۸) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (۲۹) عَلَیْها تِسْعَةَ عَشَرَ (۳۰)

التّفسیر

المصیر المشؤوم:

فی هـذه الآیـات بیـان للعقوبات المؤلمـة لمن أنکر القرآن و الرسالـة، و کـذب النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و هو ما أشارت إلیه الآیات السابقة فیقول اللّه تعالی: سَأُصْلِیهِ سَقَرَ.

«سـقر»: فی الأصل من «سـقر» علی وزن فقر، بمعنی التغیر و الذوبان من أثر حرارة الشـمس، هو من أحد أسماء جهنم، کثیر ما ذکر فی القرآن، و اختیار هذا الاسم یشیر إلی العذاب المهول لجهنّم الذی یلتهم أهلها، و قیل هی درک من درکاتها المهولة، ثمّ یبیّن عظمة و شدّة عذاب النّار فیقول: وَ ما أَدْراکَ ما سَقَرُ.

أی إنّ العـذاب یکون شدیـدا إلی حـدّ یخرج عن دائرة التصور، و لا یخطر علی بال أحـد، کما هو الحال فی عدم إدراک عظمة النعم الإلهیة فی الجنان.

لا تُبْقِی وَ لا تَذَرُ.

قد تکون هذه الآیة إشارة إلی أنّ نار جهنّم بخلاف نار الدنیا التی ربّما ترکت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۲

بعض ما ألقی فیها و لم تحرقه، و إذا نالت إنسانا مثلا نالت جسـمه و صـفاته الجسـمیة و تبقی روحه و صفاته الروحیة فی أمان منها، و أمّا «سقر» فلا تدع أحدا ممن ألقی فیها إلّا نالته و احتوته بجمیع وجوده، فهی نار شاملة تستوعب جمیع من القی فیها، و قیل: إنّ المعنی لا یموتون فیها و لا یحیون، أی یبقون بین الموت و الحیاة، کما جاء فی الآیة (۱۳) من سورة الأعلی: لا یَمُوتُ فِیها وَ لا یَحْیی

أو أنّها لا تبقی علی جسـد شـیئا من العظام أو اللحم، فیتّضح أنّ مفهوم الآیة أنّها لا تحرقهم تماما، لأنّ هذا المعنی لا یتفق و الآیة (۵۶) من سورة النسـاء حیث یقول تعالی: کُلَّما نَضِـجَتْ جُلُودُهُمْ بَـدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَیْرَها لِیَـذُوقُوا الْعَـذابَ ثمّ ینتقل إلی بیان وصف آخر للنّار المحرقة فیضیف: لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ[۱۸۰].

إنّها تجعل الوجه مظلما أسود أشدّ سوادا من اللیل.

«بشر»: جمع بشرة، و تعنی الجلد الظاهر للجسد.

«لوّاحة»: من مادة (لوح) و تعنی أحیانا الظاهر، و أحیانا بمعنی التغییر، و یکون المعنی بمقتضی التّفسیر الأوّل: (أنّ جهنم ظاهرة للعیان).

کما جاء فی الآیة (۳۶) من سورة النّازعات: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِیمُ لِمَنْ یَری و بمقتضی التّفسیر الثّانی یکون المعنی: أنّها تغیر لون الجلود.

و فی آخر آیـة من آیات مورد البحث یقول تعالی: عَلَیْها تِسْـعَةَ عَشَـرَ.[۱۸۱] إنّهم لیسوا مـأمورین بالرحم و الشـفقة، بل إنّهم مأمورین بالعـذاب و الغلظـة، و أمّا الآیـة الأخری التی تلیها فإنّها تشـیر إلی أنّ هـذا العـدد هم ملائکـة العذاب، و قیل إنّها تشـیر إلی تسع عشـرة مجموعة من الملائکة، و لیس تسعة عشر نفرا، و دلیل ذلک قوله تعالی: وَ ما یَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّکَ إِلَّا هُوَ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۳

و أمّا عن سبب اختيار هـذا العـدد من ملائكـة العـذاب، فلا يدرى أحد عن ذلك شيئا، و لكن احتمل البعض أنّ المراد من ذلك هو لكون أكبر عـدد للأحاد و أقل عدد للعشـرات، و قيل لكون اصول الأخلاق الرذيلة ترجع إلى ۱۹ أصل ظاهرة و باطنة، فلذا تكون كلّ رذيلـة من الرّذائـل عاملا ـ للعـذاب الإلـهى، و إنّ طبقات جهنّم هى تسع عشـرة طبقـة أى بعـددها، و لكل طبقـة ملك أو مجموعـة من الملائكة مأمورين بالعذاب.

و من المؤكّد أنّ الأمور المرابطة بالقيامة و الجنان و الجحيم، و جزئياتها و خصوصـياتها غير واضحة لدنيا تمام الوضوح، و نحن نعيش فی هـذا المحيط المحدود، و الذی نعرفه إنّما يتعلق بكلياتها، لذا نجد فی الرّوايات أنّ لهذه الملائكة قدرات عظيمة بحيث يمكن لكل ملك أن يقـذف قبيلة كبيرة فی جهنّم بسـهولة، و من هنا يتّضح ضـعف و عجز أفكار أناس من قبيل أبی جهل، إذ أنّه لما سـمع بالآية جـاء مسـتهزئا إلى قريش، و قـال: ثكلتكم أمهـاتكم ألم تسـمعوا مـا يقـوله ابن أبی كبشـة (يعنی بـذلك النّبی صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم)[۱۸۲] يقول إنّ خزنـة النّار تسـعة عشـر و أنتم الدّهم أ يعجز كل عشـرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟! فقال أبو الأسد الجمحی و كان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة شعر فاكفونی أنتم اثنين ۱۸۳] لقد أراد السفهاء أن يطفئوا بهذه السخرية نور الحق، و أن يتخلصوا بذلك من الفناء المحتم.

.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۴

ملاحظة

ملائكة العذاب تسعة عشر:

هذه الآية تشير بوضوح إلى عدد خزنة جهنم بأنّهم تسعة عشر نفرا أو تسعة عشرة مجموعة، و الآيات التی تليها تعتمد على هذا المعنى، و لكن العجب من أنّ بعض الفرق المنحرفة تصر على قدسية هذا العدد، و تسعى إلى أن تجعل من عدد شهور السنة و أيّام نظاما يدور حول محور هـذا العـدد، بخلاـف جميع الموازين الطبيعيـة و الفلكيـة! و جعلوا أحكـامهم العمليـة مطابقا لـذلك النظام، و الأعجب من ذلك أنّ كاتبا من الكتاب يمكن أن تكون له علاقة بتنظيماتهم يصـرّ إصـرارا عجيبا و مضحكا على أن يجعل كل ما فی القرآن موجّه على أساس هذا العدد، و فی الموارد الكثيرة فی القرآن التی لا تتفق مع هذا العدد المرغوب عنده يعمد إلى إضافة أو حذف ما يرغب فيه ليتفق مع ذلك العدد أو مع مضاربه، و إيراد مطاليبها و الإجابة عليها يمكن أن تعتبر إتلافا للوقت.

نعم فالمذهب الجهنمی يجب أن يدور حول عدد جهنمی، و جماعة جهنميون يجب أن يتوافقوا مع عدد ملائكة العذاب.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۵

الآية [سورة المدثر (۷۴): آية ۳۱]

اشارة

وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهـذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ

وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ ما یَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّکَ إِلاَّ هُوَ وَ ما هِیَ إِلاَّ ذِکْری لِلْبَشَرِ (۳۱)

التّفسیر

لم هذا العدد من أصحاب النّار؟

ذکر اللّه سبحانه و تعالی کما قرأنا فی الآیات السابقهٔ عدد خزنهٔ جهنم و مأموریها و هم تسعهٔ عشر نفرا (أو مجموعهٔ)، و کذا قرأنا أنّ ذکر هذا العدد صار سببا للحدیث بین أوساط المشرکین و الکفّار، و اتّخذ بعضهم ذلک سخریهٔ، و ظنّ القلیل منهم أنّ الغلبهٔ علی أولئک لیس أمرا صعبا، الآیهٔ أعلاه و التی هی أطول آیات هذه السورهٔ تجیب علیهم و توضح حقائق کثیرهٔ فی هذا الصدد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۶

فیقول تعالی أوّلا: وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِکَهًٔ[۱۸۴].

ملائکهٔ أقویاء مقتدرون و کما یعبّر القرآن غلاظ شداد قساهٔ، فی مقابل المذنبین بجمعهم الغفیر و هم ضعفاء عاجزون.

ثمّ یضیف تعالی: وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَهًٔ لِلَّذِینَ کَفَرُوا.

و هذا الاختبار من وجهین:

أوّلا: لأنّهم کانوا یستهزئون بالعدد تسعهٔ عشر، و یتساءلون عن سبب اختیار هذا العدد، فی حین لو وضع عدد آخر لکانوا قد سألوا السؤال نفسه.

و الوجه الثّانی: أنّهم کانوا یستقلون هذا العدد و یسخرون من ذلک بقولهم:

لکل واحد منهم عشرهٔ منّا، لتکسر شوکتهم.

فی حین أنّ ملائکهٔ اللّه وصفوا فی القرآن بأنّ نفرا منهم یؤمرون بإهلاک قوم لوط علیه السّلام و یقلبون علیهم مدینتهم، مضافا إلی ما أشیر إلیه سابقا حول اختیار عدد تسعهٔ عشر لأصحاب النّار.

ثمّ یضیف تعالی أیضا: لِیَسْتَیْقِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ

ورد فی روایهٔ أنّ جماعهٔ من الیهود سألوا أحد أصحاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن عدد خزنهٔ النّار فقال: «اللّه و رسوله أعلم» فهبط جبرائیل علیه السّلام علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالآیهٔ عَلَیْها تِسْعَهَٔ عَشَرَ.[۱۸۵] و سکوت هؤلاء الیهود و عدم اعتراضهم علی هذا الجواب یدلّ علی أنّه موافقا لما هو مذکور فی کتبهم، و هذا مدعاهٔ لازدیاد یقینهم بنبوهٔ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و صار قبولهم هذا سببا فی تمسک المؤمنین بإیمانهم و عقائدهم.

لذا تضیف الآیهٔ فی الفقرهٔ الأخری: وَ یَزْدادَ الَّذِینَ آمَنُوا إِیماناً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۷

ثمّ تعود مباشرهٔ بعد ذکر هذه الآیهٔ إلی التأکید علی تلک الأهداف الثلاثهٔ، إذ یعتمد مجددا علی إیمان أهل الکتاب، ثمّ المؤمنین، ثمّ علی اختبار الکفّار و المشرکین، فیقول: وَ لا یَرْتابَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِیَقُولَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْکافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا[۱۸۶].

و أمّا من یقصد به فی قوله: الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فقیل المراد منهم المنافقون، لأنّ هذا التعبیر کثیرا ما ورد فیهم فی آیات القرآن کما هو فی الآیهٔ (۱۰) من سورهٔ البقرهٔ التی تتحدث حول المنافقین بقرینهٔ الآیات السابقهٔ لها و اللاحقهٔ حیث نقرأ: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً و بهذا الدلیل تمسکوا بمدنیهٔ الآیهٔ السابقهٔ، لأنّ المنافقین نشؤوا فی المدینهٔ عند اقتدار الإسلام و لیس بمکهٔ، و لکن

تحقيق موارد ذكر هـذه العبـارة فى القرآن الكريم يشـير إلى أنّ هـذه العبـارة غير منحصـرة بالمنافقين، بل أطلقت على جميع الكفّار و المعاندين و المحاربين لآيات الحقّ، و عطفت أحيانا على المنافقين حيث يمكن أن يكون دليلا على ثنائيتهم، فمثلا نقرأ فى الآية (۴۹) من سورة الأنفال:

إِذْ يَقُولُ الْمُنـافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ و كـذا فى الآيات الأخرى، لـذا ليس هناك دليل على نفى مكيـة الآيـة، خصوصا لما من توافق و ارتباط كامل من الآيات السابقة لها و التى تشير بوضوح إلى مكيّتها.

ثمّ يضيف حول كيفية استفادة المؤمنين و الكفّار الذين فى قلوبهم مرض من كلام اللّه تعالى: فيقول تعالى: كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ.

إنّ الجمل السابقة تشير بوضوح إلى أنّ المشيئة و الإرادة الإلهية لهداية البعض و إضـلال البعض الأخر ليس اعتباطا، فإنّ المعاندين و الذين فى قلوبهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۸

مرض لا يستحقون إلّا الضلال، و المؤمنون و المسلّمون لأمر اللّه هم المستحقون للهدى.

و يقول فى نهاية الآية: وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ.

فالحـديث عن التسعة عشـر من خزنـة النّار، ليس لتحديـد ملائكـة اللّه تعالى، بل إنّهم كثيرون جدّا أنّ الرّوايات تصـفهم أنّهم يملؤون السـموات و الأرض، و ليس هناك موضع قدم فى العالم إلّا و فيه ملك يسبح للّه! و احتمل المفسّـرون احتمالات عديدة فى من يعود الضمير «هى»، فقيل:

يعود على الجنود و منهم خزنـة النّار، و قيل: على سـقر، و قيل: على آيات القرآن (السورة)، و القول الأوّل أنسب و أوجه، و إن كانت بقيـة الأقوال مـدعاة للتـذكر و الإيقاظ و المعرفـة، و لأنّ الأوّل يبيّن حقيقـة أنّ اللّه تعالى إنّما اختار لنفسه ملائكـة و أخبر عن عـددهم ليكون ذكرى لمن يتعظ بها، لا لكونه غير قادر على معاقبة كل المذنبين و المعاندين.

***

ملاحظة:

عدد جنود الرّب!

حضور اللّه تعالى فى كلّ مكان و اتساع قدرته فى العالم يفهمنا أنّ ذاته المقدّسة غير محتاجة لأى ناصر أو معين، لكنّه، لإظهار عظمته للخلائق و لتكون ذكرى لمن يتعظ اختار ملائكة و جنودا كثيرين مطيعين لأمره تعالى.

و قـد ذكرت الرّوايات عبارات عجيبـة حول كثرة و عظمة و قدرة جنود اللّه و السـماع لهذه الأخبار يثير العجب و الدهشة و لا تتفق مع مقاييسنا المتعارفة، و لذا نقنع بقراءة أوّل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۹

خطبـة فى نهـج البلاغـة للإمام على عليه السّـلام حول هـذا الموضوع حيث يقول عليه السّـلام: «ثمّ فتق ما بين السـموات العلا، فملأهن أطوارا من ملائكته، فهم سـجود لا يركعون، و ركوع لا ينتصـبون، صافون لا يتزايلون، و مسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، و لا سـهو العقول، و لا فترة الأبـدان، و لا غفلـة النسـيان، و منهم أمناء على وحيه، و ألسـنة إلى رسـله، و مختلفون بقضائه و أمره، و منهم الحفظة لعباده و السدنة لأبواب جنانه، و منهم الثابتة فى الأرضـين السـفلى أقدامهم، و المارقة من السـماء العليا أعناقهم، و الخارجة من

الأقطار أركانهم، و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم و بين من دونهم حجب العزة، و أستار القدرة، لا يتوهمون ربّهم بالتصوير و لا يجرون عليه صفات المصنوعين، و لا يحدونه بالأماكن، و لا يشيرون إليه بالنظائر»

و كما قلنا سابقا إنّ لكلمة (ملك) مفهوما واسعا حيث يشمل الملائكة الذين يملكون العقل و الشعور و الطاعة و التسليم، و كذلك كثير من عناصر و قوى عالم الوجود.

و لنا شرح مفصل حول هذا الموضوع فى تفسير الآيات الأولى لسورة فاطر و ما يليها.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۰

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۳۲ الى ۳۷]

اشارة

كَلَّا وَ الْقَمَرِ (۳۲) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (۳۳) وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (۳۴) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (۳۵) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (۳۶)
لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (۳۷)

التّفسير

استمرارا للبحث مع المنكرين لنبوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اليوم الآخر تؤكّد الآيات التالية فى أقسام عديدة على مسألة القيامة و الجحيم و عذابها، فيقول تعالى: كَلَّا وَ الْقَمَرِ.

«كلّا»: حرف ردع و إنكار لما تقدم أو ردع لما سيأتى، و يعنى هنا نفى تصور المشركين و المنكرين بجهنّم و عذابها، و الساخرين بخزنة جهنّم بقرينة الآيات السابقة.

و أقسم بالقمر لأنّه إحدى الآيات الإلهية الكبرى، لما فيه من الخلقة و الدوران المعظم و النور و الجمال و التغييرات التدريجية الحاصلة فيه لتعيين الأيّام باعتباره تقويما حيّا كذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۱

ثمّ يضيف: وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ.[۱۸۷] فى الحقيقة أنّ هذه الأقسام الثلاثة مرتبطة بعضها بالآخر و مكملة للآخر، و كذلك لأنّنا كما نعلم أنّ القمر يتجلى فى الليل، و يختفى نوره فى النهار لتأثير الشمس عليه، و الليل و إن كان باعثا على الهدوء و الظلام و عنده سرّ عشاق الليل، و لكن الليل المظلم يكون جميلا عند ما يدبر و يتجه العالم نحو الصبح المضىء و آخر السحر، و طلوع الصبح المنهى الليل المظلم أصفى و أجمل من كل شىء حيث يثير فى الإنسان إلى النشاط و يجعله غارقا فى النور الصفاء.

هذه الأقسام الثلاثة تتناسب ضمنيا مع نور الهداية (القرآن) و استدبار الظلمات (الشرك) و عبادة (الأصنام) و طلوع بياض الصباح (التوحيد)، ثمّ ينتهى إلى تبيان ما أقسم من أجله فيقول تعالى: إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ.[۱۸۸] إنّ الضمير فى (إنّها) إمّا يرجع إلى «سقر»، و إمّا يرجع إلى الجنود، أو إلى مجموعة الحوادث فى يوم القيامة، و أيّا كانت فإنّ عظمتها واضحة.

ثمّ يضيف تعالى: نَذِيراً لِلْبَشَرِ.[۱۸۹] لينذر الجميع و يحذرهم من العذاب الموحش الذى ينتظر الكفّار و المذنبين و أعداء الحق.

و فى النهاية يؤكّد مضيفا أنّ هذا العذاب لا يخص جماعة دون جماعة، بل:

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ فهنيئا لمن يتقدم، و تعسا و ترحا لمن يتأخر.

و احتمل البعض کون التقدم إلی الجحیم و التأخر عنه، و قیل هو تقدم النفس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۲

الإنسانیة و تکاملها أو تأخرها و انحطاطها، و المعنی الأوّل و الثّالث هما المناسبان، دون الثّانی.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۳

الآیات [سورة المدثر (۷۴): الآیات ۳۸ الی ۴۸]

اشارة

کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ رَهِینَةٌ (۳۸) إِلاَّ أَصْحابَ الْیَمِینِ (۳۹) فِی جَنَّاتٍ یَتَساءَلُونَ (۴۰) عَنِ الْمُجْرِمِینَ (۴۱) ما سَلَکَکُمْ فِی سَقَرَ (۴۲) قالُوا لَمْ نَکُ مِنَ الْمُصَلِّینَ (۴۳) وَ لَمْ نَکُ نُطْعِمُ الْمِسْکِینَ (۴۴) وَ کُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِینَ (۴۵) وَ کُنَّا نُکَذِّبُ بِیَوْمِ الدِّینِ (۴۶) حَتَّی أَتانَا الْیَقِینُ (۴۷)

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِینَ (۴۸)

التّفسیر

لم صرتم من أصحاب الجحیم؟

إکمالا للبحث الذی ورد حول النّار و أهلها فی الآیات السابقة، یضیف تعالی فی هذه الآیات: کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ رَهِینَةٌ.

«رهینة»: من مادة (رهن) و هی وثیقة تعطی عادة مقابل القرض، و کأن نفس الإنسان محبوسة حتی تؤدی وظائفها و تکالیفها، فإن أدت ما علیها فکت و أطلقت، و إلّا فهی باقیة رهینة و محبوسة دائما، و نقل عن أهل اللغة أنّ أحد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۴

معانیها الملازمة و المصاحبة[۱۹۰]، فیکون المعنی: الکلّ مقترنون بمعیة أعمالهم سواء الصالحون أم المسیئون.

لذا یضیف مباشرة: إِلَّا أَصْحابَ الْیَمِینِ

إنّهم حطموا أغلال و سلاسل الحبس بشعاع الإیمان و العمل الصالح و یدخلون الجنّة بدون حساب.[۱۹۱] و هناک أقوال کثیرة حول المقصود من أصحاب الیمین:

فقیل هم الذین یحملون کتبهم بیمینهم، و قیل هم المؤمنون الذین لم یرتکبوا ذنبا أبدا، و قیل هم الملائکة، و قیل غیر ذلک و المعنی الأوّل یطابق ظاهر الآیات القرآنیة المختلفة، و ما له شواهد قرآنیة، فهم ذو و إیمان و عمل صالح، و إذا کانت لهم ذنوب صغیرة فإنّها تمحی بالحسنات و ذلک بحکم إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ ۱۹۲].

فحینئذ تغطّی حسناتهم سیئاتهم أو یدخلون الجنّة بلا حساب، و إذا وقفوا للحساب فسیخفف علیهم ذلک و یسهل، کما جاء فی سورة الإنشقاق آیة (۷):

فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَسَوْفَ یُحاسَبُ حِساباً یَسِیراً.

و نقل المفسّر المشهور «القرطبی» و هو من أهل السنة تفسیر هذه الآیة

عن الإمام الباقر علیه السّلام فقال: «نحن و شیعتنا أصحاب الیمین و کل من أبغضنا أهل البیت فهم مرتهنون».[۱۹۳]

و أورد هذا الحدیث مفسّرون آخرون منهم صاحب مجمع البیان و نور

الثقلین و البعض الآخر أورده تذییلا لهذه الآیات.

ثمّ یضیف مبیّنا جانبا من أصحاب الیمین و الجماعهٔ المقابلهٔ لهم:

فِی جَنَّاتٍ یَتَساءَلُونَ ۱۹۴] عَنِ الْمُجْرِمِینَ ما سَلَکَکُمْ فِی سَقَرَ.

یستفاد من هذه الآیات أن الرابطهٔ غیر منقطعهٔ بین أهل الجنان و أهل النّار، فیمکنهم مشاهدهٔ أحوال أهل النّار و التحدث معهم، و لکن ماذا سیجیب المجرمون عن سؤال أصحاب الیمین؟ إنّهم یعترفون بأربع خطایا کبیرهٔ کانوا قد ارتکبوها:

الاولی: قالُوا لَمْ نَکُ مِنَ الْمُصَلِّینَ

لو کنّا مصلّین لذکّرتنا الصلاهٔ باللّه تعالی، و نهتنا عن الفحشاء و المنکر و دعتنا إلی صراط اللّه المستقیم.

و الأخری: وَ لَمْ نَکُ نُطْعِمُ الْمِسْکِینَ

و هذه الجملهٔ و إن کانت تعطی معنی إطعام المحتاجین، و لکن الظاهر أنه یراد بها المساعدهٔ و الإعانهٔ الضروریهٔ للمحتاجین عموما بما ترتفع بها حوائجهم کالمأکل و الملبس و المسکن و غیر ذلک.

و صرّح المفسّرون أنّ المراد بها الزکاهٔ المفروضهٔ، لأنّ ترک الإنفاق المستحب لا یکون سببا فی دخول النّار، و هذه الآیهٔ تؤکّد مرّهٔ أخری علی أنّ الزّکاهٔ کانت قد فرضت بمکّهٔ بصورهٔ إجمالیهٔ، و إن کان التشریع بجزئیاتها و تعیین خصوصیاتها و تمرکزها فی بیت المال کان فی المدینهٔ.

و الثّالثهٔ: وَ کُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِینَ

کنّا نؤید ما یصدر ضدّ الحقّ فی مجالس الباطل. نقوم بالترویج لها، و کنّا معهم

أین ما کانوا، و کیف ما کانوا، و کنّا نصدق أقوالهم، و نضفی الصحهٔ علی ما ینکرون و یکذبون و نلتذ باستهزائهم الحقّ.

«نخوض»: من مادهٔ (خوض) علی وزن (حوض)، و تعنی فی الأصل الغور و الحرکهٔ فی الماء، و یطلق علی الدخول و التلوث بالأمور، و القرآن غالبا ما یستعمل هذه اللفظهٔ فی الإشتغال بالباطل و الغور فیه.

(الخوض فی الباطل) له معان واسعهٔ فهو یشمل الدخول فی المجالس التی تتعرض فیها آیات اللّه للاستهزاء أو ما تروج فیها البدع، أو المزاح الواقح، أو التحدث عن المحارم المرتکبهٔ بعنوان الافتخار و التلذذ بذکرها، و کذلک المشارکهٔ فی مجالس الغیبهٔ و الاتهام و اللهو و اللعب و أمثال ذلک، و لکن المعنی الذی انصرفت إلیه الآیهٔ هو الخوض فی مجالس الاستهزاء بالدین و المقدسات و تضعیفها و ترویج الکفر و الشرک.

و أخیرا یضیف: وَ کُنَّا نُکَذِّبُ بِیَوْمِ الدِّینِ حَتَّی أَتانَا الْیَقِینُ

من الواضح أنّ إنکار المعاد و یوم الحساب و الجزاء یزلزل جمیع القیم الإلهیهٔ و الأخلاقیهٔ، و یشجع الإنسان علی ارتکاب المحارم، و یرفع کلّ مانع هذا الطریق، خصوصا إذا استمر إلی آخر العمر، علی کل حال فإنّ ما یستفاد من هذه الآیات أنّ الکفار هم مکلّفون بفروع الدین، کما هم مکلّفون بالأصول، و کذلک تشیر إلی أن الأرکان الاربعهٔ، أی الصلاهٔ و الزّکاهٔ و ترک مجالس أهل الباطل، و الإیمان بالقیامهٔ لها الأثر البالغ فی تربیهٔ و هدایهٔ الإنسان، و بهذا لا یمکن أن یکون الجحیم مکانا للمصلین الواقعیین، و المؤتین الزّکاهٔ، و التارکین الباطل و المؤمنین بالقیامهٔ.

بالطبع فإنّ الصلاهٔ هی عبادهٔ اللّه، و لکنّها لا تنفع إذا لم یمتلک الإنسان الإیمان به تعالی، و لهذا فإنّ أداءها رمز للإیمان و الإعتقاد باللّه و التسلیم لأوامره، و یمکن القول إنّ هذه الأمور الأربعهٔ تبدأ بالتوحید ینتهی بالمعاد، و تحقق العلاقهٔ و الرابطهٔ بین الإنسان و

الخالق، و كذا بين المخلوقين أنفسهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۷

و المشهور بين المفسّرين أنّ المراد من (اليقين) هنا هو الموت، لأنّه يعتبر أمر يقينى للمؤمن و الكافر، و إذا شك الإنسان فى شىء ما فلا يستطيع أن يشك بالموت و نقرأ أيضا فى الآية (۹۹) من سورة الحجر: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

و لكن ذهب البعض إلى أنّ اليقين هنا يعنى المعرفة الحاصلة بعد موت الإنسان و هى التى تختص بمسائل البرزخ و القيامة، و هذا ما يتفق نوعا ما مع التّفسير الأوّل.

و فى الآية الأخيرة محل البحث إشارة إلى العاقبة السيئة لهذه الجماعة فيقول تعالى: فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ

فلا تنفعهم شفاعة الأنبياء و رسل اللّه و الائمّة، و لا الملائكة و الصديقين و الشهداء و الصالحين، و لأنّها تحتاج إلى عوامل مساعدة و هؤلاء أبادوا كل هذه العوامل، فالشفاعة كالماء الزلال الذى تسقى به النبتة الفتية، و بديهى إذا ماتت النبتة الفتية، لا يكن للماء الزلال أن يحييها، و بعبارة أخرى كما قلنا فى بحث الشفاعة، فإنّ الشفاعة من (الشفع) و تعنى ضم الشىء إلى آخر، و معنى هذا الحديث هو أنّ المشفّع له يكون قد قطع قسطا من الطريق و هو متأخر عن الركب فى مآزق المسير، فتضم إليه شفاعة الشافع لتعينه على قطع بقية الطريق ۱۹۵].

و هذه الآية تؤكّد مرّة أخرى مسألة الشفاعة و تنوع و تعدد الشفعاء عند اللّه، و هى جواب قاطع لمن ينكر الشفاعة، و كذلك تؤكّد على أنّ للشفاعة شروطا و أنّها لا تعنى إعطاء الضوء الأخضر لارتكاب الذنوب، بل هى عامل مساعد لتربية الإنسان و إيصاله على الأقل إلى مرحلة تكون له القابلية على التشفع، بحيث لا تنقطع وشائج العلاقة بينه و بين اللّه تعالى و الأولياء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۸

ملاحظة:

شفعاء يوم القيامة:

نستفيد من هذه الآيات و الآيات القرآنية الأخرى أنّ الشفعاء كثيرون فى يوم القيامة (مع اختلاف دائرة شفاعتهم) و يستفاد من مجموع الرّوايات الكثيرة و المنقولة من الخاصّة و العامّة أنّ الشفعاء يشفعون للمذنبين لمن فيه مؤهلات الشفاعة:

۱- الشفيع الأوّل هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: كما نقرأ

فى حديث حيث قال: «أنا أوّل شافع فى الجنّة»[۱۹۶].

۲- الأنبياء من شفعاء يوم القيامة، كما

ورد فى حديث آخر عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: «يشفع الأنبياء فى كلّ من يشهد أن لا إله إلّا اللّه مخلصا فيخرجونهم منها»[۱۹۷].

۳- الملائكة من شفعاء يوم المحشر، كما

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: «يؤذن للملائكة و النّبيين و الشّهداء أن يشفعوا»[۱۹۸].

۴، ۵- الأئمّة المعصومين و شيعتهم كما قال فى ذلك أمير المؤمنين عليه السّلام حيث

قال: «لنا شفاعة و لأهل مودتنا شفاعة»[۱۹۹]

۶، ۷- العلماء و الشّهداء كما

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث قال: «یشفع یوم القیامة الأنبیاء ثمّ العلماء ثمّ الشّهداء»[۲۰۰].

و

ورد فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «یشفع الشّهید فی سبعین إنسانا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۹

من أهل بیته»[۲۰۱].

و

فی حدیث آخر نقله المجلسی فی بحار الأنوار: «إنّ شفاعتهم تقبل فی سبعین ألف نفر»[۲۰۲].

و لا منافاة بین الرّوایتین إذ أنّ عدد السبعین و السبعین ألف هی من أعداد الکثرة.

۸- القرآن کذلک من الشفعاء فی یوم القیامة کما

قال أمیر المؤمنین علیه السّلام: «و اعلموا أنّه (القرآن) شافع مشفع»[۲۰۳].

۹- من مات علی الإسلام

فقد ورد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إذا بلغ الرجل التسعین غفر اللّه ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و شفّع فی أهله»[۲۰۴].

۱۰- العبادة: کما

جاء فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «الصّیام و القرآن یشفعان للعبد یوم القیامة»[۲۰۵].

۱۱- ورد فی بعض الرّوایات أنّ العمل الصالح کأداء الأمانة یکون شافعا فی یوم القیامة.[۲۰۶] ۱۲- و الطریف هو ما یستفاد من بعض الرّوایات من أنّ اللّه تعالی أیضا یکون شافعا للمذنبین فی یوم القیامة، کما

ورد فی الحدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یشفع النّبیون و الملائکة و المؤمنون فیقول الجبار بقیت شفاعتی»[۲۰۷].

و الرّوایات کثیرة فی هذه الباب و ما ذکرناه هو جانب منها.[۲۰۸]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۰

و نکرر أنّ للشفاعة شروطا لا یمکن بدونها التشفع و هذا ما جاء فی الآیات التی بحثناها و التی تشیر بصراحة الی عدم تأثیر شفاعة الشفعاء فی المجرمین، فالمهم أن تکون هناک قابلیة للتشفع، لأنّ فاعلیة الفاعل لوحدها لیست کافیة (أوردنا شرحا مفصلا فی هذا الباب فی المجلد الأوّل فی بحث الشفاعة)***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۱

الآیات [سورة المدثر (۷۴): الآیات ۴۹ الی ۵۶]

اشارة

فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْکِرَةِ مُعْرِضِینَ (۴۹) کَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (۵۰) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (۵۱) بَلْ یُرِیدُ کُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ یُؤْتی صُحُفاً مُنَشَّرَةً (۵۲) کَلَّا بَلْ لا یَخافُونَ الْآخِرَةَ (۵۳)

کَلَّا إِنَّهُ تَذْکِرَةٌ (۵۴) فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ (۵۵) وَ ما یَذْکُرُونَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوی وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (۵۶)

التّفسیر

يفرّون من الحق كما تفرّ الحمر من الأسد:

تتابع هذه الآيات ما ورد فی الآيات السابقة من البحث حول مصير المجرمين و أهل النّار، و تعكس أوضح تصوير فی خوف هذه الجماعة المعاندة و رعبها من سماع حديث الحقّ و الحقيقة.

فيقول اللّه تعالی أوّلا: فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۲۰۹] لم يفرّون من دواء

القرآن الشافی؟ لم يطعنون فی صدر الطبيب الحريص عليهم؟ حقّا إنّه مثير كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ.

«حمر»: جمع (حمار) و المراد هنا الحمار الوحشی، بقرينة فرارهم من قبضة الأسد و الصياد، و بعبارة أخری أنّ هذه الكلمة ذات مفهوم عام يشمل الحمار الوحشی و الأهلی.

«قسورة»: من مادة (قسر) أی القهر و الغلبة، و هی أحد أسماء الأسد، و قيل هو السهم، و قيل الصيد، و لكن المعنی الأوّل أنسب.

و المشهور أنّ الحمار الوحشی يخاف جدّا من الأسد، حتی أنّه عند ما يسمع صوته يستولی عليه الرعب فيركض إلی كلّ الجهات كالمجنون، خصوصا إذا ما حمل الأسد علی فصيل منها، فإنّها تتفرق فی كل الجهات بحيث يعجب الناظر من رؤيتها.

و هذا الحيوان وحشی و يخاف من كل شیء، فكيف به إذا رأی الأسد المفترس؟! علی كل حال فإنّ هذه الآية تعبير بالغ عن خوف المشركين و فرارهم من الآيات القرآنية المربية للروح، فشبههم بالحمار الوحشی لأنّهم عديمو العقل و الشعور، و كذلك لتوحشّهم من كل شیء، فی حين أنّه ليس مقابلهم سوی التذكرة.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً[۲۱۰]، و ذلك لتكبرهم و غرورهم الفارغ بحيث يتوقعون من اللّه تعالی أن ينزل علی كلّ واحد منهم كتابا.

و هذا نظير ما جاء فی الآية (۹۳) من سورة الإسراء:

وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ

و كذا فی الآية (۱۲۴) من سورة الأنعام حيث يقول: قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ

و علی هذا فإنّ كلّا منهم يتنظر أن يكون نبيّا من اولی العزم! و ينزل عليه كتابا خاصّا من اللّه بأسمائهم، و مع كل هذا فليس هناك من ضمان فی أن يؤمنوا بعد كل ذلك.

و جاء فی بعض الرّوايات أنّ أبا جهل و جماعة من قريش قالوا للنّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم، لا نؤمن بك حتی تأتينا بصحف من السماء عليها فلان ابن فلان من ربّ العالمين، و يأتی الأمر علنا باتباعك و الإيمان بك.[۲۱۱] و لذا يضيف فی الآية الأخری: كَلَّا ليس كما يقولون و يزعمون، فإنّ طلب نزول مثل لهذا الكتاب و غيره هی من الحجج الواهية، و الحقيقة بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ.

إذا كانوا يخافون الآخرة فما كانوا يتذرعون بكل هذه الذرائع، ما كانوا ليكذبوا رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم، و ما كانوا ليستهزئوا بآيات اللّه تعالی، و لا بعدد ملائكته، و من هنا يتّضح أثر الإيمان بالمعاد فی التقوی و الطهارة من المعاصی و الذنوب الكبيرة، و الحقّ يقال إن الإيمان بعالم البعث و الجزاء و عذاب القيامة يهب للإنسان شخصية جديدة يمكنه أن يغير إنسانا متكبرا و مغرورا و ظالما إلی إنسان مؤمن متواضع و متق عادل.

ثمّ يؤكّد القرآن علی أنّ ما يفكرون به فيما يخصّ القرآن هو تفكّر خاطئ:

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ

فإنّ القرآن الكريم قد أوضح الطريق، و دعانا إلی التبصر فيه، و أنار لنا السبيل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۴

لیری الإنسان موضع أقدامه، و فی الوقت نفسه لا یمکن ذلک إلّا بتوفیق من اللّه و بمشیئته تعالی، و ما یذکرون إلّا ما یشاء اللّه.

و لهذا الآیة عدّة تفاسیر إحداها: کما ذکرناه سابقا، و هو أن الإنسان لا یمکنه الحصول علی طریق الهدایة إلّا بالتوسل باللّه تعالی و طلب الموفقیة منه.

و طبیعی أن هذا الإمداد و التوفیق الإلهی لا یتمّ إلّا بوجود أرضیة مساعدة لنزوله.

و التّفسیر الآخر: ما جاء فی الآیة السابقة: فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ یمکن أن یوجد و هما و أنّ کل شیء مرتبط بإرادة الإنسان نفسه، و أنّ إرادته مستقلة فی کل الأحوال، و تقول هذه الآیة رافعة بذلک هذا الاشتباه، إنّ الإنسان مرتبط بالمشیئة الإلهیة، و إن هذه الآیة مختارا حرّا و هذه المشیئة هی الحاکمة علی کل هذا العالم الموجود، و بعبارة اخری: إنّ هذا الاختبار و الحریة و المعطاة للإنسان فی بمشیئته تعالی و إرادته، و یمکن سلبها أنّی شاء.

و أمّا التّفسیر الثّالث فإنّه یقول: إنّهم لا یمکنهم الإیمان إلّا أن یشاء اللّه ذلک و یجبرهم، و نعلم أنّ اللّه لا یجبر أحدا علی الإیمان أو الکفر، و التّفسیر الأوّل و الثّانی أنسب و أفضل.

و فی النهایة یقول: هُوَ أَهْلُ التَّقْوی وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ.

فهو أهل لأن یخافوا من عقابه و أن یتقوا فی اتّخاذهم شریکا له تعالی شأنه، و أن یأملوا مغفرته، و فی الحقیقة، أنّ هذه الآیة إشارة إلی الخوف و الرجاء و العذاب و المغفرة الإلهیة، و هی تعلیل لما جاء فی الآیة السابقة، لذا نقرأ

فی حدیث ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «قال اللّه: أنا أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۵

أن اتقی و لا یشرک بی عبدی شیئا و أنا أهل إن لم یشرک بی شیئا أن ادخله الجنّة»[۲۱۲].

و بالرغم من أنّ المفسّرین- کما رأینا- قد أخذوا التقوی هنا بمعناها المفعولی، و قالوا إنّ اللّه تعالی أهل لأن یتّقی من الشرک و المعصیة، و لکن هناک احتمالا آخر، و هو أنّ تؤخذ بمعناها الفاعلی، أی أن اللّه أهل للتقوی من کلّ أنواع الظلم و القبح و من کل ما یخاف الحکمة، و ما عند العباد من التقوی هو قبس ضعیف من ما عند اللّه، و إنّ کان التعبیر بالتقوی بمعناه الفاعلی و الذی یقصد به اللّه تعالی قلیل الاستعمال، علی کل حال فإنّ الآیة قد بدأت بالإنذار و التکلیف، و انتهت بالدعوة إلی التقوی و الوعد بالمغفرة.

و نتعرض هنا بالدعاء إلیه خاضعین متضرعین تعالی:

ربّنا! اجعلنا من أهل التقوی و المغفرة.

اللّهم! إن لم تشملنا ألطافک فإنّنا لا نصل إلی مرادنا، فامنن علینا بعنایتک.

اللّهم! أعنّا علی طریق ملیء بالمنعطفات و الهموم و المصائد الشیطانیة الصعبة، و أعنا علی الشیطان المتهیئ لإغوائنا، فبغیر عونک لا یمکننا المسیر فی هذا الطریق.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة المدّثّر***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۷

سورة القیامة

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۹

«سورة القیامة»

محتوی السورة:

کما هو واضح من اسم السورة فإنّ مباحثها تدور حول مسائل ترتبط بالمعاد و یوم القیامة إلّا بعض الآیات التی تتحدث حول القرآن و المکذبین، و أمّا الآیات المرتبطة بیوم القیامة فإنّها تجتمع فی أربعة محاور:

۱- المسائل المرتبطة بأشراط الساعة.

۲- المسائل المتعلقة بأحوال الصالحین و الطالحین فی ذلک الیوم.

۳- المسائل المتعلقة باللحظات العسیرة للموت و الانتقال إلی العالم الآخر.

۴- الأبحاث المتعلقة بالهدف من خلق الإنسان و رابطة ذلک بمسألة المعاد.

فضیلة السورة:

فی حدیث روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأ سورة القیامة شهدت أنا و جبرائیل له یوم القیامة أنّه کا مؤمنا بیوم القیامة، و جاء و وجهه مسفر علی وجوه الخلائق یوم القیامة»[۲۱۳].

و نقرأ

فی حدیث ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام قال: «من أدمن قراءة لا أُقْسِمُ و کان یعمل بها، بعثها اللّه یوم القیامة معه فی قبره، فی أحسن صورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۰

تبشّره و تضحک فی وجهه، حتی یجوز الصراط و المیزان»[۲۱۴].

و الجدیر بالملاحظة أنّ ما کنّا نستفید منه فی القرائن التی فی فضائل تلاوة السور القرآنیة قد صرّح بها الإمام هنا فی هذه الرّوایة حیث یقول: «من أدمن قراءة لا اقسم و کان یعمل بها»

و لذا فإنّ کل ذلک هو مقدمة لتطبیق المضمون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۱

الآیات [سورة القیامة (۷۵): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

لا أُقْسِمُ بِیَوْمِ الْقِیامَةِ (۱) وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (۲) أَ یَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (۳) بَلی قادِرِینَ عَلی أَنْ نُسَوِّیَ بَنانَهُ (۴) بَلْ یُرِیدُ الْإِنْسانُ لِیَفْجُرَ أَمامَهُ (۵) یَسْئَلُ أَیَّانَ یَوْمُ الْقِیامَةِ (۶)

التّفسير

قسما يوم القيامة و النفس اللوامة:

تبـدأ هذه السورة بقسـمين غزيرين بالمعانى، فيقول تعالى: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ و هناك أقوال للمفسّرين فى ذلك، فقيل أنّ (لا) زائـدة للتأكيـد و أنها لا تنفى القسم، بل تؤكّده، و قيل و ربّما نافية، و الغاية فى ذلك هو أن يقول لا أقسم بذلك لأهمية هذا الموضوع (كالقول لا أقسم بحياتك لأنّها أعلى من القسم).

و أخذ أغلب المفسّرين بالتّفسير الأوّل، و لكن البعض الآخر بالتّفسير الثّانى حيث قالوا إنّ (لا) الزائدة لا تأتى فى أوّل الكلام بل فى وسطه، و الأوّل هو الأصح ظاهرا. لأنّ القرآن الكريم قد أقسم بأمور هى أهم من القيامة، كالقسم بذات اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۲

المقدّسـة، لـذا ليس هنـاك دليـل على عـدم القسم هنـا بيوم القيامـة، و هناك مثال لاتّخاذ لا الزائـدة فى أوّل الكلام، و هو ما ورد فى أشعار «امرئ القيس» حيث استعمل «لا» الزائدة فى بداية قصائده الشعرية

لا و أبيك ابنة العامرلا يدعى القوم أنى أفر

و لكن ما نعتقـده أنّ البحث ليس مهمّا حول ما إذا كانت (لا) نافيـة أو زائـدة، و ذلك لأنّ نتيجـة القولين هى واحدة و هى بيان أهمية الموضوع الذى أقسم لأجله.

المهم أنّ نرى ما هى العلاقة و الرّابطة الموجودة بين القسمين.

الحقيقـة أنّ أحد دلائل وجود «المعاد» هو وجود «محكمة الوجدان» الموجودة أعماق الإنسان، و التى تنشط و تسر عند الإقدام لإنجاز عمل صالح، و بهذه الطريقة تثبت صاحبها و تكافئه، و عند ارتكاب الأعمال السيئة و الرذيلة فإنّها سوف تقوم بتقريع صاحبها و تأنّبه و تعذبه إلى حدّ أنّه قد يقدم على الانتحار للتخلص ممّا يمرّ فيه من عذاب الضمير.

و فى الحقيقة أنّ الضـمير هو الذى أصدر حكم الإعدام، و تمّ تنفيذ ذلك بنفسه، إنّ دوى النفس اللوامة فى وجود الإنسان واسع جدّا، و هى قابلة للتمعن و المطالعة فى كلّ الأحوال و فى بحث الملاحظات نشير إلى ذلك بشكل واسع.

عند ما يكون (العالم الصغير) أى وجود الإنسان محكمة فى قلبه، فكيف يمكن للعالم الكبير أن لا يملك محكمة عدل عظمى؟

فمن هنا نفهم وجود البعث و القيامة بواسطة وجود الضمير الأخلاقى، و من هنا تتّضح الرابطة الظريفة بين القسمين، و بعبارة أخرى فإنّ القسم الثّانى هو دليل على القسم الأوّل.

و أمّا ما يراد ب «النفس اللوامة»[۲۱۵] فهناك أقوال كثيرة و مختلفة قد ذكرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۳

للمفسّرين، و أحد تلك التّفاسير المشهورة هو ما ذكرناه آنفا، و هو أنّ أنّها «الوجدان الأخلاقى» الذى يلوم الإنسان فى الدنيا على المعصية و يحفّزه على إصلاح ما بدا منه.

و التّفسير الآخر هو أنّ المراد بالنفس الإنسانيـة بصورة عامة التى تلوم صاحبها يوم القيامة، فإذا كان مؤمنا فإنّها تلومه على عدم الإكثار من الصالحات و على قلّة الطاعة، و إن كان كافرا فإنّها تلوم على كفره و شركه و فجوره.

و أمّا الآخر: فالمراد نفس الكافر التى تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر و معصية.

و الوجه الأوّل يناسب الآية السابقة و التى تليها، أجل إنّ لمحكمة الضمير مقاما و منزلة عظيمة و لهذا يقسم اللّه بها، و يستعظم قدرها، و هى بحقّ عظيمـة القـدر، لأنّها أحد العوامل المهمّـة لخلاص لإنسان بشرط أن تكون واعيـة و يقظـة و غير عاجزة بسبب الذنوب و

الآثام.

و ممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ جواب القسم محذوف، و هذا ما تدل عليه الآيات التالية و التقدير «لتبعثن يوم القيامة» أو «أنّكم تبعثون» فيكون المعنى: لا أقسم بيوم القيامة و لا أقسم بالنفس اللوامة أنّكم تبعثون يوم القيامة و تجزون ما كنتم تفعلون.

و من الظريف أنّ القسم جاء بيوم القيامة على وجود يوم القيامة، و ذلك لأنّه إلى درجة من الوضوح و البداهة أنّه يمكن القسم به حتى فى مقابل المنكرين.

ثمّ يستفهم تعالى فى الآية الأخرى للتوبيخ فيضيف: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ

ورد فى رواية أنّ أحد المشركين و هو «عدى بن أبى ربيعة» كان جارا للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسأل النّبى عن أمر القيامة فأخبره به، فقال عدى: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، أو يجمع اللّه هذه العظام؟ فنزلت هذه الآيات و أجابته على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۴

ذلك، و لذا

قال فيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «اللّهم اكفنى شر جارى سوء»[۲۱۶].

و هناك نظائر لهذا المعنى فى الآيات القرآنية الأخرى، منها الآية (۷۸) من سورة (يس) حيث إنّ منكرا من منكرى المعاد كانت بيده عظاما، فقال للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ

و التعبير بكلمة «يحسب» التى هى من الحسبان و تعنى الظن، إشارة إلى أنّ المنكرين لا يؤمنون بما يقولون، بل يعتمدون على ما يظنون من الوهم.

و لكن نرى أنّه قد اعتمد على العظام خاصّة، و هذا لكون دوام بقاء العظام أكثر من غيرها من أجزاء الجسد، و لذا تكون إعادتها تكون تربا متأثرا بعيدا فى نظر عديمى الإيمان.

ثمّ إنّ العظام من الأركان المهمّة فى بدن الإنسان، لأنّها تشكل أعمدة البدن، و كلّ الحركات و التغيرات المهمّة الحاصلة فى البدن و كذلك فعاليات المختلفة تتمّ بواسطة العظام، و كثرة و تنوع أشكال و مقاييس العظام فى جسم الإنسان من عجائب الخلقة الإلهية، تتّضح أهميتها عند ما تتعطل فقرة واحدة من فقرات الظهر عن العمل و تسبب فى شلّ حركة البدن.

«البنان»: أطراف الأصابع، و قيل الأصابع، و فى المعنيين إشارة إلى أنّ اللّه تعالى ليس القادر على جمع العظام و إرجاعها إلى صورتها الأولى فحسب، بل إنّه تعالى يسوى العظام الصغيرة و الظريفة و الدقيقة للأصابع على ما كانت عليها فى الخلق الأوّل، و الأعجب من ذلك يمكنه تعالى اعادة بصمات الأصابع كما كانت عليه أيضا.

و يمكن أن يكون ذلك إشارة لطيفة إلى الخطوط الموجودة فى أطراف الأصابع و التى نادرا ما تتساوى هذه الخطوط عند شخصين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۵

و بتعبير آخر إنّ هذ الخطوط الموجودة فى أطراف الأصابع هى المعرّفة لشخص الإنسان، و لذا صار بصم الأصابع فى عصرنا هذا أمرا علميا، و بهذه الطريقة يمكن كشف الكثير من السراق و المجرمين، فيكفى فى كشف السارق وضعه أصابعه على مقبض الباب، أو زجاجة الغرفة، أو قفل الصندوق و بقاء أثر خطوط أنامله عليها، ثمّ يؤخذ من ذلك الطبع نموذج و تتمّ مقابلته مع آثار أصابع اللصوص السابقين التى أخذت منهم سلفا، و هكذا يعرف المجرم و السارق.

و فى الآية الأخرى إشارة إلى أحد العلل الحقيقة لإنكار المعاد فيقول: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ إنّهم يريدون أن يكذبوا بالبعث و ينكروا المعاد، ليتسنى لهم الظلم و ارتكاب المحارم و التنصل عن المسؤولية أمام الخلق، و ذلك لأنّ الإيمان بالمعاد و القيامة و محكمة العدل الإلهية بمثابة سدّ عظيم فى مقابل المعاصى و الذنوب و النفس الأمارة تريد كسر هذا السدّ و هذا الطوق ليفجر الإنسان مدى عمره و يعمل ما يشاء، و هذا ليس منحصرا بالأزمنة السابقة، بل إنّ إحدى علل الميول إلى المادية و إنكار المبدأ و المعاد فى

هذا العصر هو کسب الحریة للفجور و الهروب من المسؤولیة، و تحطیم کل القوانین الإلهیة، و إلّا فإنّ دلائل المبدأ و المعاد واضحة، و قد ورد فی تفسیر علی بن ابراهیم فی توضیح معنی هذه الآیة حیث قال: یقدّم الذنب و یؤخر التوبة و یقول سوف أتوب.

و قیل المراد من «الفجور» و «التکذیب»، فیکون المعنی، یرید أن یکذب بالبعث الذی سوف یقع أمامه، و لکن التفسیر الأوّل أنسب.

ثمّ یضیف بعد ذلک: یَسْئَلُ أَیَّانَ یَوْمُ الْقِیامَةِ.

أجل، إنّه یستفهم مستنکرا عن وقوع یوم القیامة و یهرب ممّا کلّف به لکی یفسح لنفسه طریق الفجور أمامه، و الجدیر بالذکر أنّ سؤالهم هذا عن وقت حدوث القیامة لا یعنی أنّهم یؤمنون بأصل القیامة، بل هو مقدّمة لإنکار أصل القیامة کالذی یقول: (فلان سوف یقدم من السفر) و إذا ما تأخر فترة من الزمن یعترض من ینکر قدوم ذلک المسافر فیقول: (متی سوف یأتی المسافر)؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۶

ملاحظات

اشارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج‌۱۹ ؛ ص۲۰۶

۱- محکمة الضمیر أو القیامة الصغری

نستفید من آیات القرآن المجید أنّ للنفس الإنسانیة ثلاث مراحل:

۱- النفس الامارة: و هی النفس العاصیة التی تدعو الإنسان إلی الرذائل و القبائح باستمرار، و تزیّن له الشهوات، و هذا ما أشارت إلیه امرأة عزیز مصر حینما نظرت إلی عاقبة أمرها فقالت: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِی إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ.[۲۱۷]؟

۲- النفس اللوامة: و هی ما أشیر إلیها فی الآیات التی ورد البحث فیها، و هی نفس یقظة و واعیة نسبیا، فهی تزل أحیانا لعدم حصولها علی حصانة کافیة مقابل الذنوب، و تقع فی شبک الآثام إلّا أنّها تستیقظ بعد فترة لتتوب و ترجع إلی مسیر السعادة، و انحرافها ممکن، إلّا أنّ ذلک یکون مؤقتا و لیس دائما و لا یمضی علیها کثیر وقت حتی تعود إلی الملامة و التوبة.

و هذا هو ما یذکرونه تحت عنوان (الضمیر الأخلاقی) و یکون هذا قویا جدّا عند بعض الأفراد، و ضعیفا و عاجزا عند آخرین، و لکن النفس اللوامة لا تموت بکثرة الذنوب عند أی انسان.

۳- النفس المطمئنة: و هی النفس المتکاملة المنتهیة إلی مرحلة الاطمئنان و الطاعة و المنتهیة إلی مقام التقوی و الإحساس بالمسؤولیة و لیس من السهل انحرافها، و هذا ما ورد فی و قوله تعالی: یا أَیَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِی إِلی رَبِّکِ راضِیَةً مَرْضِیَّةً[۲۱۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۷

علی کل حال فإنّ النفس اللوامة کما قلنا هی کالقیامة الصغری فی داخل الروح و التی تقوم بمحاسبة الإنسان، و لذا تحس أحیانا بالهدوء و الاستقرار بعد القیام بالأعمال الصالحة و تمتلئ بالسرور و الفرح و النشاط.

و بالعکس فإنّها تبتلی أحیانا بکابوس الرذائل و الجرائم الکبیرة و أمواج الغم و الحیرة، و یحترق بذلک باطن الإنسان حتی یتنفر من الحیاة، و ربّما یبلغ ألم الوجدان أنّه یقدم علی تسلیم نفسه إلی المحاکم القضائیة لیرتقی منصة الإعدام لخلاص نفسه من قبضة هذا

الکابوس.

هذه المحکمة الداخلیة العجیبة لها شبه عجیب بمحکمة القیامة.

۱- إنّ القاضی و الشاهد و المنفذ للأحکام واحد، کما فی یوم القیامة: عالِمَ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْکُمُ بَیْنَ عِبادِکَ ۲۱۹].

۲- إنّ هـذه المحکمـة ترفض کلّ توصیـة و رشوة و واسطة کما هو الحال فی محکمة یوم القیامة، فیقول تعالی: وَ اتَّقُوا یَوْماً لا تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً وَ لا یُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا یُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ ۲۲۰].

۳- إنّ محکمة الضـمیر تحقق و تدقق الملفات المهمّة بأقصـر مدّة و تصدر الحکم بأسرع وقت، فلا استئناف فی ذلک، و لا إعادة نظر، و لا تحتاج فی ذلک شـهورا و سـنین، و هـذا هو ما نقرأه أیضا فی محکمـة البعث: وَ اللَّهُ یَحْکُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُکْمِهِ وَ هُوَ سَرِیعُ الْحِسابِ ۲۲۱].

۴- مجازاتها و عقوباتها لیست کعقوبات المحاکم الرسمیة العالمیة، فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۸

شرر النیران تتقـد فی الوهلـة الاولی فی أعماق القلب و الروح، ثمّ تسری إلی الخارج، فتعـذب روح الإنسان أوّلا، ثمّ تظهر آثارها فی الجسم و ملامح الوجه و طبیعة النوم و الأکل، فیعبّر تعالی عن ذلک فی قوله: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ[۲۲۲].

۵- عـدم احتیاج هـذه المحکمـة إلی شـهود، بل إنّ المعلومات التی یعطیها الإنسان المتهم بنفسه و الـذی یکون شاهـدا علی نفسه هی التی تقبل منه، نافعة کانت له أم ضارة! کما تشـهد ذرات وجود الإنسان حتی یداه و جلده علی أعماله فی محکمة البعث فیقول تعالی: حَتَّی إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَیْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ ۲۲۳].

و هـذا التشبیه العجیب بین المحکمتین دلیل آخر علی فطریـة الإعتقاد بالمعاد، لأنّه کیف یمکن أن یکون فی الإنسان الذی یعتبر قطرة صغیرة فی محیـط الوجود العظیم هکـذا حسـاب و محاکم ملیئـة بالرموز و الأسـرار فی حین لا یوجـد حساب و محاکم فی هـذا العالم الکبیر؟ فهذا ما لا یصدق.

۲- أسماء القیامة فی القرآن المجید

إنّ قسـما مهمّا من معارف القرآن و مسائله العقائدیـة یـدور حول محور القیامـة و البعث، لأنّ له تأثیرا مهمّا فی تربیـة الإنسان و تکامل سلوکه، و لهـذا الیوم العظیم أسـماء کثیرة فی القرآن، و کـل منها تبیّن بعـدا من أبعاد ذلک الیوم، یمکن أن تکون هـذه الأسـماء بحدّ ذاتها انعکاس للکثیر من المسائل المتعلقة بهذا الجانب.

یقول المرحوم الفیض الکاشانی فی المحجـة البیضاء: «إنّ تحت کلّ اسم من هذه الأسـماء سـرّ خفی، و لکل نعت معنی مهم لا بدّ من السعی الجاد لإدراک هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۹

المعانی و معرفة أسرارها، فقد ذکر أکثر من فئة اسم لیوم القیامة یمکن الاستفادة منها أو من أکثرها فی القرآن المجید، کیوم الحسرة، یوم القیامـة، یوم المحاسـبة، یوم المسألة، یوم الواقعة، یو القارعة، یوم الراجفة، یوم الرادفة، یوم الطلاق، یوم الفراق، یوم الحساب، یوم التنـاد، یوم العـذاب، یوم الفرار، یوم الحق، یوم الحکم، یوم الفصـل، یوم الجمع، یوم الـدین، یوم تبلی السـرائر، یوم لاـ یغنی مولی عن مولی شیئا، یوم یفر المرء من أخیه، یوم لا ینفع مال و لا بنون، یوم التغابن ...»[۲۲۴].

و لکن أشـهر أسـماء ذلـک هو الیوم «یوم القیامـة» الـذی ذکر سـبعین مرّة فی القرآن، و یحکی عن قیـام عامّـة العباد و البعث و العظیم للناس، و التوجه إلی ذلک الیوم یدفع الناس لأداء وظائفهم و تکالیفهم فی هذه الدنیا.

و باعتقادنا أنه يكفى للانتباه من نوم الغفلة و الغرور و الأخذ بعنان و زمام النفس العاصية و تربيتها و تعليمها أن نتفكر فى هذه الأسماء و نتصور حالنا فى ذلك اليوم، يوم يحضر الجميع أمام اللّه العظيم و ترفع الستائر و تظهر الأسرار و تتزين الجنان و تتوقد جهنم، و يحضر الجميع عند ميزان العدل الإلهى.

«اللّهم اجعل لنا عندك ملجأ فى ذلك اليوم»***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۰

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۷ الى ۱۵]

اشارة

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (۷) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (۸) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (۹) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (۱۰) كَلَّا لا وَزَرَ (۱۱)
إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (۱۲) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (۱۳) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (۱۴) وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (۱۵)

التّفسير

الإنسان نعم الحكم لنفسه:

أنهت الآيات السابقة بسؤال كان قد وجهه المنكرون للبعث يوم القيامة، و هو يوم القيامة متى يأتى ذلك اليوم؟ و هذه الآيات هى التى تجيب عن هذه السؤال.

فتشير أوّلا إلى الحوادث السابقة للبعث، أى إلى التحول العظيم و انعدام القوانين الحاصل فى الأنظمة الكونية فيقول تعالى: فَإِذا بَرِقَ ۲۲۵] الْبَصَرُ بمعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۱

اضطراب العين و دورانها من شدّة الخوف و الرعب وَ خَسَفَ الْقَمَرُ وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ.

ذكرت معان متعددة للمفسّرين فى ما يراد بالجمع بين الشمس و القمر، فقيل هو اجتماعهما، أو طلوعهما كليهما من المشرق و غروبهما من المغرب، و قيل اجتماعهما بعد زوال نوريهما[۲۲۶] و يحتمل أن ينجذب القمر تدريجيا بواسطة الشمس و باتجاهها ثم اجتماعهما معا بعد ذلك، و ينتهى بالتالى ضياؤهما.

على كلّ حال فقد أشير هنا إلى ظاهرتين من أهم الظواهر الانقلابية لأواخر الدنيا، أى إلى زوال نور القمر و اجتماع الشمس و القمر مع البعض، و هو ما أشير إليه فى الآيات القرآنية الأخرى أيضا، فيقول تعالى فى سورة التكوير: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ أى إذا أظلمت الشمس، و نعلم أن ضوء القمر من الشمس، و عند ما يزول نور الشمس يزول بذلك نور القمر، و بالتالى تدخل الكرة الأرضية فى ظلام دامس و عتمة مرعبة.

و بهذه الطريقة و التحول العظيم ينتهى العالم، ثم يبدأ بعث البشرية بتحول عظيم آخر (بنفخة الصور الثانية و التى تعتبر نفخة الحياة) فيقول الإنسان فى ذلك اليوم: يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ[۲۲۷].

أجل، الكفرة و المذنبون الذين كذبوا بيوم الدين يبحثون عن ملجأ فى ذلك اليوم لشدّة خجلهم، و يطلبون سبل الفرار لثقل خطاياهم و خوفهم من العذاب، كما كانوا يبحثون عن طريق الفرار فى الدنيا عند ما كانوا يواجهون حادثة خطيرة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۲

فيقيسون ذلك اليوم بهذا! و لكن سرعان ما يقال لهم: كَلَّا لا وَزَرَ[۲۲۸].

فلا ملجأ إلّا إلى اللّه تعالى: إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ و ذكرت لهـذه الآيـة تفاسير أخرى غير التفسير المذكور أعلاه منها: إن الحكم النهائى لذلك اليوم هو بيد اللّه تعالى.

أو إن المقر النهائى للإنسان فى الجنّة أو النّار هو بيد اللّه.

أو أن الاستقرار للمحاكمة و الحساب يومئذ يكون عنده، و لكن بالتوجه إلى الآية التى تليها نرى أن ما قلناه هو الأنسب و الأوجه.

و يعتقد البعض أن هـذه الآيـة هى من الآيات التى تبين خط مسير التكامل الأبـدى للإنسان، و هى من جملة الآيات التى تقول: وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ[۲۲۹] و يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ۲۳۰] و أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى ۲۳۱][۲۳۲].

و بعبارة أوضح أنّ الناس فى حركة دائبة فى هـذا الطريق الطويل من حـدود العـدم إلى إقليم الوجود، و لا يزالون فى حركة فى هذا الإقليم نحو الوجود المطلق، و الوجود الأزلى، و أن هـذه الحركـة و السلوك التكاملى فى استمرار الى الأبـد ما داموا لا ينحرفون عن هـذا الصراط المستقيم حيث يـدخلون فى كل يوم مرحلـة جديدة من التقرب إلى اللّه تعالى، و إذا انحرفوا عن مسيرهم فإنهم سوف يسقطون و ينتهون عندئذ يضيف فى إدامة هذا الحديث: يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ أمّا عن معنى هاتين العبارتين فقد ذكرت لهما تفاسير عديدة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۳

أوّلا: المراد هو ما قـدم من الأعمال فى حياته، أو الآثار الباقيـة منه بعـد موته، ممّا ترك بين الناس من السـنن الصالحـة و السيئة و التى يعملون و يسيرون بها و وصول حسناتها و سيئاتها إليه. أو الكتب و المؤلفات و الأبنية القائمة على الخير و الشرّ، و الأولاد الصالحين و الطالحين التى تصل آثارهم إليه.

و الثّانى: يمكن أن يراد به الأعمال الأولى التى أتى بها. و الأعمال الأخيرة التى أتى بها فى عمره، و بعبارة أخرى أنّه يتبّأ بجميع أعماله.

و الثّالث: أنّ المراد هو ما قدم من ماله لنفسه و ما ترك لورثته، و قيل: ما قدم من الذنوب، و ما أخر من طاعة اللّه أو بالعكس.

و الوجه الأوّل هو الأنسب، لما

ورد عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير « (ينبّؤ) بما قدم من خير و شرّ، ما أخر من سنّة ليس بها من بعده فإن كان شرّا كان عليه مثل وزرهم، و لا ينقص من وزرهم شيئا، و إن كان خيرا كان له مثل أجورهم، و لا ينقص من أجورهم شيئا»[۲۳۳].

ثم يضيف فى الآيـة الأخرى و يقول: إنّ اللّه و ملائكته يطلعون العباد على أعمالهم، و إن كان لا يحتاج إلى ذلك، لأنّ نفسه و أعضاءه هم الشهود عليه فى ذلك اليوم، فيقول تعالى: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ

سياق هذه الآيات فى الحقيقة هو نفس سياق الآيات التى تشير إلى شهادة الأعضاء على أعمال الإنسان، كالآية (۲۰) من سورة فصلت حيث يقول اللّه تعالى: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

و الآية (۵) من سورة يس: وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

و على هذا فإنّ أفضل شاهد على الإنسان فى تلك المحكمة الإلهية للقيامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۴

هو نفسه، لأنه أعرف بنفسه من غيره، و إن كان اللّه تعالى قد أعطاه شواهد أخرى كثيرة لإتمام الحجّة عليه.

«بصيرة»: لها معنى مصدرى بمعنى (الرؤيا و الاطلاع)، و معنى وصفى (الشخص المطّلع) و لذا فسّره البعض بمعنى (الحجة و الدليل و البرهان) و الذى هو واهب للمعرفة[۲۳۴].

«معاذير»: جمع (معـذرة) و تعنى فى الأصل البحث عمّا تمحى به آثار الـذنوب، و قـد تكون أحيانا أعـذارا واقعيـة، و أخرى صوريـة و

ظاهرية.

و قيل: المعاذير جمع معذار، و هو الستر، و المعنى و إن أرخى الستور ليخفى ما عمل فإن نفسه شاهدة عليه، و الأوّل أوجه.

على كل حال فإن الحاكم على الحساب و الجزاء فى ذلك اليوم العظيم هو المطّلع على الأسرار الداخلية و الخارجية، و كذلك نفس الإنسان المحاسب لنفسه، كما جاء فى الآية (۱۴) من سورة الإسراء: اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

إنّ الآيات مورد بحثنا و إن كانت تتحدث كلّها عن المعاد و القيامة، فإنّ مفهومها واسع، و لذا فإنّها تشمل عالم الدنيا، و تعلم الناس بأحوال أنفسهم و إنّه كان فيهم من يكتم و يغطى وجهه الحقيقى بالكذب و الاحتيال و التظاهر و المراءاة.

لذا

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث قال: «ما يصنع أحدكم أن يظهر حسنا و يسرّ سيئا أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك، و اللّه سبحانه يقول: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ إنّ السريرة إذا صلحت قويت العلانية»[۲۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۵

و

ورد أيضا فى حديث صيام المريض عن الصادق عليه السّلام عند ما سأله أحد أصحابه: ما حد المرض الذى يفطر صاحبه؟ فأجاب الإمام: «بل الإنسان على نفسه بصيرة، هو أعلم بما يطيق»[۲۳۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۶

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۱۶ الى ۱۹]

اشارة

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (۱۶) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (۱۹)

التّفسير

إنّ علينا جمعه و قرآنه:

هذه الآيات بمثابة الجملة الاعتراضية التى تتداخل أحيانا فى كلام المتحدث. كمن يكون مشغولا بالخطابة فى مجلس ما و الناس مجتمعون فى آخر المجلس، و الحال أنّ صدر المجلس خال، فيقطع حديثه مؤقتا، و يدعو الحاضرين للتقدم لينفتح الطريق للقادمين، ثم يستأنف حديثه مجددا، أو كالأستاذ الذى يقطع حديثه لينبه طالبا، و بعد ذلك يكمل حديثه.

فعند ما يسمع شخص ما حديث الأستاذ عن طريق شريط كاسيت يرى إشكالا فى استمراريّة الحديث، و يتعجب لما يرى من عدم الترابط بين الجمل، و لكن مع التمعن فى شرائط المجلس الخاصّة يتّضح فلسفة هذه الجمل المعترضة.

بعد هذه المقدمة البسيطة نتّجه إلى تفسير الآيات التى يراد بحثها، حيث يترك اللّه تعالى الحديث عن القيامة و أحوال المؤمنين و الكفرة مؤقتا، ليعطى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۷

تذكرة مختصرة للنّبى صلّى اللّه عليه و آله حول القرآن فيقول: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ لهذه الآية أقوال متعددة للمفسّرين، و على المجموع ذكرت لها ثلاثة تفاسير:

الأوّل: هو التفسير المشهور الـذى نقل عن ابن عباس فى كتب الحديث، و هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان إذا نزل عليه الوحى ليقرأ عليه القرآن، تعجّل بقراءته ليحفظه و ذلك لحبه الشديد للقرآن، فنهاه اللّه عن ذلك و قال: إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ

الثّانى: نعلم أن للقرآن نزولين هما: نزول دفعى، أى نزوله بتمامه على قلب النبى صلّى اللّه عليه و آله فى ليلة القدر، و نزول تدريجى و الذى كان أمده ۲۳ عامّا، و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعجل فى إبلاغ الرسالة أحيانا قبل النزول التدريجى للآيات أو قراءة مـا يرافق تلك الآيات، فنهاه اللّه عن ذلك. و أمره أن يبلّغ و يتلو ما ينزل عليه فى حينه، و على هـذا يكون مضـمون هـذه الآيـة كالآية (۱۱۴) من سورة طه: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ

و ليس فى هذين التفسيرين اختلاف واسع، و يكون المعنى: لا ينبغى للنّبى أن يعجل فى استلام الوحى.

الثّالث: و لم يـذهب اليه إلّا القليل، و هو أنّ المخاطبين فى هـذه الآيات هم المـذنبون، و ذلك فى يوم القيامـة حيث يأمرون بمحاسـبة أنفسهم و ذكر أعمالهم، و يقال لهم: لا تعجلوا فى ذلك، و من الطبيعى أنّهم سوف يتضـجرون عنـد ذكرهم لسيئاتهم و يمرون عليها باستعجال، فيأمرون بالتأنى فى قراءتها و اتباع الملائكـة عنـد ذكر الملائكـة لأعمالهم، و طبقا لهـذا التفسير لا تكون هذه الآيهٔ كجملهٔ معترضـهٔ، بل مرتبطـهٔ مع الآيات السابقـهٔ و اللاحقـهٔ لها. لأن جميعها تتحـدث عن أحوال القيامـهٔ و المعاد، و أمّا التفسير الأوّل و الثّانى فيناسبان شكل الجملهٔ المعترضهٔ.

و لكن التفسير الثّالث بعيد و خاصّهٔ مع الالتفات الى ذكر اسم القرآن فى الآيات اللاحقهٔ، و يشير سياق الآيات إلى أن المراد هو أحد التفسيرين السابقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۸

و لا إشكال فى الجمع بينهما بالرغم من أنّ سياق الآيات اللاحقهٔ يؤيّد التفسير الأول أى المشهور (فتدبّر).

ثمّ يضيف: إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ ۲۳۷] و بالتالى لا تقلق على جمع القرآن، نحن نجمعه و نتلوه عليك بواسطهٔ الوحى.

ثم يقول تعالى: فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثمّ يضيف: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ

فيكون جمع القرآن و قراءته لك و تبيينه و تفصيل معانيه بعهـدتنا، فلا تقلق على شـىء، فالذى أنزل الوحى هو الذى يحفظه، و أمّا ما يعهـد إليـك هو اتباعك له و إبلاغك الرسالـهٔ للناس، و عن بعضـهم أنّ المراد من الجمع ليس الجمع فى لسان الوحى، بل جمعه فى صـدر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قراءته على لسـانه أى لاـ تعجـل إنّ علينا أن نجمعه فى صـدرك و نثبت قراءته فى لسانك بحيث تقرأه متى شئت.

على كل حال فإن هـذه العبارات تؤيد التفسير الأوّل، و هو أن الوحى النازل بواسطهٔ جبرئيل عليه السّـلام عند ما كان يهبط على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليقرأ عليه القرآن كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يكرر الآيات بسرعهٔ لئلا ينساها. و هنا جاء الأمر من اللّه أن أهدأ و اطمئن فإنّه تعالى هو الذى يجمع الآيات و يبيّنها. و هذه الآيات تبيّن ضـمنيا أصالهٔ القرآن، و حفظه من أى تغيّر و انحراف، لأنّ اللّه تعالى عهد بجمعه و قراءته و تبيينه.

و ورد فى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان بعد نزول هذه الآيات إذا أتاه جبرئيل عليه السّلام أطرق، فإذا ذهب قرأ كما وعده اللّه ۲۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۹

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۲۰ الى ۲۵]

اشارة

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (۲۰) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (۲۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (۲۲) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (۲۳) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (۲۴) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (۲۵)

التّفسیر

الوجوه الضاحکة و الوجوه العابسة فی ساحة القیامة:

ترجع هذه الآیات مرّة أخری لتکمل البحوث المتعلقة بالمعاد.

و خصوصـیات أخری من القیامـة، و کـذلک تبیّن علل إنکار المعاد فیقول تعالی كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ[۲۳۹] فلیس الأمر کما یتصور من أن دلائل المعاد خفیّة و لا یمکنکم الاطلاع علیها، بل إنّکم عشقتکم الدنیا. و لهذا السبب ترکتم الآخرة وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ.

إنّ الشک فی قدرة اللّه تعالی و جمع العظام و هی رمیم لیس هو الدافع لإنکار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۰

المعاد، بل إنّ حبّکم الشدید للدنیا و الشـهوات و المیول المغریة هی التی تدفعکم الی رفع الموانع عن طریق ملذاتکم، و بما أنّ المعاد و الشریعة الإلهیة توجد موانع و حدودا کثیرة علی هذا الطریق، لذا تتمسکون بإنکار أصل الموضوع، و تترکون الآخرة بتمامها.

و کمـا ذکرنـا سابقـا أنّ إحـدی العلـل المهمّـة للمیول الی المادیـة و إنکار المبـدأ و المعاد هو کسب الحریـة المطلقـة للانجراف وراء الشهوات و اللذات و الذنوب، و لا ینحصر هذا فی العهود السابقة، بل یتجلّی هذا المعنی فی عالم الیوم بصورة أوضح.

و هاتان الآیتان تؤکّدان ما ورد فی الآیات السابقة و التی قال فیها تعالی شأنه: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ و قال أیضا: يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ.

ثمّ ینتهی إلی تبیان أحوال المؤمنین الصالحین و الکفّار المسیئین فی ذلک الیوم، فیقول تعالی: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ.

«ناضرة»: من مادة (نضرة) و تعنی البهجة الخاصّة التی یحصل علیها الإنسان عند وفور النعمة و الرفاه، و وفورها یلازم السرور و الجمال و النورانیـة، أی أنّ لون محیاهم تحکی عن أحوالهم، کیف أنّهم أغرقوا فی النعم الإلهیـة، و هذا شبیه لما جاء فی الآیة (۲۴) من سورة المطفّفین: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ

هـذا من ناحیـة العطایا المادیة، و أمّا عن العطایا الروحیة فیقول تعالی: إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ نظرة بعین القلب و عن طریق شـهود الباطن، نظرة تجـذبهم إلی الـذات الفریـدة و إلی ذلک الکمال و الجمال المطلقین، و تهبهم اللـذة الروحانیـة و الحال الذی لا یوصف، إذ أنّ لحظة منها أفضل من الدنیا و ما فیها. و الجدیر بالذکر أن تقدیم (إلی ربّها) علی (ناظرة) تفید الحصر، أی ناظرة إلی اللّه فقط لا إلی غیره.

و إذا قیل إنّ أهل الجنان ینظرون إلی غیر اللّه تعالی أیضا، فإنّنا نقول: إذا نظروا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۱

إلی غیره فـإنّهم سـوف یرون آثـار اللّه فیهـا، و النظر إلی الأـثر هو نظر إلی المؤثر، و بعبـارة أخری أنّهم یرونه فی کـلّ مکـان. و یرون تجلی قدرته و جلاله و جماله فی کل شیء، و لذا فإنّ نظرهم إلی نعم الجنان لا یجرهم إلی الغفلة عن النظر إلی ذات اللّه.

و لهذا السـبب ورد فی بعض الرّوایات فی تفسیر هذه الآیة: (إنهم ینظرون الی رحمة الله و نعمته و ثوابه)[۲۴۰] لأن النظر إلی ذلک هو بمثابة النظر إلی ذاته المقدّسة.

قال بعض الغافلین: إن هذه الآیة تشیر إلی شأنه فی یوم القیامة، و یقولون: إنّ اللّه سوف یری بالعین الظاهرة فی یوم القیامة. و الحال إنّ مشاهدته بالعین الظاهرة تسـتلزم جسـمانیته. و الوجود فی المکان، و الکیفیة و الحالة الخاصّة وجود جسـمانی، و نعلم أنّ ذاته المقدّسة

منزّهة عن مثل هذا الإعتقاد الملوث، كما اعتمد القرآن هذا المعنى فى آياته مرات عديدة، منها ما فى الآية (۱۰۳) من سورة الأنعام: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ و هذه الآية مطلقة لا تختص فى الدنيا.

على كل حال فإنّ عدم النظر الحسى إلى اللّه تعالى أمر واضح لا يحتاج البحث فيه أكثر من هذا، و يقرّ بذلك من له أدنى اطلاع على القرآن و المفاهيم الاسلامية.

و قال البعض فى معنى الناظرة أقوالا ـ أخرى مثلا ـ: ناظرة من مادة الانتظار، أى أنّ المؤمنين لا ينتظرون شيئا إلّا من اللّه تعالى، و حتى أنّهم لا يعتمدون على أعمالهم الصالحة و أنّهم ينتظرون رحمة اللّه و نعمته بشكل دائم.

و إذا قيل إنّ هذا الانتظار سيكون مصحوبا مع نوع من الانزعاج، و الحال أنّ المؤمن لا ـ شيء يزعجه فى الجنان؟ فيقال: إنّ ذلك الانتظار المصحوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۲

بالانزعاج هو ما لا يطمأن عقباه، أما إذا ما وجد الاطمئنان. فسيكون مثل هذا الانتظار مصحوبا بالهدوء[۲۴۱].

و الجمع بين معنى (النظر) و (الانتظار) غير بعيد، لجواز استعمال اللفظ الواحد فى المعانى المتعددة. و إذا كان المراد هو أحد المعنيين، فإن الأرجح هو المعنى الأوّل.

و ننهى هذا الكلام

بحديث مسند إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله إذ قال: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة يقول اللّه تعالى تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة و تنجينا من النّار»؟

قال: «فيكشف اللّه تعالى الحجاب فما أعطوا شيئا أحبّ إليهم من النظر الى ربّهم»![۲۴۲]

و الظريف هو ما

ورد فى حديث عن أنس بن مالك، عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «ينظرون إلى ربّهم بلا كيفية و لا حد محدود و لا صفة معلومة»[۲۴۳]،

و هذا الحديث تأكيد على المشاهدة الباطنية لا العينية.

و فى النقطة المقابلة لهذه الجماعة المؤمنة، هناك جماعة تكون وجوههم مقطبة. وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ.

«باسرة»: من مادة (بسر) على وزن (نصر)، و هو الشيء غير الناضج و العمل الذى لم يأت حينه، و لذا يقال لفاكهة النخل غير الناضجة (بسر) على وزن (عسر) و يطلق على عبوس الوجه. و هذا الوصف هو ردّ فعل الإنسان قبل وصول العذاب و الأذى إليه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۳

فعند ما ينظر الكافرون إلى علامات العذاب و صحائف أعمالهم الخالية من الحسنات و المملوءة بالسيئات، يصيبهم الندم و الحسرة و الحزن و يعبسون وجوههم لذلك.

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ.

يرى الكثير من المفسّرين بأنّ (الظن) هنا بمعنى العلم. أى أنّهم يوقنون بمثل هذا العذاب، و الحال أنّ بعضهم يرى أنّ (ظن) هنا بمعناها المعروف أى الاحتمال القوى، و من الطبيعى أنّهم يوقنون إجمالا ـ بأنّهم سوف يعذبون، و لكن ليس بمثل هذا العذاب الشديد[۲۴۴].

«فاقرة»: من مادة (فقرة) على وزن (ضربة) و جمعها (فقار) و تعنى حلقات الظهر، و يقال للحادثة الثقيلة التى تكسر حلقات الظهر «فاقرة»، «و الفقير» قيل له ذلك لهذا الوجه، أى أنّه مكسور الظهر[۲۴۵].

على كل حال فإنّ هذا التعبير كناية للعقوبات الثقيلة و التى تنتظر هذه الجماعة فى جهنّم، إنّهم ينتظرون عذابا قاصما، و الحال إنّ

الجماعة السابقة منتظرون لرحمة اللّه تعالى و مستعدون للقاء المحبوب. هؤلاء لهم أسوأ العذاب.

و أولئك لهم أسمى النعم الجسمانية و المواهب و اللذات الروحانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۴

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (۲۶) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (۲۷) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (۲۸) وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (۲۹) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (۳۰)

التّفسير

إتماما للأبحاث المرتبطة بالعالم الآخر و مصير المؤمنين و الكفّار يأتى الحديث فى هذه الآيات عن لحظة الموت المؤلمة و التى تعتبر بابا إلى العالم الآخر فيقول تعالى: كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ ۲۴۶] أى كلّا إنّه لا يؤمن حتى تصل روحه التراقى.

هو ذلك اليوم الذى تنفتح فيه عينه البرزخية، و تزال عنها الحجب، و يرى فيها علامات العذاب و الجزاء، و يوقف على أعماله، ففى تلك اللحظة يقرّ بالإيمان و لكن إيمانه لا ينفعه و لا يفيد حاله أبدا.

«تراقى»: جمع «ترقوة»، و هى العظام المكتنفة للنحر عن يمين و شمال،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۵

و بلوغ الروح إلى التراقى كناية عن اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان، و ذلك عند ما تخرج الروح من البدن، تتوقف الأعضاء البعيدة عن القلب (كاليدين و الرجلين) قبل غيرها، كأن الروح تطوى نفسها فى البدن تدريجيا حتى تصل إلى الحلقوم.

و فى هذه الفترة يسعى أهله و أصدقائه مستعجلين قلقين لانقاذه، يقول تعالى: وَ قِيلَ مَنْ راقٍ أى هل هناك من منقذ يأتى لإنقاذ هذا المريض؟

و يقولون هذا الحديث عن وجه العجز و اليأس، و الحال أنّهم يعلمون أنّه قد فات الآوان و لا ينفع معه طبيب.

«راق»: من مادة (رقى) على وزن (نهى) و (رقيه) على وزن (خفيفه) و هو الصعود، و لفظة (رقيه) تطلق على الأوراد و الأوعية التى تبعث على نجاة المريض، و قيل للطبيب الذى ينجى المريض و يخلصه مما هو فيه «راقى»، فيكون مفهوم الآية: ينادى أهل المريض، و أحيانا المريض نفسه من شدّة الضجر: ألا هل من داع يدعو بدعاء لينجى هذا المريض؟

و قال البعض: إنّ المعنى قول الملائكة بعضها لبعض: من يرقى بروحه من الملائكة، أ ملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟

و أضاف البعض إنّ ملائكة اللّه تكره قبض روح غير المؤمن، و لذا يقول ملك الموت: من يرقى بروحه، و المعنى الأوّل أوجه و أنسب.

و فى الآية التالية إشارة إلى اليأس الكامل للمحتضر فيقول تعالى: وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ أى فى هذه الحالة يصاب باليأس من الحياة و اليقين بالفراق، ثمّ: وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ و هذا الالتفاف إمّا لشدّة الأذى لخروج الروح، أو لتوقف عمل اليدين و الرجلين و تعطيل الروح منها.

و ذكرت تفاسير أخرى لهذه الآية، منها ما نقرأ

فى حديث عن الإمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۶

الباقر علیه السّلام قال: (التفت الدنیا بالآخرة)[۲۴۷] و مثله عن علی بن إبراهیم ۲۴۸].

و نقل عن ابن عباس كذلك من المراد من الآیة: التفاف أمر الآخرة بأمر الدنیا.

و قال البعض: هو التفاف شدائد الموت بشدائد القیامة.

و الظاهر رجوع جمیع هـذه المعانی إلی ما أوردناه فی قول الباقر علیه السّـلام، و اتخـذ هـذا التفسـیر لكون أحد معانی «الساق» فی لغة العرب هو الحادثة الشدیدة و المصیبة و الباء العظیم.

و قال آخرون هو التفاف الساق فی الكفن. و یمكن جمع هذه التفاسیر فی معنی الآیة إذ لا منافاة بینها.

ثمّ یقول تعالی فی آخر آیة من آیات البحث: إِلی رَبِّکَ یَوْمَئِذٍ الْمَساقُ

أجل إلی اللّه تعالی المرجع حیث یحضر الخلائق عند محكمة العدل الإلهیة، و هكذا ینتهی المطاف إلیه، و هذه الآیة أیضا تأكید علی مسألـة المعـاد و البعث الشامـل للعبـاد، و یمكن أن تكون إشارة إلی الحركـة التكاملیـة للخلائق و هی متجهـة نحو الـذات المقدّسـة و اللامتناهیة.

***

ملاحظة

لحظة الموت المؤلمة:

كما نعلم أنّ القرآن كثیرا ما أكّـد علی مسألـة الموت خصوصا عن الاحتضار، و ینـذر الجمیع أنّهم سـیواجهون مثل هذه اللحظة، و قد عبّر عنها أحیانا (بسكرة

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۷

الموت)[۲۴۹] و أحیانـا أخری (بغمرات الموت)[۲۵۰] و كـذلك ببلوغ الحلقوم ۲۵۱] و یعبر عنه أیضـا ببلوغ الروح إلی الـتراقی، أی العظام المكتنفة للنحر كما فی الآیات مورد البحث، و یستفاد من مجموع ذلك أنّ تلك اللحظة علی خلاف ما یقوله المادیون، لحظة صعبـة و مؤلمـة، و لم لاـ یكون كـذلك و الحـال أنّهـا لحظـة انتقال من هـذا العالم إلی عالم آخر، أی إنّ الإنسان كما ینتقل من عالم الجنین إلی عالم الدنیا مصحوبا بألم شدید، فكذلك الانتقال إلی العالم الآخر بهذا الشكل.

و المسـتفاد من الرّوایات أنّ هذه اللحظة سهلة علی المؤمنین، و صعبة و مؤلمة علی فاقدی الإیمان، و ذلك لشوق المؤمنین للقاء اللّه و رحمته و نعمه السـرمدیة بحیث لاـ یشـعرون بآلاـم لحظـة الانتقـال. و أمّـا المجموعـة الثانیـة فـإنّ الآلام تتضاعف علیهم لحظـة الانتقال لخوفهم من العقوبات من جهة، و لمصیبة فراق الدنیا التی یحبونها من جهة أخری.

نقل

فی حدیث للإمام علی بن الحسین علیه السّلام عند ما سئل عن الموت، فقال:

«للمؤمن كنزع ثیـاب وسـخة قملـة، و فـك قیود و أغلال ثقیلـة، و الاسـتبدال بأفخر الثیاب و أطیبها روائـح، و أوطئ المراكب، و آنس المنـازل، و للكـافر كخلع ثیـاب فـاخرة، و النقـل عن منـازل أنیسـة، و الاسـتبدال بأوسـخ الثیـاب و أخشـنها، و أوحش المنازل و أعظم العذاب»[۲۵۲].

و

فی حـدیث آخر عن الإمـام الصـادق علیه السّـلام عنـد مـا طلب شـخص منه أن یوصـف له الموت فقـال الإمـام علیه السّـلام: «للمؤمن

كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه و ينقطع التعب و الألم كلّه عنه، و للكافر كلسع الأفاعى و لدغ العقارب أو أشدّ»![۲۵۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۸

على كل حال فإنّ الموت باب يؤدى إلى عالم البقاء، كما

فى حديث عن الإمام أمير المؤمنين إذ قال: «لكل دار باب و باب دار الآخرة الموت»[۲۵۴].

أجل، إنّ ذكر الموت له الأثر البالغ و العميق فى كسر الشهوات و إنهاء الآمال الطويلة و البعيدة و محو آثار الغفلة عن مرآة القلب، لذا ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «ذكر الموت يميت الشهوات فى النفس و يقلع منابت الغفلة، و يقوّى القلب بمواعد اللّه و يرقّ الطبع، و يكسر أعلام الهوى، و يطفئ نار الحرص، و يحقّر الدنيا، و هو معنى ما قال النّبى: «فكر ساعة خير من عبادة سنة»[۲۵۵].

و بالطبع المراد من ذلك هو بيان أحد المصاديق الواضحة للتفكر و لا ينحصر موضوع التفكر بذلك.

و أوردنا فى ما مضى بحثا آخرا لهذا الموضوع فى ذيل الآية (۱۹) من سورة (ق).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۹

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۳۱ الى ۴۰]

اشارة

فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى (۳۱) وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۳۲) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (۳۳) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (۳۴) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (۳۵) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (۳۶) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (۳۷) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (۳۸) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (۳۹) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (۴۰)

التّفسير

خلق الإنسان من نطفة قذرة:

استمرارا للبحوث المتعلقة (بالموت) الذى يعتبر الخطوة الأولى فى السفر إلى الآخرة يتحدث القرآن فى هذه الآيات عن خواء أيدى الكفّار من الزاد لهذا السفر.

فيقول أوّلا: فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى ۲۵۶] أى إنّ هذا الإنسان المفكر للمعاد لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۰

يؤمن إطلاقا و لم يصدّق بآيات اللّه و لم يصلّ له.

و قال تعالى: وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى

المراد من جملة فَلا صَدَّقَ عدم التصديق بالقيامة و الحساب و الجزاء و الآيات الإلهية و التوحيد و نبوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قال البعض: إنّها إشارة إلى ترك الكافرين للإنفاق و الصدقة بقرينة ذكرها مع الصلاة، و لكن الآية الثانية تشهد جيدا على أن النقطة المقابلة لهذا التصديق هو التكذيب، و لذا يكون التفسير الأوّل هو الأصح.

و يضيف تعالى فى الآية الأخرى: ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى

إنّه يظنّ بعدم اهتمامه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تكذيبه إيّاه و للآيات الإلهية قد حقق نصرا باهرا، إنّه كان ثملا من خمرة

الغرور، و اتجه إلى أهله لينقل لهم كالعادة ما كان قد حدث و ليفتخر بما صدر منه، و كان سيره و حركته تشيران إلى الكبر و الغرور.

«يتمطى»: من مادة (مطا) و أصله الظهر، و (تمطى) مدّ الظهر عن غرور و لا مبالاة. أو عن كسل، و المراد هنا هو المعنى الأوّل.

و قيل هو من مادة (مط) على وزن (خط) أى مدّ الإنسان رجله أو بقية أعضاء البدن عند ما يريد إظهار اللامبالاة أو الكسل، و لكن اشتقاقه من (مطا) أنسب مع ظاهر اللفظ[۲۵۷].

على كل حال فإنّ ذلك يشابه ما ورد فى الآية (۳۱) من سورة المطففين:

وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ

ثمّ يخاطب القرآن أفرادا كهؤلاء و يهددهم فيقول تعالى:

أَوْلى لَکَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَکَ فَأَوْلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۱

هناك تفاسير أخرى متعددة ذكرت لهذه الآية منها:

إنّها تهديد بمعنى لك العذاب ثم لك العذاب.

و قيل: ما أنت عليه من الحال أولى و أرجح لك فأولى.

و قيل: الذم أولى لك و أحسن ثم أحسن.

و قيل: الويل لك ثمّ الويل لك.

و قيل: يراد به بعدا لك من خيرات الدنيا و بعدا لك من خيرات الآخرة.

و قيل: وليك و صاحبك شرّ و عذاب ثمّ وليك شرّ و عذاب.

و قيل: أولى لك ما تشاهده يوم بدر فأولى لك فى القبر ثمّ أولى لك يوم القيامة[۲۵۸].

و لا يخفى أنّ غالبية هذه المعانى تعود إلى معنى كلى و جامع، و تأخذ طابع التهديد بالعذاب، و الذمّ و الشرّ و العقاب أعم من عذاب الدنيا و البرزخ و القيامة.

و

ورد فى الرّوايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ بيد أبى جهل ثم قال له: أَوْلى لَکَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَکَ فَأَوْلى

فقال أبو جهل: بأى شيء تهددنى لا تستطيع أنت و لا ربّك أن تفعلا بى شيئا، و إنّى لأعزّ أهل هذا الوادى، فأنزل اللّه سبحانه كما قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثم ينتهى القرآن فى هذا البحث إلى استدلالين لطيفين حول المعاد و أحدهما عن طريق (الحكمة الإلهية و هدف الخلقة)، و الآخر عن طريق بيان قدرة اللّه فى تحول و تكامل نطفة الإنسان فى المراحل المختلفة لعالم الجنين، فيقول تعالى عن المرحلة الألى: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَکَ سُدىً

«سدى»: على وزن (هدى) و هو المهمل الذى لا هدف له، و جاء قول العرب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۲

(إبل سدى) فى الإبل السائبة التى تترك بلا راع.

و المراد من (الإنسان) فى هذه الآية هو المنكر للمعاد و البعث، فيكون معنى الآية: كيف يخلق اللّه هذا العالم العظيم للإنسان و لا يكون له هدف ما؟ كيف يمكن ذلك و الحال أنّ كل عضو من أعضاء الإنسان خلق لهدف خاص، فالعين للنظر، و الأذن للسمع، و القلب لإيصال الغذاء و الأوكسجين و الماء إلى جميع الخلايا، حتى أنّ لخطوط أطراف أصابع الإنسان حكمة، و لكن يحسب أن لا هدف فى خلق كلّ ذلك، و هو مهمل لا تخطيط فيه و ليس له من أمر و نهى و مهام و مسئولية، فلو صنع شخص ما صنعة صغيرة لا

فائـدهٔ فيها فإنّ الناس سوف يشـكلون عليه ذلک و يحذفون اسـمه من زمرهٔ العقلاء. فكيف يمكن للّه الحكيم المطلق أن يخلق خلقا لا هـدف له؟! و إذا قيـل أنّ الهـدف من هـذه الحياهٔ هو قضاء أيّام الـدنيا، هـذا الأكل و النوم المكرر الممزوج بآلاف الأنواع من الآلام و العـذاب، فـإنّ هـذا لا يمكن أن يكون مبررا لـذلک الخلق الكبير. و لـذا فإنّنا نسـتنتج من أن الإنسان قـد خلق لهـدف أكبر، أى الحياهٔ الخالدهٔ فى جوار رحمهٔ اللّه و التكامل المستمر و الدائم ۲۵۹].

ثم انتهى إلى تبيان الـدليل الثّانى، فيضـيف تعالى: أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى و بعد هذه المرحلهٔ و اسـتقرار المنى فى الرحم يتحول الى قطعهٔ متخثرهٔ من الدم، و هى العلقهٔ، ثمّ أنّ اللّه تعالى يخلقها بشكل جديد و متناسب و موزون ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى

و لم يتوقف على ذلک: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى

أليس من يخلق النطفـهٔ الصـغيرهٔ القذرهٔ فى ظلمهٔ رحم الأم و يجعله خلقا جديدا كلّ يوم، و يلبسه من الحياهٔ لباسا جديدا و يهبه شـكلا مستحدثا ليكون بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۳

ذلک إنسانا كاملا ذكرا أو أنثى ثم يولـد من امّه، بقادر على إعادته: أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ! و هذا البيان فى الواقع هو لمن ينكر المعاد الجسـمانى و يعـده محالا، و ينفى العودهٔ إلى الحياهٔ بعـد الموت و الدفن، و لإثبات ذلک أخذ القرآن بيد الإنسان ليرجعه إلى التفكر ببدايـهٔ خلقه، و المراحل العجيبـهٔ للجنين ليريه تطورات هـذه المراحل، و ليعلم أنّ اللّه قادر على كلّ شـىء، و بعبارهٔ أخرى إن أفضل دليل لحدوث الشىء هو وقوعه.

***

ملاحظتان

۱- أطوار الجنين أو البعثات المكررهٔ!

«النطفهٔ»: أصلها الماء القليل أو الماء الصافى، و قيل ذلک للقطرات المائيهٔ المسببهٔ لوجود الإنسان أو الحيوان عن طريق اللقاح.

و فى الحقيقـهٔ أنّ تحول النطفـهٔ فى المرحلـهٔ الجنينيـهٔ من عجـائب عـالم الوجود و هو موضوع «علم الأجنـهٔ» و قـد كشف عن كثير من أسراره فى القرون الأخيرهٔ.

القرآن الكريم أكّـد منـذ ذلک اليوم الـذى لم تكشف فيه هذه الأمور بعد- على ذلک مرارا باعتباره أحد علائم القدرهٔ الإلهيهٔ، و هذا هو بحدّ ذاته من علائم عظمهٔ هذا الكتاب السماوى العظيم و إعجازه.

و مع أنّ هـذه الآيات ذكرت بعض مراحل الجنين، فإنّ هناک آيات قرآنيـهٔ أخرى بيّنت مراحل أكثر ممّا ذكر هنا، كصدر آيات سورهٔ الحج و أوائل سورهٔ المؤمنين، و ذكرنا شرحا مفصّلا فى ذيل هذه الآيات فى هذا المجال.

و الآيهٔ تتضمّن كلمهٔ (ذلک) و هو اسم إشارهٔ للبعيد، فيما يخص اللّه تعالى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۴

و هو كنايهٔ لعظمهٔ مقامه تعالى، و إشارهٔ إلى أنّ ذاته المقدّسهٔ لا يتمكن البشر من إدراكها و معرفتها.

و

جاء فى روايهٔ لما نزلت هذه الآيهٔ: أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى أنّ رسول اللّه قال: «سبحانک اللّهم، و بلى».

و نقل هذا المعنى أيضا عن الإمامين أبى جعفر الباقر و أبى عبد اللّه الصادق عليهما السلام ۲۶۰].

۲– نظام الأجناس البشرية

لا يزال العلم قاصرا فى معرفة العوامل الاصلية التى تؤثر فى تبديل جنس المذكر أو المؤنث رغم البحوث الكثيرة التى أجريت فى هذا الصدد، صحيح أنّ بعض المواد الغذائية أو الأدوية يمكن أن تؤثر فى هذه المسألة، و لكن من اليقين أن أيّا منها لا يكون معيّنا لها، و بعبارة أخرى أن هذا هو أمر علمه عند اللّه تعالى.

و يرى من جهة أخرى التعادل النسبى المستمر بين هذين الجنسين فى كلّ المجتمعات، و إن كان عدد النساء أكثر فى أغلب المجتمعات، و ازدياد عدد الرجال فى مجتمعات أخرى، و لكن الحصيلة تشير إلى وجود التعادل النسبى بين الجنسين، فلو فرضنا أن اختل يوما هذا التعادل، و تضاعف عدد النساء مثلا إلى عشرة أضعاف، أو أن عدد الرجال تضاعف عشرة أضعاف النساء. عندئذ كيف سيختل نظام المجتمع الإنسانى؟ و ماذا سيتخلف فيه من المفاسد العجيبة بحيث تقابل المرأة عشرة رجال، أو يقابل الرجل عشر نساء، و ما يقام من غوغاء!؟

الآية السالفة تقول: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى و هى إشارة لطيفة لموضوعين: فمن جهة تشير الى تنوع البشر، و تقسيمهم إلى هذين الجنسين فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٢٣٥

مرحلة الجنين، و من جهة أخرى تشير إلى هذا التعادل النسبى [٢٦١].

اللّهم! نحن نشهد أنّك قادر على احياء جميع الموتى فى لحظة واحدة، و لا شىء يقف أمام قدرتك اللامتناهية ...

ربّنا! إنّنا فى ذلك اليوم الذى تصل فيه أرواحنا إلى التراقى ليس لنا أمل أو رجاء سوى رحمتك و لطفك ...

إلهنا! ارزقنا معرفة الهدف من خلقك ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة القيامة***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٢٣٧

سورة الإنسان

اشارة

(الدهر) مدنيّة و عدد آياتها واحد و ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٢٣٩

«سورة الإنسان»

محتوى السورة:

هذه السورة رغم قصرها، فانّ لها محتويات عميقة و متنوعة و جامعة، و يمكن بنظرة واحدة تقسيمها إلى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: يتحدث عن إيجاد الإنسان و خلقه من نطفة أمشاج (مختلطة)، و كذلك عن هدايته و حرية إرادته.

القسم الثّانى: يدور الحديث فيه عن جزاء الأبرار و الصالحين، و سبب النزول الخاص بأهل البيت عليهم السّلام.

القسم الثّالث: تكرار الحديث عن دلائل استحقاق الصالحين لذلك الثواب فى عبارات قصيرة و مؤثرة.

القسم الرّابع: يشير إلى أهمية القرآن و سبيل إجراء أحكامه و منهج تربية النفس الشاق.

القسم الخامس: جاء الحديث فيه عن حاكمية المشيئة الإلهية (مع حاكمية الإنسان).

و لهذه السورة أسماء عديدة، أشهرها (الإنسان) (الدهر) و (هل أتى) و هذه الكلمات وردت في أوائل السورة، و إن كانت الرّوايات الواردة في فضيلتها و التي سوف يأتي ذكرها، قد ذكرت اسم (هل أتى) لهذه السورة.

***

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٢۴٠

هل أنّ هذه السورة مدنية؟

هناك أقوال في أوساط المفسّرين حول مدنية هذه السورة أو مكيّتها، فالمفسّرون و منهم علماء الشيعة أجمعوا على أنّ السورة بتمامها أو على الأقل ما جاء في صدرها و التي تتحدث عن الأبرار و الأعمال الصالحة هي مدنية، و سيأتي فيما بعد شرح القصة التي كانت سببا لنزول السورة، و القصة تحكي عمّا نذره أمير المؤمنين و الزهراء الحسنان عليهم السّلام و خادمتهم و فضة.

و المشهور بين علماء أهل السنة أنّها مدنية كما قال القرطبي في تفسيره:

(و قال الجمهور مدنية)[٢۶٢]، و نذكر هنا أسماء العلماء الذين قالوا بمدنية السورة أو بعضها:

١- الحاكم أبو القاسم الحسكاني: فقد نقل عن ابن عباس عددا من السور المكية و المدنية، و رتّبها كما نزلت، فكانت هذه السورة عنده في قائمة السور المدنية و التي نزلت بعد سورة الرحمن و قبل سورة الطلاق ٢۶٣]، و أورد صاحب كتاب الإيضاح الأستاذ أحمد زاهر نفس المعنى و ذلك عن ابن عباس ٢۶۴].

٢- نقل في (تاريخ القرآن) لأبي عبد اللّه الزنجاني عن كتاب (نظم الدرر و تناسق الآيات و السور) عن كبار علماء أهل السنة أنّ سورة الإنسان اعتبرت من السور المدنية[٢۶۵].

٣- و نقل كذلك في كتاب (فهرست ابن النديم) عن ابن عباس أن سورة هل أتى هي السورة المدنية الحادية عشرة[٢۶۶].

۴- نقل في (الإتقان) للسيوطي عن البيهقي في (دلائل النبوة) عن عكرمة أنّه

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٢۴١

قال: إنّ سورة (هل أتى) مدنيّة[٢۶٧].

۵- و نقل هذا المضمون أيضا بطرق مختلفة عن ابن عباس في (الدرر المنثور)[٢۶٨].

۶- نقل الزمخشري في (تفسير الكشاف) ما هو مشهور في سبب نزول آيات صدر السورة و قال: هي في نذر علي و زوجته و ولديه عليهم السّلام ٢۶٩].

٧- و نقل كذلك جمع كثير من كبار علماء أهل السنة في أنّ سبب نزول الآيات الواردة في صدر السورة إِنَّ الْأَبْرارَ ... قد نزلت في حق عليّ و فاطمة الزهراء و الحسن و الحسين عليهم السّلام و هي شهادة على مدنيّة السورة (لأن ولادة الحسن و الحسين عليهما السّلام كانت في المدينة) كالواحدي في (أسباب المنزل) و البغوي في (معالم التنزيل) و سبط بن الجوزي في (التذكرة) و الگنجي الشافعي في (كفاية الطالب) و جمع آخر[٢٧٠].

و هذه المسألة مشهورة بكثرة لغاية أن (محمد بن إدريس الشافعي) و هو أحد الأئمة الأربعة لأهل السنة يقول في شعره:

إلام، إلام و حتى متى؟أعاتب في حبّ هذا الفتى!

و هل زوجت فاطم غيره؟و في غيره هل أتى هل أتى؟![٢٧١]

و هناك أدلّة كثيرة في هذا الإطار و سنبيّن قسما منها عند توضيح سبب نزول الآية: إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ ....

و مع ذلك كله فإنّ البعض يصرّ بعصبية على أنّ السورة مكية، و ينكرون ما قيل من الرّوايات التي وردت في حق السورة و نزولها في

المدينة و إنكار نزولها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۲

كـذلك فى حق على و أهـل بيته عليهم السّـلام! و ذلـك من العجب حقّـا، فأينما تنتهى الآيـة أو الروايـة إلى فضائل على و أهل البيت عليهم السّـلام يعلو الصـراخ و العويـل و تظهر الحساسـيات الشديـدة و كـأنّ الإسـلام قـد وقع فى خطر! رغم أنّهم يـدّعون أنّ عليا عليه السّـلام من الخلفـاء الراشـدين و من أئمـة الإسـلام العظـام و أنّهم يتودّدون إلى أهل البيت عليه السّـلام، و نرى من نتائـج حكم الروح الأموية على أفكار هذه الجماعة و وليدة الإعلام المضلل لتلك المرحلة المشؤومة. حفظنا اللّه من جميع الشبهات.

فضيلة السورة:

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ سورة (هل أتى) كان جزاؤه على اللّه جنّة و حريرا»[۲۷۲].

و

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من قرأ سورة هل أتى فى كل غداة خميس زوجه اللّه من الحور العين مأة عذراء و أربعة آلاف ثيب و كان مع محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم»[۲۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۳

الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الـدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَـيْئاً مَـذْكُوراً (۱) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَـةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَـمِيعاً بَصِـيراً (۲) إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (۳) إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالاً وَ سَعِيراً (۴)

التّفسير

الإنسان مخلوق من النطفة التافهة:

تتحـدث الآيات الأولى عن خلق الإنسان، بالرغم من أنّ أكثر بحوث هذه السورة هى حول القيامة و نعم الجنان، فتحدثت فى البدء عن خلق الإنسان، لأنّ التوجه و الالتفات إلى هذا الخلق يهىء الأرضـية للتوجه إلى القيامة و البعث كما شرحنا ذلك سابقا فى تفسير سورة القيامة.

فيقول تعالى: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً[۲۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۴

نعم، كـانت ذرات وجـود هـذا الإنسـان متنـاثرة فى كـلّ صوب و بين الأتربـة، بين أمواج قطرات مـاء البحر. فى الهواء المتنـاثر فى جو الأرض، و هكذا اختفت المواد الأصلية لوجوده فى كلّ زاوية من زوايا هذه المحيطات الثلاثة، و قد ضاع بينها و لا يمكن ذكره مطلقا.

و لكن هل أنّ المراد من الإنسان هنا هو نوع الإنسان، و يشمل بذلك عموم البشر، أم أنّ هذا الإنسان يختص بالنبى آدم عليه السّلام؟

الآية الأخرى التى تقول: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ قرينة واضحة على المعنى الأوّل، و إن كان البعض يرى أنّ الإنسان فى الآية الاولى يراد به آدم عليه السّلام، و الإنسان فى الآية الثّانية يراد به أولاده، و لكن هذا الاختلاف فى هذه الفاصلة القصيرة مستبعد جداً.

و هناك أقوال فى تفسير لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً منها: إنّ الإنسان لم يكن شيئا مذكورا عند ما كان فى عالم النطفة و الجنين، و إنّما أصبح ممّن يذكر عند ما طوى مراحل التكامل فيما بعد؛

ففى حديث ورد عن الإمام الباقر عليه السّلام «كان الإنسان مذكورا فى علم اللّه و لم يكن مذكورا فى عالم الخلق»[۲۷۵].

و جاء فى بعض التفاسير أنّ المراد بالإنسان هنا هم العلماء و المفكرون الذين لم يكونوا مذكورين قبل انتشار العلم، و عند وصولهم إلى العلم و انتشاره بين الناس أصبح ذكرهم مشهورا فى حياتهم و بعد موتهم.

و قيل «إنّ عمر بن الخطاب» قد سمع أحدا يتلو هذه السورة فقال: «ليت آدم بقى على ما كان فكان لا يلد و لا يبتلى أولاده»[۲۷۶] و هذا من عجائب القول، لاعتراضه على مسألة الخلق.

ثمّ يأتى خلق الإنسان بعد هذه المرحلة، و اعتبار ذكره، فيقول تعالى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۵

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً.

«أمشاج»: جمع مشج، على وزن (نسج) أو (سبب)، أو أنه جمع «مشيج» على وزن (مريض) بمعنى المختلط.

و لعل ذكر خلق الإنسان من النطفة المختلطة إشارة إلى اختلاط ماء الذكور و الإناث، و قد أشير إلى ذلك فى روايات المعصومين عليهم السّلام بصورة إجمالية، أو أنّها إشارة إلى القابليات المختلفة الموجودة داخل النطفة من ناحية العوامل الوراثية عن طريق الجيّنات، أو أنّها إشارة إلى اختلاط المواد التركيبية المختلفة للنطفة، لأنّها تتركب من عشرات المواد المختلفة، أو اختلاط جميع ذلك مع بعضها البعض، و المعنى الأخير أجمع و أوجه.

و يحتمل كون «الأمشاج» إشارة إلى تطورات النطفة فى المرحلة الجنينية[۲۷۷].

«نبتليه»: إشارة إلى وصول الإنسان إلى مقام التكليف و التعهد و تحمل المسؤولية و الاختبار و الامتحان، و هذه هى إحدى المواهب الإلهية العظيمة الذى أكرم بها الإنسان و جعله أهلا للتكليف و تحمل المسؤولية، و بما أنّ الاختبار و التكليف لا يتمّ إلّا بعد الحصول على المعرفة و العلم فقد أشار فى آخر الآية إلى وسائل المعرفة، و العين و الأذن التى أودعها سبحانه و تعالى فى الإنسان و سخرها له.

و قيل المراد بالابتلاء هنا التطورات و التحولات الحاصلة فى الجنين من النطفة حتى ينشئه إنسانا كاملا، و لكن التمعن فى عبارة «نبتليه»، و كذلك فى كلمة «الإنسان» نجد أنّ المعنى الأوّل هو الأوجه.

و ممّا يستفاد من هذه العبارة أنّ منبع جميع إدراكات و علوم الإنسان هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۶

إدراكاته الحسية، و بعبارة أخرى إنّ الإدراكات الحسية هى أمّ المعقولات، و هذه هى نظرية كثير من فلاسفة المسلمين و من بين فلاسفة اليونان يذهب أرسطو إلى هذه النظرية أيضا.

إنّ اختبار الإنسان بحاجة إلى عاملين آخرين، هما: «الهداية» و «الاختبار» بالإضافة إلى المعرفة و وسائلها، فقد أشارت الآية التالية إلى ذلك: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً[۲۷۸]. إنّ للهداية هنا معنى واسعا، فهى تشمل «الهداية التكوينية» و «الهداية الفطرية» و كذلك «الهداية التشريعية» و إن كان سياق الآية يؤكّد على الهداية التشريعية.

توضيح:

إنّ اللّه قـد خلق الإنسـان لهـدف الابتلاء و الاختبار و التكامل، فأوجـد فيه المقـدمات لكى يصل بها إلى هـذا الهـدف، و وهبه القوى اللازمة لذلك، و هذه هى (الهداية التكوينية)، ثمّ جعل فى أعماق فطرته عشـقا لطى هذا الطريق، و أوضح له السبيل عن طريق الإلهام الفطرى، فسـمى ذلـك ب (الهدايـة الفطريـة)، و من جهـة أخرى بعث القـادة السـماويين و الأنبيـاء العظـام لإراءة الطريق بالتعليمات و القوانين النيّرة السماوية، و ذلك هو «الهداية التشريعية»، و جميع شعب الهداية الثلاث هذه لها صبغة عامّة، و تشمل جميع البشر.

و على المجموع فإنّ الآية تشير إلى ثلاث مسائل مهمّة مصيرية فى حياة الإنسان: «مسألة التكليف»، و «مسألة الهداية»، و مسألة «الإرادة و الإختيار» و التى تعتبر متلازمة و مكمّلة بعضها للبعض الآخر.

التعبير ب (شاكرا) و (كفورا) يعتبر أفضل تعبير ممكن فى هـذه الآيـة، لأنّه من قابل النعم الإلهيـة الكبيرة بالقبول و اتخـذ طريق الهداية مسلكا، فقد أدّى شكر

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۷

هذه النعمة، و أمّا من خالف فقد كفرها.

و بما أنّ الإنسان لا يتمكن من تحقيق الشـكر الحقيقى، فقد عبّر عن الشكر باسم الفاعل، و الحال أنّ الكفران جاء بصيغة المبالغة فقال: (كفور)، لأنّ عدم اهتمامهم بهذه النعم الكبيرة يعتبر كفرانا شديدا منهم باعتبار أنّ اللّه عزّ و جلّ وضع وسائل الهداية تحت تصرفهم، و لذا فإنّ إهمال هذه الوسائل و المواهب و الغضّ عنها و اتخاذ السبيل المنافى لها يعتبر كفرانا شديدا.

و الجدير بالذكر أنّ كلمة (كفور) تستعمل لكفران النعمة، و كذلك للكفر الاعتقادى، و هو ما أورده الراغب فى مفرداته.

و أشـارت الآيـة الأخيرة من آيـات البحث إشـارة قصيرة و غنيـة بالمعنى إلى الـذين سـلكوا طريق الكفر و الكفران فتقول: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالًا وَ سَعِيراً.

التعبير ب (اعتدنا) تأكيد على حتمية مجازاة هذه الثلّة، و بالرغم من أنّ تهيئة الشـىء مسبقا هو عمل من له قدرة محدودة و يحتمل أن يعجز بعـد ذلـك من إنجـاز العمل، و لكن هـذا المعنى لا يصـدق على اللّه تعالى، لأنّه إذا أراد شـيئا يقول له كن فيكون، و فى الوقت نفسه يبيّن للكافرين أنّ هذه العقوبات حتمية و وسائلها جاهزة.

«سـلاسل»: جمع (سلسـلة)، و هى القيـد الـذى يقاد به المجرم، و «الأغلال» جمع غل، و هى الحلقـة التى توضع حول العنق أو اليدين و بعد ذلك يقفل بالقيد[۲۷۹].

على كـلّ حـال فإنّ ذكر الأغلال و السـلاسل و لهيب النيران المحرقـة تبيان للعقوبات التى يعاقب بها المجرمون، و هو ما أشـير إليه فى كثير من آيات القرآن و يشمل ذلك العذاب و الذل، إنّ إطلاقهم لعنان الشهوات يسبب فى تعاستهم فى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۸

الآخرة، و إشعالهم للنيران فى الدنيا تتجسّد لهم فى الآخرة لتلهب أطرافهم.

***

ملاحظة

عالم الجنين الصاخب:

من الواضـح أنّ نطفـة الإنسان مركّبـة من ماء الرجل و المرأة، و يسـمى الأوّل (الحيمن) و الثّانى (البويضـة) فالأصل وجود (النطفة) ثمّ تركيبها، و بعد ذلك تتمّ المراحل المختلفة للجنين، و هذا هو من العجائب العظيمة لعالم الخلق، و تطور العلم (علم الأجنّة) قد كشـف

الكثير من أسراره و إن كانت هناك أسرار كثيرة لم يتمّ كشفها لحدّ الآن، و نذكر هنا قسما من العجائب و التى تعدّ زاوية صغيرة من عالم الجنين:

۱- «الحيمن» و هو ما يخرج مع ماء الرجل، و هو كائن حى متحرك صغير لا يرى بالعين المجرّدة، و له رأس و عنق و ذنب متحرك، و ممّا يثير العجب أنّ الرجل فى كلّ إنزال يضم ماؤه من الحيامن المليونين إلى ۵۰۰ مليون حيمن، و هو ما يعادل نفوس عدّة دول، و لكن لا يدخل من هذا العدد الهائل إلى البيضة إلّا واحد أو عدّة حيامن لإخصاب البيضة، و سبب وجود هذا العدد من الحيامن يكمن فى الخسائر التى تلحق بها فى طريقها إلى البيضة و تلقيحها، و لو لم يتوفر مثل هذا العدد لكان أمر الحمل صعبا.

۲- إنّ حجم «الرحم» قبل الحمل يكون بحجم الجوزة الواحدة، و عند انعقاد النطفة و نمو الجنين يتسع الرحم بشكل ملحوظ ليشغل مكانا واسعا، و العجب أنّ جدار الرحم يكون مطأطئا إلى حد يكون قادرا على استيعاب حجم الطفل و حركاته.

۳- إنّ الدم لا يجرى فى الرحم بواسطة العروق و الشرايين، بل يجرى بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۹

عضلات الرحم بصورة ميزاب، لأنّ الرحم فى اتساع مستمر فإذا ما وجد العرق فإنّه لن يتحمل السحب و التمدد الكبير.

۴- يعتقد بعض العلماء أنّ لبيوض المرأة شحنة موجبة، و إنّ للحيمن شحنة سالبة، و لذا يجذب أحدهما الآخر، و لكن عند تخصيب الحيمن للبيضة فإنّ شحنة النطفة المتشكلة تكون سالبة. و تطرد بذلك بقية الحيامن الموجودة، و قال آخرون: عند ما يدخل الحيمن فى البيضة تترشح مادة كيميائية خاصّة لتطرد بقية الحيامن.

۵- إنّ الجنين يسبح فى كيس كبير فيه ماء غليظ يدعى ب «آمنى بوس» له خاصية مقاومة ما يقع على بطن المرأة من الضربات، و تحمل ما يقع من حركات الأم الشديدة، بالإضافة إلى ذلك فإنّه يحفظ الجنين بمعدل حرارى ثابت، و لا تؤثر فيه تغيرات الحرارة الخارجية بسرعة، و الجدير بالذكر أنّ الكيس يجعل الجنين عديم الوزن، و يمنع من حدوث الضغط على أعضاء الجنين بعضها على بعض ممّا يسبب ذلك ضررا على الجنين! ۶- تتمّ تغذية الجنين عن طريق المشيمة و حبل السرّة، أى أنّ دم الأم و المواد الغذائية و الأوكسجين يدخل إلى المشيمة ثمّ يبدأ حبل السرّة بتصفية هذه المواد لتدخل إلى قلب الجنين و تتوزع منه إلى بقية أعضاء البدن، و الطريق أنّ البطين الأيسر و الأيمن لقلب الجنين مترابطان مع بعضهما الآخر، لأنّ التصفية هنا لا تتمّ إلّا عن طريق الرئة، و ذلك لأنّ الجنين لا يتنفّس و لكنّه عند تولده تنفصل الأوعية بعضها عن البعض الآخر، و يبدأ جهاز التنفس عندئذ بالعمل.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۰

الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۵ الى ۱۱]

اشارة

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (۵) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (۶) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (۷) وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً (۸) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً (۹) إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (۱۰) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (۱۱)

سبب النزول

البرهان العظيم على فضيلة أهل بيت النّبى:

قال ابن عباس: إنّ الحسن و الحسین مرضا فعادهما الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ناس معه، فقالوا: یا أبا الحسن لو نذرت علی ولدیک، فنذر علی و فاطمة و فضة جاریة لهما إن برئا ممّا بهما أن یصوموا ثلاثة أیّام (طبقا لبعض الرّوایات أنّ الحسن و الحسین أیضا قالا نحن کذلک ننذر أن نصوم) فشفیا و ما کان معهم شیء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۱

فاستقرض علی علیه السّلام ثلاث أصواع من شعیر فطحنت فاطمة صاعا و اختبزته، فوضعوا الأرغفة بین أیدیهم لیفطروا فوقف علیهم سائل، و قال: السلام علیکم، أهل بیت محمّد، مسکین من مساکین المسلمین، أطعمونی أطعمکم اللّه من موائد الجنّة، فآثروه و باتوا لم یذوقوا إلّا الماء و أصبحوا صیاما.

فلما أمسوا و وضعوا الطعام بین أیدیهم وقف علیهم یتیم فآثروه (و باتوا مرة أخری لم یذوقوا إلّا الماء و أصبحوا صیاما) و وقف علیهم أسیر فی الثّالثة عند الغروب، ففعلوا مثل ذلک.

فلما أصبحوا أخذ علی بید الحسن و الحسین و أقبلوا إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فلما أبصرهم و هم یرتعشون کالفراخ من شدّة الجوع،

قال: «ما أشدّ ما یسوؤنی ما أری بکم» فانطلق معهم، فرأی فاطمة فی محرابها قد التصق بطنها بظهرها، و غارت عیناها، فساءه ذلک، فنزل جبرئیل علیه السّلام و قال: خذها یا محمد هنّاک اللّه فی أهل بیتک فأقرأه السورة.

و قیل: إنّ الذی نزل من الآیات یبدأ من: إِنَّ الْأَبْرارَ حتی کانَ سَعْیُکُمْ مَشْکُوراً و مجموعها (۱۸) آیة.

ما أوردنا هو نص الحدیث الذی جاء فی کتاب «الغدیر» بشیء من الاختصار کقدر مشترک و هذا الحدیث من بین أحادیث کثیرة نقلت فی هذا الباب، و ذکر فی الغدیر أنّ الرّوایة المذکورة قد نقلت عن طریق (۳۴) عالما من علماء أهل السّنة المشهورین (مع ذکر اسم الکتاب و الصفحة).

و علی هذا، فإنّ الرّوایة مشهورة، بل متواترة عند أهل السنة[۲۸۰].

و اتفق علماء الشیعة علی أنّ السورة أو ثمان عشرة آیة من السورة قد نزلت فی حق علی و فاطمة علیهما السّلام، و أوردوا هذه الرّوایة فی کتبهم العدیدة و اعتبروها من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۲

مفاخر الرّوایات الحاکیة عن فضائل أمیر المؤمنین و فاطمة و الحسن و الحسین علیهم السّلام، و اشتهارها کان مدعاة لذکرها فی الأشعار حتی أنّها وردت فی شعر (الإمام الشافعی) و تثار عند المتعصبین هنا حساسیات شدیدة بمجرّد سماعهم روایة تذکر فضائل أمیر المؤمنین علیه السّلام فیعمدون إلی اثارة العدید من الإشکالات بهذا الشأن، و منها:

۱- ادعاؤهم مکّیة السورة، و الحال أنّ القصّة حدثت بعد ولادة الإمامین الحسن و الحسین علیهما السّلام، و ما کانت ولادتهما إلّا بالمدینة! و فی أیدینا دلائل واضحة کما بیّنا فی شرح صدر السورة، إذ أنّ السورة تشیر إلی أنّها مدنّیة، و إن لم تکن بتمامها فإنّ (۱۸) آیة منها مدنیّة.

۲- قولهم: إنّ لفظ الآیة عام، فکیف یمکن تخصیص ذلک بأفراد معیّنین، و لکن عمومیة مفهوم الآیة لا ینافی نزولها فی أمر خاص، و هناک عمومیة فی کثیر من آیات القرآن، و الحال أنّ سبب نزولها الذی یکون مصداقا تامّا لها فی أمر خاص، و العجب لمن یتخذ من عمومیة مفهوم آیة ما دلیلا علی نفی سبب النزول لها.

۳- نقل بعضهم أسبابا أخری لنزول هذه السورة لا تتفق مع السبب الذی ذکرناه فی نزول الآیة، منها ما

نقله السیوطی فی الدرّ المنثور قال: إنّ رجلا أسود کان یسأل النّبی عن التسبیح و التهلیل، فقال له عمر بن الخطاب: مه أکثرت علی

رسول اللّه، فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «مه یا عمر» و أنزلت علی رسول اللّه هل أتی ۲۸۱].

و

فی الدرّ المنثور عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلی رسول اللّه فقال له رسول اللّه: «سل و استفهم»، فقال: یا رسول اللّه فضّلتم علینا بالألوان و الصور و النبوة، أ فرأیت إن آمنت بما آمنت به و عملت بمثل ما عملت به إنّی

لکائن معک فی الجنّة؟ قال: «نعم، و الذی نفسی بیده، إنّه لیری بیاض الأسود فی الجنّة من مسیرة ألف عام» ثمّ بیّن ما یترتب من الثواب لمن یقول لا إله إلا اللّه و سبحان اللّه و بحمده. و نزلت علیه السورة (هل أتی)[۲۸۲].

إنّ ما ذکر فی هذه الرّوایات لا یتناسب مع مضمون آیات السورة، و المتوقع هو وضع هذه الرّوایة من قبل عمال بنی امیّة و تزویرها لدحض ما تقدم و ما قیل فی سبب النزول فی حق علی علیه السّلام.

۴- الإحتجاج الآخر الذی یمکن ذکره هنا: کیف یمکن لإنسان أن یصوم ثلاثة أیّام و لا یفطر إلّا بالماء؟! إنّ هذا الإشکال مدعاة للعجب، لأنّنا نری تطبیق ذلک عند بعض الناس، إذ أنّ بعض المعالجات الطبیة تستدعی الإمساک لمدة (۴۰) یوما، و لا یتناول خلال الأربعین یوما إلّا الماء، ممّا أدّی ذلک إلی شفاء الکثیر من الأمراض بهذه الطریقة، حتی أنّ طبیبا من الأطباء غیر المسلمین یدّعی (الکسی سوفورین) کتب کتابا فی باب الآثار المهمّة فی الشفاء من جراء الإمساک مع ذکر أسلوب دقیق لذلک ۲۸۳] حتی أنّ بعض زملائنا المشترکین معنا فی تألیف کتاب التفسیر الأمثل قضی إمساکا لمدّة (۲۲) یوما.

۵- البعض الآخر أراد الاستهانة بهذه الفضیلة فجاء من طریق آخر کالآلوسی إذ یقول: إن قلنا إنّ هذه السورة لم ترد فی حق علی و فاطمة لم ینزل من قدرهم و شأنهم شیء، لأنّ اتصافهم بالأبرار أمر واضح للجمیع، ثمّ یبدأ بتبیان بعض فضائلهم فیقول: ماذا یمکن أن یقوله الإنسان فی حقّ هذین العظیمین غیر أنّ علیا علیه السّلام أمیر المؤمنین و وصی رسول اللّه، و أنّ فاطمة بضعة رسول اللّه، و أنّها

جزء من الوجود المحمدی، و أنّ الحسنین روحه و ریحانتاه و سیدا شباب أهل الجنّة، و لکن لا یعنی ذلک ترک الآخرین، و من یتبع غیر هذا فهو ضال.

و لکنّنا نقول إنّنا إذا ما تغاضینا عن هذه الفضیلة، فإنّ عاقبة بقیة الأحادیث ستکون بنفس المنوال، و ربّما یحین یوم ینکر فیه البعض جمیع فضائل أمیر المؤمنین و سیّدة النساء و الحسنین علیهم السّلام، و الملاحظ أنّ أمیر المؤمنین علیه السّلام قد احتج علی مخالفیه فی کثیر من المواطن بهذه الآیات لتبیان حقوقه و فضائله و أهل بیته ۲۸۴].

ثمّ إنّ ذکر الأسیر الذی أطعموه، خیر دلیل علی نزول الآیات بالمدینة، إذ لم یکن للمسلمین أسیر بمکّة لعدم شروع الغزوات.

و الملاحظة الأخیرة التی لا بدّ من ذکرها هنا هو قول بعض العلماء المفسّرین و منهم المفسّر المشهور الآلوسی، و هو من أهل السنّة قال: إنّ کثیرا من النعم الحسیة قد ذکرت فی السورة إلّا الحور العین التی غالبا ما یذکرها القرآن فی نعم الجنان، و هذا إنّما هو لنزول السورة بحق فاطمة و بعلها و بنیها علیهم السّلام و إنّ اللّه لم یأت بذکر الحور العین إجلالا و احتراما لسیدة نساء العالمین! لقد طال الحدیث فی هذا الباب إلّا أنّنا وجدنا أنفسنا مضطرین لمجابهة و إبطال إشکالات المتعصبین و ذرائع المعاندین.

***

التّفسیر

جزاء الأبرار العظيم

أشارت الآيات السابقة الى العقوبات التى تنتظر الكافرين بعد تقسيمهم إلى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۵

جماعتين و هى «الشكور» و «الكفور»، و الآيات فى هذا المقطع تتحدث المكافآت التى أنعم اللّه بها على الأبرار و تذكّر بأمور ظريفة فى هذا الباب. فيقول تعالى: إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً. «الأبرار»: جمع (بر) و أصله الاتّساع، و أطلق البر على الصحراء لا تساع مساحتها، و تطلق هذه المفردة على الصالحين الذين تكون نتائج أعمالهم واسعة فى المجتمع، و «البر» بكسر الباء هو الإحسان، و قال بعض: إنّ الفرق بين البر و الخير هو أنّ البر يراد به الإحسان مع التوجه و الإرادة، و أمّا الخير فإنّ له معنى أعمّ.

«كافور»: له معان متعددة فى اللّغة، و أحد معانيها المعروفة الرائحة الطيبة كالنبتة الطيبة الرائحة، و له معنى آخر مشهور هو الكافور الطبيعى ذو الرائحة القوية و يستعمل فى الموارد الطبية كالتعقيم.

على كل حال فإنّ الآية تشير إلى أنّ هذا الشراب الطهور معطّر جدّا فيلتذ به الإنسان من حيث الذوق و الشم.

و ذهب بعض المفسّرين الى أنّ «كافور» اسم لأحد عيون الجنّة. و لكن هذا التّفسير لا ينسجم مع عبارة «كان مزاجها كافورا». و من جهة أخرى يلاحظ أنّ «الكافور» من مادة «كفر» أى بمعنى «التغطية»، و يعتقد بعض أرباب اللغة كالراغب فى المفردات أنّ اختيار هذا الاسم هو أنّ فاكهة الشجرة التى يؤخذ منها الكافور مغطاة بالقشور و الأغلفة.

و قيل: هو إشارة إلى شدّة بياضه و برودته حيث يضرب به المثل، و الوجه الأوّل أنسب الوجوه، لأنّه يعد مع المسك و العنبر فى مرتبة واحدة، و هما من أفضل العطور.

ثمّ يشير إلى العين التى يملؤون منها كؤوسهم من الشراب الطهور فيقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۶

عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً[۲۸۵][۲۸۶].

هذه العين من الشراب الطهور وضعها اللّه تعالى تحت تصرفهم، فهى تجرى أينما شاءوا، و الظريف هو ما

نقل عن الإمام الباقر عليه السّلام إذ قال فى وصفها: «هى عين فى دار النّبى تفجر إلى دور الأنبياء و المؤمنين».

نعم فكما تتفجر عيون العلم و الرحمة من بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تجرى الى قلوب عباد اللّه الصالحين، كذلك فى الآخرة حيث التجسّم العظيم لهذا المعنى تتفجر عين الشراب الطهور الإلهى من بيت الوحى، و تنحدر فروعها، إلى بيوت المؤمنين!

«يفجرون»: من مادة تفجير، و أخذت من أصل (الفجر) و يعنى الشق الواسع، سواء أ كان شق الأرض أو غير ذلك، و «الفجر» نور الصبح الذى يشق ستار الليل، و أطلق على من يشق ستار الحياء و الطهارة و يتعدى حدود اللّه (فاجر) و يراد به هنا شقّ الأرض.

و الملاحظ أنّ أوّل ما ذكر من نعم الجنان فى هذه السورة هو الشراب الطهور المعطّر الخاصّ. لكونه يزيل كلّ الهموم و الحسرات و القلق و الأردان عند تناوله بعد الفراغ من حساب المحشر، و هو أوّل ما يقدم لأهل الجنان ثمّ ينتهون إلى السرور المطلق بالاستفادة من سائر مواهب الجنان.

ثمّ تتناول الآيات الأخرى ذكر أعمال «الأبرار» «و عباد اللّه» مع ذكر خمسة صفات توضّح سبب استحقاقهم لكل هذه النعم الفريدة:

فيقول تعالى يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً.

جملة (يوفون) و (يخافون) و الجمل التى تليها جاءت بصيغة الفعل المضارع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۷

و هذا يشير إلى استمرارية و ديمومة منهجهم، كما قلنا فى سبب النزول فإنّ المصداق الأتم و الأكمل لهذه الآيات هو أمير المؤمنين و

فاطمـة الزهراء و الحسـنان عليهم السّلام، لأنّهم وفوا بمـا نـذروه من الصوم ثلاثـة أيّام و لم يتناولوا فى إفطارهم إلّا الماء فى حين أنّ قلوبهم مشحونة بالخوف من اللّه و القيامة.

«مستطيرا»: يراد به الاتساع و الانتشار، و هو إشارة إلى أنواع العذاب و اتساعه فى ذلك اليوم العظيم، على كلّ حال فإنّهم وفوا بالنذور التى أوجبوها على أنفسـهم، و بالأحرى كانوا يحترمون الواجبات الإلهية و يسعون فى أدائها، و خوفهم من شرّ ذلك اليوم، و آثار هذا الإيمان ظاهرة فى أعمالهم بصورة كاملة.

ثمّ يتناول الصفة الثّالثة لهم فيقول: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً.

لم يكن مجرّد اطعام، بل اطعام مقرون بالإيثار العظيم عنـد الحاجـة الماسّـة للغـذاء، و من جهة أخرى فهو إطعام فى دائرة واسـعة حيث يشمل أصناف المحتاجين من المسكين و اليتيم و الأسير، و لهذا كانت رحمتهم عامّة و خدمتهم واسعة.

الضـمير فى (على حبه) يعود إلى (الطعام) أى أنّهم أعطوا الطعام مع احتياجهم له، و هذا شبيه ما ورد فى الآية من سورة آل عمران: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

و قيل: إنّ الضـمير المذكور يعود إلى «اللّه» الوارد فى ما سبق من الآيات، أى أنّهم يطعمون الطعام لحبّهم الشديد للّه تعالى، و لكن مع الالتفات الى ما يأتى فى الآية الآتية يكون المعنى الأوّل أوجه.

و معنى «المسكين» و «اليتيم» و «الأسير» واضح، إلّا أنّ هنـاك أقوالاـ متعـددة فيما يراد بالأسـير؟ قال كثيرون: إنّ المراد الأسـرى من الكفّار و المشركين الذين يؤتى بهم إلى منطقة الحكومة الاسلامية فى المدينة، و قيل: المملوك الذى يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۸

أسيرا بيد المالك، و قيل هم السجناء، و الأوّل أشهر.

يرد هنا سؤال: كيف جاء ذلك الأسير إلى بيت الإمام على عليه السّلام طبقا لما ورد فى سبب النزول و المفروض أن يكون سجينا؟

و يتضح لنا جواب هذا السؤال بالالتفات إلى أنّ التاريخ يؤكّد عدم وجود سجناء فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقسّمهم على المسلمين، و يأمرهم بالحفاظ عليهم و الإحسان إليهم، فكانوا يطعمونهم الطعام و عنـد نفاذ طعامهم كـانوا يطلبـون العـون من بقيـة المسـلمين و يرافقونهم فى الـذهاب الى طلب المعونـة، أو أنّ الأسـرى يـذهبون بمفردهم لأنّ المسلمين كانوا حينذاك فى ضائقة من العيش.

و بالطبع توسـعت الحكومـة الإسـلامية فيما بعـد، و ازداد عـدد الأسـرى و كـذلك المجرمين، فاتخذت عندئذ السـجون و صار الإنفاق عليهم من بيت المال.

على كـل حال فإنّ ما يسـتفاد من الآيـة أنّ أفضل الأعمال إطعام المحرومين و المعوزين، و لا يقتصـر على اطعام الفقراء من المسـلمين فحسب بل يشمل حتى الأسرى المشركين أيضا و قد أعتبر إطعامهم من الخصال الحميدة للأبرار.

و

قد ورد فى حديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «استوصوا بالأسرى خيرا و كان أحدهم يؤثر أسيره بطعامه»[۲۸۷].

و الخصلة الرابعة للأبرار هى الإخلاص، فيقول: إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً.

إنّ هذا المنهج ليس منحصـرا بالإطعام، إذ أنّ جميع أعمالهم خالصة لوجه اللّه تعالى، و لا يتوقعون من الناس شـكرا و تقديرا، و أساسا فإنّ قيمة العمل فى الإسـلام بخلوص النيّة و إلّا فإنّ العمل إذا كان بدوافع غير الهية، سواء كان رياء أو لهوى النفس، أو توقع شـكر من الناس أو لمكافات مادية، فليس لذلك ثمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۹

معنوى و إلهى.

و قد أشار النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى ذلك إذ

قال: «لا عمل إلّا بالنيّة و إنّما الأعمال بالنيات».

و المراد من (وجه اللّه) هو ذاته تعالى، و إلّا فليس للّه صورة جسمانية، و هذا هو ما اعتمده و أكّده القرآن فى كثير من آياته، كما فى الآية (۲۷۲) من سورة البقرة: وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ و الآية (۲۸) من سورة الكهف التى تصف جلساء النبى صلّى اللّه عليه و آله: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ

و يقول فى الوصف الأخير للأبرار: إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (أى الشديد) من المحتمل أن يكون هذا الحديث لسان حال الأبرار، أو قولهم بألسنتهم.

و جاء التعبير عن يوم القيامة بالعبوس و الشديد للاستعارة، إذ أنّها تستعمل فى وصف الإنسان الذى يقبض وجهه و شكله ليؤكد على هول ذلك اليوم، أى أنّ حوادث ذلك اليوم تكون شديدة إلى درجة أنّ الإنسان لا يكون فيه عبوسا فحسب، بل حتى ذلك اليوم يكون عبوسا أيضا.

(قمطريرا): هناك أقوال للمفسّرين فى مادته، قيل هو من (القمطر)، و قيل:

مشتق من مادة (قطر)- على وزن فرش- و الميم زائدة، و قيل هو الشديد، و هو الأشهر[۲۸۸].

و يطرح هنا سؤال، و هو: إذا كان عمل الأبرار خالصا للّه تعالى، فلم يقولون:

إنا نخاف عذاب يوم القيامة؟ و هل يتناسب دافع الخوف من عذاب يوم القيامة مع الدافع الإلهى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۰

و يتضح جواب هذا السؤال بالالتفات إلى أنّ الأبرار يسلكون السبيل على كل حال إلى اللّه تعالى، و إذا كانوا يخافون من عذاب يوم القيامة فإنّما هو لأنه عذاب إلهى، و هذا هو ما ورد فى الفقه فى باب النية فى العبادة من أنّ قصد القربة فى العبادة لا ينافى قصد الثواب و الخوف من العقاب أو حتى اكتساب المواهب المادية الدنيوية من عند اللّه (كصلاة الاستسقاء)، لأنّ كل ذلك يرجع إلى اللّه تعالى، كالداعى على الداعى، رغم أنّ أعلى مراحل الإخلاص فى العبادة تمكن فى عدم التعلّق بنعم الجنان أو الخوف من الجحيم، بل يكون بعنوان (حبّ اللّه).

و التعبير ب إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً شاهد على أنّ هذا الخوف من اللّه.

و الجدير بالذكر أنّ الوصف الثانى و الخامس من الأوصاف الخمسة، يشيران إلى مسألة الخوف. غاية الأمر أنّ الكلام فى الآية الأولى عن الخوف من يوم القيامة، و فى الثانية الخوف من اللّه فى يوم القيامة، ففى مورد وصف يوم القيامة فى أنّ شرّه عظيم، و وصفه فى مورد آخر بأنّه عبوس و شديد، و فى الحقيقة فإنّ أحدهما يصف عظمته وسعته و الآخر شدّته و كيفيته.

و أشارت الآية الأخيرة فى هذا البحث إلى النتيجة الإجمالية للأعمال الصالحة و النيّات الطاهرة للأبرار فيقول: فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً.

(نضرة): بمعنى البهجة و حسن اللون و السرور الخاص الذى يظهر عند وفور النعمة و الرفاه على الإنسان، أجل، إنّ لون وجودهم فى ذلك اليوم يخبر عن الهدوء و الارتياح، و بما أنّهم كانوا يحسّون بالمسؤولية و يخافون من ذلك اليوم الرهيب، فإنّ اللّه تعالى سوف يعوضهم بالسرور و بالبهجة.

و تعبير «لقاهم» من التعابير اللطيفة و التى تدلّ على أنّ اللّه سوف يستقبل ضيوفه الكرام بلطف و سرور خاص و أنّه سوف يجعلهم فى سعة من رحمته.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۱

إشباع الجیاع من أفضل الحسنات:

لیست هـذه الآیات مورد البحث هی الآیات الوحیـدة التی عدّت إطعام الطعام من الأعمال الصالحة للأبرار و عباد اللّه، بل إنّ کثیرا من آیات القرآن اعتمـدت هـذا المعنی و أکّدت علیه، و أشارت إلی أنّ لهـذا العمل محبوبیـة خاصّة عند اللّه، و إذا ألقینا نظرة علی عالم الیوم و الـذی یموت فیه بسـبب الجوع حسب الأخبار المنتشـرة ملایین الأشـخاص فی کل عالم، و الحال أنّ بقیـة المناطق تلقی بالغذاء الکثیر فی القمامة تتّضح أهمیة هذا الأمر الإسلامی من جهة، و ابتعاد عالم الیوم عن الموازین الأخلاقیة من جهة أخری.

و نورد هنا من باب المثال عددا من الأحادیث الإسلامیة التی أکّدت علی هذا الجانب:

قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «من أطعم ثلاث نفر من المسلمین أطعمه اللّه من ثلاث جنان فی ملکوت السموات»[۲۸۹].

و

فی حدیث للإمام الصادق علیه السّـلام قال: «من أطعم مؤمنا حتی یشـبعه لم یدر أحد من خلق اللّه ما له من الأجر فی الآخرة، لا ملک مقرب، و لا نبی مرسل إلّا اللّه ربّ العالمین»[۲۹۰].

و

فی حـدیث آخر عنـه علیـه السّـلام قـال: «لئن أطعم مؤمنـا محتاجـا أحبّ إلیّ من أن أزوره، و لئن أزوره أحبّ إلیّ من أن أعتـق عشر رقاب»[۲۹۱].

و الجـدیر بالـذکر أنّ الرّوایات لم تؤکّـد علی إطعام المحتاجین و الجیاع فحسب، بل صـرّحت بعض الروایات أنّ إطعام المؤمنین و إن لم یکونوا محتاجین هو کعتق رقبـة العبـد، و هـذا یدلّ علی أنّ الهدف لا یقتصـر علی رفع الاحتیاج، بل جلب المحبّة و تحکیم وشائج المودة بعکس ما هو السائد فی عالم الیوم المادی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۲

کدخول صدیقین إلی المطعم و دفعهما حساب الطعام کلّ علی انفراد و کأنّ اسـتضافة الأفراد سـیما إذا کثروا مدعاة للعجب فی تلک المجتمعات!! و ورد فی بعض الرّوایات أنّ إطعام الجیاع بصورة عامّة من أفضل الأعمال (و إن لم یکونوا مسلمین و مؤمنین) کما جاء فی الحدیث عن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله إذ قال: «من أفضل الأعمال عند اللّه إبراد الکباد الحارة و إشباع الکباد الجائعة و الذی نفس محمد بیده لا یؤمن بی عبد یبیت شبعان و أخوه- أو قال جاره- المسلم الجائع»[۲۹۲].

بالرغم من أنّ ذیل هذا الحدیث الشـریف ذکر إشباع الإنسان المسلم. و لکنه صدره یشمل کل عطشان و جائع، و لا یبعد اتساع مفهوم الحدیث ل یشمل حتی الحیوانات.

و هناک روایات عدیدة فی هذا الباب ۲۹۳]***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۳

الآیات [سورة الإنسان (۷۶): الآیات ۱۲ الی ۲۲]

اشارة

وَ جَزاهُمْ بِمـا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِیراً (۱۲) مُتَّکِئِینَ فِیهـا عَلَی الْأَرائِکِ لا یَرَوْنَ فِیها شَـمْساً وَ لا زَمْهَرِیراً (۱۳) وَ دانِیَـةً عَلَیْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِیلًا (۱۴) وَ یُطافُ عَلَیْهِمْ بِآنِیَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَکْوابٍ کانَتْ قَوارِیرَا (۱۵) قَوارِیرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِیراً (۱۶)

وَ یُسْـقَوْنَ فِیها کَأْساً کانَ مِزاجُها زَنْجَبِیلًا (۱۷) عَیْناً فِیها تُسَمَّی سَلْسَبِیلًا (۱۸) وَ یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَیْتَهُمْ حَسِـبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً

مَنْثُوراً (١٩) وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (٢٠) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (٢١)

إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (٢٢)

التّفسير

مكافئات الجنان العظيمة

بعد الإشارة الإجمالية فى الآيات السابقة إلى نجاة الأبرار من العذاب الأليم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۴

يوم القيامة، و وصولهم إلى لقاء المحبوب و الغرق بالسرور و البهجة، تتناول هذه الآيات شرح هذه المواهب الإلهية فى الجنان، و عددها فى هذه على الأقل خمسة عشرة نعمة، فتتحدث فى البدء عن المسكن و الملبس فتقول:

وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً.

أجل، فى مقابل كل ذلك الإيثار و الاستقامة فى وفائهم بالنذر و صيامهم، و إنفاق طعام الإفطار على المسكين و اليتيم و الأسير جعلهم اللّه فى رياض خاصّة فى الجنان، و ألبسهم أفضل الألبسة، و ليس فقط فى هذه الآية، بل صرح بهذه الحقيقة فى آيات أخرى من القرآن، و هو أنّ مكافآت القيامة إنّما تعطى للإنسان لصبره (صبر فى الطاعة، و صبر عن المعصية، و صبر عند المشكلات و المصائب).

فتجد سلام الملائكة لأهل الجنان فى الآية (٢۴) من سورة الرعد: سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ

و جاء فى الآية (١١١) من سورة المؤمنون: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ

ثمّ يضيف سبحانه فى الآية التالية: مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً ذكر حالة (الاتكاء على الأرائك) إشارة إلى اطمئنانهم و ارتياحهم الكاملين، لأنّ الإنسان لا يجلس متكئا عادة إلّا عند الراحة و الاطمئنان و الهدوء.

و يشير ذيل الآية إلى الاعتدال الكامل فى الجنان، و لا يعنى هذا انعدام الشمس و القمر فى الجنان، بل بسبب ظلال أشجار الجنان لا تكون أشعة الشمس مؤذية.

(زمهرير): من مادة (زمهر) و هو البرد الشديد، أو شدّة الغضب أو احمرار العين من أثر الغضب، و المراد هنا هو المعنى الأول، و ورد فى الحديث: أنّ فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۵

جهنّم نقطة تتلاشى فيها الأعضاء من شدّة البرد[۲۹۴].

(أرائك): جمع «أريكة»، و تطلق فى الأصل على الأسرة التى توضع فى غرفة العروس، و المراد هنا الأسرّة الجميلة و الفاخرة.

نقل المفسر المشهور الآلوسى فى روح المعانى فى حديث عن ابن عباس قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و آله: «بينا أهل الجنّة فى الجنّة إذ رأوا ضوءا كضوء الشمس، و قد أشرقت الجنان به فيقول أهل الجنّة يا رضوان ما هذا؟ و قد قال ربّنا لا يرون فيها شمسا و لا زمهريرا، فيقول لهم رضوان: ليس هذا بشمس، و لا قمر، و لكن على و فاطمة ضحكا، و أشرقت الجنان من ثغريهما»!

و تضيف الآية الأخرى متمّمة لهذه النعم:

وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا[۲۹۵].

لیست هنا من مشكلة لقطف الثمار، و لا شوكة لتدخل فی الید، و لا تحتاج ذلك إلی مشقّة أو حركة! و نجد من الضروری التذكیر مرّة أخری إنّ هناك تفاوتا كثیرا بین الأصول المتحكمة فی حیاة الإنسان فی ذلك العالم و بین هذا العالم، و ما جاء حول النعم الأخرویة فی هذه الآیات و الآیات القرآنیة الأخری لیس إلّا كونه إشارة بلیغة إلی تلك المواهب العظیمة، و إلّا فإنّ بعض الرّوایات تصرح أنّ هناك من النعیم ما لا عین رأت و لا أذن سمعت و لا تخطر ببال أحد.

و فی حدیث لابن عباس بیّنه فی ذیل آیات هذه السورة قال: «كلما ذكره اللّه فی القرآن ممّا فی الجنّة و سمّاه لیس له مثل فی الدنیا و لكن سمّاه اللّه بالاسم الذی یعرف الزنجبیل ممّا كانت العرب تستطیبه فلذلك ذكره فی القرآن و وعدهم أنّهم

یسقون فی الجنّة الكأس الممزوجة بزنجبیل الجنّة»[۲۹۶].

ثمّ توضح الآیة الأخری كیفیة استضافة أصحاب الجنان، و أدوات الضیافة، و المستقبلین لهم، فیقول: وَ یُطافُ عَلَیْهِمْ بِآنِیَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِیرَا، قَوارِیرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِیراً.

تحتوی هذه الآنیة علی أنواع الأغذیة و الأشربة المتعددة الأصناف و اللذیذة و الباعثة علی النشاط، بالقدر الذی یشاءونه و یحبّونه، و الولدان المخلدون یطوفون علیهم لیعرضوا علیهم الآنیة و الأكواب الملیئة بما وعدهم اللّه بها.

(آنیة): جمع (إناء) و هو الوعاء، و «أكواب» جمع «كوب»، و هو إناء للشراب الذی لا عروة له، و یعبر عنه أحیانا بالقدح.

«قواریر»: جمع (قارورة)، و هی الوعاء البلّوری و الزجاجی. و العجب فی قوله: أوعیة بلّوریة مصنوعة من الفضة! و الحال لا یوجد مثل هذا فی عالم الدنیا، و الأوعیة البلّوریة إنّما تصنع من رمال خاصّة و ذلك بعد اذابتها، و لكنّ اللّه الذی جعل خاصیّة فی الرمل تجعله یتحول إلی زجاج و بلّور لهو قادر أن یجعلها فی معدن آخر كالفضة.

علی كل حال فإنّ المستفاد من الآیة إنّ هذه الأوعیة و الكؤوس تكون جامعة بین صفاء الزجاجة و شفافیة البلوّر و بین بیاض الفضة و جمالها، و یكون الشراب فیه متجلیا، و الملاحظ أنّ هذا المعنی قد أشار إلیه

الامام الصادق علیه السّلام أیضا إذ قال: «ینفذ البصر فی فضة الجنّة كما ینفذ فی الزجاج»[۲۹۷].

و فی العصر الحدیث تمّ اكتشاف أنواع من الأشعة (مثل اشعة ایكس) لها قابلیة النفوذ الی باطن المواد و الأجسام المعتمّة و استجلاء محتویاتها.

و عن ابن عباس قال: «إن لكل نعمة من نعم الجنان شبه فی الدنیا إلّا أكواب

الفضة إذ لا شبیه لها»[۲۹۸].

ثمّ یضیف تعالی: وَ یُسْقَوْنَ فِیها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِیلًا.

صرح الكثیر من المفسرین بأنّ عرب الجاهلیة كانوا یتلذذون بالشراب الممزوج بالزنجبیل، لأنّه كان یعطی قوّة خاصة للشراب.

و یتحدث القرآن هنا عن الشراب الطهور الممزوج بالزنجبیل، و من البدیهی أنّ الفرق بین هذا الشراب و ذلك الشراب كالفرق بین السماء و الأرض و بالأخری بین الدنیا و الآخرة.

و الجدیر بالذكر أنّ العرب كانوا یستخدمون نوعین من الشراب: أحدهما یبعث علی النشاط و الحركة، و الآخر مفتّر و مهدّئ و الأوّل یمزج مع الزنجبیل، أمّا الثّانی فمع الكافور، و بما أنّ حقائق عالم الآخرة لا یمكن أن یعبر عنها فی إطار ألفاظ هذا العالم، فلا سبیل إلّا استخدام هذه الألفاظ للدلالة علی معان أوسع و أعلی تحكی عن تلك الحقائق العظیمة. و لفظ «الزنجبیل» غالبا ما یطلق علی الجذر المعطر للتوابل الخاصّة للأغذیة و الأشربة، و إن كانت الأقوال مختلفة فی معناه.

ثمّ یضیف تعالی: عَیْناً فِیها تُسَمَّی سَلْسَبِیلًا[۲۹۹].

(سلسبیلا): هو الشراب الهنیء و اللذیذ جدّا الذی ینحدر بسهولة فی الحلق و یری الکثیر أنّه مأخوذ من مادة (سلاسة) المأخوذ من السیلان و لهذا یقال للکلام الجذّاب و الممتع «سلیس».

و قیل أخذ من مادة (تسلسل) و هی الحرکة المستمرة التی یتداعی منها السیولة و الاتصال، و علی هذا فإنّ المعنّیین متقاربین، و الباء زائدة فی الصورتین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۲۶۷

قیل: هو مرکب من (سال) و (سبیل) و المعنی الکنائی للإثنین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۸

هو الصائغ و الهنیء.

و قیل: لا وجود لهذه الکلمة فی اللغة عند العرب، و أنّها من إبداعات القرآن المجید[۳۰۰].

و الأول أشهر و أوجه.

ثمّ یتحدث عن المستقبلین فی هذا الحفل البهیج المقام بجوار اللّه فی النعیم الأعلی فیقول تعالی وَ یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَیْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً.

إنّهم مخلدون فی الجنان، و طراوة أشبابهم و جمالهم و نشاطهم خالد أیضا، و کذا استقبالهم للأبرار، لأنّ عبارة (مخلدون) و عبارة (یطوف علیهم) من جهة أخری تبیان لهذه الحقیقة.

«لؤلؤا منثورا»: یراد به الإشارة إلی جمالهم و صفائهم و إشراق وجوههم و کذلک حضورهم فی کل مکان من المحفل الإلهی و الروحانی.

و بما أنّ من المحال وصف النعم و المواهب للعالم الآخر مهما بلغ الکلام من البیان و البلاغة، و لهذا یقول تعالی فی الآیة الأخری کلاما مطلقا: وَ إِذا رَأَیْتَ ثَمَّ رَأَیْتَ نَعِیماً وَ مُلْکاً کَبِیراً[۳۰۱].

وردت فی (النعیم) و (الملک الکبیر) أقوال کثیرة، منها ما

ورد فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام عند ما سئل عن معنی الآیة إذ قال: (أی لا یفنی و لا یزول)[۳۰۲].

أو أنّ نعم الجنان لا توصف لکثرتها.

أو أنّ «الملک الکبیر» هو استئذان الملائکة للدخول علی أهل الجنان و یحیوهم بالسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۹

أو أنّ أهل الجنان یحصلون علی ما یشاءون.

أو أنّ أقل أهل الجنان مرتبة یحصل علی ملک من السعة أنّه یری من الطریق ما یکون علی بعد ألف سنة لو نظر إلیه کان بینه و بین ملکه ألف سنة.

أو یراد به الملک الدائم و الأبدی المقترن مع تحقیق جمیع الآمال ...

«النعیم»: یراد بها فی اللغة النعم الکثیرة و (ملک کبیر) یخبر عن عظمة و اتساع ریاض أهل الجنّة، و لذا فإنّ لهما معنیین واسعین بحیث یشملان جمیع ما قیل فیهما.

إلی هنا أشیر إلی قسم من نعم الجنان من قبیل المساکن و الأسرة و الظلال و الفواکه و الشراب و الأوانی و الجماعة المستقبلة للضیوف، و حان الآن دور زینة أهل الجنان فیقول تعالی: عالِیَهُمْ ثِیابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ ۳۰۳].

«سندس»: ثوب رقیق من الحریر، و «الإستبرق» ثوب غلیظ من الحریر، و قیل أنّه مشتق من الکلمة الفارسیة «أستبر» أو «ستبر»، و قیل:

أخذ من أصل عربى (برق) أى التلألؤ.

ثم أضاف تعالى: وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ.

و هى الفضة الشفّافة اللامعة كالبلّور و أجمل من الياقوت و الدّر و اللؤلؤ.

«أساور»: جمع «أسورة» على وزن (مغفرة) و هى بـدورها جمع (سوار) على وزن (غبار) أو «سوار» على وزن (حوار) و أخذ فى الأصـل من الكلمة الفارسيّة، (دستوار) و عند انتقالها إلى العربية تغيّرت و اختصرت و جاءت بصورة (سوار).

إنّ اختيار اللون الأخضر للباس أهل الجنّة هو لكونه يبعث على النشاط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۰

كأوراق الأشجار الجميلة، و بالطبع إنّ للّون الأخضر أنواعا و أقساما، و لكل منها لطافة:

و ورد فى بعض آيات القرآن كالآية (۳۰) من سورة الكهف أنّ أهل الجنان يزينون بأساور من ذهب: يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ و هذا لا ينافى ما جاء فى الآية التى نحن بصدد بحثها، إذ يمكن أن يكون من باب التنويع، فمرّة هذا، و مرّة ذاك.

و يأتى هنا سؤال: أليس سوار الذهب و الفضة من زينة النساء، فكيف ذكر زينة لرجال الجنّة؟

و الجواب واضح، فهناك الكثير من المجتمعات تكون زينة الذهب و الفضة للرجال و النساء (و إن حرمّ الإسلام لبس الذهب للرجال) و لكن بـالطبع هناك اختلاف بين أساور الرجال و بين أساور النساء، و نقل عن لسان فرعون فى الآيـة (۵۳) من سورة الزخرف: فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ و يظهر من هـذا أنّ لبس الرجال للـذهب فى مصـر كان من علائم العظمـة. بالإضافة إلى ما أشـرنا إليه فى السابق أنّه لا يكفى اسـتعمال الألفاظ العادية المتداولة فى هذه الدنيا لبيان نعم الجنان، و ليس هناك من حلّ إلّا باستعمال هذه الألفاظ للإشارة إلى تلك النعم العظيمة التى لا توصف.

ثمّ يقول تعالى فى نهاية الآية مشيرا إلى آخر نعمة و أهمّها من سلسلة النعم:

وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً.

صحيـح أنّ من بين هذه النعم ورد الحديث عن الأشـربة السائغة من الأكواب المترعة من عين السـلسبيل، و لكنّ بينها و بين ما جاء فى هذه الآية فرق كبير، لأنّ السـقاة هناك هم «الولدان المخلدون» من جهة، و الساقى هنا هو «اللّه تعالى»، يا له من تعبير عجيب! خصوصا مع ذكر كلمة (رب) الرب الذى طالما تلطف على الإنسان برعايته المستمرة له فكان مالكه و مربيه و الذى كان يأخذ بيده فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۱

مراحل التكامل حتى يوصـله إلى المرحلـة الأخيرة التى يريـدها له، ثمّ تتجلّى ربوبيته إلى أعلى المراتب و الحـدود فيسـقى بيـده عباده الأبرار بالشراب الطهور.

و من جهـة أخرى فإنّ «الطهور» هو الطـاهر و المطهر، و على هـذا فإنّ هـذا الشـراب يطهر جسم الإنسـان و روحه من كـل الأـدران و النجاسات و يهبه من الروحانية و النورانية و النشاط ما لا يوصف بوصف: حتى

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يطهرهم عن كلّ شىء سوى اللّه»[۳۰۴].

إنّ هـذا المـاء الطهور أفضـل من أيّـة نعمـة و أعلى من كـلّ موهبـة، إذ أنّه يمزق سـتار الغفلـة، و يزيـل الحجب، و يجعل الإنسان أهلا للحضور الـدائم فى جوار القرب من اللّه تعالى، فإذا كان شـراب الـدنيا يزيل العقل و يبعد الإنسان عن اللّه، فإنّ الشـراب الطهور يعطى من يـد سـاقى الجنّـة، فيجرّد الإنسـان عن مـا سوى اللّه، ليغرق فى جمـاله و جلالـه، و هـذا أفضـل ما ذكره اللّه تعالى من النعيم الخفى الموهوب فى الجنّة،

ففى حديث روى عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله حول عين الشراب الطهور المستقرة عند باب الجنّة قال: «فيسقون منها شربة فيطهر اللّه بها قلوبهم من الحسد! ... و ذلك قول اللّه عزّ و جلّ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً[۳۰۵].

و الظریف فی عبارة طهور أنّها لم ترد فی القرآن إلّا فی موردین: أحـدهما فی مورد المطر (الفرقان ۴۸) الذی یطهر کل شیء و یحیی البلاد المیتة، و الآخر فی مورد الآیة التی نحن بصدد بحثها، و هو الشراب الخاص بأهل الجنّة.

و فی آخر آیة من آیات البحث یتحدث حدیثا أخیرا فی هذا الإطار فیقول:

إنّه یقـال لهم من قبـل ربّ العزّة بـأنّ هـذه النعم العظیمـة مـا هی إلّا جزاء أعمـالکم فی الـدنیا إِنَّ هـذا کانَ لَکُمْ جَزاءً وَ کانَ سَعْیُکُمْ مَشْکُوراً. لئلا یتصور أحد أنّ هذا الجزاء و هذه المواهب العظیمة تعطی من دون مقابل، إنّ کل ذلک جزاء السعی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۲

و العمل، و ثمرة الریاضات و جهاد النفس و بناء الذات و ترک المعاصی ۳۰۶].

ثمّ إنّ نفس بیان هـذا الموضوع فیه لـذّة خاصّة، إذ أنّ اللّه تعالی أو «ملائکته» یخاطب الأبرار و یقدم لهم الشکر و التقدیر و یقول: إنّ هذا جزاء أعمالکم و إنّ سعیکم مشکور، بل قیل: إنّها نعمة ما فوقها نعمة و موهبة أعلی من کل المواهب و هی شکر اللّه للإنسان.

«کـان»، فعـل ماضـی و یخبر عن الماضـی، و لعلّه إشارة إلی أنّ هـذه النعم کانت موفرة لکم من قبل، لأنّ من یهتم کثیرا بضـیفه یهیء وسائل الضیافة له من قبل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۳

الآیات [سورة الإنسان (۷۶): الآیات ۲۳ الی ۲۶]

اشارة

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ تَنْزِیلًا (۲۳) فَاصْبِرْ لِحُکْمِ رَبِّکَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ کَفُوراً (۲۴) وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ بُکْرَةً وَ أَصِیلًا (۲۵) وَ مِنَ اللَّیْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَیْلًا طَوِیلًا (۲۶)

التّفسیر

خمسة مبادئ مهمّة فی تنفیذ حکم اللّه:

شرعت السورة منـذ البدایـة و حتی هـذه الآیة فی تبیان خلق الإنسان ثمّ المعاد و البعث، و فی هذه الآیات مورد البحث یتوجه الخطاب إلی الرسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بإصـدار أوامر مؤکّدة لهدایـة النـاس و الصبر و الثبات فی هـذا الطریق، و فی الواقع إنّ هـذه الآیات تشـیر إلی أنّ نیل کل تلک النعم و المواهب الأخرویة لا یتمّ إلّا بالتمسک بالقرآن و إتباع النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و اطاعة أوامره.

و یقول فی البدء: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ تَنْزِیلًا.

قال بعض العلماء إنّ مجیء (تنزیلا) بصورة مفعول مطلق هو إشارة إلی النزول التـدریجی للقرآن، إذ لا یخفی الأثر التربوی لـذلک، و قیل هو إشارة إلی عظمة مقام هذا الکتاب السماوی و تأکید نزوله من قبل اللّه تعالی، خصوصا ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۴

ورد من التأکیدات الأخری فی الآیات الآتیة (التأکید بأنّ، و نحن، و الجملة الاسـمیة) و هو جواب لمن یتهم النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالکهانة و السحر و الافتراء علی اللّه تعالی.

ثمّ یأمر النّبی بأمور خمسة، أولها الدعوة إلی الصبر و الاستقامة فیقول:

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

أی لا تخف من المشاكل و من موانع الطريق و كثرة الأعداء و عنادهم و استقم فی سيرك على الصراط المستقيم. و الجدير بالانتباه أنّ الأمر بالصبر (مع ملاحظة (فاء التفريع) فی (فاصبر) متفرع على نزول القرآن من اللّه تعالى، أی إذا كان اللّه قد أيّدك و حماك فيجب عليك أن تصبر فی هذا الطريق، و التعبير ب (الرب) إشارة لطيفة أخرى إلى نفس هذا المعنى.

و الأمر الثّانی الموجّه للنّبی صلّى اللّه عليه و آله هو تحذيره من أی توافق مع المنحرفين، فيقول تعالى: وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً. فی الحقيقة أنّ هذا الحكم هو تأكيد ثان على الحكم الأوّل، لأنّ جموع الأعداء كانوا يسعون بطرق مختلفة للتوافق مع النّبی و جرّه إلى طريق الباطل، كما نقل أنّ «عتبة بن ربيعة» و «الوليد بن المغيرة» قالا- لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: إن تركت دعوتك، فإنّنا سنغنيك حتى ترضى، و نزوجك أجمل بنات العرب، و عروض أخرى من هذا القبيل، فما كان على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هنا باعتباره المرشد الحقيقی و العظيم إلّا أن يقف أمام هذه الوساوس الشيطانية و التهديدات التی صدرت منهم بعد ذلك، و لا يستسلم للترغيب أو الترهيب.

صحيح أنّ النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن قد استسلم، و لكن هذا التأكيد يشير الى أهمية الموضوع ليكون نموذجا خالدا لسائر مرشدی طريق اللّه عزّ و جلّ رغم أنّ بعض المفسّرين ذهبوا الى أنّ (آثما) هو عتبة بن ربيعة، و «كفور» هو الوليد بن المغيرة أو أبو جهل، و هم من مشركی العرب، و لكنّ الواضح أنّ كل من (آثم) أی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۵

(العاصی) و «كفور» أی (المبالغ فی الكفر) له معنى واسع إذ يشمل جميع المجرمين و المشركين و إن كان هؤلاء الثلاثة من مصاديقها الواضحة، و الملاحظ أنّ (آثما) له مفهوم عام يستوعب بذلك (الكفور) أيضا، لذا فإنّ ذكر (كفور) كذكر الخاص بعد العام للتأكيد.

و لكن بما أنّ الصبر و الاستقامة فی مقابل هذه المشكلات العظيمة ليس بالأمر اليسير، كان من الضروری لسلوك هذا الطريق التزوّد بنوعين من الزاد، لذا يضيف القرآن فی الآية الأخرى: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا أی فی كل صباح و مساء». و يقول تعالى أيضا: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا.

لتتوفر لديك فی ظل ذلك الذكر و هذا السجود و التسبيح قوّة كافية و قدرة معنوية لمواجهة مشاكل هذا الطريق.

(بكرة) على وزن (نكتة) يعنی بداية اليوم، و (أصيل) نقيض بكرة، أی آخر اليوم.

و قيل إنّ إطلاق هذه اللفظة على آخر اليوم مع أنّها مشتقة من مادة (أصل) هو كون آخر اليوم يشكل الأصل و الأساس للّيل.

و يستفاد من بعض التعابير أنّ (أصيل) تطلق أحيانا على الفترة ما بين الظهر و الغروب (مفردات الراغب الأصفهانی).

و يظهر من آخرين أنّ (أصل) يقال لأوائل الليل، لأنّهم فسروا ذلك ب «العشی» و العشی هو بداية الليل كما يقال لصلاتی المغرب و العشاء بالعشائين، حتى أنّه يستفاد من بعض الكلمات أنّ «العشی» هو من زوال الظهر حتى صباح الغد[۳۰۷] و لكنّ بالالتفات إلى أنّ كلمة (أصيل) وردت فی الآية الشريفة فی مقابل «بكرة» ثمّ تحدثت الآية بعد ذلك عن العبادة الليلية. يتّضح أنّ المراد هو الطرف الآخر للنهار.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۶

على كل حال فإنّ هاتين الآيتين فی الحقيقة تأكيد لضرورة التوجّه الدائم و المستمر لذات اللّه المقدسة.

و قال آخرون: إنّ المراد هو الصلوات الخمس، أو بإضافة صلاة الليل، أو خصوص صلاة الصبح و العصر و المغرب و العشاء و لكنّ الظاهر هو أنّ هذه الصلوات مصاديق من هذا الذكر الإلهی المستمر و التسبيح و السجدة لمقامه المقدس.

التعبير ب (ليلا طويلا) إشارة إلى ضرورة التسبيح لفترة طويلة من الليل،

ففی حديث عن الإمام علی بن موسى الرضا عليه السّلام لمّا سئل عن المقصود من التسبيح فی هذه الآية؟ قال عليه السّلام: «هو صلاة

اللیل»[۳۰۸].

و لا یستبعد أن یکون هذا التفسیر من باب تبیان المصداق الواضح لما تترک صلاة اللیل من الأثر البالغ فی تقویة روح الإیمان، و تهذیب النفوس. و الحفاظ علی حیویة إرادة الإنسان فی طریق طاعة اللّه.

و یجب هنا الالتفات إلی أن الأوامر الخمسة المذکورة فی الآیات أعلاه و إن ذکرت بصورة منهج للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فهی فی الحقیقة دستورا یحتذی به کلّ من یخطو فی مسیر قیادة المجتمع البشری، إنّهم یجب أن یعلموا بعد الإیمان الکامل بأهدافهم و رسالتهم بضرورة احتراف الصبر و الاستقامة.

و أن لا یستوحشوا من کثرة مشاکل الطریق، لأنّ هدایة المجتمع من المشاکل العظیمة، و هی کذلک دائما، و لم تثمر الرسالة إن لم یمتلک قادتها الصبر و الاستقامة.

و فی المرحلة الأخری یجب الثبات التام أمام الوساوس الشیطانیة و التی تعتبر مصداقا للآثم و الکفور، و الثبات أمام سعیهم فی حرف القادة و الأئمة بأنواع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۷

الحیل و المکائد، و أن لا ینخدعوا بالتطمیع و لا یتأثروا بالتهدید، و یذکروا اللّه تعالی فی کل المراحل لاکتساب القدرة الروحیة و قوة الإرادة و العزم الراسخ، و الاستمداد من العبادات اللیلیة، و المناجاة مع اللّه، فإذا ما روعیت هذه الأمور فالنصر حتمی، و حتی لو عرضت مصیبة أو هزیمة فإنّه یمکن إصلاحها من خلال هذه الأصول، و منهج الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سلوکه فی دعوته نموذج مؤثر لجمیع السالکین فی هذا الطریق.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۸

الآیات [سورة الإنسان (۷۶): الآیات ۲۷ الی ۳۱]

اشارة

إِنَّ هؤُلاءِ یُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ یَذَرُونَ وَراءَهُمْ یَوْماً ثَقِیلًا (۲۷) نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِیلًا (۲۸) إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلی رَبِّهِ سَبِیلًا (۲۹) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ یَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً (۳۰) یُدْخِلُ مَنْ یَشاءُ فِی رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِینَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۳۱)

التّفسیر

تحذیر مع بیان السبیل!!

رأینا فی الآیات السابقة تحذیرا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لکی لا یقع تحت تأثیر کل آثم أو کفور من المجرمین، و التاریخ یشهد أنّهم کانوا یستعینون لسذاجتهم بالمال و الجاه و النساء للنفوذ فی إرادة النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عزمه علی ادامة الدعوة.

الآیات أعلاه عرّفت الأعداء بشکل أکثر و قالت: إِنَّ هؤُلاءِ یُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ یَذَرُونَ وَراءَهُمْ یَوْماً ثَقِیلًا. لا تتعدی أفق أفکارهم دائرة الطعام و النوم و الشهوة، و تمثل هذه اللذائذ المادّیة الرخیصة أسمی غایة لهم فی الحیاة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۹

و العجیب أنّهم قاسوا روح النّبی صلّی اللّه علیه و آله العظیمة بهذا المقیاس! و لم ینتبه هؤلاء الغافلین إلی الیوم الثقیل الذی ینتظرهم، ثقیل من حیث العقوبات، ثقیل من حیث المحاسبة، و ثقیل من حیث طول الزمان و شدّة الفضیحة.

و قد جاء التعبیر ب (وراءهم) مع أنّ المفروض أن یقال (أمامهم) لأنّهم نسوا ذلک الیوم، و کأنّهم ترکوه وراءهم، و لکن علی قول بعض المفسّرین أنّ کلمة (وراء) تستعمل أحیانا بمعنی «خلف» و أحیانا بمعنی «أمام»[۳۰۹].

الآیة التالیة تحذرهم من الاغترار بقوتهم و قدرتهم، إذ أنّ اللّه الذی أعطاهم إیّاها قادر علی أن یستردها بسرعة متی شاء، فیقول تعالی: نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِیلًا[۳۱۰].

(أسر) علی وزن (عصر) و أصله الربط بالقید، و لهذا سمی الأسیر بهذا الاسم لربطه و شدّه، و هنا إشارة إلی استحکام خلقة الإنسان بحیث یقدر علی مزاولة مختلف النشاطات و الفعالیات المهمّة.

هنا یشیر القرآن إلی نقطة حساسة، و هی الأعصاب الصغیرة و الکبیرة التی تشدّ العضلات فیما بینها کالحبال الحدیدیة و تربط بعضها بالبعض الآخر، و حتی المفاصل و العضلات المختلفة و قطع العظام الصغیرة و الکبیرة و أعضاء الإنسان بحیث یتکون من مجموع ذلک إنسان واحد مهیأ للقیام بأیة فعالیة، و علی کل حال فهذه الجملة کنایة عن القدرة و القوّة.

و توضّح هذه الآیة ضمنا استغناء ذات اللّه المقدّسة، عنهم، و عن طاعتهم و إیمانهم، لیعلموا أنّ الإصرار علی إیمانهم فی الحقیقة هو من رحمة اللّه بهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۰

و قد ورد نظیر هذا المعنی فی الآیة (۱۳۳) من سورة الأنعام إذ یقول: وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ ما یَشاءُ.

ثمّ أشار تعالی إلی جمیع البحوث الواردة فی هذه السورة و التی تشکل بمجموعها برنامجا متکاملا للحیاة السعیدة، فیقول تعالی: إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلی رَبِّهِ سَبِیلًا[۳۱۱].

إن علینا إیضاح الطریق، لا اجبارکم علی اختیار الطریق، و علیکم تمییز الحق من الباطل بما لدیکم من العقل و الإدراک، و اتخاذ القرار بإرادتکم و اختیارکم، و هذا فی الحقیقة تأکیدا علی ما جاء فی صدر السورة فی قوله: إِنَّا هَدَیْناهُ السَّبِیلَ إِمَّا شاکِراً وَ إِمَّا کَفُوراً.

و قد یتوهّم بعض السذّج من العبارة أعلاه أنّها تعنی التفویض المطلق للعباد، فجاءت الآیة التالیة لتنفی هذا التصور و تضیف: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً[۳۱۲].

و هذا فی الحقیقة إثبات لأصل مشهور هو (الأمر بین الأمرین)، إذ یقول من جهة: إِنَّا هَدَیْناهُ السَّبِیلَ فعلیکم أن تختاروا ما تریدون، و یضیف من جهة أخری: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ أی لیس لکم لاستقلال الکامل، بل إن قدرتکم و استطاعتکم و حریتکم لا تخرج عن دائرة المشیئة الإلهیة، و هو قادر علی أن یسلب هذه القدرة و الحریة متی شاء.

من هذا یتّضح أنّه لا جبر و لا تفویض فی الأوامر، بل إنّها حقیقة دقیقة و ظریفة بین الأمرین، أو بعبارة أخری: إنّها نوع من الحریة المرتبطة بالمشیئة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۱

الإلهیة، إذ یمکن سلبها متی یشاء لیتسنی للعباد تحمل ثقل المسؤولیة الذی یعتبر رمزا للتکامل من جهة، و من جهة أخری أن لا یتوهموا استغنائهم عن اللّه تعالی.

و الخلاصة، أنّ هذه الآیة تدعو الإنسان إلی أن لا یتوهّم أنّه مستغن عن رعایة اللّه و توفیقه. و فی نفس الوقت تؤکد حریته فی أعماله و سلوکه.

و یتضح هنا أنّ تمسک بعض المفسّـرین القائلین بالجبر کالفخر الرازی بهـذه الآیة بسبب الخلفیات الذهنیة المسبقة فی هذه المسألة، فیقول: و اعلم أنّ هذه الآیة من جملة الآیات التی تلاطمت فیها أمواج الجبر و القدر![۳۱۳] نعم، إذا فصلنا هذه الآیة عن الآیات السابقة فهناک محلّ لهـذا الوهم. و لکن بالالتفات إلی ما ورد من تأثیر الإختیار فی آیـة، و فی آیة أخری تأثیر المشـیئة الإلهیة، یتّضح بصورة جیدة مفهوم (الأمر بین الأمرین).

و عجیب أن أنصار التفویض یتمسـکون بتلک الآیة التی تتحدث عن الإختیار المطلق فقط، و أنصار الجبریة یتمسکون بالآیة التی تشیر إلی الجبر فقط، و یریـد کل منهما تبریر أحکامهم المسبقة بتلک الآیـة، و الحال أنّ الفهم الصـحیح للکلام الإلهی (أو أی کلام آخر) یستوجب ضمّ الآیات جنبا إلی جنب، و ترک التعصب و القضاء بالأحکام المسبقة.

و لعلّ آخر الآیـة: إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلِیماً حَکِیماً. یشیر حکمه إلی هـذا المعنی، لأنّ حکمـة اللّه تستوجب إعطاء الحریة للعباد فی سلوک طریق التکامل، و إلّا فإنّ التکامل الإجباری لا یعـدّ تکاملا، بالإضافـة إلی أنّ حکمـة اللّه لا تتفق مع فرض الأعمال الخیرة علی أناس و فرض الأعمال الشریرة علی أناس آخرین، ثمّ أنّه یثیب الجماعة الأولی و یعاقب الثانیة.

ثمّ تشیر الآیة الأخری بعد ذلک إلی مصیر الصالحین و الطالحین فی جملة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۲

یسیرة غنیـة المحتوی إذ تقول الآیـة: یُدْخِلُ مَنْ یَشاءُ فِی رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِینَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً و الظریف أنّ صدر الآیة یقول: یُدْخِلُ مَنْ یَشاءُ فِی رَحْمَتِهِ و یقول ذیلها: وَ الظَّالِمِینَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً و هذا یشیر إلی أنّ مشیئته تعالی بعقوبة الإنسان تتبع مشیئة الإنسان للظلم و المعاصـی، و بقرینة المقابلة یتّضح أنّ مشیئته تعالی فی الرحمة تتبع إرادة الإنسان فی الإیمان و العمل الصالح و إقامة العدل، و لا یمکن أن یکون هذا الأمر إلّا من حکیم.

و العجیب أنّ مع هـذه القرینـة فهناک أفراد کالفخر الرازی ممن یتخـذ صـدر هـذه الآیـة دلیلا علی مسألة الجبر من دون الالتفات إلی آخر الآیة التی یتحدث عن حریة الإرادة فی أعمال الظالمین ۳۱۴].

اللهم! أدخلنا فی رحمتک و نجّنا من العـذاب الألیم الـذی ینتظر الظالمین.[۳۱۵] اللهم! أدخلنـا فی رحمتک و نجّنا من العـذاب الألیم الذی ینتظر الظالمین.

ربّنا! إنّک أوضحت السبیل إلیک. و قد عزمنا علی سلوکه، فأعنّا علی ذلک.

ربّنا! إنّنا إن لم نکن من الأبرار و لکنّا نحبّهم، فاحشرنا معهم.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الدهر***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۳

سورة المرسلات

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۵

«سورة المرسلات»

محتوی السورة:

المشهور أنّ هذه السورة مكيّة، و لكن صرح البعض أنّ الآية (۴۸) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ مدنيـة، و لكن لم يذكروا لذلك دليلا واضحا، و إذا كانت مسألة الركوع و الصلاة سببا لهذا الاستنباط فإنّ ذلك يبدو بعيدا. إذ كثيرا ما كان المسلمون يقيمون الصلاة مع الركوع فى مكّة، على كلّ حال فإنّ أكثر محتويات هذه السورة تدور حول المسائل المرتبطة بالقيامة و تهديد و إنذار المشركين و المنكرين، و من خصائص هـذه السورة تكرار الآية: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ عشر مرات بعد كل موضوع جديد، و تنبئ السورة بعد ذكر الأقسام عن القيامة و الحوادث الثقيلة و الصعبة للبعث، ثمّ تذكر عقب ذلك هذه الآية: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

و تتحدث السورة أولا عن الوقائع المؤسفة للأقوام المذنبين الأوائل.

ثمّ تتحدث ثانيا عن جانب من خصوصيات خلق الإنسان.

و فى المرحلة الثّالثة عن بعض المواهب الإلهية فى الأرض.

و فى الرّابعة تشرح السورة جانبا من عذاب المكذبين، و فى كل من هذه المراحل إشارة إلى مواضيع موقظة و محركة، ثمّ تأكيد تلك الآيـة بعـد ذكر كـلّ موضوع من هـذه المواضيع، و حتى أنّه أشار فى قسم من ذلك إلى نعم الجنان للمتقين ليمزج الإنـذار بالبشارة و الترهيب بالترغيب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۶

على كل حال فإنّ هـذا التكرار يـذكر بتكرار بعض الآيات فى سورة الرحمن باختلاف أنّ الكلام يدور عن النعم، أمّا فى السورة فغالبا ما تتحدث عن عذاب المكذبين.

اختيار اسم (المرسلات) لهذه السورة هو لتناسبه مع الآية الأولى لهذه السورة.

فضيلة السورة:

روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «من قرأ سورة المرسلات كتب أنّه ليس من المشركين»[۳۱۶].

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأها عرّف اللّه بينه و بين محمد»[۳۱۷]

لا شك أنّ الثواب و الفضيلة تكون لمن يقرؤها و يتفكر و يعمل بها، لذا

روى فى حديث أنّ أحد أصحاب النّبى قال: أسرع الشيب إليك يا رسول اللّه! فقال: «شيبتنى سورة هود و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون»[۳۱۸].

و الملاحظ أنّ جميع هـذه السور تعكس أحوال القيامـة و المسائل المهولـة لتلك المحكمـة العظيمـة، و هـذه هى التى تركت أثرا فى روح النّبى المقدّسة.

من البديهى أنّ القراءة بدون تدبّر و تصميم على العمل لا يمكن أن تترك مثل هذا الأثر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۷

الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۱ الى ۱۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (۱) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (۲) وَ النَّاشِراتِ نَشْراً (۳) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (۴)

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (۵) عُذْراً أَوْ نُذْراً (۶) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (۷) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (۸) وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (۹)
وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (۱۰) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (۱۱) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (۱۲) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (۱۳) وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (۱۴)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۵)

التّفسير

الوعود الإلهية و جزاء المكذبين:

ذكرت فی صدر السورة ابتداء خمسة أيمان، و ذلك فی خمس آيات.

الحديث وافر فی تفسير معانيها:

يقول تعالى: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً[۳۱۹] أی قسما بالتی ترسل تباعا.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۸

فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً التی تسرع فی حركتها كالعاصفة.

وَ النَّاشِراتِ نَشْراً ... التی توسّع و تنشر ما وكّلت به.

فَالْفارِقاتِ فَرْقاً ... التی تفرق و تفصل.

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً التی تلقی بالآيات الموقظة و المذكرّة.

عُذْراً أَوْ نُذْراً[۳۲۰] إمّا لإتمام الحجة أو للانذار.

و الآن لنر ما هو مفهوم هذه الأيمان المغلقة التی تخبر عن مسائل مهمّة، و يوجد هنا ثلاث تفاسير مهمّة:

۱- إنّ هذه الأيمان الخمسة إشارة إلى الرياح و العواصف التی لها الأثر البالغ فی كثير من مسائل الطبيعة فی العالم، فيصبح معنی الآيات حينئذ: أقسم بالريح المتوالية الهبوب.

و أقسم بالأعاصير السريعة.

و أقسم بالناشرات السحاب التی تنزل المطر إلى الأراضی الميتة.

و أقسم بالرياح التی تفرّق السحاب بعد هطول المطر.

و أقسم بالرياح المذكّرة باللّه بهذه المعطيات النافعة.

(و قيل أنّ فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً إشارة إلى أعاصير العذاب النقيضة للرياح الباعثة للحياة و التی تعتبر بدورها سببا للتذكر و اليقظة).

۲- إنّ هذه الأيمان إشارة إلى (ملائكة السماء): أی أقسم بالملائكة المرسلة تباعا إلى الأنبياء (و الملائكة المرسلين بالمناهج المعروفة)، و أقسم بأولئك المسرعين كالأعصار لتنفيذ مهامهم، و الذين ينشرون ما أنزل اللّه على الأنبياء، و أولئك الذين يفصلون بعملهم هذا الحق عن الباطل، و الذين يلقون ذكر الحق و أوامر اللّه على الأنبياء.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۹

۳- القسم الأوّل و الثّانی ناظر إلى الرياح و الأعاصير، و القسم الثّالث و الرّابع و الخامس يتعلق بنشر آيات الحق بواسطة الملائكة، ثمّ فصل الحق عن الباطل، و بعد ذلك إلقاء الذكر و الأوامر الإلهية على الأنبياء بقصد إتمام الحجّة و الإنذار.

و ما يمكن أن يكون شاهدا على التفسير الثّالث هو:

أوّلا: فصل المجموعتين من الأقسام التی فی الآيات (بالواو)، و الحال أنّ البقية عطفت بالفاء و هی علامة ارتباطها.

ثانيا: إنّ هـذه الأيمان كما سوف نرى واردة لموضوع الآية السابعة، أى أحقيّة البعث و المعاد و واقعيته، و نعلم أنّ تغيّرا عظيما يحصل فی الدنيا عند البعث حيث العواصف الشديدة و الزلازل و الحوادث المهيبة من جهة، ثمّ تشكيل محكمة العدل الإلهية من جهة أخرى و عندها تنشر الملائكة صحائف الأعمال و تفصل بين المؤمنين و الكافرين، و تلقى بالحكم الإلهی فی هذا المجال.

و طبقا لهذا التّفسير سوف يتناسب القسم مع المقسم له، و لهذا فإنّ التّفسير الأخير أفضل.

«الـذكر» فی جملـة: فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً أمّا أن يكون بمعنى العلوم الملقـاة على الأنبيـاء، أو الآيـات النازلـة عليهم، و نعلم أنّ القرآن جاء التعبير عنه بالذكر كما فی الآية (۶) من سورة الحجر: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِی نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ

كلمـة «الملقيـات» بصيـغة الجمع مع أنّ ملـك الوحی- أی جبرئيل عليه السّـلام- واحـد ليس إلّا لما يستفاد من الرّوايات أنّ جماعات كثيرة من الملائكة كانوا يصاحبون جبرئيل عليه السّـلام عند نزول الآيات القرآنية، كقوله تعالى فی الآية (۱۵) من سورة عبس: بِأَيْدِی سَفَرَةٍ.

و الآن لا بدّ أن نرى الغرض من هذه الأيمان، الآية التالية ترفع الستار عن هذا المعنى، فتقول: إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ

إنّ البعث و النشور، و الثواب و العقاب و الحساب و الجزاء كلها حق لا ريب

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۰

فيه.

و يرى البعض أنّهـا إشـارة إلى جميع الوعود الإلهيـة، و تشـمل و عود الصـالحين و الصـالحين، فی الـدنيا كـانت أو فی الآخرة، و لكنّ الآيات التالية توحی أنّ المراد هو الوعد بالقيامة[۳۲۱].

و هنا و إن لم يستدل فی هـذه الآيـة على مسألـة المعاد و اكتفى بالادعاء، فإنّ ظرافـة الموضوع تكمن فی أنّ مواضيع الأيمان السابقة تعتبر بحدّ ذاتها دلائل للمعاد، منها إحياء الأراضـی الميتة بالأمطار، و هذا نموذج ممّا يحدث فی المعاد، ثمّ نزول التكاليف الإلهية على الأنبياء و إرسال الرسل ممّا لا يكون الهدف منه واضحا و مفهوما إلّا بوجود المعاد، و هذا يشير إلى أنّ واقعة البعث أمر حتمی.

و جاء ما يشابه هـذا الموضوع فی الآيـة (۲۳) من سورة الـذاريات إذ يقول اللّه تعـالى: فَوَ رَبِّ السَّمـاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ القسم بالربّ يعتبر إشارة إلى أنّ ربوبية الربّ و تدبيره عالم الخلق يستوجب عدم تركه للخلق دون رزق.

ثمّ ينتهی إلى تبيـان علامات ذلك اليوم الموعود، فيقول: إذا تحقّق ذلك اليوم الموعود فإنّ النجوم سوف تنطفئ و تمحى فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ

وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ أی انشقت.

وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ أی زالت و انقلعت من مكانها.

(طمست): من مـادة (طمس)- على وزن شـمس- و هـو محـو و زوال آثـار الشـیء، و من الممكن أن تشير العبـارة هنـا إلى محو نور النجوم أو اختفائها، و لكن التفسير الأول أنسب، كقوله فی الآية (۲) من سورة التكوير: وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ

نسـفت: من مادة (نسف)- على وزن حذف- و فی الأصل، بمعنى وضع حبوب الغذاء فی الغربال و تحريكه لعزل القشور عن الحبوب، و يعنی هنا تفتيت

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۱

الجبال ثمّ نسـفها فی الريح، و نستفيد من بعض آيات القرآن المجيد أنّ انقراض العالم يلازم وقوع حوادث مهولة بحيث يتلاشى نظام العـالم بكـامله. و حلول نظـام الآـخرة الجديـد مكـان ذلـك النظـام، و لاـ يمكن وصف تلـك الحوادث بأی بيان لما فيها من الرعب و العجب، و هـل يوصف حادث تنقلع فيه الجبال و تنـدك لتتحول إلى غبار و تكون كالصوف المنفوش؟! و كما يرى بعض المفسّـرين أنّ هـذه الحوادث عظيمـة للغايـة بحيث أنّ أشـد الزلازل المهيبـة فی الدنيا بالنسـبة لها كفرقعة صـغيرة يفرقعها الأطفال للّعب بها مقابل

أقوى قنبلة ذرية.

و على أى حال فإنّ هذه التعابير القرآنية تشير إلى الاختلاف الكبير بين أنظمة الآخرة و أنظمة الدنيا.

ثمّ أشار القرآن بعد ذلك إلى ما يجرى فى البعث، فيضيف: و فى ذلك الوقت يتمّ تعيين وقت للأنبياء و الرسل ليأتوا إلى ساحة المحشر و يدلوا بشهادتهم: وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۳۲۲] و هو كقوله: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ [۳۲۳] ثمّ يضيف تعالى: لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۳۲۴]، أى لماذا تمّ تأخير هذه الشهادة و لأى وقت؟ ثم يقول: لِيَوْمِ الْفَصْلِ يوم فصل الحق عن الباطل، فصل صفوف المؤمنين عن الكافرين، و الأبرار عن الأشرار، و يوم حكم اللّه المطلق على الجميع، و قد جاء هذا الحوار لبيان عظمة ذلك اليوم، و يا له من تعبير بليغ عميق لذلك اليوم، .. إنّه «يوم الفصل»!!.

ثمّ يبيّن عظمة ذلك اليوم أيضا، فيقول تعالى: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۲

إنّ الرسول صلّى اللّه عليه و آله بعلمه الواسع و بنظره الحاد الذى كان يرى من خلاله أسرار الغيب لم يكن مطلقا بصورة كاملة على أبعاد عظمة ذلك اليوم، فكيف بسائر الناس: و قد قلنا مرارا إنّنا لا نستطيع الإحاطة و العلم بجميع أسرار القيامة العظيمة فنحن سجناء قفص الدنيا، و ما نتصوره عن ذلك اليوم ليس إلّا شبحا و خيالا يحكى عن مجريات الآخرة.

و فى آخر آية من آيات بحثنا هدد اللّه تعالى المكذبين بيوم القيامة تهديدا شديدا و قال: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

ويل: قيل هو الهلاك، و قيل المراد به العذاب المتنوع، و قيل هو واد فى جهنّم ملىء بالعذاب، و تستخدم هذه الكلمة عادة فيما يخص الحوادث المؤسفة، و هنا تحكى الآية عن مصير المكذبين المؤلم فى ذلك اليوم ۳۲۵].

المراد بالمكذبين هنا هم المكذبون بيوم القيامة، و نعلم أنّ من لا يؤمن بيوم القيامة و محكمة العدل الإلهى و بالحساب و الجزاء يسهل عليه أن يرتكب الذنوب و الظلم و الفساد، بعكس الإيمان الراسخ بذلك اليوم فإنّه يهب الإنسان التقوى و الإحساس بالمسؤولية.

***

ملاحظات

۱- محتوى هذه الأيمان

فى الآيات السابقة ذكر أولا بالرياح و الأعاصير لما لها من الدور الهام فى عالم الخلقة، فإنّها تحرك السحاب لتقودها إلى الأراضى اليابسة و الميتة، و تصريفها بعد نزول الأمطار، و تنقل بذور النباتات من مكان إلى آخر و بذلك تنمو الغابات و المراتع، و تلقّح الرياح أيضا كثيرا من الأزهار و الثمار، و تنقل الحرارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۳

و البرودة من مناطق الأرض المختلفة إلى نقاط أخرى فتساعد بذلك على تعديل المناخ، و تأخذ الهواء الطازج الملىء بالأوكسجين من المزارع و الصحارى إلى المدن، ثم ترسل الهواء الملوث إلى الصحارى و البحار لغرض التصفية. ثم إنّها تثير مياه البحار و تجعلها أمواجا متلاطمة، و تدخل الأوكسجين إلى الموجودات المائية الحيّة، نعم إنّ للرياح و النسيم خدمات عظيمة و حياتية فى الكون.

القسم الآخر من الأيمان يتحدث عن منهج نزول الوحى بوسيلة الملائكة، فإنّ فى عالم المعنى أيضا شبها مع النسيم فى عالم المادة، الملائكة يهبطون بكلمات الوحى على قلوب أنبياء اللّه تعالى كما تنزل قطرات المطر المباركة فتنمو أزهار و ثمار المعارف الإلهية فى القلوب.

و علی هـذا الأسـاس فـإنّ اللّه تعـالی قـد أقسم بمربّی عالم المادة و بمربّی عالم المعنی، و الظریف أنّ جمیع هـذه الأقسام هو من أجل بیان حقیقة ذلک الیوم الذی تثمر فیه جمیع المساعی و هو یوم القیامة، یوم الفصل.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۴

الآیات [سورة المرسلات (۷۷): الآیات ۱۶ الی ۲۸]

اشارة

أ لَمْ نُهْلِکِ الْأَوَّلِینَ (۱۶) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِینَ (۱۷) کَذلِکَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِینَ (۱۸) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۱۹) أ لَمْ نَخْلُقْکُمْ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ (۲۰)
فَجَعَلْناهُ فِی قَرارٍ مَکِینٍ (۲۱) إِلی قَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۲) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (۲۳) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۲۴) أ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ کِفاتاً (۲۵) أَحْیاءً وَ أَمْواتاً (۲۶) وَ جَعَلْنا فِیها رَواسِیَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَیْناکُمْ ماءً فُراتاً (۲۷) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۲۸)

التّفسیر

جزاء المکذبین بالمعاد

هـذه الآیات أیضا تحـذّر و بطرق مختلفـة المنکرین للبعث، و توقظهم ببیانات مختلفة من نوم الغفلة العمیق؛ فتأخذ بأیدیهم أوّلا إلی ما مضی من التاریخ لتریهم الأراضی المترامیة الأطراف التی کانت ملکا للأقوام السابقین، فیقول تعالی: أَ لَمْ نُهْلِکِ الْأَوَّلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۵

إنّ آثارهم واضـحة علی صـفحات البسـیطة. و لیس علی صـفحات التاریـخ فحسب، أقوام- کقوم عاد و ثمود و قوم نوح و قوم لوط و قوم فرعون- عوقبوا جزاء لأعمالهم فبعض أبیدوا بالطوفان و آخرون بالصاعقة، و جماعة بقوة الریاح، و قوم بالزلزلة و أحجار السماء.

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِینَ لأنّهـا سـنّة مسـتمرة لاـ تبعیض فیهـا و لاـ اسـتثناء، و هل یمکن أن یعاقب جماعـة لجرم ما، و یقبل ذلک الجرم من آخرین؟! و لذا یضیف تعالی فی الآیة الأخری: کَذلِکَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِینَ

هـذه الآیـة فی الحقیقـة هی بمنزلـة بیان الدلیل علی هلاک الأمم الأولی و یستتبعه هلاک الأمم الأخری، لأنّ العذاب الإلهی لیس فیه جانب الثأر و لا الانتقام الشخصی. بل إنّه تابع لأصل الاستحقاق و مقتضی الحکمة.

و قـال البعض: إنّ المراد من (الأولین) هم الأمم المتوغلـة فی الماضـی البعیـد کقوم نوح و عاد ثمود، و (الآخرین) اللاحقون بهم من الأمم الغابرة أمثال قوم لوط و قوم فرعون و لکنّنا نلاحظ أنّ (نتبعهم) جاءت بصیغة فعل مضارع، و الحال أنّ عبارة (ألم نهلک) وردت بصیغة الماضـی، فیتضـح من ذلک أنّ (الأولین) هم الأمم السابقـة الـذین هلکوا بالعـذاب الإلهی و (الآخرین) هم الکفار المعاصـرون للنّبی صلّی اللّه علیه و آله أو الذین یأتون إلی الوجود فیما بعد، و یتلوثون بالجرائم و المعاصی و الظلم و الفساد.

ثمّ یضیف مستنتجا: وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ

یَوْمَئِذٍ: إشارة إلی یوم البعث الـذی یعاقب فیه المکـذبون بالعقوبات الشدیدة، و التکرار هو لتأکید المطلب، و ما احتمله البعض من أنّ هذه الآیة ناظرة إلی العذاب الدنیوی، و الآیة المشابهة لها و التی وردت سابقا ناظرة إلی العذاب الأخروی یبدو بعیدا جدّا.

ثمّ یمسک القرآن بأیدیهم لیأخذهم إلی عالم الجنین و یریهم عظمة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۶

و قدرته و کثرة مواهبه فی هذا العالم الملیء بالأسرار، لیفهموا قدرة اللّه تعالی علی المعاد و البعث من جهة و أنّهم غارقون فی نعمه اللامتناهیة من جهة أخری، فیقول تعالی: أَ لَمْ نَخْلُقْکُمْ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ أی تافه و حقیر فَجَعَلْناهُ فِی قَرارٍ مَکِینٍ ۳۲۶].

مقرّ فیه ضمان لجمیع ظروف الحیاة و التربیة و النمو و المحافظة علی نطفة الإنسان، فهو عجیب و ظریف و موزون بحیث یثیر إعجاب کل إنسان.

ثمّ یضیف تعالی: أنّ بقاء النطفة فی ذلک المکان المکین و المحفوظ إنّما هو لمدة معینة: إِلی قَدَرٍ مَعْلُومٍ

مدة لا یعلمها إلّا اللّه تعالی، مدة مملوءة بالتغیرات و التحولات الکثیرة بحیث ترتدی النطفة فی کل یوم لباسا جدیدا من الحیاة یؤدی به إلی التکامل فی داخل ذلک المخبأ.

ثمّ یستنتج من قدرته تعالی علی خلق الإنسان الکامل و الشریف من نطفة حقیرة بأن اللّه تعالی نعم القادر: فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ ۳۲۷][۳۲۸] و هذا الدلیل اعتمده القرآن مرات عدیدة لإثبات مسألة المعاد منها قوله تعالی فی أول سورة الحج: یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَیِّنَ لَکُمْ وَ نُقِرُّ فِی الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ نُخْرِجُکُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ ... ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ یُحْیِ الْمَوْتی وَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۷

ثمّ یعود فی النهایة لیکرر تلک الآیة و هو قوله: وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ الویل لأولئک الذین یرون آثار قدرة اللّه تعالی ثمّ ینکرونها، یقول أمیر المؤمنین علیه السّلام: «أیّها المخلوق السوی، و المنشأ المرعی فی ظلمات الأرحام و مضاعف الأستار، بدئت من سلالة من طین، و وضعت فی قرار مکین، إلی قدر معلوم، و أجل مقسوم، تمور فی بطن أمّک جنینا لا تحیر دعاء، و لا تسمع نداء، ثمّ أخرجت من مقرّک إلی دار لم تشهدها، و لم تعرف سبل منافعها، فمن هداک لاجترار الغذاء من ثدی أمّک، و عرفک عند الحاجة مواضع طلبک و إرادتک؟!»[۳۲۹].

ثمّ یقول تعالی: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ کِفاتاً[۳۳۰]، أَحْیاءً وَ أَمْواتاً[۳۳۱].

«کفات»:- علی وزن کتاب- و (کفت)- علی وزن کشف- هو جمع و ضم الشیء للآخر، و یقال أیضا لسرعة طیران الطیور «کفات» لجمعه لأجنحته حال الطیران السریع حتی یتمکن من شق الهواء و التقدم أسرع.

و المراد هو أنّ الأرض مقر لجمیع البشر: إذ تجمع الأحیاء علی ظهرها و تهیء لهم جمیع ما یحتاجونه، و تضم أمواتهم فی بطنها، فلو أنّ الأرض لم تکن مهیئة لدفن الأموات لسبب العفونة و الأمراض الناتجة منها فاجعة لجمیع الأحیاء.

نعم، إنّ الأرض هی کالأم التی تجمع أولادها حولها و تضمهم تحت أجنحتها، و تغذیهم، و تلبسهم، و تسکنهم، و تقضی جمیع حوائجهم، و تحفظ أمواتهم فی قلبها أیضا، و تمتصهم و تزیل مساوئ آثارهم.

و فسّر بعضهم «الکفات» بالطیران السریع، و الآیة تشیر إلی حرکة الأرض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۸

حول الشمس و الحرکات الأخری و التی کانت غیر مکتشفة زمن نزول القرآن.

و لکن بملاحظة الآیة الأخری أی أَحْیاءً وَ أَمْواتاً یتضح أنّ التفسیر الأوّل أنسب، و یؤید ذلک قول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام عند رجوعه من صفین و وصوله قرب الکوفة، حیث قال و هو ینظر إلی مقبرة خارج الکوفة: «هذه کفات الأموات» أی مساکنهم. ثم نظر إلی منازل الکوفة فقال: «هذه کفات الأحیاء» ثم تلا هذه الآیات: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ کِفاتاً أَحْیاءً وَ أَمْواتاً[۳۳۲].

ثمّ یشیر تعالی إلی إحدی النعم الإلهیة العظیمة فی الأرض، فیضیف:

وَ جَعَلْنا فِیها رَواسِیَ شامِخاتٍ ۳۳۳] هذه الجبال التی قاربت بارتفاعها السماء، و اتصلت أصولها بالبعض الآخر قد لزمت الأرض

کالدرع من جهة لحفظها من الضغط الداخلی و الضغوط الناتجة من الجزر و المد الخارجی، و من جهة أخری تمنع اصطکاک الریاح مع الأرض حیث تمدّ قبضتها فی الهواء لتحرکه حول نفسها و کذلک تنظم حرکة الأعاصیر و الریاح من جهة ثالثة، و لهذا تکون الجبال باعثة علی الاستقرار لأهل الأرض.

و فی آخر الآیة إشارة إلی إحدی البرکات الأخری للجبال فیضیف تعالی:

وَ أَسْقَیْناکُمْ ماءً فُراتاً ماءا سائغا لکم و باعثا للحیاة، و لحیواناتکم و لبساتینکم.

صحیح أنّ کل ماء مستساغ هو من المطر، و لکن للجبال الدور الأهم فی الإیفاء بهذا الغرض، فإنّ کثیرا من العیون و القنوات هی من الجبال، و مصدر الأنهار العظیمة هی من الجلید المتراکم علی قمم الجبال، حیث تعتبر من الذخائر المائیة المهمّة للإنسان، إنّ قمم الجبال تکون باردة علی الدوام لبعدها عن سطح الأرض، و لهذا فإنّها تحافظ علی الجلید المتراکم علیها لآجال طویلة حتی تتأثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۹

بشعاع الشمس فیتحول إلی ماء و یتدفق بالتالی علی شکل أنهار و جداول.

ثمّ یقول فی نهایة هذا القسم: وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ

أولئک الذین ینکرون کل هذه الآیات و علامات قدرة اللّه التی یرونها بأعینهم، و کذلک یشاهدون النعم الإلهیة التی غرقوا فیها، ثمّ ینکرون البعث و محکمة القیامة التی هی مظهر العدل و الحکمة الإلهیة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۰

الآیات [سورة المرسلات (۷۷): الآیات ۲۹ الی ۴۰]

اشارة

انْطَلِقُوا إِلی ما کُنْتُمْ بِهِ تُکَذِّبُونَ (۲۹) انْطَلِقُوا إِلی ظِلٍّ ذِی ثَلاثِ شُعَبٍ (۳۰) لا ظَلِیلٍ وَ لا یُغْنِی مِنَ اللَّهَبِ (۳۱) إِنَّها تَرْمِی بِشَرَرٍ کَالْقَصْرِ (۳۲) کَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (۳۳)

وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۳۴) هذا یَوْمُ لا یَنْطِقُونَ (۳۵) وَ لا یُؤْذَنُ لَهُمْ فَیَعْتَذِرُونَ (۳۶) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۳۷) هذا یَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناکُمْ وَ الْأَوَّلِینَ (۳۸)

فَإِنْ کانَ لَکُمْ کَیْدٌ فَکِیدُونِ (۳۹) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۴۰)

التّفسیر

لا قدرة لهم للدفاع و لا طریقا للفرار

فی هذه الآیات تبیان لمصیر المکذبین بیوم القیامة، و المنکرین لتلک المحکمة الإلهیة العادلة، تبیان یدخل الرعب و الرهبة فی قلب الإنسان، و یوضح أبعاد الفاجعة، یقول تعالی: انْطَلِقُوا إِلی ما کُنْتُمْ بِهِ تُکَذِّبُونَ انطلقوا إلی جهنّم التی طالما کنتم تستهزئون بها، توجهوا إلی أنواع العذاب التی هیئتموها بأعمالکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۱

السیئة.

(انطلقوا): من مادة (انطلاق) و هو الانتقال من غير مكث، و يظهر منه كـذلك الحريـة المطلقـة، و هذا فى الحقيقة توضـيح لحالهم فى عرصـة المحشـر إذ يوقفوهم للحساب مـدّة طويلـة، ثمّ يتركونهم و يقال لهم: انطلقوا إلى جهنّم من غير مكث أو توقف. و من الممكن أن يكون المتكلم هنا هو اللّه تعالى، أو ملائكة العذاب، و على كلّ حال فإنّه سياق ممزوج بالتوبيخ الشديد الذى يعتبر بحدّ ذاته عذابا مؤلما.

ثمّ يعمد إلى مزيد من التوضيح حول هذا العذاب، فيقول سبحانه: انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِی ثَلاثِ شُعَبٍ توجهوا نحو ظلّ من دخان خانق له ثلاث شعب:

شعبة من الأعلى، و شـعبة من الجهة اليمنى، و شـعبة من الجهة اليسـرى، و على هذا الأساس فإنّ دخال النّار المميت هذا يحيط بهم من كل جانب و يحاصرهم.

ثمّ يقول تعالى: لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِی مِنَ اللَّهَبِ فليس فى هذا الظل راحة، و لا يمنع من الاحتراق بالنّار لأنّه نابع من النّار.

و ربّما كان التعبير ب (ظل) سـببا لتصور وجود الظل الـذى يخفف من حرارة النّار، و لكنّ هـذه الآيـة تنفى هـذا التصور و تقول: ليس هـذا الظل كما تتصورون، أنّه ظل محرق و خانق، و ناتج من دخان النّار الغليظ الذى يعكس حرارة اللهب بصورة كاملة[۳۳۴] و يشهد على هذا الحديث قوله تعالى فى سورة الواقعة حول أصحاب الشـمال: فِی سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ [۳۳۵] و قيـل: إنّ هـذه الشـعب الثلاث هى انعكاس للتكـذيبات الثلاثـة لأساس الـدين، و هى التوحيـد و النبوّة و المعاد، لأنّ تكـذيب المعاد لا ينفصل عن التكذيب بالنبوّة و التوحيد، و قيل، إنّها إشارة إلى مبادئ الذنوب الثلاثة: القوّة الغضبية و الشهوية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۲

و الوهمية، نعم، إنّ ذلك الدخان المظلم تجسيد لظلمات الشهوات.

ثمّ يضـيف وصـفا آخر لتلك النار المحرقة: إِنَّها تَرْمِی بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ[۳۳۶] ليس كشـرر نار هـذه الدنيا التى لا تكون أحيانا إلّا بمقدار رأس الإبرة، التعبير ب «القصـر» هنا تعبير مليء بالمعنى، و ربّما يتوهّم أحد أنّه لو قيل شـرر كالجبل كان أنسب، و لكن لا ينبغى نسيان أنّ الجبال كما أشـير إليها فى الآيات السابقة هى أساس أنواع البركات و عيون المياه العذبة و السائغة، و لكن قصور الظالمين هى التى تكون منشأ للنيران المحرقة و الشرر المتطاير منها[۳۳۷].

ثمّ ينتهى فى الآية الأخرى إلى وصف آخر من أوصاف هذه النّار المحرقة، فيقول تعالى: كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ[۳۳۸].

«جمـاله»: جمع «جمـل»، و هو البعير (مثل الحجر و الحجارة) و «صـفر»- على وزن قفل- جمع أصـفر و يطلق أحيانا على اللون الـداكن المائل إلى الأسود، و لكنّ الأوّل يبدو أنسب، لأنّ شـرر النّار يكون أصفر مائلا إلى الحمرة، و فى الآية السابقة شبّه حجم الشرر بالقصر الكبير، و فى هـذه الآيـة من حيث الكثرة و اللون و السـرعة و الحركـة و التفرق الجميع الجهـات شـبهها بمجموعـة من الجمـال الصـفر المتجهة إلى كل صوب.

و إذا كان الشـرر هكـذا، فكيف بنفس النّار المحرقة، و ما جعل من العذاب الأليم فى تلك النّار؟! و يعود مرة أخرى فى آخر قسم من الآيات ليتبه بذلك التنبيه المكرر، فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۳

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

ثمّ يبدأ فصلا آخر من علامات ذلك اليوم المهول، فيضيف تعالى: هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ۳۳۹].

نعم إنّ اللّه يختم فى ذلـك اليـوم على أفـواه المجرمين، و المـذنبين كقوله فى الآيـة (۶۵) من سـورة يس: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ و كذلك ما ورد فى آخرها:

وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ و طبقا لآيات أخر فإنّ جلودهم تبدأ بالتكلم و تكشف عن جميع الخفايا.

ثمّ يضيف تعالى فى القول: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۳۴۰] ليس لهم الرخصة فى الكلام، و لا فى الاعتذار و الدفاع عن أنفسهم، لأنّ الحقائق واضحة هناك، و ليس لديهم ما يقولوه، نعم يجب أن يعاقب هذا اللسان الذى أساء الاستفادة من الحرية و سعى فى تكذيب الأنبياء، و الاستهزاء بالأولياء، و إبطال الحق و إحقاق الباطل .. يجب أن يعاقب على أعماله بالإقفال و الختم، لإبطال مفعوله، و هذا عذاب شديد و أليم بحدّ ذاته أن لا يتمكن الإنسان هناك من الدفاع عن نفسه أو الاعتذار.

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «اللّه أجل و أعدل و أعظم من أن يكون لعبده عذر و لا يدعه يعتذر به، لكنه فلج فلم يكن له عذر»[۳۴۱].

و بالطبع يستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ المجرمين يتحدثون أحيانا فى يوم القيامة، و قد ذكرنا السبب فيما سبق أنّ ذلك لتعدد المواقف فى يوم القيامة، ففى بعض المواقف يتوقف اللسان و يبدأ دور الأعضاء بالشهادة، و أحيانا أخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۴

ينطق اللسان بكلمات الحسرة و الندم و الأسف الشديد.

ثمّ يكرر تعالى فى نهاية هذا المقطع قوله: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

فى المقطع الآخر يوجه الخطاب إلى المجرمين ليحكى عمّا يجرى فى ذلك اليوم فيقول تعالى: هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ جمعنا فى هذا اليوم جميع البشر من دون استثناء للحساب، و فصل الخصام فى هذه العرصة و المحكمة العظمى.

و يقول: و الآن إذا كان لكم قدرة على الفرار من العقاب فاعملوا ما بدا لكم:

فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۳۴۲].

هل يمكنكم الهرب من دائرة نفوذ حكومتى؟

أو هل يمكنكم التغلّب على قدرتى؟

أو هل تستطيعون دفع الفدية لتتحرروا؟

أو أنّ لكم القدرة على أن تخدعوا الملائكة الموكلين بكم و بحسابكم؟

اعملوا ما بدا لكم و لكن اعلموا أنّكم لا تستطيعون!! فى الحقيقة إنّه أمر تعجيزى، أى أنّ الإنسان يعجز أمام هذا الأمر، كالذى جاء فى شأن القرآن المجيد حيث يقول تعالى: إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ

(كيد): على وزن (صيد) يقول الراغب فى مفرداته: هو نوع من الاحتيال، و يكون أحيانا مذموما، و أحيانا ممدوحا، و إن كان الغالب استعماله فى الذم (كما هو الحال فى الآية محل بحثنا).

و من الطبيعى أنّهم لم يستطيعوا شيئا فى ذلك اليوم، لأنّ ذلك اليوم تنقطع فيه جميع الأسباب و الوسائل أمام الإنسان، كما ورد فى الآية (۱۶۶) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۵

البقرة: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ

و الملاحظ أنّه يقول من جهة: ذلك اليوم (يوم الفصل) و من جهة أخرى يقول: ذلك اليوم (يوم الجمع) و كلاهما يتحققان فى وقت واحد، فيجمعون أوّلا فى تلك المحكمة العظيمة، ثمّ يفصلون كل حسب عقيدته و عمله فى صفوف مختلفة، حتى الذين ينطلقون إلى الجنان فإنّ لهم صفوفا و درجات، و المتوجهون جهنّم أيضا لهم صفوف و دركات مختلفة، نعم إنّ ذلك اليوم هو يوم فصل الحق عن الباطل، و الظالم عن المظلوم.

ثمّ أنّه تعالى أعاد تلك الجملة المهددة و المنبهة مرّة أخرى، و قال: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۶

الآیات [سورة المرسلات (۷۷): الآیات ۴۱ الی ۵۰]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی ظِلالٍ وَ عُیُونٍ (۴۱) وَ فَواکِهَ مِمَّا یَشْتَهُونَ (۴۲) کُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِیئاً بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳) إِنَّا کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۴۴) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۴۵)

کُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِیلاً إِنَّکُمْ مُجْرِمُونَ (۴۶) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۴۷) وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ ارْکَعُوا لا یَرْکَعُونَ (۴۸) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۴۹) فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَهُ یُؤْمِنُونَ (۵۰)

التّفسیر

إن لم یؤمنوا بالقرآن فبأیّ حدیث یؤمنون؟!

من المعلوم فی منهج القرآن أنّه یمزج الإنذار بالبشارة، و التهدید بالترغیب، و کذلک یذکر مصیر المؤمنین فی مقابل مصیر المجرمین لفهم المسائل بصورة أکثر بقرینـة المقابلـة، و علی أساس هذه السـنّة المتّبعة فی القرآن، فإنّ هذه الآیات و بعد بیان العقوبات المختلفة للمجرمین فی القیامة، أشارت بصورة مختصرة و بلیغة إلی وضع المتقین فی ذلک الیوم فیقول تعالی: إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی ظِلالٍ وَ عُیُونٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۷

و الحال أنّ المجرمین کما علم من الآیات السابقة هم فی ظل الشرر و حرقة الدخان الممیت.

(ظلال): جمع «ظل» سواء کـان ظلاـ کظـل الأشـجار فی النهار، أو الظل الحاصل من ظلام اللیل، و الحال أنّ «الفیء» یقال فقط للظل الحاصل من النور، کظل الأشجار المقابل للشمس.

ثمّ یضیف: وَ فَواکِهَ مِمَّا یَشْتَهُونَ

من الواضـح أنّ ذکر «الفواکه» و «الظلال» و «العیون» إشارة إلی جانب من المواهب الإلهیـة العظیمـة المعطاة إلی أهل الجنان .. جانب یمکن بیانه و رسمه بلسان أهل الدنیا، و أمّا ما لا یمکن حصره بالبیان، و لم یخطر ببال أهل الدنیا فهو أعلی من هذه المراتب و أفضل.

و الظریف أنّهم فی هذا المضیف الإلهی یستضافون بأحسن الوجوه، کما هو الحال فی الآیة التالیة إذ یقول لهم: کُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِیئاً بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هـذه الجملة سواء کانت خطابا من اللّه بشـکل مباشـر، أو بوسـیلة الملائکة تقال لهم مشـفوعة باللطف و المحبّة التی هی غذاء لروحهم.

و عبـارة بِمـا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إشـارة إلی أنّ هـذه المواهب لاـ تعطی لأیّ کـان من دون عمـل، و لاـ یمکن حصولها بالادعاء و التخیل و التصور، و إنّما یمکن نیلها و الحصول علیها بالأعمال الصالحة فقط.

(هنیء): علی وزن (صبیح) و یقول الراغب فی مفرداته: هو کل شیء لیست فیه مشقة و لا یستتبعه قلق، و لذا یقال للماء و الغذاء السائغ (هنیء)، و یطلق أحیانا علی الحیاة السعیدة.

و هذا إشارة إلی أنّ فواکه الجنّة و أغذیتها و أشـربتها لیست کأغذیة الدنیا و أشـربتها التی تترک أحیانا آثارا سیئة فی البدن، أو تترک أعراضا غیر مرضیة.

و هناک اختلاف بین المفسّرین فی أنّ هذه الآیة تبیان لإباحة الاستفادة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۸

هذه النعم، أم أنّه أمر من اللّه تعالى؟ و لكن يجب أن يلاحظ أنّ مثل هذه الأوامر التى تقال عند الاستقبال هو نوع من الطلب للشخص المضيّف، و أنّها تقال لتعظيم الضيوف و احترامهم، و المضيّف يحب أن يؤكل طعامه أكثر لإكرام ضيفه أكثر.

ثمّ تؤكد الآية الأخرى على مسألة النعم و أنّها لا تمنح اعتباطا فيضيف: إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

الظريف أنّ فى الآية الأولى تأكيد على «التقوى»، و فى الآية التى تليها تأكيد على «العمل»، و أمّا فى هذه الآية فقد أكّد على «الإحسان».

(التقوى): هى اتّقاء و اجتناب الذنوب و الفساد و الشرك و الكفر، و «الإحسان» هو أداء كل عمل حسن، و «العمل» يتعلق بالأعمال الصالحة، ليتضح أنّ منهج النعم الإلهية مرتبط بهذه الجماعة فقط، و ليس بمن يدعى الإيمان الكاذب، و الملوثين بأنواع الفساد، و إن كانوا فى الظاهر من أهل الإيمان.

و فى نهاية هذا المقطع يعيد تلك الآية: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الويل لمن يحرم من كل هذه النعم و الألطاف، إذ أنّ عذاب حسرات هذا الحرمان ليس بأقل من نيران الجحيم المحرقة! و بما أنّ إحدى عوامل إنكار المعاد الاهتمام بلذّات الدنيا الزائلة و الميل إلى الحرية المطلقة للانتفاع بهذه اللذّات، و يتوجه بالحديث فى الآية التالية إلى المجرمين بلحن تهديدى فيقول: كلوا و تمتعوا بالملذات الدنيوية فى هذه الأيّام القلائل، و لكن اعلموا أنّ العذاب الإلهى ينتظركم، لأنّكم مجرمون: كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ

و قد يكون التعبير ب (قليلا) إشارة إلى مدّة عمر الإنسان القصيرة فى الدنيا، و كذا المواهب الدنيوية التافهة مقابل النعم الأخروية اللامتناهية، إلّا أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ هذا الخطاب هو للمجرمين فى الآخرة، و لكن الالتفات إلى أنّ الآخرة ليس فيها متع من مواهب الحياة للمجرمين ليتمتعوا بها، فينبغى، القول بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۹

هذا الخطاب موجّه لهم فى الدنيا.

فى الحقيقة أنّ المتقين يستضافون فى الآخرة بكامل الاحترام و التقدير، و يخاطبون بهذه الجملة المليئة باللطف و الحنان: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً و أمّا عبيد الدنيا فإنّهم يخاطبون بجملة تهديدية فى هذه الدنيا: كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا.

يقول للمتقين: بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و يقول لهؤلاء أيضا: إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ [۳۴۳].

و على كل حال فإنّها تشير إلى أنّ مصدر العذاب الإلهى هو عمل الإنسان و ذنبه، الناشئ من عدم الإيمان أو الأسر فى قبضة الشهوات.

ثمّ يكرر التهديد بجملة: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هم أولئك الذين غرّروا و خدعوا بزخارف الدنيا و لذاتها و شهواتها و اشتروا عذاب اللّه.

و أشار فى الآية الأخرى إلى عامل آخر من عوامل الانحراف و التعاسة و التلوث، و قال: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ

قال كثير من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت فى «ثقيف» حين أمرهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالصلاة فقالوا: لا ننحنى فإنّ ذلك سبّة علينا،

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا خير فى دين ليس فيه ركوع و سجود»[۳۴۴].

إنّهم لم يأبوا الركوع و السجود فحسب، بل إنّ روح الغرور و الكبر هذه كانت منعكسة على جميع أفكارهم و حياتهم، فما كانوا يسلّمون للّه، و لا لأوامر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لا يقرّون بحقوق الناس، و لا يتواضعون للّه تعالى و للناس.

فى الحقيقة أنّ هذين العاملين (الغرور و حب الشهوة) من أهم عوامل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۰

الإجرام و الذنب و الكفر و الظلم و الطغيان.

و احتمل البعض أنّ خطاب (ارکعوا) یقال لهم فی القیامة، و لکن هذا الاحتمال بعید، خصوصا بعد التمعن فی الآیات السابقة و الآتیة.

ثمّ یعید هذه الآیة للمرّة العاشرة و الأخیرة إذ یقول: وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ

و فی آخر آیة من آیات البحث- و هی آخر آیة من السورة- یأتی السیاق ممزوجا بالعتاب و ملیئا بالملائمة، فجاءت الآیة بصیغة الاستفهام التعجبی، إذ یقول فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَهُ یُؤْمِنُونَ إنّ من لم یؤمن بالقرآن الذی لو أنزل علی الجبال لتصدعت و ارتجفت، فسوف لن یسلم و لن یؤمن بأی کتاب سماوی، و لا یقبل بأی منطق عقلائی، و هذ یدّل علی روح العناد و التعصب.

***

ملاحظة:

کما أشرنا سابقا فی بدایة السورة إلی تکرار الآیة: وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ عشر مرّات. و هذا تأکید لواقع مهم، و شبیه ذلک کثیر فی حدیث العظماء و البلغاء، إذ أنّ القسم الذی یعتنون به و یؤکّدون علیه یظهر مکررا فی نثرهم و أشعارهم.

و لکن بعض المفسّرین یری أنّ لکل آیة من هذه الآیات العشر معنی خاصّا، و تشیر کل منها إلی تکذیب مواضیع سابقة لها، و لذا فإنّها لا تعد مکررة.

و نختم هذه السورة بجملة من تفسیر روح البیان، یقول: إنّ هذه السورة نزلت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی غار قرب مسجد (خیف) بمنی و هو معروف، و أنا شخصیا قد زرت ذلک الغار.

اللّهم! جنّبنا أبدا التلوث بتکذیب آیاتک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۱

ربّنا! جنّبنا الغرور و الهوی فإنّهما رأس کلّ خطیئة.

إلهنا! احشرنا مع المتّقین الذین ینالون رضاک و ضیافتک فی ذلک الیوم.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة المرسلات***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۳

بدایة الجزء الثلاثون من القرآن الکریم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۵

سورة النّبإ

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۷

«سورة النبا»

محتویات السورة:

تمتاز أغلب السور القرآنیة فی الجزء الأخیر من القرآن بأنّها نزلت فی مکّة، و تؤکّد فی مواضیعها علی مسألة:

المبدأ، المعاد، البشارة و الإنذار، و تتّبع أسلوب الإثارة فی الحدیث، و تتعامل مع الأوتار الموقظة للضمیر الإنسانی، و تمتاز معظم

آیاتها بقصر العبارة المتضمنة لإشارات جمة، حیث تبث الحیاة فی الأجساد الخالیة من الروح، و تنقلها من عالم الغفلة و اللامبالاة إلی عالم الشعور بعظم المسؤولیة الملقاة علی العواتق، و إلی البناء الجاد الملتزم للشخصیة الإنسانیة الحقة.

و مع کل ذلک .. فلآیاتها عالما خاصّا ملیء بالتفاعلات و الحرکیة.

و سورة النبأ لا تشذّ عن الإطار العام لطبیعة السور المکیة، حیث تستهل السورة بسؤال یستوقف الإنسان، و تختتم بجملة زاخرة بالعبرة ...

و یمکننا تلخیص محتوی السورة بما یلی:

۱- السؤال عن «النبأ العظیم» و هو یوم القیامة کحدث بالغ الخطورة.

۲- الاستدلال علی إمکانیة المعاد و القیامة، من خلال الاستدلال بمظاهر القدرة الإلهیة فی: السماء، الأرض، الحیاة الإنسانیة و النعم الرّبانیة.

۳- بیان بعض علامات بدء البعث.

۴- تصویر جوانب من عذاب الطغاة الألیم.

۵- التشویق للجنّة، بوصف أجوائها الفیاضة بالنعم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۸

۶- و تختم السورة بالإنذار الشدید من عذاب قریب، بالإضافة لتصویر حال الذین کفروا.

و اشتق اسم السورة من الآیة (۲) .. و یطلق علیها أیضا اسم سورة (عمّ) نسبة إلی أوّل کلمة وردت فی السورة بعد البسملة.

فضل تلاوتها:

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- فی فضل تلاوتها- أنّه قال: «من قرأ سورة عمّ یتساءلون سقاه اللّه برد الشراب یوم القیامة»[۳۴۵].

و

فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها و حفظها کان حسابه یوم القیامة بمقدار صلاة واحدة»[۳۴۶].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ عمّ یتساءلون لم یخرج سنته إذا کان یدمنها فی کل یوم حتی یزور البیت الحرام»[۳۴۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۹

الآیات [سورة النبإ (۷۸): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
عَمَّ یَتَساءَلُونَ (۱) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِیمِ (۲) الَّذِی هُمْ فِیهِ مُخْتَلِفُونَ (۳) کَلَّا سَیَعْلَمُونَ (۴)
ثُمَّ کَلَّا سَیَعْلَمُونَ (۵)

التّفسير

خبر هام!

تأتى الآية الأولى لتستفهم بتعجب: عَمَّ يَتَساءَلُونَ ۳۴۸]! و دون انتظار للجواب، تجيب الآية الثّانية ما سئل عنه فى الآية الأولى: عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ

ذلك الخبر: الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ

أورد المفسّرون آراء متباينة فى المقصود من «النبأ العظيم»، فمنهم من اعتبره إشارة إلى يوم القيامة، و منهم من قال بأنّه إشارة إلى القرآن الكريم، و منهم من اعتبره إشارة إلى أصول الدين من التوحيد حتى المعاد.

و قد فسّرته الرّوايات بالولاية و الإمامة (و سنشير إلى ذلك فى البحوث الآتية).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۰

و بنظرة دقيقة إلى مجموع آيات السورة و سياق طرحها، و ما ذكرته الآيات اللاحقة من ملامح القدرة الإلهية بعرض بعض مصاديقها فى السماء و الأرض، و بعد هذا العرض تؤكّد إحدى الآيات، إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً ثمّ مخالفة و عدم تقبل المشركين لمبدأ «المعاد»، كل ذلك يدعم التّفسير الأوّل القائل: بأنّ النبأ العظيم هو يوم القيامة.

«النبأ»: كما يقول الراغب فى مفرداته: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، و لا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة[۳۴۹].

فوصف «النبأ» ب «العظيم» للتأكيد على أهميته، و للبت بأنّ ما يشك فيه البعض إنّما هو: أمر واقع، بالغ الأهمية، خطير .. و كما قلنا فهذا المعنى يناسب كونه يوم القيامة أكثر ممّا يناسب بقية التفاسير.

و ربّما كانت جملة «يتساءلون» إشارة إلى الكفّار دون غيرهم، لأنّهم كثيرا ما كانوا يتساءلون فيما بينهم بخصوص «المعاد»، و ما كان تساؤلهم لأجل الفحص و التحقيق وصولا للحقيقة، بل كان لغرض التشكيك لا أكثر.

و ثمّة احتمال آخر: كون تساؤلهم كان موجها إلى المؤمنين عموما، أو إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاصّة[۳۵۰].

و قد يتساءل أنّه إذا كان «النبأ العظيم» هو يوم القيامة، فلما ذا يقول القرآن الكريم: الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ و فى علمنا أنّ الكفار مجمعون على إنكاره؟؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۱

و الجواب: أنّ المشركين لا يقطعون فى إنكارهم للمعاد بشكل جازم، و الكثير منهم يعتقدون بصورة إجمالية ببقاء الروح بعد البدن، و هو ما يسمى ب (المعاد الروحانى).

أمّا بخصوص (المعاد الجسمانى)، فالمشركون ليسوا على وتيرة واحدة فى إنكاره، فهناك من يظهر الشكّ و التردد، كما تشير إلى ذلك الآية (۶۶) من سورة النحل .. و هناك من ينكر المعاد الجسمانى بشدّة حتى دفعهم جهلهم و عنادهم لأن ينعتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و العياذ باللّه) بالجنون لقوله بالمعاد الجسمانى، و قد عرفوه تارة أخرى بالكاذب على اللّه! كما أخبرت بذلك سورة سبأ فى الآيتين (۷ و ۸) ..

و عليه، فاختلاف المشركين فى «المعاد» أمر واقع و لا يمكن إنكاره.

و يضيف القرآن قائلا: كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۳۵۱]، فليس الأمر كما يقولون أو يظنون.

و يجدد التأكيد: ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ

فسیعلمون فی ذلک الیوم الواقع حتما: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ ۳۵۲]، یوم ینهال العذاب الإلهی علی الکافرین فیقولون بصرخات مستغیثة: هَلْ إِلی مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ ۳۵۳].

بل و إنّ طلب العودة إلی الحیاة لجبران خطیئاتهم سیطرح فی أولی لحظات الموت، حین تزال الحجب عن عین الإنسان فیری بأمّ عینیه حقیقة عالم الآخرة، فیستیقن حیاة البرزخ و المعاد، و لا یبقی عنده إلّا أن یقول: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ ۳۵۴].

«السین» فی «سیعلمون» حرف استقبال (یستعمل للمستقبل القریب)، و هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۲

فی الآیة المبارکة یشیر إلی قرب وقوع یوم القیامة، و ما نسبة أیّام الدنیا للآخرة إلّا ساعة من الزمن! أمّا تکرار جملة «کلّا سیعلمون»، فقیل: للتأکید. و قیل: لبیان وقوع أمرین ..

الأوّل: قرب وقوع العذاب الدنیوی. و الثّانی: الإشارة إلی قرب عذاب الآخرة أیضا. و قد رجح المفسّرون التفسیر الأوّل.

و ثمّة احتمال آخر، و هو أنّ نمو و تطور الفکر البشری سیوصل البشریة إلی التقدم العلمی الذی یثبت بالأدلة العلمیة و الشواهد الحیّة تحقق یوم القیامة، بالشکل الذی یبطل کل حیل الإنکار و عدم الإقرار.

و یشکل علی هذا الاحتمال .. کون ما سیحصل من تطور و تقدم إنّما یختص بالأجیال القادمة، فی حین أنّ الآیة تتحدث عن المشرکین فی عهد النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و تناولت مسألة اختلافهم فی أمر یوم القیامة.

***

بحوث

۱- «الولایة» و «النبأ العظیم»

تقدم أنّ هناک عدّة معان لل «النبأ العظیم»، مثل: القیامة، القرآن، أصول الدین .. إلّا أنّ القرائن الموجودة فی مجموع آیات السورة تدعم تفسیر «النبأ» ب «المعاد» و ترجحه علی الجمیع.

و لکنّنا نجد فی روایات أهل البیت علیهم السّلام و فی بعض روایات أهل السنّة أنّ «النبأ العظیم» بمعنی إمامة أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، حیث کانت مثار جدال و نقاش بین جمع من المسلمین، و هناک من فسّر «النبأ العظیم» بالولایة بشکل عام.

و إلیکم ثلاث روایات، علی سبیل المثال لا الحصر:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۳

۱- ما

روی الحافظ محمّد بن مؤمن الشیرازی (أحد علماء السنّة) عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال فی تفسیر عَمَّ یَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِیمِ «ولایة علی یتساءلون عنها فی قبورهم، فلا یبقی میت فی شرق و لا غرب و لا فی برّ و لا فی بحر إلّا و منکر و نکیر یسألانه عن ولایة أمیر المؤمنین بعد الموت، یقولان للمیت:

«من ربّک؟ و ما دینک؟ و من نبیّک؟ و من إمامک؟»[۳۵۵].

۲- و

روی أنّ رجلا خرج یوم صفین عن عسکر الشام و علیه سلاح و فوقه مصحف و هو یقرأ: عَمَّ یَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِیمِ فخرج له علی علیه السّلام، فقال له:

«أتعرف النبأ العظیم الذی هم فیه یختلفون»؟ قال: لا.

فقال له علیه السّلام: «أنا و اللّه النبأ العظیم الذی فیه اختلفتم و علی ولایته تنازعتم، و عن ولایتی رجعتم بعد ما قبلتم، و ببغیکم هلکتم بعد ما بسیفی نجوتم، و یوم الغدیر قد علمتم، و یوم القیامة تعلمون ما علمتم»[۳۵۶].

-۳

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال، «النبأ العظیم الولایة»[۳۵۷].

و للجمع بین مضمون ما تناولته الروایات و ما جاء فی تفسیر النبأ العظیم بالمعاد، لا بدّ من الانتباه إلی ما یلی:

۱- «النبأ العظیم» کمفهوم قرآنی- مثل سائر المفاهیم القرآنیة- له من السعة ما یشمل کل ما ذکر من معان، و إذا کانت قرائن السورة تدلّ علی أنّ المقصود منه «المعاد»، فهذا لا یمنع من أن تکون له مصادیق أخری.

۲- کما هو معلوم أنّ للقرآن بطونا مختلفة و ظواهرا متعددة، و أدلة و قرائن الاستخراج مختلفة أیضا، و بعبارة أخری: أنّ لمعانی آیات القرآن دلالات التزامیة لا یعرفها إلّا من غاص فی بحر علمها و معرفتها، و لا یکون ذلک إلّا

للخاصّة من الناس.

و لیست الآیة المذکورة منفردة فی أنّ لها ظاهر و باطن دون بقیة آیات القرآن، حیث أنّ الأحادیث و الرّوایات الشریفة فسّرت کثیر من الآیات بمعان مختلفة، بعضها ما ینسجم مع ظاهر الآیة، و البعض الآخر یشیر إلی المعنی الباطن لها.

و لا بدّ من التأکید علی حقیقة خطیرة، و هی: لا یجوز قطعا بأن نضع للقرآن معنی باطنا بحسب رأینا و فهمنا، بل لا بدّ من وجود قرائن و أدلة واضحة، أو بالاعتماد علی تفاسیر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و الأئمّة علیهم السّلام الصحیحة، لکی لا یکون وجود بطون للقرآن ذریعة بأید المنحرفین و المتطرفین و ذوی الأهواء لیفسّروا القرآن بحسب ما یشتهون و یرغبون.

۲- سرّ التأکید علی المعاد:

قلنا، إنّ من کبریات المسائل المهمّة التی یتمّ التأکید علیها فی السور المکیّة للجزء الأخیر من القرآن هی مسألة «المعاد» مع تصویر حیاة الإنسان فی عالم البرزخ لما لهذه المسألة من أهمیة و تأثیر علی الإنسان فی حیاته الدنیا، فمجرّد أن یحسب و یفکر الإنسان بأنّ ثمّة عالم ینتظره و فیه محاسبة دقیقة و بعدها إمّا ثواب أو عقاب، فمجرّد هذا الإحساس کفیل لأن یدفع الإنسان بالتفکیر فی مستقبله الأبدی، و أن یعمل علی ضوء تحسبه.

فهناک محکمة .. لا تخفی علیها خافیة، لا ظلم فیها و لا جور، لا تخطئ و لا تشتبه، و لا رشوة فیها و لا توصیة، و فوق هذا و ذلک فلا مجال للمتهم فیها لأن یکذب أو ینکر ... إذن فلا سبیل للنجاة من عقاب الآخرة إلّا بترک الذنوب و العمل وفق مقتضیات الشرع فی هذه الحیاة الفانیة.

إنّ الإیمان بوجود محکمة العدل الإلهی تدفع الإنسان لأن: یتحرک ضمیره،

تتیقظ نفسه من غفلتها الماکرة، تحیی فیه روحیة التقوی فیه و یتحسس عظم المسؤولیة الملقاة علی عاتقه، فیبدأ بتشخیص وظائفه و تکالیفه الشرعیة للقیام بها علی أحسن وجه.

و أساسا فإنّ شیوع الفساد فی أی محیط یرجع إلی أمرین: ضعف التوجیه و المراقبة، و فقدان القوة القضائیة الرادعة، فإذا خضعت أعمال الناس إلی توجیه مبرمج یقظ، بالإضافة إلی توفر القوانین القضائیة الصارمة لکل من یشذ عن جادة القانون، فإنّ الفساد و

الاعتداء و الطغيان و الحال هذه يكاد ينعدم فى ذلك المحيط.

الحياة الدنيوية التى تفعم ببرنامج موجه إلى طريق الحق، و قوة قضائية ساعية لرضوانه جلّ شأنه، و عاملة على خدمة البشرية، تدفع الإنسان لأن يدرك بوضوح مصاديق الهداية الإلهية، و يشعر لذة حياته الروحية.

فالإيمان بوجود من: لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ[۳۵۸]، و الإيمان بحتمية «المعاد» الذى تصدقه الآية: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۳۵۹]، فهكذا الإيمان كفيل بأن يخلق فى الإنسان حالة التقوى التى هى بمثابة مركز للإشعاع الرّبانى على جميع أبعاد حياته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۶

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۶ الى ۱۶]

اشارة

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (۶) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (۷) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (۸) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (۹) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (۱۰)

وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (۱۱) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (۱۲) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (۱۳) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (۱۴) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (۱۵)

وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (۱۶)

التّفسير

كل شىء بأمرك يا ربّ ...

تجيب الآيات المذكورة على أسئلة منكرى المعاد و المختلفين فى هذا «النبأ العظيم» لأنّها تستعرض جوانب معينة من نظام الكون و عالم الوجود الموزون، مع تبيانها لبعض النعم الإلهية الواسعة ذات التأثير الفعال فى حياة الإنسان، و ذلك من جهة دليل على قدرة البارى عزّ و جل المطلقة، و منها قدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته.

و من جهة أخرى إشارة إلى أنّ الكون و ما فيه من دقّة تنظيم، لا يمكن أن يخلق لمجرّد العبث و اللهو! بل لا بدّ من وجود حكمة بالغة لهذا الخلق. فى حين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۷

أنّه لو كان الموت يعنى نهاية كل شىء، فمعنى ذلك أنّ وجود العالم عبث و خال من أيّة حكمة!! و بهذا فقد استدل القرآن الكريم على حقيقة «المعاد» بطريقين:

۱- برهان القدرة.

۲- برهان الحكمة.

و قد عرضت الآيات الإحدى عشر، اثنتى عشر نعمة إلهية، بأسلوب ملؤه اللطف و المحبّة، مصحوبا بالاستدلال، لأنّ الاستدلال العقلى لو لم يقترن بالإحساس العاطفى و النشاط الروحى يكون قليل التأثير.

و تشرع الآيات بالإشارة إلى نعمة الأرض، فتقول: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً.

(المهاد): كما يقول الراغب فى المفردات: المكان الممهّد الموطأ، و هو فى الأصل مشتق من «المهد»، أى المكان المهيأ للصبى.

و فسّره بعض أهل اللغة و المفسّرين بالفراش، لنعومته و استوائه و كونه محلا للراحة.

و اختيار هذا الوصف للأرض ينم عن مغزى عميق ..

فمن جهة: نجد فى قسم واسع من الأرض الإستواء و السهولة، فتكون مهيئة لبناء المساكن و الزراعة.

و من جهة ثانية: أودع فيها كل ما يحتاجه الإنسان لحياته من المواد الأولية إلى المعادن الثمينة، سواء كان ذلك على سطحها أم فى باطنها.

و من جهة ثالثة: تحلل الأجساد الميتة التى تودع فيها، و تبيد كل الجراثيم الناشئة عن هذه العملية بما أودع فيها البارى من قدرة على ذلك.

و من جهة رابعة: ما لحركتها السريعة المنظمة و لدورانها حول الشمس و حول نفسها من أثر على حياة البشرية خاصّة، بما ينجم عنها الليل و النهار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۸

و الفصول الأربعة.

و من جهة خامسة: خزنها لقسم كبير من مياه الأمطار الغزيرة، و إخراج ذلك على شكل عيون، آبار، أنهار.

و الخلاصة: إنّ جميع وسائل الاستقرار و العيش لبنى آدم متوفرة فى هذا المهد الكبير، و قد لا يلتفت الإنسان إلى عظم هذه النعمة الرّبانية، إلّا إذا ما أصاب الأرض زلزالا ..، و عندها سيدرك معنى استقرار الأرض، و معنى كونها مهادا.

و بما أنّ نعمة استواء الأرض و سهولتها قد تهمش نعمة الجبال، فقد جاءت الآية التالية لتبيّن أهمية الجبال و دورها المهم فى حياة الإنسان: وَ الْجِبالَ أَوْتاداً.

تشكل الجبال آية ربانية زاخرة بالعطاء، و تؤدى وظائف كثيرة، منها أنّها تحفظ القشرة الأرضية من الانهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، و ذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض .. و تحافظ عليها من تأثيرات جاذبية القمر فى عملية المد و الجزر .. و تشكل جدران الجبال سدا منيعا للتقليل من آثار الرياح الشديدة و العواصف المدمرة .. و تهيأ للإنسان الملاجئ الهادئة فى مغاراتها و بين تعرجاتها لتأمنه من ضربات العواصف المهلكة .. و تقوم بخزن المياه و ادخار أنواع المعادن الثمينة فى باطنها ..

بالإضافة لكل ما ذكر، فتوزيع الجبال على الأرض بالشكل الموجود و تعاملا مع حركة الأرض يعمل على تنظيم حركة الهواء المحيط بالكرة الأرضية بالشكل الذى يؤثر ايجابيا على الحياة فوق الأرض. و فى هذا المجال، يقول العلماء: لو كان سطح الكرة الأرضية مستويا كله، لتولدت عواصف شديدة لا- يمكن السيطرة عليها جراء حركة الأرض و سكون الغلاف الجوى، و لفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان، لأنّ استمرار الاحتكاك

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۹

الحاصل من حركة الأرض الدائمة و سكون الغلاف الجوى سيؤدى بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية ممّا يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان.

و بعد أن بيّن القرآن هذين النموذجين من النعم الإلهية و الآيات الآفاقية، عرج إلى ذكر ما أنعم البارى على الإنسان من النعم و الآيات الانفسية فقال:

وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً[۳۶۰].

«الأزواج»: جمع زوج، المتشكل من الذكر و الأنثى، و يخرج الإنسان إلى حياة الوجود من هذين الجنسين، و يستمر وجوده فى الحياة من خلال عملية التناسل التى تساهم فى استقرار الإنسان من الناحيتين الجسمية و النفسية، كما تشير إلى هذا الآية (۲۱) من سورة الروم: وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً.

و بعبارة أخرى: إنّ كلا من الذكر و الأنثى مكمل لوجود الآخر، و عاملا على إشباع احتياجات الطرف الآخر من الناحيتين الجسمية و النفسية.

و فسّر البعض كلمة «أزواج» بالأصناف المختلفة للناس، لأنّ من معانى (أزواج): الأصناف و الأنواع، فاعتبروها إشارة إلى ذلك التباين الموجود بين البشر من حيث: اللون، الجنس، الاستعدادات و القابليات، للدلالة على عظمة البارى جلّ شأنه و العامل على تكامل المجتمع الإنسانى.

و يشير بعد ذلك إلى نعمة النوم، فيقول: وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً.

«السبات»: من السبت، بمعنى القطع، ثمّ استعملت بمعنى (تعطيل العمل) لأجل الاستراحة، و سمى «يوم السبت» بذلك لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم فى اليوم المذكور.

و يحمل وصف «النوم» بالسبات إشارة لطيفة إلى تعطيل قسم من الفعاليات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۰

الجسمية و الروحية للإنسان عند النوم.

و يعطى التعطيل فرصة: لاستراحة أعضاء البدن .. لتجديد القوى .. لتقوية الروح و الجسد، لتجديد النشاط و رفع أىّ نوع من التعب و الآلام، و الاستعداد لتقبل المرحلية القادمة (بعد النوم) بفاعلية و نشاط متجدد.

و بالرغم من أنّ النوم يشكّل ثلث حياة الإنسان، و لكنّ الإنسان لا زال يجهل الكثير من خفاياه، بل و لا زال الإنسان (منذ القديم و حتى الآن) لا يعرف سبب تعطيل بعض فعاليات الدماغ فى مدّة معينة و تغمض العين أجفانها و تسكن جميع أعضاء البدن! و بات من المعروف ما للنوم من دور مهم فى حياة الإنسان، حتى حرص أطباء علم النفس دوما على تنظيم نوم مرضاهم بصورته الطبيعية حفاظا على حالة التوازن النفسى للمرضى.

فالذين لا- يتمتعون بنوم طبيعى تراهم مصابون بحدّة المزاج، القلق، الاضطراب، الكآبة، و بالمقابل، نرى الذين يتمتعون بنوم طبيعى ينهضون كل صباح بنشاط و حيوية و بقدرة جديدة.

و من بين ما يقدمه النوم من تأثير مهم على الإنسان: سرعة تقبل ذهن الإنسان للدراسة و المطالعة بعد فترة نوم طبيعية و هادئة و سرعة إنجاز الأعمال الفكرية و البدنية و لعلّ من أسهل أساليب تعذيب الإنسان هو حرمانه من النوم، خصوصا و أنّ التجارب العلمية أثبتت بأنّ قابلية الإنسان على تحمل الأرق ضعيفة جدّا، و إذا حاول أىّ إنسان أن يجرب ذلك، فلا تمضى عليه فترة وجيزة إلّا و يصاب فى سلامته و يمرض.

و كلّ ما ذكر من فوائد النوم فإنّه يختص بالنوم الطبيعى الموزون، و أمّا إذا زاد عن حدّه الطبيعى فلا يجنى صاحبه سوى الآثار السلبية لهذا الإفراط، كحال الإفراط فى الطعام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۱

و من الغريب أنّ نسبة فترة النوم تختلف من إنسان لآخر، و لا يمكن تعيين فترة محددة لكل الناس، و عليه .. فكل إنسان يعرف الفترة التى تناسبه طبيعيا بما يناسب فعالياته الجسمية و الروحية، و تجربة الإنسان هى التى تعين نسبة النوم الضرورى له.

و الأغرب من ذلك، إنّه قد يضطر الإنسان فى الحوادث و الشدائد إلى السهر و اليقظة مدّة طويلة، و لذلك تزداد مقاومته للنوم بشكل ملحوظ و لكنّه مؤقت، و قد يستكفى فى تلك الأحيان بساعة أو ساعتين من النوم لليوم الواحد، و لكن ..

سرعان ما ينتهى ذلك التمكن بمجرّد الرجوع إلى الحالة الطبيعية، بل و قد يحتاج لساعات نوم أطول من السابق للتعويض عمّا فاته من نوم! و من النادر أن نرى إنسانا يعيش حالة اليقظة لعدة أشهر، و فى قبال ذلك نرى بعض الناس ينامون أثناء المشى، بل و هناك من ينام و أنت تشاطره أطراف الحديث، و مثل هكذا أشخاص يعيشون حالة غير طبيعية و غالبا ما تكون الحوادث المؤسفة فى انتظارهم،

فالضرورة تقتضى ألّا يتركوا بدون مراقب أو مرافق.

و الخلاصة: إنّ هذا الحادث العجيب و الظاهرة الغامضة التى تدعى ب «النوم» مصحوبة بعجائب كثيرة و كأنّها معجزة من المعاجز[۳۶۱].

و مع أنّ ذكر النوم فى الآية قد جاء باعتباره إحدى النعم الإلهية، إلّا أنّ الآية المباركة قد تشير بذلك إلى الموت، لما للنوم من شبه بالموت، و الاستيقاظ بالبعث.

و بعد الانتهاء من ذكر نعمة النوم، ينتقل القرآن الكريم لذكر نعمة الليل، فيقول: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۲

و تضيف الآية التالية مباشرة: وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً[۳۶۲].

الآيتان تفندان جهل الثنويون بأسرار الخلق، حيث يقولون: إنّ النور و النهار نعمة، و الظلام و الليل شر و عذاب، و يجعلون لكلّ منهما خالق (إله الخير و إله الشر) .. و بقليل من التأمل نجد أنّ كلًا منهما يمثل نعمة إلهية معطاءة، حيث تنبع منها نعم أخرى.

و شبهت الآية الليل باللباس و الغطاء الذى يلقى على الأرض ليشمل كل من على الأرض، و ليجبر فعاليات الموجودات الحيّة المتعبة على الأرض بالتعطل عن الحركة و ممارسة النشاطات، و يخيم الظلام و السكون ليضفى على الأرض الهدوء ليستريح الناس من رحلة العمل و المعاناة خلال النهار، و ليتمكنوا من مواصلة نشاطهم لليوم التالى لأنّ النوم المريح لا يتيسر للإنسان إلّا فى أجواء مظلمة.

و بالإضافة لكل ما ذكر، فحلول الليل يعنى زوال نور الشمس و إلّا لانعدمت الحياة و احترقت جميع النباتات و الحيوانات فى حال استمرار شروق الشمس.

و لذا نجد القرآن الكريم يؤكّد على هذه الحقيقة، فتارة يقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۳۶۳]. و تأتى الآية التالية لتقول: وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۳۶۴] و يلاحظ فى القرآن الكريم أنّه قد أقسم بأمور كثيرة، و لكن قسمه لا يتعدى المرة الواحدة لكل ما قسم به، ما عدا الليل فقد جاء القسم به سبع مرات! و لمّا كان القسم بشىء دليل على أهميته، فهذا يعنى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۳

فقد جاء القسم به سبع مرات! و لمّا كان القسم بشىء دليل على أهميته، فهذا يعنى أنّ للّيل أهميّة بالغة.

الأشخاص الذين يضيئون الليل بأنوار صناعية و يسهرون ليلهم و يقضون نهارهم بالنوم، هم أناس غير طبيعيين، و ترى علامات الكسل و الخمول بادية عليهم. فى حين نرى القرويين أكثر صحة من أهل المدن و أسلم بدنا و حواسا، لأنّهم ينامون بعد حلول الليل بقليل و يستيقظون مبكرا.

و من منافع الليل الجانبية أنّ فيه (وقت السحر) الذى هو أفضل أوقات الدعاء و الصلاة و مناجاة البارى جلّ شأنه لتربية و تزكية النفوس، كما تصف الآية (۱۸) من سورة الذاريات عبّاد الليل: وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۳۶۵].

و النهار بنوره الفياض نعمة ربانية عظيمة، حيث يدفع الإنسان ليتحرك و يسعى لبناء حياته و مجتمعه، و بالنور تنمو النباتات، و تمارس الحيوانات شؤون حياتها و حقّا قال البارى: وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً، بما لا يدع مجالا للتفصيل و الشرح.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۳۳۳

خاتمة المقال: إنّ تعاقب الليل و النهار و ما فيهما من نظام دقيق آية بيّنة من آيات خلقه سبحانه و تعالى، إضافة إلى أنّه تقويم طبيعى لتفصيل الزمن فى حياة الإنسانية على مرّ التاريخ.

و تأتى الآية التالية لتنقلنا من عالم الأرض إلى عالم السماء حين تقول:

وَ بَنَیْنا فَوْقَکُمْ سَبْعاً شِداداً.

قد یراد من العدد المذکور بالآیة «الکثرة»، للإشارة إلی کثرة الأجرام السماویة و المنظومات الشمسیة و المجرات و العوالم الواسعة لهذا الوجود، و التی تتمتع بخلق محکم و بناء رصین لا خلل فیه .. و یمکن أن یراد منه العدد، للإشارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۴

إلی أنّ الکواکب و ما یبدو لنا منها إنّما تعود إلی السماء الأولی، کما أشارت الآیة (۶) من سورة الصافات إلی ذلک: إِنَّا زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِزِینَةٍ الْکَواکِبِ و ثمّة سماوات ستة و عوالم أخری وراء السماء الأولی «الدنیا» خارجة عن حدود معرفتنا.

و ثمّة احتمال آخر، و هو أنّ المراد منها طبقات الهواء المحیطة بالأرض فإنّها مع رقتها تتمتع باستحکام و قوة عجیبة بحیث تحمی الأرض من آثار الشهب الملتهبة و المتساقطة علیها باستمرار، فبمجرّد دخول الشهب فی الغلاف الجوی الرقیق نتیجة لجاذبیة الأرض لها، تحترق تلک الشهب لاحتکاکها السریع بالغلاف الجوی حتی تتلاشی، و لولا تلک الطبقات الجویة المحیطة بالکرة الأرضیة لکانت المدن و القری عرضة للإصابة بتلک الصخور و الأحجار السماویة المتساقطة علیها علی الدوام.

و قد توصل بعض العلماء إلی أنّ سمک الغلاف الجوی یقرب من مائة کیلومتر، و له من الأثر ما یعادل سقف فولاذی بسمک عشرة أمتار! و بذلک نحصل علی تفسیر آخر لما جاء فی الآیة .. ... سَبْعاً شِداداً[۳۶۶].

و بعد أن أشار القرآن إجمالا إلی السماوات، یشیر إلی نعمة الشمس، فیقول:

وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً[۳۶۷].

«الوهّاج»: من الوهج، بمعنی النور و الحرارة التی تصدر من النار[۳۶۸].

و إطلاق هذه الصفة علی الشمس، للإشارة إلی نعمتین کبیرتین و هما: (النور) و (الحرارة) و یتفرع عنهما نعم و عطایا کثیرة یزخر بها عالمنا.

و لا تتحدد فوائد نور الشمس بإضاءة الدنیا للإنسان، بل لها أثر کبیر فی نمو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۵

سائر الکائنات الحیّة.

و إضافة لکل ما تقدم، فلحرارة الشمس أثر أساس فی: تکوّن الغیوم، حرکة الهواء، نزول الأمطار، و سقی الأراضی الیابسة.

و لأشعة الشمس کذلک الأثر البالغ فی مکافحة الجراثیم، لاحتوائها علی الأشعة ما وراء الحمراء التی تقتل الجراثیم، و لولاها لتحولت الأرض إلی مستشفی عظیمة، و لانتهت الحیاة البشریة علی ظهرها خلال مدّة محدودة جدّا.

و أشعة الشمس فی واقعها: نور صحی مجانی دائمی، یصلنا بکیفیة لا هی بالشدیدة المحرقة، و لا هی بالقلیلة العدیمة التأثیر.

و نسبة ما یصلنا من الطاقة الشمسیة قیاسا مع بقیة المصادر کثیر جدّا، و علی سبیل الفرض: فلو أردنا إنماء شجرة تفاح بواسطة نور صناعی، فستکلفنا التفاحة الواحدة مبلغا رهیبا. نعم .. فنعمة هذا السراج الوهّاج لا یمکننا تعویضها بمال کل الأغنیاء[۳۶۹].

و قد قدّر حجم الشمس بما یقارب الملیون و ثلاثمائة ألف مرّة نسبة إلی حجم الکرة الأرضیة، و الفاصلة بین الشمس و الأرض تقدر بحدود مائة و خمسین ملیون کیلومتر .. و أنّ حرارة الشمس الخارجیة تصل إلی ستة آلاف درجة مئویة .. و تصل حرارتها الداخلیة ما یقارب ملیون درجة مئویة! و هذا النظام الموزون بحکمة بالغة، لمن الدقة بحال أنّه لو اختل قلیلا (زیادة أو نقصان) لما أمکن للبشر أن یعیشوا علی سطح الکرة الأرضیة، و لا یسعنا المجال لنتطرق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۶

لمزید من التفصیل و البیان حول هذا الموضوع.

و بعد ذکر نعمة النور و الحرارة یتناول القرآن نعمة حیاتیة أخری لها ارتباط بأشعة الشمس، و یقول: وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً.

«المعصرات»: جمع «معصر»، من العصر بمعنى الضغط .. و الكلمة تشير إلى أنّ الغيوم تقوم بعملية و كأنّها تعصر نفسها عصرا لكى ينهمر منها الماء على شكل أمطار[۳۷۰] (ينبغى ملاحظة أنّ «المعصرات» جاءت بصيغة اسم فاعل).

و فسّرها بعضهم بالغيوم المستعدة لإنزال الأمطار، باعتبار أنّ اسم الفاعل يأتى فى بعض الأحيان بمعنى الاستعداد للقيام بعمل ما.

و قال بعض آخر: إنّ «المعصرات» ليست صفة للغيوم، و إنّما للرياح التى تقوم بضغط و عصر الغيوم.

«الثجاج»: من الثج، بمعنى سيلان الماء بكمية كبيرة، و «ثجاج» صيغة مبالغة، و يراد بها هنا غزارة الأمطار المنهمرة نتيجة العصر الحاصل للغيوم.

و بالإضافة لكون المطر منبعا لكثير من مصادر الخير و البركة، فهو: ملطف للجو، مزيل للتلوثات الموجودة فى الجو، مخفض للحرارة و معدل للبرودة، مقلل لأسباب الأمراض، يمنح الإنسان روحا متجددة و نشاطا، و مع كل ذلك ..

فقد ذكر القرآن ثلاث فوائد أخرى له: لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً.

وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً.

يقول الراغب فى مفرداته: «ألفافا»: أى التفّ بعضها ببعض لكثرة الشجر[۳۷۱].

و الآيتان تشيران إلى ما يستفيد منه الإنسان و الحيوان من المواد الغذائية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۷

تخرج من الأرض، فالحبوب الغذائية تشكل قسما مهمّا من المواد الغذائية «حبّا»، و الخضر تشكل القسم الآخر «و نباتا»، و تأتى الفاكهة لتشكل القسم الثالث «و جنّات».

و لا تنحصر فوائد المطر بهذه الفوائد الثلاث المذكورة فى هاتين الآيتين، فللماء دور أساسى و حيوى فى عملية حياة الكائنات الحيّة، و على الأخص الإنسان، حيث أنّ الماء يشكل ما يقارب السبعين فى المائة من بدنه، بل و يتعدى ذلك ليشمل كل كائن حىّ، كما يشير القرآن الكريم لهذه الحقيقة: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ ۳۷۲].

و تتجاوز فوائد الماء حدود الكائن الحىّ لتشمل: المصانع، جمال الطبيعة، و أفضل الطرق التجارية و الاقتصادية هى الطرق المائية.

***

ملاحظة:

علاقة الآيات ب «المعاد»:

أشارت الآيات المبحوثة إلى أهم العطايا الرّبانية و النعم الإلهية و التى لها الدور المهم و الأساس فى الحياة البشرية: النور، الظلمة، الحرارة، الماء، التراب و النباتات.

و ذكر نظام الكون على ما فيه من دقة موزونة و محسوبة لدليل على قدرة اللّه عزّ و جلّ المطلقة من جهة، و به يسد كل ثغرات التساؤل عن قدرة اللّه على إحياء الموتى، و كما أجابت آخر سورة «يس» منكرى المعاد بالقول: أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۳۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۸

و من جهة أخرى أنّه لا بدّ أن يكون لهذا الخلق العظيم من هدف، و لا يعقل أن يكون الهدف منه هو هذه الأيّام المعدودة لحياتنا الدنيا، إذ ليس من الحكمة أن يكون كل هذا الخلق و بما يحمل من أنظمة و عمليات من أجل الأكل و الشرب و النوم و أمثال ذلك!

بـل لاـ بـدّ من وجوب هـدف أسـمی یتناسب و حکمـة الباری جلّ شأنه، و بعبارة أخری .. ما النشأة الأولی إلّا تـذکیرا للنشأة الآخرة: و مرحلة متقدمة، و محطة تزود بالوقود وصولا لغایة السفر المحتوم، و کما ینبهنا القرآن الکریم: أ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناکُمْ عَبَثاً وَ أَنَّکُمْ إِلَیْنا لا تُرْجَعُونَ ![۳۷۴].

و بعـد ذلک .. فما النوم و الیقظـة إلّا مثلا للموت و الحیاة الجدیـدة، و ما إحیاء الأرض المیتة بنزول المطر- الشاخصة أمام أعین الناس علی طول السـنة- إلّا توضـیحا لحالـة المعاد، و إشارات ملیئـة بالمعانی ترمز إلی مسألـة القیامة و الحیاة بعد الموت، کما جاء فی سورة فاطر: وَ اللَّهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیاحَ فَتُثِیرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلی بَلَدٍ مَیِّتٍ فَأَحْیَیْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها کَذلِکَ النُّشُورُ[۳۷۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۹

الآیات [سورة النبإ (۷۸): الآیات ۱۷ الی ۲۰]

اشارة

إِنَّ یَوْمَ الْفَصْـلِ کانَ مِیقاتاً (۱۷) یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (۱۸) وَ فُتِحَتِ السَّمـاءُ فَکانَتْ أَبْواباً (۱۹) وَ سُیِّرَتِ الْجِبالُ فَکانَتْ سَراباً (۲۰)

التّفسیر

سیأتی الیوم الموعود:

الآیة الاولی من الآیات أعلاه بمثابة نتیجة لما تعرضت له الآیات السابقة ...

إِنَّ یَوْمَ الْفَصْلِ کانَ مِیقاتاً[۳۷۶] و التعبیر ب «یوم الفصل» یحمل بین ثنایاه إشارات کثیرة، فسیحدث فی ذلک الیوم:

فصل الحقّ عن الباطل.

فصل المؤمنین الصالحین عن المجرمین.

فصل الوالدین عن أولادهم، و الأخ عن أخیه ...

و «المیقـات»: من الوقت، المیعـاد من الوعـد، بمعنی الوقت المعین و المقرر، و إنّمـا سـمّیت الأمـاکن التی یحرم منهـا حجـاج بیت اللّه الحرام ب «المواقیت» لأنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۰

الاجتماع فیها یکون فی وقت معین.

و یتناول القرآن الکریم بعض خصائص ذلک الیوم العظیم، فیقول: یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً.

و یستفاد من آیات القرآن أنّ ثمّة نفختان عظیمتان ستحدثان باسم (نفخ الصور) .. ففی النفخة الاولی سینهار کلّ عالم الوجود، و یخرّ میتا کلّ من فی السـموات و الأرض، و فی النفخـة الثّانیـة یتجـدّد عالم الوجود و تعود الحیاة إلی الأموات مرّة اخری، لیقول بعدها یوم القیامة.

«الصور»: بوق یسـتعمل لإعطاء إشارة التوقف أو الحرکة للقوافل أو الکتائب العسکریة و ما شابهها من الاستعمالات، و تختلف الإشارة بین المجامیع التی تستعمل البوق، کلّ حسب ما تعارف علیه.

و استعمل القرآن «الصور» ککنایة لطیفة للتعبیر عن المحدثین العظیمین المذکورین أعلاه، و أمّا ما ورد فی الآیة فیختص بنفخة الصور

الثّانية، أى: نفخة القيام و إعادة الحياة[۳۷۷].

و مع أنّ الآية أعلاه تقول: فَتَأْتُونَ أَفْواجاً، و لكنّ الآية (۹۵) من سورة مريم تقول: وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً، و الآية (۷۱) من سورة الإسراء تقول: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فكيف يمكن تخريج ذلك؟

يمكن جمع الآيات الثلاثة بلحاظ أنّ حشر الناس أفواجا لا بعرض أنّ يتقدمهم إمام، و أمّا الحشر فرادى فبلحاظ ما ليوم القيامة من مواقف متعددة، حيث يمكن أن يكون ورود الناس فى المواقف الاولى على شكل أفواج مع أئمّتهم (سواء كانوا أئمّة هدى أم أئمّة ضلال)، و حينما يستقر بهم المآل سيقفون فى ساحة العدل الإلهى على شكل فرادى، كما تنقل لنا الآية (۲۱) من سورة (ق)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۱

عن ذلك المشهد العظيم: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

و ثمّة احتمال آخر فى معنى «فردا»: هو انفصال الإنسان فى ذلك اليوم عن أحبائه و متعلقيه، و لا يكون معه يومئذ إلّا ما كسبت يداه.

و تأتى الآية الاخرى لتقول: وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً.

فما الأبواب؟ و كيف تفتح؟

يقول البعض: إنّ المقصود بهذه الأبواب هى أبواب عالم الغيب تفتح على عالم الشهود، و تزول الحجب و يتصل عالم الملائكة بعالم الإنسان ۳۷۸].

و يرى البعض الآخر أنّها تشير إلى ما ورد فى آيات قرآنية اخرى، من قبيل:

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ ۳۷۹]، و إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ ۳۸۰].

فما سيحصل من أثر ذلك الإنشقاق و الإنفطار و كأنّ النجوم و الكرات السماوية أبواب تفتحت على مصراعيها.

و ثمّة من يذهب إلى أنها إشارة إلى عدم استطاعة الإنسان فى هذه الدنيا من اختراق السماوات و السير فيها، و إن استطاع فبشكل محدود جدّا و بصعوبة بالغة، و كأن أبواب السماء موصدة أمامه، و لكنّ حال يوم القيامة سيتغير تماما، حيث ترى الإنسان يغوص فى أعماق السماء بعد تحرره من ممسكات الأرض، و كان أبواب السماء قد تفتحت له.

و بعبارة أخرى: إنّ السماوات و الأرض ستتلاشى فى ذلك اليوم ثمّ تتبدلان إلى سماء و أرض أخريين كما تشير الآية (۴۸) من سورة إبراهيم لذلك: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ و عندها. ستفتح أبواب السماء أمام أهل الأرض، و يفتح الطريق للإنسان ليسلك الصالحون سبيل الجنّة فتفتح أبوابها لهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۲

حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ ۳۸۱].

و حين يدخلون الجنّة يراد عليهم الملائكة للتهنئة: وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ۳۸۲].

و تتفتح أبواب جهنم للكافرين كذلك: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها[۳۸۳].

و بذلك يرد الإنسان حينها إلى عرصة واسعة كوسع السماوات و الأرض:

وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ ۳۸۴].

و تأتى الآية الأخيرة لتخبرنا عن حال الجبال فى ذلك اليوم الحق: وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً.

بملاحظة ما جاء فى القرآن الكريم بخصوص مصير الجبال ليوم القيامة تظهر لنا أنّ الجبال ستطويها مراحل متعاقبة، تبدأ حركتها من: وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً[۳۸۵].

ثمّ تحمل و تدك: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً[۳۸۶].

فتكون تلالا من الرمال المتراكمة: وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا[۳۸۷].

فتصبح كأصواف منفوشة: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ[۳۸۸].

فتتحول غبارا متناثرا فی الفضاء:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۳

وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا[۳۸۹].

و لا يبقى منها أخيرا إلّا الأثر، كما أشارت لذلك الآية المبحوثة، و كأنّها يلوح فی الأفق، و يصبح سطح الأرض مستويا بعد أن تمحى الجبال من فوقها:

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّی نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً[۳۹۰].

«السراب»: من (السرب) .. هو الذهاب فی طريق منحدر، فعند ما يسير الإنسان بين المنحدرات فی الصحراء، يتراءى له من بعيد تلألؤا يظنّه ماء، و ما هو إلّا انكسار فی الأشعة يسمى (السراب)، ثمّ أطلقت كلمة السراب على كلّ ظاهر خال من المحتوى.

و بهذا تكون الآية قد أشارت إلى بداية حركة الجبال و نهاية أمرها، فيما تعرضت بقية الآيات (التی ذكرناها) إلى المراحل المختلفة بين البداية و النهاية.

فإذا كانت عاقبة الجبال على ما لها من شموخ و صلابة ستنتهی إلى غبار متناثر فی الفضاء و على صورة سراب، فما حال ذلك الإنسان الذی يتصور أنّه جبار شديد البطش عريك القوى، و لكنّه لا يستطيع أن يتحدى الجبل صلابة! ...

إنّه يوم القيامة ...

و لكن .. هل أن هذه الحوادث تتعلق بالنفخة الاولى للصور التی تحكی عن نهاية العالم، أم هی متعلقة بالنفخة الثّانية و التی تقوم القيامة بها؟! بلا- شك أنّ الآية: يَوْمَ يُنْفَخُ فِی الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً تشير إلى نفخة الصور الثّانية، لأنّها تحكی عن إحياء الأموات و محبتهم فی عرصة المحشر أفواجا، و كذا الحال بالنسبة للحوادث المذكورة فإنّها متعلقة بنفخة الصور الثّانية، إلّا أنّه من الممكن حمل بداية حركة الجبال على النفخة الاولى، و نهاية (السراب) ستكون بعد النفخة الثّانية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۴

و يحتمل أيضا: إنّ كلّ ما تمرّ به الجبال من مراحل تتعلق بالنفخة الاولى للصور، و قد ذكرتا معا لقرب الفاصلة الزمنية ما بين النفختين، و جريا مع سياق بعض الآيات القرآنية التی تناولت حوادث النفختين معا، كما جاء ذلك فی سورتی التكوير و الإنفطار.

و من جميل التصوير القرآنی وصفه للجبال ب «الأوتاد» و الأرض ب «المهاد»، و تأتی الآيات لتخبر عن فناء الأرض التی هی مهد الإنسان بعد ما تقتلع الجبال حينما ينفخ فی الصور، و يتناسب هذا التصوير تماما مع معارفنا، حيث أننا لو أخرجنا أوتاد أی شیء فمعنى ذلك حكمنا على ذلك الشیء بالانهيار.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۵

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۲۱ الى ۳۰]

اشارة

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (۲۱) لِلطَّاغِينَ مَآباً (۲۲) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (۲۳) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً (۲۴) إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً (۲۵) جَزاءً وِفاقاً (۲۶) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (۲۷) وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (۲۸) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (۲۹) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً (۳۰)

التّفسير

جهنّم .. المرصاد الرهيب:

بعـد أن بيّن القرآن الكريم فى الآيات السابقـة بعض أدلـة المعاد و تناول قسـما من حوادث يوم القيامة، يذكر فى هذه الآيات ما يؤول إليه حال المجرمين، فيقول:

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً.

و هى: لِلطَّاغِينَ مَآباً[۳۹۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۶

و أنّهم: لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً.

«المرصاد»: اسم مكان يختفى فيه للمراقبة، و يقول الراغب فى مفرداته:

«المرصد» موضع الرصد، و المرصاد نحوه، لكن يقال للمكان الذى أختص بالترصد.

و قيل: إنّه صيغة مبالغة، و يطلق على الذى يكمن كثرا للرصد، مثل «المعمار» الذى يكثر من البناء و العمران.

و المعنى الأوّل أشهر و أنسب، و لكن .. من سيقوم بعملية الرصد فى جهنّم؟

قيل: هم و ملائكة العذاب بدلالة الآية (۷۱) من سورة مريم التى تحكى عن مرور جميع الناس صالحهم و طالحهم من جانب جهنّم أو من فوقها: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّکَ حَتْماً مَقْضِيًّا و خلال ذلك المشـهد تقوم ملائكـة العذاب برصد أهل النّار و التقاتهم من بين الخلق! و أمّا لو قلنا فى تفسـير الآية بأنّها (صـيغة المبالغة) فسـيكون جهنّم هى المرصاد للطاغين، و تقوم بعملية جذب أهل النّار إليهـا حـال مرور الخلق و اقترابهم منهـا. و على أيـة حال، فلا يسـتطيع أىّ من الطاغين من تخطى ذلك المعبر المحتوم، فإمّا أن تخطفه ملائكة العذاب أو تجذبه جهنّم.

«المآب»: هو محل الرجوع، و يأتى أحيانا بمعنى المنزل و المقر، و هو المقصود فى هذه الآية.

و «الأحقـاب»: جمع (حقب) على وزن (قفـل)، بمعنى برهـة زمانيـة غير معينـة، و قـد قـدرها بعض بثمـانين عاما، و قيل سـبعين، و قيل: أربعين عاما.

و على أىّ من التقادير، فثمّـة مـدّة معينة للبقاء فى جهنّم، و هو ما يتعارض مع ما جاء فى آيات أخر و التى تصـرح بخلود أهل النّار فى جهنّم، و لذلك سعى المفسّرون لإيجاد ما يوضح هذا الموضوع.

المعروف بين المفسّرين: إنّ المقصود ب «الأحقاب» فى الآية هو تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۷

الفترات الزمانية الطويلة التى تتعاقب فيما بينها، المتسلسلة بلا نهاية، فكلما تنتهى فترة تحل محلها اخرى، و هكذا.

و قـد جاء فى إحـدى الرّوايات ... إنّ الآيـة جاءت فى المذنبين من أهل الجنّة، الذين يقضون فترة فى جهنّم يتطهّرون فيها ثمّ يدخلون الجنّة، و ليست واردة فى الكافرين المخلدين فى النّار[۳۹۲].

و تشير الآيات- بعد ذلك- إلى جانب صغير من عذاب جهنّم الأليم، بالقول:

لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً.

إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً، إلّا ظلّ من الدخان الغليظ الخانق كما أشارت إلى ذلك الآية (۴۳) من سورة الواقعة: وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم

«الحميم»: هو الماء الحار جدّا، و «الغسّاق»: هو ما يقطر من جلود أهل النّار من الصديد و القيح، و فسّرها بعضهم بالسوائل ذات الروائح

الکریهة.

فی حین أنّ أهل الجنّة یسقیهم ربّهم جلّ شأنه بالأشربة الطاهرة، کما جاء فی الآیة (۲۱) من سورة الدهر: وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً، حتی الأوانی التی یشربون بها و علی ما لها من الرونق فهی مختومة بالمسک، کما أشارت لذلک الآیة (۲۶) من سورة المطففین: خِتامُهُ مِسْکٌ .. فانظر لعقبی الدارین! و لکن، لم هذا العذاب الألیم؟ فتأتی الآیة التالیة: إنّما هو: جَزاءً وِفاقاً[۳۹۳].

و لم لا- یکون کذلک .. و قد أحرقوا فی دنیاهم قلوب المظلومین، و تجاوزوا بتسلطهم و ظلمهم و شرّهم علی رقاب الناس دون أن یعرفوا للرحمة معنی، فجزاهم یناسب ما اقترفوا من ذنوب عظام.

و کما قلنا مرارا، إنّ الآیات القرآنیة حینما تشیر إلی عقوبات یوم القیامة، إنّما تطرحها کجزاء لما اقترفت أیدی الناس بظلمهم، کما نقرأ فی الآیة (۷) من سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۸

التحریم: یا أَیُّهَا الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْیَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (حین تجسمت أعمالکم و حضرت أمامکم).

و یذکر القرآن سبب الجزاء فیقول: إِنَّهُمْ کانُوا لا یَرْجُونَ حِساباً.

و بعبارة اخری: إنّ عدم الإیمان بالحساب سبب للطغیان، فیکون الطغیان سببا لذلک الجزاء الألیم.

«لا- یرجون»: من «الرجاء» و یأتی بمعنی «الأمل» و کذلک بمعنی «عدم الخوف»، و من الطبیعی أن یشعر الإنسان بالخوف فی حال الأمل و الانتظار، و إلّا لم یخف .. فبین الأمرین تلازم، و لهذا فالذین لیس لدیهم أمل و رجاء لا یحسون بخوف أیضا.

«إنّ» فی «إنّهم»: للتأکید. و «کانوا»: للماضی المستمر. و «حسابا»: نکرة جاءت بعد نفی لتعطی معنی العموم .. و کل هذا البیان جاء لیبیّن أنّهم ما کانوا ینتظرون حسابا مطلقا، و ما کانوا یشعرون لا- خوف من ذلک! و بعبارة اخری: إنّهم تناسوا حسابا یوم القیامة بالکلیة: و لم یفرزوا له مکانا فی کلّ حیاتهم! و لا جرم أنّ عاقبة أمرهم سیؤول إلی العذاب الألیم لما اقترفوه من جرائم عظمی و کبائر الذنوب.

و مباشرة یضیف القرآن القول: وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا کِذَّاباً[۳۹۴].

فقد أحکمت الأهواء النفسانیة قبضتها علیهم حتی جعلتهم یکذبون بآیات اللّه تکذیبا شدیدا، و أنکروها إنکارا قاطعا لیواصلوا أمانیهم الإجرامیة باتباعهم المفرط لأهوائهم الغاربة.

و بما أنّ معنی «آیاتنا» من الوسع بحیث یشمل کلّ آیات التوحید و النبوّة و التکوین و التشریع و معجزات الأنبیاء و الأحکام السنن، فعملیة تکذیب کلّ هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۹

الأدلة الإلهیة فی عالم التکوین و التشریع، إنّما تستحق أشدّ العقوبات المخبر عنها فی القرآن الکریم.

ینبه القرآن الطغاة علی وجود الموازنة بین الجرم و العقاب فی العدل الإلهی، فیقول: وَ کُلَّ شَیْ‌ءٍ أَحْصَیْناهُ کِتاباً[۳۹۵].

فلا تظنوا أنّ شیئا من أعمالکم سیبقی بلا حساب أو عقاب، و لا تساورکم الشکوک بعدم عدالة العقوبات المقررة لکم.

فما أکثر الآیات القرآنیة التی تحکی عن حقیقة ضبط إحصاء کلّ ما یبدر من الإنسان، سواء کان من الأعمال الصغیرة أم الکبیرة، سریة أم علنیة، بل و یخضع لذلک حتی عقائد و نیّات المرء.

و فی هذا المجال، یقول القرآن: وَ کُلُّ شَیْ‌ءٍ فَعَلُوهُ فِی الزُّبُرِ وَ کُلُّ صَغِیرٍ وَ کَبِیرٍ مُسْتَطَرٌ[۳۹۶] .. و فی موضع آخر یقول: إِنَّ رُسُلَنا یَکْتُبُونَ ما تَمْکُرُونَ ۳۹۷] ..

و فی مکان آخر یقول: وَ نَکْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ ۳۹۸].

و لذلک یصرخ المجرمون بالقول: یا وَیْلَتَنا ما لِهذَا الْکِتابِ لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصاها[۳۹۹]، حینما یستلمون کتابهم

الحاوی علی کلّ ما فعلوه فی الحیاة الدنیا.

و ممّا لا شک فیه، أنّ إدراک حقیقـة الآیات الرّبانیـة بکامل القلب، سوف یـدفع الإنسان لأنّ یکون دقیقا فی جمیع أعماله، و سـیکون اعتقاده الجازم بمثابة السدّ المنیع بینه و بین ارتکاب الذنوب، و من العوامل المهمّة و المؤثرة فی العملیة التربویة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۰

و یتغیّر لحن الخطاب فی الآیـة الأخیرة من الآیات المبحوثة، فینتقل من التکلم عن الغائب إلی مخاطبة الحاضـر: و یهدد القرآن بنبرات غاضبة أولئک المجرمین، و یقول: فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِیدَکُمْ إِلَّا عَذاباً.

فصـرخاتکم ب «یا ولیتنا» و طلبکم العودة إلی الدنیا لإصـلاح ما أفسدتم، لن ینفعکم، و کل ما ستنالونه هو الزیادة فی العذاب و لا من مغیث.

و هذا هو جزاء أولئک الذین یواجهون دعوات الأنبیاء الداعیة إلی اللّه و الإیمان و التقوی، بقولهم: سَواءٌ عَلَیْنا أ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَکُنْ مِنَ الْواعِظِینَ ۴۰۰].

و هذا هو جزاء الذین ینفرون من سماع و استماع ما تتلی علیهم من آیات اللّه، کما قال تعالی: وَ ما یَزِیدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً[۴۰۱].

و أخیرا .. فالعذاب الألیم جزاء کلّ من لا یتورع عن اقتراف الذنوب، و لا یسعی صوب الأعمال الصالحة.

حتی

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «هذه الآیة أشدّ ما فی القرآن علی أهل النّار»[۴۰۲].

کیف لاـ.. و هی التی تحمل بین ثنایاها الغضب الإلهی، و تسـدّ کلّ أبواب الأمل للخلاص من جهنّم، و لا تعـد أهل النّار إلّا زیادة فی العذاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۱

الآیات [سورة النبإ (۷۸): الآیات ۳۱ الی ۳۷]

اشارة

إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ مَفازاً (۳۱) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (۳۲) وَ کَواعِبَ أَتْراباً (۳۳) وَ کَأْساً دِهاقاً (۳۴) لا یَسْمَعُونَ فِیها لَغْواً وَ لا کِذَّاباً (۳۵) جَزاءً مِنْ رَبِّکَ عَطاءً حِساباً (۳۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطاباً (۳۷)

التّفسیر

ممّا وعد اللّه المتقین:

کان الحـدیث فی الآیات السابقـة منصـبا حول خاتمـة المجرمین و الطغاة و ما یلاقونه من ألیم العذاب و موجباته، و ینتقل الحدیث فی الآیات أعلاه لتفصـیل بعض ما وعـد اللّه المؤمنین و المتقین من النعم الخالدة و الثواب الجزیل، عسـی أن یرعوی الإنسان و یتبع طریق الحق من خلال مقایسته لما یعیشه کلّ من الفریقین، علی ضو تفکیره بمصیره الأبدی.

و کـذا هو الحـال فی الاـسولب القرآنی، کما فی بقیـة السور الاخری، فهو یضع متضادات الحالات و الأحوال فی طبق واحـد، لیتمکن الإنسان بسهولة من اکتشاف خصائص و شؤون أیّا منها.

فیقول، مبتدء الحدیث: إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ مَفازاً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۲

«المفاز»: اسم مکان، أو مصدر میمی من (الفوز) بمعنی الوصول إلی الخیر بسلام، و یأتی بمعنی النجاة أیضا و هو من لوازم المعنی الأوّل.

و قد جاءت «مفازا» بصیغة النکرة للإشارة إلی الفتح العظیم و الوصول إلی خیر و سعادة لا یعلم قدرهما إلّا اللّه عزّ و جلّ.

و من مفردات الفوز و السعادة: حَدائِقَ وَ أَعْناباً[۴۰۳].

«الحدائق»: جمع «حدیقة»، و هی قطعة أرض مزروعة بالورود و الأشجار و محاطة بسور لحفظها، و یقول الراغب فی مفرداته «الحدیقة» قطعة من الأرض ذات ماء، سمّیت تشبیها بحدقة العین فی الهیئة و حصول الماء فیها.

أمّا ذکر «العنب» دون بقیة الفواکه فلما له من مزایا تفضله علی بقیة الفواکه، و یقول علماء التغذیة فی هذا المجال: إضافة لکون العنب غذاء کاملا من حیث الخاصیة الغذائیة الموجودة فیه و التی تشبه حلیب الام فی کونه ثری بالمواد الغذائیة اللازمة للإنسان، إضافة لکل هذا، فهو یعطی للبدن ضعف ما یعطیه اللحم من سعرات حراریة، حتی وصف بصیدلیة متکاملة لما یحویه من مواد مفیدة.

و من خواص و فوائد العنب، أنّه: مقاوم للسموم، مفید لتصفیة الدم، یقی من الروماتیزم و النقرس، مضاد فعّال ضد زیادة السموم الحاصلة فی الدم، مقو للأعصاب و منشط و یعطی للإنسان القوّة و القدرة الکافیة لما فیه من کمیات مناسبة لأنواع (الفیتامینات).

و

قد روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی خصوص العنب أنّه قال: «خیر فواکهکم العنب».

و یتطرق القرآن إلی نعمة اخری ممّا وعد اللّه به المتقین فی الجنّة، فیقول:

وَ کَواعِبَ أَتْراباً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۳

«الکواعب»: جمع «کاعب»، و هی البنت حدیثة الثدی، للإشارة إلی شباب زوجات المتقین فی الجنّة.

«الأتراب»: جمع «ترب»، و یطلق علی مجموعة الأفراد المتساویین فی العمر، و استعماله فی الإناث أکثر، قیل: إنّها من «الترائب» و هی: أضلاع الصدر، و ذلک لما بینهما من شبه من حیث التساوی و التماثل.

و یحتمل أن یکون المراد من «أتراب» التساوی بین نساء أهل الجنّة فی العمر، فیکون شابات متساویات فی القد و القامة و الجمال، أو تساوی العمر بینهن و بین أزواجهن من المؤمنین، لأنّ للتساوی فی العمر له أثره النفسی علی إدراک مشاعر الطرف الآخر. إلّا أن المعنی الأوّل أکثر تناسبا.

و تأتی النعمة الرابعة: وَ کَأْساً دِهاقاً.

شراب لیس کأی شراب، فلا- یهب بالعقول و لا- یحدر الإنسان إلی درکات الحیوانیة، بل هو مذک للعقل، منشط للروح و منعش للقلب.

«الکأس»: هو القدح المملوء بالشراب، و قد یطلق علی القدح دون الشراب أو علی شراب القدح.

«دهاقا»: بمعنی الامتلاء، عند أکثر المفسّرین و أهل اللغة، لکنّ (ابن منظور) قد ذکر معنیین آخرین هما: التتابع علی شاربیها، صافیة.

و علیه .. فیمکن حمل معنی الآیة، علی ضوء ما ذکر من معان، علی أنّ لأهل الجنّة أقداح مملوءة بشراب زلال طاهر.

و دفعا لما یتبادر إلی الأذهان من تبعات شراب الدنیا الشیطانی، یقول القرآن: لا یَسْمَعُونَ فِیها لَغْواً وَ لا کِذَّاباً.

إنّ شراب الدنیا .. یذهب العقل، یفقد الإحساس، یوقع شاربه بالهذیان و اللغو .. و أمّا شراب الآخرة فنفحاته الطاهرة تضفی علی العقل و الروح نورا و صفاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۴

و ثمّة احتمالات بخصوص ضمیر «فیها».

الأوّل: إنّه یعود إلی الجنّة.

الثّانی: إنّه یعود إلی الکأس.

فعلی الاحتمال الأوّل، یکون معنی الآیة إنّ أهل الجنّة لا یسمعون فیها لغوا، کما جاء فی الآیتین (۱۰ و ۱۱) من سورة الغاشیة: فِی جَنَّةٍ عالِیَةٍ لا تَسْمَعُ فِیها لاغِیَةً.

و علی الاحتمال الثّانی، یکون معنی الآیة: إنّه سوف لا یصدر اللغو و الهذیان و الکذب من أهل الجنّة بعد شرابهم ما فی کأس الجنّة من شراب، کما جاء فی الآیة (۲۳) من سورة الطور: یَتَنازَعُونَ فِیها کَأْساً لا لَغْوٌ فِیها وَ لا تَأْثِیمٌ

و علی أیّة حال، فالجنّة خالیة من: الأکاذیب، الهذیان، التهم، الافتراءات، تبریر الباطل، بل و کلّ ما کان یؤذی قلوب المتقین فی الحیاة الدنیا .. إنّها الجنّة! و خیر تصویر لها ما جاء فی الآیة (۶۲) من سورة مریم: لا یَسْمَعُونَ فِیها لَغْواً إِلَّا سَلاماً.

و فی آخر المطاف یذکر القرآن الکریم تلک النعمة المعنویة التی تفوق کلّ النعم علوّا: جَزاءً مِنْ رَبِّکَ عَطاءً حِساباً.[۴۰۴] و أیّة بشارة و نعمة أسمی و أجل، من أن أکون و أنا العبد الضعیف، موضع ألطاف و إکرام اللّه جلّ و علا، فیطعمنی و یکسونی و یغرف علیّ بنعمه التی لا تحصی عددا و لا تضاهی حبّا و کرما، و فطوبی للمؤمنین فی دار الخلد و هم منعمون بکل ما لذّ و طاب.

و التعبیر بکلمة «ربّ» مع ضمیر المخاطب، و کلمة «عطاء»، لتبیان ما أودع من لطف خاص فی النعم التی وعد بها أهل التقوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۵

«حسابا»: یعتقد الکثیر من المفسّرین إن معناها هنا (کافیا): من أحسبه الشیء إذا کفاه حتی قال حسبی ۴۰۵].

و

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال: «حتی إذا کان یوم القیامة حسب لهم حسناتهم ثمّ أعطاهم بکل واحدة عشر أمثالها إلی سبعمائة ضعف، قال اللّه عزّ و جلّ: جَزاءً مِنْ رَبِّکَ عَطاءً حِساباً»[۴۰۶].

و نستفید من الروایة المذکورة أنّ نعم اللّه فی الآخرة و إن کانت بصفة الفضل.

و اللطف و الزیادة، إلّا أن مقدمتها الأعمال الصالحة التی یقوم بها الإنسان فی حیاته الدنیا، و علیه .. فیمکن تفسیر «حسابا» فی الآیة بمعنی (الحساب)، و لا مانع من إرادة کلا المعنیین- فتأمل.

و فی آخر آیة من الآیات المبحوثة، یضیف: رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُمَا الرَّحْمنِ

نعم: إنّه مالک العالم، و مدبّر ما فیه، و موجه کلّ حرکاته و سکناته، إنّه الرحمن الذی شملت رحمته کلّ شیء، و هو واهب الصالحین ما وعدهم به القرآن الکریم.

و بما أنّ صفة «الرحمن» تشمل رحمة اللّه العامّة لکلّ خلقه، فیمکن حمل إشارة الآیة إلی أنّ اللّه تبارک و تعالی یشمل برحمته أهل السماوات و الأرض فی الحیاة الدنیا، إضافة لما وعد به المؤمنین من عطاء دائم فی الجنّة.

و ذیل الآیة، یقول: لا یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطاباً.

و یمکن شمول «لا یملکون» جمیع أهل السماوات و الأرض، أو جمیع المتقین و العاصین الذین یجمعون فی عرصة المحشر للحساب و الجزاء.

و علی أیّ القولین .. فالآیة تشیر إلی عدم القدرة علی الاعتراض أو الردّ من قبل کلّ المخلوقات أمام محکمة العدل الإلهی، لأنّ حسابه جلّ اسمه من الدقّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۶

و العدل و اللطف ما لا یفسح المجال أمام أی اعتراض.

بل و لا یسمح فی ذلک الیوم بالتشفع لأیّ کان إلّا بإذن خاص منه جلّت عظمته، و هو ما تشیر إلیه الآیة (۲۵۵) من سورة البقرة: مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ

***

بحثان

۱- ثواب المتقین و عقاب العاصین

یلاحظ ثمّة مقایسة بین الآیات المبحوثة و ما سبقها من آیات .. فقد تحدثت الآیات السابقة عن نوعین من الجزاء لکلّ من المجرمین و المؤمنین، فالآیات محل البحث تحدثت عن بعض ما للمؤمنین من ثواب و نعیم، و فیما تقدمها من آیات تحدثت عن بعض ما للمجرمین من عقوبات.

فهنا تحدثت عن «المفاز» و هناک عن «المرصاد» ...

و هنا تحدثت عن «حدائق و أعنابا» و هناک عن التخبط بالعذاب إلی مدّة لا متناهیة «أحقابا» ...

و هنا کان الحدیث عن «الشراب الطهور» و هناک عن الماء الحارق «حمیما و غساقا» ...

و هنا تحدثت الآیات عن عطایا و مواهب «الرحمان»، و هناک عن الجزاء العادل «جزاء وفاقا» ...

و هنا الحدیث عن زیارة «النعمة» و هناک زیادة «العذاب» ...

و الخلاصة: إنّ هذین الفریقین یقعان فی قطبین متنافرین من کلّ الجهات نتیجة لما کانا یعیشانه فی الحیاة الدنیا من تنافر و تباعد من حیث الإیمان و العمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۷

۲- أشربة الجنّة!

أوردت الآیات الشریفة أوصافا متنوعة لأشربة الجنّة، و یظهر أنّ لشاربیها من اللذّة الروحیة المعنویة ما لا یمکن وصفه أو خطّه بقلم.

فالآیة (۲۱) من سورة الدهر، تصفه بالطهور: وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً.

و الآیات (۴۵- ۴۷) من سورة الصافات، تصفه بالزلال و اللذّة و الصفاء، و أنّه لا یؤدی لأذی و لا یذهب بالعقول: یُطافُ عَلَیْهِمْ بِکَأْسٍ مِنْ مَعِینٍ بَیْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِینَ لا فِیها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها یُنْزَفُونَ

و الآیة (۵) من سورة الدهر، تصفه بأنّه مخلوط بمادة باردة ملطفة (الکافور):

یَشْرَبُونَ مِنْ کَأْسٍ کانَ مِزاجُها کافُوراً.

و الآیة (۱۷) من سورة الدهر، تقول عنه بأنّه مخلوط بالزنجبیل: وَ یُسْقَوْنَ فِیها کَأْساً کانَ مِزاجُها زَنْجَبِیلًا.

و جاء فی الآیات المبحوثة: وَ کَأْساً دِهاقاً أی: زلالا صافیا.

و فوق کلّ هذا و ذاک، فمن هو الساقی ... إنّه اللّه تعالی!! یسقیهم بید قدرته و علی بساط رحمته، تقول الآیة (۲۱) من سورة الدهر: وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ ...

اللّهمّ! اشملنا بعفوک، و اسقنا من فیض شربک یا أرحم الراحمین ...

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۸

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (۳۸) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (۳۹) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (۴۰)

التّفسير

الندم الشديد:

رأينا فى الآيات السابقة أنّها تحدثت عن بعض عقوبات الظالمين و الطواغيت، و بعض المواهب و النعم و المتعلقة بالصالحين فى يوم القيامة، و تتناول الآيات أعلاه بعض الصفات و حوادث يوم القيامة، و تشرع بالقول ب يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً[۴۰۷].

و بلا شك فإنّ قيام الروح و الملائكة صفّا يوم القيامة، و عدم تكلمهم إلّا بإذنه سبحانه، إنّما هو مثالا للأوامر الإلهية و طاعة، كما هو حالهم قبل قيام القيامة، فهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۹

بأمره يعملون و لكنّ فى يوم القيامة سيتجلّى امتثالهم للّه أكثر و بشكل أوضح.

أمّا عن المقصود بكلمة «الروح» فقد بسط المفسّرون فى كتبهم تفاسير كثيرة، حتى وصل معناها فى بعض التفسير إلى ثمانية احتمالات ۴۰۸] .. و إليك أهم ما قيل فيه:

۱- هو مخلوق من غير الملائكة و أعظم منها.

۲- هو أمين الوحى الإلهية جبرائيل أشرف الملائكة.

۳- هو أرواح أناس يقومون مع الملائكة.

۴- هو ملك عظيم الشأن، و أشرف من جميع الملائكة قاطبة (حتى جبرائيل): و هو الذى يصاحب الأنبياء و الأوصياء عليهم السّلام على الدوام.

و قد جاءت كلمة «الروح» فى القرآن الكريم بصور شتى .. فتارة تأتى مجرّدة عن أيّة قرينة، و غالبا ما تأتى فى قبال الملائكة، كقوله تعالى: فى الآية (۴) من سورة المعارج: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ و فى الآية (۴) من سورة القدر: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ.

و نلاحظ أنّ ذكر كلمة «الروح» فى الآيتين أعلاه قد جاء بعد ذكر «الملائكة»، فى حين جاء ذكرها فى الآيات المبحوثة قبل «الملائكة» ... و يمكن حمل هذا التغاير على باب ذكر العام بعد الخاص، أو ذكر الخاص قبل العام.

و ذكرت كذلك كلمة «الروح» مع الإضافة، أو صيغة الوصف المقارن ك «روح القدس» كما جاء فى الآية (۱۰۲) من سورة النحل: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ و ك «الروح الأمين» كما جاء فى الآية (۱۹۳) من سورة الشعراء نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

و قد أضاف سبحانه و تعالى صفة «الروح» إلى ذاته المقدسة، كما فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۰

(۲۹) من سورة الحجر: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي و الآية (۱۷) من سورة مريم:

فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا.

و كما هو ظاهر أنّ لكلمة «الروح» فى القرآن معان متفاوتة، و قد تطرقنا لمعانيها حسب ورودها فى الآيات.

و أقرب ما يمكن التعويل عليه من معانى «الروح» فى الآية المبحوثة هو كونه أحد ملائكة اللّه العظام، و الذى يبدو من بعض الآيات أنّه أعظم من جبرائيل و بدلالة ما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «هو ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل»[۴۰۹].

و جاء فى تفسير على بن إبراهيم: «الروح ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل و كان مع رسول اللّه و هو مع الأئمّة»[۴۱۰].

و جاء فى تفاسير أهل السنة،

إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «الروح جند من جنود اللّه ليسوا بملائكة لهم رؤوس و أيدى و أرجل، ثمّ قرأ: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا، قال: هؤلاء جند و هؤلاء جند»[۴۱۱].

(و قد بحثنا موضوع روح الإنسان و تجرّدها و استقلالها بشكل مفصل فى ذيل الآية (۸۵) من سورة الإسراء- فراجع).

و على أيّة حال، فسواء كان «الروح» من الملائكة أو من غيرهم، فإنّه سيقف يوم القيامة مع الملائكة صفّا بانتظار أوامر الخالق سبحانه، و سيكون هول المحشر بشكل بحيث لا يقوى أىّ من الخلق للتحدث معه، و الذين سيتكلمون أو يشفعون لا يقومون بذلك إلّا بعد إذنه جلّ شأنه، و ما واقع الكلام إلّا حمد اللّه و ثناؤه أو التشفع لمن هم أهلا للشفاعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۱

و

قد روى أنّه حينما سئل الإمام الصادق عليه السّلام عن هذه الآية، قال: «نحن و اللّه المأذون لهم يوم القيامة و القائلون».

فقال الراوى: و أىّ شىء تقولون؟

فقال عليه السّلام: «نمجد ربّنا، و نصلّى على نبيّنا، و نشفع لشيعتنا، فلا يردنا ربّنا»[۴۱۲].

و نستفيد من هذه الرواية: إنّ الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام سيقفون صفّا يوم القيامة مع الملائكة و الروح، و سيكونون من المأذون لهم فى الكلام و الشفاعة، و سيكون حديثهم منصبّا حول الذكر و الثناء و التسبيح للبارى عزّ و جلّ.

ثمّ إنّ وصف قولهم بكلمة «صوابا» للدلالة على أنّهم لا يشفعون إلّا لمن ملك مقدمات الشفاعة و التى لا تتعارض و الحساب ۴۱۳].

و يشير القرآن واصفا ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس و الملائكة أجمعون يوم الفصل، يوم عقاب العاصين و ثواب المتقين، يشير بقوله: ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ

«الحقّ»: هو الأمر الثابت واقعا، و الذى تحققه قطعى. و هذا المعنى ينطبق تماما على يوم القيامة، لأنّه سيعطى كلّ إنسان حقّه، إرجاع حقوق المظلومين من الظالمين، و تتكشف كلّ الحقائق التى كانت مخفية على الآخرين .. فانّه بحق: يوم الحقّ، و بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

و إذا ما التفت الإنسان إلى هذه الحقيقة (حقيقة يوم القيامة) فسيتحرك بدافع قوى نحو اللّه عزّ و جلّ للحصول على رضوانه سبحانه بامتثال أوامره تعالى ..

و لهذا يقول القرآن مباشرة: فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً.

فجميع مستلزمات التوجه و الحركة نحو اللّه متوفرة بعد أن بيّن طريق الحقّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۲

و أشار إلی معالم سبل الشیطان، بلغ اللّه أوامره بواسطة الأنبیاء و الرسل و بالقدر الکافی، أودع فی الإنسان العقل (النّبی الباطن)، رغّب للمتقین بالمفاز، أنذر المجرمین عذابا ألیما، عیّن یوما لمحکمة العدل الإلهی بیّن أسلوب المحاکمة، و لم یبق للإنسان سوی اختیار ما یتخذه إلی ربّه مآبا، و بمحض إرادته.

و «المآب»: هو محل رجوع، و یأتی أیضا بمعنی «الطریق».

ثمّ یؤکّد القرآن علی مسألة عقاب المجرمین الذین یتوهمون أنّه یوم بعید أو نسیئة، یقول القرآن .. إنّ عقاب المجرمین لواقع، و یوم القیامة لقریب: إِنَّا أَنْذَرْناکُمْ عَذاباً قَرِیباً.

و ما عمر الدنیا بکامله إلّا ساعة من زمن الآخرة الخالد، و کما قیل: (کل ما هو آت قریب)، و تقول الآیات (۵- ۷) من سورة المعارج، فی هذا المجال:

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِیلًا إِنَّهُمْ یَرَوْنَهُ بَعِیداً وَ نَراهُ قَرِیباً.

و

یقول أمیر المؤمنین علیه السّلام: «کل آت قریب دان»[۴۱۴].

و لم لا یکون قریبا ما دام الأساس فی العذاب الإلهی هو نفس أعمال الإنسان و التی هی معه علی الدوام: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ ۴۱۵].

و بعد أن وجّه الإنذار للناس، یشیر القرآن إلی حسرة الظالمین و المذنبین فی یوم القیامة، حین لا ینفع ندم و لا حسرة، إلّا من أتی اللّه بقلب سلیم: یَوْمَ یَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ یَداهُ وَ یَقُولُ الْکافِرُ یا لَیْتَنِی کُنْتُ تُراباً.

و ذهب بعض المفسّرین أنّ کلمة «ینظر» فی الآیة بمعنی «ینتظر»، و المراد:

انتظار الإنسان یوم القیامة لجزاء أعماله.

و فسّرها بعض آخر ب: النظر فی صحیفة الأعمال.

و قیل: النظر إلی ثواب و عقاب الأعمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۳

و کل ما ذکر مبنی علی إهمال مسألة حضور و تجسّم الأعمال فی یوم القیامة، و معه ینتفی أیّ دور للتأویلات المذکورة.

و بنظرة إلی الآیات القرآنیة و الروایات و الأحادیث الشریفة یتبیّن لنا أنّ أعمال الإنسان تتجسم فی هذا الیوم بصورة معینة، و تظهر للإنسان فینظر إلیها علی حقیقتها فیسّر و یفرح عند رؤیته لأعماله الصالحة، و یتألم و یتحسر عن رؤیته لأعماله السیئة.

و أساسا فإنّ تجسّم الأعمال و مرافقتها للإنسان من أفضل المکافآت للمطیعین و أشدّ عقوبة للعاصین.

کما نجد فی الآیة (۴۹) من و سورة الکهف: وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً، و کذا فی آخر سورة الزلزال: فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ

فی جملة «ما قدمت یداه» تغلیب، لأنّ کل إنسان یؤدی أعماله غالبا بیدیه، و لکنه لا یعنی الحصر، بل یشمل جمیع ما ارتکبته الجوارح من لسان و عین و اذن، فی الحیاة الدنیا.

و ینبه القرآن الناس قبل تحقق ذلک الیوم: وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ[۴۱۶].

و علی أیّة حال، فحینما یری الکفّار أعمالهم مجسمة أمامهم سیهالهم الموقف و تصیبهم الحسرة و الندامة، حتی یقولون یا لیتنا لم نتجاوز منذ البدایة مرحلة التراب فی خلقنا، و عند ما خلقنا فی الدنیا، ثمّ متنا و تحولنا إلی التراب، فیا لیتنا بقینا علی تلک الحال و لم نبعث من جدید! فهم یعلمون بأنّ التراب بات خیرا منهم، لأنّه: تغرس به حبّة واحدة فیعطی سنابلا، و هو مصدر غنی للمواد الغذائیة و

المعدنیة و البرکات الاخری، مهد لحیاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۴

الإنسان، و مع ما له من فوائد جمّة فهو لا یضرّ قط، بعکس ما کانوا علیه فی حیاتهم، فرغم عدم صدور أیّة فائدة منهم، فلیس فیهم إلّا الضرر و الأذی! نعم، فقد یصل الأمر بالإنسان، و علی الرغم من کونه أشرف المخلوقات، لأنّ یتمنی أن یکون و الجمادات بدرجة واحدة، لما بدر منه کفر و ذنوب! و تصور لنا الآیات القرآنیة أحوال الکافرین و المجرمین، و شدّة تأثرهم و تأسفهم و ندمهم علی ما فعلوا فی دنیاهم، یوم الفزع الأکبر، فتقول الآیة (۵۶) من سورة الزمر: یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ

و تقول الآیة (۱۲) من سورة السجدة: فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً.

أو ما یقوله کل فرد منهم- کما جاء فی الآیة المبحوثة- یا لَیْتَنِی کُنْتُ تُراباً.

***

بحث

النظرة الصائبة لمسألة «الجبر و الإختیار»

!! تعتبر مسألة (الجبر و الإختیار) من أقدم المسائل المبحوثة بین أوساط العلماء، یری فبعضهم حریة اختیار الإنسان، و منهم من یری بأنّ الإنسان مجبور فی أعماله، و کلّ منهما یمتلک جملة من الأدلة التی أوصلته لما یری.

و من اللطیف أنّ کلا الفریقین، یقبلون عملیا بأنّ الإنسان مختار فی أفعاله.

و بعبارة أخری: إنّ البحث و النقاش الدائر بین العلماء لا یتعدی دائرة البحث العلمی، أمّا علی الصعید العملی فالکل متفقون علی حریة الإختیار للإنسان.

و هذا یظهر لنا بوضوح بأنّه أصل حریة الإرادة و الإختیار من الأصول التی انطوت علیها الفطرة الإنسانیة، و لولا الوساوس المختلفة لا تفق الجمیع علی حقیقة حریة الإرادة فی الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۵

إنّ الوجدان النوعی و الفطرة الإنسانیة عموما من أوضح أدلة الإختیار، و قد تجلت بصور متنوعة فی حیاة لإنسان.

و علیه .. فإذا کان الإنسان لا یقبل بالاختیار و یعتبر نفسه مجبورا فی أعماله فلما ذا إذن:

۱- یندم علی بعض الأعمال التی یقوم بها أو لم ینجزها، و یضع تجربته کعبرة لیعتبر به مستقبلا، فإذا لم یکون مختارا، فلما ذا الندم؟!

۲- یلام و یوبّخ کلّ من یسیء، فلما ذا یلام إن کان مجبورا فی فعله؟! ۳- یمدح و یحترم صاحب العمل الصالح.

۴- یسعی الناس جاهدین لتربیة و تعلیم أبنائهم لیضمنوا لهم مستقبلا زاهرا، و إذا کانت الأعمال جبریة، فلما ذا هذا التعلیم.

۵- یسعی العلماء قاطبة لرفع المستوی الأخلاقی فی المجتمع؟

۶- یتوب الإنسان علی ما فعل من ذنوب، أو هل للجبر من توبة؟! ۷- یتحسر الإنسان علی تقصیره فیما یطلب منه؟

۸- یحاکم المجرمون و المنحرفون فی کل دول العالم، و یحقق معهم حسب قوانینهم؟

۹- تضع جمیع الأمم (المؤمنة أم الکافرة) العقوبات للمجرمین؟

۱۰- من یقول بالجبر یصرخ متغنیا فی وجه المحاکم لمعاقبة من اعتدی علیه؟

و الخلاصة: إن لم یکن للإنسان اختیار، فما معنی الندم؟ و لماذا یلام و یوبخ؟

أمن العقل أن يلام الإنسان على فعل فعله قهرا؟! ثمّ لماذا يمـدح أهل الخير و الصـلاح؟ فإن كان ما فعلوه خارج عن إرادتهم فلا معنى لتشجيعهم.

و القبول بوجود تأثير للتربية و التعليم على سلوك الإنسان يفقد (الجبر) معناه تماما، و كذا الحال بالنسبة للمسائل الأخلاقية، فلا مفهوم لها بدون الاعتراف أولا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٣۶۶

بحرية الإنسان ...

ثمّ إن كنّا قـد جعلنا على أعمالنا جبرا، فهل يبق للتوبـة من معنى؟! و لم الحسـرة و الحال هـذه؟! بل إنّ محاكمـة الظالم ظلم واضـح، و الأكثر ظلما معاقبته؟!! و كلّ ما ذكر يـدلل على أنّ حريـة الإرادة و عدم الجبر أصل تحكم به الفطرة الإنسانية، و هو ما ينسـجم تماما و الوجـدان البشـرى العـام، و الكل يعمل على ضوء هـذا الأصل، و لا فرق فى ذلك بين عوام الناس أو خواص العلماء و الفلاسـفة، و لا يستثنى من ذلك حتى الجبريين أنفسهم، و كما قيل فى هذا الجانب: (الجبريون اختياريون من حيث لا يعلمون).

و القرآن الكريم حافل بما يؤكّـد هـذه الحقيقـة، و نظرا لكثرة الآيات التى تؤكّـد على حريـة إرادة الإنسان- مضافا الى الآية المبحوثة: فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً- سنكتفى بذكر ثلاث آيات من القرآن الحكيم.

ففى الآية (٣) من سورة الدهر: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً.

و فى الآية (٢٩) من سورة الكهف، يقول تعالى: فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ.

و جاء فى الآية (٢٩) من سورة الدهر أيضا: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا.

الحـديث حول (الجبر و التفويض) طويل جـدّا، و قـد كتبت فى ذلك كتب و مقالات عديـدة، و ما ذكرناه لا يتعـدى كونه إلقاء نظرة سريعـة و مختصـرة على ضوء (القرآن) و (الوجـدان)، و نختم الحديث بذكر ملاحظة مهمّة و هى: إنّ الدوافع النفسـية و الاجتماعية قد اختلطت مع الاستدلال الفلسفى عند الكثيرين ممن يقولون بالجبر.

فكثير ممن اعتقدوا بالجبر، أو (القضاء و القدر) بمعناه الجبرى إنّما توسلوا به للفرار من المسؤولية: أو أنّهم جعلوها غطاء لفشلهم الناتج عن تقصيرهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٣۶٧

و تساهلهم فى أداء وظائفهم، أو جعلوها مبررا لاتباع أهوائهم و نزواتهم الشيطانية.

اسـتغل المسـتعمر- فى بعض الأحيان- هذه المقولة، و جدّ على نشـر و تأكيد هذه العقيدة الباطلة لتحكيم سيطرته على الرقاب، بعد أن يوهم النـاس بـأنّهم مجبورون من قبـل اللّه على أن يعيشوا تحت سـطوة الحـاكم الموجود قضاء و قـدرا ليأمن المسـتعمر من المقاومـة، يكسب رضـاهم و تسـليمهم له! فالاعتقـاد بهـذا الرأى ... يعنى تبرير كـلّ مـا يقوم به الطغاة و الجناة، و تبرير جميع ذنوب المـذنبين، و بالنتيجة: لا يبقى فرق بعد بين الصالح و الطالح، و المطيع و العاصى!! ...

اللّهمّ! قنا من السقوط فى زلل العقائد المنحرفة ..

اللّهمّ! أنت المأمول و المرتجى يوم تكون جهنّم للطاغين مرصادا، و الجنّة للمتقين مفازا ...

اللّهمّ! يا واسع المغفرة، لا تخيبنا يوم نرى أعمالنا مجسمة أمامنا ..

آمين ربّ العالمين نهاية سورة النبأ***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ٣۶٩

سورة النّازعات

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ستّ و أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۱

«سورة النّازعات»

محتوی السورة:

تبحث هذه السورة کسابقتها مسائل «المعاد»، و تتلخص مواضیعها عموما بستة أقسام:

۱- التأکید مرارا علی مسألة المعاد و تحققه الحتمی.

۲- الإشارة إلی أهوال یوم القیامة.

۳- عرض سریع لقصة موسی علیه السّلام مع الطاغی فرعون، تسلیة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین، و إنذارا للمشرکین الطغاة، و إشارة إلی ما یترتب علی إنکار المعاد من سقوط فی مستنقع الرذیلة.

۴- طرح بعض النماذج المظاهر قدرة الباری سبحانه فی السماء و الأرض، للاستدلال علی إمکان المعاد و الحیاة بعد الموت.

۵- تعود الآیات مرّة اخری، لتعرض بعض حوادث الیوم الرهیب، و ما سیصیب الطغاة من عقاب و ما سینال الصالحون من ثواب.

۶- و فی النهایة، یأتی علی خفاء تاریخ وقوع یوم القیامة، و التأکید علی حتمیة وقوعه و قربه.

و سمیت السورة ب (النازعات) لورود هذه الکلمة فی أوّل آیة، و بها تبدأ السورة من بعد البسملة.

فضیلة السورة:

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأ سورة و النازعات لم یکن حبسه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۲

و حسابه یوم القیامة إلّا کقدر صلاة مکتوبة حتی یدخل الجنّة»[۴۱۷].

و

عن الإمام الصادق، أنّه قال: «من قرأها لم یمت إلّا ریّان، و لم یبعثه اللّه إلّا ریّان، و لم یدخله الجنّة إلّا ریّان»[۴۱۸].

و لیس غریبا أن ینال الإنسان بکل ما ذکر جزاء من عند اللّه، إذا ما أمعن فی محتوی السورة و تدبّر إشاراتها الموقظة للنفوس الغافلة، و المعرّفة بوظائف الإنسان فی حیاته، فمن لم یکتف بتردید ألفاظ السورة، و عمل بها بعد الإمعان و التدبر فحری أن یجزی بما وعد الحق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۳

الآیات [سورة النازعات (۷۹): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً (۱) وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً (۲) وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً (۳) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (۴)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (۵)

التّفسير

القسم بالملائكة:

جاء القسم القرآنی بخمسهٔ أشياء مهمّهٔ، لتبيان حقيقهٔ و حتميهٔ تحقق يوم القيامهٔ «المعاد»، فيقول:

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً .....

و قبل البدء بالتّفسير لا بدّ من توضيح معانی بعض الكلمات ..

«النازعات»: من (النوع)، و نزع الشيء جذبه من مقرّه، كنزع القوس عن كبده، و منه نزع العداوهٔ و المحبّهٔ من القلب ۴۱۹]. و بذلک تشمل الأمور المعنويهٔ أيضا.

(الغرق): بالفتح (على وزن الشفق)، هو الرسوب فی الماء، (على قول كثير من أهل اللغهٔ)، و يأتی كذلک فيمن غمره البلاء.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۴

و «الغرق»: (على وزن الفرق)، يقول عنه (ابن منظور) فی لسان العرب: إنّه اسم أقيم مقام المصدر الحقيقی، بمعنى الإغراق، و الإغراق بالنزع هو: أن يباعد السهم و يسحب القوس إلى آخر نقطهٔ ممكنهٔ، و يضرب مثلا للغو و الإفراط.

و من هنا يتّضح أنّ المعنى المقصود فی هذه الآيهٔ ليس الغرق فی الماء، بل هو القيام بعمل ما إلى أقصى حدّ ممكن.[۴۲۰]

«النّاشطات»: من (النشط)، هی العقد التی يسهل حلها، و بئر (إنشاط): هی القريبهٔ القعر يخرج دلوها بجذبهٔ واحدهٔ، و يقال للإبل التی تتحرک من غير أن يحدى لها (النشيطهٔ) .. فيكون المعنى عموما: هو التحرک بسهولهٔ.

«السابحات»: من (السبح)، و هو الحركهٔ السريعهٔ فی الماء أو الهواء و لهذا تطلق السابحات على: السباحهٔ فی الماء، الحركهٔ السريعهٔ للخيل، و أيّهٔ حركهٔ سريعهٔ فی عمل ما .. و «التسبيح»: هو تنزيه اللّه تعالى من كل عيب و نقص، و أصله: الحركهٔ السريعهٔ فی عبادهٔ اللّه تعالى.

«السابقات»: من (السبق)، و هو التقدم فی السير، و بما أنّ السبق لا يتمّ إلّا بالحركهٔ الأسرع فهو يتضمّن معنى الشرعهٔ كذلک.

«المدبرات»: من (التدبير)، و هو التفكير فی عاقبهٔ الأمور، و أرادت الآيهٔ القيام بالأعمال على أحسن وجه.

و بعد هذه التعريفات الموجزهٔ نشرع بالتفسير:

إنّ القسم بهذه الأمور الخمسهٔ قد لفّته هالهٔ من الإبهام و الغموض و تبعث على التأمل و التعمق أكثر لمعرفهٔ المراد من هذه الأقسام و أنّها لمن تشير، و أی شیء تقصد؟

و قد عرضت تفاسير مختلفهٔ، و قيل الكثير بخصوص هذا الموضوع، إلّا أنّ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۵

معظمها تدور حول ثلاثهٔ محاور:

الأوّل: إنّ القسم المذكور يتعلق بالملائكهٔ الموكلهٔ بقبض أرواح الكفّار و المجرمين، و لكون تلک الأرواح قد رفضت التسليم للحق، فيكون فصلها عن أجسادها بشدّهٔ.

و يتعلق كذلک، بالملائكهٔ الموكلهٔ بقبض أرواح المؤمنين برفق و يسر، و سرعهٔ فی إتمام الأمر.

و الملائكهٔ التی تسرع فی تنفيذ الأوامر الإلهيهٔ.

ثمّ الملائکة التی تتسابق فی تنفیذ الأوامر الإلهیة.

و أخیرا، یتعلق القسم بالملائکة التی شؤون العالم بأمره سبحانه و تعالی.

الثّانی: تعلق القسم بالنجوم التی تغرب من أفق لتنتقل إلی أفق آخر و بحرکة دائبة لا تعرف السکون.

فبعض منها تمشی الهوینا، و البعض الآخر واسعة الخطوات.

و تراها سابحة فی السماء.

و تتسابق فیما بینها.

و أخیرا، تشترک فی تدبیر امور الکون، بما لها من تأثیرات، (کنور الشمس و ضیاء القمر بالنسبة إلی الأرض).

الثّالث: تعلق القسم بالمجاهدین فی سبیل اللّه، أو بخیولهم الخارجة من أوطانهم بعزم شدید لتجول فی میادین القتال بنشاط و تمکن.

و ... تتسابق فیما بینها ... مع الجول و التسابق تعمل علی إرادة و تدبیر امور الحرب.

و قد جمع بعض المفسّرین هذه الآراء، فبعضها مقتبس من الأوّل، و القسم الآخر من الثّانی أو الثالث، لمعنی خاص، و لکنّ الأصل فی کلّ ذلک یعود إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۶

التّفاسیر الثّلاثة المذکورة[۴۲۱].

و لا یوجد أیّ تضاد بین کلّ ما ذکر، و یمکن أن تکون الآیات قد رمزت إلی کلّ هذه المعانی ... و عموما یبدو أنّ التفسیر الأوّل أقرب من غیره، للأسباب التالیة:

أوّلا: تناسبه مع یوم القیامة .. هو ممّا تدور السورة حوله عموما.

ثانیا: نسبة الترابط الموجودة بینه و بین الآیات المشابهة للآیات المبحوثة فی أوّل سورة المرسلات.

ثالثا: ملائمة تفسیر: فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً للملائکة التی تدبّر شؤون العالم بأمر اللّه، و الذین لا یتخلفون و لو لحظة واحدة فی تنفیذ ما یؤمرون به، کما تشیر الآیة (۲۷) من سورة الأنبیاء إلی ذلک: لا یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ و خصوصا أنّ (تدبیر الأمر) ورد بصیغة مطلقة من دون أیّ قید أو شرط.

و علاوة علی کلّ ما تقدم فثمّة روایات فی تفسیر الآیات المبحوثة یتناسب معها التفسیر الأوّل، و من جملتها:

ما

روی عن علی علیه السّلام فی تفسیر النَّازِعاتِ غَرْقاً، إنّه قال: «إنّها الملائکة الذین ینزعون أرواح الکفّار عن أبدانهم بشدّة کما یغرق النازع بالقوس فیبلغ بها غایة المسد»[۴۲۲].

و روی عنه علیه السّلام فی تفسیر: «و الناشطات» و «السابحات» و «فالمدبرات» ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۷

یشبه ذلک ۴۲۳].

و یمکن توجیه هذا التفسیر بشکل أتم، إذا ما اعتبرنا مسألة قبض أرواح المؤمنین و الکفّار مصداق من مصادیق التّفسیر و لیس کلّ محتواه، و علیه فالملائکة هم المقصودون بالأقسام المذکورة بصورة عامّة، و یتمّ تنفیذ الأمر الإلهی من قبلهم علی خمس مراحل:

الحرکة الشدیدة الناتجة من عظمة صدور الأمر الإلهی .. الشروع بالتنفیذ بخطوات هادئة .. الإسراع فی خطوات التنفیذ ..

فالتسابق .. و من ثمّ یکون تدبیر الأمر.

و علی أیّة حال، فقبض الأرواح من قبل الملائکة مصداق لمفهوم کلّی، و یعتبر الأرضیة الممهدة لبقیة البحوث التی تتناولها السورة حول «المعاد».

***

ملاحظتان

و یبقی، بعد کلّ ما تقدم، سؤالان:

الأوّل: ما سبب مجیء «النازعات» و «الناشطات» بصیغة المؤنث؟

الثّانی: کان القسم فی الآیات الثلاثة الاولی ب «الواو»، و فی الآیتین الرابعة و الخامسة استعملت «الفاء» عوضا عن «الواو» .. فهل هی للعطف أم للتفریع؟

الجواب الأوّل: «النازعات» جمع (نازعة)، و هی الطائفة أو المجموعة من الملائکة التی تعمل علی تنفیذ ما أمرت به، و کذا الحال بالنسبة ل «الناشطات» و بقیة صیغ الجمع الاخری ... و بما أنّ (الطائفة) مؤنث لفظی، فقد جاء الجمع بصیغة المؤنث السالم.

الجواب الثّانی: یمکننا القول: أنّ التسابق الحاصل هو نتیجة الحرکة السریعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۸

المقصودة فی «السابحات»، و تدبیر الأمور نتیجة لمجموع هذه الحرکة.

و آخر ما ینبغی قوله فی هذا المجال: إنّ القسم الوارد فی الآیات الخمسة الاولی من السورة، إنّا هو قسم علی أمر محذوف (و هو جواب القسم)، و لکنّ قرینة المقام و ما تشیر إلیه الآیات التالیة یبیّن البعث و الحشر و القیامة، و حتمیة تحققها، فیکون التقدیر لجواب القسم: (لتبعثن یوم القیامة و لتحشرنّ و لتحاسبن).

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۹

الآیات [سورة النازعات (۷۹): الآیات ۶ الی ۱۴]

اشارة

یَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (۷) قُلُوبٌ یَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (۸) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (۹) یَقُولُونَ أ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحافِرَةِ (۱۰) أ إِذا کُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (۱۱) قالُوا تِلْکَ إِذاً کَرَّةٌ خاسِرَةٌ (۱۲) فَإِنَّما هِیَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (۱۳) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (۱۴)

التّفسیر

صیحة الموت المرعبة!

بعد أن أکّد القرآن الکریم علی حقیقة القیامة و حتمیة وقوعها فی الآیات السابقة، تتعرض الآیات أعلاه لبعض ما یصاحب یوم القیامة من علامات و أحداث، فتقول: یَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، أی: یوم تحدث الزلزلة العظیمة المهولة.

ثمّ: تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ.

«الراجفة»: من (الرجف)، بمعنی الاضطراب و التزلزل، و لذا یقال للأخبار التی توقع الاضطراب بین أوساط الناس ب (الأراجیف).

«الرادفة»: من (الردف)، و هو الشخص أو الشیء الذی یأتی بعد نظیره تتابعا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۰

و لذا یقال لمن یرکب خلف آخر، (ردیفه).

و یعتقد کثیر من المفسّرین بأنّ «الراجفة»: هی الصیحة و نفخة الصور الاولی التی تعلن عن موت جمیع الخلائق، و «الرادفة» هی الصیحة و نفخة الصور الثّانیة التی یبعث فیها الخلق مرّة اخری لیعیشوا یوم القیامة[۴۲۴].

و علیه، فالآیتان تشیران إلی نفس ما أشارت إلیه الآیة (۶۸) من سورة الزمر:

وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْری فَإِذا هُمْ قِیامٌ یَنْظُرُونَ

و قیل: «الراجفة»: إشارة إلی الزلزلة التی تدمّر الأرض، و «الرّادفة»: إشارة إلی الزلزلة التی تدمّر السماوات ..

و التّفسیر الأوّل کما یبدو أقرب للصواب.

و تأتی الآیة الاخری لتقول: قُلُوبٌ یَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ.

فقلوب العاصین شدیدة الاضطراب خوفا من الحساب و الجزاء.

«واجفة»: من (الوجف)، بمعنی سرعة السیر، و (أوجفت البعیر): حملته علی الإسراع، و تستعمل أیضا للاضطراب الشدید لما یصاحبه من اهتزاز و إسراع.

و یکون التزلزل الداخلی من الشدّة بحیث یظهر علی وجوه کلّ المذنبین، و لذا یقول القرآن: أَبْصارُها خاشِعَةٌ[۴۲۵].

فیبدو الاضطراب و الخوف ظاهرا علی أعین المذنبین، و تتوقف حرکتها و کأنّها قد فقدت حاسة النظر لما أصابها من خوف شدید.

و فی الآیة التالیة ینتقل الحدیث من أخبار یوم القیامة إلی الحیاة الدنیا:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۱

یَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحافِرَةِ.

«الحافرة»: من (الحفر)، بمعنی شقّ الأرض، و ما ینتج من ذلک یسمی (حفرة)، یقال: حافر الفرس، تشبیها لحفرة الأرض فی عدوه، و «الحافرة»: کنایة لمن یرد من حیث جاء، کما لو سار إنسان علی أرض، فیترک فیها حفرا لتحمل آثار قدمه، ثمّ یعود إلی نفس تلک الحفر، فالحافرة: تعنی الحالة الاولی ۴۲۶].

و تستمر الآیة فی سرد کلامهم: أَ إِذا کُنَّا عِظاماً نَخِرَةً[۴۲۷].

فهکذا هو حال و دأب منکری المعاد و علی الدوام باستفسارهم الدائم حول المعاد، و بقولهم المعروف: کیف للعظام البالیة النخرة و التی تحولت إلی ذرات تراب أن تعود مرّة اخری جسما کاملا، و الأکثر من هذا .. أن تسری فیه الحیاة و لکنّهم لم یفقهوا إلی أنّهم خلقوا من ذلک التراب، فکیف أصبحوا بهذه الهیئة الحیّة بعد أن لم یکونوا شیئا؟

«نخرة»: صفة مشبهة، من (النخر)، بمعنی الشجرة المجوفة البالیة، و التی إذا دخل فیها الهواء أعطت صوتا معینا، مثله (النخیر)، و عمم الاستعمال لیشمل کلّ شیء بال فی حال تآکل و تلاش.

و لا یکتفی منکر و المعاد بحال الاعتراض علی ما وعدهم به الباری سبحانه، بل و تحولوا إلی حال الاستهزاء بأحد اصول دین اللّه!: قالُوا تِلْکَ إِذاً کَرَّةٌ خاسِرَةٌ.

و ثمّة احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیة یقول: إنّهم جادون فی قولتهم غیر مستهزئین، لأنّهم یعتقدون أن لو کان ثمّة عود و رجعة فهی عبث زائد و خاسر، إذ لو کانت الحیاة الطیبة هی التی نعیشها، فلما ذا لا تخلد؟ و إن کانت سیئة فما فائدة العود؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۲

و یمکن اعتبار «الحافرة» الواردة فی: أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحافِرَةِ قرینة لهذا الاحتمال، بلحاظ کونها بمعنی (الحفرة).

و لکنّ المعروف بین المفسّرین هو التّفسیر الأوّل.

و قد عبّرت الآية السابقة عن قولهم بصيغة المصارع «يقولون» اشارة إلى دوام ترديدهم لما يقولون به، فى حين ذكر الفعل فى الآية المبحوثة بصيغة الماضى «قولوا» إشارة إلى أنّهم قليلا ما يقولون ذلك.

و فى آخر آية من الآيات المبحوثة يعود القرآن الكريم إلى مسألة القيامة، و بلسان قاطع، يقول: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ.

فالأمر ليس بمستصعب على الخالق القادر، فما أن يصدر الأمر الإلهى لنفخة الصور الثّانية حتى تعود الحياة ثانية إلى جميع الخلائق، نعم .. فتشرع كلّ تلك العظام النخرة و ما صار منها ترابا للتجمع على الهيئة الاولى، و ليخرج الناس من قبورهم بعد أن تسرى فيهم روح الحياة! «الزجرة»: بمعنى صيحة بشدّة و انتهار، و يراد بها: نفخة الصور الثّانية.

«زجرة واحدة»: إشارة إلى سهولة الأمر أمام قدرة اللّه سبحانه و تعالى، و إلى سرعة تنفيذ أمره سبحانه (لقيام القيامة) ... فبصوت واحد من ملائكة القيامة، أو من صور إسرافيل يرتدى جميع الأموات لباس الحياة من جديد ليحضروا عرصة المحشر للحساب.

«الساهرة»: من (السهر)، و هو الأرق، و قيل: لأرض القيامة «الساهرة» لذهاب النوم عن العيون لما سيصابون به من أهوال مرعبة. و قيل: الساهرة: اسم للصحراء، لأنّ جميع الصحارى مخيفة، و كأنّ الخوف فيها يطرد النوم من العين ۴۲۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۳

الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۱۵ الى ۲۶]

اشارة

هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ مُوسى (۱۵) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (۱۶) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۱۷) فَقُلْ هَلْ لَکَ إِلى أَنْ تَزَکَّى (۱۸) وَ أَهْدِيَکَ إِلى رَبِّکَ فَتَخْشى (۱۹)

فَأَراهُ الْآيَةَ الْکُبْرى (۲۰) فَکَذَّبَ وَ عَصى (۲۱) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (۲۲) فَحَشَرَ فَنادى (۲۳) فَقالَ أَنَا رَبُّکُمُ الْأَعْلى (۲۴)

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَکالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى (۲۵) إِنَّ فِي ذلِکَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (۲۶)

التّفسير

افتراء فرعون!

يشير القرآن الكريم بهذه المقاطع البيانية إلى بعض مشاهد قصّة موسى عليه السّلام و فرعون، و التى تتناول عاقبة الطغاة عبر التاريخ، و ما حدى بفرعون من مصير أسود، ليستذكر مشركو قريش و طغاتهم تلك الواقعة، و ليعلموا أن من كان أقوى منهم لم يتمكن من مقاومة العذاب الإلهى.

و يشير البيان القرآنى كذلك، إلى المؤمنين بأن لا يخافوا من قوّة الأعداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۴

الظاهرية، لأنّ دمارهم و هلاكهم على اللّه أسهل من أن يتصور .. فهذا البيان القرآنى إذا، تسلية لقلوب المؤمنين و ترطيبا لخواطرهم.

فيتوجه الحديث إلى النبىّ عليه السّلام بصيغة الاستفهام: هَلْ أَتاکَ حَدِيثُ مُوسى ليشوق السامع و يهيئه لاستماع القصّة ذات العبر.

ثمّ يقول: إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ۴۲۹].

«طوى»: يمكن أن يكون اسما لأرض مقدّسة، تقع فى الشام بين (مدين) و (مصر)، و هو الوادى الذى كلّم اللّه تعالى فيه موسى عليه

السّلام أوّل مرّة.

و قد رود الاسم أیضا فی الآیة (۱۲) من سورة طه: إِنِّی أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ نَعْلَیْکَ إِنَّکَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُویً

و قد تکون «طوی» صفة من (الطی)، إشارة إلی ما انطوت علیه تلک الأرض من القداسة و البرکة.

أو کما یقول الراغب فی مفرداته، إشارة إلی حالة حصلت له علی طریق الاجتباء، فکان ینبغی علیه السیر فی طریق طویل، لیکون لائقا لنزول الوحی و لکن اللّه تعالی طوی له هذا الطریق و قرّب له الهدف.

ثمّ أشار القرآن إلی تعلیمات اللّه عزّ و جلّ إلی موسی علیه السّلام فی الواد المقدّس:

اذْهَبْ إِلی فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغی فَقُلْ هَلْ لَکَ إِلی أَنْ تَزَکَّی و بعد الترکیة و تطهیر الذات تصبح لائقا للقاء اللّه، و سوف أهدیک إلیه عسی أن تخشع و تترک ما أنت علیه من المنکرات: وَ أَهْدِیَکَ إِلی رَبِّکَ فَتَخْشی

و لمّا کانت کلّ دعوة تحتاج إلی دلیل صحتها، یضیف القرآن القول: فَأَراهُ الْآیَةَ الْکُبْری ۴۳۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۵

و لکن، ما الآیة الکبری؟ هل هی عصا موسی علیه السّلام التی تحولت إلی أفعی عظیمة، أو إخراج یده بیضاء، أم کلیهما؟ (علی اعتبار أنّ الألف و اللام فی «الآیة الکبری» إشارة إلی الجنس). و علی أیّة حال، فالمهم فی المسألة إنّ موسی علیه السّلام استند فی بدء دعوته علی معجزة «الآیة الکبری».

لقد وردت فی الآیات الأربعة المذکورة جملة ملاحظات، هی:

۱- طغیان فرعون یمثل علّة الأمر الإلهی لذهاب موسی علیه السّلام إلیه ... و تبیّن لنا هذه الملاحظة: إنّ من جملة الأهداف المهمّة فی حرکة الأنبیاء هی هدایة الطغاة أو مجاهدتهم.

۲- راح موسی علیه السّلام یدعو فرعون بلین و رفق و أسلوب جمیل، و بأسلوب مرغّب دعاه لأن یتطهر (طهارة مطلقة من الشرک و الکفر، و من الظلم و الفساد) و تنقل لنا الآیة (۴۴) من سورة طه هذا المعنی: فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَیِّناً.

۳- و ثمّة إشارة لطیفة وردت بخصوص رسالة الأنبیاء علیهم السّلام، فدعوتهم للحق تعتمد علی محاولة تطهیر الناس و إعادتهم إلی فطرتهم السلیمة.

کما و أشار البیان القرآنی إلی أنّ المخاطبة قد تمّت بکلمة «تزکّی» بدلا من (ازکیک)، للدلالة علی أنّ الترکیة الحقّة إنّما هی تلک النابعة من الذات، و لا تبنی باسس موضوعیة خارجیة.

۴- ذکرت الهدایة بعد الترکیة، للدلالة علی أنّ الترکیة مقدّمة و بمثابة الأرضیة المهیئة للهدایة.

۵- إنّ تعبیر «إلی ربّک» فی حقیقة تأکید علی أنّ من أهدیک إلیه هو مالکک و مربیک، فلم المیل عنه؟! ۶- «الخشیة» نتیجة للهدایة: وَ أَهْدِیَکَ إِلی رَبِّکَ فَتَخْشی و بما أنّ الخشیة لا تحصل إلّا بمعرفة حقّة، فتکون ثمرة شجرة الهدایة و التوحید هی الإحساس بالمسؤولیة الملقاة علی العواتق أمام جبار السماوات و الأرض، و لهذا تقول الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۶

(۲۸) من سورة فاطر: إِنَّما یَخْشَی اللَّهَ، مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۳۸۶

ابتدأ موسی علیه السّلام أسلوب دعوته بالهدایة العاطفیة ثمّ تدرج إلی الهدایة العقلیة و المنطقیة حتی أری فرعون الآیة الکبری.

و قد بیّن لنا البیان القرآنی أفضل طرق الدعوة و الإرشاد، حیث ینبغی إحاطة من یراد هدایته بالرعایة و العطف و تحسیسه بحسن نیّة الداعیة أو المرشد، و من ثمّ تأتی مرحلة الدلیل المنطقی و الحوار العلمی.

لكنّ فرعون المتجبّر قابل كلّ تلك المحبّة، اللطف، الدعوة بالحسنى و الآية الكبرى، قابل كلّ ذلك بالتجبّر الأعمى و الغرور الأبله: فَكَذَّبَ وَ عَصى

و كما يظهر من الآية المباركة فإنّ التكذيب مقدمة العصيان و مرحلة سابقة له، كما هو حال التصديق الإيمان باعتباره مقدّمة للطاعات.

و ازداد فرعون عتوّا: ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى ۴۳۱].

و قد هددت معجزة موسى عليه السّلام كل وجود فرعون الطاغوتى، ممّا دعاه لأن يبذل كل ما يملك من قدرة لأجل إبطال مفعول المعجزة، فتراه و قد أمر أتباعه و جنوده لجمع كلّ سحرة البلاد- على كثرتهم فى تلك الحقبة الزمنية- و نودى فى الناس بأمره ليشاهدوا مشهد إبطال المعجزة من قبل السحرة، و ليظهروا مثلها!!:

فَحَشَرَ فَنادى

مع أنّ كلمة «حشر» ذكرت بصورة مطلقة مبهمة، و لكننا نستطيع معرفة تفصيل الأمر من خلال الآيات القرآنية الاخرى، ففى الآيتين (۱۱۱ و ۱۱۲) من سورة الأعراف، يكمل تفصيل ذلك: وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ

و كذا الحال بالنسبة لكلمة «نادى»، فيمكننا التوصل لمعناها من خلال الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۷

(۳۹) من سورة الشعراء، و التى تناولت نفس الموضوع: وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ

و لم يكتف فرعون بكذبه و عصيانه، و مقاومته لدعوة الحق و الوقوف أمامها، بل و تعدى حدود المخلوق بصورة مفرطة جدّا، و افترى على اللّه و على نفسه بأقبح ادعاء، حينما ادعى نفسه الربوبية على شعبه و أمرهم بطاعته!: فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى

نعم .. فحينما يقبع المتجبّر فى عرش الغرور، و حينما تلّفه أمواج الأنانية المفرطة، حينها .. سيجرفه تيار الإفراط لأن يدعى لنفسه الربوبية، بل و يجره فقدان بصيرته، و انحسار فطرته بين ظلمات أنانيته لأن يدعى أنّه (ربّ الأرباب)!! و أوصل فرعون قولته إلى الناس ليخبرهم بأنّه لا يعارض ما لهم من أصنام يعبدونها، لكنّه فوقها جميعا فهو (المعبود الأعلى)! و ألطف ما فى الأمر، إنّ فرعون نفسه كان أحد عبدة الأصنام، بشهادة الآية (۱۲۷) من سورة الأعراف: أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ فادعاؤه بأنّه (الربّ الأعلى) قد سرى حكمه حتى على آلهته لتكون من عبيده! .. نعم، فهكذا هو هذيان الطواغيت.

و قد ادعى فرعون بأكثر من (ربّ الأرباب)، ليضيف إلى هذيان الطغاة حماقة، حينما ورد قوله فى الآية (۳۸) من سورة القصص: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ...

و على أيّة حال، فقد حلّ بفرعون منتهى التكبر و الطغيان، فأخذه جبّار السماوات و الأرض سبحانه أخذ عزيز مقتدر: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى ۴۳۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۸

«النكال»: لغة: العجز و الضعف. و يقال لمن يتخلف عن دفع ما استحق عليه (نكل). و (النكل)- على وزن فكر- القيد الشديد الذى يعجز معه الإنسان على عمل أىّ شيء.

و «نكال»: فى الآية يقال للعذاب الإلهى الذى يؤدى إلى عجز الإنسان، و يخيف الآخرين، فيعجزهم عن ارتكاب الذنب.

«نكال الآخرة»: عذاب جهنّم الذى سينال فرعون و أصحابه و من سار على خطوه، و «عذاب الاولى»: إشارة إلى إغراق فرعون و أصحابه فى نهر النيل.

و تقديم «نكال الآخرة» على عذاب الدنيا، لأهميته و شدّة بطشه.

و قيل: «الاولى»: تشير إلى كلمة فرعون الاولى فى مسير طغيانه حين ادّعى (الالوهية)، كما جاء فى الآية (۳۸) من سورة القصص.

و «الآخرة»: إشارة الى آخر كلمة نطق بها فرعون حين ادّعى (الرّبوبية العليا)، فعذّبه اللّه بالغرق فى الحياة الدنيا نتيجة ادّعاءيه الباطلين.

و قد أشیر لهذا المعنی فیما

روی عن الإمام الباقر علیه السّلام قوله: «إنّ الفترة ما بین قوله الاولی و الآخرة کانت أربعین عاما، و قد أخّر اللّه تعالی عذابه کلّ هذه المدّة إتماما للحجّة علیه»[۴۳۳].

و یوافق هذا المعنی صیغة الفعل الماضی الواردة فی الآیة «أخذ» و الذی یفهم منه تنفیذ کلّ العقاب فی الدنیا، و تعضده الآیة التالیة التی تعدّ العذاب عبرة للآخرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۹

و یستخلص القرآن نتیجة القصّة: إِنَّ فِی ذلِکَ لَعِبْرَةً لِمَنْ یَخْشی

فتبیّن الآیة بکلّ وضوح، إنّ وسائط سلک طریق الإعتبار مهیئة لمن سری فی قلبه الخوف و الخشیة من اللّه، و اعترته مشاعر الإحساس بالمسؤولیة، و من رأی العبرة بعین معتبرة اعتبر.

نعم .. فقد أغرق فرعون، و أهلک ملکه و دولته، و صار درسا شاخصا لکل فراعنة و طواغیت و مشرکی الزمان، و عبرة لمن سار علی نهجه الفاسد لکل عصر و مصر، و لا یجنی من سار علی خطاه سوی ما جنیت به یداه، و هی سنّة اللّه، و لا تغییر و لا تبدیل لسنّته جلّ شأنه.

***

بحث

بلاغة القرآن:

بنظرة ممعنة فی الآیات الإحدی عشر المبحوثة، تتجلی لنا ذروة فصاحة و بلاغة القرآن الکریم، فبعبارات موجزة و سریعة، عرضت قصّة موسی علیه السّلام مع فرعون و بتفصیل بیانی محکم، حیث تناولت: بیان سبب الرسالة، هدف دعوة الرسالة، وسائل التطهیر، کیفیة الدعوة، أسس مواجهة مخططات الأعداء، نماذج من الادعاءات الباطلة، و الانتقام من الطغاة ... فکل هذا و ما حمل بین ثنایاه من دروس حیّة للإنسانیة، قد ورد فی هذه الآیات القلیلة الموجزة!***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۰

الآیات [سورة النازعات (۷۹): الآیات ۲۷ الی ۳۳]

اشارة

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (۲۷) رَفَعَ سَمْکَها فَسَوَّاها (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَیْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (۲۹) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِکَ دَحاها (۳۰) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (۳۱)
وَ الْجِبالَ أَرْساها (۳۲) مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ (۳۳)

التّفسیر

اللمسات الرّبانیة فی عالم الطبیعة و نظام الکون:

ینتقل البیان القرآنی مرّة اخری إلی عالم القیامة، بعد ذکر تلک اللمحات البلاغیة فی قصّة موسی علیه السّلام مع فرعون، فیعرض صورا من قدرة اللّه المطلقة فی عالم الوجود، لیستدل به علی إمکان المعاد، و یشرح بعض النعم الإلهیة علی البشریة (التی لا تعدّ و لا تحصی)، لیحرک فیهم حس الشکر و الذی من خلاله یتوصلون لمعرفة اللّه.

و ابتدأ الخطاب باستفهام توبیخی (لمنکری المعاد) هل أنّ خلقکم (و إعادتکم إلی الحیاة بعد الموت) أصعب من خلق السماء: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۱

السَّماءُ بَناها[۴۳۴].

و الآیة فی واقعها جواب لما ذکر من قولهم فی الآیات السابقة: أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحافِرَةِ- أی هل یمکن أن نعود إلی حالتنا الاولی- فکلّ إنسان و مهما بلغت مدارکه و مشاعره من مستوی، لیعلم أنّ خلق السماء و ما یسبح فیها من نجوم و کواکب و مجرّات، لهو أعقد و أعظم من خلق الإنسان ... و إذا فمن له القدرة علی خلق السماء و ما فیها من حقائق، أ یعقل أن یکون عاجزا عن إعادة الحیاة مرّة اخری إلی الناس؟! و یضیف القرآن فی بیان خلق السماء، فیقول شارحا بتفصیل: رَفَعَ سَمْکَها فَسَوَّاها.

«سمک»:- علی وزن سقف- لغة: بمعنی الارتفاع، و جیئت بمعنی (السقف) أیضا، و علی قول الفخر الرازی فی تفسیره: إنّ الشیء المرتفع لو قیس ارتفاعه من الأعلی إلی الأسفل فالنتیجة تسمّی (عمق)، أمّا لو قیس الارتفاع من الأسفل إلی الأعلی فهو (سمک)[۴۳۵].

«سواها»: من (التسویة)، بمعنی التنظیم، و هی تشیر إلی دقّة التنظیم الحاکمة علی الأجرام السماویة، و إذا اعتبرنا «سمکها» بمعنی «سقفها»، فهی إشارة إلی الغلاف الجوی الذی حفّ و أحاط بالکرة الأرضیة کالسقف المحکم البناء، و الذی یحفظها من شدّة آثار الأحجار السماویة، و الشهب، و الأشعة الکونیة و الممیتة و المتساقطة علیها باستمرار.

و قیل: إنّ «سواها» إشارة إلی کرویة السماء و إحاطتها بالأرض، حیث أنّ التسویة هنا تعنی تساوی الفاصلة بین أجزاء هذا السقف نسبة إلی المرکز الأصلی (الأرض)، و لا یتحقق ذلک من دون کرویة الأرض و ما حولها (السماء).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۲

و قیل أیضا: إنّ الآیة تشیر إلی ارتفاع السماء و الأجرام السماویة و بعدها الشاسع عن الأرض، بالإضافة لإشارتها للسقف المحفوظ المحیط بالأرض.

و علی أیّة حال، فالآیة قد نهجت بذات سیاق الآیة (۵۷) من سورة المؤمن:

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَکْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ

ثمّ تنتقل بنا الآیة التالیة إلی إحدی الأنظمة الحاکمة فی هذا العالم الکبیر، الکبیر، (نظام النور و الظلمة)،: وَ أَغْطَشَ لَیْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها.

فلکلّ من النور و الظلمة دور أساس و مهم جدّا فی حیاة الإنسان و سائر الأحیاء من حیوان و نبات، فلا یتمکن الإنسان من الحیاة دون النور، لما له من ارتباط وثیق فی حرکة و إحساس و رزق و أعمال الإنسان، و کذا لا یتمکن من تکملة مشوار حیاته من غیر الظلمة، و التی تعتبر رمز الهدوء و السکینة.

«أغطش»: من (الغطش)، بمعنی الظلام، و لکنّ الراغب فی مفرداته یقول:

و أصله من «الأغطش» و هو الذی فی عینه شبه عمش.

«الضحی»: انبساط الشمس و امتداد النهار[۴۳۶].

و تنتقل بنا الآیة الاخری من السماء إلی الأرض، فتقول: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِکَ دَحاها.

«دحاها»: من «الدحو» بمعنی الانبساط، و فسّرها بعضهم: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِکَ دَحاها.

و للمعنیین أصل واحد، لوجود التلازم بینهما.

و یقصد بدحو الأرض، إنّها کانت فی البدایة مغطاة بمیاه الأمطار الغزیرة التی انهمرت علیها من مدّة طویلة، ثمّ استقرت تلک المیاه تدریجیا فی منخفضات الأرض، فشکلت البحار و المحیطات، فیما علت الیابسة علی أطرافها، و توسعت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۳

تدریجیا، حتی وصلت لما هی علیه الآن من شکل، (و حدث ذلک بعد خلق السماء و الأرض)[۴۳۷].

و بعد دحو الأرض، و إتمام صلاحیتها لسکنی و حیاة الإنسان، یأتی الحدیث فی الآیة التالیة عن الماء و النبات معا: أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها.

و یظهر من التعبیر القرآنی، إنّ الماء قد نفذ إلی دخل الأرض بادئ ذی بدء، ثمّ خرج علی شکل عیون و أنهار، حتی تشکلت منهما البحیرات و البحار و المحیطات.

«المرعی»: اسم مکان من (الرعی)[۴۳۸]، و هو حفظ و مراقبة امور الحیوان من حیث التغذیة و ما شابهها.

و لهذا، تستعمل کلمة (المراعاة) بمعنی المحافظة و المراقبة و تدبیر الأمور، و کلّ من یسوس نفسه أو غیره یسمّی (راعیا)، و لذا جاء فی الحدیث الشریف:

«کلکم راع و کلکم مسئول عن رعیته».

ثمّ ینتقل البیان القرآنی إلی «الجبال»، حیث ثمّة عوامل تلعب الدور المؤثر فی استقرار و سکون الأرض، مثل: الفیضانات، العواصف العاتیة، المدّ و الجزر، و الزلازل .. فکل هذه العوامل تعمل علی خلخلة استقرار الأرض، فجعل اللّه عزّ و جلّ «الجبال» تثبیتا للأرض، و لهذا تقول الآیة: وَ الْجِبالَ أَرْساها[۴۳۹].

«أرسی»: من (رسو)، بمعنی الثبات، و أرسی: فعل متعد، أی، ثبّت الجبال فی مواقعها.

و تلخص الآیة التالیة ما جاء فی الآیات السابقة: مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۴

نعم .. فالسماء رفعها.

خلق نظام النور و الظلمة.

دحی الأرض.

أخرج من الأرض ماء و نباتا.

أرسی الجبال لحفظ الأرض.

هیأ مستلزمات عیش الإنسان، و سخر له کلّ شیء.

کلّ ذلک، لیغرف الإنسان من نعم اللّه، و لکی لا یغفل عن طاعة اللّه و الوصول لساحة رضوانه جلّ شأنه.

و ما جاء فی الآیات یبرز قدرته سبحانه علی المعاد من جهة، و یدلل من جهة اخری علی وجود اللّه تعالی و عظمة شأنه، لیدفع المخلوق إلی الإذعان بسلامة سلک طریق معرفة اللّه و توحیده.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۵

الآیات [سورة النازعات (۷۹): الآیات ۳۴ الی ۴۱]

اشارة

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (۳۴) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (۳۵) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (۳۶) فَأَمَّا مَنْ طَغى (۳۷) وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (۳۸)

فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (۳۹) وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (۴۰) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (۴۱)

التّفسیر

التنزّه عن الهوى:

و تتجه عدسة آيات القرآن الكريم لتعرض لنا جوانبا من صور عالم القيامة، و تبدأ بتصوير تلك الداهية المذهلة التى تصيب من عبد أهواءه فى الحياة الدنيا:

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى ۴۴۰].

«الطامة»: من (الطم)- على زنة فنّ- و هو فى الأصل بمعنى ملء الفراغ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۶

و الحفر، و يطلق بالطامة على كلّ شىء بلغ حدّه الأعلى، و لهذا فقد أطلقت على الحوادث المرّة و الصعاب الكبار، و هى فى الآية تشير إلى يوم القيامة لما فيها من دواهى تغطى بهولها كلّ هول، و اتبعت ب «الكبرى» زيادة فى التأكيد على أهمية و خطورة يوم القيامة.

و يضيف: حال حلول الحدث ... سيفلت الجميع من نياط غفلتهم، و يتذكروا ما زرعوا لحياتهم: يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى

و أنى للتذكر بعد فوات الأوان! و إذا طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا و يتداركوا الأمر، فسيقرعون ب كَلَّا.

و إذا ما اعتذروا تائبين، فلا محيص عن ردّهم، بعد أن أوصدت أبواب التوبة بأمر الجبّار الحكيم.

و عندها: لا يبقى لهم إلّا الحسرة و الندامة، و الهم و الغم، و كما تقول الآية (۲۷) من سورة الفرقان: يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ

و ثمّة نكتة فى الآية ترتبط بصيغة الفعل «يتذكر»، فقد جاء الفعل مضارعا ليدل على استمرارية التذكر، فالإنسان أمام ذلك المنظر الرهيب، و قد أزيلت الحجب عن قلبه و روحه، سيرى الحقائق بعينها شاخصة أمامه، و لا ينسى حينها ما اكتسبت يداه من أعمال.

و تشخص الآية التالية ما سيقع: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى

فالجحيم موجودة، كما تشير إلى ذلك الآية (۵۴) من سورة العنكبوت: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ و لكن حجب الدنيا تمنعنا من رؤيتها، و أمّا فى يوم الفصل، يوم البروز، فسيبرز كلّ شىء و لا يستثنى من ذلك جهنّم.

و جملة «لمن يرى»، تشير إلى رؤية جهنّم من قبل الجميع بلا استثناء (الصالح و الطالح)، فهى غير خافية عن الأنظار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۷

و قيل: إنّها لمن سيكون له نظر فى يوم القيامة، لأنّ الآية (۱۲۴) من سورة طه قد صرّحت بأنّ البعض سيحشر أعمى: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى و يعتمد ستكون أكثر المفسّرين على التّفسير الأوّل لمناسبته للمقام، لأنّ رؤية جهنّم من قبل العاصين ستكون أكثر إيلاما لهم، إضافة إلى أنّ العمى المشار إليه، ربّما يكون فى موقف معين من مواقف يوم القيامة، و ليس دائما[۴۴۱].

و فى الآيات الثلاثة التالية، يشير القرآن إلى حال المجرمين و الطغاة يوم القيامة: فَأَمَّا مَنْ طَغى وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ

الْمَأْوى ۴۴۲].

و الآیة الاولی تشیر إلی فساد عقائد الطغاة، لأنّ الطغیان ینشأ من الغرور، و الغرور من نتائج عدم معرفة الباری جّل شأنه.

و بمعرفة عظمة و جلال اللّه یتصاغر الإنسان و یتصاغر حتی یکاد لا یری لنفسه أثرا، و عندها سوف لن تزل قدمه عن جادة العبودیة الحقة، ما دام سلوکه یصب فی رافد معرفة اللّه.

و الآیة الثانیة تشیر إلی فسادهم العملی، لأنّ الطغیان یوقع الإنسان فی شراک اللذائذ الوقتیة الفانیة ذروة الطموح و منتهی الأمل، فینساق واهما لأنّ یجعلها فوق کلّ شیء! و الأمران فی واقعهما کالعلة و المعلول، فالطغیان و فساد العقدة مفتاح فساد العمل و حبّ الدنیا المفرط، و لا یجران إلّا إلی سوء عقبی الدار، نار جهنّم خالدین فیها أبدا.

و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، أنّه قال: «و من طغی ضل علی عمل بلا حجّة»[۴۴۳]

، فالغرور یری صاحبه الهوی حقّ: علی الرغم من عدم امتلاکه الدلیل أو

الحجّة، و بالرغم من مخالفة المنطق له!.

و یأتی الدور فی الآیتین التالیتین لوصف أهل الجنّة: وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَوی فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِیَ الْمَأْوی

فالشرط الأوّل للحصول علی نعم الجنّة و الاستقرار بها هو الخوف من اللّه من خلال معرفته (معرفة اللّه و الخوف من التمرد و العصیان علی أوامره)، و الشرط الثانی هو ثمرة و نتیجة الشرط الأوّل أی الخوف و المعرفة و یتمثل فی السیطرة علی هوی النفس و کبح جماحها، فهوی النفس من أقبح الأصنام المعبودة من دون اللّه، لأنّه المنفذ الرئیسی لدخول معترک الذنوب و المفاسد، و لذا ف «أبغض إله عبد علی وجه الأرض: الهوی».

و هوی النفس هو الطابور الخامس فی قلب الإنسان، نعم ... فالشیطان الخارجی لا یتمکن من النفوذ إلی داخل الإنسان ما لم یوافقه الشیطان الداخلی فی منحاه، و یفتح له أبواب الدخول، کما تشیر إلی ذلک الآیة (۴۲) من سورة الحجر: إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ

***

ملاحظات

۱- مقام الرّب؟

جاء فی الآیة (۴۰) ... مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ..، و لم یقل (من خاف ربّه)،، فما ذا یقصد بهذا المقام؟

طرحت احتمالات عدیدة فی جواب السؤال المذکور:

۱- المقام: مواقف القیامة، و هی المقامات التی سیقف فیها الإنسان بین یدی ربّه للحساب، فسیکون «مقام ربّه»- علی ضوء هذا الاحتمال- بمعنی (مقامه عند ربّه).

۲- المقام: علم اللّه و مقام مراقبته للإنسان، بدلالة الآیة (۳۳) من سورة الرعد: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلی کُلِّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ

و بدلالة ما

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام: قوله: «من علم أنّ اللّه یراه، و یسمع ما یقول، و یعلم من خیر أو شرّ فیحجزه ذلک عن القبیح من الأعمال فذلک الذی خاف مقام ربّه و نهی النفس عن الهوی»[۴۴۴].

۳- مقام العدالة الإلهیة، لأنّ العبد لا یخاف من ذات اللّه المقدّسة بل خوفه من عدل اللّه حسابه و فی الحقیقة إنّ هذا الخوف ناشئ من قیاس أعماله بمیزان العدل، فالمجرمون ترتعد فرائصهم و تهتزّ دواخلهم حین رؤیة القاضی العادل، و لا یتحملون سماع اسم المحکمة و المحاکمة، بعکس من لم یقم بأی ذنب، فرؤیته للقاضی ستکون مغایرة لما داخل المجرم من إحساسات ... و لا تباین بین هذه التفسیرات الثلاثة، و یمکن ادغامها فی معنی الآیة.

۲- علاقة الطغیان بعبادة الدنیا

رسمت الآیات المبحوثة و بأسلوب رائع اصول سعادة و شقاء الإنسانیة، فجسدت بریشتها البیانیة زبدة تعالیم الأنبیاء و الأولیاء علیهم السلام.

فشقاء الإنسان یکمن فی طغیانه و عبادته لجواذب الدنیا، و سعادته فی خوفه من اللّه و ترکه ما یبعد عن ساحة رضوانه سبحانه و تعالی.

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام، أنّه قال: «إنّ أخوف ما أخاف علیکم اثنان: إتّباع الهوی و طول الأمل، فأمّا اتّباع الهوی فیصد عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فینسی الآخرة»[۴۴۵].

و ... هوی النفس: یضع حجابا علی عقل الإنسان، یزیّن له الأعمال القبیحة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۰

یشغل الإنسان بنفسه، یسلبه قدرة التمییز بین الصالح و الطالح و التی هی أعظم نعمة علی الإنسان، و بها یتمیزّ الإنسان عن الحیوان، و هذا هو ما أشارت إلیه الآیة (۱۸) من سورة یوسف فی و قول نبیّ اللّه یعقوب علیه السّلام لأولاده: بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً.

و باب الحدیث أوسع بکثیر من أن یلخص بوریقات، و لکننا سنکتفی بذکر حدیثین عن أئمّة الهدی من أهل البیت علیهم السّلام، لتناولهما مختلف جوانب الموضوع:

فعن الإمام الباقر علیه السّلام، أنّه قال: «الجنّة محفوفة بالمکاره و الصبر، فمن صبر علی المکاره فی الدنیا دحل الجنّة، و جهنّم محفوفة باللذات و الشهوات، فمن أعطی نفسه لذتها و شهوتها دخل النّار»[۴۴۶].

و

عن الإمام الصادق، أنّه قال: «لا تدع النفس و هواها، فإنّ هواها فی رداها، و ترک النفس و ما تهوی داؤها، و کفّ النفس عمّا تهوی دواؤها»[۴۴۷].

و لا یدخل اتباع الهوی جهنّم فقط، فله من الآثار السلبیة حتی فی الحیاة الدنیا، و من نتائجه: فقدان الأمن، و تخلخل النظام، و نشوب الحروب، و سفک الدماء، و إثارة النزاعات و الأحقاد ...

۳- فریقان لا ثالث لهما

تحدثت الآیات محل البحث عن فریقین من الناس، أمّا من طغی و عبد هواه فمأواه جهنّم خالدا فیها، و أمّا من اتقی و خاف مقام ربّه فالجنّة مأواه أبدا.

و ثمّة فریق ثالث لم تتطرق له الآیات، و هو المؤمنین الذین قصروا فی أداء بعض الأعمال و الوظائف، أو أصابهم بعض تلوثات هوی

النفس الأمارة بالسوء، فهؤلاء و إن كانوا فريقا ثالثا- حسب لظاهر- إلّا أنّهم سرعان ما يلتحقون بأحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۱

الفريقين، فأمّا من يحمل أرضية شموله بالعفو الإلهى فسيلتحق بركب المتقين، و أمّا من ثقلت كفة ذنوبه فسيحشر مع القابعين فى أودية النّار، و لكنها لا تكون مكانهم و مأواهم الأبدى.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۲

الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۴۲ الى ۴۶]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (۴۲) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (۴۳) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (۴۴) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (۴۵) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (۴۶)

التّفسير

يوما لقيامة: الوقت المجهول!

تتعرض الآيات أعلاه لإجابة المشركين و منكرى المعاد حول سؤالهم الدائم عن وقت قيام الساعة (يوم القيامة): فتقول أوّلا: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها[۴۴۸].

و القرآن فى مقام الجواب يسعى إلى إفهامهم بأنّه لا أحد يعلم بوقت وقوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۳

القيامة، و يوجه البارى خطابه إلى حبيبه الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بأنك لا تعلم وقت وقوعها، و يقول: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها.

فما خفّى عليك (يا محمّد)، فمن باب أولى أن يخفى على الآخرين، و العلم بوقت قيام القيامة من الغيب الذى اختصه اللّه لنفسه، و لا سبيل لمعرفة ذلك سواه إطلاقا! و كما قلنا، فسّر خفاء موعد الحق يرجع لأسباب تربوية، فإذا كان ساعة قيام القيامة معلومة فستحل الغفلة على جميع إذا كانت بعيدة، و بالمقابل ستكون التقوى اضطرارا و الورع بعيدا عن الحرية و الإختيار إذا كانت قريبة، و الأمران بطبيعتهما سيقتلان كلّ أثر تربوى مرجو.

و ثمّة احتمالات اخرى قد عرضها بعض المفسّرين، و منها: إنّك لم تبعث لبيان وقت وقوع يوم القيامة، و إنّما لتعلن و تبيّن وجودها (و ليس لحظة وقوعها).

و منها أيضا: إنّ قيامك و ظهورك مبيّن و كاشف عن قرب وقوع يوم القيامة بدلالة ما

روى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما جمع بين سبابتيه و قال: «بعثت أنا و القيامة كهاتين»[۴۴۹]

و لكنّ التّفسير الأوّل أنسب من غيره و أقرب.

و تقول الآية التالية: إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها.

فاللّه وحده هو العالم بوقت موعدها دون غيره و لا فائدة من الخوض فى معرفة ذلك.

و يؤكّد القرآن هذا المعنى فى الآيتين: (۳۴) من سورة لقمان: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، و فى الآية (۱۸۷) من سورة الأعراف: قُلْ إِنَّما

عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی

و قیل: المراد بالآیة، تحقق القیامة بأمر اللّه، و یشیر هذا القول إلی بیان علّة ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۴

ورد فی الآیة السابقة، و لا مانع من الجمع بین التّفسیرین.

و تسهم الآیة التالیة فی التوضیح: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ یَخْشاها.

إنّما تکلیفک هو دعوة الناس إلی الدین الحقّ، و إنذار من لا یأبی بعقاب أخروی ألیم، و ما علیک تعیین وقت قیام الساعة.

مع ملاحظة، أنّ الإنذار الموجه فی الآیة فیمن یخاف و یخشی و عقاب اللّه، هو یشابه الموضوع الذی تناولته الآیة (۲) من سورة البقرة: ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ

و یشیر البیان القرآنی إلی أثر الدافع الذاتی فی طلب الحقیقة و تحسس المسؤولیة الملقاة علی عاتق الإنسان أمام خالقه، فإذا افتقد الإنسان إلی الدافع المحرک فسوف لا یبحث فیما جاءت به کتب السماء، و لا یستقر له شأن فی أمر المعاد، بل و حتی لا یستمع لإنذارات الأنبیاء و الأولیاء علیهم السّلام.

و تأتی آخر آیة من السورة لتبیّن أنّ ما تبقی من الوقت لحلول الوعد الحق لیس إلّا قلیلا: کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَها لَمْ یَلْبَثُوا إِلَّا عَشِیَّةً أَوْ ضُحاها.

فعمر الدنیا و حیاة البرزخ من السرعة فی الانقضاء لیکاد یعتقد الناس عند وقوع القیامة، بأنّ کلّ عمر الدنیا و البرزخ ما هو إلّا سویعات معدودة! و لیس ببعید .. لأنّ عمر الدنیا قصیر بذاته، و لیس من الصواب أن نقایس بین زمنی الدنیا و الآخرة، لأنّ الفانی لیس کالباقی.

«عشیّة»: العصر. و «الضحی»: وقت انبساط الشمس و امتداد النهار.

و قد نقلت الآیات القرآنیة بعض أحادیث المجرمین فی یوم القیامة، فیما یختص بمدّة لبثهم فی عالم البرزخ ..

فتقول الآیة (۱۰۳) من سورة طه: یَتَخافَتُونَ بَیْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً، و یَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِیقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا یَوْماً.

و تقول الآیة (۵۵) من سورة الروم: وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۵

لَبِثُوا غَیْرَ ساعَةٍ.

و اختلاف تقدیرات مدّة اللبث، یرجع لاختلاف القائلین، و کلّ منهم قد عبّر عن قصر المدّة حسب ما یتصور، و القاسم المشترک لکلّ التقدیرات هو أنّ المدّة قصیرة جدّا و یکفی طرق باب هذا الموضوع بإیقاظ الغافل من خدره.

اللّهمّ! هب لنا الأمن و السلامة فی العوالم الثلاث، الدنیا و البرزخ و القیامة ...

یا ربّ! لا ینجو من عقاب و شدائد یوم القیامة إلّا من رحمته بلطفک، فاشملنا بخاصة لطفک و رحمتک ..

إلهی! اجعلنا ممن یخاف مقامک و ینهی نفسه عن الهوی، و لا تجعل لنا غیر الجنّة مأوی ..

آمین ربّ العالمین نهایة سورة النّازعات***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۷

سورة عبس

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها اثنتان و أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۹

«سورة عبس»

محتوى السورة:

تبحث هـذه السورة على قصـرها مسائـل مختلفـة مهمّـة تـدور بشـكل خـاص حول محور المعـاد، و یمکن ادراج محتویات السورة فی خمسة مواضیع أساسیة.

۱- عتاب إلهی شدید لمن واجه الأعمى الباحث عن الحقّ بأسلوب غیر لائق.

۲- أهمیة القرآن الکریم.

۳- کفران الإنسان للنعم و المواهب الإلهیة.

۴- بیان جانب من النعم الإلهیة فی مجال تغذیة الإنسان و الحیوان لاثارة حسّ الشکر فی الإنسان.

۵- الإشارة إلى بعض الوقائع و الحوادث الرهیبة و مصیر المؤمنین و الکفّار ذلک الیوم العظیم.

و تسمیة هذه السورة بهذا الاسم بمناسبة الآیة الاولى منها.

فضیلة السورة:

ورد فی الحدیث النّبوی الشریف أنّ: «من قرأ سورة «عبس» جاء یوم القیامة و وجهه ضاحک مستبشر»[۴۵۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۰

الآیات [سورة عبس (۸۰): الآیات ۱ الى ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
عَبَسَ وَ تَوَلَّى (۱) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (۲) وَ ما یُدْرِیکَ لَعَلَّهُ یَزَّکَّى (۳) أَوْ یَذَّکَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّکْرى (۴)
أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (۶) وَ ما عَلَیْکَ أَلاَّ یَزَّکَّى (۷) وَ أَمَّا مَنْ جاءَکَ یَسْعى (۸) وَ هُوَ یَخْشى (۹)
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (۱۰)

سبب النّزول

تبیّن الآیات المبارکـة عتاب اللّه تعالى بشـکل إجمالی، عتابه لشـخص قـدّم المال و المکانـة الاجتماعیـة على طلب الحق ... أمّا من هو المعاتب؟ فقد اختلف فیه المفسّرون، لکنّ المشهور بین عامّة المفسّرین و خاصتهم، ما یلی:
إنّها نزلت فی عبـد اللّه بن ام مکتوم، إنّه أتى رسول اللّه صـلّى اللّه علیه و آله و سـلّم و هو یناجی عتبـة بن ربیعة و أبا جهل بن هشام و العبـاس بن عبـد المطلب و أبی و امیّـة بن خلـف یـدعوهم إلى اللّه و یرجو إسـلامهم (فـإنّ فی إسـلامهم إسـلام جمع من أتبـاعهم، و کـذلک توقف عدائهم و محاربتهم للإسـلام و المسـلمین)، فقال: یا رسول اللّه، أقرئنی و علمنی ممّا علمک اللّه، فجعل ینادیه و یکرر النداء و لا یدری أنّه مشتغل مقبل على غیره، حتى ظهرت الکراهة فی وجه رسول اللّه لقطعه کلامه، و قال فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۱

نفسه: یقول هؤلاء الصنادید، إنّما أتباعه العمیان و العبید، فأعرض عنه و أقبل علی القوم الذین یکلمهم، فنزلت الآیة.

و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد ذلک یکرمه، و إذا رآه

قال: «مرحبا بمن عاتبنی فیه ربّی»، و یقول له: «هل لک من حاجة».

و استخلفه علی المدینة مرّتین فی غزوتین [۴۵۱].

و الرأی الثّانی فی شأن نزولها: ما

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إنّها نزلت فی رجل من بنی امیّة، کان عند النّبی، فجاء ابن ام مکتوم، فلما رآه تقذر منه و جمع نفسه عبس و أعرض بوجهه عنه، فحکی اللّه سبحانه ذلک، و أنکره علیه»[۴۵۲].

و قد أیّد المحقق الإسلامی الکبیر الشریف المرتضی الرأی الثّانی.

و الآیة لم تدل صراحة علی أنّ المخاطب هو شخص النّبی الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لکنّ الآیات (۸- ۱۰) فی السورة یمکن أن تکون قرینة، حیث تقول: وَ أَمَّا مَنْ جاءَکَ یَسْعی وَ هُوَ یَخْشی فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّی و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خیر من ینطبق علیه هذا الخطاب الربّانی.

و یحتجّ الشریف المرتضی علی الرأی الأوّل، بأنّ ما فی آیة عَبَسَ وَ تَوَلَّی لا یدل علی أنّ المخاطب هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، حیث أنّ العبوس لیس من صفاته مع أعدائه، فکیف به مع المؤمنین المسترشدین! و وصف التصدّی للأغنیاء و التلهی عن الفقراء ممّا یزید البون سعة، و هو لیس من أخلاقه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الکریمة، بدلالة قول اللّه تعالی فی الآیة (۴) من سورة (ن)، و التی نزلت قبل سورة عبس، حیث وصفه الباری: وَ إِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِیمٍ

و علی فرض صحة الرأی الأوّل فی شأن النزول، فإنّ فعل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الحال هذه لا یخرج من کونه (ترکا للأولی)، و هذا ما لا ینافی العصمة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۲

و للأسباب التالیة:

أوّلا: علی فرض صحة ما نسب إلی النّبی فی إعراضه عن الأعمی و إقباله علی شخصیات قریش، فإنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بفعله ذلک لم یقصد سوی الإسراع فی نشر الإسلام عن هذا الطریق، و تحطیم صف أعدائه.

ثانیا: إنّ العبوس أو الانبساط مع الأعمی سواء، لأنّه لا یدرک ذلک، و بالإضافة إلی ذلک فإنّ «عبد اللّه بن ام مکتوم» لم یراع آداب المجلس حینها، حیث أنّه قاطع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرارا فی مجلسه و هو یسمعه یتکلم مع الآخرین، و لکن بما أنّ اللّه تعالی یهتم بشکل کبیر بأمر المؤمنین المستضعفین و ضرورة اللطف معهم و احترامهم فإنّه لم یقبل من رسوله هذا المقدار القلیل من الجفاء و عاتبه من خلال تنبیهه علی ضرورة الاعتناء بالمستضعفین و معاملتهم بکل لطف و محبّة.

و یمثل هذا السیاق دلیلا علی عظمة شأن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فالقرآن المعجز قد حدد لنبیّ الإسلام الصادق الأمین أرفع مستویات المسؤولیة، حتی عاتبه علی أقل ترک للأولی (عدم اعتنائه الیسیر برجل أعمی)، و هو ما یدلل علی أنّ القرآن الکریم کتاب إلهی و أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم صادق فیه، حیث لو کان الکتاب من عنده (فرضا) فلا داعی لاستعتاب نفسه ...

و من مکارم خلقه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- کما ورد فی الروایة المذکورة- إنّه کان یحترم عبد اللّه بن ام مکتوم، و کلما رآه تذکر العتاب الرّبانی له.

و قد ساقت لنا الآیات حقیقة أساسیة فی الحیاة للعبرة و التربیة و الاستهداء بها فی صیاغة مفاهیمنا و ممارستنا، فالرجل الأعمی الفقیر المؤمن أفضل من الغنی المتنفذ المشرک، و أنّ الإسلام یحمی المستضعفین و لا یعبأ بالمستکبرین.

و نأتی لنقول ثانیة: إنّ المشهور بین المفسّرین فی شأن النّزول، هو نزولها فی شخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لکن لیس فی

الآية ما يدل بصراحة على هذا المعنى.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۳

التّفسير

عتاب ربّانى!

بعد أن تحدثنا حول شأن نزول الآيات، ننتقل إلى تفسيرها:

يقول القرآن أولا: عَبَسَ وَ تَوَلَّى

لماذا؟: أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى

وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى و يطلب الإيمان و التقوى و التزكية.

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى فإن لم يحصل على التقوى، فلا أقل من أن يتذكر و يستيقظ من الغفلة، فتنفعه ذلك [۴۵۳].

و يستمر العتاب ...: أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى من اعتبر نفسه غنيا و لا يحتاج لأحد.

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى تتوجّه إليه، و تسعى فى هدايته، فى حين أنّه مغرور لما أصابه من الثروة و الغرور يولد الطغيان و التكبر، كما أشارت لهذا الآيتان (۶ و ۷) من سورة العلق: ... إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى [۴۵۴] وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى أى فى حين لو لم يسلك سبيل التقوى و الإيمان، فليس عليك شىء.

فوظيفتك البلاغ، سواء أمن السامع أم لم يؤمن، و ليس لك أن تهمل الأعمى الذى يطلب الحقّ، و إن كان هدفك أوسع ليشمل هداية كلّ أولئك الأغنياء المتحجرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۴

و تأتى العتاب مرّة اخرى تأكيدا: وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى فى طلب الهداية ...

وَ هُوَ يَخْشى [۴۵۵]، فخشيته من اللّه هى التى دفعته للوصول إليك، كى يستمع إلى الحقائق ليزكّى نفسه فيها، و يعمل على مقتضاها.

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى [۴۵۶].

و يشير التعبير ب «أنت» إلى أنّ التغافل عن طالبى الحقيقة، و مهما كان يسيرا، فهو ليس من شأن من مثلك، و إن كان هدفك هداية الآخرين، فبلحاظ الأولويات، فإنّ المستضعف الظاهر القلب و المتوجه بكلّه إلى الحقّ، هو أولى من كلّ ذلك الجمع المشرك.

و على أيّة حال: فالعتاب سواء كان موجه إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو إلى غيره، فقد جاء ليكشف عن اهتمام الإسلام أو القرآن بطالبى الحق، و المستضعفين منهم بالذات.

و على العكس من ذلك حدّة و صرامة موقف الإسلام و القرآن من الأثرياء المغرورين إلى درجة أنّ اللّه لا يرضى بإيذاء رجل مؤمن مستضعف.

و علّة ذلك، إنّ الطبقة المحرومة من الناس تمثل: السند المخلص للإسلام دائما ... الأتباع الأوفياء لأئمّة دين الحق، المجاهدين الصابرين فى ميدان القتال و الشهادة، كما تشير إلى هذا المعنى

رسالة أمير المؤمنين عليه السّلام لمالك الأشتر: «و إنّما عماد الدين و جماع المسلمين و العدّة للأعداء العامّة من الأئمّة، فليكن صغوك لهم و ميلك معهم»[۴۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۵

الآیات [سورة عبس (۸۰): الآیات ۱۱ الی ۲۳]

اشارة

کَلَّا إِنَّها تَذْکِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ (۱۲) فِی صُحُفٍ مُکَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴) بِأَیْدِی سَفَرَةٍ (۱۵)
کِرامٍ بَرَرَةٍ (۱۶) قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَکْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَیِّ شَیْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹) ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ (۲۰)
ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) کَلَّا لَمَّا یَقْضِ ما أَمَرَهُ (۲۳)

التّفسیر

تأتی هذه الآیات المبارکة لتشیر إلی أهمیة القرآن و طهارته و تأثیره فی النفوس، بعد أن تناولت الآیات التی سبقتها موضوع (الإعراض عن الأعمی الذی جاء لطلب الحق)، فتقول کَلَّا فلا ینبغی لک أن تعید الکرّة ثانیة.

إِنَّها تَذْکِرَةٌ، إنّما الآیات القرآنیة تذکرة للعباد، فلا ینبغی الإعراض عن المستضعفین من ذوی القلوب النقیة الصافیة و التوجه إلی المستکبرین، أولئک الذین ملأ الغرور نفوسهم المریضة.

و یحتمل أیضا، کون الآیات، کَلَّا إِنَّها تَذْکِرَةٌ جواب لجمیع التهم الموجهة ضد القرآن من قبل المشرکین و أعداء الإسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۶

و فتقول الآیة: إنّ الأباطیل و التهم الزائفة التی افتریتم بها علی القرآن من کونه شعر أو سحر أو نوع من الکهانة، لا یمتلک من الصحة شیئا، و إنّما الآیات القرآنیة آیات تذکرة و إیمان، و دلیلها فیها، و کلّ من اقترب منها سیجد أثر ذلک فی نفسه (ما عدا المعاندین).

و تشیر الآیة التالیة إلی اختیاریة الهدایة و التذکّر: فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ ۴۵۸].

نعم، فلا- إجبار و لا إکراه فی تقبل الهدی الرّبانی، فالآیات القرآنیة مطروحة و أسمعت کلّ الآذان، و ما علی الإنسان إلّا أن یستفید منها أو لا یستفید.

ثمّ یضیف: أنّ هذه الکلمات الإلهیة الشریفة مکتوبة فی صحف (ألواح و أوراق): فِی صُحُفٍ مُکَرَّمَةٍ.

«الصحف»: جمع (صحیفة) بمعنی اللوح أو الورقة، أو أیّ شیء یکتب علیه.

فالآیة تشیر إلی أنّ القرآن قد کتب علی ألواح من قبل أن ینزّل علی النبیّ الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و وصلت إلیه بطریق ملائکة الوحی، و الألواح بطبیعتها جلیلة القدر و عظیمة الشأن.

و سیاق الآیة و ارتباطها مع ما سبقها من آیات و ما سیلیها: لا- ینسجم مع ما قیل من أنّ المقصود بالصحف هنا هو، کتب الأنبیاء السابقین.

و کذا الحال بالنسبة لما قیل من کون «اللوح المحفوظ»، لأنّ «اللوح و المحفوظ» لا- یعبر عنه بصیغة الجمع، کما جاء فی الآیة: «صحف».

و هذه الصحف المکرمة: مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ.

فهی مرفوعة القدر عند اللّه، و أجلّ من أن تمتد إلیها أیدی العابثین و ممارسات المحرّفین، و لکونها خالیة من قذارة الباطل، فهی أطهر من أن تجد فیها أثرا لأیّ تناقض أو تضاد أو شک أو شبهة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۷

و هى كذلك: بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، سفراء من الملائكة.

و هؤلاء السفراء: كِرامٍ بَرَرَةٍ.

«سفرة»: جمع (سافر) من (سفر) على وزن (قمر)، و لغة: بمعنى كشف الغطاء عن الشيء، و لذا يطلق على الرسول ما بين الأقوام (السفير) لأنّه يزيل و يكشف الوحشة فيما بينهم، و يطلق على الكاتب اسم (السافر)، و على الكتاب (سفر) لما يقوم به من كشف موضوع ما و عليه ... فالسفرة هنا، بمعنى: الملائكة الموكلين بإيصال الوحى الإلهى إلى النّبى، أو الكاتبين لآياته.

و قيل: هم حفّاظ و قرّاء و كتّاب القرآن و العلماء، الذين يحافظون على القرآن من أيدى العابثين و تلاعب الشياطين فى كلّ عصر و مصر.

و يبدو هذا القول بعيدا، لأنّ الحديث فى الآيات كان يدور حول زمان نزول الوحى على صدر الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ليس عن المستقبل.

و ما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام، فى و قوله: «الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة»[۴۵۹].

بجعل الحافظين للقرآن العاملين به فى درجة السفرة الكرام البررة، فليسوا هم السفرة بل فى مصافهم، لأنّ جلالة مقام حفظهم و عملهم، يماثل ما يؤديه حملة الوحى الإلهى.

و نستنتج من كلّ ما تقدم: بأنّ من يسعى فى حفظ القرآن و إحياء مفاهيمه و أحكامه ممارسة، فله من المقام ما للكرام البررة.

«كرام»: جمع (كريم)، بمعنى العزيز المحترم، و تشير كلمة «كرام» فى الآية إلى عظمة ملائكة الوحى عند اللّه و علو منزلتهم.

و قيل: «كرام»: إشارة إلى طهارتهم من كلّ ذنب، بدلالة الآيتين (۲۶ و ۲۷) من سورة الأنبياء: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۸

«بررة»: جمع (بار)، من (البرّ)، بمعنى التوسع، و لذا يطلق على الصحراء الواسعة اسم (البر)، كما يطلق على الفرد الصالح اسم (البار) لوسعة خير و شمول بركاته على الآخرين.

و «البررة»: فى الآية، بمعنى: إطاعة الأمر الإلهى، و الطهارة من الذنوب.

و من خلال ما تقدم تتوضح لنا ثلاث صفات للملائكة.

الاولى: إنّهم «سفرة» حاملين وحيه جلّ شأنه.

الثّانية: إنّهم أعزاء و مكرمون.

الثالثة: طهرة أعمالهم عن كلّ تقاعس أو مفسدة.

و على الرغم من توفير مختلف وسائل الهداية إلى اللّه، و منها ما فى صحف المكرمة من تذكير و توجيه .. و لكنّ الإنسان يبقى عنيدا متمردا: قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ ۴۶۰].

«الكفر»: فى هذا الموضوع قد يحتمل على ثلاثة معان ... عدم الإيمان، الكفران و عدم الشكر ... جحود الحق و ستره بأىّ غطاء كان و على كلّ المستويات، و هو المعنى الجامع و المناسب للآية، لأنّها تعرضت لأسباب الهداية و الإيمان، فيما تتحدث الآيات التى تليها عن بيان النعم الإلهية التى لا تعد و لا تحصى.

قُتِلَ الْإِنْسانُ كناية عن شدّة غضب البارى جلّ و علا، و زجره لمن يكفر بآياته.

ثمّ يتعرض البيان القرآنى إلى غرور الإنسان الواهى، و الذى غالبا ما يوقع صاحبه فى هاوية الكفر و الجحود السحيقة: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۹

لقـد خلقه من نطفـۀ قـذرۀ حقیرۀ، ثمّ صـنع منه مخلوقـا موزونا مسـتویا قـدّر فیه جمیع أموره فی مختلف مراحل حیاته: مِنْ نُطْفَـۀٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ

فلم لا یتفکر الإنسان بأصل خلقته؟! لم ینسـی تفاهۀ مبدأه؟! ألّا یجدر به أن یتأمل فی قدرۀ الباری سبحانه، و کیف جعله موجودا بدیع الهیئۀ و الهیکل من تلک النطفۀ الحقیرۀ القذرۀ!! ألا یتأمل!! ..

فالنظرۀ الفاحصـۀ الممعنـۀ فی خلق الإنسان من نطفـۀ قـذرۀ و تحویله إلی هیئته التامّـۀ المقدرۀ من کافۀ الجهات، و مع ما منحه اللّه من مواهب و استعدادات ... لأفضل دلیل یقودنا بیسر إلی معرفته جلّ اسمه.

«قدّره»: من (التقدیر)، و هو الحساب فی الشـیء ... و کما بات معلوما أنّ أکثر من عشـرین نوعا من الفلزات و أشباه الفلزات داخلۀ فی الترکیب (البیولوجی) للإنسان، و لکلّ منها مقدارا معینا و محسوبا بدقّۀ متناهیۀ من حیث الکمیۀ الکیفیۀ، بل و یتجاوز التقدیر حدّ البناء الطبیعی للبـدن لیشـمل حتی الاسـتعدادات و الغرائز و المیول المودعـۀ فی الإنسان الفرد، بل و فی المجموع العام للبشـریۀ، و قد وضـع الحساب فی مواصفات تکوینیۀ لیتمکن الإنسان بواسطتها من الوصول إلی السعادۀ الإنسانیۀ المرجوۀ.

و تتجلّی عظمـۀ تقدیر الخالق سـبحانه فی تلک النطفۀ الحقیرۀ القذرۀ التی تتجلّی بأبهی صورها جمالا و جلالا، حیث لو جمعنا الخلایا الأصلیۀ للإنسان (الحیامن) لجمیع البشر، و وضعناها فی مکان واحد، لکانت بمقدار حمصۀ! نعم ...

فقد أودعت فی هذا المخلوق العاقل الصغیر کلّ هذه البدائع و القابلیات.

و قیل: التقدیر بمعنی التهیئۀ.

و ثمّۀ احتمال آخر، یقول التقدیر بمعنی إیجاد القدرۀ فی هذه النطفۀ المتناهیۀ فی الصغر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۰

فما أجلّ الإله الـذی جعل فی موجود ضـعیف کلّ هـذه القـدرۀ و الاسـتطاعۀ، فتری النطفـۀ بعـد أن تتحول إلی الإنسان تسیر و تتحرک بین أقطار السماوات و الأرض، و تغوص فی أعماق البحار و قد سخرت لها کلّ ما یحیط بها من قوی [۴۶۱].

و لا مانع من الأخذ بالتفاسیر الثلاث جملۀ واحدۀ.

و یستمر القرآن فی مشوار المقـال: ثُمَّ السَّبِیـلَ یَسَّرَهُ ... یسّـِر له طریق تکـامله حینمـا کان جنینا فی بطن امّه، یسّـِر له سبیل خروجه إلی الحیاۀ من ذلک العالم المظلم.

و من عجیب خلق الإنسان أنّه قبل خروجه من بطن امّه یکون علی الهیئۀ التالیۀ: رأسه إلی الأعلی و رجلیه إلی الأسـفل، و وجهه متجها صوب ظهر امّه، و ما أن تحین ساعـۀ الولادۀ حتی تنقلب هیئـۀ فیصـبح رأسه إلی الأسـفل کی تسـهل و تیسّـِر ولادته! و قد تشذ بعض حالات لولادۀ، بحیث یکون الطفل فی بطن امّه فی هیئۀ مغایرۀ للطبیعۀ، ممّا تسبب کثیر من السلبیات علی وضع الام عموما.

و بعـد ولادته: یمرّ الإنسان فی مرحلـۀ الطفولـۀ التی تتمیز بنموه الجسـمی، ثمّ مرحلـۀ نمو الغرائز، فالرشـد فی مسیر الهدایـۀ الایمانیۀ و الروحیۀ، و یساهم العقل و دعوۀ الأنبیاء و الأوصیاء علیهم السّلام فی ترکیز معالم شخصیۀ و بناء الإنسان و رحیا و إیمانیا.

و بلاغۀ بیان القرآن قد جمعت کلّ ذلک فی جملۀ واحدۀ: ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ

و الملفت للنظر أنّ الآیـۀ المبارکۀ تؤکّد علی حریۀ اختیار الإنسان حین قالت أنّ اللّه تعالی یسّـِر و سـهّل له الطریق الی الحق، و لم تقل أنّه تعالی أجبره علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۱

سلوک ذلک الطریق.

و تشیر الآیۀ التالیۀ إلی الأمر الحتمی الذی به تطوی آخر صفحات مشوار الحیاۀ الدنیا: ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ

و من المعلوم أنّ «الإماتـة» من اللّه تعالى و الدفن على ظاهره من عمل الإنسان، و لمّا كانت عملية الدفن تحتاج إلى نسبة من الذكاء و العقل بالإضافة إلى توفر بعض المستلزمات الضرورية لذلك، فقد نسب الدفن «فأقبره» إلى اللّه تعالى.

و قيل: نسب اللّه ذلك إليه، باعتبار تهيئة الأرض قبرا للإنسان.

قيل: تمثل الآية حكما شرعيا، و أمرا إلهيا فى دفن الأموات.

و على أيّة حال، فالدفن من عناية و لطف و تكريم اللّه للإنسان، فلولا أمره سبحانه بالدفن لبقيت أجساد الإنسان الميتة على الأرض و تكون عرضة للتعفن و التفسخ و طعما للحيوانات الضارية و الطيور الجارحة، فيكون الإنسان و الحال هذه فى موضع الذّلة و المهانة، و لكنّ لطف البارى عزّ و جلّ على الإنسان فى حياته و بعد مماته أوسع ممّا يلتفت فيه الإنسان لنفسه أيضا.

و حكم دفن الأموات (بعد الغسل و التكفين و الصلاة)، يبيّن لنا ... إنّه ينبغى على الإنسان أن يكون طاهرا محترما فى موته، فكيف به يا ترى و هو حيّ؟! و ذكر الموت فى الآية باعتباره نعمة ربّانية، أضفى بها البارى على الإنسان ..

و بنظرة تأملية فاحصة سنجد حقيقة ذلك، فالموت فى حقيقة عبارة عن:

أوّلا: مقدمة للخلاص من أتعاب و صعاب هذا العالم، و الانتقال إلى عالم أوسع.

ثانيا: فسح المجال لتعاقب الأجيال على الحياة الدنيا لمتابعة مشوار التكامل البشرى بصورة عامّة، و لولا الموت لضاقت الأرض بأهلها، و لما كان ممكنا أن تستمر عجلة الحياة على الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۲

و أشارت الآيات (۲۶- ۲۸) من سورة الرحمن إلى نعمة الموت، بالقول:

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ! فالموت على ضوء الآية المباركة من مفردات النعم الكبيرة للبارى جلّ شأنه على البشرية.

نعم .. فالدنيا و جميع ما تحويه من نعم ربّانية لا تتعدى كونها سجن المؤمن، و الخروج منها إطلاق سراح من هذا السجن الكئيب.

و إذا كانت النعم سببا لوقوع الإنسان فى غفلة عن اللّه، فالموت خير رادع لا- يقاظه و تحذيره من الوقوع فى ذلك الشرك، فهو و الحال هذه نعمة جليلة الشأن.

أضف إلى ذلك كلّه، إنّ الحياة لو دامت فسوف لا- يجنى الإنسان منها سوى الملل و التعب، فهى ليست كالآ-خرة التى تحمل بين ثناياها النشاط و السعادة الأبدية.

و ينتقل البيان القرآنى إلى يوم القيامة: ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ

«أنشره»: من (النشر)، بمعنى الانبساط بعد الجمع، فالكلمة تشير بأسلوب بلاغى رائع إلى جمع كلّ حياة الإنسان عند الموت لتنشر فى محيط أكبر و أعلى (يوم القيامة).

و مع أنّ الآية السابقة لم تشر إلى مشيئة اللّه فى عمليتى الموت و الإقبار ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ إلّا أنّ «النشر» قد اقترن بمشيئته سبحانه فى الآية المبحوثة ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ .. يمكن حمل ذلك على كون إشارة لعدم معرفة أىّ مخلوق بوقت حدوث يوم القيامة، و أمّا الموت فهو معروف إجمالا، حيث كلّ إنسان يموت بعد عمر طبيعى.

و تأتى الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة لتبيّن لنا ما يؤول إليه الإنسان من ضياع فى حال عدم اعتباره بكلّ ما أعطاه اللّه من المواهب، فالرغم من حتمية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۳

تسلسل حياة الإنسان من نطفة حقيرة، مرورا بما يطويه من صفحات الزمن العابرة، حتى يموت و يقبر، لكنّه .. كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ [۴۶۲].

جاءت «لمّا»- التى عادة ما يستعمل للنفى المصاحب لما ينتظر و يتوقع- كإشارة إلى ما وضع تحت اختيار و عين الإنسان من نعم إلهية و هداية ربّانية و أسباب التذكير، لأجل أن يرجع الإنسان إلى ما فطر عليه و يؤدى ما عليه من مسئولية و تكاليف، و لكنّه مع كلّ ذلك فلا زال غير مؤد لما عليه! و ثمّة احتمالات فيمن عنتهم الآية:

الأوّل: إنّهم السائرون فى طريق الكفر و النفاق، إنكار الحق، الظلم و العصيان، بقرينة الآية (۳۴) من سورة إبراهيم: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

الثّانى: إنّهم جميع البشر .. لأنّ المؤمن و الكافر يلتقون معا فى عدم بلوغهما لدرجة العبودية الحقة و الطاعة الكاملة التى تليق بجلالة و عظمة و لطف البارى جلّ شأنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۴

الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۲۴ الى ۳۲]

اشارة

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (۲۴) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا (۲۹) وَ حَدائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (۳۱) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۲)

التّفسير

فلينظر الإنسان إلى طعامه:

تحدثت الآيات السابقة حول مسألة المعاد، و الآيات القادمة تتناول نفس الموضوع بشكل أوضح، و يبدو أنّ الآيات المبحوثة- و انسياقا مع ما قبلها و ما بعدها- تتطرق لذات لبحث تبيّن مفردات قدرة البارى جلّ شأنه على كلّ شيء كدليل على إمكان تحقق المعاد، فما يقرّب إمكانية القيامة إلى الأذهان هو إحياء الأراضى الميتة بإنزال المطر عليها، العملية تمثل إحياء بعد موت مختصة فى عالم النبات.

ثمّ إنّ البيان القرآنى فى الآيات أعلاه قد طرح بعض مفردات الأغذية التى جعلها اللّه تحت تصرف الإنسان و الحيوان، لتثير عند الإنسان الإحساس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۵

بضرورة شكر المنعم الواهب، و هذا الإحساس بدوره سيدفع الإنسان ليتقرب فى معرفة بارئه و مصوّره.

و شرعت الآيات بقولها: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ ۴۶۳] كيف خلقه اللّه تعالى؟! الغذاء من أقرب الأشياء الخارجية من الإنسان و أحد العوامل الرئيسية فى بناء بدنه، و لولاه لتقطّعت أنفاس الإنسان و أسدلت ستارة نصيبه من الحياة، و لذلك جاء التأكيد القرآنى على الغذاء و بالذات النباتى منه من دون بقية العوامل المسخرة لخدمة هذا المخلوق الصغير فى حجمه.

و من الجلى أنّ «النظر» المأمور به فى الآية جاء بصيغة المجاز، و أريد به التأمل و التفكير فى بناء هذه المواد الغذائية، و ما تحويه من تركيبات حياتية، و ما لها من تأثيرات مهمّة و فاعلة فى وجود الإنسان، وصولا إلى حال التأمل فى أمر خالقها جلّ و علا.

أمّا ما احتمله البعض، من كون «النظر» فى الآية هو النظر الظاهرى (أى المعنى الحقيقى للكلمة)، و على أساس طبى، حيث أنّ النظر إلى الغذاء يثير إلى الغدد الموجودة فى الفم لإفراز موادها كى تساعد عملية هضمه فى المعدة، فيبدو هذا الاحتمال بعيدا جدّا، لأنّ

سياق الآية و بربطها بما قبلها و ما بعدها من الآيات لا ينسجم مع هذا الاحتمال.

و بطبيعة الحال إنّ الذين يميلون إلى هذا الاحتمال هم علماء التغذية الذين ينظرون إلى القرآن الكريم من زاوية تخصصهم لا غير.

و قيل أيضا: نظر الإنسان إلى غذاءه فى حال جلوسه حول مائدة الطعام، النظر إلى كيفية حصوله ... فهل كان من حلال أم من حرام؟ هل هو مشروع أم غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۶

مشروع؟ أى ينظر إلى طعامه من جانبيه الأخلاقى و التشريعى.

و قد ذكر فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام، إنّ المراد ب «الطعام» فى الآية هو (العلم) لأنّه غذاء الروح الإنسانية.

و من هذه الروايات ما

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية، إنّه قال: «علمه الذى يأخذه عمن يأخذه»[۴۶۴].

و قد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام ما يشابه معنى الرواية أعلاه ۴۶۵].

و إذا كان المستفاد من ظاهر الآية هو الطعام الذى يدخل فى عملية بناء الجسم، فلا يمنع من تعميمه ليشمل الغذاء الروحى أيضا، لأنّ الإنسان فى تركيبته مكوّن من جسم و روح، فكما أنّ الجسم يحتاج إلى الغذاء المادى فكذا الروح بحاجة إلى الغذاء المعنوى.

و فى الوقت الذى ينبغى على الإنسان أن يكون فيه دقيقا متابعا لأمر غذائه و باحثا عن منبعه: و هو المطر المحيي الأرض بعد موتها (كما سيأتى فى الآيات التالية)، فعليه أيضا أن يهتم فى أمر غذاءه الروحى و باحثا فى منشئه، و هو غيث الوحى الإلهى النازل على قلب الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الذى خزن فى صدور المعصومين عليه السّلام من بعده، حيث ينبع من صفحات قلوبهم الطاهرة ليسقى الموات عسى أن تثمر ألوان الثمار الإيمانية اللذيذة من فضائل أخلاقية و عقائدية.

نعم ... ينبغى على الإنسان أن يكون دقيقا فى متابعة مصدر و منبع علمه ليطمئن لغذائه الروحى، و ليأمن بالنتيجة من مدلهمات الخطوب التى تؤدى لمرض الروح أو هلاكها.

و بواسطة الدلالة الالتزامية، يستفاد من الآية المباركة ضرورة النظر فى حليّة و حرمة الغذاء، و ذلك عن طريق قياس الأولوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۷

و ثمّة من يقول: إنّ المعنى كلّ من «الطعام» و «النظر» من الوسع بحيث يشمل كلّ ما ذكره أعلاه، و لكن .. من المخاطب فى الآية؟ الجميع مخاطبون، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فعلى كلّ إنسان أن ينظر إلى طعامه و يتفكر فيما أودع فيه من أسرار و عجائب كما و كيفية، و عسى الضال- و الحال هذه- أن يجد ضالته فيترك طريق الضلال و يسلك طريق الحقّ، و لكى يزداد المؤمنون إيمانا.

فالأغذية بما تحمل و تقدم تعتبر عالما مضيئا و آيات باهرة تنير درب الباحثين عن الحق فى لجج الضياع و الجهالة، و توصل الباحثين عن الأمان إلى شاطئ النجاة.

ثمّ يدخل القرآن فى شرح تفصيلى لماهية الغذاء و مصدر تشكيله، فيقول أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا.

«الصب»: إراقة الماء من أعلى، و جاء هنا بمعنى هطول المطر.

و «صبأ»: تأكيد، و للإشارة إلى غزارة الماء.

نعم .. فالماء مصدر رئيسى للحياة، و هو على الدوام ينزل من السماء و بغزارة ليجسد لطف اللّه تعالى على خلقه.

كيف لا، و كلّ العيون و الآبار و القنوات و الأنهار قد استمدت أساس وجودها من الأمطار.

و عليه .. فلا بدّ للإنسان حين ينظر إلى طعامه أن يربط ذلك بنظام المطر، و يدقق النظر فى عملية تكوين الغيوم و كيفية حدوث الأمطار.

فالماء المتبخر من سطح البحار، يتجمع فى الفضاء على شكل غيوم، و تتحرك تلك الغيوم بفعل الرياح إلى طبقات الجو الباردة، فتبدأ

بعملیـة التکاثف حتی تصل لدرجة الهطول، فتری ذلک البخار، و قد تحول إلی قطرات ماء زلال خال من أیّ أملاح مضـرة و قد تطهر عن کلّ قذارة، و لیستقر فی آخر مطافه علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۸

الأرض لیعطیها القوّة و الحرکة و الحیاة.

و بعد ذکر نعمة الماء و ما له من أثر حیوی و مهم فی نمو النباتات، ینتقل البیان القرآنی إلی الأرض، فیقول: ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا.

یذهب أکثر المفسّـِرین إلی أنّ الآیة تشیر إلی عملیة شقّ الأرض بواسـطة النباتات التی تبدأ بالظهور علی سطح الأرض بعد عملیة بذر الحبوب، و العلمیـة بحـدّ ذاتها مـدعاة للتأمل، إذ کیف یمکن لهـذا العشب الصـغیر الناعم أن یفتت سـطح التربة مع مالها من صـلابة و خشونـة! بل و نری فی المناطق الجبلیـة أنّ سویقات نباتاتها و قد ظهرت من بین حافات صـخورها الصـلدة! فأیّة قدرة هائلة قد أودعت فیها، سبحانک یا ربّ و أنت الخلاق العلیم.

و قیل: تشیر الآیـة إلی شقّ الأرض بالآیات الزرّاعـة من قبل الإنسان، أو تشیر إلی ما تقوم به الدیدان من حرث الأرض و تشـقیقها من خلال ممارساتها لنشاطاتها الحیاتیة المختصة بها.

صحیح أنّ الإنسان هو الذی یقوم بعملیة الحرث، و لکنّ جمیع أسبابه و وسائله من اللّه عزّ و جلّ، لذا فقد نسبت عملیة شقّ الأرض إلی الباری جلّ اسمه.

و ثمّة تفسیر ثالث یقول: إنّ شقّ الأرض فی الآیة إشارة إلی تفتت الصخور التی کانت علی سطح الأرض.

و لهذا التفسیر مرجحات عدیدة ...

و توضیـح ذلک: کان سـطح الکرة الأرضـیة مغطی بطبقة عظیمة من الصـخور، و قد تشـقـقت تلک الطبقة الصخریة بفعل غزارة هطول الأمطار المتتالیة علیها، ممّا جعلتها علس شکل ذرات منتشرة علی معظم سطح الأرض، فتحولت إلی تربة صالحة للزراعة.

و حتی یومنا المعاش ... نلاحظ قسما کبیرا من الأتربة التی تحملها میاه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۹

الأنهار أو المصحوبة مع السیول، نلاحظها و قد کونت طبقات من التربة الصالحة للزراعة بعد أن تستقر علی الأرض یتبخر الماء عنها أو تمتصه الأرض.

فالآیة تمثل إحدی مفردات الإعجاز العلمی للقرآن، لأنّها تناولت موضوع الأمطار و تشقق الأرض و تهیئها للزراعة، بشکل علمی دقیق، و الآیـة لم تتحـدث عن شـیء قـد حـدث، بل حدث و لا زال، یبدو أنّ هذا التفسـیر ینسـجم مع ما تطرحه الآیة التالیة بخصوص عملیة الإنبات ... مع ذلک، فلا ضیر من قبول التفاسیر الثلاثة للآیة و من جهات مختلفة.

و بعد ذکر رکنین أساسـیین فی عملیة الإنبات- أی الماء و التراب- ینتقل القرآن بالإشارة إلی ثمانیة مصادر لغذاء الإنسان أو الحیوان: فَأَنْبَتْنا فِیها حَبًّا.

تعتبر الحبوب من الأغذیـة الرئیسـیة للإنسان و الحیوان معا، و تتوضح أهمیتها فیما لو عمّ الجفاف- علی سبیل المثال- فمدّة عام واحد، حیث یعمّ القحط و تنتشر المجاعة فی کلّ مکان.

«حبّا»: جاءت فی الآیـة نکرة، لتعظیم شأنها، أو لتشیر إلی تنوع أصـناف الحبوب، و ذهب البعض إلی أنّ الحنطـة الشـعیر هما المرادان دون بقیة الحبوب، و لکن لیس هناک من دلیل علی هذا التخصیص، و إطلاق الکلمة یدل علی شمول کلّ المحبوب.

ثمّ یضیف: وَ عِنَباً وَ قَضْباً.

و قد اختارت الآیة العنب دون البقیة لما أودع فیه من مواد غذائیة غنیة بالمقویات، حتی قیل عنه بأنّه غذاء کامل.

و مع أنّ «العنب» یطلق علی الشـجرة و الثمرة، و بـالرغم من ورود کلاـ الاسـتعمالین فی الآیات القرآنیـة، لکنّ المناسب هنا الثمرة دون

الشجرة.

«قضبا»: هو الخضروات التى تحصد بين فترة اخرى، و ما أريد منها بالذات، تلك الخضراوات التى تؤكل من غير طبخ (تؤكل طرية)، و قد جاء ذكرها بعد

العنب لأهميتها الغذائية، و قد أكّد هذا المعنى علم التغذية الحديث.

و تستعمل كلمة (القضيب) بمعنى القطف و القطع أيضا، و (القضيب): غصن الشجرة، و (سيف قاضب) بمعنى: قاطع.

و روى عن ابن عباس قوله: إن «القضيب» فى هذه الآية هو (الرطب)، و لكنّ هذا المعنى بعيد جدّا للإشارة إلى الرطب فى الآية التالية.

و قيل أيضا: «القضب» الوارد فى الآية، بمعنى ثمار النباتات الزاحفة (كالخيار و البطيخ و ما شابهه)، أو النباتات الأرضية (كالبصل و الجزر ... إلخ).

و لا يبعد من إرادة كلّ الخضروات التى تؤكل طريقة و النباتات الزاحفة و كذا الأرضية فى معنى «القضب» المشار إليه فى الآية.

ثمّ يضيف وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا و من الواضح أنّ ذكر هاتين الفاكهتين لما لهما من الأهمية الغذائية للإنسان، حيث يعتبر الزيتون و الثمر من أهم الأغذية المقوية و الصحية و المفيدة للإنسان.

و تأتى المرحلة التالية: وَ حَدائِقَ غُلْباً.

«الحدائق»: جمع (حديقة)، و هى الأرض المزروعة و المحاطة بسور يحفظها، و هى الأصل بمعنى: قطعة الأرض التى تحتوى على الماء، و سميّت حديقة تشبيها بحدقة العين من حيث الهيئة و حصول الماء فيها.

و يحتمل إشارة الآية إلى أنواع الفواكه، باعتبار أنّ الحدائق غالبا ما تزرع بأشجار الفاكهة.

«غلب»: على وزن (قفل)، جمع (أغلب) و (غلباء)، بمعنى غليظ الرقبة، فلآية إذن ترمز إلى الأشجار الشاهقة المتينة.

ثمّ يضيف: وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا.

«الأبّ»: (بتشديد الباء): هو المرعى المهيأ للرعى و الحصد، و هو فى الأصل بمعنى «التهيؤ»، اطلق على المرعى لما فيه من أعشاب يكون بها مهيئا لاستفادة

الحيوانات منه.

و ذكر جمع من المفسّرين- من كلا الفريقين- فى ذيل الآية: إنّ عمر بن الخطاب قرأ يوما على المنبر: فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَ عِنَباً وَ قَضْباً إلى قوله تعالى:

وَ أَبًّا .. قال: كلّ هذا قد عرفناه، فما الأبّ! ثمّ رمى عصا كانت فى يده، فقال: هذا لعمر اللّه هو التكلف، فما عليك أن لا تدرى ما الأبّ!! اتّبعوا ما تبيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، و ما لم تعرفوه فكلوه إلى ربّه![۴۶۶].

و أغرب من ذلك، ما ورد فى (الدر المنثور) عن أبى بكر حينما سئل عن ذلك، أنّه قال: (أىّ سماء تظلنى و أىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب اللّه ما لا أعلم)! و قد اتّخذ كثير من علماء السنّة من الحديثين المذكورين على أنّه: لا ينبغى لأحد التكلم فيما لا يعلم، و على الأخص فى كتاب اللّه.

و لكن، يبقى فى الذهن إشكال ... إذ كيف يكون لخليفة المسلمين أن لا يفقه كلمة وردت فى القرآن الكريم، مع كونها ليست من معضلات اللغة؟!! و هذا ما يوصلنا إلى ضرورة وجود قائد الإلهى فى كلّ عصر، و أن يكون عارفا بجميع المسائل الشرعية، و منزّها عن الخطأ (معصوما).

و لذلك،

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام، إنّه حينما سمع بما قاله الخليفة .. قال: «سبحان اللّه أما علم أنّ الأبّ هو الكلأ و المرعى، و أنّ قوله تعالى: وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا اعتداد من اللّه بإنعامه على خلقه، فيما غذّاهم به، و خلقه لهم و لأنعامهم، ممّا تحيى به أنفسهم و تقوم به أجسادهم»[۴۶۷].

و يواجهنا سؤال: إذا كانت الآيات السابقة ذكرت بعض أنواع الفاكهة، و الآية المبحوثة تناولت الفاكهة بشكل عام، هذا بالإضافة إلى ذكر ل «حدائق» فى الآية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۲

السابقة و التى قيل أنّ ظاهرها يشير إلى الفاكهة ... فلم هذا التكرار؟

الجواب: إنّ تخصيص ذكر العنب و الزيتون و التمر (بقرينة ذكر النخل)، إنّما جاء ذكرها لأهميتها المميزة على بقية الفاكهة[۴۶۸].

أمّا لماذا ذكرت بشكل منفصل عن الفاكهة؟ فيمكن حمله على ما للحدائق من منافع خاصّة بها، و لا تشترك الفاكهة فيها، كجمالية منظرها و عذوبة نسيمها و ما شابه ذلك، بالإضافة إلى استعمال أوراق الأشجار و جذورها و قشور جذوعها كمواد غذائية (كالشاى و الزنجبيل و أمثالها)، أمّا بالنسبة للحيوانات، فأوراق الأشجار المختلفة من أفضل أغذيتها عموما ... فالآيات إذن كانت فى صدد الحديث عن غذاء الإنسان و الحيوان.

و لذلك ... جاءت الآية التالية لتوضيح هذا المعنى: مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ

«و المتاع»: هو كلّ ما يستفيد منه الإنسان و يتمتع به.

***

بحث

الغذاء النافع:

ذكرت الآيات المبحوثة ثمانية أنواع من المواد الغذائية النباتية لسد احتياجات الإنسان و الحيوانات، و هذا التأكيد على الأغذية النباتية يعطى ما للنباتات و الحبوب و الفاكهة من أهمية غذائية تفوق فى دورها على الأغذية الحيوانية التى تأتى فى نظر القرآن فى المرتبة الثّانية من حيث الأهمية.

و قد اهتم علماء التغذية حديثا بما ورد فى القرآن الكريم فيما يخصّ مجال عملهم، و يكشف هذا الاهتمام بدوره عن عظمة القرآن و قوّة ما فيه ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۳

و على أيّة حال، فالتأمل فى هذه الأمور يزيد الإنسان معرفة بعظمة و لطف الخالق جلّ شأنه، و يوسّع اطلاعه فى تحسس نعم البارى جلّ اسمه على الخلائق أجمعين.

نعم .. فالاهتمام فى مسألة غذاء الإنسان (الجسمى و الروحى) من حيث النوعية و طريقة كسبه، يدفع الإنسان للتقرب أكثر من جادة معرفة اللّه و سلوك طريق رضوانه سبحانه، كما و يدفع إلى تهذيب و تزكية النفس من أدران الشرك و قذارة الذنوب.

نعم .. فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ تمثل الآية المباركة: أقصر تعبير لمعنى واسع و متشعب.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۴

الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۳۳ الى ۴۲]

اشارة

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (۳۳) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (۳۸) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (۳۹) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (۴۰) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (۴۱) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (۴۲)

التّفسير

صيحة البعث ...

و ينتقل الحديث فى هذه الآيات إلى يوم القيامة و تصوير حوادثه، و ما سيؤول فيه من أحوال المؤمنين الكافرين، كلّ بما كسبت يداه و قدّم.

فمتاع الحياة الدنيا و إنّ طال فهو قليل جدّا فى حساب حقيقة الزمن، و أنّ خالق كلّ شيء لعظيم فى خلقه و شأنه، و أنّ المعاد حق و لا بدّ من حتمية وقوعه.

و يقول القرآن الكريم: فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ[۴۶۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۵

«الصّاخة»: من (صخّ)، و هو الصوت الشديد الذى يكاد أن يأخذ بسمع الإنسان، و يشير فى الآية إلى نفخة الصور الثّانية، و هى الصيحة الرهيبة التى تعيد الحياة إلى الموجودات بعد موتها جميعا ليبدأ منها يوم الحشر.

نعم، فالصيحة من الشدّة بحيث تذهله عن كلّ ما كان مرتبطا به، سوى نفسه و أعماله.

و لذا، تأتى الآية التالية، و لتقول مباشرة: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ

ذلك الأخ الذى ما كان يفارقه و قد ارتبط به بوشائج الاخوة الحقة! و كذلك: أُمِّهِ وَ أَبِيهِ

حتى: وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ

فوحشة و رهبة يوم القيامة لا تنسى الأخ و الام و الأب و الزوجة و الأولاد فحسب، بل و تتعدى إلى الفرار منهم، و عند ما ستتقطع كلّ روابط و علاقات الإنسان الفرد مع الآخرين ... فحينها سوف لا يهتم إلّا نفسه و ما قدّم، و سينسى:

امّه التى كانت تحبّه و تفديه ..

و أبو الذى ربّاه و احترمه ..

و زوجته التى لا تعرف غيره ..

و أولاده .. ثمرة كبده و قرة عينه ..

و قيل: إنّما يكون الفرار للتهرب من الحقوق التى لهم عليه، و هو عاجز عن أدائها.

و قيل أيضا: إنّما يفر المؤمنون خاصّة من أقربائهم من غير المؤمنين و غير المتقين، خوفا من الإصابة بما سيصيب أولئك من عقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۶

و يبدو أنّ التفسير الأوّل أنسب و لا مانع من الجمع بينهما.

و لكن ... ما سرّ تسلسل ذكر الأخ، ثمّ الامّ، فالأب من بعدها، و من ثمّ الزوجة و الأولاد؟

يعتقـد بعض بأنّ التسلسل قد لوحظ فيه شدّة العلاقة ما بين الفار و من يرتبط بهم، و قد تسلسل الذكر من الأدنى حتى الأعلى، ليعطى لهذا التصوير بعدا بلاغيا، فهو من أخيه، ثمّ من أمّه و أبيه، ثمّ من زوجته و بنيه.

و لكن: يصعب الخروج بقاعدة كلية تختص فى ترتيب العلائق بين الناس، فالناس ليسوا سواسية فى هذا الجانب، فقد نجد من يكون مرتبطا بأخيه أكثر من أيّ إنسان الآخر، و نجد ممن لا يقرّب على علاقته بامّه شىء، و ثمّة من تكون زوجته رمز حياته، أو من يفضل ابنه حتى على نفسه ... إلخ.

و ثمّة عوامل اخرى تدخل فى التأثير على علاقة الإنسان بأخيه و أبيه و زوجته و بنيه، و على ضوئها لا يمكننا ترجيح أفضلية أيّ منهم على الآخر من جميع الجهات، و عليه فلا يمكن القطع بأنّ التسلسل الوارد فى الآية قد جاء على أثر أهمية و شدة العلاقة.

و لكن ... لم الفرار؟ ... لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ

«يغنيه»: كناية لطيفة عن شدّة انشغال الإنسان بنفسه فى ذلك اليوم، و لما سيرى من حوادث مذهلة، تأخذه كاملا، فكرا و قلبا.

و

قد سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الحميم، و هل يذكره الرجل يوم القيامة؟ فقال:

«ثلاثة مواطن لا يذكر (فيها) أحد أحدا: عند الميزان، حتى ينظر أ يثقل ميزانه أم يخف؟ .. و عند الصراط، حتى ينظر أ يجوزه أم لا؟ .. و عند الصحف، حتى ينظر بيمينه يأخذ الصحف أم بشمال؟ .. فهذه ثالثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه و لا حبيبه و لا قريبه و لا صديقه، و لا بنيه و لا والديه، ذلك قوله تعالى: لِكُلِّ امْرِئٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۷

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۴۷۰].

و ينقل البيان القرآنى ليصور لنا حال العباد بقسميهم فى ذلك اليوم، فتقول:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ أى مشرقة و صبيحة.

ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ.

وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ.

تَرْهَقُها قَتَرَةٌ أى تغطيها ظلمات و دخان.

أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ.

«مسفرة»: من (الأسفار)، بمعنى الظهور بياض الصبح بعد ظلام الليل.

«غبرة»: على وزن (غلبة)، من (الغبار).

«قترة»: من (القتار)، و هو شبه دخان يغشى من الكذب، و قد فسّره بعض أهل اللغة ب (الغبار) أيضا، و لكن ذكرهما فى آيتين «الغبرة و القترة» متتاليتين منفصلتين يشير إلى اختلافهما فى المعنى.

«الكفرة»: جمع (كافر)، و الوصف يشير إلى فاسدى العقيدة.

«الفجر»: جمع (فاجر)، و الوصف يشير إلى فاسدى العمل.

و نستخلص من كلّ ما تقدّم، إنّ آثار فساد العقيدة لدى الإنسان و أعماله السيئة ستظهر على وجهه يوم القيامة.

و قد اختير الوجه، لأنّه أكثر أجزاء الإنسان تعبيرا عمّا يخالجه من حالات الغبطة و السرور أو الحزن و الكآبة، فبإمكانك و بكلّ وضوح أن تعرف أنّ فلانا مسرورا أم حزينا من خلال رؤيتك لما انطبع على وجهه، و حالات: السرور، و الحزن، و الخوف، و الغضب، و الخجل و ما شابه، لها بصمات خاصّة على ملامح و تقاسيم الوجه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۸

و علی أیّة حال .. فالوجوه الضاحکة المستبشرة، تحکی عن: الإیمان و طهارة القلب و صلاح الأعمال.

و بعکس الوجوه المقابلة و الدالة علی: ظلام الکفر، قبح الأعمال، و کأنّ وجوههم قد غطاها الغبار، تراها مسودة، و تحیط بها هالة من الدخان ..

و تری معانی الغم و الألم و الأسف قد تجسدت علی الوجوه، کما تشیر إلی ذلک الآیة (۴۱) من و سورة الرحمن: یُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِیماهُمْ ... فیکفی لمعرفة حال الإنسان فی یوم القیامة من خلال النظر إلی وجهه.

***

بحث

أسس البناء الذاتی:

لقد حملت السورة المبارکة بین طیاتها برنامجا تربویا جامعا لبناء النفس و تزکیتها:

۱- فقد أمرت بکسر حاجز الغرور و التکبر، و التحلی بالتأمل فی بدء خلق الإنسان، فهذا الذی ابتدأ وجوده من نطفة قذرة، لا ینبغی علیه أن یتطاول و یری نفسه أکبر من حجمها الطبیعی.

۲- التمسک بطرق الهدایة الرّبانیة (هدایة الوحی، تعالیم الأنبیاء و برامج الأولیاء الصالحین، و کذا الهدایة الحاصلة عن العقل بدراسة قوانین و أنظمة عالم التکوین)، فهو أفضل زاد فی مشوار طریق البناء.

۳- و تأمر بالإنسان للتفکر فی طعامه- من أین جاء کیف صار، و ما سرّ اختلاف ألوانه و أنواعه- لیصل إلی عظمة الخلاق و مدی لطفه و رحمته علی عباده، و لا بدّ للإنسان من السعی فی کسب لقمة الحلال و التی تعتبر من أهم أرکان التربیة السلیمة، و ذلک لما لها من آثار نفسیة و شرعیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۹

۴- و إذا ما أعطت السورة کلّ هذه الأهمیة لغذاء البدن، فهی تدفع الإنسان للتحری عن سلامة غذاءه الروحی، لأنّ فعل التعلیمات المنحرفة و التوجیهات الفاسدة الباطلة کفعل الغذاء المسموم، فهی تنخر فی البناء الروحی و تعرض حیاة الإنسان للخطر.

و ممّا یحزّ فی نفوس المؤمنین أن یروا قسما من الناس و قد تکالبوا علی غذاء البدن بکلّ دقة و اعتناء، و أهملوا الغذاء الروحی فتری (مثلا) من یقرأ أیّ کتاب و إن کان فاسد و مفسّد، و یستمع لأیّ حدیث و إن کان ضالا مضلا، دون أن یضع لتوجیهاته أیّ ضابط بقید أو شرط! و قد جسّد أمیر المؤمنین علیه السّلام هذا المعنی

بقوله: «ما لی أری الناس إذا قرب إلیهم الطعام لیلا تکلفوا إنارة المصابیح، لیبصروا ما یدخلون بطونهم، و لا یهتمون بغذاء النفس، بأن ینیروا مصابیح ألبابهم بالعلم، لیسلموا من لواحق الجهالة و الذنوب، فی اعتقاداتهم و أعمالهم»[۴۷۱].

و

روی شبیه هذا القول عن الإمام الحسن المجتبی علیه السّلام: «عجبت لمن یتفکر فی مأکوله، کیف لا یتفکر فی معقوله، فیجنب بطنه ما یؤذیه، و یودع صدره ما یردیه»[۴۷۲].

۵- ثمّ تذکّر السورة بصیحة البعث الرهیبة التی تضع الإنسان وجها لوجه أمام ما قدّمت یداه من أعمال فی الحیاة الدنیا ...

فعلی الإنسان أن یتفکر فی أمر آخرته، و علیه أن یعمل لیکون ضاحک الوجه مستبشرا فی ذلک الیوم المحتوم، و أن یجهد بکلّ ما أمکنه للتخلص ممّا یؤدی به لأن یکون عبوسا حزینا.

اللّهمّ، وفقنا لتربية و تزكية و أنفسنا ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۰

اللّهم، لا تحرمنا من نعمة التوجه الصحيح الشاخص لساحة رضوانك ..

اللّهم، أيقظنا من غفلتنا و اجعل عاقبتنا على خير ...

آمين ربّ العالمين نهاية سورة عبس***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۱

سورة التّكوير

اشارة

مكيّة و عدد آياتها تسع و عشرون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۳

«سورة التكوير»

محتوى السورة:

كثير من القرائن المختلفة فى السورة تدل على أنّها مكّية: نسبة الجنون إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل أعداء الإسلام، و هذا ما كان يحدث كثيرا فى مكّة، خصوصا فى بداية الدعوة المحمّدية، لتصور الأعداء أنّهم بافتراءتهم تلك سيصرفون أنظار الناس عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته الإلهية.

و على أيّة حال، فالسورة تدور حول محورين أساسيين:

المحور الأوّل: هو ما شرعت به السورة من تبيان علائم يوم القيامة، و ما يواجه العالم من تغييرات قبيل يوم القيامة.

المحور الثّاني: الحديث عن عظمة القرآن و من جاء به، و أثره على النفس الإنسانية، بالإضافة إلى تكرار اليمين و القسم فى آيات عدّة لإيقاظ الإنسان من غفلته.

فضيلة السورة:

وردت أحاديث كثيرة تبيّن أهمية السورة و فضل تلاوتها، و منها: ما

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ أعاذه اللّه تعالى أن يفضحه حين تنشر صحيفته»[۴۷۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۴

و

فى حديث آخر، أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من أحبّ أن ينظر إلىّ يوم القيامة فليقرأ:

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ [۴۷۴].

و

روى الحديث بشكل آخر: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة (كأنّه رأى عين) فليقرأ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ و إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ و إِذَا

السَّماءُ انْشَقَّتْ .

(لأنّ هذه السور تعرض علائم يوم القيامة و أحداثه بشكل و كأنّ التالى لها يشاهد يوم القيامة بعينه).[۴۷۵] و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۴۴۴

فى حديث آخر، سئل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن ظهور آثار كبر السن عليه، فقال:

«شيبتنى هود و الواقعة و المرسلات و عمّ يتساءلون و إذا الشمس كورت».[۴۷۶]

و

عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ عبس و تولّى و إذا الشمس كوّرت كان تحت جناح اللّه من الخيانة و فى ظلّ اللّه و كرامته، و فى جنانه، و لا يعظم ذلك على ربّه إن شاء اللّه».

و تلاوة القرآن المقصودة فى الأحاديث أعلاه، ينبغى أن يكون بشروطها من: التأمل، الإيمان، و العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۵

الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱ الى ۹]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (۴)

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹)

التّفسير

يوم تطوى الكائنات فيه!

نواجه فى بداية السورة، إشارات قصيرة، مثيرة و مرعبة لما سيجرى لنهاية العالم المذهلة- بداية يوم القيامة- فتنقل الإنسان فى فكره و أحاسيسه إلى مفاجئات ذلك اليوم الرهيب، قد تحدثت تلك الإشارات عن ثمانية علائم من و يوم القيامة.

و أول مشهد عرضته عدسة العرض القرآنى، هو: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ

«كورت»: من (التكوير)، بمعنى الطى و الجمع و اللّف (مثل لف العمامة على الرأس)، و أخذ هذا المعنى من كتب اللغة و التفسير و المختلفة.

و استعملت كذلك بمعنى: (الرومى) أو (إطفاء شى‏ء) .. و المعنيان- كما يبدو-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۶

مستمدان من المعنى الأصلى.

و على أيّة حال، فالمقصود هو: خود نور الشمس و ذهابه، و تغيّر نظام تكوينها.

و كما بات معلوما ... فالشمس فى وضعها الحالى، عبارة عن كرة مشتعلة، على هيئة غازية ملتهبة، و تتفجر الغازات على سطحها بصورة شعلات هائلة محرقة، قد يصل ارتفاعها إلى مئات الآلاف من الكيلو مترات! و لو قدّر وضع الكرة الأرضية وسط شعلة منها، فإنّها

تستحيل فورا إلى رماد و كتلة من الغازات!! و لكن ... عند حلول وقت نهاية العالم، و الاقتراب من يوم القيامة، سيخمد ذلك اللهب المروع، و ستجمع تلك الشعلات، فيطفأ نور الشمس، و يصغر جمها ... و هو ما أشير إليه بالتكوير.

و جاء فى (لسان العرب): (كورت الشمس: جمع ضوءها و لف كما تلف العمامة).

و قد أيّد العلم الحديث هذه الحقيقة، من خلال اعتقاده و بعد دراسات علمية كثيرة، بأنّ الشمس تسير تدريجيا نحو الظلام و الانطفاء.

و يأتى المشهد الثّانى: وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ

«انكدرت»: من (الانكدار)، بمعنى السقوط و التناثر، و اشتق من (الكدورة)، و هى السواد و الظلام.

و يمكن جمع المعنيين فى الآية، لأنّ النجوم فى يوم القيامة ستفقد إشعاعها و تتناثر و تسقط فى هاوية الفناء، كما تشير إلى ذلك الآية (۲) من سورة الإنفطار:

وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ و الآية (۸) من سورة المرسلات: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ

و المشهد الثّالث: وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۷

و قد ذكرنا مراحل فناء الجبال، ابتداء من السير و الحركة و انتهاء بتحولها إلى غبار متناثر (فراجع تفسير الآية (۲۰) من سورة النبأ).

و ثمّ يأتى در و المشهد الرّابع: وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ

«العشار»: جمع (عشراء)، و هى الناقة التى مرّ على حملها عشرة أشهر، فأضحت على أبواب الولادة، بعد ما امتلأت أثداؤها باللبن.

و هى من أحبّ و أثمن النوق لدى العرب زمن نزول الآية المباركة.

«عطلت»: تركت لا راعى لها.

فهول و وحشة القيامة، سينسى الإنسان أحبّ و أثمن ما يمتلكه.

و قال العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان: و قيل: العشار، السحاب تعطل فلا تمطر. أى: إنّ الغيوم ستظهر فى ذلك اليوم، و لكن لا تمطر (و يمكن أن يكون الغيوم ناشئة من الغازات و المختلفة، أو تكون غيوما ذرية، أو طبقات من الغبار الناتج من تدمير الجبال .. و كلّ ذلك لا تمطر).

و يضيف الطبرسى قائلا: قال الأزهرى: لا أعرف هذا فى اللغة.

و ثمّة علاقة بين ما ذهب إلى الشيخ الطريحى فى (مجمع البحرين) بقوله:

العشار: بمعنى الناقة الحامل ثمّ اطلق على كلّ حامل، و بين إطلاقها فى الآية. فلا غيوم غالبا ما تكون محملة بالأمطار، و لكن الغيوم التى ستظهر فى السماء على أعتاب ذلك اليوم سوف لا تكون حاملة بالمطر- فتأمل.

و قيل: «العشار»: هى البيوت أو الأراضى الزراعية التى ستتعطل بذلك اليوم، و ستخلو من الناس و الزراعة.

و أشهر ما فسّرت به الآية هو التفسير الأوّل.

و ينتقل المشهد الخامس إلى الوحوش: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ

فالحيوانات الوحشية التى تراها فى الحالات العادية تبتعد الواحدة عن الأخرى خوفا من الافتراس و البطش، ستراها و قد جمعت فى محفل واحد، و كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۸

منها لا يلتفت إلى ما حوله لما سيطاب به من رهبة و أهوال ذلك اليوم الخطير، و كأنّها تقصد من اجتماعها هذا التخفيف عن شدّة خوفها و فزعها!! و نقول: إذا اضمحلت كلّ خصائص الوحشية للحيوانات غير الأليفة نتيجة لأهوال يوم القيامة، فما سيكون مصير الإنسان حينئذ؟! و يعتقد كثير من المفسّرين بأنّ الآية تشير إلى حشر الحيوانات الوحشية فى عرصة يوم القيامة لمحاسبتها على قدر ما

تحمل من إدراك، و يستدلون بالآية (۳۸) من سورة الأنعام على ذلك، و التى تقول: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِى الْكِتابِ مِنْ شَىْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۴۷۷].

و ما يمكننا قوله: إنّ الآية تتحدث عن علائم نهاية الدنيا المهولة، و بداية عالم الآخرة، و عليه .. فالتّفسير الأوّل أنسب.

و تصوّر البحار فى المشهد السادس: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ

«سجّرت»: من (التسجير)، بمعنى إضرام النّار.

و إذا خالج القدماء التعجب و الاستغراب لهذا الوصف القرآنى، فقد بات اليوم من البديهيات الكسبية، لما يتركب منه الماء من عنصرى الأوكسجين و الهيدروجين، القابلات للاشتعال بسرعة، و لا يستبعد أن يوضع الماء- فى إرهاصات يوم القيامة- تحت ضغط شديد ممّا يؤدى إلى تجزئة و تفكيك عناصره، و عند ما سيتحول إلى كتلة ملتهبة من النّار.

و قيل: «سجّرت»: بمعنى (امتلأت)، كما يقال للنور الممتلئ بالنّار (مسجّر)، و على ضوء هذا المعنى، يمكننا أن نتصور امتلاء البحار ممّا سيتسبب من الزلازل الحادثة و تدمير الجبال فى إرهاصات يوم القيامة، أو ستمتلئ بما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۹

يتساقط من أحجار و صخور سماوية، فيفيض ماؤها على اليابسة ليغرق كلّ شىء.

و يأتى درو المشهد السابع: وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ

فتبدأ المآلفة بخلاف حال الدنيا ... فالصالحون مع الصالحين، و المسيؤون مع المسيئين، و أصحاب اليمين مع أصحاب اليمين، و أصحاب الشمال مع أصحاب الشمال، فإذا ما جاور المؤمن مشركا، أو تزوج الصالح من غير الصالحة فى الحياة الدنيا، فتصنيف يوم لقيامة غير ذلك، فهو يوم الفصل الحق.

و ثمّة احتمالات اخرى، منها:

ردّ الأرواح إلى أجسادها ..

زواج الصالحين بالحور العين ..

قرن الضالين بالشياطين ..

لحوق الإنسان بحميمه، بعد أن فرّق الموت بينهما ..

قرن الإنسان بأعماله.

و التّفسير الأوّل أقرب، بدلالة الآيات (۷- ۱۱) من سورة الواقعة: وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ، وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ

فبعد أن تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن ستة تحولات، كمقدمات يوم القيامة، تأتى الآية أعلاه لتخبر عن اولى خطوات يوم القيامة، المتمثلة بالتحاق كلّ شخص بقرينه.

و نصل إلى المشهد الثّامن: وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ

«الموءودة»: من (الوأد) على وزن (وعد)، بمعنى دفن البنت حيّة بعد ولادتها.

و قيل: الوأد بمعنى الثقل، و توسع معناه (لما ذكر)، لما فيه من دفن البنات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۰

القبر و إلقاء التراب عليهن.

و أطلق الأئمّة الأطهار عليهم السّلام مفهوم الوأد، ليشمل كلّ قطع رحم و قطع مودّة ...

حينما

سئل الإمام الباقر علیه السّلام عن معنی الآیة، قال: «من قتل فی مودّتنا».[۴۷۸]

و فی روایة اخری: إنّ الدلیل علی ذلک هو آیة القربی: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی ۴۷۹].

و لا شک أنّ التفسیر الأوّل ینسجم مع ظاهر الآیة، و لکن المفهوم و الملاک قابلان للتوسع و الشمول.

***

ملاحظات

۱- وأد البنات

تعتبر عادة (الوأد)- و التی أشار إلیها القرآن الکریم مرارا- من أقبح جرائم و عادات عصر جاهلیة ما قبل الإسلام.

و إذا کان البعض قد حصرها فی قبیلة (کندة) أو بعض القبائل الصغیرة المتناثرة هنا و هناک دون بقیة القبائل العربیة الاخری، فالمسلم به إنّها کانت من الشیوع بحیث تناول القرآن الکریم ذکرها لأکثر من مرّة و بتأکید شدید.

و لکن، حتی مع افتراضنا لندرة هذا العمل القبیح، فإنّه من القباحة و الشناعة ما یدعونا لبحثه و دراسته ...

یقول المفسّرون: کانت المرأة فی الجاهلیة إذا ما حان وقت ولادتها، حفرت حفرة و قعدت علی رأسها، فإن ولدت بنتا رمت بها فی الحفرة، و إن ولدت غلاما حبسته، و قال شاعرهم مفتخرا:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۱

سمیتها إذا ولدت (تموت)و القبر صهر ضامن ذمیت ۴۸۰]

و ثمّة أسباب کثیرة وراء هذه الجریمة البشعة، منها:

احتقار المجتمع الجاهلی للمرأة ...

وجود الفقر الشدید فی تلک الحقبة الزمنیة، و المرأة کانت مستهلکة غیر منتجة، إضافة لعدم اشتراکها فی الغارات التی تقوم بها القبیلة لتوفیر لقمة العیش.

الخوف من وقع النساء أسری فی شباک الأعداء، نتیجة للمعارک التی کانت دائرة علی الدوام بین القبائل، لأنّ فی هکذا أسر جرح للشرف و إذلال شدید.

و تجمعت هذه الأسباب (بالإضافة لأسباب اخری) فأدت إلی ظهور عادة (الوأد) الوحشیة بین أفراد القبائل فی ذلک العصر القابع تحت ظلام الجهل المقیت.

و ممّا یؤسف له، إنّ جاهلیة القرون الأخیرة قد کررت تلک الممارسات البشعة و بصور اخری، حتی وصل ببعض الدول تدّعی التمدن و التحضر لأنّ تقنن و تقرّ (حریة) إسقاط الجنین! نعم، فالحال واحدة .. فإذا کان أهل الجاهلیة الاولی یقتلون البنت، فمتمدنی هذا العصر یقتلون الأطفال و هم فی بطون أمهاتهم (بنتا أو ابنا)!! و للحصول علی تفاصیل هذا الموضوع، راجع ذیل الآیة (۵۹) من سورة النحل.

۲- أهمیة المرأة فی الإسلام

بإمكان أن نستشف مدى اهتمام الإسلام بالمرأة و بالدم الإنسانى (خصوصا دم الأبرياء)، من خلال اهتمام البارى جلّ شأنه بمسألة و أد البنات، و يكفى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۲

القرآن الكريم دلالة على أن قدّم ذكر بحث مسألة الوأد فى محكمة العدل الإلهى يوم القيامة على مسألة نشر صحف الأعمال و بقية المسائل الأخرى، لما فيها من قباحة و شناعة فى حق المرأة كإنسانة لها حقّ الحياة كما للرجل من حقّ.

۳- من الإنسان .. الموءودة أم الوائد؟

لو أمعنا النظر فى أسلوب كلام الآية، لرأينا أنّ السؤال سيوجه يوم القيامة إلى الموءودة دون الرائد على الذنب الذى قتلت من أجله، و كأنّ القاتل لا قيمة له حتى يسأل عن قباحة جريمته، بالإضافة إلى الاكتفاء بشهادة الموءودة لإثبات جريمة الوائد عليه ... فالموءودة تعامل يوم القيامة باعتبارها إنسان محترم له حقوقه، و الرائد مهمل مهان.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۳

الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱۰ الى ۱۴]

اشارة

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱۰) وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (۱۱) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (۱۲) وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (۱۳) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (۱۴)

التّفسير

يوم يرى الإنسان ما قدّم!!

فبعد مرحلة الفناء العام، تأتى مرحلة الظهور الجديد للعالم، لتقام محكمة العدل الالهى. و من خطوط هذه المرحلة: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ

«الصحف»: جمع (صحيفة) بمعنى المبسوط من الشيء، كصحيفة الوجه، و الصحيفة التى يكتب عليها.

فستنشر الصحف التى دوّنت فيها أعمال الناس من قبل الملائكة و كلّ سيعرف جزاءه بعد الاطلاع على صحيفة أعماله، كما تشير إلى ذلك الآية (۱۴) من سورة الإسراء: اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

و سيكون نشر الصحف أمام الملأ العام لتقرّ عيون المحسنين سرورا، و يقاسى المسيؤون العذاب النفسى.

ثمّ يضيف: وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۴

«كشطت»: من (الكشط) على وزن (كشف)، بمعنى قلع جلد الناقة، كما قال الراغب فى مفرداته، و أمّا فى (لسان العرب) فتعنى: كشف الغطاء عن الشيء، و «تكشط السحاب» أى، تقطع و تفرّق.

و ما يراد من «كشطت» فى الآيـة، هو: رفع الحجب الفاصـلة بين العالمين الدنيوى و العلوى، التى تمنع رؤية الناس للملائكة أو الجنّة و النّار، فيرى الإنسان حينها عالم الوجود شاخص أمام ناظريه شـخوصا حقيقيا، و كما تصور الآيات التالية ذلك، حيث أنّ الجنّة ستقترب من الإنسان ليرى نعيمها، و تزداد النّار سعيرا لاهبة.

نعم، أو ليس يوم القيامة (يوم البروز) .. فلا الحقائق ستخفى، و لا يكون للحجب أثرا.

فالآية و ما سبقها و سيلحقا إذن (حسب التفسير أعلاه) قد تحدثت عن المرحلة الثّانية للقيامة- مرحلة ما بعد البعث- فما ذكره كثير من المفسرين، من كون الآية تشير إلى انهيار و تحطم السماوات، و المتعلق بحوادث المرحلة الاولى للقيامة (مرحلة الفناء العام)، يبدو أنّه بعيد، لأنّه لا ينسجم مع معنى «كشطت» من جهة اخرى.

و يتأكد ذلك بوضوح من خلال الآية: وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ

فجهنّم موجودة فى كل الأوقات، و لكنّ حجب الدنيا هى المانعة من رؤيتها، فالآية على سياق الآية (۴۹) من سورة التوبة: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ و كما أنّ جهنّم موجودة فالجنّة كذلك بدلالة آيات قرآنية كثيرة[۴۸۱].

و يبّين البيان القرآنى بذات السياق السابق: وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ

و هذا المعنى هو تكرار لما جاء فى الآية (۹۰) من سورة الشعراء:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۵

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ

«أزلفت»: من (زلـف) على وزن (حرف) .. و «زلفى»: على وزن (كـبرى)، بمعنى القرب، فيمكن أن يكون المراد هو: القرب المكـانى، أو القرب الزمانى، أو القرب من حيث الأسباب و المقدمات، و يمكن أيضا أن تحمل الكلمة جميع ما ذكر من معان.

فستكون الجنّة قريبة من المؤمنين من حيث: المكان، زمان دخولها، من حيث تسهيل أسبابها لهم.

و قد تجلت مكانة المؤمنين عند اللّه حينما صرحّت الآية باقتراب الجنّة من المؤمنين، و لم تقل: اقترب المؤمنين من الجنّة.

و كما قلنا آنفا ... فالجنّة و النّار موجودتان فى كلّ وقت، و لكن مع حلول يوم القيامـة تكون الجنّة و النّار أشـدّ اشـتعالا من أى وقت مضى.

و تأتى الآية الأخيرة (من الآيات المبحوثة) لتتم ما جاء قبلها من جمل، حيث تمثل جزاء الشـرط للجمل السابقة و التى وردت فى (۱۲) آية: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ

فستحضر أعمال الإنسان كاملة، و لا من محيص من العلم و الاطلاع بها فى عالم الشهود و المشاهدة.

و قد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مرات عديدة فى آيات مباركات، منها ...

الآية (۴۹) من سورة الكهف: وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً، و الآيـة الأخيرة من سورة الزلزال: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

فالآيـة إذن ... تبيّن مسألـة (تجسم الأعمـال) فى يوم القيامـة، فأعمالنـا التى نتصورهـا قـد انتهت و فنت فى عالمنا الـدنيوى، هى ليسـت كذلك، فكل عمل قمنا به سيتجسم بصورة ما، ليحضر أمام أعيننا فى عرصة المحشر الرهيبة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۶

بحثان

۱- تناسق الآيات

تمّت الإشارة إلى (۱۲) حادثة من حوادث يوم القيامة، فالحوادث الستة الأولى قد ارتبطت بمرحلة الفناء العام للعالم (المرحلة الأولى)، و الستة الثّانية قد اختصت بمرحلة عودة الحياة بعد الموت من جديد.

و كان الحديث فى الستة الأولى عن: ذهاب ضوء الشمس، تساقط و تناثر النجوم، إزالة الجبال عن واقعها و تحولها إلى غبار منتشر، إضرام البحار نارا، نسيان المال و الثروة، اجتماع الحيوانات الوحشية فى مكان واحد ...

فيما كان الحديث فى لستة الثانية عن: حشر الناس فرادى، سؤال الموءودة عن ذنبها الذى قتلت من أجله!، و نشر الصحف، ارتفاع الحجب عن صفحة السماء، اشتعال أوار جهنّم و اقترب الجنّة، و اطلاع الإنسان على كل أعماله مجسدة.

و رغم قصر جمل الآيات إلّا أنّها حملت الكثير من المعانى و بأسلوب مثير يعمل على تحريك ضمير الإنسان و يدفعه للتوغل فى أعماق التأمل و الفكر ...

و قد جسّمت الآيات نهاية العالم بتصوير رائع، بحيث قربت إلى الأذهان كيفية حدوث القيامة، كل ذلك فى عبارات وجيزة و بألفاظ سهلة، و كلّ هذا يعطى مدى قوّة بيان و بلاغة القرآن الكريم ... فما أجمل و أعذب القرآنية، و ما أغزرها بالمعانى و الإشارات!!

۲- هل ستنطفئ المنظومة الشمسية، و هل ستخمد النجوم؟؟

قبل البدء بالإجابة لا بدّ من بيان بعض ما توصل إليه العلم الحديث بخصوص المنظومة الشمسية:

إنّ الشمس (التى تعتبر مركز المنظومة الشمسية) متوسطة الحجم نسبة إلى

بقية النجوم السابحة فى السماء، و لكنّها نسبة إلى الأرض كبيرة جدّا، حيث قدّر العلماء حجمها بما يعادل (۰۰۰، ۳۰۰، ۱) مرة بقدر حجم الأرض، و نظرا لبعدها عن الأرض، (حيث قدرت ب (۰۰۰، ۰۰۰، ۱۵۰) كيلومتر)، فترى لناظرينا بهذا الحجم المحدود ...

و يكفينا أن نتلمس عظمة حجم الشمس، فيما لو فرضنا بإدخال الكرة الأرضية مع القمر فى باطن الشمس و بذات الفاصلة الموجودة حاليا ما بين الأرض و القمر، ففى هذه الحال. سوف لا يواجه القمر أية صعوبة بالدوران حول الأرض من دون أن يخرج من سطح الشمس! أمّا درجة حرارة سطح الشمس فتبلغ (۰۰۰، ۶) درجة مئوية، و تصل درجة حرارة أعماق الشمس إلى عدّة ملايين درجة مئوية!! و إذا ما أردنا أن نزن الشمس بالأطنان، فسيواجهنا العدد (۲) و بيمينه (۲۷) صفرا، أى (مليارى مليار مليار طن)! و تصل ألسنة نيران سطح الشمس فى بعض الأوقات إلى ارتفاع (۰۰۰، ۶۰) كيلومتر، و بإمكان تلك الألسنة أن تلف الأرض و ما عليها و بكل يسر، لأنّ قطر الكرة الأرضية لا يتجاوز ال (۰۰۰، ۱۲) كيلومتر.

و مصدر حرارة و نور الشمس الخارجة منها، على خلاف ما يتصوره البعض من كونهما ناشئين من احتراق شى ما، و كما يقول مؤلف كتاب (ولادة و موت الشمس)، أن لو كانت الشمس، عبارة عن جرم من الفحم الحجرى الخالص، لما استمرت لهذا اليوم، و لو قدّرنا بدأ احتراقها منذ عصر أول فراعنة مصر، لكان فى يومنا المعاش قد احتراق بأكمله و نفد، و إذا ما قيل بأيّة مادة أخرى غير الفحم الحجرى، فلا تغيّر من النتيجة الحاصلة.

و حقيقة الأمر، أنّ مفهوم الاحتراق لا ينطبق على الشمس، بقدر ما ينطبق عليها مفهوم الطاقة الحاصلة من التجزئة الذريّة، و لمّا كانت الطاقة عظيمة جدّا،

فذرات الشمس فی حالة تجزئة و تبدیل إلى طاقة و بشکل مستمر.

و استنادا إلى حسابات العلماء: فإنّ کلّ ثانیة تمرّ من عمر الشمس ینتقص من وزنها ما یقارب «اربعة ملایین طنا»! أمّا حجمها فلم یمسسه أیّ شی من التغییر رغم مرور السنین المدیدة على عمرها! و ینبغی التسلیم أنّ خاتمة الشمس لا بدّ منها، و عجلة الزمن الدائبة ستوصل إلى ذلک الحدث، و لا بدّ من مجیء ذلک الیوم الذی سیشهد اضمحلال حجم هذا الجرم الکبیر و إخماد نوره، کما هو حال و شأن بقیة النجوم [۴۸۲].

فالعلم الحدیث إذن، قد أثبت الحقائق العلمیة التی طرحها قبل ألف و أربعمائة سنة إلّا دلیل قاطع على ما نقول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۹

الآیات [سورة التکویر (۸۱): الآیات ۱۵ الى ۲۵]

اشارة

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) الْجَوارِ الْکُنَّسِ (۱۶) وَ اللَّیْلِ إِذا عَسْعَسَ (۱۷) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (۱۸) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ (۱۹)
ذِی قُوَّةٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ (۲۰) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ (۲۱) وَ ما صاحِبُکُمْ بِمَجْنُونٍ (۲۲) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِینِ (۲۳) وَ ما هُوَ عَلَى الْغَیْبِ بِضَنِینٍ (۲۴)
وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَیْطانٍ رَجِیمٍ (۲۵)

التّفسیر

نزل به رسول کریم:

بعد أن تناولت الآیات السابقة مواضیع: المعاد، مقدمات یوم القیامة، و حوادث یوم القیامة ... تأتی الآیات أعلاه لتطرق عن: أحقّیة القرآن و صدق نبوّة محمّد صلّى اللّه علیه و آله و سلّم، و الآیات فی حقیقتها تأکید على ما جاء فی الآیات السابقة لموضوع «المعاد»، إضافة لذکرها صور بیانیة منبهة على هذه الحقیقة.

و تشرع الآیات ب: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۴۸۳]، الْجَوارِ الْکُنَّسِ

«الخنّس»: جمع (خانس)، من (خنس) و هو الانقباض و الاختفاء، و یقال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۰

للشیطان: «الخنّاس»، لأنّه إذا ذکر اللّه تعالى، و کما ورد فی الحدیث الشریف:

«الشیطان یوسوس إلى العبد فإذا ذکر اللّه خنس».[۴۸۴] «الجوار»: جمع (جاریة)، و هی الشیء الذی تتحرک بسرعة.

«الکنّس»: جمع (کانس)، من (کنس)، على وزن (شمس)، و هو الاختفاء، و «کناس» الطیر و الوحش: بیت یتخذه.

و لکن ... ما هی الأشیاء المقصودة بهذا القسم؟

یعتقد کثیر من المفسّرین، إنّها الکواکب ۴۸۵] الخمسة السیارة التی فی منظومتنا الشمسیة، و التی یمکن رؤیتها بالعین المجرّدة (عطارد، الزهرة، المریخ، المشتری و زحل).

و نقول توضیحا: لو تأملنا السماء عدّة لیال، لرأینا أنّ نجوم السماء أو القبة السماویة تظهر و تغیب بشکل جماعی من دون أن تتغیر الفواصل و المسافات فیما بینها، و کأنّها لئالئ خیطت على قطعة قماش داکن الألوان، و هذه القطعة تتحرک من المشرق إلى المغرب،

إلّا خمسة كواكب قد خرجت عن هذه القاعدة، فنراها تتحرك و ليس بينها و بين بقية النجوم فواصل ثابتة، و كأنّها لئالئ قد وضعت على تلك القطعة وضعا، من دون أن تخبّط بها! و هذه الكواكب الخمس هى المقصود فى هذا التفسير، و ما نلاحظه من حركتها إنّما تكون لقربها منّا لا نتمكن من تمييز حركات بقية النجوم لعظم المسافة فيما بيننا و بينها.

و من جهة أخرى: ينبغى التنويه إلى أنّ علماء الفلك يطلقون على هذه الكواكب اسم (الكواكب المتحيرة)، لأنّها لا تتحرك على خط مستقيم ثابت،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۱

فتراها تسير باتجاه معين من الزمن ثمّ تعود قليلا و من ثمّ تتابع مسيرها الأوّل و هكذا ... و لهؤلاء العلماء من البحوث العلمية فى تحليل هذه الظاهرة.

و عليه ... يمكن حمل إشارة الآيات إلى الكواكب السيّارة «الجوار»، التى فى سيرها لها رجوع «الخنس»، ثمّ تختفى عند طلوع الفجر و شروق الشمس ... فهى تشبه غزالا يتصيد طعامه فى الليل و ما أن يحّل النهار حتى يختفى عن أنظار الصيادين و الحيوانات المفترسة فيذهب إلى «كناسه»، و لذا وصفت الكواكب ب «الكنّس»».

و ثمّة احتمال آخر: «الكنّس»: اختفاء الكواكب فى ضوء الشمس.

أى إنّها حينما تدور حول الشمس، تصل فى بعض الوقت إلى نقطة مجاورة للشمس فيختفى نورها تماما عن الأبصار، و هو ما يعبّر عنه علماء الفلك ب (الاحتراق).

و «الكنّس»: فى نظر بعض آخر: إشارة إلى دخول الكواكب فى البروج السماوية، و ذلك الدخول يشبه اختفاء الغزلان فى أماكن أمنها.

و كما هو معروف، إنّ كواكب مجموعتنا الشمسية لا- تنحصر بهذه الكواكب الخمس، بل ثمة ثلاثة كواكب أخرى (أورانوس، بلوتون، نبتون) و لكنّها لا ترى بالعين المجرّدة لبعدها عنّا، و للكثير من هذه السيّارات قمرا أو أقمارا، فعدد كواكب هذه المجموعة بالإضافة إلى الأرض هو تسعة كواكب.

و «الجورى»: توصيف جميل لحركة الكواكب، حيث شبّه بحركة السفن على سطح البحر.

و على أيّة حال، فكأنّ القرآن الكريم يريد بهذا القسم المليء بالمعانى الممتزجة بنوع من الإبهام، كأنّه يريد إثارة الفكر الإنسانى، و توجيهه صوب الكواكب السيّارة ذات الوضع الخاص على القبة السماوية، ليتأمل أمرها و قدرة و عظمة خالقها سبحانه و تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۲

و ثمّة احتمالات أخرى فى هذا الموضوع أهملناها لضعفها.

و

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال فى تفسير الآيات المذكورة: «هى خمسة أنجم: زحل، و المشترى، و المريخ، و الزهرة، و عطارد»[۴۸۶].

و يعرض لنا القرآن لوحة أخرى: وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ

«عسعس»: من (العسعسة)، و هى رقة الظلام فى طرفى الليل (أوله و آخره) و منه اطلاق لفظ «عسس» على حرّاس الليل، و بالرغم من اطلاق هذه المفردة على معنيين متفاوتين، و لكن المراد منها فى هذه الآية هو آخر الليل فقط بقرينة الآية التالية لها، و هو ما يشابه القسم الوارد فى الآية (۳۳) من سورة المدثر:

وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ.

و الليل، من النعم الإلهية الكبيرة، لأنّه: سكن للروح و الجسم، معدّل لحرارة الشمس، و سبب لإدامة حياة الموجودات ... أمّا التأكيد

على نهايته فيمكن أن يكون بلحاظ كونه مقدمة استقبال نور الصباح، إضافة لما لهذا الوقت بالذات من فضل كبير فى حال العبادة و المناجاة و الدعاء، و يمثل هذا الوقت أيضا نقطة الشروع بالحركة و العمل فى عالم الحياة.

و يأتى القسم الثّالث و الأخير من الآيات: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ

فما أروع الوصف و أجمله! فالصبح كموجود حى قد بدأ أوّل أنفاسه مع طلوع الفجر، ليدّب الروح من جديد فى كلّ الموجودات، بعد أن تقطعت أنفاسه عند حلول ظلام الليل! و يأتى هذا الوصف فى سياق ما ورد فى سورة المدّثّر، فبعد القسم بإدبار الليل، قال: وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ، فكأنّ الليل ستارة سوداء قد غطت وجه الصبح، فما أن أدبر الليل حتى رفعت تلك الستارة فبان وجه الصبح مشرقا، و أسفر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ۴۶۳

للحياة من جديد.

و تجسّد الآية التالية جواب القسم للآيات السابقة: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ

فالجواب موجّه لمن اتّهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باختلاق القرآن و نسبته إلى البارى جلّ شأنه.

و قد تناولت و ما بعدها خمسة أوصاف لأمين وحى اللّه جبرائيل عليه السّلام، و هى الأوصاف التى ينبغى توفرها فى كلّ رسول جامع لشرائط الرسالة ...

فالصفة الأولى: إنّه «كريم»: إشارة إلى علو مرتبته و جلالة شأنه.

و من صفاته أيضا: ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۴۸۷].

«ذى العرش»: ذات اللّه المقدّسة. مع أنّ اللّه مالك كلّ عالم الوجود، فقد وصف «بذى العرش» لما للعرش من أهمية بالغة على على غيره (سواء كان العرش بمعنى عالم ما وراء الطبيعة، أو بمعنى مقام العلم المكنون).

أمّا وصفه ب «ذى قوّة» (أى: صاحب قدرة)، لما للقدرة العظيمة و القوّة الفائقة من دور مهم و فعّال فى عملية حمل و إبلاغ الرسالة، و عموما ... ينبغى لكل رسول أن يكون صاحب قدرة معينة تتناسب و حدود رسالته، و على الإخلاص فى مجال عدم نسيان ما يرسل به.

«مكين»: صاحب منزلة و مكانة، و بدون ذلك لا يتمكن الرسول من أداء رسالته على أتمّ وجه، فلا من كونه شخصا جليلا، لائقا، و مقربا للمرسل.

و ممّا لا شك فيه إنّ التعبير ب «عند» لا يراد منه الحضور المكانى، لأنّ البارى جل شأنه لا يحده مكان، و المراد هو الحضور المقامى و القرب المعنوى.

و تتناول الآية التالية الصفة الرابعة و الخامسة: مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ

«ثمّ»: إشارة إلى البعيد، و يراد بها: إنّ أمين الوحى الإلهى نافذ الكلمة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ۴۶۴

عالم الملائكة، و مطاع عندهم، و إنّه فى ذروة الأمانة فى عملية إبلاغ الرسالة.

و ما نستشفّه من الرّوايات: إنّ جبرائيل عليه السّلام ينزل أحيانا و بصحبته جمع كبير من الملائكة فى حال إبلاغه للآيات القرآنية المباركة، و هو ما يوحى بأنّه مطاع بينهم، و هو ما ينبغى أن يكون فى كل أمّة تتبع رسولا، فلا بدّ من طاعتها له.

و

روى ... أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لجبرائيل عليه السّلام عند نزول هذه الآيات: «ما أحسن ما أثنى عليك ربّك!: ذى قوّة عند العرش مكين، مطاع ثمّ أمين، فما كانت قوتك؟ و ما كانت أمانتك؟

فقال: أمّا قوّتى فإنّى بعثت إلى مداين لوط و هى أربع مداين فى كلّ مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذرارى، فحملتهم من الأرض

السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج و نباح الكلاب، ثم هويت بهّن فقلبتهّن. و أمّا أمانتى، فإنّى لم أؤمر بشىء فعدوته إلى غيره»[۴۸۸].

و ينفى القرآن ما نسب إلى النبّى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ

«الصاحب»: هو الملازم و الرفيق و الجليس، و الوصف هذا مضافا الى أنّه يحكى عن تواضع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع جميع الناس ... فلم يرغب يوما فى الاستعلاء على أحد منكم، فإنّه قد عاش بينكم حقبة طويلة، و جالسكم، فلمستم عن قرب رجاحة عقله و حسن درايته و أمانته، فكيف تنسبون له الجنون؟! و كلّ ما فى الأمر إنّه قد جاءكم بعد بعثته بتعاليم تخالف تعصبكم الأعمى و تحارب أهواءكم الجاهلية، فما راق لكم الانضباط و الترابط، و حبذتم الانفلات و التراخى، فوليتم الأدبار عن تعاليمه الربانية و نسبتم إليه الجنون، فرارا من هدى دعوته المباركة! و نسبة الجنون إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس بالشىء الجديد فى مسير دعوة السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۵

فقد واجه جميع أنبياء اللّه عليهم السّلام هذا الافتراء الفارغ من قبل جهلة و كفرة عصورهم، و قد حدثنا القرآن الكريم بتلك الوقائع: كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۴۸۹].

فالعاقل فى منطق الجاهلية، من يخضع للعادات و التقاليد المعاشة و إن كانت فاسدة منحطة، و من يطلق لجماح أهواءه و شهواته العنان، و من لا يفكر بأىّ إصلاح أو تغيير لأنّه خروج على السائد المتعارف عليه! و بناء على هذا المقياس الأعمى ... فكلّ الأنبياء فى نظر عبدة الدنيا مجانين ...

و يؤكّد القرآن على الارتباط الوثيق ما بين النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جبرائيل عليه السّلام: وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ و هو «الأفق الأعلى» الذى تظهر فيه الملائكة، حيث شاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جبرائيل عليه السّلام.

و قد استدلّ بعض المفسّرين بالآية (۷) من سورة النجم على التفسير أعلاه، و التى تقول: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى

و لكننا نرى أنّ الآية مع بقية آيات السورة تتحدث عن حقيقة أخرى، فراجع إلى ما ذكرناه فى تفسيرنا هذا.

و قال بعض: إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد رأى جبرائيل عليه السّلام فى صورته الحقيقة مرّتين، الأولى عند بداية البعثة النبوية المباركة، حيث ظهر له فى الأفق الأعلى و قد غطى الشرق و الغرب حتى بهر النبىّ بعظمة هيئته، و الثّانية رآه عند معراجه إلى السماوات العلى و اعتبروا الآية المبحوثة إشارة لتلك الرؤيتين.

و ثمّة من يذهب فى تفسير الآية من كونها تشير إلى مشاهدة اللّه عزّ و جلّ بالشهود الباطنى، (و لمزيد من الإيضاح، راجع ذيل الآيات (۵- ۱۳) من سورة النجم).

و تأتى الصفة الخامسة: وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۶

فهو ليس ممن يقبرون فى صدورهم ممّا يوحى إليه، و لا يبخل و لا يتوانى عن الإبلاغ و يوصله إلى كلّ الناس كاملا و بأمانة.

«ضنين»: من (ضنّة) على وزن (منّة)، أى: البخل بالأشياء الثمينة و النفيسة، فالأنبياء عليهم السّلام منزّهون عن ذلك، و إذا ما بخل الآخرون بما صار فى حوزتهم من علم محدود، فالنّبى فوق ذلك و أنزه مع ماله من منبع علم إلهى.

و تقول آخر الآيات المبحوثة: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ

فالآيات القرآنية ليست كحديث الكهنة الذى يأخذوه من الشياطين، و دليلها معها، حيث أنّ حديث الكهنة محشو بالأكاذيب و التناقضات، و يدور حول محور ميولهم و رغباتهم، فى حين لا يشاهد ذلك فى الآيات القرآنية إطلاقا.

و الآية تجيب على إحدى افتراءات المشركين، حين اتهموا النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه كاهن و كلّ ما جاء به قد أخذه من

الشیاطین! فحدیث الشیطان! لا یتعدی أن یکون باطلا و ضلالا فی حین أنّ الآیات الرّبانیة کلّها نور و هدایة، و هذا ما یشعر به کلّ من یواجه القرآن و منذ وهلته الأولی.

«رجیم»: من (الرجم)، و (رجام) علی وزن (لجام) بمعنی أخذ الحجارة، و تطلق علی رمی الحجار علی الأشخاص أو الحیوانات، و یستعار الرجم للرمی ب: الظّن، التوهم، الشتم و الطرد، و «الشیطان الرجیم» بمعنی المطرود من رحمة اللّه.

***

بحث

مؤهلات الرّسول:

الصفات الخمسة التی ذکرتها الآیات المبارکة جبرائیل علیه السّلام باعتباره رسول الوحی الإلهی إلی النبیّ الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، هی ذات الصفات التی ینبغی توفرها فی کلّ رسول، و بما یناسب نوع و درجة رسالته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۷

فلکی یکون الرسول لائقا لحمل الرسالة، لا بدّ من تحلّیه برکائز أخلاقیة و نفسیة عالیة، أی یکون «کریما» محترما.

و لا بدّ من کونه قادر متمکن «ذی قوّة»، حتی یتمکن من إبلاغ رسالته بکل ما تحمل، و من دون أن یصیبه أیّ ضعف أو فتور أو هوان.

و ینبغی أن تکون ذو منزلة رفیعة و مقام مرموق عند المرسل، «مکین»، لکی یکون طبیعیا مستقرا فی استلامه الرسالة، و لا یناله أیّ خوف أو ارتباک فی حال إیصاله لأجوبة الرسالة إلی أیّ کان.

و من المؤهلات اللازمة، أن یکون له أعوان و یطیعونه بأمر الرسالة، و لا یتخاذلون عن طاعته، «مطاع».

و أخیرا، لا بدّ من کونه «أمینا» فی النقل، لیعتمد المرسل علیه فیما یرید أن یوصله إلیه من الرسالة، فلا بدّ من الأمانة بکلّ معناها و الابتعاد عن الخیانة و لو بأدنی زوایاها.

فمتی ما توفرت المؤهلات اللازمة للرسول فیه کان جدیرا بأداء حق الرسالة، و لذلک نری رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان ینتخب رسله بدقة من بین أصحابه، و أفضل نموذج حی لذلک، إرساله أمیر المؤمنین علیه السّلام بإیصال الآیات الأولی من سورة براءة إلی مشرکی مکّة، فی ظروف قد شرحناها عند تفسیرنا لتلک السورة.

و

عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال: «رسولک ترجمان عقلک، و کتابک أبلغ ما ینطق عنک»[۴۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۸

الآیات [سورة التکویر (۸۱): الآیات ۲۶ الی ۲۹]

اشارة

فَأَیْنَ تَذْهَبُونَ (۲۶) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِکْرٌ لِلْعالَمِینَ (۲۷) لِمَنْ شاءَ مِنْکُمْ أَنْ یَسْتَقِیمَ (۲۸) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ یَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (۲۹)

التّفسیر

إلى اين ... أيّها الغافلون؟!

أكّدت الآيات السابقة ببيان جلى حقيقة كون القرآن كلام اللّه ... فمحتواه ينطق عن كونه كلاما رحمانيا و ليس شيطانيا، و قد نزل به رسول كريم مقتدر و أمين، و قام بتبليغه النّبى الصادق الأمين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى لم يبخل فى البلاغ فى شىء، و ما تهاون عن تعليم الناس فيما أرسل به.

فيما توبخ الآيات أعلاه أولئك الذين عادوا القرآن و انحرفوا عن خطّ سير الرسالة الربّانية الهادية، فتقول لهم بصيغة الاستفهام التوبيخى: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ

لم تركتم طريق الهداية؟! أو من العقل أن تصدّوا عن النور و تتجهوا صوب الظلام؟! ألا ترحمون أنفسكم؟! و كيف تعملون على هدم أركان سعادتكم و سلامتكم؟! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۹

و تأتى الآية الثّانية لتقول: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ فالآية تتحدث بلسان الوعظ و التذكير، عسى أن يستيقظ من تملكه نوم غفلته.

لا يمكن للهداية و التربية أن تؤدّى فعلها بوجود المرشد الناجح فقط، بل لا بدّ من توفر عنصر الاستعداد و تقبل الهداية من قبل الطرف الآخر، و لذلك ...

فبعد الوعظ و التذكير جاءت الآية التالية لتبيّن هذه الحقيقة: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ

فالآية الاولى: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ قد ذكرت عمومية الفيض الإلهى فى القرآن الكريم، فيما خصصت الآية التالية: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ عملية الاستفادة من هذا الفيض الجزيل و حددته بشرط الاستقامة.

و هذه القاعدة جارية فى جميع النعم و المواهب الإلهية فى العالم، فإنّها عامّة التمكين، خاصّة الاستفادة، فمن لا يملك الإرادة و التصميم على ضوء الهدى القرآنى لا يستحق فيض رحمة اللّه و نعمه.

و الآية الثّانية من سورة البقرة: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ تدخل فى سياق هذا المعنى.

و على أيّة حال، فالآية تؤكّد مرّة اخرى على حرية الإنسان فى اختياره الطريق الذى يرضاه، سواء كان طريق حقّ، أم طريق باطل.

و يفهم من «يستقيم»، أنّ طريق السعادة الحقّة، طريق مستقيم، و ما دونه لا يكون كذلك، و لولا الإفراط و التفريط و الوساوس الشيطانية و أغشية الضلال ..

لسار الإنسان على هذه السبل المنجية، باستجابته لنداء الفطرة و اتباعه الخط المستقيم، و الخط المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للهدف المنشود.

و لكى لا يتصور بأنّ مشيئة و إرادة الإنسان مطلقة فى سيره على طريق المستقيم، و لكى يربط الإنسان مشيئة بمشيئة و توفيق اللّه عزّ و جلّ، و جاءت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۰

الآية التالية و لتقول: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ و الآيتان السابقتان تبيّنان فلسفة «أمر بين الأمرين» التى أشار إليها الإمام الصادق عليه السّلام، فمن جهة، إنّ الإرادة و القرار بيدكم، و من جهة اخرى، يلزم تلك الإرادة و ذلك القرارة ما يشاء اللّه ربّ العالمين ... و إنّ خلقتم أحرارا مختارين، فالحرية و الإختيار منه جلّ اسمه، و لولا إرادته ذلك لما كان.

فالإنسان ليس بمجبور على أعماله مطلقا، و لا هو بمختار بكلّ معنى الإختيار، و لكن ... كما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «لا جبر و لا تفويض الأمر بين الأمرين»،

فکلّ ما للإنسان من: عقل، فهم قدرة بدنیة، و قدرة علی اتخاذ القرار، کلّ ذلک من اللّه عزّ و جلّ، فهو من جهة فی حالة الحاجة الدائمة للاتصال به جلّ شأنه، و لو شاء اللّه لتوقف کلّ شیء و انتهی، و هو من جهة اخری مسئول عن أعماله لما له من حریة و اختیار علی تنفیذها.

و یفهم من «ربّ العالمین»، إنّ المشیئة الإلهیة تقضی بهدایة و تکامل الإنسان و کلّ الموجودات، فاللّه لا یرید أن یضل أو یذنب أحد من الخلق، بل یرید أن یسعد کلّ الخلق فی جوار رحمته و رضوانه، و بمقتضی ربوبیته فهو الموفّق و المعین لکلّ من یرید أن یسلک طریق التکامل.

و الخطأ القاتل الذی وقع فیه المتجبرة، إنّهم تمسّکوا بالآیة الثّانیة دون الاولی و ربّما کان المفوضة قد تمسّکوا بالآیة الاولی مفصولة عن الآیة الثانیة لها .. و الفصل فیما بین آیات القرآن کثیرا ما یوقع فی هاویة الضلال و الخروج بنتائج خاطئة باطلة، و ینبغی التعامل مع الآیات القرآنیة علی کونها کلّ مترابط، لا آیات فرادی.

و قیل: إنّه لمّا نزل قوله تعالی: لِمَنْ شاءَ مِنْکُمْ أَنْ یَسْتَقِیمَ قال أبو جهل:

جعل الأمر إلینا إن شئنا استقمنا و إن شئنا لم نستقم، فأنزل اللّه تعالی: وَ ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۱

تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ ۴۹۱].

اللّهمّ! لا توفیق إلّا منک، فوفقنا للسیر علی طریق رضوانک ...

اللّهمّ! لقد رغبنا فی سلوک طریقک و منهجک، فاجعل مشیئتک أن تأخذ بأیدینا فی هذا الطریق ...

اللّهمّ! إنّا نخاف أهوال الحشر و القیامة، لخلو صحائف أعمالنا من الحسنات، فعاملنا بعفوک و لطفک، و لا تشدد علینا بعدلک ...

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة التّکویر***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۳

سورة الإنفطار

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها تسع و عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۵

«سورة الإنفطار»

محتوی السورة:

لا تشذ السورة عن سیاق سور الجزء الأخیر من القرآن الکریم، و تدور حول محور المسائل المتعلقة بیوم القیامة، تتضمّن مجموع آیاتها المواضیع التالیة:

۱- أشراط الساعة، و هی الحوادث الهائلة التی سیشهدها العالم أواخر لحظات عمره و عند قیام الساعة.

۲- التذکیر بالنعم الإلهیة الداخلة فی کلّ وجود الإنسان، و کسر حالة غرور الإنسان، و تهیئته المعاد.

۳- الإشارة إلی ملائکة تسجیل أعمال الإنسان.

۴- بیان عاقبة المحسنین و المسیئین فی یوم القیامة.

۵- لمحات سریعة عمّا سیجری فی ذلک الیوم العظیم.

فضیلة السورة:

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ هاتین السورتین: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ و إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و جعلهما نصب عینه فی صلاة الفریضة و النافلة، لم یحجبه من اللّه حجاب، و لم یحجزه من اللّه حاجز، و لم یزل ینظر إلی اللّه و ینظر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۶

اللّه إلیه حتی یفرغ من حساب الناس»[۴۹۲].

و لا ـ شک أنّ حصول ثواب السورتین إنّما یتمّ وضعهما فی أعماق روحه، و بنی علی أسسها أرکان نفسه و عمله، و لا لمن یلوکهما فی لسانه و لا غیر!***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۷

الآیات [سورة الانفطار (۸۲): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا الْکَواکِبُ انْتَثَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵)

التّفسیر

عند ما یحلّ الحدث المروع!

تقدّم لنا الآیات (مرّة اخری) مشاهدا مروعة من یوم القیامة، فتخبر عن تفطّر السماء من هول الکارثة: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ

ثمّ تنتقل إلی ما سیصیب الکواکب و نظامها: وَ إِذَا الْکَواکِبُ انْتَثَرَتْ

فسینهدم العالم العلوی، و ستحدث الإنفجارات العظیمة المهیبة فی کلّ النجوم السماویة، و سیتخلخل نظام المنظومات الشمسیة، فتخرج النجوم من مساراتها لتصطدم الواحدة بالأخری و تتلاشی ... فینتهی عمر العالم، و یتناثر کلّ شیء لیبنی علی أنقاضه عالم جدید آخر.

«انفطرت»: من (الإنفطار)، بمعنی الإنشقاق، و قد ورد التعبیر فی آیات اخری کالآیة الاولی من سورة الإنشقاق: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و الآیة (۱۸) من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۸

سورة المزمل: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ

«انتثرت»: من (النثر) علی وزن (نصر)، بمعنی نشر الشیء و تفریقه، و «الانتثار»: هو الانتشار و التفرق. و باعتبار أنّ انتشار النجوم یؤدّی إلی تفرقها فی السماء (کحبات العقد المنفرط) فقد فسّرها الکثیر من المفسّرین ب (سقوط النجوم)، و هو من لوازم معنی الانتثار.

«الکواکب»: جمع (کوکب)، و له معان کثیرة، منها: النجوم بشکل عام، و الزهرة بشکل خاص، النبت إذا طال، البیاض الذی یظهر فی

سواد العين، لمعان الحديد: بريقه و توقده و «غلام كوكب»: ممتلئ إذا ترعرع و حسن وجهه، و كوكب كلّ شيء: معظمه، مثل كوكب الشعب و كوكب السماء و كوكب الشمس.

و الكوكب أيضا: الماء، السيف، سيد القوم ... إلخ.

و على ما يبدو أنّ المعنى الحقيقى هو (النجم المتلألئ)، و ما دون ذلك معان مجازية استعملت لعلاقة المشابهة.

و لكن، ما هى العوامل التى ستؤدى بالكواكب إلى التناثر و التفرق فى الفضاء مع فقدانها لنظامها الذى يحكمها؟

هل بسبب فقدان التعادل الموجود فى الجاذبية فيما بينها؟ أم ثمّة قوّة هائلة ستفعل ذلك؟ أم بسبب التوسع المستمر الحاصل فى العالم- كما يقول ذلك العلم الحديث؟ ...

لا يستطيع أىّ أحد أن يتكهن السبب بدّقة ... و كلّ ما نعلمه أنّ هذه الأمور تهدف إلى تعريف الإنسان بما سيحدث بالمستقبل الآت، و تدعوه لخلاص نفسه من أهوالها، و هو الكائن الضعيف وسط تلك الحوادث الجسام؟! فالآيات تحذر الإنسان من أن يتخذ العالم الفانى هدفا لوجوده، فيتصوره محل خلوده، لأنّ ذلك سيؤول إلى تلوث قلب الإنسان (شاء أم أبى)، و ما ينتج عن التلوث سوى الذنوب المؤدّية إلى عذاب الجحيم ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۹

و ينتقل البيان القرآنى من السماء إلى الأرض، فيقول: وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ أى اتصلت.

مع أنّ البحار متصلة فيما بينها قبل حلول ذلك اليوم (ما عدا البحيرات)، لكنّ اتصالها سيكون بشكل آخر، حيث ستفيض جميعها و تتمزق حدودها و تصير بحرا واحدا لتشمل كلّ الأرض، بسبب الزلازل المرعبة و تحطم الجبال و سقوطها فى البحار ... هذا أحد تفاسير الآية السادسة من سورة التكوير (الآنفة الذكر) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ

و ثمّة احتمال آخر بخصوص الآية المبحوثة و الآية (۶) من سورة التكوير، يقول: يراد ب «فجّرت» و «سجّرت» الإنفجار و الاحتراق، لأنّ مياه البحار و المحيطات ستتحول إلى قطعة من نار لأهب.

و كما أشرنا سابقا، فالماء يتكون من عنصرين شديدى الاشتعال (الأوكسجين و الهيدروجين) فلو تحلل الماء إلى عنصريه فسيكفيه شرارة صغيرة لجعله قطعة ملتهبة من النيران.

و تتناول الآية التالية عرضا لمرحلة القيامة الثانية، مرحلة تجديد الحياة و إحياء الموتى، فتقول: إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ... و اخرج الموتى للحساب.

«بعثرت»: قلب ترابها و أثير ما فيها.

و احتمل (الراغب) فى مفرداته: إنّ «بعثرت» تكونت من كلمتين، (بعث) و (أثيرت)، فجاء المعنى منهما، كقولنا: «بسملة» من «بسم» و لفظ الجلالة «اللّه».

و على آيّة حال، فإننا نرى شبيه هذا المعنى قد ورد فى سورة الزلزال:

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها أى الأموات (بناء على المشهور من تفاسيرها)، و فى الآيتين (۱۳ و ۱۴) من سورة النّازعات: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ.

و توضح الآيات إنّ إحياء الموتى و إخراجهم من القبور سيكون مفاجئا و سريعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۰

و بعد ذكر كلّ تلك العلائم لما قبل البعث و لما بعده، تأتى النتيجة القاطعة:

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ

نعم، فستتجلى حقائق الوجود: و سيصير كلّ شيء بارز إنّه «يوم البروز» و سيرى الإنسان كلّ أعماله محضرة بخيرها و شرّها، لأنّه يوم

إزالة الحجب، و رفع مبررات الغرور و الغفلة، و عندها ... سيعلم الإنسان ما قدّم لآخرته، و ما ترك بعده من آثار حسنها و سيئها، مثل: الصدقة الجارية، فعل الخير، عمارة الأبنية، الكتب التی ألفها، ما سنّ من السنن ... فإن كان ما خلّفه خالصا للّه فسينال حسناته، و إن كانت نيّة أفعاله غير خالصة للّه فستصل إليه سيئات تبعاته.

و هذه نماذج من الأعمال التی ستصل نتائجها إلى الإنسان بعد الموت، و هو:

المراد من «و أخّرت».

صحيح أنّ الإنسان يعلم بما عمل فی دنياه بصورة إجمالية، لكنّ حبّ الذات و الإشتغال بالشهوات و النسيان غالبا ما ينسيه ما قدّمت يداه، فيتغافل عن النظر إلى ما بدّ منه، أمّا فی ذلك اليوم الذی سيتحول و يتغير فيه كلّ شیء حتى روح الإنسان فسيلتفت إلى ما قام به من عمل بكلّ دقّة و تفصيل، كما تشير إلى ذلك الآية (۳۰) من سورة آل عمران: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ، فكلّ سيرى كلّ أعماله حاضرة مجسمة أمام عينه.

و قيل: «ما قدّمت»، إشارة إلى أعمال أوّل عمر الإنسان، و «أخّرت»، إشارة إلى أعمال آخر عمره.

و يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب من جميع الجهات.

و يراد ب «نفس» الواردة بالآية، كلّ نفس إنسانية.

***

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۱

بحث

ما يخلفه الإنسان بعد موته:

المستفاد من الرّوايات الشريفة، بالإضافة لما ورد فی الآيات المباركة أعلاه، إنّه ثمّة أعمال و آثار يخلفها الإنسان بعد موته، و ما ينجسم من تلك الأعمال و الآثار حتى يوم القيامة يبقى مرتبطا بذات الفاعل الأصلی، فإن كانت الأعمال خيّرة فستصله حسنات تتمة العمل و استمراره، و إن كانت شريرة فلا يجنی منها سوى الهون و العذاب.

فعن الإمام الصادق ٧، أنّه قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلّا ثالث خصال: صدقة أجراها فی حياته، فهی تجری بعد موته، و سنّة هدى سنّها، فهی تعمل بها بعد موته، و ولد صالح يستغفر له»[۴۹۳].

و

فی رواية اخرى: «ست خصال يتنفع بها المؤمن بعد موته: ولد صالح يستغفر له، مصحف يقرأ منه، و قليب (بئر) يحفره، و غرس يغرسه، و صدقة ماء يجربه، و سنة حسنة يؤخذ بها بعده»[۴۹۴].

فيما أكّدت بعض الرّوايات على (العلم) الذی يخلّفه بعده.[۴۹۵] و قد حذّرت كثير من الرّوايات من أن يسنّ الإنسان سنّة سيئة، لأنّ الفاعل الأوّل ستتابع عليه آثام تلك السنة إلى يوم القيامة.

و كذلك حثت و شوقت على استنان السنن الحسنة، لينتفع الفاعل الأوّل لها بثوابها الجاری إلى يوم القيامة.

و

ذكر العلّامة الطبرسی حديثا فی هذا المضمار .. إنّ سائلا قام على عهد النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فسأل، فسكت القوم، ثمّ أنّ رجلا أعطاه، فأعطاه القوم .. فقال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۲

النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من استن خیرا فاستن به فله أجره، و مثل أجور من اتبعه، غیر منتقص من أجورهم، و من استن شرّا فاستن به فعلیه وزره، مثل أوزار من اتبعه غیر منتقص من أوزارهم» فتلا حذیفهٔ بن الیمان قوله تعالی: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ [۴۹۶].

و

عن أمیر المؤمنین علیه السّلام، أنّه قال: «فکیف بکم لو تناهت بکم الأمور و بعثرت القبور، هناک تبلو کلّ نفس ما أسلفت، و ردّوا إلی اللّه مولاهم الحق، و ضل عنهم ما کانوا یفترون»[۴۹۷].

فتعکس هذه الآیات و الرّوایات أبعاد مسئولیهٔ الإنسان أمام أعماله، و تبیّن عظم المسؤولیهٔ، فأثار فعل الخیرات أو المنکرات یتصل إلیه و إن امتدت الآلاف السنین بعد موته![۴۹۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۳

الآیات [سورهٔ الانفطار (۸۲): الآیات ۶ الی ۱۲]

اشارهٔ

یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْکَرِیمِ (۶) الَّذِی خَلَقَکَ فَسَوَّاکَ فَعَدَلَکَ (۷) فِی أَیِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَکَّبَکَ (۸) کَلَّا بَلْ تُکَذِّبُونَ بِالدِّینِ (۹) وَ إِنَّ عَلَیْکُمْ لَحافِظِینَ (۱۰)
کِراماً کاتِبِینَ (۱۱) یَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (۱۲)

التّفسیر

لا داعی للغرور:

تنتقل الآیات أعلاه من المعاد إلی الإنسان، ببیان إیقاظی عسی أن ینتبه الإنسان من غفلهٔ ما فی عنقه من حقّ و ما علی عاتقه من مسئولیات جسام أمام خالقه سبحانه و تعالی، فتخاطب الآیهٔ الاولی الإنسان باستفهام توبیخی محاط بالحنان و الرأفهٔ الرّبانیهٔ: یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْکَرِیمِ

فالقرآن یذکّر الإنسان بإنسانیته، و ما لها من إکرام و أفضلیهٔ، ثمّ جعله أمام «ربّ» «کریم»، فالرّب و بمقتضی ربوبیته هو الحامی و المدبّر لأمر تربیهٔ و تکامل الإنسان، و بمقتضی کرمه أجلس الإنسان علی مائدهٔ رحمته، و رعاه بما أنعم علیه مادیا و معنویا و دون أن یطلب منه أیّ مقابل، بل و یعفو عن کثیر من ذنوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۴

الإنسان لفضل کرمه ...

فهل من الحکمهٔ أن یتمرد هذا الموجود المکرّم علی هکذا ربّ رحیم کریم؟! و هل یحقّ لعاقل أن یغفل عن ذکر ربّه و لو للحظهٔ واحدهٔ، و لا یطیع أمر مولاه الذی یتضمن سعادته و فوزه؟! و لهذا

فقد ورد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند تلاوته للآیهٔ المبارکهٔ أنّه قال: «غرّه جهله»[۴۹۹].

و من هنا، يتقرّب لنا هـدف الآيهٔ، فهى تدعو الإنسان لكسـر حاجز غروره و تجاوز حالهٔ الغفلهٔ، و ذلك بالاسـتناد على مسألهٔ الربوبيهٔ و الكرم الإلهى، و ليس كما يحلو للبعض من أن يصور هدف الآيهٔ، على أنّه تلقين الإنسان عذره، فيقول:

غرّنى كرمـك! أو كما قيل للفضـيل بن عياض: «لو أقامك اللّه و يوم القيامـهٔ بين يـديه، فقال: ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ماذا كنت تقول له؟ قال: أقول: غرّنى ستورك المرخاهٔ»[۵۰۰].

فهـذا ما يخالف تماما، لأنّها فى صـدد كسـر حالـهٔ غرور الإنسان و إيقاظه من غفلته، و ليست فى صدد إضافهٔ حجاب آخر على حجب الغفلهٔ! فلا ينبغى لنا أن نذهب بالآيهٔ بما يحلو لنا و نوجهها فى خلاف ما تهدف إليه! «غرّك»: من (الغرور)، و «الغرّهٔ»: غفلهٔ فى اليقظهٔ، و بعبارهٔ اخرى: غفلـهٔ فى وقت لا ينبغى فيه الغفلـهٔ، و لما كانت الغفلهٔ أحيانا مصدرا للاسـتعلاء و الطغيان فقد اسـتعملت (الغرور) بهذه المعانى.

و الغرور): كلّ ما يغرّ الإنسان من مال، جاه، شـهوهٔ و شـيطان، و قـد فسّـر الغرور بالشـيطان، لأنّه أخبث من يقوم بهذا الدور الدنىء فى الدّنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۵

و ذكر فى تفسير «الكريم» آراء كثيرهٔ، منها: إنّه المنعم الذى تكون جميع أفعاله إحسان، و هو لا ينتظر منها أىّ نفع أو دفع ضرر.

و منها: هو الذى يعطى ما يلزمه و ما لا يلزمه.

و منها: هو من يعطى الكثير بالقليل.

و لو جمعنا كلّ ما ذكر و بأعلى صورهٔ لدخل فى كرم اللّه عزّ و جلّ، فيكفى كرم اللّه جلالا أنّه لا يكتفى عن المذنبين، بل يبدل (لمن يستحق) سيئاتهم حسنات.

و

روى عن أمير المؤمنين عليه السّـلام عند تلاوته لهذه الآيهٔ، أنّه قال: (إن الإنسان) «أدحض مسئول حجّهٔ، و أقطع مغترّ معذرهٔ، لقد أبرح (أى اغتر) جهالهٔ بنفسه.

يا أيّها الإنسان، ما جرّأك على ذنبك، و ما غرّك بربّك، و ما أنسك بهلكهٔ نفسك؟

أمّا من دائك بلول (أى شفاء)، أم ليس من نومتك يقظهٔ؟ أما ترحم نفسك ما ترحم من غيرك؟ فلربّما ترى الضاحى من حرّ الشمس فتظلّه، أو ترى المبتلى بألم يمض جسـده فتبكى رحمـهٔ له! فما صبرك على دائك، و جلـدك على مصابك، و عزاك عن البكاء على نفسـك و هى أعزّ الأـنفس عليـك، و كيف لاـ يوقظـك خوف بيات نقمـهٔ (أى تبيت بنقمـهٔ من اللّه) و قـد تورطت بمعاصيـه مـدارج سطواته! فتـداو من داء الفترهٔ فى قلبك بعزيمهٔ، و من كرى (أى النوم) الغفلهٔ فى ناظرك بيقظهٔ، و كن للّه مطيعا و بذكره آنسا، و تمثل (أى تصور) فى حـال توليـك عنه إقباله عليك، يـدعوك إلى عفوه و يتغمـدك بفضـله و أنت متول عنه إلى غيره، فتعالى من قوى ما أكرمه! و تواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته! ...»[۵۰۱].

و تعرض لنا الآيهٔ التاليهٔ جانبا من كرم اللّه و لطفه على الإنسان:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۶

الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ ما[۵۰۲] شاءَ رَكَّبَكَ

فالآيهٔ قد طرحت مراحل خلق الإنسان الأربعهٔ .. أصل الخلقهٔ، التسويهٔ، التعديل، و من ثمّ التركيب.

ففى مرحلهٔ الاولى: يبدأ خلق الإنسان و من نطفهٔ فى ظلمات رحم الام.

و فى مرحلهٔ الثّانيهٔ: مرحلهٔ «التسويهٔ و التنظيم» و فيها يقدر البارى سبحانه خلق كلّ عضو من أعضاء الإنسان بميزان متناهى الدّقهٔ.

فلو أمعن الإنسان النظر فى تكوين عينه اذنه أو قلبه، عروقه و سائر أعضاءه، و ما أودع فيها من ألطاف و مواهب و قدرات إلهيهٔ، لتجسم

أمامه عالما من العلم و القدرة و اللطف و الكرم الإلهى.

عطاء ربّانى قد شغل العلماء آلاف السنين بالتفكير و البحث و التأليف، و لا زالوا فى أوّل الطريق ...

و فى المرحلة الثّالثة: يكون التعديل بين «القوى» و «الأعضاء» و تحكيم الارتباط فيما بينها.

و بدن الإنسان قد بنى على هذين القسمين المتقاربين، ف اليدين، الرجلين، العينين، الأذنين، العظام، العروق، الأعصاب و العضلات قد توزعت جميعها على هذين القسمين متجانس و مترابط.

هـذا بالإضافة إلى أنّ الأعضاء فى عملها يكمل بعضـها للبعض الآخر، فجهاز التنفس مثلا يساعد فى عمل الدورة الدموية بدورها تقدم يد العون إلى عملية التنفس، و لأجل ابتلاع لقمة غذاء، لا تصل إلى الجهاز الهضـمى إلّا بعد أن يؤدّى كلّ من: الأسنان، اللسان، الغدد و عضلات الفم دوره الموكل به، و من ثمّ تتعاضد أجزاء الجهاز الهضمى على إتمام عملية الهضم و امتصاص الغذاء، لينتج منه القوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۷

اللازمة للحركة و الفعالية ...

و كلّ ما ذكر، و غيره كثير، قد جمع قصيرة رائعة ... فَعَدَلَكَ

و قيل: «عـدلك» إشارة إلى اعتـدال قامـة الإنسان، و هو ما يمتاز به عن بقيـة الحيوانات، و هـذا المعنى أقرب للمرحلـة القادمـة و لكن المعنى الأوّل أجمع.

و فى المرحلة الرابعة: تكون عملية «التركيب» و إعطاء الصورة النهائية للإنسن نسبة إلى بقية الموجودات.

نعم، فقـد تكرم البارى بإعطاء النوع الإنسانى صورة موزونـة عليها مسـحة جمالية بديعة قياسا مع بقية الحيوانات، و أعطى الإنسان فطرة سليمة، و ركّبه بشكلّ يكون فيه مستعدا لتلقى كلّ علم و تربية.

و من حكمـة البـارى أن جعل الصور الإنسانيـة مختلفـة متباينـة، كما أشارت إلى ذلك الآيـة (۲۲) مـن سـورة الروم: وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ و لولا الاختلاف المذكور لاختل توازن النظام الاجتماعى البشرى.

و مع الاختلاف فى المظهر فـإنّ البارى جلّ شأنه قـدّر الاختلاف و التفاوت فى القابليات و الاسـتعدادات و الأذواق و الرغبات، و جاء هذا النظم بمقتضى حكمته، و به يمكن تشكيل مجتمع متكامل سليم و كلّ حوائجه ستكون مؤمّنة.

و تلخص الآية (۴) من سورة التين خلق اللّه للإنسان بصورة إجمالية: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

و الخلاصـة: فالآيـات المبحوثـة، إضافـة لآيات أخر كثيرة تهـدف و بشـكلّ دقيق إلى تعريف الإنسان المغرور بحقيقته، منـذ كان نطفة قـذرة، مرورا بتصويره و تكامله فى رحم امّه، حتى أشـدّ حالات نموه و تكامله، و تؤكّد على أنّ حياة الإنسان فى حقيقتها مرهونة بنعم اللّه، و كلّ حىّ يفعم برحمة اللّه فى كل لحظات حياته، و لا بدّ لكلّ حى ذى لبّ و بصيرة من أن يترحل من مطية غروره و غفلته،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۸

و يضع طوق عبودية المعبود الأحد فى رقبته، و إلّا فالهلاك الحتمى.

و تتناول الآية التالية منشأ الغرور و الغفلة: كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ

فـالكرم الإلـهى، و لطـف البـارى منعمـه ليسـت بمحفز لغروركم، و لكنكم آليتم على عـدم إيمـانكم بالقيامـة، فـوقعتم بتلـك الهـاوية الموهمة.[۵۰۳] و لو دققنا النظر فى حال المغرورين و الغافلين، لرأينا أنّ الشك بيوم القيامـة أو إنكاره هو الذى اسـتحوذ على قلوبهم و مـا دونه مجرّد مبررات واهيـة، و من هنا يأتى لتشديـد على أصل المعاد، فلو قوى الإيمان بالمعاد فى القلوب لارتفع الغرور و انقشـعت الغفلة عن النفوس.

«الـدين»: يراد به هنا، الجزاء يوم الجزاء، و ما احتمله البعض من أنّه (دين الإسـلام) فبعيـد عن سـياق حـديث الآيات، لأنّها تتحدث عن «المعاد».

و تأتی الآیات التالیة لتوضح أنّ حرکات و سکنات الإنسان کلّها مراقبة و محسوبة و لا بدّ الإیمان بالمعاد و إزالة عوامل الغفلة و الغرور، فتقول .. وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ ۵۰۴].

و هؤلاء الحفظة لهم مقام کریم عند اللّه تعالی و دائبین علی کتابة أعمالکم:

كِراماً كاتِبِينَ

يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ

و «الحافظین»: هم الملائکة المکلفون بحفظ و تسجیل أعمال الإنسان من خیر أو شرّ، کما سمّتهم الآیة (۱۷) من سورة (ق) بالرقیب العتید: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، کما و ذکرتهم الآیة (۱۶) من نفس السورة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۹

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ.

و ثمّة آیات قرآنیة اخری تشیر إلی رقابة الملائکة لما یفعله الإنسان فی حیاته.

إنّ نظر و شهادة اللّه عزّ و جلّ علی أعمال الإنسان، ممّا لا شک فیه، فهو الناظر لما یبدر من الإنسان قبل أیّ أحد، و أدق من کلّ شیء، و لکنّه سبحانه و لزیادة التأکید و لتحسیس الإنسان بعظم مسئولیة ما یؤدیه، فقد وضع مراقبین یشهدون علی الإنسان یوم الحساب، و منهم هؤلاء الملائکة الکرام.

و قد فصّلنا أقسام المراقبین الذین یحفون بالإنسان من کلّ جهة، و ذلک ذیل الآیتین (۲۰ و ۲۱) من سورة فصّلت، و نوردها هنا إجمالا، و هی علی سبعة أقسام.

أوّلا: ذات اللّه المقدّسة، کما فی قوله تعالی: وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۵۰۵].

ثانیا: الأنبیاء و الأوصیاء علیهم السّلام، بدلالة قوله تعالی: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً[۵۰۶].

ثالثا: أعضاء بدن الإنسان، بدلالة قوله تعالی: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ۵۰۷].

رابعا: جلد الإنسان و سمعه و بصره، بدلالة قوله تعالی: حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ۵۰۸].

خامسا: الملائکة، بدلالة قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۰

وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ[۵۰۹]، و بدلالة الآیة المبحوثة أیضا.

سادسا: الأرض .. المکان الذی یعیش علیه الإنسان، بدلالة قوله تعالی:

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها[۵۱۰].

سابعا: الزمان الذی تجری فیه أعمال الإنسان، بدلالة ما

روی عن الإمام علی علیه السّلام فی و قوله: «ما من یوم یمرّ علی ابن آدم إلّا قال له ذلک الیوم: یا ابن آدم أنا یوم جدید و أنا علیک شهید»[۵۱۱].

و

فی کتاب الإحتجاج للشیخ الطبرسی: إنّ شخصا سأل الإمام الصادق علیه السّلام عن علّة وضع الملائکة لتسجیل أعمال الإنسان فی حین أنّ اللّه عزّ و جلّ عالم السرّ و أخفی؟

فقال الإمام علیه السّلام: «استعبدهم بذلک، و جعلهم شهودا علی خلقه، لیکون العباد لملازمتهم إیّاهم أشدّ علی طاعة اللّه مواظبة، و عن معصیته أشدّ انقباضا، و کم من عبد یهم بمعصیة فذکر مکانهما فارعوی و کفّ، فیقول ربّی یرانی، و حفظتی علیّ بذلک یشهد،

و أنّ برأفته و لطفه وكّلهم بعباده، يذبّون عنهم مردة الشياطين، و هوام الأرض، و آفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن اللّه، إلى أن يجيء أمر اللّه عزّ و جلّ»[۵۱۲].

و يستفاد من هذه الرواية أنّ للملائكة وظائف اخرى إضافة لتسجيلهم لأعمال الإنسان كحفظ الإنسان من الحوادث و الآفات و وساوس الشيطان.

(و قد بحثنا موضوع وظائف و مهام الملائكة بتفصيل فی ذيل الآية (۱) من سورة فاطر- فراجع).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۱

و قد وصفت الآيات المبحوثة هؤلاء الملائكة بأنّهم «كرام»، ليكون الإنسان أكثر دقّة فی مراقبة نفسه و أعماله، لأنّ الناظر كلّما كان ذا شأن كبير، تحفظ الإنسان منه أكثر و أكثر و استحى من فعل المعاصی أمامه.

و علّة ذكر «كاتبين» للتأكيد على إنّهم لا يكتفون بالمراقبة و الحفظ دون تسجيل ذلك بدقّة متناهية.

و ذكر: يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ تأكيد آخر على كونهم مطلعين على كلّ الأعمال و بشكل تام، و استنادا إلى اطلاعهم و معرفتهم يسجلون ما يكتبونه.

فالآيات تشير إلى حرية إرادة الإنسان، و تشير إلى كونه مختارا، و إلّا فما قيمة تسجيل الأعمال؟ و هل سيبقى للتحذير و الإنذار من معنى؟

و تشير أيضا إلى جدّية و دقّة الحساب و الجزاء و الإلهی.

و يكفی فهم و استيعاب هذه الإشارات البيانية الرّبانية لإنقاذ الإنسان من وقوعه فی هاوية المعاصی، و تكفيه الإشارات عظة ليزكی و يعرف مسئوليته و يعمل بدروه.

***

بحث

كتبة صحائف الأعمال:

لم تكن الآيات المبحوثة الدليل الوحيد على وجود المراقبين لأعمال الإنسان، و الكاتبين لها بخيرها و شرّها، بل ثمّة آيات كثيرة و روايات عديدة تناولت ذلك ... و من جملة ما ورد من الأحاديث بهذا الشأن.

۱- سؤال عبد اللّه بن موسى بن جعفر عليه السّلام لأبيه عن الملكين .. هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعله، أو الحسنة؟

فقال الإمام عليه السّلام: «ريح الكنيف و ريح الطيب سواء؟».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۲

قال: لا.

قال: «إنّ العبد إذا همّ بالحسنة خرج نفسه طيّب الريح، فيقول صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم فإنّه قد همّ بالحسنة، فإذا فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده، فأثبتها له، و إذا همّ بالسيئة خرج نفسه منتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين، قف فإنّه قد همّ بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده، و أثبتها عليه»[۵۱۳].

فالرواية تبيّن ما للنيّة من أثر على كامل وجود الإنسان، و أنّ الملائكة يسجلون ما وقع من فعل من الإنسان و لكنّهم مطلعين على فعل الواقع قبل وقوعه، و عليه فتسجيلهم لأعمال الإنسان دقيق جدّا، و لا يفوتهم شيئا إلّا و كتبوه فی صحيفته.

و الروایة أیضا، تأتی فی سیاق الحدیث النبوی الشریف: «إنّما الأعمال بالنیات» للتأکید علی ما لنیّة الإنسان من أثر علی فعله الحسن أو السیء.

و تبیّن أیضـا، بأنّ وسائـل الکتابـة هی جوارح الإنسـان النـاوی للفعـل، فلسانه القلم و ریقه المـداد! ۲- و ثمّـة روایـات تؤکّـد علی أنّ الملائکة مأمورة بتسجیل النوایا الحسنة دون النوایا السیئة، و منها:

«إنّ تبارک و تعالی جعل لآدم فی ذریته من همّ بحسنة و لم یعملها کتبت له حسنة، و من همّ بحسنة و عملها کتبت له بها عشرا، و من همّ بسیئة و لم یعملها لم تکتب له، و من همّ بها و عملها کتبت علیه سیئة».[۵۱۴]

فالروایة تبیّن منتهی اللطف الرّبانی الفصل الإلهی علی الإنسان، و تحث الإنسان علی الأعمال الصالحة .. فنیّته السـیئة لا تسـجل علیه، و فعله السیء یکتب علیه وفق موازین العدل، فی حین أنّ نیّته الحسنة و فعله الحسن یسجلان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۳

له وفق اللطف و التفضل الإلهی ...

۳- و

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أنّه قال: «یهمّ العبد بالحسنة فیعملها، فإن هو لم یعملها کتب اللّه له حسنة بحسن نیّته، و إن هو عملهـا کتب اللّه له عشـرا، و یهمّ بالسـیئة أن یعملها، فإن لم یعملها لم یکتب علیه شـیء و إن عملها اجّل سـبع ساعات، و قال صـاحب الحسـنات لصـاحب السـیئات و هو صـاحب الشـمال: لاـ تعجـل عسـی أن یتبعها بحسـنة تمحوها، فإن اللّه عزّ و جلّ یقول: إِنَّ الْحَسَـناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئـاتِ أو الاسـتغفار فـإنّ هو قـال: اسـتغفر اللّه الـذی لاـ إله إلّا هو، عالم الغیب و الشـهادة، العزیز الحکیم، الغفور الرحیم، ذو الجلال و الإکرام و أتوب إلیه، لم یکتب علیه شـیء، و إن مضت سـبع ساعات و لم یتبعها بحسـنة أو اسـتغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السیئات: اکتب علی الشقی المحروم»[۵۱۵].

۴- و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إنّ المؤمنین إذا أقبلا علی المساءلة قالت الملائکة بعضها لبعض: تنحوا عنهما فإنّ لهما سرّا و قد ستر اللّه علیهما»![۵۱۶]

۵- و

فی خطبـة لأمیر المؤمنین علیه السّـلام، قال فیها بعـد أن دعی الناس فیها لتقوی اللّه: «اعلموا عباد اللّه، إنّ علیکم رصدا من أنفسـکم، و عیونا من جوارحکم، و حفّاظ صـدق یحفظون أعمالکم، و عـدد أنفاسـکم، لا تسترکم منهم ظلمـة لیل داج و لا یکنّکم منهم باب ذو رتاج «أی إحکام»، و إنّ غدا من الیوم قریب»[۵۱۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۴

الآیات [سورة الانفطار (۸۲): الآیات ۱۳ الی ۱۹]

اشارة

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِیمٍ (۱۳) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِی جَحِیمٍ (۱۴) یَصْلَوْنَها یَوْمَ الدِّینِ (۱۵) وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِینَ (۱۶) وَ ما أَدْراکَ ما یَوْمُ الدِّینِ (۱۷)

ثُمَّ ما أَدْراکَ ما یَوْمُ الدِّینِ (۱۸) یَوْمَ لا تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَیْئاً وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (۱۹)

التّفسیر

«یوم ... لا تملک نفس لنفس شیئا»:

بعد ذکر الآیات السابقة لتسجیل أعمال الإنسان من قبل الملائکة، تأتی الآیات أعلاه لتتطرق إلی نتائج تلک الرقابة، و ما سیصل إلیه کلّ من المحسن و المسیء من عاقبة، فتقول الآیة الاولی: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِیمٍ

و الثّانیة: وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِی جَحِیمٍ

«الأبرار»: جمع (بار) و «برّ» علی وزن (حق)، بمعنی: المحسن، و (البرّ) بکسر الراء- کلّ عمل صالح ... و الآیة ترید العقائد السلیمة، و النیات و الأعمال الصالحة.

«نعیم»: و هی مفرد بمعنی النعمة، و یراد به هنا «الجنّة»، و جاءت بصیغة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۵

النکرة لبیان أهمیة و عظمة هذه النعمة، التی لا یصل لإدراک حقیقتها إلّا اللّه سبحانه و تعالی، و اختیرت کلمة «نعیم» بصیغة الصفة المشبهة، للتأکید علی بقاء و استمرار هذه النعمة، لأنّ الصفة المشبهة عادة ما تتضمّن ذلک.

«الفجّار»: جمع (فاجر) من (فجر)، و هو الشقّ الواسع، و قیل للصبح فجر لکونه فجر اللیل، أیّ شقّه بنور الصباح، و (الفخور): شقّ ستر الدیانة و العفة، و السیر فی طریق الذنوب.

«جحیم»: من (الجحمة)، و هی تأجج النّار، و تطلق الآیات القرآنیة (الحجیم) علی جهنّم عادة.

و یمکن أن یراد بقوله تعالی: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِیمٍ وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِی جَحِیمٍ الحال الحاضر، أیّ: إنّ الأبرار یعیشون فی نعیم الجنّة حالیّا، و إنّ الفجّار قابعون فی أودیة النّار، کما یفهم من إشارة الآیة (۵۴) من سورة العنکبوت: إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ

و قال بعض: المراد من الآیتین هو حتمیة الوقوع المستقبلی، لأنّ المستقبل الحتمی و المضارع المتحقق الوقوع یأتی بصیغة الحال فی اللغة العربیة، و أحیانا یأتی بصیغة الماضی.

فالمعنی الأوّل أکثر انسجاما مع ظاهر الآیة، إلّا أنّ المعنی الثّانی أنسب للحال، و اللّه العالم.

و تدخل الآیة التالیة فی تفصیل أکثر لمصیر الفجّار: یَصْلَوْنَها یَوْمَ الدِّینِ

فإذا کانت الآیة السابقة تشیر إلی أنّ الفجّار هم فی جهنّم حالیا، فسیکون إشارة هذه الآیة، إلی أنّ دخولهم جهنّم سیتعمق، و سیحسون بعذاب نارها، بشکل أشدّ.

«یصلون»: من (المصلی) علی وزن (سعی)، و «صلی النّار»: دخل فیها، و لکون الفعل فی الآیة قد جاء بصیغة المضارع، فإنّه یدل علی الاستمرار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۶

و الملازمة فی ذلک الدخول.

و لزیادة التفصیل، تقول الآیة التالیة: وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِینَ

اعتبر کثیر من المفسّرین کون الآیة دلیلا علی خلود الفجّار فی العذاب، و خلصوا إلی أنّ المراد ب «الفجّار» هم «الکفّار»، لکون الخلود فی العذاب یختص بهم دون غیرهم.

ف «الفجّار»: إذن: هم الذین یشقون ستر التقوی و العفة بعدم إیمانهم و تکذیبهم بیوم الدین، و لا یقصد بهم- فی هذه الآیات- أولئک الذی یشقّون الستر المذکور بغلبة هوی النفس مع وجود حالة الإیمان عندهم.

و إتیان الآیة بصیغة زمان الحال تأکیدا لما أشرنا إلیه سابقا، من کون هؤلاء یعیشون جهنّم حتّی فی حیاتهم الدنیا (الحالیة) أیضا ... وَ

ما هُمْ عَنْها بِغائِبِینَ فحیاتهم بحدّ ذاتها جهنّما، و قبورهم حفرة من حفر النیران (کما ورد فی الحدیث الشریف)، و علیه فجهنّم القبر و البرزخ و جهنّم الآخرة ... کلّها مهیأة لهم.

کما و تبیّن الآیة أیضا: إنّ عذاب أهل جهنّم عذاب دائم لیس له انقطاع، و لا یغیب عنهم و لو للحظة واحدة.

و لأهمیة خطب ذلک الیوم العظیم، تقول الآیة التالیة: وَ ما أَدْراکَ ما یَوْمُ الدِّینِ

ثُمَّ ما أَدْراکَ ما یَوْمُ الدِّینِ

فإذا کانت وحشة و أهوال ذلک الیوم قد أخفیت عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- و هو المخاطب فی الآیة- مع کلّ ما له من علم ب القیامة، المبدأ، المعاد .. فکیف یا تری حال الآخرین؟!! ..

و الآیات قد بیّنت ما لأبعاد یوم القیامة من سعة و عظمة، بحیث لا یصل لحدّها أیّ وصف أو بیان، و کما نحن (السجناء فی عالم المادة) لا نتمکن من إدراک حقیقة النعم الإلهیة المودعة فی الجنّة، فکذا هو حال إدراکنا بالنسبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۷

لحقیقة عذاب جهنّم، و عموما لا یمکننا إدراک ما سیجری من حوادث فی ذلک الیوم الرهیب المحتوم.

و ینتقل البیان القرآنی للتعبیر عن إحدی خصائص ذلک الیوم، و بجملة وجیزة، لکنها متضمّنة لحقائق و معان کثیرة: یَوْمَ لا تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَیْئاً وَ الْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلَّهِ

فستتجلّی حقیقة أنّ کلّ شیء فی هذا العالم هو بید اللّه العزیز القهّار، و ستبان حقیقة حاکمیة اللّه المطلقة و مالکیته علی کلّ من تنکر لهذه الحقیقة الحقّة، و ستنعدم تلک التصورات الساذجة التی حکمت أذهان المغفلین بکون فلان أمیرا و رئیسا أو حاکما، و سینهار أولئک البسطاء الذین اعتبروا أن قدراتهم مستقلة بعد أن أکل الغرور نفوسهم و تکالب التکبر علی تصرفاتهم فی الحیاة الدنیا الفانیة.

و تشهد علی الحقیقة- بالإضافة إلی الآیة المذکورة- الآیة (۱۶) من سورة المؤمن حیث تقول: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

و تشیر الآیة (۳۷) من سورة عبس إلی انشغال الإنسان بنفسه فی ذلک الیوم دون کلّ الأشیاء الاخری، و لو قدّر أن یمنح قدرا معینا من القدرة، لما نفع بها أحد دون نفسه!، حیث تقول الآیة: لِکُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ یَوْمَئِذٍ شَأْنٌ یُغْنِیهِ

حتّی

روی عن الإمام الباقر علیه السّلام، أنّه تناول ذلک الموقف بقوله: (إن الأمر یومئذ و الیوم کله لله، ...) و إذا کان یوم القیامة بادت الحکام فلم یبق حاکم إلّا اللّه»[۵۱۸]

و هنا ... یواجهنا السؤال التالی: هل یعنی ذلک، إنّ الآیة تتعارض و شفاعة الأنبیاء و الأوصیاء و الملائکة؟

و یتّضح جواب السؤال المذکور من خلال البحوث التی قدمناها بخصوص موضوع (الشفاعة) فقد صرّح الحکیم فی بیانه الکریم، إنّ الشّفاعة لن تکون إلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۸

بإذنه، و إنّ الشّفاعة غیر مطلقة، حسب ما تشیر إلیه الآیة (۲۸) من سورة الأنبیاء لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی اللّهم! إنّ الخلائق تنتظر رحمتک و لطفک فی ذلک الیوم الرهیب، و نحن الآن نتوقع لطفک.

إلهنا! لا تحرمنا من الطافک و عنایاتک فی هذا العالم و العالم الآخر.

ربّنا! أنت الحاکم المطلق فی کلّ مکان و زمان، فاحفظنا من التورط فی شباک الذنوب و السقوط فی وادی الشرک و اللجوء الی الغیر ...

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الإنفطار انتهی المجلد التاسع عشر***

[۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۵۲.

[۲] (۱)- الغدير، ج ۱، ص ۲۳۹- ۲۴۶.

[۳] (۱)- الباء فى(بعذاب واقع) حسب هذا التفسير باء زائدة للتأكيد و فى نظر البعض تعنى(عن)، و هذا ممّا يطابق التّفسير الثّانى(يجب الالتفات إلى أنّ السؤال إذا كان بصيغة الطلب يتعدى بمفعولين و إذا كان بمعنى الاستفسار يكون مفعوله الثّانى مع(عن).

[۴] (۱)-(واقع) صفة للعذاب و(للكافرين) صفة ثانية و(ليس له دافع) صفة ثالثة و قد احتمل أن(الكافرين) له علاقة ب-(العذاب) و إذا كانت(اللام) تعنى(على) فإنّها ستتعلق ب-(واقع).

[۵] (۱)- وردت تفاسير اخرى لعروج الملائكة لا يمكن الاعتماد على أىّ منها و من ذلك: المراد من الزمان هى الفترة التى بدأت الملائكة بالصعود و النزول منذ بداية الدنيا إلى نهايتها تكون مقدار خمسين ألف سنة، و هذا هو عمر الحياة و لكن الآيات التى. تليها تدلّ على أنّ الحديث يخصّ يوم القيامة و لا يخصّ الدّنيا(فتدبّر).

[۶] (۲)- نقل هذا الحديث فى أمالى الشّيخ بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السّلام و هو مطابق لما نقله الحويزى فى كتابه نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۱۳.

[۷] (۳)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۵۳، و القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۷۶۱.

[۸] (۱)- بسطنا الكلام فى معنى الصبر الجميل فى التفسير الأمل، ج ۷(من الطبعة العربية) فى قصّة النّبى يعقوب و يوسف عليهما السّلام.

[۹] (۱)- ل(يوم) احتمالات متعددة فى الإعراب، و لكن الأفضل أن يكون بدلا من(قريبا) فى الآية السابقة أو متعلقا بفعل محذوف مثل(اذكر).

[۱۰] (۱)-« الحميم»: تقدم أنه فى الأصل يعنى الماء المغلى و المحرق ثمّ اطلق كذلك على الأصدقاء المخلصين و الحقيقيين.

[۱۱] (۲)- وردت تفاسير اخرى، منها: لا يسأل أحد عن أحوال الآخر لأنّ أحوالهم ظاهرة فى وجوههم، و إذا كانت ظاهرة فلا مبرر للسؤال، و لا يمكن أحد تحمل المسؤولية، مسئولية أعماله عن الآخرين و لكن التّفسير الأوّل هو الأصح.

[۱۲] (۳)- مع أنّ« حميم» قد جاء فى المرحلتين بصورة المفرد، فقد جاء فى« يبصرونهم» ضمير بصورة الجمع لأنّ له معنى جنسى.

[۱۳] (۱)- هناك توضيح آخر أوردناه تحت عنوان« الإنسان فى القرآن الكريم» فى ذيل الآية(۱۳) لسورة يونس من هذا التّفسير.

[۱۴] (۲)- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ج ۲، ص ۱۶۰.

[۱۵] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۱۵.

[۱۶] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۱۷، حديث ۲۵- ۲۷.

[۱۷] (۱)- المصدر السابق.

[۱۸] (۱)- جامع الأخبار ص ۱۱۳

[۱۹] (۱)-« فروج» جمع« فرج» و هو كناية عن الآلة التناسلية.

[۲۰] (۱)- تفسير البرهان، ج ۱، ص ۳۸۰.

[۲۱] (۱)- البقرة، ۲۸۳ و ۱۴۰، المائدة، ۱۰۶، الطلاق، ۲.

[۲۲] (۲)-« فى جنات» خبر ب-« أولئك» و« مكرمون» خبر ثان أو أنّه خبر و« فى جنات» متعلق به« تمعن».

[۲۳] (۱)- هناک احتمالات أخرى فی تفسیر هذه الآیة: أنّ المراد من جملة« ممّا یعلمون» هو أنّنا خلقناهم و وهبنا لهم العقل و الشعور لا- کالحیوانات و البهائم، و لهذا فإنّهم مسئولون عن أعمالهم، و هناک مراد آخر و هو أنّنا خلقناهم لأهداف هم یعلمونها و هی التکلیف و الطاعة، و لکن هذه الاحتمالات بعیدة، و لذا فإنّ أکثر المفسّرین ذهبوا إلى المعنى المذکور سابقا.

[۲۴] (۱)-« یخوضوا» من أصل خوض- على وزن حوض- و تعنی فی الأصل الحرکة فی الماء، ثمّ جاءت بصیغة الکنایة فی موارد یغطس فیه الإنسان فی الباطل.

[۲۵] (۱)-« ترهقهم» من أصل(رهق) على وزن(سقف) و یراد به غشیان الشیء بقهر.

[۲۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۵۹.

[۲۷] (۲)- المصدر السّابق.

[۲۸] (۱)-« من» فی هذه الجملة زائدة و للتأکید، لأنّ الإیمان باللّه یبعث على غفران جمیع الذنوب السابقة، هذا ما یرتبط بحق الناس، و أمّا من باب الذنوب و حکم الحرمة أیضا یکون مشمولا بالمغفرة، و ما احتمل بعض المفسّرین(کالفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر و العلّامة الطباطبائی قدس سرّه فی المیزان) من أنّ(من) هنا تبعیضیة و هی تخص الذنوب السابقة لا الآتیة یبدو بعیدا، لأنّ الذنوب الآتیة غیر مذکورة فی سیاق الآیة.

[۲۹] (۱)- کان لنا بحث آخر حول الأجل النهائی و الأجل المعلق و ذلک فی ذیل الآیة(۲) من سورة الأنعام.

[۳۰] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۴۸۸، مادة(ذنب).

[۳۱] (۱)- البقرة، ۳.

[۳۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۶۱

[۳۳] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۱۳۶.

[۳۴] (۱)- فصلت، ۲۶

[۳۵] (۲)- بحار الأنوار، ج، ۴۵، ص ۸.

[۳۶] (۱)-« مدرارا»: من أصل(درّ) على وزن(جرّ) و تعنی فی الأصل انسکاب الحلیب من ثدیی الام و یعطی معنى هطول الأمطار، و مدرارا صیغة للمبالغة.

[۳۷] (۱)-« الوقار»: الثقل و العظمة، و« ترجون» من أصل رجاء بمعنى الأمل و هو ملازم للخوف، و معنى الآیة لماذا لا تخضعون لعظمة اللّه تعالى.

[۳۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۲۴.

[۳۹] (۲)- المصدر السّابق.

[۴۰] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۴۳.

[۴۱] (۱)- لنا شرح آخر فی هذا الباب تحت عنوان« الذنوب و هدم المجتمعات» فی تفسیرنا هذا، ذیل الآیة(۵۲) من سورة هود علیه السّلام.

[۴۲] (۱)- هذا الخطاب تابع لکلام نوح علیه السّلام، أو أنّها جمل مستقلة و معترضة من اللّه تعالى إلى المسلمین، و هو محل بحث بین المفسّرین، و الکثیر منهم یرجح أن یکون ذلک تابعا لکلام نوح علیه السّلام، و سیاق الآیات یشیر أیضا إلى ذلک، و إذا ما وردت جملة:

(و قال نوح) بعد هذه الآیات فإنّها تشیر إلى أنّ نوح علیه السّلام قد انتهى من کلامه مع الناس و توجه بعد ذلک إلى اللّه تعالى لیشکو من قومه.

[۴۳] (۱)-« طباقا»: يحتمل أن يكون مفعول مطلق أو حال.

[۴۴] (۲)- أوضحنا الكلام فی التفاسير المختلفة للسماوات السبع فی ذيل الآية(۲۹) من سورة البقرة.

[۴۵] (۳)- من هنا أنّ ضمير« فيهنّ» و الذی يرجع فی الظاهر إلی« السماوات السبع» لا يثير مشكلة لأنّ الخطاب فی النور و الضياء هو لنا، لأجل هذا لا يلزم أن نجعل« فی» بمعنی« مع» أو نجعل الضمير« هن» بمعنی« السماء الدنيا»(فتدبّر).

[۴۶] (۱)- يجب أن تلفظ هذه الكلمة حسب القاعدة« إنباتا» لكن لهذه الآية تقدير هو:« أنبتكم من الأرض فنبتم نباتا» تفسير(الفخر الرازی و أبو الفتوح الرازی).

[۴۷] (۱)- بساط من أصل بسط بمعنی و بسط الشیء، و لهذا فإنّ كلمة« بساط» تطلق علی كل شیء واسع و أحد مصاديقها« البساط».

[۴۸] (۲)- مفردات الراغب، مادة(فج).

[۴۹] (۱)- مجمع البيان، تفسير علی بن ابراهيم، تفسير أبو الفتوح الرازی، و تفاسير اخری ذيل الآيات التی هی مورد البحث.

[۵۰] (۲)- تفسير القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۷۸۷.

[۵۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۶۴، و أعلام القرآن، ص ۱۳۱.

[۵۲] (۲)- المصدر السابق.

[۵۳] (۳)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۶۴.

[۵۴] (۴)- المصدر السابق.

[۵۵] (۵)- الضمير فی« أضلوا» يعود إلی أكابر قوم نوح عليه السّلام بقرينة الآية السابقة:\i وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ E و احتمل بعض المفسّرين أنّ الضمير يعود إلی(الآلهة) لأنّها سببت فی ضلالهم و جاء ما يشابه ذلك فی الآية(۳۶) من سورة ابراهيم عليه السّلام و بصورة ضمير جمع المؤنث لا ضمير جمع المذكر، و هذا الاحتمال بعيد.

[۵۶] (۱)-« من» فی i خَطِيئاتِهِمْ E بمعنی باء السببية أو(لام التعليل) و(ما) زائدة للتأكيد.

[۵۷] (۲)- الفخر الرازی ينقل ذلك فی تفسيره بعنوان قول من الأقوال فی ج ۳۰، ص ۱۴۵.

[۵۸] (۳)- تفسير أبو الفتوح الرازی، ج ۱۱، ص ۳۸۰.

[۵۹] (۱)- قال البعض أنّ الأصل كان(ديوار) علی وزن حيوان ثمّ بدلت الواو ب(ياء) و أدغمت فی الباء الاولی و صارت ديار(البيان فی غرائب القران، ج ۲، ص ۴۶۵، تفسير الفخر الرازی، ذيل هذه الآيات).

[۶۰] (۱)- هود، ۳۶.

[۶۱] (۲)- ورد هذا المعنی أيضا فی الرّوايات كما فی تفسير الثقلين، ج ۵، ص ۴۲۸.

[۶۲] (۱)-« تبار»: تعنی الهلاك، و قيل الضرر و الخسارة.

[۶۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۱.

[۶۴] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۲۹۱، ح ۳.

[۶۵] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۲۹.

[۶۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۶۵.

[۶۷] (۱)- تفسير علی بن ابراهيم علی ما نقله تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۹(مع الاختصار).

[۶۸] (۲)- صحيح البخاری، مسلم، و مسند طبقا لما نقله صاحب(فی ظلال القرآن) ج ۷، ص ۴۲۹(باختصار).

[۶۹] (۳)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۹۲، و سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۶۲- ۶۳(باختصار).

[۷۰] (۴)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۶۸.

[۷۱] (۱)- نفر: على قول أصحاب اللغة و التّفسير: الجماعة من ۳ الى ۹.

[۷۲] (۲)- المشهور بين علماء النحو أنّ(إن) فى مقول القول يجب أن تقرأ بالكسر كما هى فى الآيات الاولى، و أمّا فى الآيات الأخرى المعطوفة عليها فإنّها بالفتح، و لهذا اضطر الكثير من المفسّرين أن يجعلوا لهذه الآيات تقديرات أو مبررات أخرى، و لكن ما الذى يمنعنا من القول أنّ لهذا القاعدة أيضا شواذ، و هى جواز القراءة بالفتحة فى موارد يكون العطف فيه على مقول القول، و ما يدل على ذلك آيات هذه السورة.

[۷۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۶۸، و نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۳۵، و ذكر هذا المعنى فى تفسير على بن إبراهيم.

[۷۴] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۸۰۱.

[۷۵] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۶۹، و روح المعانى، ج ۲۸، ص ۸۵.

[۷۶] (۲)- نقل عن بعضهم فى تفسير الآية أعلاه أنّ لجوء جماعة من الإنس بالجن ادّى إلى أن يتمادى الجن فى طغيانهم و ظنوا أن بيدهم زمام الأمور المهمّة، و التّفسير الأوّل أوجه(و الضمير حسب التّفسير الأوّل فى(زادوا) يرجع إلى الجن، و الضمير« هم» يرجع إلى الإنس، بعكس التّفسير الأوّل).

[۷۷] (۱)-« لمسنا» من لمس، و تعنى هنا الطلب و البحث.

[۷۸] (۲)-« حرس» على وزن قفص، جمع حارس، و قيل اسم جمع لحارس، و تعنى الشديد الحفاظ.

[۷۹] (۱)-« القاسط» من أصل(قسط) و تعنى التقسيم العادل، فإن أتت على وزن(أفعال)،(أقساط) فإنّها تعنى إجراء العدالة، و إذا استعملت بصورة الثّلاثى المجرّد كما فى هذه الآية فإنّها تعطى معنى الظلم و الانحراف عن سبيل الحقّ.

[۸۰] (۲)-« تحروا»: من أصل تحرى و تعنى توخيه و قصده.

[۸۱] (۱)- تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۱۹۵.

[۸۲] (۲)- أصول الكافى، ج ۲، باب المؤمن و علاماته و صفاته.

[۸۳] (۱)- من الملاحظ أنّ السبب الوحيد الذى دعا المفسّرين إلى أن يعتبروا هذا الكلام من كلام اللّه تعالى و أنها جملة اعتراضية هو ضمائر(المتكلم مع الغير) ففى موضع يقول: لأسقيناهم ماء غدقا، و فى موضع آخر يقول: لنفتنهم فيه، و لكن لا ضمير عند ما نعتبر هذه التعابير من باب النقل، كما لو تحدث شخص عن صاحبه فيقول: إنّ فلانا يعتقد بأنّى شخص حسن،(بالطبع هو لم يستعمل كلمة(أنا) و إنّما استعمل كلمة(هو) و لكن القائل يختار مثل هذا التعبير).

[۸۴] (۱)- احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من« الطريقة» هو سبيل الكفر و زيادة النعم الحاصلة نتيجة للاستقامة فى هذه الطريقة فى الحقيقة هى مقدمة العقوبات و مصداق الاستدراج فى النعم، و لكن هذا التّفسير لا يتناسب أبدا مع سياق الآيات السابقة و اللاحقة.

[۸۵] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۲، ص ۹۷۰، الحديث ۳.

[۸۶] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۴۹۰(أبواب حدّ السرقة الباب الرّابع الحديث ۵).

[۸۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۳۹ و ۴۴۰

[۸۸] (۲)- ما يطابق هذا التّفسير و كون هذه الآية من حديث مؤمنى الجنّ فإنّ إتيان الضمير الغائب بدل المتكلم هو من باب الالتفات، أو من باب أنّ بعضهم يبيّن حال البعض الآخر.

[۸۹] (۱)- بحثنا مسألة(الشفاعة فى نظر القرآن و الحديث) بحثا مفصلا فى ذيل الآية(۴۸) من سورة البقرة و حول حقيقة(التوسل) فى ذيل الآية(۳۵) من سورة المائدة.

[۹۰] (۱)- قيل فى سبب نزول هذا الآية: إن كفار قريش قالوا للنبى صلى الله عليه و آله و سلم عد إلى ديننا لنجيرك فنزلت الآية

جوابا على قولهم(تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ۱۱، ص ۲۹۳).

[۹۱] (۲)- بما أن البلاغ يتعدى ب(عن) فقد قال البعض: إن(من) بمعنى(عن) و يتعلق بمحذوف تقديره(كائنا) فيكون المعنى(إلا بلاغا كائنا من الله).

[۹۲] (۱)- هذه الجملة مستثناة من الجملة السابقة\i لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً\E حسب هذا التّفسير و مستثناة من الآية السابقة حسب التّفسير الأوّل.

[۹۳] (۲)-« متى»: تأتى عادة لبيان الغاية و النهاية للشيء و قيل فى ذلك و جهان:

الأوّل: إنّ الغاية جملة محذوفة و تقديرها(و لا يزالون يستهزؤن و يستضعفون المؤمنين حتى إذا رأوا ما يوعدون ...).

الثّانى: إنّ الغاية هى للآية\i يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً\E و التى مرّت سابقا، و الأوّل أوجه.

[۹۴] (۱)- الأنعام، ۵۰.

[۹۵] (۱)- النمل، ۶۰.

[۹۶] (۲)- الشعراء، ۵۴.

[۹۷] (۳)- الكهف، ۳۴.

[۹۸] (۴)- البقرة، ۲۴۹.

[۹۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱.

[۱۰۰] (۱)- تفسير المراغى، ج ۲۹، ص ۱۰۵.

[۱۰۱] (۲)- عالم الغيب خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: هو عالم الغيب، و قيل: صفة أو بدل لربّى فى الآية السابقة.

[۱۰۲] (۱)- أرجع بعض المفسّرين ضمير(ليعلم) إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: المراد من ذلك هو أنّ اللّه قد جعل لأسرار الوحى و الرسالة حفظة و حراسا، و ليعلم الرّسول أنّ الملائكة قد أبلغوا إليه الوحى الإلهى فتطمئن نفسه و لا يتردد فى أصالة الوحى، و لكن هذا القول فى غاية البعد، و ذلك لأنّ حمل الرسالة من عمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا من عمل الملائكة و عبارة الرّسول فى الآية السابقة و الرسالات فى الآيات التى مضت تخصّ شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لذا فإنّ التّفسير الأوّل هو الأوجه.

[۱۰۳] (۱)- آل عمران، ۴۹.

[۱۰۴] (۱)- شرح هذه الحادثة و دليله فى هذا المجلد فى تفسير سورة الممتحنة.

[۱۰۵] (۲)- كامل ابن الأثير، ج ۲، ص ۲۳۷،(حادثة غزوة مؤتة).

[۱۰۶] (۱)- مستدرك الصحيحين، ج ۲، ص ۳۵۸.

[۱۰۷] (۲)- طبقات ابن سعد، ج ۵، ص ۳۰.

[۱۰۸] (۳)- الإصابة لابن حجر، ج ۵، القسم ۳، ص ۳۲۵.

[۱۰۹] (۴)- الهيثمى فى المجمع، ج ۶، ص ۲۴۱.

[۱۱۰] (۵)- الرياض النضرة، ج ۳، ص ۲۲۲.

[۱۱۱] (۶)- فضائل الخمسة، ج ۲، ص ۲۳۱ الى ۲۵۳.

[۱۱۲] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۸.

[۱۱۳] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۱۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۶۰، الحديث ۵، هناك روايات متعددة فى هذا الإطار قد نقلت من هذا المصدر.

[۱۱۵] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۵۱۲، الحدیث ۱۶.

[۱۱۶] (۱)- کتاب الکافی باب(أنّ الأئمّة إذا شاءوا أن یعلموا أعلموا) الحدیث ۳، و نقلت روایات عدیدة فی هذا الباب بنفس المضمون.

[۱۱۷] (۱)- اصول الکافی، ج ۱، باب نادر فیه ذکر الغیب الحدیث ۳.

[۱۱۸] (۱)- النّمل، ۴۰.

[۱۱۹] (۲)- الرّعد، ۴۳.

[۱۲۰] (۳)- راجع الجزء الثالث من(إحقاق الحقّ) ص ۲۸۰- ۲۸۱، و نور الثقلین، ج ۲، ص ۵۲۳.

[۱۲۱] (۱)- الرحمن، ۱۵.

[۱۲۲] (۲)- الجن، ۱۱.

[۱۲۳] (۳)- الجن، ۱۵.

[۱۲۴] (۱)- الجن، ۹.

[۱۲۵] (۲)- الجن، ۶.

[۱۲۶] (۳)- النمل، ۳۹.

[۱۲۷] (۴)- سبأ، ۱۲- ۱۳.

[۱۲۸] (۵)- الحجر، ۲۷.

[۱۲۹] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۱۸۶(مادة الجن).

[۱۳۰] (۲)- الکافی، ج ۶، ص ۳۸۵، کتاب الأشربة، باب الأوانی، الحدیث ۵.

[۱۳۱] (۱)- راجع تفسیر الدر المنثور، ج ۶، ص ۲۷۶، و مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۷.

[۱۳۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۶، ص ۲۷۶.

[۱۳۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۵.

[۱۳۴] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۳۵] (۱)-« مزّمل»: أصلها متزمل، و هی من التزمل، و تعنی لف الثوب علی نفسه، و لهذا جاء لفظ الزمیل، أی المصاحب و الرفیق.

[۱۳۶] (۱)- سورة الحشر، ۲۱.

[۱۳۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۸، ذکر ذلک فی کتاب الکافی، ج ۲، باب(ترتیل القرآن بالصوت الحسن) و کذا فی کتب اخری مع الاختصار.

[۱۳۸] (۲)- المصدر السابق.

[۱۳۹] (۳)- المصدر السّابق.

[۱۴۰] (۴)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۴۷.

[۱۴۱] (۵)- مجمع البیان، ذیل الآیات التی بصدد البحث.

[۱۴۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۳.

[۱۴۳] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۴۴] (۱)-« الناشئة»: اسم فاعل و احتمل کونها مصدرا کالعاقبة.

[۱۴۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۸.

[۱۴۶] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۴۸، الحدیث، ۱۶.

[۱۴۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۱۷۷(مع الاقتباس).

[۱۴۸] (۲)-« التبتل»: یجب أن یکون التبتل هنا حسب القاعدة مفعول مطلق و هو مصدر من باب(تفعل) و لکنّه جاء علی وزن تفعیل، لحفظ توافق أواخر الآیات، و یمکن أن یکون مصدر إشارة إلی أن الانقطاع إلی اللّه لا- یکون کلّه اکتسابیا، و لا یکون هبة بتمامه أیضا، بل یکون ذلک بشروط السعی و العمل الجاد للعبد المتقی من جهة، و بلطف اللّه و عنایته من جهة اخری.

[۱۴۹] (۳)- المفردات، و مجمع البحرین باب البتل.

[۱۵۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۵۰، ح ۲۷.

[۱۵۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۹.

[۱۵۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۰.

[۱۵۳] (۲)- روح المعانی، ج ۲۹، ص ۱۰۷.

[۱۵۴] (۱)- یوما مفعول به لتتقون، و« تتقون» ذلک الیوم یراد به تتقون عذاب ذلک الیوم، و قیل(یوم) ظرف ل(تتقون) أو مفعول به ل(کفرتم) و الاثنان بعیدان.

[۱۵۵] (۲)-« شیب» جمع(أشیب) و یراد به المسن، و هی من أصل مادة شیب- علی وزن عیب- و المشیب یعنی تغیر لون الشعر إلی البیاض.

[۱۵۶] (۱)-« المنفطر»: من الانفطار بمعنی الإنشقاق، و الضمیر(به) یعود للیوم، و المعنی السماء منشقة بسبب ذلک الیوم و السماء جائزة للوجهین أی أنّه تذکر و تؤنث.

[۱۵۷] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۱۴۷.

[۱۵۸] (۱)- یجب الالتفات إلی أنّ(نصفه) و(ثلثه) معطوف علی أدنی و لیس علی(ثلثی اللیل) فیکون المعنی أنّه یعلم أنّک تقوم بعض اللیالی أدنی من ثلثی اللیل أو نصفه أو ثلثه. کذا الالتفات إلی أن أدنی تقال لما یقرب من الشیء، و هنا إشارة إلی الزمن التقریبی.

[۱۵۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ۴۵۱.

[۱۶۰] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۱۵۶.

[۱۶۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۲.

[۱۶۲] (۲)- مجمع البیان، و تفسیر أبی الفتوح، و تفسیر القرطبی، ذیل الآیة مورد البحث و قد نقل القرطبی حدیثا عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یشابه هذه الحدیث، فیستفاد من ذلک أنّ عبد اللّه بن مسعود قد ذکر الحدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لیس هو من قوله.

[۱۶۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۳.

[۱۶۴] (۲)- المصدر السابق.

[۱۶۵] (۱)- أورد الفخر الرازی هذه التفاسیر الخمسة بالإضافة إلی احتمالات أخری فی تفسیره الکبیر، و اقتبس منه البعض الآخر من المفسّرین(تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۱۸۹- ۱۹۰).

[۱۶۶] (۲)- الفاء من(فکبر) زائدة للتأکید بقول البعض، و قیل لمعنی الشرط، و المعنی هو: لا تدع التکبیر عند کلّ حادثة تقع،(یتعلق هذا القول بالآیات الاخری الآتیة أیضا).

[۱۶۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۵.

[۱۶۸] (۲)- البقرة، ۱۸۷.

[۱۶۹] (۱)- مفردات الراغب.

[۱۷۰] (۲)- المیزان، فی ظلال القرآن.

[۱۷۱] (۳)- راجع الآیات، ۱۳۴- ۱۳۵ من سورة الأعراف، و الآیة ۵ من سورة سبأ، و الآیة ۱۱ من سورة الجاثیة، و الآیة ۵۹ من سورة البقرة، و الآیة ۱۶۲ من سورة الأعراف، و الآیة ۳۴ من سورة العنکبوت.

[۱۷۲] (۴)- و ذکر ذلک فی تفسیر الفخر الرازی بصورة احتمال، ج ۳۰، ص ۱۹۳.

[۱۷۳] (۱)- البقرة، ۲۶۴.

[۱۷۴] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۵۴، و تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۰۰.

[۱۷۵] (۳)- المصدر السابق.

[۱۷۶] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، ۸۲.

[۱۷۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۶؛ نقل المفسّرون سبب النزول هذا مع الاختلاف البسیط کالقرطبی و المراغی و الفخر الرازی فی ظلال القرآن و المیزان و غیر ذلک.

[۱۷۸] (۱)- تفسیر ذیل الآیات المذکورة للفخر الرازی، و الکشاف و المراغی و القرطبی، و یستفاد من بین الرّوایات الواردة فی معنی الوحید أنّه ولد الزنا الذی لیس له أب، و لا قرینة للرّوایة فی تفسیر الآیة و لیس لمعنی الروایة تناسب مع الآیة.

[۱۷۹] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۲۹، ص ۱۳۱.

[۱۸۰] (۱)- لواحة: خبر مبتدأ محذوفة تقدیره(هی لواحة).

[۱۸۱] (۲)-(علیها) خبر مقدم، و تسعة عشر مبتدأ مؤخر، و هی مبنیة علی الفتح، و لذا لم ترفع فی الظاهر، و قیل إنّ سببه یتضمّن معنی واو العاطفة.

[۱۸۲] (۱)- قال البعض فی علّة تسمیة قریش النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الاسم، فقد قیل لوجود رجل یدعی أبو کبشة، و هو من خزاعة قد تنحی عن عبادة الأصنام فی عصر الجاهلیة، و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حینئذ یعارض عبادة الأصنام بشدّة فنسبوا الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی أبی کبشة، و قیل إنّ أبی کبشة أحد أجداد امّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکن علی کلّ حال لا شک فی أنّهم أرادوا بذلک السخریة لأنّ الکبش فی لغة العرب تستخدم فی المدح و یسمّی بذلک الأبطال و القواد.

[۱۸۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۸، و تفاسیر اخری.

[۱۸۴] (۱)- أصحاب النّار: ذکرت هذه العبارة فی کثیر من آیات القرآن و کلّها تعنی الجهنمیین، إلّا فی هذا الموضع فإنّها بمعنی خزنة جهنم، و ذکر هذه العبارة یشیر إلی أنّ کلمة« سقر» فی الآیات السابقة تعنی جهنّم بکاملها و لیس قسما خاصّا منها.

[۱۸۵] (۲)- نقل هذا الحدیث البیهقی، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم(تفسیر المراغی، ج ۲۹، ص ۱۳۴).

[۱۸۶] (۱)- یجب الالتفات إلی أنّ اللام فی(لیستیقن) هی لام التعلیل و فی(لیقول) لام العاقبة و یمکن أن یکون قد تکرر لهذا الدلیل فی حین لو کان بمعنی واحد لما کان هناک ضرورة للتکرار، و بعبارة اخری أن تیقن المؤمنین هو لإرادة و أمره، و أمّا حدیث الکفّار فلیس من إرادته و أمره تعالی شأنه، بل هو عاقبة هذا الأمر.

[۱۸۷] (۱)-« أسفر» من مادة(سفر) علی وزن(قفر) و یعنی انجلاء الملابس و انکشاف الحجاب، و لذا یقال للنساء المتبرجات(سافرات) و هذا التعبیر یشمل تشبیها جمیلا لطلوع الشمس.

[۱۸۸] (۲)-« كبر»: جمع كبرى و هى كبيرة، و قيل المراد بكون سقر إحدى الطبقات الكبيرة لجهنّم، هذا المعنى لا يتفق مع ما أشرنا إليه من قبل و كذا مع الآيات.

[۱۸۹] (۳)-« نذيرا»: حال للضمير فى« أنّها» الذى يرجع إلى سقر، و قيل هو تمييز، و لكنه يصح فيما لو كان النذير مصدرا يأتى بمعنى(الإنذار)، و المعنى الأوّل أوجه.

[۱۹۰] (۱)- لسان العرب مادة: رهن.

[۱۹۱] (۲)- قال الشّيخ الطوسى فى التبيان أن الاستثناء هنا هو منقطع و قال آخرون كصاحب(روح البيان) أنّه متصل، و هذا الاختلاف يرتبط كما ذكرنا بالتفسيرات المختلفة لمعنى الرهينة، و ما يطابق ما اخترناه من التّفسير هو أن الاستثناء هنا منقطع و على التفسير الثّانى يكون متصلا.

[۱۹۲] (۳)- سورة هود، الآية ۱۱۴.

[۱۹۳] (۴)- تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۸۷۸.

[۱۹۴] (۱)-« يتساءلون»: و هو و إن كان من باب(تفاعل) الذى يأتى عادة فى الأعمال المشتركة بين اثنين أو أكثر، و لكنه فقد هذا المعنى هنا كما فى بعض الموارد الأخرى، و لمعنى يسألون، و تنكير الجنات هو لتبيان عظمتها و(فى جنات) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو فى جنات.

[۱۹۵] (۱)- التّفسير الأمثل، المجلد الأوّل، ذيل الآية(۴۸) من سورة البقرة.

[۱۹۶] (۱)- صحيح مسلم، ج ۲، ص ۱۳۰.

[۱۹۷] (۲)- مسند أحمد، ج ۳، ص ۱۲.

[۱۹۸] (۳)- مسند أحمد، ج ۵، ص ۴۳.

[۱۹۹] (۴)- الخصال للصدوق رحمه اللّه، ص ۶۲۴.

[۲۰۰] (۵)- سنن ابن ماجة، ج ۲، ص ۱۴۴۳.

[۲۰۱] (۱)- سنن أبى داود، ج ۲، ص ۱۵.

[۲۰۲] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۰۰، ص ۱۴.

[۲۰۳] (۳)- نهج البلاغة الخطبة، ۱۷۶.

[۲۰۴] (۴)- مسند أحمد، ج ۲، ص ۸۹.

[۲۰۵] (۵)- مسند أحمد، ج ۲، ص ۱۷۴.

[۲۰۶] (۶)- مناقب ابن شهر آشوب، ج ۲، ص ۱۴.

[۲۰۷] (۷)- صحيح البخارى، ج ۹، ص ۱۴۹.

[۲۰۸] (۸)- للاستيضاح يمكن مراجعة كتاب مفاهيم القرآن، ج ۴، ص ۲۸۸- ۳۱۱.

[۲۰۹] (۱)-« ما» مبتدأ و(لهم) خبر و(معرضين) حال الضمير لهم(و عن التذكرة) جار و مجرور و متعلق بالمعرضين، و قيل تقديم(عن التذكرة) على(معرضين) دلالة على الحصر أى أنّهم أعرضوا عن التذكرة المفيدة فقط، على كل حال فإنّ المراد من التذكرة هنا كلّ ما هو نافع و مفيد و على رأسها القرآن المجيد.

[۲۱۰] (۱)-« صحف»: جمع صحيفة، و هى الورقة التى لها وجهان، و تطلق كذلك على الرسالة و الكتاب.

[۲۱۱] (۱)- تفسير القرطبى، و المراغى، و تفاسير اخرى.

[۲۱۲] (۱)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۰۵.

[۲۱۳] (۱)- مجمع البيان، ۱۰-، ص ۳۹۳.

[۲۱۴] (۱)- المصدر السّابق.

[۲۱۵] (۱)- اللوامة: صيغة مبالغة و تعنى كثيرة اللوم.

[۲۱۶] (۱)- أورد هذه الرواية المراغى، و كذلك ذكرت فى روح المعانى، و تفسير الصافى بتفاوت يسير.

[۲۱۷] (۱)- يوسف، ۵۳.

[۲۱۸] (۲)- الفجر، ۲۷- ۲۸.

[۲۱۹] (۱)- الزمر، ۴۶.

[۲۲۰] (۲)- البقرة، ۴۸.

[۲۲۱] (۳)- الرعد، ۴۱.

[۲۲۲] (۱)- الهمزة، ۶- ۷.

[۲۲۳] (۲)- سورة فصلت، ۲۰.

[۲۲۴] (۱)- المحجة البيضاء، ج ۸، ص ۳۳۱.

[۲۲۵] (۱)-« برق»: من مادة برق- على وزن فرق- و هو الضوء الظاهر من بين السحب و يطلق على كل ما هو وضاء، و« برق البصر» فى هذه الآية إشارة إلى الحركة الشديدة، و الاضطراب الشديد للبصر من شدة الهول و الخوف، و قيل هو سكون حدقة العين و النظر بدهشة إلى نقطة و غالبا ما تكون علامة الرعب، و هناك شواهد كثيرة على هذا المعنى فى أشعار العرب تشير إلى إبراق البصر يراد به التحير، و التفسير الأول أوجه.

[۲۲۶] (۱)- يقول الطبرسى فى« مجمع البيان» الجمع ثلاثة أنواع: جمع فى المكان، و جمع فى الزمان، و جمع الأوصاف فى الشىء الواحد(كاجتماع العلم و العدالة فى الإنسان) و لكن الجمع الذى يراد به اشتراك شيئين فى الصفة كزوال نورىّ القمر و الشمس معا هو تعبير مجازى(إذ لا بدّ من الاستفادة من القرينة) مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۹۵.

[۲۲۷] (۲)-« المفر»: اسم مكان من الفرار، و احتمله البعض الآخر مصدرا و لكنه بعيد.

[۲۲۸] (۱)-« وزر»: على وزن قمر، و تعنى فى الأصل الملاجئ الجبلية و أمثالها، و منها يطلق على الوزير لما يلتجأ به فى الأمور، و على كل حال فإنّها تعنى فى هذه الآية كل نوع من الملجأ و المخبأ.

[۲۲۹] (۲)- التغابن، ۳.

[۲۳۰] (۳)- الإنشقاق، ۶.

[۲۳۱] (۴)- النجم، ۴۲.

[۲۳۲] (۵)- هناك نظرات أخرى فى تفسير هذه الآيات وضحنا ذلك فى تذييلها.

[۲۳۳] (۱)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۰۶ و مثله فى تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۸۹۱.

[۲۳۴] (۱)-« التاء»: مصدر على الاحتمال الأوّل، و تاء التأنيث على الاحتمال الثّانى، لأنّه يراد بالإنسان هنا الجوارح أو النفس، فالتأنيث مجازى، و قيل إن التاء تاء المبالغة للأخبار بشدّة معرفة الإنسان بنفسه.

[۲۳۵] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۹۶(و أورد الشيخ الصدوق فى من لا يحضره الفقيه فى كتاب الصيام، ج ۲، ص ۱۳۳ باب حد المرض الذى يفطر صاحبه الحديث ۱۹۴۱).

[۲۳۶] (۱)- المصدر السّابق.

[۲۳۷] (۱)- يجب الانتباه إلى أن« القرآن» فى هذه الآية و الآية التى تليها هو مصدر و يراد به القراءة.

[۲۳۸] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۹۷.

[۲۳۹] (۱)- قال البعض إن(كلّا) إشارة الى نفى تـدبرهم للقرآن المجيـد، و ليس هـذا المعنى صـحيحا لأن المخاطب هو نفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لها جانب اعتراضـى كما قلنا فى الآيات المتعلقة بالقرآن، و أمّا الآيات التى نحن بصدد البحث فيها فإنّها تتميم للآيات السابقة حول القيامة.

[۲۴۰] (۱)- تفسير روح الثقلين، ج ۵، ص ۴۳۶۴ و ۴۶۵.

[۲۴۱] (۱)- يعتقـد البعض أنّ(النظر) الـذى يعنى الانتظـار لا يتعـدى ب(إلى) بل يتعـدى بـدون حرف الجر، و لكن هنا شواهـد من أشـعار العرب تشير إلى أن(النظر) الـذى يعنى الانتظـار يتعـدى كـذلك ب(إلى)(راجـع مجمـع البيـان، ج ۱۰، ص ۳۹۸؛ و تفسـير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۹۰۰).

[۲۴۲] (۲)- روح المعانى، ج ۲۹، ص ۱۴۵.

[۲۴۳] (۳)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۲۰۴.

[۲۴۴] (۱)- من جملـة الشواهـد التى جـاءوا بهـا لهـذا الموضوع هو أنّ الظن إذا كـان بمعنى العلم فيجب أن يكون(أن) بعـد(تظن) مخففة من الثقيلة و الحال هو(أن) مصدر بقرينة إعمالها النصب.

[۲۴۵] (۲)-« فاقرة»: صـفة الموصوف محـذوف و تقـديره(داهيـة فاقرة) و(تظن) فعل و(وجوه) فاعله، و فى التقدير(أرباب الوجوه) أو(ذوات الوجوه).

[۲۴۶] (۱)-« إذا»: أداة شرطية و جزاؤه محذوف، و التقدير(إذا بلغت التراقى انكشف له حقيقة الأمر، و وجد ما عمله)، و الفاعل فى(بلغت) هو(النفس) و هو محذوف و يعرف بقرينة الكلام.

[۲۴۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۶۵.

[۲۴۸] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۹] (۱)-i وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ E سورة ق آية ۱۹.

[۲۵۰] (۲)- الأنعام، الآية ۹۳.

[۲۵۱] (۳)-i فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ E سورة الوقعة آية ۸۳.

[۲۵۲] (۴)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۵۵.

[۲۵۳] (۵)- بحار الأنوار ج ۶ ص، ۱۵۲.

[۲۵۴] (۱)- شرح النهج لابن أبى الحديد، ج ۲، ص ۳۴۵.

[۲۵۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۳۳.

[۲۵۶] (۱)- الضـمير فى(صدق و صـلى) يعود إلى الإنسان المنكر للمعاد، و هو ما يستفاد منه فى سياق الكلام، و قد أشير إلى ذلك فى صدر السورة.

[۲۵۷] (۱)- لأنـه إذا اعتبر من مـادة(مطـا) فـإن ظـاهر اللفظ لم يظهر عليه تغيير، و الحال إذا كان من مادة(مط) فيكون أصل جملـة(يتمطى) هو(يتمطط) حيث بدلت الطاء الآخر بالياء.

[۲۵۸] (۱)- المطابق لبعض التفاسير أن(أولى) هنا هو(أفعل تفضيل) و طبقا للتفاسير الأخرى فإن(أولى) فعل ماض من باب أفعال من مادة(ولى) فيكون المعنى(قاربك اللّه العذاب) و قيل(أولى) من(أسماء الأفعال) و تعنى(قارب) و الأولى هو الأوجه.

[۲۵۹] (۱)- كان لنا بحث آخر فى هذا الإطار فى ذيل الآية(۱۱۵) من سورة المؤمنين.

[۲۶۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۰۲.

[۲۶۱] (۱)- إنّ المشهور هو زيادة عدد النساء على الرجال فی كلّ المجتمعات، و هذا هو أحد الدلائل على تعدد الزوجات، و هو أمرّ مقبول، و هـذا ممّا لا ينافی التعادل النسبی، فمثلا يكون عدد مجتمع ما ۵۰ مليون نسـمة، فمن الممكن أن يكون عدد النساء ۲۶ مليونا، و الرجال ۲۴ مليونا، أی أن التفاوت بينهما بحـدود العشـر أو أقل من ذلك، أمّا أن يكون عدد النساء أضـعاف عدد الرجال فهذا ما لم يلاحظ فی أی مجتمع.

[۲۶۲] (۱)- تفسير القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۹۰۹.

[۲۶۳] (۲)- تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۰۵.

[۲۶۴] (۳)- المصدر السابق.

[۲۶۵] (۴)- تاريخ القرآن، ص ۵۵.

[۲۶۶] (۵)- المصدر السابق.

[۲۶۷] (۱)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۲۲۱.

[۲۶۸] (۲)- المصدر السابق.

[۲۶۹] (۳)- الكشاف، ج ۴، ص ۶۷۰.

[۲۷۰] (۴)- إحقاق الحق، ج ۳، ص ۱۵۷- ۱۷۰(مع ذكر أسماء و صفحات كتبهم).

[۲۷۱] (۵)- المصدر السابق.

[۲۷۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۰۲.

[۲۷۳] (۲)- المصدر السابق.

[۲۷۴] (۱)-« هل»: يراد بها(قد) أو أنّها بمعنى الاستفهام التقريری أو الإنكاری، و لكن الظاهر فيها الاسـتفهام التقريری، فيكون معنى الجملة:(أليس قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا).

[۲۷۵] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۰۶.

[۲۷۶] (۲)- المصدر السابق.

[۲۷۷] (۱)- يجب الالتفـات إلى أن النطفـة جـاءت بصـيغة المفرد، و جـاءت صـفتها بصورة الجمع، و هی« أمشاج»، باعتبار أنّ النطفة تركبت من أجزاء مختلفـة، و أنّهـا فی حكم الجمع، و يعتقـد البعض كالزمخشـری فی الكشـاف أنّ« أمشـاج» مفرد رغم أنّها من أوزان الجمع.

[۲۷۸] (۱)-« شاكرا» و كفورا» يعتقـد الكثير أنّهما حال لضـمير المفعول فی(هـديناه) و يحتمل أن يكون خبرا ل(يكون) محذوف و تقديره(إمّا يكون شاكرا و إمّا يكون كفورا).

[۲۷۹] (۱)- وضّحنا شرحا مفصلا حول معنى الأغلال فی ذيل الآية(۸) من سورة يس.

[۲۸۰] (۱)- نقلت هذه الرواية فی كتاب الغدير، ج ۳، ص ۱۰۷ إلى ۱۱۱ و فی كتاب إحقاق الحق، ج ۳، ص ۱۵۷ إلى ۱۷۱ عن ۳۶ نفر من علماء أهل السنّة مع ذكر المأخذ.

[۲۸۱] (۱)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۲۹۷.

[۲۸۲] (۱)- المصدر السابق.

[۲۸۳] (۲)- اسم الكتاب(الصوم طريقة حديثة لشفاء الأمراض).

[۲۸۴] (۱)- احتجاج الطبرسی و خصال الصدوق طبقا لما نقله الطباطبائی فی الميزان ج ۲۰ ص ۲۲۴.

[۲۸۵] (۱)- وردت احتمالات عديـدة فی سـبب نصب(عينا) و أوجه الأقوال هو أنّه منصوب لنزع الخافض و تقديره(من عين) و قيل

بدل من(کافورا) أو منصوب بالاختصاص أو المدح، أو مفعول لفعل مقدر و التقدیر(یشربون عینا) و لکن الأوّل أوجه کما تقدم.

[۲۸۶] (۲)-« یشرب»: یتعدی بالباء و بدونها، و یمکن أن تکون الباء فی(بها) بمعنی(من).

[۲۸۷] (۱)- کامل ابن الأثیر، ج ۲، ص ۱۳۱.

[۲۸۸] (۱)- مفردات الراغب، لسان العرب، المنجد، القرطبی، مجمع البیان.

[۲۸۹] (۱)- أصول الکافی، ج ۲ باب(إطعام المؤمن) الحدیث ۳.

[۲۹۰] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۶.

[۲۹۱] (۳)- المصدر السابق، الحدیث ۱۸.

[۲۹۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۳۶۹ و الملاحظ أن العلّامة المجلسی أورد عنوانا فی هذا الباب و ذکر فیه ۱۱۳ حدیث یتعلق بإطعام المؤمن و إشباعه و لبسه و أداء دینه. و لبعض منها عمومیة.

[۲۹۳] (۲)- المصدر السابق.

[۲۹۴] (۱)- الدر المنثور ج ۶ ص ۳۰۰.

[۲۹۵] (۲)-« قطوف»: علی وزن(ظروف) جمع(قطف) علی وزن(حفظ) أو جمع(قطف) علی وزن(حذف) و الأوّل وصف و الثّانی مصدر، و یعنی الفواکه المقطوفة أو قطف الفاکهة.

[۲۹۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۱۱.

[۲۹۷] (۲)- المصدر السابق.

[۲۹۸] (۱)- روح المعانی، ج ۲۹، ص ۱۵۹.

[۲۹۹] (۲)-« عینا»: محله فی الأعراب- کما تقدم- أن یکون منصوبا بنزع الخافض.

[۳۰۰] (۱)- قیل إن« السلسبیل» هو ما لا ینصرف عادة للعملیة و العجمة و التنوین الموجود للاتساق مع الآیات السابقة لها.

[۳۰۱] (۲)- قیل إنّ(ثمّ) هنا ظرف مکان و ل(رأیت) معنی فعل لازم و التقدیر(إذا رمیت ببصرک ثمّ رأیت نعیما و ملکا کبیرا) و یحتمل أن یکون(ثمّ) اسم إشارة للبعد و مفعولا لرأیت.

[۳۰۲] (۳)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۱۱.

[۳۰۳] (۱)-« عالیهم»: هناک احتمالان لمحله من الاعراب، الأول کونه ظرفا و یراد به فوق، فیکون معنی الآیة(فوقهم ثیاب سندس) و الآخر کونه لا یرجع للضمیر« هم» المذکور فی الآیات السابقة، بل یرجع إلی(الأبرار) فیکون المعنی(حال کونهم یعلوهم ثیاب سندس خضر).

[۳۰۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۱۱.

[۳۰۵] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۸۵ ذیل الحدیث ۶۰.

[۳۰۶] (۱)- إن لهذه الآیة تقدیر مثل(یقال لهم) أو(یقول اللّه لهم).

[۳۰۷] (۱)- مفردات الراغب.

[۳۰۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۱۳.

[۳۰۹] (۱)- جاء فی تفسیر(روح البیان) أن کلمة(وراء) إذا أضیفت إلی الفاعل فإنّها تعنی الخلف، و إذا أضیفت إلی المفعول فإنّها بمعنی« الأمام» روح البیان، ج ۸، ص ۴۳۹.

[۳۱۰] (۲)- فی هذه الآیة حذف، و فی التقدیر(بدلناهم أمثالهم) کلمة(تبدیل) غالبا ما تأخذ مفعولین و هنا الضمیر(هم) مفعول أوّل و(أمثالهم) مفعول ثان.

[۳۱۱] (۱)- قيل أن فى الآية حذف، و التقدير:(فمن شاء اتخذ إلى رضى ربّه سبيلا) و لكن الحق عدم احتياج الآية للتقدير، لأن جميع طرق التكامل تنتهى إلى اللّه تعالى.

[۳۱۲] (۲)- جمع من المفسرين قالوا أن جملة(إن يشاء اللّه) محلها من الإعراب منصوبة على الظرفية فيكون المعنى:(ما تشاءون إلا وقت مشيئة اللّه) و يحتمل أن التقدير هنا(شيئا) فيكون المعنى:(و ما تشاءون إلا شيئا يشاء اللّه).

[۳۱۳] (۱)- تفسير الفخر الرازى ج ۳۰ ص ۲۶۲.

[۳۱۴] (۱، ۲)- لمزيد من التوضيح حول آيات(المشيئة) راجع تفسير الآية ۳۷ سورة الزمر.

[۳۱۵] (۱، ۲)- لمزيد من التوضيح حول آيات(المشيئة) راجع تفسير الآية ۳۷ سورة الزمر.

[۳۱۶] (۱)- مجمع البيان ج ۱۰ ص ۴۱۴.

[۳۱۷] (۲)- المصدر السابق.

[۳۱۸] (۳)- الخصال للشيخ الصدوق باب الأربعة حديث ۱۰.

[۳۱۹] (۱)-« عرفا»: بمعنى متتابعا، و أصله بمعنى(عرف الفرس) المتساقط بعضها على البعض الآخر، و فسر أحيانا بالعمل الحسن و المعروف.

[۳۲۰] (۱)-« عذرا أو نذرا»: محله من الإعراب النصب على أنّه(مفعول لأجله) و قيل(حال).

[۳۲۱] (۱)- العطف بالفاء أيضا يقوى هذا المعنى.

[۳۲۲] (۱)-(أقّتت) أصلها(وقّتت) من مادة(وقت) إذ أن الواو المضمومة بدلت إلى الهمزة، و يعنى توقيت الوقت لرسل اللّه تعالى، و هذا واضح إذ لا يعين لهم وقت بل يتعيّن لعملهم، أى لشهادتهم على الأمم، و لذا قيل إن فى الآية حذفا.

[۳۲۳] (۲)- الأعراف، الآية ۶.

[۳۲۴] (۳)- طبقا لهذا التفسير فإن الضمير فى(أجلت) يعود إلى شهادة الأنبياء و الرسل على الأمم، و هو ما يستفاد منه فى الآية السابقة، و قيل إنّه يعود إلى جميع الأمور المرتبطة بالأنبياء و ما أعطوا من الأخبار بالثواب و العقاب و حوادث القيامة و غيرها، و قيل: إنّها إشارة إلى جميع الأمور التى وردت فى الآيات السابقة كظلام النجوم و غيرها، و لكن من الواضح أن التّفسير الأوّل أنسب، لأنّ مرجع الضمير فى الآية متصل بذلك.

[۳۲۵] (۱)- ورد مزيد من التوضيح فى باب معنى(ويل) و اختلافه مع(ويس) و(ريح) فى ذيل الآية(۶۰) من سورة الذاريات.

[۳۲۶] (۱)-(قرار): هو محل الاستقرار و(مكين) يعنى محفوظ، و أصله من المكانة المشتقة من التمكن(و تأتى المكانة أحيانا بمعنى المنزلة).

[۳۲۷] (۲)- للآية حذف تقديره(فنعم القادرون نحن) أى أن المحذوف هو المخصوص بالمدح.

[۳۲۸] (۳)- قال بعض المفسّرين إن معنى الآية هكذا:(إنا قدرنا النطفة بمقاييس ضرورية و مقادير مختلفة، و خصوصيات فى جسم الإنسان و روحه، فنعم القادرون) و لكن هذا المعنى يبدو بعيدا لأن متن القرآن و القراءة المعروفة له غير مشددة و لذا يبدوا بعيدا و إن قال بعض إن المادة الثلاثية المجردة وردت بمعنى التقدير، و لكن فى الاستعمالات العادّية لا تستعمل كلمة(قادر) بهذا المعنى.

[۳۲۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۶۳.

[۳۳۰] (۲)-« كفاتا»: مفعول ثانى ل(جعلنا) و هو مصدر قد جاء بصيغة اسم فاعل.

[۳۳۱] (۳)-« أحياء و أمواتا»: حال لضمير مفعول محذوف تقديره(كفاتا لكم أحياء أمواتا).

[۳۳۲] (۱)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۱۷(نقلا عن تفسير على بن إبراهيم).

[۳۳۳] (۲)-« رواسى»: جمع راسية، و هى الثابتات، و(شامخات) جمع شامخ، أى عال، و تأتى بعض العبارات كالقول(شمخ بأنفه)

كناية عن التكبر(مفردات الراغب).

[۳۳۴] (۱)-(لا ظليل): صفة ل(ظل) و لهذا جاء مجرورا.

[۳۳۵] (۲)- الواقعة، ۴۲- ۴۴.

[۳۳۶] (۱)-(شرر): على وزن(ضرر) جمع شرارة، و هو ما يتطاير من النّار، و أخذت من مادة(الشر).

[۳۳۷] (۲)- نقل بعض المفسّرين كالفخر الرازى عن ابن عباس فى تفسير« القصر» فقال: أعواد فى الصحراء كانوا يقطعونها ثمّ يجمعوها و يضعوها فوق بعض للشتاء(لا يستبعد هذا التفسير أيضا و ذلك لما كانوا يشبهون الأعواد المجموعة و المتراصة بالقصر العالى).

[۳۳۸] (۳)- لعلّ ضمير(كان) يعود على(قصر) أو إلى(الشرر) و بما أنّ(شرر) بصيغة الجمع فلا يمكن ذلك من دون تأويل إلّا أن نجعل(شرر) اسم جمع.

[۳۳۹] (۱)- يجب الالتفات إلى أن(يوم) هنا غير منوّن، لأنه أضيف إلى مفهوم الجملة(لا ينطقون).

[۳۴۰] (۲)- قد يتساءل عن السبب فى كون جملة(فيعتذرون) مرفوعة فى حين أن القاعدة تنص على النصب و حذف النون، قيل: أنّهم تركوا الاعتذار، لأنّهم لا عذر لهم و ليس لعدم الإذن الإلهى.

[۳۴۱] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۹۰، الحديث ۲۲.

[۳۴۲] (۱)- النون فى(فكيدون) مكسورة و جاءت الكسرة محل ياء المتكلم، و أصلها(فكيدونى) فحذفت الياء و بقيت الكسرة لتدل على الياء، و ضمير المتكلم يعود إلى ذات اللّه المقدّسة طبقا لظاهر الآيات، و احتمال رجوعه إلى شخص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعيد جدّا.

[۳۴۳] (۱)- لهذه الآية حذف و تقديره على قول مجمع البيان:(كلوا و تمتعوا قليلا فإن الموت كائن لا محالة) و لكن يبدو أن التقدير الأنسب هو(كلوا و تمتعوا قليلا و انتظروا العذاب فإنّكم مجرمون).

[۳۴۴] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۱۹ و نقل هذا المعنى أيضا الآلوسى فى روح المعانى و القرطبى فى تفسيره و الزمخشرى فى الكشّاف و روح البيان ذيل الآية التى هى مورد البحث.

[۳۴۵] (۱)- مجمع البيان، ۱۰، ۴۲۰.

[۳۴۶] (۲)- تفسير البرهان، ۴، ۴۱۹.

[۳۴۷] (۳)- مجمع البيان، ۱۰، ۴۲۰.

[۳۴۸] (۱)-« عمّ»: مخفف(عمّا)، و هى مركبة من(عن) و(ما) الاستفهامية.

[۳۴۹] (۱)- مفردات الراغب، مادة(نبأ).

[۳۵۰] (۲)- مع أنّ باب(التفاعل) غالبا ما يشير إلى الفعل المقابل، إلّا أنه- أحيانا- قد يعطى معنى الفعل الثلاثى المجرّد أو معان أخرى ..(و ذكر بعض أهل اللغة خمسة معان للتفاعل:

۱- اشتراك اثنين أو أكثر فى فعل ما.

۲- المطاوعة، مثل(تباعد).

۳- إظهار خلاف الواقع، مثل(تمرض).

۴- الوقوع التدريجى، مثل(توارد).

۵- معنى فعل ثلاثى، مثل(تعالى) بمعنى(علا).

[۳۵۱] (۱)- المعروف بين أوساط علماء اللغة بأن« كلّا» حرف ردع، و لكنّ ثمّة من قال باستعمالات أخرى لهذا الحرف و لكنها

نادرة، و هی: أ- حرف تأكيد. ب- بمعنی(ألا) الاستفتاحية. ج- حرف جواب بمنزلة(نعم).(راجع مجمع البحرين و كتب اللغة).

[۳۵۲] (۲)- الزمر، الآية ۶.

[۳۵۳] (۳)- الشوری، الآية ۴۴.

[۳۵۴] (۴)- المؤمنون، ۹۹- ۱۰۰.

[۳۵۵] (۱)- رسالة الإعتقاد لأبی بكر محمد بن مؤمن الشيرازی(علی ما ذكر فی إحقاق الحق، ج ۳، ص ۴۸۴).

[۳۵۶] (۲)- تفسير البرهان، ج ۹، ص ۴۲۰.

[۳۵۷] (۳)- تفسير البرهان، ج ۳، ص ۴۱۹.

[۳۵۸] (۱)- سبأ، الآية ۳.

[۳۵۹] (۲)- الزلزلة، الآية ۷- ۸.

[۳۶۰] (۱)- جملة\i وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً\E و ما بعدها، جاءت بصيغة الإثبات، أمّا ما احتمله البعض من كونها جملا منفية معطوفة علی قوله تعالی\:i أَ لَمْ نَجْعَلِ E المتقدم فی الآية الأولی فبعيد و يحتاج إلی تقدير لا موجب.

[۳۶۱] (۱)- للتزود من عجائب عالم النوم، راجع ما بحثناه فی تفسير الآية(۳۴) من سورة الروم. و كذا الرؤيا و عجائبها فی ذيل الآية(۴) من سورة يوسف.

[۳۶۲] (۱)-« المعاش»: إمّا أن يكون اسم زمان أو اسم مكان، بمعنی زمان و مكان الحياة .. و يمكن أن يكون مصدرا ميميا، فيكون له محذوف، و التقدير:(سببا لمعاشكم). و المعاش: من العيش، أی الحياة، إلّا أنّ تعبير الحياة يمكن إطلاقه علی الباری عزّ و جلّ و الملائكة، فيما تختص كلمة العيش بحياة الإنسان و الحيوان.

[۳۶۳] (۲)- القصص، الآية ۷۲.

[۳۶۴] (۳)- القصص، الآية ۷۲.

[۳۶۵] (۱)- راجع بحوثنا حول أسرار الليل و النهار، و نظام النور و الظلمة فی ذيل الآيات(۷۱- ۷۳) من سورة القصص، فی ذيل الآية(۴۷) من سورة الفرقان، فی ذيل الآية(۱۸) من سورة الذاريات.

[۳۶۶] (۱)- لزيادة المعلومات، راجع ذيل الآية(۲۹) من سورة البقرة.

[۳۶۷] (۲)-« جعلنا»: فی هذا الموضوع بمعنی(خلقنا)، فلذلك أخذت مفعولا واحدا.

[۳۶۸] (۳)- مفردات الراغب: مادة(وهج) .. و فی لسان العرب: الوهج: حرارة الشمس و النار من بعيد.

[۳۶۹] (۱)- ورد فی كتاب عالم النجوم من تأليف(آنتری وايت) حسابا للنور و الحرارة الواصلين من الشمس إلی الأرض، يقول صاحب الكتاب: لو أردنا أن ندفع أجورا مقابل ما يصلنا من نور و حرارة الشمس مجانا بما يساوی ما ندفعه من أجور الكهرباء عادة، فعلی سكان الأرض أن يدفعوا لكل ساعة من النور و الحرارة مليار و سبعمائة مليون دولار، و إذا حسبنا ما علينا أن ندفع خلال سنة واحدة فسنصل إلی رقم خيالی من الدولارات، و بهذا يظهر قيمة ما وهبنا اللّه تعالی من ثروة طائلة دون مقابل.

و يقول مؤلف كتاب(من العوالم البعيدة): إنّ أهل الأرض لو أرادوا الحصول علی ما يصلهم من نور الشمس من مصابيح توضع فی مكان الشمس للزم لكل منهم خمسة ملايين مليار مصباح ذو مائة واط.

[۳۷۰] (۱)- يقول بعض العلماء: إنّ الغيوم حين تتراكم تخضع لنظام معين، حيث تقوم بعصر نفسها فتتساقط قطرات الأمطار منها، و هذا فی واقعة يكشف عن إحدی المعاجز العلمية للقرآن فی استعماله لهذا التعبير(راجع كتاب- الهواء و الأمطار).

[۳۷۱] (۲)-(ألفاف): جمع لفيف- كما يقول كثير من أهل اللغة و التفسير- و قال بعضهم: جمع لف(بضم اللام). و قال بعض آخر: جمع لف(بكسر اللام). و قال آخرون: هی جمع لا مفرد له .. و لكنّ المشهور هو القول الأوّل.

[۳۷۲] (۱)- الأنبياء، الآية ۳۰.

[۳۷۳] (۲)- سورة يس، الآية ۸۱.

[۳۷۴] (۱)- المؤمنون، الآية ۱۱۵.

[۳۷۵] (۲)- فاطر، الآية ۹.

[۳۷۶] (۱)- استعمال(كان) فى هذا المورد لبيان حتمية الوقوع لذلك اليوم.

[۳۷۷] (۱)- تطرقنا لهذا الموضوع بشكل مفصل فى ذيل الآية(۶۸) من سورة الزمر، فراجع.

[۳۷۸] (۱)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ذيل الآية المذكورة.

[۳۷۹] (۲)- الإنشقاق، ۱.

[۳۸۰] (۳)- الإنفطار، ۱.

[۳۸۱] (۱)- الزمر، ۷۳.

[۳۸۲] (۲)- الرعد، ۲۳.

[۳۸۳] (۳)- الزمر، ۷۱.

[۳۸۴] (۴)- آل عمران، ۱۳۳.

[۳۸۵] (۵)- طور، ۱۰.

[۳۸۶] (۶)- الحاقة، ۱۴.

[۳۸۷] (۷)- المزمل، ۱۴.

[۳۸۸] (۸)- القارعة، ۵.

[۳۸۹] (۱)- الواقعة، ۵ و ۶.

[۳۹۰] (۲)- طه، ۱۰۵ و ۱۰۶.

[۳۹۱] (۱)- يوجد محذوف فى الآية، و التقدير:(كانت للطاغين مآبا).

[۳۹۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۹۴، ح ۲۳ و ۲۶.

[۳۹۳] (۲)-« جزاء»: مفعول مطلق لفعل محذوف تظهره قرينة الكلام،« وفاقا»: صفة الجزاء، و التقدير: يجازيهم جزاء ذا وفاق!

[۳۹۴] (۱)-« كذّابا»- بكسر الكاف- إحدى صيغ المصدر من باب التفعيل، بمعنى التكذيب، و قال بعض أهل اللغة: إنّه مصدر ثلاثى مجرّد معادل لكذب .. و على أية حال، فهو: مفعول مطلق لكذبوا، و جاء للتأكيد.

[۳۹۵] (۱)-« كلّ»: مفعول به لفعل مستتر يدل عليه الفعل« أحصيناه». و« كتابا»: مفعول مطلق لأحصينا، لأنّه بمعنى كتبنا، و اعتبره البعض: حالا.

[۳۹۶] (۲)- القمر، ۵۲ و ۵۳.

[۳۹۷] (۳)- يونس، ۲۱.

[۳۹۸] (۴)- سورة يس، ۱۲.

[۳۹۹] (۵)- الكهف، ۴۹.

[۴۰۰] (۱)- الشعراء، ۱۳۶.

[۴۰۱] (۲)- الإسراء، ۴۱.

[۴۰۲] (۳)- تفسير الكشّاف، ج ۴، ص ۶۹۰؛ و تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۳۰۷؛ و تفسير الصافى فى ذيل الآية المذكورة.

[۴۰۳] (۱)-« الحدائق»: بدل« مفازة»، أو عطف بیان لها.

[۴۰۴] (۱)-« جزاء»: حال لإعطاء النعم التی ذکرت فی الآیات السابقـة، فیکون التقدیر: أعطاهم جمیع ذلک جزاء من ربّک، و احتمل البعض: إنّه مفعول مطلق لفعل محذوف، و اعتبره آخرون: إنّه مفعول لأجله، لکنّ التّفسیر الأوّل أقرب.

[۴۰۵] (۱)- تفسیر البیضاوی فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۴۰۶] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۹۵، ح ۲۹.

[۴۰۷] (۱)-« یوم» ظرف متعلق بفعل« لا یملکون»- حسب اعتقاد کثیر من المفسّـِرین- و ثمّـة احتمال آخر: إنّه متعلق بکل ما جاء فی الآیات السابقة، فیکون التقدیر:(کل ذلک یکون یوم یقوم الروح).

[۴۰۸] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ذیل الآیة المبحوثة.

[۴۰۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۲۷.

[۴۱۰] (۲)- تفسیر علی بن إبراهیم، ج ۲، ص ۴۰۲.

[۴۱۱] (۳)- تفسیر الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۰۹.

[۴۱۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۲۷.

[۴۱۳] (۲)- بحثنا مسألة« الشـفاعة» من حیث: شـروطها، خصائصـها و فلسـفتها، مع الإجابة علی الإشـکالات الواردة بشأنها فی تفسـیر الآیة(۴۸) من سورة البقرة.

[۴۱۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۳.

[۴۱۵] (۲)- العنکبوت، ۵۴.

[۴۱۶] (۱)- الحشر، ۱۸.

[۴۱۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۲۸.

[۴۱۸] (۲)- المصدر السابق.

[۴۱۹] (۱)- مفردات الرغب، مادة(نزع).

[۴۲۰] (۱)- راجع: لسان العرب، تفسیر مجمع البیان، تفسیر الکشّاف، و مجمع البحرین.

[۴۲۱] (۱)- و ثمّة رأی یقول: المقصود بهذا القسم، تلک الحرکات الطبیعیة و الإرادیة و الصناعیة للموجودات، فمثلا: تتحرک النطفة حرکـة طبیعیـة، فتنفصل من صـلب الأب لتسـتقر فی رحم الام، ثمّ تـدیم مسـیرها بهـدوء، و لتسـرع بعـد ذلک، ثمّ تبدأ المواد الحیاتیة بالتسابق فی النطفة حتی یتشکل فی النهایة إنسان کامل الهیئة لتقوم بتدبیره، و کذا الحال بالنسبة للحرکات الإرادیة حیث یبدأ الإنسان باتخاذ قرار معین و بعـده یتحرک بهدوء لتجسـید اولی خطوات التنفیذ، ثمّ یسـرع الخطوات، و یتسابق مع الآخرین، و یقوم بکلّ ذلک لتدبیر أمره و حیاته الاجتماعیة و الوسائل الصـناعیة لا تبتعد عن هذا التسلسل، کما فی المراحل التی تطویها الطائرة فی مسیرها.(إلّا أنّ هذا التفسیر یفتقد الدلیل).

[۴۲۲] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۹۷، الحدیث ۴.

[۴۲۳] (۱)- المصدر السابق، الحدیث ۷- ۸- ۱۲.

[۴۲۴] (۱)- ینبغی ملاحظـة أنّ فعـل(رجف) قـد یـأتی متعـدیا و قـد یـأتی لازما، فعلی الحالـة الاولی تکون« الراجفـة» بمعنی الزلزلة العظیمة التی تزلزل کلّ الأرض و الموجودات، و علی الحالة الثّانیة تعنی الأرض دون غیرها- فتأمل.

[۴۲۵] (۲)- یعود ضـمیر« أبصارها» إلی القلوب، التی تشیر هنا إلی معنی(النفوس و الأرواح)، و ترجع الإضافة إلی أنّ مرکز تأثیرات حواس الإنسان إنّما من روحه، و ما یظهر من اضطراب و خوف علی الأعین هو نتیجة لما یسیطر علی الروح من خوف.

[۴۲۶] (۱)- اسم فاعل هنا بمعنى اسم المفعول، فالحافرة إذا بمعنى المحفورة.

[۴۲۷] (۲)- و تقدير الجملة مع محذوفها:(أ إذا كنّا عظاما نخرة نرد أحياء) أو(أ إنا لمبعوثون).

[۴۲۸] (۱)- لسان العرب: سهر، مجمع البيان: ج ۱۰، ص ۴۲۹؛ و تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۹۹۰.

[۴۲۹] (۱)- اعتبر أكثر المفسّرين« إذ» ظرف زمان متعلق ب« حديث» و يصح الإعتبار لو كانت بمعنى نفس الحادثة و ليست حكايتها ..

و ثمّة احتمال آخر، يقول« إذ»: ظرف متعلق بفعل محذوف تقديره(اذكر)، فالتقدير:(اذكر إذ ناداه ...)- فتأمل.

[۴۳۰] (۲)- إنّ الفاصلة الزمنية ما بين توجيه الأمر الإلهى إلى موسى عليه السّلام و بين إرائة المعجزة كانت كبيرة، و لكنّ البيان القرآنى اختصرها فى هذا الموضع.

[۴۳۱] (۱)- يمكن اعتبار« ثمّ» فى الآية إشارة إلى المدّة التى استغلها فرعون ليدرس و يخطط لكيفية مواجهة موسى عليه السّلام، لأنّ« ثمّ» عادة ما تستعمل للتعبير عن الفاصلة الزمنية بين الأحداث.

[۴۳۲] (۱)-« نكال»: منصوب بنزع الخافض، و التقدير:(فأخذه اللّه بنكال الآخرة) و يحتمل كونه مفعول مطلق للأخذ، بمعنى(نكّل)، فيكون التقدير:(نكّل اللّه ناكال الآخرة).

[۴۳۳] (۱)- و فى مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۳۲، رواية اخرى تحمل نفس المضمون عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أكثر تفصيلا، نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۰۰.

[۴۳۴] (۱)- فى الآية حذف، و التقدير:(أم السماء أشدّ خلقا). و« بناها»: جملة استئنافية، و هى مقدّمة للآيات التالية.

[۴۳۵] (۲)- تفسير الفخر الرازى، ج ۳۱، الآية المبحوثة.

[۴۳۶] (۱)- يرجع ضميرا« ليلها» و« ضحاها» إلى السماء، فنسبة النور و الظلمة إلى السماء باعتبار أنّ لهما منشأ سماويا.

[۴۳۷] (۱)- فسّر بعض المفسّرين« بعد ذلك» فى الآية، بمعنى(إضافة لهذا)، فيكون معنى الآية:(إضافة إلى ما فى الآيات السابقة فالأرض دحاها).

[۴۳۸] (۲)- و اعتبره البعض: مصدرا ميميا، بمعنى الحيوانات السائمة، و لكنّ المعنى المذكر أعلاه أقرب.

[۴۳۹] (۳)- بحثنا مفصلا موضوع الجبال و أهميتها فى حياة الإنسان و فى تثبيت الأرض، فى ذيل الآية(۳) من سورة الرعد- فراجع.

[۴۴۰] (۱)- يقول بعض المفسّرين، إنّ جواب الشرط فى« إذا» الشرطية، يأتى فى الآيات i فَأَمَّا مَنْ طَغى\ ...E\i و أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ\ ...E و لكن الأفضل أن نقول: إنّ الجزاء محذوف يدل عليه ما فى الآيات التالية، و التقدير:(فإذا جاءت الطامة الكبرى، يجز كلّ إنسان بما عمل)، و قيل: يستفاد جزاء الشرط من\« i يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ E»- و لكنّه بعيد.

[۴۴۱] (۱)- لزيادة التوضيح، راجع ذيل الآية(۱۲۴) من سورة طه.

[۴۴۲] (۲)- تقدير الآية الثالثة مع محذوفها:(هى المأوى له) أو(هى مأواه)، و حذف الضمير لوضوحه.

[۴۴۳] (۳)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۰۶، الحديث ۴۳.

[۴۴۴] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۹۷.

[۴۴۵] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۴۲.

[۴۴۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۰۷، الحديث ۴۵.

[۴۴۷] (۲)- المصدر السابق، الحديث ۴۶.

[۴۴۸] (۱)- جاءت كلمة« المرسى» بهذا الموضع مصدرا، على مالها من استعمال اخرى، فتأتى تارة اسم زمان و مكان، و تارة اخرى اسم مفعول من« الإرساء»، معناها المصدرى هو: الوقوع و الثبات، و يستخدم المرسى كمكان لتوقف السفن، و فى تثبيت الجبال على

سطح الأرض، و كقوله تعالى فى الآيهٔ(۴۱) من سورهٔ هود\:i وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها\E، و الآيهٔ(۳۲) من سورهٔ النازعات\:i وَ الْجِبالَ أَرْساها\E.

[۴۴۹] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۹، ص ۲۹، و ذكرت ذات الموضوع فى: تفاسير(مجمع البيان)،(القرطبى)،(فى ظلال القرآن) بالإضافهٔ لتفسير اخرى، فى ذيل الآيهٔ(۱۸) من سورهٔ محمّد.

[۴۵۰] (۱)- تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۳۵.

[۴۵۱] (۱)- تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۳۷.

[۴۵۲] (۲)- المصدر السابق.

[۴۵۳] (۱)- و الفرق بين الآيـهٔ و التى قبلها، هو أنّ الحـديث قـد جرى حول التزكيـهٔ و التقوى الكاملـهٔ، فى حين أنّ الحديث فى الآيهٔ المبحوثـهٔ يتناول تـأثير التـذكر الإجمالى، و إن لم يصل إلى مقام التقوى الكاملـهٔ، و سـتكون النتيجـهٔ اسـتفادهٔ الأعمى المسـتهدى من التذكير، سواء كانت الفائدهٔ تامّهٔ أم مختصرهٔ.

و قيل: إنّ الفرق بين الآيتين، هو أنّ الأولى تشير إلى التطهير من المعاصـى، و الثانيـهٔ تشـير إلى كسب الطاعات و إطاعـهٔ أمر اللّه عزّ و جلّ.

و الأوّل يبدو أقرب للصحهٔ.

[۴۵۴] (۲)- يقول الراغب فى مفرداته:(غنى و استغنى و تغنى و تغانى) بمعنى واحـد، و يقول فى(تصـدّى): إنّها من(الصـدى)، أى الصوت الراجع من الجبل.

[۴۵۵] (۱)- يراد بالخشيهٔ هنـا: الخـوف من اللّه تعـالى، الـذى يـدفع الإنسـان ليتحقق بعمق وصولاـ لمعرفته جـلّ اسـمه، و كمـا يعـبر المتكلمون عنه ب .. وجوب معرفهٔ اللّه بدليل دفع الضرر المحتمل.

و احتمل الفخر الرازى: يقصد بالخشيهٔ، الخوف من الكفّار، أو الخوف من السقوط على الأرض لفقدانه البصر. و هذا بعيد جدّا.

[۴۵۶] (۲)-« التلهى»: من(اللهو). و يأتى هنا بمعنى الغفلهٔ عنه و الاستغفال بغيره، ليقف فى قبال« التصّدى».

[۴۵۷] (۳)- نهج البلاغهٔ، الرسالهٔ ۵۳.

[۴۵۸] (۱)- يعود ضـمير:« ذكره» إلى ما يعود إليه ضـمير« إنّها»، و سبب اختلاف الصيغهٔ بين الضميرين هو أنّ ضمير« إنّها» يرجع إلى الآيات القرآنيهٔ، و« ذكره» إلى القرآن، فجاء الأوّل مؤنثا و الثّانى مذكرا.

[۴۵۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۳۸.

[۴۶۰] (۱)-« قتـل الإنسـان»: نوع من اللعن، و هو أشـدّها عن الزمخشـرى فى(الكشـاف).« مـا»، فى« ما أكفره»: للتعجب، التعجب من السير فى متاهات الكفر و الضـلال، مع ما للحق من سبيل واضـحهٔ، و توفير مختلف مصاديق و اللطف و الرحمـهٔ و الرّبانيهٔ التى توصـل الإنسان إلى شاطئ النجاهٔ.

[۴۶۱] (۱)- يقول الراغب فى مفردات:« قدّره»(بالتشديد): أعطاه القدرهٔ، و يقال: قدّرنى اللّه على كذا و قوانى عليه».

[۴۶۲] (۱)- قيل: أتت« كلّا» هنا بمعنى(حقّا) ... إلّا أنّ سياق الآيهٔ و ظاهر الكلمهٔ لا يؤيدان ذلك و لعل المعنى المشهور(الردع) هو المطلوب، لوجود الكثير ممن يعتقـد مغرورا و مـدعيّا بأنّه قـد أدّى وظائفه الشـرعيهٔ على أتمّ أداء، فتأتى الآيـهٔ لتقول رادعـهٔ بأنّه لم يؤد وظائفه بعد.

[۴۶۳] (۱)- يمكن اعتبـار جملـهٔ« فلينظر»: جزاء شـرط مقـدّر، و التقـدير:(إن كـان الإنسـان فى شـك من ربّه و من البعث فلينظر إلى طعامه).

[۴۶۴] (۱)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۲۹.

[۴۶۵] (۲)- المصدر السابق.

[۴۶۶] (۱)- تفسیر الآیة المذکورة فی: تفسیر روح المعانی، تفسیر القرطبی، تفسیر فی ظلال القرآن، الدر المنثور، و تفسیر المیزان.

[۴۶۷] (۲)- إرشاد المفید، ص ۱۰۷، و عنه تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۳۱۹.

[۴۶۸] (۱)- بحثنا مفصّلا موضوع الأهمیة الغذائیة للزیتون و العنب و التمر فی هذا التفسیر ضمن تفسیر الآیة(۱۱) من سورة النحل- فراجع.

[۴۶۹] (۱)- ثمّة احتمالات کثیرة فی تعیین جزاء الشرط لهذه الجملة الشرطیة ... الأوّل: إنّه محذوف بدلالة الآیات التالیة، التقدیر:(فإذا جاءت الصاخة فما أعظم أسف لکافرین)- تفسیر المراعی. و الثانی: و فی(مجمع البیان) قیل: إنّه i لِکُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ یَوْمَئِذٍ شَأْنٌ یُغْنِیهِ E. و الثالث: أمّا فی(روح المعانی)، فقد احتمل: إنّه مستفاد من جملة\ i یَوْمَ یَفِرُّ الْمَرْءُ\E، و التقدیر:(فإذا جاءت الصاخة یفر المرء من أخیه).

[۴۷۰] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۲۹.

[۴۷۱] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۸۴.

[۴۷۲] (۲)- المصدر السابق.

[۴۷۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۱.

[۴۷۴] (۱)- المصدر السابق.

[۴۷۵] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۰۱۷، و یحتمل أن یکون معنی هذا الحدیث شامل للحدیث السابق.

[۴۷۶] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۱۳.

[۴۷۷] (۱)- بحثنا موضوع حشر و حساب الحیوانات فی هذا التفسیر ذیل الآیة(۳۸) من سورة الأنعام، فراجع.

[۴۷۸] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۳۲، ح ۱۱.

[۴۷۹] (۲)- المصدر السابق، ح ۷.

[۴۸۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۴.

[۴۸۱] (۱)- آل عمران، الآیة ۱۳۳؛ و الحدید، الآیة ۲۱ ... إلخ.

[۴۸۲] (۱)- اقتبس هذا الکلام من ثلاثة کتب:(ولادة و موت الشمس)،(النجوم من دون تلسکوب) و(بناء الشمس).

[۴۸۳] (۱)- تعرض المفسّرون فی بحوث عدیدة لکلمة« لا»، هل هی: نافیة، زائدة، للتأکید ... و قد تناولنا ذلک مفصلا فی أول سورة القیامة(فی نفس هذا الجزء)، فراجع.

[۴۸۴] (۱)- لسان العرب: مادة(خنس).

[۴۸۵] (۲)- الفرق بین النجوم و الکواکب، إنّ الأولی شموس کشمسنا، و الثانیة عبارة عن أجسام باردة کالأرض، تنعکس علیها أشعة الشمس فتضیء، و یمکن تمییزها علی صفحة السماء بثبوت نورها، فی حین تکون النجوم متلألئة بالنور.

[۴۸۶] (۱)- مجمع البیان: ج ۱۰، ص ۴۴۶.

[۴۸۷] (۱)-« مکین»:(المکانة)، و هی المقام و المنزلة، و ما یستفاد من مفردات الراغب و غیره من المفسّرین، إنّه اسم مکان من(الکون) و لکثرته فی الکلام فقد استعمل علی صیغة الفعل فقیل:(تمکن) و(تمسکن).

[۴۸۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۶، و ورد هذا المضمون فی تفسیر(الدر المنثور) فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۴۸۹] (۱)- الذاریات: الآیة ۵۲.

[۴۹۰] (۱)- نهج البلاغة: الکلمات القصار(۳۰۱).

[۴۹۱] (۱)- روح المعانى، ج ۳۰، ص ۶۲؛ و فى روح البيان، ج ۱۰، ص ۳۵۴.

[۴۹۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۴۷، نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۲۰(عن ثواب الأعمال: ص ۱۲۱).

[۴۹۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۲۵۷.

[۴۹۴] (۲)- المصدر السابق.

[۴۹۵] (۳)- منية المريد، ص ۱۱.

[۴۹۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۴۹.

[۴۹۷] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۶.

[۴۹۸] (۳)- لمزيد من التفصيل. راجع تفسير الآية(۲۵) من سورة النحل.

[۴۹۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۴۹؛ و الدر المنثور، و روح المعانى، و روح البيان، و القرطبى، عند تفسير الآية المبحوثة.

[۵۰۰] (۲)- المصدر السابق.

[۵۰۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۳.

[۵۰۲] (۱)-« ما»: زائدة، و احتملها البعض(شرطية)، و لكنّ الرأى الأوّل أقرب للصواب.

[۵۰۳] (۱)-« كلا» حرف ردع لإنكار شىء ذكر و توهم، لكن ... أى إنكار قصدته الآية؟ ثمة احتمالات عديدة للمفسرين فى ذلك، و أهمها ما ذكر أعلاه، أى أن« كلا» جاءت لتنفى كل أسباب و منابع الغرور و الغفلة و تجعلها فى إنكار القيامة و التكذيب به فقط. و هو ما ورد بعد« بل» و هذا ما اختاره الراغب فى مفردات(فى مادة: بل)، و قال بعد ذكره للآية: قيل ليس هاهنا ما يقتضى أن يغرهم به تعالى و لكن تكذيبهم هو الذى حملهم على ما ارتكبوه.

[۵۰۴] (۲)- قيل: إن« الواو» هنا حالية، كما فى روح المعانى و روح البيان، و لكن احتمال كونها(استئنافية) أقرب للحال.

[۵۰۵] (۱)- يونس، الآية ۶۱.

[۵۰۶] (۲)- النساء، الآية ۴۱.

[۵۰۷] (۳)- النور، الآية ۲۴.

[۵۰۸] (۴)- فصلت، الآية ۲۱.

[۵۰۹] (۱)- سورة ق، الآية ۲۱.

[۵۱۰] (۲)- الزلزال، الآية ۴.

[۵۱۱] (۳)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۷۳۹(مادة: يوم).

[۵۱۲] (۴)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۲۲.

[۵۱۳] (۱)- اصول الكافى، ج ۲، ص ۴۲۹، باب« من يهمّ بالحسنة أو السيئة» الحديث ۳.

[۵۱۴] (۲)- المصدر السابق، الحديث ۱- ۲.

[۵۱۵] (۱)- المصدر السابق، الحديث ۴.

[۵۱۶] (۲)- اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۸۴، الحديث ۲؛ و عنه نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۱۰.

[۵۱۷] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۷.

[۵۱۸] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۵۰.

الجزء العشرون

نهاية تجربة و بداية تجربة اخرى

ها نحن بفضل اللّه و منّه و توفيقه فى نهايـة المطاف مع «التّفسير الأمثل»، بعـد جولـة فى كتاب اللّه اسـتغرقت خمسـة عشـر عاما: و من المناسب أن يكون لنا مع القارئ الكريم، الذى رافقنا فى هذه الرحلة الطويلة، حديث نسـتعرض فيه عصارة تجربتنا مع هذا التّفسير على أن يكون مفيدا للسائرين على طريق الدراسة و التعمّق فى القرآن الكريم.

١- خلال جولتنا فى رحاب كتاب اللّه ازددنا تفهّما لما ورد فى الحديث الشـريف بشأن وصف القرآن، بل تلمّسنا هذه الأوصاف بكلّ وجودنا، و رأينا بأم أعيننا. من ذلك ما

ورد عن النّبى عليه أفضل الصـلاة و السّلام أنّه قال فى القرآن: «له نجوم، و على نجومه نجوم، و لا تحصى عجائبه و لا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، و منازل الحكمة».[۱]

و عن على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه فى جواب من سأله: ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرس إلّا غضاضة؟

قـال: «لأنّ اللّه تبارك و تعالى لم يجعله لزمان دون زمان و لا لناس دون ناس، فهو فى كلّ زمان جديـد و عنـد كلّ قوم غض إلى يوم القيامة».[۲]

نعم: إنّه الشجرة الطيبة التى تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها و هو البحر

الواسع العميق الذى يجد فيه الغواص درّا جديدا كلما ازداد فيه غوصا.

هذه الحقيقة تتّضح لكلّ السالكين طريق القرآن، و تبعث فيهم الشوق و الاندفاع نحو طلب المزيد من مائدة كتاب اللّه، و نحو مواصـلة هذا الطريق حتى نهاية رحلة العمر.

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام قال فى حديثه عن القرآن: «فيه ربيع القلب، و ينابيع العلم، و ما للقلب جلاء غيره».[۳]

و هـذه حقيقـة اخرى تلمّسـناها خلال جولتنا فى رحاب القرآن الكريم. و كلما عاش الإنسان جوّ القرآن أكثر يحسّ بتفتـح جديـد فى القلب و الروح. و هذا الإحساس واضح لكلّ من دخل غمار التجربة. و باب الدخول مفتوح لمن أراد أن يجرّب.

٢- من خلال هـذه الجولـة التّفسـيرية تبيّن مـدى شـمول التعـاليم القرآنيـة، و اتضـح أنّ القرآن الكريم لم يترك مجالا من المجالات الحيويّة فى الساحة الإنسانية دون أن يبيّن أصولها و يعيّن إطارها (التفاصيل تكفلت السنّة ببيانها).

من هنـا لا- يحتـاج الإنسان المسـلم فى تنظيم حياته السياسـية و الاقتصاديـة و الاجتماعيـة إلى أن يولّى وجهه شـطر مـدارس الشـرق أو الغرب، و كما

قال أمير المؤمنين على عليه السّلام: «و اعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة و لا لأحد قبل القرآن من غنى».[۴]

مشكلة المسلمين تكمن فى عدم معرفتهم بما بين ظهرانيهم من كنز عظيم:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأو الماء فوق ظهورها محمول

و هنا نشير مرّة اخرى إلى أن معارف القرآن و تعاليمه لا يمكن أن نتلقاها من

كتـاب اللّه العزيز إلّا إذا جلسـنا عنـده متتلمـذين متعلمين. أمّا إذا أقبلنا على القرآن بذهنيـة مملوءة بأحكام مسـبقة ملتقطـة من مـدارس الشـرق و الغرب، فسوف نلجأ إلى زجّ آيات القرآن فى إطار مفاهيم غريبة عليه، لتنسـجم مع ما نحمله من أحكام و نظريات مسـبقة، و بذلك نحرم من عطاء القرآن، و نحوله إلى «آلة» لتبرير أخطائنا و إسناد أفكارنا الناقصة.

٣- بعـد هذه الجولة القرآنية التى تلمّسـنا فيها الحياة القرآنية بكلّ ما تحمله من عطاء ثرّ لحياة الفرد و الجماعة، لا بدّ أن نسـجّل أسـفنا

لما یحمله کثیر من المسلمین من نظرة إلی القرآن ... نظرة تجعل القرآن محاطا بهالة من القدسیة غیر أنّه معزول عن الحیاة. تتلمس الثواب و البرکة فی التلاوة، و الفضیلة فی الحفظ، دون أن تری فیه منهجا للحیاة.

لقد نسی هؤلاء أنّ القرآن مدرسة للفرد المسلم و للجماعة المسلمة، یرسم لها طریقها فی جمیع المجالات، و یوجهها الوجهة الصحیحة فی کلّ المنعطفات، و هنا تکمن عظمة القرآن و قدسیته.

کثیرة هی مدارس القرآن و خلاوی التحفیظ و مجلس التلاوة فی عالمنا الإسلامی، و کم یدور فیها من البحوث حول طریقة التجوید و الترتیل! لکن الحدیث عن المنهج العملی الذی یطرحه القرآن قلیل، و الالتزام بهذا المنهج أقلّ.

و نحن فی هذا التّفسیر قلّما تعرّضنا لسورة دون أن نبیّن أنّ التلاوة التی بیّنت السنّة فضائلها إنّما هی التلاوة المتبوعة بالفکر و العمل ... فضیلة التلاوة أن یکون مقدمة للتفکر، أن یؤدی التفکر إلی العمل.

نسأل اللّه سبحانه و تعالی أن یوفق علماء المسلمین لطرح منهج القرآن بین أبناء الامّة، و أن یوفق اتباع القرآن إلی العمل به فی کلّ جوانب حیاتهم، و هذه کلمتنا الأخیرة فی التّفسیر الأمثل، و ندع بقیة الحدیث إلی (التّفسیر الموضوعی).

و الحمد للّه ربّ العالمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹

سورة المطفّفین

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ستّ و ثلاثون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱

«سورة المطفّفین»

محتوی السّورة:

لقد جری الحدیث بین المفسّرین بخصوص نزولها بین مکّة و المدینة، و بملاحظة أسباب نزول الآیات الاولی من السّورة، و التی تتعلق بالذین یخسرون المیزان، فسیظهر أنّ نزولها کان فی المدینة.

و لکنّ طبیعة بقیة الآیات تأتی تماما مع سیاق الآیات المکّیة، حیث أنّها تتحدث و بعبارات موجزة و مثیرة عن حوادث یوم القیامة، و علی الخصوص الآیات الأخیرة من السّورة و التی تنقل لنا حالة استهزاء الکفّار بالمسلمین، و هو ما ینسجم مع أوضاع مکّة فی أوائل الدعوة المبارکة، حینها کان المؤمنون عصبة قلیلة و الکفّار کثرة من حیث العدد. و لعل ذلک هو الذی دفع بالمفسّرین لاعتبار قسم من الآیات مکّیة و القسم الآخر مدنیة.

و عموما، فالسّورة أقرب منها للسور المکّیة من السور المدنیة، و علی أیة حال، فبحوث السّورة تدور حول محاور خمس: هی:

۱- تحذیر و إنذار شدید للمطفّفین.

۲- الإشارة إلی أنّ منشأ الذنوب الکبیرة إنّما یأتی من عدم رسوخ الإیمان بالبعث و المعاد.

۳- عرض لجوانب من عاقبة «الفجّار» فی ذلک الیوم العظیم.

۴- عرض لجوانب ما ینتظر المحسنین فی الجنّة من نعم إلهیة و عطاء ربّانی جزیل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲

۵- الإشارة لآثار استهزاء الكفّار بالمؤمنين فى الحياة الدنيا، و انعكاس الحال فى يوم القيامة.

فضيلة السّورة:

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأ سورة المطفّفين سقاه اللّه من الرحيق المختوم»[۵].

و

عن الإمام الصّادق عليه السّلام: أنّه قال: «من قرأ فى فرائضه وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ أعطاه الأمن يوم القيامة من النّار، و لم تره، و لم يرها ...»[۶].

و بطبيعة الحال، فكلّ هذا الثواب و الفضيلة و البركة، سينالها من جعل قراءتها مقدمة للعمل على هديها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۳

الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (۱) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (۲) وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (۳) أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (۴)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (۵) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۶)

سبب النّزول

قال ابن عباس: لمّا قدم نبىّ اللّه المدينة، كانوا من أبخس النّاس كيلا، فأنزل اللّه هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

و قيل: كان تجار المدينة تجارا يطففون، و كانت بياعاتهم المنابذة و الملامسة و المخاطرة، فنزلت هذه الآية،

فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقرأها عليهم و قال: «خمس بخمس»، قيل يا رسول اللّه، و ما خمس بخمس؟

قال: «ما نقص قوم العهد إلّا سلط اللّه عليهم عدّوهم! و ما حكموا بغير ما أنزل اللّه إلّا فشا فيهم الفقر! و ما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۴

و لا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات و أخذوا بالسنين! و لا منعوا الزكاة إلّا حبس عنهم المطر!»[۷].

و روى العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان: إنّ رجلا كان فى المدينة يقال له (أبو جهينة) كان له صاعان، يكيل بأحدهما و يكتال بالآخر، فنزلت هذه الآيات.[۸]

التّفسير

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

بدأ الحديث فى هذه السّورة بتهديد شديد للمطفّفين: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

و تمثل الآيهٔ فى حقيقهٔ توجيهها، إعلان حرب من اللّه عزّ و جلّ على هؤلاء الظالمين، الذين يأكلون حقّ النّاس بهذه الطريقهٔ القذرهٔ.

«المطفّفين»: من (التطفيف) و أصله من (الطف)، و هو جوانب الشيء و أطرافه، و إنّما قيل لكربلاء ب (وادى الطف)، لوقوعها على ساحل نهر الفرات، و (الطفيف):

الشيء النزر، و (التطفيف): البخس فى الكيل و الوزن، و نقص المكيال، و هو أن لا تملأه إلى أصباره.

«ويل»: تأتى بمعانى: حلول الشرّ، الحزن، الهلاك، المشقّهٔ من العذاب، واد مهيب فى نار جهنم، و تستعمل عادهٔ فى اللعن و بيان قبح الشيء، و رغم صغر الكلمهٔ إلّا أنّها تستبطن مفاهيم كثيرهٔ.

و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «و لم يجعل اللّه الويل لأحد حتى يسميه كافرا، قال اللّه عزّ و جل: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵

و ما نستفيده من هذه الرّوايهٔ هو: إنّ التطفيف فيه وجه من الكفر.

و تتطرق الآيتين التاليتين إلى طريقهٔ عمل المطففين، فتقول الآيهٔ الأولى:

الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۱۰].

و تقول الآيهٔ الثّانيهٔ: إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ و ذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ الآيهٔ أرادت ب «المطفف» من يأخذ عند الشراء أكثر من حقّه، و يعطى عند البيع أقل من الحقّ الذى عليه، و ال «ويل» إنّما جاء بلحاظ هاتين الجهتين.

و لكن ما ذهب أولئك المفسّرون غير صحيح، بدلالهٔ «يستوفون» التى تعنى أخذهم بالكامل، و ليس ثمّهٔ ما يدلّ على أخذهم أكثر من حقّهم، و يمكننا توجيه (الذم) الحاصل، باعتبار أخذهم حقّهم كاملا عند الشراء، و ينقصون من حقّ الآخرين عند البيع، كمن يريد أن يذم شخصا بقوله: ما أغربك من رجل، تراك تأتى فى الموعد المقرر عند ما تكون دائنا، و تتهرب من أداء ما عليك عند ما تكون مدينا.

فأخذ الحقّ فى موعده المقرر ليس عملا سيّئا، و لكن حصول الحالتين (أعلاه) فى شخص واحد هو الشيء.

و قد جاء ذكر «الكيل» فى الآيتين عند حالهٔ الشراء، و ذكر «الكيل» و «الوزن» عند حالهٔ البيع، و ربّما يرجع ذلك لأحد سببين:

الأوّل: كان تجار تلك الأزمان الكبار يستعملون (المكيال) عند شرائهم للكميات الكبيرهٔ من المواد، لأنّه لم يكن عندهم ميزان كبير يستوعب تلك المواد الكثيرهٔ.

(و قيل: إنّ (الكر)، كان فى الأصل اسما لمكيال كبير ... و الكر: مصطلح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶

يستعمل لقياس سعهٔ الماء).

أمّا فى حالهٔ البيع، فكانوا يكيلون لبيع الجملهٔ، و يزنون لبيع المفرد.

الثّانى: إنّهم كانوا يفضلون استعمال المكيال عند الشراء، لصعوبهٔ الغش فيه، و يستغلون الميزان عند البيع لسهولهٔ الغش فيه! و ممّا ينبغى الالتفات إليه .. إنّ الآيات و إن تحدثت عن التطفيف فى الكيل و الوزن، و لكن، لا ينبغى حصر مفهومها بهما، فالتطفيف يشمل حتى العدد، و ليس من البعيد أن تكون الآيات قد أشارت إلى إنقاص ما يؤدى من خدمهٔ مقابل أجر، كما لو سرق العامل أو الموظف من وقت عمله، فإنّه و الحال هذه سيكون فى حظيرهٔ «المطففين» المذمومين بشدّهٔ فى الآيات المباركهٔ المذكورهٔ.

و يتوسع البعض فى مفهوم الآيهٔ أكثر و أكثر حتى يجعل أيّ تجاوز لحدود اللّه، و أيّ إنقاص أو إخلال فى الروابط الاجتماعيهٔ أو

انحلال فى الضوابط الأخلاقية، إنّما هو مفردات و مصاديق لهذا المفهوم.

و مع أنّ ظاهر ألفاظ الآية لا يرمز إلى هذه المعانى، و لكنّها لا تخلو من مناسبة.

و لذا، فقد ورد عن ابن عباس، أنّه قال: (الصلاة مكيال، فمن وفى، و فى اللّه له، و من طفف، قد سمعتم ما قال اللّه فى المطففين)[۱۱].

و يهدد القرآن الكريم المطففين، باستفهام توبيخى: أَ لا يَظُنُّ أُولئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

يوم عظيم فى: عذابه، حسابه و أهواله.

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷

أى، إنّهم لو كانوا يعتقدون بالبعث و الحساب: و أنّ أعمالهم مسجلة و ستعرض كاملة فى محكمة العدل الإلهى بخيرها و شرّها، و كبيرها و حقيرها، لو كانوا يعتقدون ذلک، لما ظلموا أحدا، و لأعطوا النّاس حقوقهم كاملة.

و قد اعتبر كثير من المفسّرين: إنّ «الظن» الوارد فى الآية من «يظن» بمعنى (اليقين): كما هو فى الآية (۲۴۹) من سورة البقرة: قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ و هذه الآية كانت تتحدث عن المراحل المختلفة لإيمان و استقامة بعض بنى إسرائيل.

و ممّا يشهد على ما ذكر أيضا، ما

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى تفسير الآية: أَ لا يَظُنُّ أُولئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ أنّه قال: «أليس يوقنون أنّهم مبعوثون»؟[۱۲] و روى عنه عليه السّلام أيضا، أنّه قال: «الظن ظنان، ظنّ شک و ظنّ يقين، فما كان من أمر المعاد من الظنّ فهو ظنّ يقين، و ما كان من أمر الدّنيا فهو على الشک»[۱۳].

و احتمل البعض: إنّ «الظنّ» الوارد فى الآية، هو ذات «الظنّ» المتعارف عليه فى زماننا، و هو غير اليقين، فيكون إشارة إلى أنّ الإيمان بالقيامة يترک أثرا فى روح الإنسان، يجعله يتنزّه عن الوقوع فى الذنوب و الظلم، حتى و إن كان ذلک الإيمان بنسبة «الظنّ» .. فكيف به إن كان يقينا؟! و يصطلح العلماء على هذا المعنى، عنوان (دفع الضرر المظنون) أو (دفع الضرر المحتمل).

فيكون مفهوم الآية، على ضوء ما ورد: ليس المطففين العاصين لا يملكون اليقين بوجود يوم القيامة، بل إنّهم لا يظنون بذلک أيضا.

(و يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب).

و «الظنّ»- كما يقول الراغب فى مفرداته- اسم لما يحصل عن إمارة، و متى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸

قويت أدت إلى العلم، و متى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التوهم.

و عليه .. فاصطلاح «الظنّ»- بخلاف ما يتبادر إليه الذهن فى زماننا- يشمل العلم و الظنّ، و يستعمل فى الحالتين.

***

ملاحظة

التطفيف من عوامل الفساد فى الأرض:

تعرض القرآن الكريم للتطفيف فى الوزن مرارا، و من ذلک ما جاء فى الآيات (۱۸۱- ۱۸۳) من سورة الشعراء، حينما خاطب شعيب

علیه السّلام قومه قائلا: أَوْفُوا الْکَیْلَ وَ لا تَکُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِینَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِیمِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیاءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ فالتطفیف فی الوزن و الکیل من الفساد فی الأرض، و ذلک لما تنتج عنه من مفاسد اجتماعیة ذات أبعاد واسعة.

کما جاء التأکید فی الآیتین (۷ و ۸) من سورة الرحمن علی ضرورة الالتزام بالعدالة حین استعمال المیزان، بعد الإشارة إلی أن العدل أصل قد روعی فیه حتی نظام الخلق فی عالم الوجود: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِیزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِی الْمِیزانِ

و لذا، نجد أئمّة أهل البیت علیهم السّلام قد أولوا هذا الموضوع اهتماما بالغا، حتی

روی عن الأصبغ بن نباتة، أنّه قال: سمعت أمیر المؤمنین علیه السّلام یقول علی المنبر: «یا معشر التجار! الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر» إلی أن قال:

«التاجر فاجر، و الفاجر فی النّار، إلّا من أخذ الحقّ و أعطی الحقّ»[۱۴].

و

فی روایة عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «کان أمیر المؤمنین علیه السّلام بالکوفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹

یغتدی کل یوم بکرة من القصر، فیطوف فی أسواق الکوفة سوقا سوقا، و معه الدّرة علی عاتقه (لمعاقبة المخالفین)، فینادی: یا معشر التجّار اتقوا اللّه عزّ و جلّ، فإذا سمعوا صوته علیه السّلام ألقوا ما بأیدیهم، و أرعوا إلیه بقلوبهم، و سمعوا بآذانهم، فیقول علیه السّلام: قدموا الإستخارة، و تبرکوا بالسهولة، و اقتربوا من المبتاعین، و تزیّنوا بالحلم، و تناهوا عن الیمین، و جانبوا الکذب، و تجافوا عن الظلم، و أنصفوا المظلومین، و لا تقربوا الربا، و أوفوا الکیل و المیزان، و لا تبخسوا النّاس أشیاءهم، و لا تعثوا فی الأرض مفسدین، فیطوف علیه السّلام فی جمیع أسواق الکوفة ثمّ یرجع فیقعد للناس»[۱۵].

و بشأن نزول الآیات،

قال النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «و لا طففوا الکیل إلّا منعوا النبات و أخذوا بالسنین».

و زبدة ما تقدم: یعتبر التطفیف فی المیزان من العوامل الأساسیة فی عذاب و هلاک بعض الأمم السالفة، حیث أدی ذلک إلی اختلال النظام الاقتصادی عندهم من جهة، و إلی نزول العذاب الإلهی علیهم من جهة أخری.

و قد حثّت الرّوایات الواردة فی خصوص آداب التجارة علی الأخذ ناقصا و العطاء راجحا، أی بعکس سلوکیة من ذمتهم الآیات المبحوثة، فهم یأخذون بدقّة و یعطون ناقصا.[۱۶] و کما قلنا فی تفسیر الآیة، فثمّة من یذهب إلی أنّ مفهوم التطفیف أوسع من أن یحدد بالکیل و المیزان، و یمتد لیشمل أیّ انقاص فی عمل، و أیّ تقصیر فی أداء وظیفة فردیة أو اجتماعیة أو إلهیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰

الآیات [سورة المطففین (۸۳): الآیات ۷ الی ۱۰]

اشارة

کَلَّا إِنَّ کِتابَ الْفُجَّارِ لَفِی سِجِّینٍ (۷) وَ ما أَدْراکَ ما سِجِّینٌ (۸) کِتابٌ مَرْقُومٌ (۹) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۱۰)

التّفسیر

و ما أدراک ما سجّین؟!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المطفّفين، و عن ارتباط الذنوب بعدم الإيمان الراسخ بالمعاد و يوم القيامة، تشير الآيات أعلاه إلى ما ستؤول إليه عاقبة المسيئين و الفجار يوم حلول اليوم المحتوم، فتقول: كَلَّا فليس الأمر كما يظن هؤلاء عن المعاد و أنّه ليس هنا حساب و كتاب، بل إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ

وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ

كِتابٌ مَرْقُومٌ

و توجد نظرتان فی تفسير الآية أعلاه:

الاولى: المراد من «كتاب»: هو صحيفة الأعمال، التی لا تغادر صغيرة و لا كبيرة، من الأفعال الإنسان إلّا و أحصتها.

و المراد ب «سجّين»: هو الكتاب الجامع لكل صحائف أعمال الإنسان عموما.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱

و ما نستفيده من الآيات المذكورة و آيات اخرى: إنّ أعمال جميع المسيئين تجمع فی كتاب يسمّى «سجّين»، و أعمال جميع الصالحين و الأبرار تجمع فی كتاب آخر، اسمه «علّيين».

و «سجّين»: من (السجن)، و هو (الحبس)، و له استعمالات متعددة، فهو:

السجن الشديد، الصلب الشديد من كلّ شیء، اسم لوادی مهول فی قعر جهنم، موضع فيه كتاب الفجّار، و نار جهنم أيضا.

و قال: «الطريحی» فی «مجمع البحرين» فی «سجّين»: و فی التّفسير هو كتاب جامع ديوان الشرّ، دوّن اللّه فيه أعمال الكفرة و الفسقة من الجنّ و الإنس ...[۱۷] أمّا القرائن التی تؤيد هذا التّفسير، فهی:

۱- غالبا ما وردت كلمة «كتاب» فی القرآن الكريم بمعنى (صحيفة الأعمال).

۲- ظاهر الآية التالية: كِتابٌ مَرْقُومٌ يشير إلى أنّها تفسير ل «سجّين».

۳- قيل: إنّ «سجّين» و «سجّيل» بمعنى واحد، و كما هو معلوم أنّ «سجّيل» بمعنى (كتاب كبير).[۱۸] ۴- و تشير آيات قرآنية اخرى إلى أنّ أعمال الإنسان تضبط فی عدّة كتب، حتى لا يبقى عذر للإنسان فی حال حسابه.

و أولى تلك الكتب، صحيفة الأعمال المعدّة لكلّ شخص، فالصالح سيعطى كتابه فی يمينه، و المسیء سيعطى كتابه فی شماله.

و هذا المعنى كثير ما تكرر ذكره فی القرآن الكريم.

و الكتاب الثّانی، هو ما تسجّل فيه أعمال الأمم، و يمكن أن نسميه ب (صحيفة أعمال الأمم) و الآية (۲۸) من سورة الجاثية تشير إلى هذا بقولها:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا.

و ثالث الكتب، هو صحيفة أعمال جميع الأبرار و الفجّار، التی وردت الإشارة إليهما فی الآيات المبحوثة و ما سيأتی من الآيات، باسم «سجّين» و «علّيين».

و خلاصة القول: إنّ «سجّين» عبارة عن ديوان جامع لكافة صحائف الفجّار و الفسقة، و أطلق عليه هذا الاسم باعتبار أنّ ما فيه يؤدی إلى حبس أصحابه فی جهنم، أو أنّ هذا الديوان موجود فی قعر جهنم.

على عكس كتاب الأبرار فإنّه فی أعلى علّيين ... فی الجنّة.

الثّانية: إنّ «سجّين»، هی «جهنم» ... و هی سجن كبير لجميع المذنبين، أو هی محل شديد من جهنم.

و «كتاب» الفجّار، أی: ما قرر لهم من عاقبة و مصير.

فيكون التقدير على ضوء هذا التّفسير: إنّ جهنم هى المصير المقرر للمسيئين، و قد استعمل القرآن كلمة «كتاب» بهذا المعنى فى مواضع عدّة، و من ذلك ما تناولته الآية (۲۴) من سورة النساء حين بيّنت حرمة الزواج من المتزوجات:

كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أى، إنّ هذا الحكم (و ما سبقه من أحكام)، هى أحكام قررها اللّه عليكم، و كذلك ما جاء فى الآية (۷۵) من سورة الأنفال: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ أى فيما قرره اللّه و جعله من أحكام.

و ممّا يؤيد هذا التّفسير ما جاء فى الرّوايات من أنّ «سجّين» هى «جهنم» ...

ففى تفسير على بن إبراهيم، قال فى تفسير: إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ما كتب اللّه لهم من العذاب لفى سجّين.

و

عن الإمام الباقر عليه السّلام، أنّه قال: «السجّين الأرض السابعة، و علّيون السماء السابعة»،

(إشارة إلى أخفض و أعلى مكان)[۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳

و روى فى روايات عديدة، إنّ الأعمال التى لا تليق بالقرب منه جلّ شأنه تسقط فى سجّين: كما

نقل الأثر عن سيد البشر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا فإذا صعد بحسناته يقول اللّه عزّ و جلّ اجعلوها فى سجّين، إنّه ليس إيّاى أراد فيها!»[۲۰]

و من كلّ ما تقدم، نصل إلى أنّ «سجّين»: مكان شديد جدّا فى جهنم، توضع فيه أعمال المسيئين أو صحيفة أعمالهم، أو يكون مصيرهم الحبس فى ذلك المكان (السجّن).

و على ضوء هذا التّفسير، تكون الآية: كِتابٌ مَرْقُومٌ تأكيدا للآية: إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ و ليس تفسيرا لها، لأن العقاب قد قرر لهم، و هو قطعى و حتمى.

«مرقوم»: من (رقم) على وزن (زخم)، و هو الخطّ الغليظ، و لكون هكذا خطّ من الوضوح بحيث لا- إبهام فيه، فقد استعملته الآية للإشارة إلى قطعية ما قرر لهم من مصير من غير أىّ إبهام أو إغفال.

و على أيّة حال، فلا مانع من الجمع بين التّفسيرين لأنّ «سجّين» حسب التّفسير الأوّل بمعنى الديوان الجامع لكلّ أعمال المسيئين، و حسب التّفسير الثّانى بمعنى: «جهنم» أو قعرها، فالأمران على صورة علّة و معلول، فإذا كانت صحيفة أعمال الإنسان السيئة فى ذلك الديوان الجامع، فإنّ مقام الديوان هو قعر جهنم.

و تأتى الآية التالية لتقول: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

التكذيب الذى يوقع فى ألوان من الذنوب، و منها التطفيف و الظلم.

و بملاحظة كلمة «ويل» الواردة فى أوّل أية و آخر آية، تبيّن شدّة العلاقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴

الموجودة ما بين تلك الأعمال السيئة و إنكار المعاد، حيث بدأ الحديث بالويل للمطفّفين، و مرورا بالفجّار و من ثمّ الويل للمكذبين بيوم الدين.

و سيتوضح هذا الترابط بشكل أدق فى الآيات التالية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵

الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱۱ الى ۱۷]

اشارة

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۱۱) وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (۱۵)
ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (۱۶) ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۱۷)

التّفسير

صدأ الذنوب:

بعد ما ذكرت آخر آيهٔ من الآيات السابقهٔ مصير المكذّبين، تأتى الآيات أعلاه لتشرح حالهم، فتقول: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ و هو يوم القيامهٔ.

و تقول أيضا: وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

فإنكار القيامهٔ لا يستند على المنطق السليم و التفكير الصائب و الاستدلال العقلى، بل هو نابع من حبّ الاعتداء و ارتكاب الذنوب و الآثام (الصفهٔ المشبههٔ «أثيم» تدل على استمرار الشخص فى ارتكاب الذنوب).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶

فهم يريدون الاستمرار بالذنوب و الإيغال بالاعتداءات و بكامل اختيارهم، و من دون أىّ رادع يردعهم من ضمير أو قانون، و هذا الحال شبيه ما أشارت إليه الآيهٔ (۵) من سورهٔ القيامهٔ: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ و عليه، فهو يكذّب بيوم الدين.

و على هذا الأساس، فإنّ للممارسات السيئهٔ أثر سلبى على عقيدهٔ الإنسان، مثلما للعقيدهٔ من أثر على سلوكيهٔ و توجيهات الإنسان، و هذا ما سيتوضح أكثر فى تفسير الآيات القادمهٔ.

و تشير الآيهٔ التاليهٔ للصفهٔ الثّالثهٔ لمنكرى المعاد، فتقول: إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ

فبالاضافهٔ لكون منكر المعاد معتد و أثيم، فهو من الساخرين و المستهزئين بآيات اللّه، و يصفها بالخرافات الباليهٔ[۲۱]، و ما ذلك إلّا مبرر واه لتغطيهٔ تهربه من مسئوليهٔ آيات اللّه عليه.

و لم تختص الآيهٔ المذكورهٔ بذكر المبررات الواهيهٔ لأولئك الضالّين المجرمين فرارا من الاستجابهٔ لنداء الدعوهٔ الربانيهٔ، بل ثمّهٔ آيات أخرى تناولت ذلك، منها الآيهٔ (۵) من سورهٔ الفرقان: وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا، و الآيهٔ (۱۷) من سورهٔ الأحقاف، حكايهٔ عن قول شاب طاغ وقف أمام والديه المؤمنين مستهزءا بنصائحهما قائلا: ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ

و قيل فى شأن نزول الآيهٔ: إنّها نزلت بشأن (النضر بن حارث بن كلدهٔ)، ابن خالهٔ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان من رؤوس الكفر و الضلال.

و لا يمنع نزول الآيهٔ فى شخص معين، من تعميم ما جاء فيها لكلّ من يشارك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷

ذلك الشخص فى الصفهٔ و الحال.

فالطغاهٔ، كثيرا ما يتذرعون بأعذار واهيهٔ، عسى أن يتخلصوا من لوم و تأنيب الضمير من جههٔ .. و من اعتراضات النّاس و رجال الحق من جههٔ اخرى، و العجيب أنّ الطغاهٔ من الحماقهٔ و التحجّر بحيث أنّ أسلوب مواجهتهم للأنبياء عليهم السّلام و على مرّ التاريخ قد جاء على وتيرهٔ واحدهٔ، و كأنّهم قد وضعوا لأنفسهم مخططا لا ينبغى الحيد عنه، فعند مواجهتهم لدعوهٔ الأنبياء عليهم السّلام بتعاليم السماء، ليس عندهم سوى أن يقولوا: سحر، كهانهٔ، جنون، أساطير! و يعرى القرآن مرّهٔ اخرى جذر طغيانهم و عنادهم، بالقول: كَلَّا بَلْ رانَ

عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ

ما أشـد تقريع العبارة! فقد احتوى صدأ أعمالهم كلّ قلوبهم، فأزيل عنها ما جعل اللّه فيها من نور الفطرة الاولى و ذهب صـفائها، و لذا .. فلا يمكن لشمس الحقيقة أن تشرق بعد فى أفق قلوبهم، و لا يمكن لتلك القلوب التعسة من أن تتقبل نفوذ أنوار الوحى الإلهى إلى دواخلها.

«ران»: من (الرين) على وزن (عين)، و هو: الصدأ يعلو الشىء الجليل (كما يقول الراغب فى مفرداته)، و يقول عنه بعض أهل اللغة: إنّه قشرة حمراء تتكون على سطح الحديد عند ملامسته لرطوبة الهواء، و هى علامة لتلفه، و ضياع بريقه و حسن ظاهره.

و قيل: ران عليه: غلب عليه، و رين به: وقع فى ما لا يستطيع الخروج منه و لا طاقة له به ۲۲] و كل هـذه المعانى هى من لوازم المعنى الأوّل.

و سنتاول موضوع تأثير الرين على صفاء القلب و نورانيته فى البحوث

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸

القادمة.

و يستمر البيان القرآنى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ

و هو أشدّ ما سيعاقبون به، مثلما منزلة اللقاء باللّه و درجة القرب منه هى من أعظم نعم الأبرار و الصالحين و أكثرها لذة و استئناسا.

«كلّا»: عادة ما تستعمل لنفى ما قيل سابقا، و للمفسرين أقوال فى تفسيرها:

القول الأوّل: إنّها تأكيد ل «كلّا» المتقدمة فى الآية السابقة، أى: يوم القيامة ليس بأسطورة كما يزعمون.

و القول الثّانى: «كلّا» بمعنى لا يمكن إزالة الرين الذى فقأ البصيرة فى قلوبهم، فهم محرومون من رؤية جمال الحقّ فى هذا العالم و فى عالم الآخرة أيضا.

القول الثّالث: إنّ الآيـة تجيب زعم أولئك من أنّ القيامة (حتى على فرض وجودها!) فهم سـينعمون بها كما (يتصورون) بأنّهم منعمين فى الدنيا، (و قد تناولت الآيات الأخرى ما جاء فى زعمهم)[۲۳].

و لكنّ أحلامهم ستتلاشى أمام حقيقة وقوع القيامة، و ما سينالونه من شديد العذاب.

نعم، فأعمال الإنسان فى دنياه ستتجسم له فى آخرته شاء أم أبى، و لما كان أولئك قد أغلقوا عيونهم عن رؤية الحق، و رانت أعمالهم على قلوبهم، فسيحجبون عن ربّهم فى ذلك اليوم العظيم، و عنـدها فسوف لن يتمتعوا برؤيـة جمال الحق أبـدا، و سـيحرمون من نعمة اللقاء بالحبيب الحقيقى، الذى لا حبيب سواه.

و: ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ

فـدخولهم جهنم نتيجـة طبيعيـة لاحتجابهم عن اللّه تعالى و أثر لازم له، و ممّا لا شك فيه إنّ لهيب الحرمان من لقاء اللّه أشـدّ إيلاما و إحراقا من نار جهنم!

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹

و تقول الآية التالية: ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

يقال لهم ذلك توبيخا و لوما لزيادة تعذيبهم روحيا، و هو ما ينتظر كلّ من عاند الحق و تخبط متاهات الضلال.

***

ملاحظتان

۱- لم کانت الذنوب صدأ القلب؟!

تناول القرآن الکریم فی مواضع متعددة ما للذنوب من تأثیرات سلبیة علی إظلام القلب و تلویثه، فقد جاء فی الآیة (۳۵) من سورة المؤمن: کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلی کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبَّارٍ.

و قال فی موضع آخر: خَتَمَ اللَّهُ عَلی قُلُوبِهِمْ وَ عَلی سَمْعِهِمْ وَ عَلی أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ ۲۴].

و جاء فی الآیة (۴۶) من سورة الحج: فَإِنَّها لا تَعْمَی الْأَبْصارُ وَ لکِنْ تَعْمَی الْقُلُوبُ الَّتِی فِی الصُّدُورِ.

نعم .. فأسوأ ما للاستمرار فی الذنوب من آثار: اسوداد القلب، فقدان نور العلم، موت قدرة التشخیص بین ما هو حق و باطل.

فآثار ما تقترفه الجوارح من ذنوب تصل إلی القلب و تحوله إلی مستنقع آسن، و عندها لا یقوی الإنسان علی تشخیص طریق خلاصه، فیهوی فی حفر الضلالة التی توصله لأدنی درکات الانحطاط، و تکون النتیجة أن یرمی ذلک الإنسان مفتاح سعادته بنفسه من یده، و لا یجنی حینها إلّا الخیبة و الخسران.

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال: «کثرة الذنوب مفسدة للقلب».[۲۵]

و

فی حدیث آخر: «إنّ العبد إذا أذنب ذنبا نکتت فی قلبه نکتة سوداء، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه، و إن عاد زادت حتی تعلو قلبه، فذلک الرین الذی ذکر اللّه فی القرآن: کَلَّا بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ ۲۶].

و روی الحدیث (بتفاوت یسیر) عن الإمام الباقر علیه السّلام ۲۷].

و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «تذاکروا و تلاقوا و تحدثوا فإنّ الحدیث جلاء للقلوب، إنّ القلوب لترین کما یرین السیف، و جلائه الحدیث».[۲۸]

و من الثابت فی علم النفس، أنّ للأعمال الأثر الکبیر علی نفسیة و روحیة الإنسان، فنفسیة الإنسان تتکیف تدریجیا علی ضوء تلک الآثار، و بالنتیجة سینعکس ذلک علی فکر و آراء الإنسان.

و ینبغی التنویه إلی: أنّ روح الإنسان تتعامل طردیا مع الذنوب، فمع استمرار الذنوب تغوص الروح فی أعماق الظلام لحظة بلحظة، حتی تصل إلی درجة یبدأ الإنسان یری سیئاته حسنات، و ربّما یتفاخر بها! و عندها .. ستغلق أمامه أبواب العودة: إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ و هذه الحال من أخطر ما تعرض للإنسان فی حیاته الدنیویة من حالات.

۲- حجاب الروح!

حاول کثیر من المفسّرین أن یجعل للآیة: کلا إنهم عن ربهم لمحجوبون تقدیرا، و احتاروا بین أن یجعلوا التقدیر (الحجاب عن رحمة اللّه)، أم الحجاب عن إحسانه، أم کرامته، أم ثوابه ...

و لکنّ ظاهر الآیة لا یبدو فیه الاحتیاج لتقدیر، فإنّهم سیحجبون عن ربّهم

علی الحقیقة، بینما سینعم الصالحون الطاهرون بقرب اللّه و جواره لیفعموا بلذیذ لقاء الحبیب، و الرؤیة الباطنیة لهذا الحبیب الأمل،

بینما الکفرة الفجرة لیس لهم من هذا الفیض العظیم و النعمة البالغة من شیء.

و بعض المؤمنین المخلصین یتنعمون بهذا اللقاء حتی فی حیاتهم الدنیا، فی حین لا یجنی المجرمون المعمیة قلوبهم سوی الحرمان ... فهؤلاء فی حضور دائم، و أولئک فی ظلام و ابتعاد! فلمناجاة المؤمنین مع بارئهم حلاوة لا توصف، و أمّا من اسودت قلوبهم فتراهم غرقی فی بحر ذنوبهم و تتقاذفهم أمواج الشقاء، (أعاذنا اللّه من ذلک).

و

یقول أمیر المؤمنین علیه السّلام فی دعاء کمیل: «... هبنی صبرت علی عذابک فکیف اصبر علی فراقک».

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۲

الآیات [سورة المطففین (۸۳): الآیات ۱۸ الی ۲۸]

اشارة

کَلَّا إِنَّ کِتابَ الْأَبْرارِ لَفِی عِلِّیِّینَ (۱۸) وَ ما أَدْراکَ ما عِلِّیُّونَ (۱۹) کِتابٌ مَرْقُومٌ (۲۰) یَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (۲۱) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِی نَعِیمٍ (۲۲) عَلَی الْأَرائِکِ یَنْظُرُونَ (۲۳) تَعْرِفُ فِی وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِیمِ (۲۴) یُسْقَوْنَ مِنْ رَحِیقٍ مَخْتُومٍ (۲۵) خِتامُهُ مِسْکٌ وَ فِی ذلِکَ فَلْیَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (۲۶) وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِیمٍ (۲۷)

عَیْناً یَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (۲۸)

التّفسیر

علیّون فی انتظار الأبرار:

بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن الفجّار و کتابهم و عاقبة أمرهم، ینتقل الحدیث فی هذه الآیات للطرف المقابل لهؤلاء، فتتحدث عن الأبرار الصالحین و ما سیالون إلیه من حسن مآب، و یبدأ الحدیث بالقول: کَلَّا إِنَّ کِتابَ الْأَبْرارِ لَفِی عِلِّیِّینَ

«علیّین»: جمع (علّی) علی وزن (ملّی)، و هو المکان المرتفع، أو الشخص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۳

الجالس فی مکان مرتفع، و یطلق أیضا علی ساکنی قمم الجبال.

و قد فسّر فی الآیة ب (أشرف الجنان) أو (أعلی مکان فی السماء).

و قیل: إنّما استعمل اللفظ بصیغة الجمع للتّأکید علی معنی (العلو فی علو).

و علی أیّة حال، فما عرضناه بخصوص تفسیر «سجّین» یصدق علی «علیّین» أیضا، بقولیه:

الأوّل: أنّ المقصود من «کتاب الأبرار» هو صحیفة أعمال الصالحین و المؤمنین، فجمیع الأعمال تجمع فی هذا الدیوان العام، و هو دیوان عالی المقام و شریف القدر.

الثّانی: أنّ صحیفة أعمال الأبرار تکون فی أشرف مکان، أو فی أعلی مکان فی الجنّة، و هذا یکشف عن علو شأنهم و رفعة کرامتهم عند اللّه عزّ و جلّ.

و

جاء فى الحديث النّبوى الشريف: «عليّون فى السماء السابعة تحت العرش»[۲۹].

و هذا بالضبط هو المحل المضاد تماما لمحل صحيفة أعمال «الفجار»، حيث وضعت فى أسفل طبقات جهنم.

و ذهب قسم من المفسّرين إلى أنّ ال «كتاب» هنا يرمز لمعنى (المصير)، أو (الحكم القطعى الإلهى) بخصوص نيل الصالحين درجات الجنّة العلى.

و لا يضرّ من الجمع بين التّفسيرين، فأعمال الأبرار مجموعة فى ديوان عام، و محل ذلك الديوان فى أعلى نقطة من السماء، و يكون الحكم و القضاء الإلهى كذلك مبنىّ على كونهم فى أعلى درجات الجنّة.

و لأهمية و عظمة شأن «عليين» .. تأتى الآية التالية لتقول: وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ إنّه مقام من المكانة بحيث يتجاوز حدود التصور و الخيال و القياس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴

و الظن، بل و حتى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على ماله من علو شأن و مرتبة مرموقة، فلا يستطيع من تصور حجم أبعاد عظمته.

و يبدأ البيان القرآنى بتقريب ال «عليين» إلى الأذهان: «كتاب مرقوم» و هذا على ضوء تفسير «عليين» بالديوان العام لأعمال الأبرار، أمّا على ضوء التّفسير الآخر فسيكون معنى الآية: إنّه المصير الحتمى الذى قرره اللّه و سجّله لهم، بأن يكون محلهم فى أعلى درجات الجنّة، (بناء على هذا التّفسير فستكون الآية «كتاب مرقوم» مفسّرة لكتاب الأبرار و ليس لعليّين).

و كذلك: يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ أى يشاهدونه، أو عليه يشهدون عليه.

ثمّة من ذهب إلى أنّ «المقربون» فى الآية، هم ملائكة مقرّبون عند اللّه عزّ و جلّ، ينظرون إلى ديوان أعمال الصالحين، أو ينظرون إلى مصيرهم المحتوم.

و لكنّ الآيات التالية تظهر بوضوح بأنّ المقرّبين، هم نخبة عالية من المؤمنين لهم مقام مرموق، و بإمكانهم مشاهدة صحيفة أعمال الأبرار و الصالحين.

و يمكن أن نستفيد هذا المعنى من الآيتين (۱۰ و ۱۱) من سورة الواقعة:

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ... و من الآية (۸۹) من سورة النحل:

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ.

و ينتقل الحديث إلى عرض بعض جوانب جزاء الأبرار: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ

«النعيم»: هو النعمة الكثيرة- على قول الراغب فى مفرداته- و جاءت بصيغة نكرة لتعظيم شأنها، أى إنّهم فى نعيم مادى و معنوى لا حدّ لوصفه.

و ينقلنا البيان القرآنى لجوانب من نعيم الأبرار: عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ ۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵

«الأرائك»: جمع (أريكة)، و هى سرير منجّد مزّين خاص بالملوك، أو سرير فى حجلة، و جاءت فى الآية بمعنى، الأسرة المزينة التى يتكئ عليها أهل الجنّة.

و ثمّة من يذهب إلى أنّها معربة من «أرك» بمعنى قصر الملك فى الفارسية، أو القلعة فى وسط المدينة، و بما أنّ القلعة فى وسط المدينة تكون للملوك عادة اطلق عليها هذه الكلمة، أو بمعنى عرش السلطان الذى يقال عنه بالفارسية «أراك»، ثمّ سمّيت العاصمة به (أراك) و «عراق» معرب «أراك» بمعنى مقر السلطان.

فيما يقول آخرون أنّها من (الأراك) و هو شجر معروف تصنع من الأسرة، و قيل أيضا، إنّما سمّيت بذلك لكونها مكانا للإقامة من

(الأروك) و هو الإقامة.[۳۱] و جاءت «ينظرون» مطلقة، لإعطاء مفهوم السعة و الشمول، فمسموح لهم النظر إلى لطف البارى و جماله، و إلى نعم الجنّة الباهرة، و إلى ما أودع فيها من رونق و بهاء ... و ذلک لأنّ لذة النظر من اللذائذ الإنسانية التى تدخل الغبطة و السرور فى الإنسان بشكل كبير و ملموس.

ثمّ يضيف: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيم

إشارة إلى أنّ ما يبدى على وجوههم من علائم النشاط و السرور و الغبطة، إنّ هو إلّا انعكاس لسعادتهم الحقّة، بعكس أهل جهنّم الذين لا يبدو على وجوههم إلّا علائم الغم و الحسرة و الندم و الشقاء.

«نضرة»: إشارة إلى النشاط و الأريحية التى تظهر على وجوههم. (كما أسلفنا القول).

و بعد ذكر نعم: «الأرائك»، «النظر»، «الاطمينان و السعادة» .. تذكر الآية التالية نعمة شراب الجنّة، فتقول: يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ

إنّه ليس كشراب أهل الدنيا الشيطانى، بما يحمل من خبث دافع إلى المعاصى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶

و الجنون، بل هو شراب طاهر يذكى العقول و يدب النشاط و الصفاء فى شاربه.

و «الرحيق»- كما اعتبره المفسّرين-: هو الشراب الخالص الذى لا يشوبه أىّ غش أو تلوث.

و «مختوم»: إشارة إلى أنّه أصلى و يحمل كلّ صفاته المميزة عن غيره من الأشربة و لا يجاريه شراب قطّ، و هذا بحدّ ذاته تأكيد آخر على خلوص الشراب و طهارته.

و الختم بالصورة المذكورة يظهر مدى الاحترام الخاص لأهل الجنّة، حيث أنّ ذلک الإحكام و تلك الأختام مختصة لهم، و لا يفتحها أحد سواهم ۳۲].

و تقول الآية التالية: خِتامُهُ مِسْكٌ

فختامه ليس كختوم أهل الدنيا التى تلوث الأيدى، و أقل ما فيها أنّها فى حال فتحها ترمى فى سلة الأوساخ، بل هو شراب طاهر مختوم، و إذا ما فتح ختمه فتفوح رائحة المسک منه! و قيل: «ختامه» يعنى (نهايته)، فعند ما ينتهى من شراب الرحيق، ستفوح من فمه رائحة المسک، على خلاف أشربة أهل الدنيا، التى لا تترک فى الفم إلّا المرارة و الرائحة الكريهة، و لكنّه بعيد بملاحظة الآية السابقة.

و يقول العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان): «التنافس»: تمنّى كلّ واحد من النفسين مثل الشىء النفسى الذى للنفس الاخرى أن يكون له.

و فى (مجمع البحرين): نافست فى الشيء: إذا رغبت فيه على وجه المباراة فى الكرم، (سباق سالم و نزيه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷

و فى (مفردات الراغب): «المنافسة»: مجاهدة النفس للتشبّه بالأفاضل و اللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره.

و جاء مضمون الآية فى الآية (۲۱) من سورة الحديد: سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و ما جاء فى الآية (۱۳۳) من سورة آل عمران: وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ

و على آية حال، فدقّة تعبير الآية و شفافيته، من أجمل تعابير التشجيع للوصول إلى النعيم الخالد، من خلال ترسيخ الإيمان فى قلوب و تجسيد الأعمال الصالحة على سوح الواقع، و الآية قطعة بلاغية رائعة[۳۳][۳۴] و نصل لآخر وصف شراب الأبرار فى الجنّة: وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ أى أنّه ممزوج بالتسنيم، (عينا يشرب بها المقرّبون)[۳۵].

و من خلال الآيتين أعلاه، يتّضح لنا بأنّ «التسنيم» هو أشرف شراب فى الجنّة، و «المقرّبون» يشربون منه بشكل خالص، فيما يشربه «الأبرار» ممزوجا بالرحيق المختوم.

أمّا وجه تسمية ذلک الشراب أو العين ب «تسنيم»، (علما بأنّ التسنيم فى اللغة هو عين ماء يجرى من علو إلى أسفل)، فقد قال البعض

فيه: إنّه شراب خاص موجود فى الطبقات العليا من الجنّة .. و قال آخرون: إنّه نهر يجرى فى الهواء فينصب فى أوانى أهل الجنّة.

و الحقيقة، فللجنّة ألوان من الأشربة، منها ما يجرى على صورة أنهار، كما

تشير إلى ذلك آيات قرآنية كثيرة[٣٦]، و منها يقدّم فى كؤوس مختومة، كما فى الآيات أعلاه، و يأتى ال «تسنيم» فى قمّة أشربة الجنّة، و له من العطاء على روح شاربه ما لا يوصف بوصف أبدا.

و نعود لنكرر القول مرّة أخرى: إنّ حقيقة النعم الإلهية فى عالم الآخرة لا يمكن لأىّ كان من أن يتكلم عنها بلسان أو يوصفها بقلم أو يتصورها فى ذهن، و كلّ ما يقال عنها لا يتعدى عن كونه صورا تقريبية على ضوء ما يناسب محدودية الإنسان.

و الآية (١٧) من سورة السجدة: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ خير دليل على ذلك.

بحثان

١- من هم «الأبرار» و «المقرّبين»؟

ورد ذكر «الأبرار» و «المقربين» كثيرا فى القرآن الكريم، و ما أعدّ لهم من درجة رفيعة و ثواب عظيم، حتى أنّ أولى الألباب تمنوا أن تكون وفاتهم مع الأبرار، كما تقول الآية (١٩٣) من سورة آل عمران: وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ.

و تناولت الآيات (٥- ٢٢) من سورة الدهر ما أعدّ لهم من ثواب جزيل، كما و تناولت الآية (١٣) من سورة الإنفطار، و الآيات المبحوثة بعض ما ينتظرهم من ألطاف إلهية.

فمن هم يا ترى؟

«الأبرار»: هم أصحاب النفوس الزكية الأبية الطاهرة، و معتنقى العقائد

الصائبة، و الذين لا يعملون إلّا ما فيه الخير و الصلاح.

و «المقربون»: هم الذين لهم مقام القربة عند اللّه عزّ و جلّ.

فبين الأبرار و المقربين عموم و خصوص مطلق، حيث كلّ المقرّبين أبرار، و ليس كلّ الأبرار مقرّبين.

و

روى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السّلام، أنه قال: «كلما فى كتاب اللّه عزّ و جلّ من قوله: «إنّ الأبرار» فو اللّه ما أراد به إلّا علىّ بن أبى طالب و فاطمة و أنا و الحسين»[٣٧]

و ممّا لا يشوبه شك، أنّ الخمسة الطيبة، تلك الأنوار القدسيّة، و هى أفضل مصاديق الأبرار و المقربين.

و كما ذكرنا فى تفسيرنا لسورة الدهر التى تحدثت بشكل رئيسى عن أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام، و قلنا بأنّ الآيات الثمانية عشر قد تناولت فضائلهم عليهم السّلام، و لكن لا يمنع من انطباق على غير الخمسة الطيبة عليهم السّلام.

٢- خمور الجنّة

تبيّن لنا مختلف الآيات فى القرآن الكريم أنّ ثمة ألوان من الأشربة و الخمور الطاهرة بأسماء و كيفيات مختلفة، تباين خمور أهل

الدنيا الملوثة من جميع جهاتها، فهذه: تأخذ بلبّ الإنسان صوب التيه، توصل شاربها لحال الجنون، كريهة الطعم و الرائحة، و تزرع عند شاربها العداوة و البغضاء، تؤدى إلى سفك الدماء و تبث الرذيلة و الفساد ... أمّا تلك: تذكى عقل شاربها و تصفو به، و تزيده نشاطا و حيوية، ذات عطر لا يوصف و طهارة خالصة، و يغوص شاربها فى نشوة روحية نقية راقية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰

و ذكرت السّورة المبحوثة نوعين منها: الرحيق المختوم و «التسنيم» فى حين ذكرت سورة الدهر أنواعا اخرى، و فى سور اخرى- و قد تعرضنا لها فى محلها.

و تؤكّد الأحاديث و الرّوايات على أنّ تلك الأشربة خالصة لمن تنزّه عن الولوغ فى خمور الدنيا الخبيثة.

فعن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال لأمير المؤمنين عليه السّلام: «يا علىّ من ترك الخمر للّه سقاه اللّه من الرحيق المختوم»[۳۸].

و

فى حديث آخر أنّه عليه السّلام سأله عن هذا الترك أنّه حتى لو كان: «لغير اللّه»؟، قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «نعم و اللّه، صيانة لنفسه فيشكره اللّه تعالى عن ذلك»[۳۹].

نعم، فهؤلاء من أولى الألباب، الذين تناولت ذكرهم الآية (۱۹۳) من سورة آل عمران، و اولى الألباب مع الأبرار فى تناول تلك الأشربة الطاهرة.

و

روى عن الإمام زين العابدين علىّ بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: «من سقى مؤمنا من ظمأ سقاه اللّه من الرحيق المختوم»[۴۰].

و

جاء فى حديث آخر: «من صام للّه فى يوم صائف، سقاه اللّه من الظمأ من الرحيق المختوم»[۴۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱

الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۲۹ الى ۳۶]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (۲۹) وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (۳۰) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (۳۱) وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (۳۲) وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (۳۳)
فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (۳۴) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (۳۵) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون سببين لنزول هذه الآيات:

الأوّل: إنّها نزلت فى على بن أبى طالب عليه السّلام، و ذلك .. إنّه كان فى نفر من المسلمين جاؤوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فسخر منهم المنافقون، و ضحكوا، و تغامزوا ... فنزلت الآية قبل أن يصل على عليه السّلام و أصحابه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و ذكر الحاكم أبو القاسم الحسكانى فى كتابه (شواهد التنزيل) عن ابن عباس قال: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا منافقو قريش، و الَّذِينَ آمَنُوا على

بن أبی طالب علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲

و أصحابه.[۴۲] الثّانی: إنّها نزلت فی مشرکی قریش، أبی جهل و الولید بن المغیرة و العاص بن وائل و أشیاعهم، کانوا یستهزءون بفقرائهم کعمار و صهیب و خباب و بلال و غیرهم ۴۳].

التّفسیر

بالأمس کانوا یضحکون من المؤمنین .. أمّا!!

بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن النعم التی تنتظر الأبرار و الصالحین فی الحیاة الآخرة، تبدأ الآیات أعلاه بتبیان جوانب ممّا یعانوه من مصائب و مشاکل فی الحیاة الدنیا بسبب إیمانهم و تقواهم ...

و أنّ ما سیناله الأبرار من ثواب جزیل لیس اعتباطیا.

فالآیات تنقل لنا أسالیب الکفار القذرة التی کانوا یتعاملون بها مع المؤمنین البررة، و قد صنّفتها فی أربعة أسالیب:

الأسلوب الأوّل: إِنَّ الَّذِینَ أَجْرَمُوا کانُوا مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا یَضْحَکُونَ فأصل الطغیان و التکبر و الغرور و الغفلة الذی زرع فی نفوسهم، یدفعهم للضحک علی المؤمنین و الاستهزاء بهم و النظر إلیهم بسخریة و احتقار! و هذا هو شأن کلّ من غرّته أحابیل الشیطان فی مواجهة من آمن و اتقی، و علی مرّ الأیّام.

و جاء وصفهم ب «أجرموا» بدلا من «کفروا»، للإشارة إلی إمکان معرفة الکافرین من خلال أعمالهم الإجرامیة، فالکفر دائما مصدرا للجرائم و العصیان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳

و الأسلوب الثّانی: وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ یَتَغامَزُونَ فحینما یمرّ المشرکون علی مجموعة من المؤمنین یغمزون بأعینهم و یشیرون إلیهم بالقول: انظروا إلی هؤلاء الفقراء المعدمین .. إنّهم أصبحوا مقرّبین عند اللّه! انظروا إلی هؤلاء الحفاة العراة .. إنّهم یدّعون نزول الوحی الإلهی لهم! انظروا إلیهم .. فإنّهم یعتقدون بأنّ العظام البالیة ستعود إلی الحیاة مرّة اخری!! و ما شابه ذلک، من الکلمات الرخیصة و الموهنة ..

و یبدو أنّ ممارسة الضحک من قبل المشرکین یکون حینما یمرّ المؤمنون من أمامهم و هم متجمعون، فی حین یمارسون الأسلوب الثّانی و هو الإشارات الساخرة و الغمز و اللمز حین مرورهم هم أمام جمع من المؤمنین، لعدم تمکنهم من الضحک العلنی أمام جمع المؤمنین.[۴۴] «یتغامزون»: من (الغمز)، و هو الإشارة بالجفن أو الید طلبا إلی ما فیه معاب، و عبّرت الآیة بهذا اللفظ «التغامز» للإشارة إلی اشتراکهم جمیعا فی ذلک الفعل.

و لکنّهم لم یکتفوا بالنیل من المؤمنین فی حضورهم من خلال الضحک و التغامز، بل تعدوا إلی حال غیابهم أیضا، حیث تنقل لنا الآیة التالیة، الأسلوب الثّالث بقولها: وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَکِهِینَ

و کأنّهم فی ضحکهم و تغامزهم قد نالوا فتحا کبیرا! فتأخذهم نشوة تصور الغفلة و الجهل لأن یتباهوا فیما قاموا به من فعل قبیح، و یبقون علی حالة السخریة و الاستهزاء بالمؤمنین رغم غیاب المؤمنین عنهم! ...

«فکهین»: جمع (فکه)، و هی صفة مشبهة من (الفکاهة) بمعنی التمازح و الضحک، مأخوذة من (الفاکهة)، و کأن لذة الخوض فی هکذا حدیث و سخریة کلذة أکل الفاکهة، کما و یطلق علی حدیث ذوی الأنس اسم (فکاهة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴

«الأهل»: هم العائلة و الأقرباء، و قد تشمل الأصدقاء المقرّبين أيضا.

و الأسلوب الرّابع: وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ

لما ذا؟ لأنّهم تركوا ما كان شائعا من عبادة الأصنام، و الخرافات التى يعتبرونها هداية! و اتجهوا نحو الإيمان باللّه و التوحيد الخالص.

و لأنّهم باعوا لذة الدنيا الحاضرة بنعيم الآخرة الغائبة! ...

و يمكن أن تكون هذه المواجهة قد حدثت بعد انتهاء مرحلة الاستهزاء، بعد أن غلّف الأمر بطابع الجديّة و رأوا ضرورة المواجهة الشديدة، لأنّ حال المشركين و الكافرين على مرّ التاريخ فى مواجهتهم لدعوة و رسالات الأنبياء عليهم السّلام تبدأ بالسخرية و عدم المبالاة، و كأنّهم لم يشاهدوا بعد من الدين الجديد ما يوجب الوقوف أمامه بجدّ و حزم، و لكن بمجرّد إحساسهم بأنّ الدين الإلهى راح ينفذ إلى قلوب النّاس، و رؤيتهم لازدياد أتباعه، سيزداد إحساسهم بالخطر، فيدخلون مرحلة المواجهة العنيفة مع الدين الجديد.

فتشير الآية إلى أوّل خطوة جادة من قبل المجرمين فى قبال المؤمنين، التى تتبعها خطوات و خطوات حتى تصل الحال إلى المواجهة الدموية الحادّة.

و غالبا ما لا يكون المؤمنون من أثرياء أو وجهاء القوم، و لذلك ينظر إليهم باحتقار و يهزأ بدينهم و إيمانهم، فى مجتمع يسوده التمايز الطبقى بشكل راسخ و ظاهر.

فيقول القرآن الكريم فى الآية التالية: وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ فبأى حقّ إذن يهزأون بهم، و يقفون أمامهم؟! تنقل لنا الآية (۲۷) من سورة هود ما قاله المستكبرين من أثرياء قوم نوح عليه السّلام: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ و تنقل لنا الآية (۳۱) من نفس السّورة جواب نوح عليه السّلام: وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵

فجواب نوح عليه السّلام عام يشمل حتى أولئك المغرورون فى صدر الإسلام .. فما شأنكم و هؤلاء؟! و عليكم أن تنظروا إلى هذا الدين، و إلى النّبى الذى جاء بهذا الدين، و لا تنظروا إلى من آمن به و اتبعه! ...

و تبقى أساليب الذين يعادون الحقّ محدودة فى إطار الحياة الدنيا، و لكن إذا كان يوم القيامة، فستختلف الحال تماما: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ

فيوم القيامة، يوم مجازات الأعمال و إجراء العدالة الإلهية، و العدالة تقتضى بأن يستهزأ المؤمنون بالكافرين المعاندين للحقّ، و الاستهزاء فى ذلك اليوم أحد ألوان عذاب الآخرة الأليم الذى ينتظر أولئك المغرورون و المستكبرون.

و

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «المستهزئين بالنّاس فى الدنيا يرفع لأحدهم يوم القيامة باب من أبواب الجنّة، فيقال له: هلم، فيجىء بكربه و غمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، ثمّ يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم، فيجىء بكربه و غمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى أنّه ليفتح له الباب فيقال: هلم هلم، فلا يأتيه من اياسه»[۴۵] ..

(و هنا يضحك المؤمنون الذين يطلعون عليه و على بقية الكفار من جنتهم).

و تقول الآية التالية: عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ

ماذا ينظرون؟

إنّهم ينظرون إلى: نعم اللّه التى لا توصف و لا تنفد فى الجنّة، و إلى كلّ ما فازوا به من الألطاف الإلهية و الكرامة، و إلى ما أصاب الكفار و المجرمين من العذاب الأليم خاسئين ...

و فى آخر آيات السّورة، يقول القرآن مستفهما:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶

هَلْ ثُوِّبَ الْكَفّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ ۴۶].

فهذا القول سواء صدر من اللّه، أو من الملائكة، أو من المؤمنين، فهو فى كلّ الحالات يمثل طعنا و استهزاء بأفكار و ادعاءات أولئك المغرورون، الـذين كانوا يتصورون أنّ اللّه سـيثيبهم على أعمالهم القبيحة، و يأتيهم النداء ردّا على خطل تفكيرهم: هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ

و اعتبر كثير من المفسّـرين أنّ الآيـة (جملـة مسـتقلة)، فى حين اعتبرها آخرون تابعة للآية التى قبلها، أى: إنّ المؤمنين سـيجلسون على الأرائك ينظرون هل أن الكفار نالوا جزاءهم العادل؟

فـإن كانوا يرجون ثوابا فليأخـذوه من الشـيطان! ... و لكن هل بإمكان هـذا اللعين المطرود من رحمـة اللّه أن يثيبهم على ما عملوا له؟!

«ثوّب»: من (الثوب) على وزن (جوف) و هو رجوع الشـىء إلى حـالته الاـولى التى كـان عليها، و «الثواب»: ما يرجع إلى الإنسان جزاء أعماله، و يستعمل للخير و الشرّ أيضا، و لكن استعماله للخير هو الغالب ۴۷].

و عليه، فالآيـة تشـير إلى الطعن بالكفـار كنتيجـة طبيعيـة لاسـتهزاءهم بالمؤمنين و بآيات اللّه فى الحياة الـدنيا، و ما عليهم إلّا أن يتقبلوا جزاء ما كسبت أيديهم.

بحث

الاستهزاء ... سلاح بائس:

من الحراب التى طالما شـهرت فى وجوه الأنبياء عليهم السّـلام عبر التاريخ .. حربة الاسـتهزاء و السـخرية، و عكست لنا الآيات القرآنية مرارا تلك الصور التى تحكى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۷

هـذا الموضوع، و لاـ عجب فى ذلـك حين صـدور الاسـتهزاء من النـاس ابتلوا بالظلم و الكفر، لأنّ مصـدر كفرهم و ظلمهم هو عقـدة الغرور و التكبر التى تدفعهم للنظر إلى الآخرين بعين التحقير و التصغير.

و لم ينفلت زماننا المعاش من مـدار تلك الأساليب القديمة، فما زال الإعلام الكافر و عبر وسائله التقنية، ما زال يبذل كلّ ما فى جهده فى استعمال ذات الحربة القديمة، عسى أن يخرج الحقّ و أتباعه من الميدان، و بواجهات عدّة، و منها تلك التى يسمّونها برامج الترفيه و الفكاهة.

و لكنّ المؤمنين أقوى من أن تزلزلهم تلـك الألاعيب الماكرة الواهيـة، و هم مطمئنون تماما بالوعـد الإلهى الحق، كما ورد فى الآيات أعلاه.

و ما استعمال أساليب السخرية و الغمز و الضحك فى قبال دعوة تدعو إلى الحق إلّا كاشف عن جهالة و غرور أولئك المساكين.

فحتى على فرض عدم الإيمان بالدين الحق، أو ليس المنطق السـليم و الحجّة القاطعة هى سلاح الإنسان العاقل؟ فأين هم من إنسانيتهم أمام ما يمارسونه؟! ..

اللّهمّ! قنا من الغرور و التكبر.

اللّهمّ! ارزقنا طلب الحق و زيّنا بالتواضع.

اللّهمّ! اجعل صحيفة أعمالنا فى «عليين» و جنبها من الوقوع فى «سجّين» ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة المطفّفين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹

سورة الإنشقاق

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها خمس و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱

سورة الإنشقاق

محتوى السّورة

لا تخرج السّورة عن الإطار العام لسور الجزء الأخیر من القرآن الکریم، فتبدأ بوصف علامات أشراط القیامة و ما سیحدث من أحداث مروعة فی نهایة العالم و بدایة یوم القیامة، ثمّ تتحدث ثانیا عن القیامة و الحساب و ما ستؤول إلیه عاقبة کلّ من الصالحین و المجرمین، ثمّ تعطف السّورة فی المرحلة الثّالثة لتوضیح ماهیة الأعمال و العقائد التی تجر الإنسان إلى سخط اللّه و خلوده بالعذاب مهانا، و فی الرّابعة تنتقل السّورة لعرض مراحل سیر الإنسان فی حیاتیة (الدنیا و الآخرة) و فی آخر مطاف السّورة یدور الحدیث خامسا عن جزاء الأعمال الحسنة و السیئة

فضیلة السّورة:

روی عن النّبی الأکرم صلّى اللّه علیه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأ سورة «انشقت» أعاذه اللّه أن یؤتیه کتابه وراء ظهره»[۴۸].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّه قال: «من قرأ هاتین السّورتین و جعلهما نصب عینه فی صلاة الفریضة و النافلة لم یحجبه اللّه من حاجة، و لم یحجزه من اللّه حاجز، و لم یزل ینظر إلیه حتى یفرغ من حساب النّاس»[۴۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲

الآیات [سورة الانشقاق (۸۴): الآیات ۱ الى ۹]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ ما فِیها وَ تَخَلَّتْ (۴)

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۵) یا أَیُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلى رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِیهِ (۶) فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ (۷) فَسَوْفَ یُحاسَبُ حِساباً یَسِیراً (۸) وَ یَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۹)

التّفسیر

نحو الکمال المطلق:

تبدأ السّورة فى ذكرها لأحداث نهاية العالم المهولة بالإشارة إلى السماء فتقول: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ ۵۰] (فتلاشت نجومها و أجرامها و اختل نظام الكواكب فيها)، كإشارة الآيتين (۱ و ۲) من سورة الإنفطار التى أعلنت عن نهاية العالم بخرابه و فنائه: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ

و تحكى الآية التالية حال السماء: وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ

فلا يتوهم أن السماء بتلك العظمة بإمكانها اظهار أدنى مقاومة لأمر اللّه .. بل ستستجيب لأمر اللّه خاضعة طائعة، لأنّ إرادته سبحانه فى خلقه هى الحاكمة، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۳

يحق لأى مخلوق أن يعصى أمره جلّ و علا.

«أذنت»: من (الاذن) على وزن (أفق)، و هى آلة السمع و تستعار لمن كثر استماعه، و فى الآية: كناية عن طاعة أمر الآمر و التسليم له.

«حقّت»: من (الحق)، أى: و حق لها أن تنقاد لأمر ربّها.

و كيف لها لا تسلّم لأمره عزّ و جلّ، و كلّ وجودها و فى كلّ لحظة من فيض لطفه، و لو انقطع عنها بأقل من رمشة عين لتلاشت.

نعم، فالسماء و الأرض مطيعتان لأمر ربّهما منذ أوّل خلقهما حتى نهاية أجلهما، كما تشير الآية (۱۱) من سورة فصّلت عن قولهما فى ذلك: قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ

و قيل: يراد ب «حقّت»: إنّ الخوف من القيامة سيجعل السماء تنشق .. و لكنّ التّفسير الأول أنسب.

و فى المرحلة التالية تمتد الكارثة لتشمل الأرض أيضا: وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ

فالجبال- كما تقول آيات قرآنية اخرى- ستندك و تتلاشى، و ستستوى الأرض فى كافة بقاعها، لتلمّ جميع العباد فى عرصتها، كما أشارت الآيات (۱۰۵- ۱۰۷) من سورة طه إلى ذلك: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً! فمحكمة ذلك اليوم من العظمة بحيث تجمع فى عرصتها جميع الخلق من الأولين و الآخرين، و لا بدّ للأرض من هذا الانبساط الواسع.

و قيل فى معنى الآية: إنّ اللّه عزّ و جلّ سيمدّ الأرض يوم القيامة أكثر ممّا هى عليه الآن لتسع حشر الخلائق جميعا[۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۴

و فى ثالث مرحلة تقول الآية التالية: وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ

و المعروف بين المفسّرين أنّ الآية تشير إلى إلقاء الأرض بما فيها من موتى فيخرجون من باطن القبور إلى ظاهر الأرض، مرتدين لباس الحياة من جديد.

و قد تناولت آيات اخرى هذا الموضوع، كالآية (۲) من سورة الزلزال:

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها، و الآيتين (۱۳ و ۱۴) من سورة النازعات: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المعادن و الكنوز المودعة فى الأرض ستخرج مع الأموات أيضا.

و ثمّة احتمال آخر فى تفسير الآية، يقول: إنّ المواد المذابة التى فى باطن الأرض ستخرج نتيجة الزلازل الرهيبة التى تقذفها إلى الخارج، فتملأ الحفر و المنخفضات الموجودة على سطح الأرض، و ستهدأ الأرض بعد أن يخلو باطنها من هذه المواد.

و الجمع بين المعانى التى وردت فى تفسير الآية، ممكن.

و ...: وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ

فتسليم الموجودات لما سيحدث من كوارث كونية مدمرة ينم عن جملة امور، فمن جهة: إنّ الفناء سيعم الدنيا بكاملها بأرضها و

سمائها و إنسانها و كلّ شـيء آخر، و من جهة اخرى: فالفناء المذكور يمثل انعطافة حادّة فى مسـير عالم الخليقة، و مقدّمة للدخول فى مرحلة وجود جديدة، و من جهة ثالثة، فكلّ ما سيجرى سينبأ بعظمة قدرة الخالق المطلقة، و خصوصا فى مسألة المعاد.

نعم، فسيرضخ الإنسان، بعد أن يرى بأمّ عينيه وقوع تلك الحوادث العظام، و سيرى حصيلة أعماله الحسنة و السيئة.

و تبيّن الآية التالية معالم طريق الحياة للإنسان مخاطبة له: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِيهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵

«الكدح»:- على وزن مدح- السعى و العناء الذى يخلق أثرا على الجسم و الروح، و يقال: ثور فيه كدوح، أى آثار من شدّة السعى.

و جاء فى (تفسير الكشّاف) و (روح المعانى) و (تفسير الفخر الرازى):

الكدح: جهد النفس فى العمل و الكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده: إذا خدشه.

و الآية تشير إلى أصل أساسى فى الحياة البشرية، فالحياة دوما ممزوجة بالتعب و العناء، و إن كان الهدف منها الوصول إلى متاع الدنيا، فكيف و الحـال إذا كـان الهـدف منها هو الوصول إلى رضوان اللّه و نيل حسن مآب الآخرة؟! فالحياة الـدنيا قـد جبلت على المشـقة و التعب و الألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه المادى.

و ما ذكر «لقاء اللّه» فى الآيـة إلّا لتبيان أنّ حالـة التعب و العناء و الكـدح حالة مسـتمرة إلى اليوم الموعود، و لا يتوقف إلّا بانتهاء عجلة حياة الدنيا، و لا فرق فى توجيه معنى «اللقاء» سواء كان لقاء يوم القيامة و الوصول إلى عرصة حاكمية اللّه المطلقة، أو بمعنى لقاء جزاء اللّه من عقاب أو ثواب، أو بمعنى لقاء ذاته المقدسة عن طريق الشهود الباطنى.

نعم، فراحة الدنيا لا تخلو من تعب، و الراحة الحقة .. هناك، حيث ينعم الإنسان بين فيافى جنان الخلد.

و كان نـداء الآيـة مخاطبا عموم «الإنسان»، ليشـير إلينا بأن اللّه عزّ و جلّ قد وضع القدرة و القوّة اللازمة لهذه الحركة الإلهية المسـتمرة فى وجود و تكوين هذا المخلوق، و الذى جعل من أشرف المخلوقات قاطبة.

و اسـتعمال كلمـة «ربّ» فيه إشارة إلى ثمّـة ارتباط ما بين سـعى و كـدح الإنسان من جهـة و ذلك البرنامج التربوى الذى أعدّه الخالق لمخلوقه فى عملية توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶

نعم، فمشوار حركة الوجود قد بدأ من العدم، و الأقدام سائرة فى خطوها صوب لقاء اللّه، شاء ذلك الموجود أمّ أبى.

و قد تحدثت لنا آيات قرآنية اخرى عن السير التكاملى المستمر للمخلوقات نحو خالقها سبحانه و تعالى، و منها.

الآية (۴۲) من سورة النجم: وَ أَنَّ إِلی رَبِّکَ الْمُنْتَهی

و الآية (۱۸) من سورة فاطر: وَ إِلَی اللَّهِ الْمَصِيرُ .. بالإضافة إلى آيات مباركات أخر.

و إلى ذلك المطاف، ستنفصل البشرية إلى فريقين: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً، وَ يَنْقَلِبُ إِلی أَهْلِهِ مَسْرُوراً.

فالـذين سـاروا على هـدى المخطط الربّانى لحركـة الإنسان على الأرض، و كان كلّ عملهم و سـعيهم للّه دائما، و كـدحوا فى السـير للوصول إلى رضوانه سبحانه، فسيعطون صحيفة أعمالهم بيمينهم، للدلالة على صحة إيمانهم و قبول أعمالهم و النجاة من وحشة ذلك اليوم الرهيب، و هو مدعاة للتفاخر و الاعتزاز أمام أهل المحشر.

و حينما توضع أعمال هؤلاء فى الميزان الإلهى الذى لا يفوته شـيء مهما قلّ و صغر، فإنّه سبحانه و تعالى: سييسّر حسابهم، و يعفو عن سيئاتهم، بل و يبدل لهم سيئاتهم حسنات.

أمّا ما المراد من «الحساب اليسير»؟ فذهب بعض إلى أنّه العفو عن السيئات و الثواب على الحسنات و عدم المداقة فى كتاب الأعمال. و حتى

جاء فى الحديث الشريف: «ثلاث من كنّ فيه حاسبه اللّه حسابا يسيرا، و أدخله الجنّة برحمته.

قالوا: و ما هی یا رسول اللّه؟!

قال: تعطی من حرمک، و تصل من قطعک، و تعفو عمّن ظلمک»[۵۲].

و جاء فی بعض الرّوایات، أنّ الدقّة و التشدید فی الحساب یوم القیامة تتناسب و درجة عقل و إدراک الإنسان.

فعن الإمام الباقر علیه السّلام، أنّه قال: «إنّما یداق اللّه العباد فی الحساب یوم القیامة علی ما آتاهم من العقول فی الدنیا»[۵۳].

و وردت أقوال متفاوتة فی تفسیر کلمة «الأهل» الواردة فی الآیة إِلی أَهْلِهِ

فمنهم من قال: هم الزوجة و الأولاد المؤمنین، لأنّه سیلتحق بهم فی الجنّة، و هی بحدّ ذاتها نعمة کبیرة، لأنّ الإنسان یأنس بلقاء من یحب، فکیف و سیکون معهم أبدا فی الجنّة! و منهم من قال: الأهل: الحور العین اللاتی ینتظرنّهم فی الجنّة.

و آخرین قالوا: هم الاخوة المؤمنین الذین کانوا معه فی الدنیا.

و لا مانع من قبول کلّ هذه الأقوال فی معنی الآیة و ما رمزت له.

بحثان

۱- خذ العلم من علیّ علیه السّلام

فی تفسیر الآیة المبارکة: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال: «إنّها تنشق من المجرّة»[۵۴].

و الحدیث یعتبر من الإعجاز العلمی لأمیر المؤمنین علیه السّلام، حیث أنّه قد کشف

الستار عن حقیقة علمیة قائمة لم یکن قد سبقها من علماء تلک الأزمان أحد قبله علیه السّلام، و بقیت هذه الحقیقة خافیة عن أنظار النّاس (سوی الراسخین فی العلم)، إلی أن تمّ صنع التلسکوبات الکبیرة، فتوصل علماء الفلک المعاصرین إلیها.

فعالم الوجود، یتکون من مجموعة مجرات، و المجرة عبارة عن مجموعة عظیمة من النجوم و المنظومات الشمسیة، و لذا فقد اطلق علی المجرات اسم (مدن النجوم).

و من هذه المجرات، مجرة (درب التبانة) المعروفة و التی یمکن مشاهدتها بالعین المجردة، و المتکونة من مجموعة من النجوم و الشموس علی شکل دائرة، و یبدو لنا طرفها البعید عنّا بصورة سحاب أبیض، و ما هو فی حقیقته إلّا مجموعة من النجوم، تبدو لنا بهذه الصورة نتیجة لبعدها و عجز عیوننا عن تشخیصها.

و ما نراه لیلا علی سطح السماء هو طرفها القریب.

و منظومتنا الشمسیة جزء من هذه المجرة العظیمة.

و کما یقول حدیث أمیر المؤمنین علیه السّلام، فإنّ النجوم التی نراها فی السماء الیوم، ستنفصل عن المجرة، و بها تنشق السماء.

فمن کان یعلم فی زمانه علیه السّلام إنّ النجوم المتناثرة علی القبة السماویة هی جزء من مجرّة عظیمة؟! نعم، لا یعلم بذلک، إلّا من کان قلبه متصلا بعالم الغیب، و من یستقی من علم اللّه تعالی استقاء.

۲- الدنیا دار بلاء

التعبیر ب «کادح» للإشارة إلی أن طریق الحیاة شاق و صعب، و خوضه یستلزم العناء و الألم و المشاکل، فی کافة خطوات المسیر و لا یستثنی من ذلک الروح أو البدن، بل کلیهما و بکلّ ما یحملان من جوارح و جوانح لا یخلوان من التأثر بهذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۹

الطبیعة الحاکمة علی الحیاة الدنیا.

و

یحدثنا الإمام علی بن الحسین زین العابدین علیه السّلام، فیما روی عنه أنّه قال: «الراحة لم تخلق فی الدنیا و لا لأهل الدنیا، إنّما خلقت الراحة فی الجنّة و لأهل الجنّة، و التعب و النصب خلقا فی الدنیا، و لأهل الدنیا، و ما اعطی أحد منها جفنة إلّا أعطی من الحرص مثلیها، و من أصاب من الدنیا أکثر، کان فیها أشد فقرا لأنّه یفتقر إلی النّاس فی حفظ أمواله، و یفتقر إلی کلّ آلة من آلات الدنیا، فلیس فی غنی الدنیا راحة ...».

و

جاء فی آخر حدیثه علیه السّلام: «کلّا ما تعب أولیاء اللّه فی الدنیا للدنیا، بل تعبوا فی الدنیا للآخرة».[۵۵]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۶۰

الآیات [سورة الانشقاق (۸۴): الآیات ۱۰ الی ۱۵]

اشارة

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً (۱۱) وَ یَصْلی سَعِیراً (۱۲) إِنَّهُ کانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ (۱۴)

بَلی إِنَّ رَبَّهُ کانَ بِهِ بَصِیراً (۱۵)

التّفسیر

الذین یستلمون کتابهم من وراء ظهرهم:

بعد أن عرضت الآیات السابقة أحوال فریق أصحاب الیمین، تأتی الآیات أعلاه لتعرض لنا أحوال الفریق الآخر، و توصف لنا کیفیة إعطاء کتاب کلّ منهم مشرعة لتقدیم المشاهد الاخری: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ .. فیصرخ و ینادی الویل لی لقد هلکت فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً.

وَ یَصْلی سَعِیراً ذکرت الآیة بأن المجرمین سیؤتون کتبهم من وراء ظهورهم، فی حین أنّ آیات اخری تقول بأنّ المذنبین سیعطی کتاب کلّ منهم بیده الشمال.

فهل من تألیف فیما بین العرضین؟

للمفسّرین جملة آراء فی ذلک، منها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۶۱

قیل: إنّ یدهم الیمنی تغلّ إلی أعناقهم، و یعطون الکتاب بالید الیسری من وراء ظهورهم إیغالا فی إذلالهم و إخجالهم.

و قيل: إنّ كلتى يديهم تربط من خلفهم- كما يفعل بالأسير- و يعطون الكتاب باليد اليسرى من وراء الظهر.

و قيل أيضا: ستكون وجوه المجرمين من الخلف، بدلالة الآية (۴۷) من سورة النساء: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها، فيعطون كتبهم من وراء ظهورهم و بيدهم اليسرى، كى يقرءوها بأنفسهم.

و الأنسب أن نقول: سيأخذ أصحاب اليمين كتبهم بافتخار و مباهاة فى يدهم اليمنى، و كلّ منهم يقول: هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ ۵۶]، و لكن المجرمين سيأخذون كتبهم بأيديهم اليسرى و بسرعة و يضعونها وراء ظهورهم خجلا و ذلا، و لكى لا يطّلع على ما فيها أحد، و لكن، هيهات ... فكلّ شيء حينئذ بارز، كيف لا و هو «يوم البروز»! ...

يَدْعُوا ثُبُوراً: يصرخ بالويل و الثبور، كما هو متعارف عليه عند نزول بلاء، أو وقوع حادث شديد الخطورة.

و «الثبور»: الهلاك.

و لكنّ صراخه سوف لا يدر عليه نفعا أبدا أبدا، و لا بدّ من نيله جزاء ما اقترف: وَ يَصْلى سَعِيراً أى يدخل نار جهنم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص ۶۱

تبيّن الآية التالية علّة تلك العاقبة المخزية: إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً.

سرورا ممتزجا بالغرور، و غرورا احتوشته الغفلة و الجهل بربّ الأرباب سبحانه و تعالى، فالسرور المقصود فى الآية، هو ذلك السرور المرتبط بشدّة بالدنيا و المنسى لذكر الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۲

و بديهى فالسرور و الارتياح ليس مذموم بذاته، و لكنّ السرور المذموم هو الذى يغفل فيه الإنسان عن ذكر مولاه عزّ و جلّ، و يغرق به فى بحر شهواته الموصل إلى التيه و الضلالة و الجهل. أمّا سرور المؤمن بلطف اللّه و نعمائه، و بشاشته عند مصاحبة إخوانه، فما أحلاها و أزكاها.

و يتقرب لنا المعنى من خلال الآية التالية: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ.

فاعتقاده الفاسد و ظنّه الباطل الدائر على نفى المعاد، مصدر سروره و غروره و هو ما سيوصله إلى الشقاء الأبدى، لأنّه ابتعد عن ساحة رضوانه سبحانه و تعالى بعد أن أوقعته شهواته فى هاوية الاستهزاء بدعوة الأنبياء عليهم السّلام الربانية، حتى أوصلته حالته المرضية تلك لأنّ يستمر فى استهزاءه و سخريته حتى فى حال عودته إلى أهله، كما أشارت الآية (۳۱) من سورة المطففين: وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ و كما وردت الإشارة أيضا على لسان علماء بنى إسرائيل حينما خاطبوا قارون الثرى المغرور الجاهل: لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ [۵۷] «لن يحور»: لن يرجع، من (الحور)- على زنة غور- بمعنى: الرجوع، التردد، الذهاب، و الإياب (سواء كان فى العمل أو الفكر)، و «حار الماء» فى الغدير: تردد فيه، و يقال «المحور»: للعود الذى تجرى عليه البكرة و تدور حوله و المحاورة و (الحوار): المراودة فى الكلام، و (تحير فى الأمر): تردد فيه بين أن يقدم أو لا يقدم.

و قيل: أصل الكلمة (حبشى).

و روى عن ابن عباس أنّه قال: (ما كنت أدرى ما معنى «حور» حتى سمعت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۳

أعرابية تقول لابنتها: «حورى» أى ارجعى)[۵۸].

و ربّما كان استعمال كلمة «الحوارى» فى نعت أصحاب عيسى عليه السّلام أو أى مقرّبين لأحد، ربّما كان لكثرة ترددهم عليه.

و قيل: حورت الشيء، أىّ بيضته، و سمّى أنصار عيسى عليه السّلام الحواريين لتبييضهم قلوب النّاس بالمواعظ الهادية، و «الحور العين» إشارة إلى بياضهنّ، أو لشفّافية بياض عيونهنّ.

و قيل أيضا: إنّ سبب تسميتهنّ ب «الحور العين» يعود إلى تحير العين فى جمالهنّ الخارق.

و على أيّة حال، فيقصد من الكلمة فى الآية المبحوثة، الرجوع و المعاد، لإيضاح أنّ عدم الإيمان بالمعاد يؤدى إلى الوقوع فى اتون الغفلة و الغرور و ارتكاب المعاصى.

و لنفى العقائد الضالة، تقول الآية: بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً.

فكل أعمال الإنسان تسجل و تحصى عليه، لتعرض يوم الحساب فى صحيفته.

و الآية تشارك الآية السابقة: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ فى كونها دليلا على المعاد أيضا. فتأكيد الآيتين على كلمة «ربّ» يدل على أن الإنسان فى سيرة التكاملى صوب ربّه لا ينتهى بالموت، و أنّ الحياة الدنيا لا يمكنها أن تكون هدفا و غاية لهذا الخلق العظيم و هذا المسار التكاملى ...

و كذلك كون اللّه «بصيرا» بأعمال الإنسان و تسجيلها لا بدّ من اعتباره مقدمة للحساب و الجزاء و إلّا لكان عبثا، و هذا ما لا يكون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۴

الآيات [سورة الانشقاق (۸۴): الآيات ۱۶ الى ۲۵]

اشارة

فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹) فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (۲۲) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۲۴) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۲۵)

التّفسير

سنّة التغيّر!

لمزيد من إيضاح ما ورد فى الآيات السابقة بخصوص سير الإنسان التكاملى نحو خالقه سبحانه و تعالى ... تأتى الآيات لتقول: فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ

وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ أى: و ما جمع.

وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أى: إذا اكتمل.

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۵

«لا» فى «لا اقسم»: زائدة، و جاءت للتأكيد.

و ثمّة من اعتبرها (نافية)، أى: لا اقسم، لأنّ الأمر من الوضوح ما لا يحتاج فيه إلى قسم، أو أنّ القسم بهذا الموضوع لا يليق و أهميته، أو أنّ ما اقسم به من الأهمية بحيث يليق أنّ لا يقسم به.

إلّا أنّ الأوّل (كونها زائدة جاءت للتأكيد) أقرب من البقية.

«الشفق»: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس، و (الإشفاق):

عناية مختلطة بخوف، لأنّ (المشفق) يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه ۵۹].

و يقول الفخر الرازى: تركيب لفظ «الشفق» فى أصل اللغة لرقّة الشيء، و منه يقال: ثوب شفق، كأنّه لا تماسك له لرقته، و (الشفقة): رقة القلب.

(و الظاهر أنّ قول الراغب أقرب للصواب).

و على أيّة حال، ف «الشفق» هو وقت الغروب، و قد اختلف فى تعيين وقته ما بين الحمرة التى تظهر فى الأفق الغربى عند بداية الليل، و بين ما يظهر بعد الحمرة من بياض، و المشهور بين العلماء و المفسّرين هو التعيين الأوّل، و هو المستعمل على لسان الأدباء أيضا حيث يشبهون دماء الشهداء بالشفق.

إلّا أنّ البعض اختار التعيين الثّانى، على ما يبدو عليه من ضعف، و خصوصا إذا ما اعتبرنا (الرّقة) هى الأصل اللغوى للكلمة، حيث أنّها ستتناسب مع الحمرة الخفيفة الرقيقة دون الثّانى.

و على أية حال، فقد جاء القسم بالشفق للفت الأنظار إلى ما فى هذه الظاهرة السماوية الجميلة من معان، فمنه تعلن حالة التحول العام من النهار إلى الليل، إضافة لما يتمتع به من بهاء و جمال، و كونه وقت صلاة المغرب.

و أمّا القسم بالليل، فلما فيه من آثار كثيرة و أسرار عظيمة (و قد تناولنا ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۶

مفصلا)[۶۰].

«ما وسق»[۶۱]: إشارة إلى عودة الإنسان و الحيوانات و الطيور إلى مساكنها عند حلول الليل (بلحاظ كون الوسق بمعنى جمع المتفرق)[۶۲]، فيكون عندها سكنا عاما للكائنات الحيّة، و هو من أسرار و آثار الليل المهمّة، كما أشارت الآية (۶۱) من سورة غافر إلى ذلك: اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

إِذَا اتَّسَقَ من (الاتساق)، و هو الاجتماع و الإطراد، و تريد الآية به، اكتمال نور القمر فى الليلة الرابعة عشر من الشهر القمرى، حيث يكون بدرا.

و لا يخفى ما لروعة البدر فى تمامه، فنوره الهادىء الرقيق يكسو سطح الأرض، و هو من الرقّة و اللطافة بحيث لا يكسر ظلمة الليل و سكونه، و لكنّه ينير درب سالكيه! فهو آية كبرى من آيات اللّه، و لذا جاء القسم به.

و ينبغى الالتفات إلى الصلة الموجودة فيما أقسمت الآيات بهن: (الشفق، الليل، ما اجتمع فيه، و القمر فى حالة البدر) و جميعها موضوعات مترابطة و يكمل بعضها البعض الآخر، و تشكل بمجموعها لوحة فنية طبيعية رائعة، و تحرّك عند الإنسان التأمل و التفكير فى عظمة و دقّة و قدرة الخالق فى خلقه، و يمكن للإنسان العاقل بتأمل هذه التحولات السريعة من التوجه إلى قدرته جلّ شأنه على المعاد ما يحمل بين طياته من تغيّرات فى عالم الوجود.

و الأمر المثير هو أنّ القرآن الكريم يشير هنا إلى امور متتابعة الوقوع، فعند ما تغيب الشمس يظهر الشفق معلنا عن بداية حلول الليل، الذى تتجه الكائنات الحية فيه إلى بيوتها، ثمّ يخرج القمر بدرا تامّا (علما بأنّ البدر فى ليلة تمامه يخرج مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۷

بداية الليل!).

ثمّ يأتى جواب القسم الوارد فى الآيات أعلاه: لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ إشارة إلى المراحل و التحولات التى يمرّ بها الإنسان فى حياته.

و قد ذكرت تفاسير مختلفة لهذه الآية المباركة، منها:

۱- يقصد بها تلك الحالات المختلفة التى يمرّ بها الإنسان فى كدحه و سيره المضنى نحو اللّه جلّ و علا، فيبدأ بحالة الدنيا، ثمّ ينتقل إلى عالم البرزخ و منه إلى القيامة و الآخرة (مع ملاحظة أنّ «طبق» من (المطابقة)، و هى جعل الشيء فوق شيء آخر بقدرة، و جاءت أيضا بمعنى، المنازل التى يطويها الإنسان فى عملية صعوده).

۲- يقصد بها تلك الحالات التى يمرّ بها الإنسان منذ كونه نطفة حتى يموت، (و قد عدّها البعض (۳۷) حالة).

۳- يقصد بها تلك الحالات التى يعيشها الإنسان فى حياته من: سلامة و مرض، سرور و غم، اليسر و العسر، السلم و الحرب ... إلخ.

۴- يقصد بها تلك الحالات الصعبة التى ستواجه الإنسان يوم القيامة حتى يفرغ من حسابه، و يتجه إلى مصيره (الجنّة أو النّار).

۵- يقصد بها تلك الحالات التى مرّت بها الأقوام السالفة بحلاوتها و مرّها، و كذلك الإشارة إلى ألوان التكذيب و الإنكار الذى يقع فى هذه الأمّة، و هذا المعنى قد ورد فى حديث ما روى عن الإمام الصادق عليه السّلام.

و لا يمنع من اعتبار كلّ ما جاء فى التفاسير أعلاه مصاديق لمعنى الآية.

و قيل: إنّ شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو المخاطب فى الآية، و الآية تشير إلى طبقات السماء التى طواهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى معراجه.

و لكن، بلحاظ وجود الضم على «الباء» فى «لتركبنّ»، يتّضح لنا أنّ المخاطب جمع و ليس فرد هذا من جهة، و لو رجعنا إلى الآيات السابقة لرأينا النداء موجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۶۸

إلى النّاس كافة من جهة اخرى، و عليه، فهذا التّفسير بعيد عن مرام الآية.

و على آية حال، فعدم استقرار الإنسان على حال ثابتة يدلل على فقر الإنسان و احتياجه، لأنّ كلّ متغيّر حادث، و كلّ حادث له محدث، كما و إنّ عدم استقرار هذا العالم علامة على حركة الإنسان المستمرة نحو اللّه و المعاد، و كما قالت الآية: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ

و من كلّ ما سبق ... يخرج القرآن الكريم بنتيجة: فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

فمع وضوح أدلة الحق، مثل أدلة: التوحيد، معرفة اللّه، المعاد، بالإضافة إلى ما من الآفاق فى آيات مثل: خلق ... الليل و النهار، الشمس و القمر، النور و الظلمة، شروق الشمس و غروبها، الشفق، ظلمة الليل، اكتمال القمر بدرا، و كذلك الآيات التى فى نفس الإنسان منذ أن يكون نطفة فى رحم امّه، و ما يطويه من مراحل حتى يكتمل جنينا، مرورا بما يمرّ به من حالات فى حياته الدنيا، حتى يدركه الموت ...

فمع وجود كل هذه الأدلة و الآيات لم لا يؤمنون؟! ..

و ينتقل بنا العرض القرآنى من كتاب (التكوين) إلى كتاب (التدوين)، فيقول:

وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ

القرآن كالشمس يحمل دليل صدقه بنفسه، و تتلألأ أنوار الإعجاز من بين جنباته، و يشهد محتواه على أنّه من الوحى الإلهى و كل منصف يدرك جيدا لدى قراءته له أنّه فوق نتاجات عقول البشر و لا يمكن أن يصدر من انسان مهما كان عالما، فكيف بإنسان لم يتلق تعليما قط و قد نشأ فى بيئة جاهلية موبوءة بالخرافات! ...

و يراد ب «السجود» هنا: الخضوع و التسليم و الطاعة[۶۳]، أمّا السجود المتبادر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۶۹

إلى الذهن بوضع الجبين على الأرض، فهو أحد مصاديق مفهوم السجود، و لعل هذا هو ما ورد فى الرّوايات من سجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند قراءته لهذه الآية.

و السجود فى هذه الآية مستحب عند فتاوى فقهاء أهل البيت عليهم السّلام، فيما يوجب ذلك فقهاء المذاهب الأربع، إلّا (مالك)، فإنّه يقول بالسجود عند الانتهاء من تلاوة السّورة[۶۴].

و تأتى الآية التالية لتقول: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ

و التعبير عن ممارسة تكذيب الكافرين فى الآية بصيغة المضارع المستمر، للإشارة إلى تكذيبهم المتعنت المستمر و إصرارهم و لجاجتهم و ليس تكذيبهم بسبب ضعف أدلة الحق، بل من أجل روح التعصب الأعمى للأسلاف و الدنيا و المصالح المادية و الحاكمة على قلوبهم المريضة، و أهوائهم الشيطانية.

و ببيان جدّى و تهديد جدّى، تقول الآية التالية: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ

فاللّه تعالى أعلم بدافع و نيّة و هدف ذلك التكذيب، و مهما تستروا على ما فعلوا فلا يجزون إلّا بما كسبت أيديهم.

«يوعون»: من (الوعاء) و هو الظرف، كما هو مستقى من

قول أمير المؤمنين عليه السّلام فى نهج البلاغة: «إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها».

ثمّ ... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ

عادة ما تستعمل «البشارة» للأخبار السارة، و جاءت هنا لتنم عن نوع من الطعن و التوبيخ.

و الحال، إنّ البشارة الحقّة للمؤمنين خالصة بما ينتظرهم من نعيم، و ما للكاذبين إلّا الغرق فى بحر من الحسرة و الندم، و ما هم إلّا فى عذاب جهنم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۰

يخلدون.

و يستثنى المؤمنون من تلك البشرى المخزية: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

«ممنون»: من (المنّ)، و هو القطع و النقصان، (و منه «المنون» بمعنى الموت).

و إذا ما جمعنا كلّ هذه المعانى، فستكون النعم الاخروية على عكس الدنيوية الناقصة و المنقطعة و المقترنة بمنّة هذا و ذاك، حيث أنّها لا تنقطع و لا تنقص و ليس فيها منّة.

أمّا الاستثناء الذى ورد فى الآية السابقة، ففيه بحث: هل أنّه «متصل» أو «منقطع».

قال بعض المفسّرين: إنّه منقطع، أى: إنّ القرآن الكريم انتقل بالآية من الحديث حول الكفار الذى عرض فى الآيات السابقة، إلى الحديث عن المؤمنين و ما ينتظرهم من أجر و ثواب.

و الأقرب لسياق الآيات أن يكون الاستثناء متصلا، و فى هذه الحال يكون هدفه فتح الطريق أمام الكفار للعودة و تشجيعهم على ذلك، لأنّ الآية تقول: إنّ العذاب الأليم المذكور فى الآية السابقة سوف لا يصيب من يؤمن منهم و يعمل صالحا و علاوة على ذلك، سيكون له أجر غير ممنون.

بحث

و قد استنبط العلّامة الطبرسى، فى كتابه مجمع البيان، من الآيات الأخيرة للسورة ما يلى:

أوّلا: حرية إرادة الإنسان و اختياره.

فقال: قوله سبحانه: فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ و لا يَسْجُدُونَ دلالة على أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۱

السجود فعلهم، لأنّ الحكيم لا يقول: مالك لا تؤمن و لا تسجد، لمن يعلم أنّه لا يقدر على الإيمان و السجود.

ثانيا: إنّ الذمّ على ترك السجود دليل على أنّ الكفار كما أنّهم مكلفون بأصول الدين كذلك بفروعه أيضا. (هذا القول مبنىّ على اعتبار كلمة السجود الواردة فى الآية يراد منها (سجود الصلاة)، أو حتى إذا اعتبرنا الكلمة بمفهومها العام، فهى تتضمّن سجود الصلاة كذلك).

اللّهمّ! یسّر علینا الحساب یوم حشر الخلق فی ساحهٔ عدلک ...

اللّهمّ! الکلّ إلیک راجعون، فاهدنا الصراط المستقیم فیمن هدیت ..

ربّنا! نحن مسلّمون و مطأطئون برؤوسنا إجلالا لقرآنک فوفقنا للعمل بتعلیماته و ارشاداته .. و ارزقنا العمل بکتابک الکریم.

آمین یا ربّ العالمین نهایهٔ سورهٔ الإنشقاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۳

سورهٔ البروج

اشارهٔ

مکیّهٔ و عدد آیاتها اثنتان و عشرون آیهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۵

«سورهٔ البروج»

محتوی السّورهٔ:

کان المؤمنون فی بدایهٔ الدعوهٔ المحمّدیهٔ- خصوصا فی مکّهٔ- یعانون من شدّهٔ التضییق و أقسی ألوان التعذیب الجسدی و النفسی، الذی انهال به عدوّهم من الکفّار علی أن یترکوا إیمانهم بترک عقیدهٔ الحق و الارتداد عن الدین القویم! و بملاحظهٔ کون السّورهٔ مکیّهٔ، فیظهر إنّها نزلت لتقویهٔ معنویات المؤمنین لمواجهة تلک الظروف الصعبهٔ، و لترغیبهم علی الصمود أمام الصعاب و الثبات علی الإیمان و ترسیخه فی القلوب.

و تناولت السّورهٔ قصّهٔ «أصحاب الأخدود»، الذین حفروا خندقا و سجّروه بالنیران، و هددوا المؤمنین بإلقائهم فی تلک النّار إن لم یعودوا إلی کفرهم! و أحرقوا مجموعهٔ منهم بالنّار و هم أحیاء، و مع ذلک لم یرجعوا عن دینهم ..

و تعد السّورهٔ فی بعض آیاتها بعذاب جهنم الألیم لأولئک الذین یؤذون المؤمنین و یعذبونهم علی إیمانهم، و تذمهم ذما شدیدا، فی حین تبشر المؤمنین الصابرین بالجنّهٔ و الفوز بنعیمها.

و فی جانب آخر من السّورهٔ، تعرض لنا مقتطفات من قصّتی فرعون و ثمود و قومیهما الجناهٔ الطغاهٔ، و ما آلوا إلیه من ذلّ و هلاک، کلّ ذلک تذکیرا لکفّار مکّهٔ الذین هم أضعف قوّهٔ و أقل جندا من أولئک، فعسی أن یرعووا عمّا هم فیه من جههٔ، و تسلیهٔ لقلب الحبیب المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من کان معه من المؤمنین من جههٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۶

اخری.

و تختم السّورهٔ فی آخر مقاطعها بالإشارهٔ إلی عظمهٔ القرآن الکریم، و إلی الأهمیهٔ البالغهٔ لهذا الوحی الإلهی.

و عموما، فالسّورهٔ من سور المقاومهٔ و الثبات و الصبر أمام ضغوط الظالمین و المستکبرین، و آیاتها تتضمّن الوعد الإلهی بنصر المؤمنین.

و سمّیت بسورهٔ «البروج» بلحاظ ذکر الکلمهٔ فی أول آیهٔ من السّورهٔ بعد ذکر البسملهٔ.

فضیلهٔ السّورهٔ:

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ هذه السّورة أعطاه اللّه من الأجر بعدد کلّ من اجتمع فی جمعة و کلّ من اجتمع یوم عرفة عشر حسنات، و قراءتها تنجی من المخاوف و الشدائد».[۶۵]

و بملاحظة أنّ أحد تفاسیر وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ- من آیات السّورة- هو یومی الجمعة و عرفة من جهة، و أنّ السّورة حکایة مقاومة و بسالة المؤمنین السابقین أمام الشدائد و الضغوط من جهة اخری، و بملاحظة ذلک سیتّضح لنا التناسب الموجود ما بین هذا الثواب الجزیل لمن یقرءها و بین محتوی السّورة، و أنّ الأجر و الثواب إنّما یحصل لمن قرأها بتأمل معانیها، و عمل علی ضوء هدیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۷

الآیات [سورة البروج (۸۵): الآیات ۱ الی ۹]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (۱) وَ الْیَوْمِ الْمَوْعُودِ (۲) وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (۳) قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (۴)

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَیْها قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلی ما یَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِینَ شُهُودٌ (۷) وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ یُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ (۸) الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۹)

التّفسیر

الإیمان الراسخ أقوی من حفر النیران!

کما نعلم جمیعا، بأنّ المسلمین فی صدر الإسلام الأوّل، کانوا یعیشون فی مکّة تحت ظروف قاسیة، بعد أن کشّر أعدائهم بقباحة تلک الأنیاب القذرة، فانهالوا علی المؤمنین بأصناف العذاب و ألوانه ..

و لمّا کان الهدف من نزول السّورة، و بما عرضته من صور الأولین هو إنذار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۸

هؤلاء الظالمین المغرورین بأنّ مصیرهم سیکون مثل مصیر الأقوام السالفة من جهة، و من جهة اخری لتثبیت المؤمنین، و تقویة عزائمهم فی صراعهم أمام أذی و اضطهاد أهل مکّة.

ابتدأت السّورة ب: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ

«البروج»: جمع (برج) و هو القصر، و قیل: هو الشیء الظاهر، و تسمیة القصور و الأبنیة العالیة بالبروج لظهورها و وضوحها، و قیل للمحلات الخاصة من السور المحیط بالبلد و التی یجتمع فیها الحراس و الجنود (البروج) لظهورها الخاص، و یقال للمرأة التی تظهر زینتها (تبرجت).

و الأبراج السماویة: إمّا أن یکون المراد منها النجوم الزاهرة و الکواکب المنیرة فی السماء، أو المجموعات من النجوم تتخذ مع بعضها شکل شیء معروف فی الأرض، و تسمی ب «الصور الفلکیة»، و هی إثنا عشر برجا، و فی کلّ شهر تحاذی الشمس أحد هذه البروج، (طبیعی أن الشمس لا تتحرک تلک الحرکة، و إنّما الأرض، تدور حول الشمس فیبدو لنا تغیّر موضع الشمس بالنسبة إلی الصور الفلکیة أو الأبراج).[۶۶] و القسم بهذه البروج یشیر إلی عظمة أمرها، التی لم تکن معلومة للعرب الجاهلیین وقت نزول الآیة بینما أصبحت معلومة تماما فی هذا الزمان و الأقوی أنّ المراد منها هو النجوم المتلألئة لیلا فی القبة السماویة.

و لذا نقرأ فيما

روى عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه حينما سئل عن تفسير الآية قال: «الكواكب»[۶۷].

و تقول الآية الثّانية: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۹

اليوم الـذى وعد به جميع الأنبياء و المرسلين عليهم السّلام، و الذى تحدثت عنه مئات الآيات القرآنية المباركة، اليوم الذى يلتقى فيه جميع الخلق من الأولين و الآخرين للحساب، إنّه يوم القيامة الحق.

و فى القسم الثّالث و الرّابع يقول: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ.

و قد تعرض المفسّرون للآية بمعان متباينة، وصلت إلى ثلاثين معنى، و أدناه أهم ما ذكر منها:

۱- «الشاهد»: هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بدلالة الآية (۴۵) من سورة الأحزاب: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً.

و «المشهود»: هو يوم القيامة، بدلالة الآية (۱۰۳) من سورة هود: ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.

۲- «الشاهد»: هو ما سيشهد على أعمال النّاس، كأعضاء بدنه، بدلالة الآية (۲۴) من سورة النور: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ و «المشهود»: هم النّاس و أعمالهم.

۳- «الشاهد»: هو يوم «الجمعة»، الذى يشهد اجتماع فى صلاة مهمّة، و «المشهود»: هو يوم «عرفة»، الذى يشهده زوّار بيت اللّه الحرام، و هو ما روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الإمام الباقر عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام ۶۸].

۴- «الشاهد»: عيد الأضحى.

و «المشهود»: يوم عرفة.

و

روى أنّ رجلاـ دخل مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فإذا رجل يحدث عن رسول اللّه، قال: فسألته عن الشاهد و المشهود، فقال: (نعم، الشاهد يوم الجمعة، و المشهود يوم عرفة)، فجزته إلى آخر يحدث عن رسول اللّه، فسألته عن ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۰

فقال: (أمّا الشاهد فيوم الجمعة، و أمّا المشهود فيوم النحر)، فجزتهما إلى غلام كأنه وجه الدينار، و هو يحدّث عن رسول اللّه، فقلت أخبرنى عن «و شاهد و مشهود» فقال: «نعم، أمّا الشاهد فمحمّد، و أمّا المشهود فيوم القيامة، أما سمعت اللّه سبحانه يقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً، و قال ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ .. فسألت عن الأول، فقالوا: ابن عباس، و سألت عن الثّانى، فقالوا: ابن عمر، و سألت عن الثّالث: فقالوا: الحسن بن على عليهما السّلام ۶۹]

۵- «الشاهد»: الليالى و الأيّام .. و «المشهود»: بنو آدم، حيث تشهد على اعمالهم، بدلالة ما جاء فى دعاء الإمام زين العابدين عليه السّلام الذى يقرأ كلّ صباح و مساء:

«هذا يوم حادث جديد، و هو علينا شاهد عتيد، إن أحسنّا و دعنا بحمد، و إن أسأنا فارقنا بذنب».[۷۰]

۶- «الشاهد»: الملائكة .. و «المشهود»: القرآن.

۷- «الشاهد»: الحجر الأسود .. و «المشهود»: الحجاج الذين يأتون و يلمسونه:

۸- «الشاهد»: الخلق .. و «المشهود»: الحق.

۹- «الشاهد»: الامّة الإسلامية .. و «المشهود»: الأمم الاخرى، بدلالة الآية (۱۴۳) من سورة البقرة: لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ

۱۰- «الشاهد»: النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم .. و «المشهود»: سائر الأنبیاء علیهم السّلام، بدلالة الآیة (۴۱) من سورة النساء: وَ جِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً.

۱۱- «الشاهد»: النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم .. و «المشهود»: أمیر المؤمنین علیه السّلام.

و إذا ما أدخلنا الآیة فی سیاق الآیات السابقة لها، فسنصل إلی أنّ «الشاهد» هو کلّ من سیقوم بالشهادة یوم القیامة، کشهادة: النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کلّ نبیّ علی امّته،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۱

الملائکة، بالإضافة إلی شهادة: أعضاء بدن الإنسان، اللیل و النهار .. إلخ ..

و «المشهود»: النّاس أو أعمالهم.

و بهذا، یدغم الکثیر من التّفاسیر المذکورة مع بعضها لتشکل مفهوما واسعا للآیة المبارکة.

و یخرج عن هذا الإدغام تلک التّفاسیر التی تشیر إلی: یوم الجمعة، یوم عرفة و یوم الأضحی.

و إن کانت الأیّام المذکورة ستشهد علی أعمال الإنسان یوم الحشر، بل و کلّ یوم یجتمع فیه المسلمون یکاد یکون صورة مصغرة للحشر علی رقعة الحیاة الدنیا.

و مع کلّ ما ذکر تتّضح صلة التآلف ما بین التّفاسیر المذکورة أعلاه، حیث من الممکن جمعها تحت مظلة شمول مفهوم الآیة، و هذا بحد ذاته یعکس لنا عظمة القرآن الکریم باحتوائه علی هکذا مفاهیم و اصطلاحات .. ف «الشاهد» ینطبق علی کلّ من و ما یشهد، و کذا «المشهود» ینطبق علی کلّ من و ما یشهد علیه، و ما ورودهما بصیغة النکرة إلّا لتعظیمهما، و هو ما ینعکس علی کلّ التّفاسیر.

و ثمّة علاقة خاصة بین الأقسام الأربع و بین ما اقسم به .. فالسماء و ما فیها من بروج تحکی عن نظام و حساب دقیق، و «الیوم الموعود» یوم حساب و کتاب دقیق أیضا، و «شاهد و مشهود» أیضا وسیلة للحساب الدقیق علی أعمال الإنسان، و کلّ ذلک لتذکیر الظالمین الذین یعذّبون المؤمنین، عسی أن یکّفوا عن فعلتهم السیئة، و لإعلامهم بأن کلّ ما یفعله الإنسان یسجل علیه و بحساب دقیق جدّا و سیواجه بها فی الیوم الموعود بین عتبات ساحة العدل الإلهی، فسیشهد علی أعمال النّاس الملائکة الموکلون لهذا الأمر و أعضاء بدن ذات الإنسان و کذا اللیل و النهار و .. و .. و ..، و ستکون الشهادة فی یوم لا ینفع فیه مال و لا بنین إلّا من أتّی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۲

اللّه بقلب سلیم![۷۱].

و بعد هذه الأقسام الأربع، تقول الآیة التالیة: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ.

و المقصود هم الظالمین لا من القی فی النّار، فالجملة انشائیة و المراد هو اللعن و الدعاء علیهم.

و الأخدود ملیء بالنّار الملتهبة: النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ.

و کان الظالمون جالسون علی حافة الأخدود یشاهدون المعذبین فیها: إِذْ هُمْ عَلَیْها قُعُودٌ.

وَ هُمْ عَلی ما یَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِینَ شُهُودٌ.

«الأخدود»:- علی قول الراغب فی مفرداته-: شقّ فی الأرض مستطیل غائص، و الجمع أخادید، و أصل ذلک من «خدّ» الإنسان، و هو تقعر بسیط یکتنف الأنف من الیمین و الشمال (و عند البکاء تسیل الدموع من خلاله) ثمّ اطلق مجازا علی الخنادق و الحفر فی الأرض، ثمّ صار معنی حقیقیا لها.

أمّا من هم الذین عذّبوا المؤمنین؟ و متی؟ فللمفسّرین و أرباب التواریخ آراء مختلفة، سنستعرضها إنشاء اللّه فی بحوث قادمة.

و لکنّ القدر المسلم به، إنّهم حفروا خندقا عظیما و وجّروه بالنیران، و أوقفوا المؤمنین علی حافة الخندق و طلبوا منهم واحدا واحدا بترک إیمانهم و الرجوع إلی الکفر، و من رفض القی بین ألسنة النیران حیا لیذهب إلی ربّه صابرا محتسبا! «الوقود»: ما یجعل

للاشتعال، و «ذات الوقود»: إشارة الى كثرة ما فيها من الوقود، و شدّة اشتعالها، فالنّار لا- تخلو من وقود، و لعل ما قيل من أن «ذات الوقود» بمعنى ذات اللهب الشديد، يعود للسبب المذكور، و ليس كما ذهب به البعض من كون «الوقود» يطلق على معنيين: «الحطب» و على «شعلة النّار» أيضا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۳

و تأسفوا لعدم التفات المفسّرين لهذه النكتة! و الآيتان: إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ، وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، تشيران إلى ذلك الجمع من النّاس الذين حضروا الواقعة، و هم ينظرون إلى ما يحدث بكل تلذذ و برود و فى منتهى قساوة القلب (سادية)! و قيل: الإشارة إلى المأمورين بتنفيذ التهديد، و إجبار المؤمنين على ترك إيمانهم.

و قيل أيضا: إنّهم كانوا فريقين، فريق يباشر التعذيب، و آخر حضر للمشاهدة، و قد أشرك الجميع فى هذا العمل لرضايتهم به.

و هذه صورة طبيعية الوقوع، حيث هناك من يأمر (الرؤساء)، و من ينفذ (المرؤسون)، و ثمّة المشاهدون من غير الآمر و المأمور.

و قيل أيضا: ثمّة فريق منهم كان مكلفا بمراقبة عملية التنفيذ لرفع تقاريرهم إلى السلطان عن كيفية أداء المأمورين لواجباتهم السلطانية.

و لا يبعد وجود كلّ ما ذكر من أصناف فى ذلك المشهد المروع، كما و بالإمكان الجمع بين كلّ الآراء المطروحة.

و مجيء فعل جملة «يفعلون» بصيغة المضارع، للإشارة إلى أنّ ذلك العمل قد استغرق وقتا طويلا، و ما كان بالحدث السريع العابر.

و تقول الآية التالية: وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

نعم، فجرمهم الوحيد إنّهم آمنوا باللّه الواحد الأحد دون تلك الأصنام الفاقدة للعقل و الإحساس.

«نقموا»: من (النقم)- على زنة قلم- و هو الإنكار باللسان أو بالعقوبة، و منه (الانتقام).

هكذا عقوبة لا تجرى إلّا على ذنب عظيم، و أين الإيمان باللّه العزيز الحميد من الذنب؟! إنّه الانحطاط الكبير الذى وصل إليه أولئك القوم، قد صوّر لهم أعزّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۴

و أفضل ما ينبغى للإنسان أن يفتخر به (الإيمان باللّه) على أنّه جرم كبير و ذنب لا يغتفر! ...

و ينقل لنا القرآن فى الآية (۵۹) من سورة المائدة شبيه هذه الحادثة، حينما قال السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السّلام لفرعون عند ما توعدهم بالعقاب المؤلم، فقالوا له: وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا.

و ذكر «العزيز الحميد» جواب لما اقترفوا من جريمة بشعة، و احتجاج على أولئك الكفرة، إذ كيف يكون الإيمان باللّه جرم و ذنب؟! و هو أيضا، تهديد لهم، بأن يأخذهم اللّه العزيز الحميد جراء ما فعلوا، أخذ عزيز مقتدر.

و تأتى الآية الاخرى لتبيّن صفتين أخريين للعزيز الحميد: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

فالصفات الأربعة المذكورة، تمثل رمز معبوديته جلّ و علا، فالعزيز و الحميد ..

ذو الكمال المطلق، و مالك السماوات و الأرض و الشهيد على كلّ شيء .. أحقّ أن يعبد وحده دون غيره، لا شريك له.

إضافة إلى كونها بشارة للمؤمنين، بحضور اللّه سبحانه و تعالى و رؤيته لصبرهم و ثباتهم على الإيمان، فيدفع فيهم الحيوية و النشاط و القوّة.

و من جهة اخرى تهديد للكفار، و إفهامهم بأن عدم منع ارتكاب مثل هذه الجرائم الخبيثة، ليس لعجز أو ضعف منه جلّ شأنه، و إنّما ترك العباد يفعلون ما يرونه هم، امتحانا لهم، و سيريهم فى عاقبة أمرهم جزاء ما فعلوا، و ما للظالمين إلّا العذاب المهين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۵

بحثان

۱- من هم أصحاب الأخدود؟

قلنا إنّ «الأخدود» هو الشق العظيم فی الأرض، أو الخندق .. و هو فی الآیة إشارة إلی تلک الخنادق التی ملأها الکفار نارا لیردعوا فیها المؤمنین بالتنازل عن إیمانهم و الرجوع إلی ما کانوا علیه من کفر و ضلال.

و لکن .. متی حدث ذلک؟ فی أیّ قوم؟ و هل حدث مرّة واحدة أم لمرّات؟ فی منطقة أم مناطق؟

جری بین المفسّرین و المؤرخین مخاض طویل بخصوص الإجابة عن هذه الأسئلة.

و المشهور: إنّ الآیة قد اشارت إلی قصة (ذو نواس)، و هو آخر ملوک «حمیر»[۷۲] فی أرض «الیمن».

و کان «ذو نواس» قد تهوّد، و اجتمعت معه حمیر علی الیهودیة، و سمّی نفسه (یوسف)، و أقام علی ذلک حینا من الدهر، ثمّ أخبر أنّ «بنجران» (شمال الیمن) بقایا قوم علی دین النصرانیة، و کانوا علی دین عیسی علیه السّلام و حکم الإنجیل، فحمله أهل دینه علی أن یسیر إلیهم و یحملهم علی الیهودیة، و یدخلهم فیها، فسار حتی قدم نجران، فجمع من کان بها علی دین النصرانیة، ثمّ عرض علیهم دین الیهودیة و الدخول فیها، فأبوا علیه، فجادلهم و حرص الحرص کلّه، فأبوا علیه و امتنعوا من الیهودیة و الدخول فیها، و اختاروا القتل، فاتخذ لهم أخدودا و جمع فیه الحطب، و أشعل فیه النّار، فمنهم من احرق بالنّار، و منهم من قتل بالسیف، و مثّل بهم کلّ مثلة، فبلغ عدد من قتل و احرق بالنّار عشرین ألفا.[۷۳] و أضاف بعض آخر: إنّ رجلا من بنی نصاری نجران تمکّن من الهرب،

فالتحق بالروم و شکا ما فعل (ذو نواس) إلی قیصر.

فقال قیصر: إن أرضکم بعیدة، و لکنّی سأکتب کتابا إلی ملک الحبشة النصرانی و أطلب منه مساعدتکم.

ثمّ کتب رسالته إلی ملک الحبشة، و طلب منه الانتقام لدماء المسیحیین التی أریقت فی نجران، فلمّا قرأ الرسالة تأثّر جدّا، و عقد العزم علی الانتقام لدماء شهداء نجران.

فأرسل کتائبه إلی الیمن و التقت بجیش (ذو نواس)، فهزمته بعد معرکة طاحنة، و أصبحت الیمن ولایة من ولایات الحبشة.[۷۴] و ذکر بعض المفسّرین: إنّ طول ذلک الخندق کان أربعین ذراعا، و عرضه اثنی عشر ذراع، (و کلّ ذراع یقرب من نصف متر، و أحیانا یقصد به ما یقرب من متر کامل).

و قیل: إنّها کانت سبعة أخادید، و کلّ منها بالحجم الذی ذکرناه.[۷۵] و ذکرت القصّة فی کتب تاریخیة و تفسیریة کثیرة، بتفاصیل متفاوتة، منها: ما ذکره المفسّر الکبیر الطبرسی فی (مجمع البیان)، و أبو الفتوح الرازی فی تفسیره، و الفخر الرازی فی (تفسیره الکبیر)، و الآلوسی فی (روح البیان)، و القرطبی فی تفسیره، و کذلک ابن هشام فی الجزء الأوّل من کتاب (السیرة) ص ۳۵ .. و غیرهم کذلک.

و قد تبیّن ممّا ذکرناه بأن العذاب الإلهی قد أصاب أولئک الذین قاموا بتعذیب المؤمنین، و انتقم منهم فی دنیاهم جراء ما هدروا من دماء زکیة بریئة، و أنّ عذاب نار الآخرة لفی انتظارهم.

و أوّل من أوجد المحارق البشریة فی التاریخ هم الیهود، و سرت هذه

الممارسة الخبیثة علی أیدی الطواغیت المجرمین، حتی شملت الیهود أنفسهم، کما حدث فی ألمانیا النّازیة حینما احرق جمع کبیر من الیهود فی محارق هتلر کما هو المشهور، فذاقوا «عذاب الحریق» فی دنیاهم قبل آخرتهم.

کما أصاب الخزی و العذاب (ذو نواس الیهودی) و هو مؤسس هذا الأسلوب القذر من الجریمة.

ذکرنا ما اشتهر بین أرباب التاریخ و التّفسیر من قصّة أصحاب الأخدود، و ثمّة روایات تذکر بأنّ هذه الجریمة البشعة ما اقتصرت علی

أهل الیمن فقط و لم تقف عند عصر (ذو نواس)، حتی قیل عشرة أقوال فی ذلک.

و

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال: «إنّهم کانوا مجوس، أهل کتاب، و کانوا متمسکین بکتابهم، فتناول ملکهم الخمرة فوقع علی أخته، و بعد أن أفاق ندم، فأعلن حلیة زواج الاخت، فلم یقبل النّاس، فهددهم فلم یقبلوا، فخدّ لهم الأخدود، و أوقد فیه النیران، و عرض أهل مملکته علی ذلک، فمن أبی قذفه فی النّار، و من أجاب خلّی سبیله»[۷۶].

هذا فی أصحاب فارس .. أمّا أصحاب أخدود الشام، فهم قوم مؤمنون أحرقهم (أنطیاخوس)[۷۷].

و قیل أیضا: إنّ هذه الواقعة تعود لأصحاب نبیّ اللّه دانیال من بنی إسرائیل، و قد أشیر إلی ذلک فی کتاب دانیال من التوراة.

و اعتبر الثعلبی: إنّهم هم الذین احرقوا فی أخدود فارس ۷۸] و لا یبعد انطباق قصة «أصحاب الأخدود» علی کلّ ما ذکر، و إنّ کان المشهور منها قصّة (ذو نواس) فی أرض الیمن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۸

۲- الإیمان الثابت

فی قصص الأولین و ما یجری عند الآخرین، ثمّة وقائع رائعة فی الثبات علی الإیمان فقد تحمل البعض الحرق فی النّار و أشدّ من ذلک علی أن یترک طریق الحقّ أو العدول عن دینه.

و ها هی «آسیة» زوجة فرعون شاخصة بما تحملت من عذاب بسبب تصدیقها بنبیّ اللّه موسی علیه السّلام و إیمانها برسالته، حتی انتهی بها المطاف للارتواء من کأس الشهادة.

و

فی حدیث عن الإمام علی علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه بعث رجلا حبشیا نبیّا، و هم حبشیة، فکذّبوه فقاتلهم، فقتلوا أصحابه، فأسروه و أسروا أصحابه، ثمّ بنوا له حیرا، ثمّ ملأوه نارا، ثمّ جمعوا النّاس فقالوا: من کان علی دیننا و أمرنا فلیعتزل، و من کان علی دین هؤلاء فلیرم نفسه فی النّار، فجعل أصحابه یتهافتون فی النّار، فجاءت امرأة معها صبی لها ابن شهر، فلمّا هجمت هابت و رقت علی ابنها، فنادی الصبی: لا تهابی، و ارمینی و نفسک فی النّار، فإنّ هذا و اللّه فی اللّه قلیل فرمت بنفسها فی النّار و صبیها، و کان ممن تکلم فی المهد»[۷۹].

و یفهم من هذه الرّوایة، إنّ فی الحبشة قسم رابع قد انطبقت علیهم قصّة «أصحاب الأخدود».

و من تاریخنا .. هناک قصّة عمار بن یاسر و أبویه و أمثالهم، و أهم من کلّ ذلک ما جری للحسین علیه السّلام و أصحابه فی میدان التضحیة و الفداء (کربلاء)، و کیف أنّهم قد تسابقوا علی شرف نیل و سام الشهادة، کما هو معروف فی التاریخ.

و ها هو عصرنا یرینا الکثیر من صور التضحیة و الفداء فی سبیل إعلاء کلمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۹

الحقّ و حفظ الدین القویم.

و ینبغی القول هنا: إنّ بقاء الدین الإلهی (علی مرّ العصور) مرتهن علی ما تقدّم فی سبیله من تضحیات مقدسة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۰

الآیات [سورة البروج (۸۵): الآیات ۱۰ الی ۱۶]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (۱۰) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (۱۱) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (۱۲) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (۱۳) وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (۱۴)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (۱۵) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (۱۶)

التّفسير

العذاب الالهى للمجرمين:

بعد ذكر عظم جريمة أصحاب الأخدود التى ارتكبت ضد المؤمنين بحرقهم و هم أحياء، يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى ما ينتظر أولئك الجناة من عذاب إلهى شديد، و يشير أيضا إلى ما اعدّ للمؤمنين من ثواب و نعيم جراء صبرهم و ثباتهم على إيمانهم باللّه.

فتقول الآية الاولى: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۱

عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ

«فتنوا»: من مادة (فتن)،- على زنة متن- و هو إدخال الذهب النّار لتظهر جودته من رداءته، و قد استعملت (الفتنة) بمعنى (الاختبار)، و بمعنى (العذاب و البلاء)، و بمعنى (الضلال و الشرك) أيضا.

و هى فى الآية بمعنى (العذاب)، على غرار ما جاء فى الآيتين (۱۳ و ۱۴) من سورة الذاريات: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا: تدلّ على أنّ باب التوبة مفتوح حتى لأولئك الجناة المجرمين، و تدلّ أيضا على مدى لطف البارى جلّ و علا على الإنسان حتى و إن كان مذنبا، و فى الجملة تنبيه لأهل مكّة ليسارعوا فى ترك تعذيب المؤمنين و يتوبوا إلى اللّه توبة نصوح.

فباب التوبة لا يغلق بوجه أحد، و ذكر العقاب الإلهى الشديد الأليم إنّما جاء لتخويف الفاسدين و المنحرفين عسى أن يرعووا و يعودوا إلى الحق مولاهم.

و قد ورد فى الآية لونين من العذاب الإلهى، عَذابُ جَهَنَّمَ و عَذابُ الْحَرِيقِ للإشارة إلى أن لعذاب جهنم ألوان عديدة، منها (عذاب النّار)، و تعيين «عَذابُ الْحَرِيقِ» للإشارة أيضا إلى أن الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات و أحرقوهم بالنّار، سوف يجازون بذات أساليبهم، و لكن، أين هذه النّار من تلك؟! فنار جهنم قد سجّرت بغضب اللّه، و هى نار خالدة و يصاحب داخليها الذلّ و الهوان، أمّا نار الدنيا، فقد أوقدها الإنسان الضعيف، و دخلها المؤمنون بعزّة و إباء و شرف ملتحقين بصفوف شهداء رسالة السماء الحقة.

و قيل: إنّ عَذابُ جَهَنَّمَ جزاء كفرهم، و عَذابُ الْحَرِيقِ جزاء ما اقترفوا بحق المؤمنين الأخيار من جريمة بشعة.

و تعرض لنا الآية التالية ما سيناله المؤمنون من ثواب: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۲

وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ.

و أىّ فوز أرقى و أسمى من الوصول إلى جوار اللّه، و التمتع فى نعيمه الذى لا يوصف! نعم، فمفتاح ذلك الفوز العظيم هو (الإيمان و

العمل الصالح)، و ما عداه فروع لهذا الأصل.

عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إشارة إلى أنّ العمل الصالح لا يختص بشيء محدد، بل ينبغى أن يكون محور حياة الإنسان هو: «العمل الصالح».

«ذلك»: إشارة للبعيد، و استعملت هنا لتبيان عظمة و أهمية المشار إليه، أيّ: إنّ فوزهم الكبير من عظمة الشأن، بقدر لا يخطر على بال أحد.

و يعود القرآن مرّة اخرى لتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين، فيقول: إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ.

و لا تظنوا بأن القيامة أمر خيالى، أو إنّ المعاد من الأمور التى يشك فى صحة تحققها، بل: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ.

«البطش»: تناول الشيء بصولة و قهر، و باعتباره مقدّمة للعقاب، فقد استعمل بمعنى العقاب و المجازاة.

«ربّك»: تسلية للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تأكيد دعم اللّه اللامحدود له.

و الجدير بالملاحظة، إنّ الآية تضمّنت جملة تأكيدات، لتبيان صرامة التهديد الإلهى بجديّة و قطع.

ف «البطش» يحمل معنى الشدّة المؤكّدة، و الجملة الاسمية عادة ما تأتى للتأكيد، و وصف البطش بأنّه «شديد»، و كذا وجود «إن»، و وجود لام التأكيد فى «لشديد»، هذا بالإضافة إلى التأكيد المتضمّن فى قوله تعالى: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ كدليل إجمالى على المعاد[۸۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۹۳

ثمّ يعرض لنا القرآن الكريم خمسة أوصاف للبارى جلّ شأنه: وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ الذى يغفر للتائبين و يحب المؤمنين.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ صاحب الحكومة المقتدرة على عالم الوجود و ذو المجد و العظيمة.

فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ.

«الغفور» و «الودود»: كلاهما صيغة مبالغة، و يشيران إلى منتهى الغفران و الود الإلهى، «الغفور» لعبادة المذنبين، و «الودود» المحب لعباده الصالحين.

فذكر هذه الأوصاف بعد ما تضمّنته الآيات السابقة من تهديد و وعيد، يبيّن أنّ طريق العودة إلى اللّه سالك و أنّ باب التوبة مفتوح لكلّ من ولغ فى الذنوب، فالبارى جلّت عظمته فى الوقت الذى هو شديد العقاب فهو الغفور الرحيم أيضا.

و على هذا الضوء ف «الودود» جاء بصيغة اسم الفاعل، و ليس كما قيل من أنّه اسم مفعول، ليكون المعنى: بأنّ اللّه له محبّون كثيرون، فهذا المعنى لا ينسجم مع الصفة السابقة «الغفور» و لا يتناسب مع سياق الكلام.

و صفة: «ذو العرش» كناية عن قدرته و حاكميته و مالكيته سبحانه و تعالى، و يتبيّن بهذا الوصف أنّ حكم عالم الوجود بيده جلّ و علا، فما شاء كان، و قوله تعالى: فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ من لوازم هذه الحاكمية المطلقة.

ف «ذو العرش» تشير إلى قدرته تعالى على: المعاد، إحياء الموتى و معاقبة الجبابرة و المجرمين و الذين يفتنون المؤمنين و المؤمنات.

«المجيد»: من (المجد)، و هو السعة فى الكرم و الجلال، و هى من الصفات المختصة باللّه سبحانه، و قلّما تستعمل لغيره.[۸۱] و بنظرة بسيطة إلى هذه الصفات المذكورة سيتراءى أمامنا ذلك الانسجام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۹۴

و الترابط فيما بينها فالغفور و الودود لمن له القدرة وسعة الكرم كى يفعل ما يريد، لا يمنعه شيء و لا يصد إرادته أمر، لأنّ إرادته فى مطلق القوّة و الدوام و لا يصيبها تردد أو فسخ، سبحانه و تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۹۵

الآيات [سورة البروج (۸۵): الآيات ۱۷ الى ۲۲]

اشارة

هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ الْجُنُودِ (۱۷) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (۱۸) بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی تَکْذِیبٍ (۱۹) وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِیطٌ (۲۰) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ (۲۱)

فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (۲۲)

التّفسیر

ألم تر ما حلّ بجیش فرعون و ثمود؟!

فیما تعرضت الآیات السابقة لقدرة اللّه المطلقة و حاکمیته، و لتهدید الکفار الذین یفتنون المؤمنین .. تتعرض الآیات أعلاه لما یؤکّد هذا التهدید ...

فتخاطب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قائلة: هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ الْجُنُودِ.

تلک الکتائب الجرارة التی وقفت بوجه أنبیاء اللّه علیهم السّلام بتصورها الساذج بأنّها ستقف أمام قدرة اللّه عزّ و جلّ.

و تشیر إلی نموذجین واضحین، أحدهما من غابر الزمان، و الآخر فی زمن قریب من صدر دعوة الإسلام: فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ.

فأحدهما ملک الشرق و الغرب، و الآخر وصلت مدنیته لأن یحفر الجبال لبناء البیوت و القصور الفخمة، و لهما من الجبروت ما لم یستطع أحد من الوقوف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۹۶

بوجههم، و لکنّ العزیز الجبار أهلکهم بالماء و الهواء، مع ما لهاتین المادتین من لطافة و لیونة، و ما یمثلانه باعتبارهما من الوسائل المهمّة المستلزمة لأساسیات حیاة الإنسان، فقد أغرقت أمواج و تیارات نهر النیل ذلک الطاغی (فرعون) و جنوده، فیما سلّط اللّه الهواء القارص بأعاصیر مدمرة اجتاحت قوم ثمود حتی قطعت دابرهم، فأهلکوا جمیعهم.

القرآن الکریم یذکّر مشرکی مکّة بذلک النموذجین لیعرفوا أنفسهم أمام اللّه تعالی، فإنّ کان اللّه قد أهلک تلک الجیوش العظیمة و بما تملک من عناصر القوّة بماء و هواء، فهل سیبقی لزمام أمورهم من شیء، و هم أضعف من أولئک! علما بأنّ البشر أمام اللّه بکلّ ما یحملون من قوّة فهم سواء، فلا فرق بین ضعیف و قوی ..

فأین الخالق من المخلوق! و إنّما اختیر قوم «فرعون» و «ثمود» دون بقیة الأقوام السالفة کنموذجین للعصاة و الضالین، باعتبارهما کانا یمتلکان قدرة و قوّة ممیزة علی بقیة الأقوام، و أهل مکّة علی معرفة بتاریخهما إجمالا.

و تقول الآیة التالیة: بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی تَکْذِیبٍ

فآیات و دلائل الحق لیست بخافیة علی أحد، و لکن العناد و اللجاجة هما اللذان یحجبان عن رؤیة طریق الحق و الإیمان.

و کأن «بل» تشیر إلی أنّ عناد و تکذیب أهل مکّة أشدّ و أکثر من قوم فرعون و ثمود و هم مشغولون دائما بتکذیب الحق و إنکاره و یستخدمون کلّ وسیلة فی هذا الطریق، (بلحاظ أن «بل» تستعمل عادة للاضراب: أی للعدول من شیء إلی شیء آخر).

و علیهم أن یعلموا بقدرة اللّه: وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِیطٌ.

فلا یدل الإمهال علی الضعف أو العجز، و لا یعنی عدم تعجیل إنزال العقوبة الإلهیة بأنّهم قد خرجوا عن قدرته جلّ شأنه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۹۷

و ما مجیء مِنْ وَرائِهِمْ إلّا للتعبیر عن کونهم فی قبضة القدرة الإلهیة من جمیع الجهات، و هو محیط بهم، و لیس لهم من مخلص عن

العذاب بحكم العدل الإلهى.

و ثمّـة من يـذهب بإرادة الإحاطة العلميّة فى الآية، أى .. إنّ اللّه تعالى محيط بأعمالهم من كلّ جهة، فلا يغيب عنه سبحانه أى قول أو عمل أو نيّة.

و تقول الآية التالية: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ذو مكانة سامية و مقام عظيم.

فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ، لا تصل إليه يد العبث، و الشيطنة، و لا يصيبه أىّ تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان.

فلا تبتأس يا محمّد بما ينسبونه إليك افتراء، كأن يتهموك بالشعر، السحر، الكهانة و الجنون .. فأصولك ثابتة، و طريقك نيّر، و القادر المتعال معك.

«مجيـد»:- كما قلنا- من (المجـد)، و هو السـعة فى الكرم و الجلال، و هو ما يصدق على القرآن تماما، فمحتواه واسع العظمة، و معانيه سامية على كافة الأصعدة العلميّة، العقائدية، الأخلاقية الوعظ و الإرشاد، و كذا فى الأحكام و السنن.

«لوح»- بفتح اللام-: هو الصفحة العريضة التى يكتب عليها، و (اللوح)- بضم اللام-: العطش، و الهواء بين السماء و الأرض.

الفعل الذى يشتق من الأوّل يأتى بمعنى الظهور و الانكشاف.

و يراد بـاللوح هنـا: الصـفحة الـتى كتب فيهـا القرآن، لكنّهـا ليست كالألـواح المتعارفـة عنـدنا، بـل (و على قول ابن عبـاس): إنّ اللوح المحفوظ طوله ما بين السماء و الأرض و عرضه ما بين المشرق و المغرب! و يبدو أنّ اللوح المحفوظ، هو «علم اللّه» الذى يملأ الشرق و الغرب، و مصان من أىّ اختلاق أو تحريف.

نعم، فالقرآن من علم المطلق، و ما فيه يشهد على أنّه ليس نتيجة إشراقة عقلية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۸

فى عقل بشر، و لا هو بنتاج الشياطين.

و يحتمـل أن يكون هو المقصود به «ام الكتاب» و «كتاب مبين» الواردان فى الآيـة (۳۹) من سورة الرعـد: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ و الآية (۵۹) من سورة الأنعام: وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ

علما بأنّ تعبير (لوح محفوظ) لم يرد فى القرآن إلّا فى هذا الموضع فقط.

اللّهم! زدنا معرفة بكتابك العظيم ...

اللّهم! ضمّنا بين جناح رحمتك يوم يفوز المؤمنون، و قنا غضبك يوم يهلك الكافرون و المجرمون فى عذاب الحريق ...

اللّهم! أنت الغفور الودود الرحيم، فعاملنا بمقتضى صفاتك، و لا تعاملنا بمقتضى أعمالنا ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة البروج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۹

سورة الطّارق

اشارة

مكيّة و عدد آياتها سبع عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۱

«سورة الطّارق»

محتوى السّورة:

تدور مواضيع السّورة حول محورين:

۱- محور المعاد و القيامة.

۲- محور القرآن الكريم و أهميته القيمة تبتدأ السّورة بجملة أقسام تبعث على التأمل و التفكير، ثمّ تشير إلى المراقبين الإلهيين على الإنسان.

و تنتقل السّورة لإثبات إمكانية المعاد من خلال الإشارة الى كيفية خلق الإنسان من نطفة.

فالقادر على خلق الإنسان من نطفة نتنة لقادر على إعادة حياته بعد موته.

و تعرض لنا السّورة بعد ذلك معالم المرحلة التالية من خلال تبيان بعض ملامح يوم القيامة، ثمّ تذكر جملة أقسام اخرى للتأكيد على أهمية القرآن، و من ثمّ نختم بإنذار الكفار بالعذاب الإلهى.

فضيلة السّورة:

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأها أعطاه اللّه بعدد كلّ نجم فى السماء

عشر حسنات»[۸۲].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «من كانت قراءته فى الفريضة ب (و السماء و الطارق) كان له عند اللّه يوم القيامة جاه و منزلة، و كان من رفقاء النبيّين و أصحابهم فى الجنّة»[۸۳]

و بديهى، أنّ التأمل بمحتوى السّورة و العمل على ضوءها هو الذى يضمن حصول ثوابها، و حركة اللسان الفارغة عن كل محتوى و تطبيق، لا تغنى عن الحق شيئا.

الآيات [سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ (۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (۲) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (۳) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (۴)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (۵) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (۶) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ (۷) إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (۸) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (۹)

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ (۱۰)

التّفسير

ممّ خلق الإنسان؟!

تبتدأ السّورة- كمثيلاتها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم- بعدّة أقسام بليغة تبعث على التأمل، و هى مقدمة لبيان أمر مهم.

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ .. وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ .. النَّجْمُ الثَّاقِبُ

«الطارق»: من (الطرق)- على زنـة برق- و هو الضـرب، و لهـذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاة، و (المطرقة) هى الآلة التى يطرق بها الحديد و غيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۴

و يقال للقادم ليلا (الطارق)، لأنّ البيوت عادة ما تغلق أبوابها ليلا، فكلّ قادم يلزمه و الحال هذه طرق الباب.

و عند ما جاء المنافق (الأشـعث بن قيس) لزيارة أمير المؤمنين عليه السّلام ليلا، جلب معه الحلوى، ظنا منه أنّ هذه الحلوى ستجعل من أمير المؤمنين عليه السّلام ظهيرا له فى قضية معينة.

فذكر الأمير عليه السّلام هذه الواقعة متعجبا و ذاما:

«و أعجب من ذلك طرقنا بملفوفة فى وعائها».[۸۴]

و يفسِّر القرآن الكريم «الطارق» بقوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ النجم اللامع الـذى مع علوّه الشاهق و كأنّه يريـد أن يثقب سـقف السـماء، و كأنّ نوره المتشعشع يريد أن يثقب ستار الليل الحالك، فيجلب الأنظار بميزته هذه.

و لكن، أىّ نجم هو الطارق؟ هل هو الثريا (لبعـدها الغائر فى عمق السـماء)، زحل، الزهرة، أم الشـهب (لما لها من نور جذّاب)، أم كل النجوم؟

ثمّـة احتمالات متباينـة فى هـذا الموضوع، و لكن وجود صـفة «الثاقب» لهـذا النجم تعطى الإشارة إلى أنّ النجوم المتلألئـة التى تثقب أنوارها ظلمة الليل، و تجذب الأنظار إليها، هى المرادة و ليس كلّ نجم.

و فسّرت بعض الرّوايات «النجم الثاقب» بكوكب (زحل) من المنظومة الشمسية لشدّة نوره و لمعانه.

و

روى أنّ منجما سأل الإمام الصادق عليه السّلام، بقوله: فما يعنى بالثاقب؟ قال: «لأنّ مطلعه فى السـماء السابعة، و أنّه ثقب بضوءه حتى أضاء السماء الدنيا، فمن ثمّ سمّاه اللّه النجم الثاقب»[۸۵].

و يعتبر (زحل) من أبعد النجوم أو الكواكب فى مجموعتنا الشمسية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۵

يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة، و يقع فى المدار السابع للشمس، و لذا عبّر عنه الإمام عليه السّلام بأنّه فى السماء السابعة.

و ما لهذا الكوكب من خصائص تؤهله لأن يقسم به، فهو أبعد ما يمكن رؤيته من منظومتنا الشمسـية، لذا فالعرب يشـبهون كلّ عال به، و يطلقون عليه أحيانا (شـيخ النجوم)[۸۶]، و له حلقـات رائعـة تحيـط به، و له أيضـا ثمانيـة أقمار، و تعتبر من حلقاته من أعجب ظواهر السماء.

و مع كلّ ما توصل إليه علماء الفلك بخصوصه، فثمّة أسرار لم يكشف عنها الستار بعد.

و قيل: إنّ لزحل عشرة أقمار، يمكن رؤية ثمانية منها بالناظور العادى (تلسكوب)، و لا يمكن رؤية الآخرين إلّا بالنواظير الكبيرة[۸۷].

و ممّا لا شك فيه، إنّ هذه الحقائق ما كانت مكتشفة فى عصر نزول الآية المباركة، و توصل إليها بعد قرون من نزولها.

و على أيـة حال، فيمكن تفسـير: النَّجْمُ الثَّاقِبُ بكوكب زحل، على اعتبار كونه أحـد مصاديقه الواضـحة، و لا ينافى تفسيره بأيـة نجوم اخرى عالية و وضاءة، فالتّفسير المصداقى كثير الاستعمال فى رواياتنا.

و فى الآية (۱۰) من سورة الصافات: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ فوصف «الشـهاب» بأنّه «ثاقب» يحمل الإشارة لاحتمال أنّ تكون الظاهرة السـماوية المـذكورة هى ظاهرة «الشـهب»، لتكون أحـد تفاسـير الآية المبحوثة، و يؤيد ذلك أيضا بعض ما ذكر فى شأن نزول الآية.[۸۸]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۶

و لنرى لأى شيء كان هذا القسم: إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ[۸۹].

يحفظ عليه أعماله، و تسجل كل أفعاله، ليوم الحساب.

كما جاء فى الآيات (۱۰- ۱۲) من سورة الإنفطار: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ

فلا تظنوا بأنّكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فثمّة عليكم ملائكة مأمورين يسجلون كلّ ما يبدر منكم .. و هذا ما له الأثر البالغ فى عملية إصلاح و تربية الإنسان. مع أنّ الآية لم تحدد هوية «الحافظ»، و لكن الآيات الاخرى تبيّن بأن «الحفظة» هم الملائكة و أنّ «المحفوظ» هو أعمال الإنسان من الطاعات و المعاصى.

و قيل: يراد بها حفظ الإنسان من الحوادث و المهالك، و لولا ذلك لما خرج الإنسان من الدنيا بالموت الطبيعى، و الأطفال بالخصوص.

أو المراد هو: حفظ الإنسان من وساوس الشيطان، و لو لا هذا الحفظ لما سلم أحد من وساوس شياطين الجنّ و الأنس.

و بلحاظ ما تتطرق إليه الآيات التالية (حول المعاد و الحساب الإلهى)، يكون التّفسير الأول أقرب من غيره و أنسب، و لو أنّ الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة غير بعيد عن مراد الآية.

و العلاقة ما بين المقسوم به و ما أقسم له وثيقة، حيث أنّ السماء العالية و النجوم التى تتحرك فى مسارات منظمة، دليل على وجود النظم و الحساب الدقيق فى عالم الوجود، فكيف يمكن أنّ نتصور بأنّ أعمال الإنسان دون باقى الأشياء لا تخضع لهذه السّنة، لتبقى سائبة بلا ضبط و تسجيل و ليس عليها من حافظ؟!! ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۷

ثمّ يستدل القرآن الكريم على المعاد فى مقابل من يقول باستحالة المعاد:

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ

و بهذا .. أخذ القرآن الكريم بأيدى الجميع و أرجعهم إلى أول خلقهم، مستفهما عمّا خلق منه الإنسان.

و بدون أن ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ و هو ماء الرجل الذى تسبح فيه الحيا من، و يخرج بدفق.

و يستمر فى تقريب المراد: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ

«الصلب»: الظهر: و «الترائب»: جمع (تريبة)، و هى- على ما هو مشهور بين علماء اللغة- عظام الصدر العليا و ضلوعه.

و كما يقول ابن منظور فى لسان العرب: قال أهل اللغة أجمعون: الترائب موضع القلادة من الصدر.

و ذكرت معان اخرى للترائب، منها: إنّها القسم الأمامى للإنسان (فى قبال الصلب، الذى هو ظهر الإنسان)، إنّها اليدان و الرجلان و العينان، إنّها عظام الصدر، أو ما يلى الترقوتين منه، و قيل: أربعة أضلاع من يمين الصدر و أربعة من يساره.

و أدناه، نذكر بعض الآراء الكثيرة للمفسّرين بخصوص المراد من «الصلب و الترائب» الواردة فى الآية المباركة.

۱- «الصلب» إشارة إلى الرجال، و «الترائب» إشارة إلى النساء، لأنّ فى الرجال مظهر الصلابة، و فى النساء مظهر الرقة و اللطافة.

و عليه، فالآية بصدد ذكر حيمن الرجل و بويضة المرأة، و منهما تتشكل نطفة خلق الإنسان.

۲- «الصلب» إشارة إلى ظهر الرجل، و «الترائب» إشارة إلى صدره، فيكون مراد الآية نطفة الرجل التى تقع ما بين ظهره و صدره.

۳- إرادة، خروج الجنين من رحم امّه، لأنّه يكون بين ظهرها و الجزء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۸

الأمامى لبدنها.

۴- قیل: إنّ فی الآیتین سرّا من أسرار التنزیل، و وجها من وجوه الأعجاز، إذ فیهما معرفة حقائق علمیّة لم تکن معروفة حینذاک و قد کشف عنها العلم أخیرا.

و إذا رجعنا إلی علم الأجنة وجدنا فی منشأ خصیّة الرجل و مبیض المرأة ما یفسر لنا هذه الآیات، التی حیرت الألباب، فقد ثبت أن خصیّة الرجل و مبیض المرأة فی بدایة ظهورهما فی الجنین یقعان فی مجاورة کلیة الجنین، أی بین وسط الفقرات (الصلب) و الأضلاع السفلی للصدر (الترائب) ثمّ مع نمو الجنین ینتقلان تدریجیا إلی الأسفل، و بما أن تکون الإنسان یمثل ترکیبا من نطفة الرجل و المرأة و المحل الأصلی لجهاز تولید النطفة فیهما هو بین الصلب و الترائب، أختار القرآن لذلک هذا التعبیر. و هذا ما لم یکن معروفا حینذاک.

و بعبارة اخری: إنّ کلّ من الخصیّة و المبیض فی بدء تکوینهما یجاور الکلی و یقع بین الصلب و الترائب، أی ما بین منتصف العمود الفقری تقریبا و مقابل أسفل الضلوع.[۹۰] و یشکل علی هذا التّفسیر ب: إنّ القرآن إنّما یقول: ماءٍ دافِقٍ یَخْرُجُ مِنْ بَیْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ فهو یمرّ من بینهما حال الخروج، فی حین لا یقول التّفسیر المذکور ذلک، و یشیر إلی محل تولیده بینهما أثناء النمو الجنینی، بالإضافة إلی أنّ تفسیر «الترائب» بأسفل الضلوع لا یخلو من نقاش.

۵- مراد الآیة، هو المنی، لأنّه فی الحقیقة مأخوذ من جمیع أجزاء البدن، و لذا عند ما یقذف إلی الخارج فإنّه یقترن مع انفعال و هیجان البدن کلّه و بعده فتور البدن بأجمعه، فیکون مقصود «الصلب» و «الترائب» فی هذه الحال تمام قسمی بدن الإنسان، الإمامی و الخلفی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۰۹

۶- و قیل أیضا: إنّ المصدر الأساس لتکوین المنی هو النخاع الشوکی الواقع فی ظهر الإنسان، ثمّ القلب و الکبد، فالأوّل یقع تحت أضلاع الصدر، و الآخر بین المکانین المذکورین، و علی هذا الأساس قالت الآیة: مِنْ بَیْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ

و یکفینا الرجوع إلی الآیات المبحوثة لدفع الغموض الحاصل، فالآیات تشیر إلی ماء الرجل دون المرأة، بقرینة «ماء دافق»، و هذا لا یصدق إلّا علی الرجل، و علیه یعود الضمیر فی «یخرج».

و علیه، فینبغی إخراج المرأة من هذه الدائرة، لیکون البحث منصبا علی الرجل فقط، و هو المشار إلیه فی الآیة.

و «الصلب و الترائب» هما ظهر الرجل و قسمه الأمامی، لأنّ ماء الرجل إنّما یخرج من هاتین المنطقتین ۹۱].

و هذا التّفسیر واضح، خال من أیّ تکلف، ینسجم مع ما ورد فی کتب اللغة بخصوص المصطلحین.

کما و یمکن أن تکون الآیة قد أشارت إلی حقیقة علمیة مهمّة لم یتوصل إلی اکتشافها بعد، و ربّما المستقبل سیکشف ما لم یکن بالحسبان.

و نصل مع القرآن إلی نتیجة ما تقدم من الذکر الحکیم: إِنَّهُ عَلی رَجْعِهِ لَقادِرٌ.

فالإنسان ترابا قبل أن یکون نطفة، ثمّ مرّ بمراحل عدیدة مدهشة حتی أصبح إنسانا کاملا، و لیس من الصعوبة بحال علی الخالق أن یعید حیاة الإنسان بعد أن نخرت عظامه و صار ترابا، فالذی خلقه من التراب أوّل مرّة قادر علی إعادته مرّة اخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۱۰

و قد ورد هذا المعنی فی الآیة (۵) من سورة الحج: یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، بالإضافة إلی الآیة (۶۷) من سورة مریم: أَ وَ لا یَذْکُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ یَکُ شَیْئاً.

و تصف لنا الآیة التالیة ذلک الیوم الذی سیرجع فیه الإنسان: یَوْمَ تُبْلَی السَّرائِرُ[۹۲].

«تبلی»: من (البلوی)، بمعنی الاختبار و الامتحان، و هو هنا الظهور و البروز، لأنّ الامتحان یکشف عن حقیقة الأشیاء و یظهرها.

«السرائر»: جمع (سریرة)، و هی صفات و نوایا الإنسان الداخلیة.

نعم، فأسرار الإنسان الدفینة ستظهر فی ذلک الیوم، «یوم البروز» و «یوم الظهور»، فسیظهر علی الطبیعة کلّ من: الإیمان، الکفر، النفاق، نیّة الخیر، نیّة الشر، الإخلاص، الریاء ...

و سیکون ذلک الظهور مدعاة فخر و مزید نعمة للمؤمنین، و مدعاة ذلّة و مهانة و حسرة للمجرمین ...

و ما أشد ما سیلاقی من قضی وطرا من عمره بین النّاس بظاهر حسن و نوایا خبیثة! و ما أتعسه حینما تهتک أقنعته المزیفة فیظهر علی حقیقته أمام کلّ الخلائق! و ربّما ذلک من أشدّ عذاب جهنم علیه ...

و تصف لنا الآیة (۴۱) من سورة الرحمن هیئتهم بالقول: یُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِیماهُمْ و کذا الآیات (۳۸- ۴۱) من سورة عبس: وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِکَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَ وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ عَلَیْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ.

نعم، فکما إنّ «الطارق» و النجوم الاخری تظهر من خفائها لیلا علی صفحة السماء، فکذا حال الإنسان فی عرصة یوم القیامة، فالحفظة و المراقبین الإلهیین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۱

المکلفین لتسجیل أعمال الإنسان سیظهرون کلّ شیء، کظهور ضوء النجم فی اللیل الداج.

عن معاذ بن جبل أنّه قال سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: و ما هذه السرائر التی تبلی بها العباد فی الآخرة؟

فقال: «سرائرکم هی أعمالکم من الصلاة و الصیام و الزکاة و الوضوء و الغسل من الجنابة و کلّ مفروض، لأنّ الأعمال کلّها سرائر خفیّة، فإن شاء الرجل قال صلیت و لم یصل، و إنّ شاء قال توضیت و لم یتوضأ، فذلک قوله تعالی یوم تبلی السرائر»[۹۳].

و لکن أشدّ صعاب ذلک الیوم علی الإنسان: فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ.

فلا یملک تلک القوّة التی تخفی أعماله و نیاته، و لیس له ذلک الظهیر الذی یعینه عن الخلاص من عذاب اللّه سبحانه و تعالی.

و قد ورد هذا المعنی فی آیات قرآنیة اخری، ففی ذلک الیوم: لا ناصر و لا معین، و لا یقبل فداء، و لا رجعة، و لیس من وسیلة للفرار من قبضة العدل حینها، إلّا وسیلة واحدة للنجاة و هی «الإیمان و العمل الصالح» فقط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۲

الآیات [سورة الطارق (۸۶): الآیات ۱۱ الی ۱۷]

اشارة

وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (۱۱) وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (۱۲) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (۱۳) وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (۱۴) إِنَّهُمْ یَکِیدُونَ کَیْداً (۱۵) وَ أَکِیدُ کَیْداً (۱۶) فَمَهِّلِ الْکافِرِینَ أَمْهِلْهُمْ رُوَیْداً (۱۷)

التّفسیر

خواء خطط الأعداء:

بعد أن تضمّنت الآیات السابقة استدلالا علی المعاد، بطریق توجیه الإنسان إلی بدایة خلقه، تعود هذه الآیات إلی المعاد مرّة اخری، لتشیر إلی بعض الأدلة الاخری علیه فتقول: وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ .. وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ .. إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ .. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ

«الرجع»: من (الرجوع)، بمعنی العود، و یطلق علی الأمطار اسم (الرجع) لأنّها تبدأ من میاه الأرض و البحار، ثمّ تعود إلیها تارة اخری عن طریق الغیوم، أو لأنّ هطول المطر یکون فی فواصل زمنیة مختلفة.

و يسمّى الغدير رجعا .. إمّا للمطر الذى فيه، و إمّا لتراجع أمواجه، و تردده فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۳

مكانه ۹۴].

«الصدع»: هو الشق فى الأجسام الصلبة.

و بملاحظة معنى «الرجع» فى الآية السابقة، نصل إلى أنّ مراد الآية بالصدع هو شق الأرض اليابسة بالأمطار، و خروج النباتات منها.

فالقسمان يشيران إلى إحياء الأراضى الميتة بالأمطار، و هذا ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم كدليل على إمكانية المعاد، كما فى قوله تعالى فى الآية (۱۱) من سورة «ق»: وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ

و هنا تتجسد بلاغة الأسلوب القرآنى، من خلال ربطه الدقيق فيما بين ما يقسم به و ما يقسم له.

و بعبارة اخرى، فالسّورة قد استندت إلى المقارنة فيما بين خلق الإنسان من نطفة و بين إحياء الأرض الميتة بالأمطار، فى استدلالها، و جاء شبيه هذا الاستدلال فى الآية (۵) من سورة الحج: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَ ... وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

و قيل أيضا: إنّ الآية: وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ تشير إلى دوران الكواكب فى مسارات معينة، كدوران الأرض حول نفسها و حول الشمس، و حركة الكواكب السيّارة للمنظومة الشمسية، و كذلك شروق و غروب الشمس و القمر و النجوم، حيث أنّ كلّ هذه الحركات تتضمّن الرجوع و العودة.

و هذا الرجوع علامة لرجوع النّاس العام إلى الحياة.

و لكن من خلال ما تقدم يظهر لنا أنّ التّفسير الأوّل أنسب و أقرب لقرائن السّورة، حيث أنّه أشارة إلى مسألة شقّ الأرض مع أدلة المعاد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۴

«القول الفصل»: هو القول أو الحديث الذى يفرق بين الحق و الباطل، و قيل:

هو فى الآية يشير إلى المعاد، بقرينة الآيات السابقة، و قيل أيضا: هو إشارة إلى القرآن، و هناك بعض الرّوايات عن أهل البيت عليهم السّلام تؤيد هذا المعنى. و قد ورد التعبير عن القيامة ب «يوم الفصل» فى الكثير من الآيات القرآنية.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد هو الإشارة إلى الآيات القرآنية و التى تتضمّن الحديث عن المعاد، و بذلك يتمّ الجمع بين التّفسيرين.

فقد روى عن الإمام على عليه السّلام: «إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّها ستكون فتنة!» قلت: فما المخرج منها يا رسول اللّه؟! قال: «كتاب اللّه فيه نبأ من قبلكم، و خبر ما بعدكم، و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه اللّه، و من ابتغى الهدى فى غيره أضله اللّه».[۹۵]

و تسلّى الآيات التالية قلب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين من جهة، و تتوعد أعداء الإسلام من جهة اخرى: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، فالكفار يخططون من جهة، و أنا أخطط لإحباط تلك الخطط من جهة اخرى .. وَ أَكِيدُ كَيْداً.

فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً، حتى يروا عاقبتهم! نعم، إنّهم دوما يكيدون فى حربك و الحرب ضد دينك.

فتارة بالاستهزاء ..

و اخرى بالحصار الاقتصادى ..

و مرّة بتعذيب المؤمنين ..

و اخرى يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه كى تنتصروا ..

و يقولون عنك: ساحرا، كاهنا، مجنونا ..

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۵

و يمارسون النفاق: بأن يؤمنوا بک صباحا و يكفروا مساء، کی يؤثّروا على البسطاء ..

و يقولون لک: أبعد الفقراء و المستضعفين عنک حتى نتّبعک و أحيانا يقولون: آمن ببعض آلهتنا حتى نؤمن بک ..

و يكيدون لإبعادک و قتلک ..

و الخلاصة: فشغلهم الشاغل هو: التخطيط المستمر لمواجهتک، لتفريق من آمن بک، و الضغط على أصحابک، أو قتلک لإطفاء نور اللّه بذلک! و لا يعلمون بأنّ اللّه متمّ نوره و لو كرهوا.

«الكيد»[۹۶]: ضرب من الاحتيال و التغلب على المشكل بتهيئة المقدمات، و فيه جنبة خفية، و قد يكون مذموما و ممدوحا كقوله تعالى: كَذلِکَ كِدْنا لِيُوسُفَ ۹۷]، و إن كان يستعمل فی المذموم أكثر.

و مراد الآية هو كيد الأعداء كما هو واضح، و قد تعرضنا لبعض نماذجه أعلاه، فيما تناولت هذا الموضوع آيات قرآنية كثيرة.

و لكن .. ما المقصود بالكيد الإلهی؟

قيل: إنّه الإمهال الذی ينتهی بالأخذ الشديد و العذاب الأليم.

و قيل أيضا: إنّه نفس العذاب الذی ينتظرهم.

و الأنسب أن يقال: إنّه تلک الألطاف الإلهية التی غمرت النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من معه من المؤمنين، و ما كان يصيب أعداء الإسلام من فشل مخططاتهم و خيبة مساعيهم.

و يحمل التاريخ الإسلامی بين طياته شواهد كثيرة على هذا المعنى.

و تأمر الآيات النبیّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- على الأخص- بأن يمهلهم و لا يتعجل على

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۶

عذابهم، و أنّ يتمّ الحجّة عليهم، فعسى أن يعود قسم منهم إلى رشده و يسلم و أساسا فالعجلة لمن يخاف الفوت، و هذا ما لا يصدق على القاهر القادر سبحانه و تعالى.

و الملاحظ فی الآية، إنّها شرعت ب فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ فيما أكّدت ذلک بقولها «أمهلهم»، فالأوّل من باب (التفعيل)، و الثّانی من باب (الأفعال) و قد جاء للتأكيد دون تكرار اللفظ بعينه.

«رويدا»: من (الرود)- على وزن عود- و هو التردد فی طلب الشیء يرفق، و لها هنا معنى مصدريا مع تصغير، أی أمهلهم مهلة صغيرة[۹۸].

و بهذا يوصی اللّه عزّ و جلّ نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی هذه الجملة المختصرة ثلاث مرات بامهال و مداراة الكافرين و هذا فی الحقيقة درس للمسلمين فی الكيفية التی ينبغی العمل بها عند مواجهة أعداءهم، و خصوصا إذا ما كانوا أعداء أقوياء و شرسين، فلا بدّ من الصبر و التأنی و الدقّة فی حساب خطوات المواجهة، و ينبغی عدم التسرع فی العمل، و كذا عدم تنفيذ القرارات غير المدروسة.

مضافا إلى التبليغ و الدعوة إلى الحق لا بدّ فيها من تجنب العجلة و التسرّع حتّى تتاح الفرصة لكلّ من يمكن هديه، فلا بدّ من تفهيم الإسلام بكل لطف و سعة صدر مع الدليل القاطع، و بهذا تتمّ الحجّة على الآخرين.

أمّا السبب فی طلب الإمهال القليل، ففيه احتمالين:

الأوّل: كان الإمهال لحين حدوث معركة بدر، حيث أحرز المسلمون فيها نصرا مبينا على الكفار بعد مدّة قليلة من نزول الآية.

و معركة بدر أوّل ضربة موجعة تلقاها المشركون من المسلمين، ثمّ تلتها ضربات فی معركة الأحزاب و معركة خيبر و غيرها، ممّا أفشل مخططات الكفرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۷

لدحر الإسلام.

و حینما وافی عمر النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الأجل، کان نور الإسلام قد غطی کلّ أرجاء شبه الجزیرة العربیة، و لم یمض قرن واحد علی عمر الرسالة الخاتمة حتی تفیئت معظم أجزاء العالم تحت ظله الآمن.

الثّانی: لأنّ عذاب القیامة سیقع حتما، و کلّ حتمی الوقوع قریب.

و علی أیّة حال، فقد بدأت السّورة بالقسم بالسماء و النجوم، و انتهت بتهدید الکافرین و المتآمرین علی الحقّ، و فیما بین البدء و الانتهاء، تعرضت إلی بعض أدلة المعاد بأسلوب رائع و مؤثر، و إلی بیان شیّق للرقابة الإلهیة علی أعمال الإنسان، بالاضافة إلی ما قدمته من تسلیة لترطیب خواطر المؤمنین، بلسان فی غایة اللطف البلیغ.

اللّهم، ردّ کید أعداء دینک، و لا سیما المتأخرین منهم الذین عاثوا فی الأرض فسادا، و اقطع دابر المتجبرین ...

اللّهم، سدّ عوراتنا یوم تبلی السرائر ...

اللّهم، لا قوّة لنا و لا ناصر سواک، فلا تکلنا لغیرک ...

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الطّارق***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۹

سورة الأعلی

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها تسع عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۱

«سورة الأعلی»

محتوی السّورة:

تحتوی السّورة علی قسمین من المواضیع:

القسم الأوّل: یحوی خطابا إلی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، یأمره الباری سبحانه فیه بالتسبیح و أداء الرسالة، ثمّ ذکر سبعا من صفات اللّه عزّ و جلّ، لها صلة ربط بالأمر الرّبانی إلی النبیّ الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

القسم الثّانی: یتحدث عن المؤمنین الخاشعین، و الکافرین الأشقیاء، و یتناول باختصار العوامل التی تؤدی إلی کل من السعادة و الشقاء الحقّ.

و فی آخر السّورة، یأتی التأکید علی أنّ ما جاء فی هذه السّورة لیس هو حدیث القرآن الکریم فقط، بل و تناولته کتب و صحف الأولین أیضا، کصحف إبراهیم و موسی علیهما السّلام.

فضیلة السّورة:

روی عن النبیّ الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأها أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد کلّ حرف أنزل اللّه علی إبراهیم و موسی و محمّد علیهم السّلام»[۹۹].

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا، أنّه قال: «من قرأ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی فی فرائضه أو نوافله قیل له یوم القیامهٔ ادخل الجنّهٔ من أیّ أبواب الجنّهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۲

شئت إن شاء اللّه»[۱۰۰].

و ورد فی روایات عدیدهٔ: إنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو أئمّهٔ أهل البیت علیهم السّلام، کانوا إذا قرءوا سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی قالوا: «سبحان ربّی الأعلی»[۱۰۱].

و

روی عن أحد أصحاب أمیر المؤمنین علیه السّلام، إنّه قال: صلیت خلفه عشرین لیلهٔ، و لیس یقرأ إلّا سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی و قال: «لو تعلمون ما فیها لقرأها الرجل کلّ یوم عشرین مرّهٔ، و أنّ من قرأها فکأنّما قرأ صحف موسی و إبراهیم الذی وفی»[۱۰۲].

و خلاصهٔ القول:

فیبدو أنّ السّورهٔ من الأهمیهٔ بحیث:

«کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یحب هذه السّورهٔ: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی کما روی عن الإمام علی علیه السّلام ۱۰۳].

و قد اختلف فی مکان نزول الآیهٔ، فمع أنّ المشهور، نزولها فی مکّهٔ، لکنّ ثمّهٔ من یقول بنزولها فی المدینهٔ.

و یرجح العلّامهٔ الطباطبائی (قدّس سرّه) أن یکون قسمها الأوّل مکّیا و الآخر مدنیا، فیقول: و سیاق الآیات فی صدر السّورهٔ سیاق مکّی، و أمّا ذیلها، أعنی قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکَّی إلخ فقد ورد فی طرق أئمّهٔ أهل البیت علیهم السّلام، و أنّ المراد به «زکاهٔ الفطرهٔ» و «صلاهٔ العید»، و من المعلوم أنّ الصوم و ما یتبعه من زکاهٔ الفطرهٔ و صلاهٔ العید إنّما شرّعت بالمدینهٔ بعد الهجرهٔ[۱۰۴].

و یحتمل أیضا أنّ الأمر بالصلاهٔ العید و الزکاهٔ الواردین فی آخر السّورهٔ، هما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۳

أمران عامان، و ما صلاهٔ و زکاهٔ الفطرهٔ إلّا مصداقان لهما، و التّفسیر بالمصداق کثیر فی روایات أهل البیت علیهم السّلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۱۲۳

علیه .. فلا یبعد أن تکون السّورهٔ کلّها مکّیهٔ کما هو المشهور، بقرینهٔ انسجام مقاطع الآیات الاولی منها و الأخیرهٔ أیضا.

و یصعب اعتبار کون بعضها مکّی و الآخر مدنی، خصوصا و أنّ الرّوایات تذکر، بأنّ کلّ مجموعهٔ من المسلمین حینما یصلون المدینهٔ، کانوا یقرءون هذه السّورهٔ لأهل المدینهٔ[۱۰۵].

فمن المستبعد أن یقرأ صدر السّورهٔ فی مکّهٔ، و من ثمّ ینزل ذیلها فی المدینهٔ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۴

الآیات [سورهٔ الأعلی (۸۷): الآیات ۱ الی ۵]

اشارهٔ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى (۱) الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّى (۲) وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدى (۳) وَ الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعى (۴)
فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (۵)

التّفسیر

تسبیح اللّه:

تبدأ السّورة بخلاصة دعوة الأنبیاء علیهم السّلام، حیث التسبیح و التقدیس أبدا للّه الواحد الأحد، فتخاطب النبیّ الأکرم صلّى اللّه علیه و آله و سلّم بالقول: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى

یذهب جمع من المفسّرین إلى أنّ المراد بال «اسم» هنا هو (المسمى)، فی حین قال آخرون هو (اسم اللّه) سبحانه و تعالى.

و لیس ثمّة فرق کبیر بین القولین، فالإسم یدّل على المسمى.

و على أیّة حال، فمراد الآیة أن لا یوضع اسمه جلّ شأنه فی مصاف أسماء الأصنام، و یجب تنزیه ذاته المقدسة من کلّ عیب و نقص، و من کلّ صفات المخلوق و عوارض الجسم، أی أن لا یحد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۵

فینبغی على المؤمنین ألّا یتعاملوا مع اسمه الجلیل کتعامل عبدة الأصنام، بأن یضعوا اسمه تعالى مع أسماء أصنامهم، و لا یفعلوا کما یفعل المجسمة، ممن وقعوا فی خطأ کبیر و فاحش حینما نسبوا إلى الباری جلّ جلاله الصفات الجسمیة.

الْأَعْلَى أی الأعلى من کلّ: أحد، تصوّر، تخیّل، قیاس، ظن، وهم، و من أی شرک بشقیه الجلی و الخفی.

رَبِّکَ إشارة إلى أنّه غیر ذلک الرّب الذی یعتقد به عبدة الأصنام.

و بعد ذکر هاتین الصفتین (الربّ و الأعلى)، تذکر الآیات التالیة خمس صفات تبیّن ربوبیة اللّه العلیا ..: الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّى فَسَوَّى من (التسویة)، و هی الترتیب و التنظیم، و یضم هذا المفهوم بین جناحیه کلّ أنظمة الوجود، مثل: النظام السماوی بنجومه و کواکبه، و الأنظمة الحاکمة على المخلوقات فی الأرض، و لا سیما الإنسان من حیث الروح و البدن.

أمّا ما قیل، من کونها إشارة إلى نظام الید أو العین أو اعتدال القامة، فهذا فی واقعه لا یتعدى أن یکون إلّا بیان لمصداق محدود من مصادیق هذا المفهوم الواسع.

و على أیّة حال، فنظام عالم الخلیقة، بدءا من أبسط الأشیاء، کبصمات الأصابع التی أشارت إلیها الآیة (۴) من سورة القیامة بَلى قادِرِینَ عَلى أَنْ نُسَوِّیَ بَنانَهُ و انتهاء بأکبر منظومة سماویة، کلها شواهد ناطقة على ربوبیة اللّه سبحانه و تعالى، و أدلة إثبات قاطعة على وجوده عزّ و جلّ.

و بعد ذکر موضوعی الخلق و التنظیم، تنتقل بنا الآیة التالیة إلى حرکة الموجودات نحو الکمال: وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدى

و المراد ب (قدّر)، هو: وضع البرامج، و تقدیر مقادیر الأمور اللازمة للحرکة باتجاه الأهداف المرسومة التی ما خلقت الموجودات إلّا لأجلها.

و المراد ب (هدى) هنا، هی: الهدایة الکونیة، على شکل غرائز و سنن طبیعیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۶

حاکمة على کل موجود (و لا فرق فی الغرائز و الدوافع سواء کانت داخلیة أم خارجیة).

فمثلا، إنّ اللّه خلق ثـدی المرأة و جعل فی اللبن لتغذیة الطفل، و فی ذات الوقت جعل عاطفة الامومة شدیدة عند المرأة، و من الطرف الآخر جعل فی الطفل میلا غریزیا نحو ثـدی امّه، فکلّ هـذه الاسـتعدادات و الـدوافع و شدّة العلاقة الموجودة بین الام و الابن و الثدی مقدّر بشکل دقیق، کی تکون عملیة السیر نحو الهدف المطلوب طبیعیة و صحیحة.

و هذا التقدیر الحکیم ما نشاهده بوضوح فی جمیع الکائنات.

و بنظرة ممعنة لبناء کلّ موجود، و ما یطویه فی فترة عمره من خطوات فی مشوار الحیاة، تظهر لنا بوضوح الحقیقة التالیة: (ثمّة برنامج و تخطیـط دقیق یحیط بکل موجود، و ثمّ‍ة یـد مقتـدرة تهـدیه و تعینه علی السیر علی ضوء ما رسم له)، و هـذه بحـد ذاتها علامـة جلیّة لربوبیة اللّه جلّ و علا.

و قـد اختص الإنسان بهدایـة تشـریعیة إضافة للهدایـة التکوینیة یتلقاها عن طریق الوحی و إرسال الأنبیاء علیهم السـلام، لتکتمل أمامه معالم الطریق من کافة جوانبه.

و توصلنا الآیة (۵۰) من سورة طه لهذا المعنی، و ذلک لمّا نقلت لنا سؤال فرعون إلی موسـی علیه السّـلام بقوله: فَمَنْ رَبُّکُما یا مُوسی فأجابه علیه السّلام: رَبُّنَا الَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی

و قد فهم قول موسـی علیه السّـلام بشـکل مجمل فی زمانه، و حتی فی زمان نزول الآیة المبارکة فی صدر الدعوة الإسلامیة، و لکنّ .. مع دوران عجلـة الأیّام، و تقـدم العلوم البشـریة، توصـل الإنسان إلی معارف کثیرة و منها ما یختص بمعرفـة أنواع أحوال الموجودات الحیّـة، فتوضـح قول موسـی علیه السّـلام أکثر فـأکثر، حتی کتبت آلاف الکتب فی موضوع (التقـدیر) و (الهدایـة التکوینیـة)، و مع ما توصل إلیه العلماء من معلومات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۷

باهرة، إلّا إنّهم یؤکّدون علی أنّ ما بقی خافی علیهم، هو أکثر بکثیر ممّا توصـلوا لمعرفته! و تشـیر الآیة التالیة إلی النباتات، و ما یخصّ غذاء الحیوانات منها: وَ الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعی

و استعمال کلمة أَخْرَجَ فیه وصف جمیل لعملیة تکوّن النباتات، حیث إنّه یتضمّن وجودها داخل الأرض فأخرجها الباری منها.

و ممّا لا شک فیه إنّ التغذیة الحیوانیة هی مقدمة لتغذیة الإنسان، و بالنتیجة فإنّ فائدة عملیة تغذیة الحیوان تعود إلی الإنسان.

ثمّ: فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوی

«الغثاء»: هو ما یطفـح و یتفرق من النبات الیابس علی سـطح الماء الجاری، و یطلق أیضا علی ما یطفـح علی سـطح القدر عند الطبخ، و یستعمل کنایة عن: کلّ ضائع و مفقود، و جاء فی الآیة بمعنی: النبات الیابس المتراکم.

«أحوی»: من (الحوة)- علی زنة قوّة- و هی شدّة الخضرة، أو شدّة السواد، و کلاهما من أصل واحد، لأنّ الخضرة لو اشتدّت قربت من السواد، و جاء فی الآیة بمعنی: تجمع النبات الیابس و تراکمه حتّی یتحول لونه تدریجیا إلی السواد.

و یمکن أن یکون اختیار هذا التعبیر فی مقام بیان النعم الإلهیة، لأحد أسباب ثلاث:

الأوّل: إنّ حال هذه النباتات یشـیر بشـکل غیر مباشـر إلی فناء الدنیا، لتکون دوما درسا و عبرة للإنسان، فهی بعد أن تنمو و تخضـر فی الربیع، شـیئا فشـیئا ستیبس و تموت بعـد مرور الأیّام علیهـا، حتی یتحول جمالهـا الزاهی فی فصـل الربیع إلی سواد قاتم، و لسان حالها یقول بعدم دوام الدنیا و انقضائها السریع.

الثّانی: إنّ النباتـات الیابسـة عنـد مـا تتراکم، فسـتتحول بمرور الوقت إلی سـماد طبیعی، لیعطی الأرض القـدرة اللازمـة لإخراج نباتات جدیدة اخری

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۸

الثّالث: إنّ الآیة تشیر إلی تکوّن الفحم الحجری من النباتات و الأشجار.

فکما هو معلوم، إنّ الفحم الحجری، و الذی یعتبر من المصادر المهمّة للطاقة، قد تکوّن من النباتات و الأشجار التی یبست منذ ملایین السنین، و دفنت فی الأرض حتی تحجرت و اسود لونها بمرور الزمان.

و یعتقد بعض العلماء، بأنّ مناجم الفحم الحجری قد تکوّنت من جراء النباتات الیابسة المدفونة فی داخل الأرض منذ (۲۵۰) ملیون سنة تقریبا! و لو أخذنا بنظر الاعتبار مقدار الاستهلاک الفعلی للفحم الحجری فی العالم، لوجدنا أنّها تؤمن احتیاج النّاس لأکثر من (۴۰۰۰) سنة.

و تفسیر الآیة بالمعنی الأخیر دون غیر بعید حسب الظاهر، و لا یستبعد أن تکون الآیة قد أرادت کل ما جاء فی المعانی الثلاث أعلاه.

و علی أیّة حال، فللغثاء الأحوی منافع کثیرة .. فهو غذاء جید للحیوانات فی الشتاء، و یستعمل کسماد طبیعی للأرض، و کذا یستعمله الإنسان کوقود.

فما ذکرته الآیات من صفات الربوبیة، الأعلی، الخلق، التسویة، التقدیر، الهدایة و إخراج المرعی، توصلنا إلی الربوبیة الحقّة للّه جلّ و علا، و بقلیل من التأمل یتمکن أیّ إنسان من إدراک هذا المعنی، لیصل نور الإیمان إلی قلبه، فیشکر المنعم علی ما أعطی.

بحث

مسألة التقدیر و الهدایة العامّة للموجودات، التی تناولتها الآیات الآنفة الذکر کمظهر من مظاهر ربوبیة اللّه عزّ و جلّ، تعتبر من المسائل الحیویة و التی کلما تقدم الزمان و توسعت مدارک و علوم الإنسان، إزداد فی الوصول إلی حقائق جدیدة تضاف إلی معلوماته السابقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۲۹

فالاکتشافات العلمیة الجدیدة فی کلّ یوم تحیطنا علما لرؤیة وجوه جدیدة رائعة لتقدیر اللّه مخلوقاته و هدایته لها.

و یزیّن المفسّرون تفاسیرهم ببعض النماذج من تلک الأسرار الرائعة فی خصوص الهدایة التکوینیة لحرکة الحیوانات، و اعتمد البعض علی ما ذکره العالم المعروف (کریسی موریسن) فی کتابه (أسرار خلق الإنسان)، و إلیکم مختصرا ممّا جاء فیه:

۱- تقطع الطیور المهاجرة- فی بعض الأحیان- آلاف الکیلومترات فی السنة، عابرة الصحاری و الغابات و البحار، و عند عودتها تعرف طریق موطنها الأصلی بکل دقّة، و لا تضل عنه أبدا.

و من النحل ما یبتعد عن خلیته لمسافات بعیدة جدّا، و لکنّه یعود إلی خلیته بکلّ سهولة و یسر، فی حین نری الإنسان فی حال عودته إلی وطنه یحتاج إلی عناوین و علامات دقیقة، حتی لا یضل الطریق! ۲- الحشرات تتمتع بعیون مجهریة ذات دقّة فائقة حیّرت عقول العلماء، من حیث بنائها و قدرتها علی النظر فی حین أن عیون الصقور تلسکوبیة تعینها علی النظر لمسافات بعیدة جدّا.

۳- حینما یسیر الإنسان بین عتمة اللیل الداکنة فلا بدّ له من إضاءة تعینه فی مسیره، إلّا أنّ کثیرا من الطیور تصل أهدافها فی حلکة اللیل الدامس، مستعینة بما لعیونها من قدرة علی التحسس بالأشعة ما دون الحمراء! و لبعضها مراکز حسّاسة تشبه فی عملها الرادارات المتطورة! ۴- للکلاب حاسة شم ممیزة، تستطیع من خلالها معرفة أیّ کائن حی یقع فی طریقها، و هذا ما لا یتوفر عند الإنسان، بالرغم من التقدم التقنی الذی وصل إلیه.

۵- حاسة السمع عند جمیع الحیوانات أقوی و أدق من سمع الإنسان بدرجات، علی الرغم من استعمال الإنسان للأجهزة العلمیة المتطورة فی سمعه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۳۰

بحیث یستطیع أن یستمع إلی حرکة أجنحة ذبابة علی بعد عدّة کیلومترات منه! و لعل السرّ فی هذا التفاوت بین قدرة حواس الإنسان و الحیوان، یرجع إلی القدرة العقلیة المودعة فی الإنسان، و التی بها یسد کلّ نقص، فیما لا تمتلک الحیوانات هذه القدرة الفعالة ۶- و

ثمّة حركة عجيبة عند بعض الأسماك الصغيرة، فهى تقضى السنين من عمرها فى البحار، و لكن حين يحين وقت وضع البيض، فإنّها تترك البحار متجهة إلى تلك الأنهار التى فيها ولدت، فتسير بعكس التيار لمدّة طويلة حتى تصل إلى مسقط رأسها، المكان المناسب لتكاثرها! ۷- و الأعجب منها حياة بعض الأسماك و حيوانات الماء التى تسلك فى حياتها عكس الصنف السابق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۱

الآيات [سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۶ الى ۱۳]

اشارة

سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى (۶) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى (۷) وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرى (۸) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (۹) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (۱۰)

وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (۱۱) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى (۱۲) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (۱۳)

التّفسير

التوفيق الرّبانى:

فيما كان الحديث فى الآيات السابقة عن ربوبية اللّه و توحيده جلّ شأنه، و الهداية العامّة للموجودات، و كذا عن تسبيح الرّب الأعلى .. تأتى الآيات أعلاه لتتحدث عن: القرآن و النّبوّة، و هداية الإنسان، و كذا البيان القرآنى للتسبيح.

فتقول الآية الاولى مخاطبة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى

فلا تتعجل نزول القرآن، و لا تخف من نسيان آياته، فالذى أرسلک بهذه الآيات لهداية البشرية كفيل بحفظها، و يخطها على قلبک الطاهر بما لا يمكن لآفة النسيان من قرض و لو حرف واحد منها أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۲

و تدخل الآية فى سياق الآية (۱۱۴) من سورة طه: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْکَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً، و كذا الآية (۱۶) من سورة القيامة:

لا تُحَرِّکْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ تدخل فى سياقهما.

و لإثبات قدرته سبحانه و تعالى، و أنّ كلّ خير منه، تقول الآية: إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى

و لا يعنى هذا الاستثناء بأنّ النسيان قد أخذ من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وطرا، و إنّما هو لبيان أنّ قدرة حفظ الآيات هى موهبة منه سبحانه و تعالى، و مشيئته هى الغالبة أبدا، و إلّا لتزعزعت الثقة فى قول النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بعبارة اخرى، إنّما جاء الاستثناء لتبيان الفرق بين علم اللّه تعالى الذاتى، و علم النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المعطى له من بارئه.

و الآية تشبه إلى حد ما ما جاء فى الآية (۱۰۸) من سورة هود، بخصوص خلود أهل الجنّة: وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّکَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ.

ف خالِدِينَ فِيها دليل على عدم خروج أهل الجنّة منها أبدا، فإذن .. عبارة إِلَّا ما شاءَ رَبُّکَ تكون إشارة إلى حاكمية الإرادة و القدرة الإلهية، و ارتباط كلّ شىء بمشيئته جلّ و علا، سواء فى بداية الوجود أم فى البقاء.

و ممّا يشهد على ذلک أيضا .. أنّ حفظ بعض الأمور و نسيان اخرى تعتبر حالة طبيعية بين بنى آدم، و لكنّ اللّه تعالى ميزّ حبيبه

المصطفى بأن جعل فيه ملكة حفظ جميع آيات القرآن، و الأحكام و المعارف الإسلامية، حينما خاطبه ب: سَنُقْرِئُکَ فَلا تَنْسى

و قيل: أريد بهذا الاستثناء تلك الآيات التى نسخ محتواها و نسخت تلاوتها أيضا.

و لكن لعدم ثبوت وجود هكذا آيات، فلا يمكننا الاعتماد على هذا القول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۳

الآنف أعلاه.

و قيل أيضا: إنّ الاستثناء يختص بقراءة بعض الآيات، فعلى هذا يكون مفهوم الآية هو: إنّنا سنقرئك آيات القرآن إلّا بعض الآيات التى أراد اللّه عزّ و جلّ أن تبقى فى مخزون علمه ..

و لا يتوافق هذا القول مع سياق الآية.

أمّا جملة: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى فلبيان علّة أمر تضمّنته جملة سَنُقْرِئُکَ أى: إنّ العليم جلّ اسمه عالم بجميع حقائق الوجود، أمّا ما يوحيه إليك، فهو ما يحتاج إليه البشر، و يصلك بالكامل دون أن ينقص منه شيء.

و قيل أيضا: إنّ مراد الآية هو: على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يتعجل فى أخذ الوحى، و أنّ لا يخشى نسيانه، فاللّه الذى يعلم الأمور ما خفى منها و ما ظهر، سوف لا يتركه و قد تعهد له بالحفظ.

و على أيّة حال، فمن معاجز النبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قابليته على حفظ الآيات و السور الطوال بعد تلاوة واحدة من جبرائيل عليه السّلام، دون أنّ ينسى منها شيئا أبدا.

و تخاطب الآية التالية النبىّ الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مسلية له: وَ نُيَسِّرُکَ لِلْيُسْرى ۱۰۶].

أى، إخبار النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بصعوبة الطريق فى كافة محطاته، من تلقى الوحى و حفظه حتى البلاغ و النشر و التعليم و العمل به، و تطمئنه بالرعاية و العناية الربانية، بتذليل صعابه من خلال تيسيرها له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يمكن كذلك أن تكون إشارة الآية إلى أن طبيعة الرسالة الإسلامية و التكاليف التى تضمّنتها، طبيعة سهلة و سمحة، خالية من الحرج و المشقّة.

و هذا المعنى يعطى شمولية أكثر لمفهوم الآية، بالرغم من أنّ أكثر المفسّرين قد حددوا الآية ببعد واحد من أبعاد مفهومها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۴

و حقّا، فلو لا- توفيق اللّه و تيسيره للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما أمكنه من التغلب على كل تلك المشاكل و الصعاب التى واجهته فى حياته الرسالية، و حياته الشريفة تنطق بذلك.

فنراه بسيطا فى لباسه، قنوعا فى طعامه، متواضعا فى ركوبه، و تارة ينام على الفراش و اخرى على التراب بل و على رمال الصحراء أيضا.

فليس فى حياته الشريفة أىّ تكلف، و لا أدنى تشريف من التشريفات الزائفة الواهية المحيطة بزعماء و رؤساء أىّ قوم أو أمّه.

و بعد أن تبيّن الآيات العناية الرّبانية للنّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، تنتقل إلى بيان مهمته الرئيسية: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى

قيل: الإشارة هنا إلى أنّ التذكير بحدّ ذاته نافع، و قليل أولئك من الذين لا ينتفعون به، و الحد الأدنى للتذكير هو إتمام الحجّة على المنكرين، و هذا بنفسه نفع عظيم ۱۰۷].

و لكن ثمّة من يعتقد أنّ فى الآية محذوف، و التقدير: (فذكّر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع)، و هذا يشبه ما جاء فى الآية (۱۸) من سورة النحل: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ، فذكر «الحر» و أضمر (البرد) لوضوحه بقرينة المقابلة.

و هناك من يؤكّد على أنّ الجملة الشرطية فى الآية، لها مفهوم، و المراد: أنّه يجب عليك التذكير إذا كان نافعا، فإن لم يكن نافعا فلا يجب.

و قیل: «إن»:- فی الآیة- لیست شرطیة، و جاءت بمعنی (قد) للتأکید و التحقیق، فیکون مراد الآیة: (ذکر فإنّ الذکری مفیدة و نافعة).

و یبدو لنا أنّ التّفسیر الأوّل مرجح علی بقیة التّفاسیر الثّلاث، بقرینة سلوک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۳۵

النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی نشره الإسلام، تبلیغه الحق، فإنّه کان یعظ و ینذر الجمیع.

و تقسم الآیات التالیة النّاس إلی قسمین، من خلال مواقفهم تجاه الوعظ و الإنذار، الذی مارسه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ...: سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشی نعم، فإذا ما فقد الإنسان روح «الخشیة»، و الخوف ممّا ینبغی أن یخاف منه، و إذا لم تکن فیه روحیة طلب الحق- و التی هی من مراتب التقوی- فسوف لا تنفع معه المواعظ الإلهیة، و لا حتّی تذکیرات الأنبیاء ستنفعه، علی هذا الأساس کان القرآن «هدی للمتقین».

و تذکر الآیة التالیة القسم الثّانی، بقولها: وَ یَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَی ۱۰۸].

و جاء عن ابن عباس، إنّ الآیة السابقة: سَیَذَّکَّرُ مَنْ یَخْشی نزلت فی (عبد اللّه بن ام مکتوم)[۱۰۹]، ذلک البصیر المؤمن الذی جاء إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم طلبا للحق و التبصر به.

و روی، إنّ الآیة: وَ یَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَی نزلت فی (الولید بن المغیرة) و (عتبة بن ربیعة) من رؤوس الشرک و الکفر[۱۱۰].

و قیل: یراد بالأشقی، المعاندین للحق بعداء، فالنّاس علی ثلاثة أقسام: إمّا عارف و عالم، و إمّا متوقف شاک، أو معاند، و أفراد الطائفة الاولی و الثّانیة ینتفعون من التذکیر طبیعیا، فیما لا ینفع القسم الثّالث منهم، و لیس للتذکیر من أثر علیه سوی إتمام الحجّة.

و یفهم من سیاق الآیة، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان ینذر و یعظ حتی المعاندین، لکنّهم کانوا یتجنبونه و یهربون منه.

یبدو من خلال الآیتین الآنفتی الذکر أنّ «الشقاء» یقابل «الخشیة» فی حین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۳۶

أنّ (السعادة) هی التی تقابله، و لعل هذا التقابل یستبطن حقیقة کون أساس سعادة الإنسان مبنیة علی إحساسه بالمسؤولیة و خشیته.

و یعرض لنا القرآن عاقبة القسم الثّانی: الَّذِی یَصْلَی النَّارَ الْکُبْری .. ثُمَّ لا یَمُوتُ فِیها وَ لا یَحْیی

أیّ، لا یموت لیخلص من العذاب، و لا یعیش حیاة خالیة من العذاب، فهو أبدا یتقلقل بالعذاب بین الموت و الحیاة! و لکن ما هی «النّار الکبری»؟

قیل: إنّها أسفل طبقة فی جهنم، و أسفل السافلین، و لم لا یکون ذلک و هم أشقی النّاس و أشدّهم عنادا للحق.

و قیل أیضا: إنّ وصف تلک النّار ب «الکبری» مقابل (النّار الصغری) فی الحیاة الدنیا.

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّه قال: «إنّ نارکم هذه جزء من سبعین جزء من نار جهنّم، و قد أطفئت سبعین مرّة بالماء ثمّ التهبت و لولا ذلک ما استطاع آدمی أن یطیقها»[۱۱۱].

و فی وصف نسبة بلاء الدنیا إلی بلاء الآخرة، یقول أمیر المؤمنین علیه السّلام، فی دعاء کمیل: «علی أنّ ذلک بلاء مکروه قلیل مکثه، یسیر بقاؤه، قصیر مدّته ...».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۳۷

الآیات [سورة الأعلی (۸۷): الآیات ۱۴ الی ۱۹]

اشارة

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (۱۴) وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (۱۵) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (۱۶) وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (۱۷) إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (۱۸)

صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى (۱۹)

التّفسير

أسس دعوة الأنبياء جميعا عليهم السّلام:

بعد أن عرضت الآيات السابقة صورة العذاب و معاناة أهله، يأتى الحديث عن الذين نفعتهم الذكرى، ممن استمعوا إلى دعوة الهدى فطهروا أنفسهم من المعاصى و الآثام، و خشعت قلوبهم لذكر اللّه .. و يقول القرآن: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى

فأساس الفلاح بالنجاة من العذاب و الفوز بالنعيم الخالد، يعتمد على ثلاثة أركان رئيسية: «التزكية»، «ذكر اسم اللّه» و «الصلاة».

و قيل فى معنى «التزكية» عدّة أقوال:

الا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۳۸

أوّل: تطهير الروح و تزكيتها من الشرك، بقرينة الآيات السابقة، و باعتبار أن التطهير من الذنوب و عبادة اللّه، يعتمد بالأساس على التطهير من الشرك، فهو مقدمته اللازمة.

الثّانى: تطهير القلب من الرذائل الأخلاقية، و القيام بالأعمال الصالحة، بدلالة آيات الفلاح الواردة فى كتاب اللّه الكريم، كالآيات الاولى من سورة المؤمن التى ذكرت أعمالا صالحة بعد أن قالت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و كذا الآية (۹) من سورة الشمس التى قالت، بعد ذكر مسألة التقوى و الفجور: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها.

الثّالث: «زكاة الفطرة» التى تؤدى يوم عيد الفطر، لأنّها تدفع أوّلا ثمّ يصلى صلاة العيد، و هذا المعنى قد ورد فى جملة رّوايات، رويت عن الإمام الصادق عليه السّلام ۱۱۲]، كما و روى فى كتب أهل السنة ما يؤيد هذا المعنى نقلا عن أمير المؤمنين عليه السّلام ۱۱۳].

و يواجه القول الثّالث بالإشكال التالى: إنّ سورة الأعلى مكيّة، فى حين أن تشريع زكاة الفطرة و صوم شهر رمضان و صلاة العيد قد نزل فى المدينة.

فأجاب البعض: لا مانع من اعتبار أوائل آيات السّورة مكّية و أواخرها مدنية، فتكون الآيات المبحوثة مدنية.

و يحتمل أن يكون التّفسير المذكور من قبيل بيان مصداق واضح للآية، و ليس مطلق مراد الآية.

الرّابع: يراد ب «التزكية» فى الآية بمعنى: إعطاء الصدقة.

المهم أن «التزكية» ذات مداليل واسعة تشمل: تطهير الروح من الشرك، تطهير الأخلاق من الرذائل، تطهير الأعمال من المحرمات و الرياء، تطهير الأموال و الأبدان بإعطاء الزكاة و الصدقات فى سبيل اللّه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۳۹

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها.

و بهذا تجمع كلّ الأقوال المذكورة لتدخل فى مفهوم التزكية الواسع المداليل.

و الجدير بالذكر أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن التزكية أولا، ثمّ ذكر اللّه ثمّ الصلاة.

و قد أشار بعض المفسّرين إلى هذه المراتب، بعد أن جدولها بالمراحل العملية الثلاثة للمكلف:

الاولى: إزالة العقائد الفاسدة من القلب.

الثّانية: حضور معرفة اللّه و صفاته و أسمائه فى القلب.

الثّالثة: الإشتغال بخدمته و فى سبيله جلّ و علا.

و يمكن القول: إنّ الصلاة فرع لذكر اللّه، فإذا لم يذكر الإنسان ربّه، لم يسطع نور الإيمان فى قلبه، و عندها فسوف لن يقوى على الوقوف للصلاة، و الصلاة الحقّة هى تلك التى يصاحبها التوجّه الكامل و الحضور التام بين يديه عزّ و جلّ و هذان التوجّه و الحضور إنّما يحصلان من ذكره سبحانه و تعالى.

أمّا ما ذكره البعض، من أنّ ذكر اللّه هو قول «اللّه أكبر» أو «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» فى بداية الصلاة، فإنّما هو بيان لأحد مصاديق الذكر ليس إلّا.

و يشير البيان القرآنى إلى العامل الأساس فى عملية الانحراف عن جادة الفلاح: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا .. وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى

و نقل الحديث النّبوى الشريف هذا المعنى، بقوله: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[۱۱۴].

فالإنسان العاقل لا يجيز لنفسه أن يبيع الدار الباقية بأمتعة فانية، و لا أن يستبدل اللذائذ المحدودة و المحفوفة بألوان الآلام بالنعم الخالدة و النقية الخالصة.

و تختم السّورة ب: إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى .. صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى ۱۱۵].

و لكن، ما المشار إليه ب «هذا»؟

فبعض قال: إنّه إشارة إلى الأمر بالتزكية و ذكر اسم اللّه و الصلاة و عدم إيثار الحياة الدنيا على الآخرة.

و ذلك من أهم تعاليم جميع الأنبياء عليهم السّلام، كما و ورد هذا الأمر فى جميع الكتب السماوية.

و اعتبره آخرون: إنّه إشارة لجميع ما جاء فى السّورة، حيث أنّها ابتدأت بالتوحيد مرورا بالنبوة حتى ختمت بالأعمال.

و على أيّة حال، فهذا التعبير يبيّن أهميّة محتوى السّورة، أو خصوص الآيات الأخيرة منها، حيث اعتبرها من الأصول الأساسية للأديان، و ممّا حمله جميع الأنبياء عليهم السّلام إلى البشرية كافة.

«الصحف»: جمع و (صحيفة)، و هى اللوح الذى يكتب عليه.

و نستدل بالآية الأخيرة بأنّ لإبراهيم و موسى عليهما السّلام كتبا سماوية.

و

روى عن أبى ذر رضى اللّه عنه، إنّه قال: قلت يا رسول اللّه، كم الأنبياء؟

فقال: «مائة ألف نبى و أربعة و عشرون ألفا».

قلت: يا رسول اللّه، كم المرسلون منهم؟

قال: «ثلاثمائة و ثلاثة عشر، و بقيتهم أنبياء».

قلت: كان آدم عليه السّلام نبيّا؟

قال: «نعم، كلمة اللّه و خلقه بيده .. يا أبا ذرّ، أربعة من الأنبياء عرب: هود و صالح و شعيب و نبيّك». قلت: يا رسول اللّه، كم أنزل اللّه من كتاب؟

قال: «مائة و اربعة كتب، أنزل اللّه منها على آدم عليه السّلام عشر صحف، و على شيث خمسين صحيفة، و على أخنوخ و هو إدريس ثلاثين صحيفة، و هو أوّل من خط بالقلم، و على إبراهيم عشر صحائف، و التوراة و الإنجيل و الزّبور و الفرقان»[۱۱۶].

(أنزلت على موسى و عيسى و داود و محمّد على نبيّنا و آله و عليهم السلام).

و «الصحف الاولى»: مقابل «الصحف الأخيرة» التى أنزلت على المسيح عليه السّلام و على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

بحث

شرح الحديث الشريف: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»

لما كان تفضيل الآخرة على الدنيا من الأمور الجليّة لدى المؤمنين، فكيف تصيب الغفلة الإنسان المؤمن فيقع فى فخ الخطايا و الذنوب؟! و يكمن الجواب فى جملة واحدة: عند غلبة الشهوات على وجود الإنسان و مصدر قوّة الشهوات هو: حبّ الدنيا.

يتضمّن حبّ الدنيا: حبّ المال، المقام، الشهوة الجنسية، حبّ التفوق، حبّ الذات، و حبّ الانتقام ... إلخ .. و إذا ما غلب هذا الحبّ على وجود الإنسان فسيهتز كيانه بإعصار شديد و لا تستطيع كلّ معارف و علوم و عقائد الإنسان من أن تقف أمام جموحه، حتى يصل الإنسان لفقدان قدرة التشخيص، فيقدم بالنتيجة الدنيا على الآخرة.

ف

«حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»

أمر محسوس و مجرّب فى حياتنا و حياة الآخرين و هو دائم الوقوع أمام ناظرينا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۲

الآخرين و هو دائم الوقوع أمام ناظرينا.

و عليه .. فلا سبيل لقطع جذور المعاصى إلّا بإخراج حبّ الدنيا و عشقها من القلب.

ينبغى علينا أن ننظر إلى الدنيا بواقعية و عقلائية، فالدنيا ليست أكثر من مرحلة انتقالية أو معبر أو مزرعة الآخرة، فما يبذر اليوم يحصد غدا، و لا بدّ للإنسان أن العاقل ن يختار الطريق الذى يوصله إلى الهدف المنشود فيما إذا وقف بين مفترق طريقين، واحد يؤدى للحصول على متاع الدنيا الزائل، و الآخر يوصل إلى نيل رضا البارى سبحانه و تعالى.

و نظرة- و إن كانت سريعة- إلى ملفات الجرائم سترينا واقعية الحديث المذكور، و إذا ما تأملنا فى بواعثها الحقيقة، فسيتوضح الحديث أكثر فأكثر.

و لا تخرج علل الحروب و سفك الدماء (حتى بين الاخوة و الأصدقاء) عن هذا الإطار المهلك (حبّ الدنيا).

فكيف النجاة، و كلنا أبناء هذه الدنيا و «لا يلام الولد على حبّه لامه» كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السّلام؟! إنّ زورق النجاة من تلاطم أمواج و هيجان حبّ الدنيا لا يبنى إلّا بالتربية الفكرية و العقائدية، و من ثمّ تهذيب النفس و مجاهدتها، بالإضافة إلى الإعتبار من عواقب عبدة الدنيا.

فما كانت عاقبة الفراعنة مع كلّ ما كان لهم من قوّة؟! و أين هو الآن قارون و كنوزه التى لا يقدر مجموعة من الرجال على حمل مفاتيحها إلّا بشقّ الأنفس؟! و حتى القوى المتسلطة فى عصرنا المعاش، ليس لهم سوى فترة زمنية محدودة، فترى عروشها تتهاوى، و هم بين فار و مختبئ فى أقذر المكانات و بين من سيلفه التراب، لينتقل بعدها إلى العالم الذى كان يكذّب وجوده .. أو ليس ذلك أفضل واعظ لنا؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۴۳

سئل عن أیّ الأعمال أفضل عند اللّه؟

قال: «ما من عمل بعد معرفهٔ اللّه عزّ و جلّ و معرفهٔ رسوله أفضل من بغض الدنیا، فإنّ لذلک لشعبا کثیرهٔ، و للمعاصی شعب. فأوّل ما عصی اللّه به «الکبر»، معصیهٔ إبلیس حین أبی و استکبر و کان من الکافرین، ثمّ «الحرص» و هی معصیهٔ آدم و حواء حین قال اللّه عزّ و جلّ لهما: فَکُلا مِنْ حَیْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَهَٔ فَتَکُونا مِنَ الظَّالِمِینَ فأخذا ما لا حاجهٔ بهما إلیه، فدخل ذلک علی ذریتهما إلی یوم القیامهٔ، و ذلک إنّ أکثر ما یطلب ابن آدم ما لا حاجهٔ به إلیه، ثمّ «الحسد» و هی معصیهٔ ابن آدم حیث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلک حبّ النساء، و حبّ الدنیا[۱۱۷]، و حبّ الرئاسهٔ، و حبّ الراحهٔ، و حبّ الکلام، و حبّ العلو و الثروهٔ، فصرن سبع خصال فاجتمعن کلّهن فی حبّ الدنیا، فقال الأنبیاء و العلماء بعد ذلک: حبّ الدنیا رأس کلّ خطیئهٔ»[۱۱۸].

اللّهم، اخرج حبّ الدنیا من قلوبنا ..

اللّهم، خذ بأیدینا إلی صراطک القویم، و أبلغنا مغرمنا ..

اللّهم، إنّک تعلم الجهر و ما یخفی، فاغفر لنا ما ظهر من ذنوبنا و ما خفی ..

آمین یا ربّ العالمین نهایهٔ سورهٔ الأعلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۴۵

سورهٔ الغاشیهٔ

اشارهٔ

مکیّهٔ و عدد آیاتها ست و عشرون آیهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۴۷

«سورهٔ الغاشیهٔ»

محتوی السّورهٔ:

تدور محتویات السّورهٔ علی ثلاثهٔ محاور:

الأوّل: بحث «المعاد»، و بیان حال المجرمین بما فیه من شقاء و تعاسهٔ، و وصف حال المؤمنین و هم یرفلون بنعیم لا ینضب.

الثّانی: بحث «التوحید»، و یتناول موضوع خلق السماء و الجبال و الأرض، و نظر الإنسان إلیها.

الثّالث: بحث «النبوّهٔ»، مع عرض لبعض وظائف النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و عموما، فالسّورهٔ تسیر علی منهج السور المکّیهٔ فی تقویهٔ أسس الإیمان و الإعتقاد.

فضیلهٔ السّورهٔ:

ورد فی فضیلهٔ هذه السّورهٔ فی الحدیث النبوی الشریف: «من قرأها حاسبه اللّه حسابا یسیرا».[۱۱۹]

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّه قال: «من أدمن قراءهٔ هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ الْغاشِیَهِٔ فی فرائضه أو نوافله غشاه اللّه برحمته فی الدنیا و الآخرهٔ، أو أعطاه الأمن یوم القیامهٔ من عذاب النّار»[۱۲۰].

و بدیهی أنّ الثواب المذکور لا یحصل إلّا لمن تلاها بتأمل و عمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۸

الآیات [سورة الغاشیة (۸۸): الآیات ۱ الی ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ الْغاشِیَةِ (۱) وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (۲) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (۳) تَصْلی ناراً حامِیَةً (۴)
تُسْقی مِنْ عَیْنٍ آنِیَةٍ (۵) لَیْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِیعٍ (۶) لا یُسْمِنُ وَ لا یُغْنِی مِنْ جُوعٍ (۷)

التّفسیر

المتعبون .. الأخسرون!

تبتدأ السّورة بذکر اسم جدید لیوم القیامة: هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ الْغاشِیَةِ.

«الغاشیة»: من (الغشاوة)، و هی التغطیة، و سمّیت القیامة بذلک لأنّ حوادثها الرهیبة ستغطی فجاءة کلّ شیء.

و قیل: بما أنّ الأوّلین و الآخرین سیجمعون فی ذلک الیوم، فالقیامة تغشاهم جمیعا.

و قیل أیضا: یراد بها نار جهنم، لأنّها ستغطی وجوه الکافرین و المجرمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۹

و یبدو لنا التّفسیر الأوّل أنسب من غیره.

و ظاهر الآیة: إنّها خطاب للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و ما حوته من صیغة الاستفهام فلبیان عظمة و أهمیة یوم القیامة.

و یبدو بعیدا ما احتمله البعض من کون خطاب الآیة موجّه إلی کلّ إنسان.

و تصف الآیات التالیة، حال المجرمین فی یوم القیامة، فتقول أوّلا: وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ.

لا شک أنّ الوضع النفسی و الروحی، تنعکس آثاره علی وجه صاحبه، لذا فستری تلک الوجوه و قد علتها علائم الخسران و الخشوع لما أصابها من ذلّ و خوف و وحشة و هم بانتظار ما سیحل بهم من عذاب مهین ألیم.

و قیل: «الوجوه» هنا، بمعنی وجهاء القوم و رؤساء الکفر و الطغیان، لما سیکون لهم من ذل و هوان و عذاب أشد من غیرهم.

و لکنّ المعنی الأوّل أنسب و تصف حال تلک الوجوه ثانیا: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ.

فکلّ ما سعوا و کدوّا فیه فی الحیاة الدنیا سوف لا یجنون منه إلّا التعب و النصب، و ذلک: لأنّ أعمالهم غیر مقبولة عند اللّه، و ما جمعوه من أموال و ثروات قد ذهبت لغیرهم، و لا یملکون من ذکر صالح یعقبهم فی الدنیا و لا ولد صالح یدعو و یستغفر اللّه لهم، فما اصدق هذا القول بحقّهم: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ.

و قیل: المراد، إنّهم یعملون فی الدنیا، و لهم التعب و الألم فی الآخرة.

و قیل أیضا: إنّ المجرمین سیقومون بأعمال شاقّة داخل جهنم، زیادة فی عذابهم.

و یبدو التّفسیر الأوّل أصح من غیره.

و خاتمة مطاف تلک الوجوه التعبة الذلیلة أنّ: تَصْلی ناراً حامِیَةً.

«تصلی»: من (صلی)- علی زنة نفی- و هو دخول النّار و البقاء فیها،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۰

و الاحتراق بها[۱۲۱].

و لن یقف عذابهم عند هذا الحد، بل أنّهم و بسبب حرارة النیران یصیبهم العطش الشدید و حینئذ: تُسْقی مِنْ عَیْنٍ آنِیَةٍ.

«آنیة»: مؤنث آنی من (الأنی)- علی زنة حلی- و هو التأخیر، و یستعمل لما یقرب وقته، و جاء فی الآیة بمعنی: الماء الحارق الذی بلغ أقصی درجة حرارته و جاء فی الآیة (۲۹) من سورة الکهف: وَ إِنْ یَسْتَغِیثُوا یُغاثُوا بِماءٍ کَالْمُهْلِ یَشْوِی الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً و تحکی لنا الآیة التالیة عن طعام المجرمین: لَیْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِیعٍ و قد تعددت الآراء فی معنی «الضریع».

فقال بعض: نبت ذو شوک لا صق بالأرض، تسمّیه قریش (الشبرق) إذا کان رطبا، فإذا یبس فهو (الضریع)، لا تقربه دابة و لا بهیمة و لا ترعاه، و هو سم قاتل.[۱۲۲] و قال الخلیل (أحد علماء اللغة): الضریع نبات أخضر منتن الریح، یرمی به البحر.

و عن ابن عباس: هو شجر من نار، و لو کانت فی الدنیا لأحرقت الأرض و ما علیها.

و

جاء فی الحدیث النبوی الشریف: «الضریع شیء یکون فی النّار یشبه الشوک، أشدّ مرارة من الصبر، و أنتن من الجیفة، و أحر من النّار، سمّاه اللّه ضریعا».

و قال بعض آخر: هو طعام یضرعون عنده و یذلون، و یتضرعون منه إلی اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۱

(و یذکر أن (الضرع) بمعنی الضعف و الذلة و الخضوع).[۱۲۳] و لا تعارض بین هذه التفاسیر، و یمکن قبولها کلها فی تفسیر الآیة المذکورة.

و تصف لنا الآیة التالیة ذلک الطعام: لا یُسْمِنُ وَ لا یُغْنِی مِنْ جُوعٍ

فهو لیس لسد جوع أو تقویة بدن، و إنّما هو طعام یغص به، ایغالا فی العذاب، کما ورد هذا المعنی فی الآیة (۱۳) من و سورة المزمل: وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِیماً.

فالذین شرهوا فی تناول ألذ المأکولات فی دنیاهم، علی حساب ظلم النّاس و التجاوز علی حقوقهم، و منعوا لقمة العیش عن کثیر من المحرومین، فلیس فی طعام آخرتهم سوی العذاب الألیم.

و نعود لنکرر القول: إنّ ما نصفه و نتصوره عن نعیم الجنّة و عذاب جهنم، لا یتعدی عن کونه مجرد إشارات و أشباح نراها من بعید و نحن نعیش فی سجن الدنیا المحدود، و إلّا فحقیقة ما سینعم به أهل الجنّة و ما یعانیه أهل النّار فمما لا یمکن لأحد وصفه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۲

الآیات [سورة الغاشیة (۸۸): الآیات ۸ الی ۱۶]

اشارة

وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (۸) لِسَعْیِها راضِیَةٌ (۹) فِی جَنَّةٍ عالِیَةٍ (۱۰) لا تَسْمَعُ فِیها لاغِیَةً (۱۱) فِیها عَیْنٌ جارِیَةٌ (۱۲) فِیها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (۱۳) وَ أَکْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (۱۴) وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (۱۵) وَ زَرابِیُّ مَبْثُوثَةٌ (۱۶)

التّفسیر

صور من نعيم الجنّة:

بعد ذكر ما سيتعرض له أهل النّار، تنتقل عدسة السّورة لتنقل لنا مشاهدا رائعة لنعيم أهل الجنّة .. ليتوضح لنا الفرق ما بين القهر الإلهى و الرحمة الإلهية، و ما بين الوعيد و البشارة.

فتقول الآية الاولى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ، على عكس وجوه المذنبين المكسوة بعلائم الذلة و الخوف.

«ناعمة»: من (النعمة)، و تشير هنا إلى الوجوه الغارقة فى نعمة اللّه، وجوه طرية، مسرورة و نورانية، كما أشارت لهذا الآية (۲۴) من سورة المطففين: تَعْرِفُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۳

فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيم

و ترى الوجوه: لِسَعْيِها راضِيَةٌ.

على عكس أهل جهنّم، فوجوههم «عاملة ناصبة»، أمّا أهل الجنّة، فقد حان وقت حصادهم لما زرعوا فى دنياهم، و حصلوا على أحسن ما يتمنون، فتراهم فى غاية الرضى و السرور.

و ما زرعوا سيتضاعف ناتجة بإذن اللّه و لطفه أضعافا مضاعفة، فتارة عشرة أضعاف، و اخرى سبعمائة ضعف، و ثالثة يجازون على ما عملوا بغير حساب، كما أشارت الآية (۱۰) من سورة الزمر إلى ذلك بقولها: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ و يدخل البيان القرآنى فى التفصيل أكثر: فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ.

«عالية»: قيل بإرادة المكان (فى طبقات الجنّة العليا)، و قيل أريد بها المقام الرفيع، و مع أنّ التّفسير الثّانى أرجح، إلّا أنّه لا مانع من الجمع بينهما:

و كذا ..: لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً.[۱۲۴] فليس هناك ثمّة: جدال، كلام نفاق، عداوة، حقد، حسد، كذب، تهمة، افتراء، غيبة و لا أيّ إيذاء، بل و لا حتى الكلام الفارغ.

فهل يوجد مكان أهدأ و أجمل من ذلك؟! و لو تأملنا حقيقة مشاكلنا فيما بيننا، لرأينا أنّ الغالب منها ما كان ناشئا عن سماع هكذا أحاديث، و التى تؤدى إلى عدم الاستقرار النفسى، و إلى تهديم أركان الترابط الاجتماعى فينهار النظام و تشتعل نيران الفتن لتأكل الأخضر و اليابس معا.

و بعد ذكر القرآن لما يتمتع به أهل الجنّة من نعمة روحية، يبيّن بعض النعم المادية فى الجنّة: فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۴

ظاهر كلمة «عين» فى الآية، إنّها عين واحدة بدليل مجيئها نكرة، إلّا أنّه بالرجوع إلى بقية الآيات فى القرآن الكريم، يتبيّن لنا إنّها للجنس، فهى و الحال هذه تشمل عيونا مختلفة، و من قرائن ذلك ما جاء فى الآية (۱۵) من سورة الذاريات: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

و قيل: فى كلّ قصر من قصور أهل الجنّة، ثمّة «عين جارية»، و هو المراد فى الآية، و من ميزة تلك الأنهار أنّها تجرى حسب رغبة أهل الجنّة، فلا داعى معها لشقّ أرض أو وضع سد.

و ينهل أهل الجنّة أشربة طاهرة و متنوعة، فتلك العيون و على ما لها من رونق و روعة، فلكلّ منها شراب معين له مواصفاته الخاصّة به.

و ينتقل الوصف إلى أسرة الجنّة: فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ.

«سرر»: جمع (سرير)، و هو من (السرور)، بمعنى المقاعد التى يجلس عليها فى مجالس الانس و السرور[۱۲۵].

و جعلت تلك الأسرة من الارتفاع بحيث يتمكن أهل الجنّة من رؤية كلّ ما يحيط بها و التمتع بذلك.

يقول ابن عباس: إذا أراد أن يجلس عليها، تواضعت له حتى يجلس عليها، ثمّ ترتفع إلى موضعها.[۱۲۶] و يحتمل أيضا: وصفت بالمرفوعة إشارة إلى رفعتها و علو شأنها.

و قيل: إنّها من الذهب المزين و المرصع بالزبرجد و الدرّ و الياقوت.

و لا مانع من الجمع بين ما ذكر.

و لمّا كان شرب الشراب يستلزم ما يشرب به، فقد قالت الآية التالية:

وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۵

و متى ما أرادوا الشرب ارتفعت تلك الأكواب لتصل بين أيديهم و قد ملئت من شراب تلك العيون، فيستلذون بما لا وصف له عند أهل الدنيا.

«أكواب»: جمع (كوب)، و هو القدح، أو الظرف الذى له عروة.

و بالاضافة إلى ذكر ال «أكواب» فقد ذكر القرآن الكريم تعابير اخرى لها، مثل: «أباريق» جمع (إبريق) و هو ظرف معروف، و «كأس» بمعنى القدح المملوء بالشراب، كما جاء فى الآيتين (۱۷) و (۱۸) من سورة الواقعة: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ و يستمر الحديث عن جزئيات نعيم الجنّة: وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ.

«نمارق»: جمع (نمرقة)، و هى الوسادة الصغيرة التى يتكأ عليها.

«مصفوفة»: إشارة إلى تعددها بنظم خاص، ليظهر أنّ لأهل الجنّة جلسات انس جماعية، التى لا يتخللها أى لغو و باطل، و يدور الحديث فيها حول الألطاف الإلهية و نعمة الخالدة، و عن الفوز الحقيقى الذى أبعدهم عن عذاب الآخرة، و كيف أنّهم قد نجوا و خلصوا من الآم و أتعاب الدنيا.

ثمّ تكون الإشارة إلى فرش الجنّة الفاخرة: وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ.

«زرابية»: جمع (زرب) أو (زربيّة)، و هى الفرش و البسط الفاخرة ذات المتكأ.

ذكرت الآيات المبحوثة سبع نعم رائعة من نعم الجنّة، و كلّ منها أكثر روعة من الاخرى.

و الخلاصة: فمنزل الجنّة لا مثيل له من كلّ الجهات، فهو الخالى من أى ألم أو عذاب أو حرب أو جدال .. و تجد فيه كلّ ألوان الثمار و الأنعام و العيون الجارية و الأشربة الطاهرة و الولدان المخلدين و الحور العين و الأسرة المرصعة و الفرش الفاخرة و أقداح جميلة فى متناول اليد و جلساء أصفياء، إلى غير ذلك ممّا لا يمكن عدّه بلسان أو وصفه بقلم و لا حتى تخيله إذا ما سرحت المخيّلة فى عالمها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۶

الرحب! ..

و كلّ ما ذكر و غيره سيكون فى انتظار من آمن و عمل صالحا، بعد حصوله على إذن الدخول إلى تلك الدار العالية.

و فوق هذا و ذاك فثمّة «لقاء اللّه»، الذى ليس من فوز يوازيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۷

الآيات [سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱۷ الى ۲۶]

اشارة

أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ

سُطِحَتْ (۲۰) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (۲۱)

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (۲۲) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (۲۳) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (۲۴) إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (۲۵) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (۲۶)

التّفسير

الإبل .. من آيات خلق اللّه:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة بتفصيل عن الجنّة و نعيمها، تأتى هذه الآيات لتوضيح معالم الطريق الموصل إلى الجنّة و نعيمها.

فمفتاح المعرفة «معرفة اللّه»، و وصولا لهذا المفتاح تذكر الآيات أربعة نماذج لمظاهر القدرة الإلهية و بديع الخلقة، داعية الإنسان للتأمل، عسى أن يصل إلى ما ينبغى له أن يصل إليه.

و تشير أيضا إلى أنّ قدرة اللّه المطلقة هى مفتاح درك المعاد ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۸

فتقول الآية الاولى: أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

و لكن، لم اختص ذكر «الإبل» قبل غيره؟

للمفسّرين حديث طويل فى ذلك، لكنّ الواضح إنّ الآيات فى أوّل نزولها كانت تخاطب أهل مكّة قبل غيرهم، و الإبل أهم شىء فى حياة أهل مكّة فى ذلك الزمان، فهى معهم ليل نهار و تنجز لهم ضروب الأعمال و تدر عليهم الفوائد الكثيرة.

أضف إلى ذلك أنّ لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرّد بها عن بقية الحيوانات، و يعتبر بحق آية من آيات خلق اللّه الباهرة.

و من خصائص الإبل:

۱- لو نظرنا إلى موارد الاستفادة من الحيوانات الأليفه، فسنرى أنّ قسما منها لا يستفاد إلّا من لحومها، و القسم الآخر يستفاد من ألبانها على الأغلب، و قسم لا يستفاد منه إلّا فى الركوب، و قسم قد تخصص فى حمل و نقل الأثقال، و لكنّ الإبل تقدم كلّ هذه الخدمات (اللحم، اللبن، الركوب و الحمل).

۲- قدرة حمل و تحمل الإبل أكثر بكثير من بقية الحيوانات الأهلية، حتى أنّها لتبرك على الأرض فتوضع الأثقال عليها ثمّ تنهض بها، و هذا ما لا تستطيع فعله بقية الحيوانات الأهلية.

۳- تتحمل العطش لأيّام متتالية (بين السبعة إلى عشرة أيّام)، و قابليتها على تحمل الجوع مذهلة.

۴- يطلق عليها اسم (سفينة الصحراء)، لما لها من قابلية فائقة على طى مسافات طويلة فى اليوم الواحد، رغم الظروف الصحراوية الصعبة، فلا يعرقل حركتها صعوبة الأرض أو كثرة المنخفضات الرملية، و هذا ما لا نجده فى أى حيوان أخر و بهذه المواصفات.

۵- مع إنّها تتغذى على أى شوك و أىّ نبات، فهى تشبع بالقليل أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۹

۶- لعينها و اذنها و أنفها قدرة كبيرة على مقاومة الظروف الجوية الصعبة فى الصحراء، و حتى العواصف الرملية لا تقف حائلا أمام مسيرها.

۷- و الإبل مطيعة و سهلة الانقياد، لدرجة أنّ بإمكان طفل صغير أن يأخذ بزمام مجموعة كبيرة من الإبل و تتحرك معه حيث يريد.

و الخلاصة: إنّ ما يتمتع به هذا الحيوان من خصائص تدفع الإنسان لأن يلتفت إلى قدرة الخالق سبحانه و تعالى.

و ها هو القرآن ينادى بكلّ وضوح: يا أيّها الضالون فى وادى الغفلة ألّا تتفكرون فى كيفية خلق الإبل، لتعرفوا الحق و تخرجوا من

ضلالكم؟! و لا بدّ من التذكير، بأنّ «النظر» الوارد فى الآية، يراد به النظر الذى يصحبه تأمل و دراسة.

و ينتقل بنا البيان القرآنى فى الإبل إلى السماء: وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

السماء التى حيّرت العقول بعظمتها و عجائبها و ما فيها من نجوم و ما لها من بهاء و روعة .. السماء التى يتصاغر وجود الإنسان أمامها ليعد لا شيء بالنسبة لها ..

السماء التى لها من دقّة التنظيم و الحساب الدقيق ما بهر فيها عقول العلماء المتخصصين.

ألا ينبغى للإنسان أن يتفكر فى أمر مدبر هذا الخلق، و ما الأهداف المرجوة من خلقه؟! فكيف أصبحت تلك الكواكب فى مساراتها المحدودة؟ و ما هو سرّ استقرارها فى أماكنها و بكلّ هذه الدقّة؟ و لم لم يتغيّر محور حركتها بالرغم من مرور ملايين السنين عليها؟!!!

و مع تطور الاكتشافات العلميّة الحديثة، نرى أنّ عالم السماء و ما يحويه يزداد عظمة و جلالا بدرجات ملموسة نسبة إلى ما كان عليه قبلا ...

مع كلّ هذا و ذاك، ألا يكون أمر خلق السماء مدعاة للتأمل و التفكير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۶۰

و الخضوع و التسليم لربوبية الخالق الواحد الأحد؟! و ينقلنا إلى الجبال: وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ

الجبال التى تشمخ بتعمق جذورها فى باطن الأرض، و تحيط بالأرض على شكل حلقات و سلاسل لتقلل من شدّة الزلازل الناشئة من ذوبان المواد المعدنية فى باطن الأرض، و كذا ما لها من دور فى حفظ الأرض من عملية المدّ و الجزر الناشئة من تأثيرات الشمس و القمر .. الجبال التى لو لا وجودها بهذه الهيئة لما توفرت ظروف عيش الإنسان على سطح الأرض، لما تمثله من سد منيع أمام قوّة أثر العواصف .. و أخيرا، الجبال التى تحفظ الماء فى داخلها لتخرجه لنا على صورة عيون فياضة نعم الأرض ليخضر بساطها بأنواع المزارع و الغابات.

و لعل ذلك كلّه كان وراء وصفها «أوتادا» فى القرآن الكريم.

فهى عموما .. مظهر الابهة و الصلابة و الشموخ، و هى مصدر خير و بركة معطاء، و لعل ذلك من علل تفتح ذهنية الإنسان عندها، كما و ليس من العبث أن يتّخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جبل النور و غار حراء محلا لعبادته قبل البعثة المباركة.

«نصبت»: من (النصب)، و هو التثبيت، و ربّما رمز هذا التعبير إلى بداية خلق الجبال أيضا.

فقد توصل العلم الحديث إلى أنّ تكّون الجبال يعتمد على عوامل عديدة و قسمها إلى عدّة أنواع:

فمنها: ما تكون نتيجة للتراكمات الحاصلة على الأرض.

و منها: ما تكون من الحمم البركانية.

و منها: ما تكون نتيجة لتفتت الأرض بواسطة الأمطار.

و كذا منها: ما تكون نتيجة للترسبات الحاصلة فى أعماق البحار و من بقايا الحيوانات (كالجبال و الجزر و المرجانية).

نعم، فالجبال و بكلّ ما فيها و لها تعدّ آية من آيات القدرة الإلهية، لمن رآها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۶۱

بعين بصيرة و لبّ شغول.

ثمّ إلى الأرض: وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ

فلينظر الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسيل من بعدها محملة الأتربة كى تتكون بها السهول الصافية، لتكون صالحة للزراعة من جهة و مهيئة لما يعمل بها الإنسان من جهة اخرى .. و لو كانت كلّ الأرض عبارة عن جبال و وديان، فما أصعب الحياة على سطحها و الحال هذه! و لا بدّ لنا من التأمل و التفكير فى من جعلها تكون على هذه الهيئة الملائمة تماما لحياة الإنسان؟ ..

و لكن، ما علاقة الربط بين الإبل و السماء و الجبال و الأرض، حتى تذكرها الآيات بهذا التوالى؟

يقول الفخر الرازى فى ذلك: إنّ القرآن نزل على لغة العرب، و كانوا يسافرون كثيرا لأنّ بلدتهم بلدة خالية من الزراعية، و كانت أسفارهم فى أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيرا ما يسيرون عليها فى المهامة و القفار مستوحشين، منفردين عن النّاس، و من شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر فى الأشياء، لأنه ليس معه من يحادثه، و ليس هناك شيء يشغل به سمعه و بصره، و إذا كان كذلك لم يكن له بدّ من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر فى ذلك وقع بصره أوّل الأمر على الجمل الذى ركبه، فيرى منظرا عجيبا، و إذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، و إذا نظر يمينا و شمالا لم ير غير الجبال، و إذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنّه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة و الانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر و الحسد على ترك النظر، ثمّ إنّه فى وقت الخلوة فى المفازة البعيدة لا يرى شيئا سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع اللّه بينها فى هذه الآية[۱۲۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۶۲

و إذا ما ابتعدنا المحيط العربى القديم و ما كان فيه، و توسعنا فى مجال تأملنا ليشمل كلّ محيط البشرية، لتوصلنا إلى أنّ هذه الأشياء الأربع تدخل فى حياة الإنسان بشكل رئيسى، حيث من السماء مصدر النور و الأمطار و الهواء، و الأرض مصدر نمو أنواع النباتات و ما يتغذى به، و كذا الجبال فبالإضافة لكونها رمز الثبات و العلو ففيها مخازن المياه و المواد المعدنية بألوانها المتنوعة، و ما الإبل إلّا نموذج شاخص متكامل لذلك الحيوان الأهلى الذى يقدّم مختلف الخدمات للإنسان.

و عليه، فقد تجمعت فى هذه الأشياء الأربع كلّ مستلزمات «الزراعة» و «الصناعة» و «الثروة الحيوانية»، و حرى بالإنسان و الحال هذه أن يتأمل فى هذه النعم المعطاءة، كى يندفع بشكل طبيعى لشكر المنعم سبحانه و تعالى، و بلا شك فإنّ شكر المنعم سيدعوه لمعرفة خالق النعم أكثر فأكثر.

و بعد هذا البحث التوحيدى، يتوجه القرآن الكريم لمخاطبة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ .. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ.

نعم، فخلق السماء و الأرض و الجبال و الحيوانات ينطق بعدم عبثية هذا الوجود، و أنّ خلق الإنسان إنّما هو لهدف ...

فذكّرهم بهدفية الخلق، و بيّن لهم طريق السلوك الربّانى، و كن رائدهم و قدوتهم فى مسيرة التكامل البشرى.

و ليس باستطاعتك إجبارهم، و إن حصل ذلك فلا فائدة منه، لأنّ شوط الكمال إنّما يقطع بالإرادة و الإختيار، و ليس ثمّة من معنى للتكامل الإجبارى.

و قيل: إنّ هذا الأمر الإلهى نزل قبل تشريع «الجهاد»، ثمّ نسخ به! و ما أعظم هذا الاشتباه!! فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مارس عملية التذكير و التبليغ منذ الوهلة الاولى للبعثة الشريفة و استمر على هذا النهج حتى آخر لحظة من حياته الشريفة المباركة، و لم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۶۳

تتوقف العملية عن الممارسة من بعده، حيث قام بهذه المهمّة الأئمّة عليهم السّلام و العلماء من بعدهم، حتى وصلت ليومنا و سوف لن تتوقف بإذن اللّه تعالى، فأىّ نسخ هذا الذى يتكلمون عنه! ثمّ إنّ عدم إجبار النّاس على الإيمان يعتبر من ثوابت الشريعة الإسلامية السمحاء، أمّا هدف الجهاد فيتعلق بمحاربة الطغاة الذين يقفون حجر عثرة فى طريق دعاة الحقّ و طالبيه.

و ثمّة آيات اخرى فى القرآن قد جاءت فى هذا السياق، كالآية (۸۰) من سورة النساء: وَ مَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً، و كذا الآية (۱۰۷) من سورة الأنعام، و الآية (۴۸) من سورة الشورى- فراجع «مصيطر»: من (السطر)، و هو المعروف فى الكتب، و (المسيطر): الذى ينظم السطور، ثمّ استعمل لكلّ من له سلطة على شيء، أو يجبر أحدا على عمل ما.

و فى الآيتين التاليتين .. يأتى الاستثناء و نتيجته: إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ ..

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ.

و لكن، إلى أية جملة يعود الاستثناء؟

ثمّة تفاسير مختلفة فى ذلك:

الأوّل: إنّه استثناء لمفعول الجملة «فذكّر»، أى: لا ضرورة لتذكير المعاندين الذين رفضوا الحق جملة و تفصيلا، كما جاء فى الآية (۸۳) من سورة الزخرف:

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ

الثّانى: إنّه استثناء لجملة محذوفة، و التقدير: فذكّر إنّ الذكرى تنفع الجميع إلّا من تولى و كفر، كما جاء فى الآية (۹) من سورة الأعلى: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (على أن يكون لها معنا شرطيا).

الثّالث: إنّه استثناء من الضمير «عليهم» فى الآية السابقة، أى: (إنّك لست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۴

عليهم بمصيطر إلّا من تولّى و كفر فأنت مأمور بمواجهتها)[۱۲۸].

كلّ ما ذكر من تفاسير مبنىّ على أنّ الاستثناء متصل، و لكن ثمّة من يقول بأنّ الاستثناء منقطع، فيكون معناه بما يقارب معنى (بل)، فيصبح معنى الجملة: (بل من تولّى و كفر فإنّ اللّه متسلط عليهم) أو (إنّه سيعاقبهم بالعذاب الأكبر).

و من بين هذه التفاسير، ثمّة تفسيران مناسبان.

الأوّل: القائل بالاستثناء المتصل لجملة لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ فيكون إشارة لاستعمال القوّة فى مواجهة من تولى و كفر.

الثّانى: القائل بالاستثناء المنفصل، أىّ، سينالهم العذاب الأليم، الذى ينتظر المعاندين و الكافرين.

و يراد ب الْعَذابَ الْأَكْبَرَ «عذاب الآخرة» الذى يقابل عذاب الدنيا الصغير نسبة لحجم وسعة عذاب الآخرة، بقرينة الآية (۲۶) من سورة الزمر: فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ.

و كذلك يحتمل إرادة نوع شديد من عذاب الآخرة، لأنّ عذاب جهنم ليس بمتساو للجميع.

و بحدّية قاطعة، تقول آخر آيتين فى السّورة: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ .. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ

و الآيتان تتضمّنان التسلية لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مواجهته لأساليب المعاندين، لكى لا ييتئس من أفعالهم، و يستمر فى دعوته.

و هما أيضا، تهديد عنيف لكلّ من تسول له نفسه فيقف فى صف الكافرين و المعاندين، فيخبرهم بأنّ حسابهم سيكون بيد جبار شديد! بدأت سورة الغاشية بموضوع القيامة و ختمت به أيضا، كما تمّت الإشارة فيما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۵

بين البدء و الختام إلى بحث التوحيد و النّبوة، و هما دعامتا المعاد.

كما و تضمّنت السّورة عرضا لبعض ما سيصيب المجرمين من عقاب، و عرضت فى قبال ذلك ما سينعم به المؤمنون فى جنّات النعيم الخالدة.

كما و أكّدت السّورة على حرية الإنسان فى اختيار الطريق الذى يسلكه، و ذكّرت بعودة الجميع إلى مولاهم الحق، و هو الذى سيحاسبهم على كلّ ما فعلوا فى دنياهم كما و بيّنت السّورة أن مهمّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى إبلاغ الرسالة، و أنّه غير مسئول عن كفر و انحراف النّاس و ذنوبهم، و هذه هى مهمّة مبلغى طريق الحقّ.

اللّهم، ارحمنا يوم تعود الخلائق إليك و يكون حسابهم عليك ..

اللّهم، نجّنا برحمتك الكبرى من عذابك الأكبر ..

اللّهم، إنّ مواهب أهل الجنّة التی أوردت هذه السّورة قسما منها عظیمة و مذهلة. فإن کنّا لا نستحقها بأعمالنا فتفضل علینا بها بلطفک و رحمتک.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الغاشیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۷

سورة الفجر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثلاثون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۹

«سورة الفجر»

محتوى السّورة:

کبقیة السور المکیة، فسورة الفجر ذات آیات قصار و أسلوب واضح و مصحوب بالإنذار و التحذیر ..

و تقدّم لنا الآیات الاولى أقساما نادرة فی نوعها لتهدید الجبارین بالعذاب الإلهی.

و تنقل لنا بعض آیاتها ما حلّ ببعض الأقوام السالفة ممن طغوا فی الأرض و عاثوا فسادا (قوم عاد، ثمود و فرعون)، و جعلهم عبرة لاولی الأبصار، و درسا قاسیا لکلّ من یرى فی نفسه القوّة و الاقتدار من دون اللّه.

ثمّ تشیر باختصار إلى الامتحان الربّانی للإنسان، و تلومه على تقصیره فی فعل الخیرات ..

و فی آخر ما تتحدث عنه السّورة هو «المعاد» و ما سینتظر المؤمنین ذوی النفوس المطمئنة من ثواب جزیل، و أیضا ما سینتظر المجرمین و الکافرین من عقاب شدید.

فضیلة السّورة:

روی عن النّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأها فی لیال عشر غفر اللّه له، و من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۰

قرأها سائر الأیّام کانت له نورا یوم القیامة»[۱۲۹].

کما و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّه قال: «اقرأوا سورة الفجر فی فرائضکم و نوافلکم فإنّها سورة الحسین بن علی، من قرأها کان مع الحسین بن علی یوم القیامة فی دوحته من الجنّة».[۱۳۰]

یمکن أن یکون وصف السّورة بسورة الإمام الحسین علیه السّلام بلحاظ أنّه أفضل مصادیق ما جاء فی آخر آیاتها، حیث فیما ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الآیة الأخیرة من السّورة: إنّ «النفس المطمئنة» هو الحسین بن علی علیهما السّلام.

أو قد یکون بلحاظ ل «لیال عشر» المقسوم بها فی أوّل السّورة، حیث من ضمن تفاسیرها أنّها: لیالی محرم العشرة، المتعلقة بشهادة الإمام الحسین علیه السّلام و على أیّة حال، فثوابها لمن تبصر فی قراءتها و عمل على ضوءها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۱

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الْفَجْرِ (۱) وَ لَيالٍ عَشْرٍ (۲) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (۴)
هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (۵)

التّفسير

و الفجر ..!

بدأت السّورة بخمسة أقسام:

الأوّل: وَ الْفَجْرِ .. و الثّانی: وَ لَيالٍ عَشْرٍ.

«الفجر»: فی الأصل، بمعنی الشقّ الواسع، و قيل للصبح «الفجر» لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.

و كما هو معلوم فالفجر فجران، كاذب و صادق.

الفجر الكاذب: هو الخيط الأبيض الطويل الذی يظهر فی السماء، و يشبّه بذنب الثعلب، تكون نقطة نهايته فی الأفق، و قسمه العريض فی وسط السماء.

الفجر الصادق: هو النور الذی يبدأ من الأفق فينتشر، و له نورانية و شفافية خاصة، كنهر من الماء الزلال يغطی أفق الشرق ثمّ ينتشر فی السماء.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۷۲

و يعلن الفجر الصادق عن انتهاء الليل و ابتداء النهار، و عنده يمسك الصائمون، و تصلی فريضة الصبح.

و فسّر «الفجر» فی الآية بمعناه المطلق، أی: بياض الصبح.

و لا شك فهو من آيات عظمة اللّه سبحانه و تعالی، و يمثل انعطافا فی حركة حياة الموجودات الموجودة علی سطح الأرض، و منها الإنسان، و يمثل كذلك حاكمية النور علی الظلام، و عند مجيئه تشرع الكائنات الحية بالحركة و العمل، و يعلن انتهاء فترة النوم و السكون.

و قد أقسم اللّه تعالی ببداية حياة اليوم الجديد.

و فسّره بعض، بفجر أوّل يوم من محرم و بداية السنة الجديدة.

و فسّره آخرون، بفجر يوم عيد الأضحی، لما فيه من مراسم الحج المهمّة و لاتصاله بالليالی العشرة الاولی من ذی الحجّة.

و قيل أيضا: إنّه فجر أوّل شهر رمضان المبارك، أو فجر يوم الجمعة.

و لكنّ مفهوم الآية أوسع من أن تحدد بمصداق من مصاديقها، فهی تضم كلّ ما ذكر.

و ذهب البعض إلی أوسع ممّا ذكر حينما قالوا: هو كلّ نور يشع وسط ظلام ..

و عليه، فبزوغ نور الإسلام و نور المصطفی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی ظلام عصر الجاهلية هو من مصاديق الفجر، و كذا بزوغ نور قيام المهدی (عجل اللّه تعالی فرجه الشريف) فی وسط ظلام العالم (كما جاء فی بعض الرّوايات)[۱۳۱].

و من مصاديقه أيضا، ثورة الحسين عليه السّلام فى كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بنى اميّة، و تعرية نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقى أمام النّاس.

و يكون من مصاديقه، كلّ ثورة قامت أو تقوم على الكفر و الجهل و الظلم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۳

مرّ التاريخ.

و حتى انقداح أوّل شرارة يقظة فى قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة، فهو «فجر».

و ممّا لا شك فيه أنّ المعانى هى توسعة لمفهوم الآية، أمّا ظاهرها فيدل على «الفجر» المعهود.

و المشهور عن «ليال عشر»: إنّهن ليالى أوّل ذى الحجّة، التى تشهد أكبر اجتماع عبادى سياسى لمسلمى العالم من كافة أقطار الأرض، (و ورد هذا المعنى فيما رواه جابر بن عبد اللّه الأنصارى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)[۱۳۲].

و قيل: ليالى أوّل شهر محرم الحرام.

و قيل أيضا: ليالى آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر فيها.

و الجمع بين كلّ ما ذكر ممكن جدّا.

و ذكر فى بعض الرّوايات التى تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو «المهدى» المنتظر «عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف» .. و «ليال عشر» هم الأئمّة العشر قبله عليهم السّلام ..

و «الشفع»- فى الآية- هما علىّ و فاطمة عليهما السّلام.

و على أيّة حال، فالقسم بهذه الليالى يدّل على أهميتها الاستثنائية نسبة لبقية الليالى، و هذا هو شأن القسم ۱۳۳]، و لا مانع من الجمع بين كلّ ما ذكر من معان.

و يأتى القسم الثّالث و القسم الرّابع: وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ.

للمفسّرين آراء كثيرة فيما أريد ب «الشفع و الوتر» حتى ذكر بعضهم عشرين قولا[۱۳۴]، فيما ذهب آخرون لذكر (۳۶) قولا فى ذلك ۱۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۴

و أهم تلك الأقوال، ما يلى:

۱- مراد الآية العددان الزوجى و الفردى، فيكون القسم بجميع الأعداد، تلك الأعداد التى تدور عليها و بها كلّ المحاسبات و الأنظمة و المغطية لجميع عالم الوجود، و كأنّه سبحانه و تعالى يقول: قسما بالنظم و الحساب.

و حقيقة الحساب و النظم فى عالم الوجود، تمثل الاسس الواقعية التى تقوم عليها الحياة الإنسانية.

۲- المراد ب «الشفع» المخلوقات، لوجود قرين لكلّ منها، و المراد ب «الوتر» البارى جلّ شأنه، لعدم وجود شبيه له و لا نظير.

إضافة إلى أنّ الممكنات تتركب من (ماهية) و (وجود)، و هو ما يعبّر عنه بالفلسفة ب (الزوج التركيبى)، أمّا الوجود المطلق الخالى من الماهية فهو «اللّه» حده، (و أشارت بعض الرّوايات المنقولة عن المعصومين عليهم السّلام إلى ذلك)[۱۳۶].

۳- المراد ب «الشفع و الوتر» جميع المخلوقات، لأنّها من جهة بعضها زوج و البعض الآخر فرد.

۴- المراد ب «الشفع و الوتر» الصلاة، لأنّ بعضها زوجى و البعض الآخر فردى، (و ورد هذا المعنى فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أيضا)[۱۳۷] .. أو هما ركعتى الشفع و ركعة الوتر فى آخر صلاة الليل.

۵- المراد ب «الشفع» يوم التروية (الثامن من شهر ذى الحجة، حيث يستعد الحجاج للوقوف على جبل عرفات)، و «الوتر» يوم عرفة (حيث يكون حجاج بيت اللّه الحرام فى عرفات .. أو «الشفع» هو يوم عيد الأضحى (العاشر من ذى الحجّة، و «الوتر» هو يوم عرفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۵

و وردت الإشارة إلی هذا المعنی فی روایات أهل البیت علیهم السّلام أیضا[۱۳۸] و المهم .. إنّ الألف و اللام فی «الشفع و الوتر» إن کانا للتعمیم، فکلّ المعانی تجتمع فیهما، و کلّ معنی سیکون مصداق من مصادیق «الشفع» و «الوتر»، و لا داعی و الحال هذه إلی حصر التّفسیر بإحدی المعانی المذکورة، بل کلّ منها تطبیق علی مصداق بارز.

أمّا إذا کانا للتعریف، فستکون إشارتهما إلی زوج و فرد خاصین، و فی هذه الحال سیکون تفسیران من التّفاسیر المذکورة أکثر من غیرهما مناسبة و قربا مع مراد الآیة، و هما:

الأوّل: المراد بهما یومی العید و عرفة، و هذا ما یناسب ذکر اللیالی العشر الاولی من شهر ذی الحجّة، و فیهما تؤدی أهم فقرات مناسک الحج.

الثّانی: أنّهما یشیران إلی «الصلاة»، بقرینة ذکر «الفجر»، و هو وقت السحر و وقت الدعاء و التضرع إلی اللّه عزّ و جلّ.

و قد ورد هذان التّفسیران فی روایات عن أئمّة أهل البیت المعصومین علیهم السّلام.

و نصل هنا، إلی القسم الخامس: وَ اللَّیْلِ إِذا یَسْرِ[۱۳۹].

فما أدّق هذا التعبیر و أجمله؟! فقد نسب السیر إلی اللیل، و ذلک لأنّ «یسر» من (سری) و هو السیر لیلا علی قول الراغب فی مفرداته.

و کأنّ الوصف یقول: بأنّ اللیل موجود حسی، له حس و حرکة، و هو یخطو فی ظلمته وصولا لنور النهار.

نعم، قسما بالظلام السائر نحو النور، قسما بالظلام المتحرک، لا الثابت الذی یثیر الخوف و الرعب فی الإنسان، و اللیل یکون ذا قیمة فیما لو کان سائرا نحو النور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۶

و قیل: هو ظلمة اللیل التی تتحرک علی سطح الکرة الأرضیة، و اللیل نافع بحرکته و تناوبه مع النهار علی سطح الأرض، لینعم نصفها بالسبات و النوم، و ینعم النصف الآخر بالحرکة و العمل تحت نور الشمس الرائع.

اختلف المفسّرون فی مراد الآیة من «اللیل»، هل هو مطلق اللیل أم لیلة مخصوصة، فإن کانت الألف و اللام للتعمیم فجمیع اللیالی، کآیة من آیات اللّه و مظهر من مظاهر الحیاة المهمّة.

و إن کانت الألف و اللام للتعریف، فلیلة عید الأضحی، بلحاظ الآیات السابقة، حیث یتجه حجاج بیت اللّه الحرام من (عرفات) إلی (المزدلفة)- المشعر الحرام- و یقضون لیلهم فی ذلک الوادی المقدس، و عند الصبح یتجهون نحو (منی).

(و قد ورد فی هذا روایات عن أئمّة أهل البیت علیهم السّلام)[۱۴۰].

و الذین حضروا مثل تلک اللیلة فی عرفات و مشعر، قد رأوا کیف یتحرک أکثر من ملیون مسلم و هم متجهون من عرفات إلی المشعر و کأن اللیل بکلّه یتحرک و تشاطره فی ذلک الأرض و کذا الزمان.

و هناک یتلمس الإنسان معنی وَ اللَّیْلِ إِذا یَسْرِ بکلّ دقائقه.

و علی أیّة حال، فاللیل سواء کان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آیات عظمة الخالق سبحانه و تعالی، و هو من الضرورات الحیاتیة فی عالم الوجود.

فاللیل یکیف حرارة الجو، و یعم علی جمیع الکائنات الاستقرار و السکون بعد جهد الحرکة و التنقل، و فوق هذا و ذاک ففیه أفضل أوقات الدعاء و المناجاة مع اللّه جلّ و علا.

و أمّا لیلة عید الأضحی (لیلة الجمع) فهی من أعجب اللیالی فی ذلک الوادی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۷

المقدس (المشعر الحرام).

و تتجسد تلک العلاقة الموجودة بين الأشياء الخمس التى أقسم بها (الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر) إذا ما اعتبرناها ضمن أيّام ذى الحجّة و مراسم الحج العظيمة.

و فى غير هذا فسيكون إشارة إلى مجموعة من حوادث عالم التكوين و التشريع المهمّة، و التى تبيّن جلال و عظمة الخالق سبحانه و تعالى.

ثمّ تأتى الآية التالية لتقول: هَلْ فِي ذلِکَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ. «الحجر» هنا بمعنى: العقل، و فى الأصل بمعنى (المنع)، كأن يقال: حجر القاضى فلانا، أو كأن يطلق على الغرفة (حجرة) لأنّها محل محفوظ و يمنع دخوله من قبل الآخرين، و كذلک يقال للحضن (حجر)- على وزن فكر- لحفظه و إحاطته، و اطلق على العقل (حجر) لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئة، كما أنّ مصطلح (العقل) هو بمعنى (المنع) أيضا، و منه (العقال) الذى به تربط أرجل البعير ليمنعه من الحركة.

و لكن ... أين جواب القسم؟

ثمّة احتمالان، هما:

الأوّل: قوله تعالى: إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ.

الثّانى: جواب القسم محذوف و تدلّ عليه الآيات التالية، التى تتحدث عن عقاب الطغاة، و التقدير: (قسما بكلّ ما قلناه لنعذبنّ الكافرين و الطغاة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۸

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۶ الى ۱۴]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعادٍ (۶) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (۷) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (۸) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (۹) وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (۱۰)

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (۱۱) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (۱۲) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذابٍ (۱۳) إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ (۱۴)

التّفسير

إمهال الظالمين .. و الانتقام!

بعد أن تضمّنت الآيات الاولى خمسة أقسام حول معاقبة الطغاة، تأتى هذه الآيات لتعرض لنا نماذج من طواغيت الأرض من الذين توفرت لهم بعض سبل القوّة و القدرة، فأهوتهم أهوائهم فى قاع الغرور و الكفر و الطغيان، و تبيّن لنا الآيات المباركة ما حلّ بهم من عاقبة أليمة، محذرة المشركين فى كلّ عصر و مصر على أن يرعووا و يعودوا إلى رشدهم بعد أن يعيدوا حسابهم و يستيقظوا من غفلتهم، لأنّهم مهما تمتعوا بقوّة و قدرة فلن يصلوا لما وصل إليه الأقوام السالفة، و ينبغى الاتعاظ بعاقبتهم، و إلّا فالهلاک و العذاب الأبدى و لا غير سواه.

و تبتدأ الآيات ب: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعادٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۹

المراد «بالرؤية» هنا، العلم و المعرفة لما وصلت إليه تلک الأقوام من الشهرة بحال بحيث أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشيء

الكثير و كأنّه يراهم بامّ عينيه و لذا جاء في الآية: أَ لَمْ تَرَ.

و مع أنّ المخاطب في الآية هو النّبي الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ الخطاب موجّه إلى الجميع.

«عاد»: هم قوم نبي اللّه هود عليه السّلام، و يذكر المؤرخون أنّ اسم «عاد» يطلق على قبيلتين .. قبيلة كانت في الزمن الغابر البعيد، و يسميها القرآن الكريم ب «عاد الاولى»، كما في الآية (۵۰) من سورة النجم، (و يحتمل أنّها كانت قبل التاريخ).

و يحددون تاريخ القبيلة الثّانية بحدود (۷۰۰) سنة قبل الميلاد، و كانت تعيش في أرض الأحقاف أو اليمن.

و كان أهل عاد أقوياء البنية، طوال القامة، لذا كانوا يعتبرون من المقاتلين الأشداد، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من تقدّم مدني، و كانت مدنهم عامرة و قصورهم عالية و أراضيهم يعمها الخضار.

و قيل: إنّ «عاد» هو اسم جدّ تلك القبيلة، و كانت تسمى القبيلة ب (عادة).

و يضيف القرآن قائلا: إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ.

اختلف المفسّرون في علام يطلق اسم «إرم». هل هو شخص أم قبيلة أم مدينة؟

ينقل الزمخشري في الكشاف عن بعضهم، قوله: إنّ عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، و سمّيت القبيلة باسم الجدّ و هو (إرم).

و يعتقد آخرون: إنّ (إرم) هم «عاد الاولى»، و «عاد» هي القبيلة الثّانية، يقال أيضا: إنّ «إرم» هو اسم مدينتهم.[۱۴۱]

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۸۰

و ما يناسب الآية التالية، أن يكون (إرم) هو اسم مدينتهم.

«عماد»: بمعنى العمود و جمعه «عمد» و هي على ضوء التّفسير الأوّل، تشير إلى ضخامة أجسادهم كأعمدة البناء، و على ضوء التّفسير الثّاني تشير إلى عظمة أبنيتهم و علو قصورهم و ما فيها من أعمدة كبيرة.

و على القولين فهي: إشارة إلى قدرة و قوّة قوم عاد.[۱۴۲] و لكنّ التّفسير الثّاني (أعمدة قصورهم العظيمة) أنسب.

و لذا تقول الآية التالية: الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ.

و الآية تبيّن أنّ المراد ب «إرم» المدينة و ليس شخص أو قبيلة، و لعل هذه الآية هي التي دعت بعض كبار المفسّرين من اختيار هذا التّفسير، و نراه كذلك راجحا[۱۴۳].

و قد ذكر بعض المفسّرين قصّة اكتشاف مدينة «إرم» العظيمة في صحاري شبه الجزيرة العربية و صحاري عدن، و تحدثوا بتفصيل عن رونقها و بنائها العجيب، و لكنّ القصّة أقرب للخيال منها للواقع.

و على أيّة حال، فقوم «عاد» كانوا من أقوى القبائل في حينها، و مدنهم من أرقى المدن من الناحية المدنية، و كما أشار إليها القرآن الكريم: الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ.

و ثمّة قصص كثيرة عن «جنّة شداد بن عاد» في كتب التاريخ، حتى أنّها أصبحت مضربا للأمثال لما شاع عنها بين النّاس و على مرّ العصور، إلّا أنّ ما ورد بين متون كتب التاريخ لا يخرج عن إطار الأساطير التي لا واقع لها.

و تذكر الآية التالية جمع آخر من الطغاة السابقين: وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ، و صنعوا منها البيوت و القصور.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۱۸۱

«ثمود»: من أقدم الأقوام، و نبيّهم صالح عليه السّلام، و كانوا يعيشون في (وادي القرى) بين المدينة و الشام، و كانوا يعيشون حياة مرفهة، و مدنهم عامرة.

و قيل: «ثمود» اسم جدّ القبيلة، و قد سميت به ۱۴۴].

«جابوا»: من (الجوبة)- على زنة توبة- و هي الأرض المقطوعة، ثمّ استعملت في قطع كلّ أرض، و جواب كلام، هو ما يقطع الهواء فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع، (أو لأنّه يقطع السؤال و ينهيه).

و على أيّة حال، فمراد الآيـة: قطع أجزاء الجبال و بناء البيوت القويـة، كما أشارت إلى ذلك الآية (۸۲) من سورة الحجر- حول ثمود أنفسهم-: وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ و الآية (۱۴۹) من سورة الشعراء، و التى جاء فيها: ... بُيُوتاً فارِهِينَ

و قيل: قوم ثمود أوّل من قطع الأحجار من الجبال، و صنع البيوت المحكمة فى قلبها.

«واد»: فى الأصل (وادى)، و هو الموضع الذى يجرى فيه النهر، و منه سمى المفرج بين الجبلين واديا، لأنّ الماء يسيل فيه.

و المعنى الثّانى أكثر مناسبة بقرينـة مـا ورد فى القرآن من آيات تتحـدث عن هؤلاء القوم، و ما ذكرناه آنفا يظهر بأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم فى سفوح الجبال ۱۴۵].

و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص ۱۸۱

روى: إنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما وصل إلى وادى ثمود- شمال الجزيرة العربية- فى طريقه إلى تبوك، قال و هو راكب على فرسه: «أسرعوا، فهى أرض ملعونة»[۱۴۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۲

ممّا لا شكّ فيه أنّ ثمود قوم قـد وصلوا إلى أعلى درجات التمـدن فى زمانهم، و لكنّ ما يذكر عنهم فى بعض كتب التّفسير، يبدو و كـأنّه مبـالغ فيه أو اسطورة، كـأن يقولوا: إنّهم بنوا ألفـا و سـبعمائة مدينـة من الحجر! و تتعرض الآيـة التاليـة لقوم ثـالث: وَ فِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتادِ.

أى: ألم تر ما فعل ربّك بفرعون الظالم المقتدر؟! «أوتاد»: جمع (وتد)، و هو ما يثبّت به.

و لم وصف فرعون بذى الأوتاد؟

و ثمّة تفاسير مختلفة:

الأوّل: لأنّه كان يملك جنودا و كتائبا كثيرة، و كانوا يعيشون فى الخيم المثبتة بالأوتاد.

الثّانى: لمـا كـان يستعمل من أسـاليب تعـذيب من يغضب عليهم، حيث غالبـا ما كان يـدق على أيـديهم و أرجلهم بأوتاد ليثبتها على الأرض، أو يضعهم على خشبة و يثبتهم بالأوتاد، أو يدخل الأوتاد فى أيديهم و أرجلهم و يتركهم هكذا حتى يموتوا.

و ورد هذا الكلام فى رواية نقلت عن الإمام الصادق عليه السّلام ۱۴۷].

و تنقـل كتب التاريـخ إنّه قـد عـذّب زوجته «آسـية» بتلـك الطريقـة البشـعة حتى الموت، لأنّها آمنت بما جاء به موسـى عليه السّـلام و صدّقت به.

الثّالث: «ذى الأوتاد»: كناية عن قدرة و استقرار الحكم.

و لا تنافى فيما بين التفاسير الثلاثة، و يمكن إدخالها جميعها فى معنى الآية.

و ينتقل القرآن العرض ما كانوا يقومون به من أعمال: الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ .. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۳

الفساد الـذى يشـمل كلّ أنواع الظلم و الاعتـداء و الانحراف، و الـذى هو نتيجة طبيعية من نتائج طغيانهم، فكلّ من يطغى سـيؤول أمره إلى الفساد لا محال.

و يذكر عقابهم الأليم و بعبارة موجزة: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ «السوط»: هو الجلد المضـفور الذى يضرب به، و أصل السوط: خلط الشيء بعضه ببعض، و هو هنا كناية عن العذاب، العذاب الذى يخلط لحم الإنسان بدمه فيؤذيه أشدّ الإيذاء.

و

جاء فی کلام أمیر المؤمنین علیه السّلام عن الامتحان: «و الذی بعثه بالحقّ للتبلبلن بلبلة و لتغربلن غربلة و لتساطن سوط القدر»[۱۴۸].

«صبّ علیهم»: تستعمل فی الأصل لانسکاب الماء، و هنا إشارة إلی شدّة و استمرار نزول العذاب، و یمکن أن یکون إشارة لتطهیر الأرض من هؤلاء الطغاة أمّا أنسب معانی «السوط» فهو المعروف بین النّاس به.

فعلی إیجاز الآیة، لکنّها تشیر إلی أنواع العذاب الذی أصابهم، فعاد أصیبوا بریح باردة، کما تقول الآیة (۶) من سورة الحاقة: وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِکُوا بِرِیحٍ صَرْصَرٍ عاتِیَةٍ، و أهلک قوم ثمود بصیحة سماویة عظیمة، کما جاء فی الآیة (۵) من سورة الحاقة أیضا: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِکُوا بِالطَّاغِیَةِ، و الآیة (۵۵) من سورة الزخرف تنقل صورة هلاک قوم فرعون: فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ

و تحذر الآیة التالیة کلّ من سار علی خطو أولئک الطواغیت: إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ.

«المرصاد»: من (الرصد)، و هو الاستعداد للترقب، و هو فی الآیة یشیر إلی عدم وجود أیّ ملجأ أو مهرب من رقابة اللّه و قبضته، فمتی شاء سبحانه أخذ المذنبین بالعقاب و العذاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۴

و بدیهی، أنّ التعبیر لا یعنی أنّ اللّه تعالی له مکان و کمین یرصد فیه الطواغیت، بل کنایة عن إحاطة القدرة الإلهیة بکلّ الجبارین و الطغاة و المجرمین، و سبحانه و تعالی عن التجسیم و ما شابه.

و

قد ورد فی معنی الآیة عن الإمام علی علیه السّلام قوله: «إنّ ربک قادر علی أن یجزی أهل المعاصی جزاءهم»[۱۴۹].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّه قال: «المرصاد قنطرة علی الصراط، لا یجوزها عبد بمظلمة عبد»[۱۵۰].

و هذا مصداق جلّی للآیة، حیث أنّ المرصاد الإلهی لا ینحصر بیوم القیامة و الصراط، بل هو تعالی بالمرصاد لکلّ ظالم حتی فی هذه الدنیا، و ما عذاب تلک الأقوام الآنفة الذکر إلّا دلیل واضح علی هذا.

«ربّک»: إشارة إلی أنّ هذه السنّة الإلهیة لم تقف عند حدّ الذین خلوا من الأقوام السالفة، بل هی ساریة حتی علی الظالمین من امّتک یا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم .. و فی ذلک تسلیة لقلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تطمینا لقلوب المؤمنین، فالوعد الإلهی قد أکّد علی عدم انفلات الأعداء المعاندین من قبضة القدرة الإلهیة أبدا أبدا، و فیه تحذیر أیضا لأولئک الذین یؤذون النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یظلمون المؤمنین، تحذیر بالکف عن ممارساتهم تلک و إلّا سیصیبهم ما أصاب الأکثر منهم قدرة و قوّة، و عندها فسوف لن تقوم لهم قائمة إذا ما أتتهم ریح عاصفة أو صیحة مرعبة أو سیل جارف یقطع دابرهم.

روی عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أنّه قال: «أخبرنی الروح الأمین أنّ اللّه لا إله غیره إذا وقف الخلائق و جمیع الأولین و الآخرین، أتی بجهنّم ثمّ یوضع علیها صراط أدق من الشعر و أحدّ من السیف، علیه ثلاث قناطر ... الاولی: الأمانة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۵

و الرحم، و الثّانیة: علیها الصلاة، و الثّالثة: علیها عدل ربّ العالمین لا إله غیره، فیکلّفون الممر علیها، فتحبسهم الرحم و الأمانة، فإن نجوا منها حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها کان المنتهی إلی ربّ العالمین جلّ ذکره، و هو قول اللّه تبارک و تعالی: إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ[۱۵۱].

و

عن الإمام علی علیه السّلام: «و لئن أمهل اللّه الظالم فلن یفوت أخذه، و هو له بالمرصاد، علی مجاز طریقه، و بموضع الشجی من مساغ ریقه»[۱۵۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۶

الآیات [سورة الفجر (۸۹): الآیات ۱۵ الی ۲۰]

اشارة

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (۱۵) وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (۱۶) كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (۱۷) وَ لا تَحاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (۱۸) وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا (۱۹)
وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (۲۰)

التّفسیر

موقف الإنسان من تحصیل النعمة و سلبها!

بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن عقاب الطغاة، و تحذیرهم و إنذارهم، تأتی هذه الآیات لتبیّن مسألة الابتلاء و التمحیص و أثرها علی الثواب و العقاب الإلهی، و تعتبر مسألة الابتلاء من المسائل المهمّة فی حیاة الإنسان.

و تشرع الآیات ب: فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ

و کأنّه لا یدری بأنّ الابتلاء سنّة ربّانیة تارة یأتی بصورة الیسر و الرخاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۷

و اخری بالعسر و الضراء.

فلا ینبغی للإنسان أن یغتر عند الرخاء، و لا أن ییأس عند ما تصیبه عسرة الضراء، و لا ینبغی له أن ینسی هدف وجوده فی الحالتین، و علیه أن لا- یتصور بأن الدنیا إذا ما أرخت نعمها علیه فهو قد أصبح مقرّبا من اللّه، بل لا بدّ أن یفهمها جیّدا و یؤدّی حقوقها، و إلّا فسیفشل فی الامتحان.

و من الجدیر بالملاحظة، أنّ الآیة ابتدأت بالحدیث عن إکرام اللّه تعالی للإنسان «فأکرمه و نعمه»، فی حین تلومه علی اعتقاده بهذا الإکرام فی آخرها:

فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ و ذلک .. لأنّ الإکرام الأوّل هو الإکرام الطبیعی، و الإکرام الثّانی بمعنی القرب عند اللّه تعالی.

وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ

فیأخذه الیأس، و یظن إنّ اللّه قد ابتعد عنه، غافلا- عن سنّة الابتلاء فی عملیة التربیة الربّانیة لبنی آدم، و التی تعتبر رمزا للتکامل الإنسانی، فمن خلال نظرة و معایشة الإنسان للابتلاء یرسم بیده لوحة عاقبته، فأمّا النعیم الدائم، و أمّا العقاب الخالد.

و توضح الآیتان بأنّ حالة الیسر فی الدنیا لیست دلیل قرب اللّه من ذلک الإنسان، و کذا الحال بالنسبة لحالة العسر فلا تعنی بعد اللّه عن عبده، و کلّ ما فی الأمر أنّ الحالتین صورتان مختلفتان للامتحان الذی قررته الحکمة الإلهیة، لیس إلّا.

و تأتی الآیة (۵۱) من سورة فصّلت فی سیاق الآیتین: وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ

و کذا الآیة (۹) من سورة هود: وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ.

و تنبهنا الآیتان أیضا، بأن لا نقع فی خطأ التشخیص، فنحکم علی فلان بأن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۸

اللّه راضـى عنه لأنّه يفعم بالنعم الإلهيـة، و أن فلان قـد سـخط عليه اللّه لأنّه محروم من نعم كثيرة، و لا بـدّ لنا من الرجوع إلى المعايير الثابتة عند القيام بعملية التشخيص و التقييم، فالعلم و الإيمان و التقوى هى أسس التقييم، و ليس ظاهر التمتع بحالة السراء ..

فما أكثر الأنبياء الذين تناوشـتهم أنياب البلايا و المصائب، و ما أكثر الكافرين و الطغاة الذين تنعموا بمختلف ملاذ الدنيا، إنّها من سنن طبيعة الحياة الدنيا، و لكن ..

أين الأنبياء من الكافرين و .. عقبى الدار؟! فالآية إذن، تشير إلى فلسفة البلاء، و ما يصيب الإنسان من محن و إحن فى دنياه.

و توجه الآيتـان التاليتـان نظر إلى الإنسان و الأعمال التى تؤدّى بحقّ للبعـد عن اللّه، و توجب عقابه: كَلَّا فليس الأمر كما تظنون من أنّ أموالكم دليل على قربكم من اللّه، لأنّ أعمالكم تشهد ببعدكم عنه، بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ .. وَ لا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ

و الملاحظ أنّ الآية لم تخص اليتيم بالإطعام بل بالإكرام، لأنّ الوضع النفسى و العاطفى لليتيم أهم بكثير من مسألة جوعه.

فلا ـ ينبغى لليتيم أن يعيش حالـة الانكسار و الذلـة بفقـدان أبيه، و ينبغى الاعتناء به و إكرامه لسـدّ الثغرة التى تسببت برحيل أبيه، و قد أولت الأحاديث الشريفة و الرّوايات هذا الجانب أهمية خاصّة، و أكّدت على ضرورة رعاية و إكرام اليتيم.

فعـن الإمـام الصـادق عليـه السّـلام، إنّه قـال: «مـا من عبـد يمسـح يـده على رأس يـتيم رحمـة له إلّـا أعطـاه اللّه بكـلّ شـعرة نـورا يـوم القيامة»[۱۵۳].

و تقول الآية (۹) من سورة الضحى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۹

و هـذه الـدعوة الربّانيـة تقابل ما كان سائدا فى عصور الجاهلية، كيف و كانوا يتعاملون مع اليتامى، و لا تنفصل جاهلية اليوم عن تلك الجاهليـة، فنرى من لم يـدخل الإيمـان قلبه، كيف يتوسـل بمختلف الحيـل و الألاـعيب لسـرقة أموال اليتـامى، و الأشـد من هـذا فإنّهم يتركون اليتامى جانبا بلا اهتمام و لا رعايـة ليعيشوا غمّ فقـدان الآباء و بأشدّ صورة! فإكرام اليتيم لا ينحصـر بحفظ أموالهم- كما يقول البعض- بل يشمل حفظ الأموال و غيرها.

«تحـاضون»: من (الحض)، و هو الترغيب، فلاـ يكفى إطعـام المسـكين بـل يجب على النّاس أن يتواصوا و يحث بعضـهم البعض الآخر على ذلك لتعم هذه السنّة التربوية كلّ المجتمع ۱۵۴].

و قد قرنت الآية (۳۴) من سورة الحاقـة عـدم الإكرام بعـدم الإيمان باللّه عزّ و جلّ: إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ ۱۵۵].

و تعرض الآية التالية ثالث أعمالهم القبيحة: وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا[۱۵۶].

ممّا لا شكّ فيه أنّ الاستفادة من الميراث المشروع عمل غير مذموم، و لذا فيمكن أن يكون المذموم فى الآية أحد الأمور التالية:

الأوّل: الجمع بين حقّ الإنسـان و حقّ الآـخرين فى الميراث، لأـنّ كلمـة «لمّ» بمعنى الجمع، و فسّـرها الزمخشـرى فى الكشّـاف بمعنى الجمع بين الحلال و الحرام.

و كانت عادة العرب فى الجاهلية أن يحرموا النساء و الأطفال من الإرث لاعتقادهم بأنّه نصـيب المقاتلين (لأنّ أكثر أموالهم تأتيهم عن طريق السلب و الإغارة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۰

الثّانى: عـدم الإنفاق من الإرث على المحرومين و الفقراء من الأقرباء و غيرهم، فإن كنتم تبخلون بهـذه الأموال التى وصلت إليكم بلا عناء، فأنتم أبخل فيما تكدّون فى تحصيله، و هذا عيب كبير فيكم.

الثّالث: هو أكل إرث اليتامى و التجاوز على حقوق الصـغار، و ذلك من أقبـح الـذنوب، لأنّ فيه اسـتغلال فاحش لحقّ من لا يسـتطيع الدفاع عن نفسه.

و الجمع بین هذه التّفاسیر الثلاث ممکن ۱۵۷].

ثمّ یأتی الذّم الرّابع: وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا[۱۵۸].

فأنتم .. عبدهٔ دنیا، طالبی ثروهٔ، عشاق مال و متاع .. و من یکون بهذه الحال فمن الطبیعی أن لا یعتنی فی جمعه للمال، أ کان من حلال أم من حرام، و من الطبیعی أیضا أن یتجاوز علی الحقوق الشرعیهٔ المترتبهٔ علیه، بأن لا ینفقها أو ینقص منها .. و من الطبیعی کذلک إنّ القلب الذی امتلأ بحبّ المال و الدنیا سوف لا یبقی فیه محل لذکر اللّه عزّ و جلّ.

و لذا نجد القرآن الکریم بعد ذکره لمسألهٔ امتحان الإنسان، یتعرض لأربعهٔ اختبارات یفشل فیها المجرمین.

إکرام الیتیم.

إطعام المسکین.

أسهم الإرث.

و جمعه من طریق مشروع و غیر مشروع.

و جمع المال بدون قید أو شرط.

و الملاحظ أنّ الاختبارات المذکورهٔ إنّما تدور حول محور الأموال، للإشارهٔ ما للمال من مطبات مهلکهٔ، و لو تجاوزها الإنسان لسهلت علیه بقیهٔ العقبات فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۱

طریقه نحو التکامل و الرقی و السمو.

و ثمّهٔ من یکون متذبذبا فی الأمانهٔ (بین أن یؤدی أو یخون)، و هکذا إنسان غالبا ما تصرعه و وساوس الشیطان و ترمیه فی جانب الخیانهٔ .. أمّا أولئک الصادقون فی إیمانهم فهم الأمناء حقّا فی الرعایهٔ و الاهتمام لأداء الحقوق الواجبهٔ و المستحبهٔ للآخرین، و لا تراهم یتهاونون بأدنی درجات التهاون، و مثلهم هو الذی یتمکن من صعود سلم الرفعهٔ و السمو علی طریق الإیمان و التقوی.

و الخلاصهٔ: من تجاوز اختبار المال بنجاح، فهو أهل للاعتماد، و من أهل التقوی و الورع، و هو خیر أخ و صدیق، و غالبا ما تراه صالحا فی کافهٔ مجالات حیاته و المجتمع.

و لذلک، نری الاختبارات هنا دارت حول محور المال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۲

الآیات [سورهٔ الفجر (۸۹): الآیات ۲۱ الی ۲۶]

اشارهٔ

کَلاَّ إِذا دُکَّتِ الْأَرْضُ دَکًّا دَکًّا (۲۱) وَ جاءَ رَبُّکَ وَ الْمَلَکُ صَفًّا صَفًّا (۲۲) وَ جِیءَ یَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ یَوْمَئِذٍ یَتَذَکَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّی لَهُ الذِّکْری (۲۳) یَقُولُ یا لَیْتَنِی قَدَّمْتُ لِحَیاتِی (۲۴) فَیَوْمَئِذٍ لا یُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (۲۵)

وَ لا یُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (۲۶)

التّفسیر

یوم لا تنفع الذکری!

بعـد أن ذمت الآيات السابقـة الطغاة و عبـدة الدنيا و الغاصبين لحقوق الآخرين، تأتى هذه الآيات لتحذرهم و تهددهم بوجود القيامة و الحساب و الجزاء.

فتقول أوّلا: «كلا» (فليس الأمر كما تعتقـدون بأن لا حساب و لا جزاء، و أنّ اللّه قـد أعطاكم المال تكريما و ليس امتحانا) .. إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا.

«الـدك»: الأرض الليـنة السـهلة، ثمّ اسـتعملت فى تسويـة الأرض من الارتفاعات و التعرجات، و (الـدكان): المحل السوى الخالى من الارتفاعات و (الدكة): المكان السوى المهيأ للجلوس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۳

و جاء تكرار «دكّا» فى الآية للتأكيد.

و عموما، فالآيـة تشير إلى الزلازل و الحوادث المرعبـة التى تعلن عن نهايـة الدنيا و بداية يوم القيامة، حيث تتلاشـى الجبال و تستوى الأرض، كما أشارت لـذلك الآيات (۱۰۶- ۱۰۸) من سورة طه: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً.

و بعـد أن ينتهى مرحلـة القيامـة الاولى (مرحلـة الـدمار)، تأتى المرحلة الثّانية، حيث يعود النّاس ثانية للحياة ليحضـروا فى ساحة العدل الالهى: وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا.

نعم، فسيقف الجميع فى ذلـك المحشـر لإجراء الأمر الالهى و تحقيق العدالـة الربّانيـة، و قـد بيّنت لنا الآيات ما لعظمـة ذلك اليوم، و كيف أنّ الإنسان لا سبيل له حينها إلّا الرضوخ التام بين قبضة العدل الالهى.

وَ جاءَ رَبُّكَ كناية عن حضور الأمر الالهى لمحاسبة الخلائق، أو أنّ المراد:

ظهور آيات عظمة اللّه سبحانه و تعالى، أو ظهور معرفة اللّه عزّ و جلّ فى ذلك اليوم، بشكل بحيث لا يمكن لأىّ كان إنكاره، و كأنّ الجميع ينظرون إليه بأم أعينهم.

و بلا شك، إنّ حضور اللّه بمعناه الحقيقى المستلزم للتجسيم و التحديد بالمكان، هذا المعنى ليس هو المراد، لأنّ سبحانه و تعالى مبرّأ من الجسمية و خواص الجسمية[۱۵۹].

و قد ورد هذا المعنى فى كلام للإمام على بن موسى الرضا عليهما السّلام ۱۶۰].

كما و تؤيد الآية (۳۳) من سورة النحل هذا التّفسير بقولها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۴

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ

صَفًّا صَفًّا: إشارة إلى ورود الملائكة عرصة يوم القيامة على هيئة صفوف، و يحتمل تعلق الصفوف بكلّ السماوات.

و تقول الآية التالية: وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى

و ما نستنبطه من الآية، إنّ جهنم قابلة للحركة، فتقرب للمجرمين، كما هو حال حركة الجنّة للمتقين: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۱۶۱].

و ثمّة من يعطى للآية معنى مجازيا، و يعتبرها كناية عن ظهور الجنّة و النّار أمام أعين المحسنين و المسيئين.

و لكن، لا دليل على الأخـذ بخلاف الظاهر، و من الأفضل التعامل مع ظاهر الآيـة، لأنّ حقائق عالم القيامـة لا يمكن فهمها و تصورها بشكل دقيق لمحدودية عالمنا أمام ذلك العالم من جهة؟ و لاختلاف القوانين و السنن التى تحكم ذلك العالم من جهة اخرى .. ثمّ، ما المانع فى تحرك كلّ من الجنّة و النّار فى ذلك اليوم؟

و

روى: لمّا نزلت هـذه الآيـة، تغيّر وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عرف فى وجهه حتى اشتدّ على أصحابه ما رأوا من

حاله، و انطلق بعضهم إلى على بن أبى طالب عليه السّلام فقالوا: يا على لقد حدث أمر قد رأيناه فى نبىّ اللّه، فجاء على عليه السّلام فاحتضنه ثمّ قال: «يا نبىّ اللّه بأبى أنت و أمى، ما الذى حدث اليوم؟».

قال: «جاء جبرائيل عليه السّلام فأقرأنى وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ

قال: فقلت: كيف يجاء بهم؟

قال: يجىء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثمّ أتعرض لجهنم، فتقول: ما لى و لك يا محمّد، فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۵

حرّم اللّه لحمك علىّ، فلا يبقى أحد إلّا قال: نفسى نفسى، و إنّ محمّدا يقول: ربّ أمّتى أمّتى»[۱۶۲].

نعم، فحينما يرى المذنب كلّ تلك الحوادث تهتز فرائصه و يتزلزل رعبا، فيستيقظ من غفلته و يعيش حالة الهمّ و الغمّ، و يتحسر على كلّ لحظة مرّت من حياته بعد ما يرى ما قدّمت يداه، و لكن. هل للحسرة حينها من فائدة؟! و كم سيتمنى المذنب لو تسنح له الفرصة ثانية للرجوع إلى الدنيا و إصلاح ما أفسد، و لكنّه سيرى أبواب العودة مغلقة، و لا من مخرج! ...

و يودّ التوبة .. و هل للتوبة من معنى بعد غلق أبوابها؟! و يريد أن يعمل صالحا .. و لكن أين؟ فقد طويت صحائف الأعمال، و يومها يوم حساب بلا عمل! ..

و عندها .. بملإ يصرخ كيانه: يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي

و فى قولته نكتة لطيفة، فهو لا يقول قدّمت لآخرتى بل «لحياتى»، و كأنّ المعنى الحقيقى للحياة لا يتجسد إلّا فى الآخرة.

كما أشارت لهذه الآية (۶۴) من سورة العنكبوت: وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

نعم، ففى دنياهم: يسرقون أموال اليتامى، لم يطعموا المساكين، يأخذون من الإرث أكثر ممّا يستحقون و يحبّون المال حبّا جمّا.

و فى أخراهم، يقول كلّ منهم: يا ليتنى قدّمت لحياتى الحقيقية الباقية .. و لكنّ التمنى ليس أكثر من رأس مال المفلسين.

و تشير الآية التالية إلى شدّة العذاب الإلهى: فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ.

نعم، فمن استخدم فى دنياه كلّ قدرته فى ارتكاب أسوء الجرائم و الذنوب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۶

فلا يجنى فى آخرته إلّا أشد العذاب ...

فيما سينعم المحسنون و الصالحون فى أحسن الثواب، و يخلدون بحال ما لا عين رأت و لا اذن سمعت، فاللّه «أرحم الراحمين» لمن أخلص النيّة و عمل، و «أشدّ المعاقبين» لمن تجاوز حدود هدف خلقه.

و تكمل الآية التالية تصوير شدّة العذاب: وَ لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ.

فوثاقه ليس كوثاق الآخرين، و عذابه كذلك، كلّ ذلك بما كسبت يداه حينما أوثق المظلومين فى الدنيا بأشدّ الوثاق، و مارس معهم التعذيب بكلّ وحشية، متجرد عن كلّ ما وهبه اللّه من إنسانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۲۷ الى ۳۰]

اشارة

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِی إِلی رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِی فِی عِبادِی (٢٩) وَ ادْخُلِی جَنَّتِی (٣٠)

التّفسير

الشّرف العظيم:

و تنتقل السّورة فی آخر مطافها إلی تلك النفوس المطمئنة ثقة باللّه و بهدف الخلق، بالرغم من معايشتها فی خضم صخب الحياة الدنيا، فتخاطبهم بكلّ لطف و لين و محبّة، حيث تقول: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ .. ارْجِعِی إِلی رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً .. فَادْخُلِی فِی عِبادِی .. وَ ادْخُلِی جَنَّتِی

فهل ثمّة أجمل و ألطف من هذا التعبير! ...

تعبير يحكی دعوة اللّه سبحانه و تعالی لتلك النفوس المؤمنة، المخلصة، المحبّة و الواثقة بوعده جلّ شأنه .. دعوتها لتعود إلی ربّها و مالكها و مصلحها الحقيقی ...

دعوة مفعمة برضا الطرفين، رضا العاشق علی معشوقه، و رضا المعشوق علی عاشقه ....

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ١٩٨

و تتوج تلك النفوس الطاهرة بتاج العبودية، لتدخل فی صف المقرّبين عند اللّه، و لتحصل علی إذن دخول جنان الخلد، و ما قوله تعالی: «جنتی» إلّا للإشارة إلی أنّ المضيف هو اللّه جلّ جلاله ... فما أروعها من دعوة! و ما أعظمه و أكرمه من داع! و ما أسعده من مدعو! و يراد بالنفس هنا: الروح الإنسانية.

«المطمئنة»: إشارة إلی الاطمئنان الحاصل من الإيمان، بدلالة الآية (٢٨) من سورة الرعد: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

و يعود اطمئنان النفس، لاطمئنانها بالوعود الإلهية من جهة، و لاطمئنانها لما اختارت من طريق ..

و هی مطمئنة فی الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، و مطمئنة عند أهوال حوادث يوم القيامة الرهيبة أيضا.

أمّا (الرجوع إلی اللّه)، فهو- علی قول جمع من المفسّرين- رجوع إلی ثوابه و رحمته ..

و لكنّ الأنسب أن يقال: إنّه رجوع إليه جلّ و علا، رجوع إلی جواره و قربه بمعناها الروحی المعنوی، و ليست بمعناها المكانی و الجسمانی.

و ثمّة سؤال يرد إلی الذهن .. متی ستكون دعوته المباركة، هل ستكون بعد مفارقة الروح البدن، أم فی يوم القيامة؟؟

لو أخذنا بظاهر الآيات المباركة، فسياقها يرتبط بالقيامة، و إن كان تعبير الآية ذو شمولية.

«راضية»: لما تری من تحقق الوعود الإلهية بالثواب و النعيم بأكثر ممّا كانت تتصور، و شمول العبد برحمة و فضل اللّه سيدخل فی قلبه الرضا بكلّ ما يحمل الرضا من معان و أكثر.

«مرضيّة»: لرضا اللّه تبارك و تعالی عنها.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ١٩٩

فعبد بما ذكر من أوصاف، بلا شكّ مكانه الجنّة، و ذلك لأنّه عمل بكلّ ما يملك فی سبيل رضوان معبوده الأحد الصمد، و وصل فی عمله لمقام الرضا التام و التسليم الكامل لخالقه تبارك و تعالی، حتی نال و سام حقيقة العبودية، و دخل طائعا و واثقا فی صف عباد اللّه الصالحين ..

و قد خصّ بعض المفسّرين سبب نزول هذه الآيات فی (حمزة سيد الشهداء)، و لكن بلحاظ كون السّورة مكّية، فيمكن اعتبار ذلك

أحد تطبيقات (مصاديق) الآيات و ليس شأنا للنزول، كما هو الحال فى ما ذكرنا فى أوّل السّورة بشأن الإمام الحسين عليه السّلام.

روى أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام قد سأله قائلا: جعلت فداك يا ابن رسول اللّه، هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: «لا و اللّه، إنّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليّ اللّه، لا تجزع، فو الذى بعث محمّدا لأنا أ برّبك و أشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: و يمثل له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمّة من ذريتهم عليهم السّلام، فيقال له: هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمّة عليهم السّلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر، فينادى روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول: «يا أيّتها النفس المطمئنة (إلى محمّد و أهل بيته) ارجعى إلى ربّك راضية (بالولاية) مرضيّة (بالثواب) فادخلى فى عبادى (يعنى محمّدا و أهل بيته) و ادخلى جنّتى»، فما شىء أحبّ إليه من استلال روحه و اللحوق بالمنادى»[۱۶۳].

اللّهمّ! اجعل نفوسنا مطمئنة ليشملنا خطابك الكريم ..

اللّهمّ! و لا ينال ذلك إلّا بلطفك، فاغمرنا به ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۰

اللّهمّ! منّ علينا بكرمك الذى لا ينفد، و اجعلنا من النفوس المطمئنة ..

اللّهمّ! لا يكون الاطمئنان إلّا بذكرك، فوفقنا إليه بفضلك ..

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الفجر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۱

سورة البلد

اشارة

مكيّة و عدد آياتها عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۳

«سورة البلد»

محتوى السّورة:

هذه السّورة المباركة على قصرها تحمل حقائق كبرى:

۱- فى بداية هذه السّورة، بعد قسم ذى محتوى عميق، تقرّر الآية أنّ حياة الإنسان فى هذه الدنيا مقرونة بمشاكل و أتعاب؛ و بذلك تعدّ الإنسان من جهة ليصارع العقبات، و من جهة اخرى تبعده عن طلب الراحة المطلقة فى هذا العالم، فالراحة المطلقة و النعيم المطلق فى الحياة الآخرة لا غيرها.

۲- فى مقطع آخر من هذه السّورة، إشارة إلى أهم النعم الإلهية، ثمّ ذكر جحود الإنسان بهذه النعم.

۳- و فى آخر هذه السّورة تقسيم النّاس إلى: «أصحاب الميمنة» و «أصحاب المشئمة»، ثمّ يأتى ذكر جانب من أعمال المجموعة الأولى و صفاتها (المجموعة المؤمنة الصالحة) و ما ينتظرها من جزاء، ثمّ المجموعة الثّانية، (و هى الكافرة المجرمة) و ما تواجهه من مصير.

عبارات السّورة قاطعة قارعة، و الجمل قصيرة ذات إيقاع قوى، و الألفاظ واضحة مؤثرة معبّرة، و شكل آياتها تدلّ على أنّها مكّية.

فضیلة السّورة:

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطاه اللّه الأمن من غضبه یوم

القیامة»[۱۶۴].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «من کان قراءته فی فریضته «لا اقسم بهذا البلد» کان فی الدنیا معروفا أنّه من الصالحین، و کان فی الآخرة معروفا أنّ له من اللّه مکانا، و کان یوم القیامة من رفقاء النّبیین و الشّهداء و الصّالحین»[۱۶۵].

الآیات [سورة البلد (۹۰): الآیات ۱ الی ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (۱) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (۲) وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی کَبَدٍ (۴)
أَ یَحْسَبُ أَنْ لَنْ یَقْدِرَ عَلَیْهِ أَحَدٌ (۵) یَقُولُ أَهْلَکْتُ مالاً لُبَداً (۶) أَ یَحْسَبُ أَنْ لَمْ یَرَهُ أَحَدٌ (۷)

التّفسیر

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ[۱۶۶]

فی مواضع کثیرة یبدأ القرآن بالقسم عند تعرّضه للحقائق الهامة ... بالقسم الذی یؤدی بدوره إلی حرکة فی الفکر و العقل .. بالقسم المرتبط ارتباطا خاصّا بالموضوع المطروح.

و فی هذا الموضع تبدأ الآیة بالقسم: قسما بهذه المدینة المقدسة مکّة: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ لتقرر حقیقة من حقائق حیاة الإنسان، هی إنّ هذه الحیاة مقرونة

بالآلام و الأسقام.

وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ لم یرد ذکر «مکّة» فی الآیة صریحا، لکن الدلالات تشیر إلی أن المقصود بالبلد مکّة، فالسّورة مکّیة، و أهمیّة هذه المدینة المقدّسة لا تبلغها مدینة، و المفسّرون مجمعون علی ذلک.

أرض مکّة مشرّفة و معظمة، لأنّ فیها أوّل مرکز للتوحید و لعبادة اللّه سبحانه، و کان هذا المرکز مطاف أنبیاء اللّه العظام ... و لذلک أقسم اللّه بها ... و لکنّ السّورة تشیر إلی عامل آخر أضفی علی هذه المدینة شرفا و کرامة: وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ ... فالبلد استحق أن یقسم به اللّه لوجودک أنت أیّها النّبی الکریم فیه! فلا- یتصورن کفار مکّة أنّ القرآن یقسم ببلدهم تکریما لهم و لأوثانهم، لا فهذا البلد مکرم لما یحمله من تاریخ الرسالات السماویة .. و لما یحتضنه من رسالة خاتمة، و نبی خاتم.

و فی الآیة تفسیر آخر یعتبر (لا) فی الآیة السابقة نافیة و یکون المعنی: «لا اقسم بهذا البلد المقدس حال کون حرمته قد هتکت و

الأنفس و الأموال و الأعراض فیه قد أحلّت و أبیحت».

و یکون ذلک- علی هذا التّفسیر- توبیخا و تقریعا لکفار قریش و هم الذین یعتبرون أنفسهم خدمهٔ الحرم و سدنته، و یکنّون له احتراما یفوق کلّ احترام حتی أن الرجل منهم یری قاتل أبیه فیه فلا یتعرّض له ... بل حتی قیل إنّ الرجل یحمل معه شیئا من لحاء أشجار مکّهٔ فلا یتعرّض له أحد. فلما ذا إذن لم تراعوا هذه الآداب و التقالید فی حقّ النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟! لما ذا تمادیتم فی إیذائه و إیذاء صحابته، حتی سولت لکم أنفسکم استباحهٔ دمه؟! و قد ورد هذا التّفسیر فی حدیث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۷

أیضا[۱۶۷].

وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ للمفسّرین آراء عدیدهٔ عن المقصود بالوالد و الولد فی الآیهٔ.

قیل: إنّ الوالد إبراهیم الخلیل و الولد إسماعیل الذبیح.

و التّفسیر هذا یتناسب مع القسم بمکّهٔ ... و نعلم أنّ إبراهیم و ابنه رفعا القواعد من البیت، و بذلک وضعا حجر أساس البلد الأمین. و العرب فی الجاهلیهٔ کانوا یجلّون إبراهیم و ابنه و یفخرون فی الانتساب إلیهما.

و قیل: إنّ المقصود بالوالد و الولد آدم و ذرّیته.

و قیل: آدم و الأنبیاء من ذرّیته.

و قیل: کلّ والد و ما ولد. متوالی الأجیال.

و تعاقبها بالولادهٔ من أعجب بدائع الکون، و لذلک خصّها اللّه تعالی بالقسم و لا یستبعد الجمع بین هذه التفاسیر و إن کان الأوّل أنسب.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی کَبَدٍ.

و هذا هو الهدف النهائی للقسم «الکبد» کما یقول الطبرسی فی مجمع البیان فی الأصل بمعنی «الشدّهٔ» و لذا یقال للّبن إذا استغلظ «تکبّد اللّبن» و لکن کما یقول الراغب فی مفرداته أنّ «کبد» ألم یصیب الکبد، ثمّ اطلق علی کلّ ألم و مشقّهٔ.

نعم ... الإنسان یمرّ فی دورهٔ حیاته بمراحل کلّها مشوبهٔ بالألم و مقرونهٔ بالعناء. منذ أن یستقرّ نطفهٔ فی رحم امه حتی ولادته، ثمّ بعد ولادته فی مراحل طفولته و شبابه و شیخوخته یعانی من ألوان و المشاق و الآلام، هذه طبیعهٔ الحیاهٔ، و من توقّع منها غیر ذلک خیّبت ظنّه. یقول الشاعر:

طبعت علی کدر و أنت تریدهاصفوا من الأکدار و الأقذار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۸

و مکلّف الأیّام ضد طباعهامتطلب فی الماء جذوهٔ نار

و هذه الحالهٔ تشمل کلّ أبناء البشر دونما استثناء، بمن فیهم أنبیاء اللّه و أولیاؤه الصالحون.

و إذا خیل إلینا أن ثمّهٔ مجتمعات تبدو بعیدهٔ عن الآلام و الأتعاب و تعیش فی دعهٔ و رفاه، فذلک نتیجهٔ نظرهٔ سطحیهٔ، و لو تعمقنا فی دراسهٔ هذه المجتمعات، و نظرنا إلیها عن کثب لتلمسنا ما تعانیه من عمیق الألم و شدّهٔ النصب .. ثمّ إذا کان هناک استثناءات مکانیهٔ و زمانیهٔ محدودهٔ من هذه الحالهٔ العامهٔ فلا ینتقض القانون العام للحیاهٔ أَ یَحْسَبُ أَنْ لَنْ یَقْدِرَ عَلَیْهِ أَحَدٌ.[۱۶۸] فما یحیط بالإنسان من مکابدهٔ یدلّ علی ضعف قدرته، هذه الحقیقهٔ تردّ علی أولئک الذین یمتطون مرکب الغرور، و یخالون أنّهم فی مأمن من العقاب الإلهی أو أنّهم مانعتهم حصونهم و مناصبهم و ثرواتهم، فیرتکبون الذنوب و یمارسون العدوان و یدیرون ظهورهم لشریعهٔ اللّه.

و یحتمل أنّ المقصود هم الأثریاء الذین یتصورون أنّ لا أحد بإمکانه سلب ثروتهم منهم ... و قیل أنّ المراد من الآیة الأشخاص الذین یتصورون بأنّه لا أحد یحاسبهم علی أعمالهم.

و لکن مفهوم الآیة عام بإمکانه أن یستوعب جمیع هذه التّفاسیر.

و قیل إنّ الآیـة أشارت إلی «أبی الأسد بن کلدة» و هو رجل من «جمح» کان قویا شدید الخلق بحیث یجلس علی أدیم عکاظی فتجرّه عشرة رجال من تحته فینقطع و لا یبرح من مکانه ۱۶۹].

غیر أن إشارة الآیة إلی فرد، أو أفراد مغرورین لا یمنع شمولیة مفهومها.

یَقُولُ أَهْلَکْتُ مالًا لُبَداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۰۹

إشارة إلی قول الـذین یطلب منهم أن ینفقوا أموالهم فی الخیرات، فیأبون و یقولون بغرور: إننا أنفقنا فی هـذا السبیل کثیرا من الأموال، بینما لم ینفق هؤلاء شیئا، و إنّ أعطوا لأحد شیئا فللریاء و لتحقیق هدف شخصی.

و قیـل إنّهـا نزلت فی نفر أنفقوا الأـموال الطائلـة فی معاداة الرّسول و الرسالـة، و تباهوا بـذلک، یؤیـد ذلک قول «عمرو بن عبـدود» فی حرب الخنـدق حین عرض علیه علی علیه السّـلام الإسـلام قال: فأین ما أنفقت فیکم مالا لبـدا؟[۱۷۰] أی أنفقت مالا کثیرا فی عـداوة النّبی.

و قیل إنّها نزلت فی بعض رجال قریش و هو «الحرث بن عامر»، و ذلک أنّه أذنب ذنبا، فستفتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فأمره أن یکفّر. فقال: لقد ذهب مالی فی الکفارات و النفقات، منذ دخولی دین محمّد[۱۷۱].

و الجمع بین التّفاسیر المذکورة جائز، و إن کان التّفسیر الأوّل أکثر انسجاما مع سیاق الآیات التالیة:

و الفعل «أهلکت» یوحی إبادة الأموال و عدم الحصول علی عائد منها.

و «لبد»: تعنی الشیء المتراکم، و هنا تعنی المال الوفیر.

أ یَحْسَبُ أَنْ لَمْ یَرَهُ أَحَدٌ.

إنّه غافل عن هـذه الحقیقة ... حقیقة اطلاع الباری تعالی علی کلّ الأمور و علی ظواهر الأعمال، بل علی ما یختلج فی أعماق النفس و القلب، و ما یدور فی الخلد و النّیة ... و هل من المعقول أن لا یحیط المطلق الحق بکلّ شـیء؟! هؤلاء الغافلون دفعهم جهلهم لأن یروا أنفسهم بمعزل عن الرقابة الإلهیة.

نعم، اللّه سبحانه یعلم مصدر حصولهم علی هذه الأموال، و یعلم السبیل الذی أنفقوها فیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۱۰

و

روی عن ابن عباس أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «لا تزول قدما العبد حتی یسأل عن أربعة: عن عمره فیما أفناه، و عن ماله من این جمعه، و فی ما ذا أنفقه، و عن عمله ماذا عمل به، و عن حبّنا أهل البیت»[۱۷۲].

بعبارة موجزة: کیف یعتری الإنسان الغرور و یـدعی القـدرة و حیاته ممزوجـة بالآلام و الأکدار؟! و کیف یدعی أنّه أنفق مالا کثیرا فی سبیل اللّه بینما الباری سـبحانه علیهم بنوایاه، علیم بالطریق غیر المشروع للحصول علی هذه الأموال، و علیم بأهداف الریاء و الذاتیة فی إنفاق هذه الأموال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۱۱

الآیات [سورة البلد (۹۰): الآیات ۸ الی ۱۰]

اشارة

أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ (٩) وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)

التّفسير

نعمة العین و اللسان و الهدایة:

استتباعا للآیات السابقة و ما دار فیها من حدیث عن الغرور و الغفلة فی الطاغین، تذکر هذه الآیات الکریمة جانبا من أهم ما أنعم اللّه به علی الإنسان من نعم مادیة و معنویة ... کی تکسر روح الغرور، و تدفع إلی التفکیر فی خالق هذه النعم، و لکی تحرّك روح الشکر فی نفس الکائن البشری و من ثمّ تسوقه إلی معرفة الخالق:

أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ؟ وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ؟ وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ فی هذه العبارات القصیرة إشارة إلی ثلاث نعم مادیة هامّة و نعمة معنویة کبری هی بمجموعها من أعظم النعم الإلهیة: نعمة العین و اللسان و الشفة من جانب، و نعمة الهدایة و معرفة الخیر و الشرّ من جانب آخر.

«النجد» فی الأصل یعنی المکان المرتفع، و یقابلها «تهامة» و هی الأرض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۱۲

المنخفضة، و هنا کنایة عن الخیر و الشرّ و عن سیر السعادة و الشقاء[۱۷۳].

و یکفی أن نذکر فی النعم السابقة أنّ:

«العین» أهم وسیلة لارتباط الإنسان بالعالم الخارجی، عجائب العین تدفع الإنسان حقّا إلی الخضوع أمام خالقه، الطبقات السبع للعین و هی المسماة بالقرنیة، و المشیمیة، و العنبیة، و الجلدیة، و الزلالیة، و الزجاجیة، و الشبکیة، لکلّ منها ترکیب عجیب دقیق مدهش، روعیت فیها القوانین الفزیائیة و الکیمیاویة المتعلقة بالنور و انعکاساته علی أدق وجه، حتی إن أعقد أجهزة التصویر تعتبر تافهة مقارنة بهذا العضو.

لو لم یکن فی الکون سوی الإنسان، و لم یکن من وجود الإنسان سوی العین، لکانت مطالعة هذا العضو کافیة وحدها لمعرفة علم اللّه الواسع و قدرته الجبّارة جلّ و علا.

و أمّا «اللسان»، فهو أهم وسائل ارتباط الإنسان بغیره من أبناء جلدته، و نقل المعلومات و تبادلها بین أبناء البشر فی الجیل الواحد و فی الأجیال المتعاقبة، و بدون هذه الوسیلة الهامّة من وسائل الارتباط ما کان بإمکان الإنسان إطلاقا أن یرتقی إلی ما ارتقی إلیه فی العلم و المعرفة.

و «الشفتان»: تلعبان أوّلا- دورا فی هامّا فی النطق، إذ أن الشفتین مخرج لکثیر من الحروف، و الشفتان تقومان بدور أیضا فی هضم الطعام و المحافظة علی رطوبة الفم، و شرب الماء، تری لو انعدمت الشفتان فما ذا کان وضع الإنسان فی أکله و شربه و نطقه و المحافظة علی ماء فمه و حتی جمال وجهه و شکله؟! إنّ درك الحقائق یتمّ أوّلا بالعین و اللسان ... و لذلك تقدم ذکرهما فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۱۳

السیاق ... ثمّ تبع ذلك ذکر الهدایة، الهدایة العقلیة و الفطریة وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ و یشمل التعبیر أیضا «الهدایة التشریعیة» التی ینهض بمسؤولیتها الأنبیاء و الأولیاء.

نعم ... لقد أنعم اللّه علی الإنسان بالبصر و البصیرة، و أنعم علیه بهدایة الإرشاد إلی الطریق و التحذیر من مغبة الانحراف عنه، کی

تکتمل الحجّة على الإنسان.

و مع کلّ هذه النعم، نعم الهدایة، لو انحرف الإنسان عن جادة الحقّ، فلا یلومنّ إلّا نفسه.

عبارة وَ هَدَیْناهُ النَّجْدَیْنِ إضافة لما لها من مدلول على مسألة الإختیار و حریة الإنسان، تدلّ أیضا على ما یتطلبه طریق الخیر من جهد و عناء، لأنّ «النجد» مکان مرتفع و تسلق المکان المرتفع یتطلب کدا و سعیا و جهدا، غیر أن طریق الشرّ له مشاکله و مصاعبه أیضا، فأولى بالإنسان أن یبذل الجهد و السعی على طریق الخیر.

مع ذلک، فانتخاب الطریق بید الإنسان ... الإنسان هو الذی یتحکم فی عینه و لسانه فیم یستعملها ... فی الحلال أو الحرام، و هو الذی یختار إحدى الجادتین «الخیر» أو «الشر».

و

فی الحدیث القدسی أن اللّه سبحانه یخاطب أبناء آدم یقول: «یا ابن آدم إنّ نازعک لسانک فیما حرمت علیک فقد أعنتک علیه بطبقتین فأطبق، و إن نازعک بصرک إلى بعض ما حرمت علیک فقد أعنتک علیه بطبقتین فأطبق ...»[۱۷۴].

فاللّه سبحانه منح هذه النعم، و منح وسائل السیطرة علیها، و تلک من الألطاف الإلهیة الکبرى.

و الملفت للنظر أنّ الآیات التی نحن بصددها أشارت إلى الشفتین بعد اللسان،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۴

و لکن لم تشر إلى الجفنین بعد ذکر العین، و لعل ذلک یعود إلى أهمیة الشفتین فی الکلام و الطعام و غیرها من الأمور أهمیة تفوق بکثیر أهمیة الجفنین، و قد یعود أیضا إلى أن السیطرة على اللسان أهم و أخطر بکثیر من السیطرة على العین.

بحوث

۱- عجائب العین

العین یشبهونها عادة بآلة التصویر (الکامیرا)، فهی تلتقط الصور من عدستها الدقیقة، بدلا من أن تعکسها على اللوح الحساس (الفیلم) کما تفعل الکامیرا، تعکس الصور على شبکیة العین، و من ثمّ تنتقل عن طریق الأعصاب البصریة إلى الدماغ.

آلة التصویر الدقیقة الظریفة هذه قد تلتقط یومیا ملایین الصور، غیر أنّها من جهات مختلفة لا یمکن مقارنتها حتى بأعقد و أحدث أجهزة التصویر، لأنّه:

۱- فتحة تنظیم النور (دیافراغم) فی جهاز العین، و هو بؤبؤ العین، یعمل بشکل تلقائی أمام تغییر النور، فیتقلص أمام النور القوی، و یتسع أمام النور الضعیف، بینما أجهزة التصویر بحاجة إلى تنظیم بید المصور.

۲- عدسة العین خلافا لأنواع عدسات أجهزة التصویر تتغیر بتغیر بعد الصورة عنها، فیکون قطرها حینا ۵، ۱ ملم، و یصل أحیانا إلى ۸ ملم، و هذا التغییر یتمّ بواسطة عضلات تتقلص و تنبسط حسب بعد الصورة المرئیة، فعدسة العین تستطیع أن تعمل ما تعمله مئات العدسات الزجاجیة.

۳- العین تستطیع أن تتحرک فی الجهات الأربع بمساعدة العضلات و تلتقط الصور فی الأنحاء المختلفة.

۴- و المهم، أن أجهزة التصویر بحاجة إلى تبدیل أفلامها، فإذا انتهت حلقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۵

فیلم، فلا بدّ من فیلم آخر. لکن عین الإنسان تلتقط الصور طوال عمر الإنسان دون أن تحتاج إلى تعویض شیء، و یعود السبب إلى أن

الشبكية التى تنعكس عليها الصور تحتوى على نوعين من الخلايا «المخروطية»، و «الأسطوانية» فيها مادة حساسة للغاية تجاه النور تتحلل بأقل شعاع من نور فى الشبكية و تتحول إلى أمواج تنتقل إلى الدماغ، ثمّ يزول الأثر و تستعد الشبكية لالتقاط صور جديدة.

۵- أجهزة التصوير مصنعة من مواد قويّة جدّا، لكن جهاز العين لطيف و ظريف إلى درجة كبيرة، لذلك وضع فى محفظة عظيمة مستحكمة، و العين مع ظرافتها و لطافتها أكثر دواما بكثير من الحديد و الفولاد.

۶- مسألة تنظيم النور ذات أهمية فائقة للمصورين، و قد يطول الزمن بالمصور كى يستطيع تنظيم إضاءة الصورة، بينما تستطيع العين فى جميع ظروف النور القوى و المتوسط و الضعيف بل حتى فى الظلام شريطة وجود بصيص من النور أن تلتقط الصور، و هذا من عجائب العين.

۷- حين ننتقل فجأة من النور إلى الظلمة، أو حين تنطفئ مصابيح الغرفة فى الليل، لا تستطيع أعيننا فى البرهة الاولى أن ترى شيئا، ثمّ بالتدريج تعتاد العين على الظرف الجديد فترى ما حولها، و هذا التعوّد هو تعبير بسيط عن التحول المعقد الذى يحدث فى العين، و يؤدى خلال لحظات بسيطة إلى الانسجام بين العين و الظروف الجديدة.

و عكس ذلك يحدث عند ما ننتقل من الظلام إلى النور، فالعين فى البداية لا تتحمل النور القوى، و لكن بعد لحظات تتواءم مع الظرف الجديد، و مثل هذه الخصائص لا توجد إطلاقا فى أجهزة التصوير.

۸- أجهزة التصوير تستطيع أن تصور زاوية محدودة ممّا يقع أمامها، بينما عين الإنسان تستطيع أن تلتقط كلّ ما فى نصف الدائرة الافقية أيامها بزاوية مقدارها ۱۸۰ درجة تقريبا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۱۶

۹- من عجائب العينين أنّهما تلتقطان الصورة لتعكساها معا فى نقطة واحدة، و إذا اختل هذه التنظيم تصاب العين بالحول و يرى الفرد الشيء الواحد شيئين.

۱۰- و من الطريف أن صورة الأجسام تنعكس على الشبكية مقلوبة، بينما لا نرى نحن الأشياء مقلوبة.

۱۱- سطح العين يجب أن يبقى رطبا دائما، و إذا جفّ اضرّ بالعين كثيرا، و هذه الرطوبة تفرزها الغدد الدمعيّة، فتدخل العين من جانب و تخرج عن طريق قنوات دقيقة تقع فى جانب من العين إلى الأنف، فترطب الأنف أيضا.

و إذا جفت الغدد الدمعية، تتعرض العين للخطر، و تتعذر حركة الأجفان، و إن زاد نشاط هذه الغدد أكثر من المطلوب يسيل الدمع باستمرار على الوجه، و إذا انسدّ طريق القنوات التى تدفع الدمع من العين إلى الأنف، فلا بدّ للفرد أن ينشغل دائما بتجفيف الماء المتصبب على وجهه.

۱۲- تركيب الدمع معقد فيه أكثر من عشرة عناصر تشكل معا أفضل سائل للحفاظ على العيم.

بعبارة موجزة عجائب العين من الكثرة بحيث تتطلب كتابة المجلدات الضخام، و ليست هى أكثر من شحمة صغيرة، و حقّا ما قاله أمير المؤمنين على عليه السّلام: «اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم و يتكلم بلحم، و يسمع بعظم، و يتنفس من خرم»[۱۷۵].

۲- عجائب اللسان

اللسان بدوره من الأعضاء الهامة فى بدن الإنسان، و ينهض بأعباء هامّة فهو عامل مهم فى مضغ الطعام و بلعه، يدفع باللقمة إلى الأسنان و يلتقطها دون أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۱۷

يتعرض هو للقطع.

و قـد يحـدث نـادرا أن يقع اللسان فى مصـيدة الأسـنان أثناء الأكل، فنسـتغيث من الألم، و نفهم عندئـذ مـدى مهارة اللسان فى تجنب الانزلاق تحت الأسنان مع أنّه ملاصق لها!! و اللسان بعد ذلك ينظف جوف الفم و الأسنان من بقايا الطعام.

و أهم من ذلـك، دور اللسـان فى الكلاـم بتحركه السـريع المتواصـل المنظم فى الجهـات الست، و هو دور عجيب، و الإمعـان فيه يثير الدهشة و الحيرة فقد يسرّ اللّه تعالى للإنسان وسـيلة سـهلة للتكلم و فى متناول الجميع فلا يصيبها تعب و لا نصب و لا ملل و لا تكلّف الإنسان خرجا!! و أعجب من ذلك موضوع استعداد الإنسان للكلام، و هذا الاستعداد أودعه اللّه فى الإنسان ليستطيع من خلال تكوين الجمل باشكال لا تعدّ و لا تحصى أن يبيّن ما لا نهاية له من الغايات.

و أهم من ذلك أيضا تنوّع اللغات و قابليـة الإنسان على وضع لغات مختلفـة، و تتّضـح هـذه الأهميـة من خلال مطالعـة مفردات آلاف اللغات المنتشرة فى العالم ...

حقّا «العظمة للّه الواحد القهار!».

۳- هداية النجدين

«النجد» كما ذكرنا الارتفاع أو الأرض المرتفعة، و «النجدين» هنا طريق الخير و طريق الشر، و

ورد فى الحـديث عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قال: «يا أيّها النّاس! هما نجـدان: نجـد الخير و نجد الشـرّ، فما جعل نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير».[۱۷۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۱۸

تحمـل «التكليف» و المسؤوليـة غير ممكن دون شـك، بغير المعرفـة و الوعى و حسب هـذه الآيـة فـإنّ اللّه سـبحانه منـح الإنسان هـذه المعرفة.

و هـذه المعرفـة يحصل عليها الإنسان من ثلاثـة طرق: من الإدراكات العقليـة و الاسـتدلال، و من طريق الفطرة و الوجدان دون الحاجة إلى الاسـتدلال، و من طريق الوحى و تعاليم الأنبياء و الأوصـياء عليهم السّـلام، و كل ما يحتاجه البشر ليطوى مسيرة تكامله قد بيّنه اللّه سبحانه له بواحد من هذه الطرق أو فى كثير من الحالات بالطرق الثلاثة معا.

و يلاحظ أن الحـديث المذكور يصـرّح بأن نجد الشـرّ ليس أحبّ إلى طبع الإنسان من نجد الخير، و هذا يردّ على القائلين بأن الإنسان مطبوع على الشرّ و إن سلوك طريق الشرّ أيسر له و أسهل.

و من المؤكّـد أن البيئة الاجتماعية لو خلت من التربية الخاطئة و الانحرافات لوفرت الأجواء لرغبة متزايدة فى الإنسان نحو الخير، و لعل تعبير «نجـد» و هى الأرض المرتفعة لطريق الخير يعود إلى أن الأرض المرتفعة ذات هواء أنقى و جوّ أبهج، و إنّما اطلق النجد للشـرور أيضا من باب التغليب ۱۷۷].

و قيل أيضا أنّ التعبير بالنجدين إشارة إلى ظهور طريقى الخير و الشرّ و بروزهما، كبروز و ظهور الأرض المرتفعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۱۹

الآيات [سورة البلد (۹۰): الآيات ۱۱ الى ۲۰]

اشارة

فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (۱۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (۱۲) فَكُّ رَقَبَةٍ (۱۳) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (۱۴) يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (۱۵)

أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (۱۶) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (۱۷) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۱۸) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (۱۹) عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (۲۰)

التّفسير

العقبة!

بعد ذكر النعم الكبيرة فى الآيات السابقة، تنحى هذه الآيات باللائمة على أولئك الذين يكفرون بهذه النعم، و لا يسخرونها على طريق النجاة، يقول سبحانه:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ[۱۷۸]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۰

و ما المقصود من العقبة؟ الآيات التالية تفسّرها:

وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ.

من هنا فالعقبة التى لم يتهيأ الكافرون بأنعم اللّه لاجتيازها هى: فكك رقبة عبد من الرقبة أى تحريره أو إطعام فى يوم الضائقة الاقتصادية و المجاعة، يتيما ذا قربى أو فقيرا قد لصق بالتراب من شدّة فقره، العقبة هى مجموعة أعمال الخير التى تتجه لخدمة النّاس و الأخذ بيد الضعفاء و المعوزين، كما إنّها أيضا مجموعة من المعتقدات الصحيحة الخالصة تشير إليها الآيات التالية.

نعم، إن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير لما لأغلب النّاس من التصاق بالمال و الثروة.

ليس الإسلام و الإيمان بالقول و الادعاء، بل أمام كلّ إنسان مسلم و مؤمن عقبات يجب أن يجتازها الواحدة بعد الاخرى، مستمدا العون من اللّه سبحانه و من روح الإيمان و الإخلاص.

بعضهم ذهب إلى أنّ «العقبة» هنا تعنى أهواء النفس التى حثّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على مقاومتها و مجاهدتها، و يسمى ذلك «الجهاد الأكبر»، و استنادا إلى هذا التّفسير يكون فك الرقبة و إطعام المسكين من المصاديق البارزة لاجتياز عقبة هوى النفس.

و من المفسّرين من قال إنّ «العقبة» هى الصراط الصعب يوم القيامة، كما جاء

فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۱

«إن أمامكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون، و أنا أريد أن أخفف عنكم لتلك العقبة»[۱۷۹].

و هذا الحديث طبعا لا يمكن أن يكون تفسيرا للآية، غير أن بعض المفسّرين فهموا منه ذلك، و هذا الفهم لا يتناسب مع التّفسير الصريح لكلمة «العقبة» فى الآيات التالية، إلّا إذا اعتبرنا العقبة الكؤود يوم القيامة تجسيدا للطاعات الثقيلة الصعبة فى هذا العالم، و اجتياز تلك العقبات فرع لاجتياز هذه الطاعات «تأمل بدقّة».

تعبير «اقتحم» فى الآية أصله من «الاقتحام» و هو الدخول فى عمل صعب مخيف (مفردات الراغب)، أو الولوج و العبور بشدّة و مشقّة (تفسير الكشّاف) و هذا يعنى أن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير، كما أنّه تأكيد على ما ورد فى أوّل السّورة بشأن ما يكابد الإنسان فى حياته: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ.

و

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «إنّ الجنّة حفت بالمكاره و إنّ النّار حفت بالشهوات»[۱۸۰].

ملاحظات

و هنا يلزم الالتفات إلى عدّة ملاحظات:

۱- المقصود من «فك رقبة» على الظاهر هو تحرير العبد و الرقيق.

روى أنّ أعرابيا جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: يا رسول اللّه علمنى عملا يدخلنى الجنّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۲

أجابه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة[۱۸۱] أعتق النسمة و فك الرقبة».

فقال الأعرابى: أو ليسا واحدا؟! قال: «لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، و فك الرقبة أن تعين فى ثمنها» ثمّ قال: «و الفىء على ذى الرحم الظالم، فإنّ لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن و أمر بالمعروف و انه عن المنكر، فإنّ لم تطق ذلك، فكفّ لسانك إلّا من الخير»[۱۸۲].

۲- قال بعض المفسّرين أن معنى «فك رقبة» تحرير الفرد رقبته من الذنوب بالتوبة، أو تحرير نفسه من العذاب الإلهى بتحمل الطاعات، غير أن ما جاء فى الآيات التالية من توصية باليتيم و المسكين يؤيد أن المقصود هو تحرير رقبة العبد.

۳- «المسغبة» من «سغب» على وزن «غضب» و هو الجوع، و «يوم ذى مسغبة» أى وقت المجاعة، و الجياع موجودون فى المجتمع عادة، و الآية إنّما تؤكّد على إطعامهم فى زمان الجماعة لأهمية الموضوع، و إلّا فإنّ الجياع هو دائما من أفضل الأعمال.

و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من أشبع جائعا فى يوم سغب داخله اللّه يوم القيامة من باب من أبواب الجنّة لا يدخلها إلّا من فعل مثل ما فعل»[۱۸۳].

۴- «المقربة» بمعنى القرابة و الرحم، و التأكيد على الأقرباء من اليتامى فى الآية إنّما هو لمراعاة الأولوية و للتأكيد على تصاعد المسؤولية تجاههم، لا لحصر الإطعام بهذا القسم من اليتامى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۳

ثمّ إنّ غمط حقوق اليتامى فى ذلك العصر خاصة على يد الأقرباء استدعى التحذير من هذه العقبة بالذات.

و ذهب «أبو الفتوح الرازى» إلى أنّ «المقربة» ليست من القرابة، بل من «القرب» إشارة إلى التصاق بطون الجياع من شدّة الجوع ۱۸۴].

و نستبعد كثيرا هذا المعنى فى تفسير الآية.

۵- «المتربة» مصدر ميمى من «ترب»، و ساكن التراب من شدّة فقره هو ذو المتربة، و التأكيد على هذا النمط من المساكين لأولويتهم أيضا، إذ إطعام أى مسكين عمل مستحسن.

و

روى أنّ الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام إذا أكل أتى بصحفة فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به فيأخذ من كلّ شىء شيئا فيضع فى تلك الصحفة ثمّ يأمر بها للمساكين، ثمّ يتلو هذه الآية: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ثمّ يقول: «علم اللّه عزّ و جلّ أنّه ليس كلّ إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنّة»[۱۸۵].

م ثمّ تواصل الآية التالية بيان طبيعة هذه العقبة، و سبل اجتيازها فتقول: ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ.

فالقادرون على اجتياز هذه العقبة متحلون بالإيمان و متواصون بالصبر و الاستقامة على الطريق، و متواصون بالرحمة و العطف.

و بهذا السياق القرآنى لبيان طبيعة العقبة نفهم أن القادرين على اجتيازها هم المتحلون بالإيمان و الخلق الكريم كالتواصى بالصبر و الرحمة، و ذوو أعمال البرّ و الإحسان كتحرير العبيد و إطعام الأيتام و المساكين، إنّهم بعبارة أولئك الذين يلجون ميادين الإيمان و الأخلاق و العمل و يخرجون منها ظافرين منتصرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۲۴

العطف بالحرف «ثمّ» لا- يعنى دائما التأخير الزمنى، أى لا يعنى أن عملية الإطعام و الإنفاق يجب أن تتقدم على الإيمان، بل إن هذا الحرف فى مثل هذه الموارد- كما صرّح بذلك جمع من المفسّرين- لبيان علو المرتبة، إذ من المؤكّد أنّ رتبة الإيمان و التوصية بالصبر و المرحلة أسمى و أعلى من مساعدة المحتاجين، بل الأعمال الصالحة تنبثق من ذلك الإيمان و تلك الأخلاق، و كلّ ما يفعله الإنسان تجد جذوره فى معتقداته و أخلاقياته.

و احتمل بعضهم أن «ثمّ» تفيد هنا التأخير الزمنى، لأن أعمال الخير قد تكون منطلقا للتوجه نحو الإيمان، و هى بخاصة ذات تأثير فى ترسيخ دعائم الأخلاق، إذ أن أخلاق الإنسان تبدأ بشكل «فعل» ثمّ تتحول إلى «حالة» ثمّ تتحول إلى «عادة» ثمّ تصبح «ملكة».

و التعبير بكلمة «تواصوا» و تعنى تبادل التوصية، لها دلالة اجتماعية هامّة، هى إن عملية التواصى بالسير على طريق الحق و بالاستقامة على طاعة اللّه و مكافحة جموح الأهواء النفسية، و بالحبّ و الرحمة ليست عملية فردية بل يجب أن يتخذ طابعا اجتماعيا عامّا فى كلّ المجتمع الإيمانى، و كلّ الأفراد مسئولون أن يوصى بعضهم الآخر بحفظ هذه الأصول. و عن هذا الطريق أيضا تتعمق عرى التلاحم و الاجتماعى.

و قال بعضهم إنّ «الصبر» فى الآية إشارة إلى توطين النفس على طاعة اللّه و الاهتمام بأوامره، و «المرحمة» إشارة إلى علاقة الودّ مع النّاس، و نعلم أن أساس الدين هو تنظيم هذه الرابطة بين العبد و ربّه، و بين الإنسان و أخيه الإنسان.

و فى خاتمة هذه الأوصاف تذكر السّورة مكانة المتحلين بها فتقول: أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ.

فصحيفة أعمالهم تسلّم إليهم، فى محضر اللّه سبحانه و تعالى، بيدهم اليمنى.

و يحتمل أن تكون «الميمنة» من «اليمن» و البركة، أى إنّ أصحاب هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۲۵

الصفات ذوو بركة لأنفسهم و لمجتمعهم.

ثمّ تتعرض الآية لتصوير حالة الفاشلين فى اجتياز «العقبة» فتقول:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ.

و «المشئمة» من «الشؤم» تقابل «الميمنة» من «اليمن»، أى إنّ هؤلاء الكافرين مشئومون لا- يمن فيهم و لا بركة، بل هم عامل شقاء لأنفسهم و لمجتمعهم ثمّ إنّ علامة شؤم الفرد يوم القيامة تسلّمه صحيفة أعماله بيده اليسرى، و من هنا ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ «المشئمة» هى اليسار مقابل اليمين، أى إنّ الذين كفروا بآيات اللّه الذين يتسلمون صحائف أعمالهم بيدهم اليسرى خاصّة و أنّ مادة «شؤم» جاءت فى اللغة بمعنى اليسار أيضا[۱۸۶].

و فى الآية الأخيرة من السّورة إشارة قصيرة ذات دلالة عميقة إلى جزاء هذه الفئة الأخيرة: عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ.

و «الإيصاد» إحكام الغلق، و واضح أنّ الإنسان- حين يكون فى غرفة حارّة الجوّ- يتوق إلى فتح أبوابها، ليهبّ عليه نسيم يلطف الهواء، فما بالك إذا كان فى محرقة جهنّم و الأبواب كلها موصدة عليه؟! اللّهم! قنا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراما ...

اللّهم! وفقنا لاجتياز ما يعترى طريقنا من عقبات .. و لا توفيق إلّا بك.

اللّهم! اجعلنا من أصحاب الميمنة: و احشرنا مع الصالحين و الأبرار.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة البلد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۷

سورة الشّمس

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها خمس عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۹

«سورة الشّمس»

محتوی السّورة:

هـذه السّورة هی فی الواقع سورة تهـذیب النفس، و تطهیر القلوب من الأدران، و معانیها تـدور حول هـذا الهدف، و فی مقدمتها قسـم بأحد عشـر مظهرا من مظاهر الخلیقة و بذات الباری سبحانه، من أجل التأکید علی أن فلاح الإنسان یتوقف علی تزکیة نفسه، و السّورة فیها من القسم ما لم یجتمع فی سورة اخری.

و فی المقطع الأخیر من السّورة ذکر لقوم «ثمود» باعتبارهم نموذجا من أقوام طغت و تمردت، و انحدرت- بسبب ترک تزکیة نفسها- إلی هاویة الشقاء الأبدی، و العقاب الإلهی الشدید.

و هذه السّورة القصـیرة- فی الواقع- تکشف عن مسألة مصیریة هامّة من مسائل البشریة، و تبیّن نظام القیم فی الإسلام بالنسبة إلی أفراد البشر.

فضیلة السّورة:

یکفی فی تلاوة هذه السّورة أن نذکر

حدیثا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها فکأنّما تصدّق بکلّ شیء طلعت علیه الشمس و القمر»[۱۸۷]

و من المؤکّد أنّ هذه الفضیلة الکبری لا ینالها إلّا من استوعب محتواها بکلّ وجوده، و وضع مهمّة تهذیب النفس نصب عینیه دائما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۰

الآیات [سورة الشمس (۹۱): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها (۱) وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها (۲) وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها (۳) وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشاها (۴)

وَ السَّماءِ وَ ما بَناها (۵) وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها (۶) وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (۷) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (۸) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکَّاها (۹)

وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (۱۰)

التّفسیر

أكبر عـدد من القسم القرآنى تتضـمّنه هـذه السّورة، هو فى حساب «أحد عشـر»، و فى حساب آخر «سـبعة» أقسام ... و يبيّن أن السّورة تتعرض لموضوع خطير هام ... موضوع عظيم كعظمة السماء و الأرض و الشمس و القمر ... موضوع حياتى مصيرى.

لنبدأ أولا بشرح ما جاء فى السّورة من قسم، لنتعرض بعد ذلك إلى الموضوع الآية الاولى تقول: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۱

و لقد ذكرنا آنفا أن القسم فى القرآن يستهدف مقصدين:

الأوّل: بيان أهمية ما جاء القسم من أجله.

و الثّانى: أهميـة ما أقسم به القرآن، لأنّ القسم عادة يكون بالمهم من الأمور من هنا تعمل هذه الأقسام على تحريك الفكر فى الإنسان كى يمعن النظر فى هذه الموضوعات الهامّة من عالم الخليقة، و ليتخذ منها سبيلا إلى اللّه سبحانه و تعالى.

«الشـمس» ذات دور هـام و بنّاء جـدّا فى الموجودات الحيـة على ظهر البسـيطة فهى إضافـة إلى كونها مصـدرا للنور و الحرارة- و هما عاملان أساسيان فى حياة الإنسان- تعتبر مصدرا لغيرهما من المظاهر الحياتية، حركة الرياح، و هطول الأمطار، و نمو النباتات، و جريان الأنهر و الشلالات، بل حتى نشوء مصادر الطاقة مثل النفط و الفحم الحجرى ... كل واحد منها يرتبط- بنظرة دقيقة- بنور الشمس.

و لو قدر لهذا المصباح الحياتى أن ينطفئ يوما لساد الظلام و السكوت و الموت فى كل مكان.

«الضـحى» فى الأصل انتشار نور الشـمس، و هذا ما يحدث حين يرتفع قرص الشـمس عن الأفق و يغمر النور كل مكان، ثمّ يطلق على تلك البرهة من اليوم اسم «الضحى»، و القسم بالضحى لأهميته، لأنّه وقت هيمنة نور الشمس على الأرض.

و القسم الثّالث بـالقمر: وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاهـا. و هـذا التعبير- كمـا ذهب إلى ذلـك جمع من المفسّـرين- إشارة إلى القمر حين يكتمل و يكون بدرا كاملا فى ليلة الرابع عشر من كلّ شهر، ففى هذه الليلة يطل القمر من أفق المشرق متزامنا مع غروب الشمس. فيسطع بجماله النّير و يهيمن على جوّ السماء، و لجماله و بهائه فى هذه الليلة أكثر من أيّة ليلة اخرى جاء القسم به فى الآية الكريمة.

و احتمل بعضـهم أن يكون فى تعبير الآيـة إشارة إلى تبعية القمر بشـكل دائم للشـمس، و اكتساب النور من ذلك المصدر المشعّ، غير أن عبارة وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها تكون فى هذه الحالة قيدا توضيحيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۲

و ثمّة احتمالات اخرى ذكرت فى تفسير الآية لا تستحق الذكر.

و القسم الرابع بالنهار: وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها.

و «التجلية» هى الإظهار و الإبراز. و اختلف المفسّـرون فى مرجع الضـمير فى «جلّاها» قال أكثرهم يعود إلى الأرض أو الدنيا، أى: قسما بالنهار إذا أظهر الأرض بضوئه. و ليس فى الآيات السابقة إشارة إلى الأرض، و لكنها تتّضح من قرينة المقام.

و بعضـهم قال إن الضـمير يعود إلى الشمس، و يكون القسم بالنهار حين يجلّى الشمس، صحيح أنّ الشمس تظهر النهار و لكن يمكن أن نقول مجازا إنّ النهار يجلّى الشمس. غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

على كـلّ حـال، القسم بهـذه الظاهرة السـماوية الهامّـة، يبيّن أهميتها الكبرى فى حياة البشـر و فى جميع الأحياء، فالنهار رمز الحركـة و الحياة، و كلّ الفعاليات و النشاطات و مساعى الحياة تتمّ عادة فى ضوء النهار.

و القسم الخامس بالليل: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها[۱۸۸].

بالليل بكلّ ما فيه من بركة و عطاء ... إذ هو يخفّف من حرارة شـمس النهار، ثمّ هو مبعث راحة جميع الموجودات الحية و اسـتقرارها، و لو لا ظلام الليل لما كان هناك هدوء و اسـتقرار، لأنّ استمرار سطوع الشمس يؤدى إلى ارتفاع فى درجة الحرارة و تلف كلّ شىء، و نفس هذه المشكلة تحدث لو اختل الوضع الحالى لنظام الليل و النهار، فعلى ظهر القمر، حيث ليله يعادل أسبوعين من كرتنا الارضية و نهاره يعادل أيضا أسبوعين، ترتفع درجة الحرارة إلى ما يقارب ثلاثمائة درجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۳

مئويـة فى وسط النهار، و معها لا يبقى موجود حى نعرفه، على قيـد الحياة، و فى وسط الليل تنخفض درجة الحرارة كثيرا تحت الصـفر بحيث يتجمد حتما أى موجود حىّ لو قدّر له أن يكون هناك.

و يلاحـظ أن الأفعـال المـذكورة فى الآيـات السابقـة وردت بصـيغة الماضـى بينما وردت فى هـذه الآيـة بصـيغة المضارع، و لعل هـذا الاختلاـف يشـير إلى أنّ ظهور الليـل و النهـار من الحوادث التى لاـ تختص بزمان معين، بل تشـمل الماضـى و الحاضـر. من هنا كانت الأفعال ماضية تارة و مضارعة اخرى لبيان عمومية هذه الحوادث فى مجرى الزمان.

و فى القسمين السادس و السابع تحلّق بنا الآية إلى السماوات و خالق السماوات: وَ السَّماءِ وَ ما بَناها.

أصل خلقة السماوات بما فيها من عظمة مدهشة من أعظم عجائب الخليقة.

و بناء كلّ هذه الكواكب و الأجرام السماوية و ما يحكمها من أنظمة أعجوبة اخرى ... و أهم من كلّ ذلك ... خالق هذه السماوات.

و يلاحـظ فى عبـارة «وَ مـا بَناهـا» أنّ «ما» تسـتعمل فى العربيـة لغير العاقل، و لا يصـح اسـتعمالها فى موضع الحـديث عن البارى العليم الحكيم سبحانه. و لذا ذهب بعض إلى أنّها مصدرية لا موصولة، و بذلك يكون معنى الآية الكريمة: «و السماء و بنائها» غير أنّ الآيات التالية: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها، لا يدع بما لا للشك أن «ما» موصولة، و تعود إلى اللّه سبحانه خالق السـماوات، و ورد فى مواضع أخرى من القرآن الكريم استعمال «ما» للعاقل، كقوله سبحانه:

فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ.

من المفسّـرين من قال إنّ «ما» اسـتعملت هنا لتطرح مسألة المبدأ بشـكل مبهم كى يسـتطيع البشر بالدراسة و النظر أن يتوصلوا إلى علم بالمبدأ سبحانه و حكمته، ليتبدل بعد ذلك «ما» إلى «من» أى من الشىء المجهول الذى يعبّر عنه ب «ما» إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۴

معلوم، غير أن التّفسير الأوّل أنسب.

القسم الثامن و التاسع بالأرض و خالق الأرض: وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها.

بالأـرض التى تحتضن حيـاة الإنسان و جميع الموجودات الحيّـة ... الأرض بجميع عجائبها: بجبالها، و بحارها، و سـهولها، و وديانها، و غاباتهـا، و عيونها، و أنهارها، و مناجمها، و ذخائرها ... و بكلّ ما فيها من ظواهر يكفى كلّ واحـد منها لأن يكون آيـة من آيات اللّه و دلالة على عظمته.

و أعظم من الأرض و أسـمى منها خالقها الـذى «طحاها» و «الطحو» بمعنى البسط و الفرش، و بمعنى الذهاب بالشـىء و إبعاده أيضا. و هنـا بمعنى «البسـط»، لأنّ الأرض كانت مغمورة بالماء، ثمّ غاض الماء فى منخفضات الأرض، و برزت اليابسـة، و انبسـطت، و يعبّر عن ذلك أيضا بدحو الأرض، هذا أوّلا.

و ثانيا: كانت الأرض فى البداية على شـكل مرتفعات و منخفضات و منحدرات شديدة غير قابلة للسـكن عليها. فهطلت أمطار مسـتمرة سوّت بين هذه التعاريج، و تسطحت الأرض فكانت صالحة لمعيشة الإنسان و للزراعة.

يرى بعض المفسّـرين أنّ فى الآيـة إشـارة عـابرة إلى حركـة الأـرض، لأنّ من معانى «الطحو» الـدفع الـذى يمكن أن يكون إشارة إلى حركة الأرض الانتقالية حول الشمس، أو إلى حركتها الوضعية حول نفسها، أو إلى الحركتين معا.

و أخيرا القسم الحادى عشر و القسم الثّانى عشر بالنفس الإنسانية و بارئها:

وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها.

قيل إنّ المراد بالنفس هنا روح الإنسان، و قيل إنّه جسمه و روحه معا.

و لو كان المراد من النفس الروح، «سواها» تعنى إذن نظمها و عـدّل قواها ابتـداء من الحواس الظاهرة و حتى قوّة الإدراك، و الذاكرة،

و الانتقال، و التخيل، و الابتكار، و العشق، و الإرادة، و العزم و نظائرها من الظواهر المندرجة فی إطار «علم النفس».

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۵

و لو كـان المراد من النفس الروح و الجسم معـا، فالتسويـة تشـمل أيضا ما فی البـدن من أنظمـة و أجهزة يدرسـها علم التشـريح و علم الفسلجة.

و فی القرآن الكريم وردت «نفس» بكلا المعنيين، بمعنی الروح، كقوله سبحانه فی الآية (۴۲) من سورة الزمر: اللَّهُ يَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ...

و بمعنی الجسم، كقوله سبحانه فی الآية (۳۳) من سورة القصص: قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

و الأنسب هنا أن يكون معنی النفس هنا شاملا للمعنيين لأن قدرة اللّه سبحانه تتجلی فی الإثنين معا.

و يلاحظ أن الآيـة ذكرت كلمـة «نفس» نكرة و فی ذلك إشارة إلی ما فی النفس من عظمـة تفوق قـدرة التصوّر و إلی ما يحيطها من إبهام، يجعلها موجودا مجهولا.

و هذا ما حدا ببعض العلماء المعاصرين أن يتحدث عن الإنسان فی كتابه تحت عنوان: «الإنسان ذلك المجهول».

الآية التالية تتناول أهم ظاهرة فی الخليقة و تقول: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها.

نعم، حين اكتملت خلقة الإنسان و تحقق وجوده، علّمه اللّه سبحانه الواجبات و المحظورات. و بذلك أصبح كائنا مزيجا فی خلقته من «الحمأ المسنون» و «نفخة من روح اللّه»، و مزيجا فی تعليمه من «الفجور» و «التقوی». أصبح بالتالی كائنا يستطيع أن يتسلق سلّم الكمال الإنسانی ليفوق الملائكـة، و من الممكن أن ينحط لينحـدر عن مسـتوی الأنعام و يبلغ مرحلـة بَلْ هُمْ أَضَلُ و هـذا يرتبط بالمسير الذی يختاره الإنسان عن إرادة.

«ألهمهـا» من الإلهـام، و هو فی الأصـل بمعنی البلع و الشـرب، ثمّ اسـتعمل فی إلقاء الشـیء فی روع الإنسان من قبل اللّه تعالی، و كأن الإنسان يبتلع ذلك الشیء و يتشرّبه بجميع وجوده.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۶

و جاء بمعنی «الوحی» أيضا. بعض المفسّرين يری أن الفرق بين «الإلهام» و «الوحی»، هو إنّ الفرد الملهم لا يدری من أين أتی بالشیء الذی ألهم به، و فی حالة الوحی يعلم بالمصدر و بطريقة وصول الشیء إليه.

«الفجور» من مـادة «فجر» و تعنی- كمـا ذكرنـا سابقـا- الشق الواسع و سـمّی بيـاض الصبـح بالفجر لأنّه يشقّ سـتار الظلام. و لما كانت الذنوب تهتك ستار الدين فإنّها سمّيت بالفجور.

المقصود بالفجور فی الآية طبعا الأسباب و العوامل و الطرق المؤدية إلی الذنوب.

و «التقوی» من الوقاية و هی الحفظ، و تعنی أنّ يصون الإنسان نفسه من القبائح و الآثام و السيئات و الذنوب.

و يلزم التأكيـد أنّ الآيـة الكريمة: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها لا تعنی أنّ اللّه سـبحانه قد أودع عوامل الفجور و التقوی فی نفس الإنسان، كما تصوّر بعضـهم، و استنتج من ذلك دلالـة الآيـة الكريمة علی وجود التضاد فی المحتوی الداخلی للإنسان! بل تعنی أنّ اللّه تعالی علّم الإنسان هاتين الحقيقتين و ألهمه إيّاهما، و بيّن له طريق السـلامة و طريق الشـرّ، و مثل هـذا المفهوم ورد فی الآيـة (۱۰) من سورة البلد: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ

بعبارة اخری، إنّ اللّه سـبحانه قد منح الإنسان قدرة التشخيص و العقل، و الضمير اليقظ بحيث يستطيع أن يميّز بين «الفجور» و «التقوی» عن طريق العقل و الفطرة، لـذلك ذهب بعض المفسّـرين إلی أنّ الآيـة تشـير فی الحقيقـة إلی مسألـة «الحسن و القبح العقليين» و قدرة الإنسان علی إدراكهما.

و من بين النعم الطائلـة التی أسـبغها اللّه علی الإنسان تركز هذه الآية علی نعمة الهام الفجور و التقوی، و إدراك الحسن و القبح، لأنها

من أهم المسائل المصيرية التى تواجه حياة الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۷

بعد هذه الأقسام المهمّة المتتالية يخلص السياق القرآنى إلى النتيجة فيقول:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها.

و التزكية تعنى النمو، «و الزكاة» فى الأصل بمعنى النمو و البركة، و

ورد عن على عليه السّلام قوله: «المال تنقصه النفقة و العلم يزكو على الإنفاق»[۱۸۹].

ثمّ استعملت الكلمة بمعنى التطهير، و قد يعود ذلك إلى أن التطهير من الآثام يؤدى إلى النمو و البركة، و الآية الكريمة تحتمل المعنيين.

نعم، الفلاح لمن ربّى نفسه و نمّاها، و طهّرها من التلوّث بالخصائل الشيطانية و بالذنوب و الكفر و العصيان.

و المسألة الأساسية فى حياة الإنسان هى هذه «التزكية»، فإن حصلت سعد الإنسان و إلّا شقى و كان من البائسين.

ثمّ يعرج السياق القرآنى على المجموعة المخالفة فيقول: وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها.

«خاب»: من الخيبة، و هى فوت الطلب، كما يقول الراغب فى المفردات و الحرمان و الخسران.

«دسّاها» من مادة «دس» و هى فى الأصل بمعنى إدخال الشىء قسرا، و جاء فى الآية (۵۹) من سورة النحل قوله سبحانه: أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ إشارة إلى عادة الجاهليين فى و أد البنات، أى إدخالهن فى التراب كرها و قسرا و منه «الدسيسة» التى تقال للأعمال الخفية و الضارة.

و ما هى المناسبة بين معنى الدسّ، و قوله سبحانه: وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها.

قيل: إنّ هذا التعبير كناية عن الفسق و الذنوب، فأهل التقوى و الصلاح يظهرون أنفسهم، بينما المذنبون يخفونها، و يذكر أنّ العرب الكرماء جرت عادتهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۸

على نصب خيامهم على المرتفعات، و إشعال النيران قربها فى الليل، لتكون بادية للمارّة ليل نهار، بينما أهل البخل و اللؤم يقبعون فى المنخفضات كى لا يأتيهم أحد.

و قيل: إنّ المقصود اندساس المذنبين بين صفوف الصالحين.

و قيل: إنّ المذنب يدس نفسه أو هويته الإنسانية فى المعاصى و الذنوب.

و قيل: إنّه يخفى المعاصى و الذنوب فى نفسه.

و التعبير- على كل حال- كناية عن التلوث بالذنوب و المعاصى و الخصائل الشيطانية، و بذلك يقع فى المنطقة المقابلة للتزكية.

و الآية تحتمل فى مفهومها الواسع كلّ هذه المعانى.

و بهذا المعيار يتمّ تمييز الفائزين عن الفاشلين فى ساحة الحياة. «تزكية النفس و تنميتها بروح التقوى و طاعة اللّه» أو «تلوثها بأنواع المعاصى و الذنوب».

الإمامان الباقر و الصادق عليهما السّلام قالا فى تفسير الآية الكريمة: «قد أفلح من أطاع و خاب من عصى»[۱۹۰].

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال حين تلا الآية: «اللّهم آت نفسى تقواها، أنت وليها و مولاها، و زكّها أنت خير من زكّاها»[۱۹۱].

و هذا الحديث يدل على أن اجتياز تعاريج المسيرة الحياتية و العبور من العقبة لا يتيسّر حتى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا

بتوفیق اللّه تعالی، أی لا یتیسّر إلّا بعزم العبد و تأیید الباری، و لذلک

ورد فی حدیث آخر عن الرسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر الآیتین قوله: «أفلحت نفس زکّاها اللّه و خابت نفس خیبها اللّه من کلّ خیر»[۱۹۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۹

ملاحظات

۱- ارتباط القسم القرآنی بجواب القسم

ما الارتباط بین هذه الأقسام الأحد عشر المتتالیة فی السّورة، و بین الحقیقة التی جاءت الأقسام لتأکیدها؟

یظهر أنّ اللّه سبحانه و تعالی یرید أن یقول لعباده: إنّی و فرت لکم کلّ الوسائل المادیة و المعنویة لسعادتکم، فبنور الشمس و القمر أضأت لکم الحیاة و بارکتها و نظمت لکم اللیل و النهار و الحرکة و السکون، و مهدّت الأرض لحیاتکم.

و من جهة اخری، خلقت أنفسکم بکلّ الکفاءات اللازمة، و وهبتکم الضمیر الیقظ، و ألهمتکم معرفة حسن الأمور و قبحها، فلا ینقصکم شیء إذن لطیّ طریق السعادة، لماذا إذن- مع کلّ هذا- لا تزکون أنفسکم و تستسلمون للدسائس الشیطانیة؟

۲- دور الشمس فی عالم الحیاة

الحدیث عن الشمس- و هی مرکز المنظومة الشمسیة و أمیرة کواکبها- یدور تارة حول عظمتها و هو ما تطرقنا إلیه سابقا، و تارة اخری حول برکاتها و آثارها، و هذا ما سنعرض له بتلخیص فی النقاط التالیة:

۱- حیاة البشر و جمیع الموجودات الحیة الأخری بحاجة فی الدرجة الاولی إلی الحرارة و النور، و الحاجة إلی هذین الأمرین الحیاتیین تؤمنها بشکل کامل متعادل هذه الکرة العظیمة المتوهجة.

۲- جمیع المواد الغذائیة یتمّ إعدادها بوسیلة نور الشمس، حتی الأحیاء فی قاع البحار و المحیطات تتغذی علی النباتات التی تنمو علی سطح المحیطات أو فی خضمّ الأمواج مستفیدة من نور الشمس ثمّ تترسب إلی القیعان.

۳- کل الألوان و مظاهر الجمال المشهودة فی الطبیعة ترتبط بشکل من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۰

الأشکال بنور الشمس، و هذه مسألة علمیة ثابتة و خاصّة فی الفیزیاء.

۴- الأمطار التی تحیی الأرض بعد موتها تهطل من الغیوم و الغیوم أبخرة متصاعدة من البحار و المحیطات نتیجة لسطوع الشمس علیها، مصادر المیاه التی تتغذی من الأمطار بما فیها الأنهار و العیون و القنوات و الآبار العمیقة هی إذن من برکات نور الشمس.

۵- الریاح التی تؤدی مهمّة تلطیف الجو، و تنقّل السحب، و تلقیح النبات، و نقل الحرارة من المناطق الحارة علی الکرة الأرضیة إلی المناطق الباردة، و نقل البرودة من المناطق الباردة إلی الحارة، إنّما تفعل ذلک بفضل سطوع نور الشمس، و تغییر درجة الحرارة فی المناطق المختلفة من المعمورة.

۶- مصادر الطاقة بما فیها الشلالات، و السدود العظیمة فی المناطق الجبلیة، مصادر النفط و مناجم الفحم کلّها ترتبط بشکل من الأشکال بالشمس، و لولاها لما وجدت هذه المصادر، و لتبدلت الحرکة علی وجه الأرض إلی سکون.

۷- بقاء نظام المنظومـة الشمسـیة مدین للتعادل القائم بین قوی الجذب و الدفع الموجودة بین کرة الشـمس من جهة، و السـیارات التی تدور حولها من جهة اخری.

و بذلک تنهض الشمس بدور فعّال فی حفظ هذه السیارات فی مدارها.

من مجموع ما ذکرنا نفهم السبب فی بدء القسم فی هذه السّورة المبارکة بالشمس.

و هکـذا القمر و نور النهـار و ظلاـم الليـل، و الکرة الأرضـية، لکـلّ واحـد منها دور هام فی حیاة الإنسان و غیر الإنسان، و لـذلک جاء القسم بها جمیعا، و أهم من کلّ ذلک الإنسان بروحه و جسمه فهو أعجب من الجمیع و أشدّ غموضا و سرّا منها.

و سنعود إلی أهمیة تهذیب النفس فی نهایة السّورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۱

الآیات [سورة الشمس (۹۱): الآیات ۱۱ الی ۱۵]

اشارة

کَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (۱۱) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (۱۲) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْیاها (۱۳) فَکَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَیْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (۱۴) وَ لا یَخافُ عُقْباها (۱۵)

التّفسیر

عاقبة مرّة للطغاة:

عقب التحـذیر الـذی أطلقته الآیـة السابقة بشأن عاقبة من ألقی بنفسه فی أو حال العصـیان، قدمت هذه الآیات مصداقا تاریخیا واضـحا لهذه السنّة الإلهیة، و تحدثت عن مصیر قوم «ثمود» بعبارات قصیرة قاطعة ذات مدلول عمیق.

«الطغوی» و «الطغیان» بمعنی واحد و هو تجاوز الحد، و فی الآیة تجاوز الحدود الإلهیة و العصیان أمام أوامره ۱۹۳].

«قوم ثمود» من أقـدم الأقوام التی سـکنت منطقـة جبلیة بین «الحجاز» و «الشام». کانت لهم حیاة رغدة مرفهة، و أرض خصـبة، و قصور فخمة، غیر أنّهم لم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۲

یؤدوا شکر هذه النعم، بل طغوا و کذبوا نبیّهم صالحا، و استهزءوا بآیات اللّه، فکان عاقبة أمرهم أن أبیدوا بصاعقة سماویة.

ثمّ تستعرض السّورة مقطعا بارزا من طغیان القوم و تقول: إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها.

و «أشقی» ثمود، هو الذی عقر الناقة التی ظهرت باعتبارها معجزة بین القوم، و کان قتلها بمثابة إعلان حرب علی النّبی صالح.

ذکر المفسّرون أنّ اسم هذا الشقی «قدار بن سالف» و

روی أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی بن أبی طالب علیه السّلام: من أشقی الأولین؟

قال: عاقر الناقة.

قال: صدقت، فمن أشقی الآخرین؟

قال: قلت لا أعلم یا رسول اللّه.

قال: الذی یضربک علی هذه، و أشار إلی یافوخه ۱۹۴]

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص ۲۴۲
الآية التالية تفاصيل أكثر عن طغيان قوم ثمود:
فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها المقصود من «رسول اللّه» نبيّ قوم ثمود صالح عليه السّلام، و عبارة «ناقة اللّه» إشارة إلى أنّ هذه الناقة لم تكن عادية، بل كانت معجزة، تثبت صدق نبوة صالح، و من خصائصها- كما في الرّواية المشهورة أنّها خرجت من قلب صخرة في جبل لتكون حجة على المنكرين.
«الناقة» منصوبة بفعل محذوف، و التقدير «ذروا ناقة اللّه و سقياها»، و يستفاد من مواضع اخرى في القرآن الكريم أنّ النّبي صالحا عليه السّلام كان قد أخبرهم أنّ ماء القرية يجب تقسيمه بينهم و بين الناقة، يوم لهم و يوم للناقة:
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۳
وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ[۱۹۵].
و حذّرهم من أن الإساءة إلى الناقة: وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۱۹۶].
الآية التالية تقول: فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها، و «العقر»- على وزن كفر- معناه الأساس و الأصل و الجذر، و «عقر الناقة» قطع أساسها و إهلاكها.
و قيل: «العقر» بتر أسافل أطراف الناقة، ممّا يؤدي إلى سقوطها و هلاكها.
و يلاحظ أنّ قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية بأشقاها، بينما نسب العقر إلى كلّ طغاة قوم ثمود: «فعقروها»، و هذا يعني أنّ كلّ هؤلاء القوم كانوا مشاركين في الجريمة، و ذلك أوّلا: لأنّ مثل هذه المؤامرات يخطط لها مجموعة ثمّ ينفذها فرد واحد أو أفراد.
و ثانيا: لأنّ هذه الجريمة تمّت برضا القوم فهم شركاء في الجريمة بهذا الرضا، و
عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام قال: «إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم اللّه بالعذاب لما عموه بالرضى، فقال سبحانه: فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ [۱۹۷]
و عقب هذا التكذيب أنزل اللّه عليهم العقاب فلم يترك لهم أثرا: فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها.
«دمدم» تعني أهلك، و تأتي أحيانا بمعنى عذّب و عاقب و أحيانا بمعنى سحق و استأصل، و بمعنى سخط أو أحاط[۱۹۸].
و «سوّاها» من التسوية و هي تسوية الأبنية بالأرض نتيجة صيحة عظيمة و صاعقة و زلزلة، أو بمعنى إنهاء حالة هؤلاء القوم، أو تسويتهم جميعا في العقاب
الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۴
و العذاب، حتى لم يسلم أحد منهم.
و من الممكن أيضا الجمع بين هذه المعاني.
الضمير في «سوّاها» يعود إلى قبيلة ثمود، و قد يعود إلى مدنهم و قراهم التي سوّاها ربّ العالمين مع الأرض.
و قيل إنّ الضمير يعود إلى مصدر «دمدم» أيّ إنّ اللّه سوّى غضبه و سخطه على القوم ليشملهم جميعا على حدّ سواء، و التّفسير الأوّل أنسب.
و من الآية نستنتج بوضوح أنّ عقاب هؤلاء القوم كان نتيجة لذنوبهم و كان متناسبا مع تلك الذنوب، و هذا عين الحكمة و العدالة.
في تاريخ الأمم نرى غالبا بروز حالة الندم فيهم حين يرون آثار العذاب و لجوءهم إلى التوبة، أمّا قوم ثمود، فالغريب أنّهم حين رأوا علامات العذاب طفقوا يبحثون عن نبيّهم صالح ليقتلوه ۱۹۹]. و هذا دليل على ارتكاسهم في العصيان و الطغيان أمام اللّه و رسوله. لكن اللّه نجّا صالحا و أهلك قومه شرّ إهلاك.
و تختتم السّورة الحديث عن هؤلاء القوم بتحذير قارع لكل الذين يتجهون في نفس هذه المسيرة المنحرفة فتقول: وَ لا يَخافُ عُقْباها.

کثیرون من الحکّام قادرون علی إنزال العقاب لکنّهم یخشون من تبعات عملهم، و یخافون ردود الفعل التی قد تحدث نتیجة فعلهم، و لذلک یکفّون عن المعاقبة. قدرتهم- إذن- محفوفة بالضعف و علمهم ممزوج بالجهل. لا یعلمون مدی قدرتهم علی مواجهة التبعات. بینما اللّه سبحانه قادر متعال، علمه محیط بکلّ الأمور و عواقبها، و قدرته علی مواجهة النتائج لا یشوبها ضعف، فهو سبحانه و تعالی لا یخاف عقباها، و لذلک فإنّ مشیئته فی العقاب نافذة حازمة.

فالطغاة- إذن- علیهم أن یتنبّهوا و یحذروا غضب اللّه و سخطه و نقمته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۵

و الضمیر فی «عقباها» یعود إلی «الدمدمة» و الهلاک.

بحوث

۱- ملخص حدیث قوم ثمود

قوم «ثمود»- کما ذکرنا- کانوا یقطنون أرضا بین الشام و یثرب تسمی (وادی القری) ... یعبدون الأوثان ... و یمارسون ألوان الآثام. بعث اللّه سبحانه فیهم «صالحا» علیه السّلام یدعوهم إلی طریقة الهدایة و النجاة، لکنّهم أبوا إلّا أن یعکفوا علی أوثانهم و یمارسوا طغیانهم.

و عند ما طلبوا من نبیّهم معجزة، أرسل اللّه إلیهم «ناقة» بطریق إعجازی من قلب جبل، و لکنّهم کلفوا بامتحان یتلخص فی تقسیم ماء المدینة بینهم و بین الناقة ... یوم لها و یوم لهم. و فی الأثر أنّ القوم کانوا یستفیدون من لبن الناقة فی یوم منعهم من الماء، لکن المعجزة لم تخفف من غلواء لجاجهم و عنادهم، فخططوا لقتل الناقة و القتل صالح أیضا لأنّهم رأوا فیه عقبة أمام شهواتهم و میولهم.

خطة «قتل الناقة» نفذت کما ذکرنا علی ید شقی قسیّ اسمه «قدار بن سالف»، و کان ذلک فی الحقیقة إعلان حرب علی اللّه، لأنّهم أرادوا بقتل هذه الناقة التی کانت معجزة نبیّ اللّه صالح أن یطفئوا نور الهدایة، عندئذ أنذرهم صالح أن یتمتعوا فی بیوتهم بما شاؤوا من اللذات ثلاثة أیّام لینزل العذاب بعدها علیهم جمیعا. (سورة هود- الآیة ۶۵).

هذه الأیام الثلاثة کانت فی الواقع فرصة لإعادة النظر، و آخر مهلة للعودة و التوبة، لکنّهم أبوا إلّا طغیانا بل ازدادوا عتوّا، و هنا حلّ علیهم العذاب الإلهی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۶

و جاءت الصیحة السماویة[۲۰۰] لتدک أرضهم، و لتبیدهم فی دورهم: وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیارِهِمْ جاثِمِینَ [۲۰۱].

تفاصیل قصّة ثمود وردت فی المجلد السادس من هذا التّفسیر.

۲- أشقی الأولین و أشقی الآخرین

جمع من علماء الشیعة و السنة منهم الثعلبی، و الواحدی، و ابن مردویه، و الخطیب البغدادی، و الموصلی، و أحمد بن حنبل، و غیرهم باسنادهم عن عمار بن یاسر، و جابر بن سمرة، و عثمان بن صهیب، عن النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السّلام: «یا علی! أشقی الأولین عاقر الناقة، و أشقی الآخرین قاتلک، و فی روایة: من یخضب هذه من هذا (و أشار إلی لحیته و یافوخه)»[۲۰۲].

و ثمّة تشابه فی الواقع بین قاتل ناقة صالح، قدار بن سالف، و قاتل أمیر المؤمنین علیه السّلام، عبد الرحمن بن ملجم المرادی. لم یکن الاثنان یحملان عداء شخصیا، بل کان هدف الإثنین إطفاء نور اللّه و القضاء علی معجزة و آیة من آیات اللّه، و کما إنّ العذاب الإلهی عمّ قوم ثمود بعد حادثة الناقة، کذلک عمّ المسلمین بعد استشهاد أمیر المؤمنین علیه السّلام داهیة دهماء تمثلت فی التسلط الأموی المتجبّر الذی سام المسلمین سوء العذاب.

و یذکر أنّ الحاکم الحسکانی أورد روایات کثیرة مستفیضة فی هذا المجال [۲۰۳]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۷

۳- أهمیة تهذیب النفس

کلما ازداد عدد أقسام (جمع قسم) القرآن ازدادت أهمیة الموضوع، و فی هذه السّورة المبارکة أکبر عدد من الأقسام، خاصّة و أنّ القسم بالذات الإلهیة المقدسة تکرر ثلاث مرات، ثمّ جاء الترکیز علی أن النجاح و الفلاح فی تزکیة النفس، و أن الخیبة و الخسران فی ترک التزکیة.

و هذه فی الواقع أهم مسألة فی حیاة الإنسان، و القرآن الکریم إذ یطرح هذه الحقیقة إنّما یؤکّد علی أنّ فلاح الإنسان لا یتوقف علی الأوهام و لا علی جمع المال و المتاع و نیل المنصب و المقام، و لا علی أعمال أشخاص آخرین (کما هو معروف فی المسیحیة بشأن ارتباط فلاح الإنسان بتضحیة السید المسیح) ... بل الفلاح یرتبط بتزکیة النفس و تطهیرها و سمّوها فی ظل الإیمان و العمل الصالح.

و شقاء الإنسان لیس أیضا ولید قضاء و قدر و بالإجبار، و لا نتیجة مصیر مرسوم، و لا بسبب فعل هذا و ذاک، بل هو فقط بسبب التلوث بالذنوب و الانحراف عن مسیر التقوی.

و فی الأثر أن زوج العزیز (زلیخا) قالت لیوسف لما أصبح حاکم مصر:

«إنّ الحرص و الشهوة تصیر الملوک عبیدا، و أن الصبر و التقوی یصیر العبید ملوکا، فقال یوسف: قال اللّه تعالی: إِنَّهُ مَنْ یَتَّقِ وَ یَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا یُضِیعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِینَ [۲۰۴].

و عنها أیضا قالت لما رأت موکب یوسف مارا من أمامها:

«الحمد للّه الذی جعل الملوک بمعصیتهم عبیدا، و جعل العبید بطاعتهم ملوکا»[۲۰۵] نعم، عبادة النفس تؤدی إلی وقوع الإنسان فی أغلال الرقیة بینما تزکیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۸

نعم، عبادة النفس تؤدی إلی وقوع الإنسان فی أغلال الرقیة بینما تزکیة النفس توفّر أسباب التحکم فی الکون.

ما أکثر الذین وصلوا بعبودیتهم للّه تعالی درجة جعلتهم أصحاب ولایة تکوینیة، و مکنتهم بإذن اللّه أن یؤثروا فی حوادث هذا العالم و أن تصدر منهم الکرامات و خوارق العادات!! إلهی! أعنّا علی أنفسنا و علی کبح جماح أهوائنا.

إلهی! لقد ألهمتنا «الفجور» و «التقوی» فوفقنا للاستفادة من هذا الإلهام.

إلهی! دسائس الشیطان خفیة غامضة فی نفس الإنسان، فوفقنا لمعرفتها.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الشّمس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۹

سورة اللّیل

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها إحدی و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۵۱

«سورة اللّیل»

محتوی السّورة:

هـذه السّورة مکّیـة تحمـل کلّ خصائص السور المکّیـة من قصـر فی الآیات، و حرارة فی طرح المحتوی، و ترکز أساسا علی القیامـة و علی ما فی ذلک الیوم من جزاء و عقاب.

بعد القسم بثلاث ظواهر فی بدایة السّورة یأتی تقسیم النّاس إلی منفقین متّقین، و بخلاء منکرین، و تذکر عاقبة کلّ مجموعة؛ الیسـر و السعادة و الهناء للمجموعة الاولی، و العسر و الضنک و الشقاء للمجموعة الثّانیة.

و فی مقطع آخر من السّورة إشارة إلی أنّ الهدایة من اللّه سبحانه لعباده هی إنذارهم من النّار یوم القیامة.

ثمّ تذکر السّورة فی نهایتها من یدخل هذه النّار و من ینجو منها، مع ذکر أوصاف الفریقین.

فضیلة تلاوة السّورة:

ورد فی فضیلة تلاوة هذه السّورة

عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ قال: «من قرأها أعطاه اللّه حتی یرضی، و عافاه من العسر و یسّر له الیسر»[۲۰۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۵۲

الآیات [سورة اللیل (۹۲): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشی (۱) وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّی (۲) وَ ما خَلَقَ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی (۳) إِنَّ سَعْیَکُمْ لَشَتَّی (۴)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطی وَ اتَّقی (۵) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنی (۶) فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْیُسْری (۷) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنی (۸) وَ کَذَّبَ بِالْحُسْنی (۹)

فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْری (۱۰) وَ ما یُغْنِی عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّی (۱۱)

سبب النّزول

روی عن ابن عبـاس فی نزول هـذه السّورة: «أنّ رجلاـ کانت له نخلـة فرعها فی دار رجل فقیر ذی عیال، و کان الرجل إذا جاء فـدخل الدار و صـعد النخلة لیأخذ منها التمر، فربّما سـقطت التمرة فیأخذها صبیان الفقیر، فینزل الرجل من النخلة حتی یأخذ التمر من أیدیهم، فإنّ وجدها فی فیّ أحدهم أدخل إصـبعه حتی یأخذ التمرة من فیه. فشـکا ذلک الرجل إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و أخبره بما یلقی من صاحب النخلة، فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: اذهب. و لقی رسول اللّه صاحب النخلة فقال:

تعطینی نخلتک المائلة التی فرعها فی دار فلان و لک بها نخلة فی الجنّة؟ فقال له

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۳

الرجل: إنّ لی نخلا کثیرا، و ما فیه نخلهٔ أعجب إلیّ تمرهٔ منها.

قال: ثمّ ذهب الرجل، فقال رجل کان یسمع الکلام من رسول اللّه: یا رسول اللّه: أ تعطینی ما أعطیت الرجل نخلهٔ فی الجنّهٔ إن أنا أخذتها؟ قال: نعم.

فذهب الرجل و لقی صاحب النخلهٔ فساومها منه فقال له: أشعرت أنّ محمّدا أعطانی بها نخلهٔ فی الجنّهٔ فقلت له یعجبنی تمرتها و إنّ لی نخلا کثیرا فما فیه نخلهٔ أعجب إلیّ ثمرهٔ منها؟

فقال له الآخر: أ ترید بیعها؟

فقال: لا إلّا أن أعطی ما لا أظنه أعطی.

قال: فما مناک؟

قال: أربعون نخلهٔ فقال الرجل: جئت بعظیم، تطلب بنخلتک المائلهٔ أربعین نخلهٔ؟! ثمّ سکت عنه، فقال له: أنا أعطیک أربعین نخلهٔ.

فقال له: اشهد إن کنت صادقا، فمرّ إلی أناس فدعاهم فأشهد له بأربعین نخلهٔ، ثمّ ذهب إلی النّبی فقال: یا رسول اللّه إنّ النخلهٔ صارت فی ملکی، فهی لک.

فذهب رسول اللّه إلی صاحب الدار، فقال له: النخلهٔ لک و لعیالک، فأنزل اللّه تعالی: وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشی السّورهٔ و عن عطاء قال: اسم الرجل (أبو الدحداح)»[۲۰۷]

التّفسیر

التقوی و الإمداد الإلهی:

هذه السّورهٔ المبارکهٔ أیضا تبتدئ بثلاثهٔ أقسام تثیر التفکیر فی المخلوقات و فی الخالق.

تقول: وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۴

فالقسم الأوّل باللیل حین یغطّی ... یغطّی بظلامه نصف الکرهٔ الأرضیهٔ ... أو یغطّی قرص الشمس، و هذا القسم تأکید علی أهمیهٔ اللیل و دوره الفاعل فی حیاهٔ الأفراد، من تعدیله لحرارهٔ الشمس، و نشره السکینهٔ علی کل الموجودات الحیهٔ، و توفیر الجوّ لعبادهٔ المتهجّدین و مناجاهٔ الصالحین.

و یستمر السیاق القرآنی فی القسم بالقول: وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّی ۲۰۸].

و النهار یبدأ من اللحظهٔ التی یطلع فیها الفجر، فیشقّ قلب ظلام اللیل، ثمّ یمتدّ لیملأ کلّ السماء، و یغمر کلّ شیء بالنور ... بهذا النور الذی هو رمز الحرکهٔ و الحیاهٔ، و العامل علی نمو کلّ الموجودات الحیهٔ.

فی القرآن الکریم ترکیز علی مسألهٔ نظام «النور» و «الظلمهٔ» و دورهما فی حیاهٔ البشر، لأنّهما من نعم اللّه الکبری و من آیاته العظمی سبحانه.

ثمّ القسم الأخیر فی السّورهٔ بالخالق المتعال: وَ ما خَلَقَ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی

فوجود الجنسین فی عالم «الإنسان» و «الحیوان» و «النبات» ... و المراحل التی تمرّ بها النطفهٔ منذ انعقادها حتی الولادهٔ ... و الخصائص التی یمتاز بها کلّ جنس متناسبهٔ مع دوره و نشاطه ... و الأسرار العمیقهٔ المخبوءهٔ فی مفهوم الجنسیهٔ ... کلّها من دلالات و آیات عالم

الخلیقة الکبیر ... و بها یمکن الوقوف علی عظمة الخالق.

و التعبیر ب «ما» عن الخالق سبحانه کنایة عن عظمة الذات الإلهیة، و ما یحیط بهذه الذات من غموض تجعله سبحانه فوق کلّ وهم و خیال و ظن و قیاس.

قال بعضهم أن «ما» فی الآیة مصدریة، و معناها أقسم بخلق الذکر و الأنثی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۵

و هذا الاحتمال ضعیف فی معنی الآیة.

الحقیقة أنّ القسمین الأوّل و الثّانی یشیران إلی الآیات «الآفاقیة»، و القسم الثّالث إلی الآیات «الأنفسیة»[۲۰۹].

ثمّ یأتی الهدف النهائی من کلّ هذه الأقسام بقوله سبحانه: إِنَّ سَعْیَکُمْ لَشَتَّی اتجاهات سعیکم مختلفة، و نتائجها مختلفة أیضا، هذا یعنی أن أفراد البشر لا- یستقرون فی حیاتهم علی حال ... بل هم فی سعی مستمر ... و فی استثمار دائم للطاقة التی أودعها اللّه فی نفوسهم ... فانظر أیّها الإنسان فی أی مسیر تبذل هذه الطاقة التی هی رأس مال وجودک ... فی أیّ اتجاه ... و فی سبیل أیّة غایة؟! حذار من تبدید کلّ هذه الطاقات فی سبیل نتیجة تافهة ... و حذار من بیعها بثمن بخس! «شتی» جمع «شتیت» من مادة «شتّ» أیّ فرّق الجمع، و هنا بمعنی التفرق و التشعب فی المساعی من حیث الکیفیة و الهدف و النتیجة.

ثمّ یأتی تقسیم النّاس علی قسمین، و یبیّن خصائص کلّ قسم، یقول سبحانه:

فَأَمَّا مَنْ أَعْطی وَ اتَّقی وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنی فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْیُسْری

المقصود من الإعطاء فی قوله: «أعطی» هو الإنفاق فی سبیل اللّه و مساعدة المحتاجین.

و التأکید علی «التقوی» عقب الإعطاء قد یشیر إلی ضرورة تنزیه النیة و إخلاص القصد عند الإنفاق، و إلی الحصول علی المال من طریق مشروع، و إنفاقه فی طریق مشروع أیضا، و إلی خلوه من المنّ و الأذی ... فکلّ هذه الصفات تجتمع فی عنوان التقوی.

قال بعض إن «أعطی» إشارة إلی العبادات المالیة و «اتقی» إشارة إلی سائر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۶

العبادات العملیة من أداء الواجبات و ترک المحرمات، غیر أن التّفسیر الأوّل أنسب مع ظاهر الآیة، و مع سبب نزولها.

و «الحسنی» مؤنث «أحسن» إشارة إلی مثوبة اللّه و جزاءه الأوفی، و التصدیق بالحسنی هو الإیمان بها، و فی سبب النزول ذکرنا أن «أبا الدحداح» أنفق أمواله لإیمانه بما سیعوضه اللّه فی الآخرة. و الحسنی وردت بهذا المعنی أیضا فی قوله سبحانه: وَ کُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنی [۲۱۰].

قیل إن المقصود هو «الشریعة الحسنی»، و التصدیق بالحسنی هو الإیمان بالإسلام، الذی هو أکمل الأدیان.

و قیل إنّها کلمة «لا إله إلّا اللّه»، و قیل: إنّها الشهادتان.

غیر أنّ سیاق الآیات و سبب النزول و ذکر «الحسنی» بمعنی «الجزاء الحسن» فی کثیر من الآیات کلّه یرجح التّفسیر الأوّل.

عبارة فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْیُسْری قد تکون إشارة إلی التوفیق الإلهی و إلی تیسیر الطاعة لمثل هؤلاء الأفراد، أو فتح طریق الجنّة أمامهم و ما یقابلونه من استقبال الملائکة و تحیتهم، أو کلّ ذلک.

من المؤکد أنّ الذین سلکوا طریق الإنفاق و التقوی، و اطمئنوا إلی جزاء اللّه و ثوابه فی الآخرة، تتذلل أمامهم المشاکل و ینعمون فی الدنیا و الآخرة بالسکینة و الاطمئنان.

أضف إلی ما سبق، قد یکون الإنفاق المالی شاقا و ثقیلا علی طبع الإنسان فی البدایة، و لکن بتوطین النفس علی ذلک و الاستمرار فیه، یتحول إلی أمر میسور ...

بل أمر فیه لذّة و ارتیاح.

ما أكثر الأفراد الأسخياء الذين ينشرحون لحضور الضيف على مائدتهم، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۷

يرتاحون إذا خلت مائدتهم يوما من ضيف ... و هذا نوع من تيسير الأمور لهؤلاء.

و لا يفوتنا أن نذكر أيضا أنّ الإيمان بالمعاد و بثواب الآخرة يهون المشاكل و الصعاب، و يجعل بذل المال بل النفس ميسورا، و يخلق الدافع نحو طلب الشهادة فى ميادين الجهاد عن رغبة مقرونة باحساس باللذة و النشوة.

«اليسرى» من اليسر، و هى فى الأصل بمعنى إسراج الفرس و الجامها و إعدادها للركوب. ثمّ أطلقت الكلمة على كلّ عمل سهل ممهّد[۲۱۱].

و فى الجهة المقابلة تقف المجموعة الاخرى التى تتحدث عنها الآيات التالية:

وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى

«من بخل» فى هذه المجموعة مقابل «من أعطى» فى تلك.

كلمة «استغنى» أىّ طلب الغنى، قد تكون إشارة إلى ذريعتهم لبخلهم، و وسيلتهم لاكتناز المال، أو قد تكون إشارة إلى ظنهم بأنّهم مستغنون عن ثواب الآخرة، عكس الطائفة الاولى المنشدة إلى مثوبة اللّه، أو قد تكون بمعنى الإحساس بالاستغناء عن طاعة اللّه و بالتالى التخبط المستمر فى الآثام.

من بين هذه التفاسير الثلاثة يبدو التّفسير الأوّل أنسب، و إن أمكن أيضا الجمع بين الثلاثة.

المقصود من التكذيب بالحسنى، هو إنكار ثواب الآخرة، أو إنكار الدين الإلهى.

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى ... و التيسير للعسر بالنسبة لهذه المجموعة، يقابله التيسير لليسر للمجموعة الاولى التى يشملها اللّه بتوفيقه، و ييسر لها طريق الطاعة و الإنفاق، و بذلك تتذلل أمامها مشاكل الحياة ... أمّا هذه المجموعة فتحرم التوفيق، و يتعسّر عليها شقّ الطريق و تواجه الضنك و النصب فى الدنيا و الآخرة، و هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۸

البخلاء الخاوون من الإيمان يشقّ عليهم فعل الخير و خاصّة الإنفاق، بينما هو للمجموعة الاولى مقرون باللذة و الإنشراح.[۲۱۲] ثمّ يأتى التحذير لهؤلاء البخلاء المغفلين بالآية: وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى

لا يستطيع أن يصطحب ماله من هذه الدنيا، و لا يستطيع هذا المال- إذا اصطحبه- أن يقيه من السقوط فى نار جهنّم.

«ما» فى الآية قد تكون نافية، و قد تكون للاستفهام الإنكارى، أىّ ماذا يجديه المال إذا سقط فى حفرة القبر أو فى هاوية جهنّم؟!

«تردى» من (الردى) بمعنى الهلاك، و بمعنى السقوط من مكان مرتفع يؤدى إلى الهلاك، و قيل إن أصل الكلمة بمعنى السقوط: و لما كان السقوط من مكان مرتفع يؤدى إلى الهلاك، فقد أطلقت الكلمة و أريد بها الهلاك، و التردى فى الآية قد يعنى السقوط فى القبر، أو فى جهنّم، أو بمعنى الهلاك الذى هو جزاء هؤلاء.

و بهذا ... تحدثت الآيات الكريمات عن مجموعتين: الاولى: مؤمنة، تقية، سخية؛ و الثّانية: خاوية الإيمان، عديمة التقوى، بخيلة و نموذج المجموعتين موجود فى سبب نزول الآيات بوضوح.

المجموعة الاولى، طوت طريقها بيسر بتوفيق اللّه، و اتجهت نحو الجنّة و نعيمها، بينما المجموعة الثّانية، واجهت فى مسيرتها الحياتية المشاكل المتفاقمة جمعت الأموال الطائلة، و تركتها و ولت تجرّ أذيال الحسرة و الهّم و الوبال، و لم تنل سوى العقاب الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۹

الآيات [سورة الليل (۹۲): الآيات ۱۲ الى ۲۱]

اشارة

إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (۱۲) وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى (۱۳) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (۱۴) لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى (۱۵) الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۱۶) وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (۱۷) الَّذِى يُؤْتِى مالَهُ يَتَزَكَّى (۱۸) وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (۱۹) إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (۲۰) وَ لَسَوْفَ يَرْضى (۲۱)

التّفسير

الإنفاق و النجاة من النّار:

عقب الآيات الكريمة السابقة التى قسمت النّاس على مجموعتين: مؤمنة سخية، و عديمة الإيمان بخيلة، و بيّنت مصير كلّ منهما، تبدأ هذه الطائفة من الآيات بالتأكيد أن على اللّه الهداية لا ـ الإجبار و الإلزام، و يبقى الإنسان هو المسؤول عن اتخاذ القرار اللازم، و أن انتخاب الطريق المستقيم يعود بالنفع على الإنسان نفسه و لا حاجة للّه سبحانه بعمل خير يقدمه الفرد. يقول تعالى: إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى الهدى عن طريق التكوين (الفطرة و العقل) أو عن طريق التشريع (الكتاب و السنة) ... فقد بيّنا ما يلزم و أدينا الأمر حقّه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۰

و بعد وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى ۲۱۳] فلا حاجة بنا لإيمانكم و طاعتكم، و لا طاعتكم تجدينا نفعا و لا معصيتكم تصيبنا ضرّا، و كلّ منهج الهداية لصالحكم أنفسكم.

حسب هذا التّفسير الهداية تعنى «اراءة الطريق». و يحتمل أن تكون الآيتان لتشجيع المؤمنين الأسخياء، و التأكيد على أنّ اللّه سبحانه سيشملهم بمزيد من الهداية، و ييسر لهم الطريق فى هذه الدنيا و فى الآخرة، فاللّه قادر على ذلك لأنّ له الآخرة و الاولى.

صحيح أنّ الدنيا مقدمة على الآخرة زمنيا، و لكن الآخرة أهم و هى الهدف النهائى، و لذلك تقدم ذكرها على الدنيا فى الآية الإنذار و التحذير من سبل الهداية، و لذلك قال سبحانه: فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى

«تلظى» من اللظى، و هو الشعلة المتوهجة الخالصة و الشعلة الخالصة من الدخان ذات حرارة أكبر، و تطلق «لظى» أحيانا على جهنم ۲۱۴].

ثمّ تشير الآية إلى المجموعة التى ترد هذه النّار المتلظية الحارقة و تقول:

لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى

و فى وصف الأشقى تقول الآية: الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى

معيار الشقاء و السعادة- إذن- هو الكفر و الإيمان و ما ينبثق عنهما من موقف عملى، إنّه لشقى حقّا هذا الذى يعرض عن كلّ معالم الهداية و عن كلّ الإمكانات المتاحة للإيمان و التقوى ... بل إنّه أشقى النّاس.

عبارة الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى قد يكون التكذيب إشارة إلى الكفر، و التولى إشارة إلى ترك الأعمال الصالحة، إذ هو ملازم للكفر، و قد يشير الفعلان إلى ترك

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۱

الإيمان، و يكون التكذيب بنبىّ الإسلام، و التولى الإعراض عنه.

كثير من المفسّرين يعالجون هنا مسألة ترتبط بما طرحته الآية من اختصاص جهنم بالكافرين: لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى ... الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى و هذا يتنافى مع آيات اخرى و روايات تتحدث عن شمول عذاب جهنم للمؤمنين المذنبين أيضا.

و الآیتان استدل بهما المرجئة فی قولهم: لا تضرّ مع الإیمان معصیة!.

و لتوضیح ما یبدو هنا من تعارض یجب الالتفات إلی مسألتین: الاولی- المقصود بصلی جهنم هنا الخلود فیها، و الخلود مختص بالکافرین، و القرینة علی هذا القول تلک الآیات التی تتحدث عن دخول غیر الکافرین أیضا جهنم.

و الاخری، أنّ الآیتین المذکورتین و ما بعدهما حیث یقول تعالی: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ترید بمجموعها أن تبیّن فقط حال مجموعتین: عدیمة الإیمان البخیلة، و المؤمنة السخیة التقیة، و تذکر أنّ مصیر الاولی جهنم، و الثّانیة الجنّة، و لا تتطرق أساسا إلی المجموعة الثّالثة و هی المؤمنة المذنبة.

بعبارة اخری الحصر هنا من النوع الإضافی، أی کأن الجنّة خلقت للمجموعة الثّانیة فقط، و جهنم للمجموعة الاولی فحسب، و بهذا البیان تتّضح الإجابة علی إشکال آخر بشأن التضاد بین الآیتین اللتین نحن بصددهما و ما یلی من آیات تحصر النجاة بالأتقی.

ثمّ تتحدث السّورة عن مجموعة قد جنّبت النّار و أبعدت عنها، تقول الآیة:

وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى

و من هو هذا الأتقی؟ تقول الآیة الکریمة: الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى

و عبارة «یتزکی» تشیر إلی قصد القربة، و خلوص النیة، سواء أرید منها معنی النمو الروحی و المعنوی، أم قصد بها تطهیر الأموال، لأنّ التزکیة جاءت بمعنی «التنمیة»، و بمعنی «التطهیر». قال تعالی: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۲

وَ تُزَكِّيهِمْ بِها، وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۲۱۵]، أی تربیهم و تنمیهم بها.

و للتأکید علی خلوص النیّة فی إنفاقهم تقول الآیة: وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى فلا أحد قد أنعم علی هذا «الأتقی» لیکون إنفاقه جزاء علی هذه النعمة.

بل هدفه رضا اللّه لا غیر: إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى

بعبارة اخری: کثیر من الإنفاق بین النّاس یتمّ ردّا علی إنفاق مشابه سابق من الجانب الآخر، طبعا ردّ الإحسان بالإحسان عمل صالح، لکن حسابه یختلف عمّا یصدر عن الأتقیاء من إنفاق مخلص.

الآیات المذکورة أعلاه تقول: إنفاق المؤمنین الأتقیاء لیس ریاء و لا ردّا علی خدمات سابقة قدمت إلیهم، بل دافعها رضا اللّه لا غیر، و من هنا کان إنفاقهم ذا قیمة کبری.

التعبیر بکلمة «وجه» هنا یعنی «الذات»، أی رضا ذات الباری تقدست أسماؤه.

و عبارة «ربّه الأعلی» تشیر إلی أن هذا الإنفاق یتمّ عن معرفة کاملة ... عن معرفة بربوبیة الباری تعالی، و علم بمکانته السامیة العلیا، و هذا الاستثناء ینفی أیضا کلّ نیة منحرفة، مثل الإنفاق من أجل السمعة و الوجاهة و أمثالها ... و یجعله منحصرا فی طلب رضا اللّه سبحانه ۲۱۶].

و فی خاتمة السّورة ذکر بعبارة موجزة لما ینتظر هذه المجموعة من أجر عظیم تقول الآیة: وَ لَسَوْفَ يَرْضى

نعم، و لسوف یرضی، فهو قد عمل علی کسب رضا اللّه، و اللّه سبحانه سوف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۳

یرضیه، إرضاء مطلقا غیر مشروط إرضاء واسعا غیر محدود ... إرضاء عمیق المعنی یستوعب کلّ النعم ... إرضاء لا یمکننا الیوم حتی تصوّره ... و أی نعمة أکبر من هذا الرضی! نعم، اللّه أعلی، و جزاؤه أعلی، و لا أعلی من رضا العبد رضا مطلقا.

احتمل بعض المفسّرین أن یکون الضمیر فی «یرضی» عائدا إلی اللّه سبحانه أی إنّ اللّه سوف یرضی عن هذه المجموعة، و هذا الرضا أیضا نعمة ما بعدها نعمة.

نعمة رضا اللّه عن هذا العبد بشكل مطلق غير مشروط، و من المؤكّد أنّ هذا الرضا يتبعه رضا العبد الأتقى.

فالإثنان متلازمان، و قد جاء فى الآية (٨) من سورة البينة قوله سبحانه:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ و قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الفجر:

راضِيَةً مَرْضِيَّةً. لكنّ التّفسير الأوّل أنسب.

بحثان

١- حول سبب نزول سورة الليل

يقول الفخر الرازى: اجمع المفسّرون منّا على أنّ المراد منه (أى من قوله تعالى: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى أبو بكر (رض)، و اعلم أنّ الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرّواية، و يقولون أنّها نزلت فى حقّ على بن أبى طالب عليه السّلام.

ثمّ يعرب الرازى عن وجهة نظره فى هذا المجال و يقول: و إنّما قلنا إنّه لا يمكن حملها على على بن أبى طالب لأنّه قال فى صفة هذا الأتقى وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى و هذا الوصف لا يصدق على على بن أبى طالب لأنّه كان فى تربية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّه أخذه من أبيه، و كان يطعمه و يسقيه و يكسوه و يربيه، و كان الرّسول منعما عليه نعمة يجب جزاؤها، أمّا أبو بكر فلم يكن للنّبى عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ٢۶۴

الصلاة و السلام عليه نعمة دنيوية، بل أبو بكر كان ينفق على الرّسول عليه السّلام ٢١٧].

نحن لا نتطرق عادة فى هذا التّفسير لمثل هذه المسائل. لكن مثل هذه المحاولات الرامية إلى إثبات الأحكام الذهنية المسبقة بالاستناد إلى آيات قرآنية يبلغ بها الأمر أن تنسب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما لا يليق بمقامه الشامخ ٢١٨]، ممّا يستدعينا أن نتوقف عندها قليلا.

أوّلا: ما يقوله الفخر الرازى بشأن إجماع أهل السنة على نزول السّورة فى أبى بكر منقوض بما أورده كثير من مفسّرى أهل السنة منهم القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس بشأن نزول كلّ سورة «الليل» فى «أبى الدحداح»[٢١٩].

و القرطبى حين يصل إلى تفسير الآية: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى يعيد القول أنّ المقصود به أبو الدحداح، و هذا المفسّر يورد ما ذكره أكثر المفسّرين بشأن نزول السّورة فى أبى بكر، غير أنّه لا يقبل هذا الرأى.

ثانيا: ما قيل بشأن اتفاق الشيعة على نزول الآية فى علىّ عليه السّلام غير صحيح أيضا، إذ أورد كثير من مفسّرى الشيعة قصّة أبى الدحداح على أنّها سبب نزول السّورة.

نعم، لقد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام بأن «الأتقى» شيعة على و أتباعه، و الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى هو أمير المؤمنين على عليه السّلام، لكن الظاهر أنّ هذه الرّوايات لا تتحدث عن سبب النزول، بل هى من قبيل ذكر المصاديق الواضحة و البارزة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ٢۶۵

ثالثا: «الأتقى» فى السّورة ليست هنا بمعنى أتقى النّاس، بل بمعنى المتقى، و الشاهد على ذلك كلمة «الأشقى» التى هى لا تعنى أشقى النّاس، بل هم الكفار الذين يبخلون بأموالهم فلا ينفقونها، أضف إلى ذلك أنّ الآية نزلت فى حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أ يصح أن يكون أبو بكر مقدّما فى التقوى على النّبى نفسه؟! لماذا نلجأ إلى إثبات أحكامنا الذهنية المسبقة إلى كل وسيلة حتى الحط من شخصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

إنّه قیل أنّ للنّبی حسابا آخر، نقول: لماذا لم یکن للنّبی حساب آخر فی الآیـة: وَ ما لِأَحَـدٍ عِنْـدَهُ مِنْ نِعْمَـةٍ تُجْزى ففی هذه الآیة یرفض الفخر الرازی أن تکون فی علی، لأنّه مشمول بنعم النّبی الدنیویة.

رابعا: أی إنسان لیست لأحد نعمة علیه فی حیاته، و لم یقدم له أحد هدیة أو یدعوه لضـیافة؟! هل کان أبو بکر کذلک فی حیاته؟ ألم یستجب لضیافة أو یقبل هدیة أو خدمة دنیویة طوال حیاته؟! هل هذا معقول؟ المقصود من الآیة الکریمة:

وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى لیس إذن أن یکون هذا الأتقی غیر مشمول بأیة نعمة دنیویة من أحد.

بل المقصود إن إنفاقه لیس من أجل حق نعمة أغدقت علیه، أی أنّه حین ینفق، فإنّما ینفق فی سبیل اللّه لا فی سبیل خدمة أسدیت إلیه و یرید أن یجزی علیها.

خامسا: آیات سورة اللیل تنبئ أنّ السّورة نزلت فی واقعة ذات قطبین:

«الأتقی» و «الأشـقی»، و إنّ اعتبرنا قصة أبی الدحداح سـببا للنزول، فالقطبان یتضـحان، و إن قلنا إنّ الأتقی أبو بکر فیبقی السؤال عمن هو «الأشقی».

الشـیعة لا یصـرون علی نزول الآیـة فی علی علیه السّـلام ففی شأنه نزل کثیر من القرآن، و لکن إن کان نزولها فی علی، یتبیّن من جهة اخری من هو «الأشقی»، إذ ورد فی تفسیر الآیة (۱۲) من سورة الشمس: إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها روایات کثیرة بطرق

أهل السـنة أن المقصود من الأشقی قاتل علی بن أبی طالب علیه السّلام. (و هذه الرّوایات جمعها- کما ذکرنا- الحاکم الحسکانی فی شواهد التنزیل).

بالاختصار، رأی الفخر الرازی فی هذه الآیة ضـعیف غایة الضـعف و ملیء بالاشـتباه، و لذلک رفضه الآلوسی فی روح المعانی و قال: «... و اسـتدل بـذلک الإمـام علی أنّه (أبو بکر) أفضـل الامّـة و ذکر أنّ فی الآیـات ما یأبی قول الشـیعة أنّها فی علی و أطال الکلام فی ذلک و أتی بما لا یخلو عن قیل و قال»[۲۲۰].

۲- فضیلة الإنفاق فی سبیل اللّه

الإنفاق فی سبیل اللّه، و مساعـدة المحرومین عن إخلاص نیّـة و بـدون منّة ممّا أکّد علیه القرآن الکریم فی مواضع عدیدة و اعتبره من علامات الإیمان.

و الرّوایـات تؤکّـد کثیرا علی هـذا المفهوم، و تعـدّ الإنفـاق المنطلق من دافع رضـا اللّه و البعیـد عن کـل ریاء و منّ و أذی من أفضـل الأعمال.

و فی نهایة المطاف نورد بعض هذه الرّوایات:

-۱

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من الإیمان حسن الخلق، و إطعام الطعام:

و إراقة الدّماء»[۲۲۱].

(النحر فی سبیل اللّه).

-۲

عـن الإمـام محمّـد بـن علی البـاقر علیه السّـلام قـال: «إنّ أحبّ الأعمـال إلی اللّه إدخـال السـرور علی المـؤمن، شـبعة مسـلم أو قضـاء دینه»[۲۲۲]

۳-

عن الإمـام جعفر بن محمّـد الصادق علیه السّـلام قال: «ما أری شـیئا یعـدل زیارة المؤمن إلّا إطعامه، و حقّ علی اللّه أن یطعم من أطعم مؤمنا من طعام الجنّة»[۲۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۶۷

۴- و

سأل رجل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: أی الأعمال أفضل؟ قال: «اطعام الطعام و اطیاب الکلام»[۲۲۴].

۵- و مسک الختام

حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من عال أهل بیت من المسلمین یومهم و لیلتهم غفر اللّه ذنوبه»[۲۲۵].

اللّهمّ! وفقنا لأن نکون من العاملین علی هذا الطریق.

اللّهمّ! اجعل أعمالنا خالصة لوجهک الکریم.

اللّهمّ! إنا نتضرع إلیک أن تشملنا بنعمتک و رحمتک حتی ننعم بالرضی و تکون عنّا راضیا.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة اللّیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۶۹

سورة الضّحی

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها إحدی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۷۱

«سورة الضّحی»

محتوی السّورة:

هذه السّورة نزلت فی مکّة، و حسب بعض الرّوایات أنّها نزلت حین کان الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم متألما بسـبب تأخر نزول الوحی، و تقوّل الأعـداء نتیجـة هـذا الانقطاع المؤقت، نزلت السّورة کغیث علی قلب النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، و أمدته بطاقة جدیدة، و قطعت ألسن الأعداء.

هذه السّورة تبدأ بقسمین، ثمّ تبشر النّبی بأن اللّه لا یترکه أبدا.

ثمّ تبشّـره بعطاء ربّانی تجعله راضـیا ثمّ تعرض له صورا من حیاته السابقة تتجسّد فیها الرحمة الإلهیة التی کانت تشمله دائما و تحمیه و تسنده فی أشدّ اللحظات.

و فی نهایة السّورة تتکرر الأوامر الإلهیة برعایة الیتیم و السائل، و بإظهار النعم الإلهیة (شکرا لهذه النعم).

فضیلة السّورة:

و یکفی فی فضیلة هذه السّورة ما

روی عن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قال: «من قرأها کان ممن یرضاه اللّه، و لمحمّد أن یشـفع له، و له عشـر حسـنات بعدد کلّ

يتيم وسائل»[۲۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۲

و فضيلة التلاوة هذه هى طبعا من نصيب من يقرأ و يعمل بما يقرأ.

جدير بالذكر أنّ الرّوايات تذكر هذه السّورة و السّورة التى تليها: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ على أنّها سورة واحدة، و لذلك لا بدّ من قرائتهما معا بعد سورة الحمد فى الصلاة (لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد فى الصلاة حسب مذهب أهل البيت عليهم السّلام)، و نظير ذلك فى سورتى «الفيل» و «لإيلاف».

و لو أمعنا النظر فى سورتى الضحى و الإنشراح لألفينا ارتباط موضوعاتهما ارتباطا وثيقا يحتّم أن تكون الثّانية استمرارا للأولى و إنّ فصلت بينهما البسملة.

علماء الفقه (فى مدرسة أهل البيت) يجمعون على عدم كفاية واحدة من السّورتين بعد الحمد فى الصلاة، و لهم بحوث فى كتب الفقه بشأن وحدتهما و تلاوتهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۳

الآيات [سورة الضحى (۹۳): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الضُّحى (۱) وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى (۲) ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلى (۳) وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولى (۴)
وَ لَسَوْفَ يُعْطِيکَ رَبُّکَ فَتَرْضى (۵)

سبب النّزول

روى عن ابن عباس قال: احتبس الوحى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خمسة عشر يوما، فقال المشركون إنّ محمّدا قد ودعه ربّه و قلاه، و لو كان أمره من اللّه تعالى لتتابع عليه، فنزلت السّورة و

روى أنّه لمّا نزلت السّورة قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لجبرائيل عليه السّلام: «ما جئت حتى اشتقت إليك، فقال جبرائيل: و أنا كنت أشدّ إليك شوقا و لكنّى عبد مأمور و ما نتنزل إلّا بأمر ربّك».

و قيل: سألت اليهود رسول اللّه عن ذى القرنين و أصحاب الكهف و عن الروح،

فقال: سأخبركم غدا،

و لم يقل إن شاء اللّه، فاحتبس عنه الوحى هذه الأيّام، فاغتم لشماتة الأعداء فنزلت السّورة تسلية لقلبه، (و نستبعد هذه الرّواية لأنّ اتصال اليهود بالنّبى و طرحهم الأسئلة عليه كان فى المدينة لا فى مكّة عادة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۴

و قيل: إنّ المسلمين قالوا ما ينزل عليك الوحى يا رسول اللّه. فقال: و كيف ينزل علىّ الوحى و أنتم لا تنقون براجمكم (هى عقد الأصابع يجتمع فيها الوسخ) و لا تقلمون أظفاركم)[۲۲۷].

و اختلفت الرّوايات فى مدّة انقطاع الوحى، قيل اثنا عشر يوما، و قيل خمسة عشر، و قيل تسعة عشر، و قيل خمسة و عشرون، و قيل أيضا أربعون.

و فی روایهٔ إنّها لیلتان أو ثلاث.

التّفسير

يعطيک فترضى:

فی بدایهٔ السّورهٔ المبارکهٔ قسمان: الأوّل بالنّور، و الثّانی بالظلمهٔ، و یقول سبحانه:

وَ الضُّحی و هو قسم بالنهار- حین تغمر شمسه کلّ مکان.

وَ اللَّیْلِ إِذا سَجی أی إذا عمّت سکینته کلّ مکان.

«الضحی» یعنی أوائل النهار، أی حین یرتفع قرص الشمس فی کبد السماء، و یعم نورها الأرض، و هو فی الحقیقهٔ أفضل ساعات النهار، لأنّه- علی حدّ تعبیر بعضهم- شباب النهار، و فیه لا یکون الجوّ حارا فی فصل الصیف، و یکون الدفء قد عمّ فی فصل الشتاء و تصبح خلاله روح الإنسان مستعدهٔ لممارسهٔ النشاط.

«سجی» من السّجو أو السّجو، أی سکن و هدأ، و تأتی الکلمهٔ أیضا بمعنی غطّی، و أقبل ظلامه. و المیت الملفوف بالکفن «مسجّی»، و فی الآیهٔ بمعنی سکن و هدأ، و اللیلهٔ الخالیهٔ من الریاح تسمی «لیلهٔ ساجیهٔ» أی هادئهٔ، و البحر حین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۵

یستقر و یخلو من الأمواج الصاخبهٔ یسمی «بحر ساج».

و المهم فی اللیل- علی أی حال- هدوؤه و سکینته ممّا یضفی علی روح الإنسان و أعصابه هدوء و ارتیاحا، و یعدّه لممارسهٔ نشاط یوم غد، و هو لذلک نعمهٔ مهمّهٔ استحقت القسم بها.

بین القسمین و محتوی السّورهٔ تشابه کبیر و ارتباط وثیق. النهار مثل نزول نور الوحی علی قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و اللیل کانقطاع الوحی المؤقت، و هو أیضا ضروری فی بعض المقاطع الزمنیهٔ.

و بعد القسمین، یأتی جواب القسم، فیقول سبحانه: ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی

«قلی» من «قلا»- علی وزن صدا- و هو شدّهٔ البغض، و من القلو أیضا بمعنی الرّمی. و کلا المعنیین یعودان إلی أصل واحد- فی رأی الراغب الأصفهانی- فکأن المقلّو هو الذی یقذفه القلب من بغضه فلا یقبله.

علی أی حال، فی هذا التعبیر سکن لقلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تسلّ له، لیعلم أن التأخیر فی نزول الوحی إنّما یحدث لمصلحهٔ یعلمها اللّه تعالی، و لیست- کما یقول الأعداء- لترک اللّه نبیّه أو لسخطه علیه. فهو مشمول دائما بلطف اللّه و عنایته الخاصّهٔ، و هو دائما فی کنف حمایهٔ اللّه سبحانه.

وَ لَلْآخِرَةُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولی

أنت فی هذه الدنیا مشمول بالطاف اللّه تعالی، و فی الآخرهٔ أکثر و أفضل. أنت آمن من غضب اللّه فی الأمد القریب و البعید. و باختصار أنت عزیز فی الدنیا و الآخرهٔ ... فی الدنیا عزیز و فی الآخرهٔ أعزّ ...

قیل إن «الآخرهٔ» و «الأولی» یشیران إلی بدایهٔ عمر النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و نهایته، أی إنّک ستستقبل فی عمرک نصرا و نجاحا أکثر ممّا استدبرت. و فی ذلک إشارهٔ إلی اتساع رقعهٔ انتشار الإسلام و انتصارات المسلمین المتلاحقهٔ علی الأعداء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۶

و فتوحهم فی الغزوات، و نموّ دوحهٔ التوحید، و اندثار آثار الشرک و عبادهٔ الأوثان.

و لا مانع من الجمع بين التّفسيرين.

و تأتى البشرى للنبى الكريم لتقول له:

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى و هذا أعظم أكرام و أسمى احترام من ربّ العالمين لعبده المصطفى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فالعطاء الرّبانى سيغدق عليه حتى يرضى ...

حتى ينتصر على الأعداء و يعّم نور الإسلام الخافقين، كما أنّه سيكون فى الآخرة أيضا مشمولا بأعظم الهبات الإلهية.

النّبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره خاتم الأنبياء، و قائد البشرية، لا يمكن أن يتحقق رضاه فى نجاته فحسب، بل إنّه سيكون راضيا حين تقبل منه شفاعته فى أمته. و من هنا جاءت الرّوايات لتؤكد أن هذه الآية أكثر آيات القرآن الكريم دلالة على قبول الشفاعة منه عليه أفضل الصلاة و السلام.

و

فى حديث رواه محمّد بن على عليهما السّلام عن عمّه محمّد الحنفية عن أبيه أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أشفع لامّتى حتّى ينادينى ربّى: أرضيت يا محمّد؟ فأقول: نعم يا ربّ رضيت»

ثمّ إنّ أمير المؤمنين التفت إلى جماعة و قال:

«يا أهل العراق تزعمون أن أرجى آية فى كتاب اللّه عزّ و جلّ: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ... الآية، و إنّا أهل البيت نقول أرجى آية فى كتاب اللّه: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى و هى و اللّه الشفاعة ليعطيها فى أهل لا إله إلّا اللّه حتى تقول: ربّ رضيت».[۲۲۸]

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: دخل رسول اللّه على فاطمة عليها السّلام و عليها كساء من خلة الإبل و هى تطحن بيدها و ترضع ولدها فدمعت عينا رسول اللّه لما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۷

أبصرها فقال: «يا بنتاه تعجلى مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل اللّه علىّ و لسوف يعطيك ربّك فترضى»[۲۲۹].

بحث

فلسفة انقطاع الوحى:

يتبيّن من الآيات الكريمة فى هذه السّورة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يملك لنفسه شيئا إلّا من عند اللّه ... لم يكن له اختيار حتى فى نزول الوحى. متى ما شاء اللّه ينزل الوحى و متى ما شاء ينقطع، و لعل انقطاع الوحى كان ردّا على أولئك الذين كانوا يطالبون النّبى بمعاجز مقترحة وفق أذواقهم، أو كانوا يقترحون عليه تغيير بعض الأحكام و النصوص، و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول لهم: قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ ...[۲۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۸

الآيات [سورة الضحى (۹۳): الآيات ۶ الى ۱۱]

اشارة

أ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (۶) وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى (۷) وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى (۸) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (۱۰) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (۱۱)

التّفسير

الشكر على كلّ هذه النعم الإلهية:

ذكرنا أنّ هدف هذه السّورة المباركة تسلية قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بيان الطاف اللّه التى شملته، و هذه الآيات المذكورة أعلاه تجسد للنّبى ثلاث هبات من الهبات الخاصّة التى أنعم اللّه بها على النّبى، ثمّ تأمره بثلاثة أوامر.

أ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى

فقد كنت يا محمّد فى رحم امّك حين توفي والدك فآويتك إلى كنف جدّك عبد المطلب (سيد مكّة).

و كنت فى السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكننى زدت حبّك فى قلب «عبد المطلب».

و كنت فى الثامنة حين رحل جدّك «عبد المطلب»، فسخرت لك عمّك «أبا

طالب»، و ليحافظ عليك كما يحافظ على روحه.

نعم، كنت يتيما فآويتك.

و قيلت فى معنى هذه الآية آراء اخرى تبتعد عن ظاهرها. كقولهم إنّ اليتيم هو الفريد فى فضائله و خصائله الحميدة، فتقول مثلا للجوهرة الفريدة «درّة يتيمة» ... و يكون المعنى حينئذ أنّ اللّه وجدك فى فضائلك فريدا ليس لك نظير، و لذلك اختارك للنبوّة.

و كقولهم: إنّك كنت يوما يتيما، و أصبحت ملاذا للأيتام و قائدا للبشرية.

المعنى الأوّل دون شك أنسب و بظاهر الآية الصق.

ثمّ يأتى ذكر النعمة الثّانية:

وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى

نعم، لم تكن أيّها النّبى على علم بالنبوّة و الرسالة، و نحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدى به الإنسانية، و هذا المعنى ورد فى قوله تعالى أيضا: ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا.[۲۳۱] واضح أنّ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان فاقدا لهذا الفيض الإلهى قبل وصوله مقام النبوّة، فاللّه سبحانه أخذ بيده و هداه و بلغ به هذا المقام، و إلى هذا تشير الآية (۳) من سورة يوسف: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ

من المؤكّد أنّه لو لا الهداية الإلهية و الإمداد الغيبى ما استطاع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يهتدى المسير نحو الهدف المقصود.

من هنا فإنّ المقصود من الضلالة فى كلمة «ضالا» فى الآية ليس نفى الإيمان و التوحيد و الطهر و التقوى عن النّبى، بل بقرينة الآيات التى أشرنا إليها تعنى نفى

العلم بأسرار النبوّة و بأحكام الإسلام، و تعنى عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكّد على ذلك كثير من المفسّرين. لكنّه صلّى اللّه عليه و

آله و سلّم بعد البعثة اهتدى إلى هذه الأمور بعون اللّه تعالى. (تأمل بدقّة).

فی الآیة (۲۸۲) من سورة البقرة، عند ذکر الشهادة و سبب استشهاد أکثر من شاهدة واحدة فی کتابة عقود الدّین یقول سبحانه: أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَکِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى

و الضلالة فی هذه الآیة تعنی «النسیان» بقرینة قوله «فتذکر».

و فی الآیة تفاسیر اخرى من ذلک.

إنّک کنت خامل الذکر غیر معروف، و اللّه أنعم علیک من المواهب الفریدة ممّا جعلک معروفا فی کلّ مکان.

و من هذه التفاسیر، إنّک تهت و ضللت الطریق مرّات فی عهد الطفولة (مرّة فی شعاب مکّة حین کنت فی حمایة عبد المطلب، و مرّة حین کانت حلیمة السعدیة تأتی بک إلى مکّة لتسلمک إلى عبد المطلب فتهت فی الطریق. مرّة ثالثة حین کنت برفقة عمّک أبی طالب ضمن قافلة متجهة إلى الشام فضللت الطریق فی لیلة ظلماء و اللّه سبحانه هداک فی کلّ هذه المرات و أعادک إلى حضن جدّک أو عمّک).

و یذکر أنّ کلمة «ضال» تعنی «المفقود» و تعنی «التائه». ففی عبارة: «الحکمة ضالة المؤمن»، الضالة تعنی الشیء المفقود.

و من ذلک جاءت هذه المفردة أیضا بمعنى المخفی و الغائب و لذا ورد فی الآیة (۱۰) من سورة السجدة قوله تعالى على لسان منکری المعاد: أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ، أی ء إذا غبنا و اختفینا فی بطن الأرض.

و إذا کانت کلمة «ضالا» فی الآیة تعنی «المفقود» فلا یبرز إشکال فی الموضوع ... و لکن إذا کانت بمعنى «التائه» فالمقصود منها عدم الاهتداء إلى طریق النبوّة و الرسالة قبل البعثة، و بعبارة اخرى لم یکن النّبی مالکا لشیء فی ذاته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۸۱

الوجودیة، و ما کان عنده فمن اللّه، و بهذا المعنى یندفع کلّ إشکال أیضا.

وَ وَجَدَکَ عائِلًا فَأَغْنى ۲۳۲].

لقد جعلناک تستأثر باهتمام «خدیجة» هذه المرأة المخلصة الوفیة لتضع کلّ ثروتها تحت تصرفک و من أجل تحقیق أهدافک، و بعد ظهور الإسلام رزقک مغانم کثیرة فی الحروب ساعدتک فی تحقیق أهدافک الرسالیة الکبرى.

و

عن علی بن موسى الرضا علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیات قال: أَ لَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً فَآوى قال: فردا لا مثیل فی المخلوقین، فآوى النّاس إلیک. وَ وَجَدَکَ ضَالًّا أی ضالة فی قوم لا یعرفون فضلک فهداهم إلیک. وَ وَجَدَکَ عائِلًا، تعول أقواما بالعلم فأغناهم بک»[۲۳۳].

هذه الرّوایة تتحدث طبعا عن بطون الآیة، و إلّا فإنّ ظاهرها هو ما ذکرناه.

و لا یتصورنّ أحد أنّ تفسیر الآیات بظاهرها یحط من مکانة النبیّ صلّى اللّه علیه و آله و سلّم، أو یضفی علیه صفات سلبیة من قبل البارى تعالى، بل إنّها فی الواقع بیان ما أغدق اللّه على نبیه من ألطاف و إکرام و احترام، حین یتحدث المحبوب عن ألطافه بحق العاشق الواله، فإنّ حدیثه هذا هو عین اللطف و المحبّة، و هو دلیل على عنایته الخاصّة، و العاشق بسماعه هذه الألفاظ تسری فی جسده روح جدیدة، و تصفو نفسه و یغمر قلبه سکینة و هدوء.

فی الآیات التالیة ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتیجة الآیات السابقة ... و الخطاب، و إن کان متجها إلى الرسول صلّى اللّه علیه و آله و سلّم، فإنّه یشمل أیضا کل المسلمین.

فَأَمَّا الْیَتِیمَ فَلا تَقْهَرْ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۸۲

«تقهر» من القهر- کما یقول الراغب- الغلبة مع التحقیر، و لکن تستعمل فی کل واحد من المعنیین، و معنى التحقیر هنا هو المناسب.

و هذا يدل على أنّ هناك مسألة أهم من الإطعام و الإنفاق بشأن الأيتام، و هى اللطف بهم و العطف عليهم و إزالة إحساسهم بالنقص العاطفى، و لذا

جاء فى الحديث المعروف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمرّ على يده نور يوم القيامة»[۲۳۴].

كأنّ اللّه يخاطب نبيّه قائلا: لقد كنت يتيما أيضا و عانيت من آلام اليتم، و الآن عليك أن تهتم بالأيتام كل اهتمام و أن تروى روحهم الظمأى بحبّك و عطفك.

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ.

«نهر» بمعنى ردّ بخشونة، و لا يستبعد أن تكون مشتركة فى المعنى مع «نهر» الماء، لأنّ النهر يدفع الماء بشدّة.

و فى معنى «السائل» عدّة تفاسير.

الأوّل: أنّه المتجه بالسؤال حول القضايا العلمية و العقائدية و الدينية، و الدليل على ذلك هو أنّ هذا الأمر تفريع ممّا جاء فى الآية السابقة: وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى فشكر هذه الهداية الإلهية يقتضى أن تسعى أيّها النّبى فى هداية السائلين، و أن لا تطرد أى طالب للهداية عنك.

و التّفسير الآخر: هو الفقير فى المال و المتاع، و الأمر يكون عندئذ ببذل الجهد فى هذا المجال، و بعدم ردّ هذا الفقير السائل يائسا.

و الثّالث: أنّ المعنى يشمل الفقير علميا و الفقير ماديا، و الأمر بتلبية احتياجات السائل فى المجالين، و هذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهية لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مع إيوائه حين كان يتيما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۳

و ذهب بعضهم إلى حصر معنى السائل فى طالب المعرفة العلمية، زاعما أنّ كلمة السائل لم ترد فى القرآن الكريم بمعنى طالب المال و المتاع ۲۳۵]، بينما تكرر فى القرآن هذا المعنى كقوله تعالى: وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ ۲۳۶] و بهذا المعنى أيضا وردت فى المعارج- ۲۵، و فى البقرة- ۷۷.

وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

و الحديث عن النعمة قد يكون باللسان، و بتعابير تنمّ عن غاية الشكر و الامتنان، لا عن التفاخر و الغرور. و قد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة فى سبيل اللّه، إنفاقا يبيّن مدى هذه النعمة. هذه هى خصلة الإنسان السخى الكريم ... يشكر اللّه على النعمة، و يقرن الشكر بالعمل، خلافا للسخفاء البخلاء الذين لا يكفون عن الشكوى و التأوه، و لا يكشفون عن نعمة و لو حصلوا على الدنيا و ما فيها، وجوههم يعلوها سيماء الفقر، و كلامهم مفعم بالتذمّر و الحسرة، و عملهم يكشف عن فقر! بينما

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّ اللّه تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه»[۲۳۷]

من هنا يكون معنى الآية: بيّن ما أغدق اللّه عليك من نعم بالقول و العمل، شكرا على ما أغناك اللّه إذ كنت عائلا.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ النعمة فى الآية هى النعمة المعنوية و منها النبوّة و القرآن، و الأمر للنبىّ بالإبلاغ و التبيين، و هذا هو المقصود من الحديث بالنعمة.

و يحتمل أيضا أن يكون المعنى شاملا للنعم المادية و المعنوية، لذلك

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية قوله: «حدث بما أعطاك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۴

اللّه، و فضلك، و رزقك، و أحسن إليك و هداك»[۲۳۸].

و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من اعطی خیرا فلم یر علیه، سمّی بغیض اللّه، معادیا لنعم اللّه»[۲۳۹].

و

عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام قال: «إنّ اللّه جمیل یحب الجمال، و یحب أن یری أثر النعمة علی عبده»[۲۴۰]

بحوث

۱- القیادة المنطلقة من المعاناة و الآلام

الآیات الکریمة فی هذه السّورة، ضمن سردها النعم الإلهیة علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، تعکس أیضا مسألة یتم النبیّ فی صباه، و ظروفه المادیة الصعبة التی عاناها، و الأتعاب و الآلام التی قاساها، و من بین هذه الآلام انطلق، و یجب أن یکون کذلک.

القائد الإلهی الإنسانی یجب أن یذوق مرارة العیش، و یتلمس بنفسه الظروف القاسیة، و یشعر بکل وجوده الحرمان، کی یستطیع أن یتفهم صحیح ما تعانیه الفئات المحرومة، و یتحسّس آلام النّاس و معاناتهم فی معیشتهم.

یجب أن یفقد أباه فی صغره کی یشعر بآلام الأطفال الأیتام، و لا بدّ أن یبقی جائعا لأیّام و أن ینام عاصب البطن، کی یفهم بکل وجوده آلام الجیاع.

لذلک کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تغرورق عینه بالدموع حین یری یتیما، و کان یظمّ ذلک الیتیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۸۵

إلی صدره و یداعبه بکل حرارة.

یجب أن یتفهّم ما یعانیه مجتمعه من فقر ثقافی، کی یعتزّ بکل من یأتیه لطلب معرفة أو علم، و یستقبله بصدر رحب.

لیس النبیّ الخاتم وحده، بل قد یکون کلّ الأنبیاء منطلقین من حیاة المعاناة و الألم، و هکذا کلّ القادة الحقیقیین الناجحین کانوا کذلک ... و یجب أن یکونوا کذلک.

من کان یرفل فی نعومة العیش، و فی الثراء و القصور، و کان ینال کلّ ما یرید، کیف یستطیع أن یدرک آلام المحرومین، و کیف یستطیع أن یتفهم معاناة الفقراء و البائسین لیهب لمساعدتهم؟!

فی حدیث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام: «ما بعث اللّه نبیّا قطّ حتی یسترعیه الغنم یعلّمه بذلک رعیة النّاس»[۲۴۱].

و فی رعی الغنم دروس فی تحمل الآلام، و فی الصبر أمام موجود ضعیف قلیل الشعور، کما إنّه استلهام لدروس التوحید و العرفان من خلال حیاة الصحراء و العیش فی أحضان الطبیعة.

و فی روایة أنّ «موسی بن عمران» سأل ربّه عن سبب اختیاره لمقام النبوّة، فجاءه الجواب: أتذکر یوما أنّ حملا قد فرّ من قطیع غنمک فتبعته حتی أخذته ثمّ قلت له: لماذا أتعبت نفسک، ثمّ حملته علی کتفک، و جئت به إلی القطیع، و لذلک اخترتک راعیا لخلقی، و هذا یعنی أنّ اللّه تعالی رأی فی موسی قدرة فائقة علی التحمّل تجاه هذا الحیوان ممّا یدلّ علی قوّة روحیة فائقة أهلته لهذه المنزلة الکبیرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۲۸۶

۲- الاهتمام بالأیتام

لا يخلو مجتمع من أيتام فقدوا الأب فى صغرهم، و هؤلاء الأطفال يجب أن يتمتعوا بحماية من مختلف الجهات.

فمن الناحية العاطفية، يشعر هؤلاء بنقص، إذا لم يسدّ فإنّهم سيشبّون أفرادا غير سالمين، و كثيرا ما يكونون قساة مجرمين خطرين. و من الناحية الإنسانية يجب أن يعيش هؤلاء فى حماية و رعاية كسائر أبناء المجتمع، أضف إلى ذلك يجب أن يشعر أفراد المجتمع بضمان مستقبل أبنائهم الذين قد يصابون باليتم فى يوم من الأيّام.

الأيتام قد يكونون أصحاب تركة مالية يجب أن تصان بكلّ دقّة، و قد يكونون معدمين ماليا فيجب الاهتمام بهم من هذه الناحية، و الآخرون يتحملون مسئولية التعامل مع هؤلاء بكل اهتمام و رفق كى يزيلوا عنهم غبار عناء الوحدة.

لذلك ركزت آيات القرآن الكريم و نصوص الشريعة الأخرى على هذه المسألة ذات البعد الأخلاقى و البعد الاجتماعى و الإنسانى.

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّ اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول اللّه لملائكته يا ملائكتى من أبكى هذا اليتيم الذى غيب أبوه فى التراب؟

فتقول الملائكة: أنت أعلم، فيقول اللّه تعالى: «يا ملائكتى، فإنّى أشهدكم أن لمن أسكته و أرضاه أن أرضيه يوم القيامة»[۲۴۲].

و أكثر من ذلك

روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إذا بكى اليتيم وقعت دموعه فى كف الرحمن»[۲۴۳].

و

روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أنا و كافل اليتيم كهاتين فى الجنّة إذا اتقى اللّه عزّ و جلّ،

و أشار بالسبابة و الوسطى»[۲۴۴].

و لأهمية هذه المسألة قرنها على أمير المؤمنين فى وصيته المعروفة بالصلاة و القرآن و

قال: «اللّه اللّه فى الأيتام فلا تغبّوا أفواههم و لا يضيعوا بحضرتكم»[۲۴۵].

و

عن أحد الصحابة قال: كنّا جلوسا عند رسول اللّه فأتاه غلام فقال: غلام يتيم و أخت لى يتيمة، و أمّ لى أرملة، أطعمنا ممّا أطعمك اللّه، أعطاك اللّه ممّا عنده حتى ترضى، قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، أذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا فجاء بواحدة و عشرين تمرة، فقال: سبع لك و سبع لأختك و سبع لامّك، فقام إليه معاذ بن جبل فمسح رأسه و قال: جبر اللّه يتمك و جعلك خلفا من أبيك و كان من أبناء المهاجرين.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: رأيتك يا معاذ و ما صنعت.

قال: رحمته.

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يلى أحد منكم يتيما فيحسن ولايته، و وضع يده على رأسه إلّا كتب اللّه له بكل شعرة حسنة و محا عنه بكلّ شعرة سيئة، و رفع له بكلّ شعرة درجة»[۲۴۶].

فى المجتمعات الكبيرة مثل مجتمعاتنا اليوم، لا يمكن للمسلمين أن يكتفوا طبعا بالأعمال الفردية، بل لا بدّ أن تتمركز القوى لرعاية الأيتام وفق برنامج اقتصادى و ثقافى و تعليمى مدروس، كى ينشأ هؤلاء الأيتام أفرادا لائقين للمجتمع الإسلامى. و هذا يتطلب تعاونا اجتماعيا عاما.

۳- التحدّث بالنعم

إظهار نعمة الربّ، حين يكون بدافع الشكر و الثناء، لا على سبيل التفاخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۸

و الاستعلاء، يدفع الإنسان نحو التكامل على سلّم العبودية، كما إنّ له أيضا آثارا اجتماعية إيجابية، و آثارا نفسية تبعث على السكينة و الاستقرار.

الإنسان الذاكر لنعم ربّه لا يشتدّ عليه ضغط النواقص. إذا أصيب في عضو من أعضاء بدنه يخفف عليه ألم الإصابة شكره على سلامة بقية الأعضاء، و إذا فقد شيئا لا يجزع لأنّه شاكر على ما بقي عنده من امكانات.

هؤلاء الذاكرون لنعم اللّه لا يعتريهم يأس و قنوط في الشدائد و الهزات، و لا يصيبهم قلق و اضطراب، قلوبهم هادئة و نفوسهم مطمئنة و قدرتهم على مواجهة المشاكل كبيرة.

إلهي! نعمك أكثر من أن نحصيها و نتحدث بها، فلا تسلبها عنّا، بل زدها بكرمك.

ربّاه! نحن في هذه الدنيا مغمورون ببحر كرمك فلا تحرمنا من عطائك يوم القيامة.

يا ربّ العالمين! وفقنا لأن نكون في مساعدة المحرومين مسارعين، و لحقوق الأيتام محافظين.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الضحى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۹

سورة الشّرح

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثماني آيات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۱

«سورة ألم نشرح»

محتوى السّورة:

المعروف أنّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «الضحى» و محتواها يؤيد ذلك، لأنّها تسرد أيضا قسما من الهبات الإلهية لرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

في سورة «الضحى» عرض لثلاث هبات إلهية بعضها مادية و بعضها معنوية، و في هذه السّورة ذكر لثلاث هبات أيضا غير أنّ جميعها معنوية، و تدور السّورة بشكل عام حول ثلاثة محاور. الأوّل: بيان النعم الثلاث، و الثّاني: تبشير النّبي بزوال العقبات أمام دعوته، و الثّالث: الترغيب في عبادة اللّه الواحد الأحد.

و لذلك ورد عن أهل البيت عليم السّلام ما يدلّ أنّ هاتين السّورتين سورة واحدة كما ذكرنا، و وجب قراءتهما معا في الصلاة لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

و من أهل السنة من ذهب إلى ذلك أيضا، كما نقل الفخر الرازي عن طاوس و عمر بن عبد العزيز أنّهما يقرءانها معا في الصلاة و يحذفان البسملة بينهما (حسب فتاوى فقهاء مذهب أهل البيت قراءة البسملة في كليهما واجبة، و ما نقله المرحوم الطبرسي بشأن حذف

بعض الفقهاء البسملة هنا لا يبدو صحيحا).

و الفخر الرازی بعد نقل آراء القائلين بوحدة السّورتين، يرد عليهم مستدلا بالفرق الموجود بين السّورتين، ذلك لأن سورة و الضحى- فی رأيه- نزلت حين كان الرّسول متألما و مغتما لما ناله من أذى الكفار، بينما السّورة التالية نزلت فی حالة انشراح الرّسول و ابتهاجه [۲۴۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۲

و هذا استدلال غريب، فالسورتان كلاهما تتحدثان عمّا مضى من حياة الرّسول، و كان ذلك حين تجاوز النّبی كثيرا من مشاكل الدعوة، و حين أصبح قلبه الطاهر مفعما بالأمل و السرور. كلا السّورتين تتحدثان عن الهبات الإلهية و تذكّران بأيّام المحن و الصعاب كی يكون ذلك تسلية لقلب الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تصعيدا للأمل فی نفسه.

على أی حال ارتباط محتوى السّورتين ارتباطا وثيقا أمر لا يقبل الشك، و هكذا الكلام فی سورتی الفيل و قريش كما سيأتی إن شاء اللّه.

بشأن مكان نزول السّورة، يتبيّن ممّا سبق أنّها نزلت فی مكّة، و لكن آية:

وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ حدث بالبعض إلى الإعتقاد أنّها نزلت فی المدينة، حيث ارتفع ذكر النّبی و شاع صيته فی كل مكان، و ليس هذا الدليل بقانع، لأنّ النّبی الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذاع صيته قبل الهجرة رغم كل العقبات و المشاكل و كان الحديث عن دعوته على الألسن فی جميع المحافل، كما إنّ خبر الدعوة انتشر فی الحجاز عامّة و المدينة خاصّة من خلال الوافدين على مكّة فی موسم الحج.

فضيلة السّورة:

ورد فی فضيلة هذه السّورة عن النّبی الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها أعطى من الأجر كمن لقى محمّدا مغتما ففرّج عنه»[۲۴۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۳

الآيات [سورة الشرح (۹۴): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (۱) وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (۲) الَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (۳) وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (۴)
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۶) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (۷) وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ (۸)

التّفسير

نعم إلهية:

سياق الآيات ممزوج بالحب و الحنان و بألطاف ربّ العالمين لنبيّه الكريم.

أهم هبة إلهية تشير إليها الآية الاولى: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ

«الشرح»: فی الأصل- كما يقول الراغب- توسعة قطع اللحم بتحويلها إلی شرائح أرق. و «شرح الصدر» سعته بنور إلهی و بسكينة و اطمئنان من عند اللّه، و «شرح معضلات الحديث» التوسّع فيه و توضيح معانيه الخفية، و «شرح الصدر» فی الآية كناية عن التوسعة فی فكر النّبی و روحه، و لهذه التوسعة مفهوم واسع،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ٢٩۴

تشمل السعة العلمية للنّبی عن طريق الوحی و الرسالة، و تشمل أيضا توسعة قدرة النّبی فی تحمله و استقامته أمام تعنت الأعداء و المعارضين.

و لذلك حين امر موسی بن عمران عليه السّلام بدعوة فرعون: اذْهَبْ إِلی فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغی دعا ربّه و قال: رَبِّ اشْرَحْ لِی صَدْرِی وَ يَسِّرْ لِی أَمْرِی ٢۴٩].

و فی موضع آخر يخاطب اللّه نبيّه بقوله سبحانه: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ ٢۵٠] أی لا تكن كيونس الذی ترك الصبر فوقع فی المشاكل و لاقی أنواع الإرهاق.

و شرح الصدر يقابله «ضيق الصدر»، كما فی قوله تعالی: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ ٢۵١].

و لا يمكن أساسا لقائد كبير أن يجابه العقبات دون سعة صدر. و من كانت رسالته أعظم (كرسالة النّبی الأكرم) كانت الضرورة لشرح صدره أكبر، ... كی لا تزعزعه العواصف و لا تثنی عزمه الصعاب و لا تبعث فی نفسه اليأس مكائد الأعداء، و لا يضيق بالملتوی من الأسئلة. و هذه كانت أعظم هبة إلهية لرسول ربّ العالمين.

لذلك

روی عنه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: لقد سألت ربّی مسألة وددت أنّی لم أسأله. قلت:

أی ربّ إنّه قد كان أنبياء قبلی منهم من سخرت له الريح و منهم من كان يحی الموتی. قال، فقال: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ قال: قلت: بلی. قال: ألم أجدك ضالا فهديتك؟ قال: قلت: بلی أی ربّ، قال: ألم أشرح لك صدرك و وضعت عنك وزرك؟ قال: قلت: بلی أی ربّ ٢۵٢].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ٢٩۵

و هذا يعنی أنّ نعمة شرح الصدر تفوق معاجز الأنبياء. و المتمعّن فی دراسة حياة الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم، و ما فيها من مظاهر تدل علی شرح عظيم لصدره تجاه الصعاب و المشاق يدرك بما لا يقبل الشك أن الأمر لم يتأت لرسول اللّه بشكل عادی، بل إنّه حتما تأييد إلهی ربّانی.

و قيل أنّ شرح الصدر إشارة لحادثة واجهت الرّسول فی طفولته حين نزلت عليه الملائكة فشقّت صدره و أخرجت قلبه و غسلته، و ملأته علما و حكمة و رأفة و رحمة.[٢۵٣] المقصود طبعا من القلب فی هذه الرّواية ليس القلب الجسمانی، بل إنّه كناية و إشارة إلی الإمداد الإلهی من الجانب الروحی، و إلی تقوية إرادة النّبی و تطهيره من كل نقص خلقی و وسوسة شيطانية.

و لكن، علی أی حال، لا يتوفر عندنا دليل علی أنّ الآية الكريمة مختصة بالحادثة المذكورة، بل لها مفهوم واسع، و قد تكون هذه القصّة أحد مصاديقها.

و بسعة الصدر هذه اجتاز الرسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم العقبات و الحواجز و الصعاب علی أفضل وجه، و أدّی رسالته خير أداء.

ثمّ يأتی ذكر الموهبة الثّانية.

وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ أی ألم نضع عنك الحمل الثقيل.

الَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَكَ

«الوزر» بمعنى الثقل، و منها «الوزير» الذى يحمل أعباء الدولة، و سمّيت الذنوب «وزرا» لأنّها تثقل كاهل صاحبها.

«انقض» من (النقض) أى حلّ عقدة الحبل، أو فصل الأجزاء المتماسكة من البناء، و «الانتقاض» صوت انفصال اجزاء البناء عن بعضها، أو صوت فقرات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۶

الظهر حين تنوء بعبء ثقيل.

و الكلمة تستعمل أيضا فى نكث العهود و عدم الالتزام بها، فيقال نقض عهده.

و الآية تقول إذن، اللّه سبحانه وضع عنك أيّها النّبى ذلك الحمل الثقيل القاصم الظهر.

و أى حمل وضعه اللّه عن نبيّه؟ القرائن فى الآيات تدل على أنّه مشاكل الرسالة و النّبوّة و الدعوة إلى التوحيد و تطهير المجتمع من ألوان الفساد، و ليس نبيّ الإسلام وحده بل كلّ الأنبياء فى بداية الدعوة واجهوا مثل هذه المشاكل الكبرى، و تغلبوا عليها بالإمداد الإلهى وحده، مع فارق فى الظروف، فبيئة الدعوة الإسلامية كانت ذات عقبات أكبر و مشاكل ... نزوله.

و قيل أيضا: أنّ «الوزر» يعنى ثقل «الوحى» فى بداية نزوله.

و قيل: إنّه عناد المشركين و تعنتهم.

و قيل: إنّه أذاهم.

و قيل: إنّه الحزن الذى ألمّ بالنّبى لوفاة عمّه أبى طالب و زوجه خديجة.

و قيل: أيضا إنّه العصمة و إذهاب الرجس.

و الظاهر أنّ التّفسير الأوّل أنسب من غيره و التفاسير الأخرى تفريع من التّفسير الأوّل.

و فى الموهبة الثّالثة يقول سبحانه.

وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ فاسمك مع اسم الإسلام و القرآن قد ملأ الآفاق، و أكثر من ذلك اقترن اسمك باسم اللّه سبحانه فى الأذان يرفع صباح مساء على المآذن. و الشهادة برسالتك لا تنفك عن الشهادة بتوحيد اللّه فى الإقرار بالإسلام و قبول الدين الحنيف.

و أى فخر أكبر من هذا؟ و أى منزلة أسمى من هذه المنزلة.

و

روى عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الآية قال: «قال لى جبرائيل قال اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۷

عزّ و جلّ: إذا ذكرت ذكرت معى».

(و كفى بذلك منزلة).

و التعبير بكلمة (لك) تأكيد على رفعة ذكر النبيّ رغم كل عداء المعادين و موانع الصّادين.

و قد ذكرنا أنّ هذه السّورة مكيّة، بينما الآية الكريمة تتحدث عن انتشار الإسلام، و تجاوز عقبات الدعوة، و إزالة الأعباء التى كانت تثقل كاهل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ارتفاع ذكر النّبى فى الآفاق ... و هذا ما حدث فى المدينة لا فى مكّة.

قيل: إنّ السّورة تبشّر النّبى بما سيلقاه فى المستقبل، و كان ذلك سببا لزوال الحزن و الهم من قلبه، و قيل أيضا: إنّ الفعل الماضى هنا يعنى المستقبل.

و لكن الحق أنّ قسما من هذه الأمور قد تحقق فى مكّة خاصّة فى أواخر السنين الثلاث عشرة الاولى من الدعوة قبل الهجرة، تغلغل الإيمان فى قلوب كثير من النّاس و خفّت وطأة المشاكل، و ذاع صيت النّبى فى كلّ مكان، و تهيأت الأجواء لانتصارات أكبر فى المستقبل.

شاعر النّبى «حسان بن ثابت» ضمّن معنى الآية الكريمة فى أبيات جميلة، و قال:

و ضمّ الإله اسم النّبى إلى اسمه‌إذ قال فى الخمس المؤذن أشهد

و شقّ له من اسمه ليجلّه‌فذو العرش «محمود» و هذا «محمّد»

الآية التالية تبشّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأعظم بشرى، و تقول:

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً و يأتى التأكيد الآخر:

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً لا تغتمّ أيّها النّبى، فالمشاكل و العقبات لا تبقى على هذه الحالة، و دسائس الأعداء لن تستمر، و شظف العيش و فقر المسلمين سوف لا يظلّ على هذا المنوال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۸

الذى يتحمل الصعاب، و يقاوم العواصف سوف ينال يوما ثمار جهوده، و ستخمد عربدة الأعداء، و تحبط دسائسهم، و يتمهّد طريق التقدم و التكامل و يتذلل طريق الحق.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ هذه الآيات تشير إلى فقر المسلمين فى معيشتهم خلال الفترة الاولى من الدعوة، لكن المفهوم الواسع للآيات يستوعب كلّ ألوان المشاكل. أسلوب الآيتين يجعلهما لا تختصان بشخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بزمانه، بل بصورة قاعدة عامّة مستنبطة ممّا سبق. و تبشّر كلّ البشرية المؤمنة المخلصة الكادحة، و تقول لها: كلّ عسر إلى جانبه يسر، و لم ترد فى الآية كلمة «بعد» بل «مع» للدلالة على الاقتران.

نعم، كلّ معضلة ممزوجة بالانفراج، و كلّ صعوبة باليسر، و الاقتران قائم بين الإثنين أبدا.

و هذا الوعد الإلهى يغمر القلب نورا و صفاء. و يبعث فيه الأمل بالنصر، و يزيل غبار اليأس عن روح الإنسان [۲۵۴].

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «و اعلم أنّ مع العسر يسرا، و أنّ مع الصبر النصر، و أنّ الفرج مع الكرب ...».[۲۵۵]

و

روى أنّ امرأة شكت زوجها لأمير المؤمنين على عليه السّلام، لعدم إنفاقه عليها، و كان الزوج معسرا فأبى على أن يسجن الزوج و قال للمرأة: إنّ مع العسر يسرا (و دعاها إلى الصبر)[۲۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۲۹۸

فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ أى إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهمّة اخرى، فلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۹

مجال للبطالة و العطل. كن دائما فى سعى مستمر و مجاهدة دائمة، و اجعل نهاية أية مهمّة بداية لمهمّة اخرى.

وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ أى فاعتمد على اللّه فى كلّ الأحوال.

اطلب رضاه، واسع لقربه.

الآيتان- حسب ما ذكرناه- لهما مفهوم واسع عام يقضى بالبدء بمهمّة جديدة بعد الفراغ من كلّ مهمّة. و بالتوجه نحو اللّه فى كلّ المساعى و الجهود، لكن أغلب المفسّرين ذكروا معانى محددة لهما يمكن أن يكون كلّ واحد منها مصداقا للآيتين.

قال جمع منهم: المقصود، إنّك إذا فرغت من فريضة الصلاة فادع اللّه و اطلب منه ما تريد.

أو: عند فراغك من الفرائض انهض لنافلة الليل.

أو: عند فراغك من امور الدنيا ابدأ بأمور الآخرة و الصلاة و عبادة الربّ.

أو: عند فراغك من الواجبات توجه إلى المستحبات التى حثّ عليها اللّه.

أو: عند فراغك من جهاد الأعداء انهض إلى العبادة.

أو: عند فراغك من جهاد الأعداء ابدأ بجهاد النفس.

أو: عند انتهائك من أداء الرسالة انهض لطلب الشفاعة.

الحاكم الحسكانى- عالم أهل السنة المعروف- روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى «شواهد التنزيل» فى تفسير الآية إنّها تعنى: «إذا فرغت فانصب عليّا بالولاية»[۲۵۷].

القرطبى فى تفسيره روى عن بعضهم أنّ معنى الآية: «إذا فرغت فانصب إماما يخلفك». (لكنّه ردّ هذا المعنى)[۲۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۰

موضوع «الفراغ» فى الآية لم يذكر، و كلمة «فانصب» من النصب أى التعب و المشقّة، و لذلك فالآية تبيّن أصلا عاما شاملا. و هدفها أن تحث النّبى باعتباره القدوة- على عدم الخلود إلى الراحة بعد انتهائه من أمر هام. و تدعوه إلى السعى المستمر.

انطلاقا من هذا المعنى يتّضح أنّ التفاسير المذكورة للآية كلّها صحيحة، و لكن كل واحد منها يقتصر على مصداق معين من هذا المعنى العام.

و ما أعظم العطاء التربوى لهذا الحثّ، و كم فيه من معانى التكامل و الإنتصار!! البطالة و الفراغ من عوامل الملل و الخمول و التقاعس و الاضمحلال. بل من عوامل الفساد و السقوط فى أنواع الذنوب غالبا.

و حسب الإحصائيات، مستوى الفساد عند عطلة المؤسسات التعليمية يرتفع إلى سبعة أضعاف أحيانا.

و بإيجاز، هذه السّورة تبيّن بمجموعها عناية ربّ العالمين الخاصّة للنّبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تسلية قلبه أمام المشاكل، و وعده بالنصر أمام عقبات الدعوة، و هى فى الوقت ذاته تحيى الأمل و الحركة و الحياة فى جميع البشرية المهتدية بهدى القرآن.

ملاحظتان

۱- الآية الكريمة فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ تعنى- كما جاء فى روايات عديدة- نصب أمير المؤمنين على بالخلافة بعد الانتهاء من أمر الرسالة (كمصداق من المفهوم العام للآية).

«الآلوسى» فى «روح المعانى» بعد أن ينقل عن بعض «الإمامية» هذا التّفسير يقول: هؤلاء قرءوا «فانصب» بكسر الصاد. وهب أن قراءتها كذلك فلا تنهض أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۱

تكون دليلا على نصب على بن أبى طالب. ثمّ ينقل عن الزمخشرى فى الكشّاف قوله: لو أمكن للشيعة مثل هذا التّفسير، فالنواصب (أعداء على) يمكنهم أن يفسّروا الآية على أنّها أمر بالنصب (ببغض على)[۲۵۹].

ترى هل أنّ الشيعة بحاجة إلى تغيير قراءة الآية كى يستدلوا بها على ولاية على؟! لا طبعا، بل هذه القراءة المعروفة تكفى للتفسير المذكور. لأنّها تقول: إذا فرغت من مهمّة مثل مهمّة الرسالة فابدأ بمهمّة أخرى كمهمّة الولاية، و هذا مقبول باعتباره أحد مصاديق. و نعلم أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- حسب حديث الغدير المعروف و أحاديث أخرى منتشرة فى الصحاح و المسانيد- كان فى سعى مستمر هى هذا المجال.

و لكن المؤسف جدّا أنّ يدفع التعصب برجل عالم مثل «الزمخشرى» لأنّ يجيز لنفسه القول أنّ النواصب يمكنهم أن يفسّروا الآية أيضا على أنّها أمر ببغض على!! أى تعبير ركيك هذا فى حق شخص يؤمن به الزمخشرى على أنّه الخليفة الرابع للمسلمين! حقّا إنّ مزالق

التعصب سيئة! ۲- العالم المعتزلى المعروف «ابن أبى الحديد» يروى فى «شرح نهج البلاغة» عن «الزبير بن بكار» و هو رجل- كما يقول ابن أبى الحديد- غير شيعى و غير خصم لمعاوية، بل فارق عليّا و التحق بمعارضيه- و الزبير هنا يروى عن ابن «المغيرة بن شعبة» يقول: دخلت مع أبى على معاوية، فكان أبى يأتيه، فيتحدث معه، ثمّ ينصرف إليّ فيذكر معاوية و عقله، و يعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء، و رأيته مغتمّا فانتظر ساعة، و ظننت أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لى أراك مغتمّا منذ الليلة؟ فقال: يا بنى، جئت من عند أكفر النّاس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۰۲

و أخبثهم، قلت: و ما ذاك؟ قال: قلت له (لمعاوية) و قد خلوت به: إنّك قد بلغت سنايا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلا، و بسطت خيرا فإنّك قد كبرت، و لو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم، فوصلت أرحامهم، فو اللّه ما عندهم اليوم شيء تخافه، و إنّ ذلك ممّا يبقى لك ذكره و ثوابه، فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم (أبو بكر) فعدل و فعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره؛ إلّا أنّ يقول قائل: أبو بكر؛ ثمّ ملك أخو عديّ، فاجتهد و شمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره؛ إلّا أن يقول قائل: عمر؛ و إنّ ابن أبى كبشة (رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ليصاح به كلّ يوم خمس مرات: «أشهد أنّ محمّدا رسول اللّه»، فأيّ عمل يبقى؛ و أى ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا و اللّه دفنا دفنا»[۲۶۰].

لو أمعنا النظر فى هذه الرّواية لعلمنا مدى المأساة التى حلّت بالمسلمين حتى تولى أمرهم البيت الأموى ... و إنّا للّه و أنّا اليه راجعون.

إلهى! خلصنا من حبّ الذات، و اغمر قلوبنا بحبّك.

يا ربّ! لقد وعدت باليسر حين يشتد العسر ... فيسّر على المسلمين و هم يعانون مؤامرات الأعداء و دسائس الطامعين يا اللّه! زد نعمك علينا و وفقنا لأن نكون من الشاكرين.

أمين يا ربّ العالمين نهاية سورة ألم نشرح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۰۳

سورة التّين

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثمانى آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۰۵

«سورة التّين»

محتوى السّورة و فضيلتها:

هذه السّورة تدور آياتها حول حسن خلقة الإنسان و مراحل تكامله و نموّه و انحطاطه. و تبدأ بقسم عميق المعنى، تذكر عوامل انتصار الإنسان و نجاته و تنتهى بالتأكيد على مسألة المعاد و حاكمية اللّه المطلقة.

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطاه اللّه خصلتين: العافية و اليقين ما دام فى دار الدنيا، فإذا مات أعطاه اللّه من الأجر بعدد من قرأ هذه السّورة صيام يوم»[۲۶۱].

هذه السّورة نزلت مكّة، و الآية: (و هذا البلد الأمين) قسم بمكّة و دليل على مكّية السّورة لاستعمال اسم الإشارة للقريب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۶

الآیات [سورة التین (۹۵): الآیات ۱ الی ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
وَ التِّینِ وَ الزَّیْتُونِ (۱) وَ طُورِ سِینِینَ (۲) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِینِ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیم (۴)
ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ (۵) إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ (۶) فَما یُکَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّینِ (۷) أَ لَیْسَ اللَّهُ بِأَحْکَمِ الْحاکِمِینَ (۸)

التّفسیر

تبدأ السّورة بالقسم أربع مرّات لبیان أمر مهم:
وَ التِّینِ، وَ الزَّیْتُونِ
وَ طُورِ سِینِینَ ۲۶۲].
وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِینِ
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۷
التِّینِ و الزَّیْتُونِ ثمرتان معروفتان، و اختلف المفسّرون فی المقصود بالتین و بالزیتون، هل هما الفاکهتان المعروفتان أم شیء آخر.
بعضهم ذهب إلی أنّهما الفاکهتان بما لهما من خواص غذائیة و علاجیة کبیرة.
و بعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان فی مدینتی «دمشق» و «بیت المقدس» لأنّ المکانین منبثق کثیر من الرسل و الأنبیاء ... و بذلک ینسجم هذان القسمان مع ما یلیهما من قسمین بأراض مقدّسة.
و قال آخرون: إنّ تسمیة الجبلین بالتین و الزیتون یعود إلی وجود أشجار التین علی أحدهما و الزیتون علی الآخر.
و قال بعضهم: إنّ التین إشارة إلی عهد آدم، إذ أنّ آدم و حواء طفقا یضعان علی عوراتهما من ورق التین فی الجنّة، و الزیتون إشارة إلی عهد نوح لأنّه اطلق فی آخر مراحل الطوفان حمامة فعادت و هی تحمل غصن الزیتون، ففهم نوح علیه السّلام أن الأرض بدأت تبتلع ماءها و ظهرت الیابسة. (لذلک اتخذ غصن الزیتون رمزا للسلام).
و قیل: إنّ التین إشارة إلی مسجد نوح الذی بنی فوق جبل الجودی. و الزیتون إشارة إلی بیت المقدّس.
ظاهر الآیة یدلّ علی أنّ المقصود هو الفاکهتان المعروفتان، و لکن القسمین التالیین یجعلان تفسیر التین و الزیتون بالجبلین أو المرکزین المقدسین أنسب.
طُورِ سِینِینَ قیل هو: طور سیناء، و هو الجبل المعروف فی صحراء سیناء حیث أشجار الزیتون المثمرة، و حیث ذهب موسی لمناجاة ربّه، و «سیناء» تعنی المبارک، أو کثیر الأشجار، أو الجمیل.
و قیل: إنّه جبل قرب الکوفة فی أرض النجف.
و قیل: إنّ سینین و سیناء بمعنی واحد و هو کثیر البرکة.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۸
وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِینِ ۲۶۳]، و البلد الأمین مکّة، الأرض التی کانت فی عصر الجاهلیة أیضا بلدا آمنا و حرما إلیها، و لا یحق لأحد فیها أن

يتعرض لأحد، المجرمون و القتلة كانوا فى أمان إن وصلوا إليها أيضا.

هذه الأرض لها فى الإسلام أهمية عظمى، الحيوانات و النباتات و الطيور فيها آمنة فما بالك بالإنسان.

و يذكر أنّ كلمة «التين» وردت فى هذا الموضع من القرآن فقط، بينما كلمة الزيتون تكررت فى ستة مواضع باللفظ و فى موضع بالإشارة حيث يقول سبحانه:

وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ۲۶۴] و هى شجرة الزيتون.

إذا حملنا كلمتى «التين» و «الزيتون» على معناهما الظاهر الابتدائى، فالقسم بها ذو دلالة عميقة أيضا.

«التين» فاكهة ذات مواد غذائية ثرّة، و لقمة مغذية و مقوية لمختلف الأعمار، و خالية من القشر و النواة و الزوائد.

علماء الأغذية يقولون:

يمكن الاستفادة من التين كسكّر طبيعى للأطفال و يمكن للرياضيين و لمن يعانون ضعف الشيخوخة أن يستفيدوا من التين للتغذية.

يقال إنّ أفلاطون كان يحبّ التين إلى درجة اطلق بعضهم على هذه الفاكهة اسم محبوب الفلاسفة، و سقراط كان يرى فى التين عاملا على جذب المواد النافعة و رفع المواد الضارة.

جالينوس كان قد وضع نظام تغذية خاص للأبطال من التين، و كان الرومان و اليونان القدماء يغذون أبطالهم بالتين.

علماء التغذية يقولون: التين مليء بالفيتامينات المختلفة و السكر، و يمكن الاستفادة منه لعلاج كثير من الأمراض، و حين تخلط نسب متساوية من التين و العسل يكون الخليط مفيدا لقرحة المعدة، و تناول التين اليابس يقوى الفكر، و بإيجاز التين، لما فيه من عناصر معدنية تؤدى إلى تعادل قوى البدن و الدم، يعتبر غذاء لمختلف الأعمار و الظروف.

و

روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قال: «التين يذهب بالبخر و يشدّ الفم و العظم، و ينبت الشعر، و يذهب بالداء، و لا يحتاج معه إلى دواء».

و

قال عليه السّلام: «التين أشبه شيء بنبات الجنّة»[۲۶۵].

و حول الزيتون، فإنّ العلماء الذين قضوا عمرهم فى دراسة خواص النباتات يعيرون أهمية بالغة للزيتون و زيته. و يعتقدون أنّ الفرد إن أراد أن يعيش فى سلامة دائمة فلا بدّ له أن يستفيد من هذا الأكسير الحياتى.

زيت الزيتون صديق حميم لكبد الإنسان، و له تأثير فعّال فى معالجة عوارض الكلى، و حصى الصفراء، و التشنجات الكليوية و الكبدية، و إزالة الإمساك.

و لذلك ورد ذكر شجرة الزيتون فى القرآن الكريم بعبارة: شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ.

و زيت الزيتون مفعم أيضا بأنواع الفيتامينات و فيه الفوسفور و الكبريت و الكلسيوم و الحديد و البوتاسيوم و المنغنيز.

الضمادات التى تحضّر من زيت الزيتون و الثوم مفيدة لأنواع الآلام الروماتيسمية، و حصى كيس الصفراء تزول بتناول زيت الزيتون ۲۶۶].

و

روى عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «ما أفقر بيت يأتدمون بالخل و الزيت

و ذلک أدام الأنبیاء»[۲۶۷]،

و الزیت هو زیت الزیتون.

و

عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام قال: «نعم الطعام الزیت، یطیب النکهة، و یذهب بالبلغم، و یصفی اللون، و یشدّ العصب، و یذهب بالوصب (المرض و الألم و الضعف) و یطفئ الغضب».[۲۶۸]

و مسک الختام

حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا المجال قال: «کلوا الزیت و ادهنوا به فإنّه من شجرة مبارکة»[۲۶۹].

ثمّ یأتی جواب القسم.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیمٍ

«تقویم» یعنی تسویة الشیء بصورة مناسبة، و نظام معتدل و کیفیة لائقة، و سعة مفهوم الآیة یشیر إلی أنّ اللّه سبحانه خلق الإنسان بشکل متوازن لائق من کلّ الجهات، الجسمیة و الروحیة و العقلیة، إذ جعل فیه ألوان الکفاءات، و أعدّه لتسلق سلّم السموّ، و هو- و إن کان جرما صغیرا- وضع فیه العالم الأکبر، و منحه من الکفاءات و الطاقات ما جعله لائقا لوسام: وَ لَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ ۲۷۰]، و هذا الإنسان هو الذی یقول فیه اللّه سبحانه بعد ذکر انتهاء خلقته: فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ و هذا الإنسان بکل ما فیه من امتیازات، یهبط حین ینحرف عن مسیرة اللّه إلی «أسفل سافلین».

لذلک تقول الآیة التالیة:

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ

یقال إن قمم الجبال الشماء إلی جانبها دائما و دیان عمیقة. و إزاء منحنیات

الصعود فی التکامل الإنسانی توجد منحنیات نزول فظیعة، و لم لا یکون کذلک و هو الموجود الملیء بالکفاءات الثرّة التی إن سخرها علی طریق الصلاح یبلغ أسمی قمم الفخر و إن استعملها علی طریق الفساد یخلق أکبر مفسدة، و ینزلق طبعا إلی «أسفل سافلین».

و لکن الآیة التالیة تقول:

إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ

«ممنون»: من «المن» و تعنی هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غیر مقطوع و لا منقوص، و قیل: إنّه خال من المنّة، لکن المعنی الأوّل أنسب.

قیل: إنّ قوله: ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِینَ تعنی ضعف الجسم و الذاکرة فی شیخوخة الإنسان، و لکن هذا التّفسیر لا ینسجم مع الاستثناء المذکور فی الآیة التالیة، و لذلک نختار التّفسیر الأوّل.

الآیة التالیة تخاطب هذا الإنسان الکافر بأنعم ربّه و المعرض عن دلائل المعاد و تقول له: فَما یُکَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّینِ

ترکیب وجودک من جهة، و بنیان هذا العالم الواسع من جهة اخری یؤکّدان أن هذه الحیاة الخاطفة لا یمکن أن تکون الهدف النهائی من خلقتک و خلقة هذا العالم الکبیر.

هذه کلّها مقدمات لعالم أوسع و أکمل، و بالتعبیر القرآنی، هذه «النشأة» الاولی» تنبئ عن «النشأة الاخری»، فلم لا یتذکر الإنسان؟! وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولی فَلَوْ لا تَذَکَّرُونَ [۲۷۱] عالم النبات کلّ عام یجسّد مشهد الموت و البعث أمام عین الإنسان، و تطور الجنین خلقا بعد خلق، إنّما هو فی کلّ خلق معاد و حیاة جدیدة، فکیف- مع کلّ

هذا- ينكر يوم الجزاء؟! ممّا تقدم يتّضح أنّ المخاطب فى الآية هذا النوع من الأفراد.

و قيل: إنّ المخاطب شخص النّبى، و المقصود من الآية هو: مع وجود أدلة المعاد، أى شخص أو أى شىء يستطيع تكذيبك، و هذا التّفسير يبدو بعيدا.

و اتضح أيضا أنّ المقصود من «الدين» ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، الآية التالية تؤيد ذلك.

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ

هذا سؤال يستهدف حثّ الإنسان على الاعتراف بأنّه سبحانه أحكم الحاكمين فى صنائعه و أفعاله، فكيف يترك هذه الخلائق فلا يجازيهم.

و

روى عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه حين كان يقرأ سورة التين، و يتلو قوله سبحانه:

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ يقول: «بلى و أنا على ذلك من الشاهدين»[۲۷۲].

يا ربّ! نشهد نحن أيضا أنّك أحكم الحاكمين.

ربّنا! لقد خلقتنا فى أحسن تقويم، فوفقنا لأن تكون أعمالنا و أخلاقنا فى أحسن وجه.

إلهنا! يسّر لنا طريق الإيمان و الصالح بلطفك و رحمتك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة التين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۳

سورة العلق

اشارة

مكيّة و عدد آياتها تسع عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۵

«سورة العلق»

محتوى السّورة:

المشهور بين المفسّرين أنّها أوّل ما نزل من القرآن، و محتواها يؤيد ذلك أيضا، و قال آخرون إنّ أوّل ما نزل سورة «الحمد» و قيل سورة «المدثر» و هو خلاف المشهور.

هذه السّورة تبدأ بأن تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالقراءة. ثمّ تتحدث عن خلقة الإنسان بكل عظمته من قطعة دم تافهة.

و فى المرحلة التالية تتحدث السّورة عن تكامل الإنسان فى ظل لطف اللّه و كرمه، و عن تعليمه و تمكينه من القلم.

ثمّ تتطرق إلى طغيان الإنسان رغم كلّ ما توفرت له من هبات إلهية و إكرام ربّانى.

و تشير بعد ذلك إلى ما ينتظر أولئك الصادين عن طريق الهداية و المانعين لأعمال الخير من عقاب.

و فى ختام السّورة أمر بالسجود و الاقتراب من ربّ العالمين.

فضيلة السّورة:

روی فی فضیلة هذه السّورة عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۶

قرأ فی یومه أو لیلته اقرأ باسم ربّک ثمّ مات فی یومه أو لیلته مات شهیدا و بعثه اللّه شهیدا، و أحیاه کمن ضرب بسیفه فی سبیل اللّه مع رسول اللّه».

هذه السّورة المبارکة سمّیت سورة «العلق» و «اقرأ» و «القلم» لمناسبة هذه الکلمات فیها[۲۷۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۷

الآیات [سورة العلق (۹۶): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ (۱) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (۲) اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ (۳) الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴) عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ (۵)

سبب النّزول

ذکرنا أنّ أکثر المفسّرین یذهبون إلی أنّ هذه السّورة أوّل ما نزل من القرآن، و قیل إنّ المفسّرین یجمعون علی نزول الآیات الخمس الأوائل فی بدایة نزول الوحی علی الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و مضمون الآیات یؤید ذلک.

و جاء فی الرّوایات أن محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان فی غار حراء حین نزل علیه جبرائیل و قال له: اقرأ یا محمّد. قال: ما أنا بقارئ، فاحتضنه جبرائیل و ضغطه و قال له: اقرأ یا محمّد و تکرر الجواب. ثمّ أعاد جبرائیل عمله ثانیة و سمع نفس الجواب. و فی المرّة الثّالثة قال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ ... إلی آخر الآیات الخمس الأوّل من السّورة.

قال ذلک و اختفی عن أنظار النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

رسول اللّه أحسّ بتعب شدید بعد هبوط أولی أشعة الوحی علیه فذهب إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۸

خدیجة و

قال: «زملونی و دثرونی»[۲۷۴].

«الطبرسی» فی مجمع البیان یروی عن الحاکم النیسابوری قصّة أوّل نزول الوحی ما ینبئ أنّ سورة الحمد کانت أوّل ما نزل علی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: إنّ رسول اللّه قال لخدیجة إنّی إذا خلوت وحدی سمعت نداء. فقالت: ما یفعل اللّه بک إلّا خیرا، فو اللّه إنّک لتؤدی الأمانة و تصل الرحم و تصدق الحدیث، قالت خدیجة:

فانطلقنا إلی ورقة بن نوفل و هو ابن عمّ خدیجة فأخبره رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بما رأی، فقال له ورقة: إذا أتاک فاثبت له حتی تسمع ما یقول ثمّ ایتنی فأخبرنی، فلمّا خلا ناداه یا محمّد: قل بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ ... حتی بلغ و لا الضّالین، قل لا إله إلّا اللّه، فأتی ورقة فذکر له ذلک، فقال له: أبشر ثمّ أبشر، فأنا أشهد أنّک الذی بشر به ابن مریم، و إنّک علی مثل ناموس موسی، و إنّک نبیّ مرسل، و إنّک سوف تؤمر بالجهاد بعد یومک هذا، و لئن أدرکنی ذلک لأجاهدنّ معک، فلمّا توفی ورقة، قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لقد رأیت القس فی الجنّة علیه ثیاب الحریر لأنّه آمن بی و صدّقنی»[۲۷۵].

جدیر بالذکر أنّ فی بعض کتب التّفسیر و التاریخ کلاما حول حیاة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فی هذه البرهة الزمنیة لا تتناسب أبدا مع شخصیة النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و تستند حتما إلی أحادیث مختلفة أو إلی إسرائیلیات، من ذلک أنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اغتم کثیرا لدی نزول الوحی علیه أوّل مرّة، و خشی أن یکون إلقاءات شیطانیة! و من ذلک أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم همّ مرّات أن یلقی بنفسه من أعلی الجبل! و أمثال هذه الخزعبلات التی لا- تنسجم إطلاقا مع ما ذکرته کتب السیرة حول ما یتمتع به الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من رجاحة فی العقل، و ضبط کبیر فی النفس، و صبر وسعة صدر، و ثقة بالدور الکبیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۹

الذی ینتظره.

و یبدو أنّ أعداء الإسلام دسّوا هذه الرّوایات للطعن فی الإسلام و للحط من شخصیة النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

التّفسیر

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ

الآیة الاولی فیها خطاب للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تقول له:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ ۲۷۶]، قیل إنّ مفعول اقرأ محذوف و تقدیره: اقرأ القرآن باسم ربّک، و استدلّ بعضهم بهذه الآیة علی أنّ البسملة جزء من سور القرآن ۲۷۷].

و قیل: إنّ الباء هنا زائدة، أی اقرأ اسم ربّک، و هذا بعید لأنّ المناسب و هذه الحالة أن یقال اذکر اسم ربّک لا اقرأ ...

و یلاحظ هنا قبل کلّ شیء الترکیز علی مسألة الربوبیة، و نعلم أنّ «الربّ» یعنی «المالک المصلح»، أی الشخص الذی یملک شیئا، و یتعهد إصلاحه و تربیته أیضا.

و لإثبات ربوبیة اللّه جاء ذکر الخلقة ... خلقة الکون، إذ إن أفضل دلیل علی ربوبیته خالقیته، فالذی یدبّر العالم هو خالقه.

و هذا فی الحقیقة ردّ علی مشرکی العرب الذین قبلوا خالقیة اللّه، و أو کلوا الربوبیة و التدبیر إلی الأوثان، ثمّ إنّ ربوبیة اللّه و تدبیره لنظام الکون أفضل دلیل علی إثبات ذاته المقدسة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۰

ثمّ اختارت الآیة التالیة «الإنسان» باعتباره أهم مظاهر الخلیقة و قالت:

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ

«العلق» فی الأصل الالتصاق بشیء، و لذلک سمّی الدم المنعقد المتلاصق، و هکذا الحیوان الذی یلتصق بالجسم لمصّ الدم، ب «العلق» و النطفة بعد أن تطوی المراحل الجنینیة الاولی تتحول إلی قطعة دم متلاصقة هی العلق، و هی مع تفاهتها الظاهریة تعتبر مبدأ خلقة الإنسان، و الآیة ترکز علی هذه الظاهرة لتبیّن قدرة الرّب العظیمة علی خلق هذا الإنسان العجیب من هذه العلقة التافهة.

و قیل: إنّ العلق فی الآیة یعنی الطین الذی خلق منه آدم، و هو أیضا مادة متلاصقة، و بدیهی أنّ الرّب الذی خلق آدم من طین لازب یستحق کلّ تمجید و ثناء.

و قیل أیضا: أنّ العلق یعنی «صاحب العلاقة»، و فیه إشارة إلی الروح الاجتماعیة للإنسان، و العلاقة الموجودة بین أفراد البشر هی فی الواقع أساس تکامل البشر و تطور الحضارات.

و قال آخرون: إنّ العلق إشارة إلی نطفة الرجل (الحيمن)، و هی تشبه دودة العلق إلی حدّ كبير، و هذا الموجود المجهری يسبح فی ماء النطفة، و يتجه إلی بويضة المرأة فی الرحم، و يلقحها و يكون منها النطفة الكاملة للإنسان.

و القرآن الكريم بطرحه هذه المسألة يسجل معجزة علمية اخری من معاجزه، إذ لم تكن هذه الأمور معروفة أبدا فی عصر نزوله.

و من بين التفاسير الأربعة، يبدو أنّ التّفسير الأوّل أوضح، و إن كان الجمع بين التّفاسير الأربعة ممكن أيضا.

ممّا تقدم نفهم أنّ «الإنسان» فی الآية هو آدم حسب أحد التّفاسير و هو مطلق الإنسان حسب التفاسير الثلاثة الاخری.

و للتأكيد، تقول الآية مرّة اخری:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۲۱

اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۲۷۸].

قيل: إنّ «اقرأ» فی هذه الآية تأكيد لإقرأ فی الآية السابقة، و قيل: إنّها تختلف عن الآية الاولی، فالاولی قراءة النبیّ لنفسه، و فی الثّانية القراءة للناس غير أنّ الرأی الأوّل أنسب، إذ لا يوجد دليل علی اختلاف الإثنين.

و هذه الآية فی الواقع جواب علی

قول الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لجبرائيل: ما أنا بقارئ،

و هذه الآية تقول: إنّك قادر علی القراءة بكرم الرّب و فضله و منّه.

ثمّ تصف الآيتان التاليتان الربّ الأكرم:

الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ

و هاتان الآيتان أيضا تتجهان إلی الجواب علی

قول رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: ما أنا بقارئ،

أی إنّ اللّه الذی علم البشر بالقلم و كشف لهم المجاهيل، قادر علی أن يعلم عبده الأمين القراءة و التلاوة.

جملة الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ تحتمل معنيين.

الأوّل: أنّ اللّه علم الإنسان الكتابة، و أعطاه هذه القدرة العظيمة التی هی منبثق تاريخ البشر، و منطلق جميع العلوم و الفنون و الحضارات.

و الثّانی: المقصود أنّ اللّه علم الإنسان جميع العلوم عن طريق القلم و بوسيلة الكتابة.

و بإيجاز إمّا أن يكون التعليم، تعليم الكتابة، أو تعليم العلوم عن طريق الكتابة.

و هو- علی أی حال- تعبير عميق المعنی فی تلك اللحظات الحساسة من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۲۲

بداية نزول الوحی

بحثان

۱- بداية نزول الوحی مقرون ببداية حركة علمية

هذه الآيات كما ذكرنا هی أوّل ما نزل علی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم علی ما ذهب إليه أغلب المفسّرين أو جميعهم، و

بـذلک بـدأ فصل جدیـد فی تاریخ البشـریة، و أضـحت الإنسانیة مشـمولة بأعظم الألطاف الإلهیة و بأکمل الأدیان و خاتمها. و اسـتمرّ نزول الوحی حتی اکتمل التشریع الإلهی بمصداق قوله سبحانه:
الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً[۲۷۹]، و بـذلک أتمّ اللّه نعمته علی الأجیـال البشـریة المتعاقبة حتی یرث اللّه الأرض و من علیها.
و المهمّ فی الأمر أنّ هذه الآیات نزلت علی نبیّ امی لم یتعلم القراءة و الکتابة و فی بیئة اجتماعیة تسودها الامیة و الجهل لتتحدث أوّل مـا تتحـدث عن العلم و عن القلم مباشـرة بعـد ذکر نعمـة الخلق! هـذه الآیـات تتحـدث فی الواقع أوّلا-عن تکامـل «جسم» الإنسان من موجود تافه هو «العلقة»، ثمّ عن تکامل «روحه» بواسطة التعلیم و التعلّم خاصّة عن طریق القلم.
حین نزلت هذه الآیات لم تکن بیئة الحجاز وحدها بل کان العالم المتحضر فی ذلک العصر أیضا لا یعیر أهمیة تذکر للقلم.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۳
أمّا الیوم فإنّنا نعلم أنّ القلم محور کل الحضارات و العلوم، و کلّ تقدم فی أی مجال من المجالات، و نعلم تفوق أهمیة «مداد العلماء» علی «دماء الشهداء»، لأنّ هذا المداد هو الذی یکون الأساس القویم لدماء الشهداء و السند المتین له.
و لا نکون مغالین إذا قلنا أنّ مصیر المجتمعات البشریة مرتبط بما تفرزه الأقلام.
إصلاح المجتمعات البشریة یبدأ من الأقلام الملتزمة المؤمنة، و فساد المجتمعات أیضا ینطلق من الأقلام المسمومة.
و لأهمیة القلم یقسم القرآن به و بما یفرزه، أی بآلة الکتابة و بمحصولها: ن وَ الْقَلَمِ وَ ما یَسْطُرُونَ ۲۸۰].
نعلم أنّ حیاة البشریة تقسم علی مرحلتین:
عصر التاریخ.
و عصر ما قبل التاریخ.
و عصـر التاریخ یبدأ من اسـتعمال القلم و الکتابة و القراءة ... من زمن اقتدار الإنسان علی أن یکتب بالقلم، و أن یخلف تراثا للأجیال، من هنا فتاریخ البشریة مقرون بتاریخ ظهور القلم و الخط.
و حول دور القلم فی حیاة البشریة کان لنا وقفة طویلة فی بدایة تفسیر سورة القلم.
من هنا فإنّ أساس الإسـلام أقیم منـذ البدایة علی أساس العلم و القلم ... و لذلک اسـتطاع قوم متخلفون أن یتقدموا فی العلم و المعرفة حتی تـأهّلوا- بـاعتراف الأعـداء و الأصـدقاء- لتصـدیر علومهم إلی العـالم! إن علم المسـلمین و معـارفهم هو الـذی مزّق ظلام القرون الوسطی فی أوروبا و أدخلها عصر الحضارة. و هذا ما
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۴
یعترف به علماء أوروبا أنفسهم فیما کتبوه فی حقل تاریخ الحضارة الإسلامیة و فی تراث الإسلام.
و مـا أبشع و أفظع أن تکون أخلاـق أمّـة کتلـک تمتلـک بین ظهرانیهـا دینا کهـذا متخلفـة فی میادین العلم و المعرفـة و محتاجـة إلی الآخرین بل و تابعة لهم!!

۲- باسم اللّه فی کلّ حال

بدأت دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باسم اللّه و ذکره: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ
و اسـتمرت حیـاة الرّسول مقرونـة فی کلّ حال بـذکر اللّه ... اقترن الـذکر بأنفاسه ... بقیامه ... بجلوسه ... بنومه ... بمشـیه ... برکوبه ... بترجله ... بتوقفه ... کان کلّه باسم اللّه.

عند ما کان یستیقظ یقول: «الحمد للّه الذی أحیانا بعد ما أماتنا و إلیه النشور».

یقول ابن عباس: بتّ لیلة مع النّبی، و عند ما استیقظ رفع رأسه إلی السماء، و تلا الآیات العشر الأخیرة من سورة آل عمران: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ ... ثمّ قال: «اللّهم لک الحمد أنت نور السماوات و الأرض و من فیهنّ ... اللّهم لک أسلمت و بک آمنت و علیک توکلت و إلیک أنبت ...».

حین کان یخرج من البیت یقول: «بسم اللّه، توکلت علی اللّه، اللّهم إنّی أعوذ بک أن أضلّ، أو أضل، أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل، أو یجهل علیّ».

و حین یرد المسجد یقول: «أعوذ باللّه العظیم و بوجهه الکریم و سلطانه القدیم من الشیطان الرجیم».

و حین یرتدی لباسا جدیدا یقول: «اللّهم لک الحمد أنت کسوتنیه، أسألک خیره و خیر ما صنع له و أعوذ بک من شرّه و شرّ ما صنع له».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۵

و حین یعود إلی المنزل یقول: «الحمد للّه الذی کفانی و أوانی، و الحمد للّه الذی أطعمنی و سقانی».

و بذلک فإنّ حیاة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بکل مرافقها کانت مقرونة بذکر اللّه و اسمه الکریم.[۲۸۱]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۶

الآیات [سورة العلق (۹۶): الآیات ۶ الی ۱۴]

اشارة

کَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی (۶) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی (۷) إِنَّ إِلی رَبِّکَ الرُّجْعی (۸) أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهی (۹) عَبْداً إِذا صَلَّی (۱۰)

أَ رَأَیْتَ إِنْ کانَ عَلَی الْهُدی (۱۱) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوی (۱۲) أَ رَأَیْتَ إِنْ کَذَّبَ وَ تَوَلَّی (۱۳) أَ لَمْ یَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ یَری (۱۴)

التّفسیر

سبب الطغیان:

استتباعا للآیات السابقة التی تحدثت عن النعم المادیة و المعنویة الإلهیة علی الإنسان ... و النعم التی تستلزم شکر الإنسان و تسلیمه أمام اللّه، هذه الآیات تبدأ بالقول: لیست نعم اللّه تحیی روح الشکر فی الإنسان دائما، بل إنّه یطغی:

کَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی ۲۸۲] و متی یکون ذلک؟ فیما لو رأی نفسه مستغنیا و غیر محتاج.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۷

أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی ۲۸۳].

هذه طبیعة أغلب أفراد البشر ... الأفراد الذین لم یتربوا فی مدرسة العقل و الوحی، حین یرون أنفسهم مستغنین غیر محتاجین یعمدون إلی الطغیان، و ینسلخون من عبودیة اللّه، و یرفضون الاعتراف بأحکامه، و یصمّون أذانهم عن ندائه، و لا یراعون حقّا و لا عدلا.

لا- الإنسان و لا أی مخلوق آخر قادر علی أن یستغنی، بل کلّ الموجودات الممکنة بحاجة إلی لطف اللّه و نعمه، و إذا انقطع فیضه سبحانه عنها لحظة واحدة، ففی هذه اللحظة بالذات تفنی بأجمعها، غیر أنّ الإنسان یحسّ خطأ أحیانا أنّه مستغن غیر محتاج. و القرآن یشیر إلی هذا الإحساس بعبارة دقیقة یقول: أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی لم یقل أن استغنی.

قیل: إنّ المقصود بالإنسان فی الآیهٔ أبو جهل الذی کان یطغی أمام الدعوهٔ لکن مفهوم الإنسان هنا عام، و أمثال أبی جهل مصادیق له. یبدو أنّ الهدف من الآیهٔ الفات نظر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمنعطفات الطبیعهٔ البشریهٔ کی لا یتوقع قولا سریعا من النّاس لدعوته، و لیعدّ نفسه لإنکار المنکرین و معارضهٔ الطغاهٔ المستکبرین، و لیعلم أنّ الطریق أمامه وعر ملیء بالمصاعب.

ثمّ یأتی التهدید لهؤلاء الطغاهٔ المستکبرین و تقول الآیهٔ التالیهٔ:

إِنَّ إِلی رَبِّکَ الرُّجْعی و هو الذی یعاقب الطغاهٔ علی ما اقترفوه، و کما إنّ رجوع کلّ شیء إلیه، و میراث السماوات و الأرض له سبحانه: وَ لِلَّهِ مِیراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۲۸۴] فکل شیء فی البدایهٔ منه، و لا مبرّر للإنسان أن یشعر بالاستغناء و یطغی.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۸

ثمّ تتحدث الآیات التالیهٔ عن بعض أعمال الطغاهٔ المغرورین، مثل صدّهم عباد اللّه عن السیر فی طریق الحقّ.

أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهی

عَبْداً إِذا صَلَّی ! ألا یستحق مثل هؤلاء عذابا سحیقا؟! و فی الحدیث أن أبا جهل قال: «هل یعفّر محمّد وجهه بین أظهرکم (أی هل یسجد محمّد بینکم) قالوا: نعم، قال: فبالذی یحلف به لئن رأیته یفعل ذلک لأطأنّ علی رقبته. فقیل له: ها هو ذاک یصلّی، فانطلق لیطأ علی رقبته، فما فاجأهم إلّا و هو ینکص علی عقبیه، و یتقی بیدیه. فقالوا: مالک یا أبا الحکم؟! قال: إنّ بینی و بینه خندقا من نار، و هؤلاء، و أجنحهٔ. و

قال نبیّ اللّه: و الذی نفسی بیده لو دنا منّی لاختطفته الملائکهٔ عضوا عضوا. فأنزل اللّه سبحانه: أَ رَأَیْتَ الَّذِی یَنْهی إلی آخر السّورهٔ»[۲۸۵]

حسب هذه الرّوایهٔ: الآیات التی نحن بصددها لم تنزل فی بدایهٔ البعثهٔ، بل نزلت حین أعلنت الدعوهٔ، و لذلک قیل إنّ الآیات الخمس الاولی هی التی کانت أوّل ما نزل من الوحی و الباقی بعد ذلک بمدّهٔ.

علی أی حال، سبب نزول الآیات لا یمنع من سعهٔ مفهومها.

الآیات التالیهٔ تأکید علی نفس المفاهیم.

أَ رَأَیْتَ إِنْ کانَ عَلَی الْهُدی أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوی

أی أ رأیت إن کان هذا العبد المصلّی علی الهدی أو أمر بالتقوی فهل یصح نهیه؟ ألا یستحق من ینهاه النّار؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۹

أَ رَأَیْتَ إِنْ کَذَّبَ وَ تَوَلَّی و لو کذّب هذا الطاغیهٔ بالحق و تولی و أعرض عنه فما ذا سیکون مصیره؟

أَ لَمْ یَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ یَری و یثبت کلّ شیء لیوم الجزاء و الحساب.

و التعبیر بالقضیهٔ الشرطیهٔ فی الآیتین إشارهٔ إلی أن هذا الطاغی المغرور ینبغی أن یحتمل- علی الأقل- أنّ النّبی علی طریق الهدایهٔ و دعوته تتجه إلی التقوی ... و هذا الاحتمال وحده کاف لصده عن الطغیان.

من هنا فمفهوم الآیات لیس فیه تردید فی هدایهٔ النّبی و دعوته إلی التقوی، بل ینطوی علی إشارهٔ دقیقهٔ إلی المعنی المذکور.

بعض المفسّرین أرجع الضمیر فی «کان» و «أمر» إلی الشخص الطاغی الناهی، مثل أبی جهل، و یکون المعنی عندئذ: أ رأیت إن قبل هذا هدایهٔ الإسلام، و أمر بالتقوی بدلا من نهیه عن الصلاهٔ، فما أنفع ذلک له! لکن التّفسیر الأوّل أنسب!

ملاحظهٔ

عالم الوجود محضر اللّه:

حین یؤمن الإنسان بأنّه فی کلّ حرکاته و سکناته بین یدی اللّه، و أنّ عالم الوجود محضر اللّه سبحانه و تعالی، لا یخفی علیه شیء من عمل الفرد بل من نوایاه، فإنّ ذلک سیؤثر علی منهج هذا الإنسان فی الحیاة تأثیرا بالغا، و یصدّه عن الانحراف، إذا کان إیمانه- طبعا- متوغلا فی قلبه، و کان اعتقاده قطعی لا تردد فیه.

جاء فی الحدیث: «اعبد اللّه کأنّک تراه فإن لم تکن تراه فإنّه یراک».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۰

یقال أنّ عارفا تاب بعد ذنب، و کان بعد ذلک یبکی کثیرا قیل له: لم هذا البکاء؟ ألا تعلم أنّ اللّه تعالی غفور؟ قال: بلی، قد یعفو سبحانه. و لکن کیف أبعد عن نفسی الإحساس بالخجل، و قد رآنی أذنب؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۱

الآیات [سورة العلق (۹۶): الآیات ۱۵ الی ۱۹]

اشارة

کَلَّا لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِیَةِ (۱۵) ناصِیَةٍ کاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (۱۶) فَلْیَدْعُ نادِیَهُ (۱۷) سَنَدْعُ الزَّبانِیَةَ (۱۸) کَلاَّ لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (۱۹)

التّفسیر

السجود و التقرب:

بعد الحدیث فی الآیات السابقة عن الطغاة الکافرین الصادین عن سبیل اللّه، توجّه هذه الآیات أشدّ التهدید لهم و تقول: کَلَّا لا یکون ما یتصور (لأنّه تصور أن یصدّ عن عبادة اللّه بوضعه قدمه علی رقبة النّبی).

کَلَّا لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِیَةِ نعم، إذا لم ینته من إثمه و طغیانه سنجرّه بالقوّة من شعر مقدمة رأسه (و هی الناصیة)، و ثمّ وصف الناصیة هذه بأنّها کاذبة خاطئة و هو وصف لصاحبها ناصِیَةٍ کاذِبَةٍ خاطِئَةٍ.

«لنسفعا»: من السفع، و ذکر له المفسّرون معانی متعددة: الجرّ بالشدّة، الصفع علی الوجه، تسوید الوجه (الأثافی الثلاثة التی یوضع علیها القدر تسمی «سفع»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۲

لأنّها تسوّد بالدخان)، و وضع العلامة و الإذلال ۲۸۶].

و الأنسب المعنی الأوّل، و إن کانت الآیة تحتمل معانی اخری أیضا.

و هل حدوث هذا السفع بالناصیة فی یوم القیامة، حیث یسحب أبو جهل و أمثاله من مقدمة شعر الرأس إلی جهنم، أم فی الدنیا، أم فی کلیهما؟ لا یستبعد أن یکون فی کلیهما، و الشاهد علی ذلک الرّوایة التالیة:

«لمّا نزلت سورة الرحمن، علم القرآن ... قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأصحابه: من یقرؤها منکم علی رؤوساء قریش؟ فتثاقلوا مخافة أذیتهم، فقام ابن مسعود و قال:

أنا یا رسول اللّه، فأجلسه علیه السلام، ثمّ قال: من یقرأها علیهم؟ فلم یقم إلّا ابن مسعود، ثمّ ثالثا کذلک إلی أن أذن له، و کان علیه

السلام یبقی علیه لما کان یعلم من ضعفه و صغر جثته. ثمّ إنّه وصل إلیهم فرآهم مجتمعین حول الکعبة، فافتتح قراءة السّورة، فقام أبو جهل فلطمه فشقّ أذنه و أدماه، فانصرف و عیناه تدمع. فلمّا رآه النّبی علیه السلام رق قلبه و أطرق رأسه مغموما، فإذا جبریل علیه السلام یجیء ضاحکا مستبشرا، فقال: یا جبریل تضحک و ابن مسعود یبکی! فقال: ستعلم.

فلمّا ظهر المسلمون یوم بدر التمس ابن مسعود أن یکون له حظ فی المجاهدین، فأخذ یطالع القتلی: فإذا أبو جهل مصروع یخور ... فصعد علی صدره، فلمّا رآه أبو جهل قال: یا رویعی الغنم لقد ارتقیت مرتقی صعبا. فقال ابن مسعود:

الإسلام یعلو و لا یعلی علیه.

فقال أبو جهل: بلغ صاحبک أنّه لم یکن أحد أبغض إلیّ منه فی حیاتی، و لا أحد أبغض إلیّ منه فی حال مماتی.

روی أنّه علیه السلام لما سمع ذلک قال: «فرعونی أشدّ من فرعون موسی

فإنّه قال آمنت و هو قد زاد عتوا».

ثمّ قال أبو جهل لابن مسعود: اقطع رأسی بسیفی هذا، لأنّه أحدّ و أقطع. فلمّا قطع رأسه لم یقدر علی حمله، فراح یجرّه علی ناصیته إلی رسول اللّه، (و بذلک تحقق قوله سبحانه: (لنسفعن بالناصیة) فی هذه الدنیا أیضا»[۲۸۷].

«الناصیة»: شعر مقدم الرأس، و (السفع بالناصیة) یراد به الإذلال و الإرغام، لأنّ أخذ الشخص بناصیته یفقده کلّ حرکة و یجبره علی الاستسلام.

«الناصیة» تستعمل لمقدمة رأس الأفراد، و للجزء النفیس من الشیء کأن نقول «ناصیة البیت».

و وصف الناصیة بأنّها «کاذبة خاطئة» یعنی أنّ صاحبها کاذب فی أقواله و خاطئ فی أعماله، کما کان أبو جهل.

و لقد وردت بعض الرّوایات الصحیحة بأنّ السّورة- عدا المقطع الأوّل منها- قد نزلت فی أبی جهل إذ مرّ برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو یصلی عند المقام فقال (یا محمّد ألم أنهک عن هذا؟ و توعده فأغلظ له رسول اللّه و انتهره ...) و لعلها هی التی أخذ فیها رسول اللّه بخناقه و قال له: (أولی لک ثمّ أولی) فقال: یا محمّد بأی شیء تهددنی؟ أما و اللّه و إنّی لأکثر هذا الوادی نادیا)[۲۸۸].

و هنا نزلت الآیة التالیة تقول لأبی جهل: فلیدع هذا الجاهل المغرور کل قومه و عشیرته و لیستنجد بهم.

فَلْیَدْعُ نادِیَهُ

و نحن سندع أیضا زبانیة جهنم:

سَنَدْعُ الزَّبانِیَةَ لیعلم هذا الجاهل الغافل أنّه عاجز عن فعل أی شیء و إنّه

فی قبضة خزنة جهنم کقشة فی مهبّ الریح.

«النادیة» من مادة (ندا) و هو المکان الذی یجتمع فیه القوم، و تارة یطلق علی مرکز التفریح، لأنّ القوم فیه ینادی بعضهم بعضا، أو من «النّدا» بمعنی الکرم، لأنّ الأفراد یکرم فیه بعضهم بعضا. و منه أیضا «الندوة» و هی مکان یتشاور فیه الجماعة. و «دار الندوة» مقر معروف لتشاور قریش.

و «النادی» فی الآیة یقصد به القوم الذین یجتمعون فی النادی. و أرادت منه الآیة أولئک الذین یستند إلیهم أمثال أبی جهل من أهل و عشیر و أصحاب.

و «الزبانیة» جمع «زبنیة» و هو فی الأصل بمعنی الشرطة من مادة «زبن»- علی زنة متن- و هو الدفع و الردع و الإبعاد. و هنا بمعنی

ملائكة العذاب و خزنة جهنم.

و فى آخر آية من السّورة و هى آية السجدة يقول سبحانه: كَلَّا أى ليس الأمر كما يتصور بأنّه قادر على أن يمنع سجودك: لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ فأبو جهل أقل من أن يستطيع منع سجودك أو الوقوف بوجه دينك، فتوكل على اللّه و أعبده و اسجد له، و بذلك تقترب منه سبحانه على هذا المسير أكثر فأكثر.

و يستفاد ضمنيا من هذه الآية أن «السجود» عامل اقتراب من اللّه، و لذا

ورد فى الحديث: «أقرب ما يكون العبد من اللّه إذا كان ساجدا».

و فى روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ القرآن يتضمّن أربعة مواضع فيها سجود واجب و هى فى «ألم السجدة» و «فصلت» و «النجم» و فى هذه السّورة «العلق» و بقية المواضع السجدة فيها مستحبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۵

ملاحظة

الطغيان و الإحساس بالاستغناء:

أغلب مفاسد العالم مصدرها الفئات المرفهة و المستكبرة فى المجتمع. و هذه الفئات كانت دائما فى مقدمة أعداء دعوة الأنبياء. و هؤلاء يطلق عليهم القرآن أحيانا: الْمَلَأُ[۲۸۹] و أحيانا المترفين ۲۹۰] و أحيانا الْمُسْتَكْبِرِينَ ۲۹۱].

المجموعة الاولى: هم الأشراف المنتفشون فى الظاهر، الفارغون فى الداخل.

و الثّانية: هم الغارفون فى الرخاء و يعيشون فى سكرة و غرور بمعزل عن الآم الآخرين.

و الثّالثة: هم الراكبون رؤوسهم كبرا و غرورا و الغافلون عن اللّه و عن الخلق.

و دافع كلّ أولئك إحساسهم بالاستغناء، و هذه طبيعة أفراد أفق تفكيرهم ضيق، تسكرهم النعمة، و يزلزل توازنهم المال و المقام، فيغطون فى شعور بالاستغناء ينسيهم ذكر اللّه، بينما نعلم أنّ نسمة من الهواء قادرة على أن تطوى سجل أيّامهم، و أنّ حادثة كسيل أو زلزال أو صاعقة قادرة على أن تبيد أموالهم ...

و أنّ شرقة بالماء قادرة على أن تخطف أرواحهم.

أية غفلة هذه تصيب جماعة تجعلهم يشعرون بالاستغناء، و تدفعهم إلى امتطاء مركب الغرور ليصولوا و يجولوا فى الساحة الاجتماعية!!

نستجير باللّه من هذا الجهل و من هذه الغفلة و الطغيان! و للتغلب على هذه الحالة يكفى أن يلتفت الإنسان قليلا إلى ضعفه الشديد و إلى قدرة اللّه المطلقة، و أن يتصفح تاريخ السابقين ليرى مصير أقوام أكثر منه قوّة و مكنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۶

اللّهم احفظنا من الكبر و الغرور فهما أساس الابتعاد عنك.

ربّنا! لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين فى الدنيا و الآخرة يا ربّ العالمين! وفقنا لأن نمرّغ فى التراب انوف هؤلاء المستكبرين المغرورين الذين يصدون عن سبيلك، و أن نحبط مخططاتهم و مؤامراتهم.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة العلق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۷

سورة القدر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها خمس آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۹

«سورة القدر»

محتوی السّورة:

محتوی السّورة کما هو واضح من اسمها بیان نزول القرآن الکریم فی لیلة القدر، و بیان أهمیة هذه اللیلة و برکاتها.

و حول مکان نزولها فی مکّة أو المدینة، المشهور بین المفسّرین أنّها مکیّة، و احتمل بعضهم أنّها مدنیة، لما روی أنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رأی فی منامه «بنی امیة» یتسلقون منبره، فصعب ذلک علی النّبی و آله، فنزلت سورة القدر تسلّیه (لذلک قیل إن ألف شهر فی السّورة هی مدّة حکم بنی امیة). و نعلم أنّ منبر النّبی أقیم فی مسجد المدینة لا فی مکّة[۲۹۲].

لکن المشهور- کما قلنا- أنّها مکیّة، و قد تکون الرّوایة من قبیل التطبیق لا سببا للنزول.

فضیلة السّورة:

و یکفی فی فضیلة السّورة تلاوتها ما

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطی من الأجر کمن صام رمضان و أحیا لیلة القدر»[۲۹۳].

و

عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام قال: «من قرأ إنّا أنزلناه بجهر کان کشاهر سیفه فی سبیل اللّه، و من قرأها سرّا کان کالمتشحط بدمه فی سبیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۰

اللّه»[۲۹۴].

و واضح إنّ کل هذه الفضائل فی التلاوة لا تعود علی من یقرأها دون أن یدرک حقیقتها، بل إنّها نصیب من یقرأها و یفهمها و یعمل بها ... من یقدر القرآن حقّ قدره و یطبق آیاته فی حیاته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۱

الآیات [سورة القدر (۹۷): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ (۱) وَ ما أَدْراکَ ما لَیْلَةُ الْقَدْرِ (۲) لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (۳) تَنَزَّلُ الْمَلائِکَةُ وَ الرُّوحُ فِیها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ (۴)

سَلامٌ هِیَ حَتَّی مَطْلَعِ الْفَجْرِ (۵)

التّفسیر

لیلة القدر لیلة نزول القرآن:

یستفاد من آیات الذکر الحکیم أنّ القرآن نزل فی شهر رمضان: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ ۲۹۵]، و ظاهر الآیة یدل علی أن کل القرآن نزل فی هذا الشهر.

و الآیة الاولی من سورة القدر تقول:

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ.

اسم القرآن لم یذکر صریحا فی هذه الآیة، و لکن الضمیر فی «أنزلناه» یعود إلی القرآن قطعا. و الإبهام الظاهری فی ذکر اسم القرآن إنّما هو لبیان عظمته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۴۲

و أهمیته.

عبارة إِنَّا أَنْزَلْناهُ فیها إشارة اخری إلی عظمة هذا الکتاب السماوی. فقد نسب اللّه نزوله إلیه، و بصیغة المتکلم مع الغیر أیضا، و هی صیغة لها مفهوم جمعی و تدل علی العظمة.

نزول القرآن فی لیلة «القدر» و هی اللیلة التی یقدر فیها مصیر البشر و تعین بها مقدراتهم، دلیل آخر علی الأهمیة المصیریة لهذا الکتاب السماوی.

لو جمعنا بین هذه الآیة و آیة سورة البقرة لاستنتجنا أنّ «لیلة القدر» هی إحدی لیالی شهر رمضان، و لکنّها أیة لیلة؟ القرآن لا یبیّن لنا ذلک، و لکن الرّوایات تتناول هذا الموضوع بإسهاب. و سنتناولها فی نهایة تفسیر هذه السّورة إن شاء اللّه.

و هنا یطرح سؤال له طابع تاریخی و له ارتباط بما رافق أحداث حیاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من نزول القرآن. من المؤکّد أنّ القرآن الکریم نزل تدریجیا خلال (۲۳) عاما. فکیف نوفق بین هذا النزول التدریجی و ما جاء فی الآیات السابقة بشأن نزول القرآن فی شهر رمضان و فی لیلة القدر؟

الجواب علی هذا السؤال کما ذکره المحققون یتلخص فی أنّ للقرآن نزولین:

النزول الدفعی، و هو نزول القرآن بأجمعه علی قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو علی البیت المعمور، أو من اللوح المحفوظ إلی السماء الدنیا.

و النزول التدریجی، و هو ما تمّ خلال (۲۳) سنة من عصر النبوّة (ذکرنا شرح ذلک فی تفسیر الآیة ۳ من سورة الدخان).

و قال بعضهم إن ابتداء نزول القرآن کان فی لیلة القدر لا کلّه، و لکن هذا خلاف ظاهر الآیة التی تقول: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ.

و یذکر أنّ تعبیر الآیات عن نزول القرآن یکون مرّة بکلمة «إنزال» و مرّة أخری بکلمة «تنزیل». و یستفاد من کتب اللغة أن التنزیل للنزول التدریجی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۴۳

و الإنزال له مفهوم واسع یشمل النزول الدفعی أیضا[۲۹۶]. و هذا التفاوت فی التعبیر القرآنی قد یکون إشارة إلی النزولین المذکورین.

فی الآیتین التالیتین یبیّن اللّه تعالی عظمة لیلة القدر و یقول سبحانه:

وَ ما أَدْراکَ ما لَیْلَةُ الْقَدْرِ.

لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ.

و التعبير هـذا يوضـح أنّ عظمـة ليلـة القـدر كبيرة إلى درجـة خفيت على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أيضا قبل نزول هـذه الآيات، مع ما له من علم واسع.

و «ألف شهر» تعنى أكثر من ثمانين عاما، حقّا ما أعظم هذه الليلة التى تساوى قيمتها عمرا طويلا مباركا.

و جاء فى بعض التفاسير أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل اللّه ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك فأنزل اللّه إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ وَ ما أَدْراکَ ما لَيْلَـةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَـهْرٍ، التى لبس فيها ذلك الرجل السلاح فى سبيل اللّه ألف شهر[۲۹۷].

و روى أنّ أربعة أشـخاص من بنى إسـرائيل عبدو اللّه تعالى ثمانين سـنة من دون ذنب، فتمنى الصحابة ذلك التوفيق لهم، فنزلت الآية المذكورة.

و هل العـدد (ألف) فى الآيـة للعـدّ أو التكثير؟: قيل إنّه للتكثير، و قيمة ليلة القدر خير من آلاف الأشـهر أيضا، و لكن الرّوايات أعلاه تبيّن أنّ العدد المذكور للعدّ، و العدد عادة للعد إلّا إذا توفرت قرينة واضحة تصرفه إلى التكثير.

و لمزيد من وصف هذه الليلة تقول الآية التالية:

تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ.

و «تنزل» فعل مضارع يدل على الاستمرار (و الأصل تتنزل) ممّا يدل على أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۴

ليلة القدر لم تكن خاصّة بزمن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بنزول القرآن، بل هى ليلة تتكرر فى كل عام باستمرار.

و مـا المقصود ب «الروح»؟ قيل: إنّه جبرائيل الأمين، و يسـمىّ أيضا الروح الأمين. و قيل: إنّ الروح بمعنى الوحى بقرينـة قوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا[۲۹۸].

و للروح تفسير آخر يبدو أنّه أقرب، هو أنّ الروح مخلوق عظيم يفوق الملائكة.

و

روى أنّ الإمام الصادق عليه السّلام سئل عن الروح و هل هو جبرائيل، قال:

«جبرائيل من الملائكة، و الروح أعظم من الملائكة، أليس أنّ اللّه عزّ و جلّ يقول:

تنزل الملائكة و الروح»؟[۲۹۹]

فالإثنان متفاوتان بقرينة المقابلة. و ذكرت تفاسير اخرى للروح هنا نعرض عنها لافتقادها الدليل.

مِنْ كُلِّ أَمْرٍ أى لكل تقدير و تعيين للمصائر، و لكل خير و بركة. فالهدف من نزول الملائكة فى هذه الليلة إذن هو لهذه الأمور.

أو بمعنى بكل خير و تقدير، فالملائكة تنزل فى ليلة القدر و معها كل هذه الأمور[۳۰۰].

و قيل: المقصود أنّ الملائكة تنزل بأمر اللّه، لكن المعنى الأوّل أنسب.

عبارة «ربّهم» تركز على معنى الربوبية و تدبير العالم، و تتناسب مع عمل الملائكة فى تلك الليلة حيث تنزل لتدبير الأمور و تقديرها، و بذلك يكون عملها جزء من ربوبية الخالق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۵

بإيجاز الآية الكريمة تقول: الملائكة و الروح تتنزل فى هذه الليلة بأمر ربّهم لتقدير كلّ أمر من الأمور.

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ و الآية الأخيرة هذه تصف الليلة بأنّها مفعمة بالخير و السلامة و الرحمة حتى الصباح.

القرآن نزل فيها، و عبادتها تعادل عبادة ألف شهر، و فيها تنزل الخيرات و البركات، و بها يحظى العباد برحمة خاصّة، كما إنّ الملائكة و الروح تتنزل فيها ...

فهی إذن لیلـة مفعمة بالسـلامة من بدایتها حتی مطلع فجرها. و الرّوایات تذکر أنّ الشـیطان یکبل بالسـلاسل هذه اللیلة فهی لیلة سالمة مقرونة بالسلامة.

و إطلاق کلمـة «سـلام» علی هـذه اللیلـة بمعنی «سـلامة» (بـدلا من سالمـة) هو نوع من التأکیـد کأن نقول فلان عدل، للتأکید علی أنّه عادل.

و قیل: إنّ إطلاق کلمة (سـلام) علی تلک اللیلة یعنی أنّ الملائکة تسلّم باستمرار علی بعضها أو علی المؤمنین، أو أنّها تأتی إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و خلیفته المعصوم، تسلّم علیه.

و من الممکن أیضا الجمع بین هذه التفاسیر.

إنّها علی أی حال لیلة ملؤها النور و الرحمة و الخیر و البرکة و السلامة و السعادة من کلّ الجهات.

و

سئل الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام عمّا إذا کان یعرف لیلة القدر، قال:

«کیف لا نعرف و الملائکة تطوف بنا فیها».

و جاء فی قصّة إبراهیم علیه السّلام أنّ عددا من الملائکة جاءت إلیه و بشرته بالولد و سلمت علیه (هود- ۶۹) و فی الرّوایة أنّ إبراهیم أحسّ بلـذة من سـلام الملائکـة لا تعـدلها لـذّة، إذن، فأیـة لـذّة و برکـة و لطف فی سـلام الملائکة علی المؤمنین و هی تتنزل فی لیلة القدر!! و حین القی إبراهیم علیه السّلام فی نار نمرود، جاءت إلیه الملائکة و سلمت علیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۶

فتحولت النّار إلی جنینة. ألا تتحول نار جهنم ببرکة سلام الملائکة علی المؤمنین فی لیلة القدر إلی برد و سلام.

نعم هذه کرامة لامّة محمّد و تعظیم لها حیث تنزل الملائکة هناک علی الخلیل علیه السّلام و تنزل هنا علی امّة الإسلام ۳۰۱]

بحوث

۱- ما هی الأمور التی تقدّر فی لیلة القدر؟

فی سبب تسمیة هذه اللیلة بلیلة القدر قیل الکثیر من ذلک:

۱- لأنّها اللیلـة التی تعیّن فیها مقـدرات العباد لسـنة کاملة، یشـهد علی ذلک قوله تعالی: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ إِنَّا کُنَّا مُنْذِرِینَ، فِیها یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ ۳۰۲] هذه الآیة الکریمة تنسـجم مع ما جاء من الرّوایات تقول: فی هذه اللیلة تعیّن مقدرات النّاس لسـنة کاملة، و هکذا أرزاقهم، و نهایة أعمارهم، و أمور أخری تفرق و تبیّن فی تلک اللیلة المبارکة.

هـذه المسألة طبعا لا تتنافی مع حریة إرادة الإنسان و مسألة الإختیار، لأنّ التقدیر الإلهی عن طریق الملائکة إنّما یتمّ حسب لیاقة الأفراد و میزان إیمانهم و تقواهم و طهر نیّتهم و أعمالهم.

أی یقدر کلّ فرد ما یلیق له؛ و بعبارة اخری، أرضیة التقدیر یوفرها الإنسان نفسه، و هذا لا یتنافی مع الإختیار بل یؤکّده.

۲- و قال بعض إنّها سمّیت بالقدر لما لها من قدر عظیم و شرف کبیر (فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۷

القرآن جاء قوله سبحانه: ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۳۰۳].

۳- و قیل لأنّ القرآن بکل قدره و منزلته نزل علی رسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بواسطة الملک العظیم فی هذه اللیلة.

۴- إنّها اللیلة التی قدّر فیها نزول القرآن.

۵- إنّها اللیلة التی من أحیاها نال قدرا و منزلة.

۶- و قیل أیضا لأنّها اللیلة التی تنزل فیها الملائکة حتی تضیق بهم الأرض لکثرتهم. لأنّ القدر جاء بمعنی الضیق أیضا کقوله تعالی: وَ مَنْ قُدِرَ عَلَیْهِ رِزْقُهُ ۳۰۴].

کل هذه التفاسیر یستوعبها المفهوم الواسع للیلة القدر مع أنّ التّفسیر الأوّل أنسب و أشهر.

۲- أیة لیلة هی لیلة القدر؟

لا شک أنّ لیلة القدر من لیالی شهر رمضان، لأنّ الجمع بین آیات القرآن یقتضی ذلک. فالقرآن نزل فی شهر رمضان من جهة (البقرة- ۱۸۵)، و من جهة اخری تقول آیات السّورة التی نحن بصددها أنّه نزل فی لیلة القدر.

و لکن، آیة لیلة من شهر رمضان؟ قیل فی ذلک کثیر، و ذکرت تفاسیر عدیدة من ذلک: أنّها أوّل لیلة من شهر رمضان المبارک، اللیلة السابعة عشرة، اللیلة التاسعة عشرة، اللیلة الحادیة و العشرون، اللیلة الثّالثة و العشرون، اللیلة السابعة و العشرون، و اللیلة التاسعة و العشرون.

و المشهور فی الرّوایات أنّها فی العشر الأخیرة من شهر رمضان، و فی اللیلتین الحادیة و العشرین أو الثّالثة و العشرین. لذلک ورد فی الرّوایات أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۸

النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یحیی کل اللیالی العشر الأخیرة من الشهر المبارک بالعبادة.

و روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّها اللیلة الحادیة و العشرون أو الثّالثة و العشرون. و عند ما أصر علیه أحدهم فی تعیین واحدة بین اللیلتین لم یزد الإمام علی أن

یقول: «ما أیسر لیلتین فیما تطلب!!»[۳۰۵].

ثمّة روایات متعددة عن أهل البیت علیهم السّلام ترکز علی اللیلة الثّالثة و العشرین.

بینما روایات أهل السنة ترکز علی اللیلة السابعة و العشرین.

و

روی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «التقدیر فی لیلة القدر تسعة عشر، و الإبرام فی لیلة إحدی و عشرین، و الإمضاء فی لیلة ثلاث و عشرین»[۳۰۶].

لیلة القدر إذن محاطة بهالة من الإبهام سنذکر سببه فیما یلی.

۳- لماذا خفیت لیلة القدر؟

الإعتقاد السائد أنّ اختفاء لیلة القدر بین لیالی السنة، أو بین لیالی شهر رمضان المبارک یعود إلی توجیه النّاس إلی الاهتمام بجمیع هذه اللیالی؛ مثلما أخفی رضاه بین أنواع الطاعات کی یتجه النّاس إلی جمیع الطاعات، و أخفی غضبه بین المعاصی، کی یتجنب العباد جمیعها، و أخفی أحباءه بین النّاس کی یحترم کلّ النّاس، و أخفی الإجابة بین الأدعیة لتقرأ کل الأدعیة، و أخفی الاسم الأعظم بین أسمائه کی تعظم کل أسمائه، و أخفی وقت الموت کی یکون النّاس دائما علی استعداد.

و يبدو أن هذا دليل مقبول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۹

۴- هل كانت ليلة القدر معروفة بين الأمم السابقة؟

من ظاهر آيات هذه السّورة نفهم أنّ ليلة القدر ليست خاصّة بزمان نزول القرآن و عصر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل تتكرر كلّ سنة حين يرث اللّه الأرض و من عليها.

التعبير بالفعل المضارع «تنزل» الدال على الاستمرار، و هكذا التعبير بالجملة الاسمية سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ الدالة أيضا على الدوام يؤيد ذلك.

مضافا إلى ذلك الرّوايات التى ربّما بلغت حدّ التواتر فى تأييد هذه المسألة.

و لكن هل كانت هذه الليلة فى الأمم السابقة؟

روايات متعددة تصرّح أنّ هذه الليلة من المواهب الإلهية على هذه الامّة، و

عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّ اللّه وهب لامّتى ليلة القدر لم يعطها من كان قبلهم».

و فى تفسير الآيات التى نحن بصددها روايات تؤيد ذلك أيضا.

۵- ليلة القدر خير من ألف شهر

لماذا كانت خيرا من ألف شهر ... الظاهر لأهمية العبادة و الإحياء فيها. و ما جاء من روايات بشأن فضيلة ليلة القدر و فضيلة العبادة فيها فى كتب الشيعة و أهل السنة كثير، و يؤيد هذا المعنى.

أضف إلى ذلك، فإنّ نزول القرآن فى هذه الليلة، و نزول البركات و الرحمة الإلهية فيها يجعلها خيرا من ألف شهر.

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: لعلى بن أبى حمزة الثمالى: «فاطلبها (أى ليلة القدر) فى ليلة إحدى و عشرين و ثلاث و عشرين و صل فى كل واحدة منهما مائة ركعة و أحيهما إن استطعت إلى النور، و اغتسل فيهما» قال: قلت: فإن لم أقدر على ذلك و أنا قائم؟

قال: فصلّ و أنت جالس.

قال: قلت: فإن لم أستطع؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۰

قال: فعلى فراشك، لا عليك أن تكتحل أوّل الليل بشىء من النوم إنّ أبواب السماء تفتح فى رمضان و تصفد (تقيّد) الشياطين، و تقبل أعمال المؤمنين .. نعم الشهر رمضان!»[۳۰۷].

۶- لما ذا انزل القرآن فى ليلة القدر؟

ليلة القدر- كما علمنا- ليلة تقدير مصائر البشر لسنة كاملة حسب ما يليق بكلّ فرد. فينبغى أن يكون الإنسان فيها مستيقظا و فى حالة

تقرب إلى اللّه و تكامل على طريق بناء الشخصية الإسلامية ليرفع من مستوى لياقته لمزيد من رحمة اللّه.

نعم، في اللحظات التي يتقرر فيها مصيرنا ينبغي أن لا نكون غافلين، و إلّا فسيواجهنا المصير المؤلم.

و القرآن ... باعتباره الكتاب القادر على أن يرسم للبشرية مستقبلها و مصيرها و يهديها إلى طريق سعادتها و هدايتها، يجب أن ينزل في ليلة القدر ... ليلة تعيين المصير ... و ما أجمل هذه العلاقة بين «القرآن» و «ليلة القدر»، و ما أعمق معنى الارتباط بين الإثنين!!

۷- هل ليلة القدر واحدة في المعمورة؟

نعم أن بدء الشهر القمري ليس واحدا في جميع البلدان. و قد يكون يومنا هذا أوّل الشهر في بلد و يكون الثّاني في بلد آخر. من هنا لا يمكن أن تكون ليلة القدر ليلة معينة في السنة. على سبيل المثال قد تكون ليلة الثّالث و العشرين في الحجاز هي ليلة الثّاني و العشرين في ايران و العراق. و بهذا يكون لكل بلد ليلة قدر! و هل هذا ينسجم مع ما جاء في الرّوايات المؤكّدة على أنّ ليلة القدر ليلة

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۱

معينة؟

الجواب يتّضح بالالتفات إلى ما يلي:

الليل هو ظل نصف الكرة الأرضية على النصف الآخر من هذه الكرة، و نعلم أن هذا الظل يتحرك بتحرك الكرة الأرضية، و يدور دورة كاملة في أربع و عشرين ساعة من هنا يمكن أن تكون ليلة القدر دورة كاملة لليل حول الأرض، أي تكون هذه الليلة مدّة أربع و عشرين ساعة من دوران الظلام حول الكرة الأرضية بأجمعها، تبدأ من نقطة و تنتهي عند نقطة اخرى. (تأمل بدقّة).

اللّهم! منّ علينا بيقظة و وعي كي نتزوّد من فضيلة ليلة القدر.

ربّنا! آمالنا منشدّة إلى لطفك و كرمك، فقدّر لنا وفق ما نأمله فيك.

يا ربّ العالمين! لا تجعلنا من محرومي هذا الشهر فما بعد هذا الحرمان حرمان.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة القدر

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۳

سورة البيّنة

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها ثماني آيات

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۵

«سورة البيّنة»

محتوى السّورة:

المشهور أنّ هذه السّورة نزلت في المدينة، و محتواها يؤيد ذلك، إذ تحدثت في مواضع متعددة عن أهل الكتاب، و المسلمون واجهوا أهل الكتاب في المدينة غالبا.

أضف إلى ذلك أنّ السّورة تحدثت عن الصلاة و الزكاة، و الزكاة- و إن شرعت في مكّة- اتخذت طابعها الرسمي الواسع في

المدينة.

هـذه السّورة تنـاولت رسالـة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و مـا فيهـا من دلائـل بيّنـة، هـذه الرسالـة التى كـان أهـل الكتـاب ينتظرونها، حين ظهرت أعرض عنها فريق منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصية.

و السّورة تقرر حقيقة وجود الإيمان و التوحيد و الصلاة و الصيام فى كل الأديان و دعوات الأنبياء باعتبارها أصولا ثابتة خالدة.

و فى مقطع آخر مـن السّورة بيـان عـن مواقـف أهـل الكتـاب و المشـركين تجـاه الإسـلام ... بعضـهم آمن و عمـل صالحـا فهـو خير المخلوقات، و بعضهم كفر و أشرك فهو شرّ البريّة.

هذه السّورة أطلق عليها لمناسبة ألفاظها اسماء متعددة أشهرها: «البينة» و «لم يكن» و «القيمة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۶

فضيلة السّورة:

روى فى فضيلة تلاوة هذه السّورة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لو يعلم النّاس ما فى (لم يكن) لعطلوا الأهل و المال و تعلموها».

فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول اللّه؟

فقال: «لا يقرأها منافق أبـدا و لا عبـد فى قلبه شكّ فى اللّه عزّ و جلّ، و اللّه إنّ الملائكـة المقربين ليقرؤونها منذ خلق اللّه السـماوات و الأرض لا يفترون عن قراءتها، و ما من عبـد يقرؤها بليل إلّا بعث اللّه ملائكـة يحفظونه فى دينه و دنياه و يدعون له بالمغفرة و الرحمة، فإن قرأها نهارا اعطى عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار و أظلم عليه الليل»[۳۰۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۷

الآيات [سورة البينة (۹۸): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (۱) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (۲) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (۳) وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (۴)

وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (۵)

التّفسير

ذلك دين القيّمة:

فى بدايـة السّورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود و النصارى) و مشـركى العرب قبل ظهور الإسـلام، فهؤلاء كانوا يـدّعون أنّهم غير منفكين عن دينهم إلّا بدليل واضح قاطع.

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ.

و «البيّنة» التی أرادوها: رسول من اللّه يتلو عليهم كتابا مطهّرا من ربّ

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۸

العالمين:

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً.

و هذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح و ثابت و ذو قيمة.

فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ.

كان هـذا ادعاؤهم قبل ظهور الإسـلام، و حينما ظهر و نزلت آياته تغيّر هؤلاء، و اختلفوا و تفرقوا. و ما تفرقوا إلّا بعد أن جاءهم الدليل الواضح و النبيّ الصادح بالحق.

وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ.

ممّا تقـدم، الآيات الاولى لهـذه السّورة المباركة تتحدث عن أهل الكتاب و المشـركين الذين كانوا يدعون أنّهم سوف يقبلون الدعوة إنّ جاءهم نبيّ بالدلائل الساطعة.

لكنّهم أعرضوا حين ظهر، و جابهوه، إلّا فريق منهم آمن و اهتدى.

و هـذا المعنى يشبه مـا جـاء فی قوله تعالى: وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ مُصَـدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ [۳۰۹].

نعلم أنّ أهـل الكتـاب كـانوا ينتظرون مثل هـذا الظهور، و لا بـدّ أن يكون مشـركو العرب مشاركين لأهل الكتاب فی هـذا الانتظار لما كانوا يرون فيهم من علم و معرفة، و لكن حين تحققت آمالهم غيّروا مسيرهم و التحقوا بأعداء الدعوة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۳۵۸

ع من المفسّـِرين لهم رأی آخر فی تفسير الآيـة، يقولون: مقصود الآيـة هو أنّ أهل الكتاب و المشـركين لم يكونوا منفكّين عن دينهم حقيقة- لا ادعاء- حتى تأتيهم البيّنة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۹

و هـذا يعنی أنّ هؤلاء آمنوا بعد ما جاءتهم البيّنة، لكن الآيات التالية تدل على غير ذلك، اللّهم إلّا إذا قيل أنّ المقصود إيمان مجموعة منهم و إن كانت قليلة و تكون المسألة من قبيل ما يسمى فی المنطق «موجبة جزئية».

و لكن على أی حال نستبعد هذا التّفسير، و يبدو أنّ الفخر الرازی لهذا السبب وصف الآية الاولى من هذه السّورة بأنّها أعقد آية فی القرآن لتعارضها مع الآيات التالية، و لحل هذا التعارض ذكر طرقا متعددة أفضلها هو الذی ذكرناه أعلاه.

ثمّـة تفسير ثالث للآيـة هو أنّ اللّه لا يترك أهل الكتاب و المشركين لحالهم حتى يتمّ الحجّـة عليهم و يرسل إليهم البيّنـة و يبيّن لهم الطريق. و لذلك أرسل إليهم نبيّ الإسلام لهدايتهم.

بناء على هذا التّفسير، هذه الآية تشير إلى قاعدة اللطف التی يتناولها علم الكلام و تقرر أن اللّه يبعث إلى كلّ قوم دلائل واضحة ليتمّ الحجّة عليهم [۳۱۰].

على أی حال، «البيّنة» فی الآية هی الدليل الواضح، و مصداقها حسب الآية الثّانية شخص «رسول اللّه» و هو يتلو عليهم القرآن.

«صحف» جمع «صحيفة»، و تعنی ما يكتب عليه من الورق، و المقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن يتلو شيئا عليهم من الأوراق.

و «مطهرّة» أی طاهرة من كلّ ألوان الشـرك و الكذب و الباطل. و من تلاعب شياطين الجن و الإنس. كما جاء أيضا فی قوله تعالى: لا

يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ ۳۱۱] جملة فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ إشارة إلى أنّ ما فى هذه الصحف السماوية خال من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۰

الانحراف و الاعوجاج. من هنا فإنّ هذه «الكتب» تعنى المكتوبات، أو تعنى الأحكام و التشريعات المنصوصة من اللّه، لأنّ الكتابة جاءت بمعنى تعيين الحكم أيضا، كقوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ۳۱۲].

و بهذا يكون معنى «قيمة» السويّة و المستقيمة، أو الثابتة و المستحكمة، أو ذات قيمة، أو كل هذه المعانى مجتمعة.

و يحتمل أيضا أن يكون المعنى هو أن القرآن فيه الكتب السماوية القيّمة السابقة لأنّه يضم جميع محتوياتها و زيادة.

و يلفت النظر تقدم ذكر أهل الكتاب على المشركين فى الآية الاولى، و الاقتصار على ذكر أهل الكتاب فى الآية الرابعة دون ذكر المشركين، بينما الآية تريد الإثنين.

و هذا يعود ظاهرا إلى أنّ أهل الكتاب كانوا هم الروّاد فى هذه المواقف، و كان المشركون تابعين لهم. أو لأنّ أهل الكتاب كانوا أهلا لذم أكثر لما عندهم من علماء كثيرين، و بذلك كانوا ذا مستوى أرفع من المشركين. معارضتهم- إذن- أفظع و أبشع و تستحق مزيدا من التقريع.

ثمّ يتوالى التقريع لأهل الكتاب، و من بعدهم للمشركين، لأنّهم اختلفوا فى الدين الجديد، منهم مؤمن و منهم كافر، بينما: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ[۳۱۳].

ثمّ تضيف الآية القول:

وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۱

قيل فى معنى «و ما أمروا ...» أن المقصود هو: إنّ التوحيد و الصلاة و الزكاة من المسائل الثابتة فى دين أهل الكتاب، لكنّهم لم يبقوا أو فياء لهذه التعاليم.

و قيل: المقصود هو إنّ دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص و الصلاة و الزكاة و أمثالها من التعاليم. و هذه امور معروفة فلما ذا يعرضون عنها؟.

يبدو أنّ المعنى الثّانى أقرب. لأنّ الآية السابقة تتحدث عن الاختلاف فى قبول الدين الجديد، و المناسب هنا أن يكون المراد فى «أمروا ...» هو الدين الجديد أيضا.

أضف إلى ذلك أنّ المعنى الأوّل يصدق على أهل الكتاب وحدهم، بينما المعنى الثّانى يشمل المشركين أيضا.

المقصود ب «الدين» فى عبارة مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ قد يكون «العبادة».

و عبارة «إلّا ليعبدوا اللّه» فى الآية تؤكّد هذا المعنى.

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود مجموع الدين و الشريعة، أى أنّهم أمروا أن يعبدوا اللّه و أن يخلصوا له الدين و التشريع فى جميع المجالات. و هذا المعنى يتناسب أكثر مع المفهوم الواسع للدين. و جملة وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ تؤيد هذا المعنى لأنّها طرحت الدين بمفهومه الواسع.

«حنفاء» جمع «حنيف»، من الفعل الثّلاثى حنف، أى عدل عن الضلال إلى الطريق المستقيم، كما يقول الراغب فى المفردات. و العرب تسمى كلّ من حج أو ختن «حنيفا» إشارة إلى أنّه على دين إبراهيم.

و «الأحنف» من كانت رجله عوجاء. و يبدو أنّ الكلمة كانت فى الأصل تستعمل للانحراف و الاعوجاج، و النصوص الإسلاميّة استعملتها بمعنى الانحراف عن الشرك إلى التوحيد و الهداية.

و من الممكن أن تكون المجتمعات الوثنية قد أطلقت على من يترك الأوثان و يتجه إلى التوحيد اسم «حنيف»، أى منحرف. ثمّ

أصبحت الكلمة بالتدريج اسما

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۲

لسالكى طريق التوحيد و من مستلزمات الكلمة الإخلاص فى التوحيد و الاعتدال التام و اجتناب أى إفراط أو تفريط؛ غير أنّ هذه معان ثانوية للكلمة.

جملة وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ[۳۱۴] إشارة إلى أنّ الأصول المذكورة فى الآية و هى: التوحيد الخالص، و الصلاة (الارتباط باللّه) و الزكاة (الارتباط بالنّاس) من الأصول الثابتة الخالدة فى جميع الأديان، بل إنّها قائمة فى أعماق فطرة الإنسان.

ذلك لأنّ مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، و فطرته تدعوه إلى معرفة المنعم و شكره، ثمّ إنّ الروح الاجتماعية المدنية للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

من هنا، هذه التعاليم لها جذور فى أعماق الفطرة، و هى لذلك كانت فى تعاليم كلّ الأنبياء السابقين و تعاليم خاتم النبيين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۳

الآيات [سورة البينة (۹۸): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (۷) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (۸)

التّفسير

خير البريّة و شرّها:

الآيات السابقة تحدثت عن انتظار أهل الكتاب و المشركين لبيّنة تأتيهم من اللّه، لكنّهم تفرقوا من بعد ما جاءتهم البيّنة.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من النّاس مختلفتين فى موقفهما من الدعوة «كافرة» و «مؤمنة» تذكر الكافرين أوّلا بالقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ.

و إنّما قال «كفروا» لكفرهم بالدين المبين، و إلّا فإنّ كفرهم ليس بجديد.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۴

و عبارة أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ عبارة قارعة مثيرة، تعنى أنّه لا يوجد بين الأحياء و غير الأحياء موجود أضل و اسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق و إتمام الحجّة، و ساروا فى طريق الضلال، مثل هذا المعنى ورد أيضا فى قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ۳۱۵].

و فى قوله سبحانه يصف أهل النّار: أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ ۳۱۶].

و هذه الآية التى نحن بصددها تذهب فى وصف هؤلاء المعاندين إلى أبعد ممّا تذهب إليه غيرها، لأنّها تصفهم بأنّهم شرّ المخلوقات، و هذا بمثابة بيان الدليل على خلودهم فى نار جهنم.

و لم لا يكونون شرّ المخلوقات و قد فتحت أمامهم جميع أبواب السعادة فاعرضوا عنها كبرا و غرورا و عنادا.

تقديم ذكر «أهل الكتاب» على «المشركين» فى هذه الآية أيضا، قد يعود إلى ما عندهم من كتاب سماوى و علماء و من صفات صريحة لنبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كتبهم، لذلك كانت معارضتهم أفظع و أسوأ.

الآية التالية تذكر المجموعة الثّانية، و هم المؤمنون و تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ.

و الآية التالية تذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، و ما لهم عند اللّه من مثوبة:

جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ، ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ

يلاحظ أنّ الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة دوحة الإيمان. و فى ذلك إشارة إلى أن ادعاء الإيمان وحده لا يكفى، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۶۵

لا بدّ أن تشهد عليه الأعمال الصالحة. لكن الكفر وحده- و إن لم يقترن بالأعمال السيئة- مبعث السقوط و الشقاء. أضف إلى أن الكفر عادة منطلق لانواع الذنوب و الجرائم و الانحرافات.

عبارة أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ تبيّن بجلاء أن الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة و ليس فيها استثناء و الآيات الاخرى تشهد على ذلك أيضا، مثل آية سجود الملائكة لآدم، و مثل قوله سبحانه:

وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ [۳۱۷].

هذه الآية تحدثت عن الجزاء المادى الذى ينتظر المؤمنين، و عن الجزاء المعنوى الروحى لهم، و هو رضا اللّه عنهم و رضاهم عنه.

إنّهم راضون عن اللّه لأنّ اللّه أعطاهم ما أرادوه، و اللّه راض عنهم لأنّهم أدّوا ما أراده منهم، و إنّ كانت هناك زلة فقد غفرها بلطفه و كرمه. و أية لذة أعظم من أن يشعر الإنسان أنّه نال رضا المحبوب و وصاله و لقاءه.

نعم، نعيم جسد الإنسان جنات الخلد، و نعيم روحه رضا اللّه و لقاؤه.

جملة ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ تدل على أن كل هذه البركات تنطلق من «خشية اللّه». لأنّ هذه الخشية دافع للحركة صوب كلّ طاعة و تقوى و عمل صالح.

بعض المفسّرين قرن هذه الآيه، بالآية (۲۸) من سورة فاطر حيث يقول سبحانه: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ و خرج بنتيجة هى أنّ الجنّة للعلماء طبعا لا بدّ أن نأخذ بنظر الإعتبار وجود مراتب و مراحل للخشية و هكذا مراتب للعلم.

قيل أيضا أن «الخشية» أسمى من «الخوف»، لأنّها خوف مقرون بالتعظيم و الاحترام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۶۶

بحوث

۱- على عليه السّلام و شيعته خير البريّة

ثمّة روايات كثيرة بطرق أهل السنة فى مصادرهم الحديثية المعروفة، و هكذا فى المصادر الشيعية، فسّرت الآية: أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بأنهم على و شيعته.

«الحاكم الحسكانى النيسابورى» عالم أهل السنة المعروف فى القرن الخامس الهجرى نقل هذه الرّوايات فى كتابه المشهور «شواهد التنزيل» بطرق مختلفة، و يزيد عدد هذه الرّوايات على العشرين نذكر منها على سبيل المثال ما يلى:

-۱

عن ابن عباس قال: عند ما نزلت آیة: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ قال رسول اللّه لعلی: «هو أنت و شیعتک تأتی أنت و شیعتک یوم القیامة راضین مرضیین و یأتی عدوک غضبانا مقحمین»[۳۱۸].

-۲ و

عن أبی برزة قال: حینما تلا رسول اللّه هذه الآیة قال: «هم أنت و شیعتک یا علی، و میعاد ما بینی و بینک الحوض»[۳۱۹].

-۳ و

عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری قال: کنّا جالسین عند النبیّ جوار الکعبة، فاقدم علینا علی، و حین رآه النبیّ قال: «قد أتاکم أخی»، ثمّ التفت إلی الکعبة، و قال: «و ربّ هذه البیّنة! إنّ هذا و شیعته هم الفائزون یوم القیامة».

ثمّ التفت إلینا و قال: «أما و اللّه إنّه أوّلکم إیمانا باللّه، و أقومکم بأمر اللّه، و أوفاکم بعهد اللّه، و أقضاکم بحکم اللّه، و أقسمکم بالسویة، و أعدلکم فی الرعیة و أعظمکم عند اللّه مزیة» قال جابر: فأنزل اللّه: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ فکان علی إذا أقبل قال أصحاب محمّد قد أتاکم خیر البریة بعد رسول

اللّه ۳۲۰].

نزول هذه الآیة جوار الکعبة لا یتنافی مع مدنیة السّورة. إذ من الممکن أن تکون من قبیل النزول المجدد، أو التطبیق، أضف إلی ذلک أنّ نزول هذه الآیات لا یستبعد أن یکون خلال أسفار النّبی إلی مکّة من المدینة، خاصّة أنّ الراوی (جابر بن عبد اللّه الأنصاری) قد التحق بالنّبی فی المدینة.

بعض هذه الأحادیث رواها ابن حجر فی الصواعق، و محمّد الشبلنجی فی نور الأبصار[۳۲۱].

و جلال الدین السیوطی نقل القسم الأعظم من الرّوایة الأخیرة عن ابن عساکر عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری ۳۲۲].

-۴

فی «الدر المنثور» عن ابن عباس قال: «حین نزلت آیة: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ. قال رسول اللّه لعلی: «هو أنت و شیعتک یوم القیامة راضین مرضیین».

-۵ و

فی الدر المنثور أیضا عن ابن مردویه عن علی علیه السّلام قال: «قال لی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ألم تسمع قول اللّه إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ؟ أنت و شیعتک و موعدی و موعدکم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غرّا محجلین»[۳۲۳].

کثیر من علماء السنة، سوی من ذکرنا، نقلوا مثل هذه الرّوایات فی کتبهم منهم: الخطیب الخوارزمی فی المناقب، و أبو نعیم الأصفهانی فی کفایة الخصام، و العلّامة الطبری فی تفسیره، و ابن صباغ المالکی فی الفصول المهمّة، و العلّامة

الشوکانی فی فتح الغدیر، و الشیخ سلیمان القندوزی فی ینابیع المودة، و الآلوسی فی روح المعانی.

باختصار هذا الحدیث من الأحادیث المعروفة المشهورة المقبولة لدی أکثر علماء الإسلام، و فیه بیان لفضیلة کبری من فضائل علی و أتباعه.

و هذه الرّوایات تدل ضمنا أنّ کلمة «الشیعة» باعتبارها اسما لأتباع علی علیه السّلام کانت قد شاعت منذ عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه

و آله و سلّم بين المسلمين على لسان الرّسول نفسه.

و أولئك الذين يخالون أنّ الكلمة هذه ظهرت فى عصور متأخرة فى خطأ كبير.

٢- ضرورة إخلاص النيّة فى العبادة

بعض علماء اصول الفقه استدلوا بالآية: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ على لزوم «قصد القربة» فى العبادات، و أن الأصل فى الأوامر أنّها تعبدية لا توصلية. و هذا يتوقف على كون «الدين» فى الآية بمعنى العبادة كى يصحّ الاستدلال بها على لزوم الإخلاص فى العبادات ... و يتوقف على أن يكون (الأمر) فى الآية بشكل مطلق كى يكون مفهومها لزوم قصد القربة فى كل الأوامر (عداما خرج منها بدليل). غير أنّ مفهوم الآية ليس كذلك على الظاهر. فالمقصود إثبات التوحيد مقابل الشرك، أى إنّ هؤلاء لم يؤمروا إلّا بالتوحيد، و بهذا لا ترتبط المسألة بالأحكام الفرعية.

٣- منحنى الصعود و السقوط

من آيات هذه السّورة المباركة يستفاد أنّ الإنسان فريد بين مخلوقات الكون فى البون الشاسع الذى يفصل بين منحنى ارتفاعه و سمّوه و بين منحنى سقوطه و هبوطه. لو كان من الذين آمنوا و عملوا الصالحات (عبارة «عملوا الصالحات» تشمل كلّ الأعمال الصالحة لا بعضها) فهو أفضل خلق اللّه؛ و إنّ سلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ٣۶٩

طريق الكفر و الضلالة و العناد هبط إلى هوة سحيقة و كان شرّ خلق اللّه.

هذا البون الشاسع بين الاتجاهين- رغم خطورته و حساسيته- له دلالة كبيرة على مكانة النوع البشرى و قابليته للتكامل. و طبيعى أن يكون إلى جانب هذه القابلية العظيمة إمكان عظيم للهبوط و السقوط.

ربّنا! نستمد العون من فضلك و إحسانك لبلوغ درجة «خير البرية» ربّنا! اجعلنا من شيعة ذلك الرجل الصالح الذى كان أجدر من نال هذه الدرجة.

ربّنا! منّ علينا بإخلاص يجعلنا متفانين فى حبّك و عبادتك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة البيّنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ٣٧١

سورة الزّلزلة

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها ثمانى آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ٣٧٣

«سورة الزلزلة»

محتوى السّورة:

اختلف المفسّرون فی مکّیة هذه السّورة أو مدنیتها. کثیرون ذهبوا إلی أنّها مدنیة. بینما ذهب بعض إلی أنّها مکّیة لما تتناوله آیاتها من حدیث حول «المعاد» و «أشراط الساعة» (علامات یوم القیامة) ... و هی موضوعات الآیات المکّیة عادة. و لکنّ ثمّة روایة عن «أبی سعید الخدری» أنّه سأل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین نزول هذه السّورة عن آیة: فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ... و أبو سعید انضم إلی المسلمین فی المدینة[۳۲۴].

و لا تأثیر لمکیتها أو مدنیتها علی مفاهیمها التی تدور حول ثلاثة محاور رئیسیة: تتحدث أوّلا عن علامات البعث و یوم القیامة ... ثمّ عن شهادة الأرض علی جمیع أعمال العباد ... و بعد ذلک تقسم النّاس إلی مجموعتین صالحة و طالحة و تبیّن أنّ کلّ مجموعة تری ثمار عملها.

فضیلة السّورة:

وردت فی فضیلة هذه السّورة نصوص تحمل إشارات هامّة من ذلک ما

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها فکأنّما قرأ البقرة و أعطی من الأجر کمن قرأ ربع القرآن»[۳۲۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۷۴

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «لا تملوا من قراءة» إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها فإنّه من کانت قراءته بها فی نوافله لم یصبه اللّه عزّ و جلّ بزلزلة أبدا، و لم یمت بها و لا بصاعقة و لا بآفة من آفات الدنیا حتی یموت»[۳۲۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۷۵

الآیات [سورة الزلزلة (۹۹): الآیات ۱ الی ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (۱) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (۲) وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها (۳) یَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (۴)

بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحی لَها (۵) یَوْمَئِذٍ یَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِیُرَوْا أَعْمالَهُمْ (۶) فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ (۷) وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ (۸)

التّفسیر

یوم یری النّاس أعمالهم:

هذه السّورة تبدأ- کما ذکرنا فی محتواها- ببیان صور من الأحداث الهائلة المفزعة التی ترافق نهایة هذا العالم و بدء البعث و النشور. تقول:

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها[۳۲۷].

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۶

عبارة «زلزلها» تعنی أنّ الأرض بأجمعها تهتز فی ذلک اليوم (خلافا للزلازل العادية الموضعية عادة) أو أنّها إشارة إلی الزلزلة المعهودة، أی زلزلة يوم القيامة[۳۲۸].

و «الأثقال» ذكر لها المفسّرون معانی متعددة. قيل إنّها البشر الذين يخرجون من أجداثهم علی أثر الزلزال. كما جاء فی قوله سبحانه: وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ ۳۲۹].

و قيل إنّها الكنوز المخبوءة التی ترتمی إلی الخارج، و تبعث الحسرة فی قلوب عبّاد الدنيا[۳۳۰].

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود إخراج المواد الثقيلة الذائبة فی باطن الأرض، و هو ما يحدث أثناء البراكين و الزلازل، فإنّ الأرض فی نهاية عمرها تدفع ما فی أعماقها إلی الخارج علی أثر ذلک الزلزال العظيم.

يمكن الجمع بين هذه التفاسير.

فی ذلک الجو المليء بالرهبة و الفزع، تصيب الإنسان دهشة ما بعدها دهشة فيقول فی ذعر: ما لهذه الأرض تتزلزل و تلقی ما فی باطنها؟

وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها.

و ذهب بعض المفسّرين إلی أنّ الإنسان فی الآية هو الكافر الذی كان شاكا فی المعاد و البعث، و لكن الظاهر أنّ الإنسان هنا له معنی عام يشمل كل أفراد البشر. فالدهشة من وضع الأرض فی ذلک اليوم لا يختص بالكافرين.

و هل هذا السؤال التعجبی يرتبط بالنفخة الاولی أو الثّانية؟ أی هل يرتبط

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۷

بنهاية الأرض أم بالبعث؟

الظاهر أنّها النفخة الاولی حيث تحدث الزلزلة الكبری و ينتهی فيها هذا العالم.

و يحتمل أيضا أن تكون نفخة البعث و النشور، و إخراج النّاس من الأجداث و الآيات التالية ترتبط بالنفخة الثّانية.

و لما كان القرآن يتحدث فی مواضع مختلفة عن أحداث النفختين معا، فالتّفسير الأوّل أنسب لما ورد من ذكر الزلزال المرعب فی نهاية العالم. و فی هذه الحالة يكون المقصود من أثقال الأرض معادنها و كنوزها و المواد المذابة فيها.

و أهم من ذلک أنّ الأرض:

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها.

تحدّث بالصالح و الطالح، و بأعمال الخير و الشر، ممّا وقع علی ظهرها. و هذه الأرض واحد من أهم الشهود علی أعمال الإنسان فی ذلک اليوم. و هی إذن رقيبة علی ما نفعله عليها.

و

فی حديث عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أ تدرون ما أخبارها»؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد علی كل عبد و أمة بما عملوا علی ظهرها.

تقول عمل كذا و كذا، يوم كذا، فهذا أخبارها»[۳۳۱].

و

فی حديث آخر عن النّبیّ صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قال: «حافظوا علی الوضوء و خير أعمالكم الصلاة، فتحفظوا من الأرض فإنّها امّكم، و ليس فيها أحد يعمل خيرا أو شرّا إلّا و هی مخبرة به»[۳۳۲].

و

عن أبی سعید الخدری قال: متی کنت فی بیداء فارفع صوتک بالأذان لأنّی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۸

سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: «لا یسمعه جن و لا إنس و لا حجر إلّا یشهد له»[۳۳۳].

و هل إن تحدیث الأرض یعنی أنّها تتکلم فی ذلک الیوم بأمر اللّه، أم إن المقصود ظهور آثار أعمال الإنسان علی ظهر الأرض؟ واضح أنّ کل عمل یقوم به الإنسان یترک آثاره حتما علی ما حوله، و إن خفیت علینا هذه الآثار الیوم، تماما مثل آثار أصابع الید التی تبقی علی مقبض الباب، و فی ذلک الیوم تظهر کل هذه الآثار، و حدیث الأرض لیس سوی هذا الظهور الکبیر؛ تماما کما نقول لشخص نعسان: عینک تقول إنّک کنت سهرانا أمس.

أی إنّ آثار السهر علیها واضحة.

و لیس هذا الموضوع بغریب الیوم بعد الاکتشافات العلمیة و الاختراعات القادرة فی کلّ مکان و فی لحظة أن تسجل صوت الإنسان و تصور أعماله و حرکاته فی أشرطة یمکن طرحها فی المحکمة کوثائق إدانة لا تقبل الإنکار.

لو کانت شهادة الأرض فیما مضی عجیبة، فلیست الیوم بعجیبة و نحن نری شریطا رقیقا یمکن أن یکون بحجم أزرار اللباس قادرا علی أن یحتفظ بکثیر من الأعمال و الأقوال.

و

فی حدیث عن علی علیه السّلام قال: «صلوا المساجد فی بقاع مختلفة، فإنّ کلّ بقعة تشهد للمصلّی علیها یوم القیامة»[۳۳۴].

و

عنه علیه السّلام أیضا حینما کان یفرغ من تقسیم بیت المال یصلی رکعتین و یقول:

«اشهدی أنّی ملأتک بحق و فرغتک بحق»[۳۳۵].

بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحی لَها[۳۳۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۹

فما فعلته الأرض إنّما کان بوحی ربّها، و هی لا تتوانی فی تنفیذ أمر الرّب.

و عبارة «اوحی» إنّما هی لبیان أنّ حدیث الأرض خلاف طبیعتها، و لا یتیسر ذلک سوی عن طریق الوحی الإلهی.

قیل: إنّ المقصود هو أنّ اللّه یوحی للأرض أن تخرج أثقالها.

و التّفسیر الأوّل أصح و أنسب، یَوْمَئِذٍ یَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِیُرَوْا أَعْمالَهُمْ

«أشتات» جمع «شتّ»- علی وزن شط- و هو المتفرق و المبعثر. أی إنّ النّاس یردون ساحة المحشر متفرقین مبعثرین. و قد یکون التفرق و التبعثر لورود أهل کلّ دین منفصلین عن الآخرین.

أو قد یکون لورود أهل کلّ نقطة من نقاط الأرض بشکل منفصل.

أو قد یکون لورود جماعة بأشکال جمیلة مستبشرة، و جماعة بوجوه عبوسة مکفهرة إلی المحشر.

أو إن کلّ أمّة ترد مع إمامها و قائدها کما فی قوله تعالی: یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ ۳۳۷].

أو أنّ یحشر المؤمنون مع المؤمنین و الکافرون مع الکافرین.

الجمع بین هذه التفاسیر ممکن تماما لأنّ مفهوم الآیة واسع.

«یصدر» من الصدور، و هو خروج الإبل من برکة الماء مجتمعة هائجة و عکسه الورود. و هی هنا کنایة عن خروج الأقوام من القبور و ورودهم علی المحشر للحساب.

و يحتمل أيضا أن يكون صدور النّاس فى الآية من المحشر و التوجه نحو مستقرهم فى الجنّة أو النّار.

المعنى الأوّل أكثر تناسبا مع الآيات السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۰

المقصود من عبارة لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ هل هو: ليروا جزاء أعمالهم.

أو ليروا صحيفة أعمالهم و ما سجل فيها من حسنات و سيئات أو المشاهدة الباطنية، بمعنى المعرفة بكيفية الأعمال.

أو أنّها تعنى «تجسم الأعمال» و رؤية الأعمال نفسها؟! التّفسير الأخير أنسب مع ظاهر الآية. و هذه الآية أوضح الآيات الدالة على تجسم الأعمال. حيث تتخذ الأعمال فى ذلك اليوم أشكالا تتناسب مع طبيعتها و تنتصب أمام صاحبها. و تكون رفقتها سرورا و انشراحا أو عذابا و بلاء.

ثمّ ينتقل الحديث إلى جزاء أعمال المجموعتين المؤمنة و الكافرة، الصالحة و الطالحة.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ

وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

و هنا أيضا تفسيرات مختلفة لرؤية الأعمال هل هى رؤية جزاء الأعمال، أم صحيفة الأعمال، أو العمل نفسه.

ظاهر الآية يدل أيضا على مسألة «تجسم الأعمال» و مشاهدة العمل نفسه، صالحا أم سيئا، يوم القيامة. حتى إذا عمل ما وزنه ذرة من الذرات يره مجسما يوم القيامة.

«مثقال» فى اللغة بمعنى الثقل، و بمعنى الميزان الذى يقاس به الثقل و المعنى الأوّل هو المقصود فى الآية.

و «الذرة» ذكروا لها معانى متعددة من ذلك، النملة الصغيرة، و الغبار الذى يلصق باليد عند وضعها على الأرض، و ذرات الغبار العالقة فى الجو التى تتّضح عند ما تدخل حزمة ضوء من ثقب داخل غرفة مظلمة.

و الذرة تطلق اليوم على أصغر جزء من أجزاء المادة و التى منها تصنع «القنبلة الذرية»، مع احتفاظه بخواص المادة الأصلية. و لا ترى بأقوى المجاهر، و تشاهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۱

آثارها فقط، و تعرف خواصها بالمحاسبات العلمية ..

مهما كان مفهوم الذرة فهو هنا أصغر وزن.

هذه الآية على أى حال تهزّ كيان الإنسان الواعى من الأعماق، و تشير إلى أنّ حساب اللّه فى ذلك اليوم دقيق و حساس للغاية. و ميزان أعمال النّاس دقيق إلى درجة يحصى أقلّ أعمال الإنسان.

بحوث

۱- الدقّة فى تحرى الأعمال

الآيتان المذكورتان و آيات اخرى مشابهة تدلّ دلالة واضحة على الدقّة المتناهية فى تحرّى الأعمال و فى المحاسبة يوم القيامة، كقوله سبحانه: يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ[۳۳۸].

و «الخردل» بذر صغير جدّا لنبات معروف يضرب به المثل لصغره.

هـذه التعابير القرآنيـة تـدلّ على أنّ أصـغر الأعمال يحاسب عليها فى تلك المحاسـبة الكبرى، و هذه الآيات تحذر أيضا من استصـغار الذنوب الصغيرة، أو التهاون فى أعمال الخير و الصغيرة. فما يحاسب عليه اللّه سبحانه- مهما كان- ليس بقليل الأهمية.

لذلك قال بعض المفسّـِرين إنّ هذه الآيات نزلت حين كان بعض الصـحابة يتهاون فى إنفاق الأموال القليلة، و كانوا يقولون: إنّ الأجر يتوقف على إنفاق ما نحبّ، و الأشياء الصغيرة لا نحبها. و هكذا كانوا يستهينون بالذنوب الصغيرة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۸۲

فنزلت الآيات و حثتهم على فعل الخيرات مهما قلت و نهتهم عن الذنوب مهما صغرت.

۲- جواب على سؤال

يطرح هنا سؤال بشأن ما تحدثت عنه الآيات و هو أنّ الإنسان يرى كلّ أعماله صالحة أم طالحة، صغيرة أم كبيرة. فكيف ينسجم ذلك مع الآيات التى تطرح مفاهيم «الإحباط» و «التكفير» و «العفو» و «التوبة»؟

فآيات «الإحباط» تقرر أنّ بعض السيئات مثل الكفر يذهبن الحسنات: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ۳۳۹].

و آيات «التكفير» تقول: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ۳۴۰] و آيات «العفو و التوبة» توضح محو الذنوب بتوبة العبد و عفو الرب.

فكيف تنسجم هذه المفاهيم مع رؤية كلّ أعمال الخير و السوء؟

و الجواب: أنّ الآيـات المـذكورة أعلاه و التى تنص على رؤيـة أعمال الخير و أعمال السوء يوم القيامـة هو أصل كلى و قانون عام. و كلّ قانون قد يكون له استثناءات. و آيات العفو و التوبة و الإحباط و التكفير هى من هذه الاستثناءات.

و ثمّـة جواب آخر هو إنّه فى حالـة الإحباط و التكفير تحـدث فى الواقع موازنـة و كسـر و انكسار تماما مثل «المطالبات» و «القروض» التى يقل بعضـها على حساب بعض، و حينما يرى الإنسان نتيجـة هـذه الموازنـة فإنّما رأى فى الواقع كلّ أعماله الصالحـة و الطالحة. و مثل هذا يصدق أيضا على «العفو» و «التوبة» لأنّ العفو لا يتمّ دون لياقة، و التوبة هى بنفسها من الأعمال الصالحة.

بعضهم ذكر هنا جوابا لا يبدو صحيحا، و هو أنّ الكفار يرون نتيجة أعمالهم

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۸۳

الصالحة فى هذه الدنيا، و هكذا المؤمنون ينالون جزاء أعمالهم السيئة فى هذا العالم.

و الظاهر أنّ الآيات التى نحن بصددها ترتبط بالقيامة لا بالدنيا، أضف إلى ذلك ليست هناك قاعدة كليّة تقضى أن يرى كل مؤمن و كافر نتيجة أعماله فى هذه الدنيا.

۳- الآية الجامعة

روى عن عبد اللّه بن مسعود قال: إنّ أحكم آية فى القرآن: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسميها «الجامعة»[۳۴۱].

و حقّا، لو تدبر الإنسان فى محتوى هذه الآية تكفيه دافعا إلى طريق الخير و ناهيا عن طريق الفساد و الانحراف.

لذا ورد أنّ رجلا جاء النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال له: علمنى ممّا علمك اللّه.

فأوكله النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إلى أحد أصـحابه ليعلمه القرآن، فعلمه: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ إلى آخر السّورة. فنهض الرجل و قال: هذه تكفينى ... و فى رواية قال:

تكفينى هذه الآية.

عن زيد بن أسلم (رض) أنّ رجلا جاء إلى النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: علمنى ما علمك اللّه، فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن فعلمه إذا زلزلت الأرض حتى بلغ فمن يعمل إلخ ... قال الرجل: حسبى. فأخبر بذلك النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «دعه فقد فقه الرجل»[۳۴۲]

و

عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أنزلت هذه الآية فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ قلت: يا رسول اللّه إنّى لراء عملى؟ قال: نعم.

قلت: الكبار الكبار. قال: نعم. قلت: الصغار الصغار. قال: نعم. قلت وا ثكلى امى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۴

قال: ابشر يا أبا سعيد فإنّ الحسنة بعشر أمثالها يعنى إلى سبعمائة ضعف، و اللّه يضاعف لمن يشاء و السيئة بمثلها أو يعفو اللّه، و لن ينجو أحد بعمله. قلت: و لا أنت يا نبىّ اللّه؟ قال: و لا أنا إلّا أن يتغمدنى اللّه منه بالرحمة[۳۴۳].

ربّنا! عند ما لا يكون فى ذلك اليوم لرسولك العظيم ملاذ سوى عفوك و رحمتك، فكيف بنا و كيف حالنا ...

إلهنا! إذا كانت أعمالنا هى الأصل فى نجاتنا فالويل لنا، و إن اسعفنا كرمك فهنيئا لنا ..

اللّهمّ! ليس لنا فى ذلك اليوم الذى تتجسد فيه الأعمال صغيرها و كبيرها إلّا لطفك العميم و رحمتك الواسعة.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الزلزلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۵

سورة العاديات

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها إحدى عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۷

«سورة و العاديات»

محتوى السّورة:

اختلف المفسّرون كثيرا فى مكان نزول هذه السّورة، كثير منهم اعتبرها مكّية، و جمع منهم قال إنّها مدنية.

قصر مقاطع الآيات، و استنادها إلى القسم، و تناولها موضوع المعاد قرائن تدل على مكيتها.

لكن مضمون القسم فى السّورة و ارتباطه بمسائل الجهاد- كما سيتضح- و هكذا الرّواية القائلة بنزول هذه السّورة بعد غزوة (ذات السلاسل)[۳۴۴] دلائل على مدنية السّورة. حتى لو فسرنا مضمون القسم فى السّورة بحركة الحجاج نحو منى و المشعر فهو دليل على أنّها مدنية أيضا.

صحيح أن مراسم الحج بأكثر مناسكه كانت شائعة بين عرب الجاهلية بتأثير من سنة إبراهيم. لكنّها كانت ممزوجة بالخرافات ممّا يجعل قسم القرآن بها مستبعدا.

من مجموع كل ذلك نرجح أن تكون السّورة مدنية.

ممّا تقدم يتّضح أيضا محتوى السّورة، فهى تبدأ بالقسم بأمور محفّزة محركة.

ثمّ تتناول بعض مظاهر الضعف البشرى كالكفر و البخل و حب الدّنيا. ثمّ تشير السّورة إشارة قصيرة معبّرة إلى مسألة المعاد و إحاطة اللّه بعباده.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۸

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هذه السّورة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد من بات بالمزدلفة، و شهد جمعا»[۳۴۵].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «من قرأ و العاديات و أدمن قراءتها بعثه اللّه مع أمير المؤمنين يوم القيامة خاصّة، و كان فى حجره و رفقائه»[۳۴۶].

و فى بعض الرّوايات أن سورة «و العاديات» تعادل نصف القرآن ۳۴۷].

و من الواضح أن كل هذه الفضيلة إنّما هى نصيب من جعل السّورة منهاجا لحياته و آمن بكل محتواها و عمل بها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۹

الآيات [سورة العاديات (۱۰۰): الآيات ۱ الى ۱۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (۱) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (۲) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (۳) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (۴)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (۵) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (۶) وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (۷) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (۸) أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (۹)

وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (۱۰) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (۱۱)

سبب النّزول

روى أن هذه السّورة نزلت بعد واقعة ذات السلاسل و كانت الحادثة على النحو التالى:

فى السنة الثامنة للهجرة بلغ الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نبأ تجمّع اثنى عشر ألف راكب فى أرض «يابس» تعاهدوا على أن لا يقرّ لهم قرار حتى يقتلوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عليّا عليه السّلام و يبيدوا الجماعة المسلمة.

و بعث النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جمعا من أصحابه إليهم فكلّموهم، و لكن دون جدوى.

فأرسل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليّا عليه السّلام مع جمع غفير من المهاجرين و الأنصار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۰

لمحاربتهم. فحثوا الخطى إلى منطقة العدو و طووا الطريق فى الليل، فحاصروا العدوّ، و عرضوا عليهم الإسلام أوّلا، و حين أبوا شنوا

هجومهم و الجوّ لمّا يزل فى ظلام، و دحروهم، فقتلوا جماعة و أسروا النساء و الأطفال و غنموا أموالا كثيرة.

و نزلت سورة «و العاديات»، و جيوش الإسلام لم تصل إلى المدينة بعد، و فى ذات اليوم صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنّاس الغداة و قرأ «و العاديات»، فلما فرغ من صلاته قال أصحابه هذه سورة لم نعرفها،

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «نعم إن عليّا ظفر بأعداء اللّه و بشرنى بذلك جبرائيل عليه السّلام فى هذه الليلة. فقدم على بعد أيّام بالغنائم و الأسارى ۳۴۸].

و قيل: إن هذه الواقعة من المصاديق البارزة للآية و ليست سببا لنزولها.

التّفسير

قسما بالمجاهدين الواعين:

قلنا إن هذه السّورة تبدأ بالقسم بأمور محفّزة منبّهة. تقسم أولا بالخيول الجارية المندفعة (إلى ميدان الجهاد) و هى تحمحم و تتنفس بشدّة:

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً.[۳۴۹] و يمكن أن يكون القسم هذا بإبل الحجاج المتجهة من عرفات إلى المشعر الحرام، و من المشعر الحرام إلى منى و هى تتنفس بشدّة.

«العاديات» جمع عادية، من «العدو»، و هو المغادرة و الابتعاد بالقلب.

فتكون «العداوة» أو بالحركة الخارجية فيكون (العدو) و هو الركض، أو بالمعاملات فيسمى (العدوان). و «العاديات» فى الآية هى الجاريات بسرعة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۹۱

«الضبح» صوت الخيل و هى تتنفس بشدّة عند الجرى.

كما ذكرنا من قبل لهذه الآية تفسيران:

الأوّل: أنّ المقسوم به فى الآية الخيل السريعة الجرى نحو ميدان الجهاد.

و لما كان الجهاد أمرا مقدسا، فهذه الحيوانات فى جريها فى هذا المسير المقدس تنال من المكانة و اللياقة ما تستحق أن يقسم بها.

الثّانى: أنّ المقسوم به الإبل الجارية فى موسم الحج بين المواقف المشرفة و هى تنقل الحجاج. لذلك كانت ذا قداسة تستحق القسم بها.

روى عن ابن عباس قال: بينما أنا جالس فى حجر إسماعيل إذ أتانى رجل فسأل عن «العاديات ضبحا» فقلت له: الخيل حين تغير فى سبيل اللّه ثمّ تأوى إلى الليل فيصنعون طعامهم و يورون نارهم. فانفتل عنّى و ذهب إلى على بن أبى طالب عليه السّلام و هو تحت سقاية زمزم. فسأله عن العاديات ضبحا، فقال: سألت عنها أحدا قبلى؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس فقال: الخيل حين تغير فى سبيل اللّه.

قال: فاذهب فادعه لى فلمّا وقف على رأسه قال: تفتى النّاس بما لا علم لك به؟! و اللّه إن كانت لأوّل غزوة فى الإسلام بدر، و ما كانت معنا إلا فرسان. فرس للزبير و فرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات الخيل، بل العاديات ضبحا الإبل من عرفة إلى مزدلفة و من مزدلفة إلى منى. قال ابن عباس فرغبت عن قولى و رجعت إلى الذى قاله على عليه السّلام.[۳۵۰]

و يحتمل أيضا أن يكون «للعاديات» هنا معنى واسع يشمل خيول المجاهدين و إبل الحجاج. و يكون معنى رواية ابن عباس أنّه لا

ینحصر المعنی بالخیول إذ لا یصدق هذا المعنی فی کل مکان. و من مصادیقه هو إبل الحجاج.

هذا التّفسیر أنسب من عدّة جهات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۹۲

ثمّ یأتی القسم التالی بهذه العادیات التی توری النیران بحوافرها:

فَالْمُورِیاتِ قَدْحاً.

و هی خیل المجاهدین التی تجری بسرعة فائقة فی میدان القتال، بحیث تنقدح النّار من تحت أرجلها جرّاء احتکاک حوافرها بصخور الأرض.

أو هی الإبل التی تجری بین مواقف الحج، فتتطایر الحصی و الحجارة من تحت أرجلها و ترتطم بحصی و حجارة أخری فتنقدح النیران.

أو مجامیع الحجیج التی توری النّار فی المواقف للطعام.

أو کنایة عن الذین یضرمون نیران الحرب و الجهاد.

أو الألسن التی تشعل النّار فی قلب الأعداء ببیانها القامع.

أو إنّها- کما یقول بعض المفسّرین- المجموعة الساعیة فی رفع حاجات النّاس، مؤدیة أهدافها. و یقال للمنجح فی حاجته: وری زنده.

ظاهر الآیة یؤید التّفسیرین الأولین، و بقیة التفاسیر یبدو أنّها بعیدة.

«الموریات» جمع «موریة»، و الإیراء یعنی إضرام النّار، و «القدح» ضرب الحجارة أو الخشب أو الحدید بما یشبهه لتولید النّار.

و القسم الثّالث بالتی تغیر صباحا علی الأعداء:

فَالْمُغِیراتِ صُبْحاً.

و کانت العرب- کما یقول الطبرسی فی مجمع البیان- تقترب لیلا من منطقة العدو و تکمن له، و تشّن غارتها فی الصباح.

و فی سبب نزول الآیة (أو أحد مصادیقها الواضحة) رأینا أن جیوش المسلمین بقیادة علی علیه السّلام استفادت من ظلام اللیل، و اتجهت نحو معسکر الأعداء، و کمنت له، ثمّ شنت غارتها فی الصباح کالصاعقة. و دحرت العدوّ قبل أن یبدی مقاومة.

و لو اعتبرنا القسم بإبل الحجاج، فالمغیرات فی الآیة هی قوافل الإبل فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۳۹۳

صباح العید من المشعر إلی منی.

«المغیرات» جمع «مغیرة». و الإغارة: الهجوم علی العدو، و قیل إن الکلمة تتضمّن معنی الهجوم بالخیل، و لکن موارد استعمالها یبیّن أن هذا القید- إن کان موجودا فی الأصل- فقد حذف بالتدریج.

و ما أورده بعضهم من احتمال أن تکون «المغیرات» هی القبائل المهاجمة المتجهة إلی میدان القتال، أو المسرعة إلی منی، فبعید، لأن الآیة: وَ الْعادِیاتِ ضَبْحاً هی بالتأکید وصف للخیل أو الإبل، لا أصحابها. و هذه الآیة استمرار لتلک.

ثمّ تشیر الآیة التالیة إلی سرعة هذه العادیات فی هجومها، و ذلک بإثارتها الغبار فی کل جانب:

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً[۳۵۱].

أو أنّ الغبار یثور من کل صوب نتیجة هجوم إبل الحجاج من المشعر الحرام علی منی.

«أثرن» من الإثارة، و هی نشر الغبار و الدخان فی الجو. و قد تأتی بمعنی الهیاج، أو انتشار أمواج الصوت فی الفضاء.

«النقع» هو الغبار، و أصل الکلمة انغماس الماء أو الانغماس فی الماء و الانغماس فی التراب یشبهه، و لذلک اتخذ نفس الاسم. و «النقیع» الماء الراکد.

و فى آخر خصائص هذه «المغيرات» تذكر الآية أنّها ظهرت بين الإعداء فى الفجر:

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً[۳۵۲].

هجومها كان مباغتا خاطفا بحيث استطاعت خلال لحظات أن تشق صفوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۴

العدوّ و تشن حملتها فى قلبه، و تشّتت جمعه. و هذا نتيجة ما تتحلّى به من سرعة و يقظة و استعداد و شهامة و شجاعة.

أو إنّها إشارة إلى ورود الحجاج من المشعر إلى قلب منى.

و قيل إنّ المقصود محاصرة الأعداء. و هذا يصحّ لو كان الفعل «فوسّطن» بتشديد السين، و القراءة المشهورة ليست كذلك. فالصحيح هو المعنى الأوّل.

نستخلص ممّا سبق أن القسم فى الآيات بهذه الخيول التى هى أولا تسرع إلى ميدان الجهاد بنفس شديد، ثمّ تزيد سرعتها حتى يتطاير الشرر من تحت حوافرها فيشقّ عتمة الليل ... و بعدها تقترب من منطقة العدو، فتباغته، و عند انبلاج عتمة الليل تشنّ هجوما شديدا يثير الغبار فى كل جانب، ثمّ تتوغل إلى قلب العدوّ و تشتت صفوفه.

القسم إذن- بهذه الخيول المقتدرة! ... بفرسانها الشجعان! ... بأنفاس مركب المجاهدين! ... بشرارات النيران المتطايرة من تحت حوافرها! ... بذلك الهجوم المباغت! ... بذرات الغبار المنتشرة فى الفضاء! ... بدخولها قلب صفوف الأعداء و تحقيق النصر الحاسم عليهم! هذه التعابير- و إن لم ترد كلها صراحة فى الآيات- فهى مجموعة كلها فى الدلالات الضمنية للكلام.

من هنا يتّضح أن الجهاد له منزلة عظيمة حتى أن أنفاس خيل المجاهدين استحقت أن يقسم بها ... و هكذا الشرر المتطاير من حوافر هذه الخيول ... و الغبار الذى تثيره فى الجو ... نعم حتى غبار ساحة الجهاد له قيمة و عظمة.

و قيل: أنّ المقصود بهذه الأقسام قد يكون النفوس التى تستطيع أن تنقل كمالها إلى الآخرين، و تقدح شرارة العلم بأفكارها، و تهجم على أهوائها النفسية، و تثير الشوق الإلهى فى نفسها و نفوس الآخرين، و تستقر أخيرا فى قلب سكنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۵

العليين.[۳۵۳] واضح أن هذا لا يمكن أن يعتبر تفسيرا للآيات، بل هو تشبيهات تخطر فى الذهن لمناسبة تفسير الآية.

ثمّ يأتى جواب القسم، و يقول سبحانه:

إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ.

نعم، الإنسان البعيد عن التربية الصحيحة ... و الذى لم تشرق فى قلبه أنوار المعارف الإلهية و تعاليم الأنبياء ... الإنسان الخاضع لأهوائه و شهواته الجامحة هو حتما كفور بالنعمة و بخيل ... إنّه لكنود.

و «كنود» اسم للأرض التى لا تنبت، و تطلق على الإنسان الكفور و البخيل أيضا.

المفسّرون ذكر و الكلمة «كنود» معانى كثيرة، منهم «أبو الفتوح الرازى» نقل ما يقارب من خمسة عشر معنى، و لكنّها غالبا فروع للمعنى الأصلى الذى ذكرناه، من ذلك:

۱- الكنود، الذى يهوّل من مصائبه و ينسى النعم.

۲- هو الذى يأكل نعم اللّه وحده، و يمنعها عن الآخرين. و

ورد عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أ تدرون من الكنود؟ قيل: اللّه و رسوله أعلم. قال: الكنود الذى يأكل وحده و يمنع رفده، و يضرب عبده ۳۵۴].

۳- الكنود، الذى لا يواسى اخوته فى مشاكلهم و مصائبهم.

۴- من كان خيره شحيح.

۵- من یمنع نعمته عن الآخرین و یجزع فی المشاکل و المصائب.

۶- من ینفق النعم الإلهیة فی المعاصی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۶

۷- من ینکر نعمة اللّه.

و هذه المعانی- کما ذکرنا- مصادیق و تفریعات لمعنی الکفران و البخل.

کلمة (الإنسان) فی مثل هذه الاستعمالات القرآنیة تعنی الأفراد المتطبعین علی الشر و الشهوات الجامحة و الطغیان، و قیل: إنّه الإنسان الکافر.

فهذه الصفة لا یمکن إطلاقها علی مطلق الإنسان. فثمّة أفراد لیسوا بقلیلین من امتزج الشکر و العطاء بدمائهم، و رفضوا البخل و الکفران، و استطاعوا بفضل الإیمان باللّه أن یتحرروا من الذاتیة و الأهواء الدنیئة و یحلقوا فی أجواء معرفة اسماء اللّه و صفاته و التخلق بالأخلاق الإلهیة.

وَ إِنَّهُ عَلی ذلِکَ لَشَهِیدٌ.

فهو بصیر بنفسه، و أن استطاع أن یخفی سریرته فلا یستطیع أن یخفیها عن اللّه و عن ضمیره، اعتراف بهذه الحقیقة أم لم یعترف.

قیل: إن الضمیر فی (إنّه) یعود إلی اللّه، أی إن اللّه شهید علی وجود صفة الکنود فی الإنسان.

و لکن الآیات السابقة و اللاحقة تحمل ضمائر تعود علی الإنسان. و بذا نستبعد هذا الاحتمال، و إن رجحه کثیر من المفسّرین.

و احتمل بعضهم أن یکون المعنی شهادة الإنسان علی عیوبه و ذنوبه یوم القیامة کما ورد فی مواضع متعددة من القرآن.

و هذا التّفسیر لا یقوم علی دلیل، لأنّ مفهوم الآیة واسع یشغل شهادة الإنسان علی کنوده فی هذه الدنیا أیضا.

صحیح أن الإنسان یعجز أحیانا عن معرفة نفسه، و بذلک یخدع ضمیره، و تصبح الصفات الذمیمة- بتسویل الشیطان و تزیینه- حسنة ممدوحة لدیه. و لکن صفة الکنود و هی الکفران و البخل واضحة إلی درجة لا یستطیع أن یخدع ضمیره و أن یغطی علیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۷

وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَیْرِ لَشَدِیدٌ.

أی إنه شدید الحبّ للمال و المتاع.[۳۵۵] و هذا الانشداد المفرط بالمال و الثروة هو سبب هذا البخل و الکفران.

کلمة (الخیر) لها معنی واسع یشمل کل نعمة. کثیر من النعم مثل العلم و المعرفة و التقوی و الجنّة و السعادة لیست مذمومة، و لا ینکر علیها القرآن. لذلک فسر الخیر فی الآیة بأنه (المال). یدل علی ذلک قرینة المقام و الآیة السابقة، و آیات أخری کقوله سبحانه: کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ لِلْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ ۳۵۶].

إطلاق «الخیر» علی المال فی الآیة یعود إلی أن المال فی حد ذاته شیء حسن، و یستطیع أن یکون وسیلة لأنواع الخیرات. لکن الإنسان الکنود یصرفه عن هدفه الأصلی، و ینفقه فی طریق ذاتیاته و أهوائه.

و فی استفهام استنکاری یقول سبحانه:

أَ فَلا یَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِی الْقُبُورِ.

وَ حُصِّلَ ما فِی الصُّدُورِ و انکشف ما فی نفسه من کفر و ایمان، و ریاء و إخلاص و غرور و تواضع و سائر نیات الخیر و الشر.

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ یَوْمَئِذٍ لَخَبِیرٌ. نعم، فهو علیهم أعمالهم و نیاتهم و سیجازیهم وفقها.

«بعثر» من «البعثرة» و هی البعث و الإثارة و الإخراج و بعثرة ما فی القبور:

بعث الموتی و إخراجهم من القبور.

«ما» اسم موصول لغیر العاقل عادة، و إنّما قال سبحانه:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۸

ما فِی الْقُبُورِ إمّا لكون الأفراد أمواتا، أو لأنّهم لا يزالون فی حالة إبهام بالنسبة لهويتهم.

و التعبير بـالقبور لا يتنافى مع عـدم وجود قبر لبعض الأفراد، كالـذين يغرقون فی البحر، أو المندرسـة قبورهم، و المتفرق تراب رفاتهم. لأن أغلب النّاس لهم قبور، أضف إلى ذلک أن القبر يمكن أن يكون له معنى واسع يشمل كل محل فيه تراب جسد الإنسان، و إن لم يكن بشكل قبر اعتيادی.

«حصِّل» من التحصيل، و هو فی الأصل يعنی إخراج اللب من القشر، و كـذلک تصـفية المعـادن، و استخراج الـذهب و أمثاله من الخامات. ثمّ استعملت لمطلق الاستخراج و الفصل. و الكلمة فی الآية تعنی فصل الخير عن الشر فی القلوب ...

الإيمان عن الكفر، أو الصفات الحسنة عن الصفات السيئة ... أو النوايا الحسنة عن الخبيثة ... تفصل فی ذلک اليوم و تظهر، و ينال كل فرد حسب ذلک جزاؤه. كما قال سبحانه فی موضع آخر: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[۳۵۷].

و التعبير بكلمة «يومئذ» يعنی أن اللّه (فی ذلک اليوم) خبير بأعمال العباد و سرائرهم.

و نعلم أنّ اللّه سـبحانه عليم دائمـا بـذات الصـدور. فـالتعبير «يومئـذ» هو لأـن ذلـک اليوم يوم الجزاء، و اللّه يجـازيهم على أعمـالهم و عقائدهم.

هذا التعبير- كما قال بعض المفسّرين- يشبه قول الذی يهدد شخصا فيقول:

سأعرف ماذا دهاک، فهو يعرف أمره الآن أيضا، و القصد أنه سيريه نتيجة ذلک.

نعم، اللّه سـبحانه عليم و خبير بأسـرارنا و ما تنطوی عليه نفوسـنا كاملا. لكن أثر هـذا العلم سـيكون أظهر و أوضـح عنـد الجزاء. و هذا التحذير لو دخل دائرة إيمان البشر لكان سدا منيعا بينهم و بين الذنوب العلنية و الخفية، و الخارجية و الباطنية،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۹

و لا يخفى على أحد ما لهذا الإعتقاد من آثار تربوية.

مسائل:

۱- ارتباط قسم هذه السّورة بأهدافها

من الأسـئلة التی تطرح حول هـذه السّورة سؤال حول الارتباط بين ما فی هذه السّورة من قسم بخيول المجاهدين، و قوله سـبحانه: «إن الإنسان لربه لكنود».

فمواضع القسم فی القرآن يشاهد فيها ارتباط بين القسم و المقسم به.

و فصاحة القرآن و بلاغته تقتضی ذلک.

قـد يكون الارتباط فی هـذه السّورة أن القرآن يقول: ثمة أفراد من بنی الإنسان يضـحّون على طريق الجهاد و يبذلون النفس و النفيس فی سبيـل اللّه، فكيف و الحـال هـذه يسـتولی على بعض النّاس البخل و الكفران، فلا يؤدّون فريضـة شـكر النعم و لا يبـذلون فی سبيل اللّه؟! صـحيح أن القسم فی الآيات بالخيل، لكن الخيل إنّما اكتسـبت أهميتها لأنها مركب المجاهدين. فالقسم إذن بجهاد المجاهدين. (و هكذا الأمر إذا كان القسم بإبل الحجاج).

و قيل أيضا أن الارتباط المـذكور يحصل بأن هذه الحيوانات تجری على طريق رضا اللّه، فلما ذا لا تخضع أنت أيّها الإنسان له، و أنت أشرف المخلوقات و أحق من غيرک؟! و المناسبة الأولى أوضح.

۲– هل الإنسان كنود بطبيعته؟

قد يستفاد من قوله سبحانه: إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ أن البخل و الكفران

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۰

صفـة لازمـة لطبيعـة الإنسان، فكيف يتناسب هـذا مع ما يمتلكه الإنسان من ضـمير يقظ و شـعور فطرى يدعوه إلى شـكر المنعم و إلى التضحية؟

مثل هذا السؤال يطرح فى المواضع التى تتحدث عن صـفة بارزة من صـفات الضـعف الإنسانى كقوله سـبحانه عن الإنسان بأنه ظلوم و جهول ۳۵۸] و إنّه هلوع ۳۵۹] و إنّه يؤوس و كفور[۳۶۰] و إنّه ليطغى ۳۶۱].

فهل نقاط الضـعف هـذه قائمة فى طبيعة الكائن البشـرى؟ كيف يمكن أن يكون هذا و القرآن يقول: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا[۳۶۲] جواب هـذا السؤال يتّضح لو عرفنا أن الإنسان له بعدان وجوديان. و لذلك يستطيع فى منحناه الصعودى أن يرتقى إلى أعلى عليين، و فى منحناه النزولى إلى أسفل سافلين.

إذا خضع للتربية الإلهية و استلهم نداء العقل، و بنى نفسه كان مصداقا لقوله سبحانه: وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا.

و إذا أعرض عن الإيمان و التقوى، و خرج عن خط أولياء اللّه كان موجودا ظلوما كفارا و يؤوسا و كفورا و هلوعا و كنودا.

من هنا فلا تناقض بين هذه الآيات، و كل منها يشير إلى واحد من بعدى وجود الإنسان.

نعم، فى داخل فطرة الإنسان تمتد جذور كل الحسنات و المفاخر و الفضائل، كما إن فيه استعدادا لما يقابل هذه الفضائل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۱

و لذلك لا يوجد فى عالم الخلقة موجود يفصل بين قوسه الصعودى و قوسه النزولى هذا القدر من البون الشاسع. (تأمل بدقّة).

۳– عظمة الجهاد

القرآن تعرض للحـديث عن مسألـة الجهاد و عظمـة المجاهدين فى سبيل اللّه فى مواضع عديدة. و لكن الحديث فى هذه السّورة فريد فى تعظيمه للجهاد إذ عدّ حتى أنفاس خيل المجاهدين و شرر حوافرها و الغبار الذى تثيره عظيمة استحقت أن يقسم بها.

و ركزت الآيـات بشـكل خـاص على السـرعة و العمل الخاطف للمجاهـدين باعتباره أحـد عوامل النصـر فى الحروب، و على المباغتة باعتبارها عاملا آخر من عوامل الإنتصار فى الحرب.

و كلّ هذه تعاليم فى منهج الجهاد.

و يلفت النظر فى سـبب نزول الآيـة أنّ عليّا عليه السّلام أمر أن تسرج الخيل فى ظلام الليل و أن تعدّ إعدادا كاملا، و حينما انفلق الفجر و زالت العتمة صلى بالنّاس الصبح، و شنّ هجومه مباشرة، و ما أن انتبه العدوّ حتى وجد نفسه تحت وطأة خيل جيش الإسلام.

هذه الحملة السريعة المباغتة جعلت إصابات المسلمين أقلّ ما يمكن، و حسمت الحرب خلال ساعات، و هذه المسائل انعكست جميعا فى آيات هذه السّورة بشكل دقيق رائع.

واضـح أنّ محور التكريم فى هـذه السّورة ليس الخيـل أو شـرارة حوافرهـا أو الغبـار المتصاعـد من تحت أرجلهـا بـل هو «الجهاد»، ثمّ «عـدّته» التى تشـمل كـلّ أنواع أجهزة الحرب فى أى زمـان ... تشـمل كـلّ أنواع «القوّة» المـذكورة بشـكل عـام مطلق إلى جانب ذكر «رباط الخيل» فى الآية (۶۰) من سورة الأنفال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۲

ربّنا! وفقنا للجهاد و التضحیة فی سبیل رضاک.

إلهنا! النفس الجامحة تجنح إلی الکفران ... فاحفظنا من أخطارها.

اللّهم! أنت علیم بسرائرنا و خبیر بأعمالنا ما ظهر منها و ما بطن فارفق بنا بلطفک و فضلک یا أرحم الراحمین.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة و العادیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۳

سورة القارعة

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها إحدی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۵

«سورة القارعة»

محتوی السّورة:

تتناول هذه السّورة بشکل عام المعاد، و مقدماته، بتعابیر حادّة، و بیان مؤثر، و إنذار صریح و واضح، حیث تصنّف النّاس یوم القیامة، إلی صنفین أو جماعتین:

الجماعة التی تکون أعمالها ثقیلة فی میزان العدل الإلهی، فتحظی جزاء بذلک، حیاة راضیة سعیدة فی جوار الرحمة الإلهیة، و جماعة أعمالها خفیفة الوزن، فتعیش فی نار جهنم الحارّة المحرقة.

و قد أشتقّ اسم هذه السّورة، أی (القارعة) من الآیة الاولی فیها.

فضیلة السّورة:

یکفی فی فضیلة هذه السورة أن نقرأ الحدیث الشریف

المروی عن الإمام الباقر علیه السّلام: «من قرأ القارعة آمنه اللّه من فتنة الدّجال أن یؤمن به، و من قیح جهنم یوم القیامة إن شاء اللّه»[۳۶۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۶

الآیات [سورة القارعة (۱۰۱): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الْقارِعَةُ (۱) مَا الْقارِعَةُ (۲) وَ ما أَدْراکَ مَا الْقارِعَةُ (۳) یَوْمَ یَکُونُ النَّاسُ کَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (۴)

وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (۵) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ (۶) فَهُوَ فِی عِیشَةٍ راضِیَةٍ (۷) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ (۸) فَأُمُّهُ هاوِیَةٌ (۹)

وَ ما أَدْراکَ ما هِیَهْ (۱۰) نارٌ حامِیَةٌ (۱۱)

التّفسیر

الحادثة القارعة:

هذه الآیات تصف القیامة و تقول:

الْقارِعَةُ ... مَا الْقارِعَةُ؟! «القارعة» من القرع، و هو طرق الشیء بالشیء مع إحداث صوت شدید.

و سمّیت العصا و المطرقة بالمقرعة لهذه المناسبة. بل سمّیت کلّ حادثة هامّة صعبة بالقارعة. (تاء التأنیث قد تکون إشارة للتأکید).

الآیة الثّالثة تخاطب حتی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تقول له: وَ ما أَدْراکَ مَا الْقارِعَةُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۷

و هذا یدل علی أنّ عظمة هذه الحادثة القارعة إلی درجة لا تخطر علی فکر أحد.

علی أی حال، أکثر المفسّرین ذکروا أنّ «القارعة» أحد أسماء القیامة، و لکن لم یوضحوا هل أنّه اسم لمقدمات القیامة إذ تقرع هذه الدنیا، و ینطفئ نور الشمس و القمر، و تغور البحار، إذا کانت القارعة هذه فوجه تسمیتها واضح.

أو إنّه اسم للمرحلة التالیة .. أی مرحلة احیاء الموتی، و ظهور عالم جدید، و تسمیتها «القارعة»- فی هذه الحالة- لما تبعثه من خوف و ذعر فی القلوب ..

الآیات التالیة بعضها یتناسب مع حادثة انهدام العالم، و بعضها مع إحیاء الموتی، و لکن الاحتمال الأوّل أنسب، و إن ذکرت الحادثتان کلاهما فی هذه الآیات متتابعتین. (مثل کثیر من المواضع القرآنیة الاخری التی تخبر عن یوم القیامة) و فی وصف ذلک الیوم العجیب یقول سبحانه:

یَوْمَ یَکُونُ النَّاسُ کَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ

«الفراش» جمع فراشة، و هی الحشرة المعروفة ذات الألوان الزاهیة، و قیل إنّها الجراد. و یبدو أنّ هذا المعنی مستلهم من قوله تعالی حیث یصف النّاس یوم القیامة کَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ[۳۶۴]، لکن المعنی اللغوی للکلمة هو الحشرة المعروفة.

و التشبیه بالفراش قد یکون لأن هذه الحشرات تلقی بنفسها بشکل جنونی فی النّار، و هذا ما یفعله أهل السیئات إذ یلقون بأنفسهم فی جهنّم.

و یحتمل أن یکون التشبیه لما یصیب جمیع النّاس فی ذلک الیوم من حیرة.

و إن کان الفراش بمعنی الجراد فوجه التشبیه هو إنّ الجراد- خلافا لکل الحیوانات التی تطیر بشکل جماعی- لیس لها مسیر مشخص فی حرکتها، و کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۸

منها یطیر فی اتجاه.

و یطرح هنا السؤال أیضا بشأن مشاهد الحیرة و التشتت و الفزع و الاضطراب، هل هی من أثر الحوادث المرعبة المرافقة لنهایة العالم، أم حوادث بدء القیامة و الحشر و النشر؟ جواب السؤال یتّضح ممّا ذکرناه أعلاه.

ثمّ تذکر الآیة التالیة وصفا آخر لذلک الیوم و تقول:

وَ تَکُونُ الْجِبالُ کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

و «العهن» هو الصوف المصبوغ.

و «المنفوش» هو المنشور و یتمّ ذلک عادة بآلة الحلج الخاصّة.

سبق أن ذكرنا أنّ القرآن الكريم فى مواضع متعددة يتحدث عن الجبال عند قيام القيامة بأنّها تتحرك أوّلا، ثمّ تدكّ و تتلاشى و أخيرا تصبح بشكل غبار متطاير فى السماء. و هذه الحالة الأخيرة تشبهها الآية بالصوف الملون المحلوج ...

الصوف المتطاير فى مهبّ الريح، لم يبق منه إلّا ألوان ... و هذه آخر مراحل انهدام الجبال.

هذا التعبير (العهن المنفوش) قد يكون إشارة إلى الألوان المختلفة للجبال، فإنّ لها ألوان شتّى.

هذه العبارة تدل على أنّ الآيات أعلاه، تتحدث عن المرحلة الاولى للقيامة و هى مرحلة العالم و نهايته. ثمّ تتطرق الآيات التالية إلى الحشر و النشر و إحياء الموتى و تقسيمهم إلى مجموعتين:

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ أى إن ميزان عمله ثقيل.

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ، وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ، فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ، وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ ۳۶۵] نارٌ حامِيَةٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۹

«موازين» جمع ميزان، و هو وسيلة للوزن، تستعمل فى وزن الأجسام، ثمّ استعملت فى المعايير المعنوية.

و ذهب بعضهم إلى أنّ أعمال الإنسان تتجسم فى ذلك اليوم، و تصبح قابلة للوزن، و توزن حقيقة بميزان الأعمال.

و قيل أيضا أنّ صحيفة أعمال الفرد هى التى توزن، فإن كانت تحمل صالحا ثقلت، و إلّا خفت أو انعدم وزنها.

و فى الواقع، ليس من الضرورى أن يكون الميزان هو الآلة المعروفة ذات الكفتين، بل هو كلّ وسيلة لتقويم الوزن، كما ورد فى الحديث: «إنّ أمير المؤمنين و الأئمّة من ذريّته عليهم السّلام هم الموازين»[۳۶۶].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام حين سئل عن معنى الميزان قال: «الميزان العدل»[۳۶۷].

و بهذا نفهم أنّ أولياء اللّه و قوانين العدل الإلهى هى موازين يعرض عليها النّاس و أعمالهم و يتمّ قياس الوزن على مقدار الشبه و المطابقة.

واضح أنّ المقصود بثقل الموازين و خفتها هو ثقل الأشياء التى توزن بها و خفة تلك الأشياء.

و التعبير بكلمة (موازين) بصيغة الجمع يعود إلى أن كل واحد من أولياء اللّه و كل قانون من القوانين الإلهية إنّما هو ميزان. أضف إلى ذلك أن تنوع مواصفات الكائن البشرى و أعماله يحتاج إلى تنوع فى الموازين.

الراغب فى المفردات يقول:

و ذكر فى مواضع الميزان بلفظ الواحد اعتبارا بالمحاسب (بكسر السين) و فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۰

مواضع الجمع اعتبارا بالمحاسبين ۳۶۸] (بفتح السين).

بعض المفسّرين قال: إنّ الموازين جمع الموزون، أى العمل الذى يوزن فثقل الموازين و خفتها إذن هو ثقل نفس الأعمال و خفتها. لا ثقل الميزان و خفته ۳۶۹].

نتيجة الإثنين طبعا واحدة، و لكن من طريقين مختلفين.

فى هذا الموضوع شرح أكثر فصلناه فى تفسير الآيتين ۸ و ۹ من سورة الأعراف، و الآية (۱۰۵) من سورة الكهف، و الآية (۱۰۲) من سورة المؤمنون.

وصف العيشة بأنّها «راضية» وصف رائع عن حياة ملؤها النعمة و رغد العيش لأهل الجنّة فى القيامة. الرضا فى تلك الحياة عميق إلى درجة قال إنّها «عيشة راضية»، و لم يقل «مرضية». أى استعمل بدل اسم المفعول اسم الفاعل لمزيد من التأكيد[۳۷۰].

هذه ميزة الحياة الآخرة بشكل خاص. لأنّ الحياة الدنيا- مهما كان فيها من رفاه و نعمة و رغد عيش و رضا- لا تخلو من المكدرات.

الحیاة الأخری هی وحدها الملیئة بالرضا و الأمن و السلام و هدوء البال.

کلمة «أم» فی قوله: فَأُمُّهُ هاوِیَةٌ تعنی المأوی و الملجأ، لأنّ «الأم» هی مأوی ابنائها و ملاذهم، و یکون معنی الآیة: إنّ هؤلاء المذنبین الذین خفت موازینهم لا ملاذ لهم سوی جهنم، و ویل لمن کان ملجؤه جهنم.

و قیل: «أم» تعنی «الدماغ»، لأنّ العرب تطلق علی الدماغ اسم «أم الرأس» و یکون معنی الآیة أنّ رؤوس هؤلاء هاویة فی جهنم، بعبارة اخری إنّ هؤلاء یلقون علی رؤوسهم فی نار جهنم. و نستبعد هذا الاحتمال، لعدم انسجامه مع الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۱

التالیة: وَ ما أَدْراکَ ما هِیَهْ .

«هاویة» من (هوی)، أی سقط، و الهاویة اسم لجهنّم لأنّها محل سقوط المذنبین. و هی إشارة أیضا إلی عمق نار جهنم.

و إذا اعتبرنا (أم) بمعنی دماغ فتکون هاویة بمعنی ساقطة. و التّفسیر الأوّل أصح و أنسب.

«حامیة» من (حمی)- علی وزن نفی- و هو شدّة الحرارة. و «حامیة» هنا إشارة إلی قدرة نار جهنم علی الإحراق.

و قوله سبحانه: وَ ما أَدْراکَ ما هِیَهْ، نارٌ حامِیَةٌ تأکید علی شدّة عذاب نار جهنم و علی أنّها فوق تصور کلّ البشر.

بحث

سبب ثقل میزان الأعمال:

الأعمال الصالحات هی دون شک متفاوتة فی قیمتها و وزنها. من هنا فالنصوص الإسلامیة رکزت علی بعض الأعمال أکثر من غیرها و اعتبرتها سببا لثقل میزان الأعمال یوم القیامة.

من ذلک

حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال فی تفسیر لا إله إلّا اللّه: «یعنی بوحدانیته، لا یقبل اللّه الأعمال إلّا بها، و هی کلمة التقوی، یثقل اللّه بها الموازین یوم القیامة»[۳۷۱].

و

عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام قال حول الشهادتین: «خف میزان ترفعان منه، و ثقل میزان توضعان فیه»[۳۷۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۲

و

عن الإمام الباقر أو الصادق علیهما السّلام: «ما فی المیزان شیء أثقل من الصلاة علی محمّد و آل محمّد» ...

ثمّ یقول فی ذیل الرّوایة: و إن الرجل لتوضع أعماله فی المیزان فیمیل به فیخرج الصلاة فیضعها فی میزانه فیرجح.[۳۷۳] و

عن الامام الباقر علیه السّلام قال: «من کان ظاهره أرجح من باطنه خف میزانه»[۳۷۴].

و نختتم هذه الرّوایات بقول لسلمان الفارسی تلمیذ مدرسة الوحی جوابا لرجل استهدف اهانته و قال له: من أنت، و ما قیمتک! فقال: «أمّا أولی و أولک فنطفة قذرة، و أمّا أخری و أخرک فجیفة منتنة، فإذا کان یوم القیامة، و نصبت الموازین، فمن ثقلت موازینه فهو الکریم، و من خفت موازینه فهو اللئیم»[۳۷۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۴۱۲

لّهمّ! اجعل ميزان عملنا ثقيلا بحبّ محمّد و آل محمّد.

ربّنا! ما بوسعنا أن نصل إلى «عيشة راضية» إلّا بلطفك و كرمك ... فأعنّا بفضلك على هذا الطريق.

إلهنا! نار جهنّم حامية ... و لا طاقة لنا بها فأطفئ لظاها لنا بماء رحمتك و كرمك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة القارعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۱۳

سورة التّكاثر

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثمانى آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۱۵

«سورة التّكاثر»

محتوى السّورة:

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ هذه السّورة نزلت فى مكّة، و ما فيها من ذكر للتفاخر و التكاثر إنّما يرتبط بقبائل قريش التى كانت تتباهى على بعضها بأمور وهميّة.

و بعضهم- كالمرحوم الطبرسى فى مجمع البيان- يرى أنّها مدنية، و ما فيها من ذكر للتفاخر قد ورد بشأن اليهود أو طائفتين من الأنصار، لكن مكيتها أصح لشبهها الكبير بالسور المكّية.

هذه السّورة تتناول فى مجموعها تفاخر الأفراد على بعضهم استنادا إلى مسائل موهومة، و تذم ذلك و تلوم عليه، ثمّ تحذرهم من حساب المعاد و عذاب جهنم و ممّا سيسألون يوم ذاك عن النعم التى منّ اللّه بها عليهم.

اسم السّورة مستل من الآية الأولى فيها.

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هذه السّورة

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها لم يحاسبه اللّه بالنعيم الذى أنعم عليه فى دار الدنيا، و أعطى من الأجر كأنّما قرأ ألف آية»[۳۷۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۱۶

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «قراءة هذه السّورة فى الفريضة و النافلة يعادل ثواب شهادة شهيد»[۳۷۷].

واضح أنّ كلّ هذا الثواب إنّما هو لمن يقرأها و لمن يطبقها فى برنامج حياته و يتفاعل معها روحيا و نفسيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۱۷

الآيات [سورة التكاثر (۱۰۲): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (۱) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (۲) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۴)
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (۵) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (۶) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (۷) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (۸)

سبب النّزول

المفسّرون- كما أشرنا- يعتقدون أنّ السّورة نزلت فی قبائل كانت تتفاخر على بعضها بكثرة الأموال و الأنفس حتى أنّها كانت تذهب إلى المقابر و تعدّ موتاها لترفع احصائية أفراد القبيلة.

بعضهم قال: إنّ المقصود قبيلتان من قريش فی مكّة، و بعضهم قال إنّهما قبيلتان من قبائل الأنصار فی المدينة، و قيل: إنّه إشارة إلى تفاخر اليهود على غيرهم، و يبدو أن الأوّل أصح لمكان مكّية هذه السّورة.

سبب النزول- مهما كان- فهو لا يحد قطعا معنى الآية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۸

التّفسير

بلاء التكاثر و التفاخر:

الآيات الاولى توجّه اللوم إلى المتكاثرين المتفاخرين و تقول:

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ فی الأنفس و الأموال.

حتى إنّكم ذهبتم إلى المقابر لتستكثروا أفراد قبيلتكم: حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ.

و احتمل بعض المفسّرين فی تفسير الآية أنّ المعنى هو: إنّكم انشغلتم بالتكاثر و التفاخر حتى لحظة موتكم و ورودكم إلى المقابر.

لكن المعنى الأوّل أكثر انسجاما مع عبارة حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ و مع سبب النزول، و خطبة نهج البلاغة كما سنشير إلى ذلك.

«ألهاكم» من «اللهو» و هو الانشغال بالأعمال الصغيرة و الانصراف عن المهام الكبيرة. و الراغب يفسّر اللهو بالعمل الذی يشغل الإنسان و يصرفه عن مقاصده و أهدافه.

«التكاثر» يعنی التفاخر و المباهاة «زرتم» من الزيارة و «زور» (على وزن قول) فی الأصل بمعنى أعلى الصدر، ثمّ استعمل للقاء و المواجهة. و «زور» (على وزن قمر) بمعنى انحراف أعلى الصدر، و الكذب لانحرافه عن الحق سمّی (زورا)- على وزن نور-.

«المقابر» جمع مقبرة، و هی مكان دفن الميت. و زيارة المقابر إمّا أن تكون كناية عن الموت. أو بمعنى الذهاب إلى المقابر و إحصاء الموتى بهدف التكاثر فی الأنفس و التفاخر بالعدد (حسب التّفسير المشهور).

و ذكرنا أن المعنى الثّانی أصح. و أحد شواهده

كلام لأمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه السّلام، بعد أن تلا: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ قال:

«يا له أمر ما أبعده! و زورا ما أغفله! و خطرا ما أفظعه! لقد استخلوا منهم أی مدّكر و تناوشوهم من مكان بعيد. أ فبمصارع آبائهم يفخرون؟! أو بعديد الهلكى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۱۹

یتکاثرون؟! یرتجعون منهم أجسادا خوت، و حرکات سکنت، و لأن یکونوا عبرا أحق من أن یکونوا مفتخرا!!»[۳۷۸].

هذه الخطبة قسم من خطبة عظیمة یقول عنها ابن أبی الحدید المعتزلی:

«و أقسم بمن تقسم الأمم کلّها به؛ لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسین سنة و إلی الآن أکثر من ألف مرّة، ما قرأتها قط إلّا و أحدثت عندی روعة و خوفا و عظة، و أثرت فی قلبی وجیبا، و فی أعضائی رعدة، و لا تأملتها إلّا و ذکرت الموتی من أهلی و أقاربی، و أرباب ودی، و خیلت فی نفسی أنّی أنا ذلک الشخص الذی وصف علیه السلام حاله.

و کم قد قال الواعظون و الخطباء و الفصحاء فی هذا المعنی! و کم وقفت علی ما قالوه و تکرر وقوفی علیه! فلم أجد لشیء منه مثل تأثیر هذا الکلام فی نفسی؛ فإمّا أن یکون ذلک لعقیدتی فی قائله، أو کانت نیة القائل صالحة، و یقینه کان ثابتا، و إخلاصه کان محضا خالصا، فکان تأثیر قوله فی النفوس أعظم و سریان موعظته فی القلوب أبلغ»[۳۷۹].

و یقول فی مکان آخر: «ینبغی لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة فی مجلس و تلی علیهم أن یسجدوا» ثمّ یشیر إلی قول معاویة حول فصاحة الإمام علی علیه السّلام:

«و اللّه ما سنّ الفصاحة لقریش غیره».

الآیات التالیة فیها تهدید شدید لهؤلاء المتکاثرین، تقول: کَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ فلیس الأمر کما ترون، و به تتفاخرون. بل سوف تعلمون عاجلا نتیجة هذا التکاثر الموهوم.

لمزید من التأکید یقول سبحانه: ثُمَّ کَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ

جمع من المفسّرین ذهبوا إلی أنّ الآیتین تکرار لموضوع واحد و تأکید علیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۲۰

و کلتاهما تشیران إلی العذاب الذی ینتظر هؤلاء المتکاثرین المتفاخرین.

و بعضهم قال: إنّ الأولی إشارة إلی عذاب القبر و البرزخ و الثّانیة إلی عذاب القیامة.

و

روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «ما زلنا نشک فی عذاب القبر حتی نزلت ألهاکم التکاثر، إلی قوله: کلا سوف تعلمون، یرید فی القبر، ثمّ کلا سوف تعلمون، بعد البعث»[۳۸۰].

فی التّفسیر الکبیر للفخر الرازی عن زر بن حبیش أحد أصحاب الإمام علی علیه السّلام قال: کنّا فی شک فی عذاب القبر حتی سألنا علیّا فأخبرنا أن هذه الآیة دلیل علی عذاب القبر.

کَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ کلا لیس الأمر کما تظنون أیّها المتفاخرون المتکاثرون. فلو إنّکم تعلمون الآخرة علم الیقین، لما اتجهتم إلی التفاخر و المباهاة بهذه المسائل الباطلة.

و لمزید من التأکید و الإنذار تقول لهم الآیات التالیة:

لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَیْنَ الْیَقِینِ، ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ فی ذلک الیوم علیکم أن توضحوا کیف أنفقتم تلک النعم الإلهیة. و هل استخدمتموها فی طاعة اللّه أم فی معصیته، أم أنّکم ضیعتم النعمة و لم تؤدّوا حقّها؟

بحوث

۱- منبع التفاخر و التکاثر

من آیات السّورة یتبیّن أنّ أحد العوامل الأساسیة للتفاخر و التکاثر و المباهات هو الجهل بجزاء الآخرة و عدم الإیمان بالمعاد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۲۱

کما إنّ جهل الإنسان بضعفه و مسکنته ... ببدایته و نهایته ... من العوامل الاخری الباعثة علی الکبر و الغرور و التفاخر. و لهذا فإنّ القرآن الکریم بهدف کسر روح التفاخر و التکاثر فی الأفراد، یقصّ علینا فی مواضع کثیرة مصیر الأقوام السالفة، و کیف إنّها کانت تمتلک کلّ وسائل القوّة و المنعة، لکنّها أبیدت بوسائل بسیطة ... بالریح ... بالصاعقة ... بالزلزال ... بالسیل ... بعبارة اخری بالماء و الهواء و التراب .. و أحیانا بالسجّیل و بطیر أبابیل!! فلم- و الحال هذه- کلّ هذا التفاخر و الغرور؟! ثمّ عامل آخر لهذه الظاهرة هو الإحساس بالضعف و عقدة الحقارة الناتجة عن الفشل. و الأفراد الفاشلون من أجل أن یغطوا علی فشلهم یلجأون إلی الفخر و المباهات و لذلک

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «ما من رجل تکبر أو تجبّر إلّا لذلة وجدها فی نفسه»[۳۸۱].

و

عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام قال: «ثلاثة من عمل الجاهلیة: الفخر بالأنساب، و الطعن بالأحساب و الاستسقاء بالأنواء (طلب الماء بواسطة النجوم)»[۳۸۲].

و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «أهلک النّاس اثنان: خوف الفقر، و طلب الفخر»[۳۸۳].

و الحق أنّ أهم عوامل الحرص و البخل و الخلود إلی الدنیا و المنافسات المخربة، و کثیر من المفاسد الاجتماعیة هو هذا الخوف الوهمی من الفقر و التفاخر و التعالی بین الأفراد و الأمم و القبائل.

و لذا

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «ما أخشی علیکم الفقر و لکن أخشی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۲۲

علیکم التکاثر»[۳۸۴].

«التکاثر» کما أشرنا یعنی فی الأصل التفاخر، و لکنّه یعنی أحیانا حبّ الاستزادة من المال و جمعه، کما

ورد فی الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «التکاثر فی الأموال: جمعها من غیر حقّها، و منعها من حقها، و شدّها فی الأوعیة»[۳۸۵].

هذا البحث الموسّع نختمه

بحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر أَلْهاکُمُ التَّکاثُرُ قال:

«یقول ابن آدم: مالی مالی؛ و ما لک من مالک إلّا ما أکلت فأفنیت، أو لبست فأبلیت، أو تصدقت فأمضیت»[۳۸۶].

نعم، حقّا لا یعود علی الإنسان شیء من ماله الذی جمعه و عدده، و تساهل- أحیانا- فی حلاله و حرامه، إلّا ما یأکل و یشرب و یلبس، أو ما ینفقه فی سبیل اللّه و ما ینفقه علی الاحتیاجات الشخصیة قلیل، فما أفضل أن یزید حظه من ماله بالإنفاق!

۲- الیقین و مراحله

«الیقین» یقابل «الشک»، کما إنّ «العلم» یقابل «الجهل»، و الیقین یعنی وضوح الشیء و ثبوته. و یستفاد من الرّوایات أنّ الیقین هو أعلی

مراحل الإیمان.

الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام یجعل الإیمان أعلی من الإسلام درجة، و التقوی أعلی من الإیمان درجة، و الیقین أعلی من التقوی درجة ثمّ

یقول: «و لم یقسم بین النّاس شیء أقل من الیقین».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۳

و

یسأل الراوی: ما هو الیقین؟ یقول: «التوکل علی اللّه، و التسلیم للّه، و الرضا بقضاء اللّه، و التفویض إلی اللّه!»[۳۸۷].

علوّ مقام الیقین علی مقام التقوی و الإیمان و الإسلام أکدت علیه روایات أخری ۳۸۸].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «من صحة یقین المرء المسلم أن لا یرضی النّاس بسخط اللّه، و لا یلومهم علی ما لم یؤته اللّه ... إنّ اللّه بعدله و قسطه جعل الروح و الراحة فی الیقین و الرضا، و جعل الهم و الحزن فی الشک و السخط».

و من هذه النصوص و أمثالها نفهم جیدا أنّ الإنسان- حین یصل إلی مقام الیقین- تغمر قلبه و روحه طمأنینة خاصّة.

و مع هذا، فللیقین مراتب، أشارت إلیها الآیة أعلاه و الآیة (۹۵) من سورة الواقعة: إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْیَقِینِ و هی ثلاثة:

۱- علم الیقین: و هو الذی یحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفة، کأن یشاهد دخانا فیعلم علم الیقین أن هناک نارا.

۲- عین الیقین: و هو یحصل حین یصل الإنسان إلی درجة المشاهدة کأن یری بعینه مثلا النّار.

۳- حقّ الیقین: و هو کأن یدخل الإنسان النّار بنفسه و یحسّ بحرقتها، و یتصف بصفاتها. و هذه أعلی مراحل الیقین.

یقول المحقق الطوسی: الیقین اعتقاد جازم مطابق ثابت، لا یمکن زواله، و هو فی الحقیقة مؤلف من علمین، العلم بالمعلوم و العلم بأن خلاف ذلک العلم محال،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۴

و له مراتب: علم الیقین، و عین الیقین، و حقّ الیقین ۳۸۹].

إنّه ذکر عند النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ بعض أصحاب عیسی علیه السّلام کان یمشی علی الماء

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لو کان یقینه أشدّ من ذلک لمشی علی الهواء»

فالحدیث- کما تری- یومئ إلی أنّ الأمر یدور مدار الیقین باللّه سبحانه و محو الأسباب الکونیة عن الاستقلال فی التأثیر، فإلی أی مبلغ بلغ رکون الإنسان إلی القدرة المطلقة الإلهیة انقادت له الأشیاء علی قدره ۳۹۰].

۳- الجمیع یری جهنم

الآیة الکریمة: لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ لها تفسیران:

الأوّل: إنّها تتحدث عن مشاهدة الجحیم فی الآخرة، و هو خاص بالکفّار، أو لعامة الجن و الإنس، إذ تنص بعض الآیات علی أنّه ما من أحد إلّا وارد جهنّم.

الثّانی: إنّها تتحدث عن الشهود القلبی فی عالم الدنیا. و فی هذه الحالة تکون الآیة جوابا لقضیة شرطیة هی: لو تعلمون علم الیقین لترون الجحیم (فی هذه الدنیا بعین بصیرتکم). لأنّ الجنّة و جهنّم مخلوقان، و لهما الآن وجود خارجی.

و لکن- کما ذکرنا- التّفسیر الأوّل أنسب مع الآیات التالیة التی تتحدث عن یوم القیامة. من هنا، فالقضیة قطعیة و لیست شرطیة.

۴- أیّ نعیم یسأل عنه یوم القیامة؟

الآیة الأخیرة من السّورة تقول: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ قیل إنّ النعیم المسؤول عنه هو نعمة السلامة، و فراغ البال، و قیل: إنّه الصحة و السلامة و الأمن،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۲۵

و قیل: الآیة تشمل کل هذه النعم.

و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «النعیم: الرّطب، و الماء البارد».

و روی أنّ أبا حنیفة سأل الإمام جعفر بن محمّد الصادق عن تفسیر هذه الآیة قال الإمام: «ما النعیم عندک یا نعمان» قال: القوت من الطعام و الماء البارد، فقال علیه السّلام «لئن أوقفک اللّه یوم القیامة بین یدیه حتی یسألک عن کلّ أکلة أکلتها و شربة شربتها لیطولن وقوفک بین یدیه». قال: فما النعیم جعلت فداک؟ قال الامام: «نحن أهل البیت النعیم الذی أنعم اللّه بنا علی العباد و بنا ائتلفوا بعد أن کانوا مختلفین و بنا ألّف اللّه بین قلوبهم و جعلهم إخوانا بعد أن کانوا أعداء و بنا هداهم اللّه للإسلام و هی النعمة التی لا تنقطع و اللّه سائلهم عن حقّ النعیم الذی أنعم اللّه به علیهم و هو النّبی و عترته»[۳۹۱].

من کلّ هذه الرّوایات- التی یبدو أنّها مختلفة فی ظاهرها- نفهم أنّ النعیم له معنی واسع جدّا یشمل کلّ المواهب الإلهیة المعنویة منها مثل: الدین و الإیمان و الإسلام و القرآن و الولایة، و أنواع النعم المادیة الفردیة منها و الاجتماعیة. بید أن النعم التی لها أهمیّة أکبر مثل: نعمة «الإیمان و الولایة» یسأل عنها أکثر. هل أدّی الإنسان حقّها أم لا؟ و الرّوایات التی تنفی شمول الآیة للنعم المادیة یظهر أنّها ترید أن تقول: لا ینبغی أن نترک المصادیق الأهم للآیة و نتمسک بالمصادیق الأصغر. إنّه تحذیر- فی الواقع- إلی النّاس بشأن سلسلة مراتب المواهب و النعم الإلهیة، و بأنّهم یتحملون إزاءها مسئولیة ثقیلة.

و کیف یمکن أن لا- یسأل عن هذه النعم؟ و هی ثروة کبیرة و هبت للبشریة یجب أن تقدر کل واحدة منها حقّ قدرها و أن یؤدّی شکرها، و أن یستثمر کل منها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۲۶

فی موضعها.

اللّهمّ! أدم علینا نعمک التی لا تحصی، خاصّة نعمة الإیمان و الولایة.

ربّنا! وفقنا لأداء حق کل هذه النعم.

إلهنا! زد علینا من نعمک الکبری، و لا تسلبها منا أبدا.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة التکاثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۲۷

سورة العصر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثلاث آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۲۹

«سورة و العصر»

محتوى السّورة:

المعروف أنّ هذه السّورة مكّية، و احتمل بعضهم أنّها مدنية. و يشهد على مكّيتها لحنها و مقاطعها القصيرة.
شمولية هذه السّورة تبلغ درجة حدت ببعض المفسّرين إلى أن يرى فيها خلاصة كل مفاهيم القرآن و أهدافه. بعبارة اخرى: هذه السّورة- رغم قصرها- تقدم المنهج الجامع و الكامل لسعادة الإنسان.
تبدأ السّورة من قسم عميق المحتوى بالعصر. و سيأتی تفسيره. ثمّ تتحدث عن خسران كلّ أبناء البشر خسرانا قائما فی طبيعة حياتهم التدريجية. ثمّ تستثنى مجموعة واحدة من هذا الأصل العام، و هی التی لها منهج ذو أربع مواد:
الإيمان، و العمل الصالح، و التواصی بالحق، و التواصی بالصبر، و هذه الأصول الأربعة هی فی الواقع المنهج العقائدی و العملی الفردی و الاجتماعی للإسلام.

فضيلة السّورة:

ورد فی فضيلة هذه السّورة عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «من قرأ «و العصر» فی نوافله بعثه اللّه يوم القيامة مشرقا وجهه، ضاحكا سنّه، قريرة عينه، حتى
الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۳۰
يدخل الجنّة»[۳۹۲].
و واضح أنّ كل هذه الفضيلة و هذه البشرى نصيب من طبق الأصول الأربعة المذكورة فی حياته، لا أن يقنع فقط بقراءتها.
الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۳۱

الآيات [سورة العصر (۱۰۳): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الْعَصْرِ (۱) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ (۲) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (۳)

التّفسير

طريق النجاة الوحيد:

فی بداية هذه السّورة نواجه قسما قرآنيا جديدا، يقول سبحانه:
وَ الْعَصْرِ.
كلمة (العصر) فی الأصل الضغط، و إنّما اطلق على وقت معين من النهار لأنّ الأعمال فيه مضغوطة. ثمّ أطلقت الكلمة على مطلق الزمان و مراحل تاريخ البشرية، أو مقطع زمانی معين، كأن نقول عصر صدر الإسلام. و لذلك ذكر المفسّرون فی معنى العصر احتمالات

كثيرة:

۱- قيل: إنّه وقت العصر من النهار، بقرينة وجود مواضع اخرى أقسم اللّه فيها بأوّل النهار كقوله تعالى: وَ الضُّحى ۳۹۳] أو وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ[۳۹۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۲

و إنّما أقسم بالعصر لأهميته، إذ هو فى وقت من النهار يحدث فيه تغيير فى نظام المعيشة و حياة البشر، الأعمال اليومية تنتهى، و الطيور تعود إلى أوكارها، و قرص الشمس يميل إلى الغروب، و يتجه الجو إلى أن يكون مظلما بالتدريج.

هذا التغيير يلفت نظر الإنسان إلى قدرة اللّه المطلقة فى نظام الكون، و هو فى الواقع أحد علامات التوحيد، و أية من آيات اللّه تستحق أن يقسم بها.

۲- قيل: إنّه كلّ الزمان و تاريخ البشرية المملوء بدروس العبرة، و الأحداث الجسيمة. و هو لذلك عظيم يستحق القسم الإلهى.

۳- بعضهم قال: إنّه مقطع خاص من الزمان مثل عصر البعثة النبوية المباركة، أو عصر قيام المهدى المنتظر عليه السّلام، و هى مقاطع زمنية ذات خصائص متميزة و عظمة فائقة فى تاريخ البشر. و القسم فى الآية إنّما هو بتلك الأزمنة الخاصّة[۳۹۵].

۴- بعضهم عاد إلى الأصل اللغوى للكلمة، و قال إنّ القسم فى الآية بأنواع الضغوط و المشاكل التى تواجه الإنسان فى حياته، و تبعث فيه الصحوة و توقظه من رقاده، و تذكره باللّه سبحانه، و تربّى فيه روح الاستقامة.

۵- قيل: إنّها إشارة إلى «الإنسان الكامل» الذى هو فى الواقع عصارة عالم الوجود و الخليقة.

۶- و أخيرا قيل إنّ الكلمة يراد بها صلاة العصر، لأهميتها الخاصّة بين بقية الصلوات، لأنّها (الصلاة الوسطى) التى أمر اللّه أن يحافظ عليها خاصّة.

مع أنّ التفاسير أعلاه غير متضادة، و يمكن أن تجتمع كلّها فى معنى الآية، و يكون القسم بكل هذه الأمور الهامّة، و لكن الأنسب فيها هو القسم بالزمان و تاريخ البشرية. لأنّ القسم القرآنى- كما ذكرنا مرارا- يتناسب مع الموضوع الذى أقسم اللّه من أجله و من المؤكّد أن خسران الإنسان فى الحياة ناتج عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۳

تصرّم عمرهم، أو أنّه عصر بعثة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ المنهج ذا المواد الأربع فى ذيل هذه السّورة نزل فى هذا العصر.

تتّضح ممّا سبق عظمة آيات القرآن و سعة مفاهيمها. فكلمة واحدة تحمل من المعانى العميقة ما يجعلها صالحة لكل هذه التفاسير المتنوعة.

الآية التالية تحمل الموضوع الذى جاء القسم من أجله، يقول سبحانه:

إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ الإنسان يخسر ثروته الوجودية شاء أم أبى. تمرّ الساعات و الأيّام و الأشهر و الأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادية و المعنوية، تتناقص قدرته باستمرار.

نعم، إنّه كشخص عنده ثروة عظيمة، و هذه الثروة يؤخذ منها كلّ يوم شىء باستمرار رغم إرادته، هذه طبيعة الحياة الدنيوية ... طبيعة الخسران المستمر! القلب له قدرة معينة على الضربان، و حين تنفد هذه القدرة يتوقف القلب تلقائيا دون علّة من عيب أو مرض. هذا إذا لم يكن توقف الضربان نتيجة مرض.

و هكذا سائر الأجهزة الوجودية للإنسان، و ثروات قدراته المختلفة.

«خسر» و خسران، كما يقول الراغب، انتقاص رأس المال، و ينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال خسر فلان، و إلى الفعل فيقال: خسرت تجارته. قال تعالى: تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ. و يستعمل ذلك فى المقتنيات الخارجية كالمال و الجاه فى الدنيا و هو الأكثر، و فى

المقتنیات النفسیة کالصحة و السلامة و العقل و الإیمان و الثواب، و هو الذی جعله اللّه تعالی الخسران المبین، و قال: «الذین خسروا أنفسهم و أهلیهم یوم القیامة، ألا ذلک هو الخسران المبین»[۳۹۶].

الفخر الرازی فی تفسیر هذه الآیة ینقل عن أحد الصالحین ما ملخصه أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۴

تعلم معنی هذه الآیة الکریمة من بائع ثلج کان یصیح و یقول: ارحموا من یذوب رأس ماله، ارحموا من یذوب رأس ماله ۳۹۷] علی أی حال، الدنیا فی المنظور الإسلامی سوق تجارة. کما

یقول الإمام علی بن محمّد الهادی علیه السّلام: «الدنیا سوق ربح فیها قوم و خسر آخرون»[۳۹۸]

الآیة الکریمة التی نحن بصددها تقول: کلّ النّاس فی هذه السوق الکبری خاسرون إلّا مجموعة تسیر علی المنهج الذی تبیّنه الآیة التالیة.

نعم، هناک طریق واحد لا غیر لتفادی هذا الخسران العظیم القهری الإجباری، و هو الذی تبیّنه آخر آیات هذه السّورة.

إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ بعبارة اخری: ما یستطیع أن یحول دون هذا الخسران الکبیر، و أن یبدله إلی منفعة کبیرة و ربح عظیم هو أنّه مقابل فقدان رأس المال، یحصل علی رأس مال أغلی و أثمن، یستطیع أن یسدّ مسدّ رأس المال المفقود، بل أن یکون أفضل و أکثر منه عشرات، بل مئات، بل آلاف المرات.

کلّ نفس من أنفاس الإنسان یقربه خطوة نحو الموت،

أمیر المؤمنین علی علیه السّلام یقول: «نفس المرء خطاء إلی أجله»[۳۹۹].

و هکذا کلّ ضربة من ضربات القلب تقرب الإنسان من الموت من هنا لا بدّ من المبادرة إلی ملء الفراغ الذی یولده هذا الخسران الحتمی.

هناک من ینفق رأس مال عمره و حیاته مقابل الحصول علی مال قلیل أو کثیر، علی بیت صغیر أو فخم.

هناک من ینفق کل رأس المال هذا من أجل الوصول إلی منصب أو مقام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۵

و هناک من ینفقه فی سبیل أهوائه و ملذاته.

لیس أی واحد من هذه الأمور- دون شک- یمکن أن یکون ثمنا لتلک الثروة العظیمة ... ثروة العمر ... ثمنها الوحید رضا اللّه سبحانه و مقام قربه لا غیر.

قال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «إنّه لیس لأنفسکم ثمن إلّا الجنّة فلا تبیعوها إلّا بها»[۴۰۰].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فی دعاء شهر رجب: «خاب الوافدون علی غیرک و خسر المتعرضون إلّا لک».

و من هنا کان أحد أسماء یوم القیامة «یوم التغابن» کما جاء فی قوله سبحانه:

ذلِکَ یَوْمُ التَّغابُنِ ۴۰۱]. أی ذلک الیوم الذی یظهر من هو المغبون و الخاسر.

إنّه لتنظیم رائع فی علاقة العبد بربّه. فهو سبحانه من جهة یشتری رأس مال وجود الإنسان: إِنَّ اللَّهَ اشْتَری مِنَ الْمُؤْمِنِینَ ...[۴۰۲].

و من جهة أخری یشتری سبحانه رأس المال القلیل: فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ ۴۰۳].

و من جانب آخر یدفع مقابل ذلک ثمنا عظیما یبلغ أحیانا عشرة أضعاف و أحیانا سبعمائة ضعف، و أحیانا أکثر: فِی کُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَ اللَّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ[۴۰۴].

و کما

ورد فی الدعاء: «یا من یقبل الیسیر و یعفو عن الکثیر».

و من جهة رابعة، فإنّ کلّ رؤوس أموال الإنسان و ثرواته قد وهبها اللّه إیّاه ...

و اللّه بفضله و منّه و لطفه یعود لیشتری هذه الثروات نفسها بأغلی الأثمان!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۶

بحث

منهج السعادة ذو المواد الأربع:

من المهم أن نقف و لو قلیلا عند المنهج الذی وضعه القرآن الکریم للنجاة من ذلک الخسران ... إنّه منهج یتکون من أربعة أصول هی:

الأصل الأوّل: «الإیمان» و هو البناء التحتی لکلّ نشاطات الإنسان، لأنّ فعالیات الإنسان العملیة تنطلق من أسس فکره و اعتقاده، لا کالحیوانات المدفوعة فی حرکاتها بدافع غریزی.

بعبارة اخری، أعمال الإنسان بلورة لعقائده و أفکاره، و من هنا فإن جمیع الأنبیاء بدأوا قبل کلّ شیء بإصلاح الاسس الاعتقادیة للأمم و الشعوب. و حاربوا الشرک بشکل خاص باعتباره أساس أنواع الرذائل و الشقاوة و التمزق الاجتماعی.

و الآیة الکریمة قالت: إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا فذکرت الإیمان بمعناه المطلق لیشمل الإیمان بکلّ المقدسات، ابتداء من الإیمان باللّه و صفاته، حتی الإیمان بالقیامة و الحساب و الجزاء و الکتب السماویة و أنبیاء اللّه و أوصیائهم.

الأصل الثّانی: «العمل الصالح»، و هو ثمرة دوحة الإیمان. تقول الآیة:

... وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا- العبادات فحسب، و لا الإنفاق فی سبیل اللّه وحده، و لا الجهاد فی سبیل اللّه فقط، و لا الاکتفاء بطلب العلم ... بل کلّ الصالحات التی من شأنها أن تدفع إلی تکامل النفوس و تربیة الأخلاق و القرب من اللّه، و تقدم المجتمع الإنسانی.

هذا التعبیر یشمل الأعمال الصغیرة، کرفع الحجر من طریق النّاس و الأعمال الجسام مثل إنقاذ ملایین النّاس من الضلالة و الانحراف و نشر الرسالة الحقة و العدالة فی أرجاء العالم.

و ما ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فی تفسیر وَ عَمِلُوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۷

الصَّالِحاتِ بأنّه المواساة و المساواة للأخوة فی اللّه، إنّما هو من قبیل بیان المصداق الواضح للآیة.

قد تصدر الأعمال الصالحة من أفراد غیر مؤمنین، لکنّها غیر متجذرة و غیر ثابتة و غیر واسعة. لأنّها لا تنطلق من دافع إلهی عمیق، و لا تحمل صفة الشمولیة.

القرآن ذکر «الصالحات» هنا بصیغة الجمع مقرونة بالألف و اللام لتدل علی معنی العموم و الشمول. و لتبیّن أن طریق تفادی الخسران الطبیعی الحتمی بعد الإیمان، هو أداء الأعمال الصالحة جمیعا، و عدم الاکتفاء بعمل واحد أو بضع أعمال صالحات حقّا، لو رسخ الإیمان فی النفس، لظهرت علی الفرد مثل هذه الآثار.

الإیمان لیس فکرة جامدة قابعة فی زوایا الذهن، و لیس اعتقادا خالیا من التأثیر. الإیمان یصوغ کلّ وجود الإنسان وفق منهج معین.

الإیمان مثل مصباح منیر مضیء فی غرفة. فهو لا یضیء الغرفة فحسب، بل إن أشعته تسطع من کلّ نوافذ الغرفة إلی الخارج بحیث یری کل مار نوره بوضوح.

و هکذا، حین یسطع مصباح الإیمان فی قلب إنسان، فإنّ نوره ینعکس من لسان الإنسان و عینه و أذنه و یدیه و رجلیه. حرکات کلّ واحدة من هذه الجوارح تشهد علی وجود نور فی القلب تسطع أشعته إلی الخارج.

و من هنا اقترن ذکر الصالح فی أغلب مواضع القرآن بذکر الإیمان باعتبارها لازما و ملزوما. فقال سبحانه: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیاةً طَیِّبَةً[۴۰۵]. و یقول تعالی عن أولئک الذین ترکوا الدنیا دون عمل صالح، إنّهم یصرون علی العودة إلی الدنیا و یقولون: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ ۴۰۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۸

و یقول سبحانه لرسله: یا أَیُّهَا الرُّسُلُ کُلُوا مِنَ الطَّیِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً[۴۰۷].

و لما کان الإیمان و العمل الصالح لا یکتب لهما البقاء إلّا فی ظلّ حرکة اجتماعیة تستهدف الدعوة إلی الحق و معرفته من جهة، و الدعوة إلی الصبر و الاستقامة علی طریق النهوض بأعباء الرسالة، فإنّ هذین الأصلین تبعهما أصلان آخران هما فی الحقیقة ضمان لتنفیذ أصلی «الإیمان» و «العمل الصالح».

الأصل الثّالث: «التواصی بالحق»، أی الدعوة العامّة إلی الحق، لیمیز کلّ أفراد المجتمع الحق من الباطل، و یضعوه نصب أعینهم، و لا ینحرفون عنه فی مسیرتهم الحیاتیة.

«تواصوا» کما یقول الراغب تعنی أن یوصی بعضهم إلی بعض.

و «الحق» فی الأصل الموافقة و المطابقة للواقع. و ذکر للکلمة معانی قرآنیة متعددة من ذلک، و القرآن، و الإسلام، و التوحید، و العدل، و الصدق، و الوضوح، و الوجوب و أمثالها من المعانی التی ترجع إلی نفس المعنی الأصلی الذی ذکرناه.

عبارة تَواصَوْا بِالْحَقِ تحمل علی أی حال معنی واسعا یشمل الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر و یشمل أیضا تعلیم الجاهل و إرشاده، و تنبیه الغافل، و الدعوة إلی الإیمان و العمل الصالح.

واضح أن المتواصین بالحق یجب أن یکونوا بدورهم من العاملین به، و المدافعین عنه.

الأصل الرّابع: «التواصی بالصبر»، و الاستقامة، إذ بعد الإیمان و الحرکة فی المسیرة الإیمانیة تبرز فی الطریق العوائق و الموانع و السرور. و بدون الاستقامة و الصبر لا یمکن المواصلة فی إحقاق الحقّ و العمل الصالح و الثبات علی الإیمان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۹

نعم، إحقاق الحق فی المجتمع لا یمکن من دون حرکة عامّة و عزم اجتماعی، و من دون الاستقامة و الوقوف بوجه ألوان التحدیات.

«الصبر» هنا یحمل مفهوما واسعا یشمل الصبر علی الطاعة، و الصبر علی دوافع المعصیة، و الصبر إزاء المصائب و الحوادث المرّة، و فقدان الإمکانات و الثروة و الثمرات ۴۰۸].

ممّا تقدم نفهم أنّ الأصول الأربعة التی ذکرتها هذه السّورة المبارکة تشکل المنهج الجامع لحیاة الإنسان و سعادته. و لذلک ورد فی الرّوایات أنّ أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانوا إذا اجتمعوا لا یفترقون إلّا بعد تلاوة سورة «و العصر» و یتذاکروا فی مضامینها[۴۰۹].

و المسلمون الیوم إذا طبقوا هذه الأصول الأربعة فی حیاتهم الفردیة و الاجتماعیة لتغلبوا علی کل ما یعانون منه من مشاکل و تدهور و تخلف، و لبدلوا ضعفهم و هزیمتهم انتصارا، و لاقتلعوا شرّ الأشرار من علی ظهر الأرض.

ربّنا! تفضّل علینا بالصبر و الاستقامة و التواصی بالحق و التواصی بالصبر.

إلهنا! کلّنا فی خسران، و لا یمکن أن نجبر هذا الخسر إلّا بلطفک.

اللّهمّ! إنا نسألک توفیق العمل بالمواد الأربع التی ذکرتها فی هذه السّورة من کتابک.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة العصر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۱

سورة الهمزة

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها تسع آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۳

«سورة الهمزة»

محتوى السّورة:

هـذه السّورة و هی من السور المکّیـة، تتحـدث عن أناس کرسوا کلّ همهم لجمع المال، و حصـروا کلّ قیم الإنسان الوجودیة فی هذا الجمع. ثمّ هم یسخرون من الذین لا یملکون المال و بهم یستهزئون.

هؤلاء الأثریاء المستکبرون و المغرورون المحتالون أسکرهم الطغیان فراحوا یستهینون بالآخرین و یعیبونهم، و یتلذذون بما یفعلون من غیبة و استهزاء.

السّورة تتحـدث فی النهایـة عن المصیر المؤلم الـذی ینتظر هؤلاء، و کیف أنّهم یلقون فی جهنّم صاغرین، و أنّ نار جهنّم تتجه بلظاها أوّلا إلی قلوبهم الملیئة بالکبر و الغرور، و تحرقها بالنّار، بنار مستمرة.

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة

عـن النبیّ صـلّی اللّه علیـه و آلـه و سـلّم قـال: «مـن قرأ سـورة الهمزة اعطی مـن الأـجر عشـر حسـنات بعـدد مـن اسـتهزأ بمحمّـد و أصحابه»[۴۱۰].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «من قرأ ویل لکلّ همزة فی فریضة من فرائضه، نفت عنه الفقر و جلبت علیه الرزق و تدفع عنه میتة السوء»[۴۱۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۴

الآیات [سورة الهمزة (۱۰۴): الآیات ۱ الی ۹]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (۱) الَّذِی جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ (۲) یَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (۳) کَلَّا لَیُنْبَذَنَّ فِی الْحُطَمَةِ (۴)

وَ ما أَدْراکَ مَا الْحُطَمَةُ (۵) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (۶) الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ (۷) إِنَّها عَلَیْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (۸) فِی عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (۹)

سبب النّزول

قال جمع من المفسّرين إنّ آيات هذه السّورة نزلت في (الوليد بن المغيرة) الذي كان يغتاب النّبي و يطعن فيه و يستهزئ به.

و قيل إنّها نزلت في أفراد آخرين من رؤوس المشركين و أعداء الإسلام مثل (الأخنس بن شريق) و (امية بن خلف) و (العاص بن وائل).

و لكن، إنّ قبلنا أسباب النزول هذه فلا ينفي ذلك شمولية مفاهيم الآيات، بل إنّها تستوعب كلّ الذين يحملون هذه الصفات.

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۵

التّفسير

الويل للهمّازين و اللمّازين:

تبدأ هذه السّورة بتهديد قارع و تقول:

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ... لكلّ من يستهزئ بالآخرين، و يعيبهم، و يغتابهم، و يطعن بهم، بلسانه و حركاته و بيده، و عينه و حاجبه.

«الهمزة» و «اللمزة» صيغتا مبالغة، الاولى من الهمز، و هي في الأصل الكسر.

العائبون المغتابون يكسرون شخصية الآخرين، و لذلك اطلق عليهم اسم (الهمزة).

و «اللمزة» من اللمز، و هو اغتياب الآخرين، و الصاق العيوب بهم.

للمفسّرين آراء متعددة في معاني هاتين الكلمتين، هل معناهما واحد، و هو المغتابون النّاس العائبون عليهم، أو إنّ معناهما مختلف.

قال بعضهم إنّ معناهما واحد، و ذكرهما معا للتأكيد.

و قيل: الهمزة هو المغتاب، و اللمزة: العائب.

و قيل: الهمزة هم العائبون بإشارة اليد و الرأس. و اللمزة من يعيب بلسانه.

و قيل: الاولى إشارة إلى العائب في حضور الشخص، و الثّانية للعائب في الغيبة.

و قيل: الاولى تعني العائب في العلن، و الثّانية للعائب في الخفاء، و بإشارة العين و الحاجب.

و قيل: إنّ الاثنتين بمعنى الذي ينبز النّاس بألقاب قبيحة مستهجنة.

و عن ابن عباس في تفسير الكلمتين قال: «هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الناعتون للناس بالعيب»[۴۱۲].

يبدو أن ابن عباس استلهم هذا التّفسير من

كلام لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول:

الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۶

«ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، الباغون للبرآء المعايب»[۴۱۳].

من مجموع آراء اللغويين في الكلمتين يستفاد أنّهما بمعنى واحد. و لهما مفهوم واسع يشمل كلّ ألوان إلصاق العيوب بالنّاس و غيبتهم و الطعن و الاستهزاء بهم، باللسان و الإشارة و النميمة و الذم.

التعبير بكلمة (ويل) يحمل تهديدا شديدا لهذه الفئة. و القرآن يتشدّد تجاه هؤلاء الأفراد و يذكرهم بعبارات لا نظير لها في ذكر سائر المذنبين. فحين يذكر المنافقين الذين يسخرون من المؤمنين يتهددهم بعذاب أليم و يقول: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۴۱۴].

مثل ذلک ذکره القرآن بشأن المنافقین المستهزئین بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیة (۵) من سورة (المنافقون).

الإسلام، أساسا، ینظر إلی شخصیة الإنسان و کرامته باحترام بالغ، و یعدّ أی عمل یؤدّی إلی إهانة الآخرین ذنبا کبیرا، و

ورد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «أذل النّاس من أهان النّاس»[۴۱۵].

فی هذا المجال ذکرنا شرحا أوفی فی تفسیر الآیتین (۱۱ و ۱۲ من سورة الحجرات.

ثمّ تـذکر الآیة التالیة منبع ظاهرة اللمز و الهمز فی الأفراد، و تری أنّها تنشأ غالبا من کبر و غرور ناشـئین بدورهما من تراکم الثروة لدی هؤلاء الأفراد، و تقول: الَّذِی جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ بطریق مشروع أو غیر مشروع.

فهو انشدّ بالمال انشدادا جعله منشغلا دائما بعدّ المال و الالتذاذ ببریق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۷

الدرهم و الدینار.

تحول الـدرهم و الـدینار عنـده إلی وثن و یری فیه شخصـیته و ینظر من خلالـه أیضـا إلی شخصـیة الآـخرین. و من الطبیعی أن یکون تعامل مثل هذا الإنسان الضال الأبله بالسخریة و الاستهزاء مع المؤمنین الفقراء.

«عدده» من (عدّ) بمعنی حسب. و قیل من (العدّة) بمعنی تجهیز الأموال لیوم الشدّة.

و قیل: أنّها تعنی أمسکه و حفظه.

و المعنی الأوّل أظهر.

علی أی حال، هـذه الآیـة تقصـد الـذین یـدخّرون الأموال و لا ینظرون إلیها باعتبارها وسـیلة بل هـدفا، و لا یحـدهم قیـد أو شـرط فی جمعهـا، حتی و لو کـان من طریق الحرام و الاعتـداء علی حقوق الآـخرین و ارتکـاب کـلّ دنیئـة و رذیلـة، و یعتبرون ذلک دلیلا علی عظمتهم و شخصیتهم.

هؤلاـء لاـ یریـدون المـال لسـد حاجـاتهم الحیاتیـة، و لـذلک یزداد حرصـهم علی جمع المال کلّما کثرت أموالهم. و إلّا فإن المال فی الحـدود المعقولـة و من الطرق المشـروعة لیس بمذموم، بل إنّ القرآن الکریم عبّر عنه فی موضع بأنّه «فضل اللّه» حیث یقول تعالی: وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ

و فی موضع آخر یسمیه خیرا، کقوله سبحانه: کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ.

مثل هذا المال لیس بالتأکید مبعث طغیان، و لا وسـیلة تفاخر، و لا دافع سخریة بالآخرین. لکن المال الذی یصبح معبودا و هدفا نهائیا، و یدعو أصحابه من أمثال «قارون» إلی الطغیان، هو العار و الذلة و المأساة و مبعث البعد عن اللّه و الخلود فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۸

النّار.

و مثل هذا المال لا یمکن جمعه و عدّه إلّا بالسقوط فی أو حال الحرام. لذلک

ورد عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام قال: «لا یجتمع المال إلّا بخمس خصال:

بخل شدید، و أمل طویل، و حرص غالب، و قطیعة رحم، و إیثار الدنیا علی الآخرة»[۴۱۶].

لأنّ الأفراد الأسـخیاء البعیـدین عن الآمال الوهمیـة الطویلـة یهتمون بحلال أموالهم و حرامها، و یساعـدون الأقربین، و لا تتراکم الثروة عندهم غالبا، و إن زادت عائداتهم.

فی الآیة التالیة یقول سبحانه:

یَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ ۴۱۷].

«أخلده» جاء فی الآیة بصـیغة الماضـی، و یعنی أن هذا الهمزة اللمزة یحسب أنّ ماله قد صـیّر منه موجودا خالدا، لا یسـتطیع الموت أن

يصل إليه، و لا عوامل المرض و الحوادث قادرة أن تنال منه، فالمال فی نظره هو المفتاح الوحيد لحل كلّ مشكلة، و هو يملك هذا المفتاح.

ما أتفه هذا التفكير!! قارون بكل ما كان يملكه من كنوز لا تستطيع العصبة أولو القوّة أن تحمل مفاتحها، لم يستطيع أن يستخدم أمواله لتأخير مصيره الأسود ساعة واحدة: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ ۴۱۸].

الأموال التی كان يمتلكها الفراعنة: ... مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ ۴۱۹]، تحولت فی ساعة إلى غيرهم:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۹

كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ ۴۲۰].

لذلك فإنّ هؤلاء اللاهين بأموالهم، حين تزول من أمام أعينهم الحجب و الأستار يوم القيامة يرفعون عقيرتهم بالقول: ما أَغْنى عَنِّی مالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّی سُلْطانِيَهْ ۴۲۱].

الإنسان- أساسا- يهرب من الفناء و العدم و يميل إلى الخلود، و هذه الرغبة الداخلية هی من أدلة المعاد و أنّ الإنسان مخلوق للخلود، و إلّا ما كانت فيه غريزة حبّ الخلود.

لكنّ الإنسان المغرور الأنانی الدنيوی يخال خلوده كامنا فی أشياء هی ذاتها عامل فنائه و انعدامه. على سبيل المثال: المال و المقام اللذان هما غالبا من أعداء بقائه يحسبهما وسيلة لخلوده.

من هنا يتبيّن أنّ الظنّ بقدرة المال على الإخلاد، هو الذی يدفع إلى جمع المال، و جمع المال أيضا عامل على الاستهزاء و السخرية بالآخرين عند هؤلاء الغافلين.

القرآن الكريم يردّ على هؤلاء و يقول:

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِی الْحُطَمَةِ كلّا، ليس الأمر كما يتصور، فسرعان ما يقذف باحتقار و ذلّة فی نار محطّمة وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ، نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ.

«لينبذنّ» من نبذ، أی- كما يقول الراغب فی مفرداته- رمی الشیء لتفاهة قيمته.

أی إنّ اللّه سبحانه يرمی هؤلاء المغرورين المتعالين يوم القيامة فی نار جهنّم كموجودات تافهة لا قيمة لها ليروا نتيجة كبرهم و غرورهم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۰

«الحطمة» صيغة مبالغة من «حطّم» أی هشّم. و هذا يعنی أنّ نار جهنّم تهشّم أعضاء هؤلاء. و يستفاد من بعض الرّوايات أن «الحطمة» ليست كلّ نار جهنّم، بل هی طبقة رهيبة فی حرارتها.[۴۲۲] مفهوم تهشّم الأعضاء بدل احتراقها فی نار جهنّم، ربّما صعب فهمه فی الماضی. و لكن المسألة اليوم ليست بعجيبة بعد أن اتضحت شدّة تأثير أمواج الإنفجار، و تبيّن أن الأمواج الناتجة عن انفجار كبير قادرة على تهشيم الإنسان، بل تهشيم العمارات الضخمة بأعمدتها الحديدية المستحكمة.

عبارة «نار اللّه» دليل على عظمة هذه النّار، و «الموقدة» تعنی استعارها المستمر.

و العجيب أنّ هذه النّار ليست مثل نار الدنيا التی تحرق الجلد أوّلا ثمّ تنفذ إلى الداخل، بل هی تبعث بلهبها أوّلا إلى القلب، و تحرق الداخل و تبدأ أوّلا بالقلب ثمّ بما يحيطه، ثمّ تنفذ إلى الخارج.

ما هذه النّار التی تبعث بشررها إلى قلب الإنسان أوّلا؟! ما هذه النّار التی تحرق الداخل قبل الخارج؟! كلّ شیء فی القيامة عجيب، و مختلف كثيرا عن هذا العالم، حتّى إحراق نارها.

لما ذا لا تكون كذلك، و قلوب هؤلاء الطاغين مركز للكفر و الكبر و الغرور، و بؤرة حبّ الدنيا و الثروة و المال؟! لما ذا لا تسيطر نار

الغضب الإلهی علی قلوب هؤلاء قبل أی شیء آخروهم فی هذه الدنیا احرقوا قلوب المؤمنین بسخریتهم و همزهم و لمزهم؟! العدالة الإلهیة تقتضی أن یری هؤلاء جزاء یشبه أعمالهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۵۱

الآیات الأخیرة من السّورة تقول:

إِنَّها عَلَیْهِمْ مُؤْصَدَةٌ، فِی عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ.

و «مؤصدة» من الإیصاد، بمعنی الأحکام فی غلق الباب. و لذلک تسمی الغرف الکائنة فی داخل الجبال المخصصة لجمع الأموال «الوصید».

هؤلاء فی الحقیقة یقبعون فی غرف تعذیب مغلقة الأبواب لا طریق للخلاص منها، کما کانوا یجمعون أموالهم فی الخزانات المغلقة الموصدة.

و «العمد» جمع عمود و «ممددة» تعنی طویلة.

جمع من المفسّرین قال إنّها الأوتاد الحدیدیة العظیمة التی تغلق بها أبواب جهنّم حتی لم یعد هناک طریق للخروج منها أبدا، و هی بذلک تأکید علی الآیة السابقة التی تقول: إِنَّها عَلَیْهِمْ مُؤْصَدَةٌ.

و قیل إنّها إشارة إلی نوع من وسائل التعذیب و الجزاء تشبه تلک التی یغلّ بها الشخص فی رجله فیفقد قدرة الحرکة و هذا جزاء ما کانوا یمارسونه من تعذیب للناس الأبریاء فی هذه الدنیا.

و بعضهم أضاف تفسیرا ثالثا استمده من الاکتشافات العلمیة، و هو أن شعلة من نیران جهنّم تسلّط علی هؤلاء مثل أعمدة طویلة. یقولون: إنّ الاکتشافات الأخیرة أثبتت أنّ أشعة اکس الخاصّة (اشعة رونتجن) تختلف عن سائر الأشعة الاخری التی تنتشر بشکل مخروطی، و ذلک أنّها تنتشر بشکل عمودی، و قادرة علی النفوذ فی جمیع الأجزاء الداخلیة للإنسان بما فی ذلک القلب. و لذلک یستفاد منها فی تصویر الأعضاء الداخلیة. و الأشعة التی تخرج من نار جهنّم شبیهة بالأشعة المذکورة[۴۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۵۲

و من بین هذه التفاسیر، التّفسیر الأوّل أنسب. (و استنادا إلی بعض التفاسیر عبارة فِی عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ تبیّن حالة جهنّم، و بعضها الآخر یری أنّها بیان لحالة أهل جهنّم).

بحثان

۱- الکبر و الغرور أساس الذنوب الکبیرة

الاستعلاء و التکبر علی الآخرین بلاء عظیم یصیب الإنسان فیدفعه إلی ارتکاب أنواع المعاصی، الغفلة عن اللّه، و الکفران بالنعم، و الانغماس فی الأهواء و الشهوات، و الاستهانة بالآخرین، و الاستهزاء بالمؤمنین ... کلّها من الآثار المشؤومة لهذه الصفة الدنیئة، الأفراد الذین یعانون من عقد النقص ما أن تتوفر لهم مکنة حتی یستفحل فیهم الکبر و الغرور بحیث لا یقیمون للآخرین وزنا، و یودی ذلک إلی انفصالهم عن المجتمع و انفصال المجتمع عنهم.

یغرقون فی عالم و همی، و یرون أنفسهم موجودا متمیزا، حتی یبلغ الأمر بهم أن یروا أنفسهم من المقربین إلی اللّه. و هذا یدفعهم إلی الاستهانة بأرواح الآخرین و أعراضهم و أموالهم، و ینشغلون بالهمز و اللمز، و یخالون أنّهم بإلصاق العیب بالآخرین و ذمهم یزیدون من عظمتهم و شخصیتهم.

و فی بعض الرّوایات شبه هؤلاء الأفراد بالعقرب اللاسعة. (و إذا کان لسع العقرب عن طبیعة فیها، فلسع هؤلاء عن حقد و ضغینة).

و

جاء فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «رأیت لیلة الإسراء قوما یقطع اللحم من جنوبهم ثمّ یلقمونه، و یقال: کلوا ما کنتم تأکلون من لحم أخیکم، فقلت: یا

جبرائیل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الهمازون من أمتک اللمازون»[۴۲۴].

کما أشرنا من قبل، کان لنا وقفة أطول فی هذا المجال عند تفسیر سورة الحجرات.

۲- الحرص علی جمع المال

بشأن المال و الثروة، اختلفت و جهات نظر النّاس بین أفراط و تفریط، بعضهم أسبغ علی المال أهمیة فائقة فجعله مفتاح حلّ کلّ المشاکل. و إلی ذلک ذهب الشاعر فی قوله:

فصاحة سبحان و خط ابن مقلةو حکمة لقمان و زهد ابن أدهم

إذا اجتمعت فی المرء و المرء مفلسفلیس له قدر بمقدار درهم

و لذلک فإنّ دأب هؤلاء الأفراد جمع المال، و لا یدخرون وسعا علی هذا الطریق و لا یتقیدون بقید، و لا یهتمون بحلال أو حرام و مقابل هذه المجموعة هناک من لا یعیر أیة أهمیة للمال و الثروة، یمتدحون الفقر و یشیدون به، و یرون فی المال عائقا للتقوی و للقرب الإلهی.

و إزاء ذاک الإفراط و هذا التفریط، تقف النصوص الإسلامیة لتبیّن أنّ المال مطلوب، و لکن بشروط، أوّلها أن یکون وسیلة لا غایة.

و الآخر، أن لا یکون الإنسان له أسیرا، بل أن یکون علیه أمیرا.

و الثّالث: أن یأتی بالطرق المشروعة و أن ینفق فی سبیل رضا اللّه.

الرغبة فی مثل هذا المال لیس دلیلا علی حبّ الدنیا، بل هو دلیل علی الانشداد بالآخرة. و لذلک

ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه لعن الذهب و الفضة، فتعجب أحد أصحابه و سأل الإمام فأجابه: «لیس حیث تذهب إلیه إنّما الذهب

الذی ذهب بالدین، و الفضة التی أفاضت الکفر»[۴۲۵].

و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «السکر أربع سکرات: سکر الشراب، و سکر المال، و سکر النوم، و سکر الملک»[۴۲۶].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إن کان الحساب حقّا فالجمع لماذا؟ و إن کان الخلف من اللّه عزّ و جلّ حقّا فالبخل لماذا؟»[۴۲۷].

کثیرون هم الذین ینشغلون حتی آخر حیاتهم بجمع المال، ثمّ یترکونه للآخرین. هم مسئولون عن حسابه، و الآخرون ینالون ثماره، سئل أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: من أعظم النّاس حسرة؟

قال: «من رأى ماله فى ميزان غيره، و أدخله به النّار، و أدخل وارثه به الجنّة»[۴۲۸].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ قال: «هو الرجل يدع المال لا ينفقه فى طاعة اللّه بخلا ثمّ يموت فيدعه لمن يعمل به فى طاعة اللّه أو فى معصيته».

ثمّ قال الإمام: «فإن عمل به فى طاعة اللّه رآه فى ميزان فزاده حسرة، و قد كان المال له أو عمل به فى معصية اللّه فهو قوّاه بذلك المال حتى عمل به فى معاصى اللّه»[۴۲۹].

نعم، رؤية الإنسان للمال قد تصير من المال و ثنا خطرا، و قد تجعل منه وسيلة لسعادة كبرى.

نختتم هذه الوقفة بما ورد عن ابن عباس عن كلام عميق الدلالة قال: «إنّ أوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۵

درهم و دينار ضربا فى الأرض نظر إليهما إبليس فلما عاينهما أخذهما فوضعهما على عينيه، ثمّ ضمهما إلى صدره، ثمّ صرخ صرخة، ثمّ ضمهما إلى صدره، ثمّ قال:

أنتما قرّة عينى! و ثمرة فؤادى، ما ابالى من بنى آدم إذا أحبّوكما أن لا يعبدوا! وثنا! حسبى من بنى آدم أن يحبّوكما»[۴۳۰].

اللّهمّ! احفظنا من سكرة المال و المقام و الدنيا و الشهوات.

ربّنا! نجنا من سيطرة الشيطان و عبودية الدرهم و الدينار.

إلهنا! لا نجاة لنا من «الحطمة» المهشمة إلّا بفضلك فار أف بنا يا كريم.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الهمزة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۷

سورة الفيل

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمس آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۹

«سورة الفيل»

محتوى السّورة:

هذه السّورة- كما يظهر من اسمها- تشير إلى الحادثة التاريخية التى اقترنت بولادة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و فيها نجّى اللّه سبحانه الكعبة من شرّ جيش كافر كبير تجهّز من اليمن ممتطيا الفيل.

هذه السّورة تذكّر النّاس بتلك القصّة العجيبة التى كان كثير من أهل مكّة يحفظون أحداثها فى ذاكرتهم لأنّها وقعت فى الماضى القريب.

التذكير بهذه القصّة فيه تحذير للكفّار المغرورين المعاندين، كى يفهموا ضعفهم تجاه قدرة اللّه تعالى الذى أباد جيشا عظيما بطير أبابيل تحمل حجارة من سجّيل، و هو سبحانه إذن قادر على أن يعاقب هؤلاء المستكبرين المعاندين.

فلا قدرتهم أعظم من قدرة أبرهة، و لا عدد أفرادهم يبلغ عدد ذلك الجيش السّورة المباركة تقول لكفّار قريش:

إنّكم رأيتم الواقعة بأعينكم فلما ذا لا تترجلون من مطية غروركم.

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هذه السّورة عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ فى الفريضة أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ شهد له يوم القيامة كلّ سهل و جبل و مدر بأنّه كان من المصلين و ينادى يوم القيامة مناد:

صدقتم على عبدى، قبلت شهادتكم له أو عليه، ادخلوا عبدى الجنّة و لا تحاسبوه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۰

فإنّه ممن أحبّه و أحبّ عمله»[۴۳۱].

واضح أنّ كلّ هذه الفضيلة و هذا الثواب لمن كانت قراءته باعثا على انكسار روح الغرور فى نفسه، و على السير فى طريق رضا اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۱

الآيات [سورة الفيل (۱۰۵): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (۱) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (۲) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (۳) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (۴)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (۵)

سبب النّزول

اشارة

ورد عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: كان أبو طالب يضرب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بسيفه إلى أن قال: فقال أبو طالب: يا بن أخ إلى النّاس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصّة؟ قال: لا بل إلى النّاس أرسلت كافة الأبيض و الأسود و العربى و العجمى و الذى نفسى بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض و الأسود و من على رؤوس الجبال و من فى لجج البحار، و لأدعون السنة فارس و الروم فحيرت قريش و استكبرت و قالت: أما تسمع إلى ابن أخيك و ما يقول و اللّه لو سمعت بهذا فارس و الروم لاختطفتنا من أرضنا و لقلعت الكعبة حجرا حجرا، فأنزل اللّه تبارك و تعالى: وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ إلى آخر الآية و أنزل فى قولهم لقلعت الكعبة حجرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۲

حجرا أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ إلى آخر الآية[۴۳۲].

قصّة أصحاب الفيل:

ذکر المفسّرون و المؤرخون هذه القصّة بأسالیب مختلفة و اختلفوا فی سنة وقوعها. لکن أصل القصّة متوافرة، و نحن نذکرها استنادا إلی الرّوایات المعروفة فی «سیرة ابن هشام» و «بلوغ الأرب» و «بحار الأنوار» و «مجمع البیان» بتلخیص:

«ذو نواس» ملک الیمن اضطهد نصاری نجران قرب الیمن کی یتخلوا عن دینهم (ذکر القرآن قصّة هذا الاضطهاد فی موضوع أصحاب الأخدود فی سورة البروج، و بیّناها بالتفصیل هناک).

بعد هذه الجریمة نجا من بین النصاری رجل اسمه (دوس) و توجه إلی قیصر الروم الذی کان علی دین المسیح، و شرح له ما جری.

و لما کانت المسافة بین الروم و الیمن بعیدة، کتب القیصر إلی النجاشی (حاکم الحبشة) لینتقم من (ذو نواس) لنصاری نجران، و أرسل الکتاب بید القاصد نفسه.

جهّز النجاشی جیشا عظیما یبلغ سبعین ألف محارب بقیادة (أریاط) و وجهه إلی الیمن. و کان (أبرهة) أیضا من قواد ذلک الجیش.

اندحر (ذو نواس) و أصبح (أریاط) حاکما علی الیمن، و بعد مدّة ثار علیه أبرهة و أزاله من الحکم و جلس فی مکانه.

بلغ ذلک النجاشی، فقرر أن یقمع (أبرهة). لکن أبرهة أعلن استسلامه الکامل للنجاشی و وفاءه له. حین رأی النجاشی منه ذلک عفا عنه و أبقاه فی مکانه.

و (أبرهة) من أجل أن یثبت ولاءه، بنی کنیسة ضخمة جمیلة غایة الجمال، لا یوجد علی ظهر الأرض مثلها آنذاک، و قرر أن یدعو أهل الجزیرة العربیة لأن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۳

یحجّوا إلیها بدل (الکعبة)، و ینقل مکانة الکعبة إلی أرض الیمن.

أرسل أبرهة الوفود و الدعاة إلی قبائل العرب فی أرض الحجاز، یدعونهم إلی حجّ کنیسة الیمن، فأحسّ العرب بالخطر لارتباطهم الوثیق بمکّة و الکعبة و نظرتهم إلی الکعبة علی أنها من آثار إبراهیم الخلیل علیه السّلام.

تذکر بعض الرّوایات أنّ مجموعة من العرب جاؤوا خفیة و أضرموا النّار فی الکنیسة. و قیل إنّهم لوثوها بالقاذورات، لیعبروا عن اعتراضهم علی فعل أبرهة و یهینوا معبده.

غضب أبرهة و قرر أن یهدم الکعبة هدما کاملا للانتقام و لتوجیه أنظار العرب إلی المعبد الجدید، فجهّز جیشا عظیما کان بعض أفراده یمتطی الفیل، و اتجه نحو مکّة.

عند اقترابه من مکّة بعث من ینهب أموال أهل مکّة، و کان بین النهب مائتا بعیر لعبد المطلب.

بعث (أبرهة) قاصدا إلی مکّة و قال له: ابحث عن کبیر القوم و قل له إنّ أبرهة ملک الیمن یدعوک. أنا لم آت لحرب، بل جئت لأهدم هذا البیت، فلو استسلمتم، حقنت دماؤکم.

جاء رسول أبرهة إلی مکّة و بحث عن شریفها فدلوه علی عبد المطلب، فحدثه بحدیث أبرهة، فقال عبد المطلب، نحن لا طاقة لنا بحربکم، و للبیت ربّ یحمیه.

ذهب عبد المطلب مع القاصد إلی النجاشی، فلما قدم علیه جعل النجاشی ینظر إلیه و راقه حسنه و جماله و هیبته، حتی قام من مکانه احتراما و جلس علی الأرض و اجلس عبد المطلب إلی جواره لأنّه ما أراد أن یجلس عبد المطلب علی سریر ملکه ثمّ قال لمترجمه اسأله ما حاجتک؟ قال عبد المطلب: نهبت إبلی فمرهم بردّها علیّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۴

فاندهش أبرهة و قال لمترجمه: قل له إنّه احتل مکانا فی قلبی حین رأیته، و الآن قد سقط من عینی. أنت تتحدث عن إبلک و لا تذکر الکعبة و هی شرفک و شرف أجدادک، و أنا قدمت لهدمها؟! قال عبد المطلب: أنا ربّ الإبل، و للبیت ربّ یحمیه؟! عاد عبد المطلب

إلى مكّة، و أخبر أهلها أن يلجأوا إلى الجبال المحيطة بها، و ذهب هو و جمع معه إلى جوار البيت ليدعو فأخذ حلقة باب الكعبة و انشد أبياته المعروفة:

لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك لا يغلبن صليبهم و محالهم أبدا محالك جروا جميع بلادهم و الفيل كى يسبوا عيالك و لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع عيالك و انصر على آل الصليب و عابديه اليوم آلك ثمّ لاذ عبد المطلب و جمع من قريش بإحدى شعاب مكّة و أمر أحد ولده أن يصعد على جبل (أبو قبيس) ليرى ما يجرى.

عاد الابن مسرعا إلى أبيه و أخبره أن سحابة سوداء تتجه من البحر (البحر الأحمر) إلى أرض مكّة. استبشر عبد المطلب و صاح: «يا معشر قريش ادخلوا منازلكم فقد أتاكم اللّه بالنصر من عنده».

من جانب آخر، توجه أبرهة راكبا فيله المسمى «محمودا» مع جيشه الجرار مخترقا الجبال و منحدرا إلى مكّة، لكن الفيل أبى أن يتقدم، أمّا حينما يوجهوه نحو اليمن يهرول، تعجب أبرهة من هذا و تحيّر.

و فى هذه الأثناء وصلت طيور قادمة من جانب البحر كأنها الخطاطيف و هى تحمل حجرا فى منقارها و حجرين فى رجلها، بحجم الحمّصة، و ألقوها على جيش أبرهة، فأهلكتهم. و قيل: إنّ الحجر كان يسقط على الرجل منهم فيخترقه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۵

و يخرج من الجانب الآخر.

ساد الجيش ذعر عجيب، فهلك منه من هلك، و فرّ من استطاع الفرار، صوب اليمن، و كانوا يتساقطون فى الطريق.

(أبرهة) أصيب بحجر، و جرح، فأعيد إلى صنعاء عاصمة ملكه، و هناك فارق الحياة.

و قيل: إنّ مرض الحصبة و الجدرى شوهد لأوّل مرّة فى أرض العرب فى تلك السنة.

و قيل: إنّ أبرهة جاء بفيل واحد كان يركبه و اسمه محمود. و قيل: بل ثمانية أفيال، و قيل: عشرة، و قيل: اثنى عشر.

و فى هذا العام ولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حسب الرّواية المشهورة، و قيل إنّ بين الحادثتين ارتباطا.

على أى حال، فإن أهمية هذه الحادثة الكبرى بلغت درجة تسمية ذلك العام بعام الفيل، و أصبح مبدأ تاريخ العرب ۴۳۳].

***

التّفسير

كيد ابرهة:

يخاطب اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية الاولى من السّورة و يقول له: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ

لقد جاؤوا بجيش جرار مجهّز بالعدّة و العدد ليهدموا الكعبة. و اللّه سبحانه دحرهم بجيش فى ظاهره صغير بسيط. و أباد الفيلة بطير صغير، و هدم الآلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۶

الحربية المتطورة فى ذلك الزمان بحجارة من سجيل. ليتّضح ضعف هذا الإنسان المغرور المتكبر أمام قدرة اللّه.

التعبير بجملة أَ لَمْ تَرَ فى الآية، مع أنّ الحادثة وقعت قبل ولادة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو مقترنة بولادته، يعود إلى أنّ الحادثة المذكورة قريبة العهد من عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما إنّها بلغت من الشهرة و التواتر و كأن النّبى رآها بعينه المباركة. هذا إلى أن جمعا من معاصرى الرسول كانوا قد رأوها بأعينهم.

عبارة بِأَصْحابِ الْفِيلِ إشارة إلى ما كان مع الجيش المهاجم من فيلة جاؤوا بها من اليمن ليرعبوا العرب و خيولهم [۴۳۴].

أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ! لقد استهدفوا الكعبة ليهدموها و ليقيموا بدلها كعبة اليمن، و ليدعوا قبائل العرب إلى حج هذا المعبد الجديد. لكنّه سبحانه حال دون تحقق هدفهم، بل زاد الكعبة شهرة و عظمة بعد أن ذاع نبأ أصحاب الفيل فى جزيرة العرب، و أصبحت قلوب المشتاقين تهوى إليها أكثر من ذى قبل، و أسبغ على هذه الديار مزيدا من الأمن.

كيدهم إذن صار فى تضليل، أى فى ضلال حيث لم يصلوا إلى هدفهم.

ثمّ تشرح الآيات التالية بعض جوانب الواقعة.

وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ

«أبابيل» لم تكن فى لهجات العرب المعروفة اسما لطائر، بل إنّها صفة، قيل إنّ معناها جماعات متفرقة. أى إنّ هذه الطير كانت تأتى على شكل مجموعات و الكلمة لها معنى الجمع. و قيل: إنّ مفرده (أبابلة) و هى المجموعة من الطير أو الخيل أو الإبل، و قيل إنّ الكلمة جمع لا مفرد له من لفظه.

على أى حال عبارة «طيرا أبابيل» تعنى طيرا على شكل مجموعات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۷

و المشهور أنّ هذه الطير كانت تشبه الخطاطيف قدمت من صوب البحر الأحمر فى اتجاه أصحاب الفيل.

تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ [۴۳۵].

و كما ذكرنا فى قصّة أصحاب الفيل، فإنّ كلّ واحدة من هذه الطير كانت تحمل ثلاث حجارات أصغر من الحمصة، واحدة فى منقارها و اثنين فى ارجلها.

و ما أن تسقط هذه الحجارة على أحد حتى تهلكه.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

و «العصف» هو النبات الجاف المتهشّم، أى هو (التبن) بعبارة اخرى. و قيل إنّه قشر القمح حين يكون فى سنبله. و المناسب هنا هو المعنى الأوّل.

و قال «مأكول» إشارة إلى أنّ هذا التبن قد سحق مرّة أخرى بأسنان الحيوان، ثمّ هشّم ثالثة فى معدته، و هذا يعنى أنّ أصحاب الفيل، قد تلاشوا بشكل كامل عند سقوط الحجارة عليهم.

و هذا التعبير إضافة إلى ما له من معنى الإبادة التامة، يحمل معنى التفاهة و الضعف ممّا صار إليه هؤلاء المهاجمون الطغاة المستكبرون و المتظاهرون بالقوّة.

بحوث

۱- المعجزة (للبيت ربّ يحميه)

القرآن الكريم يذكر هذه القصّة الطويلة فى عبارات قليلة قصيرة قارعة، و فى غاية الفصاحة و البلاغة، و يركز على نقاط تساعد على تحقيق الأهداف القرآنية المتمثلة فى إيقاظ المتعنتين المغرورين و بيان ضعف الإنسان أمام قدرة الجبار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۸

المتعال.

هـذه الحادثـة تبيّن أنّ المعجزات و الخوارق لا تسـتلزم- كما ظنّ بعض- وجود النّبى و الإمام، بل تظهر فى كلّ ظرف يشاء اللّه فيه أن تظهر. و الهدف منها إظهار عظمة اللّه سبحانه و حقانية دينه.

هـذا العقـاب العجيب الأعجـازى، يختلـف عمّـا نزل من عقـاب على امم اخرى مثـل طوفـان قـوم نـوح، و زلزال قـوم لوط و إمطـارهم بالحجارة، و صاعقة قوم ثمود؛ فهذه سلسلة حوادث طبيعية يتمثل إعجازها فى حدوثها فى تلك الظروف الخاصّة.

أمّا قصّة إبادة جيش أبرهة بحجارة من سجّيل، ترميها طير أبابيل، و ليست كالحوادث الطبيعية.

تحليق هذه الطيور الصـغيرة، و اتجاهها نحو ذلك الجيش الخاص، و رميه بالحجارة التى تسـتطيع أن تهشّم أجساد جيش ضخم ... كلّ تلك امور خارقة للعادة. و لكنّها- كما نعلم- ضئيلة جدّا أمام قدرة اللّه تعالى.

اللّه الذى خلق داخل هذه الحجارة قدرة ذرية لو تحررت لولدت انفجارا هائلا، لقادر على أن يجعل فى هذه الحجارة خاصـية تسـتطيع أن تحوّل جيش أبرهة إلى (عصف مأكول).

لسنا فى حاجة لأن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المعاصـرين فى تفسير هلاك جيش أبرهة بمكروبات وباء الحصبة و الجدرى [۴۳۶] أو أن نقول إنّ هذه الحجارة كانت ذرات متكافئة أزيلت الفراغات بينها فأصبحت ثقيلة للغاية، و قادرة على أن تخترق الأجساد.

كلّ هذه تبريرات تستهدف إعطاء صفة طبيعية لهذه الحادثة. و لسنا بحاجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۹

إليها. كلّ ما نعلمه هو أنّ هـذه الحجارة كانت لها خاصـية غريبة فى تهشـيم الأجسام. و لم يخبرنا القرآن بأكثر من ذلك، و ليس الأمر بمتعذر أمام قدرة اللّه سبحانه.

۲- أشد الجزاء بأبسط وسيلة

يلاحظ أنّ هذه القصّة تتضـمّن بيان قدرة اللّه أمام المسـتكبرين و الطغاة على أفضل وجه ... و لعل العقاب الذى حلّ بأبرهة و جيشه لا يبلغه عقاب، إذ على أثره تهشّم جيش و تحول إلى (عصف مأكول).

ثـمّ إنّ إبـادة هـذا الجيش الجرار بكـلّ مـا كـان يمتلكـه من قـدرة و شوكـة كـانت بواسـطة أحجـار صـغيرة، و بواسـطة طيـور صـغيرة كالخطاطيف. و فى هذا تحذير و إنذار لكلّ الطغاة و المستكبرين فى العالم، ليعلموا مدى ضعفهم أمام قدرة اللّه سبحانه.

و قد يوكل اللّه سـبحانه أداء هذه المهام الكبرى لموجودات أصـغر، مثل المكروبات التى لا ترى بالعين المجردة، لتتكاثر و تتناسل فى مدّة وجيزة و تصيب أمما قوية بالأوبئة المختلفة كالطاعون، و تبيدهم خلال مدّة قصيرة.

«سد مأرب» العظيم فى اليمن- كما جاء ذكره فى تفسير سورة سـبأ- كان وسـيلة لعمران كبير و مدنية عظيمة و قوية لقوم سـبأ، و حين طغى هؤلاء القوم، جـاء أمر إبـادتهم عن طريق فأر صـحراوى أو عـدد من الفئران- كما تـذكر بعض الرّوايات- فثقبت السـد، و اتسع الثقب تـدريجيا بالمـاء، و تحطم السـد العظيم، و اكتسـح المـاء كـلّ مـا بنـاه القوم و أغرق الأفـراد أو شـردهم إلى كلّ حـدب وصوب متفرقين حيارى، و هذه من مظاهر قدرة اللّه سبحانه.

۳- أهداف قصّة الفيل

من السّورة التالية (سورة لإيلاف) نفهم أنّ أحد أهداف سورة الفيل التذكير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۰

بنعمـة إلهیـة کبری منّ اللّه سـبحانه بها علی قریش، و تفهیمهم أنّه لو لا لطف اللّه سـبحانه و فضـله لما بقی أثر لمکّـة و لا للکعبـة و لا لقریش ... لعل ذلک یکون عاملا علی کبح جماح هؤلاء المغرورین، و علی قبول دعوة الدین المبین.

من جهة اخری هذه الحادثة اقترنت بولادة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و کانت ممهّدة للبعثة المبارکة، و إرهاصا[۴۳۷] من إرهاصات بزوغ فجر الإسلام.

و القصـة من ناحیـة ثالثـة تهدیـد لکـل طغاة العالم، من قریش و غیر قریش؛ لیعلموا أنّهم لا یسـتطیعون أبـدا أن یقاوموا أمام قـدرة اللّه تعالی، فما أجدر بهم أن یعودوا إلی رشدهم، و یخضعوا لأمر اللّه، و یستسلموا للحق و العدل.

ثمّ هی من جانب رابع تبیّن أهمیـة هـذا البیت الکبیر. الأعـداء الـذین اسـتهدفوا هـدم الکعبة، و نقل مرکزیة هذا الحرم الإبراهیمی إلی مکان آخر، قد واجهوا من العذاب ما أصبح عبرة للأجیال، و ما زاد من أهمیة هذا المرکز المقدس.

و من جهة خامسة، هذه الحادثة تؤکّد مشیئة اللّه سبحانه فی جعل هذا الحرم آمنا استجابة لدعوة إبراهیم الخلیل علیه السّلام.

۴- حادثة تاریخیة قطعیة

حادثـة «أصـحاب الفیل» کانت من الأهمیة و الشـهرة بین العرب بحیث جعلوها مبدأ للتاریخ. و القرآن الکریم بدأ الحدیث عن القصّـة بعبارة أَ لَمْ تَرَ مخاطبا نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذی لم یر هذه الحادثة. و هی دلالة اخری علی قطعیة وقوع الحادثة.

أضف إلی ذلک أنّ النّبی- حین تلا هذه الآیات علی المشـرکین- لم ینکر علیه أحد، و لو کان أمرا مشکوکا لاعترضوا علیه، و لسجل المؤرخون هذا الاعتراض کما سجلوا سائر الاعتراضات؛ خاصّة و أنّ القرآن بدأ الموضوع بجملة أَ لَمْ تَرَ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۱

کما إنّ عظمة هذا البیت الکریم تتبیّن ضمنیا بهذا الإعجاز التاریخی القطعی.

اللّهمّ! و فقنا لصیانة هذا المرکز التوحیدی العظیم.

اللّهم! طهّر هذا البیت من أولئک الذین یکتفون بحفظ ظواهره و یصادرون رسالته التوحیدیة الحقیقیة.

ربّنا! ارزقنا زیارة البیت بوعی و عرفان.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الفیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۳

سورة قریش

اشارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص ۴۷۳

یّة و عدد آیاتها أربع آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۵

«سورة قریش»

محتوی السّورة:

هذه السّورة فی الحقیقة مکملة لسورة الفیل، و آیاتها تدل علی ذلک.

تتضمّن هذه السّورة بیان نعمة اللّه علی قریش و لطفه لهم و محبّته له، کی یحرک فیهم دافع الشکر و یحثهم علی عبادة ربّ هذا البیت العظیم الذی یستمدون منه کلّ مفاخرهم و شرفهم.

و کما إنّ سورة «و الضحی» و سورة «ألم نشرح» تعتبران سورة واحدة- کما ذکرنا- کذلک سورة «الفیل» و سورة «قریش» هما سورة واحدة، و ارتباط موضوعهما یدل علی ذلک أیضا.

و لذلک وجب قراءتهما معا فی الصلاة لمن یری وجوب قراءة سورة کاملة بعد الحمد.

لمزید من التوضیح تراجع کتب الفقه فی أبواب الصلاة.[۴۳۸]

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها اعطی من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالکعبة و اعتکف بها»[۴۳۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۷۶

هذه الفضیلة دون شک لمن عبد ربّ البیت حقّ عبادته، و صان حرمة البیت کما یجب، و تشربت نفسه برسالة هذا المرکز التوحیدی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۷۷

الآیات [سورة قریش (۱۰۶): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیم

لِإِیلافِ قُرَیْشٍ (۱) إِیلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّیْفِ (۲) فَلْیَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَیْتِ (۳) الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (۴)

التّفسیر

ربّ هذا البیت یجب أن یعبد:

فی سورة «الفیل» جاء ذکر إبادة أصحاب الفیل الذین جاؤوا لهدم الکعبة و هذه السّورة التی تعتبر امتدادا للسورة السابقة تقول: نحن جعلنا أصحاب الفیل کعصف مأکول: لِإِیلافِ قُرَیْشٍ ۴۴۰]، أی لکی تأتلف قریش فی هذه الأرض المقدسة و تتهیأ بذلک مقدمات ظهور نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

«إیلاف» مصدر آلف، و «آلفه» أی جعله یألف، أی جعله یجتمع اجتماعا مقرونا بالانسجام و الأنس و الالتیام. و قال بعضهم: «الإیلاف» من المؤالفة، و هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۷۸

العهد و المیثاق، و لا تناسب بین هذا المعنی و بین الکلمة و هی مصدر باب الأفعال، و بین محتوی السّورة.

على كلّ حال، المقصود إيجاد الألفة بين قريش و هذه الأرض المقدسة و هى مكّة و البيت العتيق، لأنهم و كلّ أهل مكّة اختاروا السكن فى هذه الأرض لمكانتها و أمنها. كثير من أهل الحجاز كانوا يحجّون البيت كلّ سنة، و يقترن حجّهم بنشاط أدبى و اقتصادى فى هذا البلد الأمين.

كلّ ذلك كان يحدث فى ظل الجو الآمن. و لو أنّ هذا الأمن قد انعدم أو أنّ الكعبة قد انهدمت بفعل هجوم أبرهة و أمثاله لما كان لأحد ألفة بهذه الأرض.

كلمة «قريش» فى الأصل نوع من الأحياء البحرية الضخمة التى تبتلع كلّ ما يصادفها، كما يقول المفسّرون و اللغويون، و عن ابن عباس فى معنى قريش قال:

«لدابة تكون فى البحر من أعظم دوابه، يقال لها القريش، لا تمرّ بشىء من الغث و السمين إلّا أكلته»! و استشهد لذلك بأبيات ممّا قالته العرب.

من هنا فإنّ انتخاب هذا الاسم لهذه القبيلة يعود إلى اقتدار هذه القبيلة و قوتها، و إلى استغلال هذه القوّة فى الانقضاض على الآخرين.

و قيل إنّ قريش من القرش، و هو الاكتساب، لأنّ قريشا كانت مشغولة دوما بالتجارة و الكسب.

و قيل: إنّ معنى «القرش» التفتيش و المراجعة، و سمّيت قريش بذلك لتفقدها أحوال الحجاج و المسارعة لمساعدتهم.

و «القرش» فى اللغة ورد بمعنى الاجتماع أيضا، و إذا كان هذا المعنى مقصودا فى التسمية فذلك يعود إلى ما كانت تتصف به هذه القبيلة من اجتماع و انسجام.

على أى حال اسم قريش لم يقترن بسمعة طيبة. فهم و إن كانوا عشيرة الرسول- إلّا أنّهم ناصبوا الإسلام أشدّ العداء، و لم يألوا جهدا فى وضع العراقيل أمام الدعوة و الوقوف بوجهها و تعذيب الدعاة، و بعد انتصار الإسلام عليهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۹

عمدوا إلى التآمر الخفى على المسلمين، ثمّ بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خلقوا أحداثا مؤلمة لا ينساها لهم تاريخ الإسلام أبدا. و نعلم أنّ بنى امية و بنى العباس الذين أقاموا حكومة الجبابرة و الطواغيت كانوا من قريش.

القرائن التاريخية تشير إلى أنّ هذه القبيلة كانت فى الجاهلية أيضا تستثمر النّاس و تستغلهم. و لذلك وجدت فى الإسلام خطرا على مصالحها لدعوته إلى تحرير الإنسان، و شنت عليه حربا لا هوادة فيها، إلى أن اندحرت أمام قدرة الإسلام.

إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ [۴۴۱].

مكّة تقع فى واد غير ذى زرع، و الرعى فيها قليل، لذلك كانت عائدات أهل مكّة غالبا من قوافل التجارة، فى فصل الشتاء يتجهون إلى أرض اليمن فى الجنوب حيث الهواء معتدل، و فى فصل الصيف إلى أرض الشام فى الشمال حيث الجوّ لطيف. و الشام و اليمن كانا من مراكز التجارة آنئذ، و مكّة و المدينة حلقتا اتصال بينهما.

هذه هى رحلة الشتاء ... و رحلة الصيف.

و المقصود ب «إيلافهم» فى الآية أعلاه قد يكون جعلهم يألفون الأرض المقدّسة خلال رحلاتهم و ينشدّون إليها لما فيها من آمن، كى لا تغريهم أرض اليمن و الشام، فيسكنون فيها و يهجرون مكّة.

و قد يكون المقصود إيجاد الألفة بينهم و بين سائر القبائل طوال مدّة الرحلتين، لأنّ النّاس بدأوا ينظرون إلى قوافل قريش باحترام و يعيرونها أهمية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۰

خاصّة بعد قصّة اندحار جيش أبرهة.

قريش لم تكن طبعا مستحقة لكل هذا اللطف الإلهى لما كانت تقترفه من آثام، لكن اللّه لطف بهم لما كان مقدّرا للإسلام و النّبى

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يظهرا من هذه القبيلة و تلك الأرض المقدّسة.

الآية الاخيرة تقول: إنّ هذه النعم الإلهية التى أغدقت على قريش ببركة الكعبة يجب أن تدفعهم إلى عبادة ربّ البيت لا الأوثان.

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ

الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ... الـذى جعل تجارتهم رائجـة مريحـة و مربحة، و دفع عنهم الخوف و الضـرر، كلّ ذلك باندحار جيش أبرهة.

و بفضل دعاء إبراهيم الخليل عليه السّلام مؤسـس الكعبـة. لكنّهم لم يقـدّروا هذه النعمة، فبدلوا البيت المقدس ببيت للأوثان، و ذاقوا فى النهاية و بال أمرهم.

اللّهمّ! هب لنا توفيق العبادة و الطاعة و شكر النعم و حراسة هذا البيت العظيم.

ربّنا! زد فى عظمة هذا المركز الإسلامى الكبير و اجعله حلقة اتصال بين المسلمين.

إلهنا! اقطع دابر الأعداء الظالمين القتلة المتلاعبين بمقدرات هذا المركز الإسلامى الكبير.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة قريش

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۱

سورة الماعون

اشارة

مكية و عدد آياتها سبع آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۳

«سورة الماعون»

محتوى السّورة:

هذه السّورة- على رأى أكثر المفسّرين- مكّية، و لحنها الذى يتحدث عن القيامة و أعمال منكرى القيامة بمقاطع قصيرة و قارعة يؤيد ذلك.

السّورة بشكل عام تذكر صفات و أعمال منكرى القيامة فى خمس مراحل.

فهؤلاء نتيجة لتكذيبهم بذلك اليوم، لا ينفقون فى سبيل اللّه و على طريق مساعدة اليتامى و المساكين. ثمّ هم يتساهلون فى الصلاة، و يعرضون عن مساعدة المحتاجين.

و فى سبب نزول السّورة قيل إنّها نزلت فى «أبى سفيان» الـذى كان ينحر فى اليوم اثنين من الإبل و يطعم أصحابه، و لكن يتيما جاءه يوما يطلب منه شيئا فضربه بعصاه و طرده.

و قيل: إنّها نزلت فى «الوليد بن المغيرة»، و قيل: فى «العاص بن وائل».

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هذه السّورة

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «من قرأ أ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فى فرائضه و نوافله قبل اللّه صلاته و صيامه، و لم

یحاسبه بما کان منه فی الحیاة الدنیا»[۴۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۴

الآیات [سورة الماعون (۱۰۷): الآیات ۱ الی ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
أَ رَأَیْتَ الَّذِی یُکَذِّبُ بِالدِّینِ (۱) فَذلِکَ الَّذِی یَدُعُّ الْیَتِیمَ (۲) وَ لا یَحُضُّ عَلی طَعامِ الْمِسْکِینِ (۳) فَوَیْلٌ لِلْمُصَلِّینَ (۴)
الَّذِینَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (۵) الَّذِینَ هُمْ یُراؤُنَ (۶) وَ یَمْنَعُونَ الْماعُونَ (۷)

التّفسیر

إنکار المعاد و آثاره المشؤومة:

هذه السّورة المبارکة تبدأ بسؤال موجّه للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الآثار المشؤومة لإنکار المعاد و تقول:
أَ رَأَیْتَ الَّذِی یُکَذِّبُ بِالدِّینِ
و تجیب عن السؤال:
فَذلِکَ الَّذِی یَدُعُّ الْیَتِیمَ، وَ لا یَحُضُّ عَلی طَعامِ الْمِسْکِینِ «الدین» هنا «الجزاء» أو یوم الجزاء، و إنکار یوم الجزاء له عواقبه الوخیمة و انعکاسات علی أعمال الإنسان. و فی هذه السّورة ذکرت خمسة آثار لهذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۵

الإنکار منها: «طرد الیتیم، و عدم الحثّ علی إطعام المسکین». أی إنّ الشخص المنکر للمعاد لا یطعم المساکین، و لا یدعو الآخرین إلی إطعامهم.

و احتمل بعض أن یکون المقصود من الدین هنا القرآن أو الإسلام.

و المعنی الأوّل أنسب. و نظیره ورد فی قوله تعالی: کَلَّا بَلْ تُکَذِّبُونَ بِالدِّینِ ۴۴۳] و قوله سبحانه: فَما یُکَذِّبُکَ بَعْدُ بِالدِّینِ ۴۴۴]. و فی هذه الآیات ورد «الدین» بمعنی یوم الجزاء أیضا بقرینة الآیات الأخری.

«یدع» أی یدفع دفعا شدیدا، و یطرد بخشونة.

و «یحضّ» أی یحرضّ و یرغب الآخرین علی شیء، و الحضّ مثل الحثّ، إلّا أن الحث- کما یقول الراغب- یکون بسوق و سیر، و الحضّ لا یکون بذلک.

و صیغة المضارع فی الفعلین (یدع) و (یحضّ) تدل علی استمرارهم علی مثل هذا العمل فی حق الأیتام و المساکین.

و یلاحظ هنا بشأن الأیتام، أنّ العواطف الإنسانیة تجاه هؤلاء أکثر أهمیة من إطعامهم و إشباعهم. لأنّ آلام الیتیم تأتی من فقدانه مصدر العاطفة و الغذاء الروحی و التغذیة الجسمیة تأتی فی المرحلة التالیة.

و مرّة اخری نری القرآن یتحدث عن إطعام المساکین، و هو من أهم أعمال البرّ، و فی الآیة إشارة إلی أنّک إذا لم تستطع إطعام المساکین، فشجّع الآخرین علی ذلک.

الفاء فی «فذلک» لها معنی السببیة، و تعنی أنّ التکذیب بالمعاد هو الذی یسبب هذه الانحرافات. و الحقّ أنّ المؤمن بالمعاد و بتلک

المحكمـة الإلهية الكبرى و بالحساب و الجزاء يوم القيامة، إيمانا راسـخا تظهر عليه الآثار الإيجابية لهذا الإيمان فى كلّ أعماله. و لكن فاقد الإيمان و المكذب بيوم الدين تظهر آثار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۶

التكذيب عليه متمثلة فى الجرأة على ارتكاب الذنوب و الجرائم بشكل محسوس.

و يتواصل وصف هؤلاء المكذبين بالدين فتقول الآيات التالية: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ

لا يقيمون للصلاة وزنا، و لا يهتمون بأوقاتها، و لا يراعون أركانها و شروطها و آدابها.

«ساهون» من السـهو، و هو فى الأصل الخطأ الـذى يصدر من الإنسان عن غفلة، سواء كان مقصـرا فى المقدمات أم لم يكن. فى الحالة الاولى لا يكون الساهى معذورا، و فى الحالة الثّانية معذور. و المقصود فى الآية السهو المقرون بالتقصير.

و يلاحظ أنّ الآيـة لم تقل «فى صـلاتهم ساهون»، لأنّ السـهو فى الصـلاة يعرض لكلّ فرد، و لكنّها قالت: «عن صـلاتهم ساهون». فهم يسهون عن الصلاة بأجمعها.

واضـح أنّ هذه الحالة لو اتفق وقوعها مرّة أو مرات لأمكن أن يكون ذلك عن قصور. لكن الذى يسـهو عن صـلاته دائما فهو المهمل لصلاته، لعدم إيمانه بها و إذا صلى أحيانا فلخوف من ألسن النّاس و أمثال ذلك.

إضافـة لمـا ذكرنـاه من معانى لكلمـة «ساهون» ذكر المفسّـرون معانى اخرى من ذلك تأخير الصـلاة عن وقت فضـيلتها. أو إشارة إلى المنافقين الـذين ما كانوا يؤمنون بثواب الصـلاة و لا بعقاب تركها. أو المقصود الذين يراؤون فى صـلاتهم (بينما جاء ذكر هذا المعنى فى الآية التالية).

الجمع بين هذه التفاسير ممكن طبعا، و إنّ كان التّفسير الأوّل أنسب.

على أى حال، حين يكون الساهون عن الصلاة مستحقين للويل، فما بالك بتاركى الصلاة؟! الصفة الرابعة و الخامسة للمكذبين بالدين تذكرها الآيتان الأخيرتان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۷

الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ

من المؤكّـد أنّ أحد عوامل التظاهر و الرياء عدم الإيمان بيوم القيامة، و عدم الانشداد بطلب الثواب الإلهى. و إلّا كيف يمكن للإنسان أن يـترك مثوبـة اللّه و يتجه إلى النّـاس ليـتزلف إليهم؟! «المـاعون» من «المعن» و هـو الشـىء القليـل. و كـثير من المفسّرين قـالوا إنّ المقصود من «الماعون» الأشـياء البسـيطة التى يسـتعيرها أو يقتنيها النّاس و خاصّة الجيران من بعضهم، مثل حفنة الملح، و الماء، و النّار (الثقاب)، و الأوانى و أمثالها.

واضـح أنّ الـذى يبخل فى إعطاء مثل هـذه الأشـياء إلى غيره إنسان دنىء عديم الإيمان. أى إنّه بخيل إلى درجة الإباء عن إعطاء مثل هذه الأشياء. بينما يمكن لهذه الأشياء البسيطة أن تسدّ الاحتياجات الكبيرة. و منعها يؤدى إلى بروز مشاكل كثيرة فى حياة الأفراد.

و قيل: إنّ الماعون يعنى الزكاة. لأنّ الزكاة تشـكل نسـبة قليلة من أصل المال قد تبلغ عشرة بالمائة و أحيانا خمسة بالمائة و أحيانا اثنين و نصف بالمائة.

منع الزكاة طبعا من أفظع السيئات، لأنّ الزكاة تحل كثيرا من مشاكل المجتمع الاقتصادية.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير الماعون قال: «هو القرض يقرضه، و المتاع يعيره، و المعروف يصنعه»[۴۴۵]. و

فى روايـة اخرى عن الصـادق عليه السّـلام فسّـر المـاعون بنفس المعنى السـابق. فسأله سائل قال: لنا جيرانا إذا أعرناهم متاعا كسـروه و أفسدوه فعلينا جناح أن نمنعهم؟

فقال: «لا لیس علیکم جناح أن تمنعوهم إذا کانوا کذلک»[۴۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۸

و فی معنی الماعون ذکرت احتمالات اخری ذکر القرطبی منها اثنی عشر رأیا یرجع کثیر منها إلی معنی مشترک و المهم ما ذکرناه أعلاه.

ذکر هاتین الصفتین بشکل متوال (الریاء و منع الماعون) کأنه إشارة إلی أن هؤلاء المکذبین بالدین یؤدون ما للّه بنیة النّاس، و ما للناس یمنعونه عنهم، و من هنا لا یصیب أی ذی حق حقّه.

مسک الختام

حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من منع الماعون جاره منعه اللّه خیره یوم القیامة، و وکّله إلی نفسه، و من وکّله إلی نفسه فما أسوأ حاله»؟![۴۴۷]

تعقیب

۱- تلخیص موضوعات سورة الماعون

فی هذه السّورة القصیرة، ذکر اللّه سبحانه مجموعة من الصفات الرذیلة التی إن اتصف بها شخص فهی دلیل عدم إیمانه و دنائته و حقارته. و یلاحظ أنّها جمیعا فروع لظاهرة التکذیب بیوم الدین أی بیوم الجزاء.

إهانة الیتامی، و ترک إطعام المساکین، و التهاون فی الصلاة، و الریاء، و عدم التعاون مع النّاس حتی فی إعارة الأشیاء الصغیرة ... تشکل بمجموعها طبیعة حیاة هؤلاء المکذبین.

من هنا فهؤلاء أناس بخلاء ذاتیون أنانیون متظاهرون لا ارتباط لهم بالخالق و لا بخلقه ... أناس خلت نفوسهم من نور الإیمان و الشعور بالمسؤولیة، لا بثواب اللّه یفکرون، و لا من عذابه یخشون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۹

۲- التظاهر و الریاء بلاء اجتماعی کبیر

قیمة کلّ عمل تتوقف علی دافعه، و بالتعبیر الإسلامی، أساس کلّ عمل نیة عامله.

الإسلام یرکز علی النیة فی تقویم الأعمال. لذلک

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إنّما الأعمال بالنیات، و لکل امرئ ما نوی».

و

جاء فی ذیل هذا الحدیث: «فمن غزی ابتغاء ما عند اللّه فقد وقع أجره علی اللّه عزّ و جلّ و من غزی یرید عرض الدنیا أو نوی عقالا لم یکن له إلّا ما نوی»[۴۴۸].

و هذا یعود إلی أنّ النیة هی التی تصوغ شکل العمل دائما. من کان یعمل للّه جعل أساس عمله مستحکما، و سعی بکل جهده إلی أن یستفید منه النّاس أکثر الاستفادة. لکن المتظاهر المرائی یکتفی بزخرفة الظاهر و تنمیقه من دون أن یهتم بعمق العمل و باطنه و بحاجة المحتاجین إلیه.

المجتمع الذی یتعود علی الریاء لا یبتعد عن اللّه و عن الأخلاق الحسنة و الملکات الفاضلة فحسب، بل تصبح کلّ برامجه الاجتماعیة فارغة خالیة المحتوی، لا تتعدی مجموعة من المظاهر، و إنّها لمأساة أن یکون مصیر الفرد و مصیر المجتمع بهذا الشکل.

الرّوایات فی ذم الریاء کثیرة، بعضها و صفته بأنّه نوع من الشرک. و هنا نذکر ثلاثا منها:

۱-

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «سیأتی علی النّاس زمان تخبث فیه سرائرهم، و تحسن فیه علانیتهم، طمعا فی الدنیا، لا یریدون به ما عند ربّهم، یکون دینهم ریاء، لا یخالطهم خوف، یعمهم اللّه بعقاب، فیدعونه دعاء الغریق، فلا یستجیب لهم!»[۴۴۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۹۰

۲- و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا قال: «إنّ المرائی یدعی یوم القیامة بأربعة أسماء: یا کافر! یا فاجر! یا غادر! یا خاسر! حبط عملک، و بطل أجرک، فلا خلاص لک فالتمس أجرک ممن کنت تعمل له»[۴۵۰].

۳- و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال مخاطبا زرارة (أحد أصحابه): «من عمل للناس کان ثوابه علی النّاس یا زرارة! کلّ ریاء شرک»[۴۵۱].

اللّهمّ! إخلاص النیّة أمر عسیر فأعنا علیه بفضلک.

ربّنا! هب لنا إیمانا یجعل معیار تفکیرنا ثوابک و عقابک، و یساوی فی أنظارنا بین سخط المخلوقین و رضاهم فی السلوک إلیک.

إلهنا! اغفر برحمتک زلاتنا.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الماعون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۹۱

سورة الکوثر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثلاث آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۴۹۳

«سورة الکوثر»

محتوی السّورة:

المشهور أنّ هذه السّورة نزلت فی مکّة، و قیل: فی المدینة، و قیل: من المحتمل أنّها نزلت مرّتین فی مکّة و المدینة، لکن الرّوایات فی سبب نزول السّورة تؤید أنّها مکّیة.

ذکر فی سبب نزول السّورة: أنّ «العاص بن وائل» رأی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخرج من المسجد، فالتقیا عند باب بنی سهم، و تحدثا، و أناس من صنادید قریش جلوس فی المسجد. فلما دخل «العاص» قیل له من الذی کنت تتحدث معه؟ قال: ذلک الأبتر. و کان قد توفی عبد اللّه بن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو من خدیجة، و کانوا یسمون من لیس له ابن أبتر. قسمته قریش عند موت ابنه أبتر. (فنزلت السّورة تبشر النّبی بالنعم الوافرة و الکوثر و تصف عدوّه بالأبتر)[۴۵۲].

و لمزید من التوضیح نذکر أنّ النّبی کان له ولدان من ام المؤمنین خدیجة علیها السّلام أحدهما «القاسم» و الآخر «الطاهر» و یسمی أیضا عبد اللّه. و توفی کلاهما فی مکّة. و أصبح النّبی من دون ولد. هذه المسألة و فرت للأعداء فرصة الطعن بالنّبی فسمّوه الأبتر[۴۵۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۴

و العرب حسب تقالیدها کانت تعیر أهمّیة بالغة للولد، و تعتبره امتدادا لمهام الأب. بعد وفاة عبد اللّه خال الأعداء أنّ الرسالة سوف تنتهی بوفاة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

السّورة نزلت لتردّ علی هؤلاء الأعداء بشکل إعجازی و لتقول لهم: إنّ عدوّ الرسول هو الأبتر، و أن الرسالة سوف تستمر و تتواصل و هذه البشری بددت من جهة آمال الأعداء و طیبت خاطر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد أن اغتم من لمز الأعداء و تآمرهم.

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها سقاه اللّه من أنهار الجنّة، و اعطی من الأجر بعدد کلّ قربان قربه العباد فی یوم عید، و یقربون من أهل الکتاب و المشرکین»[۴۵۴]

اسم هذه السّورة (الکوثر) مأخوذة من أوّل آیة فیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۵

الآیات [سورة الکوثر (۱۰۸): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ (۱) فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ (۲) إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ (۳)

التّفسیر

أعطیناک الخیر العمیم،

الحدیث فی کلّ هذه السّورة موجّه إلی النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (مثل سورة و الضحی، و سورة ألم نشرح)، و أحد أهداف هذه السور تسلیة قلب النّبی إزاء رکام الأحداث المؤلمة و طعون الأعداء.

تقول له أوّلا:

إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ.

و «الکوثر»: من الکثرة، و بمعنی الخیر الکثیر، و یسمی الفرد السخی کوثرا.

و فی معنی «الکوثر»

ورد أنّه لما نزلت سورة الکوثر صعد رسول للّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المنبر فقرأها علی النّاس. فلما نزل قالوا: یا رسول اللّه ما هذا الذی أعطاک اللّه؟

قال: «نهر فی الجنّة أشدّ بیاضا من اللبن، و أشدّ استقامة من القدح، حافتاه قباب

الدر و الیاقوت ...»[۴۵۵].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام فی معنی الکوثر قال: «نهی فی الجنّة أعطاه اللّه نبیّه عوضا من ابنه»[۴۵۶].

و قیل: هو حوض النّبی الذی یکثر النّاس علیه یوم القیامة.

و قیل: هو النّبوة و الکتاب، و قیل: هو القرآن. و قیل: کثرة الأصحاب و الأشیاع. و قیل: هو کثرة النسل و الذریة و قد ظهرت الکثرة فی نسله من ولد فاطمة علیها السّلام حتی لا یحصی عددهم، و اتصل إلی یوم القیامة مددهم، و

روی عن الصادق علیه السّلام أنّه الشفاعة[۴۵۷]

الفخر الرازی نقـل خمسـة عشـر رأیـا فی تفسـیر الکوثر، و لکن هـذه التفاسـیر تبیّن غالبـا المصادیق البارزة لمعناها الواسع و هو «الخیر الکثیر».

نعلم أنّ اللّه سـبحانه أعطی رسوله الأـکرم صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم نعمـا کثیرة، منهـا ما ذکره المفسّـِرون فی معنی الکوثر و غیرها کثیر، و کلّها یمکن أن تکون تفسیرا مصداقیا للآیة.

علی أی حـال، کلّ الهبات الإلهیـة لرسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی کل المجالات تـدخل فی إطار هـذا الخیر الکثیر، و من ذلک انتصاراته علی الأعداء فی الغزوات، بل حتی علماء أمته الذین یحملون مشعل الإسلام و القرآن فی کلّ زمان و مکان.

و لا ننسـی أنّ کلام اللّه سـبحانه تعالی لنبیّه فی هـذه السّورة کان قبل ظهور الخیر الکثیر. فهو إخبار بالمسـتقبل القریب و البعید، إخبار إعجازی یشکل دلیلا آخر علی صدق دعوة الرسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

هذا الخیر الکثیر یستوجب شکرا عظیما، و إنّ کان المخلوق لا یستطیع أداء

حقّ نعمة الخالق أبدا. إذ أنّ توفیق الشکر نعمة اخری منه سبحانه. و لذا یقول سبحانه لنبیّه:

فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ.

نعم، واهب النعم هو سبحانه. لذلک لیس ثمّة معنی للعبادات إن کانت لغیره.

خاصّة و إن کلمة (ربّ) تعنی استمرار النعمة و التدبیر و الربوبیة.

بعبارة اخری، العبادات، سواء کانت صلاة أم نحرا، تختص بالربّ و ولی النعمة، و هو اللّه سبحانه و تعالی.

و الأمر بالصـلاة و النحر للربّ مقابل ما کان یفعله المشـرکون من سـجودهم للأصـنام و نحرهـم لها، بینما کانوا یرون نعمهم من اللّه. و تعبیر (لربّک) دلیل واضح علی وجوب قصد القربة فی العبادات.

کثیر من المفسّرین یعتقدون أنّ الآیة تقصد صلاة عید الأضحی و النحر فیه.

لکن مفهوم الآیة عام و واسع. و صلاة عید الأضحی و النحر فیه من مصادیق الآیة البارزة.

عبارة «و انحر» من النحر، و هو ذبح الناقة. و قد یکون ذلک لأهمیة الناقة بین أنواع الأضاحی. و المسلمون الأوائل کانوا یعتزون بالإبل. و نحرها یحتاج إلی إیثار کثیر.

و ذکر للآیة المبارکة تفسیران آخران.

۱- المقصـود من کلمـة (و انحر) أن اسـتقبل القبلـة فی الصـلاة. لأـنّ النحر أعلی الصـدر، و العرب تسـتعمل الکلمـة لاسـتقبال الشـیء فیقولون: منازلنا تتناحر، أی تتقابل.

۲- المقصود رفع الید عند النحر لدی التکبیر و لذا

ورد فی الرّوایة أنّه لما

نزلت هـذه السّورة قال النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لجبریل: «ما هـذه النحیرة[۴۵۸] التی أمرنی بهـا ربّی؟» قـال: «لیست بنحیرة، و لکنّه یأمرک إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع یدیک إذا کبرت و إذا رکعت، و إذا رفعت رأسک من الرکوع و إذا سجدت، فإنّه صلاتنا و صلاة الملائکة فی السماوات السبع. فإن لکلّ شیء زینة، و إنّ زینة الصلاة رفع الأیدی عند کلّ تکبیرة»[۴۵۹].

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الآیة أنّه أشار بیده و قال: «هکذا».

أی استقبل بیدیه القبلة فی افتتاح الصلاة (رفع یدیه جاعلا کفه مقابل القبلة)[۴۶۰].

و التّفسیر الأوّل أنسب، لأنّ المقصود هو الردّ علی أعمال المشرکین الذین کانوا یعبدون و ینحرون لغیر اللّه، و لکن لا مانع من الجمع بین هذه المعانی، خاصّة و قد وردت بشأن رفع الید عند التکبیر روایات کثیرة فی کتب الشیعة و السنة.

و بذلک یکون للآیة مفهوم جامع یشمل هذه المعانی أیضا.

و فی آخر آیة یقول اللّه سبحانه لنبیّه ردّا علی ما وصمه به المشرکون: إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ.

«الشانئ» هو المعادی من «الشنان»- علی وزن ضربان- و هو العداء و الحقد.

و «أبتر» فی الأصل هو الحیوان المقطوع الذنب ۴۶۱]. و صدر هذا التعبیر من أعداء الإسلام لانتهاک الحرمة و الإهانة. و کلمة (شانئ) فیها ایحاء بأنّ عدوک لا یراعی أیة حرمة و لا یلتزم بأی أدب، أی أنّ عداوته مقرونة بالفظاظة و الدناءة.

و القرآن یقول لهؤلاء الأعداء فی الواقع: إنّکم أنتم تحملون صفة الأبتر لا رسول

اللّه.

من جهـة اخری، کمـا ذکرنـا فی سـبب نزول السّورة، قریش کانت تترقب انتهاء الرسالـة بوفاة النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّهم کانوا یقولون: إنّ النّبی بلا عقب. و القرآن یقول للنّبی: «لست بلا عقب، بل شانئک بلا عقب».

بحوث

۱- فاطمة علیها السّلام و الکوثر

قلنـا إنّ «الکوثر» له معنی واسع یشـمل کـل خیر وهبه اللّه لنـبیّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، و مصـادیقه کـثیرة، لکن کثیرا من علمـاء الشیعة ذهبوا إلی أنّ «فاطمة الزهراء علیها السّلام» من أوضح مصادیق الکوثر، لأنّ روایة سبب النزول تقول: إنّ المشرکین وصموا النّبی بالأبتر، أی بالشخص المعدوم العقب، و جاءت الآیة لتقول: إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ.

و من هنا نستنتج أن الخیر الکثیر أو الکوثر هو فاطمة الزهراء علیها السّلام، لأن نسل الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انتشر فی العالم بواسطة هـذه البنت الکریمـة ... و ذریـة الرسول من فاطمة لم یکونوا امتدادا جسـمیا للرسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فحسب، بل کانوا امتـدادا رسالیا صانوا الإسـلام وضـحوا من أجل المحافظـة علیه و کان منهم أئمّة الدین الإثنی عشـر، أو الخلفاء الإثنی عشـر بعد النّبی کمـا أخبر عنهم رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی الأحـادیث المتواترة بین السـنة و الشـیعة، و کـان منهم أیضـا الآلاف

المؤلفة من كبار العلماء و الفقهاء و المحدثين و المفسّرين وقادة الامّة.

و الفخر الرازى فى استعراضه لتفاسير معنى الكوثر يقول: القول الثّالث «الكوثر» أولاده. قالوا لأنّ هذه السّورة إنّما نزلت ردّا على من عابه عليه السّلام بعدم الأولاد فالمعنى أنّه يعطيه نسلا يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت

ثمّ العالم ممتلئ منهم و لم يبق من بنى اميـة فى الـدنيا أحـد يعبأ به، ثمّ أنظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر و الصادق و الكاظم و الرضا عليهم السّلام و النفس الزكية و أمثالهم ۴۶۲].

۲- إعجاز السّورة

هذه السّورة تتضمّن فى الواقع ثلاثة من أنباء الغيب و الحديث عن المستقبل.

فهى أوّلا تتحدث عن إعطاء الخير الكثير للنّبى (أعطيناك الكوثر) و هذا الفعل و إن جاء بصيغة الماضى، قد يعنى المستقبل الحتمى الوقوع. و هـذا الخير الكثير يشـمل كلّ الانتصارات و النجاحات التى أحرزتها الـدعوة الإسـلامية فيما بعـد. و هى ما كانت متوقعـة عند نزول السّورة فى مكّة.

من جهة اخرى، السّورة تخبر النّبى بأنّه سوف لا يبقى بدون عقب، بل إنّ ذريته ستنتشر فى الآفاق.

و من جهـة ثالثـة، تخبر السّورة بأنّ عـدوّه هو الأبتر، و هذه النبوءة تحققت أيضا، فلا أثر لعدوه اليوم، بنو امية و بنو العباس الذين عادوا النّبى و أبناءه كانوا ذا نسل لا يحصى عدده، و لم يبق اليوم منهم شيء يذكر.

۳- «إنّا» بصيغة الجمع، لما ذا؟

يلاحظ فى السّورة و فى مواضع اخرى من القرآن أن اللّه سبحانه ذكر نفسه بصيغة الجمع (ضمير المتكلم مع الغير): إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ.

هذا التعبير لبيان عظمته جلّت قدرته. فالعظماء حين يتحدثون عن أنفسهم، فلا يعنون بشخصهم فقط بل يخبرون عمن تحت إمرتهم. و هى كناية عن القدرة

و العظمة و عن وجود من يأتمر بأمرهم.

الآيـة الكريمـة مؤكّـدة بحرف (إنّ) تأكيدا آخر، و عبارة «أعطيناك» تعنى هبة اللّه سبحانه لنبيّه هذا الكوثر، و لم يقل آتيناك. و هذه بشارة كبيرة للنّبى تسلى قلبه أمام تخرصات الأعداء، و تثبت قدمه و تبعد الوهن عن عزيمته؛ و ليعلم أن سنده هو اللّه مصدر كلّ خير و واهب ما عنده من خير كثير.

ربّنا! لا تحرمنا ممّا أنعمت به على نبيّك من خير كثير.

ربّنا! إنّك تعلم مدى حبّنا لرسولك و لذريته الطاهرة، فاحشرنا فى زمرتهم.

ربّنا! عظمة رسولك و عظمة رسالته لا تبلغها عظمة، اللّهمّ فزدها عزّة و منعة و شوكة.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الكوثر

سورة الكافرون

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ستّ آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۵

«سورة الكافرون»

محتوى السّورة:

هـذه السّورة نزلت فى مكّة لحنها و محتواها يؤيدان ذلك. و سبب نزولها الذى سنبيّنه بإذن اللّه دليل آخر على مكّيتها، و نستبعد ما ذهب إليه بعضهم من أنّها مدنية.

من لحن السّورة نفهم أنّها نزلت فى زمان كان المسلمون فى أقلية و الكفار فى أكثرية، و النّبى يعانى من الضغوط التى تطلب منه أن يهادن المشركين. و أمام هذه الضغوط كان النّبى يعلن صموده و إصراره على المبدأ، دون أن يصطدم بهم.

و فى هذا درس عبرة لكل المسلمين أن لا يساوموا أعداء الإسلام فى مبادئ الدين مهما كانت الظروف. و أن يبعثوا اليأس فى قلوبهم متى ما بادروا الى هـذه المساومة. و فى هذه السّورة تكرر مرّتين نفى عبادة الإنسان المسلم لما يعبده الكافرون، و هو تأكيد يستهدف بّث اليأس فى قلوب الكافرين. كما تكرر مرّتين نفى عبادة الكافر لما يعبده المسلمون من إله واحد أحد. و هـذا دليل على تعنتهم و لجاجهم. و نتيجة ذلك هو الفصل العقائدى الحاسم بين منهج التوحيد و متاهات الشرك: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هـذه السّورة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ قل يا أيّها الكافرون فكأنّما قرأ ربع القرآن و تباعدت عنه مردة الشياطين، و برأ من الشرك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۶

و يعافى من الفزع الأكبر»[۴۶۳].

و عبارة (ربع القرآن) قد تعنى أن مسألة مواجهة الشرك و الكفر تحتل ربع القرآن و جاءت عصارتها فى هذه السّورة المباركة. و إنّما كانت هذه السّورة عاملا على تباعد مردة الشياطين عن قارئها، لأنّها رفض حاسم للشرك و المشركين، و الشرك أهم حبائل الشيطان.

و النجاة فى يوم القيامة (أو المعافاة من الفزع الأكبر على حدّ تعبير الرّواية) تتوقف بالدرجة الأولى على التوحيد و رفض الشرك. و هو ما دارت حوله مضامين هذه السّورة.

و

فى رواية أخرى أن رجلا- أتى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: جئت يا رسول اللّه لتعلمنى شيئا أقوله عند منامى قال: «إذا أخذت مضجعك فاقرأ قل يا أيّها الكافرون، ثمّ نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك»[۴۶۴].

و

عن جبير بن مطعم قال: قال لى رسول اللّه: «أ تحب يا جبير أن تكون إذا خرجت سفرا من أمثل أصحابك هيئة و أكثرهم زادا»؟

قلت: نعم بأبى أنت و أمى يا رسول اللّه.

قال: «فاقرأ هذه السور الخمس: قل يا أيّها الكافرون، و إذا جاء نصر اللّه و الفتح، و قل هو اللّه أحد، و قل أعوذ برب الفلق، و قل أعوذ

برب النّاس. و افتتح قراءتک ببسم اللّه الرحمن الرحيم».

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «كان أبى يقول: قل يا أيّها الكافرون ربع القرآن. و كان إذا فرغ منها قال: أعبد اللّه وحده، أعبد اللّه وحده»[۴۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۷

الآيات [سورة الكافرون (۱۰۹): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (۱) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (۲) وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۳) وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (۴)
وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۵) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (۶)

سبب النّزول

جاء فى الرّواية أن السّورة نزلت فى نفر من قريش منهم «الحارث بن قيس السهمى» و «العاص بن أبى وائل» و «الوليد بن المغيرة»، و «أمية بن خلف» و غيرهم من القرشيين قالوا: هلم يا محمّد فاتبع ديننا نتبع دينك، و نشرکک فى أمرنا كلّه، تعبد آلهتنا سنة و نعبد آلهتک سنة. فإن كان الذى جئت به خيرا ممّا بأيدينا كنّا قد شركناک فيه و أخذنا بحظنا منه. و إن كان الذى بأيدينا خيرا ممّا فى يديک كنت قد شركتنا فى أمرنا و أخذت بحظک منه.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «معاذ اللّه أن أشرک به غيره».

قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقک و نعبد آلهتک.

فقال: «حتى انظر ما يأتى من عند ربّى».

فنزل قل يا أيّها الكافرون- السّورة.

فعدل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المسجد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۸

الحرام و فيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم، ثمّ قرأ عليهم حتى فرغ من السّورة فأيسوا عند ذلک، فآذوه و آذوا أصحابه»[۴۶۶].

التّفسير

لا أهادن الكافرين:

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ و الخطاب إلى قوم مخصوصين من الكافرين كما ذكر كثير من المفسّرين، و الألف و اللام للعهد. و إنّما ذهب المفسّرون إلى ذلک لأن الآيات التالية تنفى أن يعبد الكافرون ما يعبده المسلمون و هو اللّه سبحانه فى الماضى و الحال و المستقبل. و المجموعة المخاطبة بهذه الآيات بقيت بالفعل على كفرها و شركها حتى آخر عمرها. بينما دخل كثير من المشركين بعد فتح مكّة فى

دین اللّه أفواجا.

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ فهذه مسألة مبدئیة لا تقبل المساومة و المهادنة و المداهنة.

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ لما تأصّل فیکم من لجاج و عناد و تقلید أعمی لآبائکم، و لما تجدونه فی الدعوة من تهدید لمصالحکم و للأموال التی تدر علیکم من عبدة الأصنام.

و لمزید من التأکید و بث الیأس فی قلوب الکافرین، و لبیان حقیقة الفصل الحاسم بین منهج الإسلام و منهج الشرک قال سبحانه:

وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ، وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ فعلی هذا لا معنی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۰۹

لإصرارکم علی المصالحة و المهادنة معی حول مسألة عبادة الأوثان فإنّه أمر محال لَکُمْ دِینُکُمْ وَ لِیَ دِینِ

أسئلة:

۱- لما ذا بدأت السّورة بفعل الأمر «قل»

«قل» فعل أمر موجه من اللّه سبحانه لنبیه کی یبلّغ الکافرین و یقول لهم:

... یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ ... إلی آخر السّورة، فلما ذا بدأ النّبی تلاوة السّورة بکلمة «قل»، و هی موجهة إلیه لا إلی الکافرین؟ أما کان من الأفضل أن تبدأ السّورة بیا أیّها الکافرون ...؟

الجواب یتضح لو التفتنا إلی محتوی السّورة. مشرکو العرب کانوا قد دعوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیهادنهم بشأن الأوثان و علیه أن یرّد علیهم و یرفض الاستسلام لهم. و إذا لم یبدأ الکلام ب «قل» یصبح الأسلوب أسلوب خطاب طاب اللّه لهم.

و هذا لا ینسجم مع قوله: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ و ما شابهه.

أضف إلی ذلک أن کلمة «قل» کانت موجودة فی النص الذی جاء به جبرائیل من اللّه تعالی. و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکلف بالمحافظة علی النص القرآنی بحذافیره. و هذا یدل علی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جبرائیل علیه السّلام لیس لهما أی دور فی صیاغة النص القرآنی و لیس لهما حق أی تغییر فیه: بل یأتمران بما أمرهما اللّه. و هذا المعنی تؤکده الآیة الکریمة: قُلْ ما یَکُونُ لِی أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِی إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما یُوحی إِلَیَ ‌[۴۶۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۱۰

۲- أ کان عبدة الأصنام منکرین للّه؟

نعلم أن عبدة الأصنام لم یکونوا منکرین للّه سبحانه، و القرآن یؤید ذلک فی قوله سبحانه: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللَّهُ ‌[۴۶۸].

کیف إذن تقول الآیة الکریمة: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ، وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ.

الجواب: أن الکلام فی هذه السّورة یدور حول العبادة لا الخلقة، و یتضح أن عبدة الأصنام کانوا یعتقدون أن «اللّه» خالق الکون، لکنّهم کانوا یرون ضرورة «عبادة» الأصنام کی تکون واسطة بینهم و بین اللّه، أو لاعتقادهم بأنّهم لیسوا أهلا لعبادة اللّه، بل لا بدّ من عبادة أصنام جسمیة، و القرآن الکریم یرد علی هذه الأوهام و یقول: إنّ العبادة للّه وحده لا للأصنام و لا لکلیهما!

۳- لم هذا التکرار؟

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ ... وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ الآیتان تکرران معنی واحدا، و هکذا وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ ... وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ تکررت أیضا، لماذا؟ للمفسّرین فی جواب هذا السؤال آراء مختلفة.

ذهب بعضهم إلی أن الهدف من التکرار التأکید و بثّ الیأس فی قلوب المشرکین، و فصل المسیرة الإسلامیة بشکل کامل عن مسیرتهم، و تثبیت فکرة عدم إمکان المهادنة بین التوحید و الشرک. بعبارة أخری القرآن الکریم قابل دعوة المشرکین إلی المساومة و المهادنة و إصرارهم علی ذلک و تکرارهم لدعوتهم، بتکرار فی الردّ علیهم.

ورد أن «أبا شاکر الدیصانی» و هو من زنادق عصر الإمام الصادق علیه السّلام سأل

أحد أصحاب الصادق علیه السّلام و هو «أبو جعفر الأحول» (محمّد بن علی النعمانی المعروف بمؤمن الطاق) عن سبب هذا التکرار، و هل الشخص الحکیم یرد فی کلامه مثل هذا التکرار؟

أبو جعفر الأحول أعیاه الجواب، فتوجه إلی المدینة، و دخل علی الإمام الصادق علیه السّلام و سأله عن ذلک، أجابه الإمام: کان سبب نزولها و تکرارها أن قریشا قالت لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهک سنة و تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهک سنة فأصابهم بمثل ما قالوا فقال فیما قالوا تعبد آلهتنا سنة قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ و فیما قالوا نعبد إلهک سنة وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ و فیما قالوا تعبد آلهتنا سنة وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ و فیما قالوا نعبد إلهک سنة وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ، لَکُمْ دِینُکُمْ وَ لِیَ دِینِ

ذهب أبو جعفر الأحول بالجواب إلی أبی شاکر، فلما سمعه قال: «هذا ما حمله الإبل من الحجاز»[۴۶۹]! (یشیر بذلک إلی أن هذا لیس کلامک بل کلام الصادق).

و قیل إن هذا التکرار یعود إلی أن الجملة الأولی ترکز علی الحال، و الجملة الثّانیة ترکز علی المستقبل، و یکون معنی الجملتین لا أعبد ما تعبدون فی الحال و المستقبل. و لا یوجد شاهد فی الآیة علی هذا التّفسیر.

ثمة تفسیر ثالث لهذا التکرار هو إن الأولی تشیر إلی الاختلاف فی المعبود و الثّانیة إلی الاختلاف فی العبادة. أی لا أعبد الذی تعبدون، و لا أعبد عبادتکم لأن عبادتی خالصة من الشرک و لأنها عبادة عن وعی و عن أداء للشکر لا عن تقلید أعمی ۴۷۰].

و الظاهر أن هذا التکرار للتأکید کما ذکرنا أعلاه، و جاءت الإشارة إلیه أیضا

فی حدیث الإمام الصادق علیه السّلام.

و هناک تفسیر رابع للتکرار هو إن الآیة الثّانیة تقول: لا أعبد ما تعبدون الآن.

و الآیة الرابعة تقول: ما أنا عابد (فی الماضی) معبودکم، فما بالکم الیوم. هذا التّفسیر یستند إلی التفاوت بین فعلی الآیتین، فی الثّانیة الفعل مضارع «تعبدون»، و فی الآیة الرابعة «عبدتم» بصیغة الماضی و نحن لا نستبعده ۴۷۱].

و إن کان هذا یحل مسألة تکرار الآیتین الثّانیة و الرابعة، و تبقی مسألة تکرار الآیتین الثّالثة و الخامسة علی حالها.[۴۷۲]

۴- هل الآیة لَکُمْ دِینُکُمْ وَ لِیَ دِینِ تعنی جواز عبادة الأصنام؟!

قد یتصور أنّ هذه الآیة لها مفهوم «السلام العام» و تجیز حتی لعبدة الأصنام أن یظلوا علیها عاکفین، لأنّها لا تصرّ علی قبول دین

الإسلام.

لكن هذا التصور فارغ لا يقوم على أساس، لحن الآيات يوضح بجلاء أنّها نوع من التحقير و التهديد، أى دعكم و دينكم فسترون قريبا و بال أمركم، تماما مثل ما ورد فى قوله تعالى: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا: لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِى الْجاهِلِينَ [۴۷۳].

و الشاهد الواضح على ذلك مئات الآيات الكريمة التى ترفض الشرك بكل ألوانه، و تعتبره عملا لا شيء أبغض منه، و ذنبا لا يغفر.

و هناك إجابات اخرى على هذا السؤال مثل تقدير محذوف و تكون العبارة:

لكم جزاء دينكم و لى جزاء دينى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۳

و قيل أيضا: «الدين» هنا بمعنى الجزاء، و لا محذوف فيها و مفهومها لكم جزاؤكم و لى جزائى [۴۷۴].

و التّفسير الأوّل أنسب.

۵- هل هادن الشرك يوما؟

السّورة تطرح حقيقة التضاد و الانفصال التام بين منهج التوحيد، و منهج الشرك، و عدم وجود أى تشابه بينهما، التوحيد يشدّ الإنسان باللّه بينما الشرك يجعل الإنسان غريبا عن اللّه.

التوحيد رمز الوحدة و الانسجام فى جميع المجالات، و الشرك مبعث التفرقة و التمزق فى كلّ الشؤون.

التوحيد يسمو بالإنسان على عالم المادة و الطبيعة، و يربطه بما وراء الطبيعة بالوجود اللامتناهى لربّ العالمين، بينما الشرك يجعل الإنسان يرسف فى أغلال الطبيعة، و يربطه بموجودات ضعيفة فانية.

من هنا فالنّبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سائر الأنبياء الكرام لم يهادنوا الشرك لحظة واحدة، بل جعلوا مقارعته فى رأس قائمة أعمالهم.

السائرون على طريق اللّه من الدعاة و العلماء الإسلاميين يتحملون مسئولية مواصلة هذه المسيرة، و عليهم أن يعلنوا براءتهم من الشرك و المشركين فى كلّ مكان.

هذا هو طريق الإسلام الأصيل.

اللّهم! جنبنا كلّ شرك فى أفكارنا و أعمالنا.

ربّنا! وساوس المشركين فى عصرنا خطرة أيضا، فاحفظنا من الوقوع فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۴

حبائلهم.

الهنا! منّ علينا بشجاعة و صراحة و حزم لنكون كما كان نبيّك صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رافضين لكلّ مساومة مع الكفر و الكافرين و الشرك و المشركين.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الكافرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۵

سورة النّصر

اشارهٔ

مدنيّهٔ و عدد آياتها ثلاث آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۷

«سورهٔ النّصر»

محتوى السّورهٔ:

هذه السّورهٔ نزلت فى المدينهٔ بعد الهجرهٔ، و فيها بشرى النصر العظيم و دخول النّاس فى دين اللّه أفواجا، و تدعو النّبى أن يسبح اللّه و يحمده و يستغفره شكرا على هذه النعمهٔ.

فى الإسلام فتوحات كثيرهٔ، و لكن فتحا بالمواصفات المذكورهٔ فى السّورهٔ ما كان سوى «فتح مكّهٔ»، خاصّهٔ و أن العرب- كما جاء فى الرّوايات- كانت تعتقد أن نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يستطيع أن يفتح مكّهٔ إلّا إذا كان على حق ... و لو لم يكن على حقّ فربّ البيت يمنعه كما منع جيش أبرههٔ، و لذلك دخل العرب فى دين اللّه بعد فتح مكّهٔ أفواجا.

قيل: إنّ هذه السّورهٔ نزلت بعد «صلح الحديبيهٔ» فى السنهٔ السادسهٔ للهجرهٔ، و قبل عامين من فتح مكّهٔ.

و ما احتمله بعضهم من نزول هذه السّورهٔ بعد فتح مكّهٔ فى السنهٔ العاشرهٔ للهجرهٔ فى حجّهٔ الوداع فبعيد جدّا، لأنّ عبارات السّورهٔ لا تنسجم و هذا المعنى، فهى تخبر عن حادثهٔ ترتبط بالمستقبل لا بالماضى.

و من أسماء هذه السّورهٔ «التوديع» لأنّها تتضمّن خبر وفاهٔ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و

فى الرّوايهٔ أنّ هذه السّورهٔ لما نزلت قرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أصحابه ففرحوا و استبشروا، و سمعها العباس فبكى، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما يبكيك يا عم؟»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۸

فقال: أظنّ أنّه قد نعيت إليك نفسك يا رسول اللّه، فقال: «إنّه لكما تقول»[۴۷۵].

و ظاهر السّورهٔ ليس فيه إنباء عن قرب رحلهٔ الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل عن الفتح و النصر، فكيف فهم العباس أنّها تنعى إلى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه؟ يبدو أنّ دلالهٔ السّورهٔ على اكتمال الرسالهٔ و تثبيت الدين هو الذى أوحى بقرب ارتحال الرسول إلى جوار ربّه.

فضيلهٔ السّورهٔ:

وردت فى فضيلهٔ السّورهٔ

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها فكأنّما شهد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتح مكّهٔ»[۴۷۶].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «من قرأ إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فى نافلهٔ أو فريضهٔ نصره اللّه على جميع أعدائه، و جاء يوم القيامهٔ و معه كتاب ينطق، قد أخرجه اللّه من جوف قبره، فيه أمان من حرّ جهنّم»[۴۷۷].

واضح أنّ هذه الفضيلهٔ لمن قرأ هذه السّورهٔ فسلك مسلك رسول اللّه و عمل بسيرته و سنته، لا أن يكتفى بلقلقهٔ اللسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۹

الآيات [سورة النصر (۱۱۰): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (۱) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (۲) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (۳)

التّفسير

عند انبلاج فجر النصر:

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ، وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً.
هـذه الآيات الثلاث القصار فى ألفاظها العميقـة فى محتواها تتضـمّن مسائل دقيقة كثيرة نسـلط عليها الضوء كى تساعدنا فى فهم معنى السّورة.
۱- «النصر»: فى الآية أضيف إلى اللّه «نصر اللّه» و فى كثير من المواضع القرآنية نجد نسبة النصر إلى اللّه. يقول سبحانه أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۴۷۸]، و يقول: وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۴۷۹].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۰
و هـذا يعنى أن النصـر فى أى حال لا يكون إلّا بإرادة اللّه، نعم، لا بدّ من إعداد القوّة للغلبة على العدو، لكن الإنسان الموحّد يؤمن أنّ النصر من عند اللّه وحده، و لذلك لا يغتّر بالنصر، بل يتجه إلى شكر اللّه و حمده.
۲- فى هذه السّورة دار الحديث عن نصرة اللّه، ثمّ عن «الفتح» و الانتصار، و بعدها عن اتساع رقعة الإسلام و دخول النّاس فى دين اللّه زرافات و وحدانا.
و بين هذه الثلاثة ارتباط علة و معلول. فبنصـر اللّه زرافات يتحقق الفتح، و با الفتح تزال الموانع من الطريق و يدخل النّاس فى دين اللّه أفواجا.
بعد هذه المراحل الثلاث- التى يشكل كل منها نعمة كبرى- تحّل المرحلة الرابعة و هى مرحلة الشكر و الحمد.
من جهة أخرى نصر اللّه، و الفتح هدفهما النهائى دخول النّاس فى دين اللّه و هداية البشرية.
۳- «الفتح» هنا مذكور بشكل مطلق، و القرائن تشير- كما ذكرنا- أنه فتح مكّة الذى كان له ذلك الصدى الواسع المذكور فى الآية.
«فتح مكّة» فتح فى الواقع صفحة جديدة فى تاريخ الإسلام، لأن مركز الشرك قد تلاشى بهذا الفتح، انهدمت الأصنام، و تبددت آمال المشركين و أزيلت السدود و الموانع من طريق إيمان النّاس بالإسلام.
من هنا، يجب أن نعتبر فتـح مكّـة بداية مرحلة تثبيت أسـس الإسـلام و اسـتقراره فى الجزيرة العربية ثمّ فى العالم أجمع. لذلك لا نرى بعد فتح مكّة مقاومة من المشركين (سوى مرّة واحدة قمعت بسرعة) و كان النّاس بعده يفدون على النّبى من كل أنحاء الجزيرة ليعلنوا إسلامهم.
۴- فى نهايـة السّورة يأمر اللّه سـبحانه نبيّه (بل كل المؤمنين) بثلاثـة أمور ليجسّـد آلاء الشـكر و ليتخـذ الموقف الإيمانى المناسب من النصر الإلهى و هى: «التسبيح» و «الحمد» و «الاستغفار».
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۱

«التسبیح» تنزیه اللّه من کل عیب و نقص.

و «الحمد» لوصف اللّه بالصفات الکمالیة.

و «الاستغفار» إزاء تقصیر العبد.

هذا الإنتصار الکبیر أدی إلی تطهیر الساحة من أفکار الشرک، و إلی تجلی جمال اللّه و کماله أکثر من ذی قبل، و إلی اهتداء من ضلّ الطریق إلی اللّه.

هذا الفتح العظیم أدی إلی أن لا یظن فرد بأن اللّه یترک أنصاره وحدهم (و لذلک جاء أمر التسبیح لتنزیهه من هذا النقص) و إلی أن یعلم المؤمنون بأن وعده الحق (موصوف بهذا الکمال)، و إلی أن یعترف العباد بنقصهم أمام عظمة اللّه.

أضف إلی ما سبق، أن الإنسان- عند النصر- قد تظهر علیه ردود فعل سلبیة فیقع فی الغرور و التعالی، أو یتخذ موقف الانتقام و تصفیة الحسابات الشخصیة، و هذه الأوامر الثلاثة تعلمه أن یکون فی لحظات النصر الحساسة ذاکرا لصفات جلال اللّه و جماله و أن یری کل شیء منه سبحانه، و یتجه إلی الاستغفار کی یزول عنه غرور الغفلة و یبتعد عن الانتقام.

۵- رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مثل کل الأنبیاء معصوم، فلما ذا الاستغفار؟

الجواب أن هذا تعلیم لکل الأمة لأنه:

أوّلا: خلال أیّام المواجهة بین الإسلام و الشرک مرّت فترات عصیبة علی المسلمین، و تفاقمت فی بعض المراحل مشاکل الدعوة، و ضاقت صدور بعضهم و ساور بعضهم الآخر شکوک فی وعد اللّه. کما قال سبحانه فیهم عند غزوة «الأحزاب»: وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا[۴۸۰].

و الآن إذ تحقق الإنتصار فقد اتضح خطل تلک الظنون، و لا بدّ من «الاستغفار» ثانیا: الإنسان لا یستطیع أن یؤدی حقّ الشکر، مهما حمد اللّه و أثنی علیه.

و لذلک لا بدّ له بعد الحمد و الثناء أن یتجه إلی استغفاره سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۲۲

ثالثا: بعد الإنتصار تبدأ عادة وساوس الشیطان، فتبرز ظاهرة الغرور تارة و ظاهرة الانتقام تارة أخری. و لا بدّ إذن من ذکر اللّه و استغفاره باستمرار حتی لا تظهر هذه الحالات، و لتزول إن ظهرت.

رابعا: إعلام هذا النصر یعنی انتهاء مهمّة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تقریبا کما ذکرنا فی بدایة السّورة، و انتهاء عمره المبارک و التحاقه بالرفیق الأعلی. و لذا

جاء فی الرّوایات أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد نزول هذه السّورة کان یکثر من قول: «سبحانک اللّهم و بحمدک، اللّهم اغفر لی إنّک أنت التواب الرحیم».

۶- عبارة إِنَّهُ کانَ تَوَّاباً تبیّن علّة الاستغفار. أی استغفره و تب إلیه لأنّه سبحانه تواب.

و قد تکون العبارة تستهدف تعلیم المسلمین العفو، فکما إن اللّه تواب کذلک أنتم ینبغی أن تقبلوا توبة المذنبین بعد الإنتصار ما أمکنکم ذلک. و أن لا تطردوهم ما داموا منصرفین عن المخالفة و التآمر. و لذلک اتخذ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی فتح مکّة- کما سنری- موقف الرحمة و الرأفة مقابل الأعداء الحقودین.

التسبیح و الحمد و الاستغفار دأب کل الأنبیاء الکرام عند تحقق النصر. یوسف علیه السّلام حین جلس علی سریر الحکم فی مصر و عاد إلیه والداه و اخوته بعد فراق طویل قال: رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِیِّی فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِی مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ [۴۸۱] و عند ما حضر عرش ملکة سبأ أمام سلیمان علیه السّلام قال: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ[۴۸۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۳

بحث

عند فتح مکّة:

فتح مکّة- کما ذکرنا- فتح صفحة جدیدة فی تاریخ الإسلام، و دحر الأعداء بعد عشرین عاما من المقاومة. و تطهرت أرض الجزیرة العربیة من الشرک و الأوثان، و الإسلام تأهب لدعوة بقیة أصقاع العالم.

ملخص الواقعة علی النحو التالی:

بعد صلح الحدیبیة، عمد المشرکون إلی نقض العهد، و إلی خرق بنود وثیقة الصلح، و اعتدوا علی المتحالفین مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. فشکی المتحالفون ذلک إلی الرسول، فقرر النّبی أن یهب لحمایتهم.

من جهة أخری، الظروف فی مکّة- حیث مرکز الوثنیة و الأصنام و الشرک و النفاق- توفرت لتطهیرها. و هذه مهمّة کان لا بدّ من أدائها فی وقت من الأوقات.

لذلک استعد النّبی للحرکة بأمر اللّه سبحانه صوب مکّة.

فتح مکّة تمّ فی ثلاث مراحل. المرحلة التمهیدیة و فیها تمّ تعبئة القوی اللازمة و اختیار الظروف الزمانیة المساعدة، و جمع المعلومات الکافیة عن العدوّ، و المرحلة الثّانیة کانت فتح مکّة بأسلوب ماهر خال من التلفات. و المرحلة الأخیرة هی مرحلة عطاء الفتح و آثاره.

۱- هذه المرحلة اتصف بالدقّة المتناهیة. و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سیطر علی الطریق بین مکّة و المدینة سیطرة تامّة حتی لا یسرب خبر هذا الاستعداد الإسلامی إلی مکّة، و لکی یتمّ الفتح بشکل مباغت. و هذا أدی إلی فتح مکّة دون إراقة دماء تقریبا.

انقطاع اخبار المدینة عن مکّة کان متقنا، حتی أن نفرا من ضعاف الإیمان اسمه «حاطب بن أبی بلتعة» کتب رسالة إلی قریش یخبرهم بأمر المسلمین فی المدینة، و بعثها بید امرأة من قبیلة «مزینة» اسمها «کفود»، أو «سارة». فعلم بها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۴

النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بطریق إعجازی، و بعث علیّا علیه السّلام إلی المرأة، فوجدها فی منزل بین مکّة و المدینة. أخذ منها الرسالة و أعادها إلی المدینة، و قد أوردنا قصّتها فی تفسیر الآیة الأولی من سورة الممتحنة.

النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم استخلف أحد المسلمین علی المدینة، و توجه فی العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة إلی مکّة، و وصلها بعد عشرة أیّام.

فی الطریق التقی الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعمّه العباس و هو یهاجر من مکّة إلی المدینة.

فطلب منه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یرسل متاعه إلی المدینة و یلتحق بالمسلمین، و أخبره بأنّه آخر مهاجر.

۲- وصل المسلمون إلی مشارف مکّة و عسکروا عند «مرّ الظهران» علی بعد عدّة کیلومترات من مکّة. و فی اللیل أشعلوا نیران کثیرة لإعداد الطعام (و لعلهم فعلوا ذلک لإثبات تواجدهم الواسع). رأی جمع من أهل مکّة هذا المنظر فتحیروا.

أخبار الزحف الإسلامی کانت لا تزال خافیة علی قریش فی تلک اللیلة خرج «أبو سفیان» و معه عدد من سراة قریش للاستطلاع خارج مکّة. و فی نفس اللیلة قال العباس عم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا سوء صباح قریش. و اللّه لئن باغتها رسول اللّه فی دیارها فدخل مکّة عنوة إنّه لهلاک قریش إلی آخر الدهر. فاستأذن رسول اللّه و خرج علی بغلته لعله یری أحدا متجها إلی مکّة

فیخبرهم بمکان رسول اللّه فیأتونه فیستأمنونه.

و بینما العباس یطوف بأطراف مکّهٔ إذ سمع صوت أبی سفیان و معه القرشیون الذین خرجوا یتجسّسون. فقال: أبو سفیان: ما رأیت نیرانا أکثر من هذه! فقال له أحد مرافقیه: هذه نیران خزاعهٔ. فقال أبو سفیان: خزاعهٔ أذلّ من ذلک. نادی العباس أبا سفیان، فسأله أبو سفیان علی الفور: ما وراءک؟ قال العباس: هذا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المسلمین أتاکم فی عشرهٔ آلاف.

قال أبو سفیان: ما تأمرنی؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۵

أجابه العباس: ترکب معی فأستأمن لک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فو اللّه لئن ظفر بک لیضربنّ عنقک.

فخرجا یرکضان نحو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فکلما مرّا بنار من نیران المسلمین یقولون: عم رسول اللّه علی بغلهٔ رسول اللّه. (أی إن المارّ لیس بغریب). حتی مرّا بنار عمر بن الخطاب. فما أن أبصر به عمر حتی قال له: أبو سفیان! الحمد للّه الذی أمکن منک بغیر عقد و لا عهد! دخل العباس و أبو سفیان علی رسول اللّه و تبعهما عمر فدخل أیضا و قال للرسول: یا رسول اللّه هذا أبو سفیان عدوّ اللّه قد أمکن اللّه منه بغیر عهد و لا عقد فدعنی اضرب عنقه.

فقال العباس: یا رسول اللّه إنی قد أجرته.

و کثر الکلام بین العباس و عمر

فقال رسول اللّه للعباس: اذهب فقد أمّناه حتی تغدو علّی به بالغداهٔ.

فلما کان من الغد جاء العباس بأبی سفیان إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلما رآه قال:

ویحک یا أبا سفیان! «ألم یأن لک أن تعلم أن لا إله إلا اللّه؟».

قال: بلی، بأبی أنت و أمی لو کان مع اللّه غیره لقد أغنی عنّی شیئا.

فقال النّبی: «ویحک ألم یأن لک أن تعلم أنّی رسول اللّه؟» فقال: بأبی أنت و أمی، أما هذه ففی النفس منها شیء. فقال: له العباس: ویحک تشهّد شهادهٔ الحق قبل أن تضرب عنقک! فتشهّد.

فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للعباس: «اذهب فاحبس أبا سفیان عند خطم الجبل بمضیق الوادی حتی تمرّ علیه جنود اللّه».

قال العباس: یا رسول اللّه إن أبا سفیان یحب الفخر فاجعل له شیئا یکون فی قومه.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من دخل دار أبی سفیان فهو آمن ... و من دخل المسجد فهو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۶

آمن، و من أغلق بابه فهو آمن».

خرج العباس و أجلس أبا سفیان عند خطم الجبل فمرّت علیه القبائل، فیقول له العباس: هذه أسلم ... هذه جهینهٔ ... حتی مرّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی کتیبته الخضراء مع المهاجرین و الأنصار متسربلین بالحدید لا یری منهم إلا حدق عیونهم. فقال: و من هؤلاء؟ قال العباس: هذا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المهاجرین و الأنصار.

فقال أبو سفیان: لقد أصبح ملک ابن أخیک عظیما.

قال العباس: ویحک إنّها النبوهٔ.

فقال: نعم إذن.

ثمّ قال له العباس: الحق بقومک سریعا فحذّرهم.

فخرج حتی أتی مکّهٔ فصرخ فی المسجد:

یا معشر قریش هـذا محمّد قد جاءکم بما لا قبل لکم به. ثمّ قال: من دخل داری فهو آمن. و من دخل المسجد فهو آمن، و من أغلق بابه فهو آمن ... و قال: یا معشر قریش اسلموا تسلموا.

فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحیته و قالت: یا آل غالب اقتلوا هذا الشیخ الأحمق. فقال: أرسلی لحیتی و اقسم لئن أنت لم تسلمی لتضربن عنقک، ادخلی بیتک! فترکته.

ثمّ بلغ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع جیش المسلمین منطقة «ذی طوی» و هی مرتفع یشرف علی بیوت مکّة. فتذکر الرسول ذلک الیوم الذی خرج فیه مضطرا متخفیا من مکّة. و ها هو یعود إلیها منتصرا، فوضع رأسه تواضعا للّه و سجد علی رحل ناقته شکرا له سبحانه.

ثمّ ترجّل النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی «الحجون» إحدی محلات مکّة، و فیها قبر خدیجة علیها السّلام، و اغتسل، ثمّ رکب ثانیة بجهاز الحرب و دخل المسجد الحرام و هو یتلو سورة الفتح. ثمّ کبر و کبر جند الإسلام معه، فدوی صوت التکبیر فی أرجاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۷

مکّة.

ثمّ نزل من ناقته، و اقترب من الکعبة، و جعل یسقط الأصنام واحدا بعد الآخر و هو یقول: جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ کانَ زَهُوقاً.

و کان عدد من الأصنام قد نصب فوق الکعبة، و لم تصل إلیها ید الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فأمر علیّا أن یصعد علی کتفه المبارکة و یرمی بالأصنام فامتثل علی أمر الرسول.

ثمّ أخذ مفاتیح الکعبة، و فتحها و محا ما کان علی جدرانها من صور الأنبیاء.

-۳

بعد الإنتصار الرائع السریع أخذ رسول اللّه حلقة باب الکعبة، و توجّه إلی أهل مکّة و قال لهم: یا معشر قریش ما ترون أنی فاعل بکم؟ قالوا: خیرا، أخ کریم، و ابن أخ کریم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

و أمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جیشه أن لا یتعرضوا لأحد، و أن لا یریقوا دم أحد.

و أمر فقط بقتل ستة أفراد- حسب الرّوایات- ممن کانوا خطرین و متوغلین فی عدائهم للإسلام. و حین بلغه أن سعد بن عبادة- و هو أحد حملة الویة الجیش الإسلامی- یصیح: الیوم یوم الملحمة، الیوم تسبی الحرمة.

أمر علیّا علیه السّلام أن یأخذ منه الرّایة و یدخل بها مکّة دخولا رقیقا و یقول: الیوم یوم المرحمة!!

و بهذا الشکل فتحت مکّة دون إراقة دماء و کان لعفو الرسول و رحمته الأثر الکبیر فی القلوب، فدخل النّاس فی دین اللّه أفواجا. و دوّی خبر الفتح فی أرجاء الجزیرة العربیة و ذاع صیت الإسلام، و تعززت مکانة المسلمین ۴۸۳].

و

جاء فی کتب التاریخ أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند ما وصل الکعبة قال: لا إله إلا اللّه وحده وحده، أنجز وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ألا إن کل مال أو مأثرة أو دم تدعی فهو تحت قدمی هاتین! ...

(و بذلک الغی کل مخلفات الجاهلیة و طوی جمیع ملفاتها).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۸

هذا المشروع الإسلامی الجبار اقترن بالعفو العام، لینقل قبائل الجزیرة العربیة من ماضیهم المظلم إلی نور الإسلام بعیدا عن کل ألوان الصراع و التخبط الجاهلی.

و هذا ساعد كثيرا على انتشار الإسلام و أصبح قدوة لحاضرنا و مستقبلنا.

اللّهمّ! إنّك قادر أن تعيد للمسلمين عزّتهم و عظمتهم فى ظلّ الاقتداء بسنّة رسولك المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ربّنا! اجعلنا فى زمرة السائرين الحقيقيين على طريق نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

إلهنا! وفقنا لإقامة حكومة العدل الإسلاميّة و نشر رايتها فى العالم ليدخل النّاس طواعية فى دين اللّه أفواجا.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة النصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۹

سورة تبّت

اشارة

مكّيّة و عدد آياتها خمس آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۱

«سورة تبت»

محتوى السّورة:

هـذه السّورة مكّية و نزلت فى أوائل الدعوة العلنية. و هى السّورة الوحيدة التى تحمل هجوما شديدا بالاسم على أحد أعداء الإسـلام و النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم آنذاك و هو أبو لهب. و من السّورة يتضح أنّه كان يحمل عداء خاصا للنّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يمارس هو و زوجه كل أنواع الأذى بحقّه.

القرآن يصرّح بأنّهما أهل جهنّم، و ليس لهما طريق للنجاة، و تحققت هذه النبوءة القرآنية، و كلاهما مات على الكفر.

فضيلة السّورة:

ورد فى فضـيلة هذه السّورة عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أنّه قال: «من قرأها رجوت أن لا يجمع اللّه بينه و بين أبى لهب فى دار واحدة»[۴۸۴].

بديهى أن هذه الفضيلة نصيب من بقراءتها يفصل مسيرته عن مسيرة أبى لهب، لا من يقرأها بلسانه و يعمل عمل أبى لهب فى أفعاله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۲

الآيات [سورة المسد (۱۱۱): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ (۱) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ (۲) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (۳) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (۴) فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (۵)

سبب النّزول

عن ابن عباس قال: عند ما نزلت وَ أَنْذِرْ عَشِیرَتَکَ الْأَقْرَبِینَ أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن ینذر عشیرته و یدعوهم إلی الإسلام (أی أن یعلن دعوته).

صعد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی جبل الصفا و نادی: «یا صباحاه»! (و هو نداء یطلقه العرب حین یهاجمون بغتة کی یتأهبوا للمواجهة، و إنّما اختاروا هذه الکلمة لأنّ الهجوم المباغت کان یحدث فی أوّل الصبح غالبا).

عند ما سمع أهل مکّة هذا النداء قالوا: من المنادی؟ قیل: محمّد. فاقبلوا نحوه، و بدأ ینادی قبائل العرب بأسمائها، ثمّ قال لهم: أ رأیتم لو أخبرتکم أن العدوّ مصبحکم أو ممسیکم، أما کنتم تصدقونی.

قالوا: بلی. قال: فإنّی نذیر لکم بین یدی عذاب شدید.

فقال أبو لهب: تبّا لک. لهذا دعوتنا جمیعا؟! فأنزل اللّه هذه السّورة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۳

و قیل: إن امرأة أبی لهب (و اسمها أم جمیل) علمت أن هذه السّورة نزلت فیها و فی زوجها. جاءت إلی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و النّبی لا یراها، حملت حجرا و قالت: سمعت أن محمّدا هجانی، قسما لو وجدته لألقمن فمه هذا الحجر. أنا شاعرة أیضا. ثمّ أنشدت اشعارا فی ذم النّبی و الإسلام ۴۸۵].

خطر أبی لهب و امرأته علی الإسلام لم یکن منحصرا فیما ذکرناه. و إذ نری القرآن یحمل علیهما بشدّة و یذمهما بصراحة، فلأسباب أخری، سنشیر إلیها فیما بعد.

التّفسیر

تَبَّتْ یَدا أَبِی لَهَبٍ

هذه السّورة- کما ذکرنا فی سبب نزولها- ترد علی بذاءات أبی لهب عم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ابن عبد المطلب. و کان من ألد أعداء الإسلام، و حین صدح النّبی بدعوته و أعلنها علی قریش و أنذرهم بالعذاب الإلهی قال: «تبا لک أ لهذا دعوتنا جمیعا»؟!

و القرآن یرد علی هذا الإنسان البذی و یقول له:

تَبَّتْ یَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَ

«التّب» و «التاب» یعنی الخسران المستمر کما یقول الراغب فی مفرداته أو هو الخسران المنتهی بالهلاک کما یقول الطبرسی فی مجمع البیان.

و بعض اللغویین قال إنّه القطع و البتر. و هذا المعنی الأخیر هو النتیجة الطبیعیة للخسران المستمر المنتهی بالهلاک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۴

الهلاک و الخسران فی الآیة یمکن أن یکون دنیویا، و یمکن أن یکون معنویا أخرویا، أو کلیهما.

و هنا یثار تساؤل بشأن سبب ذم هذا الشخص باسمه- و هو خلاف نهج القرآن- و بهذه الشدّة.

یتّضح ذلک لو عرفنا مواقف أبی لهب من الدعوة.

اسمه «عبد العزی» و کنیته «أبو لهب» و قیل إنّه کنی بذلک لحمرة کانت فی وجهه.

و امرأته «أم جمیل» أخت أبی سفیان، و کانت من أشدّ النّاس عداوة و أقذعهم لسانا تجاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و دعوته.

و فی الرّوایة عن «طارق المحاربی» قال: بینا أنا بسوق ذی المجاز إذا أنا بشاب یقول: «یا أیّها النّاس قولوا لا إله إلّا اللّه تفلحوا». و إذا

برجل خلفه يرميه قد أرمى ساقيه و عرقوبيه و يقول: يا أيّها النّاس إنّه كذاب فلا تصدقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا هو محمّد يزعم أنّه نبيّ. و هذا عمّه أبو لهب يزعم أنّه كذاب [۴۸۶].

و

فى رواية عن «ربيعة بن عباد» قال: كنت مع أبى أنظر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتبع القبائل، و وراءه رجل أحول و وضىء الوجه. يقف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على القبيلة فيقول: «يا بنى فلان. إنّى رسول اللّه إليكم. آمركم أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا، و أن تصدقونى و تمنعونى حتى أنفذ عن اللّه ما بعثنى به». و إذا فرغ من مقالته قال: الآخر من خلفه: يا بنى فلان. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات و العزى و حلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة و الضلالة، فلا تسمعوا له، و لا تتبعوه. فقلت لأبى: من هذا؟ قال: عمّه أبو لهب [۴۸۷].

و فى رواية أخرى: و كان من عظيم خطر أبى لهب ضد الدعوة الإسلامية أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۵

كلما جاء وفد إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسألون عنه عمّه أبا لهب- اعتبارا بكبره و قرابته و أهميته- كان يقول لهم: إنّه ساحر، فيرجعون و لا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتبا له و تعسا[۴۸۸].

من هذه الرّوايات نفهم بوضوح أن أبا لهب كان يتتبع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غالبا كالظلّ.

و ما كان يرى سبيلا لإيذائه إلّا سلكه. و كان يقذعه بأفظع الألفاظ. و من هنا كان أشدّ أعداء الرسول و الرسالة. و لذلك جاءت هذه السّورة لتردّ على أبى لهب و امرأته بصراحة و قوّة[۴۸۹]. إنّه الوحيد الذى لم يوقع على ميثاق حماية بنى هاشم للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و وقف فى صف الأعداء، و اشترك فى عهودهم. من كلّ ما سبق نفهم الوضع الاستثنائى لهذه السّورة.

ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ فليس با مكان أمواله أن تدرأ عنه العذاب الالهى سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ

من الآية الأولى نفهم أنّه كان ثريا ينفق أمواله فى محاربة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أبو لهب ناره ذات لهب يصلاها يوم القيامة. و قيل: يصلاها فى الدنيا قبل الآخرة. و «لهب» جاءت بصيغة النكرة لتدل على عظمة لهب تلك النّار.

لا أبا لهب و لا أى واحد من الكافرين و المنحرفين تغنيه أمواله و مكانته الاجتماعية من عذاب اللّه، كما يقول سبحانه: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [۴۹۰] بل لم تغنه فى الدنيا من سوء المصير. حيث جاء فى الرّواية، أنّ أبا لهب لم يشترك فى بدر، بل أرسل من ينوب عنه. و بعد اندحار المشركين و عودتهم إلى مكّة، هرع أبو لهب ليسأل أبا سفيان عن الخبر. فأخبره أبو سفيان بالهزيمة و قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص ۵۳۵

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۶

«و ايم اللّه ما لمت النّاس. لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء و الأرض ...» قال أبو رافع (مولى العباس) و قد كان جالسا: تلك الملائكة. فرفع أبو لهب يده فضرب وجهه ضربة شديدة، ثمّ حمله و ضرب به الأرض، ثمّ برك عليه يضربه و كان رجلا ضعيفا.

و ما أن شهدت أم الفضل (زوجة العباس)، و كانت جالسة أيضا، ذلك حتى أخذت عمودا و ضربت أبا لهب على رأسه و قالت: تستضعفه إن غاب عنه سيّده؟! فقام موليا ذليلا.

قال أبو رافع: فو اللّه ما عاش إلّا سبع ليال حتى رماه اللّه بالعدسة (مرض يشبه الطاعون) فمات. و قد تركه أبناه ليلتين أو ثلاثة ما يدفنانه حتى أنتن فى بيته.

فلما عیّرهما النّاس بذلک أخذ و غسل بالماء قذفا علیه من بعید، ثمّ أخذوه فدفنوه بأعلی مکّة و قذفوا علیه الحجارة حتی واروه ۴۹۱].

وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۴۹۲]، فِی جِیدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ.

الآیتان تتحدثان عن «أم جمیل» امرأة أبی لهب، و أخت أبی سفیان، و عمّة معاویة. و تصفانها بأنّها تحمل الحطب کثیرا، و فی رقبتها حبل من لیف النخیل.

و لماذا وصفها القرآن بأنّها حمالة الحطب؟

قیل: لأنّها کانت تأخذ الحطب المملوء بالشوک و تضعه علی طریق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لتدمی قدماه.

و قیل: إنّه کنایة عن النمیمة.

و قیل: إنّه کنایة عن شدّة البخل، فهی مع کثرة ثروتها أبت أن تساعد الفقراء و کانت شبیهة بحمال الحطب الفقیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۷

و قیل: إنّها فی الآخرة تحمل أوزارا ثقیلة علی ظهرها.

و بین هذه المعانی، المعنی الأوّل أنسب، و إن کان الجمع بینها غیر مستبعد أیضا.

«الجید» هو الرقبة، و جمعه أجیاد. و قال بعض اللغویین: الجید و العنق و الرقبة لها معنی واحد، مع تفاوت هو إن الجید أعلی الصدر، و العنق القسم الخلفی من الرقبة، و الرقبة لجمیعها، و قد یسمّی الإنسان بها کقوله سبحانه: فَکُّ رَقَبَةٍ أی فک الإنسان و إطلاق سراحه ۴۹۳].

«مسد» هو الحبل المفتول من الألیاف. و قیل: حبل یوضع علی رقبتها فی جهنّم، له خشونة الألیاف و حرارة النّار و ثقل الحدید.

و قیل: إنّ نساء الأشراف کن یرین شخصیتهنّ فی وسائل الزینة و خاصّة القلادة الثمینة. و اللّه سبحانه یلقی فی عنقها یوم القیامة حبل من لیف للإهانة. أو إن التعبیر أساسا للتحقیر و الإهانة.

و قیل: إنّ هذه العبارة تشیر إلی أنّ أم جمیل أقسمت أن تنفق ثمن قلادتها الثمینة علی طریق معاداة الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و لذلک تقرر لها هذا العذاب.

ملاحظات

۱- إعجاز آخر

علمنا أن هذه الآیات نزلت فی مکّة و القرآن أخبر بتأکید کامل أن أبا لهب و امرأته من أهل النّار، أی سوف لا یؤمنان أبدا. و هکذا کان کثیر من مشرکی مکّة آمنوا عن إیمان أو عن استسلام. لکن هذین الزوجین لم یؤمنا لا حقیقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۸

و لا ظاهرا. و هذا من أنباء الغیب فی القرآن. و فی القرآن الکریم مثل هذه الأخبار فی آیات أخری.

و تشکل بمجموعها فصلا من فصول إعجاز القرآن تحت عنوان «الأخبار الغیبیة». و کان لنا بحوث عندها.

۲- جواب عن سؤال

القرآن أخبر عن أبی لهب بأنّه سیصلی النّار، أی أنّه سیموت کافرا و لن یؤمن أبدا. و بهذا لا یمکن لأبی لهب أن یؤمن لأن نبوءة

القرآن ستكون عندئذ كاذبة.

و إلّا سيكون أبو لهب مجبرا على الكفر. و ليس له اختيار؟! مثل هذا السؤال يطرح عن علم اللّه سبحانه فى مبحث الجبر و التفويض. و هو إنّ اللّه سبحانه يعلم من الأزل بكل شىء. بطاعة المطيعين و معصية المذنبين أيضا.

ألا يكون العصاة بذلك مجبرين على الذنب؟ و إن لم يكونوا كذلك ألا يتبدل علم اللّه إلى جهل؟! الفلاسفة الإسلاميون أجابوا عن هذا السؤال منذ القديم و قالوا إنّ اللّه سبحانه يعلم ما يفعله كل شخص بالاستفادة من حريته و اختياره. ففى هذه الآيات مثلا يعلم اللّه منذ البداية أنّ أبا لهب و زوجته سيختاران بإرادتهما و عن رغبتهما طريق الكفر، لا بالإجبار.

بعبارة أخرى، عنصر الحرية و الإختيار أيضا جزء ممّا هو معلوم عند اللّه تعالى. إنّه على علم بما يعمله العباد و هم مختارون متمتعون بالإرادة و الحرية.

و من المؤكّد أنّ مثل هذا العلم و الإخبار عن المستقبل، تأكيد على الإختيار، لا على الإجبار. (تأمل بدقّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۹

۳- ليس من أهلك هذه السّورة المباركة تؤكّد مرّة أخرى أنّ القرابة لا قيمة لها إن لم تكن مقرونة برباط رسالى. و حملة الرسالة الإلهية كانوا لا يلينون أمام المنحرفين و الجبابرة و الطغاة مهما كانت درجة قربهم منهم.

مع أنّ أبا لهب كان من أقرب أقرباء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فقد عامله الإسلام مثل سائر المنحرفين و الضالين حين فصل مسيرة العقائدى و العملى عن خط التوحيد، و وجّه إليه أشدّ الردّ و أحدّ التوبيخ. و على العكس ثمّة أفراد بعيدون عن الرسول نسبا و قومية و لغة، كانوا بسبب ارتباطهم الرسالى من القرب من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى

قال فى أحدهم: «سلمان منّا أهل البيت»[۴۹۴].

صحيح أن آيات هذه السّورة توجّه التقريع لأبى لهب و زوجه، و لكن كان ذلك لما اتصفا به من صفات. من هنا فإن كل فرد أو جماعة على هذه الصفات سيواجهون مصيرا مشابها أيضا.

اللّهم! طهر قلوبنا من كل لجاج و عناد! ربّنا! كلنا من مصيرنا وجلون، فبفضلك و منّك اجعل عواقب أمورنا خيرا.

إلهنا! نحن نعلم أنّ الأموال و القرابة لا تغنى عنّا شيئا يوم الفزع الأكبر.

فاشملنا برحمتك و لطفك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة تبّت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۱

سورة الإخلاص

اشارة

مكّية و عدد آياتها أربع آيات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۳

«سورة الإخلاص»

محتوى السّورة:

هذه السّورة، كما هو واضح من اسمها، (سورة الإخلاص، أو سورة التوحيد) تركز على توحيد اللّه، و فى أربع آيات قصار تصف

التوحید بشکل جامع لا یحتاج إلی أیهٔ إضافهٔ و فی نزول السّورهٔ

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إنّ الیهود سألوا رسول اللّه فقالوا: أنسب لنا ربّک فلبث ثلاثا لا یجیبهم. ثمّ نزلت قل هو اللّه أحد إلی آخرها».

قیل إنّ السائل عبد اللّه بن صوریا الیهودی، و قیل: إنّه عبد اللّه بن سلام سأل رسول اللّه ذلک بمکّهٔ ثمّ آمن و کتم إیمانه. و قیل: إنّ مشرکی مکّهٔ سألوه ذلک ۴۹۵].

و قیل إنّ نصاری نجران هم الذین سألوا النّبی ذلک.

و لا- تضاد بین هذه الرّوایات، إذ قد یکون هؤلاء جمیعا سألوا الرسول نفس هذا السؤال، فکان الجواب لهم جمیعا، و هو دلیل آخر علی عظمهٔ هذه السّورهٔ.

فضیلهٔ السّورهٔ:

وردت فی فضیلهٔ هذه السّورهٔ نصوص کثیرهٔ تدل علی مکانهٔ هذه السّورهٔ بین سور القرآن من ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۴

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «أ یعجز أحدکم أن یقرأ ثلث القرآن فی لیلهٔ»؟

قیل: یا رسول اللّه و من یطیق ذلک؟

قال: «اقرأوا قل هو اللّه أحد»[۴۹۶].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إنّ رسول اللّه صلّی علی سعد بن معاذ. فلمّا صلّی علیه قال: لقد وافی من الملائکهٔ سبعون ألف ملک، و فیهم جبرائیل یصلون علیه. فقلت: یا جبرائیل بم استحق صلاتهم علیه؟ قال: بقراءهٔ قل هو اللّه أحد قاعدا و قائما و راکبا و ماشیا و ذاهبا و جائیا»[۴۹۷].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا قال: «من مضی به یوم واحد فصلی فیه الخمس صلوات و لم یقرأ فیها بقل هو اللّه أحد، قیل له: یا عبد اللّه لست من المصلین»[۴۹۸].

و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من کان یؤمن باللّه و الیوم الآخر فلا یدع أن یقرأ فی دبر الفریضهٔ بقل هو اللّه أحد. فإنّه من قرأها جمع له خیر الدنیا و الآخرهٔ و غفر اللّه له و لوالدیه و ما ولدا».

و یستفاد من روایات اخری أنّ قراءهٔ هذه السّورهٔ عند دخول البیت تزید الرزق و تدفع الفقر[۴۹۹].

و الرّوایات فی فضیلهٔ هذه السّورهٔ أکثر من أن تستوعبها هذه السطور، و ما نقلناه جزء یسیر منها.

و لکن کیف تعادل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثلث القرآن؟

قیل: لأنّ القرآن یشمل «الأحکام» و «العقائد» و «التاریخ». و هذه السّورهٔ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۵

تبیّن قسم العقائد بشکل مقتضب.

و قیل: إنّ القرآن علی ثلاثهٔ أقسام: المبدأ، و المعاد، و ما بینهما. و هذه السّورهٔ تشرح القسم الأوّل.

و واضح أنّ ثلث موضوعات القرآن تقریبا تدور حول التوحید. و جاءت عصارتها فی هذه السّورهٔ.

و نختتم حدیثنا

بروایة اخری عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام حول عظمة هذه السّورة قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ علم أنّه یکون فی آخر الزمان أقوام متعمقون، فأنزل اللّه تعالی: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. و الآیات من سورة الحدید إلی قوله تعالی: وَ هُوَ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ فمن رام وراء ذلک فقد هلک»[۵۰۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۴۶

الآیات [سورة الإخلاص (۱۱۲): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۱) اللَّهُ الصَّمَدُ (۲) لَمْ یَلِدْ وَ لَمْ یُولَدْ (۳) وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ کُفُواً أَحَدٌ (۴)

التّفسیر

أحد– صمد:

جوابا عن الأسئلة المکررة التی طرحت من قبل الأفراد و الجماعات بشأن أوصاف اللّه سبحانه تقول الآیة:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ[۵۰۱].

الضمیر (هو) فی الآیة للمفرد الغائب و یحکی عن مفهوم مبهم، و هو فی الواقع یرمز إلی أن ذاته المقدّسة فی نهایة الخفاء، و لا تنالها أفکار الإنسان المحدودة و إن کانت آثاره أظهر من أی شیء آخر، کما ورد فی قوله تعالی: سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [۵۰۲]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۴۷

ثمّ بعد الضمیر تکشف الآیة عن هذه الحقیقة الغامضة و تقول: اللَّهُ أَحَدٌ.

و قُلْ فی الآیة تعنی أن أظهر هذه الحقیقة و بیّنها.

عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام قال بعد بیان معنی «قل» فی الآیة (و هو الذی ذکرناه): «إن الکفار نبهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرک. فقالوا:

هذه آلهتنا المحسوسة المدرکة بالأبصار. فأشر أنت یا محمّد إلی إلهک الذی تدعو إلیه حتی نراه و ندرکه و لا نأله فیه. فانزل اللّه تبارک و تعالی: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فالهاء تثبیت للثابت، و الواو إشارة إلی الغائب عن درک الأبصار و لمس الحواس».[۵۰۳]

و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «رأیت الخضر علیه السّلام فی المنام قبل بدر بلیلة، فقلت له: علمنی شیئا أنصر به علی الأعداء.

فقال: قل: یا هو، یا من لا هو إلّا هو.

فلمّا أصبحت قصصتها علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال لی: یا علی علمت الاسم الأعظم»[۵۰۴].

و

کان علی علیه السّلام یذکر اللّه تعالی بهذا الذکر یوم صفین. فقال له عمار بن یاسر: یا أمیر المؤمنین ما هذه الکنایات؟ قال: «اسم اللّه

الأعظم و عماد التوحید ...».[۵۰۵]

«اللّه» اسم علم للباری سبحانه و تعالی. و مفهوم کلام الإمام علی علیه السّلام أن جمیع صفات الجلال و الجمال الإلهیة أشیر إلیها بهذه الکلمة. و من هنا سمیت باسم اللّه الأعظم.

هـذا الاسم لا ـ یطلق علی غیر اللّه، بینما أسماء اللّه الأخری تشیر عادة إلی واحدة من صفات جماله و جلاله مثل: العالم و الخالق و الرازق، و تطلق غالبا علی غیره أیضا مثل: (رحیم، و کریم، و عالم، و قادر ...).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۸

و لفظ الجلالة مشتق من معنی وصفی. قیل من «وله» أی تحیّر، لأنّ العقول تحیر فی ذاته المقدّسة. و فی ذلک

ورد عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «اللّه معناه المعبود الذی یأله فیه الخلق، و یؤله إلیه، و اللّه هو المستور عن درک الأبصار، المحجوب عن الأوهام و الخطرات».[۵۰۶]

و قیل: إن لفظ الجلالة مشتق من «آله» بمعنی عبد، و الإله: هو المعبود. حذفت همزته و ادخل علیه الألف و اللام فخص بالباری تعالی.

و مهما یکن الأصل المشتق منه لفظ الجلالة، فهو اسم یختص به سبحانه و یعنی الذات الجامعة لکل الأوصاف الکمالیة، و الخالیة من کل عیب و نقص.

هـذا الاسم المقدّس تکرر ما یقارب من «ألف مرّة» فی القرآن الکریم، و لم یبلغه أی اسم من الأسماء المقدّسة فی مقدار تکراره. و هو اسم ینیر القلب، و یبعث فی الإنسان الطاقة و الطمأنینة، و یغمر وجوده صفاء و نور.

«أحد»: من الواحدة، و لذلک قال بعضهم: أحد و واحد بمعنی واحد، و هو المتفرد الذی لا نظیر له فی العلم و القدرة و الرحمانیة و الرحیمیة، و فی کل الجهات.

و قیل: إنّ بین «أحد» و «واحد» فرق هو إن «أحد» تطلق علی الذات التی لا تقبل الکثرة لا فی الخارج و لا فی الذهن. و لذلک لا تقبل العدّو لا تدخل فی زمرة الأعداد، خلافا للواحد الذی له ثان و ثالث، فی الخارج أو فی الذهن. و لذلک نقول: لم یأت أحد. للدلالة علی عدم مجیء أی إنسان. و إذا قلنا: لم یأت واحد فمن الممکن أن یکون قد جاء اثنان أو أکثر.[۵۰۷] و لکن هذا الاختلاف لا ینسجم کثیرا مع ما جاء فی القرآن الکریم و الرّوایات.

و قیل: فی «أحد» إشارة إلی بساطة ذات اللّه مقابل الأجزاء الترکیبیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۹

الخارجیة أو العقلیة (الجنس، الفصل، و الماهیة، و الوجود). بینما الواحد إشارة إلی وحدة ذاته مقابل أنواع الکثرة الخارجیة.

و

فی روایة عن الإمام الباقر علیه السّلام قال: «الأحد المتفرد، و الأحد و الواحد بمعنی واحد، و هو المتفرد الذی لا نظیر له، و التوحید الإقرار بالوحدة و هو الانفراد».

و

فی ذیل الرّوایة هذه جاء «إن بناء العدد من الواحد، و لیس الواحد من العدد. لأن العدد لا یقع علی الواحد بل یقع علی الاثنین. فمعنی قوله: اللّه أحد. أی المعبود الذی یأله الخلق عن إدراکه و الإحاطة بکیفیته، فرد بإلهیته، متعال عن صفات خلقه».[۵۰۸]

و فی القرآن الکریم «واحد» و «أحد» تطلقان معا علی ذات اللّه سبحانه.

و من الرائع فی هذا المجال ما

جاء فی کتاب التوحید للصدوق: أنّ أعرابیا قام یوم الجمل إلی أمیر المؤمنین علیه السّلام فقال: یا أمیر المؤمنین، أتقول: إن اللّه واحد؟

فحمل النّاس عليه و قالوا: يا أعرابى أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب (أى تشتت الخاطر)؟ فقال: أمير المؤمنين عليه السّلام: «دعوه فإنّ الذى يريده الأعرابى هو الذى نريده من القوم. ثمّ قال: يا أعرابى، إنّ القول فى أنّ اللّه واحد على أربعة أقسام. فوجهان منها لا يجوزان على اللّه عزّ و جلّ، و وجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثانى له لا يدخل فى باب الأعداد. أمّا ترى أنّه كفر من قال إنّه ثالث ثلاثة؟

و قول القائل: هو واحد من النّاس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز (قوله على اللّه) لأنّه تشبيه، و جلّ ربّنا و تعالى عن ذلك.

و أمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له فى الأشياء شبه، كذلك ربّنا. و قول القائل: إنّه عزّ و جلّ أحدىّ المعنى، يعنى به أنّه لا ينقسم فى

وجود و لا عقل و لا وهم، كذلك ربّنا عزّ و جلّ»[۵۰۹].

و باختصار: اللّه أحد و واحد لا بمعنى الواحد العددى أو النوعى أو الجنسى بل بمعنى الوحدة الذاتية. بعبارة أوضح: وحدانيته تعنى عدم وجود المثل و الشبيه و النظير.

الدليل على ذلك واضح: فهو ذات غير متناهية من كلّ جهة، و من المسلم أنّه لا يمكن تصور ذاتين غير متناهيتين من كلّ جهة. إذ لو كان ثمّة ذاتان، لكانت كلتاهما محدودتين، و لما كان لكل واحدة منهما كمالات الأخرى. (تأمل بدقّة).

اللَّهُ الصَّمَدُ و هو وصف آخر لذاته المقدّسة. و ذكر المفسّرون و اللغويون معانى كثيرة لكلمة «صمد».

الراغب فى المفردات يقول: الصمد، هو السيد الذى يصمد إليه فى الأمر، أى يقصد إليه. و قيل: الصمد الذى ليس بأجوف.

و فى معجم مقاييس اللغة، الصمد له أصلان: أحدهما القصد، و الآخر: الصلابة فى الشيء ... و اللّه جلّ ثناؤه الصمد؛ لأنّه يصمد إليه عباده بالدعاء و الطلب ۵۱۰].

و قد يكون هذان الأصلان اللغويان هما أساس ما ذكر من معانى لصمد مثل:

الكبير الذى هو فى منتهى العظمة، و من يقصد إليه النّاس بحوائجهم، و من لا يوجد أسمى منه، و من هو باق بعد فناء الخلق.

و

عن الإمام الحسين بن على عليه السّلام أنّه ذكر لكلمة «صمد» خمسة معان هى:

الصمد: الذى لا جوف له.

الصمد: الذى قد انتهى سؤدده (أى فى غاية السؤدد) الصمد: الذى لا يأكل و لا يشرب.

الصمد: الذى لا ينام.

الصمد: الذى لم يزل و لا يزال.

و

عن محمّد بن الحنفية (رض) قال: الصمد القائم بنفسه الغنى عن غيره. و قال غيره: الصمد، المتعالى عن الكون و الفساد[۵۱۱].

و

عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام قال: «الصمد الذى لا شريك له، و لا يؤوده حفظ شيء، و لا يعزب عنه شيء.

(أى لا يثقل عليه حفظ شيء و لا يخفى عنه شيء)»[۵۱۲].

و ذهب بعضهم إلى أنّ «الصمد» هو الذى يقول للشيء كن فيكون.

و

فى الرّواية أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن على عليه السّلام يسألونه عن الصمد. فكتب إليهم: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، أمّا بعد فلا تخوضوا فى القرآن، و لا تجادلوا فيه، و لا تتكلّموا فيه بغير علم. فقد سمعت جدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: من قال فى القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النّار، و أنّه سبحانه قد فسّر الصمد فقال: اللّه أحد، اللّه الصمد، ثمّ فسّره فقال: لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد ...»[۵۱۳].

و

عن ابن الحنفية قال: قال على عليه السّلام تأويل الصمد: «لا اسم و لا جسم، و لا مثل و لا شبه، و لا صورة و لا تمثال، و لا حدّ و لا حدود، و لا موضع و لا مكان، و لا كيف و لا أين، و لا هنا و لا ثمّة، و لا ملأ و لا خلأ، و لا قيام و لا قعود، و لا سكون و لا حركة، و لا ظلمانى و لا نورانى، و لا روحانى و لا نفسانى، و لا يخلو منه موضع و لا يسعه موضع، و لا على لون، و لا على خطر قلب، و لا على شمّ رائحة، منفى عنه

هذه الأشياء»[۵۱۴].

هذه الرّواية توضح أنّ «الصمد» له مفهوم واسع ينفى كلّ صفات المخلوقين عن ساحته المقدّسة، لأنّ الأسماء المشخصة و المحدودة و كذلك الجسمية و اللون و الرائحة و المكان و السكون و الحركة و الكيفية و الحد و الحدود و أمثالها كلها من صفات الممكنات و المخلوقات، بل من أوصاف عالم المادة، و اللّه سبحانه منزّه منها جميعا.

فى العلوم الحديثة اتضح أنّ كلّ مادة فى العالم تتكون من ذرات. و كلّ ذرة تتكون من نواة تدور حولها الإلكترونات. و بين النواة و الإلكترونات مسافة كبيرة نسبيا. و لو أزيلت هذه الفواصل لصغر حجم الأجسام إلى حدّ كبير مدهش.

و لو أزيلت الفواصل الذرية فى مواد جسم الإنسان مثلا، و كثفت هذه المواد، لصغر جسم الإنسان إلى درجة عدم إمكان رؤيته بالعين المجرّدة، مع احتفاظه بالوزن الأصلى!!.

و بعضهم استفاد من هذه الحقائق العلمية ليستنتج أنّ الآية تنفى عن اللّه كلّ ألوان الجسمانية، لأنّ واحدا من معانى «الصمد» هو الذى لا- جوف له، و لما كانت كل الأجسام تتكون من ذرات، و الذرات جوفاء، فالصمد نفى الجسمية عن ربّ العالمين. و بذلك تكون الآية من المعاجز العلمية فى القرآن.

و لكن، يجب أن لا- ننسى المعنى الأصلى لكلمة «صمد» و هو السيد الذى يقصده النّاس بحوائجهم، و هو كامل و مملوء من كلّ الجهات، و بقية المعانى و التفاسير الاخرى المذكورة للكلمة قد تعدو إلى نفس هذا المعنى.

الآية التالية تردّ على معتقدات اليهود و النصارى و مشركى العرب و تقول:

لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ.

إنّها ترد على المؤمنين بالتثليث (الربّ الأب، و الربّ الابن، و روح القدس).

النصارى تعتقد أنّ المسيح ابن اللّه، و اليهود ذهبت إلى أنّ العزير ابن اللّه:

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۵۱۵].

و مشركو العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات اللّه: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۵۱۶].

و يستفاد من بعض الرّوايات أن الولادة فى قوله: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ لها معنى واسع يشمل كلّ أنواع خروج الأشياء المادية و اللطيفة منه، أو خروج ذاته المقدّسة من أشياء مادية أو لطيفة.

و

فى نفس الرسالة التى كتبها الإمام الحسين بن على عليه السّلام إلى أهل البصرة يجيبهم عن تساؤلهم بشأن معنى الصمد قال فى تفسير: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ: «لَمْ يَلِدْ لم يخرج منه شيء كثيف كالولد و سائر الأشياء الكثيفة التى تخرج من المخلوقين، و لا شيء لطيف كالنفس، و لا يتشعب منه البداوات (الحالات المختلفة) كالسنة و النوم، و الخطرة و الهم، و الحزن و البهجة، و الضحك و البكاء، و الخوف و الرجاء، و الرغبة و السأمة، و الجوع و الشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، و أن يتولد منه شيء كثيف أو لطيف، وَ لَمْ يُولَدْ لم يتولد من شيء، و لم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء و الدابة من الدابة، و النبات من الأرض، و الماء من الينابيع، و الثمار من الأشجار، و لا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها، كالبصر من العين، و السمع من الاذن، و الشم من الأنف، و الذوق من الفم، و الكلام من اللسان، و المعرفة و التمييز من القلب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۴

و كالنّار من الحجر ...»[۵۱۷].

بناء على هذه الرّواية، للتولد معنى واسع يشمل خروج و تفرع كلّ شيء من شيء، و هذا فى الحقيقة المعنى الثّانى للآية. و معناها الأوّل هو المعنى الظاهر الذى ينفى أن يكون البارى سبحانه من أب أو أن يكون له ابن أضف إلى ذلك، المعنى الثّانى قابل للفهم عند تحليل المعنى الأوّل. لأنّ اللّه سبحانه إنّما لم يكن له ولد لأنّه منزّه عن عوارض المادة، و هذا المعنى يصدق بشأن سائر عوارض المادة الاخرى.

ثمّ تبلغ الآية الأخيرة غاية الكمال فى أوصاف اللّه تعالى.

وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ[۵۱۸] أى ليس له شبيه و مثل إطلاقا.

«الكفو»: هو الكفء فى المقام و المنزلة و القدر. ثمّ أطلقت الكلمة على كلّ شبيه و مثيل.

استنادا إلى هذه الآية، اللّه سبحانه منزّه عن عوارض المخلوقين و صفات الموجودات و كلّ نقص و محدودية. و هذا هو التوحيد الذاتى و الصفاتى، مقابل التوحيد العددى و النوعى الذى جاء فى بداية تفسير هذه السّورة.

من هنا فهو تبارك و تعالى لا شبيه له فى ذاته، و لا نظير له فى صفاته، و لا مثيل له فى أفعاله، و هو متفرد لا نظير له من كلّ الجهات.

أمير المؤمنين على عليه السّلام يقول فى إحدى خطب نهج البلاغة: «لم يلد فيكون مولودا، و لم يولد فيصير محدودا ... و لا كفء له فيكافئه، و لا نظير له فيساويه»[۵۱۹].

هذا التّفسير الرائع يكشف عن أسمى معانى التوحيد و أدقّها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۵

سلا اللّه عليك يا أمير المؤمنين.

بحوث

الأوّل: التوحيد

التوحید، یعنی وحدانیة ذات اللّه تعالی و نفی أی شبیه و مثیل له. و إضافة إلی الدلیل النقلی المتمثل فی النصوص الدینیة ثمّة دلائل عقلیة کثیرة أیضا تثبت ذلک نذکر قسما منها باختصار:

۱- برهان صرف الوجود: و ملخصه أن اللّه سبحانه وجود مطلق لا یحده قید و لا شرط، و مثل هذا الوجود سیکون غیر محدود دون شک، فلو کان محدودا لمنی بالعدم، و الذات المقدّسة التی ینطلق منها الوجود لا- یمکن أن یعترضها العدم و الفناء، و لیس فی الخارج شیء یفرض علیه العدم، و لذلک لا یحدّه حدّ.

من جهة اخری لا یمکن تصوّر وجودین غیر محدودین فی العالم. إذ لو کان ثمّة وجودان لکان کلّ واحد منهما فاقدا حتما لکمالات الآخر، أی لا- یملک کمالاته و من هنا فکلاهما محدودان. و هذا دلیل واضح علی وحدانیة ذات واجب الوجود (تأمل بدقّة) ۲- البرهان العلمی: عند ما ننظر إلی الکون الذی یحیط بنا، نلاحظ فی البدایة موجودات متفرقة ... الأرض و السماء و الشمس و القمر و النجوم و أنواع النباتات و الحیوانات. و کلما ازددنا إمعانا فی النظر ألفینا مزیدا من الترابط و الانسجام بین أجزاء هذا العالم و ذراته، و ظهر لنا أنّه مجموعة واحدة تتحکم فیها جمیعا قوانین واحدة.

و مهما تقدم العلم البشری اکتشف مزیدا من ظواهر وحدة أجزاء هذا العالم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۶

و انسجامها؛ حتی أنّ ظاهرة بسیطة (مثل سقوط تفاحة من الشجرة) یؤدی إلی اکتشاف قانون عام یحکم کلّ أجزاء الکون. (مثل قانون الجاذبیة الذی اکتشفه نیوتن).

هذه الوحدة فی نظام الوجود، و القوانین الحاکمة علیه، و الانسجام التام بین أجزائه کلّها ظواهر تشهد علی وحدانیة الخالق.

۳- برهان التمانع: (الدلیل العلمی الفلسفی)، و هو دلیل آخر علی إثبات وحدانیة اللّه، مستلهم من قوله سبحانه: لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا یَصِفُونَ ۵۲۰].

توضیح هذا الدلیل جاء فی المجلد ۱۰ الصفحة ۱۴۵ من هذا التّفسیر تحت عنوان: برهان التمانع.

۴- دعوة الأنبیاء إلی اللّه الواحد الأحد: و هو دلیل آخر علی وحدانیة اللّه، إذ لو کان هناک خالقان کلّ واحد منهما واجب الوجود فی العالم، لاستلزم أن یکون کلّ واحد منهما منبعا للفیض. فلا یمکن لوجود ذی کمال مطلق أن یبخل فی الإفاضة لأنّ عدم الفیض نقص بالنسبة للوجود الکامل. و حکمته تستوجب أن یشمل الجمیع بفیضه.

و هذا الفیض له نوعان: فیض تکوینی (فی عالم الخلقة)، و فیض تشریعی (فی عالم الهدایة). من هنا لو کان هناک آلهة متعددة لوجب أن یأتی مبعوثون منهم جمیعا، لیواصلوا فیضهم التشریعی إلی النّاس.

أمیر المؤمنین علی علیه السّلام یقول لابنه الحسن علیه السّلام و هو یوصیه: «و اعلم یا بنی أنّه لو کان لربّک شریک لأتتک رسله، و لرأیت آثار ملکه و سلطانه، و لعرفت أفعاله و صفاته، و لکنّه إله واحد کما وصف نفسه»[۵۲۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۷

هذه کلّها دلائل وحدانیة ذاته. أمّا الدلیل علی عدم وجود أی ترکیب و أجزاء فی ذاته المقدسة فواضح، إذ لو کان له أجزاء خارجیة لکان محتاجا إلیها طبعا.

و الاحتیاج لا یعقل لواجب الوجود.

و إذا کان المقصود أجزاء عقلیة (الترکیب من الماهیة و الوجود، أو من الجنس و الفصل) فهو محال أیضا. لأنّ الترکیب من الماهیة و الوجود فرع لمحدودیة الموجود. بینما وجوده سبحانه غیر محدود. و الترکیب من الجنس و الفصل فرع من أن یکون للموجود ماهیة.

و ما لا ماهیة له، لیس له جنس و لا فصل.

الثّانی: فروع دوحة التوحید

تذکر للتوحید عادة أربعة فروع:

۱- توحید الذات: (و هو ما شرحناه أعلاه).

۲- توحید الصفات: أی إنّ صفاته لا تنفصل عن ذاته، و لا تنفصل عن بعضها. علی سبیل المثال العلم و القدرة فی الإنسان عارضان علی ذاته. ذاته شیء، و علمه و قدرته شیء آخر. کما إنّ علمه و قدرته منفصلان عن بعضهما.

مرکز العلم روح الإنسان، و مرکز قدرته الجسمیة ذراعة و عضلاته. لکن صفات اللّه لیست زائدة علی ذاته، و لیست منفصلة عن بعضها. بل هو وجود کلّه علم، و کلّه قدرة، و کلّه أزلیة و أبدیة.

و لو لم یکن ذلک لاستلزم الترکیب، و إن کان مرکبا لاحتاج إلی الأجزاء و المحتاج لا یکون واجبا للوجود.

۳- التوحید الأفعالی: و یعنی أنّ کلّ وجود و کلّ حرکة و کلّ فعل فی العالم یعود إلی ذاته المقدّسة، فهو مسبب الأسباب و علة العلل. حتی الأفعال التی تصدر منّا هی فی أحد المعانی صادرة عنه. فهو الذی منحنا القدرة و الإختیار و حریة الإرادة. و مع أنّنا نفعل الأفعال بأنفسنا، و أنّنا مسئولون تجاهها. فالفاعل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۸

من جهة هو اللّه سبحانه لأنّ کلّ ما عندنا یعود إلیه: (لا مؤثر فی الوجود إلّا اللّه).

۴- التوحید فی العبادة: أی تجب عبادته وحده دون سواه، و لا یستحق العبادة غیره. لأنّ العبادة یجب أن تکون لمن هو کمال مطلق. و مطلق الکمال، لمن هو غنی عن الآخرین، و لمن هو واهب النعم و خالق کلّ الموجودات و هذه صفات لا- تجتمع إلّا فی ذات اللّه سبحانه.

الهدف الأصلی للعبادة هو الاقتراب من ذلک الکمال المطلق، و الوجود اللامتناهی، هو السعی لإنارة النفس بقبس من صفات کماله و جماله ... و ینتج عن ذلک الابتعاد عن الأهواء و الشهوات و الاتجاه نحو بناء النفس و تهذیبها.

هذا الهدف لا یتحقق إلّا بعبادة اللّه، و هو الکمال المطلق.

الثّالث: التوحید الأفعالی

اشارة

توحید الأفعال له بدوره فروع کثیرة نشیر إلی ستة من أهمها:

۱- توحید الخالقیة

و القرآن الکریم یقول: قُلِ اللَّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ[۵۲۲].

و دلیله واضح، فحین ثبت بالأدلة السابقة أنّ واجب الوجود واحد، و کلّ ما عداه ممکن الوجود، یترتب علی ذلک أنّ خالق کلّ الموجودات واحد أیضا.

۲- توحید الربوبیة

أی إنّ اللّه وحده هو مدبّر العالم و مربّیه و منظّمه. کما جاء فی قوله تعالی:

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ[۵۲۳].

دليل ذلك أيضا وحدة واجب الوجود، و توحيد الخالق فى عالم الكون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۵۹

۳- التوحيد فى التقنين و التشريع

يقول سبحانه: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ۵۲۴].

لما ثبت أنّه سبحانه هو المدير و المدبّر، فليس لأحد غيره حتما صلاحية التقنين. إذ لا سهم لغيره فى تدبير العالم كى يستطيع أن يضع قوانين منسجمة مع نظام التكوين.

۴- التوحيد فى المالكية

سواء «الملكية الحقيقية» أى السلطة التكوينية على الشيء، أم «الملكية الحقوقية» و هى السلطة القانونية على الشيء، فهى له سبحانه، كما يقول فى كتابه العزيز: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۵۲۵] و يقول سبحانه: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۵۲۶].

و الدليل على ذلك هو نفس الدليل على توحيد الخالقية، و حين يكون هو سبحانه خالق كلّ شيء فهو مالك كلّ شيء أيضا. فكلّ ملكية يجب أن تستمد وجودها من مالكيته.

۵- توحيد الحاكمية

لا بدّ للمجتمع البشرى من حكومة، لأنّ الحياة الاجتماعية تتطلب ذلك، فلا يمكن بدون حكومة أن تقسم المسؤوليات، و تنظم المشاريع، و يحال دون التعدى و التجاوز.

و من جهة أخرى، مبدأ الحرية يقرر أن لا أحد له حق الحكومة على أحد، إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۶۰

إذا سمح بذلك المالك الأصلى و الصاحب الحقيقى. من هنا فالإسلام يرفض كلّ حكومة لا تنتهى إلى الحكومة الإلهية و من هنا أيضا نرى شرعية الحكم للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و للأئمّة المعصومين عليه السّلام ثمّ للفقيه الجامع للشرائط بعدهم.

و من الممكن أن يجيز النّاس أحدا ليحكمهم. و لكنّ اتفاق النّاس بأجمعهم غير ممكن فى مجتمع عادة، و لذلك لا يمكن إقامة مثل هذه الحكومة عمليا[۵۲۷].

جدير بالذكر أن توحيد الربوبية يرتبط بعالم التكوين، و توحيد التقنين يرتبط بعالم التشريع.

يقول سبحانه: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۵۲۸].

۶- توحيد الطاعة

اللّه سبحانه هو وحده «واجب الإطاعة» فى هذا الكون. و هو تعالى مصدر مشروعية إطاعة غيره. أى إنّ إطاعة غيره يجب أن تعدّ إطاعة له.

دليل ذلك واضح أيضا، حين تكون الحاكمية له دون سواه فيجب أن يكون هو المطاع دون غيره، و لذلك نحن نعتبر إطاعتنا للأنبياء عليهم السّلام و الأئمّة المعصومين و من ينوب عنهم هى انعكاس عن طاعتنا للّه. يقول تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۵۲۹].

و یقول سبحانه: مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ ۵۳۰].

کلّ واحد من المواضیع المذکورة أعلاه تحتاج إلی شرح و تفصیل، و نحن نکتفی بهذه الخلاصة کی لا نخرج عن إطار هذا التّفسیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۱

إلهی! ثبت أقدامنا علی خط التوحید ما حیینا.

ربّنا! فروع الشرک مثل فروع التوحید کثیرة و لا نجاة لنا من الشرک إلّا بلطفک، فاشملنا بفضلک.

إلهنا! اجعل حیاتنا مع التوحید، و مماتنا مع التوحید، و احشرنا مع حقیقة التوحید.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الإخلاص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۳

سورة الفلق

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها خمس آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۵

«سورة الفلق»

محتوی السّورة:

قیل: أنّها مکّیة، و بعض المفسّرین قال إنّها مدنیة.

تتضمّن السّورة تعالیم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاصّة، و للناس عامّة تقضی أن یستعیذوا باللّه من شرّ کلّ الأشرار، و أن یوکلوا أمرهم إلیه، و یأمنوا من کل شرّ فی اللجوء إلیه.

و بشأن نزول السّورة ذکرت الرّوایة المنقولة فی أغلب کتب التّفسیر أنّ النّبی أصیب بسحر بعض الیهود، و مرض علی أثر ذلک فنزل جبرائیل و أخبره أنّ آلة السحر موجودة فی بئر. فأرسل من یخرجها، ثمّ تلا هذه السّورة، و تحسنت صحته.

المرحوم الطبرسی و محققون آخرون شککوا فی هذه الرّوایة التی ینتهی سندها إلی عائشة و ابن عباس لما یلی:

أوّلا: السّورة کما هو مشهور مکّیة و لحنها مثل لحن السور المکّیة، و النّبی جابه الیهود فی المدینة و هذا یدل علی عدم أصالة الرّوایة.

ثانیا: لو کان الیهود بمقدورهم أن یفصلوا بسحرهم ما فعلوه بالنّبی حسب الرّوایة لاستطاعوا أن یصدوه عن أهدافه بسهولة عن طریق السحر، و اللّه سبحانه قد حفظ نبیّه کی یؤدی مهام النّبوة و الرسالة.

ثالثا: لو کان السحر یفعل بجسم النّبی ما فعله لأمکن أن یؤثر فی روحه أیضا، و تکون أفکاره بذلک لعبة بید السحرة، و هذا یزلزل مبدأ الثقة بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و القرآن الکریم یردّ علی أولئک الذین اتهموا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّه مسحور إذ قال: وَ قالَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۶

الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً انْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلًا[۵۳۱].

«مسحور» فی الآیة تشمل من أصیب بسحر فی عقله أو فی جسمه، و هی دلیل علی ما نذهب إلیه.

علی أی حال لا یجوز أن نمسّ من قداسة مقام النبوّة بهذه الرّوایات المشکوکة، أو أن نعتمد علیها فی فهم الآیات.

فضيلة السّورة:

روى فى فضيلة هذه السّورة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أنزلت على آيات لم ينزل مثلهنّ: المعوذتان»[۵۳۲].

و

عن أبى جعفر محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «من أوتر بالمعوذتين و قل هو اللّه أحد قيل له: يا عبد اللّه أبشر فقد قبل اللّه و ترك»[۵۳۳].

و

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لأحد أصحابه: «ألا أعلمك سورتين هما أفضل سور القرآن، أو من أفضل القرآن؟ قلت: بلى يا رسول اللّه. فعلمنى المعوذتين. ثمّ قرأ بهما فى صلاة الغداة، و قال لى اقرأهما كلما قمت و نمت».[۵۳۴]

واضح أنّ هذه الفضيلة نصيب من جعل روحه و عقيدته و عمله منسجما مع محتوى السّورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۷

الآيات [سورة الفلق (۱۱۳): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (۱) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (۲) وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (۳) وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (۴)

وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (۵)

التّفسير

بربّ الفلق أعوذ:

يخاطب اللّه سبحانه نبيّه باعتباره الاسوة و القدوة، و يقول له:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ «الفلق»: من فلق أى شقّ و فصل؛ و سمى طلوع الصبح بالفلق لأنّ ضوء الصبح يشق ظلمة الليل؛ و مثله الفجر، اطلق على طلوع الصبح لنفس المناسبة.

و قيل: إنّ الفلق يعنى ولادة كلّ الموجودات الحيّة، بشرية كانت أم حيوانية أم نباتية. فولادة هذه الموجودات تقترن بفلق حبّتها أو بيضتها. و الولادة من أعجب مراحل وجود هذه الأحياء، لأنّها تشكل طفرة فى مراحل وجودها، و انتقالا من عالم إلى عالم آخر. يقول سبحانه: إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۸

الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ ۵۳۵].

و قيل: إنّ الفلق له معنى واسع يشمل كلّ خلق، لأنّ الخلق، هو شقّ ستار العدم ليسطع نور الوجود.

و كلّ واحد من هذه المعانى الثلاثة (طلوع الصبح- و ولادة الموجودات الحيّة- و خلق كلّ موجود) ظاهرة عجيبة تدل على عظمة البارى و الخالق و المدبّر، و وصف اللّه بذلك له مفهوم عميق.

فی بعض الرّوايات جاء أنّ الفلق بئر عظيم فی جهنّم تبدو و كأنّها شقّ فی داخلها. و قد تكون الرّواية إشارة إلی أحد مصاديقها لا أن تحدّ المفهوم الواسع لكلمة «الفلق».

مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ ... من كلّ موجود شرّير من الإنس و الجن و الحيوان و حوادث الشرّ و النفس الأمارة بالسوء، و هذا لا يعنی أنّ الخلق الإلهی ينطوی فی ذاته علی شرّ، لأنّ الخلق هو الإيجاد، و الإيجاد خير محض. يقول سبحانه: الَّذِی أَحْسَنَ كُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ ۵۳۶].

بل الشرّ يعرض المخلوقات حين تنحرف عن قوانين الخلقة، و تنسلخ عن المسير المعين لها. علی سبيل المثال، أنياب الحيوانات وسيلة دفاعية تستخدمها أمام الأعداء، كما نستخدم نحن السلاح للدفاع مقابل العدو. لو أنّ هذا السلاح استخدم فی محله فهو خير، و إن لم يستعمل فی محله كأن صوب تجاه صديق فهو شرّ.

جدير بالذكر أنّ كثيرا من الأمور نحسبها شرّا و فی باطنها خير كثير، مثل الحوادث و البلايا التی تنفض عن الإنسان غبار الغفلة و تدفعه إلی التوجه نحو اللّه هذه ليس من الشرّ حتما.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۹

وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ

«غاسق»: من الغسق، و هو- كما يقول الراغب فی المفردات- شدّة ظلمة الليل فی منتصفه. و لذلك يقول القرآن الكريم فی إشارته إلی نهاية وقت صلاة المغرب:

... إِلی غَسَقِ اللَّيْلِ ... و ما قاله بعضهم فی الغسق أنّه ظلمة أوّل الليل فبعيد خاصّة و أن أصل الكلمة يعنی الامتلاء و السيلان. و ظلمة الليل تكون ممتلئة حين ينتصف الليل. و أحد المفاهيم الملازمة لهذا المعنی الهجوم، و لذلك استعملت الكلمة فی هذا المعنی أيضا.

«غاسق»: تعنی إذن فی الآية: الفرد المهاجم، أو الموجود الشرّير الذی يتستر بظلام الليل لشنّ هجومه. فليست الحيوانات الوحشية و الزواحف اللاسعة وحدها تنشط فی الليل و تؤذی الآخرين بل الأفراد الشرّيرين يتخذون من الليل أيضا ستارا لتنفيذ أهدافهم الخبيثة.

«وقب»: من الوقب، و هو الحفرة، ثمّ استعمل الفعل «وقب» للدخول فی الحفرة؛ و كأن هذه الموجودات الشريرة المضرة تستغل ظلام الليل، فتصنع الحفر الضارة لتحقق مقاصدها الخبيثة. و قد يكون الفعل يعنی: نفذ و توغّل.

مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِی الْعُقَدِ.

«النفاثات»: من «النفث» و هو البصق القليل، و لما كان البصق مقرونا بالنفخ، فاستعملت نفث بمعنی نفخ أيضا.

كثير من المفسّرين قالوا إنّ «النفاثات» هی النساء الساحرات. و هی صيغة جمع للمؤنث و مبالغة من نفث. و هذه النسوة كن يقرأن الأوراد و ينفخن فی عقد، و بذلك يعملن السحر. و قيل: إنّها إشارة للنساء اللاتی كن يوسوسن فی أذن الرجال و خاصّة الأزواج ليثنوهم عن عزمهم و ليوهنوا إرادتهم فی أداء المهام الكبری. و ما أكثر الحوادث المؤلمة التی أدت إليها وساوس أمثال هذه النسوة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۰

طوال التاريخ! و ما أكثر نيران الفتنة التی أشعلتها، و العزائم التی أرختها و أوهنتها! الفخر الرازی يقول النساء يتصرفن فی قلوب الرجال لنفوذ محبّتهن فی قلوبهم ۵۳۷].

و هذا المعنی فی عصرنا أظهر من أی وقت آخر، إذ إنّ إحدی أهم وسائل نفوذ الجواسيس فی أجهزة السياسة العالمية استخدام النساء، اللائی ينفثن فی العقد، فتنفتح مغاليق الأسرار فی القلوب و يحصلن علی أدقّ الأسرار.

و قيل: إنّ النفاثات هی النفوس الشريرة، أو الجماعات المشككة التی تبعث بوساوسها عن طريق وسائل إعلامها لتوهن عزيمة الجماعات و الشعوب.

و لا يستبعد أن تكون الآية ذات مفهوم عام جامع يشمل كلّ أولئك و يشمل أيضا النمامين و الذين يهدمون بنيان المحبّة بين الأفراد.

و ينبغی التأكيد علی أنّ السّورة لا- تتضمّن أية دلالة علی أن المقصود بآياتها سحر الساحرين. و علی فرض أنّها تشير إلی سحر

الساحرین، فإنّها لا تشكل دلیلا علی صحة سبب النزول الذی ذكره المفسّرون للسورة، بل تدل علی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم استعاذ باللّه من شرّ الساحرین. تماما مثل الفرد السالم الذی یستعیذ باللّه من السرطان و هو لم یصب به أصلا.

وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ.

هذه الآیة تبیّن أنّ الحسد أسوأ الصفات الرذیلة و أحطها، لأنّ القرآن وضعه فی مستوی أعمال الحیوانات المتوحشة و الثعابین اللاسعة و الشیاطین الماكرة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۱

بحوث

۱- أخطر مصادر الشرّ و الفساد

السّورة تبدأ بأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یستعیذ باللّه من شرّ ما خلق. ثمّ تبیّن ثلاثة أنواع من الشرور كتوضیح للآیة:

شرّ المهاجمین القساة الذین یتسترون باللیل لشن هجومهم.

و شرّ الموسوسین الذین یوهنون بأحابیلهم إرادة الأفراد و إیمانهم و عقیدتهم و أواصر الحبّ و الودّ بینهم.

و شرّ الحاسدین.

من هذه العبارات المجملة نستطیع أن نستنتج أن أخطر مصادر الشرّ و الفساد هی هذه الثلاثة المذكورة فی السّورة. و هذا یستدعی التأمل و التعمق.

۲- تناسب الآیات

یلاحظ أنّ أوّل آیة فی السّورة تأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یستعیذ بربّ الفلق، من شرّ ما خلق. و انتخاب «ربّ الفلق» قد یعود إلی أنّ الموجودات الشریرة تطفئ نور السلامة و الهدایة. لكن اللّه سبحانه ربّ الفلق ... ربّ فلق الظلمات.

۳- تأثیر السحر

فی تفسیر الآیتین ۱۰۲ و ۱۰۳ من سورة البقرة، فی الجزء الأوّل من هذا التّفسیر تحدثنا بالتفصیل عن حقیقة السحر فی الازمنة الغابرة، و رأی الإسلام فی السحر، و كیفیة تأثیره. و هناك ذكرنا قبولنا لتأثیر السحر بشكل عام، و لكن لا بالصورة التی یتخیلها المتخیلون و الخرافیون. و من أراد مزیدا من التوضیح فی هذا المجال فلیراجع بحثنا المذكور.

و من اللازم أن نذكر هنا أنّ آیات هذه السّورة لو كانت تستهدف أمر النّبی

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۲

بالاستعاذة من سحر الساحرین، فهذا لا یعنی أن النّبی تعرض لتأثیر السحر. بل إنّها تشبه استعاذة النّبی باللّه من كلّ خطأ و ذنب. أی إنّه مصون من هذه العوارض بلطف اللّه و فضله، و لو لا فضله لما سلم من تأثیر السحر هذا من جهة.

و من جهة اخری، لا یوجد دلیل كما قلنا علی أن معنی، النَّفَّاثاتِ فِی الْعُقَدِ هو السحرة أو الساحرات.

۴- شرّ الحاسدين

«الحسد» خصلة سيئة شيطانية تظهر فى الإنسان نتيجة عوامل مختلفة مثل:

ضعف الإيمان، و ضيق النظر، و البخل. و هو يعنى طلب و تمنّى زوال النعمة من شخص آخر.

الحسد منبع كثير من الذنوب الكبيرة.

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب»[۵۳۸].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «أفة الدين الحسد و العجب و الفخر»[۵۳۹].

ذلك لأن الحسود يعترض فى الواقع على حكمة اللّه و على ما آت اللّه من نعمة لهذا الفرد أو ذاك. كما يقول سبحانه: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۵۴۰].

و قد يبلغ الحسد بالحاسد إلى أن يوقع نفسه فى كلّ تهلكة من أجل زوال النعمة من الشخص المحسود، كما هو معروف فى حوادث التاريخ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۷۳

و فى ذم الحسد يكفى أن أوّل قتل حدث فى العالم كان من قابيل على أثر حسده لأخيه هابيل.

«الحساد» كانوا دوما عقبة على طريق الأنبياء و الأولياء. و لذلك يأمر اللّه نبيّه أن يستعيذ بربّ الفلق من شرّ حاسد إذا حسد.

المخاطب فى هذه السّورة و السّورة التالية شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكنّه خوطب لأنّه القدوة و النموذج، و كلّ المسلمين يجب أن يستعيذوا باللّه من شرّ الحاسدين.

اللّهمّ! إنّا نعوذ بك من شرّ الحاسدين إلهنا! احفظنا من شرّ الوقوع فى حسد الآخرين.

ربّنا! استرنا بسترك من شرّ النفاثات فى العقد، و من كلّ الموسوسين المشككين فى مسيرتنا إليك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الفلق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۷۵

سورة النّاس

اشارة

مكّية و عدد آياتها ستّ آيات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۷۷

«سورة النّاس»

محتوى السّورة:

الإنسان معرض دائما لوساوس الشيطان. و شياطين الجن و الإنس يسعون دائما للنفوذ فى قلبه و روحه. و مقام الإنسان فى العلم مهما ارتفع، و مكانته فى المجتمع مهما سمت يزداد تعرضه لوساوس الشياطين ليبعدوه عن جادة الحق.

و ليبيدوا العالم بفساد العالم.

هذه السّورة تأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتباره القدوة و الأسوة أن یستعیذ باللّه من شرّ الموسوسین.
محتوی هـذه السّورة شبیه بمحتوی سورة الفلق، فکلاهمـا یـدوران حول الاسـتعاذة باللّه من الشـرور و الآفات، مع فارق أن سورة الفلق تتعرض لأنواع الشرور، و هذه السّورة ترکز علی شرّ (الوسواس الخناس).
و اختلف المفسّرون فی مکان نزول هذه الآیة. قیل إنّها مکّیة، و قیل إنّها مدنیة، و لحن الآیات یزید احتمال مکّیتها.
هذه السّورة و سورة الفلق نزلتا معا حسب الرّوایات. و سورة الفلق علی رأی الکثیرین مکّیة. و هذه السّورة یمکن أن تکون مکّیة أیضا.

و فضیلة السّورة:

وردت فی فضـیلة هذه السّورة روایات متعددة منها ما روی أنّ رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم اشـتکی شکوی شدیدة، و وجع وجعا شدیدا. فأتاه جبرائیل
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۸
و میکائیل علیه السّـلام فقعـد جبرائیل عنـد رأسه و میکائیل عنـد رجلیه، فعوّذه جبرائیل بقل أعوذ بربّ الفلق و میکائیل بقل أعوذ بربّ النّاس [۵۴۱].
و ذکرنا ما
روی عن الإمام الباقر علیه السّلام قال: «من أوتر بالمعوذتین و قل هو اللّه أحد قیل له: یا عبد اللّه ابشر فقد قبل اللّه و ترک»[۵۴۲].
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۹

الآیات [سورة الناس (۱۱۴): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (۱) مَلِکِ النَّاسِ (۲) إِلهِ النَّاسِ (۳) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (۴)
الَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النَّاسِ (۵) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (۶)

التّفسیر

بربّ النّاس أعوذ:

فی هذه السّورة یتجه الخطاب إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتباره الأسوة و القدوة:
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِکِ النَّاسِ، إِلهِ النَّاسِ یلاحظ أن الآیات رکزت علی ثلاث من صـفات اللّه سـبحانه هی (الربوبیـة و المالکیـة و الألوهیة) و ترتبط کلها ارتباطا مباشرا بتربیة الإنسان و نجاته من براثن الموسوسین.
المقصود من الاسـتعاذة بـاللّه لیس طبعـا تردیـد الاسـتعاذة باللسان فقط، بل علی الإنسان أن یلجأ إلیه جلّ و علا فی الفکر و العقیـدة و العمل أیضا، مبتعدا عن الطرق الشیطانیة و الأفکار المضللة الشیطانیة، و المناهج و المسالک الشیطانیة و المجالس و المحافل الشیطانیة، و متجها علی طریق المسیرة الرحمانیة، و إلّا فإن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۸۰

الإنسان الذی أرخی عنان نفسه تجاه وساوس الشیطان لا تکفیه قراءة هذه السّورة و لا تکرار ألفاظ الاستعاذة باللسان.

علی المستعیذ الحقیقی أن یقرن قوله «ربّ النّاس» بالاعتراف بربوبیة اللّه تعالی، و بالانضواء تحت تربیته؛ و أن یقرن قوله «ملک النّاس» بالخضوع لمالکیته، و بالطاعة التامة لأوامره؛ و أن یقرن قوله: «إله النّاس» بالسیر علی طریق عبودیته، و تجنب عبادة غیره.

و من کان مؤمنا بهذه الصفات الثلاث؛ و جعل سلوکه منطلقا من هذا الإیمان فهو دون شک سیکون فی مأمن من شرّ الموسوسین.

هذه الأوصاف الثلاثة تشکل فی الواقع ثلاثة دروس تربویة هامّة ... ثلاث سبل وقایة ... و ثلاث طرق نجاة من شرّ الموسوسین، إنّها تؤمن علی مسیرة الإنسان من الأخطار.

مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النَّاسِ

کلمة «الوسواس» أصلها- کما یقول الراغب فی المفردات- صوت الحلی (اصطکاک حلیة بحلیة). ثمّ اطلق علی أی صوت خافت. ثمّ علی ما یخطر فی القلب من أفکار و تصورات سیئة، لأنّها تشبه الصوت الباهت الذی یوشوش فی الأذن.

«الوسواس»: مصدر، و یأتی بمعنی اسم الفاعل بمعنی الموسوس، و هی فی الآیة بهذا المعنی.

«الخنّاس» صیغة مبالغة من الخنوس و هو التراجع، لأنّ الشیاطین تتراجع عند ذکر اسم اللّه؛ و الخنوس له معنی الاختفاء أیضا، لأن التراجع یعقبه الاختفاء عادة.

فقوله سبحانه: مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ أی أعوذ باللّه من شرّ الموسوس ذی الصفة الشیطانیة الذی یهرب و یختفی من ذکر اسم اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۸۱

الشیاطین یمزجون أعمالهم دائما بالتستر. و یرمون بالقاءاتهم فی الإنسان بطریقة خفیة حتی یخال الإنسان أن هذه الإلقاءات من بنات أفکاره، و هذا ما یؤدی إلی ضلاله و غوایته.

عمل الشیطان هو التزیین، و إخفاء الباطل تحت طلاء الحق، و الکذب فی قشر من الصداق، و الذنب فی لباس العبادة، و الضلال خلف ستار الهدایة.

و بإیجاز، الموسوسون متسترون، و طرقهم خفیة، و فی هذا تحذیر لکل سالکی طریق اللّه أن لا یتوقعوا رؤیة الشیاطین فی صورتهم الأصلیة، أو رؤیة مسلکهم علی شکله المنحرف. أبدا ... فهم موسوسون خناسون ... و عملهم الحیلة و المکر و الخداع و التظاهر و الریاء و إخفاء الحقیقة.

لو أنّ هؤلاء أماطوا اللثام عن وجههم الحقیقی، و لم یخلطوا الحق بالباطل؛ لو أن هؤلاء قالوا کلمتهم صریحة واضحة «لم یخف علی المرتادین» کما یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام نعم لم یخف فی هذه الحالة علی روّاد طریق الحق. و لکنّهم یأخذون شیئا من هذا و شیئا من ذاک فیخلطونه و بذلک تنطلی حیلتهم علی الآخرین أو کما

یقول علی علیه السّلام: «فهنالک یستولی الشیطان علی أولیائه»[۵۴۳].

عبارة «یوسوس» و عبارة «فی صدور النّاس» تأکید علی هذا المعنی.

جملة مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ تنبیه علی حقیقة هامّة هی إن «الوسواس الخناس» لا ینحصر وجوده فی مجموعة معینة، و لا فی فئة خاصّة، بل هو موجود فی الجن و الإنس ... فی کل جماعة و فی کل ملبس، فلا بدّ من الحذر منه أینما کان، و الاستعاذة باللّه منه فی کل أشکاله و صوره.

أصدقاء السوء، و الجلساء المنحرفون، و أئمة الظلم و الضلال، و الولاة الجبابرة الطواغیت، و الکتاب و الخطباء الفاسدون، و المدارس الإلحادیة و الالتقاطیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲۰، ص: ۵۸۲

المخادعـة، و وسائل الإعلام المزوّرة الملفّقـة، كلها هى و أمثالها تندرج ضـمن المفهوم الواسع للوسواس الخناس و تتطلب من الإنسان أن يستعيذ باللّه منها.

ملاحظات

۱- لما ذا نستعيذ باللّه؟!

الإنسـان معرض للانـحراف فى كل لحظـة، و حين يأمر اللّه نبيّه أن يسـتعيذ به من شـر «الوسواس الخناس» فإن ذلك دليل على إمكان الوقوع فى شراك الموسوسين الخناسين.
مع أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مأمن من الانحراف بفضل اللّه و مدده الغيبى و خضوعه التام للّه، فالآيات تأمره أن يستعيذ بـاللّه من شـرّ الوسواس الخناس، فما بالك بغيره من النّاس! و لا يجوز للإنسان أن ييأس أمام مخاوف الموسوسـين. فملائكـة اللّه تهبّ للأخـذ بناصيـة المؤمنين و السـائرين على طريق اللّه. فـالمؤمنون ليسوا وحيـدين فى ساحـة صـراع الحق مع الباطـل، بل ملائكـة اللّه فى عونهم: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ[۵۴۴].
و لكن، على أى حـال، لا يجوز للإنسان أن يغترّ و أن يحسب نفسه غنيا عن الموعظـة و التـذكير و الإمـداد الإلهى. يجب الاسـتعاذة به سبحانه دائما و يجب أن يكون الإنسان على وعى و حذر باستمرار.

۲- لما ذا تكررت كلمة «النّاس»

فى سبب تكرار كلمة «النّاس» فى السّورة، قيل: إن كل واحد منها لها معنى
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۸۳
خاص.
و لكن يظهر أن التكرار تأكيد على عمومية هذه الصفات الثلاث الإلهية، و هى فى المواضع الثلاثة بمعنى واحد.

۳- معنى الخناس على لسان الرّواية

روى عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قـال: «مـا من مؤمن إلّا و لقلبه فى صـدره أذنان: أذن ينفث فيها الملك، و أذن ينفث فيها الوسواس الخناس، فيؤيد اللّه المؤمن بالملك، فهو قوله سبحانه: وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [۵۴۵].
و
روى عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «لما نزلت هذه الآية:
وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ صـعد إبليس جبلا بمكّة يقال له ثوير، فصـرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا:
يا سيدنا لم دعوتنا؟
قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟

فقام عفریت من الشیاطین فقال: أنا لها بکذا و کذا.

قال: لست لها.

فقام لها آخر فقال مثل ذلک. فقال: لست لها.

فقال الوسواس الخناس: أنا لها. قال: بماذا؟

قال: أعدهم و أمنیهم حتی یواقعوا الخطیئة ... فإذا واقعوا الخطیئة أنسیتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها فوکّله بها إلی یوم القیامة»[۵۴۶].

اللّهمّ! احفظنا من شرّ کلّ وسواس خناس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۸۴

ربّنا! التآمر دقیق، و العدوّ متربّص، و المخططات خفیة رهیبة، و لا نجاة لنا منها إلّا بلطفک و فضلک.

یا کریم! بفضلک و بمنّک و بنعمتک استطعنا بعد جولة استغرقت ما یقرب من خمسة عشر عاما فی کتابک الکریم أن ننهی هذا التّفسیر.

یا غفور و یا رحیم! تعلم أننا فی هذه اللحظات الأخیرة من کتابة هذا التّفسیر مغمورون بفرحة ممزوجة بالشکر فنبتهل إلیک و نتضرع أن تغفر لنا زلاتنا فإنّک أرحم الراحمین.

و تقبل منّا یا ربّ هذا الجهد المتواضع بکرمک، و اجعله لنا ذخرا یوم نلقاک.

و آخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمین نهایة سورة النّاس انتهی تألیف هذا التّفسیر فی الثامن من ذی القعدة سنة ۱۴۰۷ هجریة

---

[۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸۹، ص ۱۷.

[۲] (۲)- المصدر السابق، ص ۱۵.

[۳] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۴] (۲)- المصدر السابق.

[۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۱.

[۶] (۲)- ثواب الأعمال، ص ۱۲۲، و عنه نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۲۷.

[۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۱، ص ۸۸؛ و کذلک ... أبو الفتوح و المراغی فی تفسیریهما.

[۸] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۲.

[۹] (۳)- اصول الکافی، ج ۲، ص ۳۲؛ و عنه نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۲۷.

[۱۰] (۱)-« علی النّاس»: اشارة إلی ما لهم لدی النّاس، و التقدیر:(إذا کالوا ما علی النّاس) و ذلک عند الأخذ منهم، و هو ما نستفیده من(کال علیه) .. أمّا(کاله) أو(کال له) فهو عند العطاء.

[۱۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۲.

[۱۲] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۳۸.

[۱۳] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۲۸.

[۱۴] (۱)- اصول الکافی، ج ۵، ص ۱۵۰، الحدیث ۱.

[۱۵] (۱)- المصدر السابق، الحديث ۳.

[۱۶] (۲)- و لمزيد من الاطلاع ... راجع وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۲۹۰، أبواب التجارة، الباب ۷.

[۱۷] (۱)- و لم يوضح الطريحى أن هذا التفسير لمعصوم كان أم لغيره.

[۱۸] (۲)- روح المعانى، ج ۳۰، ص ۷۰، و مجمع البحرين، مادة(سجل).

[۱۹] (۱)- تفسير على بن إبراهيم، ج ۳، ص ۴۱۰؛ و عنه نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۰، الحديث ۱۵.

[۲۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۰، الحديث ۱۹.

[۲۱] (۱)-« أساطير»: جمع(اسطورة) من(السطر)، و غالبا ما تستعمل فى وصف الشخصيات الموهومة و الأحاديث الملفقة و القصص الكاذبة.

[۲۲] (۱)- راجع: المنجد، و تفسير الفخر الرازى فى الآية المبحوثة.

[۲۳] (۱)- كما فى الآية(۳۲) من سورة الكهف\:i وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّی لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً\E، كما و جاء نظير ذلك فى الآية(۵۰) من سورة فصلت.

[۲۴] (۱)- البقرة، الآية ۷.

[۲۵] (۲)- تفسير الدر المنثور: ج ۶، ص ۳۲۶.

[۲۶] (۱)- المصدر السابق، ص ۳۲۵.

[۲۷] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۱، الحديث ۲۲.

[۲۸] (۳)- المصدر السابق، الحديث ۲۳.

[۲۹] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۰۵۳، و مجمع البحرين: مادة(علو).

[۳۰] (۱)- المبتدأ محذوف فى الآية، التقدير:(هم على الأرائك ينظرون)« ينظرون»، حال، أو أن جملة« على الأرائك»: خبر ثان، نسبة إلى« إنّ» الواردة فى الآية السابقة.

[۳۱] (۱)- لمزيد من الإيضاح .. راجع مفردات الراغب، و لسان العرب(مادة: أرك).

[۳۲] (۱)- عملية ختم الأشياء(كانت و لا زالت)، تستعمل للاطمينان على سلامة تلك الأشياء من التلاعب بها، فمثلا .. لكى يطمأن على سلامة وصول شىء معين إلى صاحبه المراد، فإنّه يوضع فى ظرف خاص مغلق، و إذا ما كان الشىء بدرجة عالية من الأهمية، فلا يكتفى بالغلق، بل يربط بسلك أو ما شابه و من ثمّ يوضع على عقدته شىء من الشمع أو الطين و يختم بختم معين، كل ذلك للتأكيد من وصوله إلى المراد بدون أن تمتد إليه يد التلاعب.

[۳۳] (۱)- يتّضح من تفسير الآية، أنّ اسم الإشارة« ذلك» يعود على جميع نعم الجنّة، و شرابها بالذات لما وصف فيه فى الآية.

[۳۴] (۲)-« الواو» و« الفاء» فى i وَ فِی ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ E، كلاهما حرف عطف، و إذا ما سئل عن علة وجودهما معا، فالجواب هو: يوجد شرط محذوف، و التقدير:« و إن أريد تنافس فى شىء فليتنافس فى ذلك المتنافسون»، فحذفت أداة الشرط و الجملة الشرطية و قدمت« فى ذلك».

[۳۵] (۳)- قيل فى سبب نصب« عينا» عدّة وجوه .. منها: لأنّها حال التسنيم، تمييز، مدح و اختصاص .. و التقدير:(أعنى).

و« الباء» فى« بها»: زائدة، أو بمعنى(من) و هو الأنسب.

[۳۶] (۱)- كالآية(۱۵) من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[۳۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۳، الحديث ۳۳.

[۳۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۴، الحديث ۴۰.

[۳۹] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۳۷.

[۴۰] (۳)- المصدر السابق، الحدیث ۳۵.

[۴۱] (۴)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۶.

[۴۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۷- کما و ذکر کثیر من المفسّرین مسألة نزولها فی علی بن أبی طالب، و مشرکی مکّة، کما فی تفسیر القرطبی، و روح البیان، و الکشّاف، و تفسیر الفخر الرازی ... إلخ.

[۴۳] (۲)- روح المعانی، ج ۳۰، ص ۷۶.

[۴۴] (۱)- ذکر المفسّرون احتمالین فی ضمیر« مرّوا» و« بهم»، فارجع بعضهم الأوّل الی المشرکین و الثّانی إلی المؤمنین، و قال البعض الآخر عکس ذلک، و یبدو أن الاحتمال الأول أقرب بلحاظ ما ذکر أعلاه.

[۴۵] (۱)- تفسیر الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۲۸.

[۴۶] (۱)- الاستفهام فی الآیة .. استفهام تقریری.

[۴۷] (۲)- مفردات الراغب: مادة(ثوب).

[۴۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۸.

[۴۹] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۳۶.

[۵۰] (۱)-« إذا» أداة شرط، حذف جزاؤها، و التقدیر:(إذا السماء انشقت ... لاقی الإنسان ربّه فحاسبه و جازاه).

[۵۱] (۱)- الفخر الرازی، فی تفسیره للآیة المذکورة.

[۵۲] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة.

[۵۳] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۳۷.

[۵۴] (۳)- روح المعانی، ج ۳۰، ص ۸۷؛ و فی الدر المنثور، ج ۶، ۳۲۹.

[۵۵] (۱)- الخصال، للشیخ الصدوق رحمه اللّه: الجزء الأول، باب: الدنیا و الآخرة ککفتی المیزان، الحدیث ۹۵.

[۵۶] (۱) سورة الحاقة، الآیة ۱۹.

[۵۷] (۱) سورة القصص، الآیة ۷۶.

[۵۸] (۱) مفردات الراغب، و تفسیر الفخر الرازی، و غیرهما.

[۵۹] (۱) مفردات الراغب.

[۶۰] (۱) راجع تفسیر الآیات(۷۱- ۷۳) من سورة القصص.

[۶۱] (۲)« ما»: موصولة، و احتمال کونها(مصدریة) ضعیف، ضمیرها محذوف، و التقدیر:(و ما وسقه).

[۶۲] (۳) و جاء« الوسق»، أیضا بمعنی حمل بعیر، أو ستین صاعا(و کل صاع یقرب من ثلاثة کیلوات)، و هو مأخوذ من الاجتماع أیضا.

[۶۳] (۱) و من الشواهد علی هذا المعنی، بالإضافة إلی شهادة الآیات السابقة و اللاحقة، إنّ السجود بمعنی وضع الجبین علی الأرض عند تلاوة القرآن إنّما یجب فی مواضع محدودة جدّا و یستحب فی مواضع اخری، و فی مواضع اخری لا- هو بالواجب و لا بالمستحب- و حینما تقول الآیة\:i وَ إِذا قُرِئَ عَلَیْهِمُ الْقُرْآنُ لا یَسْجُدُونَ E فقد أطلقت القول، و الإطلاق و الحال هذه یراد به التسلیم للقرآن.

[۶۴] (۱) روح البیان، ج ۱، ص ۱۳۸۲.

[۶۵] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۴۵.

[۶۶] (۱)- و الأبراج الاثنا عشر هى: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدى، الدلو و الحوت.

[۶۷] (۲)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۳۱.

[۶۸] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۶۶.

[۶۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۴۳، و ذكر مضمونه كل من(أبو الفتوح الرازى) و(الطبرسى) فى تفسيرهما.

[۷۰] (۲)- الصحيفة السجادية: الدعاء السادس.

[۷۱] (۱)- و عليه، فجواب القسم محذوف و يدل عليه قوله تعالى\:i قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ\E أو\:i إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ E. و التقدير:(اقسم بهذه الأمور إنّ الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات معذبون ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود).

[۷۲] (۱)- حمير: إحدى قبائل اليمن المعروفة.

[۷۳] (۲)- تفسير على بن ابراهيم القمى، ج ۲، ص ۴۱۴.

[۷۴] (۱)- قصص القرآن، للبلاغى، ص ۲۸۸.

[۷۵] (۲)- تفسير روح المعانى، و تفسير أبى الفتوح الرازى، عند تفسير الآيات المذكورة.

[۷۶] (۱)- مجمع البيان، و عنه الميزان فى تفسير الآية.

[۷۷] (۲)- تفسير الثعلبى، ص ۲۷۵.

[۷۸] (۳)- المصدر السابق.

[۷۹] (۱)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۳۷۷، عن تفسير العياشى.

[۸۰] (۱)- و هذا يشبه دليل الآية(۷۹) من سورة« يس\»:i قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ E، يقال: إنّ الفارابى تمنى لو كان أرسطو« الفيلسوف اليونانى المعروف» حيّا ليرى جمال هذا الدليل المحكم فى القرآن الكريم.

[۸۱] (۱)- جاءت كلمة« المجيد» فى الآية مرفوعة(طبق القراءة المشهورة)، تكون صفة للّه تعالى و ليس صفة للعرش، و إلّا لكانت مجرورة.

[۸۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۶۹.

[۸۳] (۲)- ثواب الأعمال، ص ۱۲۲، و عنه نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۴۹.

[۸۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

[۸۵] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۵۰، ح ۴.

[۸۶] (۱)- دائرة المعارف دهخدا مادة زحل.

[۸۷] (۲)- دائرة المعارف دهخدا مادة زحل.

[۸۸] (۳)- روح البيان، ج ۱۰، ص ۳۹۷.

[۸۹] (۱)-« إن» فى الآية: نافية، و« لمّا»: بمعنى(إلّا).

[۹۰] (۱)- تفسير المراغى، ج ۳۰، ص ۱۱۳.

[۹۱] (۱)- عند ما تتحدث الآيات القرآنية الاخرى عن خلق الإنسان، فإنّها غالبا ما تشير إلى نطفة الرجل، باعتبارها أمرا محسوسا(راجع الآية ۴۶ من سورة النجم، و الآية ۳۷ من سورة القيامة).

[۹۲] (۱)-« يوم» ظرف زمان متعلق بالرجع فى الآية السابقة.

[۹۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۲. و مثله فى تفسير الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۳۶.

[۹۴] (۱)- مفردات الراغب، مادة(رجع).

[۹۵] (۱)- تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۱۰۰؛ و تفسير المراغى، ج ۳۰، ص ۱۱۸؛ عن صحيح الترمذى و سنن الدارمى.

[۹۶] (۱)- مفردات الراغب.

[۹۷] (۲)- سورة يوسف، الآية ۷۶.

[۹۸] (۱)- ف« رويدا» فى محل مفعول مطلق، و المعنى: أمهلهم إمهالا قليلا، أمّا ما قيل من كونها تحمل معنى الأمر، فهو بعيد، لأنّ ذلك سيستلزم للآية ثلاثة أوامر.

و مع أنّ« رويدا» جاءت بمعنى الأمر، و على صيغة اسم فعل، لكن الأنسب لها فى هذا الموضع أن تكون منصوبة كمفعول مطلق.

[۹۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۵۳.

[۱۰۰] (۱)- المصدر السابق.

[۱۰۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۴۴.

[۱۰۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۰۳] (۴)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۲.

[۱۰۴] (۵)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۳۸۶.

[۱۰۵] (۱)- للتفصيل- راجع الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۳۷.

[۱۰۶] (۱)- قال بعض المفسّرين: إنّ مفهوم الآية هو:« نيسّر اليسرى لك»، و إنّما حصل فيها التقديم و التأخير للتأكيد، و هذا على أن لا تكون« نيسرك» بمعنى(نوفقك)، و إلّا لم تكن هناك حاجة للتقديم و التأخير.

[۱۰۷] (۱)- و ما فى الآية بخلاف ما جاء فى الآية(۶) من سورة البقرة\:i سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ E، لأنّها تختص بفئة قليلة من النّاس، و إلّا فأكثر النّاس يتأثرون بالبلاغ المبين، و إن كانوا بدرجات متفاوتة، و عليه .. فالجملة الشرطية فى الآية المبحوثة من قبيل القيد بالغالب الأعم.

[۱۰۸] (۱)- يعود ضمير« يتجنبها» على« الذكرى» الواردة فى الآيات السابقة.

[۱۰۹] (۲)- تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۱۱۰.

[۱۱۰] (۳)- تفسير الكشّاف؛ روح المعانى(فى ذيل الآيات المبحوثة).

[۱۱۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸: ص ۲۸۸، الحديث ۲۱.

[۱۱۲] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۵۶، الحديثين(۱۹ و ۲۰).

[۱۱۳] (۲)- روح المعانى، ج ۳۰، ص ۱۱۰، و تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۷۴۰.

[۱۱۴] (۱)- و روى الحديث بصور عدّة عن الإمام الصادق عليه السّلام و الإمام السجاد عليه السّلام، و ورد معنى الحديث عن الأنبياء عليهم السّلام أيضا، ممّا يشير إلى أهميته البالغة.

[۱۱۵] (۱)- يمكن أن تكون« صحف إبراهيم و موسى» توضيحا للصحف الاولى، كما و يمكن أن تكون إشارة لأحد مصاديق الصحف، و إلّا فهى تشمل جميع كتب الأنبياء السابقين.

[۱۱۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۷۴۶.

[۱۱۷] (۱)- يبدو أنّ« حبّ الدنيا» هنا، بمعنى(حبّ البقاء فى الدنيا)، باعتباره كأحد الشعب السبعة، و يبدو أنّه يرادف(طور الأمد).

[۱۱۸] (۲)- اصول الكافى، ج ۲، ص ۲۳۹، باب حبّ الدنيا و الحرص عليها، الحديث ۸، و فى هذا الباب توجد رواية اخرى بهذا الشأن.

[۱۱۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۷.

[۱۲۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۱] (۱)- صلی بالنّار، لزمها و احترق بها.

[۱۲۲] (۲)- تفسير القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۱۹.

[۱۲۳] (۱)- بحثنا موضوع طعام أهل النّار، الـذی يسـميه القرآن تارة ب« الضـريع» و اخری ب« الزقوم» و ثالثة ب« غسـلين»، و ما بينها من تفاوت .. فی ذيل الآية(۳۶) من سورة الحاقة.

[۱۲۴] (۱)-« لاغية»: بالرغم من كونها اسم فاعل، و لكنّها تأتی بما يرادف(اللغو)، أی(ذات لغو).

[۱۲۵] (۱)- مفردات الراغب، مادة(سرّ).

[۱۲۶] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۹.

[۱۲۷] (۱)- تفسير الفخر الرازی، ج ۳۱، ص ۱۵۸.

[۱۲۸] (۱)- و نسـتفيد من حديث شريف ورد فی(الدرّ المنثور) .. أنّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم كان مأمورا بمحاربة عبدة الأصنام، و فی غير ذلك فهو مأمور بالتذكير.

[۱۲۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۸۱.

[۱۳۰] (۲)- مجمع البيان، ۱۰، ص ۴۸۱.

[۱۳۱] (۱)- راجع تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۵۷، الحديث ۱.

[۱۳۲] (۱)- تفسير أبی الفتوح الرازی، ج ۱۲، ص ۷۴.

[۱۳۳] (۲)- جاءت« ليال عشر» بصيغة النكرة للدلالة علی عظمتها و أهميتها، و إلّا فهی تنطبق علی كلّ ما ذكر أعلاه.

[۱۳۴] (۳)- تفسير الفخر الرازی، ج ۳۱، ص ۱۶۴.

[۱۳۵] (۴)- نقل ذلك كلّ من: العلّامة الطباطبائی فی الميزان عن بعض المفسّرين فی الجزء ۲۰، ص ۴۰۶ .. و فی كتاب روح المعانی عن كتاب التحرير و التحبير، ج ۳۰، ص ۱۲۰.

[۱۳۶] (۱)- روی ذلك أبو سعيد الخدری عن النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم راجع مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۸۵.

[۱۳۷] (۲)- المصدر السابق.

[۱۳۸] (۱)- المصدر السابق.

[۱۳۹] (۲)-« يسر»: فی الأصل(يسری) من(السری)، و حذفت الياء للتخفيف، و لمناسبة الآيات السابقة.

[۱۴۰] (۱)- راجع تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۷۱.

[۱۴۱] (۱)- تفسير الكشّاف، ج ۴، ص ۷۴۷، و ذكر ذلك أيضا القرطبی فی تفسيره، و غيره.

[۱۴۲] (۱)- و علی ضوء التّفسير الأوّل يكون التعبير ب« ذات» لأنّ الطائفة و القبيلة مؤنث لفظی.

[۱۴۳] (۲)-« إرم» ممنوع من الصرف، لذا فقد نصب فی حالة الجر.

[۱۴۴] (۱)-« ثمود»: من(الثمـد)، و هو الماء القليل الـذی لا مادة له، و المثمود: إذا كثر عليه السؤال حتی فقـد مادة ما له، و يقال أنّها كلمة أعجمية(مفردات الراغب).

[۱۴۵] (۲)- الباء فی« الواد»: تعطی معنی الظرفية.

[۱۴۶] (۳)- روح البيان، ج ۱۰، ص ۴۲۵(ما مضمونه).

[۱۴۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۷۱، الحديث(۶)، كما نقله عن علل الشرائع.

[۱۴۸] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۶.

[۱۴۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۸۷.

[۱۵۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۵۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۷۳، عن روضة الکافی الحدیث ۴۸۶، اقتباس.

[۱۵۲] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۹۷.

[۱۵۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۵، ص ۱۲۰(الطبعة القدیمة).

[۱۵۴] (۱)-« تخاضون»: فی الأصل(تتحاضون)، و حذفت إحدی التائین للتخفیف.

[۱۵۵] (۲)-« طعام» هو فی الآیة ذو معنی مصدری أی:(إطعام).

[۱۵۶] (۳)-« لمّ»: بمعنی الجمع، و تأتی بمعنی الجمع مع الإصلاح أیضا.

[۱۵۷] (۱)-« تراث»: فی الأصل(وراث)، ثمّ أبدلت الواو تاء.

[۱۵۸] (۲)-« الجم»: بمعنی الکثیر، کما جاء فی(مصباح اللغة)، و(المقاییس)، و(الجمّة) الشعر المتجمع فی مقدمة الرأس.

[۱۵۹] (۱)- یقول الفخر الرازی فی تفسیره: إن فی الآیـة محـذوف، تقدیره(أمر) أو(قهر) أو(جلائل آیات) أو(ظهور و معرفة) .. و ظهرت هذه التقدیرات فی کتب غیره من المفسرین أیضا، و خصوصا التقدیر الأول.

[۱۶۰] (۲)- راجع تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۴۱۶.

[۱۶۱] (۱)- سورة الشعراء، الآیة ۹۰.

[۱۶۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۸۳؛ و عنه المیزان، ج ۲۰، ص ۴۱۵، و مثله فی تفسیر الدّر المنثور.

[۱۶۳] (۱)- الکافی، ج ۳، ص ۱۲۷، باب إنّ المؤمن لا یکره علی قبض روحه، الحدیث ۲.

[۱۶۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۰.

[۱۶۵] (۲)- ثواب الأعمال، نقلا عن نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۷۸.

[۱۶۶] (۱)-(لا): زائد للتأکید، و قیل إنّها نافیة(لمزید من التوضیح راجع مطلع سورة القیامة).

[۱۶۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۳.

[۱۶۸] (۱)-« أن» فی الآیة مخففة من الثقیلة و التقدیر: أنّه لن یقدر علیه أحد.

[۱۶۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۳.

[۱۷۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۸۰، الحدیث ۱۰.

[۱۷۱] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۳.

[۱۷۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۴، و بهذا المعنی أیضا ورد فی تفسیر روح البیان، ج ۱۰، ص ۴۳۵.

[۱۷۳] (۱)- روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام أنّه قیل له: إنّ أناسا یقولون فی قوله(و هدیناه النجدین) أنّهما الثدیان(أی ثدیا الأم) فقال:« لا، هما الخیر و الشرّ» مجمع البیان، ذیل الآیات المذکورة، و ضمنا التعبیر ب« نجد» علی الخیر من أجل عظمته و فی مورد الشرّ من باب التغلیب.

[۱۷۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۸۱.

[۱۷۵] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۸.

[۱۷۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۴؛ و تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۵۵.

[۱۷۷] (۱)- کما یقال للشمس و القمر: القمران.

[۱۷۸] (۱)- الظاهر أن(لا) فى الآية« نافية» و« خبرية» و نستبعد أن تكون على وجه الدعاء على ضمير الفعل أو أن تكون استفهامية، و الإشكال الوحيد الذى يرد على أنّها خبرية هو عدم تكرارها لأنّ(لا) النافية حين تدخل على الفعل الماضى تكرر عادة كقوله سبحانه\:i فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى E، و لم تتكرر فى الآية. و يذكر« الطبرسى» فى« مجمع البيان» مواضع من أقوال العرب لم تتكرر فيها(لا) النافية مع دخولها على الفعل الماضى، و إلى ذلك ذهب أيضا« الفخر الرازى» و« القرطبى»، و قيل إنّ(لا) إذا كانت بمعنى« لم» لا يلزم تكرارها و بعضهم احتمل التكرار فى التقدير و المعنى: فلا اقتحم العقبة و لا فك رقبة، و لا أطعم فى يوم ذى مسغبة.

[۱۷۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۵.

[۱۸۰] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۱۸۱] (۱)- أى لقد طرحت بوضوح سؤالك، و إن كنت أجملت فى الكلام.

[۱۸۲] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۸۳.

[۱۸۳] (۳)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۵.

[۱۸۴] (۱)- تفسير أبى الفتوح الرازى، ج ۱۲، ص ۹۶.

[۱۸۵] (۲)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۲۹۵، نقلا عن الكافى.

[۱۸۶] (۱)- تفسير أبى الفتوح الرازى، ج ۱۲، ص ۹۷، و لسان العرب، مادة شأم.

[۱۸۷] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۶.

[۱۸۸] (۱)- و فى ضمير« يغشاها» ذهب المفسّرون إلى اتجاهين، منهم من قال: إنّه يعود إلى« الأرض» لأنّ الليل يسدل استاره على الأرض. و منهم من قال إلى« الشمس» إذ الليل يحجب وجه الشمس، و المعنى هذا مجازى طبعا، لأنّ الليل لا يحجب الشمس حقيقة، بل يظهر بعد غروب الشمس. و الواقع أنّ الضمير فى الآية السابقة إن عاد إلى« الأرض» فهنا يعود إليها أيضا. و إن عاد إلى الشمس يعود إليها هنا أيضا.

[۱۸۹] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۴۷.

[۱۹۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۸.

[۱۹۱] (۲)- المصدر السابق.

[۱۹۲] (۳)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۵۷.

[۱۹۳] (۱)- ذكر بعض علماء اللغة أن« الطغوى» مشتقّة من مادة ناقص واوى(طغو) و« الطغيان» من مادة ناقص يائى(طغى).

[۱۹۴] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۹، و وردت الروآية باختصار فى تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۷۱۶۸.

[۱۹۵] (۱)- القمر، الآية ۲۸.

[۱۹۶] (۲)- الشعراء، الآية ۱۵۶.

[۱۹۷] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱.

[۱۹۸] (۴)- مفردات الراغب، و لسان العرب، و مجمع البيان.

[۱۹۹] (۱)- روح البيان، ج ۲۰، ص ۴۴۶.

[۲۰۰] (۱)- الصيحة السماوية أو الصاعقة، صوت عظيم تصحبه هزّة شديدة و حرائق، و هى بالتعبير العلمى شرارة كهربائية كبرى تحدث نتيجة تفريغ كهربائى من الغيوم المحملة بشحنات موجبة إلى الأرض ذات الشحنات السلبية.

[۲۰۱] (۲)- هود، الآية ۶۷.

[۲۰۲] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۸۷.

[۲۰۳] (۴)- شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۳۳۵- ۳۴۳.

[۲۰۴] (۱)- المحجة البیضاء، ج ۵، ص ۱۱۶.

[۲۰۵] (۲)- المحجة البیضاء، ج ۵، ص ۱۱۷.

[۲۰۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۹.

[۲۰۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۱.

[۲۰۸] (۱)- یلاحظ فی السّورة المبارکة أن الفعل« یغشی» بصیغة المضارع، أمّا« تجلّی» فبصیغة الماضی، قیل إنّ ذلک یعود إلی عصر نزول السّورة، حیث کانت الجاهلیة فی بدایة الدعوة مخیّمة بظلامها علی الأرض، و فی هذه الحالة سیکون القسم بظلام الجاهلیة، و لیس ذلک بجیّد، و من الأفضل القول إن هذا الفعل الماضی یفید معنی المضارع لوقوعه بعد« إذا» الشرطیة؛ أو إنّ أصل الفعل« تتجلی» حذفت إحدی التائین، عندئذ سیکون الفعل مؤنثا، و لا یکون فاعله« نهار» بل سیکون التقدیر:« إذا تتجلی الشمس فیه».

[۲۰۹] (۱)- هذا التقسیم للآیات مستلهم من قوله سبحانه\:i سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ E.

[۲۱۰] (۱)- النساء، ۹۵.

[۲۱۱] (۱)- تفسیر الکشّاف، ج ۴، ص ۷۶۲.

[۲۱۲] (۱)-« الیسری» مؤنث أیسر، و« العسری» مؤنث أعسر، إنّما جاءا بصیغة المؤنث إمّا لأنّهما صفتان للأعمال و التقدیر: فسنیسره لأعمال یسری ... أو- لأعمال عسری، أو صفتان لحوادث الحیاة، و إن کان الموصوف مفردا فقد یکون« طریقة» أو« خلة».

[۲۱۳] (۱)-« لام» فی(للآخرة) و(للأولی) و کذلک فی(للهدی) لام تأکید تدخل علی خبر إنّ، و دخلت هنا علی اسمها لتقدم الخبر.

[۲۱۴] (۲)- تلظی أصلها تتلظی حذفت إحدی التائین للتخفیف.

[۲۱۵] (۱)- التوبة، الآیة ۱۰۳.

[۲۱۶] (۲)-« ابتغاء» منصوبة علی الاستثناء، و الاستثناء فی الآیة منقطع، أی إنّ المستثنی لیس من جنس المستثنی منه أی: ما لأحد عنده من نعمة إلّا ابتغاء وجه ربّه، و یجوز أن یکون النصب علی أنّ الکلمة مفعول له علی المعنی، لأنّ معنی الکلام، لا یؤتی ماله إلّا ابتغاء وجه ربّه.

[۲۱۷] (۱)- الفخر الرازی التّفسیر الکبیر، ج ۳۱، ص ۲۰۵.

[۲۱۸] (۲)- المدرسة الأمویة کان لها أثرها بدرجة و اخری علی کثیر من العلماء علی مرّ التاریخ، و تقوم علی أساس الحطّ من شخصیة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و نفی کلّ منقبة لعلی و اله علیهم السّلام« المترجم».

[۲۱۹] (۳)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۸.

[۲۲۰] (۱)- لا ننسی أنّ نذکر أنّ الآلوسی رجل متعصّب نسبیا للمدرسة الأمویة، لکنّه مع ذلک لم یوافق الفخر الرازی فی رأیه.

[۲۲۱] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۳۶۵، ح ۳۸.

[۲۲۲] (۳)- المصدر السابق، ح ۳۵.

[۲۲۳] (۴)- اصول الکافی، ج ۲، باب إطعام المؤمن، ح ۱۷.

[۲۲۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۳۸۸، ح ۱۱۳.

[۲۲۵] (۲)- المصدر السابق، ص ۳۸۹، ح ۲.

[۲۲۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۳.

[۲۲۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۴.

[۲۲۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۹۵، الحدیث رقم ۱۲، فی الأصل تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱۲، ص ۱۱۰.

[۲۲۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۷۶۵.

[۲۳۰] (۲)- یونس، الآیة ۱۵.

[۲۳۱] (۱)- الشوری، الآیة ۵۲.

[۲۳۲] (۱)-« العائل» فی الأصل کثیر العیال، و جاءت أیضا بمعنی الفقیر، و هی فی الآیة بهذا المعنی، و یستفاد من کلام الراغب أنّ(عال) إذا کانت أجوفا یائیا فهی بمعنی افتقر، و إن کانت أجوفا واویا فبمعنی کثر عیاله.(و لا نستبعد أن یکون المعنیان متلازمین).

[۲۳۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

[۲۳۴] (۱)- المصدر السابق.

[۲۳۵] (۱)- تفسیر محمّد عبده، جزء عم، ص ۱۱۳.

[۲۳۶] (۲)- الذاریات، الآیة ۱۹.

[۲۳۷] (۳)- نهج الفصاحة، حدیث ۶۸۳.

[۲۳۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۷.

[۲۳۹] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۹۲، و قریب من هذا المعنی فی الکافی، ج ۶، کتاب الزی و التجمیل، حدیث ۲.

[۲۴۰] (۳)- فروع الکافی، ج ۶، ص ۴۳۸.

[۲۴۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۶۴: ح ۷.

[۲۴۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

[۲۴۳] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۱، ص ۲۱۹.

[۲۴۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۹۷، ح ۲۳.

[۲۴۵] (۲)- نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة رقم ۴۷.

[۲۴۶] (۳)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

[۲۴۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۲.

[۲۴۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۷.

[۲۴۹] (۱)- طه، الآیة ۲۵- ۲۶.

[۲۵۰] (۲)- القلم، الآیة ۴۸.

[۲۵۱] (۳)- الحجر، الآیة ۹۷.

[۲۵۲] (۴)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۸.

[۲۵۳] (۱)- تفسیر الدر المنثور(نقلا عن تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۴۵۲) و تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۲. و هذه الرّوایة ذکرها البخاری و الترمذی و النسائی أیضا فی قصّة المعراج.

[۲۵۴] (۱)- ممّا ذکرنا یتّضح أنّ الألف و اللام فی(العسر) للجنس لا للعهد، و(یسرا) وردت نکرة، لکنّها تعنی الجنس أیضا، و تنکیرها فی مثل هذه المواضع للتعظیم.

[۲۵۵] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۰۴، حدیث ۱۱، ۱۳.

[۲۵۶] (۳)- المصدر السابق.

[۲۵۷] (۱)- شواهد التنزیل: ج ۲، ص ۳۴۹، الأحادیث ۱۱۱۶ إلی ۱۱۱۹.

[۲۵۸] (۲)- القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۹۹.

[۲۵۹] (۱)- روح المعانی، ج ۳۰، ص ۱۷۲؛ تفسیر الکشاف، ج ۴، ص ۷۷۲.

[۲۶۰] (۱)- ابن أبی الحدید، شرح نهج البلاغة، ج ۵، ص ۱۲۹.

[۲۶۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۰.

[۲۶۲] (۱)- قیل إنّ« سینین» جمع« سینه» و هی شجرة: و لما کان« طور» اسم جبل، فیکون القسم بالجبل المغطی بالأشجار، و قیل إن سینین اسم الأرض التی یرسو علیها ذلک الجبل. و قیل إنّه یعنی کثیر الخیر و البرکة، و جمیل، بلسان أهل الحبشة(روح المعانی، ج ۳۰، ص ۱۷۳).

[۲۶۳] (۱)-« الأمین» علی وزن فعیل بمعنی فاعل أی« ذو الأمانة» أو بمعنی مفعول أی الأرض المأمونة لسکنتها.

[۲۶۴] (۲)- المؤمنون، الآیة ۲۰.

[۲۶۵] (۱)- الکافی، ج ۶، ص ۳۵۸. و أورده العلّامة المجلسی فی بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۱۸۴ روایات متعددة فی حقل خواص التین، و المعلومات العلمیة عن هذه الفاکهة منقولة عن کتاب« أوّل جامعة و آخر رسول»(فارسی)، ج ۹، ص ۹۰ و ما بعدها.

[۲۶۶] (۲)- أول جامعة و آخر رسول، ج ۹، ص ۱۳۰ و ما بعدها.

[۲۶۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۱۸۰، حدیث ۶.

[۲۶۸] (۲)- المصدر السابق، ص ۱۸۳، حدیث ۲۲.

[۲۶۹] (۳)- المصدر السابق، ج ۱۸۲، حدیث ۱۶.

[۲۷۰] (۴)- الإسراء، الآیة ۷۰.

[۲۷۱] (۱)- راجع أدلة المعاد فی تفسیر سورة الواقعة.

[۲۷۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۲.

[۲۷۳] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۷۸.

[۲۷۴] (۱)- التّفسیر الکبیر، ج ۱۲، ص ۹۶(بتلخیص قلیل)، و هذا المعنی أورده کثیر من المفسّرین بإضافات و زوائد لا یمکن قبول بعضها.

[۲۷۵] (۲)- تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۴.

[۲۷۶] (۱)- الراغب فی المفردات یقول: إنّ القراءة تعنی ضم الحروف و الکلمات إلی بعضها. و لذلک لا یقال لنطق الحرف قراءة.

[۲۷۷] (۲)- الباء فی هذه الحالة للملابسة.

[۲۷۸] (۱)- جملة« و ربّک الأکرم» جملة استئنافیة مکونة من مبتدأ و خبر.

[۲۷۹] (۱)- المائدة، الآیة ۳.

[۲۸۰] (۱)- القلم، الآیة ۱.

[۲۸۱] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۶۱۹ و ما یلیها بتلخیص.

[۲۸۲] (۱)- حسب المعنی الذی ذکرناه للآیة(کلا) هنا للردع بالنسبة لما یستلزمه مضمون الآیات السابقة و قیل أیضا أنّها بمعنی« حقّا» للتأکید.

[۲۸۳] (۱)- جملة« أن رآه استغنی» مفعول لأجله، و التقدیر: لأنّ ... و الرؤیة هنا بمعنی العلم و لذا نصبت مفعولین، و یحتمل أیضا أن تکون الرؤیة هنا حسّیة. و« استغنی» تکون عندئذ بمثابة الحال.

[۲۸۴] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۸۰.

[۲۸۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۵.

[۲۸۶] (۱)- التّفسیر الکبیر، ج ۳۲، ص ۲۳.

[۲۸۷] (۱)- الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۲۳.

[۲۸۸] (۲)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۶، ص ۳۹۴۲ ذیل الآیة.

[۲۸۹] (۱)- الأعراف، الآیة ۶۰.

[۲۹۰] (۲)- سبأ، الآیة ۳۴.

[۲۹۱] (۳)- المؤمنون، الآیة ۶۷.

[۲۹۲] (۱)- روح المعانی: ج ۳۰، ص ۱۸۸، و الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۷۱.

[۲۹۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۶.

[۲۹۴] (۱)- المصدر السابق.

[۲۹۵] (۱)- البقرة، الآیة ۱۸۵.

[۲۹۶] (۱)- مفردات الراغب، مادة نزل.

[۲۹۷] (۲)- الدر المنثور، ج ۸، ص ۵۶۸.

[۲۹۸] (۱)- الشوری، الآیة ۵۲.

[۲۹۹] (۲)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۸۱.

[۳۰۰] (۳)- حسب التّفسیر الأوّل(من) هنا بمعنی لام التعلیل أی لأجل کلّ أمر. و بناء علی التّفسیر الثّانی(من) تعنی باء المصاحبة.

[۳۰۱] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۳۶.

[۳۰۲] (۲)- الدخان، الآیة ۳- ۴.

[۳۰۳] (۱)- الحج، الآیة ۷۴.

[۳۰۴] (۲)- الطلاق، الآیة ۷.

[۳۰۵] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۲۵، الحدیث ۵۸.

[۳۰۶] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۶۲۶.

[۳۰۷] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۲۶، مقطع من الحدیث ۵۸.

[۳۰۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۲۱.

[۳۰۹] (۱)- البقرة، الآیة ۸۹.

[۳۱۰] (۱)- یجب ملاحظة أن« منفکین» جمع(منفک) یمکن أن تکون اسم فاعل أو اسم مفعول، فعلی التّفسیرین الأوّل و الثّانی تعطی معنی اسم الفاعل، و علی التّفسیر الثّالث معنی اسم المفعول، فلاحظ.

[۳۱۱] (۲)- فصلت، الآیة ۴۲.

[۳۱۲] (۱)- البقرة، الآیة ۱۸۳.

[۳۱۳] (۲)- جملة« و ما أمروا» قد تکون حالیة أو استئنافیة. و اللام فی« لیعبدوا» لام الغرض، و المقصود هنا الغرض الذی یعود علی العباد، لا الغرض الذی یعود علی اللّه کما تصور بعض المفسّرین و أدی بهم هذا التصور إلی إنکار« لام الغرض» فی مثل هذه المواضع. کل أفعال اللّه معللة بالأغراض، لکنّها أغراض تعود علی العباد. بعضهم اعتبر اللام هنا بمعنی« أن» کما فی قوله تعالی:

\i یُرِیدُ اللّهُ لِیُبَیِّنَ لَکُمْ E النساء، الآیة ۲۶.

[۳۱۴] (۱)- دين القيمة، مضاف مضاف إليه، و ليس صفة و موصوف و مفهومها أنّه دين ورد فى الكتب السابقة مستقيم و ذو قيمة أو أنّه دين فيه احكام و تعليمات ذات قيمة، فعلى هذا جاءت الكلمة بصيغة المؤنث لأنّها صفة للكتب أو الملة و الشريعة.

[۳۱۵] (۱)- الأنفال، الآية ۲۲.

[۳۱۶] (۲)- الأعراف. الآية ۱۷۹.

[۳۱۷] (۱)- الاسراء، الآية ۷۰.

[۳۱۸] (۱)- شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۳۵۷، الحديث ۱۱۲۶.

[۳۱۹] (۲)- المصدر السابق، ص ۳۵۹، الحديث ۱۱۳۰.

[۳۲۰] (۱)- المصدر السابق، ص ۳۶۲، الحديث ۱۱۳۹.

[۳۲۱] (۲)- الصواعق المحرقة، ص ۹۶؛ و نور الأبصار، ص ۷۰ و ۱۰۱.

[۳۲۲] (۳)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۷۹.

[۳۲۳] (۴)- المصدر السابق.

[۳۲۴] (۱)- روح المعانى، ج ۳۰، ص ۳۰۸.

[۳۲۵] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۴.

[۳۲۶] (۱)- اصول الكافى على ما فى نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۴۷، ح ۴.

[۳۲۷] (۱)- إذا شرطية، يحتمل أن يكون جزاء شرطها« يومئذ تحدث أخبارها» أو« يومئذ يصدر النّاس أشتاتا»، أو أنّ الجزاء محذوف و الجملة جاءت جوابا لسؤال: متى الساعة؟ و التقدير: إذا زلزلت الأرض زلزالها تقوم الساعة.

[۳۲۸] (۱)- بالمعنى الأوّل الإضافة لها معنى العموم، و فى الحالة الثانية معنى العهد. ثمّ إنّ الزلزال بكسر الزاى مصدر، و الزلزال بفتح الزاى اسم مصدر، و هذه القاعدة جارية فى الفعل الرباعى المضاعف مثل(صلصال) و(وسواس).

[۳۲۹] (۲)- الإنشقاق، الآية ۴.

[۳۳۰] (۳)-« أثقال» جمع ثقل- على وزن فكر- بمعنى الحمل، و قيل إنّه جمع ثقل، على وزن عمل، و هو متاع البيت أو المسافر. و المعنى الأوّل أنسب.

[۳۳۱] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۴۹.

[۳۳۲] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۶.

[۳۳۳] (۱)- المصدر السابق.

[۳۳۴] (۲)- لئالئ الأخبار، ج ۵، ص ۷۹(الطبعة الجديدة).

[۳۳۵] (۳)- المصدر السابق.

[۳۳۶] (۴)- الباء فى(بأنّ) للسببية و اللام فى(لها) بمعنى إلى كما ورد فى قوله تعالى:\i وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ E(النحل، الآية ۶۸).

[۳۳۷] (۱)- الاسراء الآية ۷۱.

[۳۳۸] (۱)- لقمان، الآية ۱۶.

[۳۳۹] (۱)- الزمر، الآية ۶۵.

[۳۴۰] (۲)- هود، الآية ۱۱۴.

[۳۴۱] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۶۴.

[۳۴۲] (۲)- تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۵.

[۳۴۳] (۱)- الدر المنثور، ج ۸، ص ۵۹۴

[۳۴۴] (۱)- واقعة حدثت فى السنة الثامنة للهجرة، و فيها أسر عدد كبير من الكفار، فشدوا بالحبال مكبلين و لذا سميت الواقعة بذات السلاسل، و سيأتى شرحها فى الآيات.

[۳۴۵] (۱)-« جمع» من اسماء المشعر الحرام، لاجتماع النّاس فيه، أو لجمع صلاة المغرب و العشاء فيه.

[۳۴۶] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۷.

[۳۴۷] (۳)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۸۳.

[۳۴۸] (۱)- بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۶۶ و ما بعدها. و« مجمع البيان» ج ۱۰، ص ۵۲۸. و بعض كتب التاريخ الأخرى.

[۳۴۹] (۲)- القاعدة أن تكون: و العاديات عدوا، و لكن« الضبح» لملازمته العدو ناب عنه، فكانت و العاديات ضبحا. و قيل إن ضبحا مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: و العاديات يضبحن ضبحا.

[۳۵۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۹، و أورد القرطبى هذه الرّواية فى تفسيره، ج ۱۰، ص ۷۲۴۵.

[۳۵۱] (۱)- الضمير فى(به) يعود إلى العدو المذكور فى(و العاديات ضبحا) فهى باء السببية، أى بسبب هذا العدو يثور الغبار و يملأ الجو، و احتمل بعضهم أن يكون مرجع الضمير زمان أو مكان ذلك الهجوم. و تكون الباء عندئذ ظرفية. و الصحيح المعنى الأوّل.

[۳۵۲] (۲)- مرجع الضمير فى(به) و معنى الباء هو نفسه الذى ذكرناه فى الآية السابقة.

[۳۵۳] (۱)- تفسير البيضاوى، ص ۴۶۵.

[۳۵۴] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۰.

[۳۵۵] (۱)- اللام فى« لحبّ الخير» قد تكون لام التعدية أو لام العلة، إن كانت للتعدية فيكون المعنى هو الذى ذكرناه، و إن كانت للتعليل يكون المعنى: إنّ الإنسان بسبب حبّه للمال بخيل. و الأوّل أنسب.

[۳۵۶] (۲)- البقرة، الآية ۱۸۰.

[۳۵۷] (۱)- الطارق، الآية ۹.

[۳۵۸] (۱)- الأحزاب، الآية ۷۲.

[۳۵۹] (۲)- المعارج، الآية ۱۹.

[۳۶۰] (۳)- هود، الآية ۹.

[۳۶۱] (۴)- العلق، الآية ۶.

[۳۶۲] (۵)- الإسراء، الآية ۷۰.

[۳۶۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۰.

[۳۶۴] (۱)- القمر، الآية ۷.

[۳۶۵] (۱)-« ماهية»، أصلها« ما هى»، و الهاء ألحقت بها للسكت.

[۳۶۶] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷، ص ۲۵۱.

[۳۶۷] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۵.

[۳۶۸] (۱)- المفردات، ص ۵۲۲.

[۳۶۹] (۲)- هذا الاحتمال ذكره الزمخشرى فى الكشّاف، و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، و أبو الفتوح الرازى فى تفسيره.

[۳۷۰] (۳)- قيل أيضا أنّ« راضية» بمعنى(ذات رضا). أو قدروا محذوفا كأن تكون عيشة مرضية لأصحابها. و التّفسير المذكور أعلاه

أنسب من غيره.

[۳۷۱] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۵۹ الحديث ۸ و ۱۲.

[۳۷۲] (۲)- المصدر السابق، الحديث ۷، ج ۵، ص ۶۵۹، ح ۷.

[۳۷۳] (۱)- المصدر السابق.

[۳۷۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۶۰، الحديث ۱۳.

[۳۷۵] (۳)- المصدر السابق، الحديث ۱۴.

[۳۷۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۲.

[۳۷۷] (۱)- المصدر السابق، بتلخيص.

[۳۷۸] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۱.

[۳۷۹] (۲)- شرح نهج البلاغة، ج ۱۱، ص ۱۵۳.

[۳۸۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۴.

[۳۸۱] (۱)- اصول الكافى، ج ۲، ص ۲۳۶: باب الكبر، الحديث ۱۷.

[۳۸۲] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۹۱.

[۳۸۳] (۳)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۹۰، الحديث ۱۲.

[۳۸۴] (۱)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۸۷.

[۳۸۵] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۶۲، الحديث ۸.

[۳۸۶] (۳)- صحيح مسلم، نقلا عن مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۴.

[۳۸۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۴۳.

[۳۸۸] (۲)- الميزان، ج ۶، ص ۱۸۷.

[۳۸۹] (۱)- على ما فى بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۴۳.

[۳۹۰] (۲)- الميزان، ج ۶، ص ۲۰۰« ذيل الآية ۱۰۵ من سورة المائدة».

[۳۹۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۵.

[۳۹۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۴۵.

[۳۹۳] (۱)- و الضحى، الآية ۱.

[۳۹۴] (۲)- المدثر، الآية ۳۴.

[۳۹۵] (۱)- عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال فى تفسير آية\:i وَ الْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِی خُسْرٍ\E: العصر عصر خروج القائم(أى خروج الإمام المهدى المنتظر سلام اللّه عليه). نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۶۶، الحديث ۵.

[۳۹۶] (۱)- مفردات الراغب، مادة خسر.

[۳۹۷] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۳۲، ص ۸۵.

[۳۹۸] (۲)- تحف العقول، ص ۳۶۱، كلمات الإمام الهادى عليه السّلام.

[۳۹۹] (۳)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۷۴.

[۴۰۰] (۱)- المصدر السابق، الكلمة ۴۵۶.

[۴۰۱] (۲)- التغابن، الآية ۹.

[۴۰۲] (۳)- التوبة، الآیة ۱۱۱.

[۴۰۳] (۴)- الزلزال، الآیة ۷.

[۴۰۴] (۵)- البقرة الآیة ۲۶۱.

[۴۰۵] (۱)- النحل، الآیة ۹۷.

[۴۰۶] (۲)- المؤمنون، الآیة ۱۰۰.

[۴۰۷] (۱)- المؤمنون، الآیة ۵۱.

[۴۰۸] (۱)- حول حقیقة الصبر و مراحله و شعبه، فصلنا الحدیث فی تفسیر الآیة(۱۵۳) من سورة البقرة.

[۴۰۹] (۲)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۹۲.

[۴۱۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۳۶.

[۴۱۱] (۲)- المصدر السابق.

[۴۱۲] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۹۲.

[۴۱۳] (۱)- اصول الکافی، ج ۲، باب النمیمة، الحدیث ۱.

[۴۱۴] (۲)- التوبة، الآیة ۸۰.

[۴۱۵] (۳)- بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۴۲.- الجمعة، الآیة ۱۰.

[۴۱۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۸، الحدیث ۷.

[۴۱۷] (۲)-« ماله» یمکن أن تکون مکونة من(مال) مضاف إلی ضمیر الغائب. و یمکن أن تکون(ما) موصولة، و بعدها صلتها. جملة(أخلده) فعل ماض یتحمل معنی المضارع، أو بمعنی موجبات الخلود.

[۴۱۸] (۳)- القصص، الآیة ۸۱.

[۴۱۹] (۴)- الدخان، الآیة ۲۵- ۲۷.

[۴۲۰] (۱)- الدخان، الآیة ۲۸.

[۴۲۱] (۲)- الحاقة، الآیة ۲۸- ۲۹.

[۴۲۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۱۷ و ۱۹، الحدیث ۶۰ و ۶۴.

[۴۲۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۷، الحدیث ۵.

[۴۲۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۷، الحدیث ۵.

[۴۲۵] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۱۴۱، الحدیث ۱۷.

[۴۲۶] (۲)- المصدر السابق، ص ۱۴۲.

[۴۲۷] (۳)- التوحید للصدوق، نقلا عن نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۸، الحدیث ۸.

[۴۲۸] (۴)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۱۴۲.

[۴۲۹] (۵)- المصدر السابق، الحدیث ۲۰.

[۴۳۰] (۱)- المصدر السابق، ص ۱۳۷، الحدیث ۳.

[۴۳۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۸، الحدیث ۱.

[۴۳۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۹، الحدیث ۸.

[۴۳۳] (۱)- سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۸- ۶۲؛ و بلوغ الإرب، ج ۱، ص ۲۵۰- ۲۶۳؛ و بحار الأنوار، ج ۱۵، ص ۱۳۰ و ما بعدها؛ و

مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۴۲.

[۴۳۴] (۱)- الفیل، لفظه مفرد، و له هنا معنی الجنس و الجمع.

[۴۳۵] (۱)- سجّیل کلمة فارسیة مأخوذة من دمج کلمتین هما« سنگ» و« گل». و تعنی الطین المتحجّر.

[۴۳۶] (۱)- تفسیر جزء عم، محمّد عبده، ص ۱۵۸. و ذکر المؤرخون طبعا انتشار وباء الحصبة و الجدری فی بلاد العرب لأوّل مرّة فی نفس ذلک العام، لکن هذا لا ینهض دلیلا علی أن هلاک جیش أبرهة بتلک الأوبئة.

[۴۳۷] (۱)-« الإرهاص»، هو المعجزة الّتی، تسبق ظهور النّبی، لتمهّد لدعوته. و الکلمة فی الأصل تعنی الأساس و الحجر الأوّل الذی یقام علیه البناء، و کذلک بمعنی الاستعداد.

[۴۳۸] (۱)- أورد الحر العاملی، فی کتابه وسائل الشیعة، ج ۴، ص ۷۴۳، باب ۱۰ من أبواب قراءة الصلاة، روایات عدّة فی هذا المضمار.

[۴۳۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۴۳.

[۴۴۰] (۱)-« اللام» فی« لإیلاف» بمعنی العلة، و جار و مجرور متعلق ب« جعل» فی السّورة السابقة فی آیة\iفَجَعَلَهُمْ کَعَصْفٍ مَأْکُولٍ E أو أحد الأفعال التی کانت فی السّورة، بینما یری البعض أن الجار و المجرور یتعلقان بجملة« فلیعبدوا» القادمة، لکن هذا الاحتمال لا یتفق مع مضمون الآیات، و المعنی الأوّل أحسن.

[۴۴۱] (۱)-« إیلافهم» بدل من فی الآیة السابقة، و(هم) مفعول أوّل، و(رحلة الشتاء) مفعول ثان، و قیل أنّه ظرف، و قیل منصوب بنزع الخافض، أی إیلافهم من رحلة الشتاء و الصیف(یبدو أن المعنی الثّانی و الثّالث أنسب).

« رحلة» فی الأصل من« رحل»- علی زنة شهر- بمعنی الغطاء الذی یغطی به ظهر الدابة لرکوبها، ثمّ أطلقت علی الإبل أو السفر بواسطته أو بوسائط اخری.

[۴۴۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۴۶.

[۴۴۳] (۱)- الإنفطار، الآیة ۹.

[۴۴۴] (۲)- التین، الآیة ۷.

[۴۴۵] (۱)- الکافی، نقلا عن نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۷۹، الحدیث ۱۸.

[۴۴۶] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۱۹.

[۴۴۷] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۷۹، الحدیث ۲۰.

[۴۴۸] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۳۵، ح ۱۰.

[۴۴۹] (۲)- اصول الکافی، ج ۲، باب الریاء، الحدیث ۱۴.

[۴۵۰] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۵۱(ذیل الحدیث ۱۶).

[۴۵۱] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۴۹(ذیل الحدیث ۱۱).

[۴۵۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۴۹.

[۴۵۳] (۲)- کان للرّسول ابن آخر من« ماریة القبطیة» اسمه إبراهیم. ولد فی الثامنة للهجرة بالمدینة، و لکنّه توفی أیضا قبل بلوغ الثّانیة من عمره، و حزن علیه الرسول کثیرا.

[۴۵۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۴۸.

[۴۵۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۴۹.

[۴۵۶] (۲)- المصدر السابق.

[۴۵۷] (۳)- المصدر السابق.

[۴۵۸] (۱)-« النحیرة» آخر الشهر، لأنّ الإنسان یستقبل فیه الشهر الجدید. و سؤال النّبی لجبریل عن هذا الاستقبال للشهر الجدید، لذلک قال له جبریل: لیست بنحیرة.

[۴۵۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۰.

[۴۶۰] (۳)- المصدر السابق.

[۴۶۱] (۴)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۵۴۸.

[۴۶۲] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۱۲۴.

[۴۶۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۱.

[۴۶۴] (۲)- المصدر السابق.

[۴۶۵] (۳)- المصدر السابق.

[۴۶۶] (۱)- ذکر سبب النزول هذا کثیر من المفسّرین علی اختلاف یسیر بینهم فی العبارات منهم الطبرسی فی مجمع البیان، و القرطبی فی تفسیره، و أبو الفتوح الرازی فی تفسیره، و السیوطی فی الدر المنثور.

[۴۶۷] (۱)- یونس- ۱۵

[۴۶۸] (۱)- لقمان- ۲۵

[۴۶۹] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم، ج ۲، ص ۴۴۵.

[۴۷۰] (۲)- بناء علی هذا التّفسیر« ما» فی الآیتین الثّانیة و الثّالثة موصولة، و فی الرابعة و الخامسة مصدریة(ذکر هذا التّفسیر أبو الفتوح الرازی ضمن ذکره لاحتمالات تفسیر الآیة ج ۱۲، ص ۱۹۲، و أشار إلیه الطبرسی أیضا).

[۴۷۱] (۱)- بناء علی هذا(عابد) و هو اسم فاعل یکون فی الآیة بمعنی الماضی أیضا.

[۴۷۲] (۲)- یجب الالتفات إلی أن« ما الموصولة» و إن استعملت غالبا فی غیر ذوی العقول، تستعمل أیضا فی العاقل. و فی القرآن شواهد.

[۴۷۳] (۳)- سورة القصص، الآیة ۵۵.

[۴۷۴] (۱)- و یلاحظ أن کلمة(دین) فی الآیة\i وَلِیَ دِینِ E مکسورة، و کسرتها تدل علی یاء محذوفة أی: و لی دینی.

[۴۷۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۴، هذه الرّوایة وردت بألفاظ مختلفة(المیزان، ج ۲۰، ص ۵۳۲).

[۴۷۶] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۳.

[۴۷۷] (۳)- المصدر السابق.

[۴۷۸] (۱)- البقرة، الآیة ۲۱۴.

[۴۷۹] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۲۶؛ الأنفال، الآیة ۱۰.

[۴۸۰] (۱)- الأحزاب، الآیة ۱۰.

[۴۸۱] (۱)- یوسف- الآیة ۱۰۱.

[۴۸۲] (۲)- النمل، الآیة ۴۰.

[۴۸۳] (۱)- بتلخیص عن الکامل لابن الأثیر، ج ۲، و تفسیر مجمع البیان، تفسیر سورة النصر.

[۴۸۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۸.

[۴۸۵] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۳۲۴(بتلخیص قلیل) و الرّوایة بنفس المضمون ذکرها الطبرسی فی مجمع البیان، و ابن

الأثير فى الكامل، ج ۲، ص ۶۰ و فى الدر المنثور، و أبى الفتوح الرازى و الفخر الرازى، و فى ظلال القرآن، فى تفسير هذه السّورة.

[۴۸۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۵۹.

[۴۸۷] (۲)- فى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۶۹۷.

[۴۸۸] (۱)- تفسير الفرقان، ج ۳۰، ص ۵۰۳.

[۴۸۹] (۲)- المصدر السابق.

[۴۹۰] (۳)- الشعراء، الآيتان ۸۸- ۸۹.

[۴۹۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۲۲۷.

[۴۹۲] (۲)-« امرأته» معطوف على ضمير مستتر فى« سيصلى» و« حمالة» حال منصوب. و قيل إنّها منصوبة بالشتم، كما ذهب إلى ذلك الزمخشرى فى الكشاف، و التقدير: أذّم حمالة الحطب. و المعنى الأوّل أفضل.

[۴۹۳] (۱)- التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ج ۲، ص ۱۵۸.

[۴۹۴] (۱)- أوضحنا هذه المسألة أكثر فى تفسير الآية(۴۶) من سورة هود بمناسبة الحديث عن ابن نوح عليه السّلام.

[۴۹۵] (۱)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۳۹۰.

[۴۹۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۰۵، الحديث ۴۲، نقلا عن مجمع البيان.

[۴۹۷] (۲)- المصدر السابق، ص ۷۰۰، الحديث ۱۲؛ نقلا عن كتاب ثواب الأعمال.

[۴۹۸] (۳)- المصدر السابق، ص ۶۹۹، الحديث ۱.

[۴۹۹] (۴)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۶۱، و كتب الحديث و التّفسير الاخرى.

[۵۰۰] (۱)- اصول الكافى، ج ۱، باب النسبة، الحديث ۳.

[۵۰۱] (۱)- قيل« هو» فى الآية ضمير الشأن، و اللّه مبتدأ. و الأفضل أن نعتبر« هو» إشارة إلى ذاته المقدّسة، و قد كانت مجهولة لدى السائل، و تكون بذلك« هو» مبتدأ و« اللّه» خبرا و« أحد» خبر بعد الخبر.

[۵۰۲] (۲)- فصلت، الآية ۵۳.

[۵۰۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۲۱، الحديث ۱۲، بتلخيص.

[۵۰۴] (۲)- المصدر السابق.

[۵۰۵] (۳)- المصدر السابق.

[۵۰۶] (۱)- المصدر السابق.

[۵۰۷] (۲)- الميزان، ج ۲۰، ص ۵۴۳.

[۵۰۸] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۲۲.

[۵۰۹] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۰۶، الحديث ۱.

[۵۱۰] (۲)- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ۳، ص ۳۹.

[۵۱۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۲۳.

[۵۱۲] (۲)- المصدر السابق.

[۵۱۳] (۳)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۶۵.

[۵۱۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۳۰؛ الحديث ۲۱.

[۵۱۵] (۱)- التوبة، الآية ۳۰.

[۵۱۶] (۲)- الأنعام، الآیة ۱۰۰.

[۵۱۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۲۴.

[۵۱۸] (۲)-« أحد» اسم کان و« کفوا» خبرها.

[۵۱۹] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۶.

[۵۲۰] (۱)- الأنبیاء، الآیة ۲۲.

[۵۲۱] (۲)- نهج البلاغة، وصیته لابنه المجتبی(قسم الرسائل، الرسالة ۳۱).

[۵۲۲] (۱)- الرعد، الآیة ۱۶۰.

[۵۲۳] (۲)- الأنعام، الآیة ۱۶۴.

[۵۲۴] (۱)- المائدة، الآیة ۴۴.

[۵۲۵] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۸۹.

[۵۲۶] (۳)- الحدید، الآیة ۷.

[۵۲۷] (۱)- لذلک إذا تعینت حکومة عن طریق الانتخابات و بأکثریة الأصوات، فلا بدّ من تنفیذ الفقیه الجامع للشرائط کی تکون لها شرعیة إلهیة.

[۵۲۸] (۲)- الأنعام، الآیة ۵۷.

[۵۲۹] (۳)- النساء، الآیة ۵۹.

[۵۳۰] (۴)- النساء، الآیة ۸۰.

[۵۳۱] (۱)- الفرقان، الآیتان ۸ و ۹.

[۵۳۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۷۱۶، و مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۶۷.

[۵۳۳] (۳)- المصدر السابق.

[۵۳۴] (۴)- المصدر السابق.

[۵۳۵] (۱)- الأنعام، الآیة ۹۵.

[۵۳۶] (۲)- ألم السجدة، الآیة ۷.

[۵۳۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۱۹۶.

[۵۳۸] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۳۷.

[۵۳۹] (۲)- المصدر السابق، ص ۲۴۸.

[۵۴۰] (۳)- النساء، الآیة ۵۴.

[۵۴۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۷۶۴۵، و مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۶۷، و ۵۶۹.

[۵۴۲] (۲)- المصدر السابق.

[۵۴۳] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۵۰.

[۵۴۴] (۱)- فصلت، الآیة ۳۰.

[۵۴۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۷۱.

[۵۴۶] (۲)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۵۵۷.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبيّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبرازِ المَرافِقِ و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَمِ - مِن جهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللّهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللّهُ تعالی؛ و اللّهُ ولیّ التوفیق.

مركز القائمية اصفهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹